(٢٠) سورة طه مكية
وآياتها خمس وثلاثون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾
تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَٰتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ
مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله هو له الأسماء الحسنى ﴾ .

اعلم أن قوله (طه) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائى بكسر الطاء والهاء قال الزجاج وقرىء طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلأن ما قبل الألف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فأمال الكسرة لأن الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الامالة إلى الكسرة :

﴿ المسألة الثانية ﴾ للمفسرين فيه قولان : (أحدهما) أنه من حروف التهجى والآخر أنه كلمة مفيدة : أما على القول الأول فقد تقدم الكلام فيه فى أول سورة البقرة والذى زادوه ههنا أمور :

www.besturdubooks.wordpress.com

(أحدها) قال الثعلبى طا شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار (وثانيها) يحكى عن جعفر الصادق عليه السلام الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم (وثالثها) يا مطمع الشفاعة للأمة وياهادى الخلق الى الملة (ورابعها) قال سعيد بن جبير هوافتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادى (وخامسها) الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل ياطاهراً من الذنوب وياهادياً الى علام الغيوب (وسادسها) الطاء طول القراء والهاء هيبتهم فى قلوب الكفار قال الله تعالى (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) (وسابعها) الطاء تسعة فى الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الأقوال لايجب أن يعتمد عليها (القول الثانى) قول من قال إنها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين : أحدهما معناه يارجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى رضى الله عنهم ثم قال سعيد بن جبير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشة وقال الكلبى بلغة عك وأنشد الكلبى لشاعرهم :

إن السفاهة طه فى خلائقكم   لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين : (الأول) أنه بمعنى يا رجل فى اللغة حمل عليه لكنه لايجوز إن ثبت على هذا المعنى إلا فى لغة العرب إذ القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب فى هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التى حكيناها ، فأما على غير هذا الوجه فلايحتمل ولا يصح (الثانى) قال صاحب الكشاف إن كان طه فى لغة عك بمعنى يارجل فلعلهم تصرفوا فى يا هذا فقلبوا الياء طاء فقالوا طا واختصروا فى هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى يا هذا واعترض بعضهم عليه وقالوا لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طا ها (وثانيهما) أنه عليه السلام كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً وكان الأصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا هياك فى إياك وهرقت فى أرقت ويجوز أن يكون الأصل من وطىء على ترك الهمزة فيكون أصله طأ يارجل ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج ، أما قوله تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف إن جعلت طه تعديداً لأسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وإن جعلتها اسما للسورة احتمل أن يكون قوله (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) خبراً عنها وهى فى موضع المبتدأ والقرآن ظاهر أوقع موقع المضمر لأنها قرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (مانزل عليك القرآن لتشقى) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى سبب نزول الآية وجوهاً : (أحدها) قال مقاتل إن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله ﷺ إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام « بل بعثت رحمة للعالمين » قالوا بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

هذه الآية رداً عليهم وتعريفاً لمحمد ﷺ بأن دين الاسلام هو السلام وهـذا القرآن هو السلام إلى نيل كل فوز والسبب فى إدراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها (وثانيها) أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام « أبق على نفسك فان لها عليك حقاً » أى ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ، وروى أيضاً أنه عليه السلام « كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام » وقال بعضهم كان يقوم على رجل واحدة ، وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله (لتشقى) ذلك ، قال القاضى هذا بعيد لأنه عليه السلام إن فعل شيئاً من ذلك فلابد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى ، وإذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له ما أمرناك بذلك (وثالثها) قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ولا تعذبها بالأسف على كفر هؤلاء فانا إنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به ، فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك إلا البلاغ وهو كقوله تعالى (لعلك باخع نفسك) الآية (ولا يحزنك قولهم) (ورابعها) أنك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى (لست عليهم بمسيطر ، وما أنت عليهم بوكيل) أى ليس عليك كفرهم إذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم (وخامسها) أن هـذه السورة من أوائل مانزل بمكة وفى ذلك الوقت كان عليه السلام مقهوراً تحت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة أبداً بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقياً فيما بينهم بل تصير معظماً مكرماً . وأما قوله تعالى (إلا تذكرة لمن يخشى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى كلمة إلا ههنا قولان (أحدهما) أنه استثناء منقطع بمعنى لكن (والثانى) التقدير ماانزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة كما يقال ماشافهناك بهذا الكلام لتتأذى إلا ليعتبر بك غيرك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما خص من يخشى بالتذكرة لأنهم المنتفعون بها وإن كان ذلك عاما فى الجميع وهو كقوله (هدى للمتقين) وقال سبحانه وتعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقال (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) وقال (وتنذر به قوماً لداً) وقال (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ وجه كون القرآن تذكرة أنه عليه السلام كان يعظمهم به وببيانه فيدخل تحت قوله لمن يخشى الرسول ﷺ لأنه فى الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل . وأما قوله تعالى (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى نصب تنزيلا وجوهاً (أحدها) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الأرض فنصب تنزيلا بمضمر (وثانيها) أن ينصب بأنزلنا لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة أنزلناه

www.besturdubooks.wordpress.com

تذكرة (وثالثها) أن ينصب على المدح والاختصاص (ورابعها) أن ينصب بيخشى مفعولا به أى أنزله الله تعالى (تذكرة لمن يخشى) تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين وقرىء تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فائدة الانتقال من لفظ التكلم إلى لفظ الغيبة أمور (أحدها) أن هذه الصفات لايمكن ذكرها إلا مع الغيبة (وثانيها) أنه قال أولا أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه إلى أنه تنزيل ممن خلق الأرض وخلق السموات على علوها وإنما قال ذلك لأن تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وإنما عظم القرآن ترغيباً فى تدبره والتأمل فى معانيه وحقائقه وذلك معتاد فى الشاهد فانه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل إليه أقرب إلى الامتثال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يقال سماء عليا وسموات علا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها وبعد مرتقاها أما قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء الرحمن مجروراً صفة لمن خلق والرفع أحسن لأنه إما أن يكون رفعاً على المدح والتقدير هو الرحمن وإما أن يكون مبتدأ مشاراً بلامه إلى من خلق فان قيل الجملة التى هى على العرش استوى ما محلها إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح ؟ قلنا إذا جررت فهو خبر مبتدأ محذوف لاغير وإن رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المشبهة تعلقت بهذه الآية فى أن معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ، ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان بل كان غنياً عنه فهو بالصفة التى لم يزل عليها إلا أن يزعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) أن الجالس على العرش لابد وأن يكون الجزء الحاصل منه فى يمين العرش غير الحاصل فى يسار العرش فيكون فى نفسه مؤلفاً مركباً وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكناً من الإنتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك فان كان الأول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثاً لا محالة وإن كان الثانى كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن إذا شاء الحركة فى رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم (ورابعها) هو أن معبودهم إما أن يحصل فى كل مكان أو فى مكان دون مكان فان حصل فى كل مكان لزمهم أن يحصل فى مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل ، وإن حصل فى مكان دون مكان افتقر إلى مخصص يخصصه

www.besturdubooks.wordpress.com

بذلك المكان فيكون محتاجاً وهو على الله محال (وخامسها) أن قوله (ليس كمثله شيء) يتناول نفي المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شيء إلا في الجلوس وإلا في المقدار وإلا في اللون وصحة الاستثناء تقتضي دخول جميع هذه الأمور تحته ، فلو كان جالساً لحصل من يماثله في الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لأن الخالق هو الذي يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسابعها) أنه لو جاز أن يكون المستقر في المكان إلهاً فكيف يعلم أن الشمس والقمر ليس باله لأن طريقنا إلى نفي إلهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثاً ولم يكن إلهاً فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح في إلهية الشمس والقمر (وثامنها) أن العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكني ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس ، فلو كان المعبود مختصاً بجهة فتلك الجهة وإن كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين ، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الأشياء (وتاسعها) أجمعت الأمة على أن قوله (قل هو الله أحد) من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصاً بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه يلي ما على يساره فيكون مركباً منقسماً فلا يكون أحداً في الحقيقة فيبطل قوله (قل هو الله أحد) (وعاشرها) أن الخليل عليه السلام قال (لا أحب الآفلين) ولو كان المعبود جسماً لكان آفلا أبداً غائباً أبداً فكان يندرج تحت قوله (لا أحب الآفلين) فثبت بهذه الدلائل أن الإستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان (الأول) أنا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالي عن بعض أصحاب الإمام أحمد بن حنبل أنه أول ثلاثة من الأخبار : قوله عليه السلام « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » وقوله عليه السلام « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » وقوله عليه السلام « إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » واعلم أن هذا القول ضعيف لوجهين (الأول) أنه إن قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الإستواء الجلوس وهذا هو التأويل . وإن لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقي شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى . اللهم إلا أن يقول أنا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى مايشعر به ظاهره بل مراده به شيء آخر ولكني لا أعين ذلك المراد خوفاً من الخطأ فهذا يكون قريباً ، وهو أيضاً ضعيف لأنه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ إلا موضوعه في لسان العرب وإذا كان لا معنى للاستواء في اللغة إلا الإستقرار والإستيلاء وقد تعذر حمله على الإستقرار فوجب حمله على الإستيلاء وإلا لزم تعطيل اللفظ وإنه غير جائز (والثاني) وهو دلالة قاطعة على أنه لا بد من المصير إلى التأويل وهو أن

www.besturdubooks.wordpress.com

الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار، فإما أن نعمل بكل واحد من الدليلين، وإما أن نتركهما معا، وإما أن نرجح النقل على العقل، وإما أن نرجح العقل ونؤول النقل. والأول باطل وإلا لزم أن يكون الشيء الواحد منزهاً عن المكان وحاصلا فى المكان وهو محال (والثانى) أيضاً محال لأنه يلزم رفع النقيضين معاً وهو باطل (والثالث) باطل لأن العقل أصل النقل فانه ما لم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح فى العقل يقتضى القدح فى العقل والنقل معاً، فلم يبق إلا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع فى المقصود إذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الإستواء الإستيلاء قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

فان قيل هذا التأويل غير جائز لوجوه (أحدها) أن الإستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك فى حق الله تعالى محال (وثانيها) أنه إنما يقال فلان استولى على كذا إذا كان له منازع ينازعه، وكان المستولى عليه موجوداً قبل ذلك، وهذا فى حق الله تعالى محال، لأن العرش إنما حدث بتخليقه وتكوينه (وثالثها) الاستيلاء حاصل بالنسبة إلى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة (والجواب) أنا إذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية، قال صاحب الكشاف لماكان الاستواء على العرش، وهو سرير الملك لايحصل إلا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على البلد يريدون ملك، وإن لم يقعد على السرير البتة، وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أصرح وأقوى فى الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة، بمعنى أنه جواد وبخيل لافرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى أن من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأساً قيل فيه يده مبسوطة لأنه لافرق عندهم بينه وبين قوله جواد، ومنه قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) أى هو بخيل (بل يداه مبسوطتان) أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل بالتسمية من ضيق العطن . وأقول: إنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فانهم أيضا يقولون المراد من قوله (فاخلع نعليك) الاستغراق فى خدمة الله تعالى من غير تصور فعل، وقوله (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) المراد منه تخليص إبراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة، وكذا القول فى كل ما ورد فى كتاب الله تعالى، بل القانون أنه يجب حمل كل لفظ ورد فى القرآن على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه، وليت من لم يعرف شيئاً لم يخض فيه، فهذا تمام الكلام فى هذه الآية، ومن أراد الاستقصاء فى الآيات والأخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس وبالله التوفيق . أما قوله تعالى (له مافى السموات ومافى الأرض وما

www.besturdubooks.wordpress.com

بينهما وما تحت الثرى) فاعلم أنه سبحانه لما شرح ملكه بقوله (الرحمن على العرش استوى) والملك لاينتظم إلا بالقدرة والعلم ، لاجرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم . أما القدرة فهى هذه الآية والمراد أنه سبحانه مالك لهذه الأقسام الأربعة فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ، ومالك لما فى الأرض من المعادن والفلزات (١) ومالك لما بينهما من الهواء . ومالك لما تحت الثرى ، فان قيل الثرى هو السطح الأخير من العالم فلا يكون تحته شىء فكيف يكون الله مالكا له ، قلنا الثرى فى اللغة التراب الندى فيحتمل أن يكون تحته شىء وهو إما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات ، أما العلم فقوله تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وفيه قولان (أحدهما) أن قوله (وأخفى) بناء المبالغة ، وعلى هذا القول نقول إنه تعالى قسم الأشياء إلى ثلاثة أقسام : الجهر ، والسر . والأخفى . فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذى يجهر به ، وقد يسر فى النفس وإن ظهر البعض ، وقد يسر ولا يظهر على ماقال بعضهم . ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفى ماليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين أنه يعلم السر الذى لايسمع وما هو أخفى منه فكيف لايعلم الجهر ، والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة ، والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة ، فعلى هذا الوجه ينبغى أن يحمل السر والأخفى على مافيه ثواب أو عقاب ، والسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الأمور التى عزم عليها ، والأخفى هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ، ويحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع فى وهمه الذى لم يعزم عليه ، ويحتمل مالم يقع فى سره بعد فيكون أخفى من السر ، ويحتمل أيضاً ماسيكون من قبل الله تعالى من الأمور التى لم تظهر ، وإن كان الأقرب ماقدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب (القول الثانى) أن أخفى فعل يعنى أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه وهو كقوله (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه) فان قيل كيف يطابق الجزاء الشرط ؟ قلنا معناه إن تجهر بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره ، فاعلم أنه غنى عن جهرك ، وإما أن يكون نهياً عن الجهر كقوله (واذكر ربك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول) وإما تعليما للعباد أن الجهر ليس لاستماع الله تعالى ، وإنما هو لغرض آخر ، واعلم أن الله تعالى لذاته عالم وأنه عالم بكل المعلومات فى كل الأوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير ، وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفا بالحدوث أو الإمكان والعبد لايشارك الرب إلا فى السدس الأول(٢) وهو أصل العلم ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضا نصفان لخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له والنصف الواحد لجملة عباده ، ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وحملة

(١) فى الأصل الأميرى : والفلوات جمع فلاة وهى الخلاء والفضاء فى الأرض كالصحاري لانبات بها . وهى محرفة عن الفلزات ، وهى جواهر الأرض وعناصرها المكونة منها .

(٢) بنى الفخر الرازي هذه القسمة السداسية من تقسيمه السابق للأشياء إلى ثلاثة أقسام الجهر والسر والأخفى .

www.besturdubooks.wordpress.com

العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الأنبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم فى علومهم الضرورية والكسبية والحرف والصناعات وجميع الحيوانات فى إدراكاتها وشعوراتها والاهتداء إلى مصالحها فى أغذيتها ومضارها ومنافعها ، والحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة ، ثم إنك بتلك الذرة عرفت أسرار إلهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة ، فاذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الأسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف . أفلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك ؟ فهذا تحقيق قوله (وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) بل الحق أن الدينار بتمامه له ، لأن الذى علمته فانما علمته بتعليمه على ماقال (أنزله بعلمه) وقال (ألا يعلم من خلق) ولهذا مثال وهو الشمس فان ضوءها يجعل العالم مضيئاً ، ولا ينتقص البتة من ضوئها شيء ، فكذا ههنا فكيف لايكون عالماً بالسر والأخفى ، فان من تدبيراته فى خلق الأشجار وأنواع النبات أنها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء فلا جرم أصولها مركوزة فى الأرض تمتص بها الغذاء فيتأدى ذلك الغذاء إلى الأغصان ومنها إلى العروق ومنها إلى الأوراق ، ثم إنه تعالى جعل عروقها كالأطناب التى بها يمكن ضرب الخيام . وكما أنه لابد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة ، كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة ، ثم لو نظرت إلى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها ليصل الغذاء منها إلى كل جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا يتمزق سريعاً ، وهى شبه العروق المخلوقة فى بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن ، ثم انظر إلى الأشجار فإن أحسنها فى المنظر الدلب والخلاف ، ولاحاصل لهما ، وأقبحها شجرة التين والعنب ، و [لكن] انظر إلى منفعتهما ،فهذه الأشياء وأشباهها تظهر أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

أما قوله تعالى (الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى) فالكلام فيه على قسمين (الأول) فى التوحيد اعلم أن دلائل التوحيد ستأتى إن شاء الله فى تفسير قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإنما ذكره ههنا ليبين أن الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذى تقدم واحد لاشريك له ، وهو الذى يستحق العبادة دون غيره ، ولنذكر ههنا نكتاً متعلقة بهذا الباب وهى أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ اعلم أن مراتب التوحيد أربع (أحدها) الإقرار باللسان (والثانى) الاعتقاد بالقلب (والثالث) تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة (والرابع) أن يصير العبد مغموراً فى بحر التوحيد بحيث لايدور فى خاطره شيء غير عرفان الأحد الصمد (أما الإقرار باللسان) فان وجد خالياً عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق (وأما الاعتقاد) بالقلب إذا وجد خالياً عن الاقرار باللسان ففيه صور (الصورة الأولى) أن من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات قبل أن يمضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فقال قوم إنه لايتم إيمانه والحق أنه يتم لأنه أدى ماكلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطباً ، ورأيت فى [بعض] الكتب أن ملك الموت

www.besturdubooks.wordpress.com

مكتوب على جبهته لا إله إلا الله لكى إذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر (الصورة الثانية) أن من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه ، قال الشيخ الغزالى يحتمل أن يقال اللسان ترجمان القلب فاذا حصل المقصود فى القلب كان امتناعه من التلفظ جارياً مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من أهل النار ، وقد قال عليه السلام « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » وقلب هذا الرجل مملوء من الايمان ؟ وقال آخرون : الإيمان والكفر أمور شرعية نحن نعلم أن الممتنع من هذه الكلمة كافر (الصورة الثالثة) من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف فى صحة إيمانه مشهور (أما المقام الثالث) وهو إثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بينا فى تفسير قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أنه يمكن إثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هناك (أما المقام الرابع) وهو الفناء فى بحر التوحيد فقال المحققون : العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن فى جميع صفات هى من صفات الحق للذات المريدة بالصدق منتبه الى الواحد القهار ، ثم وقوف هذه الكلمات محيطة بأقصى نهايات درجات السائرين إلى الله تعالى .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى الأخبار الواردة فى التهليل (أولها) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : أستغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » . (وثانيها) قال عليه السلام « إن الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل أن خلق السموات والأرض وهو يقول أشهد أن لا إله إلا الله ماداً بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها ، فاذا أتمها أمر إسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله عز وجل » (وثالثها) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال عليه السلام « مازلت أشفع إلى ربى ويشفعنى وأشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا إله إلا الله قال يا محمد هذه ليست لك ولا لأحد وعزتى وجلالى لا أدع أحداً فى النار قال لا إله إلا الله » . (وثانيها) قال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته ، يقول الله جل ذكره بحكمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله (وخامسها) أن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قام فى السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، كتب له الله ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتاً فى الجنة »

﴿ البحث الثالث ﴾ فى النكت (أحدها) ينبغى لأهل لا إله إلا الله أن يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله : التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية ، فمن ليس له التصديق فهو

www.besturdubooks.wordpress.com

منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرية فهو فاجر (وثانيها) قال بعضهم قوله (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) إنه لا إله إلا الله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) لا إله إلا الله (وتواصوا بالحق) لا إله إلا الله (قل إنما أعظكم بواحدة) لا إله إلا الله (وقفوهم إنهم مسئولون) عن قول لا إله إلا الله (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) هو لا إله إلا الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) هو لا إله إلا الله (ويضل الله الظالمين) عن قول لا إله إلا الله (وثالثها) أن موسى بن عمران عليه السلام قال «يارب علمنى شيئاً أذكرك به قال قل لا إله إلا الله قال كل عبادك يقولون لا إله إلا الله ! فقال قل لا إله إلا الله قال إنما أردت شيئاً تخصنى به ! قال ياموسى لو أن السموات السبع ومن فيهن فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله » .

﴿ البحث الرابع ﴾ فى إعرابه قالوا كلمة لا ههنا دخلت على الماهية ، فانتفت الماهية ، وإذا انتفت الماهية انتفت كل أفراد الماهية . وأما الله فانه اسم علم للذات المعينة إذ لو كان اسم معنى لكان كلها محتملا للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد ، فقالوا لا استحقت عمل أن لمشابهتها لها من وجهين (أحدهما) ملازمة الأسماء ، والآخر تناقضهما فان أحدهما لتأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفى ، ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر فى الحكم ، إذا ثبت هذا فنقول لما قالوا إن زيداً ذاهب كان يجب أن يقولوا لا رجلا ذاهب إلا أنهم بنوا لا مع ما دخل عليه من الاسم المفرد على الفتح ، أما البناء فلشدة اتصال حرف النفى بما دخل عليه كأنهما صارا اسماً واحداً ، وأما الفتح فلأنهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقاً بين الدليل الموجب للاعراب والدليل الموجب للبناء (الثانى) خبره محذوف والأصل لا إله فى الوجود ولا حول ولا قوة لنا وهذا يدل على أن الوجود زائد على الماهية .

﴿ البحث الخامس ﴾ قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب فان السلب ما لم يضف إلى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدم ههنا السلب على الثبوت (وجوابه) أنه لما كان هذا السلب من مؤكدات الثبوت لاجرم قدم عليه (القسم الثانى) من الكلام فى الآية البحث عن أسماء الله تعالى وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قال عليه السلام « إذا كان يوم القيامة نادى مناد أيها الناس أنا جعلت لكم نسباً وأنتم جعلتم لأنفسكم نسباً ، أنا جعلت أكرمكم عندى أتقاكم وأنتم جعلتم أكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبي وأضع نسبكم ، أين المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ! » واعلم أن الأشياء فى قسمة العقول على ثلاثة أقسام : كامل لا يحتمل النقصان ، وناقص لا يحتمل الكمال ، وثالث يقبل الأمرين ، أما الكامل الذى لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك فى حقه بالوجوب الذاتى وبعده الملائكة فان من كمالهم أنهم (لا يعصون الله ما أمرهم) ومن صفاتهم (أنهم عباد مكرمون) ومن

www.besturdubooks.wordpress.com

صفاتهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وأما الناقص الذى لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم ، وأما الذى يقبل الأمرين جميعاً فهو الانسان تارة يكون فى الترقى بحيث يخبر عنه بأنه (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وتارة فى التسفل بحيث يقال (ثم رددناه أسفل سافلين) وإذا كان كذلك استحال أن يكون الانسان كاملا لذاته ، وما لا يكون كاملا لذاته استحال أن يصير موصوفاً بالكمال إلى أن يصير منتسباً إلى الكامل لذاته . لكن الانتساب قسمان قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال . أما الذى يكون يعرض للزوال ، فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال ، وأما الذى لا يكون يعرض للزوال فعبوديتك لله تعالى فانه كما يمتنع زوال صفة الإلهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لاتقبل الزوال ، والمنتسب اليه وهو الحق سبحانه لايقبل الخروج عن صفة الكمال . ثم إذا كنت من بلد أو منتسباً إلى قبيلة فانك لاتزال تبالغ فى مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضى فلأن تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتى كان أولى فلهذا قال (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى تقسيم أسماء الله تعالى . اعلم أن اسم كل شىء ، إما أن يكون واقعاً عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الأمور الخارجة عن ذاته (أما القسم الأول) فقد اختلفوا فى أنه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسألة مبنية على أن حقيقة الله تعالى هل هى معلومة للبشر أم لا ؟ فمن قال إنها غير معلومة للبشر قال ليس لذاته المخصوصة اسم ، لأن المقصود من الاسم أن يشار به إلى المسمى وإذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت الاشارة العقلية اليها ، فامتنع وضع الاسم لها ، وقد تكلمنا فى تحقيق ذلك فى تفسير اسم الله ، وأما الإسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته فذلك محال لأنه ليس لذاته شىء من الأجزاء لأن كل مركب ممكن وواجب الوجود لا يكون ممكناً فلا يكون مركباً ، وأما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته ، فالصفات إما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية إضافية أو سلبية أو ثبوتية مع إضافية أو ثبوتية مع سلبية أو إضافية مع سلبية أو ثبوتية وإضافية وسلبية ولما كانت الاضافات الممكنة غير متناهية ، وكذا السلوب غير متناهية ، أمكن أن يكون للبارى تعالى أسماء متباينة لامترادفة غير متناهية . فهذا هو التنبيه على المأخذ ،

﴿ البحث الثالث ﴾ يقال إن لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لايعلمها إلا الله تعالى وألف لايعلمها إلا الله والملائكة وألف لايعلمها الا الله والملائكة والأنبياء ، وأما الألف الرابع فان المؤمنين يعلمونها فثلثمائة منها فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة .

﴿ البحث الرابع ﴾ الأسماء الواردة فى القرآن منها ماليس بانفراده ثناء ومدحاً ، كقوله جاعل

www.besturdubooks.wordpress.com

وفالق وخالق فاذا قيل (فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً) صار مدحا ، وأما الاسم الذى يكون مدحا فمنه ما إذا قرن بغيره صار أبلغ نحو قولنا حى فاذا قيل الحى القيوم أو الحى الذى لايموت كان أبلغ وأيضاً قولنا بديع فانك اذا قلت بديع السموات والأرض ازداد المدح.ومن هذا الباب ماكان اسم مدح ولكن لا يجوز إفراده كقولك : دليل . وكاشف فاذا قيل يا دليل المتحيرين ، وياكاشف الضر والبلوى جاز ، ومنه ما يكون اسم مدح مفرداً أو مقروناً كقولنا الرحمن الرحيم .

﴿ البحث الخامس ﴾ من الأسماء ما يكون مقارنتها أحسن كقولك الأول الآخر المبدىء المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى فى حكاية قول المسيح (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) وبقية الأبحاث قد تقدمت فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم .

﴿ البحث السادس ﴾ فى النكت [أولها] رأى بشر الحافى كاغداً مكتوبا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك وبلعه فرأى فى النوم قائلا يقول : يابشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك فى الدنيا والآخرة (وثانيها) قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى) وليس حسن الأسماء لذواتها لأنها ألفاظ وأصوات بل حسنها لحسن معانيها ثم ليس حسن أسماء الله حسناً يتعلق بالصورة والخلقة فان ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع الى معنى الاحسان مثلا اسم الستار والغفار والرحيم إنما كانت حسناء لأنها دالة على معنى الإحسان ، وروى أن حكيما ذهب اليه قبيح وحسن والتمسا الوصية فقال للحسن أنت حسن والحسن لايليق به الفعل القبيح ، وقال للآخر أنت قبيح والقبيح إذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه .فنقول إلهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلاتظهر لنا من تلك الأسماء الحسنة والصفات الحسنة إلا الاحسان،إلهنا يكفينا قبح أفعالنا وسيرتنا فلا نضم إليه قبح العقاب ووحشة العذاب (وثالثها) قوله عليه السلام « اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه » إلهنا حسن الوجه عرضى أما حسن الصفات والأسماء فذاتى فلا تردنا عن إحسانك خائبين خاسرين (ورابعها) ذكر أن صيادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها الماء وقالت إنها ماوقعت فى الشبكة إلا لغفلتها، إلهنا تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى فى البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة إبليس وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها وألقنا فى بحار رحمتك مرة أخرى (وخامسها) ذكرت من الأسماء خمسة فى الفاتحة .وهى الله والرب والرحمن والرحيم والملك فذكرت الإلهية وهى إشارة إلى القهارية والعظمة فعلم أن الأرواح لاتطيق ذلك القهر والعلو فذكر بعده أربعة أسماء تدل على اللطف،الرب وهو يدل على التربية والمعتاد أن من ربى أحداً فانه لايهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية فى اللطف والرأفة ثم ختم الأمر بالملك والملك العظيم لاينتقم من الضعيف العاجز ولأن عائشة قالت لعلى عليه السلام «ملكت فأسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء الضعفاء» (وسادسها) عن محمد بن كعب القرظى قال موسى عليه السلام «إلهى أى خلقك أكرم عليك؟ قال

www.besturdubooks.wordpress.com

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

الذى لايزال لسانه رطباً من ذكرى ، قال فأى خلقك أعلم ؟ قال الذى يلتمس إلى علمه علم غيره ، قال فأى خلقك أعدل ؟ قال الذى يقضى على نفسه كما يقضى على الناس ، قال فأى خلقك أعظم جرما ؟ قال الذى يتهمنى وهو الذى يسألنى ثم لايرضى بما قضيته له »إلهنا إنا لا نتهمك فإنا نعلم أن كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا (وسابعها) قال الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم ، أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟فيقومون فيتخطون رقاب الناس، ثم يقال أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ ثم ينادى مناد أين الحامدون الله على كل حال ؟ ثم تكون التبعة والحساب على من بقى إلهنا فنحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك . ومن أراد الاستقصاء فى الأسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البينات فى الأسماء والصفات وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك حديث موسى، اذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه اتبع ذلك بما يقوى قلب رسول ﷺ من ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام تقويه لقلبه فى الابلاغ كقوله (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك) وبدأ بموسى عليه السلام لأن المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلى قلب الرسول ﷺ بذلك ويصبره على تحمل المكاره فقال (وهل أتاك حديث موسى) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وهل أتاك) يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام فقال (وهل أتاك) أى لم يأتك إلى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له ، وهذا قول الكلبى . ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك فى الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك ، وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وهل أتاك) وإن كان على لفظ الاستفهام الذى لا يجوز على الله

www.besturdubooks.wordpress.com

تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب فى قلبه ، وهذه الصيغة أبلغ فى ذلك كما يقول المرء لصاحبه هل بلغك خبر كذا ؟ فيتطلع السامع الى معرفة مايرمى إليه ، ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبي عليه السلام لا من قبل الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (إذ رأى ناراً) أى هل أتاك حديثه حين رأى ناراً قال المفسرون استأذن موسى عليه السلام شعيباً فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيئاً ، فبينا هو مزاولة ذلك إذ نظر ناراً من بعيد عن يسار الطريق . قال السدى ظن أنها نار من نيران الرعاة وقال آخرون إنه عليه السلام رآها فى شجرة وليس فى لفظ القرآن مايدل على ذلك ، واختلفوا فقال بعضهم الذى رآه لم يكن ناراً بل تخيله ناراً والصحيح أنه رأى ناراً ليكون صادقا فى خبره إذ الكذب لايجوز على الأنبياء قيل النار أربعة أقسام : نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ، ونار تشرب ولا تأكل وهى نار الشجر لقوله تعالى (جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) ونار تأكل وتشرب وهى نار المعدة ، ونار لاتأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضاً النار على أربعة أقسام (أحدها) نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام . (وثانيها) حرقة بلا نور وهى نار جهنم (وثالثها) الحرقة والنور وهى نار الدنيا (ورابعها) لاحرقة ولا نور وهى نار الأشجار . فلما أبصر النار توجه نحوها (فقال لأهله امكثوا) فيجوز أن يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذى معها ويجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الأهل فان الأهل يقع على الجمع ، وأيضاً فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيما أى أقيموا فى مكانكم (إنى آنست ناراً) أى أبصرت . والايناس الابصار البين الذى لاشبهة فيه ومنه إنسان العين فانه يبين به الشيء والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو أيضا مايؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان منتفياً حقيقة لهم أتى بكلمة إنى لتوطين أنفسهم ولما كان الايناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع فقال (لعلى آتيكم) ولم يقطع فيقول إنى آتيكم لئلا يعد مالم يتيقن الوفاء به . والنكتة فيه أن قوماً قالوا كذب إبراهيم للمصلحة وهو محال لأن موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول إنى آتيكم لئلا يعد مالم يتيقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة فى رأس عود أو فتيلة أو غيرهما (أو أجد على النار هدى) والهدى مايهتدى به وهو إسم مصدر فكأنه قال أجد على النار ما أهتدى به من دليل أو علامة ، ومعنى الاستعلاء على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها ولأن المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها (فلما أتاها) أى أتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجباً من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة

www.besturdubooks.wordpress.com

تغير ضوء النار وسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيما ، قال وهب فظن موسى عليه السلام أنها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت إليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن أسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى بنظره إلى فرعها فاذا خضرته ساطعة فى السماء وإذا نور بين السماء والأرض له شعاع تكل عنه الأبصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودى ياموسى قال القاضى الذى يروى من أن الزند ما كان يورى فهذا جائز وأما الذى يروى من أن النار كانت تتأخر عنه فان كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك وإلا فهو ممتنع إلا أن يكون معجزة لغيره من الأنبياء عليهم السلام وفى قوله (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) دلالة على أن فى هذه الحالة أوحى الله اليه وجعله نبياً ، وعلى هذا الوجه يبعد ماذكروه من تأخر النار عنه وبين فساد ذلك قوله تعالى (فلما أتاها نودى يا موسى) وإن كانت تتأخر عنه حالا بعد حال لما صح ذلك ولما بقى لفاء التعقيب فائدة قلنا القاضى إنما بنى هذا الاعتراض على مذهبه فى أن الإرهاص غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله وأما التمسك بفاء التعقيب فقريب لأن تخلل الزمان القليل فيما بين المجىء والنداء لايقدح فى فاء التعقيب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير (أنى) بالفتح أى نودى بأنى أنا ربك والباقون بالكسر أى نودى فقيل ياموسى أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الأشعرى إن الله تعالى أسمعه الكلام القديم الذى ليس بحرف ولا صوت ، وأما المعتزلة فانهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا إنه سبحانه خلق ذلك النداء فى جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها لأن النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله ، وأما أهل السنة من أهل ماوراء النهر فقد أثبتوا الكلام القديم إلا أنهم زعموا أن الذى سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى فى الشجرة واحتجوا بالآية على أن المسموع هو الصوت المحدث قالوا إنه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث .

﴿ المسألة السادسة ﴾ اختلفوا فى أن موسى عليه السلام كيف عرف أن المنادى هو الله تعالى فقال أصحابنا يجوز أن يخلق الله تعالى له علماً ضرورياً بذلك ويجوز أن يعرفه بالمعجزة قالت المعتزلة أما العلم الضرورى فغير جائز لأنه لو حصل العلم الضرورى بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضرورى بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوماً له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفاً لأن حصول العلم الضرورى ينافى التكليف ، وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا أن الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا فى ذلك المعجز على وجوه (أولها) منهم من قال نعلم قطعاً أن الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز ولاحاجة بنا إلى أن نعرف ذلك المعجز ماهو (وثانيها) يروى أن موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة إلى السماء وسمع تسبيح الملائكة

www.besturdubooks.wordpress.com

وضع يديه على عينيه فنودى ياموسى ؟ فقال لبيك إنى أسمع صوتك ولا أراك فأين أنت ؟ قال أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب إليك منك ثم إن إبليس أخطر بباله هذا الشك وقال مايدريك أنك تسمع كلام الله ؟ فقال لأنى أسمعه من فوقى ومن تحتى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى كما أسمعه من قدامى ، فعلمت أنه ليس بكلام المخلوقين . ومعنى إطلاقه هذه الجهات أنى أسمعه بجميع أجزائى وأبعاضى حتى كأن كل جارحة منى صارت أذناً (وثالثها) لعله سمع النداء من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزاً (ورابعها) أنه رأى النار فى الشجرة الخضراء بحيث أن تلك الخضرة ماكانت تطفىء تلك النار وتلك النار ماكانت تضر تلك الخضرة ، وهذا لايقدر عليه أحد إلا الله سبحانه .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قالوا إن تكرير الضمير فى (إنى أنا ربك) كان لتوكيد الدلالة وإزالة الشبهة.

﴿ المسألة الثامنة ﴾ ذكروا فى قوله (فاخلع نعليك) وجوها (أحدها) كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أمر بخلعهما صيانة للوادى المقدس ولذلك قال عقيبه (إنك بالوادى المقدس طوى) وهذا قول على عليه السلام وقول مقاتل والكلبى والضحاك وقتادة والسدى (والثانى) إنما أمر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادى وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد (وثالثها) أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من أن يطأها إلا حافياً ليكون معظما لها وخاضعاً عند سماع كلام ربه ، والدليل عليه أنه تعالى قال عقيبه (إنك بالوادى المقدس طوى) وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى : اخلع نعليك لأنك بالوادى المقدس طوى . وأما أهل الإشارة فقد ذكروا فيها وجوهاً (أحدها) أن النعل فى النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله (اخلع نعليك) إشارة الى أن لايلتفت خاطره الى الزوجة والولد وأن لايبقى مشغول القلب بأمرهما (وثانيها) المراد بخلع النعلين ترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة كأنه أمره بأن يصير مستغرق القلب بالكلية فى معرفة الله تعالى ولا يلتفت بخاطره إلى ماسوى الله تعالى والمراد من الوادى المقدس قدس جلال الله تعالى وطهارة عزته يعنى أنك لما وصلت إلى بحر المعرفة فلا تلتفت الى المخلوقات (وثالثها) أن الإنسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه أن يتوصل إليه إلا بمقدمتين مثل أن يقول العـــالم المحسوس محدث أو ممكن وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع وهاتان المقدمتان تشبهان النعلين لأن بهما يتوصل العقل الى المقصود ويتنقل من النظر فى الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول إلى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتاً إلى تينك المقدمتين لأن بقدر الاشتغال بالغير يبقى محروماً عن الاستغراق فيه فكأنه قيل له لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فانك وصلت إلى الوادى المقدس الذى هو بحر معرفة الله تعالى ولجة ألوهيته .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ استدلت المعتزلة بقوله (اخلع نعليك) على أن كلام الله تعالى ليس بقديم إذ لو كان قديما لكان الله قائلا قبل وجود موسى اخلع نعليك ياموسى ومعلوم أن ذلك سفه فان

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾

الرجل فى الدار الخالية إذا قال يازيد افعل وياعمرو لا تفعل مع أن زيداً وعمراً لا يكونان حاضرين يعد ذلك جنوناً وسفهاً فكيف يليق ذلك بالإله سبحانه وتعالى وأجاب أصحابنا عنه من وجهين : (الأول) أن كلامه تعالى وإن كان قديماً إلا أنه فى الأزل لم يكن أمراً ولا نهياً (والثانى) أنه كان أمراً بمعنى أنه وجد فى الأزل شىء لما استمر الى ما لا يزال صار الشخص به مأموراً من غير وقوع التغير فى ذلك الشىء كما أن القدرة تقتضى صحة الفعل ثم إنها كانت موجودة فى الأزل من غير هذه الصحة فلما استمرت الى ما لا يزال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ليس فى الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف فى النعل والصحيح عدم الكراهة وذلك لأنا إن عللنا الأمر بخلع النعلين بتعظيم الوادى وتعظيم كلام الله كان الأمر مقصوراً على تلك الصورة ، وإن عللناه بأن النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز أن يكون قد كان محظوراً لبس جلد الحمار الميت وإن كان مدبوغا فان كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام « أيما إهاب دبغ فقد طهر » وقد صلى النبى ﷺ فى نعليه ثم خلعهما فى الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال : « ما لكم خلعتم نعالكم » قالوا : خلعت فخلعنا قال : « فان جبريل أخبرنى أن فيهما قذراً » فلم يكره النبى ﷺ الصلاة فى النعل وأنكر على الخالعين خلعهما وأخبرهم بأنه إنما خلعهما لما فيهما من القذر .

﴿ المسألة الحادية عشر ﴾ قرىء طوى بالضم والكسر منصرفاً وغير منصرف فمن نونه فهو إسم الوادى ومن لم ينونه ترك صرفه لأنه معدول عن طاوى فهو مثل عمر المعدول عن عامر ويجوز أن يكون اسما للبقعة .

﴿ المسألة الثانية عشرة ﴾ فى طوى وجوه : (الأول) أنه إسم للوادى وهو قول عكرمة وابن زيد (والثانى) معناه مرتين نحو مثنى أى قدس الوادى مرتين أو نودى موسى عليه السلام نداءين يقال ناديته طوى أى مثنى (والثالث) طوى أى طياً قال ابن عباس رضى الله عنهما إنه مر بذلك الوادى ليلا فطواه فكان المعنى بالوادى المقدس الذى طويته طياً أى قطعته حتى ارتفعت إلى أعلاه ومن ذهب إلى هذا قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال طويته طوى كما يقال هدى يهدى هدى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة

www.besturdubooks.wordpress.com

لذكرى ﴾ قرأ حمزة (وإنا اخترناك) وقرأ أبي بن كعب (وإني اخترتك) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذى خصصتك به وهذه الآية تدل على أن النبوة لاتحصل بالاستحقاق لأن قوله (وأنا اخترتك) يدل على أن ذلك المنصب العلى إنما حصل لأن الله تعالى اختاره له ابتداء لا أنه استحقه على الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فاستمع لما يوحى) فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه فقوله (وأنا اخترتك) يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله (فاستمع) يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ومن الثانى نهاية الخوف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ، قوله (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) يدل على أن علم الأصول مقدم على علم الفروع لأن التوحيد من علم الأصول والعبادة من علم الفروع وأيضاً الفاء فى قوله (فاعبدنى) تدل على أن عبادته إنما لزمت لإلهيته وهذا هو تحقيق العلماء أن الله هو المستحق للعبادة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد (أولا) ثم بالعبادة (ثانياً) أمره بالصلاة (ثالثاً) احتج أصحابنا بهذه الاية على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين : (الأول) أنه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت أنه يجوز ورود المجمل منفكا عن البيان (الثانى) أنه قال (وأقم الصلاة لذكرى) ولم يبين كيفية الصلاة قال : القاضى لا يمتنع أن موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التى تعبد الله تعالى بها شعيباً عليه السلام وغيره من الأنبياء فصار الخطاب متوجهاً إلى ذلك ويحتمل أنه تعالى بين له فى الحال وأن كان المنقول فى القرآن لم يذكر فيه إلا هذا القدر (والجواب) أما العذر الأول فانه لايتوجه فى قوله تعالى (فاعبدنى) وأيضاً فحمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على أمر معلوم لأن موسى عليه السلام ما كان يشك فى وجوب الصلاة التى جاء بها شعيب عليه السلام فلو حملنا قوله (وأقم الصلاة) على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب العظيم فائدة زائدة ، أما لو حملناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة ، قوله لعل الله تعالى بينه فى ذلك الموضع وإن لم يحكه فى القرآن قلنا لاشك أن البيان أكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكوراً لكان أولى بالحكاية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (لذكرى) وجوه : (أحدها) لذكرى يعنى لتذكرنى فان ذكرى أن أعبد ويصلى لى (وثانيها) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد (وثالثها) لأنى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها (ورابعها) لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق (وخامسها) لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى (وسادسها) لإخلاص ذكرى وطلب وجهى لاترائى بها ولا تقصد بها غرضاً آخر (وسابعها) لتكون لى ذاكراً غير ناس فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

www.besturdubooks.wordpress.com

(وثامنها) لأوقات ذكرى وهي مواقيت الصلاة لقوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) (وتاسعها) (أقم الصلاة) حين تذكرها أى أنك إذا نسيت صلاة فاقضها إذا ذكرتها . روى قتادة عن أنس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك » ثم قرأ (وأقم الصلاة لذكرى) قال الخطابى يحتمل هذا الحديث وجهين (أحدهما) أنه لا يكفرها غير قضائها والآخر أنه لا يلزم فى نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة فى ترك صوم رمضان من غير عذر وكما يلزم المحرم إذا ترك شيئاً من نسكه فدية من إطعام أو دم . وإنما يصلى ما ترك فقط فان قيل حق العبارة أن يقول أقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام « فليصلها إذا ذكرها » قلنا قوله (لذكرى) معناه للذكر الحاصل بخلقى أو بتقدير حذف المضاف أى لذكر صلاتى .

﴿ المسألة السادسة ﴾ لو فاتته صلوات يستحب أن يقضيها على ترتيب الأداء فلو ترك الترتيب فى قضائها جاز عند الشافعى رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظر إن كان فى الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وإن ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع فى صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال أبو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب فى قضاء الفوائت مالم تزد على صلاة يوم وليلة حتى قال لو تذكر فى خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضى الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت إلا أن يكون الوقت ضيقاً فلا تبطل حجة أبى حنيفة رحمه الله الآية والخبر والأثر والقياس أما الآية فقوله تعالى (أقم الصلاة لذكرى) أى لتذكرها واللام بمعنى عند كقوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أى عند دلوكها فمعنى الآية أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضى رعاية الترتيب وأما الخبر فقوله عليه السلام « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها » والفاء للتعقيب وأيضاً روى جابر ابن عبد الله قال « جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنهما إلى النبى ﷺ يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول يارسول الله ماصليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبى ﷺ وأنا والله ماصليتها بعد قال فنزل إلى البطحاء وصلى العصر بعد ماغابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها » وهذا الحديث مذكور فى الصحيحين قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين (أحدهما) أنه عليه الصلاة والسلام قال « صلوا كما رأيتمونى أصلى » فلما صلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك (والثانى) إن فعل النبى ﷺ إذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة وهذا الفعل خرج بياناً لمجمل قوله تعالى (أقيموا الصلاة) ولهذا قلنا إن الفوائت إذا كانت فى حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها وإذا دخلت فى حد الكثرة يسقط الترتيب وأما الأثر فما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال « من فاتته صلاة فلم يذكرها إلا فى صلاة الإمام فليمض فى صلاته فاذا قضى صلاته مع الإمام

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾

يصلي مافاته ثم ليعد التى صلاها مع الإمام» وقد يروى هذا مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما القياس فهو أنهما صلاتان فريضتان جمعهما وقت واحد فى اليوم والليلة فأشبهتا صلاتى عرفة والمزدلفة فلما لم يجب إسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك حجة الشافعي رحمه الله أنه روى فى حديث أبى قتادة «أنهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها» ولو كان وقت التذكر معيناً للصلاة لما جاز ذلك فعلمنا أن ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه لكن لاعلى سبيل التضييق بل على سبيل التوسع إذا ثبت هذا فنقول إيجاب قضاء الفوائت وإيجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجرى مجرى التخيير بين الواجبين فوجب أن يكون المكلف مخيراً فى تقديم أيهما شاء ولأنه لو كان الترتيب فى الفوائت شرطاً لما سقط بالنسيان ألا ترى أنه إذا صلى الظهر والعصر بعرفة فى يوم غيم ثم تبين أنه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فانه يعيدهما جميعاً ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطاً فيهما فههنا أيضاً لو كان شرطاً فيهما لما كان يسقط بالنسيان .

قوله تعالى : ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾

إعلم أنه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله (فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) أتبعه بقوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله (لذكرى) أى لأذكرك بالأمانة والكرامة فقال عقيب ذلك (إن الساعة آتية) لأنها وقت الإثابة ووقت المجازاة ثم قال (أكادأخفيها)وفيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ هو أن كاد نفيه إثبات وإثباته نفى بدليل قوله (وما كادوا يفعلون) أى وفعلوا ذلك فقوله (أكاد أخفيها) يقتضى أنه ما أخفاها وذلك باطل لوجهين (أحدهما) قوله (إن الله عنده علم الساعة) (والثانى) أن قوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار (والجواب) من وجوه (أحدها) أن كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفى والإثبات فقوله (أكاد أخفيها) معناه قرب الأمر فيه من الإخفاء وأما أنه هل حصل ذلك الإخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) فان ذلك إنما يليق بالاخفاء لا بالإظهار (وثانيها) أن كاد من الله واجب فمعنى قوله (أكاد أخفيها) أى أنا أخفيها

www.besturdubooks.wordpress.com

عن الخلق كقوله (عسى أن يكون قريباً) أى هو قريب قاله الحسن (وثالثها) قال أبو مسلم (أكاد) بمعنى أريد وهو كقوله (كذلك كدنا ليوسف) ومن أمثالهم المتداولة لاأفعل ذلك ولا أكاد أى ولا أريد أن أفعله (ورابعها) معناه (أكاد أخفيها) من نفسى وقيل إنها كذلك فى مصحف أبى وفى حرف ابن مسعود (أكاد أخفيها) من نفسى فكيف أعلنها لكم قال القاضى هذا بعيد لأن الإخفاء إنما يصح فيمن يصلح له الإظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لأن كل معلوم معلوم له فالإظهار والإسرار منه مستحيل ، ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعنى لو صح منى إخفاؤه على نفسى لأخفيته عنى والإخفاء وإن كان محالا فى نفسه إلا أنه لا يمتنع أن يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة فى عدم إطلاع الغير عليه ، قال قطرب هذا على عادة العرب فى مخاطبة بعضهم بعضاً يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشىء كتمته حتى من نفسى فالله تعالى بالغ فى إخفاء الساعة فذكره بأبلغ ماتعرفه العرب فى مثله (وخامسها) (أكاد) صلة فى الكلام والمعنى (إن الساعة آتية أخفيها) ، قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه فما إن يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما ان يتنفس قرنه (وسادسها) قال أبو الفتح الموصلى (أكاد أخفيها) تأويله أكاد أظهرها وتلخيص هذا اللفظ أكاد أزيل عنها إخفاءها لأن أفعل قد يأتى بمعنى السلب والنفى كقولك أعجمت الكتاب وأشكلته أى أزلت عجمته وإشكاله وأشكيته أى أزلت شكواه (وسابعها) قرىء أخفيها بفتح الألف أى أكاد أظهرها من خفاه إذا أظهره أى قرب إظهارها كقوله (اقتربت الساعة) قال امرؤ القيس :

فان تدفنوا الداء لا نخفه وإن تمنعوا الحرب لا نقعد

أى لا نظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لأن معنى أكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها (وثامنها) أراد أن الساعة آتية أكاد وانقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الأول إلى أن الأولى الإخفاء (لتجزى كل نفس بما تسعى) وهذا الوجه بعيد والله أعلم (السؤال الثانى) ما الحكمة فى إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت؟ (الجواب) لأن الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالإغراء بفعل المعصية ، وإنه لايجوز . أما قوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى لما حكم بمجىء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو أنه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصى والمحسن عن المسىء وذلك غير جائز وهو الذى عناه الله تعالى بقوله (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض . أم نجعل المتقين كالفجار).

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الثواب مستحق على العمل لأن الباء للالصاق فقوله (بما تسعى) يدل على أن المؤثر فى ذلك الجزاء هو ذلك السعى.

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتجوا بها على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لأن الآية صريحة فى إثبات سعى العبد ولو كان الكل مخلوقاً لله تعالى لم يكن للعبد سعى البتة أما قوله (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها) فالصد المنع وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذين الضميرين وجهان (أحدهما) قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أى عن الصلاة التى أمرتك بها من لا يؤمن بها أى بالساعة فالضمير الأول عائد إلى الصلاة والثانى إلى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع إلى كل خبر حقه (وثانيهما) قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الإيمان بمجيئها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان إلى يوم القيامة قال القاضى وهذا أولى لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورين وههنا الأقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم فانما يصار إليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخطاب فى قوله (فلا يصدنك) يحتمل أن يكون مع موسى عليه السلام وأن يكون مع محمد ﷺ والأقرب أنه مع موسى لأن الكلام أجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج إنه ليس بمراد وإنما أريد به غيره وذلك لأنه ظن أن النبى ﷺ لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الإيمان بالساعة لم يجز أن يكون مخاطباً بذلك وليس الأمر كما ظن ، لأنه إذا كان مكلفاً بأن لا يقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادراً على ذلك جاز أن يخاطب به ويكون المراد هو وغيره ، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد بقوله (فلا يصدنك عنها) النهى له عن الميل إليهم ومقاربتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المقصود نهى موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضى نهى من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان (أحدهما) أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب (والثانى) أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله لا أرينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته ، فكذا ههنا كأنه قيل لا تكن رخواً بل كن فى الدين شديداً صلباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية تدل على أن تعلم علم الأصول واجب لأن قوله (فلا يصدنك) يرجع معناه إلى صلابته فى الدين وتلك الصلابة إن كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المحق فلابد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه قوياً فى تقرير الدلائل وإزالة الشبهات حتى لا يتمكن الخصم من إزالته عن الدين بل هو يكون متمكناً من إزالة المبطل عن بطلانه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال القاضى قوله (فلا يصدنك) يدل على أن العباد هم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لأفعالهم لكان هو الصاد دونهم فدل ذلك على بطلان القول بالجبر (والجواب) المعارضة بمسألة العلم والداعى والله أعلم ، أما قوله تعالى (واتبع هواه) فالمعنى أن منكر

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

البحث إنما أنكره اتباعا للهوى لا لدليل وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لأن المقلد متبع للهوى لا الحجة أما قوله (فتردى) فهو بمعنى ولا يصدنك فتردى وإن صدوك وقبلت فليس إلا الهلاك بالنار . واعلم أن المتوغلين فى أسرار المعرفة قالوا المقام مقامان (أحدهما) مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى (والثانى) مقام البقاء بالله والأول مقدم على الثانى لأن من أراد أن يكتب شيئاً فى لوح مشغول بكتابة أخرى فلا سبيل له إليه إلا بإزالة الكتابة الأولى ثم بعد ذلك يمكن إثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن فى هذا الباب لأنه قال لموسى عليه السلام أولا (فاخلع نعليك) وهو إشارة إلى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل مايجب تحصيله وأصول هذا الباب ترجع إلى ثلاثة علم المبدأ وعلم الوسط وعلم المعاد فعلم المبدأ هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله (إننى أنا الله لا إله إلا أنا) وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الأمر الذى يجب أن يشتغل الإنسان به فى هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله (فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) ثم فى هذا أيضاً تعثر لأن قوله (فاعبدنى) إشارة إلى الأعمال الجسمانية وقوله (لذكرى) إشارة إلى الأعمال الروحانية والعبودية أولها الأعمال الجسمانية وآخرها الأعمال الروحانية وأما علم المعاد فهو قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) ثم إنه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله (إنى أنا ربك) واختتمها بمحض القهر وهو قوله (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه وإشارة إلى أن العبد لابد له فى العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف ، وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف أن هذا الترتيب هو النهاية فى الحسن والجودة وأن ذلك لايتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

قوله تعالى : ﴿وما تلك بيمينك ياموسى ، قال هى عصاى أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ، قال ألقها ياموسى فألقاها فاذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾

إعلم أن قوله (وما تلك بيمينك) لفظتان . فقوله (وما تلك) إشارة إلى العصا ، وقوله (بيمينك) إشارة إلى اليد ، وفى هذا نكت (إحداها) أنه سبحانه لما أشار إليهما جعل كل واحدة منهما معجزاً قاهراً وبرهاناً باهراً ، ونقله من حد الجمادية إلى مقام الكرامة ، فاذا صار

www.besturdubooks.wordpress.com

الجماد بالنظر الواحد حيواناً ، وصار الجسم الكثيف نورانياً لطيفاً ، ثم إنه تعالى ينظر كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد ، فأى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان إلى سعادة الطاعة ونور المعرفة (وثانيها) أن بالنظر الواحد صار الجماد ثعباناً يبتلع سحر السحرة ، فأى عجب لو صار القلب بمدد النظر الإلهى بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء (وثالثها) كانت العصا فى يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعباناً وبرهاناً ، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة ، فأى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب إصبعى الرحمن من ظلمة المعصية إلى نور العبودية ، ثم ههنا سؤالات (الأول) قوله (وما تلك بيمينك ياموسى) سؤال والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه (والجواب) فيه فوائد (إحداها) أن من أراد أن يظهر من الشىء الحقير شيئاً شريفاً فانه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم هذا ماهو ؟ فيقولون هذا هو الشىء الفلانى ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذا منه كذا وكذا . فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية ، وكضربه البحر حتى انفلق . وفى الحجر حتى انفجر منه الماء . عرضه أولا على موسى فكأنه قال له ياموسى هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك وأنه خشبة لاتضرولا تنفع ، ثم إنه قلبه ثعباناً عظيما . فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث إنه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله (وما تلك بيمينك ياموسى) . (وثانيها) أنه سبحانه لما أطلعه على تلك الأنوار المتصاعدة من الشجرة إلى السماء وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ، ثم إنه مزج اللطف بالقهر فلاطفه أولا بقوله (وأنا اخترتك) ثم قهره بإيراد التكاليف الشاقة عليه وإلزامه علم المبدأ والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم ، تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقيل له (وما تلك بيمينك يا موسى) ليعرف موسى عليه السلام أن يمينه هى التى فيها العصا ، أو لأنه لما تكلم معه أولا بكلام الإلهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر إزالة لتلك الدهشة والحيرة ، والنكتة فيه أنه لما غلبت الدهشة على موسى فى الحضرة أراد رب العزة إزالتها فسأله عن العصا وهو لا يقع الغلط فيه . كذلك المؤمن إذا مات ووصل إلى حضرة ذى الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسألونه عن الأمر الذى لم يغلط فيه فى الدنيا وهو التوحيد فاذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه (وثالثها) أنه تعالى لما عرف موسى كمال الإلهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية ، فسأله عن منافع العصا فذكر بعضها فعرفه الله تعالى أن فيها منافع أعظم مما ذكر ؛ تنبيهاً على أن العقول قاصرة عن معرفة صفات النبى الحاضر فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول إلى معرفة أجل الأشياء وأعظمها (ورابعها) فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده أنه خشبة حتى إذا قلبها ثعباناً لا يخافها (السؤال الثانى) قوله (وما تلك بيمينك

www.besturdubooks.wordpress.com

يا موسى) خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ، ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد (الجواب) من وجهين (الأول) أنه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمداً عليه السلام في قوله (فأوحى إلى عبده ما أوحى) إلا أن الفرق بينهما أن الذي ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الله إلى الخلق ، والذي ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سراً لم يستأهل له أحد من الخلق (والثاني) إن كان موسى تكلم معه وهو [تكلم] مع موسى فأمة محمد ﷺ يخاطبون الله في كل يوم مرات على ما قال ﷺ « المصلي يناجي ربه » والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد ﷺ يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم في قوله (سلام قولا من رب رحيم).

(السؤال الثالث) ما إعراب قوله (وما تلك بيمينك يا موسى) الجواب ، قال صاحب الكشاف (تلك بيمينك) كقوله (وهذا بعلي شيخاً) في انتصاب الحال بمعنى الاشارة ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا وصلته (بيمينك) قال الزجاج معناه وما التي بيمينك ، قال الفراء : معناه ما هذه التي في يمينك ، واعلم أنه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك أجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء ، ثلاثة على التفصيل وواحد على الإجمال (الأول) قوله (هي عصاي) قرأ ابن أبي إسحق (هي عصى) ومثلها (يا بشرى) وقرأ الحسن (هي عصاى) بسكون الياء والنكت ههنا ثلاثة (إحداها) أنه قال (هي عصاي) فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا في بحر معرفة الحق ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت إلى شيء (ما زاغ البصر وما طغى) ولما قيل له امدحنا ، قال : « لا أحصي ثناء عليك » ثم نسي نفسه ونسي ثناءه ، فقال « أنت كما أثنيت على نفسك » (وثانيها) لما قال (عصاي) قال الله سبحانه وتعالى (ألقها ، فلما ألقاها فاذا هي حية تسعى) ليعرف أن كل ما سوى الله فالالتفات إليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك . ولهذا قال الخليل عليه السلام (فانهم عدو لي إلا رب العالمين) وفي الحديث « يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذي لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع » الحديث بتمامه.

(وثالثها) أنه قال هي عصاي فقد تم الجواب ، إلا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الأخر لأنه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض (الثاني) قوله (أتوكأ عليها) والتوكي ، والإتكاء واحد كالتوقي ، والإتقاء معناه أعتمد عليها إذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئاً على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم «اتكىء على رحمتي» بقوله تعالى (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وقال (والله يعصمك من الناس) فان قيل أليس قوله (ومن اتبعك من المؤمنين) يقتضي كون محمد يتوكأ على المؤمنين؟ قلنا قوله (ومن اتبعك من المؤمنين) معطوف على الكاف في قوله (حسبك الله) والمعنى الله حسبك ، وحسب من اتبعك من المؤمنين (الثالث) قوله (وأهش بها على غنمي) أي أخبط بها فأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمي فتأكله . وقال أهل

www.besturdubooks.wordpress.com

اللغة : هش على غنمه ، يهش بضم الهاء فى المستقبل ، وهششت الرجل أهش بفتح الهاء فى المستقبل، وهش الرغيف يهش بكسر الهاء . قاله ثعلب ، وقرأ عكرمة (وأهس) بالسين غير المنقوطة ، والهش زجر الغنم ، واعلم أن غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه فى قوله (أتوكأ عليها) ثم بمصالح رعيته فى قوله (وأهش بها على غنمى) فكذلك فى القيامة يبدأ بنفسه فيقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل فى الدنيا إلا بإصلاح أمر الأمة (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضاً بأمته فيقول : «أمتى أمتى» (والرابع) قوله (ولى فيها مآرب أخرى) أى حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها ، وحكى ابن الأعرابى وقطرب بكسر الراء أيضا ، والأرب بفتح الراء . والإربة بكسر الألف وسكون الراء الحاجة ، وإنما قال أخرى لأن المآرب فى معنى جماعة فكأنه قال جماعة من الحاجات أخرى ولو جاءت أخر لكان صواباً كما قال (فعدة من أيام أخر) ثم ههنا نكت (إحداها) أنه لما سمع قول الله تعالى (وما تلك بيمينك) عرف أن لله فيه أسراراً عظيمة فذكر ماعرف وعبر عن البواقى التى ماعرفها إجمالا لا تفصيلا بقوله (ولى فيها مآرب أخرى) . (وثانيها) أن موسى عليه السلام أحس بأنه تعالى إنما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة . فقال موسى : إلهى ماهذه العصا إلا كغيرها ، لكنك لما سألت عنها عرفت أن لى فيها مآرب أخرى ومن جملتها أنك كلمتنى بسببها فوجدت هذا الأمر العظيم الشريف بسببها (وثالثها) أن موسى عليه السلام أجمل رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك (ورابعها) أنه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره فأجمل مرة أخرى ، ثم قال وهب : كانت ذات شعبتين كالمحجن ، فاذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا حاول كسره لواه بالشعبتين ، [و] إذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها أدواته من القوس والكنانة والثياب، وإذا كان فى البرية ركزها وألقى كساء عليها فكانت ظلا . وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً ويصيران شمعتين فى الليالى ، وإذا ظهر عدو حاربت عنه . وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت . وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام . واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بالقاء العصا فقال (ألقها ياموسى) وفيه نكت (إحداها) أنه عليه السلام لما قال (ولى فيها مآرب أخرى) أراد الله أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائر مآربه فقال (ألقها يا موسى . فألقاها فاذا هى حية تسعى) (وثانيتها) كان فى رجله شىء وهو النعل وفى يده شىء وهو العصا ، والرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال أولا (اخلع نعليك) إشارة إلى ترك الهرب ، ثم قال ألقها ياموسى وهو إشارة إلى ترك الطلب . كأنه سبحانه قال إنك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك

www.besturdubooks.wordpress.com

وطالباً لحظك فلا تكون خالصاً لمعرفتي فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصاً لي (وثالثها) أن موسى عليه السلام مع علو درجته ، وكمال منقبته لما وصل إلى الحضرة ولم يكن معه إلا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى أمكنه الوصول إلى الحضرة فأنت مع ألف وقر من المعاصي كيف يمكنك الوصول إلى جنابه (ورابعتها) أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان مجردا عن الكل مازاغ البصر فلا جرم وجد الكل ، لعمرك أما موسى لما بقي معه تلك العصا لاجرم أمره بالقاء العصا . واعلم أن الكعبي تمسك به في أن الاستطاعة قبل الفعل فقال القدرة على إلقاء العصا ، إما أن توجد والعصا في يده أو خارجة من يده فان أتته القدرة وهي في يده فذاك قولنا (وأن الله ليس بظلام للعبيد) واذا أتته وليست في يده وإنما استطاع أن يلقي من يده ماليس في يده فذلك محال ، أما قوله (فألقاها فاذا هي حية تسعى) ففيه أسئلة : (السؤال الأول) ما الحكمة في قلب العصا حية في ذلك الوقت ؟ (الجواب) فيه وجوه : (أحدها) أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لأنه عليه السلام إلى هذا الوقت ما سمع إلا النداء ، والنداء وإن كان مخالفاً للعادات إلا أنه لم يكن معجزاً لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهراً والعجب أن موسى عليه السلام قال أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له (وثانيها) أن النداء كان إكراما له فقلب العصا حية مزيداً في الكرامة ليكون توالى الخلع والكرامات سبباً لزوال الوحشة عن قلبه (وثالثها) أنه عرض عليه ليشاهده أولا فإذا شاهده عند فرعون لايخافه (ورابعها) أنه كان راعياً فقيراً ثم إنه نصب للمنصب العظيم فلعله بقي في قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيهاً على انى لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في إظهار الدين (وخامسها) أنه لما قال (هي عصاى أتوكأ عليها) إلى قوله (ولي فيها مآرب أخرى) فقيل له (ألقها فلما ألقاها) وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب أخرى فلم تفر منها ، تنبيهاً على سر قوله (ففروا إلى الله) وقوله (قل الله ثم ذرهم) (السؤال الثاني) قال ههنا حية وفي موضع آخر ثعبان وجان ، أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير ، وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان : (أحدهما) أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعباناً فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها (والثاني) أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان ، والدليل عليه قوله تعالى (فلما رآها تهتز كأنها جان) . (السؤال الثالث) كيف كانت صفة الحية (الجواب) كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا ، وابتلعت كل مامرت به من الصخور والأشجار حتى سمع موسى صرير الحجر في فمها وجوفها ، أما قوله تعالى (قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الأولى) ففيه سؤالات (السؤال الأول) لما نودي موسى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾

وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عندالله تعالى إلى الخلق فلم خاف (والجواب) من وجوه : (أحدها) أن ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك ذلك قط ، وأيضاً فهذه الأشياء معلومة بدلائل العقول . وعند الفزع الشديد قديذهل الإنسان عنه قال الشيخ أبو القاسم الأنصارى رحمه الله تعالى وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه فى النبوة لأن الساحر يعلم أن الذى أتى به تمويه فلا يخافه البتة (وثانيها) قال بعضهم خافها لأنه عليه السلام عرف ما لقى آدم منها (وثالثها) أن مجرد قوله (لاتخف) لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى (ولا تطع الكافرين) لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله (فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً) يدل عليه ، ولكن ذلك الخوف إنما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان ، وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار (السؤال الثانى) متى أخذها ، بعد انقلابها عصا أوقبل ذلك (والجواب) روى أنه أدخل يده بين أسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه أيضاً بقوله (سنعيدهاسيرتها الأولى) وذلك يقع فى الاستقبال ، وأيضاً فهذا أقرب للكرامة لأنه كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك إدخال يده فى فمها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشباً معجز آخر فيكون فيه توالى المعجزات فيكون أقوى فى الدلالة (السؤال الثالث) كيف أخذه ، أمع الخوف أوبدونه (والجواب) روى مع الخوف ولكنه بعيد ، لأن بعد توالى الدلائل يبعد ذلك . وإذا علم موسى عليه السلام أنه تعالى عند الأخذ سيعيدها سيرتها الأولى فكيف يستمر خوفه ، وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه (لاتخف) بلغ من ذلك ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه إلى أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها (السؤال الرابع) ما معنى سيرتها الأولى (والجواب) قال صاحب الكشاف السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال سارفلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة (السؤال الخامس) علام انتصب سيرتها (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) بنزع الخافض يعنى إلى سيرتها (وثانيهما) أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها كانت أولا عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أى تسير سيرتها الأولى يعنى سنعيدها سائرة بسيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التى عرفتها .

قوله تعالى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ، لنريك من آياتنا الكبرى ،إذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنه يجنحهما عند الطيران ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما إلى جناحك إلى صدرك والأول أولى لأن يدى الإنسان يشبهان جناحى الطائر لأنه قال (تخرج بيضاء) ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله (تخرج) معنى واعلم أن معنى ضم اليد إلى الجناح ما قال فى آية أخرى (وأدخل يدك فى جيبك) لأنه إذا أدخل يده فى جيبه كان قد ضم يده إلى جناحه والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السوء الرداءة والقبح فى كل شىء فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شىء إلى العرب فكان جديراً بأن يكنى عنه يروى أنه عليه السلام كان شديد الأدمة فكان إذا أدخل يده اليمنى فى جيبه وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ بيضاء وآية حالان معاً ومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفى نصب آية وجه آخر وهو أن يكون باضمار نحو خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام ، وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أى خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك ، فان قيل الكبرى من نعت الآيات فلم لم يقل الكبر ؟ قلنا بل هى نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا فى قوله (مآرب أخرى ، والأسماء الحسنى) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحسن اليد أعظم فى الإعجاز من العصا لأنه تعالى (ذكر لنريك من آياتنا الكبرى عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لأنه ليس فى اليد إلا تغير اللون ، وأما العصا ففيه تغير اللون وخلق الزيادة فى الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ، ثم عاد عصا بعد ذلك . فقد وقع التغير مرة أخرى فى كل هذه الأمور فكانت العصا أعظم ، وأما قوله (لنريك من آياتنا الكبرى) فقد بينا أنه عائد إلى الكل وأنه غير مختص باليد

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الآية عقبها بأن أمره بالذهاب إلى فرعون وبين العلة فى ذلك وهى أنه طغى ، وإنما خص فرعون بالذكر مع أن موسى عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره أولى . قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام «اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فانك بعينى وسمعى وإن معك يدى وبصرى وإنى ألبستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى . وإنى أقسم بعزتى لولا الحجة والعذر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

من عيني فبلغه عني رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي (وقل له قولا ليناً) لا يغترن بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي ، لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي . في كلام طويل ، قال فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك بعبده » .

قوله تعالى : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى ، هرون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً ﴾

إعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون وكان ذلك تكليفاً شاقاً فلا جرم سأل ربه أموراً ثمانية ، ثم ختمها بما يجرى مجرى العلة لسؤال تلك الأشياء .

﴿ المطلوب الأول ﴾ قوله (رب اشرح لى صدرى) واعلم أنه يقال شرحت الكلام أى بينته وشرحت صدره أى وسعته والأول يقرب منه لأن شرح الكلام لا يحصل إلا ببسطه . والسبب فى هذا السؤال ماحكى الله تعالى عنه فى موضع آخر وهو قوله (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة ، وقال (رب اشرح لى صدرى) فأفهم عنك ماأنزلت على من الوحى ، وقيل شجعنى لأجترىء به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بأمور (أحدها) فائدة الدعاء وشرائطه (وثانيها) ماالسبب فى أن الانسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى إلا الرب (وثالثها) ما معنى شرح الصدر (ورابعها) بماذا يكون شرح الصدر (وخامسها) كيف كان شرح الصدر فى حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم (وسادسها) صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحا أو لم يكن منشرحا ، فان كان منشرحا كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال ، وإن لم يكن منشرحا فهو باطل من وجهين (الأول) أنه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالأديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر فى باب الدين فقد حصل ، ثم إنه سبحانه تلطف له بقوله (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله (وما تلك بيمينك ياموسى) ثم أظهر له المعجزات

www.besturdubooks.wordpress.com

العظيمة والكرامات الجسيمة ، ثم أعطاه منصب الرسالة بعد أن كان فقيراً وكل مايتعلق به الإعزاز والإكرام فقد حصل ، ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لأدون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها لكليم الله تعالى يستحيل أن لايصير منشرح الصدر (والثانى) أنه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الأشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة إليه فان من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لايصلح للقضاء على ماقال عليه السلام « لايقضى القاضى وهو غضبان » فكيف يصلح للنبوة التي أقل مراتبها القضاء ؟ فهذا مجموع الأمور التي لابد من البحث عنها فى هذه الآية .

﴿ أما البحث الأول ﴾ وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم فى تفسير قوله (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلا أنه نذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول اعلم أن للكمال مراتب ودرجات وأعلاها أن يكون كاملا فى ذاته مكملا لغيره ، أما كونه كاملا فى ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته ، وكل ما كان كذلك كان كاملا فى الأزل ولكنه يستحيل أن يكون مكملا فى الأزل لأن التكميل عبارة عن جعل الشىء كاملا وذلك لايتحقق إلا عند عدم الكمال ، فانه لو كان حاصلا فى الأزل لاستحال التأثير فيه ، فان تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلا جرم أنه سبحانه ، وإن كان كاملا فى الأزل إلا أنه يصير مكملا فيما لايزال ، فان قيل إذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملا فى الأزل فقد كان عارياً عن صفات الكمال فيكون ناقصاً وهو محال ، قلنا النقصان إنما يلزم لو كان ذلك ممكناً فى الأزل لكنا بينا أن الفعل الأزلى محال فالتكميل الأزلى محال فعدمه لايكون نقصاناً ، كما أن قولنا إنه لايقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصاناً لأنه غير ممكن الوجود فى نفسه ، وكقولنا أنه لايعلم عدداً مفصلا لحركات أهل الجنة لأن كل ماله عدد مفصل فهو متناه ، وحركات أهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل ، فامتنع ذلك لالقصور فى العلم ، بل لكونه فى نفسه ممتنع الحصول . إذا ثبت هذا فنقول إنه سبحانه وتعالى لما قصد إلى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لأن الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فأجلس على المائدة بعض المعدومات دون البعض لأسباب (أحدها) أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لانهاية له فى الوجود (وثانيها) أنه لو أوجد الكل لما بقى بعد ذلك قادراً على الإيجاد لأن إيجاد الموجود محال ، فكان ذلك وإن كان كمالا للناقص لكنه يقتضى نقصان الكامل فانه ينقلب القادر من القدرة إلى العجز (وثالثها) أنه لو دخل الكل فى الوجود لما بقى فيه تمييز فلا يتميز القادر عن الموجب والقدرة كمال والإيجاب بالطبع نقصان ، فلهذه الأسباب أخرج بعض الممكنات إلى الوجود فان قيل عليه سؤالان (أحدهما) أن الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولانسبة للمتناهى

www.besturdubooks.wordpress.com

إلى غير المتناهى ، فتكون أيضاً الضيافة ضيافة للأقل ، وأما الحرمان فانه عدد لما لا نهاية له ، وهذا لايكون وجودا (الثانى) أن البعض الذى خصه بهذه الضيافة إن كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل ؟ وإن كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثاً وهو محال كما قيل :

يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرماً

وإنه لا يليق بأكرم الأكرمين (والجواب) عن الكل أن هذه الشبهات إنما تدور فى العقول والخيالات لأن الإنسان يحاول قياس فعله على فعلنا ، وذلك باطل لأنه لايسأل عما يفعل وهم يسألون . إذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله (ورحمتى وسعت كل شىء) ثم إن الموجودات انقسمت إلى الجمادات وإلى الحيوانات ، ولا شك أن الجماد بالنسبة إلى الحيوان كالعدم بالنسبة إلى الوجود لأن الجماد لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة اليه كالعدم وعدمه كالوجود ، وأما الحيوان فهو الذى يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة اليه ولأن الجماد بالنسبة إلى الحيوان آلة لأن الحيوانات تستعمل الجمادات فى أغراض أنفسها ومصالحها وهى كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولى . فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما أن إحسان الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض ، فلاجرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض . والحياة بالنسبة إلى الجماديه كالنور بالنسبة إلى الظلمة والبصر بالنسبة إلى العمى والوجود بالنسبة إلى العدم ، فعند ذلك صار بعض الموجودات حياً مدركا للمنافى والملائم واللذة والألم والخير والشر ، فمن ثم قالت الأحياء عند ذلك يارب الأرباب إنا وإن وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك ، لكن ازدادت الحاجة لأنا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج إلى الملائم والموافق وما كنا نخاف المنافى والمؤذى ، ولما حصل الوجود والحياة احتجنا إلى طلب الملائم ودفع المنافى فإن لم تكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفا لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التى بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى ، فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الأحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود . فقال القادرون عند ذلك إلهنا الجواد الكريم إن الحياة والقدرة بلا عقل لاتكون إلا لأحد القسمين إما للمجانين المقيدين بالسلاسل والأغلال ، وإما للبهائم المستعملة فى حمل الأثقال وكل ذلك من صفات النقصان وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان إلى أوج الكمال فأفض علينا من العقل الذى هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذى شرفته بقولك « بك أهين وبك أثيب وبك أعاقب » حتى تفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فأعطاهم العقل وبعث فى أرواحهم نور

www.besturdubooks.wordpress.com

البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الأربعة الوجود والحياة والقدرة والعقل فالعقل خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل ألا ترى أن رسولنا ﷺ لما كان خاتم النبيين كان أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، والإنسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذى الجلال كان أفضل الخلع وأكملها ، ثم نظر العقل فى نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوأة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوأة من الكواكب الزاهرة وهى العلوم الضرورية البديهية المركوزة فى بدائه العقول وصرائح الأذهان ، وكما أن الكواكب المركوزة فى السموات علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فكذلك الجواهر المركوزة فى سماء العقل كواكب زاهرة يهتدى بها السائرون فى ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها . فلما نظر العقل إلى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الأرقام على راقم ، وبتلك النقوش على ناقش . وعند ذلك عرف أن النقاش بخلاف النقش والبانى بخلاف البناء ، فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن إلى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم القدم الأزلية والجلال وكان العقل إنما نظر إلى أضواء عالم الأزلية من ظلمات عالم الحدوث والإمكان فغلبته دهشة أنوار الأزلية فعميت عيناه فبقى متحيراً فالتجأ بطبعه إلى مفيض الأنوار، فقال (رب اشرح لى صدرى) فان البحار عميقة والظلمات متكاثفة ، وفى الطريق قطاع من الأعداء الداخلة والخارجة وشياطين الإنس والجن كثيرة فإن لم تشرح لى صدرى ولم تكن لى عونا فى كل الأمور انقطعت ، وصارت هذه الخلع سبباً لنيل الآفات لا للفوز بالدرجات . فهذا هو المراد من قوله (رب اشرح لى صدرى) ثم قال (ويسر لى أمرى) وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فما لم يصر العبد مريداً له استحال أن يصير فاعلا له ، فهذه الإرادة صفة محدثة ولابد لها من فاعل وفاعلها إن كان هو العبد افتقر فى تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ، ولزم التسلسل بل لابد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم فيكون فى الحقيقة هو الميسر للأمور وهو المتمم لجميع الأشياء وتمام التحقيق أن حدوث الصفة لابد له من قابل وفاعل فعبر عن استعداد القابل بقوله (رب اشرح لى صدرى) وعبر عن حصول الفاعل بقوله (ويسر لى أمرى) وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعطى القابل قابليته والفاعل فاعليته ، ولهذا كان السلف رضى الله عنهم يقولون : يامبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها . ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على أن جميع الحوادث فى هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته . ويمكن أن يقال أيضاً كأن موسى عليه السلام قال إلهى لا أكتفى بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الأمر وتحصيل الغرض فلهذا قال (ويسرى أمرى) أو يقال إنه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الاربع وهى الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له يا موسى أعطيتك هذه الخلع الاربع فلابد فى

www.besturdubooks.wordpress.com

مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة . فقال موسى عليه السلام ماتلك الخدمات ؟ فقال وأقم الصلاة لذكرى فإن فيها أنواعاً أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود فإذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة .ثم إنه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهي خلعة الرسالة قال (رب اشرح لى صدرى) حتى أعرف أنى بأى خدمة أقابل هذه النعمة فقيل له بأن تجتهد فى أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يارب إن هذا لايتأتى منى مع عجزى وضعفى وقلة آلاتى وقوة خصمى فاشرح لى صدرى ويسر لى أمرى (الفصل الثانى) فى قوله (رب اشرح لى صدرى) إعلم أن الدعاء سبب القرب من الله تعالى وإنما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلباً للقرب فنفتقر إلى بيان أمرين إلى بيان أن الدعاء سبب القرب ثم إلى بيان أن موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء أما بيان أن الدعاء سبب القرب فيدل عليه وجوه (الأول) أن الله تعالى ذكر السؤال والجواب فى كتابه فى عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية أما الأصولية فأولها فى البقرة (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) (وثانيها) فى بنى إسرائيل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) (وثالثها) (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً) (ورابعها) (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) وأما الفروعية فستة منها فى البقرة على التوالى (أحدها) (يسألونك ماذا ينفقون قل ماأنفقتم من خير فللوالدين والأقربين) (وثانيها) (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) (وثالثها) (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) (ورابعها) (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) (وخامسها) (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) (وسادسها) (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) (وسابعها) (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) (وثامنها) (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) (وتاسعها) (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق) (وعاشرها)(يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) . (والحادية عشر) (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) إذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الأسئلة والأجوبة على صور مختلفة ، فالأغلب فيها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفى صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفى صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) وفى صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) ولا بد لهذه الأشياء من الفائدة فنقول أما الأجوبة الواردة بلفظ قل فلا إشكال فيها لأن قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد فى ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد فى كونه مخاطباً من الله تعالى بأداء الوحى والتبليغ . وأما الصورة الثانية وهى قوله (فقل ينسفها ربى نسفاً) فالسبب أن قولهم (ويسألونك عن الجبال) سؤال إما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين فلا جرم أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يجيب بلفظ

www.besturdubooks.wordpress.com

الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال فى الحال ولا تقتصر فإن الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الأمر لئلا يقعوا فى الشك والشبهة ، ثم كيفية الجواب أنه قال (فقل ينسفها ربى نسفاً) ولا شك أن النسف ممكن لأنه ممكن فى حق كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكناً فى حق كل الجبل وذلك يدل على أنه ليس بقديم ولا واجب الوجود لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف . فإن قيل إنهم قالوا أخبرنا عن إلهك أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال (قل هو الله أحد) ولم يقل فقل هو الله أحد مع أن هذه المسألة من المهمات قلنا إنه تعالى لم يحك فى هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعى سبق كلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فانه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء (وأما الصورة الثالثة) فإنه تعالى لم يذكر الجواب فى قوله (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) فالحكمة فيه أن معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التى شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على أن من الأسئلة مالا يجاب عنها (وأما الصورة الرابعة) وهى قوله (فانى قريب) ولم يذكر فى جوابه قل ففيه وجوه (أحدها) أن ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وأنه من أعظم العبادات فكأنه سبحانه قال ياعبدى أنت إنما تحتاج إلى الواسطة فى غير الدعاء أما فى مقام الدعاء فلا واسطة بينى وبينك يدل عليه أن كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق). (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه فانسلخ منها) . (واذكر فى الكتاب موسى) . (واذكر فى الكتاب إسمعيل) . (واذكر فى الكتاب إدريس) . (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) ، ثم قال فى قصة يوسف (نحن نقص عليك أحسن القصص) وفى أصحاب الكهف (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) . وما ذاك إلا لما فى هاتين القصتين من العجائب والغرائب ، والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال يا محمد إذا سئلت عن غيرى فكن أنت المجيب ، وإذا سئلت عنى فاسكت أنت حتى أكون أنا القائل (وثانيها) أن قوله (وإذا سألك عبادى عنى) يدل على أن العبد له [أن يسأل] وقوله (فإنى قريب) يدل على أن الرب قريب من العبد (وثالثها) لم يقل فالعبد منى قريب ، بل قال أنا منه قريب ، وهذا فيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو ، هو فى مركز العدم وحضيض الفناء ، فكيف يكون قريباً ، بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فإنه بفضله وإحسانه جعله موجوداً وقربه من نفسه فالقرب منه لا من العبد فلهذا قال (فإنى قريب) . (ورابعها) أن الداعى ما دام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فإنه لا يكون داعياً لله تعالى فإذا فنى عن الكل وصار مستغرقاً بمعرفة الله الأحد الحق امتنع أن يبقى فى مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات إلى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين فما قال (فقل إنى قريب) بل قال (فإنى قريب) فثبت بما تقرر فضل الدعاء وأنه من أعظم القربات ثم من شأن العبد إذا أراد أن يتحف مولاه أن لا يتحفه إلا بأحسن التحف والهدايا فلا

www.besturdubooks.wordpress.com

جرم أول ماأراد موسى أن يتحف الحضرة الإلهية بتحف الطاعات والعبادات أتحفها بالدعاء فلا جرم قال (رب اشرح لى صدرى). (والوجه الثانى) فى بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام «الدعاء مخ العبادة» ثم إن أول شيء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام (العبادة) لأن قوله (إننى أنا الله) إخبار وليس بأمر إنما الأمر قوله (فاعبدنى) فلما كان أول ماأورد على موسى من الأوامر هو الأمر بالعبادة لاجرم أول ما أتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال (رب اشرح لى صدرى). (والوجه الثالث) وهو أن الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما أنه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك أمر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب). (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم). (وادعوه خوفاً وطمعاً). (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية). (هو الحى لاإله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين). (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن). (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة) وقال ﷺ «ادعوا بياذا الجلال والإكرام» فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه (أحدها) أنه علام الغيوب يعلم ما فى الانفس وما تخفى الصدور، فأى حاجة بنا إلى الدعاء (وثانيها) أن المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وثالثها) الدعاء يشبه الأمر والنهى وذلك من العبد فى حق المولى سوء أدب (ورابعها) المطلوب بالدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لايهمله وان لم يكن من المصالح لم يجز طلبه (وخامسها) فقد جاء أن أعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى، وقد ندب إليه والدعاء ينافى ذلك لأنه اشتغال بالالتماس والطلب (وسادسها) قال عليه السلام رواية عن الله تعالى «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» فدل على أن الأولى ترك الدعاء. والايات التى ذكرتموها تقتضى وجوب الدعاء (وسابعها) أن إبراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله «حسبى من سؤالى علمه بحالى» استحق المدح العظيم فدل على أن الأولى ترك الدعاء (والجواب، عن الأول) أنه ليس الغرض من الدعاء الاعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات (وعن الثانى) أنه يجرى مجرى أن نقول للجائع والعطشان إن كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الأكل والشرب وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وعن الثالث) أن الصيغه وإن كانت صيغة الأمر إلا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك (وعن الرابع) يجوز ان يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء (وعن الخامس) أنه إذا دعا إظهاراً للتضرع ثم رضى عما قدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية إذا ثبت أنه من العبادات، ثم إنه تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمراً ورد مجملا لاجرم شرع فى أجل العبادات وهو الدعاء (الوجه الرابع) فى فضل الدعاء أنه سبحانه لم يقتصر فى بيان فضل الدعاء على الأمر به بل بين فى آية أخرى أنه يغضب إذا لم يسأل فقال (فلو لا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم

www.besturdubooks.wordpress.com

وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقال عليه السلام « لا يقولن أحدكم اللهم اغفرلى إن شئت » ولكن يجزم فيقول : اللهم اغفرلي فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لى صدرى (الوجه الخامس) فى فضل الدعاء قوله تعالى (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) وفيه كرامة عظيمة لأمتنا لأن بنى اسرائيل فضلهم الله تفضيلا عظيما فقال فى حقهم (وأنى فضلتكم على العالمين) وقال أيضاً : (وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين) ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام (أدع لنا ربك يبين لنا ما هى) وأن الحواريين مع جلالتهم فى قولهم (نحن أنصار الله) سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم إنه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة فى أمتنا فقال مخاطباً لهم من غير واسطة (ادعونى أستجب لكم) وقال (واسألوا الله من فضله) فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الأمة وكان موسى عليه السلام قد عرفها لاجرم فقال « اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ » فلا جرم رفع يديه ابتداء فقال (رب اشرح لى صدرى) واعلم أنه تعالى قال (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب) ثم إنه تعالى جعل العباد على سبعة أقسام (أحدها) عبد العصمة (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بمزيد العصمة (واصطنعتك لنفسى) فلا جرم طلب زوائد العصمة فقال (رب اشرح لى صدرى (وثانيها) عبد الصفوة (وسلام على عباده الذين اصطفى) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بمزيد الصفوة (ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) فلا جرم أراد مزيد الصفوة فقال (رب اشرح لى صدرى) (وثالثها) عبد البشارة (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بذلك (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) فأراد مزيد البشارة فقال (رب اشرح لى صدرى) (ورابعها) عبد الكرامة (ياعباد لاخوف عليكم) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بذلك (لاتخافا إننى معكما) فأراد الزيادة عليها فقال (رب اشرح لى صدرى) (وخامسها) عبد المغفرة (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) ، وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بذلك (رب اغفر لى) فغفرله فأراد الزيادة فقال (رب اشرح لى صدرى) (وسادسها) عبد الخدمة (اعبدوا ربكم) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بذلك (واصطنعتك لنفسى) فطلب الزيادة فيها فقال (اشرح لى صدرى) (وسابعها) عبد القربة (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بالقرب (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) فأراد كمال القرب فقال (رب اشرح لى صدرى) .

﴿ الفصل الثالث ﴾ فى قوله (رب اشرح لى صدرى) وفيه وجوه : (أحدها) أنه تعالى لما خاطبه بالأشياء الستة [التى] (أحدها) معرفة التوحيد (إننى أنا الله لا إله إلا أنا) ، (وثانيها) أمره بالعبادة والصلاة (فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) ، (وثالثها) معرفة الآخرة (إن الساعة آتية)

www.besturdubooks.wordpress.com

(ورابعها) حكمة أفعاله فى الدنيا (وما تلك بيمينك ياموسى) ، (وخامسها) عرض المعجزات الباهرة عليه (لنريك من آياتنا الكبرى) ، (وسادسها) إرساله الى أعظم الناس كفراً وعتواً فكانت هذه التكاليف الشاقة سبباً للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرفه أن كل من سأله قرب منه فقال (رب اشرح لى صدرى) فأراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال (رب اشرح لى صدرى) أو يقال خاف شياطين الإنس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء إلى مقام القرب فيصير مأموناً من غوائل شياطين الجن والإنس (وثانيها) أن المراد أنه أراد الذهاب إلى فرعون وقومه فأراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف أن من دعا ربه قربه له وقربه لديه فحينئذ تنقطع الأطماع بالكلية فقال (رب اشرح لى صدرى) (وثالثها) الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ماسوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شيء هالك إلا وجهه فالكل كأنهم فى ظلمات العدم وإظلال عالم الأجسام والإمكان فقال (رب اشرح لى صدرى) حتى يجلس قلبي فى بهى ضوء المعرفة وسادة شرح الصدر والجالس فى الضوء لايرى من كان جالساً فى الظلمة فحين جلس فى ضوء شرح الصدر لا يرى أحداً فى الوجود فلهذا عقبه بقوله (ويسر لى أمرى) فإن العبد فى مقام الاستغراق لا يتفرغ لشيء من المهمات (ورابعها) رب اشرح لى صدرى فان عين العين ضعيفة فأطلع ياإلهي شمس التوفيق حتى أرى كل شيء كما هو ، وهذا فى معنى قول محمد ﷺ «أرنا الأشياء كما هى» واعلم أن شرح الصدر مقدمة لسطوع الأنوار الإلهية فى القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلا فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهى فاستمع لما يوحى فلا جرم نسج موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الأخرى فقال (رب اشرح لى صدرى) ولما آل الأمر إلى محمد ﷺ قيل له (وقل رب زدنى علما) والعلم هو المقصود ، فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد ﷺ لاجرم أعطى المقدمة ، ولما كان محمد كالمقصود لاجرم أعطى المقصود فسبحانه ماأدق حكمته فى كل شيء (وسادسها) الداعى له صفتان (إحداهما) أن يكون عبداً للرب (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب) ، (وثانيتهما) أن يكون الرب له (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أضاف نفسه إلينا وما أضافنا إلى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فأراد موسى عليه السلام أن يرتع فى هذا البستان فقال (رب اشرح لى صدرى) (وسابعها) أن موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله (وقربناه نجياً) فكأن موسى عليه السلام قال إلهى لما قلت (وقربناه نجياً) صرت قريباً منك ولكن أريد قربك منى فقال ياموسى أما سمعت قولى (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب) فأشتغل بالدعاء حتى أصير قريباً منك فعند ذلك (قال رب اشرح لى صدرى) . (وثامنها) قال موسى عليه السلام (رب اشرح لى صدرى) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (ألم نشرح لك صدرك) ثم إنه تعالى ماتركه على هذه الحالة بل قال (وسراجاً منيراً) فانظر إلى التفاوت فان شرح الصدر هو أن يصير الصدر

www.besturdubooks.wordpress.com

قابلا للنور والسراج المنير هو أن يعطى النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت، بين الآخذ والمعطى ثم نقول إلهنا إن ديننا وهى كلمة لا إله إلا الله نور ، والوضوء نور ، والصلاة نور ، والقبر نور ، والجنة نور ، فبحق أنوارك التى أعطيتنا فى الدنيا لاتحرمنا أنوارفضلك وإحسانك يوم القيامة (الفصل الرابع) فى قوله (رب اشرح لى صدرى) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذف فى القلب ، فقيل : وما أمارته فقال التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول ، ويدل على أن شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) واعلم أن الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور (أحدها) وصف ذاته بالنور (الله نور السموات والأرض) . (وثانيها) الرسول (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (وثالثها) القرآن (واتبعوا النور الذى أنزل معه) . (ورابعها) الإيمان (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) . (وخامسها) عدل الله (وأشرقت الأرض بنور ربها) . (وسادسها) ضياء القمر (وجعل القمر فيهن نوراً) ، (وسابعها) النهار (وجعل الظلمات والنور) (وثامنها) البينات (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) . (وتاسعها) الأنبياء (نور على نور) . (وعاشرها) المعرفة (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) إذا ثبت هذا فنقول كأن موسى عليه السلام قال (رب اشرح لى صدرى) بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك (وثانيها) رب اشرح لى صدرى ، بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك (وثالثها) رب اشرح لى صدرى ، باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك (ورابعها) رب اشرح لى صدرى ، بنور الإيمان والايقان بإلهيتك (وخامسها) رب اشرح صدرى بالاطلاع على أسرار عدلك فى قضائك وحكمك (وسادسها) رب اشرح لى صدرى ، بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزتك كما فعله إبراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس إلى حضرة العزة (وسابعها) رب اشرح لى صدرى من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك (وثامنها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك فى أرضك وسمواتك (وتاسعها) رب اشرح لى صدرى فى أن أكون خلف صور الأنبياء المتقدمين ومتشبهاً بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين (وعاشرها) رب اشرح لى صدرى بأن تجعل سراج الايمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح ، واعلم أن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور فى القلب حتى يصير القلب كالسراج وذلك النور كالنار ، ومعلوم أن من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء : زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن . فالعبد إذا طلب النور الذى هو شرح الصدر افتقر إلى هذه السبعة (فأولها) لابد من زند المجاهدة (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) . (وثانيها) حجر التضرع (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) (وثالثها) حراق منع الهوى (ونهى النفس عن الهوى)(ورابعها) كبريت الإنابة (وأنيبوا إلى ربكم) ملطخاً رءوس تلك

www.besturdubooks.wordpress.com

الخشبات بكبريت توبوا إلى الله (وخامسها) مسرجة الصبر (واستعينوا بالصبر والصلاة)(وسادسها) فتيلة الشكر (لئن شكرتم لأزيدنكم) . (وسابعها) دهن الرضا .(واصبر لحكم ربك) أى ارض بقضاء ربك فاذا صلحت هذه الأدوات فلا تعول عليها بل ينبغي أن لا تطلب المقصود إلا من حضرته (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) ثم اطلبها بالخشوع والخضوع (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) فعند ذلك ترفع يدالتضرع وتقول (رب اشرح لى صدرى) فهنالك تسمع (قد أوتيت سؤلك ياموسى) ثم نقول هذا النور الروحانى المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه (أحدها) الشمس تحجبها غمامة وشمس المعرفة لا يحجبها السموات السبع (إليه يصعد الكلم الطيب) (وثانيها) الشمس تغيب ليلا وتعود نهاراً قال ابراهيم عليه السلام (لاأحب الآفلين) أما شمس المعرفة فلاتغيب ليلا (إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً ، والمستغفرين بالأسحار) بل أ كمل الخلع الروحانية تحصل فى الليل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) (وثالثها) الشمس تفنى (إذا الشمس كورت) وشمس المعرفة لا تفنى (سلام قولا من رب رحيم) (ورابعها) الشمس إذا قابلها القمر انكسفت أما ههنا فشمس المعرفة وهى معرفة أشهد أن لا إله إلا الله ما لم يقابلها قمر أشهد أن محمداً رسول الله لم يصل نوره إلى عالم الجوارح (وخامسها) الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) . (وسادسها) الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الحرق ، جزيا مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهبى (وسابعها) الشمس تصدع والمعرفة تصعد(إليه يصعد الكلم الطيب).(وثامنها)الشمس منفعتها فى الدنيا والمعرفة منفعتها فى العقبى (والباقيات الصالحات خير) .(وتاسعها) الشمس فى السماء زينة لأهل الأرض والمعرفة فى الأرض زينة لأهل السماء (وعاشرها) الشمس فوقانى الصورة تحتانى المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر ، والمعارف الإلهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى ، وذلك يدل على التواضع مع الشرف (وحادى عشرها) الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب إلى الخالق (وثانى عشرها) الشمس تقع على الولى والعدو والمعرفة لا تحصل إلا للولى فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لاجرم قال موسى (رب اشرح لى صدرى)وأما النكت(فإحداها) الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء (كل من عليها فان)والمعرفة استوقدها للبقاء فالذى خلقها للفناء لو قرب الشيطان منها لاحترق (شهاباً رصداً) والمعرفة التى خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان (رب اشرح لى صدرى) . (وثانيتها) استوقد الله الشمس فى السماء وإنها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك ، وأوقد شمس المعرفة فى قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك (وثالثتها) من استوقد سراجاً فإنه لا يزال يتعهده ويمده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) أفلا يمده وهو معنى قوله (رب اشرح لى صدرى). (ورابعتها) اللص إذا رأى السراج يوقد فى البيت لا يقرب منه والله قد أوقد سراج المعرفة فى

www.besturdubooks.wordpress.com

قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال (رب اشرح لى صدرى) .(وخامستها) المجوس أوقدوا ناراً فلا يريدون إطفاءها والملك القدوس أوقد سراج الإيمان فى قلبك فكيف يرضى بإطفائه ، واعلم أنه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات (أحدها) الحياة (أو من كان ميتاً فأحييناه) فلما رغب موسى عليه السلام فى الحياة الروحانية قال (رب اشرح لى صدرى) ثم النكتة أنه عليه السلام قال من أحيا أرضاً ميتة فهى له فالعبد لما أحيا أرضاً فهى له فالرب لما خلق القلب وأحياه بنور الإيمان فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب (قل الله ثم ذرهم) وكما أن الإيمان حياة القلب فالكفر موته (أموات غير أحياء وما يشعرون) (وثانيها) الشفاء (ويشف صدور قوم مؤمنين) فلما رغب موسى فى الشفاء رفع الأيدى قال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أنه تعالى لما جعل الشفاء فى العسل بقى شفاء أبداً فههنا لما وضع الشفاء فى الصدر فكيف لا يبقى شفاء أبداً (وثالثها) الطهارة (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) فلما رغب موسى عليه السلام فى تحصيل طهارة التقوى قال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أن الصائغ إذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لايدخله فى النار فههنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانياً ولكن الله يدخل فى النار قلب الكافر (ليميز الله الخبيث من الطيب) (ورابعها) الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أن الرسول يهدى نفسك والقرآن يهدى روحك والمولى يهدى قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل (إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء) وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لاتحصل (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فإنها لاتزول لأن الهادى لايزول (ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) . (وخامسها) الكتابة (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال (رب اشرح لى صدرى) وفيه نكت (الأولى) أن الكاغدة ليس لها خطر عظيم وإذا كتب فيها القرآن لم يجز إحراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم إحراقه (الثانية) بشر الحافى أكرم كاغداً فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فإكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك (والثالثة) كاغد ليس فيه خط إذا كتب فيه اسم الله الأعظم عظم قدره حتى أنه لايجوز للجنب والحائض أن يمسه بل قال الشافعى رحمه الله تعالى ليس له أن يمس جلد المصحف ، وقال الله تعالى (لا يمسه إلا المطهرون) فالقلب الذى فيه أكرم المخلوقات (ولقد كرمنا بنى آدم) كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه والله أعلم (وسادسها) السكينة (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أن أبا بكر رضى الله عنه كان مع رسول الله ﷺ وكان خائفاً فلما نزلت السكينة عليه قال لا تحزن فلما نزلت سكينة

www.besturdubooks.wordpress.com

الإيمان فرجوا أن يسمعوا خطاب (أن لاتخافوا ولا تحزنوا) وأيضاً لما نزلت السكينة صار من الخلفاء (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) أى أن يصيروا خلفاء الله فى أرضه (وسابعها) المحبة والزينة (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) والنكتة أن من ألقى حبة فى أرض فإنه لا يفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة فى أرض القلب فكيف يحرقها (وثامنها) (وألف بين قلوبكم) والنكتة أن محمداً صلى الله عليه وسلم ألف بين قلوب أصحابه ثم إنه ماتركهم [في]غيبة ولاحضور «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فالرحيم كيف يتركهم (وتاسعها) الطمأنينة (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وموسى طلب الطمأنينة فقال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أن حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما فى العالم من الأجسام فإنه لا يكفيه لأن حاجته غير متناهية والأجسام متناهية والمتناهى لا يصير مقابلا لغير المتناهى بل الذى يكفى فى الحاجة الغير المتناهية الكمال الذى لا نهاية له وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه (أحدها) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (وثانيها) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم (وثالثها) فى قلوبهم مرض (ورابعها) جعلنا قلوبهم قاسية (وخامسها) إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه (وسادسها) ختم الله على قلوبهم (وسابعها) أم على قلوب أقفالها (وثامنها) كلا بل ران على قلوبهم (وتاسعها) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم . إلهنا وسيدنا بفضلك وإحسانك أغلق هذه الأبواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا بإحسانك وافتح لنا تلك الأبواب التسعة من إحسانك بفضلك ورحمتك إنك على ماتشاء قدير (الفصل الخامس) فى حقيقة شرح الصدر ، ذكر العلماء فيه وجهين (الأول) أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة أما الرغبة فهى أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم ، وأما الرهبة فهى أن يكون خائفاً من الأعداء والمنازعين فإذا شرح الله صدره صغر كل مايتعلق بالدنيا فى عين همته ، فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة إليها ولا تمنعه رهبة عنها ، فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى ، فإن القلب فى المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فإذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فأما إذا انصب الكل فى موضع واحد قوى فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفوراً عنها فإذا حصلت النفرة توجه إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية (الثانى) أن موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج إلى تكاليف شاقة منها ضبط الوحى والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها إصلاح العالم الجسدانى فكأنه صار مكلفاً بتدبير العالمين والإلتفات إلى أحدهما يمنع من الإشتغال بالآخر ، ألا ترى أن المشتغل بالإبصار يصير

www.besturdubooks.wordpress.com

ممنوعاً عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعاً عن الابصار والخيال ، فهذه القوى متجاذبة متنازعة وأن موسى عليه السلام كان محتاجاً إلى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة (المثال الأول) اعلم أن البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذى يجلب النعم إلى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذى يشتغل بالضرب والتأديب أبداً والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم إن الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الأخلاق الذميمة جنوده فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج فى مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو إلى الله تعالى والهوى يدعو إلى الشيطان ثم إن الروح أخرج الفطنة إعانة للعقل فأخرج الشيطان فى مقابلة الفطنة الشهوة فالفطنة توقفك على معايب الدنيا والشهوة تحركك إلى لذات الدنيا ثم إن الروح أمد الفطنة بالفكرة لتقوى الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعائب على ماقال عليه السلام «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» فأخرج الشيطان فى مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم والثبات فان العجلة ترى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا فأخرج الشيطان فى مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام « ما دخل الرفق فى شيء إلا زانه ولا الخرق فى شيء إلا شانه » ولهذا خلق السموات والأرض فى ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هي الخصومة الواقعة بين الصنفين ، وقلبك وصدرك هو القلعة ، ثم إن لهذا الصدر الذى هو القلعة خندقا وهو الزهد فى الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة الآخرة ومحبة الله تعالى فإن كان الخندق عظيماً والسور قوياً عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وإن كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوى قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة فينحصر الملك فى القصر ويضيق الأمر عليه فإذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الأمر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله (رب اشرح لى صدرى) (المثال الثانى) اعلم أن معدن النور هو القلب واشتغال الإنسان بالزوجة والولد والرغبة فى مصاحبة الناس والخوف من الأعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر فإذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم فى الدارين صغروا فى عينه ولا شك فى أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) فلا يزال العبد يتأمل فيماسوي الله تعالى إلى أن يشاهد أنهم عدم محض فعند ذلك يزول

www.besturdubooks.wordpress.com

الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى وإذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر .

﴿الفصل السادس﴾ فى الصدر اعلم أنه يجىء والمراد منه القلب (أفمن شرح الله صدره للاسلام ، رب اشرح لى صدرى ، وحصل ما فى الصدور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وقد يجىء والمراد الفضاء الذى فيه الصدر (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) واختلف الناس فى أن محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجمهور المتكلمين على أنه القلب ، وقد شرحنا هذه المسألة فى سورة الشعراء فى تفسير قوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقال بعضهم المواد أربعة الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الإسلام (أفمن شرح الله صدره للاسلام) والقلب مقر الإيمان (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) والفؤاد مقر المعرفة (ما كذب الفؤاد ما رأى)، (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) واللب مقر التوحيد (إنما يتذكر أولو الألباب) واعلم أن القلب أول ما بعث إلى هذا العالم بعث خالياً عن النقوش كاللوح الساذج وهو فى عالم البدن كاللوح المحفوظ ثم إنه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد إلى آخر قيام القيامة لهذا العالم الأصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ، ثم إن العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها فى بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الإدبار أخرى ، فربما وصلت سفينة النظر الى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الإلهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات . وربما توغلت السفينة فى جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحينما تكون السفينة فى ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة إلى التماس الأنوار والهدايات فيقول هناك (رب اشرح لى صدرى) واعلم أن العقل إذا أخذ فى الترقى من سفل الإمكان إلى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارفة المجردات والمفارقات ، ومعلوم أن كل ماهية فهى إما هى معه أو هى له ، فان كانت هى معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الإلهية فلا يبقى هناك مستطلعاً لمطالعة سائر الأنوار فيضمحل كل ما سواه من بصر وبصيرة ، وإن وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة عجيبة . وهى أنه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع إلى موضع معين فذلك الموضع الذى اليه تنعكس الشعاعات يحترق فجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافى الموضوع فى مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال ، فاذا وقع للقلب التفات اليها حصلت للقلب نسبة اليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الإلهية عن كل واحد منها إلى القلب فيحترق القلب ، ومعلوم أنه كلما كان المحرق أكثر ، كان الإحتراق أتم فقال (رب اشرح لى صدرى) حتى أقوى على إدراك درجات الممكنات فأصل إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

مقام الاحتراق بأنوار الجلال ، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام «أرنا الأشياء كما هى» فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال «لا أحصى ثناء عليك» .

﴿ الفصل السابع ﴾ فى بقية الأبحاث إنما قال (رب اشرح لى صدرى) ولم يقل رب اشرح صدرى ليظهر أن منفعة ذلك الشرح عائدة الى موسى عليه السلام لا إلى الله ، وأما كيفية شرح صدر رسول ﷺ والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره إن شاء الله فى تفسير قوله (ألم نشرح لك صدرك) والله أعلم بالصواب .

﴿ المطلوب الثانى ﴾ قوله (ويسر لى أمرى) والمراد منه عند أهل السنة خلقها وعند المعتزلة تحريك الدواعى والبواعث بفعل الألطاف المسهلة ، فان قيل كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأى فائدة فى هذا السؤال ، قلنا يحتمل أن يكون هناك من الألطاف ما لا يحسن فعلها إلا بعد هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الألطاف .

﴿ المطلوب الثالث ﴾ قوله (واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى (خلق الإنسان علمه البيان) ولم يقل وعلمه البيان لأنه لو عطفه عليه لكان مغايراً له ، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله (علمه البيان) كالتفسير لقوله (خلق الإنسان) كأنه إنما يكون خالقاً للانسان إذا علمه البيان ، وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أن ماهية الإنسان هى الحيوان الناطق (وثانيها) اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان ، قال زهير :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال على : ما الانسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . والمعنى أنا لو أزلنا الادراك الذهنى والنطق اللسانى لم يبق من الانسان إلا القدر الحاصل فى البهائم ، وقالوا المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وقال صلى الله عليه وسلم «المرء مخبوء تحت لسانه» (وثالثها) أن فى مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق حيث قال (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض) ، (ورابعها) أن الانسان جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد أبداً صور المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الأجسام وواسطته فى تلك الاستفادة هى الفكر الذهنى وواسطته فى هذه الافادة هى النطق اللسانى فكما أن تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» فكذلك الواسطة فى الافادة يجب أن تكون أشرف الأعضاء. فقوله (رب اشرح لى صدرى) إشارة إلى طلب النور الواقع فى الروح ، وقوله (ويسر لى أمرى) إشارة إلى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل ، وعند ذلك يحصل الكمال فى تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعد هذا إلا المقام البيانى وهو إفاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

إلا باللسان . فلهذا قال (واحلل عقدة من لساني) . (وخامسها) وهو أن العلم أفضل المخلوقات على ما ثبت والجود والاعطاء أفضل الطاعات ، وليس فى الأعضاء أفضل من اليد ، فاليد لما كانت آلة فى العطية الجسمانية قيل « اليد العليا خير من اليد السفلى » فالعلم الذى هو خير من المال لما كانت آلة إعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الأعضاء . ولا شك أن اللسان هو الآلة فى إعطاء المعارف فوجب أن يكون أشرف الأعضاء . ومن الناس من مدح الصمت لوجوه (أحدها) قوله عليه السلام « الصمت حكمة وقليل فاعله » ويروى أن الانسان تفكر أعضاؤه اللسان ويقلن اتق الله فينا فانك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا . (وثانيها) أن الكلام على أربعة أقسام منه ماضرره خالص أو راجح ، ومنه ما يستوى الضرر والنفع فيه ومنه ما نفعه راجح ومنه ما هو خالص النفع ، أما الذى ضرره خالص أو راجح فواجب الترك ، والذى يستوى الأمران فيه فهو عيب ، فبقى القسمان الأخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر ، فالأولى ترك الكلام (وثالثها) أن ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى ، فان كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل ، وهذه خاصية لاتوجد فى سائر الأعضاء ، فان العين لا تصل إلى غير الألوان ، والصور والآذان لاتصل إلا إلى الأصوات والحروف ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء بخلاف اللسان فانه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حد فله فى الخير مجال رحب وله فى الشر بحر سحب ، وانه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر المعاصى فانه يحتاج فيها إلى مؤن كثيرة لايتيسر تحصيلها فى الأكثر فلذلك كان الأولى ترك الكلام (ورابعها) قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والإنصات والاصاخة فأما الصمت فهو أعمها لأنه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لايقوى عليه ولهذا يقال مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لايقال له إنصات قال تعالى (فاستمعوا له وأنصتوا) والاصاخة استماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد ، واعلم أن الصمت عدم ولا فضيلة فيه بل النطق فى نفسه فضيلة والرذيلة فى محاورته ولولاه لما سأل كليم الله ذلك فى قوله تعالى (واحلل عقدة من لسانى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى تلك العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السلام على قولين (الأول) كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى إزالته (الثانى) السبب فيه أنه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذى يزول ملكى على يده فقالت آسية إنه صبى لا يعقل وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة فقربا إليه فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لأن اليد آلة أخذ العصا وهى الحجة

www.besturdubooks.wordpress.com

واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقى فى التنور فكيف يحترق هنا ؟ ومنهم من قال احترقت اليددون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة (الثالث) احترق اللسان دون اليد لأن الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت (والرابع) احترقا معاً لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أنه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه (أحدها) لئلا يقع فى أداء الرساله خلل البتة (وثانيها) لازالة التنفير لأن العقدة فى اللسان قد تفضى إلى الإستخفاف بقائلها وعدم الإلتفات إليه (وثالثها) إظهاراً للمعجزة فكما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزاً فى حقه فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز فى حقه (ورابعها) طلب السهولة لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون فى جبروته وكبره عسر جداً فاذا انضم إليه تعقد اللسان بلغ العسر إلى النهاية ، فسأل ربه إزالة تلك العقـــدة تخفيفاً وتسهيلا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحسن رحمه الله إن تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) وهو ضعيف لأنه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لسانى بل قال (واحلل عقدة من لسانى) فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله ، والحق أنه انحل أكثر العقد وبقى منها شيء قليل لقوله (حكاية عن فرعون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) أى يقارب أن لا يبين وفى ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد فى لسانه وأجيب عنه من وجهين (أحدهما) المراد بقوله ولا يكاد يبين أى لا يأتى ببيان ولا حجة (والثانى) أن كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللسانى لكان معناه أنه لا يقارب البيان فكان فيه نفى البيان بالكلية وذلك باطل لأنه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفى البيان أصلا بل إنما قال ذلك تمويهاً ليصرف الوجوه عنه قال أهل الاشارة إنما قال (واحلل عقدة من لسانى) لأن حل العقد كلها نصيب محمد ﷺ وقال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) فلما كان ذلك حقا ليتيم أبى طالب لا جرم ما دار حوله والله أعلم .

﴿ المطلوب الرابع ﴾ قوله (واجعل لى وزيراً من أهلى) واعلم أن طلب الوزير إما أن يكون لأنه خاف من نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر فطلب المعين أو لأنه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة فى أمر الدعاء إلى الله ولذلك قال عيسى ابن مريم (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) وقال لمحمد ﷺ (حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وقال عليه السلام « إن لى فى السماء وزيرين وفى الأرض وزيرين ، فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الأرض أبو بكر وعمر » وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الوزير من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أو زاره ومؤنه أو من الوزر

www.besturdubooks.wordpress.com

وهو الجبل الذى يتحصن به لأن الملك يعتصم برأيه فى رعيته ويفوض إليه أموره أومن الموازرة وهى المعاونة ، والموازرة مأخوذة من إزار الرجل وهو الموضع الذى يشده الرجل إذا استعد لعمل أمر صعب قاله الأصمعى وكان القياس أزيراً فقبلت الهمزة إلى الواو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال عليه السلام « إذا أراد الله بملك خيراً قيض له وزيراً صالحاً إن نسى ذكره وإن نوى خيراً أعانه وإن أراد شراً كفه » وكان أنو شروان يقول : لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قيل الإستعانة بالوزير إنما يحتاج إليها الملوك أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحى من الله تعالى إلى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير ؟ وأيضاً فانه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكا له فى النبوة فقال (وأشركه فى أمرى) فكيف يكون وزيراً . والجواب : عن الأول أن التعاون على الأمر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة فى تأثير الدعاء إلى الله تعالى فكان موسى عليه السلام واثقاً بأخيه هرون فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه مايمكن من الثقل فى الإبلاغ .

﴿ المطلوب الخامس ﴾ أن يكون ذلك الوزير من أهله أى من أقاربه .

﴿ المطلوب السادس ﴾ أن يكون الوزير الذى من أهله هو أخوه هرون وإنما سأل ذلك لوجهين (أحدهما) أن التعاون على الدين منقبة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله ، أو لأن كل واحد منهما كان فى غاية المحبة لصاحبه والموافقة له ، وقوله هرون فى انتصابه وجهان (احدهما) أنه مفعول الجعل على تقدير اجعل هرون أخى وزيراً لى (والثانى) على البدل من وزيراً وأخى نعت لهرون أوبدل ، واعلم أن هرون عليه السلام كان مخصوصاً بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى (وأخى هرون هو أفصح منى لساناً) ومنها أنه كان فيه رفق قال (يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) ومنها أنه كان أكبر سناً منه .

﴿ المطلوب السابع ﴾ قوله (أشدد به أزرى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القراءة العامة (أشدد به ، وأشركه) على الدعاء ، وقرأ ابن عامر وحده (أشدد ، وأشركه) على الجزاء والجواب ، حكاية عن موسى عليه السلام أى أنا أفعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل (أخى) مرفوعا على الابتداء (وأشدد به) خبره ويوقف على هرون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأزر القوة وآزره قواه قال تعالى (فآزره) أى أعانه قال أبو عبيدة (أزرى) أى ظهرى وفى كتاب الخليل (الأزر) الظهر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هرون وزيراً له طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصراً له لأنه لا اعتماد على القرابة .

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ
أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ
ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ
﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ
أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى
﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ

﴿ المطلوب الثامن ﴾ قوله (وأشركه فى أمرى) والأمر ههنا النبوة ، وإنما قال ذلك لأنه عليه السلام علم أنه يشد به عضده وهو أكبر منه سناً وأفصح منه لساناً ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال (كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً) والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وأن يكون بالاعتقاد ، وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به ، وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك أن النفى مقدم على الإثبات ، أما قوله تعالى (إنك كنت بنا بصيراً) ففيه وجوه : (أحدها) إنك عالم بأنا لا نريد بهذه الطاعات إلا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحداً سواك (وثانيها) (كنت بنا بصيراً) لأن هذه الاستعانة بهذه الأشياء لأجل حاجتى فى النبوة اليها (وثالثها) إنك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا ، وإنما قيد الدعاء بهذا إجلالا لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضاً للأمر بالكلية إليه .

قوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى واصطنعتك لنفسى ، إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ،

www.besturdubooks.wordpress.com

طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

إذهبا إلى فرعون إنه طغى ؛ فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾

إعلم أن السؤال هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول، واعلم أن موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الأمور الثمانية ، وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل إلا باجابته اليها ، لاجرم أجابه الله تعالى اليها ليكون أقدر على الابلاغ على الحد الذى كلف به فقال (قد أوتيت سؤلك يا موسى) وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال (ولقد مننا عليك مرة أخرى) فنبه بذلك على أمور : (أحدها) كأنه تعالى قال إنى راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال (وثانيها) إنى كنت قد ربيتك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك رداً بعد القبول وإساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى (وثالثها) إنا لما أعطيناك فى الأزمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك من حالة نازلة إلى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف ؟ (والجواب) إنما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصلت اليه ما كان مستحقاً لشىء منها بل إنما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والإحسان .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة ؟ (والجواب) لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة من المنن لأن ذلك قد يقال فى القليل والكثير . واعلم أن المنن المذكورة ههنا ثمانية : (المنة الأولى) قوله (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له) أما قوله (إذ أوحينا) فقد اتفق الأكثرون على أن أم موسى عليه السلام ما كانت من الأنبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحى هو الوحى الواصل إلى الأنبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة بل عند الشافعى رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى اليهم) وهذا صريح فى الباب ، وأيضاً فالوحى قد جاء فى القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) وقال : (وإذ أوحيت إلى الحواريين) ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه : (أحدها) المراد رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده اليها (وثانيها) أن المراد عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع إليه ظهر له الرأى الذى هو أقرب إلى الخلاص ويقال لذلك الخاطر إنه وحى (وثالثها) المراد منه الالهام لكننا

www.besturdubooks.wordpress.com

متى .شنا عن الإلهام كان معناه خطور رأى بالبال وغلبة على القلب فيصير هـذا هو الوجه الثانى وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتـاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لأجل الصيانة عن الثانى (والجواب) لعلهـا عرفت بالاستقراء صـدق رؤياها فكان إفضاء الإلقاء فى البحر إلى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون (ورابعها) لعله أوحى إلى بعض الأنبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السـلام أو غيره ثم إن ذلك النبى عرفها ، إما مشافهة أو مراسلة ، واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لمـا لحقها من أنواع الخوف ما لحقها (والجواب) أن ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان يأمره بالذهاب اليه مراراً (وخامسها) لعل الأنبياء المتقـدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السـلام أخبروا بذلك وانتهى ذلك الخبر إلى تلك المرأة (وسادسهـا) لعل الله تعالى بعث إليها ملـكا لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم فى قوله (فتمثل لها بشراً سوياً) وأما قوله (مايوحى) فمعناه وأوحينا إلى أمك مايجب أن يوحى وإنما وجب ذلك الوحى لأن الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل إلى معرفة المصلحة فيها إلا بالوحى فكان الوحى واجباً أما قوله تعالى (أن اقذفيه) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن هى المفسرة لأن الوحى بمعنى القول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القذف مستعمل فى معنى الإلقاء والوضع ومنه قوله تعـالى (وقذف فى قلوبهم الرعب) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى أنهـا اتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ بتابوت يجىء به الماء فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجوارى باخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبى من أصبح الناس وجهاً فلما رآه فرعون أحبه وسيأتى تمام القصة فى سورة القصص ، قال مقاتل إن الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر فى قول الجميع واليم إسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الـكسائى الساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لأن الماء يسحله أى يقذفه إلى أعلاه .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال صاحب الـكشاف الضمائر كلهـا راجعة إلى موسى عليه السلام ورجوع بعضها إليه وبعضهـا إلى التابوت يؤدى إلى تنافر النظم فإن قيل المقذوف فى البحر هو التابوت وكذلك الملقى إلى الساحل قلنا لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام

www.besturdubooks.wordpress.com

فى جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر .

﴿ المسألة السابعة ﴾ لما كان تقدير الله تعالى أن يجرى ماء اليم ويلقى بذلك التابوت إلى الساحل سلك فى ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل أما قوله (يأخذه عدو لى وعدو له) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (يأخذه) جواب الأمر أى اقذفيه يأخذه .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى كيفية الأخذ قولان (أحدهما) أن امرأة فرعون كانت بحيث تستسقى الجوارى فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فيكون المراد من أخذ فرعون التابوت قبوله لهواستحبابه إياه (الثانى) أن البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهرفرعون ثم أداه النهر إلى بركة فرعون فلما رآه أخذه .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (يأخذه عدو لى وعدو له) فيه إشكال وهو أن موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادى (وجوابه) أما كونه عدواً لله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدواً لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث إنه لو ظهر له حاله لقتله ويحتمل أنه من حيث يؤول أمره إلى ما آل إليه من العداوة (المنة الثانية) قوله (وألقيت عليك محبة منى) وفيه قولان : (الأول) وألقيت عليك محبة هى منى قال الزمخشرى (منى) لايخلو إما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على أنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب ، وإما أن يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثانى ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة أى وألقيت عليك محبة حاصلة منى واقعة بخلقى فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت (قرة عين لى ولك لاتقتلوه) يروى أنه كانت على وجهه مسحة جمال وفى عينيه ملاحة لايكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى (سيجعل لهم الرحمن وداً) قال القاضى هذا الوجه أقرب لأنه فى حال صغره لايكاد يوصف بمحبة الله تعالى التى ظاهرها من جهة الدين لأن ذلك إنما يستعمل فى المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد أن ما ذكرنا من كيفيته فى الخلقة يستحلى ويغتبط فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما فى التربية مالا مزيد عليه ويمكن أن يقال بل الاحتمال الأول أرجح لأن الاحتمال الثانى يحوج إلى الإضمار وهو أن يقال وألقيت عليك محبة حاصلة منى وواقعة بتخليقى وعلى التقدير الاول لا حاجة إلى هذا الإضمار بقى قوله إنه حال صباه لايحصل له محبة الله تعالى قلنا لانسلم فإن محبة الله تعالى يرجع معناها إلى إيصال النفع إلى عباده وهذا المعنى كان حاصلا فى حقه فى حال صباه وعلم الله تعالى أن ذلك يستمر إلى آخر عمره فلا جرم أطلق عليه لفظ المحبة (المنة الثالثة) قوله (ولتصنع على عينى) قال القفال لترى على عينى أى على وفق إرادتى ، ومجاز هذا أن من صنع لإنسان شيئاً وهو حاضر ينظر إليه صنعه له كما يحب ولا يمكنه أن يفعل مايخالف غرضه فكذا هنا وفى كيفية المجاز قولان (الأول) المراد من العين العلم أى ترى على علم منى ولما كان العالم بالشىء يحرسه عن الآفات

www.besturdubooks.wordpress.com

كما أن الناظر إليه يحرسه عن الآفات أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه (الثانى) المراد من العين الحراسة وذلك لأن الناظر إلى الشيء يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فأطلق اسم السبب على المسبب مجازاً وهو كقوله تعالى (إننى معكما أسمع وأرى) ويقال عين الله عليك إذا دعا لك بالحفظ والحياطة ، قال القاضى ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله (ولتصنع على عينى الحفظ والحياطة) كقوله تعالى (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن) فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له ، بقى ههنا بحثان :

﴿ الأول ﴾ الواو فى قوله (ولتصنع على عينى) فيه ثلاثة أوجه (أحدها) كأنه قيل (ولتصنع على عينى) ألقيت عليك محبة منى ثم يكون قوله (إذ تمشى أختك) متعلقاً بأول الكلام وهو قوله (ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك مايوحى) وإذ تمشى أختك (وثانيها) يجوز أن يكون قوله (ولتصنع على عينى) متعلقاً بما بعده وهو قوله (إذ تمشى) وذكرنا مثل هذين الوجهين فى قوله (وليكون من الموقنين) . (وثالثها) يجوز أن تكون الواو مقحمة أى وألقيت عليك محبة منى لتصنع وهذا ضعيف .

﴿ الثانى ﴾ قرئ ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر وقرىء ولتصنع بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك وتصرفك على علم منى (المنة الرابعة) قوله (إذ تمشى أختك) واعلم أن العامل فى إذ تمشى ألقيت أو تصنع ، يروى أنه لما فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاماً فى النيل وكان لايرتضع من ثدى كل امرأة يؤتى بها لأن الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه اضطروا إلى تتبع النساء فلما رأت ذلك أخت موسى جاءت إليهم متنكرة فقالت (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) ثم جاءت بالأم فقبل ثديها فرجع إلى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير أما قوله تعالى (فرجعناك إلى أمك) أى رددناك ، وقال فى موضع آخر (فرددناه إلى أمه) وهو كقوله (قال رب ارجعون) أى ردونى إلى الدنيا ، أما قوله (كى تقر عينها ولا تحزن) فالمراد أن المقصود من ردك إليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها ، فان قيل لو قال كى لا تحزن وتقر عينها كان الكلام مفيداً لأنه لايلزم من نفى الحزن حصول السرور لها ، وأما لما قال أولا كى تقر عينها كان قوله بعد ذلك (ولا تحزن) فضلا لأنه متى حصل السرور وجب زوال الغم لا محالة ، قلنا المراد أنه تقر عينها بسبب وصولك إليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها إلى باطنك (المنة الخامسة) قوله (وقتلت نفسا فنجيناك من الغم) فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفساً وهو الرجل الذى قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الاسرائيلى عليه وكان قبطياً فحصل له الغم من وجهين (أحدهما) من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه ما حكى الله تعالى عنه (فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب) والآخر من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين ، أما من فرعون فحين وفق له المهاجرة إلى مدين

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما من عقاب الآخرة فلأنه سبحانه وتعالى غفر له ذلك (المنة السادسة) قوله (وفتناك فتوناً) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ فى قوله (فتوناً) وجهان (أحدهما) أنه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقاً وذلك على مذهبهم فى تأكيد الأخبار بالمصادر كقوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) ، (والثانى) أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور فى حجزة وبدرة أى فتناك ضروباً من الفتن وههنا سؤالان (السؤال الأول) أن الله تعالى عدد أنواع مننه على موسى عليه السلام فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله (وفتناك فتوناً) (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى (فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) وقال تعالى (آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فالزلزلة المذكورة فى الآية ومس البأساء والضراء هى الفتنة والفتون ، ولما كان التشديد فى المحنة مما يوجب كثرة الثواب لاجرم عده الله تعالى من جملة النعم (وثانيها) (فتناك فتونا) أى خلصناك تخليصاً من قولهم : فتنت الذهب من الفضة إذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال نستأنف له نهاراً يا ابن جبير . ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الوارة فى شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بنى اسرائيل ثم قصة إلقاء موسى عليه السلام فى اليم والتقاط آل فرعون إياه وامتناعه من الارتضاع من الأجانب ، ثم قصة أن موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة فى فيه ، ثم قصة قتل القبطى ؛ ثم هربه الى مدين وصيرورته أجيراً لشعيب عليه السلام، ثم عوده الى مصر وأنه أخطأ الطريق فى الليلة المظلمة واستئناسه بالنار من الشجرة وكان عند تمام كل واحدة منها يقول هذا من الفتون يا ابن جبير .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يصح اطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقا من قوله (وفتناك فتونا) والجواب لا لأنه صفة ذم فى العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم مالاينبغى (المنة السابعة) قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى) واعلم أن التقدير (وفتناك فتونا) فخرجت خائفاً الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم ، أما مدة اللبث فقال أبو مسلم إنها مشروحة فى قوله تعالى (ولما توجه تلقاء مدين ـ الى قوله ـ فلما قضى موسى الأجل) وهى إما عشرة وإما ثمان لقوله تعالى (على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشراً فمن عندك) وقال وهب لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانياً وعشرين سنة منها عشر سنين

www.besturdubooks.wordpress.com

مهر امرأته ، والآية تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ماينفي الزيادة على العشر ، واعلم أن قوله (فلبثت سنين فى أهل مدين) بعد قوله (وفتناك فتونا) كالدلالة على أن لبثه فى مدين من الفتون وكذلك كان ، فانه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محناً كثيرة ، واحتاج إلى أن آجر نفسه . أما قوله تعالى (ثم جئت على قدر ياموسى) فلا بد من حذف فى الكلام لأنه على قدر أمر من الأمور ، وذكروا فى ذلك المحذوف وجوها (أحدها) أنه سبق فى قضائى وقدرى أن أجعلك رسولا لى فى وقت معين عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر لا قبله ولا بعده ، ومنه قوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) ، (وثانيها) على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة (وثالثها) أن القدر هو الموعد فان ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه ، ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيباً عليه السلام أو غيره من الأنبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد ، فان قيل كيف ذكر الله تعالى مجىء موسى عليه السلام فى ذلك الوقت من جملة مننه عليه ، قلنا لأنه لولا توفيقه له لما تهيأ شىء من ذلك (المنة الثامنة) قوله تعالى (واصطنعتك لنفسى) والاصطناع اتخاذ الصنعة ، وهى افتعال من الصنع يقال اصطنع فلان فلانا أى اتخذه صنيعة ، فان قيل إنه تعالى غني عن الكل فما معنى قوله لنفسى (والجواب) عنه من وجوه (الأول) أن هذا تمثيل لأنه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه أهلا لأن يكون أقرب الناس منزلة إليه وأشدهم قرباً منه (وثانيها) قالت المعتزلة إنه سبحانه وتعالى إذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم ومن جملة الألطاف مالا يعلم إلا سمعاً فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقى فى عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه فى أداء ماوجب على الله تعالى ، فصح أن يقول واصطنعتك لنفسى ، قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلاناً إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسى أى لأصرفك فى أوامرى لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو إقامة حجتى وتبليغ رسالتى وأن تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك ، واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية فى مقابلة تلك الالتماسات الثمانية رتب على ذكر ذلك أمراً ونهياً ، أما الأمر فهو أنه سبحانه وتعالى أعاد الأمر بالأول فقال (اذهب أنت وأخوك بآياتى) واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال (واصطنعتك لنفسى) عقبه بذكر ماله اصطنعه وهو الإبلاغ والأداء ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الباء ههنا بمعنى مع وذلك لأنهما لو ذهبا إليه بدون آية معهما لم يلزمه الإيمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال (أحدها) أنها اليد والعصا لأنهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع وفى سائر المواضع التى اقتص الله تعالى فيها

www.besturdubooks.wordpress.com

حديث موسى عليه السلام فانه تعالى لم يذكر فى شيء منها أنه عليه السلام قد أوتى قبل مجيئه إلى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى عنه (قال فأت بآية إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) وقال (فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه) فاذا قيل لهؤلاء كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين أجابوا بوجوه (الأول) أن العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فإن انقلاب العصا حيواناً آية ثم إنها فى أول الأمر كانت صغيرة لقوله تعالى (تهتز كأنها جان) ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ، ثم كانت تصير ثعباناً وهذه آية أخرى .ثم إن موسى عليه السلام كان يدخل يده فى فيها فما كانت تضر موسى عليه السلام فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى ، وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالها بعد حصولها آية أخرى فصح أنهما كانتا آيات كثيرة لا آيتان (الثانى) هب أن العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة لأن انقلابها حية يدل على وجود إله قادر على الكل عالم بالكل حكيم ويدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيواناً فهذه آيات كثيرة ولذلك قال (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا إلى قوله (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) فاذا وصف الشيء الواحد بأن فيه آيات فالشيئان أولى بذلك (الثالث) من الناس من قال أقل الجمع إثنان على ما عرفت فى أصول الفقه (القول الثانى) أن قوله (اذهبا بآياتى) معناه أنى أمدكما بآياتى وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فان آياتى معكما كما يقال اذهب فان جندى معك أى أنى أمدك بهم متى احتجت (القول الثالث) أن الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك أيضاً معجز فكانت الآيات ثلاثة هذا هو شرح الأمر أما النهى فهو قوله تعالى (ولا تنيا فى ذكرى) الونى الفتور والتقصير وقرىء ولا تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع ثم قيل فيه أقوال (أحدها) المعنى لا تنيا بل اتخذا ذكرى آلة لتحصيل المقاصد واعتقدا أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى والحكمة فيه أن من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحداً ولأن من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف فى المقصود ، ولأن ذاكر الله تعالى لابد وأن يكون ذاكراً لإحسانه وذاكر إحسانه لا يفتر فى أداء أوامره (وثانيها) المراد بالذكر تبليغ الرسالة فان الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر (وثالثها) قوله (ولا تنيا فى ذكرى) عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكرا لفرعون وقومه أن الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب (ورابعها) أن يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع إحسانه إليه ثم قال بعد ذلك (إذهبا إلى فرعون إنه طغى) وفيه سؤالان (الأول) ما الفائدة فى ذلك بعد قوله (اذهب أنت وأخوك بآياتى) قال القفال فيه وجهان (أحدهما) أن قوله (اذهب أنت وأخوك بآياتى) يحتمل أن يكون كل واحد منهما

www.besturdubooks.wordpress.com

مأموراً بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعاً لا أن ينفرد به هرون دون موسى (والثانى) أن قوله (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أمر بالذهاب إلى كل الناس من بنى إسرائيل وقوم فرعون ،ثم إن قوله (إذهبا إلى فرعون) أمر بالذهاب إلى فرعون وحده .

﴿ السؤال الثانى ﴾ قوله (إذهبا إلى فرعون) خطاب مع موسى وهرون عليهما السلام وهذا مشكل لأن هرون عليه السلام لم يكن حاضراً هناك وكذلك فى قوله تعالى (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) أجاب القفال عنه من وجوه (أحدها) أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطاباً مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فالخطاب فى تلك الحالة وإن كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه تعالى أضافه إليهما كما فى قوله (وإذ قتلتم نفساً) وقوله (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) وحكى أن القائل هو عبد الله بن أبى وحده (وثانيها) يحتمل أن الله تعالى لما قال (قد أوتيت سؤلك ياموسى) سكت حتى لقى أخاه ،ثم إن الله تعالى خاطبهما بقوله (اذهبا إلى فرعون) (وثالثها) أنه حكى أنه فى مصحف ابن مسعود وحفصة (قال ربنا إننا نخاف) أى قال موسى أنا وأخى نخاف فرعون أما قوله تعالى (فقولا له قولا ليناً) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد (الجواب) لوجهين (الأول) أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين (الثانى) أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم فى الوعظ أن يزدادوا عتواً وتكبراً ، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف كان ذلك الكلام اللين (الجواب) ذكروا فيه وجوها (أحدها) ما حكى الله تعالى بعضه فقال (هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى) وذكر أيضاً فى هذه السورة بعض ذلك فقال (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) إلى قوله (والسلام على من اتبع الهدى) . (وثانيها) أن تعداه شباباً لايهرم بعده وملكا لاينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته(وثالثها)كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغنى أن فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام إن أطعتنى عمرت مثل ماعمرت فإذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة (أما الأول) فقيل لو حصلت له هذه الأمور الثلاثة فى هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالإلجاء إلى معرفة الله تعالى وذلك لايصح مع التكليف (وأما الثانى) فلأن خطابه بالكنية أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله (فقولا له قولا ليناً)

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد (وأما الثالث) فالاعتراض عليه كما فى الأول أما قوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) فاعلم أنه ليس المراد أنه تعالى كان شاكا فى ذلك لأن ذلك محال عليه تعالى وإنما المراد : فقولا له قولا ليناً ، على أن تكونا راجيين لأن يتذكر هو أو يخشى . واعلم أن أحوال القلب ثلاثة (أحدها) الإصرار على الحق (وثانيها) الإصرار على الباطل (وثالثها) التوقف فى الأمرين ، وأن فرعون كان مصراً على الباطل وهذا القسم أردأ الأقسام فقال تعالى (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) فيرجع من إنكاره إلى الإقرار بالحق وإن لم ينتقل من الإنكار إلى الإقرار لكنه يحصل فى قلبه الخوف فيترك الإنكار وإن كان لا ينتقل إلى الإقرار فان هذا خير من الإصرار على الإنكار واعلم أن هذا التكليف لا يعلم سره إلا الله تعالى لأنه تعالى لما علم أنه لا يؤمن قط كان إيمانه ضداً لذلك العلم الذى يمتنع زواله فيكون سبحانه عالماً بامتناع ذلك الإيمان وإذا كان عالماً بذلك فكيف أمر موسى عليه السلام بذلك الرفق وكيف بالغ فى ذلك الأمر بتلطيف دعوته إلى الله تعالى مع علمه استحالة حصول ذلك منه ؟ ثم هب أن المعتزلة ينازعون فى هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة فى هذا السؤال ولكنهم سلموا أنه كان عالماً بأنه لا يحصل ذلك الإيمان وسلموا أن فرعون لا يستفيد ببعثة موسى عليه السلام إلا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به أن يدفع سكيناً إلى من علم قطعاً أنه يمزق بها بطن نفسه ثم يقول إنى ما أردت بدفع السكين إليه إلا الإحسان إليه ؟ يا أخى العقول قاصرة عن معرفة هذه الأسرار ولا سبيل فيها إلا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان ، ويروى عن كعب أنه قال والذى يحلف به كعب إنه لمكتوب فى التوراة : فقولا له قولا ليناً وسأقسى قلبه فلا يؤمن .

قوله تعالى ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾

إعلم أن قوله (قالا ربنا إننا نخاف) فيه أسئلة :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿السؤال الأول﴾ قوله (قالا ربنا) يدل على أن المتكلم بذلك موسى وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضراً هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن موسى عليه السلام قال (رب اشرح لى صدرى) فأجابه الله تعالى بقوله (قد أوتيت سؤلك يا موسى) وهذا يدل على أنه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال بعده (إننا نخاف)فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (والجواب) أن شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الأوامر والنواهى وحفظ تلك الشرائع على وجه لايتطرق إليه السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير زوال الخوف .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أما علم موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة أنه تعالى يؤمنهما من القتل الذى هو مقطعة عن الأداء (الجواب) قد أمنا ذلك وإن جوزا أن ينالهما السوء من قبل تمام الأداء أو بعده وأيضاً فانهما استظهرا بأن سألا ربهما مايزيد فى ثبات قلبهما على دعائه وذلك بأن ينضاف الدليل النقلى إلى العقلى زيادة فى الطمأنينة كما قال (ولكن ليطمئن قلبى) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لما تكرر الأمر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على المعصية (الجواب) لو اقتضى الأمر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية لاسيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وإزالة الغم ولكن ليس الأمر على الفور فزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل على أن الأمر لايقتضى الفور إذا ضممت إليه مايدل على أن المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى (أن يفرط علينا أو أن يطغى) فاعلم أن فى (أن يفرط) وجوهاً (أحدها) فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذى يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة (وثانيها) أنه مأخوذ من أفرط غيره إذا حمله على العجلة فكان موسى وهرون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو إما الشيطان أو إدعاؤه للربوبية أو حبه للرياسة أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم (قال الملأ من قومه) (وثالثها) يفرط من الإفراط فى الأذية أما قوله (أو أن يطغى) فالمعنى يطغى بالتخطى إلى أن يقول فيك مالا ينبغى لجراءته عليك واعلم أن من أمر بشيء فحاول دفعه بأعذار يذكرها فلا بد وأن يختم كلامه بما هو الأقوى وهذا كما أن الهدهد ختم عذره بقوله (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله)فكذا ههنا بدأ موسى بقوله (أن يفرط علينا) وختم بقوله(أو أن يطغى)لما أن طغيانه فى حق الله تعالى أعظم من إفراطه فى حق موسى وهرون عليهما السلام أما قوله(قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى)فالمراد لاتخافا مما عرض فى قلبكما من الإفراط والطغيان لأن ذلك هو المفهوم من الكلام يبين ذلك أنه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله(إننى معكما) فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله(أسمع وأرى) فان من يكون مع الغير وناصراً له وحافظاً

www.besturdubooks.wordpress.com

يجوز أن لا يعلم كل ما يناله وإنما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى أنه معهما بالحفظ والعلم في جميع ما ينالهما وذلك هو النهاية في إزالة الخوف قال القفال قوله (أسمع وأرى) يحتمل أن يكون مقابلا لقوله (أن يفرط علينا أو أن يطغى) والمعنى (يفرط علينا) بأن لا يسمع منا (أو أن يطغى) بأن يقتلنا فقال الله تعالى (إنني معكما) أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ، واعلم أن هذه الآية تدل على أن كونه تعالى سميعاً وبصيراً صفتان زائدتان على العلم لأن قوله (إنني معكما) دل على العلم فقوله (أسمع وأرى) لو دل على العلم لكان ذلك تكريراً وهو خلاف الأصل ثم إنه سبحانه أعاد ذلك التكليف فقال (فأتياه) لأنه سبحانه وتعالى قال في المرة الأولى (لنريك من آياتنا الكبرى إذهب إلى فرعون) وفي الثانية (إذهب أنت وأخوك) وفي الثالثة (قال إذهبا إلى فرعون) وفي الرابعة قال ههنا فأتياه فان قيل إنه تعالى أمرهما في المرة الثانية بأن يقولا له (قولا ليناً) وفي هذه المرة الرابعة أمرهما (أن يقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل) وفيه تغليظ من وجوه : (أحدها) أن قوله (إنا رسولا ربك) فيه إبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ انقياده اليهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع .

﴿ البحث الثاني ﴾ قوله (فأرسل معنا بني اسرائيل) فيه إدخال النقص على ملكه لأنه كان محتاجاً اليهم فيما يريده من الأعمال من بناء أو غيره .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (ولا تعذبهم) .

﴿ البحث الرابع ﴾ قوله (قد جئناك بآية من ربك) فما الفائدة في التليين أولا والتغليظ ثانياً ؟ قلنا لأن الإنسان إذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ فان قيل أليس كان من الواجب أن يقولا إنا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم ، لأن ذكر المعجز مقروناً بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه ؟ قلنا بل هذا أولى من تأخيره عنه لأنهم ذكروا مجموع الدعاوى ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة ، أما قوله (قد جئناك بآية من ربك) ففيه سؤال وهو أنه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال (إذهب أنت وأخوك بآياتي) وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا (جئناك بآية) وهذا يدل على أنها كانت واحدة فكيف الجمع ؟ أجاب القفال بأن معنى الآية الإشارة إلى جنس الآيات كأنه قال (قد جئناك ببيان من عند الله) ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججاً كثيرة ، وأما قوله (والسلام على من اتبع الهدى) فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال : فقولا إنا رسولا ربك ، وقولا له : والسلام على من اتبع الهدى ، وقال آخرون بل كلام الله تعالى قد تم عند قوله (قد جئناك بآية من ربك) فقوله بعد ذلك (والسلام على من اتبع الهدى) وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة ، والسلام بمعنى السلامة كما يقال رضاع ورضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾
قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى
﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا
نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾

(لهم اللعنة ولهم سوء الدار) على معنى عليهم وقال تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) وفي موضع آخر (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) ، أما قوله (إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) فاعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن عقاب المؤمن لا يدوم وذلك لأن الألف واللام في قوله (العذاب) تفيد الاستغراق أو تفيد الماهية وعلى التقديرين يقتضي انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى فوجب في غير المكذب المتولي أن لا يحصل هذا الجنس أصلا ، وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأنه لا يعاقب أحداً من المؤمنين بترك العمل به في بعض الأوقات فوجب أن يبقى على أصله في نفي الدوام لأن العقاب المتناهي إذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال إنه لا عقاب ، وأيضا فقوله (والسلام على من اتبع الهدى) ، وقد فسرنا السلام بالسلامة فظاهره يقتضي حصول السلامة لكل من اتبع الهدى ، والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة .

قوله تعالى : ﴿ قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

إعلم أنهما عليهما السلام لما قالا : إنا رسولا ربك قال لهما : فمن ربكما ياموسى ، فيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ أن فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم إن موسى عليه

www.besturdubooks.wordpress.com

السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والايذاء بل خرج معه فى المناظرة لما أنه لو شرع أولا فى الإيذاء لنسب إلى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع أولا فى المناظرة وذلك يدل على أن السفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعى الاسلام والعلم ثم إن فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل باقامة الدلالة على وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الإله من قول الرسول لأن موسى عليه السلام اعترف ههنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تدل الآية على أنه يجوز حكاية كلام المبطل لأنه تعالى حكى كلام فرعون فى إنكاره الإله وحكى شبهات منكرى النبوة وشبهات منكرى الحشر ، إلا أنه يجب أنك متى أوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى فى هذه المواضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير إيذاء ولا إيحاش كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما أمر الله تعالى رسوله فى قوله (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف الناس فى أن فرعون هل كان عارفا بالله تعالى فقيل إنه كان عارفاً إلا أنه كان يظهر الإنكار تكبراً وتجبراً وزوراً وبهتاناً ، واحتجوا عليه بستة أوجه (أحدها) قوله (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض) فتى نصبت التاء فى علمت كان ذلك خطاباً من موسى عليه السلام مع فرعون فدل ذلك على أن فرعون كان عالماً بذلك وكذا قوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) (وثانيها) أنه كان عاقلا وإلا لم يجز تكليفه وكل من كان عاقلا قد علم بالضرورة أنه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر إلى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر (وثالثها) قول موسى عليه السلام ههنا (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وكلمة الذى تقتضى وصف المعرفة بجملة معلومة فلابد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له (ورابعها) قوله فى سورة القصص فى صفة فرعون وقومه وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بالمبدأ إلا أنهم كانوا منكرين للمعاد (وخامسها) أن ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام إلى مدين قال له شعيب (لاتخف نجوت من القوم الظالمين) فمع هذا كيف يعتقد أنه إله العالم ؟ (وسادسها) أنه لما قال (ومارب العالمين) قال موسى عليه السلام (رب السموات والأرض ومابينهما) قال (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) يعنى أنا أطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف

www.besturdubooks.wordpress.com

فهو لم ينازع موسى فى الوجود بل طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه بأصل الوجود ، ومن الناس من قال إنه كان جاهلا بربه واتفقوا على أن العاقل لايجوز أن يعتقد فى نفسه أنه خالق هذه السموات والأرضين والشمس والقمر وأنه خالق نفسه لأنه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة أنها كانت موجودة قبله فيحصل العلم الضرورى بأنه ليس موجداً لها ولا خالقاً لها ، واختلفوا فى كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل أنه كان دهرياً نافياً للمؤثر أصلا ، ويحتمل أنه كان فلسفياً قائلا بالعلة الموجبة ، ويحتمل أنه كان من عبدة الكواكب ، ويحتمل أنه كان من الحلولية المجسمة . وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنه يجب عليهم طاعته والإنقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره .

﴿ **المسألة الخامسة** ﴾ أنه سبحانه حكى عنه فى هذه السورة أنه قال (فمن ربكما يا موسى) وقال فى سورة الشعراء (وما رب العالمين) فالسؤال ههنا بمن وهو عن الكيفية وفى سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والأقرب أن يقال سؤال من كان مقدماً على سؤال ما لأنه كان يقول إنى أنا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لايمكنه أن يقاومه فى هذا المقام لظهوره وجلائه عدل إلى المقام الثانى وهو طلب الماهية وهذا أيضاً مما ينبه على أنه كان عالماً بالله لأنه ترك المنازعة فى هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع فى المقام الصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر .

﴿ **المسألة السادسة** ﴾ إنما قال (فمن ربكما) ولم يقل فمن إلهكما لأنه أثبت نفسه رباً فى قوله (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين) فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال له أنا ربك فلم تدعى رباً آخر وهذا الكلام شبيه بكلام نمروذ لأن إبراهيم عليه السلام لما قال (ربى الذى يحيي ويميت) قال نمروذ له (أنا أحيي وأميت) ولم يكن الإحياء والإماته التى ذكرهما إبراهيم عليه السلام هما الذى عارضه بهما نمروذ إلا فى اللفظ فكذا ههنا لما أدعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده أنى أنا الرب لأنى ربيتك ومعلوم أن الربوبية التى ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية فى المعنى وأنه لا مشاركة بينهما إلا فى اللفظ .

﴿ **المسألة السابعة** ﴾ اعلم أن موسى عليه السلام استدل على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله (ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وهذه الدلالة هى التى ذكرها الله تعالى لمحمد ﷺ فى قوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) وقال إبراهيم عليه السلام (فانهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين) وإن موسى عليه السلام فى أكثر الأمور يعول على دلائل إبراهيم عليه السلام وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الشعراء إن شاء الله تعالى واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان والهداية عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة فى تلك الأجسام وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدماً على الهداية ولذلك قال (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) فالتسوية راجعة إلى القالب ونفخ الروح إشارة

www.besturdubooks.wordpress.com

إلى إبداع القوى وقال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى أن قال (ثم أنشأناه خلقاً آخر) فظهر أن الخلق مقدم على الهداية ، والشروع فى بيان عجائب حكمة الله تعالى فى الخلق والهداية شروع فى بحر لا ساحل له . ولنذكر منه أمثلة قريبة إلى الأفهام (أحدها) أن الطبيعى يقول الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الأشياء ثقلا الأرض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والأرض أسفلها ، ثم إنه سبحانه قلب هذا الترتيب فى خلقة الإنسان فجعل أعلى الأشياء منه العظم والشعر وهما أيبس مافى البدن وهما بمنزلة الأرض ثم جعل تحته الدماغ الذى هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذى هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التى فى القلب التى هى بمنزلة النار فجعل مكان الأرض من البدن الأعلى وجعل مكان النار من البدن الأسفل ليعرف أن ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) انك إذا نظرت إلى عجائب النحل فى تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال البق والبعوض فى اهتدائها إلى مصالح أنفسها لعرفت أن ذلك لايمكن إلا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) أنه تعالى هو الذى أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح ثم هداهم إلى كيفية الانتفاع بهاويستخرجون الحديد من الجبال واللآلىء من البحار ويركبون الأدوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الأشياء المختلفة فيستخرجون لذات الأطعمة فثبت أنه سبحانه هو الذى خلق كل الأشياء ثم أعطاهم العقول التى بها يتوصلون إلى كيفية الانتفاع بها ، وهذا غير مختص بالإنسان بل عام فى جميع الحيوانات فأعطى الإنسان إنسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدى الأولاد لثدى الأمهات ، بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل فى أعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الأخذ وخلق الرجل على تركيب خاص وأودع فيها قوة المشى وكذا العين والأذن ، وجميع الأعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد ، وهو الإنسان . وإنما دلت هذه الأشياء على وجود الصانع سبحانه لأن اتصاف كل جسم من هذه الأجسام بتلك الصفة أعنى التركيب والقوة والهداية ، إما أن يكون واجباً أو جائزاً والأول باطل لأنانشاهد تلك الأجسام بعد الموت منفكةعن تلك التراكيب والقوى فدل على أن ذلك جائز ، والجائز لابد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الإنسان ولا أبواه لأن فعل ذلك يستدعى قدرة عليه وعلماً بما فيه من المصالح والمفاسد ،والأمران نائيان عن الإنسان لأنه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة ، وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لايعرف من منافع الأعضاء ومصالحها إلا القدر القليل فلا بد أن يكون المتولى لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسما لأن الأجسام متساوية فى الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لابد وأن يكون جائزاً وإن كان جائزاً افتقر إلى سبب آخر والدور والتسلسل محالان .فلا بد من الانتهاء فى سلسلة الحاجة

www.besturdubooks.wordpress.com

إلى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسمانى ، ثم تأثير ذلك المؤثر إما أن يكون بالذات أو بالاختيار ، والأول محال لأن الموجب لا يميز مثلا عن مثل وهذه الأجسام متساوية فى الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية ؟ فثبت أن المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الأفعال العجيبة إلا إذا كان عالما ، ثم إن هذا المدبر الذى ليس بجسم ولا جسمانى لابد وأن يكون واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته وإلا لافتقر إلى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال ، وإذا كان واجب الوجود فى قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب [أن] يكون عالما بكل ماصح أن يكون معلوما وقادراً على كل ماصح أن يكون مقدوراً فظهر بهذه الدلالة التى تمسك بها موسى عليه السلام ونبه على تقريرها استناد العالم إلى مدبر ليس بجسم ولا جسمانى وهو واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ أن فرعون خاطب الاثنين بقوله (فمن ربكما) ثم وجه النداء إلى أحدهما وهو موسى عليه السلام لأنه الأصل فى النبوة وهرون وزيره وتابعه ، وإما لأن فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التى فى لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التى فى لسان موسى عليه السلام ويدل عليه قوله (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ فى قوله (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وجهان (أحدهما) التقديم والتأخير أى أعطى خلقه كل شىء يحتاجون اليه ويرتفقون به (وثانيهما) أن يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال أعطى كل شىء الشكل الذى يطابق منفعته ومصلحته ، وقرىء خلقه صفة للمضاف أو المضاف اليه ، والمعنى أن كل شىء خلقه الله لم يخله من إعطائه وإنعامه ، وأما قوله تعالى (قال فما بال القرون الأولى) فاعلم أن فى ارتباط هذا الكلام بما قبله وجوها (أحدها) أن موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدأ والمعاد قال فرعون إن كان إثبات المبدأ فى هذا الحد من الظهور (فما بال القرون الأولى) ماأثبتوه وتركوه ؟ فكان موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على إثبات الصانع قدح فرعون فى تلك الدلالة بقوله إن كان الأمر فى قوة هذه الدلالة على ماذكرت وجب على أهل القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد (وثانيها) أن موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولا فى قوله (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) فقال فرعون (فما بال القرون الأولى) فانها كذبت ثم إنهم ماعذبوا ؟ (وثالثها) وهو الأظهر أن فرعون لما قال (فمن ربكما ياموسى) فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهراً وبرهاناً باهراً على هذا المطلوب

www.besturdubooks.wordpress.com

فقال (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) فخاف فرعون أن يزيد فى تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال (فما بال القرون الأولى) فلم يلتفت موسى عليه‌السلام إلى ذلك الحديث بل قال (علمها عند ربى فى كتاب) ولا يتعلق غرضى بأحوالهم فلا أشتغل بها ، ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول وإيراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال (الذى خلق لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا) وهذا الوجه هو المعتمد فى صحة هذا النظم ، ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى قوله (علمها عند ربى فى كتاب) فان العلم الذى يكون عند الرب كيف يكون فى الكتاب ؟ وتحقيقه هو أن علم الله تعالى صفته وصفة الشىء قائمة به ، فأما أن تكون صفة الشىء حاصلة فى كتاب فذاك غير معقول فذكروا فيه وجهين (الأول) معناه أنه سبحانه أثبت تلك الأحكام فى كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم فى الاستدلال على أنه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة ، ولقائل أن يقول قوله (فى كتاب) يوهم احتياجه سبحانه وتعالى فى ذلك العلم إلى ذلك الكتاب وهذا وإن كان غير واجب لامحالة ولكنه لاأقل من أنه يوهمه فى أول الأمر لاسيما للكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون فى وقت الدعوة ؟(الوجه الثانى) أن تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات فى علمه سبحانه كبقاء المكتوب فى الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لايزول شىء منها عن علمه ، وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك (لا يضل ربى ولا ينسى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾اختلفوا فى قوله (لا يضل ربى ولا ينسى) فقال بعضهم معنى اللفظين واحد أى لايذهب عليه شىء ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والأكثرون على الفرق بينهما ، ثم ذكروا وجوها (أحدها) وهو الأحسن ما قاله القفال لايضل عن الأشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه فاللفظ الأول إشارة الى كونه عالماً بكل المعلومات واللفظ الثانى وهو قوله ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو إشارة إلى نفى التغير (وثانيها) قال مقاتل لايخطىء ذلك الكتاب ربى ولا ينسى ما فيه (وثالثها) قال الحسن لا يخطىء وقت البعث ولا ينساه (ورابعها) قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لايغيب عن شىء ولا يغيب عنه شىء (وخامسها) قال ابن جرير لايخطىء فى التدبير فيعتقد فى غير الصواب كونه صواباً وإذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الأول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه لما سأله عن الإله وقال (فمن ربكما ياموسى) وكان ذلك مما سبيله الإستدلال أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى ، ولما سأله عن شأن القرون الأولى وكان ذلك مما سبيله الإخبار ولم يأته فى ذلك خبر وكله إلى عالم الغيوب ، واعلم أن موسى عليه السلام

www.besturdubooks.wordpress.com

لما ذكر الدلالة الأولى وهى دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الإنسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهى ثلاثة (أولها) قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض مهداً) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ أهل الكوفة ههنا وفى الزخرف (مهداً) والباقون قرؤا مهاداً فيهما قال أبو عبيدة الذى أختاره مهاداً وهو إسم والمهد إسم الفعل ، وقال غيره المهد الإسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش أجاب ، أبو عبيدة بأن الفراش إسم والفرش فعل ، وقال المفضل هما مصدران لمهد إذا وطأ له فراشاً يقال مهد مهداً ومهاداً وفرش فرشاً وفراشاً .

﴿البحث الثانى﴾ قال صاحب الكشاف (الذى جعل) مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو لأنه صفة لربى أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه ، واعلم أنه يجب الجزم بكونه خبراً لمبتدأ محذوف إذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) على ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

﴿البحث الثالث﴾ المراد من كون الأرض مهداً أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرناه مستقصى فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء) (وثانيها) قوله تعالى (وسلك لكم فيها سبلا) قال صاحب الكشاف سلك من قوله (ماسلككم فى سقر كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين) أى جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والأودية والبرارى (وثالثها) قوله (وأنزل من السماء ماء) والكلام فيه قد مر فى سورة البقرة أما قوله (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (فأخرجنا) فيه وجوه (أحدها) أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربى الذى جعل لكم كذا وكذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى (وثانيها) أن عند قوله (وأنزل من السماء ماء) تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلا بالكلام الأول بقوله (فأخرجنا به) ثم يدل على هذا الاحتمال قوله (كلوا وارعوا أنعامكم) . (وثالثها) قال صاحب الكشاف انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للايذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ومثله قوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة) واعلم أن قوله (فأخرجنا) إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى والأول باطل لأن قوله بعد ذلك (كلوا وارعوا أنعامكم إن فى

www.besturdubooks.wordpress.com

ذلك لآيات لأولى النهى منهـا خلقناكم وفيها نعيدكم) لا يليق بموسى عليه السلام وأيضاً فقوله (فأخرجنا به أزواجاً من نبـات شتى) لا يليق بموسى لأن أكثر مافى قدرة موسى عليه السلام صرف المياه إلى سقى الأراضى وأما إخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت أن هذا كلام الله تعالى ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) لأن الفاء يتعلق بمـا قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعـالى وجعل ماقبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال إن كلام موسى عليه السلام تم عند قوله (لايضل ربى ولا ينسى) ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله (الذى جعل لكم الأرض مهداً) ويكون التقدير هو الذى (جعل لكم الأرض مهداً) فيكون الذى خبر مبتدأ محذوف ويكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب إلتفاتاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه إنما يخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء فيكون الماء فيه أثر وهذا بتقدير ثبوته لايقدح فى شىء من أصول الإسلام لأنه سبحانه وتعالى هو الذى أعطاها هذه الخواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لاتأثير له فيه البتة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (أزواجاً) أى أصنافاً سميت بذلك لأنها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض (شتى) صفة للأزواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمى به النابت كما يسمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعنى أنهـا شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله (كلوا وارعوا أنعامكم) فهو حال من الضمير فى أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين فى الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها . وقد تضمن قوله كلوا سائر وجوه المنافع فهو كقوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) وقوله (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً) وقوله (كلوا) أمر إباحة (إن فى ذلك) أى فيما ذكرت من هذه النعم (لآيات) أى لدلالات لذوى النهى أى العقول والنهية العقل قال أبو على الفارسى النهى يجوز أن يكون مصدراً كالهدى ويجوز أن يكون جمعاً أما قوله (منها خلقناكم) فاعلم أنه سبحانه لما ذكر منافع الأرض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل إلى منافع الآخرة فقال (منها خلقناكم) وفيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ مامعنى قوله (منها خلقناكم) مع أنه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على مابين ذلك فى سائر الآيات (والجواب) من وجهين (الأول) أنه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ماقال(كمثل آدم خلقه من تراب) لاجرم أطلق ذلك علينا (الثانى) أن تولد الانسان إنما هو من النطفة ودم الطمث وهما يتولدان من الأغذية ، والغذاء إما حيوانى أو نباتى والحيوانى ينتهى إلى النبات والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح أنه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافى كوننا مخلوقين

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾

من النطفة (والثالث) ذكرنا فى قوله تعالى (هو الذى يصوركم فى الأرحام) خبر ابن مسعود أن الله يأمر ملك الأرحام أن يكتب الأجل والرزق والأرض التى يدفن فيها وأنه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها فى الرحم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ظاهر الآية يدل على أن الشىء قد يكون مخلوقاً من الشىء وظاهر قول المتكلمين يأباه (والجواب) إن كان المراد من خلق الشىء من الشىء إزالة صفة الشىء الأول عن الذات واحداث صفة الشىء الثانى فيه فذلك جائز لأنه لا منافاة فيه ، أما قوله تعالى (وفيها نعيدكم) فلا شبهة فى أن المراد الاعادة إلى القبور حتى تكون الأرض مكاناً وظرفاً لكل من مات إلا من رفعه الله إلى السماء ، ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد اليها أيضاً بعد ذلك ، أما قوله تعالى (ومنها نخرجكم تارة أخرى) ففيه وجوه : (أحدها) وهو الأقرب (ومنها نخرجكم) يوم الحشر والبعث (وثانيها) ومنها نخرجكم تراباً وطيناً ثم نحييكم بعد الاخراج وهذا مذكور فى بعض الأخبار (وثالثها) المراد عذاب القبر عن البراء قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فذكر عذاب القبر وما يخاطب به المؤمن والكافر وأنه ترد روحه فى جسده ويرد إلى الأرض وأنه تعالى يقول عند إعادتهم إلى الأرض إنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى » واعلم أن الله تعالى عدد فى هذه الآيات منافع الأرض وهى أنه تعالى جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التى منها أقواتهم وعلف دوابهم وهى أصلهم الذى منه يتفرعون ثم هى كفاتهم إذا ماتوا ، ومن ثم قال عليه السلام « بروا بالأرض فانها بكم برة » .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ، فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ﴾ .

اعلم أنه تعالى بين أنه أرى فرعون الآيات كلها ثم إنه لم يقبلها واختلفوا فى المراد بالآيات ، فقال بعضهم أراد كل الأدلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة ، أما التوحيد فما ذكر فى هذه السورة من قوله (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وقوله (الذى جعل لكم الأرض مهداً)

www.besturdubooks.wordpress.com

الآية ، وما ذكر فى سورة الشعراء (قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض) الآيات ، وأما النبوة فهى الآيات التسع التى خص الله بها موسى عليه السلام وهى العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل وعلى هذا التقرير معنى أريناه عرفناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها ، ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهى هذه المعجزات ، وإنما أضاف الآيات إلى نفسه سبحانه وتعالى مع أن المظهر لها موسى عليه السلام لأنه أجراها على يديه كما أضاف نفخ الروح إلى نفسه فقال (فنفخنا فيها من روحنا) مع أن النفخ كان من جبريل عليه السلام ، فان قيل قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لأن من جملة الآيات ما أظهرها على الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا لفظ الكل وإن كان للعموم لكن قد يستعمل فى الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شىء أو يقال إن موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الأنبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذى يلزم ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه أنه كذب وأبى قال القاضى الإباء الامتناع وإنه لا يوصف به إلا من يتمكن من الفعل والترك ولأن الله تعالى ذمه بأنه كذب وبأنه أبى ولو لم يقدر على ماهو فيه لم يصح ، واعلم أن هذا السؤال مر فى سورة البقرة فى قوله (إلا إبليس أبى واستكبر) والجواب مذكور هناك ، ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهى قوله (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى) وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لأنه ألقى فى مسامعهم مايصيرون به مبغضين له جداً وهو قوله (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان فى النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساوياً للقتل فى قوله (أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم) ثم لما صاروا فى نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة فى نبوته عليه السلام وهى أن ما جئتنا به سحر لامعجز ، ولما علم أن المعجز إنما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال (فلنأتينك بسحر مثله) أما قوله تعالى (فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت) فاعلم أن الموعد يجوز أن يكون مصدراً ويجوز أن يكون اسما لمكان الوعد كقوله (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) وأن يكون اسما لزمان الوعد كقوله (إن موعدهم الصبح) والذى فى هذه الآية بمعنى المصدر أى اجعل بيننا وبينك وعداً لانخلفه لأن الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف ، أما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك ، ومما يؤكد ذلك أن الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يطابق المكان والزمان ، وإنما نصب مكانا لأنه هو المفعول الثانى للجعل والتقدير أجعل مكان موعد لانخلفه مكاناً سوى أما قوله (سوى) فاعلم أنه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر (سوى) بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى ، وقرىء أيضاً منونا وغير منون ، وذكروا فى معناه وجوها :

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾

(أحدها) قال أبو علي مكانا تستوى مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفاً بيننا (وثانيها) قال ابن زيد (سوى) أى مستوياً لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الأول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود أنهم طلبوا موضعاً مستوياً لا يكون فيه ارتفاع ولا إنخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجرى (وثالثها) مكانا يستوى حالنا فى الرضاء به (ورابعها) قال الكلبي مكاناً سوى هذا المكان الذى نحن فيه الآن .

قوله تعالى : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴾ إعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يحتمل أن قوله تعالى (قال موعدكم) أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام ، قال القاضى والأول أظهر لأنه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام ، وعندى الأظهر أنه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (أحدها) أنه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعداً (وثانيها) وهو أن تعيين يوم الزينة يقتضى إطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه إنما يليق بالمحق الذى يعرف أن اليد له لا المبطل الذى يعرف أنه ليس معه إلا التلبيس (وثالثها) أن قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون إلى موسى وهرون لزم إما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على أن أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أما لو جعلناه من موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه استقام الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج إذا رفع فعلى خبر المبتدأ والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله (وأن يحشر الناس ضحى) معناه موعدكم حشر الناس ضحى فموضع أن يكون رفعاً ويجوز فيه الخفض عطفاً على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل ألستم قلتم فى تفسير قوله (اجعل بيننا وبينك موعداً) أن التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكاناً سوى فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان ؟ قلنا هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً

www.besturdubooks.wordpress.com

لأنهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة فى مكان معين مشهود باجتماع الناس فى ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر المفسرون فى يوم الزينة وجوهاً (أحدها) أنه يوم عيد لهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء ، وإنما قال يحشر فانهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم ، وقرىء وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يافرعون وأن يحشر اليوم ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة ، إما على العادة التى تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله (موعدكم) وجعل ضمير يحشر لفرعون وإنما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد فى المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الأمر العجيب فى كل بدو وحضر ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر ، قال القاضى إنه عين اليوم بقوله (يوم الزينة) ثم عين من اليوم وقتاً معيناً بقوله (وأن يحشر الناس ضحى) أما قوله (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) فاعلم أن التولى قد يكون إعراضاً وقد يكون إنصرافاً والظاهر ههنا أنه بمعنى الإنصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذى تواعدوا للاجتماع [فيه] ، قال مقاتل فتولى أى أعرض وثبت على إعراضه عن الحق ودخل تحت قوله (فجمع كيده) السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة (ثم أتى) دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر إليهم وكان طول القبة سبعين ذراعاً ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شىء الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال (ويلكم لا تفتروا على الله كذباً) بأن تزعموا بأن الذى جئت به ليس بحق وأنه سحر فيمكنكم معارضتى ، قال الزجاج يجوز فى انتصاب ويلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله ويلا إن افتروا على الله كذباً ويجوز على النداء كقوله (يا ويلتا أألد وأنا عجوز) ، (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) وقوله (فيسحتكم بعذاب) أى يعذبكم عذاباً مهلكا مستأصلا وقرأ حمزة وعاصم والكسائى برفع الياء من الاسحات والباقون بفتحها من السحت والاسحات لغة أهل نجد وبنى تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكأنه تعالى قال (من افترى على الله كذباً) حصل له أمران (أحدهما) عذاب الاستئصال فى الدنيا أو العذاب الشديد فى الآخرة وهو المراد من قوله (فيسحتكم بعذاب) (والثانى) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله (وقد خاب من افترى) ثم بين سبحانه وتعالى أنه لما قال موسى عليه السلام ذلك أعرضوا عن قوله (وتنازعوا أمرهم بينهم) وفى تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا ليستقروا على شىء واحد (والثانى) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل فى التنازع فرعون

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾

وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس فى الظاهر ما يدل على الترجيح وذكروا فى قوله (وأسروا النجوى) وجوهاً (أحدها) أنهم أسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما إن نجواهم قالوا إن غلبنا موسى اتبعناه (والثانى) قال قتادة إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر (الثالث) قال وهب لما قال (ويلكم) الآية قالوا ماهذا بقول ساحر (القول الثانى) أنهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجا كم من أرضكم) وهو قول السدى (الوجه الثالث) أنهم أسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضاً وكان نجواهم أنهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصى وعلى أى وجه يجب إظهارها فيكون أوقع فى فى القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الضحاك .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجا كم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القراءة المشهورة (إن هذان لساحران) ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا وجوهاً أخر (أحدها) قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر (إن هذين لساحران) قالوا هى قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضى الله تعالى عنه واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها سئلت عن قوله (إن هذان لساحران) وعن قوله (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) فى المائدة ، وعن قوله (لكن الراسخون فى العلم منهم - إلى قوله - والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) فقالت ياابن أخى هذا خطأ من الكاتب ، وروى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها ، وعن أبى عمرو أنه قال إنى لأستحى أن أقرأ (إن هذان لساحران) ، (وثانيها) قرأ ابن كثير (إن هذان) بتخفيف إن وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص عن عاصم إن هذان بتخفيف النونين (ورابعها) قرأ عبد الله بن مسعود (وأسروا النجوى ، أن هذان ساحران) بفتح الألف وجزم نونه [و] ساحران بغير لام (وخامسها) عن الأخفش (إن هذان لساحران) خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها

www.besturdubooks.wordpress.com

ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى ما (وسادسها) روى عن أبي بن كعب (ما هذان إلا ساحران) وروى عنه أيضاً (إن هذان لساحران) وعن الخليل مثل ذلك ، وعن أبي أيضاً (إن ذان لساحران) فهذه هي القراءات الشاذة المذكورة في هذه الآية ، واعلم أن المحققين قالوا هذه القراءات لايجوز تصحيحها لأنها منقولة بطريق الآحاد ، والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر إذ لو جوزنا إثبات زيادة في القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذي هو عندنا كل القرآن لأنه لما جاز في هذه القراءآت أنها مع كونها من القرآن مانقلت بالتواتر جاز في غيرها ذلك ،فثبت أن تجويز كون هذه القراءآت من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير إلى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه ، وأما الطعن في القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه : (أحدها) أنه لما كان نقل هذه القراءة في الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله في جميع القرآن وذلك يفضي إلى القدح في التواتر وإلى القدح في كل القرآن وأنه باطل ، وإذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضاً بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لايجوز أن يكون لحناً وغلطاً فثبت فساد مانقل عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما أن فيه لحناً وغلطاً (وثالثها) قال ابن الأنباري إن الصحابة هم الأئمة والقدوة فلو وجدوا في المصحف لحناً لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الإبتداع وترغيبهم في الاتباع ، حتى قال بعضهم : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم . فثبت أنه لابد من تصحيح القراءة المشهورة ، واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها : (الوجه الأول) وهو الأقوى أن هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هي لغة بلحارث بن كعب ، والزجاج نسبها إلى كنانة وقطرب نسبها إلى بلحارث بن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ، ونسبها ابن جنى إلى بعض بنى ربيعة أيضاً وأنشد الفراء على هذه اللغة :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى   مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وأنشد غيره :

تزود منا بين أذناه ضربة   دعته إلى هابى التراب عقيم

قال الفراء وحكى بعض بنى أسد أنه قال هذا خط يدا أخي أعرفه ، وقال قطرب هؤلاء يقولون رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بنى ضبة جاهلي :

أعرف منها الجيد والعينانا   ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء .

وقال آخر :

طاروا علاهن فطر علاها   واشدد بمثني حقب حقواها

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال آخر :

كأن صريف ناباه إذا ما أمرهما صرير الأخطبان

قال بعضهم : الأخطبان ذكر الصردان ، فصيرهما واحداً فبقى الاستدلال بقوله صريف ناباه ، قال وأنشدنى يونس لبعض بنى الحرث :

كأن يمينا سحبل ومصيفه مراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا أيضاً :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال ابن جنى روينا عن قطرب :

هناك أن تبكى بشعشعان رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء وذلك وإن كان قليلا أقيس لأن ما قبل حرف التثنية مفتوح ، فينبغى أن يكون ما بعده ألفاً ولو كان ما بعده ياء ينبغى أن تنقلب ألفاً لانفتاح ما قبلها وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فراراً إلى الألف التى هى أخف حروف المد هذا أقوى الوجوه فى هذه الآية ويمكن أن يقال أيضاً الألف فى هذا من جوهر الكلمة والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لا يجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لأن ما بالذات لا يزول بالعرض فهذا الدليل يقتضى أن . يجوز أن يقال (إن هذين) فلما جوزناه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال إن هذان (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال إن ههنا بمعنى نعم قال الشاعر :

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

أى فقلت نعم فالهاء فى إنه هاء السكت كما فى قوله تعالى (هلك عنى سلطانيه) وقال أبو ذؤيب :

شاب المفارق إن إن من البلى شيب القذال مع العذار الواصل

أى نعم إن من البلى فصار إن كأنه قال نعم هذان لساحران ، واعترضوا عليه فقالوا اللام لا تدخل فى الخبر على الاستحسان إلا إذا كانت إن داخلة فى المبتدأ ، فأما إذا لم تدخل أن على المبتدأ فحل اللام المبتدأ إذ يقال لزيد أعلم من عمرو ولا يقال زيد لأعلم من عمرو ، وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين (الأول) لانسلم أن اللام لا يحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله :

أم الحليس لعجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرقبه

وقال آخر :

خالى لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا

وأنشد قطرب :

ألم تكن حلفت بالله العلى أن مطاياك لمن خير المطى

وإن رويت إن بالكسر لم يبق الاستدلال إلا أن قطرباً قال سمعناه مفتوح الهمزة وأيضاً فقد

www.besturdubooks.wordpress.com

أدخلت اللام فى خبر أمسى ، قال ابن جنى أنشدنا أبو على :

مروا عجالى فقالوا كيف صاحبكم فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول : أراك المسالى وإنى رأيته لشيخاً وزيد والله لواثق بك وقال كثير :

وما زلت من ليلى لدن أن عرفتها لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر : ولكننى من حبها لعميد

وقال المعترض هذه الأشعار من الشواذ وإنما جاءت كذا لضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى عن الضرورة وإنما تقرر هذا الكلام إذا بينا أن المبتدأ إذا لم يدخل عليه إن وجب إدخال اللام عليه لا على الخبر وتحقيقه أن اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدأ بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدأ وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدأ لأن العلة الموجبة لحكم فى محل لابد وأن تكون مختصة بذلك المحل لا يقال هذا مشكل بما إذا دخلت إن على المبتدأ فإن ههنا يجب إدخال اللام على الخبر مع أن ماذكرتموه حاصل فيه لأنا نقول ذلك لأجل الضرورة وذلك لأن كلمة إن للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا إن لزيداً قائم لكنا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر إدخالها على المبتدأ لا جرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة ،وأما إذا لم يدخل حرف إن على المبتدأ كانت هذه الضرورة زائلة فوجب إدخال اللام على المبتدأ لا يقال إذا جاز إدخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله :

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالبى أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفى فلم لا يجوز إدخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الإثبات لأنا نقول الفرق بين البابين أن قولك زيد قائم يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام فاذا قلت إن زيداً قائم فكلمة إن تفيد تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكداً آخر مع كلمة إن صار عبثاً أما لو قلت رأيت فلاناً فهذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفى أفاد حرف النفى معنى النفى ولا يفيد التأكيد لأنه مستقل بإفادة الأصل فكيف يفيد الزيادة فاذا ضممت إليه حرف نفى آخر صار الحرف الثانى مؤكداً للأول فلا يكون عبثاً فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندى ضعيف ، لأن الكل اتفقوا على أنه إذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ، ولأن هذه العلل فى نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر (الوجه الثانى) فى الجواب عن قولهم اللام لا يحسن دخولها على الخبر إلا إذا دخلت كلمة إن على المبتدأ كما ذكره الزجاج فقال إن وقعت موقع نعم واللام فى موقعها والتقدير نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدأ لا على الخبر . قال وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى إسمعيل بن إسحق فارتضياه وذكرا أنه أجود ما سمعناه فى هذا . قال ابن جنى هذا القول غير صحيح لوجوه (الوجه

www.besturdubooks.wordpress.com

الأول) أن الأصل أن المبتدأ إنما يجوز حذفه لو كان أمراً معلوماً جلياً ولولا ذلك لكان فى حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب وإذا كان معروفاً فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لأن التأكيد إنما يحتاج إليه حيث لم يكن العلم به حاصلا (الوجه الثانى) أن الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الإطناب فالجمع بينهما غير جائز ولأن ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن فى العقول من العكس (الوجه الثالث) امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدأ فى نحو قولك زيد ضربت فلا يجيزون زيد ضربت نفسه على أن يجعل النفس توكيداً للهاء المؤكدة المقدرة فى ضربت أى ضربته لأن الحذف لا يكون إلا بعد التحقيق والعلم به وإذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا (الوجه الرابع) أن جميع النحويين حملوا قول الشاعر : أم الحليس لعجوز شهربه . على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ولو كان ماذهب إليه الزجاج جائزاً لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار إذا وجدوا له وجهاً ظاهراً ، ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى بأنه إنما حسن حذف المبتدأ لأن فى اللفظ مايدل عليه وهو قوله هذان أما لو حذف التأكيد فليس فى اللفظ مايدل عليه فلا جرم كان حذف المبتدأ أولى من حذف التأكيد ، وأما امتناعهم من تأكيد الضمير فى قولهم زيد ضربت نفسه فذاك إنما كان لأن إسناد الفعل إلى المظهر أولى من إسناده إلى المضمر فاذا قال زيد ضربت نفسه كان قوله نفسه مفعولا فلا يمكن جعله تأكيداً للضمير فتأكيد المحذوف إنما امتنع ههنا لهذه العلة لا لأن تأكيد المحذوف مطلقاً ممتنع وأما قوله النحويون حملوا قول الشاعر: أم الحليس لعجوز شهربه . على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ما قاله الزجاج لما عدل عنه النحويون فهذا اعتراض فى نهاية السقوط لأن ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لايقتضى كونه باطلا فما أكثر ماذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر فهذا تمام الكلام فى شرح هذا (الوجه الثالث) فى الجواب أن كلمة إن ضعيفة فى العمل لأنها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة فى العمل وإذا ضعفت جاز بقاء المبتدأ على إعرابه الأصلى وهو الرفع .

﴿ المقدمة الأولى ﴾ أنها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة فى اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلأنها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الأسماء كالأفعال ، وأما المعنى فلأنها تفيد حصول معنى فى الإسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما أنك إذا قلت قام زيد فقولك قام أفاد حصول معنى فى الإسم .

﴿ المقدمة الثانية ﴾ أنها لما أشبهت الأفعال وجب أن تشبهها فى العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران .

﴿ المقدمة الثالثة ﴾ أنها لم تنصب الإسم وترفع الخبر فتقريره أن يقال إنها لما صارت عاملة فإما أن ترفع المبتدأ والخبر معاً أو تنصبهما معاً أو ترفع المبتدأ وتنصب الخبر أو بالعكس والأول

www.besturdubooks.wordpress.com

باطل لأن المبتدأ والخبر كانا قبل دخول إن عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما لما ظهر له أثر البتة ولأنها أعطيت عمل الفعل ، والفعل لا يرفع الإسمين فلا معنى للاشتراك (والقسم الثانى) أيضاً باطل لأن هذا أيضاً مخالف لعمل الفعل لأن الفعل لا ينصب شيئاً مع خلوه عما يرفعه (والقسم الثالث) أيضاً باطل لأنه يؤدى إلى التسوية بين الأصل والفرع فان الفعل يكون عمله فى الفاعل أولا بالرفع وفى المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الأصل والفرع ، ولما بطلت الأقسام الثلاثة تعين (القسم الرابع) وهو أنها تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهذا مما ينبه على أن هذه الحروف دخيلة فى العمل لا أصلية لأن تقديم المنصوب على المرفوع فى باب العمل عدول عن الأصل فذلك يدل على أن العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الأصالة بل بطريق عارض .

﴿المقدمة الرابعة﴾ لما ثبت أن تأثيرها فى نصب الإسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع أيضاً وذلك لأن كون الاسم مبتدأ يقتضى الرفع ودخول إن على المبتدأ لا يزيل عنه وصف كونه مبتدأ لأنه يفيد تأكيد ما كان لا زوال ما كان إذا ثبت هذا فنقول وصف كونه مبتدأ يقتضى الرفع وحرف إن يقتضى النصب ولكن المقتضى الأول أولى بالاقتضاء من وجهين (أحدهما) أن وصف كونه مبتدأ صفة أصلية للمبتدأ ودخول إن عليه صفة عرضية والأصل راجح على العارض (والثانى) أن اقتضاء وصف المبتدأ للرفع أصلي واقتضاء حرف إن للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الأول أولى فثبت بمجموع ما قررنا أن الرفع أولى من النصب فان لم تحصل الأولوية فلا أقل من أصل الجواز ولهذا السبب إذا جئت بخبر إن ثم عطفت على الاسم إسماً آخر جاز فيه الرفع والنصب معاً (الوجه الرابع) فى الجواب قال الفراء : هذا أصله ذا زيدت الهاء لأن ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت ألفاً للتثنية فصارت هذا إن فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج إلى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الأصل لأن أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص لحذف ألف التثنية لأن النون يدل عليه فلا جرم لم تعمل إن لأن عملها فى ألف التثنية ، وقال آخرون : الألف الباقى إما ألف الأصل أو ألف التثنية ، فان كان الباقى ألف الأصل لم يجز حذفها لأن العامل الخارجي لا يتصرف فى ذات الكلمة ، وإن كان الباقى ألف التثنية فلا شك أنهم أنابوها مناب ألف الأصل ، وعوض الأصل أصل لا محالة فهذا الألف أصل فلا يجوز حذفه ويرجع حاصل هذا إلى الجواب الأول (الوجه الخامس) فى الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين أن الهاء ههنا مضمرة والتقدير إنه هذان لساحران ، وهذه الهاء كناية عن الأمر والشأن ، فهذا ما قيل فى هذا الموضع ، فأما من خفف فقرأ إن هذان لساحران فهو حسن فان ما بعد الخفيفة رفع واللام بعدها فى الخبر لازمة واجبة وإن كانت فى إن الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين إن المؤكدة وإن النافية قال الشاعر :

www.besturdubooks.wordpress.com

وإن مالك للمرتجى إن تضعضعت رحا الحرب أو دارت على خطوب

وقال آخر :

إن القوم والحى الذى أنا منهم لأهل مقامات وشاء وجامل

الجامل جمع جمل ، ثم من العرب من يعمل إن ناقصة كما يعملها تامة اعتباراً بكان فانها تعمل وإن نقصت فى قولك لم يكن لبقاء معنى التأكيد ، وإن زال الشبه اللفظى بالفعل لأن العبرة للمعنى ، وهذه اللغة تدل على أن العبرة فى باب الإعمال الشبه المعنوى بالفعل وهو إثبات التوكيد دون الشبه اللفظى كما أن التعويل فى باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلا محضاً ، وأما اللغة الظاهرة وهى ترك إعمال إن الخفيفة دالة على أن الشبه اللفظى فى إن الثقيلة أحد جزأى العلة فى حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل بخلاف السكون فانه عامل بمعناه لكونه فعلا محضاً ولا عبرة للفظه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه (فأحدها) قولهم (هذان لساحران) وهذا طعن منهم فى معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة فى التنفير عنه لما أن كل طبع سليم يقتضى النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر ، ومن حيث إن الانسان يعلم أن السحر لا بقاء له فاذا اعتقدوا فيه السحر قالوا كيف نتبعه فانه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه (وثانيها) قوله (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) وهذا فى نهاية التنفير لأن المفارقة عن المنشأ ، والمولد شديدة على القلوب ، وهذا هو الذى حكاه الله تعالى عن فرعون فى قوله (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى) وكأن السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها (وثالثها) قوله (ويذهبا بطريقتكم المثلى) وهذا أيضاً له تأثير شديد فى القلب فان العدو إذا جاء واستولى على جميع المناصب والأشياء التى يرغب فيها فذلك يكون فى نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة فى التنفير عن موسى والترغيب فى دفعه وإبطال أمره وههنا بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قال الفراء : الطريقة الرجال الأشراف الذين هم قدوة لغيرهم يقال هم طريقة قومهم ، ويقال للواحد أيضا هو طريقة قومه ، وجعل الزجاج الآية من باب حذف المضاف أى ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى ، وعلى التقديرين ، فالمراد أنهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى وهرون عليهما السلام يريدان أن يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنوا اسرائيل لقول موسى عليه السلام (أرسل معنا بنى اسرائيل) وإنما سموا بنى اسرائيل بذلك لأنهم كانوا أكثر القوم يومئذ عدداً وأموالا ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالدين سموا دينهم بالطريقة المثلى (وكل حزب بما لديهم فرحون) ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة .

﴿ البحث الثانى ﴾ (المثلى) مؤنثة لتأنيث الطريقة ، واختلفوا فى أنه لم سمى الأفضل بالأمثل

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

فقال بعضهم : الأمثل : الأشبه بالحق ، وقيل الأمثل الأوضح والأظهر ، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم مبالغتهم فى التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب فى إبطال أمره حكى عنهم أنهم قالوا (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً) قرأ أبو عمرو بوصل الألف وفتح الميم من أجمعوا يعنى لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلا جئتم به دليله قوله (فجمع كيده) وقرأ الباقون بقطع الألف وكسر الميم وله وجهان : (أحدهما) قال الفراء الإجماع الأحكام والعزيمة على الشيء يقال أجمعت على الخروج مثل أزمعت (والثانى) بمعنى الجمع وقد مضى الكلام فى هذا عند قوله (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) قال الزجاج ليكن عزمكم كلكم كاليد مجمعاً عليه لاتختلفوا ثم ائتوا صفاً ، ذكر أبوعبيدة والزجاج وجهين : (أحدهما) أن الصف موضع الجمع والمعنى ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، والمعنى ائتوا مصلى من المصليات أو كان الصف علماً للمصلى بعينه فأمروا بأن يأتوه (والثانى) أن يكون الصف مصدراً والمعنى ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكي يكون أنظم لأمركم وأشد لهيبتكم ، وهذا قول عامة المفسرين ، وقوله (وقد أفلح اليوم من استعلى) اعتراض ، يعنى وقد فاز من غلب فكانوا يقرون بذلك أنفسهم فيما اجتمعوا عليه من إظهار ما يظهرونه من السحر .

قوله تعالى : ﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾

اعلم أنه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة وتقدم أيضاً قوله (ثم ائتوا صفاً) صار ذلك مغنياً عن قوله فحضروا هذا الموضع وقالوا (إما أن تلقى) لدلالة ما تقدم عليه وقوله (إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) معناه إما أن تلقى مامعك قبلنا ، وإما أن نلقى مامعنا قبلك ، وهذا التخيير مع تقديمه فى الذكر حسن أدب منهم وتواضع له ، فلاجرم رزقهم الله تعالى الإيمان ببركته ، ثم إن موسى عليه السلام قابل أدبهم بأدب فقال (بل ألقوا) أما قوله (بل ألقوا) ففيه سؤالان :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام (بل ألقوا) فيأمرهم بما هو سحر وكفر لأنهم إذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفراً (والجواب) من وجوه : (أحدها) لا نسلم أن نفس الالقاء كفر ومعصية لأنهم إذا ألقوا وكان غرضهم أن يظهر الفرق بين ذلك الإلقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى كان ذلك الإلقاء إيماناً وإنما الكفر هو القصد إلى تكذيب موسى وهو عليه السلام إنما أمر بالالقاء لا بالقصد إلى التكذيب فزال السؤال (وثانيها) ذلك الأمر كان مشروطاً والتقدير (ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين) كما فى قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين) أى إن كنتم قادرين (وثالثها) أنه لما تعين ذلك طريقا إلى كشف الشبهة صار ذلك جائزاً ، وهذا كالمحق إذا علم أن فى قلب واحد شبهة وأنه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها بأقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة فى قلبه ، ويخرج بسببها عن الدين فان للمحق أن يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه ويكون غرضه من ذلك أن يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه فمطالبته بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا (ورابعها) أن لا يكون ذلك أمراً بل يكون معناه إنكم إن أردتم فعله فلا مانع منه حساً لكى ينكشف الحق (وخامسها) أن موسى عليه السلام لاشك أنه كان كارها لذلك ولاشك أنه نهاهم عن ذلك بقوله (ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب) وإذا كان الأمر كذلك استحال أن يكون قوله أمراً لهم بذلك لأن الجمع بين كونه ناهياً وآمراً بالفعل الواحد محال ، فعلمنا أن قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الاشكال .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قدمهم فى الالقاء على نفسه مع أن تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز فكذا تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة وجب أن لا يجوز لاحتمال أنه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لادراك الحجة بعده فيبقى حينئذ فى الكفر والضلال وليس لأحد أن يقول إن ذلك كان بسبب أنهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بأن قدمهم على نفسه لأن أمثال ذلك إنما يحسن فيما يرجع إلى حظ النفس ، فأما مايرجع إلى الدليل والشبهة فغير جائز (والجواب) أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة إلى إظهارها مرة أخرى والقوم إنما جاؤا لمعارضته فقال عليه السلام لو أنى بدأت باظهار المعجزة أولا لكنت كالسبب فى إقدامهم على إظهار السحر وقصد إبطال المعجزة وذلك غير جائز ، ولكنى أفوض الأمر إليهم حتى أنهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم أنا أظهر المعجز الذى يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سبباً لازالة الشبهة ، وأما على التقدير الأول فانه يكون سبباً لوقوع الشبهة فكان ذلك أولى .

أما قوله (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما (ألقوا حبالهم وعصيهم) ميلا من هذا الجانب وميلا من هذا الجانب فخيل إلى موسى عليه السلام أن الأرض كلها حيات وأنها تسعى

www.besturdubooks.wordpress.com

نخاف فلما قيل له (ألق مافي يمينك تلقف ماصنعوا) ألقى موسى عصاه فاذا هي أعظم من حياتهم ثم أخذت تزداد عظماً حتى ملأت الوادي ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا في الميلين والناس ينظرون اليها لايحسبون إلا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فاذا هي عصى كما كانت ونظرت السحرة فاذا هي لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئاً إلا أكلته فعرفت السحرة أنه ليس بسحر وقالوا أين حبالنا وعصينا لولم تكن سحراً (١) لبقيت فخروا سجداً وقالوا (آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في عدد السحرة قال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد عصا وحبل . وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين ألفاً مع كل واحد عصا وحبل ، وقال وهب كانوا خمسة عشر ألفا ، وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة : ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية ، وقال الكلبي كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان منهم من القبط وسبعون من بني اسرائيل أكرههم فرعون على ذلك ، واعلم أن الاختلاف والتفاوت واقع في عدد كثير وظاهر القرآن لا يدل على شيء منه والأقوال إذا تعارضت تساقطت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف يقال في إذا هذه إذا المفاجأة والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها خصت في بعض المواضع بأن تكون ناصباً فعلا مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لاغير فتقدير قوله تعالى (فإذا حبالهم وعصيهم) ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل ، والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي اه

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء عصيهم بالضم وهو الأصل والكسر إتباع نحو دلي ودلي وقسي وقسي وقرىء تخيل بالتاء المنقوطة من فوق باسناد الفعل إلى الحبال والعصي وقرىء بالضم بالياء المنقطة من تحت بإسناد الفعل إلى الكيد والسحر وقال الفراء أي يخيل إليه سعيها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الهاء في قوله (يخيل إليه) كناية عن موسى عليه السلام والمراد أنهم بلغوا في سحرهم المبلغ الذي صار يخيل إلى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعى ما يكون حياً من الحيات لاأنها كانت حية في الحقيقة ويقال إنهم حشوها بما إذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك . ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن أنها تسعى ، فأما ماروى عن وهب أنهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى (فلما ألقوا سحروا أعين الناس) وبقوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) فهذا غير جائز لأن ذلك الوقت وقت إظهار المعجزة والأدلة وإزالة الشبهة فلو صار بحيث لايميز الموجود عن الخيال الفاسد

(١) الضمير في قوله (تكن) و (بقيت) لايعود على عصى موسى وإنما يعود على حبال السحرة وعصيهم (الصاوى)

www.besturdubooks.wordpress.com

لم يتمكن من إظهار المعجزة فحينئذ يفسد المقصود ، فإذن المراد أنه شاهد شيئاً لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى أما قوله تعالى (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) فالإيجاس استشعار الخوف أى وجد فى نفسه خوفاً ، فإن قيل إنه لا مزيد فى إزالة الخوف على ما فعله الله تعالى فى حق موسى عليه السلام فانه كلمه أولا وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد ، ثم إنه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كأعظم ثعبان ، ثم إنه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما أعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كله (إننى معكما أسمع وأرى) فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف فى قلبه والجواب عنه من وجوه (أحدها) أن ذلك الخوف إنما كان لما طبع الآدمى عليه من ضعف القلب وإن كان قد علم موسى عليه السلام أنهم لا يصلون إليه وأن الله ناصره وهذا قول الحسن (وثانيها) أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا أنهم قد ساووا موسى عليه السلام ويشتبه ذلك عليهم وهذا التأويل متأكد بقوله (لا تخف إنك أنت الأعلى) وهذا قول مقاتل (وثالثها) أنه خاف حيث بدأوا وتأخر إلقاؤه أن ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يلقيه فيدوموا على اعتقاد الباطل (ورابعها) لعله عليه السلام كان مأموراً بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحى فى ذلك الوقت فيبقى فى الخجالة (وخامسها) لعله عليه السلام خاف من أنه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعل فرعون قد أعد أقواماً آخرين فيأتيه بهم فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم وهكذا من غير أن يظهر له مقطع وحينئذ لا يتم الأمر ولا يحصل المقصود ، ثم إنه تعالى أزال ذلك الخوف بالإجمال أولا وبالتفصيل ثانياً أما الاجمال فقوله تعالى (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) ودلالته على أن خوفه كان لأمر يرجع إلى أن أمره لا يظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله (إنك أنت الأعلى) وفيه أنواع من المبالغة (أحدها) ذكر كلمة التأكيد وهى إن (وثانيها) تكرير الضمير (وثالثها) لام التعريف (ورابعها) لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وأما التفصيل فقوله (وألق ما فى يمينك) وفيه سؤال ، وهو أنه لم لم يقل وألق عصاك (والجواب) جاز أن يكون تصغيراً لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذى بيمينك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجائز أن يكون تعظيما لها أى لا تحتفل بهذه الأجرام الكثيرة فان فى يمينك شيئاً أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شىء عندها فألقه يتلقفها باذن الله تعالى ويمحقها أما قوله (تلقف) أى فانك إذا ألقيتها فانها تلقف ما صنعوا قراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد أى فألقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أى ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف أى تأخذ بفيها ابتلاعاً بسرعة واللقف والتلقف جميعاً يرجعان إلى هذا المعنى وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا وزوروا والعرب تقول فى الكذب هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله (تلقف) أنه إذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم

ماصنعوا وفى قوله (فألقى السحرة سجداً) دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ماصنعوه وفى التلقف دلالة على أن جميع ماألقوه تلقفته وذلك لا يكون إلا مع عظم جسدها وشدة قوتها . وقد حكى عن السحرة أنهم عند التلقف أيقنوا بأن ماجاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه (أحدها) ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة (وثانيها) زيادة عظمها على وجه لايتم ذلك بالحيلة (وثالثها) ظهور الأعضاء عليها من العين والمنخرين والفم وغيرها ولا يتم ذلك بالحيلة (ورابعها) تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك لا يتم بالحيلة (وخامسها) عوده ها خشبة صغيرة كما كانت وشىء من ذلك لا يتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى أن ماصنعوا كيد ساحر والمعنى أن الذى معك ياموسى معجزة إلهية والذى معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض وقرىء كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى أن ما موصولة ومن نصب فعلى أنها كافة وقرىء كيد سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر أو هم لتوغلهم فى سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته أو بين الكيد لأنه يكون سحراً وغير سحر ، كما يبين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو، بقى سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم وحد الساحر ولم يجمع (الجواب) لأن القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد فلو جمع تخيل أن المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله (ولا يفلح الساحر حيث أتى) أى هذا الجنس .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم نكر أولا ثم عرف ثانياً (الجواب) كأنه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك أن هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قوله (ولا يفلح الساحر حيث أتى) يدل على أن الساحر لا يحصل له مقصوده بالسحر خيراً كان أو شراً وذلك يقتضى نفى السحر بالكلية (الجواب) الكلام فى السحر وحقيقته قد تقدم فى سورة البقرة فلا وجه للاعادة والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع

www.besturdubooks.wordpress.com

مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾

إعلم أن فى قوله (فألقى السحرة سجداً) دلالة على أنه ألقى ما فى يمينه وصار حية تلقف ما صنعوا وظهر الأمر خروا عند ذلك سجداً وذلك لأنهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا مافعله موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا أنه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبق علينا لو غلبنا فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الأجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى ، فلاجرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود ، أما قوله تعالى (فألقى السحرة سجداً) فليس المراد منه أنهم أجبروا على السجود وإلا لما كانوا محمودين بل التأويل فيه ما قال الأخفش وهو أنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا وقال صاحب الكشاف ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، وروى أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجداً أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة ، قال القاضى هذا بعيد لأنه تعالى لو أراهم عياناً لصاروا ملجئين ، وذلك لا يليق به قولهم (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) (وجوابه) لما جاز لإبراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفوراً له أن يقول (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى) فلم لايجوز مثله فى حق السحرة ، واعلم أن هذه القصة تنبه على أسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الالهى وقدره فى جملة المحدثات ، وذلك لأن ظهور تلك الأدلة كانت بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جلياً ظاهراً وهو أنه حدثت أمور فلا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضرورى ، وذلك المؤثر إما الخلق ، وإما غيرهم . والأول بديهى البطلان لأن كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أنه لايقدر على إيجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت فى العقل أفادت القطع بأنه لابد من مدبر لهذا العالم فماذا يقول ألا ترى أن أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا فى نهاية البعد ، لأنا بينا أن كل واحد منها بحيث لايمكن ارتياب العاقل فيه واذا فقد عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لأنفسهم وأحبوا تحصيل الجهل والشقاوة لأنفسهم ما أرى أن عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط فلم يبق إلا أن يقال العقل والدليل لا يكفى بل لابد من مدبر يخلق هذه المقدمات فى القلوب ، ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها

www.besturdubooks.wordpress.com

للنتيجة حتى أنه متى فعل ذلك حصلت النتائج فى القلوب وذلك يدل على أن الكل بقضائه وقدره فانه لااعتماد على العقول والقلوب فى مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر إلى أحوال نفسه فى مجارى أفكاره وأنظاره ازداد وثوقاً بما ذكرناه أما قوله (قالوا آمنا برب هرون وموسى) فاعلم أن التعليمية احتجوا بهذه الآية وقالوا إنهم آمنوا بالله الذى عرفوه من قبل هرون وموسى فدل ذلك على أن معرفة الله لاتستفاد إلا من الامام ، وهذا القول ضعيف بل فى قولهم (آمنا برب هرون وموسى) فائدتان سوى ماذكروه .

﴿ الفائدة الأولى ﴾ وهى أن فرعون ادعى الربوبية فى قوله (أنا ربكم الأعلى) والإلهية فى قوله (ماعلمت لكم من إله غيرى) فلو أنهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول إنهم آمنوا بى لابغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة ، والدليل عليه أنهم قدموا ذكر هرون على موسى لأن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه فى قوله (ألم نربك فينا وليداً) فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون لاجرم قدموا ذكر هرون على موسى قطعاً لهذا الخيال .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ وهى أنهم لما شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لاجرم قالوا رب هرون وموسى لأجل ذلك ، ثم إن فرعون لما شاهد منهم السجود والإقرار خاف أن يصير ذلك سبباً لاقتداء سائر الناس بهم فى الايمان بالله تعالى وبرسوله ففى الحال ألقى شبهة أخرى فى النبى فقال (آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهذا الكلام مشتمل على شبهتين (إحداهما) قوله (آمنتم له قبل أن آذن لكم) وتقريره أن الاعتماد على الخاطر الأول غير جائز بل لابد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر ، فلما لم تفعلوا شيئاً من ذلك بل فى الحال (آمنتم له) دل ذلك على أن إيمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر (وثانيها) قوله (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) يعنى أنكم تلامذته فى السحر فاصطلحتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجاً لأمره وتفخيماً لشأنه ، ثم بعد إيراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيراً لهم عن الإيمان وتنفيراً لغيرهم عن الاقتداء بهم فى ذلك فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) قرىء لأقطعن ولأصلبن بالتخفيف . والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لأن كل واحد من العضوين خلاف الآخر فان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله (من خلاف) فى محل النصب على الحال أى (لأقطعنها) مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشىء الموعى فى وعائه فلذلك قال فى جذوع النخل والذى يقال فى المشهور أن فى بمعنى على فضعيف ثم قال (ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى) أراد بقوله (أينا) نفسه لعنه الله لأن قوله (أينا) يشعر بأنه أراد نفسه وموسى عليه السلام بدليل قوله (آمنتم له) وفيه تصالف باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به لأن موسى عليه السلام قط لم

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

يكن من التعذيب فى شيء ، فان قيل إن فرعون مع قرب عهد مشاهدة انقلاب العصا حية بتلك العظمة التى شرحتموها وذكرتم أنها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الأمر إلى أن استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم إلى هذا الحد ويستهزئ بموسى عليه السلام فى قوله (أينا أشد عذاباً وأبقى) قلنا لم لا يجوز أن يقال إنه كان فى أشد الخوف فى قلبه إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجاً لأمره ، ومن استقرى أحوال أهل العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الأشياء ، ومما يدل على صحة ذلك أن كل عاقل يعلم بالضرورة أن عذاب الله أشد من عذاب البشر ، ثم إنه أنكر ذلك ، وأيضاً فقد كان عالماً بكذبه فى قوله (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) لأنه علم أن موسى عليه السلام ماخالطهم البتة وما لقيهم وكان يعرف من سحرته أن أستاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ، ثم إنه مع ذلك كان يقول هذه الأشياء فثبت أن سبيله فى كل ذلك ما ذكرناه وقال ابن عباس رضى الله عنهما « كانوا فى أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء » .

قوله تعالى : ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحيوة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ، إنه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي ، ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لأولئك حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم فى أصول الدين ، فقالوا (لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات) وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم فقالوا (لن نؤثرك) جواباً لما قاله وبينوا العلة وهى أن الذى جاءهم بينات وأدلة ، والذى يذكره فرعون محض الدنيا ، ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها ، أما قوله (والذى فطرنا) ففيه وجهان : (الأول) أن التقدير لن نؤثرك يافرعون على ماجاءنا من البينات وعلى الذى فطرنا أى وعلى طاعة الذى فطرنا وعلى عبادته (الوجه الثانى) يجوز أن يكون خفضاً على القسم . واعلم أنهم لما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان فعل فرعون ماأوعدهم به فقالوا (فاقض ماأنت قاض) لا على معنى أنهم أمروه بذلك لكن أظهروا أن ذلك الوعيد لا يزيلهم البتة عن إيمانهم وعما عرفوه من الحق علماً وعملا ، ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) وقرىء (تقضى هذه الحياة الدنيا) ووجهها أن الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك فى صمت يوم الجمعة صيم والمعنى أن قضاءك وحكمك إنما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى كيف كانت فانية وإنما مطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية ، والعقل يقتضى تحمل الضرر الفانى المتوصل به إلى السعادة الباقية ثم قالوا (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) ولما كان أقرب خطاياهم عهداً ماأظهروه من السحر ، قالوا (وما أكرهتنا عليه من السحر) وذكروا فى ذلك الإكراه وجوهاً (أحدها) أن الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثاً ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لأجل ذلك أى كنا فى التعلم أولا والتعليم ثانياً مكرهين قاله ابن عباس (وثانيها) أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين ، إثنان من القبط ، والباقى من بنى اسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بساحر ، الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه (وثالثها) قال الحسن إن السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين فى الحضور وربما كانوا مكرهين أيضا فى إظهار السحر (ورابعها) قال عمرو بن عبيد دعوة السلطان إكراه وهذا ضعيف لأن دعوة السلطان إذا لم يكن معها خوف لم تكن إكراها ، ثم قالوا (والله خير ثواباً) لمن أطاعه (وأبقى) عقابا لمن عصاه ، وهذا جواب لقوله : (ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى) ، قال الحسن : سبحان الله القوم كفار وهم أشد الكافرين كفراً ثبت فى قلوبهم الإيمان فى طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن قالوا (اقض ما أنت قاض) فى ذات الله تعالى والله إن أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عاما ثم إنه يبيع دينه بثمن حقير ، ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين فى عرصة القيامة ، فقالوا فى المجرمين

www.besturdubooks.wordpress.com

(إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الهاء في قوله (إنه) ضمير الشأن يعنى أن الأمر والشأن كذا وكذا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استدلت المعتزلة بهذه الآية في القطع على وعيد أصحاب الكبائر قالوا : صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فان له جهنم لقوله (إنه من يأت ربه مجرماً) وكلمة من في معرض الشرط تفيد العموم بدليل أنه يجوز استثناء كل واحد منها والإستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام ، فقال لا نسلم أن صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه أنه تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فانه قال في هذه الآية (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات) وقال (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) وأيضاً فانه قال (فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) والمؤمن صاحب الكبيرة وإن عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف ، وفي الخبر الصحيح «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان» واعلم أن هذه الاعتراضات ضعيفة ، أما قوله إن الله تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا إنما ينفع لو ثبت أن صاحب الكبيرة مؤمن ، ومذهب المعتزلة أنه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط ، قوله ثانياً إنه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال في حقه إن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، قلنا لا نسلم فان عذاب جهنم في غاية الشدة قال تعالى (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) وأما الحديث فيقال القرآن متواتر فلا يعارضه خبر الواحد ، ويمكن أن يقال ثبت في أصول الفقه أنه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد وللخصم أن يجيب فيقول ذلك يفيد الظن فيجوز الرجوع اليه في العمليات ، وهذه المسألة ليست من العمليات بل من الاعتقادات فلا يجوز المصير اليها ههنا . فان اعترض إنسان آخر ، وقال أجمعنا على أن هذه الآية مشروطة بنفي التوبة وبأن لا يكون عقابه محبطاً بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو أن لا يوجد ما يحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط للعقاب ، وعندنا أن المجرم الذي لا يوجد في حقه العفو لابد وأن يدخل جهنم ، واعلم أن هذا الاعتراض أيضاً ضعيف أما شرط نفي التوبة فلا حاجة اليه لأنه قال (من يأت ربه مجرماً) أي حال كونه مجرماً والتائب لا يصدق عليه أنه أتى ربه حال كونه مجرماً . وأما صاحب الصغيرة فلأنه لا يسمى مجرماً لأن المجرم اسم للذم فلا يجوز إطلاقه على صاحب الصغيرة ، بل الاعتراض الصحيح أن نقول عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) وكلامنا فيمن أتى بالايمان والأعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر . فان قيل عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة قلنا لم لا يجوز أن يقال ثواب الايمان يدفع عقاب المعصية فان قالوا لو كان كذلك لوجب أن لا يجوز لعنه وإقامة الحد عليه . قلنا : أما اللعن فغير جائز عندنا . وأما إقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما في حق التائب وقد تكون

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا

على سبيل التنكيل قالت المعتزلة قوله تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله) فالله تعالى نص على أنه يجب عليه إقامة الحد على سبيل التنكيل ، وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقاً للمدح والتعظيم ، وإذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا. فدلنا ذلك على أن عقاب الكبيرة أولى بازالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة . هذا منتهى كلامهم فى مسألة الوعيد قلنا حاصل الكلام يرجع إلى أن النص الدال على إقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضاً للنصوص الدالة على كونه مستحقاً للثواب ، فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس وذلك لأن المؤمن كان ينقسم إلى السارق وغير السارق فالسارق ينقسم إلى المؤمن وإلى غير المؤمن فلم يكن لأحدهما مزية على الآخر فى العموم والخصوص فاذا تعارضا تساقطا . ثم نقول لانسلم أن كلمة من فى إفادة العموم قطعية بل ظنية ومسألتنا قطعية فلا يجوز التعويل على ما ذكرته ، وتمام الكلام فيه مذكور فى كتاب المحصول فى الأصول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تمسكت المجسمة بقوله (إنه من يأت ربه مجرماً) فقالوا الجسم إنما يأتى ربه لو كان الرب فى المكان (وجوابه) أن الله تعالى جعل إتيانهم موضع الوعد إتيانا إلى الله مجازاً كقول ابراهيم عليه السلام (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الجسم الحى لا بد وأن يبقى إما حياً أو يصير ميتاً فخلوه عن الوصفين محال ، فمعناه فى الآية أنه يكون فى جهنم بأسوإ حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة . ثم ذكر حال المؤمنين فقال (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) واعلم أن قوله (قد عمل الصالحات) يقتضى أن يكون آتياً بكل الصالحات . وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن فينبغى أن يحمل ذلك على أداء الواجبات ، ثم ذكر أن من أتى بالإيمان والأعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ، ثم فسرها فقال (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) وفى الآية تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر لأنه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالايمان والأعمال الصالحة فسائر الدرجات التى هى غير عالية لابد وأن تكون لغيرهم ، وماهم إلا العصاة من أهل الإيمان ، أما قوله (وذلك جزاء من تزكى) فقال ابن عباس يريد من قال لا إله إلا الله ، وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هى جزاء من تزكى أى تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب أن الدرجات التى لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى فهى لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصى وعفا الله بفضله ورحمته عنهم ، واعلم أنه ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك فى الأخبار .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً

www.besturdubooks.wordpress.com

تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

لاتخاف دركا ولا تخشى ،فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ .

واعلم أن في قوله (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى) دلالة على أن موسى عليه السلام في تلك الحالة كثر مستجيبوه . فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى إليه أن يسرى بهم ليلا ، والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله ، فان قيل ما الحكمة في أن يسرى بهم ليلا ، قلنا لوجوه : (أحدها) أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك (وثانيها) ليكون عائقاً عن طلب فرعون ومتبعيه (وثالثها) ليكون إذا تقارب العسكران لايرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم ، أما قوله (فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً) ففيه وجهان : (الأول) أي فاجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهما ، وضرب اللبن عمله (والثاني) بين لهم طريقاً في البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق ، فعدى الضرب إلى الطريق . والحاصل أنه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبساً ثم بين تعالى أن جميع أسباب الأمن كان حاصلا في ذلك الطريق (أحدها) أنه كان يبساً قرىء يابساً ويبساً بفتح الياء وتسكين الباء . فمن قال يابساً جعله بمعنى الطريق ومن قال يبساً بتحريك الباء فاليبس واليابس شيء واحد والمعنى طريقاً أيبس ، ومن قال يبساً بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس ، والمراد أنه ماكان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء . (وثانيها) قوله (لا تخاف دركا ولاتخشى) أي لا تخاف أن يدركك فرعون فإني أحول بينك وبينه بالتأخير ، قال سيبويه : قوله (تخاف) رفعه على وجهين: (أحدهما) على الحال كقولك غير خائف ولا خاش (والثاني) على الإبتداء أي أنت لاتخاف وهذا قول الفراء ، قال الأخفش والزجاج المعنى لاتخاف فيه كقوله (واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس) أي لاتجزى فيه نفس وقرأ حمزة لا تخف وفيه وجهان (أحدهما) أنه نهى (والثاني) قال أبو علي جعله جواب الشرط على معنى إن تضرب لاتخف وعلى هذه القراءة ذكروا في قوله (ولا تخشى) ثلاثة[1] أوجه (أحدها) أن يستأنف كأنه قيل وأنت لاتخشى أي ومن شأنك أنك آمن لاتخشى (وثانيها) أن لا تكون الألف هي الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للاطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى (وأضلونا السبيلا)(وتظنون بالله الظنونا) ، (وثالثها) أن يكون مثل قوله :

[وتضحك مني شيخة عبشمية[2]] كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانياً

(١) الصواب أربعة أوجه كما سيأتي . (٢) الشعر لمالك بن الريب وقد وضعت صدره بين معكفين لأنه ليس في الأصول .

www.besturdubooks.wordpress.com

(ورابعها) قوله (ولا تخشى) والمعنى أنك لاتخاف إدراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء. أما قوله (فأتبعهم فرعون بجنوده) قال أبو مسلم زعم رواة اللغة أن أتبعهم وتبعهم واحد وذلك جائز ويحتمل أن تكون الباء زائدة والمعنى أتبعهم فرعون جنوده كقوله تعالى (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) أسرى بعبده وقال الزجاج قرئ (فأتبعهم فرعون وجنوده) أي ومعه جنوده وقرئ (بجنوده) ومعناه ألحق جنوده بهم ويجوز أن يكون بمعنى معهم أما قوله (فغشيهم) فالمعنى علاهم وسترهم وما غشيهم تعظيم للأمر أى غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله تعالى وقرئ (فغشاهم من اليم ماغشيهم) وفاعل غشاهم إما الله سبحانه وتعالى أو ماغشيهم أو فرعون لأنه الذى ورط جنوده وتسبب فى هلاكهم أما قوله (وأضل فرعون قومه وما هدى) فاحتج القاضى به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال وأضل فرعون قومه بل وجب أن يقال الله تعالى أضلهم ولأن الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقاً للكفر لأن من ذم غيره بشىء لابد وأن يكون هو غير فاعل لذلك الفعل وإلا لاستحق ذلك الذم وقوله (وما هدى) تهكم به فى قوله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ولنذكر القصة وما فيها من المباحث قال ابن عباس رضى الله عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام وبنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون إليه فخرج بهم ليلا وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد إليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يخرجوا بها فتحير القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فأخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمى فقالت أكون معك فى الجنة . وذكر ابن عباس أن محمداً ﷺ وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم إلا عنز فذبحوها لهما فقال عليه السلام إذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعل الله يرزقك منه خيراً ، فلما سمع بظهور الرسول ﷺ أتاه مع امرأته فقال أتعرفنى قال نعم عرفتك فقال له احتكم فقال ثمانون ضانية فأعطاه إياها وقال له « أما إن عجوز بنى إسرائيل خير منك » وخرج فرعون فى طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى إلى البحر قال ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام للبحر انفرق فأبى ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام ادخلوا فيه فقالوا كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر فأقبل فرعون إلى تلك الطرق فقال قومه له إن موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على فرس حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبريل عليه السلام بين يدى فرعون وأبصر الحصان الفرس الحجر فاقتحم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة فى الناس

www.besturdubooks.wordpress.com

ألحقوا الملك حتى إذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم . فقالوا ماهذا ياموسى ؟ قال قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا إليهم فقالوا ياموسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر إليهم فدعا فلفظهم البحر إلى الساحل وأصابوا من سلاحهم ، وذكر ابن عباس أن جبريل عليه السلام قال يامحمد لو رأيتني وأنا أدس فرعون فى الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله (فغشيهم من اليم ماغشيهم) وفى القصة أبحاث .

﴿ البحث الأول ﴾ روى فى الأخبار أن موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقاً يابساً يتهيأ طروقه وبقى الماء قائماً بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل، فأخذ كل سبط من بنى إسرائيل فى طريق من هذه الطرق . ومنهم من قال بل حصل طريق واحد وحجة القول الأول الأخبار ومن القرآن قوله تعالى (فصار كل فرق كالطود العظيم) وذلك لا يحصل إلا إذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم وحجة القول الثانى ظاهر قوله (فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً) وذلك يتناول الطريق الواحد وإن أمكن حمله على الطرق نظراً إلى الجنس .

﴿ البحث الثانى ﴾ روى أن بنى إسرائيل بعد أن أظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا نريد أن يرى بعضنا بعضاً وهذا كالبعيد وذلك أن القوم لما أبصروا مجىء فرعون صاروا فى نهاية الخوف والخائف إذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتعنت البارد .

﴿ البحث الثالث) أن فرعون كان عاقلا بل كان فى نهاية الدهاء فكيف اختار إلقاء نفسه إلى التهلكة فإنه كان يعلم من نفسه أن انفلاق البحر ليس بأمره فعند هذا ذكروا وجهين (أحدهما) أن جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون ، ولقائل أن يقول هذا بعيد لأنه يبعد أن يكون خوض الملك فى أمثال هذه المواضع مقدماً على خوض جميع العسكر وما ذكروه إنما يتم إذا كان الأمر كذلك وأيضاً فلو كان الأمر على ماقالوه لكان فرعون فى ذلك الدخول كالمجبور وذلك مما يزيده خوفاً ويحمله على الامساك فى أن لا يدخل وأيضاً فأى حاجة لجبريل عليه السلام إلى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذه مع قومه ويرميه فى الماء ابتداء ، بل الأولى أن يقال إنه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وما غرقوا فغلب على ظنه السلامة فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى .

﴿ البحث الرابع ﴾ أن الذى نقل عن جبريل عليه السلام أنه كان يدسه فى الماء والطين خوفاً من أن يؤمن فبعيد لأن المنع من الإيمان لا يليق بالملائكة والأنبياء عليهم السلام .

﴿ البحث الخامس ﴾ الذى روى أن موسى عليه السلام كلم البحر قال له انفلق لى لأعبر عليك فقال البحر لا يمر على رجل عاص . فهو غير ممتنع على أصولنا لأن عندنا البنية ليست شرطاً للحياة وعند المعتزلة أن ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال . والله أعلم .

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات مارزقناكم ولاتطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ، وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾

اعلم أنه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكرهم إياها ولا شك أن إزالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على إيصال المنفعة ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم فى كونه نعمة من إيصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ الله تعالى بقوله (أنجيناكم من عدوكم) وهو إشارة إلى إزالة الضرر فإن فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيراً من القتل والإذلال والإخراج والإتعاب فى الأعمال ، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهى قوله (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) ووجه المنفعة فيه أنه أنزل فى ذلك الوقت عليهم كتاباً فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهى قوله (ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم) ثم زجرهم عن العصيان بقوله (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى) ثم بين أن من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله بقوله (وإنى لغفار لمن تاب) وهذا بيان المقصود من الآية ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾، قرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم ووعدتكم إلى قوله (من طيبات مارزقناكم) كلها بالتاء إلا قوله (ونزلنا عليكم المن والسلوى) فانها بالنون وقرأ الباقون كلها بالنون وقرأ نافع وعاصم وواعدناكم وقرأ حمزة والكسائى وواعدتكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾، قال الكلبى لما جاوز موسى عليه السلام ببنى إسرائيل البحر قالوا له أليس وعدتنا أن تاتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والأحكام . قال بلى ، ثم تعجل موسى إلى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم أن يأتيهم إلى أربعين ليلة من يوم انطلق ؛ وإنما قال (وواعدناكم) لأنه إنما واعد موسى أن يؤتيه التوراة لأجلهم وقال مقاتل إنما قال واعدناكم لأن الخطاب له وللسبعين المختارة والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال المفسرون ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد أن طور سيناء عن

www.besturdubooks.wordpress.com

يمين من انطلق من مصر إلى الشام وقرىء الأيمن بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب وانتفاع القوم بذلك إما لأن الله تعالى أنزل التوراة عليهم وفيها شرح دينهم ، وإما لأن الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (كلوا) ليس أمر إيجاب بل أمر إباحة كقوله (وإذا حللتم فاصطادوا) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى الطيبات قولان (أحدهما) اللذائذ لأن المن والسلوى من لذائذ الأطعمة (والثانى) وهو قول الكلبي ومقاتل الحلال لأنه شيء أنزله الله تعالى إليهم ولم تمسه يد الآدميين ويجوز الجمع بين الوجهين لأن بين المعنيين معنى مشتركا . وتمام القول فى هذه القصة تقدم فى سورة البقرة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى قوله تعالى (ولا تطغوا) فيه وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تطغوا أى لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه (وثانيها) قال مقاتل والضحاك لا تظلموا فيه أنفسكم بأن تتجاوزوا حد الإباحة (وثالثها) قال الكلبي لا تكفروا النعمة أى لا تستعينوا بنعمتى على مخالفتى ولا تعرضوا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال إلى الحرام .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قرأ الأعمش والكسائى فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الأعمش عن أصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر فى الكلمتين أما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى (حتى يبلغ الهدى محله) والمضموم فى معنى النزول وقوله (فقد هوى) أى شقى وقيل فقد وقع فى الهاوية يقال هوى يهوى هويا إذا سقط من علو إلى سفل .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ اعلم أن الله تعالى وصف نفسه بكونه غافراً وغفوراً وغفاراً ، وبأن له غفراناً ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والأمر . أما إنه وصف نفسه بكونه غافراً فقوله (غافر الذنب) وأما كونه غفوراً فقوله (وربك الغفور ذو الرحمة) وأما كونه غفاراً فقوله (وإنى لغفار لمن تاب) وأما الغفران فقوله (غفرانك ربنا) وأما المغفرة فقوله (وإن ربك لذو مغفرة للناس) وأما صيغة الماضى فقوله (فى حق داود عليه السلام فغفرنا له ذلك) وأما صيغة المستقبل فقوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وقوله فى حق محمد ﷺ (ليغفر لك الله) وأما لفظ الاستغفار فقوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وفى حق نوح عليه السلام (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً) وفى الملائكة (ويستغفرون لمن فى الأرض) واعلم أن الأنبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة أما آدم عليه السلام فقال (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ، وأما نوح عليه السلام فقال (وإلا تغفرلى وترحمنى) ، وأما إبراهيم عليه السلام فقال (والذى أطمع

www.besturdubooks.wordpress.com

(أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين) وطلبها لأبيه (سأستغفرلك ربى) وأما يوسف عليه السلام فقال فى إخوته (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) وأما موسى عليه السلام فى قصة القبطى (رب اغفر لى ولأخى) وأما داود عليه السلام (فاستغفر ربه) وأما سليمان عليه السلام (رب اغفر لى وهب لى ملكا) وأما عيسى عليه السلام (وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) وأما محمد ﷺ فقوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وأما الأمة فقوله (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولإخواننا) واعلم أن بسط الكلام ههنا أن نبين أولا حقيقة المغفرة ثم نتكلم فى كونه تعالى غافراً وغفوراً وغفاراً ثم نتكلم فى أن مغفرته عامة ثم نبين أن مغفرته فى حق الأنبياء عليهم السلام كيف تعقل مع أنه لا ذنب لهم، ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا فى إثبات العفو وتقريره أن الذنب إما أن يكون صغيراً أو كبيراً بعد التوبة أو قبل التوبة والقسمان الأولان يقبح من الله عذابهما ويجب عليه التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفراناً فتعين أن لا يتحقق الغفران إلا فى القسم الثالث وهو المطلوب، فان قيل هذا يناقض صريح الآية لأنه أثبت الغفران فى حق من استجمع أموراً أربعة: التوبة والايمان والعمل الصالح والاهتداء، قلنا إن من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائباً ومؤمناً وآتياً بالعمل الصالح، ومهتديا ومع ذلك يكون مذنباً فحينئذ يستقيم كلامنا، وههنا نكتة، وهى أن العبد له أسماء ثلاثة: الظالم والظلوم والظلام، فالظالم (فمنهم ظالم لنفسه) والظلوم (إنه كان ظلوما جهولا) والظلام إذا كثر ذلك منه، ولله فى مقابلة كل واحد من هذه الأسماء اسم فكأنه تعالى يقول إن كنت ظالماً فأنا غافر وإن كنت ظلوما فأنا غفور، وإن كنت ظلاماً فأنا غفار (وإنى لغفار لمن تاب وآمن).

﴿ المسألة التاسعة ﴾ كثر اختلاف المفسرين فى قوله تعالى (ثم اهتدى) وسبب ذلك أن من تاب وآمن وعمل صالحاً فلا بد وأن يكون مهتدياً، فما معنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الأشياء؟ والوجوه الملخصة فيه ثلاثة (أحدها) المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة إذ المهتدى فى الحال لا يكفيه ذلك فى الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه فى المستقبل ويموت عليه ويؤكده قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وكلمة ثم للتراخى فى هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة فى ذلك إنما الصعوبة فى المداومة على ذلك والاستمرار عليه (وثانيها) المراد من قوله (ثم اهتدى) أى علم أن ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقى مستعيناً بالله فى إدامة ذلك من غير تقصير، عن ابن عباس (وثالثها) المراد من الإيمان الاعتقاد المبنى على الدليل والعمل الصالح إشارة إلى أعمال الجوارح بقى بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الأخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة فى لسان الصوفية، ثم انكشاف حقائق الأشياء له وهو المسمى بالحقيقة فى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾

لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله (ثم اهتدى) .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ منهم من قال تجب التوبة عن الكفر أولا ثم الإتيان بالإيمان ثانياً واحتج عليه بهذه الاية فانه تعالى قدم التوبة على الإيمان ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن العمل الصالح غير داخل فى الإيمان لأنه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه .

قوله تعالى :﴿ وما أعجلك عن قومك ياموسى ، قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ﴾.

إعلم أن فى قوله (وما أعجلك عن قومك ياموسى) دلالة على أنه قد تقدم قومه فى المسير إلى المكان ويجب أن يكون المراد مانبه عليه فى قوله تعالى (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) فى هذه السورة ، وفى سائر السور كقوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) يريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (وما أعجلك) استفهام وهو على الله محال (الجواب) أنه إنكار فى صيغة الإستفهام ولا امتناع فيه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن موسى عليه السلام لايخلو إما أن يقال إنه كان ممنوعا عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعا عنه ، فان كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الأنبياء ، وإن قلنا إنه ما كان ممنوعا كان ذلك الانكار غير جائز من الله تعالى (والجواب) لعله عليه السلام ما وجد نصاً فى ذلك إلا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ فى ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قال (وعجلت) والعجلة مذمومة (والجواب) أنها ممدوحة فى الدين قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ قوله (لترضى) يدل على أنه عليه السلام إنما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين (أحدهما) أنه يلزم تجدد صفة لله تعالى ، والآخر أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال إنه تعالى ما كان راضياً عن موسى لأن تحصيل الحاصل محال ، ولما لم يكن راضياً عنه وجب أن يكون ساخطاً عليه ، وذلك لايليق بحال الأنبياء عليهم السلام (الجواب) المراد تحصيل دوام الرضا كما أن قوله (ثم اهتدى) المراد دوام الاهتداء .

﴿ السؤال الخامس ﴾ قوله (وعجلت إليك) يدل على أنه ذهب إلى الميعاد قبل الوقت الذى

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا

عينه الله تعالى له ، وإلا لم يكن ذلك تعجيلا ثم ظن أن مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه وذلك لايليق بأجهل الناس فضلا عن كليم الله تعالى (والجواب) ما ذكرنا أن ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه .

﴿ السؤال السادس ﴾ قوله (إليك) يقتضى كون الله فى الجهة لأن إلى لانتهاء الغاية (الجواب) توافقنا على أن الله تعالى لم يكن فى الجبل فالمراد إلى مكان وعدك .

﴿ السؤال السابع ﴾ (ما أعجلك) سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلبت زيادة رضاك والشوق إلى كلامك ، وأما قوله (هم أولاء على أثرى) فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين (الأول) أن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين (أحدهما) إنكار نفس العجلة (والثانى) السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الأمرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثانى فقال لم يوجد منى إلا تقدم يسير لايحتفل به فى العادة وليس بينى وبين من سبقته إلا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال (وعجلت إليك رب لترضى) . (الثانى) أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ماورد ذهل عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام . واعلم أن فى قوله (وما أعجلك عن قومك يا موسى) دلالة على أنه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين ، واختلفوا فى المراد بالقوم فقال بعضهم هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه إلى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا إلى ربه . وقال آخرون القوم جملة بنى اسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هرون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له إلى أن يرجع هو مع السبعين فقال (هم أولاء على أثرى) يعنى بالقرب منى ينتظروننى ، وعن أبى عمرو ويعقوب إثرى بالكسر وعن عيسى بن عمر أثرى بالضم ، وعنه أيضاً أولى بالقصر ، والأثر أفصح من الأثر . وأما الأثر فمسموع فى فرند السيف وهو بمعنى الأثر غريب .

قوله تعالى : ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ، قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزاراً من زينة

www.besturdubooks.wordpress.com

مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى ، أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾

إعلم أنه تعالى لما قال لموسى (وما أعجلك عن قومك) وقال موسى فى جوابه (وعجلت إليك رب لترضى) عرفه الله تعالى ماحدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان يبعد أن يحدث لو كان معهم فقال (فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة لايجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين (الوجه الأول) الدلائل العقلية الدالة على أنه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك (الثانى) أنه قال (وأضلهم السامرى) ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامرى فيه أثر وكان يبطل قوله (وأضلهم السامرى) وأيضاً فلأن موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال (أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه أن الله خلقه فينا لا ماذكرت فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضاً فقال (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله (فتنا) معنى آخر وذلك لأن الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان يقال فتنت الذهب بالنار إذا امتحنته بالنار لكى يتميز الجيد من الردئ فههنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لأن السامرى لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة العالم والأجسام على أن لها إلهاً ليس بجسم وحينئذ يعرفون أن العجل لايصلح للالهية فكان هذا التعبد تشديداً فى التكليف فكان فتنة والتشديد فى التكليف موجود قال تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون) هذا تمام كلام المعتزلة قال الأصحاب ليس فى ظهور صوت عن عجل متخذ من الذهب شبهة أعظم مما فى الشمس والقمر ليل الذى ينفى كون الشمس والقمر إلهاً أولى بأن ينفى كون ذلك العجل إلهاً فحينئذ لا يكون وث ذلك العجل تشديداً فى التكليف فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال

www.besturdubooks.wordpress.com

فيهم ، قولهم أضاف الإضلال إلى السامرى قلنا أليس أن جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها فى الظاهر وإن كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وأيضاً قرئ وأضلهم السامرى أى وأشدهم ضلالا السامرى وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ، ثم الذى يحسم مادة الشغب التمسك بفصل الداعى على ماسبق تقريره فى هذا الكتاب مراراً كثيرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هرون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية سعيد بن جبير كان السامرى علجاً من أهل كرمان وقع إلى مصر وكان من قوم يعبدون البقر والذى عليه الأكثرون أنه كان من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس بل كان رجلا من القبط جاراً لموسى عليه السلام وقد آمن به .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ روى فى القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه (فإنا قد فتنا قومك من بعدك) من وجهين (الأول) أنه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته (الثانى) أن السامرى شرع فى تدبير الأمر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على إضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قدر الفتنة موجودة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إنما رجع موسى عليه السلام بعد مااستوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ذكروا فى الأسف وجوهاً (أحدها) أنه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لا يلزم التكرار لأن قوله غضبان يفيد أصل الغضب وقوله أسفاً يفيد كماله (وثانيها) قال الأكثرون حزناً وجزعاً يقال أسف يأسف أسفاً إذا حزن فهو آسف (وثالثها) قال قوم الآسف المغتاظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب إرادة الإضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح إلا على الأجسام كالضحك والبكاء ثم إن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه عاتبهم بعد رجوعه إليهم قالت المعتزلة وهذا يدل على أنه ليس المراد من قوله (فإنا قد فتنا قومك من بعدك) أنه تعالى خلق الكفر فيهم وإلا لما عاتبهم بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الأصحاب وقد فعل ذلك بقوله (إن هى إلا فتنتك) ومجموع تلك المعاتبات أمور (أحدها) قوله (ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً) وفيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (ألم يعدكم ربكم) هذا الكلام إنما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين بإله آخر سوى العجل أما لما اعتقدوا أنه لا إله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

إلهكم وإله موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام (الجواب) أنهم كانوا معترفين بالإله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذى يذكره عبدة الأصنام .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد بذلك الوعد الحسن (الجواب) ذكروا وجوهاً (أحدها) أن المراد ماوعدهم من إنزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرائع والأحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس وهو الذى ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) (وثانيها) أن الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات (وثالثها) الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى) إلى قوله (ثم اهتدى) والدليل عليه قوله بعد ذلك (أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فكأنه قال أفنسيتم ذلك الذى قال الله لكم ولا تطغوا فيه (ورابعها) الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعداً حسناً فى منافع الدين وأن يكون فى منافع الدنيا ، أما منافع الدين فهو الوعد بإنزال الكتاب الشريف الهادى إلى الشرائع والأحكام والوعد بحصول الثواب العظيم فى الآخرة ، وأما منافع الدنيا فهو أنه تعالى قبل إهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم ، وقد فعل ذلك ثم قال (أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فالمراد أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم المعصية ، واعلم أن طول العهد يحتمل أموراً : (أحدها) أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من إنجائه إياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة فى أوائل سورة البقرة وهذا كقوله (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) . (وثانيها) يروى أنهم عرفوا أن الأجل أربعون ليلة فجعلوا كل يوم بأزاء ليلة وردوه إلى عشرين قال القاضى هذا ركيك لأن ذلك لايكاد يشتبه على أحد (وثالثها) أن موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليله فلما زاد الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد ، وأما قوله (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فهذا لا يمكن إجراؤه على الظاهر لأن أحداً لايريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك ، ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واحتج العلماء بذلك على أن الغضب من صفات الأفعال لامن صفات الذات لأن صفة ذات الله تعالى لاتنزل فى شىء من الأجسام . أما قوله (فأخلفتم موعدى) فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم وفيه وجهان : (أحدهما) أن المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجىء على أثره (والثانى) ما وعدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع اليهم من الطور ، فعند هذا قالوا (ما أخلفنا موعدك بملكنا) وفى أن قائل هذا الجواب من هو وجهان : (الأول) أنهم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا إنا ماأخلفنا موعدك بملكنا أى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر ، وإذ قتلتم نفساً) وإن كان الفاعل لذلك آباءهم لاهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضاً على مفارقتهم لأنا خفنا

www.besturdubooks.wordpress.com

أن يصير ذلك سبباً لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة (الوجه الثانى) أن هذا قول عبدة العجل والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب ومخلف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة ألف إنسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة إلى عبادة العجل الذى يعرف فسادها بالضرورة ، ثم إن مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده اليهم قلنا هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس ، واعلم أن فى بملكنا ثلاث قراءات قرأ حمزة والكسائى بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر ، أما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل . وأما الضم فهو السلطان ، ثم إن القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا (ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم) قرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن عامر حملنا مشددة فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من القوم ومن قرأ بالتشديد ففيه وجوه : (أحدها) أن موسى عليه السلام حملهم على ذلك أى أمرهم باستعارة الحلى والخروج بها فكأنه ألزمهم ذلك (وثانيها) جعلنا كالضامن لها إلى أن نؤديها الى حيث يأمرنا الله (وثالثها) أن الله تعالى حملهم ذلك على معنى أنه ألزمهم فيه حكم المغنم ، أما الأوزار فهى الأثقال ومن ذلك سمى الذنب وزراً لأنه ثقل ثم فيه احتمالات (أحدها) أنه لكثرتها كانت أثقالا (وثانيها) أن المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالا (وثالثها) المراد بالأوزار الآثام والمعنى حملنا آثاماً ، روى فى الخبر أن هرون عليه السلام قال إنها نجسة فتطهروا منها ، وقال السامرى إن موسى عليه السلام إنما احتبس عقوبة بالحلى فيجوز أن يكونوا أرادوا هذا القول ، وقد يقول الانسان للشىء الذى يلزمه رده هذا كله إثم وذنب (ورابعها) أن ذلك الحلى كان القبط يتزينون به فى مجامع لهم يجرى فيها الكفر لا جرم أنها وصفت بكونها أوزاراً كما يقال مثله فى آلات المعاصى ، أما قوله (فقذفناها) فذكروا فيه وجوها فى أنهم أين قذفوها ؟ (الوجه الأول) قذفوها فى حفرة كان هرون عليه السلام أمرهم بجمع الحلى فيها إنتظاراً لعود موسى عليه السلام (والوجه الثانى) قذفوها فى موضع أمرهم السامرى بذلك (الوجه الثالث) فى موضع جمع فيه النار ثم قالوا فكذلك ألقى السامرى أى فعل السامرى مثل ما فعلنا ، أما قوله (فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار) فاختلفوا فى أنه هل كان ذلك الجسد حياً أم لا ؟ (فالقول الأول) لا لأنه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد الضال بل السامرى صور صورة على شكل العجل وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل (والقول الثانى) أنه صار حياً وخار كما يخور العجل واحتجوا عليه بوجوه : (أحدها) قوله (فقبضت قبضة من أثر الرسول) ولو لم يصر حياً لما بقى لهذا الكلام فائدة (وثانيها) أنه تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

سماه عجلا والعجل حقيقة فى الحيوان وسماه جسداً وهو إنما يتناول الحى (وثالثها) أثبت له الخوار وأجابوا عن حجة الأولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعى الإلهية جائز لأنه لايحصل الإلتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع ، وروى عكرمة عن ابن عباس أن هرون عليه السلام مر بالسامرى وهو يصنع العجل فقال : ما تصنع ؟ فقال : أصنع ما ينفع ولايضر فادع لى فقال : اللهم أعطه ماسأل فلما مضى هرون قال السامرى : اللهم إنى أسألك أن يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون ذلك معجزاً للنبى ، أما قوله (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى) ففيه إشكال وهو أن القوم إن كانوا فى الجهالة بحيث اعتقدوا أن ذلك العجل المعمول فى تلك الساعة هو الخالق للسموات والأرض فهم مجانين وليسوا بمكلفين ولأن مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وان لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا هذا إلهكم وإله موسى ، وجوابه لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الإله أو حلول صفة من صفاته فى ذلك الجسم ، وإن كان ذلك أيضاً فى غاية البعد لأن ظهور الخوار لايناسب الإلهية ، ولكن لعل القوم كانوا فى نهاية البلادة والجلافة ، وأما قوله فنسى ففيه وجوه (الأول) أنه كلام الله تعالى كأنه أخبر عن السامرى أنه نسى الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لايحل فى شىء ولايحل فيه شىء ثم إنه سبحانه بين المعنى الذى يجب الاستدلال به وهو قوله (أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضراً ونفعاً) أى لم يخطر ببالهم أن من لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع لايكون إلهاً ولا يكون للاله تعلق به فى الحالية والمحلية (الوجه الثانى) أن هذا قول السامرى وصف به موسى عليه السلام والمعنى أن هذا إلهكم وإله موسى فنسى موسى أن هذا هو الإله فذهب يطلبه فى موضع آخر وهو قول الأكثرين (الوجه الثالث) فنسى وقت الموعد فى الرجوع أما قوله (أن لايرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً) فهذا استدلال على عدم إلهيتها بأنها لاتتكلم ولا تنفع ولاتضر وهذا يدل على أن الاله لابد وأن يكون موصوفاً بهذه الصفات وهو كقوله تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام (لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وإن موسى عليه السلام فى أكثر الأمر لا يعول إلا على دلائل إبراهيم عليه السلام بقى ههنا بحثان .

﴿البحث الأول﴾ قال الزجاج الاختيار أن لا يرجع بالرفع بمعنى أنه لايرجع وهذا كقوله (وحسبوا أن لاتكون فتنة فعموا وصموا) بمعنى أنه لا تكون وقرىء بالنصب أيضاً على أن أن هذه هى الناصبة للأفعال .

﴿البحث الثانى﴾ هذه الآية تدل على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى وقال فى آية أخرى (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) وهو قريب فى المعنى من قوله فى ذم عبدة الأصنام (ألهم أرجل يمشون بها) وليس المقصود من هذا أن العجل لو كان يكلمهم لكان إلهاً لأن الشىء يجوز أن يكون مشروطاً بشروط كثيرة ففوات واحد منها يقتضى فوات المشروط ، ولكن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

حصول الواحد فيها لا يقتضى حصول المشروط (الثالث) قال بعض اليهود لعلى عليه السلام ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم؟ فقال إنما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة؟

قوله تعالى: ﴿ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾

اعلم أن هرون عليه السلام إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلأنه كان مأموراً من عند الله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأموراً من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) فلولم يشتغل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لأمر الله تعالى ولأمر موسى عليه السلام وذلك لا يجوز، أوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون أنى مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، فقال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فقال إنهم لم يغضبوا لغضبى. وقال ثابت البنانى قال أنس قال رسول الله ﷺ من أصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله فى شىء ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم. وعن الشعبى عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وقال أبو على الحسن الغورى كنت فى بعض المواضع فرأيت زورقاً فيها دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملاح إيش هذا فقال أنت صوفى فضولى وهذه خمور المعتضد، فقلت له اعطنى ذلك المدرى، فقال لغلامه اعطه حتى نبصر إيش يعمل، فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت أكسر دنا دنا والملاح يصيح حتى بقى واحد فأمسكت فجاء صاحب السفينة فأخذنى وحملنى إلى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره على قال من أنت؟ قلت المحتسب، قال من ولاك الحسبة؟ قلت الذى ولاك الخلافة. قال لم كسرت هذه الدنان؟ قلت شفقة عليك إذا لم تصل يدى إلى دفع مكروه عنك، قال فلم أبقيت هذا الواحد قلت إنى لما كسرت هذه الدنان فانى إنما كسرتها حمية فى دين الله فلما وصلت إلى هذا أعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته. فقال اخرج ياشيخ فقد وليتك الحسبة، فقلت كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطياً. وأما الشفقة على

www.besturdubooks.wordpress.com

المسلمين فلأن الانسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقاً على أبناء جنسه وأى شفقة أعظم من أن يرى جمعا يتهافتون على النار فيمنعهم منها ، وعن أبى سعيد الخدرى عنه عليه السلام «يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فانى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها فى القاسية قلوبهم فان فيهم غضبى» وعن عبد الله بن أبى أوفى قال «خرجت أريد النبى ﷺ فاذا أبو بكر وعمر معه فجاء صغير فبكى فقال لعمر ضم الصبى إليك فإنه ضال فأخذه عمر فاذا امرأة تولول كاشفة رأسها جزعا على ابنها فقال رسول الله ﷺ أدرك المرأة فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكى والصبى فى حجرها فالتفتت فرأت النبى ﷺ فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يارسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذى نفسى بيده إن الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها» ويروى «أنه بينا رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه إذ نظر إلى شاب على باب المسجد فقال من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا فسمع الشاب ذلك فولى فقال إلهى وسيدى هذا رسولك يشهد على بأنى من أهل النار وأنا أعلم أنه صادق فاذا كان الأمر كذلك فأسألك أن تجعلنى فداء أمة محمد ﷺ وتشعل النار بى حتى تبر يمينه ولا تشعل النار بأحد آخر فهبط جبريل عليه السلام وقال يامحمد بشر الشاب بأنى قد أنقذته من النار بتصديقه لك وفدائه أمتك بنفسه وشفقته على الخلق» إذا ثبت ذلك فاعلم أن الأمر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب. ثم إن هرون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال (ياقوم إنما فتنتم به) الآية وههنا دقيقة وهى أن الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلى «أنت منى بمنزلة هرون من موسى» ثم إن هرون مامنعته التقية(١) فى مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس إلى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره ، فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطأ لكان يجب على على عليه السلام أن يفعل ما فعله هرون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول (فاتبعونى وأطيعوا أمرى) فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الأمة كانوا على الصواب ، واعلم أن هرون عليه السلام سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل أولا بقوله (إنما فتنتم به) ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله (وإن ربكم الرحمن) ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله (فاتبعونى) ثم دعاهم الى الشرائع رابعاً بقوله (وأطيعوا أمرى) وهذا هو الترتيب الجيد لأنه لابد قبل كل شىء من إماطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى هى الأصل ثم النبوة ثم الشريعة ، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه ، وإنما قال (وإن ربكم الرحمن) فخص هذا الموضع باسم الرحمن لأنه كان ينبئهم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو الرحمن الرحيم ، ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ثم إنهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) كأنهم قالوا لانقبل حجتك ولكن نقبل قول

(١) فى الأصل التنقية وهو خطأ ، والتقية : المحافظة والخوف والحذر .

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

موسى وعادة المقلد ليس إلا ذاك .

قوله تعالى : ﴿ قال ياهرون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألا تتبعن أفعصيت أمرى ، قال يا ابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾

إعلم أن الطاعنين فى عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه (أحدها) أن موسى عليه السلام إما أن يكون قد أمر هرون باتباعه أو لم يأمره ، فان أمره به فإما أن يكون هرون قد اتبعه أو لم يتبعه ، فان اتبعه كانت ملامة موسى لهرون معصية وذنباً لأن ملامة غير المجرم معصية . وإن لم يتبعه كان هرون تاركا للواجب فكان فاعلا للمعصية . وأما إن قلنا إن موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته إياه بترك الاتباع معصية فثبت أن على جميع التقديرات يلزم إسناد المعصية إما إلى موسى أو إلى هرون (وثانيها) قول موسى عليه السلام (أفعصيت أمرى) استفهام على سبيل الانكار فوجب أن يكون هرون قد عصاه ، وأن يكون ذلك العصيان منكراً ، وإلا لكان موسى عليه السلام كاذباً وهو معصية ، فاذا فعل هرون ذلك فقد فعل المعصية (وثالثها) قوله (يا ابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) وهذا معصية لأن هرون عليه السلام قد فعل ماقدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر ، فان كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة ، وبعد أن علم أن هرون قد فعل ماقدر عليه كان الأخذ برأسه ولحيته معصية وإن فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك أيضاً معصية (ورابعها) أن هرون عليه السلام قال (لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) فان كان الأخذ بلحيته وبرأسه جائزاً كان قول هرون لاتأخذ منعاً له عما كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية ، وإن لم يكن ذلك الأخذ جائزاً كان موسى عليه السلام فاعلا للمعصية فهذه أمثلة لطيفة فى هذا الباب (والجواب) عن الكل أنا بينا فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها) أنواعا من الدلائل الجلية فى أنه لايجوز صدور المعصية من الأنبياء ، وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة مايبعد عن التأويل بما يتسارع اليه التأويل غير جائز ، إذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم أن لنا فى الجواب عن هذه الاشكالات وجوها (أحدها) أنا وإن اختلفنا فى جواز المعصية على الأنبياء لكن اتفقنا على جواز ترك الأولى عليهم ، وإذا كان كذلك فالفعل الذى يفعله أحدهما ويمنعه الآخر أعنى بهما

www.besturdubooks.wordpress.com

موسى وهرون عليهما السلام لعله كان أحدهما أولى والآخر كان ترك الأولى فلذلك فعله أحدهما وتركه الآخر ، فان قيل هذا التأويل غير جائز لأن كل واحد منهما كان جازما فيما يأتى به فعلا كان أو تركا وفعل المندوب وتركه لايجزم به ، قلنا تقييد المطلق بالدليل غير ممتنع ، فنحن نحمل ذلك الجزم فى الفعل والترك على أن المراد افعل ذلك أو اتركه إن كنت تريد الأصلح ، وقد يترك ذلك الشرط إذا كان تواطوهما على رعايته معلوماً متقرراً (وثانيها) أن موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فان الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه ويفتل أصابعه ويقبض لحيته فأجرى موسى عليه السلام أخاه هرون مجرى نفسه لأنه كان أخاه وشريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه فى حال الفكر والغضب فأما قوله (لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) فلا يمتنع أن يكون هرون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنوا إسرائيل من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له ، ثم أخذ فى شرح القصة فقال (إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل) ، (وثالثها) أن بنى اسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى أن هرون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام أنت قتلته ، فلما واعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له فى الألواح من كل شىء ثم رجع فرآى فى قومه مارآى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة فخاف هرون عليه السلام أن يسبق الى قلوبهم مالا أصل له فقال إشفاقا على موسى لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى لئلا يظن القوم مالا يليق بك (ورابعها) قال صاحب الكشاف : كان موسى عليه السلام رجلا حديداً مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شىء شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلم يتمالك حين رآى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى من بعد مارأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضباً لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فأقبل عليه إقبال العدو المكاشر ، واعلم أن هذا الجواب ساقط لأنه يقال هب أنه كان شديد الغضب ولكن مع ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى عاقلا مكلفاً أم لا ؟ فان بقى عاقلا مكلفاً فالأسئلة باقية بتمامها أكثر مافى الباب أنك ذكرت أنه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصى فقد زدت إشكالا آخر . فان قلتم بأنه فى ذلك الغضب لم يبق عاقلا ولا مكلفا فهذا مما لايرتضيه مسلم البتة فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك فى سقوط السؤال والله أعلم أما قوله (مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) ففيه وجهان (الأول) أن لا صلة والمراد مامنعك أن تتبعنى (والثانى) أن يكون المراد مادعاك إلى أن لا تتبعنى فأقام منعك مقام دعاك وفى الاتباع قولان (أحدهما) مامنعك من اتباعى بمن أطاعك واللحوق بى وترك المقام بين أظهرهم وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء (والثانى) أن تتبعنى فى وصيتى إذ قلت لك (أخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال (أفعصيت أمرى) ومعناه ظاهر

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ
قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ
لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ

وهذا يدل على أن تارك المأمور به عاص والعاصى مستحق للعقاب لقوله (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها) ولقوله (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) فمجموع الآيتين يدل على أن الامر للوجوب ، فأجاب هرون عليه السلام وقال (ياابن أم) قيل إنما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه وقيل كان أخاه لأمه (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) واعلم أنه ليس فى القرآن دلالة على أنه فعل ذلك ، فإن النهى عن الشيء لا يدل على كون المنهى فاعلا للمنهى عنه كقوله (ولا تطع الكافرين والمنافقين) وقوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) والذى فيه أنه أخذ برأس أخيه يجره إليه وهذا القدر لا يدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الأغراض على مابيناه ، ومن الناس من يقول إنه أخذ ذؤابتيه بيمينه ولحيته بيساره ثم قال (إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) ولقائل أن يقول إن قول موسى عليه السلام (مامنعك أن لا تتبعن أفعصيت أمرى) يدل على أنه أمره بشيء فكيف يحسن فى جوابه أن يقال إنما لم أمتثل قولك خوفاً من أن تقول (ولم ترقب قولى) فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل (والجواب) لعل موسى عليه السلام إنما أمره بالذهاب إليه بشرط أن لا يؤدى ذلك إلى فساد فى القوم فلما قال موسى (مامنعك أن لا تتبعن) قال لأنك إنما أمرتنى باتباعك إذا لم يحصل الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقباً لقولك . قال الإمام أبو القاسم الانصارى الهداية أنفع من الدلالة فإن السحرة كانوا أجانب عن الإيمان وما رأوا إلا آية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد فى الدنيا ولم يرجعوا عن الإيمان ، وأما قومه فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً والتقم كل ما جمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وأنه أمر إلهى ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا انفراق البحر إثنى عشر طريقاً وأن الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم ، ثم إن هؤلاء مع ماشاهدوا من هذه الآيات لما خرجوا من البحر ورأوا قوماً يعبدون البقر قالوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، ولما سمعوا صوتاً من عجل عكفوا على عبادته . وذلك يدل على أنه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية ، قرأ حمزة والكسائى (ياابن أم) بكسر الميم والإضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره ياابن أماه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قال فما خطبك ياسامري ، قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ، قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ، إنما إلهكم الله الذى لاإله إلا هو وسع كل شىء علماً ﴾

إعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هرون عليه السلام وعرف العذر له فى التأخير أقبل على السامرى ويجوز أن يكون قد كان حاضراً مع هرون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هرون أخذ فى التكلم مع السامرى ، ويجوز أن يكون بعيداً ثم حضر السامرى من بعد أو ذهب إليه موسى ليخاطبه ، فقال موسى عليه السلام (ماخطبك ياسامرى) والخطب مصدر خطب الأمر إذا طلبه فاذا قيل لمن يفعل شيئاً ماخطبك معناه ما طلبك له والغرض منه الإنكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكر السامرى عذره فى ذلك فقال (بصرت بما لم يبصروا به) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (بصرت بما لم يبصروا به) بالكسر وقرأ حمزة والكسائى بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء أى بما لم يبصر به بنو إسرائيل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الإبصار (قولان) قال أبو عبيدة علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم رجل بصير أى عالم وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال الزجاج فى تقريره أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيراً عالماً وقال آخرون رأيت ما لم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأراد أنه رأى دابة جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال (فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ الحسن قبضة بضم القاف وهى اسم للمقبوض كالغرفة والضغة وأما القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير وقرىء أيضاً فقبصت قبصة بالضاد والصاد فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه قرأ ابن مسعود من أثر فرس الرسول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ عامة المفسرين قالوا المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد بأثره التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا أنه متى رآه فقال الأكثرون إنما رآه يوم فلق البحر . وعن على عليه السلام أن جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام إلى الطور أبصره السامرى من بين الناس ، واختلفوا فى أن السامرى كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبي إنما عرفه

www.besturdubooks.wordpress.com

لأنه رآه في صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بنى إسرائيل ، فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه فلما رآه عرفه ، قال ابن جريج فعلى هذا قوله (بصرت بما لم يبصروا به) بمعنى رأيت ما لم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت أن تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الإحياء ، قال أبو مسلم الأصفهانى ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون فهنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه والتقدير أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم فى باب العجل ، فقال بصرت بما لم يبصروا به ، أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيئاً من سنتك ودينك فقذفته أى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة ، وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الأمير فى كذا وبماذا يأمر الأمير ، وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله عنه قوله (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) وإن لم يؤمنوا بالانزال . واعلم أن هذا القول الذى ذكره أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه (أحدها) أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه فاطلاق لفظ الرسول لإرادة جبريل عليه السلام كأنه تكليف بعلم الغيب (وثانيها) أنه لابد فيه من الإضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والإضمار خلاف الأصل (وثالثها) أنه لابد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر والذى ذكروه من أن جبريل عليه السلام هو الذى رباه فبعيد ، لأن السامرى إن عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبى صادق فكيف يحاول الإضلال وإن كان ماعرفه حال البلوغ فأى منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياً له فى الطفولية فى حصول تلك المعرفة (ورابعها) أنه لو جاز إطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول فلعل موسى عليه السلام اطلع على شىء آخر يشبه ذلك فلأجله أتى بالمعجزات ويرجع حاصله إلى سؤال من يطعن فى المعجزات ويقول لم لا يجوز أن يقال إنهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الأدوية التى لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة ، وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية . أما قوله (وكذلك سولت لى نفسى) فالمعنى فعلت مادعتنى إليه نفسى وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم

www.besturdubooks.wordpress.com

يدعني إلى مافعلته أحد غيري بل اتبعت هواي فيه ، ثم إن موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامري أجابه بأن بين حاله في الدنيا والآخرة وبين حال إلهه أما حاله في الدنيا فقوله (فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لامساس) وفيه وجوه (أحدها) أن المراد : أني لا أمس ولا أمس قالوا وإذا مسه أحد حم الماس والممسوس فكان إذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفاً من الحمى وقال لامساس (وثانيها) أن المراد بقوله (لامساس) المنع من أن يخالط أحداً أو يخالطه أحد وقال مقاتل إن موسى عليه السلام أخرجه من محلة بني إسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك فخرج طريداً إلى البراري ، اعترض الواحدي عليه فقال الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو لامساس وإنما يقال له ذلك وهذا الاعتراض ضعيف لأن الرجل إذا بقي طريداً فريداً فاذا قيل له كيف حالك فله أن يقول لامساس أي لا يماسني أحد ولا أماس أحداً ، والمعنى إني أجعلك يا سامري في المطرودية بحيث لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل إلا أنه لامساس وهذا الوجه أحسن وأقرب إلى نظم الكلام من الأول (وثالثها) ما ذكره أبو مسلم وهو أنه يجوز في حمله ما أريد مسي النساء فيكون من تعذيب الله إياه انقطاع نسله فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتي الدنيا اللتين ذكرهما بقوله (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وقرىء لامساس بوزن فجار وهو إسم علم للمرة الواحدة من المس ، وأما شرح حاله في الآخرة فهو قوله (وإن لك موعداً لن تخلفه) والموعد بمعنى الوعد أي هذه عقوبتك في الدنيا ثم لك الوعد بالمصير إلى عذاب الآخرة فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، قرأ أهل المدينة والكوفة لن تخلفه بفتح اللام أي لن تخاف ذلك الوعد أي سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام أي تجيء إليه ولن تغيب عنه ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبي عبيد كأنه قال موعداً حقاً لا خلف فيه وعن ابن مسعود لن نخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه في قوله (لأهب لك) وأما شرح حال إلهه فهو قوله (وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً) قال المفضل في ظلت إنه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك (فظلتم تفكهون) وأصله ظللت فحذفت اللام الأولى وذلك إنما يكون إذا كانت اللام الثانية ساكنة تستحب العرب طرح الأولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة إليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون في المضاعف يقولون مسته ومسسته ثم قال (لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً) وفي قوله(لنحرقنه) وجهان (أحدهما) المراد إحراقه بالنار وهذا أحد مايدل على أنه صار لحماً ودماً ، لأن الذهب لا يمكن إحراقه بالنار ،وقال السدي أمر موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف رماده وفي حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه وثانيهما لنحرقنه أي لنبردنه بالمبرد يقال حرقه يحرقه اذا برده وهذه القراءة تدل على أنه لم ينقلب لحماً ولادما فان ذلك لا يصح أن يبرد بالمبرد ، ويمكن أن يقال إنه صار لحماً فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد

www.besturdubooks.wordpress.com

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

حتى صارت بحيث يمكن نسفها ، قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار، وقرأ أبو جعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة يعنى لنبردنه ، واعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من إبطال ما ذهب إليه السامرى عاد إلى بيان الدين الحق فقال (إنما إلهكم) أي المستحق للعبادة والتعظيم (الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) قال مقاتل يعلم من يعبده ومن لا يعبده .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً ، من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزراً ، خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا ، يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ، يتخافتون بينهم إن لبثتم عشراً ، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا أتبعه بقوله (كذلك نقص عليك) من سائر أخبار الأمم وأحوالهم تكثيراً لشأنك وزيادة فى معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها فى الدين (وقد آتيناك من لدنا ذكراً) يعنى القرآن كما قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه)(وإنه لذكر لك) (والقرآن ذى الذكر)(ما يأتيهم من ذكر) (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) ثم فى تسمية القرآن بالذكر وجوه : (أحدها) أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم (وثانيها) أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ (وثالثها) فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال (وإنه لذكر لك ولقومك) ، واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكراً فقال (فاسألوا أهل الذكر) وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه : (أولها) قوله (من أعرض عنه) فانه يحمل يوم القيامة وزراً والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزراً تشبيها فى ثقلها

www.besturdubooks.wordpress.com

على المعاقب وصعوبة احتمالهـا الذى يثقل على الحامل وينقض ظهره أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم وقرىء يحمل ، ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين : (أحدهما) أنه يكون مخلداً مؤبداً (والثانى) قوله (وساء لهم يوم القيـامة حملا) أى وما أسوأ هـذا الوزر حملا أى محمولا وحملا منصوب على التمييز (وثانيها) (يوم ينفخ فى الصور) فالمراد بيان أن يوم القيامة هو يوم ينفخ فى الصور وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو ننفخ بفتح النون كقوله (ونحشر) وقرأ الباقون ينفخ على ما لم يسم فاعله ونحشر بالنون لأن النافخ ملك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى ، وقرىء يوم ينفخ بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لإسرافيل عليه السلام ، وأما (يحشر المجرمين) فلم يقرأ به إلا الحسن وقرىء فى الصور بفتح الواو جمع صورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (فى الصور) قولان (أحدهما) أنه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس إلى المحشر . (والثـانى) أنه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيـه ويدل عليه قراءة من قرأ الصور بفتح الواو والأول أولى لقوله تعالى (فاذا نقر فى الناقور) والله تعـالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا ومن عادة الناس النفخ فى البوق عند الأسفار وفى العساكر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لأن قوله بعد ذلك (ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً) كالدلالة على أن النفخ فى الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا) ، أما قوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة قوله (المجرمين) يتناول الكفار والعصاة فيـدل على عدم العفو عن العصاة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله إلهاً آخر ، وقد تقدم هذا الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى المراد بالزرقة على وجوه : (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى زرق العيون سود الوجوه وهى زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك ، فان قيل أليس أن الله تعالى أخبر أنهم (يحشرون عمياً) فكيف يكون أعمى وأزرق قلنا لعله يكون أعمى فى حال وأزرق فى حال (وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبى زرقا أى عمياً ، قال الزجاج يخرجون بصراء فى أول مرة ويعمون فى المحشر. وسواد العين إذا ذهب تزرق فان قيل كيف يكون أعمى ، وقد قال تعالى (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وشخوص البصر من الأعمى محال ، وقد قال فى حقهم (إقرأ كتابك) والأعمى كيف يقرأ (فالجواب) أن أحوالهم قد تختلف (وثالثها) قال أبو مسلم المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والأزرق شاخص لأنه لضعف بصره يكون محدقاً نحو الشىء يريد أن يتبينه وهـذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله (إنمـا يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) (ورابعها) زرقاً عطاشاً هكذا رواه ثعلب عن ابن الأعرابى قال لأنهـم من شدة

www.besturdubooks.wordpress.com

العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هذا التفسير قوله تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الأعرابي قال طامعين فيما لا ينالونه (الصفة الثالثة) من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى (يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يتخافتون أي يتسارون يقال خفت يخفت وخافت مخافتة والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى (فلا تسمع إلا همساً) وإنما يتخافتون لأنه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لأنهم صاروا بسبب الخوف فى نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن المراد بقوله (إن لبثتم) اللبث فى الدنيا أو فى القبر ، فقال قوم أرادوا به اللبث فى الدنيا ، وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك ، واحتجوا عليه بقوله تعالى (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين) فان قيل : إما أن يقال إنهم نسوا قدر لبثهم فى الدنيا ، أو ما نسوا ذلك ، والأول غير جائز إذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الانسان خمسين سنة فى بلد ثم ينساه ، والثانى غير جائز لأنه كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لا سيما وهذا الكذب لا فائدة فيه قلنا فيه وجوه : (أحدها) لعلهم إذا حشروا فى أول الأمر وعاينوا تلك الأهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا وما ذكروا إلا القليل فقالوا ليتنا ما عشنا إلا تلك الأيام القليلة فى الدنيا حتى لا نقع فى هذه الأهوال ، والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الأشياء وتمام تقريره مذكور فى سورة الأنعام فى قوله (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) ، (وثانيها) أنهم عالمون بمقدار عمرهم فى الدنيا إلا أنهم لما قابلوا أعمارهم فى الدنيا بأعمار الآخرة وجدوها فى نهاية القلة فقال بعضهم ما لبثنا فى الدنيا إلا عشرة أيام وقال أعقلهم بل ما لبثنا إلا يوماً واحداً أي قدر لبثنا فى الدنيا بالقياس إلى قدر لبثنا فى الآخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعدم ، وإنما خص العشرة والواحد بالذكر لأن القليل فى أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه إلا بالعشرة والواحد (وثالثها) أنهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لأن أيام السرور قصار (ورابعها) أن أيام الدنيا قد انقضت وأيام الآخرة مستقبلة والذاهب وإن طالت مدته قليل بالقياس إلى الآتى وإن قصرت مدته فكيف والأمر بالعكس ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ فى التقليل فقال (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً) (القول الثانى) أن المراد منه اللبث فى القبر ويعضده قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وقال (الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) فأما من جوز الكذب على أهل القيامة فلا إشكال له فى الآية ، أما من لم يجوز ، قال إن الله تعالى لما أحياهم فى القبر وعذبهم ثم أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا أن قدر لبثهم فى القبر كم كان ، فخطر ببال بعضهم أنه فى تقدير عشرة أيام ، وقال آخرون إنه يوم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا
صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ
وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ
مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

واحد ، فلما وقعوا فى العذاب مرة أخرى ، تمنوا زمان الموت الذى هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الأكثرون على أن قوله (إن لبثتم إلا عشراً) أى عشرة أيام ، فيكون قول من قال (إن لبثتم إلا يوماً) أقل وقال مقاتل (إن لبثتم إلا عشراً) أى عشر ساعات كقوله (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وعلى هذا التقدير يكون اليوم أكثر ، والله أعلم واعلم أنه سبحانه وتعالى بين بهذا القول أعظم مانالهم من الحيرة التى دفعوا عندها إلى هذا الجنس من التخافت .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ، وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما ﴾

إعلم أنه تعالى لما وصف أمر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال (ويسألونك عن الجبال) وفى تقرير هذا السؤال وجوه (أحدها) أن قوله (يتخافتون) وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك ، فكأنهم قالوا كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت

www.besturdubooks.wordpress.com

(وثانيها) قال الضحاك نزلت فى مشركى مكة قالوا يامحمد كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء (وثالثها) لعل قومه قالوا يامحمد إنك تدعى أن الدنيا ستنقضى فلو صح ماقلته لوجب أن تبتدئ أولا بالنقصان ثم تنتهى إلى البطلان ، لكن أحوال العالم باقية كما كانت فى أول الأمر، فكيف يصح ماقلته من خراب الدنيا؟ وهذه شبهة تمسك بها جالينوس فى أن السموات لاتفنى ، قال لأنها لو فنيت لابتدأت فى النقصان أولا حتى ينتهى نقصانها إلى البطلان ، فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا أن القول بالبطلان باطل، ثم أمر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال وضم إلى الجواب أموراً أخر فى شرح أحوال القيامة وأهوالها .

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (فقل ينسفها ربى نسفاً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما قال (فقل) مع فاء التعقيب لأن مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر ، فلا جرم أمره بالجواب مقروناً بفاء التعقيب . لأن تأخير البيان فى مثل هذه المسألة الأصولية غير جائز ، أما فى المسائل الفروعية فجائزة ، لذلك ذكر هناك قل من غير حرف التعقيب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله (ينسفها) عائد إلى الجبال والنسف التذرية ، أى تصير الجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية فإذا زالت الجبال زالت الحوائل فيعلم صدق قوله (يتخافتون) قال الخليل (ينسفها) أى يذهبها ويطيرها ، أما الضمير فى قوله (فيذرها) فهو عائد إلى الأرض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما فى عادة الناس من الإخبار عنها بالإضمار كقولهم ماعليها أكرم من فلان وقال تعالى (ماترك على ظهرها من دابة) وإنما قال (فيذرها قاعاً صفصفاً) ليبين أن ذلك النسف لايزيل الاستواء لئلا يقدر أنها لما زالت من موضع إلى موضع آخر صارت هناك حائلة ، هذا كله إذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كيفية المخافتة ، أما لو كان الغرض من السؤال ماذكرنا من أنه لانقصان فيها فى الحال فوجب أن لاينتهى أمرها إلى البطلان ، كان تقرير الجواب أن بطلان الشيء قد يكون بطلاناً يقع توليدياً ، فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلاناً يقع دفعة واحدة ، وههنا لا يجب تقديم النقصان على البطلان ، فبين الله تعالى أنه يفرق تركيبات هذا العالم الجسمانى دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة ههنا إلى تقديم النقصان على البطلان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصف الأرض ذلك الوقت بصفات (أحدها) كونها قاعاً وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء (وثانيها) الصفصف وهو الذى لانبات عليه ، وقال أبو مسلم القاع الأرض الملساء المستوية وكذلك الصفصف (وثالثها) قوله (لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً) وقال صاحب الكشاف قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج بالكسر فى المعانى والعوج بالفتح فى الأعيان ، فإن قيل الأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين ؟ قلنا اختيار هذا اللفظ له موقع بديع فى وصف الأرض بالاستواء ونفى الاعوجاج ، وذلك لأنك لو عمدت إلى قطعة

www.besturdubooks.wordpress.com

أرض فسويتها وبالغت فى التسوية فإذا قابلتها المقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعا من العوج خارجة عن الحس البصرى قال فذاك القدر من الاعوجاج لما لطف جداً ألحق بالمعانى فقيل فيه عوج بالكسر، واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأرض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لأن المضلع لابد وأن يتصل بعض سطوحه بالبعض لا على الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية (ورابعها) الأمت النتوء اليسير يقال مد حبله حتى مافيه أمت وتحصل من هذه الصفات الأربع أن الأرض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف والاعوجاج .

﴿ الصفة الثانية ﴾ ليوم القيامة قوله (يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له) وفى الداعى قولان (الأول) أن ذلك الداعى هو النفخ فى الصور وقوله (لاعوج له) أى لا يعدل عن أحد بدعائه بل يحشر الكل (الثانى) أنه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادى ويقول : أيتها العظام النخرة ، والأوصال المتفرقة ، واللحوم المتمزقة ، قومى إلى ربك للحساب والجزاء . فيسمعون صوت الداعى فيتبعونه ، ويقال إنه إسرافيل عليه السلام يضع قدمه على الصخرة فان قيل هذا الدعاء يكون قبل الإحياء أو بعده ؟ قلنا إن كان المقصود بالدعاء إعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الإحياء لأن دعاء الميت عبث وإن لم يكن المقصود إعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل أن يكون لطفاً للملائكة ومصلحة لهم فذلك جائز قبل الاحياء .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) وفيه وجوه : (أحدها) خشعت الأصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع إلا همساً وهو الذكر الخفى ، قال أبو مسلم : وقد علم الإنس والجن بأن لا مالك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاماً يفهم بتحريك الشفتين لضعفه . وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد : الهمس وطء الأقدام ، فالمعنى أنه لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) قال صاحب الكشاف من يصلح أن يكون مرفوعاً ومنصوباً فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف اليه أى لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن والنصب على المفعولية ، وأقول الاحتمال الثانى أولى لوجوه : (الأول) أن الأول يحتاج فيه إلى الإضمار وتغيير الأعراب والثانى لا يحتاج فيه إلى ذلك (والثانى) أن قوله تعالى (لا تنفع الشفاعة) يراد به من يشفع بها والاستثناء يرجع اليهم فكأنه قال لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق إلا شخصاً مرضياً (والثالث) وهو أن من المعلوم بالضرورة أن درجة الشافع درجة عظيمة فهى لا تحصل إلا لمن أذن الله له فيها وكان عند الله مرضياً ، فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى إيضاح الواضحات ، أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك إيضاح الواضحات فكان ذلك أولى ، إذا ثبت هذا فنقول : المعتزلة

www.besturdubooks.wordpress.com

قالوا : الفاسق غير مرضى عند الله تعالى فوجب أن لا يشفع الرسول فى حقه لأن هذه الآية دلت على أن المشفوع له لا بد وأن يكون مرضياً عند الله . واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة فى حق الفساق لأن قوله ورضى له قولا يكفى فى صدقه أن يكون الله تعالى قد رضى له قولا واحداً من أقواله ، والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولا واحداً من أقواله وهو : شهادة أن لا إله إلا الله . فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لأن الاستثناء من النفى إثبات فان قيل إنه تعالى استثنى عن ذلك النفى بشرطين (أحدهما) حصول الإذن (والثانى) أن يكون قد رضى له قولا ، فهب أن الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو أنه تعالى قد رضى له قولا ، لكن لم قلتم إنه أذن فيه ، وهذا أول المسألة قلنا هذا القيد وهو أنه رضى له قولا كاف فى حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فاكتفى هناك بهذا القيد ودلت هذه الآية على أنه لابد من الإذن فظهر من مجموعهما أنه إذا رضى له قولا يحصل الإذن فى الشفاعة ، وإذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود .

﴿الصفة الخامسة﴾ قوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ : الضمير فى قوله (بين أيديهم) عائد إلى الذين يتبعون الداعى ومن قال إن قوله (لمن أذن له الرحمن) المراد به الشافع قال ذلك الضمير عائد إليه والمعنى لا تنفع شفاعة الملائكة والأنبياء إلا لمن أذن له الرحمن فى أن تشفع له الملائكة والأنبياء ، ثم قال (يعلم ما بين أيديهم) يعنى ما بين أيدى الملائكة كما قال فى آية الكرسى ، وهذا قول الكلبى ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا له قال مقاتل يعلم ما كان قبل أن يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) وجوها : (أحدها) قال الكلبى (ما بين أيديهم) من أمر الآخرة (وما خلفهم) من أمر الدنيا (وثانيها) قال مجاهد (ما بين أيديهم) من أمر الدنيا والأعمال (وما خلفهم) من أمر الآخرة والثواب والعقاب (وثالثها) قال الضحاك يعلم ما مضى وما بقى ومتى تكون القيامة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى قوله (ولا يحيطون به علماً) وجهين : (الأول) أنه تعالى بين أنه يعلم ما بين أيدى العباد وما خلفهم . ثم قال : (ولا يحيطون به علماً) أى العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علماً (الثانى) المراد لا يحيطون بالله علماً والأول أولى لوجهين : (أحدهما) أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا قوله (ما بين أيديهم وما خلفهم) (وثانيهما) أنه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم أن سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله (وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما) ومعناه أن فى ذلك اليوم تعنوا الوجوه أى تذل ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ومن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

لفظ العنو أخذوا العانى وهو الأسير يقال عنا يعنو عناء إذا صار أسيراً وذكر الله تعالى (الوجوه) وأراد به المكلفين أنفسهم لأن قوله (وعنت) من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وهو كقوله (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية) وإنما خص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يبين وفيها يظهر وتفسير (الحي القيوم) قد تقدم ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال «أطلبوا اسم الله الأعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه » قال الراوى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) فبين تعالى على وجه التحذير أن ذلك اليوم لا يصح الإمتناع مما ينزل بالمرء من المجازاة ، وأن حاله مخالفة لحال الدنيا التى يختار فيها المعاصى ويمتنع من من الطاعات ، أما قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلماً) فالمراد بالخيبة الحرمان أى حرم الثواب من حمل ظلما والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من العفو فقالوا قوله (وقد خاب من حمل ظلماً) يعم كل ظالم ، وقد حكم الله تعالى فيه بالخيبة والعفو ينافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مراراً ، واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) يعنى ومن يعمل شيئا من الصالحات والمراد به الفرائض فكان عمله مقروناً بالإيمان وهو قوله (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات) فقوله (فلا يخاف) فى موضع جزم لكونه فى موضع جواب الشرط والتقدير فهو لا يخاف ونظيره (ومن عاد فينتقم الله منه) ، (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً) وقرأ ابن كثير فلا يخف على النهى وهو حسن لأن المعنى فليأمن والنهى عن الخوف أمر بالأمن والظلم هو أن يعاقب لا على جريمة أو يمنع من الثواب على الطاعة ، والهضم أن ينقص من ثوابه ، والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح أى ضامر البطن ومنه (طلعها هضيم) أى لازق بعضه ببعض ومنه انهضم طعامى ، وقال أبو مسلم الظلم أن ينقص من الثواب والهضم أن لا يوفى حقه من الإعظام لأن الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثواباً إلا إذا قارنه التعظيم وقد يدخل النقص فى بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الأمرين .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ، فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علماً ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن قوله (وكذلك) عطف على قوله (كذلك نقص) أى ومثل ذلك لا نزال وعلى نهجه أنزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين (أحدهما) كونه عربياً لتفهمه العرب فيقفوا على إعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر (والثانى) قوله (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لأن الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضى بيان الأحكام فلذلك قال (لعلهم يتقون) والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره فى سورة البقرة فى قوله (والذين من قبلكم لعلكم تتقون) أما قوله (أو يحدث لهم ذكراً) ففيه وجهان (الأول) أن يكون المعنى إنا إنما أنزلنا القرآن لأجل أن يصيروا متقين أى محترزين عما لاينبغى أو يحدث القرآن لهم ذكراً يدعوهم إلى الطاعات وفعل ما ينبغى ، وعليه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ القرآن كيف يكون محدثاً للذكر (الجواب) لما حصل الذكر عند قراءته أضيف الذكر إليه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم أضيف الذكر إلى القرآن وما أضيفت التقوى إليه (الجواب) أن التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح ، وذلك استمرار على العدم الأصلى فلم يجز إسناده إلى القرآن ، أما حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجازت إضافته إلى القرآن .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كلمة أو للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح الإتقاء إلا مع الذكر فما معنى كلمة أو (الجواب) هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أى لا تكن خالياً منهما فكذا ههنا (الوجه الثانى) أن يقال إنا أنزلنا القرآن ليتقوا فان لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكراً وشرفاً وصيتاً حسناً ، فعلى هذين التقديرين يكون إنزاله تقوى ، ثم إنه تعالى لما عظم أمر القرآن ردفه بأن عظم نفسه فقال (فتعالى الله الملك الحق) تنبيهاً على مايلزم خلقه من تعظيمه وإنما وصفه بالحق لأن ملكه لايزول ولايتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به فلهذا وصف بذلك ، وتعالى تفاعل من العلو وقد ثبت أن علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت الجلال وأنه لا تكيفه الأوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى إنما أنزل القرآن ليحترزوا عما لاينبغى وليقدموا على ماينبغى ، وأنه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم ، فالطاعات إنما تقع بتوفيقه وتيسيره ، والمعاصى إنما تقع عدلا منه وكل ميسر لما خلق له أما قوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلقه بما قبله وجهان (الوجه الأول) قال أبو مسلم إن من قوله (ويسالونك عن الجبال) إلى ههنا يتم الكلام وينقطع ثم قوله (ولا تعجل بالقرآن) خطاب

www.besturdubooks.wordpress.com

مستأنف فكأنه قال : ويسألونك ولا تعجل بالقرآن (الوجه الثانى) روى أنه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شيء فيقرأ مع الملك فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد فراغه فى القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين أنه سبحانه متعال عن كل مالا ينبغى وأنه موصوف بالإحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى ، وإذ حصل الأمان عن السهو والنسيان قال (ولا تعجل بالقرآن) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ولا تعجل بالقرآن) ويحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته فى نفسك ، ويحتمل أن لا تعجل فى تأديته إلى غيرك ، ويحتمل فى اعتقاد ظاهره ، ويحتمل فى تعريف الغير مايقتضيه ظاهره ، وأما قوله (من قبل أن يقضى إليك وحيه) فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك تمامه ، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك بيانه ، لأن هذين الأمرين لا يمكن تحصيلهما إلا بالوحى ، ومعلوم أنه عليه السلام لا ينهى عن قراءته لكى يحفظه ويؤديه فالمراد إذن أن لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحى تمامه أو بيانه أو هما جميعاً لأنه يجب التوقف فى معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق فى تفسير الآية . ولنذكر أقوال المفسرين : (أحدها) أن هذا كقوله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له لا تعجل إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك اياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهماً وعلماً وهذا قول مقاتل والسدى ورواه عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) ولا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى إليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة (وثالثها) قال الضحاك إن أهل مكة وأسقف نجران قالوا : يامحمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلا ثلاثة أيام فأبطأ الوحى عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمداً فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولا تعجل بالقرآن) أى بنزوله من قبل أن يقضى إليك وحيه من اللوح المحفوظ إلى إسرافيل ومنه إلى جبريل ومنه إليك (وقل رب زدنى علما) (ورابعها) روى الحسن أن امرأة أتت النبى ﷺ فقالت : زوجى لطم وجهى فقال بينكما القصاص فنزل قوله (ولا تعجل بالقرآن) فأمسك رسول الله ﷺ عن القصاص حتى نزل قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء) وهذا بعيد والاعتماد على التفصيل الأول أما قوله تعالى (وقل رب زدنى علما) فالمعنى أنه سبحانه وتعالى أمره بالفزع إلى الله سبحانه فى زيادة العلم التى تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الاستعجال الذى نهى عنه إن كان فعله بالوحى فكيف نهى عنه (الجواب) لعله فعله بالاجتهاد ، وكان الأولى تركه ، فلهذا نهى عنه

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى ﴾

إعلم أن هذا هو المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام فى القرآن أولها فى سورة البقرة ثم فى الأعراف ثم فى الحجر ثم فى الإسراء ثم فى الكهف ، ثم ههنا . واعلم أن فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها (أحدها) أنه تعالى لما قال (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) ثم إنه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة انجازاً للوعد فى قوله (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) (وثانيها) أنه لما قال (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً) أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال إن طاعة بنى آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فإنا قد عهدنا إلى آدم من قبل أى من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا فى تنبيهه حيث قلنا (إن هذا عدو لك ولزوجك) ثم إنه مع ذلك نسى وترك ذلك العهد فأمر البشر فى ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم (وثالثها) أنه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (وقل رب زدنى علماً) ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فانه بعد ماعهد الله اليه وبالغ فى تجديد العهد وتحذيره من العدو نسى ، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه فى أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان (ورابعها) أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما قيل له (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) دل على أنه كان فى الجد فى أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالافراط وصف آدم بالتفريط فى ذلك فانه تساهل فى ذلك ولم يتحفظ حتى نسى فوصف الأول بالتفريط والآخر بالافراط ليعلم أن البشر لاينفك عن نوع زلة (وخامسها) أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما قيل له (ولا تعجل) ضاق قلبه وقال فى نفسه لولا أنى أقدمت على ما لا ينبغى وإلا لما نهيت عنه فقيل له : إن كنت فعلت مانهيت عنه فانما فعلته حرصاً منك على العبادة ، وحفظاً لأداء الوحى

www.besturdubooks.wordpress.com

وإن أباك أقدم على مالا ينبغى للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره ، أما قوله تعالى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل) فلا شك أن المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهى منه كما يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم أشار الملك اليه وعهد اليه قال المفسرون عهدنا اليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها ، وفى قوله تعالى (من قبل) وجوه (أحدها) من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد فى القرآن (وثانيها) قال ابن عباس من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا اليه أن لا يأكل منها (وثالثها) أى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن ، أما قوله (فنسى) فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة ، ونعيد ههنا منه شيئاً قليلا ، وفى النسيان قولان (أحدهما) المراد ما هو نقيض الذكر ، وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة فى الضبط حتى تولد منه النسيان ، وكان الحسن رحمه الله يقول والله ما عصى قط إلا بنسيان (والثانى) أن المراد بالنسيان الترك وأنه ترك ما عهد اليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل من ثمرتها ، وقرىء فنسى أى فنساه الشيطان ، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال أقدم على المعصية من غير تأويل وأن يقال أقدم عليها مع التأويل ، والكلام فيه قد تقدم فى سورة البقرة ، وأما قوله (ولم نجد له عزماً) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزما وأن يكون نقيض العدم كأنه قال وعدمنا له عزما .

﴿ البحث الثانى ﴾ العزم هو التصميم والتصلب ، ثم قوله (ولم نجد له عزما) يحتمل ولم نجد له عزماً على القيام على المعصية فيكون إلى المدح أقرب ، ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزماً على ترك المعصية أو لم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة ، أو لم نجد له عزما على الاحتياط فى كيفية الاجتهاد إذا قلنا إنه عليه السلام إنما أخطأ بالاجتهاد . وأما قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) فهذا يشتمل على مسائل (إحداها) أن المأمورين كل الملائكة أو بعضهم (وثانيتها) أنه مامعنى السجود (وثالثتها) أن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ؟ وإن لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأى شىء صار مأموراً بالسجود ؟ (ورابعها) أن هذا يدل على أن آدم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ (وخامستها) أن قوله فى صفة إبليس أنه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الإباء وأنه هل كان كافراً ابتداء أو كفر بسبب ذلك . واعلم أن هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة ، أما قوله (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) ففيه سؤالات (الأول) ماسبب تلك العداوة ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن إبليس كان حسوداً فلما رأى آثار نعم الله تعالى فى حق آدم عليه السلام حسده فصار عدواً له (وثانيها) أن آدم كان شاباً عالما لقوله وعلم آدم الأسماء كلها ، وإبليس كان شيخاً جاهلا لأنه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل ، والشيخ الجاهل

www.besturdubooks.wordpress.com

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

أبداً يكون عدواً للشاب العالم (وثالثها) أن إبليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال (فلا يخرجنكما من الجنة) مع أن المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى (الجواب) لما كان بوسوسته هو الذى فعل ماترتب عليه الخروج صح ذلك .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما فى الفعل (الجواب) من وجهين (أحدهما) أن فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن فى ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده إليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة (الثانى) أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة ، وروى أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه أما قوله (إن لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرىء وأنك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع فيها ، فإن قيل : أن لا تدخل على أن فلا يقال أن إن زيداً منطلق والواو نائبة عن أن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها ؟ قلنا الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن أن ، إنما هى نائبة عن كل عامل ، فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع أن وأن

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ الشبع والرى والكسوة والإكتنان فى الظل هى الأقطاب التى يدور عليها أمر الإنسان . فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء له فى الجنة من غير حاجة إلى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لأضدادها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحى ليطرق سمعه شيئاً من أصناف الشقوة التى حذره منها حتى يبالغ فى الاحتراز عن السبب الذى يوقعه فيها ، وهذه الأشياء كلها كأنها تفسير الشقاء المذكور فى قوله (فتشقى) .

قوله تعالى :﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ، **فأكلا** منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، **ثم اجتباه** ربه فتاب عليه وهدى ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

واعلم أنه سبحانه بين أنه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجوداً للملائكة وبين أنه عرفه شدة عداوة إبليس له ولزوجه وأنه لعداوته يدعوهم إلى المعصية التى إذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها ، ثم إنه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الإقدام على الزلة ما اتفق ، والعجب ما روى عن أبى أمامة الباهلى قال «لو أن أحلام بنى آدم إلى قيام الساعة وضعت فى كفة ميزان ووضع حلم آدم فى الأخرى لرجح حلمه بأحلامهم» ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتنعة ، واعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ورغبه إبليس أيضاً فى دوام الراحة بقوله (هل أدلك على شجرة الخلد) وفى انتظام المعيشة بقوله (وملك لا يبلى) فكان الشىء الذى رغب الله آدم فيه هو الذى رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الإحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها ، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته ، كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربى . ومن تأمل فى هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه ، وأن الدليل وإن كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره . وأما قوله (فوسوس إليه الشيطان) فقد تقدم فى سورة البقرة أنه كيف وسوس ، وبماذا وسوس . فإن قيل : كيف عدى وسوس تارة باللام فى قوله (فوسوس لهما الشيطان) وأخرى بإلى ؟ قلنا قوله (فوسوس له) معناه لأجله وقوله (وسوس إليه) معناه أنهى إليه الوسوسة كقوله حدث له وأسر إليه ثم بين أن تلك الوسوسة كانت بتطميعه فى أمرين (أحدهما) قوله (هل أدلك على شجرة الخلد) أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود لأن من أكل منها صار مخلداً بزعمه (الثانى) قوله (وملك لا يبلى) أى من أكل من هذه الشجرة دام ملكه ، قال القاضى ليس فى الظاهر أن آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبياً لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه ، لأنه لابد وأن تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت ، وبالمعنى فآدم لما كان نبياً امتنع أن لا يعلم ذلك . قلنا : لا نسلم بأنه لابد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ، ولم لا يجوز أن يقال لا حاجة إلى الفترة أصلا ، وإن كان ولابد فيكفى حصول الفترة بغشى أو نوم خفيف . ثم إن كان ولابد من حصول الفترة بالموت فلم قلت النبى لابد وأن يعلم ذلك ، أليس قوم منكم يقولون إن موسى عليه السلام إنما سأل الرؤية لأنه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فاذا جاز ذلك الجهل فلم لا يجوز هذا الجهل ، ثم ما الدليل على أن آدم كان نبياً فى ذلك الوقت فإن مذهبنا أن واقعة الزلة إنما حصلت قبل رسالته لا بعدها ،

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم إن الذى يدل على أن آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها ، وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم «زنى ماعز فرجم» «وسها رسول الله فسجد» فإن هذه الفاء تدل على أن الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك ههنا يجب أن يكون الأكل كالمعلل باستماع قوله (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) وإنما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه ، فإنه لورد قوله لما أقدم على الأكل بناء على قوله ، فثبت أن آدم عليه قبل ذلك من إبليس ثم إنه سبحانه بين أنهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما ، قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وإنما جمع فقيل سوآتهما كما قال (صغت قلوبكما) فان قيل هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما ، قلنا لاشك أن ذلك كالمعلق على ذلك الأكل ، لكن يحتمل أن لايكون عقاباً عليه ، بل إنما ترتب عليه لمصلحة أخرى أما قوله (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال صاحب الكشاف طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وحكمها حكم كاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينها وبينه مسافة قصيرة ، وهى للشروع فى أول الأمر ، وكاد لمقاربته والدنو منه .

﴿ البحث الثانى ﴾ قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل ، وهو أن يخرز عليها الخصاف أى يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين ، أما قوله (وعصى آدم ربه فغوى) فمن الناس من تمسك بهذا فى صدور الكبيرة عنه من وجهين (الأول) أن العاصى إسم للذم فلا ينطلق إلا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا من فعل فعلا يعاقب عليه (والوجه الثانى) أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشد ومثل هذا الإسم لا يتناول إلا الفاسق المنهمك فى فسقه . أجاب قوم عن الكلام الأول فقالوا المعصية مخالفة الأمر ، والأمر قد يكون بالواجب والندب فانهم يقولون : أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى ، وأمرته بشرب الدواء فعصانى ، وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع إطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب ، فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض بأنا بينا أن ظاهر القرآن يدل على أن العاصى مستحق للعقاب والعرف يدل على أنه اسم ذم فوجب تخصيص اسم العاصى بتارك الواجب ، ولأنه لو كان تارك المندوب عاصياً لوجب وصف الأنبياء بأسرهم بأنهم عصاة فى كل حال لأنهم لا ينفكون من ترك المندوب ، فان قيل وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لايطرد ، قلنا لما سلمت كونه مجازاً فالأصل عدمه ، أما قوله أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى قلنا لانسلم أن هذا الاستعمال مروى عن العرب ، ولئن سلمنا ذلك ولكنهم إنما يطلقون ذلك إذا جزموا على المستشير بأنه لابد وأن يفعل ذلك الفعل وأنه لايجوز الاخلال بذلك الفعل

www.besturdubooks.wordpress.com

وحينئذ يكون معنى الايجاب حاصلا وإن لم يكن الوجوب حاصلا ، وذلك يدل على أن لفظ العصيان لا يجوز إطلاقه إلا عند تحقق الايجاب ، لكنا أجمعنا على أن الإيجاب من الله تعالى يقتضى الوجوب ، فيلزم أن يكون اطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام إنما كان لكونه تاركا للواجب . ومن الناس من سلم أن الآية تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم أن المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر ، وهذا قول عامة المعتزلة وهو أيضاً ضعيف ، لأنا بينا أن اسم العاصى اسم للذم ، ولأن ظاهر القرآن يدل على أنه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة ، وأجاب أبو مسلم الأصفهاني بأنه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذلك القول فى غوى ، وهذا أيضاً بعيد لأن مصالح الدنيا تكون مباحة ، ومن يفعلها لا يوصف بالعصيان الذى هو اسم للذم ولا يقال (فدلاهما بغرور) وأما التمسك بقوله تعالى (فغوى) فأجابوا عنه من وجوه : (أحدها) أنه خاب من نعيم الجنة وذلك لأنه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائماً ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل إنه غوى ، وتحقيقه أن الغى ضد الرشد ، والرشد هو أن يتوصل بشىء إلى شىء يوصل إلى المقصود فمن توصل بشىء إلى شىء فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غياً (وثانيها) قال بعضهم غوى أى بشم من كثرة الأكل قال صاحب الكشاف هذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً ، فيقول فى فنى وبقى فنا وبقا ، وهم بنو طىء فهو تفسير خبيث ، واعلم أن الأولى عندى فى هذا الباب والأحسم للشغب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك فى سورة البقرة . وههنا بحث لابد منه وهو أن ظاهر القرآن وإن دل على أن آدم عصى وغوى ، لكن ليس لأحد أن يقول إن آدم كان عاصياً غاوياً ، ويدل على صحة قولنا أمور : (أحدها) قال العتبى : يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه قد قطعه وخاطه ، ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاوداً لذلك الفعل معروفا به ، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام إلا مرة واحدة فوجب أن لا يجوز إطلاق هذا الإسم عليه (وثانيها) أن على تقدير أن تكون هذه الواقعة إنما وقعت قبل النبوة ، لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة ، إطلاق هذا الاسم عليه كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر بمعنى أنه كان كافراً ، بل وبتقدير أن يقال هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضاً أن يقال ذلك لأنه عليه السلام تاب عنها ، كما أن الرجل المسلم إذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك إنه شارب خمر أو زان فكذا ههنا (وثالثها) أن قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصياً فى أكثر الأشياء وغاوياً عن معرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان فى القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التى عصى فيها فكأنه قال عصى فى كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذى ذكرناه (ورابعها) أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره ، كما يجوز للسيد فى عبيده وولده عند معصيته من إطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد فى عبده وولده ، أما قوله (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه أى عاد

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك ، روى عن النبي ﷺ أنه قال « لو جمع بكاء أهل الدنيا إلى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر ، وإنما سمى نوحاً لنوحه على نفسه ، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر » وقال وهب إنه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى إليه وأمره بأن يقول « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين » فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت أرحم الراحمين » ثم قال قل « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم » قال ابن عباس رضى الله عنهما هذه الكلمات هى التى تلقاها آدم عليه السلام من ربه .

قوله تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

اعلم أن على أول هذه الآية سؤالا وهو أن قوله (اهبطا) ، إما أن يكون خطاباً مع شخصين أو أكثر فان كان خطاباً لشخصين فكيف قال بعده (فإما يأتينكم منى هدى) وهو خطاب الجمع وإن كان خطاباً لأكثر من شخصين فكيف قال (اهبطا) وذكروا فى جوابه وجوهاً :(أحدها) قال أبو مسلم الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله (إهبطا) ولأجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله (فإما يأتينكم) (ثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما

www.besturdubooks.wordpress.com

البشر أنفسهم لخوطبا مخاطبتهم فقال (فإما يأتينكم)على لفظ الجماعة ، أما قوله (بعضكم لبعض عدو فقال القاضي يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم ، فاذا انضاف إلى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام ، وقوله (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى) فيه دلالة على أن المراد الذرية ، وقد اختلفوا في المراد بالهدى ، فقال بعضهم الرسل وبعضهم قال الآخر والأدلة وبعضهم قال القرآن ، والتحقيق أن الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك ، وفى قوله (فلا يضل ولا يشقى) دلالة على أن المراد بالهدى الذى ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الأدلة ، واتباعها لايتكامل إلا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها ، ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لايضل ولا يشقى ، وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة (وثانيها) لا يضل ولا يشقى فى الآخرة لأنه تعالى يهديه إلى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها) لايضل ولا يشقى فى الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء فى الدنيا ، قلنا المراد لايضل فى الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس ، ولما وعد الله تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض ، فقال (ومن أعرض عن ذكرى) والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ماتقدم بيانه ويحتمل أن يراد به الأدلة ، وقوله (فان له معيشة ضنكا) فالضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال منزل ضنك ، وعيش ضنك ، فكأنه قال معيشة ذات ضنك ، واعلم أن هذا الضيق المتوعد به إما أن يكون فى الدنيا أو فى القبر أو فى الآخرة أو فى الدين أو فى كل ذلك أو أكثره (أما الأول) فقال به جمع من المفسرين وذلك لأن المسلم لتوكله على الله يعيش فى الدنيا عيشاً طيباً كما قال (فلنحيينه حياة طيبة) والكافر بالله يكون حريصاً على الدنيا طالباً للزيادة أبداً فعيشته ضنك وحالته مظلمة ، وأيضاً فمن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) وقال (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين) وقال (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً) . (وأما الثانى) وهو عذاب القبر ، فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبى سعيد الخدرى وعبد الله بن عباس ورفعه أبو هريرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن عذاب القبر للكافر قال والذى نفسى بيده إنه ليسلط عليه فى قبره تسعة وتسعون تنيناً » قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت الآية فى الأسود ابن عبد العزى المخزومى والمراد ضغطة القبر تختلف فيها أضلاعه (وأما الثالث) وهو الضيق فى الآخرة فى جهنم ، فان طعامهم فيها الضريع والزقوم ، وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها

www.besturdubooks.wordpress.com

ولا يحيون وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي (وأما الرابع) وهو الضيق فى أحوال الدين فقال ابن عباس رضى الله عنهما المعيشة الضنك هى أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشيء منها . سئل الشبلي عن قوله عليه السلام «إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية» فقال أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى إلى أنفسهم وأى معيشة أضيق وأشد من أن يرد الإنسان إلى نفسه ، وعن عطاء قال المعيشة الضنك هى معيشة الكافر لأنه غير موقن بالثواب والعقاب (وأما الخامس) وهو أن يكون المراد الضيق فى كل ذلك أو أكثره فروى عن على عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر فى الشدة ، وأن لا يتوصل إلى قوته إلا بمعصية الله تعالى» أما قوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) ففيه وجوه (أحدها) هذا مثل قوله (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما) وكما فسرت الزرقة بالعمى ، ثم قيل إنه يحشر بصيراً فاذا سيق إلى المحشر عمى والكلام فيه وعليه قد تقدم فى قوله (زرقا) ، (وثانيها) قال مجاهد والضحاك ومقاتل يعنى أعمى عن الحجة ، وهى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال القاضى هذا القول ضعيف لأن فى القيامة لابد أن يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه حتى يتميز لهم الحق من الباطل ، ومن هذا حاله لا يوصف بذلك إلا مجازاً ، والمراد به أنه كان من قبل ذلك كذلك ولا يليق بهذا قوله (وقد كنت بصيراً) ولم يكن كذلك فى حال الدنيا أقول ومما يؤكد هذا الاعتراض أنه تعالى علل ذلك العمى بما أن المكلف نسى الدلائل فى الدنيا فلو كان العمى الحاصل فى الآخرة بين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر ، كما أنه ماكان له فى الدنيا بسبب ذلك ضرر ، واعلم أن تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من أمر آخر وهو أن الأرواح الجاهلة فى الدنيا المفارقة عن أبدانها على جهالتها تبقى على تلك الجهالة فى الآخرة وأن تلك الجهالة تصير هناك سبباً لأعظم الآلام الروحانية . وبين هذه الطريقة وبين طريقة القاضى المبنية على أصول الاعتزال بون شديد (وثالثها) قال الجبائى : المراد من حشره أعمى أنه لا يهتدى يوم القيامة إلى طريق ينال منه خيراً بل يبقى واقفاً متحيراً كالأعمى الذى لا يهتدى إلى شيء ، أما قوله (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) ففى تقرير هذا الجواب وجهان (أحدهما) أنه تعالى إنما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والإعراض عنه (والثانى) هو أن الأرواح البشرية إذا فارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية ، فلهذا علل الله تعالى حصول العمى فى الآخرة بالاعراض عن الدلائل فى الدنيا ، ومن فسر المعيشة الضنك بالضيق فى الدنيا ، قال إنه تعالى بين أن من أعرض عن ذكره فى الدنيا فله المعيشة الضنك فى الدنيا ، والعمى فى الآخرة ، أما قوله (وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه) فقد

www.besturdubooks.wordpress.com

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا
وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ
ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

اختلفوا فيه فبعضهم قال أشرك وكفر ، وبعضهم قال أسرف فى أن عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله (ولم يؤمن بآيات ربه) لأن ذلك كالتفسير لقوله أسرف وبين أنه يجزى من هذا حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك (أن عذاب الآخرة أشد وأبقى) أما الأشد فلعظمه ، وأما الأبقى فلأنه غير منقطع .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ، فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾

إعلم أنه تعالى لما بين أن من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة أتبعه بما يعتبر[به] المكلف من الأحوال الواقعة فى الدنيا بمن كذب الرسل فقال (أفلم يهد لهم) والقراءة العامة أفلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله (كم أهلكنا) قال القفال جعل كثرة ماأهلك من القرون مبيناً لهم ، كما جعل مثل ذلك واعظاً لهم وزاجراً ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى أفلم نهد لهم بالنون ، قال الزجاج يعنى أفلم نبين لهم بياناً يهتدون به لو تدبروا وتفكروا ، وأما قوله (كم أهلكنا) فالمراد به المبالغة فى كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله (يمشون فى مساكنهم) أن قريشاً يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم ، وما حل بهم من ضروب الهلاك ، وللشاهدة فى ذلك من الاعتبار ماليس لغيره ، وبين أن فى تلك الآيات آيات لأولى النهى ، أى لأهل العقول والأقرب أن للنهية مزية على العقل ، والنهى لا يقال إلا فيمن له عقل ينتهى به عن القبائح ، كما أن لقولنا أولو العزم مزية على أولو الحزم ، فلذلك قال بعضهم أهل الورع وأهل التقوى ، ثم بين تعالى الوجه الذى لأجله لا ينزل العذاب معجلا على

www.besturdubooks.wordpress.com

من كذب وكفر بمحمد ﷺ فقال (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً ، ولا شبهة فى أن الكلمة هى إخبار الله تعالى ملائكته وكتبه فى اللوح المحفوظ ، أن أمته عليه السلام وإن كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم مايفعل بغيرهم من الاستئصال ، واختلفوا فيما لأجله لم يفعل ذلك بأمة محمد ﷺ ، قال بعضهم لأنه علم أن فيهم من يؤمن ، وقال آخرون علم أن فى نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك ، وقال آخرون المصلحة فيه خفية لايعلمها إلا هو ، وقال أهل السنة له بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة ، إذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة إن كانت قديمة لزم قدم الفعل ، وإن كانت حادثة افتقرت إلى علة أخرى ولزم التسلسل، فلهذا قال أهل التحقيق كل شىء صنيعه لا لعلة ، وأما الأجل المسمى ففيه قولان (أحدهما) ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر (والثانى) ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك عذاب وهذا أقرب ، ويكون المراد ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب إلى الآخرة كقوله (بل الساعة موعدهم) لكان العقاب لازماً لهم فيما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له ، ثم إنه تعالى لما أخبر نبيه بأنه لايهلك أحداً قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ولا شبهة فى أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم ، فيحتمل أن يكون ذلك قول بعضهم إنه ساحر أو مجنون أو شاعر إلى غير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة، ويحتمل أيضاً تركهم القبول منه لأن كل ذلك مما يغمه ويؤذيه فرغبه تعالى فى الصبر وبعثه على الإدامة على الدعاء إلى الله تعالى وإبلاغ ماحمل من الرسالة وأن لا يكون مايقدمون عليه صارفاً له عن ذلك ، ثم قال الكلبى ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية القتال ، ثم قال (فسبح بحمد ربك) وهو نظير قوله (واستعينوا بالصبر والصلاة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (بحمد ربك) فى موضع الحال أى وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما أمر عقيب الصبر بالتسبيح لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى التسبيح على وجهين ، فالأكثرون على أن المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه (أحدها) أن الآية تدل على أن الصلوات الخمس لا أزيد ولا أنقص ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما دخلت الصلوات الخمس فيه ، فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر ، وقبل غروبها هو الظهر والعصر لأنهما جميعاً قبل الغروب ، ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الأخيرة ويكون قوله (وأطراف النهار) كالتوكيد للصلاتين الواقعتين فى طرفى النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت فى قوله (والصلاة الوسطى) بالتوكيد (القول

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ

الثانى) أن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة ، أما دلالتها على الصلوات الخمس فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها ، فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين ، فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما ، بقى قوله (ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) وأطراف النهار للنوافل (القول الثالث) أنها تدل على أقل من الخمس ، فقوله قبل طلوع الشمس للفجر ، وقبل غروبها للعصر ، ومن آناء الليل للمغرب والعتمة ، فيبقى الظهر خارجا . والقول الأول أقوى وبالاعتبار أولى . هذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة ، قال أبو مسلم لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال ، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الأوقات ، وهذا القول أقرب إلى الظاهر وإلى ماتقدم ذكره ، وذلك لأنه تعالى صبره أولا على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر ، والذى يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائماً مظهراً لذلك وداعياً إليه فلذلك قال مايجمع كل الأوقات .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ أفضل الذكر ما كان بالليل لأن الجمعية فيه أكثر ، وذلك لسكون الناس وهدء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الأعمال ، ولذلك قال سبحانه وتعالى (إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا) وقال (أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة) ولأن الليل وقت السكون والراحة . فإذا صرف إلى العبادة كانت على الأنفس أشق وللبدن أتعب فكانت أدخل فى استحقاق الأجر والفضل .

﴿ **المسألة الخامسة** ﴾ لقائل أن يقول : النهار له طرفان فكيف قال (وأطراف النهار) بل الأولى أن يقول كما قال (وأقم الصلاة طرفى النهار) ؟ وجوابه من الناس من قال أقل الجمع اثنان فسقط السؤال ، ومنهم من قال إنما جمع لأنه يتكرر فى كل نهار ويعود ، أما قوله تعالى (لعلك ترضى) ففيه وجوه (أحدها) أن هذا كما يقول الملك الكبير يا فلان اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به ويكون المراد إنى أوصلك إلى درجة عالية فى النعمة ، وهو إشارة إلى قوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ، (وثانيها) لعلك ترضى ماتنال من الثواب (وثالثها) لعلك ترضى ما تنال من الشفاعة . وقرأ الكسائى وعاصم لعلك ترضى بضم التاء والمعنى لايختلف لأن الله تعالى إذا أرضاه فقد رضيه وإذا رضيه فقد أرضاه .

قوله تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة

www.besturdubooks.wordpress.com

عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

للتقوى . وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ، ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ، قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾

إعلم أنه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على مايقولون ، وأمره بأن يعدل إلى التسبيح أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه إلى ما متع به القوم فقال تعالى (ولا تمدن عينيك) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (ولا تمدن عينيك) وجهان (أحدهما) المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور إليه إعجاباً به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا (ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) حتى واجههم أولوا العلم والإيمان بقولهم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك كما إذا نظر الانسان إلى شىء مرة ثم غض ، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز فى الطباع قيل (ولا تمدن عينيك) أى لا تفعل ما أنت معتاد له . ولقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة فى اللباس والمركوب وغير ذلك لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمقوى لهم على اتخاذها (القول الثانى) قال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله (ولا تمدن عينيك) ليس هو النظر ، بل هو الأسف ، أى لا تأسف على مافاتك مما نالوه من حظ الدنيا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو رافع « نزل ضيف بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى إلى يهودى لبيع أو سلف ، فقال والله لا أفعل ذلك إلا برهن فأخبرته بقوله فأمرنى أن أذهب بدرعه إليه فنزل قوله تعالى (ولا تمدن عينيك) » وقال عليه السلام « إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم » وقال أبو الدرداء : الدنيا دار من لادار له ومال

www.besturdubooks.wordpress.com

من لامال له ولها يجمع من لاعقل له . وعن الحسن : لولا حمق الناس لخربت الدنيا . وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال لاتتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم لها عبيداً ، وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رآى ماعند السلاطين يتلو هذه الآية ،وقال الصلاة يرحمكم الله ،أما قوله عزوجل (إلى مامتعنا به)[أى] ألذذنا به ، والإمتاع الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الأصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغيرذلك من الملابس والمناكح ، يقال أمتعه إمتاعاًومتعه تمتيعاً والتفعيل يقتضى التكثير ، أما قوله (أزواجا منهم) أى أشكالا وأشباها من الكفار وهى من المزاوجة بين الأشياء وهى المشاكلة ، وذلك لأنهم أشكال فى الذهاب عن الصواب ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما أصنافا منهم ، وقال الكلبى والزجاج رجالامنهم ، أما قوله (زهرة الحياة الدنيا) ففى انتصابه أربعة أوجه (أحدها) على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعنا معنى أعطينا وكونه مفعولا ثانياً له أو على إبداله من محل الجار والمجرور أو على إبداله من أزواجا على تقدير ذوى ، فان قيل مامعنى الزهرة فيمن حرك قلنا معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء فى الجهرة قرىء أرنا الله جهرة ، وأن يكون جمع زاهر وصفاً لهم بأنهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشف فى الثياب ، أما قوله (لنفتنهم فيه) فذكروا فيه وجوها (أحدها) لنعذبهم به كقوله (فلا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) ، (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما إضلالا منى لهم (وثالثها) قال الكلبى ومقاتل تشديداً فى التكليف عليهم لأن الإعراض عن الدنيا عند حضورها والإقبال إلى الله أشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء إلى خدمة الله تعالى والتضرع اليه أكثر من تضرع الأغنياء ، ولأن على من أوتى الدنيا ضروباً من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولأن القادر على المعاصى يكون الاجتناب عن المعاصى أشق عليه من العاجز الفقير ، فمن هذه الجهات تكون الزيادة فى الدنيا تشديداً فى التكليف ثم قال لرسوله (ورزق ربك خير وأبقى) والأظهر أن المراد أن مطلوبك الذى تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى ، لأنه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد ماأوتيته من يسير الدنيا إذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى ، فذكر الرزق فى الدنيا ووصفه بحسن عاقبته إذا رضى به وصبر عليه ، ويحتمل أن يكون المراد ما أعطى من النبوة والدرجات الرفيعة ، وأما قوله (وأمر أهلك بالصلاة) فمنهم من حمله على أقاربه ومنهم من حمله على كل أهل دينه ، وهذا أقرب وهو كقوله (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) وإن احتمل أن يكون المراد من يضمه المسكن إذ التنبيه على الصلاة والأمر بها فى أوقاتها ممكن فيهم دون سائر الأمة يعنى كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت قومك بها ، أما قوله(واصطبر عليها) فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلا ، فان الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول ، وكان رسول الله

www.besturdubooks.wordpress.com

ﷺ بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى عليهما السلام كل صباح ويقول «الصلاة» وكان يفعل ذلك أشهراً ، ثم بين تعالى أنه إنما يأمرهم بذلك لمنافعهم وأنه متعال عن المنافع بقوله (لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) وفيه وجوه (أحدها) قال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج ، وهو كقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) (وثانيها) (لا نسألك رزقاً) لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ، ففرغ بالك لأمر الآخرة ، وفي معناه قول الناس : من كان في عمل الله كان الله في عمله (وثالثها) المعنى أنا لما أمرناك بالصلاة فليس ذلك لأنا ننتفع بصلاتك . فعبر عن هذا المعنى بقوله (لا نسألك رزقاً) بل نحن نرزقك في الدنيا بوجوه النعم وفي الآخرة بالثواب ، قال عبد الله بن سلام « كان النبي ﷺ إذا نزل بأهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية » واعلم أنه ليس في الآية رخصة في ترك التكسب لأنه تعالى قال في وصف المتقين (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، أما قوله والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لأهل التقوى يعني تقوى الله تعالى ، ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم ، فكأنه من تمام قوله (فاصبر على ما يقولون) وهي قولهم (لولا يأتينا بآية من ربه) أوهموا بهذا الكلام أنه يكلفهم الإيمان من غير آية ، وقالوا في موضع آخر (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وأجاب الله تعالى عنه بقوله (أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى) وفيه وجوه : (أحدها) أن ما في القرآن إذا وافق ما في كتبهم مع أن الرسول ﷺ لم يشتغل بالدراسة والتعلم وما رأى أستاذاً البتة كان ذلك إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً (وثانيها) أن بينة ما في الصحف الأولى ما فيها من البشارة بمحمد ﷺ وبنبوته وبعثته (وثالثها) ذكر ابن جرير والقفال [أن] المعنى (أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى) من أنباء الأمم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك ، وإنما أتاهم هذا البيان في القرآن ،فلهذا وصف القرآن بكونه (بينة ما في الصحف الأولى) واعلم أنه إنما ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى البرهان والدليل ، ثم بين أنه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة في التكليف ،فقال (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذراً لهم ، فأما الآن وقد أرسلناك وبينا على لسانك لهم ما عليهم وما لهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة عليهم . ومعنى (من قبله) يحتمل من قبل إرساله ويحتمل من قبل ما أظهره من البينات فإن قيل فما معنى قوله (ولو أنا أهلكناهم لقالوا) والهالك لا يصح أن يقول قلنا المعنى لكان لهم أن يقولوا ذلك يوم القيامة ولذلك قال (من قبل أن نذل ونخزى) وذلك لا يليق إلا بعذاب الآخرة ، روى أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال عليه السلام « يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة : الهالك في الفترة يقول لم يأتني رسول وإلا كنت أطوع خلقك لك . وتلا قوله (لولا

www.besturdubooks.wordpress.com

أرسلت إلينا رسولا) والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لى عقلا أنتفع به ، ويقول الصبى كنت صغيراً لا أعقل فترفع لهم نار ، ويقال لهم ادخلوها فيدخلها من كان فى علم الله تعالى أنه شقى ويبقى من فى علمه أنه سعيد ، فيقول الله تعالى لهم : عصيتم اليوم فكيف برسلى لو أتوكم » والقاضى طعن فى الخبر وقال لا يحسن العقاب على من لا يعقل ، واعلم أن فى هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ، قال الجبائى هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف إذ المراد أنه يجب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن ؟ وهلا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ؟ وإن كان فى المعلوم أنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم الرسول لم يكن فى ذلك حجة ، فصح أنه إنما يكون حجة لهم إذا كان فى المعلوم أنهم يؤمنون عنده إذا أطاعوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الكعبى قوله (لو لا أرسلت إلينا رسولا) أوضح دليل على أنه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده ، وأنه ليس قوله (لا يسأل عما يفعل) كما ظنه أهل الجبر من أن ما هو جور منا يكون عدلا منه بل تأويله : أنه لا يقع منه إلا العدل فاذا ثبت أنه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه أعظم حجة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال أصحابنا الآية تدل على أن الوجوب لا يتحقق إلا بالشرع إذ لو تحقق العقاب قبل مجىء الشرع لكان العقاب حاصلا قبل مجىء الشرع .

ثم إنه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال (قل كل متربص) أى كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت ، إما بسبب الأمر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة ، ويحتمل أن يكون بالموت فان كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه ، ويحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب ، فانه يتميز فى الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى ، وعلى المبطل من أنواع إهانته (فستعلمون) عند ذلك (من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) اليه وليس هو بمعنى الشك والترديد ، بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار ، والله أعلم .

---

www.besturdubooks.wordpress.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة طه

سورة طه مكيةٌ[(١)] في قول الجميع، نَزلت قبلَ إسلامِ عمر ﷺ. روى الدارقطنيُّ في «سننه»، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: خرَج عمر متقلِّداً السيفَ، فقيل له: إن خَتَنك وأختَك قد صَبُؤَا[(٢)]، فأتاهما عمر وعندهما رجُلٌ من المهاجرين يقال له: خَبّابٌ، وكانوا يقرؤون «طه»، فقال: أعطوني الكتابَ الذي عندكم فأقرأه - وكان عمرُ ﷺ يقرأ الكتبَ - فقالت له أختُه: إنك رِجْس، ولا يَمَسُّه إلا المطهَّرون، فَقُمْ فاغتسل، أو توضَّأ. فقام عمر ﷺ فتوضأ، ثم أخذ الكتابَ[(٣)] فقرأ: «طه»[(٤)].

وذكره ابن إسحاق مطوَّلاً: وأن عمر خرج متوشِّحاً سيفَه يريد رسولَ الله ﷺ وقَتْلَه، فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال: أين تريد يا عمرُ؟ قال: أُريدُ محمداً هذا الصابئ الذي فرَّق أمرَ قريش، وسفَّه أحلامَها، وعابَ دينَها، وسبَّ آلهتَها فأقتله. فقال له نُعيم: واللهِ، لقد غرَّتك نفسُك من نفسك يا عمر، أترى بَني عبد مَناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمداً؟! أفلا ترجعُ إلى أهلك[(٥)] فتُقيمَ أمرَهم؟!. فقال: وأيّ أهل بيتي؟. قال: خَتَنُك وابنُ عمِّك سعيد بن زيد، وأختُك

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٦ ، وزاد المسير ٥/٢٦٨ .

(٢) صبأ، كمنَعَ وكَرُمَ: خرج من دين إلى دين آخر. القاموس المحيط (صبأ).

(٣) في (د) و(م): وتوضأ وأخذ الكتاب، وفي (ظ): فتوضأ واغتسل ثم أخذ الكتاب، والمثبت من (خ) و(ز)، وهو الموافق لسنن الدارقطني.

(٤) سنن الدارقطني (٤٤١)، وقد تفرَّد براويته القاسم بن عثمان، وسيرد الكلام عليه في الرواية المطولة الآتية.

(٥) في السيرة النبوية: أهل بيتك.

فاطمة بنت الخطّاب، فقد واللهِ أسلَما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. قال: فرجَع عمر عامداً إلى أخته وخَتَنِه، وعندهما خبَّاب بنُ الأرَتّ معه صحيفةٌ فيها «طه» يُقرِئهما إياها، فلما سمعوا حِسَّ عمر تغيَّب خَبَّابٌ في مَخدَعٍ لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنتُ الخطاب الصحيفةَ فجعلتها تحت فخِذِها، وقد سمعَ عمرُ حين دنا إلى البيت قراءةَ خبَّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمةُ[1] التي سمعتُ؟ قالا له: ما سمعتَ شيئاً. قال: بلى، واللهِ لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختَنه سعيد بنِ زيد، فقامت إليه أُخته فاطمةُ بنت الخطاب لِتَكُفَّه عن زوجها، فضربها فشجَّها. فلما فعل ذلك قالت له أخته وختَنُه: نعم، قد أسلمنا وآمنَّا بالله ورسوله، فاصنَعْ ما بدا لك. ولما رأى عمر ما بأخته من الدم نَدِمَ على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أَعطيني هذه الصحيفةَ التي سمعتُكم تقرؤونها آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمدٌ ـ وكان عمر كاتباً ـ فلما قال ذلك قالت له أخته: إنَّا نخشاك عليها. قال لها: لا تخافي. وحلَف لها بآلهته لَيردَّنَّها إذا قرأها، فلما قال ذلك طَمِعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نَجِسٌ على شِركك، وإنه لا يَمَسُّها إلا الطاهر. فقام عمر فاغتسَل، فأعطته الصحيفةَ وفيها «طه»، فقرأها، فلمَّا قرأ منها صدراً قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه! فلما سمع ذلك خَبَّابٌ خرَج إليه، فقال له: يا عمر، واللهِ إني لَأرجو أن يكون اللهُ قد خصَّك بدعوة نبيِّه، فإني سمعتُه أمسِ وهو يقول: «اللهم أيِّدِ الإسلامَ بأبي الحَكَم بنِ هشام، أو بعمرَ بنِ الخطاب». فاللهَ اللهَ يا عمر. فقال له عند ذلك: فدُلَّني يا خبَّاب على محمدٍ حتى آتيَه فأُسلم؛ وذكر الحديث[2].

---

(١) أي: الصوت الخفي. القاموس (هنم).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٤٣ - ٣٤٥، وأخرج الخبر بطوله ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٦٧ - ٢٦٨، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٢١٩ . وفي إسناده القاسم بن عثمان البصري، قال البخاري: له أحاديث لا يتابع عليها، وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٧٥ : حدّث عنه إسحاق الأزرق بمتن محفوظ وبقصة إسلام عمر، وهي منكرة جداً. اهـ. وقوله: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب» أخرجه بنحوه أحمد (٥٦٩٦)، والترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرج أحمد (٤٣٦٢) ضمن حديث لابن مسعود يذكر فيه فضائل عمر رضي الله عنهما قوله ﷺ: «اللهم أيِّد الإسلام بعمر».

مسألة: أسند الدارميُّ أبو محمد في «مسنده» عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلُقَ السماواتِ والأرضَ بألفَي عام، فلمَّا سمعت الملائكةُ القرآنَ قالت: طُوبى لأمةٍ ينزِلُ هذا عليها، وطوبى لأجوافٍ تحملُ هذا، وطوبى لألسنةٍ تتكلَّمُ بهذا»(١).

قال ابن فُورَك(٢) معنى قوله: «إن الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و«يس»، أي: أظهَرَ وأسمَعَ وأفهمَ كلامَه مَن أراد مِن خلقه مِن الملائكة في ذلك الوقت، والعربُ تقول: قرأتُ الشيءَ: إذا تتبَّعته، وتقول: ما قرأتْ هذه الناقةُ في رَحِمها سَلًى(٣) قطُّ، أي: ما ظهرَ فيها ولدٌ. فعلى هذا يكون الكلام سائغاً، وقراءته: إسماعُه وإفهامه بعباراتٍ يَخلقها وكتابةٍ يُحدثها، وهي معنى قولِنا: قرأنا كلامَ الله، ومعنى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

ومن أصحابنا من قال: معنى قوله: «قرأ» أي: تكلَّم به، وذلك مجازٌ كقولهم: ذُقتُ هذا الأمرَ(٤) ذواقاً بمعنى اختبرته. ومنه قوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] أي: ابتلاهم اللهُ تعالى به، فسمَّى ذلك ذوقاً، والخوف لا يُذاق على الحقيقة؛ لأن الذَّوقَ في الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح.

قال ابن فُورَك: وما قلناه أولاً أصحُّ في تأويل هذا الخبر؛ لأن كلامَ الله تعالى أَزَليٌّ قديمٌ سابقٌ لجملةِ الحوادث، وإنما أسمعَ وأفهمَ مَن أراد من خلقه على ما أراد

---

(١) مسند الدارمي (٣٤١٤). وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء الكبير ١/ ٦٦ ، وابن عدي في الكامل ١/ ٢١٨ ، وابن حبان في المجروحين ١/ ١٠٨ . وفي إسناده إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن عدي: لم أجد له حديثاً أنكر من حديث: قرأ: «طه» و«يس». وقال ابن حبان: وهذا متن موضوع.

(٢) في مشكل الحديث ص٢٨٩ - ٢٩٠ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) السَّلَى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، وقيل: هو في الماشية السَّلَى، وفي الناس المشيمة. النهاية (سلي).

(٤) في (د) و(م): القول: والمثبت من (خ) و(ز)، وهو الموافق لمشكل الحديث لابن فورك.

في الأوقات والأزمنة، لا أن عينَ كلامِه يتعلَّق وجوده بمدةٍ وزمان.

قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿طه﴾ اختلف العلماء في معناه، فقال الصدِّيق رضي الله تعالى عنه: هو من الأسرار، ذكره الغزنويُّ. ابن عباس: معناه: يا رجل، ذكره البيهقيُّ(١). وقيل: إنها لغةٌ معروفة في عُكْلٍ. وقيل: في عَكٍّ. قال الكلبيُّ: لو قلت في عَكّ لرجل: يا رجل، لم يُجب حتى تقول: طه(٢). وأنشد الطبريُّ في ذلك فقال:

دعوتُ بطه في القتال فلم يُجِبْ ... فخفتُ عليه أن يكون مُوَائِلا(٣)

ويروى: مُزايلا.

وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرو: يا حبيبي؛ بلغة عَكٍّ، ذكره الغزنوي. وقال قطرب: هو بلغة طيِّئ(٤)، وأنشد ليزيد بن المُهلهِل:

إنَّ السَّفاهةَ طَهَ من شمائلكم ... لا بارك اللهُ في القوم المَلَاعِينِ(٥)

وكذلك قال الحسن: معنى «طه»: يا رجل. وقاله عكرمة(٦)، وقال: هو بالسُّريانية

(١) في دلائل النبوة ١/١٥٨ - ١٥٩، وفي إسناده محمد بن السائب الكلبي، وهو متهم بالكذب كما في تقريب التهذيب.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/١٥٩ بعد خبر ابن عباس رضي الله عنهما السالف.

(٣) نسبه الطبري ١٦/٨ لمتمم بن نُويرة، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٣٦. والمُوائل: الطالب للنجاة. القاموس (وأل).

(٤) يعني: يا رجل. كما في النكت والعيون ٣/٣٩٣.

(٥) النكت والعيون ٣/٣٩٢، وتفسير الطبري ١٦/٨، والمحرر الوجيز ٤/٣٦.

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١٦/٦ - ٧.

كذلك[١]؛ ذكره المهدويُّ، وحكاه الماورديُّ عن ابن عباس أيضاً ومجاهد[٢]. وحكى الطبريُّ[٣]: أنه بالنَّبَطِيّة: يا رجل. وهذا قولُ السديِّ وسعيد بنِ جُبير وابن عباس أيضاً، قال:

إن السفاهة طه من خلائقكم لا قدَّس اللهُ أرواحَ الملاعينِ[٤]

وقال عكرمة أيضاً: هو كقولك: يا رجل؛ بلسان الحبشة[٥]؛ ذكره الثعلبيُّ.

والصحيح أنها وإن وُجدت في لغة أُخرى؛ فإنها من لغة العرب كما ذكرنا، وأنها لغةٌ يَمنيَّة في عَكٍّ وطَيِّئ وعُكْل أيضاً.

وقيل: هو اسمٌ من أسماء اللهِ تعالى، وقَسَمٌ أَقسَم به. وهذا أيضاً مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما[٦]. وقيل: هو اسمٌ للنبيِّ ﷺ؛ سماه اللهُ تعالى به كما سمَّاه محمداً[٧]. ورويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «لي عندَ ربِّي عشرةُ أسماء»؛ فذكر أنَّ فيها طه ويس[٨]. وقيل: هو اسمٌ للسورة، ومِفتاحٌ لها. وقيل: إنه اختصارٌ من كلام الله خصَّ

---

(١) زاد المسير ٥/ ٢٦٩ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٩٢ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٦ .

(٣) في تفسيره ١٦/ ٥- ٦ .

(٤) نقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٢ ، وسلف قبله برواية أخرى.

(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٦٩ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣ . وأخرجه عنه الطبري ١٦/ ٧ ، ولم يرد أن (طه) اسم من أسماء الله تعالى في حديث صحيح يُستند إليه، ولا شك أن أسماء الله عز وجل توقيفية.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦ .

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٧٣ ، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٠) من طريق إسماعيل بن إبراهيم أبي يحيى التيمي عن سيف بن وهب عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي عند ربي عشرةَ أسماء». قال أبو الطفيل: قد حفظت منها ثمانية: محمد، وأحمد، وأبو القاسم، والفاتح، والخاتم، والماحي، والعاقب، والحاشر. قال أبو يحيى: وزعم سيف أن أبا جعفر الهاشمي قال له: إن الاسمين الباقيين: يس وطه. وسيف هالك فيما نقله ابن عدي عن يحيى بن سعيد القطان. ويُغني عنه حديث جبير بن مطعم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» أخرجه البخاري ومسلم وسلف ١٠/ ٤٥١ .

اللهُ تعالى رسولَه بعلمه.

وقيل: إنها حروف مُقطَّعة، يدل كلُّ حرفٍ منها على معنى[١]. واختلف في ذلك، فقيل: الطاء شجرة طُوبى، والهاء النار الهاوية، والعرب تُعبِّر عن الشيء كلِّه ببعضه؛ كأنه أقسمَ بالجنة والنار. وقال سعيد بن جُبير: الطاء افتتاح اسمِه طاهر وطيِّب، والهاء افتتاح اسمه هادي. وقيل: «طاء» يا طامع الشفاعة للأُمة، «هاء» يا هادي الخَلْق إلى الله. وقيل: الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية؛ كأنه يقول لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: يا طاهراً من الذنوب، يا هاديَ الخلقِ إلى علَّام الغيوب.

وقيل: الطاء طُبول الغُزاة، والهاءُ هَيبتُهم في قلوب الكافرين، بيانُه قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] وقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[٢] [الأحزاب: ٢٦].

وقيل: الطاء طربُ أهل الجنة في الجنة، والهاء هَوانُ أهلِ النار في النار[٣].

وقول سادس: إن معنى «طه» طوبى لمن اهتدى، قاله مجاهد ومحمدُ بن الحنفية[٤]. وقولٌ سابع: إن معنى «طه» طَإِ الأرضَ؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَتحمَّلُ مشقةَ الصلاة حتى كادت قدماه تَتورَّم[٥]، ويحتاجُ إلى الترويح بين قدميه، فقيل له: طَإِ الأرضَ؛ أي: لا تَتعب حتى تحتاجَ إلى الترويح، حكاه ابنُ الأنباري[٦].

وذكر القاضي عياض في «الشفاء» أن الربيع بن أنس قال: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣.

(٢) ذكر هذه الأقوال الرازي في تفسيره ٢٢/ ٣، وليس فيها ولا في ما سيذكره المصنف بعدها في معناها ما يصحّ. وقال الرازي: إن أمثال هذه الأقوال لا يجب أن يعتمد عليها.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٦، وزاد المسير ٥/ ٢٧٠.

(٤) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٣ لمحمد الباقر زين العابدين ﷺ.

(٥) أخرج البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣.

قام على رِجْلٍ ورَفع الأُخرى، فأنزل الله تعالى: «طه»، يعني طَإِ الأرضَ يا محمد؛ ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[(١)].

الزمخشريُّ[(٢)]: وعن الحسن: «طَهْ»، وفُسِّر بأنه أمرٌ بالوطء، وأن النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجُّده على إحدى رجليه، فأُمِرَ أن يطأ الأرضَ بقدَميه معاً، وأن الأصل: طَأْ، فقلبت همزتُه هاءً أو قلبت[(٣)] [ألفاً] في «يطا» فيمن قال:

لا هَـنَـاكِ الـمـرتَـعُ[(٤)]

ثم بنى عليه هذا الأمر، والهاء للسكت.

وقال مجاهد: كان النبيُّ ﷺ وأصحابه يَربطون الحبالَ في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام، ثم نُسخ ذلك بالفرض، فنزلت هذه الآيةُ[(٥)].

وقال الكلبيُّ: لمَّا نزل على النبيِّ ﷺ الوحيُ بمكة اجتهد في العبادة، واشتدَّت عبادتُه، فجعل يصلِّي الليلَ كلَّه زماناً حتى نزلت هذه الآية، فأمره اللهُ تعالى أن يُخفِّف عن نفسه فيصلي وينام[(٦)]؛ فَنَسَخَتْ هذه الآيةُ قيامَ الليل؛ فكان بعد هذه الآية يُصلِّي وينام.

وقال مقاتل والضحَّاك: فلما نزل القرآنُ على النبيِّ ﷺ قام هو وأصحابه فصلَّوا، فقال كفارُ قريش: ما أنزل اللهُ هذا القرآنَ على محمدٍ إلا ليشقى؛ فأنزل اللهُ تعالى:

---

(١) الشفا ١/١٠٧ وهو ضعيف لإرساله.

(٢) في الكشاف ٢/٥٢٨ .

(٣) في (خ) و(د): وقلبت، وفي (م): كما قلبت، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف)، وهو الموافق للكشاف، وما بين حاصرتين التالي منه. وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٨٧ .

(٤) هذا جزء من بيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/٤٠٨ ولفظه:

ومضَتْ لمسلمةَ الرِّكاب مُوَدَّعاً فارعَيْ فزارةَ لا هَنَاك المرتع

وسلف عجزه ١١/٢٧٣ .

(٥) تفسير مجاهد ١/٣٩٣ .

(٦) تفسير البغوي ٣/٢١١ .

«طه» يقول: يا رجل، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[١] أي: لتتعب، على ما يأتي. وعلى هذا القول: إن معنى[٢] «طه»: [طَأْها، أي:][٣] طإِ الأرض، وتكون الهاء والألف ضميرَ الأرض، أي: طَإِ الأرضَ برجليك في صلاتك، وخُفِّفت الهمزة فصارت ألفاً ساكنة.

وقرأت طائفةٌ: «طَهْ»[٤]، وأصله: طَأْ، بمعنى: طَإِ الأرض، فحذفت الهمزة، وأدخلت هاء السكت[٥].

وقال زِرُّ بن حُبيش: قرأ رجلٌ على عبد الله بن مسعود: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ فقال له عبدُ الله: «طِهِ» [بالكسر، قال:] فقال: يا أبا عبد الرحمن، أليس قد أُمِر أن يطأ الأرض برجِلِه[٦] ـ أو بقدميه؟ فقال: «طِهِ»، كذلك أقرأنيها رسولُ الله ﷺ[٧].

وأمال أبو عمرو وابن أبي إسحاق[٨] الهاءَ وفتَحا الطاء. وأمالهما جميعاً أبو بكر وحمزة والكسائيُّ والأعمش. وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين[٩]، واختاره أبو عُبيد. الباقون بالتفخيم. قال الثعلبي: وهي كلُّها لغاتٌ صحيحةٌ فصيحة.

النحاس[١٠]: لا وجهَ للإمالة عند أكثرِ أهل العربية لعلَّتين: إحداهما أنه ليس

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣١٣.
(٢) لفظة: معنى، من (ظ).
(٣) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ. وأثبتناها من الدر المصون ٨/ ٦.
(٤) قرأ بها الحسن، وسلفت قريباً.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦.
(٦) في (م): برجليه.
(٧) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٤، وما بين حاصرتين منه.
(٨) في (د) و(م): أبو إسحاق. بدل: ابن أبي إسحاق.
(٩) قرأ نافع في رواية ورش، وأبو عمرو: بفتح طا وإمالة ها، وعاصم في رواية شعبة، وحمزة والكسائي وخلف بإمالة طا وها معاً، والباقون من العشرة ـ ومنهم أبو جعفر ـ بفتحهما. السبعة ص٤١٦، والتيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٦٧.
(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٣١.

هاهنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة، والعِلَّة الأُخرى أن الطاء من الحروف الموانعِ للإمالة، فهاتان علتان بيِّنتان.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، وقُرِئ: «مَا نُزِّلَ عَلَيكَ الْقُرْآنُ لِتَشْقَى»(١). قال النحاس(٢): بعضُ النحويين يقول: هذه لام النفي، وبعضهم يقول: لامُ الجحود. وقال أبو جعفر: وسمعتُ أبا الحسن بنَ كَيسان يقول [في مثلها]: إنها لام الخفض، والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء. والشقاء يُمَدّ ويُقْصَر، وهو من ذوات الواو.

وأصلُ الشقاء في اللغة العناء والتعب(٣)، أي: ما أنزلنا عليك القرآنَ لِتتعب. قال الشاعر:

ذُو العقلِ يَشقَى في النعيم بعقلِهِ وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ يَنْعَم(٤)

فمعنى لـ «تشقى»: لتتعب بفرط تأسُّفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسُّرِك على أن يؤمنوا، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦] أي: ما عليك إلا أن تُبلِّغَ وتُذكِّر، ولم يُكتَب عليك أن يؤمنوا لا محالةَ بعد أن لم تُفرِّط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة.

ورُويَ أن أبا جهل ـ لَعَنه اللهُ تعالى ـ والنضرَ بنَ الحارث قالا للنبيِّ ﷺ: إنك شقيٌّ، لأنك تركتَ دينَ آبائِك(٥)؛ فأُريد ردُّ ذلك بأنَّ دينَ الإسلام وهذا القرآن هو السُّلَّم إلى نَيل كلِّ فوزٍ، والسببُ في دركِ كلِّ سعادة، وما فيه الكَفَرةُ هو الشقَّاوة بعينها.

---

(١) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٢٤ لطلحة.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢، وما سيرد بين حاصرتين منه. وأبو جعفر الآتي ذكره هو النحاس.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١١.

(٤) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ٢٥١.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣١٣ عن مقاتل، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٨ - ٥٢٩ والكلام الذي قبله وبعده منه.

وعلى الأقوال المتقدِّمة أنه عليه الصلاة والسلام صلَّى بالليل حتى اسمغدَّت[١] قدماه، فقال له جبريل: أَبقِ على نفسك، فإنَّ لها عليك حقًّا[٢]. أي: ما أنزلنا عليك القرآن لِتُنهِك نفسَك في العبادة، وتُذيقَها المشقَّة الفادحةَ، وما بُعثتَ إلا بالحنيفية السَّمحة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ قال أبو إسحاق الزجَّاجُ: هو بدلٌ من «تشقى»، أي: ما أنزلناه إلا تذكرةً. النحاس[٣]: وهذا وجهٌ بعيد. وأنكره أبو عليٍّ من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوبٌ على المصدر، أي: أنزلناه لِتُذكِّر به تذكرةً، أو على المفعول من أجله، أي: ما أنزلنا عليك القرآن لِتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة[٤]. وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخير، مجازه: ما أنزلنا عليك القرآنَ إلا تذكرةً لمن يخشى، ولئلَّا تشقى[٥].

﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر، أي: نزَّلناه تنزيلاً[٦]. وقيل: بدل من قوله: «تذكِرة»[٧]. وقرأ أبو حيوة الشاميُّ: «تنزِيلٌ» بالرفع على معنى: هذا تنزِيل[٨].

﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ أي: العاليةَ الرفيعةَ، وهي جمع العُليَا، كقوله:

---

(١) في (د) و(م): تورَّمت، وفي (ظ): ورمت، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف) وهو الموافق للكشاف، وكلاهما بمعنى، وهي بالعين المهملة، وبالغين المعجمة أيضاً. القاموس (سمعد).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٨: لم أره هكذا، وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة قالت: لما كانت ليلة النصف من شعبان ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه: فما زال يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح، وحتى اسمعدت قدماه.. الحديث. وليس فيه كلام جبريل. اهـ.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢، وعنه نقل المصنف قول الزجاج السالف.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٠، وينظر الدر المصون ٨/ ٨ - ٩.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٢٩.

(٨) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٩ دون نسبة، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٢٥ لابن أبي عبلة.

كُبْرى وصُغْرى، وكُبَر وصُغَر[١]. أخبر عن عَظَمته وجبروته وجلاله، ثم قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ويجوز النصب على المدح[٢]. قال أبو إسحاق[٣]: ويجوز الخفض على البدل من «مَنْ»[٤]. وقال سعيدُ بن مَسْعدة[٥]: الرفع بمعنى: هو الرحمن. النحاس: يجوز الرفعُ بالابتداء[٦]، والخبر: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فلا يُوقَف على «استوى»[٧]. وعلى البدل من المُضمر في «خلق»[٨] فيجوز الوقفُ على «اسْتَوَى». وكذلك إذا كان خبر ابتداءٍ محذوف، ولا يُوقَف على «العُلَا».

وقد تقدَّم القولُ في معنى الاستواء في «الأعراف»[٩]. والذي ذهبَ إليه الشيخ أبو الحسن[١٠] وغيرُه أنه مستوٍ على عرشه بغير حَدٍّ ولا كَيْفٍ كما يكون استواءُ المخلوقين.

وقال ابن عباس: يريد: خلَق ما كان وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة وبعد القيامة.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ يريد ما تحت الصخرة التي لا يعلمُ ما تحتها إلا اللهُ تعالى. وقال محمدُ بن كعب: يعني الأرضَ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١١، وزاد المسير ٥/ ٢٧٠.

(٢) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) هو الزجَّاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٥٠.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧ لجناح بن حبيش.

(٥) هو الأخفش، وقوله في معاني القرآن ٢/ ٦٢٩.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢ - ٣٣ وقد نقل المصنف عنه قولي الزجاج والأخفش السالفين.

(٧) لم نقف على من ذكر أن قوله ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ هو الخبر. وقال السمين: والجملة من قوله: «على العرش استوى» خبر لقوله: «الرحمنُ».

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٧، قال أبو حيان في البحر ٦/ ٢٢٦: وأرى أن مثل هذا لا يجوز؛ لأن البدل يحلُّ محلَّ المبدل منه، و«الرحمن» لا يمكن أن يحلَّ محلَّ الضمير؛ لأن الضمير عائد على «مَن» الموصولة، و«خلق» صلة، والرابط هو الضمير، فلا يحلُّ محلَّه الظاهر لعدم الرابط.

(٩) ٩/ ٢٣٨ وما بعدها.

(١٠) هو الأشعري، وينظر رسالة أهل الثغر ص٢٣٣ - ٢٣٦.

السابعة[١]. ابن عباس: الأرضُ على نون، والنونُ على البحر، وإن طرفي النون رأسُه وذَنَبُه يَلتقيان تحت العرش، والبحرُ على صخرة خضراءَ خُضرةُ السماء منها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القمان: ١٦]، والصخرةُ على قرن ثورٍ، والثورُ على الثَّرى، وما يعلم ما تحت الثَّرى إلا اللهُ تعالى[٢].

وقال وهب بن مُنَبِّه: على وجه الأرض سبعةُ أبحرٍ، والأَرَضون سبعٌ، بين كلِّ أَرضَين بحرٌ، فالبحر الأسفل مطبقٌ على شَفِير جهنم، ولولا عِظَمه وكثرةُ مائه وبرده لَأحرقَتْ جهنمُ كلَّ من عليها. قال: وجهنمُ على متن الريح، ومتنُ الريح على حجابٍ من الظُّلمة لا يعلم غلظه[٣] إلا اللهُ تعالى، وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى عِلمُ الخلائق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال ابن عباس: السّر ما حَدَّث به الإنسانُ غيرَه في خَفاء، وأخفى منه ما أضمر في نفسه مما لم يُحدِّث به غيرَه. وعنه أيضاً: السِّرُّ حديثُ نفسك، وأخفى من السِّرِّ ما سَتُحدِّث به نفسك مما لم يكن وهو كائن، أنت تعلم ما تُسِرُّ به نفسُك اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ به غداً، والله يعلم ما أسررتَ اليومَ وما تسرُّ غداً؛ والمعنى: اللهُ يعلم السِّرَّ وأخفى من السِّرّ.

وقال ابنُ عباس أيضاً: «السرُّ»: ما أسرَّ ابنُ آدم في نفسه، «وَأَخْفَى»: ما خَفِيَ على ابن آدم مما هو فاعلُه وهو لا يعلمه، فالله تعالى يعلم ذلك كلَّه، وعلمُه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علمٌ واحد، وجميعُ الخلائق في علمه كنفْسٍ واحدة. وقال قتادة وغيره: «السِّرُّ»: ما أضمره الإنسان في نفسه، و«أخفى» منه ما لم يكن ولا أضمره أحدٌ.

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٥/ ٢٧٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٢ ، وأخرجه ابن مردويه كما في روح المعاني ٢١/ ٨٨ . قال الآلوسي: الأقوى عندي وضع هذه الأخبار. وأورده بنحوه ابن القيم في المنار المنيف ١/ ٧٨ وقال: والعجب مِنْ مُسَوِّد كتبِهِ بهذه الهذيانات!

(٣) في (د) و(م): عظمه.

وقال ابن زيد: «السِّرُّ»: سرُّ الخلائق، «وأخفى» منه سِرُّه عزَّ وجلَّ، وأنكر ذلك الطبريُّ[(١)]، وقال: إن الذي هو[(٢)] «أخفى» ما ليس في سِرِّ الإنسان وسيكون في نفسه، كما قال ابنُ عباس.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ «الله» رفع بالابتداء، أو على إضمار مبتدأ، أو على البدل من الضمير في «يعلم»[(٣)].

وَحَّدَ نفْسَه سبحانه؛ وذلك أن رسولَ الله ﷺ دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحدَه لا شريكَ له، فكَبُر ذلك عليهم، فلمَّا سمعه أبو جهل يذكر الرحمنَ، قال للوليد ابن المغيرة: محمدٌ ينهانا أن ندعوَ مع الله إلهاً آخرَ وهو يدعو اللهَ والرحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، وأنزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[(٤)] [الإسراء: ١١٠]، وهو واحدٌ وأسماؤه كثيرةٌ. ثم قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. وقد تقدَّم التنبيهُ عليها في سورة الأعراف[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ قال أهل المعاني: هو استفهامُ إثباتٍ

(١) في تفسيره ١٦/ ١٣ - ١٧ ، وفيه الأخبار السابقة. وينظر النكت والعيون ٣/ ٣٩٤ .

(٢) لفظ: هو، ليس في (د) و(م).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٤٢ ، وليس فيه ذكر قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

(٥) ٩/ ٣٩١ وما بعدها.

وإيجاب، معناه: أليس قد أتاك؟ وقيل: معناه: وقد أتاك، قاله ابن عباس[١]. وقال الكلبيّ: لم يكن أتاه حديثه بعدُ، ثم أخبره[٢].

﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ قال ابن عباس وغيره: هذا حين قضى الأجلَ وسار بأهله وهو مُقبلٌ من مدين يريد مصرَ، وكان قد أخطأ الطريقَ، وكان موسى عليه السلام رجلاً غيوراً، يصحبُ الناسَ بالليل ويُفارقهم بالنهار غَيْرةً منه، لئلا يَرَوا امرأتَه، فأخطأ الرُّفقةَ ـ لِما سبَق في علم الله تعالى ـ وكانت ليلةً مظلمة[٣]. وقال مقاتل: وكانت ليلةَ الجمعة في الشتاء[٤].

وهب بن مُنَبِّه: استأذن موسى شعيباً في الرجوع إلى والدته، فأَذِنَ له، فخرج بأهله بغنمه، وولد له في الطريق غلامٌ في ليلة شاتيةٍ باردةٍ مثلجةٍ، وقد حاد عن الطريق وتفرَّقت ماشيته، فقدح موسى النار، فلم تورِ المِقْدَحة شيئاً، إذ بَصُرَ بنار من بعيد على يسار الطريق ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا بمكانكم[٥] ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت[٦]. قال ابن عباس: فلما توجَّه نحوَ النارِ؛ فإذا النار في شجرة عُنَّابٍ، فوقف متعجِّباً من حُسن ضوء تلك النار[٧]، وشدةِ خُضرة تلك الشجرة، فلا شدةُ حرِّ النار تُغيِّر حسنَ خُضرة الشجرة، ولا كثرةُ ماء الشجرة ولا نعمةُ الخُضرة تُغيِّران حسنَ ضوءِ النار[٨].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠١، وزاد المسير ٥/ ٢٧١.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٩ بنحوه، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠١.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٩٥.

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٧٢، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٩ بنحوه.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٧.

(٧) في (خ) و(ز) و(ف): من حسن ضوء ذلك النار، وفي (د) و(م): من حسن ذلك الضوء، والمثبت من (ظ).

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٢، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٥ - ١٦.

وذكر المهدويُّ: فرأى النار ـ فيما رُوي ـ وهي في شجرةٍ من العُلَّيق، فقصَدها فتأخَّرت عنه، فرجَع وأوجَس في نفسه خِيفةً، ثم دنَتْ منه، وكلَّمه الله عزَّ وجلَّ من الشجرة[1]. الماورديُّ[2]: كانت عند موسى ناراً، وكانت عند الله تعالى نوراً.

وقرأ حمزة: «لِأَهْلِهُ امْكُثُوا» بضم الهاء[3]، وكذا في «القصص»[4]. قال النحاس[5]: وهذا على لغة من قال: مررت بِهُ يا رجل، فجاء به على الأصل، وهو جائزٌ؛ إلا أن حمزةَ خالفَ أصلَه في هذين الموضعين خاصة.

وقال: «امكثوا» ولم يقل: أقيموا؛ لأنَّ الإقامة تقتضي الدوام، والمُكْث ليس كذلك[6].

«وآنستُ»: أبصرتُ، قاله ابن الأعرابي. ومنه قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء:٦] أي: عَلِمتم[7]. وآنستُ الصوتَ: سمعتُه[8]، والقَبَس: شُعلةٌ من نار، وكذلك المِقباس. يقال: قَبَستُ منه ناراً أقبِس قَبْساً فأقبسني، أي: أعطاني منه قَبَساً، وكذلك اقتبست منه ناراً، واقتبستُ منه علماً أيضاً، أي: استفدته، قال اليزيدي: أَقبستُ الرجل علماً وقَبَستُه ناراً؛ فإن كنتَ طلبتَها له قلت: أقبستُه. وقال الكسائي: أقبستُه ناراً أو علماً سواء. وقال: وقبسته أيضاً فيهما[9]. «هُدًى» أي: هادياً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني النار ﴿نُودِىَ﴾ أي: من الشجرة، كما في سورة

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٢ عن وهب بن منبه.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٩٥ .

(٣) السبعة ص٤١٧ ، والتيسير ص١٥٠ .

(٤) الآية (٢٩).

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٥ .

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٧ .

(٨) الصحاح (أنس).

(٩) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٨/ ٤١٩ .

القصص[١] أي: من جهتها وناحيتها على ما يأتي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان على موسى يومَ كلَّمه ربُّه كساءُ صوفٍ، وجُبّةُ صوفٍ، وكُمَّة صوف، وسراويلُ صوف، وكانت نَعْلاه من جلد حمارٍ ميت» قال: هذا حديثٌ غريب لا نعرفه إلا من حديث حُميدٍ الأعرج [وحُميد هو ابنُ عليٍّ الكوفي] منكر الحديث، وحُميد بن قيس الأعرج المكي صاحبُ مجاهد ثقة، والكُمَّةُ: القَلَنْسُوة الصغيرة[٢].

وقرأ العامة: «إني» بالكسر؛ أي: نودي فقيل له: يا موسى إني، واختاره أبو عُبيد. وقرأ أبو عمرو وابن كثير[٣] وابن محيصن وحُميد: «أنِّي» بفتح الألف؛ بإعمال النداء.

واختلف العلماءُ في السبب الذي من أجله أُمِر بخلع النعلين ـ والخلع: النَّزْعُ، والنَّعل: ما جعلتَه وقاية لقدميك من الأرض ـ:

فقيل: أُمِر بطرح النعلين لأنها نَجِسة؛ إذ هي من جلدٍ غير مُذَكّى؛ قاله كعب وعِكرمة وقتادة.

وقيل: أُمر بذلك لِينال بركةَ الوادي المقدَّس، وتمسَّ قدماه تربةَ الوادي؛ قاله عليُّ بن أبي طالب ﷺ والحسن وابن جُريج[٤].

وقيل: أُمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى. وكذلك فعلَ السلفُ حين طافوا بالبيت[٥].

---

(١) الآية (٣٠).

(٢) سنن الترمذي (١٧٣٤)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) السبعة ص٤١٧ ، والتيسير ص١٥٠ ، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٩٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٩٦ .

(٥) الكشاف ٢/ ٥٣١ .

وقيل: إعظاماً لذلك الموضع؛ كما أن الحرَمَ لا يُدْخَلُ بنعلين إعظاماً له[١]. قال سعيد بن جُبير: قيل له: طَأِ الأرضَ حافياً كما تدخل الكعبة حافياً[٢].

والعُرف عند الملوك أن تُخلعَ النِّعال، ويبلغَ الإنسانُ إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أُمر بذلك على هذا الوجه، ولا يُبَالَى[٣] كانت نَعْلاه من ميتة أو غيرها. وقد كان مالكٌ لا يرى لنفسه ركوبَ دابَّةٍ بالمدينة بِرًّا بتربتها المحتوية على الأَعْظُم الشريفة، والجُثَّة الكريمة[٤].

ومن هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام لبشير ابن الخَصَاصِيَة وهو يمشي بين القبور بنعليه: «إذا كنتَ في مثل هذا المكان فاخْلَعْ نعليك». قال: فخلعتُهما[٥].

وقول خامس: إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد. وقد يعبَّر عن الأهل بالنعل. وكذلك هو في التعبير: من رأى أنه لابسٌ نعلين، فإنه يتزوَّج[٦].

وقيل: لأن الله تعالى بسطَ له بساطَ النور والهُدى، ولا ينبغي أن يطأ على بساط ربِّ العالمين بنعله[٧]. وقد يَحتمِلُ أن يكون موسى أُمِر بخلع نعليه، وكان ذلك أوّلَ فرض عليه، كما كان أوّل ما قيل لمحمد ﷺ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[٨] [المدثر: ٢-٥]، والله أعلم بالمراد من ذلك.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩ .

(٣) في (ز) و(م): ولا تبالي، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٩ (والكلام منه): ولا نبالي.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٤ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٧٨ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٠٧٨٧)، وأبو داود (٣٢٣٠)، والنسائي ٤/ ٩٦ .

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧ .

(٧) لطائف الإشارات ٢/ ٤٤٨ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٥ .

الثانية: في الخبر أنّ موسى عليه السلام خلَع نعليه وألقاهما من وراء الوادي[(١)]. وقال أبو الأحوص: زار عبدُ الله أبا موسى في داره، فأقيمت الصلاة[(٢)]، فقال أبو موسى لعبد الله: تقدَّم. فقال عبد الله: تقدَّم، أنت في دارك. فتقدَّم وخلع نعليه، فقال عبد الله: أبالوادي المقدَّس أنت؟![(٣)].

وفي «صحيح» مسلم: عن سعيد بن يزيد قال: قلت لأنسٍ: أكان رسولُ الله ﷺ يصلِّي في نعلين؟ قال: نعم[(٤)]. ورواه النَّسائيُّ[(٥)] عن عبد الله بن السَّائب: أن النبيَّ ﷺ صلَّى يومَ الفتح، فوضَع نعلَيه عن يساره.

وروى أبو داود[(٦)] من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ قال: بينما رسولُ الله ﷺ يُصلِّي بأصحابه، إذ خلَع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلمَّا رأى ذلك القومُ خلعوا[(٧)] نعالَهم، فلمَّا قضَى رسولُ الله ﷺ صلاتَه قال: «مَن حَمَلَكم على إلقائكم نعالَكم؟» قالوا: رأيناك ألقيتَ نعليك فألقينا نعالَنا. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قَذَراً». وقال: «إذا جاءكم أحدُكم المسجدَ فَلْينظر، فإن رأى في نعليه قذراً أو أذًى فليمسحه وَلْيُصلِّ فيهما». صحَّحه أبو محمد عبد الحق[(٨)]. وهو يجمع بين الحديثين قبلَه، ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء على جواز

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٣١ .

(٢) بعدها في (د) و(م): فأقام أبو موسى.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٠٧)، وابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ ، وأخرجه من طريق آخر عن ابن مسعود ﷺ أحمد (٤٣٩٧)، وفيه قول ابن مسعود بعد ذلك: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي في الخفين والنعلين.

(٤) صحيح مسلم (٥٥٥)، وأخرجه أحمد (١١٩٧٦)، والبخاري (٣٨٦).

(٥) في المجتبى ٢/ ٧٤ ، وفي الكبرى (٨٥٤)، وهو عند أحمد (١٥٣٩٢)، وأبي داود (٦٤٨).

(٦) في سننه (٦٥٠)، وأخرجه أحمد (١١١٥٣) بنحوه.

(٧) في (م) وسنن أبي داود: ألقوا.

(٨) في الأحكام الشرعية الصغرى ١/ ١٩٦ .

الصلاة في النعال[١] إذا كانت طاهرةً من ذَكيّ[٢]، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاةَ فيهما أفضلُ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ على ما تقدّم[٣]. وقال إبراهيم النَّخَعي في الذين يَخلعون نعالَهم: لَوَدِدْتُ أن مُحتاجاً جاء فأخذها[٤].

الثالثة: فإنْ خلعتَهما فاخْلَعهما بين رجليك، فإن أبا هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا صلَّى أحدُكم فَلْيجعل[٥] نعليه بين رجليه»[٦]. وقال أبو هريرة للمقبري: اخلعهما بين رجليك، ولا تُؤذِ بهما مسلماً[٧].

وما رواه عبدُ الله بن السائب ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره[٨]. فإنه كان إماماً، فإن كنتَ إماماً أو وحدَك؛ فافعل ذلك إنْ أحببت، وإن كنتَ مأموماً في الصف فلا تُؤذِ بهما مَن على يسارِك، ولا تضَعْهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قُدَّامَ قدميك.

ورُوي عن جُبير بن مُطْعِم أنه قال: وضعُ الرَّجلِ نعليه بين قدميه بدعةٌ[٩].

الرابعة: فإن تحقَّق فيهما نجاسةٌ مُجمَع على تنجيسها؛ كالدم والعَذِرة من بول بني آدم؛ لم يُطهِّرها إلا الغَسل بالماء عند مالك والشافعي وأكثرِ العلماء، وإن كانت النجاسة مُختَلَفاً فيها؛ كبول الدوابّ وأرواثها الرطبة؛ فهل يُطهِّرها المَسْحُ بالتراب من

(١) في (م): النعل.

(٢) المفهم ٢/ ١٦١ .

(٣) ٩/ ١٩٣ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤١٦ .

(٥) في (د) و(م): فَلْيخلع.

(٦) أخرجه ابن شيبة ٢/ ٤١٨ ، وأخرجه أبو داود (٦٥٥) بنحوه.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ .

(٨) سلف في المسألة السابقة.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ عن نافع بن جبير بن مطعم.

النعل والخُفّ أوْ لا؟ قولان عندنا. وأطلقَ الإجزاء بمسح ذلك بالتراب مِن غير تفصيل الأوزاعيُّ وأبو ثور. وقال أبو حنيفة: يُزيله إذا يبس الحكُّ والفركُ، ولا يُزيل رطبَه إلا الغسل؛ ما عدا البول، فلا يُجزئ عنده فيه إلا الغَسْل. وقال الشافعيُّ: لا يطهِّر شيئاً من ذلك كلِّه إلا الماء. والصحيح قول مَن قال: بأن المسحَ يُطَهِّره من الخفّ والنعل؛ لحديث أبي سعيد[1]. فأمَّا لو كانت النعل والخُفّ من جلد ميتة فإن كان غيرَ مدبوغ فهو نَجِسٌ باتفاق[2]، ما عدا ما ذهب إليه الزُّهريُّ والليث، على ما تقدَّم بيانُه في سورة النحل[3]. ومضى في سورة براءة القولُ في إزالة النجاسة، والحمد لله[4].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المقدَّس: المطهَّر. والقُدْس: الطهارة، والأرض المقدَّسة، أي: المطهَّرة[5]؛ سُمِّيت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعَمَرها بالمؤمنين[6]. وقد جعل اللهُ تعالى لبعض الأماكن زيادةَ فضلٍ على بعض، كما قد جعل لبعض الأزمان زيادةَ فضلٍ على بعض، ولبعض الحيوان كذلك. وللهِ أن يُفَضِّل ما شاء. وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدَّساً بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين، فقد شاركه في ذلك غيرُه.

و«طُوًى»: اسم الوادي؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[7]. وقال الضحاك: هو وادٍ عميقٌ مستدير مثل الطَوِيِّ[8].

---

(١) سلف في المسألة الثانية.

(٢) إكمال المعلم ٢/٤٨٨، والمفهم ٢/١٦١ - ١٦٢.

(٣) ١٢/٣٩٨، ومذهب الزهري والليث جواز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ. فيما ذكره المصنف ثمة.

(٤) ١٠/٣٨٢ وما بعدها.

(٥) الصحاح (قدس).

(٦) فضائل القدس لابن الجوزي ص٦٧.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/٢٨ عنهما.

(٨) تفسير البغوي ٣/٢١٣، والطَّوِيّ: البئر المطويَّة بالحجارة. اللسان (طوى).

وقرأ عِكْرمة: «طِوًى»[١]. الباقون: «طُوًى»[٢]. قال الجوهري: و«طُوى» اسم موضع بالشام، تُكسر طاؤه وتُضَمّ، ويصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسمَ وادٍ ومكان وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله [اسم] بلدة وبقعة وجعله معرفةً. وقال بعضهم: «طُوًى» مثل «طِوًى»، وهو الشيء المَثْنيُّ، وقالوا في قوله: «الْمُقَدَّسِ طُوًى»: طُويَ مرتين، أي: قُدِّس. وقال الحسن: ثُنيَتْ فيه البركة والتقديس مرَّتين[٣].

وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قيل له: «طُوى» لأنَّ موسى طواه بالليل إذ مرَّ به، فارتفع إلى أعلى الوادي، فهو مصدرٌ عمل فيه ما ليس من لفظه، فكأنه قال: «إنك بِالوادِ المقدسِ» الذي طويتَه طُوًى، أي: تجاوزتَه فطويتَه بسيرك[٤]. الحسنُ: معناه: أنه قُدِّسَ مرتين[٥]، فهو مصدر من طويته طُوًى أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتُك للرسالة. وقرأ أهلُ المدينة وأبو عمرو وعاصمٌ والكسائيُّ: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ». وقرأ حمزة: «وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ»[٦]، والمعنى واحد، إلا أنَّ «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ» هاهنا أولى من جهتين: إحداهما: أنها أشبهُ بالخط، والثانية: أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، وعلى هذا النَّسق جَرَت المُخاطبةُ، قاله النحاس[٧].

(١) نسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٣١ للحسن والأعمش وأبي حيوة وابن أبي إسحاق وأبي السمّال وابن محيصن.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «طُوًى» بضم الطاء والتنوين، والباقون من السبعة بضمها من غير تنوين. السبعة ص٤١٧، والتيسير ص١٥٠ .

(٣) الصحاح (طوي)، وما بين حاصرتين منه.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧، وفيه قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤ .

(٦) قرأ الجميع: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ إلا حمزة، السبعة ص٤١٧، والتيسير ص١٥١ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤ .

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾

فيه مسألة واحدة: قال ابن عطية[(١)]: وحدثني أبي - رحمه الله - قال: سمعتُ أبا الفضل الجوهريَّ رحمه الله تعالى يقول: لمَّا قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه: «فاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» وقَف على حَجَر، واستند إلى حجر، ووضع يمينَه على شماله، وألقى ذَقَنَه على صدره، ووقف يستمع، وكان كلُّ لباسه صوفاً.

قلت: حُسنُ الاستماع كما يجب قد مَدَحَ الله عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:١٨]، وذمَّ على خلاف هذا الوصف، فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ [الإسراء:٤٧] الآية. فمدح المُنصِتَ لاستماع كلامِه مع حضور العقل، وأمرَ عبادَه بذلك أَدَباً لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] وقال هاهنا: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ لأن بذلك يُنال الفهم عن الله تعالى.

رُوي عن وَهْب بن مُنَبِّه أنه قال: مِن أدب الاستماع سكونُ الجوارح، وغَضُّ البصر، والإصغاءُ بالسمع، وحضورُ العقل، والعزمُ على العمل، وذلك هو الاستماع كما يُحبُّ الله تعالى، وهو أن يكفَّ العبدُ جوارحَه، ولا يَشغلها. فيشتغلَ قلبُه عما يسمع، ويغضَّ طرفَه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحضُر عقلَه فلا يُحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهمَ، فيعمل بما يفهم.

وقال سفيان بن عُيينَة: أوّل العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحِفظ، ثم العمل، ثم النَّشر[(٢)]؛ فإذا استمع العبدُ إلى كتاب اللهِ تعالى وسنةِ نبيِّه عليه الصلاة والسلام بنيةٍ صادقة على ما يحبُّ الله؛ أفهمَه كما يحبّ، وجعل له في قلبه نوراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾

فيه سبعُ مسائل:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٧٦١).

الأولى: اختُلف في تأويل قوله: «لِذِكرِي»؛ فقيل: يَحتمِل أن يريدَ: لتذكُرني فيها، أو يريدُ: لأَذْكرك بالمدح في عِلِّيِّين بها، فالمصدر على هذا يَحتمل الإضافةَ إلى الفاعل وإلى المفعول(١).

وقيل: المعنى: أي: حافِظْ بعد التوحيد على الصلاة. وهذا تنبيهٌ على عظم قدر الصلاة؛ إذْ هي تضرُّعٌ إلى الله تعالى، وقيامٌ بين يديه، وعلى هذا فالصلاةُ هي الذِّكر. وقد سمَّى الله تعالى الصلاةَ ذِكراً في قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقيل: المرادُ: إذا نسيتَ فتذكَّرت فصلِّ، كما في الخبر «فَلْيصلِّها إذا ذَكَرها»(٢). أي: لا تَسقط الصلاةُ بالنسيان.

الثانية: روى مالكٌ وغيره أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن نام عن صلاة أو نَسِيَها؛ فَلْيُصلِّها إذا ذَكَرها؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾»(٣).

وروى أبو محمد عبد الغني بن سعيد، من حديث حجَّاج بن حجَّاج ـ وهو حجَّاج الأحول(٤) الذي روى عنه يزيد بن زُرَيع ـ قال: حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك، قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن الرجل يَرْقُد عن الصلاة ويغفُل عنها؛ قال: «كفارتُها أن يُصلِّيَها إذا ذكَرها». تابعه إبراهيم بن طَهْمان عن حجَّاج، وكذا يروي همَّام بن يحيى عن قتادة(٥).

وروى الدارقطنيُّ(٦) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من نَسي صلاةً فَوَقتُها

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩.

(٢) سيأتي في المسالة التالية.

(٣) هو بنحوه عند مالك في الموطأ ١/ ١٣ - ١٤، عن سعيد بن المسيب مرسلاًضمن حديث، ووصله مسلم (٦٨٠) عن أبي هريرة ﷺ. وقد ساق المصنف لفظه من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٦.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): الأول، والمثبت من (خ). وهو حجاج بن حجاج الباهلي، البصري، الأحول، الحافظ. توفي سنة (١٣١هـ). السير ٦/ ١٥١.

(٥) أخرجه النسائي ٢/ ٥٩ وابن ماجه (٦٩٥) من طريق يزيد بن زريع عن حجاج، به. وأخرجه أحمد (١٣٨٤٨)، والبخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) من طريق همام بن يحيى عن قتادة، به.

(٦) في سننه (١٥٦٥).

إذا ذكرها».

فقوله: «فليصلِّها إذا ذكرها» دليلٌ على وجوب القضاء على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قَلَّت، وهو مذهبُ عامَّة العلماء. وقد حُكي خلافٌ شاذٌّ ـ لا يُعتدُّ به؛ لأنه مخالفٌ لنصِّ الحديث ـ عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات: أنه لا يَلزمه قضاء[1].

قلت: أمَرَ اللهُ تعالى بإقامة الصلاة، وَنَصَّ على أوقاتٍ معيَّنة، فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية، وغيرها من الآي. ومن أقام بالليل ما أُمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس؛ لم يكن فِعْلُه مطابقاً لِما أُمِرَ به، ولا ثوابَ له على فِعْله، وهو عاصٍ؛ وعلى هذا الحدّ كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نامَ عن صلاة أو نَسِيَها فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرها» لم ينتفِعْ أحدٌ بصلاةٍ وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار كان قضاءً لا أداء؛ لأن القضاء بأمر مُتجدِّد وليس بالأمر الأول.

الثالثة: فأمَّا مَن ترك الصلاةَ متعمداً، فالجمهور أيضاً على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصياً، إلا داود. ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعي[2]، حكاه عنه ابن القصَّار. والفرق بين المُتعمِّد والناسي والنائم، حطُّ المَأْثَم، فالمُتعمِّد مأثومٌ، وجميعهم قاضون. والحُجَّة للجمهور قوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، ولم يُفرِّق بين أن يكون في وقتها أو بعدها. وهو أمرٌ يقتضي الوجوب.

وأيضاً فقد ثبت الأمرُ بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير مُؤَثَّمَيْن[3]، فالعامدُ أولى. وأيضاً قوله: «من نام عن صلاة أو نسيها» والنِّسيان: الترك، قال الله تعالى:

---

(١) المفهم ٢/ ٣٠٩.

(٢) المفهم ٢/ ٣٠٩، وينظر إكمال المعلم ٢/ ٦٧٠.

(٣) في (خ) و(د) و(ف) و(م): مأثومين، والمثبت من (ظ) والمفهم ٢/ ٣٠٩ والكلام منه.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] و﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، سواء كان مع ذهول أو لم يكن؛ لأن اللهَ تعالى لا يَنْسى، وإنما معناه: تركهم وقال: ﴿مَا نَنْسَخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَاهَا﴾[1] [البقرة:١٠٦] أي: نتركها.

وكذلك الذِّكر يكون بعد نسيان وبعد غيره. قال الله تعالى: «مَن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي»[2]. وهو تعالى لا ينسى فيكون ذكره بعد نسيان، وإنما معناه: عَلِمتُ. فكذلك يكون معنى قوله: «إذا ذكرها» أي: عَلِمَها.

وأيضاً؛ فإن الديون التي للآدميين إذا كانت متعلِّقةً بوقت، ثم جاء الوقت لم يسقطْ قضاؤها بعد وجوبها، وهي مما يُسقِطُها الإبراءُ كان في ديون الله تعالى ألا يصحَّ فيها الإبراءُ أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذنٍ منه[3]. وأيضاً؛ فقد اتفقنا أنه لو ترك يوماً من رمضان متعمداً بغير عذر؛ لوجب قضاؤه، فكذلك الصلاة.

فإن قيل: فقد رُوي عن مالك: من ترك الصلاة متعمداً لا يقضي أبداً[4]. فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود، أو يكون كلاماً خرج على التغليظ، كما رُوي عن ابن مسعود وعليٍّ: أن مَن أفطر في رمضان عامداً لم يكفِّره صيام الدهر وإن صامه[5]. ومع هذا فلابدَّ من توفية التكليف حقَّه بإقامة القضاء مقامَ الأداء، وإتباعه بالتوبة، ويفعل اللهُ بعدَ ذلك ما يشاء.

وقد روى أبو المُطَوِّس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن

(١) هي قراءة شاذة، ذكرها أبو حيان في البحر ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٨٦٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٧٤٢٢)، والبخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عنه مطولاً بلفظ «يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...» اللفظ للبخاري.

(٣) المفهم ٢/ ٣١٠ بنحوه.

(٤) قال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٤٦ (والكلام منه): نسبوا ذلك إلى مالك، وحاشاه من ذلك.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ١٠٥ - ١٠٦ عنهما، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣٥) عن ابن مسعود ﷺ.

أفطر يوماً من رمضان مُتعمِّداً لم يجزِه صيامُ الدهر وإنْ صامه». وهذا يَحتمِلُ أن لو صحَّ كان معناه التغليظ، وهو حديثٌ ضعيفٌ خرجه أبو داود[١]. وقد جاءت الكفارة بأسانيد[٢] صحاح، وفي بعضها قضاءُ اليوم، والحمد للهِ تعالى.

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نامَ عن صلاة أو نَسِيَها» الحديث، يُخصص عمومَ قوله عليه الصلاة والسلام: «رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ»[٣] والمراد بالرفع هنا رفعُ المأثَمِ، لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: «وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ»[٤] وإن كان ذلك جاء في أثرٍ واحد، فَقِفْ على هذا الأصل[٥].

الخامسة: اختلف العلماءُ من[٦] هذا المعنى فيمن ذكَر صلاةً فائتةً وهو في آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاةً وهو في صلاة، فجملةُ مذهبِ مالك: أنَّ من ذكَر صلاةً وقد حضَر وقتُ صلاةٍ أُخرى، بدأ بالتي نَسِيَ إذا كان خمسَ صلواتٍ فأدنى، وإن فات وقتُ هذه. وإن كان أكثرَ من ذلك بدأ بالتي حضر وقتُها، وعلى نحو هذا مذهبُ أبي حنيفة والثوريِّ والليث، إلا أن أبا حنيفة وأصحابَه قالوا: الترتيبُ عندنا واجبٌ

---

(١) برقم (٢٣٩٦)، وأخرجه أحمد (٩٠١٤)، والترمذي (٧٢٣)، والنسائي في الكبرى (٣٢٦٥)، وعلّقه البخاري قبل الحديث (١٩٣٥) فقال: ويذكر عن أبي هريرة، رفعه: «من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صيام الدهر وإن صامه». قال الترمذي: حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وسمعت محمداً «يعني البخاري» يقول: أبو المطوِّس اسمه يزيد بن المطوس، ولا أعرف له غير هذا الحديث. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٤/ ١٦١ : ..فيه ثلاث علل: الاضطراب، والجهل بحال أبي المطوِّس، والشكّ في سماع أبيه من أبي هريرة.

(٢) في (ظ): بأحاديث. والكلام من التمهيد ٧/ ١٧٣ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٦٩٤)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي ٦/ ١٥٦ من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٩٤٠) من حديث علي ﷺ.

(٤) قطعة من الحديث السالف.

(٥) التمهيد ٦/ ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٦) في (د) و(م): في، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف)، وفي (ظ): قال العلماء في هذا المعنى..

في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سَعةٌ للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خَشِيَ فواتَ [صلاة] الوقت بدأ بها، فإنْ زاد على صلاة يومٍ وليلة لم يجب الترتيب عندهم. وقد رُوِيَ عن الثوريِّ وجوب الترتيب، ولم يفرِّق بين القليل والكثير. وهو تحصيلُ مذهب الشافعي. قال الشافعيُّ: الاختيارُ أن يبدأ بالفائتة ما لم يَخَفْ فواتَ هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه. وذكر الأثرم أن الترتيبَ عند أحمد واجبٌ في صلاة ستين سنة وأكثر. وقال: لا ينبغي لأحدٍ أن يُصلِّي صلاةً وهو ذاكرٌ لِما قبلها لأنها تفسد عليه[1].

وروى الدَّارَقُطْنيُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: «إذا ذَكَر أحدُكم صلاةً وهو في صلاة مكتوبة فليبدَأْ بالتي هو فيها، فإذا فَرَغَ منها، صلَّى التي نَسِيَ». وعمرُ بن أبي عمر مجهول[2].

قلت: وهذا لو صحَّ كانت حُجَّةً للشافعي في البُداءة بصلاة الوقت. والصحيح ما رواه أهلُ الصحيحِ[3] عن جابر بن عبد الله: أنَّ عمر بن الخطاب يومَ الخندق جعل يَسبُّ كفارَ قريش، وقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ ما كدتُ أن أصليَ العصرَ حتى كادت أن تغربَ الشمسُ[4]، فقال رسولُ الله ﷺ: «فواللهِ، إنْ صَلَّيتُها». فنزلنا بُطحانَ، فتوضأ رسولُ الله ﷺ، وتوضَّأنا، فصلَّى رسولُ الله ﷺ العصرَ بعد ما غَرَبَتِ الشمسُ، ثم صلَّى بعدها المغربَ.

وهذا نصٌّ في البُداءة بالفائتة قبل الحاضرة، ولا سيَّما والمغرب وقتُها واحدٌ

(١) التمهيد ٦/ ٤٠٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سنن الدارقطني (١٥٥٨)، ولفظه عنده: «إذا نسي أحدكم صلاة، فذكرها وهو في صلاة مكتوبة..» وعمر بن أبي عمر ـ وهو الكَلاعي ـ أحد رجال الإسناد.

(٣) صحيح البخاري (٥٩٦) و(٩٤٥)، ومسلم (٦٣١)، وسلف ٧/ ١٠٥ .

(٤) في (د) و(ظ) و(م): حتى كادت الشمس تغرب، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف)، هو الموافق لصحيح مسلم، واللفظ له.

مضيَّق غير ممتدٍ في الأشهر عندنا وعند الشافعي كما تقدَّم. وقد روى الترمذيُّ عن أبي عُبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه: أنَّ المشركين شغَلوا رسولَ اللهِ ﷺ عن أربع صلواتٍ يومَ الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء اللهُ تعالى، فأمَر بالأذان بلالاً فقَام فأذَّن، ثم أقام فصلَّى الظهْرَ، ثم أقام فصلَّى العصرَ، ثم أقام فصلَّى المغربَ، ثم أقام فصلَّى العشاء[1].

وبهذا استدلَّ العلماء على أنَّ مَن فاتته صلوات[2]؛ قضاها مرتَّبةً كما فاتته إذا ذكرها في وقتٍ واحد.

واختلفوا إذا ذكَر فائتةً في ضيق[3] وقتِ حاضرة على ثلاثة أقوال: يبدأ بالفائتة وإنْ خرَج وقتُ الحاضرةِ، وبه قال مالكٌ والليث والزهريُّ وغيرهم كما قدَّمناه. الثاني: يبدأ بالحاضرة، وبه قال الحسن والشافعيُّ وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهبٍ من أصحابنا. الثالث: يَتخيَّر فيقدِّم أيتَهما شاء، وبه قال أشهب[4].

وجه الأول: كثرة الصلوات، ولا خلافَ أنه يبدأ بالحاضرة مع الكَثْرة؛ قاله القاضي عياض[5]. واختلفوا في مقدار اليسير؛ فعن مالك: الخمس فدون، وقد قيل: الأربع فدون لحديث جابر. ولم يختلف المذهب أن السِّتَّ كثيرٌ.

السادسة: وأما مَن ذكَر صلاةً وهو في صلاة، فإن كان وراء الإمام فكلُّ مَن قال

---

(١) سنن الترمذي (١٧٩)، وهو عند أحمد (٣٥٥٥)، والنسائي ٢/ ١٧ - ١٨ قال الترمذي: حديث عبد الله ليس بإسناده بأس، إلا أن أبا عُبيدة لم يسمع من عبد الله. وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١١٩٨)، والنسائي ٢/ ١٧ .

(٢) في (د) و(م): صلاة.

(٣) في (د) و(م): مضيق.

(٤) المفهم ٢/ ٢٥٧ دون ذكر المحاسبي.

(٥) في إكمال المعلم ٢/ ٥٩٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٢/ ٢٥٧ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

بوجوب الترتيب ومن لم يقل به، يقول: يتمادَى مع الإمام حتى يُكمل صلاتَه[١].

والأصل في هذا ما رواه مالكٌ والدارقطني[٢]، عن ابن عمر قال: إذا نَسِيَ أحدُكم صلاةً فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام؛ فَلْيُصلِّ مع الإمام، فإذا فرغَ من صلاته، فليصلِّ الصلاةَ التي نَسِيَ، ثم ليعِدْ صلاتَه التي صلَّى مع الإمام. لفظ الدارقطني؛ وقال: قال موسى بن هارون: وحدثناه أبو إبراهيم التَّرْجُمانيُّ، قال: حدثنا سعيد [به] ورفعه إلى النبي ﷺ ووَهِمَ في رفعه، فإن كان قد رجَع عن رَفْعه فقد وفِّق للصواب.

ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: يُصلِّي التي ذكر، ثم يُصلِّي التي صلَّى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثرُ من خمس صلوات، على ما قدمنا ذِكْره عن الكوفيين. وهو مذهب جماعةٍ من أصحاب مالك المدنيين.

وذكر الخِرَقيُّ عن أحمد بن حنبل أنه قال: من ذكر صلاةً وهو في أخرى أنه يُتمُّها ويقضي المذكورةَ، وأعاد التي كان فيها إذا كان الوقت مُبقى[٣]، فإن خشيَ خروجَ الوقت وهو فيها أَعتقدُ أَلَّا يُعيدُها، وقد أجزأته، ويقضي التي عليه.

وقال مالك: من ذكر صلاةً وهو في صلاة قد صلَّى منها ركعتين سَلَّم من ركعتيه، فإن كان إماماً انهدمت عليه وعلى من خلْفه وبطلت. هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله: فيمن ذكر صلاةً في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يُضيف إليهاأُخرى ويُسلِّم. ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاثَ ركعات أضاف إليها رابعة وسلَّم، وصارت نافلة غير فاسدة، ولو انهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يُؤمَر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يُضِفْ إليها أخرى[٤].

---

(١) التمهيد ٦/ ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) الموطأ ١/ ١٦٨، وسنن الدارقطني (١٥٥٩) و(١٥٦٠)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): واسعاً، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق للتمهيد ٦/ ٤٠٦، والكلام منه.

(٤) الكافي ١/ ٢٢٣ - ٢٢٤.

السابعة: روى مسلمٌ عن أبي قَتادة قال: خطبَنا رسولُ الله ﷺ. فذكر حديثَ المِيْضأة بطوله، وقال فيه: ثم قال: «أمَا لكم فيَّ أسوة». ثم قال: «أمَا إنه ليس في النوم تفريطٌ، إنما التفريط على مَن لم يُصَلِّ الصلاةَ حتى يَجيء وقتُ الصلاة الأُخرى، فمن فعَل ذلك فَلْيصلِّها حين ينتبهُ لها، فإذا كان الغد فَلْيُصلِّها عند وقتها». وأخرجه الدارقطنيُّ هكذا بلفظ مسلم سواء[1].

فظاهره يقتضي إعادةَ المَقضية مرتين؛ عند ذكرها وحضورِ مثلها من الوقت الآتي؛ ويعضد هذا الظاهرَ ما خرجه أبو داود من حديث عِمران بن حُصَين، وذكر القصة وقال في آخرها: «فمن أدركَ منكم صلاةَ الغَداة من غدٍ صالحاً فَلْيقضِ معها مثلَها»[2].

قلت: وهذا ليس على ظاهره، ولا تُعاد غير مرة واحدة؛ لِما رواه الدارقطنيُّ عن عِمران بن حصين قال: سَرينا مع رسولِ اللهِ ﷺ في غَزاةٍ ـ أو قال في سريَّة ـ فلما كان وقتُ السَّحَر عَرَّسْنا، فما استيقظنا حتى أيقظَنا حَرُّ الشمسِ، فجعل الرَّجل منا يَثِب فَزِعاً دَهِشاً، فلما استيقظ رسولُ الله ﷺ أمرَنا فارتحلنا، ثم سِرنا حتى ارتفعت الشمسُ، فقضى القومُ حوائجَهم، ثم أمر بلالاً فأذَّن، فصلَّينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلَّينا الغَداة، فقلنا: يا نبيَّ اللهِ، ألا نَقضيها لوقتها من الغد؟ فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «أينهاكم اللهُ عن الرِّبا ويقبلُه منكم؟»[3].

وقال الخطّابي[4]: لا أعلمُ أحداً قال بهذا وجوباً، ويُشبه أن يكون الأمر به استحباباً لِيُحرِزَ فضيلةَ الوقتِ في القضاء.

---

(١) صحيح مسلم (٦٨١)، وسنن الدارقطني (١٤٤٢)، وهو في مسند أحمد (٢٢٥٤٦).

(٢) المفهم ٢/ ٣١٦ ، والحديث في سنن أبي داود (٤٣٨) من حديث أبي قتادة ﷺ، أما حديث عمران بن حصين ﷺ عند أبي داود (٤٤٣) فليس فيه هذا اللفظ.

(٣) سنن الدارقطني (١٤٤١)، وهو في مسند أحمد (١٩٩٦٤).

(٤) في معالم السنن ١/ ١٣٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٢/ ٣١٦-٣١٧ ، والكلام منه.

والصحيحُ تركُ العملِ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أينهاكم اللهُ عن الرِّبا ويقبلُه منكم» ولأن الطُّرق الصحاحَ من حديث عِمران بن حُصَين ليس فيها من تلك الزيادة شيءٌ، إلا ما ذكر من حديث أبي قتادة وهو مُحتمِل كما بيَّنّاه.

قلت: ذكر الكيا الطبريُّ في «أحكام القرآن»[1] له أنَّ من السلف مَن خالف قولَه عليه الصلاة والسلام: «مَن نَسِيَ صلاةً فَلْيصلِّها إذا ذكَرها، لا كفارةَ لها إلا ذلك»[2] فقال: يصبر إلى مثل وقتِه فَلْيُصَلِّ، فإذا فات الصبحُ فليصل من الغد. وهذا قولٌ بعيد شاذٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ آيةٌ مشكلة؛ فرُوي عن سعيد بن جُبير أنه قرأ: «أَكَادُ أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة، قال: أُظهرها. «لِتُجْزَى» أي: الإظهارُ للجزاء؛ رواه أبو عُبيد، عن الكسائي، عن محمد بن سهل، عن وِقَاء ابن إياس، عن سعيد بن جُبير. وقال النحاس[3]: وليس لهذه الرواية طريقٌ غير هذا.

قلت: وكذا رواه أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردّ»: حدثني أبي، حدثنا محمد ابن الجهم، حدثنا الفراء[4]، حدثنا الكسائيُّ (ح) وحدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يوسف، حدثنا يحيى الحِمانيُّ، حدثنا محمد بن سهل.

قال النحاس[5]: وأجودُ من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطّان، عن الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبير أنه قرأ: «أَكَادُ أُخْفيها» بضم الهمزة.

---

(١) ٣/ ٢٧٤.

(٢) هو عند أحمد (١٣٨٤٨)، والبخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤) من طريق همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس ﷺ، وقد أشار إليه المصنف في المسألة الثانية.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥، وما قبله منه. وقراءة سعيد بن جبير ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧، وابن جني في المحتسب ٢/ ٤٧.

(٤) معاني القرآن له ٢/ ١٧٦.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥.

قلت: وأما قراءة ابنِ جُبير «أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنباري: قال الفراء[١]: معناه: أُظهرها، من خَفيتُ الشيءَ أخفيه: إذا أظهرتَه. وأنشد الفراء لامرئ القيس:

فـإنْ تَـدفِـنُـوا الـدَّاءَ لا نَـخْـفِـهِ ... وإنْ تَـبـعـثُـوا الـحـربَ لا نَـقـعُـدِ[٢]

أراد: لا نُظهره، وقد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون «أُخْفِيهَا» بضم الهمزة معناه: أُظهرها؛ لأنه يقال: خَفيتُ الشيء وأَخفيته: إذا أظهرتَه؛ فأَخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار. وقال أبو عُبيدة[٣]: خَفيت وأَخفيت بمعنى واحد.

النحاس: وهذا حسن، وقد حكاه عن أبي الخَطَّاب، وهو رئيسٌ من رؤساء اللغةِ لا يُشكُّ في صدقه، وقد روى عنه سيبويه وأنشد:

وإنْ تَـكـتُـمـوا الـداءَ لا نُـخْـفِـهِ ... وإنْ تَـبـعـثُـوا الـحـربَ لا نَـقـعُـدِ

كذا رواه أبو عُبيدة، عن أبي الخطَّاب بضم النون.

وقال امرؤ القيس أيضاً:

خَـفَـاهـنَّ مـن أنـفـاقِـهـنَّ كـأنـمـا ... خَـفـاهـنَّ وَدْقٌ مـن عَـشِـيٍّ مُـجَـلِّـبِ

أي: أَظهرَهُنَّ[٤].

وروي: «من سحاب مركَّب» بدل: «من عَشيٍّ مجلِّب»[٥].

قال أبو بكر الأنباريُّ: وتفسيرٌ للآية آخرُ: «إنَّ الساعةَ آتيةٌ أكاد» انقطع الكلام

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٧٦ ، وينظر الأضداد لابن الأنباري ص٩٦ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٨٦ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٦ بمعناه. وينظر الكلام الذي قبله فيه.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٦ - ١٧ ، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٥١. قال شارحه: الوَدْق: المطر، وخص مطر العشيّ لأنه أغزر. والمُجلِّب: الذي تسمع له جَلَبة؛ لشدة وقعه.

(٥) ذكر هذه الرواية الأزهري في تهذيب اللغة ٧/ ٥٩٦ .

على «أكاد» وبعده مضمر: أكاد، آتي بها، والابتداء: «أُخفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ». قال ضابئ البُرْجميُّ:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكِدتُ وليتَنِي تَركتُ على عثمانَ تَبْكي حَلائِلُهْ

أراد: وكدت أفعل[1]، فأضمر مع «كدت» فعلاً كالفعل المضمر معه في القرآن.

قلت: هذا الذي اختاره النحاس[2]، وزيَّف القولَ الذي قبله، فقال: يقال: خَفَى الشيءَ يَخفيه: إذا أظهره، وقد حُكِيَ أنه يقال: أخفاه أيضاً: إذا أظهره، وليس بالمعروف، قال: وقد رأيتُ علي بنَ سليمان لمَّا أشكل عليه معنى «أُخْفِيها» عدَل إلى هذا القول، وقال: معناه كمعنى «أَخْفيها».

قال النحاس: ليس المعنى على أُظهرها، ولا سيما و«أَخْفيها» قراءةٌ شاذة، فكيف تردُّ القراءة الصحيحة الشائعةُ إلى الشاذة، ومعنى المُضمر أولى، ويكون التقدير: إن الساعةَ آتيةٌ أكاد آتي بها؛ ودلَّ «آتية» على آتي بها، ثم قال: «أُخْفيها» على الابتداء. وهذا معنى صحيحٌ؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قد أخفى الساعةَ التي هي القيامة، والساعةَ التي يموت فيها الإنسانُ؛ ليكون الإنسانُ يعمل والأمر عنه مبهمٌ، ولا يؤخِّر التوبةَ.

قلت: وعلى هذا القول تكون اللام في «لِتجزى» متعلقةٌ بـ «أُخفِيها».

وقال أبو علي[3]: هذا من باب السَّلب، وليس من باب الأضداد، ومعنى «أُخفِيها»: أُزيل عنها خفاءَها، وهو سترها، كخِفاء الأخفية ـ وهي: الأكسية ـ والواحد خِفاء، بكسر الخاء: ما تُلَفُّ به القِربة، وإذا زال عنها سترها ظهرت. ومن

(١) الكلام بنحوه في الأضداد لابن الأنباري ص٩٦ - ٩٧، ونقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٧، والبيت سلف ١١/ ٣١١.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥.

(٣) ذكره عنه ابن جني في المحتسب ٢/ ٤٧، والطبرسي في مجمع البيان ١٦/ ٨٧.

هذا قولهم: أشكيته، أي: أزلت شكواه، وأعديته، أي: قبلت استعداءه، ولم أُحوجه إلى إعادته.

وحكى أبو حاتم عن الأخفش: أن «كاد» زائدة مُؤَكِّدة. قال: ومثله ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور: ٤٠]، لأن الظُّلماتِ التي ذكرَها اللهُ تعالى بعضُها يحول بين الناظر والمنظور إليه. ورويَ معناه عن ابن جُبير[١]، والتقدير: إنَّ الساعةَ آتيةٌ أُخفيها لِتُجزى كلُّ نفس بما تسعى. وقال الشاعر:

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سِلاحُهُ ... فما إنْ يَكادُ قِرْنُهُ يَتنفَّسُ

أراد: فما يَتنفَّس[٢].

وقال آخر:

وألّا ألومُ النفسَ فيما أصابني ... وألّا أكادُ بالذي نِلتُ أَنجحُ

معناه: وألا أنجحُ بالذي نِلتُ؛ فأكاد توكيدٌ للكلام[٣].

وقيل: المعنى «أَكَادُ أُخۡفِيهَا» أي: أُقارب ذلك؛ لأنك إذا قلت: كاد زيدٌ يقوم، جاز أن يكون قام، وأن يكون لم يقم. ودلَّ على أنه قد أخفاها بدلالةٍ غير هذه على هذا الجواب[٤].

قال اللغويون: كِدْتُ أفعلُ، معناه عند العرب: قاربتُ الفعلَ ولم أفعل، وما كدت أفعل معناه: فعلت بعد إبطاءٍ. وشاهِدُه قولُ اللهِ عزّت عَظَمتُه: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، معناه: وفعلوا بعد إبطاءٍ؛ لِتعذُّر وُجدانِ البقرة عليهم.

---

(١) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٠ .

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٦/ ٣٩ ، والأضداد لابن الأنباري ص٩٧ ، والمحتسب ٢/ ٤٨ ، والبيت لزيد الخيل الطائي، وهو في ديوانه ص٧٤ .

(٣) الأضداد لابن الأنباري ص٩٧ - ٩٨ ، والبيت لتميم بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤ ، وفيه: أفرح، بدل: أنجح، وفي الأضداد: أبجح. ومعناها: أفرح.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦ .

وقد يكون: ما كدتُ أفعل بمعنى: ما فعلت ولا قاربت إذا أكَّد الكلام بأكاد.

وقيل: معنى «أَكَادُ أُخْفِيها»: أُريد أُخفيها. قال الأنباري: وشاهدُ هذا قولُ الفصيح من الشعر:

كـادتْ وكِـدتُ وتِـلـكَ خـيـرُ إرادةٍ ... لـو عـادَ مـن لَـهْـوِ الـصَّـبابةِ ما مَضَـى

معناه: أرادتْ وأردتُ[١].

وقال ابن عباس[٢] وأكثرُ المفسرين فيما ذكر الثعلبي: إن المعنى أكاد أُخفيها من نفسي، وكذلك هو في مصحف أُبيٍّ. وفي مصحف ابن مسعود: أكاد أُخفيها من نفسي، فكيف يَعلمها مخلوقٌ. وفي بعض القراءات: فكيف أُظهرها لكم؟. وهو محمولٌ على أنه جاء على ما جرتْ به عادةُ العرب في كلامها، من أن أحدَهم إذا بالغ في كِتمان الشيء قال: كِدتُ أُخفيه من نفسي. والله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ[٣]، قال معناه قطرب[٤] وغيره. وقال الشاعر:

أيـامَ تَـصـحـبـنـي هـنـدٌ وأُخـبـرُهَـا ... ما أَكتُم النفسَ من حَاجِي وأَسْرَارِي[٥]

فكيف يُخبرها بما تكتُم نفسُه؟ ومن هذا الباب قولُه ﷺ: «ورجل تصدَّق بصدقةٍ، فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنفِقُ يمينُه»[٦].

---

(١) الأضداد لابن الأنباري ص٩٨، وينظر الكلام الذي قبله فيه وفي تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، وزاد المسير ٥/ ٢٧٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٤، وقراءة أُبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما ذكرهما أيضاً الرازي في تفسيره ٢٢/ ٢٢.

(٤) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠٣.

(٥) أورده أبو حيان في البحر ٦/ ٢٣٣، وعجز البيت عنده: ما كدتُ أكتمه عني من الخبر.

(٦) أخرجه أحمد (٩٦٦٥)، والبخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو قطعة من حديث: «سبعة يُظلُّهم الله في ظِلِّه..».

الزمخشريُّ[١]: وقيل: معناه: أكاد أُخفيها من نفسي، ولا دليلَ في الكلام على هذا المحذوف؛ ومحذوفٌ لا دليلَ عليه مُطَّرح، والذي غرَّهم منه أن في مصحف أُبَيّ: أكاد أُخفيها من نفسي؛ وفي بعض المصاحف: أكاد أُخفيها من نفسي، فكيف أُظهركم عليها؟.

قلت: وقيل: إن معنى قولِ من قال: أكاد أُخفيها من نفسي، أي: إنَّ إخفاءها كان من قِبَلي، ومن عندي، لا من قِبَل غيري. وروي عن ابن عباس أيضاً: أكاد أُخفيها من نفسي[٢]، ورواه طلحةُ بن عمرو عن عطاء. وروى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: لا أُظهر عليها أحداً[٣]. وروي عن سعيد بن جبير قال: قد أخفاها. وهذا على أن كاد زائدة. أي: إن الساعةَ آتيةٌ أُخفيها، والفائدةُ في إخفائها التخويف والتهويل[٤].

وقيل: تعلّق «لِتُجزى» بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: أَقِمِ الصلاةَ لِتذكُرني ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: بِسعيها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. واللهُ أعلم. وقيل: هي مُتعلِّقة بقوله: «آتيةٌ»، أي: إنَّ الساعةَ آتيةٌ لِتُجزى[٥].

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: لا يصرفنَّك عن الإيمان بها والتصديق لها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فَتَهْلِكَ. وهو في موضع نصب بجواب النهي[٦].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٢ .

(٢) سلف قريباً.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٤ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٤ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦ بمعناه.

(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ١٤٠ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ قيل: كان هذا الخطابُ من الله تعالى لموسى وحياً؛ لأنه قال: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [الآية:١٣]. ولابدَّ للنبيِّ في نفسه من معجزة يَعلم بها صحَّةَ نبوَّةِ نفسِه، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك. ويجوز أن يكون ما أراه في الشجرة آيةً كافيةً له في نفسه، ثم تكون اليدُ والعصا زيادةَ توكيد، وبرهاناً يلقى به قومَه.

واختُلف في قوله: «وَمَا تِلْكَ»[(١)]، فقال الزجَّاج والفرَّاء[(٢)]: هي[(٣)] اسمٌ ناقص وُصلت بـ «يمينك»، أي: ما التي بيمينك؟ وقال أيضاً[(٤)]: «تلك» بمعنى هذه. ولو قال: ما ذلك، لجاز، أي: ما ذلك الشيء. ومقصود السؤال تقريرُ الأمر حتى يقولَ موسى: هي عصاي؛ لِيُثبتَ الحُجَّةَ عليه بعد ما اعترف، وإلَّا فقد علم اللهُ ما هي في الأزل[(٥)].

قال ابن الجوهري[(٦)]: وفي بعض الآثار: إنَّ الله تعالى عَتَبَ على موسى إضافةَ العصا إلى نفسه في ذلك الموطن، فقيل له: أَلْقِها لِترى منها العَجَب، فتعلمَ أنه لا مِلكَ لك عليها، ولا تُضافُ إليك.

---

(١) في (د) و(م): واختلف في «ما» في قوله: «وما تلك»، وفي (خ) و(ز): واختلف في قوله في تلك في قوله: «وما تلك» والمثبت من (ظ) و(ف).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٧، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦.

(٣) يعني: تلك.

(٤) هو الفراء.

(٥) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٤.

(٦) هو أبو الفضل الجوهري، وكلامه في المحرر الوجيز ٤/ ٤١.

وقرأ ابن أبي إسحاق: «عَصَيَّ» على لغة هُذيل[(١)]؛ ومثلُه: «يا بُشْرَيَّ» و«مَحْيَيَّ» وقد تقدَّم[(٢)]. وقرأ الحسن: «عَصَايِ» بكسر الياء؛ لالتقاء الساكنين. ومثلُ هذا قراءةُ حمزة: ﴿وَمَا أَنتُم بِمصْرِخيِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وعن ابن أبي إسحاق سكونُ الياء[(٣)].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على جواب السؤال بأكثرَ مما سُئل؛ لأنه لمَّا قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ذكر معانيَ أربعةً، وهي: إضافةُ العصا إليه ـ وكان حقُّه أن يقول: عصا ـ والتوكُّؤ، والهَشُّ، والمآربُ المُطلَقة[(٤)]. فذكر موسى من منافع عصاه عُظْمَها وجمهورَها، وأجملَ سائرَ ذلك[(٥)]. وفي الحديث: سُئل النبيُّ ﷺ عن ماء البحر فقال: «هو الطَّهورُ ماؤه، الحِلُّ مَيتتُه»[(٦)]. وسألته امرأةٌ عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حجٌّ؟ قال: «نعم، ولكِ أجرٌ»[(٧)]. ومثلُه في الحديث كثير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أي: أتحامَلُ عليها في المشي والوقوف، ومنه الاتِّكاء.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ «وأهِشُّ» أيضاً؛ ذكره النحاس[(٨)]. وهي قراءة النَّخَعي[(٩)]، أي: أَخبِط بها الورق، أي: أَضرِبُ أغصانَ الشجر ليسقطَ ورقُها، فيسهلَ على غنمي تناولُه، فتأكله. قال الراجز:

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٧، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١.

(٢) ١١/ ٢٩٢ - ٢٩٣ و ٩/ ١٣٩.

(٣) قراءة حمزة في السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤، وقراءة الحسن وقراءة ابن أبي إسحاق في المحتسب ٢/ ٤٨ - ٤٩.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١.

(٦) سلف ٨/ ٢١٢.

(٧) أخرجه أحمد (٢١٨٧)، ومسلم (١٣٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦.

(٩) المحتسب ٢/ ٥٠.

أَهُشُّ بالعصا على أغْنامي ... من ناعم الأراك والبَشَامِ[(١)]

يقال: هَشَّ على غنمه يَهُشُّ، بضمِّ الهاء في المستقبل. وهشَّ إلى الرجل يَهَشّ، بالفتح. وكذلك هشَّ للمعروف يَهَشُّ، وهَشِشتُ أنا. وفي حديث عمر: هَشِشْتُ يوماً، فقبَّلتُ وأنا صائم[(٢)]. قال شَمِر: أي: فرحتُ واشتهيتُ. قال: ويجوز: هَاشَ بمعنى: هَشَّ[(٣)]. قال الراعي:

فكَبَّرَ للرؤيا وهاشَ فؤادُهُ ... وبشَّر نفساً كان قبلُ يلومُها[(٤)]

أي: طَرِب. والأصل في الكلمة: الرّخاوة. يقال: رجلٌ هَشٌّ، وجوز هَشٌّ[(٥)].

وقرأ عكرمة: «وأَهُسُّ» بالسِّين غير معجمة[(٦)]، قيل: هما لغتان بمعنًى واحد. وقيل: معناهما مختلف؛ فالهشُّ بالإعجام: خَبْطُ الشجر، والهسُّ بغير إعجام: زَجْر الغنم؛ ذكره الماوردي[(٧)] وكذلك ذكر الزمخشري[(٨)].

وعن عكرمة: «وأَهُشُّ» بالشين[(٩)]، أي: أنحني[(١٠)] عليها زاجراً لها. والهَسُّ[(١١)]: زَجْر الغنم.

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٣، والنكت والعيون ٣/ ٣٩٩. والبَشام: شجر عَطِر الرائحة، ورقه يُسوِّد الشَّعر، ويُستاك بقُضُبه. القاموس (بشم).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٨)، وأبو داود (٢٣٨٥)، والنسائي (٣٠٣٦).

(٣) نقله عنه في اللسان (هشش).

(٤) ديوان الراعي ص٢٥٩.

(٥) في (م): وزوج هش.

(٦) القراءات الشاذة ص٨٧، والمحتسب ٢/ ٥٠.

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٣٩٩.

(٨) في الكشاف ٢/ ٥٣٣.

(٩) في (خ) و(ز) و(ظ) و(م): وأهس بالسين، والمثبت من (د)، وكذا قيَّدها السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٥: بضم الهاء وتخفيف الشين. ثم قال: ولا أعرف لها وجهاً إلا أن يكون قد استثقل التضعيف مع تفشي الشين فخفف، وهي بمعنى قراءة العامة.

(١٠) في (د): امحى عنها، وفي (م): أنحى عليها.

(١١) في (د) و(ظ): والهش.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: حوائجُ. واحدها: مَأْرُبة ومَأْرَبة ومَأْرِبة. وقال: «أُخرى» على صيغة الواحد؛ لأنَّ «مآرب» في معنى الجماعة، لكن المَهْيَع[1] في توابع جمعِ ما لا يَعقِل الإفرادُ، والكنايةُ عنه بذلك، فإنَّ ذلك يجري مَجرى الواحدةِ المؤنثة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وكقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ:١٠]، وقد تقدَّم هذا في «الأعراف»[2].

الخامسة: تعرَّض قومٌ لتعديد منافعِ العصا، منهم ابنُ عباس، قال: إذا انتهيتُ إلى رأس بئرٍ فقَصُر الرِّشاءُ؛ وصلتُه بالعصا، وإذا أصابني حرُّ الشمس؛ غرزتُها في الأرض وألقيتُ عليها ما يُظِلُّني، وإذا خِفتُ شيئاً من هوامِّ الأرض؛ قتلتُه بها، وإذا مشيتُ؛ أَلقيتُها على عاتقي، وعلَّقت عليها القوسَ والكِنانة والمِخْلاة، وأُقاتل بها السِّباعَ عن الغنم[3].

وروى عنه ميمون بنُ مِهْران قال: إمساك العصا سُنَّةٌ للأنبياء، وعلامةٌ للمؤمن. وقال الحسن البصري: فيها سِتُّ خِصال: سنةُ الأنبياء[4]، وزينةُ الصُّلَحاء، وسلاحٌ على الأعداء، وعونٌ للضعفاء، وغمٌّ للمنافقين، وزيادة في الطاعات. ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهربُ منه الشيطان، ويخشعُ منه المنافقُ والفاجر، وتكون قِبلتَه إذا صلَّى، وقوَّةً إذا أعيا.

ولقي الحَجَّاجُ أعرابيًّا فقال: مِن أين أقبلت يا أَعرابي؟ قال: من البادية. قال: وما في يدك؟ قال: عصايَ، أَرْكُزها لِصَلاتي، وأُعِدُّها لعِداتي، وأسوق بها دابَّتي، وأَقوى بها على سفري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتَّسعَ خُطوتي، وأَثِبُ بها النهر،

---

(١) المهيع: الطريق البيّن. القاموس (هيع).

(٢) ٩/ ٣٩٣ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٢٧ بنحوه.

(٤) في (م): للأنبياء.

وتُؤمنُني من العَثْر، وأُلقي عليها كِسائي فيقيني الحرّ، ويُدفئني من القُرّ، وتُدني إليَّ ما بَعُد مني، وهي مَحْمِل سُفرتي، وعِلَاقة إداوتي؛ أَعصِي بها[1] عند الضِّراب، وأَقرعُ بها الأبواب، وأتَّقي بها عَقورَ الكلاب، وتنوب عن الرُّمح في الطِّعان، وعن السَّيف عند منازلة الأقران، وَرِثْتُها عن أبي، وأُورثها بعدي ابني، وأَهشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآربُ أخرى كثيرةٌ لا تُحصى.

قلت: منافع العصا كثيرة، ولها مدخلٌ في مواضعَ من الشريعة: منها أنها تُتَّخذ قِبلةً في الصحراء. وقد كان للنبيِّ عليه الصلاة والسلام عَنَزَةٌ تُركز له فيصلِّي إليها، وكان إذا خرج يومَ العيد، أمر بالحَرْبة فتوضَعُ بين يديه، فيصلِّي إليها، وذلك ثابتٌ في الصَّحيح[2]. والحَرْبةُ والعَنَزة والنَّيْزك والآلة اسمٌ لمسمًّى واحد. وكان له مِحْجَن ـ وهو عصاً معوجَّةُ الطَّرَف ـ يشير به إلى الحَجَر إذا لم يستطع أن يقبِّلَه؛ ثابتٌ في الصحيح أيضاً[3].

وفي «الموطأ»[4]: عن السائب بنِ يزيد أنه قال: أَمر عمر بنُ الخطاب ﷺ أُبيَّ بن كعب وتميماً الداريَّ أنْ يقوما للناس بإحدى عَشْرَةَ ركعةً، وكان القارئ يقرأ بالمِئِين، حتى كنا نعتمد على العِصِيِّ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلَّا في فروعِ الفجر[5].

وفي «الصحيحين»: أنه عليه الصلاة والسلام كان له مِخْصَرة[6].

---

(١) أي: أضرب بها. القاموس (عصو).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٤) (٩٧٣)، وصحيح مسلم (٥٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٤٦١٤) (٥٧٣٤). والعنزة: مثل نصف الرمح، أو أكبر شيئاً، وفيها سنان مثل سنان الرمح. النهاية (عنز).

(٣) صحيح البخاري (١٦٠٧)، ومسلم (١٢٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (١٨٤١).

(٤) ١/ ١١٥ .

(٥) في (م): بزوغ. وفروع الفجر: أوائله وأول ما يبدو ويرتفع منه. مشارق الأنوار ٢/ ١٥٣ .

(٦) صحيح البخاري (١٣٦٢)، وصحيح مسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ، وهو في مسند أحمد =

والإجماع منعقدٌ على أنَّ الخطيب يخطُب متوكِّئاً على سيفٍ أو عصاً، فالعصا مأخوذةٌ من أصل كريم، ومَعدِنٍ شريف، ولا يُنكرها إلَّا جاهل. وقد جمع اللهُ لموسى في عصاه مِن البراهين العِظَام، والآياتِ الجِسَام، ما آمن به السَّحَرةُ المعاندون. واتَّخذها سليمانُ لخطبته وموعظته وطولِ صلاته. وكان ابن مسعودٍ صاحبَ عصا النبيِّ ﷺ وعَنَزتِه[١]؛ وكان يخطب بالقضيب[٢]، وكفى بذلك فضلاً على شرف حالِ العصا. وعلى ذلك الخلفاءُ وكُبَراء الخطباء، وعادةُ العرب العَرْباء الفُصَحاءِ اللُّسْنِ البُلغاءِ أَخْذُ المِخْصرةِ والعصا، والاعتمادُ عليها عند الكلام، وفي المحافل والخُطَب.

وأنكرت الشُّعوبيةُ على خطباء العرب أخذَ المِخصرةِ والإشارةَ بها إلى المعاني. والشُّعوبيةُ تُبغض العرب وتفضِّل العَجم[٣].

قال مالك: كان عطاء بنُ السائب يُمسك المِخْصَرةَ يستعين بها. قال مالك: والرَّجل إذا كَبِر لم يكن مثلَ الشاب[٤]؛ يقوى بها عند قيامه.

قلت: وفي مَشْيه[٥]، كما قال بعضهم:

قد كنتُ أمشي على رِجلَين معتمداً فصرتُ أمشي على أخرى من الخشَبِ[٦]

= (١٠٦٧). والمخصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه، من عصاً، أو عكازة، أو قضيب، وقد يتكئ عليه. النهاية (خصر).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ١٥٣ عن القاسم بن عبد الرحمن بنحوه.

(٢) أخرج ابن سعد ١/ ٣٧٧، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٤٦ - ١٤٧ عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يخطب بمِخْصَرة في يده. وأورده الهيثمي في المجمع ٢/ ١٨٧ وقال: رواه الطبراني في الكبير والبزار، وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام. اهـ.

(٣) ذكر هذا الكلام العيني في عمدة القاري ٢٢/ ٢٢٢.

(٤) في (د) و(م): الشباب.

(٥) في (د) و(م): مشيته.

(٦) لم نقف عليه.

قال مالك رحمه الله ورضي عنه: وقد كان الناسُ إذا جاءهم المطرُ خرجوا بالعِصِيِّ يتوكَّؤون عليها، حتى لقد كان الشبابُ يحبِسون عِصِيَّهم، وربما أخذ ربيعةُ العصا مِن بعض مَن يجلس إليه حتى يقوم.

ومِن منافع العصا ضربُ الرجلِ نساءه بها فيما يُصلحهم، ويُصلح حالَه وحالَهم معه. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأما أبو جَهْمٍ فلا يَضَعُ عصاه عن عاتقه» في أحد التأويلات[1]. وقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لرجلٍ أوصاه: «لا ترفَعْ عصاك عن أهلك، أَخِفهم في الله». رواه عبادة بنُ الصامت؛ خرَّجه النَّسائي[2]. ومِن هذا المعنى قولُه ﷺ: «علِّق سَوْطَك حيث يراه أهلُك»[3] وقد تقدَّم هذا في «النساء»[4].

ومن فوائدها التنبيهُ على الانتقال من هذه الدار؛ كما قيل لبعض الزُّهَّاد: ما لَكَ تمشي على عصاً، ولست بكبير ولا مريض؟ قال: إني أعلمُ أني مسافر، وأنها دارُ قُلْعة، وأنَّ العصا من آلة السفر؛ فأخذه بعضُ الشعراء فقال:

حملتُ العصا لا الضَّعفُ أوجبَ حَملَها ... عليَّ ولا أني تَحنَّيتُ مِن كِبَرْ
ولكنَّني ألزمتُ نفسيَ حَملَها ... لِأُعلِمَها أنَّ المقيمَ على سَفَر[5]

(١) في (م): في إحدى الروايات. والحديث أخرجه أحمد ومسلم، وقد سلف ٦/ ٢٨٨ .

(٢) لم نقف عليه عند النسائي، ونسبه الهيثمي في المجمع ٤/ ٢١٦ للطبراني وقال: فيه سلمة بن شريح قال الذهبي: لا يعرف. وقد أخرجه أحمد (٢٢٠٧٥) من حديث معاذ ﷺ وإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط (١٨٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٢٤ ونسبه لأبي نعيم في الحلية، ورمز لضعفه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٩٦٣)، والطبراني في الكبير (١٠٦٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٢٤، ورمز لضعفه.

(٤) ٦/ ٢٨٨ .

(٥) عيون الأخبار ٢/ ٣٢٣ ، دون نسبة، ونسبهما الصفدي في الوافي ٥/ ١٧٤ لمحمد بن وشاح بن عبد الله أبي علي. والقُلْعة: المال العارية. الصحاح (قلع).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾: لمَّا أراد اللهُ تعالى أن يُدرِّبَه في تلقِّي النُّبوَّةِ وتكاليفها، أمره بإلقاء العصا ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ موسى، فقلَب الله أوصافَها وأعراضها. وكانت عصاً ذاتَ شُعبتين، فصارت الشُّعبتان لها فماً، وصارت حيَّةً تسعى، أي: تنتقل، وتمشي وتلتقم الحجارة، فلمَّا رآها موسى عليه السلام رأى عِبْرةً، فـ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]، فقال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، وذلك أنه أَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً، أي: لَحِقه ما يَلحق البشر.

ورويَ أنَّ موسى تناولها بكُمَّي جُبَّته، فنُهي عن ذلك، فأخذها بيده، فصارت عصاً كما كانت أوَّلَ مرة، وهي سيرتُها الأولى(١)، وإنما أظهر له هذه الآيةَ؛ لئلَّا يَفزعَ منها إذا ألقاها عند فرعون. ويقال: إن العصا بعد ذلك كانت تُماشيه وتُحادثه، ويُعلِّق عليها أحمالَه، وتُضيء له الشُّعبتان بالليل كالشَّمع، وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشُّعبتان كالدَّلو، وإذا اشتهى ثمرةً ركَزها في الأرض، فأثمرت تلك الثمرة(٢).

وقيل: إنها كانت مِن آس الجَنة(٣). وقيل: أتاه جبريلُ بها. وقيل: مَلَكٌ. وقيل: قال له شعيب: خُذْ عصاً من ذلك البيت، فوقعَتْ بيده تلك العصا، وكان عصا آدمَ عليه السلامُ هبط بها من الجنة(٤). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ النحَّاس(٥): ويجوز «حَيَّةً»، يقال: خرجتُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١ - ٤٢.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥ بنحوه.
(٣) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٧٩ لابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) عرائس المجالس ١٧٧ - ١٧٩ بنحوه.
(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦.

فإذا زيدٌ جالسٌ وجالساً. والوقف: «حَيَّه» بالهاء. والسعي: المشي بسرعة وخِفَّة.

وعن ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذَكَراً يبتلع الصَّخرَ والشَّجر، فلما رآه يبتلع كلَّ شيء خافه ونَفَر منه. وعن بعضهم: إنما خاف منه؛ لأنه عَرَفَ ما لقي آدمُ منها. وقيل: لمَّا قال له ربُّه: «لَا تَخَفْ» بلغ مِن ذهاب خوفِه وطمأنينةِ نفسه أنْ أدخل يده في فمها وأخذ بلَحْيَيها[١].

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ سمعتُ عليَّ بن سليمان[٢] يقول: التقدير: إلى سيرتها، مثل ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ قال: ويجوز أن يكونَ مصدراً؛ لأن معنى[٣] سنعيدها: سنسيِّرها.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ يجوز في غير القرآن: ضُمَّ، بفتْح الميم وكسرها؛ لالتقاء الساكنين، والفتحُ أجودُ؛ لخِفَّته، والكسرُ على الأصل. ويجوز الضمُّ على الإتباع. ويَدٌ أصلها: يَدْيٌ على فَعْل[٤]، يدلُّ على ذلك: أَيْدٍ. وتصغيرُها: يُدَيَّة.

والجَناح: العَضُد؛ قاله مجاهد، وقال: «إلى» بمعنى تحت[٥]. قُطْرُب: «إِلَى جَنَاحِكَ»: إلى جنبك[٦]، ومنه قولُ الراجز:

أَضُمُّهُ[٧] للصدرِ والجَنَاحِ

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٤ . واللَّحْي: مَنْبِتُ اللحية، وهما لحيان. الصحاح (لحي).

(٢) القائل هو النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٣/ ٣٧ .

(٣) في النسخ الخطية: المعنى، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس.

(٤) في النسخ الخطية: ويد أصلها فعل يدي، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧ ، والكلام منه.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٥ ، وأخرجه عنه الطبري ١٦/ ٤٩ .

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(م): جيبك، والمثبت من (ظ).

(٧) في النسخ الخطية: أضمك، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في مجاز القرآن ٢/ ١٨ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٠ .

وقيل: إلى جيبك، فعبَّر عن الجَيب[١] بالجناح؛ لأنه مائلٌ في مَحلِّ الجناح. وقيل: إلى عندك. وقال مقاتل: «إلى» بمعنى مع، أي: مع جناحك.

و﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير بَرَصٍ؛ نوراً ساطعاً يُضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمرِ وأشدَّ ضوءاً؛ عن ابن عباس وغيره[٢]. فخرجتْ نوراً، مخالِفةً[٣] للونه. و«بَيْضَاءَ» نصب على الحال، ولا تنصرف؛ لأن فيها أَلِفَي التأنيث لا يُزايلانها، فكأنَّ لزومَها[٤] عِلَّةٌ ثابتة[٥]، فلم تنصرف في النكرة، وخالَفتا[٦] الهاء؛ لأن الهاءَ تُفارق الاسم. و«مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» «مِن» صِلةُ «بيضاء» كما تقول: ابيضَّت من غير سوء.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ سِوى العصا. فأخرج يدَه مِن مِدْرَعةٍ له مِصريَّةٍ[٧]، لها شعاعٌ مثلُ شعاع الشمسِ يُغشي[٨] البصر. و«آيةً» منصوبةٌ على البدل من «بيضاء»؛ قاله الأخفش[٩]. النحاس[١٠]: وهو قولٌ حسن. وقال الزجَّاج[١١]: المعنى: آتيناكَ آيةً أُخرى، أو نؤتيك؛ لأنه لمَّا قال: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ دلَّ على أنه قد آتاه آيةً أخرى.

---

(١) في (خ) و(ز) و(ظ) و(م): إلى جنبك، فعبّر عن الجنب...، والمثبت من (د).

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٤، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٥.

(٣) في (ظ): مخالفاً.

(٤) في (م): لزومهما، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧، والكلام منه.

(٥) في (ظ) و(م)، وإعراب القرآن: ثانية.

(٦) في إعراب القرآن للنحاس: وخالفتها.

(٧) في (د) و(ز): مضربة، ولم تجود في (ظ).

(٨) في (م): يعشي.

(٩) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٩.

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧.

(١١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ يريد العظمى. وكان حقُّه أنْ يقول: الكبيرة، وإنما قال: «الكبرى»؛ لوِفاق رؤوسِ الآي. وقيل: فيه إضمار؛ معناه: لِنُريك من آياتنا الآيةَ الكبرى؛ دليلُه قولُ ابنِ عباس: يدُ موسى أكبرُ آياته[١].

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ لمَّا آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدلُّ على أنه رسول، أمره بالذَّهاب إلى فِرعون، وأن يدعوَه. و«طغى» معناه: عصى وتكبَّر، وكفر وتجبَّر، وجاوز الحدّ.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى . وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى . وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى . وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى . هَٰرُونَ أَخِى﴾ طلب الإعانةَ لتبليغ الرسالة.

ويقال: إنَّ الله أعلمه بأنه رَبَطَ على قلب فرعونَ وأنه لا يؤمن، فقال موسى: يا ربّ، فكيف تأمرني أنْ آتيَه وقد ربطتَ على قلبه؟ فأتاه مَلَكٌ من خُزَّان الريح فقال: يا موسى، انطلق إلى ما أمرك اللهُ به. فقال موسى عند ذلك: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، أي: وسِّعْه، ونوِّره بالإيمان والنبوَّة ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي: سهِّل عليَّ ما أمرتَني به من تبليغ الرسالةِ إلى فرعون[٢]. «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي» يعني العُجْمةَ التي كانت فيه مِن جمرة النارِ التي ألقاها[٣] في فِيهِ وهو طفل.

قال ابن عباس: كانت في لسانه رُتَّة[٤]. وذلك أنه كان في حِجر فرعونَ ذات يومٍ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥ .

(٢) الوجيز للواحدي ٢/ ١٧ على هامش مراح لبيد.

(٣) في (د) و(م): أطفأها.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٣٥ ، والرُّتَّة: العُجمة في الكلام. الصحاح (رتت).

وهو طفل، فلطَمه لَطْمةً، وأخذ بلحيته فنتفها، فقال فرعونُ لآسية: هذا عدوِّي، فهاتِ الذَّبّاحين، فقالت آسية: على رِسْلك، فإنه صبيٌّ لا يُفرِّق بين الأشياء. ثم أتَتْ بطَسْتين، فجعلت في أحدهما جمراً، وفي الآخر جوهراً، فأخذ جبريلُ بيد موسى فوضعها على النار، حتى رفع جمرةً ووضعها في فيه على لسانه، فكانت تلك الرُّتَّة(١).

وروي أنَّ يده احترقت، وأنَّ فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ. ولما دعاه قال: إلى أيِّ ربٍّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجَزتَ عنها. وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يدُه؛ لئلَّا يُدخِلَها مع فرعون في قَصْعة واحدة، فتنعقدَ بينهما حُرمةُ المُؤاكلة.

ثم اختُلف هل زالت تلك الرُّتَّة، فقيل: زالت؛ بدليل قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. وقيل: لم تَزُلْ كلُّها، بدليل قولِه حكايةً عن فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾. ولأنه لم يقل: ٱحلُل كلَّ لساني، فدلَّ على أنه بقي في لسانه شيءٌ من الاستسماك. وقيل: زالت بالكُلِّية، بدليل قوله: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾، وإنما قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لأنه عرفَ منه تلك العُقدةَ في التربية، وما ثبتَ عنده أنَّ الآفةَ زالتْ(٢).

قلت: وهذا فيه نظر؛ لأنه لو كان ذلك، لَمَا قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حين كلَّمه موسى بلسانٍ ذَلقٍ فصيح. والله أعلم(٣).

وقيل: إن تلك العُقدةَ حدثتْ بلسانه عند مناجاة ربِّه، حتى لا يُكلِّمَ غيرَه إلَّا بإذنه(٤).

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٥٣ - ٥٤ عن سعيد بن جبير وابن أبي نجيح ومجاهد والسدي.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٣٥ .

(٣) ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره ٤/ ١٣٠ أن اتهام فرعون لموسى عليه السلام بأنه لا يكاد يُبين إنما هو افتراءٌ من فرعون، حمله على ذلك الكفر والعنادُ، وليس عدم الإفصاح من موسى بسبب لثغته بالجمرة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ .

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي: يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه. والفِقه في كلام العرب: الفَهم. قال أعرابيٌّ لعيسى بنِ عمر: شَهِدتُ بالفقه. تقول منه: فَقِهَ الرجل، بالكسر، وفلانٌ لا يَفْقَه ولا يَنْقَه[(١)]، وأفقهتُكَ الشيء، ثم خُصَّ به عِلمُ الشريعة، والعالم به فقيهٌ. وقد فَقُه ـ بالضم ـ فَقَاهة، وفَقَّهه اللهُ. وتَفقَّه: إذا تعاطى ذلك، وفاقهتُه: إذا باحثتَه في العلم؛ قاله الجوهريُّ[(٢)].

والوزير: المُؤازِر، كالأكيل: المُؤاكِل؛ لأنه يحمل عن السلطان وِزْرَه، أي: ثِقْله[(٣)].

وفي كتاب النَّسائي[(٤)] عن القاسم بنِ محمد: سمعتُ عمَّتي[(٥)] تقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن وَلِيَ منكم عملاً فأراد اللهُ به خيراً، جعل له وزيراً صالحاً، إنْ نسي ذَكَّره، وإن ذَكَر أعانه». ومِن هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام: «ما بَعَثَ اللهُ مِن نبيٍّ ولا استخلف من خليفة إلَّا وله بِطانتان[(٦)]: بطانةٌ تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانةٌ تأمره بالشرِّ وتَحضُّه عليه، فالمعصومُ مَن عَصَمه الله» رواه البخاري[(٧)].

فسأل موسى اللهَ تعالى أن يجعل له وزيراً، إلا أنه لم يُرِد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى يكون[(٨)] شريكاً له في النبوَّة، ولولا ذلك لَجاز أنْ يستوزرَه من غير مسألة.

---

(١) أي: لا يفهم. الصحاح (نقه).

(٢) في الصحاح (فقه).

(٣) الصحاح (وزر).

(٤) المجتبى ٧/ ١٥٩، والكبرى (٧٧٧٩)، وهو عند أحمد (٢٤٤١٤)، وأبي داود (٢٩٣٢).

(٥) هي السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٦) في (م): إلا كانت له بطانتان.

(٧) برقم (٦٦١١) و(٧١٩٨)، وسلف ٥/ ٢٧٤.

(٨) في النسخ: لا يكون، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٤٠١، والكلام منه.

وعَيَّن فقال: «هَارُونَ». وانتصب على البدل مِن قوله: «وَزِيراً». أو يكونُ منصوباً بـ«اجعل» على التقديم والتأخير، والتقدير: واجعل لي هارونَ أخي وزيراً(١).

وكان هارونُ أكبرَ من موسى بسَنَة، وقيل: بثلاث(٢).

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي: ظهري. والأَزْر: الظهر من موضع الحَقْوين، ومعناه: تقوى به نفسي(٣). والأزر: القوَّة، وآزره: قوَّاه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال أبو طالب:

أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أَزْرَهُ ... وأوصى بنيه بالطِّعان وبالضَّرْبِ(٤)

وقيل: الأزر: العَوْن. أي: يكون عوناً يَستقيم به أمري. قال الشاعر:

شَددتُ به أَزْرِي وأَيْقنْتُ أنَّهُ ... أخو الفقر مَن ضاقت عليه مذاهبُهْ(٥)

وكان هارونُ أكثرَ لحماً من موسى، وأتمَّ طولاً، وأبيضَ جِسماً، وأفصحَ لساناً(٦). ومات قبل موسى بثلاثِ سنين(٧). وكان في جبهة هارونَ شامَة، وعلى أرنبة أنفِ موسى شامة، وعلى طرف لسانِه شامة(٨)، ولم تكن على أحدٍ قبلَه، ولا تكونُ على أحد بعده، وقيل: إنها كانت سببَ العقدةِ التي في لسانه. والله أعلم.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: في النُّبوَّة وتبليغِ الرسالة(٩). قال المفسِّرون: كان هارون

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٦٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠١، وتفسير البغوي ٢/ ١١٣.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠١، والحقو: الخَصْر. الصحاح (حقو).

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٥٣، والنكت والعيون ٣/ ٤٠١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ دون نسبة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢١٦، وعرائس المجالس ص١٧٤ بنحوه.

(٧) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٧٨ عن وهب بن منبّه.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤٠١.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢١٦.

يومئذ بمصر، فأمر اللهُ موسى أن يأتيَ هو هارون[١]، وأوحى إلى هارون وهو بمصرَ أن يتلقَّى موسى، فتلقَّاه إلى مرحلة، وأخبره بما أُوحي إليه، فقال له موسى: إنَّ الله أمرني أن آتيَ فرعون، فسألتُ ربي أن يجعلَك معي رسولاً.

وقرأ العامة: ﴿أَخِى ٱشْدُدْ﴾ بوصل الألف، «وَأَشْرِكْهُ» بفتح الهمزة على الدعاء، أي: اشدد يا ربِّ أزري، وأشركه معي في أمري. وقرأ ابن عامر ويحيى بنُ الحارث وأبو حَيْوة والحسنُ وعبد الله بنُ أبي إسحاق: ﴿أَشْدُدْ﴾ بقطع الألف، ﴿وأُشْرِكه﴾ بضم الألف[٢]، أي: أنا أفعل ذلك، أشدد أنا به أَزْري «وَأُشرِكه» أنا يا ربِّ ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾.

قال النحاس[٣]: جعلوا الفعلين في موضع جزمٍ جواباً لقوله: ﴿اجْعَلْ لِّى وَزِيرًا﴾، وهذه القراءةُ شاذَّةٌ بعيدة؛ لأن جواب مِثْلِ هذا إنما يتخرَّج بمعنى الشرطِ والمجازاة؛ فيكون المعنى: إن تجعل لي وزيراً من أهلي أَشدُدْ به أزري، وأُشركْه في أمري. وأمرُه النبوةُ والرِّسالة، وليس هذا إليه ﷺ فيخبِرَ به، إنما سأل اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يُشركَه معه في النبوَّة.

وفَتَحَ الياءَ من ﴿أَخِى﴾ ابنُ كثير وأبو عمرو[٤].

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ قيل: معنى «نسبحك»: نصلِّي لك[٥]. ويحتمل أن يكونَ التسبيحُ باللسان. أي: ننزِّهك عمَّا لا يَليق بجلالك. و«كَثِيراً» نعتٌ لمصدر محذوف.

(١) في النسخ الخطية: هو وهارون، والمثبت من (م). والكلام بنحوه في عرائس المجالس ص١٨٣-١٨٤ .

(٢) قراءة ابن عامر في السبعة ص٤١٨ ، والتيسير ص١٥١ . وقراءة الحسن وابن أبي إسحاق في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨ . ويحيى بن الحارث: هو الإمام الكبير أبو عمرو الغساني، الذِّماري، ثم الدمشقي، إمام جامع دمشق. قرأ على ابن عامر. السير ٦/ ١٨٩ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨ .

(٤) السبعة ص٤١٨ ، والتيسير ص٦٧ - ٦٨ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٥ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٠ .

ويجوز أن يكونَ نعتاً لوقت[١]. والإدغامُ حسن، وكذا ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[٢].

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ قال الخطَّابي: البصير: المبصر، والبصير: العالم بخفيَّات الأمور، فالمعنى؛ أي: عالماً بنا، ومُدرِكاً لنا في صِغَرنا فأحسنت إلينا، فأَحسِنْ إلينا كذلك يا ربّ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ لمَّا سأله شرحَ الصدر وتيسيرَ الأمر إلى ما ذكر، أجاب سُؤلَه، وآتاه طَلِبَته ومرغوبه[٣]. والسؤل: الطَّلِبة، فُعْل بمعنى مفعول، كقولك: خُبز بمعنى مخبوز، وأُكْل بمعنى مأكول[٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي: قبل هذه، وهي[٥] حفظُه سبحانه له مِن شرِّ الأعداء في الابتداء، وذلك حين الذَّبح. والله أعلم. والمنُّ: الإحسان والإفضال. وقولُه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ قيل: «أوحينا»: ألهمنا[٦]. وقيل:

(١) يعني لوقت محذوف، أي: وقتاً كثيراً. ينظر الدر المصون ٨/ ٣٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٥٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣ بنحوه.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٣٦ .

(٥) في النسخ الخطية: وهو، والمثبت من (م).

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٧ .

أَوحى إليها في النوم[١]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَوحى إليها كما أوحى إلى النبيِّين.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ قال مقاتل: مؤمن آلِ فرعونَ هو الذي صنع التابوت ونَجَره، وكان اسمُه حِزْقيل[٢]. وكان التابوت من جُمَّيز[٣]. ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: اطرحيه في البحر: نهر النيل.

﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أمرٌ، وفيه معنى المُجازاة، أي: اقذفيه، يُلقِه اليمُّ. وكذا قولُه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني فرعون، فاتخذت تابوتاً، وجعلت فيه نِطعاً[٥]، ووضعت فيه موسى، وقَيَّرت[٦] رأسَه وخِصَاصه ـ يعني: شقوقَه ـ ثم ألقته في النيل، وكان يَشْرَع منه نهرٌ كبير في دار فرعون، فساقه اللهُ في ذلك النهرِ إلى دار فرعون.

ورويَ أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه وقَيَّرته وجَصَّصته، ثم ألقته في اليمّ؛ وكان يَشْرَع منه إلى بستان فرعونَ نهرٌ كبير، فبينا هو جالسٌ على رأس بِركةٍ مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به فأُخرج، ففتح، فإذا صبيٌّ أصبح الناس، فأحبَّه عدوُّ اللهِ حبًّا شديداً لا يتمالكُ أن يصبرَ عنه[٧]. وظاهرُ القرآن يدلُّ على أنَّ البحر ألقاه بساحله، وهو شاطئه، فرأى فرعونُ التابوتَ بالساحل، فأمر بأخذه. ويحتمل أن يكونَ إلقاءُ اليمِّ بموضعٍ من الساحل، فيه فُوَّهةُ نهرِ فرعون، ثم أدَّاه النهرُ إلى حيثُ[٨]

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٥٢.

(٣) ضرب من الشجر يشبه التين. اللسان (جمز).

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩.

(٥) النطع: بساط من الأدم. القاموس (نطع).

(٦) أي: طلته بالقار. وهو شيء أسود يُطلى به السفن والإبل، أو هو الزفت. القاموس (قير).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧، وزاد المسير ٥/ ٢٨٤ بنحوه.

(٨) في (د) وف): جنب، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٥٣٦، والكلام منه.

البِركة. والله أعلم.

وقيل: وجدَتْه ابنةُ فرعونَ وكان بها بَرَص، فلما فتحت التابوتَ شُفيت.

ورويَ أنهم حين التقطوا التابوت، عالجوا فتحَه فلم يقدِروا عليه، وعالجوا كسرَه فأعياهم، فدنت آسِيةُ فرأت في جوف التابوتِ نوراً، فعالجته ففتحته، فإذا صبيٌّ نورُه بين عينيه، وهو يَمَصُّ إبهامَه لبناً، فأحبُّوه. وكانت لفرعون بنتٌ برصاء، وقال له الأطبَّاء: لا تبرأُ إلَّا من قِبَل البحر، يوجد فيه شِبهُ إنسانٍ دواؤها رِيقُه، فلطَّخت البرصاءُ بَرَصَها بريقه فبرئت. وقيل: لمَّا نظرت إلى وجهه برئت(١). والله أعلم.

وقيل: وجَدَتْه جَوارٍ لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون، فرأى صبيًّا مِن أصبح الناس وجهاً، فأحبَّه فرعون، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾. قال ابن عباس: أحبَّه اللهُ وحَبَّبه إلى خلقه. وقال عطية(٢): جعل عليه مسحةً مِن جمالٍ لا يكاد يصبر عنه مَن رآه. وقال قَتَادة: كانت في عيني موسى مَلَاحةٌ؛ ما رآه أحدٌ إلا أحبَّه وعَشِقَه(٣). وقال عِكْرمة: المعنى: جعلت فيك حُسناً ومَلاحة، فلا يراك أحدٌ إلا أحبَّك(٤).

وقال الطبَري: المعنى: وألقيتُ عليك رحمتي. وقال ابن زيد: جعلتُ مَن رآك أحبَّك، حتى أحبَّك فرعونُ، فسلِمتَ من شرِّه، وأحبَّتك آسيةُ بنتُ مُزَاحم فتبنَّتك(٥).

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ قال ابن عباس: يريد: إنَّ ذلك بعيني حيث جُعلتَ في التابوت، وحيث أُلقي التابوتُ في البحر، وحيث التقطكَ جواري امرأةِ فرعون؛ فأردنَ أنْ يفتَحن التابوتَ لينظرن ما فيه، فقالت منهنَّ واحدة: لا تَفتحْنه حتى تأتينَ به

---

(١) الكلام بنحوه في عرائس المجالس ص١٧٢ .

(٢) في (م): ابن عطية.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٨ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٠٢ .

سيِّدَتكنَّ، فهو أحظى لَكُنَّ عندها، وأجدرُ بألَّا تتَّهمَكُنَّ بأنكنَّ وجدتنَّ فيه شيئاً فأخذتنَّه لأنفسكنّ. وكانت امرأةُ فرعونَ لا تشرب من الماء إلَّا ما استقينه أولئك الجواري. فذهبنَ بالتابوت إليها مُغلَقاً، فلما فتحته رأتْ صبيًّا لم يُرَ مثلُه قطّ، وأُلقِيَ عليها محبَّته، فأخذته، فدخلت به على فرعون، فقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَۖ﴾ قال لها فرعون: أمَّا لكِ فنعَم، وأما لي فلا. فبلغَنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنَّ فرعون قال: نَعَم، هو قُرَّةُ عينٍ لي ولك، لآمن وصدَّق»؛ فقالت: هَبْه لي ولا تقتلْه؛ فوهبه لها[(١)].

وقيل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي: تُربَّى وتُغذَّى على مرأى مني؛ قاله قتادة[(٢)].

قال النحَّاس: وذلك معروفٌ في اللغة، يقال: صنعت الفرسَ وصنَّعته[(٣)]: إذا أحسنتَ القيامَ عليه. والمعنى: «ولِتصنع على عينِي» فعلتُ ذلك. وقيل: اللام متعلِّقةٌ بما بعدها مِن قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ على التقديم والتأخير، فـ «إذ» ظرفُ «لِتُصنع». وقيل: الواو في «ولِتصنع» زائدة.

وقرأ ابنُ القَعْقَاع: «وَلْتُصْنعْ» بإسكان اللام على الأمر[(٤)]، وظاهرُه للمخاطَب، والمأمورُ غائب.

وقرأ أبو نُهَيك: «ولِتَصْنَعَ» بفتح التاء[(٥)]. والمعنى: ولِتكونَ حركتُك وتصرُّفك بمشيئتي وعلى عينٍ مني. ذكره المهدوي[(٦)].

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ العامل في «إذ تَمشِي»: «أَلْقَيْتُ» أو: «تُصْنَعَ»، ويجوز أن يكون بدلاً من «إِذْ أَوْحَيْنَا». وأختُه اسمُها مريم[(٧)].

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً النسائي في الكبرى (١١٢٦٣)، والطبري ١٦/ ٦٤ - ٦٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٩ .

(٣) في (ظ): واصطنعته، وفي (م): وأصنعته، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النشر ٢/ ٣٢٠ . وابن القعقاع: هو أبو جعفر من العشرة.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٦٠ .

(٦) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤ ، لثعلب.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٣٧ .

﴿فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك أنها خرجت متعرفة خبره، وكان موسى لما وهبه فرعون لامرأته طلبت له المراضع، وكان لا يأخذ من أحدٍ، حتى أقبلت أختُه، فأخذته ووضعته في حِجْرها وناولته ثديَها، فمصَّه وفَرِحَ به. فقالوا لها: تُقيمين عندنا، فقالت: إنه لا لبنَ لي، ولكن أَدلُّكم على مَن يَكْفُله وهم له ناصحون. قالوا: ومن هي؟ قالت: أمي: فقالوا: لها لبنٌ؟ قالت: لبنُ أخي هارون[١]. وكان هارون أكبرَ من موسى بسنة. وقيل: بثلاث. وقيل: بأربع، وذلك أنَّ فرعون رَحِمَ بني إسرائيل فرفع عنهم القتلَ أربعَ سنين، فَوُلِدَ هارونُ فيها؛ قاله ابنُ عباس. فجاءت الأمُّ فقبل ثديَها. فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾. وفي مصحف أُبيّ: «فرددناك».

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وروى عبد الحميد عن ابن عامر: «كَيْ تَقِرَّ عَيْنُهَا» بكسر القاف[٢].

قال الجوهري: وقرِرتُ به عيناً، وقرَرْتُ به قُرَّةً وقُروراً فيهما، ورجلٌ قريرُ العين، وقد قرَّت عينُه تَقِرُّ وتَقَرّ: نقيض سَخُنتْ. وأقرَّ اللهُ عينه، أي: أعطاه حتى تَقَرَّ، فلا تطمحُ إلى مَن هو فوقَه، ويقال: حتى تَبْرُدَ ولا تسخُن. فللسُّرور دمعةٌ باردة، وللحزن دمعةٌ حارَّة. وقد تقدَّم هذا المعنى في «مريم»[٣]. «وَلَا تَحْزَنَ» أي: على فقدك.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قال ابن عباس: قتل قِبْطيًّا كافراً. قال كعب: وكان إذ ذاك ابنَ اثنتي عشرةَ سنة[٤]. في «صحيح» مسلم[٥]: وكان قتله خطأ؛ على ما يأتي.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٦، وزاد المسير ٥/ ٢٨٥.

(٢) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ هذه القراءة دون نسبة، وقراءة ابن عامر المشهورة عنه كقراءة الجماعة وعبد الحميد هو ابن بكار، أبو عبد الله الكلاعي الدمشقي، نزيل بيروت. قرأ القرآن بحرف ابن عامر على أيوب بن تميم الداري. غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٣٦٠، وتهذيب الكمال ١٦/ ٤٠٨-٤٠٩.

(٣) ١٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧ - ٢١٨.

(٥) برقم (٢٩٠٥): (٥٠) من قول سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ.

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: آمنَّاك من الخوف والقتل والحبس.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك اختباراً حتى صلَحتَ للرِّسالة. وقال قتادة: بلوناك بلاءً. مجاهد: أخلصناك إخلاصاً[1]. وقال ابن عباس: اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أوَّلُها: حملته أُمُّه في السَّنة التي كان فرعون يَذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في اليمّ، ثم مَنْعُه من الرَّضاع إلَّا مِن ثدي أمِّه، ثم جرُّه بلحية فرعون، ثم تناولُه الجمرةَ بدل الدُّرَّة، فدرأ ذلك عنه قَتْلَ فرعون، ثم قَتْلُه القِبطيَّ وخروجُه خائفاً يترقَّب، ثم رعايته[2] الغنمَ ليتدرَّبَ بها على رعاية الخلق. فيقال: إنه نَدَّ له من الغنم جَدْيٌ فاتَّبعه أكثرَ النهار، وأتعبه، ثم أخذه فقبَّله وضمَّه إلى صدره، وقال له: أتعبتني وأتعبتَ نفسَك؛ ولم يغضَبْ عليه. قال وَهْب بنُ منبِّه: ولهذا اتَّخذه الله كليماً. وقد مضى في «النساء»[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ يريد: عشرَ سنينَ أتمَّ الأجلين. وقال وَهْب: لبث عند شعيب ثماني وعشرين سنة، منها عشرٌ مهرُ امرأتِه صفورا ابنةِ شعيب، وثماني عشرةَ أقامها عنده حتى وُلِد له عنده[4].

وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بنُ كيسان: يريد: موافقاً للنبوَّة والرسالة؛ لأن الأنبياء لا يُبعثون إلَّا أبناءَ أربعين سَنة[5]. وقال مجاهدٌ ومقاتل: «على قَدَرٍ»: على وعد. وقال محمد بنُ كعب: ثم جئتَ على القَدَر الذي قدَّرتُ لك أنك تجيء فيه[6]. والمعنى واحد، أي: جئتَ في الوقت الذي

---

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ٧٠ - ٧١ .

(٢) في النسخ الخطية: رعاية، والمثبت من (م). والخبر بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٠٣ .

(٣) ٧/ ٢٢٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢١٨ .

(٥) ذكره البغوي ٣/ ٢١٨ عن عبد الرحمن بن كيسان، وأخرجه الطبري ١٦/ ٧٢ عن قتادة مختصراً.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٨ .

أردنا إرسالَك فيه. وقال الشاعر[(١)]:

نالَ الخلافةَ أو كانت له قَدَراً كما أتَى ربَّه موسى على قَدَرِ

قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ قال ابن عباس: أي: اصطفيتك لوحيي ورسالتي[(٢)]. وقيل: «اصْطَنَعْتُكَ»: خلقتك، مأخوذٌ من الصَّنعة[(٣)]. وقيل: قوَّيتُك وعلَّمتُك لتبلِّغَ عبادي أمري ونهيي.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ قال ابن عباس: يريد التِّسعَ الآياتِ التي أُنزلت عليه[(٤)]. ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ قال ابن عباس: تضعفا، أي: في أمر الرسالة؛ وقاله قتادة[(٥)]. وقيل: تفترا. قال الشاعر:

فما وَنَى محمدٌ مُذَ انْ غَفَرْ له الإلهُ ما مضى وما غَبَرْ[(٦)]

والْوَنَى: الضَّعفُ والفتور، والكَلَال والإعياء. وقال امرؤ القيس:

مِسَحٌّ إذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى أثرنَ غُباراً بالكَدِيد المُركَّلِ[(٧)]

ويقال: وَنَيْتُ في الأمر أني وَنًى ووَنْياً، أي: ضَعُفت، فأنا وانٍ، وناقةٌ وانِية، وأَوْنيتُها أنا: أضعفتها وأتعبتها. وفلانٌ لا يَني كذا، أي: لا يزال[(٨)]. وبه فَسَّر أبانٌ معنى الآيةِ، واستشهد بقول طَرَفة:

---

(١) هو جرير، والبيت في ديوانه ١/ ٤١٦، وقد سلف ١/ ٣٢٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠٤.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٧٣ - ٧٤ عنهما بنحوه.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٤٠٤، والرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص٦٧، وسلف ٩/ ٢٧٩.

(٧) ديوان امرئ القيس ص٢٠. قال شارحه: قوله: مسحّ، أي: يسحّ العَدْوَ سحًّا مثل سح المطر، وهو انصبابه. والسابحات: التي تبسط يديها إذا عَدَت فكأنها تسبح. والكديد: ما غلظ من الأرض. والمُركَّل: الذي ركلته الخيل بحوافرها، فأثارت الغبار لصلابتها وشدة وقعها.

(٨) الصحاح (وني).

كـأنَّ الـقُـدورَ الـرَّاسـيـاتِ أمـامـهـم قِـبَـابٌ بَـنَـوهـا لا تَـنـي أبـداً تَـغْـلـي[١]

وعن ابن عباس أيضاً: لا تُبطئا[٢]. وفي قراءة ابنِ مسعود: «وَلَا تَهِنا فِي ذِكرِي»[٣] وتحميدي وتمجيدي وتبليغ رسالتي.

قوله تعالى: ﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿اذْهَبَآ﴾ قال في أول الآية: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ وقال هنا: «اذهبا»، فقيل: أمر اللهُ تعالى موسى وهارونَ في هذه الآيةِ بالنُّفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب أوَّلاً موسى وحدَه تشريفاً له[٤]، ثم كرَّر للتأكيد[٥]. وقيل: بيَّن بهذا أنه لا يكفي ذهابُ أحدِهما. وقيل: الأول: أمرٌ بالذهاب إلى كل الناس، والثاني: بالذهاب إلى فرعون[٦].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ دليلٌ على جواز الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وأنَّ ذلك يكون باللِّين من القول لمن معه القُوَّة وضُمنت له العِصمة، ألَا تراه قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، وقال: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٧] [الآية: ٤٦]. فكيف بنا، فنحن أَوْلى بذلك. وحينئذٍ يحصل الآمرُ والناهي على مرغوبه، ويظفَر بمطلوبه، وهذا واضحٌ.

---

(١) لم نقف عليه في ديوان طرفة والكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٠٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٠١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٧ .

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ٥٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٨ .

الثالثة: واختلف الناس في معنى قوله: «لَيِّناً»؛ فقالت فِرقةٌ منهم الكلبيُّ وعكرمة: معناه: كَنِّياه. وقاله ابنُ عباس ومجاهد والسُّدِّي. ثم قيل: وكُنْيته أبو العباس. وقيل: أبو الوليد. وقيل: أبو مُرَّة[١]؛ فعلى هذا القولِ تكنيةُ الكافر جائزةٌ إذا كان وجيهاً[٢] ذا شرف، وطُمِع بإسلامه. وقد يجوز ذلك وإن لم يُطمَع بإسلامه؛ لأن الطمعَ ليس بحقيقة تُوجب عملاً.و قد قال ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه»[٣] ولم يقل: وإنْ طَمِعتم بإسلامه[٤]، ومن الإكرام دعاؤه بالكُنية[٥].وقد قال ﷺ لصفوان بنِ أمية: «اِنْزِلْ أبا وهب»[٦] فكنَّاه. وقال لسعد: «ألم تسمع ما يقولُ أبو حُبَاب؟» يعني عبدَ الله بنَ أُبيّ[٧].

ورُوي في الإسرائيليَّات أنَّ موسى عليه السلام قام على باب فرعونَ سَنةً، لا يَجِدُ رسولاً يُبلِّغ كلاماً حتى خرج، فجرى له ما قصَّ اللهُ علينا من ذلك، وكان ذلك تسليةً لمن جاء بعده من المؤمنين في سيرتهم مع الظالمين، وربُّك أعلمُ بالمهتدين[٨].

وقيل: قال له موسى: تؤمنُ بما جئتُ به، وتعبد ربَّ العالمين، على أنَّ لك شباباً لا يَهْرَم إلى الموت، ومُلكاً لا يُنزع منك إلى الموت، ويُنسأ في أجلك أربع مئة سنة،

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧، وزاد المسير ٥/ ٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٢) في (خ) و(ف): وجهاً.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال البوصيري: في إسناده سعيد بن مسلمة، وهو ضعيف.

(٤) في (م): في إسلامه.

(٥) التمهيد ١٢/ ٣٥ .

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣ - ٥٤٤ عن الزهري مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٢/ ١٩ : هذا الحديث لا أعلمه يتصل من وجه صحيح، وهو حديث مشهور، معلوم عند أهل السير... وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده إن شاء الله.

(٧) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (٦٢٠٧)، ومسلم (١٧٩٨)، وسلف ٢/ ٣١٥ ، وسعد: هو ابن عبادة ﷺ.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٨ .

فإذا مِتُّ دخلتَ الجنة. فهذا القولُ اللَّيِّن.

وقال ابن مسعود: القولُ اللَّيِّن قولُه تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[1] [النازعات:١٨-١٩].

وقد قيل: إنَّ القول اللَّيِّنَ قولُ موسى: يا فرعونُ، إنَّا رسولا ربِّك ربِّ العالمين. فسمَّاه بهذا الاسمِ؛ لأنه كان أحبَّ إليه ممَّا سواه[2] مما قيل له، كما يسمَّى عندنا الملكُ ونحوُه.

قلت: القول اللَّيِّن هو القولُ الذي لا خُشونةَ فيه، يقال: لان الشيءُ يَلِين لِيناً، وشيءٌ لَيِّن، ولَيْن مخفَّفٌ منه، والجمع: أَلْيِناء[3]. فإذا كان موسى أُمر بأن يقولَ لفرعون قولاً ليناً، فمَن دونَه أحرى بأنْ يقتديَ بذلك في خطابه، وأَمْرِه بالمعروف في كلامه. وقد قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]. على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[4]، والحمدُ لله.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ معناه: على رجائكما وطَمَعِكما. فالتوقُّع فيها إنما هو راجعٌ إلى جهة البشر[5]؛ قاله كُبَراء النحويِّين؛ سيبويه وغيرُه[6]. وقد تقدَّم في أوَّل «البقرة»[7].

قال الزجَّاج[8]: «لعل» لفظةُ طمعٍ وتَرَجٍّ، فخاطبهم بما يعقلون. وقيل: «لعل»

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٥٨ .

(٢) قوله: مما سواه، من (م).

(٣) الصحاح (لين).

(٤) ٢/ ٢٣٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٧ .

(٧) ١/ ٣٤٢ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٧ .

هاهنا بمعنى الاستفهام، والمعنى: فانظُر هل يتذكَّر[١]. وقيل: هي بمعنى كي[٢]. وقيل: هو إخبارٌ من الله تعالى عن قول هارونَ لموسى: لعله يتذكَّر أو يخشى؛ قاله الحسن.

وقيل: إنَّ لعل وعسى في جميع القرآنِ لِما قد وقع. وقد تذكَّر فرعونُ حين أدركه الغرقُ وخشي فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. ولكن لم يَنفعْه ذلك؛ قاله أبو بكر الورَّاق[٣] وغيرُه.

وقال يحيى بنُ معاذ في هذه الآية: هذا رِفقُك بمن يقول: أنا الإله، فكيف رفقُك بمن يقول: أنت الإله[٤]؟!.

وقد قيل: إنَّ فرعون رَكَنَ إلى قول موسى لمَّا دعاه، وشاور امرأتَه فآمنتْ، وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامانَ فقال: لا تفعل، بعد أن كنتَ مالكاً تصيرُ مملوكاً، وبعد أن كنتَ ربًّا تصير مربوباً[٥]. وقال له: أنا أردُّك شابًّا، فخَضَبَ لحيتَه بالسَّواد، فهو أوَّلُ مَن خضب[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ قال الضحَّاك: «يَفْرُطَ»: يَعْجَل. قال: و«يَطْغَى»: يعتدي. النحَّاس[٧]: التقدير: نخاف أن يفرطَ علينا

---

(١) ردَّ السمين في الدر ٨/ ٤٣ : كونها استفهامية وقال: يستحيل الاستفهام في حق الله تعالى كما يستحيل الترجّي.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٨ .

(٣) ذكره عنه البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٤) أخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠٨ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٦) أورده السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير ٣/ ٩٣) وعزاه للديلمي في الفردوس، عن أنس ﷺ، ورمز لضعفه.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩ - ٤٠ .

منه أمر، أي: يبدر[١]. قال الفرَّاء[٢]: فَرَط منه أمرٌ[٣]؛ قال: وأفرط: أسرف. قال: وفَرَّط: ترك.

وقراءة الجمهور: «يَفْرُطَ» بفتح الياءِ وضمِّ الراء، ومعناه: يَعْجَل ويُبادِر بعقوبتنا. يقال: فَرَط منِّي أمرٌ، أي: بدر، ومنه: الفارطُ في الماء: الذي يتقدَّم القومَ إلى الماء[٤]. أي: يُعذِّبنا عذابَ الفارطِ في الذنب، وهو المتقدِّم فيه؛ قاله المبرّد[٥].

وقرأت فرقةٌ منهم ابنُ محيصِن: «يَفْرَطَ» بفتح الياء والراء؛ قال المهدوي: ولعلَّها لغة. وعنه أيضاً: بضم الياءِ وفتحِ الراء[٦]، ومعناها: أن يَحْملَه حاملٌ على التسرُّع إلينا. وقرأت طائفة: «يُفْرِط» بضم الياءِ وكسر الراء؛ وبها قرأ ابنُ عباس ومجاهدٌ وعكرمة وابن محيصن أيضاً. ومعناه: يشتط[٧] في أذيَّتنا[٨]، قال الراجز:

قد أفرطَ العِلْجُ علينا وعَجِلْ[٩]

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال العلماء: لمَّا لَحِقَهما ما يَلحقُ البشرَ من الخوف على أنفسهما،

---

(١) قوله: أي: يبدر، ليس في (م).

(٢) معاني القرآن ٢/ ١٨٠ .

(٣) بعدها في (م): أي: بدر. والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠ ، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ .

(٥) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٥ .

(٦) المحتسب ٢/ ٥٢ .

(٧) في (د) و(م): يشطط.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ . ولم ينسب القراءة لأحد.

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤٠٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٧٦ ، وعندهما: فرطه بدل: أفرط.

عرَّفهما اللهُ سبحانه أنَّ فرعونَ لا يَصِلُ إليهما، ولا قومه. وهذه الآيةُ تردُّ على مَن قال: إنه لا يخاف؛ والخوفُ من الأعداء سُنَّةُ الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتِهم. ولقد أحسن البصريُّ رحمه الله حين قال للمخبِر عن عامر بنِ عبد الله[1] ـ أنه نزل مع أصحابه في طريق الشامِ على ماء، فحال الأسدُ بينهم وبين الماء، فجاء عامرٌ إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له: قد خاطرتَ بنفسك، فقال: لَأن تختلفَ الأسنَّةُ في جَوْفي أحبُّ إليَّ مِن أنْ يعلمَ اللهُ أني أخاف شيئاً سواه ـ: قد خاف مَن كان خيراً من عامر؛ موسى ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠-٢١]، وقال: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال حين ألقى السحرةُ حبالَهم وعصيَّهم: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٧-٦٨].

قلت: ومنه حَفْرُ النبيِّ ﷺ الخندقَ حولَ المدينةِ تحصيناً للمسلمين وأموالِهم، مع كونه من التوكُّل والثقةِ بربه بمحلٍّ لم يبلُغْه أحد، ثم كان مِن أصحابه ما لا يجهله أحدٌ مِن تحوُّلهم عن منازلهم، مرَّة إلى الحبشة، ومرةً إلى المدينة؛ تخوُّفاً على أنفسهم من مشركي مكة، وهرباً بدينهم أنْ يَفْتنوهم عنه بتعذيبهم. وقد قالت أسماء بنتُ عُمَيس لِعمرَ لمَّا قال لها: سبقناكم بالهجرة[2]؛ فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم: كذبتَ يا عمر؛ كلَّا واللهِ، كنتم مع رسول الله ﷺ، يُطعِم جائعَكم، ويَعِظُ جاهلَكم، وكنا في دارِ ـ أو أرض ـ البُعداءِ البُغَضاءِ في الحبشة؛ وذلك في الله وفي رسوله؛ وايمُ اللهِ، لا أَطْعَمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكرَ ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنَّا نُؤذَى ونُخاف. الحديث بطوله خرَّجه مسلم[3].

---

(١) وهو عامر بن عبد قيس، أبو عبد الله، ويقال: أبو عمرو التميمي العنبري البصري، الزاهد. كان ثقة من عبَّاد التابعين. قيل: توفي في زمن معاوية ﷺ. السير ٤/ ١٥ . وقصته مذكورة بمعناها في تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٨٣٤).

(٢) في النسخ الخطية: للهجرة.

(٣) برقم (٢٥٠٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

قال العلماء: فالمخبِرُ عن نفسه بخلاف ما طَبَعَ اللهُ نفوسَ بني آدم كاذب؛ وقد طَبَعهم على الهرب ممَّا يضرُّها ويؤلمها ويُتْلفها. قالوا: ولا ضارَّ أضرُّ مِن سَبُع عادٍ في فلاة من الأرض على مَن لا آلةَ معه يدفعه بها عن نفسه، من سيف أو رمحٍ أو نَبْل أو قوس، وما أشبهَ ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ يريد: بالنصر والمعونةِ والقدرةِ على فرعون. وهذا كما تقول: الأمير مع فلان، إذا أردتَ أنه يَحميه. وقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عبارةٌ عن الإدراك الذي لا تَخفى معه خافية، تبارك اللهُ ربُّ العالمين[1].

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ في الكلام حذفٌ، والمعنى: فأتياه، فقالا له ذلك. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خَلِّ عنهم. ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: بالسُّخْرة والتعب في العمل، وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذابٍ شديد، يُذبِّح أبناءهم، ويستخدم[2] نساءهم، ويُكلِّفهم من العمل في الطِّين واللَّبِن وبناء المدائن ما لا يُطيقونه[3]. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ قال ابن عباس: يريد العصا واليد[4].

وقيل: إن فرعون قال له: وما هي؟ فأدخل يدَه في جيبِ قميصه، ثم أخرجها بيضاءَ لها شعاعٌ مثل شعاع الشمس، غلب نورُها على نور الشمس، فعَجِب منها. ولم يُرِهِ العصا إلا يومَ الزِّينة[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ ، وصفة السمع من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة والإجماع، فيجب إثباتها من غير تأويل ولا تحريف، وهو سمع حقيقي يليق بجلاله عز وجل.

(٢) في (د) و(م): يستحيي.

(٣) زاد المسير ٥/ ٢٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ بنحوه.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٩٠ دون ذكر اليد.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢١٩ بنحوه.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ قال الزجاج[١]: أي: من اتَّبعَ الهدى سَلِمَ من سَخَطِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعذابه. قال: وليس بتحيةٍ، قال: والدليلُ على ذلك أنه ليس بابتداء لِقاءٍ ولا خِطاب. الفراء[٢]: السلامُ على مَن اتَّبع الهُدى ولمن اتَّبع الهُدى سواءٌ.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني الهلاك والدَّمار في الدنيا، والخُلود في جهنم في الآخرة ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أنبياءَ الله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أعرَضَ عن الإيمان. وقال ابن عباس: هذه أرْجى آيةٍ للموحِّدين؛ لأنهم لم يُكذِّبوا ولم يتولَّوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ذكر فرعون موسى دون هارون لرؤوس الآي. وقيل: خصَّصه بالذِّكر؛ لأنه صاحبُ الرسالة والكلامِ والآية[٣]. وقيل: إنهما جميعاً بلَّغا الرسالةَ وإنْ كان ساكتاً؛ لأنه في وقت الكلام إنما يتكلَّم واحدٌ، فإذا انقطع وازَره الآخرُ وأيَّده. فصار لنا في هذا البناء فائدةُ علم: أنَّ الاثنين إذا قُلِّدا أمراً فقام به أحدُهما، والآخرُ شخْصُه هناك موجودٌ مُستغنًى عنه في وقتٍ دون وقت أنهما أدَّيا الأمرَ الذي قُلِّدا، وقاما به واستوجبا[٤] الثوابَ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾، فأمَرهما جميعاً بالذهاب وبالقول، ثم أعلَمَنا في وقت الخطاب بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ أنه كان حاضراً مع موسى.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي: إنه يُعرَف بصفاته، وليس له اسم علم حتى يقال: فلان، بل هو خالقُ العالَم، وهو الذي خصَّ كلَّ مخلوقٍ بهيئة وصورة. ولو كان الخِطاب معهما لقالا: قالا ربنا.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٨٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ بنحوه.

(٤) في (خ) و(ف): واستوفيا.

و«خَلْقَهُ» أول مفعولَي «أعطى»، أي: أعطى خَليقتَه كلَّ شيء يحتاجون إليه ويَرتفقون به، أو ثانيهما، أي: أعطى كلَّ شيءٍ صورته وشَكْلَه الذي يُطابق المنفعةَ المَنُوطةَ به[1]؛ على قول الضحاك على ما يأتي. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال ابن عباس وسعيدُ بن جُبير والسديُّ: أعطى كلَّ شيء زوجَه من جنسه، ثم هداه إلى مَنْكَحِه ومَطْعمِه ومَشْربِه ومَسْكنِه. وعن ابن عباس: ثم هداه إلى الأُلفة والاجتماع والمناكحة. وقال الحسنُ وقتادة: أعطى كلَّ شيءٍ صلاحَه، وهَداه لِما يُصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيءٍ صورةً؛ لم يجعل خَلْقَ الإنسان في خَلْقِ البهائم، ولا خَلْق البهائم في خَلْق الإنسان، ولكن خَلَق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً[2].

وقال الشاعر:

ولـه فـي كـلِّ شـيءٍ خِـلْـقَـةٌ وكـذاك الـلـهُ مـا شـاء فَـعَـلْ[3]

يعني بالخِلقة الصورة، وهو قولُ عطية ومقاتل. وقال الضحاك: أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقه من المنفعة المَنوطة به المُطابقةِ له. يعني اليد للبطش، والرِّجْل للمشي، واللسان للنُّطْق، والعين للنظر، والأُذن للسَّمع[4].

وقيل: أعطى كلَّ شيء ما ألهمه من علم أو صناعة[5].

وقال الفراء[6]: خلق الرَّجُلَ للمرأة، ولكل ذَكَرٍ ما يُوافقه من الإناث، ثم هدى الذَّكر للأنثى. فالتقدير على هذا: أعطى كلَّ شيء مثلَ خَلْقِهِ.

قلت: وهذا معنى قولِ ابن عباس. والآيةُ بعمومها تتناول جميعَ الأقوال.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٩ .

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٨١ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٦ ولم ينسبه، وفيه الأقوال السالفة.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ .

(٥) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٤٠٦ .

(٦) معاني القرآن له ٢/ ١٨١ بنحوه.

وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ: «الَّذِي أَعْطَى كُل شَيْءٍ خَلَقَهُ» بفتح اللام[١]؛ وهي قراءة ابنِ أبي إسحاق. ورواها نُصير عن الكسائي وغيره[٢]، أي: أعطى بني آدمَ كلَّ شيءٍ خَلَقه مما يحتاجون إليه. فالقراءتان متفقتان في المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ﴾ البال: الحال، أي: ما حالُها وما شأنُها؟ فأعلَمه أنَّ علمها عند اللهِ تعالى، أي: إن هذا من علم الغيب الذي سألتَ عنه، وهو مما استأثر اللهُ تعالى به لا يَعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبدٌ مثلك؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علَّامُ الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوبٌ[٣] عند الله في اللوح المحفوظ.

وقيل: المعنى: فما بالُ القرون الأولى لم يُقِرُّوا بذلك؟. أي: فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربِّك.

وقيل: إنما سأله عن أعمال القرون الأولى، فأعلمه أنها مُحْصاة عند الله تعالى، ومحفوظةٌ عنده في كتاب. أي: هي مكتوبة، فسيجازيهم غداً بها وعليها. وعنَى بالكتاب اللوحَ المحفوظ[٤]. وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة.

الثانية: هذه الآية ونظائرها مما تقدَّم ويأتي تدلُّ على تدوين العلوم وكَتْبها لئلا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠ .

(٢) القراءات الشاذة ص٨٧ . ونُصير: هو ابن يوسف بن أبي نصر أبو المنذر، الرازي، ثم البغدادي، النحوي، من جِلة أصحاب الكسائي. طبقات القراء ٢/ ٣٤٠ . وقراءة الكسائي المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) في النسخ: مكتوبة، والمثبت من الكشاف ٢/ ٥٣٩ ، والكلام منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ بنحوه.

تُنسى. فإنَّ الحِفْظَ قد تَعتريه الآفاتُ من الغَلَط والنِّسيان. وقد لا يَحفظُ الإنسان ما يسمع، فيقيده لئلَّا يذهبَ عنه. وروينا بالإسناد المتصل عن قتادةَ أنه قيل له: أنكتبُ ما نسمعُ منك؟ قال: وما يَمنعك أن تكتبَ وقد أخبرك اللطيفُ الخبير أنه يكتب، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[(١)].

وفي «صحيح» مسلم: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا قضى اللهُ الخلقَ كَتَبَ في كتابه على نفسه، فهو موضوع عنده: إنَّ رحمتي تَغلِبُ غضبي»[(٢)].

وأسند الخطيب أبو بكر عن أبي هريرة قال: كان رجلٌ من الأنصار يَجلِسُ إلى النبيِّ ﷺ يستمع منه الحديثَ ويُعجبه ولا يَحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أسمعُ منك الحديثَ يُعجبني ولا أحفظه، فقال له رسول الله ﷺ: «اِستعِنْ بِيمينِك» وأَوْمَأَ إلى الخَطِّ[(٣)]. وهذا نصٌّ.

وعلى جواز كَتْب العلم وتدوينه جمهورُ الصحابة والتابعين[(٤)]. وقد أَمَرَ ﷺ بكَتْب الخُطبة التي خطَب بها في الحَجِّ لأبي شاه ـ رجل من اليمن ـ لما سأله كَتْبَها. أخرجه مسلم[(٥)].

وروى عمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ قال: «قَيِّدوا العلمَ بالكتاب»[(٦)]. وقال معاويةُ بن قُرَّة: مَن لم يكتب العلمَ لم يُعَدَّ عِلْمُه عِلْماً[(٧)].

---

(١) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٢، والخطيب البغدادي في تقييد العلم ص١٠٣.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٥١)، وسلف ١/ ٢٤٣.

(٣) تقييد العلم ص٦٧، والجامع لأخلاق الراوي والسامع ١/ ٣٨٢ - ٣٨٣، وأخرجه الترمذي (٢٦٦٦) وفي إسناده الخليل بن مرة، قال الترمذي: هذا حديث إسناده ليس بذلك القائم، وسمعت محمد بن إسماعيل (يعني البخاري) يقول: الخليل بن مرة منكر الحديث.

(٤) إكمال المعلم ٤/ ٤٧٤، والمفهم ٣/ ٤٧٦.

(٥) برقم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٧٢٤٢)، والبخاري (٢٤٣٤).

(٦) في (م): بالكتابة. والحديث أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٦٥، والخطيب في تقييد العلم ص٩٦.

(٧) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٢، والخطيب في تقييد العلم ص١٠٩.

وقد ذهب قومٌ إلى المنع من الكَتْب، فروى أبو نضرة قال: قيل لأبي سعيد: أنكتبُ حديثكم هذا؟ قال: لِمَ تجعلونه قرآناً؟ ولكن احفظوا كما حَفِظنا[(١)].

وممن كان لا يكتب الشعبيُّ ويونس بن عبيد وخالد الحذّاء ـ قال خالد: ما كتبتُ شيئاً قطُّ إلا حديثاً واحداً؛ فلمَّا حفِظته محوتُه ـ وابن عون والزُّهريُّ.

وقد كان بعضُهم يكتبُ فإذا حَفِظَ مَحَاه؛ منهم محمدُ بن سيرين وعاصمُ بن ضَمْرة. وقال هشام بن حسان: ما كتبتُ حديثاً قطُّ إلا حديثَ الأعماق فلمَّا حَفِظتُه مَحَوْته[(٢)].

قلت: وقد ذكرنا عن خالد الحذَّاء مثل هذا. وحديث الأعماق خرَّجه مسلمٌ في آخر الكتاب: «لا تقومُ الساعةُ حتى ينزلَ الرومُ بالأعْماق أو بدابق» الحديث ذكره في كتاب الفتن[(٣)].

وكان بعضُهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ؛ منهم الأعمشُ، وعبد الله بن إدريس، وهُشيم وغيرهم[(٤)]. وهذا احتياطٌ على الحفظ.

والكَتْبُ أولى على الجُملة، وبه وَردت الآيُ والأحاديثُ، وهو مَرْويٌّ عن عمر، وعليٍّ، وجابر، وأنس ﷺ، ومَن يَليهم من كُبراء التابعين، كالحسن وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير ومَن بعدَهم من أهل العلم[(٥)]. قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ

---

(١) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٩، والخطيب في تقييد العلم ص٣٦ - ٣٧. وأبو نضرة: هو المنذر بن مالك بن قُطَعة العبدي.

(٢) سنن الدارمي ١/ ١٣١ - ١٣٥، والمحدث الفاصل ص٣٨٠ - ٣٨٣، وتقييد العلم ص٥٩. وحديث الأعماق سيأتي ذكره بعده.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. والأعماق: كورة قرب دابق بين حلب وأنطاكية. ودابق: قرية قرب حلب. معجم البلدان ١/ ٢٢٢ و ٢/ ٤٠٦.

(٤) المحدث الفاصل ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٥) المحدث الفاصل ص٣٨٥.

بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣]، وقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ إلى غير هذا من الآي. وأيضاً فإنَّ العلم لا يُضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابَلة والمُدارسة، والتعهد والتحفظ، والمُذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا.

وإنما كَرِه الكتاب مَن كَرِه من الصدر الأول لِقُرب العهد، وتقاربِ الإسناد ولئلَّا يعتمده الكاتب فيُهملَه، أو يَرغَبُ عن تحفظه[1] والعمل به، فأمّا والوقتُ مُتباعِدٌ، والإسناد غير مُتقارب، والطرق مختلفة، والنَّقَلة متشابهون، وآفةُ النسيان معترضة، والوهمُ غير مأمون؛ فإن تقييدَ العلم بالكتاب أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى.

فإن احتجَّ مُحتجٌّ بحديث أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا تكتبوا عني، ومَن كتبَ عني غيرَ القرآن فَلْيَمْحُهُ» خرَّجه مسلم[2]، فالجواب أنَّ ذلك كان مُتقدِّماً، فهو منسوخٌ بأمره بالكتابة وإباحتِها لأبي شاه وغيره. وأيضاً كان ذلك لئلا يُخلَط بالقرآن ما ليس منه. وكذا ما رُوي عن أبي سعيدٍ أيضاً: حَرصنا أن يأذَن لنا النبيُّ ﷺ في الكتابة فأبَى[3]؛ إن كان محفوظاً فهو قبلَ الهجرة، وحين كان لا يُؤمن الاشتغال به عن القرآن.

الثالثة: قال أبو بكر الخطيب[4]: ينبغي أن يُكتب الحديث بالسواد، ثم بالحبر

(١) في (د) و(م): حفظه، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق للمحدث الفاصل ص٣٨٥ - ٣٨٦، والكلام منه.

(٢) برقم (٣٠٠٤)، وهو في مسند أحمد (١١٠٨٥) و(١١١٥٨).

(٣) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٨٦، وينظر المفهم ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧.

(٤) في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٣٨٣.

خاصةً دون المِداد؛ لأن السوادَ أصبغُ الألوان، والحبرَ أبقاها على مرِّ الدُّهور. وهو آلةُ ذوي العلم، وعدَّةُ أهلِ المعرفة.

ذكر عبدُ الله بنُ أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: رآني الشافعيُّ وأنا في مجلسه وعلى قميصي حِبرٌ وأنا أُخفيه؛ فقال: لم تُخفيه وتَستُره؟ إنَّ الحبرَ على الثوب من المروءة، لأن صورته في الأبصار سوادٌ، وفي البصائر بَيَاض.

وقال خالد بن يزيد: الحِبرُ في ثوب صاحب الحديث مثلُ الخَلُوق في ثوب العروس. وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البَلَوي فقال:

مِدادُ المَحَابرِ طيبُ الرجال ... وطِيبُ النساءِ من الزّعفرانْ

فهذا يَليقُ بأثواب ذَا ... وهذا يليقُ بثوب الحَصَانْ[1]

وذكر الماورديُّ[2] أن عُبيدَ الله بن سليمان[3] ـ فيما حكَى ـ رأى على بعض ثيابه أثر صُفرةٍ؛ فأخذ من مِداد الدواة فطلاه به، ثم قال: المِدادُ بنا أحسنُ من الزَّعفران؛ وأنشد:

إنَّما الزّعفرانُ عِطرُ العَذَارَى ... ومِدادُ الدُّويِّ عِطْرُ الرِّجالِ[4]

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ اختلف في معناه على أقوال خمسة:

الأول: إنه ابتداء كلام، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين، وقد كان الكلام تمَّ في قوله: «في كتاب»[5]. وكذا قال الزجاج، وأن معنى «لا يضلُّ» لا يَهْلِك، من

(١) أخرج هذه الآثار الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٣٨٦.

(٢) في أدب الدنيا والدين ص٥٦.

(٣) في (م): عبد الله بن سليمان، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لأدب الدنيا والدين. ولعله عبيد الله بن سليمان بن وهب، الوزير الكبير، أبو القاسم وزير المعتضد، توفي سنة (٢٨٨هـ). السير ١٣/ ٤٩٧.

(٤) ذكر القصة والبيت التنوخي في نشوار المحاضرة ٣/ ٢٥٤ ونسبها لأبي علي ابن مُقْلة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧.

قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. «وَلَا يَنْسَى» شيئاً[١]، نزَّهه عن الهلاك والنِّسيان.

القول الثاني: «لَا يَضِلُّ»: لا يُخطئ؛ قاله ابن عباس[٢]؛ أي: لا يُخطئ في التدبير، فمن أنظره فَلِحِكمة أنظره، ومن عاجَله فَلِحِكمة عاجَله.

القول الثالث: «لا يضلُّ»: لا يغيب. قال ابن الأعرابي: أصلُ الضلال الغَيبوبة؛ يقال: ضلَّ الناسي: إذا غاب عنه حفظُ الشيء. قال: ومعنى «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» أي: لا يغيبُ عنه شيء، ولا يغيبُ عن شيءٍ[٣].

القول الرابع ـ قاله الزجاج أيضاً، وقال النحاس[٤]: وهو أشبهها بالمعنى ـ: أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنه لا يحتاج إلى كتاب، والمعنى: لا يضلُّ عنه علمُ شيءٍ من الأشياء ولا معرفتها، ولا يَنسى ما عَلِمَه منها.

قلت: وهذا القول راجعٌ إلى معنى قولِ ابن الأعرابي.

وقول خامس: إنَّ «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» في موضع الصفة لـ «كتاب» أي: الكتاب غير ضالٍّ عن الله عزَّ وجلَّ[٥]، أي: غير ذاهب عنه. «وَلَا يَنْسَى» أي: غير ناسٍ له، فهما نعتان لـ «كتاب». وعلى هذا يكون الكلام متصلاً، ولا يُوقَفُ على «كتاب». تقول العرب: ضلَّني الشيءُ: إذا لم أجده، وأَضْلَلْتُه أنا: إذا تركتَه في موضع فلم تجده فيه[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ ، ولم نقف على قول الزجاج في معاني القرآن له، ولم ينسبه النحاس له.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٨٣ ، والكلام الذي بعده فيه.

(٣) تهذيب اللغة ١١/ ٤٦٥ ، وفيه: أبو عمرو، بدل: ابن الأعرابي.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤١ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧ بنحوه.

وقرأ الحسنُ وقتادة وعيسى بن عمر وابن مُحيصن وعاصم الجَحْدري وابن كثير فيما روى شِبل عنه: «لَا يُضِلُّ» بضم الياء على معنى لا يُضيعه ربّي ولا ينساه[١].

قال ابن عرفة: الضلالةُ عند العرب سلوكُ سبيل غير القصد؛ يقال: ضلَّ عن الطريق، وأضلَّ الشيء: إذا أضاعه. ومنه قرأ مَن قرأ: «لا يُضِلُّ رَبِّي» أي: لا يُضيع، هذا مذهبُ العرب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ «الذي» في موضع نعت لِـ «رَبِّي» أي: لا يضلُّ رَبي الذي جعل. ويجوز أن يكون خبرَ ابتداء مُضمر، أي: هو الذي. ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني[٢]. وقرأ الكوفيون: «مَهْداً» هنا وفي «الزخرف»[٣] بفتح الميم وإسكان الهاء. الباقون: «مِهَاداً»[٤]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لاتّفاقهم على قراءة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

النحاس[٥]: والجمعُ أولى لأن «مهداً» مصدرٌ، وليس هذا موضع مصدر إلّا على حذف، أي: ذات مهد. المهدويّ: ومَن قرأ: «مَهْداً» جاز أن يكون مصدراً، كالفَرْش، أي: مَهَدَ لكم الأرضَ مَهْداً، وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: ذاتَ مهد. ومن قرأ: «مِهَاداً»؛ جاز أن يكون مفرداً، كالفراش، وجاز أن يكون

(١) القراءات الشاذة ص٨٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١، والبحر المحيط ٦/ ٢٤٨، والقراءة المتواترة عن ابن كثير كقراءة الجماعة.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٤٠.

(٣) الآية (١٠).

(٤) السبعة ص٤١٨، والتيسير ص١٥١.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤١.

جمع «مهدٍ» استُعمِلَ استعمالَ الأسماءَ فكُسِّر[١]. ومعنى «مِهاداً» أي: فراشاً وقَراراً تستقرّون عليها.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طرقاً[٢]. نظيره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١٠].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تقدَّم معناه[٣]. وهذا آخرُ كلام موسى. ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾. وقيل: كُلُّه من كلام موسى[٤]. والمعنى: «فأخرجنا به» أي: بالحرث والمعالجة؛ لأن الماءَ المنزلَ سببُ خروج النبات.

ومعنى ﴿أَزْوَاجًا﴾: ضروباً وأشباهاً، أي: أصنافاً من النبات المختلفة الأزواج والألوان[٥]. وقال الأخفش: التقدير أزواجاً شَتَّى من نبات. قال: وقد يكون النبات شَتَّى، فـ «شَتَّى» يجوز أن يكون نعتاً لأزواج، ويجوز أن يكون نعتاً للنبات[٦]. و«شَتَّى» مأخوذٌ من شتَّ الشيءُ، أي: تفرَّق. يقال: أمرٌ شَتٌّ، أي: متفرِّقٌ. وشَتَّ الأمرُ [يَشِتُّ] شَتًّا وشَتاتاً: تفرَّق؛ واسْتَشَتَّ[٧] مثله. وكذلك التَّشتت. وشَتَّته تَشْتِيتاً فرَّقه. وأَشتَّ بي قومي، أي: فرَّقوا أمري. والشَّتيت المتفرِّق. قال رُؤْبة يصف إبلاً:

---

(١) الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٩٧ - ٩٨ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٨٥ عن قتادة.

(٣) ٢/ ٤٩٧ .

(٤) قال الرازي في تفسيره ٢٢/ ٦٨ : «فأخرجنا» إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى، والأول باطل؛ لأن قوله بعد ذلك: «كلوا وارعوا أنعامكم... منها خلقناكم وفيها نعيدكم..» لا يَليق بموسى عليه السلام.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٦) لم نقف على قول الأخفش، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٦٩ .

(٧) في النسخ: اشتتَّ، والمثبت من الصحاح (شتت) وما بين حاصرتين منه.

جَـاءتْ مَـعـاً واطَّـرَقـتْ شَـتِـيـتـا وهـي تُـثـيرُ الـسَّـاطِـعَ الـسِّـخْـتِـيـتَـا[١]

وثغْرٌ شَتيتٌ، أي: مُفلَّج. وقومٌ شَتَّى، وأشياءُ شَتَّى، وتقول: جاؤوا أشتاتاً، أي: متفرِّقين، واحدهم شَتٌّ، قاله الجوهري[٢].

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أمر إباحة. «وَارْعَوْا» مِن: رعت الماشيةُ الكلأ، ورعاها صاحبها رعايةً، أي: أَسامها وسرحها، لازم ومتعدٍّ[٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: العقول. الواحدة: نُهْية. قال لهم ذلك؛ لأنهم الذين يُنْتهى إلى رأيهم. وقيل: لأنهم ينهَوْن النفس عن القبائح[٤]. وهذا كلُّه من موسى احتجاجٌ على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله: «فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى». وبيَّن أنه إنما يُستدلُّ على الصانع اليوم بأفعاله.

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ يعني آدم عليه السلام لأنه خُلق من الأرض، قاله أبو إسحاق الزجَّاج وغيره[٥]. وقيل: كلُّ نطفةٍ مخلوقةٌ من التراب، على هذا يدلُّ ظاهر القرآن[٦]. وروى أبو هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ مولودٍ إلا وقد ذُرَّ عليه مِن تراب حُفْرته» أخرجه أبو نُعيم الحافظ في باب ابن سيرين، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من حديث [ابن] عَوْن لم نكتبه إلَّا من حديث أبي عاصم النبيل، وهو أحدُ الثقاتِ الأعلام من أهل البصرة[٧]. وقد مضى هذا المعنى مُبيَّناً في سورة الأنعام

---

(١) ديوان رؤبة ص١٧١ . والرجز يصف به إبلاً، يقول: جاءت مجتمعة، فلما صدرت تفرَّقت متشتِّتة. والسِّختيت: الشديد، وعنى به هاهنا الغبار الذي تثيره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٢٠ .

(٢) الصحاح (شتت).

(٣) الصحاح (رعي).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ بنحوه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٩ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ .

(٧) حلية الأولياء ٢/ ٢٨٠ ، وما بين حاصرتين منه، وينظر تنزيه الشريعة ١/ ٣٧٣ .

عن ابن مسعود(١).

وقال عطاء الخراساني: إذا وقعت النطفة في الرَّحِم انطلق المَلَكُ المُوكَّلُ بالرَّحِم، فأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه، فيذرُّه على النطفة، فيخلق الله النَّسمة من النُّطفة ومن التراب، فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾(٢).

وفي حديث البراء عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا خرجَتْ رُوحُه؛ صَعِدَتْ به الملائكةُ، فلا يمرون بها على مَلأٍ من الملائكة إلَّا قالوا: ما هذه الروحُ الطيِّبة؟ فيقولون: فلانُ بن فلان؛ بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا، فيستفتحون لها، فيفتح؛ فَيُشيِّعه من كلِّ سماءٍ مُقرَّبوها إلى السماء التي تليها حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا لعبدي كتاباً في عِلِّيِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى. فتعاد روحُه في جسده». وذكر الحديث(٣). وقد ذكرناه بتمامه في كتاب «التذكرة»(٤)، ورُوي من حديث عليٍّ ﷺ، ذكره الثعلبي.

ومعنى ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بعد الموت ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: للبعث والحساب ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾(٥). يرجع هذا إلى قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ لا إلى ﴿نُعِيدُكُمْ﴾. وهو كقولك: اشتريتُ ناقةً وداراً وناقةً أخرى. فالمعنى: من الأرض أخرجناكم، ونُخرجكم بعد الموت من الأرض تارةً أخرى(٦).

(١) ٨/ ٣١٨ - ٣١٩.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٣٤، وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٤٠٠.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وأخرجه أبو داود (٤٧٥٣) بنحوه.

(٤) ص١١٩ - ١٢١.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٠.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨١.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: المعجزاتِ الدالَّةَ على نُبوَّة موسى. وقيل: حُجج الله الدالة على توحيده[١]. ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ أي: لم يؤمن. وهذا يدلُّ على أنه كفرَ عِناداً، لأنه رأى الآياتِ عِياناً لا خبراً[٢]. نظيره: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ لمَّا رأى الآياتِ التي أتاه بها موسى قال: إنها سحر. والمعنى: جئت لِتوهم الناس أنك جئتَ بآيةٍ توجب اتِّباعَكَ والإيمانَ بك، حتى تغلبَ على أرضنا وعلينا. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: لَنُعارِضَنَّكَ بمثل ما جئتَ به لِيتبيَّن للناس أنَّ ما أتيتَ به ليس من عند الله[٣]. ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هو مصدر، أي: وعداً. وقيل: الموعد اسمٌ لمكان الوعد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]. فالموعد هاهنا مكان. وقيل: الموعد اسمٌ لزمان الوعد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾[٤] [هود: ٨١] فالمعنى: اجعل لنا يوماً معلوماً، أو مكاناً معروفاً.

قال القشيري: والأظهر أنه مصدر ولهذا قال: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ أي: لا نخلف ذلك

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٠٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١.

(٣) ينظر زاد المسير ٥/ ٢٩٤.

(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٧١.

الوعد، والإخلاف أن يَعِدَ شيئاً ولا يُنجزه[١]. وقال الجوهري[٢]: والميعاد: المواعدة والوقت والموضع، وكذلك المَوْعِد.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج: «لَا نُخْلِفْهُ»؛ بالجزم جواباً لقوله «اجْعَلْ»[٣]. ومن رفع فهو نعتٌ لـ «موعد»، والتقدير: موعداً غيرَ مُخْلَفٍ.

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: «سُوًى» بضم السين. الباقون: بكسرها[٤]، وهما لغتان؛ مثل: عُداً وعِداً، وطُوًى وطِوًى[٥]. واختار أبو عُبيد وأبو حاتم كسر السين؛ لأنها اللغة العالية الفصيحة. وقال النحاس[٦]: والكسر أعرفُ وأشهرُ. وكلهم نَوَّنوا الواو[٧]، وقد رُوِيَ عن الحسن ـ واختُلِفَ عنه ـ ضمُّ السين بغير تنوين[٨].

واختُلِفَ في معناه؛ فقيل: سِوى هذا المكان، قاله الكلبي[٩]. وقيل: مكاناً مستوياً يتبيَّن للناس ما بينَّا فيه، قاله ابن زيد[١٠]. ابن عباس: نَصَفاً. مجاهد: مَنْصَفاً، وعنه أيضاً وقتادة: عَدْلاً بيننا وبينك[١١]. قال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى «سُوًى» نَصَفٌ وعَدْلٌ، وهو قولٌ حسن[١٢]، قال سيبويه: يقال: سِوًى وسُوًى، أي:

---

(١) أورده أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٢ .

(٢) في الصحاح (وَعَدَ).

(٣) قراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٠ ، وقراءة شيبة ذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٣ .

(٤) السبعة ص٤١٨ ، والتيسير ص١٥١ .

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٨٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ .

(٨) المحتسب ٢/ ٥٢ ، وينظر البحر المحيط ٦/ ٢٥٣ .

(٩) أورده البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢١ ، والرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٢ .

(١٠) أخرجه الطبري ١٦/ ٩٠ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٨ .

(١١) تفسير الطبري ١٦/ ٩٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ .

(١٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ .

عَدْلٌ، يعني مكاناً عَدْلاً بين المكانين فيه النَّصَفة[(١)]، وأصلُه من قولك: جلس في سَواء الدار؛ بالمدّ، أي: في وسطها، ووسط كل شيء أعدَلُه، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] أي: عَدْلاً[(٢)]»، وقال زهير:

أَرُونَا خُطَّةً لا ضَيْمَ فِيها يُسَوِّى بينَنا فيها السَّوَاءُ[(٣)]

وقال أبو عُبيدة والقُتبي: وَسَطاً بين الفريقين[(٤)]، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وإنَّ أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ سِوًى بين قيسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

والفِزْر: سعد بن زيد مَناة بن تميم[(٥)].

وقال الأخفش: «سُوًى» إذا كان بمعنى غير، أو بمعنى العدل، يكون فيه ثلاثُ لغات: إنْ ضممتَ السين أو كسرتَ؛ قصرت فيهما جميعاً. وإن فتحت مددت، تقول: مكان سِوًى وسُوًى وسَواء، أي: عَدْلٌ ووسط فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

وجدنا أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ

البيتَ[(٦)]. وقيل: «مكاناً سُوًى» أي: قصداً، وأنشد صاحب هذا القول:

لو تَمنَّتْ حَبِيبَتي ما عَدَتْني أو تَمنَّيتُ ما عَدوتُ سِواها[(٧)]

---

(١) الكلام بنحوه في الصحاح (سوى) منسوب للأخفش.

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٦٨)، والترمذي (٢٩٦١)، وسلف ٢/ ٤٣٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ ، والبيت في ديوان زهير ص٨٤ .

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٩ ، وفيهما: القريتين، بدل: الفريقين.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٠ ، والبيت في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ ، وخزانة الأدب ١/ ٣٠٢ . وموسى بن جابر الحنفي: نصراني جاهلي، يلقب أزيرق اليمامة، كثير الشعر. معجم الشعراء ص٢٨٥ .

(٦) الصحاح (سوى)، وسلف البيت قبله.

(٧) سمط اللآلئ للبكري ١/ ٥٠٦ .

وتقول: مررت برجل سِواكَ وسُوَاكَ وسَوَائِكَ، أي: غيرِكَ. وهما في هذا الأمر سواء، وإن شئت: سَواءان. وهم سواءٌ للجميع، وهم أسواءٌ، وهم سَواسِية؛ مثل ثمانية؛ على غير قياس[١].

وانتصب «مكاناً» على المفعول الثاني لـ «جعل». ولا يَحْسُنُ انتصابُه بالموعد على أنه مفعول أو ظرف له؛ لأن الموعدَ قد وصف، والأسماء التي تعمل عمل الأفعال إذا وُصفت أو صُغِّرت لم يَسُغْ أن تعمل؛ لخروجها عن شبه الفعل، ولم يحسن حملُه على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثاني؛ لأن الموعدَ إذا وقع بعده ظرف لم تُجرِه العرب مُجرى المصادر مع الظروف، لكنهم يتَّسعون فيه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] و﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾[٢].

واختُلِفَ في يوم الزينة، فقيل: هو يومُ عيد كان لهم يتزيَّنون ويجتمعون فيه، قاله قتادة والسُدِّيّ وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: كان يومَ عاشوراء. وقال سعيد بن المسيّب: يوم سوق كان لهم يتزيَّنون فيها، وقاله قتادة أيضاً. وقال الضحَّاك: يوم السبت. وقيل: يوم النيروز[٣]، ذكره الثعلبي[٤]. وقيل: يومٌ يكسر فيه الخليج[٥]، وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون، وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبَلِ النيل.

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفي والسُّلَميّ وهُبيرة عن حفص: «يَوْمَ الزِّينَةِ» بالنصب[٦]. ورُويت عن أبي عمرو[٧]، أي: في يوم الزينة إنجازُ موعدنا. الباقون

---

(١) الصحاح (سوى).

(٢) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٤/٤٨ - ٤٩ .

(٣) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/٩١ - ٩٢ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٤) في عرائس المجالس ص١٨٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/٤٩ .

(٦) المحتسب ٢/ ٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩ ، وقراءة هبيرة عن حفص ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٩٤ ، والقراءة المشهورة عن حفص: يومُ، كقراءة الجماعة. وهبيرة: هو أبو عمر بن محمد البغدادي، الأبرش، التمّار، طبقات القراء ٢/ ٣٥٣ .

(٧) وهي غير المشهورة عنه، وقد ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٥٣ .

بالرفع على أنه خبر الابتداء.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي: وجمعُ الناس، فـ «أَنْ» في موضع رفع على قراءة من قرأ: «يَوْمُ» بالرفع[١]. وعطفُ «وَأَنْ يُحْشَرَ» يُقوّي قراءة الرفع؛ لأن «أَنْ» لا تكون ظرفاً، وإن كان المصدر الصريح يكون ظرفاً، كَمقْدَمِ الحاجّ؛ لأن من قال: آتيك مَقْدَمَ الحاجّ لم يقل: آتيكَ أن يقدَمَ الحاجُّ[٢]. النحاس: وأولى من هذا أن يكون في موضع خفضٍ عطفاً على الزينة. والضُّحى مؤنثة تُصغِّرها العرب بغير هاء لئلا يُشبهَ تصغيرُها تصغيرَ ضحوة، قاله النحاس[٣]. وقال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضُّحَى، وهي حين تُشرق الشمس، مقصورة؛ تُؤنَّث وتُذكَّر، فمن أَنَّثَ ذهب إلى أنها جمع ضحوة، ومَن ذكَّر ذهب إلى أنه اسم على فُعَل، مثل: صُرَدٍ ونُغَرٍ، وهو ظرف غير متمكِّن مثل: سَحَر، تقول: لَقِيتُه ضُحًى وضُحَى، إذا أردتَ به ضُحَى يومك لم تُنوِّنه، ثم بعده الضَّحاء؛ ممدود مُذكَّر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى[٤]. وخَصَّ الضُّحى لأنه أول النهار، فلو امتدَّ الأمر فيما بينهم كان في النهار مُتَّسع.

ورُوِيَ عن ابن مسعود والجَحدريّ وغيرهما: «وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحاً» على معنى: وأن يَحْشُرَ اللهُ الناسَ ونحوه. وعن بعض القراء: «وَأَنْ تَحْشُرَ الناس»[٥] والمعنى: وأن تحشرَ أنت يا فرعون الناس. وعن الجَحدريّ أيضاً: «وَأَنْ نَحْشُرَ» بالنون[٦]. وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علوُّ كلمة الله وظهورُ دينه وكبت الكافر

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ .

(٢) ينظر مجمع البيان ١٦/ ١١١ - ١١٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢ .

(٤) الصحاح (ضحا).

(٥) القراءات الشاذة ص٨٨ ، والمحتسب ٢/ ٥٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ دون نسبة.

وزهوقُ الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المَجمع الغاصِّ؛ لتقوَى رغبةُ من رَغِبَ في الحقِّ، ويكلَّ حدُّ المبطلين وأشياعِهم، ويَكثُرَ التحدُّثُ بذلك الأمر العام[١] في كل بدوٍ وحضرٍ، ويَشيعَ في جمع أهل الوَبَر والمدَر[٢].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي: حِيَلَه وسِحْرَه، والمراد جَمْعُ السَّحَرة[٣]. قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، مع كل ساحرٍ منهم حبالٌ وعِصيٌّ. وقيل: كانوا أربع مئة. وقيل: كانوا اثني عشرَ ألفاً. وقيل: أربعةَ عشرَ ألفاً. وقال ابن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً. وقيل: كانوا مجمعين على رئيس يقال له: شمعون. وقيل: كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيباً، مع كل نقيبٍ عشرون عريفاً، مع كل عريفٍ ألفُ ساحرٍ. وقيل: كانوا ثلاثَ مئة ألفِ ساحرٍ من الفيُّوم، وثلاثَ مئة ألفِ ساحر من الصعيد، وثلاثَ مئة ألفِ ساحرٍ من الريف، فصاروا تسعَ مئة ألفٍ، وكان رئيسهم أعمى[٤].

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: أتى الميعاد. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أي: قال لفرعون والسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ عليهم بالويل. وهو بمعنى المصدر. وقال أبو إسحاق الزجَّاج[٥]: هو منصوب بمعنى: ألزمهم الله وَيْلاً. قال: ويجوز أن يكون نداءً، كقوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾ [يس: ٥٢].

﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تُشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات: إنها سحر[٦]. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ مِن عِنده، أي: يستأصِلكم

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم.
(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٧٣.
(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١.
(٤) سلفت هذه الأقوال في الأعراف ٩/ ٢٩٥، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٨، وهذه الأقوال ليس لها سند يوقف عنده.
(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ بنحوه.

بالإهلاك. يقال منه: سَحَت وأَسْحت بمعنًى. وأصله من استقصاء الشَّعر.

وقرأ الكوفيون: «فَيُسْحِتَكُمْ»[(١)] من أسْحَت، الباقون: «فَيَسْحَتَكُمْ» من سَحَت، وهذه لغةُ أهل الحجاز، [والأُولى لغة] بني تميم. وانتصب على جواب النهي. وقال الفرزدق:

وعَضُّ زمانٍ يا ابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ ... من المالِ إلَّا مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ[(٢)]

الزمخشري: وهذا بيتٌ لا تزال الركب تصطكُّ في تسوية إعرابه[(٣)].

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: خَسِرَ وهَلَكَ، وخاب من الرحمة والثواب من ادَّعى على الله ما لم يأذن به.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تشاوروا، يريد السَّحرة. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾. قال قتادة: قَالُوا: إن كان ما جاء به سحراً فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر، وهذا الذي أسرُّوه. وقيل: الذي أسرُّوا قولهم: «إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» الآية، قاله السُّدِّيّ ومقاتل. وقيل: الذي أسرُّوا قولهم: إن غَلَبنا اتَّبعناه، قاله الكلبي، دليله ما ظهر من عاقبة أمرهم. وقيل: كان سِرُّهم أن قالوا حين قال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: ما هذا بقول ساحرٍ[(٤)]. و«النجوى»: المناجاة،

---

(١) قرأ بها عاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي. السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣ . وما بين حاصرتين زيادة ضرورية، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٧٣ ، وفتح القدير ٣/ ٣٧٢، والبيت في ديوان الفرزدق ص٥٥٦ ، وقد سلف ٥/ ٢٧٩ ، و ٧/ ٤٨٤ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٤٣ ، وينظر ما ذكرناه في إعراب هذا البيت ٧/ ٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٤) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٩٥ - ٩٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

يكون اسماً ومصدراً، وقد تقدَّم في «النساء» بيانه(١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ قرأ أبو عمرو: «إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ»(٢). ورُويت عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة(٣)، وكذلك قرأ الحسنُ وسعيد بن جُبير وإبراهيم النَّخَعيّ وغيرهم من التابعين، ومن القُرَّاء عيسى بن عمر وعاصم الجَحدَرِيّ، فيما ذكر النحاس(٤). وهذه القراءة موافقةٌ للإعراب مخالفةٌ للمصحف(٥). وقرأ الزُّهريُّ والخليل بن أحمد والمفضَّل وأبان وابن مُحيصن وابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه: «إِنْ هَذَانِ» ـ بتخفيف «إن» ـ «لساحران»، وابن كثير يشدِّد نون «هذانّ»(٦). وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، ويكون معناها: ما هذان إلَّا ساحران(٧). وقرأ المدنيون والكوفيون: «إنَّ هَذَانِ» ـ بتشديد «إنَّ» ـ «لساحران»(٨)، فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب(٩). قال النحاس(١٠): فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة، ورُوِيَ عن عبد الله ابن مسعود أنه قرأ: «إِنْ هذانِ إِلَّا ساحِرانِ»(١١) وقال الكسائي في قراءة عبد الله: «أَنْ هَذَانِ سَاحِرَانِ» بغير لام(١٢)، وقال الفرَّاء في حرف أُبيّ: «إِنْ ذَانِ إِلَّا

(١) ٧/ ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٣) زاد المسير ٥/ ٢٩٧ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ ، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٠٠ .

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣ ، وقراءة ابن كثير وحفص في السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

(٨) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ ، والنشر ٢/ ٣٢١ .

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣ .

(١١) نسبها الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٦١ لأُبيّ.

(١٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ ، والرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٤ . قال السمين في الدر ٨/ ٦٨ : على أنها وما في حيِّزها بدل من «النجوى».

سَاحِرَانِ»[١]. فهذه ثلاثُ قراءات أُخرى تُحمل على التفسير، لا أنها جائزٌ أن يُقرأ بها؛ لمخالفتها المصحف.

قلت: وللعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال؛ ذكرها ابن الأنباري في آخر كتاب «الردّ» له، والنحاس في إعرابه[٢]، والمهدويُّ في «تفسيره»، وغيرهم دخلَ[٣] كلامُ بعضهم في بعض.

وقد خطَّأها قومٌ حتى قال أبو عمرو: إني لأستحي من الله أن أقرأ: «إِنَّ هَذَانِ»[٤]. وروى عروةُ عن عائشة رضيَ الله عنها أنها سُئلت عن قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [النساء: ١٦٢]، ثم قال: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ [النساء: ١٦٢] وفي «المائدة»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩] و﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرانِ﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذا خطأٌ من الكاتب. وقال عثمان بن عفان ﷺ: في المصحف لحنٌ، وستقيمه العرب بألسنتهم[٥]. وقال أبان بن عثمان: قرأت هذه الآية عند أبي عثمانَ بن عفان، فقال: لحنٌ وخطأ، فقال له قائل: ألا تُغيِّروه؟ فقال: دَعُوه، فإنه لا يُحرِّم حلالاً ولا يُحلِّل حراماً[٦].

القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بني الحرث بن كعب وزَبيد وخَثْعم وكنانة ابن زيد؛ يجعلون رفعَ الاثنين ونصبَه وخفضَه بالألف، يقولون: جاء الزيدان، ورأيتُ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٤ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٨ لابن مسعود ﷺ.

(٢) ٣/ ٤٤ - ٤٦ .

(٣) في (م): أدخل.

(٤) زاد المسير ٥/ ٢٩٧ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٣ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤ . وسلف حديث عائشة ٧/ ٢١٩ ، ونقل المصنف ثمة عن القشيري قوله: هذا المسلك باطل، لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوةً في اللغة، فلا يُظنُّ بهم أنهم يدرجون في القرآن ما لم ينزل. وينظر ما نقلناه عن الباقلاني في الردِّ على مثل هذه الأخبار.

(٦) لم نقف عليه.

الزيدان، ومررت بالزيدان، ومنه قوله تعالى: «ولا أدْرَأْتُكم به»[1] [يونس: ١٦] على ما تقدم. وأنشد الفرَّاء[2] لرجلٍ من بني أسد، قال: وما رأيتُ أفصحَ منه:

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولو يَرَى مَساغاً لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا[3]

ويقولون: كَسرتُ يداه ورَكِبتُ عَلَاه؛ بمعنى: يديه وعليه؛ قال شاعرهم:

تَزوَّدَ مِنّا بينَ أُذْنَاهُ ضَرْبَةً دعته إلى هابي التُّرابِ عَقِيمِ[4]

وقال آخر:

طَارُوا عَلَاهُنَّ فَطِرْ عَلَاهَا[5]

أي: عليهنّ، وعليها.

وقال آخر:

إنَّ أَبَاهَا وأَبَا أباهَا قد بَلَغَا في المجدِ غايتاها[6]

أي: إنَّ أبا أبيها وغايتيها. قال أبو جعفر النحاس[7]: وهذا القولُ من أحسن ما

(١) هي قراءة الحسن، وأصلُها: «ولا أدْرَيْتُكم» أبدلت الياء ألفاً لانفتاح ما قبلها، على لغة بني الحارث بن كعب كما سلف ١٠/ ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥ .

(٣) الضبعي، وهو في الأصمعيات ص٢٤٦ ، والشعر والشعراء ١/ ١٨٠ ، ومختارات ابن الشجري ص٢٩ ، وعند الأصمعي وابن الشجري: لنابيه. والشجاع: ضرب من الحيات، وصمَّمَ، أي: عضَّ ونيَّب فلم يرسل ما عضَّ. الصحاح (شجع) و(صمم).

(٤) البيت لهوبر الحارثي، وهو في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري ص٨٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٦ . والهابي: تراب القبر. القاموس (هبو).

(٥) الرجز لبعض أهل اليمن كما في نوادر أبي زيد ص٥٨ ، وفيه:

أيُّ قلوصِ راكبٍ تراها طاروا عليهن فَشُل علاها
واشدد بمثْنَي حَقَبٍ حقواها ناجيةً وناجياً أباها

وأورده بلفظ المصنف الرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٥ .

(٦) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٢٢٧ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ .

حُملت عليه الآية؛ إذ كانت هذه اللغةُ معروفةً، وقد حكاها من يُرتضى بعلمه وأمانته، منهم أبو زيد الأنصاري، وهو الذي يقول: إذا قال سيبويه: حدَّثني مَن أثِقُ به فإنما يعنيني، وأبو الخطَّاب الأخفش، وهو رئيسٌ من رؤساء اللغة، والكسائي والفرَّاء[١] كلهم قالوا هذا على لغة بني الحرث بن كعب. وحكى أبو عُبيدة[٢] عن أبي الخطَّاب أن هذه لغة بني كنانة. المهدويُّ: وحكى غيره أنها لغةٌ لخثعم[٣].

قال النحاس[٤]: ومن أبين ما في هذا قولُ سيبويه: واعلم أنك إذا ثنَّيتَ الواحد زِدْتَ عليه زائدتين، الأُولى منهما حرف مدّ ولين، وهو حرف الإعراب، قال أبو جعفر: فقول سيبويه: وهو حرف الإعراب، يُوجب أن الأصلَ ألَّا يتغيَّر، فيكون «إِنَّ هَذَانِ» جاء على أصله ليعلم ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة:١٩]، ولم يقل: استحاذ؛ فجاء هذا ليدلَّ على الأصل، وكذلك «إِنَّ هَذَانِ»، ولا يُفكَّر في إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رَوَوْها.

القول الثاني: أن يكون «إنَّ» بمعنى «نعم»، كما حكى الكسائي عن عاصم قال: العرب تأتي بـ«إِنَّ» بمعنى «نعم»، وحكى سيبويه أن «إنَّ» تأتي بمعنى «أَجَلْ»، وإلى هذا القول كان محمد بن يزيد وإسماعيل بن إسحاق القاضي يذهبان. قال النحاس: ورأيتُ أبا إسحاق الزجَّاج وعليَّ بن سليمان يذهبان إليه[٥]. الزمخشري[٦]: وقد أُعجِبَ به أبو إسحاق.

النحاس[٧]: وحدَّثنا عليُّ بن سليمان، قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن عبد

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢١ .

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٥ عن قطرب.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ - ٤٧ .

(٥) معاني القرآن للزجاج، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤ .

(٦) الكشاف ٢/ ٥٤٣ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤ .

السلام النيسابوريّ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد فحدَّثني، قال: حدَّثني عُمير بن المتوكل، قال: حدَّثنا محمد بن موسى النَّوفلي من ولد حارث بن عبد المطلب، قال: حدثنا عمرو[١] بن جُميع الكوفي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليٍّ - وهو ابن الحسين - عن أبيه، عن عليِّ بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين، قال: لا أُحصي كم سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول على منبره: «إنَّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه»[٢] ثم يقول: «أنا أفصحُ قريش كلِّها وأفصحُها بعدي أبانُ بن سعيد بن العاص»[٣]. قال أبو محمد الخفاف[٤]: قال عُمير: إعرابُه عند أهل العربية والنحو: «إنَّ الحمدَ لله» بالنصب؛ إلا أن العربَ تجعل «إنَّ» في معنى نعم، كأنه أراد ﷺ: نعم، الحمدُ لله؛ وذلك أن خُطباء الجاهلية كانت تفتتح خُطَبها بنعم. وقال الشاعر في معنى نعم:

قالوا غَدَرْتَ فقلتُ إنَّ وربَّما ... نَالَ العُلَا وشَفَى الغَليلَ الغادِرُ[٥]

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيَّات:

بَكَرَ العواذلُ في الصَّبا ... حِ يَلُمْنَنِي وأَلُومُهُنَّهْ

(١) في (م): عمر، وهو خطأ، وعمرو بن جميع كذَّبه ابن معين، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: يتهم بالوضع. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٥١.

(٢) لم نقف عليه عند غير النحاس، وأورد ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠ المرفوعَ منه.

(٣) لم نقف عليه، وقوله منه: «أنا أفصح قريش كلها» قال السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ص٥٢: أورده أصحاب الغريب، ولا يُعرف له إسناد.

وأبان بن سعيد بن العاص: قرشيٌّ أموي، شهد بدراً مشركاً، وأسلم أيام خيبر، وشهدها مع النبي ﷺ، ومات النبي ﷺ وأبان على البحرين. وقتل في أجنادين سنة ثلاث عشرة، وقيل غير ذلك. الإصابة ١/ ١٥ - ١٧، وينظر فتح الباري ٩/ ١٩.

(٤) هو عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابوري السالف ذكره في إسناد النحاس.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤، والبيت في أمالي ابن الشجري ٢/ ٤٢، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١٣٠، وخزانة الأدب ١١/ ٢١٥.

ويَــقُــلْــنَ شَــيْــبٌ قَــدْ عَــلَا ... كَ وقَــدْ كَــبِــرتَ فَــقُــلْــتُ إنَّــهْ[(١)]

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ بمعنى نعم، ولا تنصب. قال النحاس[(٢)]: أنشدني داود بن الهيثم[(٣)]، قال: أنشدني ثعلب:

لَيتَ شِعْرِي هَلْ لِلْمُحِبِّ شِفَاءٌ ... مِنْ جَوَى حُبِّهِنَّ إنَّ اللِّقَاءُ

قال النحاس[(٤)]: وهذا قول حسن؛ إلَّا أن فيه شيئاً؛ لأنه إنما يقال: نعم زيدٌ خارج، ولا تكاد تقع اللام هاهنا، وإن كان النحويون قد تكلَّموا في ذلك فقالوا: اللام يُنوَى بها التقديم، كما قال:

خَالِي لأنتَ ومَنْ جَرِيرٌ خَالُهُ ... يَنَلِ العَلَاءَ ويَكْرُمِ الأخْوالَا[(٥)]

آخر:

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ ... تَرْضَى مِنَ الشَّاةِ بِعَظْمِ الرَّقَبَهْ[(٦)]

أي: لَخالي، ولَأُمّ الحُليس، وقال الزجَّاج[(٧)]: والمعنى في الآية: إنَّ هذان لهما ساحران، ثم حذف المبتدأ. المهدوي: وأنكره أبو عليّ[(٨)] وأبو الفتح بن جنيّ[(٩)]. قال

---

(١) ديوان عبيد الله (ويقال: عبد الله) بن قيس الرُّقيات ص٦٦، والبيت الأول فيه:

بَكَرَتْ عَلَيَّ عَوَاذِلِي ... يَلْحَيْنَنِي وأَلُومُهُنَّهْ

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥، وما قبله منه.

(٣) أبو سعد التنوخي الأنباري، النحوي، اللغوي، أخذ الأدب عن ثعلب. توفي سنة (٣١٦ هـ). السير ١٤/ ٤٨٣.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦.

(٥) هو في خزانة الأدب ١٠/ ٣٢٣.

(٦) ذكره البغدادي في خزانة الأدب ١٠/ ٣٢٢، وقال: قال العيني: قائله رؤبة بن العجاج، ونسبه الصاغاني في العباب إلى عنترة بن عروش، وهو الصحيح. اهـ. والشهربة: العجوز الكبيرة.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦.

(٨) الحجة ٥/ ٢٣٠.

(٩) في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٨٠.

أبو الفتح: «هما» المحذوف لم يُحذَف إلا بعد أن عُرِف، وإذا كان معروفاً فقد استُغني بمعرفته عن تأكيده باللام، ويَقبُحُ أن يُحذفَ المؤكَّد ويُتركَ المؤكِّد.

القول الثالث: قاله الفرَّاء أيضاً[١]: وجدت الألف دعامةً ليست بلام الفعل، فزدت عليها نوناً ولم أغيرها، كما قلت: «الذي»، ثم زدت عليه نوناً فقلت: جاءني الذين عندك، ورأيت الذين عندك، ومررت بالذين عندك.

القول الرابع: قاله بعضُ الكوفيين، قال: الألف في «هذان» مُشبهة بالألف في يَفعلان، فلم تغير[٢].

القول الخامس: قال أبو إسحاق[٣]: النحويون القدماء يقولون: الهاء هاهنا مضمرة، والمعنى: إنه هذان لساحران.

قال ابن الأنباري: فأضمرت الهاء التي هي منصوب «إنَّ»، و«هذان» خبر «إنَّ»، و«ساحران» يرفعها «هما» المُضمر، [والتقدير:][٤] إنه هذان لهما ساحران. والأشبهُ عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم «إن»، و«هذان» رفع بالابتداء، وما بعده خبر الابتداء[٥].

القول السادس: قال أبو جعفر النحاس[٦]: وسألت أبا الحسن بن كَيسان عن هذه الآية، فقال: إنْ شئتَ أجبتك بجواب النحويين، وإنْ شئت أجبتك بقولي؛

(١) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦.

(٣) هو الزجَّاج، وكلامه في كتابه معاني القرآن ٣/ ٣٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) يعني والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر لـ «إنَّ» وقد ضُعِّفَ هذا القول ـ فيما ذكره السمين في الدر ٨/ ٦٧ ـ بأن حذف اسم إن غير جائز إلا في الشعر، وبأن اللام دخلت في الخبر.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦.

فقلت: بقولك، فقال: سألني إسماعيل بن إسحاق عنها فقلت: القولُ عندي أنه لما كان يقال: «هذا» في موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة، وكانت التثنية يجب ألَّا يغير لها الواحد، أُجريت التثنية مُجرى الواحدة. فقال: ما أحسنَ هذا لو تقدَّمكَ أحدٌ بالقول به حتى يؤنس به! قال ابن كَيسان: فقلت له: فيقول القاضي[1] به حتى يؤنس به؛ فتبسَّم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ هذا من قول فِرعون للسحرة[2]، أي: غرضُهما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه، كما قال فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]. ويقال: فلانٌ حسنُ الطريقة، أي: حسنُ المذهب. وقيل: طريقةُ القوم أفضلُ القوم[3]، وهذا الذي ينبغي أن يسلكُوا طريقته ويقتدوا به، فالمعنى: ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم؛ استمالةً لهم. أو يذهبا ببني إسرائيل وهم الأماثلُ وإن كانوا خَوَلاً لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأنبياء. أو يذهبا بأهل طريقتكم، فحذف المضاف[4].

و«المُثلى» تأنيث الأمثل، كما يقال: الأفضل والفُضلى. وأنَّثَ الطريقة على اللفظ، وإنْ كان يُراد بها الرجال. ويجوز أن يكون التأنيثُ على الجماعة[5]. وقال الكسائي: «بطريقتكم»: بسنتكم وسَمْتكم. و«المثلى» نعتٌ، كقولك: امرأة كبرى. تقول العرب: فلان على الطريقة المُثلى، يعنون: على الهَدْي المستقيم[6].

---

(١) يعني: القاضي إسماعيل بن إسحاق.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤١١ .

(٣) في (م): القول، وهو خطأ.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٠٢ - ١٠٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٤١١ - ٤١٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ الإجماع: الإحكام والعزم على الشيء. تقول: أجمعتُ الخروجَ وعلى الخروج، أي: عزمتُ[١].

وقراءة كل الأمصار: «فَأَجْمِعُوا» إلَّا أبا عمرو، فإنه قرأ: «فَاجْمَعُوا»، بالوصل وفتح الميم[٢]، واحتجَّ بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠].

قال النحاس[٣]: وفيما حُكي لي عن محمد بن يزيد أنه قال: يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه، وهي القراءة التي عليها أكثرُ الناس. قال: لأنه احتجَّ بـ«جمع». وقولُه عزَّ وجلَّ: «فَجمَعَ كيدَه» قد ثبتَ[٤]، فيبعد أن يكون بعده: «فَاجْمَعُوا»، ويقربُ أن يكون بعده: «فَأَجْمِعُوا» أي: اِعْزِموا وجِدُّوا، ولمَّا تقدَّم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه. يقال: أمر مُجْمَعٌ ومُجمعٌ عليه.

قال النحاس[٥]: وتصحيح[٦] قراءة أبي عمرو: «فَاجْمَعُوا»، أي: اجمعوا كلَّ كيدٍ لكم وكلَّ حيلة، فضُمُّوه مع أخيه. وقاله أبو إسحاق[٧].

الثعلبي: القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان:

أحدهما: بمعنى الجمع، تقول: أجمعتُ الشيء وجمعتُه، بمعنى واحد[٨]. وفي «الصحاح»: وأجمعت الشيء: جعلته جميعاً، قال أبو ذُؤيب يَصِفُ حُمُراً:

فكأنَّها بالجِزْعِ بَيْنَ نُبَايِعٍ وأولاتِ ذي العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجمَعُ[٩]

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٥ .
(٢) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥٢ .
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧ ، وما قبله منه.
(٤) بعدها في (م): هذا.
(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧ .
(٦) في (م) و(د): ويصحح. والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس.
(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٥ .
(٨) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .
(٩) الصحاح (جمع)، والبيت في ديوان الهذليين ص٦ ضمن قصيدة يرثي بها الشاعر أولاده الخمسة. =

أي: مجموع.

والثاني: أنه بمعنى العزم والإحكام، قال الشاعر:

يا ليت شِعرِي والمُنَى لا تَنْفعُ هل أغدُوَنْ يوماً وأمرِي مُجمَعُ[١]

أي: مُحكَم.

﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ قال مقاتل والكلبي: جميعاً. وقيل: صفوفاً؛ ليكون أشدَّ لهيبتكم[٢]. وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبي عُبيدة[٣]، قال: يقال: أتيتُ الصَّفَّ، يعني المُصلَّى، فالمعنى عنده: ائتوا الموضعَ الذي تجتمعون فيه يومَ العيد[٤].

وحُكيَ عن بعض فصحاء العرب[٥]: ما قدرتُ أن آتيَ الصَّفَّ، يعني المصلَّى. وقال الزجَّاج[٦]: يجوز أن يكون المعنى: ثم ائتوا والناس مُصطفُّون، فيكون على هذا مصدراً في موضع الحال. ولذلك لم يُجمع.

وقُرئ: «ثُمِّ ايْتُوا» بكسر الميم وياء[٧]. ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفاً[٨].

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: من غلب. وهذا كلُّه من قول السحرة بعضهم لبعض. وقيل: من قول فرعون لهم[٩].

= ونبايع: اسم مكان أو جبل في ديار هذيل، وروي بتقديم الياء (يُنابع). وأولات ذي العرجاء: مواضع نسبها إلى مكان فيه أكمة عرجاء. معجم البلدان ٥/ ٢٥٧ و ٤/ ٩٨.

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٥، وسلف البيت ١١/ ٢٢.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧.

(٤) وهذا قول الزجاج أيضاً في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٥.

(٥) هو أبو العرب الكُليبي، كما في مجاز القرآن ٢/ ٢٣.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٥.

(٧) نسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١ لابن كثير في رواية شبل (وهي غير المشهورة عن ابن كثير). قال ابن مجاهد في السبعة ص٤٢٠: وهذا غلط، ولا وجه لكسرها.

(٨) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٢٣٤.

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤١١ - ٤١٢.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ۝٧١﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يريد السحرة. ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ عصاك من يدك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ تأدَّبوا مع موسى، فكان ذلك سبب إيمانهم[١]. ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ﴾ في الكلام حذف، أي: فألقوا، دلَّ عليه المعنى[٢].

وقرأ الحسن: ﴿وَعُصِيُّهُمْ﴾ بضم العين[٣]. قال هارون القارئ: لغة بني تميم «وعُصِيُّهُمْ»، وبها يأخذ الحسن[٤]. الباقون بالكسر إتباعاً لكسرة الصاد. ونحوه: دُلِيّ ودِلِيّ وقُسِيّ وقِسِيّ[٥].

﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾، وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان ورَوْح عن يعقوب: «تُخَيَّلُ» بالتاء[٦]، وردّوه إلى العِصِيّ والحبال؛ إذ هي مؤنثة. وذلك أنهم لطخوا العِصِيّ بالزئبق، فلمّا أصابها حرّ الشمس ارتهشت واهتزّت[٧]. قال الكلبي:

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٨١.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٨، ونسبها لعيسى.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٨.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٣.

(٦) قراءة ابن ذكوان (وهو راوي ابن عامر) وقراءة رَوْح عن يعقوب في التيسير ص١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤.

خُيِّل إلى موسى أن الأرض حيّات، وأنها تسعى على بطنها[١].

وقُرئ: «تَخَيَّل» بمعنى تتخيل، وطريقُه طريق «تُخَيَّلُ»[٢]، ومن قرأ: «يُخَيَّلُ» بالياء ردَّه إلى الكيد[٣]. وقرئ: «نُخَيِّل» بالنون؛ على أن الله هو المُخيِّل، للمحنة والابتلاء[٤].

وقيل: الفاعل «أَنَّهَا تَسْعَى»، فـ«أنَّ» في موضع رفع، أي: يخيَّل إليه سعيُها، قاله الزجَّاج[٥]. وزعم الفرَّاء[٦] أن موضعها موضع نصب؛ أي: بأنها، ثم حذف الباء.

والمعنى في الوجه الأوّل: تشبَّه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظنَّ أنها تسعى. وقال الزجَّاج[٧]: ومن قرأ بالتاء جعل «أنَّ» في موضع نصب، أي: تُخَيَّل إليه ذاتَ سعي. قال: ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ بدلاً من الضمير في «تُخيَّل»، وهو عائد على الحبال والعِصِيّ، والبدل فيه بدل اشتمال. و«تسعى» معناه: تمشي.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: أضمر. وقيل: وَجَدَ. وقيل: أحسَّ، أي: من الحيّات، وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدَّم[٨]. وقيل: خاف أن يفتتنَ الناسُ قبل أن يُلقيَ عصاه. وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناسُ قبل ذلك فيفتتنوا[٩].

وقال بعض أهل الحقائق: إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لمّا التقى

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٤ .

(٢) نسبها السمين في الدر المصون ٨/ ٧٣ لأبي السمَّال.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤ .

(٤) الكشاف ٢/ ٥٤٤ ، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٩ لأبي حيوة.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٦ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٨ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٨) ص٦٧-٦٨ من هذا الجزء.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٨ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٨٤ .

بالسحرة وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] التفت، فإذا جبريلُ على يمينه، فقال له: يا موسى، تَرفَّق بأولياء الله. فقال موسى: يا جبريلُ، هؤلاء سحرة جاؤوا بسحر عظيم ليبطلوا المُعجزة، وينصروا دينَ فرعون، ويردّوا دينَ الله، تقول: تَرفَّق بأولياء الله! فقال جبريل: هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة. فلما قال له ذلك، أُوجس في نفس موسى، وخَطَر أن ما يُدريني ما عِلْمُ الله فيَّ، فلعلِّي أكون الآن في حالة، وعِلْم الله فيَّ على خلافها كما كان هؤلاء. فلمّا علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلا في الجنة، للنبوَّة والاصطفاء الذي أتاك الله به.

وأصل «خِيفة»: خِوْفة، فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾ ولم يقل: وألق عصاك، فجائزٌ أن يكون تصغيراً لها، أي: لا تُبال بكثرة حبالهم وعِصِيّهم، و ألقِ العُوَيدَ الفَرْدَ الصغير الجِرْم الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يَتلقّفها على وحدته وكَثرتها، وصِغَره وعِظَمها. وجائزٌ أن يكون تعظيماً لها، أي: لا تَحفِل بهذه الأجرامِ الكثيرة الكبيرة، فإن في يمينك شيئاً أعظمُ منها كلِّها، وهذه على كثرتها أقلُّ شيء وأنزرُه عندها، فألقه يَتلقَّفْها بإذن الله ويمحقْها(٢).

و«تَلَقَّفْ» بالجزم جوابُ الأمر، كأنه قال: إنْ تُلقِهِ يتلقّف، أي: تأخذ وتبتلع.

وقرأ السُّلَميّ وحفص: «تَلْقَفْ» ساكنة اللام؛ من لَقِفَ يَلْقَفُ لَقْفاً. وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيى بن الحارث: «تَلَقَّفُ» بحذف التاء ورفع الفاء، على معنى فإنها تتلقف(٣).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٤ .

(٣) قراءة حفص راوي عاصم وقراءة ابن ذكوان راوي ابن عامر في السبعة ص٤٢٠ ، والتيسير ص١١٢ .

والخِطاب لموسى. وقيل: للعصا. واللَّقْف: الأخذ بسرعة؛ يقال: لَقِفتُ الشيء ـ بالكسر ـ أَلْقَفُه لَقْفاً، وتلقَّفتُه أيضاً، أي: تناولته بسرعة. عن يعقوب: يقال: رجلٌ لَقْفٌ ثَقْفٌ، أي: خفيفٌ حاذقٌ. واللَّقَفُ ـ بالتحريك ـ: سقوط الحائط. ولقد لَقِفَ الحوضُ لَقَفاً، أي: تَهوَّر من أسفله واتَّسع[١]. وتَلْقف وتَلقَم وتَلهَم بمعنى. وقد مضى في «الأعراف»[٢]. لَقِمتُ اللُّقمة بالكسر لَقْماً، وتَلقَّمتُها: إذا ابتلعتها في مُهلة. وكذلك لَهِمَهُ بالكسر: إذا ابتلعه[٣].

﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ أي: الذي صنعوه، وكذا ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ أي: إنَّ الذي صنعوه. ﴿كَيْدُ﴾ بالرفع ﴿سِحْرٍ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء، وهي قراءة الكوفيين إلَّا عاصماً[٤]. وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون الكيدُ مضافاً إلى السحر على الإتباع من غير تقدير حذف.

والثاني: أن يكون في الكلام حذفٌ، أي: كيدُ ذي سحر[٥].

وقرأ الباقون: «كَيْدَ»[٦] بالنصب بوقوع الصنع عليه، و«ما» كافَّة، ولا تُضمر هاءً.

«ساحِرٍ» بالإضافة. والكيدُ في الحقيقة على هذه القراءة مضافٌ للساحر؛ لا للسِّحر. ويجوز فتحُ «أنّ» على معنى: لأنَّ ما صنعوا كيدُ ساحر[٧].

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض. وقيل:

(١) الصحاح (لقف). ويعقوب: هو ابن السكيت، وقوله في إصلاح المنطق ص٧٤. وقوله: ثَقْف لَقْف؛ قيده الفيروزآبادي في القاموس (لقف) بالفتح، وككتف، وأمير.

(٢) ٩/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٣) الصحاح (لقم) و(لهم).

(٤) السبعة ص٤٢١، والتيسير ص١٥٢.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٥.

(٦) ظاهر العبارة يوهم أن قراءة «كيدَ» بالنصب هي من المتواتر، لكنها قراءة شاذة، قرأ بها ابن مسعود ﷺ وأبو عمران الجوني. زاد المسير ٥/ ٣٠٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩. وقوله: يجوز فتح «أن» يعني في اللغة لا في التلاوة.

حيث احتال. وقد مضى في «البقرة» حكمُ الساحر ومعنى السحر؛ فتأمَّلْه هناك[١].

قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لِمَا رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا، فإنها ابتلعتْ جميعَ ما احتالوا به من الحبال والعِصيّ، وكانت حملَ ثلاث مئة بعير، ثم عادت عصاً لا يعلم أحدٌ أين ذهبت الحبالُ والعِصِيّ إلا اللهُ تعالى[٢]. وقد مضى في «الأعراف»[٣] هذا المعنى وأمر العصا مستوفًى.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ * قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: به، يقال: آمن له، وآمن به، ومنه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وفي «الأعراف» قَالَ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية: ١٢٣] إنكارٌ منه عليهم، أي: تعدَّيتم وفعلْتُم ما لم آمرْكم به.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. أي: رئيسُكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذقُ به منكم. وإنما أراد فرعونُ بقوله هذا لِيُشبِّهَ على الناس حتى لا يتَّبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، وإلا فقد علم فرعونُ أنهم لم يتعلَّموا من موسى، بل قد عُلِّموا السحر قبلَ قُدوم موسى وولادته[٤]. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل[٥]. قال سُويد بن أبي كاهل:

هُمُ صَلَبُوا العبديَّ في جذع نخلةٍ فلا عَطَستْ شيبانُ إلَّا بأَجْدَعا[٦]

فقطَّع وصلَّب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى.

وقرأ ابن مُحيصن هنا وفي «الأعراف» [الآية: ١٢٤]: «فَلَأَقْطَعَنَّ»، «وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ»

---

(١) ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ .

(٣) ٩/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٩ بنحوه.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٣ ، وتفسير الطبري ١٦/ ١١٥ .

(٦) أمالي ابن الشجري ٢/ ٦٠٦ ، ونسبه البصري في حماسته ١/ ٨٠ لقراد بن حنش الصاردي. والأجدع: المقطوع الأنف. شرح أبيات المغني للبغدادي ٤/ ٦٢ .

بفتح الألف والتخفيف؛ من قَطَع وصَلَب[١]. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعني: أنا أَمْ ربُّ موسى[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ يعني السَّحرة ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أي: لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ قال ابن عباس: يريدُ من اليقين والعلم[٣]. وقال عكرمة وغيره: لمَّا سجدوا أراهم اللهُ في سجودهم منازلَهم في الجنة؛ فلهذا قالوا: «لن نؤثِرك»[٤].

وكانت امرأةُ فرعون تسأل: من غلب؟ فقيل لها: غلبَ موسى وهارون، فقالت: آمنتُ بربِّ موسى وهارون. فأرسل إليها فرعونُ فقال: انظروا أعظمَ صخرةٍ؛ فإنْ مَضَتْ[٥] على قولها فألقُوها عليها، فلما أتَوْها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرَتْ منزلَها في الجنة، فمضت على قولها؛ فنزع اللهُ روحَها[٦]، وألقيت الصخرةُ على جسدها وليس فيها روح[٧].

وقيل: قال مقدّم السّحرة لمن يَثِقُ به لمَّا رأى مِن عصا موسى ما رأى: انْظُر إلى

(١) القراءات الشاذة ص٨٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣، وزاد المسير ٥/ ٣٠٧.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٤ - ٢١٥.

(٥) في النسخ الخطية: مرت، والمثبت من (م).

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(م): فانتزع روحها، والمثبت من (ظ).

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ١١٥ عن القاسم بن أبي بزّة.

هذه الحيَّة: هل تجوَّفت فتكون جنيًا، أو لم تتجوَّف فهي من صنعة الصانع الذي لا يَعزُب عليه مصنوع؟ فقال: ما تجوَّفت(١)؛ فقال: آمنتُ بربِّ هارون وموسى.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قيل: هو معطوفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، ولا على الذي فَطَرَنا، أي: خَلَقَنا. وقيل: هو قسم؛ أي: واللهِ لن نؤثرك(٢).

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ التقدير: ما أنت قاضيه. وليست «ما» هاهنا التي تكونُ مع الفعل بمنزلة المصدر؛ لأنَّ تلك تُوصَلُ بالأفعال، وهذه موصولةٌ بابتداءٍ وخبر(٣). قال ابن عباس: فاصنعْ ما أنت صانع(٤). وقيل: فاحكم ما أنت حاكم، أي: من القَطْع والصَّلْب(٥). وحُذفت الياء من قاضٍ في الوصلِ لسكونها وسكون التنوين. وأجاز(٦) سيبويه إثباتَها في الوقف لأنَّه قد زالت علَّة التقاء الساكنين.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: إنَّما ينفذُ أمرُك فيها. وهي منصوبةٌ على الظرف، والمعنى: إنَّما تقضي في متاع هذه الحياة الدنيا(٧)، أو وقت هذه الحياة الدنيا، فتقدِّر حذف المفعول. ويجوز أنْ يكون التقدير: إنَّما تقضي أمورَ هذه الحياة

---

(١) في (د) و(م): ..هل تخوفت.. أو لم تتخوف.. ما تخوفت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ - ٥٠.

(٣) جوَّز جماعة كثيرة أن توصل ما المصدرية بالجملة الاسمية، فيما قاله السمين في الدر المصون ٨/ ٧٨. وقد ذكر الوجهين (يعني أن تكون ما موصولة أو مصدرية ظرفية) العكبري في إملاء ما منّ به الرحمن ٣/ ٥٨٩ (على هامش الفتوحات الإلهية).

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١٤، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٥، والبغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٤، والواحدي في الوجيز ٢/ ٢٣ (على هامش مراح لبيد).

(٦) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠ (والكلام منه): واختار، والمثبت من باقي النسخ، وينظر الكتاب ٤/ ١٨٣ - ١٨٥.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠.

الدنيا، فتَنْتَصِب انتصابَ المفعول، و«ما» كافَّةٌ لإنَّ[١]. وأجاز الفرَّاء الرفعَ على أنْ تجعل «ما» بمعنى الذي، وتحذف الهاء من تقضي، ورفعت «هذه الحياة الدنيا»[٢].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ أي: صدَّقنا بالله وحدَه لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ يريدون الشِّرْك الذي كانوا عليه[٣]. ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ «ما» في موضع نصبٍ معطوفةٌ على الخطايا. وقيل: لا موضعَ لها، وهي نافية، أي: ليغفرَ لنا خطايانا من السّحر وما أكرهتنا عليه.

النحاس[٤]: والأول أولى. المهدوي: وفيه بعد؛ لقولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، وليس هذا بقول مُكْرَهين؛ ولأنَّ الإكراهَ ليس بذنب، وإنْ كان يجوز أنْ يكونوا أُكرهوا على تعلمه[٥] صغاراً. قال الحسن: كانوا يُعلَّمون السحر أطفالاً، ثمَّ عَمِلُوه مختارين بعد[٦]. ويجوز أنْ يكون «ما» في موضع رفعٍ بالابتداء ويُضمر الخبر، والتقدير: وما أكرهتنا عليه من السحر موضوعٌ عنَّا[٧]. و«من السحر» على هذا القول والقول الأوَّل يتعلَّق بـ «أكرهتنا». وعلى أنَّ «ما» نافيةٌ؛ يتعلق بـ «خطايانا»[٨].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: ثوابُه خيرٌ وأبقى. فحذف المضاف؛ قاله ابن عباس. وقيل: اللهُ خيرٌ لنا منك، وأبقى عذاباً لنا من عذابك لنا. وهو جوابُ قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ

---

(١) الكلام بنحوه في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٨٨ (على هامش الفتوحات الإلهية).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٦٩-٤٧٠. وكلام الفراء في جواز رفع «الحياة» يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٥٠.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): تعليمه، والمثبت من (ظ).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٥ بنحوه.

(٧) البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ١٤٩، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٨٩ (بهامش الفتوحات الإلهية).

(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠.

﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾. وقيل: الله خيرٌ لنا إنْ أطعناه، وأبقى عذاباً منك إنْ عصيناه[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قيل: هو من قول السحرة لمَّا آمنوا. وقيل: ابتداءُ كلامٍ من الله عزَّ وجلَّ[٢]. والكناية في «إنه» ترجعُ إلى الأمر والشأن[٣]. ويجوز: إنَّ مَن يأتِ، ومنه قول الشاعر:

إنَّ مَن يَدخلِ الكنيسةَ يوماً يَلْقَ فيها جآذِراً وظِبَاء[٤]

أراد: إنَّه من يدخل.

أي: إنَّ الأمر هذا، وهو أنَّ المجرمَ يدخل النَّار، والمؤمنَ يدخلُ الجنَّة.

والمجرم: الكافر[٥]. وقيل: الذي يقترف المعاصي ويَكتسبها. والأول أشبهُ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. وهذه صفةُ الكافر المُكذِّب الجاحد؛ على ما تقدَّم بيانُه في سورة «النّساء»[٦] وغيرها، فلا يَنتفع بحياته، ولا يَستريح بموته. قال الشاعر:

ألا مَنْ لنفسٍ لا تموت فينقضي شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ[٧]

وقيل: نفسُ الكافر معلقةٌ في حَنْجَرته، كما أخبر الله تعالى عنه، فلا يموتُ بفراقها، ولا يحيا باستقرارها[٨].

---

(١) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤١٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٠.

(٤) نسبه ابن السيد البطليوسي في الحلل ص٢٨٧ للأخطل، ولم نقف عليه في ديوانه من رواية السكري، وكذا قال البغدادي في الخزانة ١/ ٤٥٨. والجآذر: جمع جُؤذُر، وهو ولد البقرة.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ٦/ ٩٢.

(٧) البيت في النكت والعيون ٣/ ٤١٥، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٥، وزاد المسير ٥/ ٣٠٩، واللسان (طعم).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤١٥.

ومعنى ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾: من يأتِ موعدَ ربِّه. ومعنى ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ أي: يمت عليه، ويُوافيه مصدِّقاً به. ﴿قَدْ عَمِلَ﴾ أي: وقد عمل ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: الطاعات وما أُمِر به ونُهِي عنه. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: الرفيعةُ التي قصرت دونها الصفات. ودلَّ قولُه: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ على أنَّ المرادَ بالمجرم المشرك.

قوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ بيانٌ للدَّرجات وبدلٌ منها، والعَدْن: الإقامة، وقد تقدَّم بيانُه[١]. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت غُرَفها وسُرُرها ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ من الخمر والعسل واللَّبن والماء، وقد تقدَّم[٢]. ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين دائمين. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: من تَطهَّرَ من الكفر والمعاصي.

ومن قال: هذا من قول السَّحرة؛ قال: لعلَّ السَّحرة سمعوه من موسى، أو من بني إسرائيل إذْ كان فيهم بمصرَ أقوام، وكان فيهم أيضاً المؤمنُ من آل فرعون.

قلت: ويَحتمِلُ أنْ يكون ذلك إلهاماً من الله لهم، أنطقَهم بذلك لمَّا آمنوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ تقدَّم الكلام في هذا مستوفًى. ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: يابساً لا طينَ فيه ولا ماء، وقد مضى في «البقرة» ضربُ موسى البحرَ، وكُنيته إيَّاه[٣]، وإغراقُ فرعون، فلا معنى للإعادة.

﴿لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا﴾ أي: لَحاقاً من فرعون وجنوده. ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾. قال ابن جُريج:

---

(١) ١٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) ١٢/ ٢١٨ .

(٣) سلف ٢/ ٩٢ - ٩٣ .

قال أصحابُ موسى له: هذا فرعون قد أدركَنا، وهذا البحرُ قد غَشِيَنا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ أي: لا تخاف دَرَكاً من فرعون، ولا تخشى غَرَقاً من البحر إنْ غَشِيَك[1].

وقرأ حمزة: «لا تَخَفْ»[2] على أنَّه جواب الأمر. التقدير: إنْ تضربْ لهم طريقاً في البحر لا تَخَفْ. «ولا تخشى» مستأنفٌ على تقدير: ولا أنت تخشى[3]. أو يكون مجزوماً، والألف مشبعةٌ من فتحة، كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، أو يكون على حدِّ قول الشاعر:

كَأَنْ لَم تَرَى قَبْلي أَسِيراً يَمانِيَا[4]

على تقدير حذف الحركة كما تُحذف حركةُ الصَّحيح. وهذا مذهبُ الفرَّاء[5].

وقال آخر:

هَجوتَ زَبَّان ثم جئتَ معتذراً … من هجوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو ولَمْ تَدَعِ[6]

وقال آخر:

أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِي … بِما لَاقَتْ لَبُون بَني زِيادِ[7]

قال النحاس[8]: وهذا من أقبح الغلط أن يُحمل كتابُ الله عزَّ وجلَّ على الشذوذ

(١) في (د): أن يمسّك، وفي (م): أن يمسّك إن غشيك، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) و(ف)، وهو الموافق للنكت والعيون ٣/ ٤١٥ - ٤١٦ والكلام منه.

(٢) السبعة ص٤٢١ ، والتيسير ص١٥٢ .

(٣) في (خ) و(ز) و(ف): ولا أنت لا تخشى، وفي (د): ولا أنت ولا تخشى، والمثبت من (ظ) و(م). والكلام في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ ، والبيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ١٥٠ .

(٤) قائله عبد يغوث الحارثي اليمني، وصدره: وتضحك مني شيخة عبشميَّة، وهو في خزانة الأدب ٢/ ٢٠١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٦) البيت لأبي عمرو بن العلاء البصري يخاطب به الفرزدق، وكان هجاه ثم جاءه معتذراً، وزبّان هو أبو عمرو نفسه. والبيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٧ ، ومعجم الأدباء ١١/ ١٥٨ .

(٧) البيت لقيس بن زهير، وقد سلف ١١/ ٤٤٣ .

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٥١ ، وفيه البيتان السالفان.

من الشعر. وأيضاً فإنَّ الذي جاءَ به من الشِّعر لا يُشبه من الآية شيئاً؛ لأنَّ الياءَ والواو مُخالفتان للألف؛ لأنَّهما تتحركان، والألف لا تتحرك، فللشاعر إذا اضطُر أنْ يُقدِّرهما متحركتين، ثم يَحذف الحركةَ للجزم، وهذا محالٌ في الألف.

والقراءةُ الأُولى أَبين؛ لأنَّ بعده: «وَلَا تَخْشَى» مُجمعٌ عليه بلا جزم؛ وفيها ثلاثُ تقديرات:

الأول: أنْ يكون «لا تخاف» في موضع الحال من المُخاطب، التقدير: فاضرِبْ لهم طريقاً في البحر يَبَساً غيرَ خائف ولا خاشٍ.

الثاني: أنْ يكون في موضع النعت للطَّريق؛ لأنَّه معطوفٌ على «يَبَس» الذي هو صفة، ويكون التقدير: لا تخاف فيه، فحذفَ الراجع من الصفة.

والثالث: أنْ يكون منقطعاً خبرَ ابتداء محذوف، تقديره: وأنت لا تخاف[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي: أتبعهم ومعه جنودُه، وقُرئ: «فَاتَّبَعَهُمْ» بالتشديد[(٢)]، فتكون الباء في «بِجنودِهِ» عَدَّت الفعلَ إلى المفعول الثاني؛ لأنَّ اتَّبع يتعدَّى إلى مفعولٍ واحد. أي: تبعهم ليلحقهم بجنوده، أي: مع جنوده كما يُقال: ركب الأمير بسيفه، أي: مع سيفه.

ومن قطع، فأتبع يتعدَّى إلى مفعولين: فيجوز أنْ تكون الباء زائدة، ويجوز أنْ يكون اقتصرَ على مفعولٍ واحد. يقال: تَبِعَه وأَتْبعَه، ولَحِقَه وأَلْحَقه بمعنًى واحد. وقوله: «بِجنودِهِ» في موضع الحال، كأنَّه قال: فأتبعهم سائقاً جنودَه[(٣)].

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: أصابهم من البحر ما غرَّقهم، وكرَّرَ على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠.

(٢) هي رواية عبيد عن أبي عمرو البصري كما في السبعة ص٤٢٢، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥ بنحوه.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: أضلَّهم عن الرُّشد، وما هداهم إلى خيرٍ ولا نجاة؛ لأنَّه قدَّر أنَّ موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأنَّ بين أيديهم البحر.

فلمَّا ضرب موسى البحرَ بعصاه انفلق منه اثنا عشرَ طريقاً، وبين الطرق الماءُ قائماً كالجبال. وفي سورة الشعراء ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الآية: ٦٣]، أي: الجبل الكبير، فأخذَ كلُّ سِبْطٍ طريقاً. وأوحى الله إلى أطواد الماء أنْ تَشبَّكي، فصارت شبكاتٍ يرى بعضُهم بعضاً، ويسمع بعضُهم كلامَ بعض، وكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلمَّا أقبل فرعون، ورأى الطرق في البحر، والماءَ قائماً، أوهمَهم أنَّ البحر فعلَ هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابُه فانطبقَ البحر عليهم[1].

وقيل: إنَّ قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيدٌ لإضلاله إيَّاهم. وقيل: هو جوابُ قول فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فكذَّبه الله تعالى[2].

وقال ابن عباس: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما هدى نفسَه، بل أهلك نفسَه وقومَه.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ لمَّا أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا. ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ «جانب» نصب على المفعول الثاني لـ «واعدنا» ولا يحسن أنْ ينتصب على الظرف؛ لأنَّه ظرفُ مكانٍ مختص[3] غير مبهم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٥٢ دون ذكر تَشبُّك الماء ليرى بعضهم بعضاً.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥.

(٣) في النسخ: محض، والمثبت من مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ والكلام منه، وينظر الدر المصون ٨/ ٨٥.

وإنَّما تتعدَّى الأفعالُ والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مُبهمةً.

قال مكيّ: هذا أصلٌ لا خلاف فيه، وتقديرُ الآية: وواعدناكم إتيانَ جانب الطُّور، ثمَّ حذف المضاف.

قال النحاس[١]: أي: أَمَرْنا موسى أنْ يأمرَكم بالخروج معه؛ لنُكلِّمه[٢] بحضرتكم، فتسمعوا الكلام.

وقيل: وعدَ موسى بعد إغراق فرعون أنْ يأتيَ جانبَ الطور الأيمنَ فَيُؤتيه التوراة[٣]، فالوعدُ كان لموسى، ولكن خُوطبوا به؛ لأنَّ الوعد كان لأجلهم.

وقرأ أبو عمرو: «وَوَعَدْنَاكُمْ» بغير ألف[٤]، واختاره أبو عُبيد؛ لأنَّ الوعد إنَّما هو من الله تعالى لموسى خاصة، والمُواعدةُ لا تكون إلَّا من اثنين؛ وقد مضى في «البقرة» هذا المعنى[٥].

و«الْأَيْمَنَ» نصب؛ لأنَّه نعتٌ للجانب، وليس للجبل يمينٌ ولا شمال، فإذا قيل: خُذْ عن يمين الجبل؛ فمعناه: خُذْ على يمينك من الجبل[٦]. وكان الجبل على يمين موسى إذْ أتاه.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي: في التِّيه، وقد تقدَّم القول فيه[٧].

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: من لذيذ الرزق. وقيل: من حلاله؛ إذْ لا صُنع فيه لآدميٍّ فتدخُلَه شُبهة.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٥٢ .

(٢) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس: ليكلمه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٦ .

(٤) السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص٧٣ .

(٥) ٢/ ٩٨ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥٩ عند قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] بنحوه.

(٧) ٢/ ١١٨ .

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: لا تحملنَّكُم السَّعة والعافية أنْ تعصوا؛ لأنَّ الطُّغيان: التجاوزُ إلى ما لا يجوز[1]. وقيل: المعنى: أي لا تكفروا النِّعمة، ولا تنسَوْا شُكرَ المُنعم بها عليكم. وقيل: أي: ولا تستبدلوا بها شيئاً آخر، كما قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. وقيل: لا تدَّخِروا منه لأكثرَ من يومٍ وليلة، قال ابن عباس: فدوّد عليهم ما ادَّخروه؛ ولولا ذلك ما دَوَّدَ[2] طعامٌ أبداً.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: يجب وينزل، وهو منصوبٌ بالفاء في جواب النهي من قوله: «وَلَا تَطْغَوْا».

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بنُ وثَّاب والكسائي: «فَيَحُلَّ» بضمِّ الحاء، «وَمَنْ يَحْلُلْ» بضمِّ اللَّام الأولى[3]. الباقون بالكسر، وهما لغتان. وحكى أبو عُبيدة[4] وغيره أنَّه يقال: حَلَّ يَحِلُّ: إذا وجبَ، وحَلَّ يَحُلُّ: إذا نزل. وكذا قال الفراء[5]: الضمُّ من الحُلول بمعنى الوقوع، والكسر من الوجوب. والمعنيان متقاربان؛ إلَّا أنَّ الكسر أولى؛ لأنَّهم قد أجمعوا على قوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[6] [الزمر: ٤٠]. وغضبُ الله: عقابُه ونِقْمته وعذابه.

﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قال الزَّجَّاج[7]: فقد هلك، أي: صارَ إلى الهاوية، وهي قَعْرُ النار، من هَوَى يَهوي هَوِيًّا، أي: سقط من عُلْوٍ إلى سُفْل، وهوى فلان، أي: مات[8].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ .

(٢) في النسخ: فتدَوَّد عليهم... ما تدوَّد، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٤١٦ (والكلام منه) ومن معاجم اللغة.

(٣) قراءة الكسائي في السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٢ ، وقراءة الأعمش ذكرها البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٧ .

(٤) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ والكلام منه: أبو عُبيد. ولم نقف على هذا الكلام في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ - ٥٣ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣ .

(٨) تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٨ - ٤٩٠ .

وذكر ابن المبارك: أخبرنا إسماعيل بن عيَّاش قال: حدثنا ثعلبةُ بن مسلم، عن أيوبَ بن بَشِير، عن شُفَيّ الأصبحيّ قال: إنَّ في جهنَّم جبلاً يُدعى صَعُوداً، يطلَع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أنْ يرقاه، قال الله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧]، وإنَّ في جهنم قصراً يُقال له: هَوَى، يُرمى الكافرُ من أعلاه، فيهوي أربعينَ خريفاً قبل أنْ يبلُغ أصلَه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ وذكر الحديث[1]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: من الشّرك. ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: أقامَ على إيمانه حتى مات عليه؛ قاله سفيانُ الثوري وقتادة وغيرهما[3]. وقال ابن عباس: أي: لم يَشكَّ في إيمانه، ذكره الماوردي[4] والمهدوي. وقال سهلُ ابن عبد الله التُّستَريّ وابن عباس أيضاً: أقام على السنَّة والجماعة[5]، ذكره الثعلبي. وقال أنس: أخذ بسنَّة النبي ﷺ، ذكره المهدوي، وحكاه الماوردي عن الربيع بن أنس[6]. وقول خامس: أصاب العمل، قاله ابن زيد[7]، وعنه أيضاً: تعلَّمَ العلمَ لِيهتديَ كيف يَفعل[8]، ذكر الأوّل المهدوي، والثاني الثعلبيّ. وقال الشعبيّ ومقاتل والكلبيّ: علم أنَّ لذلك ثواباً وعليه عقاباً[9]؛ وقاله الفراء[10]. وقول ثامن: «ثم

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٦ - زوائد نعيم)، وهو مقطوع، وأيوب بن بشير مجهول، كما في ميزان الاعتدال ١/ ٢٨٥ .

(٢) ص٤٠١ - ٤٠٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ عن قتادة. وسيأتي الخبر عن سفيان.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٤١٦ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٢٧ - ١٢٨ .

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣١٢ عن سعيد بن جبير.

(٦) في النكت والعيون ٣/ ٤١٧ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ .

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١٧ .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٧ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧ .

(١٠) في معاني القرآن ٢/ ١٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣ .

اهتدى» في ولاية أهل بيت النبي ﷺ؛ قاله ثابت البُنَاني[(١)].

والقولُ الأول أحسنُ هذه الأقوال إنْ شاء الله، وإليه يرجع سائرها. قال وكيع عن سفيان: كنَّا نسمع في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ﴾ أي: من الشِّرك، ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بعد الشِّرك ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: صلَّى وصام ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: مات على ذلك[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: ما حملك على أنْ تسبقَهم؟ قيل: عَنى بالقوم جميعَ بني إسرائيل، فعلى هذا قيل: استخلف هارونَ على بني إسرائيل، وخرج معه بسبعين رجلاً للميقات.

فقوله: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ ليس يريد أنَّهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب مني ينتظرون عودي إليهم[(٣)]. وقيل: لا، بل كان أَمَر هارونَ بأنْ يَتْبع في بني إسرائيل أثرَه ويلتحقوا به[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٩، وهو في النكت والعيون ٣/ ٤١٧، وزاد المسير ٥/ ٣١٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٣.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٩ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٣٠ عن ابن إسحاق بنحوه.

وقال قوم: أرادَ بالقوم السبعين الذين اختارهم، وكان موسى لمَّا قرُب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله عزَّ وجلَّ[١].

وقيل: لما وَفد إلى طور سيناء بالوعد[٢] اشتاق إلى ربِّه، وطالت عليه المسافةُ من شدَّة الشوق إلى الله تعالى، فضاق به الأمرُ حتى شقَّ قميصَه، ثمَّ لم يصبر حتى خلَّفهم ومضى وحده، فلمَّا وقف في مقامه قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ فبقي ﷺ مُتحيراً عن الجواب وكنَى عنه بقوله: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾، وإنَّما سألَه عن السبب الذي أعجلَه بقوله: «ما» فأخبرَ عن مجيئهم بالأثر. ثم قال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، فكنَى عن ذكر الشوق وصَرَفه[٣] إلى ابتغاء الرضا[٤].

ذكر عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة في قوله: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ قال: شوقاً. وكانت عائشةُ رضي الله عنها إذا أوتْ إلى فراشها تقول: هاتوا المجيد. فَتُؤتَى بالمصحف، فتأخذه في صدرها، وتنام معه تتسلَّى بذلك؛ رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضي الله عنها[٥]. وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خَلَع ثيابه، وتجرَّد حتى يُصيبه المطر، ويقول: «إنَّه حديثُ عهدٍ بربِّه»[٦]. فهذا من الرسول ﷺ وممن بعدَه من قَبيل الشوق؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يُروى عنه: «طال شوقُ الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوقُ»[٧].

قال ابن عباس: كان الله عالماً ولكن قال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾ رحمةً لموسى، وإكراماً له بهذا القول، وتسكيناً لقلبه، ورِقَّةً عليه، فقال مُجيباً لربِّه: ﴿هُمۡ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧، وزاد المسير ٥/ ٣١٣ بنحوه.

(٢) في (خ): بالوفد.

(٣) في (د) و(م): وصدقه.

(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٩ بنحوه.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) في (خ) و(م): بربي. والحديث أخرجه أحمد (١٢٣٦٥) ومسلم (٨٩٨) من حديث أنس ﷺ.

(٧) ذكره الديلمي في الفردوس (٨٠٦٧) عن أبي الدرداء ﷺ موقوفاً.

أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾: قال أبو حاتم: قال عيسى: بنو تميمٍ يقولون: «هُمْ أولَا» مقصورة مرسلة، وأهل الحجاز يقولون: «أولاءِ» ممدودة. وحكى الفراء[1]: «هُمْ أُولَايَ عَلَى أَثَرِي». وزعم أبو إسحاق الزَّجَّاج[2] أنَّ هذا لا وجه له.

قال النحاس[3]: وهو كما قال؛ لأنَّ هذا ليس مما يُضاف فيكون مثل: هُدَايَ. ولا يخلو من إحدى جهتين: إمَّا أنْ يكون اسماً مبهماً، فإضافتُه مُحال، وإمَّا أنْ يكون بمعنى الذين، فلا يُضاف أيضاً؛ لأنَّ ما بعدَه من تمامه، وهو معرفة.

وقرأ ابن أبي إسحاق، ونصر، ورُويس عن يعقوب: ﴿على إِثْرِي﴾ بكسر الهمزة وإسكان الثاء[4]: وهو بمعنى أَثَر، لغتان.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: عجلتُ إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عنّي[5]. يقال: رَجلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعَجْلَانُ: بَيِّنُ العَجَلة، والعَجَلةُ: خلاف البُطء[6].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أي: اختبرناهم وامتحنَّاهم بأنْ يستدلُّوا على الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: دعاهم إلى الضلالة، أو هو سببُها.

وقيل: فتنَّاهم: ألقيناهم في الفتنة، أي: زيَّنَّا لهم عبادةَ العجل، ولهذا قال موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٨٨ ونسبه إلى بعض القراء. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣ ، وما قبله وما بعده منه.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧١ .

(٣) في إعراب القرآن له ٣/ ٥٣ .

(٤) قراءة رُويس عن يعقوب في النشر ٢/ ٣٢١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤ .

(٦) الصحاح (عجل).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان السامريُّ من قومٍ يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر، فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر[١]. وقيل: كان رجلاً من القبط، وكان جاراً لموسى؛ آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيماً من عُظَماء بني إسرائيل، من قبيلةٍ تُعرف بالسَّامرة، وهم معروفون بالشام. قال سعيد بن جُبير: كان من أهل كَرْمَان[٢].

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾ حال. وقد مضى في «الأعراف» بيانُه مستوفًى[٣]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ وعدَهم عزَّ وجلَّ الجنَّة إذا أقاموا على طاعته[٤]، ووَعدهم أنَّ يُسمعهم كلامَه في التوراة على لسان موسى، ليعمَلوا بما فيها، فيستحقُّوا ثوابَ عملهم. وقيل: وعدَهم النصرَ والظَّفَر. وقيل: وَعْدُه قولُه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية [طه: ٨٢][٥].

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: أفنسيتم؟ كما قيل: والشيءُ قد يُنسَى لطول العهدِ.

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: «يحلّ» أي: يجب وينزل. والغضب: العقوبة والنّقمة. والمعنى: أَمْ أردتُم أنْ تفعلوا فعلاً يكون سببَ حلول غضب الله بكم؛ لأنَّ أحداً لا يطلب غضبَ الله، بل قد يرتكبُ ما يكون سبباً للغضب.

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ لأنَّهم وعدوه أنْ يُقيموا على طاعة الله عزَّ وجلَّ إلى أنْ يرجع

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٥٢، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٧، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٣) مطولاً، وقد ذكره ابن كثير بطوله في تفسيره ٥/ ٢٨٥-٢٩٣ ثم قال: ..كأنه تلقّاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أُبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم.

(٢) عرائس المجالس ص٢١٠، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٠١. وكرمان: ولاية كبيرة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. معجم البلدان ٤/ ٤٥٤.

(٣) ٩/ ٣٣٦.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٧ - ٤١٨.

إليهم من الطُّور[١]. وقيل: وعدَهم أن يسيروا[٢] على أثره للميقات فتوقفوا[٣].

﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بفتح الميم، وهي قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر[٤]. قال مجاهد والسديّ: ومعناه: بطاقتنا. ابن زيد: لم نملك أنفسنا، أي: كنا مضطرين[٥].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «بِمِلْكِنَا» بكسر الميم[٦]. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّها اللُّغة العالية. وهو مصدر مَلَكتُ الشيء أَمْلِكُه مِلْكاً. والمصدر مضافٌ إلى الفاعل، والمفعول محذوف، كأنَّه قال: بمِلْكنا الصواب، بل أخطأنا، فهو اعترافٌ منهم بالخطأ[٧].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «بِمُلْكنا» بضمِّ الميم[٨]، والمعنى: بسُلطاننا، أي: لم يكن لنا مُلك فنخلفَ موعدك[٩].

ثم قيل: قوله: «قَالُوا» عامٌّ يُراد به الخاص، أي: قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أنْ رجع[١٠] إليهم من الطُّور: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا﴾[١١]. وكانوا اثني عشر ألفاً، وكان جميعُ بني إسرائيل ستَّ مئة ألف[١٢].

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٠٢ بنحوه.

(٢) قوله: أن يسيروا، من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤١٨.

(٤) قراءة نافع وعاصم في السبعة ص٤٢٢، والتيسير ص١٥٣.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ١٣٤، والنكت والعيون ٣/ ٤١٨.

(٦) السبعة ص٤٢٢، والتيسير ص١٥٣.

(٧) الحجة للفارسي ٥/ ٢٤٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ بنحوه.

(٨) السبعة ص٤٢٢، والتيسير ص١٥٣.

(٩) الحجة للفارسي ٥/ ٢٤٤.

(١٠) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: يرجع.

(١١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤.

(١٢) عرائس المجالس ص٢١٢، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة؛ قراءة نافعٌ وابن كثير وابن عامر وحفص ورُويس. الباقون بفتح الحرفين خفيفة[1]. واختارَه أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّهم حَملوا حُلِيَّ القوم معهم وما حملوه كرهاً[2].

﴿أَوْزَارًا﴾ أي: أثقالاً[3] ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: من حُلِيِّهم. وكانوا استعاروه حين أرادوا الخروجَ مع موسى عليه السلام، وأَوهموهم أنَّهم يجتمعون في عيدٍ لهم أو وليمةٍ. وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون، لمَّا قذفَهم البحرُ إلى الساحل. وسُمِّيت أوزاراً بسبب أنَّها كانت آثاماً، أي: لم يحلَّ لهم أخذُها، ولم تحلَّ لهم الغنائم[4]، وأيضاً فالأوزار: هي الأثقالُ في اللُّغة[5].

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ثَقُلَ علينا حملُ ما كان معنا من الحُلِيِّ، فقذفناه في النَّار ليذوب[6]، أي: طرحناه فيها. وقيل: طرحناه إلى السامريّ؛ لترجعَ فترى فيها رأيك.

قال قتادة: إنَّ السامريّ قال لهم حين استبطأ القومُ موسى: إنَّما احتبسَ عليكم من أجل ما عندكم من الحُليّ. فجمعوه ودفعوه إلى السامريِّ، فرمى به في النار، وصاغَ لهم منه عجلاً، ثمَّ ألقى عليه قبضةً من أثر فرس الرسول؛ وهو جبريل عليه السَّلام. وقال معمر: الفرس الذي كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى عليه القبضةَ صار عجلاً جسداً له خُوار[7]. والخُوار: صوت البقر.

وقال ابن عباس: لمَّا انسكبت الحُلِيُّ في النَّار، جاء السامريّ وقال لهارون:

---

(١) السبعة ص٤٢٣، والتيسير ص١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢. ورُويس: هو راوي يعقوب من العشرة.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٣٦ - ١٣٧ عن مجاهد.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٨ بنحوه، وسلف هذا الكلام ٩/ ٣٣٣.

(٥) ينظر الصحاح (وزر).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤.

(٧) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٤١٩.

يا نبيَّ الله، أَأُلقي ما في يدي؟ وهو يظنُّ أنَّه كبعض ما جاء به غيره من الحليّ؛ فقذف الترابَ فيه، وقال: كنْ عجلاً جسداً له خُوار، فكان كما قال؛ للبلاء والفتنة، فخار خَورةً واحدةً لم يُتبعها مثلَها(١).

وقيل: خُواره وصوته كان بالريح؛ لأنَّه كان عَمِل فيه خروقاً، فإذا دخلت الريح في جوفه خَار، ولم تكن فيه حياة. وهذا قولُ مجاهد.

وعلى القول الأوَّل كان عجلاً من لحم ودم، وهو قول الحسن وقتادة والسديّ(٢).

وروى حمَّاد عن سِماك، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: مرَّ هارون بالسامريّ وهو يصنع العجل، فقال: ما هذا؟ فقال: ينفع ولا يضر، فقال: اللهم أعطه ما سألَك على ما في نفسه، فقال: اللهم إنِّي أسألك أنْ يخور. وكان إذا خار سجدوا، وكان الخُوار من أجل دعوة هارون(٣).

قال ابن عباس: خار كما يخور الحيُّ من العُجول(٤).

ورُويَ أنَّ موسى قال: يا رب، هذا السامريّ أخرجَ لهم عجلاً جسداً له خُوار من حُلِيِّهم، فمن جعل الجسد والخُوار؟ قال الله تبارك وتعالى: أنا. قال موسى ﷺ: وعزَّتكَ وجلالك وارتفاعك وعلوِّك وسلطانك(٥)، ما أضلَّهم غيرُك. قال: صدقتَ يا حكيم الحكماء. وقد تقدَّم هذا كله في سورة «الأعراف»(٦).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٦٧١ - ٦٧٢ مطولاً، وينظر عرائس المجالس ص٢١١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤١٩. قال الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير ٩/ ١١٠: ما وقع من القصص أنه كان لحماً ودماً ويأكل ويشرب، فهو من وضع القصاصين. وسلف هذا ٩/ ٣٣٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٣١٠ - ٣١١.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨.

(٥) قوله: وارتفاعك وعلوك وسلطانك، ليس في (خ)، ووقع في (ظ): وعلو شأنك.

(٦) ٩/ ٣٣٢ - ٣٣٤.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ أي: قال السامريُّ ومن تَبعه وكانوا ميَّالين إلى التَّشبيه؛ إذ قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾. ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: فضلَّ موسى [وذهب] يطلبه[١]، فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربِّه. وقيل معناه: فتركه موسى هنا وخرج يطلبه. أي: ترك موسى إلهه هنا[٢].

ورَوى إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أي: فنسي موسى أنْ يذكرَ لكم أنَّه إلهه[٣]. وقيل: الخطابُ خبرٌ عن السامريّ، أي: ترك السامريُّ ما أمرَه به موسى من الإيمان فضلَّ[٤]؛ قاله ابن الأعرابيّ.

فقال الله تعالى مُحتجًّا عليهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: يعتبرون ويتفكرون في أنه لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً، أي: لا يُكلِّمهم. وقيل: لا يعودُ إلى الخُوار والصوت. ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف يكون إلهاً؟! والذي يعبدُه موسى ﷺ يضرُّ وينفع، ويُثيبُ ويُعطي ويمنع.

و«أَنْ لَا يَرْجِعُ» تقديره: أنَّه لا يرجع، فلذلك ارتفعَ الفعلُ، فخففت «أَنْ» وحُذف الضمير. وهو الاختيار في الرؤية والعلم والظن[٥]. قال:

في فتيةٍ كسيوف[٦] الهندِ قد علموا أَنْ هالكٌ كلُّ مَنْ يَحْفَى ويَنْتَعِلُ[٧]

وقد يُحذف مع التشديد، قال:

---

(١) في (د) و(ز) و(خ): يطلب.

(٢) أخرج الطبري ١٦/ ١٤٢ نحو هذه الأخبار، وما بين حاصرتين منه، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ١٠٤ .

(٣) زاد المسير ٥/ ٣١٥ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ١٤١ عن ابن عباس.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٣ .

(٦) في (د) و(ز) و(خ) و(م): من سيوف، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٧) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٩ . والشطر الثاني فيه: أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ. وهما رؤايتان للبيت فيما ذكره التبريزي في شرح القصائد العشر ص٣٣٨ .

فلو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرابتي ... ولكنَّ زنجيٌّ عظيمُ المَشافِرِ[(١)]

أي: ولكنك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أنْ يأتيَ موسى ويرجعَ إليهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: ابتُليتم وأُضللتم به، أي: بالعجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ في عبادته ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ لا أمرَ السامريّ. أو: فاتَّبعوني في مَسيري إلى موسى ودعوا العجل. فعصَوه و﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ أي: لن نزالَ مُقيمين على عبادة العجل[(٢)] ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فننظرَ هل يعبدُه كما عبدناه؛ فتوهَّموا أنَّ موسى يعبدُ العجل، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رَجَعَ موسى وسمع الصِّياح والجَلَبة، وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين معه: هذا صوتُ الفتنة؛ فلما رأى هارونَ أخذَ شعر رأسه بيمينه، ولحيتَه بشماله غضباً[(٣)]، و﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ أي: أخطؤوا الطريقَ وكفروا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ «لا» زائدة أي: أنْ تتَّبع أمري ووصيتي. وقيل: ما منعك عن اتِّباعي في الإنكار عليهم[(٤)]. وقيل: معناه: هلَّا قاتلتهم إذْ قد علمتَ أني لو

---

(١) البيت للفرزدق كما في الكتاب ٢/ ١٣٦، وخزانة الأدب ١٠/ ٤٤٤. قال البغدادي: والبيت في هجو رجل من ضبَّة، نفاه عن ضبَّة ونسبه إلى الزنج. والمشافر: جمع مِشْفَر بكسر الميم وفتح الفاء، وهو شفة البعير، واستُعير هنا لشفة الإنسان لما قصد من بشاعة خلقه. ثم قال البغدادي: واعلم أن قافية البيت اشتهرت كذا عند النحويين، وصوابه: ولكنَّ زنجيًّا غلاظاً مشافرُه.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٩.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩، وينظر عرائس المجالس ص٢١٦.

(٤) ذكره الماوردي عن مقاتل ٣/ ٤٢٠.

كنتُ بينهم لقاتلتُهم على كُفرهم. وقيل: ما منعك من اللُّحوق بي لما فُتنوا[١].

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ يريد: أنَّ مُقامَك بينهم وقد عبدوا غيرَ الله تعالى عِصيانٌ منك لي؛ قاله ابن عباس[٢]. وقيل: معناه: هلَّا فارقتهم، فتكون مفارقتك إيَّاهم تقريعاً لهم وزَجْراً[٣].

ومعنى «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» قيل: إنَّ أمرَه ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فلما أقامَ معهم، ولم يُبالِغْ في مَنْعهم، والإنكارِ عليهم، نسبه إلى عِصيانه ومُخالفة أمره[٤].

مسألة: وهذا كلُّه أصلٌ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله، وأنَّ المقيمَ بينهم ـ لا سيَّما إذا كان راضياً ـ حُكْمُه كحكمهم. وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» و«النساء» و«المائدة» و«الأنعام» و«الأعراف» و«الأنفال»[٥].

وسُئِل الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشيُّ رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأُعلِم ـ حرس الله مدته ـ أنَّه اجتمع جماعةٌ من رجال، فيُكثِرون من ذِكر الله تعالى، وذكر محمدٍ ﷺ، ثمَّ إنَّهم يُوقعون بالقضيب على شيءٍ من الأديم، ويقوم بعضُهم يرقص ويتواجد حتى يقع مَغْشيًّا عليه، ويُحضرون شيئاً يأكلونه. هل الحضور معهم جائزٌ أم لا؟ أفتونا مأجورين يرحمكم الله[٦]. وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخُ كُفَّ عن الذُّنوبْ ... قبلَ التَّفرُّق والزَّلَلْ
واعْمَلْ لنفسكَ صالحاً ... ما دام ينفعُك العَمَلْ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩.
(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٠٨ بنحوه.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩.
(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٠.
(٥) ٥/ ٧٣، ٧/ ١٨٥، ٨/ ١٠٥، ٩/ ٣٦٥، ٩/ ٤٨٦.
(٦) لفظة: مأجورين من (م).

أمّا الشبابُ فقد مَضى ومَشيبُ رأسكَ قد نَزلْ

وفي مثل هذا ونحوه.

الجواب: ـ يرحمك الله ـ مذهبُ الصوفية بطالةٌ وجهالةٌ وضلالة، وما الإسلام إلَّا كتابُ الله وسنةُ رسوله، وأمَّا الرقص والتواجد، فأولُ من أحدثَه أصحاب السامريّ، لما اتَّخذَ لهم عجلاً جسداً له خُوار؛ قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دينُ الكفَّار وعُبَّاد العجل، وأمَّا القضيبُ فأوَّلُ من اتَّخذه الزنادقة لِيشغَلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى. وإنَّما كان يجلسُ النبيُّ ﷺ مع أصحابه كأنَّما على رؤوسهم الطير[1] من الوقار؛ فينبغي للسلطان ونُوَّابه أنْ يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يَحِلُّ لأحدٍ يؤمنُ بالله واليوم الآخر أنْ يَحضُرَ معهم، ولا يُعينهم على باطلهم. هذا مذهبُ مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ ابن عباس: أَخذَ شعرَهُ بيمينه ولحيتَه بيساره[2]؛ لأنَّ الغَيْرةَ في الله مَلكته، أي: لا تفعل هذا، فيتوهَّموا أنه منك

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٥٤)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والنسائي في الكبرى (٥٨٤٤) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢٠.

استخفافٌ أو عقوبة. وقد قيل: إنَّ موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفافٍ ولا عقوبة كما يأخذ الإنسانُ بلحية نفسه. وقد مضَى هذا المعنى في «الأعراف» مستوفًى[١]. والله عزَّ وجلَّ أعلمُ بما أراد نبيُّه عليه السلام.

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خشيتُ أن أخرجَ وأتركَهم، وقد أمرتَني أن أخرجَ معهم، فلو خرجتُ لاتَّبعني قومٌ وتخلَّف[٢] مع العجل قومٌ، وربما أدّى الأمرُ إلى سفك الدماء، وخشيتُ إنْ زَجرتُهم أن يقع قتالٌ فتلومَني على ذلك[٣].

وهذا جوابُ هارونَ لموسى عليه السلام عن قوله: «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي»[٤] وفي «الأعراف» [الآية: ١٥٠]: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي[٥] فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ لأنك أمرتَني أن أكونَ معهم، وقد تقدَّم.

ومعنى ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: لم تعمل بوصيَّتي في حِفظه؛ قاله مقاتل. وقال أبو عُبيدة[٦]: لن تنتظر عهدي وقُدومي.

فتركه موسى، ثم أقبل على السامريّ ف ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي: ما أَمرُك وشأنُك، وما الذي حملك على ما صنعتَ؟ قال قتادة: كان السامريُّ عظيماً في بني إسرائيلَ من قبيلة يقال لها: سامرة[٧]، ولكن عدوَّ الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى.

فلما مرَّتْ بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى

---

(١) ٩/ ٢٤٠.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): يتخلف.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٩.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢١.

(٥) بعدها في (د): على ذلك، وهذا جواب هارون لموسى عليه السلام.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٦، ونقله المصنف عنه مع قول مقاتل الذي قبله من النكت والعيون ٣/ ٤٢١.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢١.

﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فاغتنمها السامريّ، وعَلِمَ أنهم يميلون إلى عبادة العجل، فاتَّخذ العجل. فـ ﴿قَالَ﴾ السامريّ مُجيباً لموسى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ يعني: رأيتُ ما لم يَرَوْا؛ رأيتُ جبريلَ عليه السلام على فرس الحياة، فأُلقي في نفسي أن أقبضَ من أَثَره قبضةً، فما ألقيتُه على شيء إلا صار له روحٌ ولحمٌ ودمٌ، فلما سألوك أن تجعلَ لهم إلهاً زَيَّنَتْ لي نفسي ذلك(١).

وقال عليّ ﷺ: لما نزل جبريلُ لِيصعَدَ بموسى عليه السلام إلى السماء، أبصره السامريُّ من بين الناس، فقبض قبضةً من أثر الفرس.

وقيل: قال السامريّ: رأيتُ جبريلَ على الفرس، وهي بلقاء(٢)، خَطْوُها مدُّ البصر، فأُلقي في نفسي أن أقبضَ من أثرها، فما ألقيتُه على شيء إلا صار له روحٌ ودمٌ. وقيل: رأى جبريلَ يومَ نزل على رَمَكة وَدِيقٍ(٣)، فتقدَّم خيلَ فرعون في ورود البحر.

ويقال: إنّ أُمَّ السامريّ جعلته حين وضعَتْه في غارٍ خوفاً مِن أن يقتله فرعون، فجاءه جبريلُ عليه السلام، فجعل كفَّ السامريِّ في فم السامريّ، فَرَضِعَ العسلَ واللَّبن، فاختلف إليه فعرفه من حينئذ. وقد تقدَّم هذا المعنى في «الأعراف»(٤). ويقال: إن السامريّ سمع كلامَ موسى عليه السلام، حيث عمل تمثالين من شَمَعٍ؛ أحدهما ثور والآخر فرس، فألقاهما في النيل حين(٥) طلب قبر يوسف عليه السلام وكان في تابوت من حجر في النيل، فأتى به الثورُ على قَرنه، فتكلَّم السامريّ بذلك

(١) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٣، وعرائس المجالس ص٢١٠، والوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٠.

(٢) في (د) و(م): تلقى.

(٣) الرَّمَكَة: الفرس والبرذونة تُتَّخذ للنسل. القاموس (رمك). والوديق: التي تشتهي الفحل. النهاية (ودق).

(٤) ٩/ ٣٣٣ - ٣٣٤، وتنظر قصة السامري في تفسير الطبري ١/ ٦٦٩ وما بعدها، وعرائس المجالس ص٢١٠ - ٢١١، وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

(٥) قوله: حين، من (ظ).

الكلام الذي سمعه من موسى، وألقى القبضةَ في جوف العجل فخار.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وخلف: «بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا» بالتاء على الخِطاب. الباقون بالياء على الخبر[١].

وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة: «فَقَبَصْتُ قَبْصَة» بصاد غير مُعجمة. ورُوي عن الحسن ضَمُّ القاف من «قبصة» والصاد غير معجمة[٢]. الباقون: ﴿قَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بالضاد المعجمة.

والفرق بينهما أنَّ القبضَ بجميع الكفِّ، والقبص بأطراف الأصابع، ونحوهما الخَضْم والقَضْم[٣]، والقُبْضة بضم القاف: القَدْر المقبوض؛ ذكره المَهْدوي. ولم يذكر الجوهري «قُبْصة» بضم القاف والصاد غير المعجمة، وإنما ذكر «القُبْضة» بضم القاف والضاد المعجمة، وهو ما قبضتَ عليه من شيء، يقال: أعطاه قُبْضةً من سَويق أو تمر، أي: كفًّا منه، وربما جاء بالفتح[٤]. قال: والقِبْصُ ـ بكسر القاف والصاد غير المعجمة ـ: العدد الكثير من الناس، قال الكُميت:

لكم مسجدا اللهِ المَزوران والحَصَى لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرَى وأَقْتَرَى[٥]

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحتُها في العجل.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: زيَّنته؛ قاله الأخفش. وقال ابن زيد: حدَّثتني

---

(١) السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ ، والنشر ٢/ ٣٢٢ ، وذكرها عن الأعمش أبو حيان في البحر ٦/ ٢٧٣ .

(٢) قراءة ابن مسعود وأُبيّ في المحرر الوجيز ٤/ ٦١ ، وقراءة الحسن وقتادة في القراءات الشاذة ص٨٩ .

(٣) الخضم: الأكل بأطراف الأضراس، والقضم: الأكل بأطراف الأسنان. القاموس (خضم) و(قضم).

(٤) الصحاح (قبض).

(٥) الصحاح (قبص)، والبيت في ديوان الكميت ص١٥٥ ، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٥٢٧ في هذا البيت: يعني المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ، والحصى: العدد الكثير، وأثرى: أكثر، وأقتر: أقلّ، أراد الناس جميعاً.

نفسي[(١)]. والمعنى مُتقارب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾ أي: قال له موسى: فاذهب، أي: من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ طولَ الحياة. فنفاه موسى عن قومه، وأمر بني إسرائيل ألّا يُخالطوه، ولا يَقربوه، ولا يُكلِّموه، عقوبةً له، قال الشاعر:

تَميمٌ كرهطِ السّامريِّ وقولِه ... ألَا لا يريدُ السامريُّ مِساسا[(٢)]

قال الحسن: جعل اللهُ عقوبةَ السامريّ ألا يُماسَّ الناسَ ولا يُماسُّوه؛ عقوبةً له ولمن كان منه إلى يوم القيامة، وكأن الله عزَّ وجلَّ شدَّد عليه المحنة، بأن جعله لا يُماسُّ أحداً، ولا يُمكَّن من أن يَمسَّه أحدٌ، وجعل ذلك عقوبةً له في الدنيا. ويقال: ابتُلي بالوسواس، وأصلُ الوسواس من ذلك الوقت[(٣)].

وقال قتادة: بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك: لا مساس، وإن مَسَّ واحدٌ من غيرهم أحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقت. ويقال: إن موسى هَمَّ بقتل السامريّ، فقال الله تعالى له: لا تَقتُلْه، فإنه سخيٌّ[(٤)].

ويقال: لمَّا قال له موسى: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خاف فهربَ، فجعل يَهيم في البرّيّة مع السِّباع والوحش، لا يجد أحداً من الناس يَمَسُّه؛ حتى صار كالقائل: لا مساس، لبعده عن الناس وبُعدِ الناس عنه، كما قال الشاعر:

حَمَّالُ راياتٍ بها قِنْعاسا ... حتى تقولَ الأزدُ لا مساسا[(٥)]

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٢٣ ، وعنه نقل المصنف قول الأخفش.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ ، والبيت في مجاز القرآن ٢/ ٢٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٦٢ ، وعندهما: مَساسِ، بدل: مساساً.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٣ .

(٤) عرائس المجالس ص٢١٤ ، وينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٢٣ ، وذكر الشطر الثاني من الرجز ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٦١ ، =

مسألة: هذه الآية أصلٌ في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم، وألا يُخالَطوا، وقد فعل النبيُّ ﷺ ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلِّفوا[(١)].

ومَن التجأ إلى الحرم وعليه قَتلٌ لا يُقْتَل عند بعض الفقهاء، ولكن لا يُعامل ولا يُبايع ولا يُشارى، وهو إرهاقٌ إلى الخروج. ومن هذا القَبيل التغريب في حدِّ الزنى، وقد تقدَّم جميعُ هذا كلِّه في موضعه، فلا معنى لإعادته[(٢)]. والحمد لله وحده.

وقال هارون القارئ: ولغةُ العرب: لا مَساسِ، بكسر السين وفتح الميم، وقد تكلَّم النحويون فيه، فقال سيبويه[(٣)]: هو مبنيٌّ على الكسر كما يقال: اضربِ الرجلَ. وقال أبو إسحاق[(٤)]: «لا مساس» نفي، وكُسرت السين لأن الكسرةَ من علامة التأنيث، تقول: فعلتِ يا امرأة[(٥)].

قال النحاس[(٦)]: وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: سمعت محمدَ بن يزيد يقول: إذا اعتلَّ الشيء من ثلاث جهات وجبَ أن يُبنى، وإذا اعتلَّ من جهتين وجب ألا ينصرف، لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء، فمساسِ ودراكِ اعتلَّ من ثلاث جهات؛ منها: أنه معدول، ومنها أنه مؤنَّث، وأنه معرفة، فلما وجب البناءُ فيه، وكانت الألفُ قبل السين ساكنة كُسرت السين لالتقاء الساكنين، كما تقول: اضربِ الرّجلَ. ورأيتُ أبا إسحاق يذهب إلى أن هذا القولَ خطأٌ، وألزم أبا العباس إذا سمَّى

= ونسبه لرؤبة، ولم نقف عليه في المطبوع من ديوانه. ووقع في النسخ: قناعسا، بدل: قنعاسا. ووقع في (م): مسابساً، وفي النسخ الخطية: مسايساً، بدل: مساسا، والمثبت من المصدرين السالفين. وقوله: قِنعاسا، أي الرجل الشديد المنيع، والجمع: قناعيس. تاج العروس (قنعس).

(١) أخرج حديثهم البخاري ومسلم، وسلف ١٠/ ٤١٣ .

(٢) مسألة من التجأ إلى الحرم وعليه قتل سلفت ٢/ ٣٧٣ ، ومسألة التغريب في حدّ الزاني سلفت ٦/ ١٤٥ وما بعدها.

(٣) ينظر الكتاب ٤/ ١٥٢ .

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٥) في النسخ: المرأة، والمثبت من معاني القرآن للزجاج وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٦ والكلام منه.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٥٦ - ٥٧ .

امرأةٌ بفرعون أن يبنيَه، هذا لا يقولُه أحدٌ.

وقال الجوهري في «الصحاح»: وأما قولُ العرب: لا مَساسِ، مثال: قَطامِ، فإنما بُني على الكسر؛ لأنه معدولٌ عن المصدر، وهو المَسُّ(١).

وقرأ أبو حيوة: «لا مَسَاسِ»(٢).

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يعني يومَ القيامة. والموعد مصدر، أي: إنَّ لك وعداً لعذابك. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «تُخْلِفَهُ» بكسر اللام(٣)، وله معنيان: أحدهما: ستأتيه ولن تَجِده مُخلَفاً، كما تقول: أَحمدته، أي: وجدته محموداً. والثاني: على التهديد، أي: لابدَّ لك من أن تصيرَ إليه(٤). الباقون بفتح اللام؛ بمعنى: إنَّ الله لن يُخلفك إيَّاه.

قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: دُمتَ وأقمتَ عليه. ﴿عَاكِفًاۖ﴾ أي: مُلازماً، وأصلُه: ظَلِلْت، قال:

خَلَا أنّ العِتاقَ من المَطايا أَحَسْنَ به فهنَّ إليه شُوسُ(٥)

أي: أَحْسَسْنَ. وكذلك قرأ الأعمشُ بلامين على الأصل(٦).

وفي قراءة ابن مسعود: «ظِلْتَ» بكسر الظاء. يقال: ظَلِلتُ أفعلُ كذا: إذا فعلته نهاراً، وظَلْت وظِلْت؛ فمن قال: ظَلْت حذَفَ اللام الأُولى تخفيفاً، ومن قال:

---

(١) الصحاح (مسس).

(٢) المحتسب ٢/ ٥٦ .

(٣) السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧ .

(٥) قائله أبو زُبيد الطائي، وهو في أمالي القالي ١/ ١٧٦ ـ وفيه: حَسِيْنَ، بدل: أَحَسْنَ ـ والاقتضاب ص٢٩٩ ، والبيت ضمن أبيات يصف فيها قوماً سروا والأسد يقفو آثارهم لكي ينتهز فيهم فرصة. وقوله: شُوس: الشَّوَس: النظر بمُؤْخِرِ العين تكبُّراً وتغيُّظاً. القاموس (شوس).

(٦) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٩ لأُبيّ.

ظِلْت، ألقى حركةَ اللام على الظاء[١].

و﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ قراءة العامة بضم النون وشد الراء؛ من حرَّق يُحرِّق. وقرأ الحسنُ وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء، من أحرقه يُحرقه[٢]. وقرأ عليّ وابن عباس وأبو جعفر وابن مُحيصن وأشهب العُقيلي: «لَنَحْرُقَنَّهُ» بفتح النون وضم الراء خفيفة[٣]؛ من حَرَقْتُ الشيءَ أَحْرُقُه حرقاً: بردته وحَكَكْت بعضَه ببعض، ومنه قولهم: حَرَق نابَه يَحرِقه ويَحرُقه، أي: سَحقه حتى سُمِع له صَرِيف، فمعنى هذه القراءة: لَنَبرُدَنَّه بالمَبارد[٤]، ويقال لِلمبرد: المِحْرَق. والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار. وقد يمكن جمع ذلك فيه.

قال السُّدِّيُّ: ذبحَ العجلَ، فسالَ منه كما يسيل من العجل إذا ذُبح، ثم بَرَد عظامه بالمِبرد وحَرَقه[٥].

وفي حرف ابن مسعود: «لَنذبحنَّه ثم لَنَحْرُقَنَّه»[٦] واللَّحمُ والدمُ إذا أُحرقا صارا رماداً، فيمكن تذريته في اليمّ، فأما الذهب فلا يصير رماداً. وقيل: عَرَفَ موسى ما صَيَّر به الذهبَ رماداً، وكان ذلك من آياته.

ومعنى ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾: لَنُطيِّرنه. وقرأ أبو رجاء: «لَنَنْسُفَنَّهُ» بضم السين[٧]، لغتان،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧ ، وقراءة ابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص٨٩ .

(٢) قرأ بها أبو جعفر ـ وهو من العشرة ـ في رواية ابن جماز. النشر ٢/ ٣٢٢ ، وذكرها عن الحسن ابن خالويه في الشاذة ص٨٩ .

(٣) قراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في رواية ابن وردان في النشر ٢/ ٣٢٢ ، وذكرها عن علي وابن عباس ابنُ خالويه في الشاذة ص٨٩ ، وابن جني في المحتسب ٢/ ٥٨ .

(٤) الصحاح (حرق).

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ١١٢ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ١٥٦ عن قتادة. وينظر هذا الكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٦٢ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ١١٢ - ١١٣ بنحوه.

(٧) القراءات الشاذة ص٨٩ ونسبها لعيسى.

والنَّسْف: نفضُ الشيء لتذهبَ به الريح، وهو التَّذرية، والمِنْسَف: ما يُنسف به الطعام، وهو شيء منصوب[١] الصَّدر، أعلاه مُرتَفِع، والنُّسَافة: ما يَسقط منه، يقال: اِعزِل النُّسَافة وكُلْ من الخالص. ويقال: أتانا فلانٌ كأنّ لحيته مِنْسف؛ حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم[٢]. والمِنْسَفة: آلةٌ يُقلَع بها البناء، ونسفتُ البناء نسفاً: قلعته، ونَسفَ البعيرُ الكَلأَ يَنْسِفه ـ بالكسر ـ إذا اقتلعه بأصله، وانتسفتُ الشيء: اقتلعته؛ عن أبي زيد[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ لا العِجْل، أي: وَسِع كلَّ شيء عِلْمُه؛ يفعل الفعل عن العلم، ونصب على التفسير. وقرأ مجاهد وقتادة: «وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً»[٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف[٥]، أي: كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قَصَصاً كذلك من أخبار ما قد سبق؛ ليكون تسليةً لك، وليدلَّ على صدقك.

---

(١) كذا في النسخ الخطية والصحاح والقاموس (نسف) وفي (م) وتهذيب اللغة ١٣/ ٦ : متصوب.

(٢) الباهلي، صاحب الأصمعي، روى عنه وعن أبي زيد، صنَّف: النبات والشجر، أبيات المعاني، ما يلحن به العامة.. توفي سنة (٢٣١هـ). بغية الوعاة ١/ ٣٠١ .

(٣) الصحاح (نسف).

(٤) القراءات الشاذة ص٨٩ ، والمحتسب ٢/ ٥٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧ .

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني القرآن. وسمَّى القرآن ذِكراً لما فيه من الذِّكر، كما سمَّى الرسولَ ذِكراً؛ لأن الذِّكر كان ينزل عليه. وقيل: «آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً» أي: شرفاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: شرفٌ وتنويهٌ باسمك[١].

قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: القرآن فلم يُؤمن به، ولم يَعملْ بما فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: إثماً عظيماً، وحِمْلاً ثقيلاً. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ يُريد: مُقيمين فيه، أي: في جزائه، وجزاؤه جهنم. ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ يريد: بئس الحملُ حملوه يومَ القيامة. وقرأ داود بن رفيع: «فَإِنَّهُ يُحَمَّلُ»[٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ قراءة العامة «يُنْفَخُ» بضم الياء على الفعل المجهول. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بنون مسمى الفاعل[٣]. واستدلَّ أبو عمرو بقوله تعالى: «وَنَحْشُرُ» بنون[٤]. وعن ابن هُرْمُز: «يَنْفُخُ» بفتح الياء[٥]، أي: ينفخ إسرافيل.

أبو عياض: «فِي الصُّوَرِ»[٦]. الباقون: «في الصُّورِ» وقد تقدَّم هذا في «الأنعام»[٧] مستوفًى، وفي كتاب «التذكرة»[٨].

وقرأ طلحة بن مُصرِّف: «ويُحْشَرُ» بضم الياء، «الْمُجْرِمُونَ» رفعاً بخلاف المُصحف[٩]. والباقون: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين.

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٢/ ١١٣.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٠، ولم نقف على ترجمة داود بن رفيع. ووقع في (ظ): داود وابن رفيع.

(٣) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٤٢٤، والتيسير ص١٥٣.

(٤) ينظر الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٢٥٠.

(٥) ذكرها الرازي في تفسيره ٢٢/ ١١٤، وأبو حيان في البحر ٦/ ٢٧٨ دون نسبة.

(٦) المحتسب ٢/ ٥٩ وفيه: عياض. وسلفت القراءة ٨/ ٤٣١ عن عياض أيضاً، وذكرها أبو حيان في البحر في موضعين: ٤/ ١٦١ عن عياض و ٦/ ٢٧٨ عن ابن عياض. ولم نعرفه.

(٧) ٨/ ٤٣٠ - ٤٣٢.

(٨) ص١٦٦ وما بعدها.

(٩) القراءات الشاذة ص٩٠ ونسبها للحسن.

﴿زُرْقًا﴾ حال من المجرمين، والزَّرَق خلاف الكَحَل. والعرب تَتشاءم بزَرَق العيون وتذمّه، أي: تُشوَّه خِلْقَتُهم بِزُرْقة عيونهم وسوادِ وجوههم. وقال الكلبي والفراء[1]: «زُرقاً» أي: عُمياً. وقال الأزهري[2]: عطاشا قد ازرقَّتْ أعينُهم من شِدَّة العطش؛ وقاله الزجاج[3]، قال: لأن سوادَ العين يتغيَّر ويزرقُّ من العطش. وقيل: إنه الطمع الكاذب إذا تعقَّبته الخيبة؛ يقال: ابيضَّت عيني لطول انتظاري لكذا.

وقول خامس: إن المراد بالزُّرقة شخوص البصر من شدة الخوف، قال الشاعر:

لقد زَرِقتْ عيناك يا بنَ مُكَعْبِرٍ كما كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللُّؤم أَزْرَقُ[4]

يقال: رجل أزرقُ العين، والمرأة زرقاءُ بيِّنةُ الزَّرَق. والاسم الزُّرقة. وقد زَرِقت عينُه ـ بالكسر ـ وازْرقَّت عينه ازرقاقاً، وازْراقَّت عينُه ازريقاقاً[5].

وقال سعيد بن جبير: قيل لابن عباس في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] فقال: إنَّ ليوم القيامة حالاتٍ؛ فحالة يكونون فيه زُرقاً، وحالة عُمياً[6].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أصلُ الخَفْت في اللغة السكون، ثم قيل لمن خَفَضَ صوتَه: خَفَتَه، والمعنى[7]: يتسارُّون؛ قاله مجاهد[8]، أي: يقول بعضُهم لبعض في الموقف

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٩١، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ وما قبله وما بعده منه.

(٢) نقله عنه المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤، وينظر تهذيب اللغة ٨/ ٤٢٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ - ٤٢٥، والبيت لسُوَيد بن أبي كاهل اليشكري، وهو في الحيوان للجاحظ ٥/ ٣٣٢، وجمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٣٢٤، والأغاني ٢١/ ٣٩٦. وابن مكعبر: هو محرز بن المكعبر الضَّبِّي، من شعراء المفضليات. المفضليات ص٢٥١.

(٥) الصحاح (زرق)، وفيه البيت السابق.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٠٧.

(٧) قوله: والمعنى، من (م).

(٨) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦١ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة.

سرًّا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم، يعني: في الدنيا، وقيل: في القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ يريد: عشرَ ليال. وقيل: أراد ما بين النفختين، وهو أربعون سنة؛ يُرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار ـ في قول ابن عباس ـ فيستقصرون تلك المدة. أو مدة مُقامهم في الدنيا لشدَّة ما يرون من أهوال يوم القيامة[١]، ويُخيَّل إلى أمْثَلِهِم أي: أعدلهم قولاً، وأعقلهم، وأعلمهم عند نفسه أنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً، يعني: لبثهم في الدنيا؛ عن قتادة؛ فالتقدير: إلا مثلَ يوم. وقيل: إنهم من شِدَّة هول المَطْلع نَسُوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأوه كيوم. وقيل: أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين، أو لبثهم في القبور على ما تقدَّم[٢]. «وعشراً» و«يوماً» منصوبان بـ «لبثتم».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: عن حال الجبال يوم القيامة. ﴿فَقُلْ﴾ جاء هذا بفاء، وكلُّ[٣] سؤالٍ في القرآن «قل» بغير فاء إلَّا هذا؛ لأنَّ المعنى: إنْ سألوك عن الجبال فقل، فتضمَّن الكلامُ معنى الشرط. وقد عَلِمَ الله أنَّهم يسألونَه عنها، فأجاب[٤] قبل السؤال، وتلك أسئلةٌ تقدَّمت سألوا عنها النبيَّ ﷺ، فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤالٌ لم يسألوه عنه بعد؛ فتفهَّمه.

﴿يَنسِفُهَا﴾: يُطيِّرها. ﴿نَسْفًا﴾ قال ابن الأعرابي وغيره: يَقْلَعُها قَلْعاً من أصولها،

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٢١ بنحوه عن علي بن أحمد النيسابوري.
(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٦١ - ١٦٢ وزاد المسير ٥/ ٣٢١ بنحوه.
(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): جاء هذا بعد كل...، والمثبت من (د) و(م).
(٤) في (ظ): فأجابه، وفي (م): فأجابهم.

ثمَّ يُصيِّرها رملاً يسيل سيلاً، ثم يُصيِّرها كالصوف المنفوش تطيِّرها الرياح هكذا وهكذا. قال: ولا يكون العِهنُ من الصوف إلَّا المصبوغ[1]، ثمَّ كالهَباء المنثور.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يذرُ مواضعَها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ القاع: الأرضُ الملساء بلا نباتٍ ولا بناء؛ قاله ابن الأعرابي[2].

وقال الجوهري[3]: والقاع: المستوي من الأرض، والجمع أَقْوُعٌ وأقواعٌ وقِيعانٌ، صارت الواو ياءً لكسر ما قبلها.

وقال الفراء: القاعُ: مستنقعُ الماء[4]. والصَّفصف: القرعاء[5].

الكلبي: هو الذي لا نباتَ فيه. وقيل: المستوي من الأرض كأنَّه على صفٍّ واحدٍ في استوائه؛ قاله مجاهد[6]. والمعنى واحدٌ في القاع والصَّفصف، فالقاعُ: الموضع المنكشف، والصَّفصف: المستوي الأملس. وأنشد سيبويه[7]:

وكَمْ دُونَ بيتكَ من صَفْصَفٍ ودَكْدَاكِ رَمْلٍ وأَعْقَادِهَا[8]

و«قاعاً» نصب على الحال والصفصف صفتُه[9]. و﴿لَّا تَرَىٰ﴾ في موضع الصفة.

﴿فِيهَا عِوَجًا﴾ قال ابن الأعرابي: العِوَج: التَّعوجُ في الفِجاج. والأَمْتُ: النَّبَك. وقال أبو عمرو: الأمْت: النِّباك، وهي التِّلال الصِّغار، واحدُها نَبَكة[10]، أي: هي أرضٌ

(١) ياقوتة الصراط ص٣٥٠.

(٢) ياقوتة الصراط ص٣٥١.

(٣) في الصحاح (قوع).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩١.

(٥) ياقوتة الصراط ص٣٥١.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٤٢٦.

(٧) في الكتاب ٢/ ٥٦.

(٨) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٢٣.

(٩) قوله: صفته من (ظ).

(١٠) في النسخ: نَبك، والمثبت من المعاجم.

مستويةٌ، لا انخفاضَ فيها ولا ارتفاع. تقول: امتلأ [السِّقاء] فما به أَمْت[١]، وملأتُ القِربة مَلْئاً لا أمتَ فيه، أي: لا استرخاء فيه[٢]. والأَمْتُ في اللغة: المكانُ المرتفع. وقال ابن عباس: «عِوَجاً»: مَيْلاً. قال: والأَمْتُ: الأثرُ مثل الشِّراك. وعنه أيضاً: «عِوَجاً»: وادياً، «وَلَا أَمْتاً»: رابية[٣]. وعنه أيضاً: العِوَج [الانخفاض] والأَمْتُ: الارتفاع[٤]. وقال قتادة: «عِوَجاً»: صَدْعاً، «وَلَا أَمْتاً» أي: أَكَمةً[٥]. وقال يمان: الأَمْتُ: الشقوقُ في الأرض[٦]. وقيل: الأمتُ أنْ يغلُظَ مكانٌ في الفضاء أو الجبل، ويَدِقَّ في مكان؛ حكاه الصُّولي[٧].

قلت: وهذه الآية تدخل في باب الرُّقَى؛ تُرقَى بها الثآليل، وهي التي تُسمَّى عندنا بالبراريق، واحدُها بروقة؛ تطلع في الجسد وخاصةً في اليد: تأخذُ ثلاثةَ أعوادٍ من تبنِ الشعير، يكون في طرف كلِّ عودٍ عُقدة، تُمِرُّ كلَّ عُقدةٍ على الثآليل، وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد في مكان نَدٍ؛ تعفَن وتعفَن الثآليل؛ فلا يبقى لها أثرٌ. جرَّبتُ ذلك في نفسي وفي غيري، فوجدتُه نافعاً إنْ شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يريد إسرافيلَ عليه السلام إذا نَفَخَ في الصور ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا مَعْدِلَ لهم عنه، أي: عن دعائه، لا يَزيغون ولا ينحرفون، بل يُسرعون إليه ولا يَحيدون عنه. وعلى هذا أكثرُ العلماء. وقيل: «لَا عِوَجَ

(١) الصحاح (أمت) وما بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩١ .

(٣) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٦٤ و ١٦٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٥ من قول مجاهد، وما بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٥ .

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ١٩/ ٥٨ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢٦ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٧ ، والصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول، البغدادي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٣٣٥هـ) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٠١ .

لَهُۥ﴾ أي: لدعائه[1]. وقيل: يتَّبعون الداعيَ اتِّباعاً لا عِوَج له. فالمصدرُ مضمر، والمعنى: يتَّبعون صوتَ الداعي للمحشر. نظيره: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ الآية [ق: ٤١]. وسيأتي.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ أي: ذَلَّت وسكنت؛ عن ابن عباس[2].

قال:

لـمَّـا أتـى خـبـرُ الـزُّبـيـر تـواضـعَـتْ سـورُ الـمـديـنـة والـجـبـالُ الـخُـشَّـعُ[3]

فكلُّ لسانٍ ساكتٌ هناك للهيبة.

﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من أجله. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الهمسُ: الصوتُ الخفيّ؛ قاله مجاهد[4]. عن ابن عباس: الحِسُّ الخفيّ. الحسن وابن جُريج: هو صوتُ وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المَحْشر؛ ومنه قولُ الراجز:

وهُـنَّ يَـمْـشِـيـنَ بِـنـا هَـمِـيـسـا

يعني: صوتَ أخفاف الإبل في سيرها[5]. ويُقال للأسد: الهَمُوس؛ لأنَّه يَهْمِس في الظُّلمة، أي: يطأُ وطئاً خفيًّا. قال رؤبةُ يصفُ نفسَه بالشِّدَّة:

لَـيْـثٌ يَـدُقُّ الأسـدَ الـهَـمُـوسـا والأَقْـهَـبَـيـنِ الـفـيـلَ والـجـامـوسَـا[6]

وهَمَسَ الطَّعامَ، أي: مضغَه وفُوه مُنْضَمٌّ؛ قال الراجز:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ١٦٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣١ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٨.

(٣) البيت لجرير، وسلف ٢/ ٢٠٩.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٧. وهو في تفسير مجاهد ١/ ٤٠٢ - ٤٠٣، وتفسير الطبري ١٦/ ١٦٩ بلفظ: الهمس: خفض الصوت.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ١٦٨، والنكت والعيون ٣/ ٤٢٧، والرجز سلف ٣/ ٣٢٢.

(٦) الصحاح (همس)، والرجز في ديوان رؤبة ص٦٩ والأقهب: ما كان لونه إلى الكدرة مع البياض للسواد، والأقهبان: الفيل والجاموس؛ كل واحدٍ منهما أقهب للونه. اللسان (قهب).

لـقـد رأيـتُ عـجـبـاً مُـذْ أمْـسـا عـجـائـزاً مـثـلَ الـسَّـعَـالِـي خَـمْـسـا
يَـأكـلْـنَ مـا أصـنـعُ هَـمْـسـاً هَـمْـسـاً[1]

وقيل: الهمسُ: تحريكُ الشَّفَةِ واللِّسان. وقرأ أبيٌّ بن كعب: «فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْساً»[2]. والمعنى متقارب، أي: لا يُسمع لهم نطقٌ ولا كلامٌ ولا صوتُ أقدام.

وبناء (هـ م س) أصلُه الخَفاء كيفَما تصرَّف؛ ومنه الحروف المهموسة، وهي عشرةٌ يجمعُها قولك: حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ، وإنَّما سُمِّي الحرفُ مهموساً؛ لأنه ضَعُفَ[3] الاعتمادُ في موضعه حتى جَرَى معه النَّفَس.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ «مَن» في موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأوّل[4]، أي: لا تنفعُ الشفاعة أحداً إلَّا شفاعةُ من أذن له الرحمن[5]. ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: رَضيَ قولَه في الشفاعة. وقيل: المعنى، أي: إنَّما تنفعُ الشفاعةُ لمن أَذِن له الرحمن في أنْ يُشفَع له، وكان له قولٌ يُرضَى. قال ابن عباس: هو قولُ: لا إله إلا الله[6].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من أمر السَّاعة. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمرِ الدنيا؛ قاله قتادة. وقيل: يعلم ما يصيرون إليه من ثوابٍ أو عقاب، «وما خلفهم»: ما خلَّفوه وراءَهم في الدنيا[7]. ثم قيل: الآيةُ عامةٌ في جميع الخلْق[8]. وقيل: المراد:

---

(١) الرجز في نوادر أبي زيد ص٥٧، وكتاب سيبويه ٣/ ٢٨٥. قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ٢٢٢ (طبعة دار صادر): والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي ما عُرف قائلها. وقال ابن المستوفي: وجدت هذه الأبيات الثمانية في كتاب نحو قديم للعجاج أبي رؤبة، وأراه بعيداً عن نمطه. والسعالي: جمع سِعلاة؛ وهي أنثى الغول. وقيل: ساحرة الجن. ويُروى: مثل الأفاعي.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢٧.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) والصحاح (همس) والكلام منه: أضعف، والمثبت من (ظ) و(م).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ١١٨.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٢.

(٧) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٠ - ١٧١.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٦٥.

الذين يتَّبعون الداعي[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ الهاء في «به»: لله تعالى، أي: أحدٌ لا يحيطُ به علماً، إذ الإحاطةُ مُشعِرَةٌ بالحدِّ، ويتعالى الربُّ عن التحديد. وقيل: تَعود على العِلْم، أي: أحدٌ لا يحيطُ علماً بما يعلمه الله[٢].

وقال الطبري[٣]: الضميرُ في «أيديهم»، و«خلفهم»، و«يحيطون»؛ يعودُ على الملائكة؛ أَعْلَمَ الله مَن يعبدُها أنَّها لا تعلمُ ما بين أيديها وما خلفها.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ أي: ذلَّت وخضعَت؛ قاله ابن الأعرابي وغيره[٤]. ومنه قيل للأسير: عانٍ[٥]. قال أميةُ بن أبي الصَّلْت[٦]:

مَليكٌ على عرش السَّماءِ مُهَيْمِنٌ لِعِزَّته تَعنُو الوجوهُ وتَسجدُ

وقال أيضاً:

وَعَنَا له وَجْهي وخَلْقي كُلُّه في السَّاجدين لوجهه مَشْكُورَا[٧]

قال الجوهري[٨]: عنا يعنو: خضعَ وذلَّ، وأعنَاه غيرُه، ومنه قوله تعالى:

---

(١) بعدها في (د) و(م): والحمد لله. وذكر هذا القول البغوي في تفسيره ٣/ ٢٣٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٢ .

(٣) في تفسيره ١٦/ ١٧١ ، ونسبه لبعضهم، وهو قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٩٢ .

(٤) ياقوتة الصراط ص٣٥٢ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٢٣٢ ، وينظر الصحاح (عنو).

(٦) في ديوانه ص٣٩ .

(٧) ديوانه ص٦٩ ، وفيه: في الخاشعين، بدل: في الساجدين. وهو في النكت والعيون ٣/ ٤٢٧ مثل رواية المصنف.

(٨) في الصحاح (عنو).

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، ويقال أيضاً: عَنَا فيهم فلانٌ أسيراً، أي: أقامَ فيهم على إسارِه واحتُبِس. وعَنَّاه غيرُه تَعْنِيَةً: حبسَه. والعاني: الأسير، وقومٌ عُنَاة، ونسوةٌ عَوَانٍ. وعَنَتْ به أمورٌ: نزلت.

وقال ابن عباس: «عَنَت»: ذلَّت. وقال مجاهد: خشعت[١]. الماوردي[٢]: والفرقُ بين الذُّلِّ والخشوع - وإنْ تقاربَ معناهُما - هو[٣] أنَّ الذلَّ: أنْ يكون ذليلَ النفس، والخشوعَ: أنْ يتذلَّل لذي طاعة. وقال الكلبي: «عنت» أي: عملَت. عطية العَوْفي: استسلمَتْ. وقال طَلْق بن حبيب: إنَّه وضعُ الجبهةِ والأنفِ على الأرض في السجود[٤].

النحَّاس[٥]: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ في معناه قولان: أحدهما: أنَّ هذا في الآخرة. ورَوى عكرمةُ عن ابن عباس: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قال: الركوعُ والسجود. ومعنى «عنت» في اللغة: القهرُ والغلبة، ومنه: فُتِحَت البلادُ عَنْوةً، أي: غلبةً، قال الشاعر:

فما أخذوها عَنْوةً عن مودَّةٍ ... ولكن بضرب المَشْرَفيِّ اسْتقَالَها[٦]

وقيل: هو من العناء بمعنى التعب. وكنَى عن النَّاس بالوجوه؛ لأنَّ آثارَ الذُّلِّ إنَّما تتبينُ في الوجه[٧].

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٧٢ - ١٧٣ .
(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٢٧ ، وما قبله منه.
(٣) لفظة: هو. ليست في (د) و(م).
(٤) هذه الأقوال في النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ . وقول طلق بن حبيب أخرجه الطبري ١٦/ ١٧٤ .
(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٥٨ .
(٦) قائله كثير عزة، وهو في ديوانه ص٢٢٧ ، وفيه: فما تركوها، بدل: فما أخذوها. وبحدٍّ، بدل: بضرب. والبيت أورده الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٩٣ مثل رواية المصنف. والمشرفي: السيف المنسوب إلى المشارف، وهي قرى من أرض اليمن. اللسان (شرف).
(٧) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٠ بنحوه.

﴿لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ وفي القيوم ثلاث تأويلات؛ أحدها: أنَّه القائمُ بتدبير الخلق. الثاني: أنَّه القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبت. الثالث: أنَّه الدائم الذي لا يَزول ولا يَبيد[١]. وقد مضى في «البقرة» هذا[٢]. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: خَسِرَ من حَمل شِركاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأنَّ العملَ لا يُقبل من غير إيمان. و«مِن» في قوله: «مِنَ الصَّالِحَاتِ» للتبعيض[٣]، أي: شيئاً من الصالحات. وقيل: للجنس[٤].

﴿فَلَا يَخَافُ﴾ قرأ ابن كثير ومجاهد وابن مُحيصن: «يَخَفْ» بالجزم[٥]، جواباً لقوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ». الباقون: «يَخَافُ» رفعاً على الخبر، أي: فهو لا يَخَافُ، أو: فإنَّه لا يخاف. ﴿ظُلْمًا﴾ أي: نقصاً لثواب طاعته، ولا زيادة عليه في سيئاته. ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بالانتقاص من حقِّه. والهضمُ: النقصُ والكسر؛ يقال: هَضَمتُ ذلك من حقِّي، أي: حَطَطْتُه وتركْتُه. وهذا يَهْضِمُ الطعام، أي: يَنْقُص ثِقَلَه. وامرأةٌ هَضِيمُ الكَشح: ضامرةُ البطن[٦]. الماوردي: والفرق بين الظلم والهضم؛ أنَّ الظلمَ: المنعُ من الحقِّ كُلِّه، والهَضْمَ: المنعُ من بعضه، والهضمُ: ظلمٌ وإنْ افترقا من وجه، قال المتوكل الليثي:

إنَّ الأذِلَّةَ واللِّئَامَ لَمَعشرٌ ... مَوْلَاهُمُ المتهضَّمُ المظلومُ[٧]

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ .

(٢) ٤/ ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٦٥ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٢ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢٤ .

(٥) قراءة ابن كثير في السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٦) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٨ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢٤ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ ، والبيت في ديوان المتوكل الليثي ص٧٩ ، وفي طبقات فحول الشعراء =

قال الجوهري(١): ورجلٌ هَضيمٌ ومُهتضَم: أي: مظلوم. وتَهضَّمه، أي: ظلَمَه، واهتضمَه: إذا ظلمه وكَسَر عليه حقَّه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بيَّنَّا لك في هذه السُّورة من البيان، فكذلك جعلنَاه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: بيَّنَّا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يخافون الله فيجتنبون مَعَاصيَه، ويحذَرون عقابَه.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: موعظة. وقال قتادة: حذراً وورعاً. وقيل: شرفاً(٢)؛ فالذكرُ هاهنا بمعنى الشرف، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقيل: أي: ليتذكَّروا العذاب الذي تُوُعِّدوا به. وقرأ الحسن: «أَوْ نُحْدِثُ» بالنون، ورُوي عنه رفعُ الثاء وجزمُها(٣).

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ لمَّا عَرَّف العبادَ عظيمَ نعمه وإنزالَ القرآن؛ نزَّه نفسَه عن الأولاد والأنداد فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: جلَّ الله الملك الحق، أي: ذو الحق.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ علَّم نبيَّه كيف يتلقَّى القرآن.

= ٢/ ٦٨٤، وفيه: معاشر، بدل: لمعشر. والمتوكل الليثي عدَّه ابن سلام في الطبقة السابعة من الإسلاميين، وقال: يكنى أبا جهمة كان كوفياً، وكان في عصر معاوية.

(١) الصحاح (هضم).

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٩، والنكت والعيون ٣/ ٤٢٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٥٤، وزاد المسير ٥/ ٣٢٥، والبحر المحيط ٦/ ٢٨١. وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ٢/ ٥٩ عن الحسن بالياء وجزم الثاء.

قال ابن عباس: كان عليه الصلاة والسلام يُبادرُ جبريلَ، فيقرأُ قبل أنْ يَفْرُغ جبريلُ من الوحي حرصاً على الحِفْظ، وشفقةً على القرآن مخافةَ النسيان، فنهاه الله عن ذلك وأنـزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ﴾. وهـذا كـقـولـه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[1] [القيامة: ١٦] على ما يأتي.

وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: لا تَتْلُه قبل أنْ تتبيَّنه[2]. وقيل: «وَلَا تَعْجَلْ» أي: لا تسأَلْ[3] إنزالَه «قبل أن يُقْضَى» أي: يأتيَك «وَحْيُهُ». وقيل: المعنى: لا تُلْقِه إلى الناس قبل أنْ يأتيَك بيانُ تأويله[4].

وقال الحسن: نزلَتْ في رجلٍ لَطَم وجهَ امرأته، فجاءت إلى النبيِّ ﷺ تطلبُ القِصاص، فجعل النبيُّ ﷺ لها القِصَاص، فنزل ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، ولهذا قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [الكهف: ١١٤] أي: فَهْماً؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام حكم بالقِصَاص وأبى الله ذلك[5].

وقرأ ابن مسعود وغيره: «مِن قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ» بالنون وكسر الضاد «وَحْيَهُ» بالنصب[6].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ قرأ الأعمشُ باختلافٍ عنه

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٣، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه البخاري (٤٩٢٩)، ومسلم (٤٤٨) بنحوه.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٤٠٣، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٨٠ عنه، وفيهما: لا تتله على أحد حتى نُبيِّنه لك.

(٣) في (د) و(م): لا تسل.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٩.

(٥) أخرجه الطبري ٦/ ٦٨٨، والواحدي في أسباب النزول ص١٤٥، وهو مرسل. وسلف ٦/ ٢٧٩.

(٦) قرأ بها يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٣٢٢، وذكرها عن ابن مسعود ﷺ ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٢٦، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٠ للجحدري والحسن ومجاهد.

«فَنَسِيْ» بإسكان الياء[١]، وله معنيان:

أحدهما: تَرَكَ، أي: تَرَكَ الأمر والعهد؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين[٢]، ومنه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]. و[الثاني]: قال ابن عباس: «نسي» هنا من السهو والنسيان، وإنَّما أُخِذَ الإنسان منه لأنَّه عُهِد إليه فَنَسِيَ[٣]. قال ابن زيد: نَسِيَ ما عَهِدَ الله إليه في ذلك، ولو كان له عزمٌ ما أطاع عدوَّه إبليس[٤]. وعلى هذا القول يَحتمِلُ أنْ يكون آدمُ عليه السلام في ذلك الوقت مُؤاخذاً[٥] بالنسيان، وإنْ كان النسيان عنَّا اليومَ مرفوعاً.

ومعنى «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبل أنْ يأكل من[٦] الشجرة؛ لأنَّه نُهِيَ عنها.

والمرادُ تسليةُ النبيِّ ﷺ، أي: طاعةُ بني آدم للشيطان أمرٌ قديم، أي: إنْ نَقَضَ هؤلاء العهدَ؛ فإنَّ آدم أيضاً عهدنا إليه فَنَسي؛ حكاه القشيري وكذلك الطبري[٧]. أي: وإن يُعرِضْ يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي، ويخالفوا رسُلي، ويطيعوا إبليس، فَقِدْماً فعلَ ذلك أبوهم آدم.

قال ابن عطية[٨]: وهذا التأويلُ ضعيف، وذلك كون آدمَ مثالاً للكفَّار الجاحدين بالله ليس بشيء، وآدم إنَّما عصى بتأويل، ففي هذا غَضاضةٌ عليه ﷺ، وإنَّما الظاهرُ في الآية إمَّا أن يكونَ ابتداءَ قصصٍ لا تعلُّقَ له بما قبله، وإمَّا أنْ يجعل تعلُّقه أنَّه لمَّا

---

(١) المحتسب ٢/ ٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ .

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): مأخوذاً، والمثبت من (ظ). والكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٢٣٣ .

(٦) لفظة: من، من (م)، وهذا القول ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٢٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في تفسيره ١٦/ ١٨١ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٦٦ ، وما قبله منه.

عَهِد إلى محمدٍ ﷺ ألَّا يَعْجَلَ بالقرآن، مثَّل له بنبيٍّ قبلَه عهدَ إليه فَنَسي فعُوقِب؛ ليكونَ أشدَّ في التحذير وأبلغَ في العهد إلى محمد ﷺ، والعهد هاهنا في معنى الوصية، «ونسيَ» معناه: ترك، ونسيانُ الذُّهول لا يمكن هنا؛ لأنَّه لا يتعلَّق بالناسي عقاب.

والعزم: المُضيُّ على المعتقد في أيِّ شيءٍ كان، وآدمُ عليه السلام قد كان يعتقد ألَّا يأكل من الشجرة، لكن لمَّا وسوس إليه إبليسُ لم يعزم على مُعتقده. والشيء الذي عُهِدَ إلى آدمَ هو ألَّا يأكل من الشجرة، وأُعلِمَ مع ذلك أنَّ إبليس عدوٌّ له.

واختُلف في معنى قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فقال ابن عباس وقتادة: لم نجدْ له صبراً عن أكل الشجرة ومُواظبةً على التزام الأمر[١].

قال النحاس: وكذلك هو في اللغة، يقال: لفلانٍ عزمٌ، أي: صبرٌ وثَباتٌ على التحفُّظ من المعاصي حتى يَسلم منها، ومنه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وعن ابن عباس أيضاً وعطية العوفي: حِفْظاً لما أُمر به[٢]، أي: لم يتحفَّظ ممَّا نَهيتُه حتى نَسِيَ. وذَهبَ عن عِلْم ذلك بترك الاستدلال؛ وذلك أنَّ إبليس قال له: إنْ أكلتَها خُلِّدتَ في الجنة، يعني: عينَ تلك الشجرة، فلم يُطِعْه، فدعَاه إلى نظير تلك الشَّجرة ممَّا دخلَ في عُموم النهي، وكان يجب أنْ يستدلَّ عليه فلم يفعل، وظنَّ أنَّها لم تدخل في النهي، فأكلَها تأويلاً[٣]. ولا يكون ناسياً للشيء من يعلم أنَّه معصيةٌ.

وقال ابن زيد: «عزماً»: مُحافظةً على أمر الله[٤]. وقال الضحَّاك: عزيمةَ أمر. ابن كيسان: إصراراً ولا إضماراً للعود إلى الذنب.

قال القشيري: والأوَّلُ أقربُ إلى تأويل الكلام؛ ولهذا قال قوم: آدم لم يكن من

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٣ عن قتادة مختصراً.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٦/ ١٨٣ - ١٨٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣/ ١٣ بنحوه، وسلف نحو هذا الكلام ١/ ٤٥٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٤ .

أُولي العزم من الرسل؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾. وقال المُعْظَم: كلُّ الرسل أولو العزم، وفي الخبر: «ما من نبيٍّ إلَّا وقد أخطأ - أو همَّ بخطيئة - ما خلا يحيى بن زكريا»[1]. فلو خرج آدمُ بسبب خطيئته من جُملة أُولي العزم؛ لخرج جميعُ الأنبياء سوى يحيى.

وقد قال أبو أُمامة: لو أنَّ أحلامَ بني آدم جُمعت منذ خلقَ اللهُ الخلقَ إلى يوم القيامة، ووُضِعت في كفَّة ميزان، وَوضع حِلمُ آدم في كفةٍ أُخرى؛ لرجَحَهم، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ تقدَّم في «البقرة»[3] مستوفًى.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ نهيٌ، ومَجازه: لا تقبلا منه، فيكون ذلك سبباً لخروجكما من الجنة[4]. ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ يعني: أنت وزوجك؛ لأنَّهما في استواء العلَّة واحد[5]، ولم يقل: فتشقَيا؛ لأنَّ المعنى معروف، وآدمُ عليه السلام هو

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما - وعنده: أحد: بدل: نبي - ، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٧ - ١٢٨ .

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٨١٤ من طريق آخر عن ابن عباس، وقال: غريب من حديث شعبة وغيره، لا يرويه إلا إبراهيم السباك عن سليمان بن حرب عن شعبة. اهـ.

(٢) سلف ١/ ٤٥٧ .

(٣) ١/ ٤٣٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠ .

المُخاطَب، وهو المقصود[١]. وأيضاً لمَّا كان الكادَّ عليها والكاسبَ لها؛ كان بالشقاء أخصَّ[٢].

وقيل: الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدمَ وحدَه، وهو شقاوة البدن، ألا ترى أنه عقَّبهُ بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ أي: في الجنة ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، فأعلَمه أنَّ له في الجنة هذا كلَّه: الكسوةُ والطعام والشراب والمسكن، وأنَّك إن ضَيَّعت الوصية، وأطعتَ العدوَّ؛ أخرجَكما من الجنة، فشقيت تعباً ونصَباً، أي: جُعْتَ وعريتَ وظَمِئتَ وأصابتك الشمس؛ لأنَّك تُرَدُّ إلى الأرض إذا أُخرِجت من الجَنَّة.

وإنَّما خصَّهُ بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقيان؛ لِيُفهمنا[٣] أنَّ نفقة الزوجة[٤] على الزوج، فمن يومئذٍ جرتْ نفقةُ النساء على الأزواج، فلمَّا كانت نفقةُ حواءَ على آدم، كذلك نفقاتُ بناتها على بني آدم بحق الزوجيَّة.

وأعلمنا في هذه الآية أنَّ النفقةَ التي تجبُ للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام، والشراب، والكسوة، والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة، فقد خرجَ لها[٥] من نفقتها، فإنْ تفضَّل بعد ذلك فهو مأجور، فأمَّا هذه الأربعة فلابدَّ لها منها؛ لأنَّ بها إقامةَ المُهجة[٦].

قال الحسن: المراد بقوله: «فتشقى» شقاء الدنيا، لا يُرى ابنُ آدم إلَّا ناصباً. وقال الفرَّاء[٧]: هو أنْ يأكل من كَدِّ يديه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠ .

(٣) في (د) فعلمنا، وفي (خ) و(ز) و(م): يعلمنا، والمثبت من (ظ).

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): المرأة.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): إليها، والمثبت من (ظ).

(٦) المُهجة: الروح. القاموس المحيط (مهج).

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ١٩٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٨ ، وقول الحسن الذي قبله منه.

وقال سعيدُ بن جبير: أُهبِطَ إلى آدم ثورٌ أحمر، فكان يحرث عليه، ويمسحُ العرقَ عن جبينه، فهو شقاؤُه الذي قال الله تبارك وتعالى[١].

وقيل: لمَّا أُهبِط من الجنة كانَ من أوَّل شقائه أنَّ جبريلَ أنزل عليه حباتٍ من الجنَّة، فقال: يا آدم، ازرع هذا. فحرث وزرع، ثمَّ حصد، ثمَّ نقَّى، ثمَّ طحن، ثمَّ عجن، ثمَّ خبز، ثم جلس ليأكلَ بعد التعب، فتدحرج رغيفُه من يده حتى صار أسفلَ الجبل، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عَرِقَ جبينُه، قال: يا آدم، فكذلك رزقُك بالتعب والشقاء، ورزقُ ولدك من بعدك ما كنت في الدنيا[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

فيه مسألتان[٣]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة. ﴿وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾ أي: لا تعطش. والظَّمأ: العطش. ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: تبرز للشمس فتجد حرَّها. إذْ ليس في الجنة شمسٌ، إنَّما هو ظلٌّ ممدود[٤]، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

قال أبو العالية: نهارُ الجنة هكذا: وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر.

قال أبو زيد: ضَحَا الطريقُ يَضْحُو ضَحْواً[٥]: إذا بدا لك وظهر. وضَحِيتُ[٦] - بالكسر - ضَحاً: عرقت. وضَحِيتُ أيضاً للشمس ضَحَاءً، ممدود: بَرزتُ، وضَحَيتُ - بالفتح - مثلُه، والمستقبل: أَضْحَى، في اللغتين جميعاً[٧]، قال عمر بن أبي ربيعة:

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/١٨٦.

(٢) تاريخ الطبري ١/١٢٨ - ١٢٩، وعرائس المجالس ص٣٩ - ٤٠، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) كذا وقع، لكنه لم يرد إلا مسألة واحدة.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٤، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٥) قال الزبيدي في تاج العروس (ضحى): ضحا الطريق ضُحُوًّا؛ كعُلُوّ.. ونقله الجوهري [الصحاح (ضحى)] عن أبي زيد وضبط مصدره بالفتح.

(٦) قبلها في (م): وضَحَيْتُ. والكلام من هنا إلى قوله: برزت. ساقط من (د) و(ز) و(ظ).

(٧) الصحاح (ضحو).

رَأَتْ رَجُلاً أَيْمَا إذا الشمسُ عَارضَتْ فَيَضْحَى وأمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[(١)]

وفي الحديث أنَّ ابن عمر رأى رجلاً مُحرِماً قد استظلَّ، فقال: أَضْحِ لمن أحرمتَ له[(٢)]. هكذا يَرويه المُحدِّثون، بفتح الألف وكسر الحاء، من أضحيتُ. وقال الأصمعي: إنَّما هو: اِضْحَ لمن أحرمتَ له، بكسر الألف وفتح الحاء، من ضَحِيتُ أَضْحَى؛ لأنَّه إنَّما[(٣)] أَمَرَه بالبروز للشمس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[(٤)]. وأنشد:

ضَحِيتُ له كَيْ أستظلَّ بِظلِّهِ إذا الظلُّ أضحَى في القيامة قَالِصا[(٥)]

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلَّا عاصماً في رواية أبي بكر عنه: «وَأَنَّكَ» بفتح الهمزة[(٦)] عطفاً على «أَلَّا تَجُوعَ». ويجوز أنْ يكون في موضع رفعٍ عطفاً على الموضع، والمعنى: ولك أنَّك لا تظمأ فيها. الباقون بالكسر على الاستئناف، وعلى العطف على «إنَّ لَكَ»[(٧)].

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[(٨)]. ﴿قَالَ﴾ يعني

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٦٤، وفيه: أمَّا، بدل: أيما. وسلف البيت ١/ ٣٦٦.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٤/ ٣٠٩ (نشرة العمروي)، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٧٠، ووقع في مطبوع ابن أبي شيبة: ضح لمن أحرمت له.
(٣) لفظة: إنما، ليست في (د) و(م).
(٤) الصحاح (ضحو).
(٥) ذكره المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ٢/ ٩٦ دون نسبة. وقَلَص الظلُّ: انقبض. القاموس (قلص).
(٦) وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي وابن عامر الشامي. السبعة ص٤٢٤، والتيسير ص١٥٣.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٩.
(٨) ٩/ ١٧٤ - ١٧٥.

الشيطان: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾. وهذا يدلُّ على المُشافهة، وأنه دخل الجنة في جوف الحية على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[١]، وتقدَّم هناك تعيين الشجرة، وما للعلماء فيها، فلا معنى للإعادة. ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ تقدَّم في «الأعراف» مستوفًى[٢]. وقال الفرَّاء[٣]: «وَطَفِقَا» في العربية: أقبَلَا، قال: وقيل: جعلَا يُلْصِقان عليهما ورق التين.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ **فيه ست مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ تقدَّم في «البقرة» القولُ في ذنوبِ الأنبياء[٤]، وقال بعضُ المتأخرين من علمائنا: والذي ينبغي أنْ يقال: إنَّ الله تعالى قد أخبرَ بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونَسبَها إليهم، وعَاتبَهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم، وتنصَّلوا منها، واستغفروا منها، وتابوا، وكلُّ ذلك وردَ في مواضعَ كثيرةٍ لا يقبلُ التأويلَ جملتُها، وإنْ قَبِلَ ذلك آحادُها، وكلُّ ذلك مما لا يُزري بمناصبهم، وإنَّما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم[٥] حسناتٌ، وفي حقِّهم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصبهم، وعلوِّ أقدارهم؛ إذ قد يُؤاخذُ الوزير بما يُثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحقُّ.

ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين[٦]. فهم

(١) ١/ ٤٦٤، وسلف الكلام أن خبر دخول إبليس الجنة في جوف الحية من الإسرائيليات.

(٢) ٩/ ١٧٩.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٩.

(٤) ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠، والكلام الذي سيذكره المصنف حتى نهاية المسألة الأولى سلف ثمة.

(٥) لفظة: بالنسبة: من (م)، وفي (ظ): فهي لغيرهم.

(٦) ذكره العروسي في حاشيته على شرح الرسالة القشيرية للشيخ زكريا الأنصاري ١/ ١٤١، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ٦٥ ونسبه لأبي سعيد الخراز.

ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وإن كانوا قد شَهِدَت النصوصُ بوقوعِ ذنوبٍ منهم، فلم يُخِلَّ ذلك بمناصبهم، ولا قَدَحَ في رُتَبهم[(١)]، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكَّاهم، واختارهم، واصطفاهم، صلواتُ الله عليهم وسلامه.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي[(٢)]: لا يجوز لأحدٍ منا اليوم أنْ يُخبِر بذلك عن آدم إلَّا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيِّه، فأمَّا أن يَبتدئَ ذلك من قِبَل نفسه؛ فليس بجائزٍ لنا في آبائنا الأدنَين إلينا، المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبيِّ المُقدَّم، الذي عَذَره الله سبحانه وتعالى، وتاب عليه، وغَفَرَ له.

قلت: وإذا كان هذا في المخلوق لا يجوز، فالإخبارُ عن صفات الله عزَّ وجلَّ كاليد والرجل، والإصبع والجنب، والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع، وأنَّه لا يجوز الابتداءُ بشيءٍ من ذلك إلَّا في أثناء قراءةِ كتابه، أو سُنَّة رسوله. ولهذا قال الإمام مالك بن أنس ﷺ: من وصف شيئاً من ذات الله عزَّ وجلَّ مثل قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، فأشار بيده إلى عنقه قُطِعت يده، وكذلك في السمع والبصر يُقطَع ذلك منه؛ لأنه شبَّه الله تعالى بنفسه[(٣)].

الثالثة: روى الأئمة ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا، خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنَّة، فقال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله عزَّ وجلَّ بكلامه، وخطَّ لك بيده[(٤)]، أتلومني[(٥)] على أمرٍ قدَّره الله عليَّ قبل أنْ يخلقني بأربعين سنة، فَحجَّ آدمُ موسى» ثلاثاً[(٦)].

---

(١) في (م): رتبتهم.

(٢) في أحكام القرآن له ٣/ ١٢٤٩ .

(٣) التمهيد ٧/ ١٤٥ .

(٤) بعدها في (د) و(م) لفظة: يا موسى.

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): تلومني.

(٦) صحيح البخاري (٦٦١٤)، وهو في مسند أحمد (٧٣٨٧)، وصحيح مسلم (٢٦٥٢) وسلف قسم منه ٢/ ٢١٥ و ٥/ ٣٧٥ .

قال المهلَّب: قوله: «فحجَّ آدمُ موسى» أي: غلَبه بالحُجَّة.

قال الليث بن سعد: وإنَّما صحَّت الحُجَّة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام، من أجل أنَّ الله تعالى قد غَفَرَ لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أنْ يُعيِّره بخطيئةٍ قد غَفرَها الله تعالى له؛ ولذلك قال آدم: أنت موسى الذي آتاك اللهُ التوراةَ، وفيها عِلْم كلِّ شيءٍ، فوجدتَ فيها أنَّ الله قد قدَّر عليَّ المعصية، وقدَّر عليَّ التوبةَ منها، وأسقط بذلك اللَّومَ عنِّي، أفتلومني أنت، واللهُ لا يلومني؟.

وبمثل هذا احتجَّ ابن عمر على الذي قال له: إنَّ عثمان فرَّ يومَ أُحد، فقال ابن عمر: ما على عثمانَ ذنبٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد عفا عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾[1] [آل عمران: ١٥٥].

وقد قيل: إنَّ آدمَ عليه السلام أبٌ، وليس تعييره من بِرّه أنْ لو كان مما يُعيَّر به غيره[2]، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقولُ في الأبوين الكافرين: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان: ١٥]. ولهذا إنَّ إبراهيم عليه السلام لمَّا قال له أبوه وهو كافر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ﴾ [مريم: ٤٦-٤٧]، فكيف بأبٍ هو نبيٌّ قد اجتباه ربُّه وتابَ عليه وهدى؟!

الرابعة: وأما مَن عَمِلَ الخطايا ولم تأتِهِ المغفرة، فإن العلماء مُجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتجَّ بمثل حُجَّة آدم فيقولَ: تلومني على أن قتلتُ أو زنيتُ أو سرقتُ وقد قدَّر الله عليَّ ذلك، والأمةُ مُجمعةٌ على جواز حمد المُحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه[3].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي: ففَسَدَ عليه عيشُه، حكاه النقاش، واختاره

---

(١) أخرجه البخاري مطولاً (٤٠٦٦) وسلف بتمامه ٥/ ٣٧٤.

(٢) ذكره بنحوه أبو العباس القرطبي في المفهم ٦/ ٦٦٧ - ٦٦٨، ثم قال: وهذا نأي عن معنى الحديث، وعما سبق له.

(٣) التمهيد ١٨/ ١٥، والاستذكار ٢٦/ ٨٨.

القُشيريّ. وسمعتُ شيخنا الأستاذَ المقرئ أبا جعفر القرطبي[١] يقول: «فَغَوَى»: ففسد عيشُه بنزوله إلى الدنيا، والغَيُّ: الفساد. وهو تأويلٌ حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: إنَّ[٢] «فغوى» معناه: ضلَّ، من الغَيِّ الذي هو ضد الرُّشد.

وقيل: معناه: جَهِلَ موضعَ رُشْده، أي: جَهِلَ أنَّ تلك الشجرة هي التي نُهيَ عنها، والغَيُّ: الجهل.

وعن بعضهم: «فغَوى»: فبَشِم[٣] من كثرة الأكل. الزمخشريّ[٤]: وهذا ـ وإن صحَّ على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً، فيقول في فَنيَ وبَقيَ: فَنَى وبَقَى، وهم بنو طيِّئ ـ تفسيرٌ خبيث.

السادسة: قال القشيري أبو نصر: قال قومٌ: يقال: عصى آدمُ وغوى، ولا يقال له: عاصٍ ولا غاوٍ، كما أنَّ من خاطَ مرةً يقالُ له: خاط، ولا يقال له: خيَّاط، ما لم تتكرر منه الخياطة[٥].

وقيل: يجوز للسيِّد أنْ يُطلِق في عِبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه[٦]. وهذا تكلُّفٌ، وما أُضيف مِن هذا إلى الأنبياء فإمَّا أنْ تكون صغائرَ، أو تركَ الأولى، أو قبل النبوَّة.

قلت: هذا حسن.

قال الإمام أبو بكر بن فُورَك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدمَ قبل النبوَّة، ودليلُ

---

(١) هو أحمد بن محمد القيسي المعروف بابن أبي حجة، توفي سنة (٦٤٣هـ). بغية الوعاة ١/ ٣٨٣، وسلف ذكره ٥/ ٤١٢.

(٢) لفظة: إن، ليست في (م).

(٣) البَشَم: التخمة. النهاية (بشم).

(٤) في الكشاف ٢/ ٥٥٧.

(٥) وهو قول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٣١٣.

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٨.

ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فذكر أنَّ الاجتباءَ والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوّة، فجائزٌ عليهم الذنوبُ وجهاً واحداً؛ لأنَّ قبل النبوّة لا شرعَ علينا في تصديقهم، فإذا بعثَهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين؛ لم يضرَّ ما قد سلفَ منهم من الذنوب. وهذا نفيسٌ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ خاطب آدم وإبليس[١]. «مِنها» أي: من الجنة وقد قال لإبليس: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف:١٨]، فلعلَّه أُخرِج من الجنة إلى موضعٍ من السماء، ثم أُهبِط إلى الأرض.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تقدَّم في «البقرة»[٢]، أي: أنت عدوٌّ للحيَّة ولإبليس، وهما عدوَّان لك. وهذا يدلُّ على أن قوله: «اهبِطا» ليس خطاباً لآدم وحوّاء؛ لأنَّهما ما كانا مُتعاديين، وتضمَّن هبوطُ آدمَ هبوطَ حوّاء.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: رشداً وقولاً حقًّا. وقد تقدَّم في «البقرة»[٣].

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ يعني: الرسل والكتب. ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية. وعنه: من قرأ القرآن واتَّبع ما فيه هَدَاه الله من الضلالة،

---

(١) زاد المسير ٥/ ٣٣٠.

(٢) ١/ ٤٧٤.

(٣) ١/ ٤٨٨.

ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية[١].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: ديني، وتلاوة كتابي والعمل بما فيه. وقيل: عما أَنْزَلتُ من الدلائل[٢]. ويَحتمِلُ أن يُحملَ الذِّكر على الرسول؛ لأنَّه كان منه الذِّكر.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: عيشاً ضيِّقاً؛ يقال: منزلٌ ضَنْك، وعيشٌ ضَنْك، يستوي فيه الواحد والاثنان، والمذكر والمؤنث والجمع؛ قال عنترة:

إنْ يُلحَقوا أَكْرُرْ وإنْ يُستلحَموا أَشْدُدْ وإنْ يُلْفَوْا بِضَنْكٍ أَنزِلِ[٣]

وقال أيضاً[٤]:

إنَّ المنيةَ لو تُمثَّل مُثِّلت مثلي إذا نَزلُوا بضَنْكِ المنزلِ

وقُرِئ: «ضَنْكَى» على وزن فَعْلَى[٥]. ومعنى ذلك: أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعلَ مع الدين التسليمَ والقناعةَ والتوكُّلَ عليه وعلى قسمته، فصاحبُه يُنفقُ مما رزقَه الله عزَّ وجلَّ بسماحٍ وسهولةٍ، ويعيشُ عيشاً رافِغاً[٦]؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. والمُعرِض عن الدِّين مستولٍ عليه الحرصُ الذي لا يزال يَطمحُ به إلى الازدياد من الدنيا، مُسَلَّطٌ عليه الشُّحُّ، الذي يقبضُ يدَه عن الإنفاق، فعيشُه ضَنكٌ، وحالُه مظلِمةٌ؛ كما قال بعضهم: لا يُعرِضُ أحدٌ عن ذكر ربِّه إلا أظلمَ عليه وقتُه، وتَشوَّش عليه رزقُه، وكان في عيشه في ضنك[٧].

وقال عكرمة: «ضَنْكاً»: كسباً حراماً. الحسن: طعامُ الضَّرِيع والزَّقُّوم. وقولٌ

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٩١ - ١٩٢ ، وأوردهما ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٣٠ .

(٢) مجمع البيان للطبرسي ١٦/ ١٥٢ بنحوه.

(٣) ديوان عنترة ص٥٧ ، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٩٢ .

(٤) ديوانه ص٥٨ .

(٥) قرأ بها الحسن. القراءات الشاذة ص٩٠ .

(٦) عيشٌ أرفغُ، ورافِغٌ، ورفيغٌ: خصيبٌ واسعٌ طيب. اللسان (رفغ).

(٧) في (م): في عيشة ضنك.

رابعٌ: وهو الصحيح؛ أنَّه عذابُ القبر؛ قاله أبو سعيد الخدري، وعبدُ الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعاً عن النبي ﷺ[١]، وقد ذكرناهُ في كتاب «التذكرة»[٢]. قال أبو هريرة: يضيقُ على الكافر قبرُه حتى تختلفَ فيه أضلاعه، وهو المعيشةُ الضنك[٣].

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ قيل: أعمى في حالٍ وبصيراً في حال، وقد تقدَّم في آخر «سبحان»[٤]. وقيل: أعمى عن الحجَّة، قاله مجاهد. وقيل: أعمى عن جهات الخير، لا يهتدي لشيءٍ منها[٥]. وقيل: عن الحِيلة في دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذي لا حِيلةَ له فيما لا يراه.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: بأيِّ ذنبٍ عاقبتني بالعَمَى. ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا، وكأنَّه يظنُّ أنْ[٦] لا ذنبَ له. وقال ابنُ عباس ومجاهد: أي: «لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى» عن حُجَّتي «وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً» أي: عالماً بحجتي[٧]. القشيري: وهو بعيدٌ إذ ما كان للكافر حجةٌ في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي: قال الله تعالى له: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي: دلالاتُنا على وحدانيتنا وقدرتنا. ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: تركتَها ولم تنظر فيها، وأعرضتَ عنها. ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تترك في العذاب؛ يريد جهنم.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤١٣، وقول أبي سعيد الخدري وابن مسعود رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٦/ ١٩٦ و ١٩٨. وحديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٦٤٤)، والطبري في تفسيره ١٦/ ١٩٨ - ١٩٩، وابن حبان في صحيحه (٣١٢٢).

(٢) ص١٣٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٩٧.

(٤) ١٣/ ١٧٩.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣١.

(٦) في (م): أنه.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٠٠ - ٢٠١ عن مجاهد.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أي: وكما جزينا من أعرض عن القرآن، وعن النظر في المصنوعات والتفكر فيها، وجاوزَ الحدَّ في المعصية. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: لم يُصدِّق بها.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ﴾ أي: أفظعُ من المعيشة الضَّنك وعذابِ القبر. ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أدومُ وأثبت؛ لأنَّه لا ينقطع ولا ينقضي.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يريدُ أهلَ مكَّة، أي: أفلم يتبين لهم خبرُ من أهلكنا قبلهم من القرون، يمشون في مساكنهم؛ إذا سافروا وخرجوا في التجارة وطلبِ المعيشة، فيرون بلادَ الأُمم الماضية والقرون الخالية خاويةً، أي: أفلا يخافون أنْ يحُلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بالكفار قبلَهم.

وقرأ ابنُ عباس والسُّلَميُّ وغيرهما: «نَهْدِ لَهُمْ» بالنون[(١)]، وهي أَبْيَنُ. و«يهد» بالياء مشكلٌ لأجل الفاعل؛ فقال الكوفيون: ﴿كَمْ﴾ الفاعل. النحاس[(٢)]: وهذا خطأ؛ لأنَّ «كم» استفهامٌ، فلا يَعملُ فيها ما قبلها. وقال الزَّجَّاج[(٣)]: المعنى: أو لم يهدِ لهم الأمرُ بإهلاكنا مَن أهلكناه. وحقيقة «يهدي» يدلُّ على الهدى؛ فالفاعلُ هو الهدى، تقديره: أفلم يهدِ الهدى لهم. قال الزَّجَّاج: «كم»: في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

---

(١) ذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٨٨ ، وذكرها الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٧٩ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٦٩ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٥٨ . دون نسبة.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٦٠ . وما قبله وقول الزجاج الآتي منه.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٩ .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، أي: ولولا كلمةٌ سبقت من ربِّك وأجلٌ مسمى لكان لزاماً؛ قاله قتادة[١]. واللِّزام: المُلازمة، أي: لكان العذابُ لازماً لهم. وأضمر اسم كان.

قال الزجاج[٢]: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على «كلمة». قتادة: والمراد القيامة؛ وقاله القتبي. وقيل: تأخيرُهم إلى يوم بدر[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَه تعالى بالصبر على أقوالهم: إنَّه ساحر، إنَّه كاهن، إنَّه كذَّاب، إلى غير ذلك. والمعنى: لا تَحْفِل بهم[٤]، فإنَّ لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدَّم ولا يتأخر. ثم قيل: هذا منسوخٌ بآية القتال[٥]. وقيل: ليس منسوخاً؛ إذ لم يستأصل الكفارَ بعد آية القتال، بل بقي المُعظم منهم.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ قال أكثر المتأولين: هذا إشارةٌ إلى الصلوات الخمس: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ العَتَمَة، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ المغرب والظهر[٦]؛ لأنَّ الظهرَ في آخر طرف النهار الأوَّل، وأوَّلِ طرفِ النهار الآخر؛ فهي في طرفين منه، والطرفُ الثالث: غروب الشمس؛ وهو وقت المغرب[٧].

وقيل: النهار ينقسمُ قسمين فَصَلَهما الزَّوال، ولكلٍّ قسمٍ طرفانِ، فعند الزوال طرفان؛ الآخِر من القسم الأوّل، والأوّلُ من القسم الآخر؛ فقال عن الطرفين أطرافاً

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢ ، وكلام القتبي في غريب القرآن له ص٢٨٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٦٩ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٣٦ ، وابن الجوزي في الناسخ والمنسوخ ص٤٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

(٧) تفسير الطبري ١٦/ ٢٠٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٦ .

على نحو: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وأشارَ إلى هذا النظر ابنُ فورك في «المشكل»(١).

وقيل: النهارُ للجنس، فلكلِّ يوم طرف؛ وهي التي(٢) جُمِع، لأنَّه يعودُ في كلِّ نهار. وآناء الليل: ساعاتُه، وواحدُ الآناء: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى(٣).

وقالت فرقة: المرادُ بالآية صلاةُ التطوّع؛ قاله الحسن(٤).

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بفتح التاء، أي: لعلَّك تُثابُ على هذه الأعمال بما ترضى به.

وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم: «تُرْضَى» بضمِّ التاء، أي: لعلَّك تُعطَى ما يُرضِيك(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ قد تقدَّم معناه في «الحجر»(٦).

و﴿أَزْوَٰجًا﴾ مفعول بـ «متَّعنا».

و﴿زَهْرَةَ﴾ نصب على الحال.

وقال الزجاج(٧): «زهرة» منصوبة بمعنى «متَّعنا» لأنَّ معناه: جعلنا لهم الحياة

---

(١) ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٠.

(٢) في (م): وهو إلى. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤/ ٧٠ والكلام منه.

(٣) نزهة القلوب ص٨٦، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٢.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠، وقراءة الكسائي وأبي بكر في السبعة ص٤٢٥، والتيسير ص١٥٣.

(٦) ١٢/ ٢٥٣.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨٠. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦١.

الدنيا زهرةً، أو بفعلٍ مضمر، وهو «جعلنا» أي: جعلنَا لهم زهرةَ الحياة الدنيا؛ عن الزجاج أيضاً.

وقيل: هي بدلٌ من الهاء في «به» على الموضع، كما تقول: مررتُ به أخاك. وأشار الفراءُ(١) إلى نصبه على الحال؛ والعاملُ فيه: «مَتَّعْنَا». قال: كما تقول: مررتُ به المسكينَ؛ وقدَّره: متَّعناهم به زهرةً في الحياة الدنيا وزينةً فيها.

ويجوزُ أنْ تنصبَ على المصدر مثل: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ [النمل:٨٨] و﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ [الروم:٦]، وفيه نظر. والأحسنُ أنْ ينصب على الحال، ويحذفَ التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة؛ كما قُرئ: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ﴾(٢) [يس:٤٠] بنصب النَّهار بسابق، على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام، وتكون «الحياة» مخفوضةً على البدل من «ما» في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾، فيكون التقدير: ولا تمدنَّ عينيكَ إلى الحياة الدنيا زهرةً، أي: في حال زَهْرتها.

ولا يَحسُنُ أنْ تكون «زهرة» بدلاً من «ما» على الموضع في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾؛ لأنَّ «لِنَفْتِنَهُمْ» متعلقٌ بـ «متَّعنا»(٣).

و«زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» يعني: زينتَها بالنبات. والزَّهَرةُ؛ بالفتح في الزاي والهاء: نَوْر النبات. والزُّهَرة؛ بضمِّ الزاي وفتح الهاء: النَّجم. وبنو زُهْرة بسكون الهاء؛ قاله ابن عُزيز(٤).

وقرأ عيسى بن عمر: «زَهَرَةَ» بفتح الهاء(٥)، مثل: نَهْر ونَهَر. ويقال: سراجٌ زاهرٌ

(١) في معاني القرآن ٢/١٩٦، ونقله المصنف عنه بواسطة مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٤ والكلام منه.

(٢) نسبها أبو حيان في البحر ٧/٣٣٨ لعمارة بن عقيل.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٤ – ٤٧٥، وللكلام تتمة فينظر فيه.

(٤) في نزهة القلوب ص٢٥٦.

(٥) وقرأ بها يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٣٢٢، وذكرها عن عيسى بن عمر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٠.

أي: له بريق. وزهرُ الأشجار: ما يَرُوق من ألوانها. وفي الحديث: كان النبي ﷺ أزهرَ اللون[١]، أي: نيِّر اللون؛ يقال لكلِّ شيءٍ مستنير: زاهر، وهو أحسن الألوان[٢].

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ أي: لِنَبْتلِيَهم. وقيل: لنجعلَ ذلك فتنةً لهم وضلالاً[٣].

ومعنى الآية: لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وَزْناً، فإنَّه لا بقاءَ لها.

«وَلَا تَمُدَّنَّ» أبلغُ من: لا تنظرنَّ، لأنَّ الذي يمدُّ بصرَه، إنَّما يحملُه على ذلك حرصٌ مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه[٤].

مسألة: قال بعض الناس: سببُ نزول[٥] هذه الآية، ما رواه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: نزل ضيفٌ برسول الله ﷺ، فأرسلني عليه الصلاة والسلام إلى رجلٍ من اليهود، وقال: «قل له: يقولُ لك محمدٌ: نزلَ بنا ضيفٌ، ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذي يُصلِحه، فبعني كذا وكذا من الدَّقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب» فقال: لا، إلَّا برهن. قال: فرجَعتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «واللهِ، إني لأمينٌ في السماء، أمينٌ في الأرض، ولو أسلفني أو باعني لأدَّيتُ إليه. اذهبْ بدرْعي إليه»[٦] ونزلت الآيةُ تعزيةً له عن الدنيا.

قال ابن عطية[٧]: وهذا معترَضٌ أنْ يكون سبباً؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، والقصة

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٣٣٨١)، ومسلم (٢٣٣٠) (٨٢) من حديث أنس ﷺ.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (زهر).

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

(٥) لفظة: نزول، من (م).

(٦) أخرجه بهذا اللفظ الواحدي في أسباب النزول ص٣١٤ ، وأخرجه الطبري مختصراً ١٦/ ٢١٤ . وفي إسناده موسى بن عُبيدة الرَّبَذي، قال أحمد: لا يكتب حديثه، وضعّفه النسائي وابن عدي. ميزان الاعتدال ٤/ ٢١٣ وحديث رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي صحيح، وسيرد.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

المذكورة مدنيةٌ في آخر عُمر النبي ﷺ؛ لأنَّه ماتَ ودِرعُه مرهونةٌ عند يهودي[١] بهذه القصة التي ذكرت؛ وإنَّما الظاهرُ أنَّ الآيةَ متناسقةٌ مع ما قبلَها، وذلك أنَّ الله تعالى وبَّخهم على ترك الاعتبار بالأُمم السالفة، ثمَّ توعَّدهم بالعذاب المؤجَّل، ثمَّ أمَر نبيَّه بالاحتقار لشأنهم، والصبرِ على أقوالهم، والإعراضِ عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا؛ إذْ ذلك منصرمٌ عنهم؛ صائرٌ إلى خِزي.

قلت: وكذلك ما رويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه مرَّ بإبلِ بني المصطلق وقد عَبِست في أبوالها[٢] من السِّمَن، فتقنَّع بثوبه ثم مضى؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية[٣].

ثم سَلَّاه فقال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ثوابُ الله على الصبر وقلَّةِ المبالاة بالدنيا أولى؛ لأنَّه يبقى والدنيا تفنى.

وقيل: يعني بهذا الرزق ما يفتحُ الله على المؤمنين من البلاد والغنائم.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمرَه تعالى بأن يأمرَ أهله بالصَّلاة ويمتثلَها معهم، ويصطبر عليها ويُلازمَها. وهذا الخطابُ للنبي ﷺ، ويدخلُ في عمومه جميعُ أُمَّته[٤]، وأهلُ بيته على التخصيص.

وكان عليه الصلاة والسلام بعد نزول هذه الآية يذهبُ كلَّ صباح إلى بيت فاطمةَ وعليٍّ رضوان الله عليهما فيقول: «الصلاة»[٥].

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٩)، والترمذي (١٢١٤)، والنسائي ٧/ ٣٠٣.

(٢) في النسخ الخطية: بأبوالها، والمثبت من (م) قال ابن الأثير في النهاية (عبس): وإنما عدَّاه بفي؛ لأنه أعطاه معنى انغمست.

(٣) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٩، ولم نقف على من أخرجه. قال أبو عبيد: وعبست في أبوالها: يعني: أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها، وذلك إنما يكون من كثرة الشحم.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٧١.

(٥) أخرج أحمد (١٣٧٢٨) والترمذي (٣٢٠٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستَّة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ =

ويروى أنَّ عُرْوةَ بن الزبير ﷺ كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادرَ إلى منزله فدخلَه، وهو يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، ثمَّ ينادي بالصلاة: الصلاةَ يرحمكم الله؛ ويُصلِّي[١]. وكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يُوقظ أهلَ داره لصلاة الليل، ويُصلِّي وهو يتمثَّل بالآية[٢].

قوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نسألك أنْ ترزقَ نفسَك وإيَّاهم، وتشتغلَ عن الصلاة بسبب الرزق، بل نحن نتكفَّلُ برزقك وإيَّاهم؛ فكان عليه الصلاة والسلام إذا نزل بأهله ضِيْقٌ؛ أمرَهم بالصلاة[٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: الجنَّة لأهل التقوى، يعني: العاقبة المحمودة. وقد تكون لغير التقوى عاقبة، ولكنَّها مذمومةٌ، فهي كالمعدومة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ يريد كفارَ مكة، أي: لولا يأتينا محمدٌ بآيةٍ تُوجِبُ العلم الضروري، أو بآيةٍ ظاهرةٍ؛ كالناقة والعصا، أو: هلَّا يأتينا بالآيات التي نقترحُها نحن كما أتى الأنبياءُ من قبله.

= ﴿عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ولم نقف على من ذكر أن ذلك بعد نزول الآية المذكورة أعلاه.

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢١٧.

(٢) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ ١/ ١١٩، ومن طريقه عبد الرزاق في مصنفه (٤٧٤٣). والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٧١.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٠) من حديث عبد الله بن سلام ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧: رجاله ثقات.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يريد التوراةَ والإنجيل، والكتب المتقدمة، وذلك أعظمُ آيةٍ؛ إذ أخبرَ بما فيها[١]. وقُرِئ: «الصُّحْفِ» بالتخفيف[٢].

وقيل: أو لم تأتهم الآيةُ الدَّالَّة على نبوَّته بما وجدوه في الكتب المتقدِّمة من البِشارة[٣].

وقيل: أو لم يأتهم إهلاكُنا الأمَمَ الذين كفروا واقترحوا الآيات، فما يؤمِّنهم إنْ أتتهم الآيات أنْ يكون حالُهم حالَ أولئك[٤].

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبي إسحاق وحفص: «أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ»؛ بالتَّاء؛ لتأنيث البيِّنة. الباقون بالياء[٥]؛ لتقدم[٦] الفعل، ولأنَّ البيِّنة هي البيانُ والبرهان، فردُّوه[٧] إلى المعنى، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم[٨].

وحكى الكسائيُّ: «أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى» قال: ويجوزُ على هذا «بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى».

قال النحاس[٩]: إذا نَوَّنت «بيِّنة» ورَفعت، جعلت «ما» بدلاً منها، وإذا نَصبتها فعلى الحال؛ والمعنى: أو لم يأتهم ما في الصُّحف الأولى مبيَّناً.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص٩١ ، والكشاف ٢/ ٥٦٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٣٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢١٨ .

(٥) السبعة ص٤٢٥ ، والتيسير ص١٥٣ ، والنشر ٢/ ٣٢٢ .

(٦) في (خ) و(ز) و(ف): لتقديم، وفي (ظ): لتذكير، والمثبت من (د) و(م).

(٧) في (د): فيردوه، وفي (ز) و(ظ): فرده، والمثبت من (خ) و(ف) و(م).

(٨) الحجة للقراء السبعة للفارسي ٥/ ٢٥٣ بنحوه، والكشف عن وجوه القراءات لمكي ٢/ ١٠٨ بنحوه.

(٩) في إعراب القرآن ٣/ ٦١ . وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ﴿لَقَالُوا۟﴾ أي: يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلّا أرسلتَ إلينا رسولاً[(١)].

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾. وقرئ: «نُذَلَّ وَنُخْزَى» على ما لم يُسَمَّ فاعله[(٢)].

وروى أبو سعيد الخدريّ قال: قال رسولُ الله ﷺ في الهالك في الفترة والمعتوه والمولود قال: «يقول الهالك في الفترة: لم يأتِني كتابٌ ولا رسول، ثم تلا: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية، ويقول المعتوه: ربِّ، لم تجعل لي عقلاً أعقِلُ به خيراً ولا شرًّا، ويقول المولود: ربِّ لم أُدرك العمل، فتُرفَع لهم نارٌ، فيقول لهم: رِدُوها وادخُلوها. قال: فيَرِدُها أو يدخلُها[(٣)] من كان في علم الله سعيداً لو أدرَك العمل، ويمسكُ عنها من كان في علم الله شقيًّا لو أدرك العمل، قال: فيقولُ الله تبارك وتعالى: إيَّاي عصيتُم، فكيف رُسلي لو أتتكم»[(٤)] ويروى موقوفاً عن أبي سعيدٍ قوله[(٥)]؛ وفيه نظر؛ وقد بيناه في كتاب «التذكرة»[(٦)]، وبه احتجَّ من قال: إنَّ الأطفالَ وغيرَهم يمتحنون في الآخرة.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٨ .

(٢) القراءات الشاذة ص٩١ عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية.

(٣) في (ظ): فيردونها ويدخلها.

(٤) أخرجه البزار (٢١٧٦ - كشف)، والطبري ١٦/ ٢١٩ ، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٢٧ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٣٨ : وفيه عطية، وهو ضعيف. وقال ابن عبد البر بعد ذكر أحاديث الباب: وهي كلها أسانيد ليست بالقوية، ولا يقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب؛ لأن الآخرة دار جزاء، وليست دار عمل ولا ابتلاء... الاستذكار ٨/ ٤٠٤ .

(٥) قال ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٢٨ : من الناس من يوقف هذا الحديث على أبي سعيد ولا يرفعه، منهم أبو نعيم المُلائي.

(٦) ص٥١٤ ، وينظر ما سلف ١٣/ ٤٤ .

«فَنَتَّبِعَ» نصب بجواب التحضيض[1]. «آياتِك» يريدُ: ما جاء به محمدٌ ﷺ. «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ» أي: في العذاب، «وَنَخْزَى» في جهنم؛ قاله ابن عباس. وقيل: «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ» في الدنيا بالعذاب، «ونَخْزَى» في الآخرة بعذابها.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: قل لهم يا محمد: كلٌّ مُتربِّصٌ، أي: كلٌّ المؤمنين والكافرين منتظرٌ دوائرَ الزمان ولمن يكون النصر.

﴿فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ يريد: الدين المستقيم والهدى؛ والمعنى: فستعلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق. وقيل: فستعلمون يومَ القيامة من اهتدى إلى طريق الجنَّة[2]. وفي هذا ضربٌ من الوعيد والتخويف والتهديد خَتَمَ به السورة.

وقُرِئ: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»[3]. قال أبو رافع: حَفِظتُه من رسول الله ﷺ؛ ذكره الزمخشريّ[4].

و«مَن» في موضع رفعٍ عند الزجاج[5]. وقال الفراء[6]: يجوزُ أنْ يكونَ في موضع نصبٍ مثل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. قال أبو إسحاق[7]: هذا خطأ؛ لأنَّ الاستفهامَ لا يعملُ فيه ما قبلَه، و«مَن» هاهنا استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، والمعنى: فستعلمون: أَأَصحابُ[8] الصراط السَّويِّ؛ نحن أم أنتم؟.

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ) و(ف) و(م): التخصيص، والمثبت من (خ).
(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٣٤، وفيه وفي (خ) و(ز): أهدى، بدل: اهتدى (في الموضعين).
(٣) في (د) و(ظ): يعلمون.
(٤) في الكشاف ٢/ ٥٦١، وهي قراءة شاذة.
(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦١ - ٦٢.
(٦) في معاني القرآن له ٢/ ١٩٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس
(٧) هو الزجّاج.
(٨) في (د) و(م): أصحاب، وفي (ف): من أصحاب.

قال النحاس[١]: والفراء يذهبُ إلى أنَّ معنى ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: مَن لم يضلَّ، وإلى أنَّ معنى ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: من ضلَّ ثم اهتدى.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وعاصم الجحدَريُّ: «فَسَتَعْلَمُونَ[٢] مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السُّوَّى» بتشديد الواو؛ بعدها ألفُ التأنيث على فُعْلَى بغير همزة، وتأنيثُ الصراط شاذٌّ قليل، قال الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، فجاء مذكراً في هذا وفي غيره، وقد ردَّ هذا أبو حاتم قال: إنْ كان من السُّوء وجب أنْ يُقال: السُّوءَى، وإن كان من السَّواء وجب أن يقال: السِّيَّا بكسر السين، والأصل: السِّوْيَا[٣].

قال الزمخشري: وقرئ: «السَّواءِ» بمعنى: الوَسَط والعدل، أو المستوِي[٤].

النحاس[٥]: وجوازُ قراءةِ يحيى بنِ يَعْمَر والجَحْدريِّ أن يكون الأصل «السُّوءَى»، والساكنُ ليس بحاجزٍ حَصِينٍ، فكأنه قَلَبَ[٦] الهمزة ضمةً، فأبدلَ منها واواً كما يُبدَلُ منها ألفٌ إذا انفتح ما قبلَها.

تمَّت، والحمد لله وحدَه.

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٦٢.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): فسيعلمون.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٢. وقراءة يحيى بن يعمر والجحدري ذكرها أيضاً أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٢.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٦٠، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٢ إلى أبي مجلز وعمران بن حدير.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٦٢.

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(ف): قبل، والمثبت من (م) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس، ووقعت العبارة في (ظ): فكأنه لما كان قبل الهمزة ضمة أبدل منها واو.

تفسير سورة طه

وهي مكية.

روى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب «التوحيد»، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الحِزَامي، حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، عن عمر بن حفص بن ذَكْوَان، عن مولى الحُرقة - يعني عبد الرحمن بن يعقوب ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا[(١)]، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم[(٢)] بهذا»[(٣)].

هذا حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تُكلِّم فيهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ﴾.

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبة[(٤)] الواسطي، حدثنا أبو أحمد - يعني: الزبيري ـ أنبأنا إسرائيل عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجل. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، [وعطاء][(٥)]، ومحمد بن كعب، وأبي مالك، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن أبزى أنهم قالوا: «طه» بمعنى: يا رجل.

وفي رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والثوري: أنها[(٦)] كلمة بالنبطية معناها: يا رجل. وقال أبو صالح هي مُعَرّبة.

وأسند القاضي عياض في كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هاشم بن

---

(١) في ف: «هذا عليهم». (٢) في أ: «تكلم».

(٣) التوحيد (ص ١٠٩) ورواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (٦٠٧) واللالكائي في شرح السنة برقم (٣٦٨) من طريق إبراهيم بن المنذر به.

قال ابن حبان: «هذا متن موضوع»، وقال ابن عدي: «لم أجد لإبراهيم ـ أي: ابن مهاجر ـ حديثًا أنكر من هذا؛ لأنه لا يرويه غيره».

(٤) في ف: «شيبة». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) في أ: «أنه».

www.besturdubooks.wordpress.com

[القاسم][(١)] عن ابن جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبى ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل اللّه تعالى ﴿طه﴾، يعنى: طأ الأرض يا محمد، ﴿مَا أنزلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾. ثم قال: ولا خفاء بما فى هذا من الإكرام وحسن [(٢)] المعاملة[(٣)].

وقوله ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ قال جُوَيبر، عن الضحاك: لما أنزل اللّه القرآن على رسوله، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل اللّه تعالى: ﴿طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ . إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه اللّه العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت فى الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من يُرد اللّه به خيراً يفقهه فى الدين»[(٤)].

وما أحسن الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى ذلك حيث قال:

حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا إبراهيم الطالقانى، حدثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سِمَاك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يقول اللّه تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قَعَد على كرسيه لقضاء عباده: إنى لم أجعل علمى وحكمتى فيكم[(٥)] إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالى»[(٦)].

إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا [هو الليثى][(٧)] ذكره أبو عمر فى استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب[(٨)].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: هى كقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم فى الصلاة.

وقال قتادة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: لا، واللّه ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة.

﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: إن اللّه أنزل كتابه، وبعث رسله[(٩)] رحمة، رحم بها العباد، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب اللّه، وهو ذكر أنزل اللّه فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَنزِيلاً[(١٠)] مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ أى: هذا القرآن الذى جاءك يا محمد

---

(١) زيادة من ف، أ، والشفا.
(٢) فى ف: «أو حسن»، وفى أ: «وأحسن».
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٦).
(٤) صحيح البخارى برقم (٧١) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٧).
(٥) فى ف: «علمى فيكم وحكمتى».
(٦) المعجم الكبير(٢/ ٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٢٦): «رجاله موثقون».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) الاستيعاب (١/ ٢٠٤).
(٩) فى أ: «رسوله».
(١٠) فى ف: «تنزيل».

www.besturdubooks.wordpress.com

[هو][١] تنزيل من [ربك][٢] رب كل شىء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذى خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى فى ارتفاعها ولطافتها. وقد جاء فى الحديث الذى صححه الترمذى وغيره. أن سُمْك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبُعْد ما بينها والتى[٣] تليها [مسيرة][٤] خمسمائة عام[٥].

وقد أورد[٦] ابن أبى حاتم ههنا حديث الأوعال[٧]، من رواية العباس عم رسول اللَّه ﷺ ورضى اللَّه عنه.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾: تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم فى[٨] ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ أى: الجميع ملكه وفى قبضته، وتحت تصريفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ قال محمد بن كعب: أى ما تحت الأرض السابعة.

وقال الأوزاعى: إن يحيى بن أبى كثير حدثه أن كعباً سُئِل فقيل له: ما تحت هذه الأرض؟ فقال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: صخرة. قيل: وما تحت الصخرة؟ قال: ملك. قيل: وما تحت الملك؟ قال: حوت معلق طرفاه بالعرش، قيل: وما تحت الحوت؟ قال: الهواء والظلمة وانقطع العلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد اللَّه ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عبد اللَّه بن عَيَّاش، حدثنا عبد اللَّه بن سليمان عن دَرَّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفى، عن عبد اللَّه بن عَمْرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الأرضين بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت، قد التقى طرفاه فى السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد الملك، والثانية سجن[٩] الريح، والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، والخامسة فيها حيات جهنم، والسادسة فيها عقارب جهنم، والسابعة فيها سَقَر، وفيها إبليس مُصَفَّد بالحديد، يد أمامه ويد خلفه،

(١، ٢) زيادة من ف، وفى أ: «يا محمد تنزيل من ربك». (٣) فى أ: «وبين التى».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٨) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».
(٦) فى ف: «روى».
(٧) سيأتى حديث الأوعال بطوله عند تفسير الآية: ٧ من سورة غافر.
(٨) فى أ: «من». (٩) فى أ: «مسجن».

www.besturdubooks.wordpress.com

فإذا أراد اللّه أن يطلقه لما يشاء أطلقه»[١] .

هذا حديث غريب جداً ورفعه فيه نظر.

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا أبو موسى الهروى، عن العباس بن الفضل [قال]:[٢] قلت: ابن الفضل الأنصارى؟ قال: نعم، [عن القاسم][٣] بن عبد الرحمن، عن محمد بن على، عن جابر بن عبد اللّه قال: كنت مع رسول اللّه ﷺ فى غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين فى حر شديد، فنحن متفرقون بين واحد واثنين، منتشرين، قال: وكنت فى أول العسكر: إذ عارضنا رجل فَسَلّم، ثم قال: أيكم محمد؟ ومضى أصحابى ووقفت معه، فإذا رسول اللّه ﷺ قد أقبل فى وسط العَسْكر على جمل أحمر، مُقَنَّع بثوبه على رأسه من الشمس، فقلت: أيها السائل، هذا رسول اللّه قد أتاك. فقال: أيهم هو؟ فقلت: صاحب البَكْر الأحمر. فدنا منه، فأخذ بخطام راحلته، فكف عليه رسول اللّه ﷺ، فقال[٤]: أنت محمد؟ قال: «نعم». قال: إنى أريد أن أسألك عن خصال، لا يعلمهن أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان، فقال رسول اللّه ﷺ: «سل عما شئت». فقال: يا محمد، أينام النبى؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، مِنْ أين يشبه الولد أباه وأمه؟ قال[٥]: «ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأىّ الماءين غلب على الآخر نزع الولد». فقال[٦]: صدقت. فقال: ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: «للرجل العظام والعروق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والشعر[٧]» قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، ما تحت هذه، يعنى الأرض؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «خلق». فقال: فما تحتهم؟ قال: «أرض». قال: فما تحت الأرض؟ قال: «الماء». قال: فما تحت الماء؟ قال: «ظلمة». قال: فما تحت الظلمة؟ قال: « الهواء». قال: فما تحت الهواء؟ قال: « الثرى». قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول اللّه ﷺ بالبكاء، وقال: «انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق، أيها السائل، ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فقال: صدقت، أشهد أنك رسول اللّه. فقال رسول اللّه ﷺ: «أيها الناس، هل تدرون من هذا؟» قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: «هذا جبريل ﷺ[٨] »[٩] .

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس يساوى شيئاً»، وضعفه أبو حاتم الرازى، وقال ابن عدى: لا يعرف .

---

(١) ورواه ابن منده فى كتاب التوحيد برقم (٦٣) من طريق حرملة بن يحيى عن عبد الله بن وهب بنحوه .

ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٩٤) من طريق بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب عن عبد الله بن عياش عن عبد الله بن سليمان، عن دراج عن أبى الهيثم عن عيسى بن هلال عن عبد الله بن عمرو بمثله، فزاد أبو الهيثم فى إسناده .

وقال: «صحيح ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى. قلت: «بلى منكر فيه عبد الله بن عياش ضعفه أبو داود وعند مسلم أنه: ثقة، ودراج وهو كثير المناكير» .

(٢) فى ف، أ: «ابن عباس» . (٣) زيادة من ف . (٤) فى ف: «قال» .

(٥) فى أ: «فقال» . (٦) فى ف، أ: «قال» . (٧) فى ف، أ: «والكبد» .

(٨) فى ف: «عليه السلام» .

(٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٥/ ٥٥٢) من حديث جابر رضى الله عنه .

www.besturdubooks.wordpress.com

قلت: وقد خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيء في شيء، وحديث في حديث. وقد يُحْتَمل أنه تَعَمَّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فاللَّه أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أى: أنزل هذا القرآن الذى خلق [الأرض والسموات العلى، الذى يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي][1] السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: ٦].

قال على بن أبى طلحة ،عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسرّ ابن آدم فى نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فاللَّه يعلم ذلك كله، فَعلْمه فيما مضى من ذلك وما بقى علْم واحد، وجميع الخلائق فى ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، واللَّه يعلم ما تسر اليوم، وما تسر غداً.

وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يعنى: الوسوسة.

وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير: ﴿وَأَخْفَى﴾ أى: ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه.

وقوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [أى: الذى أنزل القرآن عليك هو اللَّه الذى لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى][2] والصفات العلى.

وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة فى الأسماء الحسنى فى أواخر سورة «الأعراف» وللّه الحمد والمنة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠﴾.

من ههنا شَرَع، تبارك وتعالى، فى ذكر قصة موسى[عليه السلام][3]، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجَل الذى كان بينه وبين صهْره فى رعاية الغنم وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، فى برد وشتاء، وسحاب وظلام

---

(١) زيادة من ف.

(٢، ٣) زيادة من ف.

www.besturdubooks.wordpress.com

وضباب، وجعل يقدح بزند معه[١] ليُورىَ ناراً، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينا هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور ناراً، أى: ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أى: شهاب[٢] من نار. وفى الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وهى: الجمر الذى معه لهب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، دلّ على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دلّ على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى: من يهدينى الطريق، دلّ على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثورى، عن أبى سعد الأعور، عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهدينى إلى الطريق. وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهدينى إلى الطريق آتكم[٣] بنار توقدون بها.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أى: النار واقترب[٤] منها، ﴿نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال هاهنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أى: الذى يكلمك ويخاطبك، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال على بن أبى طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكىّ.

وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة.

قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل[٥] الكعبة.

وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل. وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادى.

وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان.

وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه.

(١) فى ف: «له». (٢) فى ف: «بشهاب». (٣) فى أ: «آتيتكم».
(٤) فى ف: «وقرب»، وفى أ: «واقرب». (٥) فى ف، أ: «أراد دخول».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقيل: لأنه قُدّس مرتين، وطوى له البركة وكررت: والأول أصح، كقوله[١]: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[النازعات: ١٦] .

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كقوله : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾[الأعراف: ١٤٤] أى: على جميع الناس منَ الموجودين فى زمانه.

و[قد][٢] قيل: إن اللَّه تعالى قال: ياموسى، أتدرى لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ [قال: لا. قال:][٣] لأنى لم يتواضع لى أحد تواضعك.

وقوله : ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أى: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾: هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك لـه.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أى: وحّدنى وَقُم بعبادتى من غير شريك، ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه: صَلِّ لتذكرنى. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لى .

ويشهد لهذا الثانى ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «إذا رَقَد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن اللَّه تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾»[٤] .

وفى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»[٥] .

وقوله : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أى: قائمة لا محالة، وكائنة لابد منها.

وقوله : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيى بن رافع.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيرى .

وقال السدى: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى اللَّه عنه علم الساعة، وهى فى قراءة ابن مسعود: «إنى أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: كتمتها من الخلائق، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسى لفعلت .

وقال قتادة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ وهى فى بعض القراءة أخفيها من نفسى، ولعمرى لقد أخفاها اللَّه من

---

(١) فى ف: «لقوله» . (٢، ٣) زيادة من ف، أ.
(٤) المسند (٣/ ١٨٤).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٩٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨٤).

www.besturdubooks.wordpress.com

الملائكة المقربين، ومن الأنبياء والمرسلين.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾[الأعراف: ١٨٧] أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة حدثنا منْجَاب، حدثنا أبو نُمَيْلة، حدثني محمد بن سهل الأسدي، عن وِقَاء قال: أقرأنيها سعيد بن جبير (أكاد أَخْفيها)، يعني: بنصب[١] الألف وخفض الفاء، يقول: أظهرها، ثم [قال][٢]: أما سمعت قول الشاعر[٣]:

دَأبَ شَهْرَين، ثم شهراً دَمِيكاً ... بأريكَين يَخْفيان غَميرًا

وقال الأسدي: الغَمير: نبت رطب، ينبت في خلال يبس. والأريكين: موضع، والدميك: الشهر التام. وهذا الشعر لكعب بن زهير.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أي: أقيمها لا محالة، لأجزي كل عامل بعمله، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧، ٨]، و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقوله: ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا [سبيل][٤] من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: تهلك وتعطب[٥] قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١].

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١)﴾.

هذا برهان من الله تعالى لموسى، عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دال[٦] على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له

---

(١) في أ: «ونصب». (٢) زيادة من ف.

(٣) هو كعب بن زهير، والبيت في ديوانه (ص١٧٤) أ.هـ مستفادا من حاشية الشعب.

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) في ف، أ: «وتردى أي هلك وعطب» وفي أ: «ردى».

(٦) في ف، أ: «باهرة دالة».

www.besturdubooks.wordpress.com

ذلك على وجه التقرير، أى: أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أى: أعتمد عليها فى حال المشى ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أى: أهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمى.

قال عبد الرحمن بن القاسم: عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المحْجَن فى الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثَمَره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يَخْبط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أى: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك.

وقد تكلف(١) بعضهم لذكر شىء من تلك المآرب التى أبهمت، فقيل: كانت تضىء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية(٢)، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم، عليه السلام. وقول الآخر: إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة. وروى عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ماشا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿[قَالَ](٣) أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ أى: هذه العصا التى فى يدك يا موسى، ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا(٤) فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أى: صارت فى الحال حَيَّة عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هى تهتز كأنها جان، وهو(٥) أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه فى غاية الكبر، وفى غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَى﴾ أى: تمشى وتضطرب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عَبْدَة، حدثنا حفص بن جُمَيْع، حدثنا سِمَاك، عن عكرمة، عن [ابن عباس](٦): ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾: ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها، فولى مدبراً، فنودى أن: ياموسى، خذها. فلم يأخذها، ثم نودى الثانية أن: خذها ولا تخف. فقيل له فى الثالثة: إنك من الآمنين. فأخذها.

وقال وهب بن مُنَبِّه فى قوله: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قال: فألقاها على وجه الأرض، ثم حانت نظرة فإذا أعظم(٧) ثعبان نظر إليه الناظرون، فَدَبّ يلتمس كأنه يبتغى شيئاً يريد أخْذَه، يمر بالصخرة مثل الخَلِفَة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المحْجَن منها عُرفاً. قيل: شعر مثل النيازك، وعاد الشعبتان منها مثل القَلِيب الواسع، فيه أضراس وأنياب، لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً ولم يُعَقِّب،

---

(١) فى أ: «تكلم». (٢) فى أ: «الإسرائيليات». (٣) زيادة من ف.
(٤) فى ف: «فألقيها». (٥) فى ف: «وهى». (٦) زيادة من ف.
(٧) فى ف: «بأعظم».

www.besturdubooks.wordpress.com

فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودى: يا موسى أنْ: ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا ﴾ بيمينك ﴿وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾، وعلى موسى حينئذ مدْرَعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك[1]: أرأيت ياموسى، لو أذن اللّه بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكنى ضعيف، ومن ضَعْف خلقت. فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية، حتى سمع حسّ الأضراس والأنياب، ثم قَبض فإذا هى عصاه التى عهدها، وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ أى: إلى حالها[2] التى تعرف قبل ذلك.

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ .

وهذا بُرهان ثان لموسى، عليه السلام، وهو أن اللّه أمره أن يدخل يده فى جيبه، كما صرح به فى الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وقال فى مكان آخر: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[القصص: ٣٢].

وقال مجاهد: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾: كفه تحت عضده .

وذلك أن موسى، عليه السلام، كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر .

وقوله: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى: من غير بَرَص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدى، وغيرهم.

وقال الحسن البصرى: أخرجها ـ واللّه ـ كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقى ربه عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ .

وقال وهب: قال له ربه: ادْنُهْ: فلم يزل يدنيه حتى شدّ ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده فى العصا، وخضع برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أى: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذى خَرَجت فاراً منه

(١) فى ف: «مالك» . (٢) فى ف: «حالتها» .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهارباً، فادعه إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، ومره فَلْيُحْسِن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى.

قال وهب بن مُنَبِّه: قال اللَّه لموسى: انطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى، وإنى[1] معك أيدى ونَصْرى، وإنى قد ألبستك جُنَّةً من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى، فأنت جند عظيم من جندى، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى، بطر نعمتى، وأمن مكرى، وغرته الدنيا عنى، حتى جَحَد حقى، وأنكر ربوبيتى، وزعم أنه لا يعرفنى، فإنى أقسم بعزتى، لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان علىّ ،وسقط من عينى، ووسعه حلمى، واستغنيت بما عندى، وحقى إنى أنا الغنىّ لا غنىّ غيرى، فبلغه رسالتى، وادعه إلى عبادتى وتوحيدى وإخلاصى، وذكره أيامى[2]، وحذره نقمتى وبأسى، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبى، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وخَبِرّه[3] أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدى، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى. وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمائة سنة، فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تسبه وتتمثل به وتصدً عباده عن سبيله وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، [و][4] لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر [ولم تغلب][5] ولو شاء أن يعَجِّل لك العقوبة لفعل، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم. وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده[6]. فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة ـ ولا قليل منى ـ تغلب الفئة الكثيرة بإذنى، ولا تعجبنكما[7] زينته، ولا ما متّع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما، فإنها زهر[8] الحياة الدنيا، وزينة المترفين. ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة، ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما، فعلت، ولكنى أرغب بكما عن ذلك، وأزويه عنكما. وكذلك أفعل بأوليائى، وقديماً ما جرت عادتى فى ذلك، فإنى لأذودُهم عن نعيمها ورخائها، كما يذود الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذاك لهوانهم علىّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً لم تكْلَمْه الدنيا.

واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ مما[9] عندى من الزهد فى الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يُعْرَفون به من السكينة والخشوع، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائى حقاً حقاً، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل قلبك ولسانك، واعلم أنه من أهان لى

---

(١) فى ف: «وإن». (٢) فى أ: «وذكره. آياتى». (٣) فى ف: «وأخبره».
(٤) زيادة من ف. (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «وإنما يحتسب أن يجاهده».
(٧) فى ف، أ: «يعجبكما». (٨) فى ف، أ: «زهرة». (٩) فى ف، أ «فيما».

www.besturdubooks.wordpress.com

ولياً أو أخافه، فقد بارزنى بالمحاربة، وبادأنى وعرض لى نفسه ودعانى إليها، وأنا أسرع شىء إلى نصرة أوليائى، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى، أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى، أم[١] يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى. وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ مضطرهم[٢] إلى غيرى.

رواه ابن أبى حاتم.

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى. وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾: هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم. بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف اللَّه، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره.

هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليداً عندهم، فى حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى اللَّه عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى. وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى﴾ أى: إن لم تكن أنت عونى ونصيرى، وعضدى وظهيرى، وإلا فلا طاقة لى بذلك.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُوا قَوْلِى﴾، وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتى بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث[٣] يزول العى، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال اللَّه تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أى: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى.

وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقال ابن أبى حاتم: ذُكِرَ عن عَمْرو بن عثمان، حدثنا بَقِيّة، عن أرطاة بن المنذر، حدثنى بعض أصحاب محمد بن كعب، عنه قال: أتاه ذو قرابة له. فقال له: ما بك بأس لولا أنك تلحن فى كلامك، ولست تعرب فى قراءتك؟ فقال القرظى: يا بن أخى، ألست أفهمك إذا حدثتك[٤]؟. قال:

---

(١) فى أ: «أو».   (٢) فى ف، أ : «نصرتهم».   (٣) فى أ: «بحيث ما».
(٤) فى أ : «حدثت».

www.besturdubooks.wordpress.com

نعم. قال: فإن موسى، عليه السلام، إنما سأل ربه أن يحل[١] عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه، ولم يزد عليها. هذا لفظه.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي﴾: وهذا أيضاً سؤال من موسى فى أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له.

قال الثورى، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فَنُبِّئَ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى، عليهما السلام.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن ابن نُمَير، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة[٢]، عن أبيه، عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أيّ أخ كان فى الدنيا[٣] أنفع لأخيه؟ قالوا: ما ندرى. قال: والله أنا أدرى[٤]. قالت: فقلت فى نفسى: فى حلفه لا يستثنى، إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه. قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة. فقلت: صدق والله. قلت: وفى[٥] هذا قال الله تعالى فى الثناء على موسى، عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهرى ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أى: فى مشاورتى، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائما وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أى: فى اصطفائك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (٤٠)﴾.

هذه[٦] إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير[٧] له بنعمه السالفة عليه، فيما كان ألهم أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد فى السنة التى يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتاً، فكانت[٨] ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله فى البحر ـ وهو النيل ـ وتمسكه إلى منزلها بحبل فذهبت مرة لتربطه[٩] فانفلت منها

(١) فى ف، أ: «يحلل». (٢) فى أ: «هشام بن عون». (٣) فى ف، أ: «فى الدنيا كان».
(٤) فى ف: «أنا والله أدرى». (٥) فى أ: «ومن». (٦) فى ف، أ: «هذا».
(٧) فى ف، أ: «وتذكيراً» (٨) فى ف، أ: «وكانت». (٩) فى ف، أ: «لتربط الحبل».

www.besturdubooks.wordpress.com

وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره اللَّه عنها فى قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أى قدراً مقدوراً[١] من اللَّه، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان[٢] من بنى إسرائيل، حذراً من وجود موسى، فحكم اللهـ وله السلطان العظيم، والقدرة التامة ـ ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [أى: عند عدوك، جعلته يحبك.

قال سلمة بن كهيل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾][٣] قال: حببتك إلى عبادى.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ قال أبو عمران الجونى: تربى بعين اللَّه.

وقال قتادة: تغذى على عينى.

وقال معمر بن المثنى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ بحيث أرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى أجعله فى بيت الملك ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأباها، قال اللَّه عز وجل: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجات أخته وقالت[٤]: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. تعنى[٥]: هل أدلكم على من ترضعه[٦] لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة فى الدنيا وفى الآخرة[٧] أغنم وأجزل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «مثل الصانع الذى يحتسب[٨] فى صنعته الخير، كمثل أم موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها»[٩].

وقال تعالى هاهنا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أى: عليك، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعنى: القبطى، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾: وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله[١٠]، ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى، رحمه اللَّه، فى كتاب التفسير من سننه، قوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾:

---

(١) فى أ: «أى قدراً مقدراً». (٢) فى أ: «العلماء». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف، أ: «فقالت». (٥) فى ف، أ: «يعنى». (٦) فى ف: «يرضعه».
(٧) فى أ: «الأخرى». (٨) فى ف، أ: «يحسب».
(٩) روى أبو داود فى المراسيل برقم (٣٣٢) من طريق جبير بن نفير نحوه ولفظه «مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل ويتقوون على عدوهم به مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».
(١٠) فى ف: «آل فرعون ليقتلوه» وفى أ: «ليقتله».

www.besturdubooks.wordpress.com

حديث الفتون

حدثنا عبد اللَّه بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبى أيوب، أخبرنى سعيد بن جبير، قال: سألت عبد اللَّه بن عباس عن قول اللَّه، عز وجل، لموسى، عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا بن جبير، فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى[1] ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم، عليه السلام[2]، أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك، ما [3] يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون فى بنى إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفنوا بنى إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى[4] كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، فيقل أبناؤهم[5]، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثروا[6] بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى، عليه السلام، فوقع فى قلبها الهَمّ والحزن، وذلك من الفتون ـ يا بن جبير ـ ما دخل عليه فى بطن أمه، مما يراد به، فأوحى اللَّه [جل ذكره][7] إليها أن: ﴿لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه[8] فى اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنُها أتاها الشيطان، فقالت فى نفسها: ما فعلت بابنى، لو ذبح عندى فواريته وكفنته، كان أحب إلىّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْضَة مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن[9]: إن فى هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى رفعنه[10] إليها. فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى عليه منها[11] محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شىء، إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يابن

---

(١) فى ف، أ: «على».
(٢) فى ف، أ: «ﷺ».
(٣) فى ف: «ما كانوا».
(٤) فى أ: «الذى».
(٥) فى أ: «بناتهم».
(٦) فى أ: «يكبروا».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «وتلقيه».
(٩) فى أ: « بعضهم».
(١٠) فى ف، أ: «دفعنه».
(١١) فى ف، أ: « عليها منه».

www.besturdubooks.wordpress.com

جبير، فقالت لهم: أقروه ،فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أَلُمْكُم.

فأتت فرعون فقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص:٩] فقال فرعون: يكون لك، فأما لى فلا حاجة لى فيه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «والذى يُحْلَف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له[(١)]، كما أقرت امرأته، لهداه اللَّه كما هداها، ولكن [(٢)] حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهاً، فقالت لأخته: قصى أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، أحىّ ابنى أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان اللَّه وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون ـ والجُنُب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد[(٣)]، وهو إلى جنبه[(٤)]، وهو لا يشعر به ـ فقالت من الفرح حين أعياهم الظُّؤُرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه[(٥)]؟ حتى شكوا فى ذلك، وذلك من الفتون يابن جبير. فقالت: نصحهم[(٦)] له وشفقتهم عليه رغبتهم فى ظؤرة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها[(٧)]، فأخبرتها الخبر. فجاءت أمه، فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصَّه، حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها. فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثى ترضعى ابنى هذا، فإنى لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى، فيكون معى لا آلوه خيراً [فعلت، وإلا][(٨)] فإنى غير تاركة بيتى وولدى. وذكرت أم موسى ما كان اللَّه وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن اللَّه منجز وعده[(٩)]، فرجعت به إلى بيتها من يومها، [وأنبته][(١٠)] اللَّه نباتاً حسناً وحفظه[(١١)] لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل، وهم فى ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أتريني[(١٢)] ابنى؟ فَوَعَدَتْها يوماً [(١٣)] تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظُؤُرها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك[(١٤)]، وأنا باعثة أميناً يحصى[(١٥)] ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل

---

(١) في ف، أ : « أن يكون له قرة عين».
(٢) فى أ: «ولكن الله حرمه».
(٣) فى ف، أ: «الشىء البعيد».
(٤) فى ف، أ : «ناحية».
(٥) فى ف، أ: «تعرفونه».
(٦) فى ف، أ: «نصيحتهم».
(٧) فى ف، أ: « أمه».
(٨) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٩) فى ف، أ: «موعوده».
(١٠) فى ف: «فانبته».
(١١) فى أ: «حفظ».
(١٢) فى أ: «تربنى».
(١٣) فى أ: «يوما أن».
(١٤) فى أ: «ذلك فيه».
(١٥) فى ف: «يحصى كل».

www.besturdubooks.wordpress.com

والكرامة[١] تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته[٢] وأكرمته، وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فَلَيَنْحَلَنَّه[٣] وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله فى حجره، فتناول موسى لحية فرعون يمدها[٤] إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء اللَّه لفرعون: ألا ترى ما وعد اللَّه إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به، وأريد به [٥].

فجاءت امرأة فرعون فقالت[٦]: ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى؟ فقال[٧]: ألا ترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى! فقالت: اجعل بينى وبينك أمراً يعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين، فَقَرِبْهُنَّ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين[٨] واجتنب الجمرتين فاعرف[٩] أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه اللَّه عنه بعد ما كان قد همّ به، وكان اللَّه بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى، عليه السلام، يمشى فى ناحية المدينة، إذا[١٠] هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلى، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى، فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته[١١] من بنى إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون اللَّه[سبحانه][١٢] أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز[١٣] موسى الفرعونى فقتله، وليس يراهما أحد إلا اللَّه عز وجل والإسرائيلى، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾ [القصص: ١٥]. ثم قال: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [القصص: ١٦] فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا[١٤] ولا ترخص لهم. فقال: ابغونى قاتله، ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صَغْوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا[١٥] يجدون ثبتاً، إذا بموسى[١٦] من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذى رأى، فغضب الإسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى، فقال:

---

(١) فى ف: «والكرامة والنحل». (٢) فى أ: «بجلته». (٣) فى أ: «فليبجلنه».
(٤) فى ف، أ: «فمدها». (٥) فى ف، أ: «به فتونا». (٦) فى أ: «فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت».
(٧) فى ف: «فقالت». (٨) فى ف: «باللؤلؤ». (٩) فى أ: «فعرفت».
(١٠) فى ف: «إذ». (١١) فى ف: «منزله». (١٢) زيادة من أ.
(١٣) فى ف، أ: «فوكزه». (١٤) فى ف، أ: «بحقك». (١٥) فى ف: «لا».
(١٦) فى ف: «موسى».

www.besturdubooks.wordpress.com

للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨] أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعونى. فخاف الإسرائيلى وقال: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾ [القصص:١٩] وإنما قاله[1] مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا، وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى ،وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره[2] . وذلك من الفتون يابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٢، ٢٣] يعنى بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا[3] :ليس لنا قوة نزاحم القوم، إنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف فى الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا[4] بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، عليه السلام، فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفَّلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢٥]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا فى مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ وما أمانته؟ فقالت: أما قوته، فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلىّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه، حتى بلغته رسالتك. ثم قال لى: امشى خلفى، وانعتى لى الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدقها، وظن به الذى قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص:٢٧] ففعل فكانت على نبى اللَّه موسى ثمانى سنين واجبة، وكانت سنتان عدة منه، فقضى اللَّه عنه عدته فأتمها عشراً.

قال سعيد ـ وهو ابن جبير ـ : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدرى أىّ

(١) فى ف ، أ: «قال له». (٢) فى ف، أ: «فأخبره الخبر». (٣) فى ف: «فقالتا».
(٤) فى ف: «وانصرفتا».

www.besturdubooks.wordpress.com

الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذ لا أدرى. فلقيت ابن عباس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبى اللَّه واجبة، لم يكن لنبى اللَّه أن ينقص[١] منها شيئاً، ويعلم أن اللَّه كان قاضياً عن موسى عدته التى وعده فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك، فقال: الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص اللَّه عليك فى القرآن، فشكا إلى اللَّه تعالى[٢] ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءاً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فآتاه اللَّه سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى اللَّه إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون، عليهما[٣] السلام. فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿**إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ**﴾ [طه:٤٧]. قال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذى قص اللَّه عليك فى القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل، فاعتذر بما قد سمعت. قال: أريد أن تؤمن باللَّه، وترسل معى بنى إسرائيل؟ فأبى عليه وقال: ﴿ **فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فألقى عصاه [فإذا هى][٤] حية تسعى عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ـ يعنى من غير برص ـ ثم ردها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا[٥] له: هذان ساحران ﴿ **يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى**﴾ [طه:٦٣]، يعنى: ملكهم الذى هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة[٦]، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى[٧] المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا واللَّه ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل. وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى وخاصتى، وأنا صانع إليكم كل شىء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثنى ابن عباس: أن يوم الزينة الذى أظهر اللَّه فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا فى صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، ﴿ **لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**﴾ [الشعراء: ٤٠]، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى ـ لقُدْرتهم بسحرهم ـ ﴿ **إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ**﴾ [الأعراف: ١١٥]، ﴿**قَالَ بَلْ أَلْقُوا**﴾ [طه: ٦٦]، ﴿**فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٤٤] فرأى

---

(١) فى ف: « نبى الله ﷺ لينقص». (٢) فى ف، أ: «الله سبحانه». (٣) فى ف: «عليه».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف: «فقالا». (٦) فى ف: «اجمع السحرة لهما».
(٧) فى ف، أ: «فى».

www.besturdubooks.wordpress.com

موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة فأوحى اللَّه إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جَزَراً إلى الثعبان، تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا ولا حبالاً[١] إلا ابتلعته، فلما عرفت[٢] السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من اللَّه عز وجل، آمنا باللَّه[٣] وبما جاء به موسى، ونتوب إلى اللَّه مما كنا عليه. فكسر اللَّه ظهر فرعون فى ذلك[٤] الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وامرأة فرعون بارزة متبذلة[٥] تدعو اللَّه بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟. فأرسل اللَّه على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويواثقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف موعده، ونكث عهده.

حتى أمر اللَّه موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى اللّه إلى البحر: إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقى بَعْدُ من فرعون وأشياعه. فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قَصِيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً للّه.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال وعدنى[٦] أن إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة، حتى أجاوزه. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. قد رأيتم من العِبَر وسمعتم ما يكفيكم ومضى. فأنزلهم موسى منزلاً وقال[٧]: أطيعوا هارون، فإنى قد استخلفته عليكم، فإنى ذاهب إلى ربى. وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد

---

(١) فى ف، أ: «حبلا». (٢) فى ف: «عرف» وفى أ: «علم». (٣) فى أ: «به».
(٤) فى ف، أ: «هذا». (٥) فى ف: «مبتذلة». (٦) فى ف: «وعدنى ربى».
(٧) فى ف، أ: «وقال لهم».

www.besturdubooks.wordpress.com

أن يكلمه فى ثلاثين يوماً وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذى كان، قال: يارب، إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشراً ثم ائتنى. ففعل موسى، عليه السلام، ما أمر[1] به، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل، ساءهم ذلك. وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا[2] أرى أنكم تحتسبون[3] ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادّين إليهم شيئاً[4] من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال[5]: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر، جيران لبنى إسرائيل ولم يكن من بنى إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا، فقضى له أن رأى أثراً فقبض[6] منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون، عليه السلام: يا سامرى، ألا تلقى ما فى يدك؟ وهو قابض عليه، لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشىء إلا أن تدعو اللَّه إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً. فاجتمع ما كان فى الحفيره من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف. ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا واللَّه، ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل فى[7] دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامرى ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: **﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾**[طه: ٩٠]. قالوا[8]: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت؟ وقال[9] سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه.

فلما كلم اللَّه موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقى قومه من بعده، **﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾** [طه: ٨٦]، فقال لهم ما سمعتم فى القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى

---

(١) فى ف، أ: «أمره». (٢) فى ف: «وإنى». (٣) فى ف: «تحتسبوا».
(٤) فى ف: «شيئا إليهم». (٥) فى ف: «وقال». (٦) فى ف، أ: «فأخذ».
(٧) فى ف، أ: «من». (٨) فى أ: «هكذا قالوا». (٩) فى ف: «فقال».

www.besturdubooks.wordpress.com

الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له وانصرف[١] إلى السامرى فقال له: ما حملك على ماصنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها[٢] وعُمّيت عليكم فقذفتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي . قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك، لا يألو الخير، خيارَ بنى إسرائيل، ومن لم يشرك فى العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبى اللَّه من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطلع الله منه[٣] على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومى، فقلت: إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى، هلا أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم[٤] مَنْ لقى من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا[٥] يبالى من قتل فى ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون واطلع اللَّه من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر اللَّه للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى، عليه السلام[٦]، متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يُقِرّوا بها، فنتق اللَّه عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خَلْقُهُم خَلْق منكر ـ وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها ـ فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يُخَافُون ـ قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين، آمنا بموسى، وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا مَنَعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ـ ويقول أناس: إنهم[٧] من قوم موسى. فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: ﴿[قَالُوا][٨] يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى

(١) فى ف: «فانصرف». (٢) فى ف: «إليها». (٣) فى ف: « الله اطلع منه».
(٤) فى ف: «منهم كل». (٥) فى ف: «لا». (٦) فى ف، أ: «ﷺ».
(٧) فى ف، أ: «إنهما». (٨) زيادة من أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب اللّه له وسماهم كما سماهم[١] فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون، ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم[٢] حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه. فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فى كل ناحية ثلاث[٣] أعين، وأعلم كل سِبْط عينهم[٤] التى يشربون منها، فلا يرتحلون من مَنْقَلَة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ، وصَدَّق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث[٥] هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل، فقال: كيف يُفْشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك؟. فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول اللّه ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعونى، بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد على ذلك وحضره.

هكذا رواه الإمام النسائى فى السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما[٦]، كلهم من حديث يزيد بن هارون به[٧]، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، رضى اللّه عنه[٨]، مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، واللّه أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً.

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾.

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً فى أهل «مدين» فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر اللّه وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله للّه[٩] تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: **﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ [يَا مُوسَىٰ][١٠] ﴾** قال مجاهد: أى على موعد.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: **﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾** قال: على قدر

(١) فى ف، أ: «كما سماهم موسى».
(٢) فى ف: « أظهرهم».
(٣) فى ف: «ثلاثة».
(٤) فى أ: « منهم» .
(٥) فى أ: «حدث».
(٦) فى أ: « فى تفسيرهما».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٢٦) وتفسير الطبرى (١٦/ ١٢٥) .
(٨) فى ف، أ: «عنهما» .
(٩) فى ف: «له».
(١٠) زيادة من ف، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

الرسالة والنبوّة.

وقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أى: اصطفيتك واجتبيتك رَسُولاً لنفسى، أى: كما أريد وأشاء.

وقال البخارى عند تفسيرها: حدثنا الصَّلْتُ بن محمد، حدثنا مهدىّ بن ميمون، حدثنا محمد ابن سِيرين عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذى اصطفاك اللَّه برسالته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدتَه قد كتب عَلَىّ قبل أن يخلقنى؟ قال: نعم. فحَجّ آدم موسى» أخرجاه[(١)] .

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أى: بحُجَجى وبراهينى ومعجزاتى ، ﴿وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس: لا تُبْطئا.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضْعُفا.

والمراد أنهما لا يفتران فى ذكر اللَّه، بل يذكران اللَّه فى حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ اللَّه عوناً لهما عليه، وقوّة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء فى الحديث: «إن عبدى كل عبدى للذى[(٢)] يذكرنى وهو مُنَاجِز قِرْنه»[(٣)] .

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، أى: تمرّد وعتا وتَجَهْرم على اللَّه وعصاه ، ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة اللَّه من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشى عند قوله : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ : يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

وقال وهب بن مُنَبه: قولا له: إنى إلى العفو والمغفرة أقربُ منى إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة فى قوله : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾، قال: لا إله إلا اللَّه، وقال[(٤)] عمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾: أعْذرا إليه، قولا له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً.

وقال بقيَّة، عن على بن هارون، عن رجل، عن الضحاك بن مُزَاحم، عن النَّزَّال بن سَبْرَة، عن على فى قوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ قال: كَنِّه.

وكذا روى عن سفيان الثورى: كَنّه بأبى مُرَّة.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٦) .

(٢) فى أ: «الذى» .

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة رضى الله عنه .

وقال: الترمذى «هذا حديث غريب ولانعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى».

(٤) فى أ: «وعن» .

www.besturdubooks.wordpress.com

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية [النحل: ١٢٥] .

[قوله][1]: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أى: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أى: يُوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: «لمن أراد أن يذكر أو يخشى»[2] فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

وقال الحسن البصرى[فى قوله][3] : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهْلكه قبل أن أعذر[4] إليه.

وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل ،ويروى لأمَيّة بن أبى الصَّلْت فيما ذكره ابن إسحاق:

وأنت الذى من فضل مَنٍّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له يا اذهب وهارون فادعُوَا ... إلى اللّه فرعون الذى كان باغيا
فقولا له هل أنت سوّيت هذه ... بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آأنت رَفَّعت هذه ... بلا عمد؟ أرفق إذن بك بانيا
وقولا له آأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جَنَّه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرةً ... فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رؤوسه[5] ... ففى ذاك آيات لمن كان واعيا[6]

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرين باللّه تعالى شاكيَيْن

(١) زيادة من ف، وفى أ: «وقوله» .
(٢) هكذا في كل النسخ، وليست آية .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ف: «تعذرا»، وفى أ: «يعذر» .
(٥) فى أ: «دويبة».
(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨) .

www.besturdubooks.wordpress.com

إليه: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾، يعنيان أن يَبْدُر إليهما بعقوبة، أو يعتدى عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿ أَن يَفْرُطَ ﴾: يَعْجَل.

وقال مجاهد: يبسط علينا.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾: يعتدى.

﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أى: لا تخافا منه، فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علىّ من أمركم شىء، واعلما أن ناصيته بيدى، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى وبعد أمرى، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى عبيدة، عن عبد اللَّه قال: لما بعث اللَّهُ عَزّ وجل موسى إلى فرعون قال: رب، أىّ شىء أقول؟ قال: قل: هيا شراهيا. قال الأعمش: فَسَّرَ ذلك: الحى قبل كل شىء، والحى بعد كل شىء .

إسناد جيد، وشىء غريب .

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾، قد تقدم فى حديث «الفتون» عن ابن عباس أنه قال: مكثا[١] على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار: أن موسى وأخاه هارون خرجا، فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: إنا رسل[٢] رب العالمين، فآذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغنى سنتين يَغْدوان ويروحان، لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما، حتى دخل عليه بَطَّال له يلاعبه ويُضْحكه، فقال له: أيها الملك، إن على بابك رجلاً يقول قولاً عجيباً، يزعم أن له إلهاً[٣] غيرك أرسله إليك. قال: ببابى؟ قال: نعم. قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفى يده عصاه، فلما وقف على فرعون قال: إنى رسول رب العالمين. فعرفه فرعون.

وذكر السّدّى أنه لما قدم بلاد مصر، ضاف أمّه وأخاه وهما لا يعرفانه، وكان طعامهما[٤] ليلتئذ الطعثلل[٥] وهو اللفت، ثم عرفاه وسلما عليه، فقال له موسى: يا هارون، إن ربى قد أمرنى أن آتى هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى اللَّه، وأمر[٦] أن تعاوننى. قال: افعل ما أمرك ربك. فذهبا، وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى باب القصر بعصاه، فسمع فرعون فغضب وقال[٧]: من يجترئ على هذا

---

(١) فى ف: «عن ابن عباس أنهما مكثا فى بابه»، وفى أ: «عن ابن عباس أنه قال: مكثا فى بابه».
(٢) فى أ: «رسول». (٣) فى أ: «أن له إله» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.
(٤) فى أ: «وكان طعامهم». (٥) فى أ: «الطفسل» .
(٦) في ف، أ: «وأمرك» . (٧) فى ف، أ: «فقال» .

www.besturdubooks.wordpress.com

الصنيع؟ فأخبره السدنة والبوابون[١] بأن ههنا رجلاً مجنوناً يقول: إنه رسول اللَّه. فقال: علىّ به. فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر[٢] اللَّه فى كتابه .

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: بدلالة ومعجزة مـن ربك، ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أى: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

ولهذا لما كتب رسول اللَّه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم [كتاباً، كان أوله: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللَّه إلى هرقل عظيم الروم][٣] سلام على من اتبع الهدى. أما بعد،[فإنى أدعوك بدعاية الإسلام][٤] فأسلم تسلم يؤتك اللَّه أجرك مرتين» .

وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول اللَّه ﷺ كتاباً صُورَتُه: «من مسيلمة رسول اللَّه إلى محمد رسول اللَّه ،سلام عليك. أما بعد، فإنى قد أشركت[٥] فى الأمر مَعَكَ، فلك المدر[٦] ولى الوَبَر، ولكن قريش[٧] قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[٨] .

ولهذا قال موسى وهارون، عليهما السلام، لفرعون: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أى: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحى المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى :﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات ٣٧ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ . لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى .الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ .وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] . أى : كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنسَى (٥٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى منكرًا وجود الصانع الخالق، إله كل شىء وربه ومليكه، قال :﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ ، أى: الذى بعثك وأرسلك مَنْ هو؟ فإنى لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيرى، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: خلق لكل شىء زَوْجة.

(١) فى أ: «والبوابين» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه، .
(٢) فى ف: «ذكره» . (٣، ٤) زيادة من ف، أ .
(٥) فى ف، أ: «اشتركت» . (٦) فى أ: «فلك الدر». (٧) فى ف، أ: «قريشًا» .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠٠) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال الضحاك عن ابن عباس: جعل الإنسان إنسانًا، والحمار حمارًا، والشاة شاةً.

وقال ليث بن أبى سُلَيم، عن مجاهد: أعطى كل شىء صورته.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: سَوّى خلق كل دابة.

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، قال: أعطى كل ذى خَلْق ما يصلحه من خَلْقه، ولم يجعل للإنسان من خَلْق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب[1] من خلق الشاة، وأعطى كل[2] شىء ما ينبغى له من النكاح، وهيّأ كلّ شىء على ذلك، ليس شىء منها يشبه شيئًا من أفعاله[3] فى الخَلْق والرزق والنكاح.

وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] أى: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، أى: كَتَب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذى خلق [الخلق][4]، وقدر القَدَر، وجَبَل الخليقة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾: أصح الأقوال فى معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أى: الذين لم يعبدوا الله، أى: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك[5]، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى فى جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم[6] عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم فى كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أى: لا يشذ عنه[7] شىء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا. يصف علمه تعالى بأنه بكل شىء محيط، وأنه لا ينسى شيئًا، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان[8] أحدهما: عدم الإحاطة بالشىء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾.

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، عز وجل، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

(١) فى أ: «ولا للخلق».
(٢) فى ف، أ: «كل ذى».
(٣) فى ف: «من فعاله».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ف، أ: «لم يعبدوه».
(٦) فى ف، أ: «علمهم».
(٧) فى ف: «عليه».
(٨) فى ف، أ: «نقصان».

www.besturdubooks.wordpress.com

مِهَادًا﴾، وفى قراءة بعضهم: «مهداً» أى: قراراً تستقرون[١] عليها وتقومون وتنامون عليها[٢] وتسافرون[٣] على ظهرها، ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى: جعل لكم طرقا تمشون فى مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أى: [من][٤] ألوان النباتات من زروع، وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع.

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ أى: شىء لطعامكم وفاكهتكم، وشىء لأنعامكم لأقواتها خضرا ويابسًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أى :لدلالات وحججا[٥] وبراهين ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أى: لذوى العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أى: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أى: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وفى الحديث الذى فى السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ثم قال[٦]: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ثم [أخذ][٧] أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾. ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾، يعنى: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفراً وعناداً وبغيًا، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهى إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيما ونزع يده من تحت جناحه فخرجت[٨] بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحرًا مثل

---

(١) فى ف: «يستقرون». (٢) فى ف: «ويقومون وينامون عليها». (٣) فى ف: «ويسافرون».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «وحجج» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه. (٦) فى أ، : «وقال».
(٧) زيادة من ، ف، أ. (٨) فى أ: «فتخرج».

www.besturdubooks.wordpress.com

سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونَوروزُهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ﴾ أى: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أى: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بيّن، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهارًا ضحى.

قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء.

وقال السدى، وقتاده، وابن زيد: كان يوم عيدهم.

وقال سعيد بن جبير: يوم سوقهم.

ولا منافاة. قلت: وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت فى الصحيح.

وقال وهب بن مُنَبِّه: قال فرعون: يا موسى، اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى: لم أومر بهذا، إنما أمرت بمناجزتك، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً وقل له أن يجعل هو. قال فرعون: اجعله إلى أربعين يومًا. ففعل.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿ مَكَانًا سُوًى[1]﴾: مَنْصَفًا. وقال السدى: عدلا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ مَكَانًا سُوًى﴾ [مستوى][2] يتبين الناس ما[3] فيه، لا يكون صَوَب[4] ولا شىء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستوٍ حتى[5] يُرى.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى[6]، عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أى: شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب[7] إلى سحر فى ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

(١) فى أ: «سويا».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى أ: «وما».
(٤) فى أ: «ولاصوت».
(٥) فى ف، أ: «مستوى».
(٦) فى أ: «تواعد هو وموسى».
(٧) فى أ: «كل من يسب».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أى: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدى فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ[1] إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ[2] لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: لا تُخيِّلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أى: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبى. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾أى: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إِنْ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة فى الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون[3] أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون: موسى وهارون ـ ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أى: ويستبدا بهذه الطريقة، وهى السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون[4]: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم.

وقد تقدم فى حديث الفتون عن[5] ابن عباس [قال][6] فى قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ يعنى: ملكهم الذى هم فيه والعيش.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبى يحدث عن على فى قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: يصرفا[7] وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: أولى الشرف والعقل والأسنان.

وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عددًا وأموالاً، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما.

(١) فى ف: «إنكم». (٢) فى أ: «فقال». (٣) فى ف، أ: «يعلمون».
(٤) فى ف: «يقولان». (٥) فى ف، أ: «أن». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف، أ: «يصرفان».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾، بالذى أنتم عليه.

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴾ أى اجتمعوا كلكم[١] صفًا واحدًا، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ أى: منا ومنه، أما نحن فقد وَعَدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ(٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى، عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ أى: أنت أولاً ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أى: أنتم أولاً ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾. وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا[٢] أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال هاهنا ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ .

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر[٣] أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًا غفيرًا وجمعًا كبيرًا[٤]، فألقى كل منهم عصا وحبلا، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضًا.

وقوله ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أى خاف على الناس أن يَفْتَتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه، فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعنى: عصاه، فإذا هى ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ وذلك أنها صارت تنّينًا[٥] عظيمًا هائلاً ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق[٦] منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرة، نهارًا ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون[٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن موسى الشيبانى[٨]، حدثنا حماد بن خالد، حدثنا ابن معاذ ـ أحسبه الصائغ ـ عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله البجلى قال: قال رسول الله

---

(١) في أ: «كلهم».
(٢) فى ف: «فسحروا».
(٣) فى ف، أ: «للناظرين».
(٤) فى ف، أ: «كثيرًا».
(٥) فى ف، أ: «ثعبانًا».
(٦) فى ف: «لم يبق».
(٧) فى ف، أ : «ووقع الحق وبطل السحر».
(٨) فى ف: «ابن الشيبانى».

www.besturdubooks.wordpress.com

ﷺ «إذا أخذتم ـ يعنى: الساحر ـ فاقتلوه»، ثم قرأ: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: « لا يؤمن به حيث وجد».

وقد روى أصله الترمذى موقوفًا ومرفوعًا(١).

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشىء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله وقالوا: ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النهار سحرة، وفى آخر النهار شهداء بررة.

قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفًا، وقال القاسم بن أبى بَزَّة: كانوا سبعين ألفًا.

وقال السدى: بضعة وثلاثين ألفًا.

وقال الثورى: عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن أبى ثمامة: كان(٢) سحرة فرعون تسعة عشر ألفًا.

وقال محمد بن أبى إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفًا.

وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفًا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن على بن حمزة، حدثنا(٣) على بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيب بن واضح بمكة، حدثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعى: لما خرَّ السحرة سُجَّدًا رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها.

قال: وذُكر عن سعيد بن سلام: حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تبنى لهم وهم فى سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبى بَزَّة.

---

(١) سنن الترمذى برقم(١٤٦٠) من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب رضى الله عنه وقال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى الحديث، وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى قال وكيع: هو ثقة ويروى عن الحسن أيضًا والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم».
تنبيه:
ذكر الحافظ المزي هذا الحديث في كتابه تحفة الأشراف(٢/٤٤٦) من مسند جندب الخير الأزدى لا من مسند جندب بن عبد الله البجلى رضى الله عنهما فليتنبه».

(٢) فى أ: «كانوا».

(٣) فى أ: «حدثنا محمد بن موسى حدثنى على بن الحسين».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(٧٣)﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغُلب كل الغَلَب ـ شرع فى المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه فى[1] السحرة، فتهددهم وأوعدهم[2]، وقال ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أى: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى: وما أمرتكم بذلك، وافتتم[3] علىّ فى ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بَهْت وكذب: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أى: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علىّ وعلى رعيتى، لتظهروه، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أى: لأجعلنكم مثلة [ولأقتلكنم][4] ولأشهرنكم.

قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أى أنتم تقولون: إنى وقومى على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه.

فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل، و ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أى: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات.

يعنون: لا[5] نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت .

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أى: فافعل ما شئت وما وَصَلَت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما لك تَسَلُّط فى هذه الدار، وهى دار الزّوال ونحن قد رغبنا فى دار القرار[6].

---

(١) فى ف: «إلى». (٢) فى ف: «وتوعدهم» وفى أ: «فهددهم وتوعدهم». (٣) فى ف: «وأقسم» وفي أ: «وأقشم».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «لن». (٦) فى أ: «البقاء».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ أى: ما كان منا من الآثام، خصوصًا ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلامًا من بنى إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالفَرَمَا، وقال: علموهم تعليمًا لا يعلمه[1] أحد فى الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿[إِنَّا][2] آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أى: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: أدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رحمه الله.

وقال محمد بن كعب القُرَظِى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ أى: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: منك عذابًا إن عُصِىَ.

وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضًا:

والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسَوْا شهداء.

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدى، ويرغبونه فى ثوابه الأبدى المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أى: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ .ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا

(١) فى أ: «يغلبهم».
(٢) زيادة من ف.

www.besturdubooks.wordpress.com

يحيون ولكن [الناس][١] تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن فى الشفاعة، جيء بهم ضبائر، ضبائر، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم[٢]، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية.

وهكذا أخرجه مسلم فى كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبى مَسْلَمة[٣] سعيد بن يزيد به[٤].

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبى، حدثنا حيَّان، سمعت سليمان التَّيْمي، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد؛ أن رسول الله ﷺ خَطَب فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ ، قال النبى ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها، فإن النار تمسهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر، فيؤتى[٥] بهم نهرا يقال له: الحياة ـ أو: الحيوان ـ فينبتون كما ينبت القثَّاء فى حميل السيل».

وقوله : ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أى: ومن لقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أى: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا هَمَّام، حدثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار ، عن عبادة بن الصامت، عن النبى ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج[٦] الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس».

ورواه الترمذى، من حديث يزيد بن هارون، عن همام، به[٧].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، أخبرنا خالد بن يزيد ابن أبى مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مائة درجة، فى كل درجة مائة درجة، بين[٨] كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهن الياقوت والحلى، فى كل درجة أمير، يرون له الفضل والسؤدد.

وفى الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، لتفاضل ما بينهم» .قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال:«بلى والذى نفسى بيده، رجال

---

(١) زيادة من ف، والمسند. (٢) فى ف، أ: «علينا». (٣) فى ف، أ: «سلمة».
(٤) المسند (٣/ ١١)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥).
(٥) فى ف: «فيؤتون». (٦) فى ف: «يخرج».
(٧) المسند(٥/ ٣١٦)، وسنن الترمذى برقم (٢٥٣١).
(٨) فى ف، أ: «ما بين».

www.besturdubooks.wordpress.com

آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[١] . وفى السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما»[٢].

وقوله: ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي** ﴾ أى: إقامة وهو بدل من الدرجات العلى، ﴿**[تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ]**[٣] **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ أى: ماكثين أبدا، ﴿**وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ**﴾ أى: طهر نفسه من الدنس والخَبَث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق[٤] المرسلين فيما جاؤوا به من خَبَر وطلب.

﴿ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)** ﴾.

يقول تعالى مخبرًا أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل، أن يسرى بهم فى الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببنى إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضبًا شديدًا وأرسل فى المدائن حاشرين، أى: من يجمعون له الجند من بلدانه ورَسَاتيقه، يقول: ﴿ **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ**﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق فى طلبهم ﴿**فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ**﴾ [الشعراء: ٦٠] أى: عند طلوع الشمس ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ**﴾ أى: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿ **قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾[الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببنى إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن ﴿**اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا**﴾ ، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق [٥] بإذن الله»، ﴿**فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾[الشعراء: ٦٣] أى: الجبل العظيم. فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض؛ ولهذا قال: ﴿**فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا** ﴾ أى: من فرعون، ﴿**وَلَا تَخْشَىٰ**﴾ يعنى: من البحر أن يغرق قومك .

ثم قال تعالى: ﴿**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ** [٦] ﴾ أى: البحر ﴿**مَا غَشِيَهُمْ**﴾ أى: الذى هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما[٧] قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ**﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أَنَا أبُو النَّجْم وَشِعْرى شِعْرى

أى: الذى يعرف، وهو مشهور.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.
(٢) سنن أبى داود برقم (٣٩٨٧) وسنن ابن ماجه برقم (٩٦).
(٣) زيادة من ف، أ.　　(٤) فى ف: «واتبع».　　(٥) فى أ: «انفلق على».
(٦) فى ف، أ: «اليم ما غشيهم».　　(٧) فى ف: «وكما».

www.besturdubooks.wordpress.com

وكما تقدمهم[١] فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[هود:٩٨].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث نَجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال [تعالى][٢]: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة: ٥٠].

وقال البخارى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا رَوْح بن عبادة، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذى أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» رواه مسلم أيضا فى صحيحه[٣].

ثم إنه تعالى واعد موسى وبنى إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذى كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك[٤]. وفى غُضُون ذلك عَبَدَ بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبا.

وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «البقرة»[٥] وغيرها. فالمن: حُلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسّلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل، قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله، ورحمةً بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أى: كلوا من هذا [الرزق][٦] الذى رزقتكم، ولا تطغوا فى رزقى، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أى: أغضب عليكم ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى: فقد شقى.

وقال شُفَىّ بن ماتع: إن فى جهنم قصرًا يرمى الكافر من أعلاه، فيهوى فى جهنم أربعين خريفًا قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى: كل من تاب إلىّ تبتُ عليه من أى ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب[٧] على من عبد العجل من بنى إسرائيل.

---

(١) فى ف: «يقدمهم». (٢) زيادة من ف.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٧)، وصحيح مسلم برقم (١١٣٠).
(٤) فى ف، أ: «هنالك». (٥) عند تفسير الآية: ٥٧ وما بعدها. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف، أ: «أنه تاب تعالى».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أى :رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية.

وقوله: ﴿وآمَن﴾ أى: بقلبه[1]، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى ثم لم يشكك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أى: استقام على السنة والجماعة. ورُوى نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقال قتاده :﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أى: لزم الإسلام حتى يموت.

وقال سفيان الثورى: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أى: علم أن لهذا[2] ثوابًا.

وثم هاهنا لرتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧].

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) ﴾.

لما سار موسى، عليه السلام، ببنى إسرائيل بعد هلاك فرعون، وافوا[3] ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها[4] له عشرًا، فتمت [له][5] أربعين ليلة، أى: يصومها ليلاً ونهارًا. وقد تقدم فى حديث «الفتون» بيان ذلك. فسارع موسى، عليه السلام، مبادرًا إلى الطور، واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِى﴾ أى: قادمون ينزلون قريبًا من الطور، ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أى: لتزداد عنى رضا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِى﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث فى بنى إسرائيل، وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك

(١) فى ف: «قلبه».
(٢) فى ف: «هذا».
(٣) فى ف، أ: «وأتوا».
(٤) فى ف، أ: «أتمها».
(٥) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

السامرى. وفى الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضًا، وكتب الله تعالى له فى هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أى: عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى.

وقوله ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: بعد ما أخبره تعالى بذلك، فى غاية الغضب والحَنَق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتَسَلُّم التوراة التى فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعْلَمُ كل عاقل له لب [وحزم][1] بطلان[2] [ما هم فيه][3] وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفًا، والأسف: شدة الغضب.

وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: جزعًا. وقال قتادة، والسدى: ﴿أَسِفًا﴾ أى: حزينًا على ما صنع قومه من بعده.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أى: أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾، أى: فى انتظار ما وعدكم الله. ونسان ما سلف من[4] نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم» هاهنا بمعنى «بل»، وهى للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثانى، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي. قَالُوا ﴾ أى: بنو إسرائيل فى جواب ما أنبهم[5] موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أى: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم كما كان بأيديهم من حُلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أى: ألقيناها عنا. وقد تقدم فى حديث «الفتون» أن هارون، عليه السلام، هو الذى كان أمرهم بإلقاء الحلى فى حفيرة فيها نار.

وفى رواية السُّدِّىّ، عن أبى مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلى كله فى تلك الحفيرة[6]، ويجعل حجرًا واحدًا. حتى إذا رجع موسى يرى[7] فيه ما يشاء. ثم جاء [بعد][8] ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له فى دعوته، فدعا له هارون ـ وهو لا يعلم ما يريد ـ فأجيب له[9]، فقال السامرى عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً. فكان عجلاً له خُوار، أى: صوت، استدراجًا وإمهالاً ومحنة واختبارًا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبادة بن البَخْترى[10]، حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حمَّاد

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) فى ف: «بضلال».
(٣) زيادة من ف، أ وفى هـ: «ما لقيه».
(٤) فى ف: «فى».
(٥) فى أ: «نبيهم».
(٦) فى ف: «الحفرة».
(٧) فى ف، أ: «رأى».
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف، أ: «فيه».
(١٠) فى ف: «البحترى».

www.besturdubooks.wordpress.com

عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس؛ أن هارون مَرَّ بالسامرى وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع. فقال هارون: اللهم اعطه ما سأل على ما فى نفسه، ومضى هارون، فقال[١] السامرى: اللهم إنى أسألك أن يَخُورَ فَخَار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم.

ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال: [أعمل][٢] ما ينفع ولا يضر.

وقال السدى: كان يخور ويمشى.

فقالوا ـ أى: الضُّلاَّل منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه ـ: ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أى: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه. كذا تقدم فى حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهد.

وقال سِماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ فَنَسِيَ﴾ أى: نسى أن يذكركم أن هذا إلهكم.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾، قال: فعكفوا عليه وأحبوه حبًا لم يحبوا شيئًا قط يعنى مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أى: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعنى: السامرى.

قال الله تعالى ردًا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ أى: العجل ﴿أَفَلا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ أى: فى دنياهم ولا فى أخراهم.

قال ابن عباس، رضى الله عنه[٣]: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت.

وقد تقدم فى متون الحديث[٤] عن الحسن البصرى: أن هذا العجل اسمه بهموت.

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء فى الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب ـ يعنى: هل يصلى فيه أم لا؟ ـ فقال ابن عمر، رضى الله عنه[٥]: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ ـ يعنى: الحسين ـ وهم يسألون عن دم البعوض؟[٦].

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾.

(١) فى ف: «وقال». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ف، أ: «عنهما».
(٤) فى ف، أ: «حديث الفتون». (٥) فى ف، أ: «عنهما».
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٤).

www.besturdubooks.wordpress.com

يخبر تعالى عما كان من نَهْى هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِى﴾ أى: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه.

﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أى: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون فى ذلك وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَابْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى(٩٤)﴾.

يقول مخبراً عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غيظًا[1]، وألقى ما كان فى يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا فى «الأعراف» بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبر كالمعاينة».

وشرع يلوم أخاه[2] هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ أى: فتخبرنى بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أى: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قال ﴿يَابْنَؤُمَّ﴾ تَرَفَّقَ له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ، أى: فى الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَابْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، ﴿قَالَ إِنِّى خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لى: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أى: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم.

قال ابن عباس: وكان هارون هائبًا له مطيعًا.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً(٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً (٩٨)﴾.

---

(١) فى ف: «غضبا».

(٢) فى ف: «أخوه».

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول موسى، عليه السلام، للسامرى: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذى عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟

قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامرى رجلاً من أهل بَاجَرْمَا، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبُّ عبادة البقر فى نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بنى إسرائيل. وكان اسم السامرى: موسى بن ظفر.

وفى رواية عن ابن عباس: [إنه][(١)] كان من كرمان.

وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامرا.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أى: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدى، عن أبى بن عمارة، عن على، رضى الله عنه، قال: إن جبريل، عليه السلام، لما نزل فصعد بموسى إلى السماء، بصر به السامرى من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس قال: وحمل جبريل موسى خلفه، حتى إذا دنا من باب السماء، صعد وكتب الله الألواح[(٢)] وهو يسمع صرير الأقلام فى الألواح. فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده قال: نزل موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غريب.

وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس[(٣)] جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع.

قال مجاهد: نبذ السامرى، أى: ألقى ما كان فى يده على حلية بنى إسرائيل، فانسبك عجلا جسدًا له خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا على بن المدينى، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا عمارة، حدثنا عكرمة؛ أن السامرى رأى الرسول، فألقى فى روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها فى شىء، فقلت له: «كن فكان» فقبض قبضة من أثر الرسول، فيبست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل استعاروا حلى آل فرعون، فقال لهم السامرى: إنما أصابكم من أجل هذا الحلى، فاجمعوه. فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامرى فألقى فى روعه أنك لو قذفت هذه القبضة فى هذه فقلت: «كن»، كان. فقذف القبضة وقال: «كن»، فكان عجلاً له خوار، فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾.

ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أى: ألقيتها مع من ألقى، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أى: حَسَّنته وأعجبها إذ ذاك، ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أى: كما أخذت ومَسَسْتَ ما لم

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى ف: «وكتب الله الأقلام فى الألواح».
(٣) فى ف: «فرس حافر».

www.besturdubooks.wordpress.com

يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: «لا مساس»، أي: لا تماسّ الناس ولا يمسونك.

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أي: لا محيد لك عنه.

وقال قتادة: ﴿أَن تَقُولَ لا مِسَاس﴾ قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ قال الحسن، وقتادة، وأبو نَهيك: لن تغيب عنه.

وقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك، ﴿ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: أقمت على عبادته، يعني: العجل ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس، والسدي: سَحَله[1] بالمبارد، وألقاه على النار.

وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحمًا ودمًا، فحرقه بالنار، ثم ألقاه، أي: رماده[2] في البحر؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن[3] عبد وأبي عبد الرحمن، عن علي، رضي الله عنه، قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه، عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرّده بها، وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما توبتنا[4]؟ قال: يقتل بعضكم بعضًا.

وهكذا قال السدي: وقد تقدم في تفسير سورة «البقرة»، ثم في حديث «الفتون» بسط ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ [وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾، يقول لهم موسى، عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو][5]، أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبد لربه.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ نصب على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا﴿ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿ وَمَا[6] تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] والآيات في هذا كثيرة جدًا.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ

(١) في ف: «ينتحله». (٢) في ف: «ثم ألقى رماده». (٣) في ف: «عن».
(٤) في ف، أ: «ما يريد منا». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) في ف: «ولا».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قَصَصْنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أى: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو القرآن العظيم، الذى ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، الذى لم يعط نبى من الأنبياء [منذ بعثوا إلى أن ختموا][(١)]، بمحمد ﷺ تسليماً، كتابًا مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحُكْمُ الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى: كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى فى غيره، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى: إثمًا، كما قال[الله][(٢)] تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧].

وهذا عام فى كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدى، ومن خالفه وأعرض عنه ضَلَّ وشقى فى الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا .خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أى: لا مَحِيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ أى: بئس الحمل حملهم[(٣)].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤)﴾.

ثبت فى الحديث أن رسول اللَّه ﷺ سُئِل عن الصُّور، فقال: « قَرنٌ يُنفَخ فيه»[(٤)].

وقد جاء فى حديث «الصور» من رواية أبى هريرة: أنه قرن عظيم، الدَّارة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام.

وجاء فى الحديث: «كيف أنعَمُ وصاحب القَرْن قد التقم القَرْن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يارسول اللَّه، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، على اللَّه توكلنا»[(٥)].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زُرْق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن عباس: يتسارّون[(٦)] بينهم، أى: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ

(١، ٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «عليهم».
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.
(٥) سبق الحديث فى الكلام عن الصور عند الآية: ٧٣ من تفسير سورة الأنعام.
(٦) فى ف: «يتشاورون».

www.besturdubooks.wordpress.com

عَشْرًا﴾ أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها.

قال اللَّه تعالى: **﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾** أي: في حال تناجيهم بينهم، **﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾** أي: العاقل الكامل فيهم، **﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾** أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم [يوم المعاد؛ لأن الدنيا كُلَّها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها][1] وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة[2] الحياة الدنيا يوم القيامة: وكان غرضهم في ذلك [درء][3] قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾** [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: **﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾** [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: **﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[المؤمنون: ١١٢ـ ١١٤] أي: إنما كان لُبْثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قَدَّمْتُم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨)﴾.

يقول تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾** أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ **﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾** أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً، **﴿فَيَذَرُهَا﴾** أي: الأرض **﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾** أي: بساطاً واحداً.

والقاع: هو المستوى من الأرض. والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم؛ ولهذا قال: **﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾** أي: لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك[4] قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث[5] لا ينفعهم، كما قال تعالى: **﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾**[مريم: ٣٨]، وقال: **﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾**[القمر: ٨].

قال محمد بن كعب القُرَظي: يحشر اللَّه الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى[6] السماء،

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) في ف: «يستقصر الكافرون مدة». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) في أ: «وكذا». (٥) في ف: «حيث كان». (٦) في ف: «ويطوى».

www.besturdubooks.wordpress.com

وتتناثر[١] النجوم، وتذهب[٢] الشمس والقمر، وينادى مناد، فيتبع الناس الصوت [فيأتونه][٣]، **فذلك** قوله: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ**﴾.

وقال قتادة: ﴿**لا عِوَجَ لَهُ**﴾ لا يميلون عنه.

وقال أبو صالح: ﴿**لا عِوَجَ لَهُ**﴾: لا عوج عنه .

وقوله: ﴿**وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ**﴾: قال ابن عباس: سكنت: وكذا قال السدى.

﴿**فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا**﴾: قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يعنى: وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿**فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا**﴾: الصوت الخفى. وهو رواية عن عكرمة، والضحاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿**فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا**﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام. فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر، وهو مشيهم فى سكون وخضوع. وأما الكلام الخفى فقد يكون فى حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ**﴾[هود: ١٠٥].

﴿**يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢)**﴾.

يقول تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ أى: يوم القيامة ﴿**لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ**﴾أى: عنده ﴿**إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾ كقوله: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى**﴾[الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿**وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾ [النبأ: ٣٨].

وفى الصحيحين، من غير وجه، عن رسول اللَّه ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على اللَّه عز وجل أنه قال: «آتى تحت العرش، وأخر[٤] للّه ساجداً، ويَفْتَح علىّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعنى[٥] ما شاء اللَّه أن يدعنى، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع[٦]، واشفع تشفع». قال: « فيحد لى حدًا، فأدخلهم الجنة، ثم أعود»، فذكر أربع مرات، صلوات اللَّه وسلامه عليه

(١) فى ف: «ويتناثر». (٢) فى ف: «ويذهب». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) فى ف، أ: «فأخر». (٥) فى ف: «ويدعنى». (٦) فى ف: «تسمع».

www.besturdubooks.wordpress.com

وعلى سائر الأنبياء.

وفى الحديث [أيضاً][(١)]: «يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان، فيُخْرجُون خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرّة، من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرّة من إيمان» الحديث[(٢)].

وقوله: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ أى: يحيط علماً بالخلائق كلهم، ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾، كقوله: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لايموت، القيوم: الذى لا ينام، وهو قيم على كل شىء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل فى نفسه، الذى كل شىء فقير إليه، لا قوام له إلا به.

وقوله: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ أى: يوم القيامة، فإن اللّه سيؤدى كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاة الجَمَّاء من الشاة القرناء.

وفى الحديث: «يقول اللّه تعالى: وعزتى وجلالى، لا يجاوزنى اليوم ظلم ظالم[(٣)]».

وفى الصحيح: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[(٤)]. والخيبة كل الخيبة لمن لقى اللّه وهو مشرك به؛ فإن اللّه تعالى يقول: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا**﴾: لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظلَمون ولا يُهضَمون، أى: لا يزاد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم[(٥)]. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)**﴾.

يقول: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) انظر: أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية: ٧٩ من سورة الإسراء.

(٣) فى ف، أ: «الظالم».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٣٩٠) من حديث جابر بلفظ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

(٥) فى ف: «سيئاته ولا ينقص من حسناته».

www.besturdubooks.wordpress.com

عربى مبين فصيح[(١)]، لا لبس فيه ولا عىّ، ﴿وَصَرَّفْنَا[(٢)] فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تنزه وتقدس[(٣)] الملك الحق، الذى هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شىء منه حق. وعدله تعالى ألاَّ يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى فى سورة «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ .ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وثبت فى الصحيح عن ابن عباس؛ أن رسول اللَّه ﷺ كان يعالج من الوحى شدّة، فكان مما يحرّك لسانه، فأنزل[(٤)] اللَّه هذه الآية[(٥)]. يعنى: أنه ،عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحى، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدّة حرصه على حفظ[(٦)] القرآن، فأرشده اللَّه تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف فى حقه؛ لئلا يشق عليه. فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أى: أن نجمعه فى صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ .ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقال فى هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أى: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أى: زدنى منك علماً.

قال ابن عُيينة، رحمه اللَّه: ولم يزل ﷺ فى زيادة [من العلم][(٧)] ،حتى توفاه اللَّه عز وجل.

ولهذا جاء فى الحديث: «إن اللَّه تابع الوحى على رسوله، حتى كان الوحى أكثر ما كان يوم تُوُفّى رسول اللَّه ﷺ»[(٨)].

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا عبد اللَّه بن نُمَير، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، قال: كان رسول اللَّه ﷺ يقول: «اللهم، انفعنى بما عَلَّمتنى، وعلمنى ما ينفعنى، وزدنى علماً، والحمد للّه على كل حال»[(٩)].

وأخرجه الترمذى، عن أبى كُرَيْب، عن عبد اللَّه بن نُمَير، به. وقال: غريب من هذا الوجه. ورواه البزار عن عمرو بن على الفلاس، عن أبى عاصم، عن موسى بن عبيدة، به. وزاد فى آخره: «وأعوذ باللَّه من حال أهل النار».

---

(١) فى ف: «فصيح اللسان». (٢) فى أ: «وصرفنا ما فيه»، وهو خطأ. (٣) فى ف: «تقدس وتنزه».
(٤) فى ف: «فنزل».
(٥) صحيح البخارى برقم (٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.
(٦) فى ف، أ: «تحفظ». (٧) زيادة من ف.
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم(٤٩٨٢) من حديث أنس رضى الله عنه.
(٩) سنن ابن ماجه برقم (٢٥١) وسنن الترمذى برقم (٣٥٩٩).

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: إنما سمى الإنسان لأنه عهد إليه فنسى. وكذا رواه على بن أبى طلحة، عنه.

وقال مجاهد والحسن: تَرَكَ.

وقوله: **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾**، يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وقد تقدم الكلام على هذه القصة فى سورة «البقرة»، وفى «الأعراف»، وفى «الحجر»، و«الكهف»[(١)]، وسيأتى فى آخر سورة «ص»[(٢)] [إن شاء الله تعالى][(٣)]. يذكر فيها تعالى خَلْقَ آدم وأمْرَه الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبنى آدم ولأبيهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: **﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾** أى: امتنع واستكبر، **﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾** يعنى: حواء، عليهما السلام، **﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾** أى: إياك أن يسعى[(٥)] فى إخراجك منها، فتتعب وتَعْنَى وتشقى فى طلب رزقك، فإنك ههنا فى عيش رغيد هنىء، لا[(٦)] كلفة ولا مشقة.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ﴾: إنما قرن بين الجوع والعُرْى؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعرى ذُلّ الظاهر .

﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ : وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر.

وقوله: **﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾**: قد تقدم أنه[(٧)] **﴿دَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾** [الأعراف: ٢٢]؛ **﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾** [الأعراف: ٢١]. وقد

---

(١) انظر : تفسير سورة البقرة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٨، وتفسير سورة الأعراف، الآيات: ١١ـ٢٤، وتفسير سورة الحجر، الآيات: ٢٨ ـ ٤٠، وتفسير سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) عند تفسير الآيات: ٧١ ـ٨٥.

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف: «وبين».

(٥) فى ف: «تسعى».

(٦) فى ف، أ: «بلا».

(٧) فى ف: «أنهما».

www.besturdubooks.wordpress.com

تقدم أن اللَّه تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة فى الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرةَ الخلد ـ يعنى: التى من أكل منها خلد ودام مكثه. وقد جاء فى الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسى:

حدثنا شعبة عن أبى الضحاك[١]، سمعت أبا هريرة يحدث، عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام، ما يقطعها وهى شجرة الخلد». ورواه الإمام أحمد[٢].

وقول: ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه خلق آدم رجلاً طوالاً، كثير شعر[٣] الرأس، كأنه نخلة سَحُوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته. فلما نظر إلى عورته جعل يَشْتَد فى الجنة، فأخذتْ شعرَه شجرة، فنازعها، فنادى الرحمن: يا آدم، منِّى تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء[٤]، أرأيت إن تبت ورجعت، أعائدى إلى الجنة؟ قال: نعم» فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٥].

وهذا منقطع بين الحسن وأبىّ بن كعب، فلم يسمعه منه، وفى رفعه نظر أيضاً.

وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر، عن[٦] عون، حدثنا سفيان، عن ابن أبى ليلى، عن المنْهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ينزعان ورق التين، فيجعلانه على سوآتهما.

وقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، قال البخارى:

حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «حاجّ موسى آدمَ، فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذى اصطفاك اللَّه برسالاته وبكلامه، أتلومنى على أمر قد كتبه اللَّه علىّ قبل أن يخلقنى ـ أو: قدره اللَّه علىّ قبل أن يخلقنى ـ» قال رسول اللَّه ﷺ: «فحج آدم موسى»[٧].

---

(١) فى ف، أ: «أبى الضحى».

(٢) مسند الطيالسى برقم (٢٥٤٧)، والمسند للإمام أحمد (٢/ ٤٥٥).

(٣) فى ف: «الشعر». (٤) فى ف، أ: «أستحيى».

(٥) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٣٧ من سورة البقرة.

(٦) فى ف، أ: «ابن».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٨).

www.besturdubooks.wordpress.com

وهذا الحديث له طرق فى الصحيحين، وغيرهما من المسانيد(١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى أنس بن عياض، عن الحارث بن أبى ذُبَابَ، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «حَجَّ آدم وموسى عند ربهما، فحج آدمُ موسى، قال موسى: أنت الذى خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك فى جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟ قال آدم: أنت موسى الذى اصطفاك اللَّه برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء، وقربك نَجياً، فبكم وجدتَ اللَّه كتب التوراة [قبل أن أخلق](٢) ؟قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدتَ فيها ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ قال: نعم. قال: أفتلومنى على أن عملتُ عملاً كتب اللَّه علىّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة». قال رسول اللَّه ﷺ :«فحج آدم موسى».

قال الحارث: وحدثنى عبد الرحمن بن هُرمزُ بذلك، عن أبى هريرة، عن رسول ﷺ(٣).

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾.

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أى: من الجنة كلكم. وقد بسطنا ذلك فى سورة «البقرة».

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: قال: آدم وذريته، وإبـليس وذريته.

وقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان.

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾: قال ابن عباس: لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أى: خالف أمرى، وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أى: فى الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره [ضيق](٤) حرَج لضلاله، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه

---

(١) انظر: صحيح البخارى برقم (٤٧٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٢).

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٥٢) من طريق أنس بن عياض عن الحارث بن أبى ذباب عن يزيد بن هرمز وعبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: الشقاء.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: كل مال[١] أعطيته عبداً من عبادى، قل أو كثر، لا يتقينى فيه، فلا خير فيه، وهو الضنك فى المعيشة. ويقال: إن قوماً ضُلالاً، أعرضوا عن الحق، وكانوا فى سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً؛ [و][٢] ذلك أنهم كانوا يرون أن اللّه ليس مخلفاً لهم معايشهم، من سوء ظنّهم باللّه والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب باللّه، ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته، فذلك الضنك.

وقال الضحاك: هو العمل السيئ، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار.

وقال سفيان بن عيينة، عن أبى حازم، عن أبى سلمة، عن أبى سعيد فى قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: يضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه. قال أبو حاتم الرازى: النعمان بن أبى عياش[٣]: يكنى أبا سلمة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد اللّه بن لهيعة، عن درَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه ﷺ فى قول اللّه عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «ضمة القبر». الموقوف أصح[٤].

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح، عن ابن حُجَيرة ـ اسمه عبد الرحمن ـ عن أبى هريرة، عن رسول اللّه ﷺ قال: «المؤمن فى قبره فى روضة خضراء، ويرحب له فى قبره سبعون ذراعاً، وينوّر له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟» قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: «عذاب الكافر فى قبره، والذى نفسى بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنِّيناً، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، ينفخون فى جسمه، ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون»[٥].

رفعه منكر جداً.

وقال البزار: حدثنا محمد بن يحيى الأزدى، حدثنا محمد بن عمرو[٦]، حدثنا هشام بن سعد، عن سعيد بن أبى هلال، [عن أبى حُجَيرة][٧]، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قول اللّه عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «المعيشة الضنك الذى قال اللّه تعالى: أنه يسلط عليه تسعة وتسعون

---

(١) فى هـ: «ما» والمثبت من ف، أ.   (٢) زيادة من ف.   (٣) فى ف: «عياض».

(٤) والمرفوع فى إسناده دراج عن أبى الهيثم وهو ضعيف.

(٥) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١١/ ٥٢١) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به.

(٦) فى ف: «محمد بن عمر».   (٧) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

حية، ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة»[١].

وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «عذاب القبر». إسناد جيد[٢].

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾: قال مجاهد، وأبو صالح، والسدى: لا حجة له.

وقال عكرمة: عُمّى عليه كل شىء إلا جهنم.

ويحتمل أن يكون المراد: أنه يُحشَر أو يبعث[٣] إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ولهذا يقول: ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أى: فى الدنيا، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أى: لما أعرضت عن آيات اللّه، وعاملْتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك [اليوم][٤] معاملة من ينساك[٥]، ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً فى هذا الوعيد الخاص، وإن كان مُتَوَعداً عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهى الأكيد، والوعيد الشديد فى ذلك، قال الإمام أحمد:

حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل قرأ القرآن فنسيه، إلا لقى اللّه يوم يلقاه وهو أجذم»[٦].

ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ، فذكر مثله سواء[٧].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾.

يقول تعالى: وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات اللّه فى الدنيا والآخرة، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه؛ ولهذا قال رسول اللّه ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

(١) مسند البزار برقم (٢٢٣٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٦٧): «فيه من لم أعرفه».
(٢) وروى من حديث أبى سعيد مثله، ورواه الحاكم فى المستدرك وابن أبى شيبة فى المصنف.
(٣) فى ف: « أن يبعث أو يحشر». (٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «نسيك».
(٦) المسند (٥/ ٢٨٥).
(٧) المسند (٥/ ٣٢٣).

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به: يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أى: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال فى سورة «الم السجدة»: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أى: لو لا الكلمة السابقة من اللَّه وهو أنه[1] لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذى ضربه اللَّه تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة؛ ولهذا قال لنبيه مسلياً له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أى: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعنى: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعنى: صلاة العصر، كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد اللَّه البَجَلىّ، رضى اللَّه عنه، قال: كنا جلوساً عند رسول اللَّه ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُّون فى رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن عمارة بن رُوَيْبة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لن يَلِجَ النارَ أحد صلى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها».

رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير، به[3].

وفى المسند والسنن، عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، وإن أعلاهم منزلة لَمَنْ ينظر إلى اللَّه عز وجل فى اليوم مرتين»[4].

---

(١) فى ف: «أن».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٥٤) وصحيح مسلم برقم(٦٣٣).

(٣) المسند (٤/١٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٦٣٤).

(٤) المسند(٢/١٣) وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٠) وقال: «هذا حديث غريب».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أى: من ساعاته فتهجد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وأَطْرَافَ النَّهارِ﴾ فى مقابلة آناء الليل، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[الضحى: ٥].

وفى الصحيح: «يقول اللَّه: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إنى أعطيكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[١].

وفى الحديث [الآخر][٢] يقال: «يا أهل الجنة، إن لكم[٣] عند اللَّه موعداً يريد أن يُنْجزكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا[٤] الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فواللَّه ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهى[٥] الزيادة»[٦].

﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد، صلوات الله وسلامه عليه: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين[٧] وأشباههم ونظرائهم، وما فيه من النعم[٨]، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادى الشكور.

وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ يعنى: الأغنياء، فقد آتاك [الله][٩] خيراً مما آتاهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك[١٠] ما ادخره تعالى لرسوله فى الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدّ ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وفى الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول اللَّه ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير. وليس فى البيت إلا صُبْرَة من قَرَظ، وأهَب[١١] معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول اللَّه: «مايبكيك[١٢]؟»

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٩) من حديث أبى سعيد رضى الله عنه.
(٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ف: «بكم».
(٤) فى ف: «تبيض وجوهنا وتثقل موازيننا وتزحزحنا عن النار وتدخلنا». (٥) فى أ: «وهو»
(٦) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨١) من حديث صهيب رضى الله عنه.
(٧) من أ: « إلى ما متعنا به هؤلاء المسرفين». (٨) فى ف، أ: «النعيم». (٩) زيادة من ف، أ.
(١٠) فى ف : «ولذلك». (١١) فى أ: «واهية».
(١٢) فى ف: «ما يبكيك يا عمر؟».

www.besturdubooks.wordpress.com

فقال: يارسول اللَّه، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة اللَّه من خلقه؟ فقال: «أوفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت طيباتهم فى حياتهم الدنيا»[١].

فكان، صلوات الله وسلامه عليه[٢]، أزهد الناس فى الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، فى عباد اللَّه، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

قال ابن أبى حاتم: أنبأنا يونس، أخبرنى ابن وهب، أخبرنى مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبى سعيد؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح اللَّه[٣] من زهرة [٤] الدنيا». قالوا: وما زهرة الدنيا يارسول اللَّه؟ قال: «بركات الأرض»[٥].

وقال قتادة والسدى: زهرة الحياة الدنيا، يعنى: زينة الحياة الدنيا .

وقال قتادة ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فيهِ﴾: لنبتليهم .

وقوله ﴿وأمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ واصْطَبِر عَلَيْهَا﴾ أى: استنقذهم من عذاب اللَّه بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها ،كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويَرْفأ، وكان له ساعة من الليل يصلى فيها، فربما لم يقم[٦]، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا [استيقظ أقام][٧] ـ يعنى: أهله ـ وقال : ﴿وأمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ واصْطَبِر عَلَيْهَا﴾[٨] .

وقوله: ﴿لا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُك﴾ يعنى[٩]: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾[الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] ولهذا قال: ﴿لا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُك﴾، وقال الثورى: ﴿لا نَسْئَلُكَ رِزْقًا ﴾ أى: لا نكلفك الطلب.

وقال ابن أبى حاتم [أيضا][١٠]: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن أبيه؛ أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طرفاً فإذا رجع إلى أهله، فدخل الدار

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩١٣) .

(٢) فى ف، أ: «عليه وسلامه» . (٣) فى أ: «يفتح الله لكم». (٤) فى أ: «زهرة الحياة الدنيا».

(٥) أصله فى صحيح البخارى برقم (٢٨٤٢) وصحيح مسلم برقم (١٠٥٢) من طريق عطاء عن أبى سعيد الخدرى ولفظه: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا».

(٦) فى ف،أ: «لم ينم». (٧) زيادة من ف، أ .

(٨) ورواه مالك فى الموطأ (١/ ١١٩) عن زيد بن أسلم عن أبيه بنحوه .

(٩) فى ف: «أى» .

(١٠) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

قرأ: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيك﴾ إلى قوله: ﴿ نَحْنُ نَرْزُقك ﴾، ثم يقول: الصلاة الصلاة، رحمكم اللَّه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد اللَّه بن أبى زياد القَطَوَانى، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبى ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: «يا أهلاه، صلوا، صلوا». قال ثابت: وكانت[١] الأنبياء إذا نزل بهم[٢] أمر، فزعوا إلى الصلاة[٣].

وقد روى الترمذى وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبى خالد الوالبى، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يقول اللَّه تعالى: يا ابن آدم، تَفَرَّغْ لعبادتى أَمْلأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»[٤].

وروى ابن ماجه من حديث الضحاك، عن الأسود، عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جَعَل الهموم هَما واحداً، هَمّ المعاد، كفاه اللَّه همّ دنياه. ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا، لم يبال اللَّه فى أى أوديته هلك»[٥].

وروى أيضاً من حديث شعبة، عن عُمَر بن سليمان[٦]، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «من كانت الدنيا هَمَّه، فرَّق اللَّه عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له. ومن كانت الآخرة نيَّته، جمع له أمره، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة»[٧].

﴿والْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أى: وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، وهى الجنة، لمن اتقى اللَّه.

وفى الصحيح: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنا فى دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب [من رطب][٨] ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى[٩] الدنيا، والرفعة وأن ديننا قد طاب»[١٠].

﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن رَّبِّه أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِه لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ

---

(١) فى ف: «وكان». (٢) فى أ: «بها».
(٣) ورواه الإمام أحمد فى الزهد برقم (٤٨) عن سيار به، دون قول ثابت.
(٤) سنن الترمذى برقم (٢٤٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٧) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».
(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤١٠٦).
(٦) فى ف: «عمرو بن سليم».
(٧) سنن ابن ماجه برقم (٤١٠٥).
وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٧١): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».
(٨) زيادة من ف، أ، ومسلم. (٩) فى ف: «فى الدار الدنيا».
(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

اهْتَدَى(١٣٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار فى قولهم : ﴿ **لَوْلا** ﴾ أى: هلا ﴿ **يَأْتِينَا** ﴾ محمد﴿**بِآيَةٍ مِن رَّبِّه**﴾ أى: بعلامة دالة على صدقه فى أنه رسول اللَّه؟ قال اللَّه تعالى: ﴿**أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى**﴾ يعنى: القرآن العظيم الذى أنزله عليه الله[1] وهو أمى، لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم[2] فى سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مُهَيمن عليها، يُصدِّق الصحيح، ويُبَيِّن خطأ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة «العنكبوت»: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ[3] عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] وفى الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «ما من نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه اللَّه إلىّ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[5] .

وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التى أعطيها، عليه السلام، وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو مودع فى كتبه، ومقرر فى مواضعه.

ثم قال تعالى : ﴿**وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**﴾ أى: لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل[6] إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا : ﴿**رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**﴾ قبل أن تهلكنا، حتى نؤمن به ونتبعه؟ كما قال: ﴿ **فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى**﴾، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿**وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [يونس: ٩٧] ،كما قال تعالى: ﴿ **وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ**﴾[الأنعام: ١٥٥ـ ١٥٧] وقال: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا**﴾[فاطر: ٤٢] وقال: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠] .

---

(١) فى ف: «أنزله الله عليه» . (٢) فى ف، أ: «فيهم» . (٣) فى ف: «نزل» .

(٤) فى ف: «فقل» .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٦) فى ف، أ: «يرسل» .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال تعالى ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّص﴾ أي: منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي: الطريق المستقيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله[1] تعالى ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٢]، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾[القمر: ٢٦].

آخر تفسير سورة طه، ولله الحمد والمنة

(١) في هـ: «قوله» والمثبت من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٠ — سورة طه
﴿ مكية وآياتها مائة وخمس وثلاثون ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ ٢٠ طه

﴿ سورة طه مكية إلا آيتي ١٣٠ و ١٣١ فمدنيتان وآياتها ١٣٥ ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (طه) فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل والطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون وهو من الفواتح التي يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يارجل وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي إلا أنه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبي على لغة عكا وقيل عكل وهى لغة يمانية قالوا إن صح فلعل أصله ياهذا فتصرفوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد به من قول الشاعر [إن السفاهة طه في خلائقكم * لاقدس الله أخلاق الملاعين] ليس بنص في ذلك لجواز كونه قسما كما في حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الأصل طاها بصيغة الأمر من الوطء فقلبت الهمزة في يطأ ألفا لانفتاح ماقبلها كما في قول من قال لاهناك المرتع وها ضمير الأرض على أنه خطاب لرسول الله ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه لما كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه مبالغة في المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأبى التفسير بيا رجل فإن الكتابة على صور الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرىء طه إما على أن أصله طأ فقلبت همزته هاء كما في أمثال هرقت أو قلبت الهمزة في يطأ ألفا كما مر ثم بنى منه الأمر وألحق به هاء السكت وإما على أنه اكتفى في التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما في الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال أو اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما وإلا فالشطران لم يذكرا من حيث إنهما مسميان لاسميهما ليقعا معبراً عنهما بل من حيث إنهما جزءان لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا بأسميهما بأن يراد بضمير التثنية في الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزءان للاسمين ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى في التلفظ بشطرى الكلمتين أي الاسمين فعبر عنهما أي عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى أنه اكتفى في الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقديرى كونه أمراً وكونه حرف نداء وها على تقديرى كونها كناية عن الأرض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين في التلفظ باسميهما فبين البطلان كيف وطاوها على ماذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الأول

مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ٢٠ طه

إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ٢٠ طه

أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الأرض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ما سلف من أنها من الفواتح إما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين
٢ المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الإعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فإنه استئناف مسوق لتسليته ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فإن الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك إن لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه ﷺ عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما يروى أنه ﷺ كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فإن لها عليك حقا أى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة وقيل إن أبا جهل والنضر ابن الحرث قالا لرسول الله ﷺ إنك شقى حيث تركت دين آبائك وأن القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا والأول هو الأنسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا وإما اسم للقرآن محله الرفع على أنه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر أوقع موقع العائد إلى المبتدأ كأنه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أو النصب على إضمار فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الأول فإنه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مقامه فإن القرآن صادق على الصورة لا محالة إما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض أو باعتبار الاندراج إن أريد به الكل بل لأن نفى كون إنزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على إنزاله قطعا إما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب أو بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولا ريب فى أن ذلك إنما يتصور فى إنزال ما أنزل من قبل وأما إنزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما باعتبار الاتحاد فظاهر وأما باعتبار الاندراج فلأن مآله أن يقال هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى أن جعلها مخبرا عنها مع أنه لا دخل لإنزالها فى الشقاء السابق أصلا مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل
٣ وقوله تعالى (إلا تذكرة) نصب على أنه مفعول له لأنزلنا لكن لا من حيث إنه معلل بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه إلا تذكرة الآية كقولك ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقا لما أنه يجب فى أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما فى المثال المذكور وفى قولك ما شافهتك بالسوء لتتأذى إلا زجرا لغيرك فإن التأديب فى الأول مسبب عن الإشفاق والتأذى فى الثانى سبب لزجر

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٢٠ طه

ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ٢٠ طه

الغير وقد عرفت مابين الشقاء والتذكرة من التنافى ولا يجدى أن يراد به التعب فى الجملة الجامع للتذكرة لظهور أن لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وإنما يتصور ذلك أن لو قيل مكان إلا تذكرة إلا تكثيراً لثوابك فإن الأجر بقدر التعب ولا من حيث إنه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى مافعلوه إلا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث إنه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ماأنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه
* ولكن تذكرة (لمن يخشى) وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن من شأنه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف
٤ وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنهم المنتفعون بها وقوله تعالى (تنزيلا) مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستثنائية فإنها متضمنة لأن يقال أنزلناه للتذكرة والأول هو الأنسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على أنه مفعول له لأنزلنا إذ لا يعلل الشىء بنفسه ولا بنوعه بل على أنه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولا مساغ له إلا بأن يكون قيداً لأنزلنا بعد تقييده بالقيد الأول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرىء تنزيل
* على أنه خبر لمبتدأ محذوف ومن فى قوله تعالى (ممن خلق الأرض والسموات العلى) متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع مايتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى له مافى السموات ومافى الأرض الآية لإصالتهما واستتباعهما لما عداهما وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس وأظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامة مع مافيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك إلى قوله تعالى له الأسماء الحسنى مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شأن المنزل الداعى إلى تربية المهابة وإدخال الروعة المؤدية إلى
٥ استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية إلى التذكرة والإيمان (الرحمن) رفع على المدح أى هو الرحمن وقد عرفت فى صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ماقبله وإن لم يكن تابعاً له فى الإعراب ولذلك التزموا حذف المبتدأ ليكون فى صورة متعلق من

لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ٢٠ طه

وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٢٠ طه

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ٢٠ طه

متعلقاته وقد قرىء بالجر على أنه صفة صريحة للموصول وما قيل من أن الأسماء الناقصة لا يوصف منها إلا الذى وحده مذهب الكوفيين وأياما كان فوصفه بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن للإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه إشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى الرحمن علم القرآن أو رفع على الابتداء واللام للعهد والإشارة إلى الموصول والخبر قوله تعالى
٥ (على العرش استوى) وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للإيذان بأن ذلك أمر بين لا سترة به غنى عن الإخبار به صريحاً وعلى متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الأول خبر مبتدأ محذوف كما فى قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبراً بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وإن لم يقعد على السرير أصلا والمراد
٦ بيان تعلق إرادته الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبير أمرها وقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الأرض) سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما (وما بينهما) من الموجودات الكائنة فى الجو دائماً كالهواء والسحاب أو أكثريا كالطير أى له وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالا كل ما ذكر ملكا وتصرفا وإحياء وإماتة وإيجاداً وإعداماً (وما تحت الثرى) أى ما وراء الترب وذكره مع دخوله تحت ما فى الأرض لزيادة التقرير روى عن محمد بن كعب أنه ما تحت الأرضين السبع وعن السدى أن الثرى هو الصخرة
٧ التى عليها الأرض السابعة (وإن تجهر بالقول) بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أى وإن تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك
٥ (فإنه يعلم السر وأخفى) أى ما أسررته إلى غيرك وشيئاً أخفى من ذلك وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ما أسررته لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتى وتنكيره للمبالغة فى الخفاء وهذا إما نهى عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول وإما إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها
٨ من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى (الله) خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أى ذلك
٥ المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى (لا إله إلا هو) تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه فإن ما أسند إليه تعالى من خلق جميع الموجودات

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ٢٠ طه
إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ٢٠ طه

والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بيناوقوله تعالى (له الأسماء الحسنى) بيان لكون ماذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فإنه روى أن المشركين حين سمعوا النبى ﷺ يقول يا الله يارحمن قالوا ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر والحسنى تأنيث
٩ الأحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كمآرب أخرى وآياتنا الكبرى (وهل أتاك حديث موسى) استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذى إليه ينتهى مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء كابراً عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له إنى أنا الله لا إله إلا أنا وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله حيث قال إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وأما ماقيل من أن ذلك لترغيب النبى ﷺ فى الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام فى تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب فى تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام
١٠ المشاق وقوله تعالى (إذ رأى ناراً) ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر أى حين رأى ناراً كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أى اذكر وقت رؤيته ناراً روى أنه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيباً عليهما الصلاة والسلام فى الخروج إلى أمه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشام فلما وافى وادى طوى وهو بالجانب الغربى من الطور ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فبينما هو فى ذلك إذ رأى ناراً على يسار
* الطريق من جانب الطور (فقال لأهله امكثوا) أى أقيموا مكانكم أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب إلى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا إلى موضع آخر فإنه مما لا يخطر بالبال والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع إما لظاهر لفظ الأهل أو
* للتفخيم كما فى قول من قال [وإن شئت حرمت النساء سواكم] (إنى آنست ناراً) أى أبصرتها إبصاراً بيناً لا شبهة فيه وقيل الإيناس خاص بإبصار ما يؤنس به والجملة تعليل للأمر أو المأمور به (لعلى آتيكم منها) أى أجيئكم من النار (بقبس) أى بشعلة مقتبسة من معظم النار وهى المرادة بالجذوة فى سورة
* القصص وبالشهاب القبس (أو أجد على النار هدى) هادياً يدلنى على الطريق على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذا هداية أو على أنه إذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل هادياً يهدينى إلى أبواب الدين فإن أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والأول هو الأظهر لأن مساق النظم الكريم لتسلية أهله وقد نص عليه فى سورة القصص حيث قيل لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة الآية وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ٢٠ طه

إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ٢٠ طه

تعالى على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها أو لأنهم عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعوداً فيشرفون عليها ولما كان الإتيان بهما مترقباً غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى إما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الأمر بالمكث والإخبار بإيناس النار وتفادياً عن التصريح بما يوحشهم وإما حال من فاعله أى فأذهب إليها لآتيكم أو كى آتيكم أو راجياً أن آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيق ذلك مفصلا فى تفسير قوله تعالى يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون

١١ (فلما أتاها) أى النار التى آنسها قال ابن عباس رضى الله عنهما رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجباً من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها . قالوا النار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهى نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهى نار الشجر الأخضر وصنف يأكل ويشرب وهى نار جهنم وصنف لا يأكل ولا يشرب وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا أيضاً هى أربعة أنواع نوع له نور وإحراق وهى نار الدنيا ونوع لا نور له ولا إحراق وهى نار الأشجار ونوع له نور بلا إحراق وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام ونوع له إحراق بلا نور وهى نار جهنم روى أن الشجرة كانت عوسجة وقيل

١٢ كانت سمرة (نودى ياموسى) أى نودى فقيل ياموسى (إنى أنا ربك) أو عومل النداء معاملة القول لكونه ضرباً منه وقرىء بالفتح أى بأنى وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة روى أنه لما نودى ياموسى قال عليه الصلاة والسلام من المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأنى أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء قلت وذلك لأن سماع ماليس من شأنه ذلك من الأعضاء ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقياً روحانياً ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة (فاخلع نعليك) أمر عليه الصلاة والسلام * بذلك لأن الحفوة أدخل فى التواضع وحسن الأدب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كانا من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الأهل والمال والفاء لترتيب الأمر على ماقبلها فإن ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الأمر ودواعيه وقوله تعالى (إنك بالواد المقدس) تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان * لسبب ورود الأمر بذلك من شرف البقعة وقدسها روى أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى (طوى) بضم الطاء غير منون وقرىء منونا وقرىء بالكسر منونا وغير منون فمن نونه أوله * بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى من الطى مصدر لنودى أو المقدس أى نودى نداءين أو قدس مرة

وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ٢٠ طه

إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ٢٠ طه

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ ٢٠ طه

١٣ بعد أخرى (وأنا اخترتك) أى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرىء وإنا اخترناك بالفتح والكسر والفاء
فى قوله (فاستمع) لترتيب الأمر أو المأمور به على ماقبلها فإن اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات
الاستماع والأمر به واللام فى قوله تعالى (لما يوحى) متعلقة باستمع وما موصولة أو مصدرية أى
فاستمع للذى يوحى إليك أو للوحى لا باخترتك كما قيل لكن لا لما قيل من أنه من باب التنازع وإعمال
١٤ الأول فلابد حينئذ من إعادة الضمير مع الثانى بل لأن قوله تعالى (إننى أنا الله لا إله إلا أنا) بدل من
ما يوحى ولا ريب فى أن اختياره عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى
* (فاعبدنى) لترتيب المأمور به على ماقبلها فإن اختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص
العبادة به عزوجل (وأقم الصلاة) خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر مع اندراجها فى الأمر بالعبادة
لفضلها وإنافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى
* (لذكرى) أى لتذكرنى فإن ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة أو لتذكرنى فيها لاشتمالها
على الأذكار أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لا ترائى بها ولا
تقصد بها غرضاً آخر أو لتكون ذاكراً لى غير ناس وقيل لذكرى إياها وأمرى بها فى الكتب أو لأن
أذكرك بالمدح والثناء وقيل لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى أنه ﷺ
قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لأن الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكرى وقرىء
١٥ لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى (إن الساعة آتية)
تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أى كائنة لا محالة وإنما عبر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها
* فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين (أكاد أخفيها) أى لا أظهرها بأن أقول إنها آتية ولولا أن
مافى الإخبار بذلك من اللطف وقطع الأعذار لمافعلت أو أكاد أظهرها بإيقاعها من أخفاه إذا أظهره بسلب
خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الأضداد يجىء بمعنى الإظهار
* والستر وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) متعلق بآتية وما بينهما اعتراض أو بأخفيها على المعنى
الأخير وما مصدرية أى لتجزى كل نفس بسعيها فى تحصيل ماذكر من الأمور المأمور بها وتخصيصه فى
معرض الغاية لإتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بما صدر عنها سواء كان سعياً فيما ذكر أو تقاعداً عنه بالمرة أو سعياً
فى تحصيل ما يضاده للإيذان بأن المراد بالذات من إتيانها هو الإثابة بالعبادة وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات
سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان
على كل نفس أن تسعى فى الامتثال بالأمر وتجد فى تحصيل ماينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ٢٠ طه

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ٢٠ طه

اقتراف مايرديها من المعاصي وعليه مدار الأمر في قوله تعالى وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فإن الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضاً لا إلى الحسن والأحسن فقط قد علق بالأخيرين لما ذكر من أن المقصود الأصلي من إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين وإن ذلك لكونه على أتم الوجوه الرائقة وأكمل الأنحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدي كل فرد إلى مايرشد إليه من مطلق الإيمان والطاعة وإنما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الإعراض عن ذلك والوقوع في مهاوي الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم في سلك الغاية لذلك الصنع البديع وإنما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له أو
١٦ مسوغ هذا ويجوز أن يراد بالسعي مطلق العمل (فلا يصدنك عنها) أي عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والأول هو الأليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وإن كان النهي بطريق التهييج والإلهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى (من لا يؤمن بها) لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولأن في المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهياً للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه في الحقيقة نهي له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده فإن النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني وإبطال للسببية من أصلها كما في قوله تعالى ولا يجرمنكم الخ فإن صد الكافر حيث كان سبباً لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهي عنه نهياً بأصله وموجبه وإبطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهي عن المسبب وإرادة النهي عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن إظهار لين الجانب للكفرة فإن ذلك سبب لصدهم إياه عليه الصلاة والسلام كما في قوله لا أرينك ههنا فإن المراد به نهي المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته (واتبع هواه) أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية (فتردى) أي فتهلك فإن الإغفال عنها وعن تحصيل ماينجي عن أهوالها مستتبع للهلاك لا محالة وهو في محل النصب على جواب
١٧ النهي أو في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي فأنت تردى (وماتلك بيمينك ياموسى) شروع في حكاية ماكلف به عليه الصلاة والسلام من الأمور المتعلقة بالخلق إثر حكاية ماأمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فما استفهامية في حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا أي وما تلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل معنى الإشارة كما في قوله عز وعلا وهذا بعلي شيخاً وقيل تلك موصولة أي ماالتي هي بيمينك وأياً ماكان فالاستفهام

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ٢٠ طه

قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ٢٠ طه

فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ٢٠ طه

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ٢٠ طه

إيقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ماسيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه
١٨ (قال هى عصاى) نسبها إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه
عليه الصلاة والسلام وقرىء عصى على لغة هذيل (أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها عند الإعياء أو الوقوف
على رأس القطيع (وأهش بها) أى أخبط بها الورق وأسقطه (على غنمى) وقرىء أهش بكسر الهاء
وكلاهما من هش الخبز يهش إذا انكسر لهشاشته وقرىء بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته
بعلى لتضمين معنى الإنحاء والإقبال أى أزجرها منحياً ومقبلا عليها (ولى فيها مآرب أخرى) أى حاجات
أخر من هذا الباب مثل ماروى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من
القوس والكنانة والحلاب ونحوها وإذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء
واستظل به وإذا قصر الرشاء وصله بها وإذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها وقيل ومن جملة المآرب أنها
كانت ذات شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالمحجن وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين وكأنه عليه الصلاة
والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى إذا ظهرت على
خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم أنها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى
وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والإجمال على معنى أنها من جنس
١٩ العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير (قال)
استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال (ألقها ياموسى) لترى
٢٠ من شأنها مالم يخطر ببالك من الأمور وتكرير النداء لتأكيد التنبيه (فألقاها) على الأرض (فإذا هى
حية تسعى) روى أنه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انتفخت
وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعباناً أخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد
انقلبت من أول الأمر ثعبانا وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل فإذا هى ثعبان مبين وإنما
شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لا فى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى إما صفة لحية أو خبر
٢١ ثان عند من يجوز كونه جملة (قال) استئناف كما سبق (خذها ولا تخف) عن ابن عباس رضى الله عنهما
انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع كل شىء من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وملكه مايملك البشر عند
مشاهدة الأهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الأمر إشعار بأن عدم المنهى عنه

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ٢٠ طه

لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٢٠ طه

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ٢٠ طه

* مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى (سنعيدها سيرتها الأولى) مع كونه استئنافا مسوق لتعليل الامتثال بالأمر والنهى فإن إعادتها إلى ما كانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها عدة كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه الصلاة والسلام وإيذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الأخذ إلى حالتها الأولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى إلى سيرتها أو على أن أعاد منقول من عاده بمعنى عاد إليه أو على الظرفية أى سنعيدها فى طريقتها أو على تقدير فعلها وإيقاعها حالا من المفعول أى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الأولى أى سائرة
٢٢ سيرتها الأولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل (واضمم يدك إلى جناحك) أمر عليه الصلاة والسلام بذلك بعد ما أخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت أى أدخلها تحت عضدك فإن جناحى الإنسان جنباه كما أن جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا جناحين لأنه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران
* وقوله تعالى (تخرج) جواب الأمر وقوله تعالى (بيضاء) حال من الضمير فيه وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بمحذوف هو حال من الضمير فى بيضاء أى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوءة عن العورة لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده
* من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تغشى البصر (آية أخرى) أى معجزة أخرى غير العصا وانتصابها على الحالية إما من الضمير فى تخرج على أنها بدل من الحال الأولى وإما من الضمير فى بيضاء وقيل من
٢٣ الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ أودونك وقوله تعالى (لنريك من آياتنا الكبرى) متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا مافعلنا من الأمر والإظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أونريك بذلك من آياتنا ماهى كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأيا ما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعاً وإما تعلقه بما دل عليه آية أى دللنابها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم أو بقوله تخرج أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى إلى عراء آية العصا عن وصف الكبر
٢٤ فتدبر (اذهب إلى فرعون) تخلص إلى ماهو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته أى اذهب إليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى (إنه طغى) تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على

قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ ٢٠ طه

وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ٢٠ طه

وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ ٢٠ طه

يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ٢٠ طه

٢٥ العظيمة التي هي دعوى الربوبية (قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعيناً بربه عز وجل
٢٦ (رب اشرح لى صدرى) (ويسر لى أمرى) لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع إلى ربه عزوجل وأظهر عجزه بقوله ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى وسأله تعالى أن يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤون الحق وأحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجاش رابط وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذى هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسر أولا وتفسيرهما ثانيا وفى تقديمهما وتكريرها إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما
٢٧ به (واحلل عقدة من لسانى) روى أنه كان فى لسانه عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة أدخلها فاه فى صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ لحيته ينتفها لما كان فيها من الجواهر فغضب وأمر بقتله فقالت آسية إنه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها فى فيه قيل واحترقت يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال إلى أى رب تدعونى قال إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى قد أوتيت سؤلك ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى هو أفصح منى وقوله تعالى ولا يكاد يبين وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة تمنع الإفهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله من لسانى أى عقدة كائنة
٢٨ من عقد لسانى وجعل قوله تعالى (يفقهوا قولى) جواب الأمر وغرضاً من الدعاء فبحلها فى الجملة يتحقق إيتاء سؤله عليه الصلاة والسلام والحق أن ما ذكر لا يدل على بقائها فى الجملة أما قوله تعالى هو أفصح منى فلأنه عليه الصلاة والسلام قاله استدعاء الحل كما ستعرفه على أن أفصحيته منه عليهما الصلاة والسلام لا تستدعى بقاءها أصلا بل تستدعى عدم البقاء لما أن الأفصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة فى المفضول أيضاً وذلك مناف للعقدة رأساً وأما قوله تعالى ولا يكاد يبين فمن باب غلو اللعين فى العتو والطغيان وإلا لدل على عدم زوالها أصلا وتنكيرها إنما يفيد قلتها فى نفسها لا قلتها باعتبار كونها بعضاً من الكثير وتعلق كلمة من فى قوله تعالى من لسانى بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فإن المحلول إذا كان

وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ ٢٠ طه

هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٢٠ طه

ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ ٢٠ طه

وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ٢٠ طه

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ ٢٠ طه

وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ٢٠ طه

متعلقاً بشيء ومتصلا به فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشيء أيضاً باعتبار إزالته عنه أو ابتداء حصوله
منه (واجعل لى وزيراً من أهلى) (هرون أخى) أى موازراً يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن ٢٩ ٣٠
اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل أو ملجأ أعتصم برأيه على أنه من الوزر وهو الملجأ وقيل أصله أزير
من الأزر بمعنى القوة فعيل بمعنى فاعل كالعشير والجليس قلبت همزته واواً كقلبها فى موازر ونصبه على
أنه مفعول ثان لاجعل قدم على الأول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء بشأن الوزارة ولى صلة للجعل
أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيراً إذ هو صفة له فى الأصل ومن أهلى إما صفة لوزيراً أو صلة لا
جعل وقيل مفعولاه لى وزيراً وهرون عطف بيان للوزير ومن أهلى كما مر من الوجهين وأخى فى الوجهين
بدل من هرون أو عطف بيان آخر وقيل هما وزيراً من أهلى ولى تبيين كما فى قوله تعالى ولم يكن له كفواً
أحد ورد بأن شرط المفعولين فى باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيراً مبتدأ وبخبر
عنه بما بعده (اشدد به أزرى) (وأشركه فى أمرى) كلاهما على صيغة الدعاء أى أحكم به قوتى واجعله ٣١ ٣٢
شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الأول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال
بينهما فإن شد الأزر عبارة عن جعله وزيراً وأما الإشراك فى الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط
بينهما العاطف (كى نسبحك كثيراً) (ونذكرك كثيراً) غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة فإن فعل فيها كل ٣٣ ٣٤
واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثراً لفعل الآخر ومضاعفاً له بسبب انضمامه إليه مكثر له
فى نفسه أيضاً بسبب تقويته وتأييده إذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو فى الخلوات
حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة
إلى الحق وذلك مما لا ريب فى اختلاف حاله فى حالتى التعدد والانفراد فإن كلا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من
إظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله فى حال الانفراد وكثيراً فى الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان
محذوف أى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التى من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه
فئته الباغية من ادعاء الشركة فى الألوهية ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيهاً

إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ٢٠ طه

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ٢٠ طه

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ٢٠ طه

إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ ٢٠ طه

كثيراً أو زماناً كثيراً من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه وأما ماقيل من أن المعنى كى نصلى
٣٥ لك كثيراً أو نحمدك ونثنى عليك فلا يساعده المقام (إنك كنت بنا بصيراً) أى عالماً بأحوالنا وبأن مادعوتك
به مما يصلحنا ويفيدنا فى تحقيق ما كلفته من إقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الرده فى أداء ما أمرت به
٣٦ والباء متعلقة ببصيراً قدمت عليه لمراعاة الفواصل (قال قد أوتيت سؤلك) أى أعطيت سؤلك فعل
بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول والإيتاء عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك
المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره إياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وإن كان وقوع
بعضها بالفعل مترقباً بعد كتيسير الأمر وشد الأزر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى
٣٧ (ياموسى) تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب إثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى (ولقد
مننا عليك) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان
أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب
له وداع أولى وأحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى وبالله لقد أنعمنا (مرة أخرى) أى فى
وقت غير هذا الوقت لا أن ذلك مؤخر عن هذا فإن أخرى تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الأصل اسم
للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد
من أفراد ماله أفراد متجددة متعددة فصار علماً فى ذلك حتى جعل معياراً لما فى معناه من سائر الأشياء
فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها ههنا الوقت الممتد الذى وقع فيه ماسيأتى
٣٨ ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى) ظرف لمننا والمراد بالإيحاء
إما الإيحا على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى وإذ أوحيت إلى الحواريين الآية وإما الإيحاء بواسطة الملك
لا على وجه النبوة كما أوحى إلى مريم وإما الإلهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل وإما الإراءة فى
المنام والمراد بما يوحى ماسيأتى من الأمر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم أولا تهويلا له وتفخيما لشأنه
ثم فسر ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ماينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به
وقيل مالا يعلم إلا بالوحى وفيه إنه لا يلائم المعنيين الأخيرين للوحى إذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون مما
لا يعلم إلا بالإلهام أو بالإراءة فى المنام .

أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾
٢٠ طه

إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا
وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ
جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
٢٠ طه

٣٩ وأن فى قوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت) مفسرة لأن الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها
الباء أى بأن اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى (فاقذفيه فى اليم) فالإلقاء وهذا التفصيل *
هو المراد بقوله تعالى فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت (فليلقه اليم بالساحل) لما كان إلقاء *
البحر إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع لتعلق الإرادة الربانية به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك
وأخرج الجواب مخرج الأمر والضمائر كلها لموسى عليه السلام والمقذوف فى البحر والملقى بالساحل وإن
كان هو التابوت أصالة لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تابعاً له فى ذلك (يأخذه عدو *
لى وعدو له) جواب للأمر بالإلقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالأمر والإشعار بأن عداوته له
مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى إلى المحبة فإن الأمر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه فى
البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفاً خفياً مندرجاً تحت قهر صورى وقيل
الأول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطىء بل ما يقابل الوسط
وهو ما يلى الساحل من البحر بحيث يجرى ماؤه إلى نهر فرعون لما روى أنها جعلت فى التابوت قطناً ووضعته
فيه ثم قيرته وألقته فى اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء إليه فأتى به إلى بركة فى البستان
وكان فرعون جالساً ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فإذا هو صبى أصبح الناس وجهاً فأحبه
عدو الله حباً شديداً لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) كلمة من متعلقة *
بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الإضافية أى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها
فى القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدو الله وآله وقيل هى متعلقة بألقيت أى
أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لا محالة وقوله تعالى (ولتصنع على عينى) متعلق بألقيت معطوف *
على علة له مضمرة أى ليتعطف عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتى وحفظى أو بمضمر مؤخر هو عبارة
عما قبله من إلقاء المحبة والجملة مبتدأة أى ولتصنع على عينى فعلت ذلك وقرىء ولتصنع على صيغة الأمر
بسكون اللام وكسرها وقرىء بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك على عين منى لئلا يخالف به عن أمرى
٤٠ (إذ تمشى أختك) ظرف لتصنع على أن المراد به وقت وقع فيه مشيها إلى بيت فرعون وما ترتب عليه من
القول والرجع إلى أمها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عينى إذ لا شفقة

أعظم من شفقة الأم وصنيعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من إذ أوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الأطراف وهو الأنسب بما سيأتى من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فإن جميع ذلك من المنن الإلهية ولا تعلق لشيء منها بالصنع المذكور وأما كونه ظرفا لألقيت كما جوز فربما يوهم أن إلقاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولا ريب فى أن معظم آثار إلقائها ظهر عند فتح التابوت (فتقول) أى لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدياً وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية (هل أدلكم على من يكفله) أى يضمه إلى نفسه ويربيه وذلك إنما يكون بقبوله ثديها يروى أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لا يرتضع ثدى امرأة واضطروا إلى تتبع النساء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ماقالت وقالوا ماقالوا فجاءت بامه فقبل ثديها فالفاء فى قوله تعالى (فرجعناك إلى أمك) فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أى فقالوا دلينا عليها فجاءت بأمك فرجعناك إليها (كى تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) أى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فإن التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد إشفاقها (وقتلت نفساً) هى نفس القبطى الذى استغاثه الإسرائيلى عليه (فنجيناك من الغم) أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالإنجاء منه بالمهاجرة إلى مدين (وفتناك فتونا) أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة أى خلصناك مرة أخرى وهو إجمال ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الإلاف والمشى راجلا وفقد الزاد وقد روى أن سعيد ابن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة ياابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطياً وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة ياابن جبير ولكن الذى يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ماوقع قبل وصوله عليه السلام إلى مدين بقيضة الفاء فى قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين) إذ لاريب فى أن الإجارة المذكورة وما بعدها إنما وقع بعد الوصول إليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ماقاساه عليه السلام فى تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأى فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثمانى مراحل من مصر (ثم جئت) إلى المكان الذى أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفى كلمة التراخى إيذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق وتفرق الغنم فى الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك (على قدر) أى تقدير قدرته لأن أكلمك وأستنبئك فى وقت قد عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة وقوله تعالى (ياموسى) تشريف له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولا .

وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٢٠ طه

ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٢٠ طه

ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ٢٠ طه

فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ٢٠ طه

٤١ وقوله تعالى (واصطنعتك لنفسى) تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون
مؤيداً بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابقة السابقة تأكيداً لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها
اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه
وترشيحه لبعض أموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ونظيريه السابقين
تمهيد لإفراد لفظ النفس اللائق بالمقام فإنه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أى اصطفيتك
٤٢ برسالاتى وبكلامى وقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك) أى وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف
* مسوق لبيان ماهو المقصود بالاصطناع (بآياتى) أى بمعجزاتى التى أريتكها من اليد والعصا فإنهما وإن
كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى فيه آيات بينات مقام إبراهيم فإن انقلاب العصا
حيواناً آية وكونها ثعباناً عظيما لا يقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى وكونه
مع ذلك مسخراً له عليه السلام بحيث كان يدخل يده فى فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى
وكذلك اليد فإن بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها إلى حالها الأولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا
للتعدية إذ المراد ذهابهما إلى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها فى إجراء أحكام الرسالة وإكمال أمر الدعوة
* لا بمجرد إذهابها وإيصالها إليه (ولا تنيا) لا تفترا ولا تقصرا وقرىء لا تنيا بكسر التاء للاتباع (فى ذكرى)
أى بما يليق بى من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتى والدعاء إلى وقيل المعنى لا تنيا فى تبليغ
رسالتى فإن الذكر يقع على جميع العبادات وهو أجلها وأعظمها وقيل لا تنسيانى حيثما تقلبتما واستمدا
٤٣ بذكرى العون والتأييد واعلما أن أمراً من الأمور لا يتأتى ولا يتسنى إلا بذكرى (اذهبا إلى فرعون)
جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون إذ ذاك للتغليب وكذا الحال فى صيغة النهى روى أنه أوحى
* إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع بإقباله فتلقاه (إنه طغى) تعليل لموجب الأمر
٤٤ والفاء فى قوله تعالى (فقولا له قولا ليناً) لترتيب مابعدها على طغيانه فإن تليين القول مما يكسر سورة
عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تعنفا فى قولكما وقيل القول اللين مثل هل
لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فإنها دعوة فى صورة عرض ومشورة ويرده ماسيجىء من قوله تعالى
فقولا إنا رسولا ربك الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ٢٠ طه

قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ٢٠ طه

فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن
رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ٢٠ طه

* عداه شباباً لا يهرم ويبقى له لذة المطعم والمشرب ومنكح وملكاً لا يزول إلا بالموت وقرىء لينا (لعله
* يتذكر) بما بلغتماه من ذكرى ويرغب فيما رغبتماه فيه (أو يخشى) عقابى ومحل الجملة النصب على الحال
من ضمير التثنية أى فقولا له قولا ليناً راجين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لمنع الخلو أى باشرا الأمر مباشرة
من يرجو ويطمع فى أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه وجدوى إرسالهما
٤٥ إليه مع العلم بحاله إلزام الحجة وقطع المعذرة (قالا ربنا) أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو
موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب إيذاناً بأصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام
له فى كل ما يأتى ويذر ويجوز أن يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما لحكى ذلك مع قول موسى عليه
السلام عند نزول الآية كما فى قوله تعالى يأيها الرسل كلوا من الطيبات فإن هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة
الجمع مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف
* باجتماعهم فى الخطاب (إننا نخاف أن يفرط علينا) أى يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الدعوة
وإظهار المعجزة من فرط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فارط يسبق الخيل وقرىء يفرط من أفرطه إذا
حمله على العجلة أى نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة
* بالعقاب (أو أن يطغى) أى يزداد طغياناً إلى أن يقول فى شأنك ما لا ينبغى لكمال جراءته وقساوته وإطلاقه
من حسن الأدب وإظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والإشعار بتحقق
٤٦ الخوف من كل منهما (قال) استئناف مبنى على السؤال الناشىء من النظم الكريم ولعل إسناد الفعل إلى
ضمير الغيبة للإشعار بانتقال الكلام من مساق إلى مساق آخر فإن ما قبله من الأفعال الواردة على صيغة
التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتى من قوله تعالى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى فإن ما قبله
أيضاً وارد بطريق الحكاية لرسول الله ﷺ كأنه قيل فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه فقيل قال
* (لا تخافا) ما توهمتماه من الأمرين وقوله تعالى (إننى معكما) تعليل لموجب النهى ومزيد تسلية لهما والمراد
* بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبىء عنه قوله تعالى (أسمع وأرى) أى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل
فأفعل فى كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر وجلب نفع وخير ويجوز أن لا يقدر شىء على معنى إننى
٤٧ حافظكما سميعاً بصيراً والحافظ الناصر إذا كان كذلك فقد تم وبلغت النصرة غايتها (فأتياه) أمرا بإتيانه
الذى هو عبارة عن الوصول إليه بعدما أمرا بالذهاب إليه فلا تكرار وهو عطف على لا تخافا باعتبار

إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ٢٠ طه

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ٢٠ طه

تعليله بما بعده (فقولا إنا رسولا ربك) أمرا بذلك تحقيقاً للحق من أول الأمر ليعرف الطاغية شأنهما *
ويبنى جوابه عليه وكذا التعرض لربوبيته تعالى له والفاء فى قوله تعالى (فأرسل معنا بنى إسرائيل) لترتيب *
مابعدها على ماقبلها فإن كونهما رسولى ربه مما يوجب إرسالهم معهما والمراد بالإرسال إطلاقهم من الأسر
والقسر وإخراجهم من تحت يده العادية لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام كما ينبىء عنه قوله تعالى (ولا *
تعذبهم) أى بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فإنهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الأعمال
الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الأحجار وغيرهما من الأمور الشاقة ويقتلون ذكور أولادهم عاما دون
عام ويستخدمون نساءهم وتوسيط حكم الإرسال بين بيان رسالتهما وبين ذكر المجىء بآية دالة على صحتها
لإظهار الاعتناء به مع ما فيه من تهوين الأمر على فرعون فإن إرسالهم معهما من غير تعرض لنفسه وقومه
بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه كل المشقة ولأن فى بيان مجىء الآية
نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما ما قيل من أن ذلك دليل على
أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان فكلا (قد جئناك بآية من ربك) تقرير لما تضمنه *
الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الإرسال فإن مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق
رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثال بأمرهما وإظهار اسم الرب فى موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير
المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها
لا بيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى قد جئتكم ببينة وقوله تعالى أولو جئتك بشىء مبين وأما قوله تعالى
فأت بآية إن كنت من الصادقين فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات (والسلام) المستتبع لسلامة الدارين *
من الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين (على من اتبع الهدى) بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى *
الحق وفيه من ترغيبه فى اتباعهما على ألطف وجه مالا يخفى (إنا قد أوحى إلينا) من جهة ربنا (أن العذاب) ٤٨
الدنيوى والأخروى (على من كذب) أى بآياته تعالى (وتولى) أى أعرض عن قبولها وفيه من التلطيف
فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه (قال) أى فرعون بعدما أتياه وبلغاه ما أمرا به ٤٩
وإنما طوى ذكره للإيجاز والإشعار بأنهما كما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به من غير تلعثم وبأن ذلك
من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به (فمن ربكما ياموسى) لم يضف الرب إلى نفسه ولو بطريق حكاية *
ما فى قوله تعالى إنا رسولا ربك وقوله تعالى قد جئناك بآية من ربك لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه إليهما
لما أن المرسل لابد أن يكون ربا للرسول أو لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا إنا رسول رب
العالمين كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود
والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولى ربهما أى إذا كنتما رسولى ربكما فأخبرا من ربكما الذى

قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ٢٠ طه

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ٢٠ طه

أرسلكما وتخصيص النداء بموسى عليه الصلاة والسلام مع توجيه الخطاب إليهما لما أنه الأصل فى الرسالة وهرون وزيره وأما ماقيل من أن ذلك لأنه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رتة فأراد أن يفحمه فيرده ماشاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأماقوله ولا يكاد
٥٠ يبين فمن غلوه فى الخبث والدعارة كما مر (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام مجيباً له (ربنا) إما مبتدأ
وقوله تعالى (الذى أعطى كل شىء خلقه) خبره أو هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته وأياً ما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقاً للحق ورداً عليه كما يفصح عنه مافى حيز الصلة أى هو ربنا الذى أعطى كل شىء من الأشياء خلقه أى صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شىء تحتاج هى إليه وترتفق به وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالفرس والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيئاً من ذلك بخلاف جنسه وقرىء خلقه على صيغة الماضى على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه وحذف المفعول الثانى إما للاقتصار على الأول أى كل شىء خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وإنعامه أو للاختصار من كونه منوياً مدلولا عليه بقرينة الحال أى أعطى كل شىء
خلقه الله تعالى مايحتاج إليه (ثم هدى) أى إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله إما اختياراً كما فى الحيوانات أو طبعاً كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدماً على الهداية التى هى عبارة عن إبداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام وسط بينهما كلمة التراخى ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين أنه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعم عليها بجميع مايليق بها بطريق التفضل وضمنه أن إرساله تعالى إلى الطاغية من جملة هداياته تعالى إياه بعد أن هداه إلى
٥١ الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة (قال فما بال القرون الأولى) لما شاهد اللعين مانظمه عليه الصلاة والسلام فى سلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه الصلاة والسلام وبطلان خرافات نفسه ظهوراً بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه إلى مالا يعنيه من الأمور التى لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات ويشغله عماهو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك إلى أن يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والأمم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فأجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وإنما علمها عند الله عز وجل وأما ماقيل من أنه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٢٠ طه
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا
بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ٢٠ طه

٥٢ قوله تعالى (قال علمها عند ربى) فإن معناه أنه من الغيوب التى لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما أنا عبد لا أعلم
منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ولو كان المسؤول عنه ما ذكر من الشقاوة والسعادة
لأجيب ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى والسلام
الآيتين (فى كتاب) أى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره
فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى (لا يضل ربى ولا ينسى) أى
أى لا يخطىء ابتداء ولا يذهب علمه بقاء بل ثابت أبداً فإنهما محالان عليه سبحانه وهو على الأول لبيان
أن إثباته فى اللوح ليس لحاجته تعالى إليه فى العلم به ابتداء أو بقاء وإظهار ربى فى موقع الإضمار للتلذذ
بذكره ولزيادة التقرير والإشعار بعلة الحكم فإن الربوبية مما يقتضى عدم الضلال والنسيان حتما ولقد
أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع
أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤونه تعالى ثم تخلص إليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل
٥٣ لما سيأتى من الالتفات (الذى جعل لكم الأرض مهداً) على أن الموصول إما مرفوع على المدح أو منصوب
عليه أو خبر مبتدأ محذوف أى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها أو ذات مهد وهو مصدر سمى به المفعول
وقرىء مهاداً وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أى جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم
* (وسلك لكم فيها سبلا) أى حصل لكم طرقا ووسطها بين الجبال والأودية والبرارى تسلكونها من
* قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها (وأنزل من السماء ماء) هو المطر (فأخرجنا
به) أى بذلك الماء وهو عطف على أنزل داخل تحت الحكاية وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه
من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره
وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة كما فى قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً
ألوانها وقوله تعالى أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة
خلا أن ما قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فأخرجنا
به هو المحكى مع كون ما قبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ
* الالتفات لعدم اتحاد المتكلم (أزواجا) أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض (من نبات)
* بيان أو صفة لأزواجا أى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى (شتى) أى متفرقة جمع شتيت ويجوز أن يكون
صفة لنبات لما أنه فى الأصل مصدر يستوى فيه الواحد والجمع يعنى أنها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة
والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضها للبهائم فإن من تمام نعمته تعالى

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ٢٠ طه

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ٢٠ طه

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ٢٠ طه

أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الأنعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما
٥٤ لهم وقوله تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول أى أخرجنا منها
أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين فى ذلك (إن
فى ذلك) إشارة إلى ماذكر من شئونه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته
فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى (لآيات) للتفخيم كما وكيفاً أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على
شئون الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام (لأولى
النهى) جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله
وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الأباطيل التى من جملتها ما يدعيه الطاغية ويقبله منه فئته
٥٥ الباغية وتخصيص كونها آيات بهم مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها (منها خلقناكم) أى
فى ضمن أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام منها فإن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة
والسلام إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت أنموذجاً منطوياً على
فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً مستتبعاً لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام
منها خلقاً للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض بوسائط
وقيل إن الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من
التراب والنطفة (وفيها نعيدكم) بالإماتة وتفريق الأجزاء وإيثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار
المديد فيها (ومنها نخرجكم تارة أخرى) بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد
الأرواح إليها وكون هذا الإخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها وإن
لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الأصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم أطلق على كل فعلة
٥٦ واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة (ولقد أريناه) حكاية إجمالية لما جرى بين موسى عليه الصلاة
والسلام وبين فرعون إثر حكاية ماذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نعمائه الداعية له إلى قبول الحق
والانقياد له وتصديرها بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها وإسناد الإراءة إلى نون العظمة نظراً إلى
الحقيقة لا إلى موسى نظر إلى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى
المكابرة والعناد أى وبالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه (آياتنا) حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام إن
كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين
وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الأمور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ٢٠ طه

حسبما بين فى تفسير قوله تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتى وقدظهر عندفرعون أمور أخر كل واحد منها داهية دهياء فإنه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلبت ثعباناً أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعاوضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك إلا أخذته فأخذه فعادعصا وروى أنها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده من جيبه فإذا هى بيضاء بياضاً نورانياً خارجا عن حدود العادات قد غلب شماعه شماع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى (كلها) ﴿ كأنه قيل أريناه آيتينا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصداً إلى بيان أنه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما أنها إنما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ماغلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الأعراف ولا ريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ماجعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلق البحر وماظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى إسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا أن يعد منها الآيات الظاهرة على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون فى حكم إظهارها بين يديه وإراءته إياها لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فإن حكايته عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون مما لم يجر ذكره ههنا على أن ماسيأتى من حمل ما أظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه إباء بينا وينطق بأن المراد بها ماذكرناه قطعاً ولولا ذلك لجاز جعل مافصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات (فكذب) موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد ﴿ وتأخر مع ما شاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحوداً وعناداً (وأبى) الإيمان والطاعة لعتوه ﴿ واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعاً وأبى أن يقبل شيئاً منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى (قال أجئتنا ٥٧
لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإبائه والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجىء إما على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدى له أى أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعدما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر فإن ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وإنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام بإبراز أن مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد ويبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ما أظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحراً لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى أنه يعارضه

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ٢٠ طه

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ٢٠ طه

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ٢٠ طه

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ٢٠ طه

٥٨ بمثل ما أتى به عليه الصلاة والسلام فقال (فلنأتينك بسحر مثله) الفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها واللام
جواب قسم محذوف كأنه قيل إذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك
موعداً) أى وعدا كما ينبىء عنه وصفه بقوله تعالى (لانخلفه) فإنه المناسب لا المكان والزمان أى لانخالف
ذلك الوعد (نحن ولا أنت) وإنما فوض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن
نسبته إلى ضعف القلب وضيق المجال وإظهار الجلادة وإراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب
آلات المغالبة طال الأمد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة
النفى بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف وأن عدم إخلافه لا يوجب إخلافه عليه الصلاة والسلام
ولذلك أكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب (مكانا سوى) بفعل يدل عليه المصدر لا به فإنه موصوف أو أنه
٥٩ بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف إليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى (قال موعدكم
يوم الزينة) من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو بإضمار
مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرىء يوم بالنصب
وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفاً تستوى مسافته إلينا وإليك وهو فى النعت كقولهم
قوم عدى فى الشذوذ وقرىء بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان
لهم فى كل عام وإنما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لإظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم
مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم
مشهود على رءوس الأشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد (وأن يحشر الناس ضحى) عطف على يوم
أو يوم الزينة وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون وبالياء على أن الضمير له على سنن الملوك
٦٠ أو لليوم (فتولى فرعون) أى انصرف عن المجلس (فجمع كيده) أى ما يكاد به من السحرة وأدواتهم
(ثم أتى) أى الموعد ومعه ماجمعه من كيده وفى كلمة التراخى إيماء إلى أنه لم يسارع إليه بل أتاه بعد لأى
٦١ وتلعثم وقوله تعالى (قال لهم موسى) الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب من
أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج إلى السؤال والبيان ليس إلا ما صدر عنه عليه الصلاة
والسلام من الكلام وأما إتيانه أولا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه الصلاة
والسلام عند إتيان فرعون بما جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة (ويلكم لا تفتروا على الله

فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ ٢٠ طه

قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ

ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ٢٠ طه

كذباً) بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدى سحراً كما فعل فرعون (فيسحتكم) أى يستأصلكم بسببه *
(بعذاب) هائل لا يقادر قدره وقرىء يسحتكم من الثلاثى على لغة أهل الحجاز والإسحات لغة بنى تميم
ونجد (وقد خاب من افترى) أى على الله كائناً من كان بأى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا *
أولياً أو وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها
٦٢ (فتنازعوا) أى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا (أمرهم)
الذى أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا (بينهم) فى كيفية المعارضة وتجاذبوا
أهداب القول فى ذلك (وأسروا النجوى) أى من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه
٦٣ وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى (قالوا) أى بطريق التناجى والإسرار (إن هذان لساحران) الخ فإنه
تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة مااستقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وإن مخففة من أن قد
أهملت عن العمل واللام فارقة وقرىء بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى إلا أى ماهذان إلا
ساحران وقرىء إن بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث بن كعب فإنهم يعربون التثنية تقديراً وقيل
اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل إن بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدأ وخبر
وفيهما أن اللام لا تدخل خبر المبتدأ وقيل أصله أنه هذان لهما ساحران لحذف الضمير وفيه أن المؤكد
باللام لا يليق به الحذف وقرىء إن هذين لساحران وهى قراءة واضحة (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) *
أى أرض مصر بالاستيلاء عليها (بسحرهما) الذى أظهراه من قبل (ويذهبا بطريقتكم المثلى) أى بمذهبكم *
الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما يريدون به ماكان عليه قوم فرعون
لا طريقة السحر فإنهم ما كانوا يعتقدونه ديناً وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل لقول موسى
عليه الصلاة والسلام أرسل معنا بنى إسرائيل وكانوا أرباب علم فيما بينهم ويأباه أن إخراجهم من أرضهم
إنما يكون بالاستيلاء عليها تمكناً وتصرفاً فكيف يتصور حينئذ نقل بنى إسرائيل إلى الشام وحمل الإخراج
على إخراج بنى إسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن هذه
المقالة منهم للإغراء بالمبالغة فى المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلابد أن يكون الإنذار والتحذير بأشد المكاره
وأشقها عليهم ولا ريب فى أن إخراج بنى إسرائيل من بينهم والذهاب بهم إلى الشام وهم آمنون فى ديارهم
ليس فيه كثير محذور وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لما أنهم قدوة لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص
الإذهاب بهم مما لا مزية فيه .

فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ٢٠ طه

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ ٢٠ طه

٦٤ وقوله تعالى (فأجمعوا كيدكم) تصريح بالمطلوب إثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة أى إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين يريد أن بكم ما ذكر من الإخراج والإذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرىء فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى فجمع كيده أى فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى (ثم ائتوا صفاً) أى مصطفين أمروا بذلك لأنه أهيب فى صدور الرائين وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه إقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان من القبط والباقى من بنى إسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الإسكندرية وقيل خمسة عشر ألفاً وقيل بضعة وثلاثين ألفاً والله أعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعاً خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر فى قطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر منه ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الأعياد والصلوات ووجه صحته أن يكون علماً لموضع معين من المكان الموعود وأما إرادة مصلى من مصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعاً وقوله تعالى (وقد أفلح اليوم من استعلى) اعتراض تذييلى من قبلهم مؤكد لما قبله من الأمرين أى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال نعم وإنكم لمن المقربين وبمن غلب أنفسهم جميعاً على طريقة قولهم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون أو من غلب منهم حثاً لهم على بذل المجهود فى المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم وقد قيل كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ما هذا بقول ساحر وقيل كان ذلك أن قالوا إن غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر فيكون إسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحمل قولهم إن هذان لساحران الخ على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا إلا المناصبة للمعارضة وأما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على أنهم قالوا ذلك للسحرة رداً لهم عن الاختلاف وأمروهم بالإجماع والإزماع وإظهار الجلادة بالإتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم
٦٥ كما يشهد به الذوق السليم (قالوا) استئناف مبنى على سؤال ناشىء من حكاية ما جرى بين السحرة من المقاولة كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا فقيل قالوا (يا موسى) وإنما لم يتعرض لإجماعهم وإتيانهم بطريق الاصطفاف إشعاراً بظهور أمرهما وغناهما عن البيان (إما أن تلقى) أى ما تلقيه أولاً على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الإلقاء أولاً على أن الفعل منزل منزلة اللازم (وإما أن نكون أول من ألقى) ما يلقيه أو أول من يفعل الإلقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للأدب لما رأوا

قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ٢٠ طه

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ٢٠ طه

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ٢٠ طه

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ٢٠ طه

منه عليه الصلاة والسلام ماراوا من مخايل الخير ورزانة الرأى وإظهاراً للجلادة بإراءة أنه لايختلف حالهم
بالتقديم والتأخير وأن مع مافى حيزها منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية مبتدأ محذوف أى اختر
٦٦ إلقاءك أولا أو إلقاءنا أو الأمر إما إلقاؤك أو إلقاؤنا (قال) استئناف كما سلف ناشىء من حكاية تخيير
* السحرة إياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال (بل ألقوا) أنتم
أولا مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم حيث بت القول بإلقائهم أولا وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم
ومساعدة لما أوهموا من الميل إلى البدء وليبرزوا ما معهم ويستفرغوا أقصى جهدهم ويستنفدوا قصارى
وسعهم ثم يظهر الله عزوجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ماسيظهر بيده سيلقف
* مايصنعون من مكايد السحر (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) الفاء فصيحة معربة
عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فألقوا فإذا حبالهم وهى
للمفاجأة والتحقيق أنها أيضاً ظرفية تستدعى متعلقاً ينصبها وجملة تضاف إليها لكنها خصت بكون متعلقها
فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل إليه سعى
حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت
فخيل إليه أنها تتحرك وقرىء تخيل بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعصى وإبدال أنها تسعى منه بدل
٦٧ اشتمال وقرىء يخيل بإسناده إليه تعالى وقرىء تخيل بحذف إحدى التاءين من تتخيل (فأوجس فى نفسه
خيفة موسى) أى أضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات
والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلايتبعوه وليس بذاك كما
٦٨ ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل (قلنا لاتخف) أى ماتوهمت (إنك أنت الأعلى) تعليل لما يوجبه
النهى من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف
٦٩ التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبىء عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل (وألق
مافى يمينك) أى عصاك كما وقع فى سورة الأعراف وإنما أوثر الإبهام تهويلا لأمرها وتفخيما لشأنها
وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر أفراد
الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر فى موضع آخر
لايستدعى عدم مراعاتها عند وقوع المحكى هذا وحمل الإبهام على التحقير بأن يراد لاتبال بكثرة حبالهم

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ٢٠ طه

وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك فإنه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى إنما يليق بما لو فعلت العصا مافعلت وهى على هيئتها الأصلية وقدكان منها ما كان وقوله تعالى (تلقف ماصنعوا) بالجزم جواباً للأمر من لقفه إذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ماعبارة عن العصا أى تبتلع ماصنعوه من الحبال والعصى التى خيل إليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير وقرىء تلقف بتشديد القاف وإسقاط إحدى التاءين من تتلقف وقرىء بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الأمرية معطوفة على النهى متممة بما فى حيزها التعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فإن ابتلاع عصاه لأباطيلهم التى منها أوجس فى نفسه ما أوجس مما يقلع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح فى أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام وإلا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب إيمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (إن ماصنعوا) الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ماصنعوا وما إما موصولة أو موصوفة أى إن الذى صنعوه أو إن شيئاً صنعوه (كيد ساحر) بالرفع على أنه خبر لأن أى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به إلى تنكير ما أضيف إليه للتحقير وقرىء بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرىء كيد سحر على أن الإضافة للبيان كما فى علم فقه أو على معنى ذى سحر أو على تسمية الساحر سحراً مبالغة وقوله تعالى (ولا يفلح الساحر) أى هذا الجنس (حيث أتى) أى حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة إلهية مع ما فى ذلك من تقوية التعليل للإيذان بظهور أمرها والفاء فى قوله تعالى (فألقى السحرة سجداً) كما سلف

٧٠ فصيحة معربة عن محذوفين ينساق إليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالأمر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود أى فألقاه عليه السلام فوقع ماوقع من اللقف فألقى السحرة سجداً لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وإنما هى آية من آيات الله عز وجل روى أن رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع القادر العالم وبظهور ذلك على يد موسى عليه الصلاة والسلام على صحة رسالته لاجرم ألقاهم ماشاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجداً أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لأن كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم (قالوا) استئناف كما مر غير مرة (آمنا برب هرون وموسى) تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضاً هكذا إما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام وإما للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ٢٠ طه
قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ٢٠ طه

أن مرادهم فرعون (قال) أى فرعون للسحرة (آمنتم له) أى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين ٧١
الفعل معنى الاتباع وقرىء على الاستفهام التوبيخى (قبل أن آذن لكم) أى من غير أن آذن لكم فى الإيمان له
كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن إذنه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع (إنه) يعنى
موسى عليه الصلاة والسلام (لكبيركم) أى فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم (الذى علمكم السحر) فتواطأتم
على ما فعلتم أو فعلكم شيئاً دون شىء فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين وألقاها على قومه وأراهم أن أمر
الإيمان منوط بإذنه فلما كان إيمانهم بغير إذنه لم يكن معتداً به وأنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام
فلا عبرة بما أظهره كما لا عبرة بما أظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الإيمان
بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال (فلأقطعن) أى فوالله لأقطعن (أيديكم وأرجلكم من
خلاف) أى اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كأن القطع ابتداء من مخالفة العضو العضو فإن المبتدىء
من المعروض مبتدىء من العارض أيضاً وهى مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية أى لأقطعنها مختلفات
وتعيين تلك الحال للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لا لأنها
أفظع من غيرها (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى عليها وإيثار كلمة فى للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً
تشبيهاً لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف فى الظرف المشتمل عليه قالوا وهو أول من صلب وصيغة
التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف (ولتعلمن أينا) يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام
لقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم واللام مع الإيمان فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا إما لقصد توضيع
موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لأنه لم يكن من التعذيب فى شىء وإما لإرادة أن إيمانهم لم يكن عن
مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع
عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضاً وقيل يريد به رب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا برب
هرون وموسى (أشد عذاباً وأبقى) أى أدوم (قالوا) غير مكترثين بوعيده (لن نؤثرك) لن نختارك ٧٢
بالإيمان والاتباع (على ما جاءنا) من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام (من البينات) من المعجزات
الظاهرة فإن ما ظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيما سلف
فإنهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها (والذى فطرنا) أى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ما جاءنا
وتأخيره لأن ما فى ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة وإيراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى
لهم للإشعار بعلة الحكم فإن خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم إيثارهم له عليه

إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ٢٠ طه

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ٢٠ طه

وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ٢٠ طه

سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أى وحق الذى فطرنا لا نؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جواباً له عند من يجوز تقديم الجواب أيضاً لما أن القسم لا يجاب بلن إلا على شذوذ وقوله تعالى (فاقض ما أنت قاض) جواب عن تهديده بقوله لأقطعن الخ أى فاصنع ماأنت صانعه أو فاحكم ما أنت حاكم به وقوله تعالى (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) مع مابعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الأمر بالقضاء أى إنما تصنع ماتهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب وما لنا من رغبة فى عذبها ولا رهبة

٧٣ من عذابها (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التى اقترفنا فيها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى (وما أكرهتنا عليه من السحر) عطف على خطايانا أى ويغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه الصلاة والسلام بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى خطاياهم إظهاراً لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الإكراه على تعلم السحر حيث روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل إنه أكرههم على المعارضة حيث روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (والله خير) أى فى حد ذاته وهو ناظر إلى قولهم والذى

٧٤ فطرنا (وأبقى) أى جزاء ثواباً كان أو عذاباً أو خير ثواباً وأبقى عذاباً وقوله تعالى (إنه) إلى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيراً وأبقى جزاء وتحقيق له وإبطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع مافيه من زيادة التقرير فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل إن الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى (من يأت ربه مجرما) بأن مات على الكفر والمعاصى (فإن له جهنم لا يموت فيها) فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون

٧٥ عذابه أبقى (ولا يحيا) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمناً) به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ماشاهدناه (قد عمل الصالحات) الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لا تذكر غالباً مع

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ٢٠ طه
وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا
وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾
٢٠ طه

الموصوف وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل (فأولئك) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات (لهم) بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة (الدرجات العلى) أى المنازل الرفيعة وليس فيه مايدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقاً وهل التشاجر إلا فيه (جنات عدن) بدل من الدرجات العلى أو بيان وقد مر أن عدنا علم لمعنى الإقامة أو لأرض ٧٦
الجنة فقوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) حال من الجنات وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الإشارة (وذلك) إشارة إلى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم (جزاء من تزكى) أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه رداً على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذاباً وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم
يثبت فى الأخبار (ولقد أوحينا إلى موسى) حكاية إجمالية لما انتهى إليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى ٧٧
البين ذكر ما جرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الأعراف وتصديرها بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى (أن أسر بعبادى) إما مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف *
عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباداً له تعالى لإظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل أى وبالله لقد أوحينا إليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لإنقاذهم من ملكة فرعون أى سربهم من
مصر ليلا (فاضرب لهم) أى فاجعل أو فاتخذ لهم (طريقاً فى البحر يبساً) أى يابساً على أنه مصدر وصف *
به الفاعل مبالغة وقرىء يبساً وهو إما مخفف منه أو وصف كصعب أو جمع يابس كصحب وصف به
الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الأسباط (لاتخاف دركا) حال من المأمور أى آمنا من أن يدرككم *
العدو أو صفة أخرى لطريقاً والعائد محذوف وقرىء لاتخف جواباً للأمر (ولا تخشى) عطف على *
لاتخاف داخل فى حكمه أى ولا تخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لاتخشى أو عطف عليه والألف للإطلاق كما فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة إلى إزاحة

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ٢٠ طه

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ٢٠ طه

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ ٢٠ طه

٧٨ ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا إنا لمدركون (فأتبعهم فرعون بجنوده) أى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال أتبعتهم أى تبعتهم وذلك إذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده أنه قرئ فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم فرعون جنوده أى سائقهم خلفهم وأياً ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وإيذاناً بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال بالأمر أى ففعل ما أمر به من الإسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم فرعون بجنوده براً وبحراً روى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفاً فأخبر فرعون بذلك فأتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة ألف فقص أثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقاً كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده (فغشيهم من اليم ماغشيهم) أى علاهم منه وغمرهم ماغمرهم من الأمر الهائل الذى لايقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ماسمعت قصته وليس بذاك فإن مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لاسماع قصته وقرىء فغشاهم من اليم ماغشاهم أى غطاهم ماغطاهم والفاعل هو

٧٩ الله عز وعلا أو ماغشاهم وقيل فرعون لأنه الذى ورطهم للهلكة ويأباه الإظهار فى قوله تعالى (وأضل فرعون قومه) أى سلك بهم مسلكا أداهم إلى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معاً حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الأخروى وقوله تعالى (وماهدى) أى ما أرشدهم قط إلى طريق موصل إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لإضلاله وتأكيد له إذ رب مضل قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم إلا سبيل الرشاد فإن نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم وحمل الإضلال والهداية على مايختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوى وجعلهما عبارة عن الإضلال

٨٠ فى البحر والإنجاء منه مما لايقبله العقل السليم (يابنى إسرائيل) حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد إغراق فرعون وقومه وإنجائهم منهم لكن لاعقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو إنشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى ﷺ على معنى أنه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبعاً ويرده ماسيأتى من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الإنشاء فالوجه

كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ٢٠ طه

وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ٢٠ طه

وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ٢٠ طه

هو الحكاية بتقدير قلنا عطفاً على أوحينا أى وقلنا يابنى إسرائيل (قد أنجينا كم من عدوكم) فرعون وقومه * حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وقرىء نجيناكم ونجيتكم (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) بالنصب على أنه صفة للمضاف وقرىء بالجر للجوار أى واعدناكم * بواسطة نبيكم إتيان جانبه الأيمن نظراً إلى السالك من مصر إلى الشام أى إتيان موسى عليه الصلاة والسلام المناجاة وإنزال التوراة عليه ونسبت المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظراً إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم وإيفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المخلوق المصور بالذات هو آدم عليه الصلاة والسلام وقرىء واعدتكم ووعدناكم (ونزلنا عليكم المن والسلوى) أى الترنجبين والسمانى حيث كان ينزل عليهم المن وهم * فى التيه مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السماء فيذبح الرجل منه
٨١ ما يكفيه كما مر مراراً (كلوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان إباحة ماذكر لهم وإتماما للنعمة عليهم (من طيبات مارزقناكم) أى من لذائذه أو حلالاته وقرىء رزقتكم وفى البدء بنعمة الإنجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب مالا يخفى (ولا تطغوا فيه) أى فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدى لما حد لكم فيه كالسرف والبطر والمنع من المستحق (فيحل عليكم غضبى) جواب للنهى أى فتلزمكم عقوبتى وتجب لكم من حل الدين إذا وجب أداؤه (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى تردى
٨٢ وهلك وقيل وقع فى الهاوية وقرىء فيحل بضم الحاء من حل يحل إذا نزل (وإنى لغفار لمن تاب) من الشرك والمعاصى التى من جملتها الطغيان فيما ذكر (وآمن) بما يجب الإيمان به (وعمل صالحاً) أى عمل صالحاً مستقيما عند الشرع والعقل وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والإيمان وقوله تعالى (ثم اهتدى) أى استقام على الهدى إشارة إلى أن من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخى
٨٣ الرتبى (وما أعجلك عن قومك ياموسى) حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة أى وقلنا له أى شىء أعجلك منفرداً عن قومك وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لإنكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأموراً باستصحابهم وإحضارهم معه لا لإنكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولى العزم ولذلك أجاب عليه

قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ٢٠ طه

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ٢٠ طه

فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ
ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ٢٠ طه

٨٤ الصلاة والسلام بنفى الانفراد المنافى للاستصحاب والمعية حيث (قال هم أولاء على أثرى) يعنى أنهم معى وإنما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت أنها لاتخل بالمعية ولا تقدح فى الاستصحاب فإن ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلا وبعد ماذكر عليه الصلاة والسلام أن تقدمه ذلك ليس لأمر منكر ذكر أنه لأمر مرضى حيث قال (وعجلت إليك رب لترضى) عنى بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك واعتنائى بالوفاء بعهدك

٨٥ وزيادة رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة فى قبول العذر (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر فى وروده على صيغة الغائب لا أنه التفات من التكلم إلى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم كأنه قيل من جهة السامعين فماذا قال له ربه حينئذ فقيل قال (فإنا قد فتنا قومك من بعدك) أى ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون عليه الصلاة والسلام وكانوا ستمائة ألف مانجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً والفاء لترتيب الإخبار بما ذكر من الابتلاء على إخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن لا لأن الإخبار بها سبب موجب للإخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما إلى الآخر من حيث إن مدار الابتلاء المذكور عجلة القوم فإنه روى أنهم أقاموا على ماوصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا أثر (وأضلهم السامرى) حيث كان هو المدبر فى الفتنة فقال لهم إنما أخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ما كان فأخبره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام إما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ومشيئته وإما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما فى قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونظائره أو لأن السامرى كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مبانيها وتمهيد مباديها فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها وقرىء وأضلهم السامرى على صيغة التفضيل أى أشدهم ضلالا لأنه ضال ومضل والسامرى منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجاً من كرمان وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً قد أظهر الإسلام وكان من قوم

٨٦ يعبدون البقر (فرجع موسى إلى قومه) عند رجوعه المعهود أى بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة لاعقيب الإخبار بالفتنة فسببية ماقبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى

قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ ٢٠ طه

(غضبان أسفاً) لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلة عليه حقيقة فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر ۞ مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار بالفتنة كما إذا قلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فإن أحداً لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم إثر الدعاء وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع والأسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال) استئناف ۞ مبنى على سؤال ناشىء من حكاية رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال (ياقوم ألم يعدكم ربكم ۞ وعداً حسناً) بأن يعطيكم التوراة فيها مافيها من النور والهدى والهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أى وعدكم بحيث لا سبيل لكم إلى إنكاره والفاء فى قوله تعالى (أفطال ۞ عليكم العهد) أى الزمان للعطف على مقدر والهمزة لإنكار المعطوف ونفيه فقط أى أوعدكم ذلك فطال زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه (أم أردتم أن يحل) أى يجب (عليكم غضب) شديد لا يقادر قدره كائن ۞ (من ربكم) أى من مالك أمركم على الإطلاق (فأخلفتم موعدى) أى وعدكم إياى بالثبات على ما أمرتكم ۞ به إلى أن أرجع من الميقات على إضافة المصدر إلى مفعوله القصد إلى زيادة تقبيح حالهم فإن إخلافهم الوعد الجارى فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث إضافته إليه عليه السلام أشنع منه من حيث إضافته إليهم والفاء لترتيب مابعدها على كل واحد من شقى الترديد على سبيل البدل كأنه قيل أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمداً وأما جعل الموعد مضافا إلى فاعله وحمل إخلافه على معنى وجدان الخلف فيه أى فوجدتم الخلف فى موعدى لكم بالعود بعد الأربعين

فمالا يساعده السياق ولا السياق أصلا (قالوا ماأخلفنا موعدك) أى وعدنا إياك الثبات على ماأمرتنا به ٨٧
وإيثاره على أن يقال موعدنا على إضافة المصدر إلى فاعله لما مر آنفاً (بملكنا) أى بأن ملكنا أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامرى ماسوله مع مساعدة بعض الأحوال لما أخلفناه وقرىء بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات فى مصدر ملكت الشىء (ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم) استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ وقرىء حملنا بالتخفيف أى حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها إليهم عند الخروج مخافة أن يقفوا على أمرهم وقيل هى ماألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوها ولعل تسميتهم لها أوزاراً لأنها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحل حينئذ (فقذفناها) أى فى النار رجاء للخلاص عن ذنبها (فكذلك) أى فمثل ذلك القذف (ألقى السامرى) أى ماكان معه منها وقد كان أراهم أنه أيضاً يلقى ماكان معه من الحلى فقالوا ماقالوا على زعمهم وإنما كان الذى ألقاه التربة التى أخذها من أثر الرسول كما سيأتى روى أنه قال لهم إنما تأخر موسى عنكم لما معكم من الأوزار فالرأى أن نحفر

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ٢٠ طه

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ٢٠ طه

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ٢٠ طه

٨٨ حفيرة ونسجر فيها ناراً ونقذف فيها كل ما معنا ففعلوا (فأخرج) أى السامرى (لهم) للقائلين (عجلا) من تلك الحلى المذابة وتأخيره مع كونه مفعولا صريحاً عن الجار والمجرور لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم فإن قوله تعالى (جسداً) أى جثة ذا دم ولحم أو جسداً من ذهب لا روح له بدل منه وقوله تعالى (له خوار) أى صوت عجل نعت له (فقالوا) أى السامرى ومن افتتن به أول ما رآه (هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصداً إلى زيادة تقريرها ثم ترتيب الإنكار عليها لا من جهة القائلين وإلا لقيل فأخرج لنا والحمل على أن عدولهم إلى ضمير الغيبة لبيان أن الإخراج والقول المذكورين للكل لا للعبادة فقط خلاف الظاهر مع أنه مخل باعتذارهم فإن مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الإخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وأن نسبة الإخلاف إلى أنفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ما وجد الإخلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى ما فعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة

٨٩ ازدياد الفتنة فيقضى بفساده سياق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (أفلا يرون) الخ إنكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعاً وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذه إلهاً والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا يتفكرون فلا يعلمون (أن لا يرجع إليهم قولا) أى أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً فكيف يتوهمون أنه إله وقرىء يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فإن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه إليهم قولا من الأقوال وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه أمراً عدمياً للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى (ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً) عطف على لا يرجع داخل معه فى حيز الرؤية أى أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً

٩٠ أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه أو ينفعهم إن عبدوه (ولقد قال لهم هرون من قبل) جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الإنكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول إثر بيان مكابرتهم لقضية

قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ٢٠ طه

قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ ٢٠ طه

أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ٢٠ طه

المعقول أى و بالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الأمر من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم
وخطابه إياهم بما ذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع
من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم (ياقوم إنما فتنتم به) أى أوقعتم فى الفتنة *
بالعجل أو أضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة إنما إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذى
يدعيه القوم لا إلى قيده المذكور بالقياس إلى قيد آخر على معنى إنما فعل بكم الفتنة لا الإرشاد إلى الحق
لا على معنى إنما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى (وإن ربكم الرحمن) بكسر إن عطفاً على إنما إرشاد لهم *
إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق كما أن
التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى إن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء
فى قوله تعالى (فاتبعونى) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين أى إذا كان الأمر كذلك فاتبعونى *
٩١ فى الثبات على الدين (وأطيعوا أمرى) هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه (قالوا) فى جواب هرون عليه
السلام (لن نبرح عليه) على العجل وعبادته (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع إلينا موسى) جعلوا رجوعه
عليه السلام إليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه
السلام بل بطريق التعليل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجع بشىء مبين تعويلا
على مقالة السامرى روى أنهم لما قالوا اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفاً وهم الذين لم يعبدوا
العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا
٩٢ معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من
حكاية جوابهم لهرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى لهرون عليهما السلام حين سمع جوابهم له
وهل رضى بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه (ياهرون
٩٣ مامنعك إذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء (أن لا تتبعن)
أى أن تتبعنى على أن لا مزيدة وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل فى إذ أى أى شىء منعك حين رؤيتك
لضلالهم من أن تتبعنى فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ما حملك على أن لا تتبعنى فإن
المنع عن الشىء مستلزم للحمل على مقابله وقيل ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك
مزجرة لهم وفيه أن نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجرهم مفارقته إياهم
عنه أولى والاعتذار بأنهم إذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا
عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه إلى حين رجوعه عليه السلام

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ٢٠ طه

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ٢٠ طه

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ ٢٠ طه

* (أفعصيت أمرى) أى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فإن قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للأمر بهما حتما فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضراً والهمزة
٩٤ للإنكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم تتبعنى أو أخالفتنى فعصيت أمرى (قال يا ابن أم) خص الأم بالإضافة استعطافاً لحقها وترقيقاً لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأم فإن الجمهور
* على أنهما كانا شقيقين (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى ولا بشعر رأسى روى أنه عليه السلام أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديداً متصلباً فى كل شىء
* فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ففعل ما فعل وقوله تعالى (إنى خشيت) الخ استئناف سيق لتعليل موجب النهى ببيان الداعى إلى ترك المقاتلة وتحقيق أنه غير عاص لأمره بل ممتثل به أى إنى خشيت لو قاتلت
* بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا (أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل) برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبىء عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق الذى
* لا يرجى بعده الاجتماع (ولم ترقب قولى) يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى وأصلح الخ يعنى إنى رأيت أن الإصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم إلى أن ترجع إليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للأمر حسبما رأيت لا سيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى إن القوم
٩٥ استضعفونى وكادوا يقتلوننى (قال) استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخاً له هذا شأنهم (فما خطبك يا سامرى) أى ما شأنك وما مطلوبك بما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به
٩٦ وبما صنعه من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم (قال) أى السامرى مجيباً له عليه السلام (بصرت بما لم يبصروا به) بضم الصاد فيهما وقرىء بكسرها فى الأول وفتحها فى الثانى وقرىء بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه أى علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت ما لم يروه وهو الأنسب بما سيأتى من قوله وكذلك سولت لى نفسى لا سيما على القراءة بالخطاب فإن ادعاء علم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية ما لم يره

قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَامِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ
ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ٢٠ طه

عليه السلام فإنها مما يقع بحسب ما يتفق وقد كان رأى أن جبريل عليه السلام جاء راكباً فرساً وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات فى الحال فعرف أن له شأناً فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى (فقبضت قبضة من أثر الرسول) وقرىء من أثر فرس الرسول أى من تربة موطىء فرس الملك الذى أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور ولعل ذكره بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على مالم يقف عليه القوم من الأسرار الإلهية تأكيداً لما صدر به مقالته والتنبيه على وقت أخذ ما أخذه والقبضة المرة من القبض أطلقت على المقبوض مرة وقرىء بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرىء فقبصت قبصة بالصاد المهملة والأول للأخذ بجميع الكف والثانى بأطراف الأصابع ونحوهما الخضم والقضم (فنبذتها) أى فى الحلى المذابة فكان ما كان (وكذلك سولت لى نفسى) أى ما فعلته من القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل كذلك فى الأصل النصب على أنه مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت لى نفسى تسويلا كائناً مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لإفادة تأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتاً له أى ذلك التزيين البديع زينت لى نفسى ما فعلته لا تزييناً أدنى منه ولذلك فعلته وحاصل جوابه أن ما فعله إنما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة بالسوء وإغوائها لا بشىء آخر من البرهان العقلى أو الإلهام الإلهى فعند ذلك (قال) عليه السلام (فاذهب) أى من بين الناس وقوله ٩٧
تعالى (فإن لك فى الحياة) الخ تعليل لموجب الأمر وفى متعلقة بالاستقرار فى لك أى ثابت لك فى الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف المذكور لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى (أن تقول لامساس) لمكان أن أى ثابت لك كائناً فى الحياة أى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجىء إليها وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس أحداً أو يمسه أحد كائناً من كان إلا حما من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال إن قومه باق فيهم تلك الحالة إلى اليوم وقرىء لامساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة ما بينهما من مناسبة التضاد فإنه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سبباً لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سبباً للحمى التى هى من أسباب موت الأحياء (وإن لك موعداً) أى فى الآخرة (لن تخلفه) أى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك فى الدنيا وقرىء بكسر اللام والأظهر أنه من أخلفت الموعد أى وجدته خلفاً وقرىء

إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ٢٠ طه

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ٢٠ طه

بالنون على حكاية قوله عز وجل (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً) أى ظللت مقيما على عبادته فحذفت اللام الأولى تخفيفاً وقرىء بكسر الظاء بنقل حركة اللام إليها (لنحرقنه) جواب قسم محذوف أى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الإحراق وقيل بالمبرد على أنه مبالغة فى حرق إذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه (ثم لننسفنه) أى لنذرينه وقرىء بضم السين (فى اليم) رماداً أو مبروداً كأنه هباء (نسفاً) بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الأمر بالنظر وإنما لم يصرح

٩٨ به تنبيهاً على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين (إنما إلهكم الله) استئناف مسوق لتحقيق الحق إثر إبطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل أى إنما معبودكم المستحق للعبادة الله (الذى لا إله) فى الوجود لشىء من الأشياء (إلا هو) وحده من غير أن يشاركه شىء من الأشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها أحكام الألوهية وقرىء الله لا إله إلا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى (وسع كل شىء علماً) أى وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل إنما إلهكم الله الذى وسع كل شىء علماً لا غيره كائناً ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أولياً وقرىء وسع بالتشديد فيكون انتصاب علماً على المفعولية لأنه على القراءة الأولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول كأنه قيل وسع علمه كل شىء وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد

٩٩ حسبما نطقت به خاتمته وقوله تعالى (كذلك نقص عليك) كلام مستأنف خوطب به النبى ﷺ بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال ما مر من أنباء الأمم السالفة وذلك إشارة إلى اقتصاص حديث موسى عليه السلام وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر مقدر أى نقص عليك (من أنباء ما قد سبق) من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصاً مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من أنباء فى حيز النصب إما على أنه مفعول نقص باعتبار مضمونه وإما على أنه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك أى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض أنباء ما قد سبق أو بعضاً كائناً من أنباء ما قد سبق وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتأخيره عن عليك لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك ما ذكر من الأنباء لا قصا ناقصاً عنه تبصرة لك وتوفيراً لعلمك وتكثيراً لمعجزاتك وتذكيراً للمستبصرين من أمتك (وقد آتيناك من لدنا ذكراً) أى كتاباً منطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقاً بالتفكر والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك وتنكير ذكراً للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما أن مرجع الإفادة فى الجملة كون المؤتى من لدنه تعالى ذكراً عظيماً وقرآناً كريماً جامعاً لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طول بما بعده من

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ٢٠ طه

خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ٢٠ طه

يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ٢٠ طه

يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ٢٠ طه

الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم (من أعرض عنه) عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع
١٠٠ لسعادة الدارين وقيل عن الله عز وجل ومن إما شرطية أو موصولة وأياً ما كانت فالجملة صفة لذكراً (فإنه)
أى المعرض عنه (يحمل يوم القيامة وزراً) أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزراً
إما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره أو لأنها جزاء
الوزر وهو الإثم والأول هو الأنسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى (خالدين فيه) أى فى الوزر
١٠١ أو فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر إلى معنى من لما أن الخلود فى النار مما يتحقق
حال اجتماع أهلها كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها (وساء لهم يوم القيامة حملا)
أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى
هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم وإعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الأمر
(يوم ينفخ فى الصور) بدل من يوم القيامة أو منصوب بإضمار اذكر أو ظرف لمضمر قدحذف للإيذان
١٠٢ بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقوله تعالى يوم نحشر
المتقين إلى الرحمن وفداً وقرىء ننفخ بالنون على إسناد النفخ إلى الآمر به تعظيما له وبالياء المفتوحة على
أن ضميره لله عز وجل أو لإسرافيل عليه السلام وإن لم يجر ذكره لشهرته (ونحشر المجرمين يومئذ) أى
يوم إذ ينفخ فى الصور وذكره صريحاً مع تعين أن الحشر لا يكون إلا يومئذ للتهويل وقرىء ويحشر
المجرمون (زرقا) أى حال كونهم زرق العيون وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها
إلى العرب فإن الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد وأصهب
السبال وأزرق العين أو عمياً لأن حدقة الأعمى تزرق وقوله تعالى (يتخافتون بينهم) أى يخفضون
١٠٣ أصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال
أخرى من المجرمين أى يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة (إن لبثتم) أى ما لبثتم فى الدنيا (إلا عشراً)
أى عشر ليال استقصار لمدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا
الشدائد وأيقنوا أنهم استحقوها على إضاعتها فى قضاء الأوطار واتباع الشهوات أو فى القبر وهو الأنسب
بحالهم فإنهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون
من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقاً لسرعة وقوعه كأنهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ٢٠ طه

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ٢٠ طه

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ٢٠ طه

لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ٢٠ طه

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ٢٠ طه

والا لحالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف
١٠٤ عليها (نحن أعلم بما يقولون) وهو مدة لبثهم (إذ يقول أمثلهم طريقة) أى أعد لهم رأياً أو عملا (إن
لبثتم إلا يوما) ونسبة هذا القول إلى أمثلهم استرجاح منه تعالى له لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق بل
١٠٥ لكونه أدل على شدة الهول (ويسألونك عن الجبال) أى عن مآل أمرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف
وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء (فقل ينسفها ربى نسفاً) أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح
١٠٦ فتفرقها والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين (فيذرها) الضمير إما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية
بعد النسف وهى مقارها ومراكزها أى فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الأرض
بعد نسف ما نتأ منها ونشز وإما للأرض المدلول عليها بقرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال وعلى
التقديرين يذر الكل (قاعا صفصفاً) لأن الجبال إذا سويت وجعل سطحها مساوياً لسطوح سائر أجزاء
الأرض فقد جعل الكل سطحاً واحداً والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الأرض وقيل المستوى
الصلب منها وقيل مالا نبات فيه ولا بناء والصفصف الأرض المستوية الملساء كأن أجزاءه صف واحد
من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب أو هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى
١٠٧ التصيير وصفصفاً إما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى (لا ترى فيها) أى فى مقار الجبال
أو فى الأرض على ما مر من التفصيل (عوجا) بكسر العين أى اعوجاجا ما كأنه لغاية خفائه من قبيل ما فى
المعانى أى لا تدركه إن تأملت بالمقاييس الهندسية (ولا أمتاً) أى نتوءا يسيراً استئناف مبين لكيفية
ما سبق من القاع الصفصف أو حال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتأتى منه الرؤية وتقديم
الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه
١٠٨ من طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (يومئذ) أى يوم إذ نسفت الجبال على إضافة اليوم
إلى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى (يتبعون الداعى) وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك
أى يتبع الناس داعى الله عز وجل إلى المحشر وهو إسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية
قائماً على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام النخرة والأوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى إلى

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ٢٠ طه

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ٢٠ طه

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ٢٠ طه

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ٢٠ طه

عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب إلى صوبه (لاعوج له) لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه (وخشعت
الأصوات للرحمن) أى خضعت لهيبته (فلا تسمع إلا همساً) أى صوتاً خفياً ومنه الهميس لصوت
١٠٩ أخفاف الإبل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر (يومئذ) أى يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور
الهائلة (لا تنفع الشفاعة) من الشفعاء أحداً (إلا من أذن الرحمن) أن يشفع له (ورضى له قولا) أى
ورضى لأجله قول الشافع فى شأنه أو رضى قوله لأجله وفى شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وإن فرض
صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين فالاستثناء كما ترى
من أعم المفاعيل وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن
يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل إليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هى عنه
أصلا كما فى قوله تعالى لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً وقوله تعالى ولا يشفعون إلا
لمن ارتضى فالإخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم إمكان صدورها عمن لم يؤذن له مع إخلاله
بمقتضى مقام تهويل اليوم وأما قوله تعالى ولا يقبل منها شفاعة فمعناه عدم الإذن فى الشفاعة لا عدم قبولها
١١٠ بعد وقوعها (يعلم ما بين أيديهم) أى ما تقدمهم من الأحوال وقيل من أمر الدنيا (وما خلفهم) وما بعدهم
مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة (ولا يحيطون به علماً) أى لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل
بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لأحد الموصولين أو
١١١ لمجموعها فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى ذلت
وخضعت خضوع العناة أى الأسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه
الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلماً) قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك
بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم أو اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل
حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من
١١٢ حمل منهم ظلماً فقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات) الخ قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلماً لا
لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما أنه كذلك على الوجه الأول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من
الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من أنباء ما قد سبق (وهو مؤمن) فإن الإيمان
شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات (فلا يخاف ظلماً) أى منع ثواب مستحق بموجب الوعد (ولا

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ٢٠ طه

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ٢٠ طه

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ٢٠ طه

هضما) ولا كسراً منه ينقص أو لا يخاف جزاء ظلم وهضم إذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم حتى يخافهما
١١٣ وقرىء فلا يخف على النهى (وكذلك) عطف على كذلك نقص وذلك إشارة إلى إنزال ماسبق من الآيات
المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أى مثل ذلك الإنزال (أنزلناه) أى القرآن
كله وإضماره من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً فى العقول حاضراً فى الأذهان
(قرآناً عربياً) ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر
نازلا من عند خلاق القوى والقدر (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررنا فيه بعض الوعيد أو بعضاً من
الوعيد حسبما أشير إليه آنفاً (لعلهم يتقون) أى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل (أو يحدث لهم ذكراً)
١١٤ اتعاظاً واعتباراً مؤدياً بالآخرة إلى الاتقاء (فتعالى الله) استعظام له تعالى ولشئونه التى يصرف عليها
عباده من الأوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته
وصفاته وأفعاله وأحواله (الملك) النافذ أمره ونهيه الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده (الحق) فى
ملكوته وألوهيته لذاته أو الثابت فى ذاته وصفاته (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك) أى يتم
(وحيه) كان رسول الله ﷺ إذا ألقى إليه جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل
كلمة لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك إثر ذكر الإنزال بطريق الاستطراد لما أن استقرار
الألفاظ فى الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها وربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع مابعدها وأمر باستفاضة
العلم واستزادته منه تعالى فقيل (وقل) أى فى نفسك (رب زدنى علماً) أى سل الله عز وجل زيادة العلم
فإنه الموصل إلى طلبتك دون الاستعجال وقيل أنه نهى عن تبليغ ماكان مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك
١١٥ فإن تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لاريب فى صحته ومشروعيته (ولقد عهدنا إلى آدم) كلام مستأنف
مسوق لتقرير ماسبق من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ
فى النسيان مع مافيه من إنجاز الموعود فى قوله تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق يقال عهد إليه
الملك وعزم عليه وتقدم إليه إذا أمره ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه مابعده واللام جواب قسم
محذوف أى وأقسم أو وبالله أو وتالله لقد أمرناه ووصيناه (من قبل) أى من قبل هذا الزمان (فنسى) أى
العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه أو تركه ترك المنسى عنه وقرىء فنسى أى نساه الشيطان (ولم نجد له عزما)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ٢٠ طه

فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ٢٠ طه

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ٢٠ طه

وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ٢٠ طه

تصميم رأى وثبات قدم فى الأمور إذ لوكان كذلك لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره وقد كان ذلك
منه عليه السلام فى بدء أمره من قبل أن يجرب الأمور ويتولى حارها وقارها ويذوق شربها وأربها عن
النبي ﷺ لو وزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزماً وقيل عزماً على
الذنب فإنه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجد إن كان من الوجود العلمى فله عزماً مفعولاه قدم الثانى
على الأول لكونه ظرفا وإن كان من الوجود المقابل للعدم وهو الأنسب لأن مصب الفائدة هو المفعول
وليس فى الإخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مراراً من الاهتمام
بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزماً وقوله
١١٦ تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه وإذ
منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى ﷺ أى واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت
مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث لما مر مراراً من المبالغة فى إيجاب ذكرها فإن الوقت
مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ماوقع فيه بالطريق البرهانى
ولأن الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فإذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة فى ذهن المخاطب
بوجوداتها العينية أى اذكر ماوقع فى ذلك الوقت مناومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه (فسجدوا
إلا إبليس) قد سبق الكلام فيه مراراً (أبى) جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ عن الإخبار بعدم
سجوده كأنه قيل ما باله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى إما محذوف أى أبى السجود كما قوله تعالى
١١٧ أبى أن يكون مع الساجدين أو غير منوى رأساً بتنزيله منزلة اللازم أى فعل الإباء وأظهره (فقلنا) عقيب
ذلك اعتناء بنصحه (يا آدم إن هذا) الذى رأيت ما فعل (عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما) أى لا يكونن
سبباً لإخراجكما (من الجنة) والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما منها
بالطريق البرهانى كما فى قولك لا أرينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما أو على الإخبار
بها (فتشقى) جواب للنهى وإسناد الشقاء إليه خاصة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معاً لأصالته
فى الأمور واستلزام شقائه لشقائها مع مافيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل
١١٨ ١١٩ مبادى المعاش وذلك من وظائف الرجال (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) (وأنك لا تظمأ فيها
ولا تضحى) تعليل لما يوجبه النهى فإن اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل

مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعاً بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها مالا يخفى إلى ماذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحى لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على مافيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع مافيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر فى موضع آخر واقتصر على ماذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى أن لا تجوع فيها الخ أن لايصيبه شىء من الأمور الأربعة أصلا فإن الشبع والرى والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها بإعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الأمر فيها كذلك بل كل ماوقع فيها شهوة وميل إلى شىء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة ووجه إفراده عليه السلام بما ذكر مامر آنفاً وفصل الظمأ عن الجوع فى الذكر مع تجانسهما وتقارنهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالإشارة إلى أن نفى كل واحد من تلك الأمور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفى كل واحد من الأمور المذكورة مقصودة بالذات مذكور بالإصالة لا أن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لنفى بعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتجانسين وقرىء إنك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لاتجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بأن المفتوحة اسماً للمكسورة المشاركة لها فى إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبراً لها لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة لا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما فى حيزهما بخلاف مالو وقعت خبراً لها فإن اتحاد المناط حينئذ مما لاريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولايخفى أن مرجع خبريتها مافيها من الحكم الإيجابى أو السلبى وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسماً للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعاً وإنما لم يجوزوا أن يقال إن أن زيداً قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا إن عندى أن زيداً قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وإن كانت نائبة عن المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى إن لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقاً كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ٢٠ طه

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ٢٠ طه

ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ٢٠ طه

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ٢٠ طه

---

١٢٠ المحض أن المفيدة له كأنه قيل إن لك فيها عدم ظمئك على التحقيق (فوسوس إليه الشيطان) أى أنهى إليه وسوسته أو أسرها إليه (قال) إما بدل من وسوس أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين

١٢١ (وملك لا يبلى) أى لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما عرياً عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قد مر تفسيره فى سورة الأعراف (وعصى آدم ربه) بما ذكر من أكل الشجرة (فغوى) ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرىء فغوى من غوى الفصيل إذا اتخم من اللبن وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها

١٢٢ وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها (ثم اجتباه ربه) أى اصطفاه وقربه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشىء بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمعته أو من جبى إلى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها وأصل الكلمة الجمع وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام (فتاب عليه) أى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وإفراده عليه السلام بالاجتباء وقبول التوبة قد مر وجهه

١٢٣ (وهدى) أى إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الإخبار بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه قيل فماذا أمره تعالى بعد ذلك فقيل قال له ولزوجته (اهبطا منها جميعاً) أى انزلا من الجنة إلى الأرض وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد أى متعادين فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب (فإما يأتينكم منى هدى) من كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) وضع الظاهر موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه (فلا يضل) فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ٢٠ طه

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ٢٠ طه

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ٢٠ طه

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ٢٠ طه

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ٢٠ طه

١٢٤ (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن الهدى الذاكر لى والداعى إلى (فإن له) فى الدنيا (معيشة ضنكا)
ضيقاً مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث وقرىء ضنكى كسكرى وذلك لأن مجامع
همته ومطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها وخائف من انتقاصها بخلاف
المؤمن الطالب للآخرة مع أنه قد يضيق الله بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال تعالى وضربت
عليهم الذلة والمسكنة وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض
وقوله تعالى ولو أن أهل الكتاب آمنوا إلى قوله تعالى لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هو
الضريع والزقوم فى النار وقيل عذاب القبر (ونحشره) وقرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم
عطفاً على محل فإن له معيشة ضنكا لأنه جواب الشرط (يوم القيامة أعمى) فاقد البصر كما فى قوله تعالى
١٢٥ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما لا أعمى عن الحجة كما قيل (قال) استئناف كما مر (رب
لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً) أى فى الدنيا وقرىء أعمى بالإمالة فى الموضعين وفى الأول فقط
١٢٦ لكونه جديراً بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف (قال كذلك) أى مثل ذلك فعلت أنت ثم فسره
بقوله تعالى (أتتك آياتنا) واضحة نيرة بحيث لاتخفى على أحد (فنسيتها) أى عميت عنها وتركتها ترك
المنسى الذى لا يذكر أصلا (وكذلك) ومثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا (اليوم تنسى) تترك
فى العمى والعذاب جزاء وفاقا لكن لا أبداً كما قيل بل إلى ماشاء الله ثم يزيله عنه فيرى أهوال القيامة
ويشاهد مقعده من النار ويكون ذلك له عذاباً فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم
١٢٧ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية (نجزى من أسرف) بالانهماك
فى الشهوات (ولم يؤمن بآيات ربه) بل كذبها وأعرض عنها (ولعذاب الآخرة) على الإطلاق أو
١٢٨ عذاب النار (أشد وأبقى) أى من ضنك العيش أو منه ومن الحشر على العمى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا
قبلهم من القرون) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من قوله تعالى وكذلك نجزى الآية والهمزة للإنكار
التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام إما لتنزيلها منزلة اللام فلا حاجة

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ٢٠ طه

إلى المفعول أو لأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف وأياً ما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله ﷺ والمعنى أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة أهلاكنا للقرون الأولى وقد مر فى قوله عزوجل أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها الآية وقيل الفاعل الضمير العائد إلى الله عزوجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى كم أهلكنا الخ إما معلق للفعل ساد مسد مفعوله أو مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والأوجه أن لا يلاحظ له مفعول كأنه قيل أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم أهلكنا الخ بياناً لتلك الهداية ومن القرون فى محل النصب على أنه وصف لمميز كم أى كم قرنا كائناً من القرون وقوله تعالى (يمشون فى مساكنهم) حال من القرون أو من مفعول أهلكنا أى أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم أو من الضمير فى لهم مؤكد للإنكار والعامل يهد والمعنى أفلم يهد لهم إهلاكنا للقرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين فى مساكنهم إذا سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم مع أن ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق فيعتبروا لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك وقرىء يمشون على البناء للمفعول أى يمكنون من المشى (إن فى ذلك) تعليل للإنكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك إشارة إلى مضمون قوله تعالى كم أهلكنا الخ ومافيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته وعلو شأنه فى بابه (لآيات) كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فإذن هو هاد وأيما هاد ويجوز أن تكون كلمة فى تجريدية فافهم (لأولى النهى) لذوى العقول الناهية عن القبائح التى من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامى عنها وغير ذلك من فنون المعاصى وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع ١٢٩
مايشعر به قوله تعالى أفلم يهد لهم الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة أى ولولا الكلمة السابقة وهى العدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه (لكان) عقاب جناياتهم (لزاماً) أى لازماً لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل بأولئك الغابرين وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تلويح بأن ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبىء عنه قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واللزام إما مصدر لازم وصف به مبالغة وإما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم (وأجل مسمى) عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة إلى بيان جواب لولا والإشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ٢٠ طه

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ٢٠ طه

١٣٠ وأضرابهم ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل (فاصبر على مايقولون) أى إذا كان الأمر على
ماذكر من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال وأنه لازم لهم البتة فاصبر على مايقولون من كلمات
الكفر فإن علمه عليه السلام بأنهم معذبون لامحالة مما يسليه ويحمله على الصبر (وسبح) ملتبساً (بحمد
ربك) أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه أو نزهه تعالى عما ينسبونه
إليه مما لا يليق بشأنه الرفيع حامداً له على ماميزك بالهدى معترفاً بأنه مولى النعم كلها والأول هو الأظهر
المناسب لقوله تعالى (قبل طلوع الشمس) الخ فإن توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر (وقبل
غروبها) يعنى صلاتى الظهر والعصر لأنهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع
الشمس وقيل صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى من ساعاته جمع إنى بالكسر والقصر وأناء بالفتح والمد
(فسبح) أى فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فإن القلب
فيهما أجمع والنفس إلى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى إن ناشئة الليل هى
أشد وطأ وأقوم قيلا (وأطراف النهار) تكرير لصلاة الفجر والمغرب إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية
ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقول من قال ظهراهما مثل ظهور الترسين أو أمر بصلاة الظهر فإنه نهاية
النصف الأول من النهار وبداية النصف الأخير وجمعه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس أو أمر
بالتطوع فى أجزاء النهار (لعلك ترضى) متعلق بسبح أى سبح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى
١٣١ ماترضى به نفسك وقرىء ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أى يرضيك ربك (ولا تمدن عينيك)
أى لاتطل نظرهما بطريق الرغبة والميل (إلى مامتعنا به) من زخارف الدنيا وقوله تعالى (أزواجا منهم)
أى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول
منهم أى إلى الذى متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم على أنه معنى من التبعيضية أو بعضاً منهم على
حذف الموصوف كما مر مراراً (زهرة الحياة الدنيا) منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا أى أعطينا أو به
على تضمين معناه أو بالبدلية من محل به أو من أزواجا بتقدير مضاف أو بدونه أو بالذم وهى الزينة والبهجة
وقرىء زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهر والدنيا لتنعمهم وبهاء
زيهم بخلاف ماعليه المؤمنون الزهاد (لنفتنهم فيه) متعلق بمتعنا جىء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا إثر
إظهار بهجته حالا أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه (ورزق ربك)
أى ماادخر لك فى الآخرة أو مارزقك فى الدنيا من النبوة والهدى (خير) مما منحهم فى الدنيا لأنه مع كونه

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ٢٠ طه

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ٢٠ طه

وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ٢٠ طه

فى نفسه أجل مايتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ما منحوه (وأبقى) فإنه لا يكاد ينقطع نفسه
١٣٢ أو أثره أبداً كما عليه زهرة الدنيا (وأمر أهلك بالصلاة) أمر ﷺ بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من
أمته بالصلاة بعد ما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا
يلتفتوا لفت أرباب الثروة (واصطبر عليها) وثابر عليها غير مشتغل بأمر المعاش (لانسألك رزقا) أى
لانكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك (نحن نرزقك) وإياهم ففرغ بالك بأمر الآخرة (والعاقبة) الحميدة
(للتقوى) أى لأهل التقوى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه تنبيهاً على أن ملاك الأمر هو
١٣٣ التقوى روى أنه ﷺ كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه)
حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التى أمر ﷺ بالصبر عليها أى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه فى دعوى النبوة أو
آية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ماشاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال
من قبيل الآيات حتى اجترءوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف
الأولى) أى التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم
دسوا تحتها من إنكار إتيان الآية بإتيان القرآن الكريم الذى هو أم الآيات وأس المعجزات وأعظمها
فيها وأبقاها لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات أى أمر كان ولا
ريب فى أن العلم أجل الأمور وأعلاها إذ هو أصل الأعمال ومبدأ الأفعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع
علوم الأولين والآخرين على يد أمى لم يمارس شيئاً من العلوم ولم يدارس أحداً من أهلها أصلا فأى
معجزة تراد بعد وروده وأى آية ترام مع وجوده وفى إيراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الأولى من
التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية أى شاهداً بحقية ما فيها من العقائد الحقة وأصول الأحكام
التى أجمعت عليها كافة الرسل وبصحة ما تنطق به من أنباء الأمم من حيث إنه غنى بإعجازه عما يشهد بحقيته
حقيق بإثبات حقية غيره مالا يخفى من تنويه شأنه وإنارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لإتيانه وإسناد
الإتيان إليه مع جعلهم إياه مأتيا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة والهمزة لإنكار الوقوع
والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم تأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما فى الصحف
الأولى تقريراً لإتيانه وإيذاناً بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم إنكاره أصلا وإن اجترءوا على إنكار سائر
١٣٤ الآيات مكابرة وعناداً وقرىء أولم يأتهم بالياء التحتانية وقرىء الصحف بالسكون تخفيفاً وقوله تعالى (ولو أنا

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾ ٢٠ طه

أهلكنا بعذاب) إلى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ماقبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن
إنكارها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لوأنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب مستأصل (من قبله)
متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب أى بعذاب كائن من قبل إتيان البينة أو من قبل محمد ﷺ
(لقالوا) أى يوم القيامة (ربنا لولا أرسلت إلينا) فى الدنيا (رسولا) مع كتاب (فنتبع آياتك) التى
جاءنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب فى الدنيا (ونخزى) بدخول النار اليوم ولكننا لم نهلكهم قبل إتيانها
١٣٥ فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء (قل) لأولئك
الكفرة المتمردين (كل) أى كل واحدمنا ومنكم (متربص) منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم (فتربصوا)
وقرىء فتمتعوا (فستعلمون) عن قريب (من أصحاب الصراط السوى) أى المستقيم وقرىء السواء أى
الوسط الجيد وقرىء السوء والسوءى والسوى تصغير السوء (ومن اهتدى) من الضلالة ومن فى الموضعين
استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها مابعدها والجملة سادة مسد مفعولى العلم أومفعوله ويجوز كون
الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل
على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط وقيل العائد فى الأولى محذوف والتقدير من هم
أصحاب الصراط . عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار
وقال لايقرأ أهل الجنة من القرآن إلا سورة طه ويس .

وتسمى أيضاً سورة الكليم كما ذكر السخاوي في جمال القراء وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم مكية. واستثنى بعضهم منها قوله تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون﴾ [طه: ١٣٠] الآية.

وقال الجلال السيوطي: ينبغي أن يستثنى آية أخرى، فقد أخرج البزار وأبو يعلى عن أبي رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفاً فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب فقال: لا إلا برهن فأتيت النبي عليه الصلاة والسلام فأخبرته فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿لاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ [الحجر: ٨٨، طه: ١٣١] الآية انتهى.

ولعل ما روي عن الحبرين على القول باستثناء ما ذكر باعتبار الأكثر منها. وآياتها كما قال الداني مائة وأربعون آية شامي وخمس وثلاثون كوفي وأربع حجازي وآيتان بصري. ووجه الترتيب على ما ذكره الجلال أنه سبحانه لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء عليهم السلام وبعضها مبسوط كقصة زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وبعضها بين البسط والإيجاز كقصة إبراهيم عليه السلام وبعضها موجز مجمل كقصة موسى عليه السلام وأشار إلى بقية النبيين عليهم السلام إجمالاً ذكر جل وعلا في هذه السورة شرح قصة موسى عليه السلام التي أجملها تعالى هناك فاستوعبها سبحانه غاية الاستيعاب وبسطها تبارك وتعالى أبلغ بسط ثم أشار عز شأنه إلى تفصيل قصة آدم عليه السلام الذي وقع في مريم مجرد ذكر اسمه ثم أورد جل جلاله في سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر قصته في مريم كنوح ولوط وداود وسليمان وأيوب واليسع وذي الكفل وذي النون عليهم السلام وأشير فيها إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة كموسى وهارون وإسماعيل. وذكرت تلو مريم لتكون السورتان كالمتقابلتين وبسطت فيها قصة إبراهيم عليه السلام البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ولم يذكر حاله مع أبيه إلا إشارة كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة ومع أبيه مبسوطاً، وينضم إلى ما ذكر اشتراك هذه السورة وسورة مريم في الافتتاح بالحروف المقطعة، وقد روي عن ابن عباس وجابر بن زيد رضي الله تعالى عنهم أن طه نزلت بعد سورة مريم. ووجه ربط أول هذه بآخر تلك أنه سبحانه ذكر هناك تيسير القرآن بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام معللاً بتبشير المتقين وإنذار المعاندين وذكر تعالى هنا ما فيه نوع من تأكيد ذلك. وجاءت آثار تدل على مزيد فضلها.

أخرج الدارمي وابن خزيمة في التوحيد والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهم قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليها هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا»؛ وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً نحوه، وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «كل قرآن يوضع

عن أهل الجنة فلا يقرؤون منه شيئاً إلا سورة «طه» و«يس» فإنهم يقرؤون بهما في الجنة، إلى غير ذلك من الآثار.

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ
ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ
﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ
أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ
عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى
﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ
ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

فخمها[١] على الأصل ابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب وهو إحدى الروايتين عن قالون وورش والرواية الأخرى أنهما فخما الطاء وأمالا الهاء وهو المروي عن أبي عمرو وأمال الحرفين حمزة والكسائي وأبو بكر؛ ولعل إمالة الطاء مع أنها من حروف الاستعلاء والاستعلاء يمنع الإمالة لأنها تسفل لقصد التجانس وهي من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة على إحدى الروايتين عن مجاهد بل قيل: هي كذلك عند جمهور المتقنين، وقال السدي: المعنى يا فلان، وعن ابن عباس في رواية جماعة عنه والحسن وابن جبير وعطاء وعكرمة وهي الرواية الأخرى عن مجاهد أن المعنى يا رجل، واختلفوا فقيل: هو كذلك بالنبطية، وقيل: بالحبشية، وقيل: بالعبرانية، وقيل بالسريانية.

وقيل: بلغة عكل، وقيل: بلغة عك. وروي ذلك عن الكلبي قال: لو قلت في عك: يا رجل لم يجب حتى تقول: - طاها - وأنشد الطبري في ذلك قول متمم بن نويرة:

دعوت بطاها في القتال فلم يجب ... فخفت عليه أن يكون موائلا

وقول الآخر:

إن السفاهة طاها من خلائقكم ... لا بارك الله في القوم الملاعين

وقال ابن الأنباري: إن لغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا لأن الله تعالى لم يخاطب نبيه ﷺ بلسان غير لسان قريش، ولا يخفى أن مسألة وقوع شيء بغير لغة قريش من لغات العرب في القرآن خلافية، وقد بسط الكلام عليها في الإتقان، والحق الوقوع وتخرص الزمخشري على عك فقال: لعل عكا تصرفوا في يا هذا كأنهم في لغتهم قالبون الياء

(١) أي الكلمة اهـ منه.

طاء فقالوا: في ياطا واختصروا هذا واقتصروا على ها. وتعقبه أبو حيان بأنه لا يوجد في لسان العرب قلب يا التي للنداء طاء وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرارها التي للتنبيه ولم يقل ذلك نحوي. وذكر في البيت الأخير أنه إن صح فطه فيه قسم بالحروف المقطعة أو اسم السورة على أنه شعر إسلامي كقوله «حم لا ينصرون».

وتعقب بأنه احتمال بعيد وهو كذلك في المثال وقد رواه النسائي مرفوعاً. ولفظ الخبر إذا لقيكم العدو فليكن شعاركم حم لا ينصرون وليس في سياقه دليل على ذلك، ويحتمل أن يكون لا ينصرون مستأنفاً والشعار التلفظ بحم فقط كأنه قيل: ماذا يكون إذا كان شعارنا ذلك فقيل: لا ينصرون، وأخرج ابن المنذر. وابن مردويه عن ابن عباس أنه قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه سبحانه، وعن أبي جعفر أنه من أسماء النبي ﷺ.

وقرأت فرقة منهم أبو حنيفة والحسن وعكرمة وورش «طَهْ» بفتح الطاء وسكون الهاء كبل فقيل: معناه يا رجل أيضاً، وقيل: أمر للنبي ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه فإنه عليه الصلاة والسلام كما روي عن الربيع بن أنس كان إذا صلى قام على رجل واحدة فأنزل الله تعالى ﴿طه﴾ الخ، وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه لما نزل على النبي ﷺ ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً﴾ [المزمل: ١، ٢] قام الليل كله حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلاً ويضع رجلاً فهبط عليه جبريل عليه السلام فقال ﴿طه﴾ الآية والأصل طأ فقلبت الهمزة هاء كما قالوا في إياك وارقت ولانك هياك وهرقت ولهنك أو قلبت الهمزة في فعله الماضي والمضارع ألفاً كما في قول الفرزدق:

راحت بمسلمة البغال عشية ... فارعي فزارة لا هناك المرتع

وكما قالوا في سأل سال وحذفت في الأمر لكونه معتل الآخر وضم إليه هاء السكت وهو في مثل ذلك لازم خطاً ووقفاً، و وقد يجري الوصل مجرى الوقف فتثبت لفظاً فيه، وجوز بعضهم أن يكون أصل ﴿طه﴾ في القراءة المشهورة طاها على أن طا أمر له ﷺ بأن يطا الأرض بقدميه وها ضمير مؤنث في موضع المفعول به عائد على الأرض وإن لم يسبق لها ذكر، واعترض بأنه لو كان كذلك لم تسقط منه الألفان ورسم المصحف وإن كان لا ينقاس لكن الأصل فيه موافقته للقياس فلا يعدل عنه لغير داع وليس هذه الألف في اسم ولا وسطاً كما في الحرث ونحوه لتحذف لا سيما وفي حذفها لبس فلا يجوز كما فصل في باب الخط من التسهيل.

واعترض بهذا أيضاً على تفسيره بيا رجل ونحوه، وقيل: توجيه ذلك على هذا الأصل ويعلم منه توجيه آخر لقراءة أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ومن معه أن يقال: اكتفى من طأ بطاء متحركة ومن ها الضمير بهاء ثم عبر عنهما باسميهما فها ليست ضميراً بل هي كالقاف في قوله:

قلت لها قفي فقالت قاف

واعترض أيضاً بأنه كان ينبغي على هذا أن لا تكتب صورة المسمى بل صورة الاسم. وأجيب بأن كتابة الأسماء بصور المسميات أمر مخصوص بحروف التهجي. وتعقب بأن ما ذكر لا يقطع مادة الإيراد إذ لو كان كذلك لانفصل الحرفان في الخط بأن يكتبان هكذا ط هـ. فإن قيل: إن خط المصحف لا ينقاس قيل عليه ما قيل، والحق أن دعوى أن خط المصحف لا ينقاس قوية جداً وما قيل عليها لا يعول عليه، وما صح عن السلف يقبل ولا يقدح فيه عدم موافقة القياس، وإن كانت الموافقة هي الأصل.

وقد روي عن علي كرم الله تعالى وجهه. والربيع بن أنس أنهما فسرا ﴿طه﴾ بطأ الأرض بقدميك يا محمد ولم أقف على طعن في الرواية والله أعلم.

واختلف في إعرابه حسب الاختلاف في المراد منه فهو على ما نقل عن الجمهور من أن المراد منه طائفة من

حروف المعجم مسرودة على نمط التعديد افتتحت بها السورة لا محل له من الإعراب، وكذا ما بعده من قوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ فإنه استئناف مسوق لتسليته ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فإن الشقاء شائع في ذلك المعنى، ومنه المثل أشقى من رائض مهر، وقول الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

أي ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا به كقوله تعالى شأنه ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ [الكهف: ٦] الآية بل لتبلغ وتذكر وقد فعلت فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة في المجاهدة في العبادة كما سمعت فيما أخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه أي ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت إلا بالحنيفة السمحة، وقال مقاتل: إن أبا جهل والنضر بن الحارث والمطعم قالوا لرسول الله ﷺ لما رأوا كثرة عبادته: إنك لتشقى بترك ديننا وإن القرآن أنزل عليك لتشقى به فرد الله تعالى عليهم ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا. والشقاء في كلامهم يحتمل أن يكون بمعناه الحقيقي وهو ضد السعادة والتعبير به في كلامه تعالى من باب المشاكلة وإن أريد منه القرآن بتأويله بالمتحدي به من جنس هذه الحروف.

فجوز فيه أن يكون محله الرفع على الابتداء والجملة بعده خبره، وقد أقيم فيها الظاهر أعني القرآن مقام الضمير الرابط لنكتة وهو أن القرآن رحمة يرتاح لها فكيف ينزل للشقاء، وقيل: الخبر محذوف، وقيل: هو خبر لمبتدأ محذوف. والجملة على القولين مستأنفة. وجوز أن يكون محله النصب على إضمار اتل. وقيل: على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب بفعله مضمراً نحو قوله: إن على الله أن تبايعا وجوز أن يكون محله الجر بتقدير حرف القسم نظير قوله من وجه أشارت كليب بالأكف الأصابع والجملة بعده على تقدير إرادة القسم جواب القسم. وجوزت هذه الاحتمالات على تقدير أن يكون المراد منه السورة. وأمر ربط الجملة على تقدير ابتدائيته وخبريتها إن كان القرآن خاصاً بهذه السورة باعتبار كون تعريفه عهدياً حضورياً ظاهر. وإن كان عاماً فالربط به لشموله للمبتدأ كما قيل في نحو زيد نعم الرجل.

ومنع بعضهم إرادة السورة مطلقاً لاتفاق المصاحف على ذكر سورة في العنوان مضافة إلى طه وحينئذ يكون التركيب كإنسان زيد وقد حكموا بقبحه وفيه بحث لا يكاد يخفى حتى على بهيمة الأنعام، وبعضهم إرادة ذلك على تقدير الأخبار بالجملة بعد قال: لأن نفي كون إنزال القرآن للشقاء يستدعي وقوع الشقاء مترتباً على إنزاله قطعاً إما بحسب الحقيقة كما إذا أريد به التعب أو بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة، ولا ريب في أن ذلك إنما يتصور في إنزال ما أنزل من قبل وأما إنزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما باعتبار اتحاد القرآن بالسورة فظاهر، وأما باعتبار الاندراج فلأن مآله أن يقال: هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى، ولا يخفى أن جعلها مخبراً عنها مع أنه لا دخل لإنزالها في الشقاء السابق أصلاً مما لا يليق بشأن التنزيل اهـ ولا يخلو عن حسن، وعلى ما روي عن أبي جعفر من أنه من أسمائه ﷺ يكون منادى وحكمه مشهور، والجملة جواب النداء، ومحله على ما أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن الحبر من أنه قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه تباركت أسماؤه النصب أو الجر على ما سمعت آنفاً.

وعلى ما روي عن الأمير كرم الله تعالى وجهه. والربيع يكون جملة فعلية وقد مر لك تفصيل ذلك، والجملة

بعده مستأنفة استئنافاً نحوياً أو بيانياً كأنه قيل لم أطؤها؟ فقيل: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ وقرأ طلحة «ما نُزِّلَ عليك القرآن» بتشديد الفعل وبنائه للمفعول وإسناده إلى القرآن ﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً﴾ نصب على الاستثناء المنقطع أي ما أنزلناه لشقائك لكن تذكيراً ﴿لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ أي لمن شأنه أن يخشى الله تعالى ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف؛ والجار والمجرور متعلق بتذكرة أو بمحذوف صفة لها، وخص الخاشي بالذكر مع أن القرآن تذكرة للناس كلهم لتنزيل غيره منزلة العدم فإنه المنتفع به.

وجوز الزمخشري كون «تذكرة» مفعولاً له لأنزلنا، وانتصب لاستجماع الشرائط بخلاف المفعول الأول لعدم اتحاد الفاعل فيه، والمشهور عن الجمهور اشتراطه للنصب فلذا جر، ويجوز تعدد العلة بدون عطف وإبدال إذا اختلفت جهة العمل كما هنا لظهور أن الثاني مفعول صريح والأول جار ومجرور، وكذا إذا اتحدت وكانت إحدى العلتين علة للفعل والأخرى علة له بعد تعليله نحو أكرمته لكون غريباً لرجاء الثواب أو كانت العلة الثانية علة للعلة الأولى نحو لا يعذب الله تعالى التائب لمغفرته له لإسلامه فما قيل عليه من أنه لا يجوز تعدد العلة بدون اتباع غير مسلم.

وفي الكشف أن المعنى على هذا الوجه ما أنزلناه عليك لتحتمل مشاقه ومتاعبه إلا ليكون تذكرة، وحاصله أنه نظير ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً، ويرجع المعنى إلى ما أدبتك بالضرب إلا للإشفاق كذلك المعنى هنا ما أشقيناك بإنزال القرآن إلا للتذكرة، وحاصله حسبك ما حملته من متاعب التبليغ ولا تنهك بدنك ففي ذلك بلاغ اهـ. واعترض القول بجعله نظير ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً بأنه يجب في ذلك أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتماً كما في المثال المذكور، وفي قولك: ما شافهته بالسوء ليتأذى إلا زجراً لغيره فإن التأديب في الأول مسبب عن الإشفاق والتأذي في الثاني سبب لزجر الغير وما بين الشقاء والتذكرة تناف ظاهر، ولا يجدي أن يراد به التعب في الجملة المجامع للتذكرة لظهور أن لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وإنما يتصور ذلك أن لو قيل مكان ﴿إلا تذكرة﴾ إلا تكثيراً لثوابك فإن الأجر بقدر التعب كما في الحديث انتهى.

ولعل قائل ذلك يمنع وجوب أن يكون بين العلتين الملابسة المذكورة أو يدعي تحققها بينهما في الآية بناء على أن التذكرة أي التذكير سبب للتعب كما يشعر بذلك قول المدقق في الحاصل الأخير حسبك ما حملته من متاعب التبليغ الخ، وقد خفي المراد من الآية على هذا الوجه على ابن المنير فقال: إن فيه بعداً لأنه حينئذ يكون الشقاء سبب النزول وإن لم تكن اللام سببية وكانت للصيرورة مثلاً لم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه ﷺ من نهيه عن الشقاء والحزن على الكفرة وضيق الصدر بهم وكأن مضمون الآية منافياً لقوله تعالى: ﴿فلا يكن في صدرك حرج فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ [الكهف: ٦] اهـ، وأنت تعلم بعد الوقوف على المراد أن لا منافاة. نعم بعد هذا الوجه وكون الآية نظير ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً مما يشهد به الذوق، ويجوز أن تكون حالاً من الكاف أو ﴿القرآن﴾ والاستثناء مفرغ، والمصدر مؤول بالصفة أو قصد به المبالغة.

وجوز الحوفي كونها بدلاً من ﴿القرآن﴾. والزجاج كونها بدلاً من محل ﴿لتشقى﴾ لأن الاستثناء من غير الموجب يجوز فيه الإبدال. وتعقب بأن ذلك إذا كان متصلاً بأن كان المستثنى من جنس المستثنى منه والبدلية حينئذ البدلية البعضية في المشهور، وقيل: بدلية الكل من الكل، ولا يخفى عدم تحقق ذلك بين التذكرة والشقاء. والقول ببدلية الاشتمال في مثل ذلك لتصحيح البدلية هنا بناء على أن التذكرة تشتمل على التعب مما لم يقله أحد من النحاة. واعتبارها لهذا الاشتمال من جنس الشقاء فكأنها متحدة معه لا يجعل الاستثناء متصلاً كما قيل، وقد سمعت اشتراطه، وبالجملة هذا الوجه ليس بالوجيه وقد أنكره أبو علي على الزجاج.

وجوز أن يكون مفعولاً له لأنزلنا و﴿لتشقى﴾ ظرف مستقر في موضع الصفة للقرآن أي ما أنزلنا القرآن الكائن أو المنزل لتعبك إلا تذكرة، وفيه تقدير المتعلق مقروناً باللام وحذف الموصول مع بعض صلته وقد أباه بعض النحاة، وكون أل حرف تعريف خلاف الظاهر، وقيل: هي نصب على المصدرية لمحذوف أي لكن ذكرناه به تذكرة، وقوله تعالى: ﴿تنزيلاً﴾ كذلك أي نزل تنزيلاً، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها. وقيل: لما تفيده الجملة الاستثنائية فإنها متضمنة لأن يقال: إنا أنزلناه للتذكرة والأول أنسب لما بعده من الالتفات. وقيل: منصوب على المدح والاختصاص. وقيل: بيخشى على المفعولية. واستبعدهما أبو حيان وعد الثاني في غاية البعد لأن «يخشى» رأس آية فلا يناسب أن يكون ﴿تنزيلاً﴾ مفعوله. وتعقب أيضاً بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود. نعم قد تعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونحوه كما في قوله تعالى ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ [التوبة: ٦٤].

وأنت تعلم أن المعنى على هذا الوجه إلا تذكرة لمن يخشى المنزل من قادر قاهر وهو مما لا خلل فيه، وأمر عدم المعهودية سهل. وقيل: هو بدل من ﴿تذكرة﴾ بناء على أنها حال من الكاف أو ﴿القرآن﴾ كما نقل سابقاً وهو بدل اشتمال. وتعقبه أبو حيان بأن جعل المصدر حالاً لا ينقاس، ومع هذا فيه دغدغة لا تخفى، ولم تجوز البدلية منها على تقدير أن تكون مفعولاً له لأنزلنا لفظاً أو معنى لأن البدل هو المقصور فيصير المعنى أنزلناه لأجل التنزيل وفي ذلك تعليل الشيء بنفسه إن كان الإنزال والتنزيل بمعنى بحسب الوضع أو بنوعه إن كان الإنزال عاماً والتنزيل مخصوصاً بالتدريجي وكلاهما لا يجوز.

وقرأ ابن عبلة «تنزيل» بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو تنزيل ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوات الْعُلَى﴾ متعلق بتنزيل. وجوز أن يكون متعلقاً بمضمر هو صفة له مؤكدة لما في تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية. ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبة الإنزال إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى شأنه بحسب الأفعال والصفات إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ثم التفسير لزيادة تحقيق تقرير. واحتمال كون ﴿أنزلنا﴾ الخ حكاية لكلام جبرائيل والملائكة النازلين معه عليهم السلام بعيد غاية البعد.

وتخصيص خلق الأرض والسموات بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما كما يؤذن به قوله تعالى ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ الآية لأصالتهما واستتباعهما لما عداهما، وقيل: المراد بهما ما في جهة السفل وما في جهة العلو، وتقديم خلق الأرض قيل لأنه مقدم في الوجود على خلق السموات السبع كما هو ظاهر آية حم السجدة ﴿أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ [فصلت: ٩] الآية. وكذا ظاهر آية [البقرة: ٢٩] ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن﴾ الآية.

ونقل الواحدي عن مقاتل أن خلق السموات مقدم، واختاره كثير من المحققين لتقديم السموات على الأرض في معظم الآيات التي ذكرا فيها واقتضاء الحكمة تقديم خلق الأشرف والسماء أشرف من الأرض ذاتاً وصفة مع ظاهر آية [النازعات: ٢٧] ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ الآية، واختار بعض المحققين أن خلق السموات بمعنى إيجادها بمادتها قبل خلق الأرض وخلقها بمعنى إظهارها بآثارها بعد خلق الأرض وبذلك يجمع بين الآيات التي يتوهم تعارضها، وتقديم السموات في الذكر على الأرض تارة والعكس أخرى بحسب اقتضاء المقام وهو أقرب إلى التحقيق، وعليه وعلى ما قبله فتقديم خلق الأرض هنا قيل لأنه أوفق بالتنزيل الذي هو من أحكام رحمته تعالى كما ينبىء عنه ما بعد وقوله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ [الرحمن: ١، ٢] ويرمز إليه ما قبل فإن الانعام على الناس بخلق الأرض أظهر وأتم

وهي أقرب إلى الحس. وقيل: لأنه أوفق بمفتتح السورة بناء على جعل ﴿طه﴾ جملة فعلية أي طأ الأرض بقدميك أو لقوله تعالى ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ بناء على أنه جملة مستأنفة لصرفه ﷺ عما كان عليه من رفع إحدى رجليه عن الأرض في الصلاة كما جاء في سبب النزول، ووصف السموات بالعلى وهو جمع العليا كالكبرى تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك إلى قوله تعالى ﴿له الأسماء الحسنى﴾ مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم المنزل الداعي إلى استنزال المتمردين عن رتبة العلو والطغيان واستمالتهم إلى التذكر والإيمان.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ رفع على المدح أي هو الرحمن.

وجوز ابن عطية أن يكون بدلاً من الضمير المستتر في ﴿خلق﴾ وتعقبه أبو حيان فقال: أرى أن مثل هذا لا يجوز لأن البدل يحل محل المبدل منه ولا يحل ها هنا لئلا يلزم خلو الصلة من العائد اهـ، ومنع بعضهم لزوم اطراد الحلول ثم قال: على تسليمه يجوز إقامة الظاهر مقام الضمير العائد كما في قوله:

وأنـت الـذي فـي رحـمـة الله أطـمـع

نعم اعتبار البدلية خلاف الظاهر، وجوز أن يكون مبتدأ واللام للعهد والإشارة إلى الموصول وخبره قوله تعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ويقدر هو ويجعل خبراً عنه على احتمال البدلية، وعلى الاحتمال الأول يجعل خبراً بعد خبر لما قدر أولاً على ما في البحر وغيره، وروى جناح بن حبيش عن بعضهم أنه قرأ «الرحمن» بالجر، وخرجه الزمخشري على أنه صفة لمن. وتعقبه أبو حيان بأن مذهب الكوفيين أن الأسماء النواقص التي لا تتم إلا بصلاتها كمن وما لا يجوز نعتها إلا الذي والتي فيجوز نعتهما فعندهم لا يجوز هذا التخريج فالأحسن أن يكون ﴿الرحمن﴾ بدلاً من ﴿من﴾ وقد جرى في القرآن مجرى العلم في وقوعه بعد العوامل، وقيل: إن «من» يحتمل أن تكون نكرة موصوفة وجملة ﴿خلق﴾ صفتها و﴿الرحمن﴾ صفة بعد صفة وليس ذلك من وصف الأسماء النواقص التي لا تتم إلا بصلاتها غاية ما في الباب أن فيه تقديم الوصف بالجملة على الوصف بالمفرد وهو جائز اهـ وهو كما ترى.

وجملة ﴿على العرش استوى﴾ على هذه القراءة خبر هو مقدراً، والجار والمجرور على كل الاحتمالات متعلق باستوى قدم عليه لمراعاة الفواصل، و﴿العرش﴾ في اللغة سرير الملك وفي الشرع سرير ذو قوائم له حملة من الملائكة عليهم السلام فوق السموات مثل القبة، ويدل على أن له قوائم ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي سعيد قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه فقال: يا محمد رجل من أصحابك قد لطم وجهي فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ادعوه فقال: لم لطمت وجهه؟ فقال: يا رسول الله إني مررت بالسوق وهو يقول: والذي اصطفى موسى على البشر فقلت: يا خبيث وعلى محمد ﷺ فأخذتني غضبة فلطمته فقال النبي ﷺ: لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون وأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزيَ بصعقة الطور، وعلى أن له حملة من الملائكة عليهم السلام قوله تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به﴾ [غافر: ٧].

وما رواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين أذنيه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة» وعلى أنه فوق السموات مثل القبة ما رواه أبو داود أيضاً عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس ونهكت الأموال أو هلكت فاستسق لنا فإنا نستشفع بك إلى الله تعالى ونستشفع بالله تعالى عليك فقال رسول الله

ﷺ: «ويحك أتدري ما تقول؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال: ويحك إنه لا يستشفع بالله تعالى على أحد من خلقه شأن الله تعالى أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله إن الله تعالى فوق عرشه وعرشه فوق سمواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة وأنه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب» ومن شعر أمية ابن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السموات أمسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بهر النا ... س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا[1] لا يناله طرف العـ ... ين ترى حوله الملائك صورا[2]

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أنه مستدير من جميع الجوانب محيط بالعالم من كل جهة وهو محدد الجهات وربما سموه الفلك الأطلس والفلك التاسع. وتعقبه بعض شراح عقيدة الطحاوي بأنه ليس بصحيح لما ثبت في الشرع من أن له قوائم تحمله الملائكة عليهم السلام، وأيضاً أخرجا في الصحيحين عن جابر أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» والفلك التاسع عندهم متحرك دائماً بحركة متشابهة، ومن تأول ذلك على أن المراد باهتزازه استبشار حملة العرش وفرحهم فلا بد له من دليل على أن سياق الحديث ولفظه كما نقل عن أبي الحسن الطبري. وغيره بعيد عن ذلك الاحتمال، وأيضاً جاء في صحيح مسلم من حديث جويرية بنت الحارث ما يدل على أنه له زنة هي أثقل الأوزان والفلك عندهم لا ثقيل ولا خفيف، وأيضاً العرب لا تفهم منه الفلك والقرآن إنما نزل بما يفهمون.

وقصارى ما يدل عليه خبر أبي داود عن جبير بن مطعم التقبيب وهو لا يستلزم الاستدارة من جميع الجوانب كما في الفلك ولا بد لها من دليل منفصل. ثم إن القوم إلى الآن بل إلى أن ينفخ في الصور لا دليل لهم على حصر الأفلاك في تسعة ولا على أن التاسع أطلس لا كوكب فيه وهو غير الكرسي على الصحيح فقد قال ابن جرير: قال أبو ذر رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

وروى ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش. والحاكم في مستدركه وقال: إنه على شرط الشيخين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى، وقد روي مرفوعاً والصواب وقفه على الحبر، وقيل: العرش كناية عن الملك والسلطان. وتعقبه ذلك البعض بأنه تحريف لكلام الله تعالى وكيف يصنع قائل ذلك بقوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [الحاقة: ١٧] أيقول ويحمل ملكه تعالى يومئذ ثمانية، وقوله عليه الصلاة والسلام «فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش» أيقول آخذ بقائمة من قوائم الملك وكلا القولين لا يقولهما من له أدنى ذوق، وكذا يقال: أيقول في «اهتز عرش الرحمن» الحديث اهتز ملك الرحمن وسلطانه، وفيما رواه البخاري. وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً لما قضى الله تعالى الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي فهو عنده سبحانه وتعالى فوق الملك والسلطان؛ وهذا كذينك القولين، والاستواء

---

(١) أي عالياً اهـ منه.

(٢) جمع أصور وهو المائل العنق لنظره إلى العلو اهـ منه.

على الشيء جاء بمعنى الارتفاع والعلو عليه وبمعنى الاستقرار كما في قوله تعالى ﴿واستوت على الجودي﴾ [هود: ٤٤] ﴿لتستووا على ظهوره﴾ [الزخرف: ١٣] وحيث كان ظاهر ذلك مستحيلاً عليه تعالى قيل: الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء كما في قوله:

قـد اسـتـوى بـشـر عـلـى الـعـراق

وتعقب بأن الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز، وذلك محال في حقه تعالى، وأيضاً إنما يقال: استولى فلان على كذا إذا كان له منازع ينازعه وهو في حقه تعالى محال أيضاً، وأيضاً إنما يقال ذلك إذا كان المستولى عليه موجوداً قبل والعرش إنما حدث بتخليقه تعالى وتكوينه سبحانه، وأيضاً الاستيلاء واحد بالنسبة إلى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة.

وأجاب الإمام الرازي بأنه إذا فسر الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية، ولا يخفى حال هذا الجواب على المنصف، وقال الزمخشري: لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل إلا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على العرش البتة وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة بمعنى أنه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: جواد ومنه قوله تعالى ﴿وقالت اليهود يد الله﴾ [المائدة: ٦٤] الآية عنوا الوصف بالبخل ورد عليهم بأنه جل جلاله جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط انتهى، وتعقبه الإمام قائلاً: إنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فإنهم يقولون أيضاً: المراد من قوله تعالى ﴿فاخلع نعليك﴾ [طه: ١٢] الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور نعل، وقوله تعالى ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩] المراد منه تخليص إبراهيم عليه السلام عن يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة. وكذا القول في كل ما ورد في كتاب الله تعالى بل القانون أنه يجب حمل كل لفظ ورد في القرآن على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه، وليت من لم يعرف شيئاً لم يخض فيه انتهى، ولا يخفى عليك أنه لا يلزم من فتح الباب في هذه الآية انفتاح تأويلات الباطنية فيما ذكر من الآيات إذ لا داعي لها هناك والداعي للتأويل بما ذكره الزمخشري قوي عنده، ولعله الفرار من لزوم المحال مع رعاية جزالة المعنى فإن ما اختاره أجزل من معنى الاستيلاء سواء كان معنى حقيقياً للاستواء كما هو ظاهر كلام الصحاح والقاموس وغيرهما أو مجازياً كما هو ظاهر جعلهم الحمل عليه تأويلاً، واستدل الإمام على بطلان إرادة المعنى الظاهر بوجوه. الأول أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولما خلق الخلق لم يحتج إلى ما كان غنياً عنه. الثاني أن المستقر على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الجزء الحاصل منه في يساره فيكون سبحانه وتعالى في نفسه مؤلفاً وهو محال في حقه تعالى للزوم الحدوث. الثالث أن المستقر على العرش إما أن يكون متمكناً من الانتقال والحركة ويلزم حينئذ أن يكون سبحانه وتعالى محل الحركة والسكون وهو قول بالحدوث أو لا يكون متمكناً من ذلك فيكون جل وعلا كالزمن بل أسوأ حالاً منه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. الرابع أنه إن قيل بتخصيصه سبحانه وتعالى بهذا المكان وهو العرش احتيج إلى مخصص وهو افتقار ينزه الله تعالى عنه، وإن قيل بأنه عز وجل يحصل بكل مكان لزم ما لا يقوله عاقل. الخامس أن قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] عام في نفي المماثلة فلو كان جالساً لحصل من يماثله في الجلوس فحينئذ تبطل الآية. السادس أنه تعالى لو كان مستقراً على العرش لكان محمولاً للملائكة لقوله تعالى ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ

ثمانية﴾ [الحاقة: ١٧] وحامل حامل الشيء حامل لذلك الشيء وكيف يحمل المخلوق خالقه. السابع أنه لو كان المستقر في المكان إلهاً ينسد باب القدح في إلهية الشمس والقمر الثامن أن العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلى قوم هي تحت بالنسبة إلى آخرين وبالعكس فيلزم من إثبات جهة الفوق للمعبود سبحانه إثبات الجهة المقابلة لها أيضاً بالنسبة إلى بعض، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال: المعبود تحت.

التاسع أن الأمة أجمعت على أن قوله تعالى ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] من المحكمات وعلى فرض الاستقرار على العرش يلزم التركيب والانقسام فلا يكون سبحانه وتعالى أحداً في الحقيقة فيبطل ذلك المحكم.

العاشر أن الخليل عليه السلام قال ﴿لا أحب الآفلين﴾ [الأنعام: ٧٦] فلو كان تعالى مستقراً على العرش لكان جسماً آفلاً أبداً فيندرج تحت عموم هذا القول انتهى. ثم إنه عفا الله تعالى عنه ضعف القول بأنا نقطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يشعر به الظاهر بل مراده سبحانه شيء آخر ولكن لا نعين ذلك المراد خوفاً من الخطا بأنه عز وجل لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا نريد باللفظ إلا موضوعه في لسانهم وإذا كان لا معنى للاستواء في لسانهم إلا الاستقرار والاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار فوجب حمله على الاستيلاء وإلا لزم تعطيل اللفظ وأنه غير جائز. وإلى نحو هذا ذهب الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال في بعض فتاويه: طريقة التأويل بشرطه وهو قرب التأويل أقرب إلى الحق لأن الله تعالى إنما خاطب العرب بما يعرفونه وقد نصب الأدلة على مراده من آيات كتابه لأنه سبحانه قال ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ [القيامة: ١٩] و﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل: ٤٤] وهذا عام في جميع آيات القرآن فمن وقف على الدليل أفهمه الله تعالى مراده من كتابه وهو أكمل ممن لم يقف على ذلك إذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وفيه توسط في المسألة.

وقد توسط ابن الهمام في المسايرة وقد بلغ رتبة الاجتهاد كما قال عصرينا ابن عابدين الشامي في رد المختار حاشية الدر المحتار توسطاً أخص من هذا التوسط فذكر ما حاصله وجوب الإيمان بأنه تعالى استوى على العرش مع نفي التشبيه وأما كون المراد استولى فأمر جائز الإرادة لا واجبها إذ لا دليل عليه وإذا خيف على العامة عدم فهم الاستواء إذا لم يكن بمعنى الاستيلاء إلا بالاتصال ونحوه من لوازم الجسمية فلا بأس بصرف فهمهم إلى الاستيلاء فإنه قد ثبت إطلاقه عليه لغة في قوله:

فلما علونا واستوينا عليهم ... جعلناهم مرعى لنسر وطائر

وقوله قد استوى بشر البيت المشهور. وعلى نحو ما ذكر كل ما ورد مما ظاهره الجسمية في الشاهد كالإصبع والقدم واليد. ومخلص ذلك التوسط في القريب بين أن تدعو الحاجة إليه لخلل في فهم العوام وبين أن لا تدعو لذلك. ونقل أحمد زروق عن أبي حامد أنه قال: لا خلاف في وجوب التأويل عند تعيين شبهة لا ترتفع إلا به. وأنت تعلم أن طريقة كثير من العلماء الأعلام وأساطين الإسلام الإمساك عن التأويل مطلقاً مع نفي التشبيه والتجسيم منهم الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام أحمد والإمام الشافعي ومحمد بن الحسن وسعد بن معاذ المروزي وعبد الله بن المبارك وأب معاذ خالد بن سليمان صاحب سفيان الثوري وإسحاق بن راهويه ومحمد بن إسماعيل البخاري والترمذي وأبو داود السجستاني.

ونقل القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد في كتاب الاعتقاد عن أبي يوسف عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: لا ينبغي لأحد أن ينطق في الله تعالى بشيء من ذاته ولكن يصفه بما وصف سبحانه به نفسه ولا يقول فيه برأيه شيئاً تبارك الله تعالى رب العالمين.

وأخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت الشافعي يقول لله تعالى أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر فنثبت هذه الصفات وننفي عنها التشبيه كما نفى سبحانه عن نفسه فقال ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١]، وذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري أنه قد اتفق على ذلك أهل القرون الثلاثة وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة ﷺ، وكلام إمام الحرمين في الإرشاد يميل إلى طريقة التأويل وكلامه في الرسالة النظامية مصرح باختياره طريقة التفويض حيث قال فيها: والذي نرتضيه رأياً وندين به عقداً اتباع سلف الأمة فالأولى الاتباع وترك الابتداع، والدليل السمعي القاطع في ذلك إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعاني المتشابهات مع أنهم كانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها فلو كان تأويل هذه الظواهر مسنوناً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق الاهتمام بفروع الشريعة وقد اختاره أيضاً الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي صنفه في اختلاف المضلين ومقالات الإسلاميين، وفي كتابه الإبانة في أصول الديانة وهو آخر مصنفاته فيما، قيل: وقال البيضاوي في الطوالع: والأولى اتباع السلف في الإيمان بهذه الأشياء - يعني المتشابهات - ورد العلم إلى الله تعالى بعد نفي ما يقتضي التشبيه والتجسيم عنه تعالى انتهى.

وعلى ذلك جرى محققو الصوفية فقد نقل عن جمع منهم أنهم قالوا: إن الناس ما احتاجوا إلى تأويل الصفات إلا من ذهولهم عن اعتقاد أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق وإذا كانت مخالفة فلا يصح في آيات الصفات قط تشبيه إذ التشبيه لا يكون إلا مع موافقة حقيقته تعالى لحقائق خلقه وذلك محال.

وعن الشعراني أن من احتاج إلى التأويل فقد جهل أولاً وآخراً أما أولاً فبتعقله صفة التشبيه في جانب الحق وذلك محال، وأما آخراً فلتأويله ما أنزل الله تعالى على وجه لعله لا يكون مراد الحق سبحانه وتعالى.

وفي الدرر المنثورة له أن المؤول انتقل عن شرح الاستواء الجثماني على العرش المكاني بالتنزيه عنه إلى التشبيه بالأمر السلطاني الحادث وهو الاستيلاء على المكان فهو انتقال عن التشبيه بمحدث ما إلى التشبيه بمحدث آخر فما بلغ عقله في التنزيه مبلغ الشرع فيه في قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ ألا ترى أنه استشهد في التنزيه العقلي في الاستواء بقول الشاعر: قد استوى البيت وأين استواء بشر على العراق من استواء الحق سبحانه وتعالى على العرش فالصواب أن يلزم العبد الأدب مع مولاه ويكل معنى كلامه إليه عز وجل.

ونقل الشيخ إبراهيم الكوراني في تنبيه العقول عن الشيخ الأكبر قدس سره أنه قال في الفتوحات أثناء كلام طويل عجب فيه من الأشاعرة والمجسمة: الاستواء حقيقة معقولة معنوية تنسب إلى كل ذات بحسب ما تعطيه حقيقة تلك الذات ولا حاجة لنا إلى التكلف في صرف الاستواء عن ظاهره، والفقير قد رأى في الفتوحات ضمن كلام طويل أيضاً في الباب الثالث منها ما نصه ما ضل من ضل من المشبهة إلا بالتأويل وحمل ما وردت به الآيات والأخبار على ما يسبق منها إلى الفهم من غير نظر فيما يجب لله تعالى من التنزيه فقادهم ذلك إلى الجهل المحض والكفر الصراح ولو طلبوا السلامة وتركوا الأخبار والآيات على ما جاءت من غير عدول منهم فيها إلى شيء البتة ويكلون علم ذلك إلى الله تعالى ولرسوله ﷺ ويقولون: لا ندري كان يكفيهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ ثم ذكر بعد في الكلام على قوله ﷺ: الذي رواه مسلم: إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف شاء التخيير بين التفويض لكن بشرط نفي الجارحة ولا بد وتبيين ما في ذلك اللفظ من وجوه التنزيه، وذكر أن

هذا واجب على العالم عند تعينه في الرد على بدعي مجسم مشبه، وقال أيضاً فيما رواه عنه تلميذه المحقق إسماعيل ابن سودكين في شرح التجليات: ولا يجوز للعبد أن يتأول ما جاء من أخبار السمع لكونها لا تطابق دليله العقلي كأخبار النزول وغيره لأنه لو خرج الخطاب عما وضع له لما كان به فائدة وقد علمنا أنه عليه الصلاة والسلام أرسل ليبين للناس ما أنزل إليهم ثم رأيناه ﷺ مع فصاحته وسعة علمه وكشفه لم يقل لنا إنه تنزل رحمته تعالى ومن قال تنزل رحمته فقد حمل الخطاب على الأدلة العقلية والحق ذاته مجهولة فلا يصح الحكم عليه بوصف مقيد معين، والعرب تفهم نسبة النزول مطلقاً فلا تقيده بحكم دون حكم، وحيث تقرر عندها أنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء يحصل لها المعنى مطلقاً منزهاً وربما يقال لك هذا يحيله العقل فقل الشأن هذا إذا صح أن يكون الحق من مدركات العقول فإنه حينئذ تمضي عليه سبحانه وتعالى أحكامها انتهى، وقال تلميذه الشيخ صدر الدين القونوي في مفتاح الغيب بعد بسط كلام في قاعدة جليلة الشأن حاصلها أن التغاير بين الذوات يستدعي التغاير في نسبة الأوصاف إليها ما نصه: وهذه قاعدة من عرفها أو كشف له عن سرها عرف سر الآيات والأخبار التي توهم التشبيه عند أهل العقول الضعيفة واطلع على المراد منها فيسلم من ورطتي التأويل والتشبيه وعاين الأمر كما ذكر مع كمال التنزيه انتهى، وخلاصة الكلام في هذا المقام أنه قد ورد في الكتاب العزيز والأحاديث الصحيحة ألفاظ توهم التشبيه والتجسيم وما لا يليق بالله تعالى الجليل العظيم فتشبث المجسمة والمشبهة بما توهمه فضلوا وأضلوا ونكبوا عن سواء السبيل وعدلوا وذهب جمع إلى أنهم هالكون وبربهم كافرون، وذهب آخرون إلى أنهم مبتدعون وفصل بعض فقال: هم كفرة إن قالوا: هو سبحانه وتعالى جسم كسائر الأجسام ومبتدعة إن قالوا: جسم لا كالأجسام وعصم الله تعالى أهل الحق مما ذهبوا إليه وعولوا في عقائدهم عليه فأثبتت طائفة منهم ما ورد كما ورد مع كمال التنزيه المبرأ عن التجسيم والتشبيه فحقيقة الاستواء مثلاً المنسوب إليه تعالى شأنه لا يلزمها ما يلزم في الشاهد فهو جل وعلا مستو على العرش مع غناه سبحانه وتعالى عنه وحمله بقدرته للعرش وحملته وعدم مماسة له أو انفصال مسافي بينه تعالى وبينه ومتى صح للمتكلمين أن يقولوا: إنه تعالى ليس عين العالم ولا داخلاً فيه ولا خارجاً عنه مع أن البداهة تكاد تقضي ببطلان ذلك بين شيء وشيء صح لهؤلاء الطائفة أن يقولوا ذلك في استوائه تعالى الثابت بالكتاب والسنة. فالله سبحانه وصفاته وراء طور العقل فلا يقبل حكمه إلا فيما كان في طور الفكر فإن القوة المفكرة شأنها التصرف فيما في الخيال والحافظة من صور المحسوسات والمعاني الجزئية ومن ترتيبها على القانون يحصل للعقل علم آخر بينه وبين هذه الأشياء مناسبة وحيث لا مناسبة بين ذات الحق جل وعلا وبين شيء لا يستنتج من المقدمات التي يرتبها العقل معرفة الحقيقة فأكف الكيف مشلولة وأعناق التطاول إلى معرفة الحقيقة مغلولة وأقدام السعي إلى التشبيه مكبلة وأعين الأبصار والبصائر عن الإدراك والإحاطة مسملة:

مرام شط مرمى العقل فيه ... ودون مداه بيد لا تبيد

وقد أخرج اللالكائي في كتاب السنة من طريق الحسن عن أمه عن أم سلمة أنها قالت: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإقرار به إيمان والجحود به كفر، ومن طريق ربيعة بن عبد الرحمن أنه سئل كيف استوى على العرش فقال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول وعلى الله تعالى إرساله وعلى رسوله البلاغ وعلينا التسليم، ومتى قالوا بنفي اللوازم بالكلية اندفع عنهم ما تقدم من الاعتراضات وحفظوا عن سائر الآفات وهذه الطائفة قيل هم السلف الصالح، وقيل: إن السلف بعد نفي ما يتوهم من التشبيه يقولون: لا ندري ما معنى ذلك والله تعالى أعلم بمراده. واعترض بأن الآيات والأخبار المشتملة على نحو ذلك كثيرة جداً ويبعد غاية البعد أن يخاطب الله تعالى ورسوله ﷺ

العباد فيما يرجع إلى الاعتقاد بما لا يدري معناه، وأيضاً قد ورد في الأخبار ما يدل على فهم المخاطب المعنى من مثل ذلك، فقد أخرج أبو نعيم عن الطبراني قال: حدثنا عياش بن تميم حدثنا يحيى بن أيوب المقابري حدثنا سلم بن سالم حدثنا خارجة بن مصعب عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله تعالى يضحك من يأس عباده وقنوطهم وقرب الرحمة منهم» فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أو يضحك ربنا؟ قال: نعم والذي نفسي بيده إنه ليضحك قلت: فلا يعدمنا خيراً إذا ضحك فإنها رضي الله تعالى عنها لو لم تفهم من ضحكه تعالى معنى لم تقل ما قالت.

وقد صح عن بعض السلف أنهم فسروا، ففي صحيح البخاري قال مجاهد: استوى على العرش علا على العرش وقال أبو العالية: استوى على العرش ارتفع، وقيل: إن السلف قسمان قسم منهم بعد أن نفوا التشبيه عينوا المعنى الظاهر، المعرى عن اللوازم وقسم رأوا صحة تعيين ذلك وصحة تعيين معنى آخر لا يستحيل عليه تعالى كما فعل بعض الخلف فراعوا الأدب واحتاطوا في صفات الرب فقالوا: لا ندري ما معنى ذلك أي المعنى المراد له عز وجل والله تعالى أعلم بمراده.

وذهبت طائفة من المنزهين عن التشبيه والتجسيم إلى أنه ليس المراد الظواهر مع نفي اللوازم بل المراد معنى معين هو كذا وكثيراً ما يكون ذلك معنى مجازياً وقد يكون معنى حقيقياً للفظ وهؤلاء جماعة من الخلف وقد يتفق لهم تفويض المراد إليه جل وعلا أيضاً وذلك إذا تعددت المعاني المجازية أو الحقيقية التي لا يتوهم منها محذور ولم يقم عندهم قرينة ترجح واحداً منها فيقولون: يحتمل اللفظ كذا وكذا والله تعالى أعلم بمراده من ذلك. ومذهب الصوفية على ما ذكره الشيخ إبراهيم الكوراني وغيره إجراء المتشابهات على ظواهرها مع نفي اللوازم والتنزيه بليس كمثله شيء كمذهب السلف الأول وقولهم بالتجلي في المظاهر على هذا النحو، وكلام الشيخ الأكبر قدس سره في هذا المقام مضطرب كما يشهد بذلك ما سمعت نقله عنه أولاً مع ما ذكره في الفصل الثاني من الباب الثاني من الفتوحات فإنه قال في عد الطوائف المنزهة: وطائفة من المنزهة أيضاً وهي العالية وهم أصحابنا فرغوا قلوبهم من الفكر والنظر وأخلوها وقالوا: حصل في نفوسنا من تعظيم الله تعالى الحق جل جلاله بحيث لا نقدر أن نصل إلى معرفة ما جاءنا من عنده بدقيق فكر ونظر فأشبهوا في هذا العقد المحدثين السالمة عقائدهم حيث لم ينظروا ولم يؤولوا بل قالوا: ما فهمنا فقال أصحابنا بقولهم ثم انتقلوا عن مرتبة هؤلاء بأن قالوا: لنا أن نسلك طريقة أخرى في فهم هذه الكلمات وذلك بأن نفرغ قلوبنا من النظر الفكري ونجلس مع الحق تعالى بالذكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيؤ لقبول ما يرد منه تعالى حتى يكون الحق سبحانه وتعالى متولي تعليمنا بالكشف والتحقق لما سمعوه تعالى يقول ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿وإن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ [الأنفال: ٢٩] ﴿قل ربي زدني علماً﴾ [طه: ١١٤] ﴿علمناه من لدنا علماً﴾ [الكهف: ٦٥] فعندما توجهت قلوبهم وهممهم إلى الله عز وجل ولجأت إليه سبحانه وتعالى وألقت عنها ما استمسك به الغير من دعوى البحث والنظر ونتائج العقول كانت عقولهم سليمة وقلوبهم مطهرة فارغة فعند ما كان منهم هذا الاستعداد تجلى لهم الحق عياناً معلماً فاطلعتهم تلك المشاهدة على معاني تلك الكلمات دفعة واحدة فعرفوا المعنى التنزيهي الذي سيقت له ويختلف ذلك بحسب اختلاف مقامات إيرادها وهذا حال طائفة منا وحال طائفة أخرى منا أيضاً ليس لهم هذا التجلي لكن لهم الإلقاء والإلهام واللقاء والكتاب وهم معصومون فيما يلقى إليهم بعلامات عندهم لا يعرفها سواهم فيخبرون بما خوطبوا به وبما ألهموا وما ألقي إليهم أو كتب اهـ المراد منه.

ولعل من يقول بإجراء المتشابهات على ظواهرها مع نفي اللوازم كمذهب السلف الأول من الصوفية طائفة لم يحصل لهم ما حصل لهاتين الطائفين والفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء. هذا بقي هل يسمى ما عليه السلف تأويلاً أم لا المشهور عدم تسمية ما عليه المفوضة منهم تأويلاً وسماه بعضهم تأويلاً كالذي عليه الخلف، قال اللقاني: أجمع الخلف ويعبر عنهم بالمؤولة والسلف ويعبر عنهم بالمفوضة على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذي دل عليه الظاهر وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهره المحال وعلى الإيمان به بأنه من عند الله تعالى جاء به رسوله ﷺ وإنما اختلفوا في تعيين محمل له معنى صحيح وعدم تعيينه بناء على أن الوقف على قوله تعالى ﴿والراسخون في العلم﴾ [آل عمران: ٧] أو على قوله سبحانه ﴿إلا الله﴾ ويقال لتأويل السلف إجمالي ولتأويل الخلف تفصيلي انتهى ملخصاً.

وكان شيخنا العلامة علاء الدين يقول: ما عليه المفوضة تأويل واحد وما عليه المؤولة تأويلان، ولعله راجع إلى ما سمعت، وأما ما عليه القائلون بالظواهر مع نفي اللوازم فقد قيل: إن فيه تأويلاً أيضاً لما فيه من نفي اللوازم وظاهر الألفاظ أنفسها تقتضيها ففيه إخراج اللفظ عما يقتضيه الظاهر، وإخراج اللفظ عن ذلك لدليل ولو مرجوحاً تأويل. ومعنى كونهم قائلين بالظواهر أنهم قائلون بها في الجملة، وقيل: لا تأويل فيه لأنهم يعتبرون اللفظ من حيث نسبته إليه عز شأنه وهو من هذه الحيثية لا يقتضي اللوازم فليس هناك إخراج اللفظ عما يقتضيه الظاهر، ألا ترى أن أهل السنة والجماعة أجمعوا على رؤية الله تعالى في الآخرة مع نفي لوازم الرؤية في الشاهد من المقابلة والمسافة المخصوصة وغيرهما مع أنه لم يقل أحد منهم: إن ذلك من التأويل في شيء، وقال بعض الفضلاء: كل من فسر فقد أول وكل من لم يفسر لم يؤول لأن التأويل هو التفسير فمن عدا المفوضة مؤولة وهو الذي يقتضيه ظاهر قوله تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ بناء على أن الوقف على ﴿إلا الله﴾ ولا يخفى أن القول بأن القائلين بالظواهر مع نفي اللوازم من المؤولة الغير الداخلين في الراسخين في العلم بناء على الوقف المذكور لا يتسنى مع القول بأنهم من السلف الذين هم هم وقد يقال: إنهم داخلون في الراسخين والتأويل بمعنى آخر يظهر بالتتبع والتأمل، وقد تقدم الكلام في المراد بالمتشابهات وذكرنا ما يفهم منه الاختلاف في معنى التأويل وأنا أميل إلى التأويل وعدم القول بالظواهر مع نفي اللوازم في بعض ما ينسب إلى الله تعالى مثل قوله سبحانه ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ [الرحمن: ٣١] وقوله عز وجل ﴿يا حسرة على العباد﴾ [يس: ٣٠] كما في بعض القراءات وكذا قوله ﷺ إن صح: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه فمن قبله أو صافحه فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه» فاجعل الكلام فيه خارجاً مخرج التشبيه لظهور القرينة، ولا أقول: الحجر الأسود من صفاته تعالى كما قال السلف في اليمين وأرى من يقول بالظواهر ونفي اللوازم في الجميع بينه وبين القول بوحدة الوجود على الوجه الذي قاله محققو الصوفية مثل ما بين سواد العين وبياضها، وأميل أيضاً إلى القول بتقبيب العرش لصحة الحديث في ذلك، والأقرب إلى الدليل العقلي القول بكريته ومن قال بذلك أجاب عن الأخبار السابقة بما لا يخفى على الفطن.

وقال الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره في الباب الحادي والسبعين والثلاثمائة من الفتوحات: إنه ذو أركان أربعة ووجوه أربعة هي قوائمه الأصلية وبين كل قائمتين قوائم وعددها معلوم عندنا ولا أبينها إلى آخر ما قال، ويفهم كلامه أن قوائمه ليست بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، وصرح بأنه أحد حملته وأنه أنزل عند أفضل القوائم وهي خزانة الرحمة، وذكر أن العمى محيط به وأن صورة العالم بجملته صورة دائرة فلكية، وأطال الكلام في هذا الباب وأتى فيه بالعجب العجاب، وليس له في أكثر ما ذكره فيه مستند نعلمه من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ ومنه ما لا يجوز لنا أن نقول بظاهره، والظاهر أن العرش واحد، وقال من قال من الصوفية بتعدده، ولا يخفى ما في نسبة الاستواء إليه

تعالى بعنوان الرحمانية مما يزيد قوة الرجاء به جل وعلا وسبحان من وسعت رحمته كل شيء.

وجعل فاعل الاستواء ما في قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ و﴿له﴾ متعلق به على ما يقتضيه ما روي عن ابن عباس من أن الوقف على ﴿العرش﴾ ويكون المعنى استقام له تعالى كل ذلك وهو على مراده تعالى بتسويته عز وجل إياه كقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ [البقرة: ٢٩] أو استوى كل شيء بالنسبة إليه تعالى فلا شيء أقرب إليه سبحانه من شيء كما يشير إليه «لا تفضلوني على ابن متى» مما لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً، والرواية عن ابن عباس غير صحيحة، ولعل الذي دعا القائل به إليه الفرار من نسبة الاستواء إليه جل جلاله، ويا ليت شعري ماذا يصنع بقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وهو بظاهره الذي يظن مخالفته لما يقتضيه عقله مثل ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ بل ﴿له﴾ خبر مقدم و﴿ما في السماوات﴾ مبتدأ مؤخر أي له عز وجل وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالاً من حيث الملك والتصرف والإحياء والإماتة والإيجاد والإعدام جميع ما في السموات والأرض سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات الكائنة في الجو دائماً كالهواء والسحاب وخلق لا نعلمهم هو سبحانه يعلمهم أو أكثرياً كالطير الذي نراه ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ أي ما تحت الأرض السابعة على ما روي عن ابن عباس وأخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب، وأخرج عن السدي أنه الصخرة التي تحت الأرض السابعة وهي صخرة خضراء، وأخرج أبو يعلى عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل ما تحت الأرض؟ قال: الماء قيل: فما تحت الماء؟ قال: ظلمة قيل: فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء قيل: فما تحت الهواء؟ قال: الثرى قيل: فما تحت الثرى؟ قال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق.

وأخرج ابن مردويه عنه نحوه من حديث طويل، وقال غير واحد الثرى التراب الندي أو الذي إذا بل لم يصر طيناً كالثريا ممدودة، ويقال: في تثنيته ثريان وثروان وفي جمعه أثراء؛ ويقال: ثريت الأرض كرضى تثري ثرى فهي ثرية كغنية وثرياء إذا نديت ولانت بعد الجدوبة واليبس وأثرت كثر ثراؤها وثرى التربة تثرية بلها والمكان رشه وفلاناً ألزم يده الثرى، وفسر بمطلق التراب أي وله تعالى ما واراه التراب وذكره مع دخوله تحت ما في الأرض لزيادة التقرير، وإذا كان ما في الأرض ما هو عليها فالأمر ظاهر، وما تقدم من الإشارة إلى أن المراد له تعالى كل ذلك ملكاً وتصرفاً هو الظاهر.

وقيل: المعنى له علم ذلك أي إن علمه تعالى محيط بجميع ذلك، والأول هو الظاهر وعليه يكون قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ الخ بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان شمول قدرته تعالى لجميع الكائنات، والخطاب على ما قاله في البحر للنبي ﷺ والمراد أمته عليه الصلاة والسلام، وجوز أن يكون عاماً أي وإن ترفع صوتك أيها الإنسان بالقول ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي ما أسررته إلى غيرك ولم ترفع صوتك به ﴿وَأَخْفَى﴾ أي وشيئاً أخفى منه وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلاً، وروي ذلك عن الحسن وعكرمة أو ما أسررته في نفسك وما ستسره فيها وروي ذلك عن سعيد بن جبير وروي عن السيدين الباقر والصادق السر ما أخفيته في نفسك والأخفى ما خطر ببالك ثم أنسيته.

وقيل: ﴿أخفى﴾ فعل ماض عطف على ﴿يعلم﴾ يعني أنه تعالى يعلم أسرار العباد وأخفى ما يعلمه سبحانه عنهم وهو كقوله تعالى ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾ [طه: ١١٠]، وروي ذلك أبو الشيخ في العظمة عن زيد بن أسلم وهو خلاف الظاهر جداً؛ فالمعول عليه أنه أفعل تفضيل والتنكير للمبالغة في الخفاء، والمتبادر من القول ما يشمل ذكر الله تعالى وغيره وإليه ذهب بعضهم، وخصه جماعة بذكره سبحانه ودعائه على أن

التعريف للعهد لأن استواء الجهر والسر عنده سبحانه المدلول عليه في الكلام يقتضي أن الجهر المذكور في خطابه عز وجل، وعلى القولين قوله تعالى ﴿فإنه﴾ الخ قائم مقام جواب الشرط وليس الجواب في الحقيقة لأن علمه تعالى السر وأخفى ثابت قبل الجهر بالقول وبعده وبدونه.

والأصل عند البعض وإن يجهر بالقول فاعلم أن الله تعالى يعلمه فإنه يعلم السر وأخفى فضلاً عنه. وعند الجماعة وإن تجهر فاعلم أن الله سبحانه غني عن جهرك فإنه الخ، وهذا على ما قيل إرشاد للعباد إلى التحري والاحتياط حين الجهر فإن من علم أن الله تعالى يعلم جهره لم يجهر بسوء، وخص الجهر بذلك لأن أكثر المحاورات ومخاطبات الناس به، وقيل: إرشاد للعباد إلى أن الجهر بذكر الله تعالى ودعائه ليس لإسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة وغير ذلك، وقيل: نهي عن الجهر بالذكر والدعاء كقوله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وأنت تعلم أن القول بأن الجهر بالذكر والدعاء منهي لا ينبغي أن يكون على إطلاقه.

والذي نص عليه الإمام النووي في فتاويه أن الجهر بالذكر حيث لا محذور شرعياً مشروع مندوب إليه بل هو أفضل من الإخفاء في مذهب الإمام الشافعي وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد وإحدى الروايتين عن الإمام مالك بنقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري وهو قول لقاضيخان في فتاويه في ترجمة مسائل كيفية القراءة وقوله في باب غسل الميت: ويكره رفع الصوت بالذكر، فالظاهر أنه لمن يمشي مع الجنازة كما هو مذهب الشافعية لا مطلقاً كما تفهمه عبارة البحر الرائق وغيره وهو قول الإمامين في تكبير عيد الفطر كالأضحى، ورواية عن الإمام أبي حنيفة نفسه رضي الله تعالى عنه بل في مسنده ما ظاهره استحباب الجهر بالذكر مطلقاً، نعم قال ابن نجيم في البحر نقلاً عن المحقق ابن الهمام في فتح القدير ما نصه قال أبو حنيفة: رفع الصوت بالذكر بدعة مخالفة للأمر من قوله تعالى ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الآية فيقتصر على مورد الشرع، وقد ورد به في الأضحى وهو قوله سبحانه ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وأجاب السيوطي في نتيجة الذكر عن الاستدلال بالآية السابقة بثلاثة أوجه، الأول أنها مكية ولما هاجر ﷺ سقط ذلك، الثاني أن جماعة من المفسرين منهم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير حملوا الآية على الذكر حال قراءة القرآن وأنه أمر له عليه الصلاة والسلام بالذكر على هذه الصفة تعظيماً للقرآن أن ترفع عنده الأصوات، ويقويه اتصالها بقوله تعالى: ﴿وإذا قرىء القرآن﴾ [الأعراف: ٢٠٤] الآية، الثالث ما ذكره بعض الصوفية أن الأمر في الآية خاص بالنبي ﷺ الكامل المكمل وأما غيره عليه الصلاة والسلام ممن هو محل الوساوس فمأمور بالجهر لأنه أشد تأثيراً في دفعها وفيه ما فيه.

واختار بعض المحققين أن المراد دون الجهر البالغ أو الزائد على قدر الحاجة فيكون الجهر المعتدل، والجهر بقدر الحاجة داخلاً في المأمور به، فقد صح ما يزيد على عشرين حديثاً في أنه ﷺ كثيراً ما كان يجهر بالذكر. وصح عن أبي الزبير أنه سمع عبد الله بن الزبير يقول: كان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» وهو محمول على اقتضاء حاجة التعليم ونحوه لذلك، وما في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري قال: كنا مع النبي ﷺ وكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً إنه

معكم إنه سميع قريب» محمول على أن النهي المستفاد التزاماً من أمر اربعوا الذي بمعنى ارفقوا ولا تجهدوا أنفسكم مراد به النهي عن المبالغة في رفع الصوت، وبتقسيم الجهر واختلاف أقسامه في الحكم يجمع بين الروايتين المختلفتين عن الإمام أبي حنيفة، وما ذكر في الواقعات عن ابن مسعود من أنه رأى قوماً يهللون برفع الصوت في المسجد فقال: ما أراكم إلا مبتدعين حتى أخرجهم من المسجد لا يصح عند الحفاظ من الأئمة المحدثين، وعلى فرض صحته هو معارض بما يدل على ثبوت الجهر منه رضي الله تعالى عنه مما رواه غير واحد من الحفاظ أو محمول على الجهر البالغ، وخبر خير الذكر الخفي وخير الرزق أو العيش ما يكفي صحيح.

وعزاه الإمام السيوطي إلى الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص، وعزاه أبو الفتح في سلاح المؤمن إلى أبي عوانة في مسنده الصحيح أيضاً، وهو محمول على من كان في موضع يخاف فيه الرياء أو الإعجاب أو نحوهما، وقد صح أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام جهر بالدعاء وبالمواعظ لكن قال غير واحد من الأجلة: إن إخفاء الدعاء أفضل. وحد الجهر على ما ذكره ابن حجر الهيتمي في المنهج القويم أن يكون بحيث يسمع غيره والاسرار بحيث يسمع نفسه. وعند الحنفية في رواية أدنى الجهر إسماع نفسه وأدنى المخافتة تصحيح الحروف وهو قول الكرخي.

وفي كتاب الإمام محمد إشارة إليه، والأصح كما في المحيط قول الشيخين الهندواني والفضلي وهو الذي عليه الأكثر أن أدنى الجهر إسماع غيره وأدنى المخافتة إسماع نفسه. ومن هنا قال في فتح القدير: إن تصحيح الحروف بلا صوت إيماء إلى الحروف بعضلات المخارج لا حروف إذ الحروف كيفية تعرض للصوت فإذا انتفى الصوت المعروض انتفى الحرف العارض وحيث لا حرف فلا كلام بمعنى المتكلم به فلا قراءة بمعنى التكلم الذي هو فعل اللسان فلا مخافتة عند انتفاء الصوت كما لا جهر انتهى محرراً، وقد ألف الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة في تحقيق هذه المسألة رسالتين جليلتين سمى أولاهما ـ نشر الزهر في الذكر بالجهر ـ وثانيتهما ـ بإتحاف المنيب الأواه بفضل الجهر بذكر الله ـ رد فيها على بعض أهل القرن التاسع من علماء الحنفية من أعيان دولة ميرزا ألغ بيك بن شاه دخ الكوركاني حيث أطلق القول بكون الجهر بالذكر بدعة محرمة وألف في ذلك رسالة، ولعله يأتي إن شاء الله تعالى زيادة بسط لتحقيق هذه المسألة والله تعالى الموفق.

وقوله سبحانه ﴿الله﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود الحق أي ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه فإن ما أسند إليه عز شأنه من خلق جميع الموجودات والعلو اللائق بشأنه على جميع المخلوقات والرحمانية والمالكية للعلويات والسفليات والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بيناً، وقوله تبارك اسمه ﴿لَهُ الاسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية وغيرها أسماءه تعالى وصفاته من غير تعدد في ذاته تعالى وجاء الاسم بمعنى الصفة ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلوا الله شركاء قل سموهم﴾ [الرعد: ٣٣] والحسنى تأنيث الأحسن وصفة المؤنثة المفردة تجري على جمع التكسير وحسن ذلك كونها وقعت فاصلة، وقيل: تضمنها الإشارة إلى عدم التعدد حقيقة بناء على عدم زيادة صفاته تعالى على ذاته واتحادها معها وفضل أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في غاية الظهور، وجوز أبو حيان كون الاسم الجليل مبتدأ وجملة ﴿لا إله إلا هو﴾ خبره وجملة ﴿له الأسماء الحسنى﴾ خبر بعد خبر، وظاهر صنيعه يقتضي اختياره لأنه المتبادر للذهن، ولا يخفى على المتأمل أولية ما تقدم، وقوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ مسوق لتقرير أمر التوحيد الذي انتهى إليه

مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء عليهم السلام كابراً عن كابر وقد خوطب به موسى عليه السلام حيث قيل له ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ [طه: ١٤] وبه ختم عليه السلام مقاله حيث قال: ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو﴾ [طه: ٩٨] وقيل: مسوق لتسليته ﷺ كقوله تعالى: **﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾** [بناء على ما نقل عن مقاتل في سبب النزول إلا أن الأول تسلية له عليه الصلاة والسلام برد ما قاله قومه وهذا تسلية له ﷺ بأن إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد عراهم من أممهم ما عراهم وكانت العاقبة لهم وذكر مبدأ نبوة موسى عليه السلام نظير ما ذكر إنزال القرآن عليه عليه الصلاة والسلام.

وقيل: مسوق لترغيب النبي ﷺ في الائتساء بموسى عليه السلام في تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة بعد ما خاطبه سبحانه بأنه كلفه التبليغ الشاق بناء على أن معنى قوله تعالى **﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾** إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوة وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة فالواو كما قاله غير واحد لعطف القصة على القصة ولا نظر في ذلك إلى تناسبهما خيراً وطلباً بل يشترط التناسب فيما سيقاتله مع أن المعطوف ها هنا قد يؤول بالخبر.

ولا يخفى أن ما تقدم جار على سائر الأوجه والأقوال في الآية السابقة، وسبب نزولها ولا يأباه شيء من ذلك، والاستفهام تقريري، وقيل: هل بمعنى قد؛ وقيل: الاستفهام إنكاري ومعناه النفي أي ما أخبرناك قبل هذه السورة بقصة موسى عليه السلام ونحن الآن مخبروك بها والمعول عليه الأول، والحديث الخبر ويصدق على القليل والكثير ويجمع على أحاديث على غير قياس.

قال الفراء: نرى أن واحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه جمعاً للحديث، وقال الراغب: الحديث كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه ويكون مصدراً بمعنى التكلم. وحمله بعضهم على هذا هنا بقرينة **﴿فقال﴾** الخ، وعلق به قوله تعالى **﴿إِذْ رَأَى نَاراً﴾** ولم يجوز تعلقه على تقدير كونه اسماً للكلام والخبر لأنه حينئذ كالجوامد لا يعمل، والأظهر أنه اسم لما ذكر لأنه هو المعروف مع أن وصف القصة بالإتيان أولى من وصف التحدث والتكلم به وأمر التعلق سهل فإن الظرف يكفي لتعلقه رائحة الفعل، ولذا نقل الشريف عن بعضهم أن القصة والحديث والخبر والنبأ يجوز إعمالها في الظروف خاصة وإن لم يرد بها المعنى المصدري لتضمن معناها الحصول والكون.

وجوز أن يكون ظرفاً لمضمر مؤخر أي حين رأى ناراً كان كيت وكيت، وأن يكون مفعولاً لمضمر متقدم أي فاذكر وقت رؤيته ناراً. روي أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً عليه السلام في الخروج من مدين إلى مصر لزيارة أمه وأخيه وقد طالت مدة جنايته بمصر ورجا خفاء أمره فأذن له وكان عليه السلام رجلاً غيوراً فخرج بأهله ولم يصحب رفقة[1] لئلا ترى امرأته وكانت على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت ومعه غنم له وأخذ عليه السلام على غير الطريق مخافة من ملوك الشام فلما وافى وادي طوى وهو بالجانب الغربي من الطور ولد له ابن في ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً على يسار الطريق من جانب الطور **﴿فَقَالَ لأَهله امْكُثُوا﴾** أي أقيموا مكانكم أمرهم عليه السلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه من الذهاب إلى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا إلى موضع آخر فإنه مما لا يخطر بالبال، والخطاب

---

(١) وقيل خرج برفقة إلا أنه كان يصحبهم ليلاً ويفارقهم نهاراً لغيرته اهـ منه.

قيل: للمرأة والولد والخادم، وقيل: للمرأة وحدها والجمع إما لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم كما في قول من قال:

وإن شئت حرمت النساء سواكم

وقرأ الأعمش وطلحة وحمزة ونافع في رواية «لأهله امكثوا» بضم الهاء ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ أي أبصرتها إبصاراً بيناً لا شبهة فيه، ومن ذلك إنسان العين والإنس خلاف الجن، وقيل: الإيناس خاص بإبصار ما يؤنس به، وقيل: هو بمعنى الوجدان، قال الحارث بن حلزة:

آنست نبأة وقد راعها القنـ ... ـناص يوماً وقد دنا الإمساء

والجملة تعليل للأمر والمأمور به ولما كان الإيناس مقطوعاً متيقناً حققه لهم بكلمة إن ليوطن أنفسهم وإن لم يكن ثمة تردد أو إنكار ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا﴾ أي أجيئكم من النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ بشعلة مقتبسة تكون على رأس عود ونحوه ففعل بمعنى مفعول وهو المراد بالشهاب القبس وبالجذوة في موضع آخر وتفسيره بالجمرة ليس بشيء، وهذا الجار والمجرور متعلق بآتيكم، وأما منها فيحتمل أن يكون متعلقاً به وأن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿قبس﴾ على ما قاله أبو البقاء ﴿أو أجد على النار هدى﴾ هادياً يدلني على الطريق على أنه مصدر سمي به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أي ذا هداية أو على أنه إذا وجد الهادي فقد وجد الهدى، وعن الزجاج أن المراد هادياً يدلني على الماء فإنه عليه السلام قد ضل عن الماء، وعن مجاهد. وقتادة أن المراد هادياً يهديني إلى أبواب الدين فإن أفكار الأبرار مغمورة بالهمم الدينية في عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل وهو بعيد فإن مساق النظم الكريم تسلية أهله مع أنه قد نص في سورة القصص على ما يقتضي ما تقدم حيث قال: ﴿لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة﴾ [القصص: ٢٩] الآية، والمشهور كتابة هذه الكلمة بالياء.

وقال أبو البقاء: الجيد أن تكتب بالألف ولا تمال لأن الألف بدل التنوين في القول المحقق، وقد أمالها قوم وفيه ثلاثة أوجه، الأول أن يكون شبه ألف التنوين بلام الكلمة إذا اللفظ بهما في المقصور واحد، الثاني أن يكون لام الكلمة ولم يبدل من التنوين شيء في النصب، والثالث أن يكون على رأي من وقف في الأحوال الثلاثة من غير إبدال انتهى، وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع وعلى على بابها من الاستعلاء والاستعلاء على النار مجاز مشهور صار حقيقة عرفية في الاستعلاء على مكان قريب ملاصق لها كما قال سيبويه في مررت بزيد: إنه لصوق بمكان يقرب منه، وقال غير واحد: إن الجار والمجرور في موضع الحال من ﴿هدى﴾ وكان في موضع الصفة له فقدم والتقدير أو أجد هادياً أو ذا هدى مشرفاً على النار، والمراد مصطلياً بها وعادة المصطلي الدنو من النار والإشراف عليها.

وعن ابن الأنباري أن على ها هنا بمعنى عند أو بمعنى مع أو بمعنى الباء ولا حاجة إلى ذلك وكان الظاهر عليها إلا أنه جيء بالظاهر تصريحاً بما هو كالعلة لوجدان الهدى إذ النار لا تخلو من أناس عندها، وصدرت الجملة بكلمة الترجي لما أن الإتيان وما عطف عليه ليسا محققي الوقوع بل هما مترقبان متوقعان. وهي على ما في إرشاد العقل السليم إما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الأمر بالمكث والأخبار بإيناس النار وتفادياً عن التصريح بما يوحشهم، وإما حال من فاعله أي فاذهب إليها لآتيكم أو كي آتيكم أو راجياً أن آتيكم منها بقبس الآية، وقيل: هي صفة لناراً، ومتى جاز جعل جملة الترجي صلة كما في قوله:

وإني لراج نظرة قبل التي ... لعلي وإن شطت نواها أزورها

فليجز جعلها صفة فإن الصلة والصفة متقاربان ولا يخفى ما فيه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي النار التي آنسها وكانت كما في بعض الروايات عن ابن عباس في شجرة عناب خضراء يانعة، وقال عبد الله بن مسعود: كانت في سمرة، وقيل: في شجرة عوسج. وأخرج الإمام أحمد في الزهد. وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال: لما

رأى موسى عليه السلام النار انطلق يسير حتى وقف منها قريباً فإذا هو بنار عظيمة تفور من ورق شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العليق لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرماً ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة وحسناً فوقف ينظر لا يدري علام يضع أمرها إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحترق وأوقد إليها بوقد فنالها فاحترقت وأنه إنما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة مائها وكثافة ورقها وعظم جذعها فوضع أمرها على هذا فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه فلما طال عليه ذلك أهوى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك مالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها وهاب ثم عاد فطاف بها ولم تزل تطمعه ويطمع بها ثم لم يكن شيء بأوشك من خمودها فاشتد عند ذلك عجبه وفكر في أمرها فقال: هي نار ممتنعة لا يقتبس منها ولكنها تتضرم في جوف شجرة فلا تحرقها ثم خمودها على قدر عظمها في أوشك من طرفة عين فلما رأى ذلك قال إن لهذه لشأناً ثم وضع أمرها على أنها مأمورة أو مصنوعة لا يدري من أمرها ولا بم أمرت ولا من صنعها ولا لم صنعت فوقف متحيراً لا يدري أيرجع أم يقيم فبينما هو على ذلك إذ رمى بطرفه نحو فرعها فإذا أشد ما كان خضرة ساطعة في السماء ينظر إليها تغشى الظلام ثم لم تزل الخضرة تنور وتصفر وتبيض حتى صارت نوراً ساطعاً عموداً بين السماء والأرض عليه مثل شعاع الشمس تكل دونه الأبصار كلما نظر إليه يكاد يخطف بصره فعند ذلك اشتد خوفه وحزنه فرد يده على عينيه ولصق بالأرض وسمع حينئذ شيئاً لم يسمع السامعون بمثله عظماً فلما بلغ موسى عليه السلام الكرب واشتد عليه الهول كان ما قص الله تعالى. وروي أنه عليه السلام كان كلما قرب منها تباعدت فإذا أدبر اتبعته فأيقن أن هذا أمر من أمور الله تعالى الخارقة للعادة ووقف متحيراً وسمع من السماء تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة وكان ما كان.

وقالوا: النار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا، وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر، وصنف يأكل ويشرب وهي نار جهنم، وصنف لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه السلام. وقالوا أيضاً هي أربعة أنواع: نوع له نور وإحراق وهي نار الدنيا، ونوع لا نور له ولا إحراق وهي نار الأشجار. ونوع له إحراق بلا نور وهي نار جهنم. ونوع له نور بلا إحراق وهي نار موسى عليه السلام بل قال بعضهم: إنها لم تكن ناراً بل هي نور من نور الرب تبارك وتعالى. وروي هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وذكر ذلك بلفظ النار بناء على حسبان موسى عليه السلام وليس في أخباره عليه السلام حسب حسبانه محذور كما توهم واستظهر ذلك أبو حيان وإليه ذهب الماوردي.

وقال سعيد بن جبير هي النار بعينها وهي إحدى حجب الله عز وجل واستدل له بما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» ذكر ذلك البغوي وذكر في تفسير الخازن أن الحديث أخرجه مسلم وظاهر الآية يدل على أنه عليه السلام حين أتاها ﴿نُودِيَ﴾ من غير ريث وبذلك رد بعض المعتزلة الأخبار السابقة الدالة على تخلل زمان بين المجيء والنداء، وأنت تعلم أن تخلل مثل ذلك الزمان مما لا يضر في مثل ما ذكر، وزعم أيضاً امتناع تحقق ظهور الخارق عند مجيئه النار قبل أن ينبأ إلا أن يكون ذلك معجزة لغيره من الأنبياء عليهم السلام، وعندنا أن ذلك من الإرهاص الذي ينكره المعتزلة، والظاهر أن القائم مقام فاعل ﴿نودي﴾ ضمير موسى عليه السلام، وقيل: ضمير المصدر أي نودي النداء، وقيل: هو قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ الخ وكأن ذلك على اعتبار تضمين النداء معنى القول وإرادة هذا اللفظ من الجملة وإلا فقد قيل: إن الجملة لا تكون فاعلاً ولا قائماً مقامه في مثل هذا التركيب إلا بنحو هذا الضرب من التأويل.

وفي البحر مذهب الكوفيين معاملة النداء معاملة القول ومذهب البصريين إضمار القول في مثل هذه الآية أي نودي فقيل: ﴿يا موسى﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ ولذلك كسرت همزة إن في قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو

بفتحها على تقدير حرف الجر أي بأني، والجار والمجرور على ما قال أبو البقاء. وغيره متعلق بنودي والنداء قد يوصل بحرف الجر أنشد أبو علي:

نـاديـت بـاسـم ربـيـعـة بـن مـكـرم ... إن الـمـنـوه بـاسـمـه الـمـوثـوق

ولا يخفى على ذي ذوق سليم حال التركيب على هذا التخريج وإنه إنما يحلو لو لم يكن المنادى فاصلاً.

وقيل: على تقدير حرف التعليل وتعلقه بفعل الأمر بعد وهو كما ترى. واختير أن الكلام على تقدير العلم أي اعلم أني الخ، وتكرير ضمير المتكلم لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة، واستظهر أن علمه عليه السلام بأن الذي ناداه هو الله تعالى حصل له بالضرورة خلقاً منه تعالى فيه، وقيل: بالاستدلال بما شاهد قبل النداء من الخارق، وقيل: بما حصل له من ذلك بعد النداء، فقد روي أنه عليه السلام لما نودي يا موسى قال عليه السلام: من المتكلم؟ فقال: أنا ربك فوسوس إليه إبليس اللعين لعلك تسمع كلام شيطان فقال عليه السلام: أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأني أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء، والخارق فيه أمران سماعه من جميع الجهات وكون ذلك بجميع الأعضاء التي من شأنها السماع والتي لم يكن من شأنها، وقيل: الخارق فيه أمر واحد وهو السماع بجميع الأعضاء، وهو المراد بالسماع من جميع الجهات، وأيًّا ما كان فلا يخفى صحة الاستدلال بذلك على المطلوب إلا أن في صحة الخبر خفاء ولم أر له سنداً يعول عليه، وحضور الشيطان ووسوسته لموسى عليه السلام في ذلك الوادي المقدس والحضرة الجليلة في غاية البعد. والمعتزلة أوجبوا أن يكون العلم بالاستدلال بالخارق ولم يجوزوا أن يكون بالضرورة قالوا لأنه لو حصل العلم الضروري بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضروري بوجود الصانع القادر العالم لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوماً بالضرورة لخرج موسى عليه السلام عن كونه مكلفاً لأن حصول العلم الضروري ينافي التكليف وبالاتفاق أنه عليه السلام لم يخرج عن التكليف فعلمنا أن الله تعالى عرفه ذلك بالخارق وفي تعيينه اختلاف.

وقال بعضهم: لا حاجة بنا إلى أن نعرف ذلك الخارق ما هو، وأخرج أحمد وغيره عن وهب أنه عليه السلام لما اشتد عليه الهول نودي من الشجرة، فقيل: يا موسى فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه وما كان سرعة إجابته إلا استئناساً بالإنس فقال: لبيك مراراً إني لأسمع صوتك وأحس حسك ولا أرى مكانك فأين أنت: قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك فلما سمع هذا موسى عليه السلام علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تعالى فأيقن به فقال: كذلك أنت يا إلهي فكلامك أسمع أم رسولك؟ قال: بل أنا الذي أكلمك، ولا يخفى تخريج هذا الأثر على مذهب السلف ومذهب الصوفية وأنه لا يحصل الإيقان بمجرد سماع ما لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى من الصفات إذا فتح باب الوسوسة، ثم إن هذا الأثر ظاهر في أن موسى عليه السلام سمع الكلام اللفظي منه تعالى بلا واسطة ولذا اختص عليه السلام باسم الكليم وهو مذهب جماعة من أهل السنة وذلك الكلام قديم عندهم. وأجابوا عن استلزام اللفظ الحدوث لأنه لا يوجد بعضه إلا بتقضي بعض آخر بأنه إنما يلزم من التلفظ بآلة وجارحة وهي اللسان أما إذا كان بدونها فيوجد دفعة واحدة كما يشاهد في الحروف المرسومة بطبع الخاتم دون القلم ويلزمهم أن يؤولوا قوله تعالى: **﴿فلما أتاها نودي﴾** الخ بأن يقولوا: المراد فلما أتاها أسمع النداء أو نحو ذلك وإلا فمجيء النار حادث والمرتب على الحادث حادث، ولذا زعم أهل ما وراء النهر من أهل السنة القائلين بقدم الكلام أن هذا الكلام الذي سمعه موسى عليه السلام حادث وهو صوت خلقه الله تعالى في الشجرة، وأهل البدعة أجمعوا على أن الكلام اللفظي حادث بيد أن منهم من جوز قيام الحوادث به تعالى شأنه ومنهم من لم يجوز، وزعم أن الذي سمعه موسى عليه السلام خلقه الله عز وجل في جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها.

وقال الأشعري: إن الله تعالى أسمع موسى عليه السلام كلامه النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت ولا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك، وقد حققه بعضهم بأنه عليه السلام تلقى ذلك الكلام تلقياً روحانياً كما تتلقى الملائكة عليهم السلام كلامه تعالى لا من جارحة ثم أفاضته الروح بواسطة قوة العقل على القوى النفسية ورسمته في الحس المشترك بصور ألفاظ مخصوصة فصار لقوة تصوره كأنه يسمعه من الخارج وهذا كما يرى النائم أنه يكلم ويتكلم، ووجه وقوف الشيطان المار في الخبر الذي سمعت ما فيه على هذا بأنه يحتمل أن يكون كذلك، ويحتمل أن يكون بالتفرس من كون هيئته عليه السلام على هيئة المصغي المتأمل لما يسمعه وهو كما ترى، وقد تقدم لك في المقدمات ما عسى ينفعك مراجعته هنا فراجعه وتأمل، واعلم أن شأن الله تعالى شأنه كله غريب وسبحان الله العزيز الحكيم ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ أزلهما من رجليك والنعل معروفة وهي مؤنثة يقال في تصغيرها نعيلة ويقال فيها نعل: بفتح العين أنشد الفراء:

له نعل لا يطبي الكلب ريحها ... وإن وضعت بين المجالس شمت

وأمر ﷺ بذلك لما أنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ كما روي عن الصادق رضي الله تعالى عنه وعكرمة وقتادة والسدي ومقاتل والضحاك والكلبي، وروي كونهما من جلد حمار في حديث غريب. فقد أخرج الترمذي بسنده عن النبي ﷺ قال: «كان على موسى عليه السلام يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف وكمة صوف أي قلنسوة صغيرة وسراويل صوف وكانت نعلاه من جلد حمار»، وعن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وابن جريج أنهما كانتا من جلد بقرة ذكيت ولكن أمر عليه السلام بخلعهما ليباشر بقدميه الأرض فتصيبه بركة الوادي المقدس.

وقال الأصم: لأن الحفوة أدخل في التواضع. وحسن الأدب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين، ولا يخفى أن هذا ممنوع عند القائل بأفضلية الصلاة بالنعال كما جاء في بعض الآثار، ولعل الأصم لم يسمع ذلك أو يجيب عنه.

وقال أبو مسلم: لأنه تعالى أمنه من الخوف وأوقفه بالموضع الطاهر وهو عليه السلام إنما لبسهما اتقاء من الإنجاس وخوفاً من الحشرات، وقيل: المعنى فرغ قلبك من الأهل والمال. وقيل: من الدنيا والآخرة.

ووجه ذلك أن يراد بالنعل كل ما يرتفق به، وغلب على ما ذكر تحقيراً، ولذا أطلق على الزوجة نعل كما في كتب اللغة، ولا يخفى عليك أنه بعيد وإن وجه بما ذكر وهو أليق بباب الإشارة، والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها فإن ربوبيته تعالى له عليه السلام من موجبات الأمر ودواعيه، وقوله تعالى ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ تعليل لموجب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الأمر بذلك من شرف البقعة وقدسها. روي أنه عليه السلام حين أمر خلعهما وألقاهما وراء الوادي ﴿طُوًى﴾ بضم الطاء غير منون.

وقرأ الكوفيون وابن عامر بضمها منوناً وقرأ الحسن والأعمش وأبو حيوة وابن أبي إسحاق وأبو السمال وابن محيصن بكسرها منوناً وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو بكسرها غير منون؛ وهو علم لذلك الوادي فيكون بدلاً أو عطف بيان، ومن نونه فعلى تأويل المكان ومن لم ينونه فعلى تأويل البقعة فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقيل ﴿طوى﴾ المضموم الطاء الغير المنون ممنوع من الصرف للعلمية والعدل كزفر وقثم، وقيل: للعلمية والعجمة؛ وقال قطرب: يقال طوى من الليل أي ساعة أي قدس لك ساعة من الليل وهي ساعة أن نودي فيكون معمولاً للمقدس، وفي العجائب للكرماني قيل: هو معرب معناه ليلاً وكأنه أراد قول قطرب، وقيل: هو رجل بالعبرانية وكأنه على هذا منادى، وقال الحسن: طوى بكسر الطاء والتنوين مصدر كثنى لفظاً ومعنى، وهو عنده معمول للمقدس أيضاً أي قدس مرة بعد أخرى، وجوز أن يكون معمولاً لنودي أي نودي نداءين، وقال ابن السيد: إنه ما يطوى من جلد الحية ويقال: فعل

الشيء طوى أي مرتين فيكون موضوعاً موضع المصدر، وأنشد الطبرسي لعدي بن زيد:

أعـاذل إن الـلـوم فـي غـيـر كـنـهـه ... عـلـى طـوى مـن غـيـك الـمـتـردد

وذكر الراغب أنه إذا كان بمعنى مرتين يفتح أوله ويكسر، ولا يخفى عليك أن الأظهر كونه اسماً للوادي في جميع القراءات ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي اصطفيتك من الناس أو من قومك للنبوة والرسالة. وقرأ السلمي وابن هرمز والأعمش في رواية «وإنا» بكسر الهمزة وتشديد النون مع ألف بعدها «اخترناك» بالنون والألف، وكذا قرأ طلحة وابن أبي ليلى وحمزة وخلف والأعمش في رواية أخرى إلا أنهم فتحوا همزة إن، وذلك بتقدير أعلم أي واعلم أنا اخترناك، وهو على ما قيل عطف على «اخلع»، ويجوز عند من قرأ «أني أنا ربك» بالفتح أن يكون العطف عليه سواء كان متعلقاً بنودي كما قيل أو معمولاً لا علم مقدراً كما اختير.

وجوز أبو البقاء أن يكون بتقدير اللام وهو متعلق بما بعده أي لأنا اخترناك ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ وهو كما ترى، والفاء في قوله تعالى ﴿فاستمع﴾ لترتيب الأمر والمأمور به على ما قبلها فإن اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والأمر به، واللام في قوله سبحانه ﴿لِمَا يُوحَىٰ﴾ متعلقة باستمع، وجوز أن تكون متعلقة باخترناك، ورده أبو حيان بأنه يكون حينئذ من باب الأعمال ويجب أو يختار حينئذ إعادة الضمير مع الثاني بأن يقال: فاستمع له لما يوحى.

وأجيب بأن المراد جواز تعلقها بكل من الفعلين على البدل لا على أنه من الأعمال. واعترض على هذا بأن قوله تعالى ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا﴾ بدل من ﴿ما يوحي﴾ ولا ريب في أن اختياره عليه السلام ليس لهذا فقط والتعلق باخترناك كيفما كان يقتضيه. وأجيب بأنه من باب التنصيص على ما هو الأهم والأصل الأصيل، وقيل: هي سيف خطيب فلا متعلق لها كما في ﴿ردف لكم﴾ [النمل: ٧٢] وما موصولة.

وجوز أن تكون مصدرية أي فاستمع للذي يوحى إليك أو للوحي، وفي أمره عليه السلام بالاستماع إشارة إلى عظم ذلك وأنه يقتضي التأهب له، قال أبو الفضل الجوهري: لما قيل لموسى عليه السلام استمع لما يوحى وقف على حجر واستند إلى حجر ووضع يمينه على شماله وألقى ذقنه على صدره وأصغى بشراشره.

وقال وهب: أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر والإصغاء بالسمع وحضور العقل والعزم على العمل وذلك هو الاستماع لما يحب الله تعالى، وحذف الفاعل في ﴿يوحى﴾ للعلم به ويحسنه كونه فاصلة فإنه لو كان مبنياً للفاعل لم يكن فاصلة، والفاء في قوله تعالى ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ لترتيب المأمور به على ما قبلها فإن اختصاص الألوهية به تعالى شأنه من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل، والمراد بها غاية التذلل والانقياد له تعالى في جميع ما يكلفه به، وقيل: المراد بها هنا التوحيد كما في قوله سبحانه ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] والأول أولى ﴿وأَقِم الصَّلاةَ﴾ خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفضلها وإنافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره، وقد سماها الله تعالى إيماناً في قوله سبحانه ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: ١٤٣].

واختلف العلماء في كفر تاركها كسلاً كما فصل في محله، وقوله تعالى ﴿لِذِكْرِي﴾ الظاهر أنه متعلق بأقم أي أقم الصلاة لتذكرني فيها لاشتمالها على الأذكار، وروي ذلك عن مجاهد، وقريب منه ما قيل أي لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به، وفرق بينهما بأن المراد بالإقامة على الأول تعديل الأركان، وعلى الثاني الإدامة وجعلت الصلاة في الأول مكاناً للذكر ومقره وعلته، وعلى الثاني جعلت إقامة الصلاة أي إدامتها علة لإدامة الذكر كأنه قيل أدم الصلاة لتستعين بها على استغراق فكرك وهمك في الذكر كقوله تعالى ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة: ٤٥].

وجوز أن يكون متعلقاً باعبدني أو بأقم على أنه من باب الأعمال أي لتكون ذاكراً لي بالعبادة وإقامة الصلاة، وإذا عمم الذكر ليتناول القلبي والقالبي جاز اعتبار باب الأعمال في الأول أيضاً وهو خلاف الظاهر.

وقيل: المراد ﴿أقم الصلاة لذكري﴾ خاصة لا ترائي بها ولا تشوبها بذكر غيري أو لإخلاص ذكري وابتغاء وجهي ولا تقصد بها غرضاً آخر كقوله تعالى ﴿فصل لربك﴾ [الكوثر: ٢] أو لأن أذكرك بالثناء أي لأثني عليك وأثيبك بها أو لذكري إياها في الكتب الإلهية وأمري بها أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلوات فاللام وقتية بمعنى عند مثلها في قوله تعالى ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ [الفجر: ٢٤] وقولك: كان ذلك لخمس ليال خلون، ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها، وروي ذلك عن أبي جعفر، واللام حينئذ وقتية أو تعليلية، والمراد أقم الصلاة عند تذكرها أو لأجل تذكرها والكلام على تقدير مضاف والأصل لذكر صلاتي أو يقال: إن ذكر الصلاة سبب لذكر الله تعالى فأطلق المسبب على السبب أو أنه وقع ضمير الله تعالى موقع ضمير الصلاة لشرفها أو أن المراد للذكر الحاصل مني فأضيف الذكر إلى الله عز وجل لهذه الملابسة، والذي حمل القائل على هذا الحمل أنه ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أنه ﷺ نام عن صلاة الصبح فلما قضاها قال: من نسي صلاة فليقضها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: ﴿أقم الصلاة لذكري﴾ فظن هذا القائل أنه لو لم يحمل هذا الحمل لم يصح التعليل وهو من بعض الظن فإن التعليل كما في الكشف صحيح والذكر على ما فسر في الوجه الأول وأراد عليه الصلاة والسلام أنه إذا ذكر الصلاة انتقل من ذكرها إلى ذكر ما شرعت له وهو ذكر الله تعالى فيحمله على إقامتها، وقال بعض المحققين: إنه لما جعل المقصود الأصلي من الصلاة ذكر الله تعالى وهو حاصل مطلوب في كل وقت فإذا فاته الوقت المحدود له ينبغي المبادرة إليه ما أمكنه فهو من إشارة النص لا من منطوقه حتى يحتاج إلى التمحل فافهم.

وإضافة «ذكر» إلى الضمير تحتمل أن تكون من إضافة المصدر إلى مفعوله وأن تكون من إضافة المصدر إلى فاعله حسب اختلاف التفسير.

وقرأ السلمي والنخعي وأبو رجاء «للذكرى» بلام التعريف وألف التأنيث، وقرأت فرقة «لذكري» بألف التأنيث بغير لام التعريف، وأخرى «للذكر» بالتعريف والتذكير وقوله تعالى ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أي كائنة لا محالة، وإنما عبر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أقرب أن أخفي الساعة ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية ولولا أن في الأخبار بذلك من اللطف وقطع الأعذار لما فعلت، وحاصله أكاد أبالغ في إخفائها فلا أجمل كما لم أفصل، والمقاربة هنا مجاز كما نص عليه أبو حيان أو أريد إخفاء وقتها المعين وعدم إظهاره وإلى ذلك ذهب الأخفش وابن الأنباري وأبو مسلم ومن مجيء كاد بمعنى أراد كما قال ابن جني في المحتسب قوله:

كادت وكدت وتلك خير إرادة ... لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

وروي عن ابن عباس وجعفر الصادق رضي الله تعالى عنهما أن المعنى أكاد أخفيها من نفسي، ويؤيده أن في مصحف أبي كذلك، وروى ابن خالويه عنه ذلك بزيادة فكيف أظهركم عليها، وفي بعض القراءات بزيادة فكيف أظهرها لكم، وفي مصحف عبد الله بزيادة فكيف يعلمها مخلوق وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدهم إذا أراد المبالغة في كتمان الشيء قال: كدت أخفيه من نفسي ومن ذلك قوله:

أيام تصحبني هند وأخبرها ... ما كدت أكتمه عني من الخبر

ونحو هذا من المبالغة قوله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم تحت ظله «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وبجعل ذلك من باب المبالغة يندفع ما قيل إن إخفاء ذلك من نفسه سبحانه محال فلا يناسب دخول كاد عليه، ولا حاجة لما قيل: إن معنى من نفسي من تلقائي ومن عندي، والقرينة على هذا المحذوف إثباته في المصاحف، وكونه قرينة خارجية لا يضر إذ لا يلزم في القرينة وجودها في الكلام. وقيل: الدليل عليه أنه لا بد لأخفيها من متعلق وهو من يخفى منه. ولا يجوز أن يكون من الخلق لأنه تعالى أخفاها عنهم لقوله سبحانه ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ [لقمان: ٣٤] فيتعين ما ذكر. وفيه أن عدم صحة تقدير من الخلق ممنوع لجواز إرادة إخفاء تفصيلها وتعيينها مع أنه يجوز أن لا يقدر له متعلق، والمعنى أوجد إخفاءها ولا أقول: إنها آتية.

وقال أبو علي: المعنى أكاد أظهرها بإيقاعها على أن أخفيها من ألفاظ السلب بمعنى أزيل خفاءها أي ساترها وهو في الأصل ما يلف به القربة ونحوها من كساء وما يجري مجراه. ومن ذلك قول امرىء القيس:

فإن تدفنوا الداء لا نخفه ... وإن توقدوا الحرب لا نقعد

ويؤيده قراءة أبي الدرداء وابن جبير والحسن ومجاهد وحميد ورويت عن ابن كثير وعاصم «أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة فإن خفاه بمعنى أظهره لا غير في المشهور، وقال أبو عبيدة كما حكاه أبو الخطاب أحد رؤساء اللغة: خفيت وأخفيت بمعنى واحد. ومتعلق الإخفاء على الوجه السابق في تفسير قراءة الجمهور والإظهار ليس شيئاً واحداً حتى تتعارض القراءتان. وقالت فرقة: خبر كاد محذوف أكاد آتي بها كما حذف في قول صابىء البرجمي:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

أي وكدت أفعل وتم الكلام ثم استأنف الأخبار بأنه تعالى يخفيها، واختار النحاس وقالت فرقة أخرى: ﴿أكاد﴾ زائدة لا دخول لها في المعنى بل المراد الإخبار بأن الساعة آتية وإن الله تعالى يخفي وقت إتيانها. وروي هذا المعنى عن ابن جبير واستدلوا على زيادة كاد بقوله تعالى: ﴿لم يكد يراها﴾ [النور: ٤٠] ويقول زيد الخيل:

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه ... فما أن يكاد قرنه يتنفس

ولا حجة في ذلك كما لا يخفى ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلق بآتية كما قال صاحب اللوامح وغيره وما بينهما اعتراض لا صفة حتى يلزم إعمال اسم الفاعل الموصوف وهو لا يجوز على رأي البصريين أو باخفيها على أن المراد أظهرها لا على أن المراد أسترها لأنه لا وجه لقولك. أسترها لأجل الجزاء، وبعضهم جوز ذلك، ووجهه بأن تعمية وقتها لتنتظر ساعة فساعة فيحترز عن المعصية ويجتهد في الطاعة. وتعقب بأنه تكلف ظاهر مع أنه لا صحة له إلا بتقدير لينتظر الجزاء أو لتخاف وتخشى، وما مصدرية أي لتجزى بسعيها وعملها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وهذا التعميم هو الظاهر، وقيل: لتجزى بسعيها في تحصيل ما ذكر من الأمور المأمور بها، وتخصيصه في معرض الغاية لإتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بما صدر عنها سواء كان سعياً فيما ذكر أو تقاعداً عنه بالمرة أو سعياً في تحصيل ما يضاده للإيذان بأن المراد بالذات من إتيانها هو الإثابة بالعبادة، وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به في قوة الوجوب والساعة في شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى في الامتثال بالأمر وتجد في تحصيل ما ينجيها من الطاعات وتحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصي انتهى.

ولا يخفى ما فيه، وقيل: ما موصولة أي بالذي تسعى فيه، وفيه حذف العائد المجرور بالحرف مع فقد شرطه. وأجيب بأنه يجوز أن يكون القائل لا يشترط، وقيل: يقدر منصوباً على التوسع ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ خطاب لموسى

عليه السلام، وزعم بعضهم أنه لنبينا ﷺ لفظاً ولأمته معنى وهو في غاية البعد ﴿عَنْهَا﴾ أي الساعة، والمراد عن ذكرها ومراقبتها، وقيل: عن الإيمان بإتيانها ورجح الأول بأنه الأليق بشأن موسى عليه السلام وإن كان النهي بطريق التهييج والإلهاب ورجوع ضمير ﴿عنها﴾ إلى الساعة هو الظاهر وكذا رجوع ضمير ﴿بها﴾ في قوله تعالى ﴿مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ وقيل: الضميران راجعان إلى الصلاة، وقيل: ضمير ﴿عنها﴾ راجع إلى الصلاة وضمير بها راجع إلى الساعة وقيل: الضميران راجعان إلى كلمة ﴿لا إله إلا أنا﴾ وقيل: الأول راجع إلى العبادة والثاني راجع إلى الساعة، وقيل: هما راجعان إلى الخصال المذكورة، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ولأن في المؤخر نوع طول ربما يخل تقديه بجزالة النظم الكريم، والنهي وإن كان بحسب الظاهر نهياً للكافر عن صد موسى عليه السلام عن الساعة لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده فإن النهي عن أسباب الشيء ومبادئه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني وإبطال للسببية عن أصلها كما في قوله تعالى ﴿لا يجرمنكم﴾ [المائدة: ٢ ـ ٨ ـ هود: ٨٩] إلخ فإن صد الكافر حيث كان سبباً لانصداده عليه السلام كان النهي عنه نهياً بأصله وموجبه وإبطالاً له بالكلية، ويجوز أن يكون نهياً عن السبب على أن يراد نهيه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفرة فإن ذلك سبب لصدهم إياه عليه السلام كما في قوله: ـ لا أرينك ها هنا ـ فإن المراد به نهي المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته فكأنه قيل: كن شديد الشكيمة صلب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالساعة وينكر البعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه، وفيه حث على الصلابة في الدين وعدم اللين المطمع لمن كفر ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية فصده عن الإيمان ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي فتهلك فإن الإغفال عن الساعة وعن تحصيل ما ينجي عن أحوالها مستتبع للهلاك لا محالة.

وذكر العلامة الطيبي أنه يمكن أن يحمل ﴿من لا يؤمن﴾ على المعرض عن عبادة الله تعالى المتهالك في الدنيا المنغمس في لذاتها وشهواتها بدليل ﴿واتبع﴾ الخ ويحمل نهي الصد على نهي النظر إلى متمتعاته من زهرة الحياة الدنيا ليكون على وزان قوله تعالى ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨] الخ، ويحمل متابعة الهوى على الميل إلى الإخلاد إلى الأرض كقوله تعالى ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾ [الأعراف: ١٧٦] يعني تفرغ لعبادتي ولا تلتفت إلى ما الكفرة فيه فإنه مهلك فإن ما أوليناك واخترناه لك هو المقصد الأسنى وفي هذا حث عظيم على الاشتغال بالعبادة وزجر بليغ عن الركون إلى الدنيا ونعيمها، ولا يخلو عن حسن وإن كان خلاف الظاهر. و«تردى» يحتمل أن يكون منصوباً في جواب النهي وأن يكون مرفوعاً والجملة خبر مبتدأ محذوف أي فأنت تردى بسبب ذلك. وقرأ يحيى «فتِرْدَى» بكسر التاء.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ
أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا
ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً
مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ
أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ
الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ
وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنْتَ
وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

﴿وَمَا تلْك بيَمينكَ يَا مُوسَىٰ﴾ شروع في حكاية ما كلفه عليه السلام من الأمور المتعلق بالخلق إثر حكاية ما أمر به من الشؤون الخاصة بنفسه. فما استفهامية في محل الرفع بالابتداء و﴿تلك﴾ خبره أو بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب و﴿بيمينك﴾ متعلق بمضمر وقع حالاً من ﴿تلك﴾ أي وما تلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل فيه ما فيه من معنى الإشارة كما في قوله عز وعلا حكاية ﴿وهذا بعلي شيخا﴾ [هود: ٧٢] وتسميه النحاة عاملاً معنوياً.

وقال ابن عطية: ﴿تلك﴾ اسم موصول و﴿بيمينك﴾ متعلق بمحذوف صلته أي وما التي استقرت بيمينك. وهو على مذهب الكوفيين الذين يقولون إن كل اسم إشارة يجوز أن يكون اسماً موصولاً. ومذهب البصريين عدم جواز ذلك إلا في ذا بشرطه. والاستفهام تقريري وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى بيان المراد منه ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ نسبها عليه السلام إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام. واسمها على ما روي عن مقاتل نبعة. وكان عليه السلام قد أخذها من بيت عصى الأنبياء عليهم السلام التي كانت عند شعيب حين استأجره للرعي هبط بها آدم عليه السلام من الجنة وكانت فيما يقال من آسها. وقال وهب: كانت من العوسج وطولها عشرة أذرع على مقدار قامته عليه السلام. وقيل: اثنتا عشرة ذراعاً بذراع موسى عليه السلام. وذكر المسند إليه وإن كان هو الأصل لرغبته عليه السلام في المناجاة ومزيد لذاذته بذلك. وقرأ ابن أبي إسحاق والجحدري «عصي» بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء المتكلم على لغة هذيل فإنهم يقلبون الألف التي قبل ياء المتكلم ياء للمجانسة كما يكسر ما قبلها في الصحيح. قال شاعرهم:

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع

وقرأ الحسن «عَصَايِ» بكسر الياء وهي مروية عن أبي ابن إسحاق أيضاً وأبي عمرو، وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين كما في البحر. وعن ابن أبي إسحق «عَصَايْ» بسكون الياء كأنه اعتبر الوقف ولم يبال بالتقاء الساكنين، والعصا من المؤنثات السماعية ولا تلحقها التاء، وأول لحن سمع بالعراق كما قال الفراء: هذه عصاتي وتجمع على عصي بكسر أوله وضمه وأعص وأعصاء ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أي أتحامل عليها في المشي والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ﴿وَأَهُشُّ بهَا﴾ أي أخبط بها ورق الشجر وأضربه ليسقط ﴿عَلَىٰ غَنَمي﴾ فتأكله. وقرأ النخعي كما ذكر أبو الفضل الرازي. وابن عطية «أَهِشُّ» بكسر الهاء ومعناه كمعنى مضموم الهاء، والمفعول على القراءتين محذوف كما أشرنا إليه.

وقال أبو الفضل: يحتمل أن يكون ذلك من هش يهش هشاشة إذ مال أي أميل بها على غنمي بما يصلحها من السوق وإسقاط الورق لتأكله ونحوهما، ويقال: هش الورق والكلأ والنبات إذا جف ولان انتهى. وعلى هذا لا حذف.

وقرأ الحسن وعكرمة «أَهُشُّ» بضم الهاء والسين المهملة من الهس وهو زجر الغنم، وتعديته بعلى لتضمين معنى الإنحاء يقال: أنحى عليه بالعصا إذا رفعها عليه موهماً للضرب أي أزجرها منحياً عليها. وفي كتاب السين والشين لصاحب القاموس يقال: هس الشيء وهشه إذا فته وكسره فهما بمعنى. ونقل ابن خالويه عن النخعي أنه قرأ «أهش» من أهش رباعياً.

وذكر صاحب اللوامح عن عكرمة. ومجاهد «أَهُشُ» بضم الهاء وتخفيف الشين المعجمة ثم قال: لا أعرف وجهه إلا أن يكون بمعنى أهش بالتضعيف لكن فر منه لأن الشين فيه تفش فاستثقل الجمع بين التضعيف والتفشي فيكون كتخفيف ظلت ونحوه اهـ وهو في غاية البعد. وقرأ جماعة «غَنْمِي» بسكون النون. وأخرى «على غنمي» على أن «على» جار ومجرور و«غنمي» مفعول صريح للفعل السابق، ولم أقف على ذكر كيفية قراءة هذه الجماعة ذلك الفعل وهو على قراءة الجمهور مما لا يظهر تعديه للغنم، وكذا على قراءة غيرهم إلا بنوع تكلف، والغنم الشاه وهو اسم مؤنث موضوع للجنس يقع على الذكر والإناث وعليهما جميعاً ولا واحد له من لفظه وإنما واحده شاة وإذا صغرته قلت غنيمة بالهاء ويجمع على أغنام وغنوم وأغانم، وقالوا: غنمان في التثنية على إرادة قطعتين وقدم عليه السلام بيان مصلحة نفسه في قوله: أتوكأ عليها وثنى بمصلحة رعيته في قوله: ﴿وأهش بها على غنمي﴾ ولعل ذلك لأنه عليه السلام كان قريب العهد بالتوكؤ فكان أسبق إلى ذهنه ويليه الهش على غنمه. وقد روى الإمام أحمد أنه عليه السلام بعد أن ناداه ربه سبحانه وتحقق أنه جل وعلا هو المنادي قال سبحانه له: ادن مني فجمع يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائماً فرعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه وانقطع لسانه وانكسر قلبه ولم يبق منه عظم يحمل آخر فهو بمنزلة الميت إلا أن روح الحياة تجري فيه ثم زحف وهو مرعوب حتى وقف قريباً من الشجرة التي نودي منها فقال له الرب تبارك وتعالى ما تلك بيمينك يا موسى؟ فقال ما قص عز وجل، وقيل: لعل تقديم التوكؤ عليها لأنه الأوفق للسؤال بما تلك بيمينك، ثم إنه عليه السلام أجمل أوصافها في قوله ﴿وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي حاجات أخر ومفرده مأربة مثلثة الراء. وعومل في الوصف معاملة مفردة فلم يقل أخر وذلك جائز في غير الفواصل وفيها كما هنا أجوز وأحسن.

ونقل الأهوازي في كتاب الاقناع عن الزهري. وشيبة أنهما قرآ «مأرب» بغير همز وكأنه يعني بغير همز محقق، ومحصله أنهما سهلا الهمزة بين بين، وقد روى الإمام أحمد وغيره عن وهب في تعيين هذه المآرب أنه كان لها شعبتان ومحجن تحتهما فإذا طال الغصن حناه بالمحجن وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين وكان إذا شاء عليه السلام ألقاها على عاتقه فعلق بها قوسه وكنانته ومخلاته وثوبه وزادا إن كان معه وكان إذا رتع في البرية حيث لا ظل له ركزها ثم عرض بالزندين الزند الأعلى والزند السفلي على شعبتيها وألقى فوقها كساءه فاستظل بها ما كان مرتعاً، وكان إذا ورد ماء يقصر عنه رشاؤه وصل بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه.

وذكر بعضهم أنه كان عليه السلام يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً وتكونان شمعتين في الليل وإذا ظهر عدو حاربت عنه وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء وإذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وكانت تحدثه وتؤنسه، ونقل الطبرسي كثيراً مما ذكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

والظاهر أن ذلك مما كان فيها بعد، وتكلف بعضهم للقول بأنه مما كان قبل. ويحتمل إن صح خبر في ذلك ولا أراه يصح فيه شيء، وكأن المراد من سؤاله تعالى إياه عليه السلام أن يعدد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا

ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه تعالى عقب ذلك الآية العظيمة كأنه جل وعلا يقول: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتد بها وتحتفل بشأنها فما طالبة للوصف أو يقدر المنفعة بعدها. واختيار ما يدل على البعد في اسم الإشارة للإشارة إلى التعظيم وكذا في النداء إيماء إليه والتعداد في الجواب لأجله، و﴿مآرب أخرى﴾ تتميم للاستعظام بأنها أكثر من أن تحصى، وذكر العصا في الجواب ليجري عليها النعوت المادحة وفيه من تعظيم شأنها ما ليس في ترك ذكرها، ويندفع بهذا ما أورد من أنه يلزم على هذا الوجه استدراك ﴿هي عصاي﴾ إذ لا دخل له في تعداد المنافع.

ويجوز أن يكون المراد إظهاره عليه السلام حقارتها ليريه عز وجل عظيم ما يخترعه في الخشبة اليابسة مما يدل على باهر قدرته سبحانه كما هو شأن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً عظيماً فإنه يعرضه على الحاضرين ويقول ما هذا؟ فيقولون هو الشيء الفلاني ويصفونه بما يبعد عما يريد إظهاره منه ثم يظهر ذلك فما طالبة للجنس و﴿تلك﴾ للتحقير والتعداد في الجواب لأجله ﴿ومآرب أخرى﴾ تتميم لذلك أيضاً بأن المسكوت عنه من جنس المنطوق فكأنه عليه السلام قال: هي خشبة يابسة لا تنفع إلا منافع سائر الخشبات ولذلك ذكر عليه السلام العصا وأجرى عليها ما أجرى، وقيل: إنه عليه السلام لما رأى من آيات ربه ما رأى غلبت عليه الدهشة والهيبة فسأله سبحانه وتكلم معه إزالة لتلك الهيبة والدهشة فما طالبة إما للوصف أو للجنس وتكرير النداء لزيادة التأنيس، ولعل اختيار ما يدل على البعد في اسم الإشارة لتنزيل العصا منزلة البعيد لغفلته عليه السلام عنها بما غلب عليه من ذلك، والإجمال في قوله: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ يحتمل أن يكون رجاء أن يسأله سبحانه عن تلك المآرب فيسمع كلامه عز وجل مرة أخرى. وتطول المكالمة وتزداد اللذاذة التي لأجلها أطنب أولاً، وما ألذ مكالمة المحبوب، ومن هنا قيل:

وأملى حديثاً يستطاب فليتني ... أطلت ذنوباً كي يطول عتابه

ويحتمل أن يكون لعود غلبة الدهشة إليه عليه السلام، وزعم بعضهم أنه تعالى سأله عليه السلام ليقرره على أنها خشبة حتى إذا قلبها حية لا يخافها وليس بشيء، وعلى جميع هذه الأقوال السؤال واحد الجواب واحد كما هو الظاهر، وقيل: ﴿أتوكأ عليها﴾ الخ جواب لسؤال آخر وهو أنه لما قال: ﴿هي عصاي﴾ قال له تعالى: فما تصنع بها؟ فقال: ﴿أتوكأ عليها﴾ الخ، وقيل: إنه تعالى سأله عن شيئين عن العصا بقوله سبحانه ﴿وما تلك﴾ وعما يملكه منها بقوله عز وجل: ﴿بيمينك﴾ فأجاب عليه السلام عن الأول بقوله: ﴿هي عصاي﴾ وعن الثاني بقوله: ﴿أتوكأ عليها﴾ الخ، ولا يخفى أن كلا القولين لا ينبغي أن يتوكأ عليهما لا سيما الأخير.

هذا واستدل بالآية على استحباب التوكؤ على العصا وإن لم يكن الشخص بحيث تكون وتراً لقوسه وعلى استحباب الاقتصاد في المرعى بالهش وهو ضرب الشجر ليسقط الورق دون الاستئصال ليخلف فينتفع به الغير.

وقد ذكر الإمام فيها فوائد سنذكر بعضها في باب الإشارة لأن ذلك أوفق به ﴿قَالَ﴾ استئناف مبني على سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل: فماذا قال الله عز وجل فقيل؟ قال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ لترى من شأنها ما ترى، والإلقاء الطرح على الأرض، ومنه قوله:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

وتكرير النداء لمزيد التنبيه والاهتمام بشأن العصا، وكون قائل هذا هو الله تعالى هو الظاهر، وزعم بعضهم أنه يجوز أن يكون القائل الملك بأمر الله تعالى وقد أبعد غاية البعد ﴿فَأَلْقَاهَا﴾ ريثما قيل له ألقها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ تمشي وتنتقل بسرعة، والحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير والأنثى والذكر، وقد انقلبت حين ألقاها عليه السلام

ثعباناً وهو العظيم من الحيات كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ [الأعراف: ١٠٧، الشعراء: ٣٢] وتشبيهها بالجان وهو الدقيق منها في قوله سبحانه: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ [النمل: ١٠، القصص: ٣١] من حيث الجلادة وسرعة الحركة لا من حيث صغر الجثة فلا منافاة، وقيل: إنها انقلبت حين ألقاها عليه السلام حية صفراء في غلظ العصا ثم انتفخت وغلظت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعباناً أخرى، وعبر عنها بالاسم العام للحالين، والأول هو الأليق بالمقام مع ظهور اقتضاء الآية التي ذكرناها له وبعدها عن التأويل. وقد روى الأمام أحمد وغيره عن وهب أنه عليه السلام حانت منه نظرة بعد أن ألقاها فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يرى يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فليتقمها ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها عيناه توقدان ناراً وقد عاد المحجن عرفاً فيه شعر مثل النيازك وعاد الشعبتان فما مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف.

وفي بعض الآثار أن بين لحييه أربعين ذراعاً فلما عاين ذلك موسى عليه السلام ولى مدبراً ولم يعقب فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية ثم ذكر ربه سبحانه فوقف استحياء منه عز وجل ثم نودي يا موسى إليَّ ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف فأمره سبحانه وتعالى بأخذها وهو ما قص الله تعالى بقوله عز قائلاً ﴿قَالَ﴾ أي الله عز وجل، والجملة استئناف كما سبق ﴿خُذْهَا﴾ أي الحية وكانت على ما روي عن ابن عباس ذكراً، وعن وهب أنه تعالى قال له: «خذها بيمينك» ﴿وَلاَ تَخَفْ﴾ منها، ولعل ذلك الخوف مما اقتضته الطبيعة البشرية فإن البشر بمقتضى طبعه يخاف عند مشاهدة مثل ذلك وهو لا ينافي جلالة القدر.

وقيل: إنما خاف عليه السلام لأنه رأى أمراً هائلاً صدر من الله عز وجل بلا واسطة ولم يقف على حقيقة أمره وليس ذلك كنار إبراهيم عليه السلام لأنها صدرت على يد عدو الله تعالى وكانت حقيقة أمرها كنار على علم فلذلك لم يخف عليه السلام منها كما خاف موسى عليه السلام من الحية، وقيل: إنما خاف لأنه عرف ما لقي من ذلك الجنس حيث كان له مدخل في خروج أبيه من الجنة، وإنما عطف النهي على الأمر للإشعار بأن عدم المنهي عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط، وقوله تعالى ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ أي بعد الأخذ ﴿سِيرَتَهَا﴾ أي حالتها ﴿الأُولَى﴾ التي هي العصوية استئناف مسوق لتعليل الامتثال بالأمر والنهي فإن إعادتها إلى ما كانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها، ودعوى أن فيه مع ذلك عدة كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه السلام وإيذاناً بكونها مسخرة له عليه السلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا تعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون لا تخلو عن خفاء، وذكر بعضهم أن حكمة انقلابها حية وأمره بأخذها ونهيه عن الخوف تأنيسه فيما يعلم سبحانه أنه سيقع منه مع فرعون، ولعل هذا مأخذ تلك الدعوى.

قيل: بلغ عليه السلام عند هذا الخطاب من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحييها، وفي رواية الإمام أحمد، وغيره عن وهب أنه لما أمره الله تعالى بأخذها أدنى طرف المدرعة على يده وكانت عليه مدرعة من صوف قد خلها بخلال من عيدان فقال له ملك: أرأيت يا موسى لو أذن الله تعالى بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها فيه إذا توكأ بين الشعبتين. والرواية الأولى أوفق بمنصبه الجليل عليه السلام. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه عليه السلام نودي المرة الأولى يا موسى خذها فلم يأخذها ثم نودي الثانية ﴿خذها ولا تخف﴾ فلم

يأخذها ثم نودي الثالثة ﴿إنك من الآمنين﴾ [القصص: ٣١] فأخذها، وذكر مكي في تفسيره أنه قيل له في المرة الثالثة: ﴿**سنعيدها سيرتها الأولى**﴾، ولا يخفى أن ما ذكر بعيد عن منصب النبوة فلعل الخبر غير صحيح.

والسيرة فعلة من السير تقال للهيئة والحالة الواقعة فيه ثم جردت لمطلق الهيئة والحالة التي يكون عليها الشيء، ومن ذلك استعمالها في المذهب والطريقة في قولهم سيرة السلف، وقول الشاعر:

فلا تغضبن من سيرة أنت سرتها ... فأول راض سيرة من يسيرها

واختلف في توجيه نصبها في الآية فقيل: إنها منصوبة بنزع الخافض والأصل إلى سيرتها أو لسيرتها وهو كثير وإن قالوا: إنه ليس بمقيس، وهذا ظاهر قول الحوفي: إنها مفعول ثان لنعيدها على حذف الجار نحو ﴿واختار موسى قومه﴾ [الأعراف: ١٥٥] وإليه ذهب ابن مالك وارتضاه ابن هشام، وجوز الزمخشري أن يكون أعاد منقولاً من عاده بمعنى عاد إليه، ومنه قول زهير

فصرم حبلها إذ صرمته ... وعادك أن تلاقيها عداء

فيتعدى إلى مفعولين، والظاهر أنه غير التوجيه الأول لاعتبار النقل فيه والخافض يحذف من أعاد من غير نظر إلى ثلاثيه؛ وتعدى عاد بنفسه مما صح به النقل، فقد نقل الطيبي عن الأصمعي أن عادك في البيت متعد بمعنى صرفك، وكذا نقل الفاضل اليمني. وفي المغرب العود الصيرورة ابتداء وثانياً ويتعدى بنفسه وبإلى وعلى وفي واللام.

وفي مشارق اللغة للقاضي عياض مثله، ونقل عن الحديث «أعدت فتانا يا معاذ؟». وقال أبو البقاء: هي بدل من ضمير المفعول بدل اشتمال، وجوز أن يكون النصب على الظرفية أي سنعيدها في طريقتها الأولى.

وتعقبه أبو حيان قائلاً: إن سيرتها وطريقتها ظرف مختص فلا يتعدى إليه الفعل على طريقة الظرفية إلا بوساطة في ولا يجوز الحذف إلا في ضرورة أو فيما شذت فيه العرب، وحاصله أن شرط الانتصاب على الظرفية هنا وهو الإبهام مفقود، وفي شرح التسهيل عن نحاة المغرب أنهم قسموا المبهم إلى أقسام منها المشتق من الفعل كالمذهب والمصدر الموضوع موضع الظرف نحو قصدك ولم يفرقوا بين المختوم بالتاء وغيره فالنصب على الظرفية فيما ذكر غير شاذ ولا ضرورة، وجوز الزمخشري واستحسنه أن يكون ﴿**سنعيدها**﴾ مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصا ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية فسنعيدها بعد الذهاب كما أنشأناها أولاً، و﴿**سيرتَها**﴾ منصوباً على أنه مفعول مطلق لفعل مقدر أي تسير سيرتها الأولى أي سنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها وتهش بها على غنمك ولك فيها المآرب التي عرفتها انتهى.

والظاهر أنه جعل الجملة من الفعل المقدر[1] وفاعله حالاً، ويجوز أن يكون استئنافاً، ولا يخفى عليك أن ما ذكره وإن حسن معنى إلا أنه خلاف المتبادر، هذا والآية ظاهرة في جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كانقلاب النحاس إلى الذهب وبه قال جمع، ولا مانع في القدرة من توجه الأمر التكويني إلى ذلك وتخصيص الإرادة له، وقيل: لا يجوز لأن قلب الحقائق محال والقدرة لا تتعلق به والحق الأول بمعنى أنه تعالى يخلق بدل النحاس مثلاً ذهباً على ما هو رأي بعض المحققين أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصف الذي صار به نحاساً ويخلق فيه الوصف الذي يصير به ذهباً

---

(١) قيل مقدرة وفيه نظر اهـ منه.

على ما هو رأي بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات، والمحال إنما هو انقلابه ذهباً مع كونه نحاساً لامتناع كون الشيء في الزمن الواحد نحاساً وذهباً، وانقلاب العصا حية كان بأحد هذين الاعتبارين والله تعالى أعلم بأيهما كان، والذي أميل إليه الثاني فإن في كون خلق البدل انقلاباً خفاء كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أمر له عليه السلام بعد ما أخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت؛ والضم الجمع، والجناح كما في القاموس اليد والعضد والإبط والجانب ونفس الشيء ويجمع على أجنحة وأجنح، وفي البحر الجناح حقيقة في جناح الطائر والملك ثم توسع فيه فأطلق على اليد والعضد وجنب الرجل.

وقيل: لمجنبتي العسكر جناحان على سبيل الاستعارة وسمي جناح الطائر بذلك لأنه يجنحه أي يميله عند الطيران، والمراد أدخل يدك اليمنى من طوق مدرعتك واجعلها تحت إبط اليسرى أو تحت عضدها عند الإبط أو تحتها عنده فلا منافاة بين ما هنا، وقوله تعالى: ﴿أدخل يدك في جيبك﴾ [النمل: ١٢] ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ جعله بعضهم مجزوماً في جواب الأمر المذكور على اعتبار معنى الإدخال فيه، وقال أبو حيان وغيره: إنه مجزوم في جواب أمر مقدر وأصل الكلام اضمم يدك تنضم وأخرجها تخرج فحذف ما حذف من الأول. والثاني وأبقى ما يدل عليه فهو إيجاز يسمى بالاحتباك، ونصب ﴿بيضاءَ﴾ على الحال من الضمير في ﴿تخرجُ﴾ والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من الضمير في ﴿بيضاءَ﴾ أو صفة لبيضاء كما قال الحوفي أو متعلق به كما قال أبو حيان كأنه قيل: ابيضت من غير سوء أو متعلق بتخرج كما جوزه غير واحد. والسوء الرداءة والقبح في كل شيء، وكني به عن البرص كما كني عن العورة بالسوأة لما أن الطباع تنفر عنه الأسماع تمجه. وهو أبغض شيء عند العرب ولهذا كنوا عن جذيمة صاحب الزباء وكان أبرص بالأبرش والوضاح. وفائدة التعرض لنفي ذلك الاحتراس فإنه لو اقتصر على قوله تعالى: ﴿تخرج بيضاء﴾ لأوهم ولو على بعد أن ذلك من برص، ويجوز أن يكون الاحتراس عن توهم عيب الخروج عن الخلقة الأصلية على أن المعنى تخرج بيضاء من غير عيب وقبح في ذلك الخروج أو عن توهم عيب مطلقاً. يروى أنها خرجت بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يغشي البصر وكان عليه السلام آدم اللون ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ أي معجزة أخرى غير العصا. وانتصابها على الحالية من ضمير ﴿تخرج﴾ والصحيح جواز تعدد الحال لذي حال واحد أو من ضمير ﴿بيضاء﴾ أو من الضمير في الجار والمجرور على ما قيل أو على البدلية من ﴿بيضاء﴾ ويرجع إلى الحالية من ضمير ﴿تخرج﴾، ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مضمر أي خذ آية وحذف لدلالة الكلام. وظاهر كلام الزمخشري جواز تقدير دونك عاملاً وهو مبني على ما هو ظاهر كلام سيبويه من جواز عمل اسم الفعل محذوفاً ومنعه أبو حيان لأنه نائب عن الفعل ولا يحذف النائب والمنوب عنه، ونقض بيا الندائية فإنها تحذف مع أنها نائبة عن أدعوا، وقيل: إنها مفعول ثان لفعل محذوف مع مفعوله الأول أي جعلناها أو آتيناك آية أخرى، وجعل هذا القائل قوله تعالى:

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ متعلقاً بذلك المحذوف. ومن قدر خذ ونحوه جوز تعلقه به، وجوز الحوفي تعلقه باضمم، وتعلقه بتخرج وأبو البقاء تعلقه بما دل عليه ﴿آية﴾ أي دللنا بها لنريك. ومنع تعلقه بها لأنها قد وصفت. وبعضهم تعلقه بألق، واختار بعض المحققين أنه متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم كأنه قيل: فعلنا ما فعلنا لنريك بعض آياتنا الكبرى على أن ﴿الكبرى﴾ صفة لآياتنا على حد ﴿مآرب أخرى﴾ و﴿من آياتنا﴾ في موضع المفعول الثاني ومن فيه للتبعيض أو لنريك بذلك الكبرى من آياتنا على أن ﴿الكبرى﴾ هو المفعول الثاني لنريك ﴿ومن آياتنا﴾ متعلق بمحذوف حال منه ومن فيه للابتداء أو للتبعيض. وتقديم الحال مع أن صاحبه معرفة لرعاية الفواصل. وجوز كلا

الإعرابين في ﴿من آياتنا الكبرى﴾ الحوفي. وابن عطية وأبو البقاء وغيرهم.

واختار في البحر الإعراب الأول ورجحه بأن فيه دلالة على أن آياته تعالى كلها كبرى بخلاف الإعراب الثاني وبأنه على الثاني لا تكون ﴿الكبرى﴾ صفة العصا واليد معاً وإلا لقيل: الكبريين. ولا يمكن أن يخص أحدهما لأن في كل منهما معنى التفضيل، ويبعد ما قال الحسن وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن اليد أعظم في الإعجاز من العصا لأنه ليس في اليد إلا تغيير اللون وأما العصا ففيها تغيير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة مع عودها عصا بعد ذلك فكانت أعظم في الإعجاز من اليد، وجوز أن تكون ﴿الكبرى﴾ صفة لهما ولاتحاد المقصود جعلتا آية واحدة وأفردت الصفة لذلك. وأن تكون صفة لليد والعصا غنية عن الوصف بها لظهور كونها كبرى.

وأنت تعلم أن هذا كله خلاف الظاهر. وكذا ما قيل: من أن من على الإعراب الثاني للبيان بأن يكون المراد لنريك الآيات الكبرى من آياتنا ليصح الحمل الذي يقتضيه البيان ولا يترجح بذلك الإعراب الثاني على الأول ولا يساويه أصلاً. ولا يخفى عليك أن كل احتمال من احتمالات متعلق اللام خلا من الدلالة على وصف آية العصا بالكبر لا ينبغي أن يعول عليه. ويعتذر بأن عدم الوصف للظهور مع ظهور الاحتمال الذي لا يحتاج معه إلى الاعتذار عن ذلك المقال فتأمل والله تعالى العاصم من الزلل ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ تخلص إلى ما هو المقصد من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته أي اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي.

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أي جاوز الحد في التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية، قال وهب بن منبه: إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: ادن فلم يزل يدنيه حتى شد ظهره بجذع الشجرة فاستقر وذهبت عنه الرعدة وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه ثم قال له بعد أن عرفه نعمته تعالى عليه: انطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي وإن معك أيدي ونصري وإني قد ألبستك جنة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري فأنت جند عظيم من جنودي بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي وعبد من دوني وزعم أنه لا يعرفني وإني لأقسم بعزتي لولا العذر والحجة اللذان وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار فإن أمرت السماء حصبته وإن أمرت الأرض ابتلعته وإن أمرت البحار غرقته وإن أمرت الجبال دمرته ولكنه هان علي وسقط من عيني ووسعه حلمي واستغنيت بما عندي وحق لي إني أنا الغني لا غني غيري فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاص اسمي وذكره بأيامي وحذره نقمتي وبأسي وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة ولا يرو عنك ما ألبسته من لباس الدنيا فإن ناصيته بيدي ليس يطرف ولا ينطق ولا يتنفس إلا بأذني وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة وإنه قد أمهلك أربعمائة سنة في كلها أنت مبارزه بالمحاربة تتشبه وتتمثل به وتصد عباده عن سبيله وهو يمطر عليك السماء وينبت لك الأرض لم تسقم. ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب ولو شاء أن يفعل ذلك بك فعل ولكنه ذو أناة وحلم عظيم في كلام طويل.

وفي بعض الروايات أن الله تعالى لما أمره عليه السلام بالذهاب إلى فرعون سكت سبعة أيام، وقيل: أكثر فجاءه ملك فقال: أنفذ ما أمرك ربك، وفي القلب من صحة ذلك شيء ﴿قَالَ﴾ استئناف بياني كأنه قيل فماذا قال موسى

عليه السلام حين قيل له ما قيل؟ فأجيب بأنه قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ الظاهر أنه متعلق بقوله تعالى ﴿اذهب إلى فرعون﴾ الخ، وذلك أنه عليه السلام علم من الأمر بالذهاب إليه والتعليل بالعلة المذكورة أنه كلف أمراً عظيماً وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح فاستوهب ربه تعالى أن يشرح صدره ويجعله حليماً حمولاً يستقبل ما عسى أن يرد عليه في طريق التبليغ والدعوة إلى مر الحق من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذي هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع، فالمراد من شرح الصدر جعله بحيث لا يضجر ولا يقلق مما يقتضي بحسب البشرية الضجر والقلق من الشدائد، وفي طلب ذلك إظهار لكمال الافتقار إليه عز وجل وإعراض عن الأنانية بالكلية:

ويحسن إظهار التجلد للعدا ... ويقبح إلا العجز عند الأحبة

وذكر الراغب أن أصل الشرح البسط ونحوه، وشرح الصدر بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى وروح منه عز وجل ولهم فيه عبارات أخر لعل بعضها سيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة. وقال بعضهم: إن هذا القول معلق بما خاطبه الله تعالى به من لدن قوله سبحانه ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك﴾ [طه: ١٢] إلى هذا المقام فيكون قد طلب عليه السلام شرح الصدر ليقف على دقائق المعرفة وأسرار الوحي ويقوم بمراسم الخدمة والعبادة على أتم وجه ولا يضجر من شدائد التبليغ. وقيل: إنه عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم وخوطب بما خوطب في ذلك المقام احتاج إلى تكاليف شاقة من تلقي الوحي والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى وإصلاح العالم السفلي فكأنه كلف بتدبير العالمين والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر فسأل شرح الصدر حتى يفيض عليه من القوة ما يكون وافياً بضبط تدبير العالمين، وقد يقال: إن الأمر بالذهاب إلى فرعون قد انطوى فيه الإشارة إلى منصب الرسالة المستتبع تكاليف لائقة به منها ما هو راجع إلى الحق؛ ومنها ما هو منوط بالخلق، وقد استشعر موسى عليه السلام كل ذلك فبسط كف الضراعة لطلب ما يعينه على أداء ذلك على أكمل وجه فلا يتوقف تعميم شرح الصدر على تعلقه بأول الكلام كما لا يخفى، ثم إن الصدر عند علماء الرسوم يراد منه القلب لأنه المدرك أو مما به الإدراك والعلاقة ظاهرة.

ولعلماء القلوب كلام في ذلك سيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة مع بعض ما أطنب به الإمام في تفسير هذه الآية، وفي ذكر كلمة ﴿لي﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسر أولاً وتفسيرهما ثانياً فإنه لما قال ﴿اشرح لي﴾ علم أن ثم مشروحاً يختص به حتى لو اكتفى لتم فإذا قيل ﴿صدري﴾ أفاد التفسير والتفصيل أما لو قيل ﴿اشرح﴾ واكتفي به فلا وكذا الكلام في ﴿يسر لي﴾. وقيل: ذكر ﴿لي﴾ لزيادة الربط كما في قوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ [الأنبياء: ١]. وتعقب بأنه لا منافاة وهو النبي أفاد هذا المعنى. وفي الانتصاف أن فائدة ذكرها الدلالة على أن منفعة شرح الصدر راجعة إليه فإن تعالى لا يبالي بوجوده وعدمه وقس عليه ﴿يسر لي أمري﴾ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ روي أنه كان في لسانه عليه السلام رتة من جمرة أدخلها فاه في صغره.

وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ خصلة من لحيته لما كان فيها من الجواهر. وقيل: لطمه. وقيل: ضربه ضربة بقضيب في يده على رأسه فتطير فدعا بالسياف فقالت آسية بنت مزاحم امرأته وكانت تحب موسى عليه السلام: إنما هو صبي لا يفرق بين الياقوت والجمر فاحضرا وأراد أن يمد يده إلى الياقوت فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها في فيه فاحترق لسانه.

وفي هذا دليل على فساد قول القائلين بأن النار تحرق بالطبيعة من غير مدخلية لإذن الله تعالى في ذلك إذ لو كان الأمر كما زعموا لأحرقت يده. وذكر في حكمة إذن الله تعالى لها بإحراق لسانه دون يده أن يده صارت آلة لما ظاهره الإهانة لفرعون. ولعل تبييضها كان لهذا أيضاً وإن لسانه كان آلة لضد ذلك بناء على ما روي أنه عليه السلام دعاه بما يدعو به الأطفال الصغار آبائهم. وقيل: احترقت يده عليه السلام أيضاً فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ. ولعل ذلك لئلا يدخلها عليه السلام مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة فلما دعاه قال: إلى أي رب تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنه. وكان الظاهر على هذا أن يطرح عليه السلام النار من يده ولا يوصلها إلى فيه. ولعله لم يحس بالألم إلا بعد أن أوصلها فاه أو أحس لكنه لم يفرق بين إلقائها في الأرض وإلقائها في فمه وكل ذلك بتقدير الله تعالى ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وقيل: كانت العقدة في لسانه عليه السلام خلقة. وقيل: إنها حدثت بعد المناجاة وفيه بعد.

واختلف في زوالها بكمالها فمن قال به كالحسن تمسك بقوله تعالى ﴿قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾ [طه: ٣٦] من لم يقل به كالجبائي احتج بقوله تعالى ﴿هو أفصح مني﴾ [القصص: ٣٤] وقوله سبحانه ﴿ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: ٥٢].

وبما روي أنه كان في لسان الحسين رضي الله تعالى عنه رتة وحبسة فقال النبي ﷺ فيه: إنه ورثها من عمه موسى عليه السلام. وأجاب عن الأول بأنه عليه السلام لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل عقدة تمنع الإفهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله ﴿من لساني﴾ ولم يضفها مع أنه أخصر ولا يصلح ذلك للوصفية إلا بتقدير مضاف وجعل ﴿من﴾ تبعيضية أي عقدة كائنة من عقد لساني فإن العقدة للسان لا منه. وجعل قوله تعالى: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ جواب الطلب وغرضاً من الدعاء فبحلها في الجملة يتحقق إيتاء سؤله عليه السلام. واعترض على ذلك بأن قوله تعالى ﴿هو أفصح مني﴾ قال عليه السلام قبل استدعاء الحل على أنه شاهد على عدم بقاء اللكنة لأن فيه دلالة على أن موسى عليه السلام كان فصيحاً غايته أن فصاحة أخيه أكثر وبقية اللكنة تنافي الفصاحة اللغوية المرادة هنا بدلالة قوله لساناً. ويشهد لهذه المنافاة ما قاله ابن هلال في كتاب الصناعتين: الفصاحة تمام آلة البيان ولذا لا يقال لله تعالى: فصيح وإن قيل لكلامه سبحانه فصيح ولذلك لا يسمى الألثغ والتمتام فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف وبأن قوله تعالى ﴿ولا يكاد يبين﴾ معناه لا يأتي ببيان وحجة، وقد قال ذلك اللعين تمويهاً ليصرف الوجوه عنه عليه السلام، ولو كان المراد نفي البيان وإفهام الكلام لاعتقال اللسان لدل على عدم زوال العقدة أصلاً ولم يقل به أحد، وبأنا لا نسلم صحة الخبر، وبأن تنكير ﴿عقدة﴾ يجوز أن يكون لقلتها في نفسها. ومن يجوز تعلقها بأحلل كما ذهب إليه الحوفي واستظهره أبو حيان فإن المحلول إذا كان متعلقاً بشيء ومتصلاً به فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشيء أيضاً باعتبار إزالته عنه أوابتداء حصوله منه، وعلى تقدير تعلقها بمحذوف وقع صفة لعقدة لا نسلم وجوب تقدير مضاف وجعل من تبعيضية، ولا مانع من أن تكون بمعنى في ولا تقدير أي عقدة في لساني بل قيل: ولا مانع أيضاً من جعلها ابتدائية مع عدم التقدير وأي فساد في قولنا: عقدة ناشئة من لساني. والحاصل أن ما استدل به على بقاء عقدة ما في لسانه عليه السلام وعدم زوالها بالكلية غير تام لكن قال بعضهم: إن الظواهر تقتضي ذلك وهي تكفي في مثل هذه المطالب وثقل ما في اللسان لا يخفف قدر الإنسان. وقد ذكر أن في لسان المهدي المنتظر رضي الله تعالى عنه حبسة وربما يتعذر عليه الكلام حتى يضرب بيده اليمنى فخذ رجله اليسرى وقد بلغك ما ورد في فضله. وقال بعضهم: لا تقاوم فصاحة الذات إعراب الكلمات. وأنشد قول القائل:

سر الفصاحة كامن في المعدن ... لخصائص الأرواح لا للألسن

وقول الآخر:

لسان فصيح معرب في كلامه ... فيا ليته في موقف الحشر يسلم

وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقى ... وما ضر ذا تقوى لسان معجم

نعم ما يخل بأمر التبليغ من رتة تؤدي إلى عدم فهم الوحي معها ونفرة السامع عن سماع ذلك مما يجل عنه الأنبياء عليهم السلام فهم كلهم فصحاء اللسان لا يفوت سامعهم شيء من كلامهم ولا ينفر عن سماعه وإن تفاوتوا في مراتب تلك الفصاحة وكأنه عليه السلام إنما لم يطلب أعلى مراتب فصاحة اللسان وطلاقته عند الجبائي ومن وافقه لأنه لم ير في ذلك كثير فضل، وغاية ما قيل فيه أنه زينة من زينة الدنيا وبهاء من بهائها والفضل الكثير في فصاحة البيان بالمعنى المشهور في عرف أهل المعاني والبيان وما ورد مما يدل على ذم ذلك فليس على إطلاقه كما بين في شروح الأحاديث. ثم إن المشهور تفسير اللسان بالآلة الجارحة نفسها وفسره بعضهم بالقوة النطقية القائمة بالجارحة. والفقه العلم بالشيء والفهم له كما في القاموس وغيره، وقال الراغب: هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم.

والظاهر هنا الفهم أي احلل عقدة من لساني يفهموا قولي ﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ أي معاوناً في تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر بكسر فسكون بمعنى الحمل الثقيل فهو في الأصل صفة من ذلك ومعناه صاحب وزر أي حامل حمل ثقيل، وسمي القائم بأمر الملك بذلك لأنه يحمل عنه وزر الأمور وثقلها أو ملجأ اعتصم برأيه على أن اشتقاقه من الوزر بفتحتين وأصله الجبل يتحصن به ثم استعمل بمعنى الملجأ مطلقاً كما في قوله:

شر السباع الضواري دونه وزر ... والناس شرهم ما دونهم وزر

كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع ... وما ترى بشراً لم يؤذه بشر

وسمي وزير الملك بذلك لأن الملك يعتصم برأيه ويلتجيء إليه في أمره فهو فعيل بمعنى مفعول على الحذف والإيصال أي ملجوء إليه أو هو للنسب، وقيل: أصله أزير من الأزر بمعنى القوة ففعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس قلبت همزته واواً كقلبها في موازر وقلبت فيه لانضمام ما قبلها ووزير بمعناه فحمل عليه وحمل النظير على النظير كثير في كلامهم إلا أنه سمع مؤازر من غير إبدال ولم يسمع أزير بدونه على أنه مع وجود الاشتقاق الواضح وهو ما تقدم لا حاجة إلى هذا الاشتقاق وادعاء القلب. ونصبه على أنه مفعول ثان لـ ﴿اجعل﴾ قدم على الأول الذي هو قوله تعالى ﴿هارون﴾ اعتناء بشأن الوزارة لأنها المطلوبة و﴿لي﴾ صلة للجعل أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من وزيراً وهو صفة له في الأصل و﴿من أهلي﴾ إما صفة لوزيراً أو صلة لأجعل، وقيل: مفعولاه ﴿لي وزيراً﴾ و﴿من أهلي﴾ على ما مر من الوجهين و﴿هارون﴾ عطف بيان للوزير بناء على ما ذهب إليه الزمخشري والرضي من أنه لا يشترط التوافق في التعريف والتنكير، وقيل: هو بدل من وزيراً. وتعقب بأنه يكون حينئذ هو المقصود بالنسبة مع أن وزارته هي المقصودة بالقصد الأول هنا.

وجوز كونه منصوباً بفعل مقدر في جواب من اجعل؟ أي اجعل هارون، وقيل: مفعولاه ﴿وزيراً من أهلي﴾ و﴿لي﴾ تبيين كما في سقياً له.

واعترض بأن شرط المفعولين في باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية منهما ولو ابتدأت بوزيراً وأخبرت عنه بمن أهلي لم يصح إذ لا مسوغ للابتداء به، وأجيب بأن مراد القائل: إن «من أهلي» هو المفعول الأول لتأويله ببعض أهلي كأنه قيل اجعل بعض أهلي وزيراً فقدم للاهتمام به وسداد المعنى يقتضيه ولا يخفى بعده، ومن ذلك قيل الأحسن أن يقال: إن الجملة دعائية والنكرة يبتدأ بها فيها كما صرح به النحاة فكذا بعد دخول الناسخ وهو كما ترى، وقيل: إن المسوغ للابتداء بالنكرة هنا عطف المعرفة وهو ﴿هارون﴾ عليها عطف بيان هو غريب، وجوز في ﴿هارون﴾ أيضاً على هذا القول كونه مفعولاً لفعل مقدر وكونه بدلاً وقد سمعت ما فيه.

والظاهر أنه يجوز في ﴿لي﴾ عليه أيضاً أن يكون صلة للجعل كما يجوز فيه على بضع الأوجه السابقة أن يكون تبييناً. ولم يظهر لي وجه عدم ذكر هذا الاحتمال هناك ولا وجه عدم ذكر احتمال كونه صلة للجعل هنا. ويفهم من كلام البعض جواز كلٍّ من الاحتمالين هنا وهناك. وكذا يجوز أيضاً أن يكون حالاً من ﴿وزيرا﴾ ولعل ذلك مما يسهل أمر الانعقاد على ما قيل وفيه ما فيه، و﴿أخي﴾ على الوجوه عطف بيان للوزير ولا ضير في تعدده لشيء واحد أو لهارون. ولا يشترط فيه كون الثاني أشهر كما توهم لأن الإيضاح حاصل من المجموع كما حقق في المطول وحواشيه. ولا حاجة إلى دعوى أن المضاف إلى الضمير أعرف من العلم لما فيها من الخلاف. وكذا إلى ما في الكشف من أن ﴿أخي﴾ في هذا المقام أشهر من اسمه العلم لأن موسى عليه السلام هو العلم المعروف والمخاطب الموصوف بالمناجاة والكرامة والمتعرف به هو المعرفة في الحقيقة ثم إن البيان ليس بالنسبة إليه سبحانه لأنه جل شأنه لا تخفى عليه خافية وإنما إتيان موسى عليه السلام به على نمط ما تقدم من قوله ﴿هي عصاي﴾ الخ. وجوز أن يكون ﴿أخي﴾ مبتدأ خبره ﴿أَشْدُدْ به أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ وتعقبه أبو حيان بأنه خلاف الظاهر فلا يصار إليه لغير حاجة. والكلام في الأخبار بالجملة الإنشائية مشهور. والجملة على هذا استئنافية. والأزر القوة، وقيدها الراغب بالشديدة. وقال الخليل وأبو عبيدة: هو الظهر وروي ذلك عن ابن عطية، والمراد أحكم به قوتي وأجعله شريكي في أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي.

وفصل الدعاء الأول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فإن شد الأزر عبارة عن جعله وزيراً وأما الإشراك في الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف كذا قيل لكن في مصحف ابن مسعود «واشدد» بالعطف على الدعاء السابق وعن أبي «أشركه في أمري واشدد به أزري» فتأمل.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما والحسن وابن عامر «أَشْدُدْ» بفتح الهمزة «وأُشْرِكْهُ» بضمها على أنهما فعلان مضارعان مجزومان في جواب الدعاء أعني قوله: ﴿اجعل﴾، وقال صاحب اللوامح: عن الحسن أنه قرأ «أُشَدِّدْ بِهِ» مضارع شدد للتكثير والتكرير. وليس المراد بالأمر على القراءة السابقة الرسالة لأن ذلك ليس في يد موسى عليه السلام بل أمر الإرشاد والدعوة إلى الحق، وكان هارون كما أخرج الحاكم عن وهب أطول من موسى عليهما السلام وأكثر لحماً وأبيض جسماً وأعظم ألواحاً وأكبر سناً، قيل: كان أكبر منه بأربع سنين، وقيل: بثلاث سنين. وتوفي قبله بثلاث أيضاً. وكان عليه السلام ذا تؤدة وحلم عظيم.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة فإن فعل كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثراً لفعل الآخر ومضاعفاً له بسبب انضمامه إليه مكثر له في نفسه أيضاً بسبب تقويته وتأييده إذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو في الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة إلى الحق وذلك مما لا ريب في اختلاف حالة في حالتي

التعدد والانفراد فإن كلاً منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله حال الانفراد، و﴿كثيراً﴾ في الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أي ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التي من جملتها مايدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من الشركة في الألوهية ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيهاً كثيراً ووصفاً كثيراً أو زماناً كثيراً من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه كذا في إرشاد العقل السليم.

وجوز أبو حيان كونه منصوباً على الحال أي نسبحك التسبيح في حال كثرته، وكذا يقال في الأخير وليس بذاك، وتقديم التسبيح على الذكر من باب تقديم التخلية على التحلية، وقيل: لأن التسبيح تنزيه عما يليق ومحله القلب والذكر ثناء بما يليق ومحله اللسان والقلب مقدم على اللسان، وقيل: إن المعنى كي نصلي لك كثيراً ونحمدك ونثني عليك كثيراً بما أوليتنا من نعمك ومننت به علينا من تحميل رسالتك، ولا يخفى أنه لا يساعده المقام.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ عالماً بأحوالنا وبأن ما دعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا في تحقيق ما كلفته من إقامة مراسم الرسالة وبأن هارون نعم الردء في أداء ما أمرت به، والباء متعلقة ببصيراً قدمت عليه لمراعاة الفواصل، والجملة في موضع التعليل للمعلل الأول بعد اعتبار تعليله بالعلة الأولى، وروى عبد بن حميد عن الأعمش أنه سكن كاف الضمير في المواضع الثلاثة، وجاء أن النبي ﷺ دعا بمثل هذا الدعاء إلا أنه أقام علياً كرم الله تعالى وجهه مقام هارون عليه السلام، فقد أخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت: «رأيت رسول الله ﷺ بإزاء ثبير وهو يقول أشرق ثبير أشرق ثبير اللهم إني أسألك مما أسألك أخي موسى أن تشرح لي صدري وأن تيسر لي أمري وأن تحل عقدة من لساني يفقه قولي واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً»، ولا يخفى أنه يتعين هنا حمل الأمر على أمر الإرشاد والدعوة إلى الحق ولا يجوز حمله على النبوة، ولا يصح الاستدلال بذلك على خلافة علي كرم الله تعالى وجهه بعد النبي ﷺ بلا فصل. ومثله فيما ذكر ما صح من قوله عليه الصلاة والسلام له حين استخلفه في غزوة تبوك على أهل بيته: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» كما بين في التحفة الاثني عشرية، نعم في ذلك من الدلالة على مزيد فضل علي كرم الله تعالى وجهه ما لا يخفى، وينبغي أيضاً أن يتأول طلبه ﷺ حل العقدة بنحو استمرار ذلك لما أنه عليه الصلاة والسلام كان أفصح الناس لساناً ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أي قد أعطيت سؤلك ففعل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول، والإيتاء عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره تعالى إياها حتماً فكلها حاصلة له عليه السلام وإن كان وقوع بعضها بالفعل مرتباً بعد كتيسير الأمر وشد الأزر وباعتباره قيل: ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ [القصص: ٣٥] وظاهر بعض الآثار يقتضي أن شركة هارون عليه السلام في النبوة أي استنبائه كموسى عليه السلام وقعت في ذلك المقام وإن لم يكن عليه السلام فيه مع أخيه، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في قوله: ﴿واشركه في أمري﴾ نبىء هارون ساعتئذ حين نبىء موسى عليهما السلام، ونداؤه عليه السلام تشريف له بالخطاب إثر تشريف.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين لنفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء وطلب منه فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى. وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أي وبالله لقد أنعمنا ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ أي في وقت غير هذا الوقت على أن أخرى تأنيث آخر بمعنى مغايرة و﴿مرة﴾ ظرف زمان والمراد به الوقت الممتد الذي وقع فيه ما سيأتي إن شاء الله

تعالى ذكره في المنن العظيمة الكثيرة وهو في الأصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة متعدية كانت أو لازمة ثم شاع في كل فرد واحد من أفراد ما له أفراد متجددة فصار علماً في ذلك حتى جعل معياراً لما في معناه من سائر الأشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منه الكرة والتارة والدفعة. وقال أبو حيان: المراد منه غير هذه المنة وليست ﴿أخرى﴾ تأنيث آخر بكسر الخاء لتكون مقابلة للأولى. وتوهم ذلك بعضهم فقال: سماها سبحانه أخرى وهي أولى لأنها أخرى في الذكر.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ ظرف لمنن سواء كان بدلاً من مرة أم لا، وقيل: تعليل وهو خلاف الظاهر، والمراد بالإيحاء عند الجمهور ما كان بإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ [النحل: ٦٨] وتعقب بأنه بعيد لأنه قال تعالى في سورة القصص: ﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ [القصص: ٧] ومثله لا يعلم بالإلهام وليس بشيء لأنها قد تكون شاهدت منه عليه السلام ما يدل على نبوته وأنه تعالى لا يضيعه، وإلهام الأنفس القدسية مثل ذلك لا بعد فيه فإنه نوع من الكشف. ألا ترى قول عبد المطلب وقد سمي نبينا ﷺ محمداً فقيل له: لم سميت ولدك محمداً وليس في أسماء آبائك؟: إنه سيحمد، وفي رواية رجوت أن يحمد في السماء والأرض مع أن كون ذلك داخلاً في الملهم ليس بلازم.

واستظهر أبو حيان أنه كان يبعث ملك إليها لا على جهة النبوة كما بعث إلى مريم وهو مبني على أن الملك يبعث إلى غير الأنبياء عليهم السلام وهو الصحيح لكن قيل: عليه أنه حينئذ ينتقض تعريف النبي بأنه من أوحي إليه، على وجه النبوة دار التعريف وأجيب بأنه لا يتعين ذلك. ولو قيل: من أوحى إليه بأحكام شرعية لكنه لم يؤمر بتبليغها لم يلزم محذور. وقال الجبائي: أنه كان بالإراءة مناماً. وقيل: كان على لسان نبي في وقتها كما في قوله تعالى: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ [المائدة: ١١١] وتعقب بأن خلاف الظاهر فإنه لم ينقل إنه كان نبي في مصر زمن فرعون قبل موسى عليه السلام.

وأجيب بأن ذلك لا يتوقف على كون النبي في مصر، وقد كان شعيب عليه السلام نبياً في زمن فرعون في مدين فيمكن أن يكون أخبرها بذلك على أن كثرة أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام مما شاع وذاع، والحق أن إنكار كون ذلك خلاف الظاهر مكابرة. واختلف في اسم أمه عليه السلام والمشهور أنه يوحانذ، وفي الاتقان هي محيانة بنت يصهر بن لاوي، وقيل: بارخا، وقيل: بازخت وما اشتهر من خاصية فتح الأقفال به بعد رياضة مخصوصة له مما لم نجد فيه أثراً ولعله حديث خرافة، والمراد بما يوحى ما قصه الله تعالى فيما بعد من الأمر بقذفه في التابوت. وقذفه في البحر أبهم أو لا تهويلاً له وتفخيماً لشأنه، ثم فسر ليكون أقر عند النفس، وقيل: معناه ما ينبغي أن يوحي ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به كما يقال هذا مما يكتب، وقيل: لا يعلم إلا بالوحي، والأول أوفق بكل من المعاني السابقة المرادة بالإيحاء إلا أنه قيل: عليه إنه لو كان المراد منه التفخيم والتهويل لقيل إذ أوحينا إلى أمك ما أوحينا كما قال سبحانه ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ [طه: ٧٨] فإن تم هذا فما قيل في معناه ثانياً أولى فتدبر.

وأن في قوله تعالى ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ مفسرة لأن الوحي من باب القول أو مصدرية حذف عنها الباء أي بأن اقذفيه، وقال ابن عطية: ﴿أن﴾ وما بعدها في تأويل مصدر بدل من ما، وتقدم الكلام في وصل أن المصدرية بفعل الأمر، والمراد بالقذف ها نها الوضع، وأما في قوله تعالى ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ فالمراد به الإلقاء والطرح، ويجوز أن يكون المراد به الوضع في الموضعين، و﴿اليم﴾ البحر لا يكسر ولا يجمع جمع سلامة، وفي البحر هو اسم للبحر

العذب، وقيل: اسم للنيل خاصة وليس بصحيح، وهذا التفصيل هنا هو المراد بقوله تعالى ﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾ [القصص: ٧] لا القذف بلا تابوت ﴿فَلْيُلْقِه الْيَمُّ بالسَّاحل﴾ أي بشاطئه وهو الجانب الخالي عن الماء مأخوذ من سحل الحديد أي برده وقشره وهو فاعل بمعنى مفعول لأن الماء يسحله أي يقشره أو هو للنسب أي ذو سحل يعود الأمر إلى مسحول، وقيل: هو على ظاهره على معنى أنه يسحل الماء أي يفرقه ويضيعه؛ وقيل: هو من السحيل وهو النهيق لأنه يسمع منه صوت، والمراد به هنا ما يقابل الوسط وهو ما يلي الساحل من البحر حيث يجري ماؤه إلى نهر فوعون.

وقيل: المراد بالساحل الجانب والطرف مطلقاً والمراد من الأمر الخبر واختير للمبالغة، ومن ذلك قوله ﷺ: «قوموا فلأصل لكم» ولا خراج ذلك مخرج الأمر حسن الجواب فيما بعد، وقال غير واحد: إنه لما كان القاء البحر إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع لتعلق الإرادة الربانية به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك، وأخرج الجواب مخرج الأمر ففي اليم استعارة بالكناية وإثبات الأمر تخييل، وقيل: إن في قوله تعالى ﴿فليلقه﴾ استعارة تصريحية تبعية والضمائر كلها لموسى عليه السلام إذ هو المحدث عنه والمقذوف في البحر والملقى بالساحل وإن كان هو التابوت أصالة لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تبعاً له في ذلك، وقيل: الضمير الأول لموسى عليه السلام والضميران الأخيران للتابوت، ومتى كان الضمير صالحاً لأن يعود على الأقرب وعلى الأبعد كان عوده على الأقرب راجحاً كما نص عليه النحويون، وبهذا رد على أبي محمد بن حزم في دعواه عود الضمير في قوله تعالى ﴿فإنه رجس﴾ [الأنعام: ١٤٥] على لحم لأنه المحدث عنه لا على خنزير فيحل شحمه وغضروفه وعظمه وجلده عنده لذلك، والحق أن عدم التفكيك فيما نحن فيه أولى، وما ذكره النحويون ليس على إطلاقه كما لا يخفى ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وَعَدُوٌّ لهُ﴾ جواب للأمر بالإلقاء وتكرير العدو للمبالغة من حيث إنه يدل على أن عداوته كثيرة لا واحدة، وقيل: إن الأول للواقع والثاني للمتوقع وليس من التكرير للمبالغة في شيء لأن ذلك فرع جواز أن يقال: عدو لي وله وهو لا يجوز إلا عند القائلين بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز، وأجيب بأن ذلك جائز وليس فيه الجمع المذكور فإن فرعون وقت الأخذ متصف بالعداوة لله تعالى وله في الواقع أما اتصافه بعداوة الله تعالى فظاهر؛ وأما اتصافه بعداوة موسى فمن حيث إنه يبغض كل مولود في تلك السنة، ولو قلنا بعدم الاتصاف بعداوة موسى عليه السلام إذ ذاك يجوز أن يقال ذلك أيضاً ويعتبر عموم المجاز وهو المخلص عن الجمع بين الحقيقة والمجاز فيما يدعي فيه ذلك.

وقال الخفاجي: إنه لا يلزم الجمع لأن ﴿عدو﴾ صفة مشبهة دالة على الثبوت الشامل للواقع والمتوقع. ولا يخفى أن هذا قول بأن الثبوت في الصفة المشبهة بمعنى الدوام، وقد قال هو في الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ [الإسراء: ٣٧، لقمان: ١٨]: إن معنى دلالتها على الثبوت أنها لا تدل على تجدد وحدوث لا أنها تدل على الدوام كما ذكره النحاة، فما يقال إن ﴿مرحاً﴾ صفة مشبهة تدل على الثبوت ونفيه لا يقتضي نفي أصله مغالطة نشأت من عدم فهم معنى الثبوت فيها انتهى، على أن كلامه هنا بعد الإغماض عن منافاته لما ذكره قبل لا يخلو عن شيء.

ومما ذكره فيما تقدم من تفسير معنى الثبوت يعلم أن الاستدلال بهذه الآية على أن فرعون لم يقبل إيمانه ومات كافراً كما هو الحق ليس بصحيح وكم له من دليل صحيح. والظاهر أنه تعالى أبهم لها هذا العدو ولم يعلمها باسمه وإلا لما قالت لأخته ﴿قصيه﴾ [القصص: ١١].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مني﴾ كلمة ﴿من﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لموصوف مؤكدة لما في تنكيرها

من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي محبة عظيمة كائنة مني قد زرعتها في القلوب فكل من رآك أحبك بحيث لا يصبر عنك، قال مقاتل: كان في عينيه ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه، وقال ابن عطية: جعلت عليه مسحة جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه، روي أن أمه عليه السلام حين أوحي إليها ما أوحي جعلته في تابوت من خشب، وقيل: من بردى عمله مؤمن آل فرعون وسدت خروقه وفرشت فيه نطعاً، وقيل: قطناً محلوجاً وسدت فمه وجصصته وقيرته وألقته في اليم فبينما فرعون في موضع يشرف على النيل وامرأته معه إذ رأى التابوت عند الساحل فأمر به ففتح فإذا صبي أصبح الناس وجهاً فأحبه هو وامرأته حباً شديداً.

وقيل: إن التابوت جاء في الماء إلى المشرعة التي كانت جواري امرأة فرعون يستقين منها الماء فأخذن التابوت وجئن به إليها وهن يحسبن أن فيه مالاً فلما فتحنه رأته عليه السلام فأحبته وأعلمت فرعون وطلبت منه أن يتخذه ولداً، وقالت: قرة عين لي ولك لا تقتلوه، فقال لها: يكون لك وأما أنا فلا حاجة لي فيه. ومن هنا قال رسول الله ﷺ كما رواه النسائي وجماعة عن ابن عباس: «والذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له كما قالت امرأته لهداه الله تعالى به كما هدى به امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك»، وقيل: إن فرعون كان جالساً على رأس بركة له في بستان ومعه امرأته فرأى التابوت وقد دفعه الماء إلى البركة من نهر يشرع من اليم فأمر بإخراجه فأخرج ففتح فإذا صبي أجمل الناس وجهاً فأحبه حتى لا يكاد يصبر عنه، وروي أنه كان بحضرته حين رأى التابوت أربعمائة غلام وجارية فحين أشار بأخذه وعد من يسبق إلى ذلك بالإعتاق فتسابقوا جميعاً ولم يظفر بأخذه إلا واحد منهم فاعتق الكل، وفي هذا ما يطمع المقصر في العمل من المؤمنين برحمة الله تعالى فإنه سبحانه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، وقيل: كلمة من متعلقة بالقيت فالمحبة الملقاة بحسب الذوق هي محبة الله تعالى له أي أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لا محالة، واعترض القاضي على هذا بأن في الصغر لا يوصف الشخص بمحبة الله تعالى إياه فإنها ترجع إلى إيصال الثواب وهو إنما يكون للمكلف. ورد بأن محبة الله تعالى عند المؤولين عبارة عن إرادة الخير والنفع وهو أعم من أن يكون جزاء على عمل أولاً يكون والرد عند من لا يؤول أظهر، وجوز بعضهم إرادة المعنى الثاني على القول الأول في التعلق وإرادة المعنى الأول على القول الثاني فيه، وزعم أن وجه التخصيص غير ظاهر وهو لا يخفى على ذي ذهن مستقيم وذوق سليم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ متعلق بألقيت على أنه عطف على علة مضمرة أي ليتعطف عليك ولتصنع أو متعلق بفعل مضمر مؤخر أي ولتصنع الخ فعلت ذلك أي إلقاء المحبة عليك، وزعم أنه متعلق بألقيت على أن الواو مقحمة ليس بشيء وعلى عيني أي بمرأى مني متعلق بمحذوف وقع حالاً من المستتر في «تصنع» وهو استعارة تمثيلية للحفظ والصون فإن المصون يجعل بمرأ والصنع الإحسان، قال النحاس: يقال صنعت الفرس إذا أحسنت إليه. والمعنى وليفعل بك الصنيعة والإحسان وتربى بالحنو والشفقة وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به. ويجعل ذلك تمثيلاً يندفع ما قاله الواحدي من أن تفسير ﴿على عيني﴾ بما تقدم صحيح ولكن لا يكون في ذلك تخصيص لموسى عليه السلام فإن جميع الأشياء بمرأى من الله تعالى على أنه قد يقال: هذا الاختصاص للتشريف كاختصاص عيسى عليه السلام بكلمة الله تعالى والكعبة ببيت الله تعالى مع أن الكل موجود بكن وكل البيوت بيت الله سبحانه، وقال قتادة: المعنى لتغذى على محبتي وإرادتي وهو اختيار أبي عبيدة. وابن الأنباري وزعم الواحدي أنه الصحيح. وقرأ الحسن وأبو نهيك ولِتَصْنَعَ» بفتح التاء، قال ثعلب: المعنى لتكون حركتك وتصرفك على عين مني لئلا تخالف أمري.

وقرأ أبو جعفر في رواية «ولِتُصْنَعْ» بكسر اللام وجزم الفعل بها لأنها لام الأمر وأمر المخاطب باللام شاذ لكن لما

كان الفعل مبنياً للمفعول هنا وكان أصله مسنداً للغائب ولا كلام في أمره باللام استصحب ذلك بعد نقله إلى المفعول للاختصار، والظاهر أن العطف على قوله تعالى: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ إلا أن فيه عطف الإنشاء على الخبر وفيه كلام مشهور لكن قيل هنا: إنه هون أمره كون الأمر في معنى الخبر.

وقال صاحب اللوامح: إن العطف على قوله تعالى: ﴿فليلقه﴾ فلا عطف فيه للإنشاء على الخبر.

وقرأ شيبة وأبو جعفر في رواية أخرى كذلك إلا أنه سكن اللام وهي لام الأمر أيضاً وبقية الكلام نحو ما مر. ويحتمل أن تكون لام كي سكنت تخفيفاً ولم يظهر فتح العين للإدغام، قال الخفاجي: وهذا حسن جداً.

﴿إِذْ تَمْشِي اخْتُكَ﴾ ظرف لتصنع كما قال الحوفي وغيره على أن المراد به وقت وقع فيه مشي الأخت وما ترتب عليه من القول والرجع إلى أمها وتربيتها له بالحنو وهو المصداق لقوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾ إذ لا شفقة أعظم من شفقة الأم وصنيعها على موجب مراعاته تعالى. وجوز أن يكون ظرفاً لألقيت وإن يكون بدلاً من ﴿إذ أوحينا﴾ على أن المراد بها وقت متسع فيتحد الظرفان وتصح البدلية ولا يكون من إبدال أحد المتغايرين الذي لا يقع في فصيح الكلام.

ورجح هذا صاحب الكشف فقال: هو الأوفق لمقام الامتنان لما فيه من تعداد المنة على وجه أبلغ ولما في تخصيص الإلقاء أو التربية بزمان مشي الأخت من العدول إلى الظاهر فقبله كان عليه السلام محبوباً محفوظاً، ثم أولى الوجهين جعله ظرفاً ﴿لتصنع﴾، وأما النصب بإضمار اذكر فضعيف اهـ. وأنت تعلم أن الظاهر كونه ظرفاً لتصنع والتقييد بعلى عيني يسقط التربية قبل في غير حجر الأم عن العين.

واعترض أبو حيان وجه البدلية بأن كلاً من الظرفين ضيق ليس بمتسع لتخصيصه بما أضيف إليه وليس ذلك كالسنة في الامتداد وفيه تأمل، واسم أخته عليه السلام مريم، وقيل: كلثوم وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ الفاء فصيحة أي فقالوا: دلينا على ذلك فجاءت بأمك فرجعناك إليها ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك. وقرىء «تَقِرَّ» بكسر القاف. وقرأ جناح بن حبيش «تُقَرَّ» بالبناء للمفعول ﴿وَلاَ تَحْزَنَ﴾ أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فإن التخلية مقدمة على التحلية. وقيل: الضمير المستتر في ﴿تحزن﴾ لموسى عليه السلام أي ولا تحزن أنت بفقد إشفاقها، وهذا وإن لم يأبه النظم الكريم إلا أن حزن الطفل غير ظاهر، وما في سورة القصص يقتضي الأول والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

أخرج جماعة من خبر طويل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن آسية حين أخرجت موسى عليه السلام من التابوت واستوهبته من فرعون فوهبه لها أرسلت إلى من حولها من كل امرأة لها لبن لتختار لها ظئراً فلم يقبل ثدي واحدة منهن حتى أشفقت أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق مجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً يأخذ ثديها فلم يفعل وأصبحت أمه والهة فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً أحياً ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت الذي كان وعدها الله تعالى فبصرت به عن جنب فقالت من الفرح: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا: وما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه؟ وشكوا في ذلك فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه لرغبتهم في رضا الملك والتقرب إليه فتركوها وسألوها الدلالة فانطلقت إلى أمه فأخبرتها

الخبر فجاءت فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رياً وانطلق البشرى إلى امرأة فرعون يبشرونها إنا قد وجدنا لابنك ظئراً فأرسلت إليها فأتيت بها وبه فلما رأت ما يصنع بها قالت لها: امكثي عندي أرضعي ابني هذا فإني لم أحب حبه شيئاً قط قالت: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلت وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي فذكرت أم موسى ما كان الله عز وجل وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون لذلك وأيقنت أن الله عز وجل منجز وعده فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها فأنبته الله تعالى نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأمه: أريني ابني فوعدتها يوماً تزورها به فيه فقالت لخزانها وقهارمتها: لا يبق منكم أحد إلا استقبل ابني بهدية وكرامة أرى ذلك فيه وأنا باعثة أميناً يحصي ما صنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل عليها فلما دخل أكرمته ونحلته وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ثم انطلقت به إلى فرعون لينحله وليكرمه فكان ما تقدم من جذب لحيته، ومن هذا الخبر يعلم أن المراد إذ تمشي أختك في الطريق لطلبك وتحقيق أمرك فتقول: لمن أنت بأيديهم يطلبون لك ظئراً ترضعك هل أدلكم الخ.

وفي رواية أنه لما أخذ من التابوت فشا الخبر بأن آل فرعون وجدوا غلاماً من النيل لا يرتضع ثدي امرأة واضطروا إلى تتبع النساء فخرجت أخته لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا، فالمراد على هذا إذ تمشي أختك إلى بيت فرعون فتقول لفرعون وآسية أو لآسية ﴿هل أدلكم﴾ ألخ.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً﴾ هي نفس القبطي واسمه قانون الذي استغاثه عليه الإسرائيلي واسمه موسى بن ظفر وهو السامري، وكان سنه عليه السلام حين قتل على ما في البحر اثنتي عشرة سنة، وفي الخبر عن الحبرابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه عليه السلام حين قتل القبطي كان من الرجال وكان قتله إياه بالوكز كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ [القصص: ١٥] وكان المراد وقتلت نفساً فأصابك غم ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وهو الغم الناشيء من القتل وقد حصل له من وجهين خوف عقاب الله تعالى حيث لم يقع القتل بأمره سبحانه وخوف اقتصاص فرعون وقد نجاه الله تعالى من ذلك بالمغرة حين قال: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ [القصص: ١٦] وبالمهاجرة إلى مدين، وقيل: هو غم التابوت، وقيل: غم البحر وكلا القولين ليس بشيء، والغم في الأصل ستر الشيء ومنه الغمام لستره ضوء الشمس، ويقال: لما يغم القلب بسبب خوف أو فوات مقصود، وفرق بينه وبين الهم بأنه من أمر ماض والهم من أمر مستقبل، وظاهر كلام كثير عدم الفرق وشمول كل ما يكون من أمر ماض وأمر مستقبل ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ أي ابتليناك ابتلاء على أن ﴿فتونا﴾ مصدر على فعول في المتعدي كالثبور والشكور والكفور، والأكثر في هذا الوزن أن يكون مصدر اللازم أو فتوناً من الابتلاء على أنه جمع فتن كالظنون جمع ظن أو جمع فتنة على ترك الاعتداد بالتاء لأنها في حكم الانفصال كما قالوا في حجوز جمع حجزة[1] وبدور جمع بدرة[2]، ونظم الابتلاء في سلك المنن قيل: باعتبار أن المراد ابتليناك واختبرناك بإيقاعك في المحن وتخليصك منها، وقيل: إن المعنى أوقعناك في المحنة وهو ما يشق على الإنسان،ونظم ذلك في ذلك السلك باعتبار أنه موجب للثواب فيكون من قبيل النعم وليس بشيء، وقيل: إن ﴿فتناك﴾ بمعنى خلصناك من قولهم: فتنت الذهب بالنار إذا خلصته بها من الغش ولا يخفى حسنه، والمراد سواء اعتبر

---

(١) ما يوضع فيه تكة السراويل ونحوها اهـ منه.

(٢) مقدار من النقد معروف اهـ منه.

الفتون مصدراً أو جمعاً خلصناك مرة بعد أخرى وهو ظاهر على اعتبار الجمعية، وأما على اعتبار المصدرية فلاقتضاء السياق ذلك،وهذا إجمال ما ناله عليه السلام في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الآلاف والمشي راجلاً وفقد الزاد.

وقد روى جماعة أن سعيد بن جبير سأل ابن عباس عن الفتون فقال له: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها خبراً طويلاً فلما أصبح غدا عليه فأخذ ابن عباس يذكر ذلك فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بني إسرائيل ثم قصة إلقاء موسى عليه الصلاة والسلام في اليم والتقاط آل فرعون إياه وامتناعه من الارتضاع من الأجانب وإرجاعه إلى أمه ثم قصة أخذه بلحية فرعون وغضب فرعون من ذلك وإرادته قتله ووضع الجمرة والجوهرة بين يديه وأخذه الجمرة، ثم قصة قتله القبطي ثم هربه إلى مدين وصيرورته أجيراً لشعيب عليه السلام ثم عوده إلى مصر وإخطاء الطريق في الليلة المظلمة وتفرق غنمه فيها وكان رضي الله تعالى عنه عند تمام كل واحدة يقول هذه من الفتون يا ابن جبير،ولكن قيل: الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا يعد إجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مدين بقضية الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سنين في أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ إذ لا ريب في أن الإجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول إليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام من فنون الفتون في تضاعيف مدة اللبث وهي فيما قيل عشر سنين، وقال وهب: ثمان وعشرون سنة أقام في عشر منها يرعى غنم شعيب عليه السلام مهراً لابنته وفي ثماني عشرة مع زوجته وولد له فيها وهو الأوفق بكونه عليه السلام نبيء على رأس الأربعين إذا قلنا بأن سنه عليه السلام حين خرج إلى مدين اثنتا عشرة سنة، ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر.

﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ أي إلى المكان الذي ناديتك فيه، وفي كلمة التراخي إيذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتي من ضلال الطريق وتفرق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ أي تقدير والمراد به المقدر أي جئت على وفق الوقت الذي قدرته وعينته لتكليمك واستنبائك بلا تقدم ولا تأخر عنه، وقيل: هو بمعنى المقدار أي جئت على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة.

وضعف بأن المعروف في هذا المعنى القدر بالسكون لا التحريك، وقيل: المراد على موعد وعدناكه وروي ذلك عن مجاهد وهو يقتضي تقدم الوعد على لسان بعض الأنبياء عليهم السلام وهو كما ترى، وقوله تعالى ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ تشريف له عليه السلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولاً، وقوله سبحانه ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لنفسي﴾ تذكير لقوله تعالى ﴿وأنا اخترتك﴾ [طه: ١٣] وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابقة تأكيداً لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة، ونظم ذلك الإمام في سلك المنن المحكية وظاهر توسيط النداء يؤيد ما تقدم، والاصطناع افتعال من الصنع بمعنى الصنيعة وهي الإحسان فمعنى اصطنعه جعله محل صنيعته وإحسانه، وقال القفال: يقال اصطنع فلان فلاناً إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال: هذا صنيع فلان وخريجه، ومعنى ﴿لنفسي﴾ ما روي عن ابن عباس لوحيي ورسالتي، وقيل: لمحبتي،وعبر عنها بالنفس لأنها أخص شيء بها، وقال الزجاج: المراد اخترتك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في التبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتجبت عليهم، وقال غير واحد من المحققين: هذا تمثيل لما خوله عز وجل من جعله نبياً مكرماً كليماً منعماً عليه بجلائل النعم بتقريب الملك من يراه أهلاً لأن يقرب فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويجعله من خواص نفسه وندمائه. ولا يخفى حسن هذه الاستعارة وهي أوفق بكلامه تعالى وقوله تعالى ﴿لنفسي﴾ عليها ظاهر.

وحاصل المعنى جعلتك من خواصي واصطفيتك برسالتي وبكلامي، وفي العدول عن نون العظمة الواقعة في قوله سبحانه ﴿وفتناك﴾ ونظيريه السابقين تمهيد لإفراد النفس اللائق بالمقام فإنه أدخل في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص، وقوله تعالى ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بآيَاتـي﴾ استئناف مسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع، ﴿وأخوك﴾ فاعل بفعل مضمر أي وليذهب أخوك حسبما استدعيت، وقيل: معطوف على الضمير المستتر المؤكد بالضمير البارز، ورب شيء يصح تبعاً ولا يصح استقلالاً.

والآيات المعجزات، والمراد بها في قول اليد والعصا وحل العقدة، وعن ابن عباس الآيات التسع، وقيل: الأولان فقط وإطلاق الجمع على الاثنين شائع؛ ويؤيد ذلك أن فرعون لما قال له عليه السلام: فات بآية ألقى العصا ونزع اليد، وقال: ﴿فذانك برهانان﴾ [القصص: ٣٢] وقال بعضهم: إنهما وإن كانتا اثنتين لكن في كل منهما آيات شتى كما في قوله تعالى: ﴿آيات بينات مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: ٩٧] فإن انقلاب العصا حيواناً آية. وكونها ثعباناً عظيماً لا يقادر قدره آية أخرى. وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى. وكونه مع ذلك مسخراً له عليه السلام بحيث يده في فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا كما كانت آية أخرى وكذلك اليد البيضاء فإن بياضها في نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية أخرى. وقيل: المراد بها ما أعطى عليه السلام من معجزة ووحي، والذي يميل إليه القلب أنها العصا واليد لما سمعت من المؤيد مع ما تقدم من أنه تعالى بعد ما أمره بإلقاء العصا وأخذها بعد انقلابها حية قال سبحانه: ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى﴾ [طه: ٢٢] ثم قال سبحانه: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: ٢٤] من غير تنصيص على غير تلك الآيتين ولا تعرض لوصف حل العقدة ولا غيره بكونه آية، ثم إن الباء للمصاحبة لا للتعدية إذ المراد ذهابهما إلى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها في إجراء أحكام الرسالة وإكمال الدعوة لا مجرد إذهابها وإيصالها إليه وهذا ظاهر في تحقق الآيات إذ ذاك وأكثر التسع لم يتحقق بعد.

﴿وَلاَ تَنيَا﴾ من الوني بمعنى الفتور وهو فعل لازم وإذا عدي عدي بفي وبعن، وزعم بعض البغداديين أنه فعل ناقص من أخوات زال وبمعناها واختاره ابن مالك، وفي الصحاح فلان لايني يفعل كذا أي لا يزال يفعل كذا وكان هذا المعنى مأخوذ من نفي الفتور، وقرأ ابن وثاب «ولا تِنيا» بكسر التاء اتباعاً لحركة النون. وفي مصحف عبد الله «لا تهنا» وحاصله أيضاً لا تفترا ﴿في ذكري﴾ بما يليق بي من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتي والدعاء إلى عبادتي، وقيل: المعنى لا تنيا في تبليغ رسالتي فإن الذكر يقع مجازاً على جميع العبادات وهو من أجلها وأعظمها. وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقيل: لا تنسياني حيثما تقلبتما واستمدا به العون والتأييد واعلما أن أمراً من الأمور لا يتأتى ولا يتسنى إلا بذكري.

وجمع هارون مع موسى عليه السلام في صيغة نهي الحاضر بناء على القول بغيبته إذ ذاك للتغليب ولا بعد في ذلك كما لا يخفى، وكذا جمعه في صيغة أمر الحاضر بناء على ذلك أيضاً في قوله تعالى ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ وروي أنه أوحي إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام، وقيل: ألهم ذلك، وقيل: سمع بإقباله فتلقاه، ويحتمل أنه ذهب إلى الطور واجتمعا هناك فخوطبا معاً، ويحتمل أن هذا الأمر بعد إقبال موسى عليه السلام من الطور إلى مصر واجتماعه بهارون عليه السلام مقبلاً إليه من مصر، وفرق بعضهم بين هذا، وقوله تعالى ﴿اذهب أنت وأخوك﴾ بأنه لم يبين هناك من يذهب إليه وبين هنا، وبعض آخر بأنه أمراً هنا بالذهاب إلى فرعون وكان الأمر هناك بالذهاب إلى عموم أهل الدعوة، وبعض آخر بأنه لم يخاطب هارون هناك وخوطب هنا، وبعض آخر بأن الأمر هناك

بذهاب كل منهما على الانفراد نصاً أو احتمالاً والأمر هنا بالذهاب على الاجتماع نصاً، ولا يخفى ما في بعض هذه الفروق من النظر، والفرق ظاهر بين هذا الأمر والأمر في قوله تعالى أولاً خطاباً لموسى عليه السلام ﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾ ﴿**فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً**﴾ قرأ أبو معاذ ﴿**ليناً**﴾ بالتخفيف، والفاء لترتيب ما بعدها على طغيانه فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين قسوة الطغاة، ويعلم من ذلك أن الأمر بإلانة القول ليس لحق التربية كما قيل، والمعنى كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لاتعنفاه في قولكما وارفقا به في الدعاء ويتحقق ذلك بعبارات شتى منها ما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً وهو ﴿**إنا رسولا ربك**﴾ الخ ومنها ما في النازعات وهو ﴿هل لك أن تزكي وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [النازعات: ٨، ١٩] وهذا ظاهر غاية الظهر وفي الرفق في الدعاء فإنه في صورة العرض والمشورة، وقيل: كنياه،واستدل به على جواز تكنية الكافر، وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً وسفيان الثوري، وله كنى أربع أبو الوليد وأبو مصعب وأبو العباس وأبو مرة، وقيل: عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وعن الحسن قولاً له: إن لك رباً وإن لك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً فآمن بالله تعالى يدخلك الجنة ويقك عذاب النار، وقيل: أمرهما سبحانه بأن يقدما له الوعد على الوعيد من غير تعيين قول كما قيل:

أقـدم بـالـوعـد قـبـل الـوعـيـد ... لـينهـى الـقـبـائـل جـهـالـهـا

وروي عن عكرمة أن القول اللين لا إله إلا الله ولينه خفته على اللسان، وهذا أبعد الأقوال وأقربها الأول، وكان الفضل بن عيسى الرقاشي إذا تلا هذه الآية قال: يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؛ وقرأت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال: إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الله؟ وفيها دليل على استحباب إلانة القول للظالم عند وعظه ﴿**لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ**﴾ ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق فيدعوه ذلك إلى الإيمان ﴿**أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة وذلك يدعوه إلى الإيمان أيضاً إلا أن الأول للراسخين ولذا قدم، وقيل: يتذكر حاله حين احتبس النيل فسار إلى شاطئه وأبعد وخر لله تعالى ساجداً راغباً أن لا يخجله ثم ركب فأخذ النيل يتبع حافر فرسه فيستدل بذلك على عظيم حلم الله تعالى وكرمه أو يخشى ويحذر من بطش الله تعالى وعذابه سبحانه، والمعول على ما تقدم.

ولعل للترجي وهو راجع للمخاطبين، والجملة محل النصب حال من ضمير هما في ﴿**قولا**﴾ أي فقولا له قولاً ليناً راجيين أن يتذكر أو يخشى، وكلمة أو لمنع الخلو.

وحاصل الكلام باشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوعه ويحتشد بأقصى وسعه، وقيل: حال من ضميرهما في ﴿**اذهبا**﴾ والأول أولى، وقيل: لعل هنا للاستفهام أي هل يتذكر أو يخشى. وأخرج ذلك ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قيل: وهو القول اللين، وأخرج ذلك مخرج قولك: قل لزيد هل يقوم.

وقال الفراء: هي هنا بمعنى كي التعليلية وهي أحد معانيها كما ذهب إليه جماعة منهم الأخفش. والكسائي بل حكى البغوي عن الواقدي أن جميع ما في القرآن من لعل فإنها للتعليل إلا قوله تعالى «لعلكم تخلدون» فإنها للتشبيه كما في صحيح البخاري وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك قال: لعل في القرآن بمعنى كي غير آية في [الشعراء: ١٢٩] ﴿لعلكم تخلدون﴾ فإن المعنى كأنكم تخلدون، وأخرج عن قتادة أنه قال: قرىء كذلك، ولا يخفى أن كونها للتشبيه غريب لم يذكره النحاة، وحملها على الاستفهام هنا بعيد، ولعل التعليل أسبق إلى كثير من

الأذهان من الترجي لكن الصحيح كما في البحر أنها للترجي وهو المشهور من معانيها، وقيل: إن الترجي مجاز عن مطلق الطلب وهو راجع إليه عز وجل، والذي لا يصح منه سبحانه هو الترجي حقيقة، والمحققون على الأول، والفائدة في إرسالهما عليهما السلام إليه مع العلم بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة.

وزعم الإمام أنه لا يعلم سر الإرسال إليه مع علمه تعالى بامتناع حصول الإيمان منه إلا الله عز وجل ولا سبيل في أمثال هذا المقام لغير التسليم وترك الاعتراض.

واستدل بعض المتبعين لمن قال بنجاة فرعون بهذه الآية فقال: إن لعل كذا من الله تعالى واجب الوقوع فتدل الآية على أن أحد الأمرين التذكر والخشية واقع وهو مدار النجاة، وقد تقدم لك ما يعلم منه فساد هذا الاستدلال، ولا حاجة بنا إلى ما قيل من أنه تذكر وخشي لكن حيث لم ينفعه ذلك وهو حين الغرق بل لا يصح حمل التذكر والخشية هنا على ما يشمل التذكر والخشية اللذين زعم القائل حصولهما لفرعون فتذكر.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾

﴿قالا﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قالا حين أمرا بما أمرا؟ فقيل ﴿قالا﴾ الخ، وأسند القول إليهما مع أن القائل هو موسى عليه السلام على القول بغيبة هارون عليه السلام للتغليب كما مر.

ويجوز أن يكون هارون عليه الاسلام قد قال ذلك بعد اجتماعه مع موسى عليه ا لسلام فحكى قوله مع قول موسى عند نزول الآية كما في قوله تعالى ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ [المؤمنون: ٥١] فإن هذا الخطاب قد حكي لنا بصيغة الجمع مع أن كلاً من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد، وجوز كونهما مجتمعين عند الطور وقالا جميعاً ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي أن يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة من فرط إذا تقدم، ومنه الفارط المتقدم المورد والمنزل، وفرس فارط يسبق الخيل، وفاعل ﴿يفرط﴾ على هذا فرعون، وقال أبو البقاء: يجوز أن يكون التقدير أن يفرط علينا منه قول فأضمر القول كما تقول فرط مني قول وهو خلاف الظاهر.

وقرأ يحيى وأبو نوفل وابن محيصن في رواية «يُفْرَطَ» بضم الياء وفتح الراء من أفرطته إذا حملته على العجلة أي

نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب. وقرأت فرقة والزعفراني عن ابن محيصن «يُفْرِطَ» بضم الياء وكسر الراء من الإفراط في الأذية. واستشكل هذا القول مع قوله تعالى: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما﴾ [القصص: ٣٥] فإنه مذكور قبل قولهما هذا بدلالة «سنشد» وقد دل على أنهما محفوظان من عقوبته وأذاه فكيف يخافان من ذلك. وأجيب: بأنه لا يتعين أن يكون المعنى لا يصلون بالعقوبة لجواز أن يراد لا يصلون إلى إلزامكما بالحجة مع أن التقدم غير معلوم ولو قدم في الحكاية لا سيما والواو لا تدل على ترتيب، والتفسير المذكور مأثور عن كثير من السلف منهم ابن عباس ومجاهد وهو الذي يقتضيه الظاهر، وزعم الإمام أنهما قد أمنا وقوع ما يقطعهما عن الإداء بالدليل العقلي إلا أنهما طلبا بما ذكر ما يزيد في ثبات قلوبهما بأن ينضاف الدليل النقلي إلى الدليل العقلي وذلك نظير ما وقع لإبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿ربي أرني كيف تحيي الموتى﴾ [البقرة: ٢٦٠] ولا يخفى أن في دعوى علمهما بالدليل العقلي عدم وقوع ما يقطعهما عن الأداء عبثاً. واستشكل أيضاً حصول الخوف لموسى عليه السلام بأنه يمنع عن حصول شرح الصدر له الدال على تحققه قوله تعالى بعد سؤاله إياه ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [طه: ٣٦]. وأجاب الإمام بأن شرح الصدر عبارة عن قوته على ضبط تلك الأوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق إليها السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير زوال الخوف. وأنت تعلم أن كثيراً من المفسرين ذهبوا إلى أن شرح الصدر هنا عبارة عن توسيعه وهو عبارة عن عدم الضجر والقلق القلبي مما يرد من المشاق في طريق التبليغ وتلقي ذلك بجميل الصبر وحسن الثبات.

وأجيب على هذا بأنه لا منافاة بين الخوف من شيء والصبر عليه وعدم الضجر منه إذا وقع ألا ترى كثيراً من الكاملين يخافون من البلاء ويسألون الله تعالى الحفظ منه وإذا نزل بهم استقبلوه بصدر واسع وصبروا عليه ولم يضجروا منه. وقيل: إنهما عليهما السلام لم يخافا من العقوبة إلا لقطعها الإداء المرجو به الهداية فخوفهما في الحقيقة ليس إلا من القطع وعدم إتمام التبليغ ولم يسأل موسى عليه السلام شرح الصدر لتحمل ذلك. واستشكل بأن موسى عليه السلام كان قد سأل وأوتي تيسير أمره بتوفيق الأسباب ورفع الموانع فكيف يخاف قطع الأداء بالعقوبة. وأجيب: بأن هذا تنصيص على طلب رفع المانع الخاص بعد طلب رفع المانع العام وطلب للتنصيص على رفعه لمزيد الاهتمام بذلك. وقيل: إن في الآية تغليباً منه لأخيه هارون على نفسه عليهما السلام ولم يتقدم ما يدل على أمنه عليه فتأمل، واستشكل أيضاً عدم الذهاب والتعلل بالخوف مع تكرر الأمر بأنه يدل على المعصية وهي غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام على الصحيح.

وأجاب الإمام بأن الدلالة مسلمة لو دل الأمر على الفور وليس فليس، ثم قال: وهذا من أقوى الدلائل على أن الأمر لا يقتضي الفور إذا ضممت إليه ما يدل على أن المعصية غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام، و﴿أو﴾ في قوله تعالى ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ لمنع الخلو، والمراد أو أن يزداد طغياناً إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب، وفيه استنزال لرحمته تعالى وإظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والإشعار بتحقق الخوف من كل من المتعاطفين.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مر، ولعل إسناد الفعل إلى ضمير الغيبة كما قيل للإشعار بانتقال الكلام من مساق إلى مساق آخر فإن ما قبله من الأفعال الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتي إن شاء الله تعالى ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ [طه: ٦٨] فإن ما قبله أيضاً وارد بطريق الحكاية لرسول الله ﷺ كأنه قيل: فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه سبحانه؟ فقيل: قال أي لهما ﴿لَا تَخَافَا﴾ مما ذكرتما.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ تعليل لموجب النهي ومزيد تسلية لهما، والمراد بمعيته سبحانه كمال الحفظ والنصرة كما يقال: الله تعالى معك على سبيل الدعاء وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وهو بتقدير المفعول أي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فافعل في كل حال ما يليق بها من دفع شر وجلب خير.

وقال القفال: يحتمل أن يكون هذا في مقابلة القول السابق ويكونان قد عنيا أننا نخاف أن يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بأن يقتلنا فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿إنني معكما أسمع﴾ أي كلامكما فاسخره للاستماع ﴿وأرى﴾ أفعاله فلا أتركه يفعل بكما ما تكرهانه فقدر المفعول أيضاً لكنه كما ترى، وقال الزمخشري: جائز أن لا يقدر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ، وهو يدل على أنه لا نظر إلى المفعول وقد نزل الفعل المتعدي منزلة اللازم لأنه أريد تتميم ما يستقل به الحفظ والنصرة وليس من باب قول المتنبي:

شجو حساده وغيظ عداه ... أن يرى مبصر ويسمع واع

على ما زعم الطيبي، واستدل بالآية على أن السمع والبصر صفتان زائدتان على العلم بناء على أن قوله تعالى ﴿إنني معكما ﴾دال على العلم ولو دل ﴿اسمع وأرى﴾ عليه لزم التكرار وهو خلاف الاصل.

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أمر باتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعدما أمرا بالذهاب إليه فلا تكرار وهو عطف على ﴿لا تخافا﴾ باعتبار تعليله بما بعده ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أمرا بذلك تحقيقاً للحق من أول الأمر ليعرف الطاغية شأنهما ويبني جوابه عليه، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره من اللطف ما لا يخفى وإن رأى اللعين أن في ذلك تحقيراً له حيث إنه يدعي الربوبية لنفسه ولا يعد ذلك من الإغلاظ في القول، وكذا قوله تعالى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى آخره خلافاً للإمام، والفاء في ﴿فأرسل﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن كونهما عليهما السلام رسولي ربه تعالى مما يوجب إرسالهم معهما والمراد بالإرسال إطلاقهم من الأسر وإخراجهم من تحت يده العادية لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام كما ينبيء عنه قوله سبحانه ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فإنهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم في الأعمال الشاقة كالحفر والبناء ونقل الأحجار وكانوا يقتلون أبناءهم عاماً دون عام ويستخدمون نساءهم ولعلهما إنما بدأ بطلب إرسال بني إسرائيل دون دعوة الطاغية وقومه إلى الإيمان للتدريج في الدعوة فإن إطلاق الأسرى دون تبديل الاعتقاد، وقيل: لأن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان. وهذا بعد تسليمه مبني على أن بني إسرائيل كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام في الباطن أو كانوا مؤمنين بغيره من الأنبياء عليهم السلام ولا بد لذلك من دليل، وقيل: إنما بدأ بطلب إرسالهم لما فيه من إزالة المانع عن دعوتهم واتباعهم وهي أهم من دعوة القبط.

وتعقب بأن السياق هنا لدعوة فرعون ودفع طغيانه فهي الأهم دون دعوة بني إسرائيل، وقيل: إنه أول ما طلبا منه الإيمان كما ينبيء عن ذلك آية النازعات إلا أنه لم يصرح به هنا اكتفاء بما هناك كما أنه لم يصرح هناك بهذا الطلب اكتفاء بما هنا، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ استئناف بياني وفيه تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الإرسال فإن مجيئهما بآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثال بأمرهما، وإظهار اسم الرب في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل، وجيء بقد للتحقيق والتأكيد أيضاً، وتكلف لإفادتها التوقع وتوحيد الآية مع تعددها لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها

لا بيان تعدد الحجة فكأنه قيل: قد جئناك بما يثبت مدعانا، وقيل: المراد بالآية اليد، وقيل: العصا والقولان كما ترى.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أي السلامة من العذاب في الدارين لمن اتبع ذلك بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحق، فالسلام مصدر بمعنى السلامة كالرضاع والرضاعة، وعلى بمعنى اللام كما ورد عكسه في قوله تعالى ﴿لهم اللعنة﴾ [الرعد: ٢٥] وحروف الجر كثيراً ما تتقارض، وقد حسن ذلك هنا المشاكلة حيث جيء بعلى في قوله تعالى ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ من جهة ربنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بآياته عز وجل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن قبولها، وقال الزمخشري: أي وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين. وتحقيقه على ما قيل إنه جعل السلام تحية خزنة الجنة للمهتدين المتضمنة لوعدهم بالجنة. وفيه تعريض لغيرهم بتوبيخ خزنة النار المتضمن لوعيدهم بعذابها لأن المقام للترغيب فيما هو حسن العاقبة وهو تصديق الرسل عليهم السلام والتنفير عن خلافه فلو جعل السلام بمعنى السلامة لم يفد أن ذلك في العاقبة. فما قيل: إنه لا إشعار في اللفظ بهذا التخصيص غير مسلم، والقول بأنه ليس بتحية حيث لم يكن في ابتداء اللقاء يرده أنه لم يجعل تحية الأخوين عليهما السلام بل تحية الملائكة عليهم السلام، وأنت تعلم أن هذا التفسير خلاف الظاهر جداً وإنكار ذلك مكابرة.

وفي البحر هو تفسير غريب وأنه إذا أريد من العذاب العذاب في الدارين، ومن السلام السلامة من ذلك العذاب حصل الترغيب في التصديق والتنفير عن خلافه على أتم وجه، وقال أبو حيان: الظاهر أن قوله تعالى ﴿والسلام﴾ الخ فصل للكلام والسلام فيه بمعنى التحية، وجاء ذلك على ما هو العادة من التسليم عند الفراغ من القول إلا أنهما عليهما السلام رغبا بذلك عن فرعون وخصا به متبعي الهدى ترغيباً له بالانتظام في سلكهم، واستدل به على منع السلام على الكفار وإذا احتيج إليه في خطاب أو كتاب جيء بهذه الصيغة.

وفي الصحيحين «أن رسول الله ﷺ كتب إلى هرقل من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى»، وأخرج عبد الرزاق في المصنف. والبيهقي في الشعب عن قتادة قال: التسليم على أهل الكتاب إذا دخلت عليهم بيوتهم أن تقول: السلام على من اتبع الهدى، ولا يخفى أن الاستظهار المذكور غير بعيد لو كان كلامهما عليهما السلام قد انقطع بهذا السلام لكنه لم ينقطع به بل قالا بعده ﴿إنا قد أوحي إلينا﴾ الخ، وكأن هذه الجملة على جميع التفاسير استئناف للتعليل، وقد يستدل به على صحة القول بالمفهوم فتأمل، والظاهر أن كلتا الجملتين من جملة المقول الملقن.

وزعم بعضهم أن المقول الملقن قد تم عند قوله تعالى ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ وما بعد كلام من قبلهما عليهما السلام أتيا به للوعد والوعيد. واستدل المرجئة بقوله سبحانه ﴿إنا قد أوحى﴾ الخ على أن غير الكفرة لا يعذبون أصلاً. وأجيب بأنه إنما يتم إذا كان تعريف العذاب للجنس أو الاستغراق، أما إذا كان للعهد أي العذاب الناشيء عن شدة الغضب أو الدائم مثلاً فلا، وكذا إذا أريد الجنس أو الاستغراق الادعائي مبالغة وجعل العذاب المتناهي الذي يعقبه السلامة الغير المتناهية كلا عذاب لم يلزم أن لا يعذب المؤمن المقصر في العمل أصلاً.

﴿قَالَ﴾ أي فرعون بعد ما أتياه وبلغاه ما أمرا به، وإنما طوى ذكر ذلك للإيجاز والإشعار بأنهما كما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به من غير ريث وبأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به، وجاء عن ابن عباس أنهما لما أمرا بإتيانه وقول ما ذكر له جاءا جميعاً إلى بابه فأقاما حيناً لا يؤذن لهما ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فدخلا وكان ما قص الله تعالى.

وأخرج أحمد وغيره عن وهب بن منبه أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بما أمر أقبل إلى فرعون في مدينة قد جعل حولها الأسد في غيضة قد غرسها والأسد فيها مع ساستها إذا أشلتها على أحد أكل وللمدينة أربعة أبواب في الغيضة فأقبل موسى عليه السلام من الطريق الأعظم الذي يراه فرعون فلما رأته الأسد صاحت صياح الثعالب فأنكر ذلك الساسة وفرقوا من فرعون فأقبل حتى انتهى إلى الباب فقرعه بعصاه وعليه جبة صوف وسراويل فلما رآه البواب عجب من جرأته فتركه ولم يأذن له فقال: هل تدري باب من أنت تضرب إنما أنت تضرب باب سيدك؟ قال: أنت وأنا وفرعون عبيد لربي فأنا ناصره فأخبر البواب الذي يليه من البوابين حتى بلغ ذلك أدناهم ودونه سبعون حاجباً كل حاجب منهم تحت يده من الجنود ما شاء الله تعالى حتى خلص الخبر إلى فرعون فقال: أدخلوه علي فلما أتاه قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم قال: ألم نربك فينا وليداً فرد إليه موسى عليه السلام الذي رد قال فرعون. خذوه فبادر عليه السلام فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت فقال: يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه قال موسى: لم أومر بذلك إنما أمرت بمناجزتك وإن أنت لم تخرج إلي دخلت عليك فأوحى الله تعالى إليه أن اجعل بينك وبينه أجلاً وقل له أنت اجعل ذلك فقال فرعون: اجعله إلى أربعين يوماً ففعل وكان لا يأتي الخلاء إلا في كل أربعين يوماً مرة فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة وخرج موسى عليه السلام من المدينة فلما مر بالأسد خضعت له بأذنابها وسارت معه تشيعه ولا تهيجه ولا أحداً من بني إسرائيل، والظاهر أن هارون كان معه حين الإتيان، ولعله إنما لم يذكر في هذا الخبر اكتفاء بموسى عليه السلام، وقيل: إنهما حين عرضا عليهما السلام على فرعون ما عرضا شاور آسية فقالت: ما ينبغي لأحد أن يرد ما دعيا إليه فشاور هامان وكان لا يبت أمراً دون رأيه فقال له: كنت أعتقد أنك ذو عقل تكون مالكاً فتصير مملوكاً وربا فتصير مربوباً فامتنع من قبول ما عرض عليه موسى عليه السلام، وظاهر هذا أن المشاورة قبل المقاولة، ويحتمل أنها بعدها والأولى في أمثال هذه القصص الاكتفاء بما في المنزل وعدم الالتفات إلى غيره إلا أن يوثق بصحته أو لا يكون في المنزل ما يعكر عليه كالخبر السابق فإن كون فرعون جعل الأجل يعكر عليه ما سيأتي إن شاء الله تعالى من قول موسى عليه السلام حين طلب منه فرعون أن يجعل موعداً موعدكم يوم الزينة، والظاهر عدم تعدد الحادثة والجملة استئناف بياني كأنه قيل فماذا قال حين أتياه وقالا له ما قالا؟ فقيل: قال ﴿**فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ**﴾ لم يضف الرب إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى ﴿**إنا رسولا ربك**﴾ وقوله سبحانه ﴿**قد جئناك بآية من ربك**﴾ لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل إضافة إليهما لما أن المرسل لا بد أن يكون رباً للرسول، وقيل: لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا: إنا رسول رب العالمين كما وقع في سورة الشعراء والاقتصار ها هنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود، والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولي ربهما أي إذا كنتما رسولي ربكما الذي أرسلكما فأخبرا من ربكما الذي أرسلكما، وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما لما ظهر له من أنه الأصل في الرسالة وهارون وزيره، ويحتمل أن يكون للتعريض بأنه ربه كما قال: ألم نربك فينا وليداً، قيل: وهذا أوفق بتلبيسه على الأسلوب الأحمق، وقيل: لأنه قد عرف أن له عليه السلام رتة فأراد أن يسكته. وهو مبني على ما عليه كثير من المفسرين من بقاء رتة في لسانه عليه السلام في الجملة وقد تقدم الكلام في ذلك.

﴿**قَالَ**﴾ أي موسى عليه السلام واستبد بالجواب من حيث إنه خص بالسؤال ﴿**رَبُّنَا**﴾ مبتدأ وقوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**﴾ خبره، وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف أي هو ربنا والموصول صفته، والظاهر أنه عليه السلام أراد بضمير المتكلم نفسه وأخاه عليهما السلام.

وقال بعض المحققين: أراد جميع المخلوقات تحقيقاً للحق ورداً على اللعين كما يفصح عنه ما في حيز الصلة

و﴿كل شيء﴾ مفعول أول لأعطى و﴿خلقه﴾ مفعوله الثاني وهو مصدر بمعنى اسم المفعول والضمير المجرور لشيء والعموم المستفاد من ﴿كل﴾ يعتبر بعد إرجاعه إليه لئلا يرد الاعتراض المشهور في مثل هذا التركيب، والظاهر أنه عموم الأفراد أي أعطى كل شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكل والمنفعة والمضرة وغير ذلك أو الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الأبصار والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، وقيل: الخلق باق على مصدريته بمعنى الإيجاد أي أعطى كل شيء الإيجاد الذي استعد له أو اللائق به بمعنى أنه تعالى أوجد كل شيء حسب استعداده أو على الوجه اللائق به وهو كما ترى.

وحمل بعضهم العموم على عموم الأنواع دون عموم الأفراد، وقيل: إن ذلك لئلا يلزم الخلف ويرد النقض بأن بعض الأفراد لم يكمل لعارض يعرض له، والحق أن الله تعالى راعي الحكمة فيما خلق وأمر تفضلاً ورحمة لا وجوباً وهذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة كما نقل صاحب المواقف وعيون الجواهر فكل شيء كامل في مرتبته حسن في حد ذاته فقد قال تعالى العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء ﴿خلقه﴾ وجعل العموم في هذا عموم الأنواع مما لا يكاد يقول به أحد، وقال سبحانه: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ [الملك: ٣] أي من حيث إضافته إلى الرحمن وخلقه إياه على طبق الحكمة بمقتضى الجود والرحمة، والتفاوت بين الأشياء إنما هو إذا أضيف بعضها إلى بعض فالعدول عما هو الظاهر من عموم الأفراد إلى عموم الأنواع لما ذكر ناشىء من قلة التحقيق، وقيل: إن سبب العدول كون ﴿أعطى﴾ حقيقة في الماضي فلو حمل كل شيء على عموم الأفراد يلزم أن يكون جميعها قد وجد وأعطى مع أن منها بل أكثرها لم يوجد ولم يعط بعد بخلاف ما إذا حمل على عموم الأنواع فإنه لا محذور فيه إذ الأنواع جميعها قد وجد ولا يتجدد بعد ذلك نوع وإن كان ذلك ممكناً وفيه بحث ظاهر فليفهم.

وروي عن ابن عباس وابن جبير والسدي أن المعنى أعطى كل حيوان ذكر نظيره في الخلق والصورة أنثى وكأنهم جعلوا كلا للتكثير وإلا فالعموم مطلقاً باطل كما لا يخفى، وعندي أن هذا المعنى من فروع المعنى السابق الذي ذكرناه، ولعل مراد من قاله التمثيل وإلا فهو بعيد جداً ولا يكاد يقوله من نسب إليه.

وقيل: ﴿خلقه﴾ هو المفعول الأول والمصدر بمعنى اسم المفعول أيضاً، والضمير المجرور للموصول و﴿كل شيء﴾ هو المفعول الثاني والمعنى أعطى مخلوقاته سبحانه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، وقدم المفعول الثاني للاهتمام به من حيث إن المقصود الامتنان به ونسب هذا القول إلى الجبائي، والأول أظهر لفظاً ومعنى.

وقرأ عبد الله. وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ وأبو نهيك وابن أبي إسحق والأعمش والحسن ونصير عن الكسائي وابن نوح عن قتيبة وسلام «خَلَقَهُ» على صيغة الماضي المعلوم على أن الجملة صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ، وحذف المفعول الثاني اختصاراً لدلالة قرينة الحال عليه أي أعطى كل شيء خلقه تعالى ما يصلحه أو ما يحتاج إليه وجعل ذلك الزمخشري من باب يعطي ويمنع أي كل شيء خلقه سبحانه لم يخله من عطائه وإنعامه، ورجحه في الكشف بأنه أبلغ وأظهر، وقيل: الأول أحسن صناعة وموافقة للمقام وهو عندي أوفق بالمعنى الأول للقراءة الأولى وفيما ذكره في الكشف تردد.

﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي أرشد ودل سبحانه بذلك على وجوده فإن من نظر في هذه المحدثات وما تضمنته من دقائق الحكمة علم أن لها صانعاً واجب الوجود عظيم العطاء والجود، ومحصل الآية ربنا الذي خلق كل شيء حسب استعداده أو على الوجه اللائق به وجعله دليلاً عليه جل جلاله، وهذا الجعل وإن كان متأخراً بالذات عن الخلق وليس بينهما تراخ في الزمان أصلاً لكنه جيء بكلمة ثم للتراخي بحسب الرتبة كما لا يخفى وجهه على المتأمل، وفي إرشاد

العقل السليم ﴿ثم هدى﴾ إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله إما اختيار كما في الحيوانات أو طبعاً كما في الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية.

ولما كان الخلق الذي هو تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدماً على الهداية التي هي عبارة عن إبداع القوى المحركة والمدركة في تلك الأجساد وسط بينهما كلمة التراخي انتهى، ولا يخفى عليك أن الخلق لغة أعم مما ذكره وأن القوى المحركة والمدركة داخلة في عموم ﴿كل شيء﴾ سواء كان عموم الأفراد أو عموم الأنواع وأنه لا بد من ارتكاب نوع من المجاز في ﴿هدى﴾ على تفسيره، وقيل: على التفسير المروي عن ابن عباس ومن معه ثم هداه إلى الاجتماع بإلفه والمناكحة، وقيل غير ذلك، ولله تعالى در هذا الجواب ما أخضره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالباً للحق، ومن هنا قيل: كان من الظاهر أن يقول عليه السلام: ربنا رب العالمين لكن سلك طريق الإرشاد والأسلوب الحكيم وأشار إلى حدوث الموجودات بأسرها واحتياجها إليه سبحانه واختلاف مراتبها وأنه تعالى هو القادر الحكيم الغني المنعم على الإطلاق.

واستدل بالآية على أن فرعون كان عارفاً بالله تعالى إلا أنه كان معانداً لأن جملة الصلة لا بد أن تكون معلومة ومتى كانت هذه الجملة معلومة له كان عارفاً به سبحانه، وهذا مذهب البعض فيه عليه اللعنة، واستدلوا له أيضاً بقوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلاّ رب السموات والأرض﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ [النمل: ١٤] وقوله تعالى في سورة [القصص: ٣٩] ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ فإنه ليس فيه إلا إنكار المعاد دون المبدأ وقوله تعالى في الشعراء: ﴿وما رب العالمين﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٧] إلى قوله سبحانه ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ فإنه عنى به أني أطلب منه شرح الماهية وهو يشرح الوجود فدل على أنه معترف بأصل الوجود وبأن ملكه لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ألا ترى أن موسى عليه السلام لما هرب إلى مدين قال له شعيب: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ [القصص: ٢٥] فكيف يعتقد أنه إله العالم وبأنه كان عاقلاً ضرورة أنه كان مكلفاً وكل عاقل يعلم بالضرورة أنه وجد بعد العدم، ومن كان كذلك افتقر إلى مدبر فيكون قائلاً بالمدبر وبأنه سأل ها هنا بمن طالباً للكيفية، وفي الشعراء بما طالباً للماهية.

والظاهر أن السؤال بمن سابق فكأن موسى عليه السلام لما أقام الدلالة على الوجود ترك المنازعة معه في هذا المقام لعلمه بظهوره وشرع في مقام أصعب لأن العلم بماهيته تعالى غير حاصلة للبشر. ولا يخفى ما في هذه الأدلة من القيل والقال، ومن الناس من قال: إنه كان جاهلاً بالله تعالى بعد اتفاقهم على أن العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه أنه خالق السموات والأرض وما فيهما واختلفوا في كيفية جهله فيحتمل أنه كان دهرياً نافياً للصانع أصلاً ولعله كان يقول بعدم احتياج الممكن في وجوده إلى مؤثر وإن وجود العالم اتفاقي كما نقل عن ديمقراطيس وأتباعه، ويحتمل أنه كان فلسفياً قائلاً بالعلة الموجبة، ويحتمل أنه كان من عبدة الكواكب. ويحتمل أنه كان من عبدة الأصنام، ويحتمل أنه كان من الحلولية المجسمة وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنه يجب على من تحت يده طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره، واستدل بشروعه في المناظرة وطلب الحجة دون السفاهة والشغب مع كونه جباراً شديد البطش على أن الشغب والسفاهة مع من يدعو إلى الحق في غاية القبح فلا ينبغي لمن يدعي الإسلام والعلم أن يرتضي لنفسه ما لم يرتضه فرعون لنفسه. وباشتغال موسى عليه السلام بإقامة الدليل على المطلوب على فساد التقليد في أمثال هذا المطلب وفساد قول القائل: إن معرفة الله تعالى تستفاد من قول الرسول، وبحكاية كلام فرعون وجواب موسى عليه السلام على أنه يجوز حكاية كلام المبطل مقروناً بالجواب لئلا يبقى الشك، وعلى أن المحق يجب عليه استماع

شبهة المبطل حتى يمكنه الاشتغال بحلها ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأولَىٰ﴾ لما شاهد اللعين ما نظمه عليه السلام في سلك الجواب من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه السلام وبطلان خرافات نفسه ظهوراً بيناً أراد أن يصرفه عليه السلام عن سننه إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلق لها في نفس الأمر بالرسالة من الحكايات موهماً أن لها تعلقاً بذلك ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك إلى أن يدعي بين يدي قومه نوع معرفة، فقال ﴿فما بال﴾ الخ. وأصل البال الفكر يقال: خطر ببالي كذا ثم أطلق على الحال التي يعتني بها وهو المراد، ولا يثنى ولا يجمع إلا شذوذاً في قولهم بالات. وكأن الفاء لتفريع ما بعدها على دعوى الرسالة أي إذا كنت رسولاً فأخبرني ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي إن ذلك من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما أنا عبد لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بالرسالة والعلم بأحوال القرون وما جرى عليهم على التفصيل مما لا ملابسة فيه بمنصب الرسالة كما زعمت. وقيل: إنما سأله عن ذلك ليختبر أنه نبي أو هو من جملة القصاص الذين دارسوا قصص الأمم السالفة، وقال النقاش: إن اللعين لما سمع وعظ مؤمن آل فرعون ﴿يا قومي إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ [غافر: ٣٠] الآية سأل عن ذلك فرد عليه السلام علمه إلى الله تعالى لأنه لم يكن نزلت عليه التوراة فإنه كان نزولها بعد هلاك فرعون.

وقال بعضهم: إن السؤال مبني على قوله عليه السلام ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ الخ أي فما حال القرون السالفة بعد موتهم من السعادة والشقاوة والمراد بيان ذلك تفصيلاً كأنه قيل: إذا كان الأمر كما ذكرت ففصل لنا حال من مضى من السعادة والشقاوة ولذا رد عليه السلام العلم إلى الله عز وجل فاندفع ما قيل: إنه لو كان المسؤول عنه ما ذكر من السعادة والشقاوة لأجيب ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى ﴿والسلام﴾ الخ، وقيل: إنه متعلق بقوله سبحانه ﴿إنا قد أوحي إلينا﴾ الخ أي إذا كان الأمر كذلك فما بال القرون الأولى كذبوا ثم ما عذبوا، وقيل: هو متعلق به والسؤال عن البعث والضمير في ﴿علمها﴾ للقيامة وكلا القولين كما ترى؛ وعود الضمير على القيامة أدهى من أمر التعلق وأمرّ.

وقيل: إنه متعلق بجواب موسى عليه السلام اعتراضاً على ما تضمنه من علمه تعالى بتفاصيل الأشياء وجزئياتها المستتبع إحاطة قدرته جل وعلا بالأشياء كلها كأنه قيل: إذا كان علم الله تعالى كما أشرت فما تقول في القرون الخالية مع كثرتهم وتمادي مدتهم وتباعد أطرافهم كيف إحاطة علمه تعالى بهم وبأجزائهم وأحوالهم فأجاب بأن علمه تعالى محيط بذلك كله إلى آخر ما قص الله تعالى، وتخصيص القرون الأولى على هذا بالذكر مع أولوية التعميم قيل لعلم فرعون ببعضها وبذلك يتمكن من معرفة صدق موسى عليه السلام: إن بين أحوالها، وقيل: إنه لإلزام موسى عليه السلام وتبكيته عند قومه في أسرع وقت لزعمه أنه لو عمم ربما اشتغل موسى عليه السلام بتفصيل علمه تعالى بالموجودات المحسوسة الظاهرة فتطول المدة ولا يتمشى ما أراده، وأيّا ما كان يسقط ما قيل: إنه يأبى هذا الوجه تخصيص القرون الأولى من بين الكائنات فإنه لو أخذها بجملتها كان أظهر وأقوى في تمشي ما أراد، نعم بعد هذا الوجه مما لا ينبغي أن ينكر، وقيل: إنه اعتراض عليه بوجه آخر كأنه قيل: إذا كان ما ذكرت من دليل إثبات المبدأ في هذه الغاية من الظهور فما بال القرون الأولى نسوه سبحانه ولم يؤمنوا به تعالى فلو كانت الدلالة واضحة وجب عليهم أن لا يكونوا غافلين عنها ومآله على ما قال الإمام معارضة الحجة بالتقليد، وقريب منه ما يقال إنه متعلق بقوله «ثم هدى» على التفسير الأول كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فما بال القرون الأولى لم يستدلوا بذلك فلم يؤمنوا. وحاصل

الجواب على القولين أن ذلك من سر القدر وعلمه عند ربي جل شأنه ﴿في كتاب﴾ الظاهر أنه خبر ثان لعلمها والخبر الأول ﴿عند ربي﴾.

وجوز أن يكونا خبراً واحداً مثل هذا حلو حامض وأن يكون الخبر ﴿عند ربي﴾. و﴿في كتاب﴾ في موضع الحال من الضمير المستتر في الظرف أو هو معمول له. وأن يكون الخبر في كتاب و﴿عند ربي﴾ في موضع الحال من الضمير المستتر فيه والعامل الظرف وهو يعمل متأخراً على رأي الأخفش، وقيل: يكون حالاً من المضاف إليه في ﴿علمها﴾، وقيل: يكون ظرفاً للظرف الثاني، وقيل: هو ظرف للعلم ذكر جميع ذلك أبو البقاء ثم قال: ولا يجوز أن يكون ﴿في كتاب﴾ متعلقاً بعلمها و«عند ربي» الخبر لأن المصدر لا يعمل فيما بعد خبره.

وأنت تعلم أن أول الأوجه هو الأوجه وكأنه عنى عليه السلام بالكتاب اللوح المحفوظ أي علمها مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله وهذا من باب المجاز إذ المثبت حقيقة إنما هو النقوش الدالة على الألفاظ المتضمنة شرح أحوالهم المعلومة له تعالى، وجوز أن يكون المراد بالكتاب الدفتر كما هو المعروف في اللغة ويكون ذلك تمثيلاً لتمكنه وتقرره في علمه عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بكتبته في جريدة ولعله أولى، ويلوح إليه قوله تعالى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ فإن عدم الضلال والنسيان أوفق بإتقان العلم، والظاهر أن فيه على الوجهين دفع توهم الاحتياج لأن الإثبات في الكتاب إنما يفعله من يفعله لخوف النسيان والله تعالى منزه عن ذلك، والإثبات في اللوح المحفوظ لحكم ومصالح يعلم بعضها العالمون، وقيل: إن هذه الجملة على الأول تكميل لدفع ما يتوهم من أن الإثبات في اللوح للاحتياج لاحتمال خطأ أو نسيان تعالى الله سبحانه عنه، وعلى الثاني تذييل لتأكيد الجملة السابقة، والمعنى لا يخطىء ربي ابتداء بأن لا يدخل شيء من الأشياء في واسع علمه فلا يكون علمه سبحانه محيطاً بالأشياء ولا يذهب عليه شيء بقاء بأن يخرج عن دائرة علمه جل شأنه بعد أن دخل بل هو عز وجل محيط بكل شيء علماً أزلاً وأبداً وتفسير الجملتين بما ذكر مما ذهب إليه القفال ووافقه بعض المحققين ولا يخفى حسنه.

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن مجاهد أنهما بمعنى واحد وليس بذاك، والفعلان قيل: منزلان منزلة اللازم، وقيل: هما باقيان على تعديهما والمفعول محذوف أي لا يضل شيئاً من الأشياء ولا ينساه، وقيل: شيئاً من أحوال القرون الأولى، وعن الحسن لا يضل وقت البعث ولا ينساه وكأنه جعل السؤال عن البعث وخصص لأجله المفعول وقد علمت حاله. وعن ابن عباس أن المعنى لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه وكأنه رضي الله تعالى عنه جعل السؤال عن حالهم من حيث السعادة والشقاوة والجواب عن ذلك على سبيل الإجمال فتدبر ولا تغفل.

وزعم بعضهم أن الجملة في موضع الصفة لكتاب والعائد إليه محذوف أي لا يضله ربي ولا ينساه، وقيل: العائد ضمير مستتر في الفعل و﴿ربي﴾ نصب على المفعول أي لا يضل الكتاب ربي أي عنه. وفي ﴿ينسى﴾ ضمير عائد إليه أيضاً أي ولا ينسى الكتاب شيئاً أي لا يدعه على حد ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ [الكهف: ٤٩].

والعجب كل العجب من العدول عن الظاهر إلى مثل هذه الأقوال، وإظهار ﴿ربي﴾ في موقع الإضمار للتلذذ بذكره تعالى ولزيادة التقرير والإشعار بعلية الحكم فإن الربوبية مما تقتضي عدم الضلال والنسيان حتماً.

وقرأ الحسن وقتادة والجحدري وحماد بن سلمة وابن محيصن وعيسى الثقفي «لا يُضِلُّ» بضم الياء من أضل وأضللت الشيء وضللته قيل بمعنى.

وفي الصحاح عن ابن السكيت يقال: أضللت بعيري إذا ذهب منك وضللت المسجد والزاد إذا لم تعرف موضعهما وكذلك كل شيء مقيم لا يهتدى إليه، وحكي نحوه عن الفراء. وابن عيسى، وذكر أبو البقاء في توجيه هذه القراءة وجهين جعل ﴿ربي﴾ منصوباً على المفعولية، والمعنى لا يضل أحد ربي عن علمه وجعله فاعلاً والمعنى لا يجد ربي الكتاب ضالاً أي ضائعاً، وقرأ السلمي «لا يُضَلُّ ربي ولا يُنْسى» ببناء الفعلين لما لم يسم فاعله.

﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً﴾ الخ يحتمل أن يكون ابتداء كلام منه عز وجل وكلام موسى عليه السلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿ولا ينسى﴾ فيكون الموصول خبر مبتدأ محذوف والجملة على ما قيل: مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه سبحانه لما حكى كلام موسى عليه السلام إلى قوله: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ سئل ما أراد موسى بقوله: ﴿ربي﴾ فقال سبحانه: ﴿هو الذي جعل﴾ الخ، واختار هذا الإمام بل قال: يجب الجزم به؛ ويحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام على أن يكون قد سمعه من الله عز وجل فأدرجه بعينه في كلامه ولذا قال ﴿لكم﴾ دون لنا وهو من قبيل الاقتباس فيكون الموصول إما مرفوع المحل على أنه صفة لربي أو خبر مبتدأ محذوف كما في الاحتمال السابق وإما منصوب على المدح، واختار هذا الزمخشري، وعلى الاحتمالين يكون في قوله تعالى: ﴿فأخرجنا﴾ التفات بلا اشتباه أو على أن موسى عليه السلام قال ذلك من عنده غير سامع له من الله عز وجل، وقال: فأخرج به بإسناد أخرج إلى ضمير الغيبة إلا أن الله تعالى لما حكاه أسنده إلى ضمير المتكلم لأن الحاكي هو المحكي عنه فمرجع الضميرين واحد، وظاهر كلام ابن المنير اختيار هذا حيث قال بعد تقريره: وهذا وجه حسن رقيق الحاشية وهو أقرب الوجوه إلى الالتفات.

وأنكر بعضهم أن يكون فيه التفات أو على أنه عليه السلام قاله من عنده بهذا اللفظ غير مغير عند الحكاية، وقوله: «أخرجنا» من باب قول خواص الملك أمرنا وعمرنا وفعلنا وإنما يريدون الملك أو هو مسند إلى ضمير الجماعة بإرادة أخرجنا نحن معاشر العباد بذلك الماء بالحراثة أزواجاً من نبات شتى على ما قيل، وليس في «أخرجنا» على هذا وما قبله التفات. ويحتمل أن يكون ذلك كلام موسى عليه السلام إلى قوله تعالى: «ماء» وما بعده كلام الله عز وجل أوصله سبحانه بكلام موسى عليه السلام حين الحكاية لنبينا ﷺ، والأولى عندي الاحتمال الأول بل يكاد يكون كالمتعين ثم الاحتمال الثاني ثم الاحتمال الثالث وسائر الاحتمالات ليس بشيء ووجه ذلك لا يكاد يخفى. وسيأتي إن شاء الله تعالى في الزخرف نحو هذه الآية، والمهد في الأصل مصدر ثم جعل اسم جنس لما يمهد للصبي. ونصبه على أنه مفعول ثان لجعل إن كان بمعنى صيرّ أو حال إن كان بمعنى خلق، والمراد جعلها لكم كالمهد، ويجوز أن يكون باقياً على مصدريته غير منقول لما ذكر، والمراد جعلها ذات مهد أو ممهدة أو نفس المهد مبالغة، وجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدر من لفظه أي مهدها مهداً بمعنى بسطها ووطأها، والجملة حال من الفاعل أو المفعول، وقرأ كثير «مهاداً» وهو على ما قال المفضل. كالمهد في المصدرية والنقل.

وقال أبو عبيد: المهاد اسم والمهد مصدر، وقال بعضهم: هو جمع مهد ككعب وكعاب، والمشهور في جمعه مهود، والمعنى على الجمع جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أي حصل لكم طرقاً ووسطها بين الجبال والأودية تسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها، وللدلالة على أن الانتفاع مخصوص بالإنسان كرر «لكم» وذكره أولاً لبيان أن المقصود بالذات من ذلك الإنسان ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من جهتها أو منها نفسها على ما في بعض الآثار ﴿مَاءً﴾ هو المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي بذلك الماء وواسطته حيث إن الله تعالى أودع فيه ما أودع كما ذهب إلى ذلك الماتريدية وغيرهم من السلف الصالح لكنه لا يؤثر إلا بإذن

الله تعالى كسائر الأسباب فلا ينافي كونه عز وجل هو المؤثر الحقيقي، وإنما فعل ذلك سبحانه مع قدرته تعالى الكاملة على إيجاد ما شاء بلا توسيط شيء كما أوجد بعض الأشياء كذلك مراعاة للحكمة.

وقيل: ﴿به﴾ أي عنده وإليه ذهب الأشاعرة فالماء كالنار عندهم في أنه ليس فيه قوة الري مثلاً والنار كالماء في أنها ليس فيها قوة الإحراق وإنما الفرق بينهما في أن الله تعالى قد جرت عادته أن يخلق الري عند شرب الماء والإحراق عند مسيس النار دون العكس. وزعموا أن من قال: إن في شيء من الأسباب قوة تأثير أودعها الله تعالى فيه فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان وهو لعمري من المجازفة بمكان.

والظاهر أن يقال: فأخرج إلا أنه التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة بواسطة أنه لا يسند إلى العظيم إلا أمر عظيم والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن ينقاد لأمره ويذعن لمشيئته الأشياء المختلفة فإن مثل هذا التعبير يعبر به الملوك والعظماء النافذ أمرهم. ويقوي هذا الماضي الدال على التحقيق كالفاء الدالة على السرعة فإنها للتعقيب على ما نص عليه بعض المحققين وجعل الإنزال والإخراج عبارتين عن إرادة النزول والخروج معللاً باستحالة مزاولة العمل في شأنه تعالى شأنه.

واعترض عليه بما فيه بحث ولا يضر في ذلك كونه تعقيباً عرفياً ولم تجعل للسببية لأنها معلومة من الباء.

وقال الخفاجي: لك أن تقول إن الفاء لسببية الإرادة عن الإنزال والباء لسببية النبات عن الماء فلا تكرار كما في قوله تعالى: ﴿لنحيي به﴾ [الفرقان: ٤٩] ولعل هذا أقرب انتهى.

وأنت تعلم أن التعقيب أظهر وأبلغ. وقد ورد على هذا النمط من الالتفات للنكتة المذكورة قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ [فاطر: ٢٧] وقوله تعالى ﴿أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾ [النمل: ٦٠] وقوله سبحانه ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ [الأنعام: ٩٩] ﴿أَزْوَاجاً﴾ أي أصنافاً أطلق عليها ذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض.

﴿مِنْ نَبَاتٍ﴾ بيان وصفة لأزواجاً. وكذا قوله ﴿تعالى شَتَّىٰ﴾ أي متفرقة جمع شتيت كمريض ومرضى وألفه للتأنيث، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لنبات لما أنه في الأصل مصدر يستوي فيه الواحد والجمع يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم.

وقالوا: من نعمته عز وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله تعالى علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله. وقوله تعالى ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ معمول قول محذوف وقع حالاً من ضمير «فأخرجنا» أي أخرجنا أصناف النبات قائلين ﴿كلوا﴾ الخ أي معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين في ذلك، وجوز أن يكون القول حالاً من المفعول أي أخرجنا أزواجاً مختلفة مقولاً فيها ذلك. والأول أنسب وأولى. ورعى كما قال الزجاج يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال: رعت الدابة رعياً ورعاها صاحبها رعاية إذا أسامها وسرحها وأراحها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من شؤونه تعالى. وأفعاله وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الكمال، وقيل: لعدم ذكر المشار إليه بلفظه. والتنكير في قوله سبحانه ﴿لَآيَاتٍ﴾ للتفخيم كماً وكيفاً أي لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤون الله تعالى في ذاته وصفاته ﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ جمع نهية بضم النون سمي بها العقل لنهيه عن

اتباع الباطل وارتكاب القبيح كما سمي بالعقل. والحجر لعقله وحجره عن ذلك. ويجيء النهي مفرداً بمعنى العقل كما في القاموس وهو ظاهر ما روي عن ابن عباس هنا فإنه قال: أي لذوي العقل، وفي رواية أخرى عنه أنه قال: لذوي التقى. ولعله تفسير باللازم.

وأجاز أبو علي أن يكون مصدراً كالهدى والأكثرون على الجمع أي لذوي العقول الناهية عن الأباطيل وتخصيص كونها آيات بهم لأن أوجه دلالتها على شؤونه تعالى لا يعلمها إلا العقلاء ولذا جعل نفعها عائداً إليهم في الحقيقة فقال سبحانه: ﴿كلوا وارعوا﴾ دون كلوا أنتم والأنعام ﴿مِنهَا﴾ أي من الأرض.

﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام منها فإن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه السلام بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء جمالياً مستتبعاً لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام منها خلقاً للكل منها، وقيل: المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض بوسائط(١).

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه الشخص فيذره على النطفة فيخلق من التراب والنطفة ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، وهذا وكذا ما بعد مبني على الغالب بناء على أن من الناس من لا يبلى جسده كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديد فيها ﴿وَمِنهَا نُخرِجكُمْ تَارَةً أُخرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الأرواح من مقرها إليها، وكون هذا الإخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها وإن لم يكن على نهج التارة الثانية أو التارة في الأصل اسم للتور الواحد وهو الجريان، ثم أطلق على كل فعلة واحد من الفعلات المتجددة كما مر في المرة، وما ألطف ذكر قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم﴾ الخ بعد ذكر النبات وإخراجه من الأرض فقد تضمن كل إخراج أجسام لطيفة من الترباء الكثيفة وخروج الأموات أشبه شيء بخروج النبات هذا.

«ومن باب الإشارة في الآيات» ﴿طه﴾ يا طاهراً بنا هادياً إلينا أو يا طائف كعبة الأحدية في حرم الهوية وهادي الأنفس الزكية إلى المقامات العلية، وقيل: إن ط لكونها بحساب الجمل تسعة وإذا جمع ما انطوت عليه من الأعداد ـ أعني الواحد والاثنين والثلاثة ـ وهكذا إلى التسعة بلغ خمسة وأربعين إشارة إلى آدم لأن أعداد حروفه كذلك، وه لكونها بحساب الجمل خمسة وما انطوت عليه من الأعداد يبلغ خمسة عشر إشارة إلى حوا بلا همز، والإشارة بمجموع الأمرين إلى أنه ﷺ أبو الخليقة وأمها فكأنه قيل: يا من تكونت منه الخليقة، وقد أشار إلى ذلك العارف بن الفارض قدس سره بقوله على لسان الحقيقة المحمدية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي منه معنى شاهد بأبوتي

وقال في ذلك الشيخ عبد الغني النابلسي عليه الرحمة:

طه النبي تكونت من نوره ... كل البرية ثم لو ترك القطا

---

(١) وذكروا أن التراب الذي خلق منه نبينا ﷺ كان من الكعبة إلا أنه نقل في الطوفان إلى محل قبره الشريف عليه الصلاة والسلام اهـ منه.

وقيل: ﴿طه﴾ في الحساب أربعة عشر وهو إشارة إلى مرتبة البدرية فكأنه قيل: يا بدر سماء عالم الإمكان ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ أي إلا لتذكر من يخشى أيام الوصال التي كانت قبل تعلق الأرواح بالأبدان وتخبرهم بأنها يحصل نحوها لهم لتطيب أنفهسم وترتاح أرواحهم أو لتذكرهم إياها ليشتاقوا إليها وتجري دموعهم عليها ويجتهدوا في تحصيل ما يكون سبباً لعودها ولله تعالى در من قال:

سقى الله أياماً لنا ولياليا ... مضت فجرت من ذكرهن دموع

فيا هل لها يوماً من الدهر أوبة ... وهل لي إلى أرض الحبيب رجوع

وقيل: من يخشى هم العلماء لقوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] ولما كان العلم مظنة العجب والفخر ونحوهما ناسب أن يذكر صاحبه عظمة الله عز وجل ليكون ذلك سوراً له مانعاً من تطرق شيء مما ذكر ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ العرش جسم عظيم خلقه الله تعالى كما قيل من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط الذي هو مشرق أنوار القدم وشرفه بنسبة الاستواء الذي لا يكتنه، وقيل: خلق من أنوار أربعة مختلفة الألوان وهي أنوار سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولذا قيل له الأطلس، وإلى هذا ذهبت الطائفة الحادثة في زماننا المسماة بالكشفية.

وذكر بعض الصوفية أن العرش إشارة إلى قلب المؤمن الذي نسبة العرش المشهور إليه كنسبة الخردلة إلى الفلاة بل كنسبة القطرة إلى البحر المحيط وهو محل نظر الحق ومنصة تجليه ومهبط أمره ومنزل تدليه، وفي إحياء العلوم لحجة الإسلام الغزالي قال الله تعالى «لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع» أي الساكن المطمئن، وفي الرشدة لصدر الدين القونوي قدس سره بلفظ «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي الوادع» وليس هذا القلب عبارة عن البضعة الصنوبرية فإنها عند كل عاقل أحقر من حيث الصورة أن تكون محل سره جل وعلا فضلاً عن أن تسعه سبحانه وتكون مطمح نظره الأعلى ومستواه عز شأنه وهي وإن سميت قلباً فإنما تلك التسمية على سبيل المجاز، وتسمية[1] الصفة والحامل باسم الموصوف والمحمول بل القلب الإنساني عبارة عن الحقيقة الجامعة بين الأوصاف والشؤون الربانية وبين الخصائص والأحوال الكونية الروحانية منها والطبيعية وتلك الحقيقة تنتشيء من بين الهيئة الاجتماعية الواقعة بين الصفات والحقائق الإلهية والكونية وما يشتمل عليه هذان الأصلان من الأخلاق والصفات اللازمة وما يتولد من بينهما بعد الارتياض والتزكية، والقلب الصنوبري منزل تدلى الصورة الظاهرة من بين ما ذكرنا التي هي صورة الحقيقة القلبية، ومعنى وسع ذلك للحق جل وعلا على ما في مسلك الوسط الداني كونه مظهراً جامعاً للأسماء والصفات على وجه لا ينافي تنزيه الحق سبحانه من الحلول والاتحاد والتجزئة وقيام القديم بالحادث ونحو ذلك من الأمور المستحيلة عليه تعالى شأنه، هذا لكن ينبغي أن يعلم أن هذا الخبر وإن استفاض عند الصوفية قدست أسرارهم إلا أنه قد تعقبه المحدثون، فقال العراقي: لم أر له أصلاً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هو مذكور في الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن رسول الله ﷺ، وكأنه أشار بما في الإسرائيليات إلى ما أخرجه الإمام أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى فتح السموات

---

(١) قوله وتسمية الصفة والحامل باسم الموصوف والمحمول كذا بخطه.

لحزقيل حتى نظر إلى العرش فقال حزقيل: سبحانك ما أعظمك يا رب فقال الله تعالى: إن السموات والأرض ضعفن من أن يسعنني ووسعني قلب عبدي المؤمن الوادع اللين.

نعم لذلك ما يشهد له فقد قال العلامة الشمس ابن القيم في شفاء العليل ما نصه، وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ «القلوب آنية الله تعالى في أرضه فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها» انتهى.

وروى الطبراني من حديث أبي عنبسة الخولاني رفعه «أن الله تعالى آنية من الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها» وهذا الحديث وإن كان في سنده بقية بن الوليد وهو مدلس إلا أنه صرح فيه بالتحديث؛ ويعلم من مجموع الحديثين أربع صفات للقلب الأحب إليه تعالى اللين وهو لقبول الحق والصلابة وهي لحفظه فالمراد بها صفة تجامع اللين والصفاء والرقة وهما لرؤيته، واستواؤه تعالى على العرش بصفة الرحمانية دون الرحيمية للإشارة إلى أن لكل أحد نصيباً من واسع رحمته جل وعلا ﴿**وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى**﴾ قيل: السر أمر كامن في القلب كمون النار في الشجر الرطب حتى تثيره الإرادة لا يطلع عليه الملك ولا الشيطان ولا تحس به النفس ولا يشعر به العقل وإلا خفي ما في باطن ذلك.

وعند بعض الصوفية السر لطيفة بين القلب والروح وهو معدن الأسرار الروحانية والخفي لطيفة بين الروح والحضرة الإلهية وهو مهبط الأنوار الربانية وتفصيل ذلك في محله. وقد استدل بعض الناس بهذه الآية على عدم مشروعية الجهر بالذكر والحق أنه مشروع بشرطه، واختلفوا في أنه هل هو أفضل من الذكر الخفي أو الذكر الخفي أفضل منه والحق فيما لم يرد نص على طلب الجهر فيه وما لم يرد نص على طلب الإخفاء فيه أنه يختلف الأفضل فيه باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان فيكون الجهر أفضل من الإخفاء تارة والإخفاء أفضل أخرى ﴿**وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً**﴾ قال الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة في تنبيه العقول: إن تلك النار كانت مجلى الله عز وجل وتجليه سبحانه فيها مراعاة للحكمة من حيث إنها كانت مطلوب موسى عليه السلام، واحتج على ذلك بحديث رواه عن ابن عباس رضي تعالى عنه وسنذكره إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى ﴿**فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها**﴾ الآية «فاخلع نعليك» اترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة وسر مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى ولا تلتف إلى ما سواه سبحانه «إنك بالوادي المقدس طوى» وهو وادي قدس جلال الله تعالى وتنزه عزته عز وجل، وقيل: النعلان إشارة إلى المقدمتين اللتين يتركب منهما الدليل لأنهما يتوصل بهما العقل إلى المقصود كالنعلين يلبسهما الإنسان فيتوصل بالمشي بهما إلى مقصوده كأنه قيل: لا تلتف إلى المقدمتين ودع الاستدلال فإنك في وادي معرفة الله تعالى المفعم بآثار ألوهيته سبحانه ﴿**فاعبدني**﴾ قدم هذا الأمر للإشارة إلى عظم شرف العبودية، وثنى بقوله سبحانه ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾ لأن الصلاة من أعلام العبودية ومعارج الحضرة القدسية.

﴿**وما تلك بيمينك يا موسى**﴾ إيناس منه تعالى له عليه السلام فإنه عليه السلام دهش لما تكلم سبحانه معه بما يتعلق بالألوهية فسأله عن شيء بيده ولا يكاد يغلط فيه ليتكلم ويجيب فتزول دهشته، قيل وكذلك يعامل المؤمن بعد موته وذلك أنه إذا مات وصل إلى حضرة ذي الجلال فيعتريه ما يعتريه فيسأله عن الإيمان الذي كان بيده في الدنيا ولا يكاد يغلط فيه فإذا ذكره زال عنه ما اعتراه، وقيل: إن الله تعالى لما عرفه كمال الألوهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا فذكر بعضها فعرفه الله تعالى أن فيها ما هو أعظم نفعاً مما ذكره تنبيهاً على أن العقول قاصرة عن معرفة صفات الشيء الحاضر فلولا التوفيق كيف يمكنه الوصول إلى معرفة أجل الأشياء وأعظمها ﴿**فألقاها فإذا هي حية تسعى**﴾ فيه إشارة إلى ظهور أثر الجلال ولذلك خاف موسى عليه السلام فقال سبحانه «خذها ولا تخف» فهذا

الخوف من كمال المعرفة لأنه لم يأمن مكر الله تعالى ولو سبق منه سبحانه الإيناس، وفي بعض الآثار «يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوز الصراط».

وقيل: كان خوفه من فوات المنافع المعدودة ولذا علل النهي بقوله تعالى: ﴿**سنعيدها سيرتها الأولى**﴾ وهذا جهل بمقام موسى عليه السلام. وكذا ما قيل: إنه لما رأى الأمر الهائل فر حيث لم يبلغ مقام ﴿ففروا إلى الله﴾ [الذاريات: ٥٠] ولو بلغه لم يفر. وما قيل: أيضاً لعله لما حصل له مقام المكالمة بقي في قلبه عجب فأراه الله تعالى أنه بعد في النقص الإمكاني ولم يفارق عالم البشرية وما النصر والتثبيت إلا من عند الله تعالى وحده.

﴿**واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء**﴾ أراد سبحانه أن يريه آية نفسية بعد أن أراه عليه السلام آية آفاقية كما قال سبحانه: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**﴾ وهذا من نهاية عنايته جل جلاله: وقد ذكروا في هذه القصة نكات وإشارات. منها أنه سبحانه لما أشار إلى العصا واليمين بقوله تعالى ﴿**وما تلك بيمينك**﴾ حصل في كل منهما برهان باهر ومعجز قاهر فصار أحدهما وهو الجماد حيواناً والآخر وهو الكثيف نورانياً لطيفاً. ثم إنه تعالى ينظر في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد فأي عجب أن ينقلب قلبه الجامد المظلم حياً مستنيراً، ومنها أن العصا قد استعدت بيمن موسى عليه السلام للحياة وصارت حية فكيف لا يستعد قلب المؤمن الذي هو بين إصبعين من أصابع الرحمن للحياة ويصير حياً. ومنها إن العصا بإشارة واحدة صارت بحيث ابتلعت سحر السحرة فقلب المؤمن أولى أن يصير بمدد نظر الرب في كل يوم مرات بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء، ومنها أن قوله تعالى أولاً ﴿**اخلع نعليك**﴾ إشارة إلى التخلية وتطهير لوح الضمير من الأغيار وما بعده إشارات إلى التحلية وتحصيل ما ينبغي تحصيله. وأشار سبحانه إلى علم المبدأ بقوله تعالى ﴿**إنني أنا الله**﴾ وإلى علم الوسط بقوله عز وجل ﴿**فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**﴾ وفيه إشارة إلى الأعمال الجسمانية والروحانية وإلى علم المعاد بقوله سبحانه ﴿**إن الساعة آتية**﴾ ومنها أنه تعالى افتتح الخطاب بقوله عز قائلاً ﴿**وأنا اخترتك**﴾ وهو غاية اللطف وختم الكلام بقوله جل وعلا ﴿**فلا يصدنك عنها ـ إلى ـ فتردى**﴾ وهو قهر تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه وأن العبد لا بد أن يكون سلوكه على قدمي الرجاء والخوف، ومنها أن موسى عليه السلام كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فأمر بترك ما فيهما تنبيهاً على أن السالك ما دام في مقام الطلب والهرب كان مشتغلاً بنفسه وطالباً لحظه فلا يحصل له كمال الاستغراق في بحر العرفان وفيه أن موسى عليه السلام مع جلالة منصبه وعلو شأنه لم يمكن له الوصول إلى حضرة الجلال حتى خلع النعل وألقى العصا فأنت مع ألف وقر من المعاصي كيف يمكنك الوصول إلى جنابه وحضرته جل جلاله. واستشكلت هذه الآيات من حيث إنها تدل على أن الله تعالى خاطب موسى عليه السلام بلا واسطة وقد خاطب نبينا ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام فيلزم مزية الكليم على الحبيب عليهما الصلاة والسلام. والجواب أنه تعالى شأنه قد خاطب نبينا ﷺ أيضاً بلا واسطة ليلة المعراج غاية ما في الباب أنه تعالى خاطب موسى عليه السلام في مبدأ رسالته بلا واسطة وخاطب حبيبه عليه الصلاة والسلام في مبدأ رسالته بواسطة ولا يثبت بمجرد ذلك المزية على أن خطابه لحبيبه الأكرم ﷺ بلا واسطة كان مع كشف الحجاب ورؤيته عليه الصلاة والسلام إياه على وجه لم يحصل لموسى عليه السلام وبذلك يجبر ما يتوهم في تأخير الخطاب بلا واسطة عن مبدأ الرسالة. وانظر إلى الفرق بين قوله تعالى عن نبينا ﷺ ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾ وقوله عن موسى عليه السلام ﴿**قال هي عصاي**﴾ الخ ترى الفرق واضحاً بين الحبيب والكليم مع أن لكل رتبة التكريم ﷺ.

وذكر بعضهم أن في الآيات ما يشعر بالفرق بينهما أيضاً عليهما الصلاة والسلام من وجه آخر وذلك أن موسى

عليه السلام كان يتوكأ على العصا والنبي ﷺ كان يتكل على فضل الله تعالى ورحمته قائلاً مع أمته وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولذا ورد في حقه ﴿حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ [الأنفال: ٦٤] على معنى وحسب من اتبعك. وأيضاً إنه عليه السلام بدأ بمصالح نفسه في قوله: ﴿**أتوكأ عليها**﴾ ثم مصالح رعيته بقوله: ﴿**وأهش بها على غنمي**﴾ والنبي ﷺ لم يشتغل إلا بإصلاح أمر أمته اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلا جرم يقول موسى عليه السلام يوم القيامة. نفسي نفسي والنبي ﷺ يقول: «أمتي أمتي» انتهى، وهو مأخوذ من كلام الإمام بل لا فرق إلا بيسير جداً. ولعمري إنه لا ينبغي أن يقتدى به في مثل هذا الكلام كما لا يخفى على ذوي الأفهام. وإنما نقلته لأنبه على عدم الاغترار به نعوذ بالله تعالى من الخذلان ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ لم يذكر عليه السلام بم يشرح صدره وفيه احتمالات.

قال بعض الناس: إنه تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور. الأول ذاته جل شأنه ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور: ٣٥] الثاني الرسول ﷺ ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب﴾ [المائدة: ١٥]، الثالث الكتاب ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الرابع الإيمان ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله﴾ [التوبة: ٣٢]. الخامس عدل الله تعالى ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ [الزمر: ٦٩]. السادس القمر ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ [نوح: ١٦]. السابع النهار ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ [الأنعام: ١].

الثامن البينات ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ [المائدة: ٤٤]، التاسع الأنبياء عليهم السلام ﴿نور على نور﴾ [النور: ٣٥]، العاشر المعرفة ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ [النور: ٣٥] فكان موسى عليه السلام قال أولاً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ بمعرفة أنوار جلال كبريائك، وثانياً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك، وثالثاً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك، ورابعاً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ بنور الإيمان والإيقان بإلهيتك، وخامساً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ بالاطلاع على أسرار عدلك في قضائك وحكمك.

وسادساً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزتك كما فعله إبراهيم عليه السلام، وسابعاً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل قهرك، وثامناً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك في أرضك وسمواتك، وتاسعاً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ في أن أكون خلف صدق للأنبياء المتقدمين ومشابهاً لهم في الانقياد لحكم رب العالمين، وعاشراً ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ بأن يجعل سراج الإيمان كالمشكاة التي فيها المصباح انتهى.

ولا يخفى ما بين أكثر ما ذكر من التلازم وإغناء بعضه عن بعض، وقال أيضاً: إن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور في القلب حتى يصير كالسراج، ولا يخفى أن مستوقد السراج محتاج إلى سبعة أشياء زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن، فالزند زند المجاهد ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ [العنكبوت: ٦٩] والحجر حجر التضرع ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخيفة﴾ [الأعراف: ٢٠٥] والحراق منع الهوى ونهي النفس عن الهوى والكبريت الإنابة ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ [الزمر: ٥٤] والمسرجة الصبر ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة: ٤٥] والفتيلة الشكر ﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧] والدهن: الرضا ﴿واصبر لحكم ربك﴾ [الطور: ٤٨] أي ارض بقضائه، ثم إذا صلحت هذه الأدوات فلا تعول عليها بل ينبغي أن تطلب المقصود من حضرة ربك جل وعلا قائلاً: ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾

فهنالك تسمع ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ ثم إن هذا النور الروحاني أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه: الأول أن الشمس يحجبها الغيم وشمس المعرفة لا تحجبها السموات السبع ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [فاطر: ١٠]. الثاني الشمس تغيب ليلاً وشمس المعرفة لا تغيب ليلاً ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً﴾ [المزمل: ٦] والمستغفرين بالأسحار ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١].

الليل للعاشقين ستر يا ليت أوقاته تدوم

الثالث الشمس تفنى ﴿إذا الشمس كورت﴾ [التكوير: ١] والمعرفة لا تفنى. أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ [يس: ٥٨]، الرابع الشمس إذا قابلها القمر انكسفت، وشمس المعرفة وهي «أشهد أن لا إله إلا الله» إذا لم تقرن بقمر النبوة وهي أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ لم يصل النور إلى عالم الجوارح، الخامس الشمس تسود الوجه والمعرفة تبيض الوجوه ﴿يوم تبيض وجوه﴾ [آل عمران: ١٠٦]، السادس الشمس تصدع والمعرفة تصعد.

السابع الشمس تحرق والمعرفة تمنع من الإحراق «جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»، الثامن الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في الدارين ﴿فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٧] التاسع الشمس فوقانية الصورة تحتانية المعنى والمعارف الإلهية بالعكس، العاشر الشمس تقع على الولي والعدو والمعرفة لا تحصل إلا للولي، الحادي عشر الشمس تعرف أحوال الخلق والمعرفة توصل القلب إلى الخالق، ولما كان شرح الصدر الذي هو أول مراتب الروحانيات أشرف من أعلى مراتب الجسمانيات بدأ موسى عليه السلام بطلبه قائلاً ﴿رب اشرح لي صدري﴾ وعلامة شرح الصدر ودخول النور الإلهي فيه التجافي عن دار الغرور والرغبة في دار الخلود وشبهوا الصدر بقلعة وجعلوا الأول كالخندق لها والثاني كالسور فمتى كان الخندق عظيماً والسور محكماً عجز عسكر الشيطان من الهوى والكبر والعجب والبخل وسوء الظن بالله تعالى وسائر الخصال الذميمة ومتى لم يكونا كذلك دخل العسكر وحينئذ ينحصر الملك في قصر القلب ويضيق الأمر عليه.

وفرقوا بين الصدر والقلب والفؤاد واللب بأن الصدر مقر الإسلام ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ [الزمر: ٢٢] والقلب مقر الإيمان ﴿حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ [الحجرات: ٧] ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ [المجادلة: ٢٢] والفؤاد مقر المشاهدة ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١] واللب مقام التوحيد ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ [الرعد: ١٩، الزمر: ٩] أي الذين خرجوا من قشر الوجود المجازي وبقوا بلب الوجود الحقيقي؛ وإنما سأل موسى عليه السلام شرح الصدر دون القلب لأن انشراح الصدر يستلزم انشراح القلب دون العكس، وأيضاً شرح الصدر كالمقدمة لشرح القلب والحر تكفيه الإشارة، فإذا علم المولى سبحانه أنه طالب للمقدمة فلا يليق بكرمه أن يمنعه النتيجة. وأيضاً أنه عليه السلام راعى الأدب في الطلب فاقتصر على طلب الأدنى فلا جرم أعطى المقصود فقيل: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ ولما اجترأ في طلب الرؤية، قيل له: ﴿لن تراني﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولا يخفى ما بين قول موسى عليه السلام لربه عز وجل ﴿رب اشرح لي صدري﴾ وقول الرب لحبيبه ﷺ ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١] ويعلم منه أن الكليم عليه السلام مريد والحبيب ﷺ مراد والفرق مثل الصبح ظاهر.

ويزيد الفرق ظهوراً أن موسى عليه السلام في الحضرة الإلهية طلب لنفسه ونبينا ﷺ حين قيل له هناك السلام عليك أيها النبي قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقد أطال الإمام الكلام في هذه الآية بما هو من هذا

النمط فارجع إليه إن أردته **﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾** كأنه عليه السلام طلب قدرة التعبير عن الحقائق الإلهية بعبارة واضحة فإن المطلب وعر لا يكاد توجد له عبارة تسهله حتى يأمن سامعه عن العثار. ولذا ترى كثيراً من الناس ضلوا بعبارات بعض الأكابر من الصوفية في شرح الأسرار الإلهية، وقيل: إنه عليه السلام سأل حل عقدة الحياء فإنه استحيا أن يخاطب عدو الله تعالى بلسان به خاطب الحق جل وعلا. ولعله أراد من القول المضاف القول الذي به إرشاد للعباد فإن همة العارفين لا تطلب النطق والمكالمة مع الناس فيما لا يحصل به إرشاد لهم نعم النطق من حيث هو فضيلة عظيمة وموهبة جسيمة ولهذا قال سبحانه ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ [الرحمن: ١ - ٤] من غير توسيط عاطف. وعن علي كرم الله تعالى وجهه ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة مصورة أو بهيمة مهملة، وقال رضي الله تعالى عنه: المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه، وقال رضي الله تعالى عنه: المرء بأصغريه قلبه ولسانه، وقال زهير:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ومن الناس من مدح الصمت لأنه أسلم:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

وفي نوابغ الكلم قِ فاك لا يقرع قفاك. والإنصاف أن الصمت في نفسه ليس بفضيلة لأنه أمر عدمي والمنطق في نفسه فضيلة لكن قد يصير رذيلة لأسباب عرضية، فالحق ما أشار إليه ﷺ بقوله: «رحم الله تعالى امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم». وذكر في وجه عدم طلبه عليه السلام الفصاحة الكاملة أنها نصيب الحبيب عليه الصلاة والسلام، فقد كان ﷺ أفصح من نطق بالضاد فما كان له أن يطلب ما كان له **﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري﴾** فيه إشارة إلى فضيلة التعاون في الدين فإنه من أخلاق المرسلين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين، والوزارة المتعارفة بين الناس ممدوحة إن زرع الوزير في أرضها ما لا يندم عليه وقت حصاده بين يدي ملك الملوك وفيه إشارة إلى فضيلة التوسط بالخير للمستحقين لا سيما إذا كانوا من ذوي القرابة.

ومن منع المستوجبين فقد ظلم وفي تقديم موسى عليه السلام مع أنه أصغر سناً على هارون عليه السلام مع أنه الأكبر دليل على أن الفضل غير تابع للسن فالله تعالى يختص بفضله من يشاء «إنك كنت بنا بصيراً» في ختم الأدعية بذلك من حسن الأدب مع الله تعالى ما لا يخفى، وهو من أحسن الوسائل عند الله عز وجل. ومن آثار ذلك استجابة الدعاء **﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾** تذكير له عليه السلام بما يزيد إيقانه، وفيه إشارة إلى أنه تعالى لا يرد بعد القبول ولا يحرم بعد الإحسان، ومن هنا قيل: إذا دخل الإيمان القلب أمن السلب وما رجع من رجع الا من الطريق **﴿واصطنعتك لنفسي﴾** أفردتك لي بالتجريد فلا يشغلك عني شيء فلبثت سنين في أهل مدين أشير بذلك إلى خدمته لشعيب عليه السلام وذلك تربية منه تعالى له بصحبة المرسلين ليكون متخلقاً بأخلاقهم متحلياً بآدابهم صالحاً للحضرة. ولصحبة الأخيار نفع عظيم عند الصوفية وبعكس ذلك صحبة الأشرار **﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾** وذلك زمان كمال الاستعداد ووقت بعثة الأنبياء عليهم السلام وهو زمن بلوغهم أربعين سنة، ومن بلغ الأربعين ولم يغلب خيره على شره فلينح على نفسه وليتجهز إلى النار **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾** جاوز الحد في المعصية حتى ادعى الربوبية وذلك إثر سكر القهر الذي هو وصف النفس الأمارة ويقابله سكر اللطف وهو وصف الروح ومنه ينشأ الشطح ودعوى الأنانية قالوا: وصاحبه معذور وإلا لم يكن فرق بين الحلاج مثلاً وفرعون. وأهل الغيرة بالله تعالى

يقولون: لا فرق ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ فيه إشارة إلى تعليم كيفية الإرشاد، وقال النهرجوري: إن الأمر بذلك لأنه أحسن إلى موسى عليه السلام في ابتداء الأمر ولم يكافئه ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ إشارة إلى الهياكل وأقفاص بلابل الأرواح وإلا فالأرواح أنفسها من عالم الملكوت، وقد أشرقت على هذه الأشباح ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ [الزمر: ٦٩] والله تعالى أعلم.

وقد تأول بعض أهل التأويل هذه القصة والآيات على ما في الأنفس وهو مشرب قد تركناه إلا قليلاً. والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ حكاية أخرى إجمالية لما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة. وتصديرها بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها. والإراءة من الرؤية البصرية المتعدية إلى مفعول واحد وقد تعدت إلى ثان بالهمزة أو من الرؤية القلبية بمعنى المعرفة وهي أيضاً متعدية إلى مفعول واحد بنفسها وإلى آخر بالهمزة، ولا يجوز أن تكون من الرؤية بمعنى العلم المتعدي إلى اثنين بنفسه وإلى ثالث بالهمزة لما يلزمه من حذف المفعول الثالث من الإعلام وهو غير جائز.

وإسناد الإراءة إلى ضمير العظمة نظراً إلى الحقيقة لا إلى موسى عليه السلام نظراً إلى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في الطغيان. وهذا الإسناد يقوي كون ما تقدم من قوله تعالى ﴿الذي﴾ الخ من كلامه عز وجل أي بالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه ﴿آيَاتَنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين إما لأن إطلاق الجمع على الاثنين شائع على ما قيل أو باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كل منها آية بينة لقوم يعقلون وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل منها داهية دهياء. فإنه روي أنه عليه السلام لما ألقاها انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر فتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث فانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه فصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك إلا أخذته فأخذه فعاد عصا. وقد تقدم نحوه عن وهب بن منبه، وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت ويقول فرعون: أنشدك الخ ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين بياضاً نورانياً خارجاً عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمره ففي تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صريحاً أكدت بقوله تعالى ﴿كُلَّهَا﴾ كأنه قيل: أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها قصد إلى بيان أنه لم يبق في ذلك عذر ما. والإضافة على ما قرر للعهد. وأدرج بعضهم فيها حل العقدة كما أدرجه فيها في قوله تعالى ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ وقيل: المراد بها آيات موسى عليه السلام التسع كما روي عن ابن عباس فيما تقدم والإضافة للعهد أيضاً. وفيه أن أكثرها إنما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة. ولا ريب في أن أمر السحرة مترقب بعد، وعد بعضهم منها ما جعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلق البحر وما ظهر من بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبني إسرائيل من نتق الجبل والحجر الذي انفجرت منه العيون. وعد آخرون منها الآيات الظاهرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام وحملوا الإضافة على استغراق الإفراد. وبنى الفريقان ذلك على أنه عليه السلام قد حكى جميع ما ذكر لفرعون وتلك الحكاية في حكم الإظهار والإراءة لاستحالة الكذب عليه عليه السلام. ولا يخفى أن حكايته عليه السلام تلك الآيات مما لم يجر لها ذكر ها هنا مع أن ما سيأتي إن شاء الله تعالى من حمل ما أظهره عليه السلام على السحر والتصدي للمعارضة بالمثل مما يبعد ذلك جداً. وأبعد من ذلك كله

إدراج ما فصله عليه السلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه سبحانه بالربوبية وأحكامها في الآيات، وقيل: الإضافة لاستغراق الأنواع و«كل» تأكيد له أي أريناه أنواع آياتنا كلها، والمراد بالآيات المعجزات وأنواعها وهي كما قال السخاوي: ترجع إلى إيجاد معدوم أو إعدام موجود أو تغييره مع بقائه وقد أري اللعين جميع ذلك في العصا واليد وفي الانحصار نظر ومع الإغماض عنه لا يخلو ذلك عن بعد، وزعمت الكشفية أن المراد من الآيات علي كرم الله تعالى وجهه أظهره الله تعالى لفرعون راكباً على فرس وذكروا من صفتها ما ذكروا. والجمع كما في قوله تعالى ﴿آيات بينات مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: ٩٧] وظهور بطلانه يغني عن التعرض لرده.

والفاء في قوله تعالى ﴿فَكَذَّبَ﴾ للتعقيب والمفعول محذوف أي فكذب الآيات أو موسى عليه السلام من غير تردد وتأخير ﴿وَأَبَىٰ﴾ أي قبول الآيات أو الحق أو الإيمان والطاعة أي امتنع عن ذلك غاية الامتناع وكان تكذيبه وإباؤه عند الأكثرين جحوداً واستكباراً وهو الأوفق بالذم. ومن فسر أرينا بعرفنا وقدر مضافاً أي صحة آياتنا وقال: إن التعريف يوجب حصول المعرفة قال بذلك لا محالة.

وقوله تعالى ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإبائه. والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، وزعم أنه أمر محال والمجيء إما على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له أي أجئتنا من مكانك الذي كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر وهذا مما لا يصدر عن عاقل لكونه من باب محاولة المحال، وإنما قال ذلك ليحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل من أيديهم بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة إذ الإخراج من الوطن أخو القتل كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ [النساء: ٦٦] وسمي ما أظهره الله تعالى من المعجزة الباهرة سحراً لتجسيرهم على المقابلة. ثم ادعى أنه يعارضه بمثله فقال ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام واقعة في جواب قسم محذوف كأنه قيل: إذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً﴾ أي وعداً على أنه مصدر ميمي وليس باسم زمان ولا مكان لأن الظاهر أن قوله تعالى ﴿لَا نُخْلِفُهُ﴾ صفة له والضمير المنصوب عائد إليه. ومتى كان زماناً أو مكاناً لزم تعلق الاخلاف بالزمان أو المكان وهو إنما يتعلق بالوعد يقال: أخلف وعده لا زمان وعده ولا مكانه أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ وإنما فوض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه السلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب وضيق الحال وإظهار الجلادة وإراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الأمد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام وتوسيط كلمة النفي بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الاخلاف وإن عدم إخلافه لا يوجب عدم إخلافه عليه السلام ولذلك أكد النفي بتكرير حرفه.

وقرأ أبو جعفر وشيبة «لا نخلفه» بالجزم على أنه جواب للأمر أي إن جعلت ذلك لا نخلفه ﴿مَكَاناً سُوًى﴾ أي منصفاً بيننا وبينك كما روي عن مجاهد. وقتادة أي محلاً واقعاً على نصف المسافة بيننا سواء بسواء. وهذا معنى قول أبي على قربه منكم كقربه منا، وعلى ذلك قول الشاعر:

وان أبانا كان حل بأهله ... سوى بين قيس قيس عيلان والفزر

أو محل نصف أي عدل كما روي عن السدي لأن المكان إذا لم يترجح قربه من جانب على آخر كان معدلاً بين الجانبين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال: أي مكاناً مستوياً من الأرض لا وعر فيه ولا جبل ولا أكمة ولا

مطمئن بحيث يستر الحاضرين فيه بعضهم عن بعض ومراده مكاناً يتبين الواقفون فيه ولا يكون فيه ما يستر أحداً منهم ليرى كل ما يصدر منك ومن السحرة. وفيه من إظهار الجلادة وقوة الوثوق بالغلبة ما فيه، وهذا المعنى عندي حسن جداً وإليه ذهب جماعة، وقيل: المعنى مكاناً تستوي حالنا فيه وتكون المنازل فيه واحدة لا تعتبر فيه رئاسة ولا تؤدى سياسة بل يتحد هناك الرئيس والمرؤوس والسائس والمسوس ولا يخلو عن حسن، وربما يرجع إلى معنى منصفاً أي محل نصف وعدل.

وقيل: ﴿**سوى**﴾ بمعنى غير والمراد مكاناً غير هذا المكان وليس بشيء لأن سوى بهذا المعنى لا تستعمل إلا مضافة لفظاً ولا تقطع عن الإضافة، وانتصاب ﴿**مكاناً**﴾ على أنه مفعول به لفعل مقدر يدل عليه ﴿**موعداً**﴾ أي عد مكاناً لا لموعداً لأنه كما قال ابن الحاجب: مصدر قد وصف والمنصوب بالمصدر من تتمته ولا يوصف الشيء إلا بعد تمامه فكان كوصف الموصول قبل تمام صلته وهو غير سائغ.

وعن بعض النحاة أنه يجوز وصف المصدر قبل العمل مطلقاً وهو ضعيف، وقال ابن عطية: يجوز وصفه قبل العمل إذا كان المعمول ظرفاً لتوسعهم فيه ما لم يتوسعوا في غيره، ومن هنا جوز بعضهم أن يكون ﴿**مكاناً**﴾ منصوباً على الظرفية بموعداً. ورد بأن شرط النصب على الظرفية مفقود فيه، فقد قال الرضي: يشترط في نصب ﴿**مكاناً**﴾ على الظرفية أن يكون في عامله معنى الاستقرار في الظرف كقمت وقعدت وتحركت مكانك فلا يجوز نحو كتبت الكتابة مكانك وقتلته وشتمته مكانك، وتعقب بأن ما ذكره الرضي غير مسلم إذ لا مانع من قولك لمن أراد التقرب منك ليكلمك: تكلم مكانك، نعم لا يطرد حسن ذلك في كل مكان، ويجوز أن يكون ظرفاً لقوله تعالى: ﴿**لا نخلفه**﴾ على أنه مضمن معنى المجيء أو الإتيان، وجوز أن يكون ظرفاً لمحذوف وقع حالاً من فاعل ﴿**نخلفه**﴾ ويقدر كوناً خاصاً لظهور القرينة أي آتين أو جائين مكاناً.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو «سِوىً» بكسر السين والتنوين وصلاً، وقرأ باقي السبعة بالضم والتنوين كذلك، ووقف أبو بكر وحمزة والكسائي بالإمالة وورش وأبو عمرو بين بين.

وقرأ الحسن في رواية كباقي السبعة إلا أنه لم ينون وقفاً ووصلاً، وقرأ عيسى كالأولين إلا أنه لم ينون وقفاً ووصلاً أيضاً، ووجه عدم التنوين في الوصل إجراؤه مجرى الوقف في حذف التنوين والضم والكسر كما قال محيي السنة. وغيره لغتان في سوى مثل عدي وعدى.

وذكر بعض أهل اللغة أن فعلاً بكسر الفاء مختص بالأسماء الجامدة كعنب ولم يأت منه في الصفة إلا عدا جمع عدو، وزاد الزمخشري سوى. وغيره روى بمعنى مرو، وقال الأخفش: سوى مقصور إن كسرت سينه أو ضممت وممدود إن فتحت ففيه ثلاث لغات ويكون فيها جميعاً بمعنى غير وبمعنى عدل ووسط بين الفريقين، وأعلى اللغات على ما قال النحاس سوى بالكسر ﴿**قَالَ**﴾ أي موسى عليه السلام، قال في البحر: وأبعد من قال إن القائل فرعون ولعمري إنه لا ينبغي أن يلتفت إليه، وكأن الذي اضطر قائله الخبر السابق عن وهب بن منبه فليتذكر

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم
بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا

بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن
تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾
فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا
صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ
ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ
أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ
﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ
يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ هو يوم عيد كان لهم في كل عام يتزينون فيه ويزينون أسواقهم كما روي عن مجاهد. وقتادة، وقيل: يوم النيروز وكان رأس سنتهم.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه يوم عاشوراء وبذلك فسر في قوله ﷺ: «من صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة ومن تصدق يومئذ بصدقة أدرك ما فاته من صدقة تلك السنة»، وقيل: يوم كسر الخليج، وفي البحر أنه باق إلى اليوم، وقيل: يوم سوق لهم، وقيل: يوم السبت وكان يوم راحة ودعة فيما بينهم كما هو اليوم كذلك بين اليهود، وظاهر صنيع أبي حيان اختيار أنه يوم عيد صادف يوم عاشوراء، وكان يوم سبت.

والظاهر أن الموعد ها هنا اسم زمان للإخبار عنه بيوم الزينة أي زمان وعدكم اليوم المشتهر فيما بينكم، وإنما لم يصرح عليه السلام بالوعد بل صرح بزمانه مع أنه أول ما طلبه اللعين منه عليه السلام للإشارة إلى أنه عليه السلام أرغب منه فيه لما يترتب عليه من قطع الشبهة وإقامة الحجة حتى كأنه وقع منه عليه السلام قبل طلبه إياه فلا ينبغي له طلبه، وفيه إيذان بكمال وثوقه من أمره، ولذا خص عليه السلام من بين الأزمنة يوم الزينة الذي هو يوم مشهود وللاجتماع معدود، ولم يذكر عليه السلام المكان الذي ذكره اللعين لأنه بناء على المعنى الأول والثالث فيه إنما ذكره اللعين إيهاماً للتفضل عليه عليه السلام يريد بذلك إظهار الجلادة فأعرض عليه السلام عن ذكره مكتفياً بذكر الزمان المخصوص للإشارة إلى استغنائه عن ذلك وأن كل الأمكنة بعد حصول الاجتماع بالنسبة إليه سواء. وأما على المعنى الثاني فيحتمل أنه عليه السلام اكتفى عن ذلك بما يستدعيه يوم الزينة فإن من عادة الناس في الأعياد في كل وقت وكل بلد الخروج إلى الأمكنة المستوية والاجتماع في الأرض السهلة التي لا يمنع فيها شيء عن رؤية بعضهم بعضاً، وبالجملة قد أخرج عليه الصلاة والتسليم جوابه على الأسلوب الحكيم، ولله تعالى در الكليم ودره النظيم، وقيل: الموعد ها هنا

مصدر أيضاً ويقدر مضاف لصحة الأخبار أي وعدكم وعد يوم الزينة، ويكتفي عن ذكر المكان بدلالة يوم الزينة عليه، وقيل: الموعد في السؤال اسم مكان وجعله مخلفاً على التوسع كما في قوله: ويوماً شهدنا أو الضمير في ﴿لا نخلفه﴾ للوعد الذي تضمنه اسم المكان على حد ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [المائدة: ٨] أو للموعد بمعنى الوعد على طريق الاستخدام، والجملة في الاحتمالين معترضة.

ولا يجوز أن تكون صفة إذ لا بد في جملة الصفة من ضمير يعود على الموصوف بعينه، والقول بحذفه ليس بشيء و﴿مكاناً﴾ على ما قال أبو علي مفعول ثان لأجعل، وقيل: بدل أو عطف بيان، والموعد في الجواب اسم زمان ومطابقة الجواب من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس يومئذ فيه أو هو اسم مكان أيضاً ومعناه مكان وقوع الموعود به لا مكان لفظ الوعد كما توهم ويقدر مضاف لصحة الأخبار أي مكان يوم الزينة والمطابقة ظاهرة، وقيل: الموعد في الأول مصدر إلا أنه حذف منه المضاف أعني مكان وأقيم هو مقامه ويجعل ﴿مكاناً﴾ تابعاً للمقدر أو مفعولاً ثانياً؛ وفي الثاني أما اسم زمان ومعناه زمان وقوع الموعود به لا لفظ الوعد كما يرشد إليه قوله:

قالوا الفراق فقلت موعده غد

والمطابقة معنوية وأما اسم مكان، ويقدر مضاف في الخبر والمطابقة ظاهرة كما سمعت، وأما مصدر أيضاً ويقدر مضافان أحدهما في جانب المبتدأ والآخر في جانب الخبر أي مكان وعدكم مكان يوم الزينة وأمر المطابقة لا يخفى، وقيل: يقدر في الأول مضافان أي مكان إنجاز وعدكم أو مضاف واحد لكن تصير الإضافة لأدنى ملابسة،والأظهر تأويل المصدر بالمفعول وتقدير مضاف في الثاني أي موعدكم مكان يوم الزينة وهو مبني على توهم باطل أشرنا إليه، وقيل: هو في الأول والثاني اسم زمان و﴿لا نخلفه﴾ من باب الحذف والإيصال والأصل لا نخلف فيه و﴿مكاناً﴾ ظرف لا جعل وإلى هذا أشار في الكشف فقال: لعل الأقرب مأخذاً أن يجعل المكان مخلفاً على الاتساع والطباق من حيث المعنى أو المعنى اجعل بيننا وبينك في مكان سوى منصف زمان وعد لا نخلف فيه فالمطابقة حاصلة لفظاً ومعنى و﴿مكاناً﴾ ظرف لغو انتهى.

واعترض بما لا يخفى رده على من أحاط خبراً بأطراف كلامنا. وأنت تعلم أن الاحتمالات في هذه الآية كثيرة جداً والأولى منها ما هو أوفق بجزالة التنزيل مع قلة الحذف والخلو عن نزع الخف قبل الوصول إلى الماء فتأمل.

وقرأ الحسن والأعمش وعاصم في رواية وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقتادة والجحدري، وهبيرة والزعفراني «يومَ الزينة» بنصب «يوم» وهو ظاهر في أن المراد بالموعد المصدر لأن المكان والزمان لا يقعان في زمان بخلاف الحدث، أما الأول فلأنه لا فائدة فيه لحصوله في جميع الأزمنة؛ وأما الثاني فلأن الزمان لا يكون ظرفاً للزمان ظرفية حقيقية لأنه يلزم حلول الشيء في نفسه، وأما مثل ضحى اليوم في اليوم فهو من ظرفية الكل لأجزائه وهي ظرفية مجازية وما نحن فيه ليس من هذا القبيل كذا قيل وفيه منع ظاهر.

وقيل: إنه يستدل بظاهر ذلك على كون الموعد أولاً مصدراً أيضاً لأن الثاني عين الأول لإعادة النكرة معرفة، وفي الكشف لعل الأقرب مأخذاً على هذه القراءة أن يجعل الأول زماناً، والثاني مصدراً أي وعدكم كائن يوم الزينة.

والجواب مطابق معنى دون تكلف إذ لا فرق بين زمان الوعد يوم كذا رفعاً وبين الوعد يوم كذا نصباً في الحاصل بل هو من الأسلوب الحكيم لاشتماله على زيادة، وقوله تعالى ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً﴾ عطف على الزينة، وقيل: على يوم، والأول أظهر لعدم احتياجه إلى التأويل، وانتصب ﴿ضحىً﴾ على الظرف وهو ارتفاع النهار

ويؤنث ويذكر، والضحاء بفتح الضاد ممدود مذكر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى.

وجوز على القراءة بنصب ﴿يوم﴾ أن يكون ﴿موعدكم﴾ مبتدأ بتقدير وقت مضاف إليه على أنه من باب أتيتك خفوق النجم، والظرف متعلق به و﴿ضحى﴾ خبره على نية التعريف فيه لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه ولو لم يعرف لم يكن مطابقاً لمطلبهم حيث سألوه عليه السلام موعداً معيناً لا يخلف وعده، وقيل: يجوز أن يكون الموعد زماناً و﴿ضحى﴾ خبره و﴿يوم الزينة﴾ حالاً مقدماً وحينئذ يستغني عن تعريف ضحى وليس بشيء ثم إن هذا التعريف بمعنى التعيين معنى لا على معنى جعل ﴿ضحى﴾ أحد المعارف الاصطلاحية كما قد يتوهم.

وقال الطيبي: قال ابن جني: يجوز أن يكون ﴿أن يحشر﴾ عطفاً على الموعد كأنه قيل: إنجاز موعدكم وحشر الناس ضحى في يوم الزينة. وكأنه جعل الموعد عبارة عما يتجدد في ذلك اليوم من الثواب والعقاب وغيرهما سوى الحشر ثم عطف الحشر عليه عطف الخاص على العام اهـ وهو كما ترى.

وقرأ ابن مسعود والجحدري وأبو عمران الجوني وأبو نهيك وعمرو بن قائد «تحشر الناس» بتاء الخطاب ونصب «الناس» والمخاطب بذلك فرعون. وروي عنهم أنهم قرؤوا بياء الغيبة ونصب «الناس» والضمير في «يحشر» على هذه القراءة إما لفرعون وجيء به غائباً على سنن الكلام مع الملوك، وإما لليوم والإسناد مجازي كما في صام نهاره، وقال صاحب اللوامح: الفاعل محذوف للعلم به أي وأن يحشر الحاشر الناس.

وأنت تعلم أن حذف الفاعل في مثل هذا لا يجوز عند البصريين، نعم قيل في مثله: إن الفاعل ضمير يرجع إلى اسم الفاعل المفهوم من الفعل ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أي انصرف عن المجلس، وقيل: تولى الأمر بنفسه وليس بذاك. وقيل: أعرض عن قبول الحق وليس بشيء ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي ما يكاد به من السحرة وأدواتهم أو ذوي كيده ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه. وفي كلمة التراخي إيماء إلى أنه لم يسارع إليه بل أتاه بعد بطء وتلعثم، ولم يذكر سبحانه إتيان موسى عليه السلام بل قال جل وعلا ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ للإيذان بأنه أمر محقق غني عن التصريح به، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام عند إتيان فرعون بمن جمعه من السحرة. فقيل: قال لهم بطريق النصيحة ﴿وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ بأنت تدعوا آياته التي ستظهر على يدي سحراً كما فعل فرعون ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ أي يستأصلكم بسبب ذلك، ﴿بِعَذَابٍ﴾ هائل لا يقادر قدره. وقرأ جماعة من السبعة وابن عباس «فَيَسْحَتُكُمْ» بفتح الياء والحاء من الثلاثي على لغة أهل الحجاز والإسحات لغة نجد وتميم، وأصل ذلك استقصاء الحلق للشعر ثم استعمل في الإهلاك والاستئصال مطلقاً ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ أي على الله تعالى كائناً من كان بأي وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهي عنه دخولاً أولياً أو قد خاب فرعون المفتري فلا تكونوا مثله في الخيبة وعدم نجح الطلبة، والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها.

﴿فَتَنَازَعُوا﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه عليه السلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿أَمْرَهُمْ﴾ الذي أريد منهم من مغالبته عليه السلام وتشاوروا وتناظروا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول في ذلك ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفاء كلامهم عن موسى وأخيه عليهما السلام لئلا يقفا عليه فيدافعاه، وكان نجواهم على ما قاله جماعة منهم الجبائي وأبو مسلم ما نطق به قوله تعالى ﴿قَالُوا﴾ أي بطريق التناجي والإسرار ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ الخ فإنه تفسير لذلك ونتيجة التنازع وخلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور.

وقيل: كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه السلام ما هذا بقول ساحر، وروي ذلك عن محمد ابن إسحاق. وقيل: كان ذلك أن قالوا: إن غلبنا موسى اتبعناه، ونقل ذلك عن الفراء والزجاج.

وقيل: كان ذلك إن قالوا: إن كان هذا ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر، وروي ذلك عن قتادة، وعلى هذه الأقوال يكون المراد من ﴿أمرهم﴾ أمر موسى عليه السلام وإضافته إليهم لأدنى ملابسة لوقوعه فيما بينهم واهتمامهم به ويكون أسرارهم من فرعون وملئه، ويحمل قولهم: ﴿إن هذان لساحران﴾ الخ على أنهم اختلفوا فيما بينهم من الأقاويل المذكورة ثم استقرت آراؤهم على ذلك وأبوا إلا المناصبة للمعارضة وهو كلام مستأنف استئنافاً بيانياً كأنه قيل: فماذا قالوا للناس بعد تمام التنازع فقيل: ﴿قالوا إن هذان﴾ الخ.

وجعل الضمير في ﴿قالوا﴾: لفرعون وملئه على أنهم قالوا ذلك للسحرة رداً لهم عن الاختلاف وأمراً بالإجماع والإزماع وإظهار الجلادة مخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم، نعم لو جعل ضمير «تنازعوا» والضمائر الذي بعده لهم كما ذهب إليه أكثر المفسرين أيضاً لم يكن فيه ذلك الإخلال وإن مخففة من أن وقد أهملت عن العمل واللام فارقة.

وقرأ ابن كثير بتشديد نون ﴿هذان﴾ وهو على خلاف القياس للفرق بين الأسماء المتمكنة وغيرها.

وقال الكوفيون: إن نافية واللام بمعنى إلا أي ما هذان إلا ساحران. ويؤيده أنه قرىء كذلك. وفي رواية عن أبي أنه قرى «إن هذان إلا ساحران». وقرىء «إن ذان» بدون هاء التنبيه «إلا ساحران». وعزاها ابن خالويه إلى عبد الله وبعضهم إلى أبي وهي تؤيد ذلك أيضاً. وقرىء «إن ذان لساحران» بإسقاط هاء التنبيه فقط.

وقرأ أبو جعفر والحسن وشيبة والأعمش وطلحة وحميد وأيوب وخلف في اختياره وأبو عبيد وأبو حاتم وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير: وابن جبير الأنطاكي. والأخوان. والصاحبان من السبعة «إنَّ» بتشديد النون «هذان» بألف ونون خفيفة، واستشكلت هذه القراءة حتى قيل: إنها لحن وخطأ بناء على ما أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن عن هشام بن عروة عن أبيه قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن لحن القرآن عن قوله تعالى ﴿إن هذان لساحران﴾. وعن قوله تعالى ﴿والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾ [النساء: ١٦٢] وعن قوله تعالى ﴿والذين هادوا والصابئون﴾ [المائدة: ٦٩] فقالت: يا ابن أخي هذا عمل الكتاب أخطؤوا في الكتاب، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال الجلال السيوطي. وهذا مشكل جداً إذ كيف يظن بالصحابة أولاً أنهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن وهم الفصحاء اللد، ثم كيف يظن بهم ثانياً الغلط في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ كما أنزل ولم يألوا جهداً في حفظه وضبطه وإتقانه، ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطا وكتابته، ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه، ثم كيف يظن خامساً الاستمرار على الخطا وهو مروي بالتواتر خلفاً عن سلف ولو ساغ مثل ذلك لارتفع الوثوق بالقرآن.

وقد خرجت هذه القراءة على وجوه الأول أن ﴿إن﴾ بمعنى نعم وإلى ذلك ذهب جماعة منهم المبرد والأخفش الصغير وأنشدوا قوله:

بكر العواذل في الصبو ... ح يلمنني وألومهنه
ويقلن شيب قد علا ... ك وقد كبرت فقلت إنه

والجيد الاستدلال بقول ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما لمن قال له: لعن الله ناقة حملتني إليك إن وراكبها إذ قد قيل: في البيت إنا لا نسلم أن إن فيه بمعنى نعم والهاء للسكت بل هي الناصبة والهاء ضمير منصوب بها والخبر محذوف أي إنه كذلك ولا يصح أن يقال: إنها في الخبر كذلك وحذف الجزءان لأن حذف الجزأين جميعاً لا يجوز. وضعف هذا الوجه بأن كونها بمعنى نعم لم يثبت، أو هو نادر. وعلى تقدير الثبوت من غير ندرة ليس قبلها ما يقتضي

جواباً حتى تقع نعم في جوابه. والقول بأنه يفهم من صدر الكلام أن منهم من قال: هما ساحران فصدق وقيل: نعم بعيد. ومثله القول بأن ذلك تصديق لما يفهم من قول فرعون: ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾ [طه: ٥٧] وأيضاً إن لام الابتداء لا تدخل على خبر المبتدأ.

وأجيب عن هذا بأن اللام زائدة وليس للابتداء كما في قوله:

أم الحليس لعجوز شهربه ... ترضى من اللحم بعظم الرقبة

أو بأنها داخلة على مبتدأ محذوف أي لهما ساحران، كما اختاره الزجاج وقال: عرضته على عالمنا وشيخنا وأستاذنا محمد بن زيد يعني المبرد. والقاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد فقبلاه، وذكرا أنه أجود ما سمعناه في هذا أو بأنها دخلت بعد إن هذه لشبهها بأن المؤكدة لفظاً كما زيدت أن بعد ما المصدرية لمشابهتها للنافية في قوله:

ورج الفتى للخير ما إن رأيته ... على السن خيراً لا يزال يزيد

ورد الأول بأن زيادتها في الخبر خاصة بالشعر وما هنا محل النزاع فلا يصح الاحتجاج به كما توهم النيسابوري وزيف الثاني أبو علي في الإغفال بما خلاصته أن التأكيد فيما خيف لبسه فإذا بلغ به الشهرة الحذف استغنى لذلك عن التأكيد، ولو كان ما ذكر وجهاً لم يحمل نحو لعجوز شهربة على الضرورة ولا تقاس على أن حيث حذف معها الخبر في أن محلاً وأن مرتحلاً وان اجتمعا في التأكيد لأنها مشبهة بلا وحمل النقيض على النقيض شائع، وابن جني بأن الحذف من باب الإيجاز والتأكيد من باب الإطناب والجمع بينهما محال للتنافي.

وأجيب: بأن الحذف لقيام القرينة والاستغناء غير مسلم والتأكيد لمضمون الجملة لا للمحذوف والحمل في البيت ممكن أيضاً واقتصارهم فيه على الضرورة ذهول وكم ترك الأول للآخر واجتماع الإيجاز والإطناب مع اختلاف الوجه غير محال. وأصدق شاهد على دخول اللام في مثل هذا الكلام ما رواه الترمذي وأحمد وابن ماجة «أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ» نعم لا نزاع في شذوذ هذا الحذف استعمالاً وقياساً.

الثاني أن إن من الحروف الناصبة واسمها ضمير الشأن وما بعد مبتدأ وخبر والجملة خبرها، وإلى ذلك ذهب قدماء النحاة. وضعف بأن ضمير الشأن موضوع لتقوية الكلام وما كان كذلك لا يناسبه الحذف والمسموع من حذفه كما في قوله:

إن من لام في بني بنت حسا ... ن ألمه وأعصه في الخطوب

وقوله:

إن من يدخل الكنيسة يوماً ... يلق فيها جآذراً وظباء

ضرورة أو شاذ إلا في باب أن المفتوحة إذا خففت فاستسهلوه لوروده في كلام بني على التخفيف فحذف تبعاً لحذف النون ولأنه لو ذكر لوجب التشديد إذ الضمائر ترد الأشياء إلى أصولها، ثم يرد بحث دخول اللام في الخبر، وإن التزم تقدير مبتدأ داخلة هي عليه فقد سمعت ما فيه من الجرح والتعديل، الثالث أنها الناصبة وهاء ضمير القصة اسمها وجملة **﴿ذان لساحران﴾** خبرها، وضعف بأنه يقتضي وصل ها بأن من إثبات الألف وفصل ها من «ذان» في الرسم وما في المصحف ليس كذلك، ومع ذلك يرد بحث دخول اللام.

الرابع: أن إن ملغاة وإن كانت مشددة حملا لها على المخففة وذلك كما أعملت المخففة حملاً لها عليها في قوله تعالى: «وإن كلا لما ليوفينهم» أو حطاً لرتبتها عن الفعل لأن عملها ليس بالأصالة بل بالشبه له وما بعدها مبتدأ

وخبر وإلى ذلك ذهب علي بن عيسى وفيه أن هذا الإلغاء لم ير في غير هذا الموضع وهو محل النزاع وبحث اللام فيه بحاله. الخامس: وهو أجود الوجوه وأوجهها. واختاره أبو حيان وابن مالك والأخفش وأبو علي الفارسي وجماعة أنها الناصبة واسم الإشارة اسمها: واللام لام الابتداء و«ساحران» خبرها؛ ومجيء اسم الإشارة بالألف مع أنه منصوب جار على لغة بعض العرب من إجراء المثنى بالألف دائماً قال شاعرهم:

واهـــاً لـــريـــا ثـــم واهـــاً واهـــا ... يـا لـيـت عـيناهـا لـنـا وفـاهـا
ومـوضـع الـخـلـخـال مـن رجـلاهـا ... بـثـمـن نـرضـي بـه أبـاهـا

وقال الآخر:

وأطـرق إطـراق الـشـجـاع ولـو يـرى ... مـسـاغـاً لـنـا بـاه الـشـجـاع لـصـمـمـا

وقالوا: ضربته بين أذناه ومن يشتري الخفان وهي لغة لكنانة حكى ذلك أبو الخطاب ولبني الحارث بن كعب وخثعم وزبيد وأهل تلك الناحية حكى ذلك الكسائي ولبني العنبر وبني الهيجم ومراد وعذرة وقال أبو زيد: سمعت من العرب من يقلب كل ياء ينفتح ما قبلها ألفاً، وابن الحاجب يقول:

إن ﴿هذان﴾ مبني لدلالته على معنى الإشارة: وإن قول الأكثرين هذين جراً ونصباً ليس إعراباً أيضاً.

قال ابن هشام: وعلى هذا فقراءة هذان أقيس إذ الأصل في المبنى أن لا تختلف صيغته مع أن فيها مناسبة لألف «ساحران» اهـ. وأما الخبر السابق عن عائشة فقد أجاب عنه ابن أشته وتبعه ابن جبارة في شرح الرائية بأن قولها: اخطؤوا على معنى أخطؤوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز فإن ما لا يجوز من كل شيء مردود بالإجماع وإن طالت مدة وقوعه وبنحو هذا يجاب عن أخبار رويت عنها أيضاً.

وعن ابن عباس في هذا الباب تشكل ظواهرها. ثم أخرج عن إبراهيم النخعي أنه قال: إن هذان لساحران وإن هذين لساحران سواء لعلهم كتبوا الألف مكان الياء يعني أنه من إبدال حرف في الكتابة بحرف كما وقع في صلاة وزكاة وحياة. ويرد على هذا أنه إنما يحسن لو كانت القراءة بالياء في ذلك. ثم أنت تعلم أن الجواب المذكور لا يحسم مادة الإشكال لبقاء تسمية عروة ذلك في السؤال لحناً اللهم إلا أن يقال: أراد باللحن اللغة كما قال ذلك ابن اشته في قول ابن جبير المروي عنه بطرق في ﴿والمقيمين الصلاة﴾ [النساء: ١٦٢] هو لحن من الكاتب أو يقال: أراد به اللحن بحسب بادىء الرأي وابن الأنباري جنح إلى تضعيف الروايات في هذا الباب ومعارضتها بروايات أخر عن ابن عباس. وغيره تدل على ثبوت الأحرف التي قيل فيها ما قيل في القراءة. ولعل الخبر الساق الذي ذكر أنه صحيح الإسناد على شرط الشيخين داخل في ذلك لكن قال الجلال السيوطي: إن الجواب الأول الذي ذكره ابن اشته أولى وأقعد. وقال العلاء فيما أخرجه ابن الأنباري وغيره عن عكرمة قال: لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال: لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال: ستقرؤها بألسنتها لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف إن ذلك لا يصح عن عثمان فإن إسناده ضعيف مضطرب منقطع.

والذي أجنح أنا إليه والعاصم هو الله تعالى تضعيف جميع ما ورد مما فيه طعن بالمتواتر ولم يقبل تأويلاً ينشرح له الصدر ويقبله الذوق وإن صححه من صححه. والطعن في الرواة أهون بكثير من الطعن بالأئمة الذين تلقوا القرآن العظيم الذي وصل إلينا بالتواتر من النبي ﷺ ولم يألوا جهداً في إتقانه وحفظه.

وقد ذكر أهل المصطلح أن مما يدرك به وضع الخبر ما يؤخذ من حال المروي كأن يكون مناقضاً لنص القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي أو صريح العقل حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل أو لم يحتمل سقوط شيء

منه يزول به المحذور فلو قال قائل بوضع بعض هاتيك الأخبار لم يبعد والله تعالى أعلم.

وقرأ أبو عمرو «إن هذين» بتشديد نون «إن» وبالياء في «هذين». وروي ذلك عن عائشة والحسن والأعمش والنخعي والجحدري وابن جبير وابن عبيد وإعراب ذلك واضح إذ جاء على المهيع المعروف في مثله لكن في الدر المصون قد استشكلت هذه القراءة بأنها مخالفة لرسم الإمام فإن اسم الإشارة فيه بدون ألف وياء فإثبات الياء زيادة عليه. ولذا قال الزجاج: أنا لا أجيزها وليس بشيء لأنه مشترك الإلزام ولو سلم فكم في القراءات ما خالف رسمه القياس مع أن حذف الألف ليس على القياس أيضاً.

﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي أظهراه من قبل، ونسبة ذلك لهارون لما أنهم رأوه مع موسى عليهما السلام سالكاً طريقته. وهذه الجملة صفة أو خبر بعد خبر.

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأمثلها بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لا طريقة السحر فإنهم ما كانوا يعتقدونه ديناً. وقيل: أرادوا أهل طريقتكم فالكلام على تقدير مضاف. والمراد بهم بنو إسرائيل لقول موسى عليه السلام «أرسل معنا بني إسرائيل» وكانوا أرباب علم فيما بينهم.

وأخرج ذلك ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس وتعقب بأن إخراجهم من أرضهم إنما يكون بالاستيلاء عليها تمكناً وتصرفاً فكيف يتصور حينئذ نقل بني إسرائيل إلى الشام. وحمل الإخراج على إخراج بني إسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله، على أن هذا المقال منهم للإغراء بالمبالغة في المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلا بد أن يكون الإنذار والتحذير بأشد المكاره وأشقها عليهم، ولا ريب في أن إخراج بني إسرائيل من بينهم والذهاب بهم إلى الشام وهم آمنون في ديارهم ليس فيه كثير محذور وهو كلام يلوح عليه مخايل القبول فلعل الخبر عن الحبر لا يصح.

وأخرج ابن المنذر. وابن أبي حاتم أيضاً عن مجاهد أن الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم. وحكى فلان طريقة قومه أي سيدهم. وكأن إطلاق ذلك على الوجوه مجاز لاتباعهم كما يتبع الطريق، وأخرجا عن علي كرم الله تعالى وجهه أن إطلاق ذلك عليهم بالسريانية، وكأنهم أرادوا بهؤلاء الوجوه الوجوه من قوم فرعون أرباب المناصب وأصحاب التصرف والمراتب فيكونوا قد حذروهم بالإخراج من أوطانهم وفصل ذوي المناصب منهم عن مناصبهم وفي ذلك غاية الذل والهوان ونهاية حوادث الزمان، فما قيل: إن تخصيص الإذهاب بهم مما لا مزية فيه ليس بشيء، وقيل: إنهم أرادوا بهم بني إسرائيل أيضاً لأنهم كانوا أكثر منهم نسباً وأشرف نسباً وفيه ما مر آنفاً، واعترض أيضاً بأنه ينافيه استعبادهم واستخدامهم وقتل أولادهم وسومهم العذاب.

وأجيب بالمنع فكم من متبوع مقهور وشريف بأيدي الأنذال مأسور وهو كما ترى ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ تصريح بالمطلوب إثر تمهيد المقدمات. والفاء فصيحة أي إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ما يريدان فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه بحيث لا يتخلف عنه منكم أحد وارموا عن قوس واحدة.

وقرأ الزهري وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب في رواية وأبو حاتم «فَأَجْمَعُوا» بوصل الهمزة وفتح الميم من الجمع. ويعضده قوله تعالى ﴿فجمع كيده﴾ وفي الفرق بين جمع وأجمع كلام للعلماء. قال ابن هشام: إن أجمع يتعلق بالمعاني فقط وجمع مشترك بين المعاني والذوات. وفي عمدة الحفاظ حكاية القول بأن أجمع أكثر ما يقال في المعاني وجمع في الأعيان فيقال: أجمعت أمري وجمعت قومي وقد يقال بالعكس.

وفي المحكم أنه يقال: جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعاً وأجمعه فلم يفرق بينهما، وقال الفراء: إذا أردت جمع المتفرق قلت: جمعت القوم فهم مجموعون وإذا أردت جمع المال قلت جمعت بالتشديد ويجوز تخفيفه والإجماع الاحكام والعزيمة على الشيء ويتعدى بنفسه وبعلى تقول: أجمعت الخروج وأجمعت على الخروج، وقال الأصمعي: يقال جمعت الشيء إذا جئت به من هنا ومن هنا وأجمعته إذا صيرته جميعاً، وقال أبو الهيثم: أجمع أمره أي جعله جميعاً وعزم عليه بعد ما كان متفرقاً وتفرقته أن يقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا والجمع أن يجمع شيئاً إلى شيء، وقال الفراء: في هذه الآية على القراءة الأولى أي لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلا جئتم به ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي مصطفين أمروا بذلك لأنه أهيب في صدور الرائين وادخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين. قيل: كانوا سبعين ألفاً مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه عليه السلام إقبالة واحدة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان من القبط والباقي من بني إسرائيل، وقيل: تسعمائة ثلاثمائة من الفرس وثلاثمائة من الروم وثلاثمائة من الإسكندرية، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، ولا يخفى حال الأخبار في ذلك والقلب لا يميل إلى المبالغة والله تعالى أعلم، ولعل الموعد كان مكاناً متسعاً خاطبهم موسى عليه السلام بما ذكر في قطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم في قطر آخر منه ثم أمروا أن يأتوا وسطه على الحال المذكورة، وقد فسر أبو عبيدة الصف بالمكان الذي يجتمعون فيه لعيدهم وصلواتهم وفيه بعد، وكأنه علم لموضع معين من مكان يوم الزينة، وعلى هذا التفسير يكون ﴿صفا﴾ مفعولاً به.

وقرأ شبل بن عباد وابن كثير في رواية شبل عنه «ثم ايتوا» بكسر الميم وإبدال الهمزة ياء. قال أبو علي: وهذا غلط ولا وجه لكسر الميم من ثم، وقال صاحب اللوامح: إن ذلك لالتقاء الساكنين كما كانت الفتحة في قراءة العامة كذلك ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ اعتراض تذييلي من قبلهم مؤكد لما قبله من الأمرين أي قد فاز بالمطلوب من غلب. فاستفعل بمعنى فعل كما في الصحاح أو من طلب العلو والغلب وسعى سعيه على ما في البحر. فاستفعل على بابه، ولعله أبلغ في التحريض حيث جعلوا الفوز لمن طلب الغلب فضلاً عمن غلب بالفعل وأرادوا بالمطلوب ما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ [الأعراف: ١١٤] وبمن استعلى أنفسهم جميعاً على طريقة قولهم بعزة فرعون ﴿إنا لنحن الغالبون﴾ [الشعراء: ٤٤] أو من استعلى منهم حثاً على بذل المجهود في المغالبة.

وقال الراغب: الاستعلاء قد يكون لطلب العلو المذموم وقد يكون لغيره وهو ها هنا يحتملهما فلهذا جاز أن يكون هذا الكلام محكياً عن هؤلاء القائلين للتحريض على إجماعهم واهتمامهم وأن يكون من كلام الله عز وجل فالمستعلى موسى. وهارون عليهما السلام ولا تحريض فيه.

وأنت تعلم أن الظاهر هو الأول ﴿قَالُوا﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا فعلوا بعد ما قالوا ذلك؟ فقيل قالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ وإنما لم يتعرض لإجماعهم وإتيانهم مصطفين إشعاراً بظهور أمرهما وغنائهما عن البيان ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ أي ما تلقيه أولاً على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الإلقاء أولاً على أن الفعل منزل منزلة اللازم ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ما يلقيه أو أول من يفعل الإلقاء خيروه عليه السلام وقدموه على أنفسهم إظهاراً للثقة بأمرهم، وقيل: مراعاة للأدب معه عليه السلام. وأن مع ما في حيزها منصوب بفعل مضمر أي إما تختار إلقاءك أو تختار كوننا أول من ألقى أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر إما إلقاؤك أو كوننا أول من ألقى. واختار أبو حيان كونه مبتدأ محذوف الخبر أي إلقاؤك أول بقرينة ﴿أو نكون أول من ألقى﴾ وبه تتم المقابلة لكنها معنوية ﴿قَالَ﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فماذا قال عليه السلام؟ فقيل قال: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم أولاً إظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم وإسعافاً لما

أوهموا من الميل إلى البدء في شقهم حيث غيروا النظم إلى وجه أبلغ إذ كان الظاهر أن يقولوا: وإما أن نلقي وليبرزوا ما معهم ويستفرغوا جهدهم ويستنفذوا قصارى وسعهم ثم يظهر الله تعالى شأنه سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه.

قيل وفي ذلك أيضاً مقابلة أدب بأدب، واستشكل بعضهم هذا الأمر ظناً منه أنه يستلزم تجويز السحر فحمله دفعاً لذلك على الوعيد على السحر كما يقال للعبد العاصي: افعل ما أردت، وقال أبو حيان: هو مقرون بشرط مقدر أي ألقوا إن كنتم محقين. وفيه أنه عليه السلام يعلم عدم إحقاقهم فلا يجدي التقدير بدون ملاحظة غيره.

وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى ذلك ولا إشكال فإن هذا كالأمر بذكر الشبهة لتنكشف. والقول بأن تقديم سماع الشبهة على الحجة غير جائز لجواز أن لا يتفرغ لإدراك الحجة بعد ذلك فتبقى مما لا يلتفت إليه.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما في قوله تعالى: ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفلق﴾ [الشعراء: ٦٣] أي فالقوا فإذا حبالهم الخ. وهي في الحقيقة عاطفة لجملة المفاجأة على الجملة المحذوفة. وإذا فجائية وهي عند الكوفيين حرف وهو مذهب مرجوح عند أبي حيان وظرف زمان عند الرياشي وهو كذلك عنده أيضاً وظرف مكان عند المبرد وهو ظاهر كلام سيبويه ومختار أبي حيان والعامل فيها هنا **﴿ألقوا﴾** عند أبي البقاء. ورد بأن الفاء تمنع من العمل، وفي البحر إنما هي معمولة لخبر المبتدأ الذي هو **﴿حبالهم وعصيهم﴾** إن لم نجعلها هي في موضع الخبر بل جعلنا الخبر جملة **﴿يخيل﴾** وإذا جعلناها في موضع الخبر وجعلنا الجملة في موضع الحال فالأمر واضح. وهذا نظير خرجت فإذا الأسد رابض ورابضاً. ولصحة وقوعها خبراً يكتفى بها وبالمرفوع بعدها كلاماً فيقال: خرجت فإذا الأسد. ونص الأخفش في الأوسط على أنها قد يليها جملة فعلية مصحوبة بقد فيقال: خرجت فإذا قد ضرب زيد عمراً، وفي الكشاف التحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة، والجملة ابتدائية لا غير فتقدير الآية ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل، والمعنى على مفاجأة حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي انتهى، وفيه من المخالفة لما قدمنا ما فيه لكن أمر العطف عليه أوفق كما لا يخفى، وعنى بقوله: هذا تمثيل أنه تصوير للإعراب وأن إذا وقتية أوقع عليها فعل المفاجأة توسعاً لأنها سدت مسد الفعل والمفعول ولأن مفاجأة الوقت يتضمن مفاجأة ما فيه بوجه أبلغ. وما قيل: إنه أراد الاستعارة التمثيلية فيحتاج إلى تكلف لتحصيلها. وضمير **﴿إليه﴾** الظاهر أنه لموسى عليه السلام بل هو كالمتعين، وقيل: لفرعون وليس بشيء، وأن وما في حيزها نائب فاعل **﴿يخيل﴾** أي يخيل إليه بسبب سحرهم سعيها وكأن ذلك من باب السيمياء وهي علم يقتدر به على إراء الصورة الذهنية لكن يشترط غالباً أن يكون لها مادة في الخارج في الجملة ويكون ذلك على ما ذكره الشيخ محمد عمر البغدادي في حاشيته على رسالة الشيخ عبد الغني النابلسي في وحدة الوجود بواسطة أسماء وغيرها.

وذكر العلامة البيضاوي في بعض رسائله أن علم السيمياء حاصله إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس ويطلق على إيجاد تلك المثالات بصورها في الحس وتكون صوراً في جوهر الهواء وهي سريعة الزوال بسبب سرعة تغير جوهره، ولفظ سيمياء معرب شيم يه ومعناه اسم الله تعالى انتهى وما ذكره من سرعة الزوال لا يسلم كلياً وهو عندي بعض من علم السحر. وعرفه البيضاوي بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية ثم قال: والسحر منه حقيقي. ومنه غير حقيقي؛ ويقال له: الأخذ بالعيون وسحرة فرعون أتوا

بمجموع الأمرين انتهى، والمشهور أن هؤلاء السحرة جعلوا في الحبال والعصي زئبقاً فلما أصابتها حرارة الشمس اضطربت واهتزت فخيل إليه عليه السلام أنها تتحرك وتمشي كشيء فيه حياة. ويروى أنه عليه السلام رآها كأنها حيات وقد أخذت ميلاً في ميل، وقيل: حفروا الأرض وجعلوا فيها ناراً ووضعوا فوقها تلك الحبال والعصي فلما أصابتها حرارة النار تحركت ومشت. وفي القلب من صحة كلا القولين شيء.

والظاهر أن التخيل من موسى عليه السلام قد حصل حقيقة بواسطة سحرهم، وروي ذلك عن وهب.

وقيل: لم يحصل والمراد من الآية أنه عليه السلام شاهد شيئاً لولا علمه بأنه لا حقيقة له لظن فيها أنها تسعى فيكون تمثيلاً وهو خلاف الظاهر جداً، وقرأ الحسن وعيسى «عُصْيهِمْ» بضم العين وإسكان الصاد وتخفيف الياء مع الرفع وهو جمع كما في القراءة المشهورة وقرأ الزهري والحسن وعيسى وأبو حيوة وقتادة والجحدري وروح وابن ذكوان وغيرهم «تخيل» بالتاء الفوقانية مبنياً للمفعول وفيه ضمير الحبال والعصى. و﴿**أنها تسعى**﴾ بدل اشتمال من ذلك الضمير ولا يضر الإبدال منه في كونه رابطاً لكونه ليس ساقطاً من كل الوجوه.

وقرأ أبو السمال «تَخيل» بفتح التاء أي تتخيل وفيه أيضاً ضمير ما ذكروا ﴿**أنها تسعى**﴾ بدل منه أيضاً، وقال ابن عطية: هو مفعول من أجله، وقال أبو القاسم بن حبارة الهذلي الأندلس في كتاب الكامل: عن أبي السمال أنه قرىء «تُخيل» بالتاء من فوق المضمومة وكسر الياء والضمير فيه فاعل و«أنها تسعى» نصب على المفعول به. ونسب ابن عطية هذه القراءة إلى الحسن وعيسى الثقفي ومن بنى «تخيل» للمفعول فالمخيل لهم ذلك هو الله تعالى للمحنة والإبتلاء.

وروى الحسن بن يمن عن أبي حيوة «نخيل» بالنون وكسر الياء فالفاعل ضميره تعالى ﴿**أنها تسعى**﴾ مفعول به.

﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ**﴾ الإيجاس الإخفاء والخيفة الخوف وأصله خوفة قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون خوفة بفتح الخاء قلبت الواو ياء ثم كسرت الخاء للتناسب والأول أولى. والتنوين للتحقير أي أخفى فيها بعض خوف من مفاجأة ذلك بمقتضى طبع الجبلة البشرية عند رؤية الأمر المهول وهو قول الحسن، وقال مقاتل: خاف عليه السلام من أن يعرض للناس ويختلج في خواطرهم شك وشبهة في معجزة العصا لما رأوا من عصيهم. وإضمار خوفه عليه السلام من ذلك لئلا تقوى نفوسهم إذا ظهر لهم فيؤدي إلى عدم اتباعهم، وقيل: التنوين للتعظيم أي أخفى فيها خوفاً عظيماً، وقال بعضهم: إن الصيغة لكونها فعلة وهي دالة على الهيئة والحالة اللازمة تشعر بذلك ولذا اختيرت على الخوف في قوله تعالى ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾ [الرعد: ١٣] ولا يأباه الإيجاس، وقيل: يأباه والأول هو الأنسب بحال موسى عليه السلام إن كان خوفه مما قاله الحسن والثاني هو الأنسب بحاله عليه السلام إن كان خوفه مما قاله مقاتل، وقيل: إنه أنسب أيضاً بوصف السحر بالعظم في قوله تعالى ﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾ [الأعراف: ١١٦] وأيد بعضهم كون التنوين لذلك بإظهار موسى وعدم إضماره فتأمل، وقيل: إنه عليه السلام سمع لما قالوا إما أن تلقى الخ القوا يا أولياء الله تعالى فخاف لذلك حيث يعلم أن أولياء الله تعالى لا يغلبون ولا يكاد يصح والنظم الكريم يأباه. وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل ﴿**قُلْنَا لَا تَخَفْ**﴾ أي لا تستمر على خوفك مما توهمت وادفع عن نفسك ما اعتراك فالنهي على حقيقته، وقيل: خرج عن ذلك للتشجيع وتقوية القلب ﴿**إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ**﴾ تعليل لما يوجبه النهي من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عن ذلك الاستئناف البياني وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعرف الخبر ولفظ العلو المنبىء عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل كما قاله غير واحد. والذي أميل إليه أن الصيغة المذكورة لمجرد الزيادة فإن كونها للمشاركة والزيادة

يقتضي أن يكون للسحرة علو وغلبة ظاهرة أيضاً مع أنه ليس كذلك وإثبات ذلك لهم بالنسبة إلى العامة كما قيل ليس بشيء إذ لا مغالبة بينهم وبينهم ﴿**وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ**﴾ أي عصاك كما وقع في سورة الأعراف. وكأن التعبير عنها بذلك لتذكيره ما وقع وشاهده عليه السلام منها يوم قال سبحانه له ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ [طه: ١٧]، وقال بعض المحققين: إنما أوثر الإبهام تهويلاً لأمرها وتفخيماً لشأنها وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصي المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة لكنها مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر في مواضع أخر لا يستدعي عدم مراعاتها عند وقوع المحكي انتهى. وحاصله أن الإبهام للتفخيم كأن العصا لفخامة شأنها لا يحيط بها نطاق العلم نحو ﴿فغشيهم من أليم ما غشيهم﴾ [طه: ٧٨] ووقع حكاية الأمر في مواضع أخر بالمعنى والواقع نفسه ما تضمن هذه النكتة وإن لم يكن بلفظ عربي وإنما لم يعتبر العكس لأن المتضمن أوفق بمقام النهي عن الخوف وتشجيعه عليه السلام.

وقال أبو حيان: عبر بذلك دون عصاك لما في اليمين من معنى اليمن والبركة، وفيه أن الخطاب لم يكن بلفظ عربي، وقيل: الإبهام للتحقير بأن يراد لا تبالي بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذي في يدك فإنه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها. وتعقب بأنه يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى إنما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهي على الهيئة الأصلية وقد كان منها ما كان، وما يحتمل أن تكون موصوفة ويحتمل أن تكون موصولة على كل من الوجهين، وقيل: الأنسب على الأول الأول وعلى الثاني الثاني، وقوله تعالى ﴿**تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا**﴾ بالجزم جواب الأمر من لقفه ناله بالحذف باليد أو بالفم، والمراد هنا الثاني والتأنيث بكون ما عبارة عن العصا أي تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصي التي خيل إليك سعيها، والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير. وقرأ الأكثرون «تَلَقَّفُ» بفتح اللام وتشديد القاف وإسقاط إحدى التاءين من «تتلقف».

وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه رفع الفعل على أن الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حال مقدرة من فاعل ألق بناء على تسببه أو من مفعوله أي متلقفاً أو متلقفة؛ وجملة الأمر معطوفة على النهي متممة بما في حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية علوه وغلبه عليه السلام فإن ابتلاع عصاه عليه السلام لأباطيلهم التي منها أوجس في نفسه خيفة يقلع مادة الخوف بالكلية. وزعم بعضهم أن هذا صريح في أن خوفه عليه السلام لم يكن من مخالجة الشك للناس في معجزة العصا وإلا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب إيمانهم وفيه تأمل.

وقوله تعالى ﴿**إِنَّمَا صَنَعُوا**﴾ الخ تعليل لقوله تعالى ﴿**تلقف ما صنعوا**﴾ وما إما موصولة أو موصوفة أو مصدرية أي إن الذي صنعوه أو إن شيئاً صنعوه أو إن صنعهم ﴿**كَيْدُ سَاحِرٍ**﴾ بالرفع على أنه خبر إن أي كيد جنس الساحر، وتنكيره للتوسل به إلى ما يقتضيه المقام من تنكير المضاف ولو عرف لكان المضاف إليه معرفة وليس مراداً. واعترض بأنه يجوز أن يكون تعريفه الإضافي حينئذ للجنس وهو كالنكرة معنى وإنما الفرق بينهما حضوره في الذهن. وأجيب بأنه لا حاجة إلى تعيين جنسه فإنه مما علم من قوله تعالى «يخيل» الخ وإنما الغرض بعد تعيينه أن يذكر أنه أمر مموه لا حقيقة له وهذا مما يعرف بالذوق، وقيل: نكر ليتوسل به إلى تحقير المضاف. وتعقب بأنه بعد تسليم إفادة ذلك تحقير المضاف لا يناسب المقام ولأنه يفيد انقسام السحر إلى حقير وعظيم وليس بمقصود. وأيضاً ينافي ذلك قوله تعالى في آية أخرى ﴿**وجاؤوا بسحر عظيم**﴾ إلا أن يقال عظمه من وجه لا ينافي حقارته في نفسه وهو المراد من تحقيره. وقيل: إنما نكر لئلا يذهب الذهن إلى أن المراد ساحر معروف فتدبر.

وقرأ مجاهد وحميد وزيد بن علي عليهم الرحمة «كَيد» بالنصب على أنه مفعول ﴿**صنعوا**﴾ وما كافة.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بحرية والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وخلف في اختياره وابن عيسى الأصبهاني وابن جبير الأنطاكي وابن جرير «سِحْر» بكسر السين وإسكان الحاء على معنى ذي سحر أو على تسمية الساحر سحراً مبالغة كأنه لتوغله في السحر صار نفس السحر. وقيل: على أن الإضافة لبيان أن الكيد من جنس السحر. وهذه الإضافة من إضافة العام إلى الخاص. وهي على معنى اللام عند شارح الهادي وعلى معنى من على ما يفهم من ظاهر كلام الشريف في أول شرح المفتاح وتسمى إضافة بيانية. ويحمل فيما وجدت فيه المضاف إليه على المضاف. ولا يشترط أن يكون بين المتضايفين عموم وخصوص من وجه وبعضهم شرط ذلك.

وقوله تعالى شأنه ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ حيث كان وأين أقبل فحيث ظرف مكان أريد به التعميم من تمام التعليل. ولم يتعرض لشأن العصا وكونها معجزة إلهية مع ما في ذلك من تقوية التعليل للإيذان بظهور أمرها. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي قال: «قال رسول الله ﷺ إذا أخذتم الساحر فاقتلوه ثم قرأ: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ قال لا يؤمن حيث وجد» وقرأت فرقة «أين أتى» والفاء في قوله تعالى ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ فضيحة معربة عن جمل غنية عن التصريح أي فزال الخوف وألقى ما في يمينه وصارت حية وتلقفت حبالهم وعصيهم وعلموا أن ذلك معجز فألقى السحرة على وجوههم سجداً لله تعالى تائبين مؤمنين به عز وجل وبرسالة موسى عليه السلام.

روي أن رئيسهم قال: كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقينا فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع القدير العليم وبظهور ذلك على يد موسى عليه السلام على صحة رسالته. وكأن هاتيك الحبال والعصي صارت هباء منبثاً وانعدامها بالكلية ممكن عندنا، وفي التعبير بألقى دون فسجد إشارة إلى أنهم شاهدوا ما أزعجهم فلم يتمالكوا حتى وقعوا على وجوههم ساجدين، وفيه إيقاظ السامع لإلطاف الله تعالى في نقله من شاء من عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الإيمان والسداد مع ما فيه من المشاكلة والتناسب، والمراد أنهم أسرعوا إلى السجود، قيل: إنهم لم يرفعوا رؤوسهم من السجود حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب.

وأخرج عبد بن حميد. وابن المنذر. وابن أبي حاتم عن عكرمة أنهم لما خروا سجداً أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم في الجنة. واستبعد ذلك القاضي بأنه كالإلجاء إلى الإيمان وأنه ينافي التكليف. وأجيب بأنه حيث كان الإيمان مقدماً على هذا الكشف فلا منافاة ولا الجاء، وفي إرشاد العقل السليم أنه لا ينافيه قولهم: ﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ [طه: ٧٣] الخ لأن كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم.

﴿قَالُوا﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ تأخير موسى عليه السلام عند حكاية كلامهم المذكورة في سورة الأعراف المقدم فيه موسى عليه السلام لأنه أشرف من هارون والدعوة والرسالة إنما هي له أولاً وبالذات وظهور المعجزة على يده عليه السلام لرعاية الفواصل، وجوز أن يكون كلامهم بهذا الترتيب وقدموا هارون عليه السلام لأنه أكبر سناً، وقول السيد في شرح المفتاح: إن موسى أكبر من هارون عليهما السلام سهو. وأما للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربي موسى عليه السلام فلو قدموا موسى لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون وتقديمه في سورة الأعراف تقديم في الحكاية لتلك النكتة.

وجوز أبو حيان أن يكون ما هنا قول طائفة منهم وما هناك قول أخرى وراعى كل نكتة فيما فعل لكنه لما اشترك القول في المعنى صح نسبة كل منهما إلى الجميع. واختيار هذا القول هنا لأنه أوفق بآيات هذه السورة.

﴿قَالَ﴾ أي فرعون للسحرة ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أي لموسى كما هو الظاهر. والإيمان في الأصل متعد بنفسه ثم شاع تعديه بالباء لما فيه من التصديق حتى صار حقيقة. وإنما عدي هنا باللام لتضمينه معنى الانقياد وهو يعدى بها يقال.

انقاد له لا الاتباع كما قيل: لأنه متعد بنفسه يقال: اتبعه ولا يقال: اتبع له، وفي البحر إن آمن يوصل بالباء إذا كان متعلقه الله عز اسمه وباللام إن كان متعلقه غيره تعالى في الأكثر نحو ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ [التوبة: ٦١]. فما آمن لموسى الخ. ﴿لن نؤمن لك﴾ [الإسراء: ٩٠] ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ [يوسف: ١٧] ﴿فآمن له لوط﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وجوز أن تكون اللام تعليلية والتقدير آمنتم بالله تعالى لأجل موسى وما شاهدتهم منه، واختاره بعضهم ولا تفكيك فيه كما توهم، وقيل: يحتمل أن يكون ضمير «له» للرب عز وجل، وفي الآية حينئذ تفكيك ظاهر.

وقرأ الأكثر «آآمنتم» عل الاستفهام التوبيخي. والتوبيخ هو المراد من الجملة على القراءة الأولى أيضاً لا فائدة الخبر أو لازمها ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي من غير إذني لكم في الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ [الكهف: ١٠٩] لا إن إذنه لهم في ذلك واقع بعد أو متوقع، وفرق الطبرسي بين الإذن والأمر بأن الأمر يدل على إرادة الآمر الفعل المأمور به وليس في الإذن ذلك ﴿إِنَّهُ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ لعظيمكم في فنكم وأعلمكم به وأستاذكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ كأن اللعين وبخهم أولاً على إيمانهم له عليه السلام من غير إذنه لهم ليرى قومه أن إيمانهم غير معتد به حيث كان بغير إذنه. ثم استشعر أن يقولوا: أي حاجة إلى الإذن بعد أن صنعنا ما صنعنا وصدر منه عليه السلام ما صدر فأجاب عن ذلك بقوله: ﴿إنه﴾ إلخ أي ذلك غير معتد به أيضاً لأنه أستاذكم في السحر فتواطأتم معه على ما وقع أو علمكم شيئاً دون شيء فلذلك غلبكم فالجملة تعليل لمحذوف، وقيل: هي تعليل للمذكور قبل. وبالجملة قال ذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان لموسى عليه السلام ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فأقسم لأقطعن ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي اليد اليمنى والرجل اليسرى وعليه عامة المفسرين وهو تخصيص من خارج وإلا فيحتمل أن يراد غير ذلك. و﴿من﴾ ابتدائية.

وقال الطبرسي: بمعنى عن أو على وليس بشيء. والمراد من الخلاف الجانب المخالف أو الجهة المخالفة. والجار والمجرور حسبما يظهر متعلق بأقطعن، وقيل: متعلق بمحذوف وقع صفة مصدر محذوف أي تقطيع مبتدأ من جانب مخالف أو من جهة مخالفة وابتداء التقطيع من ذلك ظاهر، ويجوز أن يبقى الخلاف على حقيقته أعني المخالفة وجعله مبتدأ على التجوز فإنه عارض ما هو مبدأ حقيقة، وجعل بعضهم الجار والمجرور في حيز النصب على الحالية، والمراد لأقطعنها مختلفات فتأمل، وتعيين هذه الكيفية قيل للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة في باب السياسة. ولعل اختيارها فيها دون القطع من وفاق لأن فيه إهلاكاً وتفويتاً للمنفعة، وزعم بعضهم أنها أفظع ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها. وإيثار كلمة في للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً تشبيهاً لاستمرارهم عليها باستقرار الظرف في المظروف المشتمل عليه. وعلى ذلك قوله:

وهم صلبوا العبدي في جذع نخلة ... فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

وفيه استعارة تبعية. والكلام في ذلك شهير، وقيل: لا استعارة أصلاً لأن فرعون نقر جذوع النخل وصلبهم في داخلها ليموتوا جوعاً وعطشاً ولا يكاد يصح بل في أصل الصلب كلام. فقال بعضم: إنه أنفذ فيهم وعيده وصلبهم وهو أول من صلب. ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٥] لأن المراد الغلبة بالحجة. وقال الإمام: لم يثبت ذلك في الأخبار. وأنت تعلم أن الظاهر السلامة. وصيغة التفعيل في الفعلين للتكثير. وقرىء بالتخفيف فيهما.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ﴾ يريد من ـ نا ـ نفسه وموسى عليه السلام بقرينة تقدم ذكره في قوله تعالى

﴿آمنتم له﴾ بناء على الظاهر فيه. واختار ذلك الطبري وجماعة وهذا إما لقصد توضيع موسى عليه السلام والهزء به لأنه عليه السلام لم يكن من التعذيب في شيء، وإما لأن إيمانهم لم يكن بزعمه عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبله عليه السلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضاً. واختار أبو حيان أن المراد من الغير الذي أشار إليه الضمير رب موسى عز وجل الذي آمنوا به بقولهم ﴿آمنا برب هارون موسى﴾. ﴿ولتعلمن﴾ هنا معلق و﴿أينا أشد﴾ جملة استفهامية من مبتدأ وخبر في موضع نصب سادة مسد مفعوليه إن كان العلم على بابه أو في موضع مفعول واحد له إن كان بمعنى المعرفة: ويجوز على هذا الوجه أن يكون ﴿أينا﴾ مفعولاً وهو مبني على رأي سيبويه و﴿أشد﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أشد. والجملة صلة أي والعائد الصدر، و﴿عذاباً﴾ تمييز. وقد استغنى بذكره مع ﴿أشد﴾ عن ذكره مع ﴿أبقى﴾ وهو مراد أيضاً. واشتقاق أبقى من البقاء بمعنى الدوام. وقيل: لا يبعد والله تعالى أعلم أن يكون من البقاء بمعنى العطاء فإن اللعين كان يعطي لمن يرضاه العطايا فيكون للآية شبه بقول نمروذ «أنا أحيي وأميت» وهو في غاية البعد عند من له ذوق سليم. ثم لا يخفى أن اللعين في غاية الوقاحة ونهاية الجلادة حيث أوعد وهدد وأبرق وأرعد مع قرب عهده بما شاهد من انقلاب العصا حية وما لها من الآثار الهائلة حتى إنها قصدت ابتلاع قبته فاستغاث بموسى عليه السلام ولا يبعد نحو ذلك من فاجر طاغ مثله ﴿قَالُوا﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿إِنَ نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك بالإيمان والانقياد ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ من المعجزات الظاهرة التي اشتملت عليه العصا. وإنما جعلوا المجيء إليهم وإن عم لأنهم المنتفعون بذلك والعارفون به على أتم وجه من غير تقليد. وما موصولة وما بعدها صلتها والعائد الضمير المستتر في جاء. وقيل العائد محذوف وضمير ﴿جاءنا﴾ لموسى عليه السلام أي على الذين جاءنا به موسى عليه السلام وفيه بعد. وإن كان صنيع بعضهم اختياره مع أن في صحة حذف مثل هذا المجرور كلاماً.

﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي أبدعنا وأوجدنا وسائر العلويات والسفليات. وهو عطف على «ما جاءنا» وتأخيره لأن ما في ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة. وإيراده تعالى بعنوان الفاطرية لهم للإشعار بعلة الحكم فإن إبداعه تعالى لهم. وكون فرعون من جملة مبدعاته سبحانه مما يوجب عدم إيثارهم إياه عليه عز وجل. وفيه تكذيب للعين في دعواه الربوبية. وقيل: الواو للقسم وجوابه محذوف لدلالة المذكور عليه أي وحق الذي فطرنا لن نؤثرك إلخ. ولا مساغ لكون المذكور جواباً عند من يجوز تقديم الجواب أيضاً لما أن القسم لإيجاب كما قال أبو حيان: بلن إلا في شاذ من الشعر. وقولهم: هذا جواب لتوبيخ اللعين بقوله: آمنتم إلخ. وقوله تعالى ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ جواب عن تهديده بقوله: لأقطعن إلخ أي فاصنع ما أنت بصدد صنعه أوفاحكم بما أنت بصدد الحكم به فالقضاء أما بمعنى الإيجاد الإبداعي كما في قوله تعالى ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ [فصلت: ١٢] وإما بمعناه المعروف. وعلى الوجهين ليس المراد من الأمر حقيقته، وما موصولة والعائد محذوف.

وجوز أبو البقاء كونها مصدرية وهو مبني على ما ذهب إليه بعض النحاة من جواز وصل المصدرية بالجملة الاسمية ومنع ذلك بعضهم، وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الأمر بالقضاء، وما كافة و﴿هذه الحياة﴾ منصوب محلاً على الظرفية لتقضى والقضاء على ما مر ومفعوله محذوف أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسب وما لنا من رغبة في عذبها ولا رهبة من عذابها، وجوز أن تكون ما مصدرية فهي وما في حيزها في تأويل مصدر اسم أن وخبرها ﴿هذه الحياة﴾ أي إن قضاءك كائن في هذه الحياة، وجوز أن ينزل الفعل منزلة اللازم فلا حذف.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة «إنما تقضي» بالبناء للمفعول «هذه الحياةُ» بالرفع على أنه اتسع في الظرف فجعل مفعولاً به ثم بنى الفعل له نحو صيم يوم الخميس ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ التي اقترفناها من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به.

وقوله تعالى ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ عطف على ﴿خطايانا﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي علمناه في معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم إظهاراً لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته، وذكر الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة، وقيل: إن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقي من بني إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل فأمر أن يتعلموا السحر وقال: علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد من أهل الأرض وهم من الذين آمنوا بموسى عليه السلام وهم الذين قالوا: ﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾، وقال الحسن: كان يأخذ ولدان الناس ويجبرهم على تعلم السحر، وقيل: إنه أكرههم على المعارضة حيث روي أنهم قالوا له: أرنا موسى نائماً ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا: ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه ولا ينافي ذلك قولهم: ﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ [الشعراء: ٤٤] لاحتمال أن يكون قبل ذلك أو تجلداً كما أن قولهم: ﴿إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ [الأعراف: ١١٣] قبله كما قيل: وزعم أبو عبيد أن مجرد أمر السلطان شخصاً إكراه وإن لم يتوعده وإلى ذلك ذهب ساداتنا الحنفية كما في عامة كتبهم لما في مخالفة أمره من توقع المكروه لا سيما إذا كان السلطان جباراً طاغية ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ في حد ذاته تعالى ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي وأدوم جزاء ثواباً كان أو عقاباً أو خير ثواباً وأبقى عذاباً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ إلى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى شأنه خير وأبقى وتحقيق له وإبطال لما ادعاه اللعين، وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما ولزيادة تقرير له أي إن الشأن الخطير. هذا أي قوله تعالى ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ بأن مات على الكفر والمعاصي.

﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه تعالى أبقى ﴿وَلاَ يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها ﴿وَمَنْ يَأْتِه مُؤْمِناً﴾ به عز وجل وبما جاء من عنده من المعجزات التي من جملتها ما شاهدناه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الأعمال ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد فيما تقدم باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أي فأولئك المؤمنون العاملون للأعمال الصالحات ﴿لَهُمُ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم ذلك ﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ أي المنازل الرفيعة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الدرجات العلى أوبيان وقد تقدم في عدن[1] ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ حال من الجنات، وقوله تعالى: ﴿خَالدينَ فِيهَا﴾ تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وهو حال من الضمير في لهم، والعامل فيه معنى الاستقرار في الظرف أو ما في ﴿أولئك﴾ من معنى أشير والحال مقدرة ولا يجوز أن يكون ﴿جنات﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي جنات لخلو الكلام حينئذ عن عامل في الحال على ما ذكره أبو البقاء ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر ومعنى البعد[2] لما أشير إليه

---

(١) قوله وقد تقدم في عدن كذا بخطه والأمر سهل.

(٢) قوله ومعنى البعد إلخ كذا بخطه وتأمله.

من قرب من التفخيم ﴿جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي تطهر من دنس الكفر والمعاصي بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة.

وهذا تصريح بما أفادته الشرطية، وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه عز وجل ودوامه رداً على ما ادعاه فرعون بقوله ﴿أينا أشد عذاباً وأبقى﴾، وقال بعضهم: إن الشرطيتين إلى هنا ابتداء كلام منه جل وعلا تنبيهاً على قبح ما فعل فرعون وحسن ما فعل السحرة والأول أولى خلافاً لما حسبه النيسابوري.

هذا واستدل المعتزلة بالشرطية الأولى على القطع بعذاب مرتكب الكبيرة قالوا: مرتكب الكبيرة مجرم لأن أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة ثم استعير لاكتساب المكروه وكل مجرم فإن له جهنم للآية فإن من الشرطية فيها عامة بدليل صحة الاستثناء فينتج مرتكب الكبيرة أن له جهنم وهو دال على القطع بالوعيد.

وأجاب أهل السنة بأنا لا نسلم الصغرى لجواز أن يراد بالمجرم الكافر فكثيراً ما جاء في القرآن بذلك المعنى كقوله تعالى ﴿يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر﴾ إلى قوله سبحانه ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ [المدثر: ٤٠ ـ ٤٦] وقوله تعالى ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخر السورة، وعلى تقدير تسليم هذه المقدمة لا نسلم الكبرى على إطلاقها وإنما هي كلية بشرط عدم العفو مع أنا لا نسلم أن من الشرطية قطعية في العموم كما قال الإمام وحينئذ لا يحصل القطع بالوعيد مطلقاً، وعلى تقدير تسليم المقدمتين يقال يعارض ذلك الدليل عموم الوعد في قوله تعالى ومن يأته مؤمناً إلخ ويجعل الكلام فيمن آمن وعمل الصالحات وارتكب الكبيرة وهو داخل في عموم ﴿من يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ ولا يخرجه عن العموم ارتكابه الكبيرة ومتى كانت له الجنة فهي لمن آمن وارتكب الكبيرة ولم يعمل الأعمال الصالحة أيضاً إذ لا قائل بالفرق، فإذا قالوا: مرتكب الكبيرة لا يقال له مؤمن كما لا يقال كافر لإثباتهم المنزلة بين المنزلتين فلا يدخل ذلك في العموم أبطلنا ذلك وبرهنا على حصر المكلف في المؤمن والكافر ونفي المنزلة بين الإيمان والكفر بما هو مذكور في محله. وعلى تقدير تسليم أن ﴿من يأته مؤمناً﴾ إلخ لا يعم مرتكب الكبيرة يقال: إن قوله تعالى ﴿فأولئك﴾ لهم الدرجات العلى يدل على حصول العفو لأصحاب الكبائر لأنه تعالى جعل الدرجات العلى وجنات عدن لمن أتى بالإيمان والأعمال الصالحة فسائر الدرجات الغير العالية والجنات لا بد أن تكون لغيرهم وما هم إلا العصاة من أهل الإيمان.

ولقد أخرج أبو داود وابن مردوية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السما. وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»، واستدل على شمول ﴿من يأته مؤمناً﴾ صاحب الكبيرة بقوله تعالى ﴿وذلك جزاء من تزكى﴾ بناء على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن المراد بمن تزكى من قال لا إله إلا الله كأنه أراد من تطهر عن دنس الكفر والله تعالى أعلم.

ثم إن العاصي إذا دخل جهنم لا يكون حاله كحال المجرم الكافر إذا دخلها بل قيل: إنه يموت احتجاجاً بما أخرج مسلم وأحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري «أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية أنه ﴿من يأت﴾ الخ فقال عليه الصلاة والسلام: أما أهلها ـ يعني جهنم ـ الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما تنبت القثاء بحميل السيل» وحمل ذلك القائل تميتهم فيه على الحقيقة وجعل المصدر تأكيداً لدفع توهم المجاز كما قيل في قوله تعالى ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ [النساء: ١٦٤]، وذكر أن فائدة بقائهم في النار بعد إماتتهم إلى حيث شاء الله تعالى حرمانهم من الجنة تلك المدة وذلك منضم إلى عذابهم بإحراق النار إياهم.

وقال بعضهم: إن تميتهم مجاز والمراد أنها تجعل حالهم قريبة من حال الموتى بأن لا يكون لهم شعور تام

بالعذاب، ولا يسلم أن ذكر المصدر ينافي التجوز فيجوز أن يقال قتلت زيداً بالعصا قتلاً والمراد ضربته ضرباً شديداً ولا يصح أن يقال: المصدر لبيان النوع أي تميتهم نوعاً من الإماتة لأن الإماتة لا أنواع لها بل هي نوع واحد وهو إزهاق الروح ولهذا قيل:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد

واستدل المجسمة بقوله سبحانه إنه من يأت ربه على ثبوت مكان له تعالى شأنه، وأجيب بأن المراد من إتيانه تعالى إتيان موضع وعده عز وجل أو نحو ذلك ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ حكاية إجمالية لما انتهى إليه أمر فرعون وقومه وقد طوى في البين ذكر ما جرى عليهم بعد أن غلبت السحرة من الآيات المفصلة الظاهرة على يد موسى عليه السلام في نحو من عشرين سنة حسبما فصل في سورة الأعراف، وكان فرعون كلما جاءت آية وعد أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف العذاب حتى إذا انكشف نكث فلما كملت الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ﴿أَنْ أَسْرِ بعِبَادِي﴾ وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها.

وأن إما مفسرة لما في الوحي من معنى القول؛ وإما مصدرية حذف عنها الجار، والتعبير عن بني إسرائيل بعنوان العبودية لله تعالى لإظهار الرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل ولم يراقب فيهم مولاهم الحقيقي جل جلاله، والظاهر أن الإيحاء بما ذكر وكذا ما بعده كان بمصر أي وبالله تعالى لقد أوحينا إليه عليه السلام أن سر بعبادي الذين أرسلتك لإنقاذهم من ملكة فرعون من مصر ليلاً ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ بعصاك ﴿طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ﴾ مفعول به لأضرب على الاتساع وهو مجاز عقلي والأصل اضرب البحر ليصير لهم طريقاً ﴿يَبَساً﴾ أي يابساً وبذلك قرأ أبو حيوة على أنه مصدر جعل وصفاً لطريقاً مبالغة وهو يستوي فيه الواحد المذكر وغيره.

وقرأ الحسن «يَبْساً» بسكون الباء وهو إما مخفف منه بحذف الحركة فيكون مصدراً أيضاً أو صفة مشبهة كصعب أو جمع يابس كصحب وصاحب. ووصف الواحد به للمبالغة وذلك أنه جعل الطريق لفرط يبسها كأشياء يابسة كما قيل في قول القطامي:

كأن قتود رحلي حين ضمت ... حوالب غرزاً ومعي جياعا

أنه جعل المعي لفرط جوعه كجماعة جياع أو قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقاً يابساً كما قيل في «نطفة امشاج» وثوب أخلاق أو حيث أريد بالطريق الجنس وكان متعدداً حسب تعدد الأسباط لا طريق واحدة على الصحيح جاء وصفه جمعاً، وقيل: يحتمل أن يكون اسم جمع، والظاهر أنه لا فرق هنا بين اليبس بالتحريك واليبس بالتسكين معنى لأن الأصل توافق القراءتين وإن كانت إحداهما شاذة، وفي القاموس اليبس بالإسكان ما كان أصله رطباً فجف ومأأصله اليبوسة ولم يعهد رطباً يبس بالتحريك، وأما طريق موسى عليه السلام في البحر فإنه لم يعهد طريقاً لا رطباً ولا يابساً إنما أظهره الله تعالى لهم حينئذ مخلوقاً على ذلك اهـ.

وهذا مخالف لما ذكره الراغب من أن اليبس بالتحريك ما كان فيه رطوبة فذهبت، والمكان إذا كان فيه ماء فذهب، وروي أن موسى عليه السلام لما ضرب البحر وانفلق حتى صارت فيه طرق بعث الله تعالى ريح الصبا فجففت تلك الطرق حتى يبست. وذهب غير واحد أن الضرب بمعنى الجعل من قولهم: ضرب له في ماله سهماً وضرب عليهم الخراج أو بمعنى الاتخاذ فينصب مفعولين أولهما ﴿طريقا﴾ وثانيهما ﴿لهم﴾.

واختار أبو حيان بقاءه على المعنى المشهور وهو أوفق بقوله تعالى ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾ [الشعراء: ٦٣]،

وزعم أبو البقاء أن ﴿طريقاً﴾ على هذا الوجه مفعول فيه، وقال: التقدير ﴿فاضرب لهم﴾ موضع طريق ﴿لاَ تَخَافُ دَرَكاً﴾في موضع الحال من ضمير ﴿فاضرب﴾ أو الصفة الأخرى لطريقاً والعائد محذوف أي فيها أو هو استئناف كما قال أبو البقاء وقدمه على سائر الاحتمالات. وقرأ الأعمش وحمزة وابن أبي ليلى «لا تخف» بالجزم على جواب الأمر أعني «أسر»، ويحتمل أنه نهي مستأنف كما ذكره الزجاج. وقرأ أبو حيوة وطلحة والأعمش «دركاً» بسكون الراء وهو اسم من الإدراك أي اللحوق كالدرك بالتحريك، وقال الراغب: الدرك بالتحريك في الآية ما يلحق الإنسان من تبعة أي لا تخاف تبعة، والجمهور على الأول أي لا تخاف أن يدرككم فرعون وجنوده من خلفكم ﴿وَلاَ تَخْشَىٰ﴾ أن يغرقكم البحر من قدامكم وهو عطف على ﴿لا تخاف﴾، وذلك ظاهر على الاحتمالات الثلاثة في قراءة الرفع، وأما على قراءة الجزم فقيل هو استئناف أي وأنت لا تخشى، وقيل: عطف على المجزوم والألف جيء بها للإطلاق مراعاة لأواخر الآي كما في قوله تعالى ﴿فأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧] ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ [الأحزاب: ١٠] أو هو مجزوم بحذف الحركة المقدرة كما في قوله:

إذا العجوز غضبت فطلق ... ولا ترضّاها ولا تملّق

وهذا لغة قليلة عند قوم وضرورة عند آخرين فلا يجوز تخريج التنزيل الجليل الشأن عليه أو لا يليق مع وجود مثل الاحتمالين السابقين أو الأول منهما. والخشية أعظم الخوف وكأنه إنما اختيرت هنا لأن الغرق أعظم من إدراك فرعون وجنوده لما أن ذاك مظنة السلامة، ولا ينافي ذلك أنهم إنما ذكروا أولاً ما يدل على خوفهم منه حيث قالوا: ﴿إنا لمدركون﴾ [الشعراء: ٦١] ولذا سورع في إزاحته بتقديم نفيه كما يظهر بالتأمل.

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ أي تبعهم ومعه جنوده على أن أتبع بمعنى تبع وهو متعد إلى واحد والباء للمصاحبة والجار والمجرور في موضع الحال، ويؤيد ذلك أنه قرأ الحسن وأبو عمرو في رواية فاتبعهم بتشديد التاء، وقرىء أيضاً ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده﴾، وقيل: أتبع متعد إلى اثنين هنا كما في قوله تعالى: «أتبعناهم ذرياتهم» والثاني مقدر أي فأتبعهم رؤساء دولته أو عقابه، وقيل: نفسه والجار والمجرور في موضع الحال أيضاً، وعن الأزهري أن المفعول الثاني جنوده والباء سيف خطيب أي أتبعهم فرعون جنوده وساقهم خلفهم فكان معهم يحثهم على اللحوق بهم، وجوز أن يكون المفعول الثاني جنوده والباء للتعدية فيكون قد تعدى الفعل إلى واحد بنفسه وإلى الآخر بالحرف، وأيًّا ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوي ذكره ثقة بغاية ظهوره وإيذاناً بكمال مسارعة موسى عليه السلام إلى الامتثال بالأمر أي ففعل ما أمر به من الإسراء بعبادي وضرب الطريق لهم فاتبعه فرعون بجنوده.

وزعم بعضهم أن الإيحاء بالضرب كان بعد أن اتبعهم فرعون وتراءى الجمعان. والظاهر الأول، روي أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل يريد القلزم وكانوا قد استعاروا من قوم فرعون الحلي والدواب لعيد يخرجون إليه وكانوا ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيفاً ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين، وفي رواية أنهم خرجوا وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً[١] وأخرجوا معهم جسد يوسف عليه السلام لأنه كان عهد إليهم ذلك ودلتهم عجوز على موضعه فقال لها موسى عليه السلام: احتكمي فقالت: أكون معك في الجنة فاتصل الخبر بفرعون فجمع جنوده وخرج بهم وكان في خيله سبعون ألف أدهم وكانت مقدمته فيما يحكى سبعمائة ألف فارس، وقيل: ألف ألف وخمسمائة ألف فقص أثرهم حتى تراءى الجمعان فعظم فزع بني إسرائيل فضرب عليه السلام بعصاه البحر فانفلق اثني عشر فرقاً كل فرق كالطود العظيم فدخلوا ووصل فرعون وجنوده إلى المدخل فرأوا البحر منفلقاً فاستعظموا الأمر فقال فرعون لهم: إنما انفلق من هيبتي فدخل على فرس حصان وبين يديه جبريل عليه السلام على فرس حجر وصاحت الملائكة عليهم السلام وكانوا ثلاثة وثلاثين ملكاً أن ادخلوا فدخلوا حتى إذا استكملوا دخولاً خرج موسى عليه السلام بمن معه من الأسباط سالمين ولم يخرج أحد من فرعون وجنوده ﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي علاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه.

وقيل: غشيهم ما سمعت قصته وليس بذاك فإن مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع القصة، والظاهر أن ضميري الجمع لفرعون وجنوده، وقيل: لجنوده فقط للقرب ولأنه ألقي بالساحل ولم يتغط بالبحر كما أشير إليه بقوله تعالى ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ [يونس: ٩٢] وفيه أن الإنجاء بعد ما غشيه ما غشي جنوده وشك بنو إسرائيل في هلاكه والقرب ليس بداع قوي، وقيل: الضمير الأول لفرعون وجنوده والثاني لموسى عليه السلام وقومه وفي الكلام حذف أي فنجا موسى عليه السلام وقومه وغرق فرعون وجنوده انتهى وليس بشيء كما لا يخفى. وقرأت فرقة منهم الأعمش «فغشاهم من اليم ما غشاهم» أي غطاهم ما غطاهم فالفاعل ﴿ما﴾ أيضاً وترك المفعول زيادة

---

(١) لا يخفى أن هذه المبالغات مما لم يصح فيها خبر والله تعالى أعلم بها اهـ منه.

(٢) نص الآية ٢١ من سورة الطور: ﴿واتبعتهم ذريتهم﴾.

في الإبهام، وقيل: المفعول ﴿من اليم﴾ أي بعض اليم، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الله تعالى شأنه وما مفعول؛ وقيل: هو ضمير فرعون والاسناد مجازي لأنه الذي ورطهم للهلكة، ويبعده الإظهار في قوله تعالى ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾»أي سلك بهم مسلكاً أداهم إلى الخسران في الدين والدنيا معاً حيث أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي وما أرشدهم إلى طريق موصل إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية والمراد بذلك التهكم به كما ذكر غير واحد، واعترض بأن التهكم أن يؤتى بما قصد به ضده استعارة ونحوها نحو إنك لأنت الحليم الرشيد إذا كان الغرض الوصف بضد هذين الوصفين، وكونه لم يهد إخبار عما هو كذلك في الواقع.

وأجيب بأن الأمر كذلك ولكن العرف في مثل ما هدى زيد عمراً ثبوت كون زيد عالماً بطريق الهداية مهتدياً في نفسه ولكنه لم يهد عمراً وفرعون أضل الضالين في نفسه فكيف يتوهم أنه يهدي غيره، ويحقق ذلك أن الجملة الأولى كافية في الإخبار عن عدم هدايته إياهم بل مع زيادة إضلاله إياهم فإن من لا يهدي قد لا يضل وإذا تحقق إغناؤها في الإخبار على أتم وجه تعين كون الثانية بمعنى سواه وهو التهكم، وقال العلامة الطيبي: توضيح معنى التهكم أن قوله تعالى ﴿وما هدى﴾ من باب التلميح وهو إشارة إلى ادعاء اللعين إرشاد القوم في قوله «وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» فهو كمن ادعى دعوى وبالغ فيها فإذا حان وقتها ولم يأت بها قيل له لم تأت بما ادعيت تهكماً واستهزاء انتهى، ويعلم مما ذكر المغايرة بين الجملتين وأنه لا تكرير، وقيل: المراد وما هداهم في وقت ما ويحصل بذلك المغايرة لأنه لا دلالة في الجملة الأولى على هذا العموم والأول أولى، وقيل: هدى بمعنى اهتدى أي أضلهم وما اهتدى في نفسه وفيه بعد، وحمل بعضهم الإضلال والهداية على ما يختص بالديني منهما، ويأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوي. وجعلهما عبارة عن الإضلال في البحر والإنجاء منه مما لا يقبله الطبع المستقيم.

واحتج القاضي بالآية على أنه تعالى ليس خالقاً للكفر لأنه تعالى شأنه قد ذم فيها فرعون بإضلاله ومن ذم أحداً بشيء يذم إذا فعله. وأجيب بمنع اطراد ذلك ﴿يَا بني إسْرَائيلَ﴾ حكاية لما خاطبهم تعالى به بعد إغراق عدوهم وإنجائهم منه لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض.

وقيل: إنشاء خطاب للذين كانوا منهم في عهد النبي ﷺ على معنى أنه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبعاً، وتعقب بأنه يرده قوله تعالى «وما أعجلك» إلخ ضرورة استحالة حمله على الإنشاء وكذا السباق فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفاً على «أوحينا» أي وقلنا يا بني إسرائيل ﴿قَدْ أَنـجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومه حيث كانوا يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم.

وقرأ حميد «نَجَّيناكم» بتشديد الجيم من غير همزة قبلها وبنون العظمة. وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وطلحة «أنجيتكم» بتاء الضمير ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانبَ الطُّور الأَيْمَنَ﴾ بالنصب على أنه صفة المضاف. وقرىء بالجر وخرجه الزمخشري على الجوار نحو ـ هذا جحر ضب خرب .. وتعقبه أبو حيان بأن الجر المذكور من الشذوذ والقلة بحيث ينبغي أن تخرج القراءة عليه وقال: الصحيح أنه نعت للطور لما فيه من اليمن، وإما لكونه عن يمين من يستقبل الجبل اهـ.

والحق أن القلة لم تصل إلى حد منع تخريج القراءة لا سيما إذا كانت شاذة على ذلك وتوافق القراءتين يقتضيه، وقوله: وإما لكونه إلخ غير صحيح على تقدير أن يكون الطور هو الجبل ولو قال: وإما لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام لكان صحيحاً، ونصب ﴿جانب﴾ على الظرفية بناء على ما نقل الخفاجي عن الراغب. وابن مالك في شرح التسهيل من أنه سمع نصب جنب وما بمعناه مضاف على الظرفية. ومنع بعضهم ذلك لأنه محدود وجعله منصوباً على

أنه مفعول ـ واعدنا ـ على الاتساع أو بتقدير مضاف. أي إتيان جانب إلخ. وإلى هذا ذهب أبو البقاء. وإذا كان ظرفاً فالمفعول مقدر أي وواعدناكم بواسطة نبيكم في ذلك الجانب اتيان موسى عليه السلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظراً إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم فكأنهم كلهم مواعدون فالمجاز في النسبة. وفي ذلك من إيفاء مقام الامتنان حقه ما فيه.

وقرأ حمزة والمذكورون معه آنفاً «وواعدتكم» بتاء الضمير أيضاً. وقرىء «ووعدناكم» من الوعد.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ الترنجبين والسمانى حيث كان ينزل عليهم المن وهم في التيه مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السمانى فيأخذ الواحد منهم ما يكفيه.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي من لذائذه أو حلالاته على أن المراد بالطيب ما يستطيبه الطبع أو الشرع.

وجوز أن يراد بالطيبات ما جمعت وصفي اللذة والحل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان إباحة ما ذكر لهم وإتماماً للنعمة عليهم، وقرأ من ذكر آنفاً «رزقتكم» وقدم سبحانه نعمة الإنجاء من العدو لأنها من باب درء المضار وهو أهم من جلب المنافع ومن ذاق مرارة كيد الأعداء خذلهم الله تعالى ثم أنجاه الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم علم قدر هذه النعمة، نسأل الله تعالى أن يتم نعمه علينا وأن لا يجعل لعدو سبيلاً إلينا، وثنى جلّ وعلا بالنعمة الدينية لأنها الأنف في وجه المنافع، وأخر عز وجل النعمة الدنيوية لكونها دون ذلك فتباً لمن يبيع الدين بالدنيا ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره وتعدي حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على معاصي الله تعالى ومنع الحقوق الواجبة فيه، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه بغير حق، وقيل: أي لا تدخروا.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «ولا تَطْغُوا» بضم الغين ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ جواب للنهي أي فيلزمكم غضبي ويجب لكم من حل الدين يحل بكسر الحاء إذا وجب أداؤه وأصله من الحلول وهو في الأجسام ثم استعير لغيرها وشاع حتى صارت حقيقة فيه ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي هلك وأصله الوقوع من علو كالجبل ثم استعمل في الهلاك للزومه له، وقيل: أي وقع في الهاوية وإليه ذهب الزجاج.

وفي بعض الآثار أن في جهنم قصراً يرمي الكافر من أعلاه فيهوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال فذلك قوله تعالى ﴿فقد هوى﴾ فيكون بمعناه الأصلي إذا أريد به فرد مخصوص منه لا بخصوصه.

وقرأ الكسائي «فيحل» بضم الحاء «ومن يحلل» بضم اللام الأولى وهي قراءة قتادة وأبي حيوة والأعمش وطلحة ووافق ابن عتبة في ﴿يحلل﴾ فضم، وفي الإقناع لأبي على الأهوازي قرأ ابن غزوان عن طلحة «لا يحلنَّ عليكم» بنون مشددة وفتح اللام وكسر الحاء وهو من باب لا أرينك هنا، وفي كتاب اللوامح قرأ قتادة وعبد الله بن مسلم بن يسار وابن وثاب والأعمش «فيحل» بضم الياء وكسر الحاء من الإحلال ففاعله ضمير الطغيان، و﴿غضبي﴾ مفعوله، وجوز أن يكون هو الفاعل والمفعول محذوف أي العذاب أو نحوه، ومعنى يحل مضموم الحاء ينزل من حل بالبلد إذا نزل كما في الكشاف.

وفي المصباح حل العذاب يحل ويحل هذه وحدها بالكسر والضم والباقي بالكسر فقط، والغضب في البشر ثوران دم القلب عند إرادة الانتقام، وفي الحديث «اتقوا الغضب فإنه جمرة توقد في قلب ابن آدم ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه» وإذا وصف الله تعالى به لم يرد هذا المعنى قطعاً وأريد معنى لائق بشأنه عز شأنه، وقد يراد به

الانتقام والعقوبة إو إرادتهما نعوذ بالله تعالى من ذلك، ووصف ذلك بالحلو حقيقة على بعض الاحتمالات ومجازاً على بعض آخر، وفي الانتصاف أن وصفه بالحلول لا يتأتى على تقدير أن يراد به إرادة العقوبة ويكون ذلك بمنزلة قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا» على التأويل المعروف أو عبر عن حلول أثر الإرادة بحلولها تعبيراً عن الأثر بالمؤثر كما يقول الناظر إلى عجيب من مخلوقات الله تعالى: انظر إلى قدرة الله تعالى يعني أثر القدرة لا نفسها ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ كثير المغفرة ﴿لِّمَنْ تَابَ﴾ من الشرك على ما روي عن ابن عباس، وقيل: منه ومن المعاصي التي من جملتها الطغيان فيما رزق ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به. واقتصر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فيما يروى عنه على ذكر الإيمان بالله تعالى ولعله من باب الاقتصار على الأشرف وإلا فالأفيد إرادة العموم مع ذكر التوبة من الشرك ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أي عملاً مستقيماً عند الشرع وهو بحسب الظاهر شامل للفرض والسنة، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير ذلك بأداء الفرائض ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي لزم الهدى واستقام عليه إلى الموافاة وهو مروي عن الحبر.

والهدى يحتمل أن يراد به الإيمان، وقد صرح سبحانه بمدح المستقيمين على ذلك في قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا﴾ [فصلت: ٤١].

وقال الزمخشري: الاهتداء هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح وأياً ما كان فكلمة ثم إما للتراخي باعتبار الانتهاء لبعده عن أول الانتهاء أو للدلالة على بعد ما بين المرتبتين فإن المداومة أعلى وأعظم من الشروع كما قيل:

لكل إلى شأو العلى وثبات[1] ... ولكن قليل في الرجال ثبات

وقيل: المراد ثم عمل بالسنة، وأخرج سعيد بن منصور عن الحبر أن المراد من اهتدى علم أن لعمله ثواباً يجزى عليه، وروي عنه غير ذلك، وقيل: المراد طهر قلبه من الأخلاق الذميمة. كالعجب والحسد والكبر وغيرها، وقال ابن عطية: الذي يقوى في معنى ﴿ثم اهتدى﴾ أن يكون ثم حفظ معتقداته من أن تخالف الحق في شيء من الأشياء فإن الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل انتهى، ولا يخفى عليك أن هذا يرجع إلى قولنا ثم استقام على الإيمان بما يجب الإيمان به على الوجه الصحيح، وروى الإمامية من عدة طرق عن أبي جعفر الباقر رضي الله تعالى عنه أنه قال: ثم اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت فوالله لو أن رجلاً عبد الله تعالى عمره بين الركن والمقام ثم مات ولم يجيء بولايتنا لأكبه الله تعالى في النار على وجهه.

وأنت تعلم أن ولايتهم وحبهم رضي الله تعالى عنهم مما لا كلام عندنا في وجوبه لكن حمل الاهتداء في الآية على ذلك مع كونها حكاية لما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام مما يستدعي القول بأنه عز وجل أعلم بني إسرائيل بأهل البيت وأوجب عليهم ولايتهم إذ ذاك ولم يثبت ذلك في صحيح الأخبار.

نعم روى الإمامية من خبر جارود بن المنذر العبدي أن النبي ﷺ قال له «يا جارود ليلة أسري بي إلى السماء أوحى الله عز وجل إليَّ أن سل من أرسلنا قبلك من رسلنا علام بعثوا قلت: علام بعثوا؟ قال: على نبوتك وولاية علي بن أبي طالب والأئمة منكما ثم عرفني الله تعالى بهم بأسمائهم ثم ذكر ﷺ أسماءهم واحداً بعد واحد إلى المهدي وهو خبر طويل يتفجر الكذب منه. ولهم أخبار في هذا المطلب كلها من هذا القبيل فلا فائدة في ذكرها إلا التطويل. والآية تدل على تحقق المغفرة لمن اتصف بمجموع الصفات المذكورة. وقصارى ما يفهم منها عند القائلين بالمفهوم عدم

(١) في نسخة حركات اهـ منه.

تحققها لمن لم يتصف بالمجموع وعدم التحقق أعم من تحقق العدم فالآية بمعزل عن أن تكون دليلاً للمعتزلي على تحقق عدم المغفرة لمرتكب الكبيرة إذا مات من غير توبة فافهم واحتج بها من قال تجب التوبة عن الكفر أولاً ثم الإتيان بالإيمان ثانياً لأنه قدم فيها التوبة على الإيمان، واحتج بها أيضاً من قال بعدم دخول العمل الصالح في الإيمان للعطف المقتضي للمغايرة ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة سابقاً أي وقلنا له أي شيء عجل بك عن قومك فتقدمت عليهم. والمراد بهم هنا عند كثير ومنهم الزمخشري النقباء السبعون. والمراد بالتعجيل تقدمه عليهم لا الإتيان قبل تمام الميعاد المضروب خلافاً لبعضهم. والاستفهام للإنكار ويتضمن كما في الكشف إنكار السبب الحامل لوجود مانع في البين وهو إيهام إغفال القوم وعدم الاعتداد بهم مع كونه عليه السلام مأموراً باستصحابهم وإحضارهم معه وإنكار أصل الفعل لأن العجلة نقيصة في نفسها فكيف من أولي العزم اللائق بهم مزيد الحزم، وقوله تعالى:

﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصله عرض الخطأ في الاجتهاد كأنه عليه السلام قال: إنهم لم يبعدوا عني وإن تقدمي عليهم بخطا يسيرة وظني أن مثل ذلك لا ينكر وقد حملني عليه استدامة رضاك أو حصول زيادته وظني أن مثل هذا الحامل يصلح للحمل على مثل ما ذكر ولم يخطر لي أن هناك مانعاً لينكر علي. ونحو هذا الإسراع المزيل للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلباً لأن يكون أداء هذا الركن مع الجماعة التي فيها رضا الرب تعالى فإنهم قالوا: إن ذلك غير مشروع، وقدم عليه السلام الاعتذار عن إنكار أصل الفعل لأنه أهم، وقال بعضهم: إن الاستفهام سؤال عن سبب العجلة يتضمن إنكارها لأنها في نفسها نقيصة انضم إليها الإغفال وإيهام التعظيم فأجاب عليه السلام عن السبب بأنه استدامة الرضا أو حصول زيادته وعن الإنكار بما محصله أنهم لم يبعدوا عني وظننت أن التقدم اليسير لكونه معتاداً بين الناس لا ينكر ولا يعد نقيصة وعلل تقديم هذا الجواب بما مر. واعترض بأن مساق كلامه بظاهره يدل على أن السؤال عن السبب على حقيقته وأنت خبير بأن حقيقة الاستفهام محال على الله تعالى فلا وجه لبناء الكلام عليه، وأجيب بأن السؤال من علام الغيوب محال إن كان لاستدعاء المعرفة أما إذا كان لتعريف غيره أو لتبكيته أو تنبيهه فليس محالاً، وتعقب بأنه لا يحسن هنا أن يكون السؤال لأحد المذكورات والمتبادر أن يكون للإنكار، وفي الانتصاف أن المراد من سؤال موسى عليه السلام عن سبب العجلة وهو سبحانه أعلم أن يعلمه أدب السفر وهو أنه ينبغي تأخر رئيس القوم عنهم ليكون بصره بهم ومهيمناً عليهم وهذا المعنى لا يحصل مع التقدم ألا ترى كيف علم الله تعالى هذا الأدب لوطاً فقال سبحانه ﴿واتبع أدبارهم﴾ [الحجر: ٦٥] فأمره عز وجل أن يكون آخرهم وموسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله تعالى ومسارعة إلى الميعاد وذلك شأن الموعود بما يسره يود لو ركب أجنحة الطير ولا أسرّ من مواعدة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام انتهى.

وأنت تعلم أن السؤال عن السبب ما لم يكن المراد منه إنكار المسبب لا يتسنى هذا التعليم، وقال بعضهم: الذي يلوح بالبال أن يكون المعنى أي شيء أعجلك منفرداً عن قومك، والإنكار بالذات للانفراد عنهم فهو منصب على القيد كما عرف في أمثاله، وإنكار العجلة ليس إلا لكونها وسيلة له فاعتذر موسى عليه السلام عنه بأني أخطأت في الاجتهاد وحسبت أن القدر اليسير من التقدم لا يخل بالمعية ولا يعد انفراداً ولا يقدح بالاستصحاب والحامل عليه طلب استدامة مرضاتك بالمبادرة إلى امتثال أمرك فالجواب هو قوله ﴿هم أولاء على أثري﴾، وقوله ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ كالتتميم له اهـ وهو عندي لا يخلو عن حسن.

وقيل: إن السؤال عن السبب والجواب إنما هو قوله ﴿وعجلت﴾ إلخ وما قبله تمهيد له وفيه نظر، وعلى هذا وما قبله لم يكن جواب موسى عليه السلام عن أمرين ليجيء سؤال الترتيب فيجاب بما مر أو بما ذكره الزمخشري من أنه عليه السلام حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله عز وجل فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام لكن قال في البحر: إن في هذا الجواب إساءة الأدب مع الأنبياء عليهم السلام، وذلك شأن الزمخشري معهم صلى الله تعالى وسلم عليهم، والمراد من ﴿إليك﴾ إلى مكان وعدك فلا يصلح دليلاً للمجسمة على إثبات مكان له عز وجل. ونداؤه تعالى بعنوان الربوبية لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر و﴿أولاء﴾ اسم إشارة كما هو المشهور مرفوع المحل على الخبرية ـ لهم ـ و﴿على أثري﴾ خبر بعد خبر أو حال كما قال أبو حيان؛ وجوز الطبرسي كون ﴿أولاء﴾ بدل من ﴿هم﴾ و﴿على أثري﴾ هو الخبر، وقال أبو البقاء: ﴿أولاء﴾ اسم موصول و﴿على أثري﴾ صلته وهو مذهب كوفي.

وقرأ الحسن وابن معاذ عن أبيه «أولاي» بياء مكسورة وابن وثاب وعيسى في رواية «أولى» بالقصر، وقرأت فرقة «أولايَ» بياء مفتوحة وقرأ عيسى ويعقوب وعبد الوارث عن أبي عمرو وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «على إثري» بكسر الهمزة وسكون الثاء، وحكى الكسائي «أثري» بضم الهمزة وسكون الثاء وتروى عن عيسى، وفي الكشاف إن «الأثر» بفتحتين أفصح من «الأثر» بكسر فسكون، وأما الأثر فمسموع في فرند السيف مدون في الأصول يقال: أثر السيف وأثره وهو بمعنى الأثر غريب ﴿قَالَ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه السلام وهو السر في وروده على صيغة الغائب لا أنه التفات من التكلم إلى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق على صيغة التكلم كأنه قيل من جهة السامعين: فماذا قال له ربه تعالى حينئذ؟ فقيل: قال سبحانه ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ أي اختبرناهم بما فعل السامري أو أوقعناهم في فتنة أي ميل مع الشهوات ووقوع في اختلاف ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ من بعد فراقك لهم وذهابك من بينهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ حيث أخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ودعاهم إلى عبادته. وقيل: قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة: إنه قد كملت الأربعون فجعل العشرين مع أيامها أربعين ليلة. وليس من موسى عين ولا أثر وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم فجمعوه وكان من أمر العجل ما كان. والمراد بقومك هنا الذين خلفهم مع هارون عليه السلام، وكانوا على ما قيل ستمائة ألف ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً فالمراد بهم غير المراد بقومك فيما تقدم، ولذا لم يؤت بضميرهم، وقيل: المراد بالقوم في الموضعين المتخلفين لتعين إرادتهم هنا،والمعرفة المعادة عين الأولى. ومعنى «هم أولاء على أثري» هم بالقرب مني ينتظرونني.

وتعقبه في الكشف بأنه غير ملائم للفظ الأثر ولا هو مطابق لتمهيد عذر العجلة ومن أين لصاحب هذا التأويل النقل بأنهم كانوا على القرب من الطور وحديث المعرفة المعادة إنما هو إذا لم يقم دليل التغاير وقد قام على أن لنا أن تقول: هي عين الأولى لأن المراد بالقوم الجنس في الموضعين لكن المقصود منه أولاً النقباء وثانياً المتخلفون ومثله كثير في القرآن انتهى. وما ذكره من نفي النقل الدال على القرب فيه مقال، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً من الأخبار ما يدل بظاهره على القرب إلا أنا لم نقف على تصحيحه أو تضعيفه.

وما ذكر من تفسير ﴿هم أولاء على أثري﴾ على إرادة المتخلفين في الأول أيضاً نقله الطبرسي عن الحسن، ونقل عنه أيضاً تفسيره بأنهم على ديني ومنهاجي والأمر عليه أهون. والفاء لتعليل ما يفهمه الكلام السابق كأنه قيل: لا ينبغي عجلتك عن قومك وتقدمك عليهم وإهمال أمرهم لوجه من الوجوه فإنهم لحداثة عهدهم باتباعك ومزيد

بلاهتهم وحماقتهم بمكان يحيق فيه مكر الشيطان ويتمكن من إضلالهم فإن القوم الذين خلفتهم مع أخيك قد فتنوا وأضلهم السامري بخروجك من بينهم فكيف تأمن على هؤلاء الذين أغفلتهم وأهملت أمرهم.

وفي إرشاد العقل السليم إنها لترتيب الأخبار بما ذكر من الابتلاء على أخبار موسى عليه السلام بعجلته لكن لا لأن الأخبار بها سبب موجب للأخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما إلى الآخر من حيث أن مدار الابتلاء المذكور عجلة القوم وليس بذاك. وأما قول الخفاجي: إنها للتعقيب من غير تعليل أي أقول لك عقب ما ذكر إنا قد فتنا إلى آخره ففيه سهو ظاهر لأن هذا المعنى إنما يتسنى لو كانت الفاء داخلة على القول لكنها داخلة على ما بعده وظاهر الآية يدل على أن الفتن وإضلال السامري إياهم قد تحققا ووقعا قبل الإخبار بهما إذ صيغة الماضي ظاهرة في ذلك، والظاهر أيضاً على ما قررنا أن الأخبار كان عند مجيئه عليه السلام للطور لم يتقدمه إلا العتاب والاعتذار. وفي الآثار ما يدل على أن وقوع ما ذكر كان بعد عشرين ليلة من ذهابه عليه السلام لجانب الطور، وقيل: بعد ست وثلاثين يوماً وحينئذ يكون التعبير عن ذلك بصيغة الماضي لاعتبار تحققه في علم الله تعالى ومشيئته أو لأنه قريب الوقوع مترقبه أو لأن السامري كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام وتصدى لترتيب مبادئها وتمهيد مبانيها فنزل مباشرة الأسباب منزلة الوقوع. والسامري عند الأكثر كما قال الزجاج: كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم إلى هذه الغاية في الشام يعرفون بالسامريين، وقيل: هو ابن خالة موسى عليه السلام، وقيل: ابن عمه، وقيل: كان علجاً من كرمان، وقيل: كان من أهل باجرما قرية قريبة من مصر أو قرية من قرى موصل، وقيل: كان من القبط وخرج مع موسى عليه السلام مظهراً الإيمان وكان جاره.

وقيل: كان من عباد البقر وقع في مصر فدخل في بني إسرائيل بظاهره وفي قلبه عبادة البقر. واسمه قيل موسى بن ظفر، وقيل: منجا، والأول أشهر، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه فكان جبريل عليه السلام يأتيه فيغذوه بأصابعه في واحدة لبناً وفي الأخرى عسلاً، وفي الأخرى سمناً ولم يزل يغذوه حتى نشأ وعلى ذلك قول من قال:

إذا المرء لم يخلق سعيداً تحيرت ... عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل

وبالجملة كان عند الجهور منافقاً يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وقرأ معاذ «أَضَلُّهُم» على أنه أفعل تفضيل أي أشدهم ضلالاً لأنه ضال ومضل ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ عند رجوعه المعهود أي بعد ما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة وأخذ التوراة لا عقيب الأخبار المذكور فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى: ﴿غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلة عليه حقيقة فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الأخبار المذكور كما إذا قلت: شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فإن أحداً لا يرتاب في أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم أثر الدعاء وإن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع كذا في إرشاد العقل السليم وهو مما لا ينتطح فيه كبشان. والأسف الحزين كما روي عن ابن عباس وكان حزنه عليه السلام من حيث أن ما وقع فيه قومه مما يترتب عليه العقوبة ولا يد له بدفعها.

وقال غير واحد: هو شديد الغضب، وقال الجبائي متلهفاً على ما فاته متحيراً في أمر قومه يخشى أن لا يمكنه تداركه وهذا معنى للأسف غير مشهور ﴿قَالَ﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا فعل بهم لما رجع إليهم؟ فقيل قال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ الهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أي وعدكم ﴿وَعْداً حَسَناً﴾ لا سبيل لكم إلى إنكاره. والمراد بذلك إعطاء التوراة التي فيها هدى ونور، وقيل: هو ما وعدهم سبحانه من الوصول إلى جانب الطور الأيمن وما بعد ذلك من الفتوح في الأرض والمغفرة لمن تاب وآمن وغير ذلك مما وعد الله تعالى أهل طاعته.

وعن الحسن أن الوعد الحسن الجنة التي وعدها من تمسك بدينه، وقيل: هو أن يسمعهم جل وعلا كلامه عز شأنه ولعلّ الأول أولى، ونصب ﴿وعداً﴾ يحتمل أن يكون على أنه مفعول ثانٍ وهو بمعنى الموعود ويحتمل أن يكون على المصدرية والمفعول الثاني محذوف، والفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ للعطف على مقدر والهمزة لإنكار المعطوف ونفيه فقط، وجوز أن تكون الهمزة مقدمة من تأخير لصدارتها والعطف على لم ﴿يعدكم﴾ لأنه بمعنى قد وعدكم، واختار جمع الأول أل في العهد له، والمراد زمان الإنجاز، وقيل: زمان المفارقة أي أوعدكم سبحانه ذلك فطال زمان الإنجاز أو زمان المفارقة للإتيان به ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ﴾ أي يجب ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ شديد لا يقادر قدره كائن ﴿مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ أي من مالك أمركم على الإطلاق. والمراد من إرادة ذلك فعل ما يكون مقتضياً له.

والفاء في قوله تعالى ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعدي﴾ لترتيب ما بعدها على كل من الشقين، والموعد مصدر مضاف إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم فإن إخلافهم الوعد الجاري فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث إضافته إليه عليه السلام أشنع منه من حيث إضافته إليهم، والمعنى أفطال عليكم الزمان فنسيتم بسبب ذلك فأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على ديني إلى أن أرجع من الميقات نسياناً أو تعمدتم فعل ما يكون سبباً لحلول غضب ربكم عليكم فأخلفتم وعدكم إياي بذلك عمداً، وحاصله أنسيتم فأخلفتم أو تعمدتم فاخلفتم، ومنه يعلم التقابل بين الشقين.

وجوز المفضل أن يكون الموعد مصدراً مضافاً إلى الفاعل وإخلافه بمعنى وجدان الخلف فيه يقال: أخلف وعد زيد بمعنى وجد الخلف فيه، ونظيره أحمدت زيداً أي فوجدتم الخلف في موعدي إياكم بعد الأربعين، وفيه أنه لا يساعده السياق ولا السباق أصلاً، وقيل: المصدر مضاف إلى المفعول إلا أن المراد منه وعدهم إياه عليه السلام باللحاق به والمجيء للطور على أثره وفيه ما فيه، واستدلت المعتزلة بالآية على أن الله عز وجل ليس خالقاً للكفر وإلا لما قال سبحانه ﴿وأضلهم السامري﴾ ولما كان لغضب موسى عليه السلام وأسفه وجه ولا يخفى ما فيه ﴿قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ أي وعدنا إياك الثبات على دينك، وإيثاره على أن يقال موعدنا على إضافة المصدر إلى فاعله لما مر آنفاً.

﴿بِمَلْكِنَا﴾ بأن ملكنا أمرنا يعنون أنا ولو خلينا وأنفسنا ولم يسول لنا السامري ما سوله مع مساعدة بعض الأحوال لما أخلفناه. وقرأ بعض السبعة «بملكنا» بكسر الميم وقرأ الأخوان والحسن والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وقعنب بضمها وقرأ عمر رضي الله تعالى عنه «بملكنا» بفتح الميم واللام قال في البحر: أي بسلطاننا، واستظهر أن الملك بالضم والفتح والكسر بمعنى. وفرق أبو علي فقال: معنى المضموم أنه لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك بسلطانه وإنما أخلفناه بنظر أدى إليه ما فعل السامري، والكلام على حد قوله تعالى ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقول ذي الرمة.

لا تشتكي سقطة منها وقد رقصت بها المفاوز حتى ظهرها حدب

ومفتوح الميم مصدر ملك، والمعنى ما فعلنا ذلك بأن ملكنا الصواب ووفقنا له بل غلبتنا أنفسنا ومكسور الميم كثر استعماله فيما تحوزه اليد ولكنه يستعمل في الأمور التي يبرمها الإنسان، والمعنى عليه كالمعنى على المفتوح الميم، والمصدر في هذين الوجهين مضاف إلى الفاعل والمفعول مقدر أي بملكنا الصواب ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ، والمراد بالقوم القبط والأوزار الأحمال وتسمى بها الآثام. وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحلي برسم التزين في عيد لهم قبيل الخروج من مصر كما أسلفنا. وقيل: استعاروه باسم العرس. وقيل: هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا، ولعلهم أطلقوا على ذلك الأوزار مراداً بها الآثام من حيث أن الحلي سبب لها غالباً لما أنه يلبس في الأكثر للفخر والخيلاء والترفع على الفقراء،وقيل: من حيث أنهم أثموا بسببه وعبدوا العجل المصوغ منه، وقيل من حيث أن ذلك الحلي صار بعد هلاك أصحابه في حكم الغنيمة ولم يكن مثل هذه الغنيمة حلالاً لهم بل ظاهر الأحاديث الصحيحة أن الغنائم سواء كانت من المنقولات أم لا لم تحل لأحد قبل نبينا ﷺ، والرواية السابقة في كيفية الإضلال توافق هذا التوجيه إلا أنه يشكل على ذلك ما روي من أن موسى عليه السلام هو الذي أمرهم بالاستعارة حتى قيل: إن فاعل التحميل في قولهم ﴿حملنا﴾ هو موسى عليه السلام حيث ألزمهم ذلك بأمرهم بالاستعارة وقد أبقاه في أيديهم بعد هلاك أصحابه وأقرهم على استعماله فإذا لم يكن حلالاً فكيف يقرهم، وكذا يقال على القول بأن المراد به ما ألقاه البحر على الساحل، واحتمال أن موسى عليه السلام نهى عن ذلك وظن الامتثال ولم يطلع على عدمه لإخفاء الحال عنه عليه السلام مما لا يكاد يلتفت إلى مثله أصلاً لا سيما على رواية أنهم أمروا باستعارة دواب من القوم أيضاً فاستعاروها وخرجوا بها.

وقد يقال: إن أموال القبط مطلقاً بعد هلاكهم كانت حلالاً عليهم كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى(1) ﴿كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦] كذلك ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾ [غافر: ٥٣] وقد أضاف سبحانه الحلي إليهم في قوله تعالى ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً﴾ [الأعراف: ١٤٨] وذلك يقتضي بظاهره أن الحلي ملك لهم ويدعي اختصاص الحل فيما كان الرد فيه متعذراً لهلاك صاحبه ومن يقوم مقامه، ولا ينافي ذلك قوله ﷺ: «أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي لجواز أن يكون المراد به أحلت لي الغنائم على أي وجه كانت ولم تحل كذلك لأحد قبلي ويكون تسميتهم ذلك أوزاراً إما لما تقدم من الوجه الأول والثاني وإما لظنهم الحرمة لجهلهم في أنفسهم أو لإلقاء السامري الشبهة عليهم، وقيل: إن موسى عليه السلام أمره الله تعالى أن يأمرهم بالاستعارة فأمرهم وأبقى ما استعاروه بأيديهم بعد هلاك أصحابه بحكم ذلك الأمر منتظراً ما يأمر الله تعالى به بعد. وقد جاء في بعض الأخبار ما يدل على أن الله سبحانه بين حكمه على لسان هارون عليه السلام بعد ذهاب موسى عليه السلام للميقات كما سنذكره قريباً إن شاء الله تعالى فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك. والجار والمجرور يحتمل أن يكون متعلقاً بحملنا وأن يكون متعلقاً بمحذوف وقع صفة لأوزاراً، ولا يتعين ذلك بناء على قولهم: إن الجمل والظروف بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال لأن ذلك ليس على إطلاقه.

وقرأ الأخوان وأبو عمرو وابن محيصن «حملنا» بفتح الحاء والميم وأبو رجاء «حملنا» بضم الحاء وكسر الميم

من غير تشديد ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي طرحناها في النار كما تدل عليه الأخبار. وقيل: أي ألقيناها على أنفسنا وأولادنا وليس بشيء أصلا ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ أي فمثل ذلك ﴿أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي ما كان معه منها قيل كأنه أراهم أنه أيضاً يلقي ما كان معه من الحلي فقالوا ما قالوا على زعمهم وإنما كان الذي ألقاه التربة التي أخذها من أثر الرسول كما سيأتي إن شاء اﷲ تعالى. وقيل: إنه ألقى ما معه من الحلي وألقى مع ذلك ما أخذه من أثر الرسول كأنهم لم يريدوا إلا أنه ألقى ما معه من الحلي، وقيل: أرادوا ألقى التربة، وأيده بعضهم بتغيير الأسلوب إذ لم يعبر بالقذف المتبادر منه أن ما رماه جرم مجتمع وفيه نظر، وقد يقال: المعنى فمثل ذلك الذي ذكرناه لك ألقى السامري إلينا وقرره علينا وفيه بعد وإن ذكر أنه قال لهم: إنما تأخر موسى عليه السلام عنكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها ناراً ونقذف فيها ما معنا منه ففعلوا وكان صنع في الحفيرة قالب عجل، وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اﷲ تعالى عنهما أنه لما فصل موسى عليه السلام إلى ربه سبحانه قال لهم هارون عليه السلام: إنكم قد حملتم أوزاراً من زينة القوم إلى فرعون وأمتعة وحلياً فتطهروا منها فإنها رجس وأوقد لهم ناراً فقال لهم: اقذفوا ما معكم من ذلك فيها فجعلوا يأتون بما معهم فيقذفونه فيها فجاء السامري ومعه تراب من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام وأقبل إلى النار فقال لهارون عليه السلام: يا نبي اﷲ أألقي ما في يدي؟ فقال: نعم ولا يظن هارون عليه السلام إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من ذلك الحلي والأمتعة فقذفه فيها فقال: كن عجلاً جسداً له خوار فكان للبلاء والفتنة.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضاً أن بني إسرائيل استعاروا حلياً من القبط فخرجوا به معهم فقال لهم هارون بعد أن ذهب موسى عليهما السلام: اجمعوا هذا الحلي حتى يجيء موسى فيقضي فيه ما يقضي فجمع ثم أذيب فألقى السامري عليه القبضة ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي السامري ﴿لَهُمْ﴾ للقائلين المذكورين ﴿عِجْلًا﴾ من تلك الأوزار التي قذفوها؛ وتأخيره مع كونه مفعولاً صريحاً عن الجار والمجرور لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب النظم الكريم فإن قوله ﴿جَسَدًا﴾ أي جثة ذا لحم ودم أو جسداً من ذهب لا روح فيه بدل منه، وقيل: هو نعت له على أن معناه أحمر كالمجسد، وكذا قوله تعالى ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ نعت له، والخوار صوت العجل. وهذا الصوت إما لأنه نفخ فيه الروح بناء على ما أخرجه ابن مردويه عن كعب بن مالك عن النبي ﷺ قال: «إن اﷲ تعالى لما وعد موسى عليه السلام أن يكلمه خرج للوقت الذي وعده فبينما هو يناجي ربه إذ سمع خلفه صوتاً فقال: إلهي إني أسمع خلفي صوتاً قال: لعل قومك ضلوا قال: إلهي من أضلهم؟ قال: أضلهم السامري قال: فيم أضلهم؟ قال: صاغ لهم عجلاً جسداً له خوار قال: إلهي هذا السامري صاغ لهم العجل فمن نفخ فيه الروح حتى صار له خوار؟ قال: أنا يا موسى قال: فوعزتك ما أضل قومي أحد غيرك قال: صدقت يا حكيم الحكماء لا ينبغي لحكيم أن يكون أحكم منك».

وجاء في رواية أخرى عن راشد بن سعد أنه سبحانه قال له: يا موسى إن قومك قد افتتنوا من بعدك قال: يا رب كيف يفتتنون وقد نجيتهم من فرعون ونجيتهم من البحر وأنعمت عليهم وفعلت بهم قال: يا موسى إنهم اتخذوا من بعدك عجلاً له خوار قال: يا رب فمن جعل فيه الروح؟ قال: أنا قال: فأنت يا رب أضللتهم قال: يا موسى يا رأس النبيين ويا أبا الحكماء إني رأيت ذلك في قلوبهم فيسرته لهم، وإما لأنه تدخل فيه الريح فيصوت بناء على ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: كان بني إسرائيل تأثموا من حلي آل فرعون الذي معهم فأخرجوه لتنزل النار فتأكله فلما جمعوه ألقى السامري القبضة وقال: كن عجلاً جسداً له خوار فصار كذلك وكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه

فيسمع له صوت ﴿فَقَالُواْ﴾ أي السامري ومن افتتن به أول ما رآه، وقيل: الضمير للسامري، وجيء به ضمير جمع تعظيماً لجرمه، وفيه بعد.

﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي فغفل عنه موسى وذهب يطلبه في الطور، فضمير نسي لموسى عليه السلام كما روي عن ابن عباس وقتادة والفاء فصيحة أي فاعبدوه والزموا عبادته فقد نسي موسى عليه السلام، وعن ابن عباس أيضاً. ومكحول أن الضمير للسامري والنسيان مجاز عن الترك والفاء فصيحة أيضاً أي فأظهر السامري النفاق فترك ما كان فيه من أسرار الكفر، والأخبار بذلك على هذا منه تعالى وليس داخلاً في حيز القول بخلافه على الوجه الأول. وصنيع بعض المحققين يشعر باختيار الأول؛ ولا يخفى ما في الإتيان باسم الإشارة والمشار إليه بمرأى منهم وتكريراً له، وتخصيص موسى عليه السلام بالذكر وإتيان الفاء من المبالغة في الضلال؛ والأخبار بالإخراج وما بعده حكاية نتيجة فتنة السامري فعلاً وقولاً من جهته سبحانه قصداً إلى زيادة تقريرها ثم الإنكار عليها لا من جهة القائلين وإلا لقيل فأخرج لنا، والحمل على أن عدولهم إلى ضمير الغيبة لبيان أن الإخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع أنه مخل باعتذارهم فإن مخالفة بعضهم للسامري وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الإخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد أعظم جناية وأكثر شناعة، وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وأن نسبة الأخلاف إلى أنفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلاناً مع أن القاتل واحد منهم كانوا قالوا: ما وجدنا الأخلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة في قلوب العبدة حيث فعل بهم السامري ما فعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فقد قال شيخ الإسلام: إن سياق النظم الكريم وسباقه يقضيان بفساده، وذهب أبو مسلم إلى أن كلام المعتذرين ثم عند قولهم فقذفناها وما بعده من قوله تعالى: ﴿فكذلك ألقى السامري﴾ إلى آخره أخبار من جهته سبحانه أن السامري فعل كما فعلوا فأخرج لهم إلخ وهو خلاف الظاهر.

هذا وقرأ الأعمش «فنسيْ» بسكون الياء، وقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ إلى آخره إنكار وتقبيح من جهته تعالى الضالين والمضلين جميعاً وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذ ذلك العجل إلهاً، ولعمري لو لم يكونوا في البلادة كالبقر لما عبدوه، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ أي أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً بل يخور كسائر العجاجيل فمن هذا شأنه كيف يتوهم أنه إله.

وقرأ الإمام الشافعي وأبو حيوة وأبان وابن صبيح والزعفراني «يرجعَ» بالنصب على أن أن هي الناصبة لا المخففة من الثقيلة، والرؤية حينئذ بمعنى الإبصار لا العلم بناء على ما ذكره الرضى. وجماعة من أن الناصبة لا تقع بعد أفعال القلوب مما يدل على يقين أو ظن غالب لأنها لكونها للاستقبال تدخل على ما ليس بثابت مستقر فلا يناسب وقوعها بعد ما يدل على يقين ونحوه، والعطف أيضاً كما سبق أي ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه إليهم قولاً من الأقوال، وتعليق الأبصار بما ذكر مع كونه أمراً عدمياً للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم، وقيل: إن الناصبة لا تقع بعد رأي البصرية أيضاً لأنها تفيد العلم بواسطة إحساس البصر كما في إيضاح المفصل. وأجاز الفراء وابن الأنباري وقوعها بعد إفعال العلم فضلاً عن أفعال البصر، وقوله تعالى ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ عطف على ﴿لا يرجع﴾ داخل معه في حيز الرؤية أي فلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً ويجلب لهم نفعاً أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه أو ينفعهم إن عبدوه.

وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ مع ما بعد جملة قسمية مؤكدة لما سبق من الإنكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعاصئهم على الرسول إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول أي وباڤ لقد نصح لهم هارون ونبههم على كنه الأمر من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وخطابه إياهم بما ذكر من المقالات، وإلى اعتبار المضاف إليه قبل ما ذكر ذهب الواحدي، وقيل: من قبل قول السامري هذا إلهكم وإله موسى كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة تفرس فيهم الافتتان فسارع إلى تحذيرهم، واختاره صاحب الكشف تبعاً لشيخه وقال: هو أبلغ وأدل على توبيخهم بالإعراض عن دليل العقل والسمع في «أفلا يرون. ولقد ال» واختار بعضهم الأول وادعى أن الجواب يؤيده، وسيأتي إن شاء اڤ تعالى الكلام في ذلك.

وجوز العلامة الطيبي في هذه الجملة وجهين كونها معطوفة على قوله تعالى ﴿أفلا يرون﴾ وقال: إن في إيثار المضارع فيه دلالة على استحضار تلك الحالة الفظيعة في ذهن السامع واستدعاء الإنكار عليهم، وكونها في موضع الحال من فاعل ﴿يرون﴾ مقررة لجهة الإنكار أي أفلا يرون والحال أن هارون نبههم قبل ذلك على كنه الأمر، وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي أوقعتهم في الفتنة بالعجل أو أضللتم على توجيه القصر المستفاد من كلمة ﴿إنما﴾ في أغلب استعمالاتها إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذي يدعيه القوم لا إلى قيده المذكور بالقياس إلى قيد آخر على معنى إنما فعل بكم الفتنة لا الإرشاد إلى الحق لا على معنى إنما فتنتم بالعجل لا بغيره، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ﴾ بكسر همزة ﴿إن﴾ عطفاً على ﴿إنما﴾ إلخ إرشاد لهم إلى الحق أثر زجرهم عن الباطل. والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق. وفي ذلك تذكير لتخليصهم من فرعون زمان لم يوجد العجل. وكذا على ما قيل تنبيه على أنهم متى تابوا قبلهم. وتعريف الطرفين لإفادة الحصر أي وإن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير.

وقرأ الحسن وعيسى وأبو عمرو في رواية «وأن ربكم» بفتح الهمزة، وخرج على أن المصدر المنسبك خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أن ربكم الرحمن، والجملة معطوفة على ما مر، وقال أبو حاتم: التقدير ولأن ربكم إلخ وجعل الجار والمجرور متعلقاً باتبعوني. وقرأت فرقة «أنما» «وأن ربكم» بفتح الهمزتين، وخرج على لغة سليم حيث يفتحون همزة إن بعد القول مطلقاً. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين أي إذا كان الأمر كذلك فاتبعوني وأطيعوا أمري في الثبات على الدين.

وقال ابن عطية: أي فاتبعوني إلى الطور الذي واعدكم الله تعالى إليه. وفيه أنه عليه السلام لم يكن بصدد الذهاب إلى الطور ولم يكن مأموراً به وما واعد الله سبحانه أولئك المفتونين بذهابهم أنفسهم إليه، وقيل: ـ لا يخلو عن حسن ـ أي فاتبعوني في الثبات على الحق وأطيعوا أمري هذا وأعرضوا عن التعرض لعبادة ما عرفتم أمره أو كفوا أنفسكم عن اعتقاد ألوهيته وعبادته ﴿قَالُوا﴾ في جواب هارون عليه السلام ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أي لا نزال على عبادة العجل ﴿عَاكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ الظاهر من حالهم أنهم لم يجعلوا رجوعه عليه السلام وماذا يقول فيه، وقيل: إنهم علق في أذهانهم قول السامري: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ فغيوا برجوعه بطريق التعليل والتسويف وأظهروا أنه إذا رجع عليه السلام غاية للعكوف على عبادة العجل على طريق الوعد بتركها لا محالة عند رجوعه بل ليروا ماذا يكون منه عليه السلام يوافقهم على عبادته وحاشاه، وهذا مبني على أن المحاورة بينهم وبين هارون عليه السلام وقعت بعد قول السامري المذكور فيكون ﴿من قبل﴾ على معنى من قبل رجوع موسى، وذكر أن

هذا الجواب يؤيده هذا المعنى لأن قولهم: ﴿لن نبرح﴾ إلخ يدل على عكوفهم حال قوله عليه السلام وهم لم يعكفوا على عبادته قبل قول السامري وإنما عكفوا بعده.

وقال الطيبي: إن جوابهم هذا من باب الأسلوب الأحمق نقيض الأسلوب الحكيم لأنهم قالوه عن قلة مبالاة بالأدلة الظاهرة كما قال نمروذ في جواب الخليل عليه السلام ﴿أنا أحيي وأميت﴾ [البقرة: ٢٥٨] فتأمل، واستدل أبوحيان بهذا التغيي على أن ـ لن ـ لا تفيد التأبيد لأن التغيي لا يكون إلا حيث يكون الشيء محتملاً فيزال الاحتمال به.

وأنت تعلم أن القائل بإفادتها ذلك لا يدعي أنها تفيده في كل الموارد وهو ظاهر، وفي بعض الأخبار أنهم لما قالوا ذلك اعتزلهم هارون عليه السلام في اثني عشر ألفاً وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يسجدون إذا خار العجل فلا يرفعون حتى يخور ثانية، وفي رواية كانوا يرقصون عند خواره قال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة حتى إذا وصل قال لقومه ما قال وسمع منهم ما قالوا.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئناف نشأ من حكاية جوابهم السابق أعني قوله تعالى ﴿ما أخلفنا موعدك﴾ إلخ كأنه قيل: فماذا قال موسى لهارون عليهما السلام حين سمع جوابهم وهل رضي بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد؟ فقيل: قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل ولم يلتفتوا إلى دليل بطلانها ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ أي تتبعني على أن ﴿لا﴾ سيف خطيب كما في قوله تعالى ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: ١٢] وهو مفعول ثان لمنع وإذ متعلق بمنع، وقيل: بتتبعني، ورد بأن ما بعد ـ أن ـ لا يعمل فيما قبلها، وأجيب بأن الظرف يتوسع فيه ما لم يتوسع في غيره وبأن الفعل السابق لما طلبه على أنه مفعول ثان له كان مقدماً حكماً وهو كما ترى أي أي شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعني وتسير بسيري في الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وروي ذلك عن مقاتل، وقيل: في الإصلاح والتسديد ولا يساعده ظاهر الاعتذار، واستظهر أبو حيان أن يكون المعنى ما منعك من أن تلحقني إلى جبل الطور بمن آمن من بني إسرائيل، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكان موسى عليه السلام رأى أن مفارقة هارون لهم وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية أزجر لهم من الاقتصار على النصائح لما أن ذلك أدل على الغضب وأشد في الإنكار لا سيما وقد كان عليه السلام رئيساً عليهم محبوباً لديهم وموسى يعلم ذلك ومفارقة الرئيس المحبوب كراهة لأمر تشق جداً على النفوس وتستدعي ترك ذلك الأمر المكروه له الذي يوجب مفارقته وهذا ظاهر لا غبار عليه عند من أنصف.

فالقول بأن نصائح هارون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجرهم مفارقته إياهم عنه أولى على ما فيه لا يرد على ما ذكرنا؛ ولا حاجة إلى الاعتذار بأنهم إذا علموا أنه يلحقه ويخبره عليهما السلام بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجرون عن ذلك ليقال: إنه بمعزل عن القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه إلى حين رجوعه عليه السلام، وقال علي بن عيسى: إن ﴿لا﴾ ليست مزيدة، والمعنى ما حملك على عدم الاتباع فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ بسياستهم حسب ما ينبغي فإن قوله عليه السلام ﴿اخلفني في قومي﴾ بدون ضم قوله ﴿وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ [الأعراف: ١٤٢] متضمن للأمر بذلك حتماً فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضراً وموسى عليه السلام لو كان حاضراً لساسهم على أبلغ وجه، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألم تتبعني أو أخالفتني

فعصيت أمري ﴿قَالَ يَا بْنَ أُمَّ﴾ خص الأم بالإضافة استعطافاً وترقيقاً لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين.

وقرأ حمزة والكسائي «يابن أم» بكسر الميم ﴿لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي﴾ أي بشعر رأسي فإن الأخذ أنسب به، وزعم بعضهم أن قوله ﴿بلحيتي﴾ على معنى بشعر لحيتي أيضاً لأن أصل وضع اللحية للعضو النابت عليه الشعر ولا يناسبه الأخذ كثير مناسبة، وأنت تعلم أن المشهور استعمال اللحية في الشعر النابت على العضو المخصوص، وظاهر الآيات والأخبار أنه عليه السلام أخذ بذلك. روي أنه أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله وكان عليه السلام حديداً متصلباً غضوباً لله تعالى وقد شاهد ما شاهد وغلب على ظنه تقصير في هارون عليه السلام يستحق به وإن لم يخرجه عن دائرة العصمة الثابتة للأنبياء عليهم السلام التأديب ففعل به ما فعل وباشر ذلك بنفسه ولا محذور فيه أصلاً ولا مخالفة للشرع فلا يرد ما توهمه الإمام فقال: لا يخلو الغضب من أن يزيل عقله أولاً والأول لا يعتقده مسلم والثاني لا يزيل السؤال بلزوم عدم العصمة. وأجاب بما لا طائل تحته.

وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي «بِلَحْيَتِي» بفتح اللام وهي لغة أهل الحجاز ﴿إِنّي خَشِيتُ﴾ إلخ استئناف لتعليل موجب النهي بتحقيق أنه غير عاص أمره ولا مقصر في المصلحة أي خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا أو خشيت لو لحقتك بمن آمن ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبىء عن ذلك ذكرهم بهذا العنوان دون القوم ونحوه، واستلزام المقاتلة التفريق ظاهر، وكذا اللحوق بموسى عليه السلام مع من آمن وربما يجر ذلك إلى المقاتلة. وقيل: أراد عليه السلام بالتفريق على التفسير الأول ما يستتبعه القتال من التفريق الذي لا يرجى بعده الاجتماع.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ أي ولم تراع ﴿قَوْلِي﴾ والجملة عطف على ﴿فرقت﴾ أي خشيت أن تقول مجموع الجملتين وتنسب إلي تفريق بني إسرائيل وعدم مراعاة قولك لي ووصيتك إياي، وجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿فرقت﴾ أي خشيت أن تقول فرقت بينهم غير مراع قولي أي خشيت أن تقول مجموع هذا الكلام، وأراد بقول موسى المضاف إلى الياء قوله عليه السلام ﴿اخلفني في قومي وأصلح﴾ إلخ، وحاصل اعتذاره عليه السلام إني رأيت الإصلاح في حفظ الدهماء والمداراة معهم وزجرهم على وجه لا يختل به أمر انتظامهم واجتماعهم ولا يكون سبباً للومك إياي إلى أن ترجع إليهم فتكون أنت المتدارك للأمر حسبما تراه لا سيما والقوم قد استضعفوني وقربوا من أن يقتلوني كما أفصح عليه السلام بهذا في آية أخرى.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ما يدل على أن المراد من القول المضاف قول هارون عليه السلام، وجملة ﴿لم ترقب﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿تقول﴾ أي خشيت أن تقول ذلك غير منتظر قولي وبيان حقيقة الحال فتأمل.

وقرأ أبو جعفر «ولم تُرْقِب» بضم التاء وكسر القاف مضارع أرقب ﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامري واعتذار هارون عليه السلام كأنه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكي من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامري؟ فقيل قال موبخاً له إذا كان الأمر هذا ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سامريُّ﴾ أي ما شأنك والأمر العظيم الصادر عنك؛ وما سؤال عن السبب الباعث لذلك، وتفسير الخطب بذلك هو المشهور، وفي الصحاح الخطب سبب الأمر.

وقال بعض الثقات: هو في الأصل مصدر خطب الأمر إذا طلبه فإذا قيل لمن يفعل شيئاً: ما خطبك؟ فمعناه ما

طلبك له وشاع في الشأن والأمر العظيم لأنه يطلب ويرغب فيه، واختير في الآية تفسيره بالأصل ليكون الكلام عليه أبلغ حيث لم يسأله عليه السلام عما صدر منه ولا عن سببه بل عن سبب طلبه، وجعل الراغب الأصل لهذا الشائع الخطب بمعنى التخاطب أي المراجعة في الكلام، وأطلق عليه لأن الأمر العظيم يكثر فيه التخاطب، وجعل في الأساس الخطب بمعنى الطلب مجازاً فقال: ومن المجاز فلان يخطب عمل كذا يطلبه وما خطبك ما شأنك الذي تخطبه، وفرق ابن عطية بين الخطب والشأن بأن الخطب يقتضي انتهاراً ويستعمل في المكاره دون الشأن ثم قال فكأنه قيل: ما نحسك وما شؤمك وما هذا الخطب الذي جاء منك انتهى.

وليس ذلك بمطرد فقد قال إبراهيم عليه السلام للملائكة عليهم السلام: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ [الحجر: ٥٧، الذاريات: ٣١] ولا يتأتى فيه ما ذكر.

وزعم بعض من جعل اشتقاقه من الخطاب أن المعنى ما حملك على أن خاطبت بني إسرائيل بما خاطبت.

وفعلت معهم ما فعلت وليس بشيء، وخطابه عليه السلام إياه بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما أخرجه ما يكون نكالاً للمفتونين ولمن خلفهم من الأمم.

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ
لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ
إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ
يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾
فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ
وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ
لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

﴿قَالَ﴾ أي السامري مجيباً له عليه السلام ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ بضم الصاد فيهما أي علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له، قال الزجاج يقال: بصر بالشيء إذا علمه وأبصر إذا نظر، وقيل: بصره وأبصره بمعنى واحد: وقال الراغب: البصر يقال: للجارحة الناظرة وللقوة التي فيها ويقال: لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر ويقال من الأول أبصرت. ومن الثاني أبصرته وبصرت به. وقلما يقال: بصرت في الحاسة إذا لم يضامه رؤية القلب اهـ.

وقرأ الأعمش وأبو السمال «بَصِرْتُ» بكسر الصاد «بما لم يَبْصَرُوا» بفتح الصاد. وقرأ عمرو بن عبيد «بُصِرْتُ» بضم الباء وكسر الصاد «بما لم تُبْصَرُوا» بضم التاء المثناة من فوق وفتح الصاد على البناء للمفعول.

وقرأ الكسائي وحمزة وأبو بحرية والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وابن مناذر وابن سعدان وقعنب «بما لم

تُبْصُرُوا» بالتاء الفوقانية المفتوحة وبضم الصاد. والخطاب لموسى عليه السلام وقومه. وقيل: له عليه السلام وحده وضمير الجمع للتعظيم كما قيل في قوله تعالى ﴿رب ارجعون﴾ [المؤمنون: ٩٩] وهذا منقول عن قدماء النحاة وقد صرح به الثعالبي في سر العربية، فما ذكره الرضي من أن التعظيم إنما يكون في ضمير المتكلم مع الغير كفعلنا غير مرتضى وإن تبعه كثير. وادعى بعضهم أن الأنسب بما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله: **﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾** تفسير بصر برأى لا سيما على القراءة بالخطاب فإن ادعاء علم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جراءة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية ما لم يره عليه السلام فإنه مما يقع بحسب ما يتفق. وقد كان فيما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رأى جبريل عليه السلام يوم فلق البحر على فرس فعرفه لما أنه كان يغذوه صغيراً حين خافت عليه أمه فألقته في غار فأخذ قبضة من تحت حافر الفرس وألقى في روعه أنه لا يلقيها على شيء فيقول: كن كذا إلا كان.

وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه رآه عليه السلام راكباً على فرس حين جاء ليذهب بموسى عليهما السلام إلى الميقات ولم يره أحد غيره من قوم موسى عليه السلام فأخذ من موطىء فرسه قبضة من التراب. وفي بعض الآثار أنه رآه كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على التراب اليبس يخرج النبات فعرف أن له شأناً فأخذ من موطئه حفنة، وذلك قوله تعالى **﴿فَقَبَضتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾** أي من أثر فرس الرسول. وكذا قرأ عبد الله، فالكلام على حذف مضاف كما عليه أكثر المفسرين. وأثر الفرس التراب الذي تحت حافره. وقيل: لا حاجة إلى تقدير مضاف لأن أثر فرسه أثره عليه السلام.

ولعل ذكر جبريل عليه السلام بعنوان الرسالة لأنه لم يعرفه إلا بهذا العنوان أو للإشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم من الأسرار الإلهية تأكيداً لما صدر به مقالته والتنبيه كما قيل على وقت أخذ ما أخذ.

والقبضة المرة من القبض أطلقت على المقبوض مرة، وبذلك يرد على القائلين بأن المصدر الواقع كذلك لا يؤنث بالتاء فيقولون: هذه حلة نسيج اليمن ولا يقولون: نسيجة اليمن. والجواب بأن الممنوع إنما هو التاء الدالة على التحديد لا على مجرد التأنيث كما هنا والمناسب على هذا أن لا تعتبره المرة كما لا يخفى.

وقرأ عبد الله وأبي وابن الزبير والحسن وحميد «قبصت قبصة» بالصاد فيهما؛ وفرقوا بين القبض بالضاد المعجمة والقبص بالصاد بأن الأول الأخذ بجميع الكف والثاني الأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الخضم بالخاء للأكل بجميع الفم والقضم بالقاف للأكل بأطراف الأسنان. وذكر أن ذلك مما غير لفظه لمناسبة معناه فإن الضاد المعجمة للثقل واستطالة مخرجها جعلت فيما يدل على الأكثر والصاد لضيق محلها وخفائه جعلت فيما يدل على القليل.

وقرأ الحسن بخلاف عنه. وقتادة ونصر بن عاصم بضم القاف والصاد المهملة وهو اسم للمقبوض كالمضغة اسم للممضوغ **﴿فَنَبَذْتُهَا﴾** أي ألقيتها في الحلي المذاب. وقيل: في جوف العجل فكان ما كان.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي زينته وحسنته إلي والإشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعد. وذلك على حد قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] وحاصل جوابه أن ما فعله إنما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة بالسوء لا لشيء آخر من البرهان العقلي أو النقلي أو من الإلهام الإلهي. هذا ثم ما ذكر من تفسير الآية هو المأثور عن الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم وتبعهم جل أجلة المفسرين، وقال أبو مسلم الأصبهاني: ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكروه. وهنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وأثره سنته ورسمه

الذي أمر به ودرج عليه فقد يقول الرجل: فلان يقفو أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه، وتقرير الآية على ذلك أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم بالعجل قال: بصرت بما لم يبصروا به أي عرفت أن الذي عليه القوم ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أي شيئاً من دينك فنبذتها أي طرحتها ولم أتمسك بها. وتعبيره عن موسى عليه السلام بلفظ الغائب على نحو قول من يخاطب الأمير ما قول الأمير في كذا. ويكون إطلاق الرسول منه عليه عليه السلام نوعاً من التهكم حيث كان كافراً مكذباً به على حد قوله تعالى حكاية عن الكفرة ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: ٦] انتهى، وانتصر له بعضهم بأنه أقرب إلى التحقيق. ويبعد قول المفسرين أن جبريل عليه السلام ليس معهوداً باسم الرسول ولم ير له فيما تقدم ذكر حتى تكون اللام في الرسول لسابق في الذكر وأن ما قالوه لا بد له من تقدير المضاف والتقدير خلاف الأصل وأن اختصاص السامري برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس بعيد جداً. وأيضاً كيف عرف أن أثر حافر فرسه يؤثر هذا الأمر الغريب العجيب من حياة الجماد وصيرورته لحماً ودماً على أنه لو كان كذلك لكان الأثر نفسه أولى بالحياة. وأيضاً متى اطلع كافر على تراب هذا شأنه فلقائل أن يقول لعل موسى عليه السلام اطلع شيء آخر يشبه هذا فلأجله أتى بالمعجزات فيكون ذلك فيما أتى به المرسلون عليهم السلام من الخوارق، وأيضاً يبعد الكفر والإقدام على الإضلال بعد أن عرف نبوة موسى عليه السلام بمجيء هذا الرسول الكريم إليه انتهى.

وأجيب بأنه قد عهد في القرآن العظيم إطلاق الرسول على جبريل عليه السلام فقد قال سبحانه ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ [الحاقة: ٤٠، التكوير: ١٩] وعدم جريان ذكر له فيما تقدم لا يمنع من أن يكون معهوداً، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه عليه السلام شائعاً في بني إسرائيل لا سيما إن قلنا بصحة ما روي أنه عليه السلام كان يغذي من يلقى من أطفالهم في الغار في زمان قتل فرعون لهم، وبأن تقدير المضاف في الكلام أكثر من أن يحصى وقد عهد ذلك في كتاب الله تعالى غير مرة، وبأن رؤيته جبريل عليه السلام دون الناس كان ابتلاء منه تعالى ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وبأن معرفته تأثير ذلك الأثر ما ذكر كانت لما ألقى في روعه أنه لا يلقيه على شيء فيقول كن كذا إلا كان كما في خبر ابن عباس أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء كما في بعض الآثار. ويحتمل أن يكون سمع ذلك من موسى عليه السلام، وبأن ما ذكر من أولوية الأثر نفسه بالحياة غير مسلم ألا ترى أن الإكسير يجعل ما يلقي هو عليه ذهباً ولا يكون هو بنفسه ذهباً. وبأن المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة من الله تعالى والتحدي وقد قالوا: متى ادعى أحد الرسالة وأظهر الخارق وكان لسبب خفي يجهله المرسل إليهم قبض الله تعالى ولا بد من بين حقيقة ذلك بإظهار مثله غير مقرون بالدعوى أو نحو ذلك أو جعل المدعي بحيث لا يقدم على فعل ذلك الخارق بذلك السبب بأن يسلب قوة التأثير أو نحو ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون له عز وجل الحجة البالغة، وجوزوا ظهور الخارق لا عن سبب أو عن سبب خفي على يد مدعي الألوهية لأن كذبه ظاهر عقلاً ونقلاً. ولا تتوقف إقامة الحجة على تكذيبه بنحو ما تقدم. وبأن ما ذكر من بعد الكفر والاضلال من السامري بعد أن عرف نبوة موسى عليه السلام في غاية السقوط فقد قال تعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [النمل: ١٤] وليس كفر السامري بأبعد من كفر فرعون وقد رأى ما رأى. ويرد على ما ذكره أبو مسلم مع مخالفته للمأثور عن خير القرون مما لا يقال مثله من قبل الرأي فله حكم المرفوع أن التعبير عن موسى عليه السلام بلفظ الغائب بعيد. وإرادة وقد كنت قبضت قبضة إلخ من النظم الكريم أبعد. وأن نبذ ما عرف أنه ليس بحق لا يعد من تسويل النفس في شيء فلا يناسب ختم جوابه بذلك. فزعم أن ما ذكره أقرب إلى التحقيق باطل عند أرباب التدقيق.

وزعمت اليهود أن ما ألقاه السامري كان قطعة من الحلي منقوشاً عليها بعض الطلسمات وكان يعقوب عليه السلام قد علقها في عنق يوسف عليه السلام إذ كان صغيراً كما يعلق الناس اليوم في أعناق أطفالهم التمائم وربما تكون من الذهب والفضة منقوشاً عليها شيء من الآيات أو الأسماء أو الطلسمات وقد ظفر بها من حيث ظفر فنبذها مع حلي بني إسرائيل فكان ما كان لخاصية ما نقش عليها فيكون على هذا قد أراد بالرسول رسول بني إسرائيل في مصر من قبل وهو يوسف عليه السلام. ولم يجيء عندنا خبر صحيح ولا ضعيف بل ولا موضوع فيما زعموا. نعم جاء عندنا أن يعقوب كان قد جعل القميص المتوارث في تعويذ وعلقه في عنق يوسف عليه السلام.

وفسر بعضهم بذلك قوله تعالى ﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ [يوسف: ٩٣] إلخ. وما أغفل أولئك البهت عن زعم أن الأثر هو ذلك القميص فإنه قد عهد منه ما تقدم في أحسن القصص في قوله تعالى: ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ فبين معافاة المبتلي وحياة الجماد مناسبة كلية فهذا الكذب لو ارتكبوه لربما كان أروج قبولاً عند أمثال الأصبهاني الذين ينبذون ما روي عن الصحابة مما لا يقال مثله بالرأي وراء ظهورهم نعوذ بالله تعالى من الضلال.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مر غير مرة أي قال موسى عليه السلام إذا كان الأمر كما ذكرت ﴿فَاذْهَبْ﴾ أي من بين الناس، وقوله تعالى ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ إلى آخره تعليل لموجب الأمر. و«في» متعلقة بالاستقرار العامل في ﴿لك﴾ أي ثابت لك في الحياة أو بمحذوف وقع حالاً من الكاف، والعامل معنى الاستقرار المذكور أيضاً لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى أعني قوله تعالى ﴿أن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ﴾ ولم يجوز تعلقه بتقول لمكان أن؛ وقد تقدم آنفاً عذر من يعلق الظرف المتقدم بما بعدها. ولا يظهر ما يشفي الخاطر في وجه تعليق العلامة أبي السعود - إذ - في قوله تعالى ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني﴾ فيما بعد أن وعدم تجويز تعليق ﴿في الحياة﴾ فيما بعدها أي إن لك مدة حياتك أن تفارق الناس مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجيء إليها، وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس أحداً أو يمسه أحد كائناً من كان إلا حم من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى صوته لا مساس وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومؤاكلته ومبايعته وغير ذلك مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجيء إلى الحرم ومن الوحشي النافر في البيداء، وذكر أنه لزم البرية وهجر البرية، وذكر الطبرسي عن ابن عباس أن المراد أن لك ولولدك أن تقول إلخ، وخص عرو الحمى بما إذا كان الماس أجنبياً، وذكر أن بقايا ولده باق فيهم تلك الحال إلى اليوم، وقيل: ابتلي بالوسواس حين قال له موسى عليه السلام ذلك، وعليه حمل قول الشاعر:

فأصبح ذلك كالسامري إذ قال موسى له لا مساسا

وأنكر الجبائي ما تقدم من حديث عرو الحمى عند المس وقال: إنه خاف وهرب وجعل يهيم في البرية لا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار لبعده عن الناس كالقائل لا مساس وصحح الأول، والمساس مصدر ماس كقتال مصدر قاتل وهو منفي بلا التي لنفي الجنس وأريد بالنفي النهي أي لا تمسني ولا أمسك. وقرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقعنب «لاَ مَسَاسِ» بفتح الميم وكسر السين آخره وهو بوزن فجار، ونحوه قولهم في الظباء إن وردت الماء فلا عباب وإن فقدته فلا أباب. وهي كما قال الزمخشري وابن عطية اعلام للمسة والعبة والأبة وهي المرة من الأب أي الطلب، ومن هذا قول الشاعر:

تميم كرهط السامري وقوله ألا لا يريد السامري مساس

و«لا» على هذا ليست النافية للجنس لأنها مختصة بالنكرات وهذا معرفة من أعلام الأجناس ولا داخلة معنى

عليه فإن المعنى لا يكون أولا يكن منك مس لنا. وهذا أولى من أن يكون المعنى لا أقول مساس.

وظاهر كلام ابن جني أنه اسم فعل كنزال. والمراد نفي الفعل أي لا أمسك والسر في عقوبته على جنايته بما ذكر على ما قيل: إنه ضد ما قصده من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه فكان سبباً لبعدهم عنه وتحقيره وصار لديهم أبغض من الطلياء وأهون من معبأة.

وقيل: لعل السر في ذلك ما بينهما من مناسبة التضاد فإنه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سبباً لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سبباً للحمى التي هي من أسباب موت الأحياء، وقيل: عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل حيث نبذ فنبذ فإن ذلك التحامي أشبه شيء بالنبذ وكانت هذه العقوبة على ما في البحر باجتهاد من موسى عليه السلام، وحكي فيه القول بأنه أراد قتله فمنعه الله تعالى عن ذلك لأنه كان سخياً، وروي ذلك عن الصادق رضي الله تعالى عنه، وعن بعض الشيوخ أنه قد وقع ما يقرب من ذلك في شرعنا في قضية الثلاثة الذين خلفوا فقد أمر النبي ﷺ أن لا يكلموا ولا يخالطوا وأن يعتزلوا نساءهم حتى تاب الله تعالى عليهم. ومذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه في القاتل اللاجىء إلى الحرم نحو ذلك ليضطر إلى الخروج فيقتل في الحل ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً﴾ أي في الآخرة ﴿لَّنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي لن يخلفك الله تعالى ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك في الدنيا.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأعمش بضم التاء وكسر اللام على البناء للفاعل على أنه من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً كأجبنته إذا وجدته جباناً. وعلى ذلك قول الأعشى:

أثوى وقصر ليله ليزودا ... فمضى وأخلف من قتيلة موعدا

وجوز أن يكون التقدير لن تخلف الواعد إياه فحذف المفعول الأول وذكر الثاني لأنه المقصود. والمعنى لن تقدر أن تجعل الواعد مخلفاً لوعده بل سيفعله، ونقل ابن خالويه عن ابن نهيك أنه قرأ «لن تَخْلُفَهُ» بفتح التاء المثناة من فوق وضم اللام، وفي اللوامح أنه قرىء «لن يَخْلُفَهُ» بفتح الياء المثناة من تحت وضم اللام وهو من خلفه يخلفه إذا جاء بعده، قيل: المعنى على الرواية الأولى وإن لك موعداً لا بد أن تصادفه، وعلى الرواية الثانية وإن لك موعداً لا يدفع قول لا مساس فافهم.

وقرأ ابن مسعود والحسن بخلاف عنه «لن نَخْلِفَهُ» بالنون المفتوحة وكسر اللام على أن ذلك حكاية قول الله عز وجل، وقال ابن جني: أي لن نصادفه خلفاً فيكون من كلام موسى عليه السلام لا على سبيل الحكاية وهو ظاهر لو كانت النون مضمومة ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ﴾ أي معبودك ﴿الَّذِي ظَلْتَ﴾ أي ظللت كما قرأ بذلك أبي والأعمش فحذفت اللام الأولى تخفيفاً، ونقل أبو حيان عن سيبويه أن هذا الحذف من شذوذ القياس ولا يكون ذلك إلا إذا سكن آخر الفعل، وعن بعض معاصريه أن ذلك منقاس في كل مضاعف العين واللام في لغة بني سليم حيث سكن آخر الفعل، وقال بعضهم: إنه مقيس في المضاعف إذا كانت عينه مكسورة أو مضمومة.

وقرأ ابن مسعود وقتادة والأعمش بخلاف عنه وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن يعمر بخلاف عنه أيضاً «ظِلْتَ» بكسر الظاء على أنه نقل حركة اللام إليها بعد حذف حركتها، وعن ابن يعمر أنه ضم الظاء وكأنه مبني على مجيء الفعل في بعض اللغات على فعل بضم العين وحينئذ يقال بالنقل كما في الكسر ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على عبادته ﴿عَاكِفاً﴾ أي مقيماً، وخاطبه عليه السلام دون سائر العاكفين على عبادته القائلين: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ [طه: ٩١] لأنه رأس الضلال ورئيس أولئك الجهال ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ جواب قسم محذوف أي بالله تعالى لنحرقنه بالنار كما أخرج ذلك ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ويؤيده قراءة الحسن وقتادة وأبي جعفر في

رواية. وأبي رجاء والكلبي «لَنُحْرِقَنَّهُ» مخففاً من أحرق رباعياً فإن الإحراق شائع فيما يكون بالنار وهذا ظاهر في أنه صار ذا لحم ودم. وكذا ما في مصحف أبي وعبد الله «لنذبحنه ثم لنحرقنه».

وجوز أبو علي أن يكون نحرق مبالغة في حرق الحديد حرقاً بفتح الراء إذا برده بالمبرد. ويؤيده قراءة علي كرم الله تعالى وجه. وحميد وعمرو بن فايد وأبي جعفر في رواية. وكذا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «لَنَحْرُقَنَّهُ» بفتح النون وسكون الحاء وضم الراء فإن حرق يحرق بالضم مختص بهذا المعنى كما قيل، وهذا ظاهر في أنه لم يصر ذا لحم ودم بل كان باقياً على الجمادية.

وزعم بعضهم أنه لا بعد على تقدير كونه حياً في تحريقه بالمبرد إذ يجوز خلق الحياة في الذهب مع بقائه على الذهبية عند أهل الحق، وقال بعض القائلين بأنه صار حيواناً ذا لحم ودم: إن التحريق بالمبرد كان للعظام وهو كما ترى، وقال النسفي: تفريقه بالمبرد طريق تحريقه بالنار فإنه لا يفرق الذهب إلا بهذا الطريق. وجوز على هذا أن يقال: إن موسى عليه السلام حرقه بالمبرد ثم أحرقه بالنار. وتعقب بأن النار تذيبه وتجمعه ولا تحرقه وتجعله رماداً فلعل ذلك كان بالحيل الإكسيرية أو نحو ذلك ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ﴾ أي لنذرينه. وقرأت فرقة منهم عيسى بضم السين. وقرأ ابن مقسم «لَنُنَسِّفَنَّهُ» بضم النون الأولى وفتح الثانية وتشديد السين ﴿فِي الْيَمِّ﴾ أي في البحر كما أخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وأخرج عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه فسره بالنهر، وقوله تعالى ﴿نَسْفاً﴾ مصدر مؤكد أي لنفعلن به ذلك بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولا يصادف منه شيء فيؤخذ، ولقد فعل عليه السلام ما أقسم عليه كله كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنما لم يصرح به تنبيهاً على كمال ظهوره واستحالة الخلف في وعده المؤكد باليمين، وفي ذلك زيادة عقوبة للسامري وإظهار لغباوة المفتتنين، وقال في البحر بياناً لسر هذا الفعل: يظهر أنه لما كان قد أخذ السامري القبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام وهو داخل البحر ناسب أن ينسف ذلك العجل الذي صاغه من الحلي الذي كان أصله للقبط وألقى فيه القبضة في البحر ليكون ذلك تنبيهاً على أن ما كان به قيام الحياة آل إلى العدم وألقى في محل ما قامت به الحياة وأن أموال القبط قذفها الله تعالى في البحر لا ينتفع بها كما قذف سبحانه أشخاص مالكيها وغرقهم فيه ولا يخفى ما فيه.

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق إثر إبطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل أي إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله عز وجل ﴿الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء بوجه من الوجوه التي من جملتها أحكام الألوهية. وقرأ طلحة «الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم رب العرش» ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم فالشيء هنا شامل للموجود والمعدوم وانتصب ﴿عِلْماً﴾ على التمييز المحول عن الفاعل، والجملة بدل من الصلة كأنه قيل: إنما إلهكم الذي وسع كل شيء علماً لا غيره كائناً ما كان فيدخل فيه العجل الذي هو مثل في الغباوة دخولاً أولياً.

وقرأ مجاهد. وقتادة «وَسَّعَ» بفتح السين مشددة فيكون انتصاب ﴿عِلْماً﴾ على أنه مفعول ثان، ولما كان في القراءة الأولى فاعلاً معنى صح نقله بالتعدية إلى المفعولية كما تقول في خاف زيد عمراً: خوفت زيداً عمراً أي جعلت زيداً يخاف عمراً فيكون المعنى هنا على هذا جعل علمه يسع كل شيء، لكن أنت تعلم أن الكلام ليس على ظاهره لأن علمه سبحانه غير مجعول ولا ينبغي أن يتوهم أن اقتضاء الذات له على تقدير الزيادة جعلاً وبهذا تم حديث موسى عليه السلام، وقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنف خوطب به النبي ﷺ بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال ما مر من أنباء الأمم السالفة. والجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر أو الكاف في محل نصب صفة

لذلك المصدر أي نقص عليك ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصاً كائناً كذلك القص المار أو قصاً مثل ذلك، والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين أي كذلك لا ناقصاً عنه، و﴿من﴾ في ﴿من أنباء﴾ إما متعلق بمحذوف هو صفه للمفعول أي نقص عليك نبأ أو بعضاً كائناً من أنباء.

وجوز أن يكون في حيز النصب على أنه مفعول ﴿نقص﴾ باعتبار مضمونه أي نقص بعض أنباء، وتأخيره عن ﴿عليك﴾ لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، ويجوز أن يكون ﴿كذلك نقص﴾ مثل قوله تعالى ﴿كذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة: ١٤٣] على أن الإشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعد، وقد مر تحقيق ذلك.

وفائدة هذا القص توفير علمه عليه الصلاة والسلام وتكثير معجزاته وتسليته وتذكرة المستبصرين من أمته ﷺ ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ كتاباً منطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقاً بالتذكر والتفكر فيه والاعتبار، و﴿من﴾ متعلق بآتيناك، وتنكير ذكراً للتفخيم، وتأخيره عن الجار والمجرور لما أن مرجع الإفادة في الجملة كون المؤتى من لدنه تعالى ذكراً عظيماً وقرآناً كريماً جامعاً لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طول بما بعده من الصفة.

وجوز أن يكون الجار والمجرور في موضع الحال من ﴿ذكراً﴾ وليس بذاك، وتفسير الذكر بالقرآن هو الذي ذهب إليه الجمهور؛ وروي عن ابن زيد، وقال مقاتل: أي بياناً ومآله ماذكر، وقال أبو سهل: أي شرفاً وذكراً في الناس، ولا يلائمه قوله تعالى ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ إذ الظاهر أن ضمير ﴿عنه﴾ للذكر، والجملة في موضع الصفة له، ولا يحسن وصف الشرف أو الذكر في الناس بذلك، وقيل: الضمير لله تعالى على سبيل الالتفات وهو خلاف الظاهر جداً، و﴿من﴾ إما شرطية أو موصولة أي من أعرض عن الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي المعرض عنه ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَة وِزْراً﴾ أي عقوبة ثقيلة على إعراضه وسائر ذنوبه.

والوزر في الأصل يطلق على معنيين الحمل الثقيل والإثم، وإطلاقه على العقوبة نظراً إلى المعنى الأول على سبيل الاستعارة المصرحة حيث شبهت. الثاني على سبيل المجاز المرسل من حيث إن العقوبة بالحمل الثقيل. ثم استعير لها بقرينة ذكر يوم القيامة، ونظراً إلى المعنى الثاني على سبيل المجاز المرسل من حيث إن العقوبة جزاء الإثم فهي لازمة له أو مسببة، والأول هو الأنسب بقوله تعالى فيما بعد ﴿وساء﴾ إلخ لأنه ترشيح له، ويؤيده قوله تعالى في آية أخرى ﴿وليحملن أثقالهم﴾ [العنكبوت: ١٣] وتفسير الوزر بالإثم وحمل الكلام على حذف المضاف أي عقوبة أو جزاء إثم ليس بذاك. وقرأت فرقة منهم داود بن رفيع «يُحَمَّلُ» مشدد الميم مبنياً للمفعول لأنه يكلف ذلك لا أنه يحمله طوعاً ويكون ﴿وزراً﴾ على هذا مفعولاً ثانياً ﴿خالدينَ فيه﴾ أي في الوزر المراد منه العقوبة.

وجوز أن يكون الضمير لمصدر ﴿يحمل﴾ ونصب ﴿خالدين﴾ على الحال من المستكن في ﴿يحمل﴾ والجمع بالنظر إلى معنى ﴿من﴾ لما أن الخلود في النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها كما أن الأفراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَة حمْلاً﴾ إنشاء للذم على أن ساء فعل ذم بمعنى بئس وهو أحد معنييه المشهورين، وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على ﴿حملاً﴾ الواقع تمييز الأعلى وزراً لأن فاعل بئس لا يكون إلا ضميراً مبهماً يفسره التمييز العائد هو إليه وإن تأخر لأنه من خصائص هذا الباب والمخصوص بالذم محذوف والتقدير ساء حملهم حملاً وزرهم، ولام ﴿لهم﴾ للبيان كما في «سقياً له» و﴿هيت لك﴾ [يوسف: ٢٣] وهي متعلقة بمحذوف كأنه قيل: لمن يقال هذا؟ فقيل: هو يقال لهم وفي شأنهم وإعادة ﴿يوم القيامة﴾ لزيادة التقرير وتهويل الأمر، وجوز أن يكون ﴿ساء﴾ بمعنى أحزن وهو المعنى الآخر من المعنيين؛ والتقدير على ما قيل وأحزنهم الوزر حال كونه حملاً لهم.

وتعقبه في الكشف بأنه أي فائدة فيه والوزر أدل على الثقل من قيده ثم التقييد بلهم مع الاستغناء عنه وتقديمه الذي لا يطابق المقام وحذف المفعول وبعد هذا كله لا يلائم ما سبق له الكلام ولا مبالغة في الوعيد بذلك بعد ما تقدم ثم قال: وكذلك ما قاله العلامة الطيبي من أن المعنى وأحزنهم حمل الوزر على أن ﴿حملا﴾ تمييز واللام في ﴿لهم﴾ للبيان لما ذكر من فوات فخامة المعنى، وأن البيان إن كان لاختصاص الحمل بهم ففيه غنية، وإن كان لمحل الأحزان فلا كذلك طريق بيانه، وإن كان على أن هذا الوعيد لهم فليس موقعه قبل يوم القيامة وأن المناسب حينئذ وزراً ساء لهم حملاً على الوصف لا هكذا معترضاً مؤكداً انتهى. ولا مجال لتوجيه الإتيان باللام إلى اعتبار التضمين لعدم تحقق فعل مما يلائم الفعل المذكور مناسباً لها لأنها ظاهرة في الاختصاص النافع والفعل في الحدث الضار، والقول بازديادها كما في ﴿ردف لكم﴾ [النمل: ٧٢] أو الحمل على التهكم تمحل لتصحيح اللفظ من غير داع إليه ويبقى معه أمر فخامة المعنى، والحاصل أن ما ذكر لا يساعده اللفظ ولا المعنى، وجوز أن يكون ﴿ساء﴾ بمعنى قبح فقد ذكر استعماله بهذا المعنى وإن كان في كونه معنى حقيقياً نظر، و﴿حملا﴾ تمييزاً و﴿لهم﴾ حالاً و﴿يوم القيامة﴾ متعلقاً بالظرف أي قبح ذلك الوزر من جهة كونه حملاً لهم في يوم القيامة وفيه ما فيه.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ منصوب بإضمار الذكر، وجوز أن يكون ظرف المضمر حذف للإيذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه أو بدلاً من ﴿يوم القيامة﴾ أو بياناً له أو ظرفاً ليتخافتون، وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وحميد «ننفخ» بنون العظمة على إسناد الفعل إلى الآمر به وهو الله سبحانه تعظيماً للنفخ لأن ما يصدر من العظيم عظيم أو للنافخ بجعل فعله بمنزلة فعله تعالى وهو إنما يقال لمن له مزيد اختصاص وقرب مرتبة، وقيل: إنه يجوز أن يكون لليوم الواقع هو فيه. وقرىء «يُنْفُخُ» بالياء المفتوحة على أن ضميره لله عز وجل أو لإسرافيل عليه السلام وإن لم يجر ذكره لشهرته؛ وقرأ الحسن وابن عياض في جماعة ﴿في الصور﴾ بضم الصاد وفتح الواو جمع صورة كغرفة وغرف، والمراد به الجسم المصور. وأورد أن النفخ يتكرر لقوله تعالى ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾ [الزمر: ٦٨] والنفخ في الصورة إحياء والإحياء غير متكرر بعد الموت وما في القبر ليس بمراد من النفخة الأولى بالاتفاق.

وأجيب بأنه لا نسلم أن كل نفخ إحياء، وبعضهم فسر الصور على القراءة المشهورة بذلك أيضاً، والحق تفسيره بالقرن الذي ينفخ فيه ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ ينفخ في الصور، وذكر ذلك صريحاً مع تعين أن الحشر لا يكون إلا يومئذ للتهويل، وقرأ الحسن «يُحْشَرُ» بالياء والبناء للمفعول و«المجرمون» بالرفع على النيابة عن الفاعل، وقرىء أيضاً «يَحْشُر» بالياء والبناء للفاعل وهو ضميره عز وجل أي ويحشر الله تعالى المجرمين ﴿زُرْقًا﴾ حال كونهم زرق الأبدان وذلك غاية في التشويه ولا تزرق الأبدان إلا من مكابدة الشدائد وجفوف رطوبتها، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما زرق العيون فهو وصف للشيء بصفة جزئه كما يقال غلام أكحل وأحول والكحل والحول من صفات العين، ولعله مجاز مشهور، وجوز أن يكون حقيقة كرجل أعمى وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب فإن الروم الذين كانوا أشد أعدائهم عداوة زرق، ولذلك قالوا في وصف العدو أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين، وقال الشاعر:

وما كنت أخشى أن تكون وفاته ... بكفي سبنتى أزرق العين مطرق

وكانوا يهجون بالزرقة كما في قوله:

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر ... الا كلُّ ضبيٍّ من اللؤم أزرق

وسئل ابن عباس عن الجمع بين ﴿زرقا﴾ على ما روي عنه وعمياً في آية أخرى فقال: ليوم القيامة حالات فحالة يكونون فيها عمياً وحالة يكونون فيها زرقاً. وعن الفراء المراد من ﴿زرقا﴾ عمياً لأن العين إذا ذهب نورها ازرق ناظرها،

ووجه الجمع عليه ظاهر، وعن الأزهري المراد عطاشاً لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق، وقيل: يجعله أبيض، وجاء الأزرق بمعنى الأبيض ومنه سنان أزرق، وقوله: فلما وردنا الماء زرقاً جمامه ويلائم تفسيره بعطاشاً قوله تعالى على ما سمعت ﴿ونحشر المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ [مريم: ٨٦].

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يخفضون أصواتهم ويخفونها لشدة هول المطلع، والجملة استئناف لبيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال أخرى من ﴿المجرمين﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ بتقدير قول وقع حالاً من ضمير ﴿يتخافتون﴾ أي قائلين ما لبثتم في القبور ﴿إِلاَّ عَشْراً﴾ أي عشر ليال أو عشرة أيام، ولعله أوفق بقول الأمثل.

والمذكر إذا حذف وأبقى عدده قد لا يؤتى بالتاء حكى الكسائي صمنا من الشهر خمساً، ومنه ما جاء في الحديث «ثم أتبعه بست من شوال» فإن المراد ستة أيام، وحسن الحذف هنا كون ذلك فاصلة، ومرادهم من هذا القول استقصار المدة وسرعة انقضائها والتنديم على ما كانوا يزعمون حيث تبين الأمر على خلاف ما كانوا عليه من إنكار البعث وعده من قبيل المحالات كأنهم قالوا: قد بعثتم وما لبثتم في القبر إلا مدة يسيرة وقد كنتم تزعمون أنكم لن تقوموا منه أبداً، وعن قتادة أنهم عنوا لبثهم في الدنيا وقالوا ذلك استقصاراً لمدة لبثهم فيها لزوالها ولاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا أنهم استحقوها على إضاعة الأيام في قضاء الأوطار واتباع الشهوات، وتعقب بأنهم في شغل شاغل عن تذكر ذلك فالأوفق بحالهم ما تقدم، وبأن قوله تعالى: ﴿لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾ [الروم: ٥٦] صريح في أنه اللبث في القبور وفيه بحث.

وفي مجمع البيان عن ابن عباس. وقتادة أنهم عنوا لبثهم بين النفختين يلبثون أربعين سنة مرفوعاً عنهم العذاب ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي بالذي يقولونه وهو مدة لبثهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي أعدلهم رأياً وأرجحهم عقلاً و﴿إذ﴾ ظرف يقولون ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ واحداً وإليه ينتهي العدد في القلة.

وقيل: المراد باليوم مطلق الوقت وتنكيره للتقليل والتحقير فالمراد إلا زمناً قليلاً، وظاهر المقابلة بالعشر يبعده، ونسبة هذا القول إلى ﴿أمثلهم﴾ استرجاح منه تعالى له لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق بل لكونه أعظم في التنديم أو لكونه أدل على شدة الهول وهذا يدل على كون قائله أعلم بفظاعة الأمر وشدة العذاب.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ السائلون منكرو البعث من قريش على ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير قالوا على سبيل الاستهزاء كيف يفعل ربك بالجبال يوم القيامة، وقيل: جماعة من ثقيف، وقيل: أناس من المؤمنين ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ يجعلها سبحانه كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها، والفاء للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن السائل من بقاء الجبال بناء على ظن أن ذلك من توابع عدم الحشر ألا ترى أن منكري الحشر يقولون بعدم تبدل هذا النظام المشاهد في الأرض والسموات أو للمسارعة إلى تحقيق الحق حفظاً من أن يتوهم ما يقضي بفساد الاعتقاد.

وهذا مبني على أن السائل من المؤمنين والأول: على أنه من منكري البعث، ومن هنا قال الإمام: إن مقصود السائلين الطعن في الحشر والنشر فلا جرم أمر ﷺ بالجواب مقروناً بحرف التعقيب لأن تأخير البيان في هذه المسألة الأصولية غير جائز وأما تأخيره في المسائل الفروعية فجائز ولذا لم يؤت بالفاء في الأمر بالجواب في قوله تعالى ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية، وقوله تعالى ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ [البقرة: ٢١٩] وقوله تعالى ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ [الأنفال: ١] وقوله سبحانه ﴿يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾ [البقرة: ٢٢٠] إلى غير ذلك، وقال في موضع آخر: إن السؤال المذكور إما عن قدم الجبال أو عن وجوب بقائها وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين فلا جرم أمر ﷺ أن يجيبه بالفاء

المفيدة للتعقيب كأنه سبحانه قال: يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال من غير تأخير لأن القول بقدمها أو وجوب بقائها كفر، ودلالة الجواب على نفي ذلك من جهة أن النسف ممكن لأنه ممكن في كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكناً في حق كل الجبل فليس بقديم ولا واجب الوجود لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف انتهى.

واعترض بأن عدم جواز التغير والنسف إنما يسلم في حق القديم بالذات ولم يذهب أحد من السائلين إلى كون الجبال قديمة كذلك، وأما القديم بالزمان فلا يمتنع عليه لذاته ذلك بل إذا امتنع فإنما يمتنع لأمر آخر على أن في كون الجبال قديمة بالزمان عند السائلين وكذا غيرهم من الفلاسفة نظراً بل الظاهر أن الفلاسفة قائلون بحدوثها الزماني وإن لم يعلموا مبدأ معيناً لحدوثها فتأمل، ثم إنه ذكر رحمه الله تعالى أن السؤال والجواب قد ذكرا في عدة مواضع من كتاب الله تعالى منها فروعية ومنها أصولية والأصولية في أربعة مواضع في هذه الآية وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ [البقرة: ١٨٩] وقوله سبحانه: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ [الإسراء: ٨٥] وقوله عز وجل ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ [النازعات: ٤٢] ولا يخفى أن عد جميع ما ذكر من الأصولية غير ظاهر، وعلى تقدير ظهور ذلك في الجميع يرد السؤال عن سر اقتران الأمر بالجواب بالفاء في بعضها دون بعض.

وكون ما اقترن بالفاء هو الأهم في حيز المنع فإن الأمر بالجواب عن السؤال عن الروح إن كان عن القدم ونحوه فمهم كالأمر بالجواب فيما نحن فيه بل لعله أهم منه لتحقق القائل بالقدم الزماني للروح بناء على أنها النفس الناطقة كأفلاطون وأتباعه، وقد يقال: لما كان الجواب هنا لدفع السؤال عن الكلام السابق أعني قوله تعالى:

﴿يتخافتون بينهم﴾ كأنه قيل كيف يصح تخافت المجرمين المقتضي لاجتماعهم والجبال في البين مانعة عن ذلك فمتى قلتم بصحته فبينوا لنا كيف يفعل الله تعالى بها؟ فأجيب بأن الجبال تنسف في ذلك الوقت فلا يبقى مانع عن الاجتماع والتخافت، وقرن الأمر بالفاء للمسارعة إلى الذب عن الدعوة السابقة، والآيات التي لم يقرن الأمر فيها بالفاء لم تسق هذا المساق كما لا يخفى على أرباب الأذواق، وقال النسفي. وغيره: الفاء في جواب شرط مقدر أي إذا سألوك عن الجبال فقل، وهو مبني على أنه لم يقع السؤال عن ذلك كما وقع في قصة الروح وغيرها فلذا لم يؤت بالفاء ثمة وأتي به هنا فيسألونك متمحض للاستقبال، واستبعد ذلك أبو حيان، وما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج من أن قريشاً قالوا: يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ الآية، يدل على خلافه، وقال الخفاجي: الظاهر أنه إنما قرن بها هنا ولم يقرن بها ثمة للإشارة إلى أن الجواب معلوم له ﷺ قبل ذلك فأمر عليه الصلاة والسلام بالمبادرة إليه بخلاف ذلك انتهى.

وأنت تعلم أن القول بأن الجواب عن سؤال الروح، وعن سؤال المحيض ونحو ذلك لم يكن معلوماً له ﷺ قبل لم يتجاسر عليه أحد من عوام الناس فضلاً عن خواصهم فما ذكره مما لا ينبغي أن يلتفت إليه. ومما يضحك الثكلى أن بعض المعاصرين سمع السؤال عن سر اقتران الأمل هنا بالفاء وعدم اقترانه بها في الآيات الأخر فقال: ما أجهل هذا السائل بما يجوز وما لا يجوز من المسائل أما سمع قوله تعالى ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ [الأنبياء: ٢٣] أما درى أن معناه نهي من يريد السؤال عن أن يسأل. وأدل من هذا على جهل الرجل أنه دون ما قال ولم يبال بما قيل ويقال، ونقلي لذلك من باب التحميض وتذكير من سلم من مثل هذا الداء بما من الله تعالى عليه من الفضل الطويل العريض، وأمر الفاء في قوله تعالى ﴿فَيَذَرُهَا﴾ ظاهر جداً، والضمير إما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهي مقارها ومراكزها أي فنذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الأرض بعد نسف ما نتأ منها ونشز وإما

للأرض المدلول عليها بقرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال. وعلى التقديرين يذر سبحانه الكل ﴿قَاعاً صَفْصَفاً﴾ لأن الجبال إذا سويت وجعل سطحها مساوياً لسطوح أجزاء الأرض فقد جعل الكل سطحاً واحداً والقاع قيل: السهل، وقال الجوهري: المستوي من الأرض. ومنه قول ضرار بن الخطاب:

لتكونن بالبطاح قريش ... فقعة القاع في أكف الإماء

وقال ابن الأعرابي: الأرض الملساء لا نبات فيها ولا بناء. وحكى مكي أنه المكان المنكشف، وقيل: المستوي الصلب من الأرض، وقيل مستنقع الماء وليس بمراد. وجمعه أقوع وأقواع وقيعان والصفصف الأرض المستوية الملساء كان أجزاؤه صف واحد من كل جهة، وقيل: الأرض التي لا نبات فيها، وعن ابن عباس. ومجاهد جعل القاع والصفصف بمعنى واحد وهو المستوي الذي لا نبات فيه وانتصاب ﴿قاعا﴾ على الحالية من الضمير المنصوب وهو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير. و﴿صفصفا﴾ إما حال ثانية أو بدل من المفعول الثاني، وقوله تعالى ﴿لاَ تَرَىٰ فيهَا﴾ أي في مقار الجبال أو في الأرض على ما فصل ﴿عوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾ استئناف مبين كيفية ما سبق من القاع الصفصف أو حال أخرى أو صفة لقاع والرؤية بصرية والخطاب لكل من يتأتى منه. وعلقت بالعوج وهو بكسر العين ما لا يدرك بفتحها بل بالبصيرة لأن المراد به ما خفي من الاعوجاج حتى احتاج إثباته إلى المساحة الهندسية المدركة بالعقل فألحق بما هو عقلي صرف فأطلق عليه ذلك لذلك وهذا بخلاف العوج بفتح العين فإنه ما يدرك بفتحها كعوج الحائط والعود وبهذا فرق بينهما في الجمهرة وغيرها.

واختار المرزوقي في شرح الفصيح أنه لا فرق بينهما، وقال أبو عمرو: يقال لعدم الاستقامة المعنوية والحسية عوج بالكسر، وأما العوج بالفتح فمصدر عوج، وصح الواو فيه لأنه منقوص من أعوج. ولما صح في الفعل صح في المصدر أيضاً، والأمت النتوء، والتنكير فيها للتقليل. وعن ابن عباس عوجاً ميلاً ولا أمتا أثراً مثل الشراك. وفي رواية أخرى عنه عوجاً وادياً ولا أمتا رابية. وعن قتادة عوجاً صدعاً ولا أمتا أكمة، وقيل: الأمت الشقوق في الأرض. وقال الزجاج: هو أن يغلظ مكان ويدق مكان، وقيل: الأمت في الآية العوج في السماء تجاه الهواء والعوج في الأرض مختص بالعرض. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة.

وقوله تعالى ﴿يَوْمَئذٍ﴾ أي يوم إذ تنسف الجبال على إضافة يوم إلى وقت النسف من إضافة العام إلى الخاص فلا يلزم أن يكون للزمان ظرف وإن كان لا مانع عنه عند من عرفه بمتجدد يقدر به متجدد آخر. وقيل: هو من إضافة المسمى إلى الاسم كما قيل في شهر رمضان. وهو ظرف لقوله تعالى ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ وقيل: بدل من يوم القيامة. فالعامل فيه هو العامل فيه، وفيه الفصل الكثير وفوات ارتباط يتبعون بما قبله. وعليه فقوله تعالى: «ويسألونك» الخ استطراد معترض وما بعده استئناف وضمير ﴿يتبعون﴾ للناس. والمراد بالداعي داعي الله عز وجل إلى المحشر وهو إسرافيل عليه السلام يضع الصور في فيه ويدعو الناس عند النفخة الثانية قائماً على صخرة بيت المقدس ويقول: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى العرض إلى الرحمن فيقبلون من كل صوب إلى صوته.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: يحشر الله تعالى الناس يوم القيامة في ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم ويذهب الشمس والقمر وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه فذلك قوله تعالى: ﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ الخ، وقال علي بن عيسى: ﴿الداعي﴾ هنا الرسول الذي كان يدعوهم إلى الله عز وجل والأول أصح.

﴿لاَ عوَجَ لَهُ﴾ أي للداعي على معنى لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه، وهذا كما يقال: لا عصيان له أي لا يعصى ولا ظلم له أي لا يظلم، وأصله أن اختصاص الفعل بمتعلقه ثابت كما هو بالفاعل، وقيل: أي لا عوج لدعائه فلا

يعصى ولا ظلم له أي لا يظلم، وأصله أن اختصاص الفعل بمتعلقه ثابت كما هو بالفاعل، وقيل: أي لا عوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس بل يسمع جميعهم وحكي ذلك عن أبي مسلم.

وقيل: هو على القلب أي لا عوج لهم عنه بل يأتون مقبلين إليه متبعين لصوته من غير انحراف وحكي ذلك عن الجبائي وليس بشيء، والجملة في موضع الحال من الداعي أو مستأنفة كما قال ابن عطية: يحتمل أن يكون المعنى لا شك فيه ولا يخالف وجوده خبره ﴿وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ للرَّحْمَن﴾ أي خفيت لمهابته تعالى وشدة هول المطلع، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: سكنت والخشوع مجاز في ذلك، وقيل: لا مجاز والكلام على حذف مضاف أي أصحاب الأصوات وليس بذاك ﴿فَلاَ تَسْمَعُ﴾ خطاب لكل من يصح منه السمع ﴿إلاَّ هَمْساً﴾ أي صوتاً خفياً خافتاً كما قال أبو عبيدة. وعن مجاهد هو الكلام الخفي، ويؤيده قراءة أبي «فلا ينطقون إلا همساً» وعن ابن عباس هو تحريك الشفاه بغير نطق، واستبعد بأن ذلك مما يرى لا مما يسمع، وفي رواية أخرى عنه أنه خفق الأقدام وروي ذلك عن عكرمة وابن جبير والحسن، واختاره الفراء والزجاج.

ومنه قول الشاعر: وهن يمشين بنا هميساً. وذكر أنه يقال للأسد الهموس لخفاء وطئه فالمعنى سكنت أصواتهم وانقطعت كلماتهم فلم يسمع منهم إلا خفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر ﴿يَوْمَئذ﴾ أي يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة وهو ظرف لقوله تعالى: ﴿لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ وجوز أن يكون بدلاً من يوم القيامة أو من ﴿يومئذ يتبعون﴾، والمراد لا تنفع الشفاعة من الشفعاء أحداً ﴿إلاَّ مَنْ أَذنَ﴾ في الشفاعة.

﴿لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ فالاستثناء من أعم المفاعيل و﴿من﴾ مفعول ﴿تنفع﴾ وهي عبارة عن المشفوع له و﴿له﴾ متعلق بمقدر متعلق بإذن، وفي البحر أن اللام للتعليل وكذا في قوله تعالى ﴿ورَضيَ لَهُ قَوْلاً﴾ أي ورضي لأجله قول الشافع وفي شأنه أو رضي قول الشافع لأجله وفي شأنه فالمراد بالقول على التقديرين قول الشافع، وجوز فيه أيضاً أن لا يكون للتعليل، والمعنى ورضي قولاً كائناً له فالمراد بالقول قول المشفوع وهو على ما روي عن ابن عباس لا إله إلا الله، وحاصل المعنى عليه لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن الرحمن في أن يشفع له وكان مؤمناً، والمراد على كل تقدير أنه لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن الرحمن في أن يشفع له وكان مؤمناً، والمراد على كل تقدير أنه لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من ذكر وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وإن فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المدثر: ٤٨].

وجوز في البحر والدر المصون أن لا يقدر مفعول لتنفع تنزيلاً له منزلة اللازم والاستثناء من شفاعة ومن في محل رفع على البدلية منها بتقدير مضاف أو في محل نصب على الاستثناء بتقديره أيضاً أي إلا شفاعة من أذن الخ، ومن عبارة عن الشافع والاستثناء متصل ويجوز أن يكون منقطعاً إذا لم يقدر شيء ومحل «من» حينئذ نصب على لغة الحجاز ورفع على لغة تميم، واعترض كون الاستثناء من الشفاعة على تقدير المضاف بأن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن يملكها ولا تصدر عنه أصلاً ومعنى «لا يقبل منها شفاعة» لا يؤذن لها فيها لا أنها لا تقبل بعد وقوعها فالأخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم إمكان صدورها حين لم يأذن له مع إخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْديهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الظاهر أن ضمير الجمع عائد على الخلق المحشورين، وهم متبعو الداعي، وقيل: على الناس لا بقيد الحشر والاتباع، وقيل: على الملائكة عليهم السلام وهو خلاف الظاهر جداً، والمراد من الموصولين على ما قيل ما تقدمهم من الأحوال وما بعدهم مما يستقبلونه أو بالعكس أو أمور الدنيا وأمور الآخرة أو بالعكس أو ما يدركونه وما لا يدركونه وقد مر الكلام في ذلك.

﴿وَلاَ يُحيطُونَ به علْماً﴾ أي لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى فعلماً تمييز محول عن الفاعل وضمير «به» لله

تعالى والكلام على تقدير مضاف. وقيل: المراد لا يحيط علمهم بذاته سبحانه أي من حيث اتصافه بصفات الكمال التي من جملتها العلم الشامل ويقتضي صحة أن يقال: علمت الله تعالى إذ المنفي العلم على طريق الإحاطة.

وقال الجبائي: الضمير لمجموع الموصولين فإنهم لا يعلمون جميع ما ذكر ولا تفصيل ما علموا منه، وجوز أن يكون لأحد الموصولين لا على التعيين.

۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ
يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل
رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ
ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ
إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ
لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ
فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ
ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ
وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمۡ
يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ
سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ
وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا
مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا
نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي
ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ
ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ

ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي ذلت وخضعت خضوع العناة أي الأسارى، والمراد بالوجوه إما الذوات وإما الأعضاء المعلومة وتخصيصها بالذكر لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة وآثار الذل أول ما تظهر فيها، وأل فيها للعهد أوعوض عن المضاف إليه أي وجوه المجرمين فتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ [الملك: ٢٧] واختار ذلك الزمخشري وجعل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ اعتراضاً ووضع الموصول موضع ضميرهم ليكون أبلغ، وقيل: الوجوه الأشراف أي عظماء الكفرة لأن المقام مقام الهيبة ولصوق الذلة بهم أولى والظلم الشرك وجملة ﴿وقد خاب﴾ الخ حال والرابط الواو لا معترضة لأنها في مقابلة وهو مؤمن فيما بعد انتهى. قال صاحب الكشف: الظاهر مع الزمخشري والتقابل المعنوي كاف فإن الاعتراض لا يتقاعد عن الحال انتهى.

وأنت تعلم أن تفسير الظلم بالشرك مما لا يختص بتفسير الوجوه بالإشراف وجعل الجملة حالاً بل يكون على الوجه الأول أيضاً بناء على أن المراد بالمجرمين الكفار، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وقد خاب﴾ الخ خسر من أشرك بالله تعالى ولم يتب، وقال غير واحد: الظاهر أن أل للاستغراق أي خضعت واستسلمت جميع الوجوه وقوله تعالى ﴿وقد خاب﴾ الخ يحتمل الاستئناف والحالية، والمراد بالموصول إما المشركون وإما ما يعمهم وغيرهم من العصاة وخيبة كل حامل بقدر ما حمل من الظلم فخيبة المشرك دائمة وخيبة المؤمن العاصي مقيدة بوقت العقوبة إن عوقب. وقد تقدم لك معنى ـ الحي القيوم ـ في آية الكرسي. والظاهر أن قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ قسيم لقوله سبحانه ﴿وعنت الوجوه﴾ إلى آخر ما تقدم ولقوله عز وجل «وقد خاب من حمل ظلماً» على هذا كما صرح به ابن عطية وغيره أي ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي بما يجب الإيمان به. والجملة في موضع الحال والتقييد بذلك لأن الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الحسنات ﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً﴾ أي منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿وَلاَ هَضْماً﴾ ولا منع بعض منه تقول العرب هضمت حقي أي نقصت منه ومنه هضيم الكشحين أي ضامرهما وهضم الطعام تلاشى في المعدة. روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن المعنى فلا يخاف أن يظلم فيزاد في سيئاته ولا أن يهضم فينقص من حسناته. والأول مروي عن ابن زيد، وقيل الكلام على حذف مضاف أي فلا يخاف جزاء ظلم وهضم إذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم حق أحد حتى يخاف ذلك أو أنه أريد من الظلم والهضم جزاؤهما مجازاً، ولعل المراد على ما قيل نفي الخوف عنه من ذلك من حيث إيمانه وعمله بعض الصالحات ويتضمن ذلك نفي أن يكون العمل الصالح مع الإيمان ظلماً أو هضماً.

وقيل: المراد أن من يعمل ذلك وهو مؤمن هذا شأنه لصون الله تعالى إياه عن الظلم أو الهضم ولأنه لا يعتد بالعمل الصالح معه. فلا يرد ما قيل إنه لا يلزم من الإيمان وبعض العمل أن لا يظلم غيره ويهضم حقه ولا يخفى عليك أن القول بحذف المضاف والتجوز في هذه الآية في غاية البعد وما قيل من الاعتراض قوي وما أجيب به كما ترى. ثم إن ظاهر كلام الجوهري أنه لا فرق بين الظلم والهضم، وظاهر الآية قاض بالفرق وكذا قول المتوكل الليثي:

إن الأذلة واللئام لمعشر ... مولاهم المتهضم المظلوم

وممن صرح به الماوردي حيث قال: الفرق بينهما أن الظلم منع الحق كله والهضم منع بعضه. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد «فلا يخف» على النهي. قال الطيبي: قراءة الجمهور توافق قوله تعالى: ﴿وقد خاب﴾ الخ من

حيث الأخبار وأبلغ من القراءة الأخرى من حيث الاستمرار والأخرى أبلغ من حيث إنها لا تقبل التردد في الأخبار.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ عطف على ﴿كذلك نقص﴾ [طه: ٩٩] والإشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أي مثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن كله وهو تشبيه لإنزال الكل بإنزال الجزء والمراد أنه على نمط واحد، وإضماره من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول حاضراً في الأذهان ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق الآدميين نازلاً من رب العالمين ﴿وَصَرَّفْنَا فيه منَ الْوَعِيدِ﴾ أي كررنا فيه بعض الوعيد أو بعضاً من الوعيد، والجملة عطف على جملة ﴿أنزلناه﴾ وجعلها حالاً قيد الإنزال خلاف الظاهر جداً.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المفعول محذوف وتقدم الكلام في لعل، والمراد لعلهم يتقون الكفر والمعاصي بالفعل ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ أي عظة واعتباراً مؤدياً في الآخرة إلى الاتقاء، وكأنه لما كانت التقوى هي المطلوبة بالذات منهم أسند فعلها إليهم ولما لم يكن الذكر كذلك غير الأسلوب إلى ما سمعت كذا قيل، وقيل: المراد بالتقوى ملكتها، وأسندت إليهم لأنها ملكة نفسانية تناسب الإسناد لمن قامت به، وبالذكر العظة الحاصلة من استماع القرآن المثبطة عن المعاصي، ولما كانت أمراً يتجدد بسبب استماعه ناسب الإسناد إليه، ووصفه بالحدوث المناسب لتجدد الألفاظ المسموعة، ولا يخفى بعد تفسير التقوى بملكتها على أن في القلب من التعليل شيئاً.

وفي البحر أسند ترجي التقوى إليهم لأن التقوى عبارة عن انتفاء فعل القبيح وذلك استمرار على العدم الأصلي، وأسند ترجي أحداث الذكر للقرآن لأن ذلك أمر حدث بعد أن لم يكن انتهى، وهو مأخوذ من كلام الإمام وفي قوله: لأن التقوى إلى آخره على إطلاقه منع ظاهر، وفسر بعضهم التقوى بترك المعاصي والذكر بفعل الطاعات فإنه يطلق عليه مجاز لما بينهما من السببية والمسببية فكلمة أو على ما قيل للتنويع، وفي الكلام إشارة إلى أن مدار الأمر التخلية والتحلية. والإمام ذكر في الآية وجهين، الأول أن المعنى إنما أنزلنا القرآن ليصيروا محترزين عن فعل ما لا ينبغي أو يحدث لهم ذكراً يدعوهم إلى فعل ما ينبغي فالكلام مشير أيضاً إلى التخلية والتحلية إلا أنه ليس فيه ارتكاب المجاز، والثاني أن المعنى أنزلنا القرآن ليتقوا فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث لهم ذكراً وشرفاً وصيتاً حسناً، ولا يخفى أن هذا ليس بشيء، وقال الطيبي: إن المعنى وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً أي فصيحاً ناطقاً بالحق ساطعاً بيناته لعلهم يحدث لهم التأمل والتفكر في آياته وبيناته الوافية الشافية فيذعنون ويطيعون وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون العذاب. ففي الآية لف من غير ترتيب وهي على وزان قوله تعالى ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه: ٤٤] وعندي كون الآية متضمنة للتخلية والتحلية لا يخلو عن حسن فتأمل.

وقرأ الحسن «أو يحدثْ» بسكون الثاء، وقرأ عبد الله ومجاهد وأبو حيوة والحسن في رواية والجحدري وسلام «أو نحدثْ» بالنون وسكون الثاء وذلك حمل وصل على وقف أو تسكين حرف الإعراب استثقالاً لحركته كما قال ابن جني نحو قول امرىء القيس:

اليوم أشرب غير مستحقب ... إثماً من الله ولا واغل

وقول جرير:

سيروا بني العم فالأهواز منزلكم ... ونهر تيري ولا يعرفكم العرب

﴿فَتَعَالَى اللهُ﴾ استعظام له تعالى ولما صرف في القرآن من الوعد والوعيد والأوامر والنواهي وغير ذلك وتنزيه لذاته المتعالية أن لا يكون إنزال قرآنه الكريم منتهياً إلى غاية الكمالية من تسببه لترك من أنزل عليهم المعاصي، ولفعلهم

الطاعات وفيه تعجيب واستدعاء للإقبال عليه وعلى تعظيمه، وفي وصفه تعالى بقوله سبحانه ﴿الْمَلِكُ﴾ أي المتصرف بالأمر والنهي الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده ما يدل على أن قوارع القرآن سياسات إلهية يتضمن صلاح الدارين لا يحيد عنها إلا مخذول هالك، وقوله تعالى ﴿الْحَقُّ﴾ صفة بعد صفة لله تعالى أي الثابت في ذاته وصفاته عز وجل، وفسره الراغب بموجد الشيء على ما تقتضيه الحكمة.

وجوز غير واحد كونه صفة للملك ومعناه خلاف الباطل أي الحق في ملكيته يستحقها سبحانه لذاته، وفيه إيماء إلى أن القرآن وما تضمنه من الوعد والوعيد حق كله لا يحوم حول حماه الباطل بوجه وأن المحق من أقبل عليه بشراً شره وأن المبطل من أعرض عن تدبر زواجره، وفيه تمهيد لوصل النهي عن العجلة به في قوله سبحانه ﴿وَلاَ تَعجَلْ بالْقُرآن من قَبْل أَن يُقْضَىٰ إلَيْكَ﴾ أي يتم ﴿وَحْيُهُ﴾ أي تبليغ جبريل عليه السلام إياه فإن من حق الإقبال ذلك وكذلك من حق تعظيمه.

وذكر الطيبي أن هذه الجملة عطف على قوله تعالى ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ لما فيه من إنشاء التعجب فكأنه قيل حيث نبهت على عظمة جلالة المنزل وأرشدت إلى فخامة المنزل فعظم جنابه الملك الحق المتصرف في الملك والملكوت، وأقبل بكلك على تحفظ كتابه وتحقق مبانيه ولا تعجل به، وكان ﷺ إذا ألقى عليه جبريل عليه السلام القرآن يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة خوفاً أن يصعد عليه السلام ولم يحفظه ﷺ فنهى عليه الصلاة والسلام عن ذلك إذ ربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها، ونزل عليه أيضاً ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ [القيامة: ٦٦] الآية، وأمر ﷺ باستفاضة العلم واستزادته منه سبحانه فقيل: ﴿وَقُلْ﴾ أي في نفسك ﴿رَّبِّ زِدْني علْماً﴾ أي سل الله عز وجل بدل الاستعجال زيادة العلم مطلقاً أو في القرآن فإن تحت كل كلمة بل كل حرف منه أسراراً ورموزاً وعلوماً جمة وذلك هو الأنفع لك، وقيل: وجملة ﴿ولا تعجل﴾ مستأنفة ذكرت بعد الإنزال على سبيل الاستطراد، وقيل: إن ذلك نهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه وليس بذاك، فإن تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لا ريب في صحته ومشروعيته.

ومثله ما قيل: إنه نهي عن الأمر بكتابته قبل أن تفسر له المعاني وتتقرر عنده عليه الصلاة والسلام بل هو دونه بكثير، وقيل: إنه نهي عن الحكم بما من شأنه أن ينزل فيه قرآن بناء على ما أخرج جماعة عن الحسن أن امرأة شكت إلى النبي ﷺ أن زوجها لطمها فقال لها: بينكما القصاص فنزلت هذه الآية فوقف ﷺ حتى نزل ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ [النساء: ٣٤]، وقال الماوردي: إنه نهي عن العجلة بطلب نزوله. وذلك أن أهل مكة وأسقف نجران قالوا: يا محمد أخبرنا عن كذا وقد ضربنا لك أجلاً ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بين اليهود وزعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد غلب فشق ذلك عليه ﷺ واستعجل الوحي فنزلت ﴿ولا تعجل﴾ الخ وفي كلا القولين ما لا يخفى.

وقرأ عبد الله والجحدري والحسن وأبو حيوة وسلام ويعقوب والزعفراني وابن مقسم «نقضي» بنون العظمة مفتوح الياء «وحيه» بالنصب. وقرأ الأعمش كذلك إلا أنه سكن الياء من «نقضي»، قال صاحب اللوامح: وذلك على لغة من لا يرى فتح الياء بحال إذا انكسر ما قبلها وحلت طرفاً، واستدل بالآية على فضل العلم حيث أمر ﷺ بطلب زيادته، وذكر بعضهم أنه ما أمر عليه الصلاة والسلام بطلب الزيادة في شيء إلا العلم. وأخرج الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال».

وأخرج سعيد بن منصور. وعبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يدعو «اللهم زدني إيماناً وفقهاً ويقيناً وعلماً» وما هذا إلا لزيادة فضل العلم وفضله أظهر من أن يذكر، نسأل الله تعالى أن يرزقنا الزيادة فيه ويوفقنا للعمل بما يقتضيه ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ كأنه لما مدح سبحانه القرآن، وحرض على استعمال التؤدة والرفق في أخذه وعهد على العزيمة بأمره وترك النسيان فيه ضرب حديث آدم مثلاً للنسيان وترك العزيمة.

وذكر ابن عطية أن في ذلك مزيد تحذير للنبي ﷺ عن العجلة وعدم التؤدة لئلا يقع فيما لا ينبغي كما وقع آدم عليه السلام، فالكلام متعلق بقوله تعالى ﴿ولا تعجل بالقرآن﴾ الخ، وقال الزمخشري: هو عطف على ﴿صرفنا﴾ عطف القصة على القصة، والتخالف فيه إنشاء وخبرية لا يضر مع أن المقصود بالعطف جواب القسم. وحاصل المعنى عليه صرفنا الوعيد وكررناه لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً لكنهم لم يلتفتوا لذلك ونسوه كما لم يلتفت أبوهم إلى الوعيد ونسي العهد إليه. والفائدة في ذلك الإشارة إلى أن مخالفتهم شنشنة أخزمية وأن أساس أمرهم ذلك وعرقهم راسخ فيه، وحكي نحو هذا عن الطبري.

وتعقبه ابن عطية بأنه ضعيف لما فيه من الغضاضة من مقام آدم عليه السلام حيث جعلت قصته مثلاً للجاحدين لآيات الله تعالى وهو عليه السلام إنما وقع منه ما وقع بتأويل انتهى، والإنصاف يقضي بحسنه فلا تلتفت إلى ما قيل: إن فيه نظراً، وقال أبو مسلم: إنه عطف على قوله تعالى ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾ [طه: ٩٩] وليس بذاك، نعم فيه مع ما تقدم إنجاز الموعود في تلك الآية، واستظهر ابن عطية فيه أحد أمرين التعلق بلا تعجل وكونه ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله، وهذا الأخير وإن قدمه في كلامه ناشيء من ضيق العطن كما لا يخفى، والعهد الوصية يقال عهد إليه الملك ووغر إليه وعزم عليه وتقدم إليه إذا أمره ووصاه، والمعهود محذوف يدل عليه ما بعده، واللام واقعة في جواب قسم محذوف أي وأقسم بالله لقد أمرناه ووصيناه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا الزمان، وقيل: أي من قبل وجود هؤلاء المخالفين.

وعن الحسن أي من قبل إنزال القرآن، وقيل: أي من قبل أن يأكل من الشجرة ﴿فَنَسِيَ﴾ العهد ولم يهتم به ولم يشتغل بحفظه حتى غفل عنه، والعتاب جاء من ترك الاهتمام، ومثله عليه السلام يعاتب على مثل ذلك، وعن ابن عباس[1] والحسن أن المراد فترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها فالنسيان مجاز عن الترك والفاء للتعقيب وهو عرفي، وقيل: فصيحة أي لم يهتم به فنسي والمفعول محذوف وهو ما أشرنا إليه، وقيل: المنسي الوعيد بخروج الجنة إن أكل، وقيل قوله تعالى: ﴿إن هذا عدو لك ولزوجك﴾ وقيل: الاستدلال على أن النهي عن الجنس دون الشخص، والظاهر ما أشرنا إليه.

وقرأ اليماني والأعمش «فَنُسِّي» بضم النون وتشديد السين أي نساه الشيطان ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ تصميم رأي وثبات قدم في الأمور، وهذا جاء على القولين في النسيان، نعم قيل: إنه أنسب بالثاني وأوفق بسياق الآية على ما ذكرنا أولاً. وروى جماعة عن ابن عباس وقتادة أن المعنى لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة، وعن ابن زيد وجماعة أن المعنى لم نجد له عزماً على الذنب فإنه عليه السلام أخطأ ولم يتعمد وهو قول من قال: إن النسيان على حقيقته؛ وجاء عن ابن عباس ما يقتضيه، فقد أخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عنه قال قال لي عمر رضي الله تعالى عنه إن صاحبكم هذا ـ يعني علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه ـ إن ولي زهد ولكني أخشى عجب نفسه أن يذهب به

(١) رواه عنه جماعة اهـ منه.

قلت: يا أمير المؤمنين إن صاحبنا من قد علمت والله ما نقول: إنه غير ولا بدل ولا أسخط رسول الله ﷺ أيام صحبته فقال ولا في بنت أبي جهل وهو يريد أن يخطبها على فاطمة قلت قال الله تعالى في معصية آدم عليه السلام ﴿ولم نجد له عزماً﴾ فصاحبنا لم يعزم على إسخاط رسول الله ﷺ ولكن الخواطر التي لا يقدر أحد دفعها عن نفسه وربما كانت من الفقيه في دين الله تعالى العالم بأمر الله سبحانه فإذا نبه عليها رجع وأناب فقال: يا ابن عباس من ظن أنه يرد بحوركم فيغوص فيها معكم حتى يبلغ قعرها فقد ظن عجزاً، لكن لا يخفى عليك أن هذا التفسير غير متبادر ولا كثير المناسبة للمقام. وحاصل لم نجد ألخ عليه أنه نسي فيتكرر مع ما قبله.

ثم إن ﴿لم نجد﴾ إن كان من الوجود العلمي، ـ فله عزماً ـ مفعولاه قدم الثاني على الأول لكونه ظرفاً وإن كان من الوجود المقابل للعدم كما اختاره بعضهم ـ فله ـ متعلق به قدم على مفعوله لما مر غير مرة أو بمحذوف وقع حالاً من مفعوله المنكر، والمعنى على هذا ولم نصادف له عزماً ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ شروع في بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه، ﴿وإذ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي ﷺ أي واذكر وقت قولنا للملائكة الخ. قيل: وهو معطوف على مقدر أي اذكر هذا واذكر إذ قلنا أو من عطف القصة على القصة. وأيًا ما كان فالمراد اذكر ما وقع في ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه ﴿فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ﴾ قد مر الكلام فيه مراراً ﴿أَبى﴾ جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ عن الأخبار بعدم سجوده كأنه قيل: فما باله لم يسجد؟ فقل: ﴿أبى﴾ والإباء الامتناع أو شدته ومفعوله إما محذوف أي أبى السجود كما في قوله تعالى ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ [الحجر: ٣١] أو غير منوي رأساً بتنزيله منزلة اللازم أي فعل الإباء وأظهره ﴿فَقُلْنَا﴾ عقيب ذلك اعتناء بنصح آدم عليه السلام ﴿يَا آدَمُ إنَّ هَذَا﴾ الذي رأيت منه ما رأيت ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أعيد اللام لأنه لا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار عند الجمهور. وقيل: أعيد للدلالة على أن عداوة اللعين للزوجة أصالة لا تبعاً. وهو على القول بعدم لزوم إعادة الجار في مثله كما ذهب إليه ابن مالك ظاهر. وأما على القول باللزوم فقد قيل في توجيهه. إن كون الشيء لازماً بحسب القاعدة النحوية لا ينافي قصد إفادة ما يقتضيه المقام.

وقد صرح السيد السند في شرح المفتاح في توجيه جعل صاحب المفتاح تنكير التمييز في قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ [مريم: ٤] لإفادة المبالغة بما يرشد إلى ذلك، ولا يخفى ما في التعبير بزوجك دون حواء من مزيد التنفير والتحذير منه، واختلف في سبب العداوة فقيل مجرد الحسد وهو لعنه الله تعالى ولعن أتباعه أول من حسد، وقيل: كونه شيخاً جاهلاً وكون آدم عليه السلام شاباً عالماً، والشيخ الجاهل يكون أبداً عدواً للشاب العالم بل الجاهل مطلقاً عدو للعالم كذلك كما قيل: والجاهلون لأهل العلم أعداء وقيل: تنافي الأصلين فإن اللعين خلق من نار وآدم عليه السلام خلق من طين وحواء خلقت منه، وقد ذكر جميع ذلك الإمام الرازي.

﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي فلا يكونن سبباً لإخراجكما ﴿مِنَ الْجَنَّةِ﴾ وهذا كناية عن نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان في إخراجهما منها نحو قوله تعالى: ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ [الأعراف: ٢] والفاء لترتيب موجب النهي على عداوته لهما أو على الأخبار بها ﴿فَتَشْقَىٰ﴾ أي فتتعب بمتاعب الدنيا وهي لا تكاد تحصى ولا يسلم منها أحد وإسناد ذلك إليه عليه السلام خاصة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معاً لأصالته في الأمور واستلزام تعبه لتعبها مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل على أتم وجه، وقيل: المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادىء المعاش وهو من وظائف الرجال، وأيد هذا بما أخرجه عبد بن حميد وابن عساكر. وجماعة عن سعيد بن جبير قال: «إن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة استقبله ثور أبلق فقيل له: اعمل عليه فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: هذا ما

وعدني ربي ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ ثم نادى حواء حواء أنت عملت بي هذا فليس من ولد آدم أحد يعمل على ثور إلا قال: حو دخلت عليهم من قبل آدم عليه السلام، وكذا أيد بالآية بعد وفيه تأمل، ولعل القول بالعموم أولى، و«تشقى» يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار أن في جواب النهي، ويحتمل أن يكون مرفوعاً على الاستئناف بتقدير فأنت تشقى، واستبعد هذا بأنه ليس المراد الأخبار عنه بالشقاء بل المراد أن وقع الإخراج حصل ذلك.

﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ﴾ أي ولا تصيبك الشمس يقال: ضحا كسعى وضحى كرضى ضحواً وضحياً إذا أصابته الشمس، ويقال ضحاً ضحوا وضحوا وضحياً إذا برز لها، وأنشدوا قول عمرو بن أبي ربيعة:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشي فيخصر

وفسر بعضهم ما في الآية بذلك والتفسير الأول مروي عن عكرمة، وأيّاً ما كان فالمراد نفي أن يكون بلا كن، والجملة تعليل لما يوجبه النهي فإن اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادىء البقاء فيها والجد في الانتهاء عما يؤدي إلى الخروج عنها، والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعماً بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعاً بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب في الابقاء فيها ما لا يخفى إلى ما ذكر من نفي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعرى والضحو لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التي حذره سبحانه عنها ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها، ومعنى ﴿أن لا تجوع﴾ الخ أن لا يصيبه شيء من الأمور الأربعة أصلاً فإن الشبع والري والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها وليس الأمر فيها كذلك بل كلما وقع فيها شهوة وميل إلى شيء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى الشجرة حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾ [البقرة: ٣٥] وقد طوي ذكره ها هنا اكتفاء بذلك واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب، وقال بعضهم: إن الاقتصار على ما ذكر لما وقع في سؤال آدم عليه السلام فإنه روي أنه لما أمره سبحانه بسكنى الجنة قال إلهي ألي فيها ما آكل ألي فيها ما ألبس ألي فيها ما أشرب ألي فيها ما أستظل به فأجيب بما ذكر، وفي القلب من صحة الرواية شيء.

ووجه إفراده عليه السلام بما ذكر ما مر آنفاً، وقيل: كونه السائل وكان الظاهر عدم الفصل بين الجوع والظمأ والعري والضحو للتجانس والتقارب إلا أنه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها وهي أن الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر فكأنه قيل لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس وهو الضحو المورث حرارة الظاهر فكأنه قيل: لا يؤلمك حرارة الباطن والظاهر وذلك الوصل الخفي وهو سر بديع من أسرار البلاغة، وفي الكشف إنما عدل إلى المنزل تنبيهاً على أن الشبع والكسوة أصلان وأن الأخيرين متممان على الترتيب فالامتنان على هذا الوجه أظهر ولهذا فرق بين القرينتين فقيل أولاً ﴿إن لك﴾ وثانياً ﴿إنك﴾، وقد ذكر هذه العلامة الطيبي أيضاً ثم قال: وفي تنسيق المذكورات الأربعة مرتبة هكذا مقدماً ما هو الأهم فالأهم ثم في جعلها تفصيلاً لمضمون قوله تعالى ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ وتكرير لفظة فيها وإخراجها في صيغة النفي مكررة الأداة الإيماء إلى التعريض بأحوال الدنيا وأن لا بد من مقاساتها ﴿فيها﴾ لأنها خلقت لذلك وأن الجنة ما خلقت إلا للتنعم ولا يتصور فيها غيره.

وفي الانتصاف أن في الآية سراً بديعاً من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم ولو قرن كل بشكله لتوهم المقرونان نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً فقال الكندي[1] الأول:

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولم أقل ... لخيلي كرِّي كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله لخيله: كري كرة وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها، وتبعه الكندي[2] الآخر فقال:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك ضحاك وثغرك باسم

وقد اعترض عليه سيف الدولة إذ قطع الشيء عن نظيره فقال له: إن كنت أخطأت بذلك فقد أخطأ امرؤ القيس بقوله وأنشد البيتين السابقين، وفي الآية سر لذلك أيضاً زائد على ما ذكر وهو قصد تناسب الفواصل اهـ.

وقد يقال في بيتي الأول: إنه جمع بين ركوب الخيل للذة والنزهة وتبطن الكاعب للذة الحاصلة فيهما وجمع بين سبء الزق وقوله لخيله: كري لما فيهما من الشجاعة، ثم ما ذكر من قصد تناسب الفواصل في الآية ظاهر في أنه لو عدل عن هذا الترتيب لم يحصل ذلك وهو غير مسلم.

وقرأ شيبة ونافع وحفص وابن سعدان «إنك» بكسر الهمزة. وقرأ الجمهور بفتحها على أن العطف على أن لا تجوع وهو في تأويل مصدر اسم لأن وصحة وقوع ما صدر بأن المفتوحة اسماً لأن المكسورة المشاركة لها في إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبراً لها لما أن المحذور وهو اجتماع حر في التحقيق في مادة واحدة غير موجود فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما في حيزها بخلاف ما لو وقعت خبراً فإن اتحاد المناط حيئنذ مما لا ريب فيه، وبيانه على ما في إرشاد العقل السليم أن كل واحدة من الأداتين موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها ما فيها من الحكم وإن مناطه الخبر لا الاسم فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها في نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسماً للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر، وأما تحقيق ثبوتها في نفسها فهو مدلول المفتوحة فلا يلزم اجتماع حر في التحقيق في مادة واحدة قطعاً، وإنما لم يجز أن يقال: إن أن زيداً قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا: إن عندي أن زيداً قائم حق للتجافي عن صورة الاجتماع، والواو العاطفة وإن كانت نائبة عن المكسورة التي يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها في إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق لم يلزم من دخولها اجتماع حر في التحقيق أصلاً. فالمعنى إن لك عدم الجوع وعدم العري وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عدم الظمأ والضحو مطلقاً كما فعل مثله في المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدري المحض أن المفيدة له كأنه قيل: إن

---

(١) هو امرؤ القيس اهـ منه.

(٢) هو المتنبي اهـ منه.

كل فيها عدم ظمئك على التحقيق انتهى. ويحتاج عليه إلى بيان النكتة في عدم الاقتصار على بيان أن الثابت له عدم الظمأ مطلقاً كما فعل مثله في المعطوف عليه فتأمل ولا تغفل.

وقيل: إن الواو وإن كانت نائبة عن إن هنا إلا أنه يلاحظ بعدها ﴿لك﴾ الموجود بعد أن التي نابت عنها فيكون هناك فاصل ولا يمتنع الدخول معه وهو كما ترى، ولا يخفى عليك أن العطف على قراءة الكسر على أن الأولى مع معموليها لا على اسمها ولا كلام في ذلك ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أنهى الوسوسة إليه، وهي كما قال الراغب: الخطرة الرديئة؛ وأصلها من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي، وقال الليث: الوسوسة حديث النفس والفعل وسوس بالبناء للفاعل، ويقال: رجل موسوس بالكسر والفتح لحن.

وذكر غير واحد أن وسوس فعل لازم مأخوذ من الوسوسة وهي حكاية صوت كولولة الثكلى ووعوعة الذئب ووقوقة الدجاجة وإذا عدي بإلى ضمن معنى الإنهاء وإذا جيء باللام بعده نحو وسوس له فهي للبيان كما في ﴿هيت لك﴾ [يوسف: ٢٣] وقال الزمخشري: للأجل أي وسوس لأجله، وكذا إذا كانت بعد نظائر هذا الفعل نحو قوله:

اجرس[1] لها يا ابن أبي كباش ... فما لها الليلة من أنفاش

وذكر في الأساس وسوس إليه في قسم الحقيقة، وظاهره عدم اعتبار التضمين والكثير على اعتباره.

﴿قالَ﴾ إما بدل من ﴿وسوس﴾ أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل: فما قال له في وسوسته: فقيل: قال ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع ثم عرض عليه ما عرض على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنصح، ومعنى شجرة الخلد شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكاً لقوله تعالى: ﴿إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ [الأعراف: ٢٠].

وفي البحر أن ما حكي هنا مقدم على ما حكي في الأعراف من قوله تعالى: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾ [الأعراف: ٢٠] الخ كأن اللعين لما رأى منه عليه السلام نوع إصغاء إلى ما عرض عليه انتقل إلى الأخبار والحصر انتهى، والحق أنه لا جزم بما ذكر ﴿وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ أي لا يفنى أو لا يصير بالياً خلقاً قيل: إن هذا من لوازم الخلود فذكره للتأكيد وزيادة الترغيب ﴿فَأَكَلا﴾ أي هو وزوجته ﴿مِنْهَا﴾ أي من الشجرة التي سماها اللعين شجرة الخلد ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: عريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما، وفي رواية أخرى عنه أنه كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع والله تعالى أعلم بصحة ذلك، ثم إن ما ذكر يحتمل أن يكون عقوبة للأكل ويحتمل أن يكون مرتباً عليه لمصلحة أخرى ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قد مر تفسيره.

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود أو عن المطلوب منه وهو ترك الأكل من الشجرة أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو، وقيل: غوى أي فسد عليه عيشه. ومنه يقال: الغواء لسوء الرضاع. وقرىء «فَغَوِيَ» بفتح الغين وكسر الواو وفتح الياء أي فبشم من كثرة الأكل من غوي الفصيل إذا اتخم من اللبن وبه فسرت القراءة الأخرى، وتعقب ذلك الزمخشري: فقال وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً فيقول في فني وبقي فنا وبقا بالألف وهم بنو طيء تفسير خبيث، وظاهر الآية يدل على أن ما وقع من الكبائر وهو المفهوم من كلام الإمام فإن كان صدوره بعد البعثة تعمداً من غير نسيان ولا تأويل أشكل على ما اتفق عليه

---

(١) حد لها اهـ منه.

المحققون والأئمة المتقنون من وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام بعد البعثة عن صدور مثل ذلك منهم على ذلك الوجه، ولا يكاد يقول بذلك إلا الأزارقة من الخوارج فإنهم عليهم ما يستحقون جوزوا الكفر عليهم وحاشاهم فما دونه أولى بالتجويز، وإن كان صدوره قبل البعثة كما قال به جمع وقال الإمام: إنه مذهبنا فإن كان تعمداً أشكل على قول أكثر المعتزلة والشيعة بعصمتهم عليهم السلام عن صدور مثل ذلك تعمداً قبل البعثة أيضاً.

نعم لا إشكال فيه على ما قاله القاضي أبو بكر من أنه لا يمتنع عقلاً ولا سمعاً أن يصدر من النبي عليه السلام قبل نبوته معصية مطلقاً بل لا يمتنع عقلاً إرسال من أسلم بعد كفره، ووافقه على ذلك كما قال الآمدي في أبكار الأفكار أكثر الأصحاب وكثير من المعتزلة وإن كان سهواً كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فنسي ولم نجد له عزما﴾ [طه: ٨٨] بناء على أحد القولين فيه أشكل على ما نقل عن الشيعة من منع صدور الكبيرة سهواً قبل البعثة أيضاً، ولا إشكال فيه على ما سمعت عن القاضي أبي بكر، وإن كان بعد البعثة سهواً أشكل أيضاً عند بعض دون بعض، فقد قال عضد الملة في المواقف إن الأكثرين جوزوا صدور الكبيرة يعني ما عدا الكفر والكذب فيما دلت المعجزة على صدقهم عليهم السلام فيه سهواً وعلى سبيل الخطأ منهم، وقال العلامة الشريف المختار: خلافه، وذهب كثير إلى أن ما وقع صغيرة والأمر عليه هين فإن الصغائر الغير المشعرة بالخسة يجوز على ما ذكره العلامة الثاني في شرح العقائد صدورها منهم عليهم السلام عمداً بعد البعثة عند الجمهور خلافاً للجبائي وأتباعه ويجوز صدورها سهواً بالاتفاق لكن المحققون اشترطوا أن ينبهوا على ذلك فينتهوا عنه.

نعم ذكر في شرح المقاصد عصمتهم عن صدور ذلك عمداً. والأحوط نظراً إلى مقام آدم عليهم السلام أن يقال: إن صدور ما ذكر منه كان قبل النبوة وكان سهواً أو عن تأويل إلا أنه عظم الأمر عليه وعظم لديه نظراً إلى علو شأنه ومزيد فضل الله تعالى عليه، وإحسانه وقد شاع حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومما يدل على استعظام ذلك منه لعلو شأنه عليه السلام ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي عبد الله المغربي قال: تفكر إبراهيم في شأن آدم عليهما السلام فقال: يا رب خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك ثم بذنب واحد ملأت أفواه الناس من ذكر معصيته فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة.

وذكر بعضهم أن في استعظام ذلك منه عليه الملام زجراً بليغاً لأولاده عن أمثاله، وعلى العلات لا ينبغي لأحد أن ينسب إليه العصيان اليوم وأن يخبر بذلك إلا أن يكون تالياً لما تضمن ذلك أو راوياً له عن رسول الله ﷺ وأما أن يكون مبتدئاً من قبل نفسه فلا، وقد صرح القاضي أبو بكر بن العربي بعدم جواز نسبة العصيان للآباء الأدنين إلينا المماثلين لنا فكيف يجوز نسبته للأنبياء الأقدام والنبي المقدم الأكرم، وارتضى ذلك القرطبي وادعى أن ابتداء الأخبار بشيء من صفات الله تعالى المتشابهة كاليد والإصبع والنزول أولى بالمنع وعدم الجواز، ثم إن ما وقع كان في الحقيقة بمحض قضاء الله تعالى وقدره، وإلا فقد روي عن أبي أمامة الباهلي والحسن أن عقله عليه السلام مثل عقل جميع ولده وعداوة إبليس عليه اللعنة له عليه السلام في غاية الظهور، وفي ذلك دليل على أنه لا ينفع عقل ولا يغني شيء في جنب تقدير الله تعالى وقضائه ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي اصطفاه سبحانه وقربه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشيء جباه لنفسه أي جمعه كقولك: اجتمعته أو من جبى إلى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها، وأصل معنى الكلمة الجمع فالمجتبى كأنه في الأصل من جمعت فيه المحاسن حتى اختاره غيره وقربه، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي رجع عليه بالرحمة وقبل توبته حين تاب وذلك حين قال هو وزوجته: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من

الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣] ﴿وَهَدَى﴾ أي إلى الثبات على التوبة والتمسك بما يرضي المولى سبحانه وتعالى، وقيل إلى كيفية التوبة بتعليم الكلمات والواو لمطلق الجمع فلا يضر كون ذلك قبل التوبة عليه، وقيل: إلى النبوة والقيام بما تقتضيه. وقدم أبو حيان هذا على سائر الاحتمالات التي ذكرها، والنيسابوري فسر الاجتباء بالاختيار للرسالة وجعل الآية دليلاً على أن ما جرى كان قبل البعثة ولم يصرح سبحانه بنسبة العصيان والغواية إلى حواء بأن يسندهما إلى ضمير التثنية الذي هو عبارة عنها، وعن آدم عليه السلام كما أسند الأكل وما بعده إلى ذلك إعراضاً عن مزيد النعي على الحرم وأن الأهم نظراً إلى مساق القصة التصريح بما أسند إلى آدم عليه السلام ويتضمن ذلك رعاية الفواصل وحيث لم يصرح جل وعلا بعصيانها لم يتعرض لتوفيقها للتوبة وقبولها منها، وقال بعضهم: إنه تعالى اكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له في الحكم ولذا طوي ذكر النساء في أكثر مواقع الكتاب والسنة.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من الإخبار بأنه تعالى عامله بما عامله كأنه قيل: فماذا أمره بعد ذلك؟ فقيل: قال له ولزوجته ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ أي انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين، وقيل: الخطاب له عليه السلام ولإبليس عليه اللعنة فإنه دخل الجنة بعد ما قيل له ﴿اخرج منها فإنك رجيم﴾ [الحجر: ٣٤] للوسوسة، وخطابهما على الأول بقوله تعالى ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد فالتعادي في الحقيقة بين أولادهما. وهذا على عكس مخاطبة اليهود ونسبة ما فعل آباؤهم إليهم. والجملة في موضع الحال أي متعادين في أمر المعاش وشهوات الأنفس. وعلى الثاني ظاهر لظهور العداوة بين آدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة وكذا بين ذرية آدم عليه السلام وذرية اللعين. ومن هنا قيل: الضمير لآدم وذريته وإبليس وذريته.

وزعم بعضهم أنه لآدم وإبليس والحية والمعول عليه الأول ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى﴾ الخ أي نبي أرسله إليكم وكتاب أنزله عليكم ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه.

وأخرج الطبراني وغيره عن أبي الطفيل أن النبي ﷺ قرأ ﴿فمن اتبع هدى﴾ ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة، وفسر بعضهم الهدى بالقرآن لما أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه. والبيهقي في شعب الإيمان من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أجار الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة ثم قرأ الآية، وأخرج جماعة عنه مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ بلفظ «من اتبع كتاب الله هداه الله تعالى من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة»، ورجح على العموم بقيام القرينة عليه وهو قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ بناء على تفسير الذكر بالقرآن، وكذا قوله تعالى بعد ﴿وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ [طه: ١٢٦] والمختار العموم أن يقول: الذكر يقع على القرآن وعلى سائر الكتب الإلهية، وكذا الآيات تكون بمعنى الأدلة مطلقاً، وقد فسر الذكر أيضاً هنا بالهدى لأنه سبب ذكره تعالى وعبادته سبحانه، فأطلق المسبب وأريد سببه لوقوعه في المقابلة، وما في الخبر من باب التنصيص على حكم أشرف الأفراد المدلول عليه بالعموم اعتناء بشأنه. ثم إن تقييد ﴿لا يضل﴾ بقولنا في الدنيا ﴿ولا يشقى﴾ بقولنا في الآخرة هو الذي يقتضيه الخبر.

وجوز بعضهم العكس أي فلا يضل طريق الجنة في الآخرة ولا يتعب في أمر المعيشة في الدنيا، وجعل الأول في مقابلة ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ والثاني في مقابلة ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ ثم قال: وتقديم حال الآخرة على حال الدنيا في المهتدين لأن مطمح نظرهم أمر آخرتهم بخلاف خلافهم فإن نظرهم مقصور على دنياهم، ولا يخفى أن الذي نطقت به الآثار هو الأول، وذكر بعضهم أنه المتبادر، نعم ما ذكر لا يخلو عن حسن وإن قيل: فيه

تكلف، وجوز الإمام كون الأمرين في الآخرة وكونهما في الدنيا، وذكر أن المراد على الأخير لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين لا مطلقاً فإن لحق المنعم بالهدى شقاء في الدنيا فبسبب آخر وذلك لا يضر اهـ، والمعول عليه ما سمعت، والمراد من الإعراض عن الذكر عدم الاتباع فكأنه قيل: ومن لم يتبع ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي ضيقة شديدة وهو مصدر ضنك وكذا ضناكة؛ ولذا يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع، وقد وصف به هنا المؤنث باعتبار الأصل. وقرأ الحسن «ضنكى» بألف التأنيث كسكرى وبالإمالة. وهذا التأنيث باعتبار تأويله بالوصف، وعن ابن عباس تفسيره بالشديد من كل وجه، وأنشد قول الشاعر:

والخيل قد لحقت بنا في مأزق ... ضنك نواحيه شديد المقدم

والمتبادر أن تلك المعيشة له في الدنيا. وروي ذلك عن عطاء وابن جبير، ووجه ضيق معيشة الكافر المعرض في الدنيا أنه شديد الحرص على الدنيا متهالك على ازديادها خائف من انتقاصها غالب عليه الشح بها حيث لا غرض له سواها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، وقيل: الضنك مجاز عما لا خير فيه، ووصف معيشة الكافر بذلك لأنها وبال عليه وزيادة في عذابه يوم القيامة كما دلت عليه الآيات، وهو مأخوذ مما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: يقول كل مال أعطيته عبداً من عبادي قل أو كثر لا يتقيني فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة، وقيل: المراد من كونها ضنكاً أنها سبب للضنك يوم القيامة فيكون وصفها بالضنك للمبالغة كأنها نفس الضنك كما يقال في السلطان: الموت بين شفتيه يريدون بالموت ما يكون سبباً للموت كالأمر بالقتل ونحوه، وعن عكرمة ومالك بن دينار ما يشعر بذلك، وقال بعضهم: إن تلك المعيشة له في القبر بأن يعذب فيه. وقد روى ذلك جماعة عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري وأبي صالح والربيع والسدي ومجاهد وفي البحر عن ابن عباس أن الآية نزلت في الأسود بن عبد الأسد المخزومي، والمراد ضغطة القبر حتى تختلف فيه أضلاعه. وروي ذلك مرفوعاً أيضاً.

فقد أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت. والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له قبره سبعين ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيم أنزلت ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً هل تدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون».

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ومسدد في مسنده وعبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقي في كتاب عذاب القبر وجماعة عن أبي سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿معيشة ضنكا﴾ عذاب القبر» ولفظ عبد الرزاق يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ولفظ ابن أبي حاتم ضمة القبر إلى غير ذلك ومن قال: الدنيا ما قبل القيامة الكبرى قال: ما يكون بعد الموت واقع في الدنيا كالذي يكون قبل الموت.

وقال بعضهم: إنها تكون يوم القيامة في جهنم، وأخرج ذلك ابن أبي شيبة وابن المنذر عن الحسن، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: المعيشة الضنك في النار شوك وزقوم وغسلين وضريع وليس في القبر ولا في الدنيا معيشة وما المعيشة والحياة إلا في الآخرة، ولعل الأخبار السابقة لم تبلغ هذا القائل أو لم تصح عنده، وأنت تعلم أنها إذا صحت فلا مساغ للعدول عما دلت عليه وإن لم تصح كان الأولى القول بأنها في الدنيا لا في الآخرة لظاهر ذكر قوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ الخ بعد الأخبار بـ ﴿أن له معيشة ضنكا﴾ وقرأت فرقة منهم أبان بن تغلب «وَنَحْشُرْهُ» بإسكان الراء وخرج على أنه تخفيف أو جزم بالعطف على محل ﴿فإن له﴾ الخ لأنه جواب الشرط كأنه قيل: ومن أعرض عن

ذكري تكن له معيشة ضنك ونحشره الخ. ونقل ابن خالويه عن أبان أنه قرأ «ونحشرهْ» بسكون الهاء على إجراء الوصل مجرى الوقف. وفي البحر الأحسن تخريج ذلك على لغة بني كلاب وعقيل فإنهم يسكنون مثل هذه الهاء، وقد قرىء ﴿لربه لكنود﴾ [العاديات: ٦] بإسكان الهاء؛ وقرأت فرقة «ويحشره» بالياء ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ الظاهر أن المراد فاقد البصر كما في قوله تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿قَالَ﴾ استئناف كما مر ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾ أي في الدنيا كما هو الظاهر، ولعل هذا باعتبار أكثر أفراد من أعرض لأن من أفراده من كان أكمه في الدنيا. والظاهر أن هذا سؤال عن السبب الذي استحق به الحشر أعمى لأنه جهل أو ظن أن لا ذنب له يستحق به ذلك.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جوابه ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ الكاف مقحمة كما في مثلك لا يبخل وذلك إشارة إلى مصدر أتتك أي مثل ذلك الإتيان البديع أتتك الآيات الواضحة النيرة. وعند الزمخشري لا إقحام وذلك إشارة إلى حشره أعمى أي مثل ذلك الفعل فعلت أنت. وقوله تعالى ﴿أتتك﴾ الخ جواب سؤال مقدر كأنه قيل: يا رب ما فعلت أنا؟ فقيل: أتتك آياتنا ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي تركتها ترك المنسي الذي لا يذكر أصلاً، والمراد فعميت عنها إلا أنه وضع المسبب موضع السبب لأن من عمي عن شيء نسيه وتركه. والإشارة في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى النسيان المفهوم من نسيتها والكاف على ظاهرها أي مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿الْيَوْمَ تُنسَى﴾ أي تترك في العمى جزاء وفاقاً، وقيل: الكاف بمعنى اللام الأجلية كما قيل في قوله تعالى ﴿واذكروه كما هداكم﴾ [البقرة: ١٩٨] أي ولأجل ذلك النسيان الصادر منك تنسى. وهذا الترك يبقى إلى ما شاء الله تعالى ثم يزال العمى عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد النار كما قال سبحانه ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ [الكهف: ٥٣] الآية ويكون ذلك له عذاباً فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم كما يدل عليه قوله تعالى ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ [مريم: ٣٨].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن الكافر يحشر أولاً بصيراً ثم يعمى فيكون الإخبار بأنه قد كان بصيراً إخباراً عما كان عليه في أول حشره، والظاهر أن ذلك العمى يزول أيضاً، وعن عكرمة أنه لا يرى شيئاً إلا النار، ولعل ذلك أيضاً في بعض أجزاء ذلك اليوم وإلا فكيف يقرأ كتابه، وروي عن مجاهد ومقاتل والضحاك وأبي صالح وهي رواية عن ابن عباس أيضاً أن المعنى نحشره يوم القيامة أعمى عن الحجة أي لا حجة له يهتدي بها. وهو مراد من قال: أعمى القلب والبصيرة، واختار ذلك إبراهيم بن عرفة وقال كلما ذكر الله سبحانه في كتابه العمى فذمه فإنما يراد به عمى القلب قال سبحانه وتعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦] وعلى هذا فالمراد بقوله ﴿وقد كنت بصيراً﴾ وقد كنت عالماً بحجتي بصيراً بها أحاج عن نفسي في الدنيا. ومنه يعلم اندفاع ما قاله ابن عطية في رد من حمل العمى على عمى البصيرة من أنه لو كان كذلك لم يحس الكافر به لأنه كان في الدنيا أعمى البصيرة ومات وهو كذلك. وحاصل الجواب عليه إني حشرتك أعمى القلب لا تهتدي إلى ما ينجيك من الحجة لأنك تركت في الدنيا آياتي وحججي وكما تركت ذلك تترك على هذا العمى أبداً، وقيل: المراد بأعمى متحيراً لا يدري ما يصنع من الحيل في دفع العذاب كالأعمى الذي يتحير في دفع ما لا يراه. وليس في الآية دليل كما يتوهم على عد نسيان القرآن أو آية منه كبيرة كما ذهب إليه الإمام الرافعي ويشعر كلام الإمام النووي في الروضة باختياره لأن المراد بنسيان الآيات بعد القول بشمولها آيات القرآن تركها وعدم الإيمان بها. ومن عد نسيان شيء من القرآن كبيرة أراد بالنسيان معناه الحقيقي نعم تجوز أبو شامة شيخ النووي فحمل النسيان في الأحاديث الواردة في ذم

نسيان شيء من القرآن على ترك العمل به. وتحقيق هذه المسألة وأن كون النسيان بالمعنى الأول كبيرة عند من قال به مشروط كما قال الجلال البلقيني والزركشي وغيرهما بما إذا كان عن تكاسل وتهاون يطلب من محله وكذا تحقيق حال الأحاديث الواردة في ذلك.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف «أعمى» بالإمالة في الموضعين لأنه من ذوات الياء. وأمال أبو عمرو في الأول فقط لكونه جديراً بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل كذبها وأعرض عنها، والمراد تشبيه الجزاء العام بالجزاء الخاص ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ على الإطلاق أو عذاب النار ﴿أَشَدُّ﴾ من عذاب الأولى ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي أكثر بقاء منه أو أشد وأبقى من ذلك ومن عذاب القبر أو منهما ومن الحشر على العمى.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من قوله تعالى ﴿وكذلك نجزي﴾ الآية والهمزة للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام. واستعمال الهداية باللام إما لتنزيلها منزلة اللازم فلا حاجة إلى المفعول أو لأنها بمعنى التبيين والمفعول الثاني محذوف. وأياً ما كان فالفاعل ضميره تعالى وضمير ﴿لهم﴾ للمشركين المعاصرين لرسول الله ﷺ. والمعنى أغفلوا فلم يفعل الله تعالى لهم الهداية أو فلم يبين عز وجل لهم العبر.

وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ إما بيان بطريق الالتفات لتلك الهداية أو كالتفسير للمفعول المحذوف، وقيل: فاعل ﴿يهد﴾ ضميره ﷺ، وقيل: ضمير الإهلاك المفهوم من قوله تعالى: ﴿كم أهلكنا﴾ والجملة مفسرة له، وقيل: الفاعل محذوف أي النظر والاعتبار ونسب ذلك إلى المبرد، وفيه حذف الفاعل وهو لا يجوز عند البصريين، وقال الزمخشري: الفاعل جملة ﴿كم أهلكنا﴾ الخ ووقوع الجملة فاعلاً مذهب كوفي، والجمهور على خلافه لكن رجح ذلك هنا بأن التعليل فيما بعد يقتضيه. ورجح كون الفاعل ضميره تعالى شأنه بأنه قد قرأ فرقة منهم ابن عباس والسلمي «أفلم نهد» بالنون واختار بعضهم عليه كون الفعل منزلاً منزلة اللازم وجملة ﴿كم أهلكنا﴾ بياناً لتلك الهداية، وبعض آخر كونه متعدياً والمفعول مضمون الجملة أي أفلم يبين الله تعالى لهم مضمون هذا الكلام، وقيل: الجملة سادة مسد المفعول والفعل معلق عنها، وتعقب بأن ﴿كم﴾ هنا خبرية وهي لا تعلق عن العمل وإنما التي تعلق عنه كم الاستفهامية على ما نص عليه أبو حيان في البحر لكن أنت تعلم أنه إذا كان مدار التعليق الصدارة كما هو الظاهر فقد صرح ابن هشام بأن لكل من كم الاستفهامية وكم الخبرية ما ذكر وورد في المغني قول ابن عصفور: ﴿أن كم﴾ في الآية فاعل يهد بأن لها الصدر ثم قال: وقوله إن ذلك جاء على لغة رديئة حكاها الأخفش عن بعضهم أنه يقول ملكت كم عبيد فيخرجها عن الصدرية خطأ عظيم إذ خرج كلام الله تعالى شأنه على هذه اللغة انتهى. وهو ظاهر في أنه قائل بأن كم هنا خبرية ولها الصدر. نعم نقل الحوفي عن بعضهم أنه رد القائل بالفاعلية بأنها استفهامية لا يعمل ما قبلها فيها والظاهر خبريتها وهي مفعول مقدم لأهلكنا و﴿من القرون﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمميزها أي كم قرن كائن من القرون ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ حال من ﴿القرون﴾ أو من مفعول ﴿أهلكنا﴾ أي أهلكناهم وهم في حال أمن وتقلب في ديارهم. واختار في البحر كونه حالاً من الضمير في ﴿لهم﴾ مؤكداً للإنكار والعامل فيه ﴿يهد﴾ أي أفلم يهد للمشركين حال كونهم ماشين في مساكن من أهلكنا من القرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقوم لوط مشاهدين لآثار هلاكهم إذا سافروا إلى الشام وغيره، وتوهم بعضهم أن الجملة في موضع الصفة للقرون وليس كذلك، وقرأ ابن السميفع «يُمَشُّونَ» بالتشديد والبناء للمفعول أي يمكنون في المشي ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ تعليل للإنكار

وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم. ﴿وذلك﴾ إشارة إلى مضمون قوله تعالى ﴿كم أهلكنا﴾ الخ، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته وعلو شأنه في بابه.

﴿لآيات﴾ كثيرة عظيمة ظاهرات الدلالة على الحق، وجوز أن تكون كلمة في تجريدية كما قيل في قوله عز وجل ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب: ٢١] ﴿لأولي النّهى﴾ أي لذوي العقول الناهية عن القبائح التي من أقبحها ما يتعاطاه هؤلاء المنكر عليهم من الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغير ذلك من فنون المعاصي.

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع ما يشعر به قوله تعالى ﴿أفلم يهد لهم﴾ الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة والكلمة السابقة هي العدة بتأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمة إما إكراماً للنبي ﷺ كما يشعر به التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ قوله تعالى ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] أو لأن من نسلهم من يؤمن أو لحكمة أخرى الله تعالى أعلم بها أي لولا الكلمة السابقة والعدة بتأخير العذاب ﴿لَكَانَ﴾ أي عقاب جناياتهم ﴿لزاما﴾ أي لازماً لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل بأضرابهم من القرون السالفة، واللزام إما مصدر لازم كالخصام وصف به للمبالغة أو اسم آلة كحزام وركاب والوصف به للمبالغة أيضاً كلزاز خصم بمعنى ملح على خصمه.

وجوز أبو البقاء كونه جمع لازم كقيام جمع قائم وهو خلاف الظاهر ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على ﴿كلمة﴾ كما أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة والسدي أي لولا العدة بتأخير عذابهم والأجل المسمى لأعمارهم لما تأخر عذابهم أصلاً، وفصله عما عطف عليه للمسارعة إلى بيان جواب لولا، والإشعار باستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآي الكريمة، وقيل: أي ولولا أجل مسمى لعذابهم وهو يوم القيامة.

وتعقب بأنه يتحد حينئذ بالكلمة السابقة فلا يصح إدراج استقلال كل منهم بالنفي في عداد نكت الفصل. وأجيب بأنه لا يلزم من تأخير العذاب عن الدنيا أن يكون له وقت لا يتأخر عنه ولا يتخلف فلا مانع من الاستقلال. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أن الأجل المسمى هي الكلمة التي سبقت، وقيل: الأجل المسمى للعذاب هو يوم بدر وتعقب بأنه ينافي كون الكلمة هي العدة بتأخير عذاب هذه الأمة. وأجيب بأن المراد من ذلك العذاب هو عذاب الاستئصال ولم يقع يوم بدر وجوز الزمخشري كون العطف على المستكن في كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد أي لكان الأخذ العاجل والأجل المسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود وأضرابهم، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل، وأنت تعلم أن هذا لا يتسنى إذا كان ﴿لزاما﴾ اسم آلة للزوم التثنية حينئذ ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي إذا كان الأمر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال وأنه لازم لهم البتة ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ من كلمات الكفر فإن علمه ﷺ بأنهم معذبون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر، والمراد به عدم الاضطراب لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة ﴿وَسَبِّحْ﴾ ملتبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صل وأنت حامد لربك عز وجل الذي يبلغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه سبحانه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ أي صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي صلاة المغرب، والظاهر أن الظرف متعلق بسبح.

وقد أخرج تفسير التسبيح في هذين الوقتين بما ذكر الطبراني وابن عساكر وابن مردويه عن جرير مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وأخرج الحاكم عن فضالة بن وهب الليثي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له: «حافظ على العصرين

قلت: وما العصران؟ قال: صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»، وقيل: المراد بالتسبيح قبل غروبها صلاتا الظهر والعصر لأن وقت كل منهما قبل غروبها وبعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى ﴿قبل طلوع الشمس﴾، وأنت تعلم أن قبل الغروب وإن كان باعتبار معناه اللغوي صادقاً على وقت الظهر ووقت العصر إلا أن الاستعمال الشائع فيه وقت العصر، وقوله تعالى ﴿وَمِنْ آنَاء اللَّيلِ﴾ أي من ساعاته جمع إنى وانو بالياء والواو وكسر الهمزة وإنا بالكسر والقصر و﴿آناء﴾ بالفتح والمد ولم يشتهر اشتهار الثلاثة الأول، وذكره من يوثق به من المفسرين، وقال الراغب في مفرداته: قال الله تعالى ﴿غير ناظرين إناه﴾ [الأحزاب: ٥٣] أي وقته، والإناه إذا كسر أوله قصر وإذا فتح مد نحو قول الحطيئة:

وآنيت العشاء إلى سهيل ... أو الشعرى فطال بي الإناء

ثم قال: ويقال آنيت الشيء إيناء أي أخرته عن أوانه ويانيت تأخرت اهـ، وفي المصباح آنيته بالفتح والمد أخرته، والاسم أناء بوزن سلام قيل منصوب على الظرفية بمضمر، وقوله سبحانه ﴿فَسَبِّحْ﴾ عطف عليه أي قم بعض آناء الليل فسبح وهو كما ترى، وقيل: منصوب بسبح على نسق ﴿وإياي فارهبون﴾ [البقرة: ٤٠]، والفاء على الأول عاطفة وعلى الثاني مفسرة، وقيل: إنه معمول ﴿فسبح﴾، والفاء زائدة فائدتها الدلالة على لزوم ما بعدها لما قبلها.

وذكر الخفاجي أنه معمول لما ذكر من غير حاجة لدعوى زيادة الفاء لأنها لا تمنع عمل ما بعدها فيما قبلها كما صرح به النحاة، والمراد من التسبيح في بعض آناء الليل صلاة المغرب وصلاة العشاء وللاعتناء بشأنهما لم يكتف في الأمر بفعلهما بالفعل السابق بأن يعطف ﴿من آناء الليل﴾ على أحد الظرفين السابقين من غير ذكر فسبح وللاهتمام بشأن آناء الليل وامتيازها على سائر الأوقات بأمور خاصية وعامية قدم ذكرها على الأمر ولم يسلك بها مسلك ما تقدم.

وقوله تعالى ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ عطف على محل قوله سبحانه ﴿من آناء الليل﴾ وقيل: على قوله عز وجل ﴿قبل طلوع﴾ والمراد من التسبيح أطراف النهار على ما أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن قتادة صلاة الظهر واختاره الجبائي، ووجه إطلاق الطرف على وقتها بأنه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الأخير منه، وجمعه باعتبار النصفين أو لأن تعريف النهار للجنس الشامل لكل نهار فيكون الجمع باعتبار تعدد النهار وأن لكل طرفاً كذا قيل. وأورد على ذلك أن البداية والنهاية فيه ليست على وتيرة واحدة لأن كون ذلك نهاية باعتبار أن النصف الأول انتهى عنده وهو خارج عنه وبداية باعتبار أن النصف الثاني ابتدأ منه وهو داخل فيه، ولا شك في بعد كون الجمع بمثل هذا الاعتبار على أنه لا بد مع ذلك من القول بأن أقل الجمع اثنان، وأيضاً أن إطلاق الطرف على طرف أحد نصفيه تكلف فإنه ليس طرفاً له بل لنصفه.

وقيل: هذا تكرير لصلاتي الصبح والمغرب إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية، والمراد بالنهار ما بين طلوع الشمس وغروبها وبالطرف ما يلاصق أول الشيء وآخره، والإتيان بلفظ الجمع مع أن المراد اثنان لا من اللبس إذ النهار ليس له إلا طرفان، ونظيره قول العجاج:

ومهمهين فدفدين مرتين ... ظهراهما مثل ظهور الترسين

والمرجح المشاكلة لآناء الليل، واختار هذا من أدخل الظهر فيما قبل الغروب، وفيه أن الطرف حقيقة فيما ينتهي به الشيء وهو منه ويطلق على أوله وآخره وإطلاقه على الملاصق المذكور ليس بحقيقة، وأجيب بأنه سائغ شائع وإن لم يكن حقيقة؛ وجوز أن يكون تكريراً لصلاتي الصبح والعصر ويراد بالنهار ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس وبالطرف الأول، والآخر بحسب العرف وإذا أريد بالنهار ما بين طلوع الشمس وغروبها يبعد هذا التجويز إذ لا يكون

الطرفان حينئذ على وتيرة واحدة، وقيل: هو أمر بالتطوع في الساعات الأخيرة للنهار وفيه صرف الأمر عن ظاهره مع أن في كون الساعات الأخيرة للنهار زمن تطوع بالصلاة كلاماً لا يخفى على الفقيه.

وقال أبو حيان: الظاهر أن قوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك﴾ أمر بالتسبيح مقروناً بالحمد وحينئذ إما أن يراد اللفظ أي قل ـ سبحان الله والحمد لله ـ أو يراد المعنى أي نزهه سبحانه عن السوء وأثنى عليه بالجميل.

وفي خبر ذكره ابن عطية «من سبح عند غروب الشمس سبعين تسبيحة غربت بذنوبه» وقال أبو مسلم: لا يبعد حمل ذلك على التنزيه والإجلال، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات وعلى ذلك حمله أيضاً العز بن عبد السلام وجعل الباء في قوله سبحانه: ﴿بحميد ربك﴾ للآلة، وقال: إن ذلك لتعيين سلب صفات النقص لأن من سلب شيئاً فقد أثبت ضده وأضداد صفات النقص صفات الكمال فمن نزهه سبحانه فقد أثبت صفات الكمال، وجوز في إضافة الحمد إلى الرب أن تكون من إضافة المصدر إلى الفاعل أو من إضافة المصدر إلى المفعول أو من إضافة الاختصاص بأن يكون الحمد بمعنى المحامد، ثم استحسن الأول لأن الحمد الحق الكامل حمد الله تعالى نفسه، والمتبادر جعل الباء للملابسة والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول.

واختار الإمام حمل التسبيح على التنزيه من الشرك، وقال: إنه أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره لأنه سبحانه صبره أولاً على ما يقولون من التكذيب وإظهار الكفر والشرك والذي يليق بذلك أن يؤمر بتنزيهه تعالى عن قولهم: حتى يكون مظهراً لذلك وداعياً إليه. واعترض بأنه لا وجه حينئذ لتخصيص هذه الأوقات بالذكر، وأجيب بأن المراد بذكرها الدلالة على الدوام كما في قوله تعالى: ﴿بالغداة والعشي﴾ [الأنعام: ٥٢، الكهف: ٢٨] مع أن لبعض الأوقات مزية لأمر لا يعلمه إلا الله تعالى. ورد بأنه يأباه من التبعيضية في قوله سبحانه ﴿من آناء الليل﴾ على أن هذه الدلالة يكفيها أن يقال: قبل طلوع الشمس وبعده لتناوله الليل والنهار فالزيادة تدل على أن المراد خصوصية الوقت، ولا يخفى أن قوله سبحانه ﴿من آناء الليل﴾ متعلق بسبح الثاني فليكن الأول للتعميم، والثاني لتخصيص البعض اعتناء به، نعم يرد أن التنزيه عن الشرك لا معنى لتخصيصه إلا إذا أريد به قول: سبحان الله مراداً به التنزيه عن الشرك، وقيل: يجوز أن يكون المراد بالتسبيح ما هو الظاهر منه ويكون المراد من الحمد الصلاة. والظرف متعلق به فتكون حكمة التخصيص ظاهرة كذا في الحواشي الشهابية. وقد عورض ما قاله الإمام بأن الأنسب بالأمر بالصبر الأمر بالصلاة ليكون ذلك إرشاداً لما تضمنه قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة: ٤٥] وأيضاً الأمر الآتي أوفق بحمل الأمر بالتسبيح على الأمر بالصلاة وقد علمت أن الآثار تقتضي ذلك ثم إنه يجوز أن يراد بالطرف طائفة من الشيء فإنه أحد معانيه كما في الصحاح والقاموس وإذا كان تعريف النهار للجنس على هذا لم يبق الكلام فيما روي عن قتادة كما كان فتدبر.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ قيل: هو متعلق بسبح أي سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضي به نفسك من الثواب. واستدل به على عدم الوجوب على الله تعالى، وجوز أن يكون متعلقاً بالأمر بالصبر والأمر بالصلاة، والمراد ﴿لعلك ترضى﴾ في الدنيا بحصول الظفر وانتشار أمر الدعوة ونحو ذلك، وقرأ أبو حيوة وطلحة والكسائي وأبو بكر وأبان وعصمة وأبو عمارة عن حفص وأبو زيد عن المفضل وأبو عبيد ومحمد بن عيسى الأصفهاني «تُرْضَى» على صيغة البناء للمفعول من أرضى أي يرضيك ربك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا كالبنين. والأموال والمنازل والملابس والمطاعم ﴿أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافاً من الكفرة وهو مفعول متعنا قدم عليه الجار

والمجرور للاعتناء به ومن بيانية، وجون أن يكون حالاً من ضمير به ومن تبعيضية مفعول متعنا أو متعلقة بمحذوف وقع صفة لمفعوله المحذوف أي لا تمدن عينيك إلى الذي متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم أو بعضاً كائناً منهم. والمراد على ما قيل استمر على ترك ذلك، وقيل: الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد أمته لأنه ﷺ كان أبعد شيء عن إطالة النظر إلى زينة الدنيا وزخارفها وأعلق بما عند الله عز وجل من كل أحد وهو عليه الصلاة والسلام القائل «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أريد به وجه الله تعالى» وكان ﷺ شديد النهي عن الاغترار بالدنيا والنظر إلى زخرفها، والكلام على حذف مضاف أو فيه تجوز في النسبة، وفي العدول عن لا تنظر إلى ما متعنا به الخ إلى ما في النظم الكريم إشارة إلى أن النظر الغير الممدود معفو وكان المنهي عنه في الحقيقة هو الإعجاب بذلك والرغبة فيه والميل إليه لكن بعض المتقين بالغوا في غض البصر عن ذلك حتى أنهم لم ينظروا إلى أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمركوب وغيرهما وذلك لمغزى بعيد وهو أنهم اتخذوها لعيون النظارة والفخر بها فيكون النظر إليها محصلاً لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها.

﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي زينتها وبهجتها وهو منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا أي جعلنا لهم زهرة أو بمتعنا على أنه مفعول ثان له لتضمينه معنى أعطينا أو على أنه بدل من محل به وضعفه ابن الحاجب في أماليه لأن إبدال منصوب من محل جار ومجرور ضعيف كمررت بزيد أخاك ولأن الإبدال من العائد مختلف فيه. ومثل ذلك ما قيل إنه بدل من ما الموصولة لما فيه من الفصل بالبدل بين الصلة ومعمولها أو على أنه بدل من ـ أزواجاً ـ بتقدير مضاف أي ذوي أو أهل زهرة، وقيل: بدون تقدير على كون ـ أزواجاً ـ حالاً بمعنى أصناف التمتعات أو على جعلهم نفس الزهرة مبالغة. وضعف هذا بأن مثله يجري في النعت لا في البدل لمشابهته لبدل الغلط حينئذ أو على أنه تمييز لما أو لضمير به، وحكي عن الفراء أو صفة ـ أزواجاً ـ ورد ذلك لتعريف التمييز وتعريف وصف النكرة، وقيل: على أنه حال من ضمير به أو من ما وحذف التنوين لالتقاء الساكنين وجر الحياة على البدل من ما واختاره مكي ولا يخفى ما فيه، وقيل: نصب على الذم أي اذم زهرة الخ واعترض بأن المقام يأباه لأن المراد أن النفوس مجبولة على النظر إليها والرغبة فيها ولا يلائمه تحقيرها ورد بأن في إضافة الزهرة إلى الحياة الدنيا كل ذم وما ذكر من الرعبة من شهوة النفوس الغبية التي حرمت نور التوفيق.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وطلحة وحميد وسلام ويعقوب وسهل وعيسى والزهري ـ «زَهَرَة» ـ بفتح الهاء وهي لغة كالجهرة في الجهرة، وفي المحتسب لابن جني مذهب أصحابنا في كل حرف حلق ساكن بعد فتحة أنه لا يحرك إلا على أنه لغة كنهر ونهر وشعر وشعر ومذهب الكوفيين أنه يطرد تحريك الثاني لكونه حرفاً حلقياً وإن لم يسمع ما لم يمنع منه مانع كما في لفظ ـ نحو ـ لأنه لو حرك قلب الواو ألفاً، وجوز الزمخشري كون زهرة بالتحريك جمع زاهر ككافر وكفرة وهو وصف لأزواجاً أي أزواجاً من الكفرة زاهرين بالحياة الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب، وجوز على هذا كونه حالاً لأن إضافته لفظية.

وأنت تعلم أن المتبادر من هذه الصفة قصد الثبوت لا الحدوث فلا تكون إضافتها لفظية على أن المعنى على تقدير الحالية ليس بذاك ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلق بمتعنا أي لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم في الآخرة بسببه وفيه تنفير عن ذلك ببيان سوء عاقبته مآلاً أثر بهجته حالاً، وقرأ الأصمعي عن عاصم لنفتنهم بضم النون من أفتنه إذا جعل الفتنة واقعة فيه على ما قال أبو حيان ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما ادخر لك في الآخرة أو ما رزقك في

الدنيا من النبوة والهدى، وادعى صاحب الكشف أنه أنسب بهذا المقام أو ما ادخر لك فيها من فتح البلاد والغنائم، وقيل: القناعة ﴿خَيْرٌ﴾ مما متع به هؤلاء لأنه مع كونه في نفسه من أجل ما يتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ما متعوا به ﴿وَأَبْقَى﴾ فإنه نفسه أو أثره لا يكاد ينقطع كالذي متعوا به.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أمر ﷺ أن يأمر أهله بالصلاة بعدما أمر هو عليه الصلاة والسلام بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت ذوي الثروة، والمراد بأهله ﷺ قيل أزواجه وبناته وصهره علي رضي الله تعالى عنهم، وقيل: ما يشملهم وسائر مؤمني بني هاشم والمطلب، وقيل: جميع المتبعين له عليه الصلاة والسلام من أمته، واستظهر أن المراد أهل بيته ﷺ، وأيد بما أخرجه ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿وأمر أهلك﴾ الخ كان عليه الصلاة والسلام يجيء إلى باب علي كرم الله تعالى وجهه صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: الصلاة رحمكم الله تعالى ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ ويطهركم تطهيراً، وروى نحو ذلك الإمامية بطرق كثيرة.

والظاهر أن المراد بالصلاة الصلوات المفروضة ويؤمر بأدائها الصبي وإن لم تجب عليه ليعتاد ذلك فقد روى أبو داود بإسناد حسن مرفوعاً «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع» ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي وداوم عليها فالصبر مجاز مرسل عن المداومة لأنها لازم معناه. وفيه إشارة إلى أن العبادة في رعايتها حق الرعاية مشقة على النفس، والخطاب عام شامل للأهل وإن كان في صورة الخاص وكذا فيما بعد، ولا يخفى ما في التعبير بالتسبيح أولاً والصلاة ثانياً مع توجيه الخطاب بالمداومة إليه عليه الصلاة والسلام من الإشارة إلى مزيد رفعة شأنه ﷺ، وقوله تعالى: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ دفع لما عسى أن يخطر ببال أحد من أن المداومة على الصلاة ربما تضر بأمر المعاش فكأنه قيل داوموا على الصلاة غير مشتغلين بأمر المعاش عنها إذ لا نكلفكم رزق أنفسكم إذ نحن نرزقكم، وتقديم المسند إليه للاختصاص أو لإفادة التقوى، وزعم بعضهم أن الخطاب خاص وكذا الحكم إذ لو كان عاماً لرخص لكل مسلم المداومة على الصلاة وترك الاكتساب وليس كذلك، وفيه أن قصارى ما يلزم العموم سواء كان الأهل خاصاً أو عاماً لسائر المؤمنين أن يرخص للمصلي ترك الاكتساب المانع من الصلاة وأي مانع عن ذلك بل ترك الاكتساب لأداء الصلاة المفروضة فرض وليس المراد بالمداومة عليها إلا أداؤها دائماً في أوقاتها المعينة لها لا استغراق الليل والنهار بها وكان الزاعم ظن أن المراد بالصلاة ما يشمل المفروضة وغيرها وبالمداومة عليها فعلها دائماً على وجه يمنع من الاكتساب وليس كذلك، ومما ذكرنا يعلم أنه لا حاجة في رد ما ذكره الزاعم إلى حمل العموم على شمول خطاب النبي ﷺ لأهله فقط دون جميع الناس كما لا يخفى، نعم قد يستشعر من الآية أن الصلاة مطلقاً تكون سبباً لإدرار الرزق وكشف الهم وعلى ذلك يحمل ما جاء في الأخبار، أخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: «كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة وتلا وأمر أهلك بالصلاة» وأخرج أحمد في الزهد وغيره عن ثابت قال «كان النبي ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله بالصلاة صلوا صلوا قال ثابت: وكانت الأنبياء عليهم السلام إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، وأخرج مالك والبيهقي عن أسلم قال كان عمر بن الخطاب يصي من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلي حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم: الصلاة الصلاة ويتلو هذه الآية ﴿وأمر أهلك﴾ الخ، وجوز لظاهر الأخبار أن يراد بالصلاة مطلقها فتأمل، وقرأ ابن وثاب وجماعة «نرزقك» بإدغام القاف في الكاف، وجاء ذلك عن يعقوب ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة أعم من الجنة وغيرها وعن السدي

تفسيرها بالجنة ﴿للتقوى﴾ أي لأهلها كما في قوله تعالى ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨] ولو لم يقدر المضاف صح وفيما ذكر تنبيه على أن ملاك الأمر التقوى ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التي أمر النبي ﷺ بالصبر عليها أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة أو بآية من الآيات التي اقترحوها لا على التعيين بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء.

وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ رد من جهته تعالى لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من إنكار إتيان الآية بإتيان القرآن الكريم الذي هو أم الآيات وأس المعجزات وأرفعها وأنفعها لأن حقيقة المعجزة الأمر الخارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند التحدي أي أمر كان ولا ريب في أن العلم أجل الأمور وأعلاها إذ هو أصل الأعمال ومبدأ الأفعال وبه تنال المراتب العلية والسعادة الأبدية، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين على يد من لم يمارس شيئاً من العلوم ولم يدارس أحداً من أهلها أصلاً فأي معجزة تراد بعد وروده، وأية آية تطلب بعد وفوده، فالمراد بالبينة القرآن الكريم، والمراد بالصحف الأولى التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية وبما فيها العقائد الحقة وأصول الأحكام التي اجتمعت عليها كافة الرسل عليهم السلام، ومعنى كونه بينة لذلك كونه شاهداً بحقيته، وفي إيراده بهذا العنوان ما لا يخفى من التنويه بشأنه والإنارة لبرهانه حيث أشار إلى امتيازه وغناه عما يشهد بحقية ما فيه بإعجاره. وإسناد الإتيان إليه مع جعلهم إياه مأتياً به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة، والهمزة لإنكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل: ألم يأتهم سائر الآيات ولم يأتهم خاصة بينة ما في الصحف الأولى تقريراً لإتيانه وإيذاناً بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم إنكار أصلاً وإن اجترؤوا على إنكار سائر الآيات مكابرة وعناداً، وتفسير الآية بما ذكر هو الذي تقتضيه جزالة التنزيل.

وزعم الإمام والطبرسي أن المعنى أولم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب الأولى من أنباء الأمم التي أهلكناهم لما اقترحوا الآيات ثم كفروا بها فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآية بقولهم ﴿لولا يأتينا بآية﴾ كحال أولئك الهالكين اهـ. وهو بمعزل عن القبول كما لا يخفى على ذوي العقول. وقرأ أكثر السبعة وأبو بحرية وابن محيصن وطلحة وابن أبي ليلى وابن مناذر وخلف وأبو عبيد وابن سعدان وابن عيسى وابن جبير الأنطاكي «يأتهم» بالياء التحتانية لمجاز تأنيث الآية والفصل.

وقرأت فرقة منهم أبو زيد عن أبي عمرو «بينة» بالتنوين على أن ﴿ما﴾ بدل، وقال صاحب اللوامح: يجوز أن تكون ما على هذه القراءة نافية على أن يراد بالآتي ما في القرآن من الناسخ والفصل مما لم يكن في غيره من الكتب وهو كما ترى. وقرأت فرقة بنصب «بينةً» والتنوين على أنه حال، و﴿ما﴾ فاعل. وقرأت فرقة منهم ابن عباس «الصُّحْفِ» بإسكان الحاء للتخفيف، وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ﴾ إلى آخر الآية جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن إنكارها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى ولو أنا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصل ﴿مِنْ قَبْلِه﴾ متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب أي بعذاب كائن من قبله، والضمير للبينة والتذكير باعتبار أنها برهان ودليل أو للإتيان المفهوم من الفعل أي من قبل إتيان البينة،وقال أبو حيان: إنه للرسول بقرينة ما بعد من ذكر الرسول وهو مراد من قال: أي من قبل إرسال محمد ﷺ ﴿لَقَالُوا﴾ أي يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ﴾ في الدنيا ﴿إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ مع آيات ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ التي جاءنا بها ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿وَنَخْزَى﴾ بدخول النار اليوم، وقال أبو حيان: الذل والخزي كلاهما بعذاب الآخرة. ونقل تفسير الذل بالهوان

والخزي بالافتضاح والمراد أنا لو أهلكناهم قبل ذلك لقالوا ولكنا لـم نهلكهم قبله فانقطعت معذرتهم فعند ذلك ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ [الملك: ٩].

وقرأ ابن عباس ومحمد بن الحنفية وزيد بن علي والحسن في رواية عباد والعمري وداود والفزاري وأبو حاتم ويعقوب «نُذَلَّ ونُخْزَى» بالبناء للمفعول، واستدل الأشاعرة بالآية على أن الوجوب لا يتحقق إلا بالشرع والجبائي على وجوب اللطف عليه عز وجل وفيه نظر ﴿قُلْ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم وهو خبر ﴿كل﴾ وإفراده حملاً له على لفظه ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وقرىء «فتمتعوا» ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي المستقيم. وقرأ أبو مجلز وعمران بن حدير «السواء» أي الوسط، والمراد به الجيد.

وقرأ الجحدري وابن يعمر «السوأى» بالضم والقصر على وزن فعلى وهو تأنيث الأسوأ وأنث لتأنيث الصراط وهو مما يذكر ويؤنث. وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «السَوْءِ» بفتح وسكون وهمزة آخره بمعنى الشر. وقرىء «السوي» بضم السين وفتح الواو وتشديد الياء وهو تصغير سوء بالفتح، وقيل: تصغير سوء بالضم، وقال أبو حيان: الأجود أن يكون تصغير سواء كما قالوا في عطا عطي لأنه لو كان تصغير ذلك لثبتت همزته، وقيل: سوئي وتعقب بأن إبدال مثل هذه الهمزة ياء جائز، وعن الجحدري وابن يعمر أنهما قرآ «السوي» بالضم والقصر وتشديد الواو، واختير في تخريجه أن يكون أصله السوأى كما في الرواية الأولى فخففت الهمزة بإبدالها واواً وأدغمت الواو في الواو، وقد روعيت المقابلة على أكثر هذه القراءات بين ما تقدم وقوله تعالى ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي من الضلالة ولم تراع على قراءة الجمهور والأولى من الشواذ.

ومن في الموضعين استفهامية في محل رفع على الابتداء والخبر ما بعد والعطف من عطف الجمل ومجموع الجملتين المتعاطفتين ساد مسد مفعولي العلم أو مفعوله إن كان بمعنى المعرفة، وجوز كون من الثانية موصولة فتكون معطوفة على محل الجملة الأولى الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة المتعدية لواحد إذ لولاه لكان الموصول بواسطة العطف أحد المفعولين وكان المفعول الآخر محذوفاً اقتصاراً وهو غير جائز.

وجوز أن تكون معطوفة على ﴿أصحاب﴾ فتكون في حيز من الاستفهامية أي ومن الذي اهتدى أو على «الصراط» فتكون في حيز أصحاب أي ومن ﴿أصحاب﴾ الذي اهتدى يعني النبي ﷺ، وإذا عنى بالصراط السوي النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً كان العطف من باب عطف الصفات على الصفات مع اتحاد الذات.

وأجاز الفراء أن تكون من الأولى موصولة أيضاً بمعنى الذين وهي في محل النصب على أنها مفعول للعلم بمعنى المعرفة و﴿أصحاب﴾ خبر مبتدأ محذوف وهو العائد أي الذين هم أصحاب الصراط وهذا جائز على مذهب الكوفيين فإنهم يجوزون حذف مثل هذا العائد سواء كان في الصلة طول أو لم يكن وسواء كان الموصول أياً أو غيره بخلاف البصريين، وما أشد مناسبة هذه الخاتمة للفاتحة. وقد ذكر الطيبي أنها خاتمة شريفة ناظرة إلى الفاتحة وأنه إذا لاح أن القرآن أنزل لتحمل تعب الإبلاغ ولا تنهك نفسك فحيث بلغت وبلغت جهدك فلا عليك وعليك بالإقبال على طاعتك قدر طاقتك وأمر أهلك وهم أمتك المتبعون بذلك ودع الذين لا ينجع فيهم الإنذار فإنه تذكرة لمن يخشى وسيندم المخالف حين لا ينفعه الندم انتهى.

«ومن باب الإشارة في الآيات» ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ قيل: إنه عليه السلام رأى أن الله تعالى

ألبس سحر السحرة لباس القهر فخاف من القهر لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وسئل ابن عطاء عن ذلك فقال: ما خاف عليه السلام على نفسه وإنما خاف على قومه أن يفوتهم حظهم من الله تعالى قلنا ﴿**لا تخف إنك أنت الأعلى**﴾ أي إنك المحفوظ بعيون الرعاية وحرس اللطف أو أنت الرفيع القدر الغالب عليهم غلبة تامة بحيث يكونون بسببها من أتباعك فلا يفوتهم حظهم من الله تعالى ﴿**فألقي السحرة سجداً**﴾ إلى آخر ما كان منهم فيه إشارة إلى أن الله تعالى يمن على من يشاء بالتوفيق والوصول إليه سبحانه في أقصر وقت فلا يستبعد حصول الكمال لمن تاب وسلك على يد كامل مكمل في مدة يسيرة. وكثير من الجهلة ينكرون على السالكين التائبين إذا كانوا قريبي العهد بمقارفة الذنوب ومفارقة العيوب حصول الكمال لهم وفيضان الخير عليهم ويقولون كيف يحصل لهم ذلك وقد كانوا بالأمس كيت وكيت، وقولهم: ﴿**لن نؤثرك**﴾ الخ كلام صادر من عظم الهمة الحاصل للنفس بقوة اليقين فإنه متى حصل ذلك للنفس لم تبال بالسعادة الدنيوية والشقاوة البدنية واللذات العاجلة الفانية والآلام الحسية في جنب السعادة الأخروية واللذة الباقية الروحانية ﴿**ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي**﴾ الخ فيه إشارة إلى استحباب مفارقة الأغيار وترك صحبة الأشرار ﴿**ولا تطغوا فيه**﴾ عد من الطغيان فيه استعماله مع الغفلة عن الله تعالى وعدم نية التقوى به على تقواه عز وجل ﴿**وما أعجلك عن قومك يا موسى**﴾ الإشارة فيه أنه ينبغي للرئيس رعاية الأصلح في حق المرؤوس وللشيخ عدم فعل ما يخشى منه سوء ظن المريد لا سيما إذا لم يكن له رسوخ أصلاً ﴿**قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك**﴾.

قال ابن عطاء: إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام بعد أن أخبره بذلك: أتدري من أين أتيت؟ قال: لا يا رب قال سبحانه: من قولك لهارون: اخلفني في قومي وعدم تفويض الأمر إلي والاعتماد في الخلافة علي.

وذكر بعضهم أن سر إخبار الله تعالى إياه بما ذكر مباسطته عليه السلام وشغله بصحبته عن صحبة الأضداد وهو كما ترى ﴿**وأضلهم السامري**﴾ صار سبب ضلالهم بما صنع قال بعض أهل التأويل: إنما ابتلاهم الله تعالى بما ابتلاهم ليتميز منهم المستعد القابل للكمال بالتجريد من القاصر الاستعداد المنغمس في المواد الذي لا يدرك إلا المحسوس ولا يتنبه للمجرد المعقول. ولهذا قالوا: ﴿**ما أخلفنا موعدك بملكنا**﴾ أي برأينا فإنهم عبيد بالطبع لا رأي لهم ولا ملكة وليسوا مختارين لا طريق لهم إلا التقليد والعمل لا التحقيق والعلم وإنما استعبدهم السامري بالطلسم المفرغ من الحلي لرسوخ محبة الذهب في نفوسهم لأنها سفلية منجذبة إلى الطبيعة الجسمانية وتزين الطبيعة الذهبية وتحلي تلك الصورة النوعية فيها للتناسب الطبيعي وكان ذلك من باب مزج القوى السماوية التي هي أثر النفس الحيوانية الكلية السماوية المشار إليها بحيزوم وفرس الحياة وهي مركب جبريل عليه السلام المشار به إلى العقل الفعال بالقوى الأرضية ولذلك قال: ﴿**بصرت بما لم يبصروا به**﴾ أي من العلم الطبيعي والرياضي اللذين يبتنى عليهما علم الطلسمات والسيمياء ﴿**قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس**﴾ قال ذلك عليه السلام غضباً على السامري وطرداً له وكل من غضب عليه الأنبياء وكذا الأولياء لكونهم مظاهر صفات الحق تعالى وقع في قهره عز وجل وشقي في الدنيا والآخرة وكانت صورة عذاب هذا الطريد في التحرز عن المماسة نتيجة بعده عن الحق في الدعوة إلى الباطل وأثر لعن موسى عليه السلام إياه عند إبطال كيده وإزالة مكره ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً**﴾ قال أهل الوحدة: أي يسألونك عن وجودات الأشياء فقل ينسفها ربي برياح النفحات الإلهية الناشئة من معدن الأحدية فيذرها في القيامة الكبرى قاعاً صفصفاً وجوداً أحدياً ﴿**لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً**﴾ اثنينية ولا غيرية

﴿**يومئذ يتبعون الداعي**﴾ الذي هو الحق سبحانه لا عوج له إذ هو تعالى آخذ بنواصيهم وهو على صراط مستقيم ﴿**وخشعت الأصوات للرحمن**﴾ إذ لا فعل لغيره عز وجل ﴿**فلا تسمع إلا همساً**﴾ أمراً خفياً باعتبار الإضافة إلى المظاهر انتهى.

ولكم لهم مثل هذه التأويلات والله تعالى العاصم ﴿**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً**﴾ قيل: هو من صحح فعله وعقده ولم ينسب لنفسه شيئاً ولا رأى لها عملاً ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾ لكمال تقدسه وتنزهه وجلاله سبحانه عز وجل فهيهات أن تحلق بعوضة الفكر في جو سماء الجبروت ومن أين لنحلة النفس الناطقة أن ترعى أزهار رياض بيداء اللاهوت، نعم يتفاوت الخلق في العلم بصفاته عز وجل على قدر تفاوت استعداداتهم وهو العلم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وقل رب زدني علماً**﴾ وقيل: هذا إشارة إلى العلم اللدني، والإشارة في قصة آدم عليه السلام إلى أنه ينبغي للإنسان مزيد التحفظ عن الوقوع في العصيان، ولله تعالى در من قال:

يا ناظراً يرنو بعيني راقد ... ومشاهداً للأمر غير مشاهد
منيت نفسك ضلة وأبتها ... طرق الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدماً ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: بينا آدم عليه السلام يبكي جاءه جبريل عليه السلام فبكى آدم وبكى جبريل لبكائه عليهما السلام وقال: يا آدم ما هذا البكاء؟ قال: يا جبريل وكيف لا أبكي وقد حولني ربي من السماء إلى الأرض ومن دار النعمة إلى دار البؤس فانطلق جبريل عليه السلام بمقالة آدم فقال الله تعالى: يا جبريل انطلق إليه فقل له: يا آدم يقول لك ربك ألم أخلقك بيدي ألم أنفخ فيك من روحي ألم أسجد لك ملائكتي ألم أسكنك جنتي ألم آمرك فعصيتني فوعزتي وجلالي لو أن ملء الأرض رجالاً مثلك ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين غير أنه يا آدم قد سبقت رحمتي غضبي وقد سمعت تضرعك ورحمت بكاءك وأقلت عثرتك.

﴿**ومن أعرض عن ذكري**﴾ أي بالتوجه إلى العالم السفلي ﴿**فإن له معيشة ضنكاً**﴾ لغلبة شحه وشدة بخله فإن المعرض عن جناب الحق سبحانه انجذبت نفسه إلى الزخارف الدنيوية والمقتنيات المادية لمناسبتها إياه واشتد حرصه وكلبه عليها وشغفه بها للجنسية والاشتراك في الظلمة والميل إلى الجهة السفلية فيشح بها عن نفسه وغيره وكلما استكثر منها ازداد حرصه عليها وشحه بها وتلك المعيشة الضنك.

ولهذا قال بعضهم: لا يعرض أحد عن ذكر ربه سبحانه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه بخلاف الذاكر المتوجه إليه تعالى فإنه ذو يقين منه عز وجل وتوكل عليه تعالى في سعة من عيشه ورغد ينفق ما يجد ويستغني بربه سبحانه عما يفقد ﴿**والعاقبة للتقوى**﴾ أي العاقبة التي تعتبر وتستأهل أن تسمى عاقبة لأهل التقوى المتخلين عن الرذائل النفسانية المتحلين بالفضائل الروحانية، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بحسن العاقبة وصفاء العمر عن المشاغبة ونحمده سبحانه على آلائه ونصلي ونسلم على خير أنبيائه وعلى آله خير آل ما طلع نجم ولمع آل.

---

(١) تم الجزء السادس عشر ويليه إن شاء الله تعالى الجزء السابع عشر وأوله «سورة الأنبياء»

(٢١) سورة الأنبياء مكية
وآياتها اثنتا عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذى ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾.

اعلم أن قوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القرب لا يعقل إلا فى المكان والزمان ، والقرب المكانى ههنا ممتنع فتعين القرب الزمانى ، والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب ، وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام والجواب من ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) (وثانيها) أن كل آت قريب وإن طالت أوقات ترقبه ، وإنما البعيد هو الذى انقرض قال الشاعر :

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

(وثالثها) أن المعاملة إذا كانت مؤجلة إلى سنة ثم انقضى منها شهر ، فانه لا يقال اقترب الأجل أما إذا كان الماضى أكثر من الباقى فإنه يقال اقترب الأجل ، فعلى هذا الوجه قال العلماء إن فيه دلالة على قرب القيامة ، ولهذا الوجه قال عليه السلام «بعثت أنا والساعة كهاتين» وهذا الوجه قيل إنه عليه السلام ختم به النبوة ، كل ذلك لأجل أن الباقى من مدة التكليف أقل من الماضى .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب إلى تلافى الذنوب والتحرر عنها خوفاً من ذلك والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما لم يعين الوقت لأجل أن كتمانه أصلح ، كما أن كتمان وقت الموت أصلح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفائدة فى تسمية يوم القيامة بيوم الحساب أن الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل فى الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له ، ثم قال ابن عباس المراد بالناس المشركون . وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين أما قوله تعالى (وهم فى غفلة معرضون) فاعلم أنه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والإعراض ، أما الغفلة فالمعنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسيء ثم إذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم .

أما قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن أبى عبلة محدث بالرفع صفة للمحل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما ذكر الله تعالى ذلك بياناً لكونهم معرضين ، وذلك لأن الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم ذلك إلا لعباً واستسخاراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث ، بيان أن القرآن ذكر قوله تعالى فى صفة القرآن (إن هو إلا ذكر للعالمين) وقوله (وإنه لذكر لك ولقومك) وقوله (ص والقرآن ذى الذكر) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر) وقوله (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقوله (وهـــذا ذكر مبارك أنزلناه) وبيان أن الذكر محدث قوله فى هذا الموضع (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله فى سورة الشعراء (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) ثم قالوا فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص فى أن القرآن محدث والجواب من وجهين (الأول) أن قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) وقوله (وهذا ذكر مبارك) إشارة إلى المركب من الحروف والأصوات فاذا ضممنا إليه قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) لزم حدوث المركب من الحروف والأصوات وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة ، وإنما النزاع فى قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر (الثانى) أن قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) لا يدل على حدوث كل ما كان ذكراً بل على ذكر ما محدث كما أن قول القائل لا يدخل هذه البلدة رجل فاضل إلا يبغضونه ، فانه لا يدل على أن كل رجل يجب أن يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

فاضلا بل على أن فى الرجال من هو فاضل وإذا كان كذلك فالآية لاتدل إلا على أن بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا القرآن ذكر وبعض الذكر محدث وهذا لاينتج شيئاً كما أن قول القائل الإنسان حيوان وبعض الحيوان فرس لاينتج شيئاً فظهر أن الذى ظنوه قاطعاً لايفيد ظناً ضعيفاً فضلا عن القطع . أما قوله (إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله لأن الانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر ، وإذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذى قد تشارك البهيمة فيه الإنسان ثم أكد تعالى ذمهم بقوله (لاهية قلوبهم) واللاهية من لهى عنه إذا ذهل وغفل ، وإنما ذكر اللعب مقدماً على اللهو كما فى قوله تعالى (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) تنبيهاً على أن اشتغالهم باللعب الذى معناه السخرية والإستهزاء معلل باللهو الذى معناه الذهول والغفلة ، فانهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق ، والله أعلم بالصواب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف (وهم يلعبون لاهية قلوبهم) حالان مترادفان أو متداخلان ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة لأن لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله (وهم) .

أما قوله (وأسروا النجوى الذين ظلموا) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ النجوى وهى اسم من التناجى لاتكون إلا خفية فما معنى قوله (وأسروا النجوى) (الجواب) معناه بالغوا فى إخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال (وأسروا النجوى الذين ظلموا) (الجواب) أبدل الذين ظلموا من أسروا إشعاراً بأنهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به أوجاء على لغة من قال أكلونى البراغيث أو هو منصوب المحل على الذم أو هو مبتدأ خبره (أسروا النجوى) قدم عليه والمعنى وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم

أما قوله (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف هذا الكلام كله فى محل النصب بدلا من النجوى أى وأسروا هذا الحديث ويحتمل أن يكون التقدير وأسروا النجوى وقالوا هذا الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما أسروا هذا الحديث لوجهين (أحدهما) أنه كان ذلك شبهة التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق إلى هدم أمره ، وعادة المتشاورين أن يجتهدوا فى كتمان سرهم عن أعدائهم (الثانى) يجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله والمؤمنين إن كان ما تدعونه حقاً فاخبرونا بما أسررناه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنهم طعنوا فى نبوته بأمرين (أحدهما) أنه بشر مثلهم (والثانى) أن الذى أتى به سحر ، وكلا الطعنين فاسد (أما الأول) فلأن النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

لا على الصور إذ لو بعث الملك اليهم لما علم كونه نبياً لصورته ، وإنما كان يعلم بالعلم فاذا ظهر ذلك على من هو بشر فيجب أن يكون نبياً ، بل الأولى أن يكون المبعوث إلى البشر بشراً لأن المرء إلى القبول من أشكاله أقرب وهو به آنس (وأما الثانى) وهو أن ما أتى به الرسول عليه السلام سحر وأنهم يرون كونه سحراً فجهل أيضاً ، لأن كل ما أتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه . فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالا بعد حال مدة من الزمان وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ، وكانوا فى نهاية الحرص على إبطال أمره وأقوى الأمور فى إبطال أمره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع أن لا يأتوا بها لأن الفعل عند توافر الدواعى وارتفاع الصارف واجب الوقوع ، فلما لم يأتوا بها دلنا ذلك على أنه فى نفسه معجزة وأنهم عرفوا حاله . فكيف يجوز أن يقال إنه سحر والحال على ما ذكرناه ، وكل ذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بصدقه ، إلا أنهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وإن كانوا فيه مكابرين .

قوله تعالى : ﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ، بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾

أما قوله (قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (قال ربى) حكاية لقول رسول الله ﷺ وهى قراءة حمزة والكسائى وحفص عن عاصم وقرأ الباقون قل بضم القاف وحذف الألف وسكون اللام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى لما أورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكأنه قال إنكم وإن أخفيتم قولكم ، وطعنكم فإن ربى عالم بذلك وإنه من وراء عقوبته . فتوعدوا بذلك لكى لا يعودوا إلى مثله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف فإن قلت فهلا قيل له يعلم السر لقوله (وأسروا النجوى) قلت القول عام يشمل السر والجهر فكأن فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكأن آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول (يعلم السر) كما أن قوله تعالى (يعلم السر) آكد من أن يقول يعلم سرهم فإن قلت فلم ترك الآكد فى سورة الفرقان فى قوله (قل أنزله الذى يعلم السر

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾

فى السموات والأرض) قلت ليس بواجب أن يجيء بالآكد فى قوله فى كل موضع ولكن يجيء بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى ، ثم الفرق أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول إن ربى يعلم ماأسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بأن قال (أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) فهو كقوله (علام الغيوب) ، (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قدم السميع على العليم لأنه لابد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه ، أما قوله (بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) فاعلم أنه تعالى عاد إلى حكاية قولهم المتصل بقوله (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر) ثم قال (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) فحكى عنهم ثم هذه الأقوال الخمسة فترتيب كلامهم كأنهم قالوا ندعى أن كونه بشراً مانع من كونه رسولا لله تعالى . سلمنا أنه غير مانع ، ولكن لانسلم أن هذا القرآن معجز ، ثم إما أن يساعد على أن فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر ، قلنا لم لايجوز أن يكون ذلك سحراً وإن لم يساعد عليه فإن ادعينا كونه فى نهاية الركاكة قلنا إنه أضغاث أحلام ، وإن ادعينا أنه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا إنه افتراه ، وإن ادعينا أنه كلام فصيح قلنا إنه من جنس فصاحة سائر الشعراء ، وعلى جميع هذه التقديرات فانه لايثبت كونه معجزاً ، ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) فالمراد أنهم طلبوا آية جلية لايتطرق إليها شيء من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام ، ثم إن الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الأخير بقوله (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) والمعنى أنهم فى العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا ، فأهلكهم الله ، فلو أعطيناهم مايقترحون لكانوا أشد نكثاً . قال الحسن رحمه الله تعالى إنهم لم يجابوا لأن حكم الله تعالى أن من كذب بعد الإجابة إلى مااقترحه من الآيات فلا بد من أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه فى أمة محمد ﷺ خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ، وما جعلناهم جسداً لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين ، ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء

www.besturdubooks.wordpress.com

ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

وأهلكنا المسرفين ، لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾

اعلم أنه تعالى أجاب عن سؤالهم الأول وهو قولهم (ما هذا إلا بشر مثلكم) بقوله (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) فبين أن هذه عادة الله تعالى فى الرسل من قبل محمد ﷺ ولم يمنع ذلك من كونهم رسلا للآيات التى ظهرت عليهم فإذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلا مقال عليه فى كونه بشراً فأما قوله تعالى (فاسئلوا أهل الذكر) فالمعنى أنه تعالى أمرهم أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة ، وإنما أحالهم على هؤلاء لأنهم كانوا يتابعون المشركين فى معاداة رسول الله ﷺ قال تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) فان قيل إذا لم يوثق باليهود والنصارى ، فكيف يجوز أن يأمرهم بأن يسألوهم عن الرسل قلنا إذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك ، كما قد يعمل بخبر الكفار إذا تواتر ، مثل ما يعمل بخبر المؤمنين . ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لأنهم كانوا طاعنين فى القرآن وفى الرسول ﷺ فأما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية فى أن للعامى أن يرجع إلى فتيا العلماء وفى أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لأن هذه الآية خطاب مشافة وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . ثم بين تعالى أنه لم يجعل الرسل قبله جسداً لا يأكلون الطعام وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (لا يأكلون الطعام) صفة جسد والمعنى وما جعلنا الأنبياء ذوى جسد غير طاعمين .

﴿ البحث الثانى ﴾ وحد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال ذوى ضرب من الأجساد .

﴿ البحث الثالث ﴾ أنهم كانوا يقولون (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً) فأجاب الله بقوله (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) فبين تعالى أن هذه عادة الله فى الرسل من قبل وأنه لم يجعلهم جسداً لا يأكلون بل جسداً يأكلون الطعام ولا يخلدون فى الدنيا بل يموتون كغيرهم ، ونبه بذلك على أن الذى صاروا به رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة فى التبليغ ، أما قوله تعالى (ثم صدقناهم الوعد) فقال صاحب الكشاف هو مثل قوله (واختار موسى قومه سبعين رجلا) والأصل فى الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم المقال (ومن نشاء) هم المؤمنون ، قال المفسرون : المراد منه

www.besturdubooks.wordpress.com

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَارْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

أنه تقدم وعده جل جلاله بأنه إنما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم ، وجعل الوفاء بما وعد صدقاً من حيث يكشف عن الصدق ومعنى (وأهلكنا المسرفين) أى بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لأنه إخبار عما مضى وتقدم ، ثم بين تعالى بقوله (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) عظيم نعمته عليهم بالقرآن فى الدين والدنيا فلذلك قال فيه (ذكركم) وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ذكركم شرفكم وصيتكم ، كما قال (وإنه لذكر لك ولقومك) (وثانيها) المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب ، ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد ، كما قال (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) . (وثالثها) المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة إذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل ، وقوله (أفلا تعقلون) كالبعث على التدبر فى القرآن لأنهم كانوا غفلاء. لأن الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم الفعل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل .

قوله تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ، قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾

إعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لأن شرائط الإعجاز لما تمت فى القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزاً ، وعند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه فى زجرهم عن ذلك فقال (وكم قصمنا من قرية) قال صاحب الكشاف القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وأنها ظالمة وأراد أهلها توسعاً لدلالة العقل على أنها لاتكون ظالمة ولا مكلفة ولدلالة قوله تعالى (وأنشأنا بعدها قوماً آخرين) فالمعنى أهلكنا قوما وأنشأنا قوماً آخرين وقال (فلما أحسوا بأسنا ـ إلى قوله ـ قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) وكل ذلك لايليق إلا بأهلها الذين كلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم ولولا هذه

www.besturdubooks.wordpress.com

الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لأنه يكون ذلك موهماً للكذب ، واختلفوا فى هذا الإهلاك فقال ابن عباس المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهى وسحول قريتان باليمن ينسب إليهما الثياب ، وفى الحديث « كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثوبين سحوليين » وروى « حضوريين بعث الله اليهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم » وروى « أنه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يالثارات الأنبياء » فندموا واعترفوا بالخطأ ، وقال الحسن : المراد عذاب الاستئصال ، واعلم أن هذا أقرب لأن إضافة ذلك إلى الله تعالى أقرب من إضافته إلى القاتل ، ثم بتقدير أن يحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور بأنها إحدى القرى التى أرادها الله تعالى بهذه الآية ، وأما قوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) فالمعنى لما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا فى ديارهم ، والركض ضرب الدابة بالرجل ، ومنه قوله تعالى (اركض برجلك) فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ، ويجوز أن يشبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين ، أما قوله (لاتركضوا) قال صاحب الكشاف القول محذوف ، فان قلت من القائل قلنا يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين ، أو يكونوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل ، أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم فى دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم ، أما قوله (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم) أى من العيش والرفاهية والحال الناعمة ، والإتراف إبطار النعمة وهى الترفه ، أما قوله تعالى (لعلكم تسألون) فهو تهكم بهم وتوبيخ ، ثم فيه وجوه (أحدها) أى ارجعوا إلى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة (وثانيها) ارجعوا كما كنتم فى مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين (وثالثها) تسألكم النـــاس فى أنديتكم لتعاونوهم فى نوازل الخطوب ويستشيرونكم فى المهمات ويستعينون بآرائكم (ورابعها) يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ ، أما قوله تعالى (فما زالت تلك دعواهم فقال صاحب الكشاف تلك إشارة إلى (يا ويلنا) لأنها دعوى كأنه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم ، والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) فان قلت لم سميت دعوى ؟ قلت لأنهم كانوا دعوا بالويل (فقالوا ياويلنا) أى ياويل احضر فهذا وقتك ، وتلك مرفوع أومنصوب اسما أو خبراً وكذلك (دعواهم) قال المفسرون لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) أما قوله (حتى جعلناهم حصيداً خامدين)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

فالحصيد الزرع المحصود أى جعلناهم مثل الحصيد شبههم به فى استئصالهم ، كما تقول جعلناهم رماداً أى مثل الرماد فان قيل كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل ، قلت حكم الاثنين الأخيرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين ، والمراد أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما يجف الحصيد ، وخمدوا كما تخمد النار .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ إعلم أن فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الأول) أنه تعالى لما بين إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه ومجازاة على ما فعلوا فقال (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب ، وإنما سويناها لفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التى لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) وقوله (ما خلقناهما إلا بالحق) (والثانى) أن الغرض منه تقرير نبوة محمد ﷺ والرد على منكريه لأنه أظهر المعجزة عليه فان كان محمد كاذباً كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفى عنه وإن كان صادقاً فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال القاضى عبد الجبار دلت الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى إذ لو كان كذلك لكان لاعباً فإن اللاعب فى اللغة اسم لفاعل اللعب فنفى الاسم الموضوع للفعل يقتضى نفى الفعل (والجواب) يبطل ذلك بمسئلة الداعى على مامر غير مرة أما قوله (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) فاعلم أن قوله (لاتخذناه من لدنا) معناه من جهة قدرتنا وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا أى من الملائكة لا من الإنس رداً لمن قال بولادة المسيح وعزير فأما قوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل) فاعلم أن قوله (بل)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحانتنا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق ، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويراً لإبطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه ، وأما قوله تعالى (ولكم الويل مما تصفون) يعني من تمسك بتكذيب الرسول ﷺ ونسب القرآن إلى أنه سحر وأضغاث أحلام إلى غير ذلك من الأباطيل ، وهو الذي عناه بقوله (مما تصفون) .

قوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الأول) أنه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفى اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة ونفى الحاجة لا يصح إلا بالقدرة التامة ، لا جرم عقب تلك الآية بقوله (وله من فى السموات والأرض) لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة (الثانى) وهو الأقرب أنه تعالى لما حكى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الإنقياد بين فى هذه الآية أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات ، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وله من فى السموات والأرض) معناه أن كل المكلفين فى السماء والأرض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلالة قوله (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) على أن الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها فى سورة البقرة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ومن عنده) المراد بهم الملائكة بإجماع الأمة ولأنه تعالى وصفهم بأنهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة ، فكأنه تعالى قال : الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الزجاج ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال صاحب الكشاف فان قلت الاستحسار مبالغة فى الحسور فكان الأبلغ فى وصفهم أن ينفى عنهم أدنى

www.besturdubooks.wordpress.com

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

الحسور قلت فى الاستحسار بيان أن ماهم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الشاقة بأن يستحسروا فيما يفعلون أما قوله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فالمعنى أن تسبيحهم متصل دائم فى جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر ، روى عن عبد الله بن الحرث بن نوفل ، قال : قلت لكعب : أرأيت قول الله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ثم قال (جاعل الملائكة رسلا) أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وأيضاً قال (أولئك عليهم لعنه الله والملائكة والناس أجمعين) فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح ؟ أجاب كعب الأحبار فقال : التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال . فان قيل هذا القياس غير صحيح لأن الإشتغال بالتنفس إنما لم يمنع من الكلام ، لأن آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح و اللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال (والجواب) أى استبعاد فى أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبحون الله وببعضها يلعنون أعداء الله ، أو يقال معنى قوله (لا يفترون) أنهم لا يفترون عن العزم على أدائه فى أوقاته اللائقة به كما يقال إن إفلانا يواظب على الجماعات لا يفتر عنها لا يراد به أنه أبداً مشتغل بها بل يراد به أنه مواظب على العزم على أدائها فى أوقاتها .

قوله تعالى : ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ، وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ .

اعلم أن الكلام من أول السورة إلى ههنا كان فى النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجواباً ، وأما هذه الآيات فانها فى بيان التوحيد ونفى الأضداد والأنداد .

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله تعالى (أم إتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف أم ههنا هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد أذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها ، والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الأرض ينشرون الموتى ، ولعمرى إن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات ، فان قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا فى نهاية البعد عن هذه الدعوى ، فانهم كانوا مع اقرارهم بالله وبأنه خالق السموات والأرض منكرين للبعث ، ويقولون (من يحيى العظام وهى رميم) فكيف يدعونه للجماد الذى لا يوصف بالقدرة البتة ؟ قلت لأنهم لما اشتغلوا بعبادتها ولابد للعبادة من فائدة هى الثواب فإقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الإقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب ، فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل ، يعنى إذا كانوا غير قادرين على أن يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا فأى عقل يجوز اتخاذهم آلهة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من الأرض) كقولك فلان من مكة أو من المدينة تريد مكى أو مدنى إذ معنى نسبتها إلى الأرض الإيذان بأنها الأصنام التى تعبد فى الأرض لأن الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض ، لأنها إما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ النكتة فى (هم ينشرون) معنى الخصوصية كأنه قيل أم اتخذوا آلهة من الأرض لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ الحسن (ينشرون) وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها .

أما قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أهل النحو إلا ههنا بمعنى غير أى لو كان يتولاهما ويدبر أمورهما شىء غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ، ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنا لو حملناه على الإستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد ، وذلك باطل لأنه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أوكان فالفساد لازم . ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت أن المراد ما ذكرناه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المتكلمون القول بوجود إلهين يفضى إلى المحال فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالا ، إنما قلنا إنه يفضى إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلابد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه . فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر ، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس . فلو امتنعا معاً لوجدا

www.besturdubooks.wordpress.com

معاً وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك محال أيضاً لوجهين : (أحدهما) أنه لوكان كل واحد منهما قادراً على ما لانهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابد وأن يستويا فى القدرة . وإذا استويا فى القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثانى وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح (وثانيهما) أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون قادراً والذى لم يقع مراده يكون عاجزاً والعجز نقص وهو على الله محال . فان قيل الفساد إنما يلزم عند اختلافهما فى الإرادة وأنتم لا تدعون وجوب اختلافهما فى الارادة بل أقصى ماتدعونه ان اختلافهما فى الارادة ممكن ، فاذا كان الفساد مبنياً على الإختلاف فى الإرادة وهذا الإختلاف ممكن والمبنى على الممكن ممكن فكان الفساد ممكناً لا واقعاً فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد ؟ قلنا (الجواب) من وجهين : (أحدهما) لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث إن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب (والثانى) وهو الأقوى أن نبين لزوم الفساد لا من الوجه الذى ذكرناه بل من وجه آخر ، فنقول لو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات فيفضى إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلا منهما جميعاً فيلزم استغناؤه عنهما معاً واحتياجه اليهما معاً وذلك محال . وهذه حجة تامة فى مسألة التوحيد ، فنقول القول بوجود الإلهين يفضى إلى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعاً ، أو نقول لو قدرنا إلهين ، فإما أن يتفقا أو يختلفا فإن اتفقا على الشىء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وإن اختلفا ، فإما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات ، فإن قلت لم لايجوز أن يتفقا على الشىء الواحد ولا يلزم الفساد لأن الفساد إنما يلزم لو أراد كل واحد منهما أن يوجده هو وهذا اختلاف ، أما إذا أراد كل واحد منهما أن يكون الموجد له أحدهما بعينه فهناك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين ، قلت كونه موجداً له ، إما أن يكون نفس القدرة والإرادة أو نفس ذلك الأثر أو أمراً ثالثاً ، فان كان الأول لزم الإشتراك فى القدرة والإرادة والاشتراك فى الموجد ، وإن كان الثانى فليس وقوع ذلك الأثر بقدرة أحدهما وإرادته أولى من وقوعه بقدرة الثانى ، لأن لكل واحد منهما إرادة مستقلة بالتأثير ، وإن كان الثالث وهو أن يكون الموجد له أمراً ثالثاً فذلك الثالث إن كان قديماً استحال كونه متعلق الإرادة . وإن كان حادثاً فهو نفس الأثر ، ويصير هذا القسم هو القسم الثانى الذى ذكرناه . واعلم أنك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما فى هذا العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل وحدانية الله تعالى بل

www.besturdubooks.wordpress.com

وجود كل واحد من الجواهر والأعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذى بيناه. وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى فى مواضع من كتابه ، واعلم أن ههنا أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى (أحدها) وهو الأقوى أن يقال لو فرضنا موجودين واجبى الوجود لذاتيهما فلا بد وأن يشتركا فى الوجود ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه وما به المشاركة غير مابه الممايزة فيكون كل واحد منهما مركباً مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه ، وكل مركب فهو مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره ، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته ، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته . هذا خلف ، فاذن واجب الوجود ليس إلا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر اليه وكل مفتقر فى وجوده إلى الغير فهو محدث فكل ماسوى الله تعالى محدث ، ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيراً لهذه الآية . لأنا إنما دللنا على أنه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لايكون شىء منهما واجباً وإذا لم يوجد الواجب لم يوجد شىء من هذه الممكنات ، وحينئذ يلزم الفساد فثبت أنه يلزم من وجود إلهين وقوع الفساد فى كل العالم (وثانيها) أنا لو قدرنا إلهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر فى الإلهية ، ولا بد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما وإلا لما حصل التعدد ، فما به الممايزة إما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فان كان صفة كمال فالخالى عنه يكون خالياً عن الكمال فيكون ناقصاً والناقص لايكون إلهاً ، وإن لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لايكون صفة كمال فيكون ناقصاً ، ويمكن أن يقال : مابه الممايزة إن كان معتبراً فى تحقق الإلهية فالخالى عنه لا يكون إلهاً وإن لم يكن معتبراً فى الإلهية لم يكن الاتصاف به واجباً . فيفتقر إلى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج (وثالثها) أن يقال لو فرضنا إلهين لكان لابد وأن يكونا بحيث يتمكن الغير من التمييز بينهما ، لكن الامتياز فى عقولنا لا يحصل إلا بالتباين فى المكان أو فى الزمان أو فى الوجوب والإمكان وكل ذلك على الإله محال فيمتنع حصول الإمتياز (ورابعها) أن أحد الإلهين إما أن يكون كافياً فى تدبير العالم أو لا يكون فان كان كافيا كان الثانى ضائعاً غير محتاج اليه ، وذلك نقص والناقص لايكون إلهاً (وخامسها) أن العقل يقتضى احتياج المحدث إلى الفاعل ولا امتناع فى كون الفاعل الواحد مدبراً لكل العالم . فأما ماوراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضى ذلك إلى وجود أعداد لانهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال (وسادسها) أن أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره أو لا يقدر عليه . والأول محال لأن دليل الصانع ليس إلا بالمحدثات وليس فى حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثانى والثانى محال لأنه يفضى إلى كونه عاجزاً عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون إلها (وسابعها) أن أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لايقدر ، فان قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلا ، وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً (وثامنها) لو

www.besturdubooks.wordpress.com

قدرنا إلهين لكان مجموع قدرتيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده ، فيكون كل واحد من القدرتين متناهياً والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهياً (وتاسعها) العدد ناقص لاحتياجه إلى الواحد ، والواحد الذي يوجد من جنسه عدد ناقص ناقص ، لأن العدد أزيد منه ، والناقص لايكون إلهاً فالإله واحد لا محالة (وعاشرها) أنا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود ثم قدرنا الهين فان لم يقدر واحد منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزاً والعاجز لايكون إلهاً ، وإن قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر يكون إلهاً ، وإن قدرا جميعاً فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر ، وان قدر كل واحد على إيجاده بالإستقلال فاذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال لأن إيجاد الموجود محال ، وإن لم يبق فحينئذ يكون الأول قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهوراً تحت تصرفه فلا يكون إلهاً . فان قيل الواحد إذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز ، قلنا الواحد إذا أوجده فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة لايكون عجزاً ، أما الشريك فانه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة البتة بل زالت قدرته بسبب قدرة الأول فيكون تعجيزاً . (الحادي عشر) أن نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو أن نعين جسماً ونقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون وبالعكس ، فان لم يقدر كان عاجزاً وإن قدر فنسوق الدلالة إلى أن نقول إذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون فالأول أزال قدرة الثاني وعجزه فلا يكون إلهاً ، وهذان الوجهان يفيدان العجز نظراً إلى قدرتيهما والدلالة الأولى إنما تفيد العجز بالنظر إلى إرادتيهما (وثاني عشرها) أنهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقاً بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لأحد المثلين قابلة للمثل الآخر ، فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعي مخصصاً يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبداً فقيراً ناقصاً (وثالث عشرها) أن الشركة عيب ونقص في الشاهد ، والفردانية والتوحد صفة كمال ، ونرى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المختصر أشد الكراهية ، ونرى أنه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد ، فما ظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه ، فان قدر عليه كان المغلوب فقيراً عاجزاً فلايكون إلهاً ، وإن لم يقدر عليه كان في أشد الغم والكراهية فلا يكون إلهاً (ورابع عشرها) أنا لو قدرنا إلهين لكان إما أن يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر أو يستغني كل واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما إلى الآخر والآخر يستغني عنه ، فان كان الأول كان كل واحد منهما ناقصاً لأن المحتاج ناقص وإن كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنياً عنه ، والمستغنى عنه ناقص ، ألا ترى أن البلد إذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم إليه ومن غير التفات منهم إليه عد ذلك الرئيس ناقصاً فالإله هو الذي يستغنى به ولا يستغني عنه ، وإن احتاج أحدهما إلى الآخر من غير عكس

www.besturdubooks.wordpress.com

كان المحتاج ناقصاً والمحتاج إليه هو الإله . واعلم أن هذه الوجوه ظنية إقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة ، أما الدلائل السمعية فمن وجوه : (أحدها) قوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فالأول هو الفرد السابق ، ولذلك لو قال أول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى أولا عبدين لم يحنث لأن شرط الأول أن يكون فرداً . وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحداً لم يحنث أيضاً لأن شرط الفرد أن يكون سابقاً وهذا ليس بسابق . فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فرداً سابقاً فوجب أن لا يكون له شريك (وثانيها) قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) فالنص يقتضى أن لا يكون أحد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص (وثالثها) أن الله تعالى صرح بكلمة (لا إله إلا هو) فى سبعة وثلاثين موضعاً من كتابه وصرح بالوحدانية فى مواضع نحو قوله (وإلهكم إله واحد) وقوله (قل هو الله أحد) وكل ذلك صريح فى الباب (ورابعها) قوله تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه) حكم بهلاك كل ما سواه ، ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديماً ، ومن لا يكون قديماً لا يكون إلهاً (وخامسها) قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وهو كقوله (ولعلا بعضهم على بعض) وقوله (إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) (وسادسها) قوله (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقال فى آية أخرى (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته) (وسابعها) قوله تعالى (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) وهذا الحصر يدل على نفى الشريك (وثامنها) قوله تعالى (الله خالق كل شىء) فلو وجد الشريك لم يكن خالقاً فلم يكن فيه فائدة ، واعلم أن كل مسألة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فانه يمكن إثباتها بالسمع والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها ، فلا جرم يمكن إثباتها بالدلائل السمعية ، واعلم أن من طعن فى دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان فى السماء والأرض آلهة تقول بإلهيتها عبدة الأوثان لزم فساد العالم لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم قوله (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وبالله التوفيق .

أما قوله تعالى (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ففيه مسألتان :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ أنه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أى هو منزه لأجل هذه الأدلة عن وصفهم بأن معه إلهاً ، وهذا تنبيه على أن الإشتغال بالتسبيح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه تعالى منزهاً وعلى أن طريقة التقليد طريقة مهجورة .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ لقائل أن يقول أى فائدة لقوله (فسبحان الله رب العرش عما يصفون)

www.besturdubooks.wordpress.com

ولم لم يكتف بقوله (فسبحان الله عما يصفون) وجوابه أن هذه المناظرة إنما وقعت مع عبدة الأصنام ، إلا أن الدليل الذى ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين ثم إنه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الأصنام ، وهى أنه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذى لا يعقل ولا يحس شريكا فى الإلهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والأرضين ومدبر الخلائق من النور والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين .

أما قوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فاعلم أنه مشتمل على بحثين : (أحدهما) أن الله تعالى لا يسأل عن شىء من أفعاله ولا يقال له لم فعلت (والثانى) أن الخلائق مسؤلون عن أفعالهم ، أما البحث الأول ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن عمدة من أثبت لله شريكا ليست إلا طلب اللمية فى أفعال الله تعالى ، وذلك لأن الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا رأينا فى العالم خيراً وشراً ولذة وألماً وحياة وموتاً وصحة وسقما وغنى وفقراً ، وفاعل الخير خير وفاعل الشر شرير ، ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيراً وشريراً معاً ، فلابد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير والآخر فاعلا للشر . ويرجع حاصل هذه الشبهة إلى أن مدبر العالم لو كان واحداً لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى ، وخص ذلك بالموت والألم والفقر . فيرجع حاصله إلى طلب اللمية فى أفعال الله تعالى . فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية لا جرم أنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الأصلية فى الجواب عن شبهة القائلين بالشريك ، لأن الترتيب الجيد فى المناظرة أن يقع الإبتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ، ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الدلالة على أنه سبحانه (لا يسأل عما يفعل) أما أهل السنة فانهم استدلوا عليه بوجوه : (أحدها) أنه لو كان كل شىء معللا بعلة لكانت علية تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلا بد فى قطع التسلسل من الانتهاء إلى ما يكون غنياً عن العلة وأولى الأشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته ، وكما أن ذاته منزهة عن الإفتقار إلى المؤثر والعلة ، وصفاته مبرأة عن الافتقار إلى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الاستناد إلى الموجب والمؤثر (وثانيها) أن فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة ، إما أن تكون واجبة أو ممكنة فان كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا ، وحينئذ يكون موجباً بالذات لا فاعلا بالاختيار ، وإن كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلا لله تعالى أيضاً فتفتقر فاعليته لتلك العلة إلى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال (وثالثها) أن علة فاعلية الله تعالى للعالم إن كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وإن كانت محدثة افتقر إلى علة أخرى ولزم التسلسل (ورابعها) أن من فعل فعلا لغرض ، فإما أن يكون متمكناً من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أولا يكون متمكناً

www.besturdubooks.wordpress.com

منه . فان كان متمكناً منه كان توسط تلك الواسطة عبثاً وإن لم يكن متمكناً منه كان عاجزاً والعجز على الله تعالى محال ، أما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالأغراض ، وكل ذلك فى حق الله تعالى محال (وخامسها) أنه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض إما أن يكون عائداً إلى الله تعالى أو إلى العباد والأول محال لأنه منزه عن النفع والضر ، وإذا بطل ذلك تعين أن الغرض لا بد وأن يكون عائداً إلى العباد ، ولا غرض للعباد إلا حصول اللذات وعدم حصول الآلام ، والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شيء من الوسائط . وإذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئاً لأجل شيء (وسادسها) هو أنه لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إما أن يكون على السواء أو لا يكون ، فان كان على السواء استحال أن يكون غرضاً ، وإن لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصاً بذاته كاملا بغيره وذلك محال ، فان قلت وجود ذلك الغرض وعدمه وإن كان بالنسبة إليه على السواء . أما بالنسبة إلى العباد فالوجود أولى من العدم . قلنا تحصيل تلك الأولوية للعبد وعدم تحصيلها له إما أن يكون بالنسبة إليه على السوية أو لا على السوية ، ويعود التقسيم الأول (وسابعها) وهو أن الموجود إما هو سبحانه أو ملكه وملكه ومن تصرف فى ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك (وثامنها) وهو أن من قال لغيره لم فعلت ذلك ؟ فهذا السؤال إنما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسئول منه عن فعله وذلك من العبد فى حق الله تعالى محال ، فانه لو فعل أى فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك ؟ إما بأن يهدده بالعقاب والإيلام وذلك على الله تعالى محال ، أو بأن يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفاهة على مايقوله المعتزلة وذلك أيضاً محال ، لأن استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور ذاتية له ، وما ثبت للشيء لذاته يستحيل أن يتبدل لأجل تبدل الصفات العرضية الخارجية ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز أن يقال لله فى أفعاله لم فعلت هذا الفعل ؟ فان كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، وأما المعتزلة فانهم سلموا أنه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر ، وهو أنه تعالى عالم بقبح القبائح ، وعالم بكونه غنياً عنها ، ومن كان كذلك فانه يستحيل أن يفعل القبيح ، وإذا عرفنا ذلك عرفنا إجمالا أن كل مايفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب ، وإذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا.

﴿ أما البحث الثانى ﴾ وهو قوله تعالى (وهم يسألون) فهذا يدل على كون المكلفين مسئولين عن أفعالهم وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الكلام فى هذا السؤال إما فى الإمكان العقلى أو فى الوقوع السمعى ، أما الإمكان العقلى فالخلاف فيه مع منكرى التكاليف ، واحتجوا على قولهم بوجوه (أحدها) قالوا التكليف إما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته إلى الفعل والترك ، أو حال رجحان أحدهما على الآخر . والأول محال لأن حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف

www.besturdubooks.wordpress.com

بالترجيح تكليفاً بالمحال ، والثانى محال لأن حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوح ممتنع الوقوع . والتكليف بإيقاع ما يكون واجب الوقوع عبث ، وبإيقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق (وثانيها) قالوا كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثاً ، وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع ، فيكون التكليف به تكليفاً بما لا يطاق (وثالثها) قالوا سؤال العبد ما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة فان كان لفائدة فتلك الفائدة إن عادت إلى الله تعالى كان محتاجاً وهو محال ، وإن عادت إلى العبد فهو محال ، لأن سؤاله لما كان سبباً لتوجيه العقاب عليه ، لم يكن هذا نفعاً عائداً إلى العبد بل ضرراً عائداً إليه ، وإن لم يكن فى السؤال فائدة كان عبثاً وهو غير جائز على الحكيم ، بل كان إضراراً وهو غير جائز على الرحيم (والجواب) عنها من وجهين (الأول) أن غرضكم من إيراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تلزمونا نفى التكليف فكأنكم تكلفونا بنفى التكليف وهو متناقض (والثانى) وهو أن مدار كلامكم فى هذه الشبهات على حرف واحد وهو أن التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق فلا يجوز من الحكيم أن يوجبها على العباد فيرجع حاصل هذه الشبهات إلى أنه يقال له تعالى لم كلفت عبادك ، إلا أنا قد بينا أنه سبحانه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فظهر بهذا أن قوله (لا يسأل عما يفعل) كالأصل والقاعدة لقوله (وهم يسألون) فتأمل فى هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من أسرار علم القرآن ، وأما الوقوع السمعى فلقائل أن يقول إن قوله (وهم يسألون) وإن كان متأكداً بقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) وبقوله (وقفوهم إنهم مسئولون) إلا أنه يناقضه قوله (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) (والجواب) أن يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والإيجاب إلى مقام آخر دفعاً للتناقض .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قالت المعتزلة فيه وجوه (أحدها) أنه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسأل عما يفعل ، بل كان يذم بما حقه الذم ، كما يحمد بما حقه المدح (وثانيها) أنه كان يجب أن لا يسأل عن الأمور إذا كان لا فاعل سواه (وثالثها) أنه كان لا يجوز أن يسألوا عن عملهم إذ لا عمل لهم (ورابعها) أن أعمالهم لا يمكنهم أن يعدلوا عنها من حيث خلقها وأوجدها فيهم (وخامسها) أنه تعالى صرح فى كثير من المواضع بأنه يقبل حجة العباد عليه كقوله (رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وهذا يقتضى أن لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل ، وقال (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على أن حجة العبد متوجهة على الله تعالى (وسادسها) قال ثمامة إذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى ما حملك على معصيتى ؟ فيقول على مذهب الجبر : يارب إنك خلقتنى كافراً وأمرتنى بما لا أقدر عليه وحلت بينى وبينه ، ولا شك أنه على مذهب الجبر يكون صادقاً ، وقال الله تعالى (هذا يوم ينفع

www.besturdubooks.wordpress.com

الصادقين صدقهم) فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له ، ومن يدعه يقول هذا الكلام أو يحتج ؟ فقال ثمامة : أليس إذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم أنه منعه مما لو لم يمنعه منه لانقطع فى يده ، وهذا نهاية الانقطاع (والجواب) عن هذه الوجوه أنها معارضة بمسألة الداعى ومسألة العلم ثم بالوجوه الثمانية التى بينا فيها أنه يستحيل طلب لمية أفعال الله تعالى وأحكامه .

وأما قوله تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) فاعلم أنه سبحانه كرر قوله (أم اتخذوا من دونه آلهة) استعظاماً لكفرهم أى وصفتم الله بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك ، أما من جهة العقل . أو من جهة النقل فانه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولا وقرر الأصل الذى عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنيه ثانياً ، أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثاً .

أما قوله تعالى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسيره وفيه أقوال (أحدها) ، (هذا ذكر من معى) أى هذا هو الكتاب المنزل على من معى (وهذا ذكر من قبلى) أى الكتاب المنزل على من تقدمنى من الأنبياء وهو التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، وليس فى شىء منها أنى أذنت بأن تتخذوا إلهاً من دونى بل ليس فيها إلا (أنى أنا الله لا إله إلا أنا) كما قال بعد هذا (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج (والثانى) وهو قول سعيد ابن جبير وقتادة ومقاتل والسدى أن قوله (وذكر من قبلى) صفة للقرآن فانه كما يشتمل على أحوال هذه الأمة فكذا يشتمل على أحوال الأمم الماضية (الثالث) ما ذكره القفال وهو أن المعنى قل لهم هذا الكتاب الذى جئتكم به قد اشتمل على بيان أحوال من معى من المخالفين والموافقين وعلى بيان أحوال من قبلى من المخالفين والموافقين فاختاروا لأنفسكم ، كأن الغرض منه التهديد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما) وهو الأصل والإضافة من اضافة المصدر إلى المفعول كقوله (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) وقرىء : من معى ومن قبلى ، بكسر ميم من على ترك الإضافة فى هذه القراءة وإدخال الجار على مع غريب والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد فدخل من عليه كما يدخل على إخواته وقرىء : ذكر معى وذكر قبلى .

وأما قوله (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين أنه لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع ، ذكر بعده أن وقوعهم فى هذا المذهب الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه ، بل ذلك لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ، ثم ترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (الحق) بالرفع على توسط التوكيد بين السبب والمسبب ، والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل .

أما قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) فاعلم أن يوحى ونوحى قراءتان مشهورتان ، وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزهاً عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وأضافوا إلى ذلك أنه تعالى صاهر الجن على ما حكى الله تعالى عنهم فقال (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لأن الولد لابد وأن يكون شبيهاً بالوالد فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ، ثم لابد وأن يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب فى ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن ، فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكناً غير واجب . وذلك يخرجه عن حد الإلهية ويدخله فى حد العبودية ، ولذلك نزه نفسه عنه .

أما قوله (بل عباد مكرمون) فاعلم أنه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة إلا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرىء (مكرمون ، لا يسبقونه) من سابقته فسبقته أسبقه . والمعنى أنهم يتبعونه فى قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله ، وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً كذلك مبنى على أمره لا يعملون عملا مالم يؤمروا به

ثم إنه سبحانه ذكر ما يجرى مجرى السبب لهذه الطاعة فقال (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) والمعنى أنهم لما علموا كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات علموا كونه عالماً بظواهرهم وبواطنهم ، فكان ذلك داعياً لهم إلى نهاية الخضوع وكمال العبودية . وذكر

www.besturdubooks.wordpress.com

المفسرون فيه وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس يعلم ما قدموا وما أخروا من أعمالهم (وثانيها) مابين أيديهم الآخرة وماخلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك (وثالثها) قال مقاتل يعلم ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم . وحقيقة المعنى أنهم يتقلبون تحت قدرته فى ملكوته وهو محيط بهم ، وإذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدى الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له . ثم كشف عن هذا المعنى فقال (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) أى لمن هو عند الله مرضى (وهم من خشيته مشفقون) أى من خشيتهم منه ، فأضيف المصدر إلى المفعول ومشفقون خائفون ولا يأمنون مكره وعن رسول الله ﷺ «أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطاً كالحلس من خشية الله تعالى » ونظيره قوله تعالى (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) .

أما قوله تعالى (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فانا نجازى ذلك القائل بهذا الجزاء ، وهذا لايدل على أنهم قالوا ذلك أو ما قالوه وهو قريب من قوله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الصفات تدل على العبودية وتنافى الولادة لوجوه (أحدها) أنهم لما بالغوا فى الطاعة إلى حيث لا يقولون قولا ولا يعملون عملا إلا بأمره فهذه صفات للعبيد لا صفات الأولاد (وثانيها) أنه سبحانه لما كان عالماً بأسرار الملائكة وهم لا يعلمون أسرار الله تعالى وجب أن يكون الإله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هى نفس ما ذكره عيسى عليه السلام فى قوله (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) (وثالثها) أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى ومن يكن إلهاً أو ولداً للاله لا يكون كذلك (ورابعها) أنهم على نهاية الإشفاق والوجل وذلك ليس إلا من صفات العبيد (وخامسها) نبه تعالى بقوله (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) على أن حالهم حال سائر العبيد المكلفين فى الوعد والوعيد فكيف يصح كونهم آلهة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتجت المعتزلة بقوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) على أن الشفاعة فى الآخرة لاتكون لأهل الكبائر لأنه لا يقال فى أهل الكبائر إن الله يرتضيهم (والجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك (إلا لمن ارتضى) أى لمن قال لا إله إلا الله . واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا فى إثبات الشفاعة لأهل الكبائر وتقريره هو أن من قال لا إله إلا الله فقد ارتضاه تعالى فى ذلك ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى فى ذلك فقد صدق عليه أنه ارتضاه الله لأن المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه ، وإذا ثبت أن الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذى ذكرناه أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضى الله عنهما .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : (أحدها) تدل على كون الملائكة مكلفين

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

من حيث قال (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (وهم من خشيته مشفقون) ومن حيث الوعيد (وثانيها) تدل أيضاً على أن الملائكة معصومون لأنه قال (وهم بأمره يعملون) (وثالثها) قال القاضي عبد الجبار قوله (كذلك نجزى الظالمين) يدل على أن كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك يوجب القطع على أنه تعالى لا يغفر لأهل الكبائر فى الآخرة (والجواب) أقصى ما فى الباب أن هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعمومات الوعيد.

قوله تعالى: ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع ، وهذه الدلائل أيضاً دالة على كونه منزهاً عن الشريك ، لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب فى العالم ، ووجود الإلهين يقتضى وقوع الفساد . فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم . وفيها أيضاً رد على عبدة الأوثان من حيث إن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز فى العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع . فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ، واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة أنواع من الدلائل :

﴿ النوع الأول ﴾ قوله (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير ألم ير بغير الواو والباقون بالواو وإدخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه . قال صاحب الكشاف قرىء رتقا بفتح التاء ، وكلاهما فى معنى

www.besturdubooks.wordpress.com

المفعول كالخلق والنفض أى كانتا مرتوقتين ، فان قلت الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنه مصدر فما بال الرتق ؟ قلت هو على تقدير موصوف أى كانتا شيئاً رتقاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول المراد من الرؤية فى قوله تعالى (أو لم ير الذين كفروا) ، إما الرؤية . وإما العلم والأول مشكل ، أما أولا فلأن القوم ما رأوهما كذلك البتة ، وأما ثانياً فلقوله سبحانه وتعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض) ، وأما العلم فمشكل لأن الأجسام قابلة للفتق والرتق فى أنفسها ، فالحكم عليها بالرتق أولا وبالفتق ثانياً لا سبيل إليه إلا السمع ، والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة . فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال (والجواب) المراد من الرؤية هو العلم وما ذكروه من السؤال فدفعه من وجوه : (أحدها) أنا نثبت نبوة محمد ﷺ بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله ثم نجعله دليلا على حصول النظام فى العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة فى التوحيد (وثانيا) أن يحمل الرتق والفتق على إمكان الرتق والفتق والعقل ، يدل عليه لأن الأجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعى مخصصاً (وثالثها) أن اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فانه جاء فى التوراة إن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ، ثم خلق السموات والأرض منها وفتق بينها ، وكان بين عبدة الأوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك فى عداوة محمد ﷺ فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على أنهم يقبلون قول اليهود فى ذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال كانتا رتقاً ولم يقل كن رتقاً لأن السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس ، قال الأخفش السموات نوع والأرض نوع ، ومثله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ، ومرت بنا غنمان أسودان ، لأن هذا القطيع غنم وذلك غنم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الرتق فى اللغة السد يقال رتقت الشىء فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين الملتصقين قال الزجاج الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتى رتق ، قال المفضل : إنما لم يقل كانتا رتقين كقوله (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) لأن كل واحد جسد كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختلف المفسرون فى المراد من الرتق والفتق على أقوال : أحدها وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن المعنى كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض وهذا القول يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء لأنه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث هى وأصعد الأجزاء السماوية قال كعب خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً توسطتهما ففتقهما بها (وثانيها) وهو قول أبى صالح ومجاهد أن المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات

www.besturdubooks.wordpress.com

وكذلك الأرضون (وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين أن السموات والأرض كانتا رتقاً بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر ، ونظيره قوله تعالى (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع) ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ماذكرنا . فإن قيل هذا الوجه مرجوح لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا ، قلنا إنما أطلق عليه لفظ الجمع ، لأن كل قطعة منها سماء ، كما يقال : ثوب أخلاق وبرمة أعشار . واعلم أن على هذا التأويل يجوز حمل الرؤية على الإبصار (ورابعها) قول أبي مسلم الأصفهاني يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله (فاطر السموات والأرض) وكقوله (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن) فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق . أقول وتحقيقه أن العدم نفي محض ، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة ، بل كأنه أمر واحد متصل متشابه ، فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض ، فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازاً عن العدم والفتق عن الوجود (وخامسها) أن الليل سابق على النهار ، لقوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) وكانت السموات والأرض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى بإظهار النهار المبصر ، فإن قيل فأي الأقاويل أليق بالظاهر ؟ قلنا الظاهر يقتضي أن السماء على ماهي عليه ، والأرض على ما هي عليه كانتا رتقاً ، ولا يجوز كونهما كذلك إلا وهما موجودان ، والرتق ضد الفتق فاذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة ، وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحاً ، ويصير الوجه الأول أولى الوجوه ويتلوه الوجه الثاني . وهو أن كل واحد منهما كان رتقاً ففتقهما بأن جعل كل واحد منهما سبعاً ، ويتلوه الثالث وهو أنهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ، ففتقهما لينزل المطر من السماء ، ويظهر النبات على الأرض .

﴿ المسألة السادسة ﴾ دلالة هذه الوجوه على إثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة ، لأن أحداً لا يقدر على مثل ذلك ، والأقرب أنه سبحانه خلقهما رتقاً لما فيه من المصلحة للملائكة ، ثم لما أسكن الله الأرض أهلها جعلهما فتقاً لما فيه من منافع العباد .

﴿ النوع الثاني من الدلائل ﴾ قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف قوله : وجعلنا لايخلو إما أن يتعدى إلى واحد أو اثنين ، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله (والله خلق كل دابة من ماء) أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله (خلق الإنسان من عجل) وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لابد له منه ومن هذا نحو من

www.besturdubooks.wordpress.com

فى قوله عليه السلام « ماأنا من دد ولا الدد منى » وقرىء حياً وهو المفعول الثانى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان ، وقد قال (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وجاء فى الأخبار أن الله تعالى خلق الملائكة من النور وقال تعالى فى حق عيسى عليه السلام (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى) وقال فى حق آدم (خلقه من تراب) (والجواب) اللفظ وإن كان عاماً إلا أن القرينة المخصصة قائمة ، فان الدليل لابد وأن يكون مشاهداً محسوسا ليكون أقرب إلى المقصود ، وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام ، لأن الكفار لم يروا شيئاً من ذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله (كل شىء حى) الحيوان فقط ، وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صار نامياً وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر ، وهذا القول أليق بالمعنى المقصود ، كأنه تعالى قال (ففتقنا السماء) لإنزال المطر وجعلنا منه كل شىء فى الأرض من النبات وغيره حياً ، حجة القول الأول أن النبات لا يسمى حياً ، قلنا لانسلم والدليل عليه قوله تعالى (كيف يحيى الأرض بعد موتها) أما قوله تعالى (أفلا يؤمنون) فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذى لا يشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك .

﴿ النوع الثالث ﴾ قوله تعالى (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الأولى وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك فى قوله (لئلا يعلم أهل الكتاب) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الرواسى الجبال ، والراسى هو الداخل فى الأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن الأرض بسطت على الماء فكانت تتكفأ باهلها كما تتكفأ السفينة ، لأنها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال .

﴿ النوع الرابع ﴾ قوله تعالى (وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع ، فان قلت فى الفجاج معنى الوصف فمالها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى (لتسلكوا منها سبلا فجاجاً) قلت لم تقدم وهى صفة ، ولكنها جعلت حالا كقوله : لعزة موحشاً طلل قديم

والفرق من جهة المعنى أن قوله سبلا فجاجاً ، إعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقاً واسعة ، وأما قوله (فجاجاً سبلا) فهو إعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة ، فهذه الآية بيان لما أبهم فى الآية الأولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله فيها قولان (أحدهما) أنها عائدة إلى الجبال ، أى وجعلنا فى الجبال التى هى رواسى فجاجا سبلا ، أى طرقاً واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجاً وجعل فيها طرقاً (الثانى)

www.besturdubooks.wordpress.com

أنها عائدة إلى الأرض ، أى وجعلنا فى الأرض فجاجاً وهى المسالك والطرق وهو قول الكلبى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لعلهم يهتدون) معناه لكى يهتدوا إذ الشك لا يجوز على الله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى يهتدون قولان (الأول) ليهتدوا إلى البلاد (والثانى) ليهتدوا إلى وحدانية الله تعالى بالاستدلال ، قالت المعتزلة وهذا التأويل يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء . والكلام عليه قد تقدم ، وفيه قول ثالث وهو أن الإهتداء إلى البلاد والاهتداء إلى وحدانية الله تعالى يشتركان فى مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء . فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للأمرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا فى مفهوميه معاً .

﴿ النوع الخامس ﴾ قوله تعالى (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ سمى السماء سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى المحفوظ قولان (أحدهما) أنه محفوظ من الوقوع والسقوط الذين يجرى مثلهما على سائر السقوف كقوله (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) وقال (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) وقال تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وقال (ولا يؤوده حفظهما) . (الثانى) محفوظاً من الشياطين قال تعالى (وحفظناها من كل شيطان رجيم) ثم ههنا قولان (أحدهما أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثانى) أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين ، والقول الأول أقوى لأن حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما لأنه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثانى لأنه لا يخاف على على السماء من استراق سمع الجن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وهم عن آياتها معرضون) معناه عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر فى حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء عن أيتها على التوحيد والمراد الجنس أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون .

﴿ النوع السادس ﴾ قوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه سبحانه لما قال (وهم عن آياتها معرضون) فصل تلك الآيات ههنا لأنه تعالى لو خلق السماء والأرض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل إنما يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

ذلك بسبب حركاتها فى أفلاكها ، فلهذا قال (كل فى فلك يسبحون) وتقريره أن نقول قد ثبت بالأرصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ، ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة ، وههنا حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة ، واستدلوا عليه بأنا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة إذا قارن ماهو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جداً فإنه يظهر بعد الإجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعداً منها إلى أن يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقياً منه على طريقته فى ممر البروج يزداد كل ليلة قرباً منه ثم إذا أدركه ستره بطرفه الشرقى وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق ، وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب إلى المشرق . هذا ماقالوه ونحن خالفناهم فيه ، وقلنا إن ذلك محال لأن الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من المغرب إلى المشرق حركة بطيئة ولا شك أنها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب إلى المشرق لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين إلى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لأن الحركة إلى الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل إليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة إلى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال . فان قيل لم لا يجوز أن يقال الشمس حال حركتها إلى الجانب الشرقى تنقطع حركتها إلى الجانب الغربى وبالعكس ، وأيضاً فما ذكرتموه ينتقض بحركة الرحى إلى جانب والنملة التى تكون عليها تتحرك إلى خلاف ذلك الجانب . قلنا أما الأول فلا يستقيم على أصولكم لأن حركات الأفلاك مصونة عن الانقطاع عندكم ، وأما الثانى فهو مثال محتمل وما ذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان ، أما الذى احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب إلى المشرق فهو ضعيف ، فانه يقال لم لا يجوز أن يقال إن جميع الكواكب متحركة من المشرق إلى المغرب إلا أن بعضها أبطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك إلى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الأعظم استدارته من أول اليوم الأول إلى أول اليوم الثانى دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الأول إلى أول اليوم الثانى دورة تامة إلا مقدار ثانية فيظن أن فلك الثوابت تحرك من الجهة الأخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لأنه تخلف بمقدار ثانية ، وعلى هذا التقدير لجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا إلى أن ينتهى إلى فلك القمر فهو أبطأ الأفلاك حركة وهذا الذى قلناه مع مايشهد له البرهان المذكور فهو أقرب إلى ترتيب الوجود ، فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الأعظم

www.besturdubooks.wordpress.com

ونهاية السكون الجرم الذى هو فى غاية البعد وهو الأرض ، ثم إن كل ما كان أقرب إلى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا مانقوله فى حركات الأفلاك فى أطوالها وأما حركاتها فى عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها إلى الشمال والجنوب . إذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصاً ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه .وكان الذى يقرب منه متشابه الأحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة ، فان كانت حارة أفنت الرطوبات فأحالتها كلها إلى النارية ، وبالجملة فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون فى موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع أو خريف لايتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية ، وكان الكوكب يتحرك بطيئاً لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الإفراط ، وكان يعرض قريباً مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت ، وأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة فى جهة مدة ثم ينتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى فى كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصوناً عن طرفى الإفراط والتفريط . وبالجملة فالعقول لاتقف إلا على القليل من أسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه لايجوز أن يقول (وكل فى فلك يسبحون) إلا ويدخل فى الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولا فأنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفلك فى كلام العرب كل شىء دائر وجمعه أفلاك ، واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك ، وقال الأكثرون بل هى أجسام تدور النجوم عليها . وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن ، ثم اختلفوا فى كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه ، وقال الكلبى ماء مجموع تجرى فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لاتكون إلا فى الماء . قلنا لانسلم فانه يقال فى الفرس الذى يمد يديه فى الجرى سابح ، وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة إنها أجرام صلبة لاثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والإلتئام والنمو والذبول ، فأما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور فى الكتب اللائقة به ،والحق أنه لاسبيل إلى معرفة صفات السموات إلا بالخبر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف الناس فى حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه إما أن يكون الفلك ساكناً والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك فى الماء الراكد ، وإما أن يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه أيضاً إما مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لجهته إما

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

بحركة مساوية لحركة الفلك فى السرعة والبطء أو مخالفة ، وإما أن يكون الفلك متحركا والكوكب ساكناً ، أما الرأى الأول فقالت الفلاسفة إنه باطل لأنه يوجب خرق الأفلاك وهو محال ، وأما الرأى الثانى فحركة الكواكب إن فرضت مخالفة لحركة الفلك فذاك أيضاً يوجب الخرق وإن كانت حركتها إلى جهة الفلك فان كانت مخالفة لها فى السرعة والبطء لزم الانخراق وإن استويا فى الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضاً لازم لأن الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق إلا القسم الثالث وهو أن يكون الكوكب مغروزاً فى الفلك واقفاً فيه والفلك يتحرك فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك ، واعلم أن مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الأفلاك وهو باطل بل الحق أن الأقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذى يدل عليه لفظ القرآن أن تكون الأفلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة فى الماء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال صاحب الكشاف (كل) التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أى كلهم فى فلك يسبحون والله أعلم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ احتج أبو على بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله (يسبحون) قال والجمع بالواو والنون لا يكون إلا للعقلاء ، وبقوله تعالى (والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) ، (والجواب) إنما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت الجملة ما محلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر أو لا محل لها لاستئنافها فان قلت لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون فى فلك ؟ قلت هذا كقولهم كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً أى كل واحد منهم .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ، وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً ، أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

إعلم أنه سبحانه وتعالى لما استدل بالأشياء الستة التى شرحناها فى الفصل المتقدم وكانت تلك الأشياء من أصول النعم الدنيوية أتبعه بما نبه به على أن هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له ، بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان ، ولكى يتوصل بها إلى الآخرة التى هى دار الخلود .

فأما قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) قال مقاتل أن أناساً كانوا يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم لايموت فنزلت هذه الآية (وثانيها) كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أى قضى الله تعالى أن لا يخلد فى الدنيا بشراً فلا أنت ولاهم إلا عرضة للموت أفائن مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفى معناه قول القائل :

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

(وثالثها) يحتمل أنه لما ظهر أنه عليه السلام خاتم الأنبياء جاز أن يقدر مقدر أنه لا يموت إذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على أن حاله كحال غيره من الأنبياء عليهم السلام فى الموت .

أما قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ أن هذا العموم مخصوص فانه تعالى نفس لقوله (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) مع أن الموت لا يجوز عليه وكذا الجمادات لها نفوس وهى لاتموت ، والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الأشياء ، وذلك يبطل قول الفلاسفة فى أن الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لاتموت (والثانى) الذوق ههنا لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأن الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق إدراك خاص فيجوز جعله مجازاً عن أصل الإدراك ، وأما الموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لأن الموت قبل دخوله فى الوجود يمتنع إدراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتاً والميت لايدرك شيئاً (والثالث) الإضافة فى ذائقة الموت فى تقدير الانفصال لأنه لما يستقبل كقوله (غير محلى الصيد، وهدياً بالغ الكعبة) .

أما قوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الابتلاء لا يتحقق إلا مع التكليف ، فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على أنه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وإن كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين : (أحدهما) ماسماه خيراً وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات (والثانى) ماسماه شراً وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين ، فبين تعالى أن العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين ، لكى يشكر على المنح ويصبر فى المحن ، فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العالمين قبل وجودهم

www.besturdubooks.wordpress.com

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن

لأنه فى صورة الاختبار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ حتجت التناسخية بقوله (وإلينا ترجعون) فإن الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه (والجواب) أنه مذكور مجازاً .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ المراد من قوله (وإلينا ترجعون) أنهم يرجعون إلى حكمه ومحاسبته ومجازاته ، فبين بذلك بطلان قولهم فى نفى البعث والمعاد ، واستدلت التناسخية بهذه الآية ، وقالوا إن الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه ، وقد كنا موجودين قبل دخولنا فى هذا العالم واستدلت المجسمة بأنا أجسام ، فرجوعنا إلى الله تعالى يقتضى كون الله تعالى جسما (والجواب) عنه قد تقدم فى مواضع كثيرة .

أما قوله تعالى (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزؤاً)قال السدى ومقاتل نزلت هذه الآية فى أبى جهل مر به النبى ﷺ وكان أبو سفيان مع أبى جهل ، فقال أبو جهل لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف ، فقال أبو سفيان : وما تنكر أن يكون نبياً فى بنى عبد مناف . فسمع النبى ﷺ قولهما فقال لأبى جهل : « ماأراك تنتهى حتى ينزل بك ماانزل بعمك الوليد بن المغيرة ، وأما أنت ياأبا سفيان : فإنما قلت ماقلت حمية » فنزلت هذه الآية ، ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله (أهذا الذى يذكر آلهتكم) والذكر يكون بخير وبخلافه ، فاذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل سمعت فلاناً يذكرك ، فان كان الذاكر صديقاً فهو ثناء ، وإن كان عدواً فهو ذم ، ومنه قوله تعالى(سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم)والمعنى أنه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها .

وأما قوله تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) فالمعنى أنهم يعيبون عليه ذكر آلهتهم التى لاتضر ولا تنفع بالسوء ، مع (أنهم بذكر الرحمن) الذى هو المنعم الخالق المحيى المميت(كافرون) ولا فعل أقبح من ذلك ، فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لايشعرون ، ويحتمل أن يراد (بذكر الرحمن) القرآن والكتب ، والمعنى فى أعادتهم أن الأولى إشارة إلى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل ، والثانية إبانة لاختصاصهم به ، وأيضاً فان فى أعادتها تأكيداً وتعظيما لفعلهم

قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم

www.besturdubooks.wordpress.com

وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

ولاهم ينصرون ، بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولاهم ينظرون ، ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزءون ﴾

أما قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى المراد من الانسان قولان (أحدهما) أنه النوع (والثانى) أنه شخص معين (أما القول الأول) فتقريره أنهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار (ويقولون متى هذا الوعد) فأراد زجرهم عن ذلك ، فقدم أولا ذم الانسان على إفراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : لا يبعد منكم أن تستعجلوا فانكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم ، فان قيل مقدمة الكلام لابد وأن تكون مناسبة للكلام ، وكون الانسان مخلوقاً من العجل يناسب كونه معذوراً فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله (فلا تستعجلون) قلنا لأن العائق كلما كان أشد ، كانت القدرة على مخالفته أكمل ، فكأنه سبحانه نبه بهذا على أن ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها (أما القول الثانى) وهو أن المراد شخص معين فهذا فيه وجهان(أحدهما) أن المراد آدم عليه السلام ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى والكلبى ومقاتل والضحاك ، وروى ابن جريج وليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شيء من آخر نهار الجمعة ، فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله ، قال يارب استعجل خلقى قبل غروب الشمس ، قال ليث . فذلك قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) وعن السدى لما نفخ فيه الروح فدخل فى رأسه عطس ، فقالت له الملائكة : قل الحمد لله . فقال ذلك . فقال الله له : يرحمك ربك . فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، ولما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه إلى ثمار الجنة . وهذا هو الذى أورث أولاده العجلة ، (وثانيهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء : نزلت هذه الآية فى النضر بن الحرث والمراد بالانسان هو ، واعلم أن القول الأول أولى لأن الغرض ذم القوم ، وذلك لا يحصل إلا إذا حملنا لفظ الانسان على النوع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من المفسرين من أجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها ، أما الاولون فلهم فيها أقوال (أحدها) قول المحققين وهو أن قوله (خلق الانسان من عجل) أى خلق

www.besturdubooks.wordpress.com

عجولا ، وذلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكى : هو نار تشتعل ، والعرب قد تسمى المرء بما يكثر منه فتقول : ماأنت إلا أكل ونوم ، وما هو إلا إقبال وإدبار ، قال الشاعر :

أما إذا ذكرت حتى إذا غفلت فإنما هى إقبال وإدبار

وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى (وكان الانسان عجولا) قال المبرد : (خلق الانسان من عجل) أى من شأنه العجلة كقوله (خلقكم من ضعف) أى ضعفاء (وثانيها) قال أبو عبيد : العجل الطين بلغة حمير وأنشدوا : والنخل ينبت بين الماء والعجل

(وثالثها) قال الأخفش : (من عجل) أى من تعجيل من الأمر وهو قوله كن (ورابعها) من عجل ، أى من ضعف عن الحسن . ما الذين قلبوها فقالوا المعنى : خلق العجل من الانسان ، كقوله (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى تعرض النار عليهم والقول الأول أقرب إلى الصواب وأبعد الأقوال هذا القلب لأنه إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب ، وأيضاً فإن قوله خلقت العجلة من الإنسان فيه وجوه من المجاز . فما الفائدة فى تغيير النظم الى ما يجرى مجراه فى المجاز .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ لقائل أن يقول القوم استجعلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة . قلنا استعجالهم على هذا الوجه أدخل فى الذم لأنه إذا ذم المرء استعجال الأمر المعلوم فبأن يذم على استعجال مالا يكون معلوماً له كان أولى ، وأيضاً فان استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين فى الحقيقة .

أما قوله تعالى (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) فقد اختلفوا فى المراد بالآيات على أقوال : (أحدها) أنها هى الهلاك المعجل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، ولذلك قال (فلا تستعجلون) أى أنها ستأتى لا محالة فى وقتها (وثانيها) أنها أدلة التوحيد وصدق الرسول (وثالثها) أنها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والأول أقرب إلى النظم .

أما قوله تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فاعلم أن هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله (ويستعجلونك بالعذاب ولو لا أجل مسمى لجاءهم العذاب) فبين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ، ثم إنه سبحانه ذكر فى رفع هذا الحزن عن قلب رسول الله ﷺ وجهين : (الأول) بأن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون) قال صاحب الكشاف : جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أى لو يعلمون الوقت الذى يسألون عنه بقولهم (متى هذا الوعد) وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون أيضا ناصراً ينصرهم لقوله تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

(فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم وإنما حسن حذف الجواب لأن ما تقدم يدل عليه ، وهذا أبلغ ومثله : (ولو يرى الذين ظلموا ، ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا ، ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) وإنما خص الوجوه والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعاً ولكثرة ما يستعمل ذكرهما فى دفع المضرة عن النفس ثم إنه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين أن وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لأمرها مستعدين فتبهتهم أى تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة فى ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفا ولا هم ينظرون أى لا يمهلون لتوبة ولامعذرة ، واعلم أن الله تعالى إنما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لأن المرء مع كتمان ذلك أشد حذراً وأقرب إلى التلافى ، ثم إنه سبحانه ذكر (الوجه الثانى) فى دفع الحزن عن قلب رسوله فقال (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزءون) والمعنى (ولقد استهزئ برسل من قبلك) يا محمد كما استهزأ بك قومك (فحاق) أى نزل (وأحاط بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزءون) أى عقوبة استهزائهم وحاق وحق بمعنى كزال وزل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم .

قوله تعالى : ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم فى الدنيا أيضاً لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال لرسوله قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزءون ويغترون بما هم عليه (من يكلؤكم بالليل والنهار) وهذا كقول الرجل لمن حصل فى قبضته ولا مخلص له منه إلى أين مفرك منى هل لك محيص عنى والكالىء الحافظ

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما قوله (من الرحمن) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى معناه وجوه : (أحدها) (من يكلؤكم من الرحمن) أى مما يقدر على إنزاله بكم من عذاب تستحقونه , وثانيها) من بأس الله فى الآخرة (وثالثها) من القتل والسبى وسائر ما أباحه الله لكفرهم فبين سبحانه أنه لاحافظ لهم ولا دافع عن هذه الأمور لو أنزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما متعوا بالدنيا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما خص ههنا إسم الرحمن بالذكر تلقيناً للجواب حتى يقول العاقل أنت الكالىء يا إلهنا لكل الخلائق برحمتك ، كما فى قوله (ماغرك بربك الكريم) إنما خص إسم الكريم بالذكر تلقيناً للجواب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما ذكر الليل والنهار لأن لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل إذا نمتم وبالنهار إذا تصرفتم فى معايشكم .

أما قوله (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) فالمعنى أنه تعالى مع إنعامه عليهم ليلا ونهاراً بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذى هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون فى شىء منها ليعرفوا أنه لا كالىء لهم سواه ويتركون عبادة الأصنام التى لاحظ لها فى حفظهم ولا فى الإنعام عليهم .

أما قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لايستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون) فاعلم أن الميم صلة يعنى ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا ، والتقدير ألهم آلهة من تمنعهم . وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) وهذا خبر مبتدأ محذوف أى فهذه الآلهة لاتستطيع حماية أنفسها عن الآفات ، وحماية النفس أولى من حماية الغير . فإذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها ، وفى قوله (ولاهم منا يصحبون) قولان : (الأول) قال المازنى أصحبت الرجل إذا منعته فقوله (ولاهم منا يصحبون) من ذلك لامن الصحبة (الثانى) أن الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلها سواء فى المعنى يقال صحبك الله ونصرك الله ويقال للمسافر فى صحبة الله وفى حفظ الله فالمعنى ولاهم منا فى نصرة ولا إعانة . والحاصل أن من لايكون قادراً على دفع الآفات ولا يكون مصحوباً من الله بالإعانة ، كيف يقدر على شىء ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) يعنى ما حملهم على الإعراض إلا الإغترار بطول المهلة ، يعنى طالت أعمارهم فى الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع مواقع نعمتنا واغتروا بذلك .

أما قوله تعالى (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها) فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا فى إتيان الأرض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة ونزيدها فى ملك محمد ﷺ ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ بنا حاسبين «٤٧»

وننقص من الشرك بإهلاك أهله أما كان لهم فى ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله ﷺ ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من الله وإرادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم قال (أفهم الغالبون) أى فهؤلاء هم الغالبون أم نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام فى هذه الآية فى سورة الرعد . وفى تفسير النقصان وجوه (أحدها) قال ابن عباس ومقاتل والكلبي رضى الله عنهم ننقصها بفتح البلدان (وثانيها) قال ابن عباس فى رواية أخرى يريد نقصان أهلها وبركتها (وثالثها) قال عكرمة تخريب القرى عند موت أهلها (ورابعها) بموت العلماء وهذه الرواية إن صحت عن رسول الله ﷺ فلا يعدل عنها وإلا فالأظهر من الأقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال (أفهم الغالبون) والذى يليق بذلك أنه ينقصها عنهم ويزيدها فى بلاد الإسلام ، قال القفال نزلت هذه الآية فى كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى أن كل ذلك من العبر التى لو استعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون . ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين . ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾

اعلم أنه سبحانه لما كرر فى القرآن الأدلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله (قل إنما أنذركم بالوحى) أى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا أن ذلك من قبلى بل الله آتيكم به وأمرنى بإنذاركم فاذا قمت بما ألزمنى ربى فلم يقع منكم القبول والإجابة فالوبال عليكم يعود ، ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من إنذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون أصلا إذ الغرض بالإنذار ليس السماع بل التمسك به فى إقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق . فاذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع . قال صاحب الكشاف قرىء ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء والياء أى لا تسمع أنت أو لا يسمع رسول الله أو لا يسمع الصم من أسمع ، فان قلت الصم لا تسمع دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر . فكيف قال إذا ما ينذرون ؟ قلت اللام فى الصم

www.besturdubooks.wordpress.com

إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس ، والأصل ولا يسمعون الدعاء إذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا أنذروا أى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام عن آيات الانذار .ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير إلى أن يصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون وهذا هو المراد بقوله (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) وأصل النفح من الريح اللينة والمعنى ولئن مسهم شيء قليل من عذاب الله كالرائحة من الشيء دون جسمه لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم . قال صاحب الكشاف فى المس والنفحة ثلاث مبالغات لفظ المس وما فى النفح من معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح يسير ونفحه بعطية رضخه ، ولفظ المرة .ثم بين سبحانه وتعالى أن جميع ماينزل بهم فى الآخرة لا يكون إلا عدلا فهم وإن ظلموا أنفسهم فى الدنيا فلن يظلموا فى الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى (ونضع الموازين القسط) وصفها الله تعالى بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه ، فبين أن تلك الموازين تجرى على حد العدل والقسط ، وأكد ذلك بقوله (فلا تظلم نفس شيئاً) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى وضعها إحضارها قال الفراء القسط صفة الموازين وإن كان موحداً وهو كقولك للقوم أنتم عدل ، وقال الزجاج ونضع الموازين ذوات القسط وقوله (ليوم القيامة) قال الفراء فى يوم القيامة وقيل لأهل يوم القيامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى وضع الموازين قولان (أحدهما) قال مجاهد هذا مثل والمراد بالموازين العدل ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم فى الأعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه يعنى أن حسناته تذهب بسيئاته ومن أحاطت سيئاته بحسناته (فقد خفت موازينه) أى أن سيئاته تذهب بحسناته ، حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما (الثانى) وهو قول أئمة السلف أنه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الأعمال ،وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد جبريل عليه السلام ويروى « أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشى عليه ، فلما أفاق قال يا إلهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات ، فقال يا داود إنى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة» ثم على هذا القول فى كيفية وزن الأعمال طريقان (أحدهما) أن توزن صحائف الأعمال (والثانى) يجعل فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل أهل القيامة إما أن يكونوا عالمين بكونه سبحانه وتعالى عادلا غير ظالم أو لا يعلمون ذلك . فان علموا ذلك كان مجرد حكمه كافياً فى معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيئات فلا يكون فى وضع الميزان فائدة البتة ، وإن لم يعلموا لم تحصل الفائدة فى وزن الصحائف لاحتمال أنه سبحانه جعل إحدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلماً فثبت أن وضع الميزان على كلا التقديرين خال عن الفائدة . وجوابه على قولنا قوله تعالى (لا يسأل

www.besturdubooks.wordpress.com

عما يفعل وهم يسألون) وأيضاً ففيه ظهور حال الولى من العدو فى مجمع الخلائق ، فيكون لأحد القبيلين فى ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم ، ويكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره . إذا ثبت هذا فنقول : الدليل على وجود الموازين الحقيقية أن حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة غير جائز ، لا سيما وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بالأسانيد الصحيحة فى هذا الباب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال قوم إن هذه الآية يناقضها قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) (والجواب) أنه لا يكرمهم ولا يعظمهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو جمع تفخيم ، ويجوز أن يرجع إلى الموزونات .

أما قوله تعالى (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) فالمعنى أنه لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسيء ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (مثقال حبة) على كان التامة كقوله تعالى (وإن كان ذو عسرة) وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما (آتينا بها) وهى مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء ، وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب ، وفى حرف أبى جئنا بها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم أنث ضمير المثقال ؟ قلنا لاضافته إلى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ زعم الجبائى أن من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزءاً من الثواب فهذا الأقل ينحبط بالأكثر ويبقى الأكثر كما كان . واعلم أن هذه الآية تبطل قوله لأن الله تعالى تمدح بأن اليسير من الطاعة لا يسقط ولو كان الأمر كما قال الجبائى لسقطت الطاعة من غير فائدة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة قوله (فلا تظلم نفس شيئاً) فيه دلالة على أن مثل ذلك لو ابتدأه الله تعالى لكان قد ظلم ، فدل هذا الوجه على أنه تعالى لا يعذب من لا يستحق ولا يفعل المضار فى الدنيا إلا للمنافع والمصالح (والجواب) الظلم هو التصرف فى ملك الغير وذلك فى حق الله تعالى محال لأنه المالك المطلق ، ثم الذى يدل على استحالة الظلم عليه عقلا أن الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحالين على الله تعالى ومستلزم المحال محال ، فالظلم على الله تعالى محال . وأيضاً فان الظالم سفيه خارج عن الإلهية فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الإلهية ، فحينئذ يكون كونه إلها من الجائزات لا من الواجبات ، وذلك يقدح فى إلهيته .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إن قيل الحبة أعظم من الخردلة ، فكيف قال حبة من خردل ؟ قلنا : الوجه فيه أن تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار . والغرض المبالغة فى أن شيئاً من الأعمال صغيراً كان أو كبيراً غير ضائع عند الله تعالى .

أما قوله تعالى (وكفى بنا حاسبين) فالغرض منه التحذير فان المحاسب إذا كان فى العلم بحيث

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ له منكرون «٥٠»

لا يمكن أن يشتبه عليه شيء ، وفى القدرة بحيث لا يعجز عن شيء ، حقيق بالعاقل أن يكون فى أشد الخوف منه ، ويروى عن الشبلى رحمه الله تعالى أنه رئى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال :

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ، وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع فى قصص الأنبياء عليهم السلام ، تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر ههنا منها قصصاً .

﴿ القصة الأولى ، قصة موسى عليه السلام ﴾

ووجه الإتصال أنه تعالى لما أمر رسوله ﷺ أن يقول (إنما أنذركم بالوحى) أتبعه بأن هذه عادة الله تعالى فى الأنبياء قبله فقال (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين) واختلفوا فى المراد بالفرقان على أقوال (أحدها) أنه هو التوراة ، فكان فرقاناً إذ كان يفرق به بين الحق والباطل ، وكان ضياء إذ كان لغاية وضوحه يتوصل به إلى طرق الهدى وسبل النجاة فى معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع ، وكان ذكرى أى موعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه فى دينهم ومصالحهم أو الشرف أما الواو فى قوله (وضياء) فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان ، وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى للمتقين . والمعنى أنه فى نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى[1] (القول الثانى) أن المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه : (أحدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما الفرقان هو النصر الذى أوتى موسى عليه السلام كقوله (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) يعنى يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الأديان الباطلة

---

(١) رسمت فى الأصل (ذكرى) هكذا بالياء وجاء رسمها فى المصحف (وذكراً) بالتنوين وقد جرى المصنف على تفسيرها بالذكرى لا بالذكر . لهذا فاننا أثبتناها فى الآيات (ذكراً) متابعة لرسم المصحف . وأثبتناها فى التفسير (ذكرى) متابعة للتفسير ، ولعل المفسر رحمه الله جرى على قراءة غير قراءة حفص المشهورة بيننا . والله أعلم وأحكم .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ اللّاعبينَ «٥٥»

(وثانيها) هو البرهان الذى فرق به دين الحق عن الأديان الباطلة عن ابن زيد (وثالثها) فلق البحر عن الضحاك (ورابعها الخروج عن الشبهات . قال محمد بن كعب واعلم أنه تعالى إنما خصص الذكرى بالمتقين لما فى قوله (هدى للمتقين) أما قوله تعالى (الذين يخشون ربهم بالغيب) فقال صاحب الكشاف محل الذين جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه وفى معنى الغيب وجوه (أحدها) يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه وإيمانهم بالله غيبي استدلالى ، فالعباد يعملون لله فى الغيب والله لا يغيب عنه شىء عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها (وثالثها) يخشون ربهم فى الخلوات إذا غابوا عن الناس وهذا هو الأقرب ، والمعنى أن خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم إلا أن ذلك مما يظهرونه فى الملا دون الخلا (وهم من) عذاب (الساعة) وسائر ما يجرى فيها من الحساب والسؤال (مشفقون) فيعدلون بسبب ذلك الإشفاق عن معصية الله تعالى . ثم قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك وهو معنى قوله (وهذا ذكر مبارك) بركته كثرة منافعه وغزارة علومه وقوله (أفأنتم له منكرون) فالمعنى انه لا إنكار فى إنزاله وفى عجائب ما فيه فقد آتينا موسى وهرون التوراة ، ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الأدلة العقلية وبيان الشرائع ، فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم إنكاره .

﴿ القصة الثانية ، [قصة] إبراهيم عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾

إعلم أن قوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الرشد قولان (الأول) أنه النبوة واحتجوا عليه بقوله (وكنا به عالمين) قالوا لأنه تعالى إنما يخص بالنبوة من يعلم من حاله أنه فى المستقبل يقوم بحقها ويجتنب

www.besturdubooks.wordpress.com

مالا يليق بها ويحترز عما ينفر قومه من القبول (والثانى) أنه الاهتداء لوجوه الصلاح فى الدين والدنيا قال تعالى (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) وفيه قول (ثالث) وهو أن تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد إذ لايجوز أن يبعث نبى إلا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضاً على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا فى أن الإيمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فانه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم . أجاب الكعبى بأن هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد ، وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمره ورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه . فيقال أغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ، ولا يقال مثله فيمن ضيع (والجواب عنه) هذا الجواب لايتم إلا إذا جعلنا قبوله جزءاً من مسمى الرشد وذلك باطل ، لأن المسمى إذا كان مركباً من جزأين ولا يكون أحدهما مقدور الفاعل لم يجز إضافة ذلك المسمى إلى ذلك الفاعل فكان يلزم أن لايجوز إضافة الرشد إلى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهوقوله (ولقد آتينا إبراهيم رشده) صريح فى أن ذلك الرشد إنما حصل من الله تعالى فبطل ماقالوه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء رشده كالعدم والعدم ، ومعنى إضافته إليه أنه رشد مثله وأنه رشد له شأن .

أما قوله تعالى (من قبل) ففيه وجوه (أحدها) آتينا إبراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جرير (وثانيها) فى صغره قبل بلوغه حين كان فى السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها . وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء وإلا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل (وثالثها) يعنى حين كان فى صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك .

أما قوله تعالى (وكنا به عالمين) فالمراد أنه سبحانه علم منه أحوالا بديعة وأسراراً عجيبة وصفات قد رضيها حتى أهله لأن يكون خليلا له ، وهذا كقولك فى رجل كبير أنا عالم بفلان فان هذا الكلام فى الدلالة على تعظيمه أدل مما إذا شرحت جلال كماله .

أما قوله تعالى (إذ قال لأبيه وقومه) فقال صاحب الكشاف : إذ إما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف أى اذكر من أوقات رشده هذا الوقت .

أما قوله (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التمثال اسم للشىء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله تعالى ، وأصله من مثلت الشىء بالشىء إذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن القوم كانوا عباد أصنام على صور مخصوصة كصورة الانسان أو غيره ، فجعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم .

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ
جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف لم ينو للعا كفين مفعولا وأجراه مجرى ما لا يتعدى كقولك فاعلون للعكوف أو واقفون لها ، قال فان قلت هلا قيل عليها عاكفون كقوله (يعكفون على أصنام لهم) ؟ قلت : لو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي على .

أما قوله (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فاعلم أن القوم لم يجدوا في جوابه إلا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد النكير لأنهم إذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضاً سلكوا هذا الطريق فلا جرم أجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله (لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) فبين أن الباطل لا يصير حقاً بسبب كثرة المتمسكين به ، فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصاً ورأوه ثابتاً على الانكار قوى القلب فيه وكانوا يستبعدون أن يجرى مثل هذا الانكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمذهبهم ، فعند ذلك قالوا له (أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) موهمين بهذا الكلام أنه يبعد أن يقدم على الإنكار عليهم جاداً في ذلك فعنده عدل صلى الله عليه وسلم إلى بيان التوحيد .

قوله تعالى : ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾

إعلم أن القوم لما أوهموا أنه إنما يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به أنه مجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد وذلك بالقول أولا وبالفعل ثانياً ، أما الطريقة القولية فهي قوله (بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن) وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقها لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد لأن من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الآخرة بالعقاب والثواب . فيرجع حاصل هذه الطريقة إلى الطريقة التي ذكرها لأبيه في قوله (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً) قال صاحب الكشاف الضمير في فطرهن للسموات والأرض أو للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل في الاحتجاج عليهم .

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله (وأنا على ذلكم من الشاهدين) ففيه وجهان (الأول) أن المقصود منه المبالغة فى التأكيد والتحقيق كقول الرجل إذا بالغ فى مدح أحد أو ذمه أشهد أنه كريم أو ذميم . (والثانى) أنه عليه السلام عنى بقوله (وأنا على ذلكم من الشاهدين) ادعاء أنه قادر على إثبات ماذكره بالحجة ، وأنى لست مثلكم فأقول مالا أقدر على إثباته بالحجة ، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم ، وأما الطريقة الفعلية فهى قوله (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) فان القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة فى عبادتها ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : قرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه وبالله ، وقرىء تولوا بمعنى تتولوا ويقويها قوله (فتولوا عنه مدبرين) فان قلت : ماالفرق بين الباء والتاء ؟ قلت إن الباء هى الأصل والتاء بدل من الواو المبدل منها والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إن قيل لماذا قال (لأكيدن أصنامكم) والكيد هو الإحتيال على الغير فى ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى فى الأصنام (وجوابه) قال ذلك توسعاً لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها ، وقيل المراد لأكيدنكم فى أصنامكم لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى كيفية أول القصة وجهان : (أحدهما) قال السدى كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان هذا الوقت قال آزر : لإبراهيم عليه السلام لو خرجت معنا لخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إنى سقيم أشتكى رجلى فلما مضوا وبقى ضعفاء الناس نادى وقال (تالله لأكيدن أصنامكم) واحتج هذا القائل بقوله تعالى (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم)(وثانيها) قال الكلبى كان إبراهيم عليه السلام من أهل بيت ينظرون فى النجوم وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلا مريضاً فلما هم إبراهيم بالذى هم به من كسر الأصنام نظر قبل يوم العيد إلى السماء فقال لأصحابه أرانى أشتكى غداً فذلك قوله (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) وأصبح من الغد معصوباً رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال : أما والله لأكيدن أصنامكم ، وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم إن ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر ذلك فى جماعة فلذلك قال تعالى (قالوا سمعنا فتى يذكرهم) واعلم أن كلا الوجهين ممكن . ثم تمام القصة أن إبراهيم عليه السلام لما دخل بيت الأصنام وجد سبعين صنما مصطفة ، وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان فى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسرها كلها بفأس فى يده حتى لم يبق إلا الكبير ، ثم علق الفأس فى عنقه .

أما قوله تعالى (فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الاولى ﴾ . إن قيل لم قال (فجعلهم جذاذاً) وهذا جمع لا يليق إلا بالناس (جوابه) من حيث اعتقدوا فيها أنها كالناس فى أنها تعظم ويتقرب اليها ، ولعل كان فيهم من يظن أنها تضر وتنفع .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف جذاذاً قطعاً من الجذ وهو القطع ، وقرىء بالكسر والفتح وقرىء جذذاً جمع جذيذ وجذذاً جمع جذة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قيل مامعنى (إلا كبيراً) لهم قلنا يحتمل الكبير فى الخلقة ويحتمل فى التعظيم ويحتمل فى الأمرين .

وأما قوله (لعلهم إليه يرجعون) فيحتمل رجوعهم إلى إبراهيم عليه السلام ، ويحتمل رجوعهم إلى الكبير (أما الأول) فتقريره من وجهين : (الأول) أن المعنى أنهم لعلهم يرجعون إلى مقالة إبراهيم ويعدلون عن الباطل (والثانى) أنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فيبكتهم بما أجاب به من قوله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم) أما إذا قلنا الضمير راجع إلى الكبير ففيه وجهان : (الأول) أن المعنى لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم فى حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحاً والفأس على عاتقك . وهذا قول الكلبى ، وإنما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تجيب وتتكلم (والثانى) أنه عليه السلام قال ذلك مع علمه أنهم لايرجعون إليه استهزاء بهم ، وإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع اليه فى حل المشكلات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إن قيل أولئك الأقوام إما أن يقال إنهم كانوا عقلاء أوماكانوا عقلاء . فان كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة أن تلك الأصنام لاتسمع ولاتبصر ولاتنفع ولاتضر ، فأى حاجة فى إثبات ذلك إلى كسرها ؟ أقصى مافى الباب أن يقال القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب ، وكسرها لايقدح فى كونها معظمة من هذا الوجه . وإن قلنا إنهم ماكانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل اليهم (الجواب) أنهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة أنها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تماثيل الكواكب وأنها طلسمات موضوعة بحيث أن كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد ، ثم إن إبراهيم عليه السلام كسرها مع أنه ما ناله منها البتة ضرر فكان فعله دالا على فساد مذهبهم من هذا الوجه .

أما قوله تعالى (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أى [أن] من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود فى الظلمة إما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والإعظام ، وإما لأنهم رأوا إفراطاً فى كسرها وتمادياً فى الاستهانة بها .

أما قوله تعالى (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزجاج ارتفع ابراهيم على وجهين : (أحدهما) على معنى يقال هو ابراهيم (والثانى) على النداء على معنى يقال له يا ابراهيم ، قال صاحب الكشاف والصحيح أنه فاعل يقال لأن المراد الإسم دون المسمى .

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ «٦٧»

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ ظاهر الآية يدل على أن القائلين جماعة لا واحد ، فكأنهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله فى آلهتهم فغلب على قلوبهم أنه الفاعل ولو لم يكن إلا قوله ما هـــذه التماثيل إلى غير ذلك لكفى .

قوله تعالى : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

إعلم أن القوم لما شاهدوا كسر الأصنام ، وقيل إن فاعله إبراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم (فاتوا به على أعين الناس) قال صاحب الكشاف على أعين الناس فى محل الحال أى فأتوا به مشاهداً أى بمرأى منهم ومنظر ، فان قلت : مامعنى الاستعلاء فى على ؟ قلت : هو وارد على طريق المثل أى يثبت إتيانه فى الأعين ثبات الراكب على المركوب . أما قوله تعالى (لعلهم يشهدون) ففيه وجهان : (أحدهما) أنهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فأرادوا أن يجيئوا به على أعين النـاس لعلهم يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل . وهذا قول الحسن وقتادة والسدى وعطاء وابن عباس رضى الله عنهم (وثانيهما) وهو قول محمد بن اسحق أى يحضرون فيبصرون ما يصنع به فيـكون ذلك زاجراً لهم عن الاقدام على مثل فعله ، وفيه (قول ثالث) وهو قول مقاتل والكلبى أن المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه .

أما قوله تعالى (قالوا أأنت فعلت هذا) فاعلم أن فى الكلام حذفاً ، وهو : فأتوا به وقالوا أأنت

www.besturdubooks.wordpress.com

فعلتم ، طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه ، فظهر منه ما انقلب الأمر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه . فقال (بل فعله كبيرهم هذا) وقد علق الفأس على رقبته لكي يورد هذا القول فيظهر جهلهم فى عبادة الأوثان ، فإن قيل قوله : بل فعله كبيرهم كذب (والجواب) للناس فيه قولان (أحدهما) وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب ، وذكروا فى الاعتذار عنه وجوهاً (أحدها) أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتاباً بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط ، أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لايحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له بل كتبته أنت ، كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لانفيه عنك وإثباته للأمى أو المخرمش ، لأن إثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به وإثبات للقادر (وثانيها) أن إبراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة ، وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو السبب فى استهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه (وثالثها) أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم : ماتنكرون أن يفعله كبيرهم ، فإن من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه . وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف (ورابعها) أنه كناية عن غير مذكور ، أى فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا (وخامسها) أنه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسألوهم ، والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم (وسادسها) أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطاً بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين (وسابعها) قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم أى فلعل الفاعل كبيرهم (القول الثانى) وهو قول طائفة من أهل الحكايات ، أن ذلك كذب واحتجوا بما روى عن النبى ﷺ أنه قال « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها فى ذات الله تعالى ، قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله لسارة هى أختى » وفى خبر آخر « أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال : إنى كذبت ثلاث كذبات » ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب ليس قبيحاً لذاته ، فان النبى عليه السلام إذا هرب من ظالم واختفى فى دار إنسان ، وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه ، وإذا كان كذلك فأى بعد فى أن يأذن الله تعالى فى ذلك لمصلحة لايعرفها إلا هو ، واعلم أن هذا القول مرغوب عنه . أما الخبر الأول وهو الذى رووه فلأن يضاف الكذب إلى رواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه ، فلنجوز هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

الاحتمال فى كل ما أخبروا عنه ، وفى كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها ، ثم إن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب »

فأما قوله تعالى (إنى سقيم) فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجىء فى موضعه .

وأما قوله (بل فعله كبيرهم) فقد ظهر الجواب عنه .

أما قوله لسارة : إنها أختى ، فالمراد أنها أخته فى الدين ، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق .

أما قوله تعالى (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) ففيه وجوه (الأول) أن إبراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم تنبهوا فعلموا أن عبادة الأصنام باطلة ، وأنهم على غرور وجهل فى ذلك (والثانى) قال مقاتل : فرجعوا إلى أنفسهم فلاموها وقالوا إنكم أنتم الظالمون لإبراهيم حيث تزعمون أنه كسرها مع أن الفأس بين يدى الصنم الكبير (وثالثها) المعنى أنكم أنتم الظالمون لأنفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزىء بكم فى الجواب ، والأقرب هو الأول .

أما قوله تعالى (ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فقال صاحب الكشاف نكسه قلبه فجعل أسفله أعلاه وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى المعنى وجوه (أحدها) أن المراد استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة ، فأخذوا [فى] المجادلة بالباطل وأن هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة (وثانيها) قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلا وانكساراً وانخذالا مما بهتهم به إبراهيم فما أحاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم . (وثالثها) قال ابن جرير ثم نكسوا على رؤوسهم فى الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم . أى قلبوا فى الحجة واحتجوا على إبراهيم بما هو الحجة لإبراهيم عليهم ، فقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فأقروا بهذه للحيرة التى لحقتهم ، قال والمعنى نكست حجتهم فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما لم يسم فاعله ، أى نكسوا أنفسهم على رؤوسهم وهى قراءة رضوان بن عبد المعبود .

أما قوله تعالى (قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فالمعنى ظاهر قال صاحب الكشاف أف صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر ، وإن إبراهيم عليه السلام أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم ، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . ثم يحتمل أنه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله . ويحتمل أنه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وإن لم يعقلوا . وهذا هو الأقرب لقوله

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ «٧١»

(أفتعبدون) ولقوله (أفلا تعقلون) .

قوله تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما بين ما أظهره إبراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وإبطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل أتبعه بما يدل على جهلهم ، وأنهم (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ليس فى القرآن من القائل لذلك والمشهور أنه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح ، وقال مجاهد سمعت ابن عمر يقول إنما أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس ، وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائى قال : إن الذى قال حرقوه رجل اسمه هيزن ، فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أما كيفية القصة فقال مقاتل : لما اجتمع نمروذ وقومه لإحراق إبراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة ، وذلك قوله (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى أن المرأة لو مرضت قالت : إن عافانى الله لأجمعن حطباً لإبراهيم ، ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوماً ، فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير فى أقصى الهواء لاحترق ، ثم أخذوا إبراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ، ثم اتخذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيداً مغلولا ، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة إلا الثقلين صيحة واحدة ، أى ربنا ليس فى أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم ، وإنه يحرق فيك فأذن لنا فى نصرته ، فقال سبحانه : إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه ، وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بينى وبينه ، فلما أرادوا إلقاءه فى النار ، أتاه خازن الرياح فقال : إن شئت طيرت النار فى الهواء . فقال إبراهيم عليه السلام : لاحاجة بى إليكم ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : «اللهم أنت الواحد فى السماء ، وأنا الواحد فى الأرض ، ليس فى الارض أحد يعبدك غيرى ، أنت حسبنا ونعم الوكيل » وقيل إنه حين ألقى فى النار قال : «لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد

www.besturdubooks.wordpress.com

ولك الملك . لاشريك لك » ثم وضعوه فى المنجنيق ورموا به النـار ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال ياإبراهيم هل لك حاجة ، قال : أما إليك فلا ؟ قال : فاسأل ربك ، قال : حسبى من سؤالى ، علمه بحالى . فقال الله تعالى (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) وقال السدى : إنمـا قال ذلك جبريل عليه السلام ، قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية مجاهد ولو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، قال ولم يبق يومئذ فى الدنيا نار إلا طفئت ، ثم قال السدى : فأخذت الملائكة بضبعى إبراهيم وأقعدوه فى الأرض . فاذا عين ماء عذب ، وورد أحمر ، ونرجس . ولم تحرق النار منه إلا وثاقه ، وقال المنهال بن عمرو أخبرت أن إبراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار كان فيها إما أربعين يوماً أو خمسين يوماً ، وقال ما كنت أياماً أطيب عيشاً منى إذ كنت فيها ، وقال ابن اسحق بعث الله ملك الظل فى صورة إبراهيم ، فقعد إلى جنب إبراهيم يؤنسه ، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة ، وقال ياإبراهيم إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تضر أحبابى ، ثم نظر نمروذ من صرح له وأشرف على إبراهيم فرآه جالساً فى روضة ، ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب . فناداه نمروذ ياإبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال نعم ، قال قم فاخرج ، فقام يمشى حتى خرج منها ، فلمـا خرج قال له نمروذ : من الرجل الذى رأيته معك فى صورتك ؟ قال ذاك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فيها . فقال نمروذ : إنى مقرب إلى ربك قرباناً لمـا رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك . فانى ذابح له أربعة آلاف بقرة ، فقال إبراهيم عليه السلام : لا يقبل الله منك مادمت على دينك ، فقال نمروذ لا أستطيع ترك ملكى ، ولـكن سوف أذبحها له ، ثم ذبحها له وكف عن ابراهيم عليه السلام ، وروبت هذه القصة على وجه آخر ، وهى أنهم بنوا لإبراهيم بنياناً وألقوه فيه ، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ، ثم أطبقوا عليه ، ثم فتحوا عليه من الغد ، فاذا هو غير محترق يعرق عرقاً ، فقال لهم هاران أبو لوط : إن النار لاتحرقه لأنه سحر النار ، ولـكن اجعلوه على شىء وأوقدوا تحته فان الدخان يقتله ، فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته ، فطارت شرارة فوقعت فى لحية أبى لوط فأحرقته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ انما اختاروا المعاقبة بالنار لأنهـا أشد العقوبات ، ولهذا قيل (إن كنتم فاعلين) أى إن كنتم تنصرون آلهتكم نصراً شديداً ، فاختاروا أشد العقوبات وهى الإحراق .

أما قوله تعالى (قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ، قال أبو مسلم الأصفهانى فى تفسير قوله تعالى (قلنـا يانار كونى برداً) المعنى أنه سبحانه جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً كقوله (أن يقول له كن فيكون) أى يكونه ، وقد احتج عليه بأن النار جماد فلا يجوز خطابه ، والأكثرون على أنه وجد ذلك القول . ثم هؤلاء لهم قولان (أحدهما) وهو قول السدى أن القائل هو جبريل عليه السلام (والثانى) وهو قول الأكثرين أن القائل هو الله تعالى ، وهذا هو الأليق الأقرب بالظاهر ، وقوله النار جماد فلا

www.besturdubooks.wordpress.com

يكون فى خطابها فائدة ، قلنا لم لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الامر مصلحة عائدة إلى الملائكة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتلفوا فى أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال (أحدها) أن الله تعالى أزال عنها مافيها من الحر والإحراق ، وأبقى مافيها من الإضاءة والإشراق والله على كل شىء قدير (وثانيها) أن الله تعالى خلق فى جسم ابراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه ، كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة ، وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار (وثالثها) أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه ، قال المحققون والأول أولى لأن ظاهر قوله (يانار كونى برداً) أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت ، فان قيل النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة ، فاذا كانت الحرارة جزء من مسمى النار امتنع كون النار باردة ، فاذاً وجب أن يقال المراد من النار الجسم الذى هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين ؟ قلنا المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفى المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا أولى .

أما قوله تعالى (كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) فالمعنى أن البرد إذا أفرط أهلك كالحر بل لا بد من الإعتدال ثم فى حصول الاعتدال ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذى لا يؤثر (وثانيها) أن بعض النار صار برداً وبقى بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد (وثالثها) أنه تعالى جعل فى جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ ثم ههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أو كل النار زالت وصارت برداً (الجواب) أن النار هو اسم الماهية فلا بد وأن يحصل هذا البرد فى الماهية ويلزم منه عمومه فى كل أفراد الماهية ، وقيل بل اختص بتلك النار لأن الغرض إنما تعلق ببرد تلك النار وفى النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها ،والمراد خلاص إبراهيم عليه السلام لا إيصال الضرر إلى سائر الخلق .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هل يجوز ماروى عن الحسن من أنه سلام من الله تعالى على إبراهيم عليه (الجواب) الظاهر كما أنه جعل النار برداً جعلها سلاماً عليه حتى يخلص ، فالذى قاله يبعد وفيه تشتيت الكلام المرتب .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أفيجوز ماروى من أنه لو لم يقل وسلاماً لأتى البرد عليه (والجواب) ذلك بعيد لأن برد النار لم يحصل منها وإنما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز أن يقال كان البرد يعظم لولا قوله سلاماً .

﴿ السؤال الرابع ﴾ أفيجوز ما قيل من أنه كان فى النار أنعم عيشاً منه فى سائر أحواله . (والجواب) لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها ، ويجوز أن يكون إنما صار أنعم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

عيشاً هناك لعظم ما ناله من السرور بخلاصه من ذلك الأمر العظيم ولعظم سروره بظفره بأعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى .

أما قوله تعالى (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) أى أرادوا أن يكيدوه فما كانوا إلا مغلوبين ، غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة ، ثم عدلوا القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم ، ثم إنه سبحانه أتم النعمة عليه بأن نجاه ونجى لوطاً معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين . وفى الأخبار أن هذه الواقعة كانت فى حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة إلى الأرض المباركة ، ثم قيل إنها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى (إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) والسبب فى بركتها ، أما فى الدين فلأن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها ، وأما فى الدنيا فلأن الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش ، وقيل ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس .

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ .

اعلم أنه تعالى بعد ذكره لإنعامه على إبراهيم وعلى لوط بأن نجاهما إلى الأرض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم ، وإنما جمع بينهما لأن فى كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة فى النبوة مزيد إنعام ، ثم إنه سبحانه ذكر النعم التى أفاضها على إبراهيم عليه السلام ثم النعم التى أفاضها على لوط ، أما الأول فمن وجوه : (أحدها) (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) واعلم أن النافلة العطية خاصة وكذلك النفل ويسمى الرجل الكثير العطايا نوفلا ، ثم للمفسرين ههنا قولان : (الأول) أنه ههنا مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك وبين قوله (ووهبنا له) هبة أى وهبناهما له عطية وفضلا من غير أن يكون جزاء مستحقاً ، وهذا قول مجاهد وعطاء (والثانى) وهو قول أبى بن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج: أن ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولداً قال (رب هب لى من الصالحين) فأجاب الله دعاءه (ووهب له إسحق) وأعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك (نافلة) كالشىء المتطوع به من الآدميين فكأنه قال (ووهبنا له اسحق) إجابة

www.besturdubooks.wordpress.com

لدعائه (ووهبنا له يعقوب نافلة) على ماسأل كالصلاة النافلة التى هى زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة .

﴿ والوجه الأول ﴾ أقرب لأنه تعالى جمع بينهما ، ثم ذكر قوله (نافلة) فاذا صلح أن يكون وصفاً لهما فهو أولى .

﴿ النعمة الثانية ﴾ قوله تعالى (وكلا جعلنا صالحين) أى وكلا من ابراهيم واسحق ويعقوب أنبياء مرسلين ، هذا قول الضحاك وقال آخرون عاملين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه .

﴿ والوجه الثانى ﴾ أقرب لأن لفظ الصلاح يتناول الكل لأنه سبحانه قال بعد هذه الآية (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لأن قوله (وكلا جعلنا صالحين) يدل على أن ذلك الصلاح من قبله ، أجاب الجبائى بأنه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين وبكونهم أئمة وبكونهم عابدين. ولما مدحهم بذلك ، ولما أثنى عليهم ، وإذا ثبت ذلك فلا بد من التأويل وهو من وجهين : (الأول) أن يكون المراد أنه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به (والثانى) أن يكون المراد أنه سماهم بذلك كما يقال زيد فسق فلاناً وضلله وكفره إذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس ، وكما يقال فى الحاكم زكى فلاناً وعدله وجرحه إذا حكم بذلك . واعلم أن هذه الوجوه مختلة ، أما اعتمادهم على المدح والذم (فالجواب) المعهود أن نعارضه بمسألتى الداعى والعلم ، وأما الحمل على اللطف فباطل لأن فعل الإلطاف عام فى المكلفين فلا بد فى هذا التخصيص من مزيد فائدة ، وأيضاً فلأن قوله جعلته صالحاً ، كقوله جعلته متحركا . فحمله على تحصيل شىء سوى الصلاح ترك للظاهر ، وأما الحمل على التسمية فهو أيضاً مجاز أقصى ما فى الباب أنه قد يصار اليه عند الضرورة فى بعض المواضع وههنا لاضرورة إلا أن يرجعوا مرة أخرى إلى فصل المدح والذم ، فحينئذ نرجع أيضاً إلى مسألتى الداعى والعلم .

﴿ النعمة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) وفيه قولان : (أحدهما) أى جعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا وإذننا (الثانى) قول أبى مسلم أن هذه الامامة هى النبوة ، والأول أولى لئلا يلزم التكرار ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أمرين (أحدهما) على خلق الأفعال بقوله (وجعلناهم أئمة) وتقريره مامضى (والثانى) على أن الدعوة إلى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز إلا بأمر الله تعالى لأن الأمر لو لم يكن معتبراً لما كان فى قوله بأمرنا فائدة .

﴿ النعمة الرابعة ﴾ قوله تعالى (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) وهذا يدل على أنه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من أعظم النعم على الأب ، قال الزجاج حذف الهاء من إقامة الصلاة لأن الإضافة عوض عنه ، وقال غيره : الإقام والاقامة مصدر ، قال أبو القاسم الأنصارى الصلاة

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى ، والزكاة أشرف العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، واعلم أنه سبحانه وصفهم أولا بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالامامة . ثم ترقى فوصفم بالنبوة والوحى . وإذا كان الصلاح الذى هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على أن الأنبياء معصومون فان المحروم عن أول المراتب أولى بأن يكون محروماً عن النهاية ، ثم إنه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال (وكانوا لنا عابدين) كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية فى الإحسان والإنعام فهم أيضاً وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة .

﴿ القصة الثالثة ، قصة لوط عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولوطاً آتيناه حكما وعلماً ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين ﴾

إعلم أنه سبحانه بعد بيان ما أنعم به على إبراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل ، وههنا مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ . فى الواو فى قوله (ولوطاً) قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج أنه عطف على قوله (وأوحينا إليهم) ، (والثانى) قول أبى مسلم أنه عطف على قوله (آتينا إبراهيم رشده) ولا بد من ضمير فى قوله (ولوطاً) فكأنه قال وآتينا لوطاً فأضمر ذكره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى أصناف النعم وهى أربعة وجوه (أحدها) الحكم أى الحكمة وهى التى يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هى النبوة (وثانيها) العلم ، واعلم أن إدخال التنوين عليهما يدل على علو شأن ذلك العلم وذلك الحكم (وثالثها) قوله (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) والمراد أهل القرية لأنهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولأن الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك ، ثم بين سبحانه وتعالى بقوله (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) ما أراده بالخبائث ، وأمرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر (ورابعها) قوله (وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين) وفى تفسير الرحمة قولان (الاول) أنه النبوة أى أنه لما كان صالحاً للنبوة أدخله الله فى رحمته لكى يقوم بحقها عن مقاتل (الثانى) أنه الثواب عن ابن عباس والضحاك . ويحتمل أن يقال إنه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الالهية وهى بحر لا ساحل له وهى الرحمة فى الحقيقة

www.besturdubooks.wordpress.com

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾»

﴿ القصة الرابعة ، قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾

أما قوله تعالى (إذ نادى من قبل) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لاشبهة فى أن المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الاجمال وهو قوله (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) وتارة على التفصيل وهو قوله (وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) ويدل عليه أيضاً أن الله تعالى أجابه بقوله (فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهذا الجواب يدل على أن الإنجاء المذكور فيه كان هو المطلوب فى السؤال فدل هذا على أن نداءه ودعاءه كان بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الأذى بالتكذيب والرد عليه وبأن ينصره عليهم وأن يهلكهم . فلذلك قال بعده (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أجمع المحققون على أن ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لأنه لو لم يكن بأمره لم يؤمن أن يكون الصلاح أن لا يجاب اليه فيصير ذلك سبباً لنقصان حال الأنبياء ، ولأن الإقدام على أمثال هذه المطالب لو لم يكن بالأمر لكان ذلك مبالغة فى الاضرار ، وقال آخرون إنه عليه السلام لم يكن مأذوناً له فى ذلك . وقال أبو أمامة : لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح ، فحسرة آدم على قبول وسوسة إبليس ، وحسرة نوح على دعائه على قومه . فأوحى الله تعالى اليه أن لاتتحسر فان دعوتك وافقت قدرى

أما قوله تعالى (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) فالمراد بالأهل ههنا أهل دينه . وفى تفسير الكرب وجوه (أحدها) أنه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين (وثانيها) أنه تكذيب قومه إياه وما لقى منهم من الأذى (وثالثها) أنه مجموع الأمرين وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وهو الأقرب لأنه عليه السلام كان قد دعاهم إلى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند إعلام الله تعالى إياه أنه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضاً على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذى يتخلص

www.besturdubooks.wordpress.com

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

من الغرق ومن الذى يغرق فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بأن خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه .

أما قوله تعالى (ونصرناه من القوم) فقراءة أبى بن كعب ونصرناه على القوم ثم قال المبرد تقديره ونصرناه من مكروه القوم ، وقال تعالى (فمن ينصرنا من بأس الله) أى يعصمنا من عذابه ، قال أبو عبيدة : من بمعنى على . وقال صاحب الكشاف إنه نصر الذى مطاوعه انتصر وسمعت هذلياً يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه ، أى اجعلهم منتصرين منه .

أما قوله تعالى (إنهم كانوا قوم سوء) فالمعنى أنهم كانوا قوم سوء لأجل ردهم عليه وتكذيبهم له فأغرقناهم أجمعين ، فبين ذلك الوجه الذى به خلصه منهم .

﴿ القصة الخامسة ، قصة داود وسليمان عليهما السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾

إعلم أن قوله تعالى : وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون ، كله نسق على ما تقدم من قوله (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل) ومن قوله (ولوطاً آتيناه حكما وعلماً) واعلم أن المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولا النعمة المشتركة بينهما ، ثم ذكر ما يختص به كل

www.besturdubooks.wordpress.com

واحد منهما من النعم . أما النعمة المشتركة فهى القصة المذكورة وهى قصة الحكومة ، ووجه النعمة فيها أن الله تعالى زينهما بالعلم والفهم فى قوله (وكلا آتينا حكما وعلما) ثم فى هذا تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها ، وذلك لأن الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن . وإذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الأشياء فما ظنك بغيرها وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن السكيت النفش أن تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع ، وهذا قول جمهور المفسرين ، وعن الحسن أنه يجوز ذلك ليلا ونهاراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أكثر المفسرين على أن الحرث هو الزرع ، وقال بعضهم هو الكرم والأول أشبه بالعرف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إحتج من قال أقل الجمع إثنان بقوله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) مع أن المراد داود وسليمان (جوابه) أن الحكم كما يضاف إلى الحاكم فقد يضاف إلى المحكوم له ، فاذا أضيف الحكم إلى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الإثنين ، وقرىء وكنا لحكمهما شاهدين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى كيفية القصة وجهان (الأول) قال أكثر المفسرين : دخل رجلان على داود عليه السلام (أحدهما) صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا دخلت حرثى وما أبقت منه شيئاً ، فقال داود عليه السلام اذهب فان الغنم لك ، فخرجا فمرا على سليمان ، فقال كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه . فقال : لو كنت أنا القاضى لقضيت بغير هذا . فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال : كيف كنت تقضى بينهما ، فقال ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه (الثانى) قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله : أن راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم ، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم ، فذهب صاحب الكرم من الغد إلى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت ، فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكما فأخبراه به ، فقال غير هذا أرفق بالفريقين ، فأخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له بحق الأبوة والنبوة إلا أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين ، فقال تسلم الغنم إلى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها ويعمل الراعى فى إصلاح الكرم حتى يصير كما كان ، ثم ترد الغنم إلى صاحبها ، فقال داود عليه السلام إنما القضاء ما قضيت وحكم بذلك . قال ابن عباس رضى الله عنهما حكم سليمان بذلك وهو ابن احدى عشرة سنة ، وههنا أمور ولا بد من البحث عنها .

﴿ السؤال الأول ﴾ هل فى الآية دلالة على أنهما عليهما السلام اختلفا فى الحكم أم لا ؟ فإن أبا بكر الأصم قال إنهما لم يختلفا البتة ، وأنه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام (الجواب) الصواب أنهما اختلفا والدليل إجماع الصحابة والتابعين رضى الله عنهم على

www.besturdubooks.wordpress.com

ما رويناه ، وأيضاً فقد قال الله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) ثم قال (ففهمناها سليمان) والفاء للتعقيب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقاً على هذا التفهيم ، وذلك الحكم السابق إما أن يقال اتفقا فيه أو اختلفا فيه ، فإن اتفقا فيه لم يبق لقوله (ففهمناها سليمان) فائدة وإن اختلفا فيه فذلك هو المطلوب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ سلمنا أنهما اختلفا فى الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد (الجواب) الأمران جائزان عندنا وزعم الجبائى أنهما كانا صادرين عن النص ، ثم إنه تارة يبنى ذلك على أن الإجتهاد غير جائز من الأنبياء ، وأخرى على أن الاجتهاد وإن كان جائزاً منهم فى الجملة ، ولكنه غير جائز فى هذه المسألة .

﴿ أما المأخذ الأول ﴾ فقد تكلمنا فيه فى الجملة فى كتابنا المسمى بالمحصول فى الأصول ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين احتج الجبائى على أن الاجتهاد غير جائز من الأنبياء عليهم السلام بأمور (أحدها) قوله تعالى (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى) وقوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) (وثانيها) أن الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على إدراكه يقيناً فلا يجوز مصيره إلى الظن كالمعاين للقبلة لا يجوز له أن يجتهد (ثالثها) أن مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ومخالفة المظنون والمجتهدات لا توجب الكفر (ورابعها) لو جاز أن يجتهد فى الأحكام لكان لا يقف فى شىء منها ، ولما وقف فى مسألة الظهار واللعان إلى ورود الوحى دل على أن الاجتهاد غير جائز عليه (وخامسها) أن الاجتهاد إنما يجوز المصير إليه عند فقد النص ، لكن فقدان النص فى حق الرسول كالممتنع فوجب أن لا يجوز الاجتهاد منه (وسادسها) لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضاً من جبريل عليه السلام وحينئذ لا يحصل الأمان بأن هذه الشرائع التى جاء بها أهى من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل ؟ (والجواب) عن الأول أن قوله تعالى (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى) لا يدل على قولكم لأنه وارد فى إبدال آية بآية لأنه عقيب قوله (قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله) ولا مدخل للاجتهاد فى ذلك . وأما قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) فبعيد لأن من يجوز له الاجتهاد يقول إن الذى اجتهد فيه هو عن وحى على الجملة وإن لم يكن كذلك على التفصيل ، وإن الآية واردة فى الأداء عن الله تعالى لا فى حكمه الذى يكون بالعقل (والجواب) عن الثانى أن الله تعالى إذا قال له إذا غلب على ظنك كون الحكم معللا فى الأصل بكذا ، ثم غلب على ظنك قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى فاحكم بذلك فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل فى طريقه (والجواب) عن الثالث أنا لا نسلم أن مخالفة المجتهدات جائزة مطلقاً بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها عن غير المعصوم والدليل عليه أنه يجوز على الأمة أن يجمعوا اجتهاداً ثم يمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد (والجواب) عن الرابع لعله عليه السلام كان ممنوعا من الإجتهاد فى بعض الأنواع أو كان مأذوناً مطلقاً لكنه لم يظهر له فى تلك الصورة وجه الاجتهاد ، فلا جرم

www.besturdubooks.wordpress.com

أنه توقف (والجواب) عن الخامس لم لا يجوز أن يحبس النص عنه فى بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد (والجواب) عن السادس أن هذا الإحتمال مدفوع باجماع الأمة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين والذى يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه : (أحدها) أنه عليه السلام إذا غلب على ظنه أن الحكم فى الأصل معلل بمعنى ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى فلابد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى الأصل ، وعنده مقدمة يقينية وهى أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معاً وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين . أو يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين . أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل . أو يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس . وهذه النكتة هى التى عليها التعويل فى العمل بالقياس وهى قائمة أيضاً فى حق الأنبياء عليهم السلام . وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام (وثانيها) قوله تعالى (فاعتبروا) أمر للكل بالإعتبار فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لأنه إمام المعتبرين وأفضلهم (وثالثها) أن الإستنباط أرفع درجات العلماء فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه فى هذا الباب . فان قيل هذا إنما يلزم لو لم تكن درجة أعلى من الاعتبار ، وليس الأمر كذلك . لأنه كان يستدرك الاحكام وحياً على سبيل اليقين . فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذى ليس قصاراه إلا الظن . قلنا لا يمتنع أن لا يجد النص فى بعض المواضع ، فلو لم يتمكن من الاجتهاد لكان أقل درجة من المجتهد الذى يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الإجتهاد . وأيضاً فقد بينا أن الله تعالى لما أمره بالإجتهاد كان ذلك مفيداً للقطع بالحكم (ورابعها) قال عليه السلام « العلماء ورثة الأنبياء » فوجب أن يثبت للأنبياء درجة الإجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك . هذا تمام القول فى هذه المسألة (وخامسها) أنه تعالى قال (عفا الله عنك لم أذنت لهم) فذلك الإذن إن كان باذن الله تعالى استحال أن يقول لم أذنت لهم ، وإن كان بهوى النفس فهو غير جائز ، وإن كان بالاجتهاد فهو المطلوب .

(المأخذ الثانى) قال الجبائى لو جوزنا الاجتهاد من الأنبياء عليهم السلام فنى هذه المسألة يجب أن لا يجوز لوجوه : (أحدها) أن الذى وصل إلى صاحب الزرع من در الماشية ومن منافعها مجهول المقدار . فكيف يجوز فى الاجتهاد جعل أحدهما عوضاً عن الآخر (وثانيها) أن اجتهاد داود عليه السلام إن كان صواباً لزم أن لا ينقض لأن الاجتهاد لا ينتقض بالاجتهاد . وإن كان خطأً وجب أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الأنبياء عليهم السلام ، فلما مدحهما بقوله (وكلا آتينا حكما وعلماً) دل على أنه لم يقع الخطأ من داود (وثالثها) لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هناك ظناً لا علماً لأن الله تعالى قال (وكلا آتينا حكما وعلماً) (ورابعها) كيف يجوز أن يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

عن اجتهاد من مع قوله (ففهمناها سليمان) (والجواب) عن الأول أن الجهالة فى القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجعالات وحكم المصراة (وعن الثانى) لعله كان خطأ من باب الصغائر (وعن الثالث) بينا أن من تمسك بالقياس فالظن واقع فى طريق إثبات الحكم فأما الحكم فمقطوع به (وعن الرابع) أنه إذا تأمل واجتهد فأداه اجتهاده إلى ما ذكرنا كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك . فهذا جملة الكلام فى بيان أنه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام فى ذلك الحكم إنما كان بسبب الاجتهاد . وأما بيان أنه لا يمتنع أيضاً أن يكون اختلافهما فيه بسبب النص فطريقه أن يقال إن داود عليه السلام كان مأموراً من قبل الله تعالى فى هذه المسألة بالحكم الذى حكم به ، ثم إنه سبحانه نسخ ذلك بالوحى إلى سليمان عليه السلام خاصة وأمره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعاً فقوله (ففهمناها سليمان) أى أوحينا إليه فان قيل هذا باطل لوجهين : (الأول) لما أنزل الله تعالى الحكم الأول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضاً على داود لا على سليمان (الثانى) أن الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن فى فهمه كثير مدح إنما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة فى الاستنباط .

﴿ السؤال الثالث ﴾ إذا أثبتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لأجل النص وأن يكون لأجل الاجتهاد فأى القولين أولى (والجواب) الاجتهاد أرجح لوجوه : (أحدها) أنه روى فى الأخبار الكثيرة أن داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان أن غير ذلك أولى ، وفى بعضها أن داود عليه السلام ناشده لكى يورد ما عنده وكل ذلك لا يليق بالنص ، لأنه لو كان نصاً لكان يظهره ولا يكتمه .

﴿ السؤال الرابع ﴾ بينوا أنه كيف كان طريق الاجتهاد (الجواب) أن وجه الاجتهاد فيه ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما من أن داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساويا لقيمة الغنم فكان عنده أن الواجب فى ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم إلى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله فى العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه ، وأما سليمان عليه السلام فان اجتهاده أدى إلى أنه يجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد ، فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائز لأنه يقتضى الحيف والجور ، ولعل منافع الغنم فى تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به ، كما قال الشافعى رضى الله عنه فيمن غصب عبداً فأبق من يده أنه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا .

﴿ السؤال الخامس ﴾ على تقدير أن ثبت قطعاً أن تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد ، فهل تدل هذه القصة على أن المصيب واحد أو الكل مصيبون (الجواب) أما القائلون بأن المصيب واحد ففيهم من استدل بقوله تعالى (ففهمناها سليمان) قال ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص

www.besturdubooks.wordpress.com

سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة ، وأما القائلون بأن الكل مصيبون ففيهم من استدل بقوله (وكلا آتينا حكما وعلماً) ولو كان المصيب واحداً ومخالفه مخطئاً لما صح أن يقال (وكلا آتينا حكما وعلماً) واعلم أن الإستدلالين ضعيفان (أما الأول) فلأن الله تعالى لم يقل إنه فهمه الصواب فيحتمل أنه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لأنه لم يبلغه وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به ، على أن أكثر مافى الآية أنها دالة على أن داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب أن يكون الأمر كذلك فى شرعنا (وأما الثانى) فلأنه تعالى لم يقل إن كلا آتيناه حكما وعلماً بما حكم به ، بل يجوز أن يكون آتيناه حكما وعلماً بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام ، على أنه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيباً فى شرعهم أن يكون الأمر كذلك فى شرعنا .

﴿ السؤال السادس ﴾ لو وقعت هذه الواقعة فى شرعنا ما حكمها ؟ (الجواب) قال الحسن البصرى هذه الآية محكمة ، والقضاة بذلك يقضون إلى يوم القيامة . واعلم أن كثيراً من العلماء يزعمون أنه منسوخ بالإجماع ثم اختلفوا فى حكمه فقال الشافعى رحمه الله إن كان ذلك بالنهار لا ضمان لأن لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار ، وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه . وإن كان ليلا يلزمه الضمان لأن حفظها بالليل عليه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لا ضمان عليه ليلا كان أو نهاراً إذا لم يكن متعدياً بالإرسال ، لقوله ﷺ «جرح العجماء جبار» واحتج الشافعى رحمه الله بما روى عن البراء بن عازب أنه قال «كانت ناقة ضارية فدخلت حائطا فأفسدته فذكروا ذلك لرسول ﷺ فقضى أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها ، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها ، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل» وهذا تمام القول فى هذه الآية . ثم إن الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التى خص بها داود عليه أمرين (الأول) قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذا التسبيح وجهان (أحدهما) أن الجبال كانت تسبح ثم ذكروا وجوهاً (أحدها) قال مقاتل إذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه (وثانيها) قال الكلبى إذا سبح داود أجابته الجبال (وثالثها) قال سليمان بن حيان كان داود عليه السلام إذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطاً واشتياقا (القول الثانى) وهو اختيار بعض أصحاب المعانى أنه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) وتخصيص داود عليه السلام بذلك إنما كان بسبب أنه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينا وتعظيما ، والقول الأول أقرب لأنه لا ضرورة فى صرف اللفظ عن ظاهره . وأما المعتزلة فقالوا لو حصل الكلام من الجبل لحصل إما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه (والأول) محال لأن بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة ، وما لا يكون حياً

www.besturdubooks.wordpress.com

عالماً قادراً يستحيل منه الفعل (والثانى) أيضاً محال لأن المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا للكلام ، فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل ، فثبت أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره فعند هذا قالوا فى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) ومثله قوله تعالى (ياجبال أوبى معه) معناه تصرفى معه وسيرى بأمره ويسبحن من السبح الذى السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولولم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه أى سيرى وهوكقوله (إن لك فى النهار سبحاً طويلا) أى تصرفا ومذهباً . إذا ثبت هذا فنقول : إن سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ماتنزه عنه واعلم أن مدار هذا القول على أن بنية الجبل لا تقبل الحياة ، وهذا ممنوع وعلى أن التكلم من فعل الله وهو أيضاً ممنوع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أما الطير فلا امتناع فى أن يصدر عنها الكلام ، ولكن أجمعت الأمة على أن المكلفين إما الجن أو الإنس أو الملائكة فيمتنع فيها أن تبلغ فى العقل إلى درجة التكليف ، بل تكون على حالة كحال الطفل فى أن يؤمر وينهى وإن لم يكن مكلفاً فصار ذلك معجزة من حيث جعلها فى الفهم بمنزلة المراهق ، وأيضاً فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لا يجوز فيكون القول فيه كالقول فى الجبال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف يسبحن حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلا قال : كيف سخرهن ؟ فقال يسبحن . والطير إما معطوف على الجبال وإما مفعول معه . فان قلت لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل فى الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان ناطق .

أما قوله (وكنا فاعلين) فالمعنى أنا قادرون على أن نفعل هذا وإن كان عجباً عندكم وقيل نفعل ذلك بالأنبياء عليهم السلام .

﴿ الإنعام الثالث ﴾ قوله تعالى (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اللبوس اللباس ، قال البس لكل حالة لبوسها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لتحصنكم قرىء بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى أو لداود أو للبوس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال قتادة أول من صنع الدرع داود عليه السلام ، وإنما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حلقاً ، ذكر الحسن أن لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع ، فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه ، فقال الصمت حكمة وقليل فاعله (١) قالوا إن الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كأنه طين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ البأس ههنا الحرب وإن وقع على السوء كله ، والمعنى ليمنعكم ويحرسكم من

(١) الذى أحفظه : الصمت حكم وقليل فاعله ، ولو كان حكمة كما روى لقال فاعلها

www.besturdubooks.wordpress.com

بأسكم أى من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه ، فتوارث الناس عنه ذلك . فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر ، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال (فهل أنتم شاكرون) أى اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة ، واعلم أنه سبحانه لما ذكر النعم التى خص داود بها ذكر بعده النعم التى خص بها سليمان عليه السلام ، وقال قتادة : ورث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين .

﴿ الإنعام الأول ﴾ قوله تعالى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره) أى جعلناها طائعة منقادة له بمعنى أنه إن أرادها عاصفة كانت عاصفة وإن أرادها لينة كانت لينة والله تعالى مسخرها فى الحالتين ، فان قيل العاصف الشديدة الهبوب ، وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة فى قوله (رخاء حيث أصاب) فكيف يكون الجمع بينهما (والجواب) من وجهين : (الأول) أنها كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فاذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال (غدوها شهر ورواحها شهر) وكانت جامعة بين الأمرين رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب مايريد ويحكم آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة (الثانى) أنها كانت فى وقت رخاء وفى وقت عاصفاً ، لأجل هبوبها على حكم إرادته .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قرىء الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال ، فان قيل قال فى داود (وسخرنا مع داود الجبال) وقال فى حق سليمان (ولسليمان الريح) فذكره فى حق داود عليه السلام بكلمة مع وفى حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضاً فى قوله (ياجبال أوبى معه والطير) وقال (فسخرنا له الريح تجرى بأمره) فما الفائدة فى تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع ، وسليمان باللام قلنا يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف ، فما أضيف اليه بلام التمليك ، أما الريح فلم يصدر عنه إلا مايجرى مجرى الخدمة ، فلا جرم أضيف إلى سليمان بلام التمليك ، وهذا إقناعى .

أما قوله (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) أى إلى المضى إلى بيت المقدس ، قال الكلبى كانت تسير من اصطخر إلى الشام يركب عليها سليمان وأصحابه .

أما قوله (وكنا بكل شىء عالمين) أى لعلمنا بالأشياء صح منا ان ندبر هذا التدبير فى رسلنا وفى خلقنا ، وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة .

﴿ الإنعام الثانى ﴾ قوله تعالى (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد أنهم يغوصون له فى البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال (يعملون

www.besturdubooks.wordpress.com

له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان) وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ومن الشياطين من يغوصون له) يعنى وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له ، فيكون فى موضع النصب نسقاً على الريح قال الزجاج ويجوز أن يكون فى موضع رفع من وجهين : (أحدهما) النسق على الريح ، وأن يكون المعنى (ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين . ويجوز أن يكون رفعاً على الابتداء ويكون له هو الخبر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذى يعمل سائر الأعمال ، ويحتمل أنهم فرقة أخرى ويكون الكل داخلين فى لفظة من وإن كان الأول هو الأقرب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ليس فى الظاهر إلا أنه سخرهم ، لكنه قد روى أنه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الأقرب من وجهين : (أحدهما) إطلاق لفظ الشياطين (والثانى) قوله (وكنا لهم حافظين) فان المؤمن إذا سخر فى أمر لا يجب أن يحفظ لئلا يفسد ، وإنما يجب ذلك فى الكافر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى تفسير قوله (وكنا لهم حافظين) وجوه : (أحدها) انه تعالى وكل بهم جمعا من الملائكة أو جمعاً من مؤمنى الجن (وثانيها) سخرهم الله تعالى بأن حبب اليهم طاعته وخوفهم من مخالفته (وثالثها) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء ، فان قيل وعن أى شىء كانوا محفوظين قلنا فيه ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا ويتركوه (وثانيها) قال الكلبى كان يحفظهم من أن يهيجوا أحداً فى زمانه (وثالثها) كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم أنهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه فى الليل .

﴿ المسألة السادسة ﴾ سأل الجبائى نفسه ، وقال : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل ، وإنما يمكنهم الوسوسة ؟ وأجاب بأنه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد فى عظمهم ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام ، فلما مات سليمان ردهم الله إلى الخلقة الأولى لأنه لو بقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس ، ولو ادعى متنبى النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فلذا ردهم إلى خلقتهم الأولى ، واعلم أن هذا الكلام ساقط من وجوه : (أحدها) لم قلت إن الجن من الأجسام . ولم لا يجوز وجود محدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم ؟ فان قلت لو كان الأمر كذلك لكان مثلا للبارى تعالى قلت هذا ضعيف لأن الاشتراك فى اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك فى الملزومات فكيف اللوازم السلبية . سلمنا أنه جسم ، لكن لا يجوز حصول القدرة على هذه الأعمال الشاقة فى الجسم اللطيف ، وكلامه بناء على البنية شرط وليس فى يده الا الإستقراء الضعيف . سلمنا أنه لا بد من تكثيف أجسامهم لكن لم قلت بأنه لا بد من ردها إلى الخلقة الأولى بعد موت سليمان عليه السلام ، فان قال لئلا يفضى إلى التلبيس

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

قلنا التلبيس غير لازم ، لأن المتنبي إذا جعل ذلك معجزة لنفسه فللمدعي أن يقول لم لا يجوز أن يقال إن قوة أجسادهم كانت معجزة لنبي آخر قبلك ، ومع قيام هذا الاحتمال لا يتمكن المتنبي من الاستدلال به ، واعلم أن أجسام هذا العالم إما كثيفة أو لطيفة ، أما الكثيف فأكثف الأجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام ، فأنطق الحجر ولين الحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر ، لأنه لما قدر على إحياء الحجارة فأي بعد في إحياء العظام الرميمة ، وإذا قدر على أن يجعل في إصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الإصبع في نهاية اللطافة . فأي بعد في أن يجعل التراب اليابس جسما حيوانياً . وألطف الأشياء في هذا العالم الهواء والنار ، وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام ، أما الهواء فقوله تعالى (فسخرنا له الريح) وأما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى فكان يأمرهم بالغوص في المياه والنار تنطفىء بالماء وهم ما كان يضرهم ذلك ، وذلك يدل على قدرته على إظهار الضد من الضد .

﴿ القصة السادسة ـ قصة أيوب عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر وآتيناه أهله ومثلهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾

اعلم أن في أمر أيوب عليه السلام وماذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفي غيره من القرآن من العبر والدلائل ماليس في غيره ، لأنه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفاً لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها ، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتي الضراء والسراء ، وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب ابن انوص وكان من ولد عيص بن إسحق وكانت أمه من ولد لوط ، وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبياً ، وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظاً وافراً من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلا وولداً من رجال ونساء ، وكان رحيما بالمساكين ، وكان يكفل الأيتام والأرامل ويكرم

www.besturdubooks.wordpress.com

الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله ، قال وهب وإن لجبريل عليه السلام بين يدى الله تعالى مقاماً ليس لأحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة ، وهو الذى يتلقى الكلام فاذا ذكر الله عبداً بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين ، فاذا شاع ذلك فهم يصلون عليه . ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الأرض . وكان إبليس لم يحجب عن شىء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد ، ومن هناك وصل إلى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة . ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع . فكان يصعد بعد ذلك إلى ثلاث إلى زمان نبينا محمد ﷺ فحجب عند ذلك عن جميع السموات إلا من استرق السمع ، قال فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فأدركه الحسد ، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه ، فقال يارب إنك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك ، فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله . فانقض الملعون حتى وقع إلى الأرض وجمع عفاريت الشياطين ، وقال لهم ماذا عندكم من القوة فإنى سلطت على مال أيوب ؟ قال عفريت أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار فأحرقت كل شىء آتى عليه ، فقال إبليس فأت الإبل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لايدنو منها شىء إلا احترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها ، فذهب إبليس على شكل بعض أولئك الرعاة إلى أيوب فوجده قائماً يصلى ، فلما فرغ من الصلاة قال يا أيوب هل تدرى ما صنع ربك الذى اخترته بإبلك ورعائها ؟ فقال أيوب إنها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا شاء نزعه . قال إبليس فإن ربك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها . فمن قائل يقول ماكان أيوب يعبد شيئاً وماكان إلا فى غرور ، ومن قائل يقول لو كان إله أيوب يقدر على شىء لمنع من وليه ، ومن قائل آخر يقول بل هو الذى فعل ما فعل ليشمت عدوه به ويفجع به صديقه . فقال أيوب عليه السلام الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى ، عرياناً خرجت من بطن أمى ، وعرياناً أعود فى التراب ، وعرياناً أحشر إلى الله تعالى ، ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً وآجرنى فيك ، ولكن الله علم منك شراً فأخرك. فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً . فقال عفريت آخر عندى من القوة ما إذا شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلا خرجت روحه ، فقال إبليس فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها . فخرج إبليس متمثلا بقهرمان الرعاة إلى أيوب فقال له القول الأول ورد عليه أيوب الرد الأول ، فرجع إبليس صاغراً . فقال عفريت آخر عندى من القوة ما إذا شئت تحولت ريحا عاصفة أقلع كل شىء أتيت عليه ، قال فاذهب إلى الحرث والثيران فأتاهم فأهلكهم ثم رجع إبليس متمثلا حتى جاء أيوب وهو يصلى ، فقال مثل قوله الأول فرد عليه أيوب الرد الأول ، فجعل

www.besturdubooks.wordpress.com

إبليس يصيب أمواله شيئاً فشيئاً حتى أتى على جميعها . فلما رأى إبليس صبره على ذلك وقف الموقف الذى كان يقفه عند الله تعالى ، وقال يا إلهى هل أنت مسلطى على ولده ، فانها الفتنة المضلة . فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده ، فأتى أولاد أيوب فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ، ثم جاء إلى أيوب متمثلا بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه ، فقال لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رءوسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك ، فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه ، فاغتنم ذلك إبليس ، ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد إبليس ووقف موقفه وقال يا إلهى إنما يهون على أيوب خطر المال والولد ، لعلمه أنك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده وإنى لك زعيم لو ابتليته فى جسده ليكفرن بك ، فقال تعالى انطلق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعاً فوجد أيوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فأتاه من قبل الأرض فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها ، وكان يحك بأظفاره حتى سقطت أظفاره ، ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم بالفخار والحجارة . ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن ، فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشاً ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح أموره ، ثم إن وهبا طول فى الحكاية إلى أن قال إن أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى مستغيثاً متضرعاً إليه فقال يارب لأى شىء خلقتنى ياليتنى كنت حيضة ألقتنى أمى ، وياليتنى كنت عرفت الذنب الذى أذنبته ، والعمل الذى عملت حتى صرفت وجهك الكريم عنى ، ألم أكن للغريب داراً ، وللمسكين قراراً ، ولليتيم ولياً ، وللأرملة قيما ، إلهى أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتى ، جعلتنى للبلاء غرضاً ، وللفتنة نصباً ، وسلطت على ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله . إلهى تقطعت أصابعى ، وتساقطت لهواتى ، وتناثر شعرى وذهب المال ، وصرت أسأل اللقمة فيطعمنى من يمن بها على ويعيرنى بفقرى وهلاك أولادى . قال الإمام أبو القاسم الأنصارى رحمه الله ، وفى جملة هذا الكلام : ليتك لو كرهتنى لم تخلقنى ، ثم قال ولو كان ذلك صحيحاً لاغتنمه إبليس ، فإن قصده أن يحمله على الشكوى ، وأن يخرجه عن حلية الصابرين ، والله تعالى لم يخبر عنه إلا قوله (إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) ثم قال (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) واختلف العلماء فى السبب الذى قال لأجله (إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وفى مدة بلائه (فالرواية الأولى) روى ابن شهاب عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إن أيوب عليه السلام بقى فى البلاء ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان إليه ، فقال أحدهما للآخر ذات يوم : والله لقد أذنب أيوب ذنباً

www.besturdubooks.wordpress.com

ماأذنبه أحد من العالمين ، فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ فقال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف مابه . فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لأيوب عليه السلام . فقال أيوب ماأدرى ماتقولان ، غير أن الله تعالى يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله عز وجل فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق . وفى رواية أخرى أن الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحاً فقالا لو كان لأيوب عند الله خير ما بلغ إلى هذه الحالة . قال فما شق على أيوب شىء مما ابتلى به أشد مما سمع منهما ، فقال اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شبعاناً وأنا أعلم بمكان جائع فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ، ثم خر أيوب عليه السلام ساجداً ثم قال : اللهم إنى لا أرفع رأسى حتى تكشف ما بى قال فكشف الله مابه (الرواية الثانية) قال الحسن رحمه الله مكث أيوب عليه السلام بعد ماألقى على الكناسة سبع سنين وأشهراً ، ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب وكان أيوب مواظباً على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ماابتلاه ، فصرخ إبليس صرخة جزعاً من صبر أيوب ، فاجتمع جنوده من أقطار الأرض وقالوا له ماخبرك ؟ قال : أعيانى هذا العبد الذى سألت الله أن يسلطنى عليه وعلى ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولداً ولم يزدد بذلك إلا صبراً وحمداً لله تعالى ، ثم سلطت على جسده فتركته ملقى فى كناسة وما يقربه إلا امرأته ، وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله ، فاستعنت بكم لتعينونى عليه فقالوا له : أين مكرك ! أين عملك الذى أهلكت به من مضى ؟ قال بطل ذلك كله فى أيوب فأشيروا على ، قالوا أدليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته ؟ قال من قبل امرأته ، قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها لأنه لا يقربه أحد غيرها . قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها فى صورة رجل ، فقال أين بعلك ياأمة الله ؟ قالت هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده ، فلما سمعها طمع أن يكون ذلك كله جزعاً ، فوسوس اليها وذكرها ما كان لها من النعم والمال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه . قال الحسن رحمه الله فصرخت ، فلما صرخت علم أنها قدجزعت فأتاها بسخلة ، وقال ليذبح هذه لى أيوب ويبرأ ، قال فجاءت تصرخ إلى أيوب ياأيوب حتى متى يعذبك ربك ، ألا يرحمك أين المال ، أين الماشية ، أين الولد ، أين الصديق ، أين اللون الحسن ، أين جسمك الذى قد بلى وصار مثل الرماد ، وتردد فيه الدواب اذبح هذه السخلة واسترح ؟ فقال أيوب عليه السلام : أتاك عدو الله ونفخ فيك فأجبتيه ! ويلك أترين ماتبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة ، من أعطانا ذلك ؟ قالت الله . قال فكم متعنا به ؟ قالت ثمانين سنة . قال فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت منذ سبع سنين وأشهر . قال ويلك والله ماأنصفت ربك ، ألا صبرت فى البلاء ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة . والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة . أمرتينى أن أذبح لغير الله ، وحرام على أن أذوق بعد هذا شيئاً من طعامك وشرابك الذى تأتينى به ، فطردها فذهبت ، فلما نظر

www.besturdubooks.wordpress.com

أيوب فى شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق ،وقد ذهبت امرأته خرساجداً ، وقال (رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) فقال ارفع رأسك فقد استجبت لك (اركض برجلك) فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها ، فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة إلا سقطت منه ، ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج وقام صحيحاً ،وعاد إليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان ، ثم كسى حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من الأهل والولد والمال ، إلا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان ، حتى ذكر أن الماء الذى اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب ، قال : فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه ياأيوب ألم أغنك ؟ قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها ،قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم إن امرأته قالت هب أنه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعاً وتأكله السباع لأرجعن إليه ، فلما رجعت مارأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وإذا بالأمور قد تغيرت ، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وذلك بعين أيوب عليه السلام ، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأله ، عنه فأرسل إليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال : ماتريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلي الذى كان ملقى على الكناسة ، فقال لها أيوب عليه السلام : ما كان منك ، فبكت وقالت بعلى ، فقال : أتعرفينه إذا رأيتيه ، قالت وهل يخفى على أحد يراه ! فتبسم وقال أنا هو ، فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال إنك أمرتينى أن أذبح سخلة لإبليس ، وإنى أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد على ماترين (الرواية الثالثة) قال الضحاك ومقاتل بقى فى البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه الله بقى فى البلاء ثلاث سنين ، فلما غلب أيوب إبليس لعنه الله ذهب إبليس إلى امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها أنت صاحبة أيوب ؟ قالت نعم ، قال فهل تعرفينى ؟ قالت لا ، قال أنا إله الأرض أنا صنعت بأيوب ماصنعت ، وذلك انه عبد إله السماء وتركنى فأغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع مالكما من مال وولد فان ذلك عندى ، قال وهب وسمعت أنه قال لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يسم الله تعالى لعوفى مما هو فيه من البلاء ، وفى رواية أخرى بل قال لها لو شئت فاسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافى زوجك ، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها ، فقال لها أيوب أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ، ثم أقسم لئن عافانى الله لأجلدنك مائة جلدة ، وقال عند ذلك (مسنى الضر) يعنى من طمع إبليس فى سجودى له وسجود زوجتى ودعائه إياها وإياى إلى الكفر . (الرواية الرابعة) قال وهب كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته ، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئاً من الطعام فلم تجد شيئاً فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته بذلك ، فحينئذ قال (مسنى الضر) . (الرواية الخامسة) قال إسماعيل السدى لم يقل أيوب مسنى الضر إلا لأشياء

www.besturdubooks.wordpress.com

ثلاث (أحدها) قول الرجلين له لو كان عملك الذى كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذى أصابك (وثانيها) كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت الى إحداها وقطعتها وباعتها فأعطوها بذلك خبزاً ولحماً فجاءت إلى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا ؟ فقالت كل فإنه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيئاً فباعت الثانية وكذلك فعلت فى اليوم الثالث ، وقالت كل فانه حلال فقال لا آكل ما لم تخبرينى فأخبرته ، فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم ، وقيل إنما باعت ذوائبها لأن إبليس تمثل لقوم فى صورة بشر ، وقال لئن تركتم أيوب فى قريتكم فانى أخاف أن يعدى إليكم مابه من العلة فأخرجوه إلى باب البلد ، ثم قال لهم إن امرأته تدخل فى بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أماتخافون أن تعدى اليكم علته ، فحينئذ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها (وثالثها) حين قالت له امرأته ماقالت فحينئذ دعا (الرواية السادسة) قيل سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها إلى موضعها ، وقال قد جعلنى الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة ، فقال مسنى الضر . فأوحى الله تعالى اليه لولا أنى جعلت تحت كل شعرة منك صبراً لما صبرت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إعلم أن المعتزلة قد طعنوا فى هذه القصة من وجوه (أحدها) قال الجبائى ذهب بعض الجهال إلى أن ما كان به من المرض كان فعلا للشيطان سلطه الله عليه ، لقوله تعالى حكاية عنه (مسنى الشيطان بنصب وعذاب) وهذا جهل ، أما أولا فلأنه لو قدر على إحداث الأمراض والأسقام وضدهما من العافية لتهيأ له فعل الأجسام ، ومن هذا حاله يكون إلهاً ، وأما ثانياً فلأن الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بأنه قال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) والواجب تصديق خبر الله تعالى ، دون الرجوع إلى مايروى عن وهب بن منبه رضى الله عنه . واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف لأن المذكور فى الحكاية أن الشيطان نفخ فى منخره فوقعت الحكة فيه ، فلم قلتم إن القادر على النفخة التى تولد مثل هذه الحكة لابد وأن يكون قادراً على خلق الأجسام ، وهل هذا إلا محض التحكم ، وأما التمسك بالنص فضعيف لأنه إنما يقدم على هذا الفعل متى علم أنه لو أقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه ، وهذه الحالة لم تحصل إلا فى حق أيوب عليه السلام على مادلت الحكاية عليه من أنه استأذن الله تعالى فأذن له فيه ، ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة (وثانيها) قالوا ماروى أنه عليه السلام لم يسأل إلا عند أمور مخصوصة فبعيد ، لأن الثابت فى العقل أنه يحسن من المرء أن يسأل فى ذلك ربه ويفزع إليه كما يحسن منه المداواة ، وإذا جاز أن يسأل ربه عند الغم مما يراه من إخوانه وأهله جاز أيضاً أن يسأل ربه من قبل نفسه ، فان قيل أفلا يجوز أنه تعالى تعبده بأن لا يسأل الكشف إلا فى آخر أمره ، قلنا يجوز ذلك بأن يعلمه بأن إنزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لامحالة ، فعلم عليه السلام أنه لا وجه للمسألة فى هذا الأمر الخاص ، فاذا قرب الوقت جاز أن يسأل ذلك ، من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقطع (وثالثها) قالوا انتهاء ذلك المرض إلى حد التنفير عنه غير

www.besturdubooks.wordpress.com

جائز : لأن الأمراض المنفرة من القبول غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام فهذا جملة ما قيل في هذه الحكاية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قوله تعالى (أني مسني الضر) أي ناداه بأني مسني الضر ، وقرىء إني بالكسر على إضمار القول أو لتضمين النداء معناه ، والضر بالفتح الضرر في كل شيء ، وبالضم الضرر في النفس من مرض وهزال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنه عليه السلام ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب ، فان قيل أليس أن الشكوى تقدح في كونه صابراً (الجواب) قال سفيان بن عيينة رحمه الله من شكا إلى الله تعالى فانه لا يعد ذلك جزعاً اذا كان في شكواه راضياً بقضاء الله تعالى اذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء ، ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام (إنما أشكو بثي وحزني الى الله) أما قوله (وأنت أرحم الراحمين) فالدليل على أنه سبحانه (أرحم الراحمين) أمور (أحدها) أن كل من رحم غيره فاما أن يرحمه طلباً للثناء في الدنيا أو الثواب في الآخرة أو دفعاً للرقة الجنسية عن الطبع ، وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه ، أما الحق سبحانه فانه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه ، ومن غير أن يعود اليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال ، فكان سبحانه أرحم الراحمين (وثانيها) أن كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك الا بمعونة رحمة الله تعالى لأن من أعطى غيره طعاما أو ثوباً أودفع عنه بلاء ، فلولاأنه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والأدوية والأغذية وإلا لما قدر أحد على إعطاء ذلك الشيء ، ثم بعد وصول تلك العطية اليه . فلولا أنه سبحانه جعله سبباً للراحة لما حصل النفع بذلك ، فاذاً رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة في البحر ، فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين (وثالثها) أن الله تعالى لو لم يخلق في قلب العبد تلك الدواعي والإرادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه ، فكان الراحم هو الحق سبحانه ، من حيث إنه هو الذي أنشأ تلك الداعية . فثبت أنه أرحم الراحمين . فإن قيل كيف يكون أرحم الراحمين مع أنه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والأسقام والأمراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والإيذاء ، وكان قادراً على أن يغني كل واحد عن إيلام الآخر وإيذائه ؟(والجواب) أن كونه سبحانه ضاراً لا ينافي كونه نافعاً . بل هو الضار النافع فإضراره ليس لدفع مشقة وإنفاعه ليس لجلب منفعة ، بل لا يسأل عما يفعل .

أما قوله تعالى (فاستجبنا له) فانه يدل على أنه دعا ربه ، لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعاً منه على سبيل التعريض ، كما يقال إن رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا . ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وإن كان الأليق بالادب وبدلالة الآية هو الأول ، ثم إنه سبحانه بين أنه كشف ما به من ضر وذلك يقتضي إعادته إلى ما كان في بدنه وأحواله ، وبين الله تعالى أنه آتاه أهله ويدخل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

فيه من ينسب إليه من زوجة ولد وغيرهما ثم فيه قولان (أحدهما) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب رضي الله عنهم أن الله تعالى أحيا له أهله يعنى أولاده بأعيانهم (والثانى) روى الليث رضى الله عنه ، قال أرسل مجاهد إلى عكرمة وسأله عن الآية فقال قيل له إن أهلك لك فى الآخرة فإن شئت عجلناهم لك فى الدنيا ، وإن شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا . فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا . والقول الأول أولى لأن قوله (وآتيناه أهله) يدل بظاهره على أنه تعالى أعادهم فى الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضاً .

وأما قوله تعالى (وذكرى للعابدين) ففيه دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكى يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين فى الصبر والإحتساب ، وإنما خص العابدين بالذكر [ى] لأنهم يختصون بالإنتفاع بذلك .

﴿ القصة السابعة ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإسمعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ، وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه إليه أتبعه بذكر هؤلاء فإنهم كانوا أيضاً من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة ، أما إسمعيل عليه السلام فلأنه صبر على الإنقياد للذبح ، وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولاضرع ولابناء ، وصبر فى بناء البيت ، فلاجرم أكرمه الله تعالى وأخرج صلبه خاتم النبيين ، وأما إدريس عليه السلام فقد تقدمت قصته فى سورة مريم عليها السلام ، قال ابن عمر رضى الله عنهما « بعث إلى قومه داعياً لهم إلى الله تعالى فأبوا فأهلكهم الله تعالى ورفع إدريس إلى السماء الرابعة » وأما ذوا الكفل ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيها بحثان :

﴿ الأول ﴾ قال الزجاج الكفل فى اللغة الكساء الذى يجعل على عجز البعير ، والكفل أيضاً النصيب واختلفوا فى أنه لم سمى بهذا الاسم على وجوه (أحدها) وهو قول المحققين أنه كان له ضعف عمل الأنبياء عليهم السلام فى زمانه وضعف ثوابهم (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية « إن نبياً من أنبياء بنى اسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله إليه أنى أريد قبض روحك ، فاعرض ملكك على بنى اسرائيل ، فمن تكفل لك أنه يصلى بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ، ويقضى بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك إليه ، فقام ذلك النبى فى بنى إسرائيل

www.besturdubooks.wordpress.com

وأخبرهم بذلك ، فقام شاب وقال أنا أتكفل لك بهذا ، فقال فى القوم من هو أكبر منك فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال أتكفل لك بهذه الثلاث فدفع إليه ملكه ، ووفى بما ضمن . فحسده ابليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل ، فقال إن لى غريماً قد مطلنى حقى وقد دعوته إليك فأبى فأرسل معى من يأتيك به ، فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد إلى صلاته وصلى ليله إلى الصباح ، ثم أتاه من الغد عند القيلولة فقال إن الرجل الذى استأذنتك له فى موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به ، فذهب وبقى منتظراً حتى فاتته القيلوله ، ثم أتاه فقال له هرب منى فمضى ذو الكفل إلى صلاته فصلى ليلته حتى أصبح ، فأتاه ابليس وعرفه نفسه ، وقال له حسدتك على عصمة الله إياك فاردت أن أخرجك حتى لا تفى بما تكفلت به . فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه ، فسمى ذا الكفل » وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة (وثالثها) قال مجاهد لما كبر اليسع عليه السلام ، قال لو أنى استخلفت رجلا على الناس فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل ، فجمع الناس وقال من يتقبل منى حتى استخلفه ثلاثاً يصلى بالليل ويصوم بالنهار ويقضى فلا يغضب ، وذكر على كرم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضى الله عنه من فعل إبليس وتفويته عليه القيلولة ثلاثة أيام . وزاد أن ذا الكفل قال للبواب فى اليوم الثالث قد غلب على النعاس فلا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإنى قد شق على النعاس ، فجاء إبليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة فى البيت وتسور فيها فإذا هو يدق الباب من داخل ، فاستيقظ الرجل وعاتب البواب . فقال أما من قبلى فلم تؤت . فقام إلى الباب فاذا هو مغلق وإبليس على صورة شيخ معه فى البيت ، فقال له أتنام والخصوم على الباب. فعرفه فقال أنت إبليس قال نعم أعييتنى فى كل شىء ففعلت هذه الأفعال لأغضبك فعصمك الله منى. فسمى ذا الكفل لأنه قد وفى بما تكفل به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً ، وقال الحسن والأكثرون إنه من الأنبياء عليهم السلام وهذا أولى الوجوه (أحدها) أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقباً وأن يكون اسماً ، والأقرب أن يكون مفيداً ، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب . إذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم ، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو إنما سمى بذلك لأن عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان فى زمنه أنبياء على ماروى ومن ليس بنبى لا يكون أفضل من الأنبياء (وثانيها) أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسمعيل وإدريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته (وثالثها) أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل إن ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل إلياس ، ثم قالوا خمسة من الأنبياء سماهم الله تعالى باسمين : إسرائيل ويعقوب ، إلياس وذو الكفل ، عيسى والمسيح ، يونس

www.besturdubooks.wordpress.com

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾

وذوالنون، محمد وأحمد .

وأما قوله تعالى (كل من الصابرين) أى على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الأذى فى نصرة دينه . وقوله (وأدخلناهم فى رحمتنا) قال مقاتل: الرحمة النبوة ، وقال آخرون بل يتناول جميع أعمال البر والخير .

﴿القصة الثامنة ـ قصة يونس عليه السلام﴾

قوله تعالى: ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ إعلم أن ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه لاخلاف فى أن ذا النون هو يونس عليه السلام لأن النون هو السمكة ، وقد ذكرنا أن الإسم إذا دار بين أن يكون لقباً محضاً وبين أن يكون مفيداً ، فحمله على المفيد أولى ، خصوصاً إذا علمت الفائدة التى يصلح لها ذلك الوصف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن وقوعه عليه السلام فى بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى أو بعده (أما القول الأول) فقال ابن عباس رضى الله عنه: كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً، وبقى سبطان ونصف . فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبى عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبياً قوياً أميناً فإنى ألقى فى قلوب أولئك أن يرسلوا معه بنى إسرائيل . فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء، فقال يونس بن متى فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس : هل أمرك الله باخراجى ؟ قال لا . قال فهل سمانى لك ؟ قال لا قال فهينا أنبياء غيرى ، فألحوا عليه فخرج مغاضباً للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوما هيأوا سفينة فركب معهم فلما تلججت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا ، فقال الملاحون ههنا رجل عاص أو عبد آبق لأن السفينة لاتفعل هذا من غير ريح إلا وفيها رجل عاص ، ومن رسمنا أنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه فى البحر، ولأن يغرق [و]احد خير من أن تغرق السفينة ، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام ، فقال أنا

www.besturdubooks.wordpress.com

الرجل العاصي والعبد الآبق ، وألقى نفسه فى البحر فجاء حوت فابتلعه ، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة . فانى جعلت بطنك سجناً له ولم أجعله طعاماً لك ، ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد ، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد ، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له : أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون ، حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم . ثم أوحى الله إليه وأمره أن يذهب اليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام ، وقال لملكهم إن الله تعالى أرسلني إليك لترسل معي بني إسرائيل ، فقالوا ما نعرف ما تقول ، ولو علمنا أنك صادق لفعلنا ، ولقد أتيناكم فى دياركم وسبيناكم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم ، فطاف ثلاثة أيام يدعوهم الى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى إليه : قل لهم إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب فأبلغهم فأبوا ، فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ، ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا فى دينهم ، فقالوا انظروا واطلبوه فى المدينة فان كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شيء ، وإن كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم إنه خرج العشى فلما آيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والأمهات ، ثم قاموا ينتظرون الصبح . فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما فى بطونها ، وصاح الصبيان وثغت الأغنام والبقر ، فرفع الله تعالى عنهم العذاب ، فبعثوا إلى يونس عليه السلام وآمنوا به ، وبعثوا معه بني إسرائيل . فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، ودليل هذا القول قوله تعالى فى سورة الصافات (فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون) وفى هذا القول رواية أخرى وهي أن جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام انطلق إلى أهل نينوى وأنذرهم أن العذاب قد حضرهم ، فقال يونس عليه السلام ألتمس دابة فقال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى السفينة ، وباقي الحكاية كما مرت إلى أن التقمه الحوت فانطلق إلى أن وصل إلى نينوى فألقاه هناك .

(أما القول الثاني) وهو أن قصة الحوت كانت بعد دعائه أهل نينوى وتبليغه رسالة الله اليهم قالوا إنهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب ، فلما كشف العذاب عنهم بعد ما توعدهم به خرج منهم مغاضباً ، ثم ذكروا فى سبب الخروج والغضب أموراً (أحدها) أنه استحى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب (وثانيها) أنه كان من عادتهم قتل الكاذب (وثالثها) أنه دخلته الأنفة (ورابعها) لما لم ينزل العذاب بأولئك ، وأكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضباً بعد أن أرسله الله تعالى اليهم ، وبعد رفع العذاب عنهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ حتج القائلون بجواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من

www.besturdubooks.wordpress.com

وجوه (أحدها) أن أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس مغاضباً لربه ويقال ، هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبي وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فاذا كان كذلك فيلزم أن مغاضبته لله تعالى من أعظم الذنوب ، ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضا كان محظوراً لأن الله تعالى قال (فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت) وذلك يقتضى أن ذلك الفعل من يونس كان محظوراً (وثانيها) قوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) وذلك يقتضى كونه شاكا فى قدرة الله تعالى (وثالثها) قوله (إنى كنت من الظالمين) والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) (ورابعها) أنه لولم يصدر منه الذنب ، فلم عاقبه الله بأن ألقاه فى بطن الحوت (وخامسها) قوله تعالى فى آية أخرى (فالتقمه الحوت وهو مليم) والمليم هو ذو الملامة ، ومن كان كذلك فهو مذنب (وسادسها) قوله (ولا تكن كصاحب الحوت) فان لم يكن صاحب الحوت مذنباً لم يجز النهى عن التشبه به وإن كان مذنباً فقد حصل الغرض (وسابعها) أنه قال (ولا تكن كصاحب الحوت) وقال (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) فلزم أن لا يكون يونس من أولى العزم وكان موسى من أولى العزم ، ثم قال : فى حقه لو كان ابن عمران حياً ما وسعه إلا اتباعى ، وقال : فى يونس «لا تفضلونى على يونس بن متى» وهذا خارج عن تفسير الآية (والجواب) عن الأول أنه ليس فى الآية من غاضبه ، لكنا نقطع على أنه لا يجوز على نبى الله أن يغاضب ربه ؛ لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للأمر والنهى والجاهل بالله لا يكون مؤمناً فضلا عن أن يكون نبياً ، وأما ما روى أنه خرج مغاضباً لأمر يرجع إلى الاستعداد ، وتناول النفل فما يرتفع حال الأنبياء عليهم السلام عنه ، لأن الله تعالى إذا أمرهم بشىء فلا يجوز أن يخالفوه لقوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم) وقوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) إلى قوله (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) فاذا كان فى الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم ، وإذا ثبت أنه لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله تعالى ، وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضباً لغير الله . والغالب أنه إنما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أوهما جميعاً ، ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها ، وقرأ أبو شرف مغضباً .

أما قوله مغاضبة القوم أيضاً كانت محظورة لقوله تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) فلنا لا نسلم أنها كانت محظورة ، فان الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة اليهم ، وما أمره بأن يبقى معهم أبداً فظاهر الأمر لا يقتضى التكرار ، فلم يكن خروجه من بينهم معصية ، وأما الغضب فلا نسلم أنه معصية وذلك لأنه لما لم يكن منهياً عنه قبل ذلك فظن أن ذلك جائز ، من حيث إنه لم يفعله إلا غضباً لله تعالى وأنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله ، بل كان الأولى له أن يصابر وينتظر الإذن من الله

www.besturdubooks.wordpress.com

تعالى فى المهاجرة عنهم ، ولهذا قال تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) كأن الله تعالى أراد لمحمد ﷺ أفضل المنازل وأعلاها (والجواب) عن الشبهة الثانية وهى التمسك بقوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) أن نقول من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين ، فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام فاذن لابد فيه من التأويل وفيه وجوه : (أحدها) (فظن أن لن نقدر عليه) لن نضيق عليه وهو كقوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى يضيق (ومن قدر عليه رزقه) أى ضيق (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه) أى ضيق ومعناه أن لن نضيق عليه ، واعلم أن على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا ، وذلك لأن يونس عليه السلام ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج ، وأنه تعالى لا يضيق عليه فى اختياره ، وكان فى المعلوم أن الصلاح فى تأخر خروجه ، وهذا من الله تعالى بيان لما يجرى مجرى العذر له من حيث خرج ، لا على تعمد المعصية لكن لظنه أن الأمر فى خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر ، وكان الصلاح خلاف ذلك (وثانيها) أن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه فى خروجه من قومه من غير انتظار لأمر الله تعالى (وثالثها) أن تفسر القدرة بالقضاء فالمعنى فظن أن لن نقضى عليه بشدة ، وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبى ، ورواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهم واختيار الفراء والزجاج ، قال الزجاج نقدر بمعنى نقدر . يقال قدر الله الشىء قدراً وقدره تقديراً ، فالقدر بمعنى التقدير وقرأ عمر بن عبدالعزيز والزهرى (فظن أن لن نقدر عليه) بضم النون والتشديد من التقدير ، وقرأ عبيد بن عمر بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب (يقدر عليه) بالتخفيف على المجهول ، وروى أنه دخل ابن عباس رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه ، فقال معاوية لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصاً إلا بك فقال : وما هى ؟ قال : يظن نبى الله أن لن يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا من القدر لا من القدرة (ورابعها) فظن أن لن نقدر أى فظن أن لن نفعل لأن بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازاً عن الآخر (وخامسها) أنه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه عن ابن زيد (وسادسها) أن على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلا قبل الرسالة ، ولا يبعد فى حق غير الأنبياء والرسل أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان . ثم إنه يرده بالحجة والبرهان (والجواب) عن الثالث وهو التمسك بقوله (إنى كنت من الظالمين) فهو أن نقول إنا لو حملناه على ما قبل النبوة فلا كلام ، ولو حملناه على ما بعدها فهى واجبة التأويل لأنا لو أجريناها على ظاهرها ، لوجب القول بكون النبى مستحقاً للعن ، وهذا لا يقوله مسلم . وإذا وجب التأويل فنقول لا شك أنه كان تاركا للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل فكان ذلك ظلما (والجواب) عن الرابع أنا لا نسلم أن ذلك كان عقوبة إذ الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، بل المراد به المحنة . لكن كثير من المفسرين يذكرون فى كل مضرة تفعل

www.besturdubooks.wordpress.com

لأجل ذنب أنها عقوبة (والجواب) عن الخامس أن الملامة كانت بسبب ترك الأفضل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال صاحب الكشاف فى الظلمات أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى (ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات) وقوله (يخرجونهم من النور الى الظلمات) ومنهم من اعتبر أنواعا مختلفة من الظلمات فان كان النداء فى الليل فهناك ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت ، وإن كان فى النهار أضيف إليه ظلمة أمعاء الحوت ، أو أن حوتا ابتلع الحوت الذى هو فى بطنه ، أو لأن الحوت اذا عظم غوصه فى قعر البحر كان ما فوقه من البحر ظلمة فى ظلمة ، أما قول من قال إن الحوت الذى ابتلعه غاص فى الأرض السابعة فان ثبت ذلك بخبر فلا كلام ، وإن قيل بذلك لكى يقع نداؤه فى الظلمات فما قدمناه يغنى عن ذلك .

أما قوله : (أن لا إله إلا أنت) فالمعنى بأنه لا إله إلا أنت ، أو بمعنى أى ، عن النبى ﷺ أنه قال «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيبَ له» وعن الحسن : ما نجاه الله تعالى إلا بإقراره عن نفسه بالظلم .

أما قوله سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز ، وهذا يدل على أنه ما كان مراده من قوله (فظن أن لن نقدر عليه) أنه ظن العجز . وإنما قال (سبحانك) لأن تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جوراً أو شهوة للانتقام ، أو عجزاً عن تخليصى عن هذا الحبس ، بل فعلته بحق الإلهية وبمقتضى الحكمة .

أما قوله (إنى كنت من الظالمين) فالمعنى ظلمت نفسى بفرارى من قومى بغير إذنك ، كأنه قال كنت من الظالمين ، وأنا الآن من التائبين النادمين ، فاكشف عنى المحنة . يدل عليه قوله (فاستجبنا له) وفيه وجه آخر وهو أنه عليه السلام وصفه بقوله (لا إله إلا أنت) بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله (إنى كنت من الظالمين) بضعف البشرية والقصور فى أداء حق الربوبية ، وهذا القدر يكفى فى السؤال على ما قال المتنبى :

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى كلام عندها وخطاب

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبى ﷺ قال « لما أراد الله حبس يونس عليه السلام ، أوحى إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً » فأخذه وهوى به إلى أسفل البحر ، فسمع يونس عليه السلام حساً ، فقال فى نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه هذا تسبيح دواب البحر ، قال فسبح ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا مثله .

أما قوله (فنجيناه من الغم) أى من غمه بسبب كونه فى بطن الحوت ، وبسبب خطيئته ، وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس إذ دعانا (كذلك ننجى المؤمنين) من كربهم إذا استغاثوا بنا . روى سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ قال « دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين ، ما دعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب إلا استجاب الله دعاءه»

www.besturdubooks.wordpress.com

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

قال صاحب الكشاف قرئ نجى وننجى ونجى والنون لا تدغم فى الجيم ، ومن تمحل لصحته لجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره ، ونصب المؤمنين بالنجاء ، فتعسف بارد التعسف .

﴿ القصة التاسعة — قصة زكريا عليه السلام ﴾

قوله تعالى :﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيي واصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾

إعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام إلى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده ، وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائماً مقامه بعد موته ، فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك ، وإن انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره إلى اليأس من ذلك بحكم العادة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان سنه مائة وسن زوجته تسعاً وتسعين .

أما قوله (وأنت خير الوارثين) ففيه وجهان (أحدهما) أنه عليه السلام إنما ذكره فى جملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن علمه بأن مآل الأمور إلى الله تعالى (والثانى) كأنه عليه السلام قال « إن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فانك خير وارث » .

وأما قوله تعالى (فاستجبنا له) أى فعلنا ماأراده لأجل سؤاله ، وفى ذلك إعظام له ، فلذلك تقول العلماء بأن الاستجابة ثواب لما فيه من الإعظام .

وأما قوله تعالى (ووهبنا له يحيي) فهو كالتفسير للاستجابة وفى تفسير قوله (وأصلحنا له زوجه) ثلاثة أقوال (أحدها) أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع بالعادة ، وهذا أليق بالقصة (والثانى) أنه أصلحها فى أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه (والثالث) أنه سبحانه جعلها مصلحة فى الدين ، فان صلاحها فى الدين من أكبر أعوانه فى كونه داعياً إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام ، سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعاً ، وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل أصلح الله فلاناً فالأظهر فيه ما يتصل بالدين ، واعلم أن قوله (ووهبنا له يحيي وأصلحنا له زوجه) يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره فى اللفظ وبين تعالى مصداق ماذكرناه فقال (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ماطلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون فى الخيرات ، والمسارعة فى طاعة الله تعالى من أكبر مايمدح المرء به لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة .

أما قوله تعالى (ويدعوننا رغباً ورهباً) قرئ رُغباً ورهباً وهو كقوله (يحذرالآخرة ويرجو رحمة ربه) والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين (أحدهما) الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه (والثانى) الخشوع وهو المخافة الثابتة فى القلب ، فيكون الخاشع هو الحذر الذى لاينبسط فى الأمور خوفاً من الإثم .

﴿ القصة العاشرة — قصة مريم عليها السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾

إعلم أن التقدير واذكر التى أحصنت فرجها ، ثم فيه قولان (أحدهما) أنها أحصنت فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت (ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً) (والثاني) من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه والأول أولى لأنه الظاهر من اللفظ.

وأما قوله (فنفخنا فيها من روحنا) فلقائل أن يقول : نفخ الروح فى الجسد عبارة عن إحيائه قال تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) أى أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله (فنفخنا فيها من روحنا) ظاهر الأشكال لأنه يدل على إحياء مريم عليها السلام (والجواب) من وجوه (أحدها) معناه فنفخنا الروح فى عيسى فيها ، أى أحييناه فى جوفها كما يقول الزمار نفخت فى بيت فلان أى فى المزمار فى بيته (وثانيها) فعلنا النفخ فى مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لأنه نفخ فى جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها ثم بين تعالى بأخصر الكلام ماخص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال (وجعلناها وابنها آية للعالمين) أما مريم فآياتها كثيرة (أحدها) ظهور الحبل فيها لا من ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة (وثانيها) أن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى (أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله) (وثالثها ورابعها) قال الحسن إنها لم تلتقم ثديا يوما قط وتكلمت هى أيضاً فى صباها كما تكلم عيسى عليه السلام ، وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها فبين سبحانه أنه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾

وتعالى فان قيل هلا قيل آيتين كما قال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) ؟ قلنا لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة ، وهي ولادتها إياه من غير فحل . وههنا آخر القصص .

قوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾

قال صاحب الكشاف الأمة الملة وهو إشارة إلى ملة الإسلام ، أي أن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها يشار إليها بملة واحدة غير مختلفة ، وأنا إلهكم إله واحد فاعبدون . ونصب الحسن أمتكم على البدل من هذه ورفع أمة خبراً وعنه رفعهما جميعاً خبرين أو نوى للثاني المبتدأ .

أما قوله تعالى (وتقطعوا أمرهم بينهم) والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء . والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى .

أما قوله تعالى (كل إلينا راجعون) فقد توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم ، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « تفرقت بنو اسرائيل على إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة ، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة فتهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة ، قالوا يا رسول الله من تلك الفرقة الناجية ؟ قال الجماعة الجماعة الجماعة » فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى (وأن هذه أمتكم) الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات ، وأن في قول الرسول ﷺ في الناجية إنها الجماعة إشارة إلى أن هذه أشار بها إلى أمة الإيمان وإلا كان قوله في تعريف الفرقة الناجية إنها الجماعة لغواً إذ لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق إلا وهي جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم في صحة هذا الخبر ، فقال إن أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الأديان فلم يبلغ هذا القدر ، وإن أراد الفروع فانها تتجاوز هذا القدر إلى أضعاف ذلك ، وقيل أيضاً قد روى ضد ذلك ، وهو أنها كلها ناجية إلا فرقة واحدة (والجواب) المراد ستفترق أمتي في حال ما وليس فيه دلالة على افتراقها في سائر الأحوال لا يجوز أن يزيد وينقص .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ لَة مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ «٩٧»

قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون ، وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون ، حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ .

اعلم أنه سبحانه لما ذكر أمر الأمة من قبل وذكر تفرقهم وأنهم أجمع راجعون إلى حيث لا أمر إلا له أتبع ذلك بقوله (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه بين أن من جمع بين أن يكون مؤمناً وبين أن يعمل الصالحات فيدخل فى الأول العلم والتصديق بالله ورسوله وفى الثانى فعل الواجبات وترك المحظورات (فلا كفران لسعيه) أى لابطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً) فالكفران مثل فى حرمان الثواب والشكر مثل فى إعطائه وقوله (فلا كفران) المراد نفى الجنس ليكون فى نهاية المبالغة لأن نفى الماهية يستلزم نفى جميع أفرادها .

وأما قوله تعالى (وإنا له كاتبون) فالمراد وإنا لسعيه كاتبون ، فقيل المراد حافظون لنجازى عليه ، وقيل كاتبون إما فى أم الكتاب أو فى الصحف التى تعرض يوم القيامة ، والمراد بذلك ترغيب العباد فى التمسك بطاعة الله تعالى .

أما قوله (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون) فاعلم أن قوله (وحرام) خبر فلا بد له من مبتدأ وهو إما قوله (أنهم لايرجعون) أو شيء آخر أما الاول فالتقدير أن عدم رجوعهم حرام أى ممتنع وإذا كان عدم رجوعهم ممتنعاً كان رجوعهم واجباً فهذا الرجوع إما أن يكون المراد منه الرجوع إلى الآخرة أو إلى الدنيا (أما الأول) فيكون المعنى أن رجوعهم إلى الحياة في الدار الآخرة واجب ، ويكون الغرض منه إبطال قول من ينكر البعث ، وتحقيق ماتقدم أنه لا

www.besturdubooks.wordpress.com

كفران لسعي أحد فانه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل أبي مسلم بن بحر. (وأما الثاني) فيكون المعنى أن رجوعهم إلى الدنيا واجب لكن المعلوم أنهم لم يرجعوا إلى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين (الأول) أن الحرام قد يجيء بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر أما الآية فقوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً) وترك الشرك واجب وليس بمحرم ، وأما الشعر فقول الخنساء :

وإن حراماً لا أرى الدهر باكياً   على شجوه إلا بكيت على عمرو

يعني وإن واجباً ، وأما الاستعمال فلأن تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) إذا ثبت هذا فالمعنى أنه واجب على أهل كل قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، ثم ذكروا في تفسير الرجوع أمرين : (أحدهما) أنهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولون عنه وهو قول مجاهد والحسن (وثانيها) لا يرجعون إلى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل (الوجه الثاني) أن يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل في قوله (لا يرجعون) صلة زائدة كما أنه صلة في قوله (ما منعك أن لا تسجد) والمعنى وحرام على قرية أهلكناها رجوعهم إلى الدنيا وهو كقوله (فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) أو يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الإيمان ، وهذا قول طائفة من المفسرين ، وهذا كله إذا جعلنا قوله وحرام خبراً لقوله (أنهم لا يرجعون) أما إذا جعلناه خبراً لشيء آخر فالتقدير وحرام على قرية أهلكناها ذاك ، وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور ثم علل فقال (أنهم لا يرجعون) عن الكفر فكيف لا يمتنع ، ذلك هذا على قراءة إنهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها أيضاً على هذا أي أنهم لا يرجعون .

أما قوله تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ أن حتى متعلقة بحرام فأما على تأويل أبي مسلم فالمعنى أن رجوعهم إلى الآخرة واجب حتى أن وجوبه يبلغ إلى حيث أنه إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ، والمعنى أنهم يكونون أول الناس حضوراً في محفل القيامة فحتى متعلقة بحرام وهي غاية له ولكنه غاية من جنس الشيء كقولك دخل الحاج حتى المشاة : وحتى ههنا هي التي يحكى بعدها الكلام . والكلام المحكي هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعني قوله (إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، واقترب الوعد الحق) فهناك يتحقق شخوص أبصار الذين كفروا ، وذلك غير جائز لأن الشرط إنما يحصل في آخر أيام الدنيا والجزاء إنما يحصل في يوم القيامة ، والشرط والجزاء لابد وأن يكونا متقاربين ، قلنا التفاوت القليل يجري مجرى المعدوم ، وأما على التأويلات الباقية فالمعنى أن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم الساعة .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (حتى إذا فتحت) المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وأدخلت علامة التانيث فى فتحت لما حذف المضاف لأن يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين ، وقيل حتى إذا فتحت جهة يأجوج

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هما قبيلتان من جنس الإنس ، يقال : الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قيل السد يفتحه الله تعالى ابتداء . وقيل بل إذا جعل الله تعالى الأرض دكا زالت الصلابة عن أجزاء الأرض فحينئذ ينفتح السد .

أما قوله تعالى (وهم من كل حدب ينسلون) فحشو فى أثناء الكلام ، والمعنى إذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت أبصار الذين كفروا ، والحدب النشز من الأرض ، ومنه حدبة الأرض ، ومنه حدبة الظهر ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما من كل جدث ينسلون ، اعتباراً بقوله (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) وقرىء بضم السين ونسل وعسل أسرع ثم فيه قولان ، قال أكثر المفسرين إنه كناية عن يأجوج ومأجوج ، وقال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين أى يخرجون من قبورهم من كل موضع فيحشرون إلى موقف الحساب ، والأول هو الأوجه وإلا لتفكك النظم ، وأن يأجوج ومأجوج إذا كثروا على ما روى فى الخبر ، فلا بد من أن ينشروا فيظهر إقبالهم على الناس من كل موضع مرتفع

أما قوله تعالى (واقترب الوعد الحق) فلا شبهة أن الوعد المذكور هو يوم القيامة

أما قوله (فإذا هى) فاعلم أن إذا ههنا للمفاجأة فسمى الموعد وعداً تجوزاً ، وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله (إذا هم يقنطون) فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل (إذا هى شاخصة) أو فهى شاخصة كان سديداً ، أما لفظة (هى) فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون كناية عن الأبصار ، والمعنى فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الابصار ثم أظهر (والثانى) أن تكون عماداً ويصلح فى موضعها هو فيكون كقوله (إنه أنا الله) ومثله (فانها لا تعمى الأبصار) وجاز التأنيث لأن الأبصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد وهو قول الفراء ، وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة ، يعنى أن القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ، ومعنى الكلام أن القيامة إذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الأهوال ، فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ، ومن توقع ما يخافونه ، ويقولون (يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) يعنى فى الدنيا حيث كذبناه وقلنا إنه غير كائن بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعبادة الأوثان ، واعلم أنه لابد قبل قوله ياويلنا من حذف والتقدير يقولون ياويلنا .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾

إعلم أن قوله (إنكم) خطاب لمشركي مكة وعبدة الأوثان.

أما قوله تعالى (وما تعبدون من دون الله) روى أنه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية فأقبل عبدالله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه، فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك؟ قال نعم، قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنوا مليح عبدوا الملائكة (١) ثم روى فى ذلك روايتان (إحداها) أن رسول الله ﷺ سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) ونزل فى عيسى والملائكة (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية هذا قول ابن عباس (الرواية الثانية) أنه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فأنزل الله سبحانه (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية يعنى عزيراً والمسيح والملائكة واعلم أن سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه (أحدها) أن قوله (إنكم) خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركى مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط (وثانيها) أنه لم يقل ومن تعبدون بل قال ما تعبدون وكلمة مالا تتناول العقلاء.

أما قوله تعالى (والسماء وما بناها) وقوله (لا أعبد ما تعبدون) فهو محمول على الشيء ونظيره ههنا أن يقال إنكم والشيء الذى تعبدون من دون الله لكن لفظ الشيء لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى (وثالثها) أن من عبد الملائكة لا يدعى أنهم آلهة، وقال سبحانه (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) (ورابعها) هب أنه ثبت العموم لكنه

١) لهذا الخبر تتمة، وهى أن الرسول صلى الله عليه وسلم رد على ابن الزبعري حينئذاك بقوله « ما أجهلك بلغة قومك! ما لما لا يعقل » أي ان العرب جعلوا من للعقلاء وما لغيرهم وعزير والأنبياء والملائكة من العقلاء فلا يشار إليهم بما.

www.besturdubooks.wordpress.com

مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية فى حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصى، ووعد الله إياهم بكل مكرمة، وهذا هو المراد من قوله سبحانه (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) (وخامسها) الجواب الذى ذكره رسول الله ﷺ وهو أنهم كانوا يعبدون الشياطين، فإن قيل الشياطين عقلاء، ولفظ ما لا يتناولهم فكيف قال الرسول ﷺ ذلك؟ قلنا كأنه عليه السلام قال: لو ثبت لكم أنه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضاً غير لازم من هذا الوجه. وأما ما قيل إنه عليه السلام سكت عند إيراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لأنه لا أقل من أنه عليه السلام كان يتنبه لهذه الأجوبة التى ذكرها المفسرون، لأنه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن، فكيف يجوز أن تظهر هذه الأجوبة لغيره، ولا يظهر شىء منها له عليه السلام. فإن قيل جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظاراً للبيان قلنا لما كان البيان حاضراً معه لم يجز عليه السكوت لكى لا يتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم، ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال إن الله تعالى يصور لهم فى النار ملكا على صورة من عبدوه، وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم أن هذا ضعيف من وجهين (الأول) أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وإنما عبدوا شيئاً آخر لم يحصل معهم فى النار (الثانى) وهو أن الملك لا يصير حصب جهنم فى الحقيقة وإن صح أن يدخلها، فإن خزنة النار يدخلونها مع أنهم ليسوا حصب جهنم.

﴿ المسألة الثانية ﴾ الحكمة فى أنهم قرنوا بآلهتهم أمور (أحدها) أنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة، لأنهم ما وقعوا فى ذلك العذاب إلا بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب(١) (وثانيها) أن القوم قدروا أنهم يشفعون لهم فى الآخرة فى دفع العذاب، فاذا وجدوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شىء أبغض إليهم منهم (وثالثها) أن إلقاءها فى النار يجرى مجرى الاستهزاء بعبادها (ورابعها) قيل ما كان منها حجراً أو حديداً يحمى ويلزق بعبادها، وما كان خشباً يجعل جمرة يعذب بها صاحبها.

أما قوله تعالى (حصب جهنم) فالمراد يقذفون فى نار جهنم فشبههم بالحصباء التى يرمى بها الشىء فلما رمى بها كرمى الحصباء، جعلهم حصب جهنم تشبيهاً، قال صاحب الكشاف الحصب الرمى وقرىء بسكون الصاد وصفاً بالمصدر، وقرىء حطب وحضب بالضاد المنقوطة متحركا وساكناً.

أما قوله تعالى (أنتم لها واردون) فإنما جاز مجىء اللام فى لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب كقوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم) (والذين هم لفروجهم) أى أنتم فيها داخلون، والمعنى أنه لابد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها.

أما قوله تعالى (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) فاعلم أن قوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) بالأصنام أليق لدخول لفظة ما، وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد

---

(١) قال أبو الطيب المتنبى فى هذا المعنى : واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ

الشياطين والأصنام فيغلب بأن يذكروا بعبارة العقلاء ، ونبه الله تعالى على أن من يرمى إلى النار لا يمكن أن يكون إلهاً . وههنا سؤال ، وهو أن قوله (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة ، وهذه الحجة إما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره ، فان ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لأنه كان عالماً بأنها ليست آلهة وإن ذكرها لغيره ، فاما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته ، فان ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة لأن كل من صدق بنبوته لم يقل بإلهية هذه الأصنام وإن ذكرها لمن يكذب بنبوته ، فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه فى ذلك ، فكان ذكر هذه الحجة ضائعاً كيف كان ، وأيضاً فالقائلون بآلهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم وإلا لكانوا مجانين ، بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء ، وذلك لا يمنع من دخولها فى النار (وأجيب) عن ذلك بأن المفسرين قالوا المعنى لو كان هؤلاء يعنى الأصنام آلهة على الحقيقة ماوردوها أى مادخل عابدوها النار ، ثم إنه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة (أحدها) الخلود فقال (وكل فيها خالدون) يعنى العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) (وثانيها) قوله (لهم فيها زفير) قال الحسن الزفير هو اللهيب ، أى يرتفعون بسبب لهب النار حتى إذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفاً ، قال الخليل : الزفير أن يملأ الرجل صدره غماً ثم يتنفس قال أبو مسلم وقوله لهم : عام لكل معذب ، فنقول لهم زفير من شدة ما ينالهم والضمير فى قوله (وهم فيها يسمعون) يرجع إلى المعبودين أى لا يسمعون صراخهم وشكواهم (ومعناه) أنهم لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حمده أى أجاب الله دعاءه (وثالثها) قوله (وهم فيها لا يسمعون) وفيه وجهان : (أحدهما) أنه محمول على الأصنام خاصة على ما حكيناه عن أبى مسلم (والثانى) أنها محمولة على الكفار ، ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن الكفار يحشرون صماً كما يحشرون عمياً زيادة فى عذابهم (وثانيها) أنهم لا يسمعون ما ينفعهم لأنهم إنما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة (وثالثها) قال ابن مسعود إن الكفار يجعلون فى توابيت من نار والتوابيت فى توابيت أخر فلذلك لا يسمعون شيئاً والأول ضعيف لأن أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى فى سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

كنتم توعدون ﴾ .

اعلم أن من الناس من زعم أن ابن الزبعرى لما أورد ذلك السؤال على الرسول ﷺ بقي ساكتاً حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لأن هذه الآية كالإستثناء من تلك الآية . وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا أن سؤاله لم يكن وارداً ، وأنه لا حاجة فى دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية ، وإذا ثبت هذا لم يبق ههنا إلا أحد أمرين (الأول) أن يقال إن عادة الله تعالى أنه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الأبرار ، فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك فهى عامة فى حق كل المؤمنين (الثانى) أن هذه الآية نزلت فى تلك الواقعة لتكون كالتأكيد فى دفع سؤال ابن الزبعرى ، ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها ، لا أن الآية مختصة بهم ، ومن قال : العبرة بخصوص السبب خصص قوله (إن الذين) بهؤلاء فقط .

أما قوله تعالى (سبقت لهم منا الحسنى) فقال صاحب الكشاف : الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تأنيث الأحسن ، وهى إما السعادة وإما البشرى بالثواب ، وإما التوفيق للطاعة . والحاصل أن مثبتى العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكرى العفو حملوه على وعد الثواب ، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أموراً خمسة : (أحدها) قوله (أولئك عنها مبعدون) فقال أهل العفو معناه أولئك عنها مخرجون ، واحتجوا عليه بوجهين (الأول) قوله (وإن منكم إلا واردها) أثبت الورود وهو الدخول ، فدل على أن هذا الابعاد هو الإخراج (الثانى) أن أبعاد الشيء عن الشيء لا يصح إلا إذا كانا متقاربين لأنهما لو كانا متباعدين استحال إبعاد أحدهما عن الآخر ، لأن تحصيل الحاصل محال ، واحتج القاضى عبد الجبار على فساد هذا القول الأول بأمور (أحدها) أن قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) يقتضى أن الوعد بثوابهم قد تقدم فى الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لو صح ذلك (وثانيها) أنه تعالى قال (أولئك عنها مبعدون) وكيف يدخل فى ذلك من وقع فيها (وثالثها) قوله تعالى (لا يسمعون حسيسها) وقوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) يمنع من ذلك (والجواب) عن الأول لا نسلم أن [يقال] المراد من قوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم ، ولم لا يجوز أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو ، سلمنا أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب ، لكن لم قلتم إن الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فان عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب (وعن الثانى) أنا بينا أن قوله (أولئك عنها مبعدون) لا يمكن إجراؤه على ظاهره إلا فى حق من كان فى النار (وعن الثالث) أن قوله (لا يسمعون حسيسها) مخصوص بما بعد الخروج .

www.besturdubooks.wordpress.com

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا

أما قوله (لايحزنهم الفزع الأكبر) فالفزع الأكبر هو عذاب الكفار ، وهذا بطريق المفهوم يقتضى أنهم يحزنهم الفزع الأصغر ، فان لم يدل عليه فلا أقل من أن لا يدل على ثبوته ولا على عدمه (الوجه الثانى) فى تفسير قوله (أولئك عنها مبعدون) أن المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لايدخلون النار ولا يقربونها البتة ، وعلى هذا القول بطل قول من يقول إن جميع الناس يردون النار ثم يخرجون الى الجنة ، لأن هذه الآية مانعة منه وحينئذ يجب التوفيق بينه وبين قوله (وإن منكم إلا واردها) وقد تقدم . (الصفة الثانية) قوله تعالى (لا يسمعون حسيسها) والحسيس الصوت الذى يحس ، وفيه سؤالان (الأول) أى وجه فى أن لايسمعوا حسيسها من البشارة ولو سمعوه لم يتغير حالهم . قلنا المراد تأكيد بعدهم عنها لأن من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها (السؤال الثانى) أليس أن أهل الجنة يرون أهل النار فكيف لا يسمعون حسيس النار ؟ (الجواب) إذا حملناه على التأكيد زال هذا السؤال . (الصفة الثالثة) قوله (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) والشهوة طلب النفس للذة يعنى نعيمها مؤبد ، قال العارفون للنفوس شهوة وللقلوب شهوة وللأرواح شهوة ، وقال الجنيد : سبقت العناية فى البداية ، فظهرت الولاية فى النهاية . (الصفة الرابعة) قوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) وفيه وجوه (أحدها) أنها النفخة الأخيرة لقوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) (ثانيها) أنه الموت قالوا اذا استقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت فى صورة كبش أملح فيقول لأهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادى ياأهل الجنة خلود ولا موت أبداً ، وكذلك لأهل النار واحتج هذا القائل بأن قوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) إنما ذكر بعد قوله (وهم فيها خالدون فلا بد وأن يكون لأحدهما تعلق بالآخر ، والفزع الأكبر الذى هو ينافى الخلود هو الموت (وثالثها) قال سعيد بن جبير هو إطباق النار على أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة ، قال القاضى عبدالجبار : الأولى فى ذلك إنه الفزع من النار عند مشاهدتها لأنه لا فزع أكبر من ذلك ، فاذا بين تعالى أن ذلك لايحزنهم فقد صح أن المؤمن آمن من أهوال يوم القيامة ، وهذا ضعيف لأن عذاب النار على مراتب فعذاب الكفار أشد من عذاب الفساق ، واذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة ، فلا يلزم من نفى الفزع الأكبر نفى الفزع من النار .

(الصفة الخامسة) قوله (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) قال الضحاك هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم ويقولون لهم مبشرين (هذا يومكم الذى كنتم توعدون)

قوله تعالى : ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ

كنا فاعلين ، ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾.

اعلم أن التقدير لايحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوى للسماء ، أو وتتلقاهم الملائكة يوم نطوى السماء . وقرىء يوم تطوى السماء على البناء للمفعول والسجل بوزن العتل والسجل بوزن الدلو وروى فيه الكسر ، وفى السجل قولان (أحدهما) أنه اسم للطومار الذى يكتب فيه والكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب ، ومن جمع فمعناه للمكتوبات أى لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة ، فيكون معنى طى السجل للكتاب كون السجل ساتراً لتلك الكتابة ومخفياً لها لأن الطى ضد النشر الذى يكشف والمعنى نطوى السماء كما يطوى الطومار الذى يكتب فيه .

(القول الثانى) أنه ليس اسما للطومار ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما : السجل اسم ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه ، وهو مروى عن على عليه السلام ، وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه إسم كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا بعيد ؛ لأن كتاب رسول الله ﷺ كانوا معروفين وليس فيهم من سمى بهذا ، وقال الزجاج : هو الرجل بلغة الحبشة ، وعلى هذه الوجوه فهو على نحو مايقال كطى زيد الكتاب واللام فى للكتاب زائدة كما فى قوله ردف لكم ، وإذا قلنا المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطى مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف والتقدير كطى الطاوى السجل ، وهذا الأخير هو قول الأكثرين

أما قوله تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قال الفراء : انقطع الكلام عند قوله الكتاب ثم ابتدأ فقال (كما بدأنا) ومنهم من قال إنه تعالى لما قال (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) عقبه بقوله (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب) فوصف اليوم بذلك ، ثم وصفه بوصف آخر فقال : (كما بدأنا أول خلق نعيده) .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قال صاحب الكشاف رحمه الله (أول خلق) مفعول (نعيد) الذى يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للاعادة بالابتداء ، فان قلت ما بال خلق منكراً ؟ قلت هو كقولك أول رجل جاءنى زيد ، تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا ، فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في كيفية الاعادة فمنهم من قال إن الله تعالى يفرق أجزاء الأجسام ولا يعدمها ثم إنه يعيد تركيبها فذلك هو الإعادة ، ومنهم من قال إنه تعالى يعدمها بالكلية ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى وهذه الآية دلالة على هذا الوجه لأنه سبحانه شبه الاعادة بالابتداء . ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم ، وجب أن يكون الحال في الإعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الأول بقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) فدل هذا على أن السموات حال كونها مطوية تكون موجودة ، وبقوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وهذا يدل على أن أجزاء الأرض باقية لكنها جعلت غير الأرض .

أما قوله تعالى (وعداً علينا) ففيه قولان : (أحدهما) أن وعداً مصدر مؤكد لأن قوله (نعيده) عدة للاعادة (الثاني) أن يكون المراد حقاً علينا بسبب الإخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ، ثم إنه تعالى حقق ذلك بقوله (إنا كنا فاعلين) أي سنفعل ذلك لا محالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد .

أما قوله تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة بضم الزاي والباقون بفتحها يعني المزبور كالحلوب والركوب يقال زبرت الكتاب أي كتبته والزبور بضم الزاي جمع زبر كقشر وقشور ، ومعنى القراءتين واحد لأن الزبر هو الكتاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في الزبور والذكر وجوه : (أحدها) وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذي هو أم الكتاب في السماء ، لأن فيها كتابة كل ما سيكون اعتباراً للملائكة وكتب الأنبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تنسخ (وثانيها) الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة وهو قول قتادة والشعبي (وثالثها) الزبور زبور داود عليه السلام ، والذكر هو الذي يروى عنه عليه السلام ، قال : كان الله تعالى ولم يكن معه شيء ، ثم خلق الذكر . وعندي فيه (وجه رابع) وهو أن المراد بالذكر العلم أي كتبنا ذلك في الزبور بعد أن كنا عالمين علماً لا يجوز السهو والنسيان علينا ، فإن من كتب شيئاً والتزمه ولكنه يجوز السهو عليه فانه لا يعتمد عليه ، أما من لم يجز عليه السهو والخلف فاذا التزم شيئاً كان ذلك الشيء واجب الوقوع .

أما قوله تعالى (أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) ففيه وجوه : (أحدها) الأرض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى فالمعنى أن الله تعالى كتب في كتب الأنبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ أنه سيورث الجنة من كان صالحاً من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور : (أما أولا) فقوله تعالى (وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر

www.besturdubooks.wordpress.com

العاملين) ، (وأما ثانياً) فلأنها الأرض التي يختص بها الصالحون لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصل معهم فى الجنة فعلى وجه التبع ، فأما أرض الدنيا فلأنها للصالح وغير الصالح (وأما ثالثاً) فلأن هذه الأرض مذكورة عقيب الاعادة وبعد الاعادة الأرض التى هذا وصفها لا تكون إلا الجنة (وأما رابعا) فقد روى فى الخبر أنها أرض الجنة فانها بيضاء نقية (وثانيها) أن المراد من الأرض أرض الدنيا فانه سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين فى الدنيا وهو قول الكلبي وابن عباس فى بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه (وعد الله الذين أمنوا) إلى قوله (ليستخلفنهم فى الأرض) وقوله تعالى (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من من يشاء من عباده) (وثالثها) هى الأرض المقدسة يرثها الصالحون ، ودليله قوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) ثم بالآخرة يورثها أمة محمد ﷺ عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام .

أما قوله تعالى (إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين) فقوله هذا إشارة الى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وماتبلغ به البغية وقيل فى العابدين إنهم العالمون وقيل بل العاملون والأولى أنهم الجامعون بين الأمرين ، لأن العلم كالشجر والعمل كالثمر ، والشجر بدون الثمر غير مفيد ، والثمر بدون الشجر غير كائن .

أما قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه عليه السلام كان رحمة فى الدين وفى الدنيا ؛ أما فى الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس فى جاهلية وضلالة ، وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والإستكبار وكان التوفيق قريناً له قال الله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) إلى قوله (وهو عليهم عمى) وأما فى الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه . فان قيل كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال ؟ قلنا (الجواب) من وجوه (أحدها) إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر ، ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم ، ثم هو منتقم من العصاة . وقال (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) ثم قد يكون سبباً للفساد (وثانيها) أن كل نبى قبل نبينا كان إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق وأنه تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة قال تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) لا يقال أليس أنه تعالى قال (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وقال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات) لأنا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه (وثالثها) أنه عليه السلام كان فى

www.besturdubooks.wordpress.com

نهاية حسن الخلق قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال أبو هريرة رضى الله عنه « قيل لرسول الله ﷺ أدع على المشركين ، قال إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً » وقال فى رواية حذيفة « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة » (ورابعها) قال عبد الرحمن بن زيد (إلا رحمة للعالمين) يعنى المؤمنين خاصة ، قال الامام أبو القاسم الأنصارى والقولان يرجعان إلى معنى واحد ، لما بينا أنه كان رحمة للكل لو تدبروا فى آيات الله وآيات رسوله ، فأما من أعرض واستكبر ، فانما وقع فى المحنة من قبل نفسه كما قال (وهو عليهم عمى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة لو كان الله تعالى أراد من الكافرين الكفر ولم يرد منهم القبول من الرسول ، بل ما أراد منهم إلا الرد عليه وخلق ذلك فيهم ولم يخلقهم إلا كذلك كما يقوله أهل السنة ، لوجب أن يكون إرساله نقمة وعذابا عليهم لا رحمة وذلك على خلاف هذا النص ، لا يقال : إن رسالته عليه السلام رحمة للكفار من حيث لم يعجل عذابهم فى الدنيا ، كما عجل عذاب سائر الأمم ، لأنا نقول إن كونه رحمة للجميع على حد واحد وما ذكرتموه للكفار فهو حاصل للمؤمنين أيضاً ، فاذا يجب أن يكون رحمة للكافرين من الوجه الذى صار رحمة للمؤمنين . وأيضاً فان الذى ذكروه من نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار قبل بعثته ﷺ كحصولها بعده ، بل كانت نعمهم فى الدنيا قبل بعثته أعظم لأن بعد بعثته نزل بهم الغم والخوف منه ، ثم أمر بالجهاد الذى فنى أكثرهم فيه فلا يجوز أن يكون هذا هو المراد (والجواب) أن نقول لما علم الله سبحانه وتعالى أن أبالهب لا يؤمن البتة وأخبر عنه أنه لا يؤمن كان أمره إياه بالايمان أمراً يقلب علمه جهلا وخبره الصدق كذباً وذلك محال ، فكان قد أمره بالمحال . وإن كانت البعثة مع هذا القول رحمة ، فلم لا يجوز أن يقال البعثة رحمة مع أنه خلق الكفر فى الكافر ؟ ولأن قدرة الكافر إن لم تصلح إلا للكفر فقط فالسؤال عليهم لازم ، وإن كانت صالحة للضدين توقف للترجيح على مرجح من قبل الله تعالى ، قطعاً للتسلسل . وحينئذ يعود الإلزام ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون رحمة للكافر بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه ؟ قوله أولا لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب أن يكون رحمة للكفار من الوجه الذى كان رحمة للمؤمنين ، قلنا ليس فى الآية أنه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد أو باعتبارين مختلفين ، فدعواك بكون الوجه واحداً تحكم . قوله نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار من قبل قلنا نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب ، فلما اندفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة فى حق الكفار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تمسكوا بهذه الآية فى أنه أفضل من الملائكة ، قالوا لأن الملائكة من العالمين ، فوجب بحكم هذه الاية أن يكون عليه السلام رحمة للملائكة ، فوجب أن يكون أفضل منهم (والجواب) أنه معارض بقوله تعالى فى حق الملائكة (ويستغفرون للذين آمنوا) وذلك رحمة

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ
ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ
﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

منهم فى حق المؤمنين ، والرسول عليه السلام داخل فى المؤمنين ، وكذا قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى) .

قوله تعالى : ﴿ إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ، فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ، إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ، قال رب أحكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾

اعلم أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج فى أن لا إله سواه من الوجوه التى تقدم ذكرها ، وبين أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين ، أتبع ذلك بما يكون إعذاراً وإنذاراً فى مجاهدتهم والإقدام عليهم ، فقال (قل إنما يوحى إلى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف إنما يقصر الحكم على شىء أو يقصر الشىء على حكم ، كقولك إنما زيد قائم أو إنما يقوم زيد ، وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية . لأن (إنما يوحى إلى) مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد (وأنما إلهكم إله واحد) بمنزلة إنما زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحى إلى رسول الله ﷺ مقصور على إثبات وحدانية الله تعالى وفى قوله (فهل أنتم مسلمون) أن الوحى الوارد على هذا السنن يوجب أن تخلصوا التوحيد له وأن تتخلصوا من نسبة الأنداد ، وفيه أنه يجوز إثبات التوحيد بالسمع . فإن قيل لو دلت إنما على الحصر لزم أن يقال إنه لم يوح إلى الرسول شىء إلا التوحيد ومعلوم أن ذلك فاسد ، قلنا المقصود منه المبالغة ، أما قوله (فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء) فقال صاحب الكشاف آذن منقول من أذن إذا علم ولكنه كثر استعماله فى الجرى مجرى الإنذار ، ومنه قوله (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) إذا عرفت هذا فنقول : المفسرون ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال أبو مسلم : الإيذان على

www.besturdubooks.wordpress.com

السواء الدعاء إلى الحرب مجاهرة لقوله تعالى (فانبذ إليهم على سواء) وفائدة ذلك أنه كان يجوز أن يقدر على من أشرك من قريش أن حالهم مخالف لسائر الكفار فى المجاهدة ، فعرفهم بذلك أنهم كالكفار فى ذلك (وثانيها) أن المراد فقد أعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على سواء ، فلم أفرق فى الإبلاغ والبيان بينكم ، لأنى بعثت معلماً . والغرض منه إزاحة العذر لئلا يقولوا (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) (وثالثها) على سواء على إظهار وإعلان (ورابعها) على مهل ، والمراد أنى لا أعاجل بالحرب الذى آذنتكم به بل أمهل وأؤخر رجاء الإسلام منكم .

أما قوله (وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون) ففيه وجهان : (أحدهما) (أقريب أم بعيد ما توعدون) من يوم القيامة ، ومن عذاب الدنيا ثم قيل نسخه قوله (واقترب الوعد الحق) يعنى منهما ، فان مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه (وثانيها) المراد أن الذى آذنهم فيه من الحرب لايدرى هو قريب أم بعيد لئلا يقدر أنه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذى يوحى إليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت ، فلذلك أمره أن يقول إنه لايعلم قربه أم بعده . تبين بذلك أن السورة مكية ، وكان الأمر بالجهاد بعد الهجرة (وثالثها) (أن مايوعدون به) من غلبة المسلمين عليهم كأن لا محالة ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار ، وإن كنت لا أدرى متى يكون ، وذلك لأن الله تعالى لم يطلعنى عليه .

أما قوله تعالى (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) فالمقصود منه الأمر بالاخلاص وترك النفاق ، لأنه تعالى إذا كان عالماً بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ فى الإخلاص .

أما قوله تعالى (وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ففيه وجوه : (أحدها) لعل تأخير العذاب عنكم (وثانيها) لعل إبهام الوقت الذى ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أى بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعاً عن كفركم أم لا (وثالثها) قال الحسن لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار (ورابعها) لعل تأخير الجهاد فتنة لكم إذا أنتم دمتم على كفركم ، لأن ما يؤدى إلى الضرر العظيم يكون فتنة ، وإنما قال لا أدرى لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة (وخامسها) أن يكون المراد وإن أدرى لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم ، لأنه زيادة فى عذابكم إن لم تؤمنوا لأن المعرض عن الإيمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد ، وإذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه .

أما قوله تعالى (قال رب احكم بالحق) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (قل رب أحكم بالحق) على الإكتفاء بالكسرة (ورب احكم) على الضم (وربى أحكم) أفعل التفضيل (وربى أحكم) من الإحكام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (رب احكم بالحق) فيه وجوه (أحدها) أى ربى اقض بينى وبين قومى

www.besturdubooks.wordpress.com

بالحق أى بالعذاب . كأنه قال افص بيني وبين من كذبني بالعذاب ، وقال قتادة أمره الله تعالى أن يقتدى بالأنبياء فى هذه الدعوة وكانوا يقولون (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر (وثانيها) افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرني عليهم .

أما قوله تعالى (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) ففيه وجهان (أحدهما) أى من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتى من الأباطيل والتكذيب كأنه سبحانه قال قل داعياً لى (رب احكم بالحق) وقل متوعداً للكفار (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت ، أى قل لأصحابك المؤمنين ، وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل ، أى من العون على دفع أباطيلهم (وثانيها) كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين وخذلهم ، قال القاضى : إنما ختم الله هذه السورة بقوله (قل رب احكم بالحق) لأنه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم ، فاذا أبوا إلا التمادى فى كفرهم ، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق ، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره ، وإما بتأخير ذلك فان أمرهم وإن تأخر فما هو كائن قريب ، وما روى أنه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم وبالله التوفيق ، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليما آمين .

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة الأنبياء

مكية في قول الجميع، وهي مئة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قال عبد الله بن مسعود: الكهفُ ومريمُ وطه والأنبياءُ من العِتَاق الأُول، وهنَّ من تِلادي. يريد من قديم ما كسب وحَفِظَ من القرآن، كالمال التِّلاد[1].

وروي أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمرَّ به آخَرُ في يومِ نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخَر: نزل ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فنفض يده من البنيان، وقال: واللهِ لا بَنَيْتُ أبداً وقد اقترب الحساب[2].

«اقترب» أي: قَرُبَ الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ ، وسلف خبر ابن مسعود ١٣/ ٥ . والتِّلاد: كلُّ مال قديم من حيوان وغيره يورَث عن الآباء. اللسان (تلد).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ .

«للناس» قال ابن عباس: المرادُ بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[(١)].

وقيل: الناسُ عمومٌ وإن كان المُشَارُ إليه في ذلك الوقتِ كفارَ قريش، يدلُّ على ذلك ما بَعْدُ من الآيات، ومَن عَلِم اقترابَ الساعة قَصُر أملُه، وطابت نفسُه بالتوبة، ولم يَرْكَنْ إلى الدنيا، فكأنَّ ما كان لم يكن إذا ذهب، وكلُّ آتٍ قريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ؛ وموتُ كلِّ إنسانٍ قيامُ ساعتِه، والقيامةُ أيضاً قريبةٌ بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقي من الدنيا أقلُّ ممَّا مضى.

وقال الضحَّاك: معنى ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، أي: عذابُهم، يعني أهلَ مكة؛ لأنَّهم استَبْطَؤوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيباً، وكان قَتْلُهم يومَ بَدْر[(٢)].

النحاس[(٣)]: ولا يجوز في الكلام: اقترب حسابُهم للناس؛ لئلَّا يتقدَّم مُضْمَرٌ على مُظْهَرٍ لا يجوز أن يُنْوَى به التأخير. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، ويجوز النصبُ في غير القرآن على الحال. وفيه وجهان: أحدهما: «وهم في غفلةٍ معرِضون» يعني بالدنيا عن الآخرة. الثاني: عن التأهُّب للحساب وعمَّا جاء به محمدٌ ﷺ.

وهذه الواوُ عند سيبويه بمعنى «إذ» وهي التي يسمِّيها النَّحْويون واوَ الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤][(٤)].

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ «مُحْدَثٍ» نعتٌ لـ «ذِكْرٍ». وأجاز الكسائيُّ والفرَّاءُ: مُحْدَثاً، بمعنى: ما يأتيهم مُحْدَثاً؛ نصب على الحال. وأجاز الفرَّاء أيضاً رَفْعَ «مُحْدَث» على النعت للذِّكر[(٥)]؛ لأنك لو حذفتَ «مِن» رفعتَ

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦١ - ٥٦٢ .

(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٥ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٦٣ .

(٤) ينظر الكتاب ١/ ٩٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٣ .

(٥) قرأ: محدثٌ: ابنُ أبي عبلة، وقرأ: محدثاً: زيد بن علي، والقراءتان من الشواذ. البحر ٦/ ٢٩٦ .

ذكراً[١]، أي: ما يأتيهم ذكرٌ من ربِّهم مُحدَثٌ. يريد: في النزول وتلاوةِ جبريلَ على النبيِّ ﷺ؛ فإنَّه كان ينزل سورةً بعد سورةٍ، وآيةً بعد آيةٍ، كما كان ينزله الله تعالى عليه في وقتٍ بعد وقت، لا أنَّ القرآنَ مخلوق.

وقيل: الذِّكْرُ ما يذكِّرهم به النبيُّ ﷺ ويَعِظُهم به، وقال: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يَنطِقُ إلَّا بالوحي، فوَعْظُ النبيِّ ﷺ وتحذيرُه ذِكْر، وهو مُحْدَث[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ويقال: فلانٌ في مجلس الذكر.

وقيل: الذِّكْرُ الرسولُ نفسُه؛ قاله الحسين بن الفضل؛ بدليل ما في سياق الآية: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٣] ولو أراد بالذِّكر القرآنَ لقال: هل هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين، ودليلُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١-٥٢] يعني محمداً ﷺ، وقال: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ يعني محمداً ﷺ، أو القرآنَ من النبيِّ ﷺ، أو من أمته. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الواوُ واوُ الحال يدلُّ عليه ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

ومعنى «يَلْعَبُونَ»، أي: يلهُون. وقيل: يشتغلون. فإنْ حُمِل تأويلُه على اللَّهو، احتَمَل ما يلهُون به وجهين: أحدهما: بلذَّاتهم. الثاني: بسماع ما يُتلى عليهم. وإن حُمل تأويلُه على الشُّغل، احتَمَل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما: بالدنيا لأنَّها لعب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]. الثاني: يتشاغلون بالقَدْح فيه والاعتراض عليه. قال الحسن: كلَّما جَدَّد لهم الذكرَ استمرُّوا على الجهل[٤]. وقيل: يستمعون القرآنَ مستهزئين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٣، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٩٧ - ١٩٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣.
(٣) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٣٩.
(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٣٦.

قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ساهيةً قلوبُهم، مُعْرِضةً عن ذكر الله، متشاغلةً عن التأمُّل والتفهُّم، من قول العرب: لَهِيْتُ عن ذكر الشيء: إذا تركتَه وسَلَوْتَ عنه، أَلْهَى لُهِيًّا ولِهْياناً[١].

و«لاهية» نعتٌ تقدَّم الاسمَ، ومن حقِّ النَّعت أن يتبع المنعوتَ في جميع الإعراب، فإذا تقدَّم النعتُ الاسم انتصب، كقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤] و﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤] و﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[٢] قال الشاعر:

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ ... يَلُوحُ كَأَنَّه خِلَلُ[٣]

أراد: طللٌ موحِشٌ. وأجاز الكسائيُ والفرَّاء: لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ، بالرفع[٤] بمعنى: قلوبُهم لاهيةٌ. وأجاز غيرهما الرفعَ على أن يكون خبراً بعدَ خبر، وعلى إضمار مبتدأ. وقال الكسائيُ: ويجوز أن يكون المعنى: إلَّا استمعوه لاهيةً قلوبُهم[٥].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: تَناجَوْا فيما بينهم بالتكذيب، ثم بيَّن مَن هم فقال: «الَّذِينَ ظَلَمُوا»، أي: الذين أشركوا، فـ«الذين ظلموا» بدلٌ من الواو في «أسرُّوا»، وهو عائدٌ على الناس المتقدِّم ذِكْرُهم[٦]؛ ولا يوقَف على هذا القولِ على

---

(١) الصحاح (لها). وقيد الجوهري: لهِيتُ بالكسر، وذكر صاحب اللسان (لها) فيها وجهين: لهِي ولهَى.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨ .

(٣) الجمل في النحو للخليل ص٧٦ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٦٦٤ ، واللسان خلل، والخزانة ٣/ ٢١١ ، وعندهم: لميَّةَ، بدل: لعزة. وجاء في شرح المفصل ٢/ ٦٤ :

لعزَّةَ موحشاً طللٌ قديم ... عفاه كلُّ أسْحَمَ مُسْتَديمُ

وذكره البغدادي في الخزانة بلفظ: لمية وقال: مَن رواه: لعزة، قال: هو لكثير عزة، ومن رواه: لمية، قال: إنه لذي الرمة. والخِلل جمع خِلَّة: وهي بطانة يغشَّى بها جَفْنُ السيف ـ وهو غمده ـ تنقش بالذهب وغيره. اللسان (خلل).

(٤) قرأ بها ابن أبي عبلة وعيسى، وهي من الشواذ. البحر ٦/ ٢٩٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٣ - ٦٤ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٨ .

(٦) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٤ هذا القول عن سيبويه. وقال أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٧ : قاله المبرد، وعزاه ابن عطية إلى سيبويه.

«النجوى»[١]. قال المبرِّد: وهو كقولك: إنَّ الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، فبنو بدلٌ من الواو في انطلقوا[٢].

وقيل: هو رفعٌ على الذمِّ، أي: هم الذين ظلموا[٣].

وقيل: على حذفِ القول، التقدير: يقول الذين ظلموا، وحذفَ القول، مثل: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]. واختار هذا القولَ النحاسُ[٤]؛ قال: والدليلُ على صحة هذا الجوابِ أنَّ بعده: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقول رابع: يكون منصوباً بمعنى: أعني الذين ظلموا[٥].

وأجاز الفراء أن يكون خفضاً بمعنى: اقترب للناس الذين ظلموا حسابُهم[٦]؛ ولا يوقَفُ على هذا الوجه على «النجوى»، ويوقَفُ على الوجوه المتقدِّمة الثلاثةِ قبلَه[٧]. فهذه خمسة أقوال.

وأجاز الأخفش[٨] الرفعَ على لغةِ مَن قال: أكلوني البراغيث. وهو حسن؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، وقال الشاعر:

بك نال النِّضالُ دون المساعي فاهتدينَ النِّبالُ للأغراضِ[٩]

---

(١) المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص٣٨٥.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٢٩، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٦٣، وما قبله منه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦٣.

(٧) المكتفى في الوقف والابتداء ص٣٨٥.

(٨) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦٣.

(٩) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٢/ ٣١٣ برواية: عاد، بدل: نال. قال التبريزي: =

وقال آخر:

ولكنْ دِيَافِيٌّ أبوه وأمُّهُ بحَوْرَانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أقَارِبُهْ[١]

وقال الكسائيُّ: فيه تقديمٌ وتأخير، مَجازُه: والذين ظلموا أسرُّوا النجوى[٢].

أبو عبيدة[٣]: «أسرُّوا» هنا من الأضداد، فيَحْتَمِل أن يكونوا أَخْفَوْا كلامَهم، ويَحْتَمِل أن يكونوا أَظْهَروه وأَعْلَنوه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: تناجَوْا بينهم وقالوا: هل هذا الذِّكْرُ الذي هو الرسولُ ـ أو هل هذا الذي يدعوكم ـ إلَّا بشرٌ مثلكم لا يتميَّز عنكم بشيء، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق كما تفعلون. وما عَلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ بيَّن أنه لا يجوزُ أن يُرسِلَ إليهم إلَّا بشراً ليتفَّهموا ويعلِّمهم.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: إنَّ الذي جاء به محمدٌ ﷺ سحرٌ، فكيف تجيئون[٤] إليه وتتَّبعونه؟ فأَطْلَع الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام على ما تناجَوْا به. والسحر في اللغة: كلُّ مموَّهٍ لا حقيقةَ له ولا صحَّة. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنه إنسانٌ مثلُكم، مثل: وأنتم تعقلون؛ لأنَّ: العقل البَصَرُ بالأشياء.

وقيل: المعنى: أفتَقْبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ وقيل: المعنى: أفتَعْدِلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحقَّ[٥]؟ ومعنى الكلامِ التوبيخ.

= أصل النضال في الرمي، وذلك أن يرمي الرجلان والجماعة في الغرض لينظر أيهم أرمى، ثم نقل ذلك إلى الحرب والتفاخر. اهـ والغرض: هدف يرمى فيه. القاموس (غرض).

(١) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٦ ، والكتاب ٢/ ٤٠ ، والخزانة ٥/ ٢٣٤ . قال الشنتمري في شرح الشواهد ص٢٥٢ - ٢٥٣ : هجا رجلاً فجعله من أهل القرى المعتملين لإقامة عيشهم، ودياف قرية بالشام، والسليط: الزيت.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٣٤ .

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): تجيبون.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٧ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ربِّي يعلم القولَ في السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يَخْفَى عليه شيءٌ ممَّا يقال في السماء والأرض. وفي مصاحف أهل الكوفة: ﴿قَالَ رَبِّي﴾[1] أي: قال محمدٌ: ربي يعلم القول، أي: هو عالمٌ بما تَناجَيْتُم به.

وقيل: إنَّ القراءة الأُولى أَوْلى؛ لأنهم أسرُّوا هذا القولَ، فأَظْهَر الله عزَّ وجلَّ عليه نبيَّه ﷺ، وأمره أن يقول لهم هذا؛ قال النحاس[2]: والقراءتان صحيحتان، وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أنَّ النبيَّ ﷺ أُمر، وأنه قال كما أُمر.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ قال الزجَّاج[3]: أي قالوا: الذي يأتي به أضغاثُ أحلام. وقال غيره: أي: قالوا: هو أخلاطٌ كالأحلام المختلِطة، أي: أهاويلُ رآها في المنام؛ قال معناه مجاهدٌ وقتادة[4]، ومنه قولُ الشاعر:

كضِغْثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حالِمُه[5]

وقال القُتبيُّ: إنَّها الرؤيا الكاذبة، ومنه قول الشاعر:

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفَدْفَدٍ   تَرقْرَقَ للسَّاري وأضغاثُ حالِمِ[6]

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿قَالَ﴾ بالألف، والباقون من السبعة بغير ألف. السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٥٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٦٤.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٣٨٤.

(٤) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٢٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٧، وسلف ١١/ ٣٦٢.

(٦) ذكر قول القُتبي مع البيت الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧. وطَسْم: قبيلة من عاد انقرضوا. والفَدْفد: الفلاة. اللسان (طسم)، و(فدد).

وقال اليزيديُّ: الأضغاثُ: ما لم يكن له تأويل[(١)]. وقد مضى هذا في «يوسف»[(٢)].

فلمَّا رأَوْا أنَّ الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا: «بل افتراه»، ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا: «بل هو شاعر»[(٣)]. أي: هم متحيِّرون لا يستقرُّون على شيء؛ قالوا مرةً: سحر، ومرةً: أضغاثُ أحلام، ومرةً: افتراه، ومرةً: شاعر.

وقيل: أي: قال فريقٌ: إنه ساحر، وفريقٌ: إنه أضغاث أحلام، وفريقٌ: إنه افتراه، وفريقٌ: إنه شاعر. والافتراءُ: الاختلاق؛ وقد تقدَّم[(٤)].

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: كما أُرسل موسى بالعصا وغيرِها من الآيات، ومثل ناقة صالح. وكانوا عالمِين بأنَّ القرآن ليس بسحرٍ ولا رؤيا، ولكن قالوا: ينبغي أنْ يأتيَ بآيةٍ نقترحُها. ولم يكن لهم الاقتراحُ بعد ما رأَوْا آيةً واحدة.

وأيضاً إذا لم يؤمنوا بآيةٍ هي من جنسٍ ما هم أعلمُ الناس به، ولا مجالَ للشُّبهة فيها، فكيف يؤمنون بآية غيرِها؟! ولو أبرأ الأَكْمَهَ والأبرصَ لقالوا: هذا من بابِ الطبّ، وليس ذلك من صناعتنا. وإنما كان سؤالهم تعنُّتاً؛ إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفايةٌ، وبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنَّهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣][(٥)].

قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: يريد قومَ صالحٍ وقومَ فرعون. ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ يريد: كان في علمنا هلاكُها ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يريد: يصدِّقون،

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧ .

(٢) ١١/ ٣٦٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٤) ٦/ ٤١١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

أي: فما آمنوا بالآيات، فاستؤصلوا، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لَمَا آمنوا؛ لِمَا سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضاً، وإنَّما تأخَّر عقابهم لِعْلِمنا بأنَّ في أصلابهم مَن يؤمن. و«مِن» زائدةٌ في قوله: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾، كقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أرسَلْنا قَبْلَكَ إلَّا رجالاً يُوحَى إليهم﴾ هذا ردٌّ عليهم في قولهم: «هل هذا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكم» وتأنيسٌ لنبيِّه ﷺ، أي: لم يُرسِل[1] قبلَك إلَّا رجالاً. ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يريد أهلَ التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ؛ قاله سفيان. وسمَّاهم أهلَ الذكر؛ لأنهم كان يذكُرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب. وكان كفار قريشٍ يراجعون أهل الكتاب في أمرِ محمدٍ ﷺ.

وقال ابنُ زيد: أراد بالذِّكر القرآن، أي: فاسألوا المؤمنين العالِمين من أهل القرآن. قال جابرٌ الجُعْفيُّ: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال عليٌّ ﷺ: نحن أهلُ الذِّكر[2].

وقد ثبت بالتَّواتُر أنَّ الرسل كانوا من البشر، فالمعنى: لا تبدؤوا بالإنكار، وبقولكم: ينبغي أن يكون الرسولُ من الملائكة، بل ناظِروا المؤمنين ليبيِّنوا لكم جوازَ أن يكون الرسول من البشر. والمَلَكُ لا يُسمَّى رجلاً؛ لأنَّ الرجل يقع على ما لَه ضدٌّ من لَفْظِه؛ تقول: رجلٌ وامرأة، ورجلٌ وصبيٌّ، فقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أي: من بني

---

(١) في (خ): نرسل.

(٢) أخرج قول ابن زيد وقول علي ﷺ الطبريُّ ١٦/ ٢٢٩ ، وجابر الجعفي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

آدم. وقرأ حفص: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[1].

مسألة: لم يختلف العلماء أنَّ العامَّة عليها تقليدُ علمائها، وأنَّهم المرادُ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. وأجمعوا على أنَّ الأعمى لابدَّ له من تقليدِ غيره ممن يثقُ بمَيْزِه بالقبلة إذا أشكلتْ عليه، فكذلك مَن لا عِلْمَ له ولا بَصَرَ بمعنًى ما يَدِينُ به لابدَّ له من تقليدِ عالِمِه، وكذلك لم يختلف العلماء أنَّ العامَّة لا يجوز لها الفُتيا؛ لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليلُ والتحريمُ[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ الضميرُ في: «جعلناهم» للأنبياء، أي: لم نجعل الرسلَ قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعامٍ وشراب ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ يريد: لا يموتون. وهذا جوابٌ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ وقولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

و«جسداً» اسمُ جنس، ولهذا لم يقل: أجساداً[3]. وقيل: لم يقل: أجساداً؛ لأنه أراد: وما جعلنا كلَّ واحدٍ منهم جسداً.

والجسد: البدن؛ تقول منه: تَجسَّد، كما تقول من الجسم: تَجسَّم. والجسدُ أيضاً: الزَّعْفَرَانُ أو نحوُه من الصِّبْغ، وهو الدَّمُ أيضاً؛ قال النابغة:

وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسَدِ[4]

وقال الكلبيُّ: والجسدُ هو المجسَّد[5] الذي فيه الروحُ يأكل ويشرب، فعَلَى

(١) السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٣٠. ووقع في النسخ: حفص وحمزة والكسائي، وذكر حمزة والكسائي في هذا الموضع وهم، والصواب أن ثلاثتهم قرؤوا: «نوحي» بالنون في الآية (٢٥) من هذه السورة كما سيرد في موضعه إن شاء الله. وينظر البحر ٦/ ٢٩٨، والدر المصون ٦/ ١٣٥.

(٢) ينظر الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ٦٧ - ٦٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٦٤، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٩.

(٤) وصدره: فلا لعَمْرُ الذي مسَّحْتُ كعبتَه، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص٣٥، والصحاح (جسد)، والكلام منه.

(٥) في (م): المتجسد.

مقتضَى هذا القولِ يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسماً. وقال مجاهدٌ: الجسدُ: ما لا يأكل ولا يشرب؛ فعلى مقتضَى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نَفْساً؛ ذكره الماوَرْديّ(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ يعني الأنبياء، أي: بإنجائهم ونَصْرِهم وإهلاكِ مكذِّبيهم. ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي: الذين صدَّقوا الأنبياء. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المشركين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ رفعٌ بالابتداء، والجملةُ في موضعِ نصبٍ لأنَّها نعتٌ لكتاب(٢). والمرادُ بالذكر هنا الشرف، أي: فيه شرفُكم، مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤](٣). ثم نبَّههم بالاستفهام الذي معناه التوقيفُ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٤).

وقيل: فيه ذكركُم، أي: ذِكْرُ أمرِ دِينِكم، وأحكامِ شَرْعِكم، وما تصيرون إليه من ثوابٍ وعقاب، أفلا تعقلون هذه الأشياءَ التي ذكرناها؟!

وقال مجاهد: «فِيهِ ذِكْرُكُمْ»، أي: حديثكم. وقيل: مكارِمُ أخلاقِكم، ومحاسنُ أعمالكم. وقال سهل بن عبد الله: العملُ بما فيه حياتُكم(٥).

قلت: وهذه الأقوالُ بمعنًى، والأوّلُ يَعمُّها؛ إذ هي شرفٌ كلُّها، والكتابُ شرفٌ لنبيِّنا عليه الصلاةُ والسلام؛ لأنه معجزتُه، وهو شرفٌ لنا إنْ عملنا بما فيه، دليلُه قولُه

(١) في النكت والعيون ٣/ ٤٣٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٣١ ، وهذا القول ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ عن ابن عيسى، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤١ من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وذكره الطبري ١٦/ ٢٣٢ دون نسبة وقال: وهذا القول أشبه بمعنى الكلمة.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ ، وخبر مجاهد في تفسيره ١/ ٤٠٧ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٢ .

عليه الصلاةُ والسلام: «القرآن حُجَّةٌ لك أو عليك»[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ يريد مدائنَ كانت باليمن. وقال أهل التفسير والأخبار: إنه أراد أهلَ حَضُورٍ، وكان بُعث إليهم نبيٌّ اسمُه شعيب بن ذي مَهْدَم، وقبرُ شعيبٍ هذا باليمن بجبلٍ يقال له: ضِيْن[٢]، كثيرِ الثَّلج، وليس بشعيبِ صاحبِ مَدْيَنَ؛ لأنَّ قصة حَضُورٍ قبل مدةِ عيسى عليه السلام، وبعد مِئينَ من السنين من مدَّةِ سليمانَ عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيَّهم وقَتَل أصحابُ الرَّسِّ في ذلك التاريخ نبيًّا لهم اسمُه: حنظلة بنُ صفوان، وكانت حَضُورٌ بأرض الحجاز من ناحية الشام، فأوحى الله إلى أرميا أنِ ائتِ بختنصَّر فأَعْلِمْه أنِّي قد سلَّطته على أرض العرب، وأنِّي منتقمٌ بكَ منهم، وأَوحى الله إلى أرميا أنِ احمِلْ مَعَدَّ بنَ عدنان على البُراقِ إلى أرض العراق كي لا تصيبه النِّقمةُ والبلاءُ معهم، فإنِّي مستخرجٌ من صُلْبِه نبيًّا في آخِر الزمان اسمُه محمد. فَحمَل مَعَدًّا وهو ابن اثنتي عَشرةَ سنةً، فكان مع بني إسرائيل إلى أنْ كبِر وتزوَّج امرأةً اسمُها معانة، ثم إنَّ بختنصَّر نهض[٣] بالجيوش، وكَمَنَ للعرب في مكانٍ ـ وهو أوَّلُ مَن اتَّخذ المَكَامِنَ فيما ذَكروا ـ ثم شنَّ الغارات على حَضُورٍ، فقتَل وسَبَى وخَرَّب العامِر، ولم يترك بحَضُورٍ[٤] أثراً، ثم انصرف راجعاً إلى السَّوَاد.

---

(١) قطعة من حديث أبي مالك الأشعري، أخرجه مسلم (٢٢٣)، وسلف ١/ ٦ .

(٢) اضطرب اللفظ في النسخ، والمثبت من التعريف والإعلام ص١١٢ ، والكلام منه، وكذا ذكره ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٤٦٥ وقال: ضِيْن بكسر الضاد وسكون الياء.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): نهد، ولم تجود في (د)، والمثبت من (م) والتعريف والإعلام.

(٤) في التعريف والإعلام: لحضور.

و«كَمْ» في موضع نصبٍ بـ «قصمنا»[١]. والقَصْمُ: الكسر؛ يقال: قَصَمْتُ ظَهْرَ فلانٍ [إذا كسرته]، وانقصَمَتْ سِنُّه: إذا انكسرت، والمَعْنِيُّ به هاهنا: الإهلاك[٢]. وأمَّا الفَصْم ـ بالفاء ـ فهو الصَّدْعُ في الشيء من غير بينونة؛ قال الشاعر:

كأنَّه دُمْلُجٌ من فِضَّةٍ نَبَهٌ في مَلْعبٍ من عَذَارَى الحيِّ مَفْصُومُ[٣]

ومنه الحديث: «فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَه لَيتفصَّدُ عَرَقاً»[٤].

وقولُه: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة، يعني: أهلها. والظلمُ: وضعُ الشيء في غيرِ مَوْضِعِه، وهم وَضَعوا الكفرَ مَوْضِعَ الإيمان. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أَوْجَدْنَا وأَحْدَثْنا بعد إهلاكهم ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي: رأَوْا عذابنا؛ يقال: أحسستُ منه ضَعْفاً. وقال الأخفش: «أحسُّوا»: خافوا وتوقَّعوا.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ويَفِرُّون. والرَّكضُ: العَدْوُ بشدَّةِ الوَطْء. والرَّكضُ: تحريكُ الرِّجل، ومنه قولُه تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ورَكَضْتُ الفرسَ برِجْلي: استَحْثَثْتُه ليَعْدُوَ، ثم كَثُر حتى قيل: رَكَض الفرسُ: إذا عَدَا، وليس بالأصل، والصوابُ: رُكِض الفرسُ، على ما لم يسمَّ فاعلُه، فهو مَرْكوض[٥].

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي: لا تَفِرُّوا. وقيل: إنَّ الملائكة نادتهم لمَّا انهزموا استهزاءً بهم

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٢٣٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لذي الرمة، والبيت في ديوانه ١/ ٣٩١ ، والصحاح (فصم). قال الجوهري: يذكر غزالاً يشبِّهه بدُمْلُج فضة، وإنما جعله مفصوماً؛ لتثنِّيه وانحنائه إذا نام. وقال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: نَبَهٌ: مَنْسيٌّ، انتبهوا له انتباهاً، لا يدرون أي موضع افتقدوه، وقوله: في ملعب، أي: حيث تلعب الجواري. اهـ والدملج: حلية تحيط بالعضد. المعجم الوسيط (دملج).

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦١٩٨)، والبخاري (٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) الصحاح (ركض).

وقالت: «لا تركضوا»[١].

﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: إلى نعمكم التي كانت سببَ بَطَرِكم، والمُترَفُ: المتنعِّم، يقال: أُترِفَ على فلان، أي: وُسِّعَ عليه في معاشه. وإنما أَتْرفَهم الله عزَّ وجلَّ كما قال: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي: لعلكم تُسألون شيئاً من دنياكم؛ استهزاءً بهم؛ قاله قتادة[٢]. وقيل: المعنى: لعلكم تُسألون عمَّا نزل بكم من العقوبة فتخبِرون به. وقيل: المعنى: لعلكم تُسألون أنْ تؤمنوا كما كنتم تُسألون ذلك قبل نزول البأس بكم، قيل لهم ذلك استهزاءً وتقريعاً وتوبيخاً.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ لمَّا قالت لهم الملائكة: «لا تركضوا»، ونادت: يا لَثاراتِ الأنبياء! ولم يَرَوْا شخصاً يكلِّمهم، عرفوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي سلَّط عليهم عدوَّهم بقتلهم النبيَّ الذي بُعث فيهم، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، فاعترفوا بأنَّهم ظَلموا حين لا ينفع الاعتراف.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: لم يزالوا يقولون: «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: بالسيوف كما يُحصَد الزرع بالمِنْجَل؛ قاله مجاهد[٣]. وقال الحسن: أي: بالعذاب[٤] ﴿خَامِدِينَ﴾ أي: ميتين. والخُمودُ: الهمودُ؛ كخمود النار إذا طَفِئَتْ، فشبَّه خمودَ الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات: قد طَفِئَ؛ تشبيهاً بانطفاء النار[٥].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/٣٦٣-٣٦٤ ، ونسبه لقتادة ومقاتل.

(٢) النكت والعيون ٣/٤٣٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٦/٢٣٦ .

(٣) أخرجه عنه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/٢٢ ، والطبري ١٦/٢٣٧ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٤٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٣/٤٣٩ - ٤٤٠ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: عَبَثاً وباطلاً، بل للتَّنبيه على أنَّ لها خالقاً قادراً يجب امتثالُ أمره، وأنه يجازي المسيءَ والمُحْسِن؛ أي: ما خَلَقْنا السماءَ والأرض ليظلم بعضُ الناس بعضاً، ويكفُرَ بعضُهم، ويخالفَ بعضُهم ما أُمر به، ثم يموتوا ولا يُجازَوْا، ولا يؤمروا[١] في الدنيا بحَسَنٍ ولا يُنْهَوا عن قبيح. وهذا اللعبُ المَنْفيُّ عن الحكيم ضدُّه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ لمَّا اعتقدَ قومٌ أنَّ له ولداً قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ واللهوُ: المرأةُ بلغة اليمن؛ قاله قتادة[٢].

وقال عقبة بن أبي جَسْرَة - وجاءه طاوسٌ وعطاءٌ ومجاهدٌ يسألونه عن قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ فقال - : اللهوُ: الزوجة. وقاله الحسن[٣].

وقال ابن عباس: اللهو: الولد[٤]. وقاله الحسن أيضاً[٥].

قال الجوهريُّ[٦]: وقد يُكْنَى باللَّهو عن الجِماع.

قلت: ومنه قولُ امرئ القيس:

---

(١) في (د) و(ز): ولا يأمروا، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٦ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٩ .

(٣) كذا قال المصنف رحمه الله، والخبر كما أخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٨ : عن عقبة عن أبي جسرة قال: شهدت الحسن بمكة، قال: وجاءه طاوسٌ وعطاءٌ ومجاهد فسألوه عن قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال الحسن: اللهو: المرأة.

(٤) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٦٤ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢٣٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤٣ ، وهو من رواية الكلبي عن ابن عباس كما ذكر الواحدي.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٤٠ .

(٦) في الصحاح (لها).

أَلَا زَعمتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أنَّني كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ اللَّهوَ أمثالي[(١)]

وإنَّما سُمِّي الجماعُ لهواً؛ لأنَّه مَلْهًى للقلب، كما قال:

وفيهِنَّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرُ[(٢)]

الجوهريُّ[(٣)]: وقولُه تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قالوا: امرأةً، ويقال: ولداً.

﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مِن عندِنا لا مِن عندِكم. قال ابن جريج: [لاتَّخذْنا نساءً وولداً] مِن أهل السماء لا مِن أهل الأرض[(٤)]. قيل: أراد الرَّدَّ على مَن قال: إنَّ الأصنام بناتُ الله، أي: كيف يكون مَنْحُوتكم ولداً لنا؟ وقال ابن قتيبة[(٥)]: الآيةُ ردٌّ على النصارى.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال قتادةُ ومقاتلٌ وابن جريج والحسن: المعنى: ما كنا فاعلين[(٦)]، مثل: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] أي: ما أنت إلَّا نذير. و«إن» بمعنى الجَحْدِ، وتمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾.

وقيل: إنه على معنى الشَّرط، أي: إن كنَّا فاعلين ذلك، ولكنْ لَسْنا بفاعلين ذلك[(٧)] لاستحالة أن يكون لنا ولد؛ إذ لو كان ذلك لم نخلقْ جنةً ولا ناراً، ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً[(٨)].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٢٨ .

(٢) صدر بيت لزهير وعجزه: أنيقٌ لعين الناظر المتوسم، وهو في شرح ديوانه ص١٠ برواية: للَّطيف، بدل: للصديق، وسلف ١٢/ ٢٣٣ .

(٣) في الصحاح (لها).

(٤) أخرجه عنه الطبري ١٦/ ٢٣٩ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٠ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص١٢٤ .

(٦) أخرجه عن قتادة وابن جريج الطبري ١٦/ ٢٣٩ ، وذكره عن مقاتل البغوي ٣/ ٢٤١ ، وعن الحسن ابن الجوزي ٥/ ٣٤٤ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٧ . وقال الزجاج: والقول الأول قول المفسرين، والثاني قول النحويين، وهم أجمعون يقولون القول الأول ويستجيدونه.

(٨) في (د) و(ز): حياتاً.

وقيل: لو أردنا أن نتخذ ولداً على طريق التبنّي لاتخذناه من عندنا من الملائكة. ومالَ إلى هذا قوم؛ لأنَّ الإرادة قد تتعلَّق بالتبنّي، فأمَّا اتِّخاذُ الولدِ فهو مُحال، والإرادةُ لا تتعلَّق بالمستحيل؛ ذكره القُشَيْريّ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ القذف: الرَّمْي، أي: نرمي بالحقِّ على الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يَقْهَره ويُهْلِكُه. وأصلُ الدَّمْغ: شجُّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه: الدَّامِغة[1]. والحقُّ هنا: القرآن، والباطل: الشيطان؛ في قول مجاهد[2]؛ قال: وكلُّ ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان. وقيل: الباطلُ: كذبُهم ووَصْفُهم الله عزَّ وجلَّ بغير صفاته من الولد وغيره.

وقيل: أراد بالحقِّ: الحُجَّةَ، وبالباطل: شُبَهَهُم. وقيل: الحقُّ: المواعظ، والباطل: المعاصي[3]. والمعنى متقارِبٌ، والقرآنُ يتضمَّن الحجَّةَ والموعظة.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: هالِكٌ تالِف؛ قاله قتادة[4]. ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أي: العذاب في الآخرة بسبب وَصْفِكم اللهَ بما لا يجوز وَصْفُه. وقال ابن عباس: الويلُ وادٍ في جهنَّم؛ وقد تقدَّم[5].

﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: مما تكذبون؛ عن قتادة ومجاهد[6]، نظيرُه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٩] أي: تكذيبَهم[7]. وقيل: مما تصفون اللهَ به من المُحال، وهو اتِّخاذُ الولد[8].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٤١ ، والصحاح (دمغ).

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤١ عن قتادة، ولم نقف عليه من مجاهد.

(٣) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤١ وقال: قاله بعض أهل الخواطر.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٦/ ٢٤٠ .

(٥) ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١ مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وإسناده ضعيف ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤١ عن قتادة.

(٧) في (م): بكذبهم.

(٨) في (م): وهو اتخاذه سبحانه الولد.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: مِلْكاً وخَلْقاً، فكيف يجوز أن يُشرك به ما هو عَبْدُه وخَلْقُه؟! ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة الذين ذكرتُم أنهم بناتُ الله. ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: لا يأْنفون ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ والتذلُّلِ له ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ أي: يُعْيُون؛ قاله قتادة. مأخوذٌ من الحسير: وهو البعيرُ المنقطِعُ بالإعياء والتعب[1]، حَسَر البعيرُ يَحسِر حُسوراً: أعْيا وكَلَّ، واستَحْسَر وتَحَسَّر مِثْلُه، وحَسَرْتُه أنا حَسْراً، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وأَحْسَرْته أيضاً فهو حَسير[2].

وقال ابن زيد: لا يَمَلُّون[3]. ابن عباس: لا يَستنكفون[4]. وقال أبو زيد[5]: لا يَكِلُّون. وقيل: لا يفشلون؛ ذكره ابن الأعرابي[6]؛ والمعنى واحد.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يُصَلُّون ويذكرون الله وينزِّهونه دائماً ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ أي لا يَضعفون ولا يسأمون، يُلْهَمون التَّسبيحَ والتَّقديسَ كما يُلهمون النَّفَس. قال عبدالله بن الحارث: سألت كعباً فقلت: أمَا لهم شغلٌ عن التسبيح؟ أمَا يَشْغلُهم عنه شيء؟ فقال: مَن هذا؟ فقلت: مِن بني عبد المطلب، فضمَّني إليه وقال: يا ابن أخي، هل يشغلك شيءٌ عن النَّفَس؟! إنَّ التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس[7]. وقد استدلَّ بهذه الآيةِ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٤١، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٤٣.

(٢) الصحاح (حسر).

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤٣.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤١ عن الكلبي، وأخرج الطبري ١٦/ ٢٤٢ عن ابن عباس قال: لا يرجعون.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): ابن زيد، ولم نقف على قوله.

(٦) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٥٩.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤٤، والبيهقي في الشعب (١٦١).

مَن قال: إنَّ الملائكة أفضلُ من بني آدم. وقد تقدَّم والحمد لله[١].

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ قال المفضَّل: مقصودُ هذا الاستفهام: الجَحدُ، أي: لم يتَّخذوا آلهةً تقدِرُ على الإحياء. وقيل: «أم» بمعنى «هل»، أي: هل اتَّخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض يُحيون الموتى؟ ولا تكون «أم» هنا بمعنى بل؛ لأنَّ ذلك يُوجِب لهم إنشاءَ الموتى، إلَّا أن تقدَّر «أم» مع الاستفهام، فتكون «أم» المنقَطِعةَ، فيصحّ المعنى[٢]؛ قاله المبرِّد.

وقيل: «أم» عطفٌ على المعنى، أي: أَفَخلقْنا السماءَ والأرض لعباً، أم هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكونَ لهم مَوْضعَ شبهة؟ أو: هل ما اتَّخذوه من الآلهة في الأرض يُحيي الموتى فيكونَ موضعَ شُبْهةٍ؟. وقيل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ١٠]، ثم عَطَفَ عليه بالمعاتبة، وعلى هذين التأويلين تكونُ «أم» متَّصلةً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُنشِرُونَ﴾ بضمِّ الياء وكَسْرِ الشين مِن أَنْشَر الله الميتَ فنُشِر، أي: أحياه فحييَ. وقرأ الحسن بفتح الياء[٣]، أي: يَحْيَوْنَ ولا يموتون[٤].

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات

---

(١) ١/ ٤٣٠ .

(٢) قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦٦ : هذه أم المنقطعة، الكائنة بمعنى بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٧٨ .

(٣) القراءات الشاذة ص٩١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٨ .

والأرضين آلهةٌ غيرُ الله معبودون لفَسَدَتا. قال الكسائيُّ وسيبويه: «إلَّا» بمعنى غير، فلمَّا جُعلت إلَّا في موضعِ غيرٍ؛ أُعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غير، كما قال:

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوهُ لَعَمْرُ أبيكَ إلَّا الفَرْقَدَانِ[1]

وحكى سيبويه: لو كان معنا رجلٌ إلَّا زيدٌ لهلَكْنا.

وقال الفراء: «إلا» هنا في موضعِ سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهةٌ سوى اللهِ لفَسَد أهلُهما[2]. وقال غيره: أي: لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأنَّ أحدهما إن أراد شيئاً وأراد الآخَرُ ضدَّه كان أحدهما عاجزاً.

وقيل: معنى «لَفَسَدَتَا» أي: خَرِبتا وهَلَكَ مَن فيهما بوقوع التنازُع والاختلاف[3] الواقعِ بين الشركاء.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَزَّه نفسه وأَمَر العباد أن ينزِّهوه عن أن يكون له شريكٌ أو ولد.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ قاصمةٌ للقدريَّة وغيرهم. قال ابن جريج: المعنى: لا يسأله الخَلْقُ عن قضائه في خَلْقِه، وهو يَسأل الخَلْقَ عن عملهم؛ لأنهم عبيد. بيَّن بهذا أنَّ مَن يُسأل غداً عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلُح للإلهية. وقيل: لا يؤاخَذ على أفعاله وهم يؤاخَذون[4].

ورُوي عن عليٍّ ﷺ أنَّ رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، أيُحِبُّ ربُّنا أن يُعصَى؟

---

(١) الكتاب ٢/ ٣٣٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٧، والكلام منه، وسلف ١١/ ٥٤. والشاهد فيه: نعت «كلُّ» بقوله: «إلا الفرقدان» على تأويل «غير»، والتقدير: وكلُّ أخ غيرُ الفرقدين مفارقه أخوه. شرح الشواهد للشنتمري ص٣٦٨.

(٢) في النسخ: أهلها، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨ وعنه نقل المصنف.

(٣) في (د) و(ز) و(م): بالاختلاف، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٤٢.

قال: أفيُعْصَى ربُّنا قَهراً؟ قال: أرأيتَ إنْ منعني الهدى ومنحني الرَّدى، أأحْسَنَ إليَّ أم أساءِ؟ قال: إن منعك حقَّك فقد أساء، وإن منعك فَضْلَه فهو فضلُه يؤتيه مَن يشاء. ثم تلا الآية: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[1].

وعن ابن عباس قال: لمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ موسى وكلَّمه، وأنزل عليه التوراة، قال: اللهمَّ إنك ربٌّ عظيم، لو شئتَ أن تُطاع لأُطِعت، ولو شئت ألَّا تُعصى ما عُصيتَ، وأنت تحبُّ أن تطاع، وأنت في ذلك تُعصى، فكيف هذا يا رب؟! فأوحى الله إليه: إنِّي لا أُسأل عمَّا أَفعَلُ وهم يُسألون[2].

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أعاد التعجُّبَ في اتِّخاذ الآلهة من دون الله مبالغةً في التوبيخ، أي: صفتهم كما تقدَّم في الإنشاء والإحياء، فتكون «أم» بمعنى هل، على ما تقدَّم، فليأتوا بالبرهان على ذلك.

وقيل: الأولُ احتجاجٌ من حيث المعقولُ؛ لأنه قال: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ويُحيون الموتى، هيهات! والثاني احتجاجٌ بالمنقول، أي: هاتوا برهانكم من هذه الجهة، ففي أيِّ كتابٍ نزل هذا؟! في القرآن، أم في الكتب المنزلةِ على سائر الأنبياء؟!

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ بإخلاص التوحيد في القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ في التوراة والإنجيل وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل في كتابٍ من هذه الكتب أنَّ الله أمر باتخاذ آلهةٍ سواه؟! فالشرائعُ لم تختلف فيما يتعلَّق بالتوحيد، وإنما اختلفت في

(١) لم نقف عليه عن علي ﷺ، وذكره ابن شيث في حزّ الغلاصم ص١٨ عن جعفر بن محمد مع أحد القدرية، وذكر نحوه ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٦٤ -٦٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وأخرج القطعة الثانية منه وهي قوله: أرأيت إن منعني...، عن ابن عباس بنحوها. وذكره الحافظ في الفتح ١٣/ ٤٥١ بتمامه على أنه مناظرة بين بعض أئمة السنة مع بعض أئمة المعتزلة، وزاد في أوله: قال المعتزلي: سبحان مَن تنزَّه عن الفحشاء، فقال السُّنِّي: سبحان مَن لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال المعتزلي: أيشاء ربنا أن يعصى...

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٦٠٦) مطولاً، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٦٨) واللفظ له. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٠ : فيه أبو يحيى القتات، وهو ضعيف عند الجمهور... ومصعب بن سوار لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

الأوامر والنَّوَاهي.

وقال قتادة: الإشارة إلى القرآن، المعنى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ بما يلزمُهم من الحلال والحرام ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ﴾ من الأمم، ممَّن نجا بالإيمان وهلك بالشرك[١].

وقيل: ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ بما لهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ﴾ من الأمم السالفةِ فيما يُفعل بهم في الدنيا، وما يُفعل بهم في الآخرة[٢].

وقيل: معنى الكلامِ الوعيدُ والتهديد، أي: افعلوا ما شئتم، فعن قريب ينكشف الغطاء.

وحكى أبو حاتم: أنَّ يحيى بنَ يَعْمُر وطلحةَ بنَ مُصرِّفٍ قرأا: «هذا ذِكْرٌ مِن معي وذِكْرٌ مِن قَبْلي» بالتنوين وكَسْرِ الميم[٣]، وزعم أنه لا وجهَ لهذا. وقال أبو إسحاق الزجَّاج في هذه القراءة: المعنى: هذا ذكرٌ مما أُنزل إليَّ وممَّا هو معي، وذكرٌ مِن قَبْلي[٤]. وقيل: ذكرٌ كائن مِن قَبْلي، أي: جئتُ بما جاءت به الأنبياء مِن قَبْلي.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن: «الْحَقُّ» بالرفع، بمعنى: هو الحقُّ، أو هذا الحقُّ[٥]. وعلى هذا يوقفُ على: «لا يعلمون» ولا يوقف عليه على قراءة النصب. ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن الحقِّ، وهو القرآن، فلا يتأمَّلون حجَّةَ التوحيد.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٤٣، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٨.

(٣) المحتسب ٢/ ٦١، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩١ عن يحيى وحده، وذكر عن طلحة أنه قرأ: «هذا ذكرٌ معي وذكرٌ قبلي». والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٩، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨.

(٥) في (د) و(ز) و(م): هو الحق وهذا هو الحق، والمثبت من (خ) و(ظ) والمحتسب ٢/ ٦١ والكلام منه. وذكر القراءة أيضاً عن ابن محيصن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٩١.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رسولٍ إِلَّا يُوحَى إليه﴾. وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾ بالنون[١]؛ لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: قلنا للجميع: لا إله إلا الله؛ فأدلةُ العقل شاهدةٌ أنه لا شريكَ له، والنقلُ عن جميع الأنبياء موجود، والدليلُ إمَّا معقولٌ وإمَّا منقول. وقال قتادة: لم يُرسَل نبيٌّ إلَّا بالتوحيد، والشرائعُ مختلفةٌ في التوراة والإنجيل والقرآن، وكلُّ ذلك على الإخلاص والتوحيد[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزلت في خُزاعةَ حيث قالوا: الملائكةُ بناتُ الله[٣]، وكانوا يعبدونهم طَمَعاً في شفاعتهم لهم. وروى معمرٌ عن قتادة قال: قالت اليهود ـ قال معمر في روايته[٤]: أو طوائفُ من الناس ـ: [إن الله] خاتَنَ إلى الجنِّ، والملائكةُ من الجنِّ، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهاً له ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أي: بل هم عبادٌ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾[٥]. أي: ليس كما زَعَم هؤلاء الكفار.

---

(١) السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٥٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٥٠ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٢، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٥٩.

(٤) يشير المصنف إلى رواية ثانية من غير طريق معمر، كما في التعليق التالي.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٥١، وما سلف بين حاصرتين منهما، وفيهما: وطوائف، بالواو. وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٥٠ من طريق سعيد عن قتادة دون قوله: أو طوائف من الناس، وفيه: صاهر الجن، بدل: خاتن إلى الجن.

ويجوز النَّصب عند الزجَّاج[١] على معنى: بل اتخذ عباداً مُكْرمين. وأجازه الفراء[٢] على أن يَرُدَّه على ولد، أي: بل لم نتَّخذهم ولداً، بل اتخذناهم عباداً مُكْرمين.

والولدُ هاهنا للجمع، وقد يكون الواحدُ[٣] والجمعُ وَلَداً[٤]. ويجوز أن يكون لفظُ الولد للجنس، كما يقال: لفلانٍ مالٌ.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون حتى يقول، ولا يتكلَّمون إلَّا بما يأمرهم. ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بطاعته وأوامره. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما عملوا وما هم عاملون؛ قاله ابن عباس[٥]. وعنه أيضاً: «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ»: الآخرة، «وَمَا خَلْفَهُمْ»: الدنيا[٦]؛ ذكر الأولَ الثَّعْلبيُّ، والثاني القُشَيريّ.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ قال ابن عباس: هم أهلُ شهادةِ أنْ لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كلُّ مَن رضيَ الله عنه[٧]، والملائكة يشفعون غداً في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره[٨]، وفي الدنيا أيضاً؛ فإنهم يستغفرون للمؤمنين ولمن في الأرض، كما نصَّ عليه التنزيل على ما يأتي[٩]. ﴿وَهُم﴾ يعني الملائكة ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ يعني من خوفه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون لا يأمَنون مَكْرَه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٩ . وقال الزجاج: ولو قرئت: بل عباداً، لم يجز لمخالفة المصحف.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٠١ ، ويعني النصب في اللغة، لا في التلاوة.

(٣) في (ظ): للواحد.

(٤) في (ظ) و(ف): أولاد، وفي (خ) و(د) و(ز): أولادا، والمثبت من (م). وينظر الصحاح (ولد).

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ ، والرازي ٢٢/ ١٦٠ بلفظ: يعلم ما قدَّموا وما أخروا من عملهم.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ عن الكلبي.

(٧) ذكر قول ابن عباس وقول مجاهد البغوي ٣/ ٢٤٢ .

(٨) صحيح مسلم (١٨٣)، ومسند أحمد (١١٨٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً.

(٩) عند تفسير الآية (٧) من سورة غافر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما: عنى بهذه الآية إبليس حيث ادَّعى الشركة، ودعا إلى عبادةِ نَفْسِه وكان من الملائكة، ولم يقل أحدٌ من الملائكة إنِّي إلهٌ غيره[١].

وقيل: الإشارةُ إلى جميع الملائكة، أي: فذلك القائلُ ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾. وهذا دليلٌ على أنَّهم وإن أُكرموا بالعصمة فهم متعبَّدون، وليسوا مضطرِّين إلى العبادة كما ظنَّه بعضُ الجُهَّال. وقد استدلَّ ابنُ عباس بهذه الآية على أنَّ محمداً ﷺ أفضلُ من[٢] أهل السماء. وقد تقدَّم في «البقرة»[٣].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كما جزينا هذا بالنار؛ فكذلك نجزي الظالمين الواضِعِين الألوهيةَ والعبادة في غير موضعهما.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قراءةُ العامة: ﴿أَوَلَمْ﴾ بالواو. وقرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وحميد وشِبل بن عبّاد: ﴿أَلَمْ يَرَ﴾ بغير واو[٤]، وكذلك هو في مصحف مكة[٥].

---

(١) أخرجه بنحوه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٣/ ٢٥٤ ، وأخرجه عن الضحاك ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣١٧ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٩ : وهذا ضعيف لأن إبليس لم يُرْوَ قطُّ أنه ادعى ربوبية.

(٢) قوله: من، من (ظ).

(٣) ٤/ ٢٥٥ .

(٤) السبعة ص٤٢٨ ، والتيسير ص١٥٥ عن ابن كثير.

(٥) المقنع لأبي عمرو الداني ص١٠٤ .

﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ بمعنى: يعلم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ قال الأخفش: قال: ﴿كَانَتَا﴾؛ لأنهما صنفان، كما تقول العرب: هما لِقَاحان أسودان(١)، وكما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر:٤١] قال أبو إسحاق: قال: «كانتا»؛ لأنه يعبِّر عن السماوات بلفظِ الواحدِ بسماء؛ ولأن السماوات كانت سماءً واحدة، وكذلك الأرضون. [قال:] وقال: «رَتقاً» ولم يقل: رَتْقَيْن؛ لأنه مصدرٌ، والمعنى: كانتا ذواتَيْ رَتْقٍ. وقرأ الحسن: «رَتَقاً» بفتح التاء. قال عيسى بن عمر: هو صوابٌ وهي لغة(٢). والرَّتْق: السدُّ، ضدُّ الفَتْق، وقد رَتَقْتُ الفَتْقَ أَرْتُقُه فارْتَتَق، أي: الْتأم، ومنه الرَّتْقاء للمنضمَّة الفَرْج(٣).

قال ابن عباس والحسن وعطاءٌ والضحَّاك وقتادة: يعني أنَّها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين، ففَصَل الله بينهما بالهواء(٤). وكذلك قال كعب: خَلَقَ الله السماوات والأرضَ بعضَها على بعضٍ، ثم خلق ريحاً تَوسَّطَتْها(٥) ففتحها بها، وجعل السماواتِ سبعاً والأرضين سبعاً.

وقولٌ ثانٍ قاله مجاهد والسدِّيُّ وأبو صالح: كانت السماواتُ مؤتلفةً طبقةً واحدةً، ففتقها فجعلها سبعَ سماوات، وكذلك الأرضين كانت مُرْتَتِقَةً طبقةً واحدةً، ففتقها فجعلها سبعاً(٦).

---

(١) لِقاح جمع لَقْحة، وهي الناقة القريبة العهد بالنِّتاج، أو الحلوب الغزيرة اللبن. معجم متن اللغة (لقح). وهذا من باب تثنية الجمع، مثل بُسْران وتمران، أي: ضربان مختلفان، وكذلك: إبِلان. الكتاب ٣/ ٦٢٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول أبي إسحاق الزجاج في كتابه معاني القرآن ٣/ ٣٩٠ ، وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ٦٢ . وهي في القراءات الشاذة ص٩١ عن أبي حيوة.

(٣) تهذيب اللغة ٩/ ٥٣ - ٥٤ ، والصحاح (رتق).

(٤) أخرجه عن ابن عباس والحسن وقتادة الطبري ١٦/ ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣ عن ابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء.

(٥) في (م): بوسطها، وفي (ظ): متوسطتها. ووقع في مطبوع تفسير البغوي (والكلام منه) ٣/ ٢٤٣ : فوسطها.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ١٦/ ٢٥٦ - ٢٥٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٤٣ عن مجاهد والسدي.

وحكاه القُتبيُّ في «عيون الأخبار» له، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ قال: كانت السماء مخلوقةً وحدَها والأرضُ مخلوقةً وحدَها، ففتق من هذه سبعَ سماوات، ومن هذه سبعَ أرضين؛ خلق الأرضَ العليا فجعل سكَّانها الجنَّ والإنس، وشقَّ فيها الأنهارَ، وأنبتَ فيها الأثمار، وجعل فيها البحار، وسمَّاها رِعاء، عرضُها مسيرةُ خمسِ مئة عام. ثم خلق الثانيةَ مثلَها في العَرْض والغِلَظ، وجعل فيها أقواماً؛ أفواهُهم كأفواه الكلاب، وأيديهم أيدي الناس، وآذانُهم آذانُ البقر، وشعورُهم شعورُ الغنم، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يَأجوجَ ومأجوج، واسمُ تلك الأرض الدكماء[١]. ثم خلق الأرضَ الثالثة غِلَظُها مسيرةُ خمسِ مئة عام، ومنها هواءٌ إلى الأرض. الرابعةُ خَلَقَ فيها ظلمةً وعقاربَ لأهل النار مثلَ البغال السُّود، ولها أذنابٌ مثلُ أذناب الخيل الطِّوال، يأكل بعضُها بعضاً فتسلَّط[٢] على بني آدم. ثم خلق الله الخامسةَ مثلَها[٣] في الغلظِ والطول والعرض، فيها سلاسلُ وأغلالٌ وقيودٌ لأهل النار. ثم خلق الله الأرضَ السادسة واسمُها ماد، فيها حجارةٌ سُودٌ بُهْم، ومنها خُلقت تربة آدمَ عليه السلام، تُبعث تلك الحجارةُ يومَ القيامة، وكلُّ حجرٍ منها كالطَّوْد العظيم، وهي من كبريتٍ، تُعلَّقُ في أعناق الكفار، فتشتعل حتى تُحرقَ وجوههم وأيديَهم، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، والتحريم: ٦]. ثم خلق الله الأرض السابعة واسمُها عربية وفيها جهنم، فيها بابان[٤]؛ اسمُ الواحد: سجِّين، واسمُ الآخرِ: الغَلَق، فأمَّا سجِّين فهو مفتوحٌ وإليه ينتهي كتابُ الكفار، وعليه يُعرض أصحاب المائدة وقومُ فرعون، وأمَّا الغَلَق فهو مُغلقٌ لا يُفتح إلى يوم القيامة[٥].

---

(١) في (ز) و(ف): الركما، وفي (د): الوكما، وفي (ظ): الرخاء، ولم تجود في (خ)، والمثبت من (م).

(٢) في (ظ): تتسلط.

(٣) في (ظ): كهن، والمثبت من (ز)، وسقطت من باقي النسخ.

(٤) في (ز) و(ظ): وفيها.

(٥) لم نقف عليه.

وقد مضى في «البقرة»[1] أنها سبعُ أرضين بين كلِّ أرضَيْن مسيرةُ خمس مئة عام، وسيأتي له في آخِرِ «الطلاق» زيادةُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

وقول ثالث قاله عكرمةُ وعطية وابن زيد، وابنُ عباس أيضاً فيما ذكر المَهْدَويُّ: إنَّ السماوات كانت رتقاً لا تُمْطِر، والأرض كانت رتقاً لا تُنْبِت، ففتَقَ السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات[2]؛ نظيره قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١-١٢]. واختار هذا القولَ الطبريُّ[3]؛ لأنَّ بعده: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قلت: وبه يقع الاعتبارُ مشاهَدةً ومُعاينة، ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية؛ ليدلَّ على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء. وقيل:

يَهونُ عليهم إذا يَغضبو ... نَ سُخْطُ العُدَاةِ وإرغامُها
ورَتْقُ الفُتوق وفَتْقُ الرُّتو ... ق ونَقْضُ الأمورِ وإبرامُها[4]

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ثلاثُ تأويلات:

أحدُها: أنه خَلَق كلَّ شيءٍ من الماء؛ قاله قتادة.

الثاني: حَفِظَ حياةَ كلِّ شيءٍ [حيٍّ] بالماء.

الثالث: : وجَعَلْنا من ماء الصُّلْب كلَّ شيءٍ حيٍّ؛ قاله قطرب[5].

«وجعلنا» بمعنى: خلقنا. وروى أبو حاتم البُسْتِيُّ في المسند الصحيح له من

---

(١) ١/ ٣٨٧.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٤٤، وأخرج قول عكرمة وعطية وابن زيد الطبري ١٦/ ٢٥٧، وأخرجه عن ابن عباس الحاكم ٢/ ٣٨٢، وفيه طلحة بن عمرو، قال عنه الذهبي في التلخيص: واه.

(٣) في تفسيره ١٦/ ٢٥٩.

(٤) قائلهما عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كما في الحماسة البصرية ١/ ١٣٢، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٤٤ وما سلف بين حاصرتين منه، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٦٠ بلفظ: كلُّ شيءٍ حيٌّ خلق من الماء.

حديث أبي هريرةَ قال: قلتُ: يا رسول الله، إذا رأيتُك طابت نفسي، وقَرَّتْ عيني؛ أنبِئْني عن كلِّ شيء؟ قال: «كلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء» الحديث؛ قال أبو حاتم: قولُ أبي هريرة: أنبئني عن كلِّ شيء، أراد به عن كلِّ شيءٍ خُلق من الماء، والدليلُ على صحة هذا جوابُ المصطفى إياه حيث قال: «كلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء» [فهذا جوابٌ خرج على سؤالٍ بعَيْنِه، لا أنَّ كلَّ خَلْقٍ من الماء] وإن لم يكن مخلوقاً[1].

وهذا احتجاجٌ آخَرُ سوى ما تقدَّم من كَوْن السماوات والأرضِ كانتا[2] رَتْقاً.

وقيل: الكلُّ قد يُذْكَر بمعنى البعض، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقولِه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والصحيحُ العمومُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ شيءٍ خُلق من الماء» والله أعلم.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدِّقون بما يُشاهِدون، وأنَّ ذلك لم يكن بنفسه، بل بمكوِّنٍ[3] كوَّنه، ومدبِّرٍ أَوْجَدَه، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوِّن مُحْدَثاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثَوابِت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلَّا تميدَ بهم ولا تتحرَّكَ؛ ليتمَّ القرارُ عليها؛ قاله الكوفيون. وقال البصريُّون: المعنى: كراهيةَ أن تميد. والمَيْدُ: التحرُّك والدوران. يقال: ماد رأسه، أي: دار. وقد مضى في «النحل» مستوفًى[4].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ يعني في الرَّواسي؛ عن ابن عباس[5]. والفِجاجُ: المسالك. والفَجُّ: الطريقُ الواسع بين الجبلين.

وقيل: وجعلنا في الأرض فِجاجاً، أي: مسالكَ، وهو اختيار الطبري[6]؛

---

(١) صحيح ابن حبان (٢٥٥٩)، وما بين حاصرتين منه، وسلف ١/ ٣٨٥ .

(٢) قوله: كانتا، من (ظ).

(٣) في (م): لمكون.

(٤) ١٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٢ .

(٦) في تفسيره ١٦/ ٢٦٢ .

لقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: يهتدون إلى السير في الأرض.

﴿سُبُلًا﴾ تفسير الفِجاج؛ لأنَّ الفَجَّ قد يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً وقد لا يكون. وقيل: ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: محفوظاً من أن يقع ويسقطَ على الأرض، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥][(١)].

وقيل: محفوظاً بالنجوم من الشياطين؛ قاله الفرَّاء[(٢)]، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

وقيل: محفوظاً من الهَدْم والنَّقْض[(٣)]، وعن أن يبلغه أحدٌ بحيلة. وقيل: محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد.

وقال مجاهد: مرفوعاً. وقيل: محفوظاً من الشرك والمعاصي[(٤)].

﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ قال مجاهد: يعني الشمسَ والقمر [والنجوم][(٥)]. وأضاف الآياتِ إلى السماء لأنها مجعولةٌ فيها، وقد أضاف الآياتِ إلى نفسه في مواضع؛ لأنه الفاعلُ لها. بيَّن أنَّ المشركين غَفَلُوا عن النظر في السماوات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسِها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى؛ إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أنَّ لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل[(٦)] أن يكون له شريك.

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٦٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٣ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٠١ .

(٣) في (د) و(ف): والنقص.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٤٥ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٣ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٦) في (م): فيستحيل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ذَكَّرهم نعمةً أخرى؛ أنْ[١] جَعَل لهم الليلَ ليسكنوا فيه، والنهارَ ليتصرَّفوا فيه لمعايشهم. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: وجَعَل الشمسَ آيةَ النهار، والقمرَ آيةَ الليل؛ لتُعلَم الشهورُ والسِّنونَ والحسابُ، كما تقدَّم في «سبحان» بيانُه[٢].

﴿كُلٌّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجْرُون ويسيرون بسرعةٍ؛ كالسابح في الماء[٣]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ [النازعات:٣] ويقال للفرس الذي يَمدُّ يده في الجَرْي: سابح[٤].

وفيه من النَّحْو أنه لم يقل: يَسْبَحْن، ولا تَسبح؛ فمذهب سيبويه: أنه لمَّا أخبر عنهنَّ بفعلِ مَن يَعْقِلُ وجَعَلهنَّ في الطاعة بمنزلةِ مَن يعقل، أخبر عنهنَّ بالواو والنون. ونحوَه قال الفرَّاء[٥]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يوسف»[٦].

وقال الكسائيُّ: إنَّما قال: «يَسْبَحون» لأنه رأسُ آية، كما قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر:٤٤] ولم يقل: منتصرون[٧].

وقيل: الجريُ للفَلَكِ، فنسب إليها. والأصحُّ أنَّ السيارة تجري في الفَلَك، وهي سبعةُ أفلاكٍ دون السماواتِ المطبقة التي هي مجالُ الملائكة وأسباب الملكوت. فالقمرُ في الفَلَكِ الأدنى، ثُمَّ عُطَارِد، ثم الزُّهَرَة، ثم الشمس، ثم المِرِّيخ، ثم المُشْتَري، ثم زُحَل، والثامنُ فَلَكُ البروج، والتاسعُ الفَلَكُ الأعظم.

---

(١) لفظة «أن» من (ظ).

(٢) ١٣/ ٣٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٣.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٦، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠١، وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٤٧.

(٦) ١١/ ٢٤٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٦.

والفَلَكُ واحدُ أفلاكِ النجوم. قال أبو عمرو: ويجوز أن يُجمع على فُعْلٍ، مثل: أَسَدٍ وأُسْد، وخَشَبٍ وخُشْب. وأصلُ الكلمة من الدوران، ومنه فَلْكةُ المِغزل لاستدارتها. ومنه قيل: فَلَّك ثَدْيُ المرأة تفليكاً، وتَفلَّك: استدار[1]. وفي حديث ابن مسعود: تركتُ فرسي كأنه يدور في فَلَك. كأنه لدورانه شبَّهه بفَلَكِ السماء الذي تدور عليه النجوم[2].

قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجومِ والشمسِ والقمر، قال: وهي بين السماء والأرض[3].

وقال قتادة: الفَلَكُ استدارةٌ في السماء تدور [فيها] النجوم[4] مع ثبوت السماء.

وقال مجاهد: الفَلَكُ كهيئة حديدة الرَّحى وهو قُطْبُها. وقال الضحاك: فَلَكُها: مَجراها وسرعةُ سَيْرِها. وقيل: الفَلَكُ موجٌ مكفوف، ومجرى الشمسِ والقمر فيه[5]؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي: دوامَ البقاءِ في الدنيا؛ نزلت حين قالوا: نتربَّص بمحمدٍ رَيْبَ المَنُون[6]. وذلك أنَّ المشركين كانوا يدفعون نبوَّته

---

(١) الصحاح (فلك).

(٢) تهذيب اللغة ١٠/٢٥٦، وأخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/٩٦، وهو فيهما بلفظ: أن رجلاً أتى رجلاً وهو جالس عند عبد الله، فقال: إني تركت فرسك يدور كأنه في فلك...، وأخرجه بنحوه مطولاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/٢٦٦.

(٤) في النسخ عدا (ظ): بالنجوم، والمثبت من (ظ) والنكت والعيون ٣/٤٤٦، والكلام وما بين حاصرتين منه، وينظر تفسير الطبري ١٦/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٦) الوسيط ٣/٢٣٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٤.

ويقولون: شاعرٌ نتربَّص به رَيْبَ المنون، ولعلَّه يموت كما مات شاعرُ بني فلان، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولَّى الله دينَه بالنصر والحِياطة، فهكذا نحفظ دينك وشَرْعك. ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: أَفَهُم، مثل قول الشاعر:

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيلِدُ لم[1] تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ[2]

أي: أهم؟! فهو استفهامُ إنكار.

وقال الفرَّاء: جاء بالفاء ليدلَّ على الشَّرط؛ لأنه جوابُ قولهم: سيموت[3].
ويجوز أن يكون جيء بها؛ لأنَّ التقدير فيها: أَفَهُم الخالدون إنْ متَّ! قال الفرَّاء: ويجوز حذفُ الفاء وإضمارُها؛ لأنَّ «هم» لا يتبيَّن فيها الإعراب[4]. أي: إن متَّ فهم يموتون أيضاً، فلا شماتةَ في الإماتة.

وقُرئ: «مِتَّ» و«مُتَّ» بكسر الميم وضمِّها لغتان[5].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[6] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ «فِتْنَةً» مصدرٌ على غير اللفظ. أي: نختبركم بالشدَّة والرخاء والحلالِ والحرام، لننظر كيف شكركم وصبرُكم. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: للجزاء بالأعمال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما

(١) في (م): لا، وهي رواية أخرى للبيت.
(٢) قائله أبو خراش، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ١٤٤، وسلف ٦/ ٤٦٩، و٨/ ٤٤٠.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٠، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٢، وهو أيضاً قول الطبري في التفسير ١٦/ ٢٦٨، ونصه: دخلت الفاء في الجزاء وهو «إن» وفي جوابه؛ لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت الفاء في قوله «فهم» لأنه جواب للجزاء.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٦٨.
(٥) قرأ بضم الميم: ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر، والباقون بكسرها. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.
(٦) ٥/ ٤٤٧.

يتَّخذونك. والهزءُ: السخريَة، وقد تقدَّم[(١)]. وهم المستهزئون المتقدِّمو الذكرِ في آخر سورة الحجر، في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الآية: ٩٥]. كانوا يَعيبون مَن جَحَد إلهيةَ أصنامِهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن! وهذا غايةُ الجهل.

﴿أَهَٰذَا الَّذِي﴾ أي: يقولون: أهذا الذي؟ فأضمر القول، وهو جواب «إذا»، وقولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كلامٌ معترِضٌ بين «إذا» وجوابِه.

﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: بالسوء والعيب، ومنه قول عَنْتَرة:

لا تَـذْكُـري مُـهْـري ومـا أطـعـمـتُـه فيكونَ جِلْدُكِ مثلَ جِلْدِ الأَجْربِ[(٢)]

أي: لا تعيبي مُهري.

﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بالقرآن ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ «هم» الثانية توكيدُ كفرِهم، أي: هم الكافرون؛ مبالغةً في وَصْفِهم بالكفر.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: رُكِّب على العَجلة فخلق عَجُولاً، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] أي: خلق الإنسان ضعيفاً، ويقال: خُلِق الإنسان من الشرّ، أي: شرِّيراً، إذا بالغتَ في وصفه به[(٣)]. ويقال: إنما

---

(١) ١/ ٣١٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٣، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٨٩، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٤٠٩، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٣١٧ لخُزَز بن لَوْذان، وحكى البغدادي في الخزانة ٦/ ١٩٠ عن الصاغاني أن البيت موجود في ديوان أشعار عنترة وخزز، ومعناه ـ كما ذكر البغدادي ـ أنه يقول لزوجته: لا تلوميني في إيثار فرسي فأبغضك وأهجر مضجعك وأتحاماك كما يُتحامى الأجرب من الإبل، وقيل: معناه أضربك فيبقى أثر الضرب عليك كالجرب.

(٣) هذا قول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٩٢، وقال: إنما خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر الشيء: خلقت منه.

أنت ذهابٌ ومجيء. أي: ذاهب جائي[١]. أي: طَبْعُ الإنسانِ العجلة، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مُضِرَّة.

ثم قيل: المرادُ بالإنسانِ آدمُ عليه السلام. قال سعيد بن جبير والسدِّي: لمَّا دخل الروحُ في عينَيْ آدمَ عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلمَّا دخل جوفَه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروحُ رجليه عجلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك قولُه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾[٢].

وقيل: خُلق آدمُ يومَ الجمعة في آخر النهار، فلمَّا أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تتميمَ نفخِ الروح فيه قبل غروب الشمس؛ قاله الكلبيُّ ومجاهدٌ وغيرهما[٣].

وقال أبو عبيدة وكثيرٌ من أهل المعاني: العَجَل: الطين بلغة حِمْيَر، وأنشدوا:

والنخلُ يَنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ[٤]

وقيل: المرادُ بالإنسان الناسُ كلُّهم.

وقيل: المراد: النَّضْرُ بن الحارِث بن علقمةَ بن كلدة بن عبد الدار؛ في تفسير ابن عباس[٥]، أي: لا ينبغي لمن خُلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله.

وقيل: إنه من المقلوب، أي: خُلق العَجَلُ من الإنسان. وهو مذهبُ أبي

---

(١) في (ظ): وجائي.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٧١.

(٣) أخرجه عن مجاهد ابنُ أبي شيبة ١٤/ ١١٥، والطبري ١٦/ ٢٧٢، وذكره عن الكلبيِّ الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٤٤٧. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٨٢: هذا قول ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية.

(٤) وصدره: والنبعُ في الصخرة الصمَّاء مَنْبَتُه، وهو في تهذيب اللغة ١/ ٣٦٩ والنكت والعيون ٣/ ٤٤٧، والكشاف ٢/ ٥٧٣، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٢، ومجمع البيان ١٧/ ٢٧، واللسان (عجل). قال ابن عطية: وهذا أيضاً ضعيف، ومعناه مباينٌ لمعنى الآية.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٧٣، وزاد المسير ٥/ ٣٥١، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٧١، ومجمع البيان ١٧/ ٢٧.

عبيدة[١]. النحاس: وهذا القول لا ينبغي أن يجاب[٢] به في كتاب الله؛ لأنَّ القَلْبَ إنما يقع في الشعر اضطراراً كما قال:

كما كان الزِّنَاءُ فريضةَ الرَّجْم[٣]

ونظيرُه هذه الآية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقد مضى في «سبحان».

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ هذا يقوِّي القولَ الأول، وأنَّ طَبْعَ الإنسان العَجَلة، وأنه خُلق خلقاً لا يتمالك، كما قال عليه الصلاة والسلام، حَسْبَ ما تقدم في «سبحان»[٤].

والمرادُ بالآيات: ما دلَّ على صِدْقِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة. وقيل: ما طلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وما علموا أنَّ لكلِّ شيءٍ أجلاً مضروباً. نزلت في النضر بن الحارثِ وقوله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢][٥].

وقال الأخفش سعيد: معنى «خلِق الإنسان مِن عَجَلٍ» أي: قيل له: كن، فكان[٦]. فمعنى «فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» على هذا القول: أنه مَن يقول للشيء: كن، فيكون، لا يُعْجِزُه إظهارُ ما استعجلوه من الآيات.

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٣٨ - ٣٩.

(٢) في (ظ): يجاء.

(٣) وتمامه: كانت فريضةَ ما أَتَيْتَ كما...، والبيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢٣٥، وقال الطبري ١٦/ ٢٧٤: وفي إجماع أهل التأويل على خلاف هذا القول الكفايةُ المغنية عن الاستشهاد على فساده بغيره.

(٤) ١٣/ ٣٥ - ٣٦.

(٥) سلف قريباً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكر هذا القول عن الأخفش الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٢٧ والرازي في تفسيره ٢٢/ ١٧٢، وذكره الطبري ١٦/ ٢٧٣ عن بعض أهل العربية من أهل البصرة، ولم يسمِّه. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٢: وهذا أيضاً ضعيف، وفيه تخصيصُ ابن آدم بشيءٍ كلُّ مخلوقٍ يشاركه فيه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الموعود، كما يقال: الله رجاؤنا، أي: مَرْجُوُّنا. وقيل: معنى «الوعد» هنا: الوعيد، أي: الذي يَعِدُنا من العذاب. وقيل: القيامة.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يا معشر المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ العلمُ هنا بمعنى المعرفة، فلا يقتضي مفعولاً ثانياً، مثل: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وجوابُ «لو» محذوف، أي: لو علموا الوقت الذي ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وعَرَفوه، لَمَا استعجلوا الوعيد[١]. وقال الزجاج[٢]: أي: لعلموا صِدْقَ الوعد.

وقيل: المعنى: لو علموه لَمَا أقاموا على الكفر، ولآمنوا[٣].

وقال الكسائيُّ: هو تنبيهٌ على تحقيق وقوعِ الساعة، أي: لو علموه عِلْمَ يقينٍ لعلموا أنَّ الساعة آتيةٌ، ودل عليه: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة. يعني القيامة، وقيل: العقوبة، وقيل: النار، فلا يتمكَّنون من حيلة.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال الجوهريّ[٤]: بَهَتَه بَهْتاً: أَخَذَه بغتة؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾.

وقال الفراء: «فتبهتُهم» أي: تحيِّرهم؛ يقال: بَهَتَه يبهته: إذا واجهه بشيء يحيِّره[٥]. وقيل: فتَفْجَأُهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: صَرْفَها عن ظهورهم. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون[٦] ويؤخَّرون لتوبةٍ واعتذار.

---

(١) الوسيط ٣/ ٢٣٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٣.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣.
(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٦.
(٤) في الصحاح (بهت).
(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٣٨، دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.
(٦) في (م): أي لا يمهلون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ له(١). يقول: إن استَهزأ بك هؤلاء، فقد استُهزئ بمَن قبلك من الرسل(٢)، فاصبر كما صبروا. ثم وَعَدَه النصرَ فقال: ﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط ودار ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ كفروا و﴿سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ وهَزَؤوا بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاءُ استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: يحرسُكم ويحفظُكم. والكِلَاءة: الحِراسةُ والحفظ؛ كَلأه الله كِلَاءة(٣) ـ بالكسر ـ أي: حَفِظَه وحَرَسَه. يقال: اذهب في كِلاءة الله، واكتلأتُ منهم: احترست(٤)؛ قال الشاعر؛ هو ابنُ هَرْمة(٥):

إنَّ سُلَيْمى واللهُ يَكلؤُها ضَنَّتْ بشيءٍ ما كان يَرزَؤُها

وقال آخر:

أَنَختُ بَعِيري واكْتَلأتُ بعَيْنِهِ(٦)

(١) في (ظ): وتقوية.

(٢) في (م): فقد استهزئ برسل من قبلك.

(٣) في (م): كِلاءً، وكلاهما صحيح. القاموس كلأ.

(٤) الصحاح (كلأ).

(٥) ديوانه ص٥٥، ومجاز القرآن ٢/ ٣٩. وابنُ هَرْمة: هو إبراهيم أبو إسحاق، آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم، وكان من مخضرمي الدولتين، مدح الوليد بن يزيد ثم أبا جعفر المنصور، وكانت وفاته في خلافة الرشيد بعد (١٥٠هـ). الخزانة ١/ ٤٢٥.

(٦) الصحاح (كلأ)، وقائله كعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٨٠ برواية: =

وحكى الكسائيُّ والفراء: «قل مَن يَكْلَوْكُمْ» بفتح اللام وإسكان الواو. وحَكَيا: «مَن يَكْلَاكُمْ»، على تخفيف الهمزة في الوجهين، والمعروفُ تحقيقُ الهمزة، وهي قراءةُ العامَّة[١]. فأما «يَكْلَاكُم» فخطأٌ من وجهين فيما ذكره النحاس[٢]؛ أحدهما: أنَّ بدل الهمزة إنما يكون[٣] في الشعر. والثاني: أنَّهما يقولان في الماضي: كَلَيْتُه، فينقلب المعنى؛ لأنَّ كَلَيته: أوجعتُ كُلْيَته، ومَن قال لرجل: كَلَاكَ الله، فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع في كُلْيته.

ثم قيل: مخرجُ اللفظ مخرجُ الاستفهام، والمرادُ به النَّفْيُ، وتقديره: قل: لا حافظَ لكم ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ إذا نمتم ﴿وَ﴾ بـ ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ إذا قمتم وتصرَّفتم في أموركم ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ أي: من عذابه وبأسه[٤]، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٣] أي: من عذاب الله. والخطابُ لمن اعترف منهم بالصانع، أي: إذا أَقْرَرْتم بأنه الخالق، فهو القادرُ على إحلال العذاب الذي تستعجلونه.

﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم﴾ أي: عن القرآن. وقيل: عن مواعظ ربِّهم. وقيل: عن معرفته. ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: لاهون غافلون.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ المعنى: ألهم، والميمُ صلة[٥]. ﴿تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ أي: من عذابنا. ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يعني الذين زعم هؤلاء الكفارُ أنهم ينصرونهم، لا يستطيعون ﴿نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾، فكيف ينصرون عابِديهم؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: يُمنَعون[٦]. وعنه: يُجَارُون[٧]، وهو اختيارُ

= أنخت قَلُوصي واكتلأت بعينها وآمرْتُ نفسي أيَّ أمريَّ أفعل
وكذا ذكره الزمخشري في أساس البلاغة (كلأ) وقال: أي: احترستُ بعينها؛ لأنها إذا رأت شيئاً ذُعرت.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧١، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٤، وذكَر الفراء أن هذين الوجهين في غير القرآن.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٧١.

(٣) في إعراب القرآن: إنما يجوز.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٨، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٨.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٨، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٧٤.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٥.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٨٠.

الطبريّ[١]. تقول العرب: أنا لك جارٌ وصاحبٌ من فلان، أي: مجيرٌ منه؛ قال الشاعر:

يُنادِي بأعلى صوتِه متعوِّذاً ليُصحَبَ منها والرِّماحُ دَوَاني[٢]

وروى معمرٌ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: «يُنصَرُونَ» أي: يُحفظون[٣]. قتادة: أي: لا يَصْحَبهم الله بخير[٤]، ولا يجعلُ رحمتَه صاحباً لهم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد أهلَ مكة. أي: بَسَطْنا لهم ولآبائهم في نعيمها و﴿طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ في النعمة، فظنوا أنَّها لا تزول عنهم، فاغترُّوا وأعرضوا عن تدبُّر حُججِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي: بالظهور عليها لك يا محمدُ أرضاً بعد أرضٍ، وفَتْحِها بلداً بعد بلدٍ ممَّا حَوْلَ مكة؛ قال معناه الحسنُ وغيره. وقيل: بالقتل والسَّبي؛ حكاه الكلبيّ. والمعنى واحد، وقد مضى في «الرعد» الكلامُ في هذا مستوفى[٥].

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ـ يعني كفارَ مكةَ ـ بعد أن نَقَصْنا من أطرافهم؟ بل أنت تغلبهم وتظهرُ عليهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ أي: أخوِّفكم وأحذِّركم بالقرآن ﴿وَلَا

---

(١) في تفسيره ١٦/ ٢٨١.

(٢) ذكره الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٤٠٩، وفيه: ليصحب منا...

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٤، والطبري ١٦/ ٢٨٠.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٥) ١٢/ ٩٥ - ٩٦، وقول الحسن وقول الكلبي ذكرهما أبو الليث ٢/ ٣٦٨، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٩.

يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: مَن أَصَمَّ الله قلبَه، وخَتَم على سَمْعِه، وجَعَل على بصره غشاوةً، عن فَهْمِ الآيات وسماع الحقّ.

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ ومحمد بن السَّمَيفع: «ولا يُسْمَعُ»؛ بياءٍ مضمومةٍ وفتحِ الميم على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ «الصُّمُّ» رفعاً[١]، أي: إنَّ الله لا يُسمعهم.

وقرأ ابن عامر والسُّلَميُّ أيضاً، وأبو حَيْوَةَ ويحيى بنُ الحارِث: «ولا تُسْمِعُ»؛ بتاءٍ مضمومةٍ وكَسْرِ الميم؛ «الصُّمَّ» نصباً[٢]، أي: إنك يا محمدُ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ، فالخطابُ للنبيِّ ﷺ. وردَّ هذه القراءةَ بعضُ أهل اللغة. وقال: كان يجب أن يقول: إذا ما تنذرهم. قال النحاس[٣]: وذلك جائز؛ لأنه قد عُرِف المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: طَرَفٌ[٤]. قال قتادة: عقوبة[٥]. ابن كيسان: قليل[٦] وأدنى شيء، مأخوذٌ من نَفْح المسك؛ قال:

وعَمْرةُ من سَرَواتِ النِّسا ... ءِ تَنْفَحُ بالمسكِ أَرْدَانُها[٧]

ابن جريج: نصيبٌ، كما يقال: نَفَحَ فلانٌ لفلانٍ من عطائه: إذا أعطاه نصيباً من المال[٨]؛ قال الشاعر:

لَمَّا أتيتُك أرجو فَضلَ نائِلِكُمْ ... نَفَحْتني نَفْحةً طابتْ لها العَرَبُ[٩]

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٢٨٣، عن السلمي، والقراءات الشاذة ص٩١ عن الحسن.
(٢) السبعة ص٤٢٩، والتيسير ص١٥٥ عن ابن عامر، وذكرها عن السلمي الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٠٥، والنحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٢.
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٧٢.
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٦.
(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٨٤.
(٦) الوسيط ٣/ ٢٣٩.
(٧) قائله قيس بن الخطيم كما في الأغاني ٢/ ٤٢٧ - ٤٢٨، وجمهرة اللغة ٢/ ٢٥٧، واللسان (ردن)، وهو بلا نسبة في الصحاح (ردن).
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٦.
(٩) البيت لابن ميادة؛ قاله في مدح الوليد بن يزيد، وهو بهذه الرواية في الصحاح (نفح)، وهو في =

أي: طابت لها النفس.

والنفحةُ في اللغة: الدفعةُ اليسيرة؛ فالمعنى: ولئن مسَّهم أقلُّ شيءٍ من العذاب ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: متعدِّين، فيعترفون حين لا ينفعُهم الاعتراف.

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الموازينُ جمعُ ميزان. فقيل: إنه يدلُّ بظاهره على أنَّ لكلِّ مكلَّفٍ ميزاناً توزن به أعمالُه، فتوضع الحسنات في كِفّة، والسيّئاتُ في كِفّة.

وقيل: يجوز أن يكون هناك موازينُ للعامل الواحد، يوزن بكلِّ ميزانٍ منها صنفٌ من أعماله، كما قال:

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعَدْلِه ... فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ[1]

ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عبّر عنه بلفظ الجمع. وخرَّج اللّالَكائيُّ الحافظُ أبو القاسم في «سننه» عن أنس يرفعه: «إنَّ مَلَكاً موكَّلٌ بالميزان، فيؤتَى بابن آدمَ فيوقَفُ بين كِفَّتي الميزان، فإنْ رَجَح؛ نادى الملكُ بصوتٍ يُسمِعُ الخلائقَ: سَعِد فلانٌ سعادةً لا يَشْقَى بعدها أبداً، وإنْ خفَّ نادى الملك: شَقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يَسْعدُ بعدها أبداً»[2].

= ديوانه برواية:

لمَّا أتيتُكَ من نجدٍ وساكنه ... نَفَحتَ لي نفحةً طارت بها العرب

(١) لم نقف عليه.

(٢) شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٢٢٠٥)، و أخرجه أيضاً الحارث (١١٢٥ - بغية الباحث)، والبزار (٣٤٤٥ - كشف)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٧٤ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٠ : فيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه. واللالكائي هو هبة الله بن الحسن بن منصور، الطبري الرازي الشافعي، الحافظ المفتي، توفي سنة (٤١٨هـ). السير ١٧/ ٤١٩ .

وخرَّج عن حذيفةَ ﷺ قال: «صاحبُ الميزان يومَ القيامة جبريلُ عليه السلام»[(١)].

وقيل: للميزان كِفَّتان، وخيوطٌ، ولسانٌ، والشاهين[(٢)]، فالجمع يرجع إليها.

وقال مجاهد وقتادة والضحاك: ذِكْرُ الميزان مَثَلٌ، و ليس ثَمَّ ميزانٌ، وإنما هو العدل[(٣)]. والذي وردت به الأخبارُ، وعليه السوادُ الأعظم، القولُ الأوّل.وقد مضى في «الأعراف» بيانُ هذا، وفي «الكهف» أيضاً[(٤)]. وذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٥)] مستوفًى والحمد لله.

و«القِسط»: العدل، أي: ليس فيها بَخْسٌ ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا. و«الْقِسْطَ» صفةُ الموازين، ووحّد لأنه مصدر؛ يقال: ميزانٌ قِسْطٌ، وميزانان قِسْطٌ، وموازينُ قِسْطٌ. مثل: رجالٌ عَدْلٌ ورضاً[(٦)].و قرأت فرقة: «الْقِصْطَ»، بالصاد[(٧)].

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لأهل يوم القيامة. وقيل: المعنى: في يوم القيامة .﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يُنْقَصُ من إحسان مُحْسِنٍ، ولا يزاد في إساءة مسيء.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبةُ وأبو جعفر: ﴿مِثْقالُ حبةٍ﴾

---

(١) شرح أصول الاعتقاد (٢٢٠٩) من طريق يوسف بن صهيب، عن موسى بن أبي المختار، عن بلال العبسي، عن حذيفة. وموسى بن أبي المختار مجهول، تفرد بالرواية عنه يوسف بن صهيب، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان. ينظر حاشية الحديث (٢٣٢٦٦) من مسند أحمد . وينظر ما سلف ٩/ ١٥٩ .

(٢) الشاهين: عمود الميزان. القاموس (شهن). قال ابن حزم في الفصل في المِلل والأهواء والنحل ٥/ ٦٥ : وأمور الآخرة لا تُعلم إلا بما جاء في القرآن، أو بما جاء عن رسول الله ﷺ، ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام شيء يصح في صفة الميزان. فنقطع على أن الموازين توضع يوم القيامة لوزن أعمال العباد، ونقطع على أن تلك الموازين أشياء يبين الله عزَّ وجلَّ بها لعباده مقادير أعمالهم من خير وشر.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧٦ ، وأخرجه عن مجاهد عبد الرزاق ٢/ ٢٤ ، والطبري ١٦/ ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٤) ٩/ ١٥٦ - ١٦٠ ، و١٣/ ٣٩٥ .

(٥) ص٣٠٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٤ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٨٥ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٨٥ ، والبحر ٦/ ٣١٦ دون نسبة.

بالرفع هنا وفي «لقمان»، على معنى: إنْ وقع أو حضر، فتكون «كان» تامةً، ولا تحتاج إلى خبر. الباقون: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب[١]، على معنى: وإن كان العملُ أو ذلك الشيءُ مثقالَ. ومثقالُ الشيء: ميزانُه من مِثْلِه.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مقصورةَ الألف قراءةُ الجمهور، أي: أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها. و«بها» أي: بالحبة[٢]، ولو قال به ـ أي: بالمثقال ـ لجاز. وقيل: مثقالُ الحبة ليس شيئاً غيرَ الحبة، فلهذا قال: «أَتَيْنَا بِهَا».

وقرأ مجاهد وعكرمةُ: «آتَيْنَا» بالمدِّ، على معنى: جازَيْنا بها[٣]، يقال: آتى يؤاتي مؤاتاة.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي: محاسبين على ما قدَّموه من خيرٍ وشرّ. وقيل: «حاسِبِين» أي[٤]: لا أحدَ أسرعُ حساباً منا. والحسابُ: العدّ. روى الترمذيُّ عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رجلاً قعد بين يدي النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنَّ لي مملوكِينَ يكذبونني ويخونونني ويَعْصونني، وأشتُمهم وأضربُهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «يُحسَبُ ما خانوك وعَصَوْك وكذبوك وعقابُكَ إيَّاهم، فإن كان عقابُك إيَّاهم بقَدْر ذنوبهم كان كَفَافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إيَّاهم دونَ ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك [إيَّاهم] فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منك الفضلُ». قال: فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف. فقال رسول الله ﷺ: «أمَا تقرأ كتاب الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾؟» فقال الرجل: والله يا رسول

(١) السبعة ص٤٢٩، والتيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن نافع وأبي جعفر، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١١١.

(٢) في (م): للمجازاة عليها ولها يجاء بها أي بالحبة.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٥ عن مجاهد، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٦٣ عن مجاهد وابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهم، ولم نقف عليها عن عكرمة.

(٤) في النسخ عدا (ظ): إذ، والمثبت من (ظ).

الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم، أُشهِدكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهم. قال: حديث غريب(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ وحُكي عن ابن عباس وعكرمة: «الفُرْقانَ ضياءً» بغير واو على الحال(٢). وزعم الفرَّاء أنَّ حَذْفَ الواو والمجيءَ بها واحد، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا﴾ [الصافات:٦-٧] أي: حفظاً. وردَّ عليه هذا القولَ الزجَّاجُ؛ قال: لأنَّ الواو تجيءُ لمعنًى فلا تُزاد، قال: وتفسيرُ «الفرقان»: التوراة؛ لأنَّ فيها الفرقَ بين الحلال والحرام. قال: «وَضِيَاءً» مثل: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦](٣).

وقال ابن زيد: «الفرقان» هنا: هو النصرُ على الأعداء، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:٤١] يعني يومَ بدر(٤).

قال الثعلبيُّ: وهذا القولُ أشبهُ بظاهرِ الآية؛ لدخول الواو في الضياء، فيكون معنى الآية: ولقد آتينا موسى وهارون النَّصرَ والتوراةَ التي هي الضِّياءُ والذِّكر ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: غائبين؛ لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أنَّ لهم ربًّا قادراً يجازي على الأعمال، فهم يخشَوْنه في

---

(١) سنن الترمذي (٣١٦٥)، وهو عند أحمد (٢٦٤٠١)، وما سلف بين حاصرتين منهما. وهذا حديث ضعيف. ينظر التهذيب ٢/ ٥٤٢ ، وحاشية هذا الحديث في مسند أحمد.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٢ ، والمحتسب ٢/ ٦٤ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٢ - ٧٣ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٥ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٧ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٨٨ .

سرائرهم وخَلَواتهم التي يغيبون فيها عن الناس، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: من قيامها قَبْلَ التوبة ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وَجِلُون.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ﴾ يا معشرَ العرب ﴿مُنكِرُونَ﴾ وهو معجزٌ لا تقدرون على الإتيان بمثله. وأجاز الفرَّاء(١): وهذا ذِكْرٌ مُباركاً أنزلناه، بمعنى أنزلناه مباركاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ قال الفرَّاء(٢): أي: أعطيناه هُدَاه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ النُّبوَّة، أي: وفَّقناه للنظر والاستدلال لمَّا جَنَّ عليه الليلُ فرأى النجم والشمس والقمر.

وقيل: «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبلِ موسى وهارون، والرُّشْدُ على هذا: النبوَّة. وعلى الأول أكثرُ أهل التفسير، كما قال ليحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢]. وقال القُرَظيُّ: رشده: صلاحه(٣). ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: أنه أهلٌ لإيتاء الرشد وصالحٌ للنبوة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ قيل: المعنى: أي: اذكر حين قال لأبيه، فيكون الكلام قد تمَّ عند قوله: «وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ». وقيل: المعنى: «وكنَّا به عالِمِينَ إذْ قال»،

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢٠٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٣.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٠٦.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٧.

فيكون الكلام متَّصلاً ولا يوقف على قوله: «عالمِين». «لأبيه» وهو آزر ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ نمرود ومَن اتَّبعه.

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام. والتمثالُ: اسمٌ موضوعٌ للشيء المصنوع مشبَّهاً بخَلْقٍ من خَلْقِ الله تعالى. يقال: مثَّلت الشيءَ بالشيء، أي: شبَّهته به. واسمُ ذلك الممثَّل: تمثال[1].

﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: مقيمون على عبادتها. ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: نعبدها تقليداً لأسلافنا. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خُسْرانٍ بعبادتها؛ إذ هي جماداتٌ لا تنفع ولا تضرُّ ولا تعلم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أجادٌّ أنت مُحِقٌّ[2] فيما تقول؟ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: لاعبٌ مازح ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لست بلاعبٍ، بل ربُّكم والقائمُ بتدبيركم خالقُ السماوات والأرض ﴿ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خَلَقهنَّ وأبدعهنَّ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: على أنه ربُّ السماوات والأرض. والشاهدُ يبيِّن الحكم، ومنه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] أي: بَيَّن الله، فالمعنى: وأنا أبيِّن بالدليل ما أقول.

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أخبر أنه لم يكتفِ بالمُحاجَّة باللسان بل[3] كسَّر أصنامهم فِعْلَ واثقٍ بالله تعالى، مُوطِّنٍ نَفْسَه على مقاساة المكروه في

(١) الوسيط ٣/ ٢٤١.

(٢) في (ظ): أجاد محق، وفي (د): أجادلت بحق، وفي (م): أجاءٍ أنت بحق، ولم تجود في (ز)، والمثبت من (خ). وينظر الوسيط ٣/ ٢٤١، والوجيز (على هامش مراح لبيد) ٢/ ٣٩.

(٣) في (ظ): حتى.

الذبُّ عن الدِّين. والتاء في «تَاللهِ» تختصُّ في القسم باسم الله وحده، والواو تختصُّ بكلّ مُظْهَرٍ، والباءُ بكلِّ مُضْمَرٍ ومظهَر[١]، قال الشاعر:

تـالـلـهِ يَبْـقَـى عـلـى الأيـام ذو حِـيَـدٍ بـمُـشْـمَـخِـرٍّ بـه الـظَّـيَّـانُ والآسُ[٢]

قال ابن عباس: أي: وحرمةِ الله لأكيدنَّ أصنامكم، أي: لأمْكُرنَّ بها. والكيدُ: المَكْر. كاده يَكيدُه كيداً ومَكِيدةً، وكذلك المُكايدة؛ وربما سمِّي الحربُ كيداً؛ يقال: غزا فلانٌ فلم يَلْقَ كيداً، وكلُّ شيءٍ تعالجه فأنت تَكِيدُه[٣].

﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ أي: مُنْطَلِقين ذاهبين. وكان لهم في كلِّ سنةٍ عيدٌ يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجتَ معنا إلى عيدنا أعجبك دينُنا ـ رُوي ذلك عن ابن مسعود على ما يأتي بيانُه في «والصافاتِ»[٤] ـ فقال إبراهيم في نفسه: تاللهِ لَأَكيدَنَّ أصنامَكم.

قال مجاهد وقتادة: إنما قال ذلك إبراهيم في سرٍّ من قومه، ولم يسمعه إلَّا رجلٌ واحد، وهو الذي أفشاه عليه[٥]. والواحدُ يُخْبَر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أُخبر به عنه[٦] ممَّا يَرضَى به غيره، ومثله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨].

---

(١) أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص٢٤٧ .

(٢) نُسب البيت لمالك بن خالد الخُناعي، ولأبي ذؤيب الهذلي، ولأمية بن أبي عائذ، وللفضل بن عباس بن عتبة بن ربيعة، وهو في الصحاح (شمخر)، والحلل للبطليوسي ص٩٦ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٤٠ والخزانة ١٠/ ٩٥ ، وورد في الكتاب ٣/ ٤٩٦ ، والمقتضب ٢/ ٣٢٤ ، وشرح المفصل ٩/ ٩٨ ، والخزانة ٥/ ١٧ برواية: لله، بدل: تالله، وهما روايتان كما ذكر البطليوسي. وقوله: يبقى، هو جواب القسم بتقدير «لا» النافية. ويعني بقوله: ذو حيد: الوعل، ويروى بفتح الحاء وكسرها. والمشمخر: الجبل الشامخ. والظَّيَّان: ياسمين البَرّ. والآس: الريحان. ينظر الخزانة ٥/ ١٧٧، وشرح الشواهد للشنتمري ص٥١٣ .

(٣) الصحاح (كيد).

(٤) عند تفسير الآيات (٨٧ - ٨٩)، وينظر الوسيط ٣/ ٢٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٢٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٧ .

(٦) قوله: عنه، ليس في (م).

وقيل: إنما قاله بعد خروج القوم، ولم يبقَ إلَّا الضعفاءُ، فهم الذين سمعوه. وكان إبراهيم احتال في التخلُّف عنهم بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي: ضعيفٌ عن الحركة[١].

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: فُتاتاً. والجَذُّ: الكسر والقطع؛ جَذَذْتُ الشيءَ: كَسَرتُه وقَطَعتُه. والجِذاذ والجُذاذ: ما كُسِر منه، والضمُّ أفصح من كسره؛ قاله الجوهريُّ[٢]. الكسائي: ويقال لحجارة الذهب: جُذاذ؛ لأنها تُكْسَر.

وقرأ الكسائيُّ والأعمش وابن محيصن: «جِذاذاً»؛ بكسر الجيم، أي: كِسَراً وقِطَعاً، جمع جَذيذٍ: وهو الهشيم، مثل خَفيف وخِفاف، وظَريف وظِراف[٣]. قال الشاعر:

جَـذَّذ الأصـنـامَ فـي مِـحْـرابِـهـا ذاك فـي الـلـه الـعـلـيِّ الـمـقـتَـدِرْ[٤]

الباقون بالضمِّ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، كالحُطام[٥] والرُّفات، الواحدةُ: جُذَاذة.

وهذا هو الكيد الذي أقسم بالله ليفعلنَّه بها. وقال: «فجعلهم»؛ لأن القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية.

وقرأ ابن عباس وأبو نَهِيكٍ وأبو السمَّال: «جَذَاذاً» بفتح الجيم، والفتح والكسر لغتان، كالحَصاد والحِصاد. أبو حاتم: الفتحُ والكسرُ والضمُّ بمعنى؛ حكاه قُطْرُب[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٥ مطولاً عن السدي.

(٢) في الصحاح (جذذ)، وما بعده منه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٨، وقراءة الكسائي في السبعة ص٤٢٩، والتيسير ص١٥٥. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٥١.

(٥) في النسخ: أي الحطام، والمثبت من المحتسب، وفيه قول أبي حاتم. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦.

(٦) المحتسب ٢/ ٦٤. وقال أبو حاتم ـ فيما ذكر ابن جني ـ: وأجودها الضم، وقد سلف ذلك عنه قريباً.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: عظيم الآلهة في الخلق؛ فإنه لم يكسره. قال السدِّيُّ ومجاهد: ترك الصنم الأكبر وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه[١]؛ ليَحتجَّ به عليهم. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ودينه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إذا قامت الحجة عليهم. وقيل: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ» أي: إلى الصنم الأكبر «يَرْجِعُونَ» في تكسيرها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المعنى: لمَّا رجعوا من عيدهم ورأوا ما أَحْدَثَ بآلهتهم، قالوا على جهة البحث والإنكار: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وقيل: «مَن» ليس استفهاماً، بل هو ابتداءٌ، وخبرُه: «[إنه][٢] لمِن الظالمِين»، أي: فاعلُ هذا ظالم. والأوّل أصحُّ؛ لقوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾، وهذا هو جوابُ: «مَنْ فَعَلَ هذا»، والضمير في «قالوا» للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم، أو الواحدِ، على ما تقدَّم. ومعنى «يذكُرهم»: يَعيبُهم ويسبُّهم، فلعلَّه الذي صنع هذا.

واختلف الناس في وجه رَفْعِ إبراهيم؛ فقال الزجَّاج: يرتفع على معنى: يقال له: هو إبراهيم[٣]، ويكون مبتدأً وخبرُه محذوف[٤]، والجملةُ مَحْكِيَّة. قال: ويجوز أن

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الدر المصون ٨/ ١٧٤.

(٣) يعني أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو، أو: هذا، والكلام إلى هذا الموضع في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦.

(٤) وذلك على تقدير: إبراهيم فاعلُ ذلك. الإملاء ٤/ ٦ (بهامش الفتوحات الإلهية).

وقد وقع في النسخ الخطية: فيكون مبتدأ... الخ. ولعل ثمة سقطاً أو وهماً وقع فيها. ولفظة: «ويكون» المثبتة أعلاه بدل: «فيكون» أولى بالسياق. فبها يتبيَّن القولان السالفان في وجه رفع «إبراهيم» كما جاء في المصادر.

يكون رفعاً على النداء، وضمُّه بناءٌ، وقام «له» مقامَ ما لم يسمَّ فاعله[١].

وقيل: رَفْعُه على أنه مفعولُ ما لم يسمَّ فاعلُه؛ على أن يُجعل «إبراهيم» غيرَ دالٍّ على الشَّخص، بل يجعل النُّطقُ به دالًّا على بناءِ هذه اللفظة. أي: يقال له هذا القولُ وهذا اللفظُ، وهذا كما تقول: زيدٌ وزنُ فَعْل، أو: زيدٌ ثلاثةُ أحرفٍ، فلَمْ تدلَّ بوجهٍ على الشَّخص، بل دلَلْتَ بنُطقك على نفس اللفظة. وعلى هذه الطريقة تقول: قلتُ إبراهيمَ، ويكون مفعولاً صحيحاً أنزلته منزلةَ قولٍ وكلامٍ؛ فلا يتعذَّر بعد ذلك أن يُبنَى الفعل فيه للمفعول. هذا اختيار ابن عطية في رَفْعِه[٢].

وقال الأستاذ أبو الحجَّاج الإشْبِيليُّ الأعْلَم[٣]: هو رفعٌ على الإهمال؛ قال ابن عطية[٤]: لمَّا رَأى وجوهَ الرفع كأنها لا تُوضح المعنى الذي قصدوه، ذهب إلى رَفْعِه بغيرِ شيءٍ، كما قد يَرفع التجرُّدُ والعِرْوُ عن العوامل الابتداءَ.

والفتى: الشابُّ، والفتاة: الشَّابَّة. قال ابن عباس: ما أرسل الله نبيًّا إلا شابًّا[٥]، ثم قرأ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ فيه مسألة واحدة،

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٣ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٨٠ ، والبيان ٢/ ١٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ ، وما قبله وبعده منه. وذكر السمين في الدر المصون ٨/ ١٧٥ أن في هذه المسألة خلافاً بين النحويين؛ يعني: تسلُّط القول على المفرد الذي لا يؤدِّي معنى جملة، مثل: قلت خطبة، وشعراً، ولا هو مقتطع من جملة، كقول الشاعر: إذا ذقتُ فاها قلتُ طعم مدامة...، ولا هو مصدرٌ لقال، ولا هو صفة لمصدره، نحو: قلت حقًّا.

(٣) يوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي النحوي، والأعلم هو المشقوق الشَّفة، والشنتمري نسبة إلى شَنْتَمرية ـ مدينة بالأندلس ـ من مصنفاته: تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، وهو شرح أبيات الكتاب لسيبويه. ينظر السير ١٨/ ٥٥٥ ، وإنباه الرواة ٤/ ٥٩ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ ، وقد ردَّ الآلوسي في روح المعاني ١٧/ ٦٤ قول الأعلم.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٥ (١٣٦٧١)، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وهي: أنه لمَّا بلغ الخبرُ نمرودَ وأشرافَ قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة، فقالوا: ائتوا به ظاهراً بمرأى من الناس حتى يروه، لعلَّهم يَشْهَدون عليه بما قال؛ ليكون ذلك حجَّةً عليه. وقيل: لعلَّهم يشهدون عقابَه، فلا يُقْدِمُ أحدٌ على مِثْلِ ما أَقْدَمَ عليه. أو: لعلَّ قوماً يَشْهَدون بأنهم رأَوْه يكسر الأصنام، أو: لعلَّهم يَشْهَدون طَعْنَه على آلهتهم؛ ليعلموا أنه يَستحقُّ العقاب.

قلت: وفي هذا دليلٌ على أنه كان لا يؤخذ[1] أحدٌ بدعوى أحدٍ فيما تقدَّم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ وهكذا الأمر في شرعنا ولا خلافَ فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: لمَّا لم يكن السَّماعُ عامًّا ولا ثبتت الشهادة، استفهموه هل فَعَل أم لا؟ وفي الكلام حذف، أي: فجاء إبراهيم حين أُتِيَ به فقالوا: أأنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: إنه غار وغضب من أن يُعبد هو ويُعبَد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك[2]، إن كانوا ينطقون فاسألوهم. فعلَّق فِعْلَ الكبير بنطق الآخَرين؛ تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم. كأنه قال: بل هو الفاعلُ إنْ نَطَق هؤلاء. وفي الكلام تقديمٌ على هذا التأويل في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

وقيل: أراد: بل فَعَلَه كبيرهم إن كانوا ينطقون. بيَّن أنَّ مَن لا يتكلَّم ولا يعلم لا يستحقُّ أن يُعبد. فكان قولُه من المعاريض، وفي المعاريض مندوحةٌ عن الكذب،

(١) في (د) و(م): يؤاخذ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ .

أي: سَلُوهم إنْ نطقوا فإنَّهم يَصْدُقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل.

وفي ضمن هذا الكلام اعترافٌ بأنه هو الفاعل، وهذا هو الصحيح؛ لأنه عدَّده على نفسه، فدلَّ أنه خرج مَخْرَج التعريض. وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتَّخذونهم آلهةً من دون الله، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾ الآية [مريم: ٤٢]، فقال إبراهيم: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرُّون، فيقول لهم: فلِمَ تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجةُ منهم؛ ولهذا يجوز عند الأئمة[1] فرضُ الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحقِّ من ذات نفسه؛ فإنه أقربُ في الحجة وأَقْطَعُ للشُّبهة، كما قال لقومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وهذه أختي، و﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات: ٨٩] و﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾[2].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «بل فَعَلَّهُ» بتشديد اللام[3]، بمعنى: فلعلَّ الفاعل كبيرهم.

وقال الكسائيُّ: الوقفُ عند قوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ﴾ أي: فَعَلَه مَن فَعَلَه، ثم يبتدئ: ﴿كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾[4].

وقيل: أي: لِمَ تُنكرون أن يكون فَعَلَه كبيرهم؟ فهذا إلزامٌ بلفظ الخبر، أي: مَن اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلاً، والمعنى: بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم.

الثانية: روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ في شيءٍ قطُّ إلَّا في ثلاثٍ؛ قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [ولم يكن سقيماً]، وقولُه لسارة: أختي، وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾» لفظُ الترمذيّ. وقال: حديثٌ حسن صحيح[5].

---

(١) في النسخ: الأمة، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣، وقول إبراهيم: هذه أختي، سيأتي قريباً.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٩، والبحر ٦/ ٣٢٥، والدر المصون ٨/ ١٧٨.

(٥) صحيح البخاري (٣٣٥٧) و(٣٣٥٨) و(٥٠٨٤) مرفوعاً وموقوفاً، وصحيح مسلم (٢٣٧١)، وسنن الترمذي (٣١٦٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٩٢٤١).

ووقع في الإسراء في «صحيح» مسلم[١] من حديث أبي هريرةَ ﷺ في قصة إبراهيم قال: وذكر قوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾. فعلى هذا تكون الكذبات أربعاً، إلَّا أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام قد نفى تلك بقوله: «لم يكذبْ إبراهيم النبيُّ قطُّ إلَّا ثلاثَ كذباتٍ؛ ثِنْتين في ذات الله: قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وواحدة في شأن سارة». الحديثَ، لفظُ مسلم. وإنما لم يُعَدَّ عليه قولَه في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كذبةً ـ وهي داخلة في الكذب ـ لأنه ـ والله أعلم ـ كان حين قال ذلك في حالِ الطُّفولية، وليست حالَ تكليف[٢]. أو قاله لقومه مستفهماً لهم على جهة التوبيخِ والإنكار، وحُذفت همزةُ الاستفهام. أو على طريق الاحتجاج على قومه، تنبيهاً على أنَّ ما يتغيَّر لا يصلح للربوبية[٣]. وقد تقدَّمت هذه الوجوهُ كلُّها في «الأنعام» مبيَّنةً والحمد لله[٤].

الثالثة: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٥]: في هذا الحديث نكتةٌ عُظمى تَقْصِمُ الظَّهر، وهي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لم يكذب إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَبات» ثِنتين مَاحَلَ بهما عن دين الله، وهما قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾»، ولم يعدَّ [قوله:] هذه أختي، في ذات الله تعالى وإن كان دَفَع بها مكروهاً، و لكنه لمَّا كان لإبراهيمَ عليه السلام فيها حظٌّ من صيانة فراشه وحماية أهله، لم يجعلها في ذات الله، وذلك لأنه لا يُجعل في جنب الله وذاتِه إلَّا العملُ الخالص من شوائب الدنيا، والمعاريضُ التي تَرْجِع إلى النفس إذا خَلَصَتْ للدِّين

(١) برقم (١٩٤): (٣٢٨)، وهو حديث الشفاعة، وليس في الإسراء.

(٢) في (م): في حال الطفولة وليست حالة تكليف، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٦/ ١٨٤ والكلام منه.

(٣) المفهم ١/ ٤٣٢.

(٤) ٨/ ٤٣٨ وما بعدها.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

كانت لله سبحانه، كما قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. وهذا لو صَدَر منَّا لكان لله، ولكنَّ منزلة إبراهيمَ اقتضت هذا. والله أعلم.

الرابعة: قال علماؤنا: الكذبُ هو الإخبارُ عن الشيء بخلافِ ما هو عليه. والأَظْهَرُ أنَّ قولَ إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض، وإن كانت معاريضَ وحسناتٍ وحججاً في الخَلْق ودلالاتٍ، لكنَّها أثَّرت في الرتبة، وخفضت عن محمدٍ المنزلةَ، واستحيا منها قائلها ـ على ما ورد في حديث الشفاعة(١) ـ فإن الأنبياء يشفقون ممَّا لا يُشفق منه غيرهم؛ إجلالاً لله؛ فإنَّ الذي كان يليق بمرتبته في النبوَّة والخُلَّة أن يصدع بالحقِّ، ويصرِّحَ بالأمر كيفما كان(٢)، ولكنه رخَّص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة: «إنَّما اتُّخذت خليلاً من وراءَ وراءَ»(٣) بنَصْبِ «وراءَ» فيهما على البناء كخمسةَ عَشَرَ، وكما قالوا: [هو] جاري بَيْتَ بَيْتَ [أي: بيتُه إلى بيتي](٤).

ووقع في بعض نسخ مسلم «من وراء من وراء» بإعادة «من»، وحينئذٍ لا يجوز البناء على الفتح، وإنما يُبنَى كلُّ واحدٍ منهما على الضمّ؛ لأنه قُطِع عن الإضافة ونُويَ المضافُ، كقَبْلُ وبَعْدُ. وإن لم يُنْوَ المضافُ أُعرب ونوِّن، غيرَ أنَّ وراء لا ينصرف؛ لأنَّ أَلِفَه للتأنيث؛ لأنهم قالوا في تصغيرها: وُرَيْئَة ـ قال الجوهريّ(٥): وهي شاذة ـ

(١) أخرجه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣): (٣٢٢) من حديث أنس ﷺ. ولفظه عند مسلم: ... فيأتون إبراهيم ﷺ، فيقول: لست هُنَاكُم (يعني لست أهلاً لذلك) ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربَّه منها...

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣ (والكلام منه): ويصرح بالأمر فيكون ما كان.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥) مطولاً من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، وسلف ٢/ ٢٥٣.

(٤) المفهم ١/ ٤٣٠، وما بين حاصرتين منه. قال أبو العباس: ومنه قولهم: هي همزة بينَ بينَ، وأتيتك صباحَ مساءَ. وقال النووي في شرح صحيح مسلم ٣/ ٧١: المشهور الفتح فيهما بلا تنوين، ويجوز عند أهل العربية بناؤهما على الضم.

(٥) في الصحاح (ورى).

فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود «مِن» فيهما[١].

والمعنى: أنِّي كنتُ خليلاً متأخِّراً عن غيري. ويستفاد من هذا أنَّ الخُلَّة لم تصحَّ بكمالها إلَّا لمن صحَّ له في ذلك اليوم المقامُ المحمود[٢] كما تقدم[٣]. وهو نبيُّنا محمدٌ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: رجع بعضهم إلى بعضٍ رجوعَ المنقطِع عن حُجَّته، المتفطِّنِ لصحَّةِ حُجَّةِ خصمه. ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بعبادةِ مَن لا ينطقُ بلفظة، ولا يملك لنفسه لحظةً، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس مَن لا يَردُّ عن رأسه الفأس؟!

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: عادوا إلى جهلهم وعِنادهم[٤]، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ ف ﴿قَالَ﴾ قاطعاً لمَا به يَهْذون[٥]، ومُفْحِماً لهم فيما يتقوَّلون: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي: النَّتَنُ لكم ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!

وقيل: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: طأطؤوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم[٦]. وفيه

---

(١) ينظر الصحاح (ورى)، والمفهم ١/ ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢) المفهم ١/ ٤٢٩ - ٤٣٠.

(٣) ١٣/ ١٤٧ وما بعدها.

(٤) في (د) و(ز) و(م): وعبادتهم.

(٥) في (د) و(ظ): يهددون.

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٨٦.

نظر؛ لأنه لم يقل: نَكَسوا رؤوسهم، بفتح الكاف، بل قال: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رُدُّوا على ما كانوا عليه في أوَّل الأمر، وكذا قال ابن عباس؛ قال: أدركهم الشقاء، فعادوا إلى كفرهم[١].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ لمَّا انقطعوا بالحجَّة أخذتهم عزَّةٌ بإثم[٢]، وانصرفوا إلى طريق الغَشْم والغَلَبة، وقالوا: حرِّقوه. ورُوي أنَّ قائل هذه المقالةِ هو رجلٌ من الأكراد من أعراب فارس، أي: من باديتها؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج[٣]. ويقال: اسمه هيزر، فخسف الله به الأرض، فهو يَتَجلجلُ فيها إلى يوم القيامة[٤]. وقيل: بل قاله ملكهم نمرود.

﴿وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بتحريق إبراهيم؛ لأنه يسبُّها ويَعِيبُها. وجاء في الخبر: أنَّ نمرود بنى صرحاً طولُه ثمانون ذراعاً، وعرضُه أربعون ذراعاً. قال ابن إسحاق[٥]: وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت حتى أنْ كان الطائر لَيمرُّ بجنباتها فيحترق من شدَّة وهجها. ثم قيَّدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً ـ ويقال: إنَّ إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذٍ ـ فضجَّت السماوات والأرض ومَن فيهنَّ من الملائكة وجميعِ الخلق إلَّا الثقلين ضجةً واحدة [وقالوا: أي] ربَّنا! إبراهيم ليس في أرضك أحدٌ يعبدك غيرُه يُحرَق فيك، فأْذَنْ لنا في نُصرته. فقال الله تعالى: إن

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٤٣.

(٢) في (ظ): بالإثم، والمثبت من باقي النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٨ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٥٣، وأخرجه عن ابن عمر ومجاهد الطبري ١٦/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٥ عن شعيب الجَبَائي، ووقع فيه اسم الرجل: هيزن، وكذا ذكره البغوي ٣/ ٢٥٠.

(٥) ذكره عن ابن إسحاق الثعلبي في عرائس المجالس ص٧٨ - ٧٩. وما سيرد بين حاصرتين منه.

استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يَدْعُ غيري، فأنا أعلم به وأنا وليُّه. فلمَّا أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خُزَّان الماء ـ وهو في الهواء ـ فقالوا[١]: يا إبراهيم إن أردتَ أخمدنا النار بالماء فقال: لا حاجةَ لي إليكم. وأتاه مَلَك الريح فقال: لو شئتَ طيَّرتُ النار. فقال: لا. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهمَّ أنت الواحدُ في السماء، وأنا الواحدُ في الأرض[٢]، ليس أحدٌ يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل.

وروى أبيّ بن كعب ﷺ عن النبيِّ ﷺ[٣]: «إنَّ إبراهيم حين قيَّدوه ليُلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمدُ ولك الملكُ لا شريكَ لك» قال: ثم رمَوْا به في المنجنيق من مَضْربٍ شاسع، فاستقبله جبريلُ فقال: يا إبراهيم ألك حاجةٌ؟ قال: أمَّا إليك فلا. فقال جبريل: فاسأل ربك. فقال: حَسْبي مِن سؤالي عِلْمُه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٤].

قال بعض العلماء: جعل الله فيها برداً يدفع[٥] حرَّها، وحرًّا يدفع بردَها، فصارت سلاماً عليه. قال أبو العالية: ولو لم يقل: «بَرْداً وَسَلَاماً» لكان بردها أشدَّ عليه من حرِّها، ولو لم يقل: «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد[٦].

---

(١) في العرائس: أتاه ملك المياه فقال.

(٢) في العرائس: اللهم أنت الواحد في السماء وفي الأرض. وأخرج البزار (٢٣٤٩ - كشف الأستار) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك». وحسنه الحافظ ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٢٦٥ . وقال الذهبي في الميزان ٤/ ٦٩ : غريب جدًّا.

(٣) كذا ذكر المصنف، وذكره البغوي في التفسير ٣/ ٢٥٠ عن أبي بن كعب قوله، ووقع في العرائس ص٧٩ : معتمر عن أبي بن كعب عن أرقم، ولعل لفظة «أبيّ» مقحمة، فقد أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٩ من طريق معتمر عن ابن كعب عن أرقم، ولعل ابن كعب هو محمد.

(٤) عرائس المجالس ص٧٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٠ . وقوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٥٠ بلفظ: علمه بحالي يغني عن سؤالي. وقال: قال ابن تيمية: موضوع.

(٥) في (م): يرفع، في الموضعين، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٣/ ٤٥٤ ، والكلام منه.

(٦) في (ظ): إلى الأبد، وفي (خ): على الأرض، والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٣/ ٤٥٤ =

وذكر بعض العلماء: أنَّ الله تعالى أنزل زَرْبِيَّة[١] من الجنة فبسطها في الجحيم، وأنزل الله ملائكة[٢]: جبريلَ وميكائيل ومَلَكَ البرد وملك السلامة.

وقال عليٌّ وابن عباس: لو لم تُتْبِع بردَها سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذٍ نار إلا طَفِئتْ، ظنَّتْ أنها تُعنَى[٣].

قال السُّدِّي: وأمر الله كلَّ عودٍ من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته.

وقال كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيمَ إلَّا وِثاقه[٤]. فأقام في النار سبعةَ أيامٍ لم يقدر أحدٌ أن يقرب من النار، ثم جاؤوا فإذا هو قائمٌ يصلِّي.

وقال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم: ما كنتُ أياماً قطُّ أَنْعَمَ منِّي من[٥] الأيام التي كنتُ فيها في النار.

وقال كعبٌ وقتادةُ والزهريُّ: ولم تبقَ يومئذٍ دابَّةٌ إلا أطفأت عنه النار إلَّا الوَزَغُ؛ فإنها كانت تنفخ عليه؛ فلذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلها وسمَّاها فُوَيْسقة[٦].

وقال شعيب الجَبَائي[٧]: أُلقي إبراهيم في النار وهو ابنُ ستَّ عَشْرةَ سنةً. وقال

= والكلام منه، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٣٠٩.

(١) مفرد زرابيّ، وهي البُسُط، وقيل: كل ما بُسط واتُّكئ عليه. اللسان (زرب).

(٢) في (ظ): ملائكته.

(٣) عرائس المجالس ص٧٩، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٣٠٦ - ٣٠٧، وخبر علي أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٧ و ٣٠٩ من طريق قتادة عن كعب.

(٥) في النسخ: في، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/ ٣٠٧، وقد أخرج الخبر فيه.

(٦) عرائس المجالس ص٧٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٥، والطبري ١٦/ ٣٠٩ - ٣١٠ عن قتادة والزهري. وأخرج البخاري (٣٣٥٩) عن أم شَريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام». وأخرجه أحمد (٢٧٣٦٥)، ومسلم (٢٢٣٧) مختصراً بذكر قتل الوَزَغ.

(٧) في (ز): الجمالي، وفي باقي النسخ: الحماني، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/ ٣٠٨ وقد أخرج قوله. قال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٧٨: أخباري متروك؛ قاله الأزدي.

ابن جُرَيْج: أُلقيَ إبراهيم في النار وهو ابن ستَّ وعشرين سنة. ذكر الأوّل الثَّعْلَبيُّ[١]، والثاني الماوَرْديّ[٢]، فالله أعلم.

وقال الكلبيُّ: بردت نيرانُ الأرض جميعاً فما أنضجت كُراعاً[٣]، فرآه نمرود من الصرح وهو جالسٌ على السرير يؤنسه مَلَكُ الظِّلّ. فقال: نِعْمَ الربُّ ربُّكَ! لأقرِّبنَّ له أربعةَ آلافِ بقرةٍ. وكَفَّ عنه[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي: أراد نمرودُ وأصحابُه أن يمكروا به ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ في أعمالهم، وردَدْنا مكرهم عليهم بتسليطِ أضعفِ خَلْقِنا؛ قال ابن عباس: سلَّط الله عليهم أضعفَ خَلْقِه: البعوضَ، فما برح نمرودُ حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدةٌ في منخره، فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغَه، وكان أكرمَ الناس عليه الذي يضربُ رأسه بِمرْزَبَّةٍ من حديد. فأقام بهذا نحواً من أربع مئة سنة[٥].

(١) في عرائس المجالس ص٨٠، ووقع في مطبوعه: الشعبي بدل: شعيب الجبائي.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٥٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره الثعلبي ص٧٩ - ٨٠ مطولاً عن ابن إسحاق. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٨ - ٨٩: وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم، وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه، ما رأيت اختصاره لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار، فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً، فخرج منها سالماً، وكانت أعظم آية.

(٥) ذكره بنحوه عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٤٤، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق في التفسير ١/ ١٠٥ - ١٠٦، والطبري ٤/ ٥٧٢ - ٥٧٣ عن زيد بن أسلم. وذكر الآلوسي في روح المعاني =

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: نجَّينا إبراهيم ولوطاً إلى أرض الشام، وكانا بالعراق ـ وكان إبراهيم[١] عليه السلام عمَّه ـ قاله ابن عباس[٢]. وقيل لها: مباركةٌ؛ لكثرة خِصْبها وثمارها وأنهارها؛ ولأنها معادن الأنبياء. والبركةُ: ثبوت الخير، ومنه: بَرَكَ البعير: إذا لزم مكانه فلم يبرح. وقال ابن عباس: الأرض المباركة مكة[٣].

وقيل: بيت المقدس[٤]؛ لأنَّ منها بعثَ الله أكثرَ الأنبياء، وهي أيضاً كثيرة الخِصب والثمر[٥]، عذبةُ الماء، ومنها يتفرَّق في الأرض؛ قال أبو العالية: ليس ماءٌ عذبٌ إلَّا يهبطُ من السماء إلى الصخرة التي ببيت المقدس، ثم يتفرَّق في الأرض[٦]. ونحوه عن كعب الأحبار[٧]. وقيل: الأرض المباركة مصر.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: زيادة؛ لأنه دعا في إسحاق، وزِيْدَ يعقوب[٨] من غير دعاء، فكان ذلك نافلةً، أي: زيادة على ما سأل؛ إذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]. ويقال لولد الولد: نافلة؛ لأنه زيادةٌ على الولد.

= ٧٠/١٧ أن المعوَّل عليه في تفسير الآية: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي: أخْسَرَ مِنْ كلِّ خاسر، حيث عاد سعيُهم في إطفاء نور الحقِّ قولاً وفعلاً برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحقّ، وهم على الباطل، وموجِباً لارتفاع درجته عليه السلام، واستحقاقهم لأشدِّ العذاب.

(١) في النسخ: لوط، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١١ عن أبي بن كعب والحسن وقتادة وغيرهم، ولم نقف عليه عن ابن عباس. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٦٨ ، وهذا قول الأكثر .اهـ. واختاره الطبري ١٦/ ٣١٥ وقال: لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١٤ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٤ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): النمو.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١٤ . وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٩ : وهذا ضعيف.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٤ .

(٨) المثبت من (خ) و(ظ)، وفي باقي النسخ: وزيد في يعقوب.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: وكلًّا من إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله. وجَعْلُهم صالحين إنما يتحقَّق بخَلْقِ الصلاح والطاعة لهم، وبخَلْقِ القدرة على الطاعة، ثم ما يكتسبُه العبدُ فهو مخلوقٌ لله تعالى(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: رؤساء يُقتدَى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات. ومعنى «بِأَمْرِنَا» أي: بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، فكأنه قال: يهدون بكتابنا. وقيل: المعنى: يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إيَّاهم بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: أن يفعلوا الطاعات. ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: مطيعين.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ «لوطاً» منصوبٌ بفعلٍ مضمَرٍ دلَّ عليه الثاني، أي: وآتينا لوطاً آتيناه. وقيل: واذكر لوطاً. والحُكْم: النبوَّة، والعلم: المعرفةُ بأمر الدِّين وما يقع به الحُكْم بين الخصوم. وقيل: «عِلْماً»: فهماً، والمعنى واحد.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يريد سَدُوم. ابنُ عباس: كانت سبعَ قُرَى، قَلَبَ جبريلُ عليه السلام ستةً وأبقى واحدةً للوطٍ وعيالِه، وهي زُغَر(٢) التي فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حدِّ الشراة(٣)، ولها قرى كثيرةٌ إلى حدِّ بحر الحجاز.

(١) في (ظ): فإن ما يكتسبه العبد مخلوق لله تعالى.

(٢) على وزن زُفَر، ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/ ١٤٢ و ٤١١، وقال في الموضع الثاني: وهي البحيرة المقلوبة وبقية مدائن لوط، وإنها نجت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة. وذكر الخبر أبو الليث ٢/ ١٣٧ - ١٣٨ بنحوه دون نسبة.

(٣) في النسخ الخطية: السراة، والمثبت من (م). قال ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٣٣٢: الشراة: صُقْع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ. وذكر البكري في معجم ما استعجم ٢/ ٦٩٩ بيت حاتم الطائي: =

وفي الخبائث التي كانوا يعملونها قولان: أحدهما: اللِّواط، على ما تقدَّم. والثاني: الضُّراط[١]، أي: كانوا يَتَضارَطُون في ناديهم ومجالسهم. وقيل: الضُّراط وحَذْفُ الحصى، وسيأتي[٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، والفُسوقُ: الخروجُ، وقد تقدَّم[٣].

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ في النبوّة. وقيل: في الإسلام. وقيل: الجنة. وقيل: عنَى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: واذكر نوحاً إذ نادى، أي: دعا. «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبلِ إبراهيمَ ولوطٍ، على قومه وهو قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وقال لمَّا كذبوه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الغرق. والكَرْبُ: الغمُّ الشديد. «وأَهْلَهُ» أي: المؤمنين منهم. ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال أبو عبيدة: «مِن» بمعنى على[٤]. وقيل: المعنى: فانتقمنا له من القوم الذينَ كذَّبوا بآياتنا. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: الصغير منهم والكبير.

= سقى الله ربُّ الناس سحًّا وديمة ... جنوبَ الشَّراة من مآبَ إلى زُغَر

وقال: الشراة أرض في ناحية الشام، ومآب موضع هناك.

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٥٥.

(٢) عند تفسير الآية (٢٩) من سورة العنكبوت.

(٣) ١/ ٣٦٨.

(٤) ذكره عن أبي عبيدة البغوي ٣/ ٢٥٢، والرازي ٢٢/ ١٩٤، والطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٤٧، ولم نقف عليه في مجاز القرآن له.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

فيه ست وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ أي: واذكرهما إذ يحكمان، ولم يُرِدْ بقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ الاجتماعَ في الحُكْم؛ وإنْ جَمَعَهما في القول؛ فإنَّ حَكَمين على حُكْم واحدٍ لا يجوز. وإنَّما حَكَمَ كلُّ واحدٍ منهما على انفراده، وكان سليمانُ الفاهِمَ لها بتفهيم الله تعالى إياه[١].

﴿فِى ٱلْحَرْثِ﴾ اختُلف فيه على قولين: فقيل: كان زرعاً؛ قاله قتادة. وقيل: كَرْماً نبتت[٢] عناقيده؛ قاله ابن مسعود وشُريح[٣]. والحرثُ يقال فيهما، وهو في الزرع أبعدُ من الاستعارة[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: رَعَتْ فيه ليلاً، والنَّفْشُ: الرَّعْيُ بالليل. يقال: نَفَشَتْ بالليل وهَمَلت بالنهار: إذا رعت بلا راعٍ. وأَنْفَشَها صاحبُها. وإبلٌ نُفَّاش[٥]. وفي حديث عبد الله بن عمرو. الحبةُ في الجنة مِثْلُ كَرِش البعير يبيت نافِشاً، أي: راعياً[٦]. حكاه الهَرويّ. وقال ابن سِيْدَه: لا يقال الهَمَل في الغنم، وإنما هو في الإبل[٧].

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٤ .

(٢) في (ظ): تدلت.

(٣) أخرج قولهما وقول قتادة الطبري ١٦/ ٣٢٠-٣٢١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٩١ .

(٥) الصحاح (نفش) ، وقال الجوهري: ولا يكون النفش إلا بالليل، والهمل يكون ليلاً ونهاراً.

(٦) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث ٢/ ١٢٠ ، والزمخشري في الفائق ٤/ ١٤ ، وابن الأثير في النهاية (نفش).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ .

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان. وقيل: المرادُ الحاكمان والمحكومُ عليه؛ فلذلك قال: «لِحكمِهِم».

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فهَّمناه القضيةَ والحكومة، فكَنَى عنها؛ إذ سبق ما يدلُّ عليها. وفَضَلَ حُكْمُ سليمانَ حُكْمَ أبيه في أنه أحرز أن يبقى مِلْك[١] كلِّ واحدٍ منهما على متاعه، وتبقى نفسه طيبةً بذلك. وذلك أنَّ داودَ عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث. وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث، والحرثَ إلى صاحب الغنم.

قال ابن عطية[٢]: فيُشْبِهُ على القول الواحد أنه رأى الغنم تُقاوِمُ الغلَّةَ التي أفسدت. وعلى القول الثاني رآها تقاومُ الحرث والغلَّة. فلمَّا خرج الخصمان على سليمانَ، وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخرَ، فقال: بمَ قضى بينكما نبيُّ الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فقال: لعلَّ الحكم غيرُ هذا، انصرفا معي. فأتى أباه فقال: يا نبيَّ الله، إنك حكمتَ بكذا وكذا، وإنِّي رأيتُ ما هو أَرْفَقُ بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث[٣]، فينتفع بألبانها وسُمُونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرعُ إلى حاله التي أصابته الغنم عليها[٤] في السنة المقبلة، ردَّ كلُّ واحدٍ منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفِّقت يا بنيَّ، لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما[٥].

---

(١) قوله: ملك، من (ز) و(خ) والمحرر الوجيز ٤/ ٩١، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٩١، وما قبله منه.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): الزرع.

(٤) قوله: عليها، من (خ).

(٥) أخرجه عن ابن مسعود ومجاهد وغيرهما الطبري ١٦/ ٣٢٢-٣٢٨.

وقال الكلبيُّ: قوَّم داود الغنم والكرم الذي أفسدته الغنم، فكانت القيمتان سواءً، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريباً منه. وأمَّا في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمةُ ما نال من الغنم وقيمةُ ما أفسدت الغنم سواءً أيضاً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ تأوَّل قومٌ أنَّ داودَ عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أُوتي الحُكْمَ والعلم، وحملوا قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ على أنه فضيلةٌ له على داودَ، وفضيلتُه راجعةٌ إلى داود، والوالدُ تَسُرُّه زيادةُ ولده عليه.

وقالت فرقة: بل لأنه لم يُصِب العينَ المطلوبة في هذه النازلة، وإنَّ ما مَدَحه الله بأنَّ له حكماً وعلماً يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأمَّا في هذه فأصاب سليمانُ وأخطأ داودُ عليهما الصلاة والسلام، ولا يمتنع وجودُ الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يُقَرُّون عليه، وإن أُقِرَّ عليه غيرهم[(١)].

ولمَّا هدم الوليد كنيسة دمشق، كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تَرْكَها، فإنْ كنتَ مصيباً فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيباً فقد أخطأتَ أنت! فأجابه الوليد: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾[(٢)].

وقال قوم: كان داودُ وسليمانُ ـ عليهما السلام ـ نبيَّينِ يقضيان بما يوحَى إليهما، فحَكَمَ داود بوحيٍ، وحَكَم سليمان بوحيٍ نَسخ الله به حُكْم داود، وعلى هذا «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ»، أي: بطَريق الوحي الناسخ لمَا أُوحي إلى داود، وأُمر سليمان أن يبلِّغ ذلك داود؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾. هذا قولُ جماعةٍ من

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٥٧ .

(٢) العقد الفريد ٢/ ٢٠٢ ، وأخرجه ابن عساكر ٢/ ٢٥٩ و ٦٣/ ١٧٧ .

العلماء، ومنها ابن فوركَ[١].

وقال الجمهور: إنَّ حُكْمهما كان باجتهادٍ وهي:

السادسة: واختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء؛ فمنَعَه قوم، وجوَّزه المحقِّقون[٢]؛ لأنه ليس فيه استحالةٌ عقلية؛ لأنه دليلٌ شرعيٌّ، فلا إحالةَ أن يستدلَّ به الأنبياء، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنِّك كذا؛ فاقطَعْ بأنَّ ما غلب على ظنِّك هو حُكْمي؛ فبلِّغه الأمة، فهذا غيرُ مستحيلٍ في العقل.

فإن قيل: إنَّما يكون دليلاً إذا عُدم النصُّ[٣]، وهم لا يعدمونه.

قلنا: إذا لم ينزل المَلَكُ فقد عُدِمَ النصُّ عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم. والفرقُ بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الغلط والخطأ. وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرُهم ليس كذلك[٤]. هذا مذهبُ[٥] الجمهور في أنَّ جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم.

وذهب أبو علي ابن أبي هريرة[٦] من أصحاب الشافعيِّ إلى أنَّ نبيَّنا ﷺ مخصوصٌ منهم في عدم جواز الخطأ عليه[٧]، وفرَّق بينه وبين غيره من الأنبياء: أنه لم يكن بعده

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩١.

(٢) المفهم ٥/ ١٧٦.

(٣) وقع في المفهم ٥/ ١٦٧ (والكلام منه): إن الاجتهاد إنما يسوغ عند فَقْد النص، بدل قوله: إنما يكون دليلاً إذا عدم النص.

(٤) المفهم ٥/ ١٧٦.

(٥) في (م): كما ذهب، وفي (خ): هذا جواب.

(٦) الحسن بن الحسين البغدادي القاضي، شيخ الشافعية، انتهت إليه رئاسة المذهب، توفي سنة (٣٤٥ هـ). السير ١٥/ ٤٣٠.

(٧) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في جواز الخطأ عليهم، وفي النكت والعيون ٣/ ٤٥٧ (والكلام منه): بجواز الخطأ عليهم دونه.

مَن يستدرك غلطَه، ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بُعِث بعدَ غيره من الأنبياء مَن يستدرك غلطَه.

وقد قيل: إنه على العموم في جميع الأنبياء، وإنَّ نبيَّنا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجويز الخطأ على سواء، إلَّا أنهم لا يُقَرُّون على إمضائه، فلم يعتبر فيه استدراك مَن بعدَهم من الأنبياء.

هذا رسول الله ﷺ وقد سألته امرأةٌ عن العِدَّة، فقال لها: «اعتدِّي حيث شئتِ» ثم قال: «امكُثي في بيتك حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه»[1]. وقال له رجلٌ: أرأيتَ إن قُتِلتُ صابراً محتسباً، أيحجُزني عن الجنة شيء؟ فقال: «لا». ثم دعاه فقال: «إلَّا الدَّين، كذا أخبرني جبريل»[2].

السابعة: قال الحسن: لولا هذه الآيةُ لرأيت القضاةَ هَلَكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعَذَر داود باجتهاده[3]. وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا اختلفوا، فقالت فرقة: الحقُّ في طرفٍ واحدٍ عند الله، وقد نَصَبَ على ذلك أدلةً، وحَمَلَ المجتهدين على البحث عنها، والنظرِ فيها، فَمَن صادفَ العين المطلوبة في المسألة فهو المصيبُ على الإطلاق، وله أجران؛ أجرٌ في الاجتهاد، وأجرٌ في الإصابة، ومَن لم يصادفها فهو مصيبٌ في اجتهاده؛ مخطئٌ في أنْ لم يُصب العينَ، فله أجرٌ وهو غيرُ معذور. وهذا سليمانُ قد صادف العين المطلوبة، وهي التي فهم. ورأت فرقة[4] أنَّ العالم المخطئَ لا إثمَ عليه في خطئه، وإن كان غيرَ معذور.

---

(١) النكت والعيون٣/ ٤٥٧-٤٥٨ ، والحديث أخرجه مطولاً أحمد (٢٧٠٨٧)، وأبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤) من حديث فُرَيْعة بنت مالك رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٥٤٢) ، ومسلم (١٨٨٥) من حديث أبي قتادة ﷺ. وأخرجه أحمد (٨٠٧٥) والنسائي في المجتبى ٦/ ٣٣-٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ. والكلام من النكت والعيون ٣/ ٤٥٨ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٨ .

(٤) في المحْرر الوجيز ٤/ ٩١ (والكلام منه): ورأت هذه الفرقة.

وقالت فرقة: الحقُّ في طرفٍ واحدٍ، ولم يَنصِب الله تعالى عليه دليلاً، بل وَكَل الأمر إلى نظر المجتهدين، فَمَن أصابه أصاب، ومَن أخطأ فهو معذورٌ مأجور، ولم[١] نُتعبَّد بإصابة العين، بل تُعُبِّدْنا بالاجتهاد فقط.

وقال جمهور أهل السُّنة ـ وهو المحفوظُ عن مالك وأصحابه ﷺ ـ: إنَّ الحقَّ في مسائل الفروع في الطَّرفين، وكلُّ مجتهدٍ مُصيبٌ، والمطلوبُ إنما هو الأفضلُ في ظنِّه، فكلُّ مجتهدٍ قد أدَّاه نظرهُ إلى الأفضل في ظنِّه؛ والدليلُ على هذه المقالة أنَّ الصحابة فَمَن بَعْدَهم قرَّر بعضهم خلافَ بعض، ولم يَرَ أحدٌ منهم أن يقع الانحمالُ على قوله دون قولِ مُخالفه. ومنه ردُّ مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حَمْل الناس على «الموطأ»، فإذا قال عالمٌ في أمرٍ [ما]: حلالٌ، فذلك هو الحقُّ فيما يختصُّ بذلك العالم عند الله تعالى، وبكلِّ مَن أخذ بقوله، وكذا في العكس. قالوا: وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المُثْلَى والتي هي أرجح، فالأُولى ليست بخطأ، وعلى هذا يحمِلون قولَه عليه الصلاة والسلام: «إذا اجتهد العالم فأخطأ» أي: فأخطأ الأفضلَ[٢].

الثامنة: روى مسلم وغيره[٣] عن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «إذا حَكَم الحاكمُ فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ، فله أجر». هكذا لفظُ الحديث في كتاب مسلم: «إذا حَكَم فاجتهد»[٤]، فبدأ بالحُكْم قبل الاجتهاد، والأمرُ بالعكس، فإنَّ الاجتهاد مقدَّمٌ على الحكم، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع. وإنَّما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾. فعند ذلك يجتهد في النازلة. ويفيد هذا صحةَ ما

---

(١) في (ظ): فإنا لم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٩١-٩٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وسيأتي تخريج الحديث في المسألة التالية.

(٣) صحيح مسلم (١٧١٦)، وهو عند أحمد (١٧٧٧٤) و(١٧٨١٦) ، والبخاري (٧٢٥٣).

(٤) وهو لفظه أيضاً عند أحمد والبخاري.

قاله الأُصوليون: إنَّ المجتهد يجب عليه أن يجدِّد نظراً عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدِّم؛ لإمْكانِ أنْ يَظهر له ثانياً خلافُ ما ظهر له أوَّلاً، اللهمَّ إلَّا أنْ يكون ذاكراً لأركان اجتهاده، مائلاً إليه، فلا يحتاج إلى استئنافِ نظرٍ في أمارةٍ أخرى(١).

التاسعة: إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسُّنَن والقياس، وقضاءِ مَن مضى؛ لأنَّ اجتهاده عبادةٌ، ولا يؤجَر على الخطأ، بل يوضع عنه الإثم فقط، فأمَّا مَن لم يكن محلًّا للاجتهاد فهو متكلِّفٌ لا يُعذر بالخطأ في الحكم، بل يُخاف عليه أعظمُ الوِزْر. يدلُّ على ذلك حديثُه الآخَر، رواه أبو داود: «القضاةُ ثلاثة»(٢) الحديث. قال ابن المنذر: إنَّما يؤجَر على اجتهاده في طلب الصَّواب، لا على الخطأ، ومما يؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ الآيةَ. قال الحسن: أثنى على سليمان ولم يذمَّ داود.

العاشرة: ذكر أبو التمام المالكيّ(٣) أنَّ مذهب مالك: أنَّ الحقَّ في واحدٍ من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك في أقاويل المختلفين. وبه قال أكثر الفقهاء. قال: وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكاً عن اختلاف الصحابة، فقال: مخطئٌ ومُصيب، وليس الحقُّ في جميع أقاويلهم. وهذا القول قيل: هو المشهورُ عن مالك، وإليه ذهب محمد بن الحسن. واحتجَّ مَن قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو؛ قالوا: وهو نصٌّ

---

(١) المفهم ٥/ ١٦٧ .

(٢) سنن أبي داود (٣٥٧٣)، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥) من حديث بريدة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار؛ فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحقَّ فقضى به، ورجلٌ عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار». لفظ أبي داود.

(٣) علي بن محمد بن أحمد البصري، من أصحاب الأبهري، له كتاب مختصر في الخلاف يسمى نكت الأدلة، وله كتاب آخر في الخلاف كبير، وكتاب في أصول الفقه. ترتيب المدارك ٤/ ٦٠٥ ، والديباج المذهب ٢/ ١٠٠ . وكلامه ذكره الباجي في إحكام الفصول في أحكام الأصول ص٧٠٧ .

على أنَّ في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئاً ومصيباً[١]. قالوا: والقولُ بأنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ يؤدِّي إلى كون الشيء حلالاً حراماً، وواجباً ندباً.

واحتجَّ أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر؛ قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يومَ انصرف من الأحزاب: «ألَا لا يصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلَّا في بني قُرَيظَة». فتخوَّف ناسٌ فَوْتَ الوقت، فصلَّوا دون بني قُرَيظة، وقال الآخَرون: لا نصلِّي إلا حيث أَمَرَنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنَّف واحداً من الفريقين[٢]. قالوا: فلو كان أحد الفريقين مخطئاً لعيَّنه النبيُّ ﷺ.

ويمكن أن يقال: لعلَّه إنما سكت عن تعيين المخطئ[٣] لأنه غيرُ آثمٍ بل مأجور، فاستغنى عن تعيينه. والله أعلم. ومسألةُ الاجتهاد طويلةٌ متشعِّبةٌ، وهذه النُّبذةُ التي ذكرناها كافيةٌ في معنى الآية، والله الموفِّق للهداية.

الحادية عشرة: ويتعلَّق بالآية فصلٌ آخَرُ: وهو رجوعُ الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهادٍ آخَرَ أرجحَ من الأوَّل، فإنَّ داود عليه السلام فَعَلَ ذلك. وقد اختلف في ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّفٌ في «الواضحة»: ذلك له ما دام في ولايته، فأمَّا إن كانت ولايةٌ أخرى فليس له ذلك، وهو بمنزلة غيره من القضاة. وهذا هو ظاهرُ قول مالكٍ رحمه الله في «المدونة».

وقال سحنون في رجوعه من اجتهادٍ فيه قولٌ إلى غيره مما رآه أصوبَ: ليس له ذلك. وقاله ابن عبد الحكم. قالا: ويَستأنف الحكم بما قويَ عنده. قال سحنون: إلَّا أن يكون نسيَ الأقوى عنده، أو وَهَمَ فحَكَم بغيره، فله نَقْضُه، وأمَّا إن حكم بحكمٍ هو الأقوى عنده في ذلك الوقتِ، ثم قويَ عنده غيرُه بعد ذلك، فلا سبيلَ إلى نقض الأوَّل؛ قاله سحنون في كتاب ابنه.

---

(١) إحكام الفصول ص٧١٠، وينظر جامع بيان العلم ٢/ ٨٨٥.

(٢) أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

(٣) في النسخ: المخطئين، والمثبت من المفهم ٥/ ١٧٥، والكلام منه.

وقال أشهبُ في كتاب ابن المَوّاز: إن كان رجوعه إلى الأصوب في مالٍ فله نقضُ الأوّل، وإن كان في طلاقٍ أو نكاحٍ أو عتقٍ فليس له نَقْضُه[١].

قلت: رجوعُ القاضي عمَّا حَكَم به إذا تبيَّن له أنَّ الحقَّ في غيره ما دام في ولايته أَوْلَى. وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما[٢]؛ رواها الدارقطنيّ[٣]، وقد ذكرناها في «الأعراف»[٤] ولم نفصِّل[٥]، وهي الحجة لظاهِرِ قولِ مالك. ولم يختلف العلماء أنَّ القاضيَ إذا قضى تجوُّزاً وبخلاف أهل العلم، فهو مردودٌ وإن كان على وجه الاجتهاد، فأمَّا أن يتعقَّب قاضٍ حُكْمَ قاضٍ آخَرَ فلا يجوز ذلك له؛ لأنَّ فيه مضرةً عُظْمَى من جهة نقضِ الأحكام، وتبديل الحلال بالحرام، وعَدَمِ ضبط قوانين الإسلام، ولم يتعرَّض أحدٌ من الخلفاء[٦] لنقض ما رآه[٧] الآخَر، وإنما كان يَحكُم بما يَظْهَر له.

الثانية عشرة: قال بعض الناس: إنَّ داود عليه السلام لم يكن أَنْفَذَ الحكم وظَهَر له ما قال غيره. وقال آخرون: لم يكن حُكْماً وإنما كانت فتيا[٨].

قلت: وهكذا تَأَوَّلَ[٩] فيما رواه أبو هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهُما جاء الذئبُ فذهبَ بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢، وينظر المدونة ٥/ ١٤٤، والنوادر والزيادات ٨/ ٩٧ - ٩٨.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥.
(٣) برقم (٤٤٧١)، وجاء فيها: ...لا يمنعك قضاءٌ قضيتَه راجعتَ فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك أن تُراجع الحقَّ؛ فإن الحق قديم، ومراجعةُ الحق خيرٌ من التمادي في الباطل...
(٤) ٩/ ١٦٨.
(٥) في النسخ عدا (د): يفصل، والمثبت من (د).
(٦) في (م): العلماء، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ والكلام منه.
(٧) في (م): رواه، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي.
(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥.
(٩) في (م): تؤول.

إنَّما ذهب بابنك أنتِ. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتَحاكَمتا إلى داودَ، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمانَ بنِ داود عليهما السلام فأَخْبرَتاه، فقال: ائتوني بالسكِّين أشقُّه بينكما، فقالت الصغرى: لا ـ يرحمكَ الله ـ هو ابنُها. فقضى به للصغرى» قال أبو هريرة: [واللهِ] إنْ سمعتُ بالسِّكِّين قطُّ إلَّا يومئذٍ، ما كنَّا نقول إلَّا المُدْية؛ أخرجه مسلم[1].

فأمَّا القولُ بأنَّ ذلك من داود [كان] فتيا فهو ضعيف؛ لأنه كان النبيَّ، وفُتياه حُكْمٌ. وأمَّا القولُ الآخَرُ فبعيدٌ[2]؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ فبيَّن أنَّ كلَّ واحدٍ منهما كان قد حَكم[3]. وكذا قولُه في الحديث: فقضى به للكبرى، يدلُّ على إنفاذ القضاء وإنجازه.

ولقد أَبْعَدَ من قال: إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى، [وهذا أيضاً فاسد؛ لأنَّ اللفظ ليس نصًّا في ذلك، و] لأنَّ الكبر والصغر طَرْدٌ مَحْضٌ عند الدعاوى، كالطُّول والقِصَر والسَّواد والبياض، وذلك لا يوجب ترجيحَ أحد المتداعِيَيْن حتى يُحكَم له أو عليه لأجل ذلك. وهذا مما يَقْطَع به مَن فَهِمَ ما جاءت به الشرائع.

والذي ينبغي أن يقال: إنَّ داود عليه السلام إنَّما قضى به للكبرى لسببٍ اقتضى عنده ترجيحَ قولها، ولم يُذكر في الحديث تعيينُه[4] إذ لم تَدْعُ حاجةٌ إليه، فيمكن أن [يقال: إنَّ] الولد كان بيدها، وعَلِمَ عَجْزَ الأخرى عن إقامة البينة، فقضى به لها إبقاءً لمَا كان على ما كان. وهذا التأويلُ أحسنُ ما قيل في هذا الحديث. وهو الذي تشهد له

(١) في صحيحه (١٧٢٠)، وهو عند أحمد (٨٢٨٠)، والبخاري (٣٤٢٧)، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) في (د) و(م): فيبعد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) في (د): بعينه.

قاعدةُ الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلافُ الشرائع فيها.

لا يقال[1]: فإنْ كان داود قضى بسببٍ شرعيٍّ، فكيف ساغ لسليمانَ نَقْضُ حكمه؟ فالجواب: أنَّ سليمان عليه السلام لم يتعرَّض لحكم أبيه بالنَّقْض، وإنَّما احتال حيلةً لطيفةً ظهر له بسببها صدقُ الصغرى، وهي أنه لمَّا قال: هاتِ السكينَ أشقُّه بينكما، قالت الصغرى: لا. فظهر له من قرينة الشفقة في الصغرى، وعُدْمِ ذلك في الكبرى، مع ما عساه انضاف إلى ذلك من القرائن، ما حصل له العلم بصِدْقها فحكم لها. ولعلَّه كان ممن سوِّغ له أن يحكم بعلمه[2].

وقد ترجم النَّسائيُّ على هذا الحديث: حكم الحاكم بعلمه. وتَرجَم له أيضاً: السعة للحاكم أن يقول للشيء الذي لا يَفعله أَفْعلُ ليستبين الحقّ. وتَرجم له أيضاً: نَقْضُ الحاكم ما يَحكم به غيرُه ممن هو مِثْلُه أو أَجَلُّ منه[3].

ولعل الكبرى اعترفت بأنَّ الولد للصغرى عندما رأت من سليمان الحزمَ والجِدَّ في ذلك، فقضى بالولد للصغرى. ويكونُ هذا كما إذا حَكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف؛ حَضَر مَن استخرج من المنكِر ما أوجب إقرارَه، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبعدها، ولا يكون ذلك من باب نَقْضِ الحكم الأوّل، لكنْ من باب تبدُّل الأحكام بحسب تبدُّل الأسباب. والله أعلم[4].

وفي هذا الحديث من الفقه: أنَّ الأنبياء سوِّغ لهم الحكم بالاجتهاد، وقد ذكرناه[5].

وفيه من الفقه: استعمالُ الحكَّام الحيلَ التي تُستخرج بها الحقوق، وذلك يكون

---

(١) في المفهم ٥/ ١٧٦ (والكلام وما سلف بين حاصرتين منه): فإن قيل.

(٢) المفهم ٥/ ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٣٤ و٢٣٦ .

(٤) المفهم ٥/ ١٧٦ .

(٥) في المسألة السادسة، والكلام من المفهم ٥/ ١٧٦ .

عن قوّة الذكاء والفطنة، وممارسةِ أحوال الخَلْق؛ وقد يكون في أهل التقوى فِراسةٌ دينية، وتوسُّماتٌ نُورية، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء. وفيه الحجة لمن يقول: إنَّ الأمَّ تُستلحَق، وليس مشهورَ مذهب مالك[١]، وليس هذا موضعَ ذكره. وعلى الجملة فقضاءُ سليمانَ في هذه القصة تضمَّنها مَدْحُه تعالى له بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾.

الثالثة عشرة: قد تقدَّم القول في الحرث[٢]، والحكمُ في هذه الواقعة في شرعنا: أنَّ على أصحاب المواشي حفظها بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار، ثم الضمانُ في المِثْل بالمِثْليَّات، وبالقيمة في ذوات القيم. والأصلُ في هذه المسألة في شرعنا ما حَكَم به نبيُّنا ﷺ في ناقة البراء بن عازب؛ رواه مالك، عن ابن شهاب، عن حرام بن سعد بن مُحيِّصة: أنَّ ناقةً للبراء دخلت حائطَ رجلٍ فأفسدتْ فيه، فقضى رسول الله ﷺ أنَّ على أهل الحوائط حفظَها بالنهار[٣]، وأنَّ ما أفسدت المواشي بالليل ضامنٌ على أهلها[٤].

هكذا رواه جميع رواة [الموطأ][٥] مرسَلاً. وكذلك رواه أصحابُ ابن شهاب عن ابن شهاب، إلَّا ابنَ عيينة، فإنه رواه عن الزهري عن سعيد [بن المسيب] وحرام بن سعد بن مُحيِّصة: أنَّ ناقة، فذكر مثلَه بمعناه[٦].

ورواه ابن أبي ذئبٍ عن ابن شهاب: أنه بلغه أنَّ ناقةً للبراء دخلت حائط قوم،

---

(١) المفهم ٥/ ١٧٧ .

(٢) في المسألة الأولى.

(٣) في النسخ: بالليل، وهو خطأ.

(٤) الموطأ ٢/ ٧٤٧ ، وأخرجه موصولاً أحمد (١٨٦٠٦) و(٢٣٦٩١)، وأبو داود (٣٥٧٠)، وابن ماجه (٢٣٣٢).

(٥) في النسخ: جميع الرواة، والمثبت من التمهيد ١١/ ٨١ ، والاستذكار ٢٢/ ٢٥١ . والكلام وما بين حاصرتين منهما.

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٦٩٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦١٦٠)، والبيهقي ٨/ ٣٤٢ ، وابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٩ من طريق ابن عيينة بالإسناد المذكور.

مثلَ حديث مالك سواء، إلَّا أنه لم يذكرُ حرام بنَ سعد بن محيصة ولا غيره. قال أبو عمر[١]: ولم يصنع ابن أبي ذئب شيئاً؛ لأنه[٢] أفسد إسناده. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهريِّ، عن حرام بن محيِّصةَ، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ، ولم يتابَع عبد الرزاق على ذلك، وأنكروا عليه قولَه: عن أبيه[٣].

ورواه ابنِ جريج عن ابن شهاب قال: حدثني أبو أمامَة بنُ سهل بنِ حنيف: أنَّ ناقةً دخلت في حائط قومٍ فأفسدت[٤]. فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة، ولم يَذكر أنَّ الناقة كانت للبراء. وجائزٌ أن يكون الحديث عند[٥] ابن شهاب عن ابن مُحيِّصة، وعن سعيد بن المسيِّب، وعن أبي أمامة، والله أعلم. فحدَّث به عمَّن شاء منهم على ما حَضَره، وكلُّهم ثقات.

قال أبو عمر[٦]: وهذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو حديثٌ مشهورٌ أرسله الأئمة، وحدَّث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقَّوه بالقبول، وجرى في المدينة العملُ به، وحَسْبُكَ باستعمال أهل المدينة وسائرِ أهل الحجاز لهذا الحديث.

الرابعة عشرة: ذهب مالكٌ وجمهورُ الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعةٌ من الكوفيين إلى أنَّ هذا الحكم منسوخ، وأنَّ البهائم إذا أفسدت زرعاً في ليلٍ أو نهارٍ أنه لا يلزم صاحبَها شيء، وأَدْخَلَ فسادها في عموم قوله ﷺ: «جُرحُ العَجْماءِ جُبَارٌ»، فقاس جميعَ أفعالها على جرحها. ويقال: إنه ما تقدَّم أبا حنيفةَ أحدٌ بهذا القول[٧]، ولا حجةَ له ولا لمَن تَبعه في حديث العجماء،

(١) في التمهيد ١١/ ٨١.

(٢) في (م): إلا أنه، والمثبت من النسخ الخطية والتمهيد.

(٣) التمهيد ١١/ ٨١، والحديث في مصنف عبد الرزاق (١٨٤٣٧)، ومن طريقه أخرجه أبو داود (٣٥٦٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٨٤٣٨).

(٥) في (م): عن، والمثبت من النسخ الخطية والاستذكار ٢٢/ ٢٥١، والكلام منه.

(٦) في التمهيد ١١/ ٨٢.

(٧) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٠١ - ٥٠٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٢ - ٩٣، وقوله: «جرح العجماء جبار» قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧١٢٠)، والبخاري (٦٩١٢)، ومسلم (١٧١٠) عن أبي هريرة ﷺ. والجبار: الذي لا قَوَد فيه ولا دية ولا شيء. المفهم ٥/ ١٤٤.

وكونِه ناسخاً لحديث البراء ومُعارضاً له؛ فإنَّ النَّسْخَ شروطُه معدومة، والتعارُضُ إنما يصحُّ إذا لم يمكن[1] استعمالُ أحدهما إلَّا بنفي الآخَر، وحديثُ: «العجماءُ جُرْحُها جُبَار» عمومٌ متفقٌ عليه، ثم خُصَّ منه الزرع والحوائط بحديث البراء؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لو جاء عنه في حديث واحد: العجماءُ جُرْحُها جُبَارٌ نهاراً لا ليلاً، وفي الزرع والحوائط والحرث [دون غيره]، لم يكن هذا مستحيلاً من القول، فكيف يجوز أن يقال في هذا: متعارض؟! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكورٌ في الأصول.

الخامسة عشرة: إن قيل: ما الحكمةُ في تفريق الشارع بين الليل والنهار؟ وقد قال الليث بن سعد: يضمَن أربابُ المواشي بالليل والنهار كلَّ ما أفسدتْ[2]، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية؟

قلنا: الفرقُ بينهما واضح، وذلك أنَّ أهل المواشي بهم ضرورةٌ إلى إرسال مواشيهم لترعى بالنهار، والأغلبُ عندهم أنَّ مَن عنده زرعٌ، يتعاهدُه بالنهار ويحفظُه عمَّن أراده، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع؛ لأنه وقتُ التصرُّف في المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كلُّ شيء إلى موضعه وسكنه، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، ويردُّ أهل المواشي مواشيَهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرَّط صاحبُ الماشية في ردِّها إلى منزله، أو فرَّط في ضَبْطِها وحَبْسِها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئاً، فعليه ضمانُ ذلك[3]، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح،

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): يكن، والمثبت من (خ) و(م) والتمهيد ١١/ ٨٦، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٤، والاستذكار ٢٢/ ٢٥٥ بلفظ: يضمن ربُّ الماشية ما أفسدت بالليل والنهار...

(٣) التمهيد ١١/ ٨٦ - ٨٧.

وكان ذلك أرفقَ بالفريقين، وأسهلَ على الطائفتين، وأحفظَ للمالين، وقد وضح الصبحُ لذي عينين، ولكن لسليم الحاسَّتين.

وأمَّا قولُ الليث: لا يضمن أكثرَ من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر: لا أعلم مِن أين قال هذا الليثُ بن سعد؟ إلَّا أنْ يجعله قياساً على العبد الجاني [أنه] لا يُفْتَكُّ بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيدَه في جنايته أكثرُ من قيمته، وهذا ضعيفُ الوجه. كذا قال في «التمهيد»[1]. وقال في «الاستذكار»[2]: فخالَفَ الحديثَ في «العجماءُ جرحُها جبار»، وخالَفَ [حديثَ] ناقةِ البراء، وقد تقدَّمه إلى ذلك طائفةٌ من العلماء؛ منهم عطاء؛ قال ابن جريج: قلتُ لعطاء: الحرثُ تصيبه الماشيةُ ليلاً أو نهاراً؟ قال: يضمن صاحبها ويغرم. قلت: كان عليه حَظْرٌ أو لم يكن؟ قال: نعم. قلت: ما يغرم؟ قال: قيمة ما أكل حماره ودابَّتُه وماشيته. وقال معمر عن ابن شُبْرُمة: يُقوَّم الزرع على حاله التي أصيب عليها دراهمَ. وروي عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: يضمن ربُّ الماشية ليلاً ونهاراً[3]، من طرقٍ لا تصحّ.

السادسة عشرة: قال مالك: ويقوَّم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرجاء والخوف. قال: والحوائطُ التي تُحرس والتي لا تحرس، والمحظَّرُ عليها وغيرُ المحظَّرِ سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغاً ما بلغ، وإن كان أكثرَ من قيمتها. قال: وإذا انفلتت دابةٌ بالليل فوطئت على رجلٍ نائم لم يغرم صاحبها شيئاً، وإنما هذا في الحائط والزرع والحرث؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: ما أفسدت الماشية بالليل فهو في مال ربِّها وإن كان أضعافَ ثمنها؛ لأنَّ الجناية من قِبَله؛ إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم[4].

---

(١) ١١/ ٨٤ - ٨٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ٢٢/ ٢٥٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): أو نهاراً، والمثبت من باقي النسخ والاستذكار، وخبرا عطاء وابن شبرمة أخرجهما عبد الرزاق (١٨٤٢٩) و(١٨٤٣١).

(٤) التمهيد ١١/ ٨٢ - ٨٣ .

السابعة عشرة: ولا يُستأنَى بالزَّرع أن ينبت أو لا ينبت كما يُفعل في سنِّ الصغير. وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمتُه لو حلَّ بيعه. وقال أشهبُ وابن نافع في «المجموعة» عنه: وإن لم يَبْدُ صلاحُه. ابن العربيِّ[١]: والأوّلُ أقوى لأنَّها صفته، فيقوَّم كما يقوَّم كلُّ متلَفٍ على صفته.

الثامنة عشرة: لو لم يُقْضَ للمفسَد له[٢] بشيء حتى نَبَتَ وانجبر، فإن كان فيه قبلَ ذلك منفعةُ رعيٍ أو شيء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعةٌ فلا ضمان. وقال أصبغ: يضمن؛ لأنَّ التلف قد تحقَّق، والجبر ليس من جهته؛ فلا يعتدُّ له به.

التاسعة عشرة: وقع في كتاب ابن سحنون: أنَّ الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطانٌ مُحْدَقة، وأمَّا البلادُ التي هي زروعٌ متَّصلةٌ غيرُ مُحظَرة، وبساتينُ كذلك، فيضمن أربابُ النَّعم ما أفسدت من ليلٍ أو نهار. كأنه ذهب إلى أنَّ ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تعدٍّ؛ لأنها ولابدَّ تُفْسِد[٣]. وهذا جنوحٌ إلى قول الليث.

الموفية عشرين: قال أصبغُ في «المدنيَّة»[٤]: ليس لأهل المواشي أن يُخرجوا مواشيَهم إلى قرى الزرعِ بغير ذُوَّاد. فركَّب العلماء على هذا أنَّ البقعة لا تخلو أن تكون بقعةَ زرعٍ، أو بقعةَ سَرْحٍ؛ فإن كانت بقعةَ زرعٍ فلا تدخلها ماشيةٌ إلا ماشيةٌ تجتاح [في الزرع]، وعلى أربابها حِفْظُها، وما أفسدتْ فصاحبُها ضامنٌ ليلاً أو نهاراً. وإن كانت بقعةَ سرحٍ فعلى صاحب [الزرع] الذي حَرَثَه فيها حِفْظُه، ولا شيءَ على أرباب المواشي[٥].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٧ (والكلام منه): في المفسد، بدل للمفسد له.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ .

(٤) «المدنيَّة» مجموعة كتب لعبد الرحمن بن دينار المالكي الأندلسي، سمعها منه أخوه عيسى بن دينار وعرضها على ابن القاسم. ترتيب المدارك ٣/ ١٥ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٧ - ١٢٥٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

الحادية والعشرون: المواشي على قسمين: ضَوَاري وحَريسة[١]، و عليهما قسمها مالك. فالضَّواري هي المعتادةُ للزرع والثمار، فقال مالك: تُغرَّبُ وتباع في بلدٍ لا زَرْعَ فيه؛ رواه ابن القاسم في «الكتاب» وغيره. قال ابن حبيب: وإن كره ذلك ربُّها، وكذلك قال مالك في الدابَّة التي ضَرِيَتْ[٢] إفساد الزرع: تغرَّبُ وتباع. وأمَّا ما يُستطاع الاحتراسُ منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه.

الثانية والعشرون: قال أصبغ: النَّحلُ والحمام والإوزُّ والدجاج كالماشية، لا يُمنع صاحبها من اتِّخاذها وإن أضرَّت، وعلى أهل القرية حِفْظُ زروعهم. قال ابن العربيِّ[٣]: وهذه روايةٌ ضعيفةٌ لا يُلتفت إليها، مَن أراد أن يتَّخذ ما ينتفع به مما لا يضرُّ بغيره مُكِّن منه، وأمَّا انتفاعُه بما يتَّخذه بإضراره بأحدٍ فلا سبيل إليه. قال عليه الصلاة والسلام: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ»[٤]. وهذه الضواري عن ابن القاسم في «المدنيَّة»: لا ضمانَ على أربابها إلَّا بعد التقدُّم. ابن العربيِّ: وأرى الضمان عليهم قبل التقدُّم إذا كانت ضواري.

الثالثة والعشرون: ذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الشعبيِّ: أنَّ شاةً وقعت في غزل حائكٍ، فاختصموا إلى شُرَيح، فقال الشَّعبيُّ: انظُروه فإنه سيسألهم: أليلا وقعت فيه أم[٥] نهاراً؟ ففعل، ثم قال: إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريحٌ: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: والنَّفشُ بالليل، والهَمَل بالنهار[٦].

---

(١) الحريسة: فعيلة بمعنى مفعولة، أي: إن لها مَن يحرسها ويحفظها. والمواشي الضارية: هي المعتادة لرعي زروع الناس. النهاية (حرس) و(ضري).

(٢) أي اعتادت، ووقع بعدها في (د) و(م): في، وفي (ظ): على، والمثبت من (خ) و(ز)، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٨ ، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٨ ، وما قبله منه.

(٤) سلف ٦/ ٨١ .

(٥) في النسخ: أو، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٦) الاستذكار ٢٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣ ، والخبر في مصنف عبد الرزاق (١٨٤٣٩).

قلت: ومن هذا البابِ قولُه ﷺ: «العجماءُ جرحُها جُبَارٌ» الحديث. وقال ابن شهاب: والجُبار الهدر، والعجماء البهيمة[١]. قال علماؤنا: ظاهرُ قوله: «العجماءُ جُرْحُها جُبَار» أنَّ ما انفردت البهيمةُ بإتلافه لم يكن فيه شيءٌ، وهذا مُجْمَعٌ عليه. فلو كان معها قائدٌ أو سائقٌ أو راكبٌ، فحملها أحدهم على شيء فأتلفته، لزمه حكمُ المتلَف؛ فإن كانت جنايةً مضمونةً بالقصاص، وكان الحملُ عمداً، كان فيه القصاصُ ولا يُختلف فيه؛ لأنَّ الدابَّة كالآلة. وإن كان عن غير قصدٍ؛ كانت فيه الديةُ على العاقلة، وفي الأموال الغرامةُ في مال الجاني[٢].

الرابعة والعشرون: واختلفوا فيمَن أصابته برجلها أو ذَنَبها، فلم يضمِّن مالكٌ والليث والأوزاعيُّ صاحبها، وضمَّنه الشافعيُّ وابن أبي ليلى وابن شُبْرُمة. واختلفوا في الضَّارِيَة؛ فجمهورُهم أنَّها كغيرها، ومالكٌ وبعضُ أصحابه يضمِّنونه[٣].

الخامسة والعشرون: روى سفيان بن حسين، عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّجْلُ جُبَارٌ»[٤] قال الدارقطنيُّ: لم يَرْوِه غيرُ سفيان بنِ حسين ولم يتابَع عليه، وخالفه الحُفَّاظ عن الزُّهريِّ؛ منهم مالكٌ وابنُ عيينةَ ويونسُ ومعمرٌ وابنُ جُريج والزبيديُّ وعقيلٌ وليث بنُ سعد وغيرهم، كلُّهم رَوَوْه عن الزُّهريِّ فقالوا: «العجماءُ جُبَارٌ، والبئر جُبَارٌ، والمعدنُ جُبَار»[٥] ولم يذكروا الرِّجل، وهو الصَّواب. وكذلك رواه أبو صالح السمان، وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد بنُ سيرين، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة، لم يذكروا

(١) سنن الدارقطني (٣٣٠٤).

(٢) المفهم ٥/ ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٩٢)، والنسائي في الكبرى (٥٧٥٦)، والدارقطني (٣٣٠٦) و(٣٣٨٤)، وكلامه بعده فيه.

(٥) سلف تخريجه في المسألة الرابعة عشرة.

فيه: «والرِّجلُ جُبَارٌ»، وهو المحفوظُ عن أبي هريرة.

السادسة والعشرون: قولُه: «والبئر جُبار» قد رُوي موضعه: «والنار»؛ قال الدارقطنيُّ[1]: حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشميُّ، حدَّثنا حنبل بن إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بنَ حنبل يقول في حديث عبد الرزَّاق: حديثُ أبي هريرة: «والنارُ جُبَار» ليس بشيء، لم يكن في الكتاب[2]، باطلٌ ليس هو بصحيح.

حدَّثنا محمد بن مَخْلَد، حدَّثنا أبو إسحاق إبراهيم بنُ هانئ قال: سمعت أحمد ابن حنبل يقول: أهلُ اليمن يكتبون النار: النير، ويكتبون البِير ـ يعني مثلَ ذلك ـ وإنما لُقِّن عبد الرزاق: «النار جبار»[3]. قال الرَّمَاديّ[4]: قال عبد الرزاق: قال معمر: لا أراه إلّا وَهَماً.

قال أبو عمر: رويَ عن النبيِّ ﷺ [من] حديث مَعْمَر، عن همَّام بن مُنبِّه، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «النار جُبار»[5] وقال يحيى بن مَعِين: أصلُه: البئر، ولكنَّ معمراً صحَّفه. قال أبو عمر: لم يأتِ ابن مَعِين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا تُردُّ أحاديثُ الثقات. ذكر وكيع، عن عبد العزيز بن حصين، عن يحيى بن يحيى الغسانيِّ

---

(١) في سننه (٣٣٠٨).

(٢) في مطبوع سنن الدارقطني: لم يكن في الكتب.

(٣) سنن الدارقطني (٣٣٠٩)، وحديث «النار جبار» أخرجه النسائي في الكبرى (٥٧٥٧)، وابن ماجه (٢٦٧٦)، والدارقطني (٣٣٠٧) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبِّه، عن أبي هريرة به. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٤) وابن حزم في المحلى ١١/ ٢٠ ، من طريق عبد الملك الصنعاني، عن معمر به. قال الخطابي في معالم السنن ٤/ ٤٠ : لم أزل أسمع أصحاب الحديث يقولون: غلط فيه عبد الرزاق، إنما هو: البئر، حتى وجدته لأبي داود عن عبد الملك الصنعاني عن معمر، فدلَّ أن الحديث لم ينفرد به عبد الرزاق. اهـ. وقال ابن حزم: هذا خبر صحيح تقوم به الحجة. وتتمة الكلام في هذا الحديث سترد من قول ابن عبد البر رحمه الله.

(٤) هو أحمد بن منصور، وذكر قوله الداقطني إثر الحديث (٣٣٠٧)، وهو الذي رواه عن عبد الرزاق عند الدارقطني.

(٥) في الاستذكار ٢٥/ ٢١٦ - ٢١٧ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

قال: أحرق رجل تبناً[١] في قَرَاحٍ له، فخرجت شررةٌ من نارٍ حتى أحرقت شيئاً لجاره. قال: فكتبت[٢] فيه إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ[٣]، فكتب إليَّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «العجماءُ جُبار» وأرى أنَّ النار جُبَار[٤].

وقد رُوي: «والسائمةُ جُبار»[٥] بدل العجماء. فهذا ما ورد في ألفاظ هذا الحديث، ولكلٍّ معنًى لفظٌ صحيحٌ مذكورٌ في شرح الحديث وكتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ قال وَهْب: كان داودُ يمرُّ بالجبال مسبِّحاً والجبالُ تُجاوِبُه بالتسبيح، وكذلك الطير.

وقيل: كان داود إذا وجد فَترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق؛ ولهذا قال: «وَسَخَّرْنَا» أي: جعلناها بحيث[٦] تطيعه إذا أمرها بالتسبيح.

وقيل: إنَّ سيرها[٧] معه [هو] تسبيحُها، والتسبيحُ مأخوذٌ من السباحة[٨]، دليله قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال قتادة: «يُسَبِّحْنَ»: يُصلِّيْنَ معه إذا صلَّى[٩]، والتسبيحُ: الصلاة. وكلٌّ مُحتمِلٌ. وذلك فِعْلُ الله تعالى بها؛ ذلك لأنَّ الجبال لا تعقِل، فتسبيحُها دلالةٌ على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمُحْدَثين.

---

(١) في (م): سافى، وفي (د): ساقى، وفي (ظ): بيتا في، والمثبت من (خ) و(ز) والاستذكار.

(٢) في النسخ: فكتب، والمثبت من الاستذكار.

(٣) بعدها في (د) و(ز) و(م): ابن حصين.

(٤) الاستذكار ٢٥/ ٢١٧، وأخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨، ومن طريقه ذكره ابن حزم في المحلى ١١/ ٢٠. والقراح: الأرض لا ماء فيها ولا شجر، أو المخلَّصة للزرع والغرس. القاموس (قرح).

(٥) أخرجه الدارمي (٢٣٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٨١٠) من حديث جابر ﷺ. وأخرجه الدارقطني (٣٣١٠) من طريق هزيل بن شرحبيل عن النبي ﷺ، مرسلاً.

(٦) قوله: بحيث، ليس في (ظ).

(٧) في (ظ): تسخيرها.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٩) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٢٨.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني اتّخاذَ الدُّروع بإلانةِ الحديد له. واللَّبوسُ عند العرب: السلاحُ كلُّه؛ درعاً كان أو جَوْشَناً[١]، أو سيفاً أو رمحاً؛ قال الهُذَليُّ يصف رُمحاً:

ومَعِي لَبُوسٌ لِلْبَئِيسِ كأنَّهُ رَوْقٌ بجبهةِ ذي نِعَاجٍ مُجْفِلِ[٢]

واللَّبوسُ: كلُّ ما يُلبس، وأنشد ابن السِّكِّيت:

الْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها إمَّا نَعيمَها وإمَّا بُوسَها[٣]

وأراد الله تعالى هنا الدِّرع، وهو بمعنى الملبوس، نحو الرَّكوب والحَلُوب. قال قتادة: أوّلُ مَن صنع الدروع داود، وإنَّما كانت صفائحَ، فهو أوّلُ من سَرَدَها وحَلَّقها[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِيُحْصِنَكُمْ﴾: ليُحرِزَكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: من حربكم. وقيل: من السيف والسَّهم والرمح، أي: من آلةِ بأسكم، فحذف المضاف. ابن عباس: من سلاحكم. الضحَّاك: من حرب أعدائكم[٥]. والمعنى واحدٌ.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفصٌ ورَوْحٌ: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاء ردًّا على

(١) الجوشن: اسم الحديد الذي يلبس من السلاح. اللسان (جشن).

(٢) تفسير الطبري ١٦/٣٢٩، والهذلي هو أبو كبير عامر بن الحُلَيْس، والبيت في ديوان الهذليين ٢/٩٨، وقال شارحه: ذي نعاج، يعني ثوراً. والرَّوْق: القَرْن. اهـ. والبئيس: الشجاع. القاموس (بئس).

(٣) الصحاح (لبس)، وإصلاح المنطق ص٣٦٧، والرجز لبيهس الفزاري كما في جمهرة الأمثال ٢/٢١٢، ومجمع الأمثال ١/١٥٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/٦٥٩، والخزانة ١١/١٠٣.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/٢٧، والطبري ١٦/٣٢٩.

(٥) ذكر خبر ابن عباس وخبر الضحاك الماوردي في النكت والعيون ٣/٤٦٠.

الصَّنْعة[١]، وقيل: على اللَّبوس والمَنَعة التي هي الدروع. وقرأ شيبةُ وأبو بكر والمفضَّل ورُوَيس وابن أبي إسحاق: «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون[٢]؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾. وقرأ الباقون بالياء؛ جعلوا الفعل للَّبوس، أو يكون المعنى: لِيُحْصِنكم الله.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي: على تيسير نعمة الدروع لكم. وقيل: «هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» بأن تطيعوا رسولي.

الثالثة: هذه الآيةُ أصلٌ في اتِّخاذ الصنائع والأسباب، وهو قولُ أهلِ العقول والألباب، لا قولُ الجَهَلةِ الأغبياء القائلين بأنَّ ذلك إنَّما شُرع للضُّعفاء، فالسببُ سُنَّةُ الله في خَلْقِه، فَمَن طَعَنَ في ذلك فقد طَعَنَ في الكتاب والسُّنة، ونَسَبَ مَن ذَكَرْنا إلى الضَّعْفِ وعَدمِ المِنَّة. وقد أخبر الله تعالى عن نبيِّه داودَ عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضاً يصنع [القفَّةَ من] الخُوْص[٣]، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدمُ حَرَّاثاً، ونوحٌ نجَّاراً، ولقمانُ خيَّاطاً، وطالوتُ دَبَّاغاً، وقيل: سَقَّاءً. فالصنعةُ يكفُّ بها الإنسان نفسَه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس. وفي الحديث: «إنَّ الله يحبُّ المؤمن المُحترِفَ الضعيفَ[٤] المتعفِّفَ، ويبغض السائل الملحِف»[٥]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة الفرقان[٦]. وقد تقدَّم في غيرِ ما آيةٍ[٧]

---

(١) في (د) و(م): الصفة، والمثبت من باقي النسخ وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٥ . والقراءة عن حفص وابن عامر في السبعة ص٤٣٠ ، والتيسير ص١٥٥ ، وعن أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٢٤ .

(٢) السبعة ص٤٣٠ ، والتيسير ص١٥٥ عن أبي بكر، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن رُوَيْس.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٩٣ عن عروة بن الزبير، وما بين حاصرتين منه، وقد سلف بنحوه ٧/ ٢٢٣ . والخوص بالضم: ورق النخل. القاموس (خوص).

(٤) في (ظ): والضعيف.

(٥) أخرجه ابن عدي ١/ ٣٦٩ ، وابن الجوزي في العلل (٩٦٨) مختصراً بلفظ: «إن الله يحب المؤمن المحترف» وقد سلف ٥/ ٢٩١ . وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٠٤٤٢) من حديث أبي مسعود البدري ﷺ، والبزار (٢٠٣١ - كشف) من حديث أبي هريرة ﷺ، والطبري ٥/ ٣١ - ٣٢ عن قتادة عن النبي ﷺ، وهذه كلها أسانيد ضعيفة أو مرسلة. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ١/ ٢٣٩ : ولم يصح لهذا الحديث أصل، ولا عرف له سند.

(٦) عند تفسير الآية (٢٠) منها.

(٧) ينظر ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢ ، و ١٠/ ١٥٨ وما بعدها.

ما فيه كفايةٌ، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخَّرْنا لسليمان الريح عاصفةً، أي: شديدةَ الهُبوب. يقال منه: عَصفت الريحُ، أي: اشتدَّت، فهي ريحٌ عاصِفٌ وعَصُوف. وفي لغةِ بني أسد: أعْصَفت الريحُ فهي مُعْصِفٌ ومُعْصِفة[١]. والعَصْفُ: التِّبن، فسمِّي به شدةُ الرِّيح؛ لأنها تعصفه بشدَّة تطيرها[٢].

وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسُّلَميُّ[٣] وأبو بكر: «ولِسليمانَ الرِّيحُ»[٤] برفع الحاء على القطع ممَّا قبله؛ والمعنى: ولسليمان تسخيرُ الريح؛ ابتداءٌ وخبر.

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني الشام. يُروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم تردُّه إلى الشام. وقال وهبٌ: كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجنُّ والإنس حتى يجلس على سريره. وكان امْرَأً غزَّاءً لا يقعد عن الغزو، فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشبٍ، فمدَّتْ ورُفع عليها الناسُ والدَّوابُّ وآلةُ الحرب، ثم أمر العاصِفَ فأقلَّت ذلك، ثم أمر الرُّخاءَ فمرَّت به شهراً في رَوَاحِه وشهراً في غُدُوِّه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[٥] [ص:٣٦]. والرخاء اللينة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي: بكلِّ شيء عملنا عالمين بتدبيره.

---

(١) الصحاح (عصف).

(٢) في (ظ): تطيره، ووقع في النكت والعيون ٣/ ٤٦٠ (والكلام منه): لأنها تعصفه لشدة تكسيرها له.

(٣) قوله: والسلمي، ليس في (ظ).

(٤) القراءات الشاذة ص٩٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٣٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٦ عن عبد الرحمن الأعرج، وهي في البحر ٦/ ٣٣٢، والدر المصون ٨/ ١٨٧ - ١٨٨ عن الأعرج وأبي بكر، ولم نقف عليها عن السلمي، وقراءة أبي بكر ـ وهو شعبة ـ المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٣٣١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخرنا له مَن يغوصون، يريد: تحت الماء. أي: يستخرجون له الجواهرَ من البحر. والغَوْصُ: النزول تحت الماء، وقد غاص في الماء، والهاجِمُ على الشيء غائصٌ. والغوَّاص: الذي يغوص في البحر على اللُّؤلؤ، وفعلُه: الغِيَاصة[1].

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: سوى ذلك من الغَوْص؛ قاله الفرَّاء[2]. وقيل: يراد بذلك: المحاريبُ والتماثيل وغيرُ ذلك ممَّا يسخِّرهم فيه. ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لأعمالهم. وقال الفرَّاء: حافظين لهم مِن أن يُفْسِدوا أعمالهم[3]، أو يهيجوا أحداً من بني آدم في زمان سليمان. وقيل: حافظين من أن يهربوا أو يمتنعوا. أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. وقد قيل: إن الحمَّام والنُّورةَ[4] والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: واذكر أيوبَ إذ نادى ربَّه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: نالني في بدني ضرٌّ وفي مالي وأهلي. قال ابن عباس: سمِّي أيوب لأنه آبَ إلى الله تعالى في كلِّ حال. وروي أنَّ أيوبَ عليه السلام كان رجلاً من الروم ذا مالٍ عظيم، وكان برًّا تقيًّا رحيماً بالمساكين، يكفُل الأيتام والأرامل، ويكرم

---

(١) الصحاح (غوص).

(٢) عبارة الفراء في معانيه ٢/ ٢٠٩ : ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ دون الغوص، يريد: سوى الغوص من البناء.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٩ .

(٤) النورة: الهِنَاء، والنُّورة من الحجر: الذي يحرق ويسوى منه الكلس، ويحلق به شعر العانة. ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٤ ، واللسان (نور).

الضيف، ويبلِّغ ابنَ السبيل، شاكراً لأَنْعُم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبَّارٍ عظيمٍ، فخاطبوه في أمر، فجعل أيوبُ يُلينُ له في القول من أجل زرعٍ كان له، فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضرِّ في جسمه حتى تَناثَر لحمه وتدوَّد جسمه، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه[١].

قال الحسن: مكث بذلك سبعَ سنين وستةَ أشهر[٢]. فلما أراد الله أن يفرِّج عنه قال الله تعالى له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فيه شفاؤك، وقد وهبتُ لك أهلك[٣] وولدك ومثلَهم معهم. وسيأتي في «ص»[٤] ما للمفسرين في قصة أيوبَ من تسليط الشيطان عليه، والردّ عليهم إن شاء الله تعالى.

واختلف في قول أيوب: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» على خمسةَ عَشَرَ قولاً:

الأوّل: أنه وثب ليصلِّيَ فلم يقدر على النُّهوض فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ رواه أنسٌ مرفوعاً[٥].

الثاني: أنه إقرارٌ بالعجز، فلم يكن مُنافياً للصبر.

الثالث: أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجةً لأهل البلاء بعدَه في الإفصاح بما ينزل بهم.

الرابع: أنه أجراه على لسانه إلزاماً له في صفة الآدميِّ في الضَّعْف عن تحمُّل البلاء.

---

(١) ما ذكر المصنف عن تناثر لحم النبيِّ أيوب عليه السلام وتدوّد جسمه وإخراجه من القرية، وغير ذلك مما سيذكره المصنف عن مرضه المنفِّر... كلُّه من الإسرائيليات، ولا تليق بعصمة الأنبياء عليهم السلام. قال القاسمي في محاسن التأويل ١١/ ٢٨٢: روى المفسرون هاهنا في بلاء أيوب روايات مختلفة بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن، ولا تُعار من الثقة أدنى نظر.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥٣.

(٣) بعدها في (م): ومالك.

(٤) عند تفسير الآية (٤١) منها.

(٥) النكْت والعيون ٣/ ٤٦٢.

الخامس: أنه انقطع الوحيُ عنه أربعين يوماً، فخاف هُجْرانَ ربِّه فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ». وهذا قول جعفر بن محمد[١].

السادس: أنَّ تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لمَّا أفضت حالُه إلى ما انتهت إليه؛ مَحَوْا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قَدْرٌ! فاشتكى الضرَّ في ذهاب الوحي والدِّين من أيدي الناس. وهذا ممَّا لم يصحَّ سنده، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ.

السابع: أنَّ دودةً سقطت من لحمه فأخذها وردَّها في موضعها، فعقرته فصاح: «مَسَّنيَ الضُّرُّ»، فقيل: أعلينا تتصبَّر. قال ابن العربي: وهذا بعيدٌ جدًّا، مع أنه يفتقر إلى نقلٍ صحيح، ولا سبيلَ إلى وجوده.

الثامن: أنَّ الدُّود كان يتناول بدنه، فصبر حتى تناولت دودةٌ قلبه، وأخرى لسانه، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» لاشتغاله عن ذكر الله. قال ابن العربيِّ: وما أحسنَ هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة.

التاسع: أنَّه أُبهم عليه جهةُ أخذِ البلاء له: هل هو تأديبٌ، أو تعذيبٌ، أو تخصيص، أو تمحيص، أو ذُخر، أو طُهر، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» أي: ضرُّ الإشكال في جهةِ أخذِ البلاء. قال ابن العربي: وهذا غُلوٌّ لا يُحتاج إليه.

العاشر: أنه قيل له: سَل الله العافيةَ، فقال: أقمتُ في النعيم سبعين سنة، فأقيم في البلاء سبعين سنة[٢] وحينئذ أسأله، فقال: «مسَّنيَ الضُّرُّ». قال ابن العربيِّ: وهذا ممكنٌ ولكنه لم يصحَّ في إقامته مدةٌ[٣]، ولا في هذه القصة.

الحادي عشر: أنَّ ضرَّه قولُ إبليس لزوجه: اسجدي لي، فخاف ذهابَ الإيمان عنها، فتهلكُ ويبقى بغير كافل.

الثاني عشر: لمَّا ظهر به البلاء قال قومه: قد أضرَّ بنا كونُه معنا وقَذَرُه، فليخرج

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٦٣ .

(٢) في (م): وأقيم في البلاء سبع سنين.

(٣) بعدها في (م): خبر.

عنا، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد، فكانوا إذا خرجوا رَأَوْه وتَطَيَّروا به وتشاءموا برؤيته، فقالوا: ليبعد بحيث لا نراه. فخرج إلى بعدٍ من القرية، فكانت امرأته تقوم عليه وتحمل قُوْتَه إليه. فقالوا: إنها تتناوله[١] وتُخالطنا، فيعود بسببه[٢] ضرُّه إلينا. فأرادوا قَطْعَها عنه، فقال: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ».

الثالث عشر: قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان لأيوبَ أخوان، فأتياه فقاما من بعيدٍ لا يقدران أن يدنوا منه من نَتَنِ ريحه، فقال أحدهما: لو علم الله في أيوبَ خيراً ما ابتلاه بهذا البلاء! فلم يسمع شيئاً أشدَّ عليه من هذه الكلمة، فعند ذلك قال: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» ثم قال: اللهمَّ إنْ كنتَ تعلم أنِّي لم أَبِتْ شبعانَ قطُّ وأنا أعلم مكانَ جائع فصدِّقني. فنادى منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدي، وهما يسمعان فخرَّا ساجِدَيْن[٣].

الرابع عشر: أنَّ معنى «مَسَّنِيَ الضُّرُّ»: من شماتة الأعداء؛ ولهذا قيل له: ما كان أشدَّ عليك في بلائك؟ قال: شماتةُ الأعداء[٤]. قال ابن العربيّ: وهذا ممكنٌ فإنَّ الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

الخامس عشر: أن امرأته كانت ذاتَ ذوائبَ، فعَدِمَتْ[٥] حين مُنعتْ أن تتصرَّف لأحدٍ بسببه ما تَعُودُ به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممَّن يَصِلُها قوتاً وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها في تصرُّفه وتنقُّله، فلما عَدِمَها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر، فقال: «مَسَّني الضُّرُّ».

---

(١) في (د) و(ظ): تناوله.

(٢) في (ظ): بسببها.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٣ وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٧٧ .

(٤) عرائس المجالس ص١٦٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٣ .

(٥) في (م): فعرفت، وفي (د) و(ظ): فقدمت.

وقيل: إنَّها لمَّا اشترت القوتَ بذوائبها، جاءه إبليس في صفة رجل وقال له: إنَّ أهلك بَغَتْ فأُخذتْ وحُلِقَ شعرها. فحلف أيوب أن يجلدها[1]؛ فكانت المحنةُ على قلب المرأة أشدَّ من المحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر: ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب: أنَّ رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوبَ النبيَّ ﷺ وما أصابه من البلاء، الحديث. وفيه: أنَّ بعض إخوانه ممن صابَرَه ولازَمَه قال: يا نبيَّ الله، لقد أعجبني أمرك، وذكرتُ[2] إلى أخيك وصاحبك: أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسدك منذ ثماني عشرةَ سنةً، حتى بلغتَ ما ترى، لا[3] يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنبتَ ذنباً ما أظنُّ أحداً بلغه! فقال أيوبُ عليه السلام: ما أدري ما تقولان! غيرَ أنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ يعلم أنِّي كنت أمرُّ على الرجلين يتزاعمان فكلٌّ يحلف بالله ـ أو على النَّفَر يتزاعمون ـ فأنقلبُ إلى أهلي فأكفِّر عن أيمانهم؛ إرادةَ ألَّا يأثَم أحدٌ ذَكَره، ولا يَذْكُره أحدٌ إلَّا بالحقّ، فنادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وإنَّما كان دعاؤه عَرْضاً عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذي بلغه، صابراً لِمَا يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث[4].

وقولٌ سابع عشر، سمعتُه ولم أَقِفْ عليه: أنَّ دودةً سقطت من جسده، فطلبها ليردَّها إلى موضعها فلم يجدها، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» لمَا فَقَدَ من أَجْرِ أَلَمِ تلك

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٦١ بنحوه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وذكرته، والمثبت من (ظ) والزهد لابن المبارك.

(٣) في (ظ) و(م): ألا، والمثبت من باقي النسخ والزهد.

(٤) الزهد لابن المبارك (١٧٩ - زوائد نعيم). قوله: يتزاعمان، أي: يتداعيان شيئاً فيختلفان فيه فيحلفان عليه. النهاية (زعم).

وأخرجه البزار (٢٣٥٧ - كشف)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، وابن حبان (٢٨٩٨)، والطبري ٢٠/١٠٩-١١٠، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥ من طريق نافع بن يزيد، عن عقيل (وهو ابن خالد الأيلي) عن ابن شهاب، عن أنس، عن النبي ﷺ. وصححه الحاكم، وقال أبو نعيم: غريب من حديث الزهري، لم يروه عنه إلا عقيل، ورواته متفق على عدالتهم، تفرد به نافع. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٥١١: وهذا رَفْعُه غريب جدًّا، والأشبه أن يكون موقوفاً.

الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفَّراً إلى وقت العافية، وهذا حسنٌ إلّا أنّه يحتاج إلى سند.

قال العلماء: ولم يكن قوله: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» جَزَعاً؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، بل كان ذلك دعاءً منه، والجزعُ في الشكوى إلى الخَلْق لا إلى الله تعالى، والدعاءُ لا يُنافي الرضا. قال الثعلبي: سمعتُ أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرتُ مجلساً غاصًّا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية، بعد إجماعهم على أنَّ قول أيوب كان شكايةً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾؟ فقلت: ليس هذا شكايةً وإنما كان دعاء، بيانُه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ والإجابةُ تتعقَّب الدعاء لا الاشتكاءَ. فاستَحْسَنوه وارتَضَوْه.

وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال: عرَّفه فاقةَ السؤال لِيَمُنَّ عليه بكرم النَّوَال[1].

قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال مجاهد وعكرمة: قيل لأيوبَ ﷺ: قد آتيناك أهلك في الجنة، فإن شئتَ تركناهم لك في الجنة، وإن شئتَ آتيناكهم في الدنيا. قال مجاهد: فتركهم الله عزَّ وجلَّ له في الجنة وأعطاه مثلَهم في الدنيا. قال النحاس[2]: والإسنادُ عنهما بذلك صحيح.

قلت: وحكاه المهدويُّ عن ابن عباس.

وقال الضحاك: قال عبد الله بن مسعود: كان أهل أيوبَ قد ماتوا إلّا امرأتَه، فأحياهم الله عزَّ وجلَّ في أقلَّ من طرف البصر، وآتاه مثلَهم معهم. وعن ابن عباس أيضاً: كان بنُوه قد ماتوا، فأُحيوا له وولد له مثلُهم معهم[3]. وقاله قتادة وكعب

(١) عرائس المجالس ص١٦٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٧٦ ، وما قبله منه، وقول مجاهد أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٣٦٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٦ - ٧٧ ، وأخرج الطبري ١٦/ ٣٦٦ خبر ابن عباس بنحوه، وخبر ابن مسعود مختصراً، وأخرجه أيضاً عن ابن مسعود الطبراني في الكبير (٩٠٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧ : إسناده منقطع. وقال الحافظ في التهذيب ٢/ ٢٢٦ ، عن الضحاك: وقيل: لم يثبت له سماع من أحد من الصحابة.

الأحبار والكلبيُّ وغيرهم. قال ابن مسعود: مات أولاده، وهم سبعةٌ من الذكور، وسبعةٌ من الإناث، فلمَّا عوفي نُشروا له، وولدتْ امرأته سبعةَ بنينَ وسبعَ بنات[١]. الثعلبيّ[٢]: وهذا القول أشبهُ بظاهر الآية.

قلت: لأنهم ماتوا ابتلاءً قبل آجالهم، حسب ما تقدَّم بيانُه في سورة البقرة، في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموت، وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أُحيوا[٣]، وذلك أنَّهم ماتوا قبل آجالهم، وكذلك هنا، والله أعلم.

وعلى قول مجاهد وعكرمةَ يكون المعنى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ في الآخرة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا.

وفي الخبر: إنَّ الله بعث إليه جبريل عليه السلام حتى[٤] ركض برجله على الأرض ركضة[٥] فظهرت عينُ ماء حارّ، وأخذ بيده ونَفَضَه نفضةً فتناثرت عنه الديدان، وغَاص في الماء غوصةً فنبت لحمه، وعاد إلى منزله، وردَّ الله عليه أهلَه ومثلَهم معهم، ونشأت سحابةٌ على قَدْرِ قواعد داره، فأمطرت ثلاثةَ أيام بلياليها جراداً من ذهب. فقال له جبريل: أَشَبِعْتَ؟ فقال: ومَن يشبعُ من فضل الله؟ فأوحى الله إليه: قد أثنيتُ عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده، ولولا أنِّي وضعتُ تحت كلِّ شعرةٍ منكَ صَبْراً ما صبرت[٦].

---

(١) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٧٦ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٤ عن الفراء، وينظر التعليق السابق.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٢٦ .

(٣) ليس في ذلك نص صحيح، وينظر ٢/ ١١٥ و ٤/ ٢٠٩ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): حين.

(٥) قوله: ركضة، ليس في (ظ).

(٦) نقل الشيخ أبو شهبة رحمه الله في «الإسرائيليات» ص٢٨١ عن أبي بكر ابن العربي قوله: لم يصحَّ عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين: الأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ =

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فَعَلْنا ذلك به رحمةً من عندنا. وقيل: ابتليناه ليعظُم ثوابُه غداً. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: وتذكيراً للعباد؛ لأنَّهم إذا ذكروا بلاءَ أيوب، وصبرَه عليه، ومحنته[1] له، وهو أفضلُ أهلِ زمانه، وطَّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نَحْوَ ما فَعَلَ أيوب، فيكونُ هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضَّرر.

واختلف في مدة إقامته في البلاء؛ فقال ابن عباس: كانت مدَّةُ البلاء سبعَ سنين وسبعةَ أشهرٍ وسبعةَ أيامٍ وسبعَ ليال[2]. وهب: ثلاثين سنة[3]. الحسن: سبع سنين وستةَ أشهر[4].

قلت: وأصحُّ من هذا والله أعلم: ثماني عَشْرةَ سنةً؛ رواه ابن شهاب عن النبيِّ ﷺ، ذكره ابن المبارك وقد تقدّم[5].

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدَّم[6] ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي:

= ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ والثانية: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. وأما النبي ﷺ؛ فلم يصحَّ عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينما أيوب يغتسل؛ إذ خرَّ عليه رِجْل من جراد من ذهب.. الحديث. اهـ. وهو في صحيح البخاري (٣٣٩١)، وتتمته: فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا ربّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك». قال: وإذا لم يصحَّ فيه قرآن، ولا سنة إلا ما ذكرنا، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره؟ أم على أيِّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمَّ عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً.

(١) في (د) و(ز): ومحبته.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٢٦١ عن كعب، دون قوله: وسبع ليال.

(٣) كذا في النسخ، والذي أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥٤ عن وهب أنه قال: لبث في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً واحداً، وكذا ذكره الثعلبي في العرائس ص١٦٤ ، والبغوي ٣/ ٢٦١ .

(٤) سلف ص٢٥٧ من هذا الجزء .

(٥) ص٢٦٠ من هذا الجزء، وينظر فتح الباري ٦/ ٤٢١-٤٢٣ .

(٦) ١٣/ ٤٦٦ .

واذكرهم. وخرَّج الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[١] وغيره من حديث ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجلٌ يقال له: ذو الكفل، لا يتورَّع من ذنبٍ عَمِلَه، فاتَّبع امرأة، فأعطاها ستِّين ديناراً [على أن يطأها]. فلمَّا قعد منها مَقْعَدَ الرجل من امرأته ارتعدتْ وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل، واللهِ ما عملته قط، قال: أَكْرهتُك؟ قالت: لا، ولكن حملني عليه الحاجةُ، قال: اذهبي فهو لك، والله لا أعصي الله بعدها أبداً. ثم مات من ليلته، فوجدوا مكتوباً على باب داره: إنَّ الله قد غفر لذي الكفل».

وخرجه أبو عيسى الترمذيُّ أيضاً؛ ولَفْظُه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيَّ ﷺ يحدِّث حديثاً لو لم أسمعه إلَّا مرةً أو مرتين ـ حتى عدَّ سبعَ مرَّاتٍ ـ ولكنِّي سمعته أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل[٢] من بني إسرائيل لا يتورَّع من ذنبٍ عَمِلَه، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستِّين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعدَ الرجل من امرأته ارتعدتْ وبكت، فقال: ما يبكيكِ، أأكرهتُكِ؟ قالت: لا، ولكنه عملٌ ما عملتُه قطُّ، وما حملني عليه إلا الحاجةُ. فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلتِه! اذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إنَّ الله قد غفر للكِفْل»[٣] قال: حديث حسن[٤].

وقيل: إنَّ اليسع لمَّا كبر قال: لو استخلفتُ رجلاً على الناس حتى أنظرَ كيف يعمل. فقال: مَن يتكفَّل لي بثلاث: بصيام النهار، وقيامِ الليل، وألَّا يغضب وهو يقضي؟ فقال رجل من ذرِّية العيص: أنا، فردَّه، ثم قال مثلَها من الغد، فقال الرجل:

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) في النسخ: ذو الكفل، والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): لذي الكفل، والمثبت من (د) و(ز) وسنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٢٤٩٦)، وهو عند أحمد (٤٧٤٧)، وما بين حاصرتين منهما. قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٥١٩ : حديث غريب جداً، وفي إسناده نظر. . . وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل، وإنما لفظ الحديث: الكفل، فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن.

أنا، فاستخلفه فوفَّى، فأثنى الله عليه فسمِّي ذا الكفل؛ لأنه تكفَّل بأمر [فوفَّى به]؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة(١). وقاله(٢) عبد الله بن الحارث(٣).

وقال أبو موسى عن النبيِّ ﷺ: إنَّ ذا الكفل لم يكن نبيًّا، ولكنه كان عبداً صالحاً، فتكفَّل بعملِ رجلٍ صالحٍ عند موته، وكان يصلِّي لله كلَّ يومٍ مئةَ صلاة، فأحسنَ الله الثناءَ عليه(٤).

وقال كعب: كان في بني إسرائيل ملكٌ كافر، فمرّ ببلاده رجلٌ صالح فقال: والله إن خرجتُ من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام. فعرض عليه، فقال: ما جزائي؟ قال: الجنة ـ ووصفها له ـ قال: مَن يتكفَّل لي بذلك؟ قال: أنا، فأسلم الملك وتخلَّى عن المملكة، وأقبل على طاعة ربِّه حتى مات، فدُفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجةً من القبر وفيها رقعةٌ خضراء مكتوبٌ فيها بنورٍ أبيضَ: إنَّ الله قد غفر لي وأدخلني الجنة ووفَى بكفالة(٥) فلان. فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، و يتكفَّلَ لهم بما تكفَّل به للملك، ففعل ذلك فآمنوا كلُّهم، فسمِّي ذا الكفل.

وقيل: كان رجلاً عفيفاً يتكفَّل بشأن كلِّ إنسانٍ وقع في بلاءٍ أو تهمةٍ أو مطالبةٍ، فينجِّيه الله على يديه.

وقيل: سمِّي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفَّلَ له في سعيه وعمله بضِعْفِ عمل(٦) غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه.

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٦/٣٦٩ - ٣٧٣ ، وخبر مجاهد فيه مطوَّل، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وقال.

(٣) في النسخ: عمرو بن عبد الله بن الحارث، وهو خطأ، فقد أخرجه الطبري ١٦/٣٦٨ من طريق المنهال ابن عمرو عن عبد الله بن الحارث.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/٢٧ ، والطبري ١٦/٣٧٢ من طريق قتادة عن أبي موسى ﷺ موقوفاً. وهو منقطع، وأخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في البداية والنهاية ١/٥١٨ ـ من طريق قتادة، عن كنانة بن الأخنس، عن أبي موسى موقوفاً أيضاً.

(٥) في (خ) و(د) و(ز): كفالة، وفي (م): عن كفالة، والمثبت من (ظ).

(٦) في (د) و(ز): على.

والجمهورُ على أنه ليس بنبيٍّ. وقال الحسن: هو نبيٌّ قبل إلياس[١]. وقيل: هو زكريا بكفالة[٢] مريم. ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على أمر الله، والقيامِ بطاعته، واجتنابِ معاصيه. ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي: في الجنة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكر ذا النُّون، وهو لقبٌ ليونس بن متَّى لقِّب به[٣] لابتلاع النون إياه. والنونُ: الحوت. وفي حديث عثمان ﷺ: أنه رأى صبيًّا مَليحاً فقال: دَسِّموا نُونَته كي لا تصيبَه العين[٤]. روى ثعلب عن ابن الأعرابيِّ: النّونةُ: النقبة[٥] التي تكون في ذقن الصبيِّ الصغير، ومعنى دسِّموا: سَوِّدوا.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ قال الحسن والشعبيُّ وسعيد بن جبير: مغاضباً لربِّه عزَّ وجلَّ. واختاره الطبريُّ[٦] والقُتَبيُّ[٧] واستحسنه المهدويُّ، وروي عن ابن مسعود. قال النحاس: وربَّما أنكر هذا مَن لا يعرف اللغةَ، وهو قولٌ صحيح. والمعنى: مغاضباً من أجل ربِّه، كما تقول: غضبتُ لك، أي: من أجلك. والمؤمنُ يغضب لله عزَّ وجلَّ إذا عُصي. وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أنَّ قول النبيِّ ﷺ لعائشة: «اشترطي لهم الولاءَ» من هذا[٨].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٤.

(٢) في (ظ): تكفل، وذكر هذا القول الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٦٤، والبغوي ٣/ ٢٦٥ دون نسبة.

(٣) قوله: لقب به، من (ظ).

(٤) ذكره الخطابي في غريب الحديث ٢/ ١٣٩، والزمخشري في الفائق ١/ ٤٢٤، وابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٣٣٧، وابن الأثير في النهاية (دسم) و(نون).

(٥) وقع في شرح هذه الكلمة في المصادر السابقة: النقرة، بدل: النقبة.

(٦) في التفسير ١٦/ ٣٧٧، وأخرج قول الحسن والشعبي وسعيد بن جبير ١٦/ ٣٧٦ - ٣٧٨.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص٣١٤ - ٣١٥.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٧، والحديث سلف ٣/ ٣١٨.

وبالغ القُتَبيُّ في نصرة هذا القول، وفي الخبر في وصف يونس: إنَّه كان ضيِّق الصدر، فلمَّا حُمِّل أعباء النبوَّة تَفسَّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل، فمضَى على وجهه مُضيَّ الآبِقِ النادّ[١].

وهذه المغاضبةُ كانت صغيرة، ولم يغضب على الله، ولكن غضب لله؛ إذ رَفَع العذاب عنهم. قال ابن مسعود: أبق من ربِّه، أي: من أمرِ ربِّه، حين[٢] أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم. فإنه كان تَوَعَّد[٣] قومَه بنزول العذاب في وقتٍ معلوم، وخرج من عندهم في ذلك الوقت، فأظلَّهم العذاب، فتضرَّعوا، فرُفع عنهم، ولم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضباً، وكان من حقِّه ألَّا يذهبَ إلَّا بإذنٍ محدَّد[٤].

وقال الحسن: أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه، فسأل أن يُنظَر ليتأهَّب، فأعْجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلاً ليلبسها فلم يُنظَر، وقيل له: الأمر أَعْجَلُ من ذلك، وكان في خُلُقه ضِيقٌ، فخرج مغاضباً لربِّه[٥]. فهذا قولٌ، وقول النحاس أحسنُ ما قيل في تأويله. أي: خرج مغاضباً من أَجْلِ ربِّه، أي: غضب على قومه من أجل كفرهم بربِّه.

وقيل: إنه غاضَبَ قومَه حين طال عليه أمرهم وتعنُّتهم، فذهب فارًّا بنفسه ولم يصبر على أذاهم، وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجَه من بينهم من غير إذنٍ من الله. روي معناه عن ابن عباس والضحَّاك، وأنَّ يونس كان شابًّا ولم يحمل أثقال النبوَّة؛ ولهذا قيل للنبيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨][٦].

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٣١٦ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٦ عن وهب بن منبه. والرُّبَع: الفصيل الذي ينتج في الربيع، و تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل: إذا لم يُطِقْه. اللسان (ربع). و(فسخ).

(٢) في (ز) و(م): حتى.

(٣) في النسخ عدا (د): يتوعد، والمثبت من (د).

(٤) ذكره مطولاً البغوي ٢/ ٣٦٩ عن ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب بن منبه، وأخرجه بنحوه عن ابن مسعود ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٧ .

(٦) المحْرر الوجيز ٤/ ٩٦ ، وأخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٦/ ٣٧٤ مختصراً.

وعن الضحاك أيضاً: خرج مغاضباً لقومه؛ لأنَّ قومه لمَّا لم يقبلوا منه وهو رسولٌ من الله عزَّ وجلَّ، كفروا بهذا، فوجَبَ أن يغاضبهم، وعلى كلِّ أحدٍ أن يغاضب مَن عصى الله عزَّ وجلَّ.

وقالت فرقةٌ منهم الأخفش[١]: إنَّما خرج مغاضباً للملك الذي كان على قومه؛ قال ابن عباس: أراد شعيا النبيُّ والملكُ الذي كان في وقته ـ اسمُه حزقيا[٢] ـ أن يبعثا يونسَ إلى ملك نينوى ـ وكان غزا بني إسرائيلَ وسبَى الكثير منهم ـ ليكلِّمه حتى يرسل معه بني إسرائيل، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحَى إليهم، والأمرُ والسياسةُ إلى ملكٍ قد اختاروه، فيعملُ على وَحْيِ ذلك النبيِّ، وكان أوحى الله إلى شعيا: أنْ قل لحزقيا[٣] الملكِ أن يختار نبيًّا قويًّا أميناً من بني إسرائيل، فيبعثه إلى أهل نِينوى، فيأمرهم بالتخلية عن بني إسرائيل، فإنِّي ملقٍ في قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخليةَ عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أَمَرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سمَّاني لك؟ قال: لا. قال: فها هنا أنبياءُ أمناءُ أقوياء! فألَحُّوا عليه، فخرج مغاضباً للنبيِّ والملكِ وقومه، فأتى بحر الروم، وكان من قصته ما كان[٤]. فابتُلي ببطن الحوت لتَرْكه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ والمُليم: مَن فَعَل ما يُلام عليه. وكان ما فَعَله إمَّا صغيرةً، أو تَرْكَ الأَوْلى.

وقيل: خرج ولم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، ولكنْ أَمَره ملكٌ من ملوك بني إسرائيل أن يأتي نِينوى ليدعوَ أهلها بأمر شعيا، فأَنِفَ أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحدٍ غيرِ الله، فخرج مغاضباً للملك، فلما نجا من بطن الحوت بَعَثه الله إلى قومه، فدعاهم وآمنوا به.

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): حزقيل.

(٣) في د) و(ز) و(ظ): لحزقيل.

(٤) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٤١٠ .

وقال القشيريُّ: والأظهَرُ أنَّ هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلَّهم؛ فإنه كره رَفْعَ العذاب عنهم.

قلت: هذا أحسنُ ما قيل فيه، على ما يأتي بيانُه في «والصافات»[١] إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتلُ مَن جرَّبوا عليه الكذبَ، فخشيَ أن يُقتَل، فغضب وخرج فارًّا على وجهه حتى ركب في سفينة[٢]، فسكنت ولم تَجْر، فقال أهلها: أفيكم آبِقٌ؟ فقال: أنا هو. وكان من قصَّته ما كان، فابتُلي ببطن الحوت تمحيصاً من الصغيرة كما قال في أهل أُحدٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ﴾[٣] [آل عمران: ١٥٢-١٥٤]. فمعاصي الأنبياءِ مغفورةٌ، ولكنْ قد يجري تمحيصٌ، ويتضمَّنُ ذلك زجراً عن المعاودة.

وقول رابع: أنَّه لم يغاضب ربَّه، ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم: غضب: إذا أَنِفَ. وفَاعَلَ قد يكون من واحد، فالمعنى: أنه لمَّا وَعَدَ قومه بالعذاب وخرج عنهم، تابوا وكُشفَ عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أَنِفَ من ذلك، فخرج آبقاً[٤]، وينشد هذا البيت:

وأغضب أن تُهجى تميمٌ بدارِمِ[٥]

---

(١) عند تفسير الآية (١٣٩).

(٢) النكت والعيون ٣/٤٦٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٧ . وقال ابن عطية: وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاء به، مما لا يتصف به نبي.

(٣) في النسخ: وليمحص الله الذين آمنوا، وهي الآية (١٤١) من «آل عمران».

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣١٤ - ٣١٥ ، وقال ابن قتيبة: خشي أن ينسب إلى الكذب ويُعيَّر به، لا سيما ولم تكن قرية آمنت عند حضور العذاب فنفعها إيمانها غير قومه، فدخلته الأنفة والحميَّة.

(٥) تأويل مشكل القرآن ص٣١٥ وفيه: وأعبد، بدل: وأغضب، والبيت للفرزدق، كما في إصلاح المنطق ص٥٩ ، والصحاح (عبد)، والحلل للبطليَوْسي ص١٤٢ ، وهو عندهم برواية:

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم وأَعْبَدُ أن أهجو كليباً بدارمِ =

أي: آنَفُ. وهذا فيه نظر؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول: إنَّ تلك المغاضبةَ وإن كانت من الأنَفة، فالأنَفةُ لابدَّ أن يخالطها الغضب وإن دقَّ[١]، وأنت تقول: لم يغضب على ربِّه ولا على قومه، فذلك الغضبُ الذي يخالطُ الأنفةَ؛ على مَن كان؟![٢].

قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قيل: معناه: استزلَّه إبليس، ووقع في ظنِّه إمكانُ ألَّا يقدِرَ الله عليه بمعاقبته[٣]. وهذا قولٌ مردودٌ مرغوبٌ عنه؛ لأنه كفر. روي عن سعيد بن جبير، حكاه عنه المهدوي، والثعلبيُّ عن الحسن[٤].

وذكر الثعلبيُّ: وقال عطاء[٥] وكثيرٌ من العلماء: معناه: فظنَّ أنْ لن نضيِّق عليه الحبسَ[٦]، من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي: يضيِّق، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧].

قلت: وهذا الأشبهُ بقول سعيد والحسن. وقَدَر وقُدِرَ وقَتَر وقُتِر بمعنى، أي: ضيِّق، وهو قولُ ابن عباس فيما ذكره الماورديّ[٧] والمهدويّ.

= ووقع في الحلل: آبائي، بدل: أحلاسي. وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٣٨، والعسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٥١٢ برواية:

أولئك قوم إن هجوني هجوتهم وأَعْبَدُ.................

ولم نقف عليه برواية: وأغضب. قال ابن قتيبة: العَبَد أصله: الغضب، ثم قد تسمَّى الأنفة عَبَداً.

(١) بعدها في النسخ: على من كان، ولا معنى لها هنا، وسترد في موضعها، ووقع بعد قوله: يخالطها الغضب في (م): وذلك الغضب.

(٢) قوله: فذلك الغضب الذي يخالط الأنفة على من كان، ليس في (م).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧.

(٤) عرائس المجالس ص٤١٢، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٠.

(٥) بعدها في النسخ عدا (ظ): وسعيد بن جبير، والمثبت من (ظ)، وعرائس المجالس ص٤١٢، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٦.

(٦) وقع في النسخ: قال الحسن، وهو تحريف، والمثبت من عرائس المجالس وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٦، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٧، والوسيط ٣/ ٢٤٩.

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٦.

وقيل: هو من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، أي: فظنَّ أنْ لن نقضيَ عليه العقوبةَ؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ والفرَّاء[١]. مأخوذٌ من القَدَر، وهو الحكمُ، دون القدرة والاستطاعة. ورويَ عن أبي العباس أحمدَ بنِ يحيى ثعلب أنه قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: هو من التقدير؛ ليس من القدرة، يقال منه: قدَر الله لك الخير يَقْدِرُه قَدْراً، بمعنى: قدَّر الله لك الخير، وأنشد ثعلب:

فليست عشيّاتُ اللِّوى[٢] برواجعٍ لنا أبداً ما أبرمَ[٣] السَّلَمَ النَّضْرُ
ولا عائداً[٤] ذاك الزمان الذي مضى تبارَكْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ

يعني: ما تقدِّره وتقضي به يقع[٥]. وعلى هذين التأويلين العلماء.

وقرأ عمر بن عبد العزيز والزُّهريُّ: «فظَنَّ أنْ لن نُقَدِّرَ عليه» بضمِّ النون وتشديد الدال[٦] من التقدير. وحكى هذه القراءة الماورديُّ عن ابن عباس[٧].

وقرأ عبيد بن عمير وقتادةُ والأعرج: «أنْ لن يُقَدَّرَ عليه» بضم الياء مشدَّداً على الفعل المجهول[٨].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وأخرج قول مجاهد وقتادة الطبري ١٦/ ٣٧٩ ، وذكره عنهما البغوي ٣/ ٢٦٦ .

(٢) في المصادر الآتية: الحمى.

(٣) في (د) و(ز) و(م): أورق، وكذا وردت في بعض المصادر على ما يأتي.

(٤) في (ظ) و(م): عائد، والمثبت من باقي النسخ والتمهيد ١٨/ ٤٤ ، والكلام منه.

(٥) التمهيد ١٨/ ٤٤ ، وورد كلام ثعلب أيضاً ولكن دون الشعر في ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٦٣-٣٦٤ . والبيتان من قصيدة لأبي صخر الهذلي كما ذكر ابن عبد البر، وذكرهما القالي في أماليه ١/ ١٥٠ دون نسبة، وذكر البيت الأول أبو الفرج في الأغاني ٢٤/ ١٢٤ عن أبي صخر برواية: أورق السلم.

قال ابن عبد البر: السلم، شجر من العضاه يدبغ به، والنضر: النضارة والتنعم، وأبرم السلم: أخرج برمته. اهـ. والبرمة ثمر السلم، والعضاه: كلُّ ذات شوك. معجم متن اللغة (برم) و(عضه).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٦٦ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥ ، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ عن الزهري وحده.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ .

(٨) ذكرها الرازي في التفسير ٢٢/ ٢١٥ عن عبيد بن عمير وحده، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٨١ دون نسبة.

وقرأ يعقوبُ وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن وابن عباس أيضاً: «يُقْدَرَ عليه» بياء مضمومة وفتحِ الدَّال مخفَّفاً على الفعل المجهول[(١)].

وعن الحسن أيضاً: «فظَنَّ أن لن يَقْدِرَ عليه»[(٢)]. الباقون «نَقْدِرَ» بفتح النون وكسر الدال، وكلُّه بمعنى التقدير.

قلت: وهذان التأويلان تَأَوَّلهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قطُّ لأهله: «إذا مات فحرِّقوه، فوالله لئن قَدَر الله عليَّ» الحديث. فعلى التأويل الأوّل يكون تقديره: والله لئن ضيَّق الله عليَّ وبالَغ في محاسبتي وجزائي[(٣)] على ذنوبي ليكوننَّ ذلك، ثم أمر أن يُحرق [بعد موته من] إفراط[(٤)] خوفه.

وعلى التأويل الثاني: أي: لئن كان سَبَقَ في قدر الله وقضائه أن يعذِّب كلَّ ذي جُرْمٍ على جرمه، ليعذِّبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذِّبه أحداً من العالمين غيري.

وحديثه خرَّجه الأئمة في «الموطأ» وغيره[(٥)]. والرجلُ كان مؤمناً موحِّداً، وقد جاء في بعض طرقه: «لم يعمل خيراً قطُّ إلا التوحيد»[(٦)] وقد قال حين قال الله تعالى له: «لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب» والخشيةُ لا تكون إلا لمؤمنٍ مصدِّقٍ

(١) النشر ٢/ ٣٢٤ عن يعقوب، وذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ عن ابن أبي ليلى وأبي شرف والكلبي ويعقوب.

(٢) ذكرها عن الحسن النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٩٧، وأبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥.

(٣) في (ز): وجزاني، والمثبت من باقي النسخ والتمهيد ١٨/ ٤٣ والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه. ووقع في الاستذكار ٨/ ٣٦٩: وجازاني.

(٤) في النسخ: بإفراط، والمثبت من التمهيد.

(٥) الموطأ ١/ ٢٤٠، وصحيح البخاري (٣٤٨١) و(٧٥٠٦)، وصحيح مسلم (٥٧٥٦)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه بهذه الرواية أحمد (٨٠٤٠).

[بل ما تكاد تكون إلا لمؤمن عالم] قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨](١).

وقد قيل: إنَّ معنى «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» الاستفهام، وتقديره: أفظنَّ، فحذف ألف الاستفهام إيجازاً، وهو قول سليمان أبي المعتمر(٢). وحكى القاضي منذر بنُ سعيد: أنَّ بعضهم قرأ: «أفظنَّ» بالألف(٣).

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «فنادى في الظُّلُمات» اختلف العلماء في جمع الظلمات؛ ما المراد به؟ فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة: ظلمةُ الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت(٤). وذكر ابن أبي الدنيا: حدَّثنا يوسف بن موسى، حدَّثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: حدَّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال: لمَّا ابتلع الحوتُ يونسَ عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونسُ تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات، ظلماتٍ ثلاث: بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش(٥).

---

(١) التمهيد ١٨/ ٤٠ ، والاستذكار ٨/ ٣٦٥ - ٣٦٦ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وفيه: سليمان بن المعتمر، ونقله عنه المصنف، وهو خطأ، وهو سليمان بن طَرخان التيمي والد المعتمر بن سليمان، وذكر قوله أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٨٣ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨١ عن ابن زيد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وأخرجه عن ابن عباس وقتادة وغيرهما الطبري ١٦/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٥) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا (٣٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢ عن عبيد الله بن موسى بالإسناد المذكور مطولاً.

وقالت فرقةٌ منهم سالم بن أبي الجعد: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأوّل. ويصحُّ أن يعبَّر بالظلمات عن جوف الحوت الأوّل فقط، كما قال: ﴿في غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] وفي كلِّ جهاته ظلمةٌ، فجمعُها سائغ[١].

وذكر الماوَرْديّ[٢]: أنه يحتمل أن يعبَّر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدّة، وظلمة الوحدة.

وروي: أنَّ الله تعالى أوحى إلى الحوت: لا تؤذِ منه شعرةً، فإنِّي جعلت بطنك سجنه، ولم أجعله طعامك. وروي: أنَّ يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر[٣].

وذكر ابن أبي الدنيا: حدَّثنا العباس بن يزيد العبدي، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا جعفر بن سليمان، عن عوفٍ، عن سعيد بن أبي الحسن قال: لمَّا التقم الحوت يونس عليه السلام ظنَّ أنه قد مات، فطول رجليه فإذا هو لم يمت، فقام إلى عادته[٤] يصلِّي، فقال في دعائه: واتَّخذتُ لك مسجداً حيث لم يتَّخذْه أحد[٥].

قال أبو المعالي: قوله ﷺ «لا تفضِّلوني على يونسَ بنِ متى»[٦] المعنى: فإنِّي لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧، وأخرج قول سالم بن أبي الجعد الطبريُّ ١٦/ ٣٨٣. والقراءة المذكورة من سورة يوسف هي قراءة نافع وأبي جعفر، وقد سلفت ١١/ ٢٦٢.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٦.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧، وهذا الخبر والذي قبله ورد نحوهما في حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه البزار (٢٢٥٤ - كشف) والطبري ١٦/ ٣٨٤ - ٣٨٥. وسيرد هذا الحديث بتمامه عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الصافات.

(٤) في (ظ): عبادته.

(٥) الفرج بعد الشدة (٣٦)، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٨٥ من طريق سنيد بن داود، عن جعفر بن سليمان، عن عوف الأعرابي، عن الحسن وفيه: ...فحرك رجليه فإذا هي تتحرك فسجد وقال...، وسعيد بن أبي الحسن هو أخو الحسن البصري، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٤ من طريق آخر عن جعفر بن سليمان عن عوف الأعرابي قوله.

(٦) ذكره بهذا اللفظ ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١١٦، وأخرجه أحمد (٢١٦٧)، والبخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «لا يقل أحدٌ أنا خير من يونس ابن متَّى» وسلف ٤/ ٢٥٤.

أكن وأنا في سدرة المنتهى بأقربَ إلى الله منه وهو في قعر البحر في بطن الحوت. وهذا يدلُّ على أنَّ الباريَ سبحانه وتعالى ليس في جهة[١]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة» و«الأعراف»[٢].

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبرِ عليهم.

وقيل: في الخروج من غير أن يؤذَن له. ولم يكن ذلك من الله عقوبة؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، وإنما كان ذلك تمحيصاً. وقد يؤدَّب مَن لا يستحقُّ العقابَ كالصبيان؛ ذكره الماوردي[٣].

وقيل: من الظالمين في دعائي على قومي بالعذاب. وقد دعا نوحٌ على قومه فلم يؤاخَذ. وقال الواسطيُّ[٤] في معناه: نزَّه ربَّه عن الظلم؛ وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً. ومثلُ هذا قولُ آدمَ وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]؛ إذ كانا السَّبَبَ في وضعهما أنفسَهما في غير الموضع الذي أُنزلا فيه.

الثانية: روى أبو داود، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبيِّ ﷺ قال: «دعاء ذي النونِ في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يَدْعُ به رجلٌ مسلم في شيءٍ قطُّ إلَّا استُجيبَ له»[٥].

وقد قيل: إنه اسم الله الأعظم. ورواه سعدٌ عن النبيِّ ﷺ[٦]. وفي الخبر: في هذه

---

(١) ذكر قول أبي المعالي مطولاً ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩ ، وسيرد بتمامه عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الصافات.

(٢) ١/ ٣٨٠ و ٩/ ٢٣٨ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٧ ، ووقع فيه: تأديباً، بدل: تمحيصاً.

(٤) هو أبو بكر محمد بن موسى، وقوله مع ما سبقه ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٧١ .

(٥) لم نقف عليه في سنن أبي داود، ولم ينسبه له المزي في التحفة، وهو في سنن الترمذي (٣٥٠٥)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٤١٧)، وأخرجه أحمد مطولاً (١٤٦٢).

(٦) أخرجه الحاكم ١/ ٥٠٥ - ٥٠٦ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٦ بلفظ: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متَّى» ولم يقل فيه: الأعظم، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧١٤) عن الحسن قوله.

الآية شَرَطَ الله لمن دعاه أن يجيبَه كما أجابه، وينجيَه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] وليس هاهنا صريحُ دعاءٍ، وإنَّما هو مضمونُ قوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاعترف بالظلم؛ فكان تلويحاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نخلِّصهم من همِّهم بما سَبَقَ من عملهم، وذلك قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وهذا حِفْظٌ من الله عزَّ وجلَّ لعبده يونس؛ رعى له حقَّ تعبُّده، وحَفِظَ زِمامَ ما سلف له من الطاعة.

قال الأستاذ أبو إسحاق: صَحِب ذو النون الحوتَ أياماً قلائلَ، فإلى يوم القيامة يقال له: ذو النون، فما ظنُّك بعبدٍ عَبَدَه سبعين سنة، يبطل هذا عنده؟! لا يُظنُّ به ذلك[٢]. «مِن الْغَمِّ» أي: من بطن الحوت.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قراءةُ العامَّة بنونين؛ من أَنْجى يُنْجي. وقرأ ابن عامر: «نُجِّي» بنونٍ واحدة وجيمٍ مشدَّدةٍ وتسكينِ الياء[٣] على الفعل الماضي وإضمارِ المصدر، أي: وكذلك نُجِّي النجاءُ المؤمنين، كما تقول: ضُرِب زيداً، بمعنى: ضُرِب الضربُ زيداً، وأنشد:

ولـو وَلَـدتْ قُـفَـيْـرةُ جَـرْوَ كَـلْـبٍ لَـسُـبَّ بـذلـك الـجـروِ الـكـلَابـا[٤]

(١) ورد ضمن حديث سعد ﷺ عند الطبري ١٦/ ٣٨٦ المذكور في التعليق السابق.

(٢) ورد هذا الكلام في لطائف الإشارات ٢/ ٥١٩ للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، وهو تلميذ الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.

(٣) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية شعبة، كما في التيسير ص١٥٥ .

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٩ - ٤٠ ، والبيت لجرير كما في رسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني ص٥٣ ، والخزانة ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وهو بلا نسبة في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٤ ، والخصائص ١/ ٣٩٧ ، وشرح المفصل ٧/ ٧٥ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥١٨ . قال البغدادي: قُفَيْرة اسم أم الفرزدق، والمعنى: أنها لو ولدت جرواً لسُبَّتْ جميع الكلاب بسبب ذلك الجرو. ولم يرد البيت في ديوان جرير.

أراد: لَسُبَّ السَّبُّ بذلك الجرو. وسكنت ياؤه على لغة مَن يقول: بَقِيْ ورَضِيْ فلا يحرِّك الياء. وقرأ الحسن: «وَذَرُوا مَا بَقِيْ مِنَ الرِّبَا»[١] استثقالاً لتحريك ياءٍ قبلَها كسرة. وأنشد:

خَمَّرَ الشَّيبُ لِمَّتي تَخْمِيراً وَحَدَا بي إلى القُبور البَعِيرا
ليتَ شِعْري إذا القيامةُ قامتْ ودُعِيْ بالحسابِ أينَ المصيرا[٢]

سكَّن الياء في دُعِيْ استثقالاً لتحريكها وقَبْلَها كسرةٌ، وفاعلُ حدا: الشيب[٣]، أي: وحدا الشيبُ البعير. ليت شعري المصيرَ أين هو[٤].

هذا تأويلُ الفرَّاء[٥] وأبي عبيد وثعلب في تصويب هذه القراءة. وخطَّأها أبو حاتم والزجَّاج[٦] وقالا: هو لحنٌ؛ لأنه نَصَبَ اسمَ ما لم يسمَّ فاعلُه، وإنَّما يقال: نُجِّيَ المؤمنون. كما يقال: كُرِّمَ الصالحون. ولا يجوز: ضُرِب زيداً، بمعنى: ضُرِب الضَّربُ زيداً؛ لأنه لا فائدةَ [فيه]؛ إذ[٧] كان ضُرِب يدلُّ على الضرب. ولا يجوز أن يُحتجَّ بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى.

ولأبي عبيد قولٌ آخَرُ ـ وقاله القتَبيُّ ـ وهو أنه أَدْغَم النون في الجيم. النحاس[٨]:

---

(١) المحتسب ١/ ١٤١.

(٢) الإفصاح للفارقي ص١٨١، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٦، والبيت الثاني في كتاب الشعر لأبي علي الفارسي ١/ ٣١٤، ووقع في الأمالي والشعر: ودعا، بدل: ودُعي. وفي الإفصاح: لحيتي، بدل: لمتي. قال ابن الشجري: قوله: خمر الشيب لمتي، معناه: غطَّى سوادها، وعنى بالبعير عمره.

(٣) في (د) و(خ) و(م): المشيب، في الموضعين، والمثبت من (ز) و(ظ) والإفصاح.

(٤) قال الفارقي: نصب «المصير» بمعنى قوله: ليت شعري؛ لأن معناه: ليتني أشعر. وقال ابن الشجري: «أين» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أين هو، وقد أساء بشيئين؛ بحذف المبتدأ، وبالفصل بين شعري ومعموله بأين، وهو أجنبي، ولو أُعطيَ الكلام حقَّه قيل: ليت شعري، المصيرَ أين هو؟

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢١٠.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٣.

(٧) في (ظ): إذا، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٨، والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٧٨، وما قبله منه، عدا قوله: وقاله القتبي. وذكر قول القتبي البغوي ٣/ ٢٦٧.

وهذا القولُ لا يجوز عند أحدٍ من النَّحْويين؛ لبُعْدِ مخرج النون من مخرج الجيم فلا تُدغَم فيها، ولا يجوز في ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ [القصص:٨٤]: مَجّاءَ بِالْحَسَنَةِ. قال النحاس: ولم أسمع في هذا أحسن من شيءٍ سمعته من عليِّ بن سليمان؛ قال: الأصلُ: ننجي، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما، كما تُحذف إحدى التاءين لاجتماعهما؛ نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]، والأصل: تتفرقوا.

وقرأ محمد بن السَّمَيفع وأبو العالية: «وكَذَلِكَ نَجَّى المُؤْمِنِينَ»[١]، أي: نَجَّى الله المؤمنين، وهي حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي: واذكر زكريا. وقد تقدَّم في «آل عمران» ذِكْرُه[٢]. ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أي: منفرداً لا ولدَ لي، وقد تقدَّم[٣]. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: خيرُ مَن يَبْقَى بعد كلِّ مَن يموت، وإنما قال: «خير الْوَارِثِينَ» لِمَا تقدَّم من قوله: ﴿يَرِثُنِى﴾ [مريم:٦] أي: أعلمُ أنك لا تُضيع دِينَك، ولكنْ لا تقطعْ هذه الفضيلةَ التي هي القيامُ بأمر الدِّين عن عَقِبي. كما تقدَّم في «مريم» بيانُه[٤].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: أجبنا دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ تقدَّم ذكره مستوفى[٥]. ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين: إنها

---

(١) لم نقف على هذه القراءة عند غير المصنف.

(٢) ٥/ ١٠٧ . ٥/ ١١٥ وما بعدها.

(٣) ١٣/ ٥٠٩ .

(٤) ١٣/ ٤١٥ .

(٥) ٥/ ١١٥ وما بعدها.

كانت عاقراً فجُعلت وَلوداً[١]. وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئةَ الخُلُق، طويلةَ اللسان، فأصلحها الله فجعلها حسنةَ الخُلُق[٢].

قلت: ويحتمل أن تكون جمعت المعنيينِ، فجُعِلَتْ حسنةَ الخُلُق ولوداً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني الأنبياء المسمَّيْنَ في هذه السورة ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾. وقيل: الكناية راجعةٌ إلى زكريَّا وامرأتِه ويحيى.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحالِ الشدة. وقيل: المعنى: يدعون وقتَ تعبُّدهم وهم بحالِ رغبةٍ ورجاءٍ، ورهبةٍ وخوف؛ لأنَّ الرَّغبة والرَّهبة متلازمان.

وقيل: الرَّغَب: رَفْعُ بطون الأكُفِّ إلى السماء، والرَّهَبُ: رَفْعُ ظهورها؛ قاله خُصَيْف. قال ابن عطية[٣]: وتلخيصُ هذا أنَّ عادة كلِّ داعٍ من البشر أن يستعين بيديه، فالرَّغَبُ من حيث هو طلبٌ يَحْسُنُ منه أن يوجِّه باطنَ الراحِ نحو المطلوب منه؛ إذ هي موضع إعطاء، أو بها يتملَّك[٤]، والرَّهَبُ من حيث هو دَفْعُ مَضَرَّةٍ يَحْسُنُ معه طَرْحُ ذلك، والإشارةُ إلى ذهابه وتَوَقِّيه بنفض اليد ونحوه.

الثانية: روى الترمذيُّ[٥] عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يَحُطَّهما حتى يمسح بهما وجهه. وقد مضى في «الأعراف»[٦]

---

(١) أخرج قول قتادة وسعيد بن جبير الطبري ١٦/ ٣٨٨ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٨ عن عطاء وابن كامل، وذكره ابن الجوزي ٥/ ٣٨٤ عن عطاء والسدي ومحمد بن كعب. ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٩٨ ، وما قبله منه.

(٤) في (ظ): إذ بها يتملك، وفي المحرر الوجيز: الإعطاء وبها يتملك.

(٥) في سننه (٣٣٨٦)، وسلف ٩/ ٢٤٦ .

(٦) ٩/ ٢٤٥ - ٢٤٧ .

الاختلافُ في رفع الأيدي، وذكرنا هذا الحديثَ وغيرَه هناك.

وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته، وإلى أين؟ فكان بعضُهم يختار أن يبسط كفَّيه رافعهما حَذْوَ صدرِه وبطونُهما إلى وجهه؛ روي عن ابن عمر وابن عباس. وكان عليٌّ يدعو بباطن كفَّيه، وعن أنسٍ مثلُه، وهو ظاهرُ حديث الترمذيِّ، وقولِه ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أَكُفِّكُم، ولا تسألوه بظهورها، وامسحوا بها وجوهكم»[١].

وروي عن ابن عمر وابن الزبير: برفعهما[٢] إلى وجهه، واحتجُّوا بحديث أبي سعيد الخدري؛ قال: وقف رسول الله ﷺ بعرفةَ فجعل يدعو، وجعل ظَهْرَ كفَّيْه ممَّا يلي وجهه، ورَفَعهما فوق ثدييه وأسفلَ من منكبيه[٣].

وقيل: يحاذي بهما وجهَه، وظهورُهما ممَّا يلي وجهه.

قال أبو جعفر الطبريُّ: والصوابُ أن يقال: إنَّ كلَّ هذه الآثارِ المرويَّةِ عن النبيِّ ﷺ متفقةٌ غيرُ مختلفة المعاني، وجائزٌ أن يكون ذلك من[٤] النبيِّ ﷺ لاختلافِ أحوالِ الدعاء، كما قال ابن عباس: إذا أشار أحدُكم بإصبعٍ واحدٍ فهو الإخلاص، وإذا رفع يديه حَذْوَ صدره فهو الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرُهما ممَّا يلي وجهه فهو الابتهال[٥]. قال الطبري: وقد روى قتادة عن أنس قال: رأيت النبيَّ ﷺ

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٥) من طريق محمد بن كعب، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. قال أبو داود: روي هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب كلها واهية، وهذا الطريق أمثلها، وهو ضعيف أيضاً.

(٢) في (ز): يرفعهما.

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٩٣) و(١١٨٠٦)، وفيه: ثُنْدُوَتيه، بدل: ثدييه، قال السندي كما في حاشية الحديث (١١٠٩٣) من المسند: الثندوة للرجل كالثدي للمرأة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦٨ : فيه بشر بن حرب وهو ضعيف.

(٤) في (م): عن.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٣٢٤٧)، وأبو داود (١٤٨٩) و(١٤٩٠) و(١٤٩١).

يدعو بظهر كفَّيْهِ وباطِنِهما(١).

و«رَغَباً وَرَهَباً» منصوبان على المصدر، أي: يرغبون رَغَباً ويرهبون رَهَباً. أو على المفعول من أجله، أي: للرَّغَبِ والرَّهَب. أو على الحال.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «وَيَدْعُونَا» بنون واحدة(٢).

وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء(٣)، مثل: السُّقْم والبُخْل، والعُدْم والضُّر لغتان.

وابن وثاب والأعمش أيضاً: «رَغْباً وَرَهْباً» بالفتح في الراء والتخفيفِ في الغين والهاء، وهما لغتان مثل: نَهَر ونَهْر وصَخَر وصَخْر. ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو(٤). ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: متواضعين خاضعين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: واذكر مريمَ التي أحصنت فرجها. وإنَّما ذَكَرها ـ وليست من الأنبياء ـ لتتميم(٥) ذِكْرِ عيسى عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل آيتين؛ لأنَّ معنى الكلام: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتَهما آيةً للعالمين.

وقال الزجَّاج(٦): إنَّ الآية فيهما واحدة؛ لأنها ولدته من غير فحل. وعلى مذهب

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٧)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٩٠ . قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٢/ ١٤٤ : في إسناده عمر بن نبهان، ولا يحتج بحديثه.

(٢) ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٨٥ عن ابن مسعود وابن محيصن، وذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٦ دون نسبة، وذكر عن طلحة أنه قرأ بنون مشددة؛ أدغم نون الرفع في «نا» ضمير النصب.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٣٩٠ .

(٤) القراءات الشاذة ص٩٢ ، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٥) في (د): ليتمم، وفي (م): ليتم.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٨ .

سيبويه التقديرُ: وجعلناها آيةً للعالمين وجعلنا ابنها آيةً للعالمين، ثم حذف. وعلى مذهب محمد بن يزيد: وجعلناها آية للعالمين وابنَها، مثل قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢][١].

وقيل: إنَّ من آياتها أنها أولُ امرأة قُبلت في النذر في التعبُّد[٢]. ومنها: أنَّ الله عزَّ وجلَّ غذَاها برزقٍ مِن عندِه لم يُجْرِه على يد عبدٍ من عبيده. وقيل: إنها لم تَلْقَم ثدياً قط[٣].

«وَأَحْصَنَتْ» معناه: عَفَّتْ فامتنعت من الفاحشة. وقيل: إنَّ المراد بالفرج فرجُ القميص، أي: لم تعلَّق بثوبها ريبةٌ، أي: إنَّها طاهرةُ الأثواب. وفُروجُ القميص أربعةٌ: الكمَّان والأعلى والأسفل. قال السُّهَيليُّ[٤]: فلا يذهبنَّ وهمُك إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية؛ لأنَّ القرآن أنْزه معنًى، وأوْزَنُ[٥] لفظاً، وألطفُ إشارةً، وأحسنُ عبارةً من أن يريد ما يذهب إليه وهمُ الجاهل، لا سيَّما والنفخُ من روح القُدُس بأمر القدُّوس، فأضف القُدُسَ إلى القدُّوس، ونزِّه المقدَّسَةَ المطهَّرة عن الظنِّ الكاذب والحدس.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يعني أَمَرْنا جبريل حتى نفخ في دِرْعها، فأَحْدَثْنا بذلك النفخِ المسيحَ في بطنها. وقد مضى هذا في «النساء»[٦] و«مريم»[٧] فلا معنى

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٨، ووقع في النسخ: الفراء، بدل: محمد بن يزيد، والمثبت من إعراب القرآن، وقد سلف هذا المذهب عن محمد بن يزيد، وكذلك مذهب سيبويه ١٠/ ٢٨٤ - ٢٨٥. أما قول الفراء الذي في معاني القرآن له ٢/ ٢١٠ فهو: ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد، ولو قيل آيتين لكان صواباً؛ لأنها ولدت وهي بكر، وتكلم عيسى في المهد.

(٢) في (خ) و(د) و(م): المتعبد.

(٣) ذكر هذا القول الرازي في التفسير ٢٢/ ٢١٨ عن الحسن، وفيه: تلتقم، بدل: تلقم.

(٤) في التعريف والإعلام ص١١٥، وما قبله منه.

(٥) في (خ) و(ظ): وأرزن.

(٦) ٧/ ٢٣٢.

(٧) ١٣/ ٤٢٩.

للإعادة. ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً وأعجوبةً للخَلْق، وعَلَماً لنبوَّة عيسى، ودلالةً على نفوذ قدرتِنا فيما نشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لمَّا ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلُّهم مجتمعون على التوحيد، فالأمةُ هنا بمعنى الدِّين الذي هو الإسلام؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما[1]. فأمَّا المشركون فقد خالفوا الكلّ. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أي: إلهكم وحدي ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾[2] أي: أَفْرِدوني بالعبادة.

وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إنَّ هذه أمَّتُكم أُمَّةٌ واحدةٌ»، ورواها حسين عن أبي عمرو[3].

الباقون: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على القطع؛ لمجيء[4] النكرة بعد تمام الكلام؛ قاله الفراء[5]. الزجَّاج: انتصب «أُمَّةً» على الحال، أي: في حال اجتماعها على الحقّ، أي: هذه أمتكم ما دامت أمةً واحدةً واجتمعتم على التوحيد، فإذا تفرَّقتم وخالفتم فليس مَن خالَفَ الحقَّ من جملة أهل الدِّين الحقّ[6]، وهو كما تقول: فلانٌ صديقي عفيفاً، أي: ما دام عفيفاً، فإذا خالف العفَّة لم يكن صديقي.

وأمَّا الرفعُ فيجوز أن يكون على البدل من «أمتكم». أو على إضمارِ مبتدأ، أي: إنَّ هذه أمتكُم، هذه أمةٌ واحدة. أو يكون خبراً بعد خبر[7]. ولو نصبت «أمتكم» على

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد الطبري ١٦/ ٣٩٢.

(٢) في (م): فاعبدوني، وهي قراءة يعقوب بالياء وصلاً ووقفاً.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، وحسين هو الجعفي، كما في البحر ٦/ ٣٣٧، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٤) في (م): بمجيء.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢١٠. ويعني بالقطع أنه قُطع عن نعت ما قبله وصار حالاً.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، دون قوله: أي: إن هذه أمتكم هذه أمة واحدة.

البدل من «هذه» لجاز، وتكون «أُمَّةً وَاحِدَةً» خبر «إن»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: تفرَّقوا في الدِّين؛ قاله الكلبيّ. الأخفش: اختلفوا فيه[(٢)]. والمرادُ المشركون، ذمَّهم لمخالفة الحقِّ، واتِّخاذهم آلهةً من دون الله.

قال الأزهريُّ: أي: تفرَّقوا في أمرهم، فنصب «أَمْرَهُمْ» بحذف «في». فالمتقطِّع[(٣)] على هذا لازمٌ، وعلى الأوّل متعَدّ[(٤)]. والمرادُ جميعُ الخلق، أي: جعلوا أمرهم في أديانهم قِطَعاً وتقسَّموه بينهم، فمِن موحِّدٍ، ومن يهوديٍّ، ومن نصرانيٍّ، ومن عابدِ ملكٍ أو صنم. ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: إلى حكمنا فنجازيهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ «مِن» للتَّبعيض لا للجنس؛ إذ لا قدرةَ للمكلَّف أن يأتيَ بجميع الطاعات فَرْضِها ونَفْلِها، فالمعنى: مَن يعمل شيئاً من الطاعات فرضاً أو نفلاً وهو موحِّدٌ مسلم. قال ابن عباس: مصدِّقاً[(٥)] بمحمدٍ ﷺ[(٦)].

﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ أي: لا جحودَ لعمله، أي: لا يضيع جزاؤه ولا يغطَّى. والكفر ضدُّ[(٧)] الإيمان. والكفرُ أيضاً: جحودُ النعمة، وهو ضدُّ الشكر. وقد كَفَره

---

(١) المحتسب ٢/ ٦٥.

(٢) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٠.

(٣) في (ظ): فالتقطع.

(٤) عبارة الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٨٨: هو كقولك: قطعوا أمرهم. قال أبو البقاء في الإملاء ٤/ ١٤: تقطَّعوا أمرهم، أي: تقطَّعوا في أمرهم، أي: تفرَّقوا، وقيل: عدِّي تقطَّعوا بنفسه؛ لأنه بمعنى: قطَّعوا، أي: فرقوا.

(٥) في (ظ): مصدق.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥١ دون نسبة.

(٧) في (م): ضده.

كفوراً وكُفْراناً. وفي حرف ابن مسعود: «فلا كُفْرَ لِسَعْيه»[(١)].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ لعمله حافظون، نظيره: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أي: كلُّ ذلك محفوظٌ لنجازيَ به.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قراءةُ زيد بن ثابت وأهل المدينة: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ وهي اختيارُ أبي عبيدٍ وأبي حاتم. وأهل الكوفة ﴿وَحِرْمٌ﴾[(٢)] ورويت عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس ﷺ. وهما لغتان مثلُ: حِلّ وحَلَال.

وقد روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير[(٣)]: «وحَرِمَ» بفتح الحاء والميم وكسر الراء. وعن ابن عباس أيضاً وعكرمةَ وأبي العالية: «وحَرُمَ» بضم الراء وفتح الحاء والميم. وعن ابن عباس أيضاً: «وحَرَمَ»، وعنه أيضاً: «وحَرَّمَ»، و«حُرِّمَ». وعن عكرمةَ أيضاً: «وحَرِمٌ». وعن قتادةَ ومطر الوراق: «وحَرْمٌ»؛ تسعُ قراءات. وقرأ السُّلَميُّ: «على قريةٍ أهلكتُها»[(٤)].

واختلف في «لا» في قوله: «لَا يَرْجِعُونَ»، فقيل: هي صلة؛ رويَ ذلك عن ابن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩.

(٢) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «وحِرْم» بكسر الحاء وإسكان الراء، والباقون: «وحرام» بفتحهما وألف بعد الراء. السبعة ص٤٣١، والتيسير ص١٥٥. وذكر قراءة زيد ﷺ النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٩.

(٣) كذا في النسخ، والذي في المحتسب ٢/ ٦٥، والبحر ٦/ ٣٣٨: وسعيد بن المسيب.

(٤) ذكرت هذه القراءات في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، والقراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٩، والبحر ٦/ ٣٣٨.

عباس، واختاره أبو عبيد، أي: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك. وقيل: ليست بصلة، وإنَّما هي ثابتةٌ، ويكون الحرام بمعنى الواجب، أي: وَجَب على قرية[1]، كما قالت الخنساء:

وإنَّ حَـرَامـاً لَا أَرَى الـدَّهْـرَ بَـاكِـيـاً على شَجْوِهِ إلَّا بكيتُ على صَخْرِ[2]

تريد أخاها. فـ «لا» ثابتةٌ على هذا القول.

قال النحاس[3]: والآيةُ مُشْكِلةٌ، ومن أحسن ما قيل فيها وأَجَلِّه ما رواه ابن عيينةَ وابن عُلَيَّةَ وهُشيم وابن إدريس ومحمد بن فُضيل وسليمان بن حيَّان ومعلّى، عن داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ قال: وَجَب أنهم لا يرجعون، قال: لا يتوبون. قال أبو جعفر[4]: واشتقاقُ هذا بيِّنٌ في اللغة، وشَرْحُه: أنَّ معنى حُرِّم الشيء: حُظِر ومُنع منه، كما أنَّ معنى أُحِلَّ: أُبيح ولم يمنع منه، فإذا كان «حَرامٌ» و«حِرْمٌ» بمعنى واجب، فمعناه أنه قد ضيّق الخروج منه ومنع، فقد دخل في باب المحظور بهذا. فأمَّا قولُ أبي عبيد: إنَّ «لا» زائدة، فقد ردَّه عليه جماعة؛ لأنها لا تُزاد في مثل هذا الموضع، ولا فيما يقع فيه إشكال، ولو كانت زائدةً لكان التأويل بعيداً أيضاً؛ لأنه إن أراد: وحرامٌ على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا، فهذا ما لا فائدةَ فيه، وإن أراد التوبة فالتوبةُ لا تُحرَّم.

وقيل: في الكلام إضمارٌ، أي: وحرامٌ على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالخَتْم

---

(١) ذكر هذين القولين دون نسبة الطبري ١٦/ ٣٩٧ ، وذكر قول أبي عبيد النحاسُ في إعراب القرآن ٣/ ٨٠ ، وسيأتي، ولم نقف عليه عن ابن عباس، والذي يذكر عنه القول بأن «لا» ثابتة وليست بصلة كما سيرد، وكما ذكر صاحب اللسان (حرم).

(٢) ذكره عن الخنساء أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٩ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ١٩٩ . ونسبه صاحب اللسان (حرم) لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي برواية: على عمرو، بدل: على صخر، وقد سلف بهذه الرواية ٧/ ١٧٦ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٧٩ .

(٤) هو النحاس.

على قلوبها، أن يُتقبَّل منهم عملٌ لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون؛ قاله الزَّجَّاج وأبو علي: و«لا» غير زائدة(١). وهذا هو معنى قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ تقدَّم القول فيهم(٢). وفي الكلام حذف، أي: حتى إذا فُتح سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قال ابن عباس: من كلِّ شَرَفٍ يُقْبِلون(٣)، أي: لكثرتهم يَنْسِلون من كلِّ ناحية. والحَدَب: ما ارتفع من الأرض، والجمع: الحِداب(٤)؛ مأخوذ من حدبة الظَّهْر؛ قال عَنْتَرة:

فما رعِشت يداي ولا ازدهاني تَواتُرهم إليَّ من الحِدَاب(٥)

وقيل: «يَنْسِلُونَ»: يخرجون، ومنه قولُ امرئ القيس:

فَسُلِّي ثيابي من ثِيابِك تَنْسِلِ(٦)

وقيل: يسرعون، ومنه قول النَّابغة:

عَسَلَانَ الذئبِ أمْسَى قَارِباً بَردَ الليلُ عليهِ فَنَسَلْ(٧)

يقال: عَسَلَ الذئبُ يَعسِلُ عَسَلاً وعَسَلاناً: إذا أَعْنقَ وأسرع. وفي الحديث:

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٥، والحجة للفارسي ٥/ ٢٦١.

(٢) ١٣/ ٣٧٨ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠، وأخرج قول ابن عباس الطبري ١٦/ ٤٠٧.

(٤) الصحاح (حدب).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٧١، ولم نقف عليه في ديوان عنترة.

(٦) وصدره: وإن كنت قد ساءتك مني خليقة، وهو من معلقته، وهو في ديوانه ص١٣، والنكت والعيون ٣/ ٤٧١، والكلام منه. وسلف ٣/ ٣٨٦..

(٧) الصحاح (عسل) ومجاز القرآن ٢/ ٤٢، وهو في ديوان النابغة الجعدي ص٩٠، ونسب للبيد كما في الكامل للمبرد ١/ ٤٧٤، والجمهرة ١/ ٢٥٢. وذكره القالي في أماليه ١/ ١٥٥ وقال: العَسَلانُ: عدوٌ فيه اضطراب، والنَّسَلان قريب منه. اهـ. والقارب: طالب الماء ليلاً. اللسان (قرب).

«كَذبَ عليكَ العَسَلَ» أي: عليك بسرعة المشي[١]. وقال الزجَّاج: والنَّسَلان مِشيةُ الذئب إذا أسرع[٢]؛ يقال: نَسَلَ فلانٌ في العَدْوِ يَنْسِل ـ بالكسر والضم ـ نَسْلاً ونُسولاً ونَسَلاناً، أي: أسرع.

ثم قيل في الذين يَنْسِلُون من كلِّ حَدَب: إنهم يأجوج ومأجوج، وهو الأظهر، وهو قولُ ابن مسعود وابن عباس[٣].

وقيل: جميع الخَلْق، فإنهم يُحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلِّ صَوْب[٤].

وقرئ في الشواذ: «وهم من كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُون»[٥] أخذاً من قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. وحَكَى هذه القراءة المَهْدويُّ عن ابن مسعود، والثعلبيُّ عن مجاهدٍ وأبي الصهباء.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القيامة. قال الفرَّاء[٦] والكسائيُّ وغيرهما: الواو زائدةٌ مُقْحَمة؛ والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعدُ الحقُّ، فـ«اقترب» جوابُ «إذا». وأنشد الفرَّاء:

---

(١) الصحاح (عسل)، والحديث ذكره أيضاً الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٣٧٠، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ١٦٦، والزمخشري في الفائق ٣/ ٢٥٠، وابن الأثير في النهاية (كذب): أن عمرو بن معديكرب شكا إلى عمر ﷺ المعَص فقال: «كذب عليك العَسَل». قال ابن الأثير: والمَعَص بالعين المهملة: اِلْتواءٌ في عصب الرجل.

(٢) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٤٢٨ عن الليث، ولم نقف عليه عن الزجاج.

(٣) أخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٦/ ٤٠٥ - ٤٠٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٢، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) أخرج هذا القول الطبري ١١/ ٤٠٥ عن مجاهد.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣ عن ابن عباس والكلبي والضحاك، والمحتسب ٢/ ٦٦ عن ابن مسعود، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٨ عن مجاهد.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢١١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٠.

فلمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَى[(١)]

أي: انتحى، والواوُ زائدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: للجبين ناديناه.

وأجاز الكسائيُّ أن يكون جواب «إذا»: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ويكون قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ معطوفاً على الفعل الذي هو شرط. وقال البَصْريُّون: الجواب محذوف، والتقدير: قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ وهو قولُ الزجَّاج[(٢)]، وهو قولٌ حسن. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. المعنى: قالوا: «ما نعبدهم»، وحَذْفُ القول كثير[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ «هي» ضميرُ الأبصار، والأبصار المذكورة بعدها تفسيرٌ لها، كأنه قال: فإذا أبصارُ الذين كفروا شَخَصَتْ عند مجيء الوعد؛ وقال الشاعر:

لَعَمْرُ أبيها لا تقول ظَعينتي ... ألَا فرَّ عنِّي مالكُ بن أبي كعبِ[(٤)]

فكنَى عن الظعينة في «أبيها» ثم أَظْهَرها.

وقال الفرَّاء: «هي» عماد، مثل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[(٥)].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠ ، والبيت لامرئ القيس وهو من معلقته، وهو في ديوانه ص١٥ ، وعجزه: بنا بطنُ حِقْفٍ ذي ركام عَقَنْقَلِ، وسلف ٢/ ٨٥ . قال شارح الديوان: أجزنا: قطعنا، والساحة: الفناء. والحِقف من الرمل: المعوجّ. ومعنى ركام: بعضه على بعض. والعقنقل: المنعقِد المتداخِل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٥ ، والمعنى: حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق قالوا يا ويلنا.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠ - ٨١ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٠ ، والبيت في معجم الشعراء للمرزباني ص٢٥٦ ، ونقد الشعر لأبي الفرج بن قدامة ص٢٢١ ، والأغاني ١٦/ ٢٣٨ برواية: حليلتي، بدل: ظعينتي. ومالك بن أبي كعب الخزرجي جاهلي، وهو والد كعب بن مالك الصحابي، ولمالك في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهم قبل الإسلام آثار وذكر. الأغاني ١٦/ ٢٢٦ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٠ ، وقوله: عماد، أي: ضمير فصل.

وقيل: إنَّ الكلام تمَّ عند قوله: «هي»، التقدير: فإذا هي ـ يعني القيامة ـ بارزةٌ واقعة، أي: مِن قُربها كأنها آتيةٌ حاضرة، ثم ابتدأ فقال: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على تقديم الخبر على الابتداء، أي: أبصار الذين كفروا شاخصةٌ من هذا اليوم(١)، أي: من هَوْله لا تكاد تَطْرُف، يقولون: يا ويلنا إنَّا كنَّا ظالمين بمعصيتنا، ووَضْعِنا العبادةَ في غير مَوْضِعها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ قال ابن عباس: آيةٌ لا يسألني الناس عنها، لا أدري؛ أعَرَفوها فلم يسألوا عنها، أم جهلوها فلا يسألون عنها؟! قيل: وما هي؟ قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ لمَّا أُنزلت شقَّ على كفار قريش، وقالوا: شَتَم آلهتنا، وأتوا ابن الزِّبَعْرَى وأخبروه، فقال: لو حضرتُه لرددْتُ عليه. قالوا: وما كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقول له: هذا المسيحُ تعبده النصارى، واليهودُ تعبد عُزيراً، أفهُما من حصب جهنَّم؟! فعَجِبتْ قريش من مقالته، ورأوا أنَّ محمداً قد خُصم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١](٢) وفيه نزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ يعني ابن الزِّبَعْرَى ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف:٥٧] بكسر الصاد، أي: يضجُّون، وسيأتي.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٦٩ ، وذكر هذا القول الآلوسي في روح المعاني ١٧/ ٩٣ عن الثعلبي وقال: وهو وجه متكلَّف متنافر التركيب.

(٢) أخرجه مطولاً الواحدي في أسباب النزول ص٣١٥ ، وبنحوه الطبراني في الكبير (١٢٧٣٩)، ومختصراً الطبري ١٦/ ٤١٨ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٩١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وليس فيه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾.

الثانية: هذه الآية أصلٌ في القول بالعموم، وأنَّ له صِيَغاً مخصوصة، خلافاً لمن قال: ليست له صيغةٌ موضوعةٌ للدلالة عليه. وهو باطلٌ بما دلَّت عليه هذه الآيةُ وغيرها، فهذا عبد الله بن الزّبعرى قد فَهِم من «ما» في جاهليته جميعَ مَن عُبِد، ووافَقَه على ذلك قريش وهم العربُ الفصحاء، واللُّسْنُ البلغاء، ولو لم تكن للعموم لَمَا صحَّ أن يُستثنى منها، وقد وُجد ذلك، فهي للعموم[1]، وهذا واضح.

الثالثة: قراءةُ العامة بالصاد المهملة، أي: إنكم يا معشر الكفار والأوثانَ التي تعبدونها من دون الله وقودُ جهنم؛ قاله ابن عباس[2].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حَطَبها[3]. وقرأ علي بن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما: «حَطَبُ جَهَنَّمَ» بالطاء[4].

وقرأ ابن عباس: «حَضَبُ» بالضَّاد المعجَمة[5]؛ قال الفراء[6]: يريد الحَصَب. قال: وذُكر لنا أنَّ الحَضَب[7] في لغة أهل اليمن الحطب، وكلُّ ما هيَّجْتَ به النارَ وأوقدْتَها به فهو حَضَب؛ ذكره الجوهري[8]. والموقد مِحْضَب[9].

---

(١) ينظر إحكام الفصول للباجي ص٢٣٤ ، والمستصفى للغزالي ٢/ ١١٧ ، والمحصول للرازي ٣/ ١٩٩ - ٢٠٢ ، والإحكام للآمدي ١/ ٤١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤١١ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٢ .

(٣) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٤١١ - ٤١٢ ، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٠ ، وعلقه البخاري عن عكرمة إثر الحديث (٤٧٣٩) بلفظ: ﴿حَصَبُ﴾: حطب بالحبشية.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٣ ، والمحتسب ٢/ ٦٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣ ، والمحتسب ٢/ ٦٦ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢١٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (حضب).

(٧) في (د) و(ز) و(م) والصحاح: الحضب، والمثبت من باقي النسخ ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٣ .

(٨) في الصحاح (حضب).

(٩) في (خ) و(د) و(ز): حضب، وفي (ظ): حصب، والمثبت من (م)، وفي اللسان (حضب): المحضب: المسعر، وهو عود تحرك به النار عند الإيقاد، وحكى ابن دريد عن أبي حاتم أنه قال: يسمى المِقْلَى: المِحْضَب.

وقال أبو عبيدة[١] في قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: كلُّ ما ألقيته في النار فقد حَصَبْتَها به.

ويظهر من هذه الآية أنَّ الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطبٌ لجهنم، ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. وقيل: إنَّ المراد بالحجارة حجارةُ الكبريت، على ما تقدَّم في «البقرة»[٢]، وإنَّ النار لا تكون على الأصنام عذاباً ولا عقوبة؛ لأنها لم تُذْنِبْ، ولكن تكون عذاباً على مَن عبدها: أول شيء بالحسرة[٣]، ثم تجمع على النار فتكون نارها أشدَّ من كلِّ نار، ثم يعذَّبُون بها. وقيل: تُحمى فتلصَقُ بهم زيادةً في تعذيبهم. وقيل: إنما جُعلت في النار تبكيتاً لعبادتهم[٤].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: فيها داخلون. والخطابُ للمشركين عبدةِ الأصنام، أي: أنتم واردوها مع الأصنام. ويجوز أن يقال: الخطابُ للأصنام وعَبَدَتِها؛ لأن الأصنام وإن كانت جماداتٍ فقد يخبَر عنها بكنايات الآدميِّين. وقال العلماء: ولا يدخل في هذا عيسى ولا عزيرٌ ولا الملائكةُ صلواتُ الله عليهم؛ لأن «ما» لغير الآدميين[٥]، فلو أراد ذلك لقال: «ومَن». قال الزجَّاج: ولأنَّ المخاطَبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: لو كانت الأصنامُ آلهةً

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٤٢.

(٢) ١/ ٣٥٤.

(٣) في (ظ): لما فيها من الحسرة، بدل: أول شيء بالحسرة.

(٤) في (ظ): لعابديها. والتبكيت: التقريع والتوبيخ. اللسان (بكت).

(٥) تفسيرُ الطبري ١٦/ ٤٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨١.

لَمَا ورد عابِدُوها النار. وقيل: «ما وردوها» أي: العابدون والمعبودون؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهؤلاء الذين وَرَدوا النار من الكفار والشياطين، فأمَّا الأصنام فعلى الخلاف فيها؛ هل يحييها الله تعالى ويعذِّبها حتى يكون لها[1] زفير، أو لا؟ قولان. والزَّفير: صوتُ نَفَس المغموم يخرج من القلب. وقد تقدَّم في «هود»[2].

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: في الكلام حذف، والمعنى: وهم فيها لا يسمعون شيئاً؛ لأنَّهم يُحشرون صُمًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧]. وفي سماع الأشياء رَوْحٌ وأُنْس، فمنَعَ الله الكفارَ ذلك في النار.

وقيل: لا يسمعون ما يسرُّهم، بل يسمعون صوت مَن يتولَّى تعذيبهم من الزَّبانية.

وقيل: إذا قيل لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] يصيرون حينئذٍ صُمًّا بُكْماً، كما قال ابن مسعود: إذا بقي مَن يخلد في النار في جهنم، جُعلوا في توابيتَ من نار، ثم جُعلت التوابيت في توابيتَ أخرى فيها مساميرُ من نار، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحدٌ منهم أنَّ في النار مَن يُعذَّب غيره[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا﴾

---

(١) في النسخ الخطية: لهم.

(٢) ١١/ ٢١١.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤١٥، والبيهقي في البعث والنشور (٦٥٦) من طريق يونس بن خباب عن ابن مسعود، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٠٨٧) من طريق يونس بن خباب، عمن حدثه، عن ابن مسعود.

أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «إنَّ» هاهنا بمعنى «إلا»[1]، وليس في القرآن غيره.

وقال محمد بن حاطب: سمعت علي بنَ أبي طالب ﷺ يقرأ هذه الآيةَ على المنبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ فقال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ عثمانَ منهم»[2].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ أي: حِسَّ النار وحركةَ لهبها. والحَسِيسُ والحِسُّ: الحركة. وروى ابنُ جُريج عن عطاء قال: قال أبو راشد الحَرُوريُّ لابن عباس: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ فقال ابن عباس: أمجنونٌ أنت؟ فأين قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] وقوله تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود: ٩٨] وقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم: ٨٦]. ولقد كان من دعاء مَن مضى: اللهمَّ أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنةَ فائزاً[3].

وقال أبو عثمان النَّهْديُّ: على الصِّراط حيَّاتٌ تلسعُ أهل النار فيقولون: حسّ حسّ[4].

وقيل: إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ لم يسمعوا حسَّ النار[5]، وقبل ذلك يسمعون، فالله أعلم.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٠، ويعني أنه استثناءٌ من قوله: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وذكر الطبري ١٦/ ٤١٩ أن هذا الاستثناء لا معنى له؛ لأن الاستثناء إنما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه، ولا شك أن الذين سبقت لهم من الله الحسنى إنما هم ملائكة، وإما إنس، أو جان، وكل هؤلاء إذا ذكرتها العرب فإن أكثر ما تذكرها بـ «مَنْ»، لا بـ «ما».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٥١ - ٥٢، وأحمد في فضائل الصحابة (٧٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢١٦)، والطبري ١٦/ ٤١٥، كلُّهم روَوْه موقوفاً، ولم نقف عليه مرفوعاً.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩١، وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧١) من سورة مريم، وأبو راشد الحروري هو نافع بن الأزرق.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٢.

(٥) في (م): أهل النار.

﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي: دائمون، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعين؛ وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن: ﴿لَا يُحْزِنُهُم﴾ بضمِّ الياء وكَسْرِ الزاي[1]. الباقون بفتح الياء وضمِّ الزاي. قال اليزيديُّ: حَزَنه لغةُ قريش، وأحزنه لغةُ تميم، وقد قُرئ بهما.

والفزعُ الأكبر: أهوالُ يوم القيامة والبعث؛ عن ابن عباس[2].

وقال الحسن: هو وقتُ يؤمر بالعباد إلى النار[3].

وقال ابنُ جُريج وسعيد بن جبير والضحَّاك: هو إذا أطبقت النار على أهلها، وذُبح الموت بين الجنة والنار[4].

وقال ذو النُّون المِصْريُّ: هو القطيعةُ والفراق[5].

وعن النبيِّ ﷺ: «ثلاثةٌ يومَ القيامة في كَثيبٍ من المِسْك الأذْفَر، لا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبر: رجلٌ أمَّ قوماً محتسباً وهم له راضون، ورجلٌ أذَّن لقومٍ محتسباً، ورجلٌ ابتُليَ برِقٍّ في الدنيا فلم يَشْغَلْه عن طاعة ربِّه»[6].

وقال أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن: مررت برجلٍ يضرب غلاماً له، فأشار إليَّ

(١) النشر ٢/ ٢٤٤ عن أبي جعفر، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ عن ابن محيصن.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٢ بلفظ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ يعني النفخة الآخرة.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢١ - ٤٢٢ عن سعيد بن جبير وابن جريج.

(٥) ذكره أبو الليث في التفسير ٢/ ٣٨٠.

(٦) أخرجه بنحوه أحمد (٤٧٩٩)، والترمذي (١٩٨٦) و(٢٥٦٦)، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٤)، وفي الأوسط (١١١٦). قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الغلام، فكلَّمتُ مولاه حتى عفا عنه، فلقيت أبا سعيد الخدريَّ فأخبرته، فقال: يا ابن أخي، مَن أغاث[١] مكروباً أعتقه الله من النار يومَ الفزع الأكبر» سمعت ذلك من رسول الله ﷺ[٢].

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تستقبلُهم الملائكة على أبواب الجنة؛ يهنِّئونهم ويقولون لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقيل: تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور؛ عن ابن عباس[٣].

﴿هَذَا يَوْمُكُمُ﴾ أي: ويقولون لهم، فحذف. ﴿الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الكرامة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بنُ نِصَاح والأعرج والزُّهريُّ: «تُطْوَى» بتاء مضمومة، «السَّمَاءُ» رفعاً على ما لم يسمَّ فاعله[٤]. مجاهد: «يَطْوِي»[٥]، على معنى: يطوي الله السماء. الباقون: ﴿نَطْوِي﴾ بنون العظمة.

وانتصابُ «يوم» على البدل من الهاء المحذوفة في الصلة، التقدير: الذي كنتم توعدونه يومَ نطوي السماء. أو يكون منصوباً بـ «نعيد» من قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾. أو بقوله: «لا يحزنهم» أي: لا يحزنهم الفزع الأكبر في اليوم الذي

---

(١) في (خ) ود): أعان.

(٢) لم نقف عليه. وقد ورد هذا المعنى في الصحيح ضمن حديث لأبي هريرة فيما أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عنه، وفيه: «من نفَّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا؛ نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة».

(٣) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٨٠ عن مقاتل، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) النشر ٢/ ٣٢٤ عن أبي جعفر.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٤٣ عن شيبة بن نِصاح، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٢ دون نسبة.

نطوي فيه السماء. أو على إضمارِ: واذكر، وأراد بالسماء الجنس، دليله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: كَطيِّ الصحيفة على ما فيها[(١)]. فاللام بمعنى «على».

وعن ابن عباس أيضاً: هو اسم كاتبِ رسول الله ﷺ[(٢)]. وليس بالقويِّ؛ لأن كُتَّاب رسول الله ﷺ معروفون وليس هذا منهم، ولا في أصحابه مَن اسمُه السِّجِلّ[(٣)].

وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسُّدِّيّ: «السِّجلّ» ملَك[(٤)]، وهو الذي يطوي كتبَ بني آدم إذا رُفعت إليه.

ويقال: إنه في السماء الثالثة، تُرفع إليه أعمال العباد، يرفعها إليه الحفظةُ الموكَّلون بالخَلْق في كلِّ خميس واثنين، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروتُ وماروت[(٥)].

والسِّجِلُّ: الصَّكُّ، وهو اسمٌ مشتقٌّ من المساجلة[(٦)]، وهي المكاتبة[(٧)]، وأصلُها من السَّجْل: وهو الدَّلْو؛ تقول: ساجَلْتُ الرجلَ: إذا نزعتَ دلواً ونزع دلواً، ثم

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٥)، والطبري ١٦/ ٤٢٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٢٥ ، والتعريف والإعلام ص١١٥ ، وردَّه أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: لا يصح، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان في سنن أبي داود وغيره ـ منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث وردَّه أتم ردّ... وأمَّا مَن ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٣ عن ابن عمر والسدي، وذكره الرازي ٢٢/ ٢٢٨ عن ابن عباس.

(٥) التعريف والإعلام ص١١٥ .

(٦) في النسخ عدا (ز): السجالة، والمثبت من (ز) وهو الصواب. وينظر مجمل اللغة ٢/ ٤٨٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٧١ ، والمفهم ٧/ ٣٩٣ .

(٧) في (ظ) و(م): الكتابة.

استُعيرت، فسميت المكاتبةُ والمراجعة مساجلةً. وقد سَجَّل الحاكمُ تسجيلاً. وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَـن يُسَـاجِـلْـنـي يُـسـاجِـلْ مـاجـداً يَـمـلأ الـدَّلـوَ إلـى عَـقْـدِ الـكَـرَبْ[(١)]

ثم بني هذا الاسم على فِعِلّ، مثل: حِمِرّ وطِمِرّ وبِلِيّ.

وقرأ أبو زرعةَ بن عمرو بن جرير: «كَطَيِّ السُّجُلِّ» بضمِّ السين والجيم وتشديد اللام[(٢)]. وقرأ الأعمش وطلحة: «كَطَيِّ السَّجْلِ» بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام[(٣)]. قال النحاس: والمعنى واحدٌ إن شاء الله تعالى، والتمام عند قوله: «لِلْكِتَابِ»[(٤)].

والطَّيُّ في هذه الآية يَحتمِلُ معنيين: أحدهما: الدَّرْج الذي هو ضدُّ النَّشْر، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]. والثاني: الإخفاء والتعمية والمحو؛ لأنَّ الله تعالى يمحو ويطمسُ رُسومَها ويكدرُ نجومها.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١و٢و١١].

«لِلْكِتَابِ» وتمَّ الكلام ـ وقراءة الأعمش وحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ ويحيى وخَلَف: ﴿لِلْكُتُبِۚ﴾ جمعاً[(٥)] ـ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: نحشرهم حُفاةً عراةً غُرْلاً كما بُدئوا في البطون.

---

(١) الصحاح (سجل)، والبيت في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٧٩٥، والكامل للمبرد ١/ ٢٥٠، والحماسة البصرية ١/ ١٨٥. والكَرَب: هو الحبل يشد في وسط خشبة الدلو فوق الرشاء ليقويه. المعجم الوسيط (كرب). والفضل بن العباس هو أحد شعراء بني هاشم وفصائحهم، وأمه بنت العباس ابن عبد المطلب. الأغاني ١٦/ ١٧٥.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٧.

(٣) المحتسب ٢/ ٦٧ عن أبي السَّمَّال.

(٤) في (د) و(ز): للكتب، وهما قراءتان على ما يأتي.

(٥) السبعة ص٤٣١، والتيسير ص١٥٥ عن حمزة والكسائي وحفص، والنشر ٢/ ٣٢٥ عنهم وعن خلف، والباقون: «للكتاب» على الإفراد.

وروى النَّسائيُّ[(١)] عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُحشر الناس يومَ القيامة عُراةً غُرْلاً، وأوّلُ الخَلْقِ يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾».

أخرجه مسلم[(٢)] أيضاً عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «يا أيها الناس، إنَّكم تُحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ألا وإنَّ أوَّل الخلائق يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام» وذكر الحديث. وقد ذكرنا هذا الباب في كتاب «التذكرة»[(٣)] مستوفًى.

وذكر سفيان الثوريُّ، عن سَلَمةَ بن كُهَيْل، عن أبي الزَّعْراء، عن عبد الله بن مسعود قال: يُرْسِلُ الله عزَّ وجلَّ ماءً[(٤)] من تحت العرش كمنيِّ الرجال، فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الأرضُ بالثرى، وقرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[(٥)].

وقال ابن عباس: المعنى: نُهلك كلَّ شيء ونُفْنيه كما كان أولَ مرة[(٦)]، وعلى هذا فالكلامُ متَّصلٌ بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفَناء، فلا تكون شيئاً.

وقيل: نُفني السماء ثم نعيدُها مرةً أخرى بعد طَيِّها وزوالها، كقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨].

---

(١) في المجتبى ٤/ ١١٤ .

(٢) في صحيحه (٢٨٦٠)، وهو عند أحمد (١٩١٣) و(٢٠٩٦)، والبخاري (٣٣٤٩).

(٣) ص٢٠٧ .

(٤) قبلها في (ظ): يوم القيامة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ ، وأخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٥/ ١٩١ - ١٩٥ ، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٣١٤ - ٣١٦ ، والحاكم ٤/ ٤٩٦ - ٤٩٨ . وأبو الزعراء الكندي هو عبد الله بن هانئ، قال فيه البخاري كما ذكر العقيلي: لا يتابع على حديثه.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٣١ .

والقول الأوّل أصحُّ، وهو نظيرُ قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَعْدًا﴾ نصب على المصدر، أي: وَعَدْنا وعداً ﴿عَلَيْنَا﴾ إنجازُه والوفاءُ به، أي: من البعث والإعادة، ففي الكلام حذف. ثم أكَّد ذلك بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال الزجَّاج[١]: معنى «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»: إنَّا كنَّا قادرين على [فِعْل] ما نشاء.

وقيل: «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» أي: ما وَعَدْناكم، وهو كما قال: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨].

وقيل: «كان» للإخبار بما سبق من قضائه. وقيل: صلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ الزبورُ والكتاب واحدٌ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل: زبور؛ [من] زَبَرْت، أي: كتبتُ، وجمعه: زُبُر[٢]. قال سعيد ابن جبير: «الزَّبور»: التوراة والإنجيل والقرآن ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ الذي في السماء ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير[٣].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٢، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ - ٨٣، وما بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٦٠)، والطبري ١٦/ ٤٣٢ و ٤٣٥ من طريق الأعمش به. وقوله عن الذكر إنه الذي في السماء، يعني به أمَّ الكتاب، كما في تفسير الطبري ١٦/ ٤٣١، والوسيط ٢/ ٢٥٤، وزاد المسير ٥/ ٣٩٧، وسيأتي هذا القول عن مجاهد وابن زيد.

الشعبيُّ: «الزَّبور»: زبور داود، و«الذكر»: توراةُ موسى عليه السلام[١].

مجاهد وابن زيد: «الزَّبور»: كتب الأنبياء عليهم السلام، و«الذِّكر»: أمُّ الكتاب الذي عند الله في السماء[٢].

وقال ابن عباس: «الزَّبور»: الكتب التي أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه، و«الذِّكر»: التوراة المنزلة على موسى[٣].

وقرأ حمزة: «في الزُّبُورِ» بضم الزاي جمع زِبْرٍ[٤].

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أحسنُ ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة ـ كما قال سعيد بن جبير ـ لأنَّ الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم[٥]. وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٦]؛ قال مجاهد وأبو العالية: ودليلُ هذا التأويل قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وعن ابن عباس: أنها الأرض المقدَّسة[٧]. وعنه أيضاً: أنَّها أرض الأمم الكافرة تَرِثُها أمةُ محمدٍ ﷺ بالفتوح[٨].

وقيل: إن المراد بذلك بنو إسرائيل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وأكثرُ المفسرين على أنَّ المراد بالعباد الصالحين أمةُ محمدٍ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٥، والطبري ١٦/ ٤٣٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ عن مجاهد، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٣٢، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٢٥٤، وابن الجوزي ٥/ ٣٩٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٣٣ مختصراً.

(٤) السبعة ص٤٣١، والتيسير ص٩٨، قال الرازي ٢٢/ ٢٢٩: ومعنى القراءتين واحد.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٣.

(٦) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما الطبري ١٦/ ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٩٧ عن الكلبي.

(٨) أورده الطبري ١٦/ ٤٣٧.

وقرأ حمزة: ﴿عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ بتسكين الياء(١).

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه. وقيل: إنَّ في القرآن ﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثوريُّ: هم أهلُ الصلوات الخمس(٢). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «عابدين»: مطيعين(٣). والعابد: المتذلِّل الخاضع. قال القشيريُّ: ولا يَبْعُد أن يدخل فيه كلُّ عاقل؛ لأنه من حيث الفطرةُ متذلِّلٌ للخالق، وهو بحيث لو تأمَّل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة.

وقال ابن عباس أيضاً: هم أمةُ محمدٍ ﷺ، الذين يصلُّون الصلواتِ الخمسَ، ويصومون شهرَ رمضان(٤). وهذا هو القول الأوّل بعينه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان محمدٌ ﷺ رحمةً لجميع الناس، فَمَن آمن به وصدَّق به سَعِد، ومَن لم يؤمن به سلِم ممَّا لَحِقَ الأممَ من الخَسْفِ والغرق(٥). وقال ابن زيد: أراد بالعالَمين

---

(١) السبعة ص٤٣٢، والتيسير ص١٥٦.

(٢) أخرجه عن أبي هريرة سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤١، وذكره عن سفيان النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٣.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ دون نسبة، وأخرج الطبري ١٦/ ٤٣٩ عن ابن عباس قوله: «عابدين»: عالِمين.

(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٢٩١٢). وأخرجه بلفظ المصنف الطبري ١٦/ ٤٣٨ عن كعب الأحبار.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٣، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٠، والطبراني في الكبير (١٢٣٥٨)، وأبو الشيخ في تاريخ المحدثين بأصبهان (٥٧٢).

المؤمنين خاصة[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلا يجوز الإشراك به. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لتوحيد الله تعالى، أي: فأسلموا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: إن أعرضوا عن الإسلام ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتُكم على بيانٍ أنَّا وإيَّاكم حربٌ لا صُلْحَ بيننا، كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: أَعْلِمْهم أنك نقضتَ العهد نقضاً استويت به[٢] أنت وهم، فليس لفريقٍ عهدٌ ملتزَمٌ في حقِّ الفريق الآخر.

وقال الزَّجَّاج: المعنى: أعلمتُكم بما يوحَى إليَّ على استواءٍ في العلم به، ولم أُظهِر لأحدٍ شيئاً كتمتُه عن غيره[٣].

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ «إن» نافيةٌ بمعنى «ما»، أي: وما أدري. ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني أجل يوم القيامة لا يدريه أحدٌ، لا نبيٌّ مرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مقرَّب؛ قاله ابن عباس. وقيل: آذنتكم بالحرب ولكنِّي لا أدري متى يؤذَن لي في محاربتكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: من الشِّرك، وهو المُجازِي عليه. ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعلَّ الإمهال ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: اختبارٌ ليرى كيف صنيعكم، وهو أعلم. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى انقضاء المدَّة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) قوله: به، من (ظ)، ووقع في (د) و(م): أي: استويت.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٨ ، ولفظه فيه: أعلمتكم بما يوحَى إلي لتستووا في الإيمان به.

ورويَ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى بني أمية في منامه يَلُون الناس، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بني أمية بذلك، فقالوا له: ارجع فسَلْه متى يكون ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: قل لهم ذلك(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾(٢) ختم السورة بأنْ أمر النبيَّ ﷺ بتفويض الأمر إليه، وتوقُّعِ الفَرَج مِن عنده، أي: احكُم بيني وبين هؤلاء المكذِّبين وانصرني عليهم. روى سعيد عن قتادة قال: كانت الأنبياء تقول: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأُمر النبيُّ ﷺ أن يقول: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فكان إذا لقيَ العدوَّ يقول وهو يعلم أنه على الحقّ وعدوّه على الباطل: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اقضِ به(٣).

وقال أبو عبيدة: الصفةُ هاهنا أقيمت مقامَ الموصوف، والتقدير: ربِّ احكم بحكمك الحقّ(٤).

و«ربِّ» في موضع نصب؛ لأنه نداءٌ مضاف.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن: «قُلْ رَبُّ احْكُمْ بالحقِّ» بضم الباء(٥)؛ قال النحاس(٦): وهذا لحنٌ عند النحويين؛ لا يجوز عندهم: رجلُ أَقْبِلْ، حتى تقول: يا رجلُ أقبلْ، أو ما أشبهه.

وقرأ الضحَّاك وطلحةُ ويعقوب: «قال ربِّي أَحْكَمُ بالحقِّ» بقطع الألف مفتوحة

---

(١) لم نقف عليه، والضعف فيه ظاهر.

(٢) قرأ حفص عن عاصم: «قال» بالألف، والباقون: «قل» بغير ألف. السبعة ص٤٣١ - ٤٣٢ والتيسير ص١٥٦ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ .

(٤) ذكر هذا القول الطبري ١٦/ ٤٤٥ دون نسبة.

(٥) النشر ٢/ ٣٢٥ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٨٤ .

الكاف، والميمُ مضمومة[١]. أي: قال محمدٌ: ربِّي أحكَمُ بالحقِّ من كلِّ حاكم.

وقرأ الجحدريُّ: «قُلْ ربِّي أَحْكَمَ»[٢] على معنى: أَحْكَمَ الأمورَ بالحقّ.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: تصفونه من الكفر والتكذيب. وقرأ المفضَّل والسُّلَميُّ: «علَى ما يَصِفون» بالياء على الخبر[٣]. الباقون بالتاء على الخطاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٧١. والقراءة المتواترة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ: ربِّ احْكُمْ، كقراءة الجماعة.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣.

(٣) رواية لابن ذكوان عن ابن عامر؛ كما في السبعة ص٤٣٢، ورواية المفضل عن عاصم، كما في النشر ٢/ ٣٢٥.

سورة الأنبياء

وهى مكية.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد[١]، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادى[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾.

هذا تنبيه من الله، عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس فى غفلة عنها، أى: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها.

وقال النسائى: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى، حدثنا أبومعاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ **﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾** قال: «فى الدنيا»[٣]، وقال تعالى: **﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾** [النحل: ١]، وقال [تعالى][٤]: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾** [القمر: ١، ٢].

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانئ أبى نُوَاس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاس فــى غَفَلاتِهِـمْ ... وَرَحـا المنِيَّـة تَطْـحَنُ

فقيل له: من أين أخذ[٥] هذا؟ قال[٦]: من قوله تعالى: **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾**[٧].

---

(١) فى أ: «زيد».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٩).

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٢).

(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «أخذت». (٦) فى ف، أ: «فقال».

(٧) تاريخ دمشق (٤/ ٦١١ «المخطوط»).

www.besturdubooks.wordpress.com

[وروى في ترجمة «عامر بن ربيعة»، من طريق موسى بن عبيدة الآمدى، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلّم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إنى استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً فى العرب، وقد أردت أن أقطعَ لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لى فى قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ**﴾][1] [2].

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذى أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ** ﴾أى: جديد إنزاله﴿ **إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**﴾كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حَرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونـه محـضاً لم يشـب. ورواه البخارى بنحوه[3].

وقوله: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ أى: قائلين فيما بينهم خفيَةً ﴿**هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ يعنونَ رسولَ الله ﷺ، يستبعدون كونه نبياً؛ لأنه بَشَرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحى دونهم؛ ولهذا قال: ﴿**أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**﴾؟ أى: أفتتبعونه فتكونون كمن أتى[4] السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿ **قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ أى: الذى يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذى لايستطيع أحد أن يأتى بمثله، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض.

وقوله: ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [أى: السميع][5] لأقوالكم، ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وقوله: ﴿ **بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ**﴾: هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به[6] القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩].

وقوله: ﴿ **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ**﴾: يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا**﴾ [الآية][7] [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ**﴾ أى: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يَدَىْ نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) تاريخ دمشق (٨/ ٦٨٠ «المخطوط» .

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٥٢٢) .

(٤) فى أ: «يأتى» .

(٥) زيادة من ف، أ .

(٦) فى ف، أ: «فيه» .

(٧) زيادة من ف .

www.besturdubooks.wordpress.com

بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو[١] رأَوْها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ .وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧] .

هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدى رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحباب، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا الحارث بن زيد الحضرمى، عن على بن رباح اللخمى، حدثنى من شهد عبادة بن الصامت، يقول: كنا فى المسجد ومعنا أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، يُقْرِئُ بعضنا بعضا القرآن، فجاء عبد الله بن أبى بن سلول، ومعه نُمْرُقَة وزِرْبِيّة، فوضع واتكأ، وكان صبيحاً فصيحاً جدلاً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داود بالزبور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة . فبكى أبو بكر، رضى الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا إلى رسول الله[٢] ﷺ نستغيث به من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: « إنه لا يقام لى، إنما يقام لله عز وجل». فقلنا: يارسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق. فقال: « إن[٣] جبريل قال[٤] لى: اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك، وفضيلته التى فُضِّلت بها، فبشرنى أنى بعثت إلى الأحمر والأسود، وأمرنى أن أنذر الجن، وآتانى كتابه وأنا أمّى، وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمى فى الأذان وأيدنى[٥] بالملائكة، وآتانى النصر، وجعل الرعب أمامى، وآتانى الكوثر، وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة، ووعدنى المقام المحمود والناس مهطعون مقنعو[٦] رؤوسهم، وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفاً من أمتى الجنة بغير حساب وآتانى السلطان والملك، وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم[٧] ،فليس فوقى أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحل لى[٨] الغنائم[٩]، ولم تحل لأحد كان قبلنا».

وهذا الحديث غريب جداً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) ﴾ .

يقول تعالى رادًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً يوحِي[١٠] إِلَيْهِمْ﴾

(١) فى ف: «ولو» . (٢) فى ف: «إلى رسوله». (٣) فى ف: «أتى».
(٤) فى ف: «فقال». (٥) فى أ: «وأمرنى». (٦) فى ف: «مقنعى».
(٧) فى ف، أ: «عدن». (٨) فى ف، أ: «لى ولأمتى». (٩) فى أ: «المغانم».
(١٠) فى ف، أ: : «نوحى».

www.besturdubooks.wordpress.com

أى: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ إلاَّ رجَالاً يوحي[1] إلَيْهِم مّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قل مَا كُنتُ بدْعًا مّنَ الرُّسُل﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمَ الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلاً[2] منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أى: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ منَ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ إنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أى: قد كانوا بشرا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون فى قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إلَيْه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيرًا. أَوْ يُلْقَىٰ إلَيْه كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ منْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أى: فى الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم[3] فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أى: الذى وعدهم ربهم: «ليهلكن الظالمين»، صدقهم الله وعده ففعل ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أى: أتباعهم من المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أى: المكذبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إلَيْكُمْ كتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا من قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إذَا هُم مّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾.

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، قال ابن عباس: شرَفُكم.

وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم.

---

(١) فى ف، أ: «نوحى». (٢) فى ف، أ: «رسولا»، وهو خطأ. (٣) فى ف: «يحكمه».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾: هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن[١] مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]. وقوله: ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: أمة أخرى بعدهم ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: تيقنوا أن العذاب واقع[٢] بهم، كما وعدهم نبيهم، ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يفرون هاربين، ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾: هذا تهكم بهم قدراً أي: قيل لهم قدراً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والعيشة والمساكن الطيبة.

قال قتادة: استهزاء بهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي: ما[٣] زالت تلك المقالة، وهى الاعتراف بالظلم، هجيراهم حتى حصدناهم حصداً[٤] وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾.

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ[٥] وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ يعنى: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً، ولا بعثاً، ولا حساباً.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن.

---

(١) فى ف: «وكأين». (٢) فى ف: «تيقنوا العذاب أنه واقع». (٣) فى ف: «فما».
(٤) فى ف، أ: «جعلناهم حصيدًا خامدين». (٥) فى ف، أ: «السماوات».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال إبراهيم النَّخعِي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ﴾ من الحور العين.

و قال عكرمة والسدى: المراد باللهو هاهنا: الولد.

وهذا والذى قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ ﴾ [الزمر: ٤]، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى ،أو العزير[١] ،أو الملائكة، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقوله: ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال قتادة، والسدى، وإبراهيم النخعى، ومغيرة بن مِقْسَم، أى: ماكنا فاعلين.

وقال مجاهد: كل شيء فى القرآن «إن» فهو إنكار.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أى: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أى: ذاهب مضمحل، ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ أى: أيها القائلون: للّه ولد، ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أى: تقولون وتفترون.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أى: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقوله: ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أى: لايتعبون ولايَملُّون، ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن أبى دُلامة البغدادى، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحرِز، عن حكيم بن حِزَام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إنى لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ومافيها موضع شِبْر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». غريب ولم يخرجوه[٢].

ثم رواه ابن أبى حاتم من طريق يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة مرسلاً.

وقال أبو إسحاق[٣]، عن حسان بن مخارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله [للملائكة][٤]: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا

---

(١) فى ف: «أو عزير».

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٢٠١) والطحاوى فى مشكل الآثار برقم (١١٣٤) من طريق عبد الوهاب بن عطاء به، وله شاهد من حديث أبى ذر الغفارى أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٢٣١٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) فى هـ، ف، أ: «محمد بن إسحاق» والمثبت من الطبرى ١٧/ ٧٠.

(٤) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

يَفْتُرُونَ﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟. فقال: فمن هذا الغلام ؟ فقالوا: من بنى عبد المطلب، قال: فقبل رأسى، ثم قال لى: يابنى، إنه جعل لهم التسبيح، كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس و [1]تمشى وأنت تتنفس ؟ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾.

ينكر[2] تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل **﴿ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾** أى: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أى: لايقدرون على شىء من ذلك، فكيف جعلوها للّه نداً وعبدوها معه.

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: **﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ ﴾** أى: فى السمـاء والأرض، **﴿لَفَسَدَتَا﴾**، كقوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾** [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: **﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾** أى: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: **﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾** أى: هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، **﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾** أى: وهو سائل خلـقه عما يعملون، كقوله: **﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: **﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾** [المؤمنون: ٨٨].

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾.

يقول تعالى: بل **﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ ﴾** يا محمد: **﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾** أى: دليلكم على ماتقولون، **﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ﴾** يعنى: القرآن، **﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾** يعنى: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبى أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يوحَى[3] إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾**، كما قال: **﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ**

---

(١) فى ف: «وأنت تمشى». (٢) فى ف: «فينكر». (٣) فى ف، أ: «نوحى».

www.besturdubooks.wordpress.com

آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبى بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾.

يقول تعالى رداً على من زعم أن له ـ تعالى وتقدس ـ ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أى: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، فى منازل عالية ومقامات سامية، وهم له فى غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أى: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر[1] به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فى آيات كثيرة فى معنى ذلك.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أى: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أى: من ادعى منهم أنه إلـه من دون الله، أى: مع الله، ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لإلهيته العابدون[2] معه غيره، ألم يعلموا

---

(١) فى ف، أ: «أمرهم».

(٢) فى أ: «العابدين».

www.besturdubooks.wordpress.com

أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم[١] يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أى: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعاً، والأرض[٢] سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء:

فَفِى كُلِّ شىء لَهُ آيَة ... تَدُلُّ علَى أنَّه وَاحد

قال سفيان الثورى، عن أبيه، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن أبى حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبى محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله،ثم تعال فأخبرنى بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى فى القرآن علماً، صدق ـ هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتى فى القرآن علماً.

وقال عطية العَوْفى: كانت هذه رتقاً لا تمطر، فأمطرت. وكانت هذه رتقاً لا تنبت، فأنبتت.

وقال إسماعيل بن أبى خالد: سألت أبا صالح الحنَفى عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين.

وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين.

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذى ذكر الله فى كتابه.

وقال الحسن، وقتادة، كانتا جميعاً، ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أى: أصل كل الأحياء منه.

---

(١) فى أ: «أو لم».
(٢) فى ف، أ: « والأرضين ».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهر[١]، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة عن أبى ميمونة[٢]، عن أبى هريرة أنه قال: يانبى الله، إذا رأيتك قرت عينى، وطابت نفسى، فأخبرنى عن كل شىء ،قال: «كل شىء خلق من ماء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة، عن أبى ميمونة، عن أبى هريرة قال: قلت: يارسول الله، إنى إذا رأيتك طابت نفسى، وقرت عينى، فأنبئنى عن كل شىء. قال: « كل شىء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئنى عن أمر إذا عملتُ به دخلت الجنة. قال: « أفْش السلام، وأطعم الطعام، وصِل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنَّة بسلام»[٣].

ورواه أيضاً عبد الصمد وعفان وبَهْز، عن همام[٤]. تفرد به أحمد ،وهذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذى يصحح له. وقد رواه سعيد ابن أبى عَرُوبة، عن قتادة مرسلاً ،والله[٥] أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أى: جبالاً أرسى الأرض بها وقرّرها وثقلها؛ لئلا تميد بالناس، أى: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار[٦] لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء ومافيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أى: لئلا تميد بهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ أى: ثغراً فى الجبال، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد فى الأرض، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ـ ثغرة ـ ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا؛ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ أى: على الأرض وهى كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾[الشمس:٥]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُنِى الإسلام على خمس » أى: خمس[٧] دعائم، وهذا لا يكون إلا فى الخيام، على ما[٨] تعهده العرب.

﴿مَّحْفُوظًا﴾ أى: عالياً محروساً أن يُنال. وقال مجاهد: مرفوعا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتكى، حدثنى

---

(١) فى ف، أ: «الجماهير». (٢) فى ف، أ: «أبى ميمون».

(٣) المسند (٢/ ٢٩٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (١٢٩/٤) من طريق يزيد بن هارون وصححه.

ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٦٤٢) «موارد» من طريق أبى عامر العقدى عن همام به.

(٤) المسند (٢/ ٣٢٣ ـ ٤٩٣) من طريق عبد الصمد، (٢/ ٣٢٣) من طريق عفان، (٢/ ٣٢٤) من طريق بهز.

وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٦): «رجاله رجال الصحيح، خلا أبى ميمونة وهو ثقة».

(٥) فى ف: «فالله». (٦) فى ف: «قرار عليها». (٧) فى ف: «خمسة».

(٨) فى ف: «كما».

www.besturdubooks.wordpress.com

أبى، عن أبيه، عن أشعث ـ يعنى ابن إسحاق القُمِّى ـ عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، قال رجل: يارسول الله، ما هذه السماء ،قال :« موج مكفوف عنكم »[١] إسناد غريب.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، كقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥] أى: لايتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى ليلها،وفى نهارها[٢] من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله، فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الذى[٣] قدرها وسخرها وسيرها.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا، رحمه الله، فى كتابه «التفكر والاعتبار»: أن بعض عباد بنى إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يرى لغيره، فشكى ذلك إلى أمه، فقالت له: يابنى، فلعلك أذنبت فى مدة عبادتك هذه، فقال: لا والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا[٤]، ولاهممت. قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيراً. قالت: فمن هاهنا أتيت.

ثم قال منبهاً على بعض آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى: هذا فى ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر .﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور خاص آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر ،﴿وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] ،أى: يدورون.

قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة.وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى :﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: يامحمد، ﴿الْخُلْدَ﴾ أى: فى الدنيا بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ .وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر، عليه السلام، مات وليس بحى إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن

(١) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٣٩) من طريق أحمد بن القاسم عن أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى به.
(٢) فى ف، أ: «النهار». (٣) فى ف، أ: «الله». (٤) فى ف، أ: «بل والله».

www.besturdubooks.wordpress.com

قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾.

وقوله: ﴿أَفَإِن مِّتَّ﴾ أى: يامحمد، ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾؟! أى: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى فناء؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقد روى عن الشافعى، رحمه الله، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجَـــال أن أمُوت، وإن أمُتْ فَتلْكَ سَبيل لَسْت فيهَا بأوْحَـــد

فقُلْ للَّذى يَبْغى خلاف الذى مضـى: تَهيَّأ لأخْرى مثْلها فـكَأن قد[1]

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أى: نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال على بن أبى طلحة،عن ابن عباس: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾، يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال . .

وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أى: فنجازيكم بأعمالكم .

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى: كفار قريش كأبى جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا﴾ أى: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعنون: أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال فى الآية الآخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً . إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤١ ، ٤٢].

وقوله ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ[2] الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] أى: فى الأمور.

قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شىء من آخر النهار، من يوم خلق الخلائق فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ[3] أسفله قال: يارب، استعجل بخلقى قبل غروب الشمس.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « خير يوم طلعت فيه

---

(١) البيتان ذكرهما البيهقى فى مناقب الشافعى (٢/ ٦٢) والرازى فى مناقب الشافعى (ص ١١٩).

(٢) فى ف: « وخلق». (٣) فى ف: «تبلغ».

www.besturdubooks.wordpress.com

الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي - وقبض أصابعه قَلَّلَها[١] - فسأل الله خيراً، إلا أعطاه إياه». قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، وهي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[٢].

والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات الله [وسلامه][٣] عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت[٤]، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني، ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً[٥]﴾ أي: «تأتيهم النار بغتة»، أي: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تذعرهم[٦] فيستسلمون لها حائرين، لا[٧] يدرون ما يصنعون، ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾

---

(١) في أ: «يقللها».

(٢) أخرج مالك في الموطأ (١/١٠٨) من طريق يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة نحوه دون ذكر الآية وأخرج الشيخان أوله والله أعلم.

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) في ف، أ: «واستعجلت ذلك».

(٥) في ف: «بغتة فتبهتهم».

(٦) في ف، أ: «تدعوهم».

(٧) في ف: «حائرون ولا».

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله[صلوات الله وسلامه عليه][(١)] عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ يعنى: من العذاب الذى كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأنعام: ٣٤].

ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده فى حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التى لاتنام، فقال: ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾؟ أى: بدل الرحمن بمعنى غيره كما قال الشاعر[(٢)]:

جَارية لَمْ تَلْبَس المُرقَّقا وَلَم تَذق منَ البُقول الفُسْتُقا

أى: لم تذق بدل البقول الفستق.

وقوله تعالى: ﴿**بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ أى: لا يعترفون[(٣)] بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا**﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أى: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما [(٤)] زعموا ؛ولهذا قال: ﴿**لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ** ﴾ أى: هذه [الآلهة][(٥)] التى استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم.

وقوله: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾ أى: يجارون[(٦)] وقال قتادة لا يصحبون [من الله][(٧)] بخير وقال غيره: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾: يمنعون .

﴿ **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا**

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن،والبيت فى اللسان مادة (فسق) وصدره:

دسته لم تأكل المرققا

وقد حمل صاحب اللسان قوله بأنه ظن الفستق من البقول.

(٣) فى ف، أ: «لا يعرفون». (٤) فى ف، أ: « ولا قد كما». (٥) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف، أ: «يجازون». (٧) زيادة من ف.

www.besturdubooks.wordpress.com

حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ماهم فيه من الضلال، أنهم مُتّعوا فى الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شىء.

ثم قال واعظاً لهم: ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** ﴾، اختلف المفسرون فى معناه، وقد أسلفناه فى سورة «الرعد»، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ** ﴾[الأحقاف: ٢٧].

وقال الحسن البصرى: يعنى بذلك ظهور الإسلام على الكفر.

والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿ **أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ يعنى: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون.

وقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ** ﴾ أى: إنما أنا مبلغ[١] عن الله ما أنذركم[٢] به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلىّ، ولكن لايجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴾.

وقوله: ﴿ **وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ أى: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شىء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم فى الدنيا.

وقوله: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** ﴾ أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿ **فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ كما قال تعالى: ﴿ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾ [لقمان: ١٦].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطَّالَقَانى، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدثنى عامر بن يحيى، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً ؟

(١) فى ف، أ: «مبلغكم». (٢) فى ف، أ: «أنذرتكم».
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٥٦٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٩٤).

www.besturdubooks.wordpress.com

أظلمتك كتبتى الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟» قال: فيبهت الرجل فيقول: لا، يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، و أن[١] محمداً عبده ورسوله» فيقول: أحضروه، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: « فتوضع السجلات فى كفة [والبطاقة في كفة][٢]»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا يثقل شىء بسم الله الرحمن الرحيم»[٣].

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد ، به،[٤] وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن عمرو بن يحيى، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين[٥] يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع فى كفة، فيوضع[٦] ما أحصى عليه، فتمايل[٧] به الميزان» قال: «فيبعث به إلى النار» قال: فإذا أدبر به إذا[٨] صائح من عند الرحمن عز وجل يقول: [لاتعجلوا][٩]، فإنه قد بقى له، فيؤتى ببطاقة فيها «لا إله إلا الله» فتوضع مع الرجل فى كفة[١٠]، حتى يميل به الميزان»[١١].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح قراد[١٢]، أنبأنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة؛ أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، جلس بين يديه، فقال: يارسول الله، إن لى مملوكين، يكذبوننى، ويخونوننى، ويعصوننى، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، إن[١٣] كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلا لك [عليهم][١٤] وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الذى يبقى[١٥] قبلك ». فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: « ماله أما يقرأ كتاب الله؟ : **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾**». فقال الرجل: يارسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء- يعنى عبيده - إنى أشهدك أنهم أحرار كلهم[١٦].

---

(١) فى ف: «وأشهد أن».
(٢) زيادة من ف، والترمذى وابن ماجه.
(٣) المسند (٢/ ٢١٣).
(٤) سنن الترمذى برقم (٢٦٣٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٠٠).
(٥) فى ف: «يوضع الميزان».
(٦) فى ف: « ويوضع».
(٧) فى ف: «فيمايل».
(٨) فى ف: «فإذا».
(٩) زيادة من ف، والمسند.
(١٠) فى ف: «كفته».
(١١) المسند (٢/ ٢٢١).
(١٢) فى ف، أ: «مراراً».
(١٣) فى ف: «فإن».
(١٤) زيادة من ف، والمسند.
(١٥) فى ف: «بقى».
(١٦) المسند (٦/ ٢٨٠).

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠) ﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.

قال مجاهد: يعنى: الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة، وقال قتادة: التوراة، حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: يعنى: النصر.

وجامع القول فى ذلك: أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغى والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً فى القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: [تذكيراً][1] لهم وعظة.

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون وجلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن العظيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: أفتنكرونه وهو فى غاية [الجلاء][2] والظهور؟.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) ﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم، عليه السلام، أنه آتاه رشده من قبل، أى: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[الأنعام: ٨٣]، وما يذكر من الأخبار عنه[3] فى إدخال أبيه له فى السرب، وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات، فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ـ فعامتها أحاديث بنى إسرائيل، فما وافق منها الحق بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف فى روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له

(١، ٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «عنه من الأخبار».

www.besturdubooks.wordpress.com

مما ينتفع به فى الدين. ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين فى دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذى نسلكه[١] فى هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لاتفرقة[٢] عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصود هاهنا: أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده، من قبل، أى: من قبل ذلك، وقوله: ﴿**وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾ أى: وكان أهلاً لذلك.

ثم قال: ﴿**إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**﴾ هذا هو الرشد الذى أوتيه من صغره، الإنكار على قومه فى عبادة الأصنام من دون الله، عز وجل، فقال: ﴿**مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**﴾ أى: معتكفون على عبادتها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، قال: مر علىّ،على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ لأن يمس صاحبكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها.

﴿**قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ**﴾ :لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال؛ ولهذا قال: ﴿**لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ أى: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم فى ضلال على غير الطريق المستقيم.

فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ**﴾ يقولون[٣]:هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقاً فيه؟ فإنا لم نسمع به قبلك. ﴿**قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ**﴾ أى: ربكم الذى لا إله غيره، هو الذى خلق السموات [والأرض][٤] وما حوت من المخلوقات الذى ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿**وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ أى: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿ **وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣)** ﴾.

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أى: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا[٥] مدبرين أى: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه.

---

(١) فى هـ: «يذكر» والمثبت من ف. (٢) فى ف: «لا معرفة». (٣) فى ف: «يقول».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ف: «تولو».

www.besturdubooks.wordpress.com

قال السدى: لما اقترب[١] وقت ذلك العيد قال أبوه: يابنى، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض. وقال: إنى سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع، فيقولون: مه! فيقول: إنى سقيم، فلما جاز عامتهم وبقى ضعفاؤهم قال: **﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾** فسمعه أولئك.

وقال أبو إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم، إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال: إنى سقيم. وقد كان بالأمس قال: **﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾** فسمعه ناس منهم.

وقوله: **﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾** أى: حطاماً كسرها كلها **﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ﴾** يعنى: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: **﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾** [الصافات: ٩٣].

وقوله: **﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾**: ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غَارَ لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على قدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها **﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** أى: فى صنيعه هذا **﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾** أى: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: **﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾** أى: شاباً **﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾**.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس [عن أبيه][٢]، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: **﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾**.

وقوله: **﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾** أى: على رؤوس الأشهاد فى الملإ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبين[٣] فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم[٤] في عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك[٥] لها نصراً، فكيف يطلب منها شىء من ذلك ؟.

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعنى: الذى تركه لم يكسره **﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾** وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين فى ذات الله[٦]، قوله: **﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾**، وقوله: **﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾**» قال: « وبينا هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه

---

(١) فى ف: «قرب».
(٢) زيادة من ف.
(٣) فى ف، أ: «يبين».
(٤) فى ف: «عقولهم».
(٥) فى ف: «ولا تستطيع».
(٦) فى ف، أ: «كتاب».

www.besturdubooks.wordpress.com

سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هى أختى. قال: فاذهب فأرسل بها إليّ، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار[1] سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده، فإنك أختى فى كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيرى وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلى. فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، [فذكر][2] مثل المرتين الأوليين[3]، فقال: ادعى الله فلا أضرك. فدعت، له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه، فقال: إنك لم تأتنى بإنسان، وإنما[4] أتيتنى بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال[5]: مَهْيَم ؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمنى هاجر » قال محمد بن سيرين[6]: وكان [7] أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يابنى ماء السماء [8].

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً [9] عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: بالملامة فى عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: فى ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أى: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾.

وقال السدى: ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أى: فى الفتنة.

وقال ابن زيد: أى فى الرأى.

وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً؛ ولهذا قالوا له: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾، فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لاتنطق فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أى: إذا كانت لاتنطق[10]، وهى لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا

(١) فى ف: «الجبار قد سألنى». (٢) زيادة من ف، والسنن. (٣) فى ف، أ: «الأولتين».
(٤) فى ف: «ولكنك». (٥) فى ف: «وقال». (٦) فى ف، أ: «إدريس».
(٧) فى ف: «فكان».
(٨) لم أجده فى الصحيحين من طريق هشام بن حسان وإنما هو فى السنن:
فرواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢١٢) من طريق عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان.
ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق أبى أسامة عن هشام بن حسان.
وهو فى الصحيحين من طريق أيوب عن محمد بن سيرين؛ صحيح البخارى برقم (٥٠٨٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٧١).
(٩) فى ف، أ: «يخبر تعالى». (١٠) فى أ: «كان لا ينطق».

www.besturdubooks.wordpress.com

تَعْقِلُونَ ﴾ أى: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ**﴾ الآية [الأنعام: ٨٣].

﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠)** ﴾.

لما دَحَضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا: ﴿**حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾. فجمعوا حطباً كثيراً جداً ـ قال السدى: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم ـ ثم جعلوه فى جَوْبَة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار[1] مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، فى كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد ـ قال شُعَيب الجبائى: اسمه هيزن ـ فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «حسبى الله ونعم الوكيل»، كما رواه البخارى، عن ابن عباس أنه قال: «حسبى[2] الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها[3] محمد حين قالوا: ﴿ **إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[آل عمران: ١٧٣][4] .

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا ابن هشام، حدثنا إسحاق[5] بن سليمان، عن أبى جعفر، عن عاصم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لما ألقى إبراهيم، عليه السلام، فى النار قال: اللهم، إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك»[6] .

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك[7] .

وقال شعيب الجبائى: كان عمره ست عشرة سنة. فالله أعلم.

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، [وأما من الله فبلى][8] .

---

(١) فى ف، «نار قط» . (٢) فى ف: «حسبنا» . (٣) فى ف: «وقال» .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٣) .

(٥) فى ف، أ: «أبو إسحاق» .

(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٤٩) «كشف الأستار» وأبو نعيم فى الحلية (١٩١١) والخطيب فى تاريخ بغداد (١٠/٣٤٦) من طريق أبى هشام الرفاعى به .

وقال البزار: «لا نعلم رواه عن عاصم إلا أبا جعفر، ولا عنه إلا إسحاق، ولم نسمعه إلا من أبى هشام» قلت: عاصم بن عمر ابن حفص متكلم فيه .

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٥/٦٤٢) عن أرقم .

(٨) زيادة من ف .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال سعيد بن جبير ـ ويروى[١] عن ابن عباس أيضاً ـ قال: لما أُلقىَ إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان[٢] أمر الله أسرع من أمره، قال الله :[عز وجل][٣] ﴿ **يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ قال: لم[٤] يبق نار فى الأرض إلا طفئت.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع [أحد][٥] يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وقال الثورى، عن الأعمش، عن شيخ، عن على بن أبى طالب :﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [قال: بَرَدَتْ عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: ﴿**وَسَلامًا**﴾][٦]، قال: لا تضرِّيه.

وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿**وَسَلامًا**﴾ لآذى إبراهيم بَرْدُها.

وقال جُوَيبر، عن الضحاك :﴿**كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ قال: صنعوا له حظيرة من حَطَب جَزْل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخمدها الله ـ قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يُصِبْه منها شيء غيرُ ذلك.

وقال السدى : كان معه فيها ملك الظل .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مِهْران، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن المِنْهَال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار، فقال: كان[٧] فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنت أياماً وليالى قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها.

وقال أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن أبى هريرة قال: إن أحسن [شىء][٨] قال أبو إبراهيم ـ لما رفع عنه الطبق وهو فى النار، وجده يرشح جبينه ـ قال عند ذلك: نعمَ الربّ ربك يا إبراهيم.

وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوَزَغ ـ وقال الزهرى: أمر النبى ﷺ بقتله وسماه فويسقاً[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنى عمى، حدثنا جرير بن حازم، أن نافعاً حدثه قال: حدثتنى مولاة[١٠] الفاكه بن المغيرة المخزومى قالت: دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحا. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى فى النار، لم يكن[١١] فى الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوَزَغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله[١٢] .

---

(١) فى ف، أ: «وروى» . (٢) فى ف: «وكان» . (٣) زيادة من ف .

(٤) فى ف، أ: «فلم» . (٥، ٦) زيادة من ف . (٧) فى ف: «فكان» .

(٨) زيادة من ف .

(٩) جاء من حديث أم شريك: رواه البخارى برقم (٣٣٠٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢٣٧) .

(١٠) فى ف،أ: «حدثنى مولاه» . (١١) فى ف : «تكن» .

(١٢) ورواه أحمد فى المسند (٦/ ٨٣ ، ١٠٩) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٢٣١) من طريق نافع عن سائبة مولاة الفاكه به .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أى: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبى الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

وقال عطية العوفى: لما ألقِىَ إبراهيم فى النار، جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه ،فأحرقته مثل الصوفة .

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبىّ بن كعب فى قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة. وكذا قال أبو العالية أيضاً.

وقال قتادة: كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى الشام، [وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيدَ فى الشام][1] وما نقص من الشام زيد فى فلسطين. وكان يقال: هى أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال.

وقال كعب الأحبار فى قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ : إلى حران.

وقال السدى: انطلق إبراهيم ولوط قِبَل الشام، فلقى إبراهيم سارة، وهى ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها فى دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها .

رواه ابن جرير، وهو غريب [والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده][2] .

وقال العَوفى، عن ابن عباس: إلى مكة؛ ألا تسمع قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران ٩٦].

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية.

وقال ابن عباس، وقتادة، والحكم بن عُيينة: النافلة ولد الولد، يعنى: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١].

(١، ٢) زيادة من ف .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة.

﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: يقتدى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي: فاعلين لما يأمرون الناس به.

ثم عطف بذكر لوط ـ وهو لوط بن هاران بن آزر ـ كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سَدُومَ وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودَمَّر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾.

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[القمر: ١٠]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ[١] وَأَهْلَهُ﴾ أي: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه[٢]، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه.

وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلكهم الله بعامة، ولم يُبْقِ على وجه الأرض منهم أحدًا؛ إذ[٣] دعا عليهم نبيهم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

(١) في ف، أ: «ونجيناه».　(٢) في ف: «أذاه».　(٣) في ف: «كما».

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴿٨٢﴾ ﴾ .

قال أبو إسحاق، عن مُرّة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرماً قد نَبَتَتْ عناقيده. وكذا قال شُرَيْح.

قال ابن عباس: النَّفْشُ: الرعى.

وقال شُرَيح، والزهرى، وقتادة: النَّفْشُ بالليل. زاد قتادة: والهَمْلُ بالنهار.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب وهارون بن إدريسَ الأصم قالا: حدثنا المحاربى، عن أشعث، عن أبى إسحاق، عن مُرّة، عن ابن مسعود فى قوله: **﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾** قال: كرم قد أنبتت عناقيده، فأفسدته. قال: فقضى داود بالغَنَم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبى الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيُصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: **﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾**.

وهكذا روى العَوْفى، عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، حدثنا[1] خليفة، عن ابن عباس قال: فحكم[2] داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرِّعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيتُ بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضى بينهم؟ قال[3]: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويبذُر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثلَ حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه أخذ أصحاب الحرث الحرثَ وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خُدَيْج، عن أبى إسحاق، عن مُرَّة، عن مسروق قال: الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرما نفشت فيه الغنم، فلم تَدَع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود، فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فيعطاها[4] أهلُ الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيصلحوه ويعمروه[5] حتى يعود كالذى كان ليلة نَفَشت فيه الغنم، ثم يُعطَى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم .

---

(١) فى ف: «حدثنى» . (٢) فى ف، أ: «قضى» . (٣) فى ف: «فقال» .
(٤) فى ف: «فتعطى» . (٥) فى ف: «فيعمروه ويصلحوه» .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهكذا قال شُرَيح، ومُرَّة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبى زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شُرَيح، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لى، فقال شريح: نهاراً أم ليلا؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً ضَمِن، ثم قرأ: ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ**﴾ الآية .

وهذا الذى قاله شُرَيح شبيه بما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، عن الزهرى، عن حرَام بن مُحَيِّصة[١] ؛ أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها[٢] . وقد عُلِّل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه فى كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾: قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى، قال[٣] : ما يبكيك ؟ قال[٤]: يا أبا سعيد، بلغنى أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو فى النار، ورجل مال به الهوى فهو فى النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة. فقال الحسن البصرى: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** ﴾، فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال ـ يعنى: الحسن ـ: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشترون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**] [٥]﴾ [ص: ٢٦] وقال : ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿**وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً**﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مُؤيَّدون من الله عز وجل. وهذا مما لا خلاف[٦] فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ:«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران،

(١) فى ف: «عن حرام عن الزهرى بن محيصة» .

(٢) المسند (٥/ ٤٣٥) وسنن أبى داود برقم (٣٥٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣٣٢) .

تنبيه:

هذا الطريق إنما هو طريق ابن ماجه، أما أحمد فرواه عن مالك وسفيان ومعمر عن الزهرى، وأما أبو داود فرواه عن معمر والأوزاعى عن الزهرى .

(٣، ٤) فى ف، أ :«فقال» . (٥) زيادة من ف، أ . (٦) فى ف: «ما لا اختلاف فيه» .

www.besturdubooks.wordpress.com

وإذا اجتهد فأخطأ[١] فله أجر»[٢]، فهذا الحديث يرد نصا ما توهمه «إياس» من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار، والله أعلم.

وفى السنن : «القضاة ثلاثة: قاض فى الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو فى النار[٣].

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد فى مسنده ،حيث قال:

حدثنا على بن حَفْص، أخبرنا وَرْقاء عن أبى الزِّنَاد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء[٤] الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تَشُقُّه، فقضى به للصغرى »[٥] .

وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما[٦] وبوّب عليه النسائى فى كتاب القضاء: (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق)[٧] .

وهكذا القصة التى أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة «سليمان عليه السلام» من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس ـ فذكر قصة مطولة[٨] ملخصها ـ :أن امرأة حسناء فى زمان بنى إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على[٩] كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود، عليه السلام، أنها مكَّنت من نفسها كلباً لها، قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها. فلما كان عشية ذلك اليوم، جلس سليمان، واجتمع معه وِلْدانٌ، مثله، فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزىّ أولئك، وآخر بزىّ المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فقال لأولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود. فعزله، واستدى الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم، فحكى ذلك لداود، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم[١٠] .

(١) فى ف : «وأخطأ» .
(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٥٢) .
(٣) سنن أبى داود برقم (٣٥٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٩٢٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣١٥).
(٤) فى ف: «إذ جاء».
(٥) المسند (٢/ ٣٢٢) .
(٦) فى ف: «صحيحيهما».
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٢٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٩٥٨) والباب فيه «التوسعة للحاكم في أن يقول للشيء الذى لا يفعله أفعل ليستبين له الحق» .
(٨) فى ف: «طويلة» . (٩) فى أ: «عن» .
(١٠) تاريخ دمشق (٧/ ٥٦٥ «المخطوط») .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا تَرَنَّم به تقف الطير فى الهواء، فتجاوبه، وتَرد عليه الجبال تأويباً؛ ولهذا لَمَّا مَرَّ النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب [جداً][1] ،فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود ». قال يارسول الله، لو علمت أنك تسمع[2] لحبرته لك تحبيراً[3] .

وقال أبو عثمان النهدى: ما سمعت صوت صَنْج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبى موسى، رضى الله عنه، ومع هذا قال: لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود.

وقوله: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُم[4] مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعنى صنعة الدروع.

قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلَقاً. كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ .أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] أى: لا توسع الحلقة فتقلق[5] المسمار، ولا تغلظ المسمار فتَقَدّ الحَلْقة ؛ولهذا قال: ﴿لِيُحْصِنَكُم[6] مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعنى: فى القتال، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أى: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

وقوله :﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أى: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة، ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى أرض الشام، ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِين ﴾. وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه[7] ،قال الله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] ،وقال: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

قال ابن أبى حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبى سنَان، عن سعيد بن جبير قال: كان يُوضَع لسليمان ستمائة ألف كرسى، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷺ[8] .

وقال عبد الله بن عُبَيْد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتَمع كالطَّود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفَرَس من ذوات الأجنحة، فترتفع[9] حتى تصعد[10] على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كُل شَرَف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه، ما يلتفت يميناً ولا شمالاً، تعظيماً للّه عز وجل، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) فى ف: «تستمع» .
(٣) سبق الحديث فى فضائل القرآن .
(٤) فى ف، أ: «لتحصنكم» .
(٥) فى ف: «فتفلق» .
(٦) فى ف: «لتحصنكم» .
(٧) فى أ: «وحشمه» .
(٨) فى أ: «فتحملهم عليه السلام» .
(٩) فى ف، أ: «فيرتفع» .
(١٠) فى ف، أ: «يصعد».

www.besturdubooks.wordpress.com

تعالى[١] حتى تضعه[٢] الريح حيث شاء أن تضعه[٣] .

وقوله: ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى: فى الماء يستخرجون اللآلئ [وغير ذلك. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ.][٤] وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[ص: ٣٧، ٣٨] .

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ [٥]حَافِظِينَ﴾ أى: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل فى قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو مُحكَّم[٦] فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾.

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ .

يذكر تعالى عن أيوب، عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، فى ماله وولده وجسده[٧] ،وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلى فى ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلى فى جسده ـ يقال: بالجذام فى سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفردَ فى ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد[٨] يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره[٩] ،ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبى ﷺ: « أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»[١٠] وفى الحديث الآخر: « يبتلى الرجل على قدر دينه، فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه »[١١] .

وقد كان نبى الله أيوب ،عليه السلام ،غاية فى الصبر ،وبه يضرب المثل فى ذلك.

وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء،أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذى أحسنت إلى،أعطيتنى المال والولد، فلم يبق من قلبى شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله منى، وفرَّغت قلبى، ليس يحول بينى وبينك شيء، لو يعلم عدوى إبليس بالذى صنعت، حسدنى. قال: فلقى إبليس من ذلك منكراً.

قال: وقال أيوب، عليه السلام: يارب، إنك أعطيتنى المال والولد، فلم يقم على بابى أحد يشكونى لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. وأنه كان يوطأ لى الفراش فأتركها وأقول لنفسى:

---

(١) فى ف، أ: «عز وجل» . (٢) فى ف: «يضعه» . (٣) فى ف، أ: «حيث يشاء أن يضعه» .
(٤) زيادة من ف، أ . (٥) فى ف: «له» . (٦) فى ف، أ: «يحكم» .
(٧) فى ف: «وجسده وولده» . (٨) فى ف: «أحد من الناس» . (٩) فى ف: «بأوده» .
(١٠) رواه أحمد فى المسند (١/ ١٧٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه. وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح» .
(١١) هو جزء من الحديث المتقدم ، والله أعلم .

www.besturdubooks.wordpress.com

يانفس،إنك لم تخلقى لوطء الفرش[١] ،ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبى حاتم.

وقد ذكر عن وهب بن منبه فى خبره قصة طويلة، ساقها ابن جرير وابن أبى حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخرى المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول[٢].

وقد روى أنه مكث فى البلاء مدة طويلة، ثم اختلفوا فى السبب المهيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلى أيوب، عليه السلام، سبع سنين وأشهراً، ملقى على كُنَاسَة بنى إسرائيل، تختلف الدواب فى جسده ففرج الله عنه، وَعَظَّم له الأجر، وأحسن عليه الثناء.

وقال وهب بن منبه: مكث فى البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدى: تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالزاد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك[٣] يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل[٤] قليل للّه أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزَعَت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للناس بأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من فلسطين كانا صديقين له وأخوين، فأتاهما فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه بَرَأ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما؟ فقالا[٥]: نحن فلان وفلان! فرحَّب بهما وقال: مرحباً بمن لا يجفونى عند البلاء، فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئاً وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلى السماء ثم قال: هو يعلم، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره. ولكن ربى ابتلانى لينظر أأصبر أم أجزع، فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه بَرَأت. قال: فغضب وقال جاءكما الخبيث فأمركما بهذا ؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما علىّ حرام. فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للناس فخبزت لأهل بيت لهم صبى، فجعلت لهم قرصاً[٦]، وكان ابنهم نائماً، فكرهوا أن يوقظوه، فوهبوه لها. فأتت به إلى أيوب، فأنكره وقال: ما كنت تأتينى بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبى قد استيقظ، فطلب القرص فلم يجده فهو يبكى على أهله. [فانطلقى به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحتها شاة لهم، فقالت: تعس أيوب الخطاء! فلما صعدت وجدت الصبى قد استيقظ وهو يطلب القرص، ويبكى على أهله][٧]، لا يقبل منهم شيئاً غيره، فقالت: رحم الله أيوب فدفعت القرص إليه ورجعت. ثم إن إبليس أتاها فى صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سُقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بنى فلان فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث. للّه علىّ إن برأت أن أجلدك مائة جلدة. فخرجت تسعى عليه، فحظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتى أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذاك وخافت على أيوب

---

(١) فى ف: «الفراش» .

(٢) تفسير الطبرى (١٧/٤٢).

(٣) فى ف، أ: «الله».

(٤) فى أ: «فهو».

(٥) فى ف، أ: «قالا».

(٦) فى ف، أ: «قرصة».

(٧) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

الجوع حلقت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فأطعمونى. فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيوب، فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو؟ فوضعت خمارها، فلما رأى رأسها محلوقاً جزع جزعاً شديداً، فعند ذلك دعا ربه عز وجل: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن نَوْف البِكَالى؛ أن الشيطان الذى عرج فى أيوب كان يقال له: «سوط»[١]، قال: وكانت امرأة أيوب تقول: «ادع الله فيشفيك»، فجعل لا يدعو، حتى مر به نفر من بنى إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: «رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين».

وحدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب، عليه السلام، أخوان فجاءا يوماً، فلم يستطيعا أن يدنوا منه، من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا؟ فجزع أيوب من قولهما جزَعا لم يجزع من شىء قط، فقال: اللهم، إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان[٢] وأنا أعلم مكان جائع، فصدقنى. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم، إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار، فَصَدَقنى فصدق من السماء وهما يسمعان. اللهم[٣] بعزتك ثم خر ساجداً، ثم قال[٤]: اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبداً حتى تكشف عنى. فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد، عن عُقَيل، عن الزهرى، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه، كانا[٥] يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تَعَلَّم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف[٦] ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب، عليه السلام: لا أدرى ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهة أن يذكرا الله إلا فى حق. قال: وكان يخرج فى حاجته[٧]، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى إلى

(١) فى ف، أ: «مبسوط». (٢) فى ف: «شبعانا». (٣) فى ف، أ: «ثم قال: اللهم».
(٤) فى ف: «فقال». (٥) فى ف، أ: «له». (٦) فى ف: «فكشف».
(٧) فى ف: «حاجة».

www.besturdubooks.wordpress.com

أيوب فى مكانه: أن اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب»[(١)].

رفع هذا الحديث غريب جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا على بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس، قال: وألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس فى ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذهب المبتلى الذى كان ها هنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك! أنا أيوب! قالت: أتسخر منى يا عبد الله؟ فقال: ويحك! أنا أيوب، قد رد الله على جسدى.

وبه قال ابن عباس: ورد عليه ماله وولده عيانا، ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صاحبتك[(٢)] قرباناً، واستغفر لهم، فإنهم قد عصونى فيك. رواه ابن أبى حاتم.

[وقال][(٣)] أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر ابن أنس، عن بَشير[(٤)] بن نَهِيك، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب، أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعله فى ثوبه». قال: «فقيل له: يا أيوب، أما تشبع؟ قال: يا رب، ومن يشبع من رحمتك».

أصله فى الصحيحين[(٥)]، وسيأتى فى موضع آخر.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾: قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم. وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضاً. وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة.

وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النُّجْعَة، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب، وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساكر فى تاريخه ـ رحمه الله تعالى ـ قال: ويقال: اسمها ليا ابنة مِنَشَّا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: ليا بنت يعقوب، عليه السلام، زوجة أيوب كانت معه بأرض البَثَنِيَّة.

وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب، إن أهلك لك فى الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت

---

(١) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٠٩١) «موارد» من طريق حرملة بن يحيى عن ابن وهب بنحوه.
(٢) فى ف: «صحابتك».   (٣) زيادة من أ.   (٤) فى ف: «بشر».
(٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٥٨٢) من طرق عن عمرو بن مرزوق به، وسيأتى أصل الحديث فى صحيح البخارى عند تفسير الآية: ٤٢ من سورة ص.

www.besturdubooks.wordpress.com

تركناهم لك فى الجنة، وعوضناك مثلهم. قال: لا بل اتركهم لى فى الجنة. فتُركوا له فى الجنة وعوض مثلهم فى الدنيا.

وقال حماد بن زيد، عن أبى عمران الجَوْنى، عن نَوف البِكَالى قال: أوتى أجرهم فى الآخرة، وأعطى مثلهم فى الدنيا. قال: فحدثت به مُطَرِّفًا، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم.

وهكذا روى عن قتادة، والسدى، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أى: فعلنا به ذلك رحمة من الله به، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى: وجعلناه فى ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك[1] لهوانهم علينا، وليتأسوا به فى الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما[2] يشاء، وله الحكمة البالغة فى ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره فى سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام[3].

وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبى. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلا، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير فى ذلك، فالله أعلم.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبى، تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فَسُمى: ذا الكفل. وكذا روَى ابن أبى نَجيح، عن مجاهد أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وُهَيب، حدثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى، حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس، فقال: من يتقبل منى بثلاث: أستخلفه يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا. فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردهم[4] ذلك اليوم، وقال مثلها فى اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل وقال[5]: أنا. فاستخلفه، قال: وجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم ذلك[6]، قال: دعونى[7] وإياه، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ـ

---

(١) فى ف: «إنما فعل ذلك بهم».
(٢) فى ف: «فيما».
(٣) انظر: تفسير الآيات: ٥٤ ـ ٥٧.
(٤) فى ف، أ: «فيردهم».
(٥) فى ف: «فقال».
(٦) فى ف، أ: «ذلك الرجل».
(٧) فى أ: «دعونى أنا وإياه».

www.besturdubooks.wordpress.com

وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة ـ فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه، فقال: إن بينى وبين قومى خصومة، وإنهم ظلمونى، وفعلوا بى وفعلوا. وجعل يُطَول عليه حتى حصر الرواح وذهبت القائلة، فقال[١]: إذا رحت فأتنى آخذ لك بحقك. فانطلق، وراح. فكان فى مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس، وينتظره ولا[٢] يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال[٣]: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له[٤] فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى؟ قال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا[٥] أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك. وإذا قمت جحدونى. قال: فانطلق، فإذا رحت فأتنى. قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره[٦] ولا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يَقرب هذا الباب حتى أنام، فإنى قد شق علىّ النوم. فلما كان تلك الساعة أتاه[٧] فقال له الرجل: وراءك وراءك؟ فقال: إنى قد أتيته أمس، فذكرت له أمرى، فقال: لا، والله لقد أمرنا ألا ندع أحداً يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كُوَّة فى البيت، فتسور منها، فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان، ألم آمرك؟ فقال[٨]: أما من قبلى والله فلم تؤتَ، فانظر من أين أتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه فى البيت، فعرفه، فقال: أعدو الله؟ قال: نعم، أعييتنى فى كل شيء، ففعلت ما تَرَى لأغضبك. فسماه الله ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر، فوفى به[٩].

وهكذا رواه بن أبى حاتم، من حديث زهير بن إسحاق، عن داود، عن مجاهد، بمثله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم، قال: قال ابن عباس: كان قاض فى بنى إسرائيل، فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامى على ألا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا. فسمى ذا الكفل. قال: فكان[١٠] ليله جميعاً يصلى، ثم يصبح صائماً فيقضى بين الناس ـ قال: وله[١١] ساعة يقيلها ـ قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومته، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق، وقد غلبنى عليه. قالوا: كما أنت حتى يستيقظ ـ قال: وهو فوق نائم ـ قال: فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه[١٢]، قال: فسمع، فقال: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق. قال: اذهب فقل له يعطيك. قال: قد أبى. قال: اذهب أنت إليه. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قال، قال: فقال له أصحابه: اخرج، فعل الله بك، تجيء كل يوم حين ينام، لا

---

(١) فى ف: «وقال».
(٢) فى ف، أ: «فلا».
(٣) فى ف: «فقال».
(٤) فى ف: «ففتح الباب».
(٥) فى ف، أ: «اعترفوا».
(٦) فى ف: «ينتظر».
(٧) فى ف: «جاءه».
(٨) فى ت: «قال».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ٥٩).
(١٠) فى ف: «فقال».
(١١) فى ف: «فله».
(١٢) فى ف: «يغضبه».

www.besturdubooks.wordpress.com

تدعه ينام؟. فجعل[١] يصيح: من أجل أنى إنسان مسكين، لو كنت غنيا؟ قال: فسمع أيضاً، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربنى. قال: امش حتى أجيء معك. قال: فهو ممسك بيده، فلما رآه ذهب معه نَتَر يده منه [٢] فَفَر.

وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وابن حُجَيرة الأكبر، وغيرهم من السلف، نحو من هذه القصة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهر[٣]، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبى كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعرى وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبى، ولكن كان ـ يعنى: فى بنى إسرائيل ـ رجل صالح يصلى كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة، فسمى ذا الكفل.

وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: «قال أبو موسى الأشعرى. . .» فذكره منقطعا[٤]، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال:

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد[٥] مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين ـ حتى عدّ سبع مرات ـ ولكن قد سمعته أكثَرَ من ذلك، قال: «كان الكفل من بنى إسرائيل، لا يتورّع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا، على أن يَطَأها، فلما قعد منها[٦] مَقعدَ الرجل من امرأته، أرعدَت[٧] وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكْرَهْتُك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حَمَلنى عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ فَنَزَل[٨] فقال: اذهبى فالدنانير لك. ثم قال: والله لا يَعصى الله الكفل أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل»[٩].

هكذا وقع فى هذه الرواية «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة[١٠]، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فلعله رجل آخر، والله أعلم.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ

(١) فى ف، أ: «قال: فجعل». (٢) فى أ: «منه فذهب». (٣) فى ف، أ: «أبو الجماهير».
(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٠).
(٥) فى ف، أ: «سعيد». (٦) فى أ: «معها». (٧) فى أ: «ارتعدت».
(٨) فى ف: «ثم نزل».
(٩) المسند (٢/ ٢٣).
(١٠) قلت: بل أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٦) من طريق عبيد بن أسباط عن أبيه به، وقال: «هذا حديث حسن قد رواه شيبان وغير واحد عن الأعمش نحو هذا ورفعوه وروى بعضهم عن الأعمش فلم يرفعه».

www.besturdubooks.wordpress.com

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(٨٨)﴾.

هذه القصة مذكورة ها هنا وفى سورة «الصافات» وفى سورة «ن»[1] وذلك أن يونس بن مَتَّى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى»، وهى قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبى لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا[2] إليه، ورغت الإبل وفُصْلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمْلانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: **﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ[3] الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾** [يونس: ٩٨].

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فَلَجَّجت بهم، وخافوا أن يغرقوا[4]. فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا[5] أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: **﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾** [الصافات: ١٤١]، أى: وقعت عليه القرعة[6]، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه فى البحر، وقد أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر ـ فيما قاله ابن مسعود ـ حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظما؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك له يكون سجناً.

وقوله: **﴿وَذَا النُّونِ﴾** يعنى: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة.

وقوله: **﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾**: قال الضحاك: لقومه، **﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾** [أى: نضيق عليه فى بطن الحوت. يُروَى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره[7] ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: **﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾** [الطلاق: ٧].

وقال عطية العَوفى: **﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾**][8]، أى: نقضى عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدَر وقَدّر بمعنى واحد، وقال الشاعر:

---

(١) سورة الصافات الآيات: ١٣٩ ـ ١٤٨)، وسورة نون (القلم) الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.
(٢) فى ت: «ولجؤوا».
(٣) فى ت: «العذاب».
(٤) فى ت، ف: «تغرق بهم».
(٥) فى ت: «فأتوا».
(٦) فى ف: «فوقعت القرعة عليه».
(٧) فى ت: «واختارهم».
(٨) زيادة من ت، ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلاَ عَائد ذَاكَ الزّمَانُ الذى مَضَى   تباركت ما تَقْدرْ يكُنْ، فَلَكَ الأمْرُ

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أى: قُدّر.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روى عن ابن عباس[١]، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادة.

وقال سالم بن أبى الجعد: ظلمةُ حُوت فى بطن حوت[٢]، فى ظلمة البحر.

قال ابن مسعود، وابنُ عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوتُ فى البحار يَشُقُّها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع[٣] يونسُ تسبيح الحصى فى قراره، فعند ذلك وهنالكَ قال: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ﴾.

وقال عوف: لما صار يونس فى بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب[٤]، اتخذت لك مسجداً[٥] فى موضع ما اتخذه[٦] أحد.

وقال سعيد بن الحسن البصرى: مكث فى بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما[٧] ابن جبير.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع ـ مولى أم سلمة ـ سمعتُ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حَبْسَ يونس فى بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً، فقال فى نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو فى بطن[٨] الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فَسَبَّح وهو فى بطن الحوت، فسمع[٩] الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً [بأرض غريبة][١٠] قال: ذلك عبدى يونس، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عملٌ صالح؟. قال: نعم». قال: «فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل، كما قال الله عز وجل[١١]: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾» [الصافات: ١٤٥].

ورواه ابن جرير[١٢]، ورواه البزار فى مسنده، من طريق محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة، فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد[١٣]، وروى ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سَلَمَة[١٤]،

(١) فى ف: «ابن مسعود». (٢) فى ف، أ: «حوت آخر». (٣) فى ت، أ: «حتى يسمع»، وفى ف: «حتى سمع».
(٤) فى ت: «رب الحوت». (٥) فى ت: «مسجد». (٦) فى ف، أ: «ما أخذه».
(٧) فى ت: «رواها». (٨) فى ف: «وهو ببطن». (٩) فى ف، أ: «فسمعت».
(١٠) زيادة من ف، أ. (١١) فى ت: «الله تعالى».
(١٢) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٥).
(١٣) مسند البزار برقم (٢٢٥٤) «كشف الأستار».
(١٤) فى ت، ف: «مسلم».

www.besturdubooks.wordpress.com

عن على مرفوعاً: لا ينبغى لعبد أن يقول: «أنا[١]خير من يونس بن متى»؛ سبح لله فى الظلمات[٢].

وقد روى هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وسيأتى أسانيدها فى سورة «ن»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخى ابن وهب، حدثنا عمى: حدثنى أبو صخر: أن يزيد الرقاشى حدثه قال: سمعت أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ أن يونس النبى، عليه السلام، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إنى كنت من الظالمين». فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش[٤]، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك[٥] ؟ قالوا: لا، يا رب[٦]، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يُرفَع له عَمَلٌ متقبل[٧]، ودعوة مجابة؟. [قال: نعم][٨]. قالوا: يا رب، أوَلا[٩] ترحم ما كان يصنع[١٠] فى الرخاء فتنجيَه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه فى العراء[١١].

وقوله: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إذا كانوا فى الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء، فقد جاء الترغيب فى الدعاء بها عن سيد الأنبياء، قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا يونس بن أبى إسحاق الهمدانى، حدثنا إبراهيم بن محمد[١٢] ابن سعد، حدثنى والدى محمد عن أبيه سعد، ـ وهو ابن أبى وقاص ـ قال: مررت بعثمان بن عفان، رضى الله عنه، فى المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه منى ثم لم يَردُدْ علىّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث فى الإسلام شىء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنى مررتُ بعثمان[١٣] آنفا فى المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه منى، ثم لم يَرْدُد[١٤] على السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رَدَدت على أخيك

---

(١) فى ف: «أنا عند الله خير».

(٢) كذا (ابن عبد الحق)، وأظنه تحريف عن عبد بن حميد، إلا أنى لا أجزم بذلك، وقد ذكره الهندى فى كنز العمال (١٢/ ٤٧٦) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر فى تاريخه.

(٣) كذا قال الحافظ ابن كثير، وإنما ذكره هناك من حديث ابن مسعود وأبى هريرة رضى الله عنهما.
فأما حديث ابن عباس: فرواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٩٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٧٧).
وأما حديث عبد الله بن جعفر: فرواه أبو داود فى السنن برقم (٤٦٧٠).

(٤) فى ت: «نحو العرش» وفى ف: «تحت العرش». (٥) فى ف: «ذلك». (٦) فى ت، ف: «يا ربنا».

(٧) فى ت، ف: «متقبلاً». (٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت، ف، أ: «أفلا».

(١٠) فى ت، ف: «يصنعه».

(١١) ورواه ابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة برقم (٣٢) من طريق أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب به.

(١٢) فى ت: «محمد بن إبراهيم». (١٣) فى ف، أ: «بعثمان بن عفان رضى الله عنه».

(١٤) فى ت: «يرد».

www.besturdubooks.wordpress.com

السلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعد: قلتُ: بلى[١]. حتى حلفَ وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكرَ فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بى آنفا وأنا أحدّث نفسى بكلمة سمعتُها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغْشَى بصرى وقلبى غشَاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا [أول دعوة][٢] ثم جاء أعرابى فشغله، حتى قامَ رسولُ الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض، فالتفت إلىّ رسولُ الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرتَ لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك. قال: «نعم، دعوةُ ذى النون، إذ هو فى بطن الحوت: **﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له».

ورواه الترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد[٣]، به[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كَثِير بن زيد، عن المطلب بن حنطب ـ قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب، يعنى: ابن سعد ـ عن سعد[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس، استُجِيب[٦] له». قال أبو سعيد: يريد به **﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**[٧].

وقال ابن جرير: حدثنى عمران بن بكّار الكَلاَعى، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثنى بِشْر بن منصور، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك ـ وهو ابن أبى وقاص ـ يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «اسم الله الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى، دعوةُ يونس بن متى». قال: قلت[٨]: يا رسول الله، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: **﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**. فهو شرط من الله لمن دعاه به»[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج، حدثنا داود بن المُحَبَّر بن قَحْذَم المقدسى، عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابنَ أخى، أما تقرأ القرآن؟ قول الله: **﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ**

---

(١) فى ف: «ويلى». (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «ابن سعيد».

(٤) المسند (١/ ١٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٥٠٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٤٩٢).

(٥) فى ت: «عن سعيد». (٦) فى ت: «استجبت».

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٨٤) من طريق يحيى بن عبد الحميد، وابن عدى فى الكامل (٦/ ٦٨) من طريق أبى هشام الرفاعى كلاهما عن أبى خالد الأحمر به.

(٨) فى ت، ف: «فقلت».

(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٥).

www.besturdubooks.wordpress.com

مُغَاضِبًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، ابن أخى، هذا اسم الله الأعظم، الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾.

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يَهَبَه الله ولدا، يكون من بعده نبياً. وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة «مريم» وفى سورة «آل عمران» أيضا، وها هنا أخصر منهما؛ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أى: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أى: لا ولدَ لى ولا وارثَ يقوم بعدى فى الناس، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، دعاء وثناء مناسب للمسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أى: امرأته.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير: كانت عاقراً لا تلد، فولدت.

وقال عبد الرحمن بن مهدى[١]، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان فى لسانها طول فأصلحها الله. وفى رواية: كان فى خَلْقها شيء فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب، والسدّى. والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: فى عمل القُرُبات وفعل الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثورى: ﴿رَغَبًا﴾ فيما عندنا، و﴿رَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقا. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سِنَان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متواضعين. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متذللين لله عز وجل. وكل هذه الأقوال متقاربة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق بن[٢] عبد الله القرشى، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضى الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتُثنُوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

---

(١) فى ت: «ابن منبه». (٢) فى ت، ف: «عن».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾.

هكذا قَرَن تعالى[١] قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولا قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مُوَطّئة لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طَعَن فى السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع فى سورة «آل عمران»، وفى سورة «مريم»، وها هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، فقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعنى: مريم، عليها السلام، كما قال فى سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: دلالة على أن الله على كل شىء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَمْرو بن على، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مُخَلَّد[٢]، عن شَبَيب[٣] ـ يعنى: ابن بشر[٤] ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين: الجن والإنس.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿إِنَّ[٥] هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد.

وقال الحسن البصرى؛ فى[٦] هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: سنتكم سنة واحدة. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إنّ واسمها، و﴿ أُمَّتُكُمْ﴾ خبر إن، أى: هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب[٧] على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد عَلاَّت ديننا واحد»، يعنى: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) فى ت: «يقرن الله تعالى» وفى ف، أ: «يقرن تعالى». (٢) فى ف: «عن مجلز». (٣) فى ت، ف، أ: «شعيب».
(٤) فى ف: «بشير». (٥) فى ت، ف: «وإن». (٦) فى ت: «من».
(٧) فى ت: «نصيب».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أى: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مَصَدق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيجازَى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: قلبه مصدق، وعمل عملا صالحا، ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠] أى: لا يُكْفَر سعيُه، وهو عمله، بل يُشْكَر، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى: يُكتب جميعُ عمله، فلا يَضيع عليه منه شيء.

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: قال ابن عباس: وجب، يعنى: قدراً مُقَدراً[١] أن أهل كل[٢] قرية[٣] أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. هكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة، وغير واحد.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أى: لا يتوبون.

والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضا[٤]، من أولاد يافث أبى الترك، والترك شرذمة منهم، تُركوا من وراء السد الذى بناه ذو القرنين.

وقال: ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أى: يسرعون فى المشى إلى الفساد.

والحَدَب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثورى وغيرهم، وهذه صفتهم فى حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذى يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عُبَيد الله بن أبى يزيد قال: رأى ابنُ عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض، يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا

---

(١) فى ت، ف: «مقدورا».
(٢) فى ت، ف: «إن كل أهل».
(٣) فى ت: «القرية».
(٤) فى ف، أ: «عليه السلام».

www.besturdubooks.wordpress.com

يخرج يأجوج ومأجوج[١].

وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية:

فالحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة، عن محمود بن لَبِيد، عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفتَح يأجوجُ ومأجوجُ، فيخرجون كما قال الله عز وجل: ﴿[وَهُم][٢] مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيغشونَ الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم[٣]، ويضمون إليهم مواشيَهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضَهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يَبَسا، حتى إن مَنْ بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول[٤]: قد كان ها هنا ماء مرةً، حتى إذا لم يبقَ من الناس أحد إلا أحدٌ فى حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهلُ الأرض، قد فرغنا منهم، بقى أهلُ السماء. قال: «ثم يهزّ أحدُهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع إليه مُخْتَضبَةً دما؛ للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا فى أعناقهم كنَغَف الجراد الذى يخرج فى أعناقه، فيصبحون[٥] موتى لا يُسمَع لهم حِس، فيقول المسلمون: ألا رجل يَشْرى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرّد رجل منهم محتسبا نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويُسَرِّحون مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فَتَشْكر عنه كأحسن ما شكرَت عن شىء من النبات أصابته قط.

ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق، به[٦].

الحديث الثانى: قال [الإمام][٧] أحمد أيضا: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقى، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنى يحيى بن جابر الطائى ـ قاضى حمص ـ حدثنى عبد الرحمن ابن جُبَير بن نُفَير الحضرمى، عن أبيه، أنه سمع النَّوّاس بن سمْعانَ الكلابى قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غَداة، فخَفَض فيه ورَفَع، حتى ظنناه فى طائفة النخل، [فلما رُحْنَا إليه عرف ذلك فى وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل][٨]. فقال: «غير الدجال أخْوَفُنى عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجيجُه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم: إنه شاب جَعْدٌ قَطَط عينه

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٧٠).
(٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «وحضرتهم». (٤) فى ت: «فيقولون».
(٥) فى ت: «فيحصون».
(٦) المسند (٣/ ٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٩)، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٦٠): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».
(٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

www.besturdubooks.wordpress.com

طافية، وإنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا».

قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذى هو كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره».

قلنا: يا رسول الله، فما إسراعه فى الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «فيمر بالحى فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهى أطول ما كانت ذُرًى، وأمده خواصر، وأسبغه ضروعا. ويمر بالحى فيدعوهم فيردون عليه قولَه، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُمْحلين، ليس لهم من أموالهم. ويمر بالخَربة فيقول لها: أخرجى كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل». قال: «ويأمر برجل فيُقتَل، فيضربه بالسيف فيقطعه جَزْلتين رَمْيَةَ الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل إليه [يتهلل وجهه][(١)].

فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة[(٢)] البيضاء، شرقى دمشق، بين مَهْرُودَتَين واضعا يَدَه على أجنحة مَلَكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُدّ الشرقى».

قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى لا يَدَانِ لك بقتالهم، فَحَوِّز عبادى إلى الطور، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نَغَفاً فى رقابهم، فيصبحون فَرْسَى، كموت نفس واحدة.

فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون فى الأرض بيتا إلا قد ملأه زَهَمُهم ونَتْنُهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله».

قال ابن جابر[(٣)]: فحدثنى عطاء بن يزيد السَّكْسَكى[(٤)]، عن كعب ـ أو غيره ـ قال: فتطرحهم بالمَهْبِل. [قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المَهْبِل؟][(٥)]، قال: مطلع الشمس.

قال: «ويرسل الله مطراً لا يكُنّ[(٦)] منه بيت مَدَر ولا وَبَر أربعين يوما، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزّلَقَة، ويقال للأرض: أنبتى ثمرتك، ورُدّى بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحْفها، ويُبَارك فى الرِسْل، حتى إن اللَّقْحَةَ من الإبل لتكفى الفِئَامَ من الناس، واللقحة من البقر تكفى الفخذ، والشاة من الغنم تكفى أهل البيت».

---

(١) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٢) فى ت: «المنازل».
(٣) فى ت: «جرير».
(٤) فى ت: «السلسلى».
(٥) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٦) فى ت: «يكون».

www.besturdubooks.wordpress.com

قال: «فبينما هم على ذلك[١]، إذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة تحت آباطهم، فتقبض روح كل مسلم ـ أو قال: كل مؤمن ـ ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة».

انفرد[٢] بإخراجه مسلم دون البخارى، فرواه مع بقية أهل السنن من طرق، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به[٣]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، عن ابن حَرْمَلَة، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عَقْرب، فقال: «إنكم تقولون: «لا عدو[٤]»، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً، حتى يأتى يأجوج ومأجوج عراض الوجوه، صغار العيون، صُهْبَ الشّعاف، من كل حَدَب ينسلون، كأن وجوههم المَجَانّ المُطرَقة»[٥].

وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث محمد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن حَرْمَلة المدلجى، عن خالة له، عن النبى ﷺ، فذكر مثله[٦].

الحديث الرابع: قد تقدم فى تفسير آخر سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن هُشَيْم، عن العَوَّام، عن جَبَلَة ابن سُحَيْم، عن مُؤثر بن عَفَازَة، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها[٧]، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها[٨]. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجْبَتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيها عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رآنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب يَنسلون، فيطؤون بلادهم، لا[٩] يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلىّ يشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تَجوى الأرض من نَتْن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلىّ ربى أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المُتِمّ، لا يدرى أهلها متى تَفْجُؤهم بولادها ليلا أو نهارا».

ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العَوَّام بن حَوْشَب، به[١٠]،

---

(١) فى ف: «هم كذلك». (٢) فى ت: «وانفرد».
(٣) المسند (٤/ ١٨١) وصحيح مسلم برقم (٢١٣٧) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢١) وسنن الترمذى برقم (٢٢٤٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٥).
(٤) فى ت، ف، أ: «لا عدو لكم».
(٥) المسند (٥/ ٢١٧).
(٦) فى ت، أ: «مثله سواء». (٧، ٨) فى ت: «فيها».
(٩) فى ت، ف: «ولا».
(١٠) المسند (١/ ٣٧٥) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٨١) وسبق عند تفسير الآية: ١٨٧ من سورة الأعراف.

www.besturdubooks.wordpress.com

نحوه وزاد: «قال العَوَّام، ووجد تصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**﴾.

ورواه ابن جرير ها هنا من حديث جبلة، به[1].

والأحاديث فى هذا كثيرة جدا، والآثار عن السلف كذلك.

وقد روى ابنُ جرير وابن أبى حاتم، من حديث مَعْمَر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبى الصَّيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجىء غدا فنخرج، فيعيده الله كما كان. فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجىء غدا فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة، فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون[2]: قد كان ها هنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، فلا يقوم لهم شىء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليه مُخَضَّبة بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقول: «اللهم، لا طاقة ولا يَدَين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت»، فيسلط الله عليهم دودا يقال له: النغف، فيفرس[3] رقابهم، ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم فى البحر، ويبعث الله عينا يقال لها: «الحياة» يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السَّكْن». قيل: وما السَّكن يا كعب؟ قال: أهل البيت ـ قال: «فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصَّريخ أن ذا السُّويقَتَين يريده. قال: فيبعث[4] عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عَجَاج[5] الناس، فيتسافدون كما تَسَافَدُ البهائم، فَمَثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولى هذا شيئا ـ أو بعد علمى هذا شيئا ـ فهو المتكلف[6].

هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شهد له من صحيح الأخبار.

وقد ثبت فى الحديث أن عيسى ابن مريم يحجّ البيت العتيق، وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان ابن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله بن أبى عُتبَةَ، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُحَجَّنَّ هذا البيت، وليُعْتَمَرنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج». انفرد بإخراجه البخارى[7].

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٧٢).
(٢) فى ت: «فيقول». (٣) فى ت: «فيفرش». (٤) فى ت: «فيبعث الله عيسى».
(٥) فى ت، ف: «عجاج من».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ٧١).
(٧) المسند (٣/ ٢٧) وصحيح البخارى برقم (١٥٩٣).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعنى: يوم القيامة، إذا وُجدت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أى: يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أى: فى الدنيا، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾.

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركى قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال ابن عباس: أى وقودها، يعنى كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن عباس أيضا: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى: شجر جهنم. وفى رواية قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعنى: حطب جهنم، بالزنجية.

وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حطبها. وهى كذلك فى قراءة على وعائشة ـ رضى الله عنهما.

وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أى: ما يرمى به فيها.

وكذا قال غيره. والجميع قريب.

وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أى: داخلون، ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ يعنى: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التى اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾، كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا ابن فُضَيْل، حدثنا عبدالرحمن ـ يعنى: المسعودى ـ عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقى من يخلد فى النار، جُعلوا فى توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يَرَى أحد منهم أنه يعذب فى النار غيره، ثم تلا

www.besturdubooks.wordpress.com

عبدالله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث حجاج بن محمد، عن المسعودى، عن يونس بن خبّاب[١]، عن ابن مسعود فذكره.

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة، ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسُله[٢]، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة فى الدنيا، كما قال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وقال ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل فى الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصّل[٣] لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أى: حريقها فى الأجساد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبيه، عن الجريرى[٤]، عن أبى عثمان: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: حيات على الصراط[٥] تلسعهم، فإذا لسعتهم قال: حَسَ حَسَ.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج، حدثنا محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمدانى، عن ليث بن أبى سليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال ـ وسَمَرَ مع على ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم ـ أو قال: سعد منهم ـ قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجر ثوبه، وهو يقول: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

وقال شعبة، عن أبى بشر، عن يوسف المكى، عن محمد بن حاطب[٦] قال: سمعت عليا يقول فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ قال: عثمان وأصحابه.

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد ـ وليس بابن ماهك ـ عن محمد بن حاطب، عن على، فذكره ولفظه: عثمان منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثياً.

---

(١) فى ت: «ابن حبان». (٢) فى ت: «ورسوله». (٣) فى ت: «وجعل».
(٤) فى ت، ف، أ: «عن أبى عثمان الجريرى». (٥) فى ت: «على الصراط المستقيم». (٦) فى ت: «خاطب».

www.besturdubooks.wordpress.com

فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عَزير والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾**، ثم استثنى فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾**، فيقال[١]: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج[٢].

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾** قال: نزلت فى عيسى ابن مريم وعُزَير، عليهما السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسين بن عيسى بن مَيْسَرَة، حدثنا أبو زُهَير، حدثنا سعد بن طَرِيف، عن الأصبغ، عن علىّ فى قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾** قال: كل شىء يعبد من دون الله فى النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم. إسناده ضعيف.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: **﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾**، قال: عيسى، وعُزَيْز، والملائكة.

وقال الضحاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا روى عن سعيد بن جُبَيْر، وأبى صالح وغير واحد.

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً غريباً جدا، فقال: حدثنا الفضل بن يعقوب الرُّخَّانى، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدثنا الليث بن أبى سليم، عن مُغيث، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾** قال: عيسى، وعُزَيز، والملائكة[٣].

وذكر بعضهم قصة ابن الزِّبَعْرَى ومناظرةَ المشركين، قال أبو بكر بن مَرْدُويه:

حدثنا محمد بن على بن سهل، حدثنا محمد بن حسن الأنماطى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرَةَ، حدثنا يزيد بن أبى حكيم، حدثنا الحكم ـ يعنى: ابن أبان ـ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾**، فقال ابن الزبعرى: قد عُبدت الشمس والقمر والملائكة، وعُزَير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا؟ فنزلت: **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً[٤] بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾**، ثم نزلت: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾**. رواه الحافظ أبو عبد الله فى كتابه «الأحاديث المختارة».

---

(١) فى ف: «فقال». (٢) فى ت: «وابن ماجه وابن جريج».
(٣) وفى إسناده سعيد بن مسلمة وشيخه ليث بن أبى سليم وهما ضعيفان.
(٤) فى ت: «مثلا».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا قَبِيصة بن عقبة، حدثنا سفيان ـ يعنى: الثورى ـ عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ قال المشركون: فالملائكة[(١)]، وعُزَير، وعيسى يُعْبَدون من دون الله؟ فنزلت: ﴿**لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا**﴾، الآلهة التى يعبدون، ﴿**وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

وروى عن أبى كُدَيْنَة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس مثل ذلك، وقال فنزلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾.

وقال [الإمام][(٢)] محمد بن إسحاق بن يسار[(٣)]، رحمه الله، فى كتاب «السيرة»: وجلس رسول الله ـ فيما بلغنى ـ يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المسجد[(٤)] غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ**﴾[(٥)]، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبَعْرَى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد[(٦)] من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصمته، فسلوا محمداً: كل ما يُعْبَد[(٧)] من دون الله فى جهنم مع من عَبَده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس، من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فَذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كل مَنْ أحَبَّ أن يُعْبَدَ من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين[(٨)] ومن أمَرَتْهم[(٩)] بعبادته. وأنزل الله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ**﴾ أى: عيسى وعزير ومن عُبِدوا من الأحبار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونَزَل فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩]، ونَزَل فيما ذُكر من أمر عيسى، وأنه يعبد من دون الله، وعَجَب الوليد ومن حَضَره من حُجَّته وخصومته: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**

(١) فى ت: «والملائكة». (٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت: «ابن بشار». (٤) فى ف: «المجلس».
(٥) فى ت، ف: «أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون. لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون».
(٦) فى ت: «تعبدون». (٧) فى ت: «يعبدون». (٨) فى ت، ف: «الشيطان».
(٩) فى ف: «أمرهم».

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١] أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: **﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾** [الزخرف ٦١].[١].

وهذا الذى قاله ابن الزبعرى خطأ كبير؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة فى عبادتهم الأصنام التى هى جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها؛ ولهذا قال: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾**، فكيف يُورَد عَلَى هذا المسيح والعزير[٢] ونحوهما، ممن[٣] له عمل صالح، ولم يَرْضَ بعبادة من عبده. وعوّل ابن جرير فى تفسيره فى الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب.

وقد أسلم عبد الله بن الزبعرى بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يهاجى المسلمين أولا، ثم قال معتذراً.

يا رَسُــولَ المليــك، إنّ لسانــى ... رَاتقٌ مَا فتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ

إذْ أجَارى الشَّيطَانَ فى سَنَن الغَى ... وَمَنْ مَالَ مَيْلَه مَثْبُور[٤]

وقوله: **﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾**: قيل المراد بذلك الموت. رواه عبد الرزاق، عن يحيى بن ربيعة عن عطاء.

وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة فى الصور. قاله العَوْفى عن ابن عباس، وأبو سِنَان سعيد[٥] ابن سنان الشيبانى، واختاره ابن جرير فى تفسيره.

وقيل: حين يُؤْمَر بالعبد إلى النار. قاله الحسن البصرى.

وقيل: حين تُطبق النار على أهلها. قاله سعيد بن جُبَيْر، وابن جُرَيج.

وقيل: حين يُذبَح الموت بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهذلى[٦]، فيما رواه ابن أبى حاتم، عنه.

وقوله: **﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾**، يعنى: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: **﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾** أى: قابلوا[٧] ما يسركم.

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٥٨) ،ورواه الطبرى فى تفسيره (١٧/٧٦).
(٢) فى ف: «وعزير». (٣) فى ت: «وممن».
(٤) البيتين فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤١٩).
(٥) فى ت، ف، أ: «سعد». (٦) فى ف، أ: «الهمدانى». (٧) فى ت: «فأملوا».

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد قال البخارى:

حدثنا مُقَدم بن محمد، حدثنى عمى القاسم بن يحيى، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضَين، وتكون السموات بيمينه»(١).

انفرد به من هذا الوجه البخارى، رحمه الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرَّقِّى، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبى الواصل(٢)، عن أبى المليح الأزدى(٣)، عن أبى الجوزاء الأزدى، عن ابن عباس قال: يطوى الله(٤) السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة، يطوى ذلك كله(٥) بيمينه، يكون ذلك كله فى يده بمنزلة خردلة.

وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: قيل: المراد بالسجل [الكتاب. وقيل: المراد بالسجل](٦) هاهنا: مَلَك من الملائكة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعى، عن أبيه، عن ابن عمر فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: السجل: مَلَك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً.

وهكذا رواه ابن جرير، عن أبى كُرَيْب، عن ابن يمان، به.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى جعفر(٧) محمد بن على بن الحسين أن السجل ملك.

وقال السدى فى هذه الآية: السجل: مَلَك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع(٨) كتابُه إلى السجل فطواه، ورفعه إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد به اسم رجل صحابى، كان يكتب للنبى ﷺ الوحى:

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا نصر بن على الجَهْضَمىّ، حدثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس: [﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾](٩)، قال: السجل: هو الرجل.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٤١٢).
(٢) فى ت: «المواصل».
(٣) فى ت: «الأودى».
(٤) فى ت: «إليه».
(٥) فى ف: «كله ذلك».
(٦) زيادة من ف.
(٧) فى ت: «أبى حفص».
(٨) فى ت: «دفع».
(٩) زيادة من ف.

www.besturdubooks.wordpress.com

قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب ـ هو العَوْذى ـ عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس قال: السجل كاتب[١] للنبى ﷺ.

وهكذا رواه أبو داود والنسائى عن قتيبة بن سعيد[٢]، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجل كاتب[٣] للنبى ﷺ[٤].

ورواه ابن جرير عن نصر بن على الجهضمى، كما تقدم. ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النُّكْرىّ عن أبيه، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبى[٥] ﷺ كاتب يسمى[٦] السجل وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: كما يطوى السجل الكتاب، كذلك نطوى السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ[٧].

وقال الخطيب البغدادى فى تاريخه: أنبأنا أبو بكر البَرْقَانى، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجى، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخى، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السجلّ: كاتب للنبى ﷺ[٨].

وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلا، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبى داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان فى سنن أبى داود ـ منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزِّى، فَسَح الله فى عمره، ونَسَأ فى أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة[٩]، ولله الحمد. وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم رد، وقال: لا يُعَرف فى الصحابة أحد[١٠] اسمه السجِل، وكُتّاب النبى ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصَدَق رحمه الله فى ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكَارة هذا الحديث. وأما مَنْ ذكر فى أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة، قاله على بن أبى طلحة والعوفى، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف فى اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أى: على [هذا][١١] الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أى: على الجبين، وله نظائر فى اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ يعنى: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم[١]، وذلك واجب الوقوع، لأنه من

---

(١) فى ت: «كانت». (٢) فى ت: «سعد». (٣) فى ت: «كانت».
(٤) سنن أبى داود برقم (٢٩٣٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٣٥).
(٥) فى ت: «كان لرسول الله». (٦) فى ت: «كانت تسمى».
(٧) الكامل (٧/ ٢٠٥)
(٨) تاريخ بغداد (٨/ ١٧٥).
(٩) فى أ: «حدته». (١٠) فى ف: «لا يعرف أحد فى الصحابة». (١١) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر المعنى[٢]، قالا[٣]: حدثنا شعبة، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غُرْلا كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين»؛ وذكر تمام الحديث، أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة. ورواه[٤] البخارى عند هذه الآية فى كتابه[٥].

وقد روى ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبى[٦] ﷺ، نحو ذلك.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ قال: نهلك كل شىء، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾.

يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة فى الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض فى الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ [وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا][٧]﴾، الآية [النور: ٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جُبَير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن[٨].

وقال مجاهد: الزبور: الكتاب.

وقال ابن عباس، والشعبى، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذى أنزل على داود، والذكر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن.

وقال سعيد بن جُبَير: الذكر: الذى فى السماء.

---

(١) فى ت: «إعادته». (٢) فى هـ، ت، ف، أ: «وابن جعفر، وعفان المعنى» والمثبت من المسند.
(٣) فى ت: «قالوا». (٤) فى ت: «وذكره»، وفى ف، أ: «ذكره».
(٥) المسند (١/ ٢٣٥) وصحيح البخارى برقم (٤٦٢٥)، (٤٧٤٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٠).
(٦) فى ت، ف: «عن رسول الله». (٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى أ: «الفرقان».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال مجاهد: الزبور: الكتبُ بعد الذكر، والذكر: أمّ الكتاب عند الله.

واختار ذلك ابن جرير رحمه الله(١)، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول. وقال الثورى: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التى نُزّلت على الأنبياء، والذكر: أم الكتاب الذى (٢)يكتب فيه الأشياء قبل ذلك.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه(٣) فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يُورثَ أمةَ محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والشعبى، وقتادة، والسدى، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثورى [رحمهم الله تعالى](٤).

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أى: إن فى هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لَمَنْفعةَ وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله [تعالى](٥): ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جَعَل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أى: أرسله رحمة لهم كلّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكَر هذه النعمةَ، سَعد فى الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدها خسر فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ(٦) الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال الله تعالى فى صفة القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا مروان الفَزَارىّ، عن يزيد بن كَيْسَان، عن ابن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إنى لم أبعَثْ لَعَّاناً، وإنما بُعثْتُ رحمة». انفرد بإخراجه مسلم(٧).

وفى الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة». رواه عبد الله بن أبى عرابة، وغيره، عن وَكِيع، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعا(٨). قال إبراهيم الحربى: وقد رواه غيره عن وكيع،

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٨١).
(٢) فى ت: «أم الكتاب والذى».
(٣) فى ف: «الله تعالى».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) زيادة من ت، وفى ف، أ: «عز وجل».
(٦) فى ت، ف، أ: «فبئس».
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩).
(٨) رواه أبو الحسن السكرى فى «الفوائد المنتقاة» (٢/١٥٧). كما فى السلسلة الصحيحة (١/ ٨٠٣) للألبانى ـ حدثنا عبد الله بن محمد ابن أسد، حدثنا حاتم بن منصور الشاشى قال: حدثنا عبد الله بن أبى عرابة الشاشى به.
ورواه غيره متصلاً:
فرواه عبد الله بن نصر الأصم عن وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعاً. =

www.besturdubooks.wordpress.com

فلم يذكر أبا هريرة[١]. وكذا قال البخارى، وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلا.

قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن سُعَير بن الْخِمْس، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعا[٢]. ثم ساقه من طريق أبى بكر بن المقرئ وأبى أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر ابن محمد بن إبراهيم الصوفى: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، عن أبى أسامة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس[٣] بن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة».

ثم أورده من طريق الصَّلْت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن مِسْعَر[٤]، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثنى رحمة مهداة، بُعِثْتُ برفع قوم وخفض آخرين»[٥].

قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدّراوردى وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمد بن صالح التمار، عن ابن [شهاب][٦]، عن محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قدم [مكة][٧] منصرفه عن حَمْزَة: يا معشر قريش، إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئا، فاحذروا أن تمروا طريقَه أو تقاربوه[٨]، فإنه كالأسد الضارى؛ إنه حَنِق عليكم؛ لأنكم نفيتموه نفى القِرْدَان عن المناسم[٩]، والله إن له لَسحَرَةً، ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشيطان، وإنكم قد عرفتم عداوة ابنى قَيلَةَ ـ يعنى: الأوس والخزرج ـ لهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدى: يا أبا الحكم، والله ما رأيتُ أحداً أصدقَ لساناً، ولا أصدق موعداً، من أخيكم الذى طردتم، وإذ فعلتم الذى فعلتم فكونوا أكف الناس عنه. قال [أبو سفيان][١٠] بن الحارث: كونوا أشدّ ما كنتم عليه، إن[١١] ابنى قيلَةَ إن ظفَرُوا بكم لم يرقُبوا فيكم إلاً ولا ذمة، وإن أطعتمونى ألجأتموهم خير كنابة، أو تخرجوا محمداً

= خرجه ابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٣١) من طريق عمر بن سنان عن عبد الله بن نصر.
وقال: «هكذا حدثناه عمر بن سنان عن عبد الله بن نصر عن وكيع عن الأعمش، وهذا غير محفوظ عن وكيع عن الأعمش، إنما يرويه مالك بن سعيد عن الأعمش، وعبد الله بن نصر هذا له غير ما ذكرت مما أنكرت عليه».

(١) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١١/ ٥٠٤) عن وكيع مرسلاً، ورواه ابن سعد فى الطبقات (١/ ١٨٢) عن وكيع مرسلاً، ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٥٧) من طريق إبراهيم بن عبد الله عن وكيع مرسلاً.

(٢) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٦٩) «كشف الأستار» والبيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٥٨) من طريق زياد بن يحيى عن مالك بن سعيد به، وقال البزار: «لا نعلم أحداً وصله إلا مالك بن سعيد، وغيره يرسله».

(٣) فى ت، أ: «حسن». (٤) فى أ: «عن شعبة».

(٥) وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ورمز له الألبانى بالضعف.

(٦، ٧) زيادة من أ. (٨) فى ت: «أو تحاربوه». (٩) فى أ: «الناس».

(١٠) زيادة من أ. (١١) فى ت: «فإن».

www.besturdubooks.wordpress.com

من بين ظهرانيهم، فيكون وحيدا مطرودا، وأما [ابنا قَيْلة فوالله ما هما][١] وأهل [دهلك][٢] فى المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم، وقال:

سَأَمْنَحُ جَـانباً منّى غَليظاً عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرب وبُعْد
رجَالُ الخَزْرَجيَّة أهْلُ ذُل إذا مَا كَانَ هَزْل بَعْدَ جِــــد

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «والذى نفسى بيده، لأقتلنهم ولأصلبَنَّهم ولأهدينهم وهم كارهون، إنى رحمة بعثنى الله، ولا يَتَوفَّانى حتى يظهر الله دينه، لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحى الذى يمحى الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب»[٣].

وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثنى عَمْرو بن قَيس، عن عمرو بن أبى قُرّة الكنْدىّ قال: كان حُذيفةُ بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسولُ الله ﷺ، فجاء حذيفةُ إلى سَلْمان فقال سلمان: يا حذيفةَ، إنّ رسولَ الله ﷺ[كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول: لقد علمت أنّ رسول الله ﷺ][٤] خطَب فقال: «أيما رجل من أمتى سَبَبتُه [سبَّةً][٥] فى غَضَبى أو لعنته لعنةً، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثنى رحمةً للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة».

ورواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة[٦].

فإن قيل: فأىّ رحمة حصلت لمن كَفَر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق ابن شاهين، حدثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودى، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كُتبَ له الرحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفِى مما أصاب الأمم من الخسف والقذف[٧].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، من حديث المسعودى، عن أبى سعد ـ وهو سعيد بن المرزبان البقّال ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسمُ الطبرانى عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرَمْلى، عن أيوب ابن سُوَيد، عن المسعودى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عُوفِى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والقذف[٨].

(١، ٢) زيادة من ت، أ.
(٣) المعجم الكبير (٢/ ١٢٣).
(٤، ٥) زيادة من ت، أ، والمسند
(٦) المسند (٥/ ٤٣٧) وسنن أبى داود برقم (٤٦٥٩).
(٧) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٣).
(٨) المعجم الكبير (١٢/ ٢٣).

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: متبعون على ذلك، مستسلمون منقادون[(١)] له. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى: تركوا ما دعوتهم إليه، ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمتكم أنى حَرْب لكم، كما أنكم حَرْبٌ لى، برىء منكم كما أنكم بُرآء منى، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]: ليكن[(٢)] علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ها هنا، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمتكم ببراءتى منكم، وبراءتكم منى؛ لعلمى بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أى: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أى: إن الله يعلم الغيب جميعَه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون فى أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك، على القليل والجليل.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: وما أدرى لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين.

قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك[(٣)] عنكم فتنة لكم، ومتاع إلى أجل مسمى[(٤)]. وحكاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق.

قال قتادة: كان الأنبياء، عليهم السلام، يقولون: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالا قال: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾

وقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أى: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم فى ذلك[(٥)].

---

(١) فى ت: «متقاربين». (٢) فى ت: «لكن». (٣) فى أ: «هذا».
(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٤).
(٥) وقع فى ت: «آخر تفسير «سورة الأنبياء» عليهم السلام، ولله الحمد والمنة، عفا الله لمن نظر فيه ولكاتبه وللمسلمين أجمعين».

www.besturdubooks.wordpress.com

٢١ ـ سورة الأنبياء

﴿ مكية وآياتها مائة واثنتا عشرة آية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ ٢١ الأنبياء

﴿ سورة الأنبياء مكية وآياتها مائة واثنتا عشرة آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (اقترب للناس حسابهم) مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد بالناس المشركون وهو الذي يفصح عنه مابعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه في ضمن اقتراب الساعة وإسناد الاقتراب إليه لا إلى الساعة مع استتباعها له ولسائر مافيها من الأحوال والأهوال الفظيعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عما يذكرهم ذلك واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة إلى إدخال الروعة فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما أن تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح في قوله تعالى هو الذي خلق لكم مافي الأرض لتعجيل المسرة لما أن بيان كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا إليه وجعلها تأكيداً للإضافة على أن الأصل المتعارف فيما بين الأوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع أنه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وإنما الذي يستدعيه حسن النظام ماقدمناه والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفي إسناد الاقتراب المنبيء عن التوجه نحوهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يعتبر التوجه والإقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره مالا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شيء مقبل عليهم لا يزال يطالبهم ويصيبهم لامحالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فإنه في كل ساعة من ساعات الزمان أقرب إليهم منه في الساعة السابقة هذا وأما الاعتذار بأن قربه بالإضافة إلى مامضى من الزمان أو بالنسبة إلى الله عز وجل أو باعتبار أن كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضي ولا حاجة إليه في تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه عرفا كونه قريباً في نفسه أيضاً فيصار حينئذ إلى التوجيه بالوجه الأول دون الأخيرين أما الثاني فلا سبيل إلى اعتباره ههنا لأن قربه بالنسبة إليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وإنما اعتباره في قوله تعالى لعل الساعة قريب ونظائره مما لادلالة فيه على الحدوث وأما الثالث فلا دلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة إلى شيء آخر (وهم في غفلة) أي في غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لا *

أنهم غير مبالين به مع اعترافهم بإتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن الأعمال لابد لها من الجزاء (معرضون) أي عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت *

مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ٢١ الأنبياء

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ٢١ الأنبياء

الغفلة أمراً جبلياً لهم جعل الخبر الأول ظرفاً منبئاً عن الاستقرار بخلاف الإعراض والجملة حال من
٢ الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون (ما يأتيهم من ذكر) من طائفة نازلة من
القرآن تذكرهم ذلك أكمل تذكير وتنبيههم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى (من
ربهم) لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأياما كان ففيه دلالة على فضله
وشرفه وكمال شناعة مافعلوا به والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (محدث) بالجر صفة لذكر
وقرىء بالرفع حملا على محله أى محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى (إلا استمعوه) استثناء
مفرغ محله النصب على أنه حال من مفعول يأتيهم بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى
٣ (وهم يلعبون) حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى (لاهية قلوبهم) إما حال أخرى منه أو من واو
يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال إلا حال استماعهم إياه لاعبين مستهزئين
به لاهين عنه أو لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر فى الأمور
• والتفكر فى العواقب وقرىء لاهية بالرفع على أنه خبر بعد خبر (وأسروا النجوى) كلام مستأنف
مسوق لبيان جناياتهم خاصة إثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجى ومعنى إسرارها مع
أنها لا تكون إلا سراً أنهم بالغوا فى إخفائها أو أسروا نفس التناجى بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون
• وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو أسروا منبىء عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا
به أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع
• الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلماً أو منصوب على الذم وقوله تعالى (هل هذا إلا بشر مثلكم) الخ فى
حيز النصب على أنه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله كأنه قيل ماذا قالوا فى نجواهم
فقيل قالوا هل هذا الخ أو بدل من أسروا أو معطوف عليه أو على أنه بدل من النجوى أى أسروا هذا الحديث
• وهل بمعنى النفى والهمزة فى قوله تعالى (أفتأتون السحر) للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام
• وقوله تعالى (وأنتم تبصرون) حال من فاعل تأتون مقررة للإنكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ما هذا
إلا بشر مثلكم أى من جنسكم وما أتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول
وأنتم تعاينون أنه سحر قالوه بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكا وأن كل
ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر هو الذى
تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون وإنما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيق العهد
وترتيب مبادى الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة وإطفاء نور الدين والله

قَـٰلَ رَبِّى يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾ ٢١ الأنبياء

بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَـٰثُ أَحۡلَـٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٌ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ٢١ الأنبياء

مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَـٰهَآ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ٢١ الأنبياء

متم نوره ولو كره الكافرون (قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض) حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه ٤
السلام بعد ماأوحى إليه أحوالهم وأقوالهم بياناً لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وإيثار القول المنتظم
للسر والجهر على السر لإثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهانى مع مافيه من الإيذان بأن علمه تعالى
بالسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعاً كما فى علوم الخلق وقرىء قل ربى
الخ وقوله تعالى فى السماء والأرض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أى كائناً فى السماء والأرض
وقوله تعالى (وهو السميع العليم) أى المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات التى من جملتها ما أسروه
من النجوى فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله متضمن للوعيد (بل قالوا ٥
أضغاث أحلام) إضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب فى
مسالك البطلان أى لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه عليه السلام هل هذا إلا بشر وفى حق ماظهر على يده من
القرآن الكريم إنه سحر بل قالوا تخاليط الأحلام ثم أضربوا عنه فقالوا (بل افتراه) من تلقاء نفسه من غير *
أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا (بل هو شاعر) وما أتى به شعر يخيل إلى السامع معانى لا حقيقة لها *
وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد فالإضراب
الأول كما ترى من جهته تعالى والثانى والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم هو
سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام مفترى ثم إلى أنه قول شاعر ولا ريب فى أنه كان ينبغى حينئذ
أن يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل قوله تعالى هل هذا إلا
بشر الخ كأنه قيل وأسروا النجوى قالوا هل هذا إلى قوله بل أضغاث أحلام وإنما صرح بقالوا بعد بل لبعد
العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله (فليأتنا بآية) جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه *
قيل وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية (كما أرسل الأولون) أى مثل الآية التى *
أرسل بها الأولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على أنها صفة
لآية ويجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على أنها مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف أى
فليأتنا بآية إتياناً كائناً مثل إرسال الأولين بها وصحة التشبيه من حيث إن الإتيان بالآية من فروع الإرسال
بها أى مثل إتيان مترتب على الإرسال ويجوز أن يحمل النظم الكريم على أنه أريد كل واحد من الإتيان
والإرسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب المشبه ذكر الإرسال وفى جانب المشبه به
ذكر الإتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى الموطن الآخر حسبما مر فى آخر سورة يونس عليه
السلام (ما آمنت قبلهم من قرية) كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما تنبىء عنه خاتمة مقالهم من الوعد ٦

الضمنى بالإيمان كما أشير إليه وبيان أنهم فى اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وأن فى ترك الإجابة إليه إبقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا مااقترحوا مع عدم إيمانهم قطعاً لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عز وجل فى الأمم السالفة على أن المقترحين إذا أعطوا مااقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لامحالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال فقوله من قرية أى من أهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتأكيد العموم وقوله تعالى (أهلكناها) أى بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجىء مااقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة فى قوله تعالى (أفهم يؤمنون) لإنكار الوقوع والفاء للعطف إما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت إنكار وقوع إيمانهم ونفيه عقيب عدم إيمان الأولين فالمعنى أنه لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء مااقترحوه من الآيات أهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ماسألوا وأعطوا مااقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى وإما على ماآمنت على أن الفاء متقدمة على الهمزة فى الاعتبار مفيدة لترتيب إنكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان

٧ الأولين وإنما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وقوله عزوجل (وماأرسلنا قبلك إلا رجالا) جواب لقولهم هل هذا إلا بشر الخ متضمن لرد مادسوا تحت قولهم كما أرسل الأولون من التعرض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلابد من المسارعة إلى رده وإبطاله كما مر فى تفسير قوله تعالى قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين وقوله تعالى ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ولأن فى هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم والحق أن مااتخذوه سبباً للتكذيب موجب للتصديق فى الحقيقة لأن مقتضى الحكمة أن يرسل إلى البشر البشر وإلى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى قل لوكان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فإن عامة البشر بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك إليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وإنما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك منهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب آخر وقوله تعالى (نوحى إليهم) استئناف مبين لكيفية الإرسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد إلى خصوصه والمعنى وما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمتك إلا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والإرسال نوحى إليهم بواسطة الملك مانوحى من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والأخبار كما نوحى إليك من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى وحقية مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين إلى قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما كما لافرق بينك وبينهم فى البشرية فمالهم لا يفهمون أنك لست بدعا من الرسل وأن ما أوحى إليك ليس مخالفاً لما أوحى إليهم

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ٢١ الأنبياء

ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ٢١ الأنبياء

فيقولون مايقولون وقرىء يوحى إليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بتعين الفاعل وقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير إثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله ﷺ لأنه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الأنيقة وأما الوقوف عليها بالاستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى إن كنتم لا تعلمون ماذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم أمروا بذلك لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورونهم فى أمره عليه السلام ففيه من الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوة
٨ شأن النبى ﷺ مالا يخفى (وما جعلناهم جسداً) بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية إثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الإنسان والجن والملائكة ونصبه إما على أنه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسداً بعد أن لم يكن كذلك كما هو المشهور من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل كما مر فى قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة وإما حال من الضمير والجعل إبداعى وإفراده لإرادة الجنس المنتظم للكثير أيضاً وقيل بتقدير المضاف أى ذوى جسد وقوله تعالى (لا يأكلون الطعام) صفة له أى وماجعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل والشرب بل محتاجا إلى ذلك لتحصيل بدل مايتحلل منه (وما كانوا خالدين) لأن مآل التحلل هو الفناء لامحالة وفى إيثار ماكانوا على ماجعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى أشير إليها بقوله تعالى وما جعلناهم الخ لا بالجعل المستأنف والمراد بالخلود إما المكث المديد كما هو شأن الملائكة أو الأبدية وهم معتقدون أنهم لايموتون والمعنى جعلناهم أجساداً متغذية صائرة إلى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لاملائكة ولا أجساداً مستغنية عن الأغذية مصونة عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم السلام بشراً لاملكا مع مافى
٩ ذلك من الرد على قولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى (ثم صدقناهم الوعد) عطف على مايفهم من حكاية وحيه تعالى إليهم على الاستمرار التجددى كأنه قيل أوحينا إليهم ما أوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى بإهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) من المؤمنين وغيرهم ممن تستدعى الحكمة إبقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال (وأهلكنا المسرفين) أى المجاوزين للحدود فى الكفر والمعاصى.

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ٢١ الأنبياء

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ٢١ الأنبياء

فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ ٢١ الأنبياء

لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ٢١ الأنبياء

١٠ (لقد أنزلنا إليكم) كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة
إعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحراً وتارة أضغاث أحلام وأخرى مفترى
وشعراً وبيان علو رتبته إثر تحقيق رسالته ﷺ ببيان أنه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قد
صدر بالتوكيد القسمى إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذاناً بكون المخاطبين فى أقصى مراتب النكير
أى والله لقد أنزلنا إليكم يامعشر قريش (كتاباً) عظيم الشأن نير البرهان وقوله تعالى (فيه ذكركم) صفة
لكتاباً مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بأنه جيل الآثار مستجلب لهم منافع
جليلة أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى وإنه لذكر لك ولقومك وقيل ماتحتاجون إليه فى أمور دينكم
ودنياكم وقيل ماتطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الأنسب بسباق
النظم الكريم وسياقه فإن قوله تعالى (أفلا تعقلون) إنكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب
والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء
للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمر كذلك أو لا تعقلون شيئاً
١١ من الأشياء التى من جملتها ماذكر وقوله تعالى (وكم قصمنا من قرية) نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى وأهلكنا
المسرفين وبيان لكيفية إهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على أنها
مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفى لفظ القصم الذى هو عبارة عن الكسر بإبانة أجزاء المكسور وإزالة
تأليفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط مالا يخفى وقوله تعالى (كانت ظالمة) فى محل
الجر على أنها صفة لقرية بتقدير مضاف ينبىء عنه الضمير الآتى أى وكثيراً قصمنا من أهل قرية كانوا
ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم (وأنشأنا بعدها) أى بعد إهلاكها (قوماً آخرين) أى ليسوا
منهم نسباً ولا ديناً ففيه تنبيه على استئصال الأولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر فى تقديم حكاية إنشاء هؤلاء
١٢ على حكاية مبادى إهلاك أولئك بقوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا) أى أدركوا عذابنا الشديد إدراكاً تاماً كأنه
إدراك المشاهد المحسوس (إذاهم منها يركضون) يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو مشبهين بهم فى فرط
١٣ الإسراع (لا تركضوا) أى قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال من الملك أو ممن ثمة من المؤمنين بطريق
الاستهزاء والتوبيخ لا تركضوا (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) من التنعم والتلذذ والإتراف إبطار النعمة
(ومساكنكم) التى كنتم تفتخرون بها (لعلكم تسألون) تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات

قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ ٢١ الأنبياء

فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ٢١ الأنبياء

وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ٢١ الأنبياء

لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوًا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ٢١ الأنبياء

والنوازل أو تنفقدون إذا رئيت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم
١٤ كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم (قالوا) لما يئسوا من الخلاص بالهرب
وأيقنوا بنزول العذاب (ياويلنا) أى هلاكنا (إنا كنا ظالمين) أى مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم
١٥ بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم) أى فمازالوا يرددون تلك
الكلمة وتسميتها دعوى أى دعوة لأن المدلول كأنه يدعو الويل قائلا ياويل تعال فهذا أوانك (حتى جعلناهم
حصيداً) أى مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع (خامدين) أى ميتين من خمدت النار
إذا طفئت وهو مع حصيداً فى حيز المفعول الثانى للجعل كقولك جعلته حلواً حامضاً والمعنى جعلناهم جامعين
لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب فى جعلناهم أو من المستكن فى حصيدا أو صفة لحصيدا
١٦ لتعدده معنى لأنه فى حكم جعلناهم أمثال حصيد (وما خلقنا السماء والأرض) إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم
وإبداع بنى آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ما حكى من العذاب
الهائل والعقاب النازل بأهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء أعمالهم إياه وأن
للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم أى ما خلقناهما (وما بينهما) من المخلوقات التى لا تحصى أجناسها
وأفرادها ولا تحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع خالية عن الحكم والمصالح وإنما عبر
عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل (لاعبين) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة بتصويره
بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه سبحانه بل إنما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأ لوجود
الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلا يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا
كما ينطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم
١٧ أحسن عملا وقوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وقوله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهواً)
استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب (لاتخذناه من لدنا)
أى من جهة قدرتنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة
كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته
الحكمة فيستحيل اتخاذنا له قطعاً وقوله تعالى (إن كنا فاعلين) جوابه محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه اى
إن كنا فاعلين لاتخذناه وقيل إن نافية أى ما كنا فاعلين أى لاتخاذ اللهو لعدم إرادتنا إياه فيكون بياناً

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ٢١ الأنبياء

وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ٢١ الأنبياء

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ٢١ الأنبياء

لانتفاء التالى لانتفاء المقدم أو لإرادة اتخاذه فيكون بياناً لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى وقيل اللهو
١٨ الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده (بل نقذف بالحق على الباطل)
إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته كأنه قيل لكنا لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الذى من جملته
الجد على الباطل الذى من قبيله اللهو وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شئونه تعالى بالذكر للتخلص إلى
ما سيأتى من الوعيد (فيدمغه) أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية وقد استعير لإيراد الحق
على الباطل القذف الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذى هو كسر
الشىء الرخو الأجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى إلى زهوق الروح تصويراً له بذلك وقرىء
فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرىء فيدمغه بضم الميم (فإذا هو زاهق) أى ذاهب بالكلية وفى إذا
الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان مالا يخفى فكأنه زاهق من
الأصل (ولكم الويل مما تصفون) وعيد لقريش بأن لهم أيضاً مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب ومن
تعليلية متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره فى الخبر
وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أى واستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له سبحانه بما
١٩ لا يليق بشأنه الجليل أو بالذى تصفونه به من الولد أو كائناً مما تصفونه تعالى به (وله من فى السموات
والأرض) استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل وأنه تعالى
يحق الحق ويزهق الباطل أى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقاً وملكا وتدبيراً وتصرفا وإحياء وإماتة
وتعذيباً وإثابة من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا (ومن عنده) وهم الملائكة
عليهم السلام عبر عنهم بذلك إثر ماعبر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم
عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره (لا يستكبرون عن عبادته) أى
لا يتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبيراً (ولا يستحسرون) ولا يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال
المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك
لا يستحسرون لا لإفادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة كما أن نفى الظلامية فى قوله تعالى
وما أنا بظلام للعبيد لإفادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لإفادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل
الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الأولى وإفرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات
والأرض للتعظيم كما فى قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله تعالى لا يستكبرون حينئذ حال من الثانية
٢٠ (يسبحون الليل والنهار) أى ينزهونه فى جميع الأوقات ويعظمونه ويمجدونه دائماً وهو استئناف

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ٢١ الأنبياء

لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ٢١ الأنبياء

وقع جواباً عما نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون فى عباداتهم أوكيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال
من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى (لا يفترون) أى لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا بفراغ أو بشغل
آخر (أم اتخذوا آلهة) حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الإضراب والانتقال من فن إلى فن آخر ٢١
من التوبيخ إثر تحقيق الحق ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت
ملكوته وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل مالا يليق بشأنه من
الأمور التى من جملتها الأنداد ومعنى الهمزة فى أم المنقطعة إنكار الوقوع لا إنكار الواقع وقوله تعالى
(من الأرض) متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأياما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص
وقوله تعالى (هم ينشرون) أى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع
لا نفس الاتخاذ فإنه واقع لا محالة أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون
الموتى كلا فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحاً لكنهم حيث ادعوا لها
الإلهية فكأنهم ادعوا لها الإنشار ضرورة أنه من الخصائص الإلهية حتما ومعنى التخصيص فى تقديم
الضمير ما أشير إليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار الموجبة لمزيد الإنكار كما فى قوله تعالى أفى الله
شك وقوله تعالى أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون فإن تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة
أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لأن الألوهية
مقتضية للاستقلال بالإبداء والإعادة فحيث ادعوا للأصنام الألهية فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالإنشار
كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لأصل الإنشار (لو كان فيهما آلهة إلا الله) إبطال لتعدد الإله بإقامة البرهان ٢٢
على انتفائه بل على استحالته وإيراد الجمع لوروده إثر إنكار اتخاذ الآلهة لا لأن للجمعية مدخلا فى
الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما وإلا بمعنى غير على أنها صفة لآلهة ولا مساغ للاستثناء لاستحالة
شمول ما قبلها لما بعدها وإفضائه إلى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى ولا
للرفع على البدل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون فى كلام غير موجب أى لو كان فى السموات
والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل (لفسدتا) أى لبطلتا بما فيهما جميعاً وحيث انتفى التالى علم
انتفاء المقدم قطعاً بيان الملازمة أن الإلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق
تغييراً وتبديلا وإيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة فبقاؤهما على ماهما عليه إما بتأثير كل منها وهو محال
لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة وإما بتأثير واحد منها فالبواقى بمعزل من الإلهية قطعاً واعلم
أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لما أنه اعتبر فى المقدم تعدد الآلهة فيهما وإلا فالبرهان يقضى
باستحالة التعدد على الإطلاق فإنه لو تعدد الإله فإن توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وإن تخالفت

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ٢١ الأنبياء

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ٢١ الأنبياء

تعاوقت فلا يوجد موجود أصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى (فسبحان الله) لترتيب مابعدها على ماقبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أى فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لايليق به من الأمور التى من جملتها أن يكون له شريك فى الألوهية وإيراد الجلالة فى موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله التى من جملتها تنزهه تعالى عما لايليق به ولتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى (رب العرش) صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عز وجل (عما
٢٣ يصفون) متعلق بالتسبيح أى فسبحوه عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهة (لايسأل عما يفعل) استئناف ببيان أنه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لأحد من مخلوقاته أن يناقشه ويسأله عما يفعل من أفعاله إثر بيان أن ليس له شريك فى الإلهية (وهم) أى العباد (يسألون) عمايفعلون نقيراً
٢٤ وقطميراً لأنهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة (أم اتخذوا من دونه آلهة) إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة آلهة حقيقة بإظهار خلوها عن خصائص الإلهية التى من جملتها الإنشار وإقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الإله على الإطلاق وتفرده سبحانه بالألوهية إلى إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاءلله عز سلطانه وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد وبطلان الإشراك والهمزة لإنكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى مع ظهور شئونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الألوهية بالكلية (قل) لهم بطريق التبكيت وإلقام الحجر (هاتوا برهانكم) على ماتدعونه من جهة العقل والنقل فإنه لاصحة لقول لادليل عليه فى الأمور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير وما فى إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) إنارة لبرهانه وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم وذكر الأمم السالفة قدأقمته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على أمتى وهذا كتاب أنزل على أمم الأنبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لإثبات نقيض مدعاهم وقرىء بالتنوين والإعمال كقوله تعالى أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما وبمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وقوله تعالى (بل أكثرهم لايعلمون الحق)

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ٢١ الأنبياء

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ٢١ الأنبياء

لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ٢١ الأنبياء

إضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الأمر بتبكيتهم بمطالبة البرهان إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة بإظهار حقية الحق وبطلان الباطل فإن أكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون بينه وبين الباطل (فهم) لأجل ذلك (معرضون) أى مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وإن كررت عليهم البينات والحجج أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية وقرىء الحق بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيداً للسببية وقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ٢٥
استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرىء يوحى على صيغة الغائب مبنياً للمفعول وأياما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً) حكاية لجناية فريق من المشركين جىء بها لإظهار ٢٦
بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك إثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الإطلاق وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى أن قريشاً وبعض أجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى مربوباً له تعالى نعمة أو منعما عليه لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (سبحانه) أى تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مصدر من سبح أى بعد أو أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى (بل عباد) إضراب وإبطال لما قالوه كأنه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى (مكرمون) مقربون عنده وقرىء مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشأ غلط القوم وقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) صفة أخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى أى ٢٧
لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصله لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق إليهم منسوباً إليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم إياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق وأداة له ثم أنيب اللام عن الإضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرىء لا يسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق وإشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فأنى يتوهم صدوره عنهم (وهم بأمره يعملون) بيان لتبعيتهم له تعالى فى الأعمال إثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الأقوال فإن نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ٢١ الأنبياء

وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ٢١ الأنبياء

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ٢١ الأنبياء

يعملون لا بغير أمره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة إلى غير أمره لا إلى أمر
٢٨ غيره (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) استئناف وقع تعليلا لما قبله وتمهيداً لما بعده فإن لعلمهم بإحاطته
تعالى بما قدموا وأخروا من الأقوال والأعمال لا يزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون على
قول أو عمل بغير أمره تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) أن يشفع له مهابة منه تعالى (وهم) مع
ذلك (من خشيته) عز وجل (مشفقون) مرتعدون وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص
بها العلماء والإشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته
٢٩ بعلى ينعكس الأمر (ومن يقل منهم) أي من الملائكة الكلام فيهم وفي كونهم بمعزل عما قالوا في حقهم
(إني إله من دونه) متجاوزاً إياه تعالى (فذلك) الذي فرض قوله فرض محال (نجزيه جهنم) كسائر
المجرمين ولا يغني عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته
تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ما لا يخفى
(كذلك نجزي الظالمين) مصدر تشبيهي مؤكد لمضمون ما قبله أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الذين
يضعون الأشياء في غير مواضعها ويتعدون أطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة إلى النقصان
٣٠ دون الزيادة أي لا جزاء أنقص منه (أو لم ير الذين كفروا) تجهيل لهم بتقصيرهم في التدبر في الآيات
التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية وكون جميع ما سواه مقهوراً تحت ملكوته والهمزة
* للإنكار والواو للعطف على مقدر وقرىء بغير واو والرؤية قلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا (أن السموات
والأرض كانتا) أي جماعتا السموات والأرضين كما في قوله تعالى إن الله يمسك السموات والأرض أن
* تزولا (رتقاً) الرتق الضم والالتحام والمعنى إما على حذف المضاف أو هو بمعنى المفعول أي كانتا ذواتي
* رتق أو مرتوقتين وقرىء رتقاً شيئاً رتقاً أي مرتوقا (ففتقناهما) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية
عكرمة والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيئاً واحداً ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما ورفع
السماء إلى حيث هي وأقر الأرض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً
فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان
ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وذلك
قوله تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما وقال مجاهد والسدي كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها
سبع سموات وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس في

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ٢١ الأنبياء

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ٢١ الأنبياء

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ٢١ الأنبياء

رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين إن السموات كانت رتقاً مستوية صلبة لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق أو السموات جميعاً على أن لها مدخلا فى الأمطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لا سترة به وأما بالمعانى الأول فهم وإن لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما إما بطريق النظر والتفكر فإن الفتق عارض مفتقر إلى مؤثر قديم وإما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب (وجعلنا من الماء كل شىء حى) ∗
أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء وذلك لأنه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به أو صيرنا كل شىء حى من الماء أى بسبب منه لابد له من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين فى الأصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفاً أن يتقدم على المبتدأ فإن ذلك مصحح محض لا مرجح وقرىء حياً على أنه صفة كل أو مفعول ثان والظرف كما فى الوجه الأول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق إلى المؤخر (أفلا يؤمنون) إنكار لعدم إيمانهم بالله وحده ∗
مع ظهور مايوجبه حتما من الآيات الآفاقية والأنفسية الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية وعلى كون ماسواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الإنكار السابق أى
٣١ أيعلمون ذلك فلا يؤمنون (وجعلنا فى الأرض رواسى) أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشىء إذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لا ريب فى صحته كقوله تعالى أشهر معلومات وأياما معدودات (أن تميد بهم) أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف ∗
اللام ولا لعدم الإلباس (وجعلنا فيها) أى فى الأرض وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه أو فى الرواسى لأنها المحتاجة إلى الطرق (فجاجا) مسالك واسعة وإنما قدم على قوله تعالى (سبلا) وهو وصف له ليصير حالا فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقها كذلك أو ليبدل منها سبلا فيدل ضمناً على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد (لعلهم يهتدون) أى إلى مصالحهم ومهماتهم ∗
٣٢ (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً) من الوقوع بقدرتنا القاهرة أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمع بالشهب (وهم عن آياتها) الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وإرادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة (معرضون) لا يتدبرون
٣٣ فيها فيبقون على ماهم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر) اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ٢١ الأنبياء

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ٢١ الأنبياء

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ٢١ الأنبياء

لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده (كل) أى كل واحد منهما على أن التنوين
عوض عن المضاف إليه (فى فلك يسبحون) أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك
الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس
٣٤ والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة حالهم (وما جعلنا لبشر من
قبلك الخلد) أى فى الدنيا لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية (أفإن مت) بمقتضى حكمتنا (فهم
الخالدون) نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لإنكار مضمونها
بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بإنكار خلودهم ونفيه إنكار ماهو مدار له وجوداً
وعدماً من شماتتهم بموته ﷺ فإن الشماتة بما يعتريه أيضاً مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل كأنه قيل أفإن
٣٥ مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى ذائقة مرارة مفارقتها
جسدها برهان على ماأنكر من خلودكم (ونبلوكم) الخطاب إما للناس كافة بطريق التلوين أو للكفرة
بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم (بالشر والخير) بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون
أولا (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (وإلينا ترجعون) لا إلى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا
فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال فهو على الأول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض وفيه إيماء إلى
أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرىء يرجعون بالياء على الالتفات
٣٦ (وإذا رآك الذين كفروا) أى المشركون (إن يتخذونك إلا هزواً) أى مايتخذونك إلا مهزوءاً به على
معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم إياه هزواً لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزواً كما
هو المتبادر كأنه قيل مايفعلون بك إلا اتخاذك هزواً وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى إن أتبع إلا مايوحى
إلى فى سورة الأنعام (أهذا الذى يذكر آلهتكم) على إرادة القول أى ويقولون أو قائلين ذلك أى يذكرهم
بسوء كما فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ وقوله تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) فى حيز النصب
على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى أنهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التى
لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بإرشاد الخلق
بإرسال الرسل وإنزال الكتب أو بالقرآن كافرون فهم أحقاء بالعيب والإنكار فالضمير الأول مبتدأ خبره
كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقديم والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للأول

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ٢١ الأنبياء

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ٢١ الأنبياء

لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ٢١ الأنبياء

٣٧ فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول (خلق الإنسان من عجل) جعل لفرط
استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان إيذاناً بغاية
لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد وروى أنها نزلت فى النضر بن
الحرث حين استعجل العذاب بقوله اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر الآية وعن ابن عباس
رضى الله عنهما أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم
وروى أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام وقيل خلقه الله تعالى
فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع فى خلقه قبل غيبتها فالمعنى خلق الإنسان خلقاً ناشئاً من
عجل فذكره لبيان أنه من دواعى عجلته فى الأمور والأظهر أن المراد به الجنس وإن كان خلقه عليه السلام سارياً
* إلى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى (سأريكم آياتى) تلوين للخطاب وصرف
له عن رسول الله ﷺ إلى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار
٣٨ وغيره (فلا تستعجلون) بالإتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها (ويقولون
متى هذا الوعد) أى وقت مجىء الساعة التى كانوا يوعدون وإنما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق
الاستهزاء والإنكار كما يرشد إليه الجواب لا طلبا لتعيين وقته بطريق الإلزام كما فى سورة الملك (إن كنتم
صادقين) أى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى ﷺ والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن
مجىء الساعة وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فأتنا بما تعدنا
إن كنت من الصادقين فإن قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لإتيانه بطريق العجلة فإن
٣٩ ذلك فى قوة الأمر بالإتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة إن كنتم صادقين (لو يعلم الذين كفروا) استئناف
مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وإيثار
صيغة المضارع فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لإفادة استمرار عدم العلم فإن المضارع المنفى الواقع موقع
الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضاً بحسب المقام كما فى قولك
لو تحسن إلى لشكرتك فإن المعنى أن انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الإحسان لا لانتفاء استمرار
* الإحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى (حين
لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ٢١ الأنبياء

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ٢١ الأنبياء

يستعجلونه وإضافته إلى الجملة الجارية مجرى الصفة التي حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضاً مع إنكار الكفرة لذلك للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة له إلى الإخبار به وإنما حقه الانتظام في سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أي لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذي يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذي تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الإحاطة بهما الإحاطة
بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم (ولا هم ينصرون) من جهة الغير في دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أي لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره إلى ذلك الوقت
٤٠ كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال (بل تأتيهم) عطف على لا يكفون أي لا يكفونها بل تأتيهم أي العدة أو النار أو الساعة (بغتة فتبهتهم) أي تغلبهم أو تحيرهم وقرىء الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين وكذا الهاء في قوله تعالى (فلا يستطيعون ردها) بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة ويجوز عوده إلى النار وقيل إلى البغتة أي لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية (ولا هم
٤١ ينظرون) أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لإمهالهم في الدنيا (ولقد استهزىء برسل من قبلك) تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزائهم به ﷺ في ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بأنه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أي وبالله لقد استهزىء برسل أولي شأن خطير وذوي عدد كثير أو حل أو نحو ذلك فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل إلا في الشر والحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله وقوله تعالى (بالذين سخروا منهم) أي من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى (ما كانوا به يستهزئون) للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم وما إما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد إليها والجار متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أي فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به حيث أهلكوا لأجله وإما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ إلى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل إيثاره على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد واحد منهم عليهم السلام لا جزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو كل فقط أي فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب إيذاناً بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم إن أريد بذلك العذاب الأخروي بناء على تجسم الأعمال فإن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ٢١ الأنبياء

أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ٢١ الأنبياء

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ٢١ الأنبياء

وعلى ذلك بنى الوزن وقد مر تفصيله فى سورة الأعراف وفى قوله تعالى إنما بغيكم على أنفسكم الآية إلى
٤٢ آخرها (قل) خطاب لرسول الله ﷺ إثر تسليته بما ذكر من مصير أمرهم إلى الهلاك وأمر له عليه
السلام بأن يقول لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت (من يكلؤكم) أى يحفظكم (بالليل والنهار
من الرحمن) أى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلاً أو نهاراً وتقديم الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا
وأشد وقعاً وفى التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كالئهم ليس إلا رحمته العامة وبعد ما أمر عليه السلام
بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لأنهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم فى
الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بأن يكلفوا الاعتراف بذلك فيوبخوا على ما هم عليه من الإشراك
أضرب عن ذلك بقوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف
الخطاب عنهم هى أنهم لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه ويعدوا ما كانوا عليه من الأمن
والدعة حفظاً وكلاءة حتى يسألوا عن الكالىء على طريقة قول من قال [عوجوا لحيوا النعمى دمنة الدار *
ماذا تحيون من نؤى وأحجار] وفى تعليق الإعراض بذكره تعالى وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم
المنبىء عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة
٤٣ والغى ما لا يخفى وكلمة أم فى قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) منقطعة وما فيها من معنى بل للإضراب
والانتقال عما قبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى إياهم لعدم خوفهم الناشىء عن إعراضهم عن ذكر ربهم
بالكلية إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظ إليها والهمزة لإنكار أن يكون لهم آلهة تقدر على ذلك
والمعنى ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا أو من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها
واثقون بحفظها وفى توجيه الإنكار والنفى إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا إلى نفس الصفة بأن
يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع ما لا يخفى وقوله عز وعلا
(لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) استئناف مقرر لما قبله من الإنكار وموضح لبطلان
اعتقادهم أى هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم أن ينصروا
٤٤ غيرهم وقوله تعالى (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) إضراب عما توهموا ببيان أن الداعى
إلى حفظهم تمتيعنا إياهم بما قدر لهم من الأعمال أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك هو أنه
تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ٢١ الأنبياء

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ٢١ الأنبياء

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ٢١ الأنبياء

ولذلك عقب بما يدل على أنه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل (أفلا يرون) أى ألا ينظرون فلا يرون
(أنا نأتى الأرض) أى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا
وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عز وجل من ديارهم على أيدى المسلمين ويضيفها إلى دار الإسلام (أفهم
الغالبون) على رسول الله ﷺ والمؤمنين والفاء لإنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة
بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر فى قوله تعالى أفمن كان
على بينة من ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء وفى التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة
٤٥ المعروفون بها (قل إنما أنذركم) بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء
حالهم عند إتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار
وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر ﷺ بأن يقول لهم إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة (بالوحى)
الصادق الناطق بإتيانها وفظاعة ما فيها من الأهوال أى إنما شأنى أن أنذركم بالإخبار بذلك لا بالإتيان
بها فإنه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية إذ الإيمان برهانى لا عيانى وقوله تعالى (ولا يسمع الصم
الدعاء) إما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخاً
وتقريعاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاماً أولياً أو للعهد فوضع
المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى (إذا ما ينذرون) مع أن الصم
لا يسمعون الكلام إنذاراً كان أو تبشيراً لبيان كمال شدة الصمم كما أن إيثار الدعاء الذى هو عبارة عن
الصوت والنداء على الكلام لذلك فإن الإنذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه
فإذا لم يسمعوها يكون صممهم فى غاية لا غاية وراءها وإما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى بل هم عن
ذكر ربهم معرضون ويؤيده القراءة على خطاب النبى ﷺ من الإسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل
قل لهم ذلك وأنت بمعزل من إسماعهم وقرىء بالياء أيضاً على أن الفاعل هو عليه السلام وقرىء على
٤٦ البناء للمفعول أى لا يقدر أحد على إسماع الصم وقوله تعالى (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) بيان
لسرعة تأثرهم من مجىء نفس العذاب إثر بيان عدم تأثرهم من مجىء خبره على نهج التوكيد القسمى أى والله
لئن أصابهم أدنى إصابة أدنى شىء من عذابه تعالى كما ينبىء عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فإن أصل
النفح هبوب رائحة الشىء (ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين) ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن
٤٧ عليها بالظلم وقوله تعالى (ونضع الموازين القسط) بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه أى نقيم الموازين

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٢١ الأنبياء

ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ٢١ الأنبياء

وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ٢١ الأنبياء

العادلة التي توزن بها صحائف الأعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال وقد مر تفصيل ما فيه من الكلام في سورة الأعراف وإفراد القسط لأنه مصدر وصف به مبالغة (ليوم القيامة) التي كانوا يستعجلونها أي لجزائه أو لأجل أهله أو فيه كما في قولك جئت لخمس خلون من الشهر (فلا تظلم نفس) من النفوس (شيئاً) حقاً من حقوقها أو شيئاً ما من الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه إن خيراً فخير وإن شراً فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين (وإن كان) أي العمل المدلول عليه بوضع الموازين (مثقال حبة من خردل) أي مقدار حبة كائنة من خردل أي وإن كان في غاية القلة والحقارة فإن حبة الخردل مثل في الصغر وقرىء مثقال حبة بالرفع على أن كان تامة (أتينا بها) أي أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لإضافته إلى الحبة وقرىء آتينا بها أي جازينا بها من الإيتاء بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وآتاهم بالجزاء وقرىء أثبنا من الثواب وقرىء جئنا بها (وكفى بنا حاسبين) إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ٤٨
وضياء وذكراً للمتقين) نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم إلى قوله تعالى وأهلكنا المسرفين وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمى لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر أي وبالله لقد آتيناهما وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية وذكراً يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والأول هو اللائق بمساق النظم الكريم فإنه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الإلهية لا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولأن فلق البحر هو الذى اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الأولون وقرىء ضياء
بغير واو على أنه حال من الفرقان وقوله تعالى (الذين يخشون ربهم) أي عذابه مجرور المحل على أنه صفة ٤٩
مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح (بالغيب) حال من المفعول أي يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه وقيل من الفاعل (وهم من الساعة مشفقون) أي خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه (وهذا) أي القرآن الكريم أشير إليه بهذا إيذاناً بغاية وضوح أمره (ذكر) يتذكر به ٥٠

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ٢١ الأنبياء

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ٢١ الأنبياء

قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ٢١ الأنبياء

قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ٢١ الأنبياء

من يتذكر وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر فى صدر السورة الكريمة
(مبارك) كثير الخير غزير النفع يتبرك به (أنزلناه) إما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر (أفأنتم له منكرون)
إنكار لإنكارهم بعد ظهور كون إنزاله كإيتاء التوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى
الإيتاء والإيحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فإن ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له
٥١ أصلا (ولقد آتينا إبراهيم رشده) أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل
المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على إصلاح الأمة باستعمال النواميس الإلهية وقرىء
رشده وهما لغتان كالحزن والحزن (من قبل) أى من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة وتقديم ذكر
إيتائهما لما بينه وبين إنزال القرآن من الشبه التام وقيل من قبل استنبائه أو قبل بلوغه ويأباه المقام (وكنا
٥٢ به عالمين) أى بأنه أهل لما آتيناه وفيه من الدليل على أنه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى أفعاله مالا يخفى (إذ
قال لأبيه وقومه) ظرف لآتينا على أنه وقت متسع وقع فيه الإيتاء وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله
وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أى اذكر وقت قوله لهم (ماهذه التماثيل التى أنتم لها
عاكفون) لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشىء مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى
وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بما التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم
كأنه لا يعرف أنها ماذا مع إحاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبوداً وعبر عن عبادتهم لها بمطلق
العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشىء لغرض من الأغراض قصداً إلى تحقيرها
وإذلالها وتوبيخاً لهم على إجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية وإلا لجىء بكلمة على والمعنى
٥٣ أنتم فاعلون العكوف لها وقد جوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبىء عنه قوله تعالى (قالوا وجدنا
آباءنا لها عابدين) أجابوا بذلك لما أن مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبىء
عنه وصفه عليه السلام إياهم بالعكوف لها كأنه قال ماهى هل تستحق ماتصنعون من العكوف عليها فلما
٥٤ لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجأوا إلى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمى حيث (قال لقد
كنتم أنتم وآباؤكم) الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة (فى ضلال) عجيب لا يقادر قدره (مبين) أى ظاهر
بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم
الماضى الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ٢١ الأنبياء

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ٢١ الأنبياء

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ٢١ الأنبياء

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ٢١ الأنبياء

---

٥٥ ظاهر لعدم استناده إلى دليل ما والتقليد إنما يجوز فيما يحتمل الحقية فى الجملة (قالوا) لما سمعوا مقالته
عليه السلام استبعاداً لكون ماهم عليه ضلالا وتعجباً من تضليله عليه السلام إياهم بطريق التوكيد
القسمى وترددا فى كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد (أجئتنا بالحق) أى بالجد (أم أنت
من اللاعبين) فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح وفى إيراد الشق الأخير بالجملة الاسمية الدالة
٥٦ على الثبات إيذان برجحانه عندهم (قال) عليه السلام إضرابا عما بنوا عليه مقالهم من اعتقاد كونها
* أرباباً لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين كأنه قيل ليس الأمر كذلك (بل ربكم
رب السموات والأرض الذى فطرهن) وقيل هو إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على
ما ادعاه وضمير هن للسموات والأرض وصفه تعالى بإيجادهن إثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن
تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن مالا يكون كذلك بمعزل من الربوبية أى أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التى
من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ورجع الضمير إلى التماثيل أدخل
فى تضليلهم وأظهر فى إلزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون مايعبدونه من جملة
* المخلوقات (وأنا على ذلكم) الذى ذكرته من كون ربكم رب السموات والأرض فقط دون ماعداه
* كائناً ما كان (من الشاهدين) أى العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فإن الشاهد على الشىء من
تحققه وحققه وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وإثباته بها كأنه قال وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه
٥٧ (وتالله) وقرىء بالباء وهو الأصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الأصل وفيها تعجيب (لأكيدن
أصنامكم) أى لأجتهدن فى كسرها وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وإنما قاله عليه
السلام سراً وقيل سمعه رجل واحد (بعد أن تولوا مدبرين) من عبادتها إلى عيدكم وقرىء تولوا من التولى
٥٨ بحذف إحدى التاءين ويعضدها قوله تعالى فتولوا عنه مدبرين والفاء فى قوله تعالى (فجعلهم) فصيحة أى
* فولوا فجعلهم (جذاذاً) أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى
هو الكسر وقرىء بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرىء بالفتح وجذذاً جمع جذيذ
وجذذاً جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيد لهم فبدءوا ببيت الأصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا
بينها طعاماً خرجوا به معهم وقالوا إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقى إبراهيم عليه السلام
فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفى عينيه

قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ٢١ الأنبياء

قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ٢١ الأنبياء

قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ٢١ الأنبياء

قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ٢١ الأنبياء

قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ٢١ الأنبياء

جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق إلا الكبير وعلق الفأس فى عنقه وذلك
* قوله تعالى (إلا كبيراً لهم) أى للأصنام (لعلهم إليه) أى إلى إبراهيم عليه السلام (يرجعون) فيحاجهم
بما سيأتى فيحجهم ويبكتهم وقيل يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن الكاسر لأن من شأن المعبود أن
يرجع إليه فى الملمات وقيل يرجعون إلى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع مايصيبهم وعن
٥٩ الإضرار بمن كسرهم (قالوا) أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ماراأوا (من فعل هذا بآلهتنا) على طريقة
الإنكار والتوبيخ والتشنيع وإنما عبروا عنها بما ذكر ولم يشيروا إليها بهؤلاء وهى بين أيديهم مبالغة فى
التشنيع وقوله تعالى (إنه لمن الظالمين) استئناف مقرر لما قبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز
الرفع على أنها خبر لها والمعنى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا إنه معدود من جملة الظلمة إما لجرأته
على إهانتها وهى حقيقة بالإعظام أو لإفراطه فى الكسر والحطم وتماديه فى الاستهانة بها أو بتعريض
٦٠ نفسه للهلكة (قالوا) أى بعض منهم مجيبين للسائلين (سمعنا فتى يذكرهم) أى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها
فقوله تعالى يذكرهم إما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين أو صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا إذا كان
القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وإن كانوا قد سمعوا من الناس أنه عليه السلام يذكرهم بسوء
٦١ فلا حاجة إلى المصحح (يقال له إبراهيم) صفة أخرى لفتى أى يطلق عليه هذا الاسم (قالوا) أى السائلون
(فأتوا به على أعين الناس) أى بمرأى منهم بحيث يكون نصب أعينهم فى مكان مرتفع لا يكاد يخفى على
أحد (لعلهم يشهدون) أى يحضرون عقوبتنا له وقيل لعلهم يشهدون بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ
٦٢ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل
فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوا به أو لا فقيل أتوا به ثم قالوا (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)
اقتصاراً على حكاية مخاطبتهم إياه عليه السلام للتنبيه على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غنى
٦٣ عن البيان (قال بل فعله كبيرهم هذا) مشيراً إلى الذى لم يكسره سلك عليه السلام مسلكاً تعريضياً يؤديه
إلى مقصده الذى هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع ما فيه
من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل بإسناده إليه كما أبرزه فى ذلك

فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ٢١ الأنبياء

ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ٢١ الأنبياء

المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه باعتبار أنه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ماتنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على ماهو أشد من ذلك ويحكى أنه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فيكون تمثيلا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنام وأما ماقيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم بل إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك أمى فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل أنت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لانفيها عنك وإثباتها له فبمعزل من التحقيق لأن خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب فى أن مراده عليه السلام من إسناد الكسر إلى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل إنما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبىء عنه قوله
(فاسألوهم إن كانوا ينطقون) أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وإنما لم يقل عليه السلام إن كانوا يسمعون ٭
أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم
نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل وقد حصل ذلك أولا حسبما نطق به قوله تعالى (فرجعوا إلى أنفسهم) ٦٤
أى راجعوا عقولهم وتذكروا أن مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودا (فقالوا) أى قال بعضهم لبعض فيما بينهم (إنكم أنتم الظالمون) أى بهذا السؤال لأنه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام لامن ظلمتموه بقولكم إنه لمن الظالمين أو أنتم ظالمون
بعبادتها لامن كسرها (ثم نكسوا على رءوسهم) أى انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه ٦٥
عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشىء أعلاه وقرىء نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل أى نكسوا أنفسهم (لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) على إرادة القول أى قائلين والله لقد علمت أن ليس من شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لانفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع .

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ٢١ الأنبياء

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ٢١ الأنبياء

قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ٢١ الأنبياء

قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ٢١ الأنبياء

---

٦٦ (قال) مبكتاً لهم (أفتعبدون) أى أتعلمون ذلك فتعبدون (من دون الله) أى متجاوزين عبادته تعالى
(مالا ينفعكم شيئاً) من النفع (ولا يضركم) فإن العلم بحاله المنافية للألوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته
٦٧ قطعاً (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) تضجر منه عليه السلام من إصرارهم على الباطل البين وإظهار الاسم
الجليل فى موضع الإضمار لمزيد استقباح مافعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحاً ونتناً واللام لبيان
٦٨ المتأفف له (أفلا تعقلون) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم (قالوا) أى قال بعضهم لبعض
لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج إذا قرعت
شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لا يبقى له مفزع إلا المناصبة (حرقوه) فإنه أشد العقوبات (وانصروا
آلهتكم) بالانتقام لها (إن كنتم فاعلين) أى للنصر أو لشىء يعتد به قيل القائل نمرود بن كنعان بن السنجاريب
ابن نمرود بن كوس بن حام بن نوح وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به
الأرض روى أنهم لما أجمعوا على إحراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الأنباط وذلك
قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين
يوماً فأوقدوا ناراً عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحد حتى إن كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق
من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فأتى إبليس وعلمهم عمل
المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الأكراد فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم
القيامة ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام
هل لك حاجة قال أما إليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فجعل الله تعالى ببركة قوله
٦٩ الحظيرة روضة وذلك قوله تعالى (قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) أى كونى ذات برد وسلام
أى ابردى برداً غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطاوعة وإقامة كونى
ذات برد مقام ابردى ثم حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وقيل نصب سلاماً بفعله أى وسلمنا
سلاماً عليه . روى أن الملائكة أخذوا بضبعى إبراهيم وأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب وورد
أحمر ونرجس ولم تحرق النار إلا وثاقه وروى أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوما أو خمسين وقال
ما كنت أطيب عيشاً منى إذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه فنظر
نمرود من صرحه فأشرف عليه فرآه جالساً فى روضة مونقة ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة

وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ٢١ الأنبياء

وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ٢١ الأنبياء

وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ٢١ الأنبياء

وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ
وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ٢١ الأنبياء

والنار محيطة به فناداه يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشي فخرج منها فاستقبله نمرود وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فقال إنى مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لا يقبل الله منك مادمت على دينك هذا قال لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها وكف عن إبراهيم عليه السلام وكان إذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فإن انقلاب النار هواء طيباً وإن لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه فى السمندل كما يشعر به ظاهر
٧٠ قوله تعالى على إبراهيم (وأرادوا به كيداً) مكراً عظيما فى الإضرار به (فجعلناهم الأخسرين) أى أخسر
من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى إطفاء نور الحق برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل
٧١ وموجباً لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشد العذاب (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين)
أى من العراق إلى الشام وبركاته العامة أن أكثر الأنبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى أنه عليه السلام
٧٢ نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أى
عطية فهى حال منهما أو ولد ولد أو زيادة على ماسأل وهو إسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة (وكلا) أى كل واحد من هؤلاء الأربعة لا بعضهم دون بعض (جعلنا صالحين) بأن وفقناهم
٧٣ للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم فى أمور الدين إجابة لدعائه عليه
السلام بقوله ومن ذريتى (يهدون) أى الأمة إلى الحق (بأمرنا) لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى (وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وإنافته وحذفت تاء الإقامة المعوضة من إحدى الألفين لقيام المضاف إليه مقامه (وكانوا لنا) خاصة دون غيرنا (عابدين) لا يخطر ببالهم غير عبادتنا .

وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ
سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ٢١ الأنبياء

وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ٢١ الأنبياء

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ٢١ الأنبياء

وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ٢١ الأنبياء

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ
شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ٢١ الأنبياء

---

٧٤ (ولوطاً) قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (آتيناه) أى وآتينا لوطاً وقيل باذكر (حكما)
أى حكمة أو نبوة أو فصلا بين الخصوم بالحق (وعلماً) بما ينبغى علمه للأنبياء عليهم السلام (ونجيناه من
القرية التى كانت تعمل الخبائث) أى اللواطة وصفت بصفة أهلها وأسندت إليها على حذف المضاف
٧٥ وإقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) فإنه كالتعليل له (وأدخلناه فى رحمتنا)
٧٦ أى فى أهل رحمتنا أو فى جنتنا (إنه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى (ونوحا) أى اذكر نوحا
أى خبره وقوله تعالى (إذ نادى) أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر أى اذكر
نبأه الواقع وقت دعائه (من قبل) أى من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى من جملته
قوله إنى مغلوب فانتصر (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو الطوفان وقيل أذية قومه وأصل
٧٧ الكرب الغم الشديد (ونصرناه) نصراً مستتبعاً للانتقام والانتصار ولذلك قيل (من القوم الذين كذبوا
بآياتنا) وحمله على فانتصر يأباه ماذكر من دعائه عليه السلام فإن ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى
مع ما فيه من تهويل الأمر وقوله تعالى (إنهم كانوا قوم سوء) تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله
تعالى (فأغرقناهم أجمعين) فإن الإصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الإهلاك
٧٨ قطعاً (وداود وسليمان) إما عطف على نوحا معمول لعامله وإما لمضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير
المضاف وقوله تعالى (إذ يحكمان) ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار
صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما (فى الحرث) أى فى حق الزرع أو الكرم المتدلى عناقيده كما قيل
أو بدل اشتمال منهما وقوله تعالى (إذ نفشت) أى تفرقت وانتشرت (فيه غنم القوم) ليلا بلا راع فرعته
وأفسدته ظرف للحكم (وكنا لحكمهم) أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما فإن الإضافة لمجرد
الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرىء لحكمهما (شاهدين) حاضرين علماً
والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه .

فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

٢١ الأنبياء

٧٩ (ففهمناها سليمان) عطف على يحكمان فإنه فى حكم الماضى وقرىء فأفهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما إن غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق النبوة والأبوة إلا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث إلى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادا فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فإن قول سليمان عليه السلام غير هذا أرفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع الخ صريح فى أنه ليس بطريق الوحى وإلا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لإظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بدءا وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضاً كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم إن رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبىء عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبى حنيفة إلى المجنى عليه أو يفديه ويبيعه فى ذلك أو يفديه عند الشافعى وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث إلى أن يزول الضرر الذى أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبداً فأبق منه أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من المنافع فإذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى ففهمناها سليمان دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام إليه مع أن الحكم المبنى على الاجتهاد لا ينقض باجتهاد آخر وإن كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا على أنه ورد فى الأخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع وأما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند أبى حنيفة رحمه الله لا ضمان إن لم يكن معها سائق أو قائد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لا نهاراً وقوله تعالى (وكلا آتينا حكما وعلماً) لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعياً أى وكل واحد منهما آتينا حكما وعلماً كثيراً لا سليمان وحده وهذا إنما يدل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فى كونه مجتهداً وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لإظهار ما تفضل عليه فى صغره فإنه عليه السلام كان حينئذ ابن إحدى عشرة سنة (وسخرنا مع داود الجبال) شروع فى بيان ما يختص بكل منهما من كرامته تعالى إثر بيان كرامته العامة لهما (يسبحن) أى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة

وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ٢١ الأنبياء

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ٢١ الأنبياء

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ٢١ الأنبياء

وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير وقيل بالتسبيح وهو بعيد
* (والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى والطير
* مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل (وكنا فاعلين)
٨٠ أى من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وإن كان بديعاً عندكم (وعلمناه صنعة لبوس) أى عمل
الدرع وهو فى الأصل اللباس قال قائلهم [ألبس لكل حالة لبوسها * إما نعيمها وإما بوسها] وقيل كانت
صفائح فحلقها وسردها (لكم) متعلق بعلمنا أو بمحذوف هو صفة لبوس (لتحصنكم) أى اللبوس بتأويل
الدرع وقرىء بالتذكير على أن الضمير لداود عليه السلام أو للبوس وقرىء بنون العظمة وهو بدل اشتمال
من لكم بإعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم (من بأسكم) قيل من حرب
عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم (فهل أنتم شاكرون) أمر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو
٨١ التقريع (ولسليمان الريح) أى وسخرنا له الريح وإيراد اللام ههنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين
من التفاوت فإن تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال
بأمره ونهيه والمقهورية تحت ملكوته وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة
* بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا (عاصفة) حال من الريح والعامل
فيها الفعل المقدر أى وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث إنها كانت تبعد بكرسيه فى مدة
يسيرة من الزمان كما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة
وعاصفة أخرى حسب إرادته عليه السلام وقرىء الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم
وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدأ فى الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وقرىء الرياح نصباً
* ورفعاً (تجرى بأمره) بمشيئته حال ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها (إلى الأرض التى باركنا
فيها) وهى الشأم رواحاً بعد ما سار به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها
* من اصطخر إلى الشأم وإلى حيث شاء ثم يعود إلى منزله (وكنا بكل شىء عالمين) فنجريه حسبما تقتضيه
٨٢ الحكمة (ومن الشياطين) أى وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) فى البحار ويستخرجون له من
نفائسها وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والأول هو الأظهر (ويعملون عملا دون ذلك) أى غير
ما ذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل
الآية وهؤلاء إما الفرقة الأولى أو غيرها العموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع إليها
باعتبار معناها بعد ما رشح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ٢١ الأنبياء

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ٢١ الأنبياء

لا مؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى (وكنا لهم حافظين) أى من أن يزيغوا عن أمره أو
يفسدوا على ماهو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعاً من الملائكة وجمعاً من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان
٨٣ يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار (وأيوب) الكلام فيه كما
مر فى قوله تعالى وداود وسليمان أى واذكر خبر أيوب (إذ نادى ربه أنى) أى بأنى (مسنى الضر) وقرىء
بالكسر على إضمار القول أو تضمين النداء معناه والضر شائع فى كل ضرر وبالضم خاص بما فى النفس من
مرض وهزال ونحوهما (وأنت أرحم الراحمين) وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها
واكتفى به عن عرض المطلب لطفاً فى السؤال وكان عليه السلام رومياً من ولد عيص بن إسحاق استنبأه الله
تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه
ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعاً وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات روى أن امرأته ماخير
بنت ميشا ابن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت إفرايم بن يوسف قالت له يوماً لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت
مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحيى من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى
أن إبليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا إله الأرض فعلت بزوجك ما فعلت لأنه تركنى وعبد إله السماء
فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت
المال والولد وعافيت زوجك فرجعت إلى أيوب وكان ملقى فى الكناسة لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة
فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل لأضربنك مائة سوط وحرام على
أن أذوق بعد هذا شيئاً من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحاً على الكناسة لا يحوم حوله أحد من
الناس فعند ذلك خر ساجداً فقال رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد
استجبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة إلا
سقطت ولا جراحة إلا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء
٨٤ إلا خرج وعاد صحيحاً ورجع إليه شبابه وجماله ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى (فاستجبنا له فكشفنا ما به
من ضر) فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من الأهل والمال إلا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك
قوله تعالى (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان ثم إن امرأته قالت فى
نفسها هب أنه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعاً ويأكله السباع لأرجعن إليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة
ولا تلك الحال وقد تغيرت الأمور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة أن

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ٢١ الأنبياء

وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ٢١ الأنبياء

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ
سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ٢١ الأنبياء

تأتيه وتسأل عنه فأرسل إليها أيوب ودعاها فقال ماتريدين ياأمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ماكان منك فبكت وقالت بعلى قال أتعرفينه إذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أى آتيناه ماذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب أو لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم
٨٥ أيوب وذكرنا إياهم بالإحسان وعدم نسياننا لهم (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل) أى واذكرهم وذو الكفل إلياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل منه أو ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم فإن الكفل يجىء بمعنى النصيب والكفالة والضعف (كل) أى كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) أى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جواباً
٨٦ عن سؤال نشأ من الأمر بذكرهم (وأدخلناهم فى رحمتنا) أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة (إنهم من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لا يحوم حوله شائبة الفساد وهم الأنبياء فإن صلاحهم
٨٧ معصوم من كدر الفساد (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام (إذ ذهب مغاضباً) أى مراغماً لقومه لما برم من طول دعوته إياهم وشدة شكيمتهم وتمادى إصرارهم مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرىء مغضباً (فظن أن لن نقدر عليه) أى لن نضيق عليه أو لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده أنه قرىء مشدداً أو لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن أن لن نقدر عليه أى نعامله معاملة من يظن أن لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده أى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه فسميت ظناً للمبالغة وقرىء بالياء مخففاً ومثقلا مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول (فنادى) الفاء فصيحة أى فكان ماكان من المساهمة والتقام الحوت فنادى (فى الظلمات) أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة أو فى ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل (أن لا إله إلا أنت) أى بأنه لا إله إلا أنت على أن أن مخففة من أن وضمير الشأن محذوف أو أى لا إله إلا أنت على أنها مفسرة (سبحانك) أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يعجزك شىء أو أن يكون ابتلائى بهذا بغير سبب

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ٢١ الأنبياء

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ٢١ الأنبياء

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ٢١ الأنبياء

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ٢١ الأنبياء

من جهتى (إنى كنت من الظالمين) لأنفسهم بتعريضها للمهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة (فاستجبنا له) أى ٨٨
دعاءه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله ﷺ مامن مكروب
يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له (ونجيناه من الغم) بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان
فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة (وكذلك) أى مثل ذلك الإنجاء
الكامل (ننجى المؤمنين) من غموم دعوا الله تعالى فيها بالإخلاص لا إنجاء أدنى منه وفى الإمام نجى ولذلك
أخفى الجماعة النون الثانية فإنها تخفى مع حروف الفم وقرىء بتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت
الثانية كما حذفت التاء فى تظاهرون وهى وإن كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى
ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فإن الداعى إلى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الإدغام وامتناع
الحذف فى تتجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول أسند إلى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفاً ورد
بأنه لا يسند إلى المصدر والمفعول مذكور والماضى لا يسكن آخره (وزكريا) أى واذكر خبره (إذ نادى ٨٩
ربه) وقال (رب لا تذرنى فرداً) أى وحيداً بلا ولد يرثنى (وأنت خير الوارثين) فحسبى أنت إن لم ترزقنى
وارثا (فاستجبنا له) أى دعاءه (ووهبنا له يحيى) وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة فى سورة مريم ٩٠
(وأصلحنا له زوجه) أى أصلحناها للولادة بعد عقرها أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت
حردة وقوله تعالى (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة
بالأنبياء المذكورين أى كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير وهو
السر فى إيثار كلمة فى على كلمة إلى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين
إليها كما فى قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة (ويدعوننا رغباً ورهباً) ذوى رغب ورهب
أو راغبين فى الثواب راجين للإجابة أو فى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب (وكانوا
لنا خاشعين) أى مخبتين متضرعين أو دائمى الوجل والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى مانالوا بسبب اتصافهم
بهذه الخصال الحميدة (والتى أحصنت فرجها) أى اذكر خبر التى أحصنته على الإطلاق من الحلال والحرام ٩١
والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه فى حقها آثر ذى أثير (فنفخنا فيها) أى أحيينا
عيسى فى جوفها (من روحنا) من الروح الذى هو من أمرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ٢١ الأنبياء

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ٢١ الأنبياء

فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ٢١ الأنبياء

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ٢١ الأنبياء

عليه السلام (وجعلناها وابنها) أى قصتهما أو حالهما (آية للعالمين) فإن من تأمل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ماحصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل أريد بالآية الجنس الشامل للكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الأولى لدلالة الثانية
٩٢ عليها (إن هذه) أى ملة التوحيد والإسلام أشير إليها بهذه تنبيهاً على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد (أمتكم) أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشىء منها والخطاب للناس قاطبة (أمة واحدة) نصب على الحالية من أمتكم أى غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام إذ لا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الأمم والأعصار وقرىء أمتكم بالنصب على البدلية من اسم إن وأمة واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران (وأنا
٩٣ ربكم) لا إله لكم غيرى (فاعبدون) خاصة لا غير وقوله تعالى (وتقطعوا أمرهم بينهم) التفات إلى الغيبة لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق فى الدين وجعل أمره قطعاً موزعة وينهى قبائح أفعالهم إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله الذى أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام (كل) أى كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق (إلينا راجعون) بالبعث لا إلى غيرنا
٩٤ فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم وإيراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات) الخ تفصيل للجزاء أى فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من الصالحات (وهو مؤمن) بالله ورسله (فلا كفران لسعيه) أى لا حرمان لثواب عمله ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذى هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى ونفى نفى الجنس للمبالغة فى التنزيه وعبر عن العمل بالسعى لإظهار الاعتداد به (وإنا له) أى لسعيه (كاتبون) أى مثبتون فى صحائف أعمالهم لا نغادر من
٩٥ ذلك شيئاً (وحرام على قرية) أى ممتنع على أهلها غير متصور منهم وقرىء حرم وهى لغة كالحل والحلال (أهلكناها) قدرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى (أنهم لا يرجعون) فى حيز الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره والجملة لتقرير مضمون ماقبلها من قوله تعالى كل إلينا راجعون وما فى أن من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لا فى المنفى أى ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء لأن عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ٢١ الأنبياء

وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ
كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ٢١ الأنبياء

إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ٢١ الأنبياء

الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى كل إلينا راجعون لأنهم المنكرون للبعث والرجوع
دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم إلى التوبة على أن لا صلة وقرىء إنهم لا يرجعون بالكسر على أنه استئناف
تعليلي لما قبله فحرام خبر مبتدأ محذوف أي حرام عليها ذلك وهو ما ذكر في الآية السابقة من العمل الصالح
المشفوع بالإيمان والسعي المشكور ثم علل بقوله تعالى إنهم لا يرجعون عما هم عليه من الكفر فكيف
لا يمتنع ذلك ويجوز حمل المفتوحة أيضاً على هذا المعنى بحذف اللام عنها أي لأنهم لا يرجعون وحتى في
٩٦ قوله تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) الخ هي التي يحكى بعدها الكلام وهي على الأول غاية لما يدل
عليه ما قبلها كأنه قيل يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ويقولون
ياويلنا الخ وعلى الثاني غاية للحرمة أي يستمر امتناع رجوعهم إلى التوبة حتى إذا قامت القيامة يرجعون
إليها حين لا تنفعهم التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أي لا يرجعون عنه حتى إذا قامت
القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس قالوا الناس عشرة
أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدها على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه
وقرىء فتحت بالتشديد (وهم) أي يأجوج ومأجوج وقيل الناس (من كل حدب) أي نشز من الأرض
وقرىء جدث وهو القبر (ينسلون) أي يسرعون وأصله مقاربة الخطو مع الإسراع وقرىء بضم السين
٩٧ (واقترب الوعد الحق) عطف على فتحت والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء
لا النفخة الأولى (فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) جواب الشرط وإذا للمفاجأة تسد مسد الفاء
الجزائية كما في قوله تعالى إذا هم يقنطون فإذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير
للقصة أو مبهم يفسره ما بعده (ياويلنا) على تقدير قول وقع حالا من الموصول أي يقولون ياويلنا تعال فهذا
أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط (قد كنا في غفلة) تامة (من هذا) الذي دهمنا من البعث والرجوع
إليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق (بل كنا ظالمين) إضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أي لم نكن غافلين
عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها
٩٨ للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لكفار مكة
وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوماً مما سبق على وجه الإجمال مبالغة في الإنذار وإزاحة الاعتذار وما
تعبدون عبارة عن أصنامهم لأنها التي يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روي أن رسول الله ﷺ حين

لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ٢١ الأنبياء

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ٢١ الأنبياء

تلا الآية قال له ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة أليست اليهود عبدوا عزيراً والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة رد عليه بقوله ﷺ ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل ولا يعارضه ماروى أنه ﷺ رده بقوله بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك ولا ماروى أن ابن الزبعرى قال هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال ﷺ بل لكل من عبد من دون الله تعالى إذ ليس شيء منهما نصاً في عموم كلمة ما كما أن الأول نص في خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضي شموله بطريق العبارة بل يكفي في ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة في المعبودية من دون الله تعالى فعلله ﷺ بعدما بين مدلول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين في حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضاً تأكيداً للرد والإلزام وتكريراً للتبكيت والإفحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فإن إخراج بعض المعبودين عن حكم منبيء عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة في عبادته في الجملة بل بتحقيق الحق وبيان أنهم ليسوا من المعبودية في شيء حتى يتوهم دخولهم في الحكم المذكور دلالة بموجب شركتهم للأصنام في المعبودية من دون الله تعالى وإنما معبودهم الشياطين التي أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية فهم الداخلون في الحكم المذكور لاشتراكهم مع الأصنام في المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه في التوفيق بين الأخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضاً وجعل ماسيأتي من قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بياناً للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم والحصب ما يرمى به ويهيج به النار من حصبه إذا رماه بالحصباء وقرىء بسكون الصاد وصفاً له بالمصدر للمبالغة (أنتم لها واردون) استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على الدلالة على الاختصاص وأن

٩٩ ورودهم لأجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليباً (لو كان هؤلاء) أي أصنامهم (آلهة) كما يزعمون (ما وردوها) وحيث تبين ورودهم إياها تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح في أن المراد بما يعبدون هي الأصنام لأن المراد إثبات نقيض ما يدعونه وهم إنما يدعون إلهية الأصنام لا إلهية الشياطين حتى يحتج بورودها النار على عدم إلهيتها وأما ما وقع في الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام إليه عند بيان ما سيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الأول مما يوهم الرخصة في عبادتهم في الجملة لأنهم المعبودون عندهم أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطين وأنهم داخلون في حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا

١٠٠ يلزم التدافع بين الخبرين (وكل) أي من العبدة والمعبودين (فيها خالدون) لا خلاص لهم عنها (لهم فيها زفير) أي أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من أفعال العبدة أضيف إلى الكل للتغليب ويجوز أن يكون الضمير

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ٢١ الأنبياء

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ٢١ الأنبياء

لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ٢١ الأنبياء

للعبدة لعدم الإلباس وكذا فى قوله تعالى (وهم فيها لا يسمعون) أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة
١٠١ الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون مايسرهم من الكلام (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) شروع
فى بيان حال المؤمنين إثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وإيراد
الترغيب مع الترهيب أى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال وهى السعادة
وقيل التوفيق للطاعة أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الأدخل الأظهر فى الحمل عليها
لما أن الأولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع مابعدها تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى
فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون كما أن ماقبلها من قوله تعالى إنكم
وما تعبدون الخ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وحرام الخ (أولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه *
بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضل أى أولئك
المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل (عنها) أى عن جهنم (مبعدون) لأنهم فى الجنة وشتان بينها وبين *
النار وما روى أن علياً رضى الله عنه خطب يوماً فقرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان
وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم أجمعين
١٠٢ ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول (لا يسمعون حسيسها) ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن
طائفة مخصوصة والحسيس صوت يحس به أى لا يسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً كما هو المعهود عند كون
المصوت بعيداً وإن كان صوته فى غاية الشدة لا أنهم لا يسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل
من مبعدون أو حال من ضميره مسوقة للمبالغة فى إنقاذهم منها وقوله تعالى (وهم فيما اشتهت أنفسهم
خالدون) بيان لفوزهم بالمطالب إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب أى دائمون فى غاية التنعم وتقديم
١٠٣ الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) بيان لنجاتهم من الإفزاع بالكلية بعد
بيان نجاتهم من النار لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع لا يحزنهم ماعداه بالضرورة عن الحسن رضى الله
عنه أنه الانصراف إلى النار وعن الضحاك حتى يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش
أملح وقيل النفخة الأخيرة لقوله تعالى ففزع من فى السموات ومن فى الأرض وليس بذاك فإن الآمن من
ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله إلا من شاء الله لا جميع المؤمنين الموصوفين بالأعمال الصالحة على
أن الأكثرين على أن ذلك فى النفخة الأولى دون الأخيرة كما سيأتى فى سورة النمل (وتتلقاهم الملائكة)
أى تستقبلهم مهنئين لهم (هذا يومكم) على إرادة القول أى قائلين هذا اليوم يومكم (الذى كنتم توعدون) فى
الدنيا وتبشرون بمافيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بالذين

يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا
فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ٢١ الأنبياء
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ٢١ الأنبياء
إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ٢١ الأنبياء

سبقت لهم الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة لا من ذكر من المسيح وعزير
١٠٤ والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل (يوم نطوى السماء) بنون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله
تعالى لا يحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير المحذوف فى توعدون والطى ضد النشر
* وقيل المحو وقرىء يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول (كطى السجل) وهى الصحيفة أى طيا كطى
الطومار وقرىء السجل كلفظ الدلو وبالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام فى قوله تعالى
* (للكتب) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع
بعض صلته أى كطى السجل كائناً للكتب أو الكائن للكتب فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب
فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطى حقيقة وقرىء للكتاب وهو إما مصدر واللام للتعليل أى
كما يطوى الطومار للكتابة أو اسم كالإمام فاللام كما ذكر أولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب أعمال
* بنى آدم إذا رفعت إليه وقيل هو كاتب لرسول الله ﷺ (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى نعيد ما خلقناه
مبتدءاً إعادة مثل بدئنا إياه فى كونها إيجاداً بعد العدم أو جمعاً من الأجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة
الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما
كافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا أو لفعل يفسره نعيده أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره
نعيده أى نعيد مثل الذى بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف (وعداً)
* مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده أو منتصب به لأنه عدة بالإعادة (علينا) أى علينا إنجازه (إنا كنا فاعلين)
١٠٥ لما ذكر لا محالة (ولقد كتبنا فى الزبور) هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء
عليهم السلام (من بعد الذكر) أى التوراة وقيل اللوح المحفوظ أى وبالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد
ما كتبنا فى التوراة أو كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبناه وأثبتناه فى اللوح المحفوظ (أن الأرض يرثها
عبادى الصالحون) أى عامة المؤمنين بعد إجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى بإظهار الدين وإعزاز أهله وعن
ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد أرض الجنة كما ينبىء عنه قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده
١٠٦ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقيل الأرض المقدسة يرثها أمة محمد ﷺ (إن فى هذا) أى
فيما ذكر فى السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة
على التوحيد وصحة النبوة (لبلاغا) أى كفاية أو سبب بلوغ إلى البغية (لقوم عابدين) أى لقوم همهم

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ٢١ الأنبياء

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ٢١ الأنبياء

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ٢١ الأنبياء

إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ٢١ الأنبياء

وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ٢١ الأنبياء

---

١٠٧ العبادة دون العادة (وما أرسلناك) بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والأحكام وغير ذلك من الأمور التى
هى مناط لسعادة الدارين (إلا رحمة للعالمين) هو فى حيز النصب على أنه استثناء من أعم العلل أو من أعم
الأحوال أى ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل إلا برحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة أو ما أرسلناك فى حال من
الأحوال إلا حال كونك رحمة لهم فإن لما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم فى
النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فإنما فرط فى نفسه وحرمه حقه لا أنه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه
رحمة فى حق الكفار أمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى وما كان الله
١٠٨ ليعذبهم وأنت فيهم (قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) أى ما يوحى إلى إلا أنه لا إله لكم إلا
إله واحد لأنه المقصود الأصلى من البعثة وأما ما عداه فن الأحكام المتفرعة عليه فإنما الأولى لقصر
الحكم على الشىء كقولك إنما يقوم زيد أى ما يقوم إلا زيد والثانية لقصر الشىء على الحكم كقولك إنما
زيد قائم أى ليس له إلا صفة القيام (فهل أنتم مسلمون) أى مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى
والفاء للدلالة على أن ماقبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية تصح أن يكون طريقها
١٠٩ السمع (فإن تولوا) عن الإسلام ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من الوحى (فقل) لهم (آذنتكم) أى أعلمتكم
ما أمرت به أو حربى لكم (على سواء) كائنين على سواء فى الإعلام به لم أطوه عن أحد منكم أو مستوين به
أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به أو فى المعاداة أو إيذانا على سواء وقيل أعلمتكم أنى على سواء أى عدل
واستقامة رأى بالبرهان النير (وإن أدرى) أى ما أدرى (أقريب أم بعيد ما توعدون) من غلبة المسلمين
١١٠ وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيا لا محالة (إنه يعلم الجهر من القول) أى ما تجاهرون به من الطعن فى
الإسلام وتكذيب الآيات التى من جملتها مانطق بمجىء الموعود (ويعلم ما تكتمون) من الإحن
١١١ والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا أو قطميرا (وإن أدرى لعله فتنة لكم) أى ما أدرى لعل تأخير
جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون (ومتاع إلى حين) أى
وتمتع لكم إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم .

قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ٢١ الأنبياء

١١٢ (قال رب احكم بالحق) حكاية لدعائه ﷺ وقرىء قل رب على صيغة الأمر أى اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه ﷺ حيث عذبوا ببدر أى تعذيب وقرىء رب احكم بضم الباء وربى أحكم على صيغة التفضيل وربى أحكم من الإحكام (وربنا الرحمن) مبتدأ أى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى (المستعان) أى المطلوب منه المعونة وخبر آخر للمبتدأ وإضافة الرب فيما سبق إلى ضميره ﷺ خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به ﷺ كما أن إضافته ههنا إلى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضاً لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم (على ما تصفون) من الحال فإنهم كانوا يقولون إن الشوكة تكون لهم وإن راية الإسلام تخفق ثم تركد وإن المتوعد به لو كان حقاً لنزل بهم إلى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله ﷺ فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فأصابهم يوم بدر ما أصابهم والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله وقرىء يصفون بالياء التحتانية وعن النبي ﷺ من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن .

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

ترتيبها ٢١ — آياتها ١١٢

نزلت بمكة كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم، وفي البحر أنها مكية بلا خلاف وأطلق ذلك فيها، واستثنى منها في الاتقان قوله تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض﴾ [الأنبياء: ٤٤] الآية وهي مائة واثنتا عشرة آية في عد الكوفي وإحدى عشرة في عد الباقين كما قاله الطبرسي والداني، ووجه اتصالها بما قبلها غني عن البيان، وهي سورة عظيمة فيها موعظة فخيمة؛ فقد أخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ وادياً ما في العرب واد أفضل منه وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿اقترب للناس﴾ [الأنبياء: ١] إلى آخره.

بسم الله الرَّحْمن الرَّحيم

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا
ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ
ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟
أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ
﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا
فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾
فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ روي عن ابن عباس كما قال الإمام، والقرطبي، والزمخشري أن المراد بالناس المشركون ويدل عليه ما ستسمعه بعد إن شاء الله من الآيات فإنها ظاهرة في وصف المشركين، وقال بعض الأجلة: إن ما فيها من قبيل نسبة ما للبعض إلى الكل فلا ينافي كون تعريفه للجنس، ووجه حسنه ها هنا كون أولئك البعض هم الأكثرون وللأكثر حكم الكل شرعاً وعرفاً. ومن الناس من جوز إرادة الجنس والضمائر فيما بعد لمشركي أهل مكة وإن لم يتقدم ذكرهم في هذه السورة وليس بأبعد مما سبق، وقال بعضهم: إن دلالة ما ذكر على التخصيص ليست إلا على تقدير تفسير الأوصاف بما فسروها به، ويمكن أن يحمل كل منها على معنى يشترك فيه عصاة الموحدين ولا يخفى أن في ذلك ارتكاب خلاف الظاهر جداً، واللام صلة لاقترب كما هو الظاهر وهي بمعنى إلى أو بمعنى من فإن اقترب افتعل من القرب ضد البعد وهو يتعدى بإلى وبمن، واقتصر بعضهم على القول بأنها بمعنى إلى فقيل فيه تحكم لحديث تعدى القرب بهما، وأجيب بأنه يمكن أن يكون ذلك لأن كلاً من وإلى اللتين هما صلتا القرب بمعنى انتهاء الغاية إلا أن إلى عريقة في هذا المعنى ومن عريقة في ابتداء الغاية فلذا أوثر التعبير عن كون اللام المذكورة بمعنى انهاء الغاية كالتي في قوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [الزلزلة: ٥] القول بأنها بمعنى إلى واقتصر عليه، وفي الكشف المعنى على تقدير كونه صلة لاقترب اقترب من الناس لأن معنى الاختصاص وابتداء الغاية كلاهما مستقيم يحصل به الغرض انتهى، وفيه بحث فإن المفهوم منه أن يكون كلمة من التي يتعدى بها فعل الاقتراب بمعنى ابتداء الغاية وليس كذلك لعدم ملاءمة ذلك المعنى مواقع استعمال تلك الكلمة فالحق أنها بمعنى انتهاء الغاية فإنهم ذكروا أن من يجيء لذلك، قال الشمني: وفي الجني الداني مثل ابن مالك لانتهاء الغاية بقولهم تقربت منه فإنه مساو لتقربت إليه، ومما يشهد لذلك أن فعل الاقتراب كما يستعمل بمن يستعمل بإلى، وقد ذكر في معاني من انتهاء الغاية كما سمعت ولم يذكر أحد في معاني إلى ابتداء الغاية والأصل أن تكون الصلتان بمعنى فتحمل من على إلى في كون المراد بها الانتهاء وغاية ما يقال في توجيه ذلك أن صاحب الكشف حملها على ابتداء الغاية لأنه أشهر معانيها حتى ذهب بعض النحاة إلى إرجاع سائرها إليه وجعل تعديته بها حملاً على ضده المتعدي بها وهو فعل البعد كما أن فعل البيع يعدى بمن حملاً له على فعل الشراء المتعدي بها على ما ذكره نجم الأئمة الرضي في بحث الحروف الجارة؛ والمشهور أن ﴿اقترب﴾ بمعنى قرب كارتقب بمعنى رقب، وحكي في البحر أنه أبلغ منه لزيادة مبناه والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه وهو الساعة، ووجه إيثار بيان اقترابه مع أن الكلام مع المشركين المنكرين لأصل بعث الأموات ونفس إحياء العظام الرفات فكان ظاهر ما يقتضيه المقام أن يؤتى بما يفيد أصل الوقوع بدل الاقتراب وأن يسند ذلك إلى نفس الساعة لا إلى الحساب للإشارة إلى أن وقوع القيام وحصول بعث الأجساد والأجسام أمر ظاهر بلا تمويه وشيء واضح لا ريب فيه وأنه وصل في الظهور والجلاء إلى حيث لا يكاد يخفى على العقلاء، وأن الذي يرخي في بيانه أعنة المقال بعض ما يستتبعه من الأحوال والأهوال كالحساب الموجب للاضطراب بل نفس وقوع الحساب أيضاً غني عن البيان لا ينبغي أن ترتاب فيه العقول والأذهان وأن الذي قصد بيانه هاهنا أنه دنا أوانه واقترب زمانه فيكون الكلام مفصحاً عن تحقق القيام الذي هو مقتضى المقام على وجه وجيه أكيد ونهج بديع سديد لا يخفى لطفه على من ألقى السمع وهو شهيد.

وجوّز أن يكون الكلام مع المشركين السائلين عن زمانه الساعة المستعجلين لها استهزاء كما في قوله تعالى ﴿فيسنغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾ [الإسراء: ٥١] فحينئذ يكون الإخبار عن الاقتراب على مقتضى الظاهر، وإيثار بيان اقتراب الحساب على بيان اقتراب سائر وقوع مستتبعات البعث كفنون

العذاب وشجون العقاب للإشعار بأن مجرد اقتراب الحساب الذي هو من مبادي العذاب ومقدماته كاف في التحذير عما هم عليه من الإنكار وواف بالردع عما هم عليه من العلو والاستكبار فكيف الحال في نفس العذاب والنكال.

وذكر شيخ الإسلام مولانا أبو السعود عليه الرحمة أن إسناد ذلك إلى الحساب لا إلى الساعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عما يذكرهم إياه وفيه ما فيه، ثم الوجه اللائح في النظر الجليل لإسناد الاقتراب إلى الحساب دون الناس مع جواز العكس هو أن الاقتراب إذا حصل بين شيئين يسند إلى ما هو مقبل على الآخر متحرك ومتوجه إلى جهته حقيقة أو حكماً حتى أنه لو كان كل منهما متوجهاً إلى الآخر يصح إلى كل منهما، وقد سمعت أن المراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه، وقد صرح به أجلة المفسرين، وأنت خبير بأن الشائع المستفيض اعتبار الوجه والإتيان من الزمان إلى ذي الزمان لا بالعكس فلذلك يوصف الزمان بالمضي والاستقبال فكان الجدير أن يسند الاقتراب إلى زمان الحساب ويجعل الناس مدنو إليهم.

وذكر شيخ الإسلام أن في هذا الإسناد من تفخيم شأن المسند إليه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصوير ذلك بصورة شيء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم فيصيبهم لا محالة انتهى، وهو معنى زائد على ما ذكرنا لا يخفى لطفه على الناقد البصير والألمعي الخبير، والمراد من اقتراب ذلك من الناس على ما اختاره الشيخ قدس سره دنوه منهم بعد بعده عنهم فإنه في كل ساعة يكون أقرب إليهم منه في الساعة السابقة، واعترض قول الزمخشري المراد من ذلك كون الباقي من مدة الدنيا أقل وأقصر مما مضى منها فإنه كصبابة الإناء ودردي الوعاء بأنه لا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضي ولا حاجة إليه في تحقيق معناه. نعم قد يفهم منه عرفاً كونه قريباً في نفسه أيضاً فيصار حينئذ إلى هذا التوجيه وتعقبه بعض الأفاضل بأن القول بعدم التعلق بالاقتراب المستفاد من صيغة الماضي خارج عن دائرة الانصاف فإنه إن أراد أنه لا تعلق له بالحدوث المستفاد منها فلا وجه له إذ الاقتراب بالمعنى المذكور أمر حدث بمضي الأكثر من مدة الدنيا وإن أراد أنه لا تعلق له بالمضي المستفاد منها فلا وجه له أيضاً إذ الدلائل دلت على حصول هذا الاقتراب حين مبعث النبي ﷺ الموعود في آخر الزمان المتقدم على نزول الآية.

ثم قال: فليت شعري ما معنى عدم تعلقه بما نحن فيه بل ربما يمكن أن يدعي عدم المناسبة في المعنى الذي اختاره نفسه فإن الاقتراب بذلك المعنى مستمر من أول بدء الدنيا إلى يوم نزول الآية بل إلى ما بعد فالذي يناسبه هو الصيغة المنبئة عن الاستمرار والدوام، ثم لا يخفى على أصحاب الأفهام أن هذا المعنى الذي اعترضه أنسب بما هو مقتضى المقام من إخافة الكفرة اللئام المرتابين في أمر القيام لما فيه من بيان قربه الواقع في نفس الأمر!. فتدبر، وقيل المراد اقتراب ذلك عند الله تعالى، وتعقب بأنه لا عند الله عز وجل إذ لا نسبة للكائنات إليه عز وجل بالقرب والبعد.

ورد بأنه غفلة أو تغافل عن المراد فإن المراد من عند الله في علمه الأزلي أو في حكمه وتقديره ولا الدنو والاقتراب المعروف، وعلى هذا يكون المراد من القرب تحققه في علمه تعالى أو تقديره.

وقال بعض الأفاضل: ليس المراد من كون القرب عند الله تعالى نسبته إليه سبحانه بأن يجعل هو عز وجل مدنواً منه ومقرباً إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً بل المراد قرب الحساب للناس عند الله تعالى، وحاصله أنه تعالى شأنه لبلوغ تأنيه إلى حد الكمال يستقصر المدد الطوال فيكون الحساب قريباً من الناس عند جنابه المتعال وإن كان بينه وبينهم أعوام وأحوال، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ [المعارج: ٦، ٧] وهذا المعنى يفيد وراء إفادته تحقق الثبوت لا محالة أن المدة الباقية بينهم وبين الحساب شيء قليل في الحقيقة وما عليه الناس من استطالته

واستكثاره فمن التسويلات الشيطانية وأن اللائق بأصحاب البصيرة أن يعدوا تلك المدة قصيرة فيشمروا الذيل ليوم يكشف فيه عن ساق ويكون إلى الله تعالى شأنه المساق، وقول شيخ الإسلام في الاعتراض على ما قيل إنه لا سبيل أي اعتباره ها هنا لأن قربه بالنسبة إليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتماً وإنما اعتباره في قوله تعالى ﴿لعل الساعة قريب﴾ [الشورى: ١٧] ونظائره مما لا دلالة فيه على الحدوث مبني على حمل القرب عنده تعالى على القرب إليه تعالى بمعنى حضور ذلك في علمه الأزلي فإنه الذي لا يجري فيه التفاوت حتماً وأما قرب الأشياء بعضها إلى بعض زماناً أو مكاناً فلا ريب أنه يتجدد تعلقات علمه سبحانه بذلك فيعلمه على ما هو عليه مع كون صفة العلم نفسها قديمة على ما تقرر في موضعه ا هـ. واختار بعضهم أن المراد بالعندية ما سمعته أولاً وهو معنى شائع في الاستعمال وجعل التجدد باعتبار التعلق كما قيل بذلك في قوله تعالى: ﴿ثم بعثناهم لنعلم﴾ [الكهف: ١٢] الآية، وقيل المراد من اقترابه تحقق وقوعه لا محالة فإن كل آت قريب والبعيد ما وقع ومضى ولذا قيل:

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ... ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

ولا بد أن يراد من تحقق وقوعه تحققه في نفسه لا تحققه في العلم الأزلي ليغاير القول السابق. وبعض الأفاضل قال: إنه على هذا الوجه عدم تعلقه بالاقتراب المستفاد من صيغة الماضي إلا أن يصار إلى القول بتجرد الصيغة عن الدلالة على الحدوث كما في قولهم: سبحان من تقدس عن الأنداد وتنزه عن الأضداد فتأمل ولا تغفل.

وتقديم الجار والمجرور على الفاعل كما صرح به شيخ الإسلام للمسارعة إلى إدخال الروعة فإن نسبة الاقتراب إلى المشركين من أول الأمر يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجاً من المقترب، واعترض بأن هؤلاء المشركين لا يحصل لهم الترويع والانزعاج لما ستسمع من غفلتهم وإعراضهم وعدم اعتدادهم بالآيات النازلة عليهم فكيف يتأتى تعجيل المساءة، وأجيب بأن ذلك لا يقتضي أن لا يزعجهم الإنذار والتذكير ولا يروعهم التخويف والتحذير لجواز أن يختلج في ذهنهم احتمال الصدق ولو مرجوحاً فيحصل لهم الخوف والاشفاق.

وأيد بما ذكره بعض المفسرين من أنه لما نزلت ﴿اقتربت الساعة﴾ [القمر: ١] قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً فنزلت **﴿اقترب للناس حسابهم﴾** فاشفقوا فانظروا قربها فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به انتهى.

وقال بعضهم في بيان ذلك: إن الاقتراب منبىء عن التوجه والاقبال نحو شيء فإذا قيل اقترب أشعر أن هناك أمراً مقبلاً على شيء طالباً له من غير دلالة على خصوصية المقترب منه فإذا قيل بعد ذلك **﴿للناس﴾** دل على أن ذلك الأمر طالب لهم مقبل عليهم وهم هاربون منه فأفاد أن المقترب بما يسوؤهم فيحصل لهم الخوف والاضطراب قبل ذكر الحساب بخلاف ما إذا قيل اقترب الحساب للناس فإن كون إقبال الحساب نحوهم لا يفهم على ذلك التقدير إلا بعد ذكر للناس فتحقق فائدة التعجيل في التقديم مما لا شبهة فيه بل فيه فائدة زائدة وهي ذهاب الوهم في تعيين ذلك الأمر الهائل إلى كل مذهب إلى أن يذكر الفاعل، ويمكن أيضاً أن يقال في وجه تعجيل التهويل: إن جريان عادته الكريمة ﷺ على إنذار المشركين وتحذيرهم وبيان ما يزعجهم يدل على أن ما بين اقترابه منهم شيء سيىء هائل فإذا قدم الجار يحصل التخويف حيث يعلم من أول الأمر أن الكلام في حق المشركين الجاري عادته الكريمة عليه الصلاة والسلام على تحذيرهم بخلاف ما إذا قدم الفاعل حيث لا يعلم المقترب منه إلى أن يذكر الجار والمجرور والقرينة المذكورة لا تدل على تعيين المقترب كما تدل على تعيين المقترب إذ من المعلوم من عادته الكريمة ﷺ أنه إذا تكلم في شأنهم يتكلم غالباً بما يسوؤهم لا أنه عليه الصلاة والسلام يتكلم في غالب أحواله بما يسوؤهم وفرق بين العادتين، ولا يقدح

في تمامية المرام توقف تحقق نكتة التقديم على ضم ضميمة العادة إذ يتم المراد بأن يكون للتقديم مدخل في حصول تلك النكتة بحيث لو فات التقديم لفاتت النكتة، وقد عرفت أن الأمر كذلك وليس في كلام الشيخ قدس سره ما يدل على أن المسارعة المذكورة حاصلة من التقديم وحده كذا قيل. ولك أن تقول: التقديم لتعجيل التخويف ولا ينافي ذلك عدم حصوله كما لا ينافي عدم حصول التخويف كون إنزال الآيات للتخويف فافهم، وجوز الزمخشري كون اللام تأكيداً لإضافة الحساب إليهم قال في الكشف: فالأصل اقترب حساب الناس لأن المقترب منه معلوم ثم اقترب للناس الحساب على أنه ظرف مستقر مقدم لا أنه يحتاج إلى مضاف مقدر حذف لأن المتأخر مفسر أي اقترب الحساب للناس الحساب كما زعم الطيبي وفي التقديم والتصريح باللام وتعريف الحساب مبالغات ليست في الأصل ثم اقترب للناس حسابهم فصارت اللام مؤكدة لمعنى الاختصاص الإضافي لا لمجرد التأكيد كما في لا أباله وما ثني فيه الظرف من نحو فيك زيد راغب فيك انتهى.

وادّعى الزمخشري أن هذا الوجه أغرب بناء على أن فيه مبالغات ونكتاً ليست في الوجه الأول وادّعى شيخ الإسلام أنه مع كونه تعسفاً تاماً بمعزل عما يقتضيه المقام، وبحث فيه أيضاً أبو حيان وغيره ومن الناس من انتصر له وذب عنه، وبالجملة للعلماء في ذلك مناظرة عظمى ومعركة كبرى، والأولى بعد كل حساب جعل االلام صلة الاقتراب هذا، واستدل بالآية على ثبوت الحساب، وذكر البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ [البقرة: ٢٨٤] أن المعتزلة والخوارج ينكرونه ويعضده ما ذكره الإمام النسفي في بعض مؤلفاته حيث قال: قالت المعتزلة لا ميزان ولا حساب ولا صراط ولا حوض ولا شفاعة وكل موضع ذكر الله تعالى فيه الميزان أو الحساب أراد سبحانه به العدل انتهى. لكن المذكور في عامة المعتبرات الكلامية أن أكثرهم ينفي الصراط وجميعهم ينفي الميزان ولم يتعرض فيه لنفيهم الحساب، والحق أن الحساب بمعنى المجازاة مما لا ينكره إلا المشركون ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عظيمة وجهالة فخيمة عنه، وقيل الأولى التعميم أي في غفلة تامة وجهالة عامة من توحيده تعالى والإيمان بكتبه ورسله عليهم السلام ووقوع الحساب ووجود الثواب والعقاب وسائر ما جاء به النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم، وذكر غفلتهم عن ذلك عقيب بيان اقتراب الحساب لا يقتضي قصر الغفلة عليه فإن وقوع تأسفهم وندامتهم وظهور أثر جهلهم وحماقتهم لما كان مما يقع في يوم الحساب كان سبباً للتعقيب المذكور انتهى.

وقد يقال: إن ظاهر التعقيب يقتضي ذلك، ومن غفل عن مجازاة الله تعالى له المراد من الحساب صدر منه كل ضلالة وركب متن كل جهالة والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً لهم. وقوله سبحانه: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الآيات والنذر الناطقة بذلك الداعية إلى الإيمان به المنجي من المهالك خبر بعد خبر، واجتماع الغفلة والإعراض على ما أشرنا إليه مما لا غبار عليه، وللإشارة إلى تمكنهم في الغفلة التي هي منشأ الإعراض المستمر جيء بالكلام على ما سمعت، والجملة في موضع الحال من الناس، وقال الزمخشري: وصفهم بالغفلة مع الإعراض على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء ولذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا إلى آخر ما قال.

وحاصله يتضمن دفع التنافي بين الغفلة التي هي عدم التنبه والإعراض الذي يكون من المتنبه بأن الغفلة عن الحساب في أول أمرهم والإعراض بعد قرع عصا الإنذار أو بأن الغفلة عن الحساب والإعراض عن التفكر في عاقبتهم وأمر خاتمتهم، وفي الكشف أراد أن حالهم المستمرة الغفلة عن مقتضى الأدلة العقلية ثم إذا عاضدتها الأدلة السمعية

وأرشدوا لطريق النظر أعرضوا، وفيه بيان فائدة إيراد الأول جملة ظرفية لما في حرف الظرف من الدلالة على التمكن وإيراد الثاني وصفاً منتقلاً دالاً على نوع تجدد، ومنه يظهر ضعف الحمل على أن الظرفية حال من الضمير المستكن في ﴿معرضون﴾ قدمت عليه انتهى.

ولا يخفى أن القول باقتضاء العقول أنه لا بدّ من الجزاء لا يتسنى إلا على القول بالحسن والقبح العقليين والأشاعرة ينكرون ذلك أشد الإنكار، وقال بعض الأفاضل: يمكن أن يحمل الإعراض على الاتساع كما في قوله:

عطاء فتى تمكن في المعالي وأعرض في المعالي واستطالا

وذكره بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ [الإسراء: ٦٧] فيكون المعنى وهم متسعون في الغفلة مفرطون فيها.

ويمكن أيضاً أن يراد بالغفلة معنى الإهمال كما في قوله تعالى: ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ [سورة المؤمنون: ١٧] فلا تنافي بين الوصفين. ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير وتبين لهم الأمر أتم تبيين كأنها نفس الذكر، و ﴿من﴾ سيف خطيب وما بعدها مرفوع المحل على الفاعلية، والقول بأنها تبعيضية بعيد، ﴿من﴾ في قوله تعالى: و ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة الذكر، وأيّاً ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة ما فعلوا به، والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع ﴿مُّحْدَثٍ﴾ بالجر صفة لذكر.

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على أنه صفة له أيضاً على المحل، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما بالنصب على أنه حال منه بناء على وصفه بقوله تعالى: ﴿من ربهم﴾ وقوله سبحانه: ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ﴾ استثناء مفرغ محله النصب على أنه حال من مفعول ﴿يأتيهم﴾ بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور على ما قيل، وقال نجم الأئمة الرضي: إذا كان الماضي بعد إلا فاكتفاؤه بالضمير من دون الواو وقد أكثر نحو ما لقيته إلا أكرمني لأن دخول إلا في الأغلب على الأسماء فهو بتأويل إلا مكر ما فصار كالمضارع المثبت.

وجوّز أن يكون حالاً من المفعول لأنه حامل لضميره أيضاً والمعنى لا يأباه وهو خلاف الظاهر، وأبعد من ذلك ما قيل إنه يحتمل أن يكون صفة لذكر، وكلمة ﴿إلا﴾ وإن كانت مانعة عند الجمهور إذ التفريغ في الصفات غير جائز عندهم إلا أنه يجوز أن يقدر ذكر آخر بعد إلا فتجعل هذه الجملة صفة له ويكون ذلك بمنزلة وصف المذكور أي ما يأتيهم من ذكر إلا ذكر استمعوه، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من فاعل ﴿استمعوه﴾ وقوله سبحانه: ﴿لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ إما حال أخرى منه فتكون مترادفة أو حال من واو ﴿يلعبون﴾ فتكون متداخلة والمعنى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا حال استماعهم إياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أو لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه.

وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى «لاهيةٌ» بالرفع على أنه خبر بعد خبر لهم، والسر في اختلاف الخبرين لا يخفى، و ﴿لاهية﴾ من لهى عن الشيء بالكسر لهياً ولهياناً إذ سلا عنه وترك ذكره وأضرب عنه كما في الصحاح، وفي الكشاف هي من لهى عنه إذا ذهل وغفل وحيث اعتبر في الغفلة فيما مر أن لا يكون للغافل شعور بالمفعول عنه أصلاً بأن لا يخطر بباله ولا يقرع سمعه أشكل وصف قلوبهم بالغفلة بعد سماع الآيات إذ قد زالت عنهم بذلك وحصل لهم الشعور وإن لم يوفقوا للإيمان وبقوا في غيابه الخزي والخذلان.

وأجيب بأن الوصف بذلك على تنزيل شعورهم لعدم انتفاعهم به منزلة العدم نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿ولقد

علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠٢] وأنت تعلم أنه لا بأس أن يراد من الغفلة المذكورة في تفسير لهى الترك والإعراض على ما تفصح عنه عبارة الصحاح، وإنما لم يجعل ذلك من اللهو بمعنى اللعب على ما هو المشهور لأن تعقيب ﴿يلعبون﴾ بذلك حينئذ مما لا يناسب جزالة التنزيل ولا يوافق جلالة نظمه الجزيل وإن أمكن تصحيح معناه بنوع من التأويل، والمراد بالحدوث الذي يستدعيه محدث التجدد وهو يقتضي المسبوقية بالعدم، ووصف الذكر بذلك باعتبار تنزيله لا باعتباره نفسه وإن صح ذلك بناء على حمل الذكر على الكلام اللفظي والقول بما شاع عن الأشاعرة من حدوثه ضرورة أنه مؤلف من الحروف والأصوات لأن الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام بيان أنه كلما تجدد لهم التنبيه والتذكير وتكرر على أسماعهم كلمات التخويف والتحذير ونزلت عليهم الآيات وقرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة والجهالة عدد الحصا وأرشدوا إلى طريق الحق مراراً لا يزيدهم ذلك إلا فراراً، وأما إن ذلك المنزل حادث أو قديم فمما لا تعلق له بالمقام كما لا يخفى على ذوي الأفهام، وجوز أن يكون المراد بالذكر الكلام النفسي وإسناد الإتيان إليه مجاز بل إسناده إلى الكلام مطلقاً كذلك؛ والمراد من الحدوث التجدد ويقال: إن وصفه بذلك باعتبار التنزيل فلا ينافي القول بقدم الكلام النفسي الذي ذهب إليه مثبتوه من أهل السنة والجماعة، والحنابلة القائلون بقدم اللفظي كالنفسي يتعين عندهم كون الوصف باعتبار ذلك لئلا تقوم الآية حجة عليهم، وقال الحسن بن الفضل المراد بالذكر النبي ﷺ وقد سمي ذكراً في قوله تعالى: ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] ويدل عليه هنا ﴿هل هذا﴾ إلخ الآتي قريباً إن شاء الله تعالى وفيه نظر، وبالجملة ليست الآية مما تقام حجة على رد أهل السنة ولو الحنابلة كما لا يخفى ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى من جناياتهم، و ﴿النجوى﴾ اسم من التناجي ولا تكون إلا سراً فمعنى إسرارها المبالغة في إخفائها، ويجوز أن تكون مصدراً بمعنى التناجي فالمعنى أخفوا تناجيهم بأن لم يتناجوا بمرأى من غيرهم، وهذا على ما في الكشف أظهر وأحسن موقعاً، وقال أبو عبيدة: الإسرار من الأضداد، ويحتمل أن يكون هنا بمعنى الإظهار ومنه قول الفرزدق:

فلما رأى الحجاج جرد سيفه ... أسر الحروري الذي كان أضمرا

وأنت تعلم أن الشائع في الاستعمال معنى الإخفاء وإن قلنا إنه من الأضداد كما نص عليه التبريزي ولا موجب للعدول عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من ضمير ﴿أسروا﴾ كما قال المبرد، وعزاه ابن عطية إلى سيبويه، وفيه إشعار بكونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به، وقال أبو عبيدة. والأخفش، وغيرهما: هو فاعل ﴿أسرّوا﴾ والواو حرف دال على الجمعية كواو قائمون وتاء قامت وهذا على لغة أكلوني البراغيث وهي لغة لأزد شنوءة قال شاعرهم: يلومونني في اشتراء النخيل أهلي وكلهم ألوم.

وهي لغة حسنة على ما نص أبو حيان وليست شاذة كما زعمه بعضهم، وقال الكسائي: هو مبتدأ والجملة قبله خبره وقدم اهتماماً به، والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلاً على ما فعلهم بكونه ظلماً، وقيل هو مبتدأ محذوف أي هم الذين، وقيل هو فاعل لفعل محذوف أي يقول الذين والقول كثيراً ما يضمر، واختاره النحاس، وهو على هذه الأقوال في محل الرفع.

وجوز أن يكون في محل النصب على الذم كما ذهب إليه الزجاج أو على إضمار أعني كما ذهب إليه بعضهم، وأن يكون في محل الجر على أن يكون نعتاً ﴿للناس﴾ كما قال أبو البقاء أو بدلاً منه كما قال الفراء وكلاهما كما ترى، وقوله تعالى: ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الخ في حيز النصب على أنه مفعول لقول مضمر بعد الموصول وصلته

هو جواب عن سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا قالوا في نجواهم؟ فقيل قالوا هذا الخ أو بدل من ﴿أسروا﴾ أو معطوف عليه، وقيل حال أي قائلين هل هذا الخ وهو مفعول لقول مضمر قبل الموصول على ما اختاره النحاس، وقيل مفعول للنجوى نفسها لأنها في معنى القول والمصدر المعرف يجوز إعماله الخليل، وسيبويه، وقيل بدل منها أي أسروا هذا الحديث، و ﴿هل﴾ بمعنى النفي وليست للاستفهام التعجبي كما زعم أبو حيان، والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حال من فاعل تأتون مقررة للإنكار مؤكدة للاستبعاد، وأرادوا كما قيل ما هذا إلا بشر مثلكم أي من جنسكم وما أتى به سحر تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر، وعنوا بالسحر ها هنا القرآن ففي ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه قاتلهم الله تعالى أنّى يؤفكون، وإنما أسروا ذلك لأنه على طريق توثيق العهد وترتيب مبادىء الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة وإطفاء نور الدين والله تعالى يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، وقيل أسروه ليقولوا للرسول ﷺ والمؤمنين إن كان ما تدعونه حقاً فأخبرونا بما أسررناه؟ ورده في الكشف بأنه لا يساعده النظم ولا يناسب المبالغة في قوله تعالى: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ ولا في قوله سبحانه: ﴿أفتأتون﴾ السحر ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ حكاية من جهته تعالى لما قال عليه الصلاة والسلام بعدما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم بياناً لظهور أمرهم وانكشاف سرهم ففاعل ﴿قال﴾ ضميره ﷺ والجملة بعده مفعوله، وهذه القراءة قراءة حمزة والكسائي وحفص والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وأيوب وخلف وابن سعدان وابن جبير الأنطاكي وابن جرير، وقرأ باقي السبعة «قل» على الأمر لنبيه ﷺ، و «القول» عام يشمل السر والجهر فإيثاره على السر لإثبات علمه سبحانه به على النهج البرهاني مع ما فيه من الإيذان بأن علمه تعالى بالأمرين على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعاً كما في علوم الحق.

وفي الكشف أن بين السر والقول عموماً وخصوصاً من وجه والمناسب في هذا المقام تعميم القول ليشمل جهره وسره والأخفى فيكون كأنه قيل يعلم هذا الضرب وما هو أعلى من ذلك وأدنى منه وفي ذلك من المبالغة في إحاطة علمه تعالى المناسبة لما حكى عنهم من المبالغة في الإخفاء ما فيه؛ وإيثار السر على القول في بعض الآيات لنكتة تقتضيه هناك ولكل مقام مقال، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من القول أي كائناً في السماء والأرض، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ أي بجميع المسموعات ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي بجميع المعلومات، وقيل أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات ويدخل في ذلك أقوالهم وأفعالهم دخولاً أولياً اعتراض تذييلي مقدر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد بمجازاتهم على ما صدر منهم، ويفهم من كلام البحر أن ما قبل متضمن ذلك أيضاً ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ إضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب باطل أي لم يقتصروا على القول في حقه ﷺ هل هذا إلا بشر مثلكم وفي حق ما ظهر على يَده من القرآن الكريم إنه سحر بل قالوا هو أي القرآن تخاليط الأحلام ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم أضربوا فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به شعر يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، وهذا الاضطراب شأن المبطل المحجوج فإنه لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد؛ فبل الأولى كما نرى من كلامه عز وجل وهي انتقالية والمنتقل منه ما تقدم باعتبار خصوصه والأخيرتان من كلامهم المحكي وهما ابطاليتان لترددهم وتحيرهم في تزويرهم وجملة المقول داخلة في النجوى.

ويجوز أن تكون الأولى انتقالية والمنتقل منه ما تقدم بقطع النظر عن خصوصه والجملة غير داخلة في النجوى، وكلا الوجهين وجيه وليس فيهما إلا اختلاف معنى بل، وكون الأولى من الحكاية والأخيرتين من المحكي ولا مانع منه.

وجوز أن تكون الأولى من كلامهم وهي إبطالية أيضاً متعلقة بقولهم هو سحر المدلول عليه بأفتأتون السحر، ورد بأنه إنما يصح لو كان النظم الكريم قالوا بل الخ ليفيد حكاية إضرابهم، وكونه من القلب وأصله قالوا بل لا يخفى ما فيه، وقد أجيب أيضاً بأنه إضراب في قولهم المحكي بالقول المقدر قبل قوله تعالى: ﴿هل هذا﴾ الخ أو الذي تضمنه النجوى وأعيد القول للفاصل أو لكونه غير مصرح به ولا يخفى ما فيه أيضاً وجوز أن تكون الثلاثة من كلامه عز وجل على أن ذلك تنزيل لأقوالهم في درج الفساد وأن قولهم الثاني أفسد من الأول والثالث أفسد من الثاني وكذلك الرابع من الثالث، ويطلق على نحو هذا الإضراب الترقي لكن لم يقل هنا ترقياً إشارة إلى أن الترقي في القبح تنزيل في الحقيقة، ووجه ذلك كما قال في الكشف أن قولهم إنه سحر أقرب من الثاني فقد يقال: إن من البيان لسحراً لأن تخاليط الكلام التي لا تنضبط لا شبه لها بوجه بالنظم الأنيق الذي أبكم كل منطيق، ثم ادعاء أنها مع كونها تخاليط مفتريات أبعد وأبعد لأن النظم بمادته وصورته من أتم القواطع دلالة على الصدق كيف وقد انضم إليه أن القائل عليه الصلاة والسلام علم عندهم في الأمانة والصدق، والأخير هذيان المبرسمين لأنهم أعرف الناس بالتمييز بين المنظوم والمنثور طبعاً وبين ما يساق له الشعر وما سيق له هذا الكلام الذي لا يشبه بليغات خطبهم فضلاً عن ذلك وبين محسنات الشعر ومحسنات هذا النثر هذا فيما يرجع إلى الصورة وحدها، ثم إذا جئت إلى المادة وتركب الشعر من المخيلات والمعاني النازلة التي يهتدي إليها الأجلاف وهذا من اليقينيات العقدية والدينيات العملية التي عليها مدار المعاد والمعاش وبها تتفاضل الأشراف فأظهر وأظهر، هذا والقائل عليه الصلاة والتسليم ممن لا يتسهل له الشعر وإن أراده خالطوه وذاقوه أربعين سنة اهـ.

وكون تركب الشعر من المخيلات باعتبار الغالب فلا ينافيه قوله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة» لأنه باعتبار الندرة ويؤيده التأكيد بأن الدالة على التردد فيه، وقد جاء الشاعر بمعنى الكاذب بل قال الراغب: إن الشاعر في القرآن بمعنى الكاذب بالطبع، وعليه يكون قد أرادوا قاتلهم الله تعالى بل هو وحاشاه ذو افتراءات كثيرة، وليس في بل هنا على هذا الوجه إبطال بل إثبات للحكم الأول وزيادة عليه كما صرح بذلك الراغب، وفي وقوعها للإبطال في كلام الله تعالى خلاف فأثبته ابن هشام ومثل له بقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ [الأنبياء: ٢٦] ووهم ابن مالك في شرح الكافية فنفاه، والحق أن الإبطال إن كان لما صدر عن الغير فهو واقع في القرآن وإن كان لما صدر عنه تعالى فغير واقع بل هو محال لأنه بداء، وربما يقال: مراد ابن مالك بالمنفي الضرب الثاني، ثم إن هذا الوجه وإن كان فيه بعد لا يخلو عن حسن كما قيل فتدبر.

﴿فَلْيأْتِنَا بِآيَةٍ﴾ جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولاً من الله عز وجل كما يقول فليأتنا بآية ﴿أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ وقدر النيسابوري غير هذا الشرط فقال أخذاً من كلام الإمام في بيان حاصل معنى الآية: إنهم أنكروا أولاً كون الرسول ﷺ من جنس البشر ثم إنهم كأنهم قالوا سلمنا ذلك ولكن الذي ادعيت أنه معجز ليس بمعجز غايته أنه خارق للعادة وما كل خارق لها معجز فقد يكون سحراً هذا إذا ساعدنا على أن فصاحة القرآن خارجة عن العادة لكنا عن تسليم هذه المقدمة بمراحل فإنا ندّعي أنه في غاية الركاكة وسوء النظم كأضغاث أحلام سلمنا ولكنه من جنس كلام الأوساط افتراه من عنده سلمنا أنه كلام فصيح لكنه لا يتجاوز فصاحة

الشعر وإذا كان حال هذا المعجز هكذا فليأتنا بآية لا يتطرق إليها شيء من هذه الاحتمالات كما أرسل الأولون انتهى وهو كما ترى.

وما موصولة في محل الجر بالكاف والجملة بعدها صلة والعائد محذوف، والجار والمجرور متعلق بمقدر وقع صفة لآية أي فليأتنا بآية التي أرسل بها الأولون، ولا يضر فقد بعض شروط جواز حذف العائد المجرور بالحرف إذ لا اتفاق على اشتراط ذلك، ومن اشترط اعتبر العائد المحذوف هنا منصوباً من باب الحذف والإيصال، وهو مهيع واسع، وأرادوا بالآية المشبه بها كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الناقة والعصا ونحوهما، وكان الظاهر أن يقال فليأتنا بما أتى به الأولون أو بمثل ما أتى به الأولون إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الكريم لدلالته على ما دل عليه مع زيادة كونه مرسلاً به من الله عز وجل، وفي التعبير في حقه ﷺ بالإتيان والعدول عن الظاهر فيما بعده إيماء إلى أن ما أتى به ﷺ من عنده وما أتى به الأولون من الله تبارك وتعالى ففيه تعريض مناسب لما قبله من الافتراء قاله الخفاجي وذكر أن ما قيل إن العدول عن كما أتى به الأولون لأن مرادهم اقتراح آية مثل آية موسى وآية عيسى عليهما السلام لا غيرهما مما أتى به سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن العلامة البيضاوي أشار إلى ذلك مما لا وجه له، وجوز أن تكون ما مصدرية والكاف منصوبة على أنها مصدر تشبيهي أي نعت لمصدر محذوف أي فليأتنا بآية إتياناً كائناً مثل إرسال الأولين بها وصحة التشبيه من حيث إن المراد مثل إتيان الأولين بها لأن إرسال الرسل عليهم السلام متضمن الإتيان المذكور كما في الكشاف، وفي الكشف أنه يدل على أن قوله تعالى: ﴿**كما أرسل الأولون**﴾ كناية في هذا المقام، وفائدة العدول بعد حسن الكناية تحقيق كونها آية مسلمة بمثلها تثبت الرسالة لا تنازع فيها ويترتب المقصود عليها، والقول بأن الإرسال المشبه به مصدر المجهول ومعناه كونه مرسلاً من الله تعالى بالآيات لا يسمن ولا يغني في توجيه التشبيه لأن ذلك مغاير للإتيان أيضاً وإن لم ينفك عنه، وقيل يجوز أن يحمل النظم الكريم على أنه أريد كل واحد من الإتيان والإرسال في كل واحد من طرفي التشبيه لكنه ترك في جانب المشبه ذكر الإرسال، وفي جانب المشبه به ذكر الإتيان اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في الموطن الآخر، ولا يخفى بعده، ثم إن الظاهر أن إقرارهم بإرسال الأولين ليس عن صميم الفؤاد بل هو امر اقتضاه اضطرابهم و تحيرهم، وذكر بعض الأجلة أنّ مما يرجح الحمل على أن ما تقدم حكاية أقوالهم المضطربة هذه الحكاية لأنهم منعوا أولاً أن يكون الرسول بشراً وبتوا القول به وبنوا ما بنوا ثم سلموا أن الأولين كانوا ذوي آيات وطالبوه عليه الصلاة والسلام بالإتيان بنحو ما أتوا به منها، وعلى وجه التنزيل لأقوالهم على درج الفساد يحمل هذا على أنه تنزل منهم، والعدول إلى الكناية لتحقيق تنزله عن شأوهم انتهى فتأمل ولا تغفل.

﴿**مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ**﴾ كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما ينبيء عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمني بالإيمان عند إتيان الآية المقترحة وبيان أنهم في اقتراح ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه وإن في ترك الإجابة إليه إبقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا ما اقترحوه مع عدم إيمانهم قطعاً لاستئصلوا لجريان سنة الله تعالى شأنه في الأمم السالفة على استئصال المقترحين منهم إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا وقد سبقت كلمته سبحانه أن هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال، وهذا أولى مما قيل إنهم لما طعنوا في القرآن وأنه معجزة وبالغوا في ذلك حتى أخذوا من قوله تعالى: ﴿**أفتأتون السحر**﴾ إلى أن انتهوا إلى قوله سبحانه: ﴿**فليأتنا**﴾ إلخ جيء بقوله عز زجل: ﴿**ما آمنت**﴾ الخ تسلية له ﷺ في أن الإنذار لا يجدي فيهم.

وأياً ما كان فقوله سبحانه: ﴿**من قرية**﴾ على حذف المضاف أي من أهل قرية، ومن مزيدة لتأكيد العموم وما

بعدها في محل الرافع على الفاعلية، وقوله سبحانه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ في محل جر أو رفع صفة قرية، والمراد أهلكناها بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات، وقيل القرية مجاز عن أهلها فلا حاجة إلى تقدير المضاف.

واعترض بأن ﴿أهلكناها﴾ يأباه والاستخدام وإن كثر في الكلام خلاف الظاهر، وقال بعضهم: لك أن تقول إن هلاكها كناية عن إهلاك أهلها وما ذكر أولاً أولى، والهمزة في قوله سبحانه: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لإنكار الوقوع والفاء للعطف أما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت إنكار وقوع إيمانهم ونفيه عقيب عدم إيمان الأولين فالمعنى أنه لم يؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات هم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أعطوا ما اقترحوه أي مع أنهم أعتى وأطغى كما يفهم بمعونة السياق والعدول عن فهم لا يؤمنون أيضاً وأما على ﴿ما آمنت﴾ على أن الفاء متقدمة على الهمزة في الاعتبار مفيدة لترتيب إنكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان الأولين وإنما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ جواب لما زعموه من أن الرسول لا يكون إلا ملكاً المشار إليه بقولهم هل هذا إلا بشر مثلكم الذي بنوا عليه ما بنوا فهو متعلق بذلك وقدم عليه جواب قولهم: ﴿فليأتنا﴾ لأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة إلى رده وإبطاله ولأن في هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب النظم الكريم، وقوله تعالى: ﴿نُوحي إِلَيهِمْ﴾ استئناف مبين لكيفية الإرسال، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد إلى خصوصه، والمعنى ما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمتك إلا رجالاً لا ملائكة نوحي إليهم بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والأخبار كما نوحي إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي وحقيقة مدلوله كما لا فرق بينك وبينهم في البشرية فما لهم لا يفهمون أنك لست بدعاً من الرسل وإن ما أوحي إليك ليس مخالفاً لما أوحي إليهم فيقولون ما يقولون، وقال بعض الأفاضل: إن الجملة في محل النصب صفة مادحة لرجالاً وهو الذي يقتضيه النظم الجليل، وقرأ الجمهور «يُوحَى إِلَيْهِمْ» بالياء على صيغة المبني للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بتعين الفاعل، وقوله تعالى:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتِمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير إثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله ﷺ لأنه الحقيق بالخطاب في أمثال تلك الحقائق الأنيقة، وأما الوقوف عليها بالسؤال من الغير فهو من وظائف العوام وأمره ﷺ بالسؤال في بعض الآيات ليس للوقوف وتحصيل العلم بالمسؤول عنه لأمر آخر، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وأهل الذكر أهل الكتاب كما روي عن الحسن وقتادة وغيرهما، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام لتزول شبهتكم. أمروا بذلك لأن أخبار الجم الغفير يفيد العلم في مثل ذلك لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين في عداوته ﷺ ويشاورونهم في أمره عليه الصلاة والسلام ففيه من الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوة شأن النبي ﷺ ما لا يخفى، وعن ابن زيد أن أهل الذكر هم أهل القرآن، ورده ابن عطية بأنهم كانوا خصومهم فكيف يؤمرون بسؤالهم، ويرد ذلك على ما زعمته الإمامية من أنهم آله ﷺ وقد تقدم الكلام في ذلك.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوة لسائر أفراد الجنس في أحكام الطبيعة البشرية والجسد على ما في القاموس جسم الإنس والجن والملك، وقال الراغب: هو كالجسم إلا أنه أخص منه، قال الخليل: لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه، وأيضاً فإن الجسد يقال لما له لون والجسم لما لا يبين له لون

كالهواء والماء(١)، وقوله تعالى: ﴿وما جعلناهم جسداً﴾ الخ يشهد لما قاله الخليل انتهى، وقيل: هو جسم ذو تركيب وظاهره أنه أعم من الحيوان ومنهم خصه به؛ وقال بعضهم: هو في الأصل مصدر جسد الدم يجسد أي التصق وأطلق على الجسم المركب لأنه ذو أجزاء ملتصق بعضها ببعض، ثم الظاهر أن الذي يقول بتخصيصه بحيث لا يشمل غير العاقل من الحيوان مثلاً غاية ما يدعي أن ذلك بحسب أصل وضعه ولا يقول بعدم جواز تعميمه بعد ذلك فلا تغفل، ونصبه إما على أنه مفعول ثان للجعل، والمراد تصييره كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل، وأما حال من الضمير والجعل إبداعي وأفراده لإعادة الجنس الشامل للكثير أو لأنه في الأصل على ما سمعت مصدر وهو يطلق على الواحد المذكر وغيره، وقيل: لإرادة الاستغراق الإفرادي في الضمير أي جعلنا كل واحد منهم؛ وقيل: هو بتقدير مضاف أي ذوي جسد، وفي التسهيل أنه يستغني بتثنية المضاف وجمعه عن تثنية المضاف إليه وجمعه في الإعلام وكذا ما ليس فيه لبس من أسماء الأجناس.

وقوله تعالى ﴿لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ صفة ﴿جسداً﴾ أي وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الغذاء بل محتاجاً إليه ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي باقين أبداً، وجوّز أن يكون الخلود بمعنى المكث المديد، واختير الأول لأن الجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام بشراً لا ملائكة كما يقتضيه اعتقاد المشركين الفاسد وزعمهم الكاسد، والظاهر هم يعتقدون أيضاً في الملائكة عليهم السلام الأبدية كاعتقاد الفلاسفة فيهم ذلك إلا أنهم يسمونهم عقولاً مجردة، وحاصل المعنى جعلناهم أجساداً متغذية صائرة إلى الموت بالآخرة حسب آجالهم ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ولا يموتون حسبما تزعمون، وقيل: الجملة رد على قوله: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ [الفرقان: ٧] الخ والأول أولى، نعم هي مع كونها مقررة لما قبلها فيها رد على ذلك. وفي إيثار ﴿وما كانوا﴾ على وما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود والبقاء من توابع جبلتهم في هذه النشأة التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿وما جعلناهم جسداً﴾ الخ لا بالجعل المستأنف بل إذا نظرت إلى سائر المركبات من العناصر المتضادة رأيت بقاءها سويعة أمراً غريباً وانتهضت إلى طلب العلة لذلك ومن هنا قيل:

ولا تتبع الماضي سؤالك لم مضى ... وعرج على الباقي وسائله لم بقي

بل لا يبعد أن تكون الممكنات مطلقاً كذلك فقد قالوا: إن الممكن إذا خلي وذاته يكون معدوماً إذ العدم لا يحتاج إلى علة وتأثير بخلاف الوجود؛ ولا يلزم على هذا أن يكون العدم مقتضى الذات حتى يصير ممتنعاً إذ مرجع ذلك إلى أولوية العدم وأليقيته بالنسبة إلى الذات، ويشير إلى ذلك ما قيل قول أبي علي في الهيئات الشفاء للمعلول في نفسه أن يكون ليس وله عن علته أن يكون آيساً، وقولهم باستواء طرفي الممكن بالنظر إلى ذاته معناه استواؤه في عدم وجوب واحد منهما بالنظر إلى ذاته، وقولهم علة العدم علة الوجود بمعنى أن العدم لا يحتاج إلى تأثير وجعل بل يكفيه انعدام العلة لا أن عدم العلة مؤثرة في عدم المعلول ولعل في قوله ﷺ ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن إشارة إلى هذا فتدبر، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ قيل: عطف على ما يفهم من حكاية وحيه تعالى إلى المرسلين على الاستمرار التجددي كأنه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا ثم صدقناهم الوعد الذي وعدناهم في تضاعيف الوحي بإهلاك أعدائهم، وقيل: على ﴿نوحي﴾ السابق بمعنى أوحينا، وتوسيط الأمر بالسؤال وما معه اهتماماً بإلزامهم والرد عليهم؛ وقال الخفاجي: هو عطف على قوله تعالى: ﴿أرسلنا﴾ وثم للتراخي الذكري أي أرسلنا رسلاً من البشر

---

(١) قال الرازي: له لون ولا يحجب ما وراءه اه منه.

وصدقناهم ما وعدناهم فكذا محمد ﷺ فاحذروا تكذيبه ومخالفته فالآيات كما تضمنت الجواب تضمنت التهديد انتهى، وفيه تأمل، ونصب ﴿الوعدَ﴾ على نزع الخافض والأصل صدقناهم في الوعد ومنه صدقوهم القتال وصدقني سن بكره، وقيل: على أنه مفعول ثان وصدق قد تتعدى للمفعولين من غير توسط حرف الجر أصلاً.

﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي من المؤمنين بهم كما عليه جماعة من المفسرين، وقيل منهم ومن غيرهم ممن تستدعي الحكمة إبقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر في حماية الذين كذبوه وآذوه ﷺ من عَذاب الاستئصال، ورجح ما عليه الجماعة بالمقابلة بقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وذلك لحمل التعريف على الاستغراق والمسرفين على الكفار مطلقاً لقوله تعالى: ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ [غافر: ٤٣] بناء على أن المراد بأصحاب النار ملازموها والمخلدون فيها ولا يخلد فيها عندنا إلا الكفار، ومن عمم أولاً قال: المراد بالمسرفين من عدا أولئك المنجين، والتعبير بمن نشاء دون من آمن أو من معهم مثلاً ظاهر في أن المراد بذلك المؤمنون وآخرون معهم ولا يظهر على التخصيص وجه العدول عما ذكر إلى ما في النظم الكريم والتعبير بنشاء مع أن الظاهر شئنا لحكاية الحال الماضية، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كتاباً﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقيقة القرآن العظيم الذي ذكر في صدر السورة الكريمة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به واضطرابهم في أمره وبيان علو مرتبته إثر تحقيق رسالته ﷺ بيان أنه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمي إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذاناً بكون المخاطبين في أقصى مراتب النكير والخطاب لقريش.

وجوّز أن يكون لجميع العرب وتنوين كتاباً للتعظيم والتفخيم أي كتاباً عظيم الشأن نير البرهان، وقوله عز وجل: ﴿فيه ذِكْرُكُم﴾ صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمي من كونه جليل القدر بأنه جميل الآثار مستجلب لهم منافع ﴿جليلة﴾ والمراد بالذكر كما أخرج البيهقي في شعب الإيمان وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس الصيت والشرف مجاز أي فيه ما يوجب الشرف لكم لأنه بلسانكم ومنزل على نبي منكم تتشرفون بشرفه وتشتهرون بشهرته لأنكم حملته والمرجع في حل معاقده وجعل ذلك فيه مبالغة في سببيته له، وعن سفيان أنه مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال أي فيه ما يحصل به الذكر أي الثناء الحسن وحسن الأحدوثة من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال إطلاقاً لاسم المسبب على السبب فهو مجاز عن ذلك أيضاً.

وأخرج غير واحد عن الحسن أن المراد فيه ما تحتاجون إليه في أمور دينكم، وزاد بعض ودنياكم، وقيل الذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول، والمعنى فيه موعظتكم، ورجح ذلك بأنه الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه فإن قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب والتدبر فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة.

وقال صاحب التحرير: الذي يقتضيه سياق الآيات أن المعنى فيه ذكر قبائحكم ومثالبكم وما عاملتم به أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام من التكذيب والعناد. وقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ إنكار عليهم في عدم تفكرهم مؤد إلى التنبه عن سنة الغفلة انتهى، وفيه بعد، والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمر كذلك أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر، وقوله عز وجل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ وبيان لكيفية إهلاكهم وتنبيه على كثرتهم فكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على أنها مفعول لـ ﴿قصمنا﴾ ومن﴿قرية﴾ تمييز، وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب وشدة

السخط ما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة ﴿قرية﴾ وكان الأصل على ما قيل أهل قرية ينبىء عنه الضمير الآتي إن شاء الله تعالى فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فوصف بما هو من صفات المضاف أعني الظلم فكأنه قيل وكثيراً قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها مثلكم.

وفي الكشاف المراد بالقرية أهلها ولذلك وصفت بالظلم فيكون التجور في الطرف، وقال بعضهم: لك أن تقول وصفها بذلك على الإسناد المجازي وقوله: ﴿قصمنا من قرية﴾ كناية عن قصم أهلها للزوم إهلاكها إهلاكهم فلا مجاز ولا حذف، وأياً ما كان فليس المراد قرية معينة، وأخرج ابن المنذر، وغيره عن الكلبي أنها حضور قرية باليمن، وأخرج ابن مردويه من طريقه عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال بعث الله تعالى نبياً من حمير يقال له شعيب فوثب إليه عبد فضربه بعصا فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿وكم قصمنا﴾ الخ؛ وفي البحر أن هؤلاء كانوا بحضور وأن الله تعالى بعث إليهم نبياً فقتلوه فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس بعث إليهم جيشاً فهزموه ثم بعث إليهم آخر فهزموه فخرج إليهم بنفسه فهزمهم وقتلهم، وعن بعضهم أنه كان اسم هذا النبي موسى بن ميشا، وعن ابن وهب أن الآية في قريتين باليمن إحداهما حضور والأخرى قلابة بطر أهلهما فأهلكهم الله تعالى على يد بختنصر، ولا يخفى أنه مما يأباه ظاهر الآية والقول بأنها من قبيل قولك كم أخذت من دارهم زيد على أن الجار متعلق بأخذت والتمييز محذوف أي كم درهم أخذت من دراهم زيد، ويقال هنا إنها بتقدير كم ساكن قصمنا من ساكني قرية أو نحو ذلك مما لا ينبغي أن يلتفت إليه إلا بالرد عليه، فلعل ما في الروايات محمول على سبيل التمثيل، ومثل ذلك غير قليل، وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي بعد هلاك أهلها لا بعد تلك الفعلة كما توهم ﴿قَوْماً آخَرِينَ﴾ أي ليسوا منهم في شيء تنبيه على استئصال الأولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر في تقديم حكاية إنشاء هؤلاء على حكاية مبادي إهلاك أولئك بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ فضمير الجمع للأهل لا لقوم آخرين إذ لا ذنب لهم يقتضي ما تضمنه هذا الكلام، والإحساس الإدراك بالحاسة أي فلما أدركوا بحاستهم عذابنا الشديد، ولعل ذلك العذاب كان مما يدرك بإحدى الحواس الظاهرة. وجوز أن يكون في البأس استعارة مكنية ويكون الإحساس تخييلاً وأن يكون الإحساس مجازاً عن مطلق الإدراك أي فلما أدركوا ذلك ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا﴾ أي من القرية فمن ابتدائية أو من البأس والتأنيث لأنه في معنى النقمة والبأساء فمن تعليلية وهي على الاحتمالين متعلقة بقوله تعالى: ﴿يَرْكُضُونَ﴾ وإذا فجائية، والجملة جواب لما، وركض من باب قتل بمعنى ضرب الدابة برجله وهو متعد، وقد يراد لازماً كركض الفرس بمعنى جرى كما قاله أبو زيد ولا عبرة بمن أنكره، والركض هنا كناية عن الهرب أي فإذا هم يهربون مسرعين راكضين دوابهم.

وجوّز أن يكون المعنى مشبهين بمن يركض الدواب على أن هناك استعارة تبعية ولا مانع من حمل الكلام على حقيقته على ما قيل ﴿لاَ تَرْكُضُوا﴾ أي قيل لهم ذلك، والقائل يحتمل أن يكون ملائكة العذاب أو من كان ثمة من المؤمنين قالوا على سبيل الهزء بهم، وقال ابن عطية: يحتمل على الرواية السالفة أن يكون القائل من جيش بختنصر وأراد بذلك خدعهم والاستهزاء بهم، وقيل يحتمل أن يكون المراد يجعلون خلقاً، بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل على معنى أنهم بلغوا في الركض والفرار من العذاب بعد الإتراف والتنعيم بحيث من رآهم قال لا تركضوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُم فيه﴾ من النعم والتلذذ والاتراف إبطار النعمة وفي ظرفية، وجوز كونها سببية ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل أو تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومنازلكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أو يسألكم حشمكم وعبيدكم فيقولوا لكم بم تأمرون ماذا

ترسمون وكيف نأتي ونذر كما كنتم من قبل أو يسألكم الوافدون نوالكم إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالكم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم، وقيل على الرواية المتقدمة المعنى لعلكم تسألون صلحاً أو جزية أو أمراً تتفقون مع الملك عليه، وقيل المراد بمساكنهم النار فيكون المراد بارجعوا إلى مساكنكم ادخلوا النار تهكماً، والمراد بالسؤال عن الأعمال أو المراد به العذاب على سبيل المجاز المرسل بذكر السبب وإرادة المسبب أي ادخلوا النار كي تسألوا أو تعذبوا على ظلمكم وتكذيبكم بآيات الله تعالى وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى.

قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

﴿**قَالُوا**﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا استيلاء العذاب ﴿**يَا وَيْلَنَا**﴾ يا هلاكنا ﴿**إِنَّا كُنَّا ظَالمِينَ**﴾ بآيات الله تعالى مستوجبين للعذاب، وهذا اعتراف منهم بالظلم واستتباعه للعذاب وندم عليه حين لا ينفعهم ذلك، وقيل على الرواية السالفة إن هذا الندم والاعتراف كان منهم حين أخذتهم السيوف ونادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء ﴿**فَمَا زَالَتْ تلْكَ دَعواهُم**﴾ أي فما زالوا يرددون تلك الكلمة، وتسميتها دعوى بمعنى الدعوة فإنه يقال دعا دعوى ودعوة لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلاً يا ويل تعال فهذا أوانك.

وجوّز الحوفي والزمخشري وأبو البقاء كون ﴿**تلك**﴾ اسم زال و ﴿**دعواهم**﴾ خبرها والعكس، قال أبو حيان: وقد قال ذلك قبلهم الزجاج وأما أصحابنا المتأخرون فعلى أن اسم كان وخبرها مشبه بالفاعل والمفعول فكما لا يجوز في الفاعل والمفعول التقدم والتأخر إذا أوقع ذلك في اللبس لعدم ظهور الإعراب لا يجوز في باب كان ولم ينازع فيه أحد إلا أبو العباس أحمد بن الحاج من نبهاء تلاميذ الشلوبين اهـ.

وقال الفاضل الخفاجي: إن ما ذكره ابن الحاج في كتاب المدخل أنه ليس فيه التباس وأنه من عدم الفرق بين الالتباس وهو أن يفهم منه خلاف المراد والإجمال وهو أن لا يتعين فيه أحد الجانبين. ولأجل هذا جوزه، وما ذكره محل كلام وتدبر.

وفي حواشي الفاضل البهلوان على تفسير البيضاوي إن هذا في الفاعل والمفعول وفي المبتدأ والخبر إذا انتفى الإعراب، والقرينة مسلم مصرح به، وأما في باب كان وأخواتها فغير مسلم ا هـ.

والظاهر أنه لا فرق بين باب كان وغيرها مما ذكر وإن سلم عدم التصريح لاشتراك ما ذكروه علة للمنع ثم إن ذلك إلى الالتباس أقرب منه إلى الإجمال لا سيما في الآية في رأي فافهم ﴿**حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصيداً خَامدينَ**﴾ أي إلى

أن جعلناهم بمنزلة النبات المحصود والنار الخامدة في الهلاك قاله العلامة الثاني في شرح المفتاح[١] ثم قال في ذلك استعارتان بالكناية بلفظ واحد وهو ضمير ﴿جعلناهم﴾ حيث شبه بالنبات وبالنار وأفرد بالذكر وأريد به المشبه بهما أعني النبات والنار ادعاء بقرينة أنه نسب إليه الحصاد الذي هو من خواص النبات والخمود الذي هو خواص النار، ولا يجعل من باب التشبيه مثل هم صم بكم عمي لأن جمع ﴿خامدين﴾ جمع العقلاء ينافي التشبيه إذ ليس لنا قوم خامدون يعتبر تشبيه أهل القرية بهم إذ الخمود من خواص النار بخلاف الصمم مثلاً فإنه يجعل بمنزلة هم كقوم صم وكذا يعتبر ﴿حصيداً﴾ بمعنى محصودين على استواء الجمع الواحد في فعيل بمعنى مفعول ليلائم ﴿خامدين﴾ نعم يجوز تشبيه هلاك القوم بقطع النبات وخمود النار فيكون استعارة تصريحية تبعية في الوصفين انتهى، وكذا في شرح المفتاح للسيد السند بيد أنه جوّز أن يجعل ﴿حصيداً﴾ فقط من باب التشبيه بناء على ما في الكشاف أي جعلناهم مثل الحصيد كما تقول جعلناهم رماداً أي مثل الرماد، وجعل غير واحد أفراد الحصيد لهذا التأويل فإن مثلاً لكونه مصدراً في الأصل يطلق على الواحد وغيره وهو الخبر حقيقة في التشبيه البليغ ويلزم على ذلك صحة الرجال أسد وهو كما ترى، واعترض على قول الشارحين: إذ ليس لنا الخ بأن فيه بحثاً مع أن مدار ما ذكراه من كون ﴿خامدون﴾ لا يحتمل التشبيه جمعه جمع العقلاء المانع من أن يكون صفة للنار حتى لو قيل خامدة كان تشبيهاً، وقد صرح به الشريف في حواشيه لكنه محل تردد لأنه لما صح الحمل في التشبيه ادعاء فلم لا يصح جمعه لذلك ولولاه لما صحت الاستعارة أيضاً وذهب العلامة الطيبي والفاضل اليمَني إلى التشبيه في الموضعين ففي الآية أربعة احتمالات فتدبر جميع ذلك و ﴿خامدون﴾ مع حصيداً في حيز المفعول الثاني للجعل كجعلته حلواً حامضاً، والمعنى جعلناهم جامعين للحصاد والخمود أو لمماثلة الحصيد والخامد أو لمماثلة الحصيد الخمود أو جعلناهم هالكين على أتم وجه فلا يراد أن الجعل نصب ثلاثة مفاعيل هنا وهو مما ينصب مفعولين أو حال من الضمير المنصوب في ﴿جعلناهم﴾ أو من المستكن في ﴿حصيداً﴾ أو هو صفة لحصيداً وهو متعدد معنى، واعترض بعضهم بأن كونه صفة له. مع كونه تشبيهاً أريد به ما لا يعقل يأباه كونه للعقلاء.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ أي ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب كما تسوي الجبابرة سقوفهم فرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية كأن تكون سبباً للاعتبار ودليلاً للمعرفة مع منافع لا تحصى وحكم لا تستقصى، وحاصله ما خلقنا ذلك خالياً عن الحكم والمصالح إلا أنه عبر عن ذلك باللعب وهو كما قال الراغب الفعل الذي لا يقصد به مقصد صحيح لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحكمة بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد في استحالة صدوره عنه سبحانه، وهذا الكلام على ما قيل إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بني آدم مؤسس على قواعد الحكمة البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ما حكي من العذاب النازل بأهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء أعمالهم إياه مع التخلص إلى وعيد المخاطبين، وفي الكشف أن الآيات لإثبات أمر النبوة ونفي تلك المطاعن السابقة على ما ذكره الإمام وهو الحق لأنه قد تكرر في الكتاب العزيز أن الحكمة في خلق السماء والأرض وما بينهما العبادة والمعرفة وجزاء من قام بهما ومن لم يقم ولن يتم ذلك إلا بإنزال الكتاب وإرسال الرسل عليهم السلام، فمنكر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لعباً تعالى خالقهما

---

(١) إلا أنه جعل ذلك في أهل حضور اهـ.

وخالق كل شيء عنه وعن كل نقص علواً كبيراً، ومنكر نبوة محمد ﷺ جعل إظهار المعجزة على يديه من باب العبث واللعب ففيه إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام وفساد تلك المطاعن كلها.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب في خلق السماء والأرض وما بينهما، ومعنى الآية على ما استظهره صاحب الكشف لو أردنا اتخاذ لهو لكان اتخاذ لهو من جهتنا أي لهواً إلهياً أي حكمة اتخذتموها لهواً من جهتكم وهذا عين الجد والحكمة فهو في معنى لو أردناه لامتنع.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ كالتكرير لذلك المعنى مبالغة في الامتناع على أن إن شرطية وجوابها محذوف أي ﴿إن كنا فاعلين﴾ ما يوصف بفعله باللهو فكهذا يكون فعلنا ولو حمل على النفي ليكون تصريحاً بنتيجة السابق كما عليه جمهور المفسرين لكان حسناً بالغاً انتهى، وقال الزمخشري: ﴿من لدنا﴾ أي من جهة قدرتنا، وجعل حاصل المعنى أنا لو أردنا ذلك لاتخذنا فإنا قادرون على كل شيء إلا أنا لم نرده لأن الحكمة صارفة عنه، وذكر صاحب الكشف أن تفسيره ذلك بالقدرة غير بين، وقد فسره به أيضاً البيضاوي وغيره وظاهره أن اتخاذ اللهو داخل تحت القدرة، وقد قيل إنه ممتنع عليه تعالى امتناعاً ذاتياً والممتنع لا يصلح متعلقاً للقدرة، وأجيب بأن صدق الشرطية لا يقتضي صدق الطرفين فهو تعليق على امتناع الإرادة أو يقال الحكمة غير منافية لاتخاذ ما من شأنه أن يتلهى به وإنما تنافي أن يفعل فعلاً يكون هو سبحانه بنفسه لاهياً به فلا امتناع في الاتخاذ بل في وصفه انتهى.

والحق عندي أن العبث لكونه نقصاً مستحيل في حقه تعالى فتركه واجب عنه سبحانه وتعالى ونحن وإن لم نقل بالوجوب عليه تعالى لكنا قائلون بالوجوب عنه عز وجل، قال أفضل المتأخرين الكلنبوي: إن مذهب الماتريدية المثبتين للأفعال جهة محسنة أو مقبحة قبل ورود الشرع إنه إن كان في الفعل جهة تقتضي القبح فلذلك الفعل محال في حقه تعالى فتركه واجب عنه سبحانه ولا واجب عليه عز وجل، وذلك كالتكليف بما لا يطاق عندهم كالكذب عند محققي الأشاعرة والماتريدية وإن لم يكن فيه تلك الجهة فلذلك الفعل ممكن له تعالى وليس بواجب عليه سبحانه فهم يوافقون الأشاعرة في أنه تعالى لا يجب عليه شيء انتهى.

ومن أنكر أن كون العبث نقصاً كالكذب فقد كابر عقله، وأبلغ من هذا أنه يفهم من كلام بعض المحققين القول بوجوب رعاية مطلق الحكمة عليه سبحانه لئلا يلزم أحد المحالات المشهورة وأن المراد من نفي الأصحاب الوجوب عليه تعالى نفي الوجوب في الخصوصيات على ما يقوله المعتزلة، ولعله حينئذ يراد بالوجوب لزوم صدور الفعل عنه تعالى بحيث لا يتمكن من تركه بناء على استلزامه محالاً بعد صدور موجبه اختياراً لا مطلقاً ولا بشرط تمام الاستعداد لئلا يلزم رفض قاعدة الاختيار كما لا يلزم رفضها في اختيار الإمام الرازي ما اختاره كثير من الأشاعرة من لزوم العلم للنظر عقلاً، ومع هذا ينبغي التحاشي عن إطلاق الوجوب عليه تعالى فتدبره فإنه مهم.

وقيل معنى من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات أي لاتخذناه من ذلك لا من الأجرام المرفوعة والأجسام الموضوعة كديدن الجبابرة في رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها انتهى.

ولا يخفى أن أكثر أهل السنة على إنكار المجردات ثم على تقدير تفسير الآية بما ذكر المراد الرد على من يزعم اتخاذ اللهو في هذا العالم لا أنه يجوز اتخاذه من المجردات بل هو فيها أظهر في الاستحالة، وعن الجبائي أن المعنى لو أردنا اتخاذ اللهو لاتخذناه من عندنا بحيث لا يطلع عليه أحد لأنه نقص فستره أولى أو هو أسرع تبادراً مما في الكشف وذلك أبعد مغزى، وقال الإمام الواحدي: اللهو طلب الترويح عن النفس ثم المرأة تسمى لهواً وكذا الولد لأنه يستروَح بكل منهما ولهذا يقال لامرأة الرجل وولده ريحانتاه، والمعنى لو أردنا أن نتخذ امرأة ذات لهو أو ولداً ذا لهو

لاتخذناه من لدنا أي مما نصطفيه ونختاره مما نشاء كقوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾ [الزمر: ٤] وقال المفسرون: أي من الحور العين، و لهذا رد لقول اليهود في عزير وقول النصارى في المسيح وأمه من كونه عليه السلام ولداً وكونها صاحبة، ومعنى ﴿من لدنا﴾ من عندنا بحيث لا يجري لأحد فيه تصرف لأن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره انتهى.

وتفسير اللهو هنا بالولد مروي عن ابن عباس والسدي، وعن الزجاج أنه الولد بلغة حضرموت، وكونه بمعنى المرأة حكاه قتادة عن أهل اليمن ولم ينسبه لأهل بلدة منه، وزعم الطبرسي أن أصله الجماع ويكنى به عن المرأة لأنها تجامع وأنشد قول امرىء القيس:

الا زعمت بسباسة اليوم أنني ... كبرت وان لا يحسن اللهو أمثالي

والظاهر حمل اللهو على ما سمعت أولاً لقوله تعالى: ﴿وما بينهما لاعبين﴾ ولأن نفي الولد سيجيء مصرحاً إن شاء الله تعالى، ويعلم من ذلك أن كون المراد الرد على النصارى وأضرابهم غير مناسب هنا، ثم إن الظاهر من السياق أن إن شرطية والجواب محذوف ثقة بدلالة ما قيل عليه أي إن كنا فاعلين لاتخذناه من لدنا وكونها نافية وإن كان حسناً معنى وقد قاله جماعة منهم مجاهد والحسن وقتادة وابن جريج استدرك عليه بعضهم بأن أكثر مجيء إن النافية مع اللام الفارقة لكن الأمر في ذلك سهل، وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب بل عن إرادة الاتخاذ كأنه قيل لكنا لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من جملته اللهو، وتخصيص هذا الشأن من بين سائر شؤونه تعالى بالذكر للتخلص لما سيأتي إن شاء الله تعالى من الوعيد، وعن مجاهد أن الحق القرآن والباطل الشيطان، وقيل الحق الحجة والباطل شبههم ووصفهم الله تعالى بغير صفاته من الولد وغيره، والعموم هو الأولى، وأصل القذف الرمي البعيد كما قال الراغب وهو مستلزم لصلابة الرمي وقد استعير للإيراد أي نورد الحق على الباطل.

﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكمة، وأصل الدمغ كسر الشيء الرخو الأجوف وقد استعير للمحق.

وجوّز أن يكون هناك تمثيل لغلبة الحق على الباطل حتى يذهبه برمي جرم صلب على رأس دماغه رخو ليشقه، وفيه إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل وأن جانب الأول باق والثاني فان، وجوز أيضاً أن يكون استعارة مكنية بتشبيه الحق بشيء صلب يجيء من مكان عال والباطل بجرم رخو أجوف سافل، ولعل القول بالتمثيل أمثل، وقرأ عيسى بن عمر «فَيَدْمَغُهُ» بالنصب، وضعف بأن ما بعد الفاء إنما ينتصب بإضمار أن لا بالفاء خلافاً للكوفيين في جواب الأشياء الستة وما هنا ليس منها ولم ير مثله إلا في الشعر كقوله:

سأترك منزلي لبني تميم ... وألحق بالحجاز فاستريحا

على أنه قد قيل في هذا إن استريحا ليس منصوباً بل مرفوع مؤكد بالنون الخفيفة موقوف عليه بالألف، ووجه بأن النصب في جواب المضارع المستقبل وهو يشبه التمني في الترقب، و لا يخفى أن المعنى في الآية ليس على خصوص المستقبل، وقد قالوا إن هذا التوجيه في البيت ضعيف فيكون ما في الآية أضعف منه مأخذاً والعطف على هذه القراءة على الحق عند أبي البقاء، والمعنى بل نقذف بالحق فندمغه على الباطل أي نرمي بالحق فإبطاله به.

وذكر بعض الأفاضل أنه لو جعل من قبيل علفتها تبناً وماء بارداً صح، واستظهر أن العطف على المعنى أي نفعل القذف فالدمغ، وقرىء «فَيَدْمُغُهُ» بضم الميم والغين ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهب بالكلية وفي إذا الفجائية والجملة

الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الأصل.

﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وعيد لقريش أو لجميع الكفار من العرب بأن لهم أيضاً مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب، وما تعليلية متعلقة بالاستقرار الذي تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل على مذهب بعضهم أو من ضميره المستتر في الخبر، وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أي ومستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له تعالى بما لا يليق بشأنه الجليل تعالى شأنه أو بالذي تصفونه أو بشيء تصفونه به من الولد ونحوه أو كائناً مما تصفونه عز وجل به، وكون الخطاب لمن سمعت مما لا خفاء فيه ولا بعد، وأبعد كل البعد من قال: إنه خطاب لأهل القرى على طريق الالتفات من الغيبة في قوله تعالى ﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ إليه.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل وأنه سبحانه يحق الحق ويزهق الباطل، وقيل هو عديل لقوله تعالى: ﴿ولكم الويل﴾ وهو كما ترى أي وله تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقاً وملكاً وتدبيراً وتصرفاً وإحياء وإماتة وتعذيباً وإثابة من غير أن يكون لأحد في ذلك ما استقلالاً واستتباعاً، وكأنه أريد هنا إظهار مزيد العظمة فجيء بالسموات جمعاً على معنى له كل من هو في واحدة واحدة من السماوات ولم يرد فيما مر سوى بيان اشتمال هذا السقف المشاهد والفراش الممهد وما استقر بينهما على الحكم التي لا تحصى فلذا جيء بصيغة الإفراد دون الجمع.

وفي الاتقان حيث يراد العدد يؤتى بالسماء مجموعة وحيث يراد الجهة يؤتى بها مفردة ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ وهم الملائكة مطلقاً عليهم السلام على ما روي عن قتادة وغيره، والمراد بالعندية عندية الشرف لا عندية المكان وقد شبه قرب المكانة والمنزلة بقرب المكان والمسافة فعبر عن المشبه بلفظ دال على المشبه به فهناك استعارة مصرحة.

وقيل عبر عنهم بذلك تنزيلاً لهم لكرامتهم عليه عز وجل منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل، والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي لا يتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبراء ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يكلون ولا يتعبون يقال حسر البعير واستحسر كل وتعب وحسرته أنا فهو متعد ولازم ويقال أيضاً أحسرته بالهمز.

والظاهر أن الاستحسار حيث لا طلب كما هنا أبلغ من الحسور فإن زيادة المبني تدل على زيادة المعنى، و المراد من الاتحاد بينهما الدال عليه كلامهم الاتحاد في أصل المعنى، والتعبير به للتنبيه على أن عبادتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون وليس لنفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصله في الجملة، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦] على أحد الأوجه المشهورة فيه.

وجوّز أبو البقاء وغيره أن يكون ذلك معطوفاً على من الأولى وأمر تفسيره بالملائكة عليهم السلام على حاله، وذكر أن هذا العطف لكون المعطوف أخص من المعطوف عليه في نفس الأمر كالعطف في قوله تعالى: ﴿تنزيل الملائكة والروح﴾ [القدر: ٤] في الدلالة على رفعة شأن المعطوف وتعظيمه حيث أفرد بالذكر مع اندراجه في عموم ما قبله، وقيل: إنما أفرد لأنه أعم من وجه فإن من في الأرض يشمل البشر ونحوهم وهو يشمل الحافين بالعرش دونه، وجوز أن يراد بمن عنده نوع من الملائكة عليهم السلام متعال عن التبوّء والاستقرار في السماء والأرض، وكأن هذا ميل إلى القول بتجرد نوع من الملائكة عليهم السلام، وأنت تعلم أن جمهور أهل الإسلام لا يقولون بتجرد شيء من الممكنات. والمشهور عن القائلين به القول بتجرد الملائكة مطلقاً لا بتجرد بعض دون بعض.

ثم إن أبا البقاء جوز في قوله تعالى: ﴿لا يستكبرون﴾ على هذا الوجه أن يكون حالاً من الأولى والثانية على

قول من رفع بالظرف أو من الضمير في الظرف الذي هو الخبر أو من الضمير في ﴿عنده﴾ ويتعين أحد الأخيرين عند من يعرب من مبتدأ ولا يجوز مجيء الحال من المبتدأ ولا يخفى.

وجوز بعض الأفاضل أن تكون الجملة مستأنفة والأظهر جعلها خبراً لمن عنده، وفي بعض أوجه الحالية ما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ الـلـيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ استئناف وقع جواباً عما نشأ قبله كأنه قيل ماذا يصنعون في عبادتهم أو كيف يعبدون فقيل ﴿يسبحون﴾ الخ.

وجوز أن يكون في موضع الحال من ضمير ﴿لا يستحسرون﴾ وقوله سبحانه: ﴿لاَ يَفْتُرُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿يسبحون﴾ على تقديري الاستئناف والحالية، وجوز على تقدير الحالية أن يكون هذا حالاً من ضمير ﴿لا يستحسرون﴾ أيضاً ولا يجوز على تقدير الاستئناف كونه حالاً منه للفصل وجوز أن يكون استئنافاً والمعنى ينزهون الله تعالى ويعظمونه ويمجدونه في كل الأوقات لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلاً بفراغ أو شغل آخر، واستشكل كون الملائكة مطلقاً كذلك مع أن منهم رسلاً يبلغون الرسالة ولا يتأتى التسبيح حال التبليغ ومنهم من يلعن الكفرة كما ورد في آية آخرى. وقد سأل عبد الله بن الحرث بن نوفل كعباً عن ذلك كما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الشعب فأجاب بأنه جعل لهم التسبيح كالتنفس فلا يمنع عن التكلم بشيء آخر. وتعقب بأن فيه بعداً، وقيل إن الله تعالى خلق لهم ألسنة فيسبحون ببعض ويبلغون مثلاً ببعض أخر، وقيل تبليغهم ولعنهم الكفرة تسبيح معنى.

وقال الخفاجي: الظاهر أنه إن لم يحمل على بعضهم فالمراد به المبالغة كما يقال فلان لا يفتر عن ثنائك وشكر آلائك انتهى. ولا يخفى حسنه، ويجوز أن يقال: إن هذا التسبيح كالحضور والذكر القلبي الذي يحصل لكثير من السالكين وذلك مما يجتمع مع التبليغ وغيره من الأعمال الظاهرة، ثم إن كون الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يستلزم أن يكون عندهم في السماء ليل ونهار لأن المراد إفادة دوامهم على التسبيح على الوجه المتعارف، وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّـخَذُوا آلِهَةً﴾ حكاية الجناية أخرى من جنايات أولئك الكفرة هي أعظم من جناية طعنهم في النبوة، وأم هي المنقطعة وتقدر ببل الإضرابية والهمزة الإنكارية هي لإنكار الوقوع لا إنكار الواقع، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ متعلق باتخذوا ومن ابتدائية على معنى أن اتخاذهم إياها مبتدأ من أجزاء الأرض كالحجارة وأنواع المعادن ويجوز كونها تبعيضية.

وقال أبو البقاء وغيره: يجوز أن تكون متعلقة بمحذوف وقع صفة لآلهة أي آلهة كائنة من جنس الأرض، وأياً ما كان فالمراد التحقير لا التخصيص، ومن جوزه التزم تخصيص الإنكار بالشديد وهو غير سديد. وقوله تعالى: ﴿هُمْ يُنْشرونَ﴾ أي يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فإنه واقع لا محالة أي بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فإن ما اتخذوه آلهة بمعزل من ذلك وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحاً لكنهم حيث ادعوا لها الالهية فكأنهم ادعوا لها الإنشار ضرورة أنه من الخصائص الإلهية حتماً ومعنى التخصيص في تقديم الضمير وما أشير إليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار الموجبة لمزيد الإنكار كما أن تقديم الجار والمجرور في قوله ﴿أفي الله شك﴾ [إبراهيم: ١٠] للتنبيه على كمال لمباينة أمره تعالى لأن يشك فيه، ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل فإن الألوهية مقتضية للاستقلال بالإبداء، والإعادة فحيث ادعوا للأصنام الإلهية فكأنهم ادعوا لهم الاستقلال بالإنشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لأصل الإنشار قاله المولى أبو السعود، وقال بعضهم: تقديم الضمير للتقوى، وما ذهب إليه من إفادته معنى التخصيص

تبع فيه الزمخشري، وفي الكشف الداعي إلى ترجيحه على التقوى أنه ترشيح لما أبداه أولاً من أن الإلهية لا تصح دون القدرة على الإنشار ولا وجه لتجوير كونه فصلاً انتهى، وجوز أن تكون جملة ﴿هم ينشرون﴾ مستأنفة مقدراً معها استفهام إنكاري لبيان علة إنكار الاتخاذ، ولعل مجوز ذلك لا يسلم لزوم كون معنى الهمزة في أم المنقطعة إنكار الوقوع ويجوز كونه إنكار الواقع، وتفسير ﴿ينشرون﴾ يبعثون هو المشهور وعليه الجمهور، وقال قطرب: هو بمعنى يخلقون.

وقرأ الحسن، ومجاهد «يَنْشُرُونَ» بفتح الياء على أنه من نشر وهو وأنشر بمعنى وقد يجيء نشر لازماً يقال أنشر الله تعالى الموتى فنشروا، وقوله تعالى: ﴿لَو كَانَ فيهِمَا آلهَةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتَا﴾ إبطال لتعدد الإله وضمير ﴿فيهما﴾ للسماء والأرض والمراد بهما العالم كله علوية وسفلية والمراد بالكون فيهما التمكن للبالغ من التصرف والتدبير لا التمكن والاستقرار فيهما كما توهمه الفاضل الكلنبوي، والظرف على هذا متعلق بمكان، وقال الطيبي: إنه ظرف لآلهة على حد قوله تعالى: ﴿وهو الذي في السماء. إله وفي الأرض إله﴾ [الزخرف: ٨٤] وقوله سبحانه: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ [الأنعام: ٣] وجعل تعلق الظرف بما ذكر ها هنا باعتبار تضمنه معنى الخالقية والمؤثرية.

وأنت تعلم أن الظاهر ما ذكر أولاً، و «إلا» المغايرة ما بعدها لما قبلها فهي بمنزلة غير، وفي المعنى أنها تكون صفة بمنزلة غير فيوصف بها وبتاليها جمع منكر أو شبهه ومثل للأول بهذه الآية، وقد صرح غير واحد من المفسرين أن المعنى لو كان فيهما آلهة غير الله وجعل ذلك الخفاجي إشارة إلى أن ﴿إلا﴾ هنا اسم بمعنى صفة لما قبلها وظهر إعرابها فيما بعدها لكونها على صورة الحرف كما في أل الموصولة في اسم الفاعل مثلاً.

وأنكر الفاضل الشمني كونها بمنزلة غير في الإسمية لما في حواشي العلامة الثاني عند قوله تعالى: ﴿لا فارض﴾ [البقرة: ٦٨] من أنه ذاتاً أو صفة، ففي شرح الكافية للرضي أصل غير أن تكون صفة مفيدة لمغايرة ومجرورها لموصوفها إما بالذات نحو مررت برجل غير زيد وإما بالصفة نحو دخلت بوجه غير الذي خرجت به، وأصل إلا التي هي أم أدوات الاستثناء مغايرة ما بعدها لما قبلها نفياً أو إثباتاً فلما اجتمع ما بعد إلا وما بعد غير في معنى المغايرة حملت الأعلى غير في الصفة فصار ما بعد إلا مغايراً لما قبلها ذاتاً أو صفة من غير اعتبار مغايرته له نفياً أو إثباتاً وحملت غير على إلا في الاستثناء فصار ما بعدها مغايراً لما قبلها نفياً أو إثباتاً من غير مغايرته له ذاتاً أو صفة إلا أن حمل غير على إلا أكثر من حمل إلا على غير لأن غير اسم والتصرف في الأسماء أكثر منه في الحروف فلذلك تقع غير في جميع مواقع إلا انتهى.

وأنت تعلم أن المتبادر كون إلا حين إفادتها معنى غير اسماً وفي وبقائها على الحرفية مع كونها وحدها أو مع بعدها بجعلهما كالشيء الواحد صفة لما قبلها نظر ظاهر وهو في كونها وحدها كذلك أظهر، ولعل الخفاجي لم يقل ما قال إلا وهو مطلع على قائل باسميتها، ويحتمل أنه اضطره إلى القول بذلك ما يرد على القول ببقائها على الحرفية، ولعمري إنه أصاب المحزوان قال العلامة ما قال، كلام الرضي ليس نصاً في أحد الأمرين كما لا يخفى على المنصف. ولا يصح أن تكون للاستثناء من جهة العربية عند الجمهور لأن ﴿آلهة﴾ جمع منكر في الاثبات ومذهب الأكثرين كما صرح به في التلويح أنه لا استغراق له فلا يدخل فيه ما بعدها حتى يحتاج لإخراجه بها وهم يوجبون دخول المستثنى في المستثنى منه في الاستثناء المتصل ولا يكتفون بجواز الدخول كما ذهب إليه المبرد وبعض الأصوليين فلا يجوز عندهم قام رجال إلا زيداً على كون الاستثناء متصلاً وكذا على كونه منقطعاً بناء على أنه لا بد فيه من الجزم بعدم الدخول وهو مفقود جزماً، ومن أجاز الاستثناء في مثل هذا التركيب كالمبرد جعل الرفع في الاسم

الجليل على البدلية، واعترض بعدم تقدم النفي، وأجيب بأن لو للشرط وهو كالنفي، وعنه أنه أجاب بأنها تدل على الامتناع وامتناع الشيء انتفاؤه وزعم أن التفريغ بعدها جائز وأن نحو لو كان معنا إلا زيد لكان أجود كلام وخالف في ذلك سيبويه فإنه قال لو قلت لو كان معنا المثال لكنت قد أحلت.

ورد بأنهم لا يقولون لو جاءني ديار أكرمته ولا لو جاءني من أحد أكرمته ولو كانت بمنزلة النافي لجاز ذلك كما يجوز ما فيها ديار وما جاءني من أحد، وتعقبه الدماميني بأن للمبرد أن يقول: قد أجمعنا على إجراء أبي مجرى النفي الصريح وأجزنا التفريغ فيه قال الله تعالى ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ [التوبة: ٣٢] مع أنه لا يجوز أبي ديار المجيء وأبي من أحد الذهاب فما هو جوابكم عن هذا فهو جوابنا.

وقال الرضي: أجاز المبرد الرفع في الآية على البدل لأن في لو معنى النفي وهذا كما أجاز الزجاج البدل في ﴿قوم يونس﴾ في قوله تعالى: ﴿فلو كانت قرية آمنت﴾ [يونس: ٩٨] الآية إجراء للتخصيص مجرى النفي والأولى عدم إجراء ذينك في جواز الإبدال والتفريغ معهما مجراه إذا لم يثبت انتهى.

وذكر المالكي في شرح التسهيل أن كلام المبرد في المقتضب مثل كلام سيبويه وأن التفريغ والبدل بعد لو غير جائز، و كذا لا يصح الاستثناء من جهة المعنى ففي الكشف أن البدل والاستثناء في الآية ممتنعان معنى لأنه إذ ذاك لا يفيد ما سيق له الكلام من انتفاء التعدد ويؤدي إلى كون الآلهة بحيث لا يدخل في عدادهم الإله الحق مفض إلى الفساد فنفي الفساد يدل على دخوله فيهم وهو من الفساد بمكان ثم إن الصفة على ما ذهب إليه ابن هشام مؤكدة صالحة للإسقاط مثلها في قوله تعالى: ﴿نفخة واحدة﴾ [الحاقة: ١٣] فلو قيل لو كان فيهما آلهة لفسدتا لصح وتأتى المراد. وقال الشلوبين. وابن الصائغ: لا يصح المعنى حتى تكون إلا بمعنى غير التي يراد بها البدل والعوض، ورد بأنه يصير المعنى حينئذ لو كان فيهما عدد من الآلهة بدل وعوض منه تعالى شأنه لفسدتا وذلك يقتضي بمفهومه أنه لو كان فيهما اثنان هو عز وجل أحدهما لم تفسدا وذلك باطل.

وأجيب بأن معنى الآية حينئذ لا يقتضي هذا المفهوم لأن معناها لو كان فيهما عدد من الآلهة دونه أو به سبحانه بدلاً منه وحده عز وجل لفسدتا وذلك مما لا غبار عليه فاعرف، والذي عليه الجمهور إرادة المغايرة، والمراد بالفساد البطلان والاضمحلال أو عدم التكون، والآية كما قال غير واحد مشيرة إلى دليل عقلي على نفي تعدد الإله وهو قياس استثنائي استثني فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم فكأنه قيل لو تعدد الإله في العالم لفسد لكنه لم يفسد ينتج أنه لم يتعدد الإله. وفي هذا استعمال للو غير الاستعمال المشهور.

قال السيد السند: إن لو قد تستعمل في مقام الاستدلال فيفهم منها ارتباط وجود الحالي بوجود المقدم مع انتفاء التالي فيعلم منه انتفاء المقدم وهو على قلته موجود في اللغة يقال: لو كان زيد في البلد لجاءنا ليعلم منه أنه ليس فيه، ومنه.قوله تعالى: **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾**: وقال العلامة الثاني: إن أرباب المعقول قد جعلوا لو أداة للتلازم دالة على لزوم الجزاء للشرط من غير قصد إلى القطع بانتفهائهما ولهذا صح عندهم استثناء عين المقدم فهم يستعملونها للدلالة على أن العلم بانتفاء الثاني علة للعلم بانتفاء الأول ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم من غير التفات إلى أن علة انتفاء الجزاء في الخارج ما هي لأنهم يستعملونها في القياسات لاكتساب العلوم والتصديقات ولا شك أن العلم بانتفاء الملزوم لا يوجب العلم بانتفاء اللازم بل الأمر بالعكس وإذا تصفحنا وجدنا استعمالها على قاعدة اللغة أكثر لكن قد تستعمل على قاعدتهم كما في قوله تعالى: **﴿لو كان فيهما﴾** الخ لظهور أن الغرض منه التصديق

بانتفاء تعدد الآلهة لا بيان سبب انتفاء الفساد ا هـ. وفيه بحث يدفع بالعناية، ولا يخفى عليك أن لبعض النحويين نحو هذا القول فقد قال الشلوبين، و ابن عصفور: إن لو لمجرد التعليق بين الحصولين في الماضي من غير دلالة على امتناع الأول والثاني كما أن إن لمجرد التعليق في الاستقبال والظاهر أن خصوصية المضي ها هنا غير معتبرة.

وزعم بعضهم: إن لو هنا الانتفاء الثاني لانتفاء الأول كما هو المشهور فيها ويتم الاستدلال ولا يخفى ما فيه على من دقق النظر، ثم إن العلامة قال في شرح العقائد: إن الحجة إقناعية والملازمة عادية على ما هو اللائق بالخطابيات فإن العادة جارية بوقوع التمانع والتغالب عند تعدد الحاكم وإلا فإن أريد الفساد بالفعل أي خروجهما عن هذا النظام المشاهد فمجرد التعدد لا يستلزمه لجواز الاتفاق على هذا النظام وإن أريد إمكان الفساد فلا دليل على انتفائه بل النصوص شاهدة بطيّ السماوات ورفع هذا النظام فيكون ممكناً لا محالة.

وكذا لو أريد بفسادهما عدم تكونهما بمعنى أنه لو فرض صانعان لأمكن بينهما تمانع في الأفعال فلم يكن أحدهما صانعاً فلم يوجد مصنوع لا تكون الملازمة قطعية لأن إمكان التمانع لا يستلزم إلا عدم تعدد الصانع وهو لا يستلزم انتفاء المصنوع على أنه يرد منع الملازمة إن أريد عدم التكون بالفعل ومنع انتفاء اللازم إن أريد بالإمكان انتهى. فنفى أن تكون الآية برهاناً سواء حمل الفساد على الخروج عن النظام أو على عدم التكون، وفيه قدح لما أشار إليه في شرح المقاصد من كون كونها برهاناً على الثاني فإنه بعدما قرر برهان التمانع قال: وهذا البرهان يسمى برهان التمانع وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿لو كان فيهما آلهة﴾** فإن أريد عدم التكون فتقريره أن يقال: لو تعدد الآلهة لم تتكون السماء والأرض لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما والكل باطل أما الأول فلأن من شأن الاله كمال القدرة وأما الأخيران فلما مر من التوارد والرجحان من غير مرجح، وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام فتقريره أن يقال: إنه لو تعددت الآلهة لكان بينهما التنازع والتغالب وتمييز صنيع كل منهما عن الآخر بحكم اللزوم العادي فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام الذي باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد ويختل أمر النظام الذي فيه بقاء الأنواع وترتب الآثار انتهى، وذلك القدح بأن يقال: تعدد الإله لا يستلزم التمانع بالفعل بطريق إرادة كل منهما وجود العالم بالاستقلال من غير مدخلية قدرة الآخر بل إمكان ذلك التمانع والإمكان لا يستلزم الوقوع فيجوز أن لا يقع بل يتفقان على الإيجاد بالاشتراك أو يفوض أحدهما إلى الآخر، وبحث فيه المولى الخيالي بغير ذلك أيضاً ثم قال: التحقيق في هذا المقام أنه إن حملت الآية الكريمة على نفي تعدد الصانع مطلقاً فهي حجة إقناعية لكن الظاهر من الآية نفي تعدد الصانع المؤثر في السماء والأرض إذ ليس المراد من الكون فيهما التمكن فيهما بل التصرف والتأثر فالحق أن الملازمة قطعية إذ التوارد باطل فتأثيرهما إما على سبيل الاجتماع أو التوزيع فيلزم انعدام الكل أو البعض عند عدم كون أحدهما صانعاً لأنه جزء علة أو علة تامة فيفسد العالم أي لا يوجد هذا المحسوس كلاً أو بعضاً، ويمكن أن توجه الملازمة بحيث تكون قطعية على الإطلاق وهوأن يقال: لو تعدد الإله لم يكن العالم ممكناً فضلاً عن الوجود وإلا لأمكن التمانع بينهما المستلزم للمحال لأن إمكان التمانع لازم لمجموع الأمرين من التعدد وإمكان شيء من الأشياء فإذا فرض التعدد يلزم أن لا يمكن شيء من الأشياء حتى لا يمكن التمانع المستلزم للمحال انتهى.

وأورد الفاضل الكلنبوي على الأول خمسة أبحاث فيها الغث والسمين ثم قال: فالحق أن توجيهه الثاني لقطعية الملازمة صحيح دون الأول، وللعلامة الدواني كلام في هذا المقام قد ذكر الفاضل المذكور ما له وما عليه من النقض والإبرام، ثم ذكر أن للتمانع عندهم معنيين، أحدهما إرادة أحد القادرين وجود المقدور والآخر عدمه وهو المراد بالتمانع في البرهان المشهور ببرهان التمانع، وثانيهما إرادة كل منهما إيجاده بالاستقلال من غير مدخلية قدرة الآخر

فيه وهو التمانع الذي اعتبروه في امتناع مقدور بين قادرين، وقولهم: لو تعدد الإله لم يوجد شيء من الممكنات لاستلزامه أحد المحالين إما وقوع مقدور بين قادر وإما الترجيح بلا مرجح مبني على هذا، وحاصل البرهان عليه أنه لو وجد إلهان قادران على الكمال لأمكن بينهما تمانع واللازم باطل إذ لو تمانعا وأراد كل منهما الإيجاد بالاستقلال يلزم إما أن لا يقع مصنوع أصلاً أو يقع بقدرة كل منهما أو بأحدهما والكل باطل ووقوعه بمجموع القدرتين مع هذه الإرادة يوجب عجزهما لتخلف مراد كل منهما عن إرادته فلا يكونان إلهين قادرين على الكمال وقد فرضا كذلك؛ ومن هنا ظهر أنه على تقدير التعدد لو وجد مصنوع لزم إمكان أحد المحالين إما إمكان التوارد وإما إمكان الرجحان من غير مرجح والكل محال، وبهذا الاعتبار مع حمل الفساد على عدم الكون قيل بقطعية الملازمة في الآية فهي دليل إقناعي من وجه ودليل قطعي من وجه آخر والأول أنسب إلى العوام والثاني بالنسبة إلى الخواص، وقال مصلح الدين اللاري بعد كلام طويل وقال وقيل أقول أقرر الحجة المستفادة من الآية الكريمة على وجه أوجه مما عداه وهو أن الإله المستحق للعبادة لا بد أن يكون واجب الوجود، وواجب الوجود وجوده عين ذاته عند أرباب التحقيق إذ لو غايره لكان ممكناً لاحتياجه في موجوديته إلى غيره الذي هو الوجود فلو تعدد لزم أن لا يكون وجوداً فلا تكون الأشياء موجودة لأن موجودية الأشياء بارتباطها بالوجود فظهر فساد السماء والأرض بالمعنى الظاهر لا بمعنى عدم التكون لأنه تكلف ظاهر انتهى.

وأنت تعلم أن إرادة عدم التكون أظهر على هذا الاستدلال، ثم إن هذا النحو من الاستدلال مما ذهب إليه الحكماء بل أكثر براهينهم الدالة على التوحيد الذي هو أجلّ المطالب الإلهية بل جميعها يتوقف على أن حقيقة الواجب تعالى هو الوجود البحت القائم بذاته المعبر عنه بالوجوب الذاتي والوجود المتأكد وأن ما يعرضه الوجوب أو الوجود فهو في حد نفسه ممكن ووجوده كوجوبه يستفاد من الغير فلا يكون واجباً ومن أشهرها أنه لو فرضنا موجودين واجبي الوجود لكانا مشتركين في وجوب الوجود ومتغايرين بأمر من الأمور وإلا لم يكونا اثنين، وما به الامتياز إما أن يكون تمام الحقيقة أو جزءها لا سبيل إلى الأول لأن الامتياز لو كان بتمام الحقيقة لكان وجوب الوجود المشترك بينهما خارجاً عن حقيقة كل منهما أو عن حقيقة أحدهما وهو محال لما تقرر من أن وجوب الوجود نفس حقيقة واجب الوجود لذاته، ولا سبيل إلى الثاني لأن كل واحد منهما يكون مركباً مما به الاشتراك وما به الامتياز وكل مركب محتاج فلا يكون واجباً لإمكانه فيكون كل من الواجبين أو أحدهما ممكناً هذا خلف، واعترض بأن معنى قولهم وجوب الوجود نفس حقيقة واجب الوجود أنه يظهر من نفس تلك الحقيقة إثر صفة وجوب الوجود لا أن تلك الحقيقة عين هذه الصفة فلا يكون اشتراك موجودين واجبي الوجود في وجوب الوجود إلا أن يظهر من نفس كل منهما إثر صفة الوجوب فلا منافاة بين اشتراكهما في وجوب الوجود وتمايزهما بتمام الحقيقة، وأجيب بأن المراد العينية، ومعنى قولهم إن وجوب الوجود عين حقيقة الواجب هو أن ذاته بنفس ذاته مصداق هذا الحكم ومنشأ انتزاعه من دون انضمام أمر آخر ومن غير ملاحظة حيثية أخرى غير ذاته تعالى أية حيثية كانت حقيقية أو إضافية أو سلبية، وكذلك قياس سائر صفاته سبحانه عند القائلين بعينيتها من أهل التحقيق، وتوضيح لك على مشربهم أنك كما قد تعقل المتصل مثلاً نفس المتصل كالجزء الصوري للجسم من حيث هو جسم وقد تعقل شيئاً ذلك الشيء هو المتصل كالمادة فكذلك قد تعقل واجب الوجود بما هو واجب الوجود وقد تعقل شيئاً ذلك الشيء هو واجب الوجود ومصداق الحكم به ومطابقه في الأول حقيقة الموضوع وذاته فقط، وفي الثاني هي مع حيثية أخرى هي صفة قائمة بالموضوع حقيقية أو انتزاعية وكل واجب الوجود لم يكن نفس واجب الوجود بل يكون له حقيقة تلك الحقيقة متصفة بكونها واجبة الوجود ففي اتصافها تحتاج إلى عروض هذا الأمر وإلى جاعل يجعلها بحيث ينتزع منها هذا الأمر فهي في حد

ذاتها ممكنة الوجود وبه صارت واجبة الوجود فلا تكون واجب الوجود بذاته فهو نفس واجب الوجود بذاته وليقس على ذلك سائر صفاته تعالى الحقيقية الكمالية كالعلم والقدرة وغيرهما. واعترض أيضاً بأنه لم يجوز أن يكون ما به الامتياز أمراً عارضاً لا مقوماً حتى يلزم التركيب. وأجيب بأن ذلك يوجب بأن يكون التعين عارضاً وهو خلاف ما ثبت بالبرهان، ولابن كمونة في هذا المقام شبهة شاع أنها عويصة الدفع عسيرة الحل حتى أن بعضهم سماه لابدائها بافتخار الشياطين وهي أنه لم لا يجوز أن يكون هناك هويتان بسيطتان مجهولتا الكنه مختلفتان بتمام الماهية يكون كل منهما واجباً بذاته ويكون مفهوم واجب الوجود منتزعاً منهما مقولاً عليها قولاً عرضياً، وقد رأيت في ملخص الإمام عليه الرحمة نحوها، ولعلك إذا أحطت خبراً بحقيقة ما ذكرنا يسهل عليك حلها وإن أردت التوضيح فاستمع لما قيل في ذلك إن مفهوم واجب الوجود لا يخلو إما أن يكون انتزاعه عن نفس ذات كل منهما من دون اعتبار حيثية خارجة أية حيثية كانت أو مع اعتبار تلك الحيثية وكلا الشقين محال، أما الثاني فلما تقرر أن كل ما لم يكن ذاته مجرد حيثية انتزاع الوجوب فهو ممكن من ذاته، وأما الأول فلأن مصداق حمل مفهوم واحد ومطابق صدقه بالذات مع قطع النظر عن أية حيثية كانت لا يمكن أن يكون حقائق متخالفة متباينة بالذات غير مشتركة في ذاتي أصلاً، ولعل كل سليم الفطرة يحكم بأن الأمور المتخالفة من حيث كونها متخالفة بلا حيثية جامعة لا تكون مصداقاً لحكم واحد ومحكياً عنها به نعم يجوز ذلك إذا كانت تلك الأمور متماثلة من جهة كونها متماثلة ولو في أمر سلبي بل نقول لو نظرنا إلى نفس مفهوم الوجود المصدري المعلوم بوجه من الوجوه بديهة أدانا النظر والبحث إلى أن حقيقته وما ينتزع هو منه أمر قائم بذاته هو الواجب الحق الوجود المطلق الذي لا يشوبه عموم ولا خصوص ولا تعدد إذ كل ما وجوده هذا الوجود لا يمكن أن يكون بينه وبين شيء آخر له أيضاً هذا الوجود فرضاً مباينة أصلاً ولا تغاير فلا يكون اثنان بل يكون هناك ذات واحدة ووجود واحد كما لوح إليه صاحب التلويحات بقوله: صرف الوجود الذي لا أتم منه كلما فرضته ثانياً فإذا نظرت فهو هو إذ لا ميز في صرف شيء فوجوب وجوده تعالى الذي هو ذاته سبحانه تدل على وحدته جل وعلا انتهى فتأمل.

ولا يخفى عليك أن أكثر البراهين على هذا المطلب الجليل الشأن يمكن تخريج الآية الكريمة عليه ويحمل حينئذ الفساد على عدم التكون فعليك بالتخريج وإن أحوجك إلى بعض تكلف وإياك أن تقنع بجعلها حجة إقناعية كما ذهب إليه كثير فإن هذا المطلب الجليل أجل من أن يكتفى فيه بالإقناعات المبنية على الشهرة والعادة، ولصاحب الكشف طاب ثراه كلام يلوح عليه مخايل التحقيق في هذا المقام سنذكره إن شاء الله تعالى كما اختاره في تفسير قوله تعالى: ﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ [المؤمنون: ٩١] ثم لا تتوهمن أنه لا يلزم من الآية نفي الاثنين والواحد لأن نفي آلهة تغاير الواحد المعين شخصاً يستلزم بالضرورة أن كل واحد واحد منهم يغايره شخصاً وهو أبلغ من نفي واحد يغاير المعين في الشخص على أنه طوبق به قوله تعالى: **﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض﴾** وقيام الملازمة كاف في نفي الواحد والاثنين أيضاً واستشكل سياق الآية الكريمة بأن الظاهر أنها إنما سيقت لإبطال عبادة الأصنام المشار إليه بقوله تعالى: **﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾** لذكرها بعده، وهي لا تبطل إلا تعدد الإله الخالق القادر المدبر التام الألوهية وهو غير متعدد عند المشركين، ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨] وهم يقولون في آلهتهم ﴿إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣] فما قالوا به لا تبطله الآية؛ وما تبطله الآية لم يقولوا به ومن هنا قيل معنى الآية لو كان في السماء والأرض آلهة كما يقول عبدة الأوثان: لزم فساد العالم لأن تلك الآلهة التي يقولون بها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم، وأجيب بأن قوله تعالى: **﴿أم اتخذوا﴾** الخ مسوق للزجر عن عبادة الأصنام وإن لم تكن لها الألوهية التامة لأن العبادة إنما تليق لمن له ذلك وبعد الزجر عن ذلك أشار سبحانه إلى أن من له ما ذكر لا يكون إلا

واحداً على أن شرح اسم الإله هو الواجب الوجود لذاته الحي العالم المريد القادر الخالق المدبر فمتى أطلقوه على شيء لزمهم وصفه بذلك شاؤوا أو أبوا فالآية لإبطال ما يلزم قولهم على أتم وجه ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي نزهوه أكمل تنزيه عن أن يكون من دونه تعالى آلهة كما يزعمون فالفاء لترتيب ما بعده على ما قبلها من ثبوت الوحدانية، وإبراز الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية مناط لجميع صفات الكمال التي من جملتها تنزهه تعالى عن الشركة لتربية المهابة وإدخال الروعة، والوصف برب العرش لتأكد التنزه مع ما في ذلك من تربية المهابة، والظاهر أن المراد حقيقة الأمر بالتنزيه، وقيل: المراد بالتعجيب ممن عبد تلك المعبودات الخسيسة وعدها شريكاً مع وجود المعبود العظيم الخالق لأعظم الأشياء، والكلام عليه أيضاً كالنتيجة لما قبله من الدليل، وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ يمكن أن يكون جواب سؤال مقدر ناشىء من إثبات توحده سبحانه في الألوهية المتضمن توحده تعالى في الخلق والتصرف ووصف الكفرة إياه سبحانه بما لا يليق كأنه قيل إذا كان الله تعالى هو الإله الخالق المتصرف فلم خلق أولئك الكفرة ولم يصرفهم عما يقولون فأجيب بقوله سبحانه: ﴿لا يسأل﴾ الخ وحاصله أنه تعالى لا ينبغي لأحد أن يعترض عليه في شيء من أفعاله إذ هو حكيم مطلق لا يفعل ما يرد عليه الاعتراض ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ عما يفعلون ويعترض عليهم، وهذا الحكم في حقه تعالى عام لجميع أفعاله سبحانه ويندرج فيه خلق الكفرة وإيجادهم على ما هم عليه، ووجه حل السؤال الناشىء مما تقدم بناء على ما يشير إليه هذا الجواب الإجمالي أنه تعالى خلق الكفرة بل جميع المكلفين على حسب ما علمهم مما هم عليه في أنفسهم لأن الخلق مسبوق بالإرادة والإرادة مسبوقة بالعلم والعلم تابع للمعلوم فيتعلق به على ما هو عليه في ثبوته الغير المجعول مما يقتضيه استعداده الأزلي، وقد يشير إلى بعض ذلك قول الشافعي عليه الرحمة من أبيات:

خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن

ثم بعد أن خلقهم على حسب ذلك كلفهم لاستخراج سر ما سبق به العلم التابع للمعلوم من الطوع والإباء اللذين في استعدادهم الأزلي وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين لتتحرك الدواعي ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولا يكون للناس على الله تعالى حجة فلا يتوجه على الله تعالى اعتراض بخلق الكافر وإنما يتوجه الاعتراض على الكافر بكفره حيث إنه من توابع استعداده في ثبوته الغير المجعول، وقد يشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿وما ظلمناهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [النحل: ١١٨] وقوله عليه الصلاة والسلام «فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» وهذا وإن كان مما فيه قيل وقال ونزاع وجدال إلا أنه مما ارتضاه كثير من المحققين والأجلة العارفين، وقال البعض: إن ذلك استئناف بيان أنه تعالى لقوة عظمته الباهرة وعزة سلطنته القاهرة بحيث ليس لأحد من مخلوقاته أن يناقشه ويسأله عما يفعل من أفعاله أثر بيان أن ليس له شريك في الألوهية، وضمير «هم» للعباد أي والعباد يسئلون عما يفعلون نقيراً وقطميراً لأنهم مملوكون له تعالى مستعبدون، وفي هذا وعيد للكفرة، والظاهر أن المراد عموم النفي جميع الأزمان أي لا يُسأل سبحانه في وقت من الأوقات عما يفعل، وخص ذلك الزجاج بيوم القيامة والأول أولى وإن كان أمر الوعيد على هذا أظهر واستدل بالآية على أن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض والغايات فلا يقال فعل كذا لكذا إذ لو كانت معللة لكان للعبد أن يسأل فيقول لم فعل؟ وإلى ذلك ذهب الأشاعرة ولهم عليه أدلة عقلية أيضاً وأولوا ما ظاهره التعليل بالحمل على المجاز أو جعل الأداة فيه للعاقبة، ومذهب الماتريدية كما في شرح المقاصد والمعتزلة أنها تعلل بذلك وإليه ذهب الحنابلة كما قال الوفي وغيره.

وقال العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي الحنبلي المعروف بابن القيم في كتاب شفاء العليل: إن الله

سبحانه وتعالى حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، وقد دل كلامه تعالى وكلام رسوله ﷺ على هذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها فنذكر بعض أنواعها وساق اثنين وعشرين نوعاً في بضعة عشرة ورقة ثم قال: لو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالنا من حكمة الله تعالى في خلقه وأمره لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع ثم قال: وهل إبطال الحكم والمناسبات والأوصاف التي شرعت الأحكام لأجلها إلا إبطال الشرع جملة؟ وهل يمكن فقيهاً على وجه الأرض أن يتكلم في الفقه مع اعتقاده بطلان الحكمة والمناسبة والتعليل. وقصد الشارع بالأحكام مصالح العباد؟ ثم قال: والحق الذي لا يجوز غيره هو أنه سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته وإرادته ويفعل ما يفعل بأسباب وحكم وغايات محمودة، وقد أودع العالم من القوى والغرائز ما به قام الخلق والأمر هذا قول جمهور أهل الإسلام. وأكثر طوائف النظار وهو قول الفقهاء قاطبة ا هـ.

والظاهر أن ابن القيم وأضرابه من أهل السنة القائلين بتعليل أفعاله تعالى لا يجعلون كالأشاعرة المخصص لأحد الضدين بالوقوع محض تعلق الإرادة بالمعنى المشهور ومحققو المعتزلة كأبي الحسن والنظام والجاحظ والعلاف وأبي القاسم البلخي، وغيرهم يقولون: إن العلم بترتب النفع على إيجاد النافع هو المخصص للنافع بالوقوع ويسمون ذلك العلم بالداعي وهو الإرادة عندهم. وأورد عليهم أن الواجب تعالى موجب في تعلق علمه سبحانه بجميع المعلومات فلو كان المخصص الموجب للوقوع هو العلم بالنفع كان ذلك المخصص لازماً لذاته تعالى فيكون فعله سبحانه واجباً لأمر خارج ضروري للفاعل وهو ينافي الاختيار بالمعنى الأخص قطعاً فلا يكون الواجب مختاراً بهذا المعنى بل يؤول إلى ما ذهب إليه الفلاسفة من الاختيار المجامع للإيجاب، ولا يرد ذلك على القائلين بأن المخصص هو تعلق الإرادة الأزلية لأن ذلك التعلق غير لازم لذات الواجب تعالى وإن كان أزلياً دائماً لإمكان تعلقها بالضد الآخر بدل الضد الواقع، نعم يرد عليهم ما يصعب التقصي عنه مما هو مذكور في ا لكتب الكلامية، وأورد نظير ما ذكر على الحنفية فإنهم ذهبوا إلى التعليل وجعلوا العلم بترتب المصالح علة لتعلق العلم بالوقوع فلا يتسنى لهم القول بكون الواجب تعالى مختاراً بالمعنى الأخص لأن الذات يوجب العلم والعلم يوجب تعلق الإرادة وتعلق الإرادة يوجب الفعل ولا مخلص إلا بأن يقال: إن إيجاب العلم بالنفع والمصلحة لتعلق الإرادة ممنوع عندهم بل هو مرجح ترجيحاً غير بالغ إلى حد الوجوب وما قيل إذا لم يبلغ الترجيح إلى حد الوجوب جاز وقوع الراجح وفي وقت وعدم وقوعه في وقت آخر مع ذلك المرجح فإن كان اختصاص أحد الوقتين بالوقوع بانضمام شيء آخر إلى ذلك المرجح لم يكن المرجح مرجحاً وإلا يلزم الترجيح من غير مرجح بل يلزم ترجيح المرجوح عدمه في الوقت الآخر لأن الوقوع كان راجحاً بذلك المرجح فمدفوع بوجهين إلا أنه إنما يجري في العلة التامة بالنسبة إلى معلولها لا في الفاعل المختار بالنسبة إلى فعله فإنه إن أريد لزوم الرجحان من غير مرجح كما هو اللازم في العلة التامة فعدم اللزوم ظاهر وإن أريد الترجيح من غير مرجح فبطلان اللازم في الفاعل المختار ممنوع وإلا فما الفرق بين الفاعل الموجب والمختار، الثاني أن المرجح بالنسبة إلى وقت ربما لا يكون مرجحاً بالنسبة إلى وقت آخر بل منافياً للمصلحة فلا يلزم ترجيح أحد المتساويين أو المرجوح في وقت آخر بل يلزم ترجيح الراجح في كل وقت وهو تعالى عالم بجميع المصالح اللائقة بالأوقات فتتعلق إرادته سبحانه بوقوع كل ممكن في وقت لترتب المصالح اللائقة بذلك الوقت على عدمه فلا إشكال، وهذا هو المعول عليه إذ لقائل أن يقول على الأول أن ترجيح المرجوح مستحيل في حق الواجب الحكيم وإن جاز في حق غيره من أفراد الفاعل بالاختيار.

هذا ووقع في كلام الفلاسفة أن أفعال الله تعالى غير معللة بالأغراض والغايات ومرادهم على ما قاله بعضهم ففي التعليل عن فعله سبحانه بما هو غير ذاته لأنه جل شأنه تام الفاعلية لا يتوقف فيها على غيره ولا يلزم من ذلك نفي الغاية والغرض عن فعله تعالى مطلقاً ولذا صح أن يقولوا علمه تعالى بنظام الخير الذي هو عين ذاته تعالى علة غائية وغرض في الإيجاد ومرادهم بالاقتضاء في قولهم في تعريف العلة الغائية ما يقتضي فاعلية الفاعل مطلق عدم الانفكاك لكنهم تسامحوا في ذلك اعتماداً على فهم المتدرب في العلوم وصرحوا بأنه تعالى ليس له غرض في الممكنات وقصد إلى منافعها لأن كل فاعل يفعل لغرض غير ذاته فهو فقير إلى ذلك الغرض مستكمل به والمكمل يجب أن يكون أشرف فغرض الفاعل يجب أن يكون ما هو فوقه وإن كان بحسب الظن وليس له غرض فيما دونه وحصول وجود الممكنات منه تعالى على غاية من الإتقان ونهاية من الأحكام ليس إلا لأن ذاته تعالى ذات لا تحصل منه الأشياء إلا على أتم ما ينبغي وأبلغ ما يمكن من المصالح فالواجب سبحانه عندهم يلزم من تعقله لذاته الذي هو مبدأ كل خير و كمال حصول الممكنات على الوجه الأتم والنظام الأقوم واللوازم غايات عرضية إن أريد بالغاية ما يقتضي فاعلية الفاعل وذاتية إن أريد بها ما يترتب على الفعل ترتباً ذاتياً لا عرضياً كوجود مبادىء الشر وغيرها في الطبائع الهيولانية ثم كما أنه تعالى غاية بالمعنى الذي أشير إليه فهو غاية بمعنى أن جميع الأشياء طالبة له متشوقة إليه طبعاً وإرادة لأنه الخير المحض والمعشوق الحقيقي جل جلاله وعم نواله.

والحكماء المتألهون قد حكموا بسريان نور العشق في جميع الموجودات على تفاوت طبقاتها ولولا ذلك ما دار الفلك ولا استنار الحلك فسبحانه من إله قاهر وهو الأول والآخر، وتمام الكلام في هذا المقام على مشرب المتكلمين والفلاسفة يطلب من محله. وقرأ الحسن «لا يسل» و «يسلون» بنقل فتحة الهمزة إلى السين وحذفها وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ اضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة حقيقية بإظهار خلوها عن خصائص الإلهية التي من جملتها الإنشار وإقامة البرهان القطعي على استحالة تعدد الإله مطلقاً وتفرده سبحانه بالألوهية إلى بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله تعالى شأنه وتبكيتهم بإلجائهم إقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد وبطلان الإشراك. وجوز أن يكون هذا انتقالاً لإظهار بطلان الآلهة مطلقاً بعد إظهار بطلان الآلهة الأرضية، والهمزة لإنكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه؛ ومن متعلقة باتخذوا، والمعنى بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية آلهة مع ظهور أنها عارية عن خواص الألوهية بالكلية.

﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيت وإلقام الحجر ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تدعونه من جهة العقل الصريح أو النقل الصحيح فإنه لا يصح القول بمثل ذلك من غير دليل عليه، وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ضرب من التهكم بهم، وقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ إنارة لبرهانه وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم أي هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتي وعظتهم وذكر الأمم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم، وأعيد لفظ ﴿ذِكْرُ﴾ ولم يكتف بعطف الموصول على الموصول المستدعي للانسحاب لأن كون المشخص ذكر من معه وكونه ذكر من قبله باعتبار اتحاده بالحقيقة مع الوحي المتضمن ذلك.

وقيل: المراد بالذكر الكتاب أي هذا كتاب أنزل على أمتي وهذا كتاب أنزل على أمم الأنبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل في واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك ففيه تبكيت لهم

متضمن لنقيض مدعاهم وقرىء بتنوين ذكر الأول والثاني وجعل ما بعده منصوب المحل على المفعولية له لأنه مصدر وأعماله هو الأصل نحو ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما﴾ [البلد: ١٤].

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ
وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا
بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ
إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا
مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ
يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ
وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا
هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

وقرأ يحيى بن يعمر وطلحة بالتنوين وكسر ميم «مِنْ» فهي على هذا حرف جر ومع مجروره بها وهي اسم يدل على الصحبة والاجتماع جعلت هنا ظرفاً كقبل وبعد فجاز إدخال من عليها كما جاز إدخالها عليهما لكن دخولها عليها نادر، ونص أبو حيان أنها حينئذ بمعنى عند. وقيل: من داخلة على موصوفها أي عظة من كتاب معي وعظة من كتاب من قبلي، وأبو حاتم ضعف هذه القراءة لما فيها من دخول من على مع ولم ير له وجهاً وعن طلحة أنه قرأ «هذا ذكرٌ معي وذكرٌ قبلي» بتنوين «ذكرٌ» وإسقاط «من» وقرأت فرقة «هذا ذكر من» بالإضافة «وذكرَ مِنْ قبلي» بالتنوين وكسر الميم، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ إضراب من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن وانتقال من الأمر بتبكيتهم بمطالعة البرهان إلى بيان أن الاحتجاج عليهم لا ينفع لفقدهم التمييز بين الحق والباطل ﴿فَهُمْ﴾ لأجل ذلك ﴿مُعْرِضُونَ﴾ مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغي والضلال وإن كررت عليهم البينات والحج أو فهم معرضون عما ألقي عليهم من البراهين العقلية والنقلية.

وقرأ الحسن وحميد وابن محيض «الحقُّ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق، والجملة معترضة بين السبب والمسبب تأكيداً للربط بينهما، وجوز الزمخشري أن يكون المنصوب أيضاً على معنى التأكيد كما تقول هذا عبد الله الحق لا الباطل، والظاهر أنه منصوب على أنه مفعول به ليعلمون والعلم بمعنى المعرفة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِن رَسُول إلاَّ نُوحي إِلَيْه أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون﴾ استئناف مقرر لما سبق من آي التوحيد وقد يقال إن فيه تعميماً بعد تخصيص إذا أريد من ﴿ذكر من قبلي﴾ الكتب الثلاثة، ولما كان ﴿من رسول﴾ عاماً معنى فكان هناك لفظ ومعنى أفرد على اللفظ في نوحي إليه ثم جمع على المعنى في ﴿فاعبدون﴾ ولم يأتِ التركيب فاعبدني وهذا بناء على أن ﴿فاعبدون﴾ داخل في الموحي وجوز عدم الدخول على الأمر له ﷺ

ولأمته، وقرأ أكثر السبعة «يُوحِي» على صيغة الغائب مبنياً للمفعول، وأياً ما كان فصيغة المصارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحي ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها وبيان تنزهه سبحانه عن ذلك إثر بيان تنزهه جلا وعلا عن الشركاء على الإطلاق وهم حي من خزاعة قالوا الملائكة بنات الله سبحانه. ونقل الواحدي أن قريشاً وبعض العرب جهينة وبني سلامة وخزاعة وبني مليح قالوا ذلك.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال قالت اليهود إن الله عز وجل صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة فنزلت والمشهور الأول. والآية مشنعة على كل من نسب إليه ذلك كالنصارى القائلين عيسى ابن الله واليهود القائلين عزيز ابن الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن جميع ما سواه تعالى مربوباً له تعالى لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزهه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مصدر سبح أي بعد أن أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحة. وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لما قالوا كأنه قيل: ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون له تعالى فهم ملكه سبحانه والولد لا يصح تملكه، وفي قوله تعالى: ﴿مُكْرَمُونَ﴾ أي مقربون عنده تعالى تعالى تنبيه على منشأ غلطهم وقرأ عكرمة مكرمون بالتشديد ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو دين العبيد المؤدبين ففيه تنبيه على كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره عز وجل وتأدبهم معه تعالى، والأصل لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق إليهم منسوباً إليه تعالى تنزيلاً لسبق قولهم قوله سبحانه منزلة سبقهم إياه عز وجل لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون ما لم يقله تعالى، وجعل القول محل السبق وآلته التي يسبق بها وأنيبت اللام عن الإضافة إلى الضمير على ما ذهب إليه الكوفيون للاختصاص والتجافي عن التكرار. وقرىء «لا يَسْبُقُونَهُ» بضم الباء الموحدة على أنه من باب المغالبة يقال سابقني فسبقته وأسبقه ويلزم فيه ضم عين المضارع ما لم تكن عينه أو لامه ياء، وفيه مزيد استهجان للسبق وإشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى في السبق وزيادة تنزيه عما نفي عنهم بيبان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فأنى يتوهم صدوره عنهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له سبحانه في الأقوال كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره تعالى أصلاً بأن يعملوا من تلقاء أنفسهم، فالحصر المستفاد من تقديم الجار بالنسبة إلى غير أمره تعالى لا إلى أمر غيره سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ استئناف وقع تعليلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده كأنه قيل إنما لم يقدموا على قول أو عمل بغير أمره تعالى لأنه سبحانه لا يخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث إنهم يعلمون ذلك ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الله تعالى أن يشفع له.

وهو كما أخرج ابن جرير والمنذر والبيهقي في البعث. وابن أبي حاتم عن ابن عباس من قال لا إله إلا الله وشفاعتهم الاستغفار، وهي كما في الصحيح تكون في الدنيا والآخرة ولا متمسك للمعتزلة في الآية على أن الشفاعة لا تكون لأصحاب الكبائر فإنها لا تدل على أكثر من أن لا يشفعوا لمن لا ترتضى الشفاعة له مع أن عدم شفاعة الملائكة لا تدل على عدم شفاعة غيرهم ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي بسبب خوف عذابه عز وجل ﴿مُشْفِقُونَ﴾ متوقعون من إمارة ضعيفة كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله تعالى، فمن تعليلية والكلام على حذف مضاف، وقد يراد من خشيته تعالى ذلك فلا حاجة إليه.

وقيل: يحتمل أن يكون المعنى أنهم يخشون الله تعالى ومع ذلك يحذرون من وقوع تقصير خشيتهم وعلى هذا تكون ﴿مِن﴾ صلة لمشفقون، وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة ولذلك خص به

العلماء في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] والثاني خوف مع اعتناء ويعدى بمن كما يعدى الخوف وقد يعدى بعلى بملاحظة الحنو والعطف، وزعم بعضهم أن الخشية ها هنا مجاز عن سببها وأن المراد من الإشفاق شدة الخوف أي وهم من مهابته تعالى شديدو الخوف، والحق أنه لا ضرورة لارتكاب المجاز، وجوز أن يكون المعنى وهم خائفون من خوف عذابه تعالى على أن من صلة لما بعدها وإضافة خشية إلى المضاف المحذوف من إضافة الصفة إلى الموصوف أي خائفون من العذاب المخوف، ولا يخفى ما فيه من التكلف المستغنى عنه، ثم إن هذا الإشفاق صفة لهم دنيا وأخرى كما يشعر به الجملة الاسمية، وقد كثرت الأخبار الدالة على شدة خوفهم، ومن ذلك ما أخرج ابن أبي حاتم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ ليلة أسري بي ومررت بجبريل عليه السلام وهو بالملأ الأعلى ملقى كالحلس البالي من خشية الله تعالى ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة عليهم السلام، وقيل من الخلائق، والأول هوالذي يقتضيه السياق إذ الكلام في الملائكة عليهم السلام وفي كونهم بمعزل عما قالوه في حقهم، والمراد من يقل منهم على سبيل الفرض ﴿إِنّي إِلَهٌ مِن دُونِهِ﴾ أي متجاوزاً إياه تعالى ﴿فَذَلِكَ﴾ أي الذي فرض قوله ما ذكر فرض محال ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائر المجرمين ولا يغني عنه ما سبق من الصفات السنية والأفعال المرضية وعن الضحاك وقتادة عدم اعتبار الفرض وقالا: إن الآية خاصة بإبليس عليه اللعنة فإنه دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر، والمعول عليه ما ذكرنا، وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما يتوهم أولئك الكفرة ما لا يخفى.

وقرأ أبو عبد الرحمن المقري «نُجْزيه» بضم النون أراد نجزئه بالهمز من أجزأني كذا كفاني ثم خفف الهمزة فانقلبت ياء ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ مصدر تشبيهي مؤكد لمضمون ما قبله أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الذي يضعون الأشياء في غير مواضعها ويتعدون أطوارهم، والقصر المستفاد من التقديم يعتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة أي لأجزاء أنقص منه ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تجهيل لهم بتقصيرهم عن التدبر في الآيات التكوينية الدالة على عظيم قدرته وتصرفه وكون جميع ما سواه مقهوراً تحت ملكوته على وجه ينتفعون به ويعلمون أن من كان كذلك لا ينبغي أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه مما لا يضر ولا ينفع، والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر. وقرأ ابن كثير وحميد وابن محيصن بغير واو، والرؤية قلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا﴾ الضمير للسماوات والأرض، والمراد من السموات طائفتها ولذا ثني الضمير ولم يجمع، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات و الأرض أن تزولا﴾ [فاطر: ٤١] وكذا قول الأسود بن يعفر:

إن المنية والحتوف كلاهما دون المحارم يرقبان سوادي

وأفرد الخبر أعني قوله تعالى: ﴿رَتْقاً﴾ ولم يثن لأنه مصدر، والحمل إما بتأويله بمشتق أو لقصد المبالغة أو بتقدير مضاف أي ذاتي رتق، وهو في الأصل الضم والالتحام خلقة كأن أم صنعة، ومنه الرتقاء الملتحمة محل الجماع وقرأ الحسن وزيد بن علي وأبو حيوة وعيسى «رَتَقاً» بفتح التاء وهو اسم المرتوق كالنقض والنقض فكان قياسه أن يثنّى هنا ليطابق الاسم فقال الزمخشري: هو على تقدير موصوف أي كانتا شيئاً رتقاً وشيء اسم جنس شامل للقليل والكثير فيصح الإخبار به عن المثنى كالجمع ويحسنه أنه في حال الرتقية لا تعدد فيه.

وقال أبو الفضل الرازي: الأكثر في هذا الباب أن يكون المتحرك منه اسماً بمعنى المفعول والساكن مصدراً وقد يكونان مصدرين، والأولى هنا كونهما كذلك وحينئذ لا حاجة إلى ما قاله الزمخشري في توجيه الأخبار، وقد أريد بالرتق على ما نقل عن أبي مسلم الأصفهاني حالة العدم إذ ليس فيه ذوات متميزة فكان السموات والأرض أمر واحد

متصل متشابه وأريد بالفتق وأصله الفصل في قوله تعالى: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ الإيجاد الحصول التمييز وانفصال بعض الحقائق عن البعض به فيكون كقوله تعالى: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ [الأنعام: ١٤، يوسف: ١٠١، إبراهيم: ١٠، فاطر: ١، الزمر: ٤٦، الشورى: ١١] بناء على أن الفطر الشق وظاهره نفي تمايز المعدومات، والذي حققه مولانا الكوراني في جلاء الفهوم وذب عنه حسب جهده أن المعدوم الممكن متميز في نفس الأمر لأنه متصور ولا يمكن تصور الشيء إلا بتميزه عن غيره وإلا لم يكن بكونه متصوراً أولى من غيره ولأن بعض المعدومات قد يكون مراداً دون بعض ولولا التمييز بينها لما عقل ذلك إذ القصد إلى إيجاد غير المتعين ممتنع لأن ما ليس بمتعين في نفسه لم يتيمز القصد إليه عن القصد إلى غيره، وقد يقال على هذا: يكفي في تلك الإرادة عدم تمايز السموات والأرض في حالة العدم نظراً إلى الخارج المشاهد، وأياً ما كان فمعنى الآية لم يعلموا أن السموات والأرض كانتا معدومتين فأوجدناهما، ومعنى علمهم بذلك تمكنهم من العلم به بأدنى نظر لأنهما ممكنان، والممكن باعتبار ذاته وحدها يكون معدوماً واتصافه بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود.

قال ابن سينا في المقالة الثامنة من إلهيات الشفاء: سائر الأشياء غير واجب الوجود لا تستحق الوجود بل هي في أنفسها ومع قطع إضافتها إلى الواجب تستحق العدم ولا يعقل أن يكون وجود السموات والأرض مع إمكانهما الضروري عن غير علة، وأما ما ذهب إليه ديمقرطيس من أن وجود العالم إنما كان بالإتفاق وذلك لأن مبادية أجرام صغار لا تتجزأ لصلابتها وهي مبثوثة في خلاء غير متناه وهي متشاكلة الطبائع مختلفة الأشكال دائمة الحركة فاتفق أن تضامت جملة منه واجتمعت على هيئة مخصوصة فتكون منها هذا العالم فضرب من الهذيان، ووافقه عليه على ما قيل ابناذقلس لكن الأول زعم أن تكون الحيوان والنبات ليس بالاتفاق وهذا زعم أن تكون الأجرام الأسطقسية بالإتفاق أيضاً إلا أن ما اتفق إن كان ذاهيئة اجتماعية على وجه يصلح للبقاء والنسل بقي وما اتفق إن لم يكن كذلك لم يبق، وهذا الهذيان بعيد من هذا الرجل فإنهم ذكروا أنه من رؤساء يونان كان في زمن داود عليه السلام وتلقى العلم منه واختلف إلى لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة، ثم إن وجودهما عن العلة حادث بل العالم المحسوس منه وغيره حادث حدوثاً زمانياً بإجماع المسلمين وما يتوهم من بعض عبارات بعض الصوفية من أنه حادث بالذات قديم بالزمان مصروف عن ظاهره إذ هم أجل من أن يقولوا به لما أنه كفر. والفلاسفة في هذه المسألة على ثلاثة آراء فجماعة من الأوائل الذين هم أساطين من الملطية وساميا صاروا إلى القول بحدوث موجودات العالم مباديها وبسائطها ومركباتها وطائفة من الأتينينية وأصحاب الرواق صاروا إلى قدم مباديها من العقل والنفس والمفارقات والبسائط دون المتوسطات والمركبات فإن المبادي عندهم فوق الدهر والزمان فلا يتحقق فيها حدوث زماني بخلاف المركبات التي هي تحت الدهر والزمان ومنعوا كون الحركات سرمدية، ومذهب أرسطو ومن تابعه من تلامذته أن العالم قديم وأن الحركات الدورية سرمدية، وهذا بناء على المشهور عنه وإلا فقد ذكر في الأسفار أن أساطين الحكمة المعتبرين عند الطائفة ثمانية ثلاثة من الملطيين ثالس وانكسيمائس واغاثاذيمون، وخمسة من اليونانيين ابناذقلس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وكلهم قائلون بما قال به الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من حدوث العالم بجميع جواهره وأعراضه وأفلاكه وأملاكه وبسائطه ومركباته، ونقل عن كل كلمات تؤيد ذلك، وكذا نقل عن غير أولئك من الفلاسفة وأطال الكلام في هذا المقام، ولولا مخافة السآمة لنقلت ذلك ولعلي أنقل شيئاً منه في محله الأليق به إن شاء الله تعالى، وجاء عن ابن عباس في رواية عكرمة والحسن وقتادة وابن جبير أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض. وقال كعب: خلق الله تعالى السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً فتوسطهما ففتقهما. وعن الحسن خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان

ملتصق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ فجعل سبع سموات، وكذلك الأرض كانت مرتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين، والمراد من العلم على هذه الأقوال التمكن منه أيضاً إلا أن ذلك ليس بطريق النظر بل بالاستفسار من علماء أهل الكتاب الذين كانوا يخالطونهم ويقبلون أقوالهم؛ وقيل بذلك أو بمطالعة الكتب السماوية ويدخل فيها القرآن وإن لم يقبلوه لكونه معجزة في نفسه وفي ذلك دغدغة لا تخفى.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمران رجلاً أتاه فسأله عن الآية فقال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعالَ فأخبرني وكان ابن عباس فذهب إليه فسأله فقال: نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت فلما خلق الله تعالى للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر: الآن علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً صدق ابن عباس هكذا كانت، وروي عنه ما هو بمعنى ذلك جماعة منهم الحاكم وصححه وإليه ذهب أكثر المفسرين.

وقال ابن عطية: هو قول حسن يجمع العبرة والحجة وتعديد النعمة ويناسب ما يذكر بعد والرتق والفتق مجازيان عليه كما هما كذلك على الوجه الأول، والمراد بالسموات جهة العلو أو سماء الدنيا، والجمع باعتبار الآفاق أو من باب ثوب أخلاق، وقيل هو على ظاهره ولكل من السموات مدخل في المطر، والمراد بالرؤية العلم أيضاً وعلم الكفرة بذلك ظاهر.

وجوز أن تكون الرؤية بصرية وجعلها علمية أولى، ومن البعيد ما نقل عن بعض علماء الإسلام أن الرتق انطباق منطقتي الحركتين الأولى والثانية الموجب لبطلان العمارات وفصول السنة والفتق افتراقهما المقتضي لإمكان العمارة وتمييز الفصول بل لا يكاد يصح على الأصول الإسلامية التي أصلها السلف الصالح كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ عطف على ﴿أن السموات﴾ الخ ولا حاجة إلى تكلف عطفه على فتقنا، والجعل بمعنى الخلق المتعدي لمفعول واحد، ومن ابتدائية والماء هوالمعروف أي خلقنا من الماء كل حيوان أي متصف بالحياة الحقيقية. ونقل ذلك عن الكلبي. وجماعة ويؤيده قوله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ [النور: ٤٥] ووجه كون الماء مبدأ ومادة للحيوان وتخصيصه بذلك أنه أعظم مواده وفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه ولا بد من تخصيص العام لأن الملائكة عليهم السلام وكذا الجن أحياء وليسوا مخلوقين من الماء ولا محتاجين إليه على الصحيح.

وقال قتادة: المعنى خلقنا كل نام من الماء فيدخل النبات ويراد بالحياة النمو أو نحوه، ولعل من زعم أن في النبات حساً وشعوراً أبقى الحياة على ظاهرها، وقال قطرب، وجماعة: المراد بالماء النطفة ولا بد من التخصيص بما سوى الملائكة عليهم السلام والجن أيضاً بل بما سوى ذلك والحيوانات المخلوقة من غير نطفة كأكثر الحشرات الأرضية. ويجوز أن يكون الجعل بمعنى التصيير المتعدي لمفعولين وهما هنا ﴿كل﴾ و ﴿من الماء﴾ وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به ومن اتصالية كما قيل في قوله ﷺ: «ما أنا من دد ولا الدد مني» والمعنى صيرنا كل شيء حي متصلاً بالماء أي مخالطاً له غير منفك عنه، والمراد أنه لا يحيا دونه، وجوّز أبو البقاء على الوجه الأول أن يكون الجار والمجرور في موضع الحال من ﴿كل﴾ وجعل الطيبي من على هذا بيانية تجريدية فيكون قد جرد من الماء الحي مبالغة كأنه هو، وقرأ حميد «حياً» بالنصب على أنه صفة ﴿كل﴾ أو مفعول ثان لجعل، والظرف متعلق بما عنده لا يحيا، والشيء مخصوص بالحيوان لأنه الموصوف بالحياة، وجوّز تعميمه للنبات.

وأنت تعلم أن من الناس من يقول: إن كل شيء من العلويات و السفليات حي حياة لائقة به وهم الذين ذهبوا إلى أن تسبيح الأشياء المفاد بقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ [الإسراء: ٤٤] قالي لا حالي، وإذا قيل بذلك فلا بد من تخصيص الشيء أيضاً إذا لم يجعل من الماء كل شيء حياً؛ ولم أقف على مخالف في ذلك منا، نعم نقل عن ثالس الملطي وهو أول من تفلسف بملطية أن أصل الموجودات الماء حيث قال: الماء قابل كل صورة ومنه أبدعت الجواهر كلها من السماء والأرض انتهى.

ويمكن تخريجه على مشرب صوفي بأن يقال إنه أراد بالماء الوجود الانبساطي المعبر عنه في اصطلاح الصوفية بالنفس الرحماني، وحينئذ لو جعلت الإشارة في الآية إلى ذلك عندهم لم يبعد ﴿أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده مع ظهور ما يوجبه حتماً من الآيات، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الإنكار أي أيعلمون ذلك فلا يؤمنون ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت جمع راسية من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ، ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مما لا ريب في صحته ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد فحذف اللام ولا لعدم الإلباس، وهذا مذهب الكوفيين والأول أولى، وفي الانتصاف أولى من هذين الوجهين أن يكون مثل قولك أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط على ما قال سيبويه من أن معناه أن أدعم الحائط بها إذا مال، وقدم ذكر الميد عناية بأمره ولأنه السبب في الادعام والادعام سبب إعداد الخشبة فعومل سبب السبب معاملة السبب فكذا فيما نحن فيه يكون الأصل وجعلنا في الأرض رواسي أن نثبتها إذا مادت بهم فجعل الميد هو السبب كما جعل الميل في المثال سبباً وصار الكلام وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم فنثبتها ثم حذف فنثبتها لأمن الإلباس إيجازاً، وهذا أقرب إلى الواقع مما ذكر أولاً فإن مقتضاه أن لا تميد الأرض بأهلها لأن الله تعالى كره ذلك ومحال أن يقع ما يكرهه سبحانه والمشاهدة بخلافه فكم من زلزلة أمادت الأرض حتى كادت تنقلب وعلى ما ذكرنا يكون المراد أن الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت، وهذا لا يأبى وقوع الميد لكنه ميد يستعقبه التثبيت، وكذلك الواقع من الزلزال إنما هو كاللمحة ثم يثبتها الله تعالى انتهى.

وفي الكشف أن قولهم كراهة أن تميد بيان للمعنى لا أن هناك إضمار البتة ولهذا كان مذهب الكوفيين خليقاً بالرد، وما في الانتصاف من أن الأولى أن يكون من باب أعددت الخشبة أن يميل الحائط على ما قرر راجع إلى ما ذكرناه ولا مخالف له، أما ما ذكره من الرد بمخالفة الواقع المشاهد فليس بالوجه لأن ميدودة الأرض غير كائنة البتة وليست هذه الزلازل منها في شيء انتهى، وهو كلام رصين كما لا يخفى، وقد طعن بعض الكفرة المعاصرين فيما دلت عليه الآية الكريمة بأن الأرض لطلبها المركز طبعاً ساكنة لا يتصور فيها الميد ولو لم يكن فيها الجبال. وأجيب أولاً بعد الإغماض عما في دعوى طلبها المركز طبعاً وسكونها عنده من القيل والقال يجوز أن يكون الله تعالى قد خلق الأرض يوم خلقها عرية عن الجبال مختلفة الأجزاء ثقلاً وخفة اختلافاً تاماً أو عرض لها الاختلاف المذكور ومع هذا لم يجعل سبحانه لمجموعها من الثقل ما لا يظهر بالنسبة إليه ثقل ما علم جل وعلا أنه يتحرك عليها من الأجسام الثقيلة فيكون لها مركزان متغايران مركز حجم ومركز ثقل وهي إنما تطلب بطبعها عندهم أن ينطبق مركز ثقلها على مركز العالم وذلك وإن اقتضى سكونها إلا أنه يلزم أن تتحرك بتحرك هاتيك الأجسام فخلق جل جلاله الجبال فيها ليحصل لها من الثقل ما لا يظهر معه ثقل المتحرك فلا تتحرك بتحركه أصلاً، وكون نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطرها كنسبة سبع عرض شعيرة إلى ذراع إنما ينفع في أمر الكرية الحسية وأما أنه يلزم منه أن لا يكون لمجموع الجبال ثقل معتد بة بالنسبة إلى ثقل الأرض فلا.

ثم ليس خلق الجبال لهذه الحكمة فقط بل لحكم لا تحصى ومنافع لا تستقصى فلا يقال إنه يغني عن الجبال خلقها بحيث لا يظهر للأجسام الثقيلة المتحركة عليها أثر بالنسبة إلى ثقلها، وثانياً أنها بحسب طبعها تقتضي أن تكون مغمورة بالماء بحيث تكون الخطوط الخارجة من مركزها المنطبق على مركز العالم إلى محدب ا لماء متساوية من جميع الجوانب فبروز هذا المقدار المعمور منها قسري، ويجوز أن يكون للجبال مدخل في القسر باحتباس الأبخرة فيها وصيرورة الأرض بسبب ذلك كزق في الماء نفخ نفخاً ظهر به شيء منه على وجه الماء ولولا ذلك لم يكن القسر قوياً بحيث لا يعارضه ما يكون فوق الأرض من الحيوانات وغيرها وذلك يوجب الميد الذي قد يفضي بها إلى الانغمار فتأمل، وقد مر لك ما يتعلق بهذا المطلب فتذكر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض، وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين مع ما فيه من الإشارة إلى كمال الامتنان أو في الرواسي على ما أخرجه ابن جرير والمنذر عن ابن عباس ويؤيده أنها المحتاجة لأن يجعل سبحانه فيها ﴿فِجَاجاً﴾ جمع فج قال الراغب: هو شقة يكتنفها جبلان، وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج، وقال بعضهم: هو مطلق الواسع سواء كان طريقاً بين جبلين أم لا ولذا يقال جرح فج، والظاهر أن «فجاجاً» نصب على المفعولية لجعل، وقوله سبحانه: ﴿سُبُلاً﴾ بدل منه فيدل ضمناً على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد لأن البدل كالتكرار وعلى نية تكرار العامل والمبدل منه ليس في حكم السقوط مطلقاً وقال في الكشاف: هو حال من ﴿سبلاً﴾ ولو تأخر لكان صفة كما في قوله تعالى في سورة [نوح: ٢٠] ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجا﴾ وإنما لم يؤت به كذلك بل قدم فصار حالاً ليدل على أنه في حال جعلها سبلاً كانت واسعة ولو أتى به صفة لم يدل على ذلك. وأوجب بعضهم كونه مفعولاً وكون ﴿سبلاً﴾ بدلاً منه وكذا أوجب في قوله تعالى: ﴿لتسلكوا﴾ الخ كون ﴿سبلاً﴾ مفعولاً وكون ﴿فجاجاً﴾ بدلاً قائلاً: إن الفج اسم لا صفة لدلالته على ذات معينة وهو الطريق الواسع والاسم يوصف ولا يوصف به ولذا وقع موصوفاً في قوله تعالى: ﴿من كل فج عميق﴾ [الحج: ٢٧] والحمل على تجريده عن دلالته على ذات معينة لا قرينة عليه.

وتعقب بأنا لا نسلم أن معناه ذلك بل معناه مطلق الواسع وتخصيصه بالطريق عارض وهو لا يمنع الوصفية ولو سلم فمراد من قال إنه وصف أنه في معنى الوصف بالنسبة إلى السبيل لأن السبيل الطريق وهو الطريق الواسع فإذا قدم عليه يكون ذكره بعد لغواً لو لم يكن حالاً، وظاهر كلام الفاضل اليمني في المطلع أن ﴿سبلاً﴾ عطف بيان وهو سائغ في النكرات حيث قال: هو تفسير للفجاج وبيان أن تلك الفجاج نافذة فقد يكون الفج غير نافذ وقدم هنا وأخر في آية سورة نوح لأن تلك الآية واردة للامتنان على سبيل الإجمال وهذه للاعتبار والحث على إمعان النظر وذلك يقتضي التفصيل، ومن ثم ذكرت عقب قوله تعالى كانتا ﴿رتقا﴾ الخ انتهى، وأنت تعلم أن الأظهر نصب ﴿فجاجا﴾ هنا على المفعولية لجعل ووجه التغاير بين الآيتين لا يخفى فتأمل ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة، وقيل: إلى مصالحهم ومهماتهم. ورد على ما تقدم بأنه يغني عن ذلك قوله تعالى فيما بعد ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ وبأن خلق السبل لا تظهر دلالته على ما ذكر انتهى، وفيه ما فيه، وجوّز أن يكون المراد ما هو أعم من الاهتداء إلى الاستدلال والاهتداء إلى المصالح:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ من البلى والتغير على طول الدهر كما روي عن قتادة، والمراد أنها جعلت محفوظة عن ذلك الدهر الطويل، ولا ينافيه أنها تطوى يوم القيامة طي السجل للكتب وإلى تغيرها ودثورها ذهب جميع المسلمين ومعظم أجلة الفلاسفة كما برهن عليه صدر الدين الشيرازي في أسفاره وسنذكره إن شاء الله تعالى في محله.

وقيل: من الوقوع، وقال الفراء: من استراق السمع بالرجوم، وقيل عليه: إنه يكون ذكر السقف لغواً لا يناسب البلاغة فضلاً عن الإعجاز، وذكر في وجهه أن المراد أن حفظها ليس كحفظ دور الأرض فإن السرّاق ربما تسلقت من سقوفها بخلاف هذه، وقيل: إنه للدلالة على حفظها عمن تحتها ويدل على حفظها عنهم على أتم وجه، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء فقال: «إن السماء سقف مرفوع وموج مكفوف تجري كما يجري السهم محفوظة من الشياطين» وهو إذا صح لا يكون نصاً في معنى الآية كما زعم أبو حيان، وقيل: من الشرك والمعاصي، ويرد عليه ما أورد على سابقه كما لا يخفى.

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ الدالة على وحدانيتنا وعلمنا وحكمتنا وقدرتنا وإرادتنا التي بعضها ظاهر كالشمس وبعضها معلوم بالبحث عنه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ذاهلون عنها لا يجيلون قداح الفكر فيها، وقرأ مجاهد. وحميد «عن آيتها» بالإفراد ووجه بأنه لما كان كل واحد مما فيها كافياً في الدلالة على وجود الصانع وصفات كماله وحدت الآية لذلك، وجعل الإعراض على هذه القراءة بمعنى إنكار كونها آية بينة دالة على الخالق كما يشير إليه قوله في الكشاف أي هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع وهم عن كونها آية بينة على الخالق معرضون وليس بلازم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ اللذين هما آيتاهما ولذا لم يعد الفعل بياناً لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام، ولما كان إيجاد الليل والنهار ليس على نمط إيجاد الحيوانات وإيجاد الرواسي لم يتحد اللفظ الدال على ذلك بل جيء بالجعل هناك وبالخلق هنا وكذا قيل وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه، واعتبره صاحب الكشاف مفرداً نكرة أي كل واحد من الشمس و القمر. و اعترض بأنه قد صرح ابن هشام في المغني بأن المقدر إذا كان مفرداً نكرة يجب الإفراد في الضمير العائد على كل كما لو صرح به وهنا قد جمع فيجب على اعتباره جمعاً معرفاً أي كلهم ومتى اعتبر كذلك وجب عند ابن هشام جمع العائد وإن كان لو ذكر لم يجب، ووجوب الإفراد في المسألة الأولى والجمع في الثانية للتنبيه على حال المحذوف.

وأبو حيان يجوز الإفراد والجمع مطلقاً فيجوز هنا اعتبار المضاف إليه مفرداً نكرة مع جمع الضمير بعد كما فعل الزمخشري وهو من تعلم علو شأنه في العربية، وقوله سبحانه: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ خبره، ووجه إفراده ظاهر لأن النكرة المقدرة للعموم البدلي لا الشمولي، ومن قدر جمعاً معرفاً قال: المراد به الجنس الكلي المؤول بالجمع نحو كساهم حلة بناءً على أن المجموع ليس في فلك واحد. وقوله عز وجل: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ حال؛ ويجوز أن يكون الخبر و ﴿فِي فَلَكٍ﴾ حالاً أو متعلقاً به وجملة ﴿كُلٌّ﴾ الخ حال من الشمس والقمر والرابط الضمير دون واو بناء على جواز ذلك من غير قبح، ومن استقبحه جعلها مستأنفة وكان ضميرهما جمعاً اعتباراً للتكثير يتكاثر المطالع فيكون لهما نظراً إلى مفهومهما الوضعي أفراد خارجية بهذا الاعتبار لا حقيقة، ولهذا السبب يقال شموس وأقمار وإن لم يكن في الخارج إلا شمس واحدة وقمر واحد والذي حسن ذلك هنا توافق الفواصل، وزعم بعضهم أنه غلب القمران لشرفهما على سائر الكواكب فجمع الضمير لذلك. وقيل: الضمير للنجوم وإن لم تذكر لدلالة ما ذكر عليها.

وقيل الضمير للشمس والقمر والليل والنهار، وفيه أن الليل والنهار لا يحسن وصفهما بالسباحة وإن كانت مجازاً عن السير، واختيار ضمير العقلاء إما لأنهما عقلاء حقيقة كما ذهب إليه بعض المسلمين كالفلاسفة، وإما لأنهما عقلاء ادعاء وتنزيلاً حيث نسب إليهما السباحة وهي من صنائع العقلاء، والفلك في الأصل كل شيء دائر ومنه فلكة المغزل والمراد به هنا على ما روي عن ابن عباس والسدي رضي الله تعالى عنهم السماء.

وقال أكثر المفسرين: هو موج مكفوف تحت السماء يجري فيه الشمس والقمر. وقال الضحاك: هو ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم، والمشهور ما روي عن ابن عباس والسدي وفيه القول باستدارة السماء وفي «كل في فلك» رمز خفي إليه فإنه لا يستحيل بالانقلاب وعليه أدلة جمة. وكونها سقفاً لا يأبى ذلك، وقد وقع في كلام الفلاسفة إطلاق الفلك على السماء ووصفوه بأنه حي عالم متحرك بالإرادة حركة مستديرة لا غير ولا يقبل الكون والفساد والنمو والذبول والخرق والالتئام ونوعه منحصر في شخصه وأنه لا حار ولا بارد ولا رطب ولا يابس ولا خفيف ولا ثقيل، وأكثر هذه الأوصاف متفرع على أنه ليس في طباعه ميل مستقيم، وقد رد ذلك في الكتب الكلامية وبنوا على امتناع الخرق والالتئام أن الكوكب لا يتحرك إلا بحركة الفلك ولما رأوا حركات مختلفة قالوا بتعدد الأفلاك، والمشهور أن الأفلاك الكلية تسعة سبعة للسبع السيارة وواحد للثوابت وآخر لتحريك الجميع الحركة اليومية، والحق أنه لا قاطع على نفي ما عدا ذلك ألا ترى أن الشيخ الرئيس لم يظهر له أن الثوابت في كرة واحدة أو في كرات منطوٍ بعضها على بعض، وقولهم إن حركات الثوابت متشابهة ومتى كانت كذلك كانت مركوزة في فلك واحد غير يقيني أما صغراه فلأن حركاتها وإن كانت في الحس متشابهة لكن لعلها لا تكون في الحقيقة كذلك لأنا لو قدرنا أن الواحدة منها تتم الدورة في ست وثلاثين ألف سنة والأخرى تتممها في هذا الزمان لكن بنقصان عاشرة أو أقل فالذي يخص الدرجة الواحدة من هذا القدر من التفاوت يقل جداً بحيث لا تفي أعمارنا بضبطه وإذا احتمل ذلك سقط القطع بالتشابه، ومما يزيد ذلك سقوطاً والاحتمال قوة وجدان المتأخرين من أهل الأرصاد كوكباً أسرع حركة من الثوابت وأبطأ من السيارة سموه بهرشل ولم يظفر به أحد من المتقدمين في الدهور الماضية، وأما كبراه فلاحتمال اشتراك الأشياء المختلفة في كثير من اللوازم فيجوز أن لكل فلكاً على حدة وتكون تلك الأفلاك متوافقة في حركاتها جهة وقطباً ومنطقة وبطناً، ثم إن الاحتمال غير مختص بفلك الثوابت بل حاصل في كل الأفلاك فيجوز أن يكون بين أفلاك السيارة أفلاك أخر، وما يقال في إبطاله من أن أقرب قرب كل كوكب يساوي أبعد بعد كل الكواكب التي فرضت تحته ليس بشيء لأن بين أبعد بعد القمر وأقرب قرب عطارد ثخن فلك جوزهر القمر، وقد ذكر المحققون من أصحاب الهيئة أن الفلك التدوير لكل من العلوية ثلاث أكر محيط بعضها ببعض وجرم الكوكب مركوز في الكرة الداخلة فيكون مقدار ثخن أربع كرات من تلك التداوير من كل واحد من السافل والعالي ثخن كرتين حائلاً بين أقرب قرب العالي وأبعد بعد السافل، وأثبتوا للسفلية خمسة تداوير فيكون بين أقرب قرب الزهرة وأبعد بعد عطارد ثخن ثمان كرات على أنهم إنما اعتقدوا أن أقرب قرب العالي مساو لأبعد بعد السافل لاعتقادهم أولاً أنه ليس بين هذه الأفلاك ما يتخللها فليس يمكنهم بناء ذلك عليه وإلا لزم الدور بل لا بد فيه من دليل آخر، وقولهم لا فضل في الفلكيات مع أنه كما ترى يبطله ما قالوا في عظم ثخن المحدد؛ ويجوز أيضاً أن يكون فوق التاسع من الأفلاك ما لا يعلمه إلا الله تعالى بل يحتمل أن يكون هذا الفلك التاسع بما فيه من الكرات مركوزاً في ثخن كرة أخرى عظيمة ويكون في ثخن تلك الكرة ألف ألف كرة مثل الكرات وليس ذلك مستبعداً فإن تدوير المريخ أعظم من ممثل الشمس فإذا عقل ذلك فأي بأس بأن يفرض مثله مما هو أعظم منه. ويجوز أيضاً كما قيل أن تكون الأفلاك الكلية ثمانية لا مكان كون جميع الثوابت مركوزة في محدب ممثل زحل أي في متممه الحاوي على أن يتحرك بالحركة البطيئة والفلك الثامن يتحرك بالحركة السريعة بل قيل من الجائز أن تكون سبعة بأن تفرض الثوابت ودوائر البروج على محدب ممثل زحل ونفسان تتصل إحداهما بمجموع السبعة وتحركها إحدى الحركتين السريعة والبطيئة والأخرى بالفلك السابع وتحركه الأخرى فلا قاطع أيضاً على نفي أن تكون الأفلاك أقل من تسعة.

ثم الظاهر من الآية أن كلاً من الشمس والقمر يجري في ثخن فلكه ولا مانع منه عقلاً ودليل امتناع الخرق والالتئام وهو أنه لو كان الفلك قابلاً لذلك لكان قابلاً للحركة المستقيمة وهي محال عليه غير تام وعلى فرض تمامه إنما يتم في المحدد على أنه يجوز أن يحصل الخرق في الفلك من جهة بعض أجزائه على الاستدارة فلا مانع من أن يقال: الكواكب مطلقاً متحركة في أفلاكها حركة الحيتان في الماء ولا يبطل به علم الهيئة لأن حركاتها يلزم أن تكون متشابهة حول مراكز أفلاكها أي لا تسرع ولا تبطيء ولا تقف ولا ترجع ولا تنعطف، وقول السهروردي في المطارحات: لو كانت الأفلاك قابلة للخرق وقد برهن على كونها ذات حياة فعند حصول الخرق فيها وتبدد الأجزاء فإن لم تحس فليس جزؤها المنخرق له نسبة إلى الآخر بجامع إدراكي ولا خبر لها عن أجزائها وما سرى لنفسها قوة في بدنها جامعة لتلك الأجزاء فلا علاقة لنفسها مع بدنها، وقد قيل إنها ذات حياة وإن كانت تحس فلا بد من التألم بتبديد الأجزاء فإنه شعور بالمنافي وكل شعور بالمنافي إما ألم أو موجب لألم وإذا كان كذا وكانت الكواكب تخرقها بجريها كانت في عذاب دائم، وسنبرهن على أن الأمور الدائمة غير الممكنة الإشراف لا يتصور عليها لا يخفى أنه من الخطابيات بل مما هو أدون منها.

وزعم بعضهم أنه من البراهين القوية مما لا برهان عليه من البراهين الضعيفة، وادّعى الإمام أنها كما تدل على جري الكوكب تدل على سكون الفلك، والحق أنها مجملة بالنسبة إلى السكون غير ظاهرة فيه، وإلى حركته وسكون الفلك بأسره ذهب بعض المسلمين ويحكى عن الشيخ الأكبر قدس سره، ويجوز أن يكون الفلك متحركاً والكوكب يتحرك فيه إما مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لها إما بحركة مساوية في السرعة والبطء لحركة الفلك أو مخالفة، ويجوز أيضاً أن يكون الكوكب مغروزاً في الفلك ساكناً فيه كما هو عند أكثر الفلاسفة أو متحركاً على نفسه كما هو عند محققيهم والفلك بأسره متحركاً وهو الذي أوجبه الفلاسفة لما لا يسلم لهم ولا يتم عليه برهان منهم.

ويجوز أيضاً أن يكون الكوكب في جسم منفصل عن ثخن الفلك شبيه بحلقة قطرة مساوٍ لقطر الكوكب وهو الذي يتحرك به ويكون الفلك ساكناً ويجوز أيضاً أن يكون في ثخن الفلك خلاء يدور الكوكب فيه مع سكون الفلك أو حركته وليس في هذا قول بالخرق والالتئام بل فيه القول بالخلاء وهو عندنا وعند أكثر الفلاسفة جائز خلافاً لأرسطاطاليس وأتباعه، ودليل الجواز أقوى من صخرة ملساء، والقول بأن الفلك بسيط فبساطته مانعة من أن يكون في ثخنه ذلك ليس بشيء فما ذكروه من الدليل على البساطة على ضعفه لا يتأتى إلا في المحدد دون سائر الأفلاك، وأيضاً متى جاز أن يكون الفلك مجوفاً مع بساطته فليجز ما ذكر معها ولا يكاد يتم لهم التقصي عن ذلك، وجاء في بعض الآثار أن الكواكب جميعها معلقة بسلاسل من نور تحت سماء الدنيا بأيدي ملائكة يجرونها حيث شاء الله تعالى، ولا يكاد يصح وإن كان الله عز وجل على كل شيء قديراً، والذي عليه معظم الفلاسفة والهيئيين أن الحركة الخاصة بالكوكب الثابتة لفلكه أولاً وبالذات آخذة من المغرب إلى المشرق وهي الحركة على توالي البروج وتسمى الحركة الثانية والحركة البطيئة وهي ظاهرة في السيارات وفي القمر منها في غاية الظهور وفي الثوابت خفية ولهذا لم يثبتها المتقدمون منهم، وغير الخاصة به الثابتة لفلكه ثانياً وبالعرض آخذة من المشرق إلى المغرب وتسمى الحركة الأولى والحركة السريعة وهي بواسطة حركة المحدد وبها يكون الليل والنهار في سائر المعمورة، وأما في عرض تسعين ونحوه ففي الحركة الثانية فعندهم للكوكب حركتان مختلفتان جهة وبطأً ومثلوهما بحركة رحى إلى جهة سريعاً وحركة نملة عليها إلى خلاف تلك الجهة بطيئاً.

وذهب بعض الأوائل إلى أنه لا حركة في الأجرام العلوية من المغرب إلى المشرق بل حركاتها كلها من

المشرق إلى المغرب لأنها أولى بهذه الأجرام لكونها أقل مخالفة ولأن غاية الحركة للجرم الأقصى وغاية السكون للأرض فيجب أن يكون ما هو أقرب إلى الأقصى أسرع مما هو أبعد ولأنه لو كان بعضها من المشرق وبعضها من المغرب يلزم أن يتحرك الكوكب بحركتين مختلفتين جهة وذلك محال لأن الحركة إلى جهة تقتضي حصول المتحرك في الجهة المنتقل إليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة إلى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة في مكانين وهو محال ولا فرق في ذلك بين أن تكون الحركتان طبيعيتين أو قسريتين أو إحداهما طبيعية والأخرى قسرية.

ولا يدفع هذا بما يشاهد من حركة النملة على الرحى إلى جهة حال حركة الرحى إلى خلافها لأنه مثال والمثال لا يقدح في البرهان ولأن القطع على مثل هذه الحركات جائز أما على الحركات الفلكية فمحال، وما استدل به على أن غير الحركة السريعة من المغرب إلى المشرق لا يدل عليه لجواز أن تكون من المشرق ويظن أنها من المغرب وبيانه أن المتحركين إلى جهة واحدة حركة دورية متى كان أحدهما أسرع من حركة الآخر فإنهما إذا تحركا إلى تلك الجهة رؤي الإبطاء منهما متخلفاً فيظن أنه متحرك إلى خلاف تلك الجهة لأنهما إذا اقترنا ثم تحركا في الجهة بما لهما من الحركة فسار السريع دورة تامة وسار البطيء دورة الأقوى صار البطيء متخلفاً عن السريع في الجهة المخالفة لجهة حركتهما بتلك القوس، وقالوا: يجب المصير إلى ذلك لما أن البرهان يقتضيه ولا يبطله شيء من الأعمال النجومية.

وقد أورد الإمام في الملخص ما ذكر في الاستدلال على محالية الحركتين المختلفتي الجهة للجسم الواحد إشكالاً على القائلين بهما ثم قال: ولقوة هذا الكلام أثبت بعضهم الحركة اليومية لكرة الأرض لا لكرة السماء وإن كان ذلك باطلاً وأورده في التفسير وسماه برهاناً قاطعاً وذهب فيه إلى ما ذهب إليه هذا البعض من أن الحركات كلها من المشرق إلى المغرب لكنها مختلفة سرعة وبطأ وفيما ذكروه نظر لأن الشبهتين الأوليين اقناعيتان والثالثة وإن كانت برهانية لكن فسادها أظهر من أن يخفى، وأما أن شيئاً من الأعمال النجومية لا يبطله فباطل لأن هذه الحركة الخاصة للكوكب أعني حركة القمر من المشرق إلى المغرب مثلاً دورة إلا قوساً لا يجوز أن تكون على قطبي البروج لأنها توجد موازية لمعدل النهار ولا على قطبي المعدل وإلا لما زالت عن موازنة ولما انتظمت من القسي التي تتأخر فيها كل يوم دائرة عظيمة مقاطعة للمعدل كدائرة البروج من القسي التي تأخرت الشمس فيها بل انتظمت صغيرة موازية له اللهم إلا إذا كان الكوكب على المعدل مقدار ما يتمم بحركته دورة فإن المنتظمة حينئذٍ تكون نفس المعدل لكن هذا غير موجود في الكواكب التي نعرفها ولا على قطبين غير قطبيهما وإلا لكان يرى مسيره فوق الأرض على دائرة مقاطعة للدوائر المتوازية ولم تكن دائرة نصف النهار تفصل الزمان الذي من حين يطلع إلى حين يغرب بنصفين لأن قطبي فلكه المائل لا يكون دائماً على دائرة نصف النهار فلا تنفصل قسيّ مداراته الظاهرة بنصفين، ولأنه لو كان الأمر كما توهموا لكانت الشمس تصل إلى أوجها وحضيضها وبعديها الأوسطين بل إلى الشمال والجنوب فيجب أن تحصل جميع الأظلال اللائقة بكون الشمس في هذه المواضع في اليوم الواحد والوجود بخلافه.

وقول من قال يجوز أن يكون حركة الشمس في دائرة البروج إلى المغرب ظاهر الفساد لأنه لو كان كذلك لكان اليوم الواحد بليلته ينقص عن دور معدل النهار بقدر القوس التي قطعتها الشمس بالتقريب بخلاف ما هو الواقع لأنه يزيد على دور المعدل بذلك القدر ولكان يرى قطعها البروج على خلاف التوالي وليس كذلك لتأخرها عن الجزء الذي يتوسط معها من المعدل في كل يوم نحو المشرق، فإذا حركات الأفلاك الشاملة للأرض ثنتان حركة إلى التوالي وأخرى إلى خلافه، وأما حركات التداوير فخارجة عن القسمين لأن حركات أعاليها مخالفة لحركات أسافلها لا محالة

لكونها غير شاملة للأرض، فإن كانت حركة الأعلى من المغرب إلى المشرق فحركة الأسفل بالعكس كما في المتحيرة، وإن كانت حركة الأعلى من المشرق إلى المغرب كانت حركة الأسفل بالعكس كما في القمر. هذا وقصارى ما نقول في هذا المقام: إن ما ذكره الفلاسفة في أمر الأفلاك الكلية والجزئية وكيفية حركاتها وأوضاعها أمر ممكن في نفسه ولا دليل على أنه هو الواقع لا غير، وقد ذهب إلى خلافة أهل لندن وغيرهم من أصحاب الأرصاد اليوم، وكذا أصحاب القلبية والمعارج المعنوية كالشيخ الأكبر قدس سره وقد أطال الكلام في ذلك في الفتوحات المكية. وأما السالف الصالح فلم يصح عنهم تفصيل الكلام في ذلك لما أنه قليل الجدوى ووقفوا حيث صح الخبر وقالوا: إن اختلاف الحركات ونحوه بتقدير العزيز العليم وتشبثوا فيما صح وخفي سببه بأذيال التسليم، والذي أميل إليه أن السموات على طبق ما صحت به الأخبار النبوية في أمر الثخن وما بين كل سماء وسماء ولا أخرج عن دائرة هذا الميل، وأقول يجوز أن يكون ثخن كل سماء فلك لكل واحدة من السيارات على نحو الفلك الذي أثبته الفلاسفة لها وحركته الذاتية على نحو حركته عندهم وحركته العرضية بواسطة حركة سمائه إلى المغرب الحركة اليومية فتكون حركات السموات متساوية، وإن أبيت تحرك السماء بجميع ما فيها لإباء بعض الأخبار عنه مع عدم دليل قطعي يوجبه قلت: يجوز أن يكون هناك محرك في ثخن السماء أيضاً ويبقى ما يبقى منها ساكناً بقدرة الله تعالى على سطحه الأعلى ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وللفلاسفة في تحقيق أن المحيط كيف يحرك المحاط به كلام تعقبه الإمام ثم قال: الصحيح أن المحرك للكل هو الله تعالى باختياره وإن ثبت على قانون قولهم كون الحاوي محركاً للمحوي فإنه يكون محركاً بقوة نفسه لا بالمماسة، وأما الثوابت فيحتمل أن تكون في فلك فوق السموات السبع ويحتمل أن يكون في ثخن السماء السابعة فوق فلك زحل بل إذا قيل بأن جميع الكواكب الثوابت والسيارات في ثخن السماء الدنيا تتحرك على أفلاك مماثلة للأفلاك التي أثبتها لها الفلاسفة ويكون لها حركتان على نحو ما يقولون لم يبعد، وفيه حفظ الظاهر قوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ [الملك: ٥] وما ذكروه في علم الأجرام والأبعاد على اضطرابه لا يلزمنا تسليمه فلا يراد أنهم قالوا بعد الثوابت عن مركز الأرض خمسة وعشرون ألف ألف وأربعمائة واثنا عشر ألفاً وثمانمائة وتسع وتسعون فرسخاً، وما ورد في الخبر من أن بين السماء والأرض خمسمائة عام وسمك السماء كذلك يقتضي أن يكون بين وجه الأرض والثوابت على هذا التقدير ألف عام وفراسخ مسيرة ذلك مع فراسخ نصف قطر الأرض وهي ألف ومائتان وثلاثة وسبعون تقريباً على ما قيل دون ما ذكر بكثير.

ولا حاجة إلى أن يقال: العدد لا مفهوم له واختيار خمسمائة لما أن الخمسة عدد دائر فيكون في ذلك رمز خفي إلى الاستدارة كما قيل في كل فلك، ويشير إلى صحة احتمال أن يكون الفلك في ثخن السماء ما أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: الشمس بمنزلة الساقية تجري في السماء في فلكها فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها وكذلك القمر، والأخبار المرفوعة والموقوفة في أمر الكواكب والسموات والأرض كثيرة.

وقد ذكر الجلال السيوطي منها ما ذكر في رسالة ألفها في بيان الهيئة السنية، وإذا رصدتها رأيت أكثرها مائلاً عن دائرة بروج القبول، وفيها ما يشعر بأن للكوكب حركة قسرية نحو ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة ما طلعت الشمس حتى يوتر لها كما توتر القوس، ثم الظاهر أن يراد بالسباحة الحركة الذاتية ويجوز أن يراد بها الحركة العرضية بل قيل هذا أولى لأن تلك غير مشاهدة مشاهدة هذه بل عوام الناس لا يعرفونها، وقيل يجوز أن يراد بها ما يعم الحركتين، واستنبط بعضهم من نسبة السباحة إلى الكوكب أن ليس هناك حامل له يتحرك بحركته مطلقاً بل هو

متحرك بنفسه في الفلك تحرك السمكة في الماء إذ لا يقال للجالس في صندوق أو جذع يجري في الماء إنه يسبح، واختار أنه يجري في مجرى قابل للخرق والالتئام كالماء ودون إثبات استحالة ذلك العروج إلى السماء السابعة، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وهو سبحانه ولي التوفيق وعلى محور هدايته تدور كرة التحقيق، وهذه نبذة مما رأينا إيراده مناسباً لهذا المقام، وسيأتي إن شاء الله تعالى نبذة أخرى مما يتعلق بذلك من الكلام ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ﴾ كائناً من كان ﴿مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ أي الخلود والبقاء في الدنيا لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية، وقيل الخلد المكث الطويل ومنه قولهم للأثافي خوالد، واستدل بذلك على عدم حياة الخضر عليه السلام، وفيه نظر ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا ﴿نتربص به ريب المنون﴾ [الطور: ٣٠] والفاء الأولى لتعليق الجملة الشرطية بما قبلها والهمزة لإنكار مضمونها وهي في الحقيقة لإنكار جزائها أعني ما بعد الفاء الثانية. وزعم يونس أن تلك الجملة مصب الإنكار والشرط معترض بينهما وجوابه محذوف تدل عليه الجملة وليس بذاك، ويتضمن إنكار ما ذكر إنكار ما هو مدار له وجوداً وعدماً من شماتتهم بموته ﷺ كأنه قيل أفإن مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك، وفي معنى ذلك قول الإمام الشافعي عليه الرحمة:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تزود لأخرى مثلها فكأن قد

وقول ذي الإصبع العدواني:

إذا ما الدهر جر على أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

وذكر العلامة الطيبي ونقله صاحب الكشف بأدنى زيادة أن هذا رجوع إلى ما سيق له السورة الكريمة من حيث النبوة ليتخلص منه إلى تقرير مشرع آخر، وذلك لأنه تعالى لما أفحم القائلين باتخاذ الولد والمتخذين له سبحانه شركاء وبكتهم ذكر ما يدل على إفحامهم وهو قوله تعالى: ﴿أفإن﴾ إلخ لأن الخصم إذا لم يبق له متشبث تمنى هلاك خصمه.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ برهان على ما أنكر من خلودهم وفيه تأكيد لقوله سبحانه: ﴿وما جعلنا﴾ إلخ، والموت عند الشيخ الأشعري كيفية وجودية تضاد الحياة، وعند الإسفرايني وعزي للأكثرين أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل فيكون عدم تلك الحياة كما في العمى الطارىء على البصر لا مطلق العمى فلا يلزم كون عدم الحياة عن الجنين عند استعداده للحياة موتاً، وقيل عدم الحياة عما من شأنه الحياة مطلقاً فيلزم ذلك ولا ضير لقوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ [البقرة: ٢٨] واستدل الأشعري على كونه وجودياً بقوله تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ [الملك: ٢] فإن الخلق هو الإيجاد والإخراج من العدم وبأنه جائز والجائز لا بد له من فاعل والعدم لايفعل. وأجيب عن الأول بأنه يجوز أن يكون بمعنى التقدير وهو أعم من الإيجاد ولو سلم كونه بمعنى الإيجاد فيجوز أن يراد بخلق الموت إيجاد أسبابه أو يقدر المضاف وهو غير عزيز في الكلام، وعن الأستاذ أن المراد بالموت الآخرة والحياة الدنيا لما روي عن ابن عباس تفسيرهما بذلك، وعن الثاني بأن الفاعل قد يريد العدم كما يريد الحياة فالفاعل يعدم الحياة كما يعدم البصر مثلاً.

وقال اللقاني: الظاهر قاض بما عليه الأشعري والعدول عن الظاهر من غير داع غير مرضي عند العدول، وكلامه صرح في أنه عرض وتوقف بعض العلماء القائلين بأنه وجودي في أنه جوهر أو عرض لما أن في بعض الأحاديث أنه

معنى خلقه الله تعالى في كف ملك الموت، وفي بعضها أن الله تعالى خلقه على صورة كبش لا يمر بشيء يجد ريحه إلا مات، وجل عبارات العلماء أنه عرض يعقب الحياة أو فساد بنية الحيوان، والأول غير مانع والثاني رسم بالثمرة، وقريب منه ما قاله بعض الأفاضل: إنه تعطل القوى لانطفاء الحرارة الغريزية التي هي آلتها فإن كان ذلك لانطفاء الرطوبة الغريزية فهو الموت الطبيعي وإلا فهو الغير الطبيعي، والناس لا يعرفون من الموت إلا انقطاع تعلق الروح بالبدن التعلق المخصوص ومفارقتها إياه، والمراد بالنفس النفس الحيوانية وهي مطلقاً أعم من النفس الإنسانية كما أن الحيوان مطلقاً أعم من الإنسان.

والنفوس عند الفلاسفة ومن حذا حذوهم ثلاثة: النباتية والحيوانية والفلكية والنفس مقولة على الثلاثة بالاشتراك اللفظي على ما حكاه الإمام في الملخص عن المحققين. وبالاشتراك المعنوي على ما يقتضيه كلام الشيخ في الشفاء، وتحقيق ذلك في محله، وإرادة ما يشمل الجميع هنا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه، وقال بعضهم: المراد بها النفس الإنسانية لأن الكلام مسوق لنفي خلود البشر، واختير عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر أنواع الحيوان ولا يضر ذلك بالسوق بل هو أنفع فيه، ولا شك في موت كل من أفراد تلك الأنواع نعم اختلف في أنه هل يصح إرادة عمومها بحيث تشمل نفس كل حي كالملك وغيره أم لا بناء على الاختلاف في موت الملائكة عليهم السلام والحور العين فقال بعضهم: إن الكل يموتون ولو لحظة لقوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨] وقال بعضهم: إنهم لا يموتون لدلالة بعض الأخبار على ذلك، والمراد من كل نفس النفوس الأرضية والآية التي استدل بها مؤولة بما ستعلمه إن شاء الله تعالى إلى وهم داخلون في المستثنى في قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ [الزمر: ٦٨] أولاً يسلم أن كل صعق موت، وقال بعضهم: إن الملائكة يموتون والحور لا تموت، وقال آخرون: إن بعض الملائكة عليهم السلام يموتون وبعضهم لا يموت كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل عليهم السلام ورجح قول البعض، ولا يرد أن الموت يقتضي مفارقة الروح البدن والملائكة عليهم السلام لا أبدان لهم لأن القائل بموتهم يقول بأن لهم أبداناً لكنها لطيفة كما هو الحق الذي دلت عليه النصوص، وربما يمنع اقتضاء الموت البدن.

وبالغ بعضهم فادعى أن النفوس أنفسها تموت بعد مفارقتها للبدن وإن لم تكن بعد المفارقة ذات بدن، وكأنه يلتزم تفسير الموت بالعدم والاضمحلال، والحق أنها لا تموت سواء فسر الموت بما ذكر أم لا، وقد أشار أحمد بن الحسين الكندي إلى هذا الاختلاف بقوله:

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف في شجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب

وذهب الإمام إلى العموم في الآية إلا أنه قال: هو مخصوص فإن له تعالى نفساً كما قال سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ [المائدة: ١١٦] مع أن الموت مستحيل عليه سبحانه، وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت، ثم قال: والعام المخصوص حجة فيبقى معمولاً به على ظاهره فيما عدا ما أخرج منه، وذلك يبطل قول الفلاسفة في الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية إنها لا تموت اهـ، وفيه أنه إن أراد بالنفس الجوهر المتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصريف كما قاله الفلاسفة ومن وافقهم أو الجسم النوراني الخفيف الحي المتحرك النافذ في الأعضاء الساري فيها سريان ماء الورد كما عليه جمهور المحدثين وذكر له ابن القيم مائة دليل فالله تعالى منزه عن ذلك أصلاً.

وكذا الجمادات لا تتصف بها على الشائع، وأيضاً ليس للأرواح البشرية والعقول المفارقة عند الفلاسفة نفساً بأحد ذينك المعنيين فكيف يبطل بالآية الكريمة قولهم، وإن أراد بها الذات كما هو أحد معانيها جاز أن تثبت لله تعالى وقد قيل به في الآية التي ذكرها، وكذا هي ثابتة للجمادات لكن يرد عليه أنه إن أراد بالموت مفارقة الروح للبدن أو نحو ذلك يبطل قوله وذلك يبطل الخ لأن الأرواح والعقول المذكورة لا أبدان لها عند الفلاسفة فلايتصور فيها الموت بذلك المعنى، وإن أراد به العدم والاضمحلال يرد عليه أن الجمادات تتصف به فلا يصح قوله وهي لا تموت، وبالجملة لا يخفى على المتذكر أن الإمام سها في هذا المقام، ثم إن معنى كون النفس ذائقة الموت أنها تلابسه على وجه تتألم به أو تلتذ من حيث إنها تخلص به من مضيق الدنيا الدنيئة إلى عالم الملكوت وحظائر القدس كذا قيل.

والظاهر أن كل نفس تتألم بالموت لكن ذلك مختلف شدة وضعفاً، وفي الحديث «إن للموت سكرات» ولا يلزم من التخلص المذكور لبعض الناس عدم التألم، ولعل في اختيار الذوق إيماء إلى ذلك لمن له ذوق فإن أكثر ما جاء في العذاب، وقال الإمام: إن الذوق إدراك خاص وهو ها هنا مجاز عن أصل الإدراك ولا يمكن إجراؤه على ظاهره لأن الموت ليس من جنس الطعام حتى يذاق، وذكر أن المراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة لأنه قيل دخوله في الوجود ممتنع الإدرك وحال وجوده يصير الشخص ميتاً والميت لا يدرك، وتعقب بأن المدرك النفس المفارقة وتدرك ألم مفارقتها البدن ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ الخطاب إما للناس كافة بطريق التلوين أو للكفرة بطريق الالتفات أي نعاملكم معاملة من يختبركم ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ بالمكروه والمحبوب هل تصبرون وتشكرون أو لا.

وتفسير الشر والخير بما ذكر مروي عن ابن زيد، وروي عن ابن عباس أنهما الشدة والرخاء، وقال الضحاك: الفقر والمرض والغنى والصحة، والتعميم أولى، وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم أو لأنه ألصق بالموت المذكور قبله، وذكر الراغب أن اختيار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا فالمنحة والمحنة جميعاً بلاء فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فالمحنة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر رضي الله تعالى عنه: بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر، ولهذا قال علي كرم الله تعالى وجهه: من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله اهـ، ولعله يعلم منه وجه لتقديم الشر ﴿فِتْنَةً﴾ أي ابتلاء فهو مصدر مؤكد لنبلوكم على غير لفظه.

وجوز أن يكون مفعولاً له أو حالاً على معنى نبلوكم بالشر والخير لأجل إظهار جودتكم ورداءتكم أو مظهرين ذلك فتأمل ولا تغفل ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال، فهو على الأول من وجهي الخطاب وعد ووعيد وعلى الثاني منهما وعيد محض، وفي الآية إيماء إلى أن المراد من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب. وقرىء «يرجعون» بياء الغيبة على الالتفات ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي المشركون ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزواً به على معنى قصر معاملتهم معه ﷺ على اتخاذهم إياه عاملهم الله تعالى بعدله هزواً لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزواً كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزواً.

والظاهر أن جملة ﴿إن يتخذونك﴾ الخ جواب ﴿إذا﴾ ولم يحتج إلى الفاء كما لم يحتج جوابها المقترن بما إليها في قوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم﴾ [الجاثية: ٢٥] وهذا بخلاف جواب غير إذا من أدوات الشرط المقترن بما فإنه يلزم فيه الاقتران بالفاء نحو إن تزورنا فما نسيء إليك، وقيل الجواب محذوف وهو يقولون المحكي به قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿إن يتخذونك﴾ إلخ اعتراض وليس

بذاك، نعم لا بدّ من تقدير القول فيما ذكر وهو إما معطوف على جملة ﴿إن يتخذونك﴾ أو حال أي ويقولون أو قائلين والاستفهام للإنكار والتعجب ويفيدان أن المراد يذكر آلهتكم بسوء؛ وقد يكتفى بدلالة الحال عليه كما في قوله تعالى: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾ [الأنبياء: ٦٠] فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء وقد تحاشوا عن التصريح أدباً مع آلهتهم. وفي مجمع البيان تقول العرب ذكرت فلاناً أي عبته، وعليه قول عنترة:

لا تذكري مهري وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

انتهى؛ والإشارة مثلها في قوله:

هذا أبو الصقر فرداً في محاسنه ... من نسل شيبان بين الضال والسلم

فيكون في ذلك نوع بيان للاتخاذ هزواً، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ في حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر، والمعنى أنهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بالقرآن الذي أنزل رحمة كافرون فهم أحقاء بالعيب والإنكار، فالضمير الأول مبتدأ خبره ﴿كافرون﴾ وبه يتعلق ﴿بذكر﴾ وقدم رعاية للفاصلة وإضافته لامية، والضمير الثاني تأكيد لفظي للأول، والفصل بين العامل والمعمول بالمؤكد وبين المؤكِد والمؤكَد بالمعمول جائز، ويجوز أن يراد ﴿بذكر الرحمن﴾ توحيده على أن ذكر مصدر مضاف إلى المفعول أي وهم كافرون بتوحيد الرحمن المنعم عليهم بما يستدعي توحيده والإيمان به سبحانه، وأن يراد به عظته تعالى وإرشاده الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب على أنه مصدر مضاف إلى الفاعل، وقيل المراد بذكر الرحمن ذكره ﷺ هذا اللفظ وإطلاقه عليه تعالى، والراد بكفرهم به قولهم ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فهو مصدر مضاف إلى المفعول لا غير وليس بشيء كما لا يخفى.

وجعل الزمخشري الجملة حالاً من ضمير ﴿يتخذونك﴾ أي يتخذونك هزواً وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بذكر الرحمن. وسبب نزول الآية على ما أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه ﷺ مر على أبي سفيان. وأبي جهل وهما يتحدثان فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكر أن يكون لبني عبد مناف فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة وقال لأبي سفيان: أما أنك لم تقل ما قلت إلا حمية، وأنا أرى أن القلب لا يثلج لكون هذا سبباً للنزول والله تعالى أعلم.

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ
ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن
يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ
تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ

ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن
مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ
ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ
﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ
وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ
رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟
وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ
أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿خُلِقَ الإنْسَانُ من عَجَلٍ﴾ وهو طلب الشيء وتحريه قبل أوانه، والمراد بالإنسان جنسه جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من نفس العجل تزيلاً لما طبع عليه من الأخلاف منزلة ما طبع منه من الأركان إيذاناً بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه، وقال أبو عمرو وأبو عبيدة وقطرب: في ذلك قلب والتقدير خلق العجل من الإنسان على معنى أنه جعل من طبائعه وأخلاقه للزومه له، وبذلك قرأ عبد الله وهو قلب غير مقبول، وقد شاع في كلامهم مثل ذلك عند إرادة المبالغة فيقولون لمن لازم اللعب أنت من لعب، ومنه قوله:

وأنا لـمـا يـضـرب الـكـبـش ضـربـة … عـلـى رأسه يـلـقـي الـلـسـان مـن الـفـم

وقيل المراد بالإنسان النضر بن الحرث لأن الآية نزلت فيه حين استعجل العذاب بقوله ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر﴾ [الأنفال: ٣٢] الخ، وقال مجاهد. وسعيد ن جبير وعكرمة والسدي والضحاك ومقاتل والكلبي: المراد به آدم عليه السلام أراد أن يقوم قبل أن يتم نفخ الروح فيه وتصل إلى رجليه، وقيل خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة فلما أجري الروح في عينيه ولسانه ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وروي ذلك عن مجاهد، وقيل المراد أنه خلق بسرعة على غير ترتيب خلق بنيه حيث تدرج في خلقهم، وذكر ذلك لبيان أن خلقه كذلك من دواعي عجلته في الأمور، والأظهر إرادة الجنس وإن كان خلقه عليه السلام وما يقتضيه سارياً إلى أولاده وما تقدم في سبب النزول لا يأباه كما لا يخفى، وقيل العجل الطين بلغة حمير، وأنشد أبو عبيدة لبعضهم:

الـنـبـع فـي الـصـخـرة الـصـمـاء مـنـبـتـه … والـنـخـل مـنـبـتـه فـي الـمـاء والـعـجـل

واعترض بأنه لا تقريب لهذا المعنى ها هنا وقال الطيبي: يكون القصد عليه تحقير شأن جنس الإنسان تتميماً لمعنى التهديد في قوله تعالى: **﴿سَأُرِيكُمْ آياتي فَلاَ تَسْتَعْجِلُون﴾** والمعول عليه المعنى الأول، والخطاب للكفرة المستعجلين، والمراد بآياته تعالى نقماته عز وجل، والمراد بإراءتهم إياها إصابته تعالى إياهم بها، وتلك الإراءة في

الآخرة على ما يشير إليه ما بعد، وقيل فيها وفي الدنيا، والنهي عن استعجالهم إياه تعالى بالإتيان بها مع أن نفوسهم جبلت على العجلة ليمنعوها عما تريده وليس هذا من التكليف بما لا يطاق لأن الله تعالى أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها ويرجع هذا النهي إلى الأمر بالصبر، وقرأ مجاهد وحميد وابن مقسم «خُلِقَ الإِنْسَانَ» ببناء «خُلق» للفاعل ونصب «الإنسان».

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي وقت وقوع الساعة الموعود بها، وكانوا يقولون ذلك استعجالاً لمجيئه بطريق الاستهزاء والإنكار كما يرشد إليه الجواب لا طلباً لتعيين وقته بطريق الإلزام كما في سورة الملك، و ﴿متى﴾ في موضع رفع على أنه خبر لهذا.

ونقل عن بعض الكوفيين أنه في موضع نصب على الظرفية والعامل فيه فعل مقدر أي متى يأتي هذا الوعدُ ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنه يأتي؛ والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن إتيان الساعة، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه فإن قولهم ﴿متى هذا الوعد﴾ حيث كان استبطاء منهم للموعود وطلباً لإتيانه بطريق العجلة في قوة طلب إتيانه العجلة فكأنه قيل إن كنتم صادقين فليأتنا بسرعة، وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم بحسب المقام وإلا فكثيراً ما يفيد المضارع المنفي انتفاء الاستمرار، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على علة استعجالهم.

وقوله تعالى: ﴿حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوههِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورهِم﴾ مفعول ﴿يعلم﴾ على ما اختاره الزمخشري وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه، وإضافته إلى الجملة الجارية مجرى الصفة التي حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضاً مع إنكار الكفرة ذلك للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة إلى الإخبار به وإنما حقه الانتظام في سلك المسلمات المفروغ عنها، وجواب ﴿لو﴾ محذوف أي لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذي يستعجلونه بقولهم ﴿متى هذا الوعد﴾ وهو الوقت الذي تحيط بهم النار فيه من كل جانب، وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الإحاطة بهما للإحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على رفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من جهة الغير في دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال، وقدر الحوفي لسارعوا إلى الإيمان وبعضهم لعلموا صحة البعث وكلاهما ليس بشيء، وقيل إن ﴿لو﴾ للتمني لا جواب لها وهو كما ترى.

وجوز أن يكون ﴿يعلم﴾ متروك المفعول منزلاً منزلة اللازم أي لو كان لهم علم لما فعلوا ذلك، وقوله تعالى: ﴿حين﴾ الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره إلى ذلك الوقت كأنه قيل: حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال، وفي الكشف كأنه استئناف بياني وذلك أنه لما نفي العلم كان مظنة أن يسأل فأي وقت يعلمون؟ فأجيب حين لا ينفعهم، والظاهر كون ﴿حين﴾ الخ مفعولاً به ليعلم.

وقال أبو حيان: الذي يظهر أن مفعوله محذوف لدلالة ما قبله عليه أي لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود الذي سألوا عنه واستبطؤوه و ﴿حين﴾ منصوب بذلك المفعول وليس عندي بظاهر ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ عطف على ﴿لا يكفون﴾ وزعم ابن عطية أنه استدراك مقدر قبله نفي والتقدير إن الآيات لا تأتي بحسب اقتراحهم بل تأتيهم بغتة،

وقيل: إنه استدراك عن قوله تعالى: ﴿لو يعلم﴾ الخ وهو منفي معنى كأنه قيل: لا يعلمون ذلك بل تأتيهم الخ، وبينه وبين ما زعمه ابن عطية كما بين السماء الأرض. والمضمر في ﴿تأتيهم﴾ عائد على ﴿الوعد﴾ لتأويله بالعدة أو الموعدة أو الحين لتأويله بالساعة أو على ﴿النار﴾ واستظهره في البحر، ﴿بغتة﴾ أي فجأة مصدر في موضع الحال أو مفعول مطلق لتأتيهم وهو مصدر من غير لفظه ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تدهشهم وتحيرهم أو تغلبهم على أنه معنى كنائي.

وقرأ الأعمش «بل يأتيهم» بياء الغيبة «بَغَتَةً» بفتح الغين وهو لغة فيها، وقيل: إنه يجوز في كل ما عينه حرف حلق «فيبهتهم» بياء الغيبة أيضاً، فالضمير المستتر في كل من الفعلين للوعد أو للحين على ما قال الزمخشري.

وقال أبو الفضل الرازي: يحتمل أن يكون للنار بجعلها بمعنى العذاب ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ الضمير المجرور عائد على ما عاد عليه ضمير المؤنث فيما قبله، وقيل: على البغتة أي لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية ﴿وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين، وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا.

﴿وَلَقَد اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الخ تسلية لرسوله ﷺ عن استهزائهم بعد أن قضى الوطر من ذكر الأجوبة الحكمية عن مطاعنهم في النبوة وما أدمج فيها من المعاني التي هي لباب المقاصد وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قضى ما عليه من عهدة الإبلاغ وأنه المنصور في العاقبة ولهذا بدىء بذكر أجلة الأنبياء عليهم السلام للتأسي وختم بقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ [الأنبياء: ١٠٥] الخ، وتصدير ذلك بالقسم لزيادة تحقيق مضمونه، وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير، ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أي وبالله لقد استهزىء برسل أولى شأن خطير وذوي عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ﴿فَحَاقَ﴾ أي أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل إلا في الشر. والحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، وقيل: أصل حاق حق كزال وزل وذام وذم. وقوله تعالى: ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق. وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم، و ﴿مَا﴾إما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد عليها والجار متعلق بالفعل بعده وتقديمه لرعاية الفواصل أي فأحاط بهم الذي كانوا يستهزؤون به حيث أهلكوا لأجله. وإما مصدرية فالضمير راجع إلى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا. ولعل إيثار الأفراد على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد منهم عليهم السلام لأجزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو فقط أي فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب إيذاناً بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم إن أريد بذلك العذاب الأخروي بناء على ظهور الأعمال في النشأة الأخروية بصور مناسبة لها في الحسن والقبح ﴿قُلْ﴾ أمر له ﷺ أن يسأل أولئك المستهزئين سؤال تقريع وتنبيه كيلا يغتروا بما غشيهم من نعم الله تعالى ويقول ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ أي يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي من بأسه بقرينة الحفظ، وتقديم الليل لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً. وفي التعرض لعنوان الرحمانية تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته تعالى وتلقين للجواب كما قيل في قوله تعالى: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ [الانفطار: ٦] وقيل إن ذلك إيماء إلى أن بأسه تعالى إذا أراد شديد أليم ولذا يقال نعوذ بالله عز وجل من غضب الحليم وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته ودلالة على شدة خبثهم.

وقرأ أبو جعفر والزهري وشيبة «يكلُوكُم» بضمة خفيفة من غير همز، وحكى الكسائي والفراء «يَكْلَوْكُم» بفتح اللام وإسكان الواو، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ إضراب عن ذلك تسجيلاً عليهم بأنهم ليسوا

من أهل السماع وأنهم قوم ألهتهم النعم عن المنعم فلا يذكرونه عز وجل حتى يخافوا بأسه أو يعدوا ما كانوا فيه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ليسألوا عن الكالىء على طريقة قوله:

عوجوا فحيوا لنعمى دمنة الدار ماذا تحيون من نوء وأحجار

وفيه أنهم مستمرون على الأعراض ذكروا ونبهوا أولاً، وفي تعليق الأعراض بذكره تعالى وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبىء عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصية من الضلالة والغي ما لا يخفى، وقيل إنه إضراب عن مقدر أي إنهم غير غافلين عن الله تعالى حتى لا يجدي السؤال عنه سبحانه كيف وهم إنما اتخذوا الآلهة وعبدوها لتشفع لهم عنده تعالى وتقربهم إليه زلفى بل هم معرضون عن ذكره عز وجل فالتذكير يناسبهم، وهذا مع ظهوره من مساق الكلام ووضوح انطباقه على مقتضى المقام قد خفي عن الناظرين وغفلوا عنه أجمعين اهـ.

وتعقب بأن السياق لتجهيلهم والتسجيل عليهم بأنهم إذا ذكروا لا يذكرون ألا يرى قوله تعالى: ﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ [الأنبياء: ٤٥] وما ذكر يقتضي العكس لتضمنه وصفهم بإجداء الإنذار والدعاء مع أن قوله غير غافلين مناف لما يدل عليه النظم الكريم فالحق ما تقدم، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ إعراض عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظ إليها، فأم منقطعة مقدرة ببل والهمزة و ﴿لهم﴾ خبر مقدم و ﴿آلهة﴾ مبتدأ وجملة ﴿تمنعهم﴾ صفته و ﴿من دوننا﴾ قيل صفة بعد صفة أي بل ألهم آلهة مانعة لهم متجاوزة منعنا أو حفظنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن في الكلام تقديماً وتأخيراً والأصل أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم، وعليه يكون ﴿من دوننا﴾ صفة أيضاً، وقال الحوفي: إنه متعلق بتمنعهم أي بل ألهم آلهة تمنعهم من عذاب من عندنا، والاستفهام لإنكار أن يكون لهم آلهة كذلك، وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر لا إلى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلاً عن رتبة المنع ما لا يخفى.

وقال بعض الأجلة: إن الإضراب الذي تضمنته ﴿أم﴾ عائد على الأمر بالسؤال كالإضراب السابق لكنه أبلغ منه من حيث إن سؤال الغافل عن الشيء بعيد وسؤال المعتقد لنقيضه أبعد، وفهم منه بعضهم أن الهمزة عليه للتقرير بما في زعم الكفرة تهكماً.

وتعقب أنه ليس بمتعين فيجوز أن يكون للإنكار لا بمعنى أنه لم يكن منهم زعم ذلك بل بمعنى أنه لم كان مثله مما لا حقيقة له، والأظهر عندي جعله عائداً على الوصف بالإعراض كما سمعت أولاً، وفي الكشف ضمن الإعراض عن وصفهم بالإعراض إنكاره أبلغ الإنكار بأنهم في إعراضهم عن ذكره تعالى كمن له كالىء يمنعه عن بأسنا معرضاً فيه بجانب آلهتهم وأنهم أعرضوا عنه تعالى واشتغلوا بهم ولهذا رشح بما بعد كأنه قيل دع حديث الإعراض وانظر إلى من أعرضوا عن ربهم سبحانه إليه فإن هذا أطم وأطم فتأمله فإنه دقيق.

وقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الإنكار أي لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ويدفعوا عنها ما ينزل بها ولا هم منا يصحبون بنصر أو بمن يدفع عنهم ذلك من جهتنا فهم في غاية العجز وغير معتنى بهم فكيف يتوهم فيهم ما يتوهم، فالضمائر للآلهة بتنزيلهم منزلة العقلاء وروي عن قتادة، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها للكفرة على معنى لا يستطيع الكفار نصر أنفسهم بآلهتهم ولا يصحبهم

نصر من جهتنا، والأول أولى بالمقام وإن كان هذا أبعد عن التفكيك، و ﴿منا﴾ على القولين يحتمل أن يتعلق بالفعل بعده وأن يتعلق بمقدر وقع صفة لمحذوف.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِم الْعُمُرُ﴾ الخ إضراب على ما في الكشف عن الضرب السابق من الكلام إلى وعيدهم وأنهم من أهل الاستدراج وأخرجهم عن الخطاب عدم مبالاة بهم، وفي العدول إلى الإشارة عن الضمير إشارة إلى تحقيرهم، وفي غير كتاب إنه إضراب عما توهموه من أن ما هم فيه من الكلاءة من جهة أن لهم آلهة تمنعهم من تطرق البأس إليهم كأنه قيل دع ما زعموا من كونهم محفوظين بكلاءة آلهتهم بل ما هم فيه من الحفظ منا لا غير حفظناهم من البأساء ومتعناهم بأنواع السراء لكونهم من أهل الاستدراج والانهماك فيما يؤديهم إلى العذاب الأليم.

ويحتمل أن يكون إضراباً عما يدل عليه الاستئناف السابق من بطلان توهمهم كأنه قيل دع ما يبين بطلان توهمهم من أن يكون لهم آلهة تمنعهم واعلم أنهم إنما وقعوا في ورطة ذلك التوهم الباطل بسبب أنا متعناهم بما يشتهون حتى طالت مدة عمارة أبدانهم بالحياة فحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا وأعرضوا عن الحق واتبعوا ما سولت لهم أنفسهم وذلك طمع فارغ وأمل كاذب ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ﴾ أي ألا ينظرون فلا يرون ﴿أَنَا نأْتي الأَرْضَ﴾ أي أرض الكفرة أو أرضهم ﴿نَنقُصُهَا من أَطْرَافِهَا﴾ بتسليط المسلمين عليها وحوز ما يحوزونه منها ونظمه في سلك ملكهم، والعدول عن أنا ننقص الأرض من أطرافها إلى ما في النظم الجليل لتصوير كيفية نقصها وانتزاعها من أيديهم فإنه بإتيان جيوش المسلمين واستيلائهم، وكان الأصل يأتي جيوش المسلمين لكنه أسند الإتيان إليه عز وجل تعظيماً لهم وإشارة إلى أنه بقدرته تعالى ورضاه، وفيه تعظيم للجهاد والمجاهدين.

والآية كما قدمنا أول السورة مدنية وهي نازلة بعد فرض الجهاد فلا يرد أن السورة مكية والجهاد فرض بعدها حتى يقال: إن ذلك إخبار عن المستقبل أو يقال: إن المراد ننقصها بإذهاب بركتها كما جاء في رواية عن ابن عباس أو بتخريب قراها وموت أهلها كما روي عن عكرمة، وقيل ننقصها بموت العلماء وهذا إن صح عن رسول الله ﷺ فلا معدل عنه وإلا فالأظهر نظراً إلى المقام ما تقدم ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على رسول الله ﷺ والمؤمنين. والمراد إنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المؤمنين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم، وفي التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ﴾ بعدما بيّن من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند إتيانه ونعي عليهم جهلهم بذلك وإعراضهم عن ذكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار وغير ذلك من مساويهم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم: إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿بِالْوَحْيِ﴾ الصادق الناطق بإثباتها وفظاعة ما فيها من الأهوال أي إنما شأني أن أنذركم بالإخبار بذلك لا بالإتيان بها فإنه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية فإن الإيمان برهان لأعياني.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ إما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر ﷺ بأن يقوله لهم توبيخاً وتقريعاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهل والعناد، وإما من جهته تعالى على طريقة قوله سبحانه: ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ كأنه قيل قل لهم ذلك وهم بمعزل عن السماع، واللام في الصم إما للجنس المنتظم لهؤلاء الكفرة انتظاماً أولياً وإما للعهد فوضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالتصامم، وتقييد نفي السماع بقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ مع أن الصم لا يسمعون مطلقاً لبيان كمال شدة الصمم كما أن إيثار الدعاء الذي هو

عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك، فإن الإنذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه فإذا لم يسمعوها يكن صممهم في غاية لم يسمع بمثلها، وقيل لأن الكلام في الإنذار ألا ترى قوله تعالى: ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ وفيه دغدغة لا تخفى.

وقرأ ابن عامر وابن جبير عن أبي عمرو وابن الصلت عن حفص «تَسْمِعُ» بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ من الأسماع «الصمَّ الدعاءَ» بنصبهما على المفعولية، وهذه القراءة تؤيد احتمال كون الجملة من جهته تعالى وقرىء «يسمع» بالياء على الغيبة وإسناد الفعل إلى ضميره ﷺ «الصم الدعاء» بنصبهما على ما مر. وذكر ابن خالويه أنه قرىء «يسمع» مبنياً للمفعول «الصم» بالرفع على النيابة عن الفاعل «الدعاء» بالنصب على المفعولية. وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي عن اليزيدي عن أبي عمرو «يَسْمِعُ» بضم ياء الغيبة وكسر الميم «الصمَّ» بالنصب على المفعولية «الدعاءُ» بالرفع على الفاعلية يسمع، وإسناد الأسماع إليه من باب الاتساع والمفعول الثاني محذوف كأنه قيل ولا يسمع الصم الدعاء شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ بيان لسرعة تأثرهم من مجيء نفس العذاب إثر بيان عدم تأثرهم من مجيء خبره على نهج التوكيد القسمي أي وبالله لئن مسهم أدنى شيء من عذابه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ليدعن على أنفسهم با لويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم السابق، وفي ﴿مستهم نفحة﴾ ثلاث مبالغات كما قال الزمخشري وهي كما في الكشف ذكر المس وهو دون النفوذ ويكفي في تحققه إيصال ما، وما في النفح من معنى النزارة فإن أصله هبوب رائحة الشيء ويقال نفحته الدابة ضربته بحد حافرها ونفحه بعطية رضخه وأعطاه يسيراً، وبناء المرة وهي لأقل ما ينطلق عليه الاسم، وجعل السكاكي التنكير رابعتها لما يفيده من التحقير، واستفادة ذلك إن سلمت من بناء المرة ونفس الكلمة لا يعكر عليه كما زعم صاحب الإيضاح.

واعترض بعضهم المبالغة في المس بأنه أقوى من الإصابة لما فيه من الدلالة على تأثر حاسة الممسوس ومما ذكر في الكشف يعلم اندفاعه لمن مسته نفحة عناية، ولعل في الآية مبالغة خامسة تظهر بالتأمل؛ ثم الظاهر أن هذا المس يوم القيامة كما رمزنا إليه، وقيل في الدنيا بناء على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من تفسير النفحة بالجوع الذي نزل بمكة؛ وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه.

وجعل الطيبي الجملة حالاً من الضمير في ﴿ليقولن﴾ بتقدير ونحن نضع، وهي في الخلو عن العائد نحو جئتك والشمس طالعة، ويجوز أن يقال: أقيم العموم في ﴿نفس﴾ الآتي بعد مقام العائد وهو كما ترى أي ونحضر الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الأعمال كما يقضي بذلك حديث السجلات والبطاقة التي ذكره مسلم وغيره أو نفس الأعمال كما قيل، وتظهر بصور جوهرية مشرقة إن كانت حسنات ومظلمة إن كانت سيئات، وجمع الموازين ظاهر في تعدد الميزان حقيقة وقد قيل به فقيل لكل أمة ميزان، وقيل لكل مكلف ميزان، وقيل للمؤمن موازين بعد خيراته وأنواع حسناته، والأصح اشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال كفّتاه كأطباق السموات، والأرض لصحة الأخبار بذلك، والتعدد اعتباري وقد يعبر عن الواحد بما يدل على الجمع للتعظيم كقوله تعالى: ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً﴾ [المؤمنون: ٩٩] وقوله فارحموني يا إله محمّد، وإحضار ذلك تجاه العرش بين الجنة والنار ويأخذ جبريل عليه السلام بعموده ناظراً إلى لسانه وميكائيل عليه السلام أمين عليه كما في نوادر الأصول، وهل هو مخلوق اليوم أو سيخلق غداً؟.

قال اللقاني: لم أقف على نص في ذلك كما لم أقف على نص في أنه من أي الجواهر هو اهـ، وما روي من أن داود عليه السلام سأل ربه سبحانه أن يريه الميزان فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال: يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ

كفته حسنات؟ فقال تعالى: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة نص في أنه مخلوق اليوم لكن لا أدري حال الحديث فلينقر.

وأنكر المعتزلة الميزان بالمعنى الحقيقي وقالوا: يجب أن يحمل ما ورد في القرآن من ذلك على رعاية العدل والإنصاف، ووضع الموازين عندهم تمثيل لأرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال، وروي هذا عن الضحاك وقتادة ومجاهد والأعمش ولا داعي إلى العدول عن الظاهر، وأفراد القسط مع كونه صفة الجمع لأنه مصدر ووصف به مبالغة، ويجوز أن يكون على حذف مضاف أي ذوات القسط، وجوز أبو حيان أن يكون مفعولاً لأجله نحو قوله:

لا أقعد الجبن عن الهيجاء

وحينئذ يستغني عن توجيه أفراده. وقرىء «القصط» بالصاد، واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بمعنى في كما نص عليه ابن مالك وأنشد لمجيئها كذلك قول مسكين الدارمي:

أولئك قومي قد مضوا لسبيلهم ... كما مضى من قبل عاد وتبع

وهو مذهب الكوفيين ووافقهم ابن قتيبة أي نضع الموازين في يوم القيامة التي كانوا يستجعلونها؛ وقال غير واحد: هي للتعليل أي لأجل حساب يوم القيامة أو لأجل أهله وجعلها بعضهم للاختصاص كما هو أحد احتمالين في قولك جئت لخمس ليال خلون من الشهر، والمشهور فيه وهو الاحتمال الثاني أن اللام بمعنى في: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿شَيْئًا﴾ من الظلم فلا ينقص ثوابها الموعود ولا يزاد عذابها المعهود. فالشيء منصوب على المصدرية والظلم هو بمعناه المشهور.

وجوّز أن يكون ﴿شيئاً﴾ مفعولاً به على الحذف والإيصال والظلم بحالة أي فلا تظلم في شيء بأن تمنع ثواباً أو تزاد عذاباً، وبعضهم فسر الظلم بالنقص وجوّز في ﴿شيئاً﴾ المصدرية والمفعولية من غير اعتبار الحذف والإيصال أي فلا تنقص شيئاً من النقص أو شيئاً من الثواب، ويفهم عدم الزيادة في العقاب من إشارة النص واللزوم المتعارف، واختير ما لا يحتاج فيه إلى الإشارة واللزوم، والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين.

وربما يفهم من ذلك أن كل أحد من توزن أعماله، وقال القرطبي: الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل الحديث الصحيح فيقال: يا محمد أدخل الجنة من امتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن الحديث وأحرى الأنبياء عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ [الرحمن: ٤١] وقوله تعالى: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وقوله سبحانه: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]. وإنما يبقى الوزن لمن شاء الله سبحانه من الفريقين.

وذكر القاضي منذر بن سعيد البلوطي أن أهل الصبر لا توزن أعمالهم وإنما يصب لهم الأجر صباً، وظواهر أكثر الآيات والأحاديث تقتضي وزن أعمال الكفار، وأول لها ما اقتضى ظاهره خلاف ذلك وهو قليل بالنسبة إليها، وعندي لا قاطع في عموم الوزن وأميل إلى عدم العموم، ثم إنه كما اختلف في عمومه بالنسبة إلى أفراد الأنس اختلف في عمومه بالنسبة إلى نوعي الإنس والجن، والحق أن مؤمني الجن كمؤمني الإنس وكافرهم ككافرهم كما بحثه القرطبي واستنبطه من عدة آيات، وبسط اللقاني القول في ذلك في شرحه الكبير للجوهرة، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان الخلاف في كيفية الوزن ﴿وَإِن كَانَ﴾ أي العمل المدلول عليه بوضع الموازين، وقيل الضمير راجع لشيئاً بناء على أن المعنى فلا تظلم جزاء عمل من الأعمال ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي مقدار حبة كائنة من خردل فالجار والمجرور

متعلق بمحذوف وقع صفة لحبة، وجوز أن يكون صفة لمثقال والأول أقرب، والمراد وإن كان في غاية القلة والحقارة فإن حبة الخردل مثل في الصغر.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما، وأبو جعفر وشيبة ونافع «مثقالُ» بالرفع على أن كان تامة ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي جئنا بها وبه قرأ أبي، والمراد أحضرناها، فالباء للتعدية والضمير للمثقال وأن لاكتساب التأنيث من المضاف إليه والجملة جواب إن الشرطية، وجوز أن تكون إن وصلية والجملة مستأنفة وهو خلاف الظاهر. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن جبير وابن أبي إسحق والعلاء بن سيابة وجعفر بن محمد وابن شريح الأصبهاني «آتينا» بمدة على أنه مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه تعالى بالأعمال وأتاهم بالجزاء، وقيل هو من الإيتاء وأصله أأتينا فأبدلت الهمزة الثانية ألفاً، والمراد جازينا أيضاً مجازاً ولذا عدي بالباء ولو كان المراد أعطينا كما قال بعضهم لتعدي بنفسه كما قال ابن جني وغيره. وقرأ حميد «أثبنا» من الثواب ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ قيل أي عادين ومحصين أعمالهم على أنه من الحساب مراداً به معناه اللغوي وهو العد وروي ذلك عن السدي، وجوز أن يكون كناية عن المجازاة. وذكر اللقاني أن لحساب في عرف الشرع توقيف الله تعالى عباده إلا من استثني منهم قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شراً تفصيلاً لا بالوزن، وأنه كما ذكر الواحدي وغيره وجزم به صاحب كنز الأسرار قبل الوزن، ولا يخفى أن في الآية إشارة ما إلى أن الحساب المذكور فيها بعد وضع الموازين فتأمل، ونصب الوصف إما على أنه تمييز أو على أنه حال واستظهر الأول في البحر.

هذا «ومن باب الإشارة في الآيات» ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ الخ فيه إشارة إلى سوء حال المحجوبين بحب الدنيا عن الاستعداد للأخرى فغفلوا عن إصلاح أمرهم وأعرضوا عن طاعة ربهم وغدت قلوبهم عن الذكر لاهية وعن التفكر في جلاله وجماله سبحانه ساهية، وفي قوله تعالى: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ إشارة إلى سوء حال بعض المنكرين على أولياء الله تعالى فإن نفوسهم الخبيثة الشيطانية تأبى اتباعهم لما يرون من المشاركة في العوارض البشرية ﴿وكم قصمنا قبلهم من قرية كانت ظالمة﴾ فيه إشارة إلى أن في الظلم خراب العمران فمتى ظلم الإنسان خرب قلبه وجر ذلك إلى خراب بدنه وهلاكه بالعذاب، وفي قوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ إشارة إلى أن مداومة الذكر سبب لانجلاء الظلمة عن القلب وتطهره من دنس الأغيار بحيث لا يبقى فيه سواه سبحانه ديار ﴿ومن عنده﴾ قيل هم الكاملون الذين في الحضرة فإنهم لا يتحركون ولا يسكنون إلا مع الحضور ولا تشق عليهم عبادة ولا تلهيهم عنه تعالى تجارة بواطنهم مع الحق وظواهرهم مع الخلق أنفاسهم تسبيح وتقديس وهو سبحانه لهم خير أنيس، وفي قوله تعالى: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ إشارة إلى أن الكامل لا يختار شيئاً بل شأنه التفويض والجريان تحت مجاري الأقدار مع طيب النفس، ومن هنا قيل إن القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره وغمرنا بره لم يتوفَّ حتى ترقى عن مقام الإدلال إلى التفويض المحض، وقد نص على ذلك الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه الجواهر واليواقيت ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ قد تقدم مافيه من الإشارة ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ قال الجنيد قدس سره: من كانت حياته بروحه يكون مماته بذهابها ومن كانت حياته بربه تعالى فإنه ينقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل وهي الحياة على الحقيقة ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ قيل أي بالقهر واللطف والفراق والوصال والإدبار والإقبال والجهل والعلم إلى غير ذلك، ولا يخفى أنه كثيراً ما يمتحن السالك بالقبض والبسط فينبغي له التثبت في كل عما يحطه عن درجته، ولعل فتنة البسط أشد من فتنة القبض فليتحفظ هناك أشد تحفظ ﴿ونضع

الموازين القسط ليوم القيامة﴾ قال بعض الصوفية: الموازين متعددة فللعاشقين ميزان وللوالهين ميزان وللعاملين ميزان وهكذا، ومن ذلك ميزان للعارفين توزن به أنفاسهم ولا يزن نفساً منها السموات والأرض.

وذكروا أن في الدنيا موازين أيضاً أعظم موازينها الشريعة وكفتا الكتاب والسنة، ولعمري لقد عطل هذا الميزان متصوفة هذا الزمان أعاذنا الله تعالى والمسلمين مما هم عليه من الضلال إنه عز وجل المتفضل بأنواع الأفضال.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وضِيَاءً وذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: **﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾** إلى قوله سبحانه: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ٩] وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم، وتصديره بالتوكيد القسمي لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه، والمراد بالفرقان التوراة وكذا بالضياء والذكر، والعطف كما في قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

ونقل الطيبي أنه أدخل الواو على ﴿ضياء﴾ وإن كان صفة في المعنى دون اللفظ كما يدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً كقوله تعالى: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ [الأنفال: ٤٩، الأحزاب: ١٢] وقال سيبويه: إذا قلت مررت بزيد وصاحبك جاز وإن قلت مررت بزيد فصاحبك بالفاء لم يجز كما جاز بالواو لأن الفاء تقتضي التعقب وتأخير الاسم عن المعطوف عليه بخلاف الواو، وأما قول القائل:

يا لهف زيابة للحارث الصا ... بح فالغانم فالآيب

فإنما ذكر بالفاء وجاد لأنه ليس بصفة على ذلك الحد لأن أل بمعنى الذي أي فالذي صبح فالذي غنم فالذي آب، وأبو الحسن يجيز المسألة بالفاء كما يجيزها بالواو انتهى، والمعنى وبالله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل وضياء يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية وذكراً يتعظ به الناس ويتذكرون، وتخصيص للمتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به أو ذكر ما يحتاجون به من الشرائع والأحكام أو شرف لهم.

وقيل: الفرقان النصر كما في قوله تعالى: ﴿يوم الفرقان﴾ [الأنفال: ٤١] وأطلق عليه لفرقه بين الولي والعدو وجاء ذلك في رواية عن ابن عباس، والضياء حينئذٍ إما التوراة أو الشريعة أو اليد البيضاء. والذكر بأحد المعاني المذكورة.

وعن الضحاك أن الفرقان فلق البحر والفرق والفلق اخوان، وإلى الأول ذهب مجاهد وقتادة وهو اللائق بمساق النظم الكريم فإنه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الإلهية لا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولأن فلق البحر هو الذي اقترح الكفرة مثله بقولهم: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ [الأنبياء: ٥].

وقرأ ابن عباس وعكرمة والضحاك «ضياء» بغير واو على أنه حال من «الفرقان» وهذه القراءة تؤيد أيضاً التفسير الأول، وقوله تعالى: **﴿الَّذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾** مجرور المحل على أنه صفة مادحة المتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح، والمراد على كل تقدير يخشون عذاب ربهم. وقوله سبحانه **﴿بِالْغَيْبِ﴾** حال من المفعول أي يخشون ذلك وهو غائب عنهم غير مرئي لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه.

وقال الزجاج: حال من الفاعل أي يخشونه غائبين عن أعين الناس ورجحه ابن عطية. وقيل: يخشونه بقلوبهم **﴿وَهُمْ منَ السَّاعَة مُشْفقُونَ﴾** أي خائفون بطريق الاعتناء، والجملة تحتمل العطف على الصلة وتحتمل الاستئناف، وتقديم الجار لرعاية الفواصل، وتخصيص إشفاقهم من الساعة بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان

بكونها معظم المخلوقات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على أن حالتهم فيما يتعلق بالآخرة الإشفاق الدائم ﴿وَهَذَا﴾ أي القرآن الكريم أشير إليه بهذا للإيذان بسهولة تناوله ووضوح أمره، وقيل: لقرب زمانه ﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكر به من تذكر وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر في صدر السورة الكريمة مع انطواء جميع ما تقدم في وصفه بقوله سبحانه: ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي كثير الخير غزير النفع؛ ولقد عاد علينا والله تعالى الحمد من بركته ما عاد.

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ إما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر لهذا، وفيه على التقديرين من تعظيم أمر القرآن الكريم ما فيه ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ إنكار لإنكارهم بعد ظهور كونه كالتوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة أنتم منكرون لكونه منزلاً من عندنا فإن ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له أصلاً وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل أو للحصر لأنهم معترفون بغيره مما في أيدي أهل الكتاب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهوالرشد الكامل أعني الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلهية؛ وقيل: الصحف، وقيل: الحكمة، وقيل: التوفيق للخير صغيراً، واختار بعضهم التعميم.

وقرأ عيسى الثقفي «رَشَدَهُ» بفتح الراء والشين وهما لغة كالحزن والحزن ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى وهارون، وقيل من قبل البلوغ حين خرج من السرب، وقيل من قبل أن يولد حين كان في صلب آدم عليه السلام، وقيل من قبل محمد ﷺ والأول مروي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم قال في الكشف: وهو الوجه الأوفق لفظاً ومعنى، أما الأول فللقرب، وأما الثاني فلأن ذكر الأنبياء عليهم السلام للتأسي، وكان القياس أن يذكر نوح ثم إبراهيم ثم موسى عليهم السلام لكن روعي في ذلك ترشيح التسلي والتأسي فقد ذكر موسى عليه السلام لأن حاله وما قاساه من قومه وكثرة آياته وتكاثف أمته أشبه بحال نبينا عليه الصلاة والسلام ثم ثنى بذكر إبراهيم عليه السلام، وقيل ﴿من قبل﴾ لهذا ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ونوحاً إذ نادى من قبل﴾ [الأنبياء: ٧٦] أي من قبل هؤلاء المذكورين، وقيل من قبل إبراهيم ولوط اهـ ﴿وَكُنَّا به عَالِمِينَ﴾ أي بأحواله وما فيه من الكمالات، وهذا كقولك في خير من الناس: أنا عالم بفلان فإنه من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل.

وجوز أن يكون هذا كناية عن حفظه تعالى إياه وعدم إضاعته، وقد قال عليه السلام يوم إلقائه في النار وقول جبريل عليه السلام له سل ربك: علمه بحالي يغني عن سؤالي وهو خلاف الظاهر ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ ظرف لآتينا على أنه وقت متسع وقع فيه الإيتاء وما يترتب عليه من أقواله وأفعاله، وجوّز أن يكون ظرفاً لرشد أو لعالمين، وأن يكون بدلاً من موضع ﴿من قبل﴾ وأن ينتصب بإضمار أعني أو أذكر، وبدأ بذكر الأب لأنه كان الأهم عنده عليه السلام وفي النصيحة والإنقاذ من الضلال.

والظاهر أنه عليه السلام قال له ولقومه مجتمعين: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أراد عليه السلام ما هذه الأصنام إلا أنه عبر عنها بالتماثيل تحقيراً لشأنها فإن التمثال الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى من مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به. وكانت على ما قيل صور الرجال يعتقدون فيهم وقد انقرضوا، وقيل كانت صور الكواكب صنعوها حسبما تخيلوا، وفي الإشارة إليها بما يشار به للقريب إشارة إلى التحقير أيضاً، والسؤال عنها بما التي يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم من باب تجاهل العارف كأنه لا يعرف أنها ماذا وإلا فهو عليه السلام محيط بأن حقيقتها حجر أو نحوه، والعكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له، وقيل اللزوم

والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض وهو على التفسيرين دون العبادة ففي اختياره عليها إيماء إلى تفظيع شأن العبادة غاية التفظيع، واللام في ﴿لها﴾ للبيان فهي متعلقة بمحذوف كما في قوله تعالى: ﴿للرؤيا تعبرون﴾ [يوسف: ٤٣] أو للتعليل فهي متعلقة بعاكفون وليست للتعدية لأن عكف إنما يتعدى بعلى كما في قوله تعالى: ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقد نزل الوصف هنا منزلة اللازم أي التي أنتم لها فاعلون العكوف.

واستظهر أبو حيان كونها للتعليل وصلة ﴿عاكفون﴾ محذوفة أي عاكفون على عبادتها، ويجوز أن تكون اللام بمعنى على كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وإن أسأتم فلها﴾ [الإسراء: ٧] وتتعلق حينئذ بعاكفون على أنها للتعدية.

وجوز أن يؤول العكوف بالعبادة فاللام حينئذٍ كما قيل دعامة لا معدية لتعديه بنفسه ورجح هذا الوجه بما بعد، وقيل لا يبعد أن تكون اللام للاختصاص والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً و ﴿عاكفون﴾ خبر بعد خبر، وأنت تعلم أنه نفي بعده مكابرة، ومن الناس من لم يرتض تأويل العكوف بالعبادة لما أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه مر على قوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفى خير له من أن يمسها، وفيه نظر لا يخفى، نعم لا يبعد أن يكون الأولى إبقاء العكوف على ظاهره، ومع ذلك المقصود بالذات الاستفسار عن سبب العبادة والتوبيخ عليها بألطف أسلوب ولما لم يجدوا ما يعول عليه في أمرها التجؤوا إلى التشبث بحشيش التقليد المحض حيث ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ وأبطل عليه السلام ذلك على طريقة التوكيد القسمي حيث ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ الذين وجدتموهم كذلك ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عجيب لا يقادر قدره ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه ضلالاً لاستنادكم وإياهم إلى غير دليل بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع، و ﴿أنتم﴾ تأكيد للضمير المتصل في ﴿كنتم﴾ ولا بد منه عند البصريين لجواز العطف على مثل هذا الضمير، ومعنى كنتم في ضلال مطلق استقرارهم وتمكنهم فيه لا استقرارهم الماضي الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم، وفي اختيار ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ على ضالين ما لا يخفى من المبالغة في ضلالهم، وفي الآية دليل على أن الباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به ﴿قَالُوا﴾ لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعاداً لكون ما هم عليه ضلالاً وتعجباً من تضليله عليه السلام إياهم على أتم وجه ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي بالجد ﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أي الهازلين فالاستفهام ليس على ظاهره بل هو استفهام مستبعد متعجب، وقولهم ﴿أم أنت﴾ الخ عديله كلام منصف مومىء فيه بألطف وجه أن الثابت هو القسم الثاني لما فيه من أنواع المبالغة، وأشار في الكشاف كما في الكشف إلى أن الأصل هذا الذي جئتنا به أهو جد وحق أم لعب وهزل إلا أنه عدل عنه إلى ما عليه النظم الكريم لما أشير إليه.

وقال صاحب المفتاح: أي أجددت وأحدثت عندنا تعاطي الحق أم أحوال الصبا بعد على الاستمرار وهو أقرب إلى الظاهر وفيه الإشارة إلى فائدة العدول عن المعادل ظاهر أو بيان المراد بالمجيء وظاهر كلام الشيخين أن أم متصلة. واختار العلامة الطيبي أنها منقطعة فقال: إنهم لما سمعوا منه عليه السلام ما يدل على تحقير آلهتهم وتضليلهم وآبائهم على أبلغ وجه وشاهدوا منه الغلظة والجد طلبوا منه عليه السلام البرهان فكأنهم قالوا هب أنا قد قلدنا آباءنا فيما نحن فيه فهل معك دليل على ما ادعيت أجئتنا بالحق ثم أضربوا عن ذلك وجاؤوا بأم المتضمنة لمعنى بل الإضرابية والهمزة التقديرية فاضربوا ببل عما أثبتوا له وقرروا بالهمزة خلافه على سبيل التوكيد والبت، وذلك أنهم قطعوا أنه لاعب وليس بمحق البتة لأن إدخالهم إياه في زمرة اللاعبين أي أنت غرق في اللعب داخل في زمرة الذين قصارى أمرهم في إثبات الدعاوى اللعب واللهو على سبيل الكناية إلا بمائية دل على إثبات ذلك بالدليل والبرهان، وهذه الكناية توقفك

على أن أم لا يجوز أن تكون متصلة قطعاً وكذا بل فيما بعد انتهى؛ والحق أن جواز الانقطاع مما لا ريب فيه، وأما وجوبه ففيه ما فيه.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدون من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه. وهذا انتقال عن تضليلهم في عبادة الأصنام ونفي عدم استحقاقها لذلك إلى بيان الحق وتعيين المستحق للعبادة، وضمير ﴿فطرهن﴾ أما للسموات والأرض واستظهره أبو حيان، ووصفه تعالى بإيجادهن أثر وصفه سبحانه بربوبيته لهن تحقيقاً للحق تنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل عن الربوبية التي هي منشأ استحقاق العبادة. وإما للتماثيل ورجح بأنه أدخل في تحقيق الحق وإرشاد المخاطبين إليه، وليس هذا الضمير من الضمائر التي تخص من يعقل من المؤنثات كما ظنه ابن عطية فتكلف لتوجيه عوده لما لا يعقل، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا عَلَى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ تذييل متضمن لرد نسبتهم إياه عليه السلام إلى اللعب والهزل، والإشارة إلى المذكور، والجار الأول متعلق بمحذوف أي وأنا شاهد على ذلكم من الشاهدين أو على جهة البيان أي أعني على ذلكم أو متعلق بالوصف بعده، وإن كان في صلة أل لاتساعهم في المظروف أقوال مشهورة، والمعنى وأنا على ذلكم الذي ذكرته من العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه ولست من اللاعبين، فإن الشاهد على الشيء من تحققه وحققه وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليها وإثباته بها.

وقال شيخ الإسلام: إن قوله: ﴿بل ربكم﴾ الخ إضراب عما بنوا عليه مقالهم من اعتقاد كون تلك التماثيل أرباباً لهم كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل ربكم الخ؛ وقال القاضي: هو إضراب عن كونه عليه السلام لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه، وجعله الطيبي إضراباً عن ذلك أيضاً قال: وهذا الجواب وارد على الأسلوب الحكيم، وكان من الظاهر أن يجيبهم عليه السلام بقوله بل أنا من المحقين ولست من اللاعبين فجاء بقوله: ﴿بل ربكم﴾ الآية لينبه به على أن إبطالي لما أنتم عاكفون عليه وتضليلي إياكم مما لا حاجة فيه لوضوحه إلى الدليل ولكن انظروا إلى هذه العظيمة وهي أنكم تتركون عبادة خالقكم ومالك أمركم ورازقكم ومالك العالمين والذي فطر ما أنتم لها عاكفون وتشتغلون بعبادتها دونه فأي باطل أظهر من ذلك وأي ضلال أبين منه.

وقوله: ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ تذييل للجواب بما هو مقابل لقولهم: ﴿أم أنت من اللاعبين﴾ من حيث الأسلوب وهو الكناية ومن حيث التركيب وهو بناء الخبر على الضمير كأنه قال: لست من اللاعبين في الدعاوى بل من العالمين فيها بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي نقطع به الدعاوى اهـ، ولا يخفى أنه يمكن إجراء هذا على احتمال كون أم متصلة فافهم وتأمل ليظهر لك أي التوجيهات لهذا الاضراب أولى ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي لأجتهدن في كسرها، وأصل الكيد الاحتيال في إيجاد ما يضر مع إظهر خلافه وهو يستلزم الاجتهاد فتجوز به عنه، وفيه إيذان بصعوبة لانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل ليحتاطوا في الحفظ فيكون الظفر بالمطلوب أتم في التبكيت، وكان هذا منه عليه السلام عزماً على الإرشاد إلى ضلالهم بنوع آخر، ولا يأباه ما روي عن قتادة أنه قال: نرى أنه عليه السلام قال ذلك من حيث لا يسمعون وقيل سمعه رجل واحد منهم، وقيل قوم من ضعفتهم ممن كان يسير في آخر الناس يوم خرجوا إلى العيد وكانت الأصنام سبعين: وقيل اثنين وسبعين.

وقرأ معاذ بن جبل وأحمد بن حنبل «بالله» بالباء ثانية الحروف وهي أصل حروف القسم إذ تدخل على الظاهر والمضمر ويصرح بفعل القسم معها ويحذف والتاء بدل من الواو كما في تجاه والواو قائمة مقام الباء للمناسبة بينهما من حيث كونهما شفويتين ومن حيث إن الواو تفيد معنى قريباً من معنى الإلصاق على ما ذكره كثير من النحاة.

وتعقبه في البحر بأنه لا يقوم على ذلك دليل، وقدره السهيلي، والذي يقتضيه النظر إنه ليس شيء من هذه الأحرف أصلاً لآخر، وفرق بعضهم بين الباء والتاء بأن في التاء المثناة زيادة معنى وهو التعجب، وكان التعجب هنا من إقدامه عليه السلام على أمر فيه مخاطرة. ونصوص النحاة أن التاء يجوز أن يكون معها تعجب ويجوز أن لا يكون واللام هي التي يلزمها التعجب في القسم، وفرق آخرون بينهما استعمالاً بأن التاء لا تستعمل إلا مع اسم الله الجليل أو مع رب مضافاً إلى الكعبة على قلة ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ من عبادتها إلى عيدكم. وقرأ عيسى بن عمر ﴿تولوا﴾ من التولي بحذف إحدى التاءين وهي الثانية عند البصريين والأولى عند هشام، ويعضد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾ [الصافات: ٩٠] والفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ فصيحة أي فولوا فأتى إبراهيم عليه السلام والأصنام فجعلهم ﴿جُذَاذاً﴾ أي قطعاً فعال بمعنى مفعول من الجذ الذي هو القطع، قال الشاعر:

بنو المهلب جذ الله دابرهم ... أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف

فهو كالحطام من الحطم الذي هو الكسر، وقرأ الكسائي وابن محيض وابن مقسم وأبو حيوة وحميد والأعمش في رواية «جِذَاذاً» بكسر الجيم، وابن عباس وابن نهيك وأبو السمال «جَذَاذاً» بالفتح، والضم قراءة الجمهور، وهي كما روي عن ابن جني عن أبي حاتم لغات أجودها الضم؛ ونص قطرب أنه في لغاته الثلاث مصدر لا يثنى ولا يجمع، وقال اليزيدي: جذاذاً بالضم جمع جذاذة كزجاج وزجاجة، وقيل: بالكسر جمع جذيذ ككريم وكرام، وقيل: هو بالفتح مصدر كالحصاد بمعنى المحصود.

وقرأ يحيى بن وثاب «جُذُذاً» بضمتين مع جمع جذيذ كسرير وسرر، وقرىء «جُذَذاً» بضم ففتح جمع جذة كقبة وقبب أو مخفف فعل بضمتين. وروي أن آزر خرج به في عيد لهم فبدؤوا ببيت الأصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم وقالوا إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا فلما كان إبراهيم عليه السلام في الطريق ثنى عزمه عن المسير معهم فقعد وقال إني سقيم فدخل فدخل على الأصنام وهي مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كان في يده ولم يبق إلا الكبير وعلق الفأس في عنقه، وقيل: في يده وذلك قوله تعالى: ﴿إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ﴾ أي الأصنام كما هو الظاهر مما سيأتي إن شاء الله تعالى. وضمير العقلاء هنا وفيما مر على زعم الكفرة، والكبر إما في المنزلة على زعمهم أيضاً أو في الجثة، وقال أبو حيان: يحتمل أن يكون الضمير للعبدة، قيل: ويؤيده أنه لو كان للأصنام لقيل إلا كبيرهم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيهِ يَرْجِعُونَ﴾ استئناف لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير، وضمير ﴿إليه﴾ عند الجمهور عائد على إبراهيم عليه السلام أي لعلهم يرجعون إلى إبراهيم عليه السلام لا إلى غيره فيحاجهم ويبكتهم بما سيأتي من الجواب إن شاء الله تعالى، وقيل: الضمير لله تعالى أي لعلهم يرجعون إلى الله تعالى وتوحيده حين يسألونه عليه السلام فيجيبهم، ويظهر عجز آلهتهم ويعلم من هذا أن قوله سبحانه: ﴿إلا كبيراً لهم﴾ ليس أجنبياً في البين على هذا القول كما توهم نعم لا يخفى بعده.

وعن الكلبي أن الضمير للكبير أي لعلهم يرجعون إلى الكبير كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون له ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحاً والفأس في عنقك أو في يدك؟ وحينئذٍ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ويظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم، وكأن هذا بناء على ظنه عليه السلام بهم لما جرب لا ينفع ولا يضر ويظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم، وكأن هذا بناء على ظنه عليه السلام بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها، ويحتمل أنه عليه السلام يعلم أنهم لا يرجعون إليه لكن ذلك من باب الاستهزاء

والاستجهال واعتبار حال الكبير عندهم فإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع إليه في حل المشكل، وعلى الاحتمالين لا إشكال في دخول لعل في الكلام، ولعل هذا الوجه أسرع الأوجه تبادراً لكن جمهور المفسرين على الأول، والجار والمجرور متعلق بيرجعون، والتقديم للحصر على الأوجه الثلاثة على ما قيل، وقيل: هو متعين لذلك في الوجه الأول وغير متعين له في الأخيرين بل يجوز أن يكون لأداء حق الفاصلة فتأمل.

وقد يستأنس بفعل إبراهيم عليه السلام من كسر الأصنام لمن قال من أصحابنا إنه لا ضمان على من كسر ما يعمل من الفخار مثلاً من الصور ليلعب به الصبيان ونحوهم وهو القول المشهور عند الجمهور.

قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟
فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ
فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ
إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا
لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ
وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ
لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا
فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ
وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ

لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ
إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ
أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿قَالُوا﴾ أي حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا ﴿مَن فَعَلَ هَذَا﴾ الأمر العظيم ﴿بآلهتنا﴾ قالوه على طريقة الإنكار والتوبيخ والتشنيع، والتعبير عنه بالآلهة دون الأصنام أو هؤلاء للمبالغة في التشنيع، وقوله تعالى: ﴿إنَّهُ لَمنَ الظَّالمين﴾ استئناف مقرر لما قبله، وجوز أبو البقاء أن تكون ﴿من﴾ موصولة مبتدأ وهذه الجملة في محل الرفع خبره أي الذي فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا إنه معدود من جملة الظلمة إما لجرأته على إهانتها وهي الحفية بالإعظام أو لتعريض نفسه للهلكة أو لإفراطه في الكسر والحطم، والظلم على الأوجه الثلاثة بمعنى وضع الشيء في غير موضعه ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم منهم وهم الذين سمعوا قوله عليه السلام: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ عند بعض ﴿سَمِعْنَا فَتَىً يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم فلعله الذي فعل ذلك بهم وسمع. كما قال بعض الأجلة. حقه أن يتعدى إلى واحد كسائر أفعال الحواس كما قرره السهيلي ويتعدى إليه بنفسه كثيراً وقد يتعدى إليه بإلى أو اللام أو الباء، وتعديه إلى مفعولين مما اختلف فيه فذهب الأخفش. والفارسي في الإيضاح وابن مالك وغيرهم إلى أنه إن وليه ما يسمع تعدى إلى واحد كسمعت الحديث وهذا متفق عليه وإن وليه ما لا يسمع تعدي إلى اثنين ثانيهما مما يدل على صوت.

واشترط بعضهم كونه جملة كسمعت زيداً يقول كذا دون قائلاً كذا لأنه دال على ذات لا تسمع، وأما قوله تعالى: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ [الشعراء: ٧٢] فعلى تقدير مضاف أي هل يسمعون دعاءكم، وقيل ما أضيف إليه الظرف مغن عنه، وفيه نظر، وقال بعضهم: إنه ناصب لواحد بتقدير مضاف مسموع قبل اسم الذات، والجملة إن كانت حال بعد المعرفة صفة بعد النكرة ولا تكون مفعولاً ثانياً لأنها لا تكون كذلك إلا في الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر وليس هذا منها.

وتعقب بأنه من الملحقات برأي العلمية لأن السمع طريق العلم كما في لتسهيل وشروحه فجوز هنا كون ﴿فتى﴾ مفعولاً أولاً وجملة ﴿يذكرهم﴾ مفعولاً ثانيا، وكونه مفعولاً والجملة صفة له لأنه نكرة، وقيل إنها بدل منه، ورجحه بعضهم باستغنائه عن التجوز والإضمار إذ هي مسموعة والبدل هو المقصود بالنسبة وإبدال الجملة من المفرد جائز، وفي الهمع أن بدل الجملة من المفرد بدل اشتمال، وفي التصريح قد تبدل الجملة من المفرد بدل كل من كل فلا تغفل، وقال بعضهم إن كون الجملة صفة أبلغ في نسبة الذكر إليه عليه السلام لما في ذلك من إيقاع الفعل على المسموع منه وجعله بمنزلة المسموع مبالغة في عدم الواسطة فيفيد أنهم سمعوه بدون واسطة.

ووجه بعضهم الأبلغية بغير ما ذكر مما بحث فيه، ولعل الوجه المذكور مما يتأتى على احتمال البدلية فلا تفوت المبالغة عليه، وقد يقال: إن هذا التركيب كيفما أعرب أبلغ من قولك سمعنا ذكر فتى ونحوه ما لا يحتاج فيه إلى مفعولين اتفاقاً لما أن ﴿سمعنا﴾ لما تعلق بفتى أفاد إجمالاً أن المسموع نحو ذكره إذ لا معنى لأن يكون نفس الذات مسموعاً ثم إذا ذكر ﴿يذكرهم﴾ علم ذلك مرة أخرى ولما فيه من تقوى الحكم بتكرر الإسناد على ما بين في علم المعاني ولهذا رجح أسلوب الآية على غيره فتدبر.

وقوله تعالى: ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ صفة لفتى، وجوز أن يكون استئنافاً بيانياً والأول أظهر، ورفع ﴿إبراهيم﴾ على أنه نائب الفاعل ليقال على اختيار الزمخشري وابن عطية، والمراد لفظه أي يطلق عليه هذا اللفظ، وقد اختلف في

جواز كون مفعول القول مفرداً لا يؤدي معناه جملة كقلت قصيدة وخطبة ولا هو مصدر القول أو صفته كقلت قولاً أو حقاً فذهب الزجاج والزمخشري وابن خروف وابن مالك إلى الجواز إذا أريد بالمفرد ولفظه بل ذكر الدنوشري أنه إذا كان المراد بالمفرد الواقع بعد القول نفس لفظه تجب حكايته ورعاية إعرابه، وآخرون إلى المنع قال أبو حيان: وهو الصحيح إذ لا يحفظ من لسانهم قال فلأن زيد ولا قال ضرب وإنما وقع القول في كلامهم لحكاية الجمل وما في معناها، وجعل المانعون ﴿إبراهيم﴾ مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو أو هذا إبراهيم والجملة محكية بالقول كما في قوله: إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة.

وجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي إبراهيم فاعله؛ وأن يكون منادى حذف منه حرف النداء أي يقال له حين يدعى يا إبراهيم، وعندي أن الآية ظاهرة فيما اختاره الزمخشري وابن عطية ويكفي الظهور مرجحاً في أمثال هذه المطالب، وذهب الأعلم إلى أن ﴿إبراهيم﴾ ارتفع بالإهمال لأنه لم يتقدمه عامل يؤثر في لفظه إذ القول لا يؤثر إلا في المفرد المتضمن لمعنى الجملة فبقي مهملاً والمهمل إذا ضم إلى غيره ارتفع نحو قولهم واحد وإثنان إذا عدوا ولم يدخلوا عاملاً لا في اللفظ ولا في التقدير وعطفوا بعض أسماء العدد على بعض، ولا يخفى أن كلام هذا الأعلم لا يقوله إلا الأجهل ولأن يكون الرجل أفلح أعلم خير له من أن ينطق بمثله ويتكلم.

﴿قَالُوا﴾ أولئك القائلون ﴿من فعل﴾ الخ إذا كان الأمر كذا ﴿فأتوا به﴾ أي أحضروه ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ مشاهداً معايناً لهم على أتم وجه كما تفيده على المستعارة لتمكن الرؤية ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يحضرون عقوبتنا له، وقيل يشهدون بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذٍ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود والأول مروي عن ابن عباس والضحاك، والثاني عن الحسن وقتادة، والترجي أوفق به ﴿قَالُوا﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به بعد ذلك هل أتوا به أو لا؟ فقيل قالوا: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ اقتصاراً على حكاية مخاطبتهم إياه عليه السلام للتنبيه على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غني عن البيان، والهمزة كما قال العلامة التفتازاني للتقرير بالفاعل إذ ليس مراد الكفرة حمله عليه السلام على الإقرار بأن كسر الأصنام قد كان[1] بل على الإقرار بأنه منه كيف وقد أشاروا إلى الفعل في قولهم: ﴿أأنت فعلت هذا﴾ وأيضاً ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب فعلت أو لم أفعل، واعترض ذلك الخطيب بأنه يجوز أن يكون الاستفهام على أصله إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام حتى يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام، وأجيب عليه بأنه يدل عليه ما قبل الآية وهو أنه عليه السلام فد حلف بقوله: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾ الخ ثم لما رأوا كسر الأصنام قالوا: ﴿من فعل هذا﴾ إلخ فالظاهر أنهم قد علموا ذلك من حلفه وذمه الأصنام ولقائل أن يقول: إن الحلف كما قاله كثير كان سراً أو سمعه رجل واحد، وقوله سبحانه: ﴿قالوا سمعنا﴾ الخ من قوله تعالى: ﴿قالوا من فعل هذا﴾ الخ يدل على أن منهم من لا يعلم كونه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام فلا يبعد أن يكون ﴿أأنت فعلت﴾ كلام ذلك البعض. وقد يقال: إنهم بعد المفاوضة في أمر الأصنام وإخبار البعض البعض بما يقنعه بأنه عليه السلام هو الذي كسرها تيقنوا كلهم أنه الكاسر أفأنت فعلت ممن صدر للتقرير بالفاعل، وقد سلك عليه السلام في الجواب مسلكاً تعريضياً يؤدي به إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه يحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من الترقي من الكذب فقد أبرز الكبير قولاً في معرض المباشر للفعل

---

(١) أي منه يدل عليه لفظ الإقرار فاندفع ما توهمه بعضهم في هذا المقام اهـ منه.

بإسناده إليه كما أبرزه في ذلك المعرض فعلاً يجعل الفاس في عنقه أو في يده وقد قصد إسناده اليه بطريق التسبب حيث رأى تعظيمهم إياه أشد من تعظيمهم لسائر ما معه من الأصنام المصطفة المرتبة للعبادة من دون الله تعالى فغضب لذلك زيادة الغضب فأسند الفعل إليه إسناداً مجازياً عقلياً باعتبار أنه الحامل عليه والأصل فعلته لزيادة غضبي من زيادة تعظيم هذا، وإنما لم يكسره وأن كان مقتضى غضبه ذلك لتظهر الحجة، وتسمية ذلك كذباً كما ورد في الحديث الصحيح من باب المجاز لما أن المعاريض تشبه صورتها صورته فبطل الاحتجاج بما ذكر على عدم عصمة الأنبياء عليهم السلام، وقيل في توجيه ذلك أيضاً: إنه حكاية لما يلزم من مذهبهم جوازه يعني أنهم لما ذهبوا إلى أنه أعظم الآلهة فعظم ألوهيته يقتضي أن لا يعبد غيره معه ويقتضي إفناء من شاركه في ذلك فكأنه قيل فعله هذا الكبير على مقتضى مذهبكم والقضية ممكنة.

ويحكى أنه عليه السلام قال: فعله كبيرهم هذا غضب أن يعبد معه هذه وهو أكبر منها، قيل: فيكون حينئذ تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنام، وقيل إنه عليه السلام لم يقصد بذلك إلا إثبات الفعل لنفسه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء والتضليل كما إذا قال لك أميٌ فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا؟ فقلت له: بل كتبته أنت فإنك لم تقصد نفيه عن نفسك وإثباته للأمي وإنما قصدت إثباته وتقريره لنفسك مع الاستهزاء بمخاطبك.

وتعقبه صاحب الفرائد بأنه إنما يصح إذا كان الفعل دائر بينه عليه السلام وبين كبيرهم ولايحتمل ثالثاً.

ورد بأنه ليس بشيء لأن السؤال في ﴿**أأنت فعلت**﴾ تقرير لا استفهام كما سمعت عن العلامة وصرح به الشيخ عبد القاهر والإمام السكاكي فاحتمال الثالث مندفع، ولو سلم أن الاستفهام على ظاهره فقرينة الإسناد في الجواب إلى ما لا يصلح له بكلمة الإضراب كافية لأن معناه أن السؤال لا وجه له وأنه لا يصلح لهذا الفعل غيري، نعم يرد أن توجيههم بذلك نحو التأمل في حال آلهتهم وإلزامهم الحجة كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿**فَاسألُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ**﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا غير ظاهر على هذا، وقيل إن ﴿**فعله كبيرهم**﴾ جواب قوله: ﴿**إن كانوا ينطقون**﴾ معنى وقوله: «فاسألوا» جملة معترضة مقترنة بالفاء كما في قوله: «فاعلم فعلم المرء ينفعه» فيكون كون الكبير فاعلاً مشروطاً بكونهم ناطقين ومعلقاً به وهو محال فالمعلق به كذلك، وإلى نحو ذلك أشار ابن قتيبة وهو خلاف الظاهر، وقيل: إن الكلام تم عند قوله: ﴿**فعله**﴾ والضمير المستتر فيه يعود على ﴿**فتى**﴾ أو إلى إبراهيم، ولا يخفى أن كلام من فتى وإبراهيم مذكور في كلام لم يصدر بمحضر من إبراهيم عليه السلام حتى يعود عليه الضمير وأن الإضراب ليس في محله حينئذ والمناسب في الجواب نعم، ولا مقتضى للعدول عن الظاهر هنا كما قيل وعزي إلى الكسائي أنه جعل الوقف على ﴿**فعله**﴾ أيضاً إلا أنه قال: الفاعل محذوف أي فعله من فعله.

وتعقبه أبو البقاء بأنه بعيد لأن حذف الفاعل لا يسوغ أي عند الجمهور وإلا فالكسائي يقول بجواز حذفه.

وقيل يجوز أن يقال: إنه أراد بالحذف الإضمار، وأكثر القراء اليوم على الوقف على ذلك وليس بشيء، وقيل الوقف على ﴿**كبيرهم**﴾ وأراد به عليه السلام نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم، وهذا التوجيه عندي ضرب من الهذيان، ومثله أن يراد به الله عز وجل فإنه سبحانه كبير الآلهة ولا يلاحظ ما أرادوه بها، ويعزى للفراء أن الفاء في ﴿**فعله**﴾ عاطفة وعله بمعنى لعله فخفف.

واستدل عليه بقراءة ابن السميقع «فَعَلَّهُ» مشدد اللام، ولا يخفى أن يجل كلام الله تعالى العزيز عن مثل هذا

التخريج، والآية عليه في غاية الغموض وما ذكر في معناها بعيد بمراحل عن لفظها، وزعم بعضهم أن الآية على ظاهرها وادعى أن صدور الكذب من الأنبياء عليهم السلام لمصلحة جائز، وفيه أن ذلك يوجب رفع الوثوق بالشرائع لاحتمال الكذب فيها لمصلحة فالحق أن لا كذب أصلاً وأن في المعارض لمندوحة عن الكذب، وإنما قال عليه السلام ﴿إن كانوا ينطقون﴾ دون إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وإن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فتفكروا وتدبروا وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضر عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبوداً.

﴿فَقَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بعبادة ما لا ينطق قاله ابن عباس أو بسؤالكم إبراهيم عليه السلام وعدولكم عن سؤالها وهي آلهتكم ذكره ابن جرير أو بنفس سؤالكم إبراهيم عليه السلام حيث كان متضمناً التوبيخ المستتبع للمؤاخذة كما قيل أو بغفلتكم عن آلهتكم وعدم حفظكم إياها أو بعبادة الأصاغر مع هذا الكبير قالهما وهب أو بأن اتهمتم إبراهيم عليه السلام والفأس في عنق الكبير قاله مقاتل، وابن إسحق، والحصر إضافي بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ أصل النكس قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله، ولا يلغو ذكر الرأس بل يكون من التأكيد أو يعتبر التجريد، وقد يستعمل النكس لغة في مطلق قلب الشيء من حال إلى حال أخرى ويذكر الرأس للتصوير والتقبيح.

وذكر الزمخشري على ما في الكشف في المراد به هنا ثلاثة أوجه، الأول أنه الرجوع عن الفكرة المستقيمة الصالحة في تظليم أنفسهم إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها مع الاعتراف بتقاصر حالها عن الحيوان فضلاً أن تكون في معرض الآلهية فمعنى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ لا يخفى علينا وعليك أيها المبكت بأنها لا تنطق أنها كذلك وإنا إنما أتخذناها آلهة مع العلم بالوصف، والدليل عليه جواب إبراهيم عليه السلام الآتي، والثاني أنه الرجوع عن الجدل معه عليه السلام بالباطل في قولهم: ﴿من فعل هذا بآلهتنا﴾ وقولهم: ﴿أأنت فعلت﴾ إلى الجدال عنه بالحق في قولهم: ﴿لقد علمت﴾ لأنه نفي للقدرة عنها واعتراف بعجزها وأنها لا تصلح للإلهية وسمي نكساً وإن كان حقاً لأنه ما أفادهم عقداً فهو نكس بالنسبة إلى ما كانوا عليه من الباطل حيث اعترفوا بعجزها وأصروا. وفي لباب التفسير ما يقرب منه مأخذاً لكنه قدر الرجوع عن الجدال عنه في قولهم: ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ إلى الجدال معه عليه السلام بالباطل في قولهم: ﴿لقد علمت﴾ والثالث أن النكس مبالغة في إطراقهم رؤوسهم خجلاً وقولهم: ﴿لقد علمت﴾ الخ رمي عن حيرة ولهذا أتوا بما هو حجة عليهم وجاز أن يجعل كناية عن مبالغة الحيرة وانخذال الحجة فإنها لا تنافي الحقيقة، قال في الكشف. وهذا وجه حسن وكذلك والأول، وكون المراد النكس في الرأي رواه أبو حاتم عن ابن زيد وهو للوجهين الأولين، وقال مجاهد: معنى ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾ ردت السفلة السفلة على الرؤساء. فالمراد بالرؤوس الرؤساء، والأظهر عندي الوجه الثالث، وأياً ما كان فالجار متعلق بنكسوا.

وجوز أن يتعلق بمحذوف وقع حالاً، والجملة القسمية مقولة لقول مقدر أي قائلين ﴿لقد﴾ الخ، والخطاب في ﴿علمت﴾ لإبراهيم عليه السلام لا لكل من يصلح للخطاب، والجملة المنفية في موضع مفعولي علم إن تعدت إلى اثنين أو في موضع مفعول واحد إن تعدت لواحد، والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار كما يوهمه صيغة المضارع، وقرأ أبو حيوة. وابن أبي عبلة. وابن مقسم. وابن الجارود. والبكراوي كلاهما عن هشام بتشديد كاف «نُكّسوا»، وقرأ

رضوان بن عبد المعبود «نكسوا» بتخفيف الكاف مبنياً للفاعل أي نكسوا أنفسهم وقيل: رجعوا على رؤسائهم بناءً على ما يقتضيه تفسير مجاهد.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام مبكتاً لهم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ﴾ أي أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿مِنْ دون اللهِ﴾ أي مجاوزين عبادته تعالى ﴿مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً﴾ من النفع، وقيل: بشيء ﴿وَلاَ يَضُرُّكُمْ﴾ فإن العلم بحاله المنافية للألوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعاً ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ تضجر منه عليه السلام من إصرارهم على الباطل بعد انقطاع العذر ووضوح الحق، وأصل أف صوت المتضجر من استقذار شيء على ما قال الراغب ثم صار اسم فعل بمعنى أتضجر وفيه لغات كثيرة، واللام لبيان المتأفف له، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لمزيد استقباح ما فعلوا ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي لا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم ﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت بهم الحيل وهذا ديدن المبطل المحجوج إذا بهت بالحجة وكانت له قدرة يفزع إلى المناصبة ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإن النار أشد العقوبات ولذا جاء لا يعذب بالنار إلا خالقها ﴿وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها ﴿إِنْ كُنْتُم فَاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً فاختاروا له ذلك وإلا فرطتم في نصرتها وكأنكم لم تفعلوا شيئاً ما فيها، ويشعر بذلك العدول عن أن تنصروا آلهتكم فحرقوه إلى ما في النظم الكريم، وأشار بذلك على المشهور ورضي به الجميع نمروذ بن كنعان بن سنحاريب بن نمروذ بن كوس بن حام بن نوح عليه السلام.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر فقال: أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار؟ قلت: لا. قال: رجل من أعراب فارس يعني الأكراد(١) ونص على أنه من الأكراد ابن عطية، وذكر أن الله تعالى خسف به الأر ض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، واسمه على ما أخرج ابن جرير. وابن أبي حاتم عن شعيب الجباري هيون، وقيل: هدير. وفي البحر أنهم ذكروا له اسماً مختلفاً فيه لا يوقف منه على حقيقة، روي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثى قرية من قرى الأنباط في حدود بابل من العراق وذلك قوله تعالى: ﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ [الصافات: ٩٧] فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوماً فأوقدوا ناراً عظيمة لا يكاد يمر عليها طائر في أقصى الجو لشدة وهجها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فأتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه، وقيل: صنعه الكردي الذي أشار بالتحريق ثم خسف به ثم عمدوا إلى ابراهيم عليه السلام فوضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً فصاحت ملائكة السماء والأرض إلهنا ما في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم عليه السلام وأنه يحرق فيك فأذن لنا في نصرته فقال جل وعلا: إن استغاث بأحد منكم فلينصره وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فإنه خليلي ليس لي خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيري فأتاه خازن الرياح وخازن المياه يستأذنانه في إعدام النار فقال عليه السلام لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل، وروي عن أبيّ بن كعب قال: حين أوثقوه ليلقوه في النار قال عليه السلام: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا ابراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال: جبريل عليه السلام: فاسأل ربك فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ويروى أن الوزغ كان ينفخ في النار، وقد جاء ذلك في رواية البخاري.

---

(١) هذا ظاهر في أن الأكراد من الفرس وقد ذهب كثير إلى أنهم من العرب وذكر أن منهم أبا ميمون جابان من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وتحقيق الكلام فيهم في محله اهـ منه.

وفي البحر ذكر المفسرون أشياء صدرت عن الوزغ والبغل والخطاف والضفدع والعضرفوط والله تعالى أعلم بذلك، فلما وصل عليه السلام الحظيرة جعلها الله تعالى ببركة قوله عليه السلام روضة، وذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أي كوني ذات برد وسلام أي ابردي برداً غير ضار، ولذا قال علي كرّم الله تعالى وجهه فيما أخرجه عنه أحمد وغيره: لو لم يقل سبحانه ﴿وسلاما﴾ لقتله بردها، وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأسورة مطاوعة وإقامة كوني ذات برد مقام ابردي ثم حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وقيل: نصب ﴿سلاما﴾ بفعله أي وسلمنا سلاماً عليه، والجملة عطف على ﴿قلنا﴾ وهو خلاف الظاهر الذي أيدته الآثار. روي أن الملائكة عليهم السلام أخذوا بضبعي ابراهيم عليه السلام فأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار إلا وثاقه كما روي عن كعب، وروي أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوماً أو خمسين يوماً، وقال عليه السلام: ما كنت أطيب عيشاً مني إذ كنت فيها، قال ابن إسحاق: وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة إبراهيم عليه السلام يؤنسه، قالوا: وبعث الله عز وجل جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه، وقال جبريل عليه السلام يا ابراهيم إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبابي، ثم أشرف نمروذ ونظر من صرح له فرآه جالساً في روضة والملك قاعد إلى جنبه والنار محيطة به فنادى يا ابراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال ابراهيم عليه السلام: نعم قال: هل تخشى إن نمت فيها أن تضرك؟ قال: لا. قال: فقم فاخرج منها فقام عليه السلام يمشي فيها حتى خرج منها فاستقبله نمروذ وعظمه، وقال له: يا ابراهيم من الرجل الذي رأيته معك في صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذلك ملك الظل أرسله إليّ ربي ليؤنسني فيها فقال: يا ابراهيم إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده إني ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال له ابراهيم عليه السلام: إنه لا يقبل الله تعالى منك ما كنت على دينك حتى تفارقه وترجع إلى ديني فقال: لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له فذبحها وكف عن ابراهيم عليه السلام. وكان ابراهيم عليه السلام إذ ذاك ابن ست عشرة سنة، وفي بعض الآثار أنهم لما رأوه عليه السلام لم يحترق قالوا: إنه سحر النار فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق، وفي بعضها أنهم لما رأوه عليه السلام سالماً لم يحرق منه غير وثاقه قال هاران أبو لوط عليه السلام: إن النار لا تحرقه لأنه سحرها لكن اجعلوه على شيء وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله فجعلوه فوق تبن وأوقدوا تحته فطارت شرارة إلى لحية هاران فأحرقته، وأخرج عبد بن حميد عن سليمان بن صرد وكان قد أدرك النبي ﷺ أن أبا لوط قال وكان عمه: إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني فأرسل الله تعالى عنقاً من النار فأحرقه، والأخبار في هذه القصة كثيرة لكن قال في البحر: قد أكثر الناس في حكاية ما جرى لإبراهيم عليه السلام، والذي صح هو ما ذكره تعالى من أنه عليه السلام ألقي في النار فجعلها الله تعالى عليه عليه السلام برداً وسلاماً.

ثم الظاهر أن الله تعالى هو القائل لها: ﴿كوني برداً﴾ الخ وأن هناك قولاً حقيقة، وقيل القائل جبرائيل عليه السلام بأمره سبحانه، وقيل قول ذلك مجازاً عن جعلها باردة، والظاهر أيضاً أن الله عز وجل سلبها خاصتها من الحرارة والإحراق وأبقى فيها الإضاءة والإشراق، وقيل إنها انقلبت هواء طيباً وهو على هذه الهيئة من أعظم الخوارق، وقيل كانت على حالها لكنه سبحانه جلت قدرته دفع أذاها كما ترى في السمندر كما يشعر به قوله تعالى: ﴿على إبراهيم﴾ وذلك لأن ما ذكر خلاف المعتاد فيختص بمن خص به ويبقى بالنسبة إلى غيره على الأصل لا نظراً إلى مفهوم اللقب إذ الأكثرون على عدم اعتباره. وفي بعض الآثار السابقة ما يؤيده، وأياً ما كان فهو آية عظيمة وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبي الحبيب ﷺ، وما يشاهد من وقوعه لبعض المنتسبين

إلى حضرة الولي الكامل الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره من الفسقة الذين كادوا يكونون لكثرة فسقهم كفاراً فقيل إنه باب من السحر المختلف في كفر فاعله وقتله فإن لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ولا يبعد أن تكون كفراً وإن كان معها ما لا كفر فيه، وقد ذكر بعضهم أنهم يقولون عند ذلك تلسف تلسف هيف هيف أعوذ بكلمات الله تعالى التامة من شر ما خلق أقسمت عليك يا أيتها النار أو أيها السلاح بحق حي حلي ونور سبحي ومحمد ﷺ أن لاتضري أو لا تضر غلام الطريقة، ولم يكن ذلك في زمن الشيخ الرفاعي قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعاً للسنة وأشدهم تجنباً عن مظان البدعة وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل اتباعه قدس سره ثم طرأ على بعض المنتسبين إليه ما طرأ، قال في العبر: قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات وهذا ما لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم انتهى.

والحق أن قراءة شيء ما عندهم ليست شرطاً لعدم التأثر بالدخول في النار ونحوه فكثير منهم من ينادي إذا أوقدت له النار وضربت الدفوف يا شيخ أحمد يا رفاعي أو يا شيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار ولا يتأثر من دون تلاوة شيء أصلاً، والأكثر منهم إذا قرأ الأسماء على النار ولم تضرب له الدفوف ولم يحصل له تغير حال لم يقدر على مس جمرة، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضرب له الدفوف وينادي من ينادي من المشايخ فيدخل ويتأثر. والحاصل أنا لم نر لهم قاعدة مضبوطة بيد أن الأغلب أنهم إذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعربدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون، وقد رأيت منهم من يأخذ زرق الخمر ويستغيث بمن يستغيث ويدخل تنوراً كبيراً تضطرم فيه النار فيقعد في النار فيشرب الخمر ويبقى حتى تخمد النار فيخرج ولم يحترق من ثيابه أو جسده شيء، وأقرب ما يقال في مثل ذلك: إنه استدراج وابتلاء، وأما أن يقال: إن الله عز وجل أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره بعدم تأثر المنتسبين إليه كيفما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره إذا هتفوا باسمه أو اسم منتسب إليه في بعض الأحوال فبعيد بل كأني بك تقول بعدم جوازه، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين في بعض الأحوال إعانة له، وقد يأخذ بعض الناس النار بيده ولا يتأثر لأجزاء يطلي بها يده من خاصيتها عدم إضرار النار للجسد إذا طلي بها فيوهم فاعل ذلك أنه كرامة.

هذا واستدل بالآية من قال: إن الله تعالى أودع في كل شيء خاصة حسبما اقتضته حكمته سبحانه فليس الفرق بين الماء والنار مثلاً بمجرد أنه جرت عادة الله تعالى بأن يخلق الإحراق ونحوه عند النار والري ونحوه عند الماء بل أودع في هذا خاصة الري مثلاً وفي تلك خاصة الإحراق مثلاً لكن لا تحرق هذه ولايروي ذاك إلا بإذنه عز وجل فإنه لو لم يكن أودع في النار الحرارة والإحراق ما قال لها ما قال. ولا قائل بالفرق فتأمل.

﴿وَأَرَادُوا به كَيْداً﴾ مكراً عظيماً في الإضرار به ومغلوبيته ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخسَرينَ﴾ أي أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق قولاً وفعلاً برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجباً لارتفاع درجته عليه السلام و استحقاقهم لأشد العذاب، وقيل: جعلهم الأخسرين من حيث إنه سبحانه سلط عليهم ما هو من أحقر خلقه وأضعفه وهو البعوض يأكل من لحومهم ويشرب من دمائهم وسلط على نمروذ بعوضة أيضاً فبقيت تؤذيه إلى أن مات لعنه الله تعالى، والمعول عليه التفسير الأول ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً﴾ وهو على ما تقدم ابن عمه، وقيل: هو ابن أخيه وروي ذلك في المستدرك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقد ضمن ﴿نجيناه﴾ معنى أخرجناه فلذا عدي بإلى في قوله سبحانه:

﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وقيل: هي متعلقة بمحذوف وقع حالاً أي منتهياً إلى الأرض فلا تضمين، والمراد بهذه الأرض أرض الشام، وقيل: أرض مكة، وقيل: مصر والصحيح الأول، ووصفها بعموم البركة لأن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيها وانتشرت في العالم شرائعهم التي هي مبادىء الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية ولم يقل التي باركناها للمبالغة بجعلها محيطة بالبركة، وقيل: المراد بالبركات النعم الدنيوية من الخصب وغيره، والأول أظهر وأنسب بحال الأنبياء عليهم السلام، وروي أنه عليه السلام خرج من العراق ومعه لوط وسارة بنت عمه هاران الأكبر وقد كانا مؤمنين به عليه السلام يلتمس الفرار بدينه فنزل حران فمكث بها ما شاء الله تعالى. وزعم بعضهم أن سارة بنت ملك حران تزوجها عليه السلام هناك وشرط أبوها أن لا يغيرها عن دينها والصحيح الأول، ثم قدم مصر ثم خرج منها إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من السبع أو أقرب، وفي الآية من مدح الشام ما فيها، وفي الحديث «ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم» أخرجه أبو داود.

وعن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: «طوبى لأهل الشام فقلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن الملائكة عليهم السلام باسطة أجنحتها عليها» أخرجه الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده. وأما العراق فقد ذكر الغزالي عليه الرحمة في باب المحنة من الأحياء اتفاق جماعة من العلماء على ذمه وكراهة سكناه واستحباب الفرار منه ولعل وجه ذلك غني عن البيان فلا ننقب فيه البنان.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي عطية كما روي عن مجاهد. وعطاء من نفله بمعنى أعطاه، وهو على ما اختاره أبو حيان مصدر كالعاقبة والعافية منصوب بوهبنا على حد قعدت جلوساً، واختار جمع كونه حالاً من إسحاق ويعقوب أو ولد ولد أو زيادة على ما سأل عليه السلام وهو إسحاق فيكون حالاً من يعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة ﴿وَكُلاًّ﴾ من المذكورين. وهم ابراهيم. ولوط. وإسحاق. ويعقوب عليهم السلام لا بعضهم دون بعض ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في أمور الدين ﴿يَهْدُونَ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ ليتم الكمال بانضمام العمل إلى العلم، وأصله على ما ذهب إليه الزمخشري ومن تابعه أن يفعل الخيرات ببناء الفعل لما لم يسم فاعله ورفع الخيرات على النيابة عن الفاعل ثم فعلا الخيرات بتنوين المصدر ورفع الخيرات أيضاً على أنه نائب الفاعل لمصدر المجهول ثم فعل الخيرات بحذف التنوين وإضافة المصدر لمعموله القائم مقام فاعله، والداعي كما قيل إن ﴿فعل الخيرات﴾ بالمعنى المصدري ليس موحى إنما الموحى أن يفعل، ومصدر المبني للمفعول والحاصل بالمصدر كالمترادفين، وأيضاً الوحي عام للأنبياء المذكورين عليهم السلام وأممهم فلذا بني المجهول.

وتعقب ذلك أبو حيان بأن بناء المصدر لما لم يسم فاعله مختلف فيه فأجاز ذلك الأخفش والصحيح منعه، وما ذكر من عموم الوحي لا يوجب ذلك هنا إذ يجوز أن يكون المصدر مبنياً للفاعل ومضافاً من حيث المعنى إلى ظاهر محذوف يشمل الموحى إليه وغيرهم أي فعل المكلفين الخيرات، ويجوز أن يكون مضافاً إلى الموحى إليهم أي أن يفعلوا الخيرات وإذا كانوا قد أوحي إليهم ذلك فاتباعهم جارون مجراهم في ذلك ولا يلزم اختصاصهم به انتهى. وانتصر للزمخشري بأن ما ذكره بيان لأمر مقرر في النحو والداعي إليه أمران ثانيهما ما ذكر من عموم الوحي الذي اعترض عليه والأول سالم عن الاعتراض ذكر أكثر ذلك الخفاجي ثم قال: الظاهر أن المصدر هنا للأمر كضرب

الرقاب، وحينئذ فالظاهر أن الخطاب للأنبياء عليهم السلام فيكون الموحى قول الله تعالى افعلوا الخيرات، وكان ذلك لأن الوحي مما فيه معنى القول كما قالوا فيتعلق به لا بالفعل إلا أنه قيل يرد عليه ما أشير أولاً إليه من أن ما ذكر ليس من الأحكام المختصة بالأنبياء عليهم السلام ولا يخفى أن الأمر فيه سهل، وجوّز أن يكون المراد شرعنا لهم فعل ذلك بالإيحاء إليهم فتأمل، والكلام في قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ الصَّلاةَ وإيتاء الزكاة﴾ على هذا الطرز، وهو كما قال غير واحد من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وإنافته، وأصل ﴿إقام﴾ أقوام فقلبت واوه ألفاً بعد نقل حركتها لما قبلها وحذف إحدى ألفيه لالتقاء الساكنين، والأكثر تعويض التاء عنها فيقال إقامة وقد تترك التاء إما مطلقاً كما ذهب إليه سيبويه والسماع يشهد له، وإما بشرط الإضافة ليكون المضاف ساداً مسدها كما ذهب إليه الفراء وهو كما قال أبو حيان مذهب مرجوح، والذي حسن الحذف هنا المشاكلة، والآية ظاهرة في أنه كان في الأمم السالفة صلاة وزكاة وهو مما تضافرت عليه النصوص إلا أنهما ليسا كالصلاة والزكاة المفروضتين على هذه الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية ﴿وكَانُوا لَنَا﴾ خاصة دون غيرنا ﴿عَابدينَ﴾ لا يخطر ببالهم غير عبادتنا كأنه تعالى أشار بذلك إلى أنهم وفوا بعهد العبودية بعد أن أشار إلى أنه سبحانه وفى لهم بعهد الربوبية ﴿وَلُوطاً﴾ قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ﴾ أي وآتينا لوطاً آتيناه والجملة عطف على ﴿وَهبنا له﴾ جمع سبحانه ابراهيم ولوطاً في قوله تعالى: ﴿ونجيناه ولوطاً﴾ ثم بين ما أنعم به على كل منهما بالخصوص وما وقع في البين بيان على وجه العموم. والطبرسي جعل المراد من قوله تعالى: ﴿وكلا﴾ الخ أي كلا من إبراهيم وولديه إسحاق. ويعقوب جعلنا الخ فلا اندراج للوط عليه السلام هناك وله وجه، وأما كون المراد وكلا من إسحاق ويعقوب فلا وجه له ويحتاج إلى تكليف توجيه الجمع فيما بعده، وقيل بأذكر مقدراً وجملة ﴿آتيناه﴾ مستأنفة ﴿حُكْماً﴾ أي حكمة، والمراد بها ما يجب فعله أو نبوة فإن النبي حاكم على أمته أو الفصل بين الخصوم في القضاء، وقيل حفظ صحف ابراهيم عليه السلام وفيه بعد ﴿وَعلماً﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء عليهم السلام ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ قيل أي اللواطة، والجمع باعتبار تعدد المواد، وقيل المراد الأعمال الخبيثة مطلقاً إلا أن أشنعها اللواطة، فقد أخرج اسحاق بن بشير. والخطيب، وابن عساكر عن الحسن قال: «قال رسول الله ﷺ: عشر خصال عملتها قوم لوط بها أهلكوا إتيان الرجال بعضهم بعضاً ورميهم بالجلاهق والخذف ولعبهم بالحمام وضرب الدفوف وشرب الخمور وقص اللحية وطول الشارب والصفر والتصفيق ولباس الحرير وتزيدها أمتي بخلة اتيان النساء بعضهن بعضاً».

وأسند ذلك إلى القرية على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فالنعت سببي نحو جاءني رجل زنى غلامه، ولو جعل الإسناد مجازياً بدون تقدير أو القرية مجازاً عن أهلها جاز، واسم القرية سدوم، وقيل: كانت قراهم سبعاً فعبر عنها ببعضها لأنها أشهرها. وفي البحر أنه عبر عنها بالواحدة لاتفاق أهلها على الفاحشة ويروى أنها كلها قلبت الازغر لأنها كانت محل من آمن بلوط عليه السلام، والمشهور قلب الجميع.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَومَ سَوْء فاسقينَ﴾ أي خارجين عن الطاعة غير منقادين للوط عليه السلام، والجملة تعليل لتعمل الخبائث، وقيل: لنجيناه وهو كما ترى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ في رَحْمَتِنَا﴾ أي في أهل رحمتنا أي جعلناه في جملتهم وعدادهم فالظرفية مجازية أو في جنتنا فالظرفية حقيقة والرحمة مجاز كما في حديث الصحيحين-قال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي؛ ويجوز أن تكون الرحمة مجازاً عن النبوة وتكون الظرفية مجازية أيضاً فتأمل ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى، والجملة تعليل لما قبلها.

﴿ونُوحاً﴾ أي واذكر نوحاً أي نبأه عليه السلام، وزعم ابن عطية أن نوحاً عطف على لواط المفعول لآتينا على

معنى وآتينا نوحاً ولم يستبعد ذلك أبو حيان وليس بشيء، قيل ولما ذكر سبحانه «قصة ابراهيم» عليه السلام وهو أبو العرب أردفها جل شأنه بقصة أبي البشر وهو الأب الثاني كما أن آدم عليه السلام الأب الأول بناء على المشهور من أن جميع الناس الباقين بعد الطوفان من ذريته عليه السلام وهو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس فيما يقال وهو أطول الأنبياء عليهم السلام على ما في التهذيب عمراً، وذكر الحاكم في المستدرك أن اسمه عبد الغفار وأنه قيل له نوح لكثرة بكائه على نفسه، وقال الجواليقي: إن لفظ نوح أعجمي معرب زاد الكرماني ومعناه بالسريانية الساكن ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي دعا الله تعالى بقوله: ﴿إني مغلوب فانتصر﴾ [القمر: ١٠] وقوله ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: ٢٦] وإذ ظرف للمضاف المقدر كما أشرنا إليه ومن لم يقدر يجعله بدل اشتمال من نوح.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين، وذكرنا قبل قولاً آخر ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الطوفان أو أذية قومه؛ وأصل الكرب الغم الشديد وكأنه على ما قيل من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر إذ الغم يثير النفس إثارة ذلك أو من كربت الشمس إذا دنت للمغيب فإن الغم الشديد تكاد شمس الروح تغرب منه أو من الكرب وهو عقد غليظ في رشاء الدلو فإن الغم كعقدة على القلب، وفي وصفه بالعظيم تأكيد لما يدل هو عليه ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي منعناه وحميناه منهم بإهلاكهم وتخليصه، وقيل: أي نصرناه عليهم فمن بمعنى على، وقال بعضهم: إن النصر يتعدى بعلى ومن، ففي الأساس نصره الله تعالى على عدوه ونصره من عدوه، وفرق بينهما بأن المتعدى بعلى يدل على مجرد الإعانة والمتعدى بمن يدل على استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ منهمكين في الشر، والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعد من قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فإن تكذيب الحق والانهماك في الشر مما يترتب عليه الإهلاك قطعاً في الأمم السابقة، ونصب ﴿أجمعين﴾ قيل على الحالية من الضمير المنصوب وهو كما ترى، وقال أبو حيان: على أنه تأكيد له وقد كثر التأكيد بأجمعين غير تابع لكل في القرآن فكان ذلك حجة على ابن مالك في زعمه أن التأكيد به كذلك قليل والكثير استعماله تابعاً لكل انتهى.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إما عطف على ﴿نوحاً﴾ معمول لعامله أعني أذكر عليه على ما زعم ابن عطية، وإما مفعول لمضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف أي نبأ داود وسليمان. وداود بن ايشا[1] بن عوبر بن باعر ابن سلمون بن يخشون بن عمي بن يارب بن حضرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام كان، كما روي عن كعب أحمر الوجه سبط الرأس أبيض الجسم طويل اللحية فيها جعودة حسن الصوت وجمع له بين النبوة والملك، ونقل النووي عن أهل التاريخ أنه عاش مائة سنة ومدة ملكه منها أربعون، وكان له اثنا عشر ابناً وسليمان عليه السلام أحد أبنائه وكان عليه السلام يشاور في كثير من أموره مع صغر سنه لوفور عقله وعلمه.

وذكر كعب أنه كان أبيض جسيماً وسيماً وضيئاً خاشعاً متواضعاً، وملك كما قال المؤرخون وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وله ثلاث وخمسون سنة، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ ظرف لذلك المقدر، وجوزت البدلية على طرز ما مر، والمراد إذ حكما ﴿فِي الْحَرْثِ﴾ إلا أنه جيء بصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها، والمراد بالحرث هنا الزرع.

وأخرج جماعة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه الكرم، وقيل إنه يقال فيهما إلا أنه في الزرع أكثر، وقال

---

(١) قوله «بن ايشا» إلى آخر النسب هكذا في نسخة المؤلف هو مغاير لما في كثير من كتب التواريخ وحرر اهـ.

الخفاجي: لعله بمعنى الكرم مجاز على التشبيه بالزرع، والمعنى إذ يحكمان في حق الحرث ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ ظرف للحكم، والنفش رعي الماشية في الليل بغير راع كما أن الهمل رعيها في النهار كذلك، وكان أصله الانتشار والتفرق أي إذ تفرقت وانتشرت ﴿فيه غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ ليلاً بلا راع فرعته وأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي حاضرين علماً، وضمير الجمع قيل: لداود وسليمان ويؤيده قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «لحكمهما» بضمير التثنية، واستدل بذلك من قال: إن أقل الجمع اثنان، وجوز أن يكون الجمع للتعظيم كما في ﴿رب أرجعون﴾ [المؤمنون: ٩٩].

وقيل: هو للحاكمين والمتحاكمين، واعترض بأن إضافة حكم إلى الفاعل على سبيل القيام وإلى المفعول على سبيل الوقوع وهما في المعنى معمولان له فكيف يصح سلكهما في قرن. وأجيب بأن الحكم في معنى القضية لا نظر ها هنا إلى علمه وإنما ينظر إليه إذا كان مصدراً صرفاً، وأظهر منه كما في الكشف أن الاختصاص يجمع القيام والوقوع وهو معنى الإضافة ولم يبق النظر إلى العمل بعدها لا لفظاً ولا معنى فالمعنى وكنا للحكم الواقع بينهم شاهدين، والجملة اعتراض مقرر للحكم، وقد يقال: إنه مادح له كأنه قيل: وكنا مراقبين لحكمهم لا نقرهم على خلل فيه، وهذا على طريقة قوله تعالى: ﴿فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨] في إفادة العناية والحفظ، وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ عطف على ﴿يحكمان﴾ فإنه في حكم الماضي كما مضى.

وقرأ عكرمة «فأفهمناها» بهمزة التعدية والضمير للحكومة أو الفتيا المفهومة من السياق. روي أنه كانت امرأة عابدة من بني اسرائيل وكانت قد تبتلت وكان لها جاريتان جميلتان فقالت إحداهما للأخرى: قد طال علينا البلاء أما هذه فلا تريد الرجال ولا نزال بشرٍّ ما كنا لها فلو أنا فضحناها فرجمت فصرنا إلى الرجال فأخذنا ماء البيض فأتياها وهي ساجدة فكشفتا عنها ثوبها ونضحتاه في دبرها وصرختا أنها قد بغت وكان من زنى فيهم حده الرجم فرفعت إلى داود وماء البيض في ثيابها فأراد رجمها فقال سليمان: ائتوا بنار فإنه إن كان ماء الرجل تفرق وإن كان ماء البيض اجتمع فأُتي بنار فوضعها عليه فاجتمع فدرأ عنها الرجم فعطف عليه داود عليه السلام فأحبه جداً فاتفق أن دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما: إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم فقال: كيف قضى بينكما أبي؟ فأخبراه فقال: غير هذا أرفق بالجانبين فسمعه داود عليه السلام فدعاه فقال له: بحق النبوة والأبوة أَلا أخبرتني بالذي هو أرفق فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ثم يترادا فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة، ومال كثير إلى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد وهو جائز على الأنبياء عليهم السلام كما بين في الأصول وبذلك أقول فإن قول سليمان عليه السلام غير هذا أرفق، ثم قوله: أرى أن تدفع الخ صريح في أنه ليس بطريق الوحي وإلا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لإظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهر بداء وحرم عليه كتمه، مع أن الظاهر أنه عليه السلام لم يكن نبياً في ذلك السن ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضاً كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد، وفي الكشف أن القول بأن كلا الحكمين عن اجتهاد باطل لأن حكم سليمان نقض حكم داود عليهما السلام والاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد البتة فدل على أنهما جميعاً حكما بالوحي ويكون ما أوحي به لسليمان عليه السلام ناسخاً لحكم داود عليه السلام أو كان حكم سليمان وحده بالوحي، وقوله تعالى: ﴿ففهمناها﴾ لا يدل على أن ذلك اجتهاد.

وتعقب بأنه إن أراد بعدم نقض الاجتهاد بالاجتهاد عدم نقضه باجتهاد غيره حتى يلزم تقليده به فليس ما نحن فيه، وإن أراد عدم نقضه باجتهاد نفسه ثانياً وهو عبارة عن تغير اجتهاده لظهور دليل آخر فهو غير باطل بدليل أن المجتهد قد ينقل عنه في مسألة قولان كمذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه القديم والجديد ورجوع كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلى آراء بعضهم وهم مجتهدون، وقيل: يجوز أن يكون أوحي إلى داود عليه السلام أن يرجع عن اجتهاده ويقضي بما قضى به سليمان عليه السلام عن اجتهاد، وقيل: إن عدم نقض الاجتهاد بالاجتهاد من خصائص شريعتنا، على أنه ورد في بعض الأخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم في ذلك حتى سمع من سليمان عليه السلام ما سمع، وممن اختار كون كلا الحكمين عن اجتهاد شيخ الإسلام مولانا أبو السعود قدس سره ثم قال: بل أقول والله تعالى أعلم: إن رأى سليمان عليه السلام استحساناً كما ينبيء عنه قوله: أرفق بالجانبين ورأى داود عليه السلام قياساً كما أن العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه إلى المجني عليه أو يفديه ويبيعه في ذلك أو يفديه عند الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه.

وقد روي أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت، وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك من الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث إلى أن يزول الضرر الذي آتاه من قبله كما قال بعض أصحاب الشافعي فيمن غصب عبداً فأبق منه إنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من المنافع فإذا ظهر الآبق ترادا انتهى.

وأما حكم المسألة في شريعتنا فعند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه لا ضمان إذا لم يكن معها سائق أو قائد لما روى الشيخان من قوله ﷺ: «جرح العجماء جبار» ولا تقييد فيه بليل أو نهار، وعند الشافعي يجب الضمان ليلاً لا نهاراً لما في السنن من أن ناقة البراء دخلت حائط رجل فأفسدته فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال بحفظها بالنهار وعلى أهل المواشي بحفظها بالليل.

وأجيب بأن في الحديث اضطراباً، وفي رجال سنده كلاماً مع أنه يجوز أن يكون البراء أرسلها كما يجوز في هذه القصة أن يكون كذلك فلا دليل فيه ﴿وَكُلاً﴾ من داود وسليمان ﴿آتَيْنَا﴾ ﴿حُكْماً وَعِلْماً﴾ كثيراً ومنه العلم بطريق الاجتهاد لا سليمان عليه السلام وحده، فالجملة لدفع هذا التوهم وفيها دلالة على أن خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهداً، وقيل: إن الآية دليل على أن كل مجتهد في مسألة لا قاطع فيها مصيب فحكم الله تعالى في حقه وحق مقلده ما أدى إليه اجتهاده فيها ولا حكم له سبحانه قبل الاجتهاد وهو قول جمهور المتكلمين منا كالأشعري، والقاضي، ومن المعتزلة كأبي الهذيل، والجبائي وأتباعهم، ونقل عن الأئمة الأربعة رضي الله تعالى عنهم القول بتصويب كل مجتهد والقول بوحدة الحق وتخطئة البعض، وعد في الأحكام الأشعري ممن يقول كذلك. ورد بأن الله تعالى خصص سليمان بفهم الحق في الواقعة بقوله سبحانه: ﴿ففهمناها سليمان﴾ وذلك يدل على عدم فهم داود عليه السلام ذلك فيها وإلا لما كان التخصيص مفيداً. وتعقبه الآمدي بقوله: ولقائل أن يقول: إن غاية ما في قوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾ تخصيصه عليه السلام بالتفهيم ولا دلالة له على عدم ذلك في حق داود عليه السلام إلا بطريق المفهوم وليس بحجة وإن سلمنا أنه حجة غير أنه قد روي أنهما حكما بالنص حكماً واحداً ثم نسخ الله تعالى الحكم في مثل تلك القضية في المستقبل وعلم سليمان بالنص الناسخ دون داود عليهما السلام فكان هذا هو الفهم الذي أضيف إليه، والذي يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ ولو كان أحدهما مخطئاً لما كان قد أوتي في تلك الواقعة حكماً وعلماً وإن سلمنا أن حكمهما كان مختلفاً لكن يحتمل أنهما حكما بالاجتهاد مع الإذن

فيه وكانا محقين في الحكم إلا أنه نزل الوحي على وفق ما حكم به سليمان عليه السلام فصار ما حكم به حقاً متعيناً بنزول الوحي به ونسب التفهيم إلى سليمان عليه السلام بسبب ذلك، وإن سلمنا أن داود عليه السلام كان مخطئاً في تلك الواقعة غير أنه كان فيها نص أطلع عليه سليمان دون داود، ونحن نسلم الخطأ في مثل هذه الصورة وإنما النزاع فيما إذا حكما بالاجتهاد وليس في الواقعة نص انتهى.

وأكثر الأخبار تساعد أن الذي ظفر بحكم الله تعالى في هذه الواقعة هو سليمان عليه السلام، وما ذكر لا يخلو مما فيه نظر فانظر وتأمل ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ شروع في بيان ما يختص بكل منهما عليهما السلام من كراماته تعالى إثر ذكر الكرامة العامة لهما عليهما السلام ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يقدسن الله تعالى بلسان القال كما سبح الحصا في كف رسول الله ﷺ وسمعه الناس، وكان عند الأكثرين يقول: سبحان الله تعالى، وكان داود عليه السلام وحده يسمعه على ما قاله يحيى بن سلام، وقيل: يسمعه كل أحد وقيل: بصوت يظهر له من جانبها وليس منها وهو خلاف الظاهر وليس فيه من إظهار الكرامة ما في الأول بل إذا كان هذا هو الصدى(*) فليس بشيء أصلاً؛ ودونه ما قيل إن ذلك بلسان الحال، وقيل: ﴿يسبحن﴾ بمعنى يسرن من السباحة. وتعقب بمخالفته للظاهر مع أن هذا المعنى لم يذكره أهل اللغة ولا جاء في آية أخرى أو خبر سير الجبال معه عليه السلام.

وقيل: إسناد التسبيح إليهن مجاز لأنها كانت تسير معه فتحمل من رآها على التسبيح فأسند إليها وهو كما ترى.

وتأول الجبائي وعلي بن عيسى جعل التسبيح بمعنى السير بأنه مجاز لأن السير سبب له فلا حاجة إلى القول بأنه من السباحة ومع هذا لا يخفى ما فيه، والجملة في موضع الحال من ﴿الجبال﴾ أو استئناف مبين لكيفية التسخير و ﴿مع﴾ متعلقة بالتسخير، وقال أبو البقاء: يسبحن وهو نظير قوله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه﴾ [سبأ: ١٠] والتقديم للتخصيص ويعلم منه ما في حمل التسبيح على التسبيح بلسان الحال وعلى ما يكون بالصدى ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على ﴿الجبال﴾ أو مفعول معه، وفي الآثار تصريح بأنها كانت تسبح معه عليه السلام كالجبال. وقرىء «والطيرُ» بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي والطير مسخرات، وقيل: على العطف على الضمير في ﴿يسبحن﴾ ومثله جائز عند الكوفيين، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ تذييل لما قبله أي من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وإن كان بديعاً عندكم ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ أي عمل الدرع وأصله كل ما يلبس، وأنشد ابن السكيت:

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

وقيل: هو اسم للسلاح كله درعاً كان أو غيره، واختاره الطبرسي وأنشد للهذلي يصف رمحاً:

ومعي لبوس[1] للبئيس كأنه روق بجبهة ذي نعاج محفل

قال قتادة: كانت الدروع قبل ذلك صفائح فأول من سردها وحلقها داود عليه السلام فجمعت الخفة والتحصين، ويروى أنه نزل ملكان من السماء فمرا به عليه السلام فقال أحدهما للآخر: نعم الرجل داود إلا أنه يأكل من بيت المال فسأل الله تعالى أن يرزقه من كسبه فألان له الحديد فصنع منه الدرع، وقرىء «لُبوس» بضم اللام ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة للبوس، وجوز أبو البقاء تعلقه بعلمنا أو بصنعة.

وقوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ متعلق بعلمنا أو بدل اشتمال من ﴿لكم﴾ بإعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص

---

(١) أي الشجاع وروق أي قرن اهـ منه.

والمنفعة المستفادة من لام ﴿لكم﴾ والضمير المستتر للبوس، والتأنيث بتأويل الدرع وهي مؤنث سماعي أو للصنعة.

وقرأ جماعة «ليحصنكم» بالياء التحتية على أن الضمير للبوس أو لداود عليه السلام قيل أو التعليم، وجوز أن يكون لله تعالى على سبيل الالتفات، وأيد بقراءة أبي بكر عن عاصم «لنحصنكم» بالنون، وكل هذه القراءات بإسكان الحاء والتخفيف. وقرأ الفقيمي عن أبي عمرو، وابن أبي حماد عن أبي بكر بالياء التحتية وفتح الحاء وتشديد الصاد، وابن وثاب والأعمش بالتاء الفوقية والتشديد ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ قيل أي من حرب عدوكم، والمراد مما يقع فيها، وقيل الكلام على تقدير مضاف أي من آلة بأسكم كالسيف ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أمر وارد صورة الاستفهام لما فيه من التقريع بالإيماء إلى التقصير في الشكر والمبالغة بدلالته على أن الشكر مستحق الوقوع بدون أمر فسأل عنه هل وقع ذلك الأمر اللازم الوقوع أم لا ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِيحَ﴾ أي وسخرنا له الريح، وجيء باللام هنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت فإن تسخير ما سخر له عليه السلام كان بطريق الانقياد الكلي له والامتثال بأمره ونهيه بخلاف تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فإنه كان بطريق التبعية والاقتداء به عليه السلام في عبادة الله عز وجل ﴿عَاصِفَةً﴾ حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أي وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب، ولا ينافي وصفها بذلك هنا وصفها في موضع آخر بأنها رخاء بمعنى طيبة لينة لأن الرخاء وصف لها باعتبار نفسها والعصف وصف لها باعتبار قطعها المسافة البعيدة في زمان يسير كالعاصفة في نفسها فهي مع كونها لينة تفعل فعل العاصفة.

ويجوز أن يكون وصفها بكل من الوصفين بالنسبة إلى الوقت الذي يريده سليمان عليه السلام فيه، وقيل وصفها بالرخاء في الذهاب ووصفها بالعصف بالإياب على عادة البشر في الإسراع إلى الوطن. فهي عاصفة في وقت رخاء في آخر. وقرأ ابن هرمز. وأبو بكر في رواية «الريحُ» بالرفع مع الإفراد.

وقرأ الحسن وأبو رجاء «الرياح» بالنصب والجمع، وأبو حيوة بالرفع والجمع، ووجه النصب ظاهر، وأما الرفع فعلى أن المرفوع مبتدأ والخبر هو الظرف المقدم و ﴿عاصفة﴾ حال من ضمير المبتدأ في الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار ﴿تَجْري بأمْرِه﴾ أي بمشيئته وعلى وفق إرادته وهو استعمال شائع، ويجوز أن يأمرها حقيقة ويخلق الله تعالى لها فهما لأمره كما قيل في مجيء الشجرة للنبي ﷺ حين دعاها، والجملة إما حال ثانية أو بدل من الأولى على ما قيل وقد مر لك غير بعيد الكلام في إبدال الجملة من المفرد فتذكر أو حال من ضمير الأولى ﴿إِلَى الأرْض الَّتي بَارَكْنَا فيهَا﴾ وهي الشام كما أخرج ابن عساكر عن السدي، وكان عليه السلام مسكنه فيها فالمراد أنها تجري بأمره إلى الشام رواحاً بعدما سارت به منها بكرة، ولشيوع كونه عليه السلام ساكناً في تلك الأرض لم يذكر جريانها بأمره منها واقتصر على ذكر جريانها إليها وهو أظهر في الامتنان، وقيل كان مسكنه اصطخر وكان عليه السلام يركب الريح منها فتجري بأمره إلى الشام.

وقيل: يحتمل أن تكون الأرض أعم من الشام، ووصفها بالبركة لأنه عليه السلام إذا حل أرضاً أمر بقتل كفارها وإثبات الإيمان فيها وبث العدل ولا بركة أعظم من ذلك، ويعد أن المتبادر كون تلك الأرض مباركاً فيها قبل الوصول إليها وما ذكر يقتضي أن تكون مباركاً فيها من بعده وأبعد جداً منذر بن سعيد بقوله: إن الكلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿إلى الأرض﴾ والتي باركنا فيها صفة للريح؛ وفي الآية تقديم وتأخير، والأصل ولسليمان الريح التي باركنا فيها عاصفة تجري بأمره بل لا يخفى أنه لا ينبغي أن يحمل كلام الله تعالى العزيز على مثل ذلك وكلام أدنى البلغاء يجل عنه، ثم الظاهر أن المراد بالريح هذا العنصر المعروف العام لجميع أصنافه المشهورة، وقيل: المراد بها الصبا.

وفي بعض الأخبار ما ظاهره ذلك، فعن مقاتل أنه قال: نسجت لسليمان عليه السلام الشياطين بساطاً من ذهب

وإبريسم فرسخاً في فرسخ ووضعت له منبراً من ذهب يقعد عليه وحوله كراسي من ذهب يقعد عليها الأنبياء عليهم السلام وكراسي من فضة يقعد عليها العلماء وحولهم سائر الناس وحول الناس الجن والشياطين والطير تظله من الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح.

وما ذكر من أنه يحمل على البساط هو المشهور ولعل ذلك في بعض الأوقات وإلا فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال: كان لسليمان عليه السلام مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت يركب معه فيه الجن والإنس تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به فساروا معه فلا يدري القوم إلا وقد أظلهم منه الجيوش والجنود، وقيل في وجه الجمع إن البساط في المركب المذكور وليس بذاك.

وذكر عن الحسن أن إكرام الله تعالى لسليمان عليه السلام بتسخير الريح لما فعل بالخيل حين فاتته بسببها صلاة العصر وذلك أنه تركها لله تعالى فعوضه الله سبحانه خيراً منها من حيث السرعة مع الراحة، ومن العجب أن أهل لندن قد أتعبوا أنفسهم منذ زمان بعمل سفينة تجري مرتفعة في الهواء إلى حيث شاؤوا بواسطة أبخرة يحبسونها فيها اغتراراً بما ظهر منذ سنوات من عمل سفينة تجري في الماء بواسطة آلات تحركها أبخرة فيها فلم يتم لهم ذلك ولا أظنه يتم حسب إرادتهم على الوجه الأكمل، وأخبرني بعض المطلعين أنهم صنعوا سفينة تجري في الهواء لكن لا إلى حيث شاؤوا بل إلى حيث ألقت رحلها ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ فما أعطيناه ما أعطيناه إلا لما نعلمه من الحكمة ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ فمن في موضع نصب لسخرنا، وجوز أن تكون في موضع رفع على الابتداء وخبره ما قبله، وهي على الوجهين على ما استظهره أبو حيان موصولة وعلى ما اختاره جمع نكرة موصوفة، ووجه اختيار ذلك على الموصولية أنه لا عهد هنا، وكون الموصول قد يكون للعهد الذهني خلاف الظاهر، وجيء بضمير الجمع نظراً للمعنى، وحسنه تقدم جمع قبله، والغوص الدخول تحت الماء وإخراج شيء منه، ولما كان الغائص قد يغوص لنفسه ولغيره قيل: ﴿لَهُ﴾ للإيذان بأن الغوص ليس لأنفسهم بل لأجله عليه السلام. وقد كان عليه السلام يأمرهم فيغوصون في البحار ويستخرجون له من نفائسه ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ له ﴿عَمَلًا﴾ كثيراً ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ما ذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾ [سبأ: ١٣] الآية، قيل: إن الحمام والنورة والطاحون والقوارير والصابون من أعمالهم، وذكر ذلك الإمام الرازي في التفسير، لكن في كون الصابون من أعمالهم خلافاً. ففي التذكرة الصابون من الصناعة القديمة قيل وجد في كتب هرمس وأندوخيا وهو الأظهر. وقيل: من صناعة بقراط وجالينوس انتهى. وقيل: هو من صناعة الفارابي وأول ما صنعه في دمشق الشام ولا يصح ذلك، وما اشتهر أن أول من صنعه البوني فمن كذب العوام وخرافاتهم، ثم هؤلاء إما الفرقة الأولى أو غيرها لعموم كلمة ﴿مَن﴾ كأنه قيل: ومن يعملون، والشياطين أجسام لطيفة نارية عاقلة، وحصول القدرة على الأعمال الشاقة في الجسم اللطيف غير مستبعد فإن ذلك نظير قلع الهواء الأجسام الثقيلة، وقال الجبائي: إنه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد في عظمهم ليكون ذلك معجزة لسليمان عليه السلام فلما توفي ردّهم إلى خلقتهم الأولى لئلا يفضي إبقاؤهم إلى تلبيس المتنبي وهو كلام ساقط عن درجة القبول كما لا يخفى.

والظاهر أن المسخرين كانوا كفاراً لأن لفظ الشياطين أكثر اطلاقاً عليهم، وجاء التنصيص عليه في بعض الروايات ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا، وقال الزجاج: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوه بالنهار، وقيل حافظين لهم من أن يهيجوا أحداً؛ والأنسب بالتذييل ما تقدم وذكر في حفظهم

أنه وكل بهم جمعاً من الملائكة عليهم السلام وجمعاً من مؤمني الجن، هذا وفي قصتي داود وسليمان عليهما السلام ما يدل على عظم قدرة الله تعالى.

قال الإمام: وتسخير أكثف الأجسام لداود عليه السلام وهو الحجر إذ أنطقه الله تعالى بالتسبيح والحديد إذ ألانه سبحانه له وتسخير ألطف الأجسام لسليمان عليه السلام وهو الريح والشياطين وهم من نار وكانوا يغوصون في الماء فلا يضرهم دليل واضح على باهر قدرته سبحانه وإظهار الضد من الضد وإمكان إحياء العظم الرميم وجعل التراب اليابس حيواناً فإذا أخبر الصادق بوقوعه وجب قبوله واعتقاده ﴿وأيوب﴾ الكلام فيه كما مر في قوله تعالى: ﴿وداود وسليمان﴾ ﴿إذ نادى ربه أني﴾ أي بأني ﴿مَسَّنيَ الضُّرُّ﴾ وقرأ عيس بن عمر بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين أي قائلاً إني، ومذهب الكوفيين إجراء نادى مجرى قال، والضر بالفتح شائع في كل ضرر وبالضم خاص بما في النفس من مرض وهزال ونحوهما ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ أي وأنت أعظم رحمة من كل من يتصف بالرحمة في الجملة وإلا فلا راحم في الحقيقة سواه جل شأنه وعلا، ولا يخفى ما في وصفه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها مكتفياً بذلك عن عرض الطلب من استمطار سحائب الرحمة على ألطف وجه.

ويحكى في التلطف في الطلب أن امرأة شكت إلى بعض ولد سعد بن عبادة قلة الفار في بيتها فقال: املؤوا بيتها خبزاً وسمناً ولحماً، وهو عليه السلام على ما قال ابن جرير: ابن اموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام وأن أباه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام فعلى هذا كان قبل موسى عليه السلام، وقال ابن جرير: كان بعد شعيب عليه السلام، وقال ابن أبي خيثمة، كان بعد سليمان عليه السلام.

وأخرج ابن سعد عن الكلبي قال أول نبي بعث إدريس ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسماعيل وإسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى. وهارون ثم الياس ثم اليسع ثم يونس ثم أيوب عليهم السلام، وقال ابن اسحاق: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل ولم يصح في نسبه شيء إلا أن اسم أبيه أموص.

وكان عليه السلام على ما أخرج الحاكم من طريق سمرة عن كعب طويلاً جعد الشعر واسع العينين حسن الخلق قصير العنق عريض الصدر غليظ الساقين والساعدين وكان قد اصطفاه الله تعالى وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله فكان له سبعة بنين وسبع بنات وله أصناف البهائم وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده بهدم بيت عليهم وبذهاب أمواله وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعاً وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات أو ثلاث سنين، وعمره إذ ذاك سبعون سنة، وقيل ثمانون سنة، وقيل أكثر، ومدة عمره على ما روى الطبراني ثلاث وتسعون سنة وقيل أكثر. روي أن امرأته وكونها ماضر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت أفرائيم بن يوسف إنما يتسنى على بعض الروايات السابقة في زمانه عليه السلام. قالت له يوماً: لو دعوت الله تعالى فقال: كم كانت مدة الرخاء فذكرت مدة كثيرة وفي بعض الروايات ثمانين سنة فقال عليه السلام: أستحي من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي. وروي أن إبليس عليه اللعنة أتاها على هيئة عظيمة فقال لها: أنا إله الأرض فعلت بزوجك ما فعلت لأنه تركني وعبد إله السماء فلو سجد لي سجدة رددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما.

وفي رواية لو سجدت لي سجدة لرددت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت إلى أيوب عليه السلام وكان ملقى في الكناسة ببيت المقدس لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام: لعلك افتتنت بقول اللعين لئن عافاني الله عز وجل لأضربنك مائة سوط وحرام عليّ أن أذوق بعد هذا من طعامك وشرابك شيئاً فطردها فبقي طريحاً

في الكناسة لا يحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجداً فقال: ﴿رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ وأخرج ابن عساكر عن الحسن أنه عليه السلام قال ذلك حين مر به رجلان فقال أحدهما لصاحبه: ولو كان لله تعالى في هذا حاجة ما بلغ به هذا كله فسمع عليه السلام فشق عليه فقال: ﴿رب﴾ الخ، وروى أنس مرفوعاً أنه عليه السلام نهض مرة ليصلي فلم يقدر على النهوض فقال ﴿رب﴾ الخ وقيل غير ذلك ولعل هذا الأخير أمثل الأقوال، وكان عليه السلام بلاؤه في بدنه في غاية الشدة، فقد أخرج ابن جرير عن وهب بن منبه قال: كان يخرج في بدنه مثل ثدي النساء ثم يتفقأ، وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن أنه قال: ما كان بقي من أيوب عليه السلام إلا عيناه وقلبه ولسانه فكانت الدواب تختلف في جسده، وأخرج أبو نعيم. وابن عساكر عنه أن الدودة لتقع من جسد أيوب عليه السلام فيعيدها إلى مكانها ويقول: كلي من رزق الله تعالى، وما أصاب منه إبليس في مرضه كما أخرج البيهقي في الشعب إلا الأنين، وسبب ابتلائه على ما خرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه استعان به مسكين على درء ظلم عنه فلم يعنه.

وأخرج ابن عساكر عن أبي ادريس الخولاني في ذلك أن الشام أجدب فكتب فرعون إليه عليه السلام أن هلم إلينا فإن لك عندنا سعة فأقبل بما عنده فأقطعه أرضاً فاتفق أن دخل شعيب على فرعون وأيوب عليه السلام عنده فقل: أما تخاف أن يغضب الله تعالى غضبه فيغضب لغضبه أهل السماوات والأرض والجبال والبحار فسكت أيوب فلما خرجا من عنده أوحى الله تعالى إلى أيوب أوَسَكتّ عن فرعون لذهابك إلى أرضه استعد للبلاء قال: فديني قال سبحانه: أسلمه لك قال: لا أبالي، والله تعالى أعلم بصحة هذه الأخبار، ثم إنه عليه السلام لما سجد فقال ذلك قيل له: ارفع رأسك فقد استجيب لك أركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه دابة إلا سقطت ولا جراحة إلا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج وعاد صحيحاً ورجع إليه شبابه وجماله وذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ ثم كسى حلة وجلس على مكان مشرف ولم تعلم امرأته بذلك فأدركتها الرقة عليه فقالت في نفسها: هب أنه طردني أفأتركه حتى يموت جوعاً وتأكله السباع لأرجعن فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال فجعلت تطوف حيث الكناسة وتبكي وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأله فدعاها أيوب عليه السلام فقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أريد ذلك المبتلي الذي كان ملقى على الكناسة قال لها: ما كان منك؟ فبكت وقالت: بعلي قال: أتعرفينه إذا رأيته؟ قالت: وهل يخفى عليّ فتبسم فقال: أنا ذلك فعرفته بضحكة فاعتنقته ﴿وآتَيناَ أَهْلَهُ ومِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ الظاهر أنه عطف على ﴿كشفنا﴾ فيلزم أن يكون داخلاً معه في حيز تفصيل استجابة الدعاء، وفيه خفاء لعدم ظهور كون الاتيان المذكور مدعواً به وإذا عطف على ﴿استجبنا﴾ لا يلزم ذلك، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية، أخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وآتيناه﴾ الخ قال: رد الله تعالى امرأته إليه وزاد في شبابها حتى ولدت له ستاً وعشرين ذكراً» فالمعنى على هذا آتيناه في الدنيا مثل أهله عدداً مع زيادة مثل آخر، وقال ابن مسعود والحسن وقتادة في الآية: إن الله تعالى أحيى له أولاده الذين هلكوا في بلائه وأوتي مثلهم في الذنيا، والظاهر أن المثل من صلبه عليه السلام أيضاً، وقيل: كانوا نوافل؛ وجاء في خبر أنه عليه السلام كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فأفرغت أحداهما في أندر القمح الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في اندر الشعير الورق حتى فاض، وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بينما أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه السلام يحثي في ثوبه فناداه ربه سبحانه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى: قال: بلى وعزتك لكن لا غنى بي عن

بركتك، وعاش عليه السلام بعد الخلاص من البلاء على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سبعين سنة، ويظهر من هذا مع القول بأن عمره حين أصابه البلاء سبعون أن مدة عمره فوق ثلاث وتسعين بكثير، ولما مات عليه السلام أوصى إلى ابنه حرمل كما روي عن وهب، والآية ظاهرة في أن الأهل ليس المرأة ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ أي وآتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب عليه السلام وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب، فرحمة نصب على أنه مفعول له و ﴿للعابدين﴾ متعلق بذكرى، وجوز أن يكون ﴿رحمة﴾ ﴿وذكرى﴾ تنازعا فيه على معنى وآتيناه العابدين الذين من جملتهم أيوب عليه السلام وذكرنا إياهم بالإحسان وعدم نسياننا لهم.

وجوّز أبو البقاء نصب «رحمة» على المصدر وهو كما ترى ﴿وَاسْمَاعِيلَ وَادْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي واذكرهم؛ وظاهر نظم ذي الكفل في سلك الأنبياء عليهم السلام أنه منهم وهو الذي ذهب إليه الأكثر، واختلف في اسمه فقيل بشر وهو ابن أيوب عليه السلام بعثه الله تعالى نبياً بعد أبيه وسماه ذا الكفل وأمره سبحانه بالدعاء إلى توحيده، وكان مقيماً بالشام عمره ومات وهو ابن خمس وسبعين سنة وأوصى إلى ابنه عبدان[1] وأخرج ذلك الحاكم عن وهب، وقيل هو الياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى بن عمران عليهم السلام، وصنيع بعضهم يشعر باختياره، وقيل يوشع بن نون، وقيل اسمه ذو الكفل، وقيل هو زكريا حكى كل ذلك الكرماني في العجائب، وقيل هو اليسع بن أخطوب بن العجوز، وزعمت اليهود أنه حزقيال وجاءته النبوة وهو في وسط سبي بختنصر على نهر خوبار.

وقال أبو موسى الأشعري ومجاهد: لم يكن نبياً وكان عبداً صالحاً استخلفه. على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد. اليسع عليه السلام بشرط أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ففعل ولم يذكر مجاهد ما اسمه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: كان قاضياً في بني إسرائيل فحضره الموت فقال: من يقوم مقامي على أن لا يغضب؟ فقال رجل: أنا يسمى ذا الكفل الخبر، وأخرج عن ابن حجيرة الأكبر كان ملك من ملوك بني إسرائيل فحضرته الوفاة فأتاه رؤوس بني إسرائيل فقالوا: استخلف علينا ملكاً نفزع إليه فقال: من تكفل لي بثلاث فأوليه ملكي؟ فلم يتكلم إلا فتى من القوم قال: أنا فقال: إجلس ثم قالها ثانية فلم يتكلم أحد إلا الفتى فقال: تكفل لي بثلاث وأوليك ملكي تقوم الليل فلا ترقد وتصوم فلا تفطر وتحكم فلا تغضب قال: نعم قال: قد وليتك ملكي الخبر، وفيه كذا في الخبر السابق قصة إرادة إبليس عليه اللعنة إغضابه وحفظ الله تعالى إياه منه، والكفل الكفالة والحظ والضعف، وإطلاق ذلك عليه إن لم يكن اسمه إما لأنه تكفل بأمر فوفى به، وإما لأنه كان له ذا حظ من الله تعالى، وقيل لأنه كان له ضعف عمل الأنبياء عليهم السلام في زمانه وضعف ثوابهم.

ومن قال إنه زكريا عليه السلام قال: إن إطلاق ذلك عليه لكفالته مريم وهو داخل في الوجه الأول، وفي البحر وقيل: في تسميته ذا الكفل أقوال مضطربة لا تصح والله تعالى أعلم.

﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من هؤلاء ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي على مشاق التكاليف وشدائد النوب ويعلم هذا من ذكر هؤلاء بعد أيوب عليهم السلام، والجملة استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من الأمر بذكرهم ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ الكلام فيه على طرز ما سبق من نظيره آنفاً.

﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح لعصمتهم من الذنوب. والجملة في موضع التعليل وليس فيه تعليل الشيء بنفسه من غيره حاجة إلى جعل من ابتدائية كما يظهر بأدنى نظر ﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي واذكر صاحب الحوت

---

(١) ثم بعث الله تعالى شعيباً اهـ منه.

يونس عليه السلام ابن متى وهو اسم أبيه على ما في صحيح البخاري وغيره وصححه ابن حجر قال: ولم أقف في شيء من الأخبار على اتصال نسبه، وقد قيل إنه كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس، وقال ابن الأثير كغيره إنه، اسم أمه ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه غيره وغير عيسى عليهما السلام.

واليهود قالوا بما تقدم إلا أنهم سموه يونه بن اميتاي، وبعضهم يقول يونان بن امافي، والنون الحوت كما أشرنا إليه ويجمع على نينان كما في البحر وأنوان أيضاً كما في القاموس.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ أي غضبان على قومه لشدة شكيمتهم وتمادى إصرارهم مع طول دعوته إياهم، وكان ذهابه هذا هجرة عنهم لكنه لم يؤمر به. وقيل: غضبان على الملك حزقيل، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً فأوحى الله تعالى إلى شعياء النبي أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له يوجه خمسة من الأنبياء لقتال هذا الملك فقال: أوجه يونس بن متى فإنه قوي أمين فدعاه الملك يخرج فقال يونس: هل أمرك الله تعالى بإخراجي؟ قال: لا قال: هل سماني لك؟ قال: لا فقال يونس: فها هنا أنبياء غيري فألحوا عليه فخرج مغاضباً فأتى بحر الروم فوجد قوماً هيؤوا سفينة فركب معهم فلما وصلوا اللجة تكفأت بهم السفينة وأشرفت على الغرق فقال الملاحون: معنا رجل عاص أو عبد آبق ومن رسمنا إذا ابتلينا بذلك أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة القيناه في البحر لئن يغرق أحدنا خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فها كلها على يونس عليه لسلام فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق فألقى نفسه في البحر فجاءت حوت فابتلعته فأوحى الله تعالى إليها أن لا تؤذيه بشعرة فإني جعلت بطنك سجناً له ولم أجعله طعاماً ثم نجاه الله تعالى من بطنها ونبذه بالعراء وقد رق جلده فأنبت عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقال له: أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم؟ فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يذهب إليهم فتوجه نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم وقال لملكهم: إن الله تعالى أرسلني إليك فأرسل معي بني إسرائيل قالوا: ما نعرف ما تقول ولو علمنا علمنا أنك صادق لفعلنا وقد آتيناكم في دياركم وسبيناكم فلو كان الأمر كما تقول لمنعنا الله تعالى عنكم فطاف فيهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى إليه قل لهم إن لم يؤمنوا جاءهم العذاب فأبلغهم فأبوا فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس عليه السلام للعلماء الذين عندهم فقالوا: انظروا واطلبوه في المدينة فإن كان فيها فليس كما ذكر من نزول العذاب وإن كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم: إنه خرج العشية فلما أيسوا غلقوا باب مدينتهم ولم يدخلوا فيها دوابهم ولا غيرها وعزلوا كل واحدة عن ولدها وكذا الصبيان والأمهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح نزل العذاب من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها وصاحت الصبيان والدواب فرفع الله تعالى العذاب عنهم فبعثوا إلى يونس حتى لقوه فآمنوا به وبعثوا معه بني إسرائيل، وقيل مغاضباً لربه عز وجل، وحكي في هذه المغاضبة كيفيات؛ وتعقب ذلك في البحر بأنه يجب إطراح هذا القول إذ لا يناسب ذلك منصب النبوة وينبغي أن يتأول لمن قال ذلك من العلماء كالحسن والشعبي وابن جبير وغيرهم من التابعين. وابن مسعود من الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأن يكون معنى قولهم لربه لأجل ربه تعالى وحمية لدينه، فاللام لام العلة لا اللام الموصلة للمفعول به انتهى.

وكون المراد مغاضباً لربه عز وجل مقتضى زعم اليهود فإنهم زعموا أن الله تعالى أمره أن يذهب إلى نينوى وينذر أهلها فهرب إلى ترسيس من ذلك وانحدر إلى يافا ونزل في السفينة فعظمت الأمواج وأشرفت السفينة على

الغرق فاقترع أهلها فوقعت القرعة عليه فرمى بنفسه إلى البحر فالتقمه الحوت ثم ألقاه وذهب إلى نينوى فكان ما كان، ولا يخفى أن مثل هذا الهرب مما يجل عنه الأنبياء عليهم السلام واليهود قوم بهت.

ونصب ﴿مغاضباً﴾ على الحال وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً نحو عاقبت اللص وسافرت، وكأنه استعمل ذلك هنا للمبالغة؛ وقيل المفاعلة على ظاهرها فإنه عليه السلام غضب على قومه لكفرهم وهم غضبوا عليه بالذهاب لخوفهم لحوق العذاب. وقرأ أبو سرف «مغضباً» اسم مفعول ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي إنه أي الشأن لن نقدر ونقضي عليه بعقوبة ونحوها أولن نضيق عليه في أمره بحبس ونحوه، ويؤيد الأول قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري «نُقَدِّرَ» بالنون مضمومة وفتح القاف وكسر الدال مشددة، وقراءة علي كرم الله تعالى وجهه. واليماني «يُقَدَّرُ» بضم الياء و فتح القاف والدال مشددة فإن الفعل فيهما من التقدير بمعنى القضاء والحكم كما هو المشهور، ويجوز أن يكون بمعنى التضيق فإنه ورد بهذا المعنى أيضاً كما ذكره الراغب، وظن معاوية رضي الله تعالى عنه أنه من القدرة فاستشكل ذلك إذ لا يظن أحد فضلاً عن النبي عليه السلام عدم قدرة الله تعالى عليه وفزع إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأجابه بما ذكرناه أولاً؛ وجوّز أن يكون من القدرة وتكون مجازاً عن أعمالها أي فظن أن لن نعمل قدرتنا فيه أو يكون الكلام من باب التمثيل أي فعل فعل من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا، وقيل: يجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه عليه السلام بوسوسة الشيطان ثم يردعه ويرد بالبرهان كما يفعل المؤمن المحقق نزعات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت، ومنه ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ [الأحزاب: ٨] والخطاب للمؤمنين. وتعقبه صاحب الفرائد بأن مثله عن المؤمن بعيد فضلاً عن النبي المعصوم لأنه كفر، وقوله تعالى: ﴿تظنون﴾ الخ ليس من هذا القبيل على أنه شامل للخاص وغيرهم، وبأن ما هجس ولم يستقر لا يسمى ظناً، وبأن الخواطر لا عتب عليها، وبأنه لو كان حامله على الخروج لم يكن من قبيل الوسوسة. وأجيب بأن الظن بمعنى الهجس في الخاطر من غير ترجيح مجاز مستعمل والعتب على ذهابه مغاضباً ولا وجه لجعله حاملاً على الخروج؛ ومع هذا هو وجه لا وجاهة له. وقرأ ابن أبي ليلى وأبو سرف والكلبي وحميد بن قيس ويعقوب «يُقْدَرَ» بضم الياء وفتح الدال مخففاً، وعيسى والحسن بالياء مفتوحة وكسر الدال.

﴿فَنَادَى﴾ الفاء فصيحة أي فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت جعلت الظلمة لشدتها كأنها ظلمات، وأنشد السيرافي:

وليل تقول الناس في ظلماته ... سواء صحيحات العيون وعورها

أو الجمع على ظاهره والمراد ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، وقيل: ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمتي البحر والليل ﴿أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت على أن أن مخففة من الثقيلة والجار مقدر وضمير الشأن محذوف أو أي لا إله إلا أنت على أنها مفسرة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يعجزك شيء أو أن يكون ابتلائي بهذا من غير سبب من جهتي ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضهم للهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة من غير أمر على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام، وهذا اعتراف منه عليه السلام بذنبه وإظهار لتوبته ليفرج عنه كربته.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ﴾

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾
وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ
هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا
رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ
كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ
أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا
وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ
لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي دعاءه الذي دعاه في ضمن الاعتراف وإظهار التوبة على ألطف وجه وأحسنه. أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحكيم في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن جرير والبيهقي في الشعب وجماعة عن سعد ابن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعوه ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له» وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أن ذلك اسم الله تعالى الأعظم، وأخرج ذلك الحاكم عن سعد مرفوعاً، وقد شاهدت أثر الدعاء به ولله تعالى الحمد حين أمرني بذلك من أظن ولايته من الغرباء المجاورين في حضرة الباز الأشهب وكان قد أصابني من البلاء ما الله تعالى أعلم به وفي شرحه طول وأنت ملول.

وجاء عن أنس مرفوعاً أنه عليه السلام حين دعا بذلك أقبلت دعوته تحف بالعرش فقالت الملائكة عليهم السلام: هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب ومن هو؟ قال: ذاك عبدي يونس قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء قال: بلى فأمر الحوت فطرحه وذلك قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي الذي ناله حين التقمه الحوت بأن قذفه إلى الساحل بعد ساعات. قال الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية، وعن قتادة أنه بقي في بطنه ثلاثة أيام وهو الذي زعمته اليهود، وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه بقي سبعة أيام.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي مالك أنه بقي أربعين يوماً، وقيل المراد بالغم غم الخطيئة وما تقدم أظهر، ولم يقل جل شأنه فنجيناه كما قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام فكشفنا. قال بعض الأجلة. لأنه دعا بالخلاص من الضر فالكشف المذكور يترتب على استجابته ويونس عليه السلام لم يدع فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته. ورد بأن الفاء في قصة أيوب عليه السلام تفسيرية والعطف هنا أيضاً تفسيري والتفنن طريقة مسلوكة في البلاغة، ثم لا نسلم أن يونس عليه السلام لم يدع ولو لم يكن منه دعاء لم تتحقق الاستجابة اهـ.

وتعقبه الخفاجي بأنه لا محصل له، وكونه تفسيراً لا يدفع السؤال لأن حاصله لم أتى بالفاء ثمت ولم يؤت بها هنا؟ فالظاهر أن يقال: إن الأول دعاء بكشف الضر على وجه التلطف فلما أجمل في الاستجابة وكان السؤال بطريق الإيماء ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية، وأما هنا فلما هاجر عليه السلام من غير أمر كان ذلك ذنباً بالنسبة إليه عليه السلام كما أشار إليه بقوله: ﴿إني كنت من الظالمين﴾ فما أوحي إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه فالاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته، وليس ما بعده تفسيراً له بل زيادة إحسان على مطلوبه ولذا عطف بالواو اهـ ولا يخفى أن ما ذكره لا يتسنى في قوله تعالى: ﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ [الأنبياء: ٧٦] وقوله سبحانه: ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى﴾ [الأنبياء: ٩٠] إذ لم يكن سؤال نوح عليه السلام بطريق الإيماء مع أنه قال تعالى في قصته ﴿فنجينا﴾ بالفاء وزكريا عليه السلام لم يصدر منه ما يعد ذنباً بالنسبة إليه ليتلطف في سؤال عدم المؤاخذة مع أنه قال سبحانه في قصته ﴿ووهبنا﴾ بالواو فلا بد حينئذ من بيان نكتة غير ما ذكر للتعبير في كل موضع من هذين الموضعين بما عبر، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما ذكره الشهاب في الآية الأخيرة، وربما يقال: إنه جيء بالفاء التفصيلية في قصتي نوح وأيوب عليهما السلام اعتناء بشأن الاستجابة لمكان الإجمال والتفصيل لعظم ما كانا فيه وتفاقمه جداً، ألا ترى كيف يضرب المثل ببلاء أيوب عليه السلام حيث كان في النفس والأهل والمال واستمر إلى ما شاء الله تعالى وكيف وصف الله تعالى ما نجى الله سبحانه منه نوحاً عليه السلام حيث قال عز وجل ﴿فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ ولا كذلك ما كان فيه ذو النون وزكريا عليهما السلام بالنسبة إلى ذلك فلذا جيء في آيتيهما بالواو وهي وإن جاءت للتفسير لكن مجيء الفاء لذلك أكثر. ولا يبعد عندي ما ذكره الخفاجي في هذه الآية من كون الاستجابة عبارة عن قبول توبته عليه السلام والتنجية زيادة إحسان على مطلوبه ويقال فيما سيأتي ما ستسمعه إن شاء الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء الكامل ﴿نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من غموم دعوا الله تعالى فيها بالإخلاص لا إنجاء أدنى منه.

وقرأ الجحدري «نُنَجِّي» مشدداً مضارع نجي. وقرأ ابن عامر وأبو بكر «نُجِّي» بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم وإسكان الياء، واختار أبو عبيدة هذه القراءة على القراءة بنونين لكونها أوفق بالرسم العثماني لما أنه بنون واحدة، وقال أبو علي في الحجة: روي عن أبي عمرو «نجي» بالادغام والنون لا تدغم في الجيم وإنما أخفيت لأنها ساكنة تخرج من الخياشيم فحذفت من الكتاب وهي في اللفظ، ومن قال: تدغم فقد غلط لأن هذه النون تخفى مع حروف الفم وتسمى الأحرف الشجرية وهي الجيم والشين. الضاد وتبيينها لحر فلما أخفي ظن السامع أنه مدغم انتهى.

وقال أبو الفتح ابن جني: أصله ننجي كما في قراءة الجحدري فحذفت النون الثانية لتوالي المثلين والأخرى جيء بها لمعنى والثقل إنما حصل بالثانية وذلك كما حذفت التاء الثانية في ﴿تظاهرون﴾ [الأحزاب: ٤] ولا يضر كونها أصلية وكذا لا يضر عدم اتحاد حركتها مع حركة النون الأولى فإن الداعي إلى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الإدغام فقول أبي البقاء: إن هذا التوجيه ضعيف لوجهين، أحدهما أن النون الثانية أصل وهي فاء الكلمة فحذفها يبعد جداً، والثاني أن حركتها غير حركة النون الأولى فلا يستثقل الجمع بينهما بخلاف ﴿تظاهرون﴾ ليس في حيز القبول، وإنما امتنع الحذف في ﴿تتجافى﴾ [السجدة: ١٦] لخوف اللبس بالماضي بخلاف ما نحن فيه لأنه لو كان ماضياً لم يسكن آخره، وكونه سكن تخفيفاً خلاف الظاهر، وقيل هو فعل ماضى مبني لما لم يسم فاعله وسكنت الياء للتخفيف كما في قراءة من قرأ ﴿وذروا ما بقي من الربا﴾ [البقرة: ٢٧٨] وقوله:

هو الخليفة فارضوا ما رضي لكم ... ماضي العزيمة ما في حكمه جنف

ونائب الفاعل ضمير المصدر و ﴿المؤمنين﴾ مفعول به، وقد أجاز قيام المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول به الأخفش والكوفيون وأبو عبيد، وخرجوا على ذلك قراءة أبي جعفر ﴿ليجزي قوماً﴾ [الجاثية: ١٤] وقوله:

ولو ولدت فقيرة جرو كلب ... لسب بذلك الكلب الكلابا

والمشهور عن البصريين أنه متى وجد المفعول به لم يقم غيره مقام الفاعل، وقيل إن ﴿المؤمنين﴾ منصوب بإضمار فعل أي وكذلك نجي هو أي الانجاء ننجي المؤمنين، وقيل هو منصوب بضمير المصدر والكل كما ترى ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ أي واذكر خبره عليه السلام ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً﴾ أي وحيداً بلا ولد يرثني كما يشعر به التذييل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ولو كان المراد بلا ولد يصاحبني ويعاونني لقيل وأنت خير المعينين، والمراد بقوله تعالى: ﴿وأنت خير الوارثين﴾ وأنت خير حي يبقى بعد ميت، وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه عز وجل، وقيل أراد بذلك رد الأمر إليه سبحانه كأنه قال: إن لم ترزقني ولداً يرثني فأنت خير وارث فحسبي أنت.

واعترض بأنه لا يناسب مقام الدعاء إذ من آداب الداعي أن يدعو بجد واجتهاد وتصميم منه. ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ إذا دعا أحدكم فلا يقل: «اللهم اغفر لي إن شئت ارحمني إن شئت ارزقني إن شئت ليعزم مسألته فإن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له»، وفي رواية في صحيح مسلم «ولكن يعزم المسألة وليعزم الرغبة فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه» ويمكن أن يقال: ليس هذا من قبيل ارزقني إن شئت إذ ليس المقصود منه إلا إظهار الرضا والاعتماد على الله عز وجل لو لم يجب دعاءه وليس المقصود من ارزقني إن شئت ذلك فتأمل.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَه يَحْيَى﴾ وقد مر بيان كيفية ذلك ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي أصلحناها للمعاشرة بتحسن خلقها وكانت سيئة الخلق طويلة اللسان كما روي عن ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومحمد ابن كعب القرظي وعون بن عبد الله أو أصلحناها له عليه السلام برد شبابها إليها وجعلها ولوداً وكانت لا تلد كما روي عن ابن جبير وقتادة، وعلى الأول تكون هذه الجملة عطفاً على جملة ﴿استجبنا﴾ لأنه عليه السلام لم يدع بتحسين خلق زوجه.

قال الخفاجي: ويجوز عطفها على ﴿وهبنا﴾ وحينئذ يظهر عطفه بالواو لأنه لما فيه من الزيادة على المطلوب لا يعطف بالفاء التفصيلية، وعلى الثاني العطف على ﴿وهبنا﴾ وقدم هبة يحيى مع توقفها على إصلاح الزوج للولادة لأنها المطلوب الأعظم، والواو لا تقتضي ترتيباً فلا حاجة لما قيل: المراد بالهبة إرادتها، قال الخفاجي: ولم يقل سبحانه: فوهبنا لأن المراد الامتنان لا التفسير لعدم الاحتياج إليه مع أنه لا يلزم التفسير بالفاء بل قد يكون العطف التفسيري بالواو انتهى، ولا يخفى ما فيه فتدبر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ تعليل لما فصل من فنون احسانه المتعلقة بالأنبياء المذكورين سابقاً عليهم السلام، فضمائر الجمع للأنبياء المتقدمين.

وقيل: لزكريا. وزوجه ويحيى، والجملة تعليل لما يفهم من الكلام من حصول القربى والزلفى والمراتب العالية لهم أو استئناف وقع جواباً عن سؤال تقديره ما حالهم؟ والمعول عليه ما تقدم، والمعنى إنهم كانوا يجدون ويرغبون في أنواع الأعمال الحسنة وكثيراً ما يتعدى أسرع بفي لما فيه من معنى الجد والرغبة فليست في بمعنى إلى أو للتعليل ولا الكلام من قبيل.

يجرح في عراقيبها نصلي

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ أي راغبين في نعمنا وراهبين من نقمنا أو راغبين في قبول أعمالهم وراهبين من ردها، فرغباً ورهباً مصدران في موضع الحال بتأويلهما باسم الفاعل، ويجوز أن يكون ذلك بتقدير مضاف أي ذوي رغب،

ويجوز إبقاؤهما على الظاهر مبالغة، وجوز أن يكونا جمعين كخدم جمع خادم لكن قالوا: إن هذا الجمع مسموع في ألفاظ نادرة، وجوّز أن يكونا نصباً على التعليل أي لأجل الرغبة و الرهبة، وجوز أبو البقاء نصبهما على المصدر نحو قعدت جلوساً وهو كما ترى.

وحكى في مجمع البيان أن الدعاء رغبة ببطون الأكف ورهبة بظهورها، وقد قال به بعض علمائنا، والظاهر أن الجملة معطوفة على جملة ﴿يسارعون﴾ فهي داخلة معها في حيز ﴿كانوا﴾، وفي عدم إعادتها رمز إلى أن الدعاء المذكور من توابع تلك المسارعة، وقرأت فرقة «يدعونا» بحذف نون الرفع، وقرأ طلحة «يدعونّا» بنون مشددة أدغم نون الرفع في نون ضمير النصب، وقرأ «رَغْبَاً» «وَرَهْبَاً» بفتح الراء وإسكان ما بعدها و «رُغْبَاً» «ورُهْبَاً» بالضم والإسكان ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي مخبتين متصرعين أو دائمي الوجل، وحاصل التعليل أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ نصب نصب نظائره السابقة، وقيل رفع على الابتداء والخبر محذوف أي مما يتلى عليكم أو هو قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ والفاء زائدة عند من يجيزه، والمراد بالموصول مريم عليها السلام، والإحصان بمعناه اللغوي وهو المنع مطلقاً. والفرج في الأصل الشق بين الشيئين كالفرجة وما بين الرجلين ويكنى به عن السوأة وكثر حتى صار كالصريح في ذلك وهو المراد به هنا عند جماعة أي منعت فرجها من النكاح بقسميه كما قالت ﴿ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا﴾ [مريم: ٢٠] وكان التبتل إذ ذاك مشروعاً للنساء والرجال، وقيل الفرج هنا جيب قميصها منعته من جبريل عليه السلام لما قرب منها لينفخ حيث لم تعرفه.

وعبر عنها بماذكر لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه في حقها، والمراد من الروح معناه المعروف، والإضافة إلى ضميره تعالى للتشريف، ونفخ الروح عبارة عن الإحياء وليس هناك نفخ حقيقة. ثم هذا الإحياء لعيسى عليه السلام وهو لكونه في بطنها صح أن يقال: نفخنا فيها فإن ما يكون فيما في الشيء يكون فيه فلا يلزم أن يكون المعنى أحييناها وليس بمراد، وهذا كما يقول الزمار. نفخت في بيت فلان وهو قد نفخ في المزمار في بيته، وقال أبو حيان: الكلام على تقدير مضاف أي فنفخنا في ابنها.

ويجوز أن يكون المراد من الروح جبريل عليه السلام كما قيل في قوله تعالى: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ [مريم: ١٧] ومن ابتدائية وهنك نفخ حقيقة وإسناده إليه تعالى مجاز أي فنفخنا فيها من جهة روحنا، وكان جبريل عليه السلام قد نفخ من جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها فصح أن النفخ فيها من غير غبار يحتاج إلى النفخ، ثم النفخ لازم وقد يتعدى فيقال نفخنا الروح.

وقد جاء في ذلك بعض الشواذ ونص عليه بعض الأجلة فإنكاره من عدم الاطلاع ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أي جعلنا قصتهما أو حالهما ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فإن من تأمل حالتهما تحقق كمال قدرته عز وجل، فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآية مع تكاثر آيات كل واحد منهما، وقيل أريد بالآية الجنس الشامل ما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة، وقيل: المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها واستدل بذكر مريم عليها السلام مع الانبياء في هذه السورة على أنها كانت نبية إذ قرنت معهم في الذكر.

وفيه أنه لا يلزم ذكرها معهم كونها منهم ولعلها إنما ذكرت لأجل عيسى عليه السلام، وناسب ذكرهما هنا قصة زكريا وزوجه وابنهما يحيى للقرابة التي بينهم عليهم السلام ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ خطاب للناس قاطبة، والإشارة إلى ملة التوحيد والإسلام وذلك من باب ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ [الكهف: ٧٨] وهذا أخوك تصور المشار إليه في الذهن

وأشير إليه، وفيه أنه متميز أكمل التمييز ولهذا لم يبين بالوصف، والأمة على ما قاله صاحب المطلع أصلها القوم يجتمعون على دين واحد ثم اتسع فيها حتى أطلقت على نفس الدين، والأشهر أنها الناس المجتمعون على أمر أو في زمان وإطلاقها على نفس الدين مجاز، وظاهر كلام الراغب أنه حقيقة أيضاً وهوالمراد هنا، وأريد بالجملة الخبرية الأمر بالمحافظة على تلك الملة ومراعاة حقوقها، والمعنى أن ملة الإسلام ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها فافعلوا ذلك، وقوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب على الحال من ﴿أمة﴾ والعامل فيها اسم الإشارة، ويجوز أن يكون العامل في الحال غير العامل في صاحبها وإن كان الأكثر الاتحاد كما في شرح التسهيل لأبي حيان، وقيل بدل من ﴿هذه﴾ ومعنى وحدتها اتفاق الأنبياء عليهم السلام عليها أي إن هذه أمتكم أمة غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام بل أجمعوا كلهم عليها فلم تتبدل في عصر من الأعصار كما تبدلت الفروع، وقيل: معنى وحدتها عدم مشاركة غيرها وهو الشرك لها في القبول وصحة الأتباع.

وجوز أن تكون الإشارة إلى طريقة الأنبياء المذكورين عليهم السلام والمراد بها التوحيد أيضاً، وقيل: هي إشارة إلى طريقة ابراهيم عليه السلام والكلام متصل بقصته وهو بعيد جدا، وأبعد منه بمراحل ما قيل إنها إشارة إلى ملة عيسى عليه السلام والكلام متصل بما عنده كأنه قيل وجعلناها وابنها آية للعالمين قائلين لهم: إن هذه أي الملة التي بعث بها عيسى أمتكم الخ بل لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً، وقيل: إن ﴿هذه﴾ إشارة إلى جماعة الأنبياء المذكورين عليهم السلام والأمة بمعنى الجماعة أي إن هؤلاء جماعتكم التي يلزمكم الاقتداء بهم مجتمعين على الحق غير مختلفين، وفيه جهة حسن كما لا يخفى، والأول أحسن وعليه جمهور المفسرين وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وجوز بعضهم كون الخطاب للمؤمنين كافة، وجعله الطيبي للمعاندين خاصة حيث قال في وجه ترتيب النظم الكريم: إن هذه السورة نازلة في بيان النبوة وما يتعلق بها والمخاطبون المعاندون من أمة محمد ﷺ فلما فرغ من بيان النبوة وتكريره تقريراً ومن ذكر الأنبياء عليهم السلام مسلياً عاد إلى خطابهم بقوله تعالى شأنه ﴿إن هذه أمتكم﴾ الخ أي هذه الملة التي كررتها عليكم ملة واحدة أختارها لكم لتتمسكوا بها وبعبادة الله تعالى والقول بالتوحيد وهي التي أدعوكم إليها لتعضوا عليها بالنواجذ لأن سائر الكتب نازلة في شأنها والأنبياء كلهم مبعثون للدعوة إليها ومتفقون عليها، ثم لما علم إصرارهم قيل: ﴿وتقطعوا﴾ الخ، وحاصل المعنى الملة واحدة والرب واحد والأنبياء عليهم السلام متفقون عليها وهؤلاء البعداء جعلوا أمر الدين الواحد فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء الواحد انتهى، والأظهر العموم، وأمر النظم عليه يؤخذ من كلام الطيبي بأدنى التفات وقرأ الحسن «أُمَّتَكُم» بالنصب على أنه بدل من ﴿هذه﴾ أو عطف بيان عليه و «أمة واحدة» بالرفع على أنه خبر إن. وقرأ هو أيضاً وابن إسحاق والأشهب العقيلي وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجعفي وهارون عن أبي عمرو. والزعفراني برفعهما على أنهما خبر إن، وقيل: الأول خبر والثاني بدل منه بدل نكرة من معرفة أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هي أمة واحدة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أي أنا إلهكم إله واحد ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ خاصة، وتفسير الرب بالإله لأنه رتب عليه الأمر بالعبادة، والدلالة على الوحدة من حدة الملة، وفي لفظ الرب إشعار بذلك من حيث إن الرب إن توهم جواز تعدده في نفسه لا يمكن أن يكون لكل مربوب إلا رب واحد لأنه مفيض الوجود وكمالاته معاً، وفي العدول إلى لفظ الرب ترجيح جانب الرحمة وأنه تعالى يدعوهم إلى عبادته بلسان الترغيب والبسط قاله في الكشف.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً على أن تقطع مضمن معنى الجعل فلذا تعدى إلى ﴿أمرهم﴾ بنفسه، وقال أبو البقاء: تقطعوا أمرهم أي في أمرهم أي تفرقوا، وقيل: عدي بنفسه لأنه بمعنى قطعوا أي فرقوا، وقيل. ﴿أمرهم﴾ تمييز محول عن الفاعل أي تقطع أمرهم انتهى، وما ذكر أولاً أظهر وأمر التمييز لا يخفى على

ذي تمييز، ثم أصل الكلام وتقطعتم أمركم بينهم على الخطاب فالتفت إلى الغيبة لينعى عليهم ما فعلوا من التفرق في الدين وجعله قطعاً موزعة وينهي ذلك إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام وفي ذلك ذم للاختلاف في الاصول.

﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ بالبعث لا إلى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم، ولا يخفى ما في الجملة من الدلالة على الثبوت والتحقق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ تفضيل للجزاء أي فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله ذلك، عبر عنه بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من القبائح، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى ونفى نفي الجنس المفيد للعموم للمبالغة في التنزيه، والظاهر أن التركيب على طرز «لا مانع لما أعطيت» والكلام فيه مشهور بين علماء العربية؛ وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به، وفي حرف عبد الله «فلا كفر» والمعنى واحد ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ أي لسعيه، وقيل: الضمير لمن وليس بشيء ﴿كَاتِبُونَ﴾ أي مثبتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجه ما، واستدل بالآية على أن قبول العمل الصالح مطلقاً مشروط بالإيمان وهو قول لبعضهم، وقال آخرون: الإيمان شرط لقبول ما يحتاج إلى النية من الأعمال، وتحقيقه في موضعه.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ أي على أهل قرية. فالكلام على تقدير مضاف أو القرية مجاز عن أهلها. والحرام مستعار للممتنع وجوده بجامع أن كل واحد منهما غير مرجو الحصول، وقال الراغب: الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهي وإما بمنع قهري وإما بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره، وذكر أنه قد حمل في هذه الآية على التحريم بالتسخير كما في قوله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع﴾ [القصص: ١٢] وقرأ أبو حنيفة وحمزة والكسائي وأبو بكر وطلحة والأعمش وأبو عمرو في رواية «وحِرْمٌ» بكسر الحاء وسكون الراء اهـ.

وقرأ قتادة ومطر الوراق ومحبوب عن أبي عمرو بفتح الحاء وسكون الراء، وقرأ عكرمة «وحرم» الحاء وكسر الراء والتنوين. وقرأ ابن عباس وعكرمة أيضاً وابن المسيب وقتادة أيضاً بكسر الراء وفتح الحاء والميم على المضي وقرأ ابن عباس وعكرمة بخلاف عنهما وأبو العالية وزيد بن علي بضم الراء وفتح الحاء والميم على المضي أيضاً، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قرأ بفتح الحاء والراء والميم على المضي أيضاً.

وقرأ اليماني «وحُرِّمَ» بضم الحاء وكسر الراء مشددة وفتح الميم على أنه فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله.

﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي قدرنا هلاكها أو حكمنا به في الأزل لغاية طغيانهم وعتوهم فيما لا يزال.

وقرأ السلمي وقتادة «أهلكتها» بتاء المتكلم، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ في تأويل اسم مرفوع على الابتداء خبره «حرام» قال ابن الحاجب في أماليه: ويجب حينئذ تقديمه لما تقرر في النحو من أن الخبر عن أن يجب تقديمه، وجوز أن يكون «حرام» مبتدأ و «أنهم» فاعل له سد مسد خبره وإن لم يعتمد على نفي أو استفهام بناء على مذهب الأخفش فإنه لا يشترط في ذلك الاعتماد خلافاً للجمهور كما هو المشهور.

وذهب ابن مالك أن رفع الوصف الواقع مبتدأ لمكتفى به عن الخبر من غير اعتماد جائز بلا خلاف وإنما الخلاف في الاستحسان وعدمه فسيبويه يقول: هو ليس بحسن والأخفش يقول: هو حسن وكذا الكوفيون كما شرح التسهيل؛ والجملة لتقرير ما قبلها من قوله تعالى: ﴿كل إلينا راجعون﴾ وما في أن من معنى التحقيق معتبر في النفي

المستفاد في ﴿حرام﴾ لا في المنفي أي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء لا أن عدم رجوعهم المحقق ممتنع، وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿كل إلينا راجعون﴾ لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم، وهذا المعنى محكي عن ابي مسلم بن بحر، ونقله أبو حيان عنه لكنه قال: إن الغرض من الجملة على ذلك إبطال قول من ينكر البعث، وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعي أحد وأنه يجزى على ذلك يوم القيامة، ولا يخفى ما فيه.

وقال أبو عتبة: المعنى وممتنع على قرية قدرنا هلاكها أو حكمنا به رجوعهم إلينا أي توبتهم على أن ﴿لا﴾ سيف خطيب مثلها في قوله تعالى: ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: ١٢] في قول، وقيل ﴿حرام﴾ بمعنى واجب كما في قول الخنساء:

وإن حـرامـاً لا أرى الـدهـر بـاكـيـاً ... عـلـى شجوة إلا بكيت عـلـى صـخـر

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم بكم عليكم أن لا تشركوا﴾ [الأنعام: ١٥١] الخ فإن ترك الشرك واجب، وعلى هذا قال مجاهد والحسن ﴿لا يرجعون﴾ لا يتوبون عن الشرك.

وقال قتادة ومقاتل: لا يرجعون إلى الدنيا، والظاهر على هذا أن المراد بأهلكناها أوجدنا إهلاكها بالفعل، والمراد بالهلاك الهلاك الحسي، ويجوز على القول بأن المراد بعدم الرجوع عدم التوبة أن يراد به الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي. وقرىء «إنهم» بكسر الهمزة على أن الجملة استئناف تعليلي لما قبلها؛ فحرام خبر متبدأ محذوف أي حرام عليها ذلك وهو ما ذكر في الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالإيمان والسعي المشكور ثم علل بقوله تعالى: ﴿إنهم لا يرجعون﴾ عماهم عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك، ويجوز حمل الكلام على قراءة الجمهور بالفتح على هذا المعنى بحذف حرف التعليل أي لأنهم لا يرجعون. والزجاج قدر المبتدأ في ذلك أن يتقبل عملهم فقال: المعنى وحرام على قرية حكمنا بهلاكها أن يتقبل عملهم لأنهم لا يتوبون ودل على ذلك قوله تعالى قبل: ﴿فلا كفران لسعيه﴾ حيث إن المراد منه يتقبل عمله و ﴿حتى﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ابتدائية والكلام بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها كأنه قيل: يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ويقولون يا ويلنا الخ أو غاية للحرمة أي يستمر امتناع رجوعهم إلى التوبة حتى إذا قامت القيامة يرجعون إليها وذلك حين لا ينفعهم الرجوع أو غاية لعدم الرجوع عن الكفر أي لا يرجعون عنه حتى إذا قامت القيامة يرجعون عنه وهو حين لا ينفعهم ذلك، وهذا بحسب تعدد الأقوال في معنى الآية المتقدمة والتوزيع غير خفي، وقال ابن عطية حتى متعلقة بقوله تعالى: ﴿تقطعوا﴾ الخ قال أبو حيان: وفيه بعد من كثرة الفصل لكنه من جهة المعنى جيد، وحاصله أنهم لا يزالون مختلفين غير مجتمعين على دين الحق إلى قرب مجيء الساعة فإذا جاءت الساعة انقطع ذلك الاختلاف وعلم الجميع أن مولاهم الحق وأن الدين المنجي كان دين التوحيد، ونسبة الفتح إلى يأجوج ومأجوج مجاز وهي حقيقة إلى السد أو الكلام على حذف المضاف وهو السد وإقامة المضاف إليه مقامه. وقرأت فرقة «فُتِّحَتْ» بالتشديد، وتقدم الكلام في يأجوج ومأجوج ﴿وَهُمْ﴾ أي يأجوج ومأجوج، وقيل الناس وروي عن مجاهد ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي مرتفع من الأرض كجبل وأكمة. وقرأ ابن عباس «جدث» بالجيم الثاء المثلثة وهو القبر، وهذه القراءة تؤيد رجوع الضمير إلى الناس، وقرىء بالجيم والفاء وهي بدل الثاء عند تميم ولا يختص إبدالها عندهم في آخر الكلمة فإنهم يقولون مغثور مكان مغفور ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يسرعون، وأصل النسلان بفتحتين مقاربة الخطو مع الإسراع، وقيل ويختص وضعاً بالذئاب وعليه يكون مجازاً هنا. وقرأ ابن إسحاق وأبو السمال بضم السين ﴿وَاقْتَرَبَ﴾ أي قرب،

وقيل هو أبلغ في القرب من قرب ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ وهو ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة الأولى، والجملة عطف على ﴿فتحت يأجوج﴾ ثم إن هذا الفتح في زمن نزول عيسى عليه السلام من السماء وبعد قتله الدجال عند باب لد الشرقي، فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث طويل «إن الله تعالى يوحي إلى عيسى عليه السلام بعد أن يقتل الدجال إني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور فيبعث الله تعالى يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى ﴿من كل حدب ينسلون﴾ فيرغب عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة فيهبط عيسى عليه السلام وأصحابه فيرسل عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى ويرسل الله عز وجل مطراً لا يكن منه نبت مدر ولا وبر أربعين يوماً فيغسل الأرض حتى يتركها زلفة ويقال للأرض انبتي ثمرتك فيومئذ يأكل النفر من الرماية ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفي الفخذ والشاة من الغنم تكفي البيت فبينما هم على ذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة» وجاء من حديث رواه أحمد وجماعة «إن الساعة بعد أن يهلك يأجوج ومأجوج كالحامل المتم لا يدري أهلها حتى تفجأهم بولادها ليلاً أو نهاراً» وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «لو نتجت فرس عند خروجهم ما ركب فلوها حتى تقوم الساعة» وهذا مبالغة في القرب كالخبر الذي قبله.

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جواب الشرط، وإذا للمفاجأة وهي تسد مسد الفاء الجزائية في الربط وليست عوضاً عنها فمتى كانت الجملة الاسمية الواقعة جزاءً مقترنة بها لم تحتج إلى الفاء نحو ﴿إذا هم يقنطون﴾ [الروم: ٣٦] وإذا جيء بهما معاً كما هنا يتقوى الربط، والضمير للقصة هو الشأن هو مبتدأ ﴿وشاخصة﴾ خبر مقدم و ﴿أبصار﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر الضمير، ولا يجوز أن يكون ﴿شاخصة﴾ الخبر و ﴿أبصار﴾ مرفوعاً به لأن خبر الضمير الشأن لا يكون إلا جملة مصرحاً بجزءيها، وأجاز بعض الكوفيين كونه مفرداً فيجوز ما ذكر عنده.

وعن الفراء أن ﴿هي﴾ ضمير الأبصار فهو ضمير مبهم يفسره ما في حيز خبره؛ وعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة في مثل ذلك جائز عند ابن مالك. وغيره كما في ضمير الشأن، ومن ذلك قوله:

هو الجد حتى تفضل العين أختها

بل نقل عن الفراء أنه متى دل الكلام على المرجع وذكر بعده ما يفسره وإن لم يكن في حيز خبره لا يضر تقدمه، وأنشد قوله:

فلا وأبيها لا تقول خليلتي ألا فرّ عني مالك بن أبي كعب

ونقل عنه أيضاً أن ﴿هي﴾ ضمير فصل وعماد يصلح موضعه هو وأنشد قوله:

بثوب ودينار وشاة ودرهم فهل هو مرفوع بما ها هنا رأس

وهذا لا يتمشى إلا على أحد قولي الكسائي من إجازته تقديم الفصل مع الخبر على المبتدأ وقول من أجاز كونه قبل خبر نكرة، وذكر الثعلبي أن الكلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿فإذا هي﴾ أي فإذا هي أي الساعة حاصلة أو بارزة أو واقعة ثم ابتدىء فقيل «شاخصة أبصار الذين كفروا» وهو وجه متكلف متنافر التركيب، وقيل: جواب الشرط ﴿اقترب﴾ والواو سيف خطيب. ونقل ذلك في مجمع البيان عن الفراء.

ونقل عن الزجاج أن البصريين لا يجوزون زيادة الواو وأن الجواب عندهم قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي القول المقدر قبله فإنه بتقدير قالوا يا ويلنا، ومن جعل الجواب ما تقدم قدر القول ها هنا أيضاً وجعله حالاً من الموصول يقولون أو قائلين «يا ويلنا» وجوز كون جملة يقولون يا ويلنا استئنافاً، وشخوص الأبصار رفع أجفانها إلى فوق من دون أن تطرف وذلك للكفرة يوم القيامة من شدة الهول، وأرادوا من نداء الويل التحسر وكأنهم قالوا: يا ولينا تعال فهذا أوان حضورك ﴿قَدْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ تامة ﴿مِنْ هَذَا﴾ الذي دهمنا من البعث والرجوع إليه عز وجل للجزاء، وقيل: من هذا اليوم ولم نعلم أنه حق ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة أي لم نكن في غفلة منه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بترك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوماً مما سبق على وجه الإجمال مبالغة في الإنذار وإزاحة الأعذار، فما عبارة عن أصنامهم، والتعبير عنها بما على بابه لأنها على المشهور لما لا يعقل فلا يرد أن عيسى وعزيراً والملائكة عليهم الصلاة والسلام عبدوا من دون الله تعالى مع أن الحكم لا يشملهم وشاع أن عبد الله بن الزبعري[1] القرشي اعترض بذلك قبل إسلامه على رسول الله ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام: يا غلام ما أجهلك بلغة قومك لأني قلت ﴿وما تعبدون﴾ وما لما لم يعقل ولم أقل ومن تعبدون. وتعقبه ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف بأنه أشهر على ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم[2] وهو لا أصل له ولم يوجد في شيء من كتب الحديث مسنداً ولا غير مسند والوضع عليه ظاهر والعجب ممن نقله من المحدثين انتهى، ويشكل على ما قلنا ما أخرجه أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس قال: لما نزل ﴿إنكم وما تعبدون﴾ الخ شق ذلك على أهل مكة وقالوا: أتشتم آلهتنا فقال ابن الزبعري: أنا أخصم لكم محمداً ادعوه لي فدعي عليه الصلاة والسلام فقال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله تعالى؟ قال: بل لكل من عبد من دون الله تعالى فقال ابن الزبعرى: خصمت ورب هذه البنية. يعني الكعبة. ألست تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح وأن عزيراً عبد صالح وأن الملائكة صالحون؟ قال: بلى قال: فهذه النصارى تعبد عيسى وهذه اليهود تعبد عزيراً وهذه بنو مليح[3] تعبد الملائكة فضج أهل مكة وفرحوا فنزلت ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ الخ ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ [الزخرف: ٥٧] الخ، وجاء في روايات أخر ما يعضده فإن ظاهر ذلك أن ما هنا شامل للعقلاء وغيرهم. وأجيب بأن الشمول للعقلاء الذي ادعاه رسول الله ﷺ كان بطريق دلالة النص بجامع الشركة في المعبودية من دون الله تعالى فلما أشار ﷺ إلى عموم الآية بطريق الدلالة اعترض ابن الزبعري بما اعترض وتوهم أنه قد بلغ الغرض فتولى الله تعالى الجواب بنفسه بقوله عز وجل: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ الآية، وحاصله تخصيص العموم المفهوم من دلالة النص بما سوى الصلحاء الذين سبقت لهم الحسنى فيبقى الشياطين الذين عبدوا من دون الله سبحانه داخلين في الحكم بحكم دلالة النص فيفيد النص بعد هذا التخصيص عبارة ودلالة حكم الأصنام والشياطين ويندفع الاعتراض، وقال بعضهم: إن ﴿ما﴾ تعم العقلاء وغيرهم وهو

(١) أي سيء الخلق اهـ منه.

(٢) كشرح المواقف وغيره مما لا يحصى اهـ منه.

(٣) بالتصغير بطن من خزاعة اهـ منه.

مذهب جمهور أئمة اللغة كما قال العلامة الثاني في التلويح ودليل ذلك النص والإطلاق والمعنى، أما النص فقوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ [الليل: ٣] وقوله سبحانه: ﴿والسماء وما بناها﴾ [الشمس: ٥] وقوله سبحانه: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ [الكافرون: ٣] وأما الإطلاق فمن وجهين، الأول أن ﴿ما﴾ قد تطلق بمعنى الذي باتفاق أهل اللغة والذي يصح إطلاقه على من يعقل بدليل قولهم الذي جاء زيدا فما كذلك، الثاني أنه يصح أن يقال ما في داري من العبيد أحرار، وأما المعنى فمن وجهين أيضاً، الأول أن مشركي قريش كما جاء من عدة طرق عن ابن عباس لما سمعوا هذه الآية اعترضوا بعيسى وعزير والملائكة عليهم السلام. وهم من فصحاء العرب فلو لم يفهموا العموم لما اعترضوا، الثاني أن ﴿ما﴾ لو كانت مختصة بغير العالم لما احتيج إلى قوله تعالى: ﴿من دون الله﴾ وحيث كانت بعمومها متناولة له عز وجل احتيج إلى التقييد بقوله سبحانه ﴿من دون الله﴾ وحينئذ تكون الآية شاملة عبادة لأولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام ويكون الجواب الذي تولاه الله تعالى بنفسه جواباً بالتخصيص، وفي ذلك حجة للشافعي في قوله بجواز تخصيص العام بكلام مستقل متراخ خلافاً للحنفية. وأجيب بأن ما ذكر من النصوص والاطلاقات فغايته جواز اطلاق ﴿ما﴾ على من يعلم لا يلزم من ذلك أن تكون ظاهرة فيه أو فيما يعمه بل هي ظاهرة في غير العالم لا سيما هنا لأن الخطاب مع عبدة الأصنام وإذا كانت ظاهرة فيما لا يعقل وجب تنزيلها عليه، وما ذكر من الوجه الأول في المعنى فليس بنص في أن المعترضين إنما اعترضوا لفهمهم العموم من ﴿ما﴾ وضعاً لجواز أن يكون ذلك لفهمهم إياه من دلالة النص كما مر، وما ذكر من الوجه الثاني من عدم الاحتياج إلى قوله تعالى: ﴿من دون الله﴾ فإنما يصح أن لو لم تكن فيه فائدة، وفائدته مع التأكيد تقبيح ما كانوا عليه، وإن سلمنا أن ﴿ما﴾ حقيقة فيمن يعقل فلا نسلم أن بيان التخصيص لم يكن مقارناً للآية فإن دليل العقل صالح للتخصيص خلافاً لطائفة شاذة من المتكلمين، والعقل قد دل على امتناع تعذيب أحد بجرم صادر من غيره اللهم إلا أن يكون راضياً بجرم ذلك الغير، وأحد من العقلاء لم يخطر بباله رضا المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام بعبادة من عبدهم وما مثل هذا الدليل العقلي فلا نسلم عدم مقارنته للآية، وأما قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ الآية فإنما ورد تأكيداً بضم الدليل الشرعي إلى الدليل العقلي مع الاستغناء عن أصله أما أن يكون هو المستقل بالبيان فلا، وعدم تعرضه ﷺ للدليل العقلي لم يكن لأنه لم يكن بل لأنه عليه الصلاة والسلام لما رآهم لم يلتفتوا إليه وأعرضوا عنه فاعترضوا بما اعترضوا مع ظهوره انتظر ما يقويه من الدليل السمعي أو لأن الوحي سبقه عليه الصلاة والسلام فنزلت الآية قبل أن ينبههم على ذلك، وقيل: إنهم تعنتوا بنوع من المجاز فنزل ما يدفعه، وقيل: إن هذا خبر لا تكليف فيه والاختلاف في جواز تأخير البيان مخصوص بما فيه تكليف، وفيه نظر، وقال العلامة ابن الكمال: لا خلاف بيننا وبين الشافعي في قصر العام على بعض ما يتناوله بكلام مستقل متراخ إنما الخلاف في أنه تخصيص حتى يصير العام به ظنياً في الباقي أو نسخ حتى يبقى على ما كان فلا وجه للاحتجاج بقوله تعالى: ﴿وما تعبدون من دون الله﴾ لأن الثابت به على تقدير التمام قصر العام بالمتراخي والخلاف فيما وراءه والدليل قاصر عن بيانه ولا للجواب بأن تعبدون لا يتناول عيسى وعزيراً والملائكة عليهم السلام لا لأن ﴿ما﴾ لغير العقلاء لما أنه على خلاف ما عليه الجمهور بل لأنهم ما عبدوا حقيقة على ما أفصح عنه ﷺ حين قال ابن الزبعري: أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنوا مليح عبدوا الملائكة بقوله ﷺ: بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك فقوله تعالى: ﴿إن الذين﴾ الآية لدفع ذهاب الوهم إلى التناول لهم نظراً إلى الظاهر.

وجوابه ﷺ بذلك مما رواه ابن مردويه والواحدي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وفيه فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين سبقت﴾ الآية، وعلى وفق هذا ورد جواب الملائكة عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً

ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] والجمع بين هذه الرواية والرواية السابقة أنه ﷺ بعد أن ذكر لابن الزبعري أن الآية عامة لكل من عبد من دون الله تعالى بطريق دلالة النص وقال ابن الزبعري: أليس اليهود إلخ ذكر عدم تناولها المذكورين عليهم السلام من حيث إنهم لم يشاركوا الأصنام في المعبودية من دون الله تعالى لعدم أمرهم ولأرضاهم بما كان الكفرة يفعلون، ولعل فيه رمزاً خفياً إلى الدليل العقلي على عدم مؤاخذتهم ثم نزلت الآية تأكيداً لعدم التناول، لكن لا يخفى أن هذه الرواية إن صحت تقتضي أن لا تكون الأصنام معبودة أيضاً لأنها لم تأمرهم بالعبادة فلا تكون ﴿ما﴾ مطلقة عليها بل على الشياطين بناء على أنها هي الآمرة الراضية بذلك فهي معبوداتهم، ولذا قال إبراهيم عليه السلام ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ [مريم: ٤٤] مع أنه كان يعبد الأصنام ظاهراً.

ووجه إطلاقها عليها بناء على أنها ليست لذوي العقول أنها أجريت مجرى الجمادات لكفرها، وفي قوله ﷺ التي أمرتهم دون الذين أمروهم إشارة إلى ذلك، ثم في عدم تناول الآية الأصنام هنا من البعد ما فيه فلعل هذه الرواية لم تثبت، ولمولانا أبي السعود كلام مبناه خبر أنه ﷺ رد على ابن الزبعرى بقوله ما أجهلك بلغة قومك الخ، وقد علمت ما قاله الحافظ ابن حجر فيه وهو وأمثاله المعول عليهم في أمثال ذلك فلا ينبغي الاغترار بذكره في أحكام الآمدي وشرح المواقف وفصول البدائع للفناري وغير ذلك مما لا يحصى كثرة فماء ولا كصداء ومرعى ولا كالسعدان. وأورد على القول بأن العموم بدلالة النص والتخصيص بما نزل بعد حديث الخلاف في التخصيص بالمستقل المتراخي ويعلم الجواب عنه مما تقدم، وقيل هنا زيادة على ذلك إن ذلك ليس من تخصيص العام المختلف فيه لأن العام هناك هو اللفظ الواحد الدال على مسميين فصاعداً مطلقاً معاً وهو ظاهر فيما فيه الدلالة عبارة والعموم هنا إنما فهم من دلالة النص، ولا يخفى أن الأمر المانع من التأخير ظاهر في عدم الفرق فتدبر فالمقام حري به، والحصب ما يرمى به وتهيج به النار من حصبه إذا رماه بالحصباء وهي صغار الحجارة فهو خاص وضعاً عام استعمالاً. وعن ابن عباس أنه الحطب بالزنجية. وقرأ علي وأبي وعائشة وابن الزبير وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهم «حطب بالطاء. وقرأ ابن أبي السميقع وابن أبي عبلة ومحبوب وأبو حاتم عن ابن بشير «حَضْبَ» بإسكان الصاد، ورويت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهو مصدر وصف به للمبالغة، وفي رواية أخرى عنه أنه قرأ «حَضَبَ» بالضاد المعجمة المفتوحة، وجاء عنه أيضاً إسكانها وبه قرأ كثير عزة، ومعنى الكل واحد وهو معنى الحصب بالصاد ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ استئناف نحوي مؤكد لما قبله أو بدل من ﴿حصب جهنم﴾ وتبدل الجملة من المفرد ولا يضر كونه في حكم النتيجة، وجوز أبو البقاء كون الجملة حالاً من ﴿جهنم﴾ وهو كما ترى، واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لأجلها وهذا مبني على أن الأصل تعدى الورود إلى ذلك بعلى كما أشار إليه في القاموس بتفسيره بالإشراف على الماء وهو في الاستعمال كثير وإلا فقد قيل إنه متعد بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿ورودها﴾ فاللام للتقوية لكون المعمول مقدماً والعامل فرعي، وقيل إن اللام بمعنى إلى كما في قوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [الزلزلة: ٥] وليس بذلك.

والظاهر أن الورود هنا ورود دخول والخطاب للكفرة وما يعبدون تغليباً ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً﴾ كما تزعمون أيها العابدون إياها ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ وحيث تبين ورودهم إياها على أتم وجه حيث إنهم حصب جهنم امتنع كونهم آلهة بالضرورة، وهذا ظاهر في أن المراد مما يعبدون الأصنام لا الشياطين لأن المراد به إثبات نقيض ما يدعونه وهم يدعون إلهية الأصنام لا إلهيتها حتى يحتج بورودها النار على عدمها، نعم الشياطين التي تعبد داخلة في حكم النص بطريق الدلالة فلا تغفل.

﴿وَكُلٌّ﴾ من العبدة والمعبودين ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ باقون إلى الأبد ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ هو صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف، وأصل الزفر كما قال الراغب: ترديد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع، والظاهر أن ضمير ﴿لهم﴾ للكل أعني العبدة و المعبودين، وفيه تغليب العقلاء على غيرهم من الأصنام حيث جيء بضمير العقلاء راجعاً إلى الكل، ويجري ذلك في ﴿خالدون﴾ أيضاً، وكذا غلب من يتأتى منه الزفير ممن فيه حياة على غيره من الأصنام أيضاً حيث نسب الزفير للجميع، وجوز أن يجعل الله تعالى للأصنام التي عبدت حياة فيكون حالها حال من معها ولها ما لهم فلا تغليب، وقيل: الضمير للمخاطبين في ﴿إنكم﴾ خاصة على سبيل الالتفات فلا حاجة إلى القول بالتغليب أصلاً. ورد بأنه يوجب تنافر النظم الكريم ألا ترى قوله تعالى: ﴿أنتم لها واردون﴾ كيف يجمع بينهم تغليباً للمخاطبين فلو خص ﴿لهم فيها زفير﴾ لزم التفكيك، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب على ما قيل، وقيل: لا يسمعون لو نودي عليهم لشدة زفيرهم، وقيل: لا يسمعون ما يسرهم من الكلام إذ لا يكلمون إلا بما يكرهون، وقيل: إنهم يبتلون بالصمم حقيقة لظاهر قوله تعالى: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾ [الإسراء: ٩٧] وهو كما ترى، وذكر في حكمة إدخال المشركين النار مع معبوداتهم أنها زيادة غمهم برؤيتهم إياها معذبة مثلهم وقد كانوا يرجون شفاعتها، وقيل: زيادة غمهم برؤيتها معهم وهي السبب في عذابهم فقد قيل:

واحتمال الأذى ورؤية جانيه ... غذاء تضنى به الأجسام

وظاهر بعض الأخبار أن نهاية المخلدين أن لا يرى بعضهم بعضاً فقد روى ابن جرير وجماعة عن ابن مسعود أنه قال: إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحدهم أنه يعذب في النار غيره ثم قرأ الآية ﴿لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ ومنه يعلم قول آخر في «لا يسمعون» والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ أي الخصلة المفضلة في الحسن وهي السعادة، وقيل: التوفيق للطاعة، والمراد من سبق ذلك تقديره في الأول، وقيل: الحسنى الكلمة الحسنى وهي المتضمنة للبشارة بثوابهم وشكر أعمالهم، والمراد من سبق ذلك تقدمه في قوله تعالى: ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾ [الأنبياء: ٩٤] وهو خلاف الظاهر، والظاهر أن المراد من الموصول كل من اتصف بعنوان الصلة وخصوص السبب لا يخصص، وما ذكر في بعض الآثار من تفسيره بعيسى وعزير والملائكة عليهم السلام فهو من الاقتصار على بعض أفراد العام حيث إنه السبب في النزول. وينبغي أن يجعل من باب الاقتصار ما أخرجه ابن أبي شيبة وغيره عن محمد بن حاطب عن عليّ كرم الله تعالى وجهه أنه فسر الموصول بعثمان وأصحابه رضي الله تعالى عنهم.

وروى ابن أبي حاتم وجماعة عن النعمان بن بشير أن علياً كرم الله تعالى وجهه قرأ الآية فقال: أنا منهم وعمر منهم و عثمان منهم والزبير منهم وطلحة منهم وسعد وعبد الرحمن منهم كذا رأيته في الدر المنثور، ورأيت في غيره عد العشرة المبشرة رضي الله تعالى عنهم، والجدران متعلقان بسبقت.

وجوز أبو البقاء في الثاني كونه متعلقاً بمحذوف ووقع حالاً من ﴿الحسنى﴾ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم، وبعد منزلتهم في الشرف والفضل أي أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت ﴿عَنْهَا﴾ أي عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم في الجنة وشتان بينها وبين النار.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ
وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ
السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ
كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا
لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ
إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم
بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي
لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي صوتها الذي يحس من حركتها، والجملة بدل من «مبعدون»، وجوز أن تكون حالاً من ضميره، وأن تكون خبراً بعد خبر، واستظهر كونها مؤكدة لما أفادته الجملة الأولى من بعدهم عنها، وقيل إن الأبعاد يكون بعد القرب فيفهم منه أنه أوردها أولا، ولما كان مظنة التأذي بها دفع بقوله سبحانه **﴿لا يسمعون﴾** فهي مستأنفة لدفع ذلك، فعلى هذا يكون عدم سماع الحسيس قبل الدخول إلى الجنة، ومن قال به قال: إن ذلك حين المرور على الصراط وذلك لأنهم على ما ورد في بعض الآثار يمرون عليها وهي خامدة لا حركة لها حتى أنهم يظنون وهم في الجنة أنهم لم يمروا عليها، وقيل لا يسمعون ذلك لسرعة مرورهم وهو ظاهر ما أخرجه ابن المنذر. وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: أولئك أولياء الله تعالى يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق فلا تصيبهم ولا يسمعون حسيسها ويبقى الكفار جثياً، لكن جاء في خبر آخر رواه عنه ابن أبي حاتم أيضاً وابن جرير أنه قال في **﴿لا يسمعون﴾** الخ لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منازلهم في الجنة، وقيل إن الابعاد عنها قبل الدخول إلى الجنة ايضاً، والمراد بذلك حفظ الله تعالى إياهم عن الوقوع فيها كما يقال أبعد الله تعالى فلاناً عن فعل الشر، والأظهر أن كلا الأمرين بعد دخول الجنة وذلك بيان لخلاصهم عن المهالك والمعاطب.

وقوله تعالى: **﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾** بيان بفوزهم بالمطالب بعد ذلك الخلاص، والمراد أنهم دائمون في غاية التنعم، وتقديم الظرف للقصر والاهتمام ورعاية الفواصل.

وقوله تعالى: **﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾** بيان لنجاتهم من الإفزاع بالكلية بعد نجاتهم من النار لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الإفزاع لم يحزنهم ما عداه بالضرورة كذا قيل، وليلاحظ ذلك مع ما جاء في الاخبار أن النار تزفر في الموقف زفرة لا يبقى نبي ولا ملك إلا جثا على ركبتيه فإن قلنا: إن ذلك لا ينافي عدم الحزن فلا إشكال وإذا قلنا: إنه ينافي فهو مشكل إلا أن يقال: إن ذلك لقلة زمانه وسرعة الأمن مما يترتب عليه نزل منزلة العدم فتأمل، والفزع كما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع ويطلق على الذهاب بسرعة لما يهول. واختلف في وقت هذا الفزع فعن الحسن وابن جبير وابن جريج أنه حين انصراف أهل النار إلى النار.

ونقل عن الحسن أنه فسر الفزع الأكبر بنفس هذا الانصراف فيكون الفزع بمعنى الذهاب المتقدم، وعن الضحاك أنه حين وقوع طبق جهنم عليها وغلقها على من فيها، وجاء ذلك في رواية ابن أبي الدنيا عن ابن عباس، وقيل

حين ينادى أهل النار ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ وقيل حين يذبح الموت بين الجنة والنار، وقيل يوم تطوى السماء، وقيل حين النفخة الأخيرة، وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، والظاهر أن المراد بها النفخة للقيام من القبور لرب العالمين، وقال في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهم الملائكةُ﴾ أي تستقبلهم بالرحمة عند قيامهم من قبورهم، وقيل بالسلام عليهم حينئذ قائلين ﴿هَذَا يَوْمُكُم الَّذي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا مجيئه وتبشرون بما فيه لكم من المثوبات على الإيمان والطاعة. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال في الآية: تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قرناءهم في الدنيا يوم القيامة فيقولون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة، وقيل تتلقاهم عند باب الجنة بالهدايا أو بالسلام، والأظهر أن ذلك عند القيام من القبور وهو كالقرينة على أن عدم الحزن حين النفخة الأخيرة، وظاهر أكثر الجمل يقتضي عدم دخول الملائكة في الموصول السابق بل قوله تعالى: «وتتلقاهم» الخ نص في ذلك فلعل الإسناد في ذلك عند من أدرج الملائكة عليهم السلام في عموم الموصول لسبب النزول على سبيل التغليب أو يقال: إن استثناءهم من العموم السابق لهذه الآية بطريق دلالة النص كما أن دخولهم فيما قبل كان كذلك. وقرأ أبو جعفر «لا يحزنهم» مضارع أحزن وهي لغة تميم وحزن لغة قريش.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ﴾ منصوب بأذكر، وقيل ظرف للا يحزنهم، وقيل للفزع، والمصدر المعرف وإن كان ضعيفاً في العمل لا سيما وقد فصل بينه وبين معموله بأجنبي إلا أن الظرف محل التوسع قاله في الكشف.

وقال الخفاجي: إن المصدر الموصوف لا يعمل على الصحيح وإن كان الظرف قد يتوسع فيه، وقيل ظرف لتتلقاهم، وقيل هو بدل من العائد المحذوف من ﴿توعدون﴾ بدل كل من كل وتوهم أنه بدل اشتمال، وقيل حال مقدرة من ذلك العائد لأن يوم الطي بعد الوعد.

وقرأ شيبة بن نصاح وجماعة «يَطْوي» بالياء والبناء للفاعل وهو الله عز وجل وقرأ أبو جعفر وأخرى بالتاء الفوقية والبناء للمفعول ورفع «السَّماءُ» على النيابة، والطي ضد النشر، وقيل[1] الإفناء والإزالة من قولك: اطو عني هذا الحديث، وأنكر ابن القيم إفناء السماء وإعدامها إعداماً صرفاً وادعى أن النصوص إنما تدل على تبديلها وتغييرها من حال إلى حال، ويبعد القول بالإفناء ظاهر التشبيه في قوله تعالى: ﴿كَطَيِّ السّجلِّ﴾وهو الصحيفة على ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد ونسبه في مجمع البيان إلى ابن عباس وقتادة والكلبي أيضاً، وخصه بعضهم بصحيفة العهد، وقيل: هو في الأصل حجر يكتب فيه ثم سمي به كل ما يكتب فيه من قرطاس وغيره، والجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر أي طياً كطي الصحيفة، وقرأ أبو هريرة، وصاحبه أبو زرعة بن عمرو بن جرير «السجل» بضمتين وشد اللام، والأعمش وطلحة وأبو السمال «السَّجلّ» بفتح السين، والحسن وعيسى بكسرها والجيم في هاتين القراءتين ساكنة واللام مخففة، وقرأ أبو عمرو: قرأ أهل مكة كالحسن، واللام في قوله تعالى: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من ﴿السجل﴾ أو صفة له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أي كطي السجل كائناً للكتب أو الكائن للكتب فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطي حقيقة، وقرأ الأعمش «لِلْكُتْبِ» بإسكان التاء، وقرأ الأكثر «للكتاب» بالافراد وهو إما مصدر واللام للتعليل أي كما يطوى الطومار للكتابة أي ليكتب فيه وذلك كناية عن اتخاذه لها ووضعه مسوى مطوياً حتى إذا احتيج إلى الكتابة لم يحتج إلى تسويته فلا يرد أن المعهود نشر الطومار للكتابة لا طيه لها، وإما اسم كالإمام فاللام كما ذكر أولاً.

---

(١) وروي عن الحسن اهـ منه.

وأخرج عبد بن حميد عن عليّ كرم الله تعالى وجهه أن السجل اسم ملك، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم وابن عساكر عن الباقر رضي الله تعالى عنه، وأخرج ابن جرير وغيره عن السدي نحوه إلا أنه قال: إنه موكل بالصحف فإذا مات الإنسان وقع كتابه إليه فطواه ورفعه إلى يوم القيامة، واللام على هذا قيل متعلقة بطي، وقيل سيف خطيب، وكونها بمعنى على كما ترى. واعترض هذا القول بأنه لا يحسن التشبيه عليه إذ ليس المشبه به أقوى ولا أشهر. وأجيب بأنه أقوى نظراً لما في أذهان العامة من قوة الطاوي وضعف المطوي وصغر حجمه بالنسبة للسماء أي نظراً لما في أذهانهم من مجموع الأمرين فتأمل، وأخرج أبو داود والنسائي وجماعة منهم البيهقي في سننه وصححه عن ابن عباس أن السجل كاتب للنبي ﷺ وأخرج جماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما نحوه، وضعف ذلك بل قيل إنه قول واه جداً لأنه لم يعرف أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم اسمه السجل ولا حسن للتشبيه عليه أيضاً، وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الرجل زاد ابن مردويه بلغة الحبشة ونقل ذلك عن الزجاج، وقال بعضهم: يمكن حمل الرواية السابقة عن ابن عباس على هذا والأكثر على ما قيل على تفسير السجل بالصحيفة. واختلف في أنه عربي أو معرب فذهب البصريون إلى أنه عربي، وقال أبو الفضل الرازي الأصح أنه فارسي معرب، هذا ثم إن الآية نص في دثور السماء وهو خلاف ما شاع عن الفلاسفة، نعم ذكر صدر الدين الشيرازي في كتابه الأسفار أن مذهب اساطين الفلاسفة المتقدمين القول بالدثور والقول بخلاف ذلك إنما هو لمتأخريهم لقصور أنظارهم وعدم صفاء ضمائرهم، فمن الأساطين انكسيمائس الملطي قال: إنما ثبات هذا العالم بقدر ما فيه من قليل نور ذلك العالم وأراد به عالم المجردات المحضة وإلا لما ثبت طرفة عين، ويبقى ثباته إلى أن يصفى جزؤه الممتزج جزأها المختلط فإذا صفي الجزءان عند ذلك دثرت أجزاء هذا العالم وفسدت وبقيت مظلمة وبقيت الأنفس الدنسة في هذه الظلمة لا نور لها ولا سرور ولا راحة ولا سكون ولا سلوة.

ومنهم فيثاغورس نقل عنه أنه قيل له: لم قلت بإبطال العالم؟ فقال: لأنه يبلغ العلة التي من أجلها كان فإذا بلغها سكنت حركته، ومنهم أفلاطون حكى الشيخ أبو الحسن العامري أنه ذكر في كتابه المعروف بطيماوس أن العالم مكون وأن الباري تعالى قد صرفه من لا نظام إلى نظام وأن جواهره كلها مركبة من المادة والصورة وأن كل مركب معرض للانحلال، نعم إنه قال في أسولوطيقوس أي تدبير البدن. إن العالم أبدي غير مكون دائم البقاء وتعلق بهذا ابرقلس فبين كلاميه تناف، قد وفق بينهما تلميذه ارسطاطاليس بما فيه نظر، ولعل الأوفق أن يقال على مشربهم: أراد بالعالم الأبدي عالم المفارقات المحضة، ومنهم ارسطاطاليس قال في كتاب أثولوجيا إن الأشياء العقلية تلزم الأشياء الحسية والباري سبحانه لا يلزم الأشياء الحسية والعقلية بل هو سبحانه ممسك لجميع الأشياء غير أن الأشياء العقلية هي آنيات حقية لأنها مبتدعة من العلة الأولى بغير وسط وأما الأشياء الحسية فهي آنيات دائرة لأنها رسوم الآنيات الحقية ومثالها وإنما قوامها ودوامها بالكون[1] والتناسل كي تدوم وتبقى تشبيهاً بالأشياء العقلية الثابتة الدائمة، وقال في كتاب الربوبية: أبدع العقل صورة النفس من غير أن يتحرك تشبيهاً بالواحد الحق وذلك أن العقل أبدعه الواحد الحق وهو ساكن فكك النفس ابدعها العقل وهو ساكن أيضاً غير أن الواحد الحق أبدع هوية العقل وأبدع العقل صورة النفس ولما كانت معلولة من معلول لم تقو أن تفعل فعلها بغير حركة بل فعلته بحركة وأبدعت صنماً وإنما سمي صنماً

---

(١) قيل أراد بالكون الوجود التدريجي على نعت الاتصال كما في الفلكيات وبالتناسل التعاقب في الكون على نهج الانفصال كما في العنصريات من الطبائع المنتشرة الشخصيات مثل الحيوان والنبات اهـ منه.

لأنه فعل داثر غير ثابت ولا باق لأنه كان بحركة والحركة لا تأتي بالشيء الثابت الباقي بل إنما تأتي بالشيء الداثر وإلا لكان فعلها أكرم منها وهو قبيح جداً، وسأله بعض الدهرية إذا كان المبدع لم يزل ولا شيء غيره ثم أحدث العالم فلم أحدثه؟ فقال: لم غير جائزة عليه لأن لم تقتضي علة والعلة محمولة فيما هي علة عليه من معل فوقه وليس بمركب يتحمل ذاته العلل فلم عنه منفية فإنما فعل ما فعل لأنه جواد فقيل يجب أن يكون فاعلاً لم يزل لأنه جواد لم يزل فقال: معنى لم يزل لا أول له وفعل فاعل يقتضي أولا واجتماع يكون ما لا أول له وذا أول في القول والذات محض متناقض، فقيل: فهل يبطل هذا العالم؟ قال: نعم فقيل: فإذا أبطله بطل الجود فقال: يبطل ليصوغه الصيغة التي لا تحتمل الفساد لأن هذه الصيغة تحتمل الفساد، ومنهم فرفوريوس واضع ايساغوجي قال المكونات كلها إنما تتكون بتكون الصورة على سبيل التغير وتفسد بخلو الصورة إلى غير ذلك من الفلاسفة وأقوالهم.

وذكر جميع ذلك مما يفضي إلى الملل، ومن أراده فليرجع إلى الاسفار وغيره من كتب الصدر، والحق أنه قد وقع في كلام متقدمي الفلاسفة كثيراً مما هو ظاهر في مخالفة مدلول الآية الكريمة ولا يكاد يحتمل التأويل وهو مقتضى أصولهم وما يتراءى منه الموافقة فإنما يتراءى منه الموافقة في الجملة والتزام التوفيق بين ما يقوله المسلمون في أمر العالم بأسره وما يقوله الفلاسفة في ذلك كالتزام التوفيق بين الضب والنون بل كالتزام الجمع بين الحركة والسكون.

أيها المنكح الثريا سهيلاً ... عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا ما استقل يماني

فعليك بما نطق به الكتاب المبين أو صح عن الصادق الأمين ﷺ، وما عليك إذا خالفت الفلاسفة فأغلب ما جاؤوا به جهل وسفه؛ ولعمري لقد ضل بكلامهم كثير من الناس وباض وفرخ في صدورهم الوسواس الخناس، وهو جعجعة بلا طحن وقعقعة كقعقعة شن ولولا الضرورة التي لا أبديها والعلة التي عز مداويها لما أضعت في درسه وتدريسه شرخ شبابي ولما ذكرت شيئاً منه خلال سطور كتابي، هذا وأنا أسأل الله تعالى التوفيق للتمسك بحبل الحق الوثيق، ثم إن الظاهر من الأخبار الصحيحة أن العرش لا يطوى كما تطوى السماء فإن كان هو المحدد كما يزعمه الفلاسفة ومن تبع آثارهم فعدم دثوره بخصوصه مما صرح به من الفلاسفة الاسكندر الافروديسي من كبار اصحاب ارسطاطاليس وإن خالفه في بعض المسائل ومن حمل كلامه على خلاف ذلك فقد تعسف وأتى بما لا يسلم له، وظاهر الآية الكريمة أيضاً مشعر بعدم طيه للاقتصار فيها على طي السماء. والشائع عدم اطلاقها على العرش، ثم إن الطي لا يختص بسماء دون سماء بل تطوى جميعها لقوله تعالى: ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿كَمَا بدأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ الظاهر أن الكاف جارة وما مصدرية والمصدر مجرور بها والجار والمجرور صفة مصدر مقدر و ﴿أول﴾ مفعول بدأنا أي نعيد أول خلق إعادة مثله بدئنا إياه أي في السهولة وعدم التعذر وقيل: أي في كونها إيجاداً بعد العدم أو جمعاً من الأجزاء المتفرقة، ولا يخفى أن في كون الإعادة إيجاداً بعد العدم مطلقاً بحثاً، نعم قال اللقاني: مذهب الأكثرين أن الله سبحانه يعدم الذوات بالكلية ثم يعيدها وهو قول أهل السنة والمعتزلة القائلين بصحة الفناء على الأجسام بل وقوعه.

وقال البدر الزركشي والآمدي: إنه الصحيح. والقول بأن الإعادة عن تفريق محض قول الأقل وحكاه جمع بصيغة التمريض لكن في المواقف وشرحه هل يعدم الله تعالى الأجزاء البدنية ثم يعيدها أو يفرقها ويعيد فيها التآلف؟ الحق أنه لم يثبت في ذلك شيء بلا جزم فيه نفياً ولا إثباتاً لعدم الدليل على شيء من الطرفين.

وفي الاقتصاد لحجة الإسلام الغزالي فإن قيل هل تعدم الجواهر والاعراض ثم تعادان جميعاً أو تعدم الاعراض دون الجواهر وتعاد الأعراض؟ قلنا: كل ذلك ممكن، والحق أنه ليس في الشرع دليل قاطع على تعيين أحد هذه الممكنات.

وقال بعضهم: الحق وقوع الأمرين جميعاً إعادة ما انعدم بعينه وإعادة ما تفرق بأعراضه، وأنت تعلم أن الأخبار صحت ببقاء عجب الذنب من الإنسان فإعادة الإنسان ليست كبدئه، وكذا روي أن الله تعالى عز وجل حرّم على الأرض أجساد الأنبياء وهو حديث حسن عند ابن العربي، وقال غيره: صحيح، وجاء نحو ذلك في المؤذنين احتساباً وحديثهم في الطبراني؛ وفي حملة القرآن وحديثهم عند ابن منده، وفيمن لم يعمل خطيئة قط وحديثهم عن المروزي فلا تغفل، وكذا في كون البدء جمعاً من الأجزاء المتفرقة إن صح في المركب من العناصر كالإنسان لا يصح في نفس العناصر مثلاً لأنها لم تخلق أولاً من أجزاء متفرقة بإجماع المسلمين فلعل ما ذكرناه في وجه الشبه أبعد عن القال والقيل.

واعترض جعل ﴿أول﴾ مفعول بدأنا بأن تعلق البداءة بأول الشيء المشروع فيه ركيك لا يقال بدأت أول كذا وإنما يقال بدأت كذا وذلك لأن بداية الشيء هي المشروع فيه والمشروع يلاقي الأول لا محالة فيكون ذكره تكراراً. ونظر فيه بأن المراد بدأنا ما كان أولاً سابقاً في الوجود وليس المراد بالأول أول الأجزاء حتى يتوهم ما ذكر، وقيل: ﴿أول خلق﴾ مفعول نعيد الذي يفسره ﴿نعيده﴾ والكاف مكفوفة بما أي نعيد أول خلق نعيده وقد تم الكلام بذلك ويكون ﴿كما بدأنا﴾ جملة منقطعة عن ذلك على معنى تحقق ذلك مثل تحققه، وليس المعنى على إعادة مثل البدء، ومحل الكاف في مثل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف جيء به تأكيداً، والمقام يقتضيه كما يشعر به التذنيب فلا يقال: إنه لا داعي إلى ارتكاب خلاف الظاهر، وتنكير ﴿خلق﴾ لإرادة التفصيل وهو قائم مقام الجمع في إفادة تناول الجميع فكأنه قيل نعيد المخلوقين الأولين.

وجوز أن تنصب الكاف بفعل مضمر يفسره ﴿نعيده﴾ وما موصولة و ﴿أول﴾ ظرف لبدأنا لأن الموصول يستدعي عائداً فإذا قدر هنا يكون مفعولاً، ولأول قابلية النصب على الظرفية فينصب عليها، ويجوز أن يكون في موضع الحال من ذلك العائد، وحاصل المعنى نعيد مثل الذي بدأناه في أول خلق أو كائناً أول خلق، والخلق على الأول مصدر وعلى الثاني بمعنى المخلوق، وجوز كون ما موصوفة وباقي الكلام بحاله.

وتعقب أبو حيان نصب الكاف بأنه قول باسميتها وليس مذهب الجمهور وإنما ذهب إليه الأخفش، ومذهب البصريين سواه أن كونها اسماً مخصوص بالشعر، وأورد نحوه على القول بأن محلها الرفع في الوجه السابق، وإذا قيل بأن للمكفوفة متعلقاً كما اختاره بعضهم خلافاً للرضي ومن معه فليكن متعلقها خبر مبتدأ محذوف هناك، ورجح كون المراد نعيد مثل الذي بدأناه في أول خلق بما أخرجه ابن جرير عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي عجوز من بني عامر فقال: من هذه العجوز يا عائشة؟ فقلت: إحدى خالاتي فقالت: ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال عليه الصلاة والسلام: إن الجنة لا يدخلها العجز فأخذ العجوز ما أخذها فقال ﷺ: إن الله تعالى ينشئهن خلقاً غير خلقهن ثم قال: تحشرون حفاة عراة غلفاً فقالت: حاش لله تعالى من ذلك فقال رسول الله ﷺ: بلى إن الله تعالى قال: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ ومثل هذا المعنى حاصل على ما جوزه ابن الحاجب من كون ﴿كما بدأنا﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿نعيده﴾ أي نعيد أول خلق مماثلاً للذي بدأناه، ولا تغفل عما يقتضيه التشبيه من مغايرة الطرفين، وأياً ما كان فالمراد الإخبار بالبعث وليست ما في شيء من الأوجه خاصة بالسماء إذ ليس المعنى عليه ولا اللفظ يساعده.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى الآية نهلك كل شيء كما كان أول مرة ويحتاج ذلك إلى تدبر فتدبر.

﴿وَعْداً﴾ مصدر منصوب بفعله المحذوف تأكيداً له، والجملة مؤكدة لما قبلها أو منصوب بنعيد لأنه عدة بالإعادة وإلى هذا ذهب الزجاج، واستجود الأول الطبرسي بأن القراء يقفون على ﴿نعيده﴾ ﴿عَلَيْنَا﴾ في موضع الصفة لوعداً أي وعداً لازماً علينا، والمراد لزم إنجازه من غير حاجة إلى تكلف الاستخدام ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك بالفعل لا محالة، والأفعال المستقبلة التي علم الله تعالى وقوعها كالماضية في التحقق ولذا عبر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز أو قادرين على أن نفعل ذلك واختاره الزمخشري، وقيل عليه: إنه خلاف الظاهر ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ الظاهر أنه زبور داود عليه السلام وروي ذلك عن الشعبي.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه الكتب، والذكر في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ التوراة. وروي تفسيره بذلك عن الضحاك أيضاً. وقال في الزبور: الكتب من بعد التوراة. وأخرج عن ابن جبير أن الذكر التوراة والزبور القرآن. وأخرج عن ابن زيد أن الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء عليهم السلام والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك وهو اللوح المحفوظ كما في بعض الآثار، واختار تفسيره بذلك الزجاج وإطلاق الذكر عليه مجاز. وقد وقع في حديث البخاري عنه ﷺ «كان الله تعالى ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء ثم خلق الله السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء» وقيل: الذكر العلم وهو المراد بأم الكتاب، وأصل الزبور كل كتاب غليظ الكتابة من زبرت الكتاب أزبر بفتح الموحدة وضمها كما في المحكم إذا كتبته كتابة غليظة وخص في المشهور بالكتاب المنزل على داود عليه السلام، وقال بعضهم: هو اسم للكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية ولهذا يقال للمنزل على داود عليه السلام إذ لا يتضمن شيئاً من الأحكام الشرعية.

والظاهر أنه اسم عربي بمعنى المزبور، ولذا جوز تعلق ﴿من بعد﴾ به كما جوز تعلقه بكتبنا، وقال حمزة: هو اسم سرياني، وأياً ما كان فإذا أريد منه الكتب كان اللام فيه للجنس أي كتبنا في جنس الزبور.

﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس أن المراد بالأرض أرض الجنة؛ قال الإمام: ويؤيده قوله تعالى: ﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ [الزمر: ٧٤] وإنها الأرض التي يختص بها الصالحون لأنها لهم خلقت، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبع وأن الآية ذكرت عقيب ذكر الإعادة وليس بعد الإعادة أرض يستقر بها الصالحون ويمتن بها عليهم سوى أرض الجنة، وروي هذا القول عن مجاهد وابن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية، وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد بها ارض الدنيا يرثها المؤمنون ويستولون عليها وهو قول الكلبي وأيد بقوله تعالى: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ [النور: ٥٥].

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها» وهذا وعد منه تعالى بإظهار الدين وإعزاز أهله واستيلائهم على أكثر المعمورة التي يكثر تردد المسافرين إليها وإلا فمن الأرض ما لم يطأها المؤمنون كالأرض الشهيرة بالدنيا الجديدة وبالهند الغربي، وإن قلنا بأن جميع ذلك يكون في حوزة المؤمنين أيام المهدي رضي الله تعالى عنه ونزول عيسى عليه السلام فلا حاجة إلى ما ذكر، وقيل: المراد بها الأرض المقدسة، وقيل: الشام ولعل بقاء الكفار وحدهم في الأرض جميعها في آخر الزمان كما صحت به الأخبار لا يضر في هذه الوراثة لما أن بين استقلالهم في الأرض

حينئذ وقيام الساعة زمناً يسيراً لا يعتد به وقد عد ذلك من المبادىء القريبة ليوم القيامة، والأولى أن تفسر الأرض بأرض الجنة كما ذهب إليه الأكثرون وهو أوفق بالمقام.

ومن الغرائب قصة تفاؤل السلطان سليم بهذه الآية حين أضمر محاربته للغوري وبشارة ابن كمال له أخذاً مما رمزت إليه الآية بملكه مصر في سنة كذا ووقوع الأمر كما بشر وهي قصة شهيرة وذلك من الأمور الاتفاقية ومثله لا يعول عليه ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أي فيما ذكر في هذه السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة، وقيل: الإشارة إلى القرآن كله ﴿لَبَلَاغًا﴾ أي كفاية أو سبب بلوغ إلى البغية أو نفس البلوغ إليها على سبيل المبالغة ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي لقوم همهم العبادة دون العادة، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنهم الذين يصلون الصلوات الخمس بالجماعة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ ذلك فقال: هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة، وضمير «هي» للعبادة المفهومة من «عابدين» وقال أبو هريرة. ومحمد بن كعب ومجاهد: هي الصلوات الخمس ولم يقيدوا بشيء، وعن كعب الأحبار تفسيرها بصيام شهر رمضان وصلاة الخمس والظاهر العموم وأن ما ذكر من باب الاقتصار على بعض الأفراد لنكتة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والأحكام وغير ذلك مما هو مناط لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ استثناء من أعم العلل أي وما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل إلا لترحم العالمين بإرسالك. أو من أعم الأحوال أي وما أرسلناك في حال من الأحوال إلا حال كونك رحمة أو ذا رحمة أو راحماً لهم ببيان ما أرسلت به، والظاهر أن المراد بالعالمين ما يشمل الكفار، ووجه ذلك عليه أنه عليه الصلاة والسلام أرسل بما هو سبب لسعادة الدارين، ومصلحة النشأتين إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك وأعرض لفساد استعداده عما هنالك، فلا يضر ذلك في كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل رحمة بالنسبة إليه أيضاً كما لا يضر في كون العين العذبة مثلاً نافعة عدم انتفاع الكسلان بها لكسله وهذا ظاهر خلافاً لمن ناقش فيه، و هل يراد بالعالمين ما يشمل الملائكة عليهم السلام أيضاً فيه خلاف مبني على الخلاف في عموم بعثة ﷺ لهم، فإذا قلنا بالعموم كما رجحه من الشافعية البارزي. وتقي الدين السبكي والجلال المحلي في خصائصه، ومن الحنابلة ابن تيمية وابن حامد وابن مفلح في كتاب الفروع، ومن المالكية عبد الحق قلنا بشمول العالمين لهم هنا. وكونه ﷺ أرسل رحمة بالنسبة إليهم لأنه جاء عليه الصلاة والسلام أيضاً بما فيه تكليفهم من الأوامر والنواهي وإن لم نعلم ما هنا، ولا شك أن في امتثال المكلف ما كلف به نفعاً له وسعادة، وإن قلنا بعدم العموم كما جزم به الحليمي والبيهقي والجلال المحلي في شرح جمع الجوامع وزين الذين العراقي في نكتة على ابن الصلاح من الشافعية ومحمود بن حمزة في كتابه العجائب والغرائب من الحنفية بل نقل البرهان النسفي والفخر الرازي في تفسيريهما الإجماع عليه وإن لم يسلم قلنا بعدم شموله لهم هنا وإرادة من عداهم منه، وقيل: هم داخلون هنا في العموم وإن لم نقل ببعثته ﷺ إليهم لأنهم وقفوا بواسطة إرساله عليه الصلاة والسلام على علوم جمة وأسرار عظيمة مما أودع في كتابه الذي فيه بناء ما كان وما يكون عبارة وإشارة وأي سعادة أعظم من التحلي بزينة العلم؟ وكونهم عليهم السلام لا يجهلون شيئاً مما لم يذهب إليه أحد من المسلمين، وقيل: لأنهم أظهر من فضلهم على لسانه الشريف ما أظهر.

وقال بعضهم: إن الرحمة في حق الكفار أمنهم ببعثته ﷺ من الخسف والمسخ والقذف والاستئصال، وأخرج ذلك الطبراني والبيهقي وجماعة عن ابن عباس، وذكر أنها في حق الملائكة عليهم السلام الأمن من نحو ما ابتلي به هاروت وماروت، وأيد بما ذكره صاحب الشفاء أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: هل أصابك من هذه الرحمة

شيء؟ قال: نعم كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله تعالى عليّ في القرآن بقوله سبحانه: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ [التكوير: ٢٠] وإذا صح هذا الحديث لزم القول بشمول العالمين للملائكة عليهم السلام إلا أن الجلال السيوطي ذكر في تزيين الأرائك أنه لم يوقف له على إسناد، وقيل المراد بالعالمين جميع الخلق فإن العالم ما سوى الله تعالى وصفاته جل شأنه، وجمع جمع العقلاء تغليباً للأشرف على غيره.

وكونه ﷺ رحمة للجميع باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام واسطة الفيض الإلهي على الممكنات على حسب القوابل، ولذا كان نوره ﷺ أول المخلوقات، ففي الخبر أول ما خلق الله تعالى نور نبيك يا جابر، وجاء «الله تعالى المعطي وأنا القاسم» وللصوفية قدست أسرارهم في هذا الفصل كلام فوق ذلك، وفي مفتاح السعادة لابن القيم أنه لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة ولا عمل صالح ولا صلاح في معيشة ولا قوام لمملكة ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التي يعدو بعضها على بعض، وكل خير في العالم فمن آثار النبوة وكل شر وقع في العالم أو سيقع فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فالعالم جسد روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه، ولهذا إذا انكسفت شمس النبوة من العالم ولم يبق في الأرض شيء من آثارها البتة انشقت سماؤه وانتشرت كواكبه وكورت شمسه وخسف قمره ونسفت جباله وزلزلت أرضه وأهلك من عليها فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة اهـ؛ وإذا سلم هذا علم منه بواسطة كونه ﷺ أكمل النبيين وما جاء به أجل مما جاؤوا به عليهم السلام وإن لم يكن في الأصول اختلاف وجه كونه عليه الصلاة والسلام أرسل رحمة للعالمين أيضاً لكن لا يخلو ذلك عن بحث.

وزعم بعضهم أن العالمين هنا خاص بالمؤمنين وليس بشيء، ولواحد من الفضلاء كلام طويل في هذه الآية الكريمة نقض فيه وأبرم ومنع و سلم ولا أرى منشأ سوى قلة الاطلاع على الحق الحقيق بالاتباع، وأنت متى أخذت العناية بيدك بعد الاطلاع عليه سهل عليك رده ولم يهولك هزله وجده، والذي أختاره أنه ﷺ إنما بعث رحمة لكل فرد فرد من العالمين ملائكتهم وإنسهم وجنهم ولا فرق بين المؤمن والكافر من الانس والجن في ذلك، والرحمة متفاوتة ولبعض من العالمين المعلى والرقيب منها، و ما يرى أنه ليس من الرحمة فهو إما منها في النظر الدقيق أوليس مقصوداً بالقصد الأولى كسائر الشرور الواقعة في العالم بناء على ما حقق في محله أن الشر ليس داخلاً في قضاء الله تعالى بالذات، ومما هو ظاهر في عموم العالمين الكفار ما أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة» ولعله يؤيد نصب ﴿رحمةً﴾ في الآية على الحال كقوله ﷺ الذي أخرجه البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة «إنما أنا رحمة مهداة» ولا يشين احتمال التعليل ما ذهب إليه الأشاعرة من عدم تعليل أفعاله عز وجل فإن الماتريدية وكذا الحنابلة ذهبوا إلى خلافه وردوه بما لا مزيد عليه، على أنه لا مانع من أن يقال فيه كما قيل في سائر ما ظاهره التعليل ووجود المانع هنا توهم محض فتدبر؛ ثم لا يخفى أن تعلق ﴿للعالمين﴾ برحمة هو الظاهر.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يتعلق بأرسلناك، وفي البحر لا يجوز على المشهور أن يتعلق الجار بعد إلا بالفعل قبلها إلا إن كان العامل مفرغاً له نحو ما مررت إلا بزيد.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ذهب جماعة إلى أن في الآية حصرين بناء على أن أنما المفتوحة تفيد ذلك كالمكسورة، والأول لقصر الصفة على الموصوف والثاني لقصر الموصوف على الصفة فالثاني قصر فيه الله تعالى على الوحدانية والأول قصر فيه الوحي على الوحدانية، والمعنى ما يوحى إليّ إلا اختصاص الله تعالى بالوحدانية.

واعترض بأنه كيف يقصر الوحي على الوحدانية وقد أوحي إليه ﷺ أمور كثيرة غير ذلك كالتكاليف والقصص، وأجيب بوجهين: الأول أن معنى قصره عليه أنه الأصل الأصيل وما عداه راجع إليه أو غير منظور إليه في جنبه فهو قصر ادعائي، والثاني أنه قصر قلب بالنسبة إلى الشرك الصادر من الكفار، وكذا الكلام في القصر الثاني. وأنكر أبو حيان إفادة أنما المفتوحة الحصر لأنها مؤولة بمصدر واسم مفرد وليست كالمكسورة المؤولة بما وإلا وقال: لا نعلم خلافاً في عدم إفادتها ذلك والخلاف إنما هو في إفادة إنما المكسورة إياه.

وأنت تعلم أن الزمخشري وأكثر المفسرين ذهبوا إلى إفادتها ذلك، والحق مع الجماعة ويؤيده هنا أنها بمعنى المكسورة لوقوعها بعد الوحي الذي هو في معنى القول ولأنها مقولة ﴿قل﴾ في الحقيقة ولا شك في إفادتها التأكيد فإذا اقتضى المقام القصر كما فيما نحن فيه انضم إلى التأكيد لكنه ليس بالوضع كما في المكسورة فقد جاء ما لا يحتمله كقوله تعالى: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾ [ص: ٢٤] ولذا فسره الزمخشري بقوله ابتليناه لا محالة مع تصريحه بالحصر هنا، نعم في توجيه القصر هنا بما سمعت من كونه قصر الله تعالى على الوحدانية ما سمعته في آخر سورة الكهف فتذكر.

وجوز في . ما . ﴿إنما يوحى﴾ أن تكون موصولة وهو خلاف الظاهر. وتجويزه فيما بعد بعيدٌ جداً موجب لتكلف لا يخفى ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي منقادون لما يوحى إليّ من التوحيد، وهو استفهام يتضمن الأمر بالانقياد، وبعضهم فسر الإسلام بلازمه وهو إخلاص العبادة له تعالى وما أشرنا إليه أولى.

والفاء للدلالة على أن ما قبلها موجب لما بعدها قالوا: فيه دلالة على أن صفة الوحدانية يصح أن يكون طريقها السمع بخلاف إثبات الواجب فإن طريقه العقل لئلا يلزم الدور.

قال في شرح المقاصد: إن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصدقهم لا يتوقف على الوحدانية فيجوز التمسك بالأدلة السمعية كإجماع الأنبياء عليهم السلام على الدعوة إلى التوحيد ونفي الشريك وكالنصوص القطعية من كتاب الله تعالى على ذلك، وما قيل إن التعدد يستلزم الإمكان لما عرفت من أدلة التوحيد وما لم تعرف أن الله تعالى واجب الوجود خارج عن جميع الممكنات لم يتأت إثبات البعثة والرسالة ليس بشيء لأن غاية استلزام الوجوب الوحدة لا استلزام معرفته معرفتها فضلاً عن التوقف، وسبب الغلط عدم التفرقة بين ثبوت الشيء والعلم بثبوته انتهى.

وتفريع الاستفهام هنا صريح في ثبوت الوحدانية بما ذكر، وقول صاحب الكشف: إن الآية لا تصلح دليلاً لذلك لأنه إنما يوحى إليه ﷺ ذلك مبرهناً لا على قانون الخطابة فلعل نزولها كان مصحوباً بالبرهان العقلي ليس بشيء لظهور أن التفريع على نفس هذا الموحى، وكون نزوله مصحوباً بالبرهان العقلي والتفريع باعتباره غير ظاهر ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الاسلام ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿آذَنْتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم ما أمرت به أو حربي لكم، والإيذان إفعال من الإذن وأصله العلم بالإجازة في شيء وترخيصه ثم تجوز به عن مطلق العلم وصيغ منه الأفعال، وكثيراً ما يتضمن معنى التحذير، والإنذار وهو يتعدى لمفعولين الثاني منهما مقدر كما أشير إليه. وقوله تعالى: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ في موضع الحال من المفعول الأول أي كائنين على سواء في الاعلام بذلك لم أخص أحداً منكم دون أحد. وجوز أن يكون في موضع الحال من الفاعل والمفعول معاً أي مستوياً أنا وأنتم في المعاداة أو في العلم بما أعلمتكم به من وحدانية الله تعالى لقيام الأدلة عليها. وقيل ما أعلمهم ﷺ به يجوز أن يكون ذلك وأن يكون وقوع الحرب في البين واستوائهم في العلم بذلك جاء من إعلامهم به وهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام الصادق الأمين وإن كانوا يجحدون بعض ما يخبر به عناداً فتدبر.

وجوز أن يكون الجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر أي إيذاناً على سواء. وأن يكون في موضع الخبر لأن مقدرة أي أعلمتكم أني على سواء أي عدل واستقامة رأي بالبرهان النير وهذا خلاف المتبادر جداً.

وفي الكشاف أن قوله تعالى: ﴿آذنتكم﴾ الخ استعارة تمثيلية شبه بمن بينه وبين أعدائه هدنة فأحس بغدرهم فنبذ إليهم العهد وشهر النبذ وإشاعة وآذانهم جميعاً بذلك وهو من الحسن بمكان ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين عليكم وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتياً لا محالة، والجملة في موضع نصب بأدري. ولم يجيء التركيب أقريب ما توعدون أم بعيد لرعاية الفواصل.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي ما تجهرون به من الطعن في الإسلام وتكذيب الآيات التي من جملتها ما نطق بمجيء الموعود ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الاحن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيراً وقطميراً ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ أي ما أدري لعل تأخير جزائكم[1] استدراج لكم وزيادة في افتنانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون. وجملة ﴿لعله﴾ الخ في موضع المفعول على قياس ما تقدم.

والكوفيون يجرون لعل مجرى هل في كونها معلقة. قال أبو حيان: ولا أعلم أحداً ذهب إلى أن لعل من أدوات التعليق وإن كان ذلك ظاهراً فيها. وعن ابن عباس في رواية أنه قرأ «أَدْرِيَ» بفتح الياء في الموضعين تشبيهاً لها بياء الإضافة لفظاً وإن كانت لام الفعل ولا تفتح إلا بعامل. وأنكر ابن مجاهد فتح هذه الياء.

﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي وتمتيع لكم وتأخير إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم. وقيل المراد بالحين يوم بدر. وقيل يوم القيامة ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ حكاية لدعائه ﷺ. وقرأ الأكثر «قل» على صيغة الأمر. والحكم القضاء. والحق العدل أي رب اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لتعجيل العذاب والتشديد عليهم فهو دعاء بالتعجيل والتشديد وإلا فكل قضائه تعالى عدل وحق. وقد استجيب ذلك حيث عذبوا ببدر أي تعذيب.

وقرأ أبو جعفر «ربُّ» بالضم على أنه منادى مفرد كما قال صاحب اللوامح، وتعقبه بأن حذف حرف النداء من اسم الجنس شاذ بابه الشعر. وقال أبو حيان: إنه ليس بمنادى مفرد بل هو منادى مضاف إلى الياء حذف المضاف إليه وبني على الضم كقبل وبعد وذلك لغة حكاها سيبويه في المضاف إلى ياء المتكلم حال ندائه ولا شذوذ فيه. وقرأ ابن عباس وعكرمة والجحدري وابن محيصن «رَبِّي» بياء ساكنة «أَحْكَمَ» على صيغة التفضيل أي أنفذ أو أعدل حكماً أو أعظم حكمة. فربي أحكم مبتدأ وخبر.

وقرأت فرقة «أحكم» فعلاً ماضياً ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ مبتدأ وخبر أي كثير الرحمة على عباده. وقوله سبحانه: ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ أي المطلوب منه العون خبر آخر للمبتدأ. وجوز كونه صفة للرحمن بناء على إجرائه مجرى العلم. وإضافة الرب فيما سبق إلى ضميره ﷺ خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام كما أن إضافته ها هنا إلى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضاً لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم.

﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون: إن الشركة تكون لهم وإن راية الإسلام تخفق ثم تسكن

---

(١) فالضمير لما علم من الكلام اهـ منه.

وإن المتوعد به لو كان حقاً لنزل بهم إلى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله ﷺ فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فأصابهم يوم بدر ما أصابهم، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله. وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ على أبيّ رضي الله تعالى عنه **«يصفون»** بياء الغيبة ورويت عن ابن عامر وعاصم. هذا وفي جعل خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما يتعلق به خاتمة لسورة الأنبياء طيب كما قال الطيبي يتضوع منه مسك الختام.

ومن باب الإشارة في الآيات **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾** قيل ذلك الرشد إيثار الحق جل شأنه على ما سواه سبحانه، وسئل الجنيد متى أتاه ذلك؟ فقال: حين لا متى **﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾** فيه إشارة إلى أن طلب المحتاج من المحتاج سفه في رأيه وضلة في عقله اهـ.

وقال حمدون القصار: استعانة الخلق بالخلق كاستعانة المسجون بالمسجون **﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾** قال ابن عطاء: كان ذلك لسلامة قلب ابراهيم عليه السلام وخلوه من الالتفات إلى الأسباب وصحة توكله على الله تعالى، ولذا قال عليه السلام حين قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة؟ أما إليك فلا **﴿ففهمناها سليمان﴾** فيه إشارة إلى أن الفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء ولا تعلق له بالصغر والكبر فكم من صغير أفضل من كبير بكثير **﴿وكلاً آتينا حكماً﴾** قيل معرفة بأحكام الربوبية **﴿وعلماً﴾** معرفة بأحكام العبودية **﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾** قيل كان عليه السلام يخلو في الكهوف لذكره تعالى وتسبيحه فيشاركه في ذلك الجبال ويسبحن معه، وذكر بعضهم أن الجبال لكونها خالية عن صنع الخلق حالية بأنوار قدره الحق يحب العاشقون الخلوة فيها، ولذا تحنث ﷺ في غار حراء.

واختار كثير من الصالحين الانقطاع للعبادة فيها **﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾** ذكر أنه عليه السلام قال ذلك حين قصدت دودة قلبه ودودة لسانه فخاف أن يشغل موضع فكره وموضع ذكره، وقال جعفر: كان ذلك منه عليه السلام استدعاء للجواب من الحق سبحانه ليسكن إليه ولم يكن شكوى وكيف يشكو المحب حبيبه وكل ما فعل المحبوب محبوب وقد حفظ عليه السلام آداب الخطاب **﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه﴾** قيل إن ذلك رشحة من دن خمر الدلال، وذكروا أن مقام الدل دون مقام العبودية المحضة لعدم فناء الإرادة فيه ولذا نادى عليه السلام **﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾** أي حيث اختلج في سري أن أريد غيره ما أردت **﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين﴾** قيل إنه عليه السلام أراد ولداً يصلح لأن يكون محلاً لإفشاء الأسرار الإلهية إليه فإن العارف متى كان فرداً غير واجد من يفشي إليه السر ضاق ذرعه **﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾** قيل أي رغبة فينا ورهبة عما سوانا أو رغبة في لقائنا ورهبة من الاحتجاب عنا **﴿وكانوا لنا خاشعين﴾**.

قال أبو يزيد: الخشوع خمود القلب عن الدعاوى، وقيل الفناء تحت أذيال العظمة ورداء الكبرياء **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** أكثر الصوفية قدست أسرارهم على أن المراد من العالمين جميع الخلق وهو ﷺ رحمة لكل منهم إلا أن الحظوظ متفاوتة ويشترك الجميع في أنه عليه الصلاة والسلام سبب لوجودهم بل قالوا: إن العالم كله مخلوق من نوره ﷺ، وقد صرح بذلك الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره في قوله وقد تقدم غير مرة:

طه النبي تكونت من نوره ... كل الخليقة ثم لو ترك القطا

وأشار بقوله لو ترك القطا إلى أن الجميع من نوره عليه الصلاة والسلام وجه الانقسام إلى المؤمن والكافر بعد تكونه فتأمل، هذا ونسأل الله تعالى أن يجعل حظنا من رحمته الحظ الوافر وأن ييسر لنا أمور الدنيا والآخرة بلطفه المتواتر.

(٢٢) سورة الحج مدنية
وآياتها ثمان وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾

اعلم أنه تعالى أمر الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتقي كل محرم ويتقي ترك كل واجب وإنما دخل فيه الأمران ، لأن المتقي إنما يتقي ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لأجله المحرم ويفعل لأجله الواجب ، ولا يكاد يدخل فيه النوافل لأن المكلف لا يخاف بتركها العذاب ، وإنما يرجو بفعلها الثواب فإذا قال (اتقوا ربكم) فالمراد اتقوا عذاب ربكم .

أما قوله (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الزلزلة شدة حركة الشيء ، قال صاحب الكشاف ولاتخلو الساعة من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي فتكون الزلزلة مصدراً مضافاً إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) وهي الزلزلة المذكورة في قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها)

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في وقتها فعن علقمة والشعبي أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها . وقيل هي التي تكون معها الساعة . وروى عن رسول الله ﷺ في حديث الصور « إنه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعقة ، ونفخة القيام لرب العالمين ، وإن عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب

(١) مكية وفي المصحف الملكي مدنية عدا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، فبين مكة والمدينة وفي تفسير ابي السعود بهامش طبعة دار الفكر لتفسير الفخر الرازي سورة الحج ، مكية إلا سبعة آيات من (هذا خصمان الى صراط الحميد) .

www.besturdubooks.wordpress.com

يومئذ واجفة ، وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح » وقال مقاتل وابن زيد هذا فى أول يوم من أيام الآخرة . واعلم أنه ليس فى اللفظ دلالة على شيء من هذه الأقسام ، لأن هذه الإضافة تصح وإن كانت الزلزلة قبلها ، وتكون من أماراتها وأشراطها ، وتصح إذا كانت فيها ومعها ، كقولنا آيات الساعة وأمارات الساعة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى «أن هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم ، فلم ير باكياً أكثر من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور ، والناس بين باك وجالس حزين متفكر . فقال عليه السلام : « أتدرون أى ذلك اليوم هو؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ولدك ، فيقول آدم وما بعث النار ؟ يعنى من كم كم ؟ فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فعند ذلك يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، فكبر ذلك على المؤمنين وبكوا ، وقالوا فمن ينجو يارسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام أبشروا وسددوا وقاربوا فان معكم خليقتين ماكانا فى قوم إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ، ثم قال إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ، ثم قال إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ، ثم قال إنى لأرجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة ، إن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ثمانون منها أمتى وما المسلمون فى الكفار إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، ثم قال ويدخل من أمتى سبعون ألفا إلى الجنة بغير حساب ، فقال عمر سبعون ألفاً ؟ قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً ، فقام عكاشة بن محصن فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال أنت منهم ، فقام رجل من الأنصار فقال مثل قوله ، فقال سبقك بها عكاشة» فخاض الناس فى السبعين ألفاً فقال بعضهم هم الذين ولدوا على الاسلام ، وقال بعضهم هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا فقال « هم الذين لا يكتوون ولا يكوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنه سبحانه أمر الناس بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة ، والمعنى أن التقوى تقتضى دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس ، ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب ، فيلزم أن تكون التقوى واجبة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتجت المعتزلة بقوله تعالى (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وصفها بأنها شيء مع أنها معدومة ، واحتجوا أيضاً بقوله تعالى (إن الله على كل شيء قدير) فالشيء الذى قدر الله عليه إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، والأول محال وإلا لزم كون القادر قادراً على إيجاد الموجود ، وإذا بطل هذا ثبت أن الشيء الذى قدر الله عليه معدوم فالمعدوم شيء . واحتجوا أيضاً بقوله تعالى (ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً) أطلق اسم الشيء فى الحال على مايصير مفعولا

www.besturdubooks.wordpress.com

غداً ، والذى يصير مفعولا غداً يكون معدوماً فى الحال ، فالمعدوم شىء والله أعلم (والجواب) عن الأول أن الزلزلة عبارة عن الأجسام المتحركة وهى جواهر قامت بها أعراض وتحقق ذلك فى المعدوم محال ، فالزلزلة يستحيل أن تكون شيئاً حال عدمها ، فلا بد من التأويل بالاتفاق . ويكون المعنى أنها إذا وجدت صارت شيئاً ، وهذا هو الجواب عن البواقى .

﴿ المسألة السادسة ﴾ وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولا عظيم أعظم مما عظمه الله تعالى . أما قوله تعالى (يوم ترونها) فهو منصوب بتذهل أى تذهل فى ذلك اليوم والضمير فى ترونها يحتمل أن يرجع إلى الزلزلة وأن يرجع إلى الساعة لتقدم ذكرهما ، والأقرب رجوعه إلى الزلزلة لأن مشاهدتها هى التى توجب الخوف الشديد . واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أموراً ثلاثة (أحدها) قوله (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) أى تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة ، فان قيل : لم قال مرضعة دون مرضع ؟ قلت المرضعة هى التى فى حال الارضاع وهى ملقمة ثديها الصبى والمرضع شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به ، فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة ، وقوله (عما أرضعت) أى عن إرضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل فتكون ما بمعنى من (١) على هذا التأويل (وثانيها) قوله (وتضع كل ذات حمل حملها) والمعنى أنها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل على أن هذه الزلزلة إنما تكون قبل البعث ، قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وألقت الحوامل مافى بطونها لغير تمام . وقال القفال : يحتمل أن يقال من ماتت حاملا أو مرضعة تبعث حاملا أو مرضعة تضع حملها من الفزع ، ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله (يوم يجعل الولدان شيباً) ، (وثالثها) قوله (وترى الناس سكارى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء وترى بالضم تقول أريتك قائماً أو رأيتك قائماً والناس بالنصب والرفع ، أما النصب فظاهر ، وأما الرفع فلأنه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله وأنثه على تأويل الجماعة ، وقرىء سكرى وسكارى ، وهو نظير جوعى وعطشى فى جوعان وعطشان ، سكارى وسكارى نحو كسالى وعجالى ، وعن الأعمش : سكرى وسكرى بالضم وهو غريب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المعنى وتراهم سكارى على التشبيه (وما هم بسكارى) على التحقيق ، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذى أذهب عقولهم وطير تمييزهم ، وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب ، فان قلت لم قيل أولا ترون ثم قيل ترى على الإفراد ؟ قلنا لأن الرؤية أولا علقت بالزلزلة ، فجعل الناس جميعاً رائين لها ، وهى معلقة آخراً بكون الناس على حال من السكر ، فلا بد وأن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم

---

(١) هو من باب التغليب لكثرة عدد غير العقلاء على العقلاء فى الحقيقة ، وبذلك يشمل الأناسى وغيرهم من الحيوانات .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قيل أتقولون إن شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد أو لأهل النار خاصة ؟ قلنا قال قوم إن الفزع الأكبر وغيره يختص بأهل النار ، وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون . وقيل بل يحصل للكل لأنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه فى شيء من أفعاله ، وليس لأحد عليه حق .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى كيفية النظم وجهان : (الأول) أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ، ودعا الناس الى تقوى الله . ثم بين فى هذه الآية قوماً من الناس الذين ذكروا فى الأول . وأخبر عن مجادلتهم (الثانى) أنه تعالى بين أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها ،فان من الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ثم فى قوله (ومن الناس) وجهان : (الأول) أنهم الذين ينكرون البعث ، ويدل عليه قوله(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة)إلى آخر الآية . وأيضاً فان ماقبل هذه الآية وصف البعث ومابعدها فى الدلالة على البعث ، فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة فى البعث (والثانى) أنها نزلت فى النضر بن الحرث ،كان يكذب بالقرآن ويزعم أنه أساطير الأولين ، ويقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة ، فالمجادلة الباطلة هى المراد من قوله(ما ضربوه لك إلا جدلا) والمجادلة الحقة هى المراد من قوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (ويتبع كل شيطان مريد) قولان : (أحدهما) يجوز أن يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر (والثانى) أن يكون المراد بذلك إبليس وجنوده ، قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس ، يقال صخرة مرداء أى ملساء ، ويجوز أن يستعمل فى غير الشيطان إذا جاوز حد مثله .

أما قوله (كتب عليه) ففيه وجهان : (أحدهما) أن الكتبة عليه مثل أى كأنما كتب إضلال من عليه ورقم به لظهور ذلك فى حاله(والثانى) كتب عليه فى أم الكتاب ، واعلم أن هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان ، يحتمل أن يكون راجعاً إلى كل واحد منهما ، فان رجع إلى من

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى

يجادل فانه يرجع إلى لفظه الذى هو موحد ، فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار . وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلا لهذا الوعيد ، فان رجع إلى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو فى ضلال . وعلى هذا الوجه أيضاً يكون زجراً عن اتباعه ، وفى الآية مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال القاضى عبد الجبار إذا قيل المراد بقوله (كتب عليه) قضى عليه فلا جائز أن يرد إلا إلى من يتبع الشيطان ، لأنه تعالى لا يجوز أن يقضى على الشيطان أنه يضل ، ويجوز أن يقضى على من يقبله بقوله ، قد أضله عن الجنة وهداه إلى النار . قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذباً ، وذلك محال ومستلزم المحال محال ، فكان لا وقوعه محالا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت الآية على أن المجادل فى الله إن كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب ، فيدل على أن المعارف ليست ضرورية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القاضى فيه دلالة على أن المجادلة فى الله ليست من خلق الله تعالى وبإرادته ، وإلا لما كانت مضافة إلى اتباع الشيطان ، وكان لا يصح القول بأن الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد أضله (والجواب) المعارضة بمسألة العلم وبمسألة الداعى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء أنه بالفتح والكسر فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب والثانى عطف عليه ، ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام ، كما يقول كتبت أن الله هو الغنى الحميد ، أو على تقدير قيل أو على أن كتب فيه معنى القول .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة . لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمل لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾.

القراءة قرأ الحسن (من البعث) بالتحريك ونظيره الحلب والطرد فى الحلب وفى الطرد (ومخلقة وغير مخلقة) بجر التاء والراء ، وقرأ ابن أبى عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون فى قوله (لنبين) وفى قوله (ونقر) وفى قوله (ثم نخرجكم طفلا) ابن أبى عبلة بالياء فى هذه الثلاثة ، أما القراءة بالنون ففيها وجوه : (أحدها) القراءة المشهورة (وثانيها) روى السيرافى عن داود عن يعقوب ونقر بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء إذا صبه ، وفى رواية أخرى عنه كذلك إلا أنه بنصب الراء (وثالثها) ونقر ونخرجكم بنصب الراء والجيم أما القراءة بالياء ففيها وجوه :(أحدها) يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم (وثانيها) يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم (وثالثها) بفتح الياء وكسر القاف وضم الراء أبو حاتم (ومنكم من يتوفى) بفتح الياء أى يتوفاه الله تعالى ابن عمرة والأعمش (العمر) باسكان الميم القراءة المعروفة (ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وفى حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخاً بغير القراءة المعروفة وربت أبو جعفر وربأت أى ارتفعت ، وروى العمرى عنه بتليين الهمزة وقرىء وأنه باعث .

(المعانى) اعلم أنه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم فى إثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين :(أحدهما) الاستدلال بخلقة الحيوان أولا وهو موافق لما أجمله فى قوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وقوله (فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة) فكأنه سبحانه وتعالى قال : إن كنتم فى ريب مما وعدناكم من البعث ، فتذكروا فى خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانياً ، ثم إنه سبحانه ذكر من مراتب الخلقة الأولى أموراً سبعة : (المرتبة الأولى) قوله (فانا خلقناكم من تراب) وفيه وجهان : (أحدهما) إنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب ، لقوله (كمثل آدم خلقه من تراب) وقوله (منها خلقناكم) ، (والثانى) أن خلقة الإنسان من المنى ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية ، والأغذية إما حيوان أو نبات وغذاء الحيوان ينتهى قطعاً للتسلسل إلى النبات ، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء ، فصح قوله (إنا خلقناكم من تراب)

www.besturdubooks.wordpress.com

(المرتبة الثانية) قوله (ثم من نطفة) والنطفة اسم للماء القليل أى ماء كان، وهو ههنا ماء الفحل فكأنه سبحانه يقول: أنا الذى قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفاً، مع أنه لامناسبة بينهما البتة (المرتبة الثالثة) قوله (ثم من علقة) العلقة قطعة الدم الجامدة، ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة (المرتبة الرابعة) قوله (ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء) فالمضغة اللحمة الصغيرة قدرما يمضغ، والمخلقة المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب، يقال خلق السواك والعود إذا سواه وملسه، من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساء. ثم للمفسرين فيه أقوال (أحدها) أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم، كأنه سبحانه قسم المضغة إلى قسمين (أحدهما) تامة الصور والحواس والتخاطيط (وثانيهما) الناقصة فى هذه الأمور فبين أن بعد أن صيره مضغة منها ماخلقه إنساناً تاماً بلا نقص ومنها ماليس كذلك وهذا قول قتادة والضحاك، فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ماهو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فتبع ذلك التفاوت، تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم (وثانيها) المخلقة الولد الذى يخرج حياً وغير المخلقة السقط وهو قول مجاهد (وثالثها) المخلقة المصورة وغير المخلقة أى غير المصورة وهو الذى يبقى لحماً من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال: «إذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكا وقال يارب مخلقة أو غير مخلقة، فان قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً، وإن قال مخلقة، قال يارب فما صفتها، أذكر أم أنثى، ما رزقها، ما أجلها، أشقى، أم سعيد ؟ فيقول الله سبحانه انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة، فينطلق الملك فينسخها، فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفتها» (ورابعها) قال القفال: التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلق لتتابع الخلق عليه، قالوا فما تم فهو المخلق وما لم يتم فهو غير المخلق، لأنه لم يتوارد عليه التخليقات. والقول الأول أقرب لأنه تعالى قال فى أول الآية (فانا خلقناكم) وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنساناً وذلك يبعد فى السقط لأنه قد يكون سقطاً ولم يتكامل فيه الخلقة فان قيل هلا حملتم ذلك على السقط لأجل قوله (ونقر فى الأرحام مانشاء) وذلك كالدلالة على أن فيه مالا يقره فى الرحم وهو السقط، قلنا إن ذلك لا يمنع من صحة ماذكرنا فى كون المضغة مخلقة وغير مخلقة، لأنه بعد أن تم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لايجب أن يتكامل ذلك بل فيه ما يقره الله فى الرحم وفيه مالا يقره وإن كان قد أظهر فيه خلقة الإنسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط.

أما قوله تعالى (لنبين لكم) ففيه وجهان (أحدهما) لنبين لكم أن تغيير المضغة إلى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار، ولولاه لما صار بعضه مخلقاً وبعضه غير مخلق (وثانيهما) التقدير إن كنتم فى ريب من البعث فانا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب

www.besturdubooks.wordpress.com

فى أمر بعثكم ، فان القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزاً عن الإعادة .

أما قوله تعالى (ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى) فالمراد منه من يبلغه الله تعالى حد الولادة ، والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخرستة أشهر ، أو تسعة ، أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فان كتب ذلك صار أجلا مسمى (المرتبة الخامسة) قوله (ثم نخرجكم طفلا) وإنما وحد الطفل لأن الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلا كقوله (والملائكة بعد ذلك ظهير) (المرتبة السادسة) قوله(ثم لتبلغوا أشدكم) والأشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة فى غير شىء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع ، والمراد والله أعلم ثم سهل فى تربيتكم وأغذيتكم أموراً لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الأحوال التى بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الأشد ويكون بين الحالتين وسائط ، وذكر بعضهم أنه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الأشد واسطة حتى جوز أن يبلغ فى السن ويكون طفلا كما يكون غلاماً ثم يدخل فى الأشد (المرتبة السابعة)قوله (ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) والمعنى أن منكم من يتوفى على قوته وكماله ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر وهو الهرم والخرف ، فيصير كما كان فى أول طفوليته ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم . فان قيل كيف قال (لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) مع أنه يعلم بعض الأشياء كالطفل ؟ قلنا المراد أنه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئاً لأن مثل ذلك قد يذكر فى النفى لأجل المبالغة ، ومن الناس من قال هذه الحالة لاتحصل للمؤمنين لقوله تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهو ضعيف . لأن معنى قوله (ثم رددناه أسفل سافلين) هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجرى مجرى العقوبة ولذلك قال (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث(الوجه الثانى)الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى(وترى الأرض هامدة) وهمودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد يقال اهتز فلان لكيت وكيت إلا إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع فقوله (اهتزت وربت) أى تحركت بالنبات وانتفخت .

أما قوله (وأنبتت من كل زوج بهيج) فهو مجاز لأن الأرض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك ، لكنه يضاف إليها توسعاً ، ومعنى (من كل زوج بهيج) من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس ، والبهجة حسن الشىء ونضارته ، والبهيج بمعنى المبهج قال المبرد وهو الشىء المشرق الجميل ، ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أموراً خمسة (أحدها) قوله ذلك (بأن الله هو الحق) والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع إلى أن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾

حدوث هذه الأعراض المتنافية وتواردها على الأجسام يدل على وجود الصانع (وثانيها) قوله تعالى (وأنه يحي الموتى) فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات (وثالثها) قوله (وأنه على كل شيء قدير) يعنى أن الذى يصح منه إيجاد هذه الأشياء لابد وأن يكون واجب الإتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات ومن كان كذلك فإنه لابد وأن يكون قادراً على الإعادة (ورابعها) قوله (وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة فى نفسها ممكنه وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادراً على الإعادة فى نفسها ، وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر عن وقوعه فلابد من القطع بوقوعه ، واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظرى أن يقال الإعادة فى نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها ، أما بيان الإمكان فالدليل عليه أن هذه الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التى كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة والبارىء سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضى القطع بامكان الإعادة لما قلنا إن تلك الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات لأنها لولم تكن قابلة لها فى وقت لما كانت قابلة لها فى شىء من الأوقات لأن الأمور الذاتية لا تزول ، ولولم تكن قابلة لها فى شيء من الأوقات لما كانت حية عاقلة فى شيء من الأوقات ، لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبداً لهذه الصفات . وأما أن البارىء سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالماً بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادراً على كل الممكنات ، فيكون قادراً على إيجاد تلك الصفات فى تلك الذوات . فثبت أن الاعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن . فثبت أن الاعادة ممكنة فى نفسها . فاذا أخبر الصادق عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها ، فهذا هو الكلام فى تقرير هذا الأصل . فان قيل فأى منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات فى هذه الدلالة ؟ قلنا إنها تدل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات وعالم بكل المعلومات ، ومتى صح ذلك فقد صح كون الاعادة ممكنة فان الخصم لا ينكر المعاد إلا بناء على إنكار أحد هذين الأصلين ، ولذلك فان الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث فى كتابه ذكر معه كونه قادراً عالماً كقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) فقوله (قل يحييها الذى أنشأها) بيان للقدرة وقوله (وهو بكل خلق عليم) بيان للعلم والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه

www.besturdubooks.wordpress.com

ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ،ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾

القراءة : (ثانى عطفه) بكسر العين الحسن وحده بفتح العين (ليضل) قرىء بضم الياء وفتحها القراءة المعروفة (ونذيقه) بالنون وقرأ زيد بن على أذيقه ، المعانى فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى أن المراد بقوله (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد) من هم ؟ على وجوه (أحدها) قال أبو مسلم الآية الأولى وهى قوله (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) ويتبع كل شيطان مريد واردة فى الأتباع المقلدين وهذه الآية واردة فى المتبوعين المقلدين ، فان كلا المجادلين جادل بغير علم وإن كان أحدهما تبعاً والآخر متبوعاً وبين ذلك قوله (ولا هدى ولا كتاب منير) فان مثل ذلك لا يقال فى المقلد ، وإنما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة ، فان قيل : كيف يصح ما قلتم والمقلد لايكون مجادلا ؟ قلنا قد يجادل تصويباً لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمكن منها وإن كان معتمده الأصلى هو التقليد (وثانيها) أن الآية الأولى نزلت فى النضر بن الحرث ، وهذه الآية فى أبى جهل (وثالثها) أن هذه الآية نزلت أيضاً فى النضر وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وفائده التكرير المبالغة فى الذم وأيضاً ذكر فى الآية الأولى اتباعه للشيطان تقليداً بغير حجة ، وفى الثانية مجادلته فى الدين وإضلاله غيره بغير حجة والوجه الأول أقرب لما تقدم .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ الآية دالة على أن الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على ما مر تقريره .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ المراد بالعلم العلم الضرورى ، وبالهدى الإستدلال والنظر لأنه يهدى إلى المعرفة وبالكتاب المنير الوحى ، والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية وهو كقوله (ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم) وقوله (ائتونى بكتاب من قبل هذا) أما قوله (ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله) فاعلم أن ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولى الجيد وقوله (ليضل عن سبيل الله) فأما القراءة بضم الياء فدلالة على أن هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكى يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر وإضلال الغير . وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنه لما أدى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه ، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح حاله فى الدنيا والآخرة .أما فى الدنيا فيوم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ
فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾
يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾

بدر روينا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى النضر بن الحرث وأنه قتل يوم بدر ، وأما الذين لم يخصصوا هذه الآية بواحد معين قالوا المراد بالخزى فى الدنيا ماأمر المؤمنون بذمه ولعنه ومجاهدته وأما فى الآخرة فقوله (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) ثم بين تعالى أن هذا الخزى المعجل وذلك العقاب المؤجل لأجل ما قدمت يداه ، قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مطالب :

﴿ الأول ﴾ دلت الآية على أنه إنما وقع فى ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقاً لله تعالى لكان حينما خلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه أن ينفك عنه ، وحينما لا يخلقه الله تعالى استحال منه أن يتصف به ، فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فاذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص .

﴿ الثانى ﴾ أن قوله بعد ذلك (وأن الله ليس بظلام للعبيد) دليل على أنه سبحانه إنما لم يكن ظالماً بفعل ذلك العذاب لأجل أن المكلف فعل فعلا استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على أنه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته لكان ظالماً ، وهذا يدل على أنه لايجوز تعذيب الأطفال بكفر آبائهم .

﴿ الثالث ﴾ أنه سبحانه تمدح بأنه لايفعل الظلم فوجب أن يكون قادراً عليه خلاف ما يقوله النظام ، وأن يصح ذلك منه خلاف مايقوله أهل السنة .

﴿ الرابع ﴾ وهو أن لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على أنه تعالى لا يظلم لأن عندهم صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم موقوفة على نفى الظلم فلو أثبتنا ذلك بالدليل السمعى لزم الدور (والجواب) عن الكل المعارضة بالعلم والداعى .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ، يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

القراءة : قرىء (خاسر الدنيا والآخرة) بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وفى حرف عبدالله (من ضره) بغير لام ، واعلم أنه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجادلين فيه على ماذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال (ومن الناس من يعبد الله على حرف) وفى تفسير الحرف وجهان (الأول) ما قاله الحسن وهو أن المرء فى باب الدين معتمده القلب واللسان فهما حرفا الدين ، فاذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل فى الدين وإذا أظهر بلسانه الدين لبعض الأغراض وفى قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم يعبد الله على حرف (الثانى) قوله (على حرف) أى على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه ، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون طمأنينة كالذى يكون على طرف من العسكر فان أحس بغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه . وهذا هو المراد (فان أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) لأن الثبات فى الدين إنما يكون لو كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه فاما اذا كان غرضه الخير المعجل فانه يظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضراء فلا يكون إلا منافقا مذموما وهو مثل قوله تعالى (مذبذبين بين ذلك) وكقوله (فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الكلبى نزلت هذه الآية فى أعراب كانوا يقدمون على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله وماشيته رضى به واطمأن إليه وإن أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه (١) وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه . وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد ابن جبير والحسن ومجاهد وقتادة (وثانيها) وهو قول الضحاك نزلت فى المؤلفة قلوبهم ، منهم عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض ندخل فى دين محمد فان أصبنا خيراً عرفنا أنه حق ، وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل (وثالثها) قال أبو سعيد الخدرى «أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فقال يارسول الله أقلنى فانى لم أصب من دينى هذا خيراً ، ذهب بصرى وولدى ومالى . فقال صلى الله عليه وسلم : إن الاسلام لا يقال ، إن الاسلام ليسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة » فنزلت هذه الآية .

وأما قوله (وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) ففيه سؤالات (الأول) كيف قال (وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) والخير أيضاً فتنة لأنه امتحان وقال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ، (والجواب) مثل هذا كثير فى اللغة لأن النعمة بلاء وابتلاء لقوله (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه) ولكن إنما يطلق اسم البلاء على مايثقل على الطبع ، والمنافق ليس عنده الخير إلا الخير الدنيوى ، وليس عنده الشر إلا الشر الدنيوى ، لأنه لادين له . فلذلك وردت

(١) الرماك جمع رمكة وهى الفرس أنثى الحصان ، و البرذونة أنثى الحمار ، تتخذ للنسل والنتاج ، وتجمع على أرماك أيضاً

www.besturdubooks.wordpress.com

الآية على مايعتقدونه ، وإن كان الخير كله فتنة ،لكن أكثر ما يستعمل فيما يشتد ويثقل .

(السؤال الثانى) إذا كانت الآية فى المنافق فما معنى قوله (انقلب على وجهه) وهو فى الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد؟ (والجواب) المراد أنه أظهر بلسانه خلاف ما كان أظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب فى الحقيقة

(السؤال الثالث) قال مقاتل : الخير هو ضد الشر فلما قال (فان أصابه خير اطمأن به) كان يجب أن يقول : وإن أصابه شر انقلب على وجهه (الجواب) لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وإن أصابه شر بل وصفه بما لا يفيد فيه القبح .

أما قوله تعالى (خسر الدنيا والآخرة) فذلك لأنه يخسر فى الدنيا العزة والكرامة وإصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والإمامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصوناً ، وأما فى الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم (وذلك هو الخسران المبين) .

أما قوله (يدعو من الله مالا يضره وما لا ينفعه) فالأقرب أنه المشرك الذى يعبد الأوثان وهذا كالدلالة على أن الآية لم ترد فى اليهودى لأنه ليس ممن يدعو من دون الله الأصنام ، والأقرب أنها واردة فى المشركين الذين انقطعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه النفاق وبين تعالى (أن ذلك هو الضلال البعيد) ، وأراد به عظم ضلالهم وكفرهم ، ويحتمل أن يعنى بذلك بعد ضلالهم عن الصواب لأن جميعه وإن كان يشترك فى أنه خطأ فبعضه أبعد من الحق من البعض ، واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد فى التيه ضالا وطالت وبعدت مسافة ضلالة .

أما قوله تعالى (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى تفسيره على وجهين (أحدهما) أن المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون إليهم لأنه يصح منهم أن يضروا ، وحجة هذا القول أن الله تعالى بين فى الآية الأولى أن الأوثان لا تضرهم ولا تنفعهم ، وهذه الآية تقتضى كون المذكور فيها ضاراً نافعاً ، فلو كان المذكور فى هذه الآية هو الأوثان لزم التناقض (القول الثانى) أن المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور (أحدها) أنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفى فى إضافة الضرر إليها ، كقوله تعالى (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) فأضاف الإضلال إليهم من حيث كانوا سبباً للضلال ، فكذا ههنا نفى الضرر عنهم فى الآية الأولى بمعنى كونها فاعلة وأضاف الضرر إليهم فى هذه الآية بمعنى أن عبادتها سبب الضرر (وثانيها) كأنه سبحانه وتعالى بين فى الآية الأولى أنها فى الحقيقة لا تضر ولا تنفع ، ثم قال فى الآية الثانية : لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها أكثر من نفعها (وثالثها) كان الكفار إذا أنصفوا علموا أنه لا يحصل منها نفع ولا ضرر فى الدنيا ، ثم إنهم فى الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها ، فكأنهم يقولون لها فى الآخرة : إن ضرركم أعظم من نفعكم .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلف النحويون فى إعراب قوله (لمن ضره أقرب) .

أما قوله(لبئس المولى ولبئس العشير) فالمولى هو الولى والناصر ، والعشير الصاحب والمعاشر، واعلم أن هذا الوصف بالرؤساء أليق لأن ذلك لا يكاد يستعمل فى الأوثان ، فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذى يجمع خير الدنيا والآخرة إلى عبادة الأصنام وإلى طاعة الرؤساء ، ثم ذم الرؤساء بقوله (لبئس المولى) والمراد ذم من انتصر بهم والتجأ إليهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل مايريد ، من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ، وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد ﴾

إعلم أنه سبحانه لما بين فى الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم ، بين فى هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم ، أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذى لا يمكن صوابه ، وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع . وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم يعطيهم أعظم المنافع وهو الجنة ، ثم بين كمال الجنة التى تجمع بين الزرع والشجر وأن تجرى من تحتها الأنهار وبين تعالى أنه يفعل مايريد بهم من أنواع الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى (فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) واحتج أصحابنا فى خلق الأفعال بقوله سبحانه(إن الله يفعل ما يريد) قالوا : أجمعنا على أنه سبحانه يريد الإيمان ولفظة ما للعموم فوجب أن يكون فاعلا للايمان لقوله (إن الله يفعل مايريد) أجاب الكعبى عنه بأن الله تعالى يفعل مايريد أن يفعله لا مايريد أن يفعله غيره (والجواب) أن قوله مايريد أعم من قولنا مايريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص .

أما قوله(من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة)فالهاء إلى ماذا يرجع؟فيه وجهان : (الأول) وهو قول ابن عباس والكلبى ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدى ، واختيار الفراء والزجاج أنه يرجع إلى محمد ﷺ يريد أن من ظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا بإعلاء كلمته

www.besturdubooks.wordpress.com

وإظهار دينه ، وفى الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول ﷺ وإن لم يجر له ذكر فى الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الإيمان فى قوله (إن الله يدخل الذين آمنوا) والإيمان لا يتم إلا بالله ورسوله فيجب البحث ههنا عن أمرين (أحدهما) أنه من الذى كان يظن أن الله تعالى لا ينصر محمداً ﷺ ؟ (والثانى) أنه ما معنى قوله (فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع) ؟ .

﴿أما البحث الأول﴾ فذكروا فيه وجوهاً (أحدها) كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية (وثانيها) قال مقاتل : نزلت فى نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف أن الله لا ينصر محمداً فينقطع الذى بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا (وثالثها) أن حساده وأعداءه كانوا يتوقعون أن لا ينصره الله وأن لا يعليه على أعدائه ، فمتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك .

﴿وأما البحث الثانى﴾ فاعلم أن فى لفظ السبب قولين (أحدهما) أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا فى السماء فمنهم من قال هو سماء البيت ، ومنهم من قال هو السماء فى الحقيقة . فقالوا المعنى : من كان يظن أن لن ينصره الله ، ثم يغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه فى إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه . وعلى هذا القول اختلفوا فى القطع فقال بعضهم: سمى الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه ، وسمى فعله كيداً لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره ، أو على سبيل الاستهزاء إلا أنه لم يكد به محسوده وإنما كاد به نفسه ، والمراد ليس فى يده إلا ماليس بمذهب لما يغيظ . وهذا قول الكلبي ومقاتل وقال ابن عباس رضى الله عنه : يشد الحبل فى عنقه وفى سقف البيت ، ثم ليقطع الحبل حتى يختنق ويهلك ، هذا كله إذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين . وقال آخرون : المراد منه نفس السماء فانه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو أولى من حمله على سماء البيت ، لأن ذلك لا يفهم منه إلا مقيداً ، ولأن الغرض ليس الأمر بأن يفعل ذلك ، بل الغرض أن يكون ذلك صارفاً له عن الغيظ إلى طاعة الله تعالى ، وإذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الإمكان كان أولى بأن يكون هو المراد ومعلوم أن مد الحبل إلى سماء الدنيا والاختناق به أبعد فى الإمكان من مده إلى سقف البيت ، لأن ذلك ممكن . أما الذين قالوا السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين (الأول) كأنه قال فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع بذلك السبب المسافة ، ثم لينظر فانه يعلم أن مع تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كأن لم يفعل شيئاً وهو قول أبى مسلم (والثانى) كأنه قال فليطلب سبباً يصل به إلى السماء فليقطع نصر الله لنبيه ، ولينظر هل يتهيأ له الوصول إلى السماء بحيلة ، وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله ، فاذا كان ذلك ممتنعاً كان غيظه عديم الفائدة ، واعلم أن المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فانه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه ، وهو فى معنى قوله (فان استطعت أن

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ

تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء) مبيناً بذلك أنه لاحيلة له فى الآيات التى اقترحوها (القول الثانى) أن الهاء فى قوله (لن ينصره الله) راجع إلى من فى أول الآية لأنه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع إلى مذكور إذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق . وقال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال : من ينصرنى نصره الله . أى من يعطينى أعطاه الله ، فكأنه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة ، فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد ﷺ كما وصفه تعالى فى قوله (وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) فيبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يغلب التسمية ويجعله مرزوقاً .

أما قوله (وكذلك نزلناه آيات بينات) فمعناه ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آيات بينات .

أما قوله (وأن الله يهدى من يريد) فقد احتج أصحابنا به فقالوا : المراد من الهداية ، إما وضع الأدلة أو خلق المعرفة والأول غير جائز لأنه تعالى فعل ذلك فى حق كل المكلفين ولأن قوله (يهدى من يريد) دليل على أن الهداية غير واجبة عليه بل هى معلقة بمشيئته سبحانه ووضع الأدلة عند الخصم واجب فبقى أن المراد منه خلق المعرفة قال القاضى عبد الجبار فى الإعتذار هذا يحتمل وجوها : (أحدها) يكلف من يريد لأن من كلف أحداً شيئاً فقد وصفه له وبينه له (وثانيها) أن يكون المراد يهدى إلى الجنة والإثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحاً (وثالثها) أن يكون المراد أن الله تعالى يلطف بمن يريد ممن علم أنه إذا زاده هدى ثبت على إيمانه كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وهذا الوجه هو الذى أشار الحسن اليه بقوله : إن الله يهدى من قبل لا من لم يقبل ، والوجهان الأولان ذكرهما أبو على (والجواب) عن الأول أن الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الأدلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف ، وأما الوجهان الأخيران فمدفوعان لأنهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله (يهدى من يريد) يقتضى عدم الوجوب .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىء شهيد . ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾.

القراءة : قرى (حق) بالضم وقرىء حقاً أى حق عليه العذاب حقاً وقرىء (مكرم) بفتح الراء بمعنى الاكرام ، واعلم أنه تعالى لما قال (وأن الله يهدى من يريد) أتبعه فى هذه الآية ببيان من يهديه ومن لا يهديه ، واعلم أن المسلم لا يخالفه فى المسائل الأصولية إلا طبقات ثلاثة (أحدها) الطبقة المشاركة له فى نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية فى خلق الأفعال البشرية والخلاف بين مثبتى الصفات والرؤية ونفاتها (وثانيها) الذين يخالفونه فى النبوة ولكن يشاركونه فى الاعتراف بالفاعل المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى فى نبوة محمد ﷺ وعيسى وموسى عليهما السلام (وثالثها) الذين يخالفونه فى الإله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون فى الحقائق ، والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر فى العالم ، والفلاسفة الذين يثبتون مؤثراً موجباً لا مختاراً. فاذا كانت الاختلافات الواقعة فى أصول الأديان محصورة فى هذه الأقسام الثلاثة ، ثم لا يشك أن أعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الأخير منها . وهذا القسم الأخير بأقسامه الثلاثة لا يوجدون فى العالم المتظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل يكونون مستترين ، أما القسم الثانى وهو الاختلاف الحاصل بسبب الأنبياء عليهم السلام ، فتقسيمه أن يقال القائلون بالفاعل المختار ، إما أن يكونوا معترفين بوجود الأنبياء ، أو لا يكونوا معترفين بذلك ، فإما أن يكونوا أتباعا لمن كان نبياً فى الحقيقة أو لمن كان متنبئاً ، أما أتباع الأنبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى ، وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون ، وأما أتباع المتنبىء فهم المجوس ، وأما المنكرون للأنبياء على الاطلاق فهم عبدة الأصنام والأوثان ، وهم المسمون بالمشركين ، ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم . فثبت أن الأديان الحاصلة بسبب الاختلافات فى الأنبياء عليهم السلام هى هذه الستة التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية ، قال قتادة ومقاتل الأديان ستة واحد لله تعالى وهو الاسلام وخمسة للشيطان ، وتمام الكلام فى هذه الآية قد تقدم فى سورة البقرة .

أما قوله (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزجاج هذا خبر لقول الله تعالى (إن الذين آمنوا) كما تقول إن أخاك ، إن الدين عليه لكثير . قال جرير :

إن الخليفة إن الله سربله ... سربال ملك به ترجى الخواتيم

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفصل مطلق فيحتمل الفصل بينهم فى الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم

www.besturdubooks.wordpress.com

جزاء واحداً بغير تفاوت ولا يجمعهم فى موطن واحد وقيل يفصل بينهم يقضى بينهم .

أما قوله تعالى (إن الله على كل شىء شهيد) فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجرى فى ذلك الفصل ظلم ولا حيف .

أما قوله سبحانه وتعالى (ألم تر أن الله يسجد له) ففيه أسئلة :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الرؤية ههنا (الجواب) أنها العلم أى ألم تعلم أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض وإنما عرف ذلك بخبر الله لا أنه رآه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما السجود ههنا قلنا فيه وجوه : (أحدها) قال الزجاج أجود الوجوه فى سجود هذه الأمور أنها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) ، (أن نقول له كن فيكون) ، (وإن منها لما يهبط من خشية الله) ، (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) ، (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) والمعنى أن هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التى يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فان قيل هذا التأويل يبطله قوله (وكثير من الناس) فان السجود بالمعنى الذى ذكرته عام فى كل الناس فاسناده إلى كثير منهم يكون تخصيصاً من غير فائدة والجواب من وجوه : (أحدها) أن السجود بالمعنى الذى ذكرناه وإن كان عاماً فى حق الكل إلا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود فى الظاهر ، فهذا الشخص وإن كان ساجداً بذاته لكنه متمرد بظاهره ، أما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر (وثانيها) أن نقطع قوله (وكثير من الناس) عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه : (الأول) أن نقول تقدير الآية : ولله يسجد من فى السموات ومن فى الأرض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الأول بمعنى الإنقياد والثانى بمعنى الطاعة والعبادة ، وإنما فعلنا ذلك لأنه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك فى معنييه جميعاً (الثانى) أن يكون قوله (وكثير من الناس) مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه وهو قوله (حق عليه العذاب) ، (والثالث) أن يبالغ فى تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب (وثالثها) أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك فى مفهوميه جميعاً يقول: المراد بالسجود فى حق الأحياء العقلاء العبادة وفى حق الجمادات الانقياد ، ومن ينكر ذلك يقول إن الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين ، فعنى بها فى حق العقلاء ، الطاعة وفى حق الجمادات الانقياد .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قوله (ولله يسجد من فى السموات ومن فى الأرض) لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة أخرى (وكثير من الناس) (الجواب) لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون كما أن كل الملائكة يسجدون فبين أن كثيراً منهم يسجدون طوعا

www.besturdubooks.wordpress.com

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ

دون كثير منهم فانه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب . (القول الثانى) فى تفسير السجود أن كل ماسوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لايترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته كما قال (وأن إلى ربك المنتهى) وكما أن الإمكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره إلى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه ، وهذا الافتقار الذاتى اللازم للماهية أدل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الأرض فان ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتى ، . قد يتطرق إليها الصدق والكذب ، أما نفس الافتقار الذاتى فانه يمتنع التغير والتبدل ، فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى لله تعالى أى خاضعة متذللة معترفة بالفاقة إليه والحاجة إلى تخليقه وتكوينه ، وعلى هذا تأولوا قوله (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وهذا قول القفال رحمه الله (القول الثالث) أن سجود هذه الأشياء سجود ظلها كقوله تعالى (يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون) وهو قول مجاهد .

وأما قوله (كثير من الناس وكثير حق عليه العذاب) فقال ابن عباس فى رواية عطاء وكثير من الناس يوحده وكثير حق عليه العذاب ممن لايوحده ، وروى عنه أيضاً أنه قال وكثير من الناس فى الجنة . وهذه الرواية تؤكد ماذكرنا أن قوله (وكثير من الناس) مبتدأ وخبره محذوف ، وقال آخرون : الوقف على قوله (وكثير من الناس) ثم استأنف فقال (وكثير حق عليه العذاب) أى وجب بإبائه وامتناعه من السجود .

وأما قوله تعالى (ومن يهن الله فما له من مكرم) فالمعنى أن الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على إزالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرما لهم ، ثم بين بقوله (إن الله يفعل مايشاء) أنه الذى يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب ، والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها . وذوقوا عذاب الحريق ، إن الله يدخل الذين آمنوا

www.besturdubooks.wordpress.com

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾

(القراءة) : روى عن الكسائى (خصمان) بكسر الخاء ، وقرىء (قطعت) بالتخفيف كان الله يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة ، قرأ الأعمش : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ردوا فيها) الحسن (يصهر) بتشديد الهاء للمبالغة ، وقرىء (ولؤلؤاً) بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤاً كقوله وحوراً عيناً ولؤلوا بقلب الهمزة الثانية واواً ، واعلم أنه سبحانه لما بين أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر ههنا كيفية اختصامهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج من قال أقل الجمع اثنان بقوله (هذان خصمان اختصموا) ، (والجواب) الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان يختصمان ، فقوله(هذان)للفظ واختصموا للمعنى كقوله(ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا).

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى تفسير الخصمين وجوهاً (أحدها) المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وأن كل الكفار يدخلون فى ذلك ، قال ابن عباس رضى الله عنهما يرجع إلى أهل الأديان الستة (فى ربهم) أى فى ذاته وصفاته (وثانيها) روى أن أهل الكتاب قالوا نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً ، فهذه خصومتهم فى ربهم (وثالثها) روى قيس بن عبادة عن أبى ذر الغفارى رحمه الله أنه كان يحلف بالله أن هذه الآية نزلت فى ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة ابن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وقال على عليه السلام أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الله تعالى يوم القيامة . (ورابعها) قال عكرمة هما الجنة والنار قالت النار خلقنى الله لعقوبته وقالت الجنة خلقنى الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ، والأقرب هو الأول لأن السبب وإن كان خاصاً فالواجب حمل الكلام على ظاهره

www.besturdubooks.wordpress.com

قوله (هذان) كالإشارة إلى من تقدم ذكره وهم أهل الأديان الستة ، وأيضاً ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته ممن حق عليه العذاب ، فوجب أن يكون رجوع ذلك إليهما ، فمن خص به مشركى العرب أو اليهود من حيث قالوا فى كتابهم ونبيهم ماحكيناه فقد أخطأ ، وهذا هو الذى يدل عليه قوله (إن الله يفصل بينهم) أراد به الحكم لأن ذكر التخاصم يقتضى الواقع بعده يكون حكما فبين الله تعالى حكمه فى الكفار ، وذكر من أحوالهم أموراً ثلاثة (أحدها) قوله (قطعت لهم ثياب من نار) والمراد بالثياب إحاطة النار بهم كقوله (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) عن أنس ، وقال سعيد بن جبير من نحاس أذيب بالنار أخذاً من قوله تعالى (سرابيلهم من قطران) وأخرج الكلام بلفظ الماضى كقوله تعالى (ونفخ فى الصور) ، (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) لأن ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع (وثانيها) قوله (يصب من فوق رءوسهم الحميم) يصهر به مافى بطونهم والجلود ، الحميم الماء الحار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها ، يصهر أى يذاب أى إذا صب الحميم على رءوسهم كان تأثيره فى الباطن نحو تأثيره فى الظاهر فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) (وثالثها) قوله (ولهم مقامع من حديد) المقامع السياط وفى الحديث «لو وضعت مقمعة منها فى الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها» وأما قوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) فاعلم أن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج والمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها ، ومعنى الخروج ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقاطع فهووا فيها سبعين خريفاً وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق ، والحريق الغليظ من النار العظيم الاهلاك ، ثم إنه سبحانه ذكر حكمه فى المؤمنين من أربعة أوجه (أحدها) المسكن ، وهو قوله (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) ، (وثانيها) الحلية ، وهو قوله (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) فبين تعالى أنه موصلهم فى الآخرة إلى ماحرمه عليهم فى الدنيا من هذه الأمور وإن كان من أحله لهم أيضاً شاركهم فيه لأن المحلل للنساء فى الدنيا يسير بالإضافة إلى ما سيحصل لهم فى الآخرة (وثالثها) الملبوس وهو قوله (ولباسهم فيها حرير) ، (ورابعها) قوله (وهدوا إلى الطيب من القول) وفيه وجوه (أحدها) أن شهادة لا إله إلا الله هو الطيب من القول لقوله (ومثل كلمة طيبة) وقوله (إليه يصعد الكلم الطيب وهو صراط الحميد) لقوله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) ، (وثانيها) قال السدى وهدوا إلى الطيب من القول هو القرآن (وثالثها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء هو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده (ورابعها) أنهم إذا ساروا إلى الدار الآخرة هدوا إلى البشارات التى تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام ، وهو معنى قوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وعندى فيه وجه (خامس) وهو أن العلاقة البدنية جارية مجرى الحجاب للأرواح البشرية فى الاتصال بعالم القدس فاذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الأنوار الإلهية ، وظهور تلك الأنوار هو المراد من قوله (وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد) والتعبير عنها هو المراد من قوله (وهدوا إلى الطيب من القول) .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾

اعلم أنه تعالى بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمه البيت وعظم كفر هؤلاء فقال (إن الذين كفروا) بما جاء به محمد ﷺ (ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام) وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد لأنهم كانوا يأبون ذلك . وفيه إشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله (ويصدون عن سبيل الله) الماضى وهو قوله (كفروا) (والجواب) عنه من وجهين (الأول) أنه يقال فلان يحسن إلى الفقراء ويعين الضعفاء لايراد به حال ولا استقبال وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه فى جميع أزمنته وأوقاته ، فكأنه قيل إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ، ونظيره قوله (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) (وثانيهما) قال أبو على الفارسى التقدير إن الذين كفروا فيما مضى . وهم الآن يصدون ويدخل فيه أنهم يفعلون ذلك فى الحال والمستقبل ، أما قوله (والمسجد الحرام) يعنى ويصدونهم أيضاً عن المسجد الحرام ، قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت الآية فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية عن المسجد الحرام عن أن يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدى فكره رسول الله ﷺ قتالهم وكان محرماً بعمرة ثم صالحوه على أن يعود فى العام القابل .

أما قوله (الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أبو على الفارسى أى جعلناه للناس منسكا ومتعبداً وقوله (سواء العاكف فيه والباد) رفع على أنه خبر مبتدأ مقدم أى العاكف والباد فيه سواء ، وتقدير الآية المسجد الحرام الذى جعلناه للناس منسكا فالعاكف والبادى فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب سواء بالنصب بإيقاع الجعل عليه لأن الجعل يتعدى إلى مفعولين والله أعلم .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ العاكف المقيم به الحاضر . والبادى الطارىء من البدو وهو النازع إليه من غربته . وقال بعضهم يدخل فى العاكف القريب إذا جاور ولزمه للتعبد وإن لم يكن من أهله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أنهما فى أى شىء يستويان قال ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات إنهما يستويان فى سكنى مكة والنزول بها فليس أحدهما أحق بالمنزل الذى يكون فيه من الآخر إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل وهو قول قتادة وسعيد بن جبير ومن مذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية والخبر ، أما الآية فهى هذه قالوا إن أرض مكة لا تملك فانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادى ، فلما استويا ثبت أن سبيله سبيل المساجد ، وأما الخبر فقوله عليه السلام : « مكة مباح لمن سبق إليها » وهذا مذهب ابن عمر وعمر ابن عبد العزيز ومذهب أبى حنيفة واسحق الحنظلى رضى الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله لأن إطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام) وههنا قد دل الدليل وهو قوله (العاكف) لأن المراد منه المقيم إقامة ، وإقامته لا تكون فى المسجد بل فى المنازل فيجب أن يقال ذكر المسجد وأراد مكة (القول الثانى) المراد جعل الله الناس فى العبادة فى المسجد سواء ليس للمقيم أن يمنع البادى وبالعكس قال عليه السلام « يابنى عبد مناف من ولى منكم من أمور الناس شيئاً فلا يمنعن أحداً طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار » وهذا قول الحسن ومجاهد وقول من أجاز بيع دور مكة . وقد جرت مناظرة بين الشافعى واسحق الحنظلى بمكة وكان اسحق لا يرخص فى كراء بيوت مكة ، واحتج الشافعى رحمه الله بقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) فأضيفت الدار إلى مالكها وإلى غير مالكها ، وقال عليه السلام يوم فتح مكة « من أغلق بابه فهو آمن » وقال صلى الله عليه وسلم «هل ترك لنا عقيل من ربع » وقد اشترى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما دار السجن . أترى أنه اشتراها من مالكها أو من غير مالكها ؟ قال اسحق : فلما علمت أن الحجة قد لزمتنى تركت قولى . أما الذى قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله العاكف ، فضعيف لأن العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام ، أو فى الأكثر فلا يلزم ماذكروه ، ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن فى كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات .

أما قوله (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (يرد) بفتح الياء من الورود ، ومعناه من أتى فيه بإلحاد وعن الحسن ومن يرد إلحاده بظلم ، والمعنى ومن يرد إيقاع إلحاد فيه ، فالإضافة صحيحة على الاتساع فى الظرف كمكر الليل والنهار ، ومعناه ومن يرد أن يلحد فيه ظالماً .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ الإلحاد العدول عن القصد وأصله إلحاد الحافر . وذكر المفسرون فى تفسير الإلحاد وجوها (أحدها) أنه الشرك ، يعنى من لجأ إلى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى ، وهو إحدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن أبى رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت فى عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبى صلى الله عليه وسلم فارتد مشركا ، وفى قيس بن ضبابة وقال مقاتل : نزلت فى عبد الله بن خطل حين قتل الأنصارى وهرب إلى مكة كافراً ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافراً (وثالثها) قتل مانهى الله تعالى عنه من الصيد (ورابعها) دخول مكة بغير إحرام وارتكاب ما لايحل للمحرم (وخامسها) أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير (وسادسها) المنع من عمارته (وسابعها) عن عطاء قول الرجل فى المبايعة لاوالله وبلى والله . وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما فى الحل والآخر فى الحرم ، فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحل ، فقيل له فقال : كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله (وثامنها) وهو قول المحققين : أن الإلحاد بظلم عام فى كل المعاصى ، لأن كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه فى سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه : لو أن رجلا بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً وقال مجاهد : تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات . فان قيل كيف يقال ذلك مع أن قوله (نذقه من عذاب أليم) غير لائق بكل المعاصى قلنا لا نسلم ، فان كل عذاب يكون أليماً ، إلا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الباء فى قوله (بإلحاد) فيه قولان (أحدهما) وهو الأولى وهو اختيار صاحب الكشاف أن قوله (بإلحاد بظلم) حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مراداً ما عادلا عن القصد ظالماً نذقه من عذاب أليم ، يعنى أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل فى جميع ما يهم به ويقصده (الثانى) قال أبو عبيدة : مجازه ومن يرد فيه إلحاداً والباء من حروف الزوائد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لما كان الإلحاد بمعنى الميل من أمر إلى أمر بين الله تعالى أن المراد بهذا الإلحاد ما يكون ميلا إلى الظلم ، فلهذا قرن الظلم بالإلحاد لأنه لامعصية كبرت أم صغرت إلا وهو ظلم ، ولذلك قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) .

أما قوله تعالى (نذقه من عذاب أليم) فهو بيان الوعيد وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من قال الآية نزلت فى ابن خطل قال : المراد بالعذاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله يوم الفتح ، ولا وجه للتخصيص إذا أمكن التعميم ، بل يجب أن يكون المراد العذاب فى الآخرة لأنه من أعظم ما يتوعد به .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن هذه الآية تدل على أن المرء يستحق العذاب بارادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا قولين فى خبر إن المذكور فى أول الآية (الأول) التقدير إن الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بإلحاد نذقه من عذاب فهو عائد إلى كلتا الجملتين (الثانى) أنه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم. وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

قوله تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾

إعلم أن قوله (وإذ بوأنا) أى واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة، أى مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة، وكان قد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها فكشفت ماحوله فبناه على وضعه الأول، وقيل أمر إبراهيم بأن يأتى موضع البيت فيبنى، فانطلق فخفى عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام فى العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال يا إبراهيم ابن على قدرى وحيالى فأخذ فى البناء وذهبت السحابة، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لا شك أن أن هى المفسرة فكيف يكون النهى عن الشرك، والأمر

www.besturdubooks.wordpress.com

بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة (الجواب) أنه سبحانه لما قال جعلنا البيت مرجعاً لإبراهيم ، فكأنه قيل مامعنى كون البيت مرجعاً له ، فأجيب عنه بأن معناه أن يكون بقلبه موحداً لرب البيت عن الشريك والنظير ، وبقالبه مشتغلا بتنظيف البيت عن الأوثان والأصنام .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن إبراهيم لما لم يشرك بالله فكيف قال أن لاتشرك بى (الجواب) المعنى لا تجعل فى العبادة لى شريكا ، ولا تشرك بى غرضاً آخر فى بناء البيت .

﴿السؤال الثالث﴾ البيت ما كان معموراً قبل ذلك فكيف قال وطهر بيتى (الجواب) لعل ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون إليها الأقذار ، فأمر إبراهيم ببناء البيت فى ذلك المكان وتطهيره من الأقذار ، وكانت معمورة فكانوا قد وضعوا فيها أصناماً فأمره الله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الأوثان ، أو يقال المراد أنك بعد أن تبنيه فطهره عما لا ينبغى من الشرك وقول الزور .

وأما قوله (للطائفين والقائمين) فقال ابن عباس رضى الله عنهما للطائفين بالبيت من غير أهل مكة (والقائمين) أى المقيمين بها (والركع السجود) أى من المصلين من الكل ، وقال آخرون القائمون وهم المصلون ، لأن المصلى لابد وأن يكون فى صلاته جامعاً بين القيام والركوع والسجود والله أعلم .

أما قوله تعالى (وأذن فى الناس بالحج) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن محيصن (وآذن) بمعنى أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى المأمور قولان : (أحدهما) وعليه أكثر المفسرين أنه هو إبراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانهُ (وأذن فى الناس بالحج) قال يارب وما يبلغ صوتى ؟ قال عليك الأذان وعلى البلاغ . فصعد إبراهيم عليه السلام الصفا وفى رواية أخرى أبا قبيس ، وفى رواية أخرى على المقام قال إبراهيم كيف أقول ؟ قال جبريل عليه السلام : قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى ، وفى رواية أخرى أنه صعد الصفا فقال : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض ، فما بقى شىء سمع صوته إلا أقبل يلبى يقول : لبيك اللهم لبيك ، وفى رواية أخرى إن الله يدعوكم إلى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويخرجكم من النار ، فأجابه يومئذ من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وكل من وصل إليه صوته من حجر أو شجر ومدر وأكمة أو تراب ، قال مجاهد : فما حج إنسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة إلا وقد أسمعه ذلك النداء ، فمن أجاب مرة حج مرة ، ومن أجاب مرتين أو أكثر . فالحج مرتين أو أكثر على ذلك المقدار ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام بالأذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى ، قال القاضى عبد الجبار ، يبعد قولهم إنه أجابه الصخر والمدر ، لأن الإعلام لايكون إلا لمن يؤمر بالحج

www.besturdubooks.wordpress.com

دون الجماد ، فأما من يسمع من أهل المشرق والمغرب نداءه فلا يمتنع إذا قواه الله تعالى ورفع الموانع ومثل ذلك قد يجوز فى زمان الأنبياء عليهم السلام (القول الثانى) أن المأمور بقوله (وأذن) هو محمد ﷺ وهو قول الحسن واختيار أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ماجاء فى القرآن وأمكن حمله على أن محمداً ﷺ هو المخاطب به فهو أولى وتقدم قوله (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) لا يوجب أن يكون قوله (وأذن) يرجع إليه إذ قد بينا أن معنى قوله (وإذ بوأنا) أى واذكر يامحمد (إذ بوأنا) فهو فى حكم المذكور ، فاذا قال تعالى (وأذن) فأليه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا فى تفسير قوله تعالى (وأذن) وجوها : (أحدها) أن الله تعالى أمر محمداً ﷺ بأن يعلم الناس بالحج (وثانيها) قال الجبائى أمره الله تعالى أن يعلن التلبية فيعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه قال وفى قوله (يأتوك) دلالة على أن المراد أن يحج فيقتدى به (وثالثها) أنه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول ﷺ .

أما قوله (يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الرجال المشاة واحدهم راجل كنيام ونائم وقرىء رجال بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجال كعجال عن ابن عباس رضى الله عنهما وقوله (وعلى كل ضامر) أى ركباناً والضمور الهزال ضمر يضمر ضموراً ، والمعنى أن الناقة صارت ضامرة لطول سفرها . وإنما قال (يأتين) أى جماعة الإبل وهى الضوامر لأن قوله (وعلى كل ضامر) معناه على إبل ضامرة فجعل الفعل بمعنى كل ولو قال يأتى على اللفظ صح وقرىء يأتون صفة للرجال والركبان ، والفج الطريق بين الجبلين ، ثم يستعمل فى سائر الطرق اتساعاً ، والعميق البعيد قرأ ابن مسعود معيق يقال بئر بعيدة العمق والمعق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المعنى : وأذن ، ليأتوك رجالا وعلى كل ضامر ، أى وأذن ، ليأتوك على هاتين الصفتين ، أو يكون المراد : وأذن فانهم يأتوك على هاتين الصفتين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ بدأ الله بذكر المشاة تشريفاً لهم . وروى سعيد ابن جبير باسناده عن النبى ﷺ أنه قال « إن الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشى سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل يارسول الله وماحسنات الحرم قال الحسنة بمائة ألف حسنة » .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما قال (يأتوك رجالا) لأنه هو المنادى فمن أتى مكة حاجا فكأنه أتى إبراهيم عليه السلام لأنه يجيب نداءه .

أما قوله (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى لما أمر بالحج فى قوله (وأذن فى الناس بالحج) ذكر حكمة ذلك الأمر فى قوله (ليشهدوا منافع لهم) واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا . وهى أن يتجروا فى أيام الحج ، وبعضهم حملها على منافع الآخرة ، وهى العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام ، وبعضهم حملها على الأمرين جميعاً ، وهو الأولى .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لاتوجد فى غيرها من العبادات .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى لأن أهل الإسلام لاينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى ، وأن يخالف المشركين فى ذلك فانهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان قال مقاتل إذا ذبحت فقل بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك وتستقبل القبلة ، وزاد الكلبي فقال إن صلاتى ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين . قال القفال : وكان المتقرب بها وبإراقة دمائها متصور بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلباً لمرضاة الله تعالى ، واعترافاً بأن تقصيره كاد يستحق مهجته .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أكثر العلماء صاروا إلى أن الأيام المعلومات عشر ذى الحجة والمعدودات أيام التشريق ، وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن . ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبى حنيفة رحمهم الله ، واحتجوا بأنها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج فى آخرها . ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة ، والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت منها وهو يوم النحر ، وقال ابن عباس فى رواية عطاء إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وهو اختيار أبى مسلم قال لأنها كانت معروفة عند العرب بعدها وهى أيام النحر وهو قول أبى يوسف ومحمد رحمهما الله .

أما قوله (بهيمة الأنعام) فقال صاحب الكشاف : البهمة مبهمة فى كل ذات أربع فى البر والبحر ، فبينت بالأنعام وهى الإبل والبقر والضأن والمعز .

أما قوله تعالى (فكلوا منها) فمن الناس من قال إنه أمر وجوب لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها ترفعاً على الفقراء ، فأمر المسلمين بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع ، وقال الأكثرون إنه ليس على الوجوب . ثم قال العلماء من أهدى أو ضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) ومنهم من قال يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث ، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الأكل مستحب والإطعام واجب فان أطعم جميعها أجزأه وإن أكل جميعها لم يجزه ، هذا فيما كان تطوعاً ، فأما الواجبات كالنذور والكفارات والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة ودماء القلم والحلق فلا يؤكل منها .

أما قوله (وأطعموا البائس الفقير) فلا شبهة فى أنه أمر إيجاب ، والبائس الذى أصابه بؤس أى شدة والفقير الذى أضعفه الإعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر . قال ابن عباس البائس الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه ، والفقير الذى لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غنى

www.besturdubooks.wordpress.com

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ

أما قوله (ثم ليقضوا تفثهم) قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث إلا من التفسير ، وقال المبرد أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقضها . والمراد ههنا قص الشارب والأظفار ونتف الإبط وحلق العانة . والمراد من القضاء إزالة التفث . وقال القفال قال نفطويه : سألت أعرابياً فصيحاً ما معنى قوله (ثم ليقضوا تفثهم) ؟ فقال ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك ، ثم قال القفال وهذا أولى من قول الزجاج لأن القول قول المثبت لا قول النافي .

أما قوله (وليوفوا نذورهم) فقرىء بتشديد الفاء ثم يحتمل ذلك ما أوجبه الدخول في الحج من أنواع المناسك ، ويحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذي هو القول ، وهذا القول هو الأقرب فان الرجل إذا حج أو اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدى وغيره مالولا إيجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك .

أما قوله (وليطوفوا بالبيت العتيق) فالمراد الطواف الواجب وهو طواف الإفاضة والزيارة ، أما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمى الجمار والحلق ، ثم هو في يوم النحر أو بعده ففيه تفصيل ، وسمي البيت العتيق لوجوه (أحدها) العتيق القديم لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن (وثانيها) لأنه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير ، ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قصد أبرهة فعل به ما فعل ، فان قيل فقد تسلط الحجاج عليه (فالجواب) قلنا ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه (وثالثها) لم يملك قط عن ابن عيينة (ورابعها) أعتق من الغرق عن مجاهد (وخامسها) بيت كريم من قولهم عتاق الطير والخيل ، واعلم أن اللام في ليقضوا وليوفوا وليطوفوا لام الأمر ، وفي قراءة ابن كثير ونافع والأكثرين تخفيف هذه اللامات وفي قراءة أبي عمرو تحريكها بالكسر .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين ومن يشرك

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ﴾

قال صاحب الكشاف (ذلك) خبر مبتدأ محذوف أى الأمر والشأن ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كلامه فى بعض المعانى فاذا أراد الخوض فى معنى آخر قال هذا وقد كان كذا ، والحرمة مالا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عاماً فى جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج ، وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس : الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمشعر الحرام ، وقال المتكلمون ولا تدخل النوافل فى حرمات الله تعالى (فهو خير له عند ربه) أى فالتعظيم خير له للعلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظها ، وقوله (عند ربه) يدل على الثواب المدخر لأنه لا يقال عند ربه فيما قد حصل من الخيرات ، قال الأصم فهو خير له من التهاون بذلك ، ثم إنه تعالى عاد إلى بيان حكم الحج فقال (وأحلت لكم الأنعام) فقد كان يجوز أن يظن أن الإحرام إذا حرم الصيد وغيره فالأنعام أيضاً تحرم فبين الله تعالى أن الإحرام لا يؤثر فيها فهى محللة ، واستثنى منه ما يتلى فى كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور فى سورة المائدة ، وهو قوله تعالى (غير محلى الصيد وأنتم حرم) وقوله (حرمت عليكم) وقوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، ثم إنه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها أتبعه بالأمر باجتناب الأوثان وقول الزور . لأن توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات ، وإنما جمع الشرك وقول الزور فى سلك واحد لأن الشرك من باب الزور ، لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الأوثان التى هى رأس الزور ، واجتنبوا قول الزور كله ، ولا تقربوا منه شيئاً لتماديه فى القبح والسماجة ، وما ظنك بشىء من قبيله عبادة الأوثان وسمى الأوثان رجساً لا للنجاسة ، لكن لأن وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس ولأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات . ثم قال الأصم إنما وصفها بذلك لأن عادتهم فى المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل إنه إنما وصفها بذلك استحقاراً واستخفافاً وهذا أقرب ، وقوله (من الأوثان) بيان للرجس وتمييز له كقوله عندى عشرون من الدراهم لأن الرجس لما فيه من الإبهام يتناول كل شىء ، فكأنه قال فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان ، وليس المراد أن بعضها ليس كذلك ، والزور من الزور والازورار وهو الانحراف ، كما أن الأفك من أفكه إذا صرفه ، والمفسرون ذكروا فى قول الزور

www.besturdubooks.wordpress.com

وجوها (أحدها) أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم (وثانيها) شهادة الزور عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائماً واستقبل الناس بوجهه وقال عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » وتلا هذه الآية (وثالثها) الكذب والبهتان (ورابعها) قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وماملك .

أما قوله تعالى (حنفاء لله) فقد تقدم ذكر تفسير ذلك وأنه الإستقامة على قول بعضهم والميل إلى الحق على قول البعض ، والمراد فى هذا الموضع ماقيل من أنه الاخلاص فكأنه قال تمسكوا بهذه الأمور التى أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه إشراك غيرالله به . ولذلك قال غير مشركين به . وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوى بما يأتيه من العبادة الاخلاص فبين تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما فى بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها . وهو قوله (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) قال صاحب الكشاف إن كان هذا تشبيهاً مركباً فكأنه قيل من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس وراءه هلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة. وإن كان تشبيهاً مفرقاً فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الايمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى يطرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة . وقرىء بكسر الخاء والطاء وبكسر الفاء مع كسرهما وهى قراءة الحسن وأصلها تختطفه وقرىء الرياح ، ثم إنه سبحانه أكد ما تقدم فقال ذلك ومن يعظم شعائر الله واختلفوا فقال بعضهم يدخل فيه كل عبادة وقال بعضهم بل المناسك فى الحج وقال بعضهم بل المراد الهدى خاصة والأصل فى الشعائر الأعلام التى بها يعرف الشيء فاذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين (أحدهما) أن يختارها عظام الأجسام حساناً جساماً سماناً غالية الأثمان ويترك المكاس فى شرائها ، فقدكانوا يتغالون فى ثلاثة ويكرهون المكاس فيهن الهدى والأضحية والرقبة . روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن أبيه « أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك ، وقال بل أهدها » « وأهدى رسول الله ﷺ مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب » (والوجه الثانى) فى تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى فى التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لابد وأن يحتفل به ويتسارع فيه (فانها من تقوى القلوب) أى فان تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لابد من راجع من الجزاء إلى من ارتبط به وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه . ولكن لما كان قلبه خالياً عنها لاجرم لايكون مجداً فى أداء الطاعات ، أما المخلص الذى تكون التقوى متمكنة فى قلبه

لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

فانه يبالغ فى أداء الطاعات على سبيل الاخلاص ، فان قال قائل : ما الحكمة فى أن الله تعالى بالغ فى تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة ؟ فالجواب.

قوله تعالى : ﴿ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ، ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾

اعلم أن قوله تعالى (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) لا يليق إلا بأن تحمل الشعائر على الهدى الذى فيه منافع إلى وقت النحر ، ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها أى فى التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده ، والأول هو قول جمهور المفسرين ، ولا شك أنه أقرب. وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والأوبار وركوب ظهورها ، فأما قوله إلى أجل مسمى ففيه قولان (أحدهما) أن لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم إلى أن تسموها ضحية وهديا فاذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون لكم فيها أى فى البدن منافع مع تسميتها هديا بأن تركبوها إن احتجتم إليها وأن تشربوا ألبانها إذا اضطررتم إليها إلى أجل مسمى يعنى إلى أن تنحروها هذه هى الرواية الثانية عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو اختيار الشافعى ، وهذا القول أولى لأنه تعالى قال (لكم فيها منافع) أى فى الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديا وروى أبو هريرة أنه عليه السلام «مر برجل يسوق بدنة وهو فى جهد ، فقال عليه السلام اركبها فقال يارسول الله إنها هدى فقال اركبها ويلك» وروى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال «اركبوا الهدى بالمعروف حتى تجدوا ظهراً» واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات ، وهذا ضعيف لأن أم الولد لا يمكنه بيعها ، ويمكنه الانتفاع بها فكذا ههنا.

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله تعالى (ثم محلها إلى البيت العتيق) فالمعنى أن لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها إلى البيت العتيق أى وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت ، كقوله (هدياً بالغ الكعبة) وبالجملة فقوله (محلها) يعنى حيث يحل نحرها ، وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله ، ودليله قوله تعالى (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) أى الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة ، ولكنها تنزهت عن الدماء إلى منى ومنى من مكة ، قال عليه السلام «كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر» قال القفال هذا إنما يختص بالهدايا التى بلغت منى فأما الهدى المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فان محله موضعه .

أما قوله تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله) فالمعنى شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة من عهد إبراهيم عليه السلام إلى من بعده ضرباً من القربان وجعل العلة فى ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك ، وما كانت العرب تذبحه للصنم يسمى العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة ، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما منسكا بكسر السين وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع .

أما قوله تعالى (فإلهكم إله واحد) ففى كيفية النظم وجهان (أحدهما) أن الإله واحد وإنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح (الثانى) (فإلهكم إله واحد) فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله (فله اسلموا) أى اخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه إشراك البتة ، والمراد الانقياد لله تعالى فى جميع تكاليفه ، ومن انقاد له كان مخبتاً فلذلك قال بعده (وبشر المخبتين) والمخبت المتواضع الخاشع . قال أبو مسلم : حقيقة المخبت من صار فى خبت من الأرض ، يقال أخبت الرجل إذا صار فى الخبت كما يقال أنجد وأشأم وأتهم ، والخبت هو المطمئن من الأرض . وللمفسرين فيه عبارات (أحدها) المخبتين المتواضعين عن ابن عباس وقتادة (وثانيها) المجتهدين فى العبادة عن الكلبى (وثالثها) المخلصين عن مقاتل (ورابعها) المطمئنين إلى ذكر الله تعالى والصالحين عن مجاهد (وخامسها) هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا عن عمرو بن أوس .

ثم وصفهم الله تعالى بقوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله ، ثم لذلك الوجل أثران (أحدهما) الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله (والصابرين على ما أصابهم) وعلى ما يكون من قبل الله تعالى ، لأنه الذى يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب . فأما مايصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب بل إن أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة (والثانى) الاشتغال بالخدمة وأعز الأشياء عند الإنسان نفسه وماله . أما الخدمة بالنفس فهى الصلاة ، وهو المراد بقوله (والمقيمى الصلاة) وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله (ومما رزقناهم ينفقون) قرأ الحسن (والمقيمى الصلاة) بالنصب على تقدير النون ، وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الأصل .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا
صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ
سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ
ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾.

إعلم أن قوله تعالى (والبدن) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ البدن جمع بدنة كخشب وخشبة ، سميت بذلك إذا أهديت للحرم لعظم بدنها وهى الإبل خاصة ، ولكن رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال « البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة » ولأنه قال (فاذا وجبت جنوبها) وهذا يختص بالإبل فانها تنحر قائمة دون البقر ، وقال قوم البدن الإبل والبقر التى يتقرب بها إلى الله تعالى فى الحج والعمرة ، لأنه إنما سمى بذلك لعظم البدن فالأولى دخولها فيه ، أما الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز فى النسك لأنها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر فى جمع ثمرة ، وابن أبى إسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف ، وقرىء بالنصب والرفع كقوله (والقمر قدرناه منازل) والله أعلم

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا قال لله على بدنة ، هل يجوز له نحرها فى غير مكة ؟ قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله يجوز ، وقال أبو يوسف رحمه الله لايجوز إلا بمكة واتفقوا فيمن نذر هدياً أن عليه ذبحه بمكة ، ولو قال : لله على جزور ، أنه يذبحه حيث شاء ، وقال أبو حنيفة رحمه الله البدنة بمنزلة الجزور فوجب أن يجوز له نحرها حيث يشاء بخلاف الهدى فانه تعالى قال (هدياً بالغ الكعبة) فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدى ، واحتج أبو يوسف رحمه الله بقوله تعالى (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله) فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدى ، أجاب أبو حنيفة رحمه الله

www.besturdubooks.wordpress.com

بأنه ليس كل ماكان ذبحه قربة اختص بالحرم فان الأضحية قربة وهي جائزة في سائر الأماكن .

أما قوله تعالى (جعلناها لكم) فاعلم أنه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن تبدى في الحج جاز أن يقول (جعلناها لكم من شعائر الله) أما قوله (لكم فيها خير) فالكلام فيه ماتقدم في قوله (لكم فيها منافع) وإذا كان قوله (لكم فيها خير) كالترغيب فالأولى أن يراد به الثواب في الآخرة وماأخلق العاقل بالحرص على شيء شهد الله تعالى بأن فيه خيراً وبأن فيه منافع ، أما قوله (فاذكروا اسم الله عليها) ففيه حذف أى اذكروا اسم الله على نحرها ، قال المفسرون هو أن يقال عند النحر أو الذبح بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك ، أما قوله (صواف) ، فالمعنى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرىء صوافن من صفون الفرس ، وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث ، وقرىء صوافى أى خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله في التسمية على نحرها أحداً كما كان يفعله المشركون ، وعن عمرو بن عبيد صوافياً بالتنوين عوضاً عن حرف الاطلاق عند الوقف ، وعن بعضهم صوافى نحو قول العرب أعط القوس باريها ولا يبعد أن تكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجراً وأقرب إلى ظهور التكبير وإعلاء اسم الله وشعائر دينه ، وأماقوله (فاذا وجبت جنوبها) فاعلم أن وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط ، ووجبت الشمس وجبة إذا غربت ، والمعنى إذا سقطت على الأرض وذلك عند خروج الروح منها (فكلوا منها) وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها (وأطعموا القانع والمعتر) القانع السائل يقال قنع يقنع قنوعا إذا سأل قال أبو عبيد هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه ، قال الفراء والمعنى الثانى القانع هو الذى لا يسأل من القناعة يقال قنع يقنع قناعة إذا رضى بما قسم له وترك السؤال ، أما المعتر فقيل إنه المتعرض بغير سؤال ، وقيل إنه المتعرض بالسؤال قال الأزهرى قال ابن الاعرابى يقال عروت فلاناً وأعررته وعروته واعتريته إذا أتيته تطلب معروفه ونحوه ، قال أبو عبيد والأقرب أن القانع هو الراضى بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر هو الذى يتعرض ويطلب ويعتريهم حالا بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبداً وقرأ الحسن والمعترى وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضى لا غير يقال قنع فهو قنع وقانع .

أما قوله (كذلك سخرناها لكم) فالمعنى أنها أجسم وأعظم وأقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه ، فالله تعالى جعل الإبل والبقر بالصفة التى يمكننا تصريفها على ما نريد ، وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى في الدين والدنيا ، ثم لما بين تعالى هذه النعمة قال بعده (لعلكم تشكرون) والمراد لكى تشكروا . قالت المعتزلة : هذا يدل على أنه سبحانه أراد من جميعهم أن يشكروا فدل هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن

على أنه يريد كل ما أمر به ممن أطاع وعصى ، لا كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لم يرد ذلك إلا من المعلوم أنه يطيع ، والكلام عليه قد تقدم غير مرة .

أما قوله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما كانت عادة الجاهلية على ماروى فى القربان أنهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بين تعالى ما هو القصد من النحر فقال (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) فبين أن الذى يصل إليه تعالى ويرتفع إليه من صنع المهدى من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم ، ومعلوم أن شيئاً من الأشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك إلى حيث يكتب يدل عليه قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أمور (أحدها) أن الذى ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذى ينتفع بنحره (وثانيها) أنه سبحانه غنى عن كل ذلك ، وإنما المراد أن يجتهد العبد فى امتثال أوامره (وثالثها) أنه لما لم ينتفع بالأجسام التى هى اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلا وإلا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم (ورابعها) أنه لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب أن لا يكون عمله مقبولا وأنه لا ثواب له (والجواب) أما الأولان فحقان ، وأما الثالث فمعارض بالداعى والعلم ، وأما الرابع فصاحب الكبيرة وإن لم يكن متقياً مطلقاً ولكنه متق فيما أتى به من الطاعة على سبيل الإخلاص فوجب أن تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كلهم قرأوا (ينال الله) ويناله بالياء إلا يعقوب فانه قرأ بالتاء فى الحرفين فمن أنث فقد رده إلى اللفظ ومن ذكر فللحائل بين الاسم والفعل ، ثم قال (كذلك سخرها لكم) والمراد أنه إنما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم ، بما نفعله عند النحر وقبله وبعده على ما هدانا ودلنا عليه وبينه لنا ، ثم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره (وبشر المحسنين) كما قال من قبل (وبشر المخبتين) والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الأعمال ويتمسك به فيصير محسناً إلى نفسه بتوفير الثواب عليه .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ، أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ؛ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا

www.besturdubooks.wordpress.com

دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما بين مايلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم أتبع ذلك ببيان مايزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بالألف ومثله (ولولا دفع الله) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف فيهما . وقرأ حمزة والكسائى وعاصم (إن الله يدافع) بالألف (ولولا دفع) بغير ألف ، فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ فى الدفع عنهم ، وقال الخليل يقال دفع الله المكروه عنك دفعاً ودافع عنك دفاعاً والدفاع أحسنهما .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ ذكر (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) ولم يذكر مايدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم ، وإن كان فى الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين ، فلذلك قال بعده (إن الله لايحب كل خوان كفور) فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ قال مقاتل . إن الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة ، هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبى ﷺ فى قتلهم سراً فنهاهم

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ هذه الآية بشارة للمؤمنين باعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهى كقوله (لن يضروكم إلا أذى) وقوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) وقال (إنهم لهم المنصورون) (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) ،

أما قوله تعالى (**إن الله لايحب كل خوان كفور**) فالمعنى أنه سبحانه جعل العلة فى أنه يدافع

www.besturdubooks.wordpress.com

عن الذين آمنوا أن الله لا يحب صدهم ، وهو الخوان الكفور أى خوان فى أمانة الله كفور لنعمته ونظيره قوله (لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم) قال مقاتل أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأى خيانة أعظم من هذه ؟

أما قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم فى رواية حفص (أذن) بضم الألف والباقون بفتحها أى أذن الله لهم فى القتال ، وقرأ أهل المدينة وعاصم (يقاتلون) بنصب التاء ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى (أذن) بنصب الألف (ويقاتلون) بكسر التاء . قال الفراء والزجاج : يعنى أذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين فى المستقبل ، ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير أذن للذين يقاتلون فى القتال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الآية محذوف والتقدير أذن للذين يقاتلون فى القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه .

أما قوله (بأنهم ظلموا) فالمراد أنهم أذنوا فى القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مشركوا مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم اصبروا فإنى لم أومر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية ، وقيل نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركوا مكة فأذن فى مقاتلتهم .

أما قوله (وإن الله على نصرهم لقدير) فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره إن أطعتنى فأنا قادر على مجازاتك لا يعنى بذلك القدرة بل يريد أنه سيفعل ذلك .

أما قوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) فاعلم أنه تعالى لما بين أنهم إنما أذنوا فى القتال لأجل أنهم ظلموا فبين ذلك الظلم بقوله (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين : (أحدهما) أنهم أخرجوهم من ديارهم (والثانى) أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا (ربنا الله) وكل واحد من الوجهين عظيم فى الظلم ، فان قيل كيف استثنى من غير حق قولهم (ربنا الله) وهو من الحق ؟ قلنا تقدير الكلام أنهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الاقرار والتمكين لا موجب الاخراج والتسيير ، ومثله (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله) ثم بين سبحانه بقوله (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت) أن عادته جل جلاله أن يحفظ دينه بهذا الأمر قرأ نافع (لهدمت) بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما المراد بهذا الدفاع الذى أضافه إلى نفسه ؟ (الجواب) هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى : ولو لا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين ، من حيث يأذن لهم فى جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وعطلوا ما يبنونه من

www.besturdubooks.wordpress.com

مواضع العبادة ، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها ، ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وإن كانت لغير أهل الاسلام ، وذكر المفسرون وجوها أخر (أحدها) قال الكلبي يدفع الله بالنبيين عن المؤمنين وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد (وثانيها) روى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال يدفع الله بالمحسن عن المسيء ، وبالذى يصلى عن الذى لا يصلى ، وبالذى يتصدق عن الذى لا يتصدق، وبالذى يحج عن الذى لا يحج ، وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه» ثم تلا هذه الآية (وثالثها) قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما يدفع بدين الإسلام وبأهله عن أهل الذمة (ورابعها) قال مجاهد يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص.

﴿السؤال الثانى﴾ لماذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عبادة المسلمين؟ (الجواب) لأجل ما سألت عنه اختلفوا على وجوه : (أحدها) قال الحسن المراد بهذه المواضع أجمع مواضع المؤمنين ، وإن اختلفت العبارات عنها (وثانيها) قول الزجاج ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم فى شرع كل نبي المكان الذى يصلى فيه ، فلولا ذلك الدفع لهدم فى زمن موسى الكنائس التى كانوا يصلون فيها فى شرعه ، وفى زمن عيسى الصوامع ، وفى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المساجد فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ (وثالثها) بل المراد لهدمت هذه الصوامع فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها على كل حال يجرى فيها ذكر الله تعالى فليست بمنزلة عبادة الأوثان.

﴿السؤال الثالث﴾ ما الصوامع والبيع والصلوات والمساجد؟ (الجواب) ذكروا فيها وجوها : (أحدها) الصوامع للنصارى والبيع لليهود والصلوات للصابئين والمساجد للمسلمين عن أبى العالية رضى الله عنه (وثانيها) الصوامع للنصارى وهى التى بنوها فى الصحارى والبيع لهم أيضاً وهى التى يبنونها فى البلد والصلوات لليهود ، قال الزجاج وهى بالعبرانية صلوتا (وثالثها) الصوامع للصابئين والبيع للنصارى والصلوات لليهود عن قتادة (ورابعها) أنها بأسرها أسماء المساجد عن الحسن ، أما الصوامع فلأن المسلمين قد يتخذون الصوامع ، وأما البيع فأطلق هذا الإسم على المساجد على سبيل التشبيه ، وأما الصلوات فالمعنى أنه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد.

﴿السؤال الرابع﴾ الصلوات كيف تهدم خصوصاً على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين؟ (الجواب) من وجوه : (أحدها) المراد بهدم الصلاة إبطالها وإهلاك من يفعلها كقولهم هدم فلان إحسان فلان إذا قابله بالكفر دون الشكر (وثانيها) بل المراد مكان الصلوات لأنه الذى يصح هدمه كقوله (واسأل القرية) أى أهلها (وثالثها) لما كان الأغلب فيما ذكر ما يصح أن

www.besturdubooks.wordpress.com

أن يهدم جاز ضم ما لا يصح أن يهدم إليه ، كقولهم متقلداً سيفاً ورمحاً . وإن كان الرمح لا يتقلد .

﴿ السؤال الخامس ﴾ قوله (يذكر فيها اسم الله كثيراً) مختص بالمساجد أو عائد إلى الكل ؟ (الجواب) قال الكلبي ومقاتل عائد إلى الكل لأن الله تعالى يذكر في هذه المواضع كثيراً ، والأقرب أنه مختص بالمساجد تشريفاً لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيراً .

﴿ السؤال السادس) لم قدم الصوامع والبيع في الذكر على المساجد ؟ (الجواب) لأنها أقدم في الوجود ، وقيل أخرها في الذكر كما في قوله (ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) ولأن أول الفكر آخر العمل ، فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمته خير الأمم لاجرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام « نحن الآخرون السابقون »

أما قوله تعالى (ولينصرن الله من ينصره) فقال بعضهم من ينصره بتلقي الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى ، وقال آخرون : بل المراد من يقوم بسائر دينه ، وإنما قالوا ذلك لأن نصرة الله على الحقيقة لا تصح ، وإنما المراد من نصرة الله نصرة دينه كما يقال في ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفي قوله (ولينصرن الله من ينصره) وعد بالنصر لمن هذه حاله ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائماً بإيضاح الأدلة والبينات ، ويكون بالاعانة على المعارف والطاعات ، وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر ، ثم بين تعالى أنه قوي على هذه النصرة التي وعدها المؤمنين ، وأنه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله (عزيز) لأن العزيز هو الذي لا يضام ولا يمنع مما يريده . ثم إنه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم في القتال في الآية الأولى فقال (الذين إن مكناهم في الأرض) والمراد من هذا التمكن السلطنة ونفاذ القول على الخلق لأن المتبادر إلى الفهم من قوله (مكناهم في الأرض) ليس إلا هذا ، ولأنا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الأمور الأربعة المذكورة عليه في معرض الجزاء ، لأنه ليس كل من كان قادراً على الفعل أتى بهذه الأشياء . إذا ثبت هذا فنقول : المراد بذلك هم المهاجرون لأن قوله (الذين إن مكناهم) صفة لمن تقدم وهو قوله (الذين أخرجوا من ديارهم) والأنصار ما أخرجوا من ديارهم فيصير معنى الآية أن الله تعالى وصف المهاجرين بأنه إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السلطنة ، فانهم أتوا بالأمور الأربعة . وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لكن قد ثبت أن الله تعالى مكن الأئمة الأربعة من الأرض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الأمور الأربعة . وإذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق ، فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على إمامة الأربعة . ولا يجوز حمل الآية على علي عليه السلام وحده لأن الآية دالة على الجمع ، وفي قوله (ولله عاقبة الأمور) دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة . ثم إن الأمور ترجع إلى الله تعالى بالعاقبة فانه سبحانه هو الذي

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

لايزول ملكه أبداً وهو أيضاً يؤكد ما قلناه .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ، فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ، أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾

إعلم أنه تعالى لما بين فيما تقدم إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق ، وأذن فى مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين أن لله عاقبة الأمور ، أردفه بما يجرى مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ماهم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره ، فقال : وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الأمم أنبياءهم ، وذكر الله سبعة منهم . فان قيل : ولم قال (وكذب موسى) ولم يقل قوم موسى ؟ (فالجواب) من وجهين (الأول) أن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنوا اسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهم القبط (الثانى) كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسوله ، وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره .

أما قوله تعالى (فأمليت للكافرين) يعنى أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندى ثم أخذتهم بالعقوبة (فكيف كان نكير) استفهام تقرير[ى]، أى فكيف كان إنكارى عليهم بالعذاب ، أليس كان واقعاً

www.besturdubooks.wordpress.com

قطعاً ؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمةو بالكثرة قلة و بالحياة موتاً و بالعمارة خراباً ؟ ألست أعطيت الأنبياء جميع ماوعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم فى الأرض .فينبغى أن تكون عادتك يامحمد الصبر عليهم ، فانه تعالى إنما يمهل لمصلحة فلا بد من الرضاء والتسليم ، وإن شق ذلك على القلب . واعلم أن بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام ، فكيف بذلك مع منزلته ، لكنه فى كل وقت يصل إليه من جهتهم مايزيده غماً ، فأجرى الله عادته بأن يصبره حالا بعد حال ، وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأى جنس من عذاب الاستئصال هلكوا .

وههنا بحث ، وهو أن هذه الآية تدل على أنه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم إلا عذاب الاستئصال فانه لايفعله بقوم محمد ﷺ وإن كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وثبتهم . قال الحسن :السبب فى تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين (أحدهما) أن عند الله حد[اً] من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه (والثانى) أن الله لا يعذب قوماً حتى يعلم أن أحداً منهم لا يؤمن . فأما إذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله أن أحداً منهم لا يؤمن ، فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله (حتى إذا استيأس الرسل) أى من إجابة القوم ، وقوله لنوح (إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) وإذا عذبهم الله تعالى فإنه ينجى المؤمنين لقوله (فلما جاء أمرنا) أى بالعذاب نجينا هوداً ، واعلم أن الكلام فى هذه المسألة قد تقدم فلا فائدة فى الإعادة ، فان قيل كيف يوصف ما ينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بأنه نكير ؟ قلنا إذا كان رادعا لغيره وصادعا له عن مثل ما أوجب ذلك صار نكيراً .

أما قوله (فكأين من قرية أهلكناها) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم : المراد من قوله (فكأين) فكم على وجه التكثير . وقيل أيضاً معناه ، ورب قرية والأول أولى لأنه أوكد فى الزجر ، فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وأنه عجل إهلاكهم أتبعه بما دل على أن لذلك أمثالا وإن لم يذكر مفصلا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن كثير وأهل الكوفة والمدينة (أهلكناها) بالنون ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (أهلكتها) وهو اختيار أبى عبيد لقوله فى الآية الاولى (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أهلكناها) أى أهلها ودل بقوله وهى ظالمة على ماذكرنا ، ويحتمل أن يكون المراد إهلاك نفس القرية ، فيدخل تحت إهلاكها إهلاك من فيها لأن العذاب النازل إذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل بهلاكها هلاك من فيها وإن كان الأول أقرب .

أما قوله وهى (خاوية على عروشها) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما معنى هذه اللفظة ؟ فقال صاحب الكشاف : كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة فهو عرش ، والخاوى الساقط من خوى النجم إذا سقط أو الخالى من

www.besturdubooks.wordpress.com

خوى المنزل إذا خلا من أهله ، فان فسرنا الخاوى بالساقط ، كان المعنى أنها ساقطة على سقوفها ، أى خرت سقوفها على الأرض . ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ، وإن فسرناه بالخالى كان المعنى أنها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها ، قال ويمكن أن يكون خبراً بعد خبر ، كأنه قيل هى خاوية وهى على عروشها ، بمعنى أن السقوف سقطت على الأرض فصارت فى قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهى مشرفة على السقوف الساقطة ، وبالجملة فالآية دالة على أنها بقيت محلا للاعتبار .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما محل هاتين الجملتين من الإعراب . أعنى (وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها) الجواب (الأولى) فى محل النصب على الحال (والثانية) لا محل لها لأنها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل . قال أبو مسلم : المعنى فكأين من قرية أهلكناها وهى كانت ظالمة وهى الآن خاوية .

أما قوله (وبئر معطلة وقصر مشيد) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ الحسن (معطلة) من أعطله بمعنى معطلة ومعنى المعطلة أنها عامرة فيها الماء ويمكن الاستقاء منها إلا أنها عطلت أى تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وفى المشيد قولان : (أحدهما) أنه المجصص لأن الجص بالمدينة يسمى الشيد (والثانى) أنه المرفوع المطول ، والمعنى أنه تعالى بين أن القرية مع تكلف بنائهم لها واغتباطهم بها جعلت لأجل كفرهم بهذا الوصف ، وكذلك البئر التى كلفوها وصارت شربهم صارت معطلة بلا شارب ولا وارد ، والقصر الذى أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهراً خالياً بلا ساكن ، وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر . وفيه دلالة على أن تفسير على بمع أولى لأن التقدير وهى خاوية مع عروشها ومعلوم أنها إذا كانت كذلك كانت أدخل فى الاعتبار وهو كقوله تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين) والله أعلم بالصواب .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ روى أبو هريرة رضى الله عنه أن هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ، ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم بحضرموت . وإنما سميت بذلك لأن صالحاً حين حضرها مات ثم ، وثم بلدة عند البئر اسمها حاضورا بناها قوم صالح ، وأمروا عليها جاسر بن جلاس وجعلوا وزيره سنجاريب وأقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنما ، وأرسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه فى السوق فأهلكهم الله تعالى ، وعطل بئرهم وخرب قصورهم . قال الإمام أبو القاسم الإنصارى ، وهذا عجيب لأنى زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها عكة فكيف يقال إنه بحضرموت .

أما قوله تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار لأن الرؤية لها حظ عظيم فى الاعتبار وكذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾

استماع الأخبار فيه مدخل ، ولكن لا يكمل هذان الأمران إلا بتدبر القلب لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع البتة ولو تفكر فيما سمع لانتفع ، فلهذا قال (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) كأنه قال لاعمى في أبصارهم فانهم يرون بها لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ قوله (أفلم يسيروا في الأرض) هل يدل على الأمر بالسفر (الجواب) يحتمل أنهم ما سافروا فحثهم على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا .

﴿السؤال الثاني﴾ مامعنى الضمير في قوله (فانها لا تعمى الأبصار) (والجواب) هذا الضمير ضمير القصة والشأن يجيء مؤنثاً ومذكراً وفي قراءة ابن مسعود (فانه) ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره الأبصار .

﴿السؤال الثالث﴾ أي فائدة في ذكر الصدور مع أن كل أحد يعلم أن القلب لا يكون إلا في الصدر ؟ (الجواب) أن المتعارف أن العمى مكانه الحدقة ، فلما أريد إثباته للقلب على خلاف المتعارف احتيج إلى زيادة بيان كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك ، فقولك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسان وتثبيت ، لأن محل المضاء هو هو لا غير ، وكأنك قلت مانفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهواً ، ولكني تعمدته على اليقين . وعندي فيه وجه آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وعند قوم أن محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين أن محل ذلك هو الصدر .

﴿السؤال الرابع﴾ هل تدل الآية على أن العقل هو العلم وعلى أن محل العلم هو القلب ؟ (الجواب) نعم لأن المقصود من قوله (قلوب يعقلون بها) العلم وقوله (يعقلون بها) كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل ، فوجب جعل القلب محلا للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لأن الجاهل لكونه متحيراً يشبه الأعمى .

قوله تعالى : ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ، وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ، قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾.

www.besturdubooks.wordpress.com

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

إعلم أنه تعالى لما حكى من عظم ماهم عليه من التكذيب أنهم يستهزئون باستعجال العذاب فقال (ويستعجلونك بالعذاب) وفى ذلك دلالة على أنه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ولأن قولهم (لو ما تأتينا بالملائكة) يدل على ذلك فقال تعالى (ولن يخلف الله وعده)لأن الوعد بالعذاب إذا كان فى الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين أن العاقل لاينبغى أن يستعجل عذاب الآخرة فقال (وإن يوماً عند ربك) يعنى فيما ينالهم من العذاب وشدته (كألف سنة) لو بقى وعذب فى كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه ، وهذا قول أبى مسلم وهو أولى الوجوه : (الوجه الثانى) أن المراد طول أيام الآخرة فى المحاسبة ويرجع معناه إلى قريب مما تقدم، وذلك أن الأيام القصيرة إذا مرت فى الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الأيام المستطيلة إذا مرت فى الشدة . ثم إن العذاب الذى يكون طول أيامها إلى هذا الحد لا ينبغى للعاقل أن يستعجله (والوجه الثالث) أن اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة إليه على السواء لأنه القادر الذى لايعجزه شىء ، فاذا لم يستبعدوا إمهال يوم فلا يستبعدوا أيضاً إمهال ألف سنة .

أما قوله (وكأى من قرية أمليت لها وهى ظالمة) فالمراد وكم من قرية أخرت إهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذتهم بأن أنزلت العذاب بهم ، ومع ذلك فعذابهم مدخر إذا صاروا إلى وهو تفسير قوله (وإلى المصير) فان قيل فلم قال فيما قبل (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة) وقال ههنا (وكأين من قرية أمليت لها) الأولى بالفاء وهذه بالواو ؟ قلنا : الاولى وقعت بدلا عن قوله (فكيف كان نكير) وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو ، أعنى قوله (ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون)

أما قوله (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) فالمعنى أنه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والإنذار ، وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن إدامة التخويف والإنذار ، وأن يقول لهم إنما بعثت للانذار فاستهزاؤكم بذلك لايمنعنى منه .

قوله تعالى : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾

إعلم أنه تعالى لما بين للرسول صلى الله عليه وسلم أنه يجب أن يقول لهم أنا نذير مبين أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم ، لأن الرجل إنما يكون منذراً بذكر الوعد للمطيعين والوعيد

www.besturdubooks.wordpress.com

للعاصين . فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات لجمع بين الوصفين وهذا دليل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان وبه يبطل قول المعتزلة ويدخل فى الايمان كل مايجب من الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان ، ويدخل فى العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور ، ثم بين سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم . أما المغفرة فإما أن تكون عبارة عن غفران الصغائر ، أو عن غفران الكبائر بعد التوبة ، أو عن غفرانها قبل التوبة ، والأولان واجبان عند الخصم . وأداء الواجب لا يسمى غفراناً . فبقى الثالث وهو دلالته على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة . وأما الرزق الكريم فهو إشارة إلى الثواب ، وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية ، وهو أن الانسان هناك يستغنى عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها . وأن يكون للصفات الثبوتية . وهو أن يكون رزقاً كثيراً دائماً خالصاً عن شوائب الضرر ، مقروناً بالتعظيم والتبجيل . والأولى جعل الكريم دالا على كل هذه الصفات ، فهذا شرح حال المؤمنين . وأما حال الكفار فقال (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) والمراد اجتهدوا فى ردها والتكذيب بها حيث سموها سحراً وشعراً وأساطير الأولين ، ويقال لمن بذل جهده فى أمر : إنه سعى فيه توسعاً من حيث بلغ فى بذل الجهد النهاية ، كما إذا بلغ الماشى نهاية طاقته فيقال له سعى ، وذكر الآيات وأراد التكذيب بها مجازاً . قال صاحب الكشاف· يقال سعى فى أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه ، أما المعاجز فيقال عاجزته ، أى طمعت فى إعجازه ، واختلفوا فى المراد ، هل معاجزين لله أو للرسول وللمؤمنين ، والأقرب هو الثانى لأنهم إن أنكروا الله استحال منهم أن يطمعوا فى إعجازه وإن أثبتوه فيبعد أن يعتقدوا أنهم يعجزونه ويغلبونه ، ويصح منهم أن يظنوا ذلك فى الرسول بالحيل والمكايد . أما الذين قالوا المراد معاجزين لله ، فقد ذكروا وجوها (أحدها) المراد بمعاجزين مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث (وثانيها) أنهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب (وثالثها) يعجزون الله بإدخال الشبه فى قلوب الناس (والجواب) عن الأول أن من جحد أصل الشىء لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشىء ، ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده أنهم ظنوا مغالبة الرسول ﷺ فيما كان يقوله من أمر الحشر والنشر (والجواب) عن الثانى والثالث أن المغالبة فى الحقيقة ترجع إلى الرسول والأمة ، لا إلى الله تعالى .

أما قوله تعالى (أولئك أصحاب الجحيم) فالمراد أنهم يدومون فيها وشبههم من حيث الدوام بالصاحب ، فان قيل إنه عليه السلام فى هذه الآية بشر المؤمنين أولا وأنذر الكافرين ثانياً ، فكان القياس أن يقال : قل يا أيها الناس إنما أنا لكم بشير ونذير ، قلنا الكلام مسوق إلى المشركين ، ويا أيها الناس نداء لهم ، وهم الذين قيل فيهم (أفلم يسيروا فى الأرض) ووصفوا بالاستعجال وإنما ألقى ذكر المؤمنين وثوابهم فى البين زيادة لغيظهم وإيذائهم .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ، ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ، الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

أما قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ من الناس من قال : الرسول هو الذى حدث وأرسل ، والنبى هو الذى لم

www.besturdubooks.wordpress.com

يرسل ولكنه ألهم أو رأى فى النوم ، ومن النـاس من قال : إن كل رسول نبى ، وليس كل نبى يكون رسولا ، وهو قول الكلبي والفراء . وقالت المعتزلة كل رسول نبى ، وكل نبى رسول ، ولا فرق بينهما ، واحتجوا على فساد القول الأول بوجوه (أحدها) هذه الآية فانها دالة على أن النبى قد يكون مرسلا ، وكذا قوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نبى) ، (وثانيها) أن الله تعالى خاطب محمداً مرة بالنبي ومرة بالرسول ، فدل على أنه لا منـافاة بين الأمرين ، وعلى القول الأول المنافاة حاصلة (وثالثها) أنه تعالى نص على أنه خاتم النبيين (ورابعهـا) أن اشتقاق لفظ النبى إما من النبأ وهو الخبر ، أو من قولهم نبأ إذا ارتفع ، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسـالة . (أما القول الثانى) فاعلم أن شيئاً من تلك الوجوه لا يبطله ، بل هذه الآية دالة عليه لأنه عطف النبي على الرسول ، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص . وقال فى موضع آخر (وكم أرسلنا من نبى فى الأولين) وذلك يدل على أنه كان نبياً ، فجعله الله مرسلا وهو يدل على قولنا . و « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كم المرسلون ؟ فقال ثلثمائة وثلاثة عشرة ، فقيل وكم الأنبياء ؟ فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الجم الغفير » إذا ثبت هذا فنقول : ذكروا فى الفرق بين الرسول والنبي أموراً (أحدها) أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله (والثانى) أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول ، ومن لم يكن مستجمعاً لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول ، وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا إسحق ويعقوب وأيوب ويونس وهرون وداود وسليمان رسلا لأنهم ماجاءوا بكتاب ناسخ (والثالث) أن من جاءه الملك ظاهراً وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول ، ومن لم يكن كذلك بل رأى فى النوم كونه رسولا ، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله ، فهو النبى الذى لا يكون رسولا وهذا هو الأولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر المفسرون فى سبب نزول هـذه الآية أن الرسول ﷺ لما رأى إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى فى نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمـانهم فجلس ذات يوم فى ناد من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شىء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعـالى سورة (والنجم إذا هوى) فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى » فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ فى قراءته فقرأ السورة كلهـا فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من فى المسجد من المشركين فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبى أحيحة سعيد بن العاصى فانهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

جبهتيهما و سجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود و تفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا و قالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله و قلت ما لم أقل لك؟! فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً عظيما حتى نزل قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) الآية . هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين . أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فوجوه : (أحدها) قوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) . (وثانيها) قوله (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى) (وثالثها) قوله (وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى فى الحال وذلك لايقوله مسلم (ورابعها) قوله تعالى (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لا تخذوك خليلا) وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل (وخامسها) قوله (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا) وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل (وسادسها) قوله (كذلك لنثبت به فؤادك) . (وسابعها) قوله (سنقرئك فلا تنسى) . وأما السنة فهى ما روى عن محمد ابن اسحق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتاباً . وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم فى أن رواة هذه القصة مطعون فيهم . وأيضاً فقد روى البخارى فى صحيحه أن النبى عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق . وأما المعقول فمن وجوه : (أحدها) أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان فى نفى الأوثان (وثانيها) أنه عليه السلام ما كان يمكنه فى أول الأمر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلى إذا لم يحضروها ليلا أو فى أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم (وثالثها) أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجداً مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم (ورابعها) قوله (فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) وذلك لأن إحكام الآيات بازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التى تبقى الشبهة معها ، فاذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ماليس بقرآن قرآناً ، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى (وخامسها) وهوأقوى الوجوه

www.besturdubooks.wordpress.com

أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا فى كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فانه لا فرق فى العقل بين النقصان عن الوحى وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما فى الباب أن جمعاً من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر ، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة ، ولنشرع الآن فى التفصيل فنقول التمنى جاء فى اللغة لأمرين (أحدهما) تمنى القلب (والثانى) القراءة قال الله تعالى (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) أى إلا قراءة لأن الأمى لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة ، وقال حسان :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل إنما سميت القراءة أمنية لأن القارىء إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها . وقال : أبو مسلم التمنى هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الإنسان فى الوقت الذى قدره الله تعالى ، ومنى الله لك أى قدر لك . وقال رواة اللغة الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان ، وذلك راجع إلى الأصل الذى ذكرناه فان التالى مقدر للحروف ويذكرها شيئاً فشيئاً ، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية ، إما القراءة ، وإما الخاطر .

أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان : (الأول) أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول ﷺ فيه ويشتبه على القارىء دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى (الثانى) المراد منه وقوع هذه الكلمة فى قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه : (الأول) أن النبى ﷺ لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه (أحدها) أن التوهم فى مثل ذلك إنما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه (وثانيها) أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فان العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم فى الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد فى المحسوسات (وثالثها) لو كان كذلك لم يكن مضافا إلى الشيطان (الوجه الثانى) قالوا إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه فى درج تلك التلاوة فى بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول ﷺ قالوا والذى يؤكده أنه لا خلاف فى أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتى الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات فى أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فاذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصاً آخر ظن الحاضرون أنه كلام

www.besturdubooks.wordpress.com

الرسول ،ثم هذا لا يكون قادحا فى النبوة لما لم يكن فعلا له ، وهذا أيضاً ضعيف فانك إذا جوزت أن يتكلم فى أثناء الشيطان كلام الرسول ﷺ بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقى هذا الاحتمال فى كل ما يتكلم به الرسول فيفضى إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فان قيل هذا الاحتمال قائم فى الكل ولكنه لو وقع لوجب فى حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما فى هذه الواقعة إزالة للتلبيس ، قلنا لا يجب على الله إزالة الاحتمالات كما فى المتشابهات وإذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل (الوجه الثالث) أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفرة فانه عليه السلام لما انتهى فى قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته ، ولعل ذلك كان فى صلاته لأنهم كانوا يقربون منه فى حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها ، وقيل إنه عليه السلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف فى فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام فى تلك الوقفات فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول ﷺ ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان لأنه بوسوسته يحصل أولا ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم فى نفسه شيطاناً وهذا أيضاً ضعيف لوجهين (أحدهما) أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم إزالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل وإظهار أن هذه الكلمة منه صدرت (وثانيهما) لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل ، فان قيل إنما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه كان قد أدى السورة بكمالها إلى الأمة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤدياً إلى التلبيس كما يؤدى سهوه فى الصلاة بعد أن وصفها إلى اللبس ، قلنا إن القرآن لم يكن مستقراً على حالة واحدة فى زمان حياته لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سبباً لزوال اللبس ، وأيضا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم (الوجه الرابع) هو أن المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فانه إما أن يكون قال هذه الكلمة سهواً أو قسراً أو اختياراً (أما الوجه الأول) وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهواً فكما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا إنه عليه السلام كان يصلى عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من فى المسجد وفرح المشركون بما سمعوه وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه ، فلما انتهى إلى الغرانيق قال لم آتك بهذا . فحزن رسول الله ﷺ إلى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضاً لوجوه (أحدها) أنه لو جاز هذا السهو لجاز فى سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع (وثانيها) أن الساهى لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها ، فإنا نعلم بالضرورة أن واحداً لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر فى وزنها ومعناها وطريقتها (وثالثها) هب أنه تكلم

www.besturdubooks.wordpress.com

بذلك سهواً ، فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر (أما الوجه الثانى) وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك قسراً وهو الذى قال قوم إن الشيطان أجبر النبى ﷺ على أن يتكلم بهذا فهذا أيضاً فاسد لوجوه (أحدها) أن الشيطان لو قدر على ذلك فى حق النبى عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز فى أكثر مايتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين (وثانيها) أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحى لقيام هذا الإحتمال (وثالثها) أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكياً عن الشيطان (وماكان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) وقال تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه) وقال (إلا عبادك منهم المخلصين) ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين (أما الوجه الثالث) وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك اختياراً فههنا وجهان (أحدهما) أن نقول إن هذه الكلمة باطلة (والثانى) أن نقول إنها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الأول فذكروا فيه طريقين (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء إن شيطاناً يقال له الأبيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ إلى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أتانى آت على صورتك فألقاها على لسانى (الطريق الثانى) قال بعض الجهال إنه عليه السلام لشدة حرصه على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها ، وهذان القولان لايرغب فيهما مسلم البتة لأن الأول يقتضى أنه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثانى يقتضى أنه كان خائناً فى الوحى وكل واحد منهما خروج عن الدين (أما الوجه الثانى) وهو أن هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضاً طرق (الأول) أن يقال الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآناً منزلا فى وصف الملائكة . فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته (الثانى) أن يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار ، فكأنه قال : أشفاعتهن ترتجى ؟ (الثالث) أن يقال إنه ذكر الإثبات وأراد النفى كقوله تعالى (يبين لكم أن تضلوا) أى لا تضلوا كما قد يذكر النفى ويريد به الإثبات كقوله تعالى (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً) والمعنى أن تشركوا ، وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لايجوز أن يظهروا كلمة الكفر فى جملة القرآن أو فى الصلاة بناء على هذا التأويل ، ولكن الأصل فى الدين أن لايجوز عليهم شيء من ذلك لأن الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن فى ذلك أو ينفر ، ومثل ذلك فى التنفير أعظم من الأمور التى حثه الله تعالى على تركها كنحو الفظاظة والكتابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة

www.besturdubooks.wordpress.com

فى قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها ، فهذا كله إذا فسرنا التمنى بالتلاوة . وأما إذا فسرناها بالخاطر وتمنى القلب فالمعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض مايتمناه من الأمور وسوس الشيطان اليه بالباطل ويدعوه إلى مالا ينبغى ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته ، ثم اختلفوا فى كيفية تلك الوسوسة على وجوه (أحدها) أنه يتمنى مايتقرب به إلى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا إنه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك فى نفسه فعند مالحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت فى نفسه وهذا أيضاً خروج عن الدين وبيانه ماتقدم (وثانيها) ماقال مجاهد من أنه عليه السلام كان يتمنى إنزال الوحى عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن إنزال ذلك بحسب المصالح فى الحوادث والنوازل وغيرها (وثالثها) يحتمل أنه عليه السلام عند نزول الوحى كان يتفكر فى تأويله إن كان مجملا فيلقى الشيطان فى جملته مالم يرده ، فبين تعالى أنه ينسخ ذلك بالإبطال ويحكم ماأراده الله تعالى بأدلته وآياته (ورابعها) معنى الآية إذا تمنى إذا أراد فعلا مقرباً إلى الله تعالى ألقى الشيطان فى فكره ما يخالفه فيرجع إلى الله تعالى فى ذلك وهو كقوله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) وكقوله (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) ومن الناس من قال لايجوز حمل الأمنية على تمنى القلب لأنه لو كان كذلك لم يكن مايخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) ، (والجواب) لايبعد أنه إذا قوى التمنى اشتغل الخاطر به فحصل السهو فى الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول فى هذه المسألة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يرجع حاصل البحث إلى أن الغرض من هذه الآية بيان أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان بل حالهم فى جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب أن لايتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم ، وقال أبو مسلم معنى الآية أنه لم يرسل نبياً إلا إذا تمنى كأنه قيل : وما أرسلنا إلى البشر ملكا وما أرسلنا إليهم نبياً إلا منهم ، وما أرسلنا نبياً خلا عند تلاوته الوحى من وسوسة الشيطان وأن يلقى فى خاطره مايضاد الوحى ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبى على الوحى وعلى حفظه ويعلمه صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان ، قال وفيما تقدم من قوله (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين أنا نذير لكم لكنى من البشر لا من الملائكة ، ولم يرسل الله تعالى مثلى ملكا بل أرسل رجالا فقد يوسوس الشيطان إليهم ، فان قيل هذا إنما يصح لو كان السهو لايجوز على الملائكة ، قلنا إذا كانت الملائكة أعظم درجة من الأنبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الأنبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة ، واعلم أنه سبحانه لما شرح حال هذه الوسوسة أردف ذلك ببحثين :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ البحث الأول ﴾ كيفية إزالتها وذلك هو قوله تعالى (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) فالمراد إزالته وإزالة تأثيره فهو النسخ اللغوى لا النسخ الشرعى المستعمل فى الأحكام . أما قوله (ثم يحكم الله آياته) فاذا حمل التمنى على القراءة فالمراد به آيات القرآن وإلا فيحمل على أحكام الأدلة التى لايجوز فيها الغلط .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه تعالى بين أثر تلك الوسوسة ، ثم إنه سبحانه شرح أثرها فى حق الكفار أولا ثم فى حق المؤمنين ثانياً ، أما فى حق الكفار فهو قوله (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة) والمراد به تشديد التبعيد لأن عند مايظهر من الرسول صلى الله عليه وسلم الاشتباه فى القرآن سهواً يلزمهم البحث عن ذلك ليميزوا السهو من العمد وليعلموا أن العمد صواب والسهو قد لا يكون صواباً .
أما قوله (للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال (فتنة للذين فى قلوبهم مرض) ولم خصهم بذلك (الجواب) لأنهم مع كفرهم يحتاجون إلى ذلك التدبر ، وأما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون إلى التدبر .

﴿ السؤال الثانى ﴾ مامرض القلب (الجواب) أنه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال (فى قلوبهم مرض) وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهراً وباطناً .
أما قوله تعالى (وإن الظالمين لفى شقاق بعيد) يريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وإنهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والمعاداة والمباعدة سواء ، وأما فى حق المؤمنين فهو قوله (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك) وفى الكناية ثلاثة أوجه (أحدها) أنها عائدة إلى نسخ ما ألقاه الشيطان ، عن الكلبى . (وثانيها) أنه الحق أى القرآن عن مقاتل (وثالثها) أن تمكن الشيطان من ذلك الإلقاء هو الحق ، أما على قولنا فلأنه سبحانه وتعالى أى شىء فعل فقد تصرف فى ملكه وملكه بضم الميم وكسرها فكان حقا ، وأما على قول المعتزلة فلأنه سبحانه حكيم فتكون كل أفعاله صواباً فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم أى تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضى كائن ، وكل ميسر لما خلق له ، (وأن الله لهادى الذين آمنوا) إلى أن يتأولوا ما يتشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا ما أشكل منه من المجمل الذى تقتضيه الأصول المحكمة حتى لاتلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة وقرىء لهاد الذين آمنوا بالتنوين ، ولما بين سبحانه حال الكافرين أولا ثم حال المؤمنين ثانياً عاد إلى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه) أى من القرآن أو من الرسول ، وذلك يدل على أن الأعصار إلى قيام الساعة لاتخلو ممن هذا وصفه .

أما قوله تعالى (حتى تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة من دون أن يشعروا ثم جعل الساعة غاية لكفرهم ، وأنهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء . واختلف فى المراد باليوم العقيم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ
وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ
﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ

وفيه قولان : (أحدهما) أنه يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة : (أحدها) أن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن (وثانيها) أن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فاذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز (وثالثها) هو الذى لاخير فيه يقال ريح عقيم إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً (ورابعها) أنه لا مثل له فى عظم أمره ، وذلك لقتال الملائكة فيه (القول الثانى) أنه يوم القيامة ، وإنما وصف بالعقيم لوجوه : (أحدها) أنهم لا يرون فيه خيراً (وثانيها) أنه لاليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة (وثالثها) أن كل ذات حمل تضع حملها فى ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه ، وهذا القول أولى لأنه لايجوز أن يقول الله تعالى (ولا يزال الذين كفروا) ويكون المراد يوم بدر، لأن من المعلوم أنهم فى مرية بعد يوم بدر، فان قيل لما ذكر الساعة . فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار ؛ قلنا ليس كذلك لأن الساعة من مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم ، وعلى أن الأمر لو كان كما قاله لم يكن تكراراً لأن فى الأول ذكر الساعة ، وفى الثانى ذكر عذاب ذلك اليوم ، ويحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد وبعذاب يوم عقيم القيامة .

أما قوله (الملك يومئذ لله) فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم وأراد بذلك أنه لامالك فى ذلك اليوم سواه فهو بخلاف أيام الدنيا التى ملك الله الأمور غيره ، وبين أنه الحاكم بينهم لا حاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بين كيف يحكم بينهم ، وأنه يصير المؤمنين إلى جنات النعيم ، والكافرين فى العذاب المهين ، وقد تقدم وصف الجنة والنار فان قيل التنوين فى يومئذ عن أى جملة ينوب ؟ قلنا تقديره : الملك يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم لقوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة) .

قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم ، ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ، ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل

www.besturdubooks.wordpress.com

بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

وأن الله سميع بصير ، ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو هو العلى الكبير ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما ذكر أن الملك له يوم القيامة وأنه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين ، وأفردهم بالذكر تفخيما لشأنهم فقال عزمن قائل (والذين هاجروا) واختلفوا فيمن أريد بذلك ، فقال بعضهم من هاجر إلى المدينة طالباً لنصرة الرسول ﷺ وتقرباً إلى الله تعالى ، وقال آخرون بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول ﷺ أو فى سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده ، ومنهم من حمله على الأمرين . واختلفوا من وجه آخر فقال قوم المراد قوم مخصوصون ، روى مجاهد أنها نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم ، وظاهر الكلام للعموم . ثم إنه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم ، أما الرزق فقوله تعالى (ليرزقنهم الله رزقا حسناً ، وإن الله لهو خير الرازقين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لاشبهة فى أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة ، وقال الأصم إنه العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام (ورزقنى منه رزقاً حسناً) فهذا فى الدنيا وفى الآخرة الجنة . وقال الكلبى رزقا حسناً حلالا وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان ، لأنه تعالى جعله جزاء على هجرتهم فى سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون إلا نعيم الجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لابد من شرط اجتناب الكبائر فى كل وعد فى القرآن لأن هذا المهاجر لو ارتكب كبيرة لكان حكمه فى المشيئة على قولنا ، ولخرج عن أن يكون أهلا للجنة قطعاً على قول المعتزلة . فان قيل فما فضله على سائر المؤمنين فى الوعد إن كان كما قلتم ؟ قلنا فضلهم بظهر لأن ثوابهم أعظم وقد قال تعالى (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) فمعلوم أن من هاجر مع الرسول ﷺ وفارق دياره وأهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين ، وعلى هذا الوجه عظم محل الأنصار حتى صار ذكرهم والثناء عليهم تالياً لذكر المهاجرين لما آووه ونصروه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى معنى قوله (وإن الله لهو خير الرازقين) مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه : (أحدها) التفاوت إنما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق مالا يقدر عليه غيره (وثانيها) أن يكون المراد أنه الأصل فى الرزق ، وغيره إنما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى (وثالثها) أن غيره ينقل الرزق من يده إلى يد غيره لا أنه يفعل

www.besturdubooks.wordpress.com

نفس الرزق (ورابعها) أن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه به . إما لأجل أن يخرج عن الواجب ، وإما لأجل أن يستحق به حمداً أو ثناء . وإما لأجل دفع الرقة الجنسية . فكان الواحد منا إذا رزق فقد طلب العوض ، أما الحق سبحانه فإن كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شيء كمالا زائداً فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان (وخامسها) أن غيره إنما يرزق لو حصل فى قلبه إرادة ذلك الفعل ، وتلك الإرادة من الله . فالرازق فى الحقيقة هو الله تعالى (وسادسها) أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملا من منة الغير . فكان هو (خير الرازقين) (وسابعها) أن الغير إذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الإنسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به ، ورزق الغير لابد وأن يكون مسبوقاً برزق الله وملحوقاً به حتى يحصل الانتفاع . وأما رزق الله تعالى فإنه لاحاجة به إلى رزق غيره ، فثبت أنه سبحانه (خير الرازقين) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) أن الله تعالى قادر (وثانيها) أن غير الله يصح منه أن يرزق ويملك . ولولا كونه قادراً فاعلا لما صح ذلك (وثالثها) أن الرزق لا يكون إلا حلالا لأن قوله (خير الرازقين) دلالة على كونهم ممدوحين (والجواب) لا نزاع فى كون العبد قادراً ، وإن عندنا القدرة مع الداعي مؤثرة فى الفعل بمعنى الاستلزام . وأما الثالث فبحث لفظي وقد سبق الكلام فيه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لما قال تعالى (ثم قتلوا أو ماتوا) فسوى بينهما فى الوعد ، ظن قوم أن حال المقتول فى الجهاد والميت على فراشه سواء ، وهذا إن أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه . لأن الجمع بينهما فى الوعد لايدل على تفضيل ولا تسوية ، كما أن الجمع بين المؤمنين لا يدل على ذلك . وإن أخذوه من دليل آخر فهو حق ، فإنه روى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المقتول فى سبيل الله تعالى ، والمتوفى فى سبيل الله بغير قتل ، هما فى الخير والأجر شريكان » ولفظ الشركة مشعر بالتسوية ، وإلا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة . وروى أيضاً : أن طوائف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا ، فما لنا إن متنا معك . فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل على التسوية لأنهم لما طلبوا مقدار الأجر ، فلولا التسوية لم يكن الجواب مفيداً .

أما المسكن فقوله تعالى (ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ مدخلا بضم الميم وهو من الإدخال . ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قيل فى المدخل الذى يرضونه إنه خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع . وقال أبو القاسم القشيرى هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنما قال يرضونه ، لأنهم يرون فى الجنة ما لا عين رأت

www.besturdubooks.wordpress.com

ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولا . ونظيره قوله تعالى (ومساكن ترضونها) وقوله (فى عيشة راضية) وقوله (ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وقوله (ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قيل مامعنى (وإن الله لعليم حليم) وما تعلقه بما تقدم ؟ قلنا يحتمل أنه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك فى الجنة ، وأما الحليم فالمراد أنه لحلمه لا يعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية ، بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة .

أما قوله (ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (ذلك) قد مضى الكلام فيه فى هذه الآية فى هذه السورة . وقال الزجاج أى الأمر ما قصصنا عليك من إنجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغى عليه) معناه : قاتل من كان يقاتله ، ثم كان المقاتل مبغياً عليه بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدئ بالقتال ، قال مقاتل : نزلت فى قوم من المشركين لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقال بعضهم لبعض : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر ، فأبوا وقاتلوهم . فذلك بغيهم عليهم ، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم ، فوقع فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام ماوقع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : وعفا عنهم وغفر لهم وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أى تعلق لهذه الآية بما قبلها ؟ (الجواب) كأنه سبحانه وتعالى قال مع إكرامى لهم فى الآخرة بهذا الوعد لا أدع نصرتهم فى الدنيا على من بغى عليهم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هل يرجع ذلك إلى المهاجرين خاصة أو إليهم وإلى المؤمنين ؟ (الجواب) الأقرب أنه يعود إلى الفريقين فانه تقدم ذكرهما ، وبين ذلك قوله تعالى (لينصرنه الله) وبعد القتل والموت لا يمكن ذلك فى الدنيا .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما المراد بالعقوبة المذكورة ؟ (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم ، ورد بعضهم إلى غير ذلك ، فبين تعالى أن من عاقب هؤلاء الكفار بمثل مافعلوا فسينصره عليهم ، وهذه النصرة المذكورة تقوى تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص ، لأن ظاهر النص لايليق إلا بذلك (والجواب الثانى) أن هذه الآية فى القصاص والجراحات ، وهى آية مدنية عن الضحاك .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة ؟ (الجواب) أطلق اسم العقوبة على الأول

www.besturdubooks.wordpress.com

للتعلق الذى بينه وبين الثانى كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (يخادعون الله وهو خادعهم)

﴿ السؤال الخامس ﴾ أى تعلق لقوله (وإن الله لعفو غفور) بما تقدم ؟ (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أن الله تعالى ندب المعاقب إلى العفو عن الجانى بقوله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ، (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع إساءة ، فكأنه سبحانه قال : إنى قد عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها ، فإنى أنا الذى أذنت لك فيه (وثانيها) أنه سبحانه وإن ضمن له النصر على الباغى ، لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين (وثالثها) أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة ، لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده .

﴿ السؤال السادس ﴾ أى تعلق لقوله (ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) بما قبله ؟ (والجواب) من وجهين (أحدهما) ذلك أى ذلك النصر بسبب أنه قادر ومن آيات قدرته البالغة كونه خالقاً لليل والنهار ومتصرفاً فيهما ، فوجب أن يكون قادراً عالماً بما يجرى فيهما ، وإذا كان كذلك كان قادراً على النصر مصيباً فيه (وثانيها) المراد أنه سبحانه مع ذلك النصر ينعم فى الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما فى الآخر .

﴿ السؤال السابع ﴾ ما معنى إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) يحصل ظلمة هذا فى مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس ، وضياء ذلك فى مكان ظلمة هذا بطلوعها ، كما يضيء البيت بالسراج ويظلم بفقده (وثانيهما) أنه سبحانه يزيد فى أحدهما ماينقص من الآخر من الساعات .

﴿ السؤال الثامن ﴾ أى تعلق لقوله (وإن الله سميع بصير) بما تقدم ؟ (الجواب) المراد أنه كما يقدر على مالا يقدر عليه غيره ، فكذلك يدرك المسموع والمبصر ، ولا يجوز المنع عليه ، ويكون ذلك كالتحذير من الإقدام على مالا يجوز فى المسموع والمبصر .

﴿ السؤال التاسع ﴾ مامعنى قوله (ذلك بأن الله هو الحق) وأى تعلق له بما تقدم ؟ (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) المراد أن ذلك الوصف الذى تقدم ذكره من القدرة على هذه الأمور إنما حصل لأجل أن الله هو الحق أى هو الموجود الواجب لذاته الذى يمتنع عليه التغير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد (ثانيهما) أن ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال (ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) .

﴿ السؤال العاشر ﴾ أى تعلق لقوله (وأن الله هو العلى الكبير) بما تقدم ؟ (والجواب) معنى العلى القاهر المقتدر الذى لا يغلب فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغباً بذلك فى عبادته زاجراً عن عبادة غيره . فأما الكبير فهو العظيم فى قدرته وسلطانه ، وذلك أيضاً يفيد كمال القدرة .

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لينصرنه الله) إخبار عن الغيب فانه وجد مخبره كما أخبر فكان من المعجزات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الشافعي رحمه الله : من حرق حرقناه ، ومن غرق غرقناه . وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل يقتل بالسيف . واحتج الشافعي رحمه الله بهذه الآية ، فان الله تعالى جوز للمظلوم أن يعاقب بمثل ما عوقب به ووعده النصر عليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرأ نافع وابن عامر (تدعون) بالتاء ههنا وفي لقمان وفي المؤمنين وفي العنكبوت ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو كلها بالياء على الخبر ، والعرب قد تنصرف من الخطاب إلى الإخبار ومن الإخبار إلى الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير. له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ، ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض إلا باذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم . وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾

اعلم أنه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل في النهار ونبه به على نعمه ، أتبعه بأنواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهي ستة .

﴿ أولها ﴾ قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في قوله (ألم تر) وجوهاً ثلاثة (أحدها) أن المراد هو الرؤية الحقيقية ، قالوا لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الأرض مرئي ، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى (وثانيها) أن المراد ألم تخبر على سبيل الاستفهام

www.besturdubooks.wordpress.com

(وثالثها) المراد ألم تعلم والقول الأول ضعيف لأن الماء وإن كان مرئياً إلا أن كون الله منزلا له من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم ، لأن المقصود من تلك الرؤية هو العلم ، لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (مخضرة) كمبقلة ومسبعة أي ذات خضرة ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال (فتصبح) الأرض ولم يقل فأصبحت ؟ (الجواب) لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان ، كما تقول أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له ، ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام ؟ (والجواب) لو نصب لأعطى عكس ماهو الغرض ، لأن معناه إثبات الإخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار مثاله أن تقول لصاحبك ألم ترأني أنعمت عليك فتشكر . وإن نصبته فأنت ناف لشكره شاك لتفريطه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم أورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الإعادة ، كما قال أبو مسلم . (الجواب) يحتمل ذلك ويحتمل أنه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمه .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ماتعلق قوله (إن الله لطيف خبير) بما تقدم ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أراد أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به ، لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة والسماء إذا أمطرت كان ذلك سبباً لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع . ومعنى (خبير) أنه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان (وثانيها) قال ابن عباس (لطيف) بأرزاق عباده (خبير) بما في قلوبهم من القنوط (وثالثها) قال الكلبي (لطيف) في أفعاله (خبير) بأعمال خلقه (ورابعها) قال مقاتل (لطيف) باستخراج النبت (خبير) بكيفية خلقه .

﴿ الدلالة الثانية ﴾ قوله تعالى (له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد) والمعنى أن كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غني عن الأشياء كلها وعن حمد الحامدين أيضاً لأنه كامل لذاته ، والكامل لذاته غني عن كل ماعداه في كل الأمور ، ولكنه لما خلق الحيوان فلابد في الحكمة من قطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاماً عليهم ، لا لحاجة به إلى ذلك . وإذا كان كذلك كان إنعامه خالياً عن غرض عائد إليه فكان مستحقاً للحمد . فكأنه قال إنه لكونه غنياً لم يفعل مافعله إلا للاحسان ، ومن كان كذلك كان مستحقاً للحمد فوجب أن يكون حميداً . فلهذا قال (وإن الله لهو الغني الحميد) .

﴿ الدلالة الثالثة ﴾ قوله (ألم ترأن الله سخر لكم ما في الأرض) أي ذلل لكم مافيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار ، وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضاً حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها ، فلولا أن سخر الله

www.besturdubooks.wordpress.com

تعالى الإبل والبقر مع قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس ويتمكن منهما لما كان ذلك نعمة .

﴿ الدلالة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والفلك تجرى فى البحر بأمره) والأقرب أن المراد وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر ، وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها ، فلولا صفتهما على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب . فنبه تعالى على نعمه بذلك ، وبأن خلق ماتعمل منه السفن ، وبأن بين كيف تعمل ، وإنما قال بأمره لأنه سبحانه لما كان المجرى لها بالرياح نسب ذلك إلى أمره توسعاً ، لأن ذلك يفيد تعظيمه بأكثر مما يفيد لو أضافه إلى فعله بناء على عادة الملوك فى مثل هذه اللفظة .

﴿ الدلالة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم) واعلم أن النعم المتقدمة لا تكمل إلا بهذه لأن السماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلباً . ووجب أن يكون ثقيلا ، وما كان كذلك فلا بد من الهوى لولا مانع يمنع منه ، وهذه الحجة مبنية على ظاهر الأوهام ، وقوله تعالى (أن تقع) قال الكوفيون : كى لا تقع ، وقال البصريون كراهية أن تقع ، وهذا بناء على مسألة كلامية وهى أن الإرادات والكراهات هل تتعلق بالعدم ؟ فمن منع من ذلك صار إلى التأويل الأول ، والمعنى أنه أمسكها لكى لاتقع فتبطل النعم التى أنعم بها .

أما قوله تعالى (إن الله بالناس لرءوف رحيم) فالمعنى أن المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين قد بلغ الغاية فى الإحسان والإنعام ، فهو إذن رءوف رحيم .

﴿ الدلالة السادسة ﴾ قوله (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) والمعنى أن من سخر له هذه الأمور ، وأنعم عليه بها فهو الذى أحياه فنبه بالإحياء الأول على إنعام الدنيا علينا بكل ماتقدم . ونبه بالإماتة والإحياء الثانى على نعم الدين علينا ، فانه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة وإلا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى . يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها إلى غير ذلك معنى ، بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقى ، وإنما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به فى باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال (إن الإنسان لكفور) وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده ، ثم يقول إن الولد لكفور لنعم الوالد زجراً له عن الكفران وبعثاً له على الشكر ، فلذلك أورد تعالى ذلك فى الكفار ، فبين أنهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها ونظيره قوله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) وقال ابن عباس رضى الله عنهما الإنسان ههنا هو الكافر ، وقال أيضاً هو الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل والعاص وأبى بن خلف ، والأولى تعميمه فى كل المنكرين .

www.besturdubooks.wordpress.com

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ، وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾

إعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه وبين أنه رءوف رحيم بعباده وإن كان منهم من يكفر ولا يشكر ، أتبعه بذكر نعمه بما كلف فقال (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما حذف الواو فى قوله (لكل أمة) لأنه لاتعلق لهذا الكلام بما قبله فلا جرم حذف العاطف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى المنسك أقوال (أحدها) قال ابن عباس عيد[اً] يذبحون فيه (وثانيها) قربانا ولفظ المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد (وثالثها) مألفاً يألفونه إما مكاناً معيناً أو زماناً معيناً لأداء الطاعات (ورابعها) المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء واختيار القفال وهو الأقرب لقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) ولأن المنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة ، وإذا وقع الإسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص . فان قيل هلا حملتموه على الذبح ، لأن المنسك فى العرف لايفهم منه إلا الذبح ؟ وهلا حملتموه على موضع العبادة أو على وقتها ؟ (الجواب) عن الأول لانسلم أن المنسك فى العرف مخصوص بالذبح ، والدليل عليه أن سائر مايفعل فى الحج يوصف بأنه مناسك ولأجله قال عليه السلام « خذوا عنى مناسككم » (وعن الثانى) أن قوله (هم ناسكوه) أليق بالعبادة منه بالوقت والمكان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ زعم قوم أن المراد من قوله (هم ناسكوه) من كان فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متمسكا بشرع كاليهود والنصارى ، ولا يمتنع أن يريد كل من تعبد من الأمم سواء بقيت آثارهم أو لم تبق ، لأن قوله (هم ناسكوه) كالوصف للأمم وإن لم يعبدوا فى الحال .

أما قوله تعالى (فلا ينازعنك فى الأمر) فقرىء (فلا ينزعنك) أى اثبت فى دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه . وأما قوله (فلا ينازعنك) ففيه قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج : أنه نهى لهم عن منازعتهم ، كما تقول لا يضاربنك فلان أى لا تضاربه (والثانى) أن المراد أن عليهم اتباعك وترك مخالفتك ، وقد استقر الأمر الآن على شرعك وعلى أنه ناسخ لكل

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ
أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

ماعداه. فكأنه تعالى نهى كل أمة بقيت منها بقية أن تستمر على تلك العادة، وألزمها أن تتحول إلى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فلذلك قال (وادع إلى ربك) أي لا تخص بالدعاء أمة دون أمة فكلهم أمتك فادعهم إلى شريعتك فانك على هدى مستقيم، والهدى يحتمل نفس الدين ويحتمل أدلة الدين وهو أولى. كأنه قال ادعهم إلى هذا الدين فانك من حيث الدلالة على طريقة واضحة ولهذا قال (وإن جادلوك) والمعنى فان عدلوا عن النظر في هذه الأدلة إلى طريقة المراء والتمسك بالعادة فقد بينت وأظهرت مايلزمك (فقل الله أعلم بما تعملون) لأنه ليس بعد إيضاح الأدلة إلا هذا الجنس الذي يجري مجرى الوعيد والتحذير من حكم يوم القيامة الذي يتردد بين جنة وثواب لمن قبل، وبين نار وعقاب لمن رد وأنكر. فقال (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) فتعرفون حينئذ الحق من الباطل والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير. ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا، قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾

إعلم أنه تعالى لما قال من قبل (الله يحكم بينكم يوم القيامة) أتبعه بما به يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم، فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) وههنا مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (ألم تعلم) هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول ﷺ والوعد له وإيعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لايضل عنه ولا ينسى.

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخطاب مع الرسول ﷺ والمراد سائر العباد ولأن الرسالة لا تثبت

www.besturdubooks.wordpress.com

إلا بعد العلم بكونه تعالى عالماً بكل المعلومات إذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق ، فحينئذ لا يكون إظهار المعجز دليلا على الصدق ، وإذا كان كذلك استحال أن لا يكون الرسول عالماً بذلك . فثبت أن المراد أن يكون خطاباً مع الغير .

أما قوله (إن ذلك فى كتاب) ففيه قولان : (أحدهما) وهو قول أبى مسلم أن معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال كتبت المزادة أكتبها إذا خرزتها فحفظت بذلك ما فيها ، ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس حفظ ما يتعاملون به ، فالمراد من قوله (إن ذلك فى كتاب) أنه محفوظ عنده (والثانى) وهو قول الجمهور أن كل ما يحدثه الله فى السموات والأرض فقد كتبه فى اللوح المحفوظ قالوا وهذا أولى ، لأن القول الأول وإن كان صحيحاً نظراً إلى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف ، ومعلوم أن الكتاب هو ما تكتب فيه الأمور فكان حمله عليه أولى . فان قيل فقد يوهم ذلك أن علمه مستفاد من الكتاب وأيضاً فأى فائدة فى ذلك الكتاب (والجواب عن الأول) أن كتبه تلك الأشياء فى ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من أدل الدلائل على أنه سبحانه غنى فى علمه عن ذلك الكتاب (وعن الثانى) أن الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة فى الوجود على وفقه فصار ذلك دليلا لهم زائداً على كونه سبحانه عالماً بكل المعلومات .

أما قوله (إن ذلك على الله يسير) فمعناه أن كتبه جملة الحوادث مع أنها من الغيب مما يتعذر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير ، وإن كان هذا الوصف لا يستعمل إلا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الأمور ، وتعالى الله عن ذلك ثم بين سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه ، ووضوح دلائله . فقال (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم) فبين أن عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعى وهو المراد من قوله (ما لم ينزل به سلطاناً) ولا عن دليل عقلى وهو المراد من قوله (وما ليس لهم به علم) وإذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة ، فوجب فى كل قول هذا شأنه أن يكون باطلا . فمن هذا الوجه يدل على أن الكافر قد يكون كافراً ، وإن لم يعلم كونه كافراً ، ويدل أيضاً على فساد التقليد .

أما قوله (وما للظالمين من نصير) ففيه وجهان : (أحدهما) أنهم ليس لهم أحد ينتصر لهم من الله كما قد تتفق النصرة فى الدنيا (والثانى) ما لهم فى كفرهم ناصر بالحجة فإن الحجة ليست إلا للحق ، واحتجت المعتزلة بهذه الآية فى نفى الشفاعة والكلام عليه معلوم .

أما قوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعنى من تقدم ذكره وهذه الآيات هى القرآن ، ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة للدلائل العقلية وبيان الأحكام ، فبين أنهم مع جهلهم إذا نبهوا على الأدلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر فى وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب ، قال صاحب الكشاف المنكر الفظيع من التهجم والفجور والنشوز والإنكار ، كالمكرم بمعنى الاكرام

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

وقرىء تعرف على ما لم يسم فاعله . وللمفسرين فى المنكر عبارات : (أحدها) قال الكلبي تعرف فى وجوههم الكراهية للقرآن (ثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما : التجبر والترفع (وثالثها) قال مقاتل أنكروا أن يكون من الله تعالى .

أما قوله تعالى (يكادون يسطون) فقال الخليل والفراء والزجاج : السطو شدة البطش والوثوب ، والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لإنكار ما خوطبوا ، به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الأنبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار) قال صاحب الكشاف قوله (من ذلكم) أى من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم ، فقوله (من ذلكم) فيه وجهان : (أحدهما) المراد أن الذى ينالكم من النار التى تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم (والثانى) أن يكون المراد (بشر من ذلكم) ما تهمون به فيمن يحاجكم فإن أكبر ما يمكنكم فيه الإهلاك ثم بعده مصيرهم إلى الجنة وأنتم تصيرون إلى النار الدائمة التى لا فرج لكم عنها ، وأما (النار) فقال صاحب الكشاف قرىء (النار) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا يقول ما شر من ذلك ؟ فقيل النار أى هو النار. وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر. ثم بين سبحانه أنه وعدها الذين كفروا إذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير ، قال صاحب الكشاف (وعدها الله) استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ و (وعدها) خبراً .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ .

إعلم أنه سبحانه لما بين من قبل أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم فيه ولا علم ، ذكر فى هذه الآية مايدل على إبطال قولهم .

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله تعالى (ضرب مثل) ففيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ الذى جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا ؟ (والجواب) لما كان المثل فى الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلا .

﴿ السؤال الثانى ﴾ قوله (ضرب) يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام ابتداء؟ (الجواب) إذا كان ما يورد من الوصف معلوماً من قبل جاز ذلك فيه ، ويكون ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم .

أما قوله (فاستمعوا له) أى تدبروه حق تدبره لأن نفس السماع لا ينفع ، وإنما ينفع التدبر . واعلم أن الذباب لما كان فى غاية الضعف احتج الله تعالى به على إبطال قولهم من وجهين : (الأول) قوله (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) قرىء يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنياً للمفعول (ولن) أصل فى نفى المستقبل إلا أنه ينفيه نفياً مؤكداً فكأنه سبحانه قال : إن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها ، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبوداً ، فقوله (ولو اجتمعوا له) نصب على الحال كأنه قال يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم (والثانى) أن قوله (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) كأنه سبحانه قال : أترك أمر الخلق والإيجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه ، فإن الذباب إن سلب منها شيئاً ، فهى لا تقدر على استنقاذ ذلك الشىء من الذباب ، واعلم أن الدلالة الأولى صالحة لأن يتمسك بها فى نفى كون المسيح والملائكة آلهة ، أما الثانية فلا ، فإن قيل هذا الاستدلال إما أن يكون لنفى كون الأوثان خالقة عالمة حية مدبرة ، أو لنفى كونها مستحقة للتعظيم (والأول) فاسد لأن نفى كونها كذلك معلوم بالضروة ، فأى فائدة فى إقامة الدلالة عليه (وأما الثانى) فهذه الدلالة لا تفيده لأنه لا يلزم من نفى كونها حية أن لا تكون معظمة ، فإن جهات التعظيم مختلفة ، فالقوم كانوا يعتقدون فيها أنها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب ، أو أنها تماثيل الملائكة والأنبياء المتقدمين ، وكانوا يعظمونها على أن تعظيمها يوجب تعظيم الملائكة ، وأولئك الأنبياء المتقدمين (والجواب) أما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها الإضرار والإنتفاع ، فهو يبطل بهذه الدلالة فانها لما لم تنفع نفسها فى هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة فلأن لا تنفع غيرها أولى ، وأما أنها تماثيل الملائكة والأنبياء المتقدمين ، فقد تقرر فى العقل أن تعظيم غير الله تعالى ينبغى أن يكون أقل من تعظيم الله تعالى ، والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم ، وحينئذ كان يلزم التسوية بينها وبين الخالق سبحانه فى التعظيم ، فمن ههنا صاروا مستوجبين للذم والملام .

أما قوله تعالى (ضعف الطالب والمطلوب) ففيه قولان (أحدهما) المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث إنه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة

www.besturdubooks.wordpress.com

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

المطلوب (الثانى) أن الطالب من عبد الصنم ، والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها ، وهذا أقرب لأن كون الصنم طالباً ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير ، أما ههنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لأن الوثن لايصح أن يكون ضعيفاً ، لأن الضعف لايجوز إلا على من يصح أن يقوى ، وههنا وجه ثالث وهو أن يكون معنى قوله (ضعف) لا من حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب ، كما يقال للمرء عند المناظرة : ماأضعف هذا المذهب وما أضعف هذا الوجه .

أما قوله (ماقدروا الله حق قدره) أى ماعظموه حق تعظيمه ، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له فى المعبودية ، وهذه الكلمة مفسرة فى سورة الأنعام ، وهو (قوى) لايتعذر عليه فعل شىء و(عزيز) لا يقدر أحد على مغالبته ، فأى حاجة إلى القول بالشريك . قال الكلبى فى هذه الآية ونظيرها فى سورة الأنعام : إنها نزلت فى جماعة من اليهود وهم مالك ابن الصيف وكعب بن الأشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله ، حيث قالوا إنه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والأرض أعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، فنزلت هذه الآية تكذيباً لهم ونزل قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) . واعلم أن منشأ هذه الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف مايقوله المشبهة ، وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف مايقوله الكرامية ، وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الأفعال ، أعنى الغرض والداعى واستحقاق المدح والذم خلاف ما تقوله المعتزلة ، قال الإمام أبو القاسم الانصارى رحمه الله ، فهو سبحانه جبار النعت عزيز الوصف فالأوهام لاتصوره والأفكار لاتقدره والعقول لاتمثله والأزمنة لاتدركه والجهات لاتحويه ولا تحده ، صمدى الذات سرمدى الصفات .

قوله تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾

اعلم أنه سبحانه لما قدم مايتعلق بالإلهيات ذكرهنا مايتعلق بالنبوات ، قال مقاتل : قال الوليد ابن المغيرة : أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ كلمة (من) للتبعيض فقوله (الله يصطفى من الملائكة رسلا) يقتضى أن تكون الرسل بعضهم لا كلهم ، وقوله (جاعل الملائكة رسلا) يقتضى كون كلهم رسلا فوقع التناقض (والجواب) جاز أن يكون المذكور ههنا من كان رسلا إلى بنى آدم ، وهم أكابر الملائكة

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى
ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ
ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم ، وأما كل الملائكة فبعضهم رسل إلى البعض فزال التناقض .

﴿ السؤال الثانى ﴾ قال فى سورة الزمر (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء) فدل على أن ولده يجب أن يكون مصطفى ، وهذه الآية دلت على أن بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين ، فيلزم بمجموع الآيتين إثبات الولد (والجواب) أن قوله (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى) يدل على أن كل ولد مصطفى ، ولا يدل على أن كل مصطفى ولد ، فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولداً ، وفى هذه الآية وجه آخر ، وهو أن المراد تبكيت من عبد غير الله تعالى من الملائكة ، كأنه سبحانه أبطل فى الآية الأولى قول عبدة الأوثان . وفى هذه الآية أبطل قول عبدة الملائكة ، فبين أن علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة ، بل لأن الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم ، فكأنه تعالى بين أنهم ماقدروا الله حق قدره أن جعلوا الملائكة معبودين مع الله ، ثم بين سبحانه بقوله (إن الله سميع بصير) أنه يسمع ما يقولون ويرى مايفعلون ، ولذلك أتبعه بقوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) فقال بعضهم ما تقدم فى الدنيا وما تأخر ، وقال بعضهم (مابين أيديهم) أمر الآخرة ، (وما خلفهم) أمر الدنيا ، ثم أتبعه بقوله (وإلى الله ترجع الأمور) فقوله (يعلم مابين أيديهم) إشارة إلى العلم التام وقوله (وإلى الله ترجع الأمور) إشارة إلى القدرة التامة والتفرد بالإلهية والحكم ، ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الإقدام على المعصية .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى الإلهيات ثم فى النبوات أتبعه بالكلام فى الشرائع وهو من أربع أوجه (أولها) تعيين المأمور (وثانيها) أقسام المأمور به (وثالثها) ذكر ما يوجب قبول تلك الأوامر (ورابعها) تأكيد ذلك التكليف.

﴿ أما النوع الأول ﴾ وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) وفيه قولان (أحدهما) المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمناً أو كافراً، لأن التكليف بهذه الأشياء عام فى كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك (والثانى) أن المراد بذلك المؤمنون فقط أما (أولا) فلأن اللفظ صريح فيه، وأما (ثانياً) فلأن قوله بعد ذلك (هو اجتباكم) وقوله (هو سماكم المسلمين) وقوله (وتكونوا شهداء على الناس) كل ذلك لا يليق إلا بالمؤمنين. أقصى ما فى الباب أن يقال لما كان ذلك واجباً على الكل فأى فائدة فى تخصيص المؤمنين؟ لكنا نقول تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفى ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الأشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها. ويمكن أن يقال فائدة التخصيص أنه لما جاء الخطاب العام مرة بعد أخرى ثم إنه ما قبله إلا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم فى ذلك الإقرار والتخصيص.

﴿ أما النوع الثانى ﴾ وهو المأمور به فقد ذكر الله أموراً أربعة (الأول) الصلاة وهو المراد من قوله (اركعوا واسجدوا) وذلك لأن أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هى المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جارياً مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضى الله عنهما أن الناس فى أول إسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية (الثانى) قوله (واعبدوا ربكم) وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) اعبدوه ولا تعبدوا غيره (وثانيها) واعبدوا ربكم فى سائر المأمورات والمنهيات (وثالثها) افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لأنه لا يكفى أن يفعل فانه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع فى باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود (الثالث) قوله تعالى (وافعلوا الخير) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد به صلة الرحم ومكارم الأخلاق والوجه عندى فى هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذى هو عبارة عن التعظيم لأمر الله وإلى الاحسان الذى هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات.

أما قوله تعالى (لعلكم تفلحون) فقيل معناه لتفلحوا، والفلاح الظفر بنعيم الآخرة، وقال الامام أبو القاسم الأنصارى لعل كلمة للترجية فان الإنسان قلما يخلو فى أداء الفريضة من تقصير

www.besturdubooks.wordpress.com

وليس هو على يقين من أن الذى أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى والعواقب أيضاً مستورة « وكل ميسر لما خلق له » (الرابع) قوله تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده) قال صاحب الكشاف (فى الله) أى فى ذات الله ، ومن أجله . يقال هو حق عالم وجد عالم أى عالم حقاً وجداً ومنه (حق جهاده) وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ماوجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال (وجاهدوا فى الله حق جهاده) ؟ (والجواب) الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص ، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الاضافة إليه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ماهذا الجهاد ؟ (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أن المراد قتال الكفار خاصة ، ومعنى (حق جهاده) أن لايفعل إلا عبادة لارغبة فى الدنيا من حيث الإسم أو الغنيمة (والثانى) أن يجاهدوا آخراً كما جاهدوا أولا فقد كان جهادهم فى الأول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر ، روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لعبد الرحمن بن عوف : أما علمت أنا كنا نقرأ (وجاهدوا فى الله حق جهاده) فى آخر الزمان كما جاهدتموه فى أوله ، فقال عبد الرحمن ومتى ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء ، واعلم أنه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن وإلا لنقل كنقل نظائره ، ولعله إن صح ذلك عن الرسول فانما قاله كالتفسير للآية ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ : وجاهدوا فى الله حق جهاده كما جاهدتم أول مرة . فقال عمر من الذى أمرنا بجهاده ؟ فقال قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس ، فقال صدقت (والثالث) قال ابن عباس : حق جهاده ، لا تخافوا فى الله لومة لائم (والرابع) قال الضحاك : واعملوا لله حق عمله (والخامس) استفرغوا وسعكم فى إحياء دين الله وإقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع مايمكن وردوا أنفسكم عن الهوى والميل (والوجه السادس) قال عبد الله بن المبارك : حق جهاده ، مجاهدة النفس والهوى . ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك قال « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » والأولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف ، فكل ماأمر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد .

﴿ السؤال الثالث ﴾ هل يصح ما نقل عن مقاتل والكلبى أن هذه الآية منسوخة بقوله (فاتقوا الله مااستطعتم) كما أن قوله (اتقوا الله حق تقاته) منسوخ بذلك ؟ (الجواب) هذا بعيد لأن التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) فكيف يقول الله وجاهدوا فى الله على وجه لاتقدرون عليه ، وكيف وقد كان الجهاد فى الأول مضيقاً حتى لايصح أن يفر الواحد من عشرة ، ثم خففه الله بقوله (الآن خفف الله عنكم) أفيجوز مع ذلك أن يوجبه على وجه لايطاق حتى يقال إنه منسوخ .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿النوع الثالث﴾ بيان مايوجب قبول هذه الأوامر وهو ثلاثة (الأول) قوله (هو اجتباكم) ومعناه أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد ، فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته ، فأى رتبة أعلى من هذا ، وأى سعادة فوق هذا ، ويحتمل فى اجتباكم خصكم بالهداية والمعونة والتيسير .

أما قوله تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو أن التكليف وإن كان تشريفاً واجباً كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس ؟ فأجاب الله تعالى عنه بقوله (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) روى أن أبا هريرة رضى الله عنه قال كيف قال الله تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) مع أنه منعنا عن الزنا والسرقة ؟ فقال ابن عباس رضى الله عنهما : بلى ولكن الإصر الذى كان على بنى اسرائيل وضع عنكم ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما الحرج فى أصل اللغة ؟ (الجواب) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لبعض هذيل ماتعدون الحرج فيكم ؟ قال الضيق ، وعن عائشة رضى الله عنها « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الضيق » .

﴿السؤال الثانى﴾ ما المراد من الحرج فى الآية؟ (الجواب) قيل هو الإتيان بالرخص ، فمن لم يستطع أن يصلى قائماً فليصل جالساً ومن لم يستطع ذلك فليوم ، وأباح للصائم الفطر فى السفر والقصر فيه . وأيضاً فانه سبحانه لم يبتل عبده بشىء من الذنوب إلا وجعل له مخرجا منها إما بالتوبة أو بالكفارة ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما « أنه من جاءته رخصة فرغب عنها كلف يوم القيامة أن يحمل ثقل تنين حتى يقضى بين الناس » وعن النبى صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أمران فأحبهما إلى الله تعالى أيسرهما » وعن كعب : أعطى الله هذه الأمة ثلاثاً لم يعطهن إلا للأنبياء « جعلهم شهداء على الناس ، وما جعل عليهم فى الدين من حرج ، وقال أدعونى أستجب لكم »

﴿السؤال الثالث﴾ استدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من تكليف مالا يطاق ، فقالوا : لما خلق الله الكفر والمعصية فى الكافر والعاصى ثم نهاه عنهما كان ذلك من أعظم الحرج وذلك منفى بصريح هذا النص (والجواب) لما أمره بترك الكفر وترك الكفر يقتضى انقلاب علمه جهلا فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلا وذلك من أعظم الحرج ، ولما استوى القدمان زال السؤال .

(الموجب الثانى) لقبول التكليف قوله (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وفى نصب الملة وجهان (أحدهما) وهو قول الفراء أنها منصوبة بمضمون ماتقدمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه (والثانى) أن يكون منصوباً على المدح والتعظيم أى أعنى بالدين ملة أبيكم إبراهيم ، واعلم أن المقصود من ذكره التنبيه على أن هذه التكاليف والشرائع هى شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . والعرب كانوا محبين لإبراهيم عليه السلام لأنهم من أولاده ، فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين وههنا سؤالات :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال (ملة أبيكم إبراهيم) ولم يدخل فى الخطاب المؤمنون الذين كانوا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكونوا من ولده ؟ (والجواب) من وجهين (أحدهما) لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك (وثانيهما) وهو قول الحسن أن الله تعالى جعل حرمة ابراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده ، ومنه قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فجعل حرمته كحرمة الوالد على الولد ، وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هذا يقتضى أن تكون ملة محمد كملة إبراهيم عليهما السلام سواء ، فيكون الرسول ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى (أن اتبع ملة إبراهيم) ، (الجواب) هذا الكلام إنما وقع مع عبدة الأوثان ، فكأنه تعالى قال : عبادة الله وترك الأوثان هى ملة إبراهيم فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما معنى قوله تعالى (هو سماكم المسلمين من قبل) ؟ (الجواب) فيه قولان (أحدهما) أن الكناية راجعة إلى إبراهيم عليه السلام ، فان لكل نبى دعوة مستجابة وهو قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سيبعث محمداً بمثل ملته وأنه ستسمى أمته بالمسلمين (والثانى) أن الكناية راجعة إلى الله تعالى فى قوله (هو اجتباكم) فروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الله سماكم المسلمين من قبل) أى فى كل الكتب ، وفى هذا أى فى القرآن . وهذا الوجه أقرب لأنه تعالى قال (ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) فبين أنه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق إلا بالله ، ويدل عليه أيضاً قراءة أبى بن كعب (الله سماكم) والمعنى أنه سبحانه فى سائر الكتب المتقدمة على القرآن ، وفى القرآن أيضاً بين فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الإسم الأكرم ، لأجل الشهادة المذكورة . فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه . وهذا هو (العلة الثالثة) الموجبة لقبول التكليف ، وأما الكلام فى أنه كيف يكون الرسول شهيداً علينا ، وكيف تكون أمته شهداء على الناس ؟ فقد تقدم فى سورة البقرة ، وبينا أنه أخذ منه ما يدل على أن الإجماع حجة .

(النوع الرابع) شرح ما يجرى مجرى المؤكد لما مضى ، وهو قوله (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ويجب صرفها إلى المفروضات لأنها هى المعهودة واعتصموا بالله أى بدلائله العقلية والسمعية وألطافه وعصمته ، قال ابن عباس « سلوا الله العصمة عن كل المحرمات » وقال القفال اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم وسيدكم والمتصرف فيكم فنعم المولى ونعم النصير ، فكأنه سبحانه قال أنا مولاك بل أنا ناصرك وحسبك ، واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآيات

www.besturdubooks.wordpress.com

من وجوه (أحدها) أن قوله (لتكونوا شهداء على الناس) يدل على أنه سبحانه أراد الإيمان من الكل ، لأنه تعالى لايجعل الشهيد على عباده إلا من كان عدلا مرضياً ، فاذا أراد أن تكونوا شهداء على الناس فقد أراد أن تكونوا جميعاً صالحين عدولا ، وقد علمنا أن منهم فاسقاً ، فدل ذلك على أن الله تعالى أراد من الفسق كونه عدلا (وثانيها) قوله (واعتصموا بالله) وكيف يمكن الاعتصام به مع أن الشر لايوجد إلا منه ؟ (وثالثها) قوله (فنعم المولى) لأنه لو كان كما يقوله أهل السنة من أنه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى ، بل كان لايوجد من شرار الموالى أحد إلا وهو شر منه . فكان يجب أن يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل على أنه سبحانه ما أراد من جميعهم إلا الصلاح.فإن قيل لم لايجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما أنه نعم النصير لهم خاصة؟قلنا إنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعاً (١)فيجب أن يقال إنه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين . فان ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والإجماع وصرحوا بشتم الله تعالى ، (ورابعها) أن قوله (سماكم المسلمين من قبل) يدل على إثبات الأسماء الشرعية وأنها من قبل الله تعالى لأنها لو كانت لغة لما أضيفت إلى الله تعالى على وجه الخصوص .

(والجواب) عن الأول وهو قوله كونه تعالى مريداً لكونه شاهداً يستلزم كونه مريداً لكونه عدلا ، فنقول : إن كانت إرادة الشيء مستلزمة لإرادة لوازمه فارادة الإيمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لارادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريداً لجهل نفسه . وإن لم يكن ذلك واجباً سقط الكلام .

وأما قوله (واعتصموا بالله) فيقال هذا أيضاً وارد عليكم فانه سبحانه خالق الشهوة فى قلب الفاسق وأكدها وخلق المشتهى وقربه منه ورفع المانع ثم سلط عليه الشياطين من الإنس والجن وعلم أنه لامحالة يقع فى الفجور والضلال ، وفى الشاهد كل من فعل ذلك فانه يكون بئس المولى ، فان صح قياس الغائب على الشاهد فهذا لازم عليكم وإن بطل سقط كلامكم بالكلية .

﴿ تم تفسير سورة الحج ، ويتلوه تفسير سورة المؤمنون ، والحمد لله رب العالمين ﴾

---

(١) كيف هذا مع قوله تعالى فى سورة محمد عليه السلام (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) ولتوجيه هذا الكلام يقال المولى فى الآيات بمعنى الناصر والمعين . وقد عنى به المصنف السيد والمالك والرب .

www.besturdubooks.wordpress.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحج

وهي مكِّيةٌ، سوى ثلاثِ آيات: قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية: ١٩] إلى تمام ثلاثِ آيات؛ قاله ابن عباس ومجاهد(١). وعن ابن عباس أيضاً أنهنَّ أربعُ آيات، إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الآية: ٢٢]. وقال الضحاك وابن عباس أيضاً: هي مدنية(٢). وقال قتادة(٣): [مدنية] إلَّا أربعَ آيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الآيات: ٥٢-٥٥]، فهنَّ مكِّيات.

وعَدَّ النقَّاش ما نزل بالمدينة عَشْرَ آيات. وقال الجمهور: السورةُ مختلِطَة؛ منها مكِّيٌّ ومنها مَدَنيّ. وهذا هو الأصحُّ؛ لأنَّ الآيات تقتضي ذلك(٤)؛ لأنَّ «يا أيها الناس» مكيّ، و«يا أيها الذين آمنوا» مَدَنيّ(٥).

الغَزْنَويُّ: وهي من أعاجيب السُّوَر، نزلت ليلاً ونهاراً، سَفَراً وحَضَراً، مكيًّا ومدنيًّا، سِلْمِيًّا وحَرْبِيًّا، ناسخاً ومنسوخاً، مُحْكَماً ومتشابهاً؛ مختلف العدد.

قلت: وجاء في فضلها ما رواه الترمذيُّ وأبو داود والدارَقُطْنيُّ عن عقبة بن عامر

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، وأخرجه عن ابن عباس مطولاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩ .

(٢) ذكر الخبرين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، ولم يذكر ابنَ عباس في الخبر الثاني، وقد أخرجه عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ .

(٣) في النسخ: قاله قتادة، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، والكلام منه. وأخرجه ابن المنذر عنه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥ عن ابن عباس.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٩ . وذكر المصنف ٦/ ٥ أن القول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: مكي حيث وقع؛ ليس بصحيح. وينظر ١/ ٣٢٩ .

قال: قلت: يا رسول الله، فُضِّلت سورة الحجّ بأنَّ فيها سجدتين؟ قال: «نعم، ومَن لم يَسْجُدْهما فلا يقرأهما». لفظُ الترمذيّ. وقال: هذا حديث[1] ليس إسناده بالقويّ، واختلف أهل العلم في هذا؛ فروي عن عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ وابنِ عمر أنهما قالا: فُضِّلت سورةُ الحج بأنَّ فيها سجدتين. وبه يقول ابن المبارك والشافعيُّ وأحمد وإسحاق. ورأى بعضهم أنَّ فيها سجدةً واحدة، وهو قولُ سفيان الثَّوْري[2]. وروى الدارَقُطْنيّ عن عبد الله بن ثعلبةَ قال: رأيت عمر بن الخطاب سَجَدَ في الحج سجدتين، قلت: في الصبح؟ قال: في الصبح[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾

روى الترمذِيّ[4] عن عِمْران بنِ حُصين أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: أنزلت عليه هذه الآيةُ وهو في سفر، فقال: «أتَدرون أيُّ يومٍ ذلك»؟ فقالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله لآدمَ: ابْعَثْ بَعْثَ النار، قال: يا ربِّ، وما بَعْثُ النار؟ قال: تِسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة». فأنشأ

---

(١) بعدها في النسخ: حسن، والمثبت من سنن الترمذي، والتحفة ٧/ ٣٢٢.

(٢) سنن الترمذي (٥٧٨)، والحديث عند أبي داود (١٤٠٢)، والدارقطني (١٥٢١)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٣٦٤).

وأخرجه دون قوله: «فمن لم يسجدهما...» أبو داود في المراسيل (٧٨) من طريق خالد بن معدان عن النبي ﷺ. وابنُ أبي شيبة ٢/ ١١ عن عمر ﷺ موقوفاً.

(٣) سنن الدارقطني (١٥٢٣)، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٣٩٠، ووقع في (د) و(ز) و(ظ): الصحيح، بدل: الصبح، في الموضعين، والمثبت من باقي النسخ والمصادر. والسائل لعبد الله بن ثعلبة هو سعد ابن إبراهيم الراوي عنه.

(٤) في سننه (٣١٦٨).

المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قارِبُوا وسَدِّدوا، فإنه لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلَّا كان بين يديها جاهليةٌ». قال: «فيؤخذ العددُ من الجاهلية، فإن تَمَّت، وإلَّا كَمُلت من المنافقين، وما مَثَلُكم والأُمَم إلَّا كَمَثَل الرَّقْمة[١] في ذراع الدابة، أو كالشامَة في جَنْب البعير». ثم قال: «إنِّي لَأَرجو أن تكونوا ربعَ أهل الجنة». فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأرجو أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة». فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأرجو أن تكونوا نصفَ أهل الجنة». فكبَّروا. قال: لا أدري قال: الثلثين أم لا. قال: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غيرِ وجهٍ عن الحسن عن عِمران بن حُصين. وفيه: فيئِس القوم حتى ما أبْدَوْا بضاحكةٍ، فلما رأى رسول الله ﷺ [الذي بأصحابه] قال: «اعملوا وأبشروا، فَوَالَّذي نفسي بيده إنَّكم لمَعَ خلِيقتين ما كانتا مع شيء إلَّا كَثَرَتاه[٢]: يأجوج ومأجوج، ومَن مات من بني آدم وبني إبليس» قال: فَسُرِّيَ عن القوم بعضُ الذي يجدون، فقال: «اعملوا وأبشروا، فَوَالَّذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّامَة في جَنْبِ البعير، أو كالرَّقْمة في ذراع الدابة». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[٣].

وفي «صحيح» مسلم[٤]، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لَبَّيْكَ وسَعْدَيك، والخيرُ في يديك» قال: «يقول: أَخرِج بَعْثَ النار، قال: وما بَعْثُ النار؟ قال: من كلِّ ألفٍ تِسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعين»[٥] قال: «فذاك حين يَشيبُ الصغيرُ، وتَضَع كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وترى الناس سُكارَى وما هم بسكارَى ولكنَّ عذابَ الله شديد» قال: فاشتدَّ ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله،

---

(١) الرقمة: هي الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها. النهاية (رقم).

(٢) قال السندي ـ كما في حاشية المسند (١٩٩٠١) ـ: كَثَرَتاه، بالتخفيف، أي: غلبتاه بالكثرة. وقوله: بضاحكة، هي واحدة الضواحك، وهي أربعة، وسميت ضواحك؛ لأنها تظهر عند الضحك.

(٣) سنن الترمذي (٣١٦٩) وما سلف بين حاصرتين منه، وهو بهذه الرواية عند أحمد (١٩٩٠١).

(٤) برقم (٢٢٢)، وهو عند أحمد (١١٢٨٤)، والبخاري (٣٣٤٨).

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): وتسعون.

أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال: «أبشِروا، فإنَّ من يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكم رجل». وذَكَر الحديث بنَحْوِ ما تقدَّم في حديث عِمران بن حصين.

وذكر أبو جعفر النحاس قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال: حدَّثنا سلمة، قال: حدَّثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: نزلت على النبي ﷺ وهو في مَسِيرٍ له، فرفع بها صوته حتى ثابَ إليه أصحابه، فقال: «أتدرون أيُّ يوم هذا؟ هذا يومَ يقول الله عزَّ وجلَّ لآدم: يا آدمُ، قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ أهل النار: من كلِّ ألفٍ تِسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة». فكَبُر ذلك على المسلمين، فقال النبيُّ ﷺ: «سَدِّدُوا وقارِبوا وأَبْشِروا، فوالَّذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّامَة في جَنْبِ البعير، أو كالرَّقْمة في ذراع الحمار، وإنَّ معكم خليقتين ما كانتا مع شيءٍ إلَّا كَثَرتاه: يأجوج ومأجوج، ومَن هَلَكَ من كَفَرةِ الجنِّ والإنس»(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ المرادُ بهذا النداء المكلَّفون، أي: اخشَوْه في أوامره أن تتركوها، ونَواهِيه أن تُقدِموا عليها. والاتِّقاء: الاحتراسُ من المكروه، وقد تقدَّم في أوّل البقرة القولُ فيه مستوفًى(٢)، فلا معنى لإعادته. والمعنى: احترِسوا بطاعته عن(٣) عقوبته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلةُ: شدَّة الحركة، ومنه: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وأصلُ الكلمة من زَلَّ عن الموضع، أي: زال عنه وتحرَّك. وزلزل الله قَدَمه، أي: حرَّكها. وهذه اللفظةُ تُستعمل في تهويل الشيء.

---

(١) هو عند عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣١، وأخرجه من طريقه أبو يعلى (٣١٢٢)، وابن حبان (٧٣٥٤)، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٢ - ٤٥٣ من طريق معمر به.

(٢) ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٣) في (ظ): من.

وقيل: هي الزلزلةُ المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قول الجمهور. وقد قيل: إن هذه الزلزلة تكون في النصف من شهر رمضان، ومِن بعدها طلوعُ الشمس من مغربها؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ الهاءُ في «تَرَوْنَهَا» عائدةٌ عند الجمهور على الزلزلة، ويقوّي هذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾. والرضاعُ والحملُ إنَّما هو في الدنيا[1].

وقالت فرقة: الزلزلةُ في يوم القيامة، واحتجُّوا بحديث عِمران بن حُصين الذي ذكرناه، وفيه: «أتدرون أيُّ يومٍ ذلك...» الحديث. وهو الذي يقتضيه سياقُ مُسْلم في حديث أبي سعيد الخُدْريّ.

قوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تشتغل؛ قاله قُطْرُب، وأنشد:

ضَرْباً يُزيل الهامَ عن مَقِيلهِ ... ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلهِ[2]

وقيل: تنسَى. وقيل: تلهو. وقيل: تَسْلو[3]، والمعنى متقارب.

﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ قال المبرِّد: «ما» بمعنى المصدر، أي: تَذْهَل عن الإرضاع. قال: وهذا يدلُّ على أنَّ هذه الزلزلةَ في الدنيا؛ إذ ليس بعد البعث حَمْلٌ وإرضاع، إلَّا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٦ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٦ ، والرجز نسبه ابن إسحاق لعبد الله بن رواحة، كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧١ ، إلا أن ابن هشام نسبه لعمار بن ياسر. ونسبه لعبد الله أيضاً ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٤ . وقد اقتبس هذا الرجز الحجاج في خطبته بعد دير الجماجم، وهي في البيان والتبيين ٢/ ١٣٩ ، والعقد الفريد ٤/ ١١٦ . وفيهما: بضرب، بدل: ضرباً، وكذلك وقع في (خ) و(د): بضرب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦ ، الأول عن اليزيدي، والثاني عن الكلبي، والثالث عن الأخفش.

أن يقال: مَنْ ماتت حاملاً تُبعث حاملاً فتضع حَمْلَها للهَوْل، ومَن ماتت مُرضعةً بُعثت كذلك.

ويقال: هذا كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

وقيل: تكون مع النفخة الأولى. وقيل: تكون مع قيام الساعة، حين[1] يتحرَّك الناس من قبورهم في النفخة الثانية.

ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١]، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ اهزمهم وزلزلهم»[2].

وفائدةُ ذِكْرِ هَوْل ذلك اليومِ التحريضُ على التأهُّب له والاستعدادِ بالعمل الصالح. وتسميةُ الزلزلة بـ «شيء» إمَّا لأنَّها حاصلةٌ متيقَّنٌ وقوعُها، فيُسْتَسْهل لذلك أن تسمَّى شيئاً وهي معدومة؛ إذ اليقينُ يشبِه الموجودات. وإمَّا على المآل، أي: هي إذا وقعت شيءٌ عظيم. وكأنه لم يطلق الاسمَ الآن، بل المعنى: أنها إذا كانت فهي إذاً شيء عظيم[3]، ولذلك تَذْهَلُ المراضعُ ويَسْكَرُ الناسُ، كما قال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: من هَوْلها ومما يُدركهم من الخوف والفزع. ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ من الخمر.

وقال أهل المعاني: وترى الناس كأنَّهم سُكارى. يدلُّ عليه قراءةُ أبي زُرْعة هَرِم ابن عمرو بن جرير بن عبد الله[4]: «وتُرَى الناسَ» بضمِّ التاء؛ أي: تظنُّ ويخيَّل إليك.

---

(١) في (د) و(م): حتى.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩١٠٧)، والبخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله ابن أبي أوفى ﷺ في دعائه ﷺ على الأحزاب.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥.

(٤) البجلي الكوفي، وقيل اسمه عبد الله، وقيل: عمرو، وقيل: جرير، وذكر ابن حبان في الثقات أبا زرعة بن عمرو بن جرير فيمن اسمه هرم، ثم قال: ويقال: اسمه كنيته. روى عن جده وأبي هريرة ومعاوية وغيرهم. التهذيب ٤/ ٥٢٤. وقراءته في القراءات الشاذة ص٩٤، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٥٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٦.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «سَكْرَى» بغير ألف[1]. الباقون: «سُكارى»، وهما لغتان لجمع سكران، مثلُ: كَسْلى وكُسالى.

والزلزلة: التحريك العنيف. والذُّهول: الغَفْلَة عن الشيء بِطَرَيان[2] ما يشغَل عنه من همٍّ أو وجعٍ أو غيره. قال ابن زيد: المعنى: تَتْرُكُ ولدها للكَرْبِ الذي نزل بها[3].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قيل: المراد النضر بنُ الحارث؛ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ غيرُ قادر على إحياءِ مَن قد بَلِيَ وعاد تراباً[4]. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: في قوله ذلك ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: متمرِّد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ قال قتادة ومجاهد: أي: مَن تَوَلّى الشيطان[5] ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إلى قوله: ﴿مُّسَمًّى﴾

---

(١) وكذلك: «وما هم بسَكْرى». السبعة ص٤٣٤ ، والتيسير ص١٥٦ .

(٢) كذا في النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٦ ، والكلام منه.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٧ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٤ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٩ عن ابن جريج. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦ عن ابن عباس.

(٥) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠ ، وخبر قتادة أيضاً أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢ .

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ هذا احتجاجٌ على العالَم بالبداءة الأولى. وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ فِي ريبٍ» [شرطٌ] متضَمَّنُه التوقيف. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «البَعَث» بفتح العين، وهي لغةٌ في «البَعْث» عند البصريين. وهي عند الكوفيين تخفيفُ «بَعَث»(١).

والمعنى: يا أيها الناس، إن كنتم في شكٍّ من الإعادة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ أي: خلقنا أباكم الذي هو أصلُ البشر، يعني آدمَ عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ خلقنا ذرِّيته ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: وهو المنيُّ؛ سُمِّيَ نطفةً لقلَّته، وهو القليلُ من الماء، وقد يقع على الكثير منه، ومنه الحديث: «حتى يسير الراكبُ بين النُّطفتين لا يخشى جَوْراً». أراد بحر المشرق وبحر المغرب(٢). والنَّطْف: القَطْر. نَطَف يَنْطِفُ وينطُف. وليلةٌ نَطوفة: دائمة القَطْر(٣).

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: وهو الدَّم الجامد. والعَلَق: الدَّم العَبِيط، أي: الطَّرِيّ. وقيل: الشديدُ الحُمْرة.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾: وهي لَحمةٌ قليلةٌ قَدْرُ ما يُمضغ، ومنه الحديث: «أَلَا وإنَّ في الجسد مُضْغةً»(٤). وهذه الأطوارُ أربعةُ أشهر. قال ابن عباس: وفي العشر بعدَ الأشهرِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٧، وما سلف بين حاصرتين منه، وذكر القراءة عن الحسن أيضاً الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥. قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٤١١: ذكر جميع الكوفيين أن كلَّ ما كان ثانيه حرفاً من حروف الحلق، وكان مسكَّناً مفتوحَ الأول، جاز فيه فتح المسكَّن، نحو: شَعْر وشَعَر، ونَهْر ونَهَر.

(٢) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٦، وفيه: لا يخشى إلا جوراً، وهي رواية، ومعناها: لا يخاف في طريقه غير الضلال والجورِ عن الطريق، وعلى الرواية الأخرى - يعني بحذف «إلا» - يكون الجور بمعنى الظلم. النهاية (جور) و(نطف)، وذكره أيضاً الزمخشري في الفائق ٣/ ٤٤٢، ولفظه: «لا يزال الإسلام يزيد وأهله، وينقص الشرك وأهله، حتى يسير الراكب...».

(٣) أي: تمطر حتى الصباح. تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٥.

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير ﷺ.

الأربعة يُنفخ فيه الروح[١]. فذلك عِدَّةُ المتوفَّى عنها زوجُها، أربعةُ أشهرٍ وعشر.

الثانية: روى يحيى بن زكريًّا بن أبي زائدة: حدَّثنا داودُ، عن عامر، عن علقمةَ، عن ابن مسعود ـ وعن ابن عمر ـ أنَّ النطفة إذا استقرَّت في الرَّحم؛ أخذها مَلَكٌ بكفِّه فقال: يا ربِّ، ذكرٌ أم أنثى، شقيٌّ أم سعيد، ما الأجلُ والأثر، بأيِّ أرضٍ تموت؟ فيقال له: انطلِقْ إلى أمِّ الكتاب، فإنَّك تجدُ فيها قصةَ هذه النطفة، فينطلقُ فيجدُ قصَّتها في أمِّ الكتاب، فتُخلَقُ، فتأكل رزقَها وتطأُ أثرها، فإذا جاء أجلها؛ قُبضت فدُفنت في المكان الذي قُدِّر لها، ثم قرأ عامر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[٢].

وفي الصحيح عن أنس بن مالك[٣] ـ ورفع الحديث ـ قال: «إنَّ الله قد وَكَّل بالرَّحِم مَلَكاً، فيقول: أيْ ربِّ نطفةٌ. أيْ رَبِّ عَلَقة. أيْ رَبِّ مُضْغَة. فإذا أراد الله أن يقضيَ خَلْقاً قال، قال المَلَك: أيْ رَبِّ! ذَكَرٌ أو أنثى؟ شقيٌّ أو سعيد؟ فما الرزقُ؟ فما الأجل؟ فيُكتب كذلك في بطن أمِّه».

وفي الصحيح أيضاً عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفاريِّ[٤] قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا مَرَّ بالنطفة ثِنْتانِ وأربعون ليلةً بعث الله إليها مَلَكاً، فصوَّرها، وخَلَق سمعها وبصرها، وجِلْدَها ولحمها وعظامها، ثم يقول: أيْ ربِّ أذَكَر أم أنثى...». وذكر الحديث.

---

(١) قطعة من خبر ابن عباس، أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٦٠)، وفي إسناده محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ١٦٢: في إسناده نظر.

(٢) الكلام في المفهم ٦/ ٦٥١، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٠، وأخرج الحديث عن ابن مسعود بهذا الإسناد الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٩، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٦١، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية من طريق داود بن أبي هند به. وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٧١. وعلقمة هو ابن قيس، وعامر هو الشعبي. أما خبر ابن عمر فأخرجه البزار (٢١٤٩ - كشف)، وأبو يعلى (٥٧٧٥) مرفوعاً إلى النبي ﷺ بنحو خبر ابن مسعود.

(٣) صحيح البخاري (٣١٨)، وصحيح مسلم (٢٦٤٦) واللفظ له، وهو عند أحمد (١٢١٥٧).

(٤) صحيح مسلم (٢٦٤٥)، وهو عند أحمد (١٦١٤٢).

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود[1] قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقُه في بطن أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك عَلَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون [في ذلك] مُضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَل المَلَك فينفخُ فيه الروحَ، ويُؤمر بأربع كلماتٍ: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد...» الحديث. فهذا الحديثُ مفسِّرٌ للأحاديث الأُوَل؛ فإنَّ فيه: «يُجمع خَلْقُ أحدِكم في بطن أمِّه أربعين يوماً نطفةً، ثم أربعين يوماً علقةً، ثم أربعين يوماً مضغةً، ثم يُبعث الملك، فينفخ فيه الروح» فهذه أربعةُ أشهرٍ، وفي العشر يَنْفُخُ الملك الروح، وهذه عِدَّة المتوفَّى [عنها زوجها] كما قال ابن عباس[2].

وقولُه: «إنَّ أحدَكم يُجمع خلقه في بطن أمِّه» قد فسَّره ابن مسعود؛ سئل الأعمش: ما يُجمع في بطن أمِّه؟ فقال: حدَّثنا خَيْثمة، قال: قال عبد الله: إذا وقعت النطفةُ في الرَّحِم فأراد الله أن يخلق منها بشراً، طارت في بشرة المرأة تحت كلّ ظفرٍ وشعرٍ، ثم تمكث أربعين يوماً، ثم تصير دماً في الرَّحِم، فذلك جَمْعُها، وهذا وقتُ كونها علقةٌ[3].

الثالثة: نسبةُ الخَلْقِ والتَّصوير للمَلَك نسبةٌ مَجازيَّةٌ لا حقيقية، وإنَّما صَدَر عنه فِعْل ما في المضغة ـ كأنَّ عنه[4] التصوير والتشكيل ـ بقدرة الله وخَلْقِه واختراعه؛ ألَا تراه سبحانه قد أضاف إليه الخَلقةَ الحقيقية، وقَطَع عنها نسبَ جميع الخليقة فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٨)، وصحيح مسلم (٢٦٤٣)، واللفظ له وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٣٦٢٤).

(٢) سلف في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٦٨٢، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية (١٤) من سورة المؤمنون، وذكره القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ١٢٦، وأبو العباس في المفهم ٦/ ٦٥٠.

(٤) في (ظ) و(م): كان عند، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ٦٥٦، والكلام منه.

طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. ثم قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات، [هذا] مع ما دلَّت عليه قاطعاتُ البراهين أنْ لا خالقَ لشيءٍ من المخلوقات إلا ربُّ العالمين(١).

وهكذا القولُ في قوله: «ثم يُرسَل الملك فينفخُ فيه الروحَ» أي أنَّ النفخ سببُ خَلْقِ الله فيها الروحَ والحياة. وكذلك القولُ في سائر الأسباب المعتادة، فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره. فتأمَّلْ هذا الأصلَ وتمسَّكْ به، فبِهِ النجاةُ من مذاهب أهل الضلال [من أهل] الطبائع وغيرهم(٢).

الرابعة: لم يختلف العلماء أنَّ نفخ الروح فيه يكون بعد مئة وعشرين يوماً، وذلك تمامُ أربعةِ أشهرٍ ودخوله في الخامس؛ كما بيَّنّاه بالأحاديث. وعليه يعوَّل فيما يُحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حَمْلِ المطلَّقات؛ وذلك لتيقُّنِه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل: إنه الحكمةُ في عِدَّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهرٍ وعَشْرٍ، وهذا الدخول في الخامس يحقِّق براءةَ الرَّحِم ببلوغ هذه المدَّة إذا لم يَظْهَرْ حَمْل(٣).

الخامسة: النطفةُ ليست بشيء يقيناً، ولا يتعلَّق بها حكم إذا ألقتها المرأة؛ إذ لم تجتمع في الرحم، فهي كما لو كانت في صُلْبِ الرجل، فإذا طَرَحَتْه علقةً تحقَّقنا أنَّ النطفة قد استقرَّت واجتمعت واستحالت إلى أوّل أحوال ما يُتحقَّق به أنه ولد. وعلى هذا فيكون وضعُ العلقة فما فوقَها من المضغة وَضْعَ حملٍ تَبْرَأ به الرَّحم،

(١) المفهم ٦/ ٦٥٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) المفهم ٦/ ٦٥١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) إكمال المعلم ٨/ ١٢٣ - ١٢٤، والمفهم ٦/ ٦٥١.

وتنقضي به العِدَّة، ويَثْبُت به لها حكمُ أمِّ الولد. وهذا مذهبُ مالك ﷺ وأصحابِه. وقال الشافعيُّ ﷺ: لا اعتبارَ بإسقاط العَلَقة، وإنما الاعتبارُ بظهور الصورة والتخطيط، فإن خَفِيَ التخطيطُ وكان لحماً، فقولان بالنقل والتخريج(١)، والمنصوصُ أنه تنقضي به العدَّة، ولا تكونُ أمَّ ولد. قالوا: لأنَّ العدَّة تنقضي بالدَّمِ الجاري، فبغيرِه أَوْلى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال الفرَّاء(٢): «مخلَّقة»: تامَّةُ الخَلْق، «وغيرِ مخلَّقة»: السَّقْط. وقال ابن الأعرابيِّ: «مخلَّقة»: قد بدا خَلْقُها، «وغير مخلَّقة»: لم تصوَّر بعد(٣).

ابن زيد: المخلَّقة التي خَلَقَ الله فيها الرأسَ واليدين والرجلين، وغير مخلَّقة: التي لم يُخلق فيها شيء. قال ابن العربيّ(٤): إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإنَّ النطفة والعلقة والمضغة مخلَّقةٌ؛ لأنَّ الكلَّ خَلْقُ الله تعالى، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقةِ كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فذلك ما قال ابن زيد.

قلت: التخليقُ من الخَلْق، وفيه معنى الكَثْرة، فما تتابع عليه الأطوارُ فقد خُلق خلقاً بعد خَلْقٍ، وإذا كان نطفةً فهو مخلوق؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ والله أعلم.

وقد قيل: إنَّ قوله: «مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ» يرجع إلى الولد بعينه(٥) لا إلى السَّقْط،

---

(١) المفهم ٦/ ٦٥٢ . والتخريج: هو نقلُ حكمِ مسألة إلى ما يشبهها، والتسويةُ بينهما فيه. الإنصاف للمرداوي ١/ ٩ . وقال ابن بدران في المدخل ص٦٠ : اعلم أن بين التخريج والنقل فرقاً من حيث إن الأول أعم من الثاني؛ لأن التخريج يكون من القواعد الكلية للإمام أو الشرع أو العقل؛ لأن حاصل معناه بناءُ فرعٍ على أصلٍ بجامعٍ مشترك... وأمَّا النقل فهو أن ينقل النصَّ عن الإمام، ثم يخرِّج عليه فروعاً، فيجعلُ كلام الإمام أصلاً وما يخرجه فرعاً، وذلك الأصل مختصٌّ بنصوص الإمام.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢١٥ .

(٣) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١، وما قبله منه.

(٥) في (ع) و(ظ): نفسه.

أي: منهم مَن يُتِمُّ الربُّ سبحانه مضغته، فيخلق له الأعضاء أَجْمعَ، ومنهم مَن يكون خَدِيجاً ناقصاً غير تام[(١)].

وقيل: المخلَّقةُ أنْ تلدَ المرأة لتمام الوقت. ابن عباس: المخلَّقةُ ما كان حيًّا، وغيرُ المخلقة السَّقْط[(٢)]؛ قال:

أفي غير المخلَّقة البكاءُ فأين الحزمُ ويحك والحياءُ[(٣)]

السابعة: أجمع العلماء على أنَّ الأَمَة تكون أمَّ ولدٍ بما تُسْقِطُه من ولدٍ تامِّ الخَلْق. وعند مالكٍ والأوزاعيِّ وغيرِهما: بالمضغة، كانت مخلَّقةً أو غيرَ مخلقة. قال مالك: إذا عُلم أنها مضغةُ [الولد][(٤)]. وقال الشافعيُّ وأبو حنيفة: إن كان قد تبيَّن له شيءٌ من خَلْقِ بني آدم؛ أصبعٌ أو عينٌ أو غيرُ ذلك؛ فهي أمُّ ولد[(٥)].

وأجمعوا على أنَّ المولود إذا استهلَّ صارخاً يُصلَّى عليه[(٦)]؛ فإن لم يَستَهِلَّ صارخاً لم يُصَلَّ عليه عند مالكٍ وأبي حنيفة والشافعيِّ وغيرهم. وروي عن ابن عمر: أنه يصلَّى عليه، وقاله ابن المسيِّب وابنُ سِيرين وغيرهما[(٧)].

وروي عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السَّقْط، ويقول: سمُّوهم واغسلوهم وكفِّنوهم وحنِّطوهم؛ فإنَّ الله أكرمَ بالإسلام كبيرَكم وصغيركم، ويتلو هذه الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ قال ابن العربيّ[(٨)]:

---

(١) في (م): تمام.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٩ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨ ، وما بين حاصرتين منه.

(٥) الإشراف لابن المنذر ٤/ ٣٠٩ ، ووقع في (خ) و(م): فهي له أم ولد.

(٦) الإجماع لابن المنذر ص٣٠ .

(٧) الاستذكار ٨/ ٢٥٩ - ٢٦٠ ، وقول ابن عمر وابن سيرين وابن المسيب أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣١٧ - ٣١٨ .

(٨) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١ ، وما قبله منه. وخبر المغيرة أخرجه عبد الرزاق (٦٦٠٢) وأبو داود =

لعلَّ المغيرة بن شعبة أراد بالسَّقْطِ ما تبيَّن خَلْقُه، فهو الذي يسمَّى، وما لم يَتَبيَّن خَلْقُه فلا وجودَ له.

وقال بعض السَّلَف: يصلَّى عليه متى نُفخ فيه الروحُ وتمتْ له أربعةُ أشهر. وروى أبو داود[1] عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا استهَلَّ المولود وَرِث». الاستهلال: رفعُ الصوت، فكلُّ مولودٍ كان ذلك منه، أو حركةٌ أو عطاسٌ أو تنفُّسٌ، فإنه يورَّث لوجود ما فيه من دلالة الحياة. وإلى هذا ذهب سفيان الثوريُّ والأوزاعيُّ والشافعيُّ. قال الخطابيُّ[2]: وأحسبُه قولَ أصحاب الرأي. وقال مالك: لا ميراثَ له وإن تحرَّك أو عَطَس ما لم يستهِلَّ. وروي عن محمد بن سيرين والشَّعْبيِّ والزهريِّ وقتادة.

الثامنة: قال مالك ﷺ: ما طرحته المرأة - من مضغةٍ أو علقةٍ أو ما يُعلم أنه ولدٌ - إذا ضُرب بطنُها ففيه الغُرّة. وقال الشافعيُّ: لا شيء فيه حتى يتبيَّن من خَلْقِه شيءٌ. قال مالك: إذا سقط الجنين فلم يستهِلَّ صارخاً ففيه الغُرَّة، وسواءٌ تحرَّك أو عطس؛ فيه الغُرَّةُ أبداً، حتى يستهِلَّ، فإذا استهلَّ[3] صارخاً ففيه الديةُ كاملةً. وقال الشافعيُّ ﷺ وسائرُ فقهاءِ الأمصار: إذا عُلمت حياتُه بحركةٍ أو بعطاسٍ أو باستهلالٍ، أو بغير ذلك مما تُسْتَيقَنُ به حياتُه، ففيه الديةُ [كاملةً][4].

التاسعة: ذكر القاضي إسماعيلُ أنَّ عِدَّة المرأة تنقضي بالسَّقْطِ الموضوع، واحتجَّ عليه بأنه حَمْلٌ، وقال: قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

= (٣١٨٠) مختصراً بلفظ: السقط يصلَّى عليه، ويدعى لأبويه بالعافية والرحمة. وأخرجه مرفوعاً بنحوه أحمد (١٨١٦٢)، والترمذي (١٠٣١) وصححه. قال الحافظ في التلخيص الحبير ٢/ ١١٤ : ورجح الدارقطني في العلل الموقوفَ. وينظر علل الدارقطني ٧/ ١٣٤ .

(١) في سننه (٢٩٢٠).

(٢) في معالم السنن ٤/ ١٠٥ ، وما قبله منه.

(٣) قوله: فإذا استهل من (ظ).

(٤) التمهيد ٦/ ٤٨٣ ، وما بين حاصرتين منه، وسلف الكلام في هذه المسألة ٧/ ٢١ - ٢٣ .

[الطلاق: ٤]. قال القاضي إسماعيل: والدليلُ على ذلك أنه يرث أباه، فدلَّ على وجوده خَلْقاً وكونه ولداً وحملاً. قال ابن العربي[(١)]: [وكذلك قال: لا تكون به أمَّ ولد]، ولا يرتبط به شيءٌ من هذه الأحكام إلَّا أن يكون مخلَّقاً.

قلت: ما ذكرناه من الاشتقاق، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقُه في بطنِ أمِّه»، يدلُّ على صحة ما قلناه، وبأنَّ[(٢)] مُسْقطةَ العلقةِ والمضغة يَصْدُقُ على المرأة إذا ألقته أنها[(٣)] كانت حاملاً وضعتْ ما استقرَّ في رَحِمها، فيشملُها قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. ولأنَّها وضعت مَبْدأ الولد عن نطفةٍ متجسِّداً كالمخطَّط، وهذا بيِّن.

العاشرة: روى ابن ماجه: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا خالد بن مَخْلَد، حدَّثنا يزيد بن عبد الملك النَّوفليُّ، عن يزيد بن رُومان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَسَقْطٌ أقدِّمه بين يديَّ أَحَبُّ إليَّ من فارسٍ أُخلِّفه خلفي»[(٤)]. وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث له، عن سهيل بن أبي صالحٍ، عن أبيه، عن أبي هريرة فقال: «أحبُّ إلي من ألفِ فارسٍ أخلِّفه ورائي»[(٥)].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١ - ١٢٦٢ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في (م): ولأن.

(٣) في (ظ): إذا ألقتها يصدق عليها أنها، بدل: يصدق على المرأة إذا ألقته أنها، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ٦٥٢ - ٦٥٣ ، والكلام منه.

(٤) سنن ابن ماجه (١٦٠٧) وفيه: أخلِّفُه خلفي. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٠٣ ، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٨٥ ، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٧١٥ - ١٧١٦ ، وابن الجوزي في العلل ٢/ ٩٠٦ من طريق يزيد من عبد الملك، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، والحَمْل فيه على يزيد النوفلي؛ قال أحمد: عنده مناكير، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال العقيلي: لا يتابع على هذا الحديث إلا من جهة لا تصح.

(٥) معرفة علوم الحديث ص١٨٦ من طريق خالد بن يزيد العمري، عن أبي مودود عبد العزيز بن أبي سليمان، عن سهيل بن أبي صالح به. قال البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٨٤ : خالد بن يزيد العمري مكي ذاهب الحديث. وقال ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٥ : لا يُشتغل بذكره لأنه يروي الموضوعات عن الأثبات.

الحادية عشرة: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْۚ﴾ يريد: كمالَ قدرتنا بتصريفنا أطوارَ خَلْقِكم ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ قرئ بنصب «نُقِرّ» و«نخرج»، رواه أبو حاتم، عن أبي زيد، عن المفضَّل، عن عاصم. قال أبو حاتم: النصبُ على العطف. وقال الزجَّاج: «نقرّ» بالرفع لا غير؛ لأنه ليس المعنى: فعلنا ذلك لنقرَّ في الأرحام ما نشاء، وإنَّما خَلَقهم عزَّ وجلَّ ليدلَّهم على الرُّشْدِ والصَّلاح[1].

وقيل: المعنى: لنبيِّن[2] أمرَ البعث، فهو اعتراضٌ بين الكلامين. وقرأت هذه الفرقة بالرفع: «ونقرُّ»، المعنى: ونحن نقرُّ. وهي قراءة الجمهور.

وقرئ: «ويقر» و«يخرجكم» بالياء، والرفعُ على هذا سائغ. وقرأ ابن وَثّاب: «ما نِشاء» بكسر النون. والأجلُ المسمَّى يختلف بحسَبِ جَنِينٍ جنين، فثَمَّ مَن يسقط، وثَمَّ مَن يَكْمُلُ أمرُه ويخرج حَيًّا[3].

وقال: «ما نشاء»، ولم يقل: مَن نشاء؛ لأنه يرجع إلى الحمل؛ أي: نقرُّ في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة، وهي جماد، فكَنَى عنها بلفظِ «ما».

الثانية عشرة: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي: أطفالاً، فهو اسمُ جنسٍ. وأيضاً فإنَّ العرب قد تسمِّي الجمع باسم الواحد؛ قال الشاعر:

يَلْحَيْنَنِي في حبِّها ويَلُمْنَنِي ... إنَّ العواذلَ ليس لي بأميرِ[4]

ولم يقل: أمراء. وقال المبرِّد: هو اسمٌ يُستعمل مصدراً؛ كالرضا والعَدْل، فيقع

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٧ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤١٢ ، وقراءة المفضل عن عاصم ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ١٠٨/٤ ثم قال: وحكى أبو عمرو الداني أن رواية المفضل هذه هي بالياء في «يقرّ» وفي «يخرجكم». وسيذكر المصنف القراءة بالياء دون نسبة، وينظر القراءات الشاذة ص٩٤ ، وجامع البيان للداني ٢/ ٢٩٥ .

(٢) بعدها في (م): لهم، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ١٠٨/٤ ، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ١٠٨/٤ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٤٤ - ٤٥ ، وهو في تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٤ ، واللسان (ظهر) برواية:

يا عاذلاتي لا تزدن مودَّتي ... إن العواذل لَسْنَ لي بأميرِ

على الواحد والجمع؛ قال الله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١]. وقاله الطبري[١]. وهو نصبٌ على التمييز، كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤][٢].

وقيل: المعنى: ثم نخرج كلَّ واحدٍ منكم طفلاً[٣].

والطفلُ يطلَق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ. وولَدُ كُلِّ وَحْشِيَّةٍ أيضاً طفلٌ. ويقال: جارِيةٌ طِفْلٌ، وجاريتان طِفْل، وجَوارٍ طِفْلٌ، وغلامٌ طِفْلٌ، وغلمانٌ طِفْل. ويقال أيضاً: طِفْلٌ وطِفْلة، وطِفْلان وطِفْلتان وأطفال، ولا يقال: طِفْلات[٤]. وأَطْفَلت المرأة: صارت ذاتَ طِفْلٍ. والمُطْفِل[٥]: الظبيةُ معها طِفْلُها، وهي قريبةُ عهدٍ بالنِّتاج. وكذلك الناقة، [والجمع] مَطَافِلُ ومَطَافيل. والطَّفْلُ؛ بالفتح في الطاء: الناعم؛ يقال: جاريةٌ طَفْلة، أي: ناعمة، وبَنانٌ طَفْل. وقد طَفَّل الليل: إذا أقبل ظلامُه. والطَّفَل بالتحريك: بعد العصر إذا طَفَلت الشمس للغروب. والطَّفَل أيضاً: مطر؛ قال:

لِـوَهْـدٍ جـادهُ طَـفَـلُ الـثُّـرَيّـا[٦]

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ قيل: إنَّ «ثم» زائدةٌ، كالواو في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأنَّ «ثم» من حروف النَّسَق، كالواو. و«أَشُدَّكم»: كمال

---

(١) في (د) و(ز) و(م): وقال الطبري، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو في تفسيره ١٦/ ٤٦٥ .

(٢) المقتضب للمبرد ٢/ ١٧٣-١٧٤ ، وقال فيه: هو كقولك: زيد أحسن الناس ثوباً... وإنه ليحسن ثوباً، ويكثُر أمةً وعبداً.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٢ .

(٤) كذا قال المصنف رحمه الله، وفي تهذيب اللغة ١٣/ ٣٤٨ واللسان (طفل): وطفلات في القياس.

(٥) في النسخ: والمطفلة، والمثبت من الصحاح (طفل)، وما بعده وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في مجمل اللغة ٢/ ٥٨٣ ، واللسان (طفل)، والقاموس (طفل).

(٦) الصحاح (طفل)، ومجمل اللغة ٢/ ٥٨٣ ، وأساس البلاغة (طفل)، واللسان (طفل)، ولم يذكروا الشطرْ الآخر، وقوله: وَهْد، جمع وَهْدَة، وهو المكان المطمئن، أي: المنخفض من الأرض.

عقولكم ونهاية قُواكم. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه[١].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أخسِّه وأدْوَنِه، وهو الهَرَمُ والخَرَف حتى لا يعقِل؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، كما قال في سورة يس: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [الآية:٦٨]. وكان النبيُّ ﷺ يدعو فيقول: «اللهمّ إنِّي أعوذُ بك من البُخْل، وأعوذُ بك من الجُبْن، وأعوذُ بك من أنْ أُرَدَّ إلى أرْذَلِ العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر»[٢]. أخرجه النَّسائيُّ عن سعد، وقال: كان يعلِّمهنَّ بَنِيِهِ كما يعلِّم المُكْتِبُ الغلمان[٣]. وقد مضى في «النحل» هذا المعنى[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ذَكَر دلالةً أخرى[٥] على البعث، فقال في الأوّل: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فخاطب جَمْعاً. وقال في الثاني: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ فخاطب واحداً، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكنَّ المعنى متَّصلٌ من حيث الاحتجاجُ على مُنْكِري البعث.

﴿هَامِدَةً﴾: يابسةً لا تُنبت شيئاً؛ قاله ابن جُريج[٦]. وقيل: دراسةً. والهُمودُ: الدروس، قال الأعشى:

قالت قُتيلَةُ ما لجسمك شاحِباً وأرى ثيابَك بالياتٍ هُمَّدَا[٧]

(١) ٩/١١١ - ١١٢ .

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٥)، والبخاري (٢٨٢٢) و(٦٣٦٥) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ. وسلف ١٢/٣٧٥ .

(٣) المجتبى ٨/٢٦٦ ، وقائل هذا الكلام مصعب بن سعد وعمرو بن ميمون الأودي، ومن طريقهما أخرجه النسائي عن سعد. وذكر هذا الكلام أيضاً عن عمرو بن ميمون البخاري في الرواية (٢٨٢٢) وفيه: المعلِّم، بدل: المكتب.

(٤) ١٢/٣٧٤ .

(٥) في (م): أقوى.

(٦) النكت والعيون ٤/٨ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/٤٦٦ .

(٧) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٢٧٧ ، وفيه سايئاً، بدل: شاحباً، وهو براوية المصنف في النكت والعيون ٤/٨ .

الهَرَوِيُّ: «هامدة»، أي: جافَّةٌ ذاتَ تراب. وقال شَمِر[١]: يقال: هَمَد شجر الأرض: إذا بَلِيَ وذهب. وهَمَدَتْ أصواتهم: إذا سَكَنَتْ. وهُمودُ الأرض ألَّا يكون فيها حياةٌ ولا نَبْتٌ ولا عودٌ، ولم يُصِبْها مطر. وفي الحديث: «حتى كاد يَهْمُد من الجوع»[٢] أي: يهلك. يقال: هَمَد الثوبُ يَهْمُد: إذا بَلِيَ. وهَمَدت النار تَهْمُد.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّكت. والاهتزاز: شدَّة الحركة؛ يقال: هَزَزْتُ الشيءَ فاهتزَّ، أي: حركتُه فتحرَّك. وهَزَّ الحادِي الإبلَ هزيزاً فاهتزَّتْ هي: إذا تحرَّكت في سيرها لحُدائه[٣]. واهتزَّ الكوكب في انقضاضه، وكوكبٌ هازّ.

فالأرضُ تهتزُّ بالنبات؛ لأنَّ النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضَها من بعضٍ إزالةً خفيفة[٤]، فسمَّاه اهتزازاً مَجازاً.

وقيل: اهتزَّ نباتها، فحذف المضاف؛ قاله المبرِّد[٥]. واهتزازُه: شدَّة حركته، كما قال الشاعر:

تَثَنَّى إذا قامت وتهتزُّ إن مَشَتْ كما اهتزَّ غصنُ البان في ورقٍ خُضْرِ[٦]

والاهتزازُ في النبات أَظْهَرُ منه في الأرض.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت. وقيل: انتفخت، والمعنى واحد، وأصلُه الزيادة.

---

(١) هو ابن حمدويه، وكلامه في تهذيب اللغة ٦/ ٢٢٨ .

(٢) ذكره الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٢٩١ ، والزمخشري في الفائق ٢/ ٢٠ و ٣٧٩ ، وابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٥٠٠ ، وابن الأثير في النهاية (همد)، وهو من حديث عامر بن ربيعة ﷺ في وصف مصعب بن عمير ﷺ.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بحدائه، والمثبت من (ظ) والصحاح (هزز) والكلام منه.

(٤) في (خ) و(م): خفية، وفي (د): حقيقة.

(٥) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٦٠ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٩ .

رَبَا الشيء يَرْبُو رُبُوًّا، أي: زاد، ومنه الرِّبا والرَّبوة.

وقرأ يزيد بن القَعْقاع وخالد بن إلياس: «وَرَبَأَتْ»، أي: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة، وهو الذي يحفظ القوم على شيءٍ مُشْرِف، فهو رابئٌ، ورَبِيئة على المبالغة[(١)]، قال امرؤ القيس:

بَعَثْنَا رَبِيئاً قبل ذلك مُخْمَلاً[(٢)] كذئب الغَضَا يمشي الضَّرَاءَ ويتَّقي[(٣)]

﴿وَأَنۢبَتَتۡ﴾ أي: أخرجت ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ أي: لون ﴿بَهِيجٖ﴾ أي: حسن؛ عن قتادة[(٤)]. أي: يُبهج مَن يراه. والبَهجة: الحُسْن؛ يقال: رجلٌ ذو بَهجة. وقد بَهُج ـ بالضمّ ـ بَهاجةً وبَهْجة، فهو بَهيج[(٥)]. وأبْهجني: أعجبني بحسنه. ولمَّا وصف الأرض بالإنبات دلَّ على أنَّ قوله: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ يرجع إلى الأرض لا إلى النبات. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ لمَّا ذكر افتقارَ الموجوداتِ إليه وتسخيرَها على وَفْقِ اقتداره واختياره في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ إلى قوله: ﴿بَهِيجٖ﴾، قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٨١، وقراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٥. وخالد بن إلياس ـ ويقال: إياس ـ هو أبو الهيثم العدوي المدني، من رجال التهذيب.

(٢) في النسخ الخطية: قبل ذلك مخمصاً، وفي (م): قبل ذاك مخملاً. والمثبت من الديوان على ما يأتي.

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٧٢، وقال شارحه: الربيء والربيئة: الذي يربأ للقوم، أي: ينظر الصيد من مكان مرتفع. ومُخمَلاً يعني: يُخمل نفسه، أي: يسترها ويخفيها. والغضا: شجر، وأخبثُ الذئاب ما كان منشؤه ومأواه الغضا. اهـ. ويمشي الضَّرَاء، أي: مستخفياً فيما يواري من الشجر. الصحاح (ضرا).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢، والطبري ١٦/ ٤٦٧.

(٥) الصحاح (بهج).

قَدِيرٌ . وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فنبَّه سبحانه وتعالى بهذا على أنَّ كلَّ ما سواه، وإنْ كان موجوداً حقًّا، فإنَّه لا حقيقةَ له من نفسه؛ لأنه مسخَّرٌ مصرَّف، والحقُّ الحقيقيُّ: هو الموجودُ المطلَقُ الغنيُّ المطلَق. وأنَّ وجودَ كلِّ ذي وجودٍ عن وجوبِ وجوده؛ ولهذا قال في آخر السورة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الآية: ٦٢][١] والحقُّ: الموجودُ الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يزول، وهو الله تعالى.

وقيل: ذو الحقِّ على عباده. وقيل: «الحقّ» بمعنى: في أفعاله.

وقال الزجَّاج: «ذلك» في موضعِ رفعٍ، [المعنى: الأمر ذلك] أي: الأمرُ ما وُصف لكم وبُيِّن. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: لأنَّ الله هو الحقّ. قال: ويجوز أن يكون «ذلك» نصباً؛ أي: فَعَلَ الله ذلك بأنه هو الحق[٢].

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بأنه ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وبأنه قادرٌ على ما أراد. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ من حيث اللفظُ، وليس عطفاً في المعنى؛ إذ لا يقال: فَعَل الله ما ذُكر بأنَّ الساعةَ آتيةٌ، بل لابدَّ من إضمارِ فعلٍ يتضمَّنه، أي: وليعلموا أنَّ الساعةَ آتيةٌ ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: لا شكَّ. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يريد للثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: نَيِّرٍ بيِّنِ الحُجَّة. نزلت في النَّضر بن الحارث[٣]. وقيل: في أبي جهل بن هشام؛ قاله

---

(١) ذكر المصنف هذا الكلام أيضاً في كتاب الأسنى ص١٤٨ نقلاً عن ابن الحصار.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٩ عن الكلبي.

ابن عباس(١). والمُعْظَم على أنَّها نزلت في النضر بن الحارث كالآية الأولى(٢)، فهما في فريقٍ واحد، والتكرير للمبالغة في الذمّ، كما تقول للرجل تذمُّه وتوبِّخه: أنت فعلت هذا! أنت فعلت هذا! ويجوز أن يكون التكرير لأنه وصفَه في كلِّ آيةٍ بزيادة، فكأنه قال: إنَّ النضر بن الحارث يجادل في الله بغير علمٍ، ويتَّبع كلَّ شيطانٍ مَريد، والنضر بن الحارث يجادل في الله من غير علمٍ ومن غير هُدًى وكتابٍ منير؛ ليُضِلَّ عن سبيل الله، وهو كقولك: زيدٌ يشتمني وزيدٌ يضربني، وهو تكرارٌ مفيدٌ؛ قاله القشيريّ.

وقد قيل: نزلت فيه بضعَ عَشْرَة آيةً. فالمرادُ بالآية الأولى: إنكارُه البعثَ، وبالثانية: إنكارُه النبوّةَ وأنَّ القرآن منزلٌ من جهة الله. وقد قيل: كان من قول النضر ابن الحارث: إنَّ الملائكة بناتُ الله(٣)، وهذا جِدالٌ في الله تعالى.

«مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ في قوله: «ومِنَ الناسِ». ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ نصب على الحال، ويتأوَّل على معنيين: أحدهما: روي عن ابن عباس أنه قال: هو النضر بن الحارث، لَوَى عنقه مَرَحاً وتعظُّماً. والمعنى الآخر ـ وهو قولُ الفرَّاء ـ أنَّ التقدير: ومِن الناس مَن يجادلُ في الله بغير علمٍ ثانيَ عِطْفِه، أي: مُعْرِضاً عن الذِّكر؛ ذكره النحاس(٤).

وقال مجاهد وقتادة: لاوِياً عنقَه كفراً. ابن عباس: مُعْرِضاً عمَّا يُدْعَى إليه كفراً(٥). والمعنى واحد.

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٦ .

(٢) يعني الآية (٣) من هذه السورة، وينظر ما سلف ص٣١٢ من هذا الجزء .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٠٥ عن مقاتل.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٨٨ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٦ ، وفيه: ثانياً عطفَه، بدل: ثاني عطفه.

(٥) أخرج هذه الأخبار بنحوها الطبري ١٦/ ٤٦٩ - ٤٧٠ .

وروى الأوزاعيُّ، عن مَخْلد بن حسين، عن هشام بن حسان، عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: هو صاحبُ البدعة. المبرِّد: العِطْفُ: ما انثنى من العنق[(١)].

وقال المفضَّل: والعِطْفُ: الجانب، ومنه قولُهم: فلانٌ ينظر في أعطافه، أي: في جوانبه[(٢)]. وعِطْفَا الرجل: [جانباه] من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكَيْه، وكذلك عِطْفَا كلِّ شيءٍ جانباه. ويقال: ثَنَى فلانٌ عنِّي عِطْفَه: إذا أعرض عنك[(٣)].

فالمعنى: أي: هو مُعْرِضٌ عن الحقِّ في جِدَاله، ومُوَلٍّ عن النظر في كلامه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان:٧]، وقولِه تعالى: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون:٥]، وقولِه: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٣]، وقولِه: ﴿ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة:٣٣].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن طاعة الله تعالى. وقرئ: «لِيَضِل» بفتح الياء[(٤)]؛ واللامُ لامُ العاقبة، أي: يجادلُ فيَضِلُّ، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] أي: فكان لهم كذلك. ونظيرُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا﴾ [النحل:٥٤].

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: هوانٌ وذُلٌّ بما يجري له من الذِّكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ الآية [القلم:١٠]، وقولِه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وقيل: الخزيُ هاهنا: القتل؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قتل النضر بن الحارث يومَ بدرٍ صَبْراً،

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٢، ولم نقف على خبر ابن عباس.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٩.
(٣) الصحاح (عطف)، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٣٤.

كما تقدَّم في آخر الأنفال[١].

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: نار جهنم. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له في الآخرة إذا دخل النار: ذلك العذابُ بما قدَّمتْ يداك من المعاصي والكفر. وعبَّر باليد عن الجملة؛ لأنَّ اليد التي تفعلُ وتبطِشُ للجملة. و«ذلك» بمعنى هذا، كما تقدَّم في أوّل «البقرة»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ «مَن» في موضعِ رفعٍ بالابتداء. والتمامُ: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ على قراءة الجمهور «خَسِر»[٣]. وهذه الآيةُ خبرٌ عن المنافقين. قال ابن عباس: يريد شيبة بنَ ربيعة؛ كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله ﷺ، فلمَّا أُوحي إليه ارتدَّ شيبة بنُ ربيعة[٤].

وقال أبو سعيد الخُدْرِيُّ: أسلم رجلٌ من اليهود، فذهب بصره وماله [وولده] فتشاءم بالإسلام، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: أَقِلْني! فقال: «إنَّ الإسلام لا يُقال» فقال: إنِّي لم أُصِبْ في ديني هذا خيراً؛ ذهب بصري ومالي وولدي! فقال: «يا يهوديّ إنَّ الإسلام يَسْبِكُ الرجال كما تَسْبِكُ النارُ خَبَث الحديد والفضة والذهب». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾[٥].

---

(١) ١٠/٢٣ و ٨٩ - ٩٠ .

(٢) ١/٢٤٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٣١٧ وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه ابن مردويه كما في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١١٢ ، قال ابن حجر: إسناده ضعيف.
وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٦٨ من حديث جابر ﷺ، ولم يذكر فيه نزول الآية، وفي إسناده عنبسة ابن سعيد، قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: وعنبسة ضعيف جدًّا.

وروى إسرائيل عن أبي حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» قال: كان الرجل يَقْدَم المدينة، فإن وَلَدَتْ امرأته غلاماً ونُتِجت خيلُه قال: هذا دِينٌ صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنْتَج خيلُه قال: هذا دِين سُوء[1].

وقال المفسرون: نزلت في أعرابٍ كانوا يَقْدَمون على النبيِّ ﷺ فيُسلِمون، فإن نالوا رخاءً أقاموا، وإن نالتهم شدَّةٌ ارتدُّوا[2].

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث. وقال ابن زيد وغيره: نزلت في المنافقين[3].

ومعنى ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شكٍّ؛ قاله مجاهد وغيره[4]. وحقيقتُه: أنه على ضعفٍ في عبادته، كضعفِ القائم على حرفٍ مضطربٍ فيه. وحرفُ كلِّ شيءٍ: طَرَفُه وشَفِيرُه وحدُّه، ومنه حرفُ الجبل، وهو أعلاه المحدَّد.

وقيل: «على حرف» أي: على وجهٍ واحد، وهو أن يعبدَه على السرَّاء دون الضرَّاء، ولو عبدوا الله على الشكر في السَّراء، والصبرِ على الضراء، لَمَا عبدوا الله على حرف.

وقيل: «على حرف»: على شرط، وذلك أنَّ شيبة بن ربيعةَ قال للنبيِّ ﷺ قبل أن يظهر أمره: ادعُ لي ربَّك أن يرزقني مالاً وإبلاً وخيلاً وولداً حتى أُومِنَ بك وأعدِلَ إلى دينك، فدعا له، فرزقه الله عزَّ وجلَّ ما تمنَّى، ثم أراد الله عزَّ وجلَّ فتنته واختباره وهو أعلم به، فأخذ منه ما كان رَزَقه بعد أن أسلم، فارتدَّ عن الإسلام، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ يريد: على شرط.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤٢).

(٢) ينظر هذا القول وما ورد فيه من أخبار في تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٢ - ٤٧٤ .

(٣) أخرجه عن ابن زيد الطبري ١٦/ ٤٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٧٣ و ٤٧٤ عن مجاهد وقتادة.

وقال الحسن: هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه[١].

وبالجملة؛ فهذا الذي يعبد الله على حَرْفٍ ليس داخلاً بكلِّيَّته، وبيَّن هذا بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾: صحةُ جسمٍ ورَخاءُ معيشةٍ، رضيَ وأقام على دينه. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: خلافُ ذلك مما يُختبر به ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتدَّ، فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ قرأ مجاهد وحميد بن قيس الأعرج[٢] والزُّهريُّ وابن أبي إسحاق، وروي عن يعقوب: «خاسِرَ الدنيا» ـ بألفٍ[٣] ـ نصباً على الحال، وعليه فلا يوقَف على: «وجهه». وخسْرانُه الدنيا بأنْ لا حظَّ له في غنيمةٍ ولا ثناء، والآخرةَ بأن لا ثوابَ له فيها.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ قال الفرَّاء[٤]: الطويل.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي: هذا الذي انقلب على وجهه يعبد[٥] مَن ضرُّه أدنى من نَفْعِه، أي: في الآخرة؛ لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه

(١) ذكره البغوي ٣/ ٢٧٧.

(٢) في النسخ: والأعرج، بالواو، والصواب ما أثبتناه. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٧٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٤، والمحتسب ٢/ ٧٥ عن مجاهد وحميد بن قيس، وتفسير البغوي ٣/ ٢٧٧ عن يعقوب، والقراءة المشهورة عنه ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨.

(٥) في (م): يدعو.

نفعاً أصلاً، ولكنه قال: «ضرُّه أقربُ من نفعه» ترفيعاً للكلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقيل: يعبدونهم تَوَهُّمَ أنهم يشفعون لهم غداً، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقال الفرَّاء والكسائيُّ والزجَّاج: معنى الكلام القسمُ والتأخير، أي: يدعو واللهِ مَن لَضرُّه(١) أقربُ من نفعه. فاللامُ مقدَّمةٌ في غير موضعها. و«مَن» في موضع نصبٍ بـ«يدعو»، واللامُ جوابُ القَسَم. و«ضَرُّه» مبتدأ. و«أقْرَبُ» خبره(٢). وضعَّف النحاس(٣) تأخيرَ اللام وقال: وليس لِلَّامِ من التصرُّف ما يوجب أن يكون فيها تقديمٌ ولا تأخير.

قلت: حقُّ اللام التقديم، وقد تؤخَّر؛ قال الشاعر:

خالي لأنتَ ومَن جَريرٌ خالُه ... ينلِ العَلَاءَ ويُكرِمِ الأخوالا

أي: لخالي أنت، وقد تقدم(٤).

النحاس: وحكى لنا عليّ بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذفٌ، والمعنى: يدعو لمَن ضرُّه أقرب من نَفْعِه إلهاً؛ قال النحَّاس: وأحسِبُ هذا القولَ غلطاً على محمد بن يزيد؛ لأنه لا معنى له، لأنَّ ما بعد اللام مبتدأٌ، فلا يجوز نصبُ إله، وما أحسِب مذهبَ محمد بن يزيد إلَّا قولَ الأخفش، وهو أحسنُ ما قيل في الآية عندي، والله أعلم؛ قال: «يدعو» بمعنى يقول، و«مَن» مبتدأٌ وخبرُه محذوف،

---

(١) في (د) و(م): لمن ضره، وهو خطأ.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وللزجاج ٣/ ٤١٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٨٧.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٨٩.

(٤) ص٩٤ من هذا الجزء.

والمعنى: يقول: لَمَن ضرُّه أقرب من نفعه إلٰهُه[1].

قلت: وذكر هذا القول القُشَيْريُّ ـ رحمه الله ـ عن الزجَّاج[2]، والمهدوِيُّ عن الأخفش، وكمَّل إعرابه فقال: «يدعو» بمعنى يقول، و«مَن» مبتدأ، و«ضرُّه» مبتدأٌ ثانٍ، و«أقربُ» خبرُه، والجملةُ صلةُ «مَن»، وخبرُ «مَن» محذوفٌ، والتقدير: يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلٰهُه، ومِثْلُه قول عنترة:

يـدعـون عَـنْـتَـرَ والـرِّمـاحُ كـأنـهـا أشْـطـانُ بـئـرٍ فـي لَـبـان الأدْهَـمِ[3]

قال القشيريُّ: والكافر الذي يقول: الصنم معبودي، لا يقول: ضَرُّه أقربُ من نفعه، ولكن المعنى: يقول الكافر: لَمَن ضرُّه أقربُ من نَفْعِه ـ في قول المسلمين ـ معبودي وإلهي. وهو كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩]؛ أي: يا أيها الساحرُ عند أولئك الذي يدعونك ساحراً.

وقال الزجَّاج: يجوز أن يكون «يدعو» في موضع الحال، وفيه هاءٌ محذوفة، أي: ذلك هو الضلالُ البعيد يدعوه، أي: في حال دعائه إياه، ففي «يدعو» هاءٌ مضمَرةٌ، ويوقف على هذا على «يدعو»، وقولُه: «لَمَن ضَرُّه أقربُ من نفعِه» كلامٌ مستأنَفٌ مرفوع بالابتداء، وخبرُه: «لَبِئسَ الْمَولَى»[4]، وهذا لأنَّ اللام لليَمين والتوكيدِ، فجعلها أوّلَ الكلام.

قال الزجاج[5]: ويجوز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، ويكون في محلِّ النصب

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩ ، وقول الأخفش سعيد بن مسعدة في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٤١٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٦ ، والبيت من معلقة عنترة، وهو في ديوانه ص٢٩ . قوله: يدعون عنتر، قال النحاس في شرح المعلقات ٢/ ٤٣ : الأجود فيه فتح الراء، والأشطان جمع شَطَن: وهو حبل البئر، واللبان: الصدر.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٥ - ٤١٦ ، وذكر هذا القول أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٤١٧ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤١٦ .

بوقوع «يدعو» عليه، أي: الذي هو الضلالُ البعيد يدعو، كما قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧] أي: ما الذي[١]، ثم قولُه: «لَمَن ضرُّه» كلامٌ مبتدأ، و«لبئس المولى» خبرُ المبتدأ، وتقديرُ الآية على هذا: يدعو الذي هو الضلال البعيد، قدَّم المفعولَ وهو الذي، كما تقول: زيداً يَضْرِبُ، واستحسنه أبو عليٍّ[٢]. وزعم الزجَّاجُ أنَّ النَّحْويين أغفلوا هذا القول، وأنشد:

عَدَسْ ما لعبَّادٍ عليك إمارةٌ نَجَوْتِ وهذا تَحْمِلِين طَلِيقُ[٣]

أي: والذي.

وقال الزجَّاج أيضاً والفرَّاء: يجوز أن يكون «يدعو» مكررةً على ما قَبْلَها، على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء، ولا تُعدِّيه إذ قد عدَّيته أوَّلاً، أي: يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضرُّه يدعو، مثل: ضربتُ زيداً ضربت[٤].

[وقيل: معناه: يدعو لَمَن ضرُّه أقرب من نفعه يدعو] ثم حذفت يدعو الآخرة اكتفاءً بالأولى[٥].

قال الفرَّاء: ويجوز: «لِمَنْ ضَرُّه» بكسر اللام، أي: يدعو إلى مَن ضَرُّه أقربُ مِن نَفْعِه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥] أي: إليها[٦].

وقال الفرَّاء أيضاً والقفَّال: اللامُ صلة، أي: يدعو مَن ضرُّه أقربُ من نفعه، أي:

---

(١) كذا في النسخ، وفي معاني القرآن للزجاج: ما التي.

(٢) ذكر كلامه مطولاً الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٨٣ - ٨٥.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٧، والبيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو في ديوانه ص١١٥، وسلف ٢/ ١٤٩.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨ بنحوه، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٨٤ عن أبي علي. ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩. ولا يقرأ بهذا الوجه كما ذكر الفراء.

يعبده. وكذلك هو في قراءة عبد الله بن مسعود[١].

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي: في التناصُر[٢] ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي: المُعاشِر والصاحب والخليل. مجاهد: يعني الوثن[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لمَّا ذكر حالَ المشركين وحالَ المنافقين والشياطين؛ ذَكَر حال المؤمنين في الآخرة أيضاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يُثيب مَن يشاء ويعذِّب مَن يشاء، فللمؤمنين الجنةُ بحكم وَعْدِه الصِّدْقِ وبفضله، وللكافرين النارُ بما سبق من عدله، لا أنَّ فِعْلَ الربِّ معلَّلٌ بفعلِ العبيد.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال أبو جعفر النحاس: مِن أحسَن ما قيل فيها: إنَّ المعنى: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصر الله محمداً ﷺ[٤]، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أُوتيه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فليطلُبْ حيلةً يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليقطع النصر إن تهيَّأ له ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ وحيلتُه ما يَغيظُه من نصر النبيِّ ﷺ. والفائدةُ في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيدُ والحيلة بأن يفعل مثلَ هذا لم يَصِلْ إلى قطع النصر[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧ ، والقراءة عند ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ دون نسبة.

(٢) في (ظ): أي الناصر.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٧٧ .

(٤) بعدها في (ظ): في الدنيا.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٠ .

وكذا قال ابن عباس: إنَّ الكناية في «ينصره الله» ترجع إلى محمدٍ ﷺ[١]. وهو وإن لم يَجْرِ ذِكْرُه فجميعُ الكلام دالٌّ عليه؛ لأنَّ الإيمان هو الإيمانُ بالله وبمحمدٍ ﷺ[٢]، والانقلابُ عن الدِّين انقلابٌ عن الدِّين الذي أتى به محمدٌ ﷺ، أي: مَن كان يظنُّ ممن يعادي محمداً ﷺ ومَن يعبد الله على حَرْف أنَّا لا ننصر محمداً، فلْيفعَلْ كذا وكذا.

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ الهاء تعود على «مَن»، والمعنى: مَن كان يظنُّ أنَّ الله لا يرزقه فليختنقْ، فليقتل نفسه[٣]؛ إذ لا خيرَ في حياةٍ تخلو من عَوْن الله. والنصرُ على هذا القول الرزقُ؛ تقول العرب: مَن ينصرني نصره الله، أي: مَن أعطاني أعطاه الله. ومِن ذلك قولُ العرب: أرضٌ منصورة، أي: ممطورة؛ قال الفَقْعسيُّ[٤]:

وإنَّك لا تعطي امْرَأً فوقَ حقِّه ... ولا تملك الشِّقَّ[٥] الذي الغيثُ ناصِرُه

وكذا روى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهدٍ قال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لن يرزقه[٦]. وهو قولُ أبي عبيدة[٧].

وقيل: إنَّ الهاء تعود على الدِّين، والمعنى: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصر الله دينه.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل، والسببُ: ما يُتوصَّل به إلى الشيء. ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: إلى سقف البيت. ابن زيد: هي السماء المعروفة[٨].

وقرأ الكوفيون: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ بإسكان اللام[٩]. قال النحاس[١٠]: وهذا بعيدٌ في

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٠.
(٢) في (ظ): لأن الإيمان بالله إيمان بمحمد ﷺ.
(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨١ - ٤٨٢، والسماء على هذا القول هي سقف البيت، كما جاء في خبر ابن عباس.
(٤) اضطرب الاسم في النسخ، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/ ٤٨٠، والبيت دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ٤٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١١١.
(٥) في النسخ الخطية: الشيء، والمثبت من (م) والمصادر.
(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٢.
(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٤٦ - ٤٧.
(٨) أخرجه الطبري مطولاً ١٦/ ٤٧٩.
(٩) قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام، والباقون بإسكانها. السبعة ص٤٣٤، والتيسير ص١٥٦.
(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٩٠.

العربية؛ لأن «ثم» ليست مثلَ الواو والفاء؛ لأنها يُوقف عليها وتنفرد.

وفي قراءة عبد الله: «فليقطعه ثم لينظر هل يُذهبنَّ كيدُه ما يغيظ»[1].

قيل: «ما» بمعنى الذي، أي: هل يُذهبنَّ كيدُه الذي يغيظُه، فحذف الهاء ليكون أخفَّ. وقيل: بمعنى المصدر، أي: هل يذهبنَّ كيدُه غيظَه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وكذلك أنَّ الله ﴿يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾، علَّق وجودَ الهداية بإرادته، فهو الهادي لا هادِيَ سواه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالله وبمحمدٍ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: اليهود، وهم المنتسبون إلى ملَّةِ موسى عليه السلام. ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: هم قومٌ يعبدون النجوم. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: هم المنتسبون إلى ملَّة عيسى. ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾: هم عَبَدةُ النيران القائلون إنَّ للعالَم أصلين: نوراً وظلمةً. قال قتادة: الأديانُ خمسة، أربعةٌ للشيطان، وواحدٌ للرحمن[2]. وقيل: المجوس في الأصل: النّجوس؛ لتديُّنهم باستعمال النجاسات، والميم والنونُ يتعاقبان، كالغيم والغين، والأيْم والأين. وقد مضى في «البقرة» هذا كلُّه مستوفًى[3]. ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾: هم العربُ عَبَدةُ الأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقضي ويَحكم، فللكافرين النار،

---

(١) لم نقف على هذه القراءة عن ابن مسعود ﷺ، وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١١ أن قراءة ابن مسعود هي: «ثم ليقطعه».

(٢) أخرجه مطولاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٩، والطبري ١٦/ ٤٨٥، ونسبه السيوطي في الدر المنثور لعبد بن حميد وابن أبي حاتم، إلا أن لفظه عندهم: والأديان ستة، خمسة للشيطان، وواحد للرحمن.

(٣) ينظر ٢/ ١٥٨ وما بعدها، وينظر أيضاً في الكلام عن المجوس ٨/ ٤٨٠، و ١٠/ ١٦٤.

وللمؤمنين الجنة. وقيل: هذا الفصلُ بأنْ يعرِّفهم المحقَّ من المُبْطِل بمعرفةٍ ضرورية، واليومَ يتميَّز المحقُّ عن المبطل بالنظر والاستدلال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: من أعمال خَلْقِه وحركاتهم وأقوالهم، فلا يَعْزُب عنه شيءٌ منها؛ سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ خبرُ «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، كما تقول: إنَّ زيداً إنَّ الخيرَ عنده. وقال الفرَّاء[1]: ولا يجوز في الكلام: إنَّ زيداً إنَّ أخاه منطلقٌ، وزعم أنه إنما جاز في الآية؛ لأنَّ في الكلام معنى المجازاة، أي: مَن آمن ومَن تهوَّد أو تنصَّر أو صبأ، يفصلُ[2] بَيْنِهم وحسابُهم على الله عزَّ وجلَّ.

وردَّ أبو إسحاقَ[3] على الفرَّاء هذا القولَ، واستقبح قولَه: لا يجوز: إنَّ زيداً إنَّ أخاه منطلقٌ؛ قال: لأنه لا فرقٌ بين زيد وبين الذين، و«إنَّ» تدخل على كلِّ مبتدأ، فتقول: إنَّ زيداً هو منطلقٌ، ثم تأتي بإنَّ فتقول: إنَّ زيداً إنه منطلقٌ؛ وقال الشاعر:

إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ   سِربالَ عِزٍّ به تُرْجَى الخواتيمُ[4]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذه رؤيةُ القلب، أي: ألم تَرَ بقلبك وعقلك. وتقدَّم معنى السجودِ في «البقرة»[5]، وسجود

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٠.

(٢) في معاني القرآن للفراء، وإعراب القرآن للنحاس: ففصل.

(٣) هو الزجاج، والكلام في معاني القرآن له ٣/ ٤١٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٠، وعنه نقل المصنف.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨، وللزجاج ٣/ ٤١٨، وأمالي الزجاجي ص٦٢، والخزانة ١٠/ ٣٦٤، والبيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٦٧٢ برواية:

يكفي الخليفةَ أن اللهَ سربله   سربالَ مُلْك به تُرْجى الخواتيم

(٥) ١/ ٤٣٤.

الجماد في «النحل»[١]. ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ معطوفةٌ على «مَن»، وكذا ﴿وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهذا مُشْكِلٌ من الإعراب، كيف لم ينصب ليعطفَ ما عَمِلَ فيه الفعلُ على ما عَمِلَ فيه الفعل، مثل: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١]؟ فزعم الكسائيُّ والفرَّاء أنه لو نصب لكان حسناً، ولكن اختير الرفعُ لأنَّ المعنى: وكثيرٌ أبَى السجود، فيكون ابتداءً وخبراً، وتمَّ الكلام عند قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. ويجوز أن يكون معطوفاً، على أنْ يكون السجود: التذلُّلَ والانقيادَ لتدبير الله عزَّ وجلَّ من ضَعْفٍ وقوّةٍ وصحةٍ وسقمٍ وحسنٍ وقُبْح، وهذا يدخل فيه كلُّ شيء[٢].

ويجوز أن ينتصب على تقدير: وأهان كثيراً حقَّ عليه العذاب، ونحوه.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «والدَّوابُّ»، ثم ابتدأ فقال: «وكثيرٌ من الناس» في الجنةِ «وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب»، وكذا روي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: وكثيرٌ من الناس في الجنة وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب؛ ذكره ابن الأنباري[٣].

وقال أبو العالية: ما في السماوات نجمٌ ولا قمرٌ ولا شمسٌ إلَّا يقع ساجداً لله حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه[٤]. قال القُشَيريُّ: وورد هذا في خبرٍ مسنَد في حقِّ الشمس، فهذا سجودٌ حقيقيٌّ، ومن ضرورته تركيبُ الحياة والعقل في هذا الساجد.

قلت: الحديث المسند الذي أشار إليه خرَّجه مسلم[٥]، وسيأتي في سورة «يس»

---

(١) ١٢/ ٣٣٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٩.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٨٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٧.

(٥) في صحيحه (١٥٩) من حديث أبي ذر ﷺ مطولاً، وأخرجه البخاري مختصراً (٤٨٠٢).

عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [الآية:٣٨]. وقد تقدَّم في «البقرة» معنى السجودِ لغةً ومعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ أي: مَن أهانه بالشَّقاء والكفرِ لا يَقْدِرُ أحدٌ على دفع الهوان عنه. وقال ابن عباس: إنَّ مَن تَهاوَنَ بعبادة الله صار إلى النار .﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يريد أنَّ مصيرهم إلى النار، فلا اعتراضَ لأحدٍ عليه. وحكى الأخفش والكسائيُّ والفرَّاء: «ومَنْ يُهِن اللهُ فما له من مُكْرَمٍ» أي: إكرام[1].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْۖ﴾ خرَّج مسلم[2] عن قيس بن عُبَادٍ قال: سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَماً: إنَّ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْۖ﴾ إنها نزلت في الذين بَرَزُوا يومَ بدرٍ: حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بن الحارث ﷺ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ والوليدُ بن عتبة. وبهذا الحديث ختم مسلمٌ رحمه الله كتابه.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآياتُ الثلاثُ على النبيِّ ﷺ بالمدينة في ثلاثةِ نفرٍ من المؤمنين وثلاثةِ نفرٍ كافرين؛ وسمَّاهم كما ذكر أبو ذرّ[3].

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: إني لأوّلُ مَن يجثو للخصومة بين يدي الله يومَ القيامة. يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه؛ ذكره البخاري[4]. وإلى هذا القول ذهب

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢١٩ ، والقراءة بفتح الراء ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ وقال: ذكره أبو معاذ. وهي في المحرر الوجيز ٤/ ١١٣ عن ابن أبي عبلة.

(٢) في صحيحه (٣٠٣٣)، وهو عند البخاري (٣٩٦٩) و(٤٧٤٣).

(٣) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩ .

(٤) في صحيحه (٣٩٦٥) و(٣٩٦٧).

هلال بنُ يِساف وعطاء بن يَسار وغيرهما[١].

وقال عكرمة: المراد بالخصمين: الجنةُ والنار؛ اختصمتا، فقالت النار: خلقني لعقوبته. وقالت الجنة: خلقني لرحمته[٢].

قلت: وقد ورد بتخاصُم الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّت الجنةُ والنار، فقالت هذه: يَدْخلُني الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاءُ والمساكين، فقال الله تعالى لهذه: أنتِ عذابي أعذِّبُ بكِ مَن أشاء، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أَرْحَم بكِ مَن أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلؤها». خرَّجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

وقال ابن عباس أيضاً: هم أهلُ الكتاب؛ قالوا للمؤمنين: نحن أَوْلَى بالله منكم، وأقدمُ منكم كتاباً، ونبيُّنا قبل نبيِّكم. وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله[٤]، آمنَّا بمحمدٍ وآمنَّا بنبيِّكم وبما أُنزل إليه من كتاب[٥]، وأنتم تعرفون نبيَّنا وتركتموه وكفرتم به حَسَداً. فكانت هذه خصومتَهم، وأُنزلت فيهم هذه الآية. وهذا قولُ قتادة[٦].

والقول الأوّل أصحُّ، رواه البخاريُّ عن حَجَّاج بن مِنْهالٍ، عن هُشَيْمٍ، عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد، عن أبي ذر، ومسلمٌ عن عمرو بن زُرَارة، عن هُشيم[٧]. ورواه سليمان التيميُّ عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد، عن عليٍّ قال:

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٩٣ .

(٣) صحيح البخاري (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦)، وسنن الترمذي (٢٥٦١)، وهو في مسند أحمد (٧٧١٨).

(٤) بعدها في (د) و(ز) و(م): منكم، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما تفسير الطبري ١٦/ ٤٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٠ .

(٥) في تفسير الطبري وتفسير البغوي: وبما أنزل الله من كتاب.

(٦) ذكره البغوي ٣/ ٢٨٠ .

(٧) صحيح البخاري (٤٧٤٣) وصحيح مسلم (٣٠٣٣)، وسلف في بداية تفسير الآية.

فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يومَ بدرٍ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[(١)].

وقرأ ابن كثير: ﴿هذانِّ خصمان﴾ بتشديد النون من «هذان»[(٢)].

وتَأَوَّلَ الفرَّاء[(٣)] الخصْمَين على أنهما فريقان أهلُ دينَيْن، وزعم أنَّ الخصم الواحدَ المسلمون، والآخَرَ اليهودُ والنصارى، اختصموا في دين ربِّهم؛ قال: فقال: «اختصموا» لأنهم جَمْعٌ، قال: ولو قال: «اختصما» لجاز. قال النحاس[(٤)]: وهذا تأويلُ مَن لا دُرْبَةَ[(٥)] له بالحديث ولا بكُتُبِ أهل التفسير؛ لأنَّ الحديث في هذه الآية مشهورٌ، رواه سفيان الثَّوْريُّ وغيره عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد قال: سمعتُ أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَماً: إنَّ هذه الآية نزلت في حمزةَ وعليٍّ وعبيدة بنِ الحارث بن عبد المطلب، وعتبةَ وشيبةَ ابني ربيعةَ والوليد بن عتبة. وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس[(٦)].

وفيه قولٌ رابعٌ: أنهم المؤمنون كلُّهم، والكافرون كلُّهم من أيِّ ملةٍ كانوا؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رَبَاح وعاصم بن أبي النَّجود والكلبيّ[(٧)]. وهذا القولُ بالعموم يجمع المنزَلَ فيهم وغيرَهم.

وقيل: نزلت في الخصومة في البعث والجزاء؛ إذ قال به قومٌ وأنكره قوم[(٨)].

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٦٥) و(٣٩٦٧)، وسلف في بداية تفسير الآية.

(٢) السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص٩٥ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢١٩ - ٢٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩١ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٩١ .

(٥) في (د) و(م): دراية.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١ ، وسلف تخريج خبر ابن عباس في بداية تفسير هذه الآية.

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٤٩٢ .

(٨) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٩٢ بنحوه عن مجاهد.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني من الفِرق الذين تقدَّم ذكرهم ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: خِيطَتْ وسُوِّيت، وشبِّهت النار بالثياب لأنها لباسٌ لهم كالثياب.

وقوله: ﴿قُطِّعَتْ﴾ أي: تُقطَّع لهم في الآخرة ثيابٌ من نار؛ وذُكر بلَفْظِ الماضي لأنَّ ما كان من أخبار الآخرة فالموعودُ منه كالواقع المحقَّق؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦] أي: يقول الله تعالى. ويحتمل أن يقال: قد أُعِدَّت الآنَ تلك الثيابُ لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار.

وقال سعيد بن جبير: «من نار»: من نحاس، فتلك الثياب من نحاسٍ قد أذيبت، وهي السرابيلُ المذكورة في «قِطْرٍ آنٍ»[(١)]، وليس في الآنية شيءٌ إذا حَمِيَ يكون أشدَّ حرًّا منه[(٢)].

وقيل: المعنى: أنَّ النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم، فصارت من هذا الوجه ثياباً لأنها بالإحاطة كالثياب، مثلُ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ:١٠].

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي: الماء الحارُّ المُغلَّى بنار جهنَّم. وروى الترمذيّ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الحميم لَيُصَبُّ على رؤوسهم، فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه، فيَسْلِتُ ما في جوفه حتى يَمْرُق من قدميه، وهو الصَّهْر، ثم يعاد كما كان». قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[(٣)].

﴿يُصْهَرُ﴾: يذاب ﴿بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ والصَّهر: إذابةُ الشَّحم. والصُّهارة: ما

(١) يعني قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] والقراءة أعلاه في القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وسلفت ١٢/ ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٦٤ دون قوله: فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهي السرابيل المذكورة في قطر آن. وأورده دون هذه العبارة أيضاً البغوي ٣/ ٢٨٠.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٨٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٨٦٤)، والطبري ١٦/ ٤٩٥، وفيهما: فينفذ الجمجمة، بدل: فينفذ الحميم.

ذاب منه؛ يقال: صَهَرْت الشيء فانصهر، أي: أذبتُه فذاب، فهو صهير. قال ابن أحمر يصف فرخَ قَطاةٍ:

تَرْوي لَقًى أُلقيَ في صَفْصفٍ تَصْهرُه الشمسُ فما يَنْصَهِرْ[١]

أي: تُذيبه الشمس فيصبر على ذلك.

﴿وَالْجُلُودُ﴾ أي: وتُحرَق الجلود، أو تُشوَى الجلود؛ فإنَّ الجلود لا تذاب، ولكن يُضَمُّ[٢] في كلِّ شيء ما يَليقُ به، فهو كما تقول: أتيته فأطعمني ثريداً، إي والله ولبناً قارِصاً[٣]؛ أي: وسقاني لبناً؛ قال الشاعر:

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً[٤]

﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي: يُضربون بها ويُدفعون، الواحدة مِقْمَعة، ومِقْمَع أيضاً كالمِحْجَن، يُضرب به على رأس الفيل. وقد قَمَعتُه: إذا ضربتَه بها. وقَمعته وأَقْمعته بمعنًى، أي: قهرتُه وأذْللتُه فانقمع. قال ابن السِّكِّيت: أقمعتُ الرجلَ عنِّي إقماعاً: إذا طَلَع عليك فردَدْتَه عنك[٥].

وقيل: المَقَامع: المَطارِقُ، وهي المَرازب أيضاً. وفي الحديث: «بِيَدِ كلِّ مَلَكٍ من خَزَنةِ جهنَّم مِرْزَبَةٌ لها شُعبتان، فيضربُ الضربةَ، فيهوي بها سبعين ألفاً»[٦]. وقيل: المقامع: سِياطٌ من نار. وسُمِّيت بذلك لأنها تَقْمَعُ المضروب، أي: تذلِّله.

---

(١) الصحاح (صهر)، والبيت في تهذيب اللغة ١٥/ ٣١٤ ، وأساس البلاغة (روي)، واللسان (روي) و(صهر) و(لقا) وفيه: اللقي: الشيء الملقى لهوانه، وجمعه ألقاء. وتروي: تسوق إليه الماء، أي: تصير كالراوية. اهـ. والصفصف: الذي لا نبات فيه، تاج العروس (صفف).

(٢) في (خ): يذم.

(٣) هو الحامض من ألبان الإبل خاصة، وقيل: القارص: اللبن الذي يَحْذي اللسان، فأطلق ولم يخصص الإبل. اللسان (قرص).

(٤) وعجزه: حتى شَتَتْ همَّالةً عيناها، وسلف ١/ ٢٩١ ، و٧/ ٣٤٩ .

(٥) الصحاح (قمع).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٤٠ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ٣/ ١٧٣ - ١٧٤ من طريق رجل من بني تميم، عن أبي العوام من قوله مطولاً.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالضرب بالمَقامع؛ قال أبو ظَبيان: ذُكر لنا أنَّهم يحاولون الخروج من النار حين تَجيشُ بهم وتفورُ، فتُلْقي مَن فيها إلى أعلى أبوابها، فيريدون الخروجَ، فتعيدُهم الخُزَّانُ إليها بالمَقامع[(١)].

وقيل: إذا اشتدَّ غمُّهم فيها فرُّوا، فَمَن خَلَص منهم إلى شَفِيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمَقامع، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: المُحْرِق؛ مثلُ الأليمُ والوَجِيعُ. وقيل: الحريقُ: الاسم من الاحتراق، تحرَّق الشيءُ بالنار واحترق، والاسم: الحُرْقة والحريق[(٢)]. والذَّوْق: مماسَّةٌ يحصل معها إدراكُ الطعم، وهو هنا توسُّعٌ، والمراد به إدراكُهم الألم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لمَّا ذكر أحد الخصمين، وهو الكافر؛ ذكر حال الخصم الآخر، وهو المؤمن. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ «مِن» صِلة[(٣)]. والأساور جمع

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٩٨ .

(٢) الصحاح (حرق).

(٣) وهذا على مذهب مَن أجاز زيادة «من» في الإيجاب، ينظر أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص٢٣٤ ، والدرّ المصون ٨/ ٢٥٢ ، وروح المعاني ١٧/ ١٣٥ . وقيل: هي للتبعيض، أي: بعض أساور. وقيل: لبيان الجنس، ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ٢٥٢ .

أَسوِرة، وأسورة واحدها سِوار، وفيه ثلاثُ لغاتٍ: ضمُّ السين، وكَسْرُها، وإسوار[١].

قال المفسِّرون: لمَّا كانت الملوك تلبَس في الدنيا الأساور والتِّيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحدٌ من أهل الجنة إلَّا وفي يده ثلاثةُ أسورة: سِوارٌ من ذهب، وسوارٌ من فضة، وسوارٌ من لؤلؤ؛ قال هنا وفي «فاطر»: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣]، وقال في سورة الإنسان: ﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الآية: ٢١].

وفي صحيح مسلمٍ من حديث أبي هريرة: سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تَبْلغُ الحِلْيةُ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٢].

وقيل: تُحَلَّى النساءُ بالذهب والرجالُ بالفضة. وفيه نظر، والقرآن يردُّه.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ نافع وابن القَعْقاع وشيبةُ وعاصمٌ هنا وفي سورة الملائكة: «لؤلؤاً» بالنصب[٣]، على معنى: ويُحَلَّون لؤلؤاً، واستدلُّوا بأنها مكتوبةٌ في جميع المصاحف هنا بألف[٤]. وكذلك قرأ يعقوبُ والجَحْدَرِيُّ وعيسى بنُ عمر بالنصب هنا، والخفضِ في «فاطر»[٥]؛ اتِّباعاً للمصحف، ولأنها كُتبت هاهنا بألفٍ وهناك بغير ألف[٦]. الباقون بالخفض في الموضعين. وكان أبو بكر لا يهمز «اللؤلؤ» في كلِّ القرآن[٧]. وهو

(١) ينظر الصحاح (سور)، وتهذيب اللغة ١٣/ ٥١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٥٠)، وسلف ٧/ ٣٣٤ .

(٣) السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٦ عن عاصم ونافع، وأما ابن القعقاع ـ وهو يزيد أبو جعفر ـ فقد قرأ: لُولؤاً؛ بإبدال الهمزة الأولى واواً ساكنة مدّيّة، وكذلك قرأها أبو بكر شعبة عن عاصم، كما سيذكر المصنف. النشر ٢/ ٣٢٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٤٩٩ ، والمقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار للداني ص٤٠ .

(٥) النشر ٢/ ٣٢٦ عن يعقوب.

(٦) المقنع للداني ص٤٠ ، وقد وقع في مصاحفنا بألف في الموضعين، فليحرر.

(٧) أي: لُولُؤاً؛ بإبدال الهمزة الأولى فقط واواً ساكنة مدّيّة. وكذلك أبدلها أبو عمرو في رواية السوسي، غير أنه قرأ بالخفض. السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٦ ، والكشف ٢/ ١١٨ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ عن أبي علي الفارسي قوله: هَمْزُهما وتخفيفُهما، وهَمْزُ إحداهما دون الأخرى جائز كلُّه. وينظر الحجة للفارسي ٥/ ٢٦٧ - ٢٦٨ .

ما يُستخرج من البحر من جَوْفِ الصَّدَف.

قال القُشيرِيُّ: والمرادُ ترصيع السوار باللؤلؤ، ولا يبعدُ أن يكون في الجنة سوارٌ من لؤلؤٍ مُصْمَتٍ[(١)].

قلت: وهو ظاهِرُ القرآن، بل نصُّه.

وقال ابن الأنباريِّ[(٢)]: مَن قرأ: «ولؤلؤٍ» بالخفض، وَقَفَ عليه، ولم يقف على الذهب. وقال السِّجِسْتانيُّ: مَن نَصَبَ «اللؤلؤ» فالوقفُ الكافي: «من ذهب»؛ لأن المعنى: ويُحلَّوْن لؤلؤاً. قال ابن الأنباريِّ: وليس كما قال؛ لأنَّا إذا خَفَضْنا «اللؤلؤ» نَسَقْناه على لفظِ الأساور، وإذا نصبناه نَسَقْناه على تأويل الأساور، وكأنَّا قلنا: يحلَّون فيها أساور ولؤلؤاً، فهو في النَّصب بمنزلته في الخفض، فلا معنى لقَطْعِه من الأوّل.

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: وجميع ما يلبَسونه من فُرُشهم ولباسهم وسُتورهم حريرٌ، وهو أعلى ممَّا في الدنيا بكثير.

وروى النَّسائيُّ عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن لَبِسَ الحريرَ في الدنيا لم يَلْبَسْه في الآخرة، ومَن شَرِبَ الخمر في الدنيا لم يَشْرَبْه في الآخرة، ومَن شرب في آنيةِ الذَّهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة». ثم قال رسول الله ﷺ: «لباسُ أهلِ الجنةِ، وشرابُ أهلِ الجنة، وآنيةُ أهل الجنة»[(٣)].

فإن قيل: قد سوَّى النبيُّ ﷺ بين هذه الأشياء الثلاثة، وأنه يُحْرَمُها في الآخرة؛ فهل يحرمُها إذا دخل الجنة؟ قلنا: نعم! إذا لم يتب منها؛ حُرِمها في الآخرة، وإنْ

(١) الحلي المصمت: هو الذي لا يخالطه غيره. اللسان (صمت).

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٨٣.

(٣) سنن النسائي الكبرى (٦٨٤٠). وقوله منه: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» أخرجه أحمد (٢٥١) (١١٩٨٥) (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٤) (٥٨٣٢) (٥٨٣٣) عن عمر وأنس وعبد الله بن الزبير ﷺ، وأخرجه مسلم (٢٠٦٩): (١١) و(٢٠٧٣) و(٢٠٧٤) عن عمر وأنس وأبي أمامة ﷺ.

دخل الجنة؛ لاستعجاله ما حرَّم الله عليه في الدنيا.

لا يقال: إنما يُحْرَم ذلك في الوقت الذي يعذَّب في النار، أو بطول مُقامِه في الموقف، فأمَّا إذا دخل الجنةَ فلا؛ لأنَّ حِرْمانَ شيءٍ من لذَّات الجنة لمن كان في الجنة نوعُ عقوبةٍ ومؤاخذةٍ، والجنةُ ليست بدارِ عقوبة، ولا مؤاخذةَ فيها بوجه.

فإنَّا نقول: ما ذكرتموه محتملٌ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردُّه من ظاهر الحديث الذي ذكرناه، وما رواه الأئمةُ من حديث ابن عمر عن النبيِّ ﷺ: «مَن شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها، حُرِمها في الآخرة»[1]. والأصلُ التمسُّكُ بالظاهر حتى يَرِدَ نصٌّ يدفعه، بل قد ورد نصٌّ على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطَّيَالسيُّ في «مسنده»: حدَّثنا هشام، عن قتادةَ، عن داود السرَّاج، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لبس الحريرَ في الدنيا لم يَلْبَسْه في الآخرة، وإن دَخَلَ الجنة لَبِسَه أهلُ الجنة ولم يَلْبَسْه هو»[2]. وهذا نصٌّ صريح وإسنادٌ صحيح[3]. فإن كان: «وإن دخل الجنة لبسه أهلُ الجنة ولم يلبسه هو» من قول النبيِّ ﷺ فهو الغايةُ في البيان، وإن كان من كلام الراوي على ما ذُكِر [أنه موقوف][4] فهو أعلمُ بالمقال وأَقْعَدُ بالحال، ومثلُه لا يقال بالرأي، والله أعلم.

وكذلك: «مَن شرب الخمر ولم يَتُبْ» و«مَن استعمل آنيةَ الذَّهبِ والفضَّة» وكما لا

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

(٢) مسند الطيالسي (٢٢١٧)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٩٥٣٨)، وابن حبان (٥٤٣٧). وهو عند أحمد (١١١٧٩) دون قوله: «وإن دخل الجنة...»، وذكر الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٨٩ أن قوله: «وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» يحتمل أن يكون مُدْرَجاً.

(٣) في (خ) و(م): وإسناده صحيح. والحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف في إسناده داود السراج، وهو لم يرو عنه إلا قتادة، كما ذكر الذهبي في الميزان ٢/ ٢٢ . وقال ابن المديني: مجهول لا أعرفه، وذكره ابن حبان في الثقات. التهذيب ١/ ٥٧٣ . أما أول الحديث فصحيح كما سلف.

(٤) أخرجه موقوفاً النسائي في الكبرى (٩٥٣٦) دون قوله: وإن دخل الجنة . . .، وأخرجه بتمامه موقوفاً الخطيب البغدادي في الفصل للوصل ١/ ٥٧٣ .

يشتهي منزلةَ مَن هو أرْفَعُ منه، وليس ذلك بعقوبةٍ، كذلك لا يشتهي خمرَ الجنة ولا حريرَها، ولا يكون ذلك عقوبةً. وقد ذكرنا هذا كلَّه في كتاب «التذكرة»[١]، والحمد لله، وذكرنا فيها أنَّ شجر الجنة وثمارَها يَتفتَّق عن ثياب الجنة[٢]، وقد ذكرناه في سورة الكهف[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: أُرشِدوا إلى ذلك. قال ابن عباس: يريد: لا إله إلا الله والحمد لله[٤]. وقيل: القرآن. ثم قيل: هذا في الدنيا، هُدُوا إلى الشهادة وقراءة القرآن. ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى صراط الله. وصراطُ الله: دِينُه، وهو الإسلام.

وقيل: هُدُوا في الآخرة إلى الطيِّب من القول، وهو: الحمدُ لله؛ لأنهم يقولون غداً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فليس في الجنة لَغْوٌ ولا كَذِبٌ، فما يقولونه فهو طيِّبُ القول. وقد هُدُوا في الجنة إلى صراط الله؛ إذ ليس في الجنة شيءٌ من مخالفة أمر الله.

وقيل: الطيِّبُ من القول: ما يأتيهم من الله من البِشارات الحسنة. ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى طريق الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) ص٤٤٨ - ٤٤٩، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) التذكرة ص٤٥٤.

(٣) ١٣/ ٢٦٧، وينظر أيضاً ما ورد ١٢/ ٦٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ﴾ أعاد الكلام إلى مشركي العرب حين صَدُّوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة، وذلك أنه لم يُعلم لهم صَدٌّ قبل ذلك الجمع، إلَّا أنْ يريدَ صدَّهم لأفرادٍ من الناس، فقد وقع ذلك في صَدْرِ المَبْعَث. والصَّدُّ: المنع. أي: وهم يصدُّون، وبهذا حَسُنَ عَطْفُ المستقبل على الماضي.

وقيل: الواوُ زائدة، و«يصدون» خبرُ «إنَّ». وهذا مُفْسِدٌ للمعنى المقصود، وإنَّما الخبرُ محذوفٌ مقدَّرٌ عند قوله: ﴿وَٱلْبَادِۚ﴾، تقديره: خسروا، أو[1] هلكوا.

وجاء «ويصدُّون» مستقبَلاً؛ إذ هو فعلٌ يُديمُونه، كما جاء قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٨]. فكأنه قال: إنَّ الذين كفروا من شأنهم الصدُّ. ولو قال: إنَّ الذين كفروا وصدُّوا، لجَاز.

قال النحَّاس[2]: وفي كتابي عن أبي إسحاق[3] قال: وجائز أن يكون ـ وهو الوجهُ ـ الخبر: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال أبو جعفر: وهذا غلط! ولستُ أعرف ما الوجهُ فيه؛ لأنه جاء بخبرِ «إنَّ» جَزْماً، وأيضاً فإنه جوابُ الشرط، ولو كان خبرَ «إنَّ» لبقي الشرطُ بلا جواب، ولا سيما والفعلُ الذي في الشرط مستقبلٌ، فلابُدَّ له من جواب.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: إنه المسجدُ نفسه، وهو ظاهرُ القرآن؛ لأنه لم يذكر غيره. وقيل: الحرمُ كلُّه؛ لأنَّ المشركين صدُّوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه عنه عامَ الحديبية، فنزل خارجاً عنه؛ قال الله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح:٢٥]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): إذ، وفي (ظ): إذا، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ ، والكلام من بداية هذه المسألة منه.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٩٣ .

(٣) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٠ .

[الإسراء: ١]. وهذا صحيحٌ، لكنه قَصَدَ هنا بالذِّكر المهمَّ المقصودَ من ذلك[1].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: للصَّلاة والطَّواف والعبادة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦].

﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ العاكفُ: المقيم المُلازِمُ. والبادي: أهلُ البادية ومَن يَقْدَم عليهم. يقول: سواءٌ في تعظيم حُرمته وقضاءِ النُّسك فيه الحاضرُ والذي يأتيه من البلاد، فليس أهلُ مكةَ أحقَّ من النازِعِ[2] إليه.

وقيل: إنَّ المساواة إنَّما هي في دُوره ومنازله، ليس المقيم فيها أَوْلَى من الطارئ عليها. وهذا على أنَّ المسجدَ الحرامَ الحَرَمُ كلُّه؛ وهذا قولُ مجاهدٍ ومالكٍ؛ رواه عنه ابن القاسم[3].

ورُوِيَ عن عمر وابن عباس وجماعةٍ: إلى أنَّ القادم له النزولُ حيث وُجِد، وعلى ربِّ المنزل أن يؤوِيَه شاء أو أبى. وقال ذلك سفيان الثوريُّ وغيره. وكذلك كان الأمر في الصدر الأوّل، [قال ابن سابط:] كانت دُورُهم بغير أبوابٍ حتى كَثُرت السرقة، فاتَّخذ رجلٌ باباً، فأنكر عليه عمر وقال: أتغلقُ باباً في وجه حاجِّ بيتِ الله؟ فقال: إنَّما أردتُ حِفْظَ متاعِهم من السرقة. فتركه فاتَّخذ الناس الأبواب[4].

ورويَ عن عمر بن الخطاب ﷺ أيضاً: أنه كان يأمر في الموسم بقَلْع أبواب دُور مكة، حتى يدخلها الذي يَقْدَم فينزل حيث شاء، وكانت الفساطيطُ تُضرب في الدُّور[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٥.

(٢) في (م): النازح.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣، وأخرجه عن مجاهد ابن أبي شيبة ٤/ ٧٩، والطبري ١٦/ ٥٠٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦، وما سلف بين حاصرتين منه، وخبر ابن سابط أخرجه الطبري ١٦/ ٥٠١، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق (٩٢١٠) عن عطاء، وفيه أن أول مَن بوَّب داره هو سهيل بن عمرو.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣، وأخرج الخبر بنحوه عبد الرزاق (٩٢١١).

ورويَ عن مالك أنَّ الدور ليست كالمسجد، ولأهلها الامتناعُ بها[١] والاستبداد؛ وهذا هو العملُ اليوم. وقال بهذا جمهورٌ من الأمة.

وهذا الخلاف يُبْنَى على أصلين: أحدُهما: أنَّ دُورَ مكةَ؛ هل هي مِلكٌ لأربابها أم للناس؟[٢].

وللخلاف سببان: أحدهما: هل فَتْحُ مكة كان عَنْوَةً فتكونَ مغنومةً، لكن النبيّ ﷺ لم يقسمها وأقرَّها لأهلها ولمن جاء بعدهم، كما فعل عمر ﷺ بأرضِ السَّواد، وعفا لهم عن الخَراج كما عفا عن سَبْيِهم واسترقاقهم إحساناً إليهم دون سائر الكفار، فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكرَى، ومَن سَبَقَ إلى موضعٍ كان أولى به. وبهذا قال مالكٌ وأبو حنيفةَ والأوزاعيُّ.

أو كان فتحُها صُلْحاً ـ وإليه ذهب الشافعيُّ ـ فتبقى ديارهم بأيديهم، وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاؤوا. ورويَ عن عمر أنه اشترى دار صَفْوان بنِ أميةَ بأربعة آلافٍ وجعلها سجناً[٣]، وهو أوّلُ مَن حَبَس في السجن في الإسلام، على ما تقدَّم بيانُه في آية المحاربين من سورة المائدة[٤]. وقد رويَ أنَّ النبيَّ ﷺ حَبَس في تُهمة[٥]. وكان طاوسٌ يكره السجن بمكةَ ويقول: لا ينبغي لبيتِ عذابٍ أن يكون في بيت رحمة[٦].

قلت: الصحيح ما قاله مالك، وعليه تدلُّ ظواهرُ الأخبار الثابتة: بأنَّها فُتحت

---

(١) في النسخ: منها، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ ، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣ ، وقال بعده: الثاني ينبني عليه هذا الأصل، وهو أن مكة هل افتتحت عنوة أو صلحاً؟.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٣٠٦ ، والفاكهي في أخبار مكة (٢٠٧٦). وعلقه البخاري قبل الحديث (٢٤٢٣) دون ذكر الثَّمن.

(٤) ٧/ ٤٣٩ .

(٥) سلف ٨/ ٢٦٥ من حديث معاوية بن حَيْدة ﷺ.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ١١٥ .

عَنوة. قال أبو عبيد[١]: ولا نعلم مكةَ يشبهها شيءٌ من البلاد. وروى الدّارقُطْنيُّ[٢] عن علقمة بن نَضْلة قال: توفِّيَ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تُدْعَى رِباعُ مكة إلَّا السوائب؛ مَن احتاج سَكَن، ومَن استغنى أَسْكَن. وزاد في رواية: وعثمان[٣].

ورَوَى أيضاً عن علقمة بن نَضْلة الكنانيِّ قال: كانت تُدعَى بيوتُ مكةَ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوائب، لا تباع؛ مَن احتاج سَكَن، ومَن استغنى أَسْكَن[٤].

ورَوَى أيضاً عن عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى حرَّم مكةَ، فحرامٌ بيعُ رِبَاعِها وأكلُ ثمنها». وقال: «مَن أكلَ من أجرِ بيوت مكة شيئاً فإنما يأكلُ ناراً». قال الدارقطنيُّ: كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً ووَهَم فيه، ووهَم أيضاً في قوله: عبيد الله بن أبي يزيد، وإنما هو ابنُ أبي زياد القدَّاح، والصحيحُ أنه موقوف[٥].

وأسند الدارقطنيُّ أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مكةُ مُناخٌ، لا تُباعُ رِباعُها، ولا تؤاجَر بيوتها»[٦].

---

(١) في الأموال ص٨٢ ، وسلف قوله ١٠/ ٩ .

(٢) في سننه (٣٠١٩)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣١٠٧). قال الحافظ في الفتح ٣/ ٤٥٠ : في إسناده انقطاع وإرسال.

(٣) سنن الدارقطني (٣٠٢٠).

(٤) سنن الدارقطني (٣٠٢١).

(٥) سنن الدارقطني (٣٠١٥)، والحديث عنده من طريق محمد بن الحسن، عن أبي حنيفة، عن عبيد الله ابن أبي يزيد، عن ابن نجيح، عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ. قال ابن القطان في بيان الوهم ٣/ ٥١٩ : وقد رواه القاسم بن الحكم عن أبي حنيفة على الصواب، فقال فيه: ابن أبي زياد، فلعل الوهم من صاحبه محمد بن الحسن. اهـ قلنا: وهو في كتاب الآثار لمحمد بن الحسن (٣٧١) و(٣٧٢)، وفيه: ابن أبي زياد، على الصواب أيضاً. والموقوف أخرجه الدارقطني (٣٠١٦) و(٣٠١٧).

(٦) سنن الدارقطني (٣٠١٩). وفي إسناده إسماعيل بن إبراهيم، قال الدارقطني بإثر الحديث: إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ضعيف، ولم يروه غيره.

وروى أبو داودَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ يا رسول الله: أَلَا أبني لك بمنًى بيتاً أو بناءً يُظِلُّك من الشمس؟ فقال: «لا، إنما هو مُناخُ مَن سَبَقَ إليه»[١].

وتمسَّك الشافعيُّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠]، فأضافها إليهم، وقال عليه الصلاة والسلام يومَ الفتح: «مَن أغلق بابه فهو آمنٌ، ومَن دَخَلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن»[٢].

الرابعة: قرأ جمهور الناس: ﴿سواءٌ﴾ بالرفع، وهو على الابتداء، و«العاكفُ» خبرُه. وقيل: الخبر «سواءٌ» وهو مقدَّم؛ أي: العاكفُ فيه والبادي سواءٌ؛ وهو قولُ أبي علي، والمعنى: الذي جعلناه للناس قِبلةً أو متعبَّداً؛ العاكفُ فيه والبادي سواءٌ[٣].

وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب، وهي قراءةُ الأعمش. وذلك يحتمِلُ أيضاً وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً ثانياً لجعل، ويرتفعُ «العاكف» به لأنه مصدر، فأُعمِل عَمَلَ اسمِ الفاعل؛ لأنه في معنى مُسْتوٍ. والوجه الثاني: أن يكون حالاً من الضمير في «جعلناه»[٤].

وقرأت فرقة: «سواءً» بالنصب «العاكفِ» بالخفض عطفاً على الناس[٥]، التقدير:

---

(١) سنن أبي داود (٢٠١٩)، وهو عند أحمد (٢٥٥٤١)، والترمذي (٨٨١)، وابن ماجه (٣٠٠٦). ووقع في مطبوع الترمذي: حسن صحيح، وفي التحفة ١٢/ ٤٣٤، ومختصر سنن أبي داود للمنذري ٢/ ٤٣٨: حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٢٢)، ومسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال ابن سيد الناس في عيون الأثر ٢/ ١٧٠: فكان هذا أماناً منه لكلِّ مَن لم يقاتل من أهل مكة، ولهذا قال جماعة من أهل العلم ـ منهم الإمام الشافعي رحمه الله ـ: إن مكة مؤمنة وليست عنوة، والأمان كالصلح.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦، وقول أبي علي الفارسي في الحجة ٥/ ٢٧٠ - ٢٧١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦، وقراءة حفص عن عاصم في السبعة ص٤٣٥، والتيسير ص١٥٧.

(٥) وقع في النسخ: العاكف بالخفض والبادي عطفاً على الناس، بزيادة لفظ: «والبادي»، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ (والكلام منه): ويعني بالعطف هنا عطف البيان، كما ذكر السمين في الدر المصون ٨/ ٢٥٩ وقال: وهذا الذي أراد ابن عطية بقوله: عطفاً على الناس.

الذي جعلناه للناس العاكفِ والبادي.

وقراءةُ ابنِ كَثير في الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياء وَوَصَل بالياء. وقرأ نافعٌ بغير ياءٍ في الوصل والوقف.[(١)] وأجمعَ الناس على الاستواء في نفس المسجد الحرام، واختلفوا في مكةَ، وقد ذكرناه[(٢)].

الخامسة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ شرطٌ، وجوابه: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. والإلحادُ في اللغة: الميل، إلَّا أنَّ الله تعالى بيَّن أنَّ الميل بالظلم هو المراد. واختُلف في الظلم؛ فروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ قال: الشِّرك. وقال عطاء: الشرك والقتل[(٣)].

وقيل: معناه: صَيْدُ حمامِه، وقطعُ شجرِه، ودخولُه غيرَ محرِم[(٤)].

وقال ابن عمر: كنا نتحدَّث أنَّ الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله، وبلى والله، وكلَّا والله. ولذلك كان له فسطاطان؛ أحدُهما في الحِلّ، والآخَرُ في الحَرَم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاطَ الحَرَم، وإذا أراد بعضَ شأنه دخل فسطاط الحِلّ، صيانةً للحَرَم عن قولهم: كلَّا والله، وبلى والله، حين عظَّم الله الذنبَ فيه[(٥)].

وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان؛ أحدهما في الحِلِّ، والآخَرُ في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهلَه عاتبهم في الحِلّ، وإذا أراد أن يصلِّي صلَّى في الحرم، فقيل له في ذلك، فقال: إن كنَّا لنتحدَّث[(٦)] أنَّ من الإلحاد في الحرم

---

(١) وذلك في رواية قالون عنه، وكذلك قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. وأما قراءة نافع في رواية ورش عنه فهي بحذف الياء وقفاً وإثباتها وصلاً، كقراءة أبي عمرو. السبعة ص٤٣٦ ، والتيسير ص١٥٨ .

(٢) في المسألة الثانية.

(٣) ذكر القولين النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٤ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٦/ ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٤) وهذا قول عطاء، كما ذكر البغوي ٣/ ٢٨٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٤ ، وينظر التعليق التالي.

(٦) في (خ) و(ز): لنحدث، وهو موافق لبعض مصادر التخريج.

أن يقول: كلَّا والله، وبلى والله(١).

والمعاصي تُضاعَفُ بمكةَ كما تُضاعَفُ الحسنات، فتكون المعصيةُ معصيتين؛ إحداهما بنفس المخالفة، والثانية بإسقاط حُرمة البلد الحرام، وهكذا الأشهرُ الحُرُم سواء(٢). وقد تقدَّم.

وروى أبو داود عن يَعْلَى بن أميةَ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «احتكارُ الطعام في الحَرم إلحادٌ فيه»(٣). وهو قولُ عمر بن الخطاب(٤). والعمومُ يأتي على هذا كلِّه.

السادسة: ذهب قومٌ من أهل التأويل ـ منهم الضحاكُ وابنُ زيدٍ ـ إلى أنَّ هذه الآيةَ تَدلُّ على أنَّ الإنسان يعاقَبُ على ما ينوِيه من المعاصي بمكةَ وإنْ لم يعمله. وقد رُويَ نحوُ ذلك عن ابن مسعود وابن عمر، قالوا: لو همَّ رجلٌ بقتلِ رجلٍ بهذا البيتِ وهو بِعَدَنِ أَبْيَن؛ لَعَذَّبه الله(٥).

---

(١) كذا ذكر المصنف هذين الخبرين عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، والصواب أنه خبر واحد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، فقد قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١١٢ : ما في نسخ الكشاف: ابن عمر، تصحيف، وإنما هو ابن عمرو. وكذلك أخرجه عن ابن عمرو ابن أبي شيبة ٤/ ٢٨٥ (نشرة العمروي)، والأزرقي في تاريخ مكة ٢/ ١٣١ ، والطبري ١٧/ ١٤١ (طبعة الحلبي)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، وذكره ابن كثير مختصراً عند تفسير هذه الآية، جميعهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٥ .

(٣) سنن أبي داود (٢٠٢٠). وينظر التعليق التالي.

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٥٥ من طريق يعلى بن مُنْية عن عمر ﷺ، ويعلى بن منية هو يعلى بن أمية، ومنية أمه، كما ذكر الحافظ في التقريب، وقال: صحابي مشهور، مات سنة بضع وأربعين. وأخرجه أيضاً عن عمر بإسناد آخر الفاكهي في أخبار مكة (١٧٧٧). قال المنذري في مختصر السنن ٢/ ٤٣٨ : يشبه أن يكون البخاري علل المسند بهذا.

(٥) أخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٦/ ٥٠٨ ، وروي عنه مرفوعاً كما في مسند أحمد (٤٠٧١). وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: وَقْفُه أشبهُ من رَفْعِه. وقال الدارقطني في العلل ٥/ ٢٦٩ : يرويه السدي، وقد اختلف عنه، فرفعه شعبة عن السدي، ووقفه الثوري، والقول قول شعبة. اهـ وعدن =

قلت: هذا صحيحٌ، وقد جاء هذا المعنى في سورة «ن والقلمِ» مبيَّناً، على ما يأتي بيانُه هناك إن شاء الله تعالى[١].

السابعة: الباءُ في «بإلحادٍ» زائدةٌ كزيادتها في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وعليه حَمَلوا قولَ الشاعر:

نحن بنو جَعْدةَ أصحابُ[٢] الفَلَجْ نَضربُ بالسيف ونرجو بالفَرَجْ[٣]

أراد: نرجو الفرج. وقال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزقِ عيالِنا أرْماحُنا[٤]

أي: رِزْقَ. وقال آخر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمي بما لاقَتْ لَبُونُ بني زيادِ[٥]

أي: ما لاقت، والباء زائدة، وهو كثير. وقال الفراء[٦]: سمعتُ أعرابيًا، وسألتُه عن شيء، فقال: أرجو بذاك، أي: أرجو ذاك. وقال الشاعر:

= أبين: مدينة معروفة باليمن، أضيفت إلى أَبْيَنَ، وهو رجل من حِمير عدن بها، أي: أقام. ولم نقف عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) عند تفسير الآيات (١٧ - ١٩) منها.

(٢) في (ظ): أبناء.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦ ، والرجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ برواية: نضرب بالبِيض. وذكره البغدادي في الخزانة ٩/ ٥٢٠ - ٥٢١ وقال: البيض السيوف، وقال ياقوت: الفَلج مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة وقشير. وينظر معجم البلدان ٤/ ٢٧١ .

(٤) وعجزه: ملءَ المراجل والصريحَ الأجردا، كما في مجاز القرآن ٢/ ٤٩ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥ ، وفيه: بين، بدل: ملء. وذكر صدره ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٥٢٢ ، وهو في ديوان الأعشى ص٢٨١ براوية:

ضَمنَتْ لنا أعجازُهنَّ قدورَنا وضروعُهنَّ لنا الصريحَ الأجردا

وينظر الاقتضاب ص٤٥٧ .

(٥) البيت لقيس بن زهير، وسلف ١١/ ٤٤٣ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٣ .

بـوادٍ يَـمـانٍ يُـنْـبِـتُ الـشَّـثَّ صَـدْرُه وأسـفـلُـه بـالـمَـرْخِ والـشَّـبَـهـانِ[١]

أي: المَرخ: وهو قول الأخفش؛ والمعنى عنده: ومَن يُرِدْ فيه إلحاداً بظلم[٢].

وقال الكوفيون: دخلت الباء لأنَّ المعنى: بأن يلحد، والباء مع «أن» تدخلُ وتُحذف[٣]. ويجوز أن يكون التقدير: ومَن يُرِد الناسَ فيه بإلحاد.

وهذا الإلحادُ والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فَلِعِظَمِ حُرمةِ المكان توعَّد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومَن نوى سيئةً ولم يعملها لم يحاسَب عليها إلَّا في مكة[٤]. هذا قولُ ابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة وغيرِهم، وقد ذكرناه آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: واذكر إذ بوَّأنا لإبراهيم؛ يقال: بوَّأته منزلاً وبوَّأْتُ له، كما يقال: مكَّنتكَ ومكنتُ لك، فاللامُ في قوله: «لإبراهيم» صلةٌ للتأكيد، كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، وهذا قولُ الفراء[٥].

وقيل: «بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت» أي: أَرَيْناه أَصْلَه ليَبْنِيَه، وكان قد دَرَس

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٤٩ ، وأدب الكاتب ص٥٢١ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥ ، وجمهرة اللغة ١/ ٤٥ ، و٤/ ٤١٤ ، ونسبه أبو الفرج في الأغاني ٢٢/ ١٤٩ ، والبغدادي في الخزانة ٥/ ٢٧٦ ليعلى الأحول الأزدي، وهو عندهما برواية: ينبت السِّدْر. ونسبه ابن منظور في اللسان (شبه) لرجل من عبد القيس. والشَّثُّ: ضرب من الشجر، والشَّبَهان: ضرب من النَّبْت. قاله ابن دريد. وقال البغدادي: المَرخ: شجر سريع الوَرْي.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٦ .

(٣) الكلام في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٢ بنحوه مطولاً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٣ .

بالطُّوفان وغيره، فلمَّا جاءت مدَّةُ إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنائه، فجاء إلى موضعه، وجعل يطلب أثراً، فبعث الله ريحاً، فكشفت عن أساس آدمَ عليه السلام، فرتَّب قواعده عليه[(١)]، حَسْبَما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[(٢)].

وقيل: «بوَّأنا» نازلةٌ منزلةَ فِعْلٍ يتعدَّى باللام؛ كنحو: جعلنا، أي: جعلنا لإبراهيم مكانَ البيت مُبَوَّأً[(٣)]. وقال الشاعر:

كم من أخٍ لي ماجدٍ   بوَّأتُه بيديَّ لَحْداً[(٤)]

الثانية: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ هي مخاطَبةٌ لإبراهيمَ عليه السلام في قول الجمهور. وقرأ عكرمة: «أنْ لا يُشْرِكَ» بالياء، على نقلِ معنى القولِ الذي قيل له. قال أبو حاتم: ولابدَّ من نصبِ الكاف على هذه القراءة، بمعنى: لأنْ لا يشركَ[(٥)].

وقيل: إنَّ «أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة. وقيل: مُفَسِّرة. وقيل: زائدة؛ مثل: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦].

وفي الآية طعنٌ على مَن أشْرَكَ من قُطَّانِ البيت؛ أي: هذا كان الشرطُ على أبيكم فمَن بَعْدَه، وأنتم لم[(٦)] تَفُوا، بل أشركتم. وقالت فرقة: الخطابُ من قوله: «أن لا تشرك» لمحمدٍ ﷺ؛ وأُمِر بتطهير البيت والأذانِ بالحجّ. والجمهورُ على أنَّ ذلك لإبراهيم، وهو الأصحّ.

وتطهيرُ البيت عامٌّ في الكفر والبِدَع وجميعِ الأنجاس والدماء[(٧)]. وقيل: عنى به

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٢) ٢/ ٣٨٦ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٤) قائله عمرو بن معدي كَرِب، كما في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٧٧ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٧٩ ، والخزانة ١١/ ٢١٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٩٥ عن عكرمة وأبي نهيك.

(٦) في النسخ: فلم، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ ، والكلام منه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

التطهير عن الأوثان، كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]؛ وذلك أنَّ جُرْهُماً والعمالقةَ كانت لهم أصنامٌ في محلِّ البيت وحولَه قبل أن يبنيَه إبراهيم عليه السلام. وقيل: المعنى: نزِّه بيتي عن أن يُعبد فيه صنم، وهذا أمرٌ بإظهار التوحيد فيه. وقد مضى ما للعلماء في تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفايةٌ في «براءة»[١].

والقائمون: هم المصلُّون. وذَكَر تعالى من أركان الصلاة أَعْظَمَها، وهو القيامُ والركوع والسجود.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿وَأَذِّن﴾ بتشديد الذال. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابنُ مُحَيْصِن: «وآذِنْ» بتخفيف الذَّال ومدِّ الألف. ابن عطية: وتصحَّف هذا علَى ابنِ جِنِّي، فإنه حكى عنهما: «وأَذِنَ» على أنه فعلٌ ماضٍ، وأَغْرَبَ على ذلك بأنْ جعله عطفاً على: «بوَّأنا»[٢]. والأذانُ: الإعلام، وقد تقدَّم في «براءة»[٣].

الثانية: لمَّا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له: أَذِّنْ في الناس بالحجّ، قال: يا ربِّ! وما يبلغ صوتي؟ قال: أَذِّنْ، وعليَّ الإبلاغُ، فصعِد إبراهيم

---

(١) ١٠/ ١٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ وما قبله منه. وتعقبه السمين في الدر المصون ٨/ ٢٦٤ فقال: ولم يتصحف فعله، بل حكى تلك القراءة أبو الفضل الرازي في اللوامح له عنهما، وذكرها أيضاً ابن خالويه، ولكنه لم يطلع عليها، فنسب مَن اطَّلع إلى التصحيف. قلنا: قراءة «أذن» بالقصر وتخفيف الذَّال هي في المحتسب ٢/ ٧٨، والقراءات الشاذة ص٩٥.

(٣) ١٠/ ١٠٤.

خليلُ الله جبلَ أبي قُبيس وصاح: يا أيها الناس، إنَّ الله قد أمركم بحجِّ هذا البيتِ ليُثِيبَكم به الجنةَ ويُجيركم من عذاب النار، فحُجُّوا، فأجابه مَن كان في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء: لَبَّيْكَ اللَّهُمَ لَبَّيْك. فَمَن أجاب يومئذٍ حجَّ على قَدْرِ الإجابة، إنْ أجاب مرَّةً فمرة، وإن أجاب مرتين فمرتين، وجرت التلبيةُ على ذلك؛ قاله ابن عباس وابن جبير[1].

ورُوي عن أبي الطُّفيل قال: قال لي ابنُ عباس: أتدري ما كان أصلُ التلبية؟ قلت: لا! قال: لمَّا أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن في الناس بالحجّ، خَفَضَت الجبال رؤوسها ورُفعت له القرى، فنادى في الناس بالحجّ، فأجابه كلُّ شيء: لَبَّيْكَ اللَّهُمّ لَبَّيْك[2].

وقيل: إنَّ الخطاب لإبراهيمَ عليه السلام تمَّ عند قوله: «السجود»، ثم خاطب الله عزَّ وجلَّ محمداً عليه الصلاة والسلام فقال: «وأذِّن في الناس بالحجّ»، أي: أَعْلِمْهم أنَّ عليهم الحجّ.

وقول ثالث: إنَّ الخطاب من قوله: «أن لا تشرك» مخاطبةٌ للنبيِّ. وهذا قولُ أهل النظر؛ لأنَّ القرآن أُنزل على النبيِّ ﷺ، فكلُّ ما فيه من المخاطبة فهي له، إلَّا أنْ يَدلَّ دليلٌ قاطعٌ على غير ذلك، وهاهنا دليلٌ آخَرُ يدلُّ على أنَّ المخاطبة للنبيِّ ﷺ، وهو: «أنْ لا تُشْرِكْ» بالتاء، وهذا مخاطَبةٌ لمشاهِدٍ، وإبراهيم عليه السلام غائبٌ، فالمعنى على هذا: وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيت، فجعلنا لك الدلائلَ على توحيد الله تعالى، وعلى أنَّ إبراهيم كان يعبد الله وحدَه[3].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، دون قوله: فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة ـ إلى قوله ـ فمرتين. وهذه العبارة أخرجها الديلمي بسند واهٍ عن علي رَفَعه، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٤، وأخرجها الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٦٦ ضمن خبر مطوَّل عن ابن إسحاق. وينظر خبر ابن عباس ومجاهد وغيرهما في تفسير الطبري ١٦/ ٥١٤ - ٥١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥، وهذه قطعة من خبر مطول أخرجه أحمد (٢٧٠٧).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥.

وقرأ جمهور الناس: «بالحجّ» بفتح الحاء. وقرأ ابن أبي إسحاقَ في كلِّ القرآن بكسرها[١].

وقيل: إنَّ نداء إبراهيم من جملة ما أُمِر به من شرائع الدين. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وَعَدَه إجابةَ الناس إلى حجّ البيت ما بين راجلٍ وراكب، وإنَّما قال: «يأتوك» وإنْ كانوا يأتون الكعبة؛ لأنَّ المناديَ إبراهيم، فَمَن أَتَى الكعبة حاجًّا فكأنه أَتَى إبراهيم؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريفُ إبراهيم. ابن عطية: «رجالاً» جمعُ راجلٍ، مثل: تاجِرٍ وتِجَار[٢]، وصاحبٍ وصِحاب. وقيل: الرجال جمع رَجْل، والرَّجْل جمع راجل؛ مثل: تِجَارٍ وتَجْرٍ وتاجِر، وصِحَابٍ وصَحْبٍ وصاحِب. وقد يقال في الجمع: رُجَّال، بالتشديد، مثل: كافِر وكفَّار[٣]. وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة: «رُجَالاً» بضمِّ الراء وتخفيف الجيم، وهو قليلٌ في أبنية الجمع، ورويت عن مجاهد. وقرأ مجاهد: «رُجَالَى» على وزن: فُعَالَى، فهو مثلُ: كسالى[٤].

قال النحاس[٥]: في جَمْعِ راجِلٍ خمسةُ أَوْجُهٍ: رُجَّال مثل رُكَّاب، وهو الذي روي عن عكرمة، ورِجَال مثل قِيَام، ورَجْلة، ورَجْل، ورَجَّالة. والذي روي عن مجاهد رُجَالاً غير معروف، والأشبهُ به أن يكون غيرَ منوَّنٍ، مثل كُسالى وسُكارى، ولو نُوِّن لكان على فُعالٍ، وفُعَالٌ في الجمع قليل. وقدَّم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادةِ تعبهم في المشي.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٣) ينظر ما سلف ٤/ ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ - ١١٨ ، والقراءتان في المحتسب ٢/ ٧٩ . والثانية في القراءات الشاذة ص٩٥ عن ابن عباس وعطاء وابن جبير.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨ .

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ لأنَّ معنى «ضامر» معنى ضوامر، قال الفرَّاء: ويجوز: «يأتي» على اللفظ[١]. والضامر: البعير المهزولُ الذي أتعبه السفر؛ يقال: ضَمُرَ يَضْمُر ضُموراً، فوصفها الله تعالى بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة. وذَكَر سبب الضُّمور فقال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: أثَّر فيها طولُ السفر. ورَدَّ الضمير إلى الإبل تكرمةً لها لقصدها الحجّ مع أربابها، كما قال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] في خيلِ الجهاد تكرمةً لها حين سَعَتْ في سبيل الله[٢].

الرابعة: قال بعضهم: إنَّما قال: «رجالاً»؛ لأنَّ الغالب خروج الرجال إلى الحجّ دون الإناث، فقوله: «رجالاً» من قولك: هذا رجلٌ. وهذا فيه بعدٌ؛ لقوله: «وعلى كلِّ ضامر» يعني الرُّكْبانَ، فدخل فيه الرجالُ والنساء.

ولمَّا قال تعالى: «رجالاً» وبدأ بهم دلَّ ذلك على أنَّ حجَّ الراجل أفضلُ من حجِّ الراكب. قال ابن عباس: ما آسَى على شيءٍ فاتني إلَّا أنْ لا أكون حججتُ ماشياً، فإنِّي سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾. وقال ابن أبي نَجِيح: حجَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشِيَيْن. وقرأ أصحاب ابن مسعود: «يأتون»، وهي قراءة ابن أبي عَبْلَةَ والضحَّاك، والضميرُ للناس[٣].

الخامسة: لا خلافَ في جواز الركوب والمشي، واختلفوا في الأفضل منهما؛ فذهب مالك والشافعيُّ في آخرين إلى أنَّ الركوب أفضل، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ولكثرة النفقة، ولتعظيم شعائر الحج بأُبَّهة[٤] الركوب. وذهب غيرهم إلى أنَّ المشيَ أفضلُ؛ لِما فيه من المشقَّة على النفس[٥]، ولحديث أبي سعيد قال: حجَّ النبيُّ ﷺ وأصحابُه

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٤ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٧ .
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص٩٥ . وأخرج قولي ابن عباس وابن أبي نجيح الطبري ١٦/ ٥١٨ .
(٤) في (م): بأهبة.
(٥) المفهم ٣/ ٣٢٣ .

مشاةً من المدينة إلى مكة، وقال: «ارْبطوا أوساطكم بأزُرِكم» ومشَى خِلْطَ الهَرْولة. خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[(١)]. ولا خلافَ في أنَّ الركوبَ في الوقوف بعرفة أفضلُ، واختُلف في الطواف والسعي، والركوبُ[(٢)] عند مالكٍ في المناسك كلِّها أفضل؛ للاقتداء بالنبيِّ ﷺ.

السادسة: استدلَّ بعضُ العلماء بسقوط ذِكر البحر من هذه الآية على أنَّ فرض الحجّ بالبحر ساقط. قال مالك في «المَوَّازِيَّة»: لا أسمع للبحر ذكراً. وهذا تَأَنُّسٌ، لا أنه يلزم من سقوط ذِكْرِه سقوطُ الفَرْضِ فيه؛ وذلك أنَّ مكة ليست في ضِفَّةِ بحرٍ فيأتيَها الناس في السفن، ولابدَّ لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة[(٣)] إمَّا راجلاً وإمَّا على ضامر، فإنما ذُكرت حالتا الوصول. وإسقاطُ فرضِ الحج بمجرَّدِ البحر[(٤)] ليس بالكثير ولا بالقويّ، فأمَّا إذا اقترن به عدوٌّ وخوفٌ، أو هَوْل شديد، أو مرضٌ يَلْحَق شخصاً، فمالكٌ والشافعيُّ وجمهورُ الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار، وأنه ليس بسبيلٍ يستطاع. قال ابن عطية: وذَكَر صاحب «الاستظهار» في هذا المعنى كلاماً، ظاهرُهُ أنَّ الوجوبَ لا يسقط بشيءٍ من هذه الأعذار، وهذا ضعيف.

قلت: وأضعفُ من ضعيفٍ، وقد مضى في «البقرة» بيانه[(٥)].

والفَجُّ: الطريق الواسعة، والجمع فِجاج. وقد مضى في «الأنبياء»[(٦)]. والعميقُ معناه: البعيد. وقراءة الجماعة: «يأتِين». وقرأ أصحاب عبد الله: «يأتون»، وهذا

---

(١) برقم (٣١١٩)، وأخرجه أيضاً ابن عدي ٢/ ٨٤٣ . قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ١٥٣ : هذا إسناد ضعيف. وفي شرح السندي لابن ماجه ٢/ ٢٧٠ : وقال الدميري: وهو ضعيف منكر مردود بالأحاديث الصحيحة التي تقدمت أن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا مشاة من المدينة إلى مكة. وقوله: خِلْط الهرولة (بالكسر) قال السندي: أي شيئاً مخلوطاً بالهرولة، بأن يمشي حيناً ويهرول حيناً أو معتدلاً.

(٢) من قوله: في الوقوف بعرفة، إلى هذا الموضع، سقط من (د) و(م)، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٣/ ٣٢٣ ، والكلام منه.

(٣) في (ظ): أن يصير إلى مكة، والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، والكلام منه.

(٤) في (ظ): بمجرد إسقاط ذكر البحر، والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز.

(٥) لم نقف عليه في سورة البقرة، وينظر ٥/ ٢٢١ وما بعدها.

(٦) ص١٩٨ من هذا الجزء .

للركبان، و«يأتِين» للجمال؛ كأنه قال: وعلى إبلٍ ضامرةٍ يأتين ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد؛ ومنه: بئرٌ عميقة، أي: بعيدةُ القعر؛ ومنه:

وقاتِمِ الأعْماقِ خاوِي المُخْتَرقْ[1]

السابعة: واختلفوا في الواصل إلى البيت؛ هل يرفعُ يديه عند رؤيته أم لا؟ فروى أبو داود قال: سُئل جابر بن عبد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقال: ما كنتُ أرى أحداً يفعل هذا إلّا اليهود، وقد حَجَجْنا مع رسول الله ﷺ، فلم نكن نفعله[2].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تُرفع الأيدي في سبعِ مَوَاطِنَ: افتتاح الصلاة، واستقبال البيت، والصَّفَا والْمَرْوة، والموقفين، والجمرتين»[3]. وإلى حديث ابن عباس هذا ذهب الثوريُّ وابن المبارك وأحمدُ وإسحاقُ، وضعَّفوا حديث جابر؛ لأنَّ مهاجراً المكيَّ راويه مجهولٌ. وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت. وعن ابن عباس مثلُه[4].

قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٢ ، والرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص١٠٤ ، وبعده: مُشْتَبِهِ الأعلام لمّاعِ الخَفَقْ.

(٢) سنن أبي داود (١٨٧٠)، وأخرجه أيضاً النسائي في المجتبى ٥/ ٢١٢ وهو من طريق المهاجر المكي، عن جابر به. والمهاجر المكي هو ابن عكرمة المخزومي، كما ذكر ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/ ٢٨٦ ، وقال: ولا يعرف حاله، وهناك رجل آخر يقال له مهاجر المكي، وهو ابن القبطية، وهو ثقة.

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٠٧٢). وأخرجه أيضاً البزار (٥١٩) عن ابن عباس وابن عمر. وأخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٩٦ عن ابن عباس موقوفاً. قال ابن القيم في المنار المنيف ص١٣٨ : لا يصح رَفْعُه، والصحيح وَقْفُه على ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما. وينظر السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٧٢ - ٧٣ ، ونصب الراية ١/ ٣٩٠ - ٣٩١ .

(٤) معالم السنن ٢/ ١٩١ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُواْ﴾ أي: أذِّن بالحجّ يأتوك رجالاً وركباناً ليشهدوا، أي: ليَحْضُروا. والشُّهود: الحُضور. ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: المناسك، كعرفات والمَشْعَر الحرام. وقيل: المغفرة. وقيل: التجارة. وقيل: هو عموم، أي: ليحضروا منافعَ لهم، أي: ما يُرضي اللهَ تعالى من أمر الدنيا والآخرة؛ قاله مجاهد وعطاء، واختاره ابن العربي[١]؛ فإنه يجمع ذلك كلَّه من نسكٍ وتجارةٍ ومغفرةٍ ومنفعةِ دنيا وأخرى[٢]. ولا خلافَ في أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] التجارة.

الثانية: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ قد مضى في «البقرة» الكلامُ في الأيام المعلومات والمعدودات[٣]. والمرادُ بذكر اسم الله ذِكْرُ التسمية عند الذبح والنحر، مثل قولك: باسم الله والله أكبر، اللهمَّ منك ولك[٤]. ومثل قولك عند الذبح: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢]. وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبيَّن الربُّ أنَّ الواجب الذبحُ على اسم الله، وقد مضى في «الأنعام»[٥].

الثالثة: واختلف العلماء في وقت الذبح يومَ النحر؛ فقال مالك ﷺ: بعد صلاة الإمام وذَبْحِه، إلَّا أن يؤخِّر تأخيراً يتعدَّى فيه، فيسقط الاقتداء به. وراعَى أبو حنيفةَ الفراغَ من الصلاة دون مراعاةِ ذبحِ الإمام[٦]. والشافعيُّ دخولَ وقتِ الصلاة ومقدارَ ما تُوقَع فيه مع الخطبتين، فاعتَبر الوقتَ دون الصلاة. هذه روايةُ المُزَنيِّ عنه، وهو قول

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦٨ وما سيأتي منه، وأخرجه عن مجاهد عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٦، والطبري ١٦/ ٥٢١.

(٢) في أحكام القرآن: وآخرة.

(٣) ٣/ ٣٢٠ و ٣٦٢.

(٤) في (ظ): وإليك.

(٥) ٩/ ١٢ وما بعدها.

(٦) وقع في النسخ: دون ذبح، بدل قوله: دون مراعاة ذبح الإمام، والمثبت من المفهم ٥/ ٣٥٣، والكلام منه.

الطبريّ. وذكر الربيع عن البُوَيْطيِّ قال: قال الشافعيُّ: ولا يَذبح أحدٌ حتى يذبح الإمامُ إلَّا أن يكون ممن لا يذبح، فإذا صلَّى وفرغ من الخطبة حلَّ الذَّبْح. وهذا كقول مالك. وقال أحمد: إذا انصرف الإمام فاذبح. وهو قولُ إبراهيم(١).

وأصحُّ هذه الأقوال قولُ مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ يومَ النحر بالمدينة، فتقدَّم رجالٌ فنحروا، وظنُّوا أنَّ النبيَّ ﷺ قد نحر، فأمر النبيُّ ﷺ مَن كان نحر أن يعيد بنحرٍ آخَر، ولا ينحروا حتى ينحر النبيُّ ﷺ. خرَّجه مسلم(٢)، والترمذيُّ وقال: وفي الباب عن جابرٍ وجُنْدَب وأنس وعُوَيْمر بن أشقر وابن عمر وأبي زيد الأنصاريِّ، وهذا حديثٌ حسنٌ صحيح، والعمل على هذا عند [أكثر] أهل العلم: ألَّا يضحَّى بالمصر حتى يصلِّيَ الإمام(٣).

وقد احتجَّ أبو حنيفة بحديث البَرَاء، وفيه: «ومَن ذبح بعد الصلاة فقد تَمَّ نُسُكُه وأصاب سنَّةَ المسلمين». خرجه مسلم أيضاً. فعلَّق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح [للإمام](٤)، وحديثُ جابر يقيِّده. وكذلك حديثُ البراء أيضاً؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلِّيَ، ثم نرجع فننحر، فَمَن فَعَلَ ذلك فقد أصاب سُنَّتنا» الحديث(٥).

---

(١) التمهيد ٢٣/١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) في صحيحه (١٩٦٤)، وهو عند أحمد (١٤١٣٠).

(٣) الحديث الذي أشار إليه المصنف عند الترمذي هو برقم (١٥٠٨)، وهو من حديث البراء، وقال بإثره: وفي الباب عن جابر. . . الخ ولفظ حديث البراء عنده: خطبنا رسول الله ﷺ في يوم نحر فقال: «لا يذبحنَّ أحدكم حتى نصلي» قال: فقام خالي فقال: يا رسول الله، هذا يومٌ اللحمُ فيه مكروه، وإنِّي عجَّلت نسكي لأطعم أهلي وأهل داري أو جيراني، قال: «فأعِدْ ذبحاً آخر»...، ولفظ الحديث، وكلام الترمذي بعده لا يفيد مراد المصنف: في إيراده شاهداً على إيقاف الأمر على ذبح الإمام، وينظر عارضة الأحوذي ٦/ ٣٠٧ . وحديث البراء هذا في الصحيحين، وسترد بعض رواياته.

(٤) المفهم ٥/ ٣٥٣ ، وما بين حاصرتين منه، وحديث البراء عند مسلم (١٩٦١): (٤)، وأخرجه أيضاً البخاري (٥٥٤٦).

(٥) أخرجه أحمد (١٨٤٨١)، والبخاري (٩٥١)، ومسلم (١٩٦١): (٧).

وقال أبو عمر بن عبد البرِّ: لا أعلم خلافاً بين العلماء أنَّ مَن ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحٍّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن ذَبَح قبل الصلاةِ فتلك شاةُ لحمٍ»(١).

الرابعة: وأمَّا أهلُ البوادي ومَن لا إمامَ له، فمشهورُ مذهبِ مالكٍ: يتحرَّى وقتَ ذبحِ الإمام، أو أقربِ الأئمة إليه. وقال ربيعةُ وعطاءٌ فيمَن لا إمامَ له: إنْ ذَبَح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويجزيه إنْ ذَبَح بعده. وقال أهلُ الرأي: يجزيهم من بعد الفجر. وهو قولُ ابن المبارك؛ ذكره عنه الترمذيُّ. وتمسَّكوا بقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، فأضاف النَّحر إلى اليوم. وهل اليومُ من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس؟(٢) قولان. ولا خلافَ أنه لا يجزي ذبحُ الأضحيَّة قبل طلوع الفجر من يوم النحر.

الخامسة: واختلفوا كم أيامُ النحر؟ فقال مالك: ثلاثة، يومُ النَّحْر ويومان بعده. وبه قال أبو حنيفة والثوريُّ وأحمد بن حنبل، ورويَ ذلك عن أبي هريرة وأنس بن مالك من غير اختلافٍ عنهما. وقال الشافعيُّ: أربعة، يومُ النحر وثلاثةٌ بعده. وبه قال الأوزاعيُّ، ورُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ، وابنِ عباس وابنِ عمر ﷺ، ورُويَ عنهم أيضاً مثلُ قولِ مالكٍ وأحمد. وقيل: هو يومُ النحر خاصةً، وهو العاشرُ من ذي الحجة، ورُوي عن ابن سِيرين. وعن سعيد بن جبير وجابر بن زيد أنَّهما قالا: النحرُ في الأمصار يومٌ واحدٌ، وفي منًى ثلاثةُ أيام. وعن الحسن البصريِّ في ذلك ثلاثُ رواياتٍ: إحداها كما قال مالك، والثانية كما قال الشافعيُّ. والثالثة: إلى آخرِ يوم من ذي الحجة، فإذا أهلَّ هلالُ المحرَّم فلا أَضْحَى(٣).

---

(١) التمهيد ٢٣/ ١٨٢ ، وهذه قطعة من حديث البراء المتقدم، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١): (٤).

(٢) المفهم ٥/ ٣٥٣ ، وقول ابن المبارك في سنن الترمذي إثر الحديث (١٥٠٨).

(٣) الاستذكار ١٥/ ٢٠٠ - ٢٠٢ .

قلت: وهو قولُ سليمانَ بنِ يسار وأبي سلمةَ بنِ عبد الرحمن، ورويا حديثاً مرسَلاً مرفوعاً خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ: الضحايا إلى هلالِ المحرَّم. ولم يصح[(١)]، ودليلُنا قولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ الآية، وهذا جمعُ قِلَّة، لكن المتيقَّن منه الثلاثة، وما بعد الثلاثةِ غيرُ متيقَّنٍ، فلا يُعمل به[(٢)].

قال أبو عمر بن عبد البرّ[(٣)]: أجمع العلماء على أنَّ يومَ النحر يومُ الأضْحَى، وأجمعوا أنْ لا أضحى بعد انسلاخ ذي الحجة، ولا يصح عندي في هذه إلَّا قولان: أحدهما: قولُ مالكٍ والكوفيين، والآخَر: قولُ الشافعيِّ والشاميين؛ وهذان القولان مَرْوِيَّان عن الصحابة، فلا معنى للاشتغال بما خالفهما؛ لأنَّ ما خالفهما لا أصلَ له في السنَّة ولا في قول الصحابة، وما خَرَج عن هذين فمتروكٌ لهما.

وقد رُوي عن قتادةَ قولٌ سادس، وهو أنَّ الأضحى يومُ النحر وستةُ أيامٍ بعده[(٤)]، وهذا أيضاً خارجٌ عن قول الصحابة، فلا معنى له.

السادسة: واختلفوا في ليالي النَّحْرِ؛ هل تدخلُ مع الأيام فيجوز فيها الذبح، أوْ لا؟ فرويَ عن مالكٍ في المشهور: أنَّها لا تدخل، فلا يجوز الذبح بالليل. وعليه جمهورُ أصحابه[(٥)] وأصحابِ الرأي[(٦)]؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ﴾

---

(١) سنن الدارقطني (٤٧٤٢) وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٣٧٧) كلاهما عن أبي سلمة وسليمان بن يسار أنه بلغهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الضحايا إلى آخر الشهر لمن أراد أن يستأني ذلك» لفظ الدارقطني. ووقع في النسخ عدا (ظ): ذي الحجة، بدل: المحرم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لرواية الحديث في مراسيل أبي داود (٣٧٧).

(٢) المفهم ٥/ ٣٥٤ .

(٣) في الاستذكار ١٥/ ٢٠٥ .

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٩٦ ، والاستذكار ١٥/ ٢٠٣ .

(٥) إكمال المعلم ٦/ ٤٠٢ ، والمفهم ٥/ ٣٥٤ .

(٦) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، والذي في تحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندي ٣/ ٨٣ ، وبدائع الصنائع ٦/ ٣١٢ ، وحاشية ابن عابدين ٦/ ٣١٦ عن الأحناف جواز الذبح بالليل مع الكراهة. وهذه الكراهة تنزيهية كما في حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٢٠ . وسيذكر المصنف القول بالجواز عن أبي حنيفة فيما يأتي نقلاً عن إكمال المعلم والمفهم.

فذَكرَ الأيامَ، وذِكرُ الأيامِ دليلٌ على أنَّ الذبح في الليل لا يجوز.

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ وأبو ثور: الليالي داخلةٌ في الأيام ويجزي الذبحُ فيها. وروي عن مالكٍ وأشهبَ نحوُه، ولأشهبَ تفريقٌ بين الهَدْي والضحِيَّة، فأجاز الهَدْيَ ليلاً، ولم يُجِز الضحيَّةَ ليلاً(١).

السابعة: قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ أي: على ذَبْحِ ما رَزَقَهم. ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ والأنعامُ هنا: الإبلُ والبقر والغنم. وبهيمةُ الأنعام هي الأنعام، فهو كقولك: صلاةُ الأولى، ومسجدُ الجامع.

الثامنة: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه الندب عند الجمهور. ويستحبُّ للرجل أن يأكل من هَدْيه وأضحِيَّته وأن يتصدَّق بالأكثر، مع تجويزهم الصدقةَ بالكلِّ وأكلَ الكلِّ(٢). وشذَّتْ طائفةٌ فأوجبت الأكلَ والإطعام بظاهر الأمر(٣)، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «فكلوا وادَّخروا وتصدَّقوا»(٤). قال الكِيَا(٥): قولُه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ﴾ يدلُّ على أنه لا يجوز بيعُ جميعِه، ولا التَّصَدُّقُ بجميعه.

التاسعة: دماءُ الكفارات لا يأكل منها أصحابها. ومشهورُ مذهب مالك ﷺ أنه لا يأكل من ثلاث: جزاء الصيد، ونذر المساكين، وفِدْية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ مَحِلَّه، واجباً كان أو تطوُّعاً. ووافقه على ذلك جماعةٌ من السلف وفقهاءِ الأمصار(٦).

العاشرة: فإنْ أكَل مما مُنع منه؛ فهل يَغْرَمُ قَدْرَ ما أكَلَ، أو يغرمُ هَدْياً كاملاً؟

---

(١) إكمال المعلم ٦/ ٤٠٢، والمفهم ٥/ ٣٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩.

(٣) في (د) و(م): بظاهر الآية، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٥/ ٣٨٠، والكلام منه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٢٤٩)، ومسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ٢٨١.

(٦) المفهم ٣/ ٤٢٦.

قولان في مذهبنا[١]. وبالأول قال ابن الماجِشون[٢]؛ قال ابن العربيّ: وهو الحقُّ، لا شيءَ عليه غيره. وكذلك لو نَذَر هَدْياً للمساكين فيأكل منه بعد أن بلغ مَحِلَّه، لا يَغْرَم إلَّا ما أكل ـ خلافاً للمدوَّنة ـ لأنَّ النحر قد وقع، والتعدِّي إنما هو على اللحم، فيغرم قَدْرَ ما تعدَّى فيه[٣]. وقوله[٤] تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ يدلُّ على وجوب إخراج النذر وإن كان دَماً أو هَدْياً أو غيره، ويدلُّ ذلك على أنَّ النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاءً بالنذر[٥]، وكذلك جزاءُ الصيد وفِديةُ الأذى؛ لأنَّ المطلوب أن يأتيَ به كاملاً من غير نقصِ لحمٍ ولا غيرِه، فإن أكل من ذلك كان عليه هَدْيٌ كامل. والله أعلم.

الحادية عشرة: هل يَغْرَم قيمةَ اللحم، أو يغرمُ طعاماً؟ ففي كتاب محمد عن عبد الملك: أنه يغرم طعاماً. والأولُ أصح؛ لأن الطعام إنما هو في مقابلة الهَدْي كلِّه عند تعذُّره عبادة، وليس حكم التعدِّي حكمَ العبادة[٦].

الثانية عشرة: فإن عَطِب من هذا الهَدْي المضمونِ الذي هو جزاءُ الصيدِ وفِديةُ الأَذَى ونذرُ المساكين شيءٌ قبلَ مَحِلِّه، أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنياء والفقراء ومَن أَحبّ، ولا يبيع من لحمه ولا جلده ولا من قلائده شيئاً. قال إسماعيل بن إسحاق: لأن الهديَ المضمونَ إذا عَطِب قبل أن يبلغ مَحِلَّه كان عليه بدلُه، ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويُطعم. فإذا عطِب الهدي التطوُّعُ قبل أن يبلغ مَحِلَّه لم يَجُزْ أن يأكل منه ولا يُطعِم؛ لأنه لمَّا لم يكن عليه بدلُه خِيفَ أن يفعل ذلك بالهَدْي وينحر من غير أن يعطَب، فاحتيط على الناس، وبذلك مضى العمل [في هدي التطوُّع إذا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٤٥٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٠ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): قوله، والمثبت من (ظ).

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٨١ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ١٢٨٠ .

عطب في الطريق نَحره صاحبُه وخلّى بينه وبين الناس][١].

وروى أبو داود عن ناجيةَ الأسلميِّ: أن رسول الله ﷺ بعث معه بهَدْيٍ وقال: «إنْ عَطِبَ منها شيءٌ فانْحره، ثم اصبغ نعلَه في دمه، ثم خلِّ بينه وبين الناس»[٢]. وبهذا الحديث قال مالك والشافعيُّ في أحد قوليه، وأحمد وإسحاق وأبو ثَوْر وأصحاب الرأي ومن اتَّبعهم في الهدي التطوع: لا يأكل منها سائقُها شيئاً، ويخلِّي بينها وبين الناس يأكلونها[٣].

وفي صحيح مسلم: «ولا تأكل منها أنت ولا أحدٌ من أهل رفقتك»[٤]. وبظاهِرِ هذا النهي قال ابن عباس والشافعيُّ في قوله الآخر، واختاره ابن المنذر، فقالا: لا يأكل منها [سائقها] ولا أحد من أهل رفقته[٥].

وقال أبو عمر[٦]: قولُه عليه الصلاة والسلام: «ولا[٧] أحدٌ من أهل رفقتك» لا يوجد إلَّا في حديثِ ابنِ عباس. وليس ذلك في حديث هشام بنِ عروة، عن أبيه، عن

---

(١) التمهيد ٢٢/ ٢٦٦، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سنن أبي داود (١٧٦٢)، وهو عند أحمد (١٨٩٤٣)، والترمذي (٩١٠)، وابن ماجه (٣١٠٦). قال الترمذي: حديث ناجية حديث حسن صحيح. وقوله: «ثم اصبغ نعله في دمه» يعني به النعل الذي قلَّدها به، والتقليد أن يعلَّق في عنق البُدْن نعلٌ ليُعرف أنه هدي. التمهيد ٢٢/ ٢٦٤.

(٣) المفهم ٣/ ٤٢٦، دون قوله عن الشافعي: في أحد قوليه.

(٤) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند مسلم (١٣٢٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨٦٩).

(٥) المفهم ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٦، وما بين حاصرتين منه، وليس فيه: والشافعي في قوله الآخر. قال النووي في المجموع ٨/ ٢٨٣: وهل يجوز للفقراء من رفقة صاحب الهدي الأكل منه؟ فيه وجهان مشهوران أصحهما: لا يجوز، وهو المنصوص للشافعي، وصححه الأصحاب للحديث. ثم ذكر في الرفقة وجهين؛ أحدهما: أنهم الذين يخالطونه في الأكل وغيره دون القافلة. والثاني: جميع القافلة؛ قال: وهو أصحهما، وهو الذي يقتضيه ظاهر الأحاديث.

(٦) في التمهيد ٢٢/ ٢٧٦، وبنحوه في الاستذكار ١٢/ ٢٨٠.

(٧) قبلها في (ز) و(م): ولا تأكل منها، وفي (خ): ولا يأكل منها أحد، وسقط هذا الموضع من (د) و(ظ)، والمثبت من التمهيد والاستذكار.

ناجيةَ. وهو عندنا أصحُّ من حديث ابن عباس، وعليه العملُ عند الفقهاء. ويدخل في قوله عليه الصلاة والسلام: «خلِّ بينها وبين الناس» أهلُ رفقته وغيرُهم.

وقال الشافعيُّ وأبو ثور: ما كان من الهَدْي أصلُه واجباً فلا يأكل منه، وما كان تطوُّعاً ونسكاً أَكَلَ منه وأهدى وادَّخر وتصدَّق. والمتعةُ والقِران عنده نسكٌ. ونحوُه مذهبُ الأوزاعيِّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يأكل من هَدْي المتعة والتطوُّع، ولا يأكل ممَّا سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام. وحُكي عن مالك: لا يأكل من دم الفساد. وعلى قياسِ هذا: لا يأكل من دم الجبر، كقول الشافعيِّ والأوزاعيِّ[(١)].

تمسَّك مالك بأنَّ جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة:٩٥]. وقال في فِدْية الأذى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]. وقال ﷺ لكعب بن عُجْرَةَ: «أَطْعِمْ ستةَ مساكين مُدَّيْن لكلِّ مسكينٍ، أو صُمْ ثلاثةَ أيامٍ، أو انْسُكْ شاة»[(٢)]. ونَذْرُ المساكين مصرَّحٌ به، وأمَّا غيرُ ذلك من الهدايا فهو باقٍ على أصلِ قوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ [الحج:٣٦]. وقد أكل النبيُّ ﷺ وعليٌّ ﵁ من الهدي الذي جاء به، وشَرِبا من مَرَقِه، وكان عليه الصلاة والسلام قارِناً في أصح الأقوال والروايات، فكان هَدْيُه على هذا واجباً، فما تعلَّق به أبو حنيفةَ غيرُ صحيح[(٣)]. والله أعلم.

وإنَّما أَذِنَ الله سبحانه في الأكل من الهدايا لأجْلِ أنَّ العرب كانت لا ترى أنْ تأكلَ من نُسكها، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ بمخالفتهم؛ فلا جَرَم كذلك شَرَع وبلَّغ، وكذلك فَعَلَ حين أَهدى وأَحْرَمَ ﷺ[(٤)].

---

(١) المفهم ٣/ ٤٢٦، وقوله: دم الجَبْر (أو الجُبْران، كما وقع في ظ): هو ما يَجْبُرُ الخلل الواقع في الحج.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩، وسلف حديث كعب بن عجرة ٣/ ٢٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩، والحديث أخرجه مطولاً أحمد (١٤٤٤٠)، ومسلم (١٢١٨) من حديث جابر ﵁.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩.

الثالثة عشرة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ناسخٌ لفِعْلِهم؛ لأنهم كانوا يحرِّمون لحومَ الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها ـ كما قلناه في الهدايا ـ فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾، وبقول النبيِّ ﷺ: «مَن ضحَّى فلْيأكل من أضحيَّته» ولأنه عليه الصلاة والسلام أكل من أضحيَّته وهَدْيِه. وقال الزُّهريُّ: من السُّنة أن تأكل أوّلاً من الكبِد(١).

الرابعة عشرة: ذهب أكثر العلماء إلى أنه يُستحبُّ أن يتصدَّق بالثلث، ويُطعِم الثلث، ويأكل هو وأهلُه الثلث(٢). وقال ابن القاسم عن مالك: ليس عندنا في الضحايا قَسْمٌ معلومٌ موصوف. قال مالك في حديثه: وبلغني عن ابن مسعود [شيءٌ]، وليس عليه العمل [عندنا]. رَوى الصحيح وأبو داود قال: ضحَّى رسول الله ﷺ بشاةٍ ثم قال: «يا ثَوْبانُ، أَصْلِحْ لحمَ هذه الشاة» قال: فما زلت أُطعمه منها حتى قَدِمَ المدينة. وهذا نصٌّ في الغَرَض(٣). واختلف قول الشافعيِّ؛ فمرةً قال: يأكل النصفَ ويتصدَّق بالنصف؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فذكر شخصين. وقال مرةً: يأكل ثلثاً، ويُهدي ثلثاً، ويُطعم ثُلُثاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فذكَر ثلاثة(٤).

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١١ - ٥١٢، وقوله ﷺ: «من ضحى فليأكل من أضحيته» أخرجه أحمد (٩٠٧٨) من طريق عطاء عن أبي هريرة ـ ﷺ ـ مرفوعاً، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال الحافظ في التقريب: صدوق سيئ الحفظ جدًّا. وذكره ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٤٢ من طريق عطاء عن النبي ﷺ مرسلاً، وقال: قال أبي: هذا الصحيح.

وأخرجه الطبراني (١٢٧١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥: وفيه عبد الله بن خراش، وثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ، وضعَّفه الجمهور.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٢، وما سلف بين حاصرتين منه، ووقع فيه: في المسألة، بدل: في الغرض. وحديث ثوبان عند مسلم (١٩٧٥)، وأبي داود (٢٨١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٢٣٩١).

(٤) التنبيه للشيرازي ص٨١، والمجموع للنووي ٨/ ٣٢٩، والأول هو قول الشافعي في القديم، والثاني قوله في الجديد.

الخامسة عشرة: المسافرُ مُخاطَبٌ بالأضحيَّة كما يخاطب بها الحاضر؛ إذ الأصلُ عمومُ الخطاب بها، وهو قولُ كافَّةِ العلماء. وخالف في ذلك أبو حنيفة والنَّخَعيُّ، وروي عن عليٍّ؛ والحديث حجة عليهم. واستثنى مالكٌ من المسافرين الحاجَّ بمنًى، فلم ير عليه أضحيةً، وبه قال النَّخَعيُّ. وروي ذلك عن الخليفتين أبي بكر وعمر وجماعةٍ من السَّلَف ﷺ؛ لأنَّ الحاجَّ إنما هو مخاطبٌ في الأصل بالهَدْي، فإذا أراد أن يضحِّي جعله هدياً، والناسُ غيرُ الحاجِّ إنما أُمروا بالأضحية ليتشبَّهوا بأهل منًى، فيحصل لهم حظٌّ من أجرهم(١).

السادسة عشرة: اختلف العلماء في الإدِّخار على أربعة أقوال. رُوي عن عليٍّ وابنِ عمر رضي الله عنهما من وجهٍ صحيح أنه لا يُدَّخر من الضحايا بعد ثلاثٍ. وروياه عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي(٢).

وقالت جماعة: ما رُوي من النهي عن الادِّخار منسوخٌ، فيدَّخر إلى أيِّ وقتٍ أَحبَّ. وبه قال أبو سعيد الخُدْريُّ و بُريدةُ الأَسْلميُّ(٣).

وقالت فرقةٌ: يجوز الأكلُ منها مطلقاً.

وقالت طائفة: إن كانت بالناس حاجةٌ إليها فلا يدَّخر؛ لأنَّ النهي إنَّما كان لعلةٍ، وهي قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّما نهيتُكم من أجل الدَّافَّة التي دفَّت». ولمَّا ارتفعَتْ ارتفع المنعُ المتقدِّمُ لارتفاع مُوجِبه، لا لأنه منسوخ(٤). وتنشأ هنا مسألةٌ أصوليةٌ، وهي:

---

(١) المفهم ٥/ ٣٨١.

(٢) في المسألة الثامنة عشرة.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٤ - ٥١٥.

(٤) المفهم ٥/ ٣٧٨، والحديث أخرجه أحمد (٢٤٢٤٩)، ومسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الثامنة. وقوله «الدافَّة»: هم قوم قدموا المدينة في ذلك الوقت مساكينُ أراد رسول الله ﷺ أن يحسن إليهم أهل المدينة ويتصدقوا عليهم. الاستذكار ١٥/ ١٧٠.

السابعة عشرة: وهي الفرقُ بين رَفْعِ الحُكْمِ بالنَّسْخِ، ورَفْعِه لارتفاع علَّتِه. اعلم أنَّ المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبداً، والمرفوع لارتفاع علَّته يعود الحكم لعَوْدِ العلة؛ فلو قَدِمَ على أهل بلدةٍ ناسٌ محتاجون في زمانِ الأَضْحى؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سَعةٌ يسدُّون بها فاقتهم إلَّا الضحايا، لَتعيَّن عليهم ألَّا يدَّخروها فوق ثلاثٍ، كما فعل النبيُّ ﷺ[1].

الثامنة عشرة: الأحاديثُ الواردةُ في هذا الباب بالمنع والإباحة صِحاحٌ ثابتة. وقد جاء المنعُ والإباحةُ معاً، كما هو منصوصٌ في حديث عائشةَ وسَلَمةَ بنِ الأكْوَع وأبي سعيد الخُدْريِّ، رواها الصحيح[2].

ورَوَى الصحيح عن أبي عبيدٍ مَوْلَى ابنِ أَزْهَرَ أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب، قال: ثم صلَّيتُ العيد مع عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: فصلَّى لنا قبل الخطبة، ثم خطب الناس فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد نهاكم أن تأكلوا لحومَ نُسُككم فوق ثلاثِ ليالٍ فلا تأكلوها[3].

ورَوَى عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ نَهى أن تؤكل لحومُ الأضاحي بعد[4] ثلاث. قال سالم: فكان ابن عمر لا يأكل لحومَ الأضاحي فوق ثلاث[5].

وروى أبو داود عن نُبيشةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاثٍ لكي تَسَعَكم، جاء الله بالسَّعة، فكُلوا وادَّخروا وائتجروا، ألا إنَّ هذه

---

(١) المفهم ٥/ ٣٧٩.

(٢) حديث عائشة في صحيح البخاري (٥٤٢٣)، وصحيح مسلم (١٩٧١)، وهو عند أحمد (٢٤٢٤٩) و(٢٤٩٦٢)، وسلف في المسألة الثامنة، والمسألة السادسة عشرة. وحديث سلمة في صحيح البخاري (٥٥٦٩)، وصحيح مسلم (١٩٧٤). وحديث أبي سعيد الخدري في صحيح البخاري (٣٩٩٧)، وصحيح مسلم (١٩٧٣)، وهو عند أحمد (١١١٧٦) و(١١٨١١).

(٣) صحيح البخاري (٥٥٧٣)، وصحيح مسلم (١٩٦٩): (٢٥)، وهو عند أحمد (٥٨٧).

(٤) في (ظ) و(م): فوق.

(٥) صحيح مسلم (١٩٧٠): (٢٧).

الأيامَ أيامُ أكلٍ وشرب وذكرٍ لِله عزَّ وجلَّ»[١].

قال أبو جعفر النحاس: وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في هذا، حتى تتَّفق الأحاديثُ ولا تتضادَّ، ويكون قولُ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ وعثمانُ محصورٌ ـ لأنَّ الناس كانوا في شدَّةٍ محتاجين، ففعل كما فعل رسول الله ﷺ حين قدمت الدافَّة. والدليلُ على هذا ما حدَّثنا إبراهيم بن شريك قال: حدَّثنا أحمد قال: حدَّثنا ليث قال: حدَّثني الحارث بن يعقوب، عن يزيد بن أبي يزيد، عن امرأته؛ أنها سألت عائشةَ رضي الله عنها عن لحوم الأضاحي فقالت: قَدِمَ علينا عليّ بنُ أبي طالب من سفرٍ فقدَّمنا إليه منه، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله ﷺ، فسأله، فقال: «كُلْ من ذي الحجة إلى ذي الحجة»[٢].

وقال الشافعيُّ: مَن قال بالنهي عن الادِّخار بعد ثلاثٍ لم يسمع الرخصةَ. ومَن قال بالرخصةِ مطلقاً لم يسمع النهيَ عن الادِّخار. ومَن قال بالنهي والرخصة سمعهما جميعاً، فعمِل بمقتضاهما. والله أعلم. وسيأتي في سورة الكوثر الاختلافُ في وجوب الأضحيَّة وندبيَّتها، وأنها ناسخةٌ لكلِّ ذبحٍ تقدَّم[٣]، إن شاء الله تعالى.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ «الفقير» من صفة البائس، وهو الذي ناله البؤسُ وشدَّةُ الفقر؛ يقال: بَئِس يَبْأَس بأساً: إذا افْتقَر، فهو بائس. وقد يُستعمل فيمَن نزلت به نازلةُ دهرٍ وإن لم تكن فَقْراً[٤]؛ ومنه قوله عليه

---

(١) سنن أبي داود (٢٨١٣)، وهو عند أحمد (٢٠٧٢٣). قوله: واتتجروا ـ بهمزة قطع ـ قال ابن الأثير في النهاية (أجر): أي: تصدَّقوا طالبين الأجر بذلك، ولا يجوز فيه «اتَّجروا» بالإدغام؛ لأن الهمزة لا تدغم في التاء، وإنما هو من الأجر لا من التجارة.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٦ ، وهو عند أحمد (٢٥٢١٨) و(٢٦٤١٥).

(٣) لم يذكر المصنف في سورة الكوثر شيئاً عن الأضحية، وإنما أعاد الكلام فيها إلى سورة الحج، وسورة الصافات، وقد تكلم عنها بشكل مفصل في الآية (١٠٧) من «الصافات». وسلف ذكر نسخ الأضحية لكل ذبح تقدم ٦/ ٢١٥ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): وإن لم يكن فقيراً، والمثبت من (خ) و(ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١١٩ ، والكلام منه.

الصلاة والسلام: «لكنِ البائسُ سعد بنُ خَوْلة»[١]. ويقال: رجل بَئيسٌ، أي: شديد. وقد بَؤُسَ يبْؤس بأساً: إذا اشتدَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥] أي: شديد.

وكلَّما كان التصدُّقُ بلحم الأضحيَّة أكثرَ؛ كان الأجر أوْفرَ. وفي القَدْر الذي يجوز أكلُه خلافٌ قد ذكرناه[٢]؛ فقيل: النصف؛ لقوله: ﴿فَكُلُوا۟﴾ ﴿وَأَطْعِمُوا۟﴾. وقيل: الثلثان؛ لقوله: «فكُلُوا وادَّخِروا وائتجروا»[٣] أي: اطلبوا الأجر بالإطعام.

واختلف في الأكل والإطعام؛ فقيل: واجبان. وقيل: مُسْتحبَّان. وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام؛ فالأكلُ مستحبٌّ والإطعامُ واجبٌ، وهو قولُ الشافعيِّ[٤].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج، كالحَلْق ورَمْي الجمار وإزالةِ شَعَثٍ ونحوِه. قال ابن عرفة: أي: ليزيلوا عنهم أدرانهم. وقال الأزهريّ[٥]: التَّفَثُ: الأخذُ من الشارب، وقصُّ الأظفار، ونَتْفُ الإبطِ، وحَلْقُ العانة، وهذا عند الخروج من الإحرام.

وقال النَّضر بن شُميل: التَّفَثُ في كلام العرب: إذهابُ الشَّعَث[٦].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٥٢٤)، والبخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، وقد رثى رسول الله ﷺ لسعد بن خولة أن مات بمكة كما جاء في تتمة الحديث، وينظر ما سلف ٤/ ١٢٨ .

(٢) في المسألة الرابعة عشرة.

(٣) سلف في المسألة السابقة من حديث نبيشة ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ .

(٥) في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٦ ، وقد ذكره الأزهري عن الزجاج، وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤ .

(٦) الشعث: أن يغبرَّ الشعر وينتتف لبعد عهده بالتعهُّد من المشط والدهن. الفائق ٣/ ٢٨ . وقال الأزهري: لم يفسر أحد من اللغويين التفث كما فسره ابن شميل؛ جعل التفث التشعُّثَ وجعل قضاءه إذهاب الشعث بالحلق والتقليم وما أشبهه.

وسمعتُ الأزهريَّ يقول: التفثُ في كلام العرب لا يُعرف إلّا من قولِ ابن عباسٍ وأهلِ التفسير[١].

وقال الحسن: هو إزالةُ قَشَفِ الإحرام. وقيل: التَّفَثُ مناسكُ الحجِّ كلُّها؛ رواه ابن عمر وابن عباس. قال ابن العربيِّ[٢]: لو صحَّ عنهما لكان حجةً؛ لشرف الصُّحبة والإحاطةِ باللغة، قال: وهذه اللفظةُ غريبةٌ [عَرَبيةٌ] لم يجد أهل العربية[٣] فيها شعراً ولا أحاطوا بها خبراً، لكنِّي تَتَبَّعْتُ التَّفَثَ لغةً فرأيتُ أبا عبيدةَ مَعْمر بنَ المُثَنَّى قال: إنه قصُّ الأظفار، وأخذُ الشارب، وكلُّ ما يَحْرُم على المحرِمِ إلَّا النكاح. قال[٤]: ولم يَجِئ فيه بشعرٍ[٥] يُحتجُّ به. وقال صاحب العين: التفثُ: هو الرميُ، والحَلْقُ، والتقصيرُ، والذبحُ، وقصُّ الأظفار والشارب، ونتفُ الإبط. وذكر الزجَّاج والفرَّاء[٦] نحوه، ولا أراه أخذوه إلَّا من قول العلماء. وقال قُطْرُب: تفثَ الرجلُ: إذا كَثُر وَسَخُه. قال أميّة بن أبي الصَّلْت:

حَفُّوا رؤوسَهمُ لم يحلِقوا تَفَثاً ... ولم يَسُلُّوا لهم قَمْلاً وصِئبانا

وما أشار إليه قُطْرب هو الذي قاله ابن وهب عن مالك[٧]، وهو الصحيحُ في

(١) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٦ ، وقد نقله الأزهري عن الزجاج. ولعل القائل: سمعت الأزهري، هو أبو عبيد الهروي صاحب الغريبين.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٧٠ - ١٢٧١ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه، وقول ابن عباس وابن عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٨٤ - ٨٥ ، والطبري ١٦/ ٥٢٦ وقوله: القشف، أي: قذر الجلد، ورثاثة الهيئة. القاموس (قشف).

(٣) في أحكام القرآن: أهل المعرفة.

(٤) هو ابن العربي، وكلام أبي عبيدة بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٥٠ .

(٥) في النسخ عدا (خ): شعر، والمثبت من (خ) وأحكام القرآن لابن العربي.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤ ، وللفراء ٢/ ٢٢٤ .

(٧) وقول ابن وهب عن مالك كما ذكره ابن العربي: التفث: حلق الشعر، ولبس الثياب، وما أتبع ذلك مما يحل به المحرم.

التَّفَث. وهذه صورةُ قضاء[١] التفثِ لغةً، وأمَّا حقيقتُه الشرعيةُ، فإذا نحر الحاجُّ أو المُعْتَمِر هَدْيَه، وحلق رأسه، وأزال وسخه، وتطهَّر وتنقَّى ولبس، فقد أزال تَفَثه ووفَّى نَذْرَه، والنذرُ ما لزم الإنسان والتزمه.

قلت: ما حكاه عن قُطْرب وذكر من الشعر قد ذكره في تفسيره الماورديُّ، وذكر بيتاً آخر فقال:

قَضَوْا تَفَثاً ونَحْباً ثم ساروا ... إلى نَجْدٍ وما انتظروا عليّا[٢]

وقال الثعلبيُّ: وأصلُ التَّفَث في اللغة: الوسخ؛ تقول العرب للرجل تستقذرُه: ما أتفثك! أي: ما أَوْسخك وأقذرك! قال أميةُ بن أبي الصلت:

شاحين[٣] آباطهم لم يقذفوا تَفَثاً ... وينزعوا عنهم قَمْلاً وصِئبانا[٤]

الماورديّ[٥]: قيل لبعض الصلحاء: ما المعْنيُّ في شَعَث المُحْرِمِ؟ قال: ليشهدَ الله تعالى منك الإعراضَ عن العناية بنفسك، فيعلم صِدْقَكَ في بَذْلها لطاعته.

الحادية والعشرون: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ أمرٌ[٦] بوفاء النذر مطلقاً، إلَّا ما كان معصيةً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا وفاءَ لنذرٍ في معصية الله»[٧]، وقولِه: «مَن نذر أن يطيع الله فليُطِعْه، ومَن نذر أن يَعْصِيَه فلا يَعْصِه»[٨].

---

(١) في (خ): إلغاء، وفي (م): إلقاء، ولم تجود في (د)، وليست في (ز) و(ظ)، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠ .

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): ساحين، وفي (ظ) و(م): ساخين، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) ذكره الجاحظ في الحيوان ٥/ ٣٧٦ برواية:

شاحين آباطهم لم ينزعوا تفثاً ... ولم يسلُّوا لهم قملاً وصئبانا

وكذا ذكره الزمخشري في الفائق ٣/ ٢٨ ، إلا أنه قال: لم يقربوا تفثاً، وهما روايتان كما ذكر الجاحظ.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٢٠ .

(٦) في (د) و(م): أُمروا.

(٧) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٨٦٣)، ومسلم (١٦٤١) عن عمران بن حصين ﷺ.

(٨) أخرجه أحمد (٢٤٠٧٥)، والبخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الطَّوافُ المذكور في هذه الآية هو طوافُ الإفاضة الذي هو من واجبات الحج. قال الطبريُّ[1]: لا خلافَ بين المتأوِّلين في ذلك.

الثانية والعشرون: للحجِّ ثلاثةُ أطوافٍ: طوافُ القُدوم، وطوافُ الإفاضة، وطوافُ الوَداع. قال إسماعيل بن إسحاق: طوافُ القدوم سُنَّةٌ، وهو ساقطٌ عن المراهق وعن المكيِّ وعن كلِّ مَن يُحرِم بالحجِّ من مكة. قال: والطوافُ الواجبُ الذي لا يسقط بوجهٍ من الوجوه، هو طوافُ الإفاضة الذي يكون بعد عَرَفة؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. قال: فهذا هو الطوافُ المفترض في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي يَحِلُّ به الحاجُّ من إحرامه كلِّه.

قال الحافظ أبو عمر[2]: ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قولُ مالكٍ عند أهل المدينة، وهي روايةُ ابن وهبٍ وابنِ نافع وأشهبَ عنه. وهو قولُ جمهور أهل العلم من فقهاء أهل الحجاز والعراق. وقد روى ابن القاسم وابن عبد الحكم عن مالك: أنَّ طوافَ القدوم واجبٌ [وطوافَ الإفاضة واجبٌ]. وقال ابن القاسم في غير موضعٍ من «المدوَّنة» ورواه أيضاً عن مالك: الطوافُ الواجبُ طوافُ القادم مكة. وقال: مَن نَسِيَ الطَّوافَ في حين دخوله مكةَ، أو نَسِيَ شوطاً منه، أو نَسِيَ السَّعْي أو شوطاً منه، حتى رجع إلى بلده ثم ذكره، فإنْ لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوفَ بالبيت ويركعَ ويسعى بين الصفا والمروة، ثم يُهْدِي. وإن أصاب النساء رجع فطاف وسَعَى، ثم اعتمر وأهدى. وهذا كقوله فيمَن نَسِيَ طواف الإفاضة سواء. فعلى هذه الرواية الطوافان جميعاً واجبان، والسَّعْيُ أيضاً.

وأمّا طواف الصَّدَر؛ وهو المسمَّى بطواف الوداع: فروى ابن القاسم وغيره عن

---

(١) في التفسير ١٦/ ٥٣١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ ، وما قبله منه.

(٢) في الكافي ١/ ٣٦٠ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

مالك فيمَن طاف طوافَ الإفاضةِ على غير وضوء: أنه يرجع من بلده فيُفيضُ، إلَّا أن يكون تطوَّعَ بعد ذلك. وهذا مما أجمعَ عليه مالكٌ وأصحابه، وأنه يَجزيه تطوُّعُه عن الواجب المفترَضِ عليه من طوافه[1]. وكذلك أجمعوا أنَّ مَن فَعَل في حجه شيئاً تطوَّع به من عمل الحجّ، وذلك الشي واجبٌ في الحج قد جاز وقته، فإنَّ تطوُّعَه ذلك يصير للواجب لا للتطوُّع، بخلاف الصلاة. فإذا كان التطوُّع ينوب عن الفرض في الحجّ، كان الطوافُ لدخول مكة أحْرَى أن ينوب عن طواف الإفاضة، إلا أنَّ إسماعيل وغيره ـ وهو مذهبُ ابن القاسم ـ لا ينوبُ عندهم عن طواف الإفاضة[2] إلَّا ما كان من الطواف بعد رَمْي جمرة العَقَبة يومَ النحر أو بعده للوداع. وروايةُ ابن عبد الحكم عن مالكٍ بخلاف ذلك؛ لأن فيها أنَّ طواف الدخول مع السَّعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهَدْي، كما ينوب طوافُ الإفاضة مع السَّعي لمن لم يَطُف ولم يَسْعَ حين دخوله مكة ـ مع الهدي أيضاً ـ عن طواف القدوم. ومَن قال هذا قال: إنما قيل لطواف الدخول: واجبٌ، ولطواف الإفاضة: واجب؛ لأنَّ بعضهما ينوب عن بعض، ولأنه قد رُويَ عن مالك أنه يرجع مَن نَسِيَ أحدهما من بلده على ما ذكرنا، ولأن الله عزَّ وجلَّ لم يفترض على الحاجِّ إلا طوافاً واحداً بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾، وقال في سياق الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ والواوُ عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبةً إلَّا بتوقيف.

وأسند الطبريُّ عن عمرو بن أبي سلمة قال: سألت زهيراً عن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طوافُ الوداع[3]. وهذا يدلُّ على أنه واجب، وهو أحدُ قولي الشافعيّ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام رخَّص للحائض أن تَنْفِر دون أن

---

(١) يعني أن من نَسِيَ طواف الإفاضة، أو طافَه على غير وضوء، ثم تطوعَ بعده بطواف طافَه قبل خروجه من مكة، فإنه ـ عند مالك وأصحابه ـ يجزيه تطوعُه عن الواجب المفترض عليه من طوافه. الكافي ٢/ ٣٦٢ .

(٢) من قوله: إلا أن إسماعيل وغيره، إلى هذا الموضع سقط من (م).

(٣) في تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٢ ، وزهير هو ابن محمد التميمي.

تطوفه، ولا يرخَّص إلَّا في الواجب.

الثالثة والعشرون: اختلف المتأوِّلون في وجه صفة البيت بالعتيق، فقال مجاهد والحسن: العتيق: القديم. يقال: سيفٌ عتيق، وقد عَتُق، أي: قَدُم؛ وهذا قولٌ يَعْضُده النظر[١]؛ وفي الصحيح: «أنه أوّلُ مسجدٍ وُضع في الأرض»[٢].

وقيل: سمي عتيقاً لأنَّ الله أعتقه من أن يتسلَّط عليه جبَّارٌ بالهوان إلى انقضاء الزمان؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد[٣]. وفي الترمذيِّ عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما سُمِّيَ البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبَّار». قال: هذا حديثٌ حسن غريب، وقد رويَ عن النبيِّ ﷺ مرسلاً[٤].

فإن ذكر ذاكرٌ الحجَّاجَ بن يوسف ونَصْبَه المَنْجَنِيق على الكعبة حتى كسرها. قيل له: إنَّما أعتقها عن كفارِ الجبابرة؛ لأنهم إذا أتَوْا بأنفسهم[٥] متمردين، ولحرمة البيت غيرَ معتقدين، وقصدوا الكعبة بالسوء، فعُصِمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالةً على أنَّ الله عزَّ وجلَّ صرفهم عنها قسراً. فأمَّا المسلمون الذين اعتقدوا حُرمتها فإنهم إن كُفُّوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كفِّ الأعداء، فقَصَر الله تعالى هذه الطائفة على[٦] الكفِّ بالنَّهي والوعيد، ولم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ .

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٦)، وصحيح مسلم (٥٢٠)، وأخرجه أحمد (٢١٣٣٣)، وهو من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٢٩ - ٥٣٠ ، وقول ابن الزبير أخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٧ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٧٠) وأخرجه أيضاً البزار في مسنده (٢٢١٥)، وقد أخرج الترمذي المرسل من طريق الزهري عن النبي ﷺ ولم يذكر لفظه.

ووقع في (م) ومطبوع الترمذي: حسن صحيح، والمثبت من النسخ الخطية، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية، وتحفة الأحوذي، وذكر المزي في تحفة الأشراف ٤/ ٣٢٩ المرفوع والمرسل عن الترمذي، ولم يذكر شيئاً من كلام الترمذي. وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا عن ابن الزبير عنه، ولا نعلم له طريقاً عن ابن الزبير إلا هذا الطريق. وقال المناوي في فيض القدير ٢/ ٥٧٥ : فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ضعفه الأئمة، وبقية رجاله ثقات.

(٥) في (ظ): إذا أتوا الكعبة.

(٦) في (ز) و(م): عن.

يتجاوزه إلى الصَّرْفِ بالإلجاء والاضطرار، وجعل الساعةَ موعدَهم، والساعةُ أدْهَى وأمَرّ.

وقالت طائفة: سُمِّيَ عتيقاً لأنه لم يُمْلَك موضعُه قطُّ. وقالت فرقة: سمِّي عتيقاً لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعتقُ فيه رقابَ المذنبين من العذاب(١).

وقيل: سمي عتيقاً لأنه أُعتِق من غرق الطوفان؛ قاله ابن جُبير(٢).

وقيل: العتيق: الكريم. والعِتْق: الكرم. قال طَرفَة يصف أذن الفرس:

مُـؤَلَّـلَـتـانِ تَـعْـرِفُ الـعِـتْـقَ فـيـهـمـا كـسـامِـعَـتَـيْ مـذعـورةٍ وَسْـطَ رَبْـرَبِ(٣)

وعِتْقُ الرقيقِ: الخروج من ذُلِّ الرِّقِّ إلى كرم الحرية.

ويحتمل أن يكون العتيق صفةَ مدحٍ تقتضي جودةَ الشيء، كما قال عمر: حملتُ على فرسٍ عتيق، الحديث(٤).

والقولُ الأول أصحّ؛ للنظرِ والحديثِ الصحيح. قال مجاهد: خَلَق الله البيتَ قبل الأرض بألفي عام(٥)، وسمي عتيقاً لهذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩، وقال ابن عطية: وهذا قول يردُّه التصريف.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩.

(٣) ديوان طرفة ص٢٨، ورواية العجز فيه: كسامعتي شاة بحومَل مُفْرَد، وقد سلف بهذه الرواية ١٠/ ١١٩، أما الرواية التي ذكرها المصنف هنا فهي في ديوان امرئ القيس ص٤٨ وفيه: له أذنان، بدل: مؤللتان. وهي أيضاً في ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ص٨٩ برواية: له حُرَّتان، ويعني بذلك أذنيه، قال الأعلم: والرَّبْرَب: جماعةُ بقرِ الوحش.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ - ١٢٠، والحديث بهذه الرواية أخرجه مسلم (١٦٢٠)، وقد سلف تخريجه ١٠/ ٦٠.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٩٠٩٧) والأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٢، والطبري ٢/ ٥٥٥.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفعٍ بتقدير: فَرْضُكم ذلك، أو: الواجبُ ذلك. ويحتمل أن يكون في موضع نصبٍ بتقدير: امتثلوا ذلك، ونحوُ هذه الإشارةِ البليغةِ قولُ زهير:

هذا وليس كمن يَعْيَا بخُطَّتِهِ وَسْطَ النَّدِيِّ إذا ما قائلٌ نطقا[١]

والحرماتُ المقصودةُ هنا: هي أفعالُ الحج المشارُ إليها في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، ويدخل في ذلك تعظيمُ المواضع؛ قاله ابن زيد وغيره[٢]. ويجمع ذلك أن تقول: الحرماتُ امتثالُ الأمر من فرائضه وسننه. وقولُه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: التعظيم خيرٌ له عند ربِّه من التهاوُن بشيء منها. وقيل: ذلك التعظيم خيرٌ من خيراته يُنتفع به، وليست للتفضيل، وإنما هي عِدَةٌ بخير.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: بهيمة الأنعام، أن تأكلوها، وهي الإبلُ والبقر والغنم. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الكتاب من المحرَّمات، وهي المَيْتةُ والمَوْقُوذة وأخواتها. ولهذا اتصالٌ بأمر الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذبح، فبيَّن ما يَحِلُّ ذبحه وأكلُ لحمه. وقيل: «إلا ما يتلى عليكم» غيرَ مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ الرِّجس: الشيء القَذِر. والوَثَن: التمثالُ من خشبٍ أو حديدٍ أو ذهبٍ أو فضةٍ ونحوها، وكانت العربُ تنصِبها وتعبدها. والنصارى تنصِب الصليب وتعبده وتعظِّمه، فهو كالتمثال أيضاً؛ قال عَدِيّ ابن حاتم: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب، فقال: «ألْقِ هذا الوثَنَ عنك»[٣] أي: الصليب؛ وأصلُه من وَثَن الشيء، أي: أقام في مقامه. وسمِّي الصنم وَثَناً لأنه يُنصَب ويُركَز في مكانٍ فلا يبرح عنه. يريد: اجتنبوا عبادة الأوثان؛ روي عن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ ، والبيت في ديوان زهير ص٥٥ برواية: وسط الرجال. وذكره قدامة بن جعفر في نقد الشعر ص٧٢ ، وابن رشيق في العمدة ٢/ ١٣٤ برواية: بخطبته، بدل: بخطته.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ ، وخبر ابن زيد أخرجه الطبري ١٦/ ٥٣٤ بلفظ: الحرمات: المشعر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، هؤلاء الحرمات.

(٣) سلف ١٠/ ١٧٧ - ١٧٨ .

ابن عباس وابن جُريج(١). وسمَّاها رجساً لأنها سببُ الرِّجز، وهو العذاب.

وقيل: وَصَفَها بالرجس، والرجسُ النَّجَس، فهي نجسةٌ حكماً. وليست النجاسةُ وصفاً ذاتيًّا للأعيان، وإنما هي وصفٌ شرعيٌّ من أحكام الإيمان، فلا تُزال إلَّا بالإيمان؛ كما لا تجوز الطهارة إلَّا بالماء(٢).

الرابعة: ﴿مِنَ﴾ في قوله: «مِن الأوثانِ» قيل: إنَّها لبيان الجنس، فيقع نَهْيُه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نَهْيُها في غير هذا الموضع. ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية، فكأنه نهاهم عن الرجس عاماً، ثم عيَّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادةُ الوثن جامعةٌ لكلِّ فسادٍ ورجس. ومَن قال: إنَّ «مِن» للتبعيض، قَلَبَ معنى الآيةِ وأَفْسَده(٣).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ الزُّور: الباطلُ والكذب. وسمِّيَ زوراً لأنه أميل(٤) عن الحقّ، ومنه: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧]، ومدينةٌ زَوْراء، أي: مائلة. وكلُّ ما عدا الحقِّ فهو كذبٌ وباطلٌ وزُور. وفي الخبر: أنه عليه الصلاة والسلام قام خطيباً فقال: «عُدلتْ شهادةُ الزور بالشِّرك(٥) بالله». قالها مرتين أو ثلاثاً(٦). يعني أنها قد جُمعت مع عبادة الوثن في النهي عنها.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٣٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ .

(٤) في (ظ): ميل.

(٥) في (م): الشرك.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٦٠٣)، والترمذي (٢٢٩٩) من طريق سفيان بن زياد العصفري، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم عن النبي ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد، واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ. قلنا: وفاتك بن فضالة مجهول الحال، كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه أحمد (١٨٨٩٨)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢) من طريق سفيان بن زياد العصفري، عن أبيه، عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك مرفوعاً. قال الترمذي: هذا عندي أصحّ، وخريم بن فاتك له صحبة. اهـ وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/ ٥٤٨ : وهو لا يصح، وحبيب لا يعرف بغير هذا، ولا تعرف حاله، وزياد العصفري مجهول.

السادسة: هذه الآيةُ تضمَّنت الوعيدَ على الشهادة بالزُّور، وينبغي للحاكم إذا عَثَر على الشاهد بالزور أن يعزِّره وينادِيَ عليه ليُعرف؛ لئلَّا يَغتَرَّ بشهادته أحدٌ. ويختلف الحكم في شهادته إذا تاب، فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرِّز فيها لم تُقبل؛ لأنه لا سبيلَ إلى علم حاله في التوبة؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القُرُبات أكثرَ ممَّا هو عليه. وإن كان دون ذلك فشمَّر في العبادة وزادت حالُه في التُّقَى قُبلت شهادتُه.

وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ من أكبر الكبائر الإشراكَ بالله، وعقوقَ الوالدين، وشهادةَ الزور ـ أو: قولَ الزور». وكان رسول الله ﷺ متَّكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: لَيْتَه سكت[1].

السابعة: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ معناه: مستقيمين، أو مسلمين مائلين إلى الحقّ. ولفظةُ «حنفاء» من الأضداد؛ تقع على الاستقامة وتقع على الميل. و«حنفاء» نصبٌ على الحال. وقيل: «حنفاء»: حُجَّاجاً، وهذا تخصيصٌ لا حجةَ معه[2].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ﴾ أي: هو يومَ القيامة بمنزلةِ مَن لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عن نفسه ضرًّا ولا عذاباً، فهو بمنزلة مَن خَرَّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه. ومعنى ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه بمخالبها.

وقيل: هذا عند خروج روحِه وصعودِ الملائكة بها إلى سماء الدنيا، فلا يُفتح لها، فيرمى بها إلى الأرض، كما في حديث البَرَاء، وقد ذكرناه في «التذكرة»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٥٤)، وصحيح مسلم (٨٧)، وهو عند أحمد (٢٠٣٨٥)، وهو من حديث أبي بكرة ﷺ، ولفظُه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله. . . . ووقع بلفظ: «إن من أكبر الكبائر. . .» عند أحمد (١٦٠٤٣)، والترمذي (٣٠٢٠)، وابن حبان (٥٥٦٣) من حديث عبد الله بن أنيس ﷺ، وفيه اليمين الغموس، بدل: شهادة الزور، ودون قوله: وكان متكئاً فجلس. . . وفي الباب عن أنس ﷺ عند أحمد (١٢٣٣٦)، والبخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٨).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ .

(٣) ص١١٩ ، وأخرجه مطولاً أحمد (١٨٥٣٤).

والسحيق: البعيد، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «سُحْقاً سحقاً»[١].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ؛ قيل: يكون في موضع رفعٍ بالابتداء، أي: ذلك أمر الله. ويجوز أن يكون في موضع رفعٍ على خبرِ ابتداءٍ محذوف. ويجوز أن يكون في موضع نصب، أي: اتَّبعوا ذلك[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الشعائرُ جمعُ شَعيرة، وهو كلُّ شيء لله تعالى فيه أمرٌ أشعَرَ به وأعْلَم[٣]؛ ومنه شِعارُ القوم في الحرب، أي: علامتهم التي يتعارفون بها. ومنه إشعارُ البَدَنة، وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيلَ الدمُ فيكون علامة، فهي تسمَّى شَعِيرة بمعنى المشعورة. فشعائر الله: أعلامُ دينه لا سيما ما يتعلَّق بالمناسك.

وقال قوم: المرادُ هنا: تسمينُ البُدْن، والاهتبالُ[٤] بأمرها، والمغالاة بها؛ قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة[٥]. وفيه إشارةٌ لطيفةٌ، وذلك أنَّ أصل شراء البُدْن ربَّما يُحمل على فعلِ ما لابدَّ منه، فلا يدلُّ على الإخلاص، فإذا عظَّمها مع حصول

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٧٩٩٣)، ومسلم (٢٤٩).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٧، وسلف نحوه في الآية (٣٠).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١.

(٤) في (ز) و(م): والاهتمام بأمرها والمثبت من باقي النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢١، والكلام منه، يعني الإسراع بأمرها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١، وأخرجه عن ابن عباس ومجاهد ابنُ أبي شيبة ٤/ ٢٩٤ و ٢٩٥ (نشرة العمروي)، و الطبري ١٦/ ٥٤٠.

الإجزاء بما دونه فلا يظهر له مَحْمَلٌ[1] إلَّا تعظيمُ الشرع، وهو من تقوى القلوب. والله أعلم.

الثالثة: الضمير في «إنها» عائدٌ على الفَعلة التي يتضمَّنها الكلام، ولو قال: فإنه؛ لجاز. وقيل: إنها راجعةٌ إلى الشعائر، أي: فإنَّ تعظيم الشعائر، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه، فرجعت الكنايةُ إلى الشعائر.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ قرئ: «القلوبُ» بالرفع على أنها فاعلةٌ بالمصدر الذي هو «تَقْوَى»[2]. وأضاف إلى القلب لأنَّ حقيقةَ التقوى في القلب؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث: «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره[3].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ يعني البُدْنَ، من الركوب والدَّرِّ والنَّسل والصوف وغير ذلك، إذا لم يبعثها ربُّها هَدْياً، فإذا بعثها فهو الأجل المسمَّى؛ قاله ابن عباس[4]. فإذا صارت بُدْناً هَدْياً، فالمنافعُ فيها أيضاً: ركوبُها عند الحاجة، وشربُ لبنها بعد رِيِّ فَصِيلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بَدَنةً فقال: «ارْكَبْها» فقال: إنها بدنةٌ! فقال: «ارْكَبْها» قال: إنها بدنة! قال: «اركبها وَيْلَكَ» في الثانية أو في الثالثة[5].

وروي عن جابر بن عبد الله وسُئل عن ركوب الهَدْي فقال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «اركبها بالمعروف إذا أُلْجِئْتَ إليها حتى تَجِدَ ظَهْراً»[6]. والأجلُ المسمَّى على

(١) في (خ) و(م): عمل، والمثبت من باقي النسخ وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٨٢ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١ .

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٧٢٧)، ومسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٢ .

(٥) صحيح البخاري (١٦٨٩)، وصحيح مسلم (١٣٢٢)، وهو عند أحمد (٧٣٥٠).

(٦) أخرجه أحمد (١٤٤١٣)، ومسلم (١٣٢٤).

هذا القولِ نحرُها؛ قاله عطاء بن أبي رَباح[١].

السادسة: ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «اركبها». ومِمَّن أَخَذ بظاهِرِه أحمد وإسحاقُ وأهلُ الظاهر[٢]. وروى ابن نافع عن مالك: لا بأس بركوب البَدَنة ركوباً غيرَ فادحٍ. والمشهورُ أنه لا يركبها إلَّا إن اضطُرَّ إليها؛ لحديث جابرٍ؛ فإنه مقيَّد، والمقيَّد يقضي على المطلَق. وبنحو ذلك قال الشافعيُّ وأبو حنيفة. ثم إذا ركبها عند الحاجة [فاستراح] نزل، قال[٣] إسماعيل القاضي: وهو الذي يدلُّ عليه مذهبُ مالك، وهو خلافُ ما ذكره ابن القاسم: أنه لا يلزمه النزول، وحجته إباحةُ النبيِّ ﷺ له الركوب، فجاز له استصحابه.

وقوله: «إذا أُلجئتَ إليها حتى تجد ظَهْراً» يدلُّ على صحة ما قاله الإمام الشافعيُّ وأبو حنيفة رضي الله عنهما، وما حكاه إسماعيلُ عن مذهب مالك. وقد جاء صريحاً أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلاً يسوق بدَنةً وقد جُهد، فقال: «اركبها». وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: إن نَقَصها الركوبُ المباحُ فعليه قيمةُ ذلك ويتصدَّق به[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف. فقوله: «مَحِلُّها» مأخوذٌ من إحلال المحرِم. والمعنى: أنَّ شعائر الحجِّ كلَّها من الوقوف بعرفة ورمي الجِمار والسَّعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيتُ على هذا التأويلِ مرادٌ بنفسه؛ قاله مالك في «الموطأ»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٥ .

(٢) المفهم ٣/ ٤٢٢ ، وقوله: وممن أخذ بظاهره، يعني بجواز الركوب، كما جاء مصرحاً به في إكمال المعلم ٤/ ٤١٠ ، والكلام فيه بنحوه.

(٣) في النسخ عدا (ظ): قاله، والمثبت من (ظ) والمفهم ٣/ ٤٢٢ ، وإكمال المعلم ٤/ ٤١٠ ، والكلام وما بين حاصرتين منهما.

(٤) المفهم ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤ ، والحديث الأخير أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ١٦١ عن أنس ﷺ.

(٥) ١/ ٣٧٠ .

وقال عطاء: ينتهي إلى مكة[١]. وقال الشافعيُّ: إلى الحرم. وهذا بناءً على أنَّ الشعائر هي البُدْن، ولا وجهَ لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاءِ خصوصيةِ ذكرِ البيت[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ الآية، لمَّا ذكر تعالى الذبائح بيَّن أنه لم يُخْلِ منها أمَّةً، والأمةُ: القومُ المجتمعون على مذهبٍ واحد، أي: ولكلٍّ جماعةٍ مؤمنةٍ جعلنا مَنْسَكاً.

والمنسك: الذَّبْح وإراقة الدم؛ قاله مجاهد[٣]. يقال: نَسَك: إذا ذَبَح، يَنْسُك نَسْكاً. والذبيحةُ نسيكة، وجمعُها نُسُك، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]. والنُّسُك أيضاً: الطاعة.

وقال الأزهريُّ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسِكاً﴾: إنه يدلُّ على موضع النحر في هذا الموضع، أراد: مكانَ نَسْك[٤]. ويقال: مَنْسَك ومَنْسِك، لغتان. وقرئ بهما؛ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً بكَسْرِ السين، الباقون بفتحها[٥].

وقال الفراء[٦]: المَنْسَك في كلام العرب: الموضعُ المعتادُ في خير أو شر، وقيل: مناسك الحج؛ لتَرْداد الناس إليها، من الوقوف بعرفةَ ورمي الجمار والسعي.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٥٤٧ .

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٥٠ .

(٤) تهذيب اللغة ١٠/ ٧٤ نقلاً عن الزجاج، وهو في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٧ ، إلا أنه ذكره في معنى منسِكاً بكسر السين، وقال: هو مثل مجلِس: مكان جلوس، ومن قال منسَك، فهو بمعنى المصدر.

(٥) السبعة ص٤٣٦ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٣٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٨ .

وقال ابن عرفة في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مذهباً من طاعة الله تعالى؛ يقال: نَسَك نَسْكَ قومه: إذا سلك مذهبهم.

وقيل: منسكاً: عيداً؛ قاله الفرّاء. وقيل: حجًّا؛ قاله قتادة(١).

والقولُ الأول أظهرُ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على ذبح ما رزقهم. فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازقُ ذلك.

ثم رجع اللفظُ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحدٌ لجميعكم، فكذلك الأمرُ في الذبيحة إنَّما ينبغي أن تخلصَ له.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ معناه: لحقِّه ولوجهه وإنعامه آمِنوا وأسلِموا. ويحتمل أن يريد الاستسلام، أي: له أطيعوا وانقادوا.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ المخبِت: المتواضِعُ الخاشع من المؤمنين. والخَبْت: ما انخفض من الأرض، أي: بشِّرْهم بالثواب الجزيل. قال عمرو بن أوس: المخبِتون: الذين لا يَظْلِمون، وإذا ظُلموا لم يَنْتصِروا. وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نجيح: المخبتون: المطمئنُّون بأمر الله عزَّ وجلَّ(٢).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت وَحذِرت مخالفتَه. فَوَصَفَهم بالخوف والوَجَل عند ذكره، وذلك لقوَّة يقينهم ومراعاتهم لربِّهم وكأنهم بين يديه،

---

(١) ذكر قول قتادة والفراء ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٧٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وقول مجاهد وقول عمرو بن أوس أخرجهما الطبري ١٦/ ٥٥١ ، وأخرج قول مجاهد أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٨ ، وقول عمرو بن أوس أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٨ .

ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها. وروي أنَّ هذه الآيةَ قولَه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ نزلت في أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ رضوانُ الله عليهم[١].

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالخفض على الإضافة، وقرأ أبو عمرو: «الصلاةَ» بالنصب على توهُّم النون، وأنَّ حَذْفَها للتخفيف لطول الاسم[٢]، وأنشد سيبويه:

الحافِظو عَوْرةَ العَشِيرة[٣]...

الثانية: هذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٢٣]. هذه حالةُ العارفين بالله، الخائفين من سَطْوته وعقوبته، لا كما يفعله جُهَّال العوامِّ والمبتدِعةُ الطَّغامُ، من الزَّعيق والزئير، ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير، فيقال لمن تَعاطَى ذلك وزعم أنَّ ذلك وَجْدٌ وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساويَ حالَ رسول الله ﷺ ولا حالَ أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعظ الفهمَ عن الله، والبكاءَ خوفاً من الله. وكذلك وَصَفَ الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوةِ كتابه، ومَن لم يكن كذلك فليس على هَدْيِهم ولا على

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ .

(٢) المحتسب ٢/ ٨٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وهي في القراءات الشاذة ص٩٥ عن ابن أبي إسحاق، والقراءةُ المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٣) الكتاب ١/ ١٨٦ و ٢٠٢ ، وعزاه لرجل من الأنصار، وتمامه:

الحافظو عورةَ العشيرة لا ... يأتيهم من ورائنا نَطَفُ

وهو في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٧٥ ضمن قصيدة لعمرو بن امرئ القيس، وهذا ما رجحه البغدادي في الخزانة ٤/ ٢٨٣ ، ونسبه البَطَلْيَوْسي في الحلل ص١٢٢ لقيس بن الخطيم، وهو في الجمهرة والحلل برواية وَكَفٌ، بدل: نطف. قال البطليوسي: الوَكَف هنا: العيب، ويروى: نَطَف، وهو نحو الوكف. اهـ وروي: عورةِ، بالجر كما ذكر صاحب الخزانة ٤/ ٢٧٣ .

طريقتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصفُ حالهم وحكايةُ مَقَالِهم، فَمَن كان مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنّ، ومَن تَعاطَى أحوالَ المجانين والجنونِ فهو مِن أخسِّهم حالاً، والجنونُ فنون[١].

روى الصحيح عن أنس بن مالك: أنَّ الناس سألوا النبيَّ ﷺ حتى أحْفَوْه في المسألة، فخرج ذاتَ يومٍ فصَعِد المِنبر فقال: «سَلُوني، لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنْتُه لكم ما دمتُ في مَقَامي هذا». فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا، ورَهِبُوا أن يكون بين [يدي] أمرٍ قد حَضَر. قال أنس: فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشِمالاً فإذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث[٢]. وقد مضى القول في هذه المسألة بأشبعَ من هذا في سورة الأنفال[٣] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

فيها عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق: «والبُدُن»[٤]؛ لغتان، واحدتُها بَدَنة. كما يقال: ثمرة وثُمُر وثُمْر، وخشبة وخُشُب وخُشْب، وفي التنزيل:

---

(١) المفهم ٦/ ١٦٠ . وكان من الأَولى الاكتفاءُ في الردّ بما ورد من الكتاب والسنة. فالتقريع لا يزيد المسلمين إلا فُرقة وضغناً.

(٢) صحيح مسلم (٢٣٥٩): (١٣٧)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أحمد (١٢٨٢٠)، والبخاري (٦٣٦٢). وقد سلف ٩/ ٤٥٠ . وقوله: أحفوه، أي: ألحُّوا عليه. وأرمُّوا: سكتوا. وقوله: ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر، أي: خافوا أن تقع بهم عقوبة عند غضبه. المفهم ٦/ ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) ٩/ ٤٥٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٨ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٥ عن الحسن وعيسى، وذكر عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «والبُدُنَّ» بضمتين وتشديد النون.

﴿وكان له ثُمُر﴾ [الكهف: ٣٤]، وقرئ: ﴿ثُمْر﴾[1] لغتان. وسمِّيت بَدَنة لأنها تَبْدُن، والبَدانةُ: السِّمَن. وقيل: إن هذا الاسم خاصٌّ بالإبل. وقيل: البُدْن جمعُ «بَدَن» بفتح الباء والدال. ويقال: بَدُن الرجل؛ بضم الدَّال: إذا سَمِن. وبدَّن؛ بتشديدها: إذا كَبِرَ وأَسَنَّ؛ وفي الحديث «إنِّي قد بدَّنْتُ»[2] أي: كَبِرتُ وأَسْنَنْتُ. وروي «بَدُنْت» وليس له معنى؛ لأنه خلافُ صفته ﷺ، ومعناه: كثرةُ اللحم[3]. يقال: بَدُنَ الرجل يبدُن بَدْناً وبَدانة فهو بادِنٌ، أي: ضخم.

الثانية: اختلف العلماء في البُدْن؛ هل تُطلَقُ على غير الإبل من البقر أم لا؟ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعيُّ: لا. وقال مالك وأبو حنيفة: نعم. وفائدةُ الخلاف فيمَن نذر بَدَنةً فلم يجد البَدَنةَ، أو لم يَقْدِرْ عليها وقَدَر على البقرة؛ فهل تَجزيه أم لا؟ فعلى مذهبِ الشافعيِّ وعطاء لا تَجزيه. وعلى مذهب مالك تَجزيه[4].

والصحيح ما ذهب إليه الشافعيُّ وعطاء؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة: «مَن راحَ في الساعةِ الأولى فكأنَّما قَرَّبَ بَدَنةً، ومَن راحَ في الساعةِ الثانيةِ فكأنَّما قرَّبَ بقرة» الحديث[5]. فتفريقُه عليه الصلاة والسلام بين البقرة والبَدَنة يدلُّ على أنَّ البقر لا يقال عليها بُدن، والله أعلم. وأيضاً قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يدلُّ على ذلك، فإن الوصف خاصٌّ بالإبل. والبقرُ يُضْجَع ويذبح كالغنم؛ على ما يأتي[6].

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي: «ثُمُر» بضم الثاء والميم، وقرأ أبو عمرو: «ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وقرأ عاصم: «ثَمَر» بفتح الثاء والميم. السبعة ص٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٨٣٨)، وأبو داود (٦١٩)، وابن ماجه (٩٦٣)، وابن حبان (٢٢٢٩) عن معاوية ﷺ، وأخرجه ابن حبان أيضاً (٢٢٣١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٥٢ - ١٥٣ ، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٤٤ ، وما بعده منه.

(٤) المفهم ٢/ ٤٨٨ .

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٩٩٢٦)، والبخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) في المسألة السادسة.

ودليلُنا أنَّ البَدَنة مأخوذةٌ من البَدانة، وهو الضخامة، والضخامةُ توجد فيهما جميعاً. وأيضاً فإنَّ البقرة في التقرُّب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل، حتى تجوزُ البقرة في الضحايا عن سبعةٍ كالإبل. وهذا حجةٌ لأبي حنيفةَ حيث وافقه الشافعيُّ على ذلك، وليس ذلك في مذهبنا.

وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم: بدنة، وهو قولٌ شاذّ. والبُدْنُ هي الإبل التي تُهْدَى إلى الكعبة. والهَدْيُ عامٌّ في الإبل والبقر والغنم[(١)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ نصٌّ في أنَّها بعضُ الشعائر. وقوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ يريد به المنافعَ التي تقدَّم ذكرها. والصوابُ عمومُه في خير الدنيا والآخرة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ أي: انحروها على اسم الله، و«صوافَّ» أي: قد صَفَّتْ قوائمها[(٢)]. والإبل تُنحر قياماً معقولة. وأصلُ هذا الوصف في الخيل؛ يقال: صَفَنَ الفرس فهو صافنٌ: إذا قام على ثلاثِ قوائمَ وثَنَى سُنْبُك الرابعة؛ والسُّنبكُ: طَرَفُ الحافر. والبعير إذا أرادوا نحره تُعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم.

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهدٌ وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعريُّ: «صَوافيَ»[(٣)] أي: خَوَالصَ لله عزَّ وجلَّ لا يشركون به في التسمية على نحرها أحداً.

وعن الحسن أيضاً: «صَوَافٍ» بكسر الفاء وتنوينها مخفَّفةً، وهي بمعنى التي قبلها لكنْ حُذفت الياء تخفيفاً على غير قياس[(٤)].

و«صوافَّ» قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدِّها؛ من صفَّ يَصُفُّ. وواحدُ صوافّ:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٨ ، وقال الزجاج: أي: فاذكروا اسم الله عليها في حال نحرها، والبعير ينحر قائماً، وهذه الآية تدلُّ على ذلك.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٥ ، والمحتسب ٢/ ٨١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٥ دون نسبة.

صافَّة، وواحدُ صَوَافي: صافية.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن علي: «صَوَافِنَ» بالنون[١] جمع صافنة. ولا يكون واحدُها صافناً[٢]؛ لأنَّ فاعلاً لا يجمع على فَوَاعِلَ إلَّا في حروفٍ مختصَّةٍ لا يقاسُ عليها؛ وهي: فارسٌ وفوارس، وهالكٌ وهوالك، وخالفٌ وخوالف[٣]. والصافنة: هي التي قد رُفعت إحدى يديها بالعَقْل لئلَّا تضطرب. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، وقال عمرو بن كُلْثوم:

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه ... مقلَّدةً أعنَّتَها صُفُونَا[٤]

ويروى:

تظلُّ جيادُه نَوْحاً عليه ... مقلَّدةً أعنَّتَها صفونا[٥]

وقال آخر:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يزال كأنه ... ممَّا يقوم على الثلاثِ كَسِيرا[٦]

وقال أبو عُمر الجَرْمِيُّ: الصافنُ: عِرْقٌ في مقدَّم الرجل، فإذا ضُرب على الفرس رفع رجله[٧]. وقال الأعشى:

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٥، والمحتسب ٢/ ٨١.

(٢) لكن الأزهري نقل في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٠٦ عن أبي زيد قوله: العرب تقول لجميع الصافن: صَوافن، وصافنات، وصُفون.

(٣) وكذا ناكس ونواكس، وغائب وغوائب، وغافل وغوافل، وباسل وبواسل... وهو ما شذَّ من وصف المذكر العاقل في جمع فاعل على فواعل. والأصل في هذا الجمع أن يكون وصفاً لمؤنث عاقل كحائض وحوائض، وطالق وطوالق، وقاعد وقواعد، أو وصفاً لمذكر غير عاقل، كصاهل وصواهل. وقد نقل المصنف ١٠/ ٣٢٧ عن النحاس قوله: قد يقال للرجل: خالفه وخالف أيضاً.

(٤) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٩٩، وشرح المعلقات للتبريزي ص٢٦٣. قال النحاس: والصُّفُون جمع صافن، وهو القائم، وقيل: هو الذي رفع إحدى قوائمه من التعب.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٧، وأساس البلاغة واللسان (صفن).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٩.

وكلَّ كُمَيْتٍ كجِذْعِ السَّحوق يَزينُ الفِناءَ إذا ما صَفَنْ[١]

الخامسة: قال ابن وَهْب: أخبرني ابن أبي ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصوافّ فقال: يقيِّدها ثم يصفُّها. وقال لي مالك بن أنس مثلَه[٢]. وكافَّةُ العلماء على استحباب ذلك، إلَّا أبا حنيفة والثَّوريَّ؛ فإنهما أجازا أن تُنحر باركةً وقياماً. وشذَّ عطاء فخالف واستَحَبَّ نَحْرَها باركة[٣]. والصحيحُ ما عليه الجمهورُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ معناه: سقطت بعد نَحْرِها، ومنه: وَجَبت الشمس. وفي «صحيح» مسلم[٤] عن زياد بن جُبير: أنَّ ابن عمر أتى على رجلٍ وهو ينحر بَدَنتَه باركةً فقال: ابعثْها قائمةً مقيَّدةً سنَّة نبيِّكم ﷺ.

وروى أبو داود[٥] عن أبي الزبير عن جابر: وأخبرني عبد الرحمن بنُ سابطٍ أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا ينحرون البَدَنةَ معقولةَ اليسرى قائمةً على ما بقي من قوائمها.

السادسة: قال مالك: فإن ضَعُفَ إنسانٌ أو تخوَّف أن تَنْفلتَ بَدَنتُه فلا أرى بأساً أن ينحرها معقولةً. والاختيارُ أن تُنحر الإبلُ قائمةً غيرَ معقولةٍ، إلَّا أن يتعذَّر ذلك فتُعقَل، ولا تُعَرْقَب إلَّا أن يخاف أن يضعفَ عنها ولا يَقْوَى عليها. ونحرُها باركةً أفضلُ من أن تُعرقَبَ. وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنفوانِ أَيْدِه[٦]، فينحرها في صدرها ويُخْرِجها على سنامها، فلما أسنَّ كان ينحرها باركةً لضعفه، ويُمسك معه الحربةَ رجلٌ آخرُ، وآخَرُ بخِطامها[٧].

---

(١) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٧١ برواية: الخصاب، بدل: السحوق. وقال شارحه: المعنى: والفرس الأسود كأنه الجذع في طول متنه، يزين فناء البيت إذا ما صفن.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٧ .

(٣) المفهم ٣/ ٤٢٠ .

(٤) برقم (١٣٢٠)، وهو في صحيح البخاري (١٧١٣).

(٥) في سننه (١٧٦٧).

(٦) الأَيْد: القوة، ووقع في (ظ): شبابه.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٧ - ١٢٧٨ .

السابعة: وتُضْجَع البقر والغنم[(١)]. ولا يجوز النحرُ قبل الفجر من يوم النحر بإجماع، وكذلك الأضحيَّةُ لا تجوز قبل الفجر، فإذا طلع الفجر حلَّ النحر بمِنًى، وليس عليهم انتظارُ نحرِ إمامهم، بخلاف الأضحيَّة في سائر البلاد. والمَنْحَرُ مِنًى لكلِّ حاجٍّ، ومكةُ لكلِّ معتمِر. ولو نحر الحاجُّ بمكةَ والمعتمرُ بمنًى؛ لم يَحْرَج واحدٌ منهما إن شاء الله تعالى[(٢)].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يقال: وَجبت الشمس: إذا سقطت، ووَجَبَ الحائط: إذا سقط؛ قال قيس بن الخَطِيم:

أطاعت بنو عوفٍ أميراً نهاهُمُ ... عن السِّلْم حتى كان أوّلَ واجِبِ[(٣)]

وقال أوْس بن حَجَر:

ألم تُكْسَفِ الشمسُ والبدرُ والـ ... كواكبُ للجبل الواجبِ[(٤)]

فقوله تعالى: «فإذا وجَبَتْ جُنُوبُها» يريد: إذا سقطت على جنوبها ميتةً. كنَى عن الموت بالسقوط على الجنب، كما كنَى عن النحر والذبح بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾. والكناياتُ في أكثر المواضع أبلغُ من التصريح[(٥)]؛ قال الشاعر:

---

(١) قوله: وتضجع البقر والغنم، وقع في (خ) و(م) قبل قوله: السابعة.

(٢) الكافي ١/ ٤٠٥، وقد سلف الاختلاف في وقت الذبح للأضحية، وهل هو قبل ذبح الإمام أو بعده ص٣٦٦ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٩٦٩، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٥٢، ومنتهى الطلب في أشعار العرب ٦/ ٣٥١. قال ابن قتيبة: واجب: ميت.

(٤) ديوان أوس بن حجر ص١٠، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٦٠، ووقع في النسخ عدا (ظ) والنكت والعيون ٤/ ٢٧:

ألم تكسف الشمس ضوء النهار ... والبدر للجبل الواجب

وذكره ياقوت في معجم الأدباء ١٨/ ١٦٩ برواية:

ألم تُكسَفِ الشمسُ شمسُ النها ... رِ والبدرُ للقمر الواجب

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٨.

فتركتُه جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَهُ ما بين قُلَّةِ رأسِه والمِعْصَمِ(١)

وقال عنترة:

وضربتُ قَرْنَيْ كَبْشِها فتَجدَّلا(٢)

أي: سقط مقتولاً إلى الجَدالة، وهي الأرض؛ ومثلُه كثير.

والوُجوبُ للجَنْب بعد النحر علامةُ نزفِ الدَّمِ وخروجِ الروح منها، وهو وقتُ الأكل، أي: وقتُ قُرْبِ الأكل؛ لأنه أول ما(٣) يبتدأ بالسلخ وقطعِ شيءٍ من الذبيحة ثم يُطبخ. ولا تُسلخ حتى تَبْرُد؛ لأنَّ ذلك من باب التعذيب؛ ولهذا قال عمر ﷺ: لا تَعْجَلوا الأنفس أنْ تَزْهَق(٤).

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه النَّدْبُ. وكلُّ العلماء يستحبُّ أن يأكل الإنسان من هَدْيه، وفيه أجرٌ وامتثال؛ إذْ كان أهلُ الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم كما تقدَّم(٥).

وقال أبو العباس بن سُريج: الأكلُ والإطعامُ مستحبَّان، وله الاقتصارُ على أيِّهما شاء. وقال الشافعيُّ: الأكلُ مستَحَبٌّ والإطعامُ واجب(٦)، فإن أَطْعَمَ جميعَها أجزأه، وإن أكل جميعَها لم يُجزه، وهذا فيما كان تطوُّعاً، فأمَّا واجباتُ الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئاً حَسْبَما تقدَّم بيانه(٧).

---

(١) البيت من معلقة عنترة، وهو في ديوانه ص٢٦، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ٣٣، وللتبريزي ص٢٣٩ قال التبريزي: الجَزَر جمع جزرة، والجزرة: الشاة والناقة تذبح وتنحر، وينُشْنَه: يتناوَلْنَه بالأكل، وقُلَّةُ كلِّ شيء أعلاه. اهـ. وقال الجوهري: في الصحاح (جزر): جَزَر السِّباع: اللحم الذي تأكله، يقال: تركوهم جَزَراً، بالتحريك: إذا قتلوهم.

(٢) وعجزه: وحملتُ مُهْري وَسْطَها فمَضَاها، وهو في ديوانه ص٧٥.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: إنما، بدل: أول ما.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٨٦١٤)، وابن أبي شيبة ٥/ ٣٩٢ - ٣٩٣، والبيهقي ٩/ ٢٧٨ واللفظ له.

(٥) ص٣٧٤ من هذا الجزء، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩، وينظر تفصيل هذين القولين في المجموع ٨/ ٣٢٩ وما بعدها.

(٧) ص٣٧٣ من هذا الجزء.

العاشرة: قولُه تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ قال مجاهدٌ وإبراهيم والطبريُّ: قوله: «وأطعِموا» أمرُ إباحةٍ[1]. و«القانِع»: السائل. يقال: قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعاً: إذا سأل، بفتح النون في الماضي[2]، وقَنِع يقنَع قناعةً فهو قَنِعٌ: إذا تعفَّف واستغنى ببُلْغته ولم يسأل، مثل: حمِد يحمَد، قَناعةً وقَنَعاً وقَنَعاناً؛ قاله الخليل[3]. ومن الأوّل قول الشمَّاخ:

لَمَالُ المرءِ يُصلِحُه فيُغْني مَفاقِرَه أعفُّ من القُنُوعِ[4]

وقال ابن السِّكِّيت[5]: مِن العرب مَن ذَكَر القُنوعَ بمعنى القناعة، وهي الرِّضا والتعفُّفُ وتركُ المسألة. ورويَ عن أبي رجاءٍ أنه قرأ: «وأطعِموا القَنِعَ». ومعنى هذا مخالفٌ للأوّل؛ يقال: قَنِعَ الرجل فهو قَنِعٌ: إذا رضي[6].

وأمَّا المعترُّ فهو الذي يُطيف بك يطلب ما عندك، سائلاً كان أو ساكتاً. وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ ومجاهدٌ وإبراهيم والكلبيُّ والحسن بن أبي الحسن: المعترُّ: المتعرض من غير سؤال[7]، قال زهير:

على مُكْثِرِيهمْ رِزْقُ مَن يعتريهمُ وعند المُقِلِّينَ السماحةُ والبَذْلُ[8]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، وقول الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٢٣ ، وفيه تخريج خبر مجاهد وإبراهيم.

(٢) بعدها في النسخ: وكسرها في المستقبل، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ والكلام منه. وليس في كتب اللغة «يقنِع» بكسر النون. ينظر العين ١/ ١٧٠ ، وتهذيب اللغة ١/ ٢٥٩ ، ومقاييس اللغة ٥/ ٣٣ ، والصحاح ومفردات الراغب واللسان (قنع).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، دون قوله: قناعة وقنعاً وقنعاناً، ولم ترد أيضاً هذه المصادر في كتاب العين ١/ ١٧٠ ، وذكرها الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٦٩ .

(٤) ديوان الشمَّاخ ص٢٢١ . وقوله: مفاقر، أي: وجوه الفقر، يقال: سدَّ الله مفاقره، أي: أغناه، وسدَّ وجوه فقره. الصحاح (فقر).

(٥) قوله في تهذيب اللغة ١/ ٢٥٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١٣ ، والقراءة ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٨٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، وأخرج هذا القول عن مجاهد ومحمد بن كعب والحسن الطبريُّ ١٦/ ٥٦٣ و ٥٦٥ - ٥٦٦ . ووقع في النسخ: المعترض، بدل المتعرض، والمثبت من المصادر.

(٨) ديوان زهير ص١١٤ (بشرح ثعلب).

وقال مالك: أحسنُ ما سمعت: أنَّ القانع: الفقيرُ، والمعترّ: الزائر. وروي عن الحسن أنه قرأ: «والمعترِيَ»، ومعناه كمعنى المعترّ. يقال: اعترَّه واعتراه، وعرَّه وعرَاه: إذا تعرَّض لمَا عنده أو طلبه؛ ذكره النحاس(١).

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يضرِّجون البيت بدماء البُدْن، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فنزلت الآية(٢).

والنَّيْلُ لا يتعلَّق بالبارئ تعالى، ولكنه عبَّر به(٣) تعبيراً مجازيًّا عن القبول، المعنى: لن يَصِلَ إليه. وقال ابن عباس: لن يصعد إليه. ابن عيسى: لن يَقْبَلَ لحومَها ولا دماءها، ولكنْ يصلُ إليه التقوى منكم(٤)، أي: ما أريد به وجهُه؛ فذلك الذي يقبله ويُرفع إليه ويسمعه ويُثِيب عليه؛ ومنه الحديث: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات».

والقراءة: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ و﴿يَنَالُهُ﴾ بالياء فيهما. وعن يعقوب بالتاء فيهما(٥)، نظراً إلى اللحوم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ مَنَّ سبحانه علينا بتَذْليلها وتمكيننا من

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤١٣ - ٤١٤، والقراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٨٢ عن أبي رجاء وعمرو بن عبيد.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٣. ونسبه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٢ للكلبي.

(٣) في النسخ: عنه، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣، والكلام منه.

(٤) ذكر القولين عن ابن عباس وابن عيسى الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٢٨، وخبر ابن عباس فيه مطول.

(٥) النشر ٢/ ٣٢٦.

تصريفها، وهي أعظمُ مِنَّا أبداناً وأقوى منَّا أعضاءً، ذلك ليَعْلَمَ العبدُ أنَّ الأمور ليست على ما تَظْهرُ إلى العبد من التدبير، وإنما هي بحسَب ما يريدها العزيز القدير، فيغلِبُ الصغيرُ الكبيرَ؛ ليعلم الخلقُ أنَّ الغالب هو الله الواحدُ القهار[١] فوقَ عباده.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ذكر سبحانه ذِكْرَ اسمِه عليها في الآية قَبْلَها، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾، وذكرَ هنا التكبير. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا نَحر هَدْيَه فيقول: باسم الله والله أكبر؛ وهذا من فِقْهِه ﷺ[٢].

وفي الصحيح عن أنس قال: ضَحَّى رسول الله ﷺ بكَبْشَيْنِ أمْلَحَيْن أقْرَنَيْن. قال: ورأيتُه يذبحهما بيده، ورأيتُه واضعاً قدمَه على صِفاحهما، وسَمَّى وكبَّر[٣].

وقد اختلف العلماء في هذا؛ فقال أبو ثور: التسميةُ متعيِّنةٌ؛ كالتكبير في الصلاة، وكافَّةُ العلماء على استحباب ذلك. فلو قال ذِكْراً آخَرَ فيه اسمٌ من أسماء الله تعالى وأراد به التسميةَ جاز. وكذلك لو قال: الله أكبر، فقط، أو: لا إله إلا الله؛ قاله ابن حبيب. فلو لم يُرد التسميةَ لم يُجزِ عن التسمية ولا تؤكل؛ قاله الشافعيُّ ومحمد ابن الحسن. وكره كافةُ العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عند التسمية في الذبح أو ذِكرَه، وقالوا: لا يُذكر هنا إلَّا اللهُ وحدَه. وأجاز الشافعيُّ الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عند الذبح[٤].

الرابعة: ذهب الجمهور إلى أنَّ قول المضحِّي: اللَّهُمَّ تقبَّلْ منِّي، جائز. وكره ذلك أبو حنيفةَ، والحجةُ عليه ما رواه الصحيح عن عائشةَ رضي الله عنها، وفيه: ثم

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ (والكلام منه): القاهر.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ .

(٣) صحيح البخاري (٥٥٦٥)، وصحيح مسلم (١٩٦٦): (١٨)، وهو عند أحمد (١١٩٦٠). قوله: أملحين، قيل: الأملح هو الأبيض، وقيل: الملحة من الألوان: بياض يخالطه سواد. ينظر المفهم ٥/ ٣٦١ .

(٤) المفهم ٥/ ٣٦٣ .

قال: «باسم الله، اللَّهُمَّ تقبَّل من محمدٍ وآلِ محمد ومن أمَّة محمد». ثم ضحَّى به. واستحبَّ بعضُهم أن يقول ذلك بنصِّ الآية: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧][١].

وكره مالكٌ قولَهم: اللهمَّ منك وإليك، وقال: هذه بدعةٌ. وأجاز ذلك ابنُ حبيب من أصحابنا والحسن، والحجةُ لهما ما رواه أبو داود[٢] عن جابر بن عبد الله قال: ذبح النبيُّ ﷺ يومَ الذَّبح كَبْشَين أَقْرَنين مَوْجُوءين[٣] أَمْلَحين، فلمَّا وجَّهَهما قال: «﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ وقرأ إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ اللَّهُمَّ منك وإليك[٤]، عن محمدٍ وأمتِه، باسم الله والله أكبر». ثم ذبح. فلعلَّ مالكاً لم يبلغه هذا الخبر، أوْ لم يصحَّ عنده، أو رأى العملَ يخالفُه. وعلى هذا يدلُّ قولُه: إنه بدعة[٥]. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ رُوي أنَّها نزلت في الخلفاء الأربعة؛ حَسْبَما تقدَّم في الآية التي قبلها. فأمَّا ظاهِرُ اللفظ فيقتضي العمومَ في كلِّ مُحْسِن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾

رُوي أنَّها نزلت بسبب المؤمنين؛ لمَّا كثروا بمكةَ وآذاهم الكفارُ وهاجر مَن هاجر

---

(١) المفهم ٥/ ٣٦٣، والحديث في صحيح مسلم (١٩٦٧)، وهو عند أحمد (٢٤٤٩١).

(٢) في سننه (٢٧٩٥)، وهو في سنن ابن ماجه (٣١٢١) بنحوه.

(٣) أي: خَصِيَّيْن. النهاية (وجأ). ووقع في (خ): موجيين، وفي مطبوع سنن أبي داود: مُوْجَئَين، وفي بعض نسخه: مَوْجِيَّيْن، ينظر سنن أبي داود بتحقيق محمد عوامة (٢٧٨٨). قال ابن الأثير: منهم مَن يرويه: مُوْجَأَين، على وزن: مُكْرَمَين، وهو خطأ، ومنهم مَن يرويه: مَوْجِيَّيْن بغير همز على التخفيف، ويكون من وَجَيْتُه وَجْياً فهو مَوْجِيّ.

(٤) في (م): ولك، وهو موافق لما في سنن أبي داود وسنن ابن ماجه، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٥/ ٣٦٣، والكلام منه.

(٥) المفهم ٥/ ٣٦٤.

إلى أرض الحبشة؛ أراد بعضُ مؤمني مكةَ أن يقتل مَن أَمْكَنَه من الكفار، ويغتالَ ويَغْدِر ويحتال، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿كَفُورٍ﴾. فوعد فيها سبحانه بالمدافعة، ونَهَى أفصحَ نهيٍ عن الخيانة والغدر[١]. وقد مضى في «الأنفال» التشديدُ في الغدر؛ وأنه: «يُنصب للغادر لواءٌ عند استِه[٢] بقَدْرِ غَدْرته يقال: هذه غَدْرةُ فلان»[٣].

وقيل: المعنى: يَدْفَع عن المؤمنين بأن يُديم توفيقَهم حتى يتمكَّن الإيمان من[٤] قلوبهم، فلا يقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم، وإن جرى إكراهٌ فيعصمهم حتى لا يرتدُّوا بقلوبهم.

وقيل: يدفعُ عن المؤمنين بإعلائهم بالحُجَّة. وإن قتلَ كافرٌ مؤمناً؛ فقد دفعَ اللهُ[٥] عن ذلك المؤمنِ بأنْ قَبَضَه إلى رحمته.

وقرأ نافع: «يُدافِعُ»، «ولولا دِفاعُ». وقرأ أبو عمرو وابن كَثير: «يَدْفَعُ»، «ولولا دَفْعُ». وقرأ [ابن عامر و] عاصم وحمزة والكسائيُّ: «يُدافِعُ»، «ولولا دَفْعُ الله»[٦]. ويُدافع بمعنى يَدْفعُ، مثل: عاقَبْتُ اللصَّ، وعافاه الله، والمصدرُ دفعاً. وحكى الزَّهراويُّ: أنَّ «دِفاعاً» مصدرُ دَفَع، كحسَب حِساباً[٧].

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

فيه مسألتان:

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٢) في (ظ): عند بعثه.

(٣) ينظر ١٠/ ٥٢ - ٥٣ .

(٤) في (ظ): في.

(٥) في (م): ثم قتل كافر مؤمناً نادر وإن فيدفع الله.

(٦) السبعة ص٤٣٧ ، والتيسير ص٨٢ و ١٥٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ قيل: هذا بيانُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يدفع عنهم غوائلَ الكفار بأن يُبيحَ لهم القتالَ وينصرَهم، وفيه إضمارٌ، أي: أُذن للَّذين يَصْلُحون للقتال في القتال، فحذف لدلالة الكلام على المحذوف. وقال الضحَّاك: استأذن أصحابُ رسول الله ﷺ في قتال الكفَّار إذ آذَوْهم بمكة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فلمَّا هاجر نزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾. وهذا ناسخٌ لكلِّ ما في القرآن من إعراضٍ وتركِ صَفْحٍ[(١)]. وهي أوَّلُ آيةٍ نزلت في القتال[(٢)].

قال ابن عباس وابن جبير: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة[(٣)]؛ وروى النَّسائيُّ والترمذيُّ عن ابن عباس قال: لمَّا أُخرج النبيُّ ﷺ من مكةَ قال أبو بكر: أَخْرَجوا نبيَّهم، لَيَهْلِكُنّ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. فقال أبو بكر: لقد علمتُ أنه سيكون قتال. قال: هذا حديثٌ حسن. وقد روى غيرُ واحدٍ عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد ابن جُبير مرسلاً، ليس فيه: عن ابن عباس[(٤)].

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الإباحة من الشَّرْع، خلافاً للمعتزلة؛ لأنَّ قوله: «أُذِن»، معناه: أُبيح؛ وهو لفظٌ موضوعٌ في اللغة لإباحة كلِّ ممنوع[(٥)]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[(٦)] وغيرِ موضع.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٤ ، وذكر خبر الضحاك بنحوه الطبري ٦/ ٥٧٦ وقال: وهذا قول ذُكر عن الضحاك بن مزاحم من وجه غير ثبت.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٢٥ ، وقد أخرج النحاس هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٧١)، وسنن النسائي ٦/ ٢ ، وهو عند أحمد (١٨٦٥)، وزاد أحمد والنسائي عن ابن عباس قوله: وهي أول آية نزلت في القتال. وأخرج المرسل عن سعيد بن جبير الترمذي إثر الحديث (٣١٧١)، و(٣١٧٢).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٤ ، دون قوله: خلافاً للمعتزلة.

(٦) ينظر ١/ ٣٧٧ .

وقرئ: «أذن» بفتح الهمزة، أي: أَذِنَ الله، «يقاتِلون» بكسر التاء، أي: يقاتلون عدوَّهم. وقرئ: «يقاتَلون» بفتح التاء(١)، أي: يقاتلهم المشركون، وهم المؤمنون. ولهذا قال: «بأنهم ظُلِموا» أي: أُخرجوا من ديارهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ هذا أحدُ(٢) ما ظُلِموا به، وإنَّما أُخرجوا لقولهم: ربُّنا اللهُ وحدَه. فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لكنْ لقولهم: ربُّنا الله؛ قاله سيبويه. وقال الفرَّاء: يجوز أن يكون [أن] في موضع خَفْضٍ؛ يقدِّرها مردودةً على الباء، وهو قولُ أبي إسحاقَ الزجَّاجِ، والمعنى عنده: الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلَّا بأن يقولوا: ربُّنا الله، أي: أُخرجوا بتوحيدهم، أخرجهم أهلُ الأوثان. و«الذِين أُخرِجوا» في موضع خفضٍ بدلاً من قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾(٣).

الثانية: قال ابن العربيّ(٤): قال علماؤنا: كان رسول الله ﷺ قبل بَيْعة العَقَبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تَحِلَّ له الدماء، إنَّما أمر(٥) بالدعاء إلى الله والصبرِ على

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم: «أُذن» بضم الهمزة، والباقون بفتحها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «يقاتَلون» بفتح التاء، والباقون بكسرها. السبعة ص٤٣٧، والتيسير ص١٥٧.

(٢) في (د): آخر.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠١، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٧، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤٣٠.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٨٤ - ١٢٨٦.

(٥) في (د) و(م) وأحكام القرآن: يؤمر.

الأذى والصفحِ عن الجاهل مدَّةَ عشرة أعوام؛ لإقامة حجةِ الله تعالى عليهم، ووفاءً بوعده الذي امتنَّ به بفضله في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فاستمرَّ الناس في الطغيان، وما استدلُّوا بواضح البرهان، وكانت قريشٌ قد اضطهدت مَن اتَّبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنُوهم عن دينهم، ونفَوْهم عن بلادهم؛ فمنهم مَن فرَّ إلى أرض الحبشة، ومنهم مَن خرج إلى المدينة، ومنهم مَن صَبَر على الأذى. فلمَّا عَتَتْ قريش على الله تعالى، وردُّوا أمره وكذَّبوا نبيَّه عليه الصلاة والسلام، وعذَّبوا مَن آمن به ووحَّده وعبده، وصدَّق نبيَّه عليه الصلاة والسلام، واعتصم بدينه، أَذِن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾.

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ[١] الفعلَ الموجودَ من المُلْجَأ المُكْرَهِ منسوبٌ إلى الذي أَلْجأَه وأَكْرهَه؛ لأنَّ الله تعالى نَسَبَ الإخراج إلى الكفار؛ لأنَّ الكلام في معنى تقديرِ الذَّنب وإلزامه. وهذه الآيةُ مِثْلُ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٤٠] والكلامُ فيهما واحدٌ، وقد تقدّم في «براءة»[٢] والحمد لله.

الرابعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا ما شَرَعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء؛ لاستَوْلَى أهل الشِّرك وعطَّلوا ما بَنَتْه[٣] أربابُ الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دَفَع بأنْ أَوْجَبَ القتال ليتفرَّغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدِّم في الأمم، وبه صَلَحت الشرائع واجتمعت المتعبَّدات، فكأنه قال: أُذِنَ في القتال، فلْيقاتِل المؤمنون. ثم قوَّى هذا الأمر في القتال بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، أي: لولا القتالُ والجهاد لتُغُلِّب على الحقِّ في كلِّ

---

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): نسبة، والمثبت من (ظ).

(٢) ١٠/٢١١، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٨٦.

(٣) في (د) و(ظ): بينه.

أمة[١]. فَمَن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقضٌ لمذهبه؛ إذ لولا القتالُ لَمَا بقي الدِّين الذي يذبُّ عنه.

وأيضاً هذه المواضع التي اتُّخِذت قبل تحريفهم وتبديلهم، وقبل نَسْخِ تلك الملل بالإسلام، إنما ذُكرت لهذا المعنى، أي: لولا هذا الدفعُ لهُدمَ في زمن موسى الكنائسُ، وفي زمن عيسى الصوامعُ والبِيَعُ، وفي زمن محمدٍ عليه الصلاة والسلام المساجد[٢]. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ من هدمتُ البناء، أي: نقضته فانهدم.

قال ابن عطية[٣]: هذا أصوبُ ما قيل في تأويل الآية. وروي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال: ولولا دفعُ الله بأصحاب محمدٍ ﷺ الكفارَ عن التابعين فَمَن بعدهم. وهذا وإن كان فيه دفعُ قومٍ بقومٍ إلَّا أنَّ معنى القتال أليقُ، كما تقدّم[٤].

وقال مجاهد: لولا دَفْعُ اللهِ ظلمَ قومٍ بشهادةِ العدول. وقالت فرقة: ولولا دفعُ الله ظلمَ الظَّلَمة بعَدْلِ الولاة[٥].

وقال أبو الدَّرْداء: لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يدفع بمن في المساجد عمَّن ليس في المساجد، وبمن يغزو عمَّن لا يغزو، لأتاهم العذاب[٦].

وقالت فرقةٌ: ولولا دفعُ الله العذابَ بدعاء الفُضَلاء والأخيار. إلى غير ذلك من التفصيل المُفْسِد[٧] لمعنى الآية؛ وذلك أنَّ الآية ولابدَّ تقتضي مدفوعاً من الناس

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣١ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ ، وقد قاله ابن عطية إثر ما تقدم من قوله: أي لولا القتال والجهاد لتُغلب على الحق في كل أمة.

(٤) يعني بما تقدم من الآية، كما في المحرر الوجيز. وخبر علي ﷺ أخرجه الطبري ١٦/ ٥٧٨ - ٥٧٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ ، وقول مجاهد أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٥٧٩ .

(٦) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠١ .

(٧) في (م): المفسر، والمثبت من النسخ الخطية، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، والكلام منه.

ومدفوعاً عنه، فتأمَّله.

الخامسة: قال ابن خُوَيْزمَنْداد: تضمَّنت هذه الآيةُ المَنْعَ من هَدْم كنائس أهل الذِّمَّة وبِيَعِهم وبيوت نيرانهم، ولا يُتركون أن يُحْدِثوا ما لم يكن، ولا يزيدون في البنيان لا سَعةً ولا ارتفاعاً، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلُّوا فيها، ومتى أَحْدَثوا زيادةً وَجَبَ نَقْضُها. ويُنقض ما وُجد في بلاد الحرب من البِيَع والكنائس. وإنما لم يُنْقَضْ ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة؛ لأنها جرت مَجْرَى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة. ولا يجوز أن يُمَكَّنوا من الزيادة؛ لأنَّ في ذلك إظهارَ أسباب الكفر. وجائزٌ أن يُنقض المسجد ليعاد بنيانه؛ وقد فعل ذلك عثمانُ ﷺ بمسجد النبيِّ ﷺ[(١)].

السادسة: قرئ: «لهدمت» بتخفيف الدَّال وتشديدها[(٢)]. ﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمعُ صوْمعة، وزنها فَوْعلة، وهي بناءٌ مرتفعٌ حديدُ الأعلى؛ يقال: صمَّع الثريدة، أي: رفَّع رَأْسَها وحَدَّدَه. ورجلٌ أَصْمعُ القلب، أي: حادُّ الفِطْنة. والأصمعُ من الرجال: الحديدُ القول. وقيل: هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم. وكانت قبل الإسلام مختصَّةً برهبان النصارى، وبعُبَّاد الصابئين؛ قاله قتادة. ثم استُعمل في مئذنة المسلمين[(٣)].

والبِيَعُ جمع بِيعة، وهي كنيسةُ النصارى. وقال الطبريُّ: وقيل: هي كنائس اليهود. ثم أَدْخَل عن مجاهدٍ ما لا يقتضي ذلك[(٤)].

---

(١) ينظر ما ورد في توسيع عثمان لمسجد النبي ﷺ تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٧ .

(٢) قرأ ابن كثير ونافع: «لَهُدِمَت» بتخفيف الدال، والباقون بتشديدها. السبعة ص٤٣٨ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩ ، والطبري ١٦/ ٥٨١ بلفظ: هي للصابئين.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وقول الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٨٣ ، وخبر مجاهد الذي أخرجه الطبري في هذا الموضع هو قوله: ﴿وَبِيَعٌ﴾ قال: وكنائس. ولم يذكر اليهود فيه.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قال الزجّاج والحسن: هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية: صَلُوتا[١]. وقال أبو عبيدة: الصلوات بيوتٌ تُبنى للنصارى في البراري يصلُّون فيها في أسفارهم، تسمَّى صلوتا، فعرِّبت فقيل: صلوات.

وفي «صلوات» تسعُ قراءات ذكرها ابن عطية[٢]: صَلْوات، صِلْوات، صُلْوات[٣]، صُلُوت على وزن فُعول[٤]، صُلُوب بالباء بواحدةٍ جمع صليب[٥]، صُلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول، صُلُوات بضمِّ الصاد واللام وألفٍ بعد الواو، صُلُوثا بضمِّ الصاد واللام وقَصْر الألف بعد الثاء المثلَّثة، صِلْوِيثَا بكسر الصاد والثَّاء المثلَّثة[٦].

وذكر النحاس[٧]: وروي عن عاصم الجَحْدَرِيِّ أنه قرأ: «وصُلوت» [بضم الصاد والتاء المُعْجَمة بنقطتين]. وروي عن الضحاك: «وصلُوث» بالثاء معجَمة بثلاث، ولا أدري أَفتَحَ الصَّادَ أم ضمَّها؟

قلت: فعلَى هذا تجيءُ هنا عَشْرُ قراءات.

وقال ابن عباس: الصلواتُ الكنائس. أبو العالية: الصلواتُ مساجدُ الصابئين. ابن زيد: هي صلوات المسلمين، تنقطع إذا دخل عليهم العدوُّ وتُهدَم المساجد[٨]؛ فعلى هذا استُعير الهدْمُ للصلوات من حيث تُعَطَّل، أو أراد: موضعَ صلوات، فحذف

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ١٦/ ٥٨٤ عن الضحاك، وخبر الحسن ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٩، وفيه: صلوثا، بالثاء.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٦ عن جعفر بن محمد.

(٤) في (د) و(م): صلولى على وزن فعولى، وهو تصحيف.

(٥) قال أبو حيان في البحر ٦/ ٣٧٥: وهو جمع شاذ، أعني جمع فَعيل على فُعُول.

(٦) في المحرر الوجيز: صِلْويثا بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٤١٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٨) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٦/ ٥٨٣ - ٥٨٥.

المضاف. وعلى قول ابن عباس والزجّاج وغيرِهم يكون الهدم حقيقةً. وقال الحسن: هَدْمُ الصلواتِ تَرْكُها[١]. قُطْرُب: هي الصوامع الصغار، ولم يُسمع لها واحد.

وذهب خَصِيف إلى أنَّ القَصْدَ بهذه الأسماء تقسيمُ مُتَعبَّدات الأمم. فالصوامعُ للرُّهبان، والبِيَع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجدُ للمسلمين. قال ابن عطية[٢]: والأَظْهَرُ أنها قُصِد بها المبالغةُ في ذكر المتعبَّدات. وهذه الأسماءُ تشترك الأمم في مسمَّياتها؛ إلّا البِيعةَ، فإنها مختصَّةٌ بالنصارى في لغة العرب. ومعاني هذه الأسماءِ هي في الأمم التي لها كتابٌ على قديم الدهر. ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته، ولا يوجد ذكرُ الله إلّا عند أهل الشرائع.

وقال النحاس[٣]: «يُذْكَرُ فيها اسمُ الله»: الذي يجبُ في كلامِ العرب على حقيقةِ النظر أن يكون «يُذْكَرُ فيها اسمُ الله» عائداً على المساجد لا على غيرها؛ لأنَّ الضمير يليها. ويجوز أن يعود على «صوامع» وما بعدها، ويكون المعنى: وقتَ شرائعهم وإقامَتِهم الحقَّ.

السابعة: فإن قيل: لِمَ قدِّمت مساجدُ أهل الذمّة ومصلَّياتُهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدمُ بناءً. وقيل: لقُرْبها من الهَدْم وقُرْبِ المساجد من الذِّكر، كما أخَّر السابقَ في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قوله[٤] تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: مَن ينصُرُ دينَه ونبيَّه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ أي: قادر. قال الخطابيُّ: القَوِيُّ يكون بمعنى القادر، ومَن قَوِيَ على شيء

---

(١) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/٤١٨ .

(٢) في المحرر الوجيز ٤/١٢٥ ، وما قبله منه، وقول خصيف أخرجه النحاس في معاني القرآن ٤/٤١٧-٤١٨ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/١٠١ .

(٤) قبلها في النسخ عدا (ظ): الثامنة.

فقد قَدر عليه. ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: جليل شريف؛ قاله الزجاج[١]. وقيل: الممتنع الذي لا يُرام. وقد بيَّنّاهما في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

قال الزجَّاج: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ نصبٍ رَدًّا على «مَن»، يعني في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقال غيره: «الذِين» في موضع خفضٍ ردًّا على قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾، ويكون «الذين إن مكّناهم في الأرض» أربعةً من أصحاب رسول الله ﷺ لم يمكَّن في الأرض غيرهم[٣].

وقال ابن عباس: المرادُ المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان. وقال قتادة: هم أصحاب محمدٍ ﷺ. وقال عِكرمةُ: هم أهلُ الصلوات الخمس[٤]. وقال الحسن وأبو العالية: هم هذه الأمة، إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة. وقال ابن أبي نِجيح: يعني الولاة[٥].

وقال الضحَّاك: هو شَرْطٌ شَرَطَه الله عزَّ وجلَّ على مَن آتاه المُلْك[٦]، وهذا حسن.

قال سهل بن عبد الله: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر واجبٌ على السلطان

---

(١) كذا في النسخ، ولعله: الزجَّاجي، وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، والكلام في كتابه اشتقاق أسماء الله ص٢٣٧ . وقول الزجاج الذي في معاني القرآن له ١/ ٢٨٠ : معنى «عزيز»: لا يعجزونه، ولا يعجزه شيء.

(٢) ص ٢٠١ و ٢٦٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠١ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤٣١ .

(٤) ذكر قولي قتادة وعكرمة الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٤ .

(٥) ذكر قولي الحسن وابن أبي نجيح النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٩ .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥ عن قتادة بلفظ: هذا شرط الله على هذه الأمة، وعزاه لابن أبي حاتم ولم نقف عليه عن الضحاك.

وعلى العلماء الذين يأتونه. وليس على الناس أن يأمروا السلطان؛ لأنَّ ذلك لازمٌ له واجبٌ عليه، ولا يأمروا العلماء فإنَّ الحجة قد وجبت عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ، أي: كان قبلك أنبياءُ كُذِّبوا فصَبَروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين، فاقتدِ بهم واصْبِرْ. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: كذَّبه فرعونُ وقومُه. فأمَّا بنو إسرائيل فما كذَّبوه، فلهذا لم يَعْطِفه على ما قَبْلَه فيكون: وقوم موسى. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أخَّرتُ عنهم العقوبة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فعاقبتهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهامٌ بمعنى التغيير، أي: فانظُرْ كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النِّعم بالعذاب والهلاك، فكذلك أفعلُ بالمكذبين من قريش. قال الجوهريّ[١]: النكيرُ والإنكار: تغييرُ المنكر، والمُنْكَر واحدُ المناكير.

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: أهلكنا أهلَها. وقد مضى في «آل عمران»[٢] الكلامُ في كأين. ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: بالكفر ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ تقدَّم في «الكهف»[٣].

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال الزجَّاج: «وبئرٍ معطلةٍ» معطوفٌ على «مِن قريةٍ»، أي: ومِن أهلِ قريةٍ ومِن أهلِ بئر. والفرَّاء[٤] يذهب إلى أنَّ «وبئرٍ» معطوفٌ

---

(١) في الصحاح (نكر).

(٢) ٥/ ٣٤٩ .

(٣) ١٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٢ وما قبله منه، ولم نقف على قول الزجاج في معانيه.

على «عروشِها».

وقال الأصمعيُّ: سألتُ نافع بنَ أبي نعيم: أيُهمز[١] البئر والذئب؟ فقال: إن كانت العربُ تهمزُهما فاهمِزْهما. وأكثر الرواة[٢] عن نافعٍ بهَمْزِهما إلّا وَرْشاً، فإنَّ روايته عنه بغيرِ همزٍ فيهما، والأصلُ الهمز.

ومعنى «معطَّلةٍ»: متروكة؛ قاله الضحاك[٣]. وقيل: خالية من أهلها؛ لهلاكهم. وقيل: غائرة الماء. وقيل: معطَّلة من دِلائها وأَرْشِيَتها[٤]. والمعنى متقارب.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال قتادة والضحَّاك ومقاتل: رفيع طويل[٥]. قال عديّ بن زيد:

شاده مَرْمَراً وجَلَّلَه كِلْـ ـساً فللطير في ذُراه وُكورُ[٦]

أي: رَفَعه. وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمةُ ومجاهد: مجصَّص[٧]، من الشِّيد، وهو الجصّ. قال الرَّاجِز[٨]:

لا تَحْسَبَنِّي وإن كنتُ امرأً غَمِراً كحيَّة الماء بين الطِّينِ والشِّيدِ[٩]

---

(١) في (ظ): أتهمز.

(٢) في (ظ): الرواية، وفي إعراب القرآن: الروايات.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٢٨ وقراءة ورش عن نافع في السبعة ص٣٤٦ و ٤٣٨، وينظر ما سلف ١١/ ٢٧٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]. وخبر الضحاك أخرجه الطبري ١٦/ ٥٩٢ : بلفظ لا أهل لها.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١، والأرشية جمع رِشاء، وهو الحبل. اللسان (رشا).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٩١، وأخرجه عن الضحاك الطبري ١٦/ ٥٩٤.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٧١، والكامل ١/ ١٣٢، والشعر والشعراء ١/ ٢٢٦، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٩٥، والنكت والعيون ٤/ ٣١. وقوله: وُكور، هو جمع وَكْر، وهو عُشُّ الطائر حيث كان في جبل أو شجر.

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٥٩٢ - ٥٩٣، وأخرجه عن عكرمة وعطاء أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٩.

(٨) كذا قال المصنف والطبري ١٦/ ٥٩٤، والصواب أن البيت من البسيط، وقائله الشماخ بن ضرار.

(٩) ديوان الشماخ ص١٢١، والكامل ١/ ٣١، واللسان غمر، وذكر الطبري ١٦/ ٥٩٤ عجزه، ووقع فيه =

وقال امرؤ القيس:

ولا أُطُـمـاً إلَّا مَـشـيـداً بـجَـنْـدَلِ[(١)]

وقال ابن عباس: «مَشِيدٍ» أي: حَصِين. وقاله الكلبيّ[(٢)]. وهو مَفْعِلٌ بمعنى مفعول، كمبيع بمعنى مبيوع. وقال الجوهريّ[(٣)]: والمشِيد: المعمول بالشِّيد. والشِّيد ـ بالكسر ـ: كلُّ شيء طلَيتَ به الحائطَ من جِصٍّ أو بَلاط[(٤)]، وبالفتح المصدر. تقول: شاده يَشِيدُه شَيْداً: جَصَّصه. والمُشيَّد؛ بالتشديد: المطوَّل. وقال الكسائيُّ: «المَشِيد» للواحد، من قوله تعالى: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾. والمُشَيَّد للجمع[(٥)]، من قوله تعالى: ﴿فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النساء: ٧٨].

وفي الكلام مضمَرٌ محذوفٌ تقديره: وقصرٍ مَشِيدٍ مثلها معطَّل.

ويقال: إنَّ هذه البئرَ والقصرَ بحضرموت معروفان، فالقصرُ مُشْرفٌ على قُلَّةِ جبل[(٦)] لا يُرتَقى إليه بحال، والبئر في سَفْحه لا تُقِرُّ الريح شيئاً سقط فيه إلَّا أخرجته. وأصحابُ القصورِ ملوكُ الحضر، وأصحابُ الآبار ملوكُ البوادي، أي: فأهلكنا

= وفي الديوان: الطِّيِّ، بدل: الطين، وفي اللسان بدلاً منها: الصخر، وقال صاحبه: رجل غَمِر: لا تجربة له بحرب ولا أمر، ولم تحنِّكه التجارب.

(١) وصدره: وتيماء لم يترك بها جذع نخلة، وهو في ديوانه ص٢٥، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٩٤. قال شارح الديوان: تيماء: اسم موضع، والأُطُم: البيت المسطَّح، يقول: لم يدع هذا السَّيل بيتاً إلا هدَّمه، إلا هذا المشيد بجندل.

(٢) ذكره عن الكلبي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) في الصحاح (شيد).

(٤) كذا في النسخ، ومختار الصحاح (شيد)، وتهذيب اللغة ١١/ ٣٩٤، واللسان (شيد) قال الفيروزآبادي في القاموس (شيد): بلاط بالباء غلط، والصواب: ملاط بالميم؛ لأن البلاط حجارة لا يُطلى بها، وإنما يُطلى بالملاط، وهو الطين. اهـ. وقد وقع في مطبوع الصحاح: ملاط بالميم. وينظر مجاز القرآن ٢/ ٥٣.

(٥) قال الفيروزآبادي في القاموس (شيد): المشيَّد للجمع غلط، وإنما المشيَّدة جمع المشيَّد. وينظر اللسان (شيد).

(٦) أي: قمَّته وأعلاه. ووقع في (ظ): تلة جبل.

هؤلاء وهؤلاء[(١)].

وذكر الضحَّاك وغيره ـ فيما ذكر الثعلبيُّ وأبو بكر محمد بن الحسن المُقْرِئ[(٢)] وغيرهما ـ أنَّ البئر الرَّسُّ، وكانت بعدن باليمن بحضرَمَوْتَ، في بلدٍ يقال له: حَضُور، نزل بها أربعةُ آلافٍ ممن آمَنَ بصالح، ونَجَوْا من العذاب ومعهم صالح، فمات صالح فسُمِّيَ المكان: حضرموت؛ لأنَّ صالحاً لمَّا حَضَره مات. فبنَوْا حَضُورَ وقعدوا على هذه البئر، وأمَّروا عليهم رجلاً يقال له: العلس بن جلاس بن سويد، فيما ذكر الغزنويُّ. الثعلبيُّ: جلهس بن جلاس. وكان حسنَ السيرة فيهم عاملاً عليهم، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا، وكانت البئر تسقي المدينة كلَّها وباديتَها، وجميعَ ما فيها من الدوابِّ والغنم والبقر وغير ذلك؛ لأنها كانت لها بكراتٌ كثيرةٌ منصوبةٌ عليها، ورجالٌ كثيرون موكَّلون بها، وأبازنُ ـ بالنون ـ من رخامٍ ـ وهي شِبْهُ الحياضِ ـ كثيرةٌ تُملأ للناس، وأُخَرُ للدَّوابِّ، وأُخَر للبقر، وأُخرَ للغنم. والقُوَّام يسقون عليها بالليل والنهار يتداولون، ولم يكن لهم ماءٌ غيرها. وطال عمر الملك الذي أمَّروه، فلمَّا جاءه الموت؛ طُليَ بدهنٍ لتبقى صورتُه لا تتغيَّر، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت، وكان ممن يكرمُ عليهم، فلمَّا مات شقَّ ذلك عليهم ورأَوْا أنَّ أمرهم قد فَسَد، وضجُّوا جميعاً بالبكاء، واغتنمها الشيطان منهم، فدخل في جثة الملك بعد موته بأيامٍ كثيرة، فكلَّمهم وقال: إنِّي لم أَمُتْ، ولكنْ تغيَّبتُ عنكم حتى أرى صنيعَكم. ففرِحوا أشدَّ الفرح، وأمر خاصَّته أن يضربوا له حجاباً بينه وبينهم ويكلِّمهم من ورائه؛ لئلَّا يُعرف الموت في صورته. فنصبوا صنماً من وراء الحجاب لا يأكل ولا يشرب. وأخبرهم أنه لا يموت أبداً، وأنه إلهٌ لهم، وذلك كلُّه يتكلَّم به الشيطان على لسانه، فصدَّق كثيرٌ منهم

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١ - ٣٢.

(٢) وهو النقاش، والخبر في تفسيره كما ذكر السهيلي في التعريف والإعلام ص١١٨ ونقل هذا الخبر عنه، وذكره مختصراً عن الضحاك البغوي ٣/ ٢٩١.

وارتاب بعضُهم، وكان المؤمن المكذِّب منهم أقلَّ من المصدِّق له، وكلَّما تكلَّم ناصحٌ لهم زُجِر وقُهِر. فأَصْفَقوا[١] على عبادته، فبعث الله إليهم نبيًّا كان الوحيُ ينزل عليه في النوم دون اليقظة ـ كان اسمه حنظلة بنَ صفوان ـ فأَعْلَمهم أنَّ الصورة صنمٌ لا روحَ له، وأنَّ الشيطان قد أضلَّهم، وأنَّ الله لا يتمثَّل بالخَلْق، وأنَّ الملِك لا يجوز أن يكون شريكاً لله، ووعَظَهم ونصحهم وحذَّرهم سطوةَ ربِّهم ونقمتَه، فآذَوْه وعادَوْه، وهو يتعهَّدهم بالموعظة ولا يُغِبُّهم بالنصيحة، حتى قتلوه[٢] في السوق وطرحوه في بئر، فعند ذلك أصابتهم النقمةُ، فباتوا شِباعاً رِوَاءً من الماء؛ وأصبحوا والبئرُ قد غار ماؤها وتعطَّل رِشاؤها، فصاحوا بأجمعهم وضجَّ النساء والولدان، وضجَّت البهائم عطشاً، حتى عمَّهم الموتُ وشَمِلهم الهلاك، وخَلَفتهم في أرضهم السباعُ، وفي منازلهم الثعالبُ والضِّباع، وتبدَّلت جنَّاتُهم وأموالُهم بالسِّدْر وشَوْك العِضَاهِ والقَتاد[٣]، فلا يُسمع فيها إلَّا عزيفُ الجنِّ وزئيرُ الأسد، نعوذ بالله من سَطَواته، ومن الإصرار على ما يوجب نَقِماته.

قال السُّهيليُّ[٤]: وأما القصرُ المَشِيدُ؛ فقصرٌ بناه شدَّاد بن عاد بن إرم، لم يُبْنَ في الأرض مثلُه؛ فيما ذكروا وزعموا، وحالُه أيضاً كحال هذه البئرِ المذكورة في إيحاشه بعد الأُنْس، وإقفارِه بعد العمران، وإنَّ أحداً لا يستطيع أن يدنوَ منه على أميال؛ لمَا يُسمع فيه من عزيف الجنِّ والأصواتِ المنكَرة، بعد النعيم والعيش الرَّغَد وبَهاءِ المُلْك، وانتظامِ الأهل كالسِّلك، فبادُوا وما عادُوا؛ فذكَرهم الله تعالى في هذه الآية

(١) أي: أطبقوا. اللسان (صفق)، وفي التعريف والإعلام: فأجمعوا.

(٢) قوله: لا يُغِبُّهم بالنصيحة، أي: يقدم لهم: النصيحة كل يوم. قال صاحب القاموس (غبب): فلان لا يُغِبُّناعطاؤه، أي: يأتينا كلَّ يوم. ووقع في (ظ): ويحذرهم سطوة ربه ونقمته فقتلوه، بدل قوله: ولا يُغبهم بالنصيحة حتى قتلوه.

(٣) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر. والعِضَاه: كل شجر له شوك، وقيل: العضاه اسم يقع على ما عظُم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه. والسدر من العضاه. اللسان (قتد) و(عضه) و(سدر).

(٤) في التعريف والإعلام ص١١٨ .

موعظةً وعبرةً وتَذْكِرةً، وذِكْراً وتحذيراً من مَغَبَّة المعصية، وسوءِ عاقبةِ المخالفة، نعوذ بالله من ذلك ونستجيرُ به من سوء المآل.

وقيل: إنَّ الذي أهلكهم بختنصَّر، على ما تقدَّم في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الآية: ١١]، فتعطَّلت بئرُهم وخرِبت قصورهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني كفارَ مكة، فيشاهدوا هذه القرى فيتَّعظوا، ويحذَروا عقابَ الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أضاف العقلَ إلى القلب؛ لأنه مَحلُّه؛ كما أنَّ السمع محلُّه الأذن. وقد قيل: إنَّ العقلَ محلُّه الدماغ، وروي عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة[1].

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفرَّاء: الهاء عماد، ويجوز أن يقال: فإنه، وهي قراءةُ عبد الله بن مسعود[2]. والمعنى واحدٌ؛ التذكير على الخبر، والتأنيثُ على الأبصار أو القصة[3]، أي: فإنَّ الأبصار لا تَعْمَى، أو: فإنَّ القصة.

﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ أي: أبصارُ العيون ثابتةٌ لهم. ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: عن دَرَك الحقِّ والاعتبار. وقال قتادة: البصرُ الناظِرُ جُعِلَ بُلْغة ومنفعةً، والبصرُ النافعُ في القلب[4].

وقال مجاهد: لكلِّ عينٍ أربعُ أَعْيُن، يعني لكلِّ إنسانٍ أربعُ أعين: عينانِ في رأسه

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١١/ ٢٩ : وفيه خلاف مشهور؛ مذهب أصحابنا وجماهيرِ المتكلمين أنه في القلب، وقال أبو حنيفة: هو في الدماغ. اهـ. وذكره عن أبي حنيفة أيضاً أبو العباس في المفهم ٤/ ٤٩٥ وقال: وما أظنها عنه صحيحة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٨ ، وذكرها عن ابن مسعود أيضاً الطبري ١٦/ ٥٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٢ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٢٢ . وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥ .

لدُنْياه، وعينانِ في قلبه لآخِرته، فإنْ عَمِيتْ عينا رأسِه وأبصرَتْ عينا قلبِه لم يضرَّه عماهُ شيئاً، وإن أَبْصَرتْ عينا رأسِه وعَمِيَتْ عينا قلبِه لم يَنْفَعه نظرةُ شيئاً[١].

وقال قتادة وابن جُبير: نزلت هذه الآية في ابن أُمِّ مَكْتُومٍ الأعمى[٢]. قال ابن عباس ومقاتل: لمَّا نزل: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابن أمِّ مكتوم: يا رسول الله، فأنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾. أي: مَن كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام، فهو في الآخرة في النار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وهو قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠][٤]. وقيل: نزلت في أبي جهل ابن هشام، وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢][٥].

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: في إنزال العذاب. قال الزجَّاج: استعجَلوا العذابَ فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء، وقد نزل بهم في الدنيا يومَ بَدْر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني من الأيام التي خَلَق الله فيها السماوات والأرض[٦]. عكرمة: يعني

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٢ عن قتادة، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٢٩١، وفيه أن قول النضر هو: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء.

(٥) الصواب أن قول أبي جهل: إن كان هذا هو الحق...، نزل فيه الآيتان (٣٣ و ٣٤) من سورة الأنفال، كما في صحيح البخاري (٤٦٤٨)، وصحيح مسلم (٢٧٩٦) عن أنس ﷺ، وسلف ٩/ ٤٩٥.

(٦) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٩٦ - ٥٩٧.

من أيام الآخرة[١]؛ أَعْلَمهم الله إذ استعجلوه[٢] بالعذاب في أيامٍ قصيرة أنه يأتيهم به في أيامٍ طويلة.

قال الفرَّاء: هذا وعيدٌ لهم بامتداد عذابِهم في الآخرة، أي: يومٌ من أيام عذابهم في الآخرة ألفُ سنة[٣].

وقيل: المعنى: وإنَّ يوماً في الخوف والشدَّة في الآخرة كألفِ سنةٍ من سِنِي الدنيا فيها خوفٌ وشدة، وكذلك يومُ النعيم قياساً.

وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿مِما يَعُدُّون﴾ بالياء المثنَّاة تحت، واختاره أبو عبيد لقوله: «ويستعجِلونك». والباقون بالتاء على الخطاب[٤]، واختاره أبو حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أي: أَمْهلتُها مع عُتُوِّها ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أي: بالعذاب ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني أهلَ مكة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: منذرٌ مُخَوِّف. وقد تقدَّم في «البقرة» الإنذارُ في أوّلها[٥]. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: أُبيِّن لكم ما

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٥٩٨ .

(٢) في (ظ): أعلمهم الله أنهم إذا استعجلوا.

(٣) في معاني القرآن للفراء ٢/٢٢٨ : يوم من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة مما تعدون في الدنيا.

(٤) السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص١٥٨ .

(٥) ١/٢٨١ .

تحتاجون إليه من أمرِ دينكم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطالِ آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مُغالِبين مُشاقِّين؛ قاله ابن عباس[١]. الفَرَّاء[٢]: مُعانِدين. وقال عبد الله بن الزبير: إنما هي: «معجِّزين»، أي: مثبِّطين عن الإسلام[٣]. وقال الأخفش: «معاجزين»[٤]: مسابِقين. الزجَّاج[٥]: أي: ظانِّين أنَّهم يُعْجِزوننا؛ لأنهم ظنُّوا أنْ لا بَعْثَ، وظنُّوا أنَّ الله لا يقدر عليهم. وقاله قتادة[٦]. وكذلك معنى قراءةِ ابنِ كثير وأبي عمرو: ﴿مُعَجِّزين﴾ بلا ألفٍ مشدَّداً[٧]. ويجوز أن يكون معناه: أنهم يعجِّزون المؤمنين في الإيمان بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام وبالآيات؛ قاله السُّدِّيّ[٨]. وقيل: أي: يَنْسُبون مَن اتَّبع محمداً ﷺ إلى العجز، كقولهم: جهَّلْتُه وفسَّقْتُه[٩]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٠ - ٦٠١ دون قوله: مغالبين.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٩. وسقط من (م) قوله: إنما هي معجزين أي.

(٤) في (م): معاندين، وليست في (خ)، والمثبت من باقي النسخ، وذكر هذا القول مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٣ دون نسبة.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٦) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٤٠ و ١٢٦، والطبري ١٦/ ٦٠١.

(٧) السبعة ص٤٣٩، والتيسير ص١٥٨.

(٨) ذكره عن السدي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٣ بلفظ: مثبطين لمن أراد اتِّباع النبيِّ ﷺ.

(٩) الحجة للفارسي ٥/ ٢٨٤.

الأولى: قولُه تعالى: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ وتَلا. و﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: قراءتِه وتلاوته. وقد تقدَّم في البقرة[١].

قال ابن عطيةَ: وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نَبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ» ذكره مَسْلمةُ بن القاسم بن عبد الله[٢]، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس[٣]. قال مسلمةُ: فوجَدْنا المُحَدَّثين معتصِمين بالنبوَّة ـ على قراءةِ ابن عباس ـ لأنَّهم تكلَّموا بأمورٍ عاليةٍ من أنباء الغيب خَطَرات، ونطقوا بالحكمة الباطنة، فأصابوا فيما تكلَّموا وعُصموا فيما نَطَقوا، كعمر بن الخطاب في قصة سارية[٤]، وما تكلَّم به من البراهين العالية.

قلت: وقد ذكر هذا الخبرَ أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردِّ» له: وقد حدَّثني أبي رحمه الله، حدّثنا عليّ بنُ حرب، حدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن عمرو، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: «وما أرسلنا مِن قَبْلك مِن رسولٍ ولا نَبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ»، قال أبو بكر: فهذا حديثٌ لا يؤخذ به على أنَّ ذلك قرآن. والمحدَّث هو الذي يوحَى إليه في نومه؛ لأنَّ رُؤْيا الأنبياءِ وَحْيٌ.

الثانية: قال العلماء: إنَّ هذه الآيةَ مشكلةٌ من جهتين: إحداهما: أنَّ قوماً يَرَوْن أنَّ الأنبياء صلواتُ الله عليهم فيهم مُرْسَلون وفيهم غيرُ مُرْسَلين. وغيرهم يذهب إلى

---

(١) ٢/٢١٧ - ٢١٨.

(٢) أبو القاسم الأندلسي القرطبي، المحدِّث الرحَّال، قال ابن الفَرَضي: سمعت مَن ينسبه إلى الكذب، وقال لي محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج: لم يكن كذاباً، بل كان ضعيف العقل، قال: وحُفظ عليه سوء كلام في التشبيه. توفي سنة (٣٥٣هـ). تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٢/ ١٣٠ ، والسير ١٦/ ١١٠.

(٣) أخرجه بهذا الإسناد إسحاق بن راهويه (١٠٥٩)، وعلقه البخاري عنه بإثر الحديث (٣٦٨٩).

(٤) أخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة (٥٢٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢٥٣٧)، والبيهقي في الاعتقاد ص٢٠٣ ، وابن عساكر في تاريخه ٢٠/ ٢٤ - ٢٦ . وحسن إسناده ابن كثير وابن حجر رحمهما الله، وينظر تفصيل الكلام فيه في البداية والنهاية ١٠/ ١٧٣ - ١٧٦ ، والإصابة ٤/ ٩٧ - ٩٨ .

أنه لا يجوز أن يقال نبيٌّ حتى يكون مرسَلاً. والدليلُ على صحة هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فأوجب للنبيِّ الرسالةَ. وأنَّ معنى «نَبيّ»: أنبأ عن الله عزَّ وجلَّ، ومعنى أنبأ[١] عن الله عزَّ وجلَّ الإرسالُ بعينه.

وقال الفرَّاء: الرسولُ الذي أُرسل إلى الخلق بإرسال جبريلَ عليه السلام إليه عِيَاناً، والنبيُّ الذي تكون نبوَّته إلهاماً أو مناماً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً[٢]. قال المهدوِيُّ: وهذا هو الصحيحُ، أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

وكذا ذكر القاضي عِياض في كتاب «الشِّفا»[٣] قال: والصحيحُ والذي عليه الجمَّاءُ الغفيرُ[٤] أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، واحتجَّ بحديث أبي ذرٍّ، وأنَّ الرسلَ من الأنبياء ثلاث مئة وثلاثةَ عَشَر، أوَّلُهم آدمُ، وآخِرُهم محمدٌ ﷺ[٥].

والجهةُ الأخرى التي فيها الإشكالُ وهي:

الثالثة: الأحاديثُ المروِيَّة في نزول هذه الآية، وليس منها شيءٌ يصحُّ. وكان مما تموَّه[٦] به الكفار على عوامِّهم قولُهم: حقُّ الأنبياء ألَّا يَعجِزوا عن شيءٍ، فلِم لا يأتينا محمدٌ بالعذاب وقد بالَغْنا في عداوته؟ وكانوا يقولون أيضاً: ينبغي ألَّا يجريَ عليهم سَهْوٌ وغلط، فبيَّن الربُّ سبحانه أنهم بَشَر، والآتي بالعذاب هو الله تعالى على

---

(١) في (ظ): وأن معنى النبي المنبأ عن الله عزَّ وجلَّ ومعنى الإنباء. . . ، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٢ - ١٠٣ ، والكلام منه.

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٩ ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام دقيق في هذه المسألة ملخصه: أن النبي هو الذي ينبئه الله، وهو يُنبئ بما أنبأ اللهُ به، فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسَل هو إلى أحدٍ يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول. ينظر كتاب النبوات ص٢٥٥ .

(٣) ١/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): الجم الغفير. ويقال: جاؤوا جمًّا غفيراً، وجمَّ الغفير، وجمَّاءَ الغفير، والجمَّاءَ الغفير، وجمَّاءَ غفيراً، أي: جميعاً. القاموس (غفر).

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨) مطولاً، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٦) في (ظ): موه.

ما يريد، ويجوز على البشر السَّهوُ والنِّسْيانُ والغلطُ؛ إلى أن يُحكم الله آياته. ويَنْسَخ حِيَل الشيطان.

روى اللَّيث عن يونس، عن الزُّهريِّ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فلمَّا بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ سها فقال: إنَّ شفاعتهم تُرْتَجَى. فلقيَه المشركون والذين في قلوبهم مرضٌ، فسلَّموا عليه وفرحوا، فقال: «إنَّ ذلك من الشيطان». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية[١]. قال النحاس[٢]: وهذا حديثٌ منقطِعٌ، وفيه هذا الأمرُ العظيم، وكذا حديثُ قتادةَ وزاد فيه: «وإنهنَّ لهنَّ الغَرَانِيق العُلا»[٣]. وأَفْظَعُ من هذا ما ذكره الواقديُّ عن كثير بن زيد، عن المطَّلب بن عبد الله قال: سجد المشركون كلُّهم إلَّا الوليد بنَ المغيرة؛ فإنه أخذ تراباً من الأرض، فرفعه إلى جبهته وسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً، ويقال: إنه أبو أُحَيْحَة سعيد بن العاص، حتى نزل جبريل عليه السلام، فقرأ عليه النبيُّ ﷺ [هذا]، فقال: «ما جئتك به»! وأنزل الله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. قال النحاس[٤]: وهذا حديثٌ منكَر منقطِعٌ، ولا سيما من حديث الواقديّ. وفي البخاريِّ أنَّ الذي أخذ قبضةً من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بنُ خلف[٥]. وسيأتي تمامُ

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦، والناسخ والمنسوخ له ١/ ٤٤٨ و ٢/ ٥٢٧، وأخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٨ - ٦٠٩ من طريق يونس بهذا الإسناد.

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٢٨، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه الطبري مطولاً ١٦/ ٦١٢.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٢٩، وخبر الواقدي أخرجه مطولاً ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٠٥، والواقدي متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٥) صحيح البخاري (٤٨٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولفظه: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَن خَلْفَه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وأخرجه بنحوه أحمد (٣٦٨٢)، ومسلم (٥٧٦) بنحوه، وليس فيه اسم الذي لم يسجد.

كلام النحاس على الحديث ـ إن شاء الله ـ آخِرَ الباب.

قال ابن عطية[١]: وهذا الحديثُ ـ الذي فيه: هي الغرانقة[٢] العلا ـ وقع في كتب التفسير ونحوِها، ولم يُدْخِله البخاريُّ ولا مسلمٌ، ولا ذَكَره في علمِي مصنَّفٌ مشهورٌ، بل يقتضي مذهبُ أهلِ الحديث أنَّ الشيطان ألقَى، ولا يعيِّنون هذا السببَ ولا غيره. ولا خلافَ أنَّ إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظٍ مسموعة، بها وقعت الفتنة.

ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء، فالذي في التفاسير ـ وهو مشهورُ القول ـ أنَّ النبيَّ ﷺ تكلَّم بتلك الألفاظ على لسانه. وحدَّثني أبي ﷺ أنه لَقِيَ بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلِّمين مَن قال: هذا لا يجوز على النبيِّ ﷺ وهو المعصومُ في التبليغ، وإنَّما الأمرُ أنَّ الشيطان نَطَقَ بلفظٍ أسمعه الكفارَ عند قول النبيِّ ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، وقرَّب صوته من صوت النبيِّ ﷺ حتى الْتَبَس الأمرُ على المشركين وقالوا: محمدٌ قرأها. وقد روي نحوُ هذا التأويل عن الإمام أبي المَعَالي.

وقيل: الذي ألقى شيطانُ الإنس؛ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]. قتادة: هو ما تلاه ناعساً[٣].

وقال القاضي عِياض في كتاب «الشِّفا»[٤]؛ بعد أن ذكر الدليل على صِدْق النبيِّ ﷺ، وأنَّ الأمة أجمعت فيما طريقُه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيءٍ بخلافِ ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً[٥]: اعلم ـ أكْرمكَ الله ـ أنَّ لنا في الكلام على مُشْكِلِ هذا الحديث مأخَذين: أحدهما في توهين أصله، والثاني على تسليمه:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩ .

(٢) في (د) و(م): الغرانيق، وهما روايتان كما ذكر ابن عطية بعد ذلك.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥ ، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٨ . قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٩٨ : وهذا لا يصح؛ إذ لا يجوز على النبي ﷺ مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة.

(٤) ٢/ ٢٨٩ .

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): أو غلطاً، وفي (د) و(م): وغلطاً، والمثبت من الشفا ٢/ ٢٨٥ .

أمَّا المأخذُ الأوّل؛ فيكفيك أنَّ هذا حديثٌ لم يخرِّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسندٍ سليمٍ متَّصِلٍ ثقةٌ؛ وإنَّما أُولِع به وبمثله المفسِّرون والمؤرخون المولَعون بكلِّ غريب، المتلقِّفون من الصحف كلَّ صحيحٍ وسقيم. قال أبو بكر البزَّار: وهذا الحديثُ لا نعلمه يُروى عن النبيِّ ﷺ بإسنادٍ متَّصِلٍ يجوزُ ذكره، إلَّا ما رواه شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب ـ الشكُّ في الحديث ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان بمكة... وذكر القصة. ولم يُسنده عن شعبةَ إلَّا أمية بنُ خالد، وغيرُه يُرسلُه عن سعيد بن جبير. وإنَّما يُعرفُ عن الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس[1]. فقد بيَّن لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يُعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبَّه عليه مع وقوع الشكِّ فيه الذي[2] ذكرناه، الذي لا يُوثَق به ولا حقيقةَ معه. وأمَّا حديثُ الكلبيِّ فمما لا تجوز الروايةُ عنه ولا ذِكْره؛ لقوّة ضَعْفِه وكذبه، كما أشار إليه البزَّار رحمه الله. والذي منه في الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «والنجم» بمكةَ، فسجد، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس[3]؛ هذا توهينُه من طريق النقل.

---

(١) كشف الأستار (٢٢٦٣)، دون قوله: ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، فهو من الشفا. والحديث أخرجه أيضاً بالإسناد المذكور الطبراني في الكبير (١٢٤٥٠).

(٢) في الشفا: كما.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سلف نحوه من حديث ابن مسعود ﷺ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح. اهـ. وقال الرازي ٢٣/ ٥٠ : أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول... وروي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضعٌ من الزنادقة، وصنف فيه كتاباً. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. اهـ
وأما رد الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٣٩ على القاضي عياض وابن العربي في توهينهما لهذه القصة، وقوله: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً. فقد قال الآلوسي رحمه الله في تفسيره ١٧/ ١٨٢ : لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد؛ فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلَّاء عارفون بالغث والسمين من الأخبار، وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحقِّ فيه فلم يرووه إلا مردوداً... ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين، وفات ذلك القائلَ بالقبول.

وأما المأخذُ الثاني فهو مَبْنيٌّ على تسليم الحديث لو صحّ. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كلِّ حالٍ فقد أجاب أئمةُ المسلمين عنه بأجوبة؛ منها الغَثّ والسَّمين. والذي يظهر ويترجَّح في تأويله ـ على تسليمه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان كما أمره ربُّه يرتِّلُ القرآن ترتيلاً، ويفصِّل الآيَ تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصُّد الشيطان لتلك السَّكتات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، مُحاكياً نغمةَ النبيِّ ﷺ بحيث يسمعه مَن دنا إليه من الكفار، فظنُّوها من قول النبيِّ ﷺ وأشاعوها. ولم يَقْدَحْ ذلك عند المسلمين؛ لحِفْظِ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتَحقُّقِهم من حالِ النبيِّ ﷺ في ذمِّ الأوثان وعَيْبِها ما عُرف منه، فيكون ما رُويَ من حزن النبيِّ ﷺ لهذه الإشاعةِ والشُّبهة وسببِ هذه الفتنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية[1].

قلت: وهذا التأويلُ أَحْسَنُ ما قيل في هذا، وقد قال سليمان بن حرب: إنَّ «في» بمعنى عند، أي: ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوةِ النبيِّ ﷺ، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا﴾ [الشعراء: ١٨] أي: عندنا. وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق، وإليه أشار القاضي أبو بكر بنُ العربي، وقال قبله: إنَّ هذه الآيةَ نصٌّ في غرضنا، دليلٌ على صحة مذهبنا، أصلٌ في براءة النبيِّ ﷺ مما يُنْسَب إليه أنه قاله، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته. فأخبر الله تعالى أنَّ مِن سنَّته في رسله وسيرتِه في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه مِن قِبَلِ نَفْسِه كما يَفْعَل سائرَ المعاصي، تقول: ألقيتُ في الدار كذا، وألقيتُ في الكيس كذا. فهذا نصٌّ في الشَّيطان أنه زاد في الذي قاله النبيُّ ﷺ، لا أنَّ النبيَّ ﷺ تكلَّمَ به. ثم ذَكَر معنى كلامِ عياض إلى أن قال: وما هُدِي لهذا إلَّا الطبريُّ لجلالة قَدْرِه وصفاءِ فِكْرِه، وسَعَةِ باعِه

(١) الشفا ٢/ ٢٩٨ - ٣٠١.

في العلم، وشِدَّة ساعده في النَّظَر، وكأنه أشار إلى هذا الغرض، وصوَّب على هذا المرمى، وقَرْطَسَ بعد ما ذَكَر في ذلك رواياتٍ كثيرةً كلُّها باطلٌ لا أصلَ لها، ولو شاء ربُّك لَمَا رواها أحدٌ ولا سَطرها، ولكنه فعَّالٌ لِمَا يريد(١).

وأمَّا غيرُه من التأويلات مِمَّا(٢) حكاه قومٌ: أنَّ الشيطان أكرهه حتى قال كذا، فهو مُحال؛ إذ ليس للشيطان قدرةٌ على سَلْبِ الإنسان الاختيارَ، قال الله تعالى مُخبِراً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ولو كان للشَّيطان هذه القدرةُ لَمَا بقي لأحدٍ من بني آدم قوّةٌ في طاعة(٣)، ومَن توهَّم أنَّ للشيطان هذه القوّةَ(٤) فهو قولُ الثَّنَوِيَّة والمجوس في أنَّ الخير من الله والشرَّ من الشيطان.

ومَن قال: جرى ذلك على لسانه سهواً؛ قال: لا يَبْعُدُ أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حِفْظِه، فجرى عند قراءة السورةِ ما كان في حِفْظِه سهواً، وعلى هذا يجوز السَّهْوُ عليهم ولا يُقَرُّون عليه، وأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ تمهيداً لعُذْرِه وتسليةً له؛ لئلَّا يقال: إنه رجع عن بعض قراءته. وبَيَّن أنَّ مثلَ هذا جرى على الأنبياء سهواً، والسَّهوُ إنَّما ينتفي عن الله تعالى(٥).

وقد قال ابن عباس: إنَّ شيطاناً يقال له: الأبيض، كان قد أتى رسولَ الله ﷺ في صورة جبريلَ عليه السلام، وألقى في قراءة النبيِّ ﷺ: تلك الغرانيقُ العُلا، وإن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٠ - ١٢٩١، وينظر تفسير الطبري ١٦/ ٦١٠ - ٦١١، وليس في كلامه ما يشير إلى ما نسبه إليه ابن العربي.

(٢) في (د) و(م): فما.

(٣) وينظر أيضاً هذا القول والردود عليه في تفسير الرازي ٢٣/ ٥٣.

(٤) في (ظ): القدرة.

(٥) قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢ ردًّا على هذا القول: وهذا السهو في القراءة إنما يصح فيما ليس طريقه تغييرَ المعاني، وتبديلَ الألفاظ، وزيادةَ ما ليس في القرآن، بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة، ولكنه لا يقرُّ على هذا السهو، بل ينبَّه عليه، ويذكَّر به للحين.

شَفَاعتهنَّ لتُرْتَجَى. وهذا التأويلُ وإن كان أَشْبهَ ممَّا قَبْلَه[١]، فالتأويلُ الأوّلُ عليه المعوَّل، فلا يُعدَل عنه إلى غيره لاختيارِ العلماء المحقِّقين إياه.

وضَعْفُ الحديثِ مُغْنٍ عن كلِّ تأويل، والحمد لله. وممَّا يدلُّ على ضَعْفِه أيضاً وتَوْهينِه من الكتاب قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء:٧٣] الآيتين؛ فإنهما تَردَّان الخبر الذي رَوَوْه؛ لأنَّ الله تعالى ذَكَر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتريَ، وأنه لولا أنْ ثبَّته لكان[٢] يركَنُ إليهم. فمضمونُ هذا ومفهومُه أنَّ الله تعالى عَصَمَه من أن يفتريَ، وثبَّته حتى لم يركنْ إليهم قليلاً، فكيف كثيراً. وهم يروُون في أخبارهم الواهيةِ أنه زاد على الركون والافتراءِ بمدحِ آلهتهم، وأنه قال عليه الصلاة والسلام: افتريتُ على الله وقلتُ ما لم يَقُل. وهذا ضدُّ مفهومِ الآية، وهي تُضعِّفُ الحديثَ لو صحّ، فكيف ولا صحةَ له. وهذا مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء:١١٣] قال القُشَيْريُّ: ولقد طالبتْه قريشٌ وثَقِيفٌ إذ مرَّ بآلهتهم أن يُقبِلَ بوجهه إليها، ووعدوه بالإيمان به إن فعل ذلك، فما فَعَلَ، ولا كان لِيَفْعَلَ! قال ابن الأنباريِّ: ما قارَبَ الرسول ولا رَكَن[٣]. وقال الزجاج[٤]: أي: كادوا، ودخلت «إنْ» واللام للتأكيد.

وقد قيل: إنَّ معنى «تمنَّى»: حدَّث، لا «تلا»؛ روي عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال: إلَّا إذا حدَّث ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قال: في حديثه ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال: فيُبْطِلُ الله ما يلقي

---

(١) وقد ردَّ هذا القول الإمامُ الرازي في تفسيره ٢٣/ ٥٣ بعد أن ذكر خبر ابن عباس بقوله: هذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث!!

(٢) في الشفا ٢/ ٢٩٦ (والكلام منه): لكاد.

(٣) الشفا ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٣ .

الشيطان. قال النحاس[١]: وهذا من أَحْسَنِ ما قيل في الآية وأعلاه وأجلِّه. وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل: بمصرَ صحيفةٌ في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً، ما كان كثيراً.

والمعنى عليه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا حدّثَ نفسَه ألقَى الشيطان في حديثه على جهة الحيْطة، فيقول: لو سألتَ الله عزَّ وجلَّ أن يغنِّمك ليتَّسعَ المسلمون. ويَعْلَمُ الله عزَّ وجلَّ أنَّ الصلاح في غير ذلك، فيُبْطِلُ ما يلقي الشيطانُ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. وحَكَى الكسائيُّ والفرَّاء جميعاً: «تمنَّى»: إذا حدَّث نفسه، وهذا هو المعروفُ في اللغة. وحَكَيَا أيضاً: «تمنَّى»: إذا تلا[٢]. وروي عن ابن عباس أيضاً، وقاله مجاهدٌ والضحَّاك وغيرهما[٣].

وقال أبو الحسن بنُ مَهْدي[٤]: ليس هذا التمنِّي من القرآن والوحيِ في شيء، وإنما كان النبيُّ ﷺ إذا صَفِرَتْ يداه من المال، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال، تمنَّى الدنيا بقلبه ووسوسةِ الشيطان.

وذكر المهدويُّ عن ابن عباس أنَّ المعنى: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه؛ وهو اختيارُ الطبريِّ[٥].

قلت: قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ الآية، يردُّ حديثَ النَّفْس، وقد قال ابن عطيةَ: لا خلافَ أنَّ إلقاء الشيطان إنَّما هو لألفاظٍ مسموعة، بها وقعت الفتنة[٦]، فالله أعلم.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ ، وما قبله منه، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٤ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩ .

(٣) أخرجه عن مجاهد والضحاك الطبري ١٦/ ٦١٠ ، وذكره عن ابن عباس الواحدي ٣/ ٢٧٦ .

(٤) هو علي بن محمد بن مهدي، وقد سلفت ترجمته ٩/ ٣٢٦ .

(٥) في تفسيره ١٦/ ٦١٠ ، وسلف قريباً خبر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩ ، وسلف ص٤٢٦ من هذا الجزء .

قال النحاس[١]: ولو صحَّ الحديثُ واتَّصل إسنادُه؛ لكان المعنى فيه صحيحاً، ويكون معنى سها: أَسْقَطَ[٢]. ويكون تقديره: أفرأيتم اللّاتَ والعُزَّى، وتمَّ الكلام. ثم أَسْقَط: والغرانيقَ العلا؛ يعني الملائكةَ. فإنَّ شفاعتهم، يعود الضمير على الملائكة. وأمَّا مَن رَوَى: فإنَّهن الغرانيقُ العلا، ففي روايته أجوبةٌ؛ منها: أنْ يكون القولُ محذوفاً كما تَستعمل العرب في أشياءَ كثيرة. ويجوز أن يكون بغير حذفٍ، ويكون توبيخاً؛ لأنَّ قبله: «أفرأيتم»، ويكون هذا احتجاجاً عليهم، فإنْ كان في الصلاة فقد كان الكلام مباحاً في الصلاة.

وقد رُويَ في هذه القصةِ أنه كان ممَّا يُقرأ: أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى، ومناةَ الثالثةَ الأُخرى، والغَرانِقَةَ العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرْتَجَى. رُوي معناه عن مجاهد[٣]. وقال الحسن: أراد بالغرانيق العُلا الملائكةَ[٤]، وبهذا فسَّر الكلبيُّ الغرانقةَ أنَّها الملائكة. وذلك أنَّ الكفار كانوا يعتقدون [أنَّ] الأوثان والملائكةَ بناتُ الله، كما حَكى الله تعالى عنهم، وردَّ عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]. فأنكر الله كلَّ هذا من قولهم. ورجاءُ الشفاعة من الملائكة صحيحٌ، فلمَّا تأوَّله المشركون على أنَّ المراد بهذا الذِّكر آلهتُهم، ولبَّس عليهم الشيطان بذلك؛ نَسَخَ الله ما ألقَى الشيطان، وأحْكَم الله آياتِه، ورَفَع تلاوة تلك اللفظتين اللَّتين وَجد الشيطان بهما سبيلاً للتلبيس، كما نُسخ كثيرٌ من القرآن؛ ورُفعت تلاوته[٥].

قال القُشَيريُّ: وهذا غيرُ سديد؛ لقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يُبْطله، وشفاعةُ الملائكةِ غيرُ باطلة.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٣.

(٢) يشير إلى خبر الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن، والذي فيه: سها، وقد سلف ص٤٢٥ من هذا الجزء.

(٣) ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢، وذكره الرازي ٢٣/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) ذكره عن الحسن الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٥.

(٥) الشفا ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عليم» بما أوحى إلى نبيِّه ﷺ. «حكيم» في خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ أي: ضلالةً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شرك ونفاق، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تَلِينُ لأمر الله تعالى. قال الثعلبيُّ: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الأنبياء يجوز عليهم السَّهوُ والنسيانُ والغلطُ بوسواسِ الشيطان، أو عند شَغْل القلب حتى يغلَط، ثم يُنبَّه ويرجع إلى الصحيح، وهو معنى قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾. ولكن إنَّما يكون الغلطُ على حَسَبِ ما يغلَط أحدُنا، فأمَّا ما يضافُ إليه من قولهم: تلك الغرانيق العلا، فكذِبٌ على النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ فيه تعظيمَ الأصنام، ولا يجوز ذلك على الأنبياء، كما لا يجوز أن يَقْرأ بعضَ القرآن ثم يُنشد شعراً، ويقول: غلِطتُ وظننتُه[1] قرآناً.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: الكافرين لفي خلافٍ وعصيانٍ ومُشَاقَّةٍ لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ. وقد تقدَّم في «البقرة»[2] والحمد لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: من المؤمنين. وقيل: أهل الكتاب. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: إنَّ الذي أُحكم من آيات القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشعَ وتَسْكُنَ. وقيل: تخلُص. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قرأ أبو حَيْوَة: «وإنَّ اللهَ لَهادٍ الذين آمنوا» بالتنوين[3]. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) في (ظ): أو ظننته.

(٢) ٢/ ٤١٩ .

(٣) القراءات الشاذة ص٩٦ .

أي: يثبِّتهم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يعني في شكٍّ من القرآن؛ قاله ابن جُريج. وغيرُه: من الدِّين، وهو الصراط المستقيم[١].

وقيل: ممَّا ألقى الشيطان على لسانِ محمدٍ ﷺ، ويقولون: ما بالُه ذَكَرَ الأصنامَ بخيرٍ ثم ارتدَّ عنها؟

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ: «في مُرْيةٍ» بضمِّ الميم، والكسرُ أعرفُ؛ ذكره النحاس[٢].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال الضحَّاك: عذابُ يومٍ لا ليلةَ له، وهو يومُ القيامة[٣]. النحاس[٤]: سمِّي يومُ القيامة عقيماً لأنه ليس يُعْقِبُ بعدَه يوماً مثلَه؛ وهو معنى قولِ الضحَّاك.

والعقيمُ في اللغة عبارةٌ عمَّن لا يكون له ولد، ولمَّا كان الولد يكون بين الأبوين، وكانت الأيامُ تتوالى قبلُ وبعدُ؛ جُعل الإتْباع فيها بالبَعْدية كهيئة الولادة، ولمَّا لم يكن بعد ذلك اليومِ يومٌ؛ وُصف بالعقيم.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادةُ: المراد عذابُ يومِ بدر[٥]، ومعنى «عقيم»: لا مِثْلَ له في عِظَمِه؛ لأنَّ الملائكة قاتلتْ فيه. ابن جُريج: لأنهم لم يُنظَروا فيه إلى

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٥، وقول ابن جريج أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٥.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٦.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٧٧، وأخرجه عن مجاهد وقتادة الطبري ١٦/ ٦١٦ - ٦١٧.

الليل، بل قُتلوا قبل المساء، فصار يوماً لا ليلةَ له[1]. وكذلك يكون معنى قولِ الضحَّاك أنه يومُ القيامة؛ لأنه لا ليلةَ له. وقيل: لأنه لم يكن فيه رأفةٌ ولا رحمةٌ، وكان عقيماً من كلِّ خير، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] أي: التي لا خيرَ فيها، ولا تأتي بمطرٍ ولا رحمة.

قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة هو لله وحدَه لا مُنازِعَ له فيه ولا مُدافِع. والمُلْكُ هو اتساعُ المقدور لمن له تدبير الأمور. ثم بيَّن حُكْمه فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

قلت: وقد يَحتمِلُ أن تكون الإشارة بـ «يومئذ» ليوم بَدْر، وقد حكَم فيه بإهلاك الكافر وسعادةِ المؤمن، وقد قال عليه الصلاة والسلام لعمرَ: «وما يدريكَ لعلَّ الله اطَّلعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»[2].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

أفردَ ذِكْرَ المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموتى.

وسببُ نزولِ هذه الآيةِ أنه لمَّا مات بالمدينة عثمان بنُ مَظْعون وأبو سلمة بنُ عبد الأسد قال بعض الناس: مَن قُتل في سبيل الله أفضلُ ممن مات حَتْفَ أنفِه، فنزلت

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٦١٦، وذكره البغوي ٣/ ٢٩٥ .

(٢) أخرجه أحمد (٦٠٠)، والبخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وسلف ١٠/ ٧٨ .

هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم، وأنَّ الله يرزق جميعَهم رزقاً حسناً. وظاهِرُ الشريعةِ يدلُّ على أنَّ المقتول أفضلُ. وقد قال بعضُ أهل العلم: إنَّ المقتول في سبيل الله والميتَ في سبيل الله شهيد؛ ولكنْ للمقتول مَزِيَّةُ ما أصابه في ذات الله[1].

وقال بعضهم: هما سواءٌ، واحتجَّ بالآية، وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وبحديث أمِّ حَرام؛ فإنها صُرعت عن دابَّتها، فماتت ولم تُقتل، وقال لها النبيُّ ﷺ: «أنتِ من الأوَّلين»[2]، وبقول النبيِّ ﷺ في حديث عبد الله بن عَتيك: «مَن خَرَج من بيته مجاهداً[3] في سبيل الله، فخرَّ عن دابَّته فمات، أو لدغته حيةٌ فمات، أو مات حَتْفَ أنْفِه، فقد وقع أجرُه على الله، ومَن مات قَعْصاً فقد استَوْجَبَ المآب»[4].

وذكر ابن المبارك عن فَضالةَ بن عبيد في حديثٍ ذَكَر فيه رجلين؛ أحدُهما أصيبَ في غَزاةٍ بِمَنْجَنيقٍ فمات، والآخَرُ مات هناك، فجلس فَضالةُ عند الميت، فقيل له: تركتَ الشهيد ولم تجلس عنده؟! فقال: ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثتُ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ الآيةَ كلَّها[5].

وقال سليمان بن عامر: كان فَضالةُ برُودِس أميراً على الأرباع، فخُرِج بجنازتي رجلين، أحدُهما قتيلٌ والآخر متوفًّى؛ فرأى مَيْلَ الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٠ .

(٢) التمهيد ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، والحديث أخرجه أحمد (٢٧٠٣٢)، والبخاري (٢٧٨٨ ، ٢٧٨٩)، ومسلم (١٩١٢) مطولاً من حديث أم حرام رضي الله عنها.

(٣) في (د) و(م): مهاجراً.

(٤) التمهيد ١/ ٢٣٦ ، وأخرجه أحمد (١٦٤١٤) مطولاً . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٦ - ٢٧٧ : فيه محمد بن إسحاق مدلس، وبقية رجاله ثقات. قلنا: وفيه محمد بن عبد الله بن عتيك، وهو مجهول الحال. ينظر الميزان ٣/ ٥٩٥ . قوله: قَعْصاً، القَعْص: أن يُضرب الإنسان فيموت مكانه، وأراد بوجوب المآب: حُسْنَ المَرْجِع بعد الموت. النهاية (قعص).

(٥) الجهاد لابن المبارك (٦٦)، والكلام من التمهيد ١/ ٢٣٦ .

فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل! فوالذي نفسي بيده، ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثت، اقرؤوا قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾[1]. كذا ذكره الثعلبيُّ في تفسيره، وهو معنًى ما ذكره ابن المبارك.

واحتجَّ مَن قال: إنَّ للمقتول زيادةَ فضلٍ بما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَن أُهْرِيق دمُه وعُقر جوادُه». وإذا كان مَن أهريق دمُه وعُقر جوادُه أفضلَ الشهداءِ؛ عُلم أنه مَن لم يكن بتلك الصفة مَفْضُول[2].

وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿قُتِّلوا﴾ بالتشديد على التكثير. الباقون بالتخفيف[3].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي: الجِنان. قراءةُ أهل المدينة: ﴿مَدخلًا﴾ بفتح الميم، أي: دخولاً. وضمَّها الباقون[4]، وقد مضى في «سبحان»[5]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: عليمٌ بنيَّاتهم، حليمٌ عن عقابهم[6].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ «ذلك» في موضع رَفْعٍ، أي: ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنا عليك. قال مقاتل: نزلت في قوم من مشركي مكةَ؛ لَقُوا قوماً من المسلمين

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٩ . ورُودِس؛ بضم أوله وكسر الدال: جزيرة مقابل الإسكندرية، وقد غزاها معاوية هي وقبرس. معجم البلدان ٣/ ٧٨ .

(٢) التمهيد ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧ ، والحديث أخرجه أحمد (١٥٤٠١)، وأبو داود (١٤٤٩)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٥٨ من حديث عبد الله بن حُبْشي الخثعمي. وأخرجه أحمد (١٤٢١١) من حديث جابر ﷺ.

(٣) السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص٩١ .

(٤) قرأ نافع: «مَدْخلاً» بفتح الميم، والباقون بضمِّها. السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص٩٥ .

(٥) ١٣/ ١٥٢ - ١٥٣ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٨ دون نسبة.

لِلَيْلتين بقيتا من المحرَّم فقالوا: إنَّ أصحاب محمدٍ يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم؛ فناشدهم المسلمون ألَّا يقاتلوهم في الشهر الحرام؛ فأبى المشركون إلَّا القتال، فحملوا عليهم، فثبت المسلمون ونَصَرهم الله على المشركين، وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيءٌ؛ فنزلت هذه الآية(١).

وقيل: نزلت في قومٍ من المشركين، مثَّلوا بقومٍ من المسلمين قتلوهم يومُ أُحُدٍ، فعاقبهم رسول الله ﷺ بمِثْلِه(٢).

فمعنى «مَن عاقب بمثل ما عوقب به» أي: مَن جازَى الظالمَ بمثل ما ظَلَمه، فسمَّى جزاءَ العقوبة عقوبةً لاستواء الفعلين في الصورة، فهو مثلُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ومثل: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقد تقدَّم(٣).

﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالكلام والإزعاج من وطنه؛ وذلك أنَّ المشركين كذَّبوا نبيَّهم وآذَوْا مَن آمَن به، وأخرجوه وأخرجوهم من مكة، وظاهَروا على إخراجهم.

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لينصرَنَّ الله محمداً ﷺ وأصحابه، فإنَّ الكفار بَغَوْا عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: عفا عن المؤمنين ذنوبَهم وقتالَهم في الشهر الحرام وسَتَر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ذلك الذي

---

(١) ذكره أبو الليث ٢/ ٤٠٢، وابن الجوزي ٥/ ٤٤٦، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٩.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٧.

(٣) ٣/ ٢٥٠ - ٢٥١.

قصصتُ عليك من نَصْرِ المظلوم هو بأنِّي أنا الذي أُوْلج الليل في النهار، فلا يقدرُ أحدٌ على ما أَقْدِرُ عليه، أي: مَن قَدَرَ على هذا قَدَرَ على أن ينصر عبدَه. وقد مضى في «آل عمران» معنى يولج الليلَ في النهار[1]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يسمع الأقوال ويُبصر الأفعال، فلا يَعْزُب عنه مثقالُ ذرَّةٍ ولا دبيبُ نملةٍ إلَّا يعلمها ويسمعها ويُبصرها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذو الحق؛ فَدِينُه الحقُّ، وعبادته حقٌّ[2]. والمؤمنون يستحِقُّون منه النصر بحكم وعدِه الحقِّ. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: الأصنام التي لا استحقاقَ لها في العبادات.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر: «وأنَّ ما تدعون» بالتاء على الخطاب[3]، واختاره أبو حاتم. الباقون بالياء على الخبر هنا وفي لقمان[4]، واختاره أبو عبيد.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ أي: العالي على كلِّ شيءٍ بقدرته، والعالي عن الأشباه والأنداد[5]، المُتقدِّس[6] عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الموصوف بالعظمة والجلال وكِبرِ الشأن. وقيل: الكبير: ذو الكبرياء. والكبرياء: عبارةٌ عن كمال الذات، أي: له الوجودُ المُطلَقُ أبداً وأزلاً، فهو الأول القديم[7]، والآخِر الباقي بعد فناء خلقه.

---

(١) ٥/ ٨٦.
(٢) الوسيط ٣/ ٢٧٨.
(٣) السبعة ص٤٤٠، والتيسير ص١٥٨.
(٤) عند الآية (٣٠).
(٥) سبق التأكيد على أن الله عز وجل يثبت له أنواع العلوِّ الثلاثة: علو المكان، وعلو القدر والمنزلة، وعلو القهر.
(٦) في (م): المقدس.
(٧) لفظ (القديم) من الألفاظ التي أحدثها المتكلمون في أسماء الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ دليلٌ على كمال قدرته، أي: مَنْ قَدَر على هذا قَدَر على إعادة الحياة بعد الموت، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]. ومثلُه كثير.

«فتُصبحُ» ليس بجوابٍ فيكون منصوباً، وإنما هو خبرٌ عند الخليل وسيبويه؛ قال الخليل: المعنى: انْتَبِه! أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا، كما قال:

ألم تسألِ الرَّبْعَ القَوَاء فيَنْطِقُ وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بَيْداءُ سَمْلَقُ[1]

معناه: قد سألتَه فنطق. وقيل: استفهام تحقيق، أي: قد رأيتَ، فتأمل كيف تصبح. أو عطف، لأن المعنى: ألم تر أن الله يُنزل[2]. وقال الفراء[3]: «ألم تر» خبر، كما تقول في الكلام: إعلم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينزل من السماء ماءً. «فتصبحُ الأرضُ مَخْضَرَةً» أي: ذاتَ خُضرة؛ كما تقول: مَبْقَلة ومَسْبَعة؛ أي: ذاتَ بقلٍ وسباع[4]. وهو عبارةٌ عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات، واستمرارِها كذلك عادةً. قال ابن عطية[5]: ورُوي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بمكة وتِهامة. ومعنى هذا: أنه أخذ قوله: «فتُصبِحُ» مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار يتأخَّر في سائر البلاد، وقد شاهدتُ هذا في السوس الأقصى؛ نزل المطر ليلاً بعد قحطٍ أصبحت تلك الأرضُ الرملةُ التي نسفتها الرياح قد اخضرَّت بنباتٍ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ . والبيت لجميل بُثينة، وهو في ديوانه ص١٤٤ . الرَّبع: المنزل والدار. والقَواء، بالمد والقصر: القفر، ومنزل قَواء: لا أنيسَ به. والسملَّق: القاع المستوي الأجرد الذي لا شجر فيه. اللسان (ربع) و(قوا) و(سملق).

(٢) من قوله: وقيل استفهام تحقيق. . . إلى هذا الموضع، من (م).

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٠ ، وهذه القراءة شاذة، وينظر الدر المصون ٨/ ٣٠٢ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ١٣١ ، وما قبله منه.

ضعيفٍ رقيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس: «خبيرٌ» بما ينطوي عليه العبدُ من القنوط عند تأخير المطر. «لطيفٌ» بأرزاق عباده. وقيل: لطيفٌ باستخراج النبات من الأرض[1]، «خبيرٌ» بحاجتهم وفاقتهم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وكلٌّ محتاجٌ إلى تدبيره وإتقانه. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فلا يحتاج إلى شيء، وهو المحمود في كلِّ حال[2].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكر نعمةً أخرى، فأخبر أنه سخَّر لعباده ما يحتاجون إليه من الدوابِّ والشجر والأنهار.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ أي: وسخَّر لكم الفلك في حال جَرْيِها[3]. وقرأ عبد الرحمن الأعرج: «والفُلكُ» رفعاً على الابتداء وما بعده خبره. الباقون: بالنصب نسقاً على قوله: «ما في الأرض»[4]. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كراهية أن تقع.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧٨ بنحوه.

(٢) في (ظ): زمان.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٧ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٣ . ونسب ابن خالويه القراءة في القراءات الشاذة ص٩٦ ، للأعرج والسلمي، وهو أبو عبد الرحمن، ووقع في (م): أبو عبد الرحمن الأعرج، وصواب العبارة عندئذ: أبو عبد الرحمن، والأعرج.

وقال الكوفيون: لئلَّا تقع[(١)]. وإمساكه لها خلق السكون فيها حالاً بعد حال. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: إلا بإذن الله لها بالوقوع، فتقع بإذنه، أي: بإرادته وتخليته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: في هذه الأشياء التي سخَّرها لهم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي: بعد أن كنتم نُطَفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحساب والثواب والعقاب. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحودٌ لما ظهر من الآيات الدالَّة على قدرته ووحدانيته[(٣)]. قال ابن عباس: يريد الأسودَ بن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعةً من المشركين. وقيل: إنما قال ذلك؛ لأنَّ الغالبَ على الإنسان كفر النعم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[(٤)] [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: شرعاً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون به[(٥)]. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: لا يُنازعَنَّكَ أحدٌ منهم فيما يُشرَعُ لأمتك؛ فقد كانتِ الشرائعُ في كلِّ عصر.

وروت فرقةٌ أنَّ هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٣ .

(٢) الوسيط ٣/ ٢٧٩ ، وزاد المسير ٥/ ٤٤٨ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٧٩ .

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٣ بمعناه.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٧٩ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٢٦ عن ابن عباس ﷺ.

للمؤمنين: تأكلون ما ذبحتم، ولا تأكلون ما ذبحَ اللهُ من الميتة، فكان ما قتلَ اللهُ أحقَّ أن تأكلوه مما قتلتُم أنتم بسكاكينكم، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة[١]. وقد مضى هذا في «الأنعام»[٢] والحمد لله. وقد تقدم في هذه السورة ما للعلماء في قوله تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾[٣]. وقوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي: أنَّ المَنْسكَ المصدرُ، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه[٤]. وقال الزجَّاج: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: فلا يُجادِلُنَّك. ودلَّ على هذا: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾. ويُقال: قد نازعوه، فكيف قال: «فلا يُنازِعُنَّك؟!» فالجواب أنَّ المعنى: فلا تُنازِعْهم أنتَ. نزلت الآية قبل الأمر بالقتال، تقول: لا يُضارِبَنَّك فلانٌ فلا تُضارِبْه أنتَ؛ فيجري هذا في باب المفاعلة. ولا يُقال: لا يَضْرِبَنَّكَ زيدٌ، وأنت تُريد: لا تضرِبْ زيداً. وقرأ أبو مِجْلَز «فلا يَنْزِعنَّكَ في الأمر» أي: لا يَسْتَخِفَّنَّكَ ولا يغلِبَنَّكَ عن دينك[٥]. وقراءة الجماعة من المنازعة. ولفظ النهي في القراءتين للكفار، والمراد النبيّ ﷺ.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى توحيده ودينه والإيمان به[٦]. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي: دين[٧]. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: قويم لا اعوِجاجَ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ أي: خاصموك يا محمد؛ يريد مشركي مكة. ﴿فَقُلِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢.

(٢) ٩/ ٨.

(٣) عند تفسير الآية (٣٤).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٧ بمعناه. وقراءة أبي مجلز في الشاذة ص٩٦.

(٦) زاد المسير ٥/ ٤٤٩.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٧٩.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يريد مِن تكذيبهم محمداً ﷺ؛ عن ابن عباس. وقال مُقاتل: هذه الآية نزلت على النبيِّ ﷺ ليلةَ الإسراء وهو في السماء السابعة لمَّا رأى من آيات ربِّه الكبرى، فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ بالباطل فادفعهم بقولك: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، فأمره الله تعالى بالإعراض عن مُماراتهم؛ صيانةً له عن الاشتغال بتعنُّتهم، ولا جواب لصاحب العِناد. ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يريد: بين النبيِّ ﷺ وقومِه. ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ يريد: في خلافكم آياتي، فتعرفون حينئذٍ الحقَّ من الباطل[1].

مسألة: في هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علَّمه الله عبادَه في الردِّ على مَنْ جادل تعنُّتاً ومِراءً ألّا يُجابَ ولا يُناظَر ويُدفَعَ بهذا القول الذي علَّمه الله لنبيِّه ﷺ. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخةٌ بالسيف[2]؛ يعني السكوت عن مخالِفه، والاكتفاء بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: وإذ قد علمتَ يا محمدُ هذا وأيقنتَ؛ فاعلم أنه يعلم أيضاً ما أنتم مختلفون فيه، فهو يحكم بينكم. وقد قيل: إنه استفهام تقرير للغير[3].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ أي: كلُّ ما يجري في العالَم فهو مكتوبٌ عند الله في أمِّ الكتاب[4].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي: إنَّ الفصل بين المختلفين على الله يسير. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٩، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩٧، وتفسير الرازي ٢٣/ ٦٥.

(٢) زاد المسير ٥/ ٤٥٠.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧٩، ووقع في (ظ): استفهام تقريري.

(٤) بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٩.

المعنى: إنَّ كتابَ القلم الذي أمره أن يكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة على الله يسير[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ يريد كفارَ قريش. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: حُجَّةً وبرهاناً[٢]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٣]. ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ يعني القرآن. ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي: الغضب والعُبُوس. ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ أي: يبطشون[٤]. والسَّطوةُ: شِدَّةُ البطش[٥]؛ يقال: سطا به يسطو: إذا بطش به، كان ذلك بضربٍ أو بشتمٍ، وسطا عليه[٦]. ﴿بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾. وقال ابن عباس: يسطون: يبسطون إليهم أيديهم[٧]. محمد بن كعب: أي: يقعون بهم. الضحَّاك: أي:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٦٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٣.

(٣) ٥/ ٣٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٨، وتفسير «يسطون» بـ«يبطشون» أخرجه الطبري ١٦/ ٦٣٣ عن ابن عباس ومجاهد.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٢٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣١ دون لفظة: «وسطا عليه» وهي في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٨٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٨٠ من غير نسبة.

يأخذونهم أخذاً باليد[١]، والمعنى واحد. وأصل السَّطْو: القهر. والله ذو سَطَوات؛ أي: أخَذاتٍ شديدة. ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ﴾ أي: أكره من هذا القرآن الذي تسمعونه هو النار[٢]. فكأنهم قالوا: ما الذي هو شرٌّ؟ فقيل: هو النار[٣]. وقيل: أي هل أنبئكم بشرّ مما يلحق تالي القرآن منكم؟ هو النار[٤]. فيكون هذا وعيداً لهم على سَطَواتهم بالذين يتلون القرآن.

ويجوز في «النار» الرفع والنصب والخفض؛ فالرفع: على هو النار، أو: هي النار. والنصب بمعنى أعني، أو على إضمارِ فعلٍ مثلِ الثاني، أو يكون محمولاً على المعنى، أي: أُعرِّفكم بشرٍّ من ذلكم النارَ. والخفض على البدل[٥].

﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ﴾ في القيامة. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: الموضع الذي يصيرون إليه، وهو النار.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾. وإنما قال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ لأن حُجَجَ الله تعالى عليهم بضرب الأمثال لهم أقربُ إلى أفهامهم[٦]. فإن قيل: فأين المثَلُ المضروب؟ ففيه وجهان:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢١.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٨.

(٤) من قوله: وقيل: أي هل أنبئكم... إلى هذا الموضع، من (م).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٩.

الأوّل: قال الأخفش: ليس ثَمَّ مثَلٌ، وإنما المعنى: ضربوا لي مثلاً فاستمعوا قولهم، يعني أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره، فكأنَّه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستَمَعوا خبر هذا الشبه(١).

الثاني: قول القُتَبيّ: وأن المعنى: يا أيها الناس، مَثَلُ مَنْ عبدَ آلهةً لم تستطِعْ أن تخلُقَ ذباباً وإن سلبها الذبابُ شيئاً لم تستطِعْ أن تستنقِذَه منه(٢).

وقال النحاس: المعنى: ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ مما يُعبَدُ من دونه مثلاً. قال: وهذا مِنْ أحسن ما قيل فيه(٣)، أي: بيَّنَ اللهُ لكم شبَهاً ولمعبودكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة: «تدعون» بالتاء. وقرأ السُّلَمِيُّ وأبو العالِية ويعقوب: «يدعون» بالياء على الخبر(٤). والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله، وكانت حول الكعبة، وهي ثلاث مئة وستون صنماً. وقيل: السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عزَّ وجلَّ. وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى(٥). والأوّل أصْوَبُ.

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ الذباب: اسمُ واحدٍ للذكر والأنثى، والجمع القليل: أذِبَّة، والكثير ذِبَّان؛ على مثل: غُراب وأغْرِبة وغِرْبان؛ وسُمِّيَ به لكثرة حركته. الجوهري: والذُّباب معروفٌ، الواحدة ذُبابة، ولا تقل: ذِبَّانة. والمِذَبَّة ما يُذَبُّ به الذُّباب. وذُبَاب أسنان الإبل: حَدُّها. وذُباب السيف: طَرَفُه الذي يضرب به. وذُبابُ العين: إنسانها. والذُّبَابة: البقية من الدَّين. وذَبَّبَ النهارُ: إذا لم يبق منه إلا بقية. والتَّذبذُبُ: التحرُّكُ.

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٦٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ .

(٤) قراءة يعقوب من العشرة، وهي في النشر ٢/ ٣٢٧ .

(٥) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٤٠ دون قوله: وكانت حول الكعبة، وهي ثلاث مئة وستون صنماً. وهو في الوسيط ٣/ ٢٨٠ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٢٩ .

والذَّبْذَبةُ: نَوْسُ الشيءِ المُعلَّقِ في الهواء. والذَّبْذَبُ: الذَّكر؛ لتردُّده. وفي الحديث: «مَن وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبِه»[١]. وهذا مما لم يذكُرْه، أعني قوله: وفي الحديث[٢].

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ: التخليص. قال ابن عباس: كانوا يَطْلُون أصنامَهم بالزَّعفران فتجِفُّ، فيأتي فيختلِسُه. وقال السُّدِّي: كانوا يجعلون للأصنام طعاماً، فيقعُ عليه الذبابُ فيأكله[٣].

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب: الآلهةُ، والمطلوب: الذبابُ. وقيل بالعكس[٤]. وقيل: الطالب: عابدُ الصنم، والمطلوبُ: الصنم؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرُّب إليه، والصنم المطلوب إليه[٥]. وقد قيل: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ راجعٌ إلى ألمه في قَرْصِ أبدانهم حتى يسلبهم الصبرَ لها والوقارَ معها.

وخَصَّ الذبابَ لأربعة أمورٍ تخُصُّه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته[٦]، فإذا كان هذا الذي هو أضعفُ الحيوان وأحقرُه لا يقدِرُ مَنْ عبدوه من دون الله عزَّ وجلَّ على خَلْقِ مثلِه ودَفْعِ أذيَّته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهةً معبودين، وأرباباً مطاعين؟! وهذا من أقوى حجةٍ وأوضحِ برهان.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ﴾ أي: ما عظَّموه حقَّ عظمته؛ حيث

---

(١) الصحاح (ذبب) وقوله: «من وُقِيَ شرَّ ذبذبه» ليس بحديث، وقد أخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ١٧٠ من كلام أبي الأشهب العطاردي.

(٢) بل هو في الصحاح، ولعله ليس في نسخة المصنف.

(٣) ذكرهما الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٨٠ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٢٩٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٥٢ .

(٤) الوسيط ٣/ ٢٨٠ ونسب الأول إلى ابن عباس والكلبي، والثاني إلى الكلبي.

(٥) زاد المسير ٥/ ٤٥٢ ، ونسبه إلى الضحاك والسُّدِّيّ.

(٦) زاد المسير ٥/ ٤٥٢ ، وفيه ذكر أمور، لم يذكر: وضعفه.

جعلوا هذه الأصنام شركاء له[١]. وقد مضى في «الأنعام»[٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ختم السورة بأنَّ الله اصطفى محمداً ﷺ لتبليغ الرسالة، أي: ليس بَعْثُه محمداً أمراً بِدْعِيًّا.

وقيل: إن الوليد بن المغيرة قال: أوَ أُنزِلَ عليه الذِّكْرُ من بيننا؟ فنزلت الآية. وأخبر أنَّ الاختيار إليه سبحانه وتعالى[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته[٥]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد ما قدَّموا. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يريد ما خلَّفوا[٦]، مثل قوله في يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ [الآية: ١٢] يريد ما بين أيديهم، ﴿وآثارَهم﴾: يريد ما خلَّفوا. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ تقدَّم في أوَّلِ السورة أنها فُضِّلتْ بسجدتين، وهذه السجدة الثانية لم يرَها مالكٌ وأبو حنيفة من العزائم؛ لأنه

---

(١) الوسيط ٣/ ٢٨٠، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٥، وزاد المسير ٥/ ٤٥٣.

(٢) ٨/ ٤٥٤.

(٣) عند تفسير الآية (٤٠) من هذه السورة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٥.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٨١.

قرَنَ الركوعَ بالسجود، وأنَّ المراد بها الصلاةُ المفروضة، وخصَّ الركوع والسجود تشريفاً للصلاة[١]. وقد مضى القول في الركوع والسجود مبيَّناً في «البقرة»[٢] والحمد لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: امتَثِلوا أمْرَه. ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ نَدْبٌ فيما عدا الواجبات التي صحَّ وجوبُها من غير هذا الموضع[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ قيل: عنى به جهادَ الكفار. وقيل: هو إشارةٌ إلى امتثالِ جميعِ ما أمرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كلِّ ما نهى عنه، أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة الله، ورَدِّها[٤] عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في ردِّ وسوسَتِه، والظَّلَمةَ في رَدِّ ظُلمِهم، والكافرينَ في رَدِّ كفرهم.

قال ابنُ عطية: وقال مقاتل: وهذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وكذا قال هبة الله: إنَّ قولَه: ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وقولَه في الآية الأخرى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢] منسوخٌ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر[٥].

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٢٥، والاستذكار ٢/ ٥٠٦.

(٢) ٢/ ٢٥ - ٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٤.

(٤) في (د): وردُّوها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥ بمعناه دون ذكر قول مقاتل، وقد ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٠.

ولا حاجةَ إلى تقدير النسخ؛ فإنَّ هذا هو المراد من أوّل الحكم؛ لأنَّ «حقَّ جهاده» ما ارتفع عنه الحرج. وقد روى سعيد بن المسيِّب قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ دينِكُم أيْسَرُه»[1]. وقال أبو جعفر النحاس[2]: وهذا ممَّا لا يجوز أن يقع فيه نسخٌ؛ لأنَّه واجبٌ على الإنسان، كما روى حَيْوَةُ بنُ شُريحٍ يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «المجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نفسَه للهِ عزَّ وجلَّ»[3]. وكما روى أبو غالب، عن أبي أُمامةَ، أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ: أيُّ الجهاد أفضل؟ ـ عند الجمرة الأولى ـ فلم يُجِبْه، ثم سأله عند الجمرة الثانية فلم يُجِبْه، ثم سأله عند جمرة العقبة، فقال النبيُّ ﷺ: «أينَ السائِلُ؟» فقال: أنا ذا. فقال عليه الصلاة والسلام: «كلمةُ عَدْلٍ عند سلطانٍ جائر»[4].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم للذَّبِّ عن دينِه والتزامِ أمره؛ وهذا تأكيدٌ للأمر بالمجاهدة، أي: وجَبَ عليكم أن تجاهدوا؛ لأنَّ اللهَ اختاركم له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضِيق[5]. وقد تقدَّم في «الأنعام»[6].

وهذه الآية تدخل في كثيرٍ من الأحكام؛ وهي ممَّا خَصَّ اللهُ بها هذه الأمة؛ روى معمر عن قَتادة قال: أُعطِيَتْ هذه الأمةُ ثلاثاً لم يُعْطَها إلا نبيٌّ: كان يُقال للنبيِّ: اذهَبْ فلا حرَجَ عليك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، والنبيُّ شهيدٌ على أمته، وقيل لهذه الأمة: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ويُقال

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٢ . والحديث أخرجه أحمد (١٥٩٣٦) من حديث أعرابيٍّ سمع النبي ﷺ، و(١٨٩٧٦) من حديث محجن بن الأدرع ﷺ.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩٥١) من طريق حيوة بن شريح، عن أبي هانئ الخولاني، عن عمرو بن مالك الجنبي، عن فضالة بن عبيد ﷺ، مرفوعاً.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٢).

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٦٤١ -٦٤٢ ، والحاكم ٢/ ٣٩١ عن عائشة مرفوعاً. وأخرجه الطبري ١٦/ ٦٤١ - ٦٤٤ عن ابن عباس وأبي العالية والحسن والقاسم بن محمد وقتادة والضحاك.

(٦) ٩/ ٢٣ - ٢٥ .

للنبيِّ: سَلْ تُعْطَه، وقيل لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] [غافر: ٦٠].

الثانية: واختلفَ العلماء في هذا الحَرَج الذي رفَعه الله تعالى، فقال عكرمة: هو ما أُحِلَّ من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع، وما ملكَتْ يَمينك[2].

وقيل: المراد قَصرُ الصلاة، والإفطارُ للمسافِر، وصلاةُ الإيماء لمن لا يقدِرُ على غيره، وحَطُّ الجهادِ عن الأعمى والأعرجِ والمريضِ والعَدِيم الذي لا يجِدُ ما يُنفِقُ في غَزْوه، والغَرِيمُ، ومن له والدان، وحَطَّ الإصْرَ الذي كان على بني إسرائيل. وقد مضى تفصيلُ أكثر هذه الأشياء[3].

ورُويَ عن ابن عباس والحسن البصري أنَّ هذا في تقديم الأهِلَّة وتأخيرها في الفطر والأضحى والصوم[4]؛ فإذا أخطأتِ الجماعةُ هلالَ ذي الحِجَّة، فوقفوا قبل عرفة بيومٍ، أو وقفوا يوم النحر، أجزأهم، على خلافٍ فيه بيَّنَّاه في كتاب «المُقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ﷺ». وما ذكرناه هو الصحيح في الباب. وكذلك الفطر والأضحى؛ لِما رواه حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فِطْرُكم يوم تُفْطِرونَ، وأضحاكُم يومَ تُضَحُّون». خرَّجه أبو داود والدَّارَقُطْنيّ[5]، ولفظه ما ذكرناه. والمعنى: باجتهادكم من غير حرجٍ يلحقكم.

وقد روى الأئمةُ أنَّه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ يومَ النَّحرِ عن أشياء، فما سُئِلَ عن أمرٍ مما ينسى المرءُ أو يجهلُ من تقديم الأمور بعضِها قبلَ بعضٍ وأشباهِها إلَّا قال

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤١ - ٤٢، والطبري ١٦/ ٦٤٧ -٦٤٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٣.

(٣) ٤/ ٥٠٠ و ٩/ ٣٥٦.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٣ عن ابن عباس وحده.

(٥) سنن أبي داود (٢٣٢٤)، وسنن الدارقطني (٢٤٤٥).

فيها: «افعَلْ ولا حَرَج»[١].

الثالثة: قال العلماء: رَفْعُ الحَرَج إنَّما هو لمن استقامَ على منهاج الشرع، وأما السَّلَّابةُ والسُّرَّاقُ وأصحابُ الحدودِ فعليهمُ الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدِّين، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجلٍ لاثنين في سبيل الله تعالى، ومع صِحَّة اليقينِ وجُودَةِ العزمِ ليس بحرج[٢].

قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ قال الزَّجَّاج[٣]: المعنى: اتَّبِعوا مِلَّةَ أبيكم. الفرَّاء[٤]: انتصب على تقديرِ حذفِ الكاف، كأنه قال: كمِلَّةِ. وقيل: المعنى: وافعلوا الخيرَ فِعْلَ أبيكم[٥]، فأقام الفِعْلَ مقامَ المِلَّة. وإبراهيم هو أبو العرب قاطبةً. وقيل: الخطاب لجميع المسلمين، وإنْ لم يكُنِ الكلُّ من ولده؛ لأنَّ حُرْمَةَ إبراهيمَ على المسلمين كَحُرمةِ الوالدِ على الولد[٦].

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قال ابن زيد والحسن: «هو» راجعٌ إلى إبراهيم، والمعنى: هو سمَّاكم المسلمين من قبل النبيِّ ﷺ[٧]. ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: أي: وفي حُكمِه أنَّ منِ اتَّبعَ محمداً ﷺ فهو مسلم[٨]. قال ابن زيد: وهو معنى قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٩] [البقرة:١٢٨]. قال النحَّاس[١٠]: وهذا القولُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤)، ومسلم (١٣٠٦)، وأحمد (٦٤٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٤٤٠ ، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣١ ، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٦ .

(٦) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٥١ ، وزاد المسير ٥/ ٤٥٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٠ عن ابن زيد، ومجمع البيان ١٧/ ١٣٢ عن الحسن.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٤٠ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٣٢ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ - ١٠٧ .

مخالفٌ لقول عُلماءِ[١] الأمة؛ روى عليُّ بنَ أبي طلحة عن ابن عباس قال: سمَّاكم اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ من قبلُ، أي: في الكتب المتقدِّمة وفي هذا القرآن. وقاله مجاهد وغيره.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بتبليغه إياكم. ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ أنَّ رسلَهم قد بلَّغَتْهم[٢]، كما تقدَّم في «البقرة»[٣]. ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تقدَّم مستوفًى[٤] والحمد لله.

تم الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الخامس عشر ويبدأ بسورة «المؤمنون»

---

(١) في (م): عظماء.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠١.

(٣) ٢/ ٤٣٥.

(٤) ١/ ٢٥٣ و ٢/ ٢٢ و ٥/ ٢٣٦.

تفسير سـورة الحج

[وهى مكية][1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة: هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عَرصَات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[الزلزلة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴾ [الواقعة: ٤ـ٦].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة فى قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة.

ورواه ابن أبى حاتم من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وروى عن الشعبى، وإبراهيم، وعُبَيْد بن عُمَيْر، نحو ذلك.

وقال أبو كُدَيْنَةَ، عن عطاء، عن عامر الشعبى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية، قال: هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قال ذلك فى حديث الصُّور، من رواية إسماعيل ابن رافع قاضى أهل المدينة، عن يزيد بن أبى زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظى، عن رجل، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فِيه، شاخص ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قال أبو هريرة: يارسول الله، وما الصور؟

قال: «قرن» قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع،

(١) زيادة من ت.

www.besturdubooks.wordpress.com

والثانية نفخة الصَّعْق، والثالثة نفخة [١] القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزعُ أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهى التى يقول الله تعالى: **﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾** [ص: ١٥] فَيُسير الله الجبال، فتكون سرابا وتُرج الأرض بأهلها رجا، وهى التى يقول الله تعالى: **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾** [النازعات: ٦ـ ٨]، فتكون الأرض، كالسفينة الموبقة [٢] فى البحر، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح. فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل. ويشيب [٣] الولدان، وتطير الشياطين هاربة، حتى تأتى الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولى [٤] الناس مدبرين، ينادى بعضهم بعضا، وهو الذى يقول الله تعالى: **﴿يَوْمَ التَّنَادِ [٥] . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** [غافر: ٣٢، ٣٣] فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فَرَأوا أمرا عظيما، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل، ثم خسف شمسها وخُسفَ قمرها، وانتثرت نجومها، ثم كُشطت عنهم» قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشىء من ذلك» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: **﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن [٦] شَاءَ اللَّهُ﴾** [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذى يقول الله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾** [٧].

وهذا الحديث قد رواه الطبرانى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وغير واحد [٨]، مطولا جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة [٩] كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث:

الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا [١٠] قتادة، عن الحسن، عن عمران [ابن] [١١] حُصَين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ**

---

(١) فى ت: «والنفخة الثالثة».
(٢) فى ت: «المرسية».
(٣) فى ت، أ: «وتشيب».
(٤) فى ت: «وتولى».
(٥) فى ت: «التنادى».
(٦) فى ت: «ما».
(٧) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٥).
(٨) حديث الصور سبق عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٩) فى ت: «الزلزلة له».
(١٠) فى ت: «عن».
(١١) زيادة من ت، أ، والمسند.

www.besturdubooks.wordpress.com

مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطى، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشهوا حوله قال: «أتدرون أى يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، عليه السلام، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار، وواحد فى الجنة». قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع [١]خَليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسُرّى عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعيرة، أو الرقمة فى ذراع الدابة».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننيهما، عن محمد بن بَشَّار، عن يحيى ـ وهو القَطَّان ـ عن هشام ـ وهو الدستوائى ـ عن قتادة، به [٢] بنحوه. وقال الترمذى: حسن صحيح.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال[٣] الترمذى: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حُصَيْن؛ أن النبى ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ[٤] اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو فى سفر، فقال: «أتدرون أى يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسَدِّدوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُمِّلت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقمة فى ذراع الدابة، أو كالشامة [٥] فى جنب البعير» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، قال: ولا أدرى أقال الثلثين أم لا؟

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عُيَيْنَة[٦]، ثم قال الترمذى أيضا: هذا حديث حسن صحيح.

وقد روى عن سعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن، عن عمران بن الحصين. وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوى، عن عمران بن الحصين[٧]، فذكره.

---

(١) فى ت: «مع».

(٢) المسند (٤/ ٤٣٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٠).

(٣) فى ت: «وقال». (٤) فى ت: «يأيها الذين آمنوا» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وكالشامة».

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٦٨) والمسند (٤/ ٤٣٢).

(٧) فى ت: «ابن حصين».

www.besturdubooks.wordpress.com

وهكذا روى ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدرَ، عن عوف، عن الحسن قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العُسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر الحديث [١]، فذكر نحو سياق ابن جُدْعَان، فالله أعلم.

الحديث الثانى: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن الطَّبَّاع، حدثنا أبو سفيان ـ [يعنى] [٢] المعمرى ـ عن مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر ـ يعنى: نحو سياق الحسن عن عمران ـ غير أنه قال: «ومن هلك من كفرة الجن والإنس».

رواه ابن جرير بطوله، من حديث معمر [٣].

الحديث الثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد ـ يعنى: ابن العوام ـ حدثنا هلال بن خباب [٤]، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا [٥] رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه، وقال فيه: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا، وزاد أيضاً: «وإنما أنتم جزء من ألف جزء» [٦].

الحديث الرابع: قال البخارى عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين [٧]. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبى ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين [٨]، ومنكم واحد، ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا [٩].

وقد رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائى فى تفسيره، من طرق، عن الأعمش، به [١٠].

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٦).
(٢) زيادة من أ.
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٧).
(٤) فى ت: «ابن حبان». (٥) فى ت: «قال».
(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٢٣٥) «كشف الأستار» حدثنا أبو بكر بن إسحاق عن سعد بن سليمان به، وقال: «لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد».
وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٦٩): «قلت فى الصحيح بعضه، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة».
(٧، ٨) فى ت: « وتسعون».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٤١).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٣٤٨، ٧٤٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٩).

www.besturdubooks.wordpress.com

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عمار [١]بن محمد ـ ابن أخت سفيان الثورى ـ وعبيدة المعنى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة مناديا [ينادى][٢]: يا آدم، إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يارب، من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعين». فقال رجل من القوم: من هذا الناجى منا بعد هذا يارسول الله؟ قال[٣]: «هل تدرون ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى صدر البعير»[٤].

انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبى صغيرة، حدثنا ابن أبى مُلَيْكَةَ؛ أن القاسم بن محمد أخبره، عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاة عراة غرلا». قالت عائشة: يارسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». أخرجاه فى الصحيحين[٥].

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، عن خالد بن أبى عِمْران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف، فلا. وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى بيمينه أو يعطى بشماله، فلا. وحين يخرج عُنُق من النار فينطوى عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة: وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد» قال: «فينطوى [٦] عليهم، ويرميهم فى غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخُذْنَ من شاء الله، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب، سَلِّم، سَلِّم. فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكَوّر [٧] فى النار على وجهه[٨] »[٩].

والأحاديث فى أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدا، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ أى: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب.

والزلزال[١٠]: هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: ﴿**هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾[الأحزاب: ١١].

---

(١) فى ت: «عمارة». (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «فقال».
(٤) المسند (١/ ٣٨٨).
(٥) المسند (٦/ ٥٣) وصحيح البخارى برقم (٦٥٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥).
(٦) فى ت: «وينطوى». (٧) فى أ: « ومكبوب». (٨) فى ت: «وجوههم».
(٩) المسند (٦/ ١١٠).
(١٠) فى ت: «والزلازل».

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتى هى أشفق الناس عليه، تدهش عنه فى حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى: عن رضيعها قبل فطامه.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أى: قبل تمامه لشدة الهول، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ وقرئ: «سكْرَى» أى: من شدة الأمر الذى [قد] [(١)] صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال [(٢)] والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال فى شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أى: علم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعنى الشيطان، يعنى: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أى: اتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أى: يضله فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

وقد قال السدى، عن أبى مالك: نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث. وكذلك [(٣)] قال ابن جريج.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن سلم [(٤)] البصرى، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمر[(٥)]، حدثنا أبو كعب المكى قال: قال خبيث من خُبثاء قريش: أخبرنا [(٦)] عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعقعت السماء قعقعة ـ والقعقعة فى كلام العرب: الرعد ـ فإذا قِحْف رأسه ساقط بين يديه.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: جاء يهودى فقال: يامحمد، أخبرنى عن ربك: من أى شىء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «الضلالة». (٣) فى ف: «وكذا».
(٤) فى ت، ف: «ابن مسلم». (٥) فى ت: «المعتمر». (٦) فى ت: «حدثنا».

www.besturdubooks.wordpress.com

عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)﴾.

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق[١]، فقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أى: فى شك ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أى: أصل بَرْئه [٢] لكم من تراب، وهو الذى خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ ذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة ـ قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ـ ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أى: كما تشاهدونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوما، وهى مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ [٣] فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عز وجل[٤]،من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقى أو سعيد، كما ثبت فى الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ:« إن خلق أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون عَلقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»[٥].

وروى ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن علقمة، عن عبدالله قال: النطفة إذا استقرت فى الرحم، أخذها[٦] ملك بكفه قال[٧]: يارب، مخلقة أو غير

---

(١) فى ت:«بما شاهد من بين يديه للخلق»، وفى ف: «بما يشاهده من بين يديه للخلق».
(٢) فى ت، ف: «تربه». (٣) فى أ: «فينفخ». (٤) فى ف، أ: «الله تعالى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٦) فى هـ، ت، ف: «جاءها»، والمثبت من الدر المنثور ٣/ ٣٤٥. (٧) فى ت، ف:«فقال».

www.besturdubooks.wordpress.com

مخلقة؟ فإن قيل: «غير مخلقة» لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دما. وإن قيل: «مخلقة»، قال: أى رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأى أرض يموت[١]؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش فى أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت فى ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة، فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة نكست فى الخلق.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبى الطفيل، عن حذيفة بن أسيد ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أى رب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص[٢]».

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق أخر، عن أبى الطُّفَيل، بنحو معناه[٣].

وقوله: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أى: ضعيفا فى بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطف [٤] به، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾أى: يتكامل [٥] القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾، أى: فى حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف [٦] وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلا [٧]يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد قال الحافظ أبو يعلى [أحمد] [٨] بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا منصور بن أبى مزاحم[٩]، حدثنا خالد الزيات، حدثنى داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ابن حزم الأنصارى، عن أنس بن مالك ـ رفع الحديث ـ قال: «المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة، كتبت لوالده أو لوالدته[١٠]، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة فى

---

(١) فى ف: «تموت». (٢) فى ف: «ولاينقص».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).
(٤) فى أ: «ويتلطف». (٥) فى ت: «تتكامل». (٦) فى ت، ف، أ: «من الحزن».
(٧) فى ت: «لا». (٨) زيادة من ت، ف،أ. (٩) فى أ: «ابن أبى عاصم».
(١٠) فى ت، ف: «لوالديه».

www.besturdubooks.wordpress.com

الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر ﴿ **لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾، كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه»[١].

هذا حديث غريب جدا، وفيه نكارة شديدة. ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مرفوعا وموقوفا فقال:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامرى[٢]، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة، أمنه الله من أنواع البلايا، من الجنون والجذام والبرص[٣]، فإذا بلغ الخمسين لَيَّن الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته، ومحا عنه سيئاته، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله في الأرض، وشفع في أهله [٤].

ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامرى، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، مثله[٥].

ورواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا أنس بن عياض، حدثني يوسف بن أبي ذرة [٦] الأنصارى، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْرى، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص[٧]. . . . وذكر تمام الحديث، كما تقدم سواء[٨].

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبي شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك[٩]، عن أبي قتادة العُذْرى، عن ابن أخي الزهرى، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله، وأحبه أهل السماء[١٠]، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غَفَر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسُمى أسير الله في أرضه، وشفع في أهل بيته»[١١].

---

(١) مسند أبي يعلى (٦/ ٣٥٢).

(٢) في ت، ف: «العاملى».

(٣) في ف: «البرص والجذام».

(٤) المسند (٢/ ٨٩).

(٥) المسند (٢/ ٨٩).

(٦) في هـ، ت، ف: «أبي بردة»، والتصويب من كتب الرجال.

(٧) في ت: «أو الجذام أو البرص».

(٨) المسند (٣/ ٢١٧) وفي إسناده يوسف بن أبي ذرة وهو ضعيف.

(٩) في ت: «عبد الله بن مالك».

(١٠) في أ: «السماوات».

(١١) مسند البزار برقم (٣٥٨٨) «كشف الأستار».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهى القحلَة التى لا نبت فيها ولا شىء[١].

وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدى: ميتة.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت وحيَيت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [أى: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾][٢]، ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمما، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠] والآيات فى هذا كثيرة[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهز[٤]، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى عن عطاء، عن وكيع ابن حُدُس[٥]، عن عمه أبى رَزين العقيلى ـ واسمه لَقيط بن عامر[٦] ـ أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْليا به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «أما مررت بوادى أهلك محلا[٧]» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضرا؟». قال: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه».

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد بن سلمة، به[٨].

ثم رواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبى رَزين العُقَيْلى قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أمررت بأرض من أرضك مُجْدبةً، ثم مررت بها

(١) فى ت: «التى لا ينبت فيها شيئا». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت:«الكثيرة».
(٤) فى ت: «يزيد».
(٥) فى ت: «عدس»، وفى ف، أ: «عدى».
(٦) فى ت: «ليث بن أبى عامر». (٧) فى أ: «ممحلا».
(٨) المسند (٤/١١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣١) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٠).

www.besturdubooks.wordpress.com

مخضبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك النشور»(١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عُبَيس(٢) بن مرحوم، حدثنا بُكَير بن أبى السُّمَيْط، عن قتادة، عن أبى الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور ـ دخل الجنة. [والله أعلم](٣).

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ⑧ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ⑨ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ⑩ ﴾.

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلّدين فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾، ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾، أى: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأى والهوى.

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾: قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعى إليه.

وقال مجاهد، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أى: لاوى عنقه، وهى رقبته، يعنى: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقَبَته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٥]: وقال لقمان لابنه: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أى: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين(٤)، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلة فى الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمّه ومبلغ علمه، ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ

---

(١) المسند (٤/١١).

(٢) فى ف، أ: «عيسى». (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ت، ف: «المعاندون».

www.besturdubooks.wordpress.com

الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أى: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخا، ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾، كقوله تعالى: ﴿**خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ .ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ**﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٥٠].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن الصبّاح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغنى أن أحدهم يُحرق فى اليوم سبعين ألف مرة.

﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)** ﴾ .

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿**عَلَىٰ حَرْفٍ**﴾: على شك[1].

وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أى: طرفه، أى: دخل فى الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبى بُكَيْر[2]، حدثنا إسرائيل، عن أبى حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ**﴾ قال: كان الرجل يَقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما، ونُتِجَت خيلُه، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تُنتَج [3]خيله قال: هذا دين سوء[4].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبى، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القُمِّى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيُسْلِمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غَيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمسَّكُوا به». وإن وجدوا عام جُدوبة وعام ولاد سَوء وعام قحط، قالوا: «ما فى ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ**﴾.

وقال العوفى، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قَدم المدينة، وهى أرض وبيئة[5]، فإن صح بها جسمه، ونُتجت فرسه مهراً حسنا، وولدت امرأته غلاماً، رضى به واطمأن إليه، وقال: «ما أصبت منذ كنتُ على دينى هذا إلا خيرا». وإن أصابته فتنة ـ والفتنة: البلاء ـ أى: وإن أصابه وجع المدينة،

---

(١) فى ت: «على شدة».　(٢) فى ف: «ابن أبى بكر».　(٣) فى ت، ف: «ينتج».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٢).

(٥) فى هـ، ت: «وهم أرض دونه» والمثبت من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينكَ هذا إلا شراً. وذلك الفتنة.

وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جُريج، وغير واحد من السلف، فى تفسير هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لِمَا صلح من دنياه، فإن[1] أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أى: ارتد كافراً.

وقوله: ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ أى: فلا هو حَصَّل من الدنيا على شىء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها فى غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى: هذه هى الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهى لا تنفعه ولا تضره، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أى: ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾: قال مجاهد: يعنى الوثن، يعنى: بئس هذا الذى دعا به من دون الله مولى، يعنى: ولياً وناصراً، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر.

واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد [الله][2] على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) ﴾.

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، [وتركوا المنكرات][3]، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، فى روضات الجنات.

ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ

---

(١) فى ت، ف، أ: «فإذا».
(٢) زيادة من ت، ف، أ.
(٣) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦)﴾.

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أى: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ[1] بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتى محمداً من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى، وأبلغ فى التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾.

قال السدى: يعنى: مِنْ شأن محمد[2] ﷺ.

وقال عطاء الخراسانى: فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى: واضحات فى لفظها ومعناها، حجةً من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أى: يضل من يشاء، ويهدى من يشاء، وله الحكمة التامة و الحجة[3] القاطعة فى ذلك، ﴿لَا[4] يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين ـ وقد قدمنا فى سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلافَ الناس فيهم ـ والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل[5]، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به[6] النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِن ضمائرهم.

---

(١) فى ت: «وليمدد». (٢) فى ت: «محمداً». (٣) فى ت: «وله الحجة».
(٤) فى ت: «ولا».
(٥) فى ت: «بالعذاب». (٦) فى ت، أ: «إلى».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾.

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد[١] لعظمته كل شىء طوعا وكرها وسجود [كل شىء مما][٢] يختص به، كما قال: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا[٣] إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾** [النحل: ٤٨]. وقال ها هنا: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾** أى: من الملائكة فى أقطار السموات، والحيوانات فى جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾** [الإسراء: ٤٤].

وقوله: **﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾**: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة **﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [فصلت: ٣٧].

وفى الصحيحين عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت»[٤].

وفى المسند وسنن أبى داود، والنسائى، وابن ماجه، فى حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل إذا تَجَلى لشىء من خلقه خشع[٥] له»[٦].

وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفَىء ظلالهما[٧] عن اليمين والشمائل: وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم، كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدتُ فسجَدَت الشجرة لسجودى، فسمعتُها وهى تقول: اللهم، اكتب لى بها عندك أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبَّلها منى كما تقبلتَها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ

---

(١) فى ت: «سجد». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «يرى».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩).

(٥) فى ف، أ: «خضع».

(٦) المسند (٤/ ٢٦٧) وسنن أبى داود برقم (١١٧٧) وسنن النسائى (١٤١١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٢٦٢).

(٧) فى ت: «فسجودها على ظلالها».

www.besturdubooks.wordpress.com

النبى[١] ﷺ سجدة ثم سَجَد، فسمعته وهو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.

رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن حبّان فى صحيحه[٢].

وقوله: ﴿وَالدَّوَاب﴾ أى: الحيوانات كلها.

وقد جاء فى الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب[٣] منابر[٤]. فرب مركوبة خير[٥] وأكثر ذكراً لله من راكبها.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاس﴾ أى: يسجد لله طوعا مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَاب﴾ أى: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملى، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على قال: قيل لعلى: إن ها هنا رجلا يتكلم فى المشيئة. فقال له على: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت[٦]؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربتُ الذى فيه عيناك بالسيف.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة اعتزل[٧] الشيطان يبكى يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمِرتُ بالسجود فأبيتُ، فلى النار» رواه مسلم[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا: حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا مَشْرَح بن هاعان[٩] أبو مُصعب المعافرى قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث عبد الله بن لهيعة، به[١٠]. وقال الترمذى: «ليس بقوى[١١]» وفى هذا نظر؛ فإن ابن لَهِيعة قد صَرح فيه بالسماع، وأكثر ما نَقَموا عليه تدليسه.

---

(١) فى ت: «رسول الله».

(٢) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٣) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) فى ف، أ: «الحيوانات».

(٤) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٥٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) فى ف: «خيراً». (٦) فى ت، ف: «لما يشاء أو لما شئت». (٧) فى ف: «فاعتزل».

(٨) صحيح مسلم برقم (٨١).

(٩) فى أ: «عاهان».

(١٠) المسند (٤/ ١٥١) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٢) وسنن الترمذى برقم (٥٧٨).

(١١) فى ف: «ليس هو بقوى».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقد قال أبو داود فى المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح، أنبأنا ابن وَهْب، أخبرنى معاوية بن صالح، عن عامر بن جَشِب[(١)]، عن خالد بن مَعْدان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلَت سورة الحج على القرآن بسجدتين».

ثم قال أبو داود: وقد أسندَ هذا، يعنى: من غير هذا الوجه، ولا يصح[(٢)].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى: حدثنا ابن أبى داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثنى نافع، حدثنى أبو الجهم: أن عمر سجد سجدتين فى الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين[(٣)].

وروى أبو داود وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد العُتَقىّ، عن عبد الله بن مُنَين، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن، منها ثلاث فى المُفَصّل، وفى سورة الحج سجدتان[(٤)]. فهذه[(٥)] شواهد يَشُدّ بعضها بعضا.

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴾.

ثبت فى الصحيحين، من[(٦)] حديث أبى مجلَز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبى ذر؛ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت فى حمزة وصاحِبَيه، وعتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا فى بدر[(٧)].

لفظ البخارى عند تفسيرها، ثم قال البخارى:

حدثنا الحجاج بن مِنْهَال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبى، حدثنا أبو مِجْلز عن قيس بن عُبَاد، عن على بن أبى طالب أنه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علىّ وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخارى[(٨)].

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة فى قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم. فنحن أولى بالله

---

(١) فى ف، أ: «جيب».
(٢) المراسيل برقم (٧٨).
(٣) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/٣١٧) من طريق نافع عن رجل من أهل مصر أنه صلى مع عمر بن الخطاب فذكر مثله.
(٤) سنن أبى داود برقم (١٤٠١) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٧).
(٥) فى ف: «فهو».
(٦) فى ت: «عن».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٠٣٣).
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٤).

www.besturdubooks.wordpress.com

منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضى على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فأفلج الله الإسلامَ على من ناوأه، وأنزل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. وكذا روى العَوفى، عن ابن عباس.

وقال شعبة، عن قتادة فى قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: مُصدق ومكذب.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد فى هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث. وقال ـ فى رواية: هو وعطاء فى هذه الآية ـ: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هى الجنة والنار، قالت النار: اجعلنى للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلنى للرحمة.

وقولُ مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حَسَن؛ ولهذا قال: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أى: فصلت لهم مقطعات من نار.

قال سعيد بن جبير: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة.

وقال سعيد [ابن جبير](١): هو النحاس المذاب، أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وكذلك تذوب(٢) جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالَقانى، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن زيد(٣)، عن أبى السَّمْح، عن ابن(٤) حُجَيرة، عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الحميم لِيُصَبّ على رؤوسهم، فينفُذ الجمجمةَ حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت(٥) ما فى جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان».

ورواه الترمذى من حديث ابن المبارك(٦)، وقال: حسن صحيح. وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى نعيم، عن ابن المبارك، به ثم قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارِىّ، سمعت عبد الله بن السُّرِّىّ قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بِكَلْبَتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مِقْمَعَة معه فيضرب

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «يذوب». (٣) فى ت، ف: «يزيد».
(٤) فى ت: «أبى». (٥) فى أ: «فيسلب».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٥٨٢).

www.besturdubooks.wordpress.com

بها رأسه، فَيُفرغ[(١)] دماغه، ثم يُفرغ[(٢)] الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾

وقوله: ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مِقْمَعا مِن حديد وُضِع فى[(٣)] الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقَلُّوه من الأرض»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا بن لَهِيعة، حدثنا[(٥)] دَرَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لو ضُرِب الجبلُ بِمقْمَع من حديد، لتفتت ثم عاد كما كان، ولو أن دلوا من غَسَّاق يُهرَاق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[(٦)].

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون [(٧)]بالثبور.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾: قال الأعمش، عن أبى ظَبْيان، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضىء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

وقال زيد بن أسلم فى هذه الآية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، قال: بلغنى أن أهل النار فى النار لا يتنفسون.

وقال الفُضيل[(٨)] بن عياض: والله ما طمعوا فى الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدى لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم[(٩)] مقامعها.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياذاً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنَّكال

(١) فى ت، ف: «فيقرع». (٢) فى ت: «يقرع». (٣) فى ت: «على».
(٤) المسند (٣/ ٢٩).
(٥) فى ت، ف: «عن».
(٦) المسند (٣/ ٨٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.
(٧) فى ت، ف: «فيدعو». (٨) فى ت: «الفضل». (٩) فى ف: «ويردهم».

www.besturdubooks.wordpress.com

والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة ـ نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة ـ فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ أى: تتخرّق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا**﴾ من الحلية، ﴿**مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا**﴾ أى: فى أيديهم، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوُضُوء»(١).

وقال كعب الأحبار: إن فى الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميتُه، يصوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قُلْب منها ـ أى: سوار منها ـ لرد شعاع الشمس، كما ترد(٢) الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾: فى مقابلة ثياب أهل النار التى فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: ﴿**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا**﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفى الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج فى الدنيا، فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»(٣).

قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾.

وقوله: ﴿**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾، كقوله: ﴿**وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ**﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿ **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا**﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذى يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿**وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا**﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذى يُرَوّعون به (٤)ويقرعون به، يقال لهم: ﴿**وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾.

وقوله: ﴿**وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾ أى: إلى المكان الذى يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء فى الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَسَ».

وقد قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾ أى: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿**وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾ أى: الطريق المستقيم فى الدنيا. وكل هذا لا ينافى ما ذكرناه، والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ف: «يرد».

(٣) الحديث فى صحيح البخارى برقم (٥٤٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٤) فى ت: «يوبخون فيه»، وفى ف، أ: «يوبخون به».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾.

يقول تعالى منكراً على الكفار فى صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وفى هذه الآية دليل [على][١] أنها مَدنية، كما قال فى سورة «البقرة»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أى: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به فى نفس الأمر، وهذا التركيب فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] أى: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [أى: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائى عنه البعيد الدار منه، ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾][٢] ومن ذلك استواء الناس فى رباع مكة وسكناها، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام.

وقال مجاهد [فى قوله][٣]: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][٤].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعى وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر[٥] أيضاً، فذهب الشافعى، رحمه الله[٦]، إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهرى، عن على بن الحُسَين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غداً فى دارك[٧] بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عَقيل من رباع». ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر». وهذا الحديث مُخَرّج فى الصحيحين[٨] [وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة، فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار.

وذهب إسحاق بن راهَويه إلا أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ف. (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «حاضراً». (٦) فى ف: «رضى الله عنه»، وفى أ: «رضى الله تعالى عنه».
(٧) فى ف: «بدارك»
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهَويه بما رواه ابن ماجه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن عيسى ابن يونس ، عن عُمَر بن سعيد بن أبى حُسَين[١]، عن عثمان بن أبى سليمان، عن علقمة بن نَضْلَة قال: تُوُفى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا][٢] السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن[٣].

وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها.

وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم، وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبوّب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج فىَ عَرَصاتها، فكان أول من بَوّب داره سُهَيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب فى ذلك، فقال: أنظرنى يا أمير المؤمنين، إنى كنت امرأ تاجرا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لى ظهرى قال: فذلك إذاً.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث يشاء[٤].

قال: وأخبرنا مَعْمر، عمن سمع عطاء يقول [فى قوله][٥]: ﴿**سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا.

وروى الدارقطنى من حديث ابن أبى نَجِيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفا[٦]: من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً[٧].

وتوسط الإمام أحمد [فيما نقله صالح ابنه][٨] فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾: قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿**تَنبُتُ بِالدُّهْنِ**﴾ [المؤمنون: ٢٠] أى: تُنبِتُ الدهن، وكذا قوله: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ**[٩]﴾ تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزق عيالنا أرْماحُنا ... بين المَرَاجِلِ، والصّرِيحَ الأجرد[١٠]

وقال الآخر[١١]:

بوَادٍ يمَانٍ يُنْبتُ الشَّتّ صَدْرُهُ ... وَأَسْفَلُه بالمَرْخ والشّبَهَان

(١) فى ت: «جبير»، وفى ف، أ: «حيوة».
(٢) زيادة من ت، ف، أ .
(٣) سنن ابن ماجه برقم (٣١٠٧) وهو مرسل.
(٤) فى ت، ف: «شاء».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف، أ: «مرفوعاً».
(٧) سنن الدارقطنى (٢/ ٣٠٠).
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف، أ: «بإلحاد بظلم».
(١٠) البيت فى تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٣).
(١١) البيت فى تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٣) غير منسوب.

www.besturdubooks.wordpress.com

والأجود أنه ضمن الفعل ها هنا معنى «يَهُمّ»، ولهذا[١] عداه بالباء، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ أى: يَهُمّ فيه بأمر فظيع من المعاصى الكبار.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أى: عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج[٢]، عن ابن عباس: هو [التعمد][٣].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: بشرك.

وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: هو أن تَستحلَ من الحرام ما حَرّم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَل ذلك فقد وَجَب [له][٤] العذاب الأليم.

وقال مجاهد: ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعمل فيه عملا سيئا.

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادى فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبى حاتم فى تفسيره:

حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السُّدِّى: أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله ـ يعنى: ابن مسعود ـ فى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بعَدَن أبينَ، أذاقه[٥] الله من العذاب الأليم.

قال شعبة: هو رفعه لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قد رفعه، ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به[٦].

[قلت: هذا الإسناد][٧] صحيح على شرط البخارى، ووقفه أشبه من رفعه؛ ولهذا صَمم شعبة على وَقْفه من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثورى، عن السدى، عن مُرة، عن ابن مسعود موقوفا، والله أعلم.

وقال الثورى، عن السدى، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلا بَعَدن أبينَ هَمّ أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم. وكذا قال الضحاك بن مُزاحم.

وقال سفيان [الثورى][٨]، عن منصور، عن مجاهد «إلحاد فيه»، لا والله، وبلى والله. وروى عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله.

---

(١) فى ف: «ولذا». (٢) فى ت: «جرير».
(٣) زيادة من ف، أ. (٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، ف، أ: «لأذاقه».
(٦) المسند (١/٤٢٨).
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) زيادة من ف.

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال سعيد بن جُبَير: شتم الخادم ظلم فما فوقَه.

وقال سفيان الثورى، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: تجارة الأمير فيه.

وعن ابن عمر: بيع الطعام [بمكة](١) إلحاد.

وقال حبيب(٢) بن أبى ثابت: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهرى، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثنى موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد»(٣).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر(٤)، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى عطاء بن دينار، حدثنى سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس فى قول الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت فى عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا فى الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصارىّ، ثم ارتد عن الإسلام، وهَرَب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ يعنى: من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعنى بميل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أى: دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم» الحديث(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُنَاسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد فى حَرَم الله، فإنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنه سيلحدُ فيه رجل من قريش، لو تُوزَن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو(٦).

وقال أيضا [فى مسند عبد الله بن عمرو بن العاص](٧): حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد،

---

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) فى ت: «جندب».

(٣) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٠٢٠)، والفاكهى فى تاريخ مكة برقم (١٧٧١) من طريق أبى عاصم به.

(٤) فى ت، ف: «بكر».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢١١٨) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) المسند (٢/١٣٦).

(٧) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبدُ الله بن عمرو بن الزبير، وهو جالس فى الحِجْر فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحادَ فى الحرم، فإنى أشهد لسَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وُزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن[١] هو[٢].

ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾.

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فى البقعة التى أسسّتْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بَوأ إبراهيم مكانَ البيت، أى: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له فى بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت فى الصحيح[٣] عن أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وُضعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»[٤].

وقد قال الله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾** الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: **﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [البقرة: ١٢٥].

وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا[٥].

وقال تعالى هاهنا: **﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي﴾** أى: ابنْه على اسمى وحدى، **﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾** قال مجاهد وقتادة: من الشرك، **﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** أى: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، **﴿وَالْقَائِمِينَ﴾** أى: فى الصلاة؛ ولهذا قال: **﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه فى غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب، وفى النافلة فى السفر، والله أعلم.

---

(١) فى ت: «لا يكون» وفى ف: «لا تكون».
(٢) المسند (٢١٩١٢).
(٣) فى ف: «الصحيحين».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).
(٥) انظر تفسير الآية: ١٢٥ من سورة البقرة.

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه. فَذُكر أنه قال: يارب، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبى قُبَيس، وقال: يأيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمعَ مَن فى الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شىء سمعه من حَجَر ومَدَر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لبيك اللهم لبيك».

هذا مضمون ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جَرير، وابن أبى حاتم مُطَوّلة[1][2].

وقوله: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضلُ من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم فى الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام.

وقوله: ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ يعنى: طريق، كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أى: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثورى، وغير واحد.

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال فى دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾.

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح[3] والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٨].

---

(١) فى ف: «بطوله».

(٢) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٦).

(٣) فى ت، ف،أ: «والذبائح».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ [فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ][١] عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، قال شعبة [وهُشَيْم][٢] عن [أبى بشر عن سعيد][٣] عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخارى عنه بصيغة الجزم به[٤]. ويروى مثله عن أبى موسى الأشعرى، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى، وإبراهيم النَّخعى. وهو مذهب الشافعى، والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وقال البخارى: حدثنا محمد بن عَرْعَرَة، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه» قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء».

ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه[٥]. وقال الترمذى: حديث حسن غريب صحيح. وفى الباب عن ابن عمر، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر.

قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حدته[٦]، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد:

حدثنا عَفَّان، أنبأنا أبو عَوَانة، عن يزيد بن أبى زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهم من التهليل والتكبير والتحميد»[٧] وروى من وجه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر، بنحوه[٨].

وقال البخارى: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما[٩].

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعا: أن هذا هو العشر الذى أقسم الله به فى قوله: ﴿وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢][١٠].

وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾[الأعراف: ١٤٢].

وفى سنن أبى داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر[١١].

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذى ثبت فى صحيح مسلم عن أبى قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية»[١٢].

(١، ٢، ٣) زيادة من ف، أ.
(٤) صحيح البخارى (٢/ ٤٥٧) «فتح».
(٥) صحيح البخارى برقم (٩٦٩) وسنن أبى داود برقم (٢٤٣٨) وسنن الترمذى برقم (٧٥٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٢٧).
(٦) سماه: «الأحاديث الواردة فى فضل الأيام العشرة من ذى الحجة».
(٧) المسند (٢/ ٧٥).
(٨) رواه أبو عوانة ـ كما فى إرواء الغليل (٣٩٨١٣) عن الحافظ ابن حجر ـ من طريق موسى بن أبى عائشة عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما.
(٩) صحيح البخارى (٢/ ٤٥٧) «فتح».
(١٠) المسند (٣/ ٣٢٧).
(١١) سنن أبى داود برقم (٢٤٣٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٢) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد فى حديث أنه أفضل الأيام عند الله[١].

وبالجملة، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع فى ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه.

وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر.

وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالى ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان فى الأيام المعلومات: قال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النَّخَعى، وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه.

قول ثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عَجْلان، حدثنى نافع؛ أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر.

هذا إسناد صحيح إليه، وقاله [٢]السدى: وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**﴾ يعنى به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبى حنيفة.

وقال ابن وهب: حدثنى [٣] ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله: ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى فى سورة الأنعام وأنها ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وقوله﴿ **فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب، والذى عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها[٤].

وقال عبد الله بن وهب: [قال لى مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا**﴾ : قال ابن وهب][٥]: وسألت الليث، فقال لى مثل ذلك.

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٣٥٠) وأبو داود فى السنن برقم (١٧٦٥) من حديث عبد الله بن قرط رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «وقال». (٣) فى ت، ف: «وقال ابن وهب وحدثنى».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وروى عن مجاهد، وعطاء نحو ذلك.

قال هُشَيْم، عن حُصَيْن، عن مجاهد فى قوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: هى كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ(١) الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾[الجمعة: ١٠].

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء.

والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله فى الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج: ٣٦] وسيأتى الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذى عليه البؤس، [والفقير](٢): المتعفف.

وقال مجاهد: هو الذى لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزَّمِن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو وضع [الإحرام](٣)، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظى.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث: المناسك.

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: نحر ما نذر من أمر البُدن.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج.

وقال إبراهيم بن مَيْسَرَة، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: الذبائح.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: [حجهم.

وكذا روى الإمام ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان فى قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال:](٤) نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت

(١) فى ت: «قضيتم». (٢، ٣) زيادة من ف، أ. (٤) زيادة من ت، ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمى الجمار، على ما أمروا به. وروى عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ : قال مجاهد: يعنى: الطواف الواجب يوم النحر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبى حمزة قال: قال لى ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول [١] الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمى الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض[٢].

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل [٣] البيت الذى بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر العَدَنى، حدثنا سفيان، عن هشام بن حُجْر، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله ﷺ من ورائه[٤].

وقال قتادة، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [قال][٥]: لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح.

وقال خَصِيف: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

وقال ابن أبى نَجِيح وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرِده أحد بسوء إلا هلك.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن ابن الزبير قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة[٦].

وقال الترمذى: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرنى

(١) فى ت: «فيقول».
(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.
(٣) فى أ: «داخل».
(٤) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٦/ ٤١).
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٢).

www.besturdubooks.wordpress.com

الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار».

وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل النجارى(١)، عن عبد الله بن صالح، به(٢). وقال: إن كان صحيحاً وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهرى، مرسلا(٣).

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾.

يقول تعالى: هذا الذى أمرنا به من الطاعات فى أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه، **﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾** أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات و[اجتناب] (٤) المحظورات.

قال ابن جريج: قال مجاهد فى قوله: **﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾** قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: **﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾** أى: أحللنا (٥) لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام.

وقوله: **﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾** أى: من تحريم **﴿الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ [إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ](٦)﴾** الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾**: «من» هاهنا لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. وقرن الشرك بالله (٧) بقول الزور، كقوله: **﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفى الصحيحين عن أبى بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس، فقال: ـ ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت(٨).

---

(١) فى ف: «المحاربى».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٧٠) وفيه «هذا حديث حسن صحيح» وأظنه خطأ.

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «أحلت». (٦) زيادة من ت، ف، أ. (٧) فى أ: «به».

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكا بالله» ثلاثا، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

وهكذا رواه الترمذى، عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية، به[١]. ثم قال: «غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبى ﷺ».

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العُصْفُرِىّ، عن أبيه، عن حبيب ابن النعمان الأسدى، عن خريم بن فاتك [٢] الأسدى قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائما فقال: «عدلت شهادة الزور الإشرك بالله، عز وجل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ .حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[٣].

وقال سفيان الثورى، عن عاصم بن أبى النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية[٤].

وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ أى: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ثم ضرب للمشرك مثلا فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾، أى: تقطعه الطيور فى الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أى: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء فى حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحا من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث فى سورة «إبراهيم» [٥] بحروفه وألفاظه وطرقه.

وقد ضرب[الله][٦] تعالى للمشرك مثلا آخر فى سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ [وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ][٧]﴾[الأنعام: ٧١].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

---

(١) المسند (٤/ ١٧٨) وسنن الترمذى برقم (٢٢٩٩).

(٢) فى ت: «مقاتل».

(٣) المسند(٤/ ٣٢١).

(٤) تفسير الطبرى(١٧/ ١١٢).

(٥) انظر تفسير الآية: ٢٧.

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ف، أ، وفى الأصل: «الآية».

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول تعالى: هذا﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم، عن مقْسَم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبى ليلى، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام.

وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون. رواه البخارى[(١)].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراءَ أحبّ إلى الله من دم سَوداوين». رواه أحمد، وابن ماجه[(٢)].

قالوا: والعفراء هى البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضا؛ لما ثبت فى صحيح البخارى، عن أنس: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين[(٣)].

وعن أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فَحيل[(٤)] يأكل فى سواد، وينظر فى سواد، ويمشى فى سواد.

رواه أهل السنن، وصححه الترمذى[(٥)]، أى: بكبش أسود[(٦)] فى هذه الأماكن.

وفى سنن ابن ماجه، عن أبى رافع: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين[(٧)]. قيل: هما الخَصِيَان. وقيل: اللذان رُضَّ خُصْياهما، ولم يقطعهما[(٨)]، والله أعلم.

وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجوءين [والموجوءين قيل: هما الخصيين][(٩)] [(١٠)].

وعن على رضى الله عنه، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابَلَة، ولا مدابَرَة، ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء.

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى[(١١)].

ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نُضحى[(١٢)] بأعضب القرن والأذن[(١٣)].

---

(١) صحيح البخارى (١٠/ ٩) «فتح» معلقاً.
(٢) المسند (٢/ ٤١٧) ولم يقع لى فى سنن ابن ماجه.
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨).
(٤) فى ف: «فحل».
(٥) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٦) وسنن النسائى (٧/ ٢٢١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٨).
(٦) فى أ: «فيه نكتة سوداء».
(٧) لم يقع فى سنن ابن ماجه من حديث أبى رافع وإنما من حديث عائشة وأبى هريرة برقم (٣١٢٢) وحديث أبى رافع رواه أحمد فى المسند (٦/ ٨).
(٨) فى ت: «ولم يقطعها».
(٩) زيادة من ت، ف، أ.
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٥).
(١١) المسند (١/ ٨٠)، وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٨) وسنن النسائى (٧/ ٢١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٢).
(١٢) فى ت: «يضحى».
(١٣) المسند (١/ ٨٣) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٥) وسنن الترمذى برقم (١٥٠٤) وسنن النسائى (٧/ ٢١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٥).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال سعيد بن المسيب: العضب: النصْف فأكثر.

وقال بعض أهل اللغة: إن كُسر قرنها الأعلى فهى قصماء، فأما العَضْب فهو كسر الأسفل، وعضب الأذن قطع بعضها.

وعند الشافعى أن التضحية بذلك مجزئة، لكن تكره.

وقال [الإمام](١) أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن؛ لهذا الحديث.

وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة: فهى التى قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هى التى قطعت أذنها طولا، قاله الشافعى. والخرقاء: هى التى خرَقت السّمَةُ أذنها خرقا مُدوّراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز فى الأضاحى: العوراء البيّن عوَرها، والمريضة البين مرَضها، والعرجاء البين ظَلَعها(٢)، والكسيرة التى لا تُنقِى».

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى(٣).

وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية(٤) بها عند الشافعى وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضاً يسيراً، على قولين.

وروى أبو داود، عن عُتبة بن عبد السّلمَى؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن المُصْفَرَةِ، والمستأصَلَة، والبَخْقاء، والمشيَّعة، والكسراء(٥)(٦).

فالمصفرة قيل: الهزيلة. وقيل: المستأصلة الأذُن. والمستأصلة: المكسورة القرن. والبخقاء: هى العوراء. والمشيعة: هى التى لا تزال تُشَيَّع خَلفَ الغنم، ولا تَتْبَع لضعفها. والكسراء: العرجاء.

فهذه العيوب كلها مانعة [من الإجزاء، فإن طرأ العيب](٧) بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعى خلافا لأبى حنيفة.

وقد روى الإمامُ أحمد، عن أبى سعيد قال: اشتريت كبشا أضحى به، فعدا الذئب فأخذ الألية. فسألت النبى ﷺ، فقال: «ضَحِّ به»(٨).

ولهذا [جاء](٩) فى الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. أى: أن تكون

---

(١) زيادة من ت.

(٢) فى ت، أ: «عرجها».

(٣) المسند (٤/ ٢٨٤) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٢) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٧) وسنن النسائى (٧/ ٢١٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٤).

(٤) فى أ: «الأضحية».

(٥) فى أ: «الكسيرة».

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٨٠٣).

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) المسند (٣/ ٣٢).

(٩) زيادة من أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدَى عمر نَجيباً، فأعطى بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أهديت نجيباً، فأعطِيتُ بها ثلاثمائة دينار، أفأبيعها وأشترى بثمنها بدْناً؟ قال: «لا، انحرها إياها»(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: البدن من شعائر الله.

وقال محمد بن أبى موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والبدن والحلق: من شعائر الله.

وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قال مِقْسَم، عن ابن عباس [فى قوله](٢): ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما لم يُسَمّ بُدناً.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُمِّيَت بَدَنَةً أو هَدياً، ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، [ومقاتل](٣) وعطاء الخراسانى، وغيرهم.

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدَنَةً، قال: «اركبها». قال: إنها بَدَنَة. قال: «اركبها، ويحك»، فى الثانية أو الثالثة(٤).

وفى رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئتَ إليها»(٥).

وقال شعبة، عن زهير بن أبى ثابت الأعمى، عن المغيرة بن حَذْف، عن على؛ أنه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدَها.

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: مَحِل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريبا، ولله الحمد(٦).

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

---

(١) المسند (٢/ ١٤٥) وسنن أبى داود برقم (١٧٥٦).
(٢) زيادة من ت، ف، أ.
(٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (١٦٩٠) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٣).
(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٢٣).
(٦) فى ت: «والله أعلم».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾.

يخبر تعالى أنه لم يَزَل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيداً.

وقال عكرمة: ذبحا. وقال زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها.

[وقوله][١]: ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبر، ووضع رجله على صِفَاحهما[٢].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سَلاّم بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعى، عن أبى داود ـ وهو نُفَيْع بن الحارث ـ عن زيد بن أرقم قال: قلت ـ أو: قالوا ـ: يا رسول الله، ما هذه الأضاحى؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة».

وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه، من حديث سلام بن مسكين، به[٣].

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: معبودكم واحد، وإن تَنوّعَت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي[٤] إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٥] [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين. وقال السدى: الوجلين. وقال عمرو بن أوس[٦]: المخبتون[٧]: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وقال الثورى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له.

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨) وصحيح مسلم برقم (١٩٦٦).

(٣) المسند (٤/ ٣٦٨).

(٤) فى ت، أ: «يوحى». (٥) فى ت: «فاعبدونى». (٦) فى ت، ف، أ: «إدريس».

(٧) فى ت: «المخبتين».

www.besturdubooks.wordpress.com

وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت منه قلوبُهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: من المصائب.

قال الحسن البصرى: والله لتصبرنّ أو لتهلكنّ.

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾: قرأ الجمهور بالإضافة. السبعةَ، وبقيةَ العشرة أيضا. وقرأ ابن[1] السَّمَيْقَع: «والمقيمينَ الصلاةَ» بالنصب.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾، وإنما حذفت النون هاهنا تخفيفا، ولو حذفت للإضافة لوجب خفضَ الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت.

أى: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أى: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره فى سورة «براءة» [فلله الحمد والمنة][2] [3].

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هى أفضل ما يهدى [إلى بيته الحرام][4]، كما قال تعالى: ﴿لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ [وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا][5]﴾ الآية: [المائدة: ٢].

قال ابن جُرَيج: قال عطاء فى قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، قال: البقرة، والبعير. وكذا رُوى عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصرى.

وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل.

قلت: أما إطلاق البَدَنَة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح فى الحديث.

ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله [وغيره][6]، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشتركَ فى الأضاحى،

---

(١) فى ت: «أبو»
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) انظر تفسير الآية: ٦٧.
(٤ ـ ٦) زيادة من أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

البدنةُ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[١].

[وقال إسحاق بنُ رَاهَوَيه وغيره: بل تُجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة][٢]. وقد ورد به حديث فى مسند الإمام أحمد، وسنن النسائى، وغيرهما[٣]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أى: ثواب فى الدار الآخرة.

وعن سليمان بن يزيد الكعبى، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبّ إلى الله من هِرَاقة دم، وإنه ليأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطِيبُوا بها نفسا». رواه ابن ماجه، والترمذى وحَسنه[٤].

وقال سفيان الثورى: كان أبو حاتم[٥] يستدين ويسوق البُدْن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إنى سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الوَرِقَ فى شىء أفضلَ من نحيرة فى يوم عيد». رواه الدارقطنى فى سننه[٦].

وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع.

وقال إبراهيم النَّخَعِىّ: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾: وعن [المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن][٧] جابر ابن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيدَ الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعمن لم يُضَحِّ من أمتى».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى[٨].

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبى حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته». ثم سمى الله وكبر

(١) صحيح مسلم برقم (١٣١٨).
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) المسند (١/ ٢٧٥) وسنن النسائى (٧/ ٢٢٢) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فحضر النحر فاشتركنا فى البعير عن عشرة والبقرة عن سبعة».
(٤) سنن الترمذى برقم (١٤٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٦).
(٥) فى أ: «أبو حازم».
(٦) سنن الدارقطنى (٤/ ٢٨٢) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس.
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) المسند (٣/ ٣٥٦) وسنن أبى داود برقم (٢٨١٠) وسنن الترمذى برقم (١٥٢١) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

www.besturdubooks.wordpress.com

وذبح[١].

وعن على بن الحسين، عن أبى رافع؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى[٢] بأحدهما وهو قائم فى مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية[٣]، ثم يقول: «اللهم، هذا عن أمتى جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ». ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيُطعمهما جميعاً المساكين، [ويأكل][٤] هو وأهله منهما.

رواه أحمد، وابن ماجه[٥].

وقال الأعمش، عن أبى ظَبْيَان، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ**﴾، قال: قياما على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر[٦]، اللهم منك ولك». وكذلك روى مجاهد، وعلى بن أبى طلحة، والعَوْفى، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. ورَوَى ابن أبى نَجِيح، عنه، نحوه[٧].

وقال الضحاك: تُعقل رجل [٨] واحدة فتكون على ثلاث.

وفى الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنَته وهو ينحرها، فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبى القاسم ﷺ[٩].

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابَه كانوا ينحَرون البُدْن معقولةَ اليسرى، قائمة على ما بقى من قوائمها. رواه أبو داود[١٠].

وقال ابن لَهِيعة: حدثنى عطاء بن دينار، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قِفْ من شقها الأيمن، وانحَرْ من شقها الأيسر.

وفى صحيح مسلم، عن جابر، فى صفة حجة الوَدَاع، قال فيه: فنحر رسولُ الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بَدَنَة، جعل[١١] يَطعَنُها بحَربة فى يده[١٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: فى حرف ابن مسعود: «صوافن»، أى: مُعقَّلة[١٣] قياما[١٤].

---

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٦٢ من سورة «الأنعام».
(٢) فى ت: «أمر». (٣) فى ت، أ: «بالمدينة». (٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند (٦/٨) وتقدم الحديث فى هذه السورة.
(٦) فى ف، أ: «والله أكبر، لا إله إلا الله». (٧) فى أ: «نحو هذا». (٨) فى ت، ف: «يعقل يداً».
(٩) صحيح البخارى برقم (١٧١٣) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٠).
(١٠) سنن أبى داود برقم (١٧٦٧).
(١١) فى ت: «وجعل».
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).
(١٣) فى ت، أ: «معلقة».
(١٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٣).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن مجاهد: مَن قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها ﴿صَوَافّ﴾، قال: تصف بين يديها.

وقال طاوس، والحسن، وغيرهما: «فاذكروا اسم الله عليها صوافى» يعنى: خالصة لله عز وجل. وكذا رواه مالك، عن الزهرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد: «صوافىَ»: ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال: ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: يعنى: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: نحرت.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: ماتت.

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنَة[١] إذا نُحرت حتى تموت وتَبْرد حركتها. وقد جاء فى حديث مرفوع: «ولا تُعجلُوا النفوسَ أن تَزْهَق»[٢]. وقد رواه الثورى فى جامعه، عن أيوب، عن يحيى ابن أبى كثير، عن فَرافصَة الحنفى، عن عمر بن الخطاب؛ أنه قال ذلك[٣]. ويؤيده حديث شَدّاد بن أوس فى صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح[٤]، ولْيُحدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحته»[٥].

وعن أبى واقد الليثى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطع من البهيمة وهى حية، فهو ميتة».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى وصححه[٦].

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف[٧]: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة.

وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعية. واختلف فى المراد بالقانع والمعتر، فقال العوفى، عن ابن عباس: القانع: المستغنى بما أعطيته، وهو فى بيته. والمعترّ: الذى يتعرض لك، ويُلمّ بك أن تعطيَه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ.

---

(١) فى ت: «البدن».

(٢) رواه الدارقطنى فى السنن (٤/٢٨٣) من طريق سعيد بن سلام العطار عن عبد الله بن بديل عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً وسعيد بن سلام العطار كذبه أحمد وابن نمير، وضعف البيهقى هذا الحديث فى السنن الكبرى (٩/ ٢٧٨).

(٣) ومن طريقه رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ٢٧٨).

(٤) فى ت: «الذبحة».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٥٥).

(٦) المسند (٥/ ٢١٨) وسنن أبى داود برقم (٢٨٥٨) وسنن الترمذى برقم (١٤٨٠).

(٧) فى أ: «الناس».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتر: السائل. وهذا قولُ قتادة، وإبراهيم النَّخَعى، ومجاهد فى رواية عنه.

وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعكْرِمَة[١]، والحسن البصرى، وابن الكلبى، ومُقَاتل بن حَيَّان، ومالك بن أنس: القانع: هو الذى يَقْنع إليك ويسألك. والمعتر: الذى يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن.

وقال سعيد بن جبير: القانع: هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشَّمَّاخ.

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُه فَيُغْنى مَفَاقِرَه[٢]، أعَفُّ مِنَ القُنُوعِ[٣]

قال: يعنى من السؤال، وبه قال ابن زيد.

وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذى يطوف. والمعتر: الصديق والضعيف[٤] الذى يزور. وهو رواية عن عبد الله[٥] بن زيد أيضاً.

وعن مجاهد أيضا: القانع: جارك الغنى [الذى يبصر ما يدخل بيتك][٦]. والمعتر: الذى يعتريك[٧] من الناس.

وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذى يَعْتَر بالبُدْن من غنى أو فقير.

وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة.

واختار ابنُ جرير أنّ القانع: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعترار، وهو: الذى يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزَّأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله [منها][٨]، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ**﴾. وفى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إنى كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم»[٩]. وفى رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». وفى رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا»[١٠].

والقول الثانى: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله فى الآية المتقدمة: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله فى الحديث: «فكلوا وادخروا وتصدقوا».

فإن أكل الكل فقيل[١١]: لا يضمن شيئا. وبه قال ابن سُرَيج من الشافعية.

---

(١) فى ف، أ: «وعكرمة وزيد بن أسلم». (٢) فى ت: «مفارقه».
(٣) البيت فى ديوانه (ص٢٢١) أ.هـ مستفاداً من حاشية الشعب.
(٤) فى ت: «والضيف». (٥) فى أ: «عن أبيه عبد الرحمن». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «يعتزل». (٨) زيادة من ت، ف، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضى الله عنه.
(١٠) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٤٨٤) من حديث جابر رضى الله عنه.
(١١) فى ت، ف، أ: «فقد قيل».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعي.

وأما الجلود، ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»[(١)] .

ومن العلماء من رخص [في ذلك][(٢)] ، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم .

[مسألة][(٣)] :

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ[(٤)] به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم [عجله][(٥)] لأهله، ليس هو من النسك في شيء» أخرجاه[(٦)] .

فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء في صحيح مسلم: «وألا تذبحوا حتى يذبح الإمام»[(٧)] .

وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم[(٨)]، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد[(٩)] عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر[(١٠)] الأضاحي عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي؛ لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «وأيام التشريق كلها ذبح». رواه أحمد وابن حبان[(١١)] .

وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة، وبه قال إبراهيم النَّخَعِيّ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وهو قول غريب .

وقوله: **﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**: يقول تعالى: من أجل هذا **﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾** أي: ذللناها لكم، أي: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: **﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**

---

(١) المسند (٤/ ١٥) .

(٢، ٣) زيادة من ف، أ.

(٤) في ت: «يبدأ» .

(٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخاري، وفي هـ: «يبديه».

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٥٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٩٦١) .

(٧) لم يقع لي في مسلم هذا اللفظ وينظر صحيح مسلم (٣/ ١٥٥١) .

(٨) في ف: «وغيرها» .

(٩) في أ: «عيد تشرع».

(١٠) في ف: «لتيسير» .

(١١) المسند (٤/ ٨٢) .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ .

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق[١] لا أنه يناله شىء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه .

وقد كانوا فى جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابتنهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾ .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن أبى حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله : ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أى: يتقبل ذلك ويجزى عليه .

كما جاء فى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم[٢]، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٣] وما جاء فى الحديث: «إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث. رواه[٤] ابن ماجه، والترمذى وحَسّنه عن عائشة مرفوعا. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم .

وقال وكيع، عن [يحيى][٥] بن مسلم أبى الضحاك: سألت عامرًا الشعبى عن جلود الأضاحى، فقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾، إن شئت فبع، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أى: من أجل ذلك سخر[٦] لكم البُدن، ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أى: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه، ، وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه .

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: وبشر يا محمد المحسنين، أى: فى عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ماشرَعَ لهم، المصدقين الرسولَ فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

[مسألة][٧]:

وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثورى إلى القول[٨] بوجوب الأضحية على من ملك نصابا، وزاد

---

(١) فى ت، ف: «الرزاق» .
(٢) فى ت، ف: «ألوانكم» .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) .
(٤) فى ت: «ورواه».
(٥) زيادة من ت.
(٦) فى ت، ف: «سخرناها» .
(٧) زيادة من ف .
(٨) فى ت: «بالقول» .

www.besturdubooks.wordpress.com

أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضًا. واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبى هريرة مرفوعا: «من وجد سَعَة فلم يُضَحِّ، فلا يقربن مُصَلانا»(١) على أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل(٢) .

وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحى. رواه الترمذى(٣) .

وقال الشافعى، وأحمد: لاتجب الأضحية، بل هى مستحبة؛ لما جاء فى الحديث: «ليس فى المال حق سوى الزكاة»(٤). وقد تقدم أنه، عليه السلام(٥)، ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم .

وقال أبو سَرِيحةَ: كنت جارًا لأبى بكر وعمر، فكانا لايضحيان خشية أن يقتدى الناس بهما.

وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة، سقطت عن الباقين؛ لأن المقصود إظهار الشعار .

وقد روى الإمام أحمد، وأهل السنن ـ وحسنه الترمذى ـ عن مِخْنَف بن سليم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيت فى كل عام أضحاة وعَتِيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هى(٦) التى تدعونها الرَّجبية». وقد تكلم فى إسناده(٧) .

وقال أبو أيوب: كان الرجل فى عهد رسول الله ﷺ يضحى بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، يأكلون ويطعمون [حتى تباهى](٨) الناس فصار كما ترى .

رواه الترمذى وصححه، وابن ماجه(٩) .

وكان عبد الله بن هشام يضحى بالشاة الواحدة عن جميع أهله. رواه البخارى .

وأما مقدار سِنّ الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسِنَّة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن»(١٠) .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٣) .

(٢) فى إسناده عبد الله بن عياش، قال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٥٠): «وإن روى له مسلم فإنما روى له فى المتابعات والشواهد فقد ضعفه أبو داود والنسائى، وقال أبو حاتم ،وابن يونس: منكر الحديث وذكره ابن حبان فى الثقات» .
ثم نقل عن البيهقى أنه بلغه عن الترمذى: أن الصحيح عن أبى هريرة موقوف ا. هـ .
ويمكن أن يجاب بأن هذا الحديث لا يدل على الوجوب، كما فى حديث: «من أكل الثوم فلا يقربن مصلانا» ذكر ذلك ابن الجوزى وهناك لايلزم استنكاره .

(٣) سنن الترمذى برقم (١٥٠٧) وحسنه .

(٤) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (١٧٨٩) من حديث فاطمة بنت قيس رضى الله عنها .

(٥) فى أ: «ﷺ». (٦) فى ف، أ: «قال: هى».

(٧) المسند (٤/ ١٢٥) وسنن أبى داود برقم (٢٧٨٨) وسنن الترمذى برقم (١٥١٨) وسنن النسائى (٧/ ١٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٥) .

(٨) زيادة من ت، ف .

(٩) سنن الترمذى برقم (١٥٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٧) .

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٩٦٣) .

www.besturdubooks.wordpress.com

ومن هاهنا ذهب الزهرى إلى أن الجذَعَ لايجزئ. وقابله الأوزاعى فذهب إلى أن الجذَعَ يجزئ من كل جنس، وهما غريبان. وقال الجمهور: إنما يجزئ الثَّنى من الإبل والبقر والمعز، والجذع من الضأن، فأما الثنى من الإبل: فهو الذى له خمس سنين ، ودخل فى السادسة. ومن البقر: ما له [سنتان][1] ودخل فى [الثالثة][2]، وقيل: [ما له][3] ثلاث [ودخل فى][4] الرابعة. ومن المعز: ما له سنتان. وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل فى سِنِّه، وما دونه فهو حَمَل، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذَع شعر ظهره نائم، قد انعدل صدْعين، والله أعلم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أى: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق، لا يفى بما قال. والكفر[5]: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ .

قال العَوفى، عن ابن عباس: نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة.

وقال غير واحد من السلف[6]: هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن داود الواسطى: حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم ـ هو البَطِين ـ عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: لما أخرج[7] النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكُن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال.

(١ـ ٤) زيادة من ف .
(٥) فى ت: «والكفور».
(٦) فى ف، أ: «وقال مجاهد والضحاك وقتادة».
(٧) فى ت، ف: «خرج».

www.besturdubooks.wordpress.com

ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به[١] وزاد: قال ابن عباس: وهى أول آية نزلت فى القتال.

ورواه الترمذى، والنسائى فى التفسير من سننيهما، وابن أبى حاتم[٢] من حديث إسحاق بن يوسف ـ زاد الترمذى: ووكيع، كلاهما عن سفيان الثورى، به. وقال الترمذى: حديث حسن، وقد رواه غير واحد، عن الثورى، وليس فيه ابن عباس[٣].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلوا[٤] جهدهم فى طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ[٥] وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ [اللَّهُ][٦] الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

والآيات فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فَعَل.

وإنما شرع [الله][٧] تعالى الجهادَ فى الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمرَ المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقين[٨] لشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادى ـ يعنون أهل مِنَى ـ ليالى مِنى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أومر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبى ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذَر، فذهب[٩] منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلا يلجؤون إليه ـ شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٣) والمسند (١/ ٢١٦).
(٢) فى ت: «ماجه».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٧١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٥).
(٤) فى ت، أ: «يبذلوا». (٥) فى ت: «بأيديهم». (٦) زيادة من ت، ف، أ.
(٧) زيادة من ف. (٨) فى ت: «المنافقين». (٩) فى ف: «فذهبت».

www.besturdubooks.wordpress.com

لَقَدِيرٌ .الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

قال العَوْفى، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى: محمداً وأصحابه.

﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أى: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله[1] وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق، ويقولون:

لاَهُمّ[2] لَولاَ أنتَ ما اهتَدَينا ... وَلاَ تَصَدّقْنَا وَلاَ صَلَّينَا

فَأَنْزلَنْ سَكِينَةً عَلَينَا ... وَثَبّت الأقْدَامَ إنْ لاَقَينَا

إنّ الألَى قد بَغَوا عَلَينَا ... إذَا أرَادوا فتْنَةً أبَيْنَا[3]

فيوافقهم رسول الله ﷺ، ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنة أبينا»، يقول: «أبينا»، يمد بها صوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشفُ شرّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوى الضعيف.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ ﴾: وهى المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعِكْرِمة، والضحاك، وغيرهم.

وقال قتادة: هى معابد الصابئين. وفى رواية عنه: صوامع المجوس.

وقال مقاتل بن حَيَّان: هى البيوت التى على الطرق.

﴿وَبِيَعٌ﴾: وهى أوسع منها، وأكثر عابدين فيها. وهى للنصارى أيضاً. قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن[4] صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصَيف، وغيرهم.

وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السدى، عمن حَدّثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هى الكنائس، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صَلُوتا.

وحكى السدى، عمن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى.

---

(١) فى ف، أ: «وحد الله». (٢) فى أ: «والله».
(٣) الأبيات لعامر بن الأكوع كما فى صحيح مسلم برقم (١٨٠٣).
(٤) فى أ: «أبو».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهى للمسلمين.

وقوله: ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾: فقد قيل: الضمير فى قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.

وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا.

وقال ابن جرير: الصوابُ: لهدمت صوامع الرهبان وبِيعُ النصارى وصلوات اليهود، وهى كنائسهم، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب.

وقال بعض العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهى إلى المساجد، وهى أكثر عُمَّارا وأكثر عبادا، وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، كقوله[1] تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧، ٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شىء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شىء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوىّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ .وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات ١٧١ ـ ١٧٣] وقال [الله][2] تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الربيع الزَّهْرَانى، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مُكنّا فى الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهى لى ولأصحابى.

---

(١) فى ت: «لقوله».

(٢) زيادة من ت.

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ.

وقال الصباح بن سوادة الكِنْدِيّ: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: إلا أنها ليست على الوالى وحده، ولكنها على الوالى والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم، وبما للوالى عليكم منه؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها.

وقال عطية العوفى: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ [كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ](1)﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾، كقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾.

يقول تعالى مسليا نبيَّه محمدا ﷺ فى تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال(2): ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، أى: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فكيف كان إنكارى عليهم، ومعاقبتى لهم؟!

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

وفى الصحيحين عن أبى موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢](3).

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ف، أ: «وعاد وثمود. وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن [1]مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾][2] أى: مكذبة لرسولها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أى: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها.

﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أى: لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: قال عكرمة: يعنى المُبَيّض بالجص.

وروى عن على بن أبى طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبى المَلِيح، والضحاك، نحو ذلك.

وقال آخرون: هو المُنِيف المرتفع.

وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أى: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كاف، كما قال ابن أبى الدنيا فى كتاب «التفكر والاعتبار»:

حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سَيَّار، حدثنا[3] جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام، أن يا موسى، اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سِحْ فى الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تتخرق النعلان[4] وتكسر العصا.

وقال ابن أبى الدنيا: قال بعض الحكماء: أحْيِ قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالفكْر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت[5]، وقرِّره بالفناء[6]، وبَصِّره فجائع[7] الدنيا، وحَذِّره صولة[8] الدهر وفحشُ تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب[9] من كان قبله، وسِرْ فى ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا، وعَمَّ انقلبوا.

أى: فانظروا[10] ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿ فَتَكُونَ[11] لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدرى ما الخبر. وما أحسن ما قاله بعض الشعراء فى هذا المعنى ـ وهو أبو محمد عبد الله ابن محمد بن سارة[12] الأندلسى الشَّنْتَرينى، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

(١) فى ت، ف: «وكأين».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت، ف: «ابن».
(٤) فى ت، ف: «تتخرق النعال».
(٥) فى ت، ف: «بالقرب».
(٦) فى ت، ف: «وتدبره بالثناء».
(٧) فى ت، ف، أ: «بمجامع».
(٨) فى ف: «بصولة».
(٩) فى ت، أ: «وذكره بأم كتاب».
(١٠) فى ت، ف: «فينظروا».
(١١) فى ت: «فيكون».
(١٢) فى ت، ف، أ: «ابن حبان».

www.besturdubooks.wordpress.com

يا مَن يُصيخَ إلى دَاعى الشقَاء، وقَد نَادَى به الناعيَان: الشيبُ والكبَرُ
إن كُنتَ لا تَسْمَع الذكْرَى، ففيم تُرَى فى رأسك الوَاعيان: السمعُ والبَصَرُ؟
ليسَ الأصَمّ ولا الأعمَى سوَى رَجُل لم يَهْده الهَاديان: العَينُ والأثَرُ
لاَ الدّهرُ يَبْقَى ولاَ الدنيا، ولاَ الفَلَك الـ ـأعلى ولا النَّيّران: الشَّمْسُ والقَمَرُ
لَيَرْحَلَنّ عَن الدنيا، وإن كَرِها[1] فرَاقها، الثاويان: البَدْو والحَضَرُ

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه[2]. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أى: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون[3] بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال [الله][4] تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: الذى قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

قال الأصمعى: كنت عند أبى عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمن[5] العجم أنت؟ إن العرب تَعدُ الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أو مَا سمعتَ قول الشاعر[6]:

لا يُرْهِبُ ابنَ العم منى[7] سَطْوَتى ولا أخْتَتِى[8] مِن سَطْوة المُتَهَدّد
فإنّى وإن أوْعَدتُه أوْ وَعَدْتُه لَمُخْلفُ إيعَادى ومُنْجزُ مَوْعدى

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى: هو تعالى لا يَعجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شىء، وإن أجَّلَ وأنظَر وأملى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفة، حدثنى عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن

(١) فى ت، ف، أ: «كرهن». (٢) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٣) فى ت، ف: «الملحدين المكذبين».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ت، ف، أ: «من». (٦) هو عامر بن الطفيل والبيت فى اللسان مادة (ختأ)، (وعد).
(٧) فى ت، ف، أ: «والجار». (٨) فى ت، ف، أ: «ينثنى».

www.besturdubooks.wordpress.com

أبى سلمة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث الثورى، عن محمد بن عمرو، به[١]. وقال الترمذى: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن أبى هريرة موقوفا[٢]، فقال:

حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، حدثنا سعيد الجُرَيرى، عن أبى نَضْرَة، عن سُمَيْر بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت: وما نصف يوم؟ قال: أوَ ما تقرأ القرآن؟. قلت: بلى. قال: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[٣].

وقال أبو داود فى آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، عن شُرَيح بن[٤] عُبَيد، عن سعد بن أبى وَقاص، عن النبى ﷺ أنه قال: «إنى لأرجو ألا تَعْجزَ أمتى عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة[٥].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنَان[٦]، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ قال: من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض.

رواه ابن جرير، عن ابن بَشّار[٧]، عن ابن مهدى[٨] .وبه قال مجاهد، وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل فى كتاب «الردّ على الجهمية».

وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [السجدة: ٥].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عارم ـ محمد بن الفضل ـ حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عَتِيق، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلمَ قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة فى اليوم السابع، ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم فى اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، فى أية لحظة ولدت كان تماما.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٣٥٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٨) أى أن النصف يوم خمسمائة عام.

(٢) فى ت: «مرفوعاً».

(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٩).

(٤) فى ت: «عن».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٣٥٠).

(٦) فى ف، أ: «شيبان».

(٧) فى ت: «يسار».

(٨) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٩).

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وُقُوعَ العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، [و][1] ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حَسَنَةٌ على القليل من حسناتهم.

[و][2] قال محمد بن كعب القُرَظِيّ: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: قال مجاهد: يُثَبِّطون الناس عن متابعة النبى ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين.

وقال ابن عباس: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مراغمين.

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: وهى النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغَرَانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظَنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.

---

(١) زيادة من ف.

(٢) زيادة من ت.

www.besturdubooks.wordpress.com

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبى بِشْر، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾** قال: فألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغَرَانيق العلى. وإن شفاعتهن[١] ترتجى». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجَدَ وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ [فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ][٢]﴾**.

رواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه[٣]، وهو مرسل، وقد رواه البزار فى مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ فيما أحسب، الشك فى الحديث ـ أن النبى ﷺ قرأ بمكة سورة «النجم»، حتى انتهى إلى: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾**، وذكر بقيته. ثم قال البزار: لا [٤] يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. وإنما يُروى هذا من طريق الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس[٥].

ثم رواه ابن أبى حاتم، عن أبى العالية، وعن السدى، مرسلا. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد ابن كعب القرظى، ومحمد بن قيس، مرسلا أيضا[٦].

وقال قتادة: كان النبى ﷺ [يصلى] [٧] عند المقام إذ نَعَس، فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتها لترتجى. وإنها لمع الغرانيق العلى»، فحفظها المشركون. وأجرى الشيطان أن نبى الله قد قرأها، فزَلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ [وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ][٨]﴾** الآية، فَدَحَر الله الشيطان.

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا موسى بن أبى موسى الكوفى، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبِى، حدثنا محمد بن فُلَيْح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان[٩] يتمنى هُداهم، فلما أنزل الله سورة

---

(١) فى ت، ف: «شفاعتهم». (٢) زيادة من ف، أ وفى ت: «الآية».
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٣).
(٤) فى ف، أ: «لانعلمه».
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٦٣) «كشف الأستار».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣١).
(٧) زيادة من أ. (٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف: «وكان».

www.besturdubooks.wordpress.com

«النجم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى[(١)]». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدا، قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه. فلما بلغ رسول الله ﷺ [آخر النجم][(٢)]، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيرا، فرفع على [(٣)] كفه ترابا، فسجد عليه. فعجب الفريقان كلاهما [(٤)] من جماعتهم فى السجود، لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ـ ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التى [(٥)] ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ـ فأطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطانُ فى أمنية رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها فى السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم. ففشت تلك الكلمة فى الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحُدِّثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة فأقبلوا سراعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه[(٦)] من الفرية، وقال [تعالى][(٧)]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، فلما بين الله قضاءه، وبرأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم [(٨)] وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم. وهذا أيضاً مرسل.

وفى تفسير ابن جرير عن الزهرى، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه[(٩)]. وقد رواه الإمام [(١٠)] أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجُزْ به موسى بن عقبة، ساقه فى مغازيه بنحوه، قال: وقد روينا عن ابن إسحاق هذه القصة.

قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات، فالله أعلم. وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالا: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك فى نفس الأمر، بل إنما

---

(١) فى أ: «ترجى».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت، أ: «ملء».
(٤) فى ت: «الفريقان منهما كلاهما».
(٥) فى أ: «الذى».
(٦) فى ت، أ: «وحفظه الله».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف: «بضلالتهم».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٣).
(١٠) فى أ: «الحافظ».

www.besturdubooks.wordpress.com

كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم[١].

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرض القاضى عياض، رحمه الله، فى كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله[٢].

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٥/ ٣٩٤).

(٢) كذا فى جميع النسخ وكلام القاضى عياض فى الشفاء (٢/ ١٠٧) أذكره مختصراً له، قال رحمه الله:

«فأعلم، أكرمك الله أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: فى توهين أصله. والثانى: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل.. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكى حيث قال: لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه فى الصلاة، وآخر يقول: قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه وإن النبى ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ماهكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبى ﷺ قرأها فلما بلغ النبى ﷺ ذلك قال: «والله ما هكذا أنزلت».

إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية.

والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبى بشرٍ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: فيما أحسب ـ الشك فى الحديث أن النبى ﷺ كان بمكة وذكر القصة.

قال أبو بكر البزار: هذا لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

فقد بين لك أبو بكر، رحمه الله، أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه.

أما حديث الكلبى فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار، رحمه الله.

والذى منه فى الصحيح: أن النبى ﷺ قرأ «والنجم» وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس هذا توهينه من طريق النقل.

أما من جهة المعنى، فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبى ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل، عليه السلام، وذلك كله ممتنع فى حقه ﷺ.

أو يقول ذلك النبى ﷺ من قبل نفسه عمدا وذلك كفر، أو سهواً وهو معصوم من هذا كله.

ووجه ثان: هو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبى ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك.

وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه!!

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندى المشركين، وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبى ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة...

ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة.

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت **﴿وإن كادوا ليفتنونك..﴾** الآيتين.

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم.

فمضمون هذا ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفترى، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً فكيف كثيرا وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له، وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى: **﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت=**

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه(١)، أى: لا يَهيدنّك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قال البخارى: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حَدّث ألقى الشيطان فى حديثه، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ [أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، يقول: إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه.

وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّى](٢)﴾، يعنى: إذا قال.

ويقال: ﴿أُمْنِيَّتِهِ﴾: قراءته، ﴿إِلا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، يقولون ولا يكتبون.

قال البغوى: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّىٰ﴾ أى: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى: فى تلاوته، قال الشاعر فى عثمان حين قتل:

تَمَنّى كتَابَ الله أوّل لَيْلة ... وآخرَها لاقَى حمَامَ المَقَادرِ(٣)

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾: إذا تلا.

قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى فيبطل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ألقى الشيطان.

وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ(٤)﴾، [أى: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية](٥)، ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: فى تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان.

= طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾.

وأما المأخذ الثانى: فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين.

ثم ذكر الأجوبة على ذلك (٢/١١١ـ١١٤) وممن أنكرها الإمام ابن خزيمة وقال: «هذا من وضع الزنادقة» وهذا هو الصواب.

للاستزادة: انظر: الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ـ ٣١٤ لمحمد أبى شهبة، ونصب المجانيق لأبطال قصة الغرانيق لمحد ناصر الدين الألبانى.

(١) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البيت فى اللسان، مادة (منى) غير منسوب.

(٤) فى ف،أ: «عليم حكيم». (٥) زيادة من ت.

www.besturdubooks.wordpress.com

قال ابن جريج: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾هم: المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون.

وقال مقاتل بن حيان: هم [الكافرون] (١) اليهود.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أى: من الحق والصواب.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفى الآخرة يهديهم [إلى] (٢) الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون فى مرية، أى: فى شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿مِّنْهُ﴾ أى: مما ألقى الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بغت [القوم] (٣) أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله(٤) إلا القوم الفاسقون.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: قال مجاهد: قال أبى بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال عكرمة، ومجاهد [فى رواية عنهما](٥): هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصرى.

وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من حملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «اليوم» والمثبت من ف، أ.
(٤) فى أ: «فلا يغتر به». (٥) زيادة من ت، ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

قال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كقوله﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾أى: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم[1].

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، أى: لهم النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به[2] وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: مقابلة استكبارهم وإعراضهم [3] عن الحق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾.

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين واالخلاَّن، وفارق بلاده فى الله ورسوله، ونصرة لدين الله﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أى: فى الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أى: حتف أنفهم[4] ،أى: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أى : ليُجرِيَن عليهم [5] من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ أى: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا:﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أى:بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حى عند ربه يرزق، كما قال تعالى:﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث فى هذا كثيرة، كما تقدم[6] وأما من تُوفى

(١) فى أ: «وأفعالهم». (٢) فى أ: «وجحدته». (٣) فى أ: «وإبائهم».
(٤) فى أ: «أنفسهم». (٥) فى أ: «ليجزيهم عليه». (٦) فى أ: «مرَّ».

www.besturdubooks.wordpress.com

فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيَّب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن ابن شُرَيْح، عن ابن [(١)] الحارث ـ يعنى: عبد الكريم ـ عن ابن عقبة ـ يعنى: أبا عبيدة بن عقبة ـ قال: حدثنا[(٢)] شُرَحْبِيل بن السِّمْط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بى سلمان ـ يعنى: الفارسى ـ رضى الله عنه، فقال: إنى سمعت رسول الله يقول: «من مات مرابطاً، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن [(٣)] من الفتَّانين» واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

وقال أيضا: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرنى همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافرى يقولان: كنا برودس، ومعنا فَضَالة بن عبيد الأنصارى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ فمر بجنازتين، إحداهما قتيل والأخرى متوفى، فمال الناس على القتيل، فقال فضالة: ما لى [(٤)] أرى الناس مالوا مع هذا، وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا قتيل فى سبيل الله تعالى. فقال: والله ما أبالى من أى حُفرتيهما بُعثت، اسمعوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا [لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ][(٥)]﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لَهِيعة، حدثنا سلامان بن عامر الشعبانى، أن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولانى حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد فى البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفى، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالى من أى حفرتيهما بعثتُ، إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا [لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً][(٦)] يَرْضَوْنَهُ﴾، فما تبتغى [(٧)] أيها العبد إذا أدخلت مدخلا ترضاه ورزقت رزقاً حسناً، والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت.

ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرنى عبد الرحمن بن شُرَيْح، عن سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميراً على الأرباع، فخرج بجنازتى رجلين، أحدهما قتيل [(٨)] والآخر متوفى. . . فذكر نحو ما تقدم[(٩)].

---

(١) فى أ: «أبى».
(٢) فى أ: «قال».
(٣) فى أ: «وأومن».
(٤) فى أ: «ما».
(٥) زيادة من ف، أ وفى هـ، ت: «حتى آخر الآية».
(٦) زيادة من ف، وفى ت: «إلى قوله».
(٧) فى أ: «ينبغى».
(٨) فى أ: «قتل».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٦).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ذكر [١] مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت فى سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم فى الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم، [و] [٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾.

يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ [وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ] [٣]﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل فى النهار، والنهار فى الليل: إدخاله من هذا فى هذا، ومن هذا فى هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما فى الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما فى الصيف.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية فى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف فى الوجود، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شىء فقير إليه، ذليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ [٤] الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شىء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذى لا أعظم منه، العلى الذى لا أعلى منه، الكبير الذى لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون [المعتدون] [٥] علوا كبيرا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ

(١) فى أ: «قال». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من ف، أ: وفى ت: «الآية».
(٤) فى ت، ف: «وهو الكبير». (٥) زيادة من أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾.

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل[١] الرياح، فتثير سحابا، فيمطر على الأرض الجُرُز التى[٢] لا نبات فيها، وهى هامدة يابسة سوداء قحلة، ﴿ **فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿**فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شىء بحسبه، كما قال: ﴿**خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا**﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت فى الصحيحين: «أن بين كل شيئين أربعين يوماً» ومع هذا هو معقب[٣] بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿**فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾ أى: خضراء بعد يبسها ومُحُولها[٤].

وقد ذكر عن بعض أهل[٥] الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ أى: عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[لقمان: ١٦] وقال: ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: : ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ**﴾ الآية [يونس: ٦١]؛ ولهذا قال أمية بن [أبى][٦] الصلت ـ أو: زيد بن عمرو بن نُفيل ـ فى قصيدته:

وَقُولا لَه: مَن يُنْبِتُ الحبَّ فى الثَّرَى ... فَيُصبِحَ مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابيَا؟
ويُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّه فــى رُؤُوســه ... فَفى ذَاك آيات لِمَنْ كَانَ وَاعيا[٧]

وقوله: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ أى: ملكه جميع الأشياء، وهو غنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ**﴾ أى: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣] أى: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿**وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**﴾ أى: بتسخيره وتسييره، أى: فى البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجرى الفلك بأهلها[٨] بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع

(١) فى أ: «وأنه مرسل». (٢) فى أ: «الذى». (٣) فى أ: «تعقيب».
(٤) فى أ: «وقحوطا». (٥) فى هـ ت: « أرض» والمثبت من ف، أ. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).
(٨) فى أ: «بأمرها».

www.besturdubooks.wordpress.com

ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون [مع] (١) الله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾أي: جحود.

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم (٢) منسكا.

قال ابن جرير: يعنى: لكل أمة نبى منسكا. قال: وأصل المنسك فى كلام العرب: هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها (٣).

فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ أى: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: «لكل أمة جعلنا منسكا جعلا قدريا ـ كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أى: فاعلوه ـ فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أى: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.

وهذه كقوله: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧].

(١) زيادة من ت، ف. (٢) فى ت: «أمة».
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٨).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ ولهذا قال: ﴿ اللَّهُ[١] يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما فى السموات وما فى الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ:«إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء »[٢].

وفى السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال:«أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَيْر، حدثنى ابن لَهيعة، حدثنى عطاء بن دينار، حدثنى سعيد بن جُبَيْر قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مَسيرَة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق ـ وهو على العرش تبارك وتعالى ـ : اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبى ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذى يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شىء علما، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) فى ت: «والله» وهو خطأ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) بلفظ «كتب الله مقادير الخلائق».

(٣) جاء من حديث عبادة بن الصامت: أخرجه أبو داود فى السنن برقم (٤٧٠٠) والترمذى فى السنن برقم (٣٣١٩) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

وجاء من حديث ابن عباس: رواه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص٣٧٨).

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعني: حجة وبرهانا، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] . ولهذا قال هاهنا: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولاحجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء! ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء: ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا[1] ﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله : ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾.

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا

---

(١) فى ت، ف، أ: «كفروا وبئس المصير».

www.besturdubooks.wordpress.com

على خلق ذباب واحد ماقدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد.

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعة، عن أبى هريرة ـ رفع الحديث ـ قال: «ومن أظلم ممن خلق [خلقا] (١) كخلقى؟ فليخلقوا مثل خلقى ذَرّة، أو ذبابة، أو حبَّة»(٢).

وأخرجه صاحبا الصحيح، من طريق عُمَارة، عن أبى زُرْعَةَ، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: قال الله عز وجل: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة، فيلخلقوا شعيرة»(٣).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أى: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذى عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا[قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾](٤).

قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق.

وقال السدى وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى: ماعرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه(٥) التى لاتقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شىء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أى: قد عز(٦) كل شىء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦)﴾ .

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقَدَره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أى: يعلم ما يفعل برسله فيما

(١) زيادة من ت، ف، والمسند.
(٢) المسند (٢/ ٣٩١).
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١).
(٤) زيادة، ت، ف. (٥) فى أ: «هذا الذى». (٦) فى ف: «قدر».

www.besturdubooks.wordpress.com

أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شىء، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ [فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا . لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ] [1] وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾.

اختلف الأئمة، رحمهم الله، فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هى مشروع السجودُ فيها أم لا؟ على قولين. وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ: «فُضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما».

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أى: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أى: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشىء فَشَقَّ عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة ـ التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تجب فى الحَضَر أربعاً وفى السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين، وفى الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصَلى رجالا وركبانا، مستقبلى القبلة وغير مستقبليها. وكذا فى النافلة فى السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، فى سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه السلام [2]: «بُعِثْتُ بالحَنِيفيَّة السَّمحة» [3]، وقال لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا

(١) زيادة من ف، أ. وفى ت: «إلى قوله».

(٢) فى ت: «عليه الصلاة والسلام»، وفى ف، أ: «ﷺ».

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٦٦) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

تنفرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرَا»[١]. والأحاديث فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ يعنى: من ضيق.

وقوله: ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾ : قال ابن جرير: نصب على تقدير: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ أى: من ضيق، بل وَسَّعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم.[قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم[٢].

قلت: وهذا المعنى فى هذه الآية كقوله: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ الآية [الأنعام: ١٦١].

وقوله: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا**﴾: قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾ قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾ يعنى: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**﴾[البقرة: ١٢٨].

قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسمّ هذه الأمة فى القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا**﴾ قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة وفى الذكر، ﴿**وَفِي هَذَا**﴾ يعنى: القرآن. وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نَوّه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان، فى كتب الأنبياء، يتلى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿**وَفِي هَذَا**﴾، وقد قال النسائى عند تفسير هذه الآية:

أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شُعَيب، أنبأنا معاوية بن سلاّم[٣]، أن أخاه زيد بن سَلاّم أخبره، عن أبى سلاّم أنه أخبره قال: أخبرنى الحارث الأشعرى، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثىّ جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»[٤].

وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ من سورة البقرة [الآية: ٢١]؛ ولهذا قال: ﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا**

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٣٨) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٣٢).

(٢) زيادة من ت، ف.

(٣) فى ت: «سالم».

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٩).

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عُدولا[١] خيارا، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها[٢] على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، فى أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أى: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج جزء نزر من ماله فى السَّنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة «التوبة»[٣].

وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أى: اعتضدوا بالله[٤]، واستعينوا به، وتوكلوا[٥] عليه، وتَأَيَّدوا به، ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ أى: حافظكم وناصركم ومُظفركُم على أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعنى: [نعم][٦] الولى ونعم الناصر من الأعداء.

قال وُهَيْب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرنى إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلمتَ فاصبر، وارض بنصرتى، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبى حاتم.

والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة، والثناء الحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، فى سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تفسير سورة «الحج»، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم، ورضى الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين[٧]

---

(١) فى أ: «عدلاً».　(٢) فى أ: «بسيادتهم وفضلهم».
(٣) انظر تفسير الآية: ٦٠ من سورة التوبة.
(٤) فى أ: «به».　(٥) فى أ: «اتكلوا».　(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٢ — سورة الحج

(مدنية وآياتها ثمان وسبعون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ٢٢ الحج

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ٢٢ الحج

(سورة الحج مدنية إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ فبين مكة والمدينة وآياتها ٧٨)

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (يأيها الناس اتقوا ربكم) خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول
ومن سينتظم فى سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم
القيامة وإن كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق الأول على الوجه الذى مر تقريره فى مطلع سورة النساء
ولفظ الناس ينتظم الذكور والإناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكر فواردة على نهج التغليب لعدم تناولها
للإناث حقيقة إلا عند الحنابلة والمأمور به مطلق التقوى الذى هو التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك
ويندرج فيه الإيمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجا أولياً والتعرض لعنوان الربوبية
المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيباً
* وترغيباً أى احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم وقوله تعالى (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) تعليل لموجب
الأمر بذكر بعض عقوباته الهائلة فإن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ماهى من مباديه ومقدماته من
الأحوال والأهوال التى لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته
وملازمته لا محالة والزلزلة التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من
مقارها ويخرجها عن مراكزها وإضافتها إلى الساعة إما إضافة المصدر إلى فاعله على المجاز الحكمى كأنها
هى التى تزلزل الأشياء أو إضافته إلى الظرف إما بإجرائه مجرى المفعول به اتساعا أو بتقدير فى كما فى قوله
تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى إذا زلزلت الأرض زلزالها عن الحسن أنها
تكون يوم القيامة وعن ابن عباس رضى الله عنهما زلزلة الساعة قيامها وعن علقمة والشعبى أنها قبل طلوع
الشمس من مغربها فإضافتها إلى الساعة حينئذ لكونها من أشراطها وفى التعبير عنها بالشىء إيذان بأن
٢ العقول قاصرة عن إدراك كنهها والعبارة ضيقة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام وقوله تعالى (يوم ترونها)
منتصب بما بعده قدم عليه اهتماما به والضمير للزلزلة أى وقت رؤيتكم إياها ومشاهدتكم لهول مطلعها
(تذهل كل مرضعة) أى مباشرة للإرضاع (عما أرضعت) أى تغفل وتذهل مع دهشة عما هى بصدد

إرضاعه من طفلها الذى ألقمته ثديها والتعبير عنه بما دون من لتأكيد الذهول وكونه بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا لا أنها تعرف شيئيته لكن لا تدرى من هو بخصوصه وقيل ما مصدرية أى تذهل عن إرضاعها والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج وقرىء تذهل من الإذهال مبنياً للمفعول أو مبنياً للفاعل مع نصب كل أى تذهلها الزلزلة (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تلقى جنينها لغير تمام كما أن المرضعة تذهل عن ولدها لغير فطام وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبى وأما على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فقد قيل إنه تمثيل لتهويل الأمر وفيه أن الأمر حينئذ أشد من ذلك وأعظم وأهول مما وصف وأطم وقيل إن ذلك يكون عند النفخة الثانية فإنهم يقومون على ماصعقوا فى النفخة الأولى فتقوم المرضعة على إرضاعها والحامل على حملها ولا ريب فى أن قيام الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلها حتى يتصور ماذكر (وترى الناس) بفتح التاء والراء على خطاب كل أحد من المخاطبين برؤية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والإفراد لما أن المرئى فى الأول هى الزلزلة التى يشاهدها الجميع وفى الثانى حال من عدا المخاطب منهم فلابد من إفراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فإن المراد بيان تأثير الزلزلة فى المرئى لا فى الرائى باختلاف مشاعره لأن مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها كأنه قيل ويصير الناس سكارى الخ وإنما أوثر عليه ما فى التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم وبلوغها من الجلاء إلى حد لا يكاد يخفى على أحد أى يراهم كل أحد (سكارى) أى كأنهم سكارى (وما هم بسكارى) حقيقة (ولكن عذاب الله شديد) فيرهقهم هوله ويطير عقولهم ويسلب تمييزهم فهو الذى جعلهم كما وصفوا وقرىء ترى بضم التاء وفتح الراء مسنداً إلى المخاطب من أريتك قائماً أو رؤيتك قائماً والناس منصوب أى تظنهم سكارى وقرىء برفع الناس على إسناد الفعل المجهول إليه والتأنيث على تأويل الجماعة وقرىء ترى بضم التاء وكسر الراء أى ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى وقرىء سكرى وسكرى كعطشى وجوعى إجراء للسكر مجرى العلل

٣ (ومن الناس) كلام مبتدأ جىء به إثر بيان عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث بياناً لحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتداء إما بحمله على المعنى أو بتقدير مايتعلق به كما مر مراراً أى وبعض الناس أو وبعض كائن من الناس (من يجادل فى الله) أى فى شأنه تعالى ويقول فيه مالا خير فيه من الأباطيل وقوله تعالى (بغير علم) حال من ضمير يجادل موضحة لما يشعر بها المجادلة من الجهل أى ملابساً بغير علم. روى أنها نزلت فى النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت وهى عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين (ويتبع) أى فيما يتعاطاه من المجادلة أو فى كل ما يأتى وما يذر من الأمور الباطلة التى من جملتها ذلك (كل شيطان مريد) عات متمرد متجرد للفساد وأصله العرى المنبىء عن التمحض له كالتشمر ولعله مأخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس والمراد إما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم إلى الكفر وإما إبليس وجنوده .

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ ٢٢ الحج

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ٢٢ الحج

٤ وقوله تعالى (كتب عليه) أى على الشيطان صفة أخرى له وقوله تعالى (أنه) فاعل كتب والضمير للشأن أى رقم به لظهور ذلك من حاله أن الشأن (من تولاه) أى اتخذه ولياً وتبعه (فأنه يضله) بالفتح على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب الشرط إن جعلت من شرطية وخبر لها إن جعلت موصولة متضمنة لمعنى الشرط أى من تولاه فشأنه أنه يضله عن طريق الجنة أو طريق الحق أو لحق أنه يضله قطعاً وقيل فأنه معطوف على أنه وفيه من التعسف مالا يخفى وقيل وقيل مما لا يخلو عن التمحل والتأويل وقرىء فإنه بالكسر على أنه خبر لمن أو جواب لها وقرىء بالكسر فيهما على حكاية المكتوب كما هو مثل مافى قولك كتبت إن الله يأمر بالعدل والإحسان أو على إضمار القول أو تضمين الكتب معناه على رأى من يراه (ويهديه إلى عذاب السعير) بحمله على مباشرة مايؤدى إليه من السيئات

٥ (يأيها الناس) إثر ماحكى أحوال المجادلين بغير علم وأشير إلى مايؤول إليه أمرهم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ماجادلوا فيه من البعث (إن كنتم فى ريب من البعث) من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى أو من وقوعه وقرىء من البعث بالتحريك كالجلب فى الجلب والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع التنكير المنبىء عن القلة مع أنهم جازمون باستحالته وإيراد كلمة الشك مع تقرر حالهم فى ذلك وإيثار ماعليه النظم الكريم على أن يقال إن ارتبتم فى البعث فقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا (فإنا خلقناكم) أى فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإنا خلقناكم أى خلقنا كل فرد منكم (من تراب) فى ضمن خلق آدم منه خلقاً إجمالياً فإن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذا لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً مستتبعاً لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقاً للكل منه كما مر تحقيقه مراراً (ثم من نطفة) أى ثم خلقناكم خلقاً تفصيلياً من نطفة أى من منى من النطف الذى هو الصب (ثم من علقة) أى قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى (ثم من مضغة) أى من قطعة اللحم متكونة من العلقة وهى فى الأصل مقدار مايمضغ (مخلقة) بالجر صفة مضغة أى مستبينة الخلق مصورة (وغير مخلقة) أى لم يستبن خلقها وصورتها بعد والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولا قطعة لم يظهر فيها شىء

من الأعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً وكان مقتضى الترتيب السابق المبنى على التدرج من المبادىء البعيدة إلى القريبة أن يقدم غير المخلقة على المخلقة وإنما أخرت عنها لأنها عدم الملكة هذا وقد فسرتا بالمسواة وغير المسواة وبالتامة والساقطة وليس بذاك وفي جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لا لخلق ما بعدها من المراتب كما في قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الآية مزيد دلالة على عظيم قدرته تعالى وكسر لسورة استبعادهم (لنبين لكم) متعلق بخلقنا وترك المفعول لتفخيمه كما وكيفاً أى خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم بذلك مالا تحصره العبارة من الحقائق والدقائق التى من جملتها سر البعث فإن من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجى تأملا حقيقياً جزم جزماً ضرورياً بأن على خلق البشر أولا من تراب لم يشم رائحة الحياة قط وإنشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصريفه فى أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال مع ما بين تلك الأطوار والأحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته بل هو أهون فى القياس نظراً إلى الفاعل والقابل وقرىء ليبين بطريق الالتفات وقوله تعالى (ونقر فى الأرحام مانشاء) استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وعدم نظم هذا وما عطف عليه فى سلك الخلق المعلل بالتبيين مع كونهما من متمماته ومن مبادى التبيين أيضاً لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات التى من جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر أى ونحن نقر فى الأرحام بعد ذلك مانشاء أن نقره فيها (إلى أجل مسمى) هو وقت الوضع وأدناه ستة أشهر وأقصاه سنتان وقيل أربع سنين وفيه إشارة إلى أن بعض ما فى الأرحام لا يشاء الله تعالى إقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه والتعرض للإزلاق لا يناسب المقام لأن الكلام فيما جرى عليه أطوار الخلق وهذا صريح فى أن المراد بغير المخلقة ليس من ولد ناقصاً أو معيباً وأن مافصل إلى هنا هى الأطوار المتواردة على المولود قبل الولادة وقرىء يقر بالياء ونقر ويقر بضم القاف من قررت الماء إذا صببته (ثم نخرجكم) أى من بطون أمهاتكم بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمى (طفلا) أى حال كونكم أطفالا والإفراد باعتبار كل واحد منهم أو بإرادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد وقرىء يخرجكم بالياء وقوله تعالى (ثم لتبلغوا أشدكم) علة لنخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل والتمييز وقيل التقدير ثم نمهلكم لتبلغوا الخ وما قيل إنه معطوف على نبين مخل بجزالة النظم الكريم هذا وقد قرىء ماقبله من الفعلين بالنصب حكاية وغيبة فهو حينئذ عطف على نبين مثلهما والمعنى خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين مترتبتين عليه إحداهما أن نبين شئوننا والثانية أن نقركم فى الأرحام ثم نخرجكم صغاراً ثم لتبلغوا أشدكم وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات وإعادة اللام ههنا مع تجريد الأولين عنها للإشعار بأصالته فى الغرضية بالنسبة إليهما إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة وإيثار البلوغ مسنداً إلى المخاطبين على التبليغ مسنداً إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئية الآثار والأفعال والأشد من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود وكأنها حين كانت شدة فى غير شىء بنيت على لفظ الجمع (ومنكم من يتوفى) أى بعد بلوغ الأشد أو قبله

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ٢٢ الحج

وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ٢٢ الحج

وقرىء يتوفى مبنياً للفاعل أى يتوفاه الله تعالى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وهو الهرم والخوف وقرىء *
بسكون الميم وإيراد الرد والتوفى على صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء لتعيين الفاعل (لكيلا يعلم *
من بعد علم) أى علم كثير (شيئاً) أى شيئاً من الأشياء أو شيئاً من العلم مبالغة فى انتقاص علمه وانتكاس حاله
أى ليعود إلى ما كان عليه فى أوان الطفولية من ضعف البنية وسخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر
ما عرفه ويعجز عما قدر عليه وفيه من التنبيه على صحة البعث ما لا يخفى (وترى الأرض هامدة) حجة أخرى على *
صحة البعث والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهى
بصرية وهامدة حال من الأرض أى ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رماداً (فإذا أنزلنا عليها الماء) أى *
المطر (اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) انتفخت وازدادت وقرىء ربأت أى ارتفعت (وأنبتت من كل *
زوج) أى صنف (بهيج) حسن رائق يسر ناظره (ذلك بأن الله هو الحق) كلام مستأنف جىء به إثر تحقيق ٦
حقية البعث وإقامة البرهان عليه من العالمين الإنسانى والنباتى لبيان أن ذلك من آثار ألوهيته تعالى وأحكام
شئونه الذاتية والوصفية والفعلية وأن ما ينكرون وجوده بل إمكانه من إتيان الساعة والبعث من أسباب
تلك الآثار العجيبة التى يشاهدونها فى الأنفس والآفاق ومبادى صدورها عنه تعالى وفيه من الإيذان بقوة
الدليل وأصلة المدلول فى التحقيق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى فإن إنكار تحقق السبب مع الجزم
بتحقيق المسبب مما يقضى ببطلانه بديهة العقول والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لا محالة لكونه
لذاته لا الثابت مطلقاً وذلك إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة وتصريفه فى أحوال
متباينة وإحياء الأرض بعد موتها وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الكمال وهو مبتدأ خبره
الجار والمجرور أى ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده فى ذاته وصفاته وأفعاله
المحقق لما سواه من الأشياء (وأنه يحيى الموتى) أى شأنه وعادته إحياؤها وحاصله أنه تعالى قادر على إحيائها *
بدءاً وإعادة وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مراراً بعد مرار وما تفيده صيغة المضارع من التجدد إنما
هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها لا باعتبار نفسها (وأنه على كل شىء قدير) أى مبالغ فى القدرة وإلا لما *
أوجد هذه الموجودات الفائتة للحصر التى من جملتها ما ذكر وأما الاستدلال على ذلك بأن قدرته تعالى
لذاته الذى نسبته إلى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على
إحياء كلها فمنشأه الغفول عما سيق له النظم الكريم من بيان كون الآثار الخاصة المذكورة من فروع القدرة
العامة التامة ومسبباتها وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما
فيه النزاع والدفع فى نحور المنكرين وتقديمه لإبراز الاعتناء به (وأن الساعة آتية) أى فيما سيأتى وإيثار ٧
صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقيق إتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة وتعليله بأن
التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه مبنى على ما ذكر من الغفول وقوله تعالى (لا ريب فيه) إما خبر *

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ٢٢ الحج

ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ٢٢ الحج

ثان لأن أو حال من ضمير الساعة فى الخبر ومعنى نفى الريب عنها أنها فى ظهور أمرها ووضوح دلائلها التكوينية والتنزيلية بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب فى إتيانها حسبما مر فى مطلع سورة البقرة والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها من الجملتين داخلة مثلهما فى حيز السببية وكذا قوله عز وجل (وأن الله يبعث من فى القبور) لكن لا من حيث إن إتيان الساعة وبعث الموتى مؤثران فيما ذكر من أفاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل من حيث إن كلا منهما سبب داع له عز وجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة إلى ما ذكر من خلقهم ومن إحياء الأرض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على مكانهما ليتأملوا فى ذلك ويستدلوا به على وقوعهما لا محالة ويصدقوا بما ينطق بهما من الوحى المبين وينالوا به السعادة الأبدية ولولا ذلك لما فعل تعالى مافعل بل لما خلق العالم رأساً وهذا كما ترى من أحكام حقيته تعالى فى أفعاله وابتنائها على الحكم الباهرة كما أن ماقبله من أحكام حقيته تعالى فى صفاته وكونها فى غاية الكمال وقد جعل إتيان الساعة وبعث من فى القبور لكونهما من روادف الحكمة كناية عن كونه تعالى حكيما كأنه قيل ذلك بسبب أنه تعالى قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده وقد وعد بالساعة والبعث فلا بد أن يفى بما وعد وأنت خبير بأن مآله الاستدلال بحكمته تعالى على إتيان الساعة والبعث وليس الكلام فى ذلك بل إنما هو فى سببيتها لما مر من خلق الإنسان وإحياء الأرض فتأمل وكن على الحق المبين وقيل قوله تعالى وأن الساعة آتية ليس معطوفا على المجرور بالباء ولا داخلا فى حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير والأمر أن الساعة آتية وأن الثانية معطوفة على الأولى وقيل

٨ المعنى ذلك لتعلموا بأن الله هو الحق الآيتين (ومن الناس من يجادل فى الله) هو أبو جهل بن هشام حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هو من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم كائناً من كان كما أن الأول من يقلدهم على أن الشيطان عبارة عن المضل المغوى على الإطلاق (بغير علم) متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير يجادل أى كائناً بغير علم والمراد بالعلم العلم الضرورى كما أن المراد بالهدى فى قوله تعالى (ولا هدى) هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادى إلى المعرفة (ولا كتاب منير) وحى مظهر للحق أى يجادل فى شأنه تعالى من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة نظرية ولا ببرهان سمعى كما فى قوله تعالى ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وأما ماقيل من أن المراد به المجادل الأول والتكرير للتأكيد والتمهيد لما بعده من بيان أنه لا سند له من استدلال أو وحى فلا يساعده النظم الكريم كيف لا وأن وصفه

٩ باتباع كل شيطان موصوف بما ذكر يغنى عن وصفه بالعراء عن الدليل العقلى والسمعى (ثانى عطفه) حال أخرى من فاعل يجادل أى عاطفاً لجانبه وطاوياً كشحه معرضاً متكبراً فإن ثنى العطف كناية عن

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ٢٢ الحج

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ
وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ٢٢ الحج

التكبر وقرىء بفتح العين أى مانعاً لتعطفه (ليضل عن سبيل الله) متعلق بيجادل فإن غرضه الإضلال *
عنه وإن لم يعترف بأنه إضلال والمراد به إما الإخراج من الهدى إلى الضلال فالمفعول من يجادله من المؤمنين
أو الناس جميعاً بتغليب المؤمنين على غيرهم وإما التثبيت على الضلال أو الزيادة عليه مجازاً فالمفعول هم الكفرة
خاصة وقرىء بفتح الياء وجعل ضلاله غاية لجداله من حيث إن المراد به الضلال المبين الذى لا هداية له
بعده مع تمكنه منها قبل ذلك (له فى الدنيا خزى) جملة مستأنفة مسوقة لبيان نتيجة ما سلكه من الطريقة *
أى يثبت له فى الدنيا بسبب ما فعله خزى وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار (ونذيقه يوم القيامة *
عذاب الحريق) أى النار المحرقة (ذلك) أى ما ذكر من العذاب الدنيوى والأخروى وما فيه من معنى ١٠
البعد للإيذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بما قدمت يداك)
أى بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى وإسناده إلى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدى والالتفات
لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد ومحل أن فى قوله عز وعلا (وأن الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على أنه خبر
مبتدأ محذوف أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم
مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعاً على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلماً بالغاً قد
مر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أن محل أن
هو الجر بالعطف على ما قدمت فقد عرفت حاله فى سورة الأنفال (ومن الناس من يعبد الله على حرف) ١١
شروع فى بيان حال المذبذبين إثر بيان حال المجاهرين أى ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين لا ثبات
له فيه كالذى ينحرف إلى طرف الجيش فإن أحس بظفر قر وإلا فر (فإن أصابه خير) أى دنيوى من
الصحة والسعة (اطمأن به) أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم
عنه صارف ولا يثنيهم عاطف (وإن أصابته فتنة) أى شىء يفتتن به من مكروه يعتريه فى نفسه أو أهله أو
ماله (انقلب على وجهه) روى أنها نزلت فى أعاريب قدموا المدينة وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت
فرسه مهراً سرياً وولدت امرأته ولداً سوياً وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا
خيراً واطمأن وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شراً وانقلب وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله
عنه أن يهودياً أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام فأتى النبى ﷺ فقال أقلنى فقال ﷺ إن الإسلام
لا يقال فنزلت وقيل نزلت فى المؤلفة قلوبهم (خسر الدنيا والآخرة) فقدهما وضيعهما بذهاب عصمته
وحبوط عمله بالارتداد وقرىء خاسر بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ٢٢ الحج

يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ٢٢ الحج

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ٢٢ الحج

تنصيصاً على خسرانه أو على أنه خبر مبتدأ محذوف (ذلك) أى ماذكر من الخسران وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه فى غاية ما يكون (هو الخسران المبين) الواضح كونه خسراناً إذ لا خسران مثله
١٢ (يدعو من دون الله) استئناف مبين لعظم الخسران أى يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى (مالا يضره) إذا لم يعبده (ومالا ينفعه) إن عبده أى جماداً ليس من شأنه الضر والنفع كما يلوح به تكرير كلمة ما (ذلك) الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والهدى مستعار من ضلال من أبعد فى التيه ضالا عن الطريق
١٣ (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) استئناف مسوق لبيان مآل دعائه المذكور وتقرير كونه ضلالا بعيداً مع إزاحة ما عسى يتوهم من نفى الضرر عن معبوده بطريق المباشرة نفيه عنه بطريق التسبب أيضاً فالدعاء بمعنى القول واللام داخلة على الجملة الواقعة مقولا له ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان خبره أقرب والجملة صلة للمبتدأ الأول وقوله تعالى (لبئس المولى ولبئس العشير) جواب لقسم مقدر هو وجوابه خبر للمبتدأ الأول وإيثار من على ما مع كون معبوده جماداً وإيراد صيغة التفضيل مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة فى تقبيح حاله والإمعان فى ذمه أى يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثر النفع أصلا لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس الناصر هو ولبئس الصاحب هو فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية ويجوز أن يكون يدعو الثانى إعادة للأول لا تأكيداً له فقط بل وتمهيداً لما بعده من بيان سوء حال معبوده إثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى ذلك هو الضلال البعيد كأنه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادته لما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس المولى ولبئس العشير فكلمة من وصيغة التفضيل للتهكم به وقيل اللام زائدة ومن مفعول يدعو ويؤيده القراءة بغير لام أى يعبد من ضره أقرب من نفعه وإيراد كلمة من وصيغة
١٤ التفضيل تهكم به أيضاً والجملة القسمية مستأنفة (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات) استئناف جىء به لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وأن الله عز وجل يتفضل عليهم بما لا غاية وراءه من أجل المنافع وأعظم الخيرات إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم من فريقى المجاهرين والمذبذبين وأن معبودهم لا يجديهم شيئاً من النفع بل يضرهم مضرة عظيمة وأنهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته ويذمونه مذمة تامة وقوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) صفة لجنات فإن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها الأرض فلابد من تقدير مضاف

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ٢٢ الحج

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ٢٢ الحج

أى من تحت أشجارها وإن جعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل كما مر تفصيله فى أوائل سورة البقرة وقوله تعالى (إن الله يفعل ما يريد) تعليل لما قبله وتقرير له بطريق التحقيق أى يفعل البتة كل ما يريده من الأفعال المتقنة اللائقة المبنية على الحكم الرائقة التى من جملتها إثابة من آمن به وصدق رسوله ﷺ وعقاب من أشرك به وكذب

١٥ برسوله ﷺ ولما كان هذا من آثار نصرته تعالى له ﷺ عقب بقوله عز وعلا (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) تحقيقاً لها وتقريراً لثبوتها على أبلغ وجه وآكده وفيه إيجاز بارع واختصار رائع والمعنى أنه تعالى ناصر لرسوله فى الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ فى استفراغ المجهود وليجاوز فى الجد كل حد معهود فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق حنقاً مما يرى من ضلال مساعيه وعدم إنتاج مقدماته ومباديه (فليمدد بسبب إلى السماء) فليمدد حبلا إلى سقف بيته (ثم ليقطع) أى ليختنق من قطع إذا اختنق لأنه يقطع نفسه بحبس مجاريه وقيل ليقطع الحبل بعد الاختناق على أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر فى قوله تعالى (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) تقدير النظر وتصويره أى فليصور فى نفسه النظر هل يذهبن كيده ذلك الذى هو أقصى ما انتهت إليه قدرته فى باب المضادة والمضارة ما يغيظه من النصرة كلا ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه وقيل المعنى فليمدد حبلا إلى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحى وقيل ليقطع المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد فى دفع نصره ويأباه أن مساق النظم الكريم بيان أن الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من إذهاب ما يغيظ ومن البين أن لا معنى لفرض وقوع الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لاسيما قطع الوحى فإن فرض وقوعه مخل بالمرام قطعاً وقيل كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله ورسوله ﷺ من النصر وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ﷺ ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت وقد فسر النصر بالرزق فالمعنى أن الأرزاق بيد الله تعالى لا تنال إلا بمشيئته تعالى فلابد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يغلب القسمة ولا

١٦ يرده مرزوقا (وكذلك) أى مثل ذلك الإنزال البديع المنطوى على الحكم البالغة (أنزلناه) أى القرآن الكريم كله وقوله تعالى (آيات بينات) أى واضحات الدلالة على معانيها الرائقة حال من الضمير المنصوب مبينة لما أشير إليه بذلك (وأن الله يهدى) به ابتداء أو يثبت على الهدى أو يزيد فيه (من يريد) هدايته

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ٢٢ الحج

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ٢٢ الحج

أو تثبيته أو زيادته فيها ومحل الجملة إما الجر على حذف الجار المتعلق بمحذوف مؤخر أى ولأن الله يهدى من يريد أنزله كذلك أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى والأمر أن الله يهدى من يريد هدايته
١٧ (إن الذين آمنوا) أى بما ذكر من الآيات البينات بهداية الله تعالى أو بكل مايجب أن يؤمن به فيدخل فيه ماذكر دخولا أولياً (والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس) قيل هم قوم يعبدون النار وقيل الشمس والقمر وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المسوح وقيل أخذوا من دين النصارى شيئاً ومن دين اليهود شيئاً وهم القائلون بأن للعالم أصلين نوراً وظلمة (والذين أشركوا) هم عبدة الأصنام وقوله تعالى (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) فى حيز الرفع على أنه خبر لإن السابقة وتصدير طرفى الجملتين بحرف التحقيق لزيادة التقرير والتأكيد أى يقضى بين المؤمنين وبين الفرق الخمس المتفقة على ملة الكفر بإظهار المحق من المبطل وتوفية كل منهما حقه من الجزاء بإثابة الأول وعقاب الثانى بحسب استحقاق أفراد كل منهما وقوله تعالى (إن الله على كل شىء شهيد) تعليل لما قبله من الفصل أى عالم بكل شىء من الأشياء ومراقب لأحواله ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ماصدر عن كل فرد من أفراد الفرق
١٨ المذكورة وإجراء جزائه اللائق به عليه وقوله تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض) الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من أعمال الفرق المذكورة مع الإشارة إلى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة إثر بيان مايوجبه من كونه تعالى شهيداً على جميع الأشياء التى من جملتها أحوالهم وأفعالهم والمراد بالرؤية العلم عبر عنه بها إشعاراً بظهور المعلوم والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية بناء على أنه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد والمراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنية على تشبيه بأكمل أفعال المكلف فى باب الطاعة إيذاناً بكونه فى أقصى مراتب التسخر والتذلل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة من عامة لغيرهم أيضاً وهو الأنسب بالمقام لإفادته شمول الحكم لكل مافيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية منهما فيكون قوله تعالى (والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) إفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها عادة أو جعلت خاصة بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلهم حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (وكثير من الناس) فإنه مرتفع بفعل مضمر يدل عليه المذكور أى ويسجد له كثير من الناس سجود

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ٢٢ الحج

يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ٢٢ الحج

وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ٢٢ الحج

كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ٢٢ الحج

طاعة وعبادة ومن قضيته انتفاء ذلك عن بعضهم وقيل هو مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة
خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب والأول هو الأولى لما فيه من الترغيب فى السجود والطاعة وقد جوز
أن يكون من الناس خبراً له أى من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون وأن يكون
قوله تعالى (وكثير) معطوفا على كثير الأول للإيذان بغاية الكثرة ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب كأنه *
قيل وكثير وكثير من الناس (حق عليه العذاب) أى بكفره واستعصائه وقرىء حق بالضم وحقاً أى حق
عليه العذاب حقاً (ومن يهن الله) بأن كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر (فماله
من مكرم) يكرمه بالسعادة وقرىء بفتح الراء على أنه مصدر ميمى (إن الله يفعل مايشاء) من الأشياء *
التى من جملتها الإكرام والإهانة (هذان) تعيين لطرفى الخصام وإزاحة لما عسى يتبادر إلى الوهم من كونه ١٩
بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقى وتحرير لمحله أى فريق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم إلى
الفرق الخمس (خصمان) أى فريقان مختصمان وإنما قيل (اختصموا فى ربهم) حملا على المعنى أى اختصموا *
فى شأنه عز وجل وقيل فى دينه وقيل فى ذاته وصفاته والكل من شئونه تعالى فإن اعتقاد كل من الفريقين
بحقية ماهو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه خصومة للفريق الآخر وإن لم يجر
بينهما التحاور والخصام وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً
ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله منكم آمنا بمحمد وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم
تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسداً فنزلت (فالذين كفروا) تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى يفصل بينهم يوم *
القيامة (قطعت لهم) أى قدرت على مقادير جثثهم وقرىء بالتخفيف (ثياب من نار) أى نيران هائلة تحيط
بهم إحاطة الثياب بلابسها (يصب من فوق رءوسهم الحميم) أى الماء الحار الذى انتهت حرارته قال ابن عباس *
رضى الله عنهما لو قطرت قطرة منها على جبال الدنيا لأذابتها والجملة مستأنفة أو خبر ثان للموصول أو حال
من ضمير لهم (يصهر به) أى يذاب (ما فى بطونهم) من الأمعاء والأحشاء وقرىء يصهر بالتشديد (والجلود) ٢٠
عطف على ما وتأخيره عنه إما لمراعاة الفواصل أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها فى الباطن
أقدم من تأثيرها فى الظاهر مع أن ملابستها على العكس والجملة حال من الحميم (ولهم) للكفرة أى لتعذيبهم ٢١
وأجلهم (مقامع من حديد) جمع مقمعة وهى آلة القمع (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) أى أشرفوا على ٢٢

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ ٢٢ الحج

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ٢٢ الحج

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ
فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ ٢٢ الحج

الخروج من النار ودنوا منه حسبما يروى أنها تضربهم بلهيبها فترفعهم حتى إذا كانوا فى أعلاها ضربوا
بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً (من غم) أى من غم شديد من غمومها وهو بدل اشتمال من الهاء بإعادة
الجار والرابط محذوف كما أشير إليه أو مفعول له للخروج (أعيدوا فيها) أى فى قعرها بأن ردوا من
أعاليها إلى أسافلها من غير أن يخرجوا منها (وذوقوا) على تقدير قول معطوف على أعيدوا أى وقيل
٢٣ لهم ذوقوا (عذاب الحريق) أى الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك (إن الله يدخل الذين آمنوا
وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) بيان لحسن حال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة
وقد غير الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الله عزوجل وتصدير الجملة بحرف التحقيق إيذاناً بكمال مباينة
* حالهم لحال الكفرة وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين ودلالة على تحقق مضمون الكلام (يحلون فيها)
على البناء للمفعول بالتشديد من التحلية وقرىء بالتخفيف من الإحلاء بمعنى الإلباس أى يحليهم الملائكة
* بأمره تعالى وقرىء يحلون من حلية المرأة إذا لبست حليتها ومن فى قوله تعالى (من أساور) إما للتبعيض
أى بعض أساور وهى جمع أسورة جمع سوار أو للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبىء عن الحلى المبهم وقيل
* زائدة وقيل نعت لمفعول محذوف ليحلون فإنه بمعنى يلبسون (من ذهب) بيان للأساور (ولؤلؤاً) عطف
على محل من أساور أو على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمر يدل عليه يحلون أى يؤتون وقرىء
بالجر عطفاً على أساور وقرىء لؤلوا بقلب الهمزة الثانية واواً ولوليا بقلبهما ياء بعد قلبهما واواً وليليا
* بقلبهما ياء (ولباسهم فيها حرير) غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريراً لكن لا للدلالة على
أن الحرير ثيابهم المعتادة أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل بل للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق
غنى عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ
فإنها ليست من اللوازم الضرورية فجعل بيان تحليتهم بها مقصوداً بالذات ولعل هذا هو الباعث إلى تقديم
٢٤ بيان التحلية على بيان حال اللباس (وهدوا إلى الطيب من القول) وهو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده
وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة الآية (وهدوا إلى صراط الحميد) أى المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة
ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية إلى القول المذكور المتأخر عن دخول الجنة المتأخر عن
الهداية إلى طريقها لرعاية الفواصل وقيل المراد بالحميد الحق المستحق لذاته لغاية الحمد وهو الله عز
٢٥ وجل وصراطه الإسلام ووجه التأخير حينئذ أن ذكر الحمد يستدعى ذكر المحمود (إن الذين كفروا

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ٢٢ الحج

وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ٢٢ الحج

ويصدون عن سبيل الله) ليس المراد به حالا ولا استقبالا وإنما هو استمرار الصد ولذلك حسن عطفه على الماضي كما في قوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وقيل هو حال من فاعل كفروا أي وهم يصدون وخبر إن محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه فإن من ألحد في الحرم حيث عوقب بالعذاب الأليم فلأن يعاقب من جمع إليه الكفر والصد عن سبيل الله بأشد من ذلك أحق وأولى (والمسجد الحرام) * عطف على سبيل الله قيل المراد به مكة بدليل وصفه بقوله تعالى (الذى جعلناه للناس) أي كائناً من كان من غير فرق بين مكي وآفاقي (سواء العاكف فيه والباد) أي المقيم والطارىء وسواء أي مستوياً مفعول * ثان لجعلناه والعاكف مرتفع به واللام متعلق به ظرف له وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادة تشنيع الصادين عنه وقرىء سواء بالرفع على أنه خبر مقدم والعاكف مبتدأ والجملة مفعول ثان للجعل وقرىء العاكف بالجر على أنه بدل من الناس (ومن يرد فيه) مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه * قيل ومن يرد فيه مراداً ما (بإلحاد) بعدول عن القصد (بظلم) بغير حق وهما حالان مترادفان أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة أي ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام (نذقه من عذاب أليم) *
٢٦ جواب لمن (وإذ بوأنا) يقال بوأه منزلا أي أنزله فيه ولما لزمه جعل الثاني مباءة للأول قيل (لإبراهيم مكان البيت) وعليه مبنى قول ابن عباس رضي الله عنهما جعلناه أي اذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه غير مرة وقيل اللام زائدة ومكان ظرف كما في أصل الاستعمال أي أنزلناه فيه قيل رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على أسه القديم روى أن الكعبة الكريمة بنيت خمس مرات إحداها بناء الملائكة وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفعت أيام الطوفان والثانية بناء إبراهيم عليه السلام والثالثة بناء قريش في الجاهلية وقد حضر رسول الله ﷺ هذا البناء والرابعة بناء ابن الزبير والخامسة بناء الحجاج وقد أوردنا ما في هذا الشأن من الأقاويل في تفسير قوله تعالى وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وأن في قوله تعالى (أن لا تشرك بي شيئاً) مفسرة لبوأنا من حيث إنه متضمن لمعنى تعبدنا لأن التبوئة * للعبادة أو مصدرية موصولة بالنهي وقد مر تحقيقه في أوائل سورة هود أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بي في العبادة شيئاً (وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) أي وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن * يطوف به ويصلي فيه ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك
٢٧ فكيف وقد اجتمعت وقرىء يشرك بالياء (وأذن في الناس) أي ناد فيهم وقرىء آذن (بالحج) بدعوة

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا
مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ٢٢ الحج

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ٢٢ الحج

ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ٢٢ الحج

الحج والآمر به روى أنه عليه السلام صعد أبا قبيس فقال يأيها الناس حجوا بيت ربكم فأسمعه الله تعالى
من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى أن يحج وقيل الخطاب
لرسول الله ﷺ أمر بذلك فى حجة الوداع ويأباه كون السورة مكية (يأتوك) جواب للأمر (رجالا)
أى مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم وقرىء بضم الراء وتخفيف الجيم وتشديده ورجالى كعجالى (وعلى
كل ضامر) عطف على رجالا أى وركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة فهزله أو زاد هزاله (يأتين)
صفة لضامر محمولة على المعنى وقرىء يأتون على أنه صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير
للناس (من كل فج) طريق واسع (عميق) بعيد وقرىء معيق يقال بئر بعيدة العمق وبعيدة المعق بمعنى
٢٨ كالجذب والجبذ (ليشهدوا) متعلق بيأتوك لا بأذن أى ليحضروا (منافع) عظيمة الخطر كثيرة العدد
أو نوعا من المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه العبادة واللام فى قوله تعالى (لهم) متعلق بمحذوف
هو صفة لمنافع أى منافع كائنة لهم (ويذكروا اسم الله) عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها وفى جعله
غاية للإتيان إيذان بأنه الغاية القصوى دون غيره وقيل هو كناية عن الذبح لأنه لا ينفك عنه (فى أيام
معلومات) هى أيام النحر كما ينبىء عنه قوله تعالى (على مارزقهم من بهيمة الأنعام) فإن المراد بالذكر
ماوقع عند الذبح وقيل هى عشر ذى الحجة وقد علق الفعل بالمرزوق وبين بالبهيمة تحريضاً على التقرب
وتنبيهاً على الذكر (فكلوا منها) التفات إلى الخطاب والفاء فصيحة عاطفة لمدخولها على مقدر قد حذف
للإشعار بأنه أمر محقق غير محتاج إلى التصريح به كما فى قوله تعالى فانفجرت أى فاذكروا اسم الله على
ضحاياكم فكلوا من لحومها والأمر للإباحة وإزاحة ما كانت عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه أو للندب
إلى مواساة الفقراء ومساواتهم (وأطعموا البائس) أى الذى أصابه بؤس وشدة (الفقير) المحتاج وهذا
٢٩ الأمر للوجوب وقد قيل به فى الأول أيضاً (ثم ليقضوا تفثهم) أى ليؤدوا إزالة وسخهم أو ليحكموها
بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال (وليوفوا نذورهم) ماينذرون من
البر فى حجهم وقيل مواجب الحج وقرىء بفتح الواو وتشديد الفاء (وليطوفوا) طواف الركن الذى به
يتم التحلل فإنه قرينة قضاء التفث وقيل طواف الوداع (بالبيت العتيق) أى القديم فإنه أول بيت وضع
للناس أو المعتق من تسلط الجبابرة فكأين من جبار سار إليه ليهدمه فقصمه الله عز وجل وأما الحجاج
٣٠ الثقفى فإنما قصد إخراج ابن الزبير رضى الله عنهما منه لا التسلط عليه (ذلك) أى الأمر ذلك وهذا وأمثاله

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ٢٢ الحج

يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهى كلام واحد (ومن يعظم حرمات الله) أى أحكامه وسائر مالا يحل هتكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه وقيل الحرم وما يتعلق بالحج من التكليف وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام (فهو خير له) أى فالتعظيم خير له ثواباً (عند ربه) أى فى الآخرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير من لتشريفه والإشعار بعلة الحكم (وأحلت لكم الأنعام) وهى الأزواج الثمانية على الإطلاق فقوله تعالى (إلا ما يتلى عليكم) أى إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه استثناء متصل منها على أن ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى والجملة اعتراض جىء به تقريراً لما قبله من الأمر بالأكل والإطعام ودفعاً لما عسى يتوهم أن الإحرام يحرمه كما يحرم الصيد وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القبيل بحمل الأنعام على ما ذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة لئلا يحتاج إلى الاستثناء المذكور إذ ليس فيها ماحرم لعارض قطعاً لمراعاة حسن التخلص إلى ما بعده من قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) فإنه مترتب على مايفيده قوله تعالى ومن يعظم حرمات الله من وجوب مراعاتها والاجتناب عن هتكها ولما كان بيان حل الأنعام من دواعى التعاطى لا من مبادىء الاجتناب عقب بما يوجب الاجتناب عنه من المحرمات ثم أمر بالاجتناب عما هو أقصى الحرمات كأنه قيل ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والأنعام ليست من الحرمات فإنها محللة لكم إلا مايتلى عليكم آية تحريمه فإنه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ماهو معظم الأمور التى يجب الاجتناب عنها وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأس الزور كأنه لماحث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك رداً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك وقيل شهادة الزور لما روى أنه عليه السلام قال عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى ثلاثاً وتلا هذه الآية والزور من الزور وهو الانحراف كالإفك المأخوذ من الإفك الذى هو القلب والصرف فإن الكذب منحرف مصروف

٣١ عن الواقع وقيل هو قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وماملك (حنفاء لله) مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق مخلصين لله تعالى (غير مشركين به) أى شيئاً من الأشياء فيدخل فى ذلك الأوثان دخولا أولياً وهما حالان من واو فاجتنبوا (ومن يشرك بالله) جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب عن الإشراك وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قبح الإشراك (فكأنما خر من السماء) لأنه مسقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر (فتخطفه الطير) فإن الأهواء المردية توزع أفكاره وقرىء فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما وأصلهما تختطفه (أو تهوى به الريح) أى تسقطه وتقذفه (فى مكان سحيق) بعيد فإن الشيطان قد طوح به فى الضلالة

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ٢٢ الحج

لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ٢٢ الحج

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٢٢ الحج

وأو للتخيير كما فى أو كصيب أو للتنويع ويجوز أن يكون من باب التشبيه المركب فيكون المعنى ومن يشرك
٣٢ بالله فقد هلكت نفسه هلاكا شبيهاً بهلاك أحد الهالكين (ذلك) أى الأمر ذلك أو امتثلوا ذلك (ومن
يعظم شعائر الله) أى الهدايا فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى كما ينبىء عنه والبدن جعلناها لكم من شعائر
الله وهو الأوفق لما بعده وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأن يختارها حساناً سماناً غالية
الأثمان روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب وأن عمر رضى الله عنه
أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار (فإنها) أى فإن تعظيمها (من تقوى القلوب) أى من أفعال ذوى تقوى
القلوب فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من أو فإن تعظيمها ناشىء من تقوى القلوب وتخصيصها بالإضافة
٣٣ لأنها مراكز التقوى التى إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها فى سائر الأعضاء (لكم فيها) أى فى الهدايا (منافع)
هى درها ونسلها وصوفها وظهرها (إلى أجل مسمى) هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه (ثم محلها)
أى وجوب نحرها أو وقت نحرها منتهية (إلى البيت العتيق) أى إلى ما يليه من الحرم وثم للتراخى الزمانى
أو الرتبى أى لكم فيها منافع دنيوية إلى وقت نحرها ثم منافع دينية أعظمها فى النفع محلها أى وجوب
نحرها أو وقت وجوب نحرها إلى البيت العتيق أى منتهية إليه هذا وقد قيل المراد بالشعائر مناسك الحج
ومعالمه والمعنى لكم فيها منافع بالأجر والثواب فى قضاء المناسك وإقامة شعائر الحج إلى أجل مسمى هو
انقضاء أيام الحج ثم محلها أى محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أى منته إليه بأن يطوفوا به
٣٤ طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك فإضافة المحل إليها لأدنى ملابسة (ولكل أمة) أى لكل أهل
دين (جعلنا منسكا) أى متعبداً وقرباناً يتقربون به إلى الله عز وجل وقرىء بكسر السين أى موضع نسك
وتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص أى لكل أمة من الأمم جعلنا منسكا لا لبعض دون بعض
(ليذكروا اسم الله) خاصة دون غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه الكريم علل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود
الأصلى من المناسك تذكر المعبود (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) عند ذبحها وفيه تنبيه على أن القربان
يجب أن يكون من الأنعام والخطاب فى قوله تعالى (فإلهكم إله واحد) للكل تغليباً والفاء لترتيب ما بعدها
على ما قبلها فإن جعله تعالى لكل أمة من الأمم منسكا مما يدل على وحدانيته تعالى وإنما قيل إله واحد ولم
يقل واحد لما أن المراد بيان أنه تعالى واحد فى ذاته كما أنه واحد فى إلهيته للكل والفاء فى قوله تعالى (فله
أسلموا) لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيته تعالى وتقديم الجار والمجرور على الأمر

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ٢٢ الحج

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ٢٢ الحج

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ٢٢ الحج

للقصر أى فإذا كان الحكم إلهاً واحداً فأخلصوا له التقرب أو الذكر واجعلوه لوجهه خاصة ولا تشوبوه
بالشرك (وبشر المخبتين) تجريد للخطاب إلى رسول الله ﷺ أى المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات *
من الوظائف الخاصة بهم (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) منه تعالى لإشراق أشعة جلاله عليها ٣٥
(والصابرين على ما أصابهم) من مشاق التكاليف ومؤنات النوائب (والمقيمى الصلاة) فى أوقاتها وقرىء
بنصب الصلاة على تقدير النون وقرىء والمقيمين الصلاة على الأصل (ومما رزقناهم ينفقون) فى وجوه
الخيرات (والبدن) بضم الباء وسكون الدال وقرىء بضمها وهما جمع بدنة وقيل الأصل ضم الدال كخشب ٣٦
وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرىء بتشديد النون على لفظ الوقف وإنما سميت بها الإبل لعظم بدنها
مأخوذة من بدن بدانة وحيث شاركها البقرة فى الإجزاء عن سبعة بقوله ﷺ البدنة عن سبعة والبقرة
عن سبعة جعلا فى الشريعة جنساً واحداً وانتصابه بمضمر يفسره (جعلناها لكم) وقرىء بالرفع على أنه *
مبتدأ والجملة خبره وقوله تعالى (من شعائر الله) أى من أعلام دينه التى شرعها الله تعالى مفعول ثان للجعل
ولكم ظرف لغو متعلق به وقوله تعالى (لكم فيها خير) أى منافع دينية ودنيوية جملة مستأنفة مقررة لما
قبلها (فاذكروا اسم الله عليها) بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك
(صواف) أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرىء صوافن من صفن الفرس إذا قام على ثلاث *
وعلى طرف سنبك الرابعة لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث وقرىء صوافنا بإبدال التنوين
من حرف الإطلاق عند الوقف وقرىء صوافى أى خوالص لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من
يسكن الياء على الإطلاق كما فى قوله [لعلى أرى باق على الحدثان] (فإذا وجبت جنوبها) سقطت على *
الأرض وهو كناية عن الموت (فكلوا منها وأطعموا القانع) الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسئلة
ويؤيده أنه قرىء القنع أو السائل من قنع إليه قنوعا إذا خضع له فى السؤال (والمعتر) أى المتعرض
للسؤال وقرىء المعترى يقال عره وعراه واعتره واعتراه (كذلك) مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من
قوله تعالى صواف (سخرناها لكم) مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصى عليكم حتى تأخذوها
منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون فى لباتها (لعلكم تشكرون) لتشكروا إنعامنا *
عليكم بالتقرب والإخلاص (لن ينال الله) أى لن يبلغ مرضاته ولن يقع منه موقع القبول (لحومها) ٣٧

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ٢٢ الحج

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٢٢ الحج

المتصدق بها (ولا دماؤها) المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء (ولكن يناله التقوى منكم) ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التى تدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرب إليه والإخلاص له وقيل كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قرابينهم فهم به المسلمون فنزلت (كذلك سخرها لكم) تكرير للتذكر والتعليل بقوله تعالى (لتكبروا الله) أى لتعرفوا عظمته باقتداره على مالا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء وقيل هو التكبير عند الإحلال أو الذبح (على ما هداكم) أى أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها وما مصدرية أو موصولة أى على هدايته إياكم أو على ما هداكم إليه وعلى متعلقة بتكبروا

٣٨ لتضمنه معنى الشكر (وبشر المحسنين) أى المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى أمور دينهم (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ليتفرغوا إلى أداء مناسكه وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التام بمضمونه وصيغة المفاعلة إما للمبالغة أو الدلالة على تكرر الدفع فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كما فى الممارسة أى يبالغ فى دفع غائلة المشركين وضررهم الذى من جملته الصد عن سبيل الله مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما تجدد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين كما فى قوله تعالى كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله وقرىء يدفع والمفعول محذوف وقوله تعالى (إن الله لا يحب كل خوان كفور) تعليل لما فى ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزى ونفى المحبة كناية عن البغض أى إن الله يبغض كل خوان فى أماناته تعالى وهى أوامره ونواهيه أو فى جميع الأمانات التى هى معظمها كفور لنعمته وصيغة المبالغة فيهما لبيان أنهم كذلك لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر أو للمبالغة فى نفى المحبة على اعتبار النفى أولا

٣٩ وإيراد معنى المبالغة ثانياً (أذن) أى رخص وقرىء على البناء للفاعل أى أذن الله تعالى (للذين يقاتلون) أى يقاتلهم المشركون والمأذون فيه محذوف لدلالة المذكور عليه فإن مقاتلة المشركين إياهم دالة على مقاتلتهم إياهم دلالة نيرة وقرىء على صيغة المبنى للفاعل أى يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما سيأتى ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف أظهر (بأنهم ظلموا) أى بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب النبى ﷺ ورضى عنهم كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه ﷺ بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول ﷺ لهم اصبروا فإنى لم أومر بالقتال حتى هاجروا فأنزلت وهى أول آية نزلت فى القتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية (وإن الله على نصرهم لقدير) وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر من العدة الكريمة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدى المشركين بل تغليبهم وإظهارهم عليهم والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سنن الكبرياء وتأكيده بكلمة التحقيق واللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطين نفوس المؤمنين

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٢٢ الحج

الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ٢٢ الحج

٤٠ وقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) فى حيز الجر على أنه صفة للموصول الأول أو بيان له أو بدل منه أو فى محل النصب على المدح أو فى محل الرفع بإضمار مبتدأ والجملة مرفوعة على المدح والمراد بديارهم مكة المعظمة (بغير حق) متعلق بأخرجوا أى أخرجوا بغير مايوجب إخراجهم وقوله تعالى (إلا أن يقولوا ربنا الله) بدل من حق أى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجباً للإقرار والتمكين دون الإخراج والتسيير لكن لا على الظاهر بل على طريقة قول النابغة [ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب] وقيل الاستثناء منقطع (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان وقرىء دفاع (لهدمت) لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل وقرىء هدمت بالتخفيف (صوامع) للرهابنة (وبيع) للنصارى (وصلوات) أى وكنائس لليهود سميت بها لأنها يصلى فيها وقيل أصلها صلوتا بالعبرية فعربت (ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيراً) أى ذكراً كثيراً أو وقتاً كثيراً صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها وقيل صفة للأربع وليس كذلك فإن بيان ذكر الله عز وجل فى الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام ولا يرتضيه الأفهام (ولينصرن الله من ينصره) أى وبالله لينصرن الله من ينصر أولياءه أو من ينصر دينه ولقد أنجز الله عز سلطانه وعده حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم (إن الله لقوى) على كل

٤١ مايريده من مراداته التى من جملتها نصرهم (عزيز) لا يمانعه شىء ولا يدافعه (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) وصف من الله عز وجل للذين أخرجوا من ديارهم بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى إياهم فى الأرض وإعطائه إياهم زمام الأحكام منبىء عن عدة كريمة على أبلغ وجه وألطفه وعن عثمان رضى الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أنه تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا قالوا وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين لأنه تعالى لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين لا حظ فى ذلك للأنصار والطلقاء وعن الحسن رحمه الله هم أمة محمد ﷺ وقيل الذين بدل من قوله من ينصره (ولله) خاصة (عاقبة الأمور) فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ٢٢ الحج

وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ ٢٢ الحج

وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ٢٢ الحج

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ
مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ٢٢ الحج

٤٢ (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح) تسلية لرسول الله ﷺ متضمنة للوعد الكريم بإهلاك من
يعاديه من الكفرة وتعيين لكيفية نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى ولينصرن الله من ينصره وبيان
لرجوع عاقبة الأمور إليه تعالى وصيغة المضارع فى الشرط مع تحقق التكذيب لما أن المقصود تسليته
ﷺ عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أى وإن تحزن على تكذيبهم إياك فاعلم أنك لست
٤٣ بأوحدى فى ذلك فقد كذبت قبل تكذيب قومك إياك قوم نوح (وعاد وثمود) (وقوم إبرهيم وقوم
٤٤ لوط) (وأصحاب مدين) أى رسلهم ممن ذكر ومن لم يذكر وإنما حذف لكمال ظهور المراد أو لأن المراد
نفس الفعل أى فعلت التكذيب قوم نوح إلى آخره (وكذب موسى) غير النظم الكريم بذكر المفعول
وبناء الفعل له لا لأن قومه بنو إسرائيل وهم لم يكذبوه وإنما كذبه القبط لما أن ذلك إنما يقتضى عدم
ذكرهم بعنوان كونهم قوم موسى لا بعنوان آخر على أن بنى إسرائيل أيضاً قد كذبوه مرة بعد أخرى
حسبما ينطق به قوله تعالى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ونحو ذلك من الآيات الكريمة بل للإيذان
بأن تكذيبهم له كان فى غاية الشناعة لكون آياته فى كمال الوضوح وقوله تعالى (فأمليت للكافرين) أى
أمهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم والفاء لترتيب إمهال كل فريق من فرق المكذبين على تكذيب ذلك
الفريق لا لترتيب إمهال الكل على تكذيب الكل ووضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى المكذبين
لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبى موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل صريحاً (ثم أخذتهم) أى
أخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله (فكيف كان نكير) أى إنكارى
٤٥ عليهم بالإهلاك أى فكان ذلك فى غاية ما يكون من الهول والفظاعة وقوله تعالى (فكأين من قرية)
منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أهلكناها) أى فأهلكنا كثيراً من القرى بإهلاك أهلها والجملة بدل
من قوله تعالى فكيف كان نكير أو مرفوع على الابتداء وأهلكنا خبره أى فكثير من القرى أهلكناها
وقرىء أهلكتها على وفق قوله تعالى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير (وهى ظالمة) جملة
حالية من مفعول أهلكنا وقوله تعالى (فهى خاوية) عطف على أهلكناها لا على وهى ظالمة لأنها حال
والإهلاك ليس فى حال خوائها فمحل الأول لا محل له من الإعراب كالمعطوف عليه وعلى الثانى فى محل
الرفع لعطفه على الخبر والخواء إما بمعنى السقوط من خوى النجم إذا سقط فالمعنى فهى ساقطة حيطانها

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ٢٢ الحج
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ٢٢ الحج

(على عروشها) أى سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف *
وإسناد السقوط على العروش إليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه وأما بمعنى الخلو
من خوى المنزل إذا خلا من أهله فالمعنى فهى خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فتكون على بمعنى مع ويجوز
أن يكون على عروشها خبراً بعد خبر أى فهى خالية وهى على عروشها أى قائمة مشرفة على عروشها على
معنى أن السقوف سقطت إلى الأرض وبقيت الحيطان قائمة فهى مشرفة على السقوف الساقطة وإسناد
الإشراف إلى الكل مع كونه حال الحيطان لما مر آنفاً (وبئر معطلة) عطف على قرية أى وكم بئر عامرة فى *
البوادى تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وقرىء بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله (وقصر مشيد) مرفوع *
البنيان أو مجصص أخليناه عن ساكنيه وهذا يؤيد كون معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء عروشها
وقيل المراد بالبئر بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان
من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما (أفلم يسيروا فى الأرض) حث لهم أن يسافروا ٤٦
ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم وإن كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير
مسافرين فحثوا على ذلك والفاء لعطف ما بعدها على مقدر يقتضيه المقام أى أغفلوا فلم يسيروا فيها (فتكون لهم) *
بسبب ما شاهدوه من مواد الاعتبار ومظان الاستبصار (قلوب يعقلون بها) ما يجب أن يعقل من التوحيد
(أو آذان يسمعون بها) ما يجب أن يسمع من الوحى أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فإنهم
أعرف منهم بحالهم (فإنها لا تعمى الأبصار) الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار وفى تعمى ضمير
راجع إليه وقد أقيم الظاهر مقامه (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) أى ليس الخلل فى مشاعرهم *
وإنما هو فى عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة وذكر الصدور للتأكيد ونفى توهم التجوز وفضل
التنبيه على أن العمى الحقيقى ليس المتعارف الذى يختص بالبصر قيل لما نزل قوله تعالى ومن كان فى هذه
أعمى فهو فى الآخرة أعمى قال ابن أم مكتوم يارسول الله أنا فى الدنيا أعمى أفأكون فى الآخرة أعمى فنزلت
(ويستعجلونك بالعذاب) كانوا منكرين لمجىء العذاب المتوعد به أشد الإنكار وإنما كانوا يستعجلون به ٤٧
استهزاء برسول الله ﷺ وتعجيزاً له على زعمهم فحكى عنهم ذلك بطريق التخطئة والاستنكار فقوله تعالى
(ولن يخلف الله وعده) إما جملة حالية جىء بها لبيان بطلان إنكارهم لمجيئه فى ضمن استعجالهم به وإظهار *
خطئهم فيه كأنه قيل كيف ينكرون مجىء العذاب الموعود والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبداً وقد
سبق الوعد فلابد من مجيئه حتما أو اعتراضية مبينة لما ذكر وقوله تعالى (وإن يوما عند ربك كألف *
سنة مما تعدون) جملة مستأنفة إن كانت الأولى حالية ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضية سيقت لبيان

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ٢٢ الحج

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ٢٢ الحج

خطئهم فى الاستعجال المذكور ببيان كال سعة ساحة حلمه تعالى ووقاره وإظهار غاية ضيق عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مدداً طوالا عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ولذلك يرون مجيئه بعيداً ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ويجترئون على الاستعجال به ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها وقوعا وإخباراً ماعنده تعالى من المقدار وقراءة يعدون على صيغة الغيبة أى يعده المستعجلون أوفق لهذا المعنى وقد جعل الخطاب فى القراءة المشهورة لهم أيضاً بطريق الالتفات لكن الظاهر أنه الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين وقيل المراد بوعده تعالى ماجعل لهلاك كل أمة من موعد معين وأجل مسمى كما فى قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب فتكون الجملة الأولى حالية كانت أو اعتراضية مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود والجملة الأخيرة بياناً لبطلانه ببيان ابتناء على استطالة ماهو قصير عنده تعالى على الوجه الذى مر بيانه فلا يكون فى النظم الكريم حينئذ تعرض لإنكارهم الذى دسوه تحت الاستعجال بل يكون الجواب مبنياً على ظاهر مقالهم ويكتفى فى رد إنكارهم ببيان عاقبة من قبلهم من أمثالهم هذا وحمل المستعجل به على عذاب الآخرة وجعل اليوم عبارة عن يوم العذاب المستطال لشدته أو عن أيام الآخرة الطويلة حقيقة أو المستطالة لشدة عذابها مما لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه فإن كلا منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوى وأن الزمان الممتد هو الذى مر عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال لا الزمان

٤٨ المقارن له ألا يرى إلى قوله تعالى (وكأين من قرية) الخ فإنه كما سلف من قوله تعالى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم صريح فى أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد بعد الإملاء المديد أى وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فى الإعراب ورجع الضمائر والأحكام مبالغة فى التعميم والتهويل

(أمليت لها) كما أمليت لهؤلاء حتى أنكروا مجىء ماوعدوا من العذاب واستعجلوا به استهزاء برسلهم كما فعل هؤلاء (وهى ظالمة) جملة حالية مفيدة لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين أى أمليت لها والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء (ثم أخذتها) بالعذاب والنكال

بعد طول الإملاء والإمهال وقوله تعالى (وإلى المصير) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ومصرح بما أفاده ذلك بطريق التعريض من أن مآل أمر المستعجلين أيضاً ماذكر من الأخذ الوبيل أى إلى حكمى مرجع

٤٩ الكل جميعاً لا إلى أحد غيرى لا استقلالا ولا شركة فأفعل بهم ماأفعل مما يليق بأعمالهم (قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أنذركم إنذاراً بيناً بما أوحى من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكون لى دخل فى إتيان ماتوعدونه من العذاب حتى تستعجلونى به والاقتصار على الإنذار مع بيان حال الفريقين بعده لما أشير إليه من أن مساق الحديث للمشركين وعقابهم وإنما ذكر المؤمنون وثوابهم زيادة فى غيظهم .

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ٢٢ الحج

وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ٢٢ الحج

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا
يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ٢٢ الحج

---

٥٠ (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) لما ندر منهم من الذنوب (ورزق كريم) هى الجنة والكريم
من كل نوع مايجمع فضائله ويحوز كمالاته (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) أى سابقين أو مسابقين فى ٥١
زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم وأصله من عاجزه وعجزه فأعجزه إذا سابقه فسبقه
لأن كلا من المتسابقين يريد إعجاز الآخر عن اللحاق به وقرىء معجزين أى مثبطين الناس عن الإيمان
على أنه حال مقدرة (أولئك) الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة (أصحاب الجحيم) أى
ملازمو النار الموقدة وقيل هو اسم دركة من دركاتها (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الرسول ٥٢
من بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس إليها والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير شريعة سابقة كأنبياء بنى
إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ولذلك شبه ﷺ علماء أمته بهم فالنبى أعم
من الرسول ويدل عليه أنه ﷺ سئل عن الأنبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل فكم الرسل
منهم فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلا عليه والنبى غير
الرسول من لا كتاب له وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحى والنبى يقال له ولمن يوحى إليه فى المنام (إلا *
إذا تمنى) أى هيأ فى نفسه مايهواه (ألقى الشيطان فى أمنيته) فى تشهيه مايوجب اشتغاله بالدنيا كما قال ﷺ
وإنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة (فينسخ الله مايلقى الشيطان) فيبطله ويذهب به بعصمته
عن الركون إليه وإرشاده إلى مايزيحه (ثم يحكم الله آياته) أى يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق فى شئون *
الحق وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار لزيادة
التقرير والإيذان بأن الألوهية من موجبات إحكام آياته الباهرة (والله عليم) مبالغ فى العلم بكل ما من *
شأنه أن يعلم ومن جملته ماصدر عن العباد من قول وفعل عمداً أو خطأ (حكيم) فى كل مايفعل والإظهار *
ههنا أيضاً لما ذكر مع مافيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت
وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه مايقربهم إليه واستمر به ذلك حتى كان فى ناديهم فنزلت
عليه سورة النجم فأخذ يقرؤها فلما بلغ ومناة الثالثة الأخرى وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا
إلى أن قال تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد فى
آخرها بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم به فعزاه الله عز وجل
بهذه الآية وهو مردود عند المحققين ولئن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه وقيل

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ٢٢ الحج

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ٢٢ الحج

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٢٢ الحج

تمنى بمعنى قرأ كقوله [تمنى كتاب الله أول ليلة * تمنى داود الزبور على رسل] وأمنيته قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ وقد رد بأنه أيضاً يخل بالوثوق بالقرآن ولا يندفع بقوله تعالى فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته لأنه أيضاً يحتمله
٥٣ وفى الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام وتطرق الوسوسة إليهم (ليجعل مايلقى الشيطان) علة لما ينبىء عنه ماذكر من إلقاء الشيطان من تمكينه تعالى إياه من ذلك فى حق النبي ﷺ خاصة كما يعرب عنه سياق النظم الكريم لما أن تمكينه تعالى إياه من الإلقاء فى حق سائر الأنبياء عليهم السلام لا يمكن تعليله بما سيأتى وفيه دلالة على أن مايلقيه أمر ظاهر يعرفه المحق والمبطل (فتنة للذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق كما فى قوله تعالى فى قلوبهم مرض الآية (والقاسية قلوبهم) أى المشركين (وإن الظالمين) أى الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم مع ماوصفوا به من المرض والقساوة (لفى شقاق بعيد) أى عداوة شديدة ومخالفة تامة ووصف الشقاق بالبعد مع أن الموصوف
٥٤ به حقيقة هو معروضه للمبالغة والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبله (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه) أى القرآن (الحق من ربك) أى هو الحق النازل من عنده تعالى وقيل ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق المتضمن للحكمة البالغة والغاية الجميلة لأنه مما جرت به عادته فى جنس الإنس من لدن آدم عليه السلام فحينئذ لا حاجة إلى تخصيص التمكين فيما سبق بالإلقاء فى حقه عليه السلام لكن يأباه قوله تعالى (فيؤمنوا به) أى بالقرآن أى يثبتوا على الإيمان به أو يزدادوا إيماناً برد مايلقى الشيطان فتخبت له قلوبهم بالانقياد والخشية والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهى ورجع الضميرين لاسيما الثانى إلى تمكين الشيطان من الإلقاء مما لا وجه له (وإن الله لهادى الذين آمنوا) أى فى الأمور الدينية خصوصاً فى المداحض والمشكلات التى من جملتها ماذكر (إلى صراط مستقيم) هو النظر الصحيح الموصل
٥٥ إلى الحق الصريح والجملة اعتراض مقرر لما قبله (ولا يزال الذين كفروا فى مرية) أى فى شك وجدال (منه) أى من القرآن وقيل من الرسول ﷺ والأول هو الأظهر بشهادة ماسبق من قوله تعالى ثم يحكم الله آياته وقوله تعالى أنه الحق من ربك فيؤمنوا به وما لحق من قوله تعالى وكذبوا بآياتنا وأما تجويز كون الضمير

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ٢٢ الحج

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ٢٢ الحج

لما ألقى الشيطان فى أمنيته فمما لا مساغ له لأن ذلك ليس من هنانهم التى تستمر إلى الأمد المذكور بل إنما هى مريتهم فى شأن القرآن ولا يجدى حمل من على السببية دون الابتدائية لما أن مريتهم المستمرة كما أنها ليست مبتدأة من ذلك ليست ناشئة منه ضرورة أنها مستمرة منهم من لدن نزول القرآن الكريم (حتى تأتيهم الساعة) أى القيامة نفسها كما يؤذن به قوله تعالى (بغتة) أى فجاءة فإنها الموصوفة بالإتيان كذلك لا أشراطها وقيل الموت (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) أى يوم لا يوم بعده كأن كل يوم يلد مابعده من الأيام فما لا يوم بعده يكون عقيما والمراد به الساعة أيضاً كأنه قيل أو يأتيهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل ولا سبيل إلى حمل الساعة على أشراطها لما عرفته وأما ماقيل من أن المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر سمى به لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيما أى ثكلى فوصف اليوم بوصفها اتساعا أو لأنه لا خير لهم فيه ومنه الريح العقيم لما لم ينشىء مطراً ولم يلقح شجراً أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه فمما لا يساعده سياق النظم الكريم أصلا كيف لا وإن تخصيص الملك والتصرف الكلى فيه بالله عز وجل ثم بيان مايقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الأخروين يقضى بأن المراد به يوم القيامة قضاء بينا لا ريب

٥٦ فيه (الملك) أى السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الإطلاق (يومئذ لله) وحده بلا شريك أصلا بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف من التصرفات فى أمر من الأمور لا حقيقة ولا مجازاً ولا صورة ولا معنى كما فى الدنيا فإن للبعض فيها تصرفا صوريا فى الجملة وليس التنوين نائباً عما تدل عليه الغاية من زوال مريتهم كما قيل ولا عما يستلزمه ذلك من إيمانهم كما قيل لما أن القيد المعتبر مع اليوم حيث وسط بين طرفى الجملة يجب أن يكون مدار الحكمها أعنى كون الملك لله عزوجل وما يتفرع عليه من الإثابة والتعذيب ولا ريب فى أن إيمانهم أو زوال مريتهم ليس مماله تعلق ما بما ذكر فضلا عن المدارية له فلا سبيل إلى اعتبار شىء منهما مع اليوم قطعاً وإنما الذى يدور عليه ماذكر إتيان الساعة التى هى منتهى تصرفات الخلق ومبدأ ظهور أحكام الملك الحق جل جلاله فإذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غاية لمريتهم فالمعنى الملك يوم إذ تأتيهم الساعة أو عذابها لله تعالى وقوله تعالى (يحكم بينهم) جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الإخبار بكون الملك يومئذ لله كأنه قيل فماذا يصنع بهم حينئذ فقيل يحكم بين فريقى المؤمنين به والمارين فيه بالمجازاة وقوله تعالى (فالذين آمنوا) الخ تفسير للحكم المذكور وتفصيل له أى فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه (وعملوا الصالحات) امتثالا بما أمروا فى تضاعيفه (فى جنات النعيم) أى مستقرون

٥٧ فيها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى أصروا على ذلك واستمروا (فأولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ ٢٢ الحج

لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ٢٢ الحج

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ٢٢ الحج

* الشر والفساد أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب وهو مبتدأ وقوله تعالى (لهم عذاب) جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبراً لأولئك أو لهم خبر لأولئك وعذاب مرتفع على الفاعلية بالاستقرار فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وأولئك مع خبره على الوجهين خبر للموصول وتصديره بالفاء للدلالة على أن تعذيب الكفار بسبب أعمالهم السيئة كما أن تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين بطريق التفضل لا لإيجاب الأعمال الصالحة إياها وقوله تعالى

٥٨ (مهين) صفة لعذاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة وفيه من المبالغة من وجوه شتى مالا يخفى (والذين هاجروا فى سبيل الله) أى فى الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى (ثم قتلوا أو ماتوا) أى فى تضاعيف المهاجرة ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى (ليرزقنهم الله) جواب لقسم محذوف والجملة خبره ومن منع وقوع الجملة القسمية وجوابها خبراً للمبتدأ يضمر قولا هو الخبر والجملة محكية به وقوله تعالى (رزقا حسناً) إما مفعول ثان على أنه من باب الرعى والذبح أى مرزوقا حسناً أو مصدر مؤكد والمراد به مالا ينقطع أبداً من نعيم الجنة وإنما سوى بينهما فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل على أن مراتب الحسن متفاوتة فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الأرزاق الحسنة وروى أن بعض أصحاب النبى ﷺ قالوا يانبى الله هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فنزلت وقيل نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقتلوهم (وإن الله لهو خير الرازقين) فإنه يرزق بغير حساب مع أن

٥٩ مايرزقه لا يقدر عليه أحد غيره والجملة اعتراض تذييلى مقرر لماقبله وقوله تعالى (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) بدل من قوله تعالى ليرزقنهم الله أو استئناف مقرر لمضمونه ومدخلا إما اسم مكان أريد به الجنة فهو مفعول ثان للإدخال أو مصدر ميمى أكد به فعله قال ابن عباس رضى الله عنهما إنما قيل يرضونه لما أنهم يرون فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه (وإن الله لعليم) بأحوالهم

٦٠ وأحوال معاديهم (حليم) لا يعاجلهم بالعقوبة (ذلك) خبر مبتدأ محذوف أى الأمر ذلك والجملة لتقرير ماقبله والتنبيه على أن مابعده كلام مستأنف (ومن عاقب بمثل ماعوقب به) أى لم يزد فى الاقتصاص وإنما سمى الابتداء بالعقاب الذى هو جزاء الجناية للمشاكلة أو لكونه سبباً له (ثم بغى عليه) بالمعاودة إلى العقوبة (لينصرنه الله) على من بغى عليه لا محالة (إن الله لعفو غفور) أى مبالغ فى العفو والغفران

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ٢٢ الحج

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ٢٢ الحج

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ٢٢ الحج

لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ٢٢ الحج

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن
تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ٢٢ الحج

فيعفو عن المنتصر ويغفر له ماصدر عنه من ترجيح الانتقام على العفو والصبر المندوب إليهما بقوله تعالى
ولمن صبر وغفر إن ذلك أى ماذكر من الصبر والمغفرة لمن عزم الأمور فإن فيه حثاً بليغاً على العفو
والمغفرة فإنه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك وتنبيهاً على أنه تعالى قادر على العقوبة
٦١ إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده (ذلك) إشارة إلى النصر وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو
رتبته ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى
بسبب أنه تعالى من شأنه وسنته تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الأشياء المتضادة وعبر عن
ذلك بإدخال أحد الملوين فى الآخر بأن يزيد فيه ماينقص عن الآخر أو بتحصيل أحدهما فى مكان الآخر
لكونه أظهر المواد وأوضحها (وأن الله سميع) بكل المسموعات التى من جملتها قول المعاقب (بصير) بجميع
٦٢ المبصرات ومن جملتها أفعاله (ذلك) أى الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم وما فيه من معنى البعد
لما مر آنفاً وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأن الله هو الحق) الواجب لذاته الثابت فى نفسه وصفاته وأفعاله
وحده فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبدأ لكل مايوجد من الموجودات عالماً بكل المعلومات
أو الثابت إلهية فلا يصلح لها إلا من كان عالماً قادراً (وأن مايدعون من دونه) إلهاً وقرىء على البناء للمفعول
على أن الواو لما فإنه عبارة عن الآلهة وقرىء بالتاء على خطاب المشركين (هو الباطل) أى المعدوم فى حد
ذاته أو الباطل ألوهيته (وأن الله هو العلى) على جميع الأشياء (الكبير) عن أن يكون له شريك لاشىء
٦٣ أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استفهام تقرير كما يفصح عنه الرفع فى
قوله تعالى (فتصبح الأرض مخضرة) بالعطف على أنزل وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد أثر
الإنزال واستمراره أو لاستحضار صورة الاخضرار (إن الله لطيف) يصل لطفه أو علمه إلى كل ماجل
٦٤ ودق (خبير) بما يليق من التدابير الحسنة ظاهراً وباطناً (له مافى السموات ومافى الأرض) خلقاً وملكاً
٦٥ وتصرفاً (وإن الله لهو الغنى) عن كل شىء (الحميد) المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله (ألم تر أن الله سخر
لكم مافى الأرض) أى جعل مافيها من الأشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف شئتم فلا

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ٢٢ الحج

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ٢٢ الحج

أصلب من الحجر ولا أشد من الحديد ولا أهيب من النار وهى مسخرة لكم و تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم لتعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر (والفلك) عطف على ما أو على اسم أن وقرىء بالرفع على الابتداء (تجرى فى البحر بأمره) حال من الفلك على الأول وخبر على الأخيرين (ويمسك السماء أن تقع على الأرض) أى من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك (إلا بإذنه) أى بمشيئته وذلك يوم القيامة وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية فى الجسمية لسائر الأجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها (إن الله بالناس لرءوف رحيم) حيث هيأ لهم أسباب معاشهم وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات
٦٦ التكوينية والتنزيلية (وهو الذى أحياكم) بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً حسبما فصل فى مطلع السورة الكريمة (ثم يميتكم) عند مجىء آجالكم (ثم يحييكم) عند البعث (إن الإنسان لكفور) أى جحود للنعم
٦٧ مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده (لكل أمة) كلام مستأنف جىء به لزجر معاصريه ﷺ من أهل الأديان السماوية عن منازعته ﷺ ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع وإظهار خطئهم فى النظر أى لكل أمة معينة من الأمم الخالية والباقية (جعلنا) أى وضعنا وعينا (منسكا) أى شريعة خاصة لا لأمة أخرى منهم على معنى عينا كل شريعة لأمة معينة من الأمم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى (هم ناسكوه) صفة لمنسكا مؤكدة للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها أى تلك الأمة المعينة ناسكوه والعاملون به لا أمة أخرى فالأمة التى كانت من مبعث موسى عليه السلام إلى مبعث عيسى عليه السلام منسكهم التوراة هم ناسكوها والعاملون بها لا غيرهم والتى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبى ﷺ منسكهم الإنجيل هم ناسكوه والعاملون به لا غيرهم وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبى ﷺ ومن بعدهم من الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم الفرقان ليس إلا كما مر فى تفسير قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا والفاء فى قوله تعالى (فلا ينازعنك فى الأمر) لترتيب النهى أو موجبه على ما قبلها فإن تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم التى من جملتهم هذه الأمة شريعة مستقلة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله ﷺ وعدم منازعتهم إياه فى أمر الدين زعماً منهم أن شريعتهم ما عين لآبائهم الأولين من التوراة والإنجيل فإنهما شريعتان لمن مضى من الأمم قبل انتساخهما وهؤلاء أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد فحسب والنهى إما على حقيقته أو كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم للنبى على زعمهم المذكور وأما جعله عبارة عن نهيه ﷺ

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٢٢ الحج

ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ٢٢ الحج

أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ ٢٢ الحج

وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ ٢٢ الحج

عن منازعتهم فلا يساعده المقام وقرىء فلا ينزعنك على تهييجه ﷺ والمبالغة فى تثبيته وأياما كان فمحل النزاع ما ذكرناه وتخصيصه بأمر النسائك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين وغيرهم للمسلمين مالكم تأكلون ماقتلتم ولا تأكلوا ماقتله الله تعالى مما لا سبيل إليه أصلا كيف لا وأنه يستدعى أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدينونه من الأباطيل من جملة المناسك التى جعلها الله تعالى لبعض الأمم ولا يرتاب فى بطلانه عاقل (وادع) أى وادعهم أو وادع الناس كافة على أنهم داخلون فيهم دخولا أوليا (إلى ربك) إلى توحيده وعبادته حسبما بين لهم فى منسكهم وشريعتهم (إنك لعلى هدى مستقيم) أى طريق موصل إلى الحق سوى والمراد به إما
الدين والشريعة أو أدلتها (وإن جادلوك) بعد ظهور الحق بما ذكر من التحقيق ولزوم الحجة عليهم (فقل) ٦٨
لهم على سبيل الوعيد (الله أعلم بما تعملون) من الأباطيل التى من جملتها المجادلة (الله يحكم بينكم) يفصل ٦٩
بين المؤمنين منكم والكافرين (يوم القيامة) بالثواب والعقاب كما فصل فى الدنيا بالحجج والآيات (فيما
كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين (ألم تعلم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله والاستفهام للتقرير أى قد ٧٠
علمت (أن الله يعلم مافى السماء والأرض) فلا يخفى عليه شىء من الأشياء التى من جملتها مايقوله الكفرة وما يعملونه (إن ذلك) أى مافى السماء والأرض (فى كتاب) هو اللوح قد كتب فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له (إن ذلك) أى ما ذكر من العلم والإحاطة به وإثباته فى اللوح أو الحكم
بينكم (على الله يسير) فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شىء ولا يعسر عليه مقدور (ويعبدون ٧١
من دون الله) حكاية لبعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم من بناء أمر دينهم على غير مبنى من دليل سمعى أو عقلى وإعراضهم عما ألقى عليهم من سلطان بين هو أساس الدين وقاعدته أشد إعراض أى يعبدون متجاوزين عبادة الله (مالم ينزل به) أى بجواز عبادته (سلطاناً) أى حجة (وما ليس لهم به) أى بجواز عبادته (علم) من ضرورة العقل أو استدلاله (وما للظالمين) أى الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم الذى يقضى ببطلانه وكونه ظلماً بديهة العقول (من نصير) يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم أو بدفع العذاب الذى يعتريهم بسبب ظلمهم .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ٢٢ الحج

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ٢٢ الحج

٧٢ (وإذا تتلى عليهم آياتنا) عطف على يعبدون وما بينهما اعتراض وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى (بينات) أى حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الصادقة أو على بطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام أو على كونها من عند الله عز وجل (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) أى الإنكار كالمكرم بمعنى الإكرام أو الفظيع من التجهم والبسور أو الشر الذى يقصدونه بظهور مخايله من الأوضاع والهيئات وهو الأنسب بقوله تعالى (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لأباطيل أخذوها تقليداً وهل جهالة أعظم وأطم من أن يعبدوا مالا يوهم صحة عبادته شىء ما أصلا بل يقضى ببطلانها العقل والنقل ويظهروا لمن يهديهم إلى الحق البين بالسلطان المبين مثل هذا المنكر الشنيع كلا ولهذا وضع الذين كفروا موضع الضمير (قل) رداً عليهم وإقناطاً عما يقصدونه من الإضرار بالمسلمين (أفأنبئكم) أى أأخاطبكم فأخبركم (بشر من ذلكم) الذى فيكم من غيظكم على التالين وسطوتكم بهم أو مما تبغونهم من الغوائل أو مما أصابكم من الضجر بسبب ماتلوه عليكم (النار) أى هو النار على أنه جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ماهو وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى (وعدها الله الذين كفروا) وقرىء النار بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلا من شر فتكون الجملة

٧٣ الفعلية استئنافا كالوجه الأول أو حالا من النار بإضمار قد (وبئس المصير) النار (يأيها الناس ضرب مثل) أى بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلا وتسير فى الأمصار والأعصار أو جعل لله مثل أى مثل فى استحقاق العبادة وأريد بذلك ماحكى عنهم من عبادتهم للأصنام (فاستمعوا له) أى للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر أو فاستمعوا لأجله ماأقول فقوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله) الخ بيان للمثل وتفسير له على الأول وتعليل لبطلان جعلهم الأصنام مثل الله سبحانه فى استحقاق العبادة على الثانى وقرىء بياء الغيبة مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول والراجع إلى الموصول على الأولين محذوف (لن يخلقوا ذباباً) أى لن يقدروا على خلقه أبداً مع صغره وحقارته فإن لن بما فيها من تأكيد النفى دالة على منافاة مابين المنفى والمنفى عنه (ولو اجتمعوا له) أى لخلقه وجواب لو محذوف لدلالة ماقبله عليه والجملة معطوفة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أى لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له لن يخلقوه كما مر تحقيقه مراراً وهما فى موضع الحال كأنه قيل لن يخلقوا ذباباً

مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٢٢ الحج

ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ٢٢ الحج

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ٢٢ الحج

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ٢٢ الحج

على كل حال (وإن يسلبهم الذباب شيئاً) بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه
أى إن يأخذ الذباب منهم شيئاً (لا يستنقذوه منه) مع غاية ضعفه ولقد جهلوا غاية التجهيل فى إشراكهم بالله
القادر على جميع المقدورات المنفرد بإيجاد كافة الموجودات تماثيل هى أعجز الأشياء وبين ذلك بأنها لا تقدر على
أقل الأحياء وأذلها ولو اتفقوا عليه بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها
واستنقاذ ما يختطفه منها قيل كانوا يطيبونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من
الكوى فيأكله (ضعف الطالب والمطلوب) أى عابد الصنم ومعبوده أو الذباب الطالب لما يسلبه من الصنم
من الطيب والصنم المطلوب منه ذلك أو الصنم والذباب كأنه يطالبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت
٧٤ الصنم أضعف من الذباب بدرجات وعابده أجهل من كل جاهل وأضل من كل ضال (ماقدروا الله حق قدره)
أى ما عرفوه حق معرفته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة (إن الله لقوى)
على خلق الممكنات بأسرها وإفناء الموجودات عن آخرها (عزيز) غالب على جميع الأشياء وقد عرفت
٧٥ حال آلهتهم المقهورة لأذلها العجزة عن أقلها والجملة تعليل لما قبلها من نفى معرفتهم له تعالى (الله يصطفى من
الملائكة رسلا) يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحى (ومن الناس) وهم المختصون
بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب
ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب الحق فيدعونهم إليه تعالى بما
أنزل عليهم ويعلمونهم شرائعه وأحكامه كأنه تعالى لما قرر وحدانيته فى الألوهية ونفى أن يشاركه فيها
شىء من الأشياء بين أن له عباداً مصطفين للرسالة يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادته عز وجل
وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمن عداه من الموجودات تقريراً للنبوة وتزييفاً لقولهم لو شاء الله
لأنزل ملائكة وقولهم مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وقولهم الملائكة بنات الله وغير ذلك من
الأباطيل (إن الله سميع بصير) عليم بجميع المسموعات والمبصرات فلا يخفى عليه شىء من الأقوال
٧٦ والأفعال (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور) لا إلى أحد غيره لا اشتراكا ولا
٧٧ استقلالا (يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أى فى صلواتكم أمرهم بهما لما أنهم ما كانوا يفعلونهما
أول الإسلام أو صلوا عبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها أو اخضعوا لله تعالى وخروا له سجداً

وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ٢٢ الحج

(واعبدوا ربكم) بسائر ماتعبدكم به (وافعلوا الخير) وتحروا ماهو خير وأصلح فى كل ماتأتون وما تذرون كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق (لعلكم تفلحون) أى افعلوا هذه كلها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين بأعمالكم والآية آية سجدة عند الشافعى رحمه الله لظاهر مافيها
٧٨ من الأمر بالسجود ولقوله ﷺ فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأها (وجاهدوا فى الله) أى لله تعالى ولأجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وعنه ﷺ أنه * رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (حق جهاده) أى جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم وأضيف الجهاد إلى الضمير * اتساعا أو لأنه مختص به تعالى من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله (هو اجتباكم) أى هو اختاركم * لدينه ونصرته لاغيره وفيه تنبيه على مايقتضى الجهاد ويدعو إليه (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى ضيق بتكليف مايشق عليكم إقامته إشارة إلى أنه لامانع لهم عنه ولا عذر لهم فى تركه أو إلى الرخصة فى إغفال بعض ماأمرهم به حيث يشق عليهم لقوله ﷺ إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجا بأن رخص لهم فى المضايق وفتح لهم باب التوبة وشرع لهم الكفارات * فى حقوقه والأروش والديات فى حقوق العباد (ملة أبيكم إبراهيم) نصب على المصدر بفعل دل عليه مضمون ماقبله بحذف المضاف أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الإغراء أو على الاختصاص وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به فى الآخرة أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته ﷺ فغلبوا على غيرهم (هو سماكم المسلمين من قبل) فى الكتب المتقدمة (وفى هذا) أى فى القرآن والضمير لله تعالى ويؤيده أنه قرىء الله سماكم أو لإبراهيم وتسميتهم بالمسلمين فى القرآن وإن لم تكن منه ﷺ كانت بسبب تسميته من قبل فى قوله ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وقيل وفى هذا تقديره وفى هذا بيان تسميته إياكم * المسلمين (ليكون الرسول) يوم القيامة متعلق بسماكم (شهيداً عليكم) بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى (وتكونوا شهداء على الناس) بتبليغ الرسل إليهم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر لأنافتهما وفضلهما (واعتصموا بالله) أى ثقوا به فى مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه * (هو مولاكم) ناصركم ومتولى أموركم (فنعم المولى ونعم النصير) هو إذ لامثل له فى الولاية والنصرة

سُورَةُ الحَجِّ

ترتيبها ٢٢ — آياتها ٧٨

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير، رضي الله تعالى عنهم أنها نزلت بالمدينة وهو قول الضحاك وقيل كلها مكية، وأخرج أبو جعفر النحاس عن مجاهد عن ابن عباس أنهامكية سوى ثلاث آيات ﴿هذان خصمان﴾ [الحج: ١٩] إلى تمام الآيات الثلاث فإنها نزلت بالمدينة، وفي رواية عن ابن عباس إلا أربع آيات ﴿هذان خصمان﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عذاب الحريق﴾ [الحج: ٢٢].

وأخرج ابن المنذر عن قتادة أنها مدنية غير أربع آيات ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ـ إلى ـ عذاب يوم عقيم﴾ [الحج: ٥٢ . ٥٥] فإنها مكيات، والأصح القول بأنها مختلطة فيها مدني ومكي وإن اختلف في التعيين وهو قول الجمهور. وعدة آياتها ثمان وتسعون في الكوفي وسبع وتسعون في المكي وخمس وتسعون في البصري وأربع وتسعون في الشامي. ووجه مناسبتها للسورة التي قبلها ظاهر، وجاء في فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما. والروايات في أن فيها سجدتين متعددة مذكورة في الدر المنثور، نعم أخرج ابن أبي شيبة من طريق العريان المجاشعي عن ابن عباس قال: في الحج سجدة واحدة وهي الأولى كما جاء في رواية.

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ
مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ
وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ
﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ
مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ
لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى
ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ

هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن
فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ
لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ
ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ
وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ
ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ
لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ**﴾ خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة لكن لا بطريق الحقيقة عندنا بل بطريق التغليب أو تعميم الحكم بدليل خارجي فإن خطاب المشافهة لا يتناول من لم يكلف بعد وهو خاص بالمكلفين الموجودين عند النزول خلافاً للحنابلة وطائفة من السلفيين والفقهاء حيث ذهبوا إلى تناوله الجميع حقيقة، ولا خلاف في دخول الإناث كما قال الآمدي في نحو الناس مما يدل على الجمع ولم يظهر فيه علامة تذكير ولا تأنيث وإنما الخلاف في دخولهن في نحو ضمير ﴿**اتقوا**﴾ والمسلمين فذهبت الشافعية والأشاعرة والجمع الكثير من الحنفية والمعتزلة إلى نفيه، وذهبت الحنابلة وابن داود وشذوذ من الناس إلى إثباته، والدخول هنا عندنا بطريق التغليب.

وزعم بعضهم أن الخطاب خاص بأهل مكة وليس بذاك، والمأمور به مطلق التقوى الذي هوالتجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ويندرج فيه الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجاً أولياً لكن على وجه يعم الإيجاد والدوام، والمناسب لتخصيص الخطاب بأهل مكة أن يراد بالتقوى المرتبة الأولى منها وهي التوقي عن الشرك، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيباً وترغيباً أي احذروا عقوبة مالك أمركم ومربيكم، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ تعليل لموجب الأمر بذكر أمر هائل فإن ملاحظة عظم ذلك وهوله و فظاعة ما هو من مبادئه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة. والزلزلة التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مركزها، وإضافتها إلى الساعة إما من إضافة المصدر إلى فاعله لكن على سبيل المجاز في النسبة كما قيل في قوله تعالى: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ [سبأ: ٣٣] لأن المحرك

حقيقة هو الله تعالى والمفعول الأرض أو الناس أو من إضافته إلى المفعول لكن على إجرائه مجرى المفعول به اتساعاً كما في قوله:

يـــا ســـارق الـــلـــيـــلـــة أهـــل الـــدار

وجوز أن تكون الإضافة على معنى في وقد أثبتها بعضهم وقال بها في الآية السابقة، وهي عند بعض المذكورة في قوله تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ [الزلزلة: ١] وتكون على ما قيل عند النفخة الثانية وقيام الساعة بل روي عن ابن عباس أن زلزلة الساعة قيامها.

وأخرج أحمد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والنسائي والترمذي والحاكم وصححاه عن عمران بن حصين قال: لما نزلت ﴿ **يا أيها الناس ـــ إلى ـــ ولكن عذاب الله شديد**﴾ كان ﷺ في سفر[١] فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم. قال: ذلك يوم يقول الله تعالى لآدم عليه السلام ابعث بعث النار قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة فأنشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا وأبشروا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدة من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين وما مثلكم في الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا قال: ولا أدري قال الثلثين أم لا، وحديث البعث مذكور في الصحيحين وغيرهما لكن بلفظ آخر وفيه كالمذكور ما يؤيد كون هذه الزلزلة في يوم القيامة وهو المروي عن الحسن.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن علقمة والشعبي وعبيد بن عمير أنها تكون قبل طلوع الشمس من مغربها، وإضافتها إلى الساعة على هذا لكونها من أماراتها، وقد وردت آثار كثيرة في حدوث زلزلة عظيمة قبل قيام الساعة هي من أشراطها إلا أن في كون تلك الزلزلة هي المراد هنا نظراً إذ لا يناسب ذلك كون الجملة تعليلاً لموجب أمر جميع الناس بالتقوى، ثم إنها على هذا القول على معناها الحقيقي وهو حركة الأرض العنيفة، وتحدث هذه الحركة بتحريك ملك بناء على ما روي أن في الأرض عروقاً تنتهي إلى جبل قاف وهي بيد ملك هناك فإذا أراد الله عز وجل أمراً أن يحرك عرقاً فإذا حركه زلزلت الأرض.

وعند الفلاسفة أن البحار إذا احتبس في الأرض وغلظ بحيث لا ينفد في مجاريها لشدة استحصافها وتكاثفها اجتمع طالباً للخروج ولم يمكنه فزلزت الأرض، وربما اشتدت الزلزلة فخسفت الأرض فيخرج نار لشدة الحركة الموجبة لاشتعال البخار والدخان لا سيما إذا امتزجا امتزاجاً مقرباً إلى الدهنية، وربما قويت المادة على شق الأرض فتحدث أصوات هائلة، وربما حدثت الزلزلة من تساقط عوالي وهدأت في باطن الأرض فيتموج بها الهواء المحتقن فتتزلزل به الأرض، وقليلاً ما فتتزلزل بسقوط قلل الجبال عليها لبعض الأسباب.

ومما يستأنس به للقول بأن سببها احتباس البخار الغليظ وطلبه للخروج وعدم تيسره له كثرة الزلازل في الأرض الصلبة وشدتها بالنسبة إلى الأرض الرخوة، ولا يخفى أنه إذا صح حديث في بيان سبب الزلزلة لا ينبغي العدول عنه وإلا فلا بأس بالقول برأي الفلاسفة في ذلك وهو لا ينافي القول بالفاعل المختار كما ظن بعضهم، وهي على القول بأنها يوم القيامة قال بعضهم على حقيقتها أيضاً، وقال آخرون: هي مجاز عن الأهوال والشدائد التي تكون في ذلك

---

(١) وذلك في غزوة بني المصطلق كما صرح به في بعض الروايات اهـ منه.

اليوم، وفي التعبير عنها بالشيء إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها والعبارة ضيقة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام. وفي البحر أن إطلاق الشيء عليها مع أنه لم توجد بعد يدل على أنه يطلق على المعدوم، ومن منع ذلك قال: إن اطلاقه عليها ليتقن وقوعها وصيرورتها إلى الوجود لا محالة.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ الظاهر أن الضمير المنصوب في ﴿ترونها﴾ للزلزلة لأنها المحدث عنها، وقيل هو للساعة وهو كما ترى، و ﴿يوم﴾ منتصب بتذهل قدم عليه للاهتمام، وقيل بعظيم، وقيل: بإضمار اذكر؛ وقيل هو بدل من ﴿الساعة﴾ وفتح لبنائه كما قيل في قوله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع﴾ [المائدة: ١١٩] على قراءة يوم بالفتح، وقيل بدل من ﴿زلزلة﴾ أو منصوب به إن اغتفر الفصل بين المصدر ومعموله الظرفي بالخبر، وجملة ﴿تذهل﴾ على هذه الأوجه في موضع الحال من ضمير المفعول والعائد محذوف أي تذهل فيها، والذهول شغل يورث حزناً ونسياناً، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها وهي بخلاف المرضع بلا هاء فإنها التي من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، وخص بعض نحاة الكوفة أم الصبي بمرضعة بالهاء والمستأجرة بمرضع ويرده قول الشاعر:

كمرضعة أولاد أخرى وضيعت ... بني بطنها هذا الضلال عن القصد

والتعبير به هنا ليدل على شدة الأمر وتفاقم الهول، والظاهر أن ما موصولة والعائد محذوف أي عن الذي أرضعته، والتعبير بما لتأكيد الذهول وكون الطفل الرضيع بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا لأنها تعرف شيئيته لكن لا تدري من هو بخصوصه، وقيل مصدرية أي تذهل عن إرضاعها، والأول دل على شدة الهول وكمال الانزعاج، والكلام على طريق التمثيل وأنه لو كان هناك مرضعة ورضيع لذهلت المرضعة عن رضيعها في حال إرضاعها إياه لشدة الهول وكذا ما بعد، وهذا ظاهر إذا كانت الزلزلة عند النفخة الثانية أو في يوم القيامة حين أمر آدم عليه السلام ببعث بعث النار وبعث الجنة إن لم نقل بأن كل أحد يحشر على حاله التي فارق فيها الدنيا فتحشر المرضعة مرضعة والحامل حاملة كما ورد في بعض الآثار، وأما إذا قلنا بذلك أو بكون الزلزلة في الدنيا فيجوز أن يكون الكلام على حقيقته، ولا يضر في كونه تمثيلاً أن الأمر إذ ذاك أشد وأعظم وأهول مما وصف وأطم لشيوع ما ذكر في التهويل كما لا يخفى على المنصف النبيل.

وقرىء «تُذْهَلُ» من الإذهال مبنياً للمفعول، وقرأ ابن أبي عبلة واليماني «تَذْهَلُ» منه مبنياً للفاعل و ﴿كل﴾ بالنصب أي يوم تذهل الزلزلة، وقيل: الساعة كل مرضعة ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي تلقي كل ذات جنين جنينها لغير تمام، وإنما لم يقل وتضع كل حاملة ما حملت على وزان ما تقدم لما أن ذلك ليس نصاً في المراد وهو وضع الجنين بخلاف ما في النظم الجليل فإنه نص فيه لأن الحمل بالفتح ما يحمل في البطن من الولد، وإطلاقه على نحو الثمرة في الشجرة للتشبيه بحمل المرأة، وللتنصيص على ذلك من أول الأمر لم يقل وتضع كل حاملة حملها كذا قيل. وتعقب بأن في دعوى تخصيص الحمل بما يحمل في البطن من الولد وان إطلاقه على نحو الثمرة في الشجرة للتشبيه بحثاً ففي البحر الحمل بالفتح ما كان في بطن أو على رأس شجرة.

وفي القاموس الحمل ما يحمل في البطن من الولد جمعه حمال وأحمال وحملت المرأة تحمل علقت ولا يقال حملت به أو قليل وهي حامل وحاملة، والحمل ثمر الشجر ويكسر أو الفتح لما بطن من ثمره والكسر لما ظهر أو الفتح لما كان في بطن أو على رأس شجرة والكسر لما على ظهر أو رأس أو ثمر الشجر بالكسر ما لم يكبر فإذا كبر فبالفتح جمعه أحمال وحمول وحمال اهـ، وقيل: المتبادر وضع الجنين بأي عبارة كان التعبير إلا أن ذات حمل أبلغ في

التهويل من حامل أو حاملة لإشعاره بالصحبة المشعرة بالملازمة فيشعر الكلام بأن الحامل تضع إذ ذاك الجنين المستقر في بطنها المتمكن فيه هذا مع ما في الجمع بين ما يشعر بالمصاحبة وما يشعر بالمفارقة وهو الوضع من اللطف فتأمل فلمسلك الذهن اتساع.

﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾ بفتح التاء والراء على خطاب كل واحد من المخاطبين برؤية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والأفراد لما أن المرئي في الأول هي الزلزلة التي يشاهدها الجميع وفي الثاني حال من عدا المخاطب منهم فلا بد من إفراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فإن المراد بيان تأثير الزلزلة في المرئي لا في الرائي باختلاف مشاعره لأن مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها كأنه قيل وتصير الناس سكارى الخ، وإنما أوثر عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحال فيهم وبلوغها من الجلاء إلى حد لا يكاد يخفى على أحد قاله غير واحد.

وجوز بعضهم كون الخطاب للنبي ﷺ، والأول أبلغ في التهويل، والرؤية بصرية و ﴿الناس﴾ مفعولها، وقوله تعالى: ﴿سكارى﴾ حال منه أي يراهم كل واحد مشابهين للسكارى، وقوله تعالى: ﴿وما هم بسكارى﴾ أي حقيقة حال أيضاً لكنها مؤكدة والحال المؤكد تقترن بالواو لا سيما إذا كانت جملة اسمية. فلا يقال: إنه إذا كان معنى قوله تعالى: ﴿ترى الناس سكارى﴾ على التشبيه يكون ﴿وما هم بسكارى﴾ بالمعنى المذكور مستغنى عنه، ولا وجه لجعله حالاً مؤكدة لمكان الواو، وجوز أن يكون ﴿ترى﴾ بمعنى تظن فسكارى مفعول ثان، وحينئذ يجوز أن يكون الكلام على التشبيه والجملة الاسمية في موضع الحال المؤكدة؛ ويجوز أن يكون على الحقيقة فلا تأكيد هنا، وأمر أفراد الخطاب وما فيه من المبالغة بحالة، وأياً ما كان فالمراد في قوله تعالى: ﴿وما هم بسكارى﴾ استمرار النفي، وأكد بزيادة الباء للتنبيه على أن ما هم فيه ليس من المعهود في شيء وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، وأشير إلى سببه بقوله تعالى: ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ أي إن شدة عذابه تعالى تجعلهم كما ترى، وهو استدراك على ما في الانتصاف راجع إلى قوله تعالى: ﴿وما هم بسكارى﴾ وزعم أبو حيان أنه استدراك عن مقدر كأنه قيل هذه أي الذهول والوضع ورؤية الناس سكارى أحوال هينة ولكن عذاب الله شديد وليس بهين وهو خلاف الظاهر جداً.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «تُرِي» بضم التاء وكسر الراء أي تُري الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى. وقرأ الزعفراني «تُرَى» بضم التاء وفتح الراء «الناسُ» بالرفع على إسناد الفعل المجهول اليه، والتأنيث على تأويل الجماعة. وقرأ أبو هريرة وأبو زرعة وابن جرير وأبو نهيك كذلك إلا أنهم نصبوا ﴿النَّاسَ﴾ وترى على هذا متعد إلى ثلاثة مفاعيل كما في البحر؛ الأول الضمير المستتر وهو نائب الفاعل، والثاني ﴿الناس﴾ والثالث ﴿سكارى﴾ وقرأ أبو هريرة وابن نهيك ﴿سَكَارَى﴾ بفتح السين في الموضعين وهو جمع تكسير واحده سكران، وقال أبو حاتم: هي لغة تميم، وأخرج الطبراني وغيره عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قرأ «سَكْرَى» كعطشى في الموضعين، وكذلك روى أبو سعيد الخدري وهي قراءة عبد الله وأصحابه وحذيفة وبها قرأ الأخوان وابن سعدان ومسعود بن صالح، وتجمع الصفة على فعلى إذا كانت من الآفات والأمراض كقتلى وموتى وحمقى، ولكون السكر جارياً مجرى ذلك لما فيه من تعطيل القوى والمشاعر جمع هذا الجمع فهو جمع سكران؛ وقال أبو علي الفارسي: يصح أن يكون جمع سكر كزمنى وزمن، وقد حكى سيبويه رجل سكر بمعنى سكران. وقرأ الحسن والأعرج وأبو زرعة وابن جبير والأعمش «سُكْرَى» بضم السين فيهما، قال الزمخشري: وهو غريب، وقال أبو الفتح: هو اسم مفرد كالبشرى وبهذا أفتاني أبو علي وقد سألته عنه انتهى.

وإلى كونه اسماً مفرداً ذهب أبو الفضل الرازي فقال: فعلى بضم الفاء من صفة الواحدة من الإناث لكنها لما جعلت من صفات الناس وهم جماعة أجريت الجماعة بمنزلة المؤنث الموحد، وعن أبي زرعة «سَكْرَى» بفتح السين «بسَكُرَى» بضمها، وعن ابن جبير «سَكرَى» بفتح السين من غير ألف ﴿بِسُكَارَى﴾ بالضم والألف كما في قراءة الجمهور، والخلاف في فعالى أهو جمع أو اسم جمع مشهور.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت كما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله تعالى عنه في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه والقرآن أساطير الأولين ولا يقدر الله تعالى شأنه على إحياء من بلي وصار تراباً، وقيل في أبي جهل، وقيل في أُبيّ بن خلف وهي عامة في كل من تعاطى الجدل فيما يجوز وما لا يجوز على الله سبحانه من الصفات والأفعال ولا يرجع إلى علم ولا برهان ولا نصفة، وخصوص السبب لا يخرجها عن العموم، وكان ذكرها أثر بيان عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث لبيان حال بعض المنكرين لها؛ ومحل الجار الرفع على الابتداء إما بحمله على المعنى أو بتقدير ما يتعلق به، و ﴿بغير علم﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿يجادل﴾ لإيضاح ما تشعر به المجادلة من الجهل أي وبعض الناس أو بعض كائن من الناس من ينازع في شأن عز وجل ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل ملابساً الجهل ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ فيما يتعاطاه من المجادلة أو في كل ما يأتي وما يذر من الأمور الباطلة التي من جملتها ذلك ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ متجرد للفساد معرى من الخير من قولهم: شجرة مرداء لا ورق لها، ومنه قيل: رملة مرداء إذا لم تنبت شيئاً، ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر، وقال الزجاج: أصل المريد والمارد المرتفع الأملس وفيه معنى التجرد والتعري، والمراد به إما ابليس وجنوده وإما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم إلى الكفر. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿وَيَتْبَعُ﴾ خفيفاً.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ضمير ﴿عليه﴾ للشيطان وكذا الضمير المنصوب في ﴿تولاه﴾ والضمير في ﴿فإنه﴾ والضميران المستتران في ﴿يضله ويهديه﴾ وضمير ﴿أنه﴾ للشأن وباقي الضمائر لمن. واختلف في إعراب الآية فقيل إن ﴿أنه من تولاه﴾ الخ نائب فاعل ﴿كتب﴾ والجملة في موضع الصفة الثانية لشيطان و ﴿من﴾ جزائية وجزاؤها محذوف و ﴿فإنه يضله﴾ الخ عطف على ﴿أنه﴾ مع ما في حيزها وما يتصل بها أي كتب على الشيطان أن الشأن من تولاه أي اتخذه ولياً وتبعه يهلكه فإنه يضله عن طريق الجنة وثوابها ويهديه إلى طريق السعير وعذابها، والفاء لتفصيل الإهلاك كما في قوله تعالى: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ [البقرة: ٥٤] وعلى ذلك حمل الطيبي كلام الكشاف وهو وجه حسن إلا أن في كونه مراد الزمخشري خفاء، وقيل ﴿من﴾ موصولة مبتدأ وجملة ﴿تولاه﴾ صلته والضمير المستتر عائده و ﴿أنه يضله﴾ في تأويل مصدر خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة خبر الموصول، ودخول الفاء في خبره على التشبيه بالشرط أي كتب عليه أن الشأن من تولاه فشأنه أو فحق أنه يضله الخ. ويجوز أن تكون من شرطية والفاء جوابية وما بعدها مع القدر جواب الشرط. وقيل ضمير ﴿أَنَّهُ﴾ للشيطان وهو اسم أن و ﴿من﴾ موصولة أو موصوفة. والأول أظهر. خبرها والضمير المستتر في ﴿تولاه﴾ لبعض الناس والضمير البارز لمن والجملة صلة أو صفة، وقوله تعالى: ﴿فإنه يضله﴾ عطف على ﴿أنه من تولاه﴾ والمعنى ويتبع كل شيطان كتب عليه أنه هو الذي اتخذه بعد الناس ولياً وأنه يضل من اتخذه ولياً فالأول كأنه توطئة للثاني أي يتبع شيطاناً مختصاً به مكتوباً عليه أنه وليه وأنه مضله فهو لا يألو جهداً في إضلاله، وهذا المعنى أبلغ من المعنى السابق على احتمال كون من جزائية لدلالته على أن لكل واحد من المجادلين واحداً من مردة الشياطين، وارتضى هذا في الكشف وحمل عليه مراد صاحب الكشاف.

وعن بعض الفضلاء أن الضمير في ﴿أنه﴾ للمجادل أي كتب على الشيطان أن المجادل من تولاه وقوله تعالى: ﴿فإنه﴾ الخ عطف على ﴿أنه من تولاه﴾ واعترض بأن اتصاف الشيطان بتولي المجادل إياه مقتضى المقام لا العكس وأنه لو جعلت من في ﴿من تولاه﴾ موصولة كما هو الظاهر لزم أن لا يتولاه غير المجادل وهذا الحصر يفوت المبالغة.

وفي البحر الظاهر أن الضمير في ﴿عليه﴾ عائد على من لأنه المحدث عنه، وفي أنه وتولاه وفي فإنه عائد عليه أيضاً والفاعل بتولي ضمير من وكذا الهاء في يضله، ويجوز أن يكون الهاء في أنه على هذا الوجد ضمير الشأن والمعنى أن هذا المجادل لكثرة جداله بالباطل واتباعه الشيطان صار إماماً في الضلال لمن يتولاه فشأنه أن يضل من يتولاه انتهى. وعليه تكون جملة كتب الخ مستأنفة لا صفة لشيطان، والأظهر جعل ضمير ﴿عليه﴾ عائداً على الشيطان وهو المروي عن قتادة، وأياً ما كان فكتب بمعنى مضى وقدر ويجوز أن يكون على ظاهره، وفي الكشاف أن الكتبة عليه مثل أي كأنما كتب عليه ذلك لظهوره في حاله، ولا يخفى ما في ﴿يهديه﴾ من الاستعارة التمثيلية التهكمية.

وقرىء «كَتَبَ» مبنياً للفاعل أي كتب الله. وقرىء «فإنه» بكسر الهمزة فالجملة خبر من أو جواب لها، وقرأ الأعمش والجعفي عن أبي عمرو «إنه» «فإنّه» بكسر الهمزة فيهما ووجه الكسر في الثانية ظاهر، وأما وجهه في الأولى فهو كما استظهر أبو حيان إسناد ﴿كتب﴾ إلى الجملة إسناداً لفظياً أي كتب عليه هذا الكلام كما تقول كتبت أن الله تعالى يأمر بالعدل والإحسان أو تقدير قول وجعل الجملة معمولة له أو تضمين الفعل معنى ذلك أي كتب عليه مقولاً في شأنه أنه من تولاه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيبٍ مِنَ البَعثِ﴾ الخ إقامة للحجة التي تلقم المجادلين في البعث حجراً إثر الإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهم، واستظهر أن المراد بالناس هنا الكفرة المجادلون المنكرون للبعث، والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب أي الشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه، وإما الجزم بعدم الإمكان فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفاً مشكوك الوقوع، وإما للتنبيه على أن جرمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإمكان ونهاية قوتها. وإنما لم يقل وإن ارتبتم في البعث للمبالغة في تنزيه أمره عن شائبة وقوع الريب والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلّته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة للريب، واستظهر أن المراد في ريب من إمكان البعث لأنه الذي يقتضيه ما بعد، وجوز أن يكون المراد من وقوع البعث، واعترض بأن الدليل المشار إليه فيما بعد إنما يدل على الإمكان مع ما يلزم من التكرار مع قوله تعالى الآتي ﴿أن الله يبعث من في القبور﴾ وفيه تأمل فتأمل، وقرأ الحسن «من البَعَثِ» بفتح العين وهي لغة فيه كالجلب والطرد في الجلب والطرد عند البصريين، وعند الكوفيين إسكان العين تخفيف وهو قياسي في كل ما وسطه حرف حلق كالنهر والنهر والشعر والشعر.

وقوله تعالى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ دليل جواب الشرط أو هو الجواب بتأويل أي وإن كنتم في ريب من البعث فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإنا خلقناكم الخ، وقيل: التقدير فأخبركم وأعلمكم أنا خلقناكم الخ وليس بذاك، وخلقهم من تراب في ضمن خلق آدم عليه السلام منه أو بخلق الأغذية التي يتكون منها المني منه وهي وإن تكونت من سائر العناصر معه إلا أنه أعظم الأجزاء على ما قيل فلذلك خصه بالذكر من بينها، واختير الأول وجعل

المعنى خلقناكم خلقاً إجمالياً من تراب ﴿ثم﴾ خلقناكم خلقاً تفصيلياً ﴿من نطفة﴾ أي مني من النطف بمعنى التقاطر، وقال الراغب: النطفة الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل، قيل والتخصيص على هذا مع أن الخلق من ماءين لأن معظم أجزاء الإنسان مخلوق من ماء الرجل، والحق أن النطفة كما يعبر بها عن مني الرجل يعبر بها عن المني مطلقاً وكلام الراغب ليس نصاً في نفي ذلك، والظاهر أن المراد النطفة التي يخلق منها كل واحد بلا واسطة، وقيل: المراد نطفة آدم عليه السلام وحكي ذلك عن النقاش وهو من البعد في غايته.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي قطعة من الدم جامدة متكونة من المني ﴿ثم من مضغة﴾ أي قطعة من اللحم متكونة من العلقة وأصلها قطعة لحم بقدر ما يمضع ﴿مخلقة﴾ بالجر صفة ﴿مضغة﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿وغير مخلقة﴾.

وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب فيهما على الحال من النكرة المتقدمة وهو قليل وقاسه سيبويه، والمشهور المتبادر أن المخلقة المستبينة الخلق أي مضغة مستبينة الخلق مصورة ومضغة لم يستبن خلقها وصورتها بعد، والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً وكان مقتضى الترتيب المبني على التدرج من المبادىء البعيدة إلى القريبة أن يقدم غير المخلقة وإنما أخرت لكونها عدم ملكة، وصيغة التفعيل لكثرة الأعضاء المختص كل منها بخلق وصورة، وقيل: المخلقة المسوأة الملساء من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود سواه وملسه وصخرة خلقاء أي ملساء وجبل أخلق أي أملس، فالمعنى من نطفة مسواة لا نقص فيها ولا عيب في ابتداء خلقها ونطفة غير مسواة فيها عيب فالنطف التي يخلق منها الإنسان متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم، وعن مجاهد وقتادة والشعبي وأبي العالية وعكرمة أن المخلقة التي تم لها مدة الحمل وتوارد عليها خلق بعد خلق وغير المخلقة التي لم يتم لها ذلك وسقطت، واستدل له بما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك الأرحام بكفه فقال: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفها الرحم دماً وإن قيل: مخلقة قال: يا رب ذكر أم أنثى شقي أم سعيد ما الأجل وما الأثر وما الرزق، وبأي أرض تموت؟ الخبر وهو في حكم المرفوع، والمراد أنهم خلقوا من جنس هذه النطفة الموصوفة بالتامة والساقطة لا أنهم خلقوا من نطفة تامة ومن نطفة ساقطة إذ لا يتصور الخلق من النطفة الساقطة وهو ظاهر، وكأن التعرض على هذا لوصفها بما ذكر لتعظيم شأن القدرة وفي جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لا لخلق ما بعدها من المراتب كما في قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الآية مزيد دلالة على عظم قدرته تعالى ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلق بخلقنا، وترك المفعول لتفخيمه كما وكيفما أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم ما لا يحصره العبارة من الحقائق والدقائق التي من جملتها أمر البعث فإن من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي جزم بأن من قدر على خلق البشر أولاً من تراب لم يذق ماء الحياة قط وإنشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصريفه في أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال مع ما بين تلك الاطوار والأحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته بل هي أهون في القياس، وقدر بعضهم المفعول خاصاً أي لنبين لكم أمر البعث وليس بذاك.

وأبعد جداً من زعم أن المعنى لنبين لكم أن التخليق اختيار من الفاعل المختار ولولا ذلك ما صار بعض أفراد المضغة غير مخلق، وقرأ ابن أبي عبلة «ليبين» بالباء على طريق الالتفات وكذا قرأ قوله تعالى:

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ وقرأ الجمهور بالنون، والجملة استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وتوارد الأطوار عليهم أي ونقر في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو وقت الوضع وأدناه ستة أشهر وأقصاه عندنا سنتان وعند الشافعي عليه الرحمة أربع سنين، وعن يعقوب أنه قرأ «ونَقَرُّ» بفتح النون وضم القاف من قررت الماء إذا صببته، وقرأ يحيى بن وثاب ما نشاء بكسر النون.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ أي من الأرحام بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمى ﴿طِفْلًا﴾ حال من ضمير المخاطبين، والأفراد إما باعتبار كل واحد منهم أو بإرادة الجنس الصادق على الكثير أو لأنه مصدر فيستوي فيه الواحد وغيره كما قال المبرد أو لأن المراد طفلاً طفلاً فاختصر كما نقله الجلال السيوطي في الأشباه النحوية.

وقرأ عمر بن شبة «يخرجكم» بالياء ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي كمالكم في القوة والعقل والتمييز، وفي القاموس حتى يبلغ أشده ويضم أوله أي قوته وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين واحد جاء على بناء الجمع كأنك ولا نظير لهما أو جمع لا واحد له من لفظه أو واحده شدة بالكسر مع أن فعلة لا تجمع على أفعل أي قياساً فلا يرد نعمة وأنعم أو شد ككلب وأكلب أو شد كذئب وأذؤب وما هما بمسموعين بل قياس و ﴿لتبلغوا﴾، قال العلامة أبو السعود: علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا الخ، وقيل علة المحذوف والتقدير ثم نمهلكم لتبلغوا الخ.

وجوز العلامة الطيبي أن يكون التقدير ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ كان ذلك الإقرار والإخراج؛ وقيل إنه عطف على نبين، وتعقبه العلامة بأنه مخل بجزالة النظم الكريم وجعله كغيره عطفاً عليه على قراءة ﴿نقر﴾. ونخرج بالنصب وهي قراءة المفضل وأبي حاتم إلا أن الأول قرأ بالنون والثاني قرأ بالياء، وكذا جعل الفعلين عطفاً عليه وقال: المعنى خلقناكم على التدريج المذكور لأمرين، أحدهما أن نبين شؤوننا، والثاني أن نقركم في الأرحام ثم نخرجكم صغاراً ثم لتبلغوا أشدكم، وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات، وإعادة اللام في ﴿لتبلغوا﴾ مع تجريد نقر «ونخرج» عنها للإشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج إذ عليه يدور التكليف المؤدي إلى السعادة والشقاوة، وإيثار البلوغ مسنداً إلى المخاطبين على التبليغ مسنداً إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئية الآثار والأفعال اهـ.

وما ذكره من عطف و ﴿ونقر﴾ و ﴿نخرج﴾ بالنصب على ﴿نبين﴾ لم يرتضه الشيخ ابن الحاجب، قال في شرح المفصل: إنه مما يتعذر فيه النصب إذ لو نصب عطفاً على ﴿نبين﴾ ضعف المعنى إذا اللام في لنبين للتعليل لما تقدم والمقدم سبب للتبيين فلو عطف ﴿ونقر﴾ عليه لكان داخلاً في مسببية ﴿إنا خلقناكم﴾ الخ وخلقهم من تراب ثم ما تلاه لا يصلح سبباً للإقرار في الأرحام، و قال الزجاج: لا يجوز في ﴿ونقر﴾ إلا الرفع ولا يجوز أن يكون معناه فعلنا ذلك لنقر في الأرحام لأن الله تعالى لم يخلق الأنام ليقرهم في الأرحام وإنما خلقهم ليدلهم على رشدهم وصلاحهم وهو قول بعدم جواز عطفه على نبين.

وأجيب بأن الغرض في الحقيقة هو بلوغ الأشد والصلوح للتكليف لكن لما كان الإقرار وما تلاه من مقدماته صح إدخاله في التعليل، وما ذكره من أن العطف على نبين على قراءة الرفع مخل بجزالة النظم الكريم فالظاهر أنه تعريض بالزمخشري حيث جعل العطف على ذلك وقال فإن قلت: كيف يصح عطف ﴿لتبلغوا أشدكم﴾ على ﴿لنبين﴾ ولا طباق قلت الطباق حاصل لأن قوله تعالى: ﴿ونقر﴾ قرين للتعليل ومقارنته له والتباسه به ينزلانه منزلة نفسه فهو راجع من هذه الجهة إلى متانة القراءة بالنصب اهـ. وفيه ما يومىء إلى أن قراءة النصب أوضح كما أنها أمتن،

ولم يرتض ذلك المحققون ففي الكشف أن القراءة بالرفع هي المشهورة الثابتة في السبع وهي الأولى وقد أصيب بتركيبها هكذا شاكلة الرمي حتى لم يجعل الإقرار في الأرحام علة بل جعل الغرض منه بلوغ الأشد وهو حال الاستكمال علماً وعملاً وحيث لم يعطف على ﴿لنبين﴾ إلا بعد أن قدم عليه ﴿ونقر﴾ ثم نخرج مجعولاً ﴿نقر﴾ عطفاً على ﴿إنا خلقناكم﴾ والعدول إلى المضارع لتطوير الحال والدلالة على زيادة الاختصاص فالطباق حاصل لفظاً ومعنى مع أن في الفصل بين العلتين من النكتة ما لا يخفى على ذي لب حسن موقعها بعد التأمل، وكذلك في الإتيان بثم في قوله سبحانه: ﴿ثم لتبلغوا﴾ دلالة على أنه الغرض الأصيل الذي خلق الإنسان له ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] ولما كانت الأوائل في الدلالة على البعث أظهر قدم قوله تعالى: ﴿لنبين﴾ على الإقرار والإخراج اهـ.

ويعلم منه ما في قول العلامة: إن عطف «لتبلغوا» الخ على «النبين» مخل بجزالة النظم الكريم وأنه لا يتعين الاستئناف في ﴿ونقر﴾ وفيه أيضاً أن قوله تعالى: ﴿وَمِنكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ الخ استئناف لبيان أقسام الإخراج من الرحم كما استوفى أقسام الأول وفيه تبيين تفضيل حال بلوغ الأشد وأنها الحقيق بأن تكون مقصودة من الإنشاء لكن منهم من لا يصل إليها فيحتضر ومنهم من يجاوزها فيحتقر أي منكم من يموت قبل بلوغ الأشد ﴿وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي أرداه وأدناه، والمراد يرد إلى مثل زمن الطفولية ﴿لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ أي علم كثير ﴿شَيْئًا﴾ أي شيئاً من الأشياء أو شيئاً من العلم، واللام متعلقة بيرد وهي لام العاقبة والمراد المبالغة في انتقاص علمه وانتكاس حاله وليس لزمان ذلك الرد حد محدود بل هو مختلف باختلاف الأمزجة على ما في البحر وإيراد الرد والتوفي على صيغة المبني للمفعول للجري على سنن الكبرياء لتعين الفاعل كما في إرشاد العقل السليم، وفي شرح الكشاف للطيبي بعد تجويز أن يكون ﴿ثم لتبلغوا﴾ بتقدير ﴿ثم لتبلغوا﴾ كان ذلك الإقرار والإخراج أن فائدة ذلك الإيذان بأن بلوغ الأشد أفضل الأحوال والإخراج أبدعها والرد إلى أرذل العمر أسوؤها وتغيير العبارة لذلك ومن ثم نسب الإخراج إلى ذاته تعالى المقدسة وحذف المعلل في الثاني ولم ينسب الثالث إلى فاعله وسلب فيه ما أثبت للإنسان في تلك الحالة من اتصافه بالعلم والقدرة المومىء إليه بالأشد كأنه قيل ثم يخرجكم من تلك الأطوار الخسيسة طفلاً إنشاء غريباً كما قال سبحانه: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٤] ثم لتبلغوا أشدكم دبر ذلك التدبير العجيب لأنه أوان رسوخ العلم والمعرفة والتمكن من العمل المقصودين من الإنشاء ثم يميتكم أو يردكم إلى أرذل العمر الذي يسلب فيه العلم والقدرة على العمل اهـ.

ويفهم منه جواز أن يكون المراد ومنكم من يتوفى بعد بلوغ الأشد، ومن الناس من جوز أن يكون المراد ومنكم من يتوفى عند البلوغ، وقيل: إن ذلك يجعل الجملة حالية ومن صيغة المضارع وهو كما ترى. وقرىء «يَتَوَفَّى» على صيغة المعلوم وفاعله ضمير الله تعالى أي من يتوفاه الله تعالى، وجوز أن يكون ضمير من أي «من» يستوفي مدة عمره، وروي عن أبي عمرو ونافع تسكين ميم العمر، هذا ثم لا يخفى ما في اختلاف أحوال الانسان بعد الإخراج من الرحم من التنبيه على صحة البعث كما في اختلافها قبل فتأمل جميع ما ذكر ولله تعالى در التنزيل ما أكثر احتمالاته ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجة أخرى على صحة البعث معطوفة على ﴿إنا خلقناكم﴾ وهي حجة آفاقية وما تقدم حجة أنفسية والخطاب لكل أحد من تتأتى منه الرؤية، وقيل: للمجادل، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهي بصرية لا علمية كما قيل، و﴿هامدة﴾ حال من ﴿الأرض﴾ أي ميتة يابسة يقال همدت الأرض إذا يبست ودرست وهمد الثوب إذا بلي؛ وقال الأعشى:

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً وأرى ثيابك باليات همّدا

وأصله من همدت النار إذا صارت رماداً ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي ماء، المطر، وقيل: ما يعمه وماء العيون والأنهار وظاهر الإنزال يقتضي الأول ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحرك نباتها فالإسناد مجازي أو تخلخلت وانفصل بعض أجزائها عن بعض لأجل خروج النبات وحمل الاهتزاز على الحركة في الكيف بعيد ﴿وَرَبَتْ﴾ ازدادات وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات.

وقرأ أبو جعفر وعبد الله بن جعفر وخالد بن الياس وأبو عمرو في رواية «وربأت» بالهمز أي ارتفعت يقال فلان يربأ بنفسه عن كذا أي يرتفع بها عنه، وقال ابن عطية: هو من ربأت القوم إذا علوت شرفاً من الأرض طليعة عليهم فكأن الأرض بالماء تتطاول وتعلو ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن سار للناظر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ كلام مستأنف جيء به إثر تحقيق حقية البعث وإقامة البرهان عليه على أتم وجه لبيان أن ما ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة وتصريفه في أحوال متباينة وإحياء الأرض بعد موتها الكاشف عن حقية ذلك من آثار ألوهيته تعالى وأحكام شؤونه الذاتية والوصفية والفعلية وأن ما ينكرونه من إتيان الساعة والبعث من أسباب تلك الآثار العجيبة المعلومة لهم ومبادىء صدورها عنه تعالى، وفيه من الإيذان بقوة الدليل وأصالة المدلول في التحقق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى فإن إنكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضي ببطلانه بديهة العقول فذلك إشارة إلى خلق الإنسان على أطوار مختلفة وما معه والإفراد باعتبار المذكور وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الكمال وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور، والمراد بالحق هو الثابت الذي يحق ثبوته لا محالة لكونه لذاته لا الثابت مطلقاً فوجه الحصر ظاهر أي ما ذكر من الصنع البديع حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله المحقق لما سواه من الأشياء ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي شأنه وعادته تعالى إحياء الموتى، وحاصله أنه تعالى قادر على إحيائها بدءاً وإعادة وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مرة بعد مرة وما تفيده صيغة المضارع من التجدد إنما هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها لا باعتبار نفسها لأن القدم الشخصي ينافي ذلك. ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في القدرة وإلا لما أوجد هذه الموجودات الفائتة للحصر التي من جملتها ما ذكر، وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الاشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع في نحور المنكرين، وتقديمه لإبراز الاعتناء به ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أي فيما سيأتي، والتعبير بذلك دون الفعل للدلالة على تحقق إتيانها وتقرر البتة لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة، وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إما خبر ثان لأن أو حال من ضمير ﴿الساعة﴾ في الخبر، ومعنى نفي الريب عنها أنها في ظهور أمرها ووضوح دلائلها بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب في إتيانها.

وأن وما بعدها في تأويل مصدر عطف على المصدر المجرور بياء السببية داخل معه في حيزها كالمصدرين الحاصلين من قوله تعالى: ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ وقوله سبحانه: ﴿وأنه على كل شيء قدير﴾ وكذا قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ لكن لا من حيث إن إتيان الساعة وبعث من في القبور مؤثر أن فيما ذكر من أفاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل من حيث إن كلاً منهما بسبب داع له عز وجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة إلى ما ذكر من خلقهم ومن إحياء الأرض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على إمكانهما ليتأملوا في ذلك ويستدلوا به عليه أو على وقوعهما ويصدقوا بذلك لينالوا السعادة الأبدية ولولا ذلك لما فعل بل لما خلق العالم رأساً، وهذا كما ترى من أحكام حقيته تعالى في أفعاله وابتنائها على الحكم الباهرة كما أن ما قبله من أحكام حقيته تعالى في صفاته وكونها في غاية الكمال؛ هذا ما اختاره العلامة أبو السعود في تفسير ذلك وهو مما يميل اليه الطبع

السليم، وجعل صاحب الكشاف الإشارة إلى ما ذكر أيضاً إلا أنه بحسب الظاهر جعل إتيان الساعة وبعث من في القبور حيث إن ذلك من روادف الحكمة كناية عنها فكأن الأصل ذلك حاصل بسبب أن الله تعالى هو الحق الثابت الموجود وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وأنه حكيم فاكتفى بمقتضى الحكمة عن الوصف بالحكمة لما في الكناية من النكتة خصوصاً والكلام مع منكري البعث للدفع في نحورهم ولا يخلو عن بعد، ونقل النيسابوري عبارة الكشاف واعترضها بما لا يخفى رده وأبدى وجهاً في الآية ذكر أنه مما لم يخطر لغيره ورجا أن يكون صواباً وهو مع اقتضائه حمل الباء على ما يعم السببية الفاعلية والسببية الغائية مما لا يخفى ما فيه، وقيل: ذلك إشارة إلى ما ذكر إلا أن قوله تعالى: **﴿وأن الساعة آتية﴾** الخ ليس معطوفاً على المجرور بالباء ولا داخلاً في حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير والأمر أن الساعة آتية الخ، وعليه اقتصر أبو حيان وفيه قطع للكلام عن الانتظام، وقيل: ذلك إشارة إلى ما ذكر إلا أن الباء صلة لكون خاص وليست سببية مشعر بأن الله هو الحق الخ، وفيه أنه لا قرينة على هذا الكون الخاص وقيل: المعنى ذلك ليعلموا أن الله هو الحق الخ، وفيه تلويح ما إلى معنى الحديث القدسي المشهور على الألسنة وفي كتب الصوفية وإن لم يثبت عند المحدثين وهو «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» وهو كما ترى، وقيل: الإشارة إلى البعث المستدل عليه بما سبق واستظهره بعضهم، ولا يخفى عليك ما يحتاج إليه من التكلف، ونقل في البحر أن ذلك منصوب بفعل مضمر أي فعلنا ذلك بأن الخ. وأبو علي اقتصر على القول بأنه مرفوع على الابتداء والجار والمجرور خبره؛ وقال: لا يجوز غير ذلك وكأنه عنى بالغير ما ذكر، وما نقله العكبري من أنه خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك والحق الجواز إلا أنه خلاف الظاهر جداً، ثم إن المراد من الساعة قيل يوم القيامة المشتمل على النشر والحشر وغيرهما، وقال سعدي جلبي: المراد بها هنا فناء العالم بالكلية لئلا تتكرر مع البعث، وقول الطيبي: إن سبيل قوله تعالى **﴿أن الساعة آتية﴾** من قوله سبحانه: **﴿أن الله يبعث من في القبور﴾** سبيل قوله جل وعلا: **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** من قوله عز وجل: **﴿وأنه يحيي الموتى﴾** لكن قدم وأخر لرعاية الفواصل ظاهر في الأول، هذا وفي الإتقان للجلال السيوطي أن الإسلاميين من أهل المنطق ذكروا أن في أول سورة الحج إلى قوله تعالى: **﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾** خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات ثم بين ذلك بما يقضي منه العجب ويدل على قصور باعه في ذلك العلم، وقد يقال في بيان ذلك: إن النتائج الخمس هي الجمل المتعاطفة الداخلة في حيز الباء، واستنتاج الأولى بأنه لو لم يكن الله سبحانه هو الحق أي الواجب الوجود لذاته لما شوهد بعض الممكنات من الإنسان والنبات وغيرها والتالي باطل ضرورة فالله تعالى هو الحق، ودليل الملازمة برهان التمانع، واستنتاج الثانية بأنه لو لم يكن سبحانه قادراً على إحياء الموتى لما طور الإنسان في أطوار مختلفة حتى جعله حياً وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها والتالي باطل ضرورة أن الخصم لا ينكر أنه تعالى أحيا الإنسان وأحيا الأرض فالله تعالى قادر على إحياء الموتى ووجه الملازمة ظاهر. واستنتاج الثالثة بأنه إذا كان الله تعالى قادراً على إحياء الموتى فهو سبحانه على كل شيء قدير لكنه تعالى قادر على إحياء الموتى فهو على كل شيء قدير، ووجه الملازمة أن المراد من الشيء الممكن وإحياء الموتى ممكن والقدرة على بعض الممكنات دون بعض تنافي وجوب وجوده تعالى الذاتي؛ وأيضاً إحياء الموتى أصعب الأمور عند الخصم المجادل حتى زعم أنه من الممتنعات فإذا ثبت أنه سبحانه قادر عليه بما سبق ثبت أنه تعالى قادر على سائر الممكنات بالطريق الأولى. واستنتاج الرابعة بأن الساعة أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه وكل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه فهو آت فالساعة آتية إما أن الساعة أمر ممكن فلأنه لا يلزم من فرض وقوعها محال وإما أنها وعد الصادق بإتيانها فللآيات القرآنية المتحدى بها وإما أن كل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه فهو آت فلاستحالة الكذب واستنتاج الخامسة بنحو ذلك ولا يتعين استنتاج

كل بما ذكر بل يمكن بغير ذلك واختياره لتسارعه إلى الذهن، وربما يقتصر على ثلاث من هذه الخمس بناء على ما علمت بين قوله تعالى: **﴿وأنه يحيي الموتى﴾** وقوله تعالى: **﴿وأنه على كل شيء قدير﴾** وكذا بين قوله سبحانه **﴿وأن الساعة آتية﴾** وقوله سبحانه: **﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾** ويعد من الخمس قوله تعالى: **﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾** واستنتاجها بأن يقال: زلزلة الساعة تذهل كل مرضعة عما أرضعت وكل ما هذا شأنه فهو شيء عظيم فزلزلة الساعة شيء عظيم، والتقوى واجبة عليكم المدلول عليه بقوله تعالى: **﴿اتقوا ربكم﴾** واستنتاجه بأن يقال: التقوى يندفع بها ضرر الساعة وكل ما يندفع به الضرر واجب عليكم فالتقوى واجبة عليكم، ولا يخفى أن ما ذكر أولاً أولى إلاأنه لو كان مرادهم لكان الظاهر أن يقولوا: إن في قوله تعالى: **﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾** إلى قوله سبحانه و **﴿أن الله يبعث من في القبور﴾** خمس نتائج دون أن يقولوا: إن في أول سورة الحج إلى آخره ويناسب هذا القول ما ذكر ثانياً إلا أنه يرد عليه أن المتبادر من كلامهم كون كل من النتائج مذكوراً صريحاً، ولا شك أن التقوى واجبة عليكم ليس مذكوراً كذلك وإنما المذكور ما يدل عليه في الجملة وهو أيضاً ليس بقضية كما لا يخفى، وقد تكلف بعض الناس لبيان ذلك غير ما ذكرنا رأينا ترك ذكره أولى فتأمل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت على ما روي عن محمد بن كعب في الأخنس بن شريق؛ وعلى ما روي عن ابن عباس في أبي جهل، وعلى ما ذهب إليه جمع في النضر كالآية السابقة فإذا اتحد المجادل في الآيتين فالتكرار مبالغة في الذم أو لكون كل من الآيتين مشتملة على زيادة ليست في الأخرى، وقال ابن عطية: كررت الآية على جهة التوبيخ فكأنه قيل هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل إلى آخره فالواو هنا واو الحال وفي الآية المتقدمة واو العطف عطفت جملة الكلام على ما قبلها على معنى الأخبار لا للتوبيخ انتهى، وهو كما ترى. وفي الكشف أن الأظهر في النظم والأوفق للمقام كون هذه الآية في المقلدين بفتح اللام وتلك في المقلدين بكسر اللام فالواو للعطف على الآية الأولى، والمراد بالعلم الضروري كما أن المراد بالهدي في قوله تعالى: **﴿وَلاَ هُدىً﴾** الاستدلال والنظر الصحيح الهادي إلى المعرفة **﴿وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾** وحي مظهر للحق أي يجادل في شأنه تعالى شأنه من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة ولا ببرهان سمعي.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ حال من ضمير «يجادل» كالجار والمجرور السابق أي لا ويا لجانبه وهوكناية عن عدم قبوله، وهو مراد ابن عباس بقوله متكبراً والضحاك بقوله شامخاً بأنفه وابن جريج بقوله معرضاً عن الحق.

وقرأ الحسن «عَطْفِهِ» بفتح العين أي مانعاً لتعطفه وترحمه **﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾** متعلق بيجادل علة له فإن غرضه من الجدال الإضلال عن سبيله تعالى وإن لم يعترف بأنه إضلال، وجوز أبو البقاء تعلقه بثاني وليس بذاك، والمراد بالإضلال إما الإخراج من الهدى إلى الضلال فالمفعول من يجادله من المؤمنين أو الناس جميعاً بتغليب المؤمنين على غيرهم وأما التثبيت على الضلال أو الزيادة عليه مجازاً فالمفعول هم الكفرة خاصة.

وقرأ مجاهد وأهل مكة وأبو عمرو في رواية «لِيَضِل» بفتح الياء أي ليضل في نفسه؛ والتعبير بصيغة المضارع مع أنه لم يكن مهتدياً لجعل تمكنه من الهدى كالهدى لكونه هدى بالقوة، يجوز أن يراد ليستمر على الضلال أو ليزيد ضلاله، وقيل: إن ذلك لجعل ضلاله الأول كالاضلال، وأياً ما كان فاللام للعاقبة **﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾** جملة مستأنفة لبيان نتيجة ما سلكه من الطريق، وجوز أبو البقاء أن تكون حالاً مقدرة أو مقارنة على معنى استحقاق ذلك والأول أظهر أي ثابت له في الدنيا بسبب ما فعله ذل وهوان، والمراد به عند القائلين بأن هذا المجادل النضر أو أبو

جهل ما أصابه يوم بدر، ومن عمم. وهو الأولى. حمله على ذم المؤمنين إياه وإفحامهم له عند البحث وعدم إدلائه بحجة أصلاً أو على هذا مع ما يناله من النكال كالقتل لكن بالنسبة إلى بعض الأفراد.

﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي النار البالغة في الإحراق، والإضافة على ما قيل من إضافة المسبب إلى السبب، وفسر الحريق أيضاً بطبقة من طباق جهنم، وجوز أن تكون الإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة والمراد العذاب الحريق أي المحرق جداً، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه تعالى «وأذيقه» بهمزة المتكلم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من ثبوت الخزي له في الدنيا وإذاقة عذاب الحريق في الأخرى، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه في الغاية القاصية من الهول والفظاعة، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي بسبب ما اكتسبته من الكفر والمعاصي، وإسناده إلى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدي، وجوز أن يكون ذلك خبراً لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك وأن يكون مفعولاً لفعل محذوف أي فعلنا ذلك الخ وهو خلاف الظاهر، والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب، وجوز أن تكون في محل نصب مفعولة لقول محذوف وقع حالاً أي قائلين أو مقولاً له ذلك الخ، وعلى الأول يكون في الكلام التفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الظاهر أنه عطف على ما وبه قال بعضهم، وفائدته الدلالة على أن سببية ما اقترفوا من الذنوب لعذابهم مقيدة بانضمام انتفاء ظلمه تعالى إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ما اقترفوه إلا أن لا يعذبهم بما اقترفوا، وحاصله أن تعذيب العصاة يحتمل أن يكون لذنوبهم ويحتمل أن يكون لمجرد إرادة عذابهم من غير ذنب فجيء بهذا لرفع الاحتمال الثاني وتعيين الأول للسببية لا لرفع احتمال أن لا يعذبهم بذنوبهم لأنه جائز بل بعض الآيات تدل على وقوعه في حق بعض العصاة، ومرجع ذلك في الآخرة إلى تقريع الكفر وتبكيتهم بأنه لا سبب للعذاب إلا من قبلهم كأنه قيل: إن ذلك العذاب إنما نشأ من ذنوبكم التي اكتسبتموها لا من شيء آخر.

واختار العلامة أبو السعود أن محل أن وما بعدها الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده من غير ذنب من قبلهم، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها، وقال في العطف: للدلالة على أن سببية الخ أنه ليس بسديد لما أن إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافي كون تعذيب هؤلا الكفرة المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه، نعم لو كان المدعي كون جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج إلى ذلك انتهى. وتعقب قوله: إن إمكان الخ بأن الكلام ليس في منافاة ذينك الأمرين بحسب ذاتهما بل في منافاة احتمال التعذيب بلا ذنب لتعين سببية الذنوب له وقوله نعم لو كان المدعي الخ بأن الاحتياج إلى ذلك القيد في كل من الصورتين إنما هو لتقريع المذنبين بأنه لا سبب لتعذيبهم إلا من قبلهم فالقول بالاحتياج في صورة الجميع وبعدمه في صورة الخصوصية ركيك جداً، وتعقب أيضاً بغير ذلك، والقول بالاعتراض وإن كان لا يخلو عن بعد أبعد عن الاعتراض، والتعبير عن نفي تعذيبه تعالى لعبيده من غير ذنب، بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم، وقيل: هي لرعاية جمعية العبيد فتكون للمبالغة كمّا لا كيفا. واعترض بأن نفي المبالغة كفيما كانت توهم المحال، وقيل: ويجوز أن تعتبر المبالغة بعد النفي فيكون ذلك مبالغة في النفي لا نفياً للمبالغة، واعترض بأن ذلك ليس مثل القيد المنفصل الذي يجوز اعتبار تأخره وتقدمه كما قالوه في القيود الواقعة مع النفي، وجعله قيداً في التقدير لأنه بمعنى

ليس بذي ظلم عظيم أو كثير تكلف لا نظير له، وقيل: إن ظلاماً للنسبية أي ليس بذي ظلم ولا يختص ذلك بصيغة فاعل فقد جاء «وليست بذي رمح ولست بنبال» وقيل غير ذلك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ شروع في حال المذبذبين أي ومنهم من يعبده تعالى كائناً على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذي يكون في طرف الجيش فإن أحس بظفر قر وإلا فر ففي الكلام استعارة تمثيلية، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ الخ تفسير لذلك وبيان لوجه الشبه، والمراد من الخير الخير الدنيوني كالرخاء والعافية والولد أي إن أصابه ما يشتهي ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يزحزحهم عاصف ولا يثنيهم عاصف ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي شيء يفتن به من مكروه يعتريه في نفسه وأهله أو ماله ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي مستولياً على الجهة التي يواجهها غير ملتفت يميناً وشمالاً ولا مبال بما يستقبله من حرار وجبال، وهو معنى قوله في الكشاف: طار على وجهه وجعله في الكشف كناية عن الهزيمة، وقيل هو ها هنا عبارة عن القلق لأنه في مقابلة اطمأن، وأياً ما كان فالمراد ارتد رجع عن دينه إلى الكفر.

أخرج البخاري وابن أبي حاتم. وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: كان الرجل يقدم المدينة فإذا ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء. وأخرج ابن مردويه عن ابي سعيد قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم من الإسلام فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني فقال عليه الصلاة والسلام: إن الإسلام لا يقال فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي فقال ﷺ: يا يهودي الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية، وضعف هذا ابن حجر، وقيل: نزلت في شيبة ابن ربيعة أسلم قبل ظهوره عليه الصلاة والسلام وارتد بعد ظهوره وروي ذلك عن ابن عباس، وعن الحسن أنها نزلت في المنافقين ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ جملة مستأنفة أو بدل من «انقلب» كما قال أبو الفضل الرازي أو حال من فاعله بتقدير قد أو بدونها كما هو رأي ابي حيان، والمعنى فقد الدنيا والآخرة وضيعهما حيث فاته ما يسره فيهما.

وقرأ مجاهد وحميد والأعرج وابن محيصن من طريق الزعفراني وقعنب والجحدري وابن مقسم «خاسر» بزنة فاعل منصوباً على الحال لأن إضافته لفظية، وقرىء «خاسر» بالرفع على أنه فاعل «انقلب» وفيه وضع الظاهر موضع المضمر ليفيد تعليل انقلابه بخسرانه، وقيل: إنه من التجريد ففيه مبالغة، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو خاسر، والجملة واردة على الذم والشتم ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الخسران، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه في غاية ما يكون، وقيل إن أداة البعد لكون المشار إليه غير مذكور صريحاً ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي الواضح كونه خسراناً لا غير ﴿يَدْعُو من دُونِ اللهِ﴾ قيل استئناف ناع عليه بعض قبائحه، وقيل استئناف مبين لعظم الخسران، ويجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿انقلب﴾ وما تقدمه اعتراض، وأياً ما كان فهو يبعد كون الآية في أحد من اليهود لأنهم لا يدعون الأصنام وأن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

والظاهر أن المدعو الأصنام لمكان ما في قوله تعالى: ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ﴾ والمراد بالدعاء العبادة أي يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى ما لا يضره إن لم يعبده وما لا ينفعه إذا عبده، وجوز أن يراد بالدعاء النداء أي ينادي لأجل تخليصه مما أصابه من الفتنة جماداً ليس من شأنه الضر والنفع، ويلوح بكون المراد جماداً كذلك كما في إرشاد العقل السليم تكرير كلمة ما ﴿ذَلِكَ﴾ أي الدعاء ﴿وهُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ عن الحق والهدى مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق.

﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ استئناف يبين مآل دعائه وعبادته غير الله تعالى ويقرر كون ذلك ضلالاً بعيداً مع إزاحة ما عسى أن يتوهم من نفي الضرر عن معبوده بطريق المباشرة ونفيه عنه بطريق التسبب أيضاً فالدعاء هنا بمعنى القول كما في قول عنترة:

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم

واللام داخلة في الجملة الواقعة مقولاً له وهي لام الابتداء ومن مبتدأ و **﴿ضره أقرب﴾** مبتدأ وخبر والجملة صلة له، وقوله تعالى: **﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾** جواب قسم مقدر واللام فيه جوابية وجملة القسم وجوابه خبر **﴿من﴾** أي يقول الكافر يوم القيامة برفع صوت وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثراً مما كان يتوقعه منه من النفع لمن ضره أقرب تحققاً من نفعه: والله لبئس الذي يتخذ ناصراً ولبئس الذي يعاشر ويخالط فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية، وفي هذا من المبالغة في تقبيح حال الصنم والإمعان في ذمّه ما لا يخفى، وهو سر إيثار من على ما وإيراد صيغة التفضيل، وهذا الوجه من الإعراب اختاره السجاوندي والمعنى عليه مما لا إشكال فيه.

وقد ذهب إليه أيضاً جار الله، جوز أن يكون **﴿يدعو﴾** هنا إعادة ليدعو السابق تأكيداً له و تمهيداً لما بعد من بيان سوء حال معبوده إثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى: **﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾** كأنه قيل من جهته سبحانه بعد ذكر عبادة الكافر ما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً والله لبئس المولى الخ، ولا تناقض عليه أيضاً إذا الضر المنفي ما يكون بطريق المباشرة والمثبت ما يكون بطريق التسبب، وكذا النفع المنفي هو الواقعي والمثبت هو التوقعي، قيل ولهذا الإثبات عبر بمن فإن الضر والنفع من شأنهما أن يصدرا عن العقلاء، وفي إرشاد العقل السليم أن يراد كلمة من وصيغة التفضيل على تقدير أن يكون ذلك إخباراً من جهته سبحانه عن سوء حال معبود الكفرة للتهكم به. ولا مانع عندي أن يكون ذلك كما في التقدير الأول للمبالغة في تقبيح حال الصنم والإمعان في ذمه.

واعترض ابن هشام على هذا الوجه بأن فيه دعوى خلاف الأصل مرتين إذ الأصل عدم التوكيد والأصل أن لا يفصل المؤكد عن توكيده ولا سيما في التوكيد اللفظي، وقال الأخفش: إن **﴿يدعو﴾** بمعنى يقول واللام للابتداء ومن موصول مبتدأ صلته الجملة بعده وخبره محذوف تقديره إله أو إلهي، والجملة محكية بالقول. واعترض بأنه فاسد المعنى لأن هذا القول من الكافر إنما يكون في الدنيا وهو لا يعتقد فيها أن الأوثان ضرها أقرب من نفعها.

وأجيب بأن المراد إنكار قولهم بألوهية الأوثان إلا أن الله تعالى عبر عنها بما ذكر للتهكم. نعم الأولى أن يقدر الخبر مولى لأن قوله تعالى: **﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾** أدل عليه، ومع هذا لا يخفى بعد هذا الوجه، وقيل: **﴿يدعو﴾** مضمن معنى يزعم وهي ملحقة بأفعال القلوب لكون الزعم قولاً مع اعتقاد. واللام ابتدائية معلقة للفعل ومن مبتدأ وخبرها محذوف كما في الوجه السابق، والجملة في محل نصب بيدعو، وإلى هذا الوجه أشار الفارسي ولا يخفى عليك ما فيه.

وقال الفراء: إن اللام دخلت في غير موضعها والتقدير يدعو من لضره أقرب من نفعه فمن في محل نصب بيدعو. وتعقبه أبوحيان وغيره بأنه بعيد لأن ما في صلة الموصول لا يتقدم على الموصول، وقال ابن الحاجب: قيل اللام زائدة للتوكيد ومن مفعول يدعو وليس بشيء لأن اللام المفتوحة لا تزاد بين الفعل ومفعوله لكن قوي القول بالزيادة هنا بقراءة عبد الله **﴿يدعو﴾** من ضره بإسقاط اللام، وقيل **﴿يدعو﴾** بمعنى يسمي **﴿ومن﴾** مفعوله الأول

ومفعوله الثاني محذوف أي إلهاً، ولا يخفى عليك ما فيه، وقيل إن يدعو ليست عاملة فيما بعدها وإنما هي عاملة في ذلك قبلها وهو موصول بمعنى الذي، ونقل هذا عن الفارسي أيضاً، وهو على بعده لا يصح إلا على قول الكوفيين إذ يجيزون في اسم الإشارة مطلقاً أن يكون موصولاً، وأما البصريون فلا يجيزون إلا في ذا بشرط أن يتقدمها الاستفهام بما أو من، وقيل هي عاملة في ضمير محذوف راجع إلى ذلك أي دعوه، والجملة في موضع الحال والتقدير ﴿**ذلك هو الضلال البعيد**﴾ مدعواً وفيه مع بعده أن ﴿**يدعو**﴾ لا يقدر بمدعواً وإنما يقدر بداعياً والذي يقدر بمدعواً إنما هو يدعى المبني للمفعول، وقيل ﴿**يدعو**﴾ عطف على يدعو الأول وأسقط حرف العطف لقصد تعداد أحوال ذلك المذبذب واللام زائدة و ﴿**من**﴾ مفعول ﴿**يدعو**﴾ وهي واقعة على العاقل والدعاء في الموضعين إما بمعنى العبادة وإما بمعنى النداء، والمراد وما بيان حال طائفة منهم على معنى أنهم تارة يدعون ما لا يضر ولا ينفع وتارة يدعون مَن ضره أقرب من نفعه، وإما بيان حال الجنس باعتبار ما تحته على معنى أن منهم من يدعو ما لا يضر ولا ينفع ومنهم من يدعو من ضره أقرب من نفعه وهو كما ترى، وبالجملة أحسن الوجوه أولها.

﴿**إِنَّ الله يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُو وعَمِلُوا الصَّالِحَات جَنَّات تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ استئناف لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وأنه تعالى يتفضل عليهم بالنعيم الدائم إثر بيان غاية سوء حال الكفرة. وجملة ﴿**تجري**﴾ الخ صفة لجنات فإن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أي من تحت أشجارها وإن جعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل كما في إرشاد العقل السليم.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ تعليل لما قبله وتقرير بطريق التحقيق أي هو تعالى يفعل البتة كل ما يريده من الأفعال المتقنة المبنية على الحكم الرائقة التي من جملتها إثابة من آمن به وصدق برسوله ﷺ وعقاب من كفر به وكذب برسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ الله فِي الدُّنْيَا والآخرَة**﴾ الضمير في ﴿**ينصره**﴾ لرسول الله ﷺ على ما روي عن ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي واختاره الفراء والزجاج كأنه لما ذكر المجادل بالباطل وخذلانه في الدنيا لأنه لا يدلي بحجة ما ضرورية أو نظرية أو سمعية ولما يؤول إليه أمره من النكال، وفي الآخرة بما هو أطم وأطم ثم ذكر سبحانه مشايعيه وعمم خسارهم في الدارين ذكر في مقابلهم المؤمنين وأتبعه ذكر المجادل عنهم وعن دين الله تعالى بالتي هي أحسن وهو رسوله عليه الصلاة والسلام، وبالغ في كونه منصوراً بما لا مزيد عليه، واختصر الكلام دلالة على أنه ﷺ العلم الذي لا يشتبه وأن الكلام فيه وله ومعه وإن ذكر غيره بتبعية ذكره، فالمعنى أنه تعالى ناصر لرسوله ﷺ في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه وفي الآخرة بإعلاء درجته وإدخال من صدقه جنات تجري من تحتها الأنهار والانتقام ممن كذبه وإذاقته عذاب الحريق لا يصرفه سبحانه عن ذلك صارف ولا يعطفه عنه عاطف فمن كان يفيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يريده من المكائد فليبالغ في استفراغ المجهود وليتجاوز في الجد كل حد معهود فقصارى أمره خيبة مساعيه وعقم مقدماته ومباديه وبقاء ما يغيظ على حاله ودوام شجوه وبلباله، وقد وضع مقام هذا الجزاء.

قوله سبحانه ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ**﴾ الخ أي فليمدد حبلاً ﴿**إِلَى السَّمَاءِ**﴾ أي إلى سقف بيته كما أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك ﴿**ثُمَّ لِيَقْطَعْ**﴾ أي ليختنق كما فسره بذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من قطع إذا اختنق كان أصله قطع نفسه بفتحتين أو أجله ثم ترك المفعول نسياً منسياً فصار بمعنى اختنق لازم خنقه، وذكروا أن

قطع النفس كناية عن الاختناق، وقيل المعنى ليقطع الحبل بعد الاختناق على أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ تقدير النظر وتصويره وإلا فبعد الاختناق لا يتأتى منه ذلك أي فليقدر في نفسه النظر هل يذهبن كيده غيظه أو الذي يغيظه من النصر، ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه، وجوز أن يكون المأمور بالنظر غير المأمور الأول ممن يصح منه النظر، وأن يكون الكلام خارجاً مخرج التهكم كما قيل إن تسمية فعله ذلك كيداً خارجة هذا المخرج، وقال جمع: إن إطلاق الكيد على ذلك لشبهه به فإن الكائد إذا كاد أتى بغاية ما يقدر عليه وذلك الفعل غاية ما يقدر عليه ذلك العدو الحسود، ونقل عن ابن زيد أن المعنى فليمدد حبلاً إلى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي عنه ﷺ، وقيل: ليقطع المسافة حتى يبلغ عنان السماء فيجهد في دفع نصره عليه الصلاة والسلام النازل من جهتها. وتعقبه المولى أبو السعود بأنه يأباه مساق النظم الكريم بيان أن الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من إذهاب ما يغيظ، ومن البين أن لا معنى لفرض وقوع الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيما قطع الوحي فإن فرض وقوعه مخل بالمرام قطعاً، ونوقش في ذلك بما لا يخفى على الناظر، نعم المعنى السابق هو الأولى، وأياً ما كان فمن يظن ذلك هم الكفرة الحاسدون له ﷺ، وقيل: أعراب من أسلم. وغطفان تباطؤوا عن الإسلام وقالوا: نخاف أن لا ينصر محمد عليه الصلاة والسلام فينقطع ما بيننا وبين حلفائنا من يهود فلا يقرونا ولا يؤونا، وقيل: قوم من المسلمين كانوا لشدة غيظهم من المشركين يستبطئون ما وعد الله تعالى لرسوله ﷺ من النصر؛ والمعنى عليه وكذا على سابقه أن قيل إن أولئك الأعراب كانوا يستبطئون النصر أيضاً من استبطأ نصر الله تعالى وطلبه عاجلاً فليقتل نفسه لأن له وقتاً اقتضت الحكمة وقوعه فيه فلا يقع في غيره، وأنت تعلم بعد هذين القولين وأن ثانيهما أبعده.

واستظهر أبو حيان كون ضمير ينصره عائداً على من لأنه المذكور وحق الضمير أن يعود على مذكور، وهو قول مجاهد وإليه ذهب بعضهم وفسر النصر بالرزق، قال أبو عبيدة: وقف علينا سائل من بني بكر فقال: من ينصرني نصرة الله تعالى وقالوا: أرض منصورة أي ممطورة، وقال الفقعسي:

وإنك لا تعطي امرأً فوق حقه ... ولا تملك الشيء الذي أنت ناصره

أي معطيه وكأنه مستعار من النصر بمعنى العون فالمعنى أن الأرزاق بيد الله تعالى لا تنال إلا بمشيئته فلا بد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقاً والغرض الحث على الرضا بما قسم الله تعالى لا كمن يعبده على حرف وكأنه سبحانه لما ذكر المؤمنين عقيبهم على ما مر حذرهم عن مثل حالهم لطفاً في شأنهم. ولا يخلو عن بعد وإن كان ربط الآية بما قبلها عليه قريباً، وقيل: الضمير لمن والنصر على المتبادر منه والمعنى من كان يظن أن لن ينصره الله تعالى فيغتاظ لانتفاء نصره فليحتل بأعظم حيلة في نصر الله تعالى إياه وليستفرغ جهده في إيصال النصر إليه فلينظر هل يذهبن ذلك ما يغيظه من انتفاء النصر. ولا يخفى ما في وجه الربط على هذا من الخفاء.

ومن كما أشرنا إليه شرطية، وجوز أن تكون موصولة والفاء في خبرها لتضمنها معنى الشرط وهل يذهبن في محل نصب بينظر، وذكر أنه على إسقاط الخافض، وقرأ البصريون وابن عامر وورش ثم ليقطع بكسر لام الأمر والباقون بسكونها على تشبيه ثم بالواو والفاء لأن الجميع عواطف ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن الكريم كله ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على معانيها الرائقة فالمشار إليه الإنزال المذكور بعد اسم الإشارة، ويجوز أن يكون المراد إنزل الآيات السابقة. وأياً ما كان ففيه أن القرآن الكريم في

جميع أبوابه كامل البيان لا في أمر البعث وحده. ونصب ﴿آيات﴾ على الحال من الضمير المنصوب؛ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ بتقدير اللام وهو متعلق بمحذوف يقدر مؤخراً إفادة للحصر الإضافي أي ولأن الله تعالى يهدي به ابتداء أو يثبت على الهدى أو يزيد فيه من يريد هدايته أو ثباته أو زيادته فيها أنزله كذلك أو في تأويل مصدر مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي والأمر أن الله يهدي الخ.

وجوز أن يكون معطوفاً على محل مفعول ﴿أنزلناه﴾ أي وأنزلنا أن الله يهدي الخ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بما ذكر من المنزل بهداية الله تعالى أو بكل ما يجب أن يؤمن به ويدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ﴾ هم على ما أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرؤون الزبور، وفي القاموس هم قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار، وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني أن الصابئة كانوا على عهد ابراهيم عليه السلام ويقال لمقابليهم الحنفاء وكانوا يقولون: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأمره وأحكامه جل شأنه إلى متوسط روحاني لا جسماني.

ومدار مذاهبهم على التعصب للروحانيات وكانوا يعظمونها غاية التعظيم ويتقربون إليها ولما لم يتيسر لهم التقرب إلى أعيانها والتلقي منها بذواتها فزعت جماعة إلى هياكلها وهي السبع السيارات وبعض الثوابت، فصابئة الروم مفزعها السيارات وصابئة الهند مفزعها الثوابت، وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً، والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب، والثانية هم عبدة الأصنام. وقد أفحم إبراهيم عليه السلام كلتا الفرقتين وألزمهم الحجة.

وذكر في موضع آخر أن ظهورهم كان في أول سنة من ملك طهمورث من ملوك الفرس، ولفظ الصابئة عربي من صبا كمنع وكرم صباً وصبوءاً خرج من دين إلى آخر ﴿وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ﴾ هم على ما روي عن قتادة أيضاً قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران، واقتصر بعضهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر، وآخرون على وصفهم بعبادة النيران. وقيل: هم قوم اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوح. وقيل: قوم أخذوا من دين النصارى شيئاً ومن دين اليهود شيئاً وهم قائلون بأن للعالم أصلين نوراً وظلمة. وفي كتاب الملل والنحل ما يدل على أنهم طوائف وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى وأنهم يقولون بالشرائع على خلاف الصابئة وأن لهم شبهة كتاب وأنهم يعظمون النار، وفيه أن بيوت النيران للمجوس كثيرة فأول بيت بناه افريدون بيت نار بطوس، وآخر بمدينة بخارى هو بردسون، واتخذ بهمن بيتاً بسجستان يدعى كركو، ولهم بيت نار ببخارى أيضاً يدعى قباذان وبيت نار يسمى كونشه بين فارس وأصفهان بناه كيخسرد. وآخر بقومش يسمى جرير. وبيت نار كيكدر بناه في مشرق الصين، وآخر بارجان من فارس اتخذه ارجان جد كشتاسف، وكل هذه البيوت كانت قبل زرادشت. ثم جدد زرادشت بيت نار بنيسا بعد كشتاسف أن تطلب النار التي كان يعظمها جم فوجدوها بمدينة خوارزم فنقلها إلى دار ابجرد والمجوس يعظمونها أكثر من غيرها وكيخسرد، ولما غزا افراسياب عظمها وسجد لها. ويقال: إن أنوشروان هو الذي نقلها إلى كارشان فتركوا بعضها هناك وحملوا بعضها إلى نسا. وفي بلاد الروم على باب قسطنطينية بيت نار اتخذه شابور بن أزدشير فلم تزل كذلك إلى أيام المهدي. وبيت نار باسفيتا على قرب مدينة السلام لبوران بنت كسرى. وفي الهند والصين بيوت نيران أيضاً والمجوس إنما يعظمون النار لمعان. منها أنها جوهر شريف علوي يظنون أن ذلك ينجيهم من عذاب نار يوم القيامة ولم يدروا أن ذلك السبب الأعظم لعذابهم اهـ.

وفيه ما لا يخفى على من راجع التواريخ. وفي القاموس مجوس كصبور رجل صغير الأذنين وضع ديناً ودعا إليه

معرب ميخ وكوش. وفي الصحاح المجوسية نحلة والمجوسي نسبة إليها والجمع المجوس. قال أبو علي النحوي: المجوس واليهود إنما عرفا على حد يهودي ويهود ومجوسي ومجوس فجمع على قياس شعيرة وشعير ثم عرف الجمع بالألف واللام ولولا ذلك لم يجز دخول الألف واللام عليهما لأنهما معرفتان مؤنثان فجريا في كلامهم مجرى القبلتين ولم يجعلا كالحيين في باب الصرف. وأنشد:

أحار أريك برقاً هبّ وهناً ... كنار مجوس يستعر استعارا

انتهى. وذكر بعضهم أن مجوس معرب موكوش وأطلق على أولئك القوم لأنهم كانوا يرسلون شعور رؤوسهم إلى آذانهم. ونقل في البحر أن الميم بدل من النون، وأطلق ذلك عليهم لاستعمالهم النجاسات وهو قول لا يعول عليه ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ المشهور أنهم عبدة الأوثان، وقيل ما يعمهم وسائر من عبد مع الله تعالى إلهاً آخر من ملك وكوكب وغيرهما ممن لم يشتهر باسم خاص كالصابئة والمجوس، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في حيز الرفع على أنه خبر لأن السابقة وأدخلت إن على كل واحد من جزئي الجملة لزيادة التأكيد كما في قول جرير:

إن الخليفة إن الله سربله ... سربال ملك به تزجى الخواتيم

وقيل: خبر إن الأولى محذوف أي مفترقون يوم القيامة أو نحو ذلك مما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿إن الله يفصل بينهم﴾ الخ فإن قولك: إن زيداً إن عمراً يضربه رديء، والبيت لا يتعين فيه جعل الجملة المقترنة بأن خبراً بل يجوز أن تكون معترضة والخبر جملة به تزجى الخواتيم، ولا يخفى عليك بعد تسليم الرداءة أن الآية ليست كالمثال المذكور لطول الفاصل فيها، قال في البحر: وحسن دخول إن في الجملة الواقعة خبراً في الآية طول الفصل بالمعاطيف، وقال الزجاج: زعم قوم أن قولك: إن زيداً أنه قائم رديء وأن هذه الآية إنما صلحت بتقدم الموصول ولا فرق بين الموصول وغيره في باب إن وليس بين البصريين خلاف في أن إن تدخل على كل مبتدأ وخبر فعلى هذا لا ينبغي العدول عن الوجه المتبادر، والمراد بالفصل القضاء أي إنه تعالى يقضي بين المؤمنين والفرق الخمس المتفقة على الكفر بإظهار المحق من المبطل وتوفية كل منهما حقه من الجزاء بإثابة المؤمنين وعقاب الفرق الآخرين بحسب استحقاق أفراد كل منهما، وقيل: المراد أنه تعالى يفصل بين الفرق الست في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاءً واحداً بلا تفاوت بل يجزي المؤمنين بما يليق واليهود بما يليق بهم وهكذا ولا يجمعهم في موطن واحد بل يجعل المؤمنين في الجنة وكلا من الفرق الكافرة في طبقة من طبقات النار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لما قبله من الفصل أي إنه تعالى عالم بكل شيء من الأشياء ومراقب لأحواله ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة وإجراء جزائه اللائق به عليه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ
وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ
أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا

وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن
يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا
تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ
بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ
وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

وقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾** الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من أعمال الفرق مع الاشارة إلى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة، وجوز أن يكون تنويراً لكونه تعالى شهيداً على كل شيء، وقيل: هو تقريع على اختلاف الكفرة واستبعاد له لوجوب الصارف، والمراد بالرؤية العلم والخطاب لكل من يتأتى منه ذلك. والمراد بالسجود دخول الأشياء تحت تسخيره تعالى وإرادته سبحانه وقابليتها لما يحدث فيها عزّ وجلّ، وظاهر كلام الآمدي أنه معنى حقيقي للسجود. وفي مفردات الراغب السجود في الأصل التطامن والتذلل وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله تعالى وعبادته وهو عام في الإنسان والحيوان والجماد. وذلك ضربان بأن سجود باختيار يكون للإنسان وبه يستحق الثواب وسجود بتسخير يكون للإنسان وغيره من الحيوانات والنباتات. وخص في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة وما جرى مجراه من سجود التلاوة وسجود الشكر انتهى.

وذكر بعضهم أنه كما خص في الشريعة بذلك خص في عرف اللغة به. وقال ابن كمال: إن حقيقته على ما نص عليه في المجمل وضع الرأس، وقال العلامة الثاني: حقيقته وضع الجبهة لا الرأس حتى لو وضع الرأس من جانب القفا لم يكن ساجداً، وعلى هذين القولين على علاتهما قيل السجود هنا مجاز عن الدخول تحت تسخيره تعالى والانقياد لإرادته سبحانه. وجوز أن يكون مجازاً عن دلالة لسان حال الأشياء بذلتها وافتقارها على صانعها وعظمته جلت عظمته، ووجه التنوير على هذا ظاهر وكذا التقريع على الاختلاف. و **﴿مَن﴾** إما خاصة بالعقلاء وإما عامة لهم ولغيرهم بطريق التغليب وهو الأولى لأنه الأنسب بالمقام لإفادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية منهما، ويكون قوله تعالى:

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ أفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها بحسب الظاهر في بادىء النظر القاصر كما قيل أو لأنها قد عبدت من دون الله تعالى إما باعتبار شخصها أو جنسها. فالشمس عبدتها حمير والقمر عبدته كنانة وعبد الدبران من النجوم تميم والشعري لخم وقريش، والثريا طيىء، وعطارداً أسد والمرزم ربيعة، وعبد أكثر العرب الأصنام المنحوتة من الجبال. وعبدت غطفان العزى وهي سمرة واحدة السمر شجر معروف، ومن الناس من عبد البقر. وقرأ الزهري وابن وثاب «الدَّوَابُ» بتخفيف الباء. وخص ابن جني في المحتسب هذه القراءة بالزهري، وقال: لا أعلم من خففها سواء وهو قليل ضعيف قياساً وسماعاً لأن التقاء الساكنين على حده وعذره كراهة التضعيف ولذا قالوا في ظللت ظلت وقالوا جان بالتخفيف وذكر له نظائر كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ قيل مرفوع بفعل مضمر يدل عليه المذكور أي ويسجد له كثير من الناس سجود الطاعة المعروف. واعترض بأنه صرح في المغني بأن شرط الدليل اللفظي على المحذوف أن يكون طبقة لفظاً ومعنى أو معنى لا لفظاً فقط فلا يجوز زيد ضارب وعمرو على أن خبر عمرو محذوف وهو ضارب من الضرب في الأرض أي مسافر والمذكور بمعناه المعروف. وأجاب الخفاجي بأن ما ذكر غير مسلم لما ذكره النحاة من أن المقدر قد يكون لازماً للمذكور نحو زيداً ضربت غلامه أي أهنت زيداً ولا يكون مشتركاً كالمثال المذكور إلا أن يكون بينهما ملاءمة فيصح إذا اتحدا لفظاً وكان من المشترك وبينهما ملازمة تدل على المقدر ولذا لم يصح المثال المذكور انتهى، وعطفه بعضهم على المذكورات قبله وجعل السجود بالنسبة إليه بمعنى السجود المعروف وفيما تقدم بمعنى الدخول تحت التسخير أو الدلالة على عظمة الصانع جل شأنه.

واستدل بذلك على جواز استعمال المشترك في معنييه أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، والجواب ما علمت، ولا يجوز العطف وجعل السجود في الجميع بمعنى الدخول تحت التسخير أو الدلالة على العظمة لأن ذلك عام لجميع الناس فلا يليق حينئذ ذكر ﴿كثير﴾ وغير العام إنما هو السجود بالمعنى المعروف فيفيد ذكر ﴿كثير﴾ إذا أريد أن منهم من لم يتصف بذلك وهو كذلك، وما قيل: إنه يجوز أن يكون تخصيص الكثير على إرادة السجود العام للدلالة على شرفهم والتنويه بهم ليس بشيء إذ كيف يتأتى التنويه وقد قرن بهم غير العقلاء كالدواب، وقال ابن كمال: تمسك من جوز حمل المشترك في استعمال واحد على أكثر من معنى بقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض﴾ الآية بناء على أن المراد بالسجود المنسوب إلى غيرالعقلاء الانقياد لتعذر السجود المعهود في حقه ومن المنسوب إليهم ما هو المعهود دون الانقياد لأنه شامل للكل غير مخصوص بالكثير ولا متمسك لهم في ذلك لأن كلا من التعليلين في معرض المنع، أما الأول فلأن حقيقة السجود وضع الرأس ولا تعذر في نسبته إلى غير العقلاء ولا حاجة إلى إثبات حقيقة الرأس في الكل لأن التغليب سائغ شائع، وأما الثاني فلأن الكفار لا سيما المتكبرين منهم لا حظ لهم من الانقياد لأن المراد منه الإطاعة بما ورد في حقه من الأمر تكليفياً كان أو تكوينياً على وجه ورد به الأمر وتقدير فعل آخر في هذا المقام من ضيق العطن كما لا يخفى على أرباب الفطن انتهى. وفيه القول بجواز العطف على كلا معنى السجود وضع الرأس والانقياد وبيان فائدة تخصيص الكثير على الثاني، ولا يخفى أن المتبادر من معتبرات كتب اللغة أن السجود حقيقة لغوية في الخضوع مطلقاً وأن ما ذكره من حديث التغليب خلاف الظاهر وكذا حمل الانقياد على ما ذكره، وقد أخذ رحمه الله تعالى كلا المعنيين من التوضيح وقد أسقط مما فيه ما عنه غنى، وما زعم أنه من ضيق العطن هو الذي ذهب إليه أكثر القوم وعليه يكون ﴿من الناس﴾ صفة ﴿كثير﴾ وأورد أنه حينئذ يرد أن سجود الطاعة المعروف لا يختص بكثير من الناس فإن كثيراً من الجن متصف به أيضاً، وكونهم غير مكلفين خلاف القول الأصح. نعم يمكن أن يقال: إنهم لم يكونوا مأمورين بالسجود عند نزول الآية وعلى مدعيه البيان، والقول بأنه يجوز أن يراد بالناس ما يعم الجن فإنه يطلق عليهم حسب إطلاق النفر والرجال عليهم ليس بشيء. ومن الناس من أجاب عن ذلك بأن يسجد المقدر داخل في الرؤية وقد قالوا: المراد بها العلم والتعبير بها عنه للإشعار بظهور المعلوم وظهور السجود بمعنى الدخول تحت التسخير في الأشياء المنسوب هو إليها مما لا سترة عليها وكذا ظهوره بمعنى السجود المعروف في كثير من الناس، وأما في الجن فليس كذلك فلذا وصف الكثير بكونه من الناس. وتعقب بأن الخطاب في ﴿ألم تر﴾ لمن يتأتى منه ذلك ولا سترة في ظهور أمر السجود مطلقاً بالنسبة إليه. ورد بأن مراد المجيب في أن سجود الجن ليس بظاهر في نفس الأمر ومع قطع النظر عن المخاطب كائناً من كان ظهور دخول

الأشياء المذكورة أولاً تحت التسخير بخلاف سجود كثير من الناس فإنه ظاهر ظهور ذلك في نفس الأمر فخص الكثير بكونه من الناس ليكون الداخل في حيز الرؤية من صقع واحد من الظهور في نفس الأمر.

وقيل المقام يقتضي تكثير الرائين لما يذكر في حيز الرؤية والتخصيص أوفق بذلك فلذا خص الكثير بكونهم من الناس والكل كما ترى، والأولى أن يقال: تخصيص الكثير من الناس بنسبة السجود بالمعنى المعروف إليهم على القول بأن كثيراً من الجن كذلك للتنويه بهم، ولا يرد عليه ما مر لأنه لم يقرن بهم في هذا السجود غير العقلاء فتأمل، وقيل: إن ﴿كثير﴾ مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب ويفيد الكلام كثرة الفريقين؛ والأول أولى لما فيه من الترغيب في السجود والطاعة للحق المعبود، وجوز أن يكون ﴿كثير﴾ مبتدأ و ﴿من الناس﴾ خبره والتعريف فيه للحقيقة والجنس أي وكثير من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون المتقون، وقال الراغب: قد يذكر الناس ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجوزا، وذلك إذا اعتبر معنى الانسانية وهو وجود العقل والذكر وسائر القوى المختصة به فإن كل شيء عدم فعله المختص به لا يكاد يستحق اسمه والمخصص للمبتدأ النكرة أنه صفة محذوف بالحقيقة على أن المعادلة من المخصصات إذا قلت رجال مكرمون ورجال مهانون لأنه تفصيل مجمل فهو موصوف تقديراً ولأن كلا من المقابلين موصوف بمغايرة الآخر فهذا داخل في الوصف المعنوي، وأن يكون ﴿كثير﴾ مبتدأ و ﴿من الناس﴾ صفته وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوف عليه وقوله سبحانه: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي ثبت وتقرر خبر، ويكون الكلام على حد قولك: عندي ألف وألف أي ألوف كثيرة ومثله شائع في كلامهم فيفيد كثرة من حق عليه العذاب من الناس، وهذان الوجهان بعيدان، وقال في البحر: ضعيفان.

والظاهر أن ﴿كثير﴾ الثاني مبتدأ والجملة بعده خبره وقد أقيمت مقام لا يسجد فكأنه قيل ويسجد كثير من الناس ولا يسجد كثير منهم، ولا يخفى ما في تلك الإقامة من الترهيب عن ترك السجود والطاعة، ولا يخفى ما في عدم التصريح بتقييد الكثير بكونه من الناس مما يقوي دعوى أن التقييد فيما تقدم للتنويه، وحمل عدم التقييد ليعم الكثير من الجن خلاف الظاهر جداً.

وجوز أن يكون معطوفاً على من والسجود بأحد المعنيين السابقين وجملة ﴿حق﴾ الخ صفته ويقدر وصف لكثير الأول بقرينة مقابله أي حق له الثواب و ﴿من الناس﴾ صفة له أيضاً، ولا يخفى ما فيه، وقرىء «حُقَّ» بضم الحاء و «حقاً» أي حق عليه العذاب حقاً فهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ﴾ بأن كتب الله تعالى عليه الشقاء حسبما استعدت له ذاته من الشر، ومن مفعول مقدر ليهن ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة.

وقرأ ابن أبي عبلة «مَكْرَمٍ» بفتح الراء على أنه مصدر ميمي كما في القاموس أي مما له إكرام، وقيل اسم مفعول بمعنى المصدر ولا حاجة إلى التزامه، وقيل يجوز أن يكون باقياً على ما هو الشائع في هذه الصيغة من كونه اسم مفعول، والمعنى ما له من يكرم ويشفع فيه ليخلص من الإهانة. ولا يخفى بعده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإكرام والإهانة، وهذا أولى من تخصيص ما بقرينة السياق بهما.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ تعيين لطرفي الخصام وتحرير لمحله فالمراد بهذان فريق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم إلى الفرق الخمس. وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والحسن وعاصم والكلبي ما يؤيد ذلك وبه يتعين كون الفصل السابق بين المؤمنين ومجموع من عطف عليهم، ولما كان كل خصم فريقاً يجمع طائفة جاء ﴿اختصموا﴾ بصيغة الجمع.

وقرأ ابن أبي عبلة «اختصما» مراعاة اللفظ ﴿خصمان﴾ وهو تثنية خصم؛ وذكروا أنه في الأصل مصدر يستوي

فيه الواحد المذكر وغيره، قال أبو البقاء: وأكثر الاستعمال توحيده فمن ثناه وجمعه حمله على الصفات والأسماء، وعن الكسائي أنه قرأ ﴿خِصْمَانِ﴾ بكسر الخاء، ومعنى اختصامهم في ربهم اختصامهم في شأنه عزّ شأنه، وقيل في دينه، وقيل في ذاته وصفاته والكل من شؤونه تعالى واعتقاد كل من الفريقين حقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه يكفي في تحقق خصومته للفريق الآخر ولا يتوقف عن التحاور.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: تخاصمت المؤمنون واليهود فقالت اليهود: نحن أولى بالله تعالى وأقدم منكم كتاباً ونبياً قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله تعالى آمنا بمحمد ﷺ وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله تعالى من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً فنزلت.

وأخرج جماعة عن قتادة نحو ذلك واعترض بأن الخصام على هذا ليس في الله تعالى بل في أيهما أقرب منه عزّ شأنه. وأجيب بأنه يستلزم ذلك وهو كما ترى وقيل عليه أيضاً: إن تخصيص اليهود خلاف مساق الكلام في هذا المقام. وفي الكشف قالوا: إن هذا لا ينافي ما روي عن ابن عباس من أن الآية ترجع إلى أهل الأديان الستة في التحقيق لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والطبراني وغيرهم عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية **﴿هذان خصمان﴾** إلى قوله تعالى: **﴿إن الله يفعل ما يريد﴾** نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين بارزوا يوم بدر هم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، وأنت تعلم أن هذا الاختصام ليس اختصاماً في الله تعالى بل منشؤه ذلك فتأمل ولا تغفل.

وأما ما قيل من أن المراد بهذين الخصمين الجنة والنار فلا ينبغي أن يختلف في عدم قبوله خصمان أو ينتطح فيه كبشان، وفي الكلام كما قال غير واحد تقسيم وجمع وتفريق فالتقسيم **﴿إن الذين آمنوا ـــ إلى قوله تعالى ـــ والذين أشركوا﴾** والجمع **﴿إن الله يفصل بينهم﴾** إلى قوله تعالى: **﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾** والتفريق في قوله سبحانه: **﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾** الخ أي أعد لهم ذلك، وكأنه شبه أعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم ففي الكلام استعارة تمثيلية تهكمية وليس هناك تقطيع ولا ثياب حقيقة، وكأن جمع الثياب للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم وكون بعضها فوق بعض.

وجوز أن يكون ذلك لمقابلة الجمع بالجمع والأول أبلغ، وعبر بالماضي لأن الأعداد قد وقع فليس من التعبير بالماضي لتحققه كما في «نفخ في الصور».

وأخرج جماعة عن سعيد بن جبير أن هذه الثياب من نحاس مذاب وليس شيء حمي في النار أشد حرارة منه فليست الثياب من نفس النار بل من شيء يشبهها وتكون هذه الثياب كسوة لهم وما أقبحها كسوة. ولذا قال وهب: يكسى أهل النار والعري خير لهم. وقرأ الزعفراني في اختياره «قُطِعَتْ» بالتخفيف والتشديد أبلغ.

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِم الْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لو سقط من الحميم نقطة على جبال الدنيا لأذابتها، وفسره ابن جبير بالنحاس المذاب، والمشهور التفسير السابق، ولعله إنما جيء بمن ليؤذن بشدة الوقوع؛ والجملة مستأنفة أو خبر ثان للموصول أو في موضع الحال المقدرة من ضمير **﴿لهم﴾** **﴿يُصْهَرُ به﴾** أي يذاب **﴿مَا في بُطُونِهِمْ﴾** من الأمعاء والأحشاء.

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وصححه وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وجماعة عن أبي هريرة أنه تلا هذه

الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق إلى قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان».

وقرأ الحسن وفرقة «يُصَهَّرُ» بفتح الصاد وتشديد الهاء، والظاهر أن قوله تعالى: ﴿وَالْجُلُودُ﴾ عطف على ﴿ما﴾ وتأخيره عنه قيل إما لمراعاة الفواصل أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر مع أن ملابستها على العكس، وقيل إن التأثير في الظاهر غني عن البيان وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ولذا قدم الباطن لأنه المقصود الأهم، وقيل التقدير ويحرق الجلود لأن الجلود لا تذاب وإنما تجتمع على النار وتنكمش، وفي البحر أن هذا من باب علفتها تبناً وماءً بارداً. وقال بعضهم: لا حاجة إلى التزام ذلك فإن أحوال تلك النشأة أمر آخر، وقيل ﴿يصهر﴾ بمعنى ينضج، وأنشد:

تصهره الشمس ولا ينصهر

وحينئذ لا كلام في نسبته إلى الجلود، والجملة حال من ﴿الحميم﴾ أو مستأنفة.

﴿وَلَهُمْ﴾ أي للكفرة، وكون الضمير للزبانية بعيد، واللام للاستحقاق أو للفائدة تهكماً بهم، وقيل للأجل، والكلام على حذف مضاف أي لتعذيبهم، وقيل بمعنى على كما في قوله تعالى: ﴿ولهم اللعنة﴾ [غافر: ٥٢] أي وعليهم.

﴿مَقَامِعُ من حَديدٍ﴾ جمع مقمعة وحقيقتها ما يقمع به أي يكف بعنف. وفي مجمع البيان هي مدقة الرأس من قمعه قمعاً إذا ردعه، وفسرها الضحاك وجماعة بالمطارق، وبعضهم بالسياط. وفي الحديث «لو وضع مقمع منها في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض» ﴿كُلَّمَا أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي أشرفوا على الخروج من النار ودنوا منه حسبما يروى أنها تضربهم بلهبها فترفعهم فإذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً، فالإرادة مجاز عن الإشراف والقرب كما في قوله تعالى: ﴿يريد أن ينقض﴾ [الكهف: ٧٧] وجعل بعضهم ضمير ﴿منها﴾ للثياب وهو ركيك، وقوله تعالى: ﴿من غَمّ﴾ بدل اشتمال من ضمير ﴿منها﴾ بإعادة الجار والرابط محذوف والتنكير للتفخيم، والمراد من غم عظيم من غمومها أو مفعول له للخروج أي كلما أرادوا الخروج منها لأجل غم عظيم يلحقهم من عذابها، والغم أخو الهم وهو معروف، وقال بعضهم: هو هنا مصدر غممت الشيء أي غطيته أي كلما أرادوا أن يخرجوا من تغطية العذاب لهم أو مما يغطيهم من العذاب ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي في قعرها بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها من غير أن يخرجوا منها إذ لا خروج لهم كما هو المشهور من حالهم، واستدل له بقوله تعالى: ﴿وما هم بخارجين﴾ [البقرة: ١٦٧، المائدة: ٣٧] وفي اختيار ﴿فيها﴾ دون إليها إشعار بذلك، وقيل الإعادة مجاز عن الإبقاء، وقيل التقدير كلما أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا أعيدوا فيها فالإعادة معلقة على الخروج وحذف للإشعار بسرعة تعلق الإرادة بالإعادة ويجوز أن يحصل لهم، والمراد من قوله تعالى: ﴿وما هم بخارجين﴾ نفي الاستمرار أي لا يستمرون على الخروج لا استمرار النفي، وكثيراً ما يعدى العود بفي لمجرد الدلالة على التمكن والاستقرار، وقال بعضهم: إن الخروج ليس من النار وإنما هو من الأماكن المعدة لتعذيبهم فيها، والمعنى كلما أراد أحدهم أن يخرج من مكانه المعد له في النار إلى مكان آخر منها فخرج منه أعيد فيه وهو كما ترى، وهذه الإعادة على ما قيل بضرب الزبانية إياهم بالمقامع، وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا﴾ على تقدير قول معطوف على ﴿أعيدوا﴾ أي وقيل لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ قد مر الكلام فيه، والأمر للاهانة.

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ بيان لحسن حال

المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة، وغير الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الاسم الجامع وتصدير الجملة بحرف التحقيق وفصلها للاستئناف إيذاناً بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين ودلالة على تحقيق مضمون الكلام ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ بالبناء للمفعول والتشديد من التحلية بالحلي أي تحليهم الملائكة عليهم السلام بأمره تعالى، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ قيل متعلق بيحلون، و ﴿مِن﴾ ابتدائية والفعل متعد لواحد وهو النائب عن الفاعل، وقيل: متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول محذوف ومن للبيان والفعل متعد لاثنين أحدهما النائب عن الفاعل والآخر الموصوف المحذوف أي يحلون حلياً أو شيئاً من أساور، وعلى القول بتعدي هذا الفعل لاثنين جوز أن تكون من للتبعيض واقعة موقع المفعول، وأن تكون زائدة على مذهب الأخفش من جواز زيادتها في الإيجاب و ﴿أساور﴾ مفعول ﴿يحلون﴾ وقوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ صفة لأساور، و ﴿مِن﴾ للبيان، وقيل: لابتداء الغاية أي أنشئت من ذهب، وقيل: للتبعيض، وتعلقه بيحلون لا يخفى حاله، وقرىء «يُحلون» بضم الياء والتخفيف، وهو على ما في البحر بمعنى المشدد، ويشعر كلام بعض أنه متعد لواحد وهو النائب الفاعل فمن أساور متعلق به ومن ابتدائية.

وقرأ ابن عباس «يَحْلَوْنُ» بفتح الياء واللام وسكون الحاء من حليت المرأة إذا لبست حليها. وقال أبو حيان: إذا صارت ذات حلي، وقال أبو الفضل الرازي: يجوز أن يكون من حلي بعيني يحلى إذا استحسنته وهو في الأصل من الحلاوة وتكون من حينئذ زائدة، والمعنى يستحسنون فيها الأساور، وقيل: هذا الفعل لازم ومن سببية، والمعنى يحلى بعضهم بعين بعض بسبب لباس أساور الذهب.

وجوز أبو الفضل أن يكون من حليت به إذا ظفرت به، ومنه قولهم: لم يحل فلان بطائل، ومن حينئذ بمعنى الباء أي يظفرون فيها بأساور من ذهب. وقرأ ابن عباس «من أسور» بفتح الراء من غير ألف ولا هاء، وكان قياسه أن يصرف لأنه نقص بناؤه فصار كجندل لكنه قدر المحذوف موجوداً فمنع الصرف، قد تقدم الكلام على نظير هذه الجملة في الكهف فتذكر، وقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤاً﴾ عطف على محل ﴿من أساور﴾ أو على الموصوف المحذوف، وحمله أبو الفتح على إضمار فعل أي ويؤتون لؤلؤاً أو نحو ذلك.

وقرأ أكثر السبعة والحسن في رواية وطلحة وابن وثاب والأعمش وأهل مكة «ولؤلؤاً» بالخفض عطفاً على ﴿أساور﴾ أو على ﴿ذهب﴾ لأن السوار قد يكون من ذهب مرصع بلؤلؤ وقد يكون من لؤلؤ فقط كما رأيناه ويسمى في ديارنا حضراً أو أكثر ما يكون من المرجان. واختلفوا هل في الإمام ألف بعد الواو فقال الجحدري: نعم، وقال الأصمعي: لا، وروى يحيى عن أبي بكر همز الآخر وقلب الهمزة الأولى واواً، وروى المعلى بن منصور عنه ضد ذلك.

وقرأ الفياض «لوليا» قلب الهمزتين واوين فصارت الثانية واواً قبلها ضمة وحيث لم يكن في كلامهم اسم متمكن آخره واو قبلها ضمة قلب الواو ياء والضمة قبلها كسرة. وقرأ ابن عباس «وليلياً» بقلب الهمزتين واوين ثم قبلهما ياءين، أما قلب الثانية فلما علمت وأما قلب الأولى فللاتباع. وقرأ طلحة «ولول» كادل في جمع دلو قلبت الهمزتان واوين ثم قلبت ضمة اللام كسرة والواو ياء ثم أعل إعلال قاض ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريراً للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف التحلية فإنها ليست من لوازمهم الضرورية فلذا جعل بيانها مقصوداً بالذات. ولعل هذا هو السر في تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس قاله العلامة شيخ الإسلام، ولم يرتض ما قيل: إن التغيير لدلالة على أن الحرير لباسهم المعتاد أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل، وظاهر كلامهم أن الجملة معطوفة على السابقة، وجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير ﴿يحلون﴾ ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام في كل أهل الجنة،

وقيل هو باعتبار الأغلب لما أخرج النسائي وابن حبان وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه» وحديث عدم لبس ذلك له في الآخرة مذكور في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً.

والظاهر أن حرمة استعمال الحرير للرجال في غير ما استثني مجمع عليها وأنه يكفر من استحل ذلك غير متأول، ولعل خبر البيهقي في سننه. وغيره عن ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ولم يدخل الجنة» إن صح محمول على ما إذا كان اللبس محرماً بالإجماع وقد استحله فاعله من غير تأويل أو على أن المراد لم يدخل الجنة مع السابقين وإلا فعدم دخول اللابس مطلقاً الجنة مشكل.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ من الْقَوْلِ﴾ وهو قولهم: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الجنة﴾ [الزمر: ٧٤] كما روي عن ابن عباس، وقيل: ما يعمه وسائر ما يقع في محاورة أهل الجنة بعضاً لبعض، وقيل: إن هذه الهداية في الدنيا فالطيب قول لا إله إلا الله، وفي رواية عن ابن عباس ذلك مع زيادة والحمد لله، وزاد ابن زيد والله أكبر، وعن السدي هو القرآن، وحكى الماوردي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقيل: ما يعم ذلك وسائر الأذكار ﴿وَهُدُوا إِلَى صراط الْحَمِيدِ﴾ أي المحمود جداً، وإضافة ﴿صراط﴾ إليه قيل بيانية. والمراد به الإسلام فإنه صراط محمود من يسلكه أو محمود هو نفسه أو عاقبته، وقيل: الجنة وإطلاق الصراط عليها باعتبار أنها طريق للفوز بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقيل: ﴿الحميد﴾ هو الجنة والإضافة على ظاهرها، والمراد بصراطها الإسلام أو الطريق المحسوس الموصل إليها يوم القيامة، واستظهر أن المراد من الحميد هو الله عز وجل المستحق لذاته لغاية الحمد. والمراد بصراطه تعالى الإسلام فإنه طريق إلى رضوانه تعالى. وقيل: الجنة فإنها طريق للفوز بما تقدم وأضيفت إليه تعالى للتشريف. وحاصل ما قالوه هنا أن الهداية تحتمل أن تكون في الآخرة وأن تكون في الدنيا. وأن المراد بالحميد إما الحق تعالى شأنه وإما الجنة وإما الصراط نفسه، وبالصراط إما الإسلام وإما الجنة وإما الطريق المحسوس الموصل إليها يوم القيامة.

ووجهوا تأخير هذه الجملة عن الجملة الأولى تارة بأنه لرعاية الفواصل وأخرى بأن ذكر الحمد الذي تضمنته الأولى يستدعي ذكر المحمود ولا يبعد أن يقال: إن الهداية في الجملتين في الآخرة بعد دخول الجنة وإن الإضافة هنا بيانية وإن المراد بالقول الطيب القول الذي تستلذه النفوس الواقع في محاورة أهل الجنة بعضهم لبعض. وبالصراط الحميد ما يسلكه أهل الجنة في معاملة بعضهم بعضاً من الأفعال التي يحمدون عليها أو مما أعم من ذلك. فحاصل الجملة الأولى وصف أهل الجنة بحسن الأقوال. وحاصل الثانية وصفهم بحسن الأفعال أو مما هو أعم منها ومن الأقوال. وكأنه تعالى بعد أن ذكر حسن مسكنهم وحليهم ولباسهم ذيل ذلك بحسن معاملة بعضهم بعضاً في الأقوال والأفعال إيماءً إلى أن ما هم فيه لا يخرجهم إلى خشونة المقال ورداءة الأفعال المشينتين لحسن ما هم فيه والمنفضتين للذة الاجتماع. ووجه التقديم والتأخير على هذا غير خفي على الفطن. والذي اختاره أن القول الطيب قولهم بعد دخول الجنة ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصيب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] لقوله تعالى: في سورة [فاطر: ٣٣، ٣٤] بعد قوله سبحانه: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ الخ والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وأن المراد بالصراط الحميد ما يعم الأقوال والأفعال الجارية بين أهل الجنة مما يحمد سلوكه في المعاشرة

والاجتماع في هاتيك البقاع فراراً من شائبة التأكيد كما لا يخفى على ذكر فكر سديد فتأمل هديت إلى صراط الحميد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وعيد لصنف من الكفرة، وحسن عطف المضارع على الماضي لما أنه لم يرد بالمضارع حال أو استقبال كما في قولهم: فلان يحسن إلى الفقراء فإن المراد به استمرار وجود الإحسان، وقيل **﴿يصدون﴾** بمعنى صدوا إلا أنه عبر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية تهويلاً لأمر الصد، وقيل لا عطف بل الجملة خبر مبتدأ محذوف والمجموع في موضع الحال من فاعل **﴿كفروا﴾** أي وهم يصدون، وجوز أن تكون الجملة حالاً من غير تقدير مبتدأ لشبهها بالجملة الإسمية معنى وخبر إن محذوف للدلالة آخر الآية الكريمة عليه أي نذيقهم من عذاب أليم، وقدره الزمخشري بعد **﴿المسجد الحرام﴾**وتعقبه أبو حيان بأنه لا يصح لما فيه من الفصل بين الصفة وهو **﴿المسجد﴾** والموصوف وهو **﴿الذي﴾**.

وأجيب باحتمال أنه جعل **﴿الذي﴾** نعتاً مقطوعاً، وقدره ابن عطية بعد **﴿والباد﴾** هو أولى إلا أنه قدر خسروا أو هلكوا وتقدير نذيقهم الخ أولى منه، وقيل الواو في **﴿ويصدون﴾** زائدة والجملة بعده خبر إن.

وتعقبه ابن عطية بأنه مفسد للمعنى المراد وغيره بأن البصريين لا يجيزون زيادة الواو والقول بجواز زيادتها قول كوفي مرغوب عنه، والظاهر أن **﴿المسجد﴾** عطف على **﴿سبيل﴾** وجوز أن يكون معطوفاً على الاسم الجليل، والآية على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم عام الحديبية عن المسجد الحرام فكره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم وكان محرماً بعمرة ثم صالحوه على أن يعود في العام القابل، والمراد بالمسجد الحرام مكة وعبر به عنها لأنه المقصود المهم منها، ويدل على ذلك قوله تعالى: **﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾** أيْ كائناً من كان من غير فرق بين مكي وآفاقي **﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾** أي المقيم فيه والطارىء فإن الإقامة لا تكون في المسجد نفسه بل في منازل مكة وفي وصفه بذلك زيادة التشنيع على الصادين عنه، وقد استشهد بعض الأئمة بالآية على عدم جواز بيع دور مكة وإجارتها وإلا لما استوى العاكف فيها والباد، وقد ورد التصريح بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة، فروي من عدة طرق أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مكة حرمها الله تعالى لا يحل بيع رباعها ولا إجارة بيوتها» وذكر ابن سابط أن دور أهل مكة كانت بغير أبواب حتى كثرة السرقة فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر رضي الله تعالى عنه قال: أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله تعالى؟ فقال: إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة فتركه فاتخذ الناس الأبواب، وأخرج ابن ماجه وابن أبي شيبة عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن، وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: من أكل كراء بيوت مكة فإنما أكل ناراً في بطنه لأن الناس في الانتفاع بها سواء، وجاء صدره من رواية الدارقطني مرفوعاً وفي النهاية لا بأس ببيع بناء مكة ويكره بيع أرضها وهذا عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وقال: لا بأس ببيع أرضها وهو رواية عنه أيضاً وهو مذهب الشافعي عليه الرحمة وعليه الفتوى. وفي تنوير الأبصار وشرحه الدر المختار وجاز بيع بناء بيوت مكة وأرضها بلا كراهة وبه قال الشافعي وبه يفتي عيني. وفي البرهان في باب العشر ولا يكره بيع أرضها كبنائها وبه يعمل. وفي مختارات النوازل لصاحب الهداية لا بأس ببيع بنائها وإجارتها لكن في الزيلعي وغيره يكره إجارتها، وفي آخر الفصل الخامس من التتار خانية وإجارة الوهبانية قال أبو حنيفة: أكره إجارة بيوت مكة في أيام الموسم؛ وكان يفتي لهم أن

ينزلوا عليهم في دورهم لقوله تعالى: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ ورخص فيها في غير أيام الموسم انتهى فليحفظ، قلت: وبهذا يظهر الفرق والتوفيق انتهى.

والذي يفهم من غاية البيان أن القول بكراهة إجازة بيوتها أيام الموسم مما لم ينفرد به الإمام بل وافقه عليه صاحباه حيث نقل عن تقريب الإمام الكرخي ما نصه وروى هشام عن أبي يوسف عن أبي حنيفة أنه كره إجارة بيوت مكة في الموسم ورخص في غيره، وكذا قال أبو يوسف، وقال هشام: أخبرني محمد عن أبي حنيفة أنه يكره كراء بيوت مكة في الموسم ويقول لهم أن ينزلوا عليهم في دورهم إن كان فيها فضل وإن لم يكن فلا وهو قول محمد انتهى.

والذي تحرر مما رأيناه من أكثر معتبرات كتب ساداتنا الحنفية أن جواز بيع بناء البيوت متفق عليه لأنه ملك لمن بناه كمن بنى في أرض الوقف بإذن المتولي، ولا يقال: إنه بناء غاصب كمن بنى بيتاً في جامع لظهور الإذن هنا دونه ثمة، وكذا كراهة الإجارة في أيام الموسم وأما بيع الأرض فعند الإمامين جائز بلا كراهة قولاً واحداً وعن الإمام روايتان الجواز وعدمه والمفتي به الجواز، ومستند من يجوز من الكتاب الجليل هذه الآية. وأجاب أصحاب الشافعي عنها أن المسجد الحرام في المطاف والعاكف في المعتكف للعبادة المعدود من أهل المسجد لملازمته له أظهر، وكذلك المساواة في أنه من شعائر الله تعالى المنصوبة لكل عاكف وباد أوضح وهو المقابل للموصوف بالصد عن سبيل الله تعالى والمسجد الحرام خاصة فما كانوا يصدون عن مكة ولا أن الصد عنها لغير مريد النسك معصية وأي مدخل لحديث التمليك وعدمه في هذا المساق.

والاستدراك بأن له مدخلاً على سبيل الإدماج وإشارة النص كلام لا طائل تحته، وقد فسر ﴿سواء﴾ بما فسر كذا في الكشف، وقد جرت مناظرة بمكة بين الشافعي وإسحاق بن راهويه الحنظلي وكان إسحاق لا يرخص في كراء دور مكة فاحتج الشافعي بقوله تعالى: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ [الحج: ٤] فأضيفت الديار إلى مالكيها وبقوله ﷺ يوم فتح مكة «من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وبأنه قد اشترى عمر رضي الله تعالى عنه دار السجن أترى أنه اشترى من مالكيها أو غير مالكيها قال إسحاق: فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركت قولي، وأجاب بعضهم أن الإضافة إلى مالكي منفعة السكنى وأن عمر رضي الله تعالى عنه اشترى البناء دون الأرض وأرضى بالثمن من أنفق مالاً فيه لحاجة العامة وللإمام من ذلك ما ليس لغيره. وتعقب بأن الاستدلال بالظاهر والعدول عن الظاهر دون سند أقوى غير ملتفت إليه، ولذا قال ابن راهويه: وهو أحد أركان المسلمين وعلم من أعلام الدين ما قال.

والظاهر أن الأخبار المصرحة بتحريم البيع والإجارة لم تصح عند الشافعي رضي الله تعالى عنه، وعند من قال بمثل قوله؛ ونصب ﴿سواء﴾ على أنه مفعول ثان لجعلنا، والأول الضمير الغائب المتصل و ﴿العاكف﴾ مرتفع به لأنه بمعنى مستو وإن كان في الأصل مصدراً، ومن كلامهم مررت برجل سواء هو والعدم، واللام ظرف لما عنده.

وجوز أن يكون ﴿للناس﴾ في موضع المفعول الثاني أي جعلناه مباحاً للناس أو معبداً لهم و ﴿سواء﴾ حالاً من الهاء وكذا يكون حالاً إذا لم يعد الجعل إلى مفعولين.

وقرأ الجمهور «سواءٌ» بالرفع على أنه خبر «والعاكفُ» مبتدأ، وضعف العكس لما فيه من الأخبار بالمعرفة عن النكرة، والجملة في موضع المفعول الثاني أو الحال، وجوز أن تكون تفسيرية لجعله للناس؛ وقرأت فرقة منهم الأعمش في رواية القطعي «سوَاءَ» بالنصب «العاكف» فيه بالجر، ووجه النصب ما تقدم، ووجه جر «العاكفِ» أنه بدل تفصيل

من الناس، وقيل: هو عطف بيان. وقرىء «والبادي» بإثبات الياء وصلاً ووقفاً، وقرىء بتركها فيهما وبإثباتها وصلاً وحذفها وقفاً ﴿وَمَنْ يُرِدْ فيه﴾ مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول أي ومن يرد فيه شيئاً ما أو مراداً ما، وقدر ابن عطية المفعول الناس أي ومن يرد فيه الناس.

وقوله تعالى: ﴿بإلْحاد﴾ أي عدول عن القصد أي الاستقامة المعنوية، وأصله إلحاد الحافر ﴿بظُلْم﴾ بغير حق حالان مترادفان أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار والباء فيهما للملابسة، أو الأول حال والثاني متعلق به والباء فيه للسببية أي ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام، وقال أبو عبيدة: الباء زائدة و «إلحاد» مفعول ﴿يرد﴾ وأنشد عليه قول الأعشى:

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا

وأيد بقراءة الحسن «ومن يرد إلحاده بظلم» وهي على معنى إلحاداً فيه إلا أنه توسع فقيل إلحاده، وقال أبو حيان: الأولى أن يضمن ﴿يرد﴾ معنى يتلبس وتجعل الباء للتعدية. وقرأت فرقة ﴿يرد﴾ بفتح الياء من الورود وحكاها الكسائي والفراء أي من أتى فيه بإلحاد الخ، وتفسير الإلحاد بما ذكر هو الظاهر فيشمل سائر الآثام لأن حاصل معناه الميل عن الحق إلى الباطل وهو محقق في جميع الآثام، وكذا المراد بالظلم عند جمع وجمعهما على هذا للتأكيد، وقيل: المراد بذلك الشرك ولم يرتضه ابن أبي مليكة، فقد أخرج عبد ابن حميد أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ومن يرد﴾ الخ فقال: ما كنا نشك أنها الذنوب حتى جاء أعلاج من أهل البصرة إلى أعلاج من أهل الكوفة فزعموا أنها الشرك. وأخرج أبو داود وغيره عن يعلى بن أمية عن رسول الله ﷺ قال: احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه، وهو من ذكر بعض الأفراد لاقتضاء الحال إياه، وجعل بعضهم من ذلك دخوله من غير إحرام، وروي عن عطاء تفسير الإلحاد به. وأخرج ابن جرير وجماعة عن مجاهد قال: كان لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فإذا أراد أن يصلي صلى في الذي في الحرم وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل فقيل له فقال: نحدث أن من الإلحاد فيه لا والله بلى والله ﴿نذقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم﴾ جواب لمن الشرطية. والظاهر أن الوعيد على إرادة ذلك مطلقاً فيفيد أن من أراد سيئة في مكة ولم يعملها يحاسب على مجرد الإرادة وهو قول ابن مسعود وعكرمة وأبي الحجاج، وقال الخفاجي: الوعيد على الإرادة المقارنة للفعل لا على مجرد الإرادة لكن في التعبير بها إشارة إلى مضاعفة السيئات هناك والإرادة المصممة مما يؤاخذ عليها أيضاً وإن قيل إنها ليست كبيرة، وقد روي عن مالك كراهة المجاورة بمكة انتهى. وإلى مضاعفة السيئة في مكة ذهب مجاهد، فقد أخرج عنه ابن المنذر وغيره أنه قال: تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات، وقال رحمه الله تعالى. سألت ابن عمر وكان منزله في الحل ومسجده في الحرم لم تفعل هذا؟ فقال: لأن العمل في الحرم أفضل والخطيئة فيه أعظم فينبغي لمن كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد في جميع ما يهم به ويقصده.

والظاهر أن هذه الإذاقة في الآخرة، وقيل كان قبل أن يستحله أهله تعجل العقوبة في الدنيا لمن قصده بسوء: وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال في الآية. حدثنا رجل سمعه من عقب المهاجرين والأنصار أنهم أخبروه أن أيما أحد أراد به ما أراد أصحاب الفيل عجل لهم العقوبة في الدنيا وقال: إنما يوفى استحلاله من قبل أهله، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما ينفعك في هذا المطلب، وحد بعضهم الحرام بقوله:

وللحرم التحديد من أرض طيبة ... ثلاثة أميال إذا رمت اتقانه

وسبعة أميال عراق وطائف ... وجدة عشر ثم تسع جعرانه

ومـن يمـن سـبـع بـتـقـديم سـينه وقد كـمـلـت فـاشكـر لـربك إحسانه

وأما المسجد الحرام فيطلق على الحرم كله عند عطاء فيكون حده ما ذكره. وفي البحر العميق عن أبي هريرة قال: إنا لنجد في كتاب الله تعالى أن حد المسجد الحرام إلى آخر المسعى، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أساس المسجد الحرام الذي وضعه إبراهيم عليه السلام من الحزوة إلى مخرج مسيل جياد، وقد ذكروا أن طول المسجد اليوم أربعمائة ذراع وأربعة أذرع وعرضه ثلاثمائة ذراع. وحكي أنه لم يكن كذلك على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن له جدار يحيط به فلما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وسع المسجد واشترى دوراً فهدمها وأدخلها فيه ثم أحاط عليه جداراً قصيراً دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه، ثم لما استخلف عثمان اشترى دوراً أيضاً ووسع بها وبنى المسجد والأروقة، ثم إن عبد الله بن الزبير زاد سنة بضع وستين في المسجد زيادة كثيرة في خلافته، ومن ذلك بعض دار الأزرقي اشتراه بسبعة آلاف دينار، ثم عمره بعد ذلك عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه لكن رفع جدار المسجد وحمل إليه أعمدة الحجارة والرخام، ثم إن المنصور زاد في شقه الشامي وبناه وجعل فيه أعمدة من الرخام، ثم زاد المهدي بعده مرتين وكانت الكعبة في جانب المسجد فأحب أن تكون في الوسط فاشترى دوراً وزاد في المسجد ووسطها كذا ذكره النووي.

وفي البحر العميق أن زيادة المهدي هي التي تلي دار الندوة خلف مقام الحنفي، ثم لما انتهت الدولة إلى سلاطين آل عثمان أبقى الله تعالى دولتهم ما دام الدوران لم يألوا جهداً في خدمته والسعي في مرمته.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي اذكر لهؤلاء الكفرة الذين يصدون عن سبيل الله تعالى والمسجد الحرام وقت جعلنا مكان البيت مباءة لجدهم إبراهيم عليه السلام أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة ويقال بوأه منزلاً إذا أنزله فيه ولما لزمه جعل الثاني مباءة للأول جيء باللام فهي للتعدية، و ﴿مكان﴾ مفعول به.

وقال الزجاج: المعنى بيتاً له مكان البيت ليبنيه ويكون مباءة له ولعقبه يرجعون إليه ويحجونه، والأول مروي عن ابن عباس، وقيل: اللام زائدة في المفعول به و ﴿مكان﴾ ظرف لبوأنا. واعترض بأن اللام إنما تزاد إذا قدم المعمول أو كان العامل فرعاً وشيء منهما متحقق ها هنا وأن ﴿مكان البيت﴾ ظرف معين فحقه أن يتعدى الفعل إليه بفي، وفيه نظر كما يعلم من كتب العربية، وقيل: مفعول ﴿بوأنا﴾ محذوف أي بوأنا الناس واللام في ﴿لإبراهيم﴾ لام العلة أي لأجل إبراهيم أي كرامة له؛ والمعول عليه ما قدمنا، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المراد تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر غير مرة، والمكان المتعارف ما يستقر عليه الشيء ويمنعه من النزول والعلماء فيه مذاهب وليس هذا مكان تحقيقها، وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم قد يقال من غير اعتبار الليل فيه وجمعه أبيات وبيوت لكن البيوت بالمسكن أخص والأبيات بالشعر أخص، ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومن مدر ومن صوف ووبر، ويعبر عن مكان الشيء ببيته، والمراد بالبيت بيت الله عز وجل الكعبة المكرمة، وقد بنيت خمس مرات، إحداها بناء الملائكة عليهم السلام قبل آدم وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفع ذلك البناء إلى السماء أيام الطوفان، والثانية بناء إبراهيم عليه السلام. روي أنه تعالى لما أمره ببناء البيت لم يدر أين يبني فأرسل الله تعالى له الريح الخجوج فكشفت عن اسه القديم فبنى عليه، والثالثة بناء قريش في الجاهلية، وقد حضره النبي ﷺ وكان شاباً فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فأراد كل قبيلة أن يتولى رفعه ثم توافقوا على أن يحكم بينهم أول رجل يخرج من هذه السكة فكان رسول الله ﷺ أول من خرج فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط ثم يرفعه جميع القبائل فرفعوه ثم ارتقى ﷺ فرفعوه إليه فوضعه مكانه وكانوا يدعونه عليه السلام الأمين وكان ذلك قبل المبعث فيما قيل بخمس عشرة سنة، والرابعة بناء عبد

الله بن الزبير، والخامسة بناء الحجاج وهو البناء الموجود اليوم وارتفاعها في السماء سبعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع والذراع أربع وعشرون إصبعاً والإصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرذون: وأما طوها في الأرض فمن الركن اليماني إلى الركن الأسود خمسة وعشرون ذراعاً وكذا ما بين اليماني والغربي، وأما عرضها فهو من الركن اليماني إلى الركن الأسود عشرون ذراعاً، وطول الباب ستة أذرع وعشرة أصابع، وعرضه أربعة أذرع والباب في جدارها الشرقي وهو من خشب الساج مضبّب بالصفائح من الفضة، وارتفاع ما تحت عتبة الباب من الأرض أربعة أذرع وثلاث أصابع، والميزاب في وسط جدار الحجر. وعرض الملزم وهو ما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع، وارتفاع الحجر الأسود من الأرض ثلاثة أذرع إلا سبعاً، وعرض القدر الذي بدر منه شبر وأربع أصابع مضمومة، وعرض المستجاد وهو بين الركن اليماني إلى الباب المسدود في ظهر الكعبة مقابلاً للملتزم أربعة أذرع وخمس أصابع، وعرض الباب المسدود ثلاثة أذرع ونصف ذراع وطوله أكثر من خمسة أذرع، وأما الحجر ويسمى الحطيم والحظيرة فعلى هيئة نصف دائرة من صوب الشام والشمال بين الركن العراقي والشامي. وحده من جدار الكعبة الذي تحت الميزاب إلى جدار الحجر سبعة عشر ذرعاً وثماني أصابع منها سبعة أذرع أو ستة وشبر من أرض الكعبة، والباقي كان زر بالغنم سيدنا اسماعيل عليه السلام فأدخلوه في الحجر، وما بين بابي الحجر عشرون ذراعاً، وعرض جدار الحجر ذراعان، وذرع تدوير جدار الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً ومن خارجه أربعون ذراعاً وست أصابع، وارتفاع جدار الحجر ذراعان فذرع الطوق وحده حول الكعبة، والحجر مائة ذراع وثلاثة وعشرون ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً، وهذا على ما ذكره الإمام حسين بن محمد الآمدي في رسالة له في ذلك والعهدة عليه، وإنا لنرجو من رب البيت أن يوفقنا لزيارة بيته وتحقيق ذلك بلطفه وكرمه، و ﴿أن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لاَ تَشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ قيل مفسرة، والتفسير باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة فكأنه قيل أمرنا إبراهيم عليه السلام بالعبادة وذلك فيه معنى القول دون حروفه أو لأن بوأناه بمعنى قلنا له تبوأ، وقال ابن عطية: مخففة من الثقيلة وكأنه لتأويل بوأناه بأعلمناه؛ فلا يرد عليه أنه لا بد أن يتقدمها فعل تحقيق أو ترجيح.

وقال أبو حيان: الأولى أن تكون الناصبة وكما توصل بالمضارع توصل بالماضي والأمر والنهي انتهى، وحينئذ لا تنصب لفظاً، وقول أبي حاتم: لا بد من نصب الكاف على هذا رده في الدر المصون أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بي في العبادة شيئاً، والظاهر أن الخطاب لإبراهيم عليه السلام، ويؤيده قراءة عكرمة وأبي نهيك «أن لا يشرك» بالياء التحتية؛ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ.

﴿وطهر بيتي للطَّائفينَ وَالْقَائِمِينَ والرُّكَّع السُّجُود﴾ المراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية أي وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي عنده، ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء التطهير أو التبوئة على ما قيل: فكيف وقد اجتمعت أو للتنصيص على هذه الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية إذ اجتماع هذه الأركان ليس إلا في صلاتهم، ولم يعطف السجود لأنه من جنس الركوع في الخضوع، ويجوز أن يكون ﴿القائمين﴾ بمعنى المقيمين و ﴿الطائفين﴾ بمعنى الطارئين فيكون المراد بالركع السجود فقط المصلين إلا أن المتبادر من الطائفين ما ذكر أولاً ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ﴾ أي ناد فيهم ﴿بِالْحَجِّ﴾ بدعوة الحج والأمر به، أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: «لما فرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت قال: رب قد فرغت فقال: أذن في الناس بالحج قال: يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلي البلاغ قال: رب كيف أقول؟ قال: قل يا أيها الناس

كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فسمعه أهل السماء والأرض ألا ترى أنهم يجيبون من أقصى البلاد يلبون» وجاء في رواية أخرى عنه أنه عليه السلام صعد أبا قبيس فوضع أصبعيه في أذنيه ثم نادى يا أيها الناس إن الله تعالى كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وأول من أجاب أهل اليمن فليس حاج بحج من يومئذ إلى أن تقوم الساعة إلا من أجاب يومئذ إبراهيم عليه السلام، وفي رواية أنه قام على الحجر فنادى، وعن مجاهد أنه عليه السلام قام على الصفا، وفي رواية أخرى عنه أنه عليه السلام تطاول به المقام حتى كان كأطول جبل في الأرض فأذن بالحج، ويمكن الجمع بتكرر النداء، وأياً ما كان فالخطاب لإبراهيم عليه السلام. وزعم بعضهم أنه لنبينا ﷺ أمر بذلك في حجة الوداع وروي ذلك عن الحسن وهو خلاف الظاهر جداً ولا قرينة عليه، وقيل: يأباه كون السورة مكية وقد علمت ما فيه أولها.

وقرأ الحسن وابن محيصن و «آذن» بالمد والتخفيف أي أعلم كما قال البعض، وقال آخرون: المراد به هنا أوقع الإيذان لأنه على الأول كان ينبغي أن يتعدى بنفسه لا بفي فهو كقوله: «يجرح في عراقيبها نصلي».

وقال ابن عطية: قد تصحفت هذه القراءة على ابن جني فإنه حكي عنهما «وآذن» فعلاً ماضياً وجعله معطوفاً على ﴿بوأنا﴾ وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بتصحيف بل قد حكى ذلك أبو عبد الله الحسين بن خالويه في شواذ القراءات من جمعه، وقرأ ابن أبي إسحاق «بالحِج» بكسر الحاء حيث وقع، وقوله تعالى: ﴿يأتُوكَ﴾ جزم في جواب الأمر وهو ﴿أذن﴾ على القراءتين و ﴿طهر﴾ على الثالثة كما قال صاحب اللوامح: وإيقاع الإتيان على ضميره عليه السلام لكون ذلك بندائه، والمراد يأتوا بيتك، وقوله سبحانه: ﴿رِجَالاً﴾ في موضع الحال أي مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم.

وقرأ ابن أبي إسحاق «رُجالاً» بضم الراء والتخفيف وروي ذلك عن عكرمة والحسن وأبي مجلز، وهو اسم جمع لراجل كظؤار لطائر أو هو جمع نادر، وروي عن هؤلاء وابن عباس ومحمد بن جعفر ومجاهد رضي الله تعالى عنهم «رُجّالاً» بالضم والتشديد على أنه جمع راجل كتاجر وتجار، وعن عكرمة أنه قرأ «رُجَالَى» كسُكارى وهو جمع رجلان أو راجل، وعن ابن عباس وعطاء وابن حدير مثل ذلك إلا أنهم شددوا الجيم. وقوله تعالى: ﴿وعَلَى كلّ ضَامِرٍ﴾ عطف على ﴿رجالاً﴾ أي وركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة فهزله أو زاد هزاله، والضامر يطلق على المذكر والمؤنث، وعدل عن ركباناً الأخضر للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة.

وفي الآية دليل على جواز المشي والركوب في الحج، قال ابن العربي: واستدل علماؤنا بتقديم ﴿رجالا﴾ على أن المشي أفضل، وروي ذلك عن ابن عباس فقد أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبيهقي وجماعة أنه قال: ما آسى على شيء فاتني إلا أني لم أحج ماشياً حتى أدركني الكبر أسمع الله تعالى يقول: ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر﴾ فبدأ بالرجال قبل الركبان، و في ذلك حديث مرفوع فقد أخرج ابن سعد وابن مردويه وغيرهما عنه أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول إن للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة وللماشي بكل قدم سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل: يا رسول الله وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة مائة ألف حسنة» وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد أن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام حجّا وهما ماشيان.

وقال ابن الفرس: واستدل بعضهم بالآية على أنه لا يجب الحج على من في طريقه بحر ولا طريق له سواه لكونه لم يذكر في الآية. وتعقب بأنه استدلال ضعيف لأن مكة ليست على بحر وإنما يتوصل إليها على إحدى الحالين مشي

أو ركوب، وأيضاً في دلالة عدم الذكر على عدم الوجوب نظر، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لضامر أو لكل، والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل وركباناً على ضوامر يأتين، و ﴿كل﴾ هنا للتكثير لا للإحاطة وما قيل من أنها إذا أضيفت لنكرة لم يراع معناها إلا قليلاً ردوه بهذه الآية ونظائرها، وكذا ما قيل إنه يجوز إذا كانا في جملتين لأن هذه جملة واحدة.

وجوز أبو حيان أن يكون الضمير شاملاً لرجال و ﴿كل ضامر﴾ والجملة صفة لذلك على معنى الجماعات والرفاق. وتعقب بأنه يلزمه تغليب غير العقلاء عليهم وقد صرحوا بمنعه. نعم قرأ عبيد الله وأصحابه والضحاك وابن أبي عبلة «يأتون» واعتبار التغليب فيه على بابه، والمشهور جعل الضمير لرجالاً وركباناً فلا تغليب، وجوز جعل الضمير للناس والجملة استئنافية ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ أي طريق كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وأبي العالية؛ وهو في الأصل شقة يكتنفها جبلان ويستعمل في الطريق الواسع وكأنهم جردوه عن معنى السعة لأنه لا يناسب هنا بل لا يخلو من خلل ﴿عميق﴾ أي بعيد وبه فسره الجماعة أيضاً، وأصله البعيد سفلاً وهو غير مناسب هنا.

وقرأ ابن مسعود «معيق» قال الليث: يقال عميق معيق لتميم وأعمقت البئر وأمعقتها وقد عمقت ومعقت عماقة ومعاقة وهي بعيدة العمق والمعق ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ متعلق بيأتوك، وجوز أبو البقاء تعلقه . بأذن . أي ليحضروا ﴿منافع﴾ عظيمة الخطر كثيرة العدد فتنكيرها وإن لم يكن فيها تنوين للتعظيم والتكثير. ويجوز أن يكون للتنويع أي نوعاً من المنافع الدينية والدنيوية، وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين مما ذهب إليه جمع وروي ذلك عن ابن عباس، فقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن في ذلك اليوم والذبائح والتجارات، وخص مجاهد منافع الدنيا بالتجارة فهي جائزة للحاج من غير كراهة إذا لم تكن هي المقصودة من السفر، واعترض بأن نداءهم ودعوتهم لذلك مستبعد، وفيه نظر، على أنه إنما يتأتى على ما جوزه أبو البقاء، وعن الباقر رضي الله تعالى عنه تخصيص المنافع بالأخروية، وفي رواية عن ابن عباس تخصيصها بالدنيوية والتعميم أولى ﴿لهم﴾ في موضع الصفة لمنافع أي منافع كائنة لهم ﴿ويذكروا اسم الله﴾ عند النحر ﴿في أيامٍ معلوماتٍ﴾ أي مخصوصات وهي أيام النحر كما ذهب إليه جماعة منهم أبو يوسف ومحمد عليهما الرحمة وعدتها ثلاثة أيام يوم العيد ويومان بعده عندنا وعند الثوري وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب لما روي عن عمر وعلي وابن عمر وابن عباس.وأنس وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم أنهم قالوا: أيام النحر ثلاثة أفضلها أولها، وقد قالوه سماعاً لأن الرأي لا يهتدي إلى المقادير، وفي الأخبار التي يعول عليها تعارض فأخذنا بالمتيقن وهو الأقل، وقال الشافعي والحسن وعطاء: أربعة أيام يوم العيد وثلاثة بعده لقوله ﷺ: «أيام التشريق كلها أيام ذبح» وعند النخعي وقت النحر يومان، وعند ابن سيرين يوم واحد، وعند أبي سلمة وسليمان بن يسار الأضحى إلى هلال المحرم ولم نجد في ذلك مستنداً يعول عليه. واستدل بذكر الأيام على أن الذبح لا يجوز ليلاً، قال أبو حيان: وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي انتهى. والمذكور في كتب الأصحاب أنه يجوز الذبح إلا أنه يكره لاحتمال الغلط في ظلمة الليل.

وأما الاستدلال على عدم الجواز بذكر الأيام فكما ترى، وقيل الأيام المعلومات عشر ذي الحجة وإليه ذهب أبو حنيفة عليه الرحمة وروي عن ابن عباس والحسن وإبراهيم وقتادة؛ ولعل المراد بذكر اسمه تعالى على هذا ما قيل حمده وشكره عز وجل؛ وعلى الأول قول الذابح: بسم الله والله أكبر على ما روي عن قتادة، وذكر أنه يقال مع ذلك: اللهم منك ولك عن فلان، وسيأتي إن شاء الله تعالى قول آخر. ورجح كونه بمعنى الشكر بأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿على ما رزقهم من بهيمةِ الأنعام﴾.

واختار الزمخشري أن الذكر على بهيمة الأنعام أو مطلقاً على ما يقتضيه ظاهر كلام بعضهم كناية عن النحر، وذكر أنه دل بذلك على المقصود الأصلي من النحر وما يميزه عن العادات. وأومأ فيه إلى أن الأعمال الحجية كلها شرعت للذكر. وأنه قيل: ﴿**على ما رزقهم**﴾ إلى آخره تشويقاً في التقرب ببهيمة الأنعام المراد بها الإبل والبقر والضأن والمعز إلى الرازق وتهويناً عليهم في الإنفاق مع ما في ذلك من الإجمال والتفسير، وظرفية الأيام المعلومات على القول بأنها عشر ذي الحجة للنحر باعتبار أن يوم النحر منها، وقد يقال مثل ذلك على تقدير إيفاء الذكر على ما يتبادر منه ﴿**فكلوا منها**﴾ التفات إلى الخطاب والفاء فصيحة أي فاذكروا اسم الله تعالى على ضحاياكم فكلوا من لحومها، والأمر للإباحة بناء على أن الأكل كان منهياً عنه شرعاً. وقد قالوا: إن الأمر بعد المنع يقتضي الإباحة، ويدل على سبق النهي قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحي فكلوا منها وادّخروا» وقيل لأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون فيه أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم في الأكل منها، وهذا على ما قال الخفاجي مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه.

﴿**وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ**﴾ أي الذي أصابه بؤس أي شدة، وعن مجاهد وعكرمة تفسيره بالذي يمد كفيه إلى الناس يسأل ﴿**الفقيرَ**﴾ أي المحتاج، والأمر للندب عند الإمام على ذكره الخفاجي أيضاً، ويستحب كما في الهداية أن لا ينقص ما يطعم عن الثلث لأن الجهات الأكل والإطعام الثابتان بالآية والادخار الثابت بالحديث فتقسم الأضحية عليها أثلاثاً؛ وقال بعضهم: لا تحديد فيما يؤكل أو يطعم لإطلاق الآية، وأوجب الشافعية الإطعام وذهب قوم إلى أن الأكل من الأضحية واجب أيضاً. وتخصيص البائس الفقير بالإطعام لا ينفي جواز إطعام الغني، وقد يستدل على الجواز بالأمر الأول لإفادته جواز أكل الذابح ومتى جاز أكله وهو غني جاز أن يؤكله غنياً ﴿**ثُمَّ لِيقْضوا تفثهُمْ**﴾ هو في الأصل الوسخ والقذر، وعن قطرب تفث الرجل كثر وسخه في سفره، وقال أبو محمد البصري: التفث من التف وهو وسخ الأظفار وقلبت الفاء ثاء كما في مغثور، وفسره جمع هنا بالشعور والأظفار الزائدة ونحو ذلك، والقضاء في الأصل القطع والفصل وأريد به الإزالة مجازاً أي ليزيلوا ذلك بتقليم الأظفار والأخذ من الشوارب والعارضين كما في رواية عن ابن عباس ونتف الإبط وحلق الرأس والعانة، وقيل: القضاء مقابل الأداء والكلام على حذف مضاف أي ليقضوا إزالة تفثهم، والتعبير بذلك لأنه لمضي زمان إزالته عد الفعل قضاء لما فات. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهم أنه قال: التفث النسك كله من الوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار، والقضاء على هذا بمعنى الأداء كأنه قيل: ثم ليؤدوا نسكهم. وكان التعبير عن النسك بالتفث لما أنه يستدعي حصوله فإن الحجاج ما لم يحلوا شعث غبر وهو كما ترى، وقد يقال: إن المراد من إزالة التفث بالمعنى السابق قضاء المناسك كلها لأنها لا تكون إلا بعده فكأنه أراد أن قضاء التفث هو قضاء النسك كله بضرب من التجوز ويؤيده ما أخرجه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: قضاء التفث قضاء النسك كله.

﴿**وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ**﴾ ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم، وعن ابن عباس تخصيص ذلك بما ينذرونه من نحر البدن، وعن عكرمة هي مواجب الحج، وعن مجاهد ما وجب من الحج والهدي وما نذره الإنسان من شيء يكون في الحج فالنذر بمعنى الواجب مطلقاً مجازاً. وقرأ شعبة عن عاصم «وليوفوا» مشدداً ﴿**وَلْيَطَّوَّفُوا**﴾ طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج وبه تمام التحلل فإنه قرينة قضاء التفث بالمعنى السابق، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وجماعة بل قال الطبري وإن لم يسلم له: لا خلاف بين المتأولين في أنه طواف الإفاضة ويكون ذلك يوم النحر، وقيل: طواف الصدر وهو طواف الوداع وفي عدة من المناسك خلاف ﴿**بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾

أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن جرير والطبراني وغيرهم عن ابن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ «إنما سمى الله البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط» وإلى هذا ذهب ابن أبي نجيح وقتادة وقد قصده تبع ليهدمه فأصابه الفالج فأشير عليه أن يكف عنه، وقيل: له رب يمنعه فتركه وكساه وهو أول من كساه، وقصد أبرهة فأصابه ما أصابه، وأما الحجاج فلم يقصد التسلط على البيت لكن تحصن به ابن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه، ولعل ما وقع من القرامطة وإن أخذوا الحجر الأسود وبقي عندهم سنين من هذا القبيل، ويقال فيما يكون آخر الزمان من هدم الحبشة إياه وإلقاء أحجاره في البحر إن صح: إن ذلك من أشراط الساعة التي لا ترد نقضاً على الأمور التي قيل باطرادها، وقيل: في الجواب غير ذلك. وعن مجاهد أنه إنما سمي بذلك لأنه لم يملك موضعه قط، وفي رواية أخرى عنه أن ذلك لأنه أعتق من الغرق زمان الطوفان، وعن ابن جبير أن العتيق بمعنى الجيد من قولهم: عتاق الخيل وعتاق الطير، وقيل: فقيل بمعنى مفعل أي معتق رقاب المذنبين ونسبة الإعتاق إليه مجاز لأنه تعالى يعتق رقابهم بسبب الطواف به، وقال الحسن وابن زيد: العتيق القديم فإنه أول بيت وضع للناس وهذا هو المتبادر إلا أنك تعلم أنه إذا صح الحديث لا يعدل عنه، ثم إن حفظه من الجبابرة وبقاءه الدهر الطويل معظماً يؤتى من كل فج عميق بمحض إرادة الله تعالى المبنية على الحكم الباهرة.

وبعض الملحدين زعموا أنه بنى في شرف زحل والطالع الدلو أحد بيتيه وله مناظرات سعيدة فاقتضى ذلك حفظه من الجبابرة وبقاءه معظماً الدهر الطويل ويسمونه لذلك بيت زحل،وقد ضلوا بذلك ضلالاً بعيداً، وسنبين إن شاء الله تعالى خطأ من يقول بتأثير الطالع أتم بيان والله تعالى المستعان

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ
بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ
وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى
ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ
فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ
أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا
خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا
لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ
أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر، وهذا وأمثاله من أسماء الإشارة يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهي كلام واحد، والمشهور من ذلك هذا كقوله تعالى: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ [ص: ٥٥] وكقول زهير وقد تقدم له وصف هرم بالكرم والشجاعة:

هذا وليس كمن يعيا بخطبته ... وسط النديِّ إذا ما ناطق نطقا

واختيار ﴿ذلك﴾ هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته وهو من الاقتضاب القريب من التخلص لملاءمة ما بعده لما قبله، وقيل: هو في موضع نصب بفعل محذوف أي امتثلوا ذلك ﴿ومن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ﴾ جمع حرمة وهو ما يحترم شرعاً، والمراد بها جميع التكليفات من مناسك الحج وغيرها، وتعظيمها بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه، وقال جمع: هي ما أمر به من المناسك، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي جميع المناهي في الحج فسوق وجدال وجماع وصيد، وتعظيمها أن لا يحوم حولها، وعن ابن زيد هي خمس المشعر الحرام والمسجد الحرام، والبيت الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل ﴿فَهُوَ﴾ أي فالتعظيم ﴿خَيْرٌ لَهُ﴾ من غيره على أن ﴿خير﴾ اسم تفضيل. وقال أبو حيان: الظاهر أنه ليس المراد به التفضيل فلا يحتاج لتقدير متعلق، ومعنى كونه خيراً له ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أنه يثاب عليه يوم القيامة، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير ﴿من﴾ لتشريفه والإشعار بعلة الحكم.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَمُ﴾ أي ذبحها وأكلها لأن ذاتها لا توصف بحل وحرمة، والمراد بها الأزواج الثمانية على الإطلاق، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه استثناء متصل كما اختاره الأكثرون منها على أن ﴿ما﴾ عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى. وجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً بناء على أن ﴿ما﴾ عبارة عما حرم في قوله سبحانه: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ [المائدة: ٣] الآية، وفيه ما ليس من جنس الأنعام، والفعل على الوجهين لم يرد منه لاستقبال لسبق تلاوة آية التحريم، وكأن التعبير بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية لمزيد الاعتناء، وقيل: التعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار التجددي المناسب للمقام، والجملة معترضة مقررة لما قبلها من الأمر بالأكل والإطعام ودافعة لما عسى يتوهم أن الإحرام يحرم ذلك كما يحرم الصيد ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ أي القذر ﴿مِنَ الأَوْثَانِ﴾ أي الذي هو الأوثان على أن من بيانية.

وفي تعريف ﴿الرجس﴾ بلام الجنس مع الإبهام والتعيين وإيقاع الاجتناب على الذات دون العبادة ما لا يخفى من المبالغة في التنفير عن عبادتها، وقيل: من لابتداء الغاية فكأنه تعالى أمرهم باجتناب الرجس عاماً ثم عين سبحانه

لهم مبدأه الذي منه يلحقهم إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس، وفي البحر يمكن أن تكون للتبعيض بأن يعني بالرجس عبادة الأوثان وقد روي ذلك عن ابن عباس وابن جريج فكأنه قيل فاجتنبوا من الأوثان الرجس وهو العبادة لأن المحرم منها إنما هو العبادة ألا ترى أنه قد يتصور استعمال الوثن في بناء وغير ذلك مما لم يحرمه الشرع فكان للوثن جهات، منها عبادته وهو المأمور باجتنابه وعبادته بعض جهاته فقول ابن عطية: إن من جعل من للتبعيض قلب المعنى وأفسده ليس في محله انتهى. ولا يخفى ما في كلا الوجهين الابتداء والتبعيض من التكلف المستغني عنه، وهاهنا احتمال آخر ستعلمه مع ما فيه إن شاء الله تعالى قريباً، والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفيده قوله تعالى: ﴿**ومن يعظم**﴾ الخ من جوب مراعاة الحرمات والاجتناب عن هتكها.

وذكر أن بالاستثناء حسن التخلص إلى ذلك وهو السر في عدم حمل الأنعام على ما ذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة ليستغني عنه إذ ليس فيها ما حرم لعارض فكأنه قيل: ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والأنعام ليست من الحرمات فإنها محللة لكم إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه فإنه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التي يجب الاجتناب عنها وهو عبادة الأوثان، وقيل: الظاهر أن ما بعد الفاء متسبب عن قوله تعالى: ﴿**أحلت لكم الأنعام**﴾ فإن ذلك نعمة عظيمة تستدعي الشكر لله تعالى لا الكفر، والإشراك بل لا يبعد أن يكون المعنى فاجتنبوا الرجس من أجل الأوثان على أن ﴿**من**﴾ سببية وهو تخصيص لما أهل به لغير الله تعالى بالذكر فيتسبب عن قوله تعالى: ﴿**إلا ما يتلى**﴾ ويؤيده قوله تعالى: فيما بعد ﴿**غير مشركين به**﴾ فإنه إذا حمل على ما حملوه كان تكراراً انتهى. وأورد على ما ادعى ظهوره أن إحلال الأنعام وإن كان من النعم العظام إلا أنه من الأمور الشرعية دون الأدلة الخارجية التي يعرف بها التوحيد وبطلان الشرك فلا يحسن اعتبار تسبب اجتناب الأوثان عنه. وأما ما ادعى عدم بعده فبعيد جداً وإنكار ذلك مكابرة فتأمل.

وقوله تعالى ﴿**وَاجتَنِبوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾ تعميم بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأس الزور لما فيها من ادعاء الاستحقاق كأنه تعالى لما حث على تعظيم الحرمات اتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك، ولم يعطف قول الزور على الرجس بل أعاد العامل لمزيد الاعتناء، والمراد من الزور مطلق الكذب وهو من الزور بمعنى الانحراف فإن الكذب منحرف عن الواقع والإضافة بيانية، وقيل: هو أمر باجتناب شهادة الزور لما أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه والطبراني وغيرهم عن ابن مسعود أنه ﷺ صلى صلاة الصبح فلما انصرف قائماً قال: عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى ثلاث مرات ثم تلا هذه الآية.

وتعقب بأنه لا نص فيما ذكر من الخبر مع ما في سنده في بعض الطرق من المقال على التخصيص لجواز بقاء الآية على العموم وتلاوتها لشمولها لذلك، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال يعني بقول الزور الشرك بالكلام وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت فيقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك وهو قول بالتخصيص. ولا يخفى أن التعميم أو منه وإن لاءم المقام كتخصيص بعضهم ذلك بقول المشركين هذا حلال وهذا حرام ﴿**حنفاء لله**﴾ مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق مخلصين له تعالى ﴿**غير مشركين به**﴾ أي شيئاً من الأشياء فيدخل في ذلك الأوثان دخولاً أولياً وهما حالان مؤكدتان من واو فاجتنبوا. وجوز أن يكون حالاً من واو ﴿**واجتنبوا**﴾ وأخر التبري عن التولي ليتصل بقوله تعالى: ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء**﴾ وهي جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب من الإشراك، وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قبح الإشراك، وقد شبه الإيمان بالسماء لعلوه

والإشراك بالسقوط منها فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفرة وهذا السقوط إن كان في حق المرتد فظاهره وهو في حق غيره باعتبار الفطرة وجعل التمكن والقوة بمنزلة الفعل كما قيل في قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿فتخطفه الطير﴾ فإن الأهواء المردية توزع أفكاره وفي ذلك تشبيه الأفكار الموزعة بخطف جوارح الطير وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ [الزمر: ٢٩] وأصل الخطف الاختلاس بسرعة.

وقرأ نافع «فتخَطَّفه» بفتح الخاء والطاء مشددة وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش «فتخِطِّفه» بكسر التاء والخاء والطاء مشددة، وعن الحسن كذلك إلا أنه فتح الطاء مشددة. وقرأ الأعمش أيضاً «تَخْطَفَه» بغير فاء وإسكان الخاء وفتح الطاء مخففة، والجملة على هذه القراءة في موضع الحال، وأما على القراءات الأول فالفاء للعطف وما بعدها عطف على ﴿خرَّ﴾ وفي إيثار المضارع إشعار باستحضار تلك الحالة العجيبة في مشاهدة المخاطب تعجيباً له، وجوز أبو البقاء أن يكون الكلام بتقدير فهو يخطفه والعطف من عطف الجملة على الجملة ﴿أو تهوي به الريح﴾ أي تسقطه وتقذفه. وقرأ أبو جعفر وأبو رجاء «الرياح» ﴿في مكان سحيق﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة، وفي ذلك تشبيه الشيطان المضل بالريح المهوية وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾ [مريم: ٨٣] فالتشبيه في الآية مفرق. والظاهر أن ﴿تهوي﴾ عطف على «تخطف» وأو للتقسيم على معنى أن مهلكه إما هوى يتفرق به في شعب الخسار أو شيطان يطوح به في مهمه البوار، وفرق بين خاطر النفس والشيطان فلا يرد ما قاله ابن المنير من أن الأفكار من نتائج وساوس الشيطان، والآية سيقت لجعلهما شيئين، وفي تفسير القاضي أنها للتخيير على معنى أنت مخير بين أن تشبه المشرك بمن خر من السماء فتخطفه الطير وبين من خر من السماء فتهوي به الريح من مكان سحيق أو للتنويع على معنى أن المشبه به نوعان والمشبه بالنوع الأول الذي توزع لحمه في بطون جوارح الطير المشرك الذي لا خلاص له من الشرك ولا نجاة أصلاً، والمشبه بالنوع الثاني الذي رمته الريح في المهاوي المشرك الذي يرجى خلاصه على بعد، وقال ابن المنير: إن الكافر قسمان لا غير، مذبذب متمادي على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة وهذا مشبه بمن اختطفه الطير وتوزعته فلا يستولي طائر على قطعة منه إلا انتهبها منه آخر وتلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه وترك ما كان عليه، ومشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لم يكع ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه فهو فرح مبتهج بضلالته وهذا مشبه في قراره على الكفر باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل هو أبعد الاحياز عن السماء فاستقر فيه انتهى، ولا يخفى أن ما ذكرناه أوفق بالظاهر.

وجوز غير واحد أن يكون من التشبيهات المركبة فكأنه سبحانه قال: من أشرك بالله تعالى فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق قطعاً في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وجعل في الكشف أو على هذا للتخير وليس بمتعين فيما يظهر، وعلى الوجهين تفريق التشبيه وتركيبه في الآية تشبيهان.

وذكر الطيبي أن فيها على التركيب تشبيهين، و ﴿تهوي﴾ عطف على ﴿خر﴾ وعلى التفريق تشبيهاً واحداً و ﴿تهوي﴾ عطف على «تخطف» وزعم أن في عبارة الكشاف ما يؤذن بذلك وهو غير مسلم ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك أو امتثلوا ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ﴾ أي البدن الهدايا كما روي عن ابن عباس ومجاهد وجماعة وهي جمع شعيرة

أو شعارة بمعنى العلامة كالشعار، وأطلقت على البدن الهدايا لأنها من معالم الحج أو علامات طاعته تعالى وهدايته.

وقال الراغب: لأنها تشعر أي تعلم بأن تدمي بشعيرة أي حديدة يشعر بها، ووجه الإضافة على الأوجه الثلاثة لا يخفى، وتعظيمها أن تختار حساناً سماناً غالية الأثمان، روي أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب، وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار وقد سأل النبي ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال: بل اهدها، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وبجلالها، وقال زيد بن أسلم: الشعائر ست الصفا والمروة والبدن والجمار والمسجد الحرام وعرفة والركن، وتعظيمها إتمام ما يفعل بها، وقال ابن عمر والحسن ومالك وابن زيد: الشعائر مواضع الحج كلها من منى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك وهو نحو قول زيد.

وقيل: هي شرائع دينه تعالى وتعظيمها التزامها، والجمهور على الأول وهو أوفق لما بعد، و ﴿من﴾ إما شرطية أو موصولة وعلى التقديرين لا بد في قوله تعالى: ﴿فإنَّها منْ تَقوَى القُلُوب﴾ من ضمير يعود إليها أو ما يقوم مقامه فقيل إن التقدير فإن تعظيمها الخ، والتعظيم مصدر مضاف إلى مفعوله ولا بد له من فاعل وهو ليس إلا ضميراً يعود إلى ﴿من﴾ فكأنه قيل فإن تعظيمه إياها، و ﴿من﴾ تحتمل أن تكون للتعليل أي فإن تعظيمها لأجل تقوى القلوب وأن تكون لابتداء الغاية أي فإن تعظيمها ناشىء من تقوى القلوب، وتقدير هذا المضاف واجب على ما قيل من حيث إن الشعائر نفسها لا يصح الإخبار عنها بأنها من التقوى بأي معنى كانت ﴿من﴾. وقال الزمخشري: التقدير فإن تعظيمها من أفعال ذي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بدّ من راجع من الجزاء إلى ﴿من﴾ ليرتبط به اهـ.

وتعقبه أبو حيان بأن ما قدره عار من راجع إلى ﴿من﴾ ولذا لما سلك جمع مسلكه في تقدير المضافات قبل التقدير فإن تعظيمها منه من أفعال الخ أو فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب منهم فجاؤوا بضمير مجرور عائد إلى ﴿من﴾ في آخر الكلام أو في أثنائه، بعض من سلك ذلك لم يقدر منه ولا منهم لكن التزم جعل اللام في ﴿القلوب﴾ بدلاً من الضمير المضاف إليه على رأي الكوفيين للربط أي تقوى قلوبهم. والدماميني جعل الرابط في تقدير الزمخشري فاعل المصدر المحذوف لفهم المعنى فلا يكون ما قدره عارياً عن الراجع إلى ﴿من﴾ كما زعمه أبو حيان فإن المحذوف المفهوم بمنزلة المذكور.

وقال صاحب الكشف: في الانتصار له أيضاً أراد أنه على ما قدره يكون عموم ذوي تقوى القلوب بمنزلة الضمير فتقدير منه كما فعل البيضاوي ليس بالوجه. واعترض صاحب التقريب تقدير المضافين الأخيرين أعني أفعال وذوي بأنه إنما يحتاج إليه إذا جعل ﴿من﴾ للتبعيض وأما إذا جعل للابتداء فلا إذ المعنى حينئذ فإن تعظيمها ناشىء من تقوى القلوب وهو قول بأحد الوجهين اللذين سمعتهما أولاً، ولم يرتض ذلك صاحب الكشف قال: إن إضمار الأفعال لأن المعنى أن التعظيم باب من التقوى ومن أعظم أبوابها لا أن التعظيم صادر من ذوي تقوى. ومنه يظهر أن الحمل على أن التعظيم ناشىء من تقوى القلوب والاعتراض بأن قول الزمخشري: إنما يستقيم إذا حمل على التبعيض ليس على ما ينبغي على أنه حينئذ إن قدر من تقوى قلوبهم على المذهب الكوفي أو من تقوى القلوب منهم اتسع الخرق على الراقع، ثم التقوى إن جعلت متناولة للأفعال والتروك على العرف الشرعي فالتعظيم بعض البتة وإن جعلت خاصة بالتروك فمنشأ التعظيم منها غير لائح إلا على التجوز انتهى.

واعترض بأن دعواه أن المعنى على أن التعظيم باب من التقوى دون أن التعظيم صادر من ذي تقوى دعوى بلا شاهد. وبأنه لا تظهر الدلالة على أنه من أعظم أبواب التقوى كما ذكره، وبأن القول بعدم الاحتياج إلى الإضمار على تقدير أن يكون التعظيم بعضاً من التقوى صلح لا يرضى به الخصم. وبأنه إذا صح الكلام على التجوز لا يستقيم قول الزمخشري: لا يستقيم الخ.

وتعقب بأنه غير وارد، أما الأول فلأن السياق للتحريض على تعظيم الشعائر وهو يقتضي عده من التقوى بل من أعظمها وكونه ناشئاً منها لا يقتضي كونه منها بل ربما يشعر بخلافه، وأما الثاني فلأن الدلالة على الأعظمية مفهومة من السياق كما إذا قلت: هذا من أفعال المتقين والعفو من شيم الكرام والظلم من شيم النفوس كما يشهد به الذوق، وأما الثالث فلأنه لم يدع عدم الاحتياج إلى الإضمار على تقدير كون التعظيم بعضاً بل يقول الرابط العموم كما قال أولاً، وأما الرابع فلأن صحة الكلام بدون تقدير على التجوز لكونه خفياً في قوة الخطأ إذ لا قرينة عليه والتبعيض متبادر منه فلا غبار إلا على نظر المعترض، وأقول: لا يخفى أنه كلما كان التقدير أقل كان أولى فيكون قول من قال: التقدير فإن تعظيمها من تقوى القلوب أولى من قول من قال: التقدير فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب. ومن في ذلك للتبعيض، وما يقتضيه السياق من تعظيم أمر هذا التعظيم يفهم من جعله بعض تقوى القلوب بناء على أن تقييد التقوى بالقلوب للإشارة إلى أن التقوى قسمان: تقوى القلوب والمراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق، وتقوى الأعضاء والمراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيراً ما تخشع أعضاؤه وقلبه ساه لاه. والتركيب أشبه التراكيب بقولهم: العفو من شيم الكرام فمتى فهم منه كون العفو من أعظم أبواب الشيم فليفهم من ذلك كون التعظيم من أعظم أبواب التقوى والفرق تحكم. ولعل كون الإضافة لهذه الإشارة أولى من كونها لأن القلوب منشأ التقوى والفجور والآمرة بهما فتدبر. ومن الناس من لم يوجب تقدر التعظيم وأرجع ضمير ﴿فإنها﴾ إلى الحرمة أو الخصلة كما قيل نحو ذلك في قوله ﷺ: «من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت» أو إلى مصدر مؤنث مفهوم من ﴿يعظم﴾ أي التعظيمة.

واعترض هذا بأن المصدر الذي تضمنه الفعل لا يؤنث إلا إذا اشتهر تأنيثه كرحمة وهذا ليس كذلك ونظر فيه. نعم إن اعتبار ذلك مما لا يستلذه الذوق السليم، ومنه يعلم حال اعتبار التعظيمات بصيغة الجمع، على أنه قيل عليه: إنه يوهم أن التعظيمة الواحدة ليست من التقوى، ولا يدفعه أنه لا اعتبار بالمفهوم أو أن ذلك من مقابلة الجمع بالجمع كما لا يخفى.

وإذا اعتبر المذهب الكوفي في لام ﴿القلوب﴾ لم يحتج في الآية إلى إضمار شيء أصلاً. وذهب بعض أهل الكمال أن إلى الجزاء محذوف تقديره فهم متقون حقاً لدلالة التعليل القائم مقامه عليه. وتعقب بأن الحذف خلاف الأصل وما ذكر صالح للجزائية باعتبار الأعلام والأخبار كما عرف في أمثاله، وأنت تعلم أن هذا التقدير ينساق إلى الذهن ومثله كثير في الكتاب الجليل. وقرىء «القلوبُ» بالرفع على أنه فاعل بالمصدر الذي هو ﴿تقوى﴾، واستدل الشيعة ومن يحذو حذوهم بالآية على مشروعية تعظيم قبور الأئمة وسائر الصالحين بإيقاد السرج عليها وتعليق مصنوعات الذهب والفضة ونحو ذلك مما فاقوا به عبدة الأصنام ولا يخفى ما فيه ﴿لكم فيها﴾ أي في الشعائر بالمعنى السابق ﴿منافع﴾ هي درها ونسلها وصوفها وركوب ظهورها ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت أن يسميها ويوجبها هدياً وحينئذ ليس لهم شيء من منافعها قاله ابن عباس في رواية مقسم ومجاهد وقتادة والضحاك، وكذا عند الإمام أبي حنيفة فإن المهدي عنده بعد التسمية والإيجاب لا يملك منافع الهدي أصلاً لأنه لو ملك ذلك لجاز له أن

يؤجره للركوب وليس له ذلك اتفاقاً، نعم يجوز له الانتفاع عند الضرورة وعليه يحمل ما روي عن أبي هريرة أنه ﷺ مر برجل يسوق هديه وهو في جهاد فقال عليه الصلاة والسلام: اركبها فقال يا رسول الله: إنها هدي فقال: اركبها ويلك.

وقال عطاء: منافع الهدايا بعد إيجابها وتسميتها هدياً أن تركب ويشرب لبنها عند الحاجة إلى أجل مسمى وهو وقت أن تنحر وإلى ذلك ذهب الشافعي، فعن جابر أنه ﷺ قال: «اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهراً» واعترض على ما تقدم بأن مولى أم الولد يملك الانتفاع بها وليس له أن يبيعها فلم لا يجوز أن يكون الهدي كذلك لا يملك المهدي بيعه وإجارته ويملك الانتفاع به بغير ذلك، وقيل الأجل المسمى وقت أن تشعر فلا تركب حينئذ إلا عند الضرورة.

وروى أبو رزين عن ابن عباس الأجل المسمى وقت الخروج من مكة، وفي رواية أخرى عنه وقت الخروج والانتقال من هذه الشعائر إلى غيرها، وقيل الأجل المسمى يوم القيامة ولا يخفى ضعفه. ﴿ثم محلها﴾ أي وجوب نحرها على أن يكون محل مصدراً ميماً بمعنى الوجوب من حل الدين إذا وجب أو وقت نحرها على أن يكون اسم زمان، وهو على الاحتمالين معطوف على ﴿منافع﴾ والكلام على تقدير مضاف.

وقوله تعالى: ﴿إلى البيت العتيق﴾ في موضع الحال أي منتهية إلى البيت، والمراد به ما يليه بعلاقة المجاورة فإنها لا تنتهي إلى البيت نفسه وإنما تنتهي إلى ما يقرب منه، وقد جعلت منى منحراً ففي الحديث «كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر» وقال القفال: هذا في الهدايا التي تبلغ منى وأما الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فمنحره موضعه، وقالت الإمامية: منحر هدي الحج منى ومنحر هدي العمرة المفردة مكة قبالة الكعبة بالحزورة، و ﴿ثم﴾ للتراخي الزماني أو الرتبي أي لكم فيها منافع دنيوية إلى أجل مسمى وبعده لكم منفعة دينية مقتضية للثواب الأخروي وهو وجوب نحرها أو وقت نحرها، وفي ذلك مبالغة في كون نفس النحر منفعة، والتراخي الرتبي ظاهر وأما التراخي الزماني فهو باعتبار أول زمان الثبوت فلا تغفل.

والمعنى على القول بأن المراد من الشعائر مواضع الحج لكم في تلك المواضع منافع بالأجر والثواب الحاصل بأداء ما يلزم أداؤه فيها إلى أجل مسمى هو انقضاء أيام الحج ثم محلها أي محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أي منته إليه بأن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد أداء ما يلزم في هاتيك المواضع فإضافة المحل إليها لأدنى ملابسة؛ وروي نحو ذلك عن مالك في الموطأ أو لكم فيها منافع التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة أو لكم منافع دنيوية وأخروية إلى وقت المراجعة الخ، وهكذا يقال على ما روي عن زيد بن أسلم من تخصيصها بالست، وعلى القول بأن المراد بها شرائع الدين لكم في مراعاتها منافع دنيوية وأخروية إلى انقطاع التكليف ثم محلها الذي توصل إليه إذا روعيت منته إلى البيت العتيق وهو الجنة أو محل رعايتها منته إلى البيت العتيق وهو معبد للملائكة عليهم السلام، وكونه منتهى لأنه ترفع إليه الأعمال، وقيل كون محلها منتهياً إلى البيت العتيق أي الكعبة كما هو المتبادر باعتبار أن محل بعضها كالصلاة والحج منته إلى ذلك، وقيل: غير ذلك والكل مما لا ينبغي أن يخرج عليه كلام أدنى الناس فضلاً عن كلام رب العالمين، وأهون ما قيل: إن الكلام على هاتيك الروايات متصل بقوله تعالى: ﴿وأحلت لكم الأنعام﴾ وضمير ﴿فيها﴾ لها ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ عطف على قوله سبحانه: ﴿لكم فيها منافع﴾ أو على قوله تعالى: ﴿ومن يعظم﴾ الخ وما في البين اعتراض على ما قيل، وكأني بك تختار الأول؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام عليه عند نظير الآية، والمنسك موضع

النسك إذا كان اسم مكان أو النسك إذا كان مصدراً، وفسره مجاهد هنا بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى فجعله مصدراً وحمل النسك على عبادة خاصة وهو أحد استعمالاته وإن كان في الأصل بمعنى العبادة مطلقاً وشاع في أعمال الحج. وقال الفراء: المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد في خير وبر وفسره هنا بالعيد، وقال قتادة: هو الحج. وقال ابن عرفة ﴿منسكا﴾ أي مذهباً من طاعته تعالى.

واختار الزمخشري ما روي عن مجاهد وهو الأوفق أي شرع لكل أهل دين أن يذبحوا له تعالى على وجه التقرب لا لبعض منهم، فتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص. وقرأ الأخوان وابن سعدان وأبو حاتم عن أبي عمرو ويونس ومحبوب وعبد الوارث «مَنْسِكاً» بكسر السين، قال ابن عطية وهو في هذا شاذ ولا يجوز في القياس ويشبه[1] أن يكون الكسائي سمعه من العرب، قال الأزهري: الفتح والكسر فيه لغتان مسموعتان ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾ خاصة دون غيره تعالى كما يفهمه السياق والسباق، وفي تعليل الجعل بذلك فقط تنبيه على أن المقصود الأهم من شرعية النسك ذكره عز وجل ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند ذبحها، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الأنعام فلا يجوز بالخيل ونحوها. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قيل للتعليل وما بعدها علة لتخصيص اسم الله تعالى بالذكر، والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيته عز وجل، وقيل: الفاء الأولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها أيضاً فإن جعله تعالى لكل أمة من الأمم منسكاً يدل على وحدانيته جل وعلا، ولا يخفى ما في وجه الدلالة من الخفاء، وتكلف بعضهم في بيانه بأن شرع المنسك لكل أمة ليذكروا اسم الله تعالى يقتضي أن يكون سبحانه إلهاً لهم لئلا يلزم السفه ويلزم من كونه تعالى إلهاً لهم أن يكون عز وجل واحداً لأنه لا يستحق الألوهية أصلاً من لم يتفرد بها فإن الشركة نقص وهو كما ترى، وفي الكشف لما كانت العلة لقوله سبحانه: ﴿لكل أمة جعلنا منسكا﴾ ذكر اسمه تعالى على المناسك ومعلوم أن الذكر إنما يكون ذكراً عند مواطأة القلب اللسان وذكر القلب إشعار بالتعظيم جاء قوله تعالى: ﴿فله أسلموا﴾ مسبباً عنه تسبباً حسناً. واعترض بقوله تعالى: ﴿فإلهكم إله واحد﴾ لأنه يؤكد الأمر بالإخلاص ويقوي السبب تقوية بالغة ويؤكد أيضاً كون الذكر هو المقصود من شرعية النسك انتهى، وهو يشعر بأن الفاء الأولى للاعتراض والفاء الثانية للترتيب. ولعل ما ذكر أولاً أظهر، وأما ما قيل من أن الفاء الأولى للتعليل والمعلل محذوف والمعنى إنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح لا لتعدد الإله فإن إلهكم إله واحد فمما لا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى الجليل كما لا يخفى، وإنما قيل: ﴿إله واحد﴾ ولم يقل واحد لما أن المراد بيان أنه تعالى واحد في ذاته كما أنه واحد في إلهيته؛ وتقديم الجار على الأمر للقصر، والمراد أخلصوا له تعالى الذكر خاصة واجعلوه لوجهه سالماً خالصاً لا تشوبه بإشراك ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ خطاب له ﷺ، والمخبتون المطمئنون كما روي عن مجاهد أو المتواضعون كما روي عن الضحاك. وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون الناس وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقال سفيان: هم الراضون بقضاء الله. وقال الكلبي: هم المجتهدون في العبارة، وهو من الإخبات وأصله كما قال الراغب: نزول الخبت وهو المطمئن من الأرض، ولا يخفى حسن وقع ذلك هنا من حيث إن نزول الخبت مناسب للحاج ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ﴾ أي خافت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ منه عز وجل لإشراق أشعة الجلال عليها ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من مشاق التكاليف ومؤونات النوائب كالأمراض والمحن والغربة عن الأوطان ولا يخفى حسن موقع ذلك هنا أيضاً، والظاهر أن الصبر

(١) فيه أن القراءة بالرواية فلا تغفل اهـ منه.

على المكاره مطلقاً ممدوح. وقال الرازي: يجب الصبر على ما كان من قبل الله تعالى، وأما على ما يكون من قبل الظلمة فغير واجب بل يجب دفعه على من يمكنه ذلك ولو بالقتال انتهى وفيه نظر ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها، ولعل ذكر ذلك هنا لأن السفر مظنة التقصير في إقامة الصلاة. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وأبو عمرو في رواية «الصلاةَ» بالنصب على المفعولية لمقيمي وحذفت النون منه تخفيفاً كما في بيت الكتاب:

الحافظو عورة العشيرة لا ... تأتيهم من ورائهم نطف(١)

بنصب عورة ونظير ذلك قوله:

إن الذي حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم مالك

وقوله:

ابني كليب إن عميّ اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وقرأ ابن مسعود والأعمش «والمقيمين الصلاة» بإثبات النون ونصب الصلاة على الأصل، وقرأ الضحاك «والمقيم الصلاة» بالإفراد والإضافة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير ومن ذلك إهداء الهدايا التي يغالون فيها ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى، والبدن جمع بدنة وهي كما قال الجوهري ناقة أو بقرة تنحر بمكة، وفي القاموس هي من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة وتطلق على الذكر والأنثى وسميت بذلك لعظم بدنها لأنهم كانوا يسمنونها ثم يهدونها، وكونها من النوعين قول معظم أئمة اللغة وهو مذهب الحنفية فلو ندر نحر بدنة يجزئه نحر بقرة عندهم وهو قول عطاء وسعيد بن المسيب، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لا تعلم البدن إلا من الإبل والبقر.

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله تعالى عنه كنا ننحر البدنة عن سبعة فقيل والبقرة فقال: وهل هي إلا من البدن، وقال صاحب البارع من اللغويين: إنها لا تطلق على ما يكون من البقر، وروي ذلك عن مجاهد والحسن وهو مذهب الشافعية فلا يجزى عندهم من نذر نحر بدنة نحر بقرة، وأيد بما رواه أبو داود عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» فإن العطف يقتضي المغايرة وفيما يأتي آخراً تأييد لذلك أيضاً، والظاهر أن استعمال البدنة فيما يكون من الإبل أكثر وإن كان أمر الإجزاء متحداً.

ولعل مراد جابر بقوله في البقرة وهل هي إلا من البدن أن حكمها حكمها وإلا فيبعد جهل السائل بالمدلول اللغوي ليرد عليه بذلك، ويمكن أن يقال فيما روي عن ابن عمر: إن مراده بالبدن فيه البدن الشرعية، ولعله إذا قيل باشتراكها بين ما يكون من النوعين يحكم العرف أو نحوه في التعيين فيما إذا نذر الشخص بدنة ويشير إلى ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن يعقوب الرياحي عن أبيه قال: أوصى إليّ رجل وأوصى ببدنة فأتيت ابن عباس فقلت له: إن رجلاً أوصى إليّ وأوصى ببدنة فهل تجزي عني بقرة؟ قال: نعم ثم قال: ممن صاحبكم؟ فقلت: من رياح قال: ومتى اقتنى بنو رياح البقر إلى الإبل وهم صاحبكم إنما البقر لأسد وعبد القيس فتدبر.

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وشيبة وعيسى «البُدُنْ» بضم الباء والدال، وقيل وهو الأصل كخشب وخشبة وإسكان الدال تخفيف منه، ورويت هذه القراءة عن نافع وأبي جعفر.

---

(١) التلطخ بالعيب اهـ منه.

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً بضم الباء والدال وتشديد النون فاحتمل أن يكون اسماً مفرداً بني على فعل كعتل واحتمل أن يكون التشديد من التضعيف الجائز في الوقف وأجرى الوصل مجرى الوقف، والجمهور على نصب ﴿البدن﴾ على الاشتغال أي وجعلنا البدن جعلناها، وقرىء بالرفع على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿لكم﴾ ظرف متعلق بالجعل، و ﴿من شعائر الله﴾ في موضع المفعول الثاني له، وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي نفع في الدنيا وأجر في الآخرة كما روي عن ابن عباس، وعن السدي الاقتصار على الأجر جملة مستأنفة مقررة لما قبلها.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها بسم الله والله أكبر اللهم منك ولك. وقد أخرج ذلك جماعة عن ابن عباس، وفي البحر بأن يقول عند النحر: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك.

﴿صَوَافَّ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن فهو جمع صافة ومفعوله مقدر. وقرأ ابن عباس وابن عمر وابن مسعود والباقر ومجاهد وقتادة وعطاء والكلبي والأعمش بخلاف عنه «صوافن» بالنون جمع صافنة وهو إما من صفن الرجل إذا صف قدميه فيكون بمعنى صواف أو من صفن الفرس إذا قام على ثلاث وطرف سنبك الرابعة لأن البدنة عند الذبح تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وعقلها عند النحر سنّة، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ. والأكثرون على عقل اليد اليسرى، فقد أخرج ابن أبي شيبة[1] عن ابن سابط رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يعقلون يد البدنة اليسرى وينحرونها قائمة على ما بقي من قوائمها. وأخرج عن الحسن قيل له: كيف تنحر البدنة؟ قال: تعقل يدها اليسرى إذا أريد نحرها، وذهب بعض إلى عقل اليمنى؛ فقد أخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان ينحرها وهي معقولة يدها اليمنى، وقيل لا فرق بين عقل اليسرى وعقل اليمنى، فقد أخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن عطاء قال: اعقل أي اليدين شئت.

وأخرج جماعة عن ابن عمر أنه فسر ﴿صواف﴾ بقائمات معقولة إحدى أيديهن فلا فرق في المراد بين صواف وصوافن على هذا أصلاً، لكن روي عن مجاهد أن الصواف على أربع والصوافن على ثلاث. وقرأ أبو موسى الأشعري والحسن ومجاهد وزيد بن أسلم وشقيق وسليمان التيمي والأعرج «صوافي» بالياء جمع صافية أي خوالص لوجه الله عز وجل لا يشرك فيها شيء كما كانت الجاهلية تشرك، ونون الياء عمر وابن عبيد وهو خلاف الظاهر لأن «صوافي» ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع، وخرج على وجهين: أحدهما أنه وقف عليه بألف الإطلاق لأنه منصوب ثم نون تنوين الترنم لا تنوين الصرف بدلاً من الألف، وثانيهما أنه على لغة من يصرف ما لا يصرف لا سيما الجمع المتناهي ولذا قال بعضهم:

والصرف في الجمع أتى كثيرا ... حتى ادعى قوم به التخييرا

وقرأ الحسن أيضاً «صوافٍ» بالتنوين والتخفيف على لغة من ينصب المنقوص بحركة مقدرة ثم يحذف الياء فأصل ﴿صواف﴾ صوافي حذفت الياء لثقل الجمع واكتفي بالكسرة التي قبلها ثم عوض عنها بالتنوين ونحوه.

ولو أن واش باليمامة داره ... وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا

(١) وكذا أبو اهـ منه.

وقد تبقى الياء ساكنة كما في قوله:

يا باري القوس برياً لست تحسنها   لا تفسدنها وأعط القوس باريها

وعلى ذلك قراءة بعضهم «صوافي» بإثبات الياء ساكنة بناء على أنه كما في القراءة المشهورة حال من ضمير ﴿عليها﴾ ولو جعل كما قيل بدلاً من الضمير لم يحتج إلى التخريج على لغة شاذة ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت. وظاهر ذلك مع ما تقدم من الآثار يقتضي أنها تذبح وهي قائمة، وأيد به كون البدن من الإبل دون البقر لأنه لم تجر عادة بذبحها قائمة وإنما تذبح مضطجعة وقلما شوهد نحر الإبل وهي مضطجعة ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ أي الراضي بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ولا تعرض لها، وعليه حمل قول لبيد:

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه   ومنهم شقيٌّ بالمعيشة قانع

﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي المعترض للسؤال من اعتره إذا تعرض له، وتفسيرهما بذلك مروي عن ابن عباس وجماعة وقال محمد بن كعب ومجاهد وإبراهيم والحسن والكلبي: ﴿القانع﴾ السائل كما في قول عدي بن زيد:

وما خنت ذا عهد وأيت بعهده   ولم أحرم المضطر إذ جاء قانعا

﴿والمعتر﴾ المعترض من غير سؤال، فالقانع قيل على الأول من قنع يقنع كتعب يتعب قنعاً إذا رضي بما عنده من غير سؤال، وعلى الثاني من قنع يقنع كسأل يسأل لفظاً ومعنى قنوعاً. وعلى ذلك جاء قول الشاعر:

العبد حر إن قنع   والحر عبد إن قنع

فاقنع ولا تطمع فما   شيء يشين سوى الطمع

فلا يكون ﴿القانع﴾ على هذا من الأضداد لاختلاف الفعلين، ونص على ذلك الخفاجي حاكماً بتوهم من يقول بخلافه. وفي الصحاح نقل القول بأنه من الأضداد عن بعض أهل العلم ولم يتعقبه بشيء، ونقل عنه أيضاً أنه يجوز أن يكون السائل سمي قانعاً لأنه يرضى بما يعطى قل أو كثر ويقبله ولا يرد فيكون معنى الكلمتين راجعاً إلى الرضى، وإلى كون قنع بالكسر بمعنى رضي وقنع بالفتح بمعنى سأل ذهب الراغب وجعل مصدر الأول قناعة وقنعاناً ومصدر الثاني قنوعاً. ونقل عن بعضهم أن أصل ذلك من القناع وهو ما يغطى به الرأس فقنع بالكسر لبس القناع ساتراً لفقره كقولهم: خفي إذا لبس الخفاء وقنع إذا رفع قناعه كاشفاً لفقره بالسؤال نحو خفي إذا رفع الخفاء، وأيد كون القانع بمعنى الراضي بقراءة أبي رجاء «القنع» بوزن الحذر بناء على أنه لم يرد بمعنى السائل بخلاف القانع فإنه ورد بالمعنيين والأصل توافق القراءات، وعن مجاهد «القانع» الجار وإن كان غنياً. وأخرج ابن أبي شيبة عنه وعن ابن جبير أن القانع أهل مكة والمعتر سائر الناس، وقيل: المعتر الصديق الزائر، والذي أختاره من هذه الأقوال أولها.

وقرأ الحسن «والمعتري» اسم فاعل من اعترى وهو واعتر بمعنى. وقرأ عمرو واسماعيل كما نقل ابن خالويه «المعتر» بكسر الراء بدون ياء، وروي ذلك المقري عن ابن عباس، وجاء ذلك أيضاً عن أبي رجاء وحذفت الياء تخفيفاً منه واستغناء بالكسرة عنها. واستدل بالآية على أن الهدي يقسم أثلاثاً ثلث لصاحبه وثلث للقانع وثلث للمعتر وروي ذلك عن ابن مسعود، وقال محمد بن جعفر رضي الله تعالى عنهما بقسمته أثلاثاً أيضاً إلا أنه قال: أطعم القانع والمعتر ثلثاً والبائس الفقير ثلثاً وأهلي ثلثاً وفي القلب من صحته شيء.

وقال ابن المسيب: ليس لصاحب الهدي منه إلا الربع وكأنه عد القانع والمعتر والبائس الفقير ثلاثة وهو كما

ترى، قال ابن عطية: وهذا كله على جهة الاستحسان لا الفرض، وكأنه أراد بالاستحسان الندب فيكون قد حمل كلا الأمرين في الآية على الندب.

وفي التيسير أمر ﴿كلوا﴾ للإباحة ولو لم يأكل جاز وأمر ﴿أطعموا﴾ للندب ولو صرفه كله لنفسه لم يضمن شيئاً، وهذا في كل هدي نسك ليس بكفارة وكذا الأضحية، وأما الكفارة فعليه التصديق بجميعها فما أكله أو أهداه لغني ضمنه. وفي الهداية يستحب له أن يأكل من هدي التطوع والمتعة والقرآن وكذا يستحب أن يتصدق على الوجه الذي عرف في الضحايا وهو قول بنحو ما يقتضيه كلام ابن عطية في كلا الأمرين وأباح مالك الأكل من الهدي الواجب إلاَّ جَزَاء الصيد والأذى والنذر، وأباحه أحمد إلا من جزاء الصيد والنذر، وعند الحسن الأكل من جميع ذلك مباح وتحقيق ذلك في كتب الفقه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى: ﴿صواف﴾ ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصي عليكم حتى إنكم تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون في لبانها ولولا تسخير الله تعالى لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل قوة وكفى ما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة.

وقال ابن عطية: كما أمرناكم فيها بهذا كله سخرناها لكم ولا يخفى بعده ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا﴾ أي لن يصيب رضا الله تعالى اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيمه تعالى والتقرب له سبحانه والإخلاص له عز وجل.

وقال مجاهد: أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيماً لها وتقرباً إليه تعالى فنزلت هذه الآية، وروي نحوه عن ابن عباس. وغيره. وقرأ يعقوب وجماعة «أن تنال». «ولكن تناله» بالتاء. وقرأ أبو جعفر الأول بالتاء والثاني آخر الحروف، وعن يحيى بن يعمر والجحدري أنهما قرءآ بعكس ذلك. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «لن ينال» «ولكن يُنالَه» بالبناء لما يسم فاعله في الموضعين ﴿ولحومها ولا دماءها﴾ بالنصب ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرره سبحانه تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ أي لتعرفوا عظمته تعالى باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره عز وجل فتوحدوه بالكبرياء، وقيل: أي لتقولوا الله أكبر عند الإحلال أو الذبح ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي على هدايته وإرشاده إياكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها، فما مصدرية، وجوز أن تكون موصوفة وأن تكون موصولة والعائد محذوف، ولا بد أن يعتبر منصوباً عند من يشترط في حذف العائد المجرور أن يكون مجروراً بمثل ما جُرَّ به الموصول لفظاً ومعنى ومتعلقاً، و ﴿على﴾ متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر أو الحمد كأنه قيل: لتكبروه تعالى شاكرين أو حامدين على ما هداكم، وقال بعضهم: على بمعنى اللام التعليلية ولا حاجة إلى اعتبار التضمين، ويؤيد ذلك قول الداعي على الصفا: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله تعالى على ما أولانا، ولا يخفى أن لعدم اعتبار التضمين هنا وجهاً ليس فيما نحن فيه فافهم ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المخلصين في كل ما يأتون ويذرون في أمور دينهم. وعن ابن عباس هم الموحدون.

ومن باب الإشارة في الآيات ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ بالإعراض عن السوي وطلب الجزاء ﴿إن زلزلة الساعة﴾ وهي مبادىء القيامة الكبرى ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة﴾ وهي مواد الأشياء فإن لكل شيء مادة ملكوتية ترضع رضيعها من الملك وتربيه في مهد الاستعداد ﴿وتضع كل ذات حمل﴾ وهي الهيولات ﴿حملها﴾ وهي الصور يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴿وترى الناس سكارى﴾ الحيرة ﴿وما هم بسكارى﴾ المحبة،

قيل سكر الاعداء من رؤية القهريات. وسكر الموافقين من رؤية بدائع الأفعال. وسكر المريدين من لمعان الأنوار. وسكر المحبين من كشوف الأسرار. وسكر المشتاقين من ظهور سني الصفات. وسكر العاشقين من مكاشفة الذات. وسكر المقربين من الهيبة والجلال. وسكر العارفين من الدخول في حجال الوصال. وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار الأولية. وسكر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام من اطلاعهم على أسرار الأزلية:

ألـم بـنـا سـاق يـجـل عـن الـوصـف ... وفـي طرفه خـمـر وخـمـر عـلـى الـكـف
فـأسـكـر أصـحـابـي بـخـمـرة كـفـه ... وأسـكـرنـي والله مـن خـمـرة الـطـرف

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآية يدخل فيه من يعبد الله تعالى طمعاً في الكرامات ومحمدة الخلق ونيل دنياهم فإن رأى شيئاً من ذلك سكن إلى العبادة وإن لم ير تركها وتهاون فيها ﴿خسر الدنيا﴾ بفقدان الجاه والقبول والافتضاح عند الخلق ﴿والآخرة﴾ ببقائه في الحجاب عن مشاهدة الحق واحتراقه بنار البعد ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء﴾ الآية فيه إشارة إلى حسن مقام التسليم والرضى بما فعل الحكيم جل جلاله ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ فيه من تعظيم أمر الكعبة ما فيه، وقد جعلها الله تعالى مثالاً لعرشه وجعل الطائفين بهامن البشر كالملائكة الحافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم إلا أن تسبيح البشر وثناءهم عليه عز وجل بكلمات إلهية قرآنية فيكونون من حيث تسبيحهم وثنائهم بتلك الكلمات من حيث إنها كلماته تعالى نواباً عنه عز وجل ذلك في ويكون أهل القرآن وهم كما في الحديث أهل الله تعالى وخاصته، وللكعبة أيضاً امتياز على العرش وسائر البيوت الأربعة عشر لأمر ما نقل إلينا أنه في العرش ولا في غيره من تلك البيوت وهو الحجر الأسود الذي جاء في الخبر أنه يمين الله عز وجل ثم إنه تعالى جعل لبيته أربعة أركان لسر إلهي وهي في الحقيقة ثلاثة لأنه شكل مكعب الركن الذي يلي الحجر كالحجر في الصورة مكعب الشكل ولذلك سمي الكعبة تشبيهاً بالكعب، ولما جعل الله تعالى له بيتاً في العالم الكبير جعل نظيره في العالم الصغير وهو قلب المؤمن، وقد ذكروا أنه أشرف من هذا البيت «وما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن» وجعل الخواطر التي تمر عليه كالطائفين وفيها مثلهم المحمود والمذموم، وجعل محل الخواطر فيه كالأركان التي للبيت فمحل الخاطر الإلهي كركن الحجر ومحل الخاطر الملكي كالركن اليماني ومحل الخاطر النفسي كالمكعب الذي في الحجر لا غير وليس للخاطر الشيطاني فيه محل، وعلى هذا قلوب الانبياء عليهم السلام، وقد يقال: محل الخاطر النفسي كالركن الشامي ومحل الخاطر الشيطاني كالركن العراقي، وإنما جعل ذلك للركن العراقي لأن الشارع شرع أن يقال عنده: أعوذ بالله تعالى من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وعلى هذا قلوب المؤمنين ما عدا الأنبياء عليهم السلام، وأودع سبحانه فيه كنزاً أراد ﷺ أن يخرجه فلم يفعل لمصلحة رآها، وكذا أراد عمر فامتنع اقتداء برسول الله ﷺ. وكذلك أودع جل وعلا في قلب الكامل كنز العلم به عز وجل.

وارتفاع البيت على ما مر سبعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع. وقال بعضهم: ثمانية وعشرون ذراعاً، وعليه يكون ذلك نظير منازل القلب التي تقطعها كواكب الإيمان السيارة لإظهار حوادث تجري في النفس كما تقطع السيارة منازلها في الفلك لإظهار الحوادث في العالم العنصري إلى غير ذلك مما لا يعرفه إلا أهل الكشف.

﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ أي إلى ما يليه فإن النحر بمنى وجعلت محلاً للقرابين على ما ذكر الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره لأنها من بلوغ الأمنية ومن بلغ المنى المشروع فقد

بلغ الغاية. وفي نحر القرابين اتلاف أرواح عن تدبير أجسام حيوانية لتتغذى بها أجسام إنسانية فتنظر أرواحها إليها في حال تفريقها فتدبرها إنسانية بعدما كانت تدبرها إبلاً أو بقراً، وهذه مسألة دقيقة لم يفطن لها إلا من نور الله تعالى بصيرته من أهل الله تعالى انتهى. وتعقله مفوض إلى أهله فاجهد أن تكون منهم.

﴿**وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ حسبما يحصل لهم من التجلي عند ذلك، وقد يحصل من الذكر طمأنينة القلب لاقتضاء التجلي إذ ذلك، وذكر بعضهم أن لكل اسم تجلياً خاصاً فإذا ذكر الله تعالى حصل حسب الاستعداد ومن هاهنا يحصل تارة وجلٌ وتارة طمأنينة؛ و ﴿**إذا**﴾ لا تقتضي الكلية بل كثيراً ما يؤتى بها في الشرطية الجزئية، وقيل العارف متى سمع الذكر من غيره تعالى وجل قلبه ومتى سمعه منه عز وجل اطمأن. ويفهم من ظاهر كلامهم أن السامع للذكر إما وجل أو مطمئن ولم يصرح بقسم آخر فإن كان فالباقي على حاله قبل السماع، وأكثر مشايخ زماننا يرقصون عند سماع الذكر فما أدري أن يشأ رقصهم عن وجل منه تعالى أم عن طمأنينة؟ وسيظهر ذلك يوم تبلى السرائر وتظهر الضمائر ﴿**والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف**﴾ قد تقدم لك أنهم ينحرون البدن معقولة اليد اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها، وذكروا في سر ذلك أنه لما كان نحرها قربة أراد ﷺ المناسبة في صفة نحرها في الوترية فأقامها على ثلاث قوائم لأن الله تعالى وتر يحب الوتر والثلاثة أو الإفراد فلها أول المراتب في ذلك والأولية وترية أيضاً، وجعلها قائمة لأن القيومية مثل الوترية صفة إلهية فيذكر الذي ينحرها مشاهدة القائم على كل نفس بما كسبت، وقد صح أن المناسك إنما شرعت لإقامة ذكر الله تعالى، وشفع الرجلين لقوله تعالى: ﴿**والتفت الساق بالساق**﴾ [القيامة: ٢٩] وهو اجتماع أمر الدنيا بالآخرة، وأفرد اليمين من يد البدن حتى لا تعتمد إلا على وتر له الاقتدار. وكان العقل في اليد اليسرى لأنها خلية عن القوة التي لليمنى والقيام لا يكون إلا عن قوة.

وقد أخرج مسلم عن ابن عباس أنه قال: «صلى رسول الله ﷺ الظهر بذي الحليفة ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت عنها الدم وقلدها نعلين ثم ركب راحلته» الحديث.

والسر في كون هديه عليه الصلاة والسلام من الإبل مع أنه جاء فيها أنها شياطين ولذا كرهت الصلاة في معاطنها الإشارة إلى أن مقامه عليه الصلاة والسلام رد البعداء من الله تعالى إلى حال التقريب. وفي إشعارها في سنامها الذي هو أرفع ما فيها إشعار منه ﷺ بأنه عليه الصلاة والسلام أتى عليهم من صفة الكبرياء الذي كانوا عليه في نفوسهم فليتجنبوها فإن الدار الآخرة إنما جعلت للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، ووقع الإشعار في الصفحة اليمنى لأن اليمين محل الاقتدار والقوة، والصفحة من الصفح ففي ذلك إشعار بأن الله تعالى يصفح عمن هذه صفته إذا طلب القرب من الله تعالى وزال عن كبريائه الذي أوجب له البعد، وجعل عليه الصلاة والسلام الدلالة على إزالة الكبرياء في شيطنة البدن في تعليق النعال في رقابها إذ لا يصفع بالنعال إلا أهل الهون والمذلة ومن كان بهذه المثابة فما بقي فيه كبرياء تشهد، وعلق النعال بقلائد العهن ليتذكر بذلك ما أراد الله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش، وقد ذكروا لجميع أفعال الحج أسراراً من هذا القبيل، وعندي أن أكثرها تعبدية وأن أكثر ما ذكروه من قبيل الشعر والله تعالى الموفق للسداد.

﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج وذكر أن ذلك متصل بقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ويصدون﴾ [الحج: ٢٥] وإن ما وقع في البين من ذكر الشعائر مستطرداً لمزيد تهجين فعلهم وتقبيحهم لازدياد قبح الصد بازدياد

تعظيم ما صد عنه، وتصديره لكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التام بمضمونه، وصيغة المفاعلة إما للمبالغة أو للدلالة على تكرر الدفع فإنها قد تتجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كالممارسة أي إن الله تعالى يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررهم الذي من جملته الصد عن سبيل الله تعالى والمسجد الحرام مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما يتجدد منهم القصد إلى الإضرار بهم كما في قوله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ [المائدة: ٦٤].

وقرأ أبو عمرو وابن كثير «يدفع» والمفعول محذوف كما أشير إليه، وفي البحر أنه لم يذكر ما يدفعه سبحانه عنهم ليكون أفخم وأعظم وأعم، وأنت تعلم أن المقام لا يقتضي العموم بل هو غير صحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي. وقيل: تعليل للدفاع عن المؤمنين ببغض المدفوعين على وجه يتضمن أن العلة في ذلك الخيانة والكفر، وأوثر ﴿لا يحب﴾ على يبغض تنبيهاً على مكان التعريض وأن المؤمنين هم أحباء الله تعالى، و لعل الأول أولى لإيهام هذا إن الآية من قبيل قولك: إني أدفع زيداً عن عمرو لبغضي زيداً وليس في ذلك كثير عناية بعمرو أي إن الله تعالى يبغض كل خوان في أماناته تعالى وهي أوامره تعالى شأنه ونواهيه أو في جميع الأمانات التي هي معظمها كفور لنعمه عز وجل، وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن المشركين كذلك لا للتقييد المشعر بمحبة الخائن و الكافر أو لأن خيانة أمانة الله تعالى وكفران نعمته لا يكونان حقيرين بل هما أمران عظيمان أو لكثرة ما خانوا فيه من الأمانات وما كفروا به من النعم أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أولاً وإيراد معنى المبالغة ثانياً كما قيل في قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦] وقد علمت ما فيه.

وأياً ما كان فالمراد نفي الحب عن كل فرد فرد من الخونة الكفرة ﴿أُذِنَ﴾ أي رخص، وقرأ ابن عباس وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿أَذِنَ﴾ بالبناء للفاعل أي أذن الله تعالى ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أي يقاتلهم المشركون والمأذون فيه القتال وهو في قوة المذكور لدلالة المذكور عليه دلالة نيرة.

وقرأ أبو عمر وأبو بكر ويعقوب «يقَاتِلُونَ» على صيغة المبني للفاعل أي يريدون أن يقاتلوا المشركين في المستقبل ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف أنور ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي بسبب أنهم ظلموا. والمراد بالموصول أصحاب النبي ﷺ الذين في مكة فقد نقل الواحدي وغيره أن المشركين كانوا يؤذونهم وكانوا يأتون النبي عليه الصلاة والسلام بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه صلوات الله تعالى وسلامه عليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت هذه الآية وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية على ما روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية أن أول آية نزلت فيه ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ [البقرة: ١٩]، وفي الإكليل للحاكم أن أول آية نزلت في ذلك ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [التوبة: ١١١]، وروى البيهقي في الدلائل وجماعة أنها نزلت في أناس مؤمنين خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فاتبعهم كفار قريش فأذن الله تعالى لهم في قتالهم وعدم التصريح بالظالم لمزيد السخط تحاشياً عن ذكره.

﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ﴾ وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر من العدة وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدي المشركين بل تغليبهم وإظهارهم عليهم، وقد أخرج الكلام على سنن الكبرياء فإن الرمزة والابتسامة من الملك الكبير كافية في تيقن الفوز بالمطلوب وقد أوكد تأكيداً بليغاً زيادة في توطين نفوس المؤمنين

﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ**﴾ في حيز الجر على أنه صفة للموصول قبل أو بيان له أو بدل منه أو في محل النصب على المدح أو في محل الرفع بإضمار مبتدأ، والجملة مرفوعة على المدح، والمراد الذين أخرجهم المشركون من مكة ﴿**بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ متعلق بالإخراج أي أخرجوا بغير ما يوجب إخراجهم.

وجوز أن يكون صفة مصدر محذوف أي أخرجوا إخراجاً كائناً بهذه الصفة، واختار الطبرسي كونه في موضع الحال أي كائنين بغير حق مترتب عليهم يوجب إخراجهم، وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ**﴾ استثناء متصل من ﴿**حق**﴾ وأن وما بعدها في تأويل مصدر بدل منه لما في غير من معنى النفي، وحاصل المعنى لا موجب لإخراجهم إلا التوحيد وهو إذا أريد بالموجب الموجب النفس الأمري على حد قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وجوز أن يكون الابدال من غير وفي أخرجوا معنى النفي أي لم يقروا في ديارهم إلا بأن يقولوا الخ وهو كما ترى، وجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً وأوجبه أبو حيان أي ولكن أخرجوا بقولهم ربنا الله، وأوجب نصب ما بعد إلا كما أوجبوه في قولهم: ما زاد إلا ما نقص وما نفع إلا ما ضر، ورد كونه متصلاً وكون ما بعد إلا بدلاً من ﴿**حق**﴾ بما هو أشبه شيء بالمغالطة، ويفهم من كلامه جواز أن تكون إلا بمعنى سوى صفة لحق أي أخرجوا بغير حق سوى التوحيد، وحاصله أخرجوا بكونهم موحدين.

﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ**﴾ تحريض على القتال المأذون فيه بإفادة أنه تعالى أجرى العادة بذلك في الأمم الماضية به الأمر وتقوم الشرائع وتصان المتعبدات من الهدم فكأنه لما قيل ﴿**أذن للذين يقاتلون**﴾ الخ قيل فليقاتل المؤمنون فلولا القتال وتسليط الله تعالى المؤمنين على المشركين في كل عصر وزمان لهدمت متعبداتهم ولذهبوا شذر مذر، وقيل: المعنى لولا دفع الله بعض الناس ببعض بتسليط مؤمني هذه الأمة على كفارها لهدمت المتعبدات المذكورة إلا أنه تعالى سلط المؤمنين على الكافرين فبقيت هذه المتعبدات بعضها للمؤمنين وبعضها لمن في حمايتهم من أهل الذمة وليس بذاك، وقال مجاهد: أي لولا دفع ظلم قوم بشهادة العدول ونحو ذلك لهدمت الخ.

وقال قوم: أي لولا دفع ظلم الظلمة بعدل الولاة، وقالت فرقة: أي لولا دفع العذاب عن الأشرار بدعاء الأخيار، وقال قطرب: أي لولا الدفع بالقصاص عن النفوس. وقيل بالنبيين عليهم السلام عن المؤمنين والكل مما لا يقتضيه المقام ولا ترتضيه ذوو الافهام. والصوامع جمع صومعة بوزن فعولة وهي بناء مرتفع حديد الأعلى والأصمع من الرجال الحديد القول، وقال الراغب: هي كل بناء متصمع الرأس أي متلاصقه والأصمع اللاصقة إذنه برأسه وهو قريب من قريب، وكانت قبل الاسلام كما قال قتادة مختصة برهبان النصارى وبعباد الصابئة ثم استعملت في مئذنة المسلمين، والمراد بها هنا متعبد الرهبان عند أبي العالية ومتعبد الصابئة عند قتادة ولا يخفى أنه لا ينبغي إرادة ذلك حيث لم تكن الصابئة ذات ملة حقة في وقت من الأوقات، والبيع واحدها بيعة بوزن فعلة وهي مصلى النصارى ولا تختص برهبانهم كالصومعة، قال الراغب: فإن يكن ذلك عربياً في الاصل فوجه التسمية به لما قال سبحانه: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم**﴾ الآية، وقيل هي كنيسة اليهود.

وقرأ أهل المدينة ويعقوب «ولولا دفاع» بالألف. وقرأ الحرميان وأيوب وقتادة وطلحة وزائدة عن الأعمش والزعفراني «لَهُدِمَتْ» بالتخفيف، والتضعيف باعتبار كثرة المواضع.

﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ جمع صلاة وهي كنيسة اليهود. وقيل: معبد للنصارى دون البيعة والأول أشهر، وسميت الكنيسة بذلك لأنها يصلى فيها فهي مجاز من تسمية المحل باسم الحال، وقيل: هي بمعناها الحقيقي وهدمت بمعنى عطلت أو في الكلام مضاف مقدر وليس بذاك، وقيل: ﴿صلوات﴾ معرب صلوثاً بالثاء المثلثة والقصر ومعناها بالعبرانية المصلى. وروي عن أبي رجاء والجحدري وأبي العالية ومجاهد أنهم قرؤوا بذلك، والظاهر أنه على هذا القول اسم جنس لا علم قبل التعريب وبعده لكن ما رواه هارون عن أبي عمرو من عدم تنوينه ومنع صرفه للعلمية والعجمة يقتضي أنه علم جنس إذ كونه اسم موضع بعينه كما قيل بعيد فعليه كان ينبغي منع صرفه على القراءة المشهورة فلذا قيل إنه صرف لمشابهته للجمع لفظاً فيكون كعرفات، والظاهر أنه نكر إذ جعل عاماً لما عرب، وأما القول بأن القائل به لا ينونه فتكلف قاله الخفاجي.

وقرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما: ﴿صُلُوات﴾ بضم الصاد واللام، وحكى عنه ابن خالويه بكسر الصاد وسكون اللام وحكيت عن الجحدري، وحُكي عنه أيضاً «صُلَوَاتٌ» بضم الصاد وفتح اللام وحكيت عن الكلبي، وقرأ أبو العالية في رواية «صَلْوَاتٌ» بفتح الصاد وسكون اللام، وقرأ الحجاج بن يوسف صُلُوتٌ بضم الصاد واللام من غير ألف وحكيت عن الجحدري أيضاً، وقرأ مجاهد «صُلُوتَا» بضمتين وتاء مثناة بعدها ألف، وقرأ الضحاك والكلبي «صُلُوثٌ» بضمتين من غير ألف وبثاء مثلثة، وقرأ عكرمة «صِلْويثا» بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء مثلثة بعدها ألف، وحكي عن الجحدري أيضاً «صُلْوَاثٌ» بضم الصاد وسكون اللام وواو مفتوحة بعدها ألف بعدها ثاء مثلثة، وحكي عن مجاهد أنه قرأ كذلك إلا أنه بكسر الصاد، وحكى ابن خالويه وابن عطية عن الحجاج والجحدري «صُلُوبٌ» بضمتين وباء موحدة على أنه جمع صليب كظريف وظروف وجمع فعيل على فعول شاذ فهذه عدة قراءات قلما يوجد مثلها في كلمة واحدة ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ جمع مسجد وهو معبد معروف للمسلمين، وخص بهذا الاسم اعتناءً بشأنه من حيث إن السجود أقرب ما يكون العبد فيه إلى ربه عزّ وجلّ، وقيل: لاختصاص السجود في الصلاة بالمسلمين، ورد بقوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي﴾ [آل عمران: ٤٣] مع الراكعين وحمل السجود فيها على المعنى اللغوي بعيد، وقال ابن عطية: الأسماء المذكورة تشترك الأمم في مسمياتها إلا البيعة فإنها مختصة بالنصارى في عرف كل لغة، والأكثرون على أن الصوامع للرهبان والبيع للنصارى والصلوات لليهود والمساجد للمسلمين.

ولعل تأخير ذكرها مع أن الظاهر تقديمها لشرفها لأن الترتب الوجودي كذلك أو لتقع في جوار مدح أهلها أو للتبعيد من قرب التهديم، ولعل تأخير ﴿صلوات﴾ عن ﴿بيع﴾ مع مخالفة الترتيب الوجودي له للمناسبة بينها وبين المساجد كذا قيل، وقيل إنما جيء بهذه المتعبدات على هذا النسق للانتقال من شريف إلى أشرف فإنه البيع أشرف من الصوامع لكثرة العباد فيها فإنها معبد للرهبان وغيرهم والصوامع معبد للرهبان فقط وكنائس اليهود أشرف من البيع لأن حدوثها أقدم وزمان العبادة فيها أطول، والمساجد أشرف من الجميع لأنه الله تعالى قد عبد فيها بما لم يعبد به في غيرها

ولعل المراد من قوله تعالى: ﴿لهدمت﴾ الخ المبالغة في ظهور الفساد ووقوع الاختلال في أمر العباد لولا تسليط الله تعالى المحقين على المبطلين لا مجرد تهديم متعبدات للمليين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ في موضع الصفة لمساجد، وقال الضحاك ومقاتل والكلبي: في موضع الصفة للجميع واستظهره أبو حيان، وكون كون بيان ذكر الله عزّ وجلّ في الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام ليس بشيء لأن الانتساخ لا ينافي بقاءها ببركة ذكر الله تعالى فيها مع أن معنى الآية عام لما قبل الانتساخ كما مر.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ وبالله أي لينصرن الله تعالى من ينصر دينه أو من ينصر أولياءه ولقد أنجز الله تعالى وعده حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ على كل ما يريده من مراداته التي من جملتها نصرهم ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء ولا يدافعه ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وصف للذين أخرجوا مقطوع أو غير مقطوع. وجوز أن يكون بدلاً، والتمكين السلطنة ونفاذ الأمر، والمراد بالأرض جنسها، وقيل مكة، والمراد بالصلاة الصلاة المكتوبة وبالزكاة الزكاة المفروضة وبالمعروف التوحيد وبالمنكر الشرك على ما روي عن زيد بن أسلم.

ولعل الأولى في الأخيرين التعميم، والوصف بما ذكر كما روي عن عثمان رضي الله تعالى عنه ثناء قبل بلاء يعني أن الله تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا قالوا: وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين وذلك على ما في الكشف لأن الآية مخصوصة بالمهاجرين لأنهم المخرجون بغير حق والممكنون في الأرض منهم الخلفاء دون غيرهم فلو لم تثبت الأوصاف الباقية لزم الخلف في المقال تعالى الله سبحانه عنه لدلالته على أن كل ممكن منهم يلزمه التوالي لعموم اللفظ، ولما كان التمكين واقعاً تم الاستدلال دون نظر إلى استدعاء الشرطية الوقوع كالكلام المقرون بلعل وعسى من العظماء فإن لزوم التالي مقتضى اللفظ لا محالة ولما وقع المقدم لزم وقوعه أيضاً، وفي ثبوت التالي ثبوت حقية الخلافة البتة وهي واردة على صيغة الجمع المنافية للتخصيص بعليّ وحده رضي الله تعالى عنه، وعن الحسن وأبي العالية هم أمة محمد ﷺ والأولى على هذا أن يجعل الموصول بدلاً من قوله تعالى: ﴿من ينصره﴾ كما أعربه الزجاج، وكذا يقال على ما روي عن ابن عباس أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون، وعلى ما روي عن أبي نجيح أنهم الولاة.

وأنت تعلم أن المقام لا يقتضي إلا الأول ﴿وللهِ﴾ خاصة ﴿عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه تعالى وتقديره فقط، وفيه تأكيد للوعد بإعلاء كلمته وإظهار أوليائه ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ وصيغة المضارع في الشرط مع تحقق التكذيب لما أن المقصود تسلية عليه الصلاة والسلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أو للإشارة إلى أنه مما لا ينبغي تحققه وإلحاق ﴿كذب﴾ تاء التأنيث لأن الفاعل وهو ﴿قوم﴾ اسم جمع يجوز تذكيره وتأنيه ولا حاجة لتأويله بالأمة أو القبيلة كما فعل أبو حيان ومن تبعه، وفي اختيار التأنيث حط لقدر المكذبين ومفعول كذب محذوف لكمال ظهور المراد.

وجوز أن يكون الفعل منزلاً منزلة اللازم أي فعلت التكذيب واستغنى في عاد وثمود عن ذكر القوم لاشتهارهم بهذا الاسم الأخصر والأصل في التعبير العلم فلذا لم يقل قوم صالح وقوم هود ولا علم لغير هؤلاء، ولم يقل وقوم شعيب قيل لأن قومه المكذبين له عليه السلام هم هؤلاء دون أهل الأيكة لأنهم وإن أرسل عليه السلام إليهم فكذبوه أجنبيون، وتكذيب هؤلاء أيضاً أسبق وأشد، والتخصيص لأن التسلية للنبي عليه الصلاة والسلام عن تكذيب قومه أن وإن يكذبك قومك فاعلم أنك لست بأوحدي في ذلك فقد كذبت قبل تكذيب قومك إياك قوم نوح الخ ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ المكذب له عليه السلام هم القبط وليسوا قومه بل قومه عليه السلام بنو إسرائيل ولم يكذبوه بأسرهم ومن كذبه منهم تاب إلا اليسير وتكذيب اليسير من القوم كلا تكذيب ألا ترى أن تصديق اليسير من المذكورين قبل عد كلا تصديق ولهذا لم يقل وقوم موسى كما قيل: ﴿قوم نوح وقوم إبراهيم﴾ وأما أنه لم يقل والقبط بل أعيد الفعل مبنياً

للمفعول فللإيذان بأن تكذيبهم له عليه الصلاة والسلام في غاية الشناعة لكون آياته في كمال الوضوح ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أمهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهمْ والفاء لترتيب إمهال كل فريق من فرق المكذبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب إمهال الكل على تكذيب الكل. ووضع الظاهر موضع المضمر العائد على المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبي موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل تصريحاً ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذت كل فريق من فريق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله. والأخذ كناية عن الإهلاك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير ما هم عليه من الحياة والنعمة وعمارة البلاد وتبديله لضده فهو مصدر من نكرت عليه إذا فعلت فعلاً يردعه بمعنى الإنكار كالنذير بمعنى الإنذار. وياء الضمير المضاف إليها محذوفة للفاصلة وأثبتها بعض القراء، والاستفهام للتعجب كأنه قيل فما أشد ما كان إنكاري عليهم، وفي الجملة إرهاب لقريش، وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي فأهلكنا كثيراً من القرى أهلكناها، والجملة بدل من قوله سبحانه: ﴿فكيف كان نكير﴾ أو مرفوع على الابتداء وجملة ﴿أهلكناها﴾ خبره أي فكثير من القرى أهلكناها، واختار هذا أبو حيان: الأجود في إعراب ﴿كأين﴾ أن تكون مبتدأ وكونها منصوبة بفعل مضمر قليل.

وقرأ أبو عمرو وجماعة «أهلكتها» بتاء المتكلم على وفق ﴿فأمليت للكافرين﴾ ثم أخذتهم ونسبة الإهلاك إلى القرى مجازية والمراد إهلاك أهلها، ويجوز أن يكون الكلام بتقدير مضاف، وقيل: الإهلاك استعارة لعدم الانتفاع بها بإهلاك أهلها، وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حالية من مفعول أهلكنا، وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ عطف على ﴿أهلكناها﴾ فلا محل له من الإعراب أو محله الرفع كالمعطوف عليه، ويجوز عطفه على جملة ﴿كأين﴾ الخ الإسمية واختاره بعضهم لقضية التشاكل، والفاء غير مانعة بناء على ترتيب الخواء على الإهلاك لأنه على نحو زيد أبوك فهو عطوف عليك، وجوز عطفه على الجملة الحالية، واعترض بأن خواءها ليس في حال إهلاك أهلها بل بعده، وأجيب بأنها حال مقدرة ويصح عطفها على الحال المقارنة أو يقال هي حال مقارنة أيضاً بأن يكون إهلاك الأهل بخوائها عليهم، ولا يخفى أن كلا الجوابين خلاف الظاهر، و الخواء إما بمعنى السقوط من خوى النجم إذا سقط، و قوله تعالى: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ متعلق به، والمراد بالعروش السقوف، والمعنى فهي ساقطة حيطانها على سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سفوقها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، وإسناد السقوط على العروش إليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه، وإما بمعنى الخلو من خوت الدار تخوي خواء إذا خلت من أهلها، ويقال: خوي البطن يخوي خوى إذا خلا من الطعام، وجعل الراغب أصل معنى الخواء هذا وجعل خوي النجم من ذلك فقال: يقال خوي النجم وأخوي إذا لم يكن منه عند سقوطه مطر تشبيهاً بذلك فقوله تعالى: ﴿على عروشها﴾ إما متعلق به أو متعلق بمحذوف وقع حالاً، و ﴿على﴾ بمعنى مع أي فهي خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، ويجوز على تفسير الخواء بالخلو أن يكون ﴿على عروشها﴾ خبراً بعد خبر أي فهي خالية وهي على عروشها أي قائمة مشرفة على عروشها على أن السقوف سقطت إلى الأرض وبقيت الحيطان قائمة وهي مشرفة على السقوف الساقطة، وإسناد الإشراف إلى الكل مع كونه حال الحيطان لما مر آنفاً ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ عطف على ﴿قرية﴾ والبئر من بأرت أي حفرت وهي مؤنثة على وزن فعل بمعنى مفعول وقد تذكر على معنى القليب وتجمع على أبار وآبار وأبؤر وآبر وبيار، وتعطيل الشيء إبطال منافعه أي وكم بئر عامرة في البوادي تركت لا يسقى منها لهلاك أهلها. وقرأ الجحدري والحسن وجماعة «مُعْطَلَةٍ» بها لتخفيف من أعطله بمعنى عطله.

﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ عطف على ما تقدم أيضاً أي وكم قصر مرفوع البنيان أو مبني بالشيد بالكسر أي الجص

أخليناه عن ساكنيه كما يشعر به السياق ووصف البئر بمعطلة قيل، وهذا يؤيد وكون معنى ﴿خاوية على عروشها﴾ خالية مع بقاء عروشها، وفي البحر ينبغي أن يكون ﴿بئر﴾. و ﴿قصر﴾ من حيث عطفهما على ﴿قرية﴾ داخلين معها في حيز الإهلاك مخبراً به عنهما بضرب من التجوز أي وكم بئر معطلة وقصر مشيد أهلكنا أهلهما.

وزعم بعضهم عطفهما على ﴿عروشها﴾ وليس بشيء، وظاهر التنكير فيهما عدم إرادة معين منهما، وعن ابن عباس أن البئر كانت لأهل عدن من اليمن وهي الرس، وعن كعب الأحبار أن القصر بناه عاد الثاني.

وعن الضحاك وغيره أن القصر على قلة جبل بحضرموت والبئر بسفحه وأن صالحاً عليه السلام نزل عليها مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب، وسميت حضرموت بفتح الراء والميم ويضمان ويبنى ويضاف لأن صالحاً عليه السلام[1] حين حضرها مات، وعند البئر بلدة اسمها حاضورا بناها قوم صالح وأمَّروا عليها جلهس بن جلاس وأقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنماً وأرسل الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان نبياً فقتلوه في السوق فأهلكهم الله تعالى عن آخرهم وعطل سبحانه بئرهم وقصرهم.

وجوز أن يكون إرادة ذلك بطريق التعريض وفيه بعد ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ حيث لهم على السفر للنظر والاعتبار بمصارع الهالكين هذا إن كانوا لم يسافروا وإن كانوا سافروا فهو حث على النظر والاعتبار، وذكر المسير لتوقفه عليه، وجوز أن يكون الاستفهام للإنكار أو التقرير، وأياً ما كان فالعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ منصوب في جواب الاستفهام عند ابن عطية. وفي جواب التقرير عند الحوفي وفي جواب النفي عند بعض، ومذهب البصريين أن النصب بإضمار أن وينسبك منها ومن الفعل مصدر يعطف على مصدر متوهم. ومذهب الكوفيين أنه منصوب على الصرف إذ معنى الكلام الخبر صرفوه عن الجزم على العطف على ﴿يسيروا﴾ وردوه إلى أخي الجزم وهو النصب وهو كما ترى. ومذهب الجرمي أن النصب بالفاء نفسها.

وقرأ مبشر بن عبيد «فيكون» بالياء التحتية ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أي يعلمون بها ما يجب أن يعلم من التوحيد فمفعول ﴿يعقلون﴾ محذوف لدلالة المقام عليه، وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي يسمعون بها ما يجب أن يسمع من الوحي أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فإنهم أعرف منهم بحالهم ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ضمير ﴿فإنها﴾ للقصة فهو مفسر بالجملة بعده، ويجوز في مثله التذكير باعتبار الشأن، وعلى ذلك قراءة عبد الله «فإنه» وحسن التأنيث هنا وقوع ما فيه تأنيث بعده، وقيل: يجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بالأبصار، وكأن الأصل فإنها الأبصار لا تعمى على أن جملة ﴿لا تعمى﴾ من الفعل والفاعل المستتر خبر بعد خبر فلما ترك الخبر الأول أقيم الظاهر مقام الضمير لعدم ما يرجع إليه ظاهراً فصار فاعلاً مفسراً للضمير. واعترضه أبو حيان بأنه لا يجوز لأن الضمير المفسر بمفرد بعده محصور في أمور وهي باب رب وباب نعم وبئس وباب الأعمال وباب البدل وباب المبتدأ والخبر وما هنا ليس منها. ورد بأنه من باب المبتدأ والخبر نحو ﴿إن هي إلاّ حياتنا الدنيا﴾ [الأنعام: ٢٩، المؤمنون: ٣٧، الجاثية: ٢٤] ولا يضره دخول الناسخ، وفيه نظر، والمعنى أنه لا يعتد بعمى الأبصار وإنما يعتد بعمى القلوب فكأن عمى الأبصار ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، فالكلام تذييل لتهويل ما بهم من عدم فقه القلب وأنه العمى الذي لا عمى بعده بل لا عمى إلا هو أو المعنى أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم فكأنه قيل: أفلم يسيروا فتكون لهم قلوب ذات بصائر فإن الآفة ببصائر

---

(١) فالظاهر أن قبره عليه السلام هناك، وقيل: هو بعكا وعليه الإمام أبو القاسم الأنصاري والله تعالى أعلم اهـ منه.

قلوبهم لا بإبصار عيونهم وهي الآفة التي كل آفة دونها كأنه يحثهم على إزالة المرض وينعى عليهم تقاعدهم عنها، ووصف القلوب بالتي في الصدور على ما قال الزجاج للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿يقولون بأفواههم﴾ [آل عمران: ١٦٧] وقولك: نظرت بعيني.

وقال الزمخشري قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة ومثل فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك وهو في حكم قولك: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً.

وهذه الآية على ما قيل نزلت في ابن أم مكتوم حين سمع قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ [الإسراء: ٧٢] فقال: يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ وربما يرجح بهذه الرواية إن صحت المعنى الأول إذ حصول الجواب بالآية عليه ظاهر جداً فكأنه قيل له: أنت لا تدخل تحت عموم **﴿ومن كان﴾** الخ لأن عمى الأبصار في الدنيا ليس بعمى في الحقيقة في جنب عمى القلوب والذي يدخل تحت عموم ذلك من اتصف بعمى القلب، وهذا يكفي في الجواب سواء كان معنى قوله تعالى: **﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾** ومن كان في الدنيا أعمى القلب فهو في الآخرة كذلك أو ومن كان في الدنيا أعمى القلب فهو في الآخرة أعمى البصر لأنه فيها تبلى السرائر فيظهر عمى القلب بصورة عمى البصر، نعم في صحة الرواية نظر.

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في هذه الآية: ذكر لنا أنها نزلت في عبد الله بن زائدة يعني ابن أم مكتوم، ولا يخفى حكم الخبر إذا روي هكذا. واستدل بقوله تعالى: **﴿أفلم يسيروا﴾** إلخ على استحباب السياحة في الأرض وتطلب الآثار.

وقد أخرج ابن أبي حاتم في كتاب التفكر عن مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن اتخذ نعلين من حديد وعصا ثم سح في الأرض فاطلب الآثار والعبر حتى تحفى النعلان وتنكسر العصا، وبقوله تعالى: **﴿فتكون﴾** الخ على أن محل العقل القلب لا الرأس، قاله الجلال السيوطي في أحكام القرآن العظيم.

وقال الإمام الرازي: في الآية دلالة على أن العقل هو العلم وعلى أن محله هو القلب، وأنت تعلم أن كون العقل هو العلم هو اختيار أبي إسحاق الإسفرائيني واستدل عليه بأنه يقال لمن عقل شيئاً علمه ولمن علم شيئاً عقله، وعلى تقدير التغاير لا يقال ذلك وهو غير سديد لأنه إن أريد بالعلم كل علم يلزم منه أن لا يكون عاقلاً من فاته بعض العلوم مع كونه محصلاً لما عداه وإن أريد بعض العلوم فالتعريف غير حاصل لعدم التمييز وما ذكر من الاستدلال غير صحيح لجواز أن يكون العلم مغايراً للعقل وهما متلازمان. وقال الأشعري: لا فرق بين العقل والعلم إلا في العموم والخصوص والعلم أعم من العقل فالعقل إذاً علم مخصوص فقيل: هو العلم الصارف عن القبيح الداعي إلى الحسن وهو قول الجبائي، وقيل: هو العلم بخير الخيرين وشر الشرين وهو قول لبعض المعتزلة أيضاً ولهم أقوال أخر، والذي اختاره القاضي أبو بكر أنه بعض العلوم الضرورية كالعلم باستحالة اجتماع الضدين وأنه لا واسطة بين النفي والإثبات وأن الموجود لا يخرج عن أن يكون قديماً أو حادثاً ونحو ذلك. واحتج إمام الحرمين على صحة ذلك وإبطال ما عداه بما ذكره الآمدي في إبكار الأفكار بما له وعليه. واختار المحاسبي عليه الرحمة أنه غريزة يتوصل بها إلى المعرفة، ورد بأنه

إن أراد بالغريزة العلم لزمه ما لزم القائل بأنه العلم وإن أراد بها غير العلم فقد لا يسلم وجود أمر وراء العلم يتوصل به إلى المعرفة.

وقال صاحب القاموس بعد نقل عدة أقوال في العقل: والحق أنه نور روحاني بي تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية، ولعلنا نحقق ذلك في موضع آخر إن شاء الله تعالى، ثم إن في محلية القلب للعلم خلافاً بين العقلاء فالمشهور عن الفلاسفة أن محل العلم المتعلق بالكليات والجزئيات المجردة النفس الناطقة ومحل العلم المتعلق بالجزئيات المادية قوى جسمانية قائمة بأجزاء خاصة من البدن وهي منقسمة إلى خمس ظاهرة وخمس باطنة وتسمى الأولى الحواس الظاهرة والثانية الحواس الباطنة وأمر كل مشهور.

وزعم بعض متفلسفة المتأخرين أن المدرك للكليات والجزئيات إنما هو النفس والقوى مطلقاً غير مدركة بل آلة في إدراك النفس وذهب إليه بعض منا. وفي أبكار الأفكار بعد نقل قول الفلاسفة وأما أصحابنا فالبنية المخصوصة غير مشترطة عندهم بل كل جزء من أجزاء بدن الإنسان إذا قام به إدراك وعلم فهو مدرك عالم، وكون ذلك مما يقوم بالقلب أو غيره مما لا يجب عقلاً ولا يمتنع لكن دل الشرع على القيام بالقلب لقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ [ق: ٣٧] وقوله سبحانه: ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ وقوله عز وجل ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: ٢٤] انتهى، ولا يخفى أن الاستدلال بما ذكر على محلية القلب للعلم لا يخلو عن شيء، نعم لا ينكر دلالة الآيات على أن للقلب الإنساني لما أودع فيه مدخلاً تاماً في الإدراك، والوجدان يشهد بمدخلية ما أودع في الدماغ في ذلك أيضاً، ومن هنا لا أرى للقول بأن لأحدهما مدخلاً دون الآخر وجهاً، وكون الإنسان قد يضرب على رأسه فيذهب عقله لا يدل على أن لما أودع في الدماغ لا غير مدخلاً في العلم كما لا يخفى على من له قلب سليم وذهن مستقيم فتأمل.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الضمير لقريش كان ﷺ يحذرهم عذاب الله تعالى ويوعدهم مجيئه وهم ينكرون ذلك أشد الإنكار ويطلبون مجيئه استهزاءً وتعجيزاً له ﷺ فأنكر عليهم ذلك، فالجملة خبر لفظاً واستفهام وإنشاء معنى، وقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ جملة حالية جيء بها لبيان بطلان إنكارهم العذاب في ضمن استعجالهم به كأنه قيل: كيف تنكرون مجيء العذاب الموعود والحال أنه تعالى لا يخلف وعده، وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه أو اعتراضية لما ذكر أيضاً. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ جملة مستأنفة إن كانت الأولى حالية ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضية سيقت لتحقيق إنكار الاستعجال وبيان خطئهم فيه ببيان كمال سعة ساحة حلمه تعالى وإظهار غاية ضيق عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مدداً طوالاً عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ [المعارج: ٦، ٧] ولذا يرون مجيئه بعيداً ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ويجترؤون على الاستعجال به ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها وقوعاً وإخبار عما عنده من المقدار. وقراءة الأخوين. وابن كثير «يَعُدُّونَ» على صيغة الغيبة أي يعده المستعجلون أوفق لهذا المعنى، وقد جعل الخطاب في قراءة الجمهور لهم أيضاً بطريق الالتفات لكن الظاهر أنه للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، وقيل: المراد بوعده تعالى ما جعل لهلاك كل أمة من موعد معين وأجل مسمى كما في قوله تعالى: ﴿يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ [العنكبوت: ٥٣] فتكون الجملة الأولى مطلقاً مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود، والجملة الأخيرة بيان لبطلانه ببيان ابتنائه على استطالة ما هو قصير عنده تعالى على الوجه المار بيانه، وحينئذ لا يكون في النظم الكريم تعرض لإنكارهم مجيئه الذي دسوه تحت الاستعجال، ويكتفى في رد

ذلك ببيان عاقبة من قبلهم من أمثالهم، وأياً ما كان فالعذاب المستعجل به العذاب الدنيوي وهو الذي يقتضيه السباق والسياق. وقيل: المراد بالعذاب العذاب الأخروي والمراد باليوم المذكور يوم ذلك العذاب واستطالته لشدته فإن أيام الترحة مستطالة وأيام الفرحة مستقصرة كما قيل:

تمتع بأيام السرور فإنها قصار وأيام الهموم طوال

وعلى ذلك جاء قوله:

ليلي وليلى نفى نومي اختلافهما بالطول والطول يا طوبى لو اعتدلا
يجود بالطول ليلي كلما بخلت بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

فيكون قد رد عليهم إنكار مجيء العذاب بالجملة الأولى وأنكر عليهم الاستعجال به وإن كان ذلك على وجه الاستهزاء بالجملة الثانية فكأنه قيل: كيف تنكرون مجيئه وقد سبق به الوعد ولن يخلف الله تعالى وعده فلا بد من مجيئه حتماً وكيف تستعجلون به واليوم الواحد من أيامه لشدته يرى كألف سنة مما تعدون، ويقال نحو ذلك على القول بأن المراد باليوم أحد أيام الآخرة فإنها اعتبرت طوالاً أو أنها تستطال لشدة عذابها.

واعترض بأن ذلك مما لا يساعده السباق ولا السياق، وقال الفراء: تضمنت الآية عذاب الدنيا والآخرة وأريد بالعذاب المستعجل به عذاب الدنيا أي لن يخلف الله تعالى وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا وإن يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا، ولا يخلو عن حسن إلا أن فيه بعداً كما لا يخفى.

واستدل المعتزلة بقوله تعالى: ﴿**لن يخلف الله وعده**﴾ على أن الله سبحانه لا يغفر للعصاة لأن الوعد فيه بمعنى الوعيد وقد أخبر سبحانه أنه لا يخلفه والمغفرة تستلزم الخلف المستلزم للكذب المحال عليه تعالى.

وأجاب أهل السنة بأن وعيدات سائر العصاة إنشاءات أو إخبارات عن استحقاقهم ما أوعدوا به لا عن إيقاعه وهي إخبارات عن إيقاعه مشروطة بعدم العفو وترك التصريح بالشرط بزيادة الترهيب ولا كذلك وعيدات الكفار فإنها محض إخبارات عن الإيقاع غير مشروطة بشرط أصلاً كمواعيد المؤمنين، والداعي للتفرقة الجمع بين الآيات، وأنت تعلم أن ظاهر هذا أن وعيدات الكفار بالعذاب الدنيوي كوعيداتهم بالعذاب الأخروي لا يتطرقها عدم الوقوع فلا يجوز العفو عن عذابهم مطلقاً متى وعد به، وعندي في التسوية بين الأمرين تردد، ويعلم من ذلك حال هذا الجواب على تقدير حمل العذاب في الآية على العذاب الدنيوي الأوفق للمقام والوعد على الوعد به. وأجاب بعضهم هنا بأن المراد بالوعد وعده تعالى بالنظرة والإمهال وهو مقابل للوعيد في نظر الممهل ولا خلاف في أن الله تعالى لا يخلف الوعد المقابل للوعيد وأن ما يؤدى به خبر محض لا شرط فيه؛ وقيل: المراد به وعده تعالى نبيه ﷺ بإنزال العذاب المستعجل به عليهم وذلك مقابل للوعيد من حيث إن فيه خيراً له عليه الصلاة والسلام، ولا مانع من أن يكون شيء واحد خيراً وشراً بالنسبة إلى شخصين فقد قيل:

مصائب قوم عند قوم فوائد

وحينئذ لا دليل للمعتزلة في الآية على دعواهم.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا

مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى
ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾
لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ
بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ
بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾

﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ﴾ أي كم من سكنة قرية ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء حتى أنكروا مجيء ما وعد من العذاب واستعجلوا به استهزاء وتعجيزاً لرسلهم عليهم السلام كما فعل هؤلاء، والجملة عطف على ما تقدمها جيء بها لتحقيق الرد كما تقدم فلذا جيء بالواو، وجيء في نظيرتها السابقة بالفاء قيل: لأنها أبدلت من جملة مقرونة بها، وفي إعادة الفاء تحقيق للبدلية، وقيل: جيء بالفاء هناك لأن الجملة مترتبة على ما قبلها ولم يجأ بها هنا لعدم الترتب، وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حالية مفيدة لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين أي أمليت لها والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي إلى حكمي مرجع جميع الناس أو جميع أهل القرية لا إلى أحد غيري لا استقلالاً ولا شركة فأفعل بهم ما أفعل مما يليق بأعمالهم، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله مصرح بما أفاده ذلك بطريق التعريض من أن مآل أمر المستعجلين أيضاً ما ذكر من الأخذ الوبيل.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر السياق يقتضي أن المراد بالناس المشركون فإن الحديث مسوق لهم فكأنه قيل: قل يا أيها المشركون المستعجلون بالعذاب إنما أنا منذر لكم إنذاراً بيناً بما أوحي إليّ من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكون لي دخل في إتيان ما تستعجلون من العذاب الموعود حتى تستعجلوني به فوجه الاقتصار على الإنذار ظاهر، وأما وجه ذكر المؤمنين وثوابهم في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فالزيادة هي إغاظة المشركين فهو بحسب المآل إنذار، ويجوز أن يقال: إن قوله سبحانه: ﴿فالذين آمنوا﴾ الآية تفصيل لمن نجع فيه الإنذار من الناس المشركين ومن بقي منهم على كفره غير ناجع فيه ذلك كأنه قيل: أنذر يا محمد هؤلاء الكفرة المستعجلين بالعذاب وبالغ فيه فمن آمن ورجع عما هو عليه فله كذا ومن داوم على كفره واستمر على ما هو عليه فله كذا، واختاره الطيبي وهو كما في الكشف حسن وعليه لا يكون التقسيم داخلاً في المقول بخلاف الوجه الأول.

وقال بعض المحققين: الناس عام للمؤمن والكافر والمنذر به قيام الساعة، وإنما كان ﷺ نذيراً مبيناً لأن بعثه عليه الصلاة والسلام من أشراطها فاجتمع فيه الإنذار قالاً وحالاً بقوله: ﴿أنا لكم نذير مبين﴾ كقوله ﷺ الثابت في الصحيحين «أنا النذير العريان» وقد دل على ذلك تعقيب الخطاب بالإنذار تفصيل حال الفريقين عند قيامها اهـ.

ولا مانع منه لولا ظاهر السياق، وكون المؤمنين لا ينذرون لا سيما وفيهم الصالح والطالح مما لا وجه له، ومن منع من العموم لذلك قال: التقدير عليه بشير ونذير ونقل هذا عن الكرماني؛ ثم المغفرة تحتمل أن تكون لما ندر من الذين آمنوا من الذنوب وذلك لا ينافي وصفهم بعمل الصالحات، وتحتمل أن تكون لما سلف منهم قبل الإيمان والرجوع عما كانوا عليه، والمراد بالرزق الكريم هنا الجنة كما يشعر به وقوعه بعد المغفرة وكذلك في جميع القرآن على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي، ومعنى الكريم في صفات غير الآدميين الفائق ﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا**﴾ أي بذلوا الجهد في إبطالها فسموها تارة سحراً وتارة شعراً وتارة أساطير الأولين.

وأصل السعي الإسراع في المشي ويطلق على الإصلاح والإفساد يقال: سعى في أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه ﴿**مُعَاجِزِينَ**﴾ أي مسابقين للمؤمنين؛ والمراد بمسابقتهم مشاقتهم لهم ومعارضتهم فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله، وأصله من عاجزه فأعجزه وعجزه إذا سابقه فسبقه فإن كلا من المتسابقين يريد إعجاز الآخر عن اللحاق.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والجحدري وأبو السمال والزعفراني «مُعَجِّزِين» بالتشديد أي مثبطين الناس عن الإيمان. وقال أبو علي الفارسي: ناسبين المسلمين إلى العجز كما تقول: فسقت فلاناً إذا نسبته إلى الفسق وهو المناسب لقوله تعالى: ﴿**يستعجلونك بالعذاب**﴾ وقرأ ابن الزبير «مُعْجِزِينَ» بسكون العين وتخفيف الزاي من أعجزك إذا سبقك ففاتك، قال صاحب اللوامح: والمراد هنا ظانين أنهم يعجزوننا وذلك لظنهم أنهم لا يبعثون، وفسر ﴿**معاجزين**﴾ في قراءة الجمهور بمثل ذلك، والوصف على جميع القراءات حال من ضمير ﴿**سعوا**﴾ وليست مقدرة على شيء منها كما يظهر للمتأمل ﴿**أُولَئِكَ**﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿**أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ أي ملازمو النار الشديدة التأجج، وقيل هو اسم دركة من دركات النار.

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾ ﴿**من**﴾ الأولى ابتدائية والثانية مزيدة لاستغراق الجنس، والجملة المصدرة بإذا في موضع الحال عند أبي حيان، وقيل: في موضع الصفة وأفرد الضمير بتأويل كل واحد أو بتقدير جملة مثل الجملة المذكورة كما قيل في قوله تعالى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: ٦٢] والظاهر أن ﴿**إذا**﴾ شرطية ونص على ذلك الحوفي لكن قالوا: إن ﴿**إلاَّ**﴾ في النفي إما أن يليها مضارع نحو ما زيد إلا يفعل وما رأيت زيداً إلا يفعل أو يليها ماض بشرط أن يتقدمه فعل كقوله تعالى: ﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا﴾ [الحجر: ١١] الخ أو[1] يكون الماضي مصحوباً بقد نحو ما زيد إلا قد قام، ويشكل عليه هذه الآية إذا لم يلها فيها مضارع ولا ماض بل جملة شرطية فإن صح ما قالوه احتيج إلى التأويل، وأول ذلك في البحر بأن ﴿**إذا**﴾ جردت للظرفية وقد فصل بها وبما أضيفت إليه بين إلا والفعل الماضي الذي هو ﴿**ألقى**﴾ وهو فصل جائز فتكون إلا قد وليها ماض في التقدير ووجد الشرط، وعطف «نبي» على ﴿**رسول**﴾ يدل على المغايرة بينهما وهو الشائع، ويدل على المغايرة أيضاً ما روي أنه ﷺ سئل عن الأنبياء فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل: فكم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً، وقد أخرج ذلك. كما قال السيوطي. أحمد. وابن راهويه في مسنديهما من حديث أبي أمامة، و أخرجه ابن حيان في صحيحه. والحاكم في مستدركه من حديث أبي ذر.

وزعم ابن الجوزي أنه موضوع وليس كذلك، نعم قيل في سنده ضعف جبر بالمتابعة؛ وجاء في رواية الرسل

---

(١) أو المنع الخلو اهـ منه.

ثلاثمائة وخمسة عشر، واختلفوا هنا في تفسير كل منهما فقيل: الرسول ذكر حر بعثه الله تعالى بشرع جديد يدعو الناس إليه والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، وقيل: الرسول ذكر حر بعثه الله تعالى إلى قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم وإن لم يكن جديداً في نفسه كإسماعيل عليه السلام إذ بعث لجرهم أولاً النبي يعمه ومن بعث بشرع غير جديد كذلك، وقيل: الرسول ذكر حر له تبليغ في الجملة وإن كان بياناً وتفصيلاً لشرع سابق والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بتبليغ أصلاً أو أعم منه ومن الرسول، وقيل: الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه والنبي غير الرسول من لا كتاب له، وقيل: الرسول من له كتاب أو نسخ في الجملة والنبي من لا كتاب له ولا نسخ، وقيل الرسول[1] من يأته الملك عليه السلام بالوحي يقظة و النبي يقال له ولمن يوحى إليه في المنام لا غير: وهذا أغرب الأقوال ويقتضي أن بعض الأنبياء عليه السلام لم يوح إليه إلا مناماً وهو بعيد ومثله لا يقال بالرأي.

وأنت تعلم أن المشهور أن النبي في عرف الشرع أعم من الرسول فإنه من أوحي إليه سواء أمر بالتبليغ أم لا والرسول من أوحي إليه وأمر بالتبليغ ولا يصح إرادة ذلك لأنه إذا قوبل العام بالخاص يراد بالعام ما عدا الخاص فمتى أريد بالنبي ما عدا الرسول كان المراد به من لم يؤمر بالتبليغ وحيث تعلق به الإرسال صار مأموراً بالتبليغ فيكون رسولاً فلم يبق في الآية بعد تعلق الإرسال رسول ونبي مقابل له فلابد لتحقيق المقابلة أن يراد بالرسول من بعث بشرع الآية بعد تعلق الإرسال رسول ونبي مقابل له فلا بد لتحقيق المقابلة أن يراد بالرسول من بعث بشرع جديد وبالنبي من بعث لتقرير شرع من قبله أو يراد بالرسول من بعث بكتاب وبالنبي من بعث بغير كتاب أو يراد نحو ذلك مما يحصل به المقابلة مع تعلق الإرسال بهما، والتمني. على ما قال أبو مسلم. نهاية التقدير ومنه المنية وفاة الإنسان للوقت الذي قدره الله تعالى، والأمنية على ما قال الراغب الصورة الحاصلة في النفس من التمني، وقال غير واحد: التمني القراءة وكذا الأمنية، وأنشدوا قول حسان في عثمان رضي الله تعالى عنهما:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... تَمَنِّيَ داود الزبور على رسل

وفي البحر أن ذلك راجع إلى الأصل المنقول عن أبي مسلم فإن التالي يقدر الحروف ويتصورها فيذكرها شيئاً فشيئاً، والمراد بذلك هنا عند كثير القراءة، والآية مسوقة لتسلية النبي ﷺ بأن السعي في إبطال الآيات أمر معهود وأنه لسعي مردود، والمعنى وما أرسلنا من قبلك رسولاً ولا نبياً إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئاً من الآيات ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به كما قال تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ [الأنعام: ١٢١] وقال سبحانه: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ [الأنعام: ١١٢] وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول ﷺ ﴿حرم عليكم الميتة﴾ [البقرة: ١٧٣، النحل: ١١٥] إنه يحل ذبيح نفسه ويحرم ذبيح الله تعالى، وقولهم على ما في بعض الروايات عند سماع قراءته عليه الصلاة والسلام ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] إن عيسى عبد من دون الله تعالى والملائكة عليهم السلام عبدوا من دون الله تعالى ﴿فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي فيبطل ما يلقيه من تلك الشبه ويذهب به بتوفيق النبي ﷺ لرده أو بإنزال ما يرده ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِه﴾ أي يأتي بها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بوجه من الوجوه، و ﴿ثم﴾ للتراخي الرتبي فإن الإحكام أعلى رتبة من النسخ، وصيغة المضارع في

---

(١) قائله الإمام الرازي.

الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددي، وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بأن الألوهية من موجبات أحكام آياته تعالى الباهرة. ومثل ذلك في زيادة التقرير إظهار ﴿الشيطان﴾ ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ومن جملته ما يصدر من الشيطان وأوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل ومن جملته تمكين الشيطان من إلقاء الشبه وأوليائه من المجادلة بها وإبداؤه تعالى ردها، والإظهار هاهنا لما ذكر أيضاً مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي الذي يلقيه. وقيل: إلقاءه ﴿فِتْنَةً﴾ أي عذاباً. وفي البحر ابتلاء واختبار ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك ونفاق وهو المناسب لقوله تعالى في المنافقين ﴿في قلوبهم مرض﴾ وتخصيص المرض بالقلب مؤيد له لعدم إظهار كفرهم بخلاف الكافر المجاهر ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي الكفار المجاهرين، وقيل: المراد من الأولين عامة الكفار ومن الأخيرين خواصهم كأبي جهل والنضر وعتبة، وحمل الأولين على الكفار مطلقاً والأخيرين على المنافقين لأنهم أحق بوصف القسوة لعدم انجلاء صدأ قلوبهم بصيقل المخالطة للمؤمنين ليس بشيء.

﴿وإنَّ الظَّالمينَ﴾ أي الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم مع ما وصفوا به من المرض والقسوة ﴿لَفي شِقَاق بَعيد﴾ أي عداوة شديدة ومخالفة تامة، ووصف الشقاق بالبعد مع أن الموصوف به حقيقة هو معروضه للمبالغة، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، ولام ﴿ليجعل﴾ للتعليل وهو عند الحوفي متعلق بيحكم وعند ابن عطية بينسخ وعند غيرهما بألقي لكن التعليل لما ينبىء عنه إلقاء الشيطان من تمكينه تعالى إياه من ذلك في حق النبي ﷺ خاصة لعطف قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَبِّكَ﴾ وكون ضمير ﴿أنه﴾ للقرآن، وقيل لا حاجة للتخصيص وضمير ﴿أنه﴾ لتمكين الشيطان من الإلقاء أي وليعلم العلماء أن ذلك التمكين هو الحق المتضمن للحكمة البالغة لأنه مما جرت به عادته تعالى في جنس الإنس من لدن آدم عليه السلام، وضميراً ﴿به﴾ و ﴿له﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي يثبتوا على الإيمان أو يزدادوا إيماناً ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية للقرآن على التخصيص وللرب على التعميم، وجعلهما لتمكين الشيطان لا سيما الثاني مما لا وجه له.

ورجح ما قاله ابن عطية بأن أمر التعليل عليه أظهر أي فينسخ الله تعالى ما يلقيه الشيطان ويرده ليجعله بسبب الرد وظهور فساد التمسك به عذاباً للمنافقين والكافرين أي سبباً لعذابهم حيث استرسلوا معه مع ظهور فساده أو اختباراً لهم هل يرجعون عنه وليعلم الذين أوتوا العلم أن القرآن هو الحق حيث بطل ما أورد من الشبه عليه ولم يبطل هو، وقد يقال مثل ذلك على ما ذهب إليه الحوفي، ولا يبعد أن يكون قوله تعالى: ﴿ليجعل﴾ إلخ متعلقاً بمحذوف أي فعل ذلك ليجعل الخ والإشارة إلى النسخ والأحكام ويجعل ﴿ليجعل﴾ علة النسخ ﴿وليعلم﴾ علة لفعل الإتيان بالآيات محكمة، ويجوز أن تكون الإشارة إلى التمكين المفهوم مما تقدم مع النسخ والأحكام ويجعل ﴿ليجعل﴾ علة لفعل التمكين وما بعد علة لما بعد، ويجوز أيضاً أن ترجع الضمائر في ﴿أنه﴾. و ﴿به﴾ و ﴿له﴾ للموحي الذي يقرؤه كل من الرسل والأنبياء عليهم السلام المفهوم من الكلام فلا حاجة للتخصيص، وأياً ما كان فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذين آمَنُوا إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم﴾ اعتراض مقرر لما قبله، والمراد بالذين آمنوا المؤمنين من هذه الأمة على تقدير التخصيص أو المؤمنون مطلقاً على تقدير التعميم، والمراد بالصراط المستقيم النظر الصحيح الموصل إلى الحق الصريح أي إنه تعالى لهادي المؤمنين في الأمور الدينية خصوصاً في المداحض والمشكلات التي من جملتها رد شبه الشياطين عن آيات الله عز وجل وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة «لهادٍ» بالتنوين.

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ أي في شك ﴿مِنْهُ﴾ أي من القرآن؛ وقيل: من الرسول، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الموحي على ما سمعت و «من» على جميع ذلك ابتدائية، وجوز أن يرجع إلى ما ألقى الشيطان واختير عليه أن من سببية فإن مرية الكفار فيما جاءت به الرسل عليهم السلام بسبب ما ألقى الشيطان في الموحي من الشبه والتخيلات فتأمل ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ أي القيامة نفسها كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة فإنها الموصوفة بالإتيان كذلك، وقيل: أشراطها على حذف المضاف أو على التجوز. وقيل: الموت على أن التعريف في ﴿الساعة﴾ للعهد ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي منفرد عن سائر الأيام لا مثيل له في شدته أو لا يوم بعده كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام فما لا يوم بعده يكون عقيماً؛ والمراد به الساعة بمعنى يوم القيامة أيضاً كأنه قيل أو يأتيهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل والتخويف. و «أو» في محلها لتغاير الساعة وعذابها وهي لمنع الخلو وكان المراد المبالغة في استمرارهم على المرية، وقيل: المراد بيوم عقيم يوم موتهم فإنه لا يوم بعده بالنسبة إليهم، وقيل المراد به يوم حرب يقتلون فيه، ووصف بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم، وفيه على الأول مجاز في الإسناد ومجاز في المفرد من جعل الثكل عقماً، وكذا على الثاني لأن الولود والعقيم هي الحرب على سبيل الاستعارة بالكناية فإذا وصف يوم الحرب بذلك كان مجازاً في الإسناد، ومن ثم قيل: إنه مجاز موجه من قولهم ثوب موجه له وجهان، وقيل: هو الذي لا خير فيه يقال: ريح عقيم إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً، وفيه على هذا استعارة تبعية لأن ما في اليوم من الصفة المانعة من الخير جعل بمنزلة العقم، وخص غير واحد هذا اليوم بيوم بدر فإنه يوم حرب قتل فيه عتاة الكفرة ويوم لا خير فيه لهم، ويصح أيضاً أن يكون وصفه بعقيم لتفرده بقتال الملائكة عليهم السلام فيه، وأنت تعلم أن الظاهر مما يأتي بعد إن شاء الله تعالى تعين تفسير هذا اليوم بيوم القيامة، هذا وجوز أن يراد من الشيطان شيطان الإنس كالنضر ابن الحرث كان يلقي الشبه إلى قومه وإلى الوافدين يثبطهم بها عن الإسلام، وقيل: ضمير ﴿أمنيته﴾ للشيطان والمراد بها الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء و «في» للسببية مثلها في قوله ﷺ: «إن امرأة دخلت النار في هرة» أي ألقى الشيطان بسبب أمنيته الشبه وأبداها ليبطل بها الآيات». وقيل: «تمنى» قرأ و «أمنيته» قراءته والضمير للنبي أو الرسول و ﴿في﴾ على ظاهرها، والمراد بما يلقي الشيطان ما يقع للقارىء من إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف أو تغيير إعراب سهواً، وقيل: المراد ما يلقيه في الآيات المتشابهة من الاحتمالات التي ليست مراداً لله تعالى، وقيل: تمنى هيأ وقدر في نفسه ما يهواه و ﴿أمنيته﴾ قراءته، والمعنى إذا تمنى إيمان قومه وهدايتهم ألقى الشيطان إلى أوليائه شبهاً فينسخ الله تعالى تلك الشبه ويحكم الآيات الدالة على دفعها، وقيل: ﴿تمنى﴾ قدر في نفسه ما يهواه و ﴿أمنيته﴾ تشبيه وما يلقيه الشيطان ما يوجب اشتغاله في الدنيا، وجعله فتنة باعتبار ما يظهر منه من الاشتغال بأمور الدنيا، ونسخه إبطاله بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يريده.

وقيل: ﴿تمنى﴾ قرأ و ﴿أمنيته﴾ قراءته وما يلقي الشيطان كلمات تشابه الوحي يتكلم بها الشيطان بحيث يظن السامع أنها من قراءة النبي، وقد روي أن الآية نزلت حين قرأ عليه الصلاة والسلام ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فأُلقي الشيطان في سكتته محاكياً نغمته عليه الصلاة والسلام بحيث يسمعه من حوله تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى فظن المشركون أنه عليه الصلاة والسلام هو المتكلم بذلك ففرحوا وسجدوا معه لما سجد آخر السورة، وقيل: المتكلم بذلك بعض المشركين وظن سائرهم أنه عليه الصلاة والسلام هو المتكلم به، وقيل: إنه ﷺ هو الذي تكلم بذلك عامداً لكن مستفهماً على سبيل الانكار والاحتجاج على المشركين، وجعل من إلقاء الشيطان

لما ترتب عليه من ظن المشركين أنه مدح لآلهتهم، ولا يمنع ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي لأن الكلام في الصلاة كان جائزاً إذ ذاك، وقيل: بل كان ساهياً، فقد أخرج عبد بن حميد من طريق يونس عن ابن شهاب قال: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن «أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قرأ عليهم والنجم فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ [النجم: ٨٩، ٢٠] قال: إن شفاعتهن ترتجى وسها رسول الله عليه الصلاة والسلام ففرح المشركون بذلك فقال ﷺ: «ألا إنما ذلك من الشيطان فأنزل الله تعالى ﴿وما أرسلنا ـ حتى بلغ ـ **عذاب يوم عقيم**﴾، قال الجلال السيوطي: وهو خبر مرسل صحيح الإسناد، وقيل: تكلم بذلك ناعساً. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: بينا نبي الله ﷺ يصلي عند المقام إذ نعس فألقى الشيطان[1] على لسانه كلمة فتكلم بها فقال: **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾** وإن شفاعتهن لترتجى وإنها لمع الغرانيق العلا فحفظها المشركون وأخبرهم الشيطان أن نبي الله ﷺ قد قرأها فزلت ألسنتهم فأنزل الله تعالى ﴿وما أرسلنا﴾ الآية، وقيل: ﴿تمنى﴾ قدر في نفسه ما يهواه و ﴿أمنيته﴾ قراءته وما يلقي الشيطان كلمات تشابه الوحي، فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله أصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالتهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله تعالى سورة النجم قال: **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾** ألقى الشيطان عندها كلمات فقال: وإنهن لهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وزلت بهما ألسنتهم وتباشروا بهما وقالوا، إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد وسجد كل من حضر من مسلم أو مشرك ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة فأنزل الله تعالى **﴿وما أرسلنا﴾** الآيات، وقيل: إن النبي ﷺ حين ألقاها الشيطان تكلم بها ظاناً أنها وحي حتى نبهه جبريل عليه السلام، ففي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم فلما بلغ **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾** ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا ثم جاءه جبريل عليهما الصلاة والسلام بعد ذلك فقال: أعرض على ما جئتك به فلما بلغ تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى قال له جبريل عليهما السلام: لم آتك بهذا هذا من الشيطان فأنزل الله تعالى **﴿وما أرسلنا﴾** الآية.

وأخرج البزار والطبري وابن مردويه والضياء في المختارة بسند رجاله ثقات من طريق سعيد عن ابن عباس نحو ذلك لكن ليس فيه حديث السجود وفيه أيضاً مغايرة يسيرة غير ذلك، وجاء حديث السجود في خبر آخر عنه أخرجه البزار وابن مردويه أيضاً من طريق أمية بن خالد عن شعبة لكن قال في إسناده: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب فشك في وصله، وفي رواية أبي حاتم عن السدي أن جبريل عليه السلام قال له عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه ذلك: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا فاشتد عليه عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى وطيب نفسه **﴿وما أرسلنا﴾** الآية قيل: والمشابهة ما ألقى الشيطان للوحي المنزل وكونه في أثنائه أطلق على إبطاله اسم النسخ الشائع إيقاعه على ما هو وحي حقيقة لكن لا يخفى أن النسخ الشرعي لا يتعلق بنحو ما ذكر من الأخبار فلا بدّ من تأويل ما

(١) قيل يقال لذلك الشيطان الأبيض اهـ منه.

لذلك، وقد أنكر كثير من المحققين هذه القصة فقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. وقال القاضي عياض في الشفاء: يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وفي البحر أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية فقال: هذا من وضع الزنادقة وصنف في ذلك كتاباً. وذكر الشيخ أبو منصور الماتريدي في كتاب حصص الأتقياء الصواب أن قوله: تلك الغرانيق العلا من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية. وذكر غير واحد أنه يلزم على القول بأن الناطق بذلك النبي ﷺ بسبب إلقاء الشيطان الملبس بالملك أمور. منها تسلط الشيطان عليه عليه الصلاة والسلام وهو ﷺ بالإجماع معصوم من الشيطان لا سيما في مثل هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد، وقد قال سبحانه ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥] وقال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾ [النحل: ٩٩] إلى غير ذلك، ومنها زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه وذلك مما يستحيل عليه عليه الصلاة والسلام لمكان العصمة، ومنها اعتقاد النبي ﷺ ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه بعيد الالتئام متناقضاً ممتزج المدح بالذم وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يتساهل في نسبته إليه ﷺ، ومنها أنه إما أن يكون عليه الصلا" والسلام عند نطقه بذلك معتقداً ما اعتقده المشركون من مدح آلهتهم بتلك الكلمات وهو كفر محال في حقه ﷺ وإما أن يكون معتقداً معنى آخر مخالفاً لما اعتقدوه ومبايناً لظاهر العبارة ولم يبينه لهم مع فرحهم وادعائهم أنه مدح آلهتهم فيكون مقراً لهم على الباطل وحاشاه ﷺ أن يقر على ذلك. ومنها كونه ﷺ اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه عليه الملك وهو يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام على غير بصيرة فيما يوحى إليه، ويقتضي أيضاً جواز تصور الشيطان بصورة الملك ملبساً على النبي ولا يصح ذلك كما قال في الشفاء لا في أول الرسالة ولا بعدها والاعتماد في ذلك دليل المعجزة.

وقال ابن العربي: تصور الشيطان في صورة الملك ملبساً على النبي كتصوره في صورة النبي ملبساً على الخلق وتسليط الله تعالى على ذلك كتسليطه في هذا فكيف يسوغ في لب سليم استجازة ذلك. ومنها التقول على الله تعالى إما عمداً أو خطأ أو سهواً. وكل ذلك محال في حقه عليه الصلاة والسلام، وقد اجتمعت الأمة على ما قال القاضي عياض على عصمته ﷺ فيما كان طريقه البلاغ من الأقوال عن الإخبار بخلاف الواقع لا قصداً ولا سهواً، ومنها الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يؤمن فيه التبديل والتغيير، ولا يندفع كما قال البيضاوي بقوله تعالى: فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، لأنه أيضاً يحتمل إلى غير ذلك. وذهب إلى صحتها الحافظ بن حجر في شرح البخاري وساق طرقاً عن ابن عباس وغيره ثم قال: وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع لكن كثرة الطرق تدل على أن لها أصلاً مع أن لها طريقاً متصلاً بسند صحيح أخرجه البزار وطريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين، أحدهما ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن زيد عن ابن شهاب، والثاني ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة فرقهما عن داود بن أبي هند عن أبي العالية، ثم أخذ في الرد على أبي بكر بن العربي والقاضي عياض في إنكارهما الصحة.

وذهب إلى صحة القصة أيضاً خاتمة المتأخرين الشيخ إبراهيم الكوراني ثم المدني، وذكر بعد كلام طويل أنه تحصل من ذلك أن الحديث أخرجه غير واحد من أهل الصحة وأنه رواه ثقات بسند سليم متصل عن ابن عباس وبثلاث أسانيد صحيحة عن ثلاث من التابعين من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة وهم سعيد بن جبير وأبو بكر بن

عبد الرحمن وأبو العالية، وقد قال السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول: قال الحاكم في علوم الحديث: إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند ومشى عليه ابن الصلاح وغيره ثم قال: ما جعلناه من قبيل المسند من الصحابي إذا وقع من تابعي فهو مرفوع أيضاً لكنه مرسل فقد يقبل إذا صح السند إليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل ونحو ذلك، فعلى هذا يكون الخبر في هذه القصة مسنداً من الطريق المتصلة بابن عباس مرسلاً مرفوعاً من الطرق الثلاثة والزيادة فيه التي رواها الثقات عن ابن عباس في غير رواية البخاري ليست مخالفة لما في البخاري عنه فلا تكون شاذة فإطلاق الطعن فيه من حيث النقل ليس في محله، وأجاب عما يلزم على تقدير كون الناطق بذلك النبي ﷺ، أما عن الأول فبأن السلطان المنفي عن العباد المخلصين هو الإغواء أعني التلبيس المخل بأمر الدين وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم منه وأما غير المخل فلا دليل على نفيه ولا إجماع على العصمة منه وما هنا غير مخل لعدم منافاته للتوحيد كما يبين إن شاء الله تعالى بل فيه تأديب وتصفية وترقية للحبيب الأعظم ﷺ لأنه عليه الصلاة والسلام تمنى هدي الكل ولم يكن ذلك مراد الله تعالى والأكمل في العبودية فناء إرادته في إرادة الحق سبحانه فليس عليه عليه الصلاة والسلام الإلقاء حالة تمنى هدى الكل المصادم للقدر والمنافي لما هو الأكمل ليترقى إلى الأكمل وقد حصل ذلك بهذه المرة ولذا لم يقع التلبيس مرة أخرى بل كان يرسل بعد من بين يديه ومن خلفه رصد ليعلم أن قد أبلغوا رسالة ربه سبحانه، وفي ترتيب الإلقاء على التمني ما يفهم العتاب عليه؛ وأما عن الثاني فبأن المستحيل المنافي للعصمة أن يزيد عليه الصلاة والسلام فيه من تلقاء نفسه أي يزيد فيه ما يعلم أنه ليس منه وما هنا ليس كذلك لأنه عليه الصلاة والسلام إنما تبع فيه الإلقاء الملبس عليه في حالة خاصة فقط تأديباً أن يعود لمثل تلك الحالة، وأما عن الثالث فبأنه يجوز أن يكون النبي ﷺ نطق به على فهم أنه استفهام إنكاري حذف منه الهمزة أو حكاية عنهم بحذف القول وحينئذ لا يكون بعيد الالتئام ولا متناقضاً ولا ممتزج المدح بالذم ولا بد من التزام أحد الأمرين على تقدير صحة الخبر لمكان العصمة، والنكتة في التعبير كذلك إيهام الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أنه عليه الصلاة والسلام مدح آلهتهم ويحصل ذلك مراد الله تعالى المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿ليجعل﴾ الخ، وأما عن الرابع فبأنا نختار الشق الثاني بناء على أنه استفهام حذف منه الهمزة أو حكاية بحذف القول، وعلى التقديرين يكون عليه الصلاة والسلام معتقداً لمعنى مخالف لما اعتقدوه؛ ولا يلزم منه التقرير على الباطل لأنه بين بطلان معتقدهم بقوله تعالى بعد: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [النجم: ٢٣] فإن ما لم ينزل الله تعالى به سلطاناً لا ترجى شفاعته إذ لا شفاعة إلا من بعد إذن إلهي لقوله تعالى بعد: ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم: ٢٦].

وأما عن الخامس فبأن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكون ﷺ على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة، وأما قول القاضي عياض: لا يصح أن يتصور الشيطان بصورة الملك ويلبس عليه عليه الصلاة والسلام فإن أراد به أنه لا يصح أن يلبس تلبيساً قادحاً فهو مسلم لكنه لم يقع وإن أراد مطلقاً ولو كان غير مخل فلا دليل عليه، ودليل المعجزة إنما ينفي الاشتباه المخل بأمر النبوة المنافي للتوحيد القادح في العصمة وما ذكر غير مخل بل فيه تأديب بما يتضمن تنقية وترقية إلى الأكمل في العبودية. وأما ما ذكر ابن العربي فقياس مع الفارق لأن تصور الشيطان في صورة النبي مطلقاً منفي بالنص الصحيح وتصوره في صورته ملبساً على الخلق إغواء يعم وهو سلطان منفي بالنص عن المخلصين، وأما تصوره في صورة الملك في حالة خاصة ملبساً على النبي بما لا يكون منافياً

للتوحيد لما يريد الله تعالى بذلك تأديباً ولإيهامه خلاف المراد فتنة لقوم فليس من السلطان المنفي ولا بالتصور الممنوع لعدم إخلاله بمقام النبوة.

وأما عن السادس فبأن التقول تكلف القول ومن لا يتبع إلا ما يلقى إليه من الله تعالى حقيقة أو اعتقاداً ناشئاً من تلبيس غير مخل لا تكلف للقول عنده فلا تقول على الله تعالى أصلاً؛ ما أشبه هذه القصة بما تضمنه حديث ذي اليدين فالتلبيس عليه عليه الصلاة والسلام في الإلقاء في حالة التمني تأديباً كإيقاع السهو عليه ﷺ في الصلاة باعتقاد التمام تشريعاً والنطق بما ألقاه الشيطان في حالة خاصة مما لا ينافي التوحيد على أنه قرآن بناء على اعتقاد أن الملقي ملك تلبيساً للتأديب كالنطق بالسلام ثم بلم أنس معتقداً أنه مطابق للواقع بناء على اعتقاد التمام سهواً، ووقوع البيان على لسان جبريل عليه السلام ثم النسخ والأحكام كوقوع البيان على لسان الصحابي ثم التدارك وسجود السهو فكما أن السهو للتشريع غير قادح في منصب النبوة كذلك الاشتباه في الإلقاء للتأديب غير قادح، وكما أن النطق بلم أنس مع تبين أنه عليه الصلاة والسلام قد نسي صدق بناء على اعتقاد التمام سهواً كذلك النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة على أنه قرآن بناء على اعتقاد أن الملقي ملك صدق ولا شيء من الصدق بالتقول فلا شيء من النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة به، وما ذكر عن القاضي عياض من حكاية الإجماع على عدم جواز دخول السهو في الأقوال التبليغية كما قال الحافظ بن حجر متعقب.

وأما عن السابع فبأنه لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا لأن وثوق كل منهما تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين فإذا جزم بشيء أنه كذا جزموا به وإذا رجع عن شيء بعد الجزم رجعوا كما هو شأنهم في نسخ غير هذا من الآيات التي هي كلام الله تعالى لفظاً ومعنى إذا قيل نسخ ما نسخ لفظه كانوا جازمين بأنهم متعبدون بتلاوته وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم متعبدين بتلاوته، وما نسخ حكمه كانوا جازمين بأنهم مكلفون بحكمه وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم مكلفين به، فقول البيضاوي: إن ذلك لا يندفع بقوله تعالى: ﴿فينسخ الله﴾ الخ لأنه أيضاً يحتمله ليس بشيء، وبيانه أنه إن أراد أنه يحتمله عند الفرق الأربع المذكورة في الآيات وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والذين أوتوا العلم والذين آمنوا فهو ممنوع لدلالة قوله تعالى: ﴿وليعلم﴾ الخ على انتقاء الاحتمال عند فريقين من الفرق الأربع بعد النسخ والأحكام، وإن أراد أنه يحتمله في الجملة أي عند بعض دون بعض فهو مسلم وغير مضر لعدم إخلاله بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا، وأما إخلاله بالنسبة إلى الفريقين الآخرين فهو مراد الله عز وجل.

هذا واعترض على الجواب الأول بأن التلبيس بحيث يشتبه الأمر على النبي ﷺ فيعتقد أن الشيطان ملك مخل بمقام النبوة ونقص فيه فإن الولي الذي هو دونه عليه الصلاة والسلام بمراتب لا يكاد يخفى عليه الطائع من العاصي فيدرك نور الطاعة وظلمة المعصية فيكف بمن هو سيد الأنبياء ونور عيون قلوب الأولياء يلتبس عليه من هو محض نور بمن محض ديجور، واشتباه جبريل عليه السلام عليه ﷺ في بعض المرات حتى لم يعرفه إلى أن ذهب فقال: والذي نفسي بيده ما شبه عليّ منذ أتاني قبل مرّتي هذه وما عرفته حتى ولى إذا صح ليس من قبيل اشتباه الشيطان به عليه السلام إذ يجوز أن يكون من اشتباه ملك بملك وكل منهما نوراني، وقد كان يأتيه ﷺ غير جبريل عليه السلام من الملائكة الكرام، وأن يكون من اشتباه ملك بواحد من البشر نوراني أيضاً لم يكن رآه عليه الصلاة والسلام قبل ذلك كالخضر والياس مثلاً إن قلنا بحياتهما.

وأيضاً قال المحققون: إن الأنبياء عليهم السلام ليس لهم خاطر شيطاني، وكون ذلك ليس منه بل كان مجرد

إلقاء على اللسان دون القلب ممنوع ألا ترى أنه قال تعالى: ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ دون ألقى الشيطان على لسانه، وتسمية القراءة أمنية لما أن القارىء يقدر الحروف في قلبه أولاً ثم يذكرها شيئاً فشيئاً، وأيضاً حفظه ﷺ لذلك إلى أن أمسى كما جاء في بعض الروايات فنبهه عليه جبريل عليهما السلام يبعد كون الإلقاء على اللسان فقط، على أنا لو سلمنا ذلك وقلنا: إن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ولم يلق في قلبه كما هو شأن الوحي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقلنا: إن ذلك مما يعقل للزم أن يعلم ﷺ من خلو قلبه واشتغال لسانه على أن ذلك ليس من الوحي في شيء ولم يحتج إلى أن يعلمه جبريل عليه السلام، والقول بأنه لبس الحال عليه عليه الصلاة والسلام للتأديب والترقية إلى المقام الأكمل في العبودية وهو فناء إرادته ﷺ في إرادة مولاه عز وجل حيث تمنى إيمان الكل وحرص عليه ولم يكن مراد الله تعالى مما لا ينبغي أن يلتفت إليه لأن القائل به زعم أن التأديب بذلك كان بعد قوله تعالى: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [الأنعام: ٣٥] ولا شك أن التأديب به لم يبق ولم يذر ولم يقرن بما فيه تسلية أصلاً فإذا قيل والعياذ بالله تعالى: إن ذلك لم ينجع فكيف ينجع ما دونه، وأيضاً أية دلالة في الآية على التأديب وهي لم تخرج مخرج العتاب بل مخرج التسلية على أبلغ وجه عما كان يفعل المشركون من السعي في إبطال الآيات، ولا نسلم أن ترتيب الإلقاء على التمني مع ما في السباق والسياق مما يدل على التسلية عن ذلك يجدي نفعاً في هذا الباب كما لا يخفى على ذوي الألباب.

ويرد على قوله: إنه بعد حصول التأديب بما ذكر كان يرسل من بين يديه ومن خلفه رصد يحفظونه من إلقاء الشيطان أنه لم يدل دليل على تخصيص الإرسال بما بعد ذلك بل الظاهر أن ذلك كان في جميع الأوقات فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ [الجن: ٢٧] قال: كان النبي ﷺ إذا بعث إليه الملك بالوحي بعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان بالملك، وقد ذكروا أن ـ كان ـ في ذلك للاستمرار.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة، وهذا صريح في ذلك ولا شك أن هذا الالقاء عند من يقول به كان عند نزول الوحي، فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أن النبي ﷺ بينما هو يصلي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب فجعل يتلوها فسمعه المشركون فقالوا: إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير فدنو منه فبينما هو يتلوها وهو يقول ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان تلك الغرانيق العلا منها الشفاعة ترتجى فعلى هذا ونحوه يكون الرصد موجوداً مع عدم ترتب أثره عليه؛ والقول بأن جبريل عليه السلام ومن معه تنحوا عنه حتى ألقى الشيطان ما ألقى بناء على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في آية الرصد: كان النبي ﷺ قبل أن يلقي الشيطان في أمنيته يدنون منه فلما ألقى الشيطان في أمنيته أمرهم أن يتنحوا عنه قليلاً فإن المراد من قوله: فيه فلما ألقى فلما أراد أن يلقي في حيز المنع وكذا صحة هذا الخبر، ثم أية فائدة في إنزال الرصد إذا لم يحصل به الحفظ بل كيف يسمى رصداً. ومما ذكر في هذا الاعتراض يعلم ما في الجواب الثاني من الاعتراض وهو ظاهر، وقد يقال: إن إعجاز القرآن معلوم له ﷺ ضرورة كما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري بل قال القاضي: إن كل بليغ أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة يعلم ضرورة إعجازه، وذكر أن الإعجاز يتعلق بسورة أو قدرها من الكلام بحيث يتبين فيه تفاضل قوي البلاغة فإذا كانت آية بقدر حروف سورة وإن كانت كسورة الكوثر فهو معجز، وعلى هذا يمتنع أن يأتي الجن والإنس ولو كان

بعضهم لبعض ظهيراً بمقدار أقصر سورة منه تشبهه في البلاغة ومتى أتى أحد بما يزعم فيه ذلك لم تنفق سوقه عند رسول الله ﷺ وكذا عند كل بليغ محيط بما تقدم ولم يخف على الرسول عليه الصلاة والسلام ولا على ذلك البليغ عدم إعجازه فلا يشتبه عنده بالقرآن أصلاً، ولا شك أن ما ألقى الشيطان على ما في بعض الروايات حروفه بقدر حروف سورة الكوثر بل أزيد أن اعتبر الحرف المشدد بحرفين وهو وأنهن لهن الغرانيق العلاوان شفاعتهن لهي التي ترتجى الوارد فيما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب.

وجاء في رواية ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند قال السيوطي: هو صحيح عن أبي العالية أنه ألقى تلك الغرانيق العلا وشفاعتهن ترتجى ترتضى ومثلهن لا ينسى وحروفه أزيد من حروفها إذا لم يعتبر الحرف المشدد في شيء منهما حرفين أما إذا اعتبر فحروفها أزيد بواحد فإن كان ما ذكر مما يتعلق به الإعجاز فإن كان معجزاً لزم أن يكون من الله تعالى لا من إلقاء عدوه ضرورة عجزه كسائر الجن والإنس عن الإتيان بذلك، وإن لم يكن مما يتعلق به الإعجاز فهو كلام غير يسير يتنبه البليغ الحاذق إذ سمعه أثناء كلام فوقه بمراتب لكونه ليس منه فيبعد كل البعد أن يخفى عليه عليه الصلاة والسلام قصور بلاغته عن بلاغة شيء من آيات القرآن سواء قلنا بتفاوتها في البلاغة كما اختاره أبو نصر القشيري وجماعة أم قلنا بعدم التفاوت كما اختاره القاضي فيعتقد أنه قرآن حتى ينبهه جبريل عليه السلام لا سيما وقد تكرر على سمعه الشريف سكر الآيات ومازجت لحمه ودمه، والواحد منا وإن لم يكن من البلاغة بمكان إذا ألف شعر شاعر وتكرر على سمعه يعلم إذا دس بيت أو شطر في قصيدة له إن ذلك ليس له وقد يطالب بالدليل فلا يزيد على قوله: لأن النفس مختلف، وهذا البعد متحقق عندي على تقدير كون الملقى ما في الرواية الشائعة وهو تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى أيضاً لا سيما على قول جماعة: إن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره من الجمل المفيدة لقوله تعالى: ﴿**فليأتوا بحديث مثله**﴾ والقول بأن النبي ﷺ خفي عليه ذلك للتأديب فيه ما فيه، ولا يبعد استحقاق قائله للتأنيب.

وما ذكره في الجواب عن الثالث من أنه لا بد من حمل الكلام على الاستفهام أو حذف القول وهو دون الأول إذا صح الخبر صحيح لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاّء عارفون بالغث والسمين من الأخبار وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه فلم يرووه إلا مردوداً وما ألقى الشيطان إلى أوليائه معدوداً وهم أكثر ممن قال بقبوله ومنهم من هو أعلم منه، ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين وفات ذلك القائل بالقبول، ولعمري إن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة ثم وفق الله تعالى جمعاً من خاصته لإبطاله أهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ثم نسخه سبحانه وتعالى لا سيما وهو مما لم يتوقف على صحته أمر ديني ولا معنى آية ولا ولا سوى أنها يتوقف عليها حصول شبه في قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد، ويؤيد عدم الثبوت مخالفته لظواهر الآيات فقد قال سبحانه في وصف القرآن: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢] والمراد بالباطل كان باطلاً في نفسه وذلك الملقى كذلك وإن سوغ نطق النبي ﷺ به تأويله بأحد التأويلين، والمراد بلا يأتيه استمرار النفي لا نفي الاستمرار.

وقال عز وجل: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] فجيء بالجملة الاسمية مؤكدة بتأكيدين ونسب فيها الحفظ المحذوف متعلقة إفادة للعموم إلى ضمير العظمة وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بأمر القرآن ما فيه.

وقد استدل بالآية من استدل على حفظ القرآن من الزيادة والنقص وما علينا ما قيل في ذلك، وكون الإلقاء المذكور لا ينافي الحفظ لأنه نسخ ولم يبق إلا زماناً يسيراً لا يخلو عن نظر، والظاهر أنه وإن لم يناف الحفظ في الجملة لكنه ينافي الحفظ المشار إليه في الآية على ما يقتضيه ذلك الاعتناء، ثم إن قيل: بما روي عن الضحاك من أن سورة الحج كلها مدنية لزم بقاء ما ألقى الشيطان قرآناً في اعتقاد رسول الله ﷺ والمؤمنين زماناً طويلاً والقول بذلك من الشناعة بمكان، وقال جل وعلا: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٤] والظاهر أن الضمير لما ينطق به عليه الصلاة والسلام مما يتعلق بالدين ومن هنا أخرج الدارمي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: كان جبريل عليه السلام ينزل بالسنّة كما ينزل بالقرآن.

والمتبادر من لحن الخطاب أن جميع ما ينطق به عليه الصلاة والسلام من ذلك ليس عن إلقاء شيطاني كما أنه ليس عن هوى، وبقيت آيات أخر في هذا الباب ظواهرها تدل على المدعي أيضاً، وتأويل جميع الظواهر الكثيرة لقول شرذمة قليلة بصحة الخبر المنافي لها مع قول جم غفير بعد الفحص التام بعدم صحته مما لا يميل إليه القلب السليم ولا يرتضيه ذو الطبع المستقيم، ويبعد القول بثبوته أيضاً عدم إخراج أحد من المشايخ الكبار له في شيء من الكتب الست مع أنه مشتمل على قصة غريبة وفي الطباع ميل إلى سماع الغريب وروايته ومع إخراجهم حديث سجود المشركين معه ﷺ حين سجد آخر النجم، فقد روى البخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي وغيرهم عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ والنجم فسجد فيها وسجد كل من كان معه غير أن شيخاً[1] من قريش أخذ كفاً من حصى أو تراب ورفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا. وروى البخاري أيضاً. والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس إلى غير ذلك، وليس لأحد أن يقول: إن سجود المشركين يدل على أنه كان في السورة ما ظاهره مدح آلهتهم وإلا لما سجدوا لأنا نقول: يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها من قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٤٥] إلى آخر الآيات فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم، ولعلهم لم يسمعوا قبل ذلك مثلها منه ﷺ وهو قائم بين يدي ربه سبحانه في مقام خطير وجمع كثير وقد ظنوا من ترتيب الأمر بالسجود على ما تقدم أن سجودهم ولو لم يكن عن إيمان كاف في دفع ما توهموه، ولا تستبعد خوفهم من سماع مثل ذلك منه ﷺ فقد نزلت سورة حم السجدة بعد ذلك كما جاء مصرحاً به في حديث عن ابن عباس ذكره السيوطي في أول الاتقان فلما سمع عتبة بن ربيعة قوله تعالى فيها: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [فصلت: ١٣] أمسك على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم واعتذر لقومه حين ظنوا به أنه صبأ وقال: كيف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب. وقد أخرج ذلك البيهقي في الدلائل. وابن عساكر في حديث طويل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه.

ويمكن أن يقال على بعد: إن سجودهم كان لاستشعار مدح آلهتهم ولا يلزم منه ثبوت ذلك الخبر لجواز أن يكون ذلك الاستشعار من قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] بناء على أن المفعول محذوف وقدروه حسبما يشتهون أو على أن المفعول ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ [النجم: ٢١] وتوهموا أن مصب الإنكار فيه كون المذكورات إناثاً والحب للشيء يعمي ويصم، وليس هذا بأبعد من حملهم تلك الغرانيق العلا

---

(١) جاء في رواية أنه آمية بن خلف اهـ منه.

وإن شفاعتهن لترتجى على المدح حتى سجدوا لذلك آخر السورة مع وقوعه بين ذمين المانع من حمله على المدح في البين كما لا يخفى على من سلمت عين قلبه عن الغين.

واعترض على الجواب الرابع بأن سجودهم كان مع رسول الله ﷺ آخراً بعد سماع قوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [النجم: ٢٣] فكان ينبغي التنبيه بعد السجود، ولعلهم أرجعوا ضمير ﴿هي﴾ للأسماء وهي قولهم اللات و العزى ومناة كما هو أحد احتمالين فيه ذكرهما الزمخشري، فيكون المعنى ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتم بها بهواكم وشهوتكم ليس لكم على صحة التسمية بها برهان تتعلقون به، وحينئذ لا يكون فيه دليل على رد ما فهموه مما ألقى الشيطان من مدح آلهتهم بأنها الغرانيق العلا، ويحتمل أنهم أولوه على وجه آخر وباب التأويل واسع.

واعترض على قوله في الجواب الخامس: إن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكون ﷺ على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة بأن المعترض لم يرد أنه إذا اشتبه الأمر عليه عليه الصلاة والسلام مرة يلزم أن يكون على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غيرها بل أراد أن اللائق بمقام النبي ﷺ أن يكون على بصيرة في جميع ما يوحى إليه وأنه متى اشتبه عليه عليه الصلاة و السلام في حالة من الأحوال لم تبق الكلية كلية وهو خلاف المراد.

وفي التنقيح أن الوحي إما ظاهر أو باطن أما الظاهر فثلاثة أقسام، الأول ما ثبت بلسان الملك فوقع في سمعه ﷺ بعد علمه بالمبلغ بأية قاطعة والمراد كما قال ابن ملك: العلم الضروري بأن المبلغ ملك نازل بالوحي من الله تعالى والقرآن من هذا القبيل، والثاني ما وضح له ﷺ بإشارة الملك من غير بيان بالكلام كما قال عليه الصلاة والسلام «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها» الحديث وهذا يسمى خاطر الملك، والثالث ما تبدى لقلبه الشريف بلا شبهة بإلهام من الله تعالى بأن أراه بنور من عنده كما قال تعالى: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ [النساء: ١٠٥] وكل ذلك حجة مطلقاً بخلاف الإلهام للولي فإنه لا يكون حجة على غيره، وأما الباطن فما ينال بالرأي والاجتهاد وفيه خلاف إلى آخر ما قال، وهو ظاهر في أنه ﷺ على بصيرة في جميع ما يوحى إليه من القرآن لأنه جعله من القسم الأول من أقسام الوحي الظاهر، ويعلم منه عدم ثبوت تكلمه ﷺ بما ألقى الشيطان لأنه عند زاعمه يكون قد اعتقده عليه الصلاة والسلام قرآناً ووحياً من الله تعالى فيجب على ما سمعت أن يكون عليه الصلاة والسلام قد علم ذلك علماً ضرورياً فحيث أنه ليس كذلك في نفس الأمر يلزم انقلاب العلم جهلاً، واستثناء هذه المادة من العموم مما لا دليل عليه عند الزاعم سوى الخبر الذي زعم صحته وبنى عليه تفسير الآية بما فسرها به وذلك أول المسألة.

ويجوز أن يقال: إنه أراد أنه إذا وقع الاشتباه مرة اقتضى أن لا يكون عليه الصلاة والسلام على بصيرة في شيء مما يوحى إليه بعد لأنه احتمال التأديب على تعاطي ما ليس أكمل بالنسبة إليه ﷺ قائم والعصمة من ذلك ممنوعة فقد وقع منه ﷺ بعد هذه القصة التي زعمها الخصم ما عوقب عليه كقصة الإسراء المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسري حتى يثخن في الأرض﴾ [الأنفال: ٦٧] الآية، وكقصة الإذن المشار إليها بقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] وكقصة زينب رضي الله تعالى عنها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ [الأحزاب: ٣٧] ودعوى أن التأديب بذلك على غير التمني مما لا تقتضيه الحكمة فلا يمكن

وقوعه مما لم يقم عليه دليل، وقصارى ما تفيده الآية أن الإلقاء المشروط بالتمني أو في وقته بناء على الخلاف في أن «إذا» للشرط أو لمجرد الظرفية وعند انتفاء ذلك الشرط أو عدم تحقق ذلك الوقت يبقى الإلقاء على العدم الأصلي إن لم يكن هناك ما يقوم مقام ذلك الشرط أو ذلك الوقت.

ولا شك أن صدور خلاف الأكمل لا سيما إذا كان كالتمني أو فوقه أو وقت صدوره مما يقوم مقام ذلك فيما يقتضيه فيلزم حينئذٍ أن يكون ﷺ في كل وحي متوقفاً غير جازم بأنه وحي لا تلبيس إلى أن يتضح له عليه الصلاة والسلام عدم صدور خلاف الأكمل بالنسبة إليه منه وفي ذلك من البشاعة ما فيه.

واعترض على قوله في الجواب أيضاً: إن ما قاله ابن العربي قياس مع الفارق الخ بأنه غير حاسم للقيل والقال إذ لنا أن نقول: خلاصة ما أشار إليه ابن العربي أنه قد صح بل تواتر قوله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي» والظاهر أنه لا يتمثل به ﷺ أصلاً لا للمخلصين ولا لغيرهم لعموم . من . ولزوم مطابقة التعليل المعلل وإذا لم يتمثل مناماً فلأن لا يتمثل يقظة من باب أولي، وعلله الشراح بلزوم اشتباه الحق بالباطل.

وقالت الصوفية في ذلك: إن المصطفى ﷺ وإن ظهر بجميع أسماء الحق تعالى وصفاته تخلقاً وتحققاً فمقتضى رسالته للخلق أن يكون الأظهر فيه حكماً وسلطنة من صفات الحمق سبحانه وأسمائه جل شأنه الهداية والاسم الهادي والشيطان مظهر الاسم المضل والظاهر بصفة الضلالة فهما ضدان فلا يظهر أحدهما بصفة الآخر، والنبي ﷺ خلق للهداية فلو ساغ ظهور ابليس بصورته لزال الاعتماد عليه عليه الصلاة والسلام فلذلك عصمت صورته ﷺ عن أن يظهر بها شيطان اهـ، ولا شك أن نسبة جبريل عليه السلام إليه ﷺ وكذا إلى سائر إخوانه الأنبياء عليهم السلام نسبة النبي ﷺ إلى الأمة فإذا استحال تمثل الشيطان بالنبي يقظة أو مناماً لأحد من أمته مخلصاً أو غير مخلص خوف الاشتباه وزوال الاعتماد وكمال التضاد فليقل باستحالة تمثله بجبريل عليه السلام لذلك ومن ادعى الفرق فقد كابر.

وتعقب ما ذكره في الجواب السادس بأن كون المتتبع لما يعتقده وحياً للتلبيس غير منقول صحيح إلا أن القول باعتقاده ما ليس قرآناً للتلبيس الناشىء عن إرادة التأديب بسبب تمني إيمان الجميع الغير المراد له تعالى ليس به، وكون التلبيس للتأديب كالسهو في الصلاة للتشريع لا يخفى ما فيه.

وأورد على قوله في الجواب السابع: إنه لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا لأن وثوق كل منهما تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين ﷺ أنه إذا فتح باب التلبيس لا يوثق بالوثوق في شيء أصلاً لجواز أن يكون كل وثوق ناشئاً عن تلبيس كالوثوق بأن تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى قرآن فلما تطرق الاحتمال الوثوق جاز أن يتطرق الرجوع ولا يظهر فرق بينهما فلا يعول حينئذ على جزم ولا على رجوع. وقوله فيما ذكره البيضاوي عليه الرحمة: ليس بشيء ليس بشيء لأن منع الاحتمال عند الفرق الأربع بعد القول بجواز التلبيس مكابرة والآية التي ادعى دلالتها على انتقاء الاحتمال عند فريقين بعد النسخ والأحكام فيها أيضاً ذلك الاحتمال، والحق أنه لا يكاد يفتح باب قبول الشرائع ما لم يسد هذا الباب.

ولا يجدي نفعاً كون الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿والله عليم حكيم﴾ آبية عن بقاء التلبيس فلا أقل من أن يتوقف قبول معظم ما يجيء به النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن يتبين كونه ليس داخلاً في باب التلبيس مع أنا نرى الصحابة رضي الله تعالى عنهم يسارعون إلى امتثال الأوامر عند إخباره ﷺ إياهم بوحي الله تعالى إليه بها من غير انتظار ما يجيء بعد ذلك فيها مما يحقق أنها ليست عن تلبيس فافهم والله تعالى الموفق.

وتوسط جمع في أمر هذه القصة فلم يثبتوها كما أثبتها الكوراني عفا الله تعالى عنه من أنه ﷺ نطق بما نطق عمداً معتقداً للتلبيس أنه حاملاً له على خلاف ظاهره ولم ينفوها بالكلية كما فعل أجلة إثبات وإليه أميل بل أثبتوها على وجه غير الوجه الذي أثبته الكوراني واختلفوا فيه على أوجه تعلم مما أسلفناه من نقل الأقوال في الآية وكلها عندي مما لا ينبغي أن يلتفت إليها. وفي شرح الجوهرة الأوسط أن حديث تلك الغرانيق الخ ظاهره مخالف للقواطع فيجب تأويله إن صح بما هو مذكور في موضعه مما أقربه على نظر فيه أن الشيطان ترصد قراءته عليه الصلاة والسلام وكان يرتل القراءة إذ ذاك عند البيت فحين انتهى عليه الصلاة و السلام إلى قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] وكان منه عليه الصلاة والسلام وقفة ما للترتيل أدرج ذلك في تلاوته محاكياً صوته ﷺ فظن أنه من قوله عليه الصلاة والسلام وليس به انتهى، والنظر الذي أشار إليه لا يخفى على من أحاط بما قدمناه خبراً وأخذت العناية بيديه، وأقبح الأقوال التي رأيناها في هذا الباب وأظهرها فساداً أنه ﷺ أدخل تلك الكلمة من تلقاء نفسه حرصاً على إيمان قومه ثم رجع عنها، ويجب على قائل ذلك التوبة كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً، وقريب منه ما قيل إنها كانت قرآناً منزلاً في وصف الملائكة عليهم السلام فلما توهم المشركون أنه يريد عليه الصلاة والسلام مدح آلهتهم بما نسخت، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعني قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا﴾ الخ لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة، وأقرب ما قيل في تفسيرها على القول بعدم الثبوت ما قدمناه، وقيل: هو بعيد صدقوا لكن عن إيهام الإخلال بمقام النبوة ونحو ذلك، واستفت قلبك إن كنت ذا قلب سليم، هذا وأخرج عبد ابن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقرأ «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث» فنسخ «ولا محدث» والمحدثون صاحب يس ولقمان، ومؤمن من آل فرعون وصاحب موسى عليه السلام. ﴿الْمُلْكُ﴾ أي السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الإطلاق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تأتيهم الساعة أو عذابها؛ وقيل أي يوم إذ تزول مريتهم وليس بذلك، ومثله ما قيل أي يوم إذ يؤمنون ﴿لِلَّهِ﴾ وحده بلا شريك أصلاً بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف من التصرفات في أمر من الأمور لا حقيقة ولا مجاز أو لا صورة ولا معنى كما في الدنيا فإن للبعض فيها تصرفاً صورياً في الجملة والتنوين في إذ عوض عن المضاف إليه، وإضافة يوم إليه من إضافة العام إلى الخاص وهو متعلق بالاستقرار الواقع خبراً، وقوله سبحانه: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ جملة مستأنفة وقعت جواب سؤال نشأ من الأخبار بكون الملك يومئذ لله، وضمير الجمع للفريقين المؤمنين والكافرين لذكرهما أولاً واشتمال التفصيل عليهما آخراً، نعم ذكر الكافرين قبيله ربما يوهم تخصيصه بهم كأنه قيل: فماذا يصنع سبحانه بالفريقين حينئذ؟ فقيل: يحكم بينهم بالمجازاة، وجوز أن تكون حالاً من الاسم الجليل ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم الذين لا مرية لهم فيما أشير إليه سباقاً كيفما كان متعلق الإيمان ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي مستقرون في جنات مشتملة على النعم الكثيرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهم الذين لا يزالون في مرية من ذلك، وفي متعلق الكفر احتمالات كاحتمالات متعلق الإيمان وزيادة وهي احتمال أن يكون متعلقة الآيات، والظاهر أن المراد بها الآيات التنزيلية، وجوز أن يراد بها الأدلة وأن يراد بها الأعم ويتحصل مما ذكر خمسة عشر احتمالاً في الآية، ولعل أولاها ما قرب به العطف إلى التأسيس فتأمل، والموصول مبتدأ أول وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ مبتدأ ثان وهو إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد المنزلة في الشر والفساد. وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبراً للمبتدأ الثاني أو ﴿لهم﴾ خبر له و ﴿عذاب﴾ مرتفع على الفاعلية بالاستقرار في الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وجملة المبتدأ الثاني وخبره خبر للمتبدأ الأول، وتصديره بالفاء قيل للدلالة على أن تعذيب الكفار بسبب قبائحهم ولذا جيء بأولئك.

وقيل لهم عذاب بلام الاستحقاق وكان الظاهر في عذاب كما قيل: ﴿في جنات﴾ وجعل تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين بطريق التفضل لإيجاب محاسنهم إياها، ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ [التين: ٦] ونحوه لأنها بمقتضى وعده تعالى على الإثابة عليها قد تجعل سبباً، وقيل جيء بالفاء لأن الكلام لخروجه مخرج التفصيل بتقدير أما فكأنه قيل: فأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك الخ وليس بشيء لأن ذلك يقتضي تقدير أما في قوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا﴾ الخ ولا يتسنى فيه لعدم الفاء في الخبر وقوله تعالى: ﴿مهينٌ﴾ صفةٌ لعذاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة، ولم يتعرض لوصف هؤلاء الكفرة بعمل السيئات كما تعرض لوصف المؤمنين بعمل الصالحات قيل لظهور عدم اتصافهم بغيره أعني العمل الصالح الذي شرعه الله تعالى علس لسان الرسول عليه الصلاة والسلام بعد كفرهم وتكذيبهم بالآيات، وقيل مبالغة في تهويل أمر الكفر حيث أخبر سبحانه أن للمتصف به دون عمل السيئات عذاباً مهيناً ولو تعرض لذلك لأفاد أن ذلك العذاب للمتصف بالمجموع فيضعف التهويل، والقول بأن المراد من التكذيب بالآيات عمل السيئات أو في الكلام صنعة الاحتباك والأصل فالذين آمنوا وصدقوا بآياتنا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا وعملوا السيئات فأولئك لهم عذاب مهين خلاف الظاهر كما لا يخفى.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي في الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ أي في تضاعيف المهاجرة، وقرأ ابن عامر «قُتِّلُوا» بالتشديد، ومحل الموصول الرفع على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ﴾ جواب لقسم محذوف والجملة خبره على الأصح من جواز وقوع القسم وجوابه خبراً، ومن منع أضمر قولاً هو الخبر والجملة محكية به، وقوله سبحانه: ﴿رِزقاً حَسَناً﴾ إما مفعول ثان ليرزق على أنه من باب النقض والذبح أي مرزوقاً حسناً أو مصدر مبين للنوع، والمراد به عند بعض ما يكون للشهداء في البرزخ من الرزق ويؤيده ما أخرجه ابن

أبي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجري عليه الرزق وأمن من الفتانين واقرؤوا إن شئتم ﴿**والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا** ـ إلى قوله تعالى ـ **حليم**﴾» وقد نص سبحانه في آية أخرى على أن الذين يقتلون في سبيل الله تعالى أحيا عند ربهم يرزقون وليس ذلك في تلك الآية إلا في البرزخ وقال آخرون: المراد به ما لا ينقطع أبداً من نعيم الجنة، ورد بأن ذلك لا اختصاص له بمن هاجر في سبيل الله ثم قتل أو مات بل يكون للمؤمنين كلهم.

وتعقب بأن عدم الاختصاص ممنوع فإن تنكير ﴿**رزقاً**﴾ يجوز أن يكون للتنويع ويختص ذلك النوع بأولئك المهاجرين، وقيل: المراد تشريفهم وتبشيرهم بهذا الوعد الصادر ممن لا يخلف الميعاد المقترن بالتأكيد القسمي ويكفي ذلك في تفضيلهم على سائر المؤمنين كما في المبشرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وفيه نظر.

وقال الكلبي: هو الغنيمة، وقال الأصم: هو العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ [هود: ٨٨] ويرد عليهما أنه تعالى جعل هذا الرزق جزاء على قتلهم أو موتهم في تضاعيف المهاجرة في سبيل الله تعالى فلا يصح أن يكون في الدنيا، ولعل قائل ذلك يقول: إنه في الآخرة وفيها تتفاوت مراتب العلم أيضاً.

وظاهر الآية على ما قيل: استواء من قتل ومن مات مهاجراً في سبيل الله تعالى في الرتبة وبه أخذ بعضهم، وذكر أنه لما مات عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: من قتل من المهاجرين أفضل ممن مات حتف أنفه فنزلت الآية مسوية بينهم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي أنه كان بموضع فمروا بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفى فمال الناس على القتيل في سبيل الله تعالى فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله تعالى فقال: ﴿**والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا**﴾ الآية.

ويؤيد ذلك بما روي عن أنس قال: قال ﷺ: «المقتول في سبيل الله تعالى والمتوفى في سبيل الله تعالى بغير قتل هما في الأجر شريكان» فإن ظاهر الشركة يشعر بالتسوية، وظاهر القول بالتسوية أن المتوفى مهاجراً في سبيل الله تعالى شهيداً كالقتيل وبه صرح بعضهم، وفي البحر أن التسوية في الوعد بالرزق الحسن لا تدل على تفضيل في المعطي ولا تسوية فإن يكن تفضيل فمن دليل آخر، وظاهر الشريعة أن المقتول أفضل انتهى، وما تقدم في سبب النزول غير مجمع عليه، فقد روي أن طوائف من الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فنزلت، واستدل بعضهم بهذا أيضاً على التسوية، وقال مجاهد: نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون وقاتلوهم، وعلى هذا القول ليس المراد من المهاجرة في سبيله تعالى المهاجرة في الجهاد، وأياً ما كان فهذا ابتداء كلام غير داخل في حيز التفصيل، ويوهم ظاهر كلام بعضهم الدخول وأنه تعالى أفراد المهاجرين بالذكر مع دخولهم دخولاً أولياء في الذين آمنوا وعملوا الصالحات تفخيماً لشأنهم وهو كما ترى، ﴿**وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ فإنه جل وعلا يرزق بغير حساب مع أن ما يرزقه قد لا يقدر عليه أحد غيره سبحانه وأن غيره تعالى إنما يرزق مما رزقه هو جل شأنه.

واستدل بذلك على أنه قد يقال لغيره تعالى رازق والمراد به معطي، والأولى عندي أن لا يطلق رازق على غيره تعالى وأن لا يتجاوز عما ورد.

وأما إسناد الفعل إلى غيره تعالى كرزق الأمير الجندي وأرزق فلاناً من كذا فهو أهون من إطلاق رازق ولعله مما

لا بأس به، وصرح الراغب بأن الرزاق لا يقال إلا لله تعالى، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله.

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ استئناف مقرر لمضمون قوله سبحانه «ليرزقنهم الله» أو بدل منه مقصود منه تأكيده و ﴿مدخلا﴾ إما اسم. مكان أريد به الجنة كما قال السدي وغيره أو درجات فيها مخصوصة بأولئك المهاجرين كما قيل، وقيل هو خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع، أو مصدر ميمي، وهو على الاحتمال الأول مفعول ثان للإدخال وعلى الثاني مفعول مطلق، ووصفه بيرضونه على الاحتمالين لما أنهم يرون إذا أدخلوا ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقيل على الثاني: إن رضاهم لما أن إدخالهم من غير مشقة تنالهم بل براحة واحترام.

وقرأ أهل المدينة «مَدْخَلاً» بالفتح والباقون بالضم ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالذي يرضيهم فيعطيهم إياه أو لعليم بأحوالهم وأحوال أعدائهم الذين هاجروا لجهادهم ﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجل اعداءهم بالعقوبة، وبهذا يظهر مناسبة هذا الوصف لما قبله وفيه أيضاً مناسبة لما بعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ قد حقق أمره ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي من جازى الجاني مثل ما جني به عليه، وتسمية ما وقع ابتداء عقاباً مع أن العقاب كما قال غير واحد جزاء الجناية لأنه يأتي عقبها وهو في الأصل شيء يأتي عقب شيء للمشاكلة أو لأن الابتداء لما كان سبباً للجزاء أطلق عليه مجازاً مرسلاً بعلاقة السببية، وقال بعض المحققين: يجوز أن يقال: لا مشاكلة ولا مجاز بناء على أن العرف جار على إطلاقه على ما يعذب به وإن لم يكن جزاء جناية، و ﴿من﴾ موصولة وجوز أن تكون شرطية سد جواب القسم الآتي مسد جوابها، والجملة مستأنفة، والباء في الموضعين قيل للسبب لا للإله وإليه ذهب أبو البقاء، وقال الخفاجي: باء ﴿بمثل﴾ آلية لا سببية لئلا يتكرر مع قوله تعالى: ﴿به﴾ والمنساق إلى ذهني القاصر كونها في الموضعين للإله وفيما ذكره الخفاجي نظر فتأمل

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقاب ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾ على من بغى عليه لا محالة عند كره للانتقام منه ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تعليل للنصرة حيث كانت لمن ارتكب خلاف الأولى من العفو عن الجاني المندوب إليه والمستوجب للمدح عنده تعالى ولم ينظر في قوله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى: ٤٠]. ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ [البقرة: ٢٣٧]. ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى: ٤٣] بأن ذلك لأنه لا يلوم على ترك الأولى إذا روعي الشريطة وهي عدم العدوان، وفيه تعريض بمكان أولية العفو لأن ذكر الصفتين يدل على أن هناك شبه جناية، وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار للإشارة إلى أن ذلك من مقتضى الألوهية.

وحمل الجملة على ما ذكر أحد أوجه ثلاثة ذكرها الزمخشري في بيان مطابقة ذكر العفو الغفور هذا الموضع، وثانيها أنه دل بذلك على أنه تعالى قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

قال في الكشف: فهو أي ﴿إن الله﴾ الخ على هذا أيضاً تعليل للنصرة وأن المعاقب يستحق فوق ذلك وإنما الاكتفاء بالمثل لمكان عفو الله تعالى وغفرانه سبحانه، وفيه إدماج أيضاً للحث على العفو وهذا وجه وجيه اهـ، وثالثها أنه دل بذلك على نفي اللوم على ترك الأولى حسبما قرر أولاً إلا أن الجملة عليه خبر ثان لقوله تعالى: ﴿من عاقب بمثل ما عوقب به﴾ والخبر الآخر قوله تعالى: ﴿لينصرنه الله﴾ فيكون قد أخبر عنه بأنه لا يلومه على ترك العفو وأنه ضامن لنصره في إحلاله ثانياً بذلك.

وجعل ذلك بعضهم من التقدم والتأخير ولا ضرورة إليه، وقيل: إن العفو ليس لارتكاب المعاقب خلاف الأولى

بل لأن المماثلة من كل الوجوه متعسرة فيحتاج للعفو عما وقع فيها وليس بذاك، ونقل الطيبي عن الإمام أن الآية نزلت في قوم مشركين لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فقالوا: إن أصحاب محمد ﷺ يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون بأن يكفوا عن القتال فأبوا فقاتلوهم فنصر المسلمون ووقع في أنفسهم شيء من القتال في الشهر الحرام فأنزل الله تعالى الآية، ثم قال: فعلى هذا أمر المطابقة ظاهر ويكون أوفق لتأليف النظم، وذلك أن لفظه ﴿ذلك﴾ فصل للخطاب وقوله تعالى: ﴿ومن عاقب﴾ شروع في قصة أخرى لأولئك السادة بعد قوله سبحانه: ﴿والذين هاجروا﴾ الآيتين اهـ.

وتعقب بأن الآية تقتضي ابتداء ثم جزاء ثم بغياً ثم جزاء والقصة لم تدل عليه إلا أن يجعل ما بينهم من التعادي معاقبة بالمثل ويجعل البغي مناواتهم لقتال المسلمين في الشهر الحرام وهو خلاف الظاهر، وأما الموافقة لتأليف النظم فعلى ما ذكره غيره أبين لأنه لما ذكر حال المقتولين منهم والميتين منهم قيل الأمر ذلك فيما يرجع إلى حال الآخرة وفيما يرجع إلى حال الدنيا إنهم لهم المنصورون لأنهم بين معاقب وعاف وكلاهما منصوران أما الأول فنصاً وأما الثاني فمن فحوى الخطاب أعني مفهوم الموافقة، وفيه وعيد شديد للباغي وأنه مخذول في الدارين مسلوك في قرن من كان في مرية حتى أتته الساعة أو العذاب اهـ، وهو كلام رصين، ولا يعكر عليه قولهم: إنه أتى بذلك للاقتضاب فتأمل، وعن الضحاك أن الآية مدنية وهي في القصاص والجراحات.

واستدل بها الشافعي على وجوب رعاية المماثلة في القصاص، وعندنا لاقود إلا بالسيف كما جاء في الخبر والمراد به السلاح وخبر «من غرق غرقناه ومن حرق حرقناه» لم يصح وبتسليم صحته محمول على السياسة، وينبغي أن يعلم أن المعاقبة بالمثل على الإطلاق غير مشروعة فإن الرجل قد يعاقب بنحو يازاني وقد قالوا: إنه إذا قيل له ذلك فقال لا بل أنت زان حد هو والقائل الأول فليحفظ ﴿ذَلك﴾ إشارة إلى النصرة المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿لينصرنه﴾ وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته، وقيل لعدم ذكر المشار إليه صريحاً، ومحله الرفع على الابتداء وخبره قوله سبحانه: ﴿بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ﴾ والباء فيه سببية، والسبب ما دل عليه ما بعد بطريق اللزوم أي ذلك النصر كائن لسبب أن الله تعالى شأنه قادر على تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الأشياء المتضادة ومن شأنه ذلك.

وعبر عن ذلك بإدخال أحد الملوين في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص من الآخر كما هو الأوفق بالإيلاج أو بتحصيل أحدهما في مكان الآخر كما قيل لا بأن يجعل بين كل نهارين ليلاً وبين كل ليلين نهاراً كما قد توهم لكونه أظهر المواد وأوضحها أو كائن بسبب أنه تعالى خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى ما يجرى فيهما على ايدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار كما قيل، وعلى الأول قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ بكل المسموعات التي من جملتها ما يقول المعاقب ﴿بَصِيرٌ﴾ بكل المبصرات التي من جملتها ما يقع منه من الأفعال من تتمة الحكم لا بد منه إذ لابد للناصر من القدرة على نصر المظلوم ومن العلم بأنه كذلك، وعلى الثاني هو تتميم وتأكيد والأول أولى، وقيل: لا يبعد أن يكون المعنى ذلك النصر بسبب تعاقب الليل والنهار وتناوب الأزمان والأدوار إلى أن يجيء الوقت الذي قدره الملك الجبار لانتصار المظلوم وغلبته، وفيه أنه لا محصل له ما لم يلاحظ قدرة الفاعل لذلك، وقيل: يجوز أن تكون الإشارة إلى الاتصاف بالعفو والغفران أي ذلك الاتصاف بسبب أنه تعالى لم يؤاخذ الناس بذنوبهم فيجعل الليل والنهار سرمداً فتتعطل المصالح، وفيه أنه مع كونه لا يناسب السياق غير ظاهر لا سيما إذا لوحظ عطف قوله تعالى: ﴿وأن الله سميع بصير﴾ على مدخول الباء فيما قبل، نعم الإشارة إلى الاتصاف في قوله تعالى: ﴿ذَلكَ بأَنَّ الله

﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ فالمعنى ذلك الاتصاف بكمال القدرة الدال عليه قوله تعالى: ﴿يولج الليل في النهار﴾ الخ وكمال العلم الدال عليه ﴿سميع بصير﴾ بسبب أن الله تعالى الواجب لذاته الثابت في نفسه وحده فإن وجوب وجوده ووحدته يستلزمان أن يكون سبحانه هو الموجد لسائر المصنوعات ولا بد في ايجاده لذلك حيث كان على أبدع وجه وأحكمه من كمال العلم على ما بين في موضعه، وقيل: إن وجوب الوجود وحده متكفل بكل كمال حتى الوحدة أو المعنى ذلك الاتصاف بسبب أن الله تعالى الثابت الإلهية وحده ولا يصلح لها إلا من كان كامل القدرة كامل العلم ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِه﴾ إلهاً ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي المعدوم في حد ذاته أو الباطل الإلهية، والحصر يحتمل أن يكون غير مراد وإنما جيء به للمشاكلة ويحتمل أن يكون مراداً على معنى أن جميع ما يدعون من دونه هو الباطل لا بعضه دون بعض. وقيل هو باعتبار كمال بطلانه وزيادة هو هنا دون ما في سورة لقمان من نظير هذه الآية لأن ما هنا بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ولهذا أيضاً زيدت اللام في قوله تعالى الآتي: ﴿وإن الله لهو الغني الحميد﴾ دون نظيره في تلك السورة، ويمكن أن يقال تقدم في هذه السورة ذكر الشيطان فلهذا ذكرت هذه المؤكدات بخلاف سورة لقمان فإنه لم يتقدم ذكر الشيطان هناك بنحو ما ذكر هاهنا قاله النيسابوري، ويجوز أن يكون زيادة ﴿هو﴾ في هذا الموضع لأن المعلل فيه أزيد منه في ذلك الموضع فتأمل ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له سبحانه شريك لا شيء أعلى منه تعالى شأناً وأكبر سلطاناً.

وقرأ الحسن «وإن ما» بكسر الهمزة، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر «تَدْعُونَ» بالتاء على خطاب المشركين وقرأ مجاهد واليماني وموسى الأسواري «يُدْعَوْنَ» بالياء التحتية مبنياً للمفعول على أن الواو ولما فإنه عبارة عن الآلهة، وأمر التعبير عنها بما ثم إرجاع ضمير العقلاء إليها ظاهر فلا تغفل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من جهة العلو ﴿مَاءً﴾ أي ألم تعلم ذلك، وجوز كون الرؤية بصرية نظراً للماء المنزل، والاستفهام للتقرير، وقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي فتصير، وقيل تصبح على حقيقتها والحكم بالنظر إلى بعض الأماكن تمطر السماء فيها ليلاً فتصبح الأرض مخضرة، والأول أولى عطف على ﴿أنزل﴾ والفاء مغنية عن الرابط فلا حاجة إلى تقدير بإنزاله، والتعقيب عرفي أو حقيقي وهو إما باعتبار الاستعداد التام للاخضرار أو باعتباره نفسه وهو كما ترى، وجوز أن تكون الفاء لمحض السبب فلا تعقيب فيها، والعدول عن الماضي إلى المضارع لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم على فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع أو لاستحضار الصورة البديعة ولم ينصب الفعل في جواب الاستفهام هنا في شيء من القراءات فيما نعلم وصرح غير واحد بامتناعه، ففي البحر أنه يمتنع النصب هنا لأن النفي إذا دخل عليه الاستفهام وإن كان يقتضي تقريراً في بعض الكلام وهو معامل معاملة النفي المحض في الجواب ألا ترى قوله تعالى: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكذلك في الجواب بالفاء إذا أجبت النفي كان على معنيين في كل منهما ينتفي الجواب فإذا قلت: تأتينا فتحدثنا بالنصب فالمعنى ما تأتينا محدثاً إنما تأتينا ولا تحدث، ويجوز أن يكون المعنى أنك لا تأتينا فكيف تحدثنا فالحديث منتف في الحالتين والتقرير بأداة الاستفهام كالنفي المحض في الجواب يثبت ما دخلته همزة الاستفهام وينفي الجواب فيلزم من ذلك هنا إثبات الرؤية وانتفاء الاخضرار وهو خلاف المراد، وأيضاً جواب الاستفهام ينعقد منه مع الاستفهام شرط وجزاء ولا يصح أن يقال هنا إن تر إنزال الماء تصبح الأرض مخضرة لأن اخضرارها ليس مترتباً على علمك أو رؤيتك إنما هو مترتب على الإنزال اهـ.

وإلى انعكاس المعنى على تقدير النصب ذهب الزمخشري حيث قال: لو نصب الفعل جواباً للاستفهام لأعطى

ما هو عكس الغرض لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار لكن تعقبه صاحب الفرائد حيث قال: لا وجه لما ذكره صاحب الكشاف ولا يلزم المعنى الذي ذكر بل يلزم من نصبه أن يكون مشاركاً لقوله تعالى: ﴿ألم تر﴾ تابعاً له ولم يكن تابعاً الإنزال ويكون مع ناصبه مصدراً معطوفاً على المصدر التي تضمنه ﴿ألم تر﴾ والتقدير ألم تكن لك رؤية إنزال الماء من السماء وإصباح الأرض مخضرة وهذا غير مراد من الآية بل المراد أن يكون إصباح الأرض مخضرة بإنزال الماء فيكون حصول اخضرار الأرض تابعاً للإنزال معطوفاً عليه اهـ وفيه بحث.

وقال صاحب التقريب في ذلك: إن النصب بتقدير إن وهو علم للاستقبال فيجعل الفعل مترقباً والرفع جزم بأخباره وتلخيصه أن الرفع جزم بإثباته والنصب ليس جزماً بإثباته لا أنه جزم بنفيه، ولا يخفى أنه إن صح في نفسه لا يطابق مغزى الزمخشري، وعلل أبو البقاء امتناع النصب بأمرين، أحدهما انتفاء سببية المستفهم عنه لما بعد الفاء كما تقدم عن البحر، والثاني أن الاستفهام المذكور بمعنى الخبر فلا يكون له جواب وإلى هذا ذهب الفراء فقال: ﴿ألم تر﴾ خبر كما تقول في الكلام اعلم أن الله تعالى يفعل كذا فيكون كذا، وقال سيبويه: وسألته يعني الخليل عن قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ فقال هذا واجب وهو تنبيه كأنك قلت: أتسمع؟ وفي النسخة الشرقية من الكتاب انتبه أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا.

وقال بعض المتأخرين: يجوز أن يعتبر تسبب الفعل عن النفي ثم يعتبر دخول الاستفهام التقريري فيكون المعنى حصل منك رؤية إنزال الله تعالى الماء فإصباح الأرض مخضرة لأن الاستفهام المذكور الداخل على النفي يكون في معنى نفي النفي وهو إثبات، فإن قلت: الرؤية لا تكون سبباً لا نفياً ولا إثباتاً للاخضرار، قلت: الرؤية مقحمة والمقصود هو الإنزال أو هي كناية عنه لأنها تلزمه مع أنه يكفي التشبيه بالسبب كما نص عليه الرضي في ما تأتينا فتحدثنا في أحد اعتباريه، واختار هذا في الاستدلال على عدم جواز النصب أن النصب مخلص المضارع للاستقبال اللائق بالجزائية على ما قرر في علم النحو ولا يمكن ذلك في الآية الكريمة كما ترى وبالجملة إن الذي عليه المحققون أن من جوز النصب هنا لم يصب، وأن المعنى المراد عليه ينقلب وقرىء «مَخْضَرَة» بفتح الميم وتخفيف الضاد مثل مبقلة ومجزرة أي ذات خضرة ﴿إنَّ الله لَطيفٌ﴾ أي متفضل على العباد بإيصال منافعهم إليهم برفق ومن ذلك إنزال الماء من السماء واخضرار الأرض بسببه ﴿خَبيرٌ﴾ أي عليم بدقائق الأمور ومنها مقادير مصالح عباده.

وقال ابن عباس: لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط، وقال مقاتل: لطيف باستخراج النبات خبير بكيفية خلقه، وقال الكلبي: لطيف بأفعاله بأعمال عباده، وقال ابن عطية: اللطيف هو المحكم للأمور برفق، ونقل الآمدي أنه العالم بالخفيات، وأنت تعلم أنه المعنى المشهور للخبير، وفسره بعضهم بالمخبر ولا يناسب المقام كتفسير اللطيف بما لا تدركه الحاسة.

﴿لَهُ مَا في السَّمَاوَات وَمَا في الأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً فاللام للاختصاص التام ﴿وَإنَّ الله لَهُوَ الْغَنيُّ﴾ الذي لا يفتقر إلى شيء أصلاً ﴿الحَميدُ﴾ الذي حمده بصفاته وأفعاله جميع خلقه قالاً أو حالاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ مَا في الأَرْضِ﴾ أي جعل ما فيها من الأشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف شئتم، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة ومن الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ﴿وَالْفلكَ﴾ بالنصب وإسكان اللام، وقرأ ابن مقسم والكسائي عن الحسن بضمها وهو معطوف على ﴿ما﴾ عطف الخاص على العام تنبيهاً على غرابة تسخيرها وكثرة منافعها.

وجوز أن يكون عطفاً على الاسم الجليل، وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ على الأول حال منه وعلى الثاني خبر لأن وتكون الواو قد عطفت الاسم على الاسم والخبر على الخبر وهو خلاف الظاهر وفي البحر هو إعراب بعيد عن الفصاحة، وقرأ السلمي والأعرج وطلحة وأبو حيوة والزعفراني «والفلكُ» بالرفع على الابتداء وما بعده خبره والجملة مستأنفة.

وجوز أن تكون حالية، وقيل: يجوز أن يكون الرفع بالعطف على محل أن مع اسمها وهو على طرز العطف على الاسم ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي عن أن تقع عليها فالكلام على حذف حرف الجر وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب أو مجرور على القولين المشهورين في ذلك، وجعل بعضهم ذلك في موضع المفعول لأجله بتقدير كراهة أن تقع عند البصريين، والكوفيون يقدرون لئلا تقع.

وقال أبو حيان: الظاهر أن ﴿تقع﴾ في موضع نصب بدل اشتمال من السماء أي ويمنع وقوع السماء على الأرض، ورد بأن الإمساك بمعنى اللزوم يتعدى بالباء وبمعنى الكف بعن وكذا بمعنى الحفظ والبخل كما في تاج المصادر وأما بمعنى المنع فهو غير مشهور، وتعقب بأنه ليس بشيء لأنه مشهور مصرح به في كتب اللغة، قال الراغب: يقال أمسكت عنه كذا أي منعته قال تعالى: ﴿هل هن ممسكات رحمته﴾ [الزمر: ٣٨] وكني عن البخل بالإمساك اهـ، وصرح به الزمخشري والبيضاوي في تفسير قوله تعالى ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ [فاطر: ٤١] نعم الأظهر هو الإعراب الأول، والمراد بإمساكها عن الوقوع على الأرض حفظ تماسكها بقدرته تعالى بعد أن خلقها متماسكة آناً فآناً. وعدم تعلق إرادته سبحانه بوقوعها قطعاً قطعاً، وقيل إمساكه تعالى إياها عن ذلك بجعلها محيطة لا ثقيلة ولا خفيفة، وهذا مبني على اتحاد السماء والفلك وعلى قول الفلاسفة المشهور بأن الفلك لا ثقيل ولا خفيف: وبنوا ذلك على زعمهم استحالة قبوله الحركة المستقيمة وفرعوا عليه أنه لا حار ولا بارد ولا رطب ولا يابس، واستدلوا على استحالة قبول الحركة المستقيمة بما أبطله المتكلمون في كتبهم.

والمعروف من مذهب سلف المسلمين أن السماء غير الفلك وأن لها أطيطاً لقوله عليه الصلاة والسلام «أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضوع قدم إلا وفيه ملك قائم أو ساجد» وأنها ثقيلة محفوظة عن الوقوع بمحض إرادته سبحانه وقدرته التي لا يتعاصاها شيء لا لاستمساكها بذاتها.

وذكر بعض المتكلمين لنفي ذلك أنها مشاركة في الجسمية لسائر الأجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها وللبحث فيه على زعم الفلاسفة مجال، والتعبير بالمضارع لإفادة الاستمرار التجددي أي يمسكها آناً فآناً من الوقوع ﴿إلاَّ بإذنه﴾ أي بمشيئته، والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب، وصح ذلك في الموجب قيل لصحة إرادة العموم أو لكون ﴿يمسك﴾ فيه معنى النفي أي لا يتركها تقع بسبب من الأسباب كمزيد مرور الدهور عليها وكثقلها بما فيها إلا بسبب مشيئته وقوعها، وقيل: استثناء من أعم الأحوال أي لا يتركها تقع في حال من الأحوال إلا في كونها متلبسة بمشيئته تعالى ولعل ما ذكرناه أظهر، وفي البحر أن الجار والمجرور متعلق بتقع، وقال ابن عطية: يحتمل أن يتعلق بيمسك لأن الكلام يقتضي بغير عمد ونحوه فكأنه أراد إلا بإذنه فبه يمسكها ولو كان كما قال لكان التركيب بدون إلا انتهى، ولعمري إن ما قاله ابن عطية لا يقوله من له أدنى روية كما لا يخفى، ثم إنه لا دلالة في الآية على وقوع الإذن بالوقوع، وقيل فيها إشارة إلى الوقوع وذلك يوم القيامة فإن السماء فيه تتشقق وتقع على الأرض، وأنا ليس في ذهني من الآيات أو الأخبار ما هو صريح في وقوع السماء على الأرض في ذلك اليوم وإنما هي صريحة في المور والانشقاق والطي والتبدل وكل ذلك لا يدل على الوقوع على الأرض فضلاً عن أن يكون صريحاً فيه، والظاهر أن المراد بالسماء

جنسها الشامل للسماوات السبع، ويؤيده ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: إذا أتيت سلطاناً مهيباً تخاف أن يسطو بك فقل: الله أكبر الله أكبر من خلقه جميعاً الله أكبر مما أخاف وأحذر أعوذ بالله الذي لا إله إلا وهو الممسك السماوات السبع أن يقمن على الأرض إلا بإذنه من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس إلهي كن لي جاراً من شرهم جل ثناؤك وعز جارك وتبارك اسمك لا إله غيرك ثلاث مرات.

والظاهر أيضاً أن مساق الآية للامتنان لا للوعيد كما جوزه بعضهم، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث سخر لهم ما سخر ومن عليهم بالأمن مما يحول بينهم وبين الانتفاع به من وقوع السماء على الأرض، وقيل حيث هيأ لهم أسباب معايشهم وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية، وجعل الجملة تعليلية لما في ضمن ﴿ألم تر أن الله سخر﴾ إلخ أظهر فيما قلنا، والرأفة قيل ما تقتضي درء المضار والرحمة قيل: ما تقتضي جلب المصالح ولكون درء المضرة أهم من جلب المصلحة قدم رؤوف على رحيم، وفي كل ما امتن به سبحانه درء وجلب، نعم قيل إمساك السماء عن الوقوع أظهر في الدرء ولتأخيره وجه لا يخفى، وقال بعضهم: الرأفة أبلغ من الرحمة وتقديم ﴿رؤوف﴾ للفاصلة وذهب جمع إلى أن الرحمة أعم ولعله الظاهر، وتقديم ﴿بالناس﴾ للاهتمام وقيل للفاصلة والفصل بين الموضعين مما لا يستحسن ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً حسبما فصل في مطلع السورة الكريمة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند مجيء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عند البعث ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي جحود بالنعم مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده، وقيل المراد بالإنسان الكافر وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد، وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: هو الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل وأبي بن خلف ولعل ذلك على طريق التمثيل ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ كلام مستأنف جيء به لزجر معاصريه عليه الصلاة والسلام من أهل الأديان السماوية عن منازعته عليه الصلاة والسلام بيان حال ما تمسكوا به من الشرائع وإظهار خطئهم في النظر أي لكل أمة معينة من الأمم الخالية والباقية ﴿جَعَلْنَا﴾ وضعنا وعينا ﴿مَنسَكاً﴾ أي شريعة خاصة، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر لا لأمة أخرى منهم، والكلام نظير قولك لكل من فاطمة وزينب وهند وحفصة أعطيت ثوباً خاصاً إذا كنت أعطيت فاطمة ثوباً أحمر وزينب ثوباً أصفر وهنداً ثوباً أسود وحفصة ثوباً أبيض فإنه بمعنى لفاطمة أعطيت ثوباً أحمر لا لأخرى من أخواتها ولزينب أعطيت ثوباً أصفر لا لأخرى منهن وهكذا، وحاصل المعنى هنا عينا كل شريعة لأمة معينة من الأمم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة ما إلى شريعة أخرى لا استقلالاً ولا اشتراكاً، وقوله تعالى: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ صفة لمنسكاً مؤكدة للقصر، والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها أي تلك الأمة المعينة ناسكون به وعاملون لا أمة أخرى؛ فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام منسكهم ما في التوراة هم عاملون به لا غيرهم والتي من مبعث عيسى عليه السلام إلى مبعث نبينا ﷺ منسكهم ما في الإنجيل هم عاملون به لا غيرهم، وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبي ﷺ ومن بعدهم من الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم ما في القرآن ليس إلا، والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ أي أمر الدين لترتيب النهي على ما قبلها فإن تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم التي من جملتها أمته عليه الصلاة والسلام شريعة مستقلة بحيث لا تتخطى أمة منهم ما عين لها موجب لطاعة هؤلاء له ﷺ وعدم منازعتهم إياه في أمر الدين زعماً منهم أن شريعتهم ما عين لآبائهم مما في التوراة والإنجيل فإن ذلك شريعة لمن مضى قبل انتساخه وهؤلاء أمة مستقلة شريعتهم ما في القرآن فحسب، والظاهر أن المراد نهيهم حقيقة عن النزاع في ذلك.

واختار بعضهم كونه كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم المبني على زعمهم المذكور لأنه أنسب

بقوله تعالى الآتي: ﴿وادع﴾ الخ، وأمر إلا نسبية عليه ظاهر إلا أنه في نفسه خلاف الظاهر، وقال الزجاج: هو نهي له عليه الصلاة والسلام عن منازعتهم كما تقول: لا يضاربنك زيد أي لا تضاربنه وذلك بطريق الكناية، وهذا إنما يجوز على ما قيل وبحث فيه من باب المفاعلة للتلازم فلا يجوز في مثل لا يضربنك زيد أن تريد لا تضربنه.

وتعقب بأنه لا يساعده المقام، وقرىء «فلا يُنَازِعُنَكَ» بالنون الخفيفة، وقرأ أبو مجلز، ولاحق بن حميد «فَلاَ يَنْزِعُنَكَ» بكسر الزاي على أنه من النزع بمعنى الجذب كما في البحر، والمعنى كما قال ابن جني فلا يستخفنك عن دينك إلى أديانهم فتكون بصورة المنزوع عن شيء إلى غيره.

وفي الكشاف أن المعنى أثبت في دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه، والمراد زيادة التثبيت له عليه الصلاة والسلام بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله تعالى ولدينه ومثله كثير في القرآن.

وقال الزجاج: هو من نازعته فنزعته أنزعه أي غلبته، فالمعنى لا يغلبنك في المنازعة والمراد بها منازعة الجدال يعني أن ذلك من باب المغالبة، لكن أنت تعلم أنها عند الجمهور تقال في كل فعل فاعلته ففعلته أفعله بضم العين ولا تكسر إلا شذوذاً، وزعم الكسائي ورده العلماء أن ما كان عينه أو لامه حرف حلق لا يضم بل يترك على ما كان عليه فيكون ما هنا على توجيه الزجاج شاذاً عند الجمهور.

وقال سيبويه: كما في المفصل وليس في كل شيء يكون هذا أي باب المغالبة ألا ترى أنك تقول[1]: نازعني فنزعته استغني عنه بغلبته، ثم إن المراد من لا يغلبنك في المنازعة لا تقصر في منازعتهم حتى يغلبوك فيها، وفيه مبالغة في التثبيت فليس هناك نهي له ﷺ عن فعل غيره، هذا وما ذكرنا من تفسير المنسك بالشريعة هو رواية عطاء عن ابن عباس واختاره القفال، وقال الإمام: هو الأقرب، وقيل: هو مصدر بمعنى النسك أي العبادة، قال ابن عطية: يعطي ذلك ﴿هم ناسكوه﴾ وقيل: هو اسم زمان، وقيل: اسم مكان، وكان الظاهر ناسكون فيه إلا أنه اتسع في ذلك، وقال مجاهد: هو الذبح.

وأخرج ذلك الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن علي بن الحسن رضي الله تعالى عنهما؛ وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وعبد بن حميد عن عكرمة، وجعل ضمير ﴿ينازعنك﴾ للمشركين، والأمر المتنازع فيُه أمر الذبائح لما ذكر من أن الآية نزلت بسبب قول الخزاعيين بديل بن ورقاء. وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس للمؤمنين ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله تعالى، ومنهم من اقتصر على جعل محل النزاع أمر النسائك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين المذكور. وتعقبه شيخ الإسلام بأنه مما لا سبيل إليه أصلاً كيف لا وإنه يستدعي أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدين به المشركون من الأباطيل من المناسك التي جعلها الله تعالى لبعض الأمم ولا يرتاب في بطلانه عاقل، وأجيب بأن المعنى عليه لا ينازعنك المشركون في أمر النسائك فإنه لكل أمة شريعة شرعناها وأعلمناك بها فكيف ينازعون بما ليس له عين ولا أثر فيها، وقيل: المعنى عليه لا تلتفت إلى نزاع المشركين في أمر الذبائح فإنا جعلنا لكل أمة من أهل الأديان ذبحاهم ذابحوه.

وحاصله لا تلتفت إلى ذلك فإن الذبح شرع قديم للأمم غير مختص بأمتك وهذا لا شك في صحته، ومن قال بصحة الآثار وعض عليها بالنواجذ لا يكاد يجد أولى منه في بيان حاصل الآية على ما تقتضيه، ومن لم يكن كذلك ورأى أن الآية متى احتملت معنى جزلاً لا محذور فيه قيل به وإن لم يذكره أحد من السلف فعليه بما ذكرناه أولاً في

---

(١) قيل إن ذلك في الاشهر فليحفظ اه منه.

تفسير الآية، وأياً ما كان فالظاهر أنه إنما لم تعطف هذه الجملة كما عطف قوله تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا﴾ [الحج: ٣٤] الخ لضعف الجامع بنيها وبين ما تقدمها من الآيات بخلاف ذلك. وفي الكشف بياناً لكلام الكشاف في توجيه العطف هناك وتركه هنا أن الجامع هناك قوي مقتضٍ للعطف فإن قوله تعالى: ﴿**لكم فيها**﴾ أي في الشعائر منافع دينية ودنيوية كوجوب نحرها منتهية إلى البيت العتيق كالإعادة لما في قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ [الحج: ٢٨] إلا أن فيه تخصيصاً بالمخاطبين فعطف عليه ﴿**ولكل أمة جعلنا منسكاً**﴾ للذكر لتتم الإعادة والغرض من هذا الأسلوب أن يبين أنه شرع قديم وأنه لم يزل متضمناً لمنافع جليلة في الدارين، وأما فيما نحن فيه فأين حديث النسائك من حديث تعداد الآيات والنعم الدالة على كمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة، ولعمري إن شرعية النسائك لكل أمة وإن كانت من الرحمة والنعمة لكن النظر إلى المجانسة بين النعم وما سيق له الكلام فالحالة مقتضية للقطع، وذكره هاهنا لهذه المناسبة على نحو خفي ضيق اهـ، وهو حسن وظاهره تفسير النسك بالذبح.

وذكر الطيبي أن ما تقدم عطف على قوله تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ [الحج: ٣٢] الخ وهو من تتمة الكلام مع المؤمنين أي الأمر ذلك والمطلوب تعظيم شعائر الله تعالى وليس هذا مما يختص بكم إذ كل أمة مخصوصة بنسك وعبادة.

وهذه الآية مقدمة نهي النبي ﷺ عما يوجب نزاع القوم تسلية له وتعظيم لأمره حيث جعل أمره منسكاً وديناً يعني شأنك وشأن أمثالك من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ترك المنازعة مع الجهال وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى النزاع وملازمة الدعوة إلى التوحيد أو لكل أمة من الأمم الخالية المعاندة جعلنا طريقاً ودیناهم ناسكوه فلا ينازعنك هؤلاء المجادلة. سمي دأبهم نسكاً لا يجابههم ذلك على أنفسهم واستمرارهم عليه تهكماً بهم ومسلاة لرسوله ﷺ مما كان يلقى منهم، وأما اتصاله بما سبق من الآيات فإن تعالى: ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ [الحج: ٥٥] يوجب القلع عن إنذار القوم وإلا يأس منهم ومتاركتهم والآيات المتخللة كالتأكيد لمعنى التسلية فجيء بقوله تعالى: ﴿**لك أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك**﴾ تحريضاً له عليه الصلاة والسلام على التأسي بالأنبياء السالفة في متاركة القوم والإمساك عن مجادلتهم بعد الإياس من إيمانهم وينصره قوله تعالى: ﴿**الله يحكم بينهم يوم القيامة**﴾ فالربط على طريقة الاستئناف وهو أقوى من الربط اللفظي، والذي يدور عليه قطب هذه السورة الكريمة الكلام في مجادلة القوم ومعانديهم والنعي عليهم بشدة شكيمتهم ألا ترى كيف افتتحها بقوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يجادل في الله﴾ [الحج: ٣] وكررها وجعلها أصلاً للمعنى المهتم به وكلما شرع في أمر كر إليه تثبيتاً لقلب الرسول ﷺ ومسلاة لصدره الشريف عليه الصلاة والسلام فلا يقال: إن هذه الآية واقعة مع أباعد عن معناها انتهى، ولعمري إنه أبعد عن ربوع التحقيق وفسر الآية الكريمة بما لا يليق. وقد تعقب الكشف اتصاله بما ذكر بأنه لا وجه له فقد تخلل ما لا يصلح لتأكيد معنى التسلية المذكورة أعني قوله تعالى: ﴿**ومن عاقب**﴾ الآيات لا سيما على ما آثره من جعلها في المقاتلين في الشهر الحرام ولو سلم فلا مدخل للاستئناف وهو تمهيد لما بعده أعني قوله تعالى: ﴿**فلا ينازعنك**﴾ الخ، وأما قوله والذي يدور عليه الخ فهو مسلم وهو عليه لإله فتأمل والله تعالى الموفق للصواب.

﴿**وَادْعُ**﴾ أي وادع هؤلاء المنازعين أو الناس كافة على أنهم داخلون فيهم دخولاً أولياً ﴿**إِلَى رَبِّكَ**﴾ إلى توحيده وعبادته حسبما بين في منسكهم وشريعتهم ﴿**إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى**﴾ أي طريق موصل إلى الحق ففيه استعارة

مكنية وتخييليتها على، وقوله تعالى: ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ أي سوي أو أحدهما تخييل والآخر ترشيح، ثم المراد بهذا الطريق إما الدين والشريعة أو أدلتها، والجملة استئناف في موضوع التعليل.

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟
ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ
﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا
وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ
مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ
ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ في أمر الدين وقد ظهر الحق ولزمت الحجة ﴿فَقُلْ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿الله أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأباطيل التي من جملتها المجادلة فمجازيكم عليها، وهذا إن أريد به الموادعة كما جزم به أبو حيان فهو منسوخ بآية القتال ﴿الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ تسلية له ﷺ؛ والخطاب عام للفريقين المؤمنين والكافرين وليس مخصوصاً بالكافرين كالذي قبله ولا داخلاً في حيز القول، وجوز أن يكون داخلاً فيه على التغليب أي الله يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ بالثواب والعقاب كما فصل في الدنيا بثبوت حجج المحق دون المبطل ﴿فيمَا كُنتُمْ فيه تَختَلِفُونَ﴾ أي من أمر الدين، وقيل الجدال والاختلاف في أمر الذبائح، ومعنى الاختلاف ذهاب كل إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله، والاستفهام للتقرير أي قد علمت ﴿أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا في السَّماء وَالأَرْض﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء التي من جملتها أقول الكفرة وأعمالهم ﴿إِنَّ ذَلكَ﴾ أي ما في السماء والأرض ﴿في كتاب﴾ هو كما روي عن ابن عباس اللوح المحفوظ، وذكر رضي الله تعالى عنه أن طوله

مسيرة مائة عام وأنه كتب فيه ما هو كائن في علم الله تعالى إلى يوم القيامة، وأنكر ذلك أبو مسلم وقال: المراد من الكتاب الحفظ والضبط أي إن ذلك محفوظ عنده تعالى، والجمهور على خلافه، والمراد من الآية أيضاً تسليته عليه الصلاة والسلام كأنه قيل إن الله يعلم الخ فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من العلم والإحاطة بما في السماء والأرض وكتبه في اللوح والحكم بينكم، وقيل: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الحكم فقط، وقيل إلى العلم فقط، وقيل إلى كتب ذلك في اللوح، ولعل كونه إشارة إلى الثلاثة بتأويل ما ذكر أولى ﴿عَلَى الله يَسيرٌ﴾ فإن علمه وقدرته جل جلاله مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شيء ولا يعسر عليه مقدور، وتقديم الجار والمجرور لمناسبة رؤوس الآي أو للقصر أي يسير عليه جل وعلا لا على غيره ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله﴾ حكاية لبعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم وهي بناء أمرهم على غير مبنى دليل سمعي أو عقلي وإعراضهم عما ألقي إليهم من سلطان بين هو أساس الدين أي يعبدون متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ أي بجواز عبادته ﴿سُلْطَاناً﴾ أي حجة، والتنكير للتقليل، وهذا إشارة إلى الدليل السمعي الحاصل من جهة الوعي.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ به علْمٌ﴾ إشارة إلى الدليل العقلي أي ما ليس لهم بجواز عبادته علم من ضرورة العقل أو استدلاله، والحاصل يعبدون من دون الله ما لا دليل من جهة السمع ولا من جهة العقل على جواز عبادته، وتقديم الدليل السمعي لأن الاستناد في أكثر العبادات إليه مع أن التمسك به في هذا المقام أرجىء في الخلاص إن حصل لوم من التمسك بالدليل العقلي، وإن شككت فارجع إلى نفسك فيما إذ لامك شخص على فعل فإنك تجدها مائلة إلى الجواب بأني فعلت كذا لأنك أخبرتني برضاك بأن أفعله أكثر من ميلها إلى الجواب بأن فعلته لقيام الدليل العقلي وهو كذا على رضاك به وإنكار ذلك مكابرة، وقد يقال: إنما قدم هنا ما يشير إلى الدليل السمعي لأنه إشارة إلى دليل سمعي يدل على جواز تلك العبادة منزل من جهته تعالى غير مقيد بقيد بخلاف ما يشير إلى الدليل العقلي فإن فيه إشارة إلى دليل عقلي خاص بهم، وحاصله أن التقديم والتأخير للإطلاق والتقييد وإن لم يكونا لشيء واحد فافهم، وقال العلامة الطيبي: في اختصاص الدليل السمعي بالسلطان والتنزيل ومقابله بالعلم دليل واضح على أن الدليل السمعي هو الحجة القاطعة وله القهر والغلبة وعند ظهوره تضمحل الآراء وتتلاشى الأقيسة ومن عكس ضل الطريق وحرم التوفيق وبقي متزلزلاً في ورطات الشبه؛ وإن شئت فانظر إلى التنكير في ﴿سلطانا﴾ و ﴿علم﴾ وقسهما على قول الشاعر:

له حاجب في كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

لتعلم الفرق إلى آخر ما قال، ومنه يعلم وجه للتقديم واحتمال آخر في تنوين ﴿سلطانا﴾ غير ما قدمنا، وظاهره أن الدليل السمعي يفيد اليقين مطلقاً وأنه مقدم على الدليل العقلي، ومذهب المعتزلة وجمهور الأشاعرة أنه لا يفيد اليقين مطلقاً لتوقف ذلك على أمور كلها ظنية فتكون دلالته أيضاً ظنية لأن الفرع لا يزيد على الأصل في القوة، والحق أنه قد يفيد اليقين في الشرعيات دون العقليات بقرائن مشاهدة أو متواترة تدل على انتفاء الاحتمالات.

وذكر الفاضل الرومي في حواشيه على شرح المواقف بعد بحث أن الحق أنه قد يفيد اليقين في العقليات أيضاً وأما أنه مقدم على الدليل العقلي فالذي عليه علماؤنا خلافه، وأنه متى عارض الدليل العقلي الدليل السمعي وجب تأويل الدليل السمعي إلى ما لا يعارضه الدليل العقلي إذ لا يمكن العمل بهما ولا بنقيضهما، وتقدم السمع على العقل إبطال للأصل بالفرع وفيه إبطال الفرع وإذا أدى إثبات الشيء إلى إبطاله كان مناقضاً لنفسه وكان باطلاً لكن ظاهر

كلام محيي الدين بن العربي قدس سره في مواضع من فتوحاته القول بأنه مقدم، ومن ذلك قوله في الباب الثلاثمائة والثمانية والخمسين من أبيات:

كل علم يشهد الشرع له ... هو علم فبه فلتعتصم
وإذا خالفه العقل فقل ... طورك الزم ما لكم فيه قدم

وقوله في الباب الأربعمائة والاثنين والسبعين:

على السمع عولنا فكنا أولي النهى ... ولا علم فيما لا يكون عن السمع

إلى غير ذلك وهو كأكثر كلامه من وراء طور العقل ﴿وَمَا للظَّالمينَ﴾ أي وما لهم إلا أنه عدل إلى الظاهر تسجيلاً عليهم بالظلم مع تعليل الحكم به، وجوز أن لا يكون هناك عدول، والمراد ما يعمهم وغيرهم ودخولهم أولى، و ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿منْ نَصير﴾ سيف خطيب، والمراد نفي أن يكون لهم بسبب ظلمهم من يساعدهم في الدنيا بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم ودفع ما يخالفه وفي الآخرة بدفع العذاب عنهم.

﴿وَإذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ عطف على ﴿يعبدون﴾ وما بينهما اعتراض، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي، وقوله تعالى: ﴿بَيّنَات﴾ حال من الآيات أي واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الصادقة أو على بطلان ما هم عليه من عبادة غير الله تعالى ﴿تَعْرفُ في وُجُوه الَّذينَ كَفَرُوا﴾ أي في وجوههم، والعدول على نحو ما تقدم، والخطاب إما لسيد المخاطبين ﷺ أو لمن يصح أن يعرف كائناً من كان ﴿الْمُنْكَرَ﴾ أي الإنكار على أنه مصدر ميمي، والمراد علامة الإنكار أو الأمر المستقبح من التجهم والبسور والهيئات الدالة على ما يقصدونه وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالَّذينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتنَا﴾ أي يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لأباطيل أخذوها تقليداً، ولا يخفى ما في ذلك من الجهالة العظيمة، وكان المراد أنهم طول دهرهم يقاربون ذلك وإلا فقد سطوا في بعض الأوقات ببعض الصحابة التالين كما في البحر، والجملة في موقع الحال من المضاف إليه، وجوز أن يكون من الوجوه على أن المراد بها أصحابها وليس بالوجه.

وقرأ عيسى بن عمر «يُعْرَفُ» بالبناء للمفعول «المنكرُ» بالرفع ﴿قُلْ﴾ على وجه الوعيد والتقريع ﴿أَفَأُنَبّئُكُمْ﴾ أي أخاطبكم أو أتسمعون فأخبركم ﴿بشَرّ مّنْ ذَلكُمْ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلي عليكم ﴿النَّارُ﴾ أي هو أو هي النار على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: ما هو؟ وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا اللهُ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ وهو على الوجه الأول جملة مستأنفة، وجوز أن يكون خبراً بعد خبر.

وقرأ ابن أبي عبلة وإبراهيم بن يوسف عن الأعشى وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿النار﴾ بالنصب على الاختصاص، وجملة ﴿وعدها﴾ الخ مستأنفة أو حال من ﴿النار﴾ بتقدير قد أو بدونه على الخلاف، ولم يجوزوا في قراءة الرفع الحالية على الإعراب الأول إذ ليس في الجملة ما يصح عمله في الحال.

وجوز في النصب أن يكون من باب الاشتغال وتكون الجملة حينئذ مفسرة. وقرأ ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن نوح عن قتيبة «النارِ» بالجر على الإبدال من شر، وفي الجملة احتمالاً الاستئناف والحالية، والظاهر معنى أن يكون الضمير في «وعدها» هو المفعول الثاني والأول الموصول أي وعد الذين كفروا إياها، والظاهر معنى لفظاً أن يكون

المفعول الأول والثاني الموصول كأن النار وعدت بالكفار لتأكلهم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مثلاً وتسير في الأمصار والأعصار، وعبر عن بيان ذلك بلفظ الماضي لتحقق الوقوع، ومعنى المثل في الأصل المثل ثم خص بما شبه بمورده من الكلام فصار حقيقة ثم استعير لما ذكر، وقيل المثل على حقيقته و ﴿ضرب﴾ بمعنى جعل أي جعل الله سبحانه شبه في استحقاق العبادة وحكي ذلك عن الأخفش، والكلام متصل بقوله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا﴾ ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر أو لأجله ما أقول فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُون الله﴾ إلى آخره بيان للمثل وتفسير له على الأول وتعليل لبطلان جعلهم معبوداتهم الباطلة مثلاً لله تعالى شأنه في استحقاق العبادة على الثاني، ومنهم من جعله على ما ذكرنا وعلى ما حكي عن الأخفش تفسيراً أما على الأول فللمثل نفسه بمعناه المجازي وأما على الثاني فلحال المثل بمعناه الحقيقي، فإن المعنى جعل الكفار لله مثلاً فاستمعوا لحاله وما يقال فيه، والحق الذي لا ينكره إلا مكابر أن تفسير الآية بما حكي فيه عدول عن المتبادر.

والظاهر أن الخطاب في ﴿يا أيها الناس﴾ لجميع المكلفين لكن الخطاب في ﴿تدعون﴾ للكفار. واستظهر بعضهم كون الخطاب في الموضعين للكفار والدليل على خصوص الأول الثاني، وقيل هو في الأول للمؤمنين ناداهم سبحانه ليبين لهم خطأ الكافرين؛ وقيل هو في الموضعين عام وأنه في الثاني كما في قولك: أنتم يا بني تميم قتلتم فلاناً وفيه بحث.

وقرأ الحسن ويعقوب وهارون والخفاف ومحبوب عن أبي عمرو «يدعون» بالياء التحتية مبنياً للفاعل كما في قراءة الجمهور قرأ اليماني وموسى الأسواري «يدعون» بالياء من تحت أيضاً مبنياً للمفعول، والراجع للموصول على القراءتين السابقتين محذوف ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾ أي لا يقدرون على خلقه مع صغره وحقارته، ويدل على أن المراد نفي القدرة السباق مع قوله تعالى: ﴿وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي لخلقه فإن العرف قاض بأنه لا يقال: لن يحمل الزيدون كذا ولو اجتمعوا لحمله إلا إذا أريد نفي القدرة على الحمل، وقيل جاء ذلك من النفي بلن فإنها مفيدة لنفي مؤكد فتدل على منافاة بين المنفي وهو الخلق والمنفي عنه وهو المعبودات الباطلة فتفيد عدم قدرتها عليه، والظاهر أن لا يستغنى عن معونة المقام أيضاً، وأنت تعلم أن في إفادة لن النفي المؤكد خلافاً؛ فذهب الزمخشري إلى إفادتها ذلك وأن تأكيد النفي هنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل وقال في انموذجه بإفادتها التأبيد.

وذهب الجمهور وقال أبو حيان: هو الصحيح إلى عدم إفادتها ذلك وهي عندهم أخت لا لنفي المستقبل عند الإطلاق بدون دلالة على تأكيد أو تأبيد وأنه إذا فهم فهو من خارج وبواسطة القرائن وقد يفهم كذلك مع كون النفي بلا فلو قيل هنا لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له لفهم ذلك، ويقولون في كل ما يستدل به الزمخشري لمدعاة: إن الإفادة فيه من خارج ولا يسلمون أنها منها ولن يستطيع إثباته أبداً، والانتصار له بأن سيفعل في قوة مطلقة عامة ولن يفعل نقيضه فيكون في قوة الدائمة المطلقة ولا يتأتى ذلك إلا بإفادة لن التأبيد ليس بشيء أصلاً كما لا يخفى، وكأن الذي أوقع الزمخشري في الغفلة فقال ما قال اعتماداً على ما لا ينتهض دليلاً شدة التعصب لمذهبه الباطل واعتقاده العاطل نسأل الله تعالى أن يحفظنا من الخذلان، والذباب اسم جنس ويجمع على أذبة وذبان بكسر الذال فيهما وحكي في البحر ضمها في ذبان أيضاً، وهو مأخوذ من الذب أي الطرد والدفع أو من الذب بمعنى الاختلاف أي الذهاب والعود وهو أنسب بحال الذباب لما فيه من الاختلاف حتى قيل: إنه منحوت من ذب آب أي طرد فرجع، وجواب ﴿لو﴾

محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة معطوفة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أي لو لم يجتمعوا له ويتعاونوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له وتعاونوا عليه لن يخلقوا وهما في موضع الحال كأنه قيل: لن يخلقوا ذباباً على كل حال.

وقال بعضهم: الواو للحال ﴿ولو اجتمعوا له﴾ بجوابه حال، وقال آخرون: إن ﴿لو﴾ هنا لا تحتاج إلى جواب لأنها انسلخت عن معنى الشرطية وتمحضت للدلالة على الفرض والتقدير، والمعنى لن يخلقوا ذباباً مفروضاً اجتماعهم ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً﴾ بيان لعجزه عن أمر آخر دون الخلق أي وإن يأخذ الذباب منها شيئاً ﴿لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي لا يقدروا على استنقاذه منه مع غاية ضعفه.

والظاهر أن استنقذ بمعنى نقذ، وفي الآية من تجهيلهم في إشراكهم بالله تعالى القادر على جميع الممكنات المتفرد بإيجاد كافة الموجودات عجز لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها ولو اجتمعوا له ولا على استنقاذ ما يختطفه منهم ما لا يخفى، والآية وإن كانت نازلة في الأصنام فقد كانوا كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها فيدخل الذباب من الكوى فيأكله، وقيل: كانوا يضمخونها بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك إلا أن الحكم عام لسائر المعبودات الباطلة.

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ تذييل لما قبل أخبار أو تعجب والطالب عابد غير الله تعالى والمطلوب الآلهة كما روي عن السدي والضحاك وكون عابد ذلك طالباً لدعائه إياه واعتقاده نفعه، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته، وكون الآخر مطلوباً ظاهراً كضعفه، وقيل الطالب الذباب يطلب ما يسلبه عن الآلهة والمطلوب الآلهة على معنى المطلوب منه ما يسلب.

وروى ابن مردويه وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما واختاره الزمخشري أن الطالب الأصنام والمطلوب الذباب، وفي هذا التذييل حينئذٍ إيهام التسوية وتحقيق أن الطالب أضعف لأنه قدم عليه أن هذا الخلق الأقل هو السالب وذلك طالب خاب عن طلبته ولما جعل السلب المسلوب لهم وأجراهم مجرى العقلاء أثبت لهم طلباً ولما بين أنهم أضعف من أذل الحيوانات نبه به على مكان التهكم بذلك، ومن الناس من اختار الأول لأنه أنسب بالسياق إذ هو لتجهيلهم وتحقير آلهتهم فناسب إرادتهم وآلهتهم من هذا التذييل.

﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قال الحسن والفراء: أي ما عظموه سبحانه حق تعظيمه فإن تعظيمه تعالى حق تعظيمه أن يوصف بما وصف به نفسه ويعبد كما أمر أن يعبد وهؤلاء لم يفعلوا ذلك فإنهم عبدوا من دونه من لا يصلح للعبادة أصلاً وفي ذلك وصفه سبحانه بما نزه عنه سبحانه من ثبوت شريك له عز وجل.

وقال الأخفش: أي ما عرفوه حق معرفته فإن معرفته تعالى حق معرفته التصديق به سبحانه موصوفاً بما وصف به نفسه وهؤلاء لم يصدقوا به كذلك لشركهم به وعبادتهم من دونه من سمعت حاله، وقيل: حق المعرفة أن يعرف سبحانه بكنهه وهذا هو المراد في قوله عليه الصلاة والسلام «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك».

وأنت تعلم أن الظاهر أن قوله تعالى: ﴿ما قدروا﴾ إلخ أخبار عن المشركين وذم لهم ومتى كان المراد منه نفي المعرفة بالكنه كان الأمر مشتركاً بينهم وبين الموحدين فإن المعرفة بالكنه لم تقع لأحد من الموحدين أيضاً عند

المحققين ويشير إلى ذلك الخبر المذكور لدلالته على عدم حصولها لأكمل الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام وإذا لم تحصل له ﷺ فعدم حصولها لغيره بالطريق الأولى، واحتمال حمل المعرفة المنفية فيه على اكتناه الصفات لا يخفى حاله، وكذا احتمال حصول المعرفة بالكنه له عليه الصلاة والسلام بعد الأخبار المذكور، وقوله ﷺ: «تفكروا في آلاء الله تعالى ولا تفكروا في ذاته فإنكم لن تقدروا قدره».

والظاهر عموم الحكم دون اختصاصه بالمخاطبين إذ ذاك، وقول الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك، وقول علي كرم الله تعالى وجهه متمماً له بيتاً: والبحث عن سر ذات الله إشراك. بل قال حجة الإسلام الغزالي وشيخه إمام الحرمين والصوفية والفلاسفة بامتناع معرفته سبحانه بالكنه، ونقل عن أرسطو أنه قال في ذلك: كما تعتري العين عند التحديق في جرم الشمس ظلمة وكدورة تمنعها عن تمام الإبصار كذلك تعتري العقل عند إرادة اكتناه ذاته تعالى حيرة ودهشة تمنعه عن اكتناهه سبحانه.

ولا يخفى أنه لا يصلح برهاناً للامتناع وغاية ما يقال: إنه خطابي لا يحصل به إلا الظن الغير الكافي في مثل هذا المطلب، ومثله الاستدلال بأن جميع النفوس المجردة البشرية وغيرها مهذبة كانت أو لا أنقص تجرداً تنزهاً من الواجب تعالى والأنقص يمتنع له اكتناه من هو أشد تجرداً وتنزهاً منه كامتناع اكتناه الماديات للمجردات، وكذا الاستدلال بكونه تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد فيمتنع إدراكه كما يمتنع إدراك البصر ما اتصل به، وأحسن من ذلك كله ما قيل: إن معرفة كنهه ليست بديهية بالضرورة بالنسبة إلى شخص وإلى وقت فلا تحصل لأحد في وقت بالضرورة فتكون كسبية والكسب إما تحد تام أو ناقص وهو محال مستلزم لتركب الواجب لوجوب تركب الحد من الجنس القريب أو البعيد ومن الفصل مع أن الحد الناقص لا يفيد الكنه، وأما الحد البسيط بمفرد فمحال بداهة فإن ذلك المفرد إن كان عين ذاته يلزم توقف معرفة الشيء على معرفة نفسه من غير مغايرة بينهما ولو بالإجمال والتفصيل كما في الحد المركب مع حده التام، وإن كان غيره فلا يكون حداً بل هو رسم أو مفهوم آخر غير محمول عليه وإما برسم تام أو ناقص ولا شيء منهما مما يفيد الكنه بالضرورة.

واعترض بأن عدم إمكان البداهة بالنسبة إلى جميع الأشخاص وإلى جميع الأوقات يحتاج إلى دليل فربما تحصل بعد تهذيب النفس بالشرائع الحقة وتجريدها عن الكدورات البشرية والعوائق الجسمانية، ولو سلمنا عدم إمكان البداهة كذلك فلنا أن نختار كون المعرفة مما تكتسب بالحد التام المركب من الجنس والفصل وغاية ما يلزم منه التركيب العقلي وليس بمحال إلا إن قلنا بأنه يستلزم التركيب الخارجي المستلزم للاحتياج إلى الأجزاء المنافي لوجوب الوجود، ونحن لا نقول بذلك لأن المختار عند جمع أن أجزاء الماهية مأخوذة من أمر واحد بسيط وهي متحدة ماهية ووجوداً فتكون أموراً انتزاعية لا حقيقته فلا استلزام، نعم يكون ذلك إن قلنا: إن الأجزاء مأخوذة من أمور متغايرة بحسب الخارج لكن لا نقول به لأنه إن قيل حينئذ بتغاير الأجزاء أنفسها ماهية ووجوداً كما ذهب إليه طائفة يرد لزوم عدم صحة الحمل بينها ضرورة أن الموجودين بوجودين متغايرين لا يحمل أحدهما على الآخر كزيد وعمرو، وإن قيل بتغايرها ماهية لا وجوداً ليصح الحمل كما ذهب إليه طائفة أخرى يرد لزوم قيام الوجود الواحد بالشخص بموجودات متعددة متغايرة بالماهية، ولو سلمنا الاستلزام بين التركيب العقلي والتركب الخارجي فلنا أن نقول: لا نسلم أنه لا شيء من الرسم مما يفيد الكنه بالضرورة كيف وهو مفيد فيما إذ كان الكنه لازماً للرسم لزوماً بيناً بالمعنى الأخص بل يمكن إفادة كل رسم إياه على قاعدة الأشعري من استناد جميع الممكنات إليه تعالى بلا شرط وإن لم تقع تلك الإفادة أصلاً إذ الكلام في امتناع حصول الكنه بالكسب كذا قالوا(*):

واستدل الملا صدرا على نفي الأجزاء العقلية له تعالى بأن حقيقته سبحانه آنية محضة ووجود بحت فلو كان له عز وجل جنس وفصل لكان جنسه مفتقراً إلى الفصل لا في مفهومه ومعناه بل في أن يوجد ويحصل بالفعل فحينئذٍ يقال: ذلك الجنس لا يخلو إما أن يكون وجوداً محضاً أو ماهية غير الوجود، فعلى الأول يلزم أن يكون ما فرضنا فصلاً ليس بفصل إذ الفصل ما به يوجد الجنس وهذا إنما يتصور إذا لم يكن حقيقة الجنس حقيقة الوجود، وعلى الثاني يلزم أن يكون الواجب تعالى ذا ماهية وقد حقق أن نفس الوجود حقيقته بلا شمول، وأيضاً لو كان له تعالى جنس لكان مندرجاً تحت مقولة الجوهر وكان أحد الأنواع الجوهرية فيكون مشاركاً لسائرها في الجنس؛ وقد برهن على إمكانها وحقق أن إمكان النوع يستلزم إمكان الجنس المستلزم لإمكان كل واحد من أفراد ذلك الجنس من حيث كونه مصداقاً له إذ لو امتنع الوجود على الجنس من حيث هو جنس أي مطلقاً لكان ممتنعاً على كل فرد فإذا يلزم من ذلك إمكان الواجب تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ومبنى هذا أن حقيقة الواجب تعالى هو الوجود البحت وهو مما ذهب الحكماء وأجلة من المحققين، وليس المراد من هذا الوجود المعنى المصدري الذي لا يجهله أحد فإنه مما لا شك في استحالة كونه حقيقة الواجب سبحانه بل هو بمعنى مبدأ الآثار على ما حققه الجلال الدواني وأطال الكلام فيه في حواشيه على شرح التجريد وفي شرحه للهياكل النورية وفي غيرهما من رسائله، وللملا صدرا[١] في هذا المقام والبحث في كلام الجلال كلام طويل عريض وقد حقق الكلام بطرز آخر يطلب من كتابه الأسفار بيد أنا نذكر هنا من كلامه سؤالاً وجواباً يتعلقان فيما نحن فيه فنقول:

قال فإن قلت: كيف يكون ذات الباري سبحانه عين حقيقة الوجود والوجود بديهي التصور وذات الباري مجهول الكنه؟ قلت: قد مر أن شدة الظهور وتأكد الوجود هناك مع ضعف قوة الإدراك وضعف الوجود هاهنا صار منشأين لاحتجابه تعالى عنا وإلا فذاته تعالى في غاية الإشراق والإنارة، فإن رجعت وقلت: إن كان ذات الباري نفس الوجود فلا يخلو إما أن يكون الوجود حقيقة الذات كما هو المتبادر أو يكون صادقاً عليها صدقاً عرضياً كما يصدق عليه تعالى مفهوم الشيء، وعلى الأول إما أن يكون المراد به هذا المعنى العام البديهي التصور المنتزع من الموجودات أو معنى آخر والأول ظاهر الفساد والثاني يقتضي أن يكون حقيقته تعالى غير ما يفهم من لفظ الوجود كسائر الماهيات غير أنك سميت تلك الحقيقة بالوجود كما إذا سمي إنسان بالوجود ومن البين أنه لا أثر لهذه التسمية في الأحكام وأن هذا القسم راجع إلى الواجب ليس الوجود الذي الكلام فيه ويلزم أن يكون الواجب تعالى ذا ماهية وقد برهن أن كل ذي ماهية معلول، وعن الثاني وهو أن يصدق عليه تعالى صدقاً عرضياً فلا يخفى أن ذلك لا يغنيه عن السبب بل يستدعي أن يكون موجوداً ولذلك ذهب جمهور المتأخرين من الحكماء إلى أن الوجود معدوم فأقول: منشأ هذا الإشكال حسبان أن معنى كون هذا العام المشترك عرضياً أن للمعروض من موجودية وللعارض موجودية أخرى كالماشي بالنسبة إلى الحيوان والضاحك بالقياس إلى الإنسان وليس كذلك بل هذا المفهوم عنوان وحكاية للوجودات العينية ونسبته إليها نسبة الإنسانية إلى الإنسان والحيوانية إلى الحيوان فكما أن مفهوم الإنسانية صح أن يقال: إنها عين الإنسان لأنها مرآة لملاحظته وحكاية عن جهته صح أن يقال: إنها غيره لأنها أمر نسبي والإنسان ماهية جوهرية، وبالجملة الوجود ليس كالإمكان حتى لا يكون بإزائه شيء يكون المعنى المصدري حكاية عنه بل كالسواد الذي قد يراد به نفس المعنى النسبي أعني الأسودية وقد يراد به ما يكون الشيء أسود أعني الكيفية المخصوصة فكما أن السواد

(١) ويسمى صدر الدين الشيرازي وهو غير صدر الدين الشيرازي معاصر الملا جلال اهـ منه.

إذا فرض قيامه بذاته صح أن يقال ذاته عين الأسودية وإذا فرض جسم متصف به لم يجز أن يقال إن ذاته عين الأسودية مع أن هذا الأمر لكونه اعتباراً ذهنياً زائداً على الجميع، إذا تقرر هذا قلنا في الجواب في الترديد الأول: نختار الشق الأول وهو أن الوجود حقيقة الذات قولك في الترديد الثاني إما أن يكون ذلك الوجود ما يفهم من لفظ الوجود الخ نختار منه ما بإزاء ما يفهم من هذا اللفظ أعني حقيقة الوجود الخارجي الذي هذا المفهوم حكاية عنه فإن للوجود عندنا حقيقة في كل موجود كما أن للسواد حقيقة في كل أسود لكن في بعض الموجودات مخلوط بالنقائص والإعدام وفي بعضها ليس كذلك وكما أن السوادات متفاوتة في السوادية بعضها أقوى وأشد وبعضها أضعف وأنقص كذلك الموجودات بل الموجودات متفاوتة في الموجودية كمالاً ونقصاناً، ولنا أيضاً أن نختار الشق الثاني من شقي الترديد الأول إلا أن هذا المفهوم الكلي وإن كان عرضياً بمعنى أنه ليس له بحسب كونه مفهوماً عنوانياً وجود في الخارج حتى يكون عيناً لشيء لكنه حكاية عن نفس حقيقة الوجود القائم بذاته وصادق عليه بحيث يكون منشأ صدقه ومصداق حمله عليها نفس تلك الحقيقة لا شيئاً آخر يقوم به كسائر العرضيات في صدقها على الأشياء فصدق هذا المفهوم على الوجود الخاص يشبه صدق الذاتيات من هذه الجهة، فعلى هذا لا يرد علينا قولك: صدق الوجود عليه لا يغنيه عن السبب لأنه لم يكن يغنيه عن السبب لو كان موجوديته بسبب عروض هذا المعنى أو قيام حصة من الوجود وليس كذلك بل ذلك الوجود الخاص بذاته موجود كما أنه بذاته وجود سواء حمل عليه مفهوم الوجود أو لم يحمل، والذي ذهب الحكماء إلى أنه معدوم ليس هو الوجودات الخاصة بل هذا الأمر العام الذهني الذي يصدق على الإينات والخصوصيات الوجودية انتهى، وما أشار إليه من تعدد الوجودات قال به المشاؤون وهي عند الأكثرين حقائق متخالفة متكثرة بأنفسها لا بمجرد عارض الإضافة إلى الماهيات لتكون متماثلة الحقيقة ولا بالفصول ليكون الوجود المطلق جنساً لها، وقال بعضهم بالاختلاف بالحقيقة حيث يكون بينها من الاختلاف ما بالتشكيك كوجود الواجب ووجود الممكن وكذا وجود المجردات ووجود الأجسام؛ وقالت طائفة من الحكماء المتأهلين إنه ليس في الخارج إلا وجود واحد شخصي مجهول الكنه وهو ذات الواجب تعالى شأنه وأما الممكنات المشاهدة فليس لها وجود بل ارتباط بالوجود الحقيقي الذي هو الواجب بالذات ونسبة إليه، نعم يطلق عليها إنها موجودة بمعنى أن لها نسبة إلى الواجب تعالى فمفهوم الموجود أعم من الموجود القائم بذاته ومن الأمور المنتسبة إليه نحواً من الانتساب وصدق المشتق لا ينافي قيام مبدأ الاشتقاق بذاته الذي مرجعه إلى عدم قيامه بالغير ولا كون ما صدق عليه أمراً منتسباً إلى المبدأ لا معروضاً له بوجه من الوجوه كما في الحداد والمشمس على أن أمر اطلاق أهل اللغة وأرباب اللسان لا عبرة به في تصحيح الحقائق، وقالوا: كون المشتق من المعقولات الثانية والبديهيات الأولية لا يصادم كون المبدأ حقيقة متأصلة متشخصة مجهولة الكنه وثانوية المعقول وتأصله قد يختلف بالقياس إلى الأمور ولا يخفى ما فيه من الأنظار، ومثله ما دار على ألسنة طائفة من المتصوفة من أن حقيقة الواجب هو الوجود المطلق تمسكاً بأنه لا يجوز أن يكون عدماً أو معدوماً وهو ظاهر ولا ماهية موجودة بالوجود أومع الوجود تعليلاً أو تقييداً لما في ذلك من الاحتياج والتركيب فتعين أن يكون وجوداً وليس هو الوجود الخاص لأنه إن أخذ مع المطلق فمركب أو مجرد المعروض فمحتاج ضرورة احتياج المقيد إلى المطلق، ومتمسكهم هذا أوهن من بيت العنكبوت، والذي حققته من كتب الشيخ الأكبر قدس سره وكتب أصحابه أن الله سبحانه ليس عبارة عن الوجود المطلق بمعنى الكلي الطبيعي الموجود في الخارج في ضمن أفراده ولا بمعنى أنه معقول في النفس مطابق لكل واحد من جزئياته في الخارج على معنى أن ما في النفس لوجود في أي شخص من الأشخاص الخارجية لكان ذلك الشخص بعينه من غير تفاوت أصلاً بل بمعنى عدم التقيد بغيره مع كونه موجوداً بذاته، ففي الباب الثاني من الفتوحات أن الحق تعالى موجود بذاته لذاته مطلق الوجود غير مقيد بغيره ولا

معلول من شيء ولا علة لشيء بل هو خالق المعلولات والعلل، والملك القدوس الذي لم يزل، وفي النصوص للصدر القونوي تصور اطلاق الحق يشترط فيه أن يتعقل بمعنى أنه وصف سلبي لا بمعنى أنه إطلاق ضده القيبد بل هو إطلاق عن الوحدة والكثرة المعلومتين وعن الحصر أيضاً في الإطلاق والتقييد وفي الجمع بين كل ذلك والتنزيه عنه فيصح في حقه كل ذلك حال تنزهه عن الجميع.

وذكر بعض الأجلة أن الله تعالى عند السادة الصوفية هو الوجود الخاص الواجب الوجود لذاته القائم بذاته المتعين بذاته الجامع لكل كمال المنزه عن كل نقص المتجلي فيما يشاء من المظاهر مع بقاء التنزيه ثم قال: وهذا ما يقتضيه أيضاً قول الأشعري بأن الوجود عين الذات مع قوله الأخير في كتابه الإبانة بإجراء المتشابهات على ظواهرها مع التنزيه بليس كمثله شيء.

وتحقيق ذلك أنه قد ثبت بالبرهان أن الواجب الوجود لذاته موجود فهو إما الوجود المجرد عن الماهية المتعين بذاته أو الوجود المقترن بالماهية المتعين بحسبها أو الماهية المعروضة للوجود المتعين بحسبها أو المجموع المركب من الماهية والوجود المتعين بحسبها لا سبيل إلى الرابع لأن التركيب من لوازمه الاحتياج ولا إلى الثالث لاحتياج الماهية في تحققها الخارجي إلى الوجود ولا إلى الثاني لاحتياج الوجود إلى الماهية في تشخصه بحسبها والاحتياج في الجميع ينافي الوجوب الذاتي فتعين الأول فالواجب سبحانه الموجود لذاته هو الوجود المجرد عن الماهية المتعين بذاته، ثم هو إما أن يكون مطلقاً بالإطلاق الحقيقي وهو الذي لا يقابله تقييد القابل لكل إطلاق وتقييد وإما أن يكون مقيداً بقيد مخصوص لا سبيل إلى الثاني لأن المركب من القيد ومعروضه من لوازمه لاحتياج المنافي للوجوب الذاتي فتعين الأول فواجب الوجود لذاته هو الوجود المجرد عن الماهية القائم بذاته المتعين بذاته المطلق بالإطلاق الحقيقي، وأهل هذا القول ذهبوا إلى أنه ليس في الخارج إلا وجود واحد وهو الوجود الحقيقي وأنه لا موجود سواه وماهيات الممكنات أمور معدومة متميزة في أنفسها تميزاً ذاتياً وهي ثابتة في العلم لم تشم رائحة الوجود ولا تشمه أبداً لكن تظهر أحكامها في الوجود المفروض وهو النور المضاف ويسمي العلماء والحق المخلوق به وهؤلاء هم المشهورون بأهل الوحدة، ولعل القول الذي نقلناه عن بعض الحكماء المتأهلين يرجع إلى قولهم هو طور ما وراء طور العقل وقد ضل بسببه أقوام وخرجوا من ربقة الإسلام، وبالجملة إن القول بأن حقيقة الواجب تعالى غير معلومة وحد علماً اكتناهياً إحاطياً عقلياً أو حسياً مما لا شبهة عندي في صحته وإليه ذهب المحققون حتى أهل الوحدة، والقول بخلاف ذلك المحكي عن بعض المتكلمين لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً، ولا أدري هل تمكن معرفة الحقيقة أو لا تمكن ولعل القول بعدم إمكانها أوفق بعظمته تعالى شأنه وجل عن إحاطة العقول سلطانه، وأما شهود الواجب بالبصر ففي وقوعه في هذه النشأة خلاف بين أهل السنة وأما في النشأة الآخرة فلا خلاف فيه سوى أن بعض الصوفية قالوا: إنه لا يقع إلا باعتبار مظهر ما وأما باعتبار الإطلاق الحقيقي فلا، وأما شهوده سبحانه بالقلب فقد قيل بوقوعه في هذه النشأة لكن على معنى شهود نوره القدسي ويختلف ذلك باختلاف الاستعداد لا على معنى شهود نفس الذات والحقيقة ومن ادعى ذلك فقد اشتبه عليه الأمر فادعى ما ادعى.

هذا ومن الناس من قال: لا مانع من أن يراد من ﴿حق قدره﴾ حق معرفته ويراد من حق معرفته المعرفة بالكنه وكونها غير حاصلة لأحد مؤمناً كان أو غيره لا يضر فيما نحن فيه لأن المراد إثبات عظمته تعالى المنافية لما عليه المشركون وكون سبحانه لا يعرف أحد كنه حقيقته يستدعي العظمة على أتم وجه فتأمل جميع ذلك والله تعالى الموفق للصواب.

﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ على جميع الممكنات ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء وقد علمت حال آلهتهم المقهورة لأذل العجزة، والجملة في موضع التعليل لما قبلها ﴿اللهُ يَصْطَفِي﴾ أي يختار ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً﴾ يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي ويصطفي من الناس رسلاً يدعون من شاء إليه تعالى ويبلغونهم ما نزل عليهم والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وتقديم رسل الملائكة عليهم السلام لأنهم وسائط بينه تعالى وبين رسل الناس، وعطف ﴿من الناس﴾ على ﴿من الملائكة﴾ وهو مقدم تقدير على ﴿رسلاً﴾ فلا حاجة إلى التقدير وإن كان رسل كل موصوفة بغير صفة الآخرين كما أشرنا إليه، وقيل: إن المراد الله يصطفي من الملائكة رسلاً إلى سائرهم في تبليغ ما كلفهم به من الطاعات ومن الناس رسلاً إلى سائرهم في تبليغ ما كلفهم به أيضاً وهذا شروع في إثبات الرسالة بعد هدم قاعدة الشرك وردم دعائم التوحيد.

وفي بعض الأخبار أن الآية نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ [ص: ٨] الآية وفيها رد لقول المشركين الملائكة بنات الله ونحوه من أباطيلهم ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ بجميع المسموعات ويدخل في ذلك أقوال الرسل ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصرات ويدخل في ذلك أحوال المرسل إليهم، وقيل: إن السمع والبصر كناية عن علمه تعالى بالأشياء كلها بقرينة قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لأنه كالتفسير لذلك، ولعل الأول أولى، وهذا تعميم بعد تخصيص، وضمير الجمع للمكلفين على ما قيل: أي يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها، وعن الحسن أول أعمالهم وآخرها، وعن علي بن عيسى أن الضمير لرسل الملائكة والناس والمعنى عنده يعلم ما كان قبل خلق الرسل وما يكون بعد خلقهم ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ كلها لا إلى غيره سبحانه لا اشتراكاً ولا استقلالاً لأنه المالك لها بالذات فلا يسأل جل وعلا عما يفعل من الاصطفاء وغيره كذا قيل، ويعلم منه أنه مرتبط بقوله تعالى: ﴿الله يصطفي﴾ الخ وكذا وجه الارتباط، ويجوز أن يكون مرتبطاً بقوله سبحانه: ﴿يعلم﴾ الخ على معنى وإليه تعالى ترجع الأمور يوم القيامة فلا أمر ولا نهي لأحد سواه جل شأنه هناك فيجازي كلا حسبما علم من أعماله ولعله أولى مما تقدم ويمكن أن يقال هو مرتبط بما ذكر لكن على طرز آخر وهو أن يكون إشارة إلى تعميم آخر للعلم أي إليه تعالى ترجع الأمور كلها لأنه سبحانه هو الفاعل لها جميعاً بواسطة وبلا واسطة أو بلا واسطة في الجميع على ما يقوله الأشعري فيكون سبحانه عالماً بها.

ووجه ذلك على ما قرره بعضهم أنه تعالى عالم بذاته على أتم وجه وذاته تعالى علة مقتضية لما سواه والعلم التام بالعلة أو بجهة كونها علة يقتضي العلم التام بمعلولها فيكون علمه تعالى بجميع ما عداه لازماً لعلمه بذاته كما أن وجود ما عداه تابع لوجود ذاته سبحانه وفي ذلك بحث طويل عريض.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي وصلّوا وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها وأفضلها والمراد أن مجموعها كذلك هو لا ينافي تفضيل أحدهما على الآخر ولا تفضيل القيام أو السجود على كل واحد واحد من الأركان، وقيل: المعنى أخضعوا لله تعالى وخروا له سجداً، وقيل: المراد الأمر بالركوع والسجود بمعناهما الشرعي في الصلاة فإنهم كانوا في أول إسلامهم يركعون في صلاتهم بلا سجود تارة ويسجدون بلا ركوع أخرى فأمروا بفعل الأمرين جميعاً فيها حكاه في البحر ولم نره في أثر يعتمد عليه، وتوقف فيه صاحب المواهب وذكره الفراء بلا سند ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبدكم سبحانه كما يؤذن به ترك المتعلق وقيل: المراد أمرهم بأداء الفرائض.

وقوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ تعميم بعد تخصيص أو مخصوص بالنوافل وعن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما أنه أمر بصلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير المخاطبين أي افعلوا كل ذلك وأنتم راجون به الفلاح غير متيقنين به واثقين بأعمالكم، والآية آية سجدة عند الشافعي وأحمد وابن المبارك وإسحاق رضي الله تعالى عنهم لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولما تقدم عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما، وبذلك قال علي كرم الله تعالى وجهه، وعمر وابنه عبد الله وعثمان وأبو الدرداء وأبو موسى وابن عباس في إحدى الروايتين عنه رضي الله تعالى عنهم، وذهب أبو حنيفة ومالك والحسن وابن المسيب وابن جبير وسفيان الثوري رضي الله تعالى عنهم إلى أنها ليست آية سجدة، قال ابن الهمام: لأنها مقرونة بالأمر بالركوع والمعهود في مثله من القرآن كونه أمراً بما هو ركن للصلاة بالاستقراء نحو ﴿اسجدي واركعي﴾ [آل عمران: ٤٣] وإذا جاء الاحتمال سقط الاستدلال، وما روي من حديث عقبة قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي وكذا قال أبو داود وغيره انتهى.

وانتصر الطيبي لإمامه الشافعي رضي الله تعالى عنه فقال: الركوع مجاز عن الصلاة لاختصاصه بها وأما السجود فلما لم يختص حمل على الحقيقة لعموم الفائدة ولأن العدول إلى المجاز من غير صارف أو نكتة غير جائز والمقارنة لا توجب ذلك، وتعقبه صاحب الكشف بأن للقائل أن يقول: المقارنة تحسن، وتوافق الأمرين في الفرضية أو الإيجاب على المذهبين من المقتضيات أيضاً، ثم رجع إلى الانتصار فقال: الحق إن السجود حيث ثبت ليس من مقتضى خصوص تلك الآية لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة، بل إنما ذلك بفعل الرسول الله ﷺ أو قوله فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية سجود الصلاة ومع ذلك تشرع السجدة عند تلاوتها لما ثبت من الرواية الصحيحة، وفيه أنه إن أراد أن ما ثبت دليل مستقل على مشروعيتها من غير مدخل للآية فذلك على ما فيه مما لم لا يقله الشافعي ولا غيره، وإن أراد أن الآية تدل على ذلك كما تدل على فرضية سجود الصلاة وما ثبت كاشف عن تلك الدلالة فذلك قول بخفاء تلك الدلالة والتزام أن الأمر بالسجود لمطلق الطلب الشامل لما كان على سبيل الإيجاب كما في طلب سجود الصلاة ولما كان على سبيل الندب كما في طلب سجود التلاوة فإنه سنة عند الشافعي رضي الله تعالى عنه ولعله يتعين عنده ذلك ولا محذور فيه بل لا معدل عنه إن صح الحديث لكن قد سمعت آنفاً ما قيل فيه، ولك أن تقول: إنه قد قوي بما أخرجه أبو داوود وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل.

وفي سورة الحج سجدتان وبعمل كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم الظاهر في كونه عن سماع منه ﷺ أو رؤية لفعله ذلك ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي لله تعالى أو في سبيله سبحانه، والجهاد كما قال الراغب استفراغ الوسع في مدافعة العدو وهو ثلاثة أضرب. مجاهدة العدو الظاهر كالكفار ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس وهي أكبر من مجاهدة العدو الظاهرة كما يشعر به ما أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة فقال: «قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قيل وما الجهاد الأكبر؟ قال مجاهدة العبد هواه» وفي إسناده ضعف مغتفر في مثله.

والمراد هنا عند الضحاك جهاد الكفار حتى يدخلوا في الإسلام، ويقتضي ذلك أن تكون الآية مدنية لأن الجهاد إنما أمر به بعد الهجرة وعند عبدالله بن المبارك جهاد الهوى والنفس، والأولى أن يكون المراد به ضروبه الثلاثة وليس ذلك من الجمع بين الحقيقة و المجاز في شيء، وإلى هذا يشير ما روي جماعة عن الحسن أنه قرأ الآية وقال: إن الرجل ليجاهد في الله تعالى وما ضرب بسيف، ويشمل ذلك جهاد المبتدعة والفسقة فإنهم أعداء أيضاً ويكون

بزجرهم عن الابتداع والفسق ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جهاداً فيه حقاً فقدم حقاً وأضيف على حد جرد قطيفة وحذف حرف الجر وأضيف جهاد إلى ضميره تعالى على حد قوله. ويوم شهدناه سليماً وعامراً.

وفي الكشاف الإضافة تكون لأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصاً بالله تعالى من حيث إنه مفعول لوجهه سبحانه ومن أجله صحت إضافته إليه، وأياً ما كان فنصب ﴿حق﴾ على المصدرية، وقال أبو البقاء: إنه نعت لمصدر محذوف أي جهاداً حق جهاده، وفيه أنه معرفة فكيف يوصف به النكرة ولا أظن أن أحداً يزعم أن الإضافة إذا كانت على الاتساع لا تفيد تعريفاً فلا يتعرف بها المضاف ولا المضاف إليه، والآية تدل على الأمر بالجهاد على أتم وجه بأن يكون خالصاً لله تعالى لا يخشى فيه لومة لائم وهي محكمة.

ومن قال كمجاهد والكلبي: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: ١٦] فقد أراد بها أن يطاع سبحانه فلا يعصي أصلاً وفيه بحث لا يخفى، وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: قال لي عمر رضي الله تعالى عنه «ألسنا كنا نقرأ وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله»؟ قلت: بل فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء، وأخرجه البيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره، ولا يخفى عليك حكم هذه القراءة، وقال النيسابوري: قال العلماء لو صحت هذه الرواية فلعل هذه الزيادة من تفسيره ﷺ وليست من نفس القرآن إلا لتواترت وهو كما ترى ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي هو جل شأنه اختاركم لا غيره سبحانه، والجملة مستأنفة لبيان علة الأمر بالجهاد فإن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته ومن قربه العظيم يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه بترك ما لا يرضاه ففيها تنبيه على المقتضى للجهاد، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي في جميع أموره ويدخل فيه الجهاد دخولاً أولياً ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق بتكليف ما يشتد القيام به عليكم إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه، والحاصل أنه تعالى أمرهم بالجهاد وبين أنه لا عذر لهم في تركه حيث وجد المقتضى وارتفع المانع.

ويجوز أن يكون هذا إشارة إلى الرخصة في ترك بعض ما أمرهم سبحانه به حيث شق عليهم لقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» فانتفاء الحرج على هذا بعد ثبوته بالترخيص في الترك بمقتضى الشرع وعلى الأول انتفاء الحرج ابتداء، وقيل: عدم الحرج بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة وشرع لهم الكفارات في حقوقه والأروش والديات في حقوق العباد، ولا يخفى أن تعميمه للتوبة ونحوها خلاف الظاهر وإن روي ذلك من طريق ابن شهاب عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

وفي الحواشي الشهابية أن الظاهر حق جهاده تعالى لما كان متعسراً ذيله بهذا ليبين أن المراد ما هو بحسب قدرتهم لا ما يليق به جل وعلا من كل الوجوه.

وذكر الجلال السيوطي أن هذه الآية أصل قاعدة المشقة تجلب التيسير وهو أوفق بالوجه الثاني فيها.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ نصب على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله من نفي الحرج بعد حذف مضاف أي وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاختصاص بتقدير أعني بالدين ونحوه وإليهما ذهب الزمخشري وقال الحوفي. وأبو البقاء: نصب على الإغراء بتقدير اتبعوا أو الزموا أو نحوه، وقال الفراء: نصب بنزع الخافض أي كملة أبيكم، والمراد بالملة أما ما يعم الأصول والفروع أو ما يخص الأصول فتأمل ولا تغفل، و ﴿إبراهيم﴾ منصوب بمقدر أيضاً أو مجرور بالفتح على أنه بدل أو عطف بيان، وجعله عليه السلام أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته عليه

السلام فغلبوا على جميع أهل ملته ﷺ ﴿هُوَ﴾ أي الله تعالى كما روي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وسفيان، ويدل عليه ما سيأتي بعد في الآية وقراءة أبي رضي الله تعالى عنه ﴿الله﴾ ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلمينَ من قَبْلُ﴾ أي من قبل نزول القرآن وذلك في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وَفي هَذَا﴾ أي في القرآن، والجملة مستأنفة، وقيل إنها كالبدل من قوله تعالى: ﴿هو اجتباكم﴾ ولذا لم تعطف، وعن ابن زيد والحسن أن الضمير لإبراهيم عليه السلام و استظهره أبو حيان للقرب وتسميته إياهم بذلك من قبل في قوله: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله هذا سبب لتسميتهم بذلك في هذا لدخول أكثرهم في الذرية فجعل مسمياً لهم فيه مجازاً، ويلزم عليه الجمع بين الحقيقة والمجاز وفي جوازه خلاف مشهور، وقال أبو البقاء: المعنى على هذا وفي هذا بيان تسميته إياكم بهذا الاسم حيث حكى في القرآن مقالته، وقال ابن عطية: يقدر عليه وسميتكم في هذا المسلمين، ولا يخفى ما في كل ذلك من التكلف.

واستدل بالآية من قال: إن التسمية بالمسلمين مخصوص بهذه الأمة وفيه نظر. ﴿ليَكُونَ الرَّسُولُ﴾ يوم القيامة ﴿شَهيداً عَلَيْكُمْ﴾ إنه قد بلغكم، ويدل على هذا القول منه تعالى عل قبول شهادته عليه الصلاة والسلام لنفسه اعتماداً على عصمته ولعل هذا من خواصه ﷺ في ذلك اليوم وإلا فالمعصوم يطالب في الدنيا بشاهدين إذا ادعى شيئاً لنفسه كما يدل على ذلك قصة الفرس وشهادة خزيمة رضي الله تعالى عنه، وأيضاً لو كان كل معصوم تقبل شهادته لنفسه في ذلك لما احتيج إلى شهادة هذه الأمة على الأمم حين يشهد عليهم أنبياؤهم فينكرون كما ذكر ذلك كثير من المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس﴾ ورد أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم فيقال لأنبيائهم: هل بلغتم أممكم؟ فيقولون: نعم بلغناهم فينكرون فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنهم قد بلغوا فتقول الأمم لهم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بأخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق أو شهيداً عليكم بإطاعة من أطاع وعصيان من عصى، ولعل علمه ﷺ بذلك بتعريف الله تعالى بعلامات تظهر له في ذلك الوقت تسوغ له عليه الصلاة والسلام الشهادة، وكون أعمال أمته تعرض عليه عليه الصلاة والسلام وهو في البرزخ كل أسبوع أو أكثر أو أقل إذا صح لا يفيد العلم بأعيان ذوي الأعمال المشهود عليهم وإلا أشكل ما رواه أحمد في مسنده والشيخان عن أنس، وحذيفة قالا: «قال رسول الله ﷺ ليردن على ناس من أصحابي الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول: يا رب أصيحابي أصيحابي فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» وربما أشكل هذا على تقدير صحة حديث العرض سواء أفاد العلم بالأعيان أم لا، وإذا التزم صحة ذلك الحديث وأنه ﷺ لم يستحضر أعمال أولئك الأقوام حين عرفهم فقال ما قال وأن المراد من ـ إنك لا تدري ـ الخ مجرد تعظيم أمر ما أحدثوه بعد وفاته عليه الصلاة والسلام لا نفي العلم به يبقى من مات من أمته طائعاً أو عاصياً في زمان حياته ﷺ ولم يكن علم بحاله أصلاً كمن آمن ومات ولم يسمع ﷺ به فإن عرض الأعمال في حقه لم يجيء في خبر أصلاً، والقول بعدم وجود شخص كذلك بعيد، ومن زعم أنه ﷺ يعلم أعمال أمته ويعرفهم واحداً واحداً حياً وميتاً ولذا ساغت شهادته عليهم بالطاعة والمعصية يوم القيامة لم يأت بدليل، والآية لا تصلح دليلاً له إلا بهذا التفسير وهو خل البحث، على أن في حديث الإفك ما يدل على خلافه.

وزعم بعضهم أن معرفته ﷺ للطائع والعاصي من أمته لما أنه يحضر سؤالهم في القبر عنه عليه الصلاة والسلام كما يؤذن بذلك ما ورد أنه يقال للمقبور: ما تقول في هذا الذي بعث إليكم؟ واسم الإشارة يستدعي مشاراً إليه محسوساً مشاهداً وهو كما ترى، واختار بعض أن الشهادة بذلك على بعض الأمة وهم الذين كانوا موجودين في وقته ﷺ وعلم حالهم من طاعة وعصيان، والخطاب في ﴿عليكم﴾ إما خاص بهم أو عام على سبيل التغليب وفيه ما فيه

فتدبر، وقيل على في ﴿عليكم﴾ بمعنى اللام كما في قوله تعالى: ﴿وما ذبح على النصب﴾ [المائدة: ٣] فالمعنى شهيداً لكم، والمراد بشهادته لهم تزكيته إياهم إذا شهدوا على الأمم ولا يخفى بعده، واللام متعلقة بسماكم على الوجهين في الضمير وهي للعاقبة على ما قيل، وقال الخفاجي: لا مانع من كونها للتعليل فإن تسمية الله تعالى أو إبراهيم عليه السلام لهم بالمسلمين حكم بإسلامهم وعدالتهم وهو سبب لقبول شهادة الرسول عليه الصلاة والسلام الداخل فيهم دخولاً أولياً وقبول شهادتهم على الأمم وفيه نوع خفاء.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي فتقربوا إليه تعالى لما خصكم بهذا الفضل والشرف بأنواع الطاعات، وتخصيص هذين الأمرين بالذكر لانافتهما وفضلهما ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي ثقوا به تعالى في جميع أموركم ﴿هُوَ مَوْلاَكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو إذ لا مثيل له تعالى في الولاية والنصرة فإن من تولاه لم يضع ومن نصره لم يخذل بل لا ولي ولا ناصر في الحقيقة سواه عز وجل، وفي هذا إشارة إلى أن قصارى الكمال الاعتصام بالله تعالى وتحقيق مقام العبودية وهو وراء التسمية والاجتباء، وجوز أن يكون ﴿هو مولاكم﴾ تتمياً للاجتباء وليس بذاك هذا.

ومن باب الإشارة في الآيات ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ كيد عدوهم من الشيطان والنفس ﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ ويدخل في ذلك الشيطان والنفس، وصدق الوصفين عليهما ظاهر جداً بل لا خوان ولا كفور مثلهما ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة﴾ الخ فيه إشارة إلى حال أهل التمكين وأنهم مهديون هادون فلا شطح عندهم ولا يضل أحد بكلماتهم ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ قيل: في القرية الظالمة إشارة إلى القلب الغافل عن الله تعالى، وفي البئر المعطلة إشارة إلى الذهن الذي لم يستخرج منه الأفكار الصافية، وفي القصر المشيد إشارة إلى البدن المشتمل على حجرات القوى.

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ فيه إشارة إلى سوء حال المحجوبين المنكرين فإن قلوبهم عمي عن رؤية أنوار أهل الله تعالى فإن لهم أنواراً لا ترى إلا بعين القلب وبهذه العين تدرك حقائق الملك ودقائق الملكوت، وفي الحديث «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ قد تقدم الكلام في اليوم وانقسامه فتذكر ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي ستر عن الأغيار من أن يقفوا على حقيقتهم كما يشير ما يروونه من الحديث القدسي «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم أحد غيري» ﴿ورزق كريم﴾ وهو العلم اللدني الذي به غذاء الأرواح.

وقال بعضهم: رزق القلوب حلاوة العرفان ورزق الأسرار ومشاهدة الجمال ورزق الأرواح مكاشفة الجلال وإلى هذا الرزق يشير عليه الصلاة والسلام بقوله: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» والإشارة في قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ الآيات على قول من زعم صحة حديث الغرانيق إلى أنه ينبغي أن يكون العبد فناء في إرادة مولاه عز وجل وإلا ابتلى بتلبيس الشيطان ليتأدب ولا يبقى ذلك التلبيس لمنافاته الحكمة ﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾ عن أوطان الطبيعة في طلب الحقيقة ﴿ثم قتلوا﴾ بسيف الصدق والرياضة ﴿أو ماتوا﴾ بالجذبة عن أوصاف البشرية ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ هو رزق دوام الوصلة كما قيل: أو هو كالرزق الكريم ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله﴾ فيه إشارة إلى نصر السالك

الذي عاقب نفسه بالمجاهدة بعد أن عاقبته بالمخالفة ثم ظلمته باستيلاء صفاتها **﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾** أخذ الصوفية منه ترك الجدال مع المنكرين.

وذكر بعضهم أن الجدال معهم عبث كالجدال مع العنين في لذة الجماع **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾** الآية فيه إشارة إلى ذم المتصوفة الذين إذا سمعوا الآيات الرادة عليهم ظهر عليهم التجهم والبسور وهم في زماننا كثيرون فإنا لله وإنا إليه راجعون، وفي قوله تعالى: **﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً﴾** إلخ إشارة إلى ذم الغالين في أولياء الله تعالى حيث يستغيثون بهم في الشدة غافلين عن الله تعالى وينذرون لهم النذور والعقلاء منهم يقولون: إنهم وسائلنا إلى الله تعالى وإنما ننذر لله عز وجل ونجعل ثوابه للولي، ولا يخفى أنهم في دعواهم الأولى أشبه الناس بعبدة الأصنام القائلين إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ودعواهم الثانية لا بأس بها لو لم يطلبوا منهم ذلك شفاء مريضهم أورد غائبهم أو نحو ذلك، والظاهر من حالهم الطلب، ويرشد إلى ذلك أنه لو قيل: أنذروا لله تعالى واجعلوا ثوابه لوالديكم فإنهم أحوج من أولئك الأولياء لم يفعلوا، ورأيت كثيراً منهم يسجد على أعتاب حجر قبور الأولياء ومنهم من يثبت التصرف لهم جميعاً في قبورهم لكنهم متفاوتون فيه حسب تفاوت مراتبهم، والعلماء منهم يحصرون التصرف في القبور في أربعة أو خمسة وإذا طولبوا بالدليل قالوا: ثبت ذلك بالكشف قاتلهم الله تعالى ما أجهلهم وأكثر افترائهم، ومنهم من يزعم أنهم يخرجون من القبور ويتشكلون بأشكال مختلفة، وعلماؤهم يقولون: إنما تظهر أرواحهم متشكلة وتطوف حيث شاءت وربما تشكلت بصورة أسد أو غزال أو نحوه وكل ذلك باطل لا أصل له في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة، وقد أفسد هؤلاء على الناس دينهم وصاروا ضحكة لأهل الأديان المنسوخة في اليهود والنصارى، وكذا لأهل النحل والدهرية، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ شامل لجميع أنواع المجاهدة، ومنها جهاد النفس وهو بتزكيتها بأداء الحقوق وترك الحظوظ، وجهاد القلب بتصفيته وقطع تعلقه عن الكونين، وجهاد الروح بإفناء الوجود، وقد قيل:

وجـودك ذنـب لا يـقـاس بـه ذنـب.

﴿واعتصموا بالله﴾ تمسكوا به جل وعلا في جميع أحوالكم **﴿هو مولاكم﴾** على الحقيقة **﴿فنعم المولى﴾** في إفناء وجودكم **﴿ونعم النصير﴾** في إبقائكم، وما أعظم هذه الخاتمة لقوم يعقلون وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تم والحمد لله الجزء السابع عشر ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر وأوله «سورة المؤمنين».

(٢٣) سورة المؤمنون مكية
وآياتها ثماني عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ
هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾

إعلم أنه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعاً لصفات سبع ، وقبل الخوض فى شرح تلك الصفات لابد من بحثين :

﴿ البحث الأول ﴾ أن (قد) نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولما تنفيه ولاشك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة ، وهى الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ البحث الثانى ﴾ الفلاح الظفر بالمراد وقيل البقاء فى الخير ، وأفلح دخل فى الفلاح كأبشر دخل فى البشارة ، ويقال أفلحه صيره إلى الفلاح ، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول ، وعنه أفلحوا على لغة أكلونى البراغيث أو على الإبهام والتفسير .

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (المؤمنون) وقد تقدم القول فى الإيمان فى سورة البقرة .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) واختلفوا فى الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الإلتفات ، ومنهم من جمع بين الأمرين وهو الأولى . فالخاشع فى صلاته لابد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ، ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شىء سوى التعظيم ، ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده ، ومن التروك أن لا يلتفت يميناً ولا شمالا ، ولكن الخشوع الذى يرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح فان ما يتعلق بالقلب لا يرى ، قال : الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم إلى السماء فى صلاتهم ، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لايجاوز بصره مصلاه ، فان قيل فهل تقولون إن ذلك واجب فى الصلاة ؟ قلنا إنه عندنا واجب ويدل عليه أمور : (أحدها) قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) والتدبر لايتصور بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قوله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) معناه قف على عجائبه ومعانيه (وثانيها) قوله تعالى (وأقم الصلاة لذكرى) وظاهر الأمر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره (وثالثها) قوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) وظاهر النهى للتحريم (ورابعها) قوله (حتى تعلموا ما تقولون) تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق المهتم بالدنيا (وخامسها) قوله عليه السلام « إنما الخشوع لمن تمكن وتواضع » وكلمة إنما للحصر ، وقوله عليه السلام « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » وصلاة الغافل لاتمنع من الفحشاء ، وقال عليه السلام « كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب » وما أراد به إلا الغافل ، وقال أيضاً « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل » (وسادسها) قال الغزالى رحمه الله : المصلى يناجى ربه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ، وبيانه أن الإنسان إذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه ، وهو كسر الحرص واغناء الفقير ، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى التى هى عدوة الله تعالى . فلا يبعد أن يحصل منه مقصوده مع الغفلة ، وكذا الحج أفعال شاقة ، وفيه من المجاهدة مايحصل به الإبتلاء سواء كان القلب حاضراً أو لم يكن . أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، أما الذكر فانه مناجاة مع الله تعالى . فإما أن يكون المقصود منه كونه مناجاة ، أو المقصود مجرد الحروف والأصوات ،

www.besturdubooks.wordpress.com

ولاشك فى فساد هذا القسم فان تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح .فثبت أن المقصود منه المناجاة وذلك لا يتحقق إلا إذا كان اللسان معبراً عما فى القلب من التضرعات فأى سؤال فى قوله (إهدنا الصراط المستقيم) وكان القلب غافلا عنه؟ بل أقول لو حلف إنسان، وقال: والله لأشكرن فلاناً وأثنى عليه وأسأله حاجة. ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى اليوم لم يبر فى يمينه ولو جرى على لسانه فى ظلمة الليل وذلك الانسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً فى يمينه ، ولا يكون كلامه خطاباً معه ما لم يكن حاضراً بقلبه ، ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر فى بياض النهار إلا أن المتكلم غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب عليه عند نطقه لم يصر باراً فى يمينه ، ولا شك أن المقصود من القراءة الأذكار والحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى ، فاذا كان القلب محجوباً بحجاب الغفلة وكان غافلا عن جلال الله وكبريائه ، ثم إن لسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد ذلك عن القبول . وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم . ولو جاز أن يكون تعظيما لله تعالى مع أنه غافل عنه ، لجاز أن يكون تعظيما للصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه ، ولأنه إذا لم يحصل التعظيم لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس ، وليس فيها من المشقة ما يصير لأجله عماداً للدين ، وفاصلا بين الكفر والإيمان ، ويقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة ، ويجب القتل بسببه على الخصوص ، وبالجملة فكل عاقل يقطع بأن مشاهدة الخواص العظيمة ليس أعمالها الظاهرة إلا أن ينضاف إليها مقصود هذه المناجاة ، فدلت هذه الاعتبارات على أن الصلاة لابد فيها من الحضور (وسابعها) أن الفقهاء اختلفوا فيما ينويه بالسلام عند الجماعة والانفراد ، هل ينوى الحضور أو الغيبة والحضور معاً . فاذا احتيج إلى التدبر فى معنى السلام الذى هو آخر الصلاة فلأن يحتاج إلى التدبر فى معنى التكبير والتسبيح التى هى الأشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الأولى ، واحتج المخالف بأن اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجتماع الفقهاء فلا يلتفت إليه (والجواب) من وجوه (أحدها) أن الحضور عندنا ليس شرطاً للاجزاء ، بل شرط للقبول ، والمراد من الإجزاء أن لا يجب القضاء ، والمراد من القبول حكم الثواب . والفقهاء إنما يبحثون عن حكم الإجزاء لا عن حكم الثواب ، وغرضنا فى هذا المقام هذا ، ومثاله فى الشاهد من استعار منك ثوباً ثم رده على الوجه الأحسن ، فقد خرج عن العهدة واستحق المدح ، ومن رماه إليك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة، ولكنه استحق الذم . كذا من عظم الله تعالى حال أدائه العبادة صار مقيما للفرض مستحقاً للثواب ، ومن استهان بها صار مقيما للفرض ظاهراً لكنه استحق الذم (وثانيها) أنا نمنع هذا الإجماع ، أما المتكلمون فقد اتفقوا على أنه لا بد من الحضور والخشوع ، واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة وللصنم كفر ، وكل واحد منهما يماثل الآخر فى ذاته ولوازمه ، فلا بد من أمر لأجله صار السجود فى إحدى الصورتين طاعة ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وفى الأخرى معصية ، قالوا وما ذاك إلا القصد والإرادة ، والمراد من القصد إيقاع تلك الأفعال لداعية الامتثال ، وهذه الداعية لا يمكن حصولها إلا عند الحضور ، فلهذا اتفقوا على أنه لابد من الحضور ، أما الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث رحمه الله فى تنبيه الغافلين : أن تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وأن يقرأ بالتفكر . وأما الغزالى رحمه الله فإنه نقل عن أبى طالب المكى عن بشر الحافى أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته . وعن الحسن رحمه الله : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع . وعن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو فى الصلاة فلا صلاة له . وروى أيضاً مسنداً قال عليه السلام « إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها » وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل ، وادعى فيه الإجماع إذا ثبت هذا فنقول هب أن الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز ، أليس الأصوليون وأهل الورع ضيقوا الأمر فيها ، فهلا أخذت بالاحتياط فان بعض العلماء اختار الإمامة ، فقيل له فى ذلك فقال : أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبنى الشافعى ، وإن قرأتها مع الإمام أن يعاتبنى أبو حنيفة ، فاخترت الإمامة طلباً للخلاص عن هذا الاختلاف والله أعلم .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى (والذين هم عن اللغو معرضون) وفى اللغو أقوال (أحدها) أنه يدخل فيه كل ما كان حراماً أو مكروها أو كان مباحاً ، ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة (وثانيها) أنه عبارة عن كل ما كان حراماً فقط ، وهذا التفسير أخص من الأول (وثالثها) أنه عبارة عن المعصية فى القول والكلام خاصة ، وهذا أخص من الثانى (ورابعها) أنه المباح الذى لا حاجة إليه ، واحتج هذا القائل بقوله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) فكيف يحمل ذلك على المعاصى التى لابد فيها من المؤاخذة ، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمى لغواً بما أنه يلغى وكل ما يقتضى الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو ، فوجب أن يكون كل حرام لغواً ، ثم اللغو قد يكون كفراً لقوله (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) وقد يكون كذباً لقوله (لا تسمع فيها لاغية) وقوله (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما) ثم إنه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو والإعراض عنه ، هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه ، وعلى هذا الوجه قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع فى الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس الذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والذين هم للزكاة فاعلون) وفى الزكاة قولان (أحدهما) قول أبى مسلم : أن فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضى ، كقوله (قد أفلح من تزكى) وقوله (فلا تزكوا أنفسكم) ومن جملته ما يخرج من حق المال ، وإنما سمى بذلك لأنها تطهر من الذنوب لقوله

www.besturdubooks.wordpress.com

تعالى (تطهرهم وتزكيهم بها) . (والثانى) وهو قول الأكثرين أنه الحق الواجب فى الأموال خاصة وهذا هو الأقرب . لأن هذه اللفظة قد اختصت فى الشرع بهذا المعنى ، فان قيل إنه لا يقال فى الكلام الفصيح إنه فعل الزكاة ، قلنا قال صاحب الكشاف : الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى ، فالعين القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير ، والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو الذى أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره ، لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل . ويقال لمحدثه فاعل ، يقال للضارب فاعل الضرب ، وللقاتل فاعل القتل ، وللمزكى فاعل الزكاة ، وعلى هذا الكلام كله يجوز أن يراد بالزكاة العين ، ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء. فان قيل إن الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة ، فلم فصل ههنا بينهما بقوله (والذين هم عن اللغو معرضون) ؟ قلنا لأن الإعراض عن اللغو من متممات الصلاة .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أوما ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) وفيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول) لم لم يقل إلا عن أزواجهم (الجواب) قال الفراء معناه إلا من أزواجهم وذكر صاحب الكشاف فيه ثلاثة أوجه (أحدها) أنه فى موضع الحال أى إلا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك كان فلان على فلانة ، ونظيره كان زياد على البصرة أى والياً عليها ، ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشاً . والمعنى أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم (وثانيها) أنه متعلق بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون إلا على أزواجهم أى يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه وهو قول الزجاج (وثالثها) أن تجعله صلة لحافظين .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هلا قيل من ملكت (الجواب) لأنه اجتمع فى السرية وصفان (أحدهما) الأنوثة وهى مظنة نقصان العقل والآخر كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع ، فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء .

﴿ السؤال الثالث ﴾ هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما يروى عن القاسم بن محمد (الجواب) نعم وتقريره أنها ليست زوجة له فوجب أن لاتحل له ، وإنما قلنا إنها ليست زوجة له لأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى (ولكم نصف ماترك أزواجكم) وإذا ثبت أنها ليست بزوجة له وجب أن لا تحل له لقوله تعالى (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) وهو أعلم .

﴿ السؤال الرابع ﴾ أليس لا يحل له فى الزوجة وملك اليمين الاستمتاع فى أحوال كحال الحيض وحال العدة وفى الأمة حال تزوجها من الغير وحال عدتها ، وكذا الغلام داخل فى ظاهر قوله تعالى (أو ماملكت أيمانهم) (والجواب) من وجهين (أحدهما) أن مذهب أبى حنيفة

www.besturdubooks.wordpress.com

رحمه الله أن الاستثناء من النفي لايكون إثباتاً واحتج عليه بقوله عليه السلام «لاصلاة إلا بطهور ولا نكاح إلا بولي» فان ذلك لايقتضي حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح بمجرد حصول الولي . وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم) معناه أنه يجب حفظ الفروج عن الكل إلا في هاتين الصورتين فاني ما ذكرت حكمهما لا بالنفي ولا بالاثبات (الثاني) أنا إن سلمنا أن الاستثناء من النفي إثبات ، فغايته أنه عام دخله التخصيص بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة .

أما قوله تعالى (فأولئك هم العادون) يعني الكاملون في العدوان المتناهون فيه .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) قرأ نافع وابن كثير (لأمانتهم) واعلم أنه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً ، ومنه قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقال (وتخونوا أماناتكم) وإنما تؤدى العيون دون المعاني فكان المؤتمن عليه الأمانة في نفسها والعهد ، ما عقده على نفسه فيما يقربه إلى ربه ويقع أيضاً على ما أمر الله تعالى به كقوله (الذين قالوا إن الله عهد إلينا) والراعي القائم على الشيء لحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية ، ويقال من راعي هذا الشيء ؟ أي متوليه . واعلم أن الأمانة تتناول كل ماتركه يكون داخلا في الخيانة وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم) فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك ، لأنها إما أن تخفى أصلا كالصوم وغسل الجنابة وإسباغ الوضوء أو تخفى كيفية إتيانه بها وقال عليه السلام «أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته» وعن ابن مسعود رضي الله عنه «أول ماتفقدون من دينكم الأمانة وآخر ماتفقدون الصلاة» ومن جملة ذلك ما يلتزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بهما . ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها العبيد والنساء لأنه مؤتمن في ذلك ، ومن ذلك أن يراعي أمانته فلا يفسدها بغصب أو غيره ، وأما العهد فانه دخل فيه العقود والايمان والنذور ، فبين سبحانه أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبر في حصول الفلاح .

﴿ الصفة السابعة ﴾ قوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) وإنما أعاد تعالى ذكرها لأن الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين ، فان الخشوع صفة للمصلي في حال الأداء لصلاته والمحافظة إنما تصح حال مالم يؤدها بكمالها . بل المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على أركانها وإتمامها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت ، ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الأمور قال (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم سمي ما يجدونه من الثواب والجنة بالميراث ؟ مع أنه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم في قوله (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (الجواب) من

www.besturdubooks.wordpress.com

وجوه (الأول) ماروى عن الرسول ﷺ وهو أبين على ما يقال فيه وهو : أنه لامكلف إلا أعد الله له فى النار مايستحقه إن عصى وفى الجنة ما يستحقه إن أطاع وجعل لذلك علامة . فاذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صار منزل من لم يؤمن كالمنقول إلى المؤمنين وصار مصيرهم إلى النار الذى لابد معه من حرمان الثواب كموتهم ، فسمى ذلك ميراثاً لهذا الوجه . وقد قال الفقهاء إنه لا فرق بين ما ملكه الميت وبين ما يقدر فيه الملك فى أنه يورث عنه كذلك قالوا فى الدية التى تجب بالقتل إنها تورث مع أنه ماملكها على التحقيق وذلك يشهد بما ذكرنا ، فان قيل إنه تعالى وصف كل الذى يستحقونه إرثا وعلى ماقلتم يدخل فى الإرث ما كان يستحقه غيرهم لو أطاع . قلنا لا يمتنع انه تعالى جعل ماهو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع لأنه عند ذلك كان يزيد فى المنازل فاذا آمن هذا عدل بذلك إليه (وثانيها) أن انتقال الجنة إليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال إلى الوارث (وثالثها) أن الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام فاذا انتقلت إلى أولاده صار ذلك شبيهاً بالميراث .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع أنه تعالى ما تمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة (والجواب) أن قوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) يأتى على جميع الواجبات من الأفعال والتروك كما قدمنا والطهارات دخلت فى جملة المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أفيدل قوله تعالى (أولئك هم الوارثون) على أنه لايدخلها غيرهم ؟ (الجواب) أن قوله (هم الوارثون) يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به لأنه ثبت أن الجنة يدخلها الأطفال والمجانين والولدان والحور العين ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو ، لقوله تعالى (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ أفكل الجنة هو الفردوس ؟ (الجواب) الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل بلسان الروم ، وروى أبو موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الفردوس مقصورة الرحمن فيها الأنهار والأشجار » وروى أبو أمامة عنه عليه السلام أنه قال « سلوا الله الفردوس فانها أعلى الجنان ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش » .

﴿ السؤال الخامس ﴾ هل تدل الآية على أن هذه الصفات هى التى لها ولأجلها يكونون مؤمنين أم لا ؟ (الجواب) ادعى القاضى أن الأمر كذلك بناء على مذهبه أن الإيمان اسم شرعى موضوع لأداء كل الواجبات ، وعندنا أن الآية لا تدل على ذلك ، لأن قوله (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) مثل قد أفلح الناس الأذكياء العدول ، فان هذا لايدل على أن الزكاة والعدالة داخلان فى مسمى الناس فكذا ههنا .

﴿ السؤال السادس ﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام قال « لما خلق الله تعالى جنة عدن قال

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

لها تكلمى فقالت : قد أفلح المؤمنون » وقال كعب « خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده ، ثم قال لها تكلمى فقالت : قد أفلح المؤمنون » ، وروى أنه عليه السلام قال « إذا أحسن العبد الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حافظت على ، وشفعت لصاحبها . وإذا أضاعها قالت أضاعك الله كما ضيعتنى وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها » (الجواب) أما كلام الجنة فالمراد به أنها أعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها ، وهو كقوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) وأما أنه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولى خلقها لا أنه وكله إلى غيره ، وأما أن الصلاة تثنى على من قام بحقها فهو فى الجواز أبعد من كلام الجنة ، لأن الصلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها أن تتصور وتتكلم فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل للمنعم إن إحسانك إلى ينطق بالشكر .

﴿ السؤال السابع ﴾ هل تدل الآية على أن الفردوس مخلوقة ؟ (الجواب) قال القاضى دل قوله تعالى (أكلها دائم) على أنها غير مخلوقة فوجب تأويل هذه الآية ، كأنه تعالى قال إذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثاً للمؤمنين أو وإذا خلقها تقول على مثال ماتأولنا عليه قوله تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) وهذا ضعيف لأنه ليس إضمار ما ذكره فى هذه الآية أولى من أن يضمر فى قوله (أكلها دائم) ثم إن أكلها دائم ، يوم القيامة ، وإذا تعارض هذان الظاهران فنحن نتمسك فى أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى (أعدت للمتقين) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات فى الآية المتقدمة ، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق ، لاجرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ النوع الأول ﴾ الاستدلال بتقلب الانسان فى أدوار الخلقة وأكوان الفطرة وهى تسعة:
(المرتبة الأولى) قوله سبحانه وتعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) والسلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر، فُعالة وهو بناء يدل على القلة كالقُلامة والقُمامة، واختلف أهل التفسير فى الإنسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل: المراد منه ادم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين. ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الانسان الذى هو ولد آدم، والإنسان شامل لآدم عليه السلام ولولده، وقال آخرون: الإنسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام. والسلالة هى الأجزاء الطينية المبثوثة فى أعضائه التى لما اجتمعت وحصلت فى أوعية المنى صارت منياً، وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) وفيه وجه آخر، وهو أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهى إنما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك إنما يتولد من الأغذية، وهى إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهى إلى النباتية، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء فالإنسان بالحقيقة يكون متولداً من سلالة من طين، ثم إن تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منياً، وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه إلى التكلفات.
(المرتبة الثانية) قوله تعالى (ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) ومعنى جعل الانسان نطفة أنه خلق جوهر الانسان أولا طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة فى أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قراراً مكيناً لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر أو لمكانتها فى نفسها لأنها تمكنت من حيث هى وأحرزت.
(المرتبة الثالثة) قوله تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة) أى حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وهى الدم الجامد.
(المرتبة الرابعة) قوله تعالى (فخلقنا العلقة مضغة) أى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالغرفة وهى مقدار ما يغترف، وسمى التحويل خلقاً لأنه سبحانه يفنى بعض أعراضها ويخلق أعراضاً غيرها فسمى خلق الأعراض خلقاً لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.
(المرتبة الخامسة) قوله (فخلقنا المضغة عظاماً) أى صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر عظماً والمراد منه الجمع كقوله (والملك صفاً صفاً)،
(المرتبة السادسة) قوله تعالى (فكسونا العظام لحماً) وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها.
(المرتبة السابعة) قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقاً آخر) أى خلقاً مبايناً للخلق الأول مباينة

www.besturdubooks.wordpress.com

ما أبعدها حيث جعله حيواناً وكان جماداً ، وناطقاً وكان أبكم ، وسميعاً وكان أصم ، وبصيراً وكان أكمه ، وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ، ولا شرح الشارحين ، وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : هو تصريف الله إياه بعد الولادة فى أطواره فى زمن الطفولية وما بعدها إلى استواء الشباب ، وخلق الفهم والعقل وما بعده إلى أن يموت ، ودليل هذا القول أنه عقبه بقوله (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) وهذا المعنى مروى أيضاً عن ابن عباس وابن عمر ، وإنما قال (أنشأناه) لأنه جعل إنشاء الروح فيه ، وإتمام خلقه إنشاء له قالوا فى الآية دلالة على بطلان قول النظام فى أن الإنسان هو الروح لا البدن فانه سبحانه بين أن الإنسان هو المركب من هذه الصفات ، وفيها دلالة أيضاً على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون إن الإنسان شىء لا ينقسم ، وإنه ليس بجسم .

أما قوله (فتبارك الله) أى فتعالى الله فان البركة يرجع معناها إلى الإمتداد والزيادة ، وكل ما زاد على الشىء فقد علاه ، ويجوز أن يكون المعنى ، والبركات والخيرات كلها من الله تعالى ، وقيل أصله من البروك وهو الثبات . فكأنه قال والبقاء والدوام .والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء ، وقوله (أحسن الخالقين) أى أحسن المقدرين تقديراً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة لولا أن الله تعالى قد يكون خالقاً لفعله إذا قدره لما جاز القول بأنه أحسن الخالقين ، كما لو لم يكن فى عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، والخلق فى اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدراً لا على سهو وغفلة ، والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه ، قال الكعبي هذه الآية ، وإن دلت على أن العبد خالق إلا أن اسم الخالق لا يطلق على العبد إلا مع القيد كما أنه يجوز أن يقال رب الدار ، ولا يجوز أن يقال رب بلا إضافة ، ولا يقول العبد لسيده هو ربى ، ولا يقال إنما قال الله تعالى ذلك لأنه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بأنه يخلق من الطين كهيئة الطير لأنا نجيب عنه من وجهين : (أحدهما) أن ظاهر الآية يقتضي أنه سبحانه (أحسن الخالقين) الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح (الثانى) أنه إذا صح وصف عيسى بأنه يخلق صح وصف غيره من المصورين أيضاً بأنه يخلق ؟ وأجاب أصحابنا بأن هذه الآية معارضة بقول الله تعالى (الله خالق كل شىء) فوجب حمل هذه الآية على أنه (أحسن الخالقين) فى اعتقادكم وظنكم ، كقوله تعالى (وهو أهون عليه) أى هو أهون عليه فى اعتقادكم وظنكم (والجواب الثانى) هو أن الخالق هو المقدر لأن الخلق هو التقدير والآية تدل على أنه سبحانه أحسن المقدرين ، والتقدير يرجع معناه إلى الظن والحسبان ، وذلك فى حق الله سبحانه محال ، فتكون الآية من المتشابهات (والجواب الثالث) أن الآية تقتضى

www.besturdubooks.wordpress.com

كون العبد خالقاً بمعنى كونه مقدراً . لكن لم قلت بأنه خالق بمعنى كونه موجداً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة الآية تدل على أن كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب وإلا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقاً للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما ؟ (والجواب) من الناس من حمل الحسن على الإحكام والاتقان فى التركيب والتأليف . ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله تعالى كل الأشياء لأنه ليس فوقه أمر ونهى حتى يكون ذلك مانعاً له عن فعل شيء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله ﷺ فلما انتهى إلى قوله تعالى (خلقاً آخر) عجب من ذلك فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله ﷺ « اكتب فهكذا نزلت » فشك عبد الله وقال إن كان محمد صادقاً فيما يقول فانه يوحى إلى كما يوحى إليه ، وإن كان كاذباً فلا خير فى دينه فهرب إلى مكة فقيل إنه مات على الكفر ، وقيل إنه أسلم يوم الفتح ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله ﷺ هكذا نزلت ياعمر . وكان عمر يقول : وافقنى ربى فى أربع ، فى الصلاة خلف المقام ، وفى ضرب الحجاب على النسوة ، وقولى لهن : لتنتهن أو ليبدلنه الله خيراً منكن ، فنزل قوله تعالى (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن) والرابع قلت (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال هكذا نزلت . قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر ، وسبب الشقاوة لعبد الله كما قال تعالى (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) فان قيل فعلى كل الروايات قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن ، وذلك يقدح فى كونه معجزاً كما ظنه عبد الله (والجواب) هذا غير مستبعد إذا كان قدره القدر الذى لا يظهر فيه الاعجاز فسقطت شبهة عبد الله .

﴿ المرتبة الثامنة ﴾ قوله (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) قرأ ابن أبى عبلة وابن محيصن (لمائتون) والفرق بين الميت والمائت ، أن الميت كالحى صفة ثابتة ، وأما المائت فيدل على الحدوث تقول زيد ميت الآن ومائت غداً ، وكقولك يموت ونحوهما ضيق وضائق فى قوله (وضائق به صدرك) .

﴿ المرتبة التاسعة ﴾ قوله (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) فالله سبحانه جعل الإماتة التى هى إعدام الحياة والبعث الذى هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضاً على اقتدار عظيم بعد الانشاء والاختراع وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما الحكمة فى الموت ، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك فى الانعام أبلغ ؟ (والجواب) هذا كالمفسدة فى حق المكلفين لأنه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة فى الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك المنافع لا لأجل طاعة الله ، يبين ذلك أنه لو قيل لمن يصلى ويصوم إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة فى الحال ، فانه لا يأتى بذلك الفعل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

إلا لطلب الجنة ، فلا جرم أخره الله تعالى وبعده بالاماتة ثم الاعادة ليكون العبد عابداً لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هذه الآية تدل على نفى عذاب القبر لأنه قال (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ولم يذكر بين الأمرين الإحياء فى القبر والاماتة (والجواب) من وجهين : (الأول) أنه ليس فى ذكر الحياتين نفى الثالثة (والثانى) أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الانشاء والاماتة والاعادة ، والذى ترك ذكره فهو من جنس الاعادة .

﴿النوع الثانى﴾ من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات وهوقوله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) .

فقوله (سبع طرائق) أى سبع سموات وإنما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلا على نعل وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوباً فوق ثوب . هذا قول الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج هو كقوله (سبع سموات طباقا) وقال على ابن عيسى سميت بذلك لأنها طرائق للملائكة فى العروج والهبوط والطيران ، وقال آخرون لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه فى إنعامه علينا بذلك أنه تعالى جعلها موضعاً لأرزاقنا بانزال الماء منها ، وجعلها مقراً للملائكة ، ولأنها موضع الثواب ، ولأنها مكان إرسال الأنبياء ونزول الوحى .

أما قوله (وما كنا عن الخلق غافلين) ففيه وجوه (أحدها) ما كنا غافلين بل كنا للخلق حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة ، وهو كقوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) (وثانيها) إنما خلقناها فوقهم لننزل عليهم الأرزاق والبركات منها عن الحسن (وثالثها) أنا خلقنا هذه الأشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بين كمال العلم بقوله (وما كنا عن الخلق غافلين) يعنى عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر (ورابعها) وما كنا عن خلق السموات غافلين بل نحن لها حافظون لئلا تخرج عن التقدير الذى أردنا كونها عليه كقوله تعالى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) .

واعلم أن هذه الآية دالة على كثير من المسائل : (إحداها) أنها دالة على وجود الصانع فان انقلاب هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى تضاد الأولى مع إمكان بقائها على تلك الصفة يدل على أنه لابد من محول ومغير (وثانيتها) أنها تدل على فساد القول بالطبيعة فان شيئاً من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ولو قلت إنما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة افتقرت تلك الطبيعة إلى خالق وموجد (وثالثتها) تدل على أن المدبر قادر عالم لأن الموجب

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾

والجاهل لا يصدر عنه هذه الأفعال العجيبة (ورابعتها) تدل على أنه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات (وخامستها) تدل على جواز الحشر والنشر نظراً إلى صريح الآية ونظراً إلى أن الفاعل لما كان قادراً على كل الممكنات وعالماً بكل المعلومات وجب أن يكون قادراً على إعادة التركيب إلى تلك الأجزاء كما كانت (وسادستها) أن معرفة الله تعالى يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية وإلا لكان ذكر هذه الدلائل عبثاً.

﴿ النوع الثالث ﴾ الاستدلال بنزول الأمطار وكيفية تأثيراتها فى النبات.

قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾.

اعلم أن الماء فى نفسه نعمة وأنه مع ذلك سبب لحصول النعم فلا جرم ذكره الله تعالى أولا ثم ذكر مايحصل به من النعم ثانياً.

أما قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) فقد اختلفوا فى السماء فقال الأكثرون من المفسرين إنه تعالى ينزل الماء فى الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله (وفى السماء رزقكم وما توعدون) وقال بعضهم المراد السحاب وسماه سماء لعلوه، والمعنى أن الله تعالى أصعد الأجزاء المائية من قعر الأرض إلى البحار ومن البحار إلى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد، ثم إن تلك الذرات تأتلف وتتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة إليه، ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها فى قعر الأرض ولا بماء البحار لملوحته ولأنه لا حيلة فى إجراء مياه البحار على وجه الأرض لأن البحار هى الغاية فى العمق، واعلم أن هذه الوجوه إنما يتمحلها من ينكر الفاعل المختار فأما من أقربه فلا حاجة به إلى شيء منها.

أما قوله تعالى (بقدر) فمعناه بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة فى الزرع والغرس والشرب، أو بمقدار ماعلمناه من حاجاتهم ومصالحهم.

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله (فأسكناه فى الأرض) قيل معناه جعلناه ثابتاً فى الأرض ، قال ابن عباس رضى الله عنهما أنزل الله تعالى من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل ، ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع أيضاً القرآن .

أما قوله (وإنا على ذهاب به لقادرون) أى كما قدرنا على إنزاله فكذلك نقدر على رفعه وإزالته ، قال صاحب الكشاف وقوله (على ذهاب به) من أوقع النكرات وأحرها للفصل . والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه . وفيه إيذان بكمال اقتدار المذهب وأنه لا يعسر عليه شيء وهو أبلغ فى الإيعاد من قوله (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين) ثم إنه سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) وإنما ذكر تعالى النخيل والأعناب لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام ومقام الأدام ومقام الفواكه رطباً ويابساً وقوله (لكم فيها فواكه كثيرة) أى فى الجنات ، فكما أن فيها النخيل والأعناب ففيها الفواكه الكثيرة وقوله (ومنها تأكلون) قال صاحب الكشاف يجوز أن يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعملها . يعنون أنها طعمته وجهته التى منها يحصل رزقه ، كأنه قال وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها تتعيشون .

أما قوله تعالى (وشجرة تخرج من طور سيناء) فهو عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أى ومما أنشأنا لكم شجرة ، قال صاحب الكشاف طور سيناء وطورسينين لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون ، وإما أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه كامرىء القيس وبعلبك فيمن أضاف ، فمن كسر سين سيناء فقدمنع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث لأنها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ، ومن فتح لم يصرفه لأن ألفه للتأنيث كصحراء ، وقيل هوجبل فلسطين وقيل بين مصر وأيلة ،ومنه نودى موسى عليه السلام وقرأ الأعمش سينا على القصر .

أما قوله تعالى (تنبت بالدهن) فهو فى موضع الحال أى تنبت وفيها الدهن ، كما يقال ركب الأمير بجنده ، أى ومعه الجند وقرىء تنبت وفيه وجهان (أحدهما) أن أنبت بمعنى نبت قال زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل

(والثانى) أن مفعوله محذوف ، أى تنبت زيتونها وفيه الزيت ، قال المفسرون : وإنما أضافها الله تعالى إلى هذا الجبل لأن منها تشعبت فى البلاد وانتشرت ولأن معظمها هناك . **أما قوله :**

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

(وصبغ للآكلين) فعطف على الدهن ، أى إدام للآكلين ، والصبغ والصباغ ما يصطبغ به ، أى يصبغ به الخبز ، وجملة القول أنه سبحانه و تعالى نبه على إحسانه بهذه الشجرة ، لأنها تخرج هذه الثمرة التى يكثر بها الانتفاع وهى طرية ومدخرة، وبأن تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به .

﴿ النوع الرابع ﴾ الاستدلال بأحوال الحيوانات .

قوله تعالى : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ، وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾

إعلم أنه سبحانه و تعالى ذكر أن فيها عبرة مجملا ثم أردفه بالتفصيل من أربعة أوجه (أحدها) قوله (نسقيكم مما فى بطونها) والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بألبانها ، ووجه الاعتبار فيه أنها تجتمع فى الضروع وتتخلص من بين الفرث والدم بإذن الله تعالى ، فتستحيل إلى طهارة وإلى لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء ، فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته كان ذلك معدوداً فى النعم الدينية ومن انتفع به فهو فى نعمة الدنيا ، وأيضاً فهذه الألبان التى تخرج من بطونها إلى ضروعها تجدها شراباً طيباً ، وإذا ذبحتها لم تجد لها أثراً ، وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى . قال صاحب الكشاف وقرئ تسقيكم بتاء مفتوحة ، أى تسقيكم الأنعام (وثانيها) قوله (ولكم فيها منافع كثيرة) وذلك بيعها والانتفاع بأثمانها وما يجرى مجرى ذلك (وثالثها) قوله (ومنها تأكلون) يعنى كما تنتفعون بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضاً بالأكل (ورابعها) قوله (وعليها وعلى الفلك تحملون) لأن وجه الانتفاع بالإبل فى المحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك فى البحر ، ولذلك جمع بين الوجهين فى إنعامه لكى يشكر على ذلك ويستدل به ، واعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة فى سائر السور وهى ههنا .

﴿ القصة الأولى قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا

www.besturdubooks.wordpress.com

يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

تتقون ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾

قال قوم : إن نوحاً كان اسمه يشكر ، ثم سمى نوحاً لوجوه (أحدها) لكثرة ماناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك ، فأهلكهم بالطوفان فندم على ذلك (وثانيها) لمراجعة ربه فى شأن ابنه (وثالثها) أنه مر بكلب مجذوم ، فقال له إخسأ ياقبيح ، فعوتب على ذلك ، فقال الله له : أعبتنى إذ خلقته ، أم عبت الكلب . وهذه الوجوه مشكلة لما ثبت أن الأعلام لا تفيد صفة فى المسمى .

أما قوله (اعبدوا الله) فالمعنى أنه سبحانه أرسله بالدعاء إلى عبادة الله تعالى وحده ، ولا يجوز أن يدعوهم إلى ذلك إلا وقد دعاهم إلى معرفته أولا ، لأن عبادة من لا يكون معلوماً غير جائزة وإنما يجوز ويجب بعد المعرفة .

أما قوله (مالكم من إله غيره) فالمراد أن عبادة غير الله لا تجوز إذ لا إله سواه . ومن حق العبادة أن تحسن لمن أنعم بالخلق والإحياء وما بعدهما ، فإذا لم يصح ذلك إلا منه تعالى فكيف يعبد مالا يضر ولا ينفع ؟ وقرىء غيره بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ ، ثم إنه لما لم ينفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم بقوله (أفلا تتقون) لأن ذلك زجر ووعيد باتقاء العقوبة لينصرفوا عما هم عليه . ثم إنه سبحانه حكى عنهم شبههم فى إنكار نبوة نوح عليه السلام .

﴿ الشبهة الأولى ﴾ قولهم (ماهذا إلا بشر مثلكم) وهذه الشبهة تحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال إنه لما كان مساوياً لسائر الناس فى القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولا لله ، لأن الرسول لابد وأن يكون عظيما عند الله تعالى وحبيباً له ، والحبيب لابد وأن يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعزة ، فلما فقدت هذه الأشياء علمنا انتفاء الرسالة (والثانى) أن يقال هذا الإنسان مشارك لكم فى جميع الأمور ، ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجد إليهما سبيلا إلا بادعاء النبوة ، فصار ذلك شبهة لهم فى القدح فى نبوته ، فهذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى خبراً عنهم (يريد أن يتفضل عليكم) أى يريد أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض) .

﴿ الشبهة الثانية ﴾ قولهم (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) وشرحه أن الله تعالى لو شاء إرشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق الذى يكون أشد إفضاء إلى المقصود ، ومعلوم أن بعثة الملائكة أشد

www.besturdubooks.wordpress.com

إفضاء إلى هذا المقصود من بعثة البشر ، لأن الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم ، فالخلق ينقادون إليهم ، ولا يشكون فى رسالتهم ، فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أرسل رسولا البتة .

﴿ الشبهة الثالثة ﴾ قولهم (ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) وقوله بهذا إشارة إلى نوح عليه السلام ، أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله تعالى ، أى ماسمعنا بمثل هذا الكلام ، أو بمثل هذا الذى يدعى وهو بشر أنه رسول الله . وشرح هذه الشبهة أنهم كانوا أقواماً لا يعولون فى شىء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء ، فلما لم يجدوا فى نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها . قال القاضى : يحتمل أن يريدوا بذلك كونه رسولا مبعوثاً ، لأنه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة ، ويحتمل أن يريدوا بذلك دعاءهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، لأن آباءهم كانوا على عبادة الأوثان .

﴿ الشبهة الرابعة ﴾ قولهم (إن هو إلا رجل به جنة) والجنة : الجنون أو الجن ، فإن جهال العوام يقولون فى المجنون زال عقله بعمل الجن ، وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم ، فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام إنه مجنون ، ومن كان مجنوناً فكيف يجوز أن يكون رسولا .

﴿ الشبهة الخامسة ﴾ قولهم (فتربصوا به حتى حين) وهذا يحتمل أن يكون متعلقاً بما قبله أى أنه مجنون فاصبروا إلى زمان حتى يظهر عاقبة أمره فإن أفاق وإلا قتلتموه ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً وهو أن يقولوا لقومهم اصبروا فانه إن كان نبياً حقاً فالله ينصره ويقوى أمره فنحن حينئذ نتبعه وإن كان كاذباً فالله يخذله ويبطل أمره ، فحينئذ نستريح منه ، فهذه مجموع الشبه التى حكاها الله تعالى عنهم ، واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها ، وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولا إلا لأنه من جنس الملك وإنما يصير كذلك بأن يتميز من غيره بالمعجزات فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولا ، بل جعل الرسول من جملة البشر أولى لما مر بيانه فى السور المتقدمة وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة ، وأما قولهم (يريد أن يتفضل عليكم) فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله حتى يلزمهم الإنقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول ، وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والإنقياد فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وأما قولهم ماسمعنا بهذا فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشىء وهو فى غاية السقوط لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشىء فعدمه من أين يدل على عدمه ، وأما قولهم به جنة ، فقد كذبوا لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله ، وأما قولهم : فتربصوا به ، فضعيف لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوته وهى المعجزة وجب عليهم قبول قوله فى الحال ، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته لأن الدولة لا تدل على الحقية ، وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا
فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ
عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ
أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُل
رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا
لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر ، ولما كانت هذه الأجوبة فى نهاية الظهور لاجرم تركها الله سبحانه.

قوله تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ، فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ، فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ، وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾

أما قوله (رب انصرنى بما كذبون) ففيه وجوه (أحدها) أن فى نصره إهلاكهم فكأنه قال أهلكهم بسبب تكذيبهم إياى (وثانيها) انصرنى بدل ما كذبونى كما تقول هذا بذاك أى بدل ذاك ومكانه ، والمعنى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم (وثالثها) انصرنى بإنجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ولما أجاب الله دعاءه قال (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا) أى بحفظنا وكأنما كأن معه من الله حافظاً يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله ، ومنه قولهم : عليه من الله عين كالئة ، وهذه الآية دالة على فساد قول المشبهة فى تمسكهم بقوله عليه السلام « إن الله خلق آدم على صورته » لأن ثبوت الأعين يمنع من ذلك ، واختلفوا فى أنه عليه السلام كيف صنع الفلك فقيل إنه كان نجاراً وكان عالماً بكيفية اتخاذها ، وقيل إن جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها ، وهذا هو الأقرب لقوله (بأعيننا ووحينا).

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله (فاذا جاء أمرنا) فاعلم أن لفظ الأمر كما هو حقيقة فى طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء ، فكذا هو حقيقة فى الشأن العظيم ، والدليل عليه أنك إذا قلت هذا أمر بقى الذهن يتردد بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وتمام تقريره مذكور فى كتاب المحصول فى الأصول ، ومن الناس من قال : إنما سماه أمراً على سبيل التعظيم والتفخيم ، مثل قوله (ثم قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) .

أما قوله (وفار التنور) فاختلفوا فى التنور ، فالأكثرون على أنه هو التنور المعروف . روى أنه قيل لنوح إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة . فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب ، وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار إلى نوح ، واختلف فى مكانه ، فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة ، وكان نوح عليه السلام عمل السفينة فى وسط المسجد ، وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند (القول الثانى) أن التنور وجه الأرض عن ابن عباس رضى الله عنهما (الثالث) أنه أشرف موضع فى الأرض أى أعلاه عن قتادة (والرابع) (وفار التنور) أى طلع الفجر عن على عليه السلام ، وقيل إن فوران التنور كان عند طلوع الفجر (والخامس) هو مثل قولهم حمى الوطيس (والسادس) أنه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء إليه عن الحسن رحمه الله والقول الأول هو الصواب لأن العدول عن الحقيقة إلى المجاز من غير دليل لا يجوز ، واعلم أن الله تعالى جعل فوران التنور علامة لنوح عليه السلام حتى يركب عنده السفينة طلباً لنجاته ونجاة من آمن به من قومه .

أما قوله (فاسلك فيها) أى أدخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلك غيره وأسلكه (من كل زوجين اثنين) أى من كل زوجين من الحيوان الذي يحضره فى الوقت اثنين الذكر والأنثى لكى لا ينقطع نسل ذلك الحيوان ، وكل واحد منهما زوج لا كما تقوله العامة من أن الزوج هو الإثنان ، روى أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض ، وقرئ من كل بالتنوين ، أى من كل أمة زوجين ، واثنين تأكيد وزيادة بيان .

أما قوله (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) أى وأدخل أهلك ولفظ على إنما يستعمل فى المضار . قال تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) واعلم أن هذه الآية تدل على أمرين (أحدهما) أنه سبحانه أمره بإدخال سائر من آمن به وإن لم يكن من أهله ، وقيل المراد بأهله من آمن دون من يتصل به نسباً أو سبباً وهذا ضعيف . وإلا لما جاز استثناء قوله (إلا من سبق عليه القول) (والثانى) أنه قال (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) يعنى كنعان فإنه سبحانه لما أخبر بإهلاكهم وجب أن ينهاه عن أن يسأله فى بعضهم لأنه إن أجابه إليه ، فقد صير خبره الصدق كذباً ، وإن لم يجبه إليه كان ذلك تحقيراً لشأن نوح عليه السلام فلذلك قال (إنهم مغرقون) أى الغرق نازل بهم لا محالة .

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك) قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان فى السفينة ثمانون إنساناً ، نوح وامرأته سوى التى غرقت ، وثلاثة بنين : سام وحام ويافث ، وثلاث نسوة لهم ، واثنان وسبعون إنساناً فكل الخلائق نسل من كان فى السفينة .

أما قوله (فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما قال (فقل) ولم يقل فقولوا لأن نوحاً كان نبياً لهم وإماماً لهم ، فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية ، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها إلا ملك أو نبى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال قتادة علمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة (بسم الله مجراها ومرساها) وعند ركوب الدابة (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) وعند النزول (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) قال الأنصارى : وقال لنبينا (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) وقال (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان) كأنه سبحانه أمرهم أن لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به فى جميع أحوالهم غافلين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه مبالغة عظيمة فى تقبيح صورتهم حيث أتبع النهى عن الدعاء لهم الأمر بالحمد على إهلاكهم والنجاة منهم كقوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق لأنه سبحانه كان عرفه أنه بذلك ينجيه ومن تبعه ، فيصح أن يقول (نجانا) من حيث جعله آمناً بهذا الفعل ووصف قومه بأنهم الظالمون لأن الكفر منهم ظلم لأنفسهم لقوله (إن الشرك لظلم عظيم) ثم إنه سبحانه بعد أن أمره بالحمد على إهلاكهم أمره بأن يدعو لنفسه فقال (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا) وقرىء (منزلا) بمعنى إنزالا أو موضع إنزال كقوله ليدخلنهم مدخلا يرضونه . واختلفوا فى المنزل على قولين : (أحدهما) أن المراد هو نفس السفينة فمن ركبها خلصته مما جرى على قومه من الهلاك (والثانى) أن المراد أن ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الأرض منزلا مباركا والأول أقرب لأنه أمر بهذا الدعاء فى حال استقراره فى السفينة ، فيجب أن يكون المنزل ذلك دون غيره . ثم بين سبحانه بقوله (وأنت خير المنزلين) أن الإنزال فى الأمكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى وإن كان هو سبحانه خير من أنزل لأنه يحفظ من أنزله فى سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة ، ثم بين سبحانه أن فيما ذكره من قصة نوح وقومه لآيات ودلالات وعبراً فى الدعاء إلى الإيمان والزجر عن الكفر فان إظهار تلك المياه العظيمة ثم الاذهاب بها لا يقدر عليه إلا القادر على كل المقدورات ، وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح عليه السلام يدل على المعجز العظيم وإفناء الكفار وبقاء الأرض لأهل الدين والطاعة من أعظم أنواع العبر .

أما قوله (وإن كنا لمبتلين) فيمكن أن يكون المراد ، وإن كنا لمبتلين فيما قبل ، ويحتمل أن

www.besturdubooks.wordpress.com

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا
تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا
نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ
﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾

يكون وإن كنا لمبتلين فيما بعد ، وهذا هو الأقرب لأنه كالحقيقة فى الاستقبال ، وإذا حمل على ذلك احتمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون المراد المكلفين فى المستقبل أى فيجب فيمن كلفناه أن يعتبر بهذا الذى ذكرناه (وثانيها) أن يكون المراد لمعاقبين لمن سلك فى تكذيب الأنبياء مثل طريقة قوم نوح (وثالثها) أن يكون المراد كما نعاقب من كذب بالغرق وغيره فقد نمتحن بالغرق من لم يكذب على وجه المصلحة لا على وجه التعذيب ، لكى لا يقدر أن كل الغرق يجرى على وجه واحد .

﴿ القصة الثانية ـــ قصة هود أو صالح عليهما السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ، أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

الله كذباً وما نحن له بمؤمنين ، قال رب انصرنى بما كذبون ، قال عما قليل ليصبحن نادمين ، فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ﴾ .

إعلم أن هـذه القصة هى قصة هود عليه السلام فى قول ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) ومجىء قصة هود عقيب قصة نوح فى سورة الأعراف وسورة هود والشعراء . وقال بعضهم المراد بهم صالح وثمود ، لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة ، أما كيفية الدعوى فكما تقدم فى قصة نوح عليه السلام وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ حق (أرسل) أن يتعدى بإلى كأخواته التى هى وجه وأنفذ وبعث فلم عدى فى القرآن بإلى تارة وبفى أخرى كقوله تعالى (كذلك أرسلناك فى أمة ، وما أرسلنا فى قرية ، فأرسلنا فيهم رسولا) أى فى عاد ، وفى موضع آخر (وإلى عاد أخاهم هوداً) ؟ (الجواب) لم يعد بفى كما عدى بإلى ولـكن الأمة أو القرية جعلت موضعاً للارسال وعلى هذا المعنى جاء بعث فى قوله (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هل يصح ما قاله بعضهم أن قوله (أفلا تتقون) غير موصول بالأول ، وإنما قاله لهم بعد أن كذبوه ، وردوا عليه بعد إقامة الحجة عليهم فعنـد ذلك قال لهم مخوفاً مما هم عليه (أفلا تتقون) هذه الطريقة مخافة العذاب الذى أنذرتكم به ؟ (الجواب) يجوز أن يكون موصولا بالكلام الأول بأن رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الأوثان ، فدعاهم إلى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب إقبالهم على عبادة الأوثان . ثم اعلم أن الله تعالى حكى صفات أولئك القوم وحكى كلامهم ، أما الصفات فثلاث هى شر الصفات : (أولها) الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله (كفروا) (وثانيها) الكفر بيوم القيامة وهو المراد من قوله (وكذبوا بلقاء الآخرة) (وثالثها) الانغماس فى حب الدنيا وشهواتها وهو المراد من قوله (وأترفناهم فى الحياة الدنيا) أى نعمناهم فان قيل ذكر الله مقالة قوم هود فى جوابه فى سورة الأعراف وسورة هود بغير واو (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) ،(قالوا ما نراك إلا بشراً مثلنا) وههنا مع الواو فأى فرق بينهما ؟ قلنا الذى بغير واو على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه ؟ فقيل له كيت وكيت ، وأما الذى مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله ومعناه أنه اجتمع فى هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل . وأما شبهات القوم فشيئان (أولها) قولهم (ماهذا إلا بشر

www.besturdubooks.wordpress.com

مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون) ، وقد مر شرح هذه الشبهة فى القصة الأولى وقوله (مما تشربون) أى من مشروبكم أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه وهو قوله (ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون) فجعلوا اتباع الرسول خسراناً ، ولم يجعلوا عبادة الأصنام خسراناً . أى لئن كنتم أعطيتموه الطاعة من غير أن يكون لكم بإزائها منفعة فذلك هو الخسران (وثانيهما) أنهم طعنوا فى صحة الحشر والنشر ، ثم طعنوا فى نبوته بسبب إتيانه بذلك . أما الطعن فى صحة الحشر فهو قولهم (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون) معادون أحياء للمجازاة ، ثم لم يقتصروا على هذا القدر حتى قرنوا به الاستبعاد العظيم وهو قولهم (هيهات هيهات لما توعدون) ثم أكدوا الشبهة بقولهم (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) ولم يريدوا بقولهم نموت ونحيا الشخص الواحد ، بل أرادوا أن البعض يموت والبعض يحيا ، وأنه لا إعادة ولا حشر . فلذلك قالوا (وما نحن بمبعوثين) ولما فرغوا من الطعن فى صحة الحشر بنوا عليه الطعن فى نبوته ، فقالوا لما أتى بهذا الباطل (فقد افترى على الله كذباً) ثم لما قرروا الشبهة الطاعنة فى نبوته قالوا (وما نحن له بمؤمنين) لأن القوم كالتبع لهم ، واعلم أن الله تعالى ما أجاب عن هاتين الشبهتين لظهور فسادهما (أما الشبهة الأولى) فقد تقدم بيان ضعفها (وأما الثانية) فلأنهم استبعدوا الحشر ، ولا يستبعد الحشر لوجهين (الأول) أنه سبحانه لما كان قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات وجب أن يكون قادراً على الحشر والنشر (والثانى) وهو أنه لولا الإعادة لكان تسليط القوى على الضعيف فى الدنيا ظلماً . وهو غير لائق بالحكيم على ما قرره سبحانه فى قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ثنى[1] إنكم للتوكيد وحسن ذلك الفصل مابين الأول والثانى بالظرف ، ومخرجون خبر عن الأول . وفى قراءة ابن مسعود : (وكنتم تراباً وعظاماً مخرجون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ (هيهات) بالفتح والكسر ، كلها بتنوين وبلا تنوين ، وبالسكون على لفظ الوقف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هى فى قوله (إن هى إلا حياتنا الدنيا) ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله : إن الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ثم وضع هى موضع الحياة ، لأن الخبر يدل عليه ومنه [قول الشاعر] : هى النفس ما حملتها تتحمل

والمعنى لا حياة إلا هذه الحياة ، ولأن إن النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها ، فوازنت لا التى نفت ما بعدها نفى الجنس .

واعلم أن ذلك الرسول لما يئس من قبول الأكابر والأصاغر فزع إلى ربه وقال : (رب انصرنى بما كذبون) وقد تقدم تفسيره فأجابه الله تعالى فيما سأل وقال (عما قليل ليصبحن نادمين)

(١) المراد بقوله ثنى كرر وليس من التثنية المقابلة للافراد والجمع .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

والأقرب أن يكون المراد بأن يظهر لهم علامات الهلاك ، فعند ذلك يحصل منهم الحسرة والندامة على ترك القبول ، ويكون الوقت وقت إيمان اليأس فلا ينتفعون بالندامة ، وبين تعالى الهلاك الذى أنزله عليهم بقوله (فأخذتهم الصيحة بالحق) وذكروا فى الصيحة وجوهاً (أحدها) أن جبريل عليه السلام صاح بهم ، وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها (وثانيها) الصيحة هى الرجفة عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثالثها) الصيحة هى نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت : دعى فأجاب . عن الحسن (ورابعها) أنه العذاب المصطلم ، قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

والأول أولى لأنه هو الحقيقة .

وأما قوله (بالحق) فمعناه أنه دمرهم بالعدل من قولك ، فلان يقضى بالحق إذا كان عادلا فى قضاياه . وقال المفضل : بالحق أى بما لا يدفع ، كقوله (وجاءت سكرة الموت بالحق) .

أما قوله (فجعلناهم غثاء) فالغثاء حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان ، ومنه قوله تعالى (فجعله غثاء أحوى) .

وأما قوله تعالى (فبعداً للقوم الظالمين) ففيه مسألتان :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قوله (بعداً) وسحقاً ودمراً ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها ، وهى من جملة المصادر التى قال سيبويه نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى بعداً بعدوا ، أى هلكوا يقال بعد بعداً وبعداً بفتح العين نحو رشد رشداً ورشداً بفتح الشين والله أعلم .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قوله (بعداً) بمنزلة اللعن الذى هو التبعيد من الخير ، والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والإهانة لهم ، وقد نزل بهم العذاب دالا بذلك على أن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم حالا ليكون ذلك عبرة لمن يجىء بعدهم .

﴿ القصة الثالثة ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ، ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ، ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لايؤمنون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

إعلم أنه سبحانه يقص القصص فى القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم وأخرى على سبيل الإجمال كهمنا ، وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام .

فأما قوله (ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين) فالمعنى أنه ما أخلى الديار من مكلفين أنشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم فى عمارة الدنيا .

أما قوله (ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) فيحتمل فى هذا الأجل أن يكون المراد آجال حياتها وتكليفها ، ويحتمل آجال موتها وهلاكها ، وإن كان الأظهر فى الأجل إذا أطلق أن يراد به وقت الموت ، فبين أن كل أمة لها آجال مكتوبة فى الحياة والموت ، لا يتقدم ولا يتأخر ، منبهاً بذلك على أنه عالم بالأشياء قبل كونها ، فلا توجد إلا على وفق العلم ، ونظيره قوله تعالى (إن أجل الله إذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون) وههنا مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أصحابنا : هذه الآية تدل على أن المقتول ميت بأجله إذ لو قتل قبل أجله لكان قد تقدم الأجل أو تأخر ، وذلك ينافيه هذا النص .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الكعبى : المراد من قوله (ما تسبق من أمة) أى لا يتقدمون الوقت المؤقت لعذابهم إن لم يؤمنوا ولا يتأخرون عنه ، ولا يستأصلهم إلا إذا علم منهم أنهم لايزدادون إلا عناداً وأنهم لايلدون مؤمناً ، وأنه لا نفع فى بقائهم لغيرهم ، ولا ضرر على أحد فى هلاكهم ، وهو كقول نوح عليه السلام (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) .

أما قوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى) فالمعنى أنه كما أنشأنا بعضهم بعد بعض أرسل إليهم الرسل على هذا الحد قرأ ابن كثير تترى منونة والباقون بغير تنوين وهو اختيار أكثر أهل اللغة لأنها فعلى من المواترة وهى المتابعة وفعلى لا ينون كالدعوى والتقوى والتاء بدل من الواو فانه مأخوذ من الوتر وهو الفرد ، قال الواحدى تترى على القراءتين مصدر أو اسم أقيم مقام الحال لأن المعنى متواترة .

أما قوله تعالى (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) يعنى أنهم سلكوا فى تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن أهلكه الله بالغرق والصيحة فلذلك قال (فأتبعنا بعضهم بعضاً) أى بالهلاك [وقوله] (وجعلناهم أحاديث) يمكن أن يكون المراد جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله ﷺ والمعنى أنه سبحانه بلغ فى إهلاكهم مبلغاً صاروا معه أحاديث فلا يرى منهم عين ولا أثر ولم يبق منهم إلا الحديث الذى يذكر ويعتبر به .

ويمكن أيضاً أن يكون جمع أحدوثة مثل الأضحوكة والأعجوبة ، وهى ما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً .

ثم قال (فبعداً لقوم لايؤمنون) على وجه الدعاء والذم والتوبيخ ، ودل بذلك على أنهم كما أهلكوا عاجلا فهلاكهم بالتعذيب آجلا على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ القصة الرابعة ـ قصة موسى عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين ، فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ، فكذبوهما فكانوا من المهلكين ، ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾ .

اختلفوا فى (الآيات) فقال ابن عباس رضى الله عنهما هى الآيات التسع وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون والنقص من الثمرات ، وقال الحسن قوله (بآياتنا) أى بديننا واحتج بأن المراد بالآيات لو كانت هى المعجزات والسلطان المبين أيضاً هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه والأقرب هو الأول لأن لفظ الآيات إذا ذكر فى الرسل فالمراد منها المعجزات ، وأما الذى احتجوا به (فالجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لأنه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارساً وشمعة وشجرة مثمرة ودلواً ورشاء . فلأجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله جبريل وميكال (وثانيها) يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق ، وذلك لأنها وإن شاركت سائر آيات الأنبياء فى كونها آيات فقد فارقتها فى قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام (وثالثها) أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم فى الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة وأنه ما كان يقيم لهم قدراً ولا وزناً .

واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام أيضاً ، وأن النبوة كما أنها مشتركة بينهما فكذلك المعجزات ، ثم إنه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم أما صفتهم فأمران (أحدهما) الاستكبار والأنفة (والثانى) أنهم كانوا قوماً عالين أى رفيعى الحال فى أمور الدنيا ، ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة وأما شبهتهم فهى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

قولهم (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) قال صاحب الكشاف لم يقل مثلينا كما قال (إنكم إذاً مثلهم) ولم يقل أمثالهم وقال (كنتم خير أمة) ولم يقل أخيار أمة كل ذلك لأن الإيجاز أحب إلى العرب من الإكثار والشبهة مبنية على أمرين (أحدهما) كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه (والثانى) أن قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة العرب تسمى كل من دان لملك عابداً له ويحتمل أن يقال إنه كان يدعى الإلهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه أنه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله (فكذبوهما)

ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فان حصول الغرق لم يكن حاصلا عقيب التكذيب ، إنما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك فى الوقت اللائق به .

أما قوله (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) فقال القاضى معناه أنه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذى هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكى يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا ، واعترض صاحب الكشاف عليه فقال لا يجوز أن يرجع الضمير فى لعلهم إلى فرعون وملائه لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملائه بدليل قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) بل المعنى الصحيح : ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها فذكر موسى والمراد آل موسى كما يقال هاشم وثقيف والمراد قومهما .

﴿ القصة الخامسة — قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾

اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بأن خلقه من غير ذكر وأنطقه فى المهد فى الصغر وأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لأنها حملته من غير ذكر . وقال الحسن تكلمت مريم فى صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) ولم تلقم ثدياً قط ، قال القاضى إن ثبت ذلك فهو معجزة لزكريا عليه السلام لأنها لم تكن نبية ، قلنا القاضى إنما قال ذلك لأن عنده الإرهاص غير جائز وكرامات الأولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة إلى ما قال ، والأقرب أنه جعلهما آية بنفس الولادة لأنه ولد من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعاً فى هذا الأمر العجيب الخارق للعادة والذى يدل على أن هذا التفسير أولى وجهان (أحدهما) أنه تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

قال (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) لأن نفس الإعجاز ظهر فيهما لا أنه ظهر على يدهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التي ظهرت على يده نحو إحياء الموتى وذلك لأن الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك أن نطقا في المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لا أنه آية فيه (الثاني) أنه تعالى قال آية ولم يقل آيتين ، وحمل هذا اللفظ على الأمر الذي لا يتم إلا بمجموعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التي كان عيسى عليه السلام مستقلا بها .

أما قوله تعالى (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار) أي جعلنا مأواهما الربوة والربوة والرباوة في رائهما الحركات الثلاث وهي الأرض المرتفعة ، ثم قال قتادة وأبو العالية هي إيلياء أرض بيت المقدس ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه إنها الرملة . وقال الكلبي وابن زيد هي بمصر وقال الأكثرون إنها دمشق وقال مقاتل والضحاك هي غوطة دمشق ، والقرار المستقر من [كل] أرض مستوية مبسوطة ، وعن قتادة ذات ثمار وماء ، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها والمعين الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض . فنبه سبحانه على كمال نعمه عليها بهذا اللفظ على اختصاره . ثم في المعين قولان : (أحدهما) أنه مفعول لأنه لظهوره يدرك بالعين من عانه إذا أدركه بعينه وقال الفراء والزجاج إن شئت جعلته فعيلا من الماعون ويكون أصله من المعن والماعون فاعول منه قال أبو علي والمعين السهل الذي ينقاد ولا يتعاصى والماعون ما سهل على معطيه ، ثم قالوا وسبب الإيواء أنها فرت بابنها عيسى إلى الربوة وبقيت بها اثنتي عشرة سنة ، وإنما ذهب بهما ابن عمها يوسف ثم رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم ، وههنا آخر القصص والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ، فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ، فذرهم في غمرتهم حتى حين ، أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

إعلم أن ظاهر قوله (يا أيها الرسل) خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين فى أزمنة متفرقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم ، فلهذا الإشكال اختلفوا فى تأويله على وجوه : (أحدها) أن المعنى الإعلام بأن كل رسول فهو فى زمانه نودى بهذا المعنى ووصى به ليعتقد السامع أن أمراً نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه (وثانيها) أن المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل ، وإنما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد أيها القوم كفوا عنى أذاكم ومثله (الذين قال قال لهم الناس) وهو نعيم بن مسعود كأنه سبحانه لما خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا إلا بذلك ليعلم رسولنا أن هذا التثقيل ليس عليه فقط ، بل لازم على جميع الأنبياء عليهم السلام (وثالثها) وهو قول محمد بن جرير أن المراد به عيسى عليه السلام لأنه إنما ذكر ذلك بعد ماذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولأنه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه ، والقول الأول أقرب لأنه أوفق للفظ الآية ، ولأنه روى عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده الرسول اليها وقال من أين لك هذا ؟ فقالت من شاة لى ، ثم رده وقال : من أين هذه الشاة؟ فقالت اشتريتها بمالى فأخذه. ثم إنها جاءته وقالت: يارسول الله لم رددته ؟ فقال عليه السلام بذلك أمرت الرسل أن لا يأكلوا إلا طيباً ولا يعملوا إلا صالحاً .

أما قوله تعالى (من الطيبات) ففيه وجهان : (الأول) أنه الحلال وقيل طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذى لا يعصى الله فيه ، والصافى الذى لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل (والثانى) أنه المستطاب المستلذ من المأكل والفواكه فبين تعالى أنه وإن ثقل عليهم بالنبوة وبما ألزمهم القيام بحقها ، فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح لغيرهم . واعلم أنه سبحانه كما قال للمرسلين (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) فقال للمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) ، واعلم أن تقديم قوله (كلوا من الطيبات) على قوله (واعملوا صالحاً) كالدلالة على أن العمل الصالح لابد وأن يكون مسبوقا بأكل الحلال . فأما قوله (إنى بما تعملون عليم) فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به وإذا كان ذلك تحذيراً للرسل مع علو شأنهم فبأن يكون تحذيراً لغيرهم أولى .

أما قوله (وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) فقد فسرناه فى سورة الأنبياء وفيه مسألتان:

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعنى أنه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والأعمال الصالحة فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الإتقاء من معصية الله تعالى . فان قيل لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحداً ؟ قلنا المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته ، وأما الشرائع فان الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا فى الدين ، فكما يقال فى الحائض والطاهر

www.besturdubooks.wordpress.com

من النساء إن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا ههنا ، ويدل على ذلك قوله (وأنا ربكم فاتقون) فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع ، وإن اختلفت فى ذلك .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قرىء وإن بالكسر على الاستئناف وإن بمعنى ولأن وإن مخففة من الثقيلة وأمتكم مرفوعة معها .

أما قوله تعالى (فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً) فالمعنى فان أمم الأنبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم وفى قوله (فتقطعوا) معنى المبالغة فى شدة اختلافهم والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين .

أما قوله (زبراً) فقرىء زبراً جمع زبور أى كتباً مختلفة يعنى جعلوا دينهم أدياناً وزبراً قطعاً أستعيرت من زبر الفضة والحديد وزبراً مخففة الباء كرسل فى رسل قال الكلبى ومقاتل والضحاك يعنى مشركى مكة والمجوس واليهود والنصارى .

أما قوله تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) فمعناه أن كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه معجب به يرى المحق أنه الرابح ، وأن غيره المبطل الخاسر ، ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء فى دينهم أتبعه بالوعيد ، وقال (فذرهم فى غمرتهم) حين حتى الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم يقول : فدع هؤلاء الكفار فى جهلهم . والغمرة الماء الذى يغمر القامة فكأن ماهم فيه من الجهل والحيرة صار غامراً ساتراً لعقولهم ، وعن على عليه السلام (فى غمراتهم حتى حين) وذكروا فى الحين وجوها (أحدها) إلى حين الموت (وثانيها) إلى حين المعاينة (وثالثها) إلى حين العذاب ، والعادة فى ذلك أن يذكر فى الكلام ، والمراد به الحالة التى تقترن بها الحسرة والندامة ، وذلك يحصل إذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم ، ويحصل أيضاً عند المحاسبة فى الآخرة ، ويحصل عند عذاب القبر والمساءلة فيجب أن يحمل على كل ذلك .

ولما كان القوم فى نعم عظيمة فى الدنيا جاز أن يظنوا أن تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم ، فبين سبحانه أن الأمر بخلاف ذلك، فقال(أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات) قرئ يمدهم ويسارع بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفى المعنى وجهان(أحدهما) أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم فى المعاصى ، واستجراراً لهم فى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة فى الخيرات وبل للاستدراك لقوله (أيحسبون) يعنى بل هم أشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا فى ذلك ، أهو استدراج أم مسارعة فى الخير ، وهذه الآية كقوله (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم) روى عن يزيد بن ميسرة : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء « أيفرح عبدى أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له منى ، ويجزع أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له منى » ثم تلا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) وعن الحسن : لما أتى عمر بسوار كسرى فأخذه ووضعه فى يد سراقة فبلغ منكبه . فقال عمر اللهم إنى قد علمت أن نبيك عليه الصلاة

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

والسلام ، كان يحب أن يصيب مالا لينفقه فى سبيلك ، فزويت ذلك عنه نظراً . ثم إن أبا بكر كان يحب ذلك ، اللهم لا يكن ذلك مكراً منك بعمر . ثم تلا (أيحسبون أن ما نمدهم به من مال و بنين) (الوجه الثانى) وهو أنه سبحانه إنما أعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغى البال ، متمكنين من الاشتغال بكلف الحق ، فإذا أعرضوا عن الحق والحالة هذه ، كان لزوم الحجة عليهم أقوى ، فلذلك قال (بل لا يشعرون) .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾

إعلم أنه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله (أيحسبون أن مانمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات) ثم قال (بل لايشعرون) بين بعده صفات من يسارع فى الخيرات ويشعر بذلك وهى أربعة :

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) والإشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف ، فمنهم من قال : جمع بينهما للتأكيد ، ومنهم من حمل الخشية على العذاب ، والمعنى الذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، وهو قول الكلبى ومقاتل ، ومنهم من حمل الإشفاق على أثره وهو الدوام فى الطاعة ، والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون فى طاعته ، جادون فى طلب مرضاته . والتحقيق أن من بلغ فى الخشية إلى حد الإشفاق وهو كمال الخشية ، كان فى نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ، ومن عقابه آجلا ، فكان فى نهاية الاحتراز عن المعاصى .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) واعلم أن آيات الله تعالى هى المخلوقات الدالة على وجوده ، والإيمان بها هو التصديق بها ، والتصديق بها إن كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة ، وصاحب هذا التصديق لا يستحق المدح ، وإن كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع فذلك مما لا يتوصل إليه إلا بالنظر والفكر ، وصاحبه لابد وأن يصير عارفاً

www.besturdubooks.wordpress.com

بوجود الصانع وصفاته ، وإذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الاقرار باللسان ظاهراً وذلك هو الايمان .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله (والذين هم بربهم لايشركون) وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفى الشريك لله تعالى لأن ذلك داخل فى قوله (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) بل المراد منه نفى الشرك الخفى ، وهو أن يكون مخلصاً فى العبادة لا يقدم عليها إلا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) معناه يعطون ما أعطوا فدخل فيه كل حق يلزم إيتاؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى : كالزكاة والكفارة وغيرهما ، أو من حقوق الآدميين : كالودائع والديون وأصناف الإنصاف والعدل ، وبين أن ذلك إنما ينفع إذا فعلوه وقلوبهم وجلة ، لأن من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره وإخلاله بنقصان أو غيره ، فإنه يكون لاجل ذلك الوجل مجتهداً فى أن يوفيها حقها فى الأداء . وسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ فقالت (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « لا يا ابنة الصديق ، ولكن هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى » .

واعلم أن ترتيب هذه الصفات فى نهاية الحسن ، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغى .

﴿ والصفة الثانية ﴾ دلت على ترك الرياء فى الطاعات .

﴿ والصفة الثالثة ﴾ دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول إليها ، فإن قيل: أفتقولون إن قوله (وقلوبهم وجلة) يرجع إلى يؤتون ، أو يرجع إلى كل ما تقدم من الخصال؟ قلنا بل الأولى أن يرجع إلى الكل لأن العطية ليست بذلك أولى من سائر الأعمال ، إذ المراد أن يؤدى ذلك على وجل من تقصيره ، فيكون مبالغاً فى توفيته حقه ، فأما إذا قرئ (والذين يأتون ما أتوا) فالقول فيه أظهر ، إذ المراد بذلك أى شئ أتوه وفعلوه من تحرز عن معصية وإقدام على إيمان وعمل ، فإنهم يقدمون عليه مع الوجل ، ثم إنه سبحانه بين علة ذلك الوجل وهى علمهم بأنهم إلى ربهم راجعون ، أى للمجازاة والمساءلة ونشر الصحف وتتبع الأعمال ، وأن هناك لا تنفع الندامة ، فليس إلا الحكم القاطع من جهة مالك الملك . ثم إنه سبحانه لما ذكر هذه الصفات للمؤمنين المخلصين قال بعده (أولئك يسارعون فى الخيرات) وفيه وجهان (أحدهما) أن المراد يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاحترام والثانى) أنهم يتعجلون فى الدنيا أنواع النفع ووجوه الاكرام ، كما قال (فآتاهم الله ثواب الدنيا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾

وحسن ثواب الآخرة) ، (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) لأنهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا فى نيلها وتعجلوها ، وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة ، لأن فيه إثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين وقرىء يسرعون فى الخيرات .

أما قوله (وهم لها سابقون) فالمعنى فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها أو وهم لها سابقون أى ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. والمعنى وهم لها كما يقال أنت لها وهى لك ، ثم قال سابقون أى وهم سابقون .

قوله تعالى : ﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ، بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر حكمين من أحكام أعمال العباد (فالأول) قوله (ولا نكلف نفساً إلا وسعها) وفى الوسع قولان (أحدهما) أنه الطاقة عن المفضل (والثانى) أنه دون الطاقة وهو قول المعتزلة ومقاتل والضحاك والكلبى واحتجوا عليه بأن الوسع إنما سمى وسعاً لأنه يتسع عليه فعله ولا يصعب ولا يضيق ، فبين أن أولئك المخلصين لم يكلفوا أكثر مما عملوا . قال مقاتل من لم يستطع أن يصلى قائماً فليصل جالساً ومن لم يستطع جالساً فليوم إيماء لأنا لانكلف نفساً إلا وسعها ، واستدلت المعتزلة به فى نفى تكليف مالا يطاق وقد تقدم القول فيه (الثانى) قوله (ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون) ونظيره قوله (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) وقوله (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها)

واعلم أنه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرب بما فيه كما يعرب وينطق الناطق إذا كان محقاً ، فان قيل هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب إما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه ، فان أحالوه عليه فإنهم يصدقونه فى كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد ، وإن جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم أنه

www.besturdubooks.wordpress.com

سبحانه كتب فيه خلاف ماحصل . فعلى التقديرين لا فائدة فى ذلك الكتاب ؟ قلنا يفعل الله مايشاء وعلى أنه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة .

وأما قوله (وهم لا يظلمون) فنظيره قوله (ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) فقالت المعتزلة الظلم إما أن يكون بالزيادة فى العقاب أو بالنقصان من الثواب أو بأن يعذب على مالم يعلم أو بأن يكلفهم مالا يطيقون فتكون الآية دالة على كون العبد موجداً لفعله ، إلا لكان تعذيبه عليه ظلماً ودالة على أنه سبحانه لا يكلف ما لا يطاق (الجواب) أنه لما كلف أبا لهب أن يؤمن ، والايمان يقتضى تصديق الله تعالى فى كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه أن أبا لهب لا يؤمن فقد كلفه بأن يؤمن بأنه لا يؤمن فيلزمكم كل ما ذكرتموه .

وأما قوله تعالى (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) ففيه قولان (أحدهما) أنه راجع إلى الكفار وهم الذين يليق بهم قوله (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) ولا يليق ذلك بالمؤمنين إذ المراد فى غمرة من هذا الذى بيناه فى القرآن أو من هذا الكتاب الذى ينطق بالحق أو من هذا الذى هو وصف المشفقين ولهم أى لهؤلاء الكفار أعمال من دون ذلك أى أعمال سوى ذلك أى سوى جهلهم وكفرهم ثم قال بعضهم أراد أعمالهم فى الحال ، وقال بعضهم بل أراد المستقبل وهذا أقرب لأن قوله (هم لها عاملون) إلى الاستقبال أقرب وإنما قال (هم لها عاملون) لأنها مثبتة فى علم الله تعالى وفى حكم الله وفى اللوح المحفوظ ، فوجب أن يعملوها ليدخلوا بها النار لما سبق لهم من الله من الشقاوة (القول الثانى) وهو اختيار أبى مسلم أن هذه الآيات من صفات المشفقين كأنه سبحانه قال بعد وصفهم (ولا نكلف نفساً إلا وسعها) ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون (ولدينا كتاب) يحفظ أعمالهم (ينطق بالحق وهم لا يظلمون) بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) هو أيضاً وصف لهم بالحيرة كأنه قال وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين فى جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ولهم أعمال من دون ذلك أى لهم أيضاً من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه إما أعمالا قد عملوها فى الماضى أو سيعملونها فى المستقبل ، ثم إنه سبحانه رجع بقوله (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) إلى وصف الكفار .

واعلم أن قول أبى مسلم أولى لأنه إذا أمكن رد الكلام إلى مايتصل به من ذكر المشفقين كان أولى من رده إلى ما بعد منه خصوصاً ، وقد يرغب المرء فى فعل الخير بأن يذكر أن أعماله محفوظة كما قد يحذر بذلك من الشر ، وقد يوصف المرء لشدة فكره فى أمر آخرته بأن قلبه فى غمرة ويراد أنه قد استولى عليه الفكر فى قبول عمله أورده وفى أنه هل أداه كما يجب أو قصر . فإن قيل فما المراد بقوله من هذا ، وهو إشارة إلى ماذا ؟ قلنا هو إشارة إلى إشفاقهم ووجلهم مع أنهما مستوليان على قلوبهم .

أما قوله تعالى (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) فقال صاحب الكشاف حتى هذه هى التى

www.besturdubooks.wordpress.com

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾

يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية .

واعلم أنه لاشبهة [في] أن الضمير فى مترفيهم راجع إلى من تقدم ذكره من الكفار لأن العذاب لا يليق إلا بهم وفى هذا العذاب وجهان (أحدهما) أراد بالعذاب مانزل بهم يوم بدر (والثانى) أنه عذاب الآخرة ثم بين سبحانه أن المنعمين منهم إذا نزل بهم العذاب يجأرون أى يرتفع صوتهم بالإستغاثة والضجيج لشدة ماهم عليه ويقال لهم على وجه التبكيت (لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون) فلا يدفع عنكم مايريد إنزاله بكم ، دل بذلك سبحانه على أنهم سينتهون يوم القيامة إلى هذه الدرجة من الحسرة والندامة وهو كالباعث لهم فى الدنيا على ترك الكفر والإقدام على الإيمان والطاعة فإنهم الآن ينتفعون بذلك .

قوله تعالى : ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامراً تهجرون ، أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ، أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين فيما قبل أنه لاينصر أولئك الكفار أتبعه بعلة ذلك وهى أنه متى تليت آيات الله عليهم أتوا بأمور ثلاثة : (أحدها) أنهم كانوا على أعقابهم ينكصون وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد وهو قوله (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى تنفرون عن تلك الآيات وعمن يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه (وثانيها) قوله (مستكبرين به) والهاء

www.besturdubooks.wordpress.com

فى به إلى ماذا تعود ؟ فيه وجوه : (أولها) إلى البيت العتيق أو الحرم كانوا يقولون لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم والذى يسوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وإن لم يكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به (وثانيها) المراد مستكبرين بهذا التراجع والتباعد (وثالثها) أن تتعلق الباء بسامراً أى يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وهذا هو الأمر الثالث الذى يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم ، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهجرون ، والسامر نحو الحاضر فى الاطلاق على الجمع وقرىء سمراً وسامراً يهجرون من أهجر فى منطقه إذا أفحش والهجر بالفتح الهذيان والهجر بالضم الفحش أو من هجر الذى هو مبالغة فى هجر إذا هذى . ثم إنه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بأن بين أن إقدامهم على هذه الأمور لابد وأن يكون لأحد أمور أربعة : (أحدها) أن لا يتأملوا فى دليل ثبوته وهو المراد من قوله (أفلا يتدبرون القرآن) فبين أن القول الذى هو القرآن كان معروفاً لهم وقد مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مبايناً لكلام العرب فى الفصاحة ، ومبرأ عن التناقض فى طول عمره ، ومن حيث ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية فلم لا يتدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا إلى الحق (وثانيها) أن يعتقدوا أن مجىء الرسل أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) وذلك لأنهم عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتواتر على الأمم وتظهر المعجزات عليها وكانت الأمم بين مصدق ناج ، وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال أفما دعاهم ذلك إلى تصديق الرسول (وثالثها) أن لا يكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) نبه سبحانه بذلك على أنهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه فى نهاية الأمانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والأخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين (ورابعها) أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولون إنما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله (أم يقولون به جنة) وهذا أيضاً ظاهر الفساد لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس ، والمجنون كيف يمكنه أن يأتى بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة ، ولقد كان من المبغضين له عليه السلام من سماه بذلك وفيه وجهان : (أحدهما) أنهم نسبوه إلى ذلك من حيث كان يطمع فى انقيادهم له وكان ذلك من أبعد الأمور عندهم فنسبوه إلى الجنون لذلك (والثانى) أنهم قالوا ذلك إيهاماً لعوامهم لكى لا ينقادوا له فأوردوا ذلك مورد الاستحقار له . ثم إنه سبحانه بعد أن عد هذه الوجوه ، ونبه على فسادها قال (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) من حيث تمسكوا بالتقليد ومن حيث علموا أنهم لو أقروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لزالت مناصبهم ولاختلت رياساتهم فلذلك كرهوه فان قيل قوله (وأكثرهم) فيه دليل على أن أقلهم لا يكرهون الحق ، قلنا كان فيهم من يترك الإيمان أنفة من توبيخ قومه وأن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما حكى عن أبي طالب. ثم بين سبحانه أن الحق لا يتبع الهوى ، بل الواجب على المكلف أن يطرح الهوى ويتبع الحق فبين سبحانه أن اتباع الهوى يؤدى إلى الفساد العظيم فقال (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) وفى تفسيره وجوه : (الأول) أن القوم كانوا يرون أن الحق فى اتخاذ آلهة مع الله تعالى ، لكن لو صح ذلك لوقع الفساد فى السموات والأرض على ماقررناه فى دليل التمانع فى قوله (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (والثانى) أن أهواءهم فى عبادة الأوثان وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وهما منشأ المفسدة ، والحق هو الاسلام . فلو اتبع الاسلام قولهم لعلم الله حصول المفاسد عند بقاء هذا العالم ، وذلك يقتضى تخريب العالم وإفناءه (والثالث) أن آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق أهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم عن القفال .

أما قوله (بل أتيناهم بذكرهم) فقيل إنه القرآن والأدلة وقيل بل شرفهم وفخرهم بالرسول وكلا القولين متقارب لأن فى مجيء الرسول بيان الأدلة وفى مجيء الأدلة بيان الرسول فأحدهما مقرون بالآخر ، وقيل الذكر هو الوعظ والتحذير ، وقيل هو الذى كانوا يتمنونه ويقولون (لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين) وقرىء بذكراهم . ثم بين سبحانه أنه عليه الصلاة والسلام لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سبباً للنفرة فقال (أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير) وقرىء خراجاً ، قال أبو عمرو بن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه والوجه أن الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ (خرجاً فخراج ربك) يعنى أم تسألهم على هدايتهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخلق خير. فنبه سبحانه بذلك على أن هذه التهمة بعيدة عنه ، فلا يجوز أن ينفروا عن قبول قوله لأجلها . فنبه سبحانه بهذه الآيات على أنهم غير معذورين البتة وأنهم محجوجون من جميع الوجوه ، قال الجبائى دل قوله تعالى (وهو خير الرازقين) على أن أحداً من العباد لا يقدر على مثل نعمه ورزقه ولا يساويه فى الإفضال على عباده ودل أيضاً على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضاً ولولا ذلك لما جاز أن يقول (وهو خير الرازقين) .

قوله تعالى : ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ، وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ، ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾.

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

إعلم أنه سبحانه وتعالى لما زيف طريقة القوم أتبعه ببيان صحة ما جاء به الرسول ﷺ فقال (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) لأن مادل الدليل على صحته فهو فى باب الاستقامة أبلغ من الطريق المستقيم (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) أى لعادلون عن هذا الطريق ، لأن طريق الإستقامة واحدة وما يخالفه فكثير .

أما قوله تعالى (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر) ففيه وجوه (أحدها) المراد ضرر الجوع وسائر مضار الدنيا (وثانيها) المراد ضرر القتل والسبى (وثالثها) أنه ضرر الآخرة وعذابها فبين أنهم قد بلغوا فى التمرد والعناد المبلغ الذى لا مرجع فيه إلى دار الدنيا ، وأنهم (لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) لشدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر .

أما قوله تعالى (للجوا فى طغيانهم يعمهون) فالمعنى لتمادوا فى ضلالهم وهم متحيرون .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ، حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ، وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾

اختلفوا فى قوله (ولقد أخذناهم بالعذاب) على وجوه : (أحدها) أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفى ولحق باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجيف ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ألست تزعم أنك بعثت رحمة العالمين ، ثم قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فادع الله يكشف عنا هذا القحط . فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية ، والمعنى أخذناهم بالجوع فما أطاعوا (وثانيها) هو الذى نالهم يوم بدر من القتل والأسر ، يعنى أن ذلك مع شدته ما دعاهم إلى الإيمان عن الأصم (وثالثها) المراد

www.besturdubooks.wordpress.com

من عذب من الأمم الخوالى (فما استكانوا) أى مشركى العرب لربهم عن الحسن (ورابعها) أن شدة الدنيا أقرب إلى المكلف من شدة الآخرة ، فاذا لم تؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة كذلك ، وهذا يدل على أنهم (لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) .

أما قوله تعالى (حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد) ففيه وجهان (أحدهما) حتى إذا فتحنا عليهم باب الجوع الذى هو أشد من القتل والأسر (والثانى) إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . لا يفتر عنهم ، وهم مبلسون) والإبلاس اليأس من كل خير ، وقيل السكون مع التحسير . وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما وزن استكان ؟ (الجواب) استفعل من السكون أى انتقل من كون إلى كون ، كما قيل استحال إذا انتقل من حال إلى حال ، ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه .

﴿السؤال الثانى﴾ لم جاء (استكانوا) بلفظ الماضى و(يتضرعون) بلفظ المستقبل ؟ (الجواب) لأن المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة ، وما من عادة هؤلاء أن يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد وقرىء فتحنا .

﴿السؤال الثالث﴾ العطف لا يحسن إلا مع المجانسة فأى مناسبة بين قوله (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار) وبين ماقبله ؟ (الجواب) كأنه سبحانه لما بين مبالغة أولئك الكفار فى الاعراض عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل فى الحقائق قال للمؤمنين ، وهو الذى أعطاكم هذه الأشياء ووفقكم عليها ، تنبيهاً على أن من لم يستعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) تنبيهاً على أن حرمان أولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس إلا من الله . واعلم أنه سبحانه بين عظيم نعمه من وجوه (أحدها) بإعطاء السمع والأبصار والأفئدة وخص هذه الثلاثة بالذكر لأن الاستدلال موقوف عليها ، ثم بين أنه يقل منهم الشاكرون ، قال أبو مسلم وليس المراد أن لهم شكراً وإن قل ، لكنه كما يقال للكفور الجاحد للنعمة ما أقل شكر فلان (وثانيها) قوله (وهو الذى ذرأكم فى الأرض) قيل فى التفسير (خلقكم) قال أبو مسلم : ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله تعالى (ذرية من حملنا مع نوح) فنقول : هو الذى جعلكم فى الأرض متناسلين ، ويحشركم يوم القيامة إلى دار لا حاكم فيها سواه ، فجعل حشرهم إلى ذلك الموضع حشراً إليه لا بمعى المكان (وثالثها) قوله (وهو الذى يحيى ويميت) أى نعمة الحياة وإن كانت من أعظم النعم فهى منقطعة وأنه سبحانه وإن أنعم بها فالمقصود منها الانتقال إلى دار الثواب (ورابعها) قوله (وله اختلاف الليل والنهار) ووجه النعمة بذلك معلوم ، ثم إنه سبحانه حذر من ترك النظر فى هذه الأمور فقال (أفلا تعقلون) لأن ذلك دلالة الزجر والتهديد وقرىء (أفلا يعقلون) .

www.besturdubooks.wordpress.com

بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل
لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ
مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ بل قالوا مثل ماقال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

إعلم أنه سبحانه لما أوضح القول فى دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد فقال (بل قالوا مثل ماقال الأولون) فى إنكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على أنهم إنما أنكروا ذلك تقليداً للأولين وذلك يدل على فساد القول بالتقليد ، ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين (أحدهما) قولهم (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون) وهو مشهور (وثانيهما) قولهم (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل) كأنهم قالوا إن هذا الوعد كما وقع منه عليه الصلاة والسلام فقد وقع قديما من الأنبياء ، ثم لم يوجد مع طول العهد ، فظنوا أن الاعادة تكون فى دار الدنيا . ثم قالوا لما كان كذلك فهو من أساطير الأولين والأساطير جمع أسطار والأسطار جمع سطر أى ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له ، وجمع أسطورة أوفق .

قوله تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع هو رب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون ، بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ﴾

إعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكرى الإعادة وأن يكون المقصود

www.besturdubooks.wordpress.com

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

الرد على عبدة الأوثان ، وذلك لأن القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا انعبدالأصنام لتقربنا إلى الله زلفى ، ثم إنه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة (أحدها) قوله (قل لمن الأرض ومن فيها) ووجه الاستدلال به على الإعادة أنه تعالى لما كان خالقا للأرض ولمن فيها من الأحياء ، وخالقاً لحياتهم وقدرتهم وغيرها ، فوجب أن يكون قادراً على أن يعيدهم بعد أن أفناهم . ووجه الاستدلال به على نفى عبادة الأوثان ، من حيث إن عبادة من خلقكم وخلق الأرض وكل ما فيها من النعم هى الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، وقوله (أفلا تذكرون) معناه الترغيب فى التدبر ليعلموا بطلان ماهم عليه (وثانيها) قوله (من رب السموات السبع ورب العرش العظيم) ووجه الاستدلال على الأمرين كما تقدم ، وإنما قال (أفلا تتقون) تنبيهاً على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان والاعتراف بجواز الإعادة (وثالثها) قوله تعالى (قل من بيده ملكوت كل شئ) .

إعلم أنه سبحانه لما ذكر الأرض أولا والسماء ثانياً عمم الحكم ههنا ، فقال من بيده ملكوت كل شئ ، ويدخل فى الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة ، وقوله (وهو يجير ولا يجار عليه) يقال أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته منه ومنعته . يعنى وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ، ولا يغيث أحد منه أحداً .

أما قوله تعالى (فأنى تسحرون) فالمعنى أنى تخدعون عن توحيده وطاعته ، والخادع هو الشيطان والهوى . ثم بين تعالى بقوله (بل أتيناهم بالحق) أنه قد بالغ فى الحجاج عليهم بهذه الآيات وغيرها وهم مع ذلك كاذبون ، وذلك كالتوعد والتهديد ، وقرئ أتيتهم ، وأتيتهم بالضم والفتح وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قرئ (قل لله) فى الجواب الأول باللام لا غير ، وقرئ الله فى الأخيرين بغير اللام فى مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام وباللام فى مصاحف أهل البصرة فما الفرق ؟ (الجواب) لا فرق فى المعنى ، لأن قولك من ربه ، ولمن هو ؟ فى معنى واحد .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف قال (إن كنتم تعلمون) ثم حكى عنهم سيقولون الله وفيه تناقض ؟ (الجواب) لا تناقض لأن قوله (إن كنتم تعلمون) لا ينفى علمهم بذلك . وقد يقال مثل ذلك فى الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بما يورد من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا

www.besturdubooks.wordpress.com

فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ، قل رب إما تريني مايوعدون ، رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين ، وإنا على أن نريك مانعدهم لقادرون ، ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾.

إعلم أنه سبحانه ادعى أمرين (أحدهما) قوله (ما اتخذ الله من ولد) وهو كالتنبيه على أن ذلك من قول هؤلاء الكفار ، فإن جمعاً منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله (والثانى) قوله (وماكان معه من إله) وهو قولهم باتخاذ الأصنام آلهة ، ويحتمل أن يريد به إبطال قول النصارى والثنوية ، ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله (إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض) والمعنى لانفرد على [ذلك] كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلقه واستبدبه ، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزاً عن ملك الآخر ، ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون ، وحيث لم تروا أثر التمايز فى الممالك والتغالب ، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شىء . فإن قيل (إذاً) لايدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب ، فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجواباً ؟ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل ، قلنا الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة ، وإنما حذف لدلالة قوله (وماكان معه من إله) عليه .ثم إنه سبحانه نزه نفسه عن قولهم بقوله (سبحان الله عما يصفون) من إثبات الولد والشريك .

أما قوله (عالم الغيب والشهادة) فقرىء بالجر صفة لله ، وبالرفع خبر مبتدأ محذوف ، والمعنى أنه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة ، فغيره وإن علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب ، والشهادة التى يعلمها لا يتكامل بها النفع إلا مع العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم ، فلذلك قال (فتعالى عما يشركون ثم أمره سبحانه بالانقطاع إليه وأن يدعوه بقوله(رب إما تريني مايوعدون ، رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين) قال صاحب الكشاف : ما والنون مؤكدتان ، أى إن كان ولا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ، فلا تجعلني قريناً لهم ولا تعذبني بعذابهم ، فإن قيل كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم ؟ قلنا يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله ، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه . وما أحسن قول الحسن فى قول الصديق : وليتكم ولست بخيركم ، مع أنه كان يعلم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

أنه خيرهم . ولكن المؤمن يهضم نفسه ، وإنما ذكر رب مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة فى التضرع .

أما قوله تعالى (وإنا على أن نريك مانعدهم لقادرون) ففيه قولان : (أحدهما) أنهم كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويضحكون منه ، فقيل لهم : إن الله قادر على إنجاز ما وعد ويحتمل عذاباً فى الدنيا مؤخراً عن أيامه عليه السلام ، فلذلك قال بعضهم : هو فى أهل البغى ، وبعضهم فى الكفار الذين قوتلوا بعد الرسول ﷺ (والثانى) أن المراد عذاب الآخرة .

أما قوله (ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) فالمراد منه أن الأولى به عليه السلام أن يعامل به الكفار فأمر باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الأذى ، وأن يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الأدلة على أحسن الوجوه ، وبين له أنه أعلم بحالهم منه عليه السلام وأنه سبحانه لما لم يقطع نعمه عنهم ، فينبغى أن يكون هو عليه السلام مواظباً على هذه الطريقة . قال صاحب الكشاف قوله (ادفع بالتى هى أحسن السيئة) أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل ، والمعنى الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان ، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الطاقة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء السيئة . وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل محكمة ، لأن المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى نقصان دين أو مروءة .

قوله تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ، حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ .

إعلم أنه سبحانه لما أدب رسوله بقوله (ادفع بالتى هى أحسن السيئة) أتبعه بما به يقوى على ذلك وهو الاستعاذة بالله من أمرين (أحدهما) من همزات الشياطين ، والهمزات جمع الهمزة ، وهو الدفع والتحريك الشديد ، وهو كالهز والأز ، ومنه مهماز الرائض ، وهمزاته هو كيده بالوسوسة ، ويكون ذلك منه فى الرسول بوجهين : (أحدهما) بالوسوسة والآخر بأن

www.besturdubooks.wordpress.com

يبعث أعداءه على إيذائه ، وكذلك القول فى المؤمنين ، لأن الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين ، ومعلوم أن من ينقطع إلى الله تعالى ويسأله أن يعيذه من الشيطان ، فانه يجب أن يكون متذكراً متيقظاً فيما يأتى ويذر ، فيكون نفس هذا الانقطاع إلى الله تعالى داعية إلى التمسك بالطاعة وزاجراً عن المعصية ، قال الحسن كان عليه السلام يقول بعد استفتاح الصلاة «لا إله إلا الله ثلاثاً ، الله أكبر ثلاثاً ، اللهم انى أعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه و نفخه ، فقيل يارسول الله وما همزه ؟ قال الموتة التى تأخذ ابن آدم ـ أى الجنون الذى يأخذ ابن آدم ـ قيل فما نفثه ؟ قال الشعر قيل فما نفخه ؟ قال الكبر (وثانيها) قوله (وأعوذ بك رب أن يحضرون) وفيه وجهان (أحدهما) أن يحضرون عند قراءة القرآن لكى يكون متذكراً فيقل سهوه ، وقال آخرون بل استعاذ بالله من نفس حضورهم لأنه الداعى إلى وسوستهم كما يقول المرء أعوذ بالله من خصومتك بل أعوذ بالله من لقائك ، وروى عن رسول الله ﷺ وقد اشتكى إليه رجل أرقاً يجده فقال «إذا أردت النوم فقل أعوذ بالله وبكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» .

أما قوله (حتى إذا جاء أحدهم الموت) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف حتى متعلق بيصفون أى لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للاغضاء عنهم مستعيناً بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى قوله (حتى إذا جاء أحدهم الموت) فالأكثرون على أنه راجع إلى الكفار وقال الضحاك كنت جالساً عند ابن عباس ، فقال من لم يزك ولم يحج سأل الرجعة عند الموت ، فقال واحد إنما يسأل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضى الله عنهما أنا أقرأ عليك به قرآناً (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق) قال رسول الله ﷺ «إذا حضر الإنسان الموت جمع كل شىء كان يمنعه من حقه بين يديه فعنده يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت» والأقرب هو الأول إذا عرف المؤمن منزلته فى الجنة فاذا شاهدها لا يتمنى أكثر منها ، ولولا ذلك لكان أدونهم ثواباً يغتم بفقد ما يفقد من منزلة غيره وأما ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما من قوله (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت) فهو إخبار عن حال الحياة فى الدنيا لا عن حال الثواب فلا يلزم على ما ذكرنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى وقت مسألة الرجعة فالأكثرون على أنه يسأل فى حال المعاينة لأنه عندها يضطر إلى معرفة الله تعالى وإلى أنه كان عاصياً ويصير ملجأ إلى أنه لا يفعل القبيح بأن يعلمه الله تعالى أنه لو رامه لمنع منه ، ومن هذا حاله يصير كالممنوع من القبائح بهذا الإلجاء فعند ذلك يسأل الرجعة ، ويقول (رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت) وقال آخرون بل يقول ذلك عند معاينة النار فى الآخرة ، ولعل هذا القائل إنما ترك ظاهر هذه الآية لما أخبر الله تعالى فى كتابه

www.besturdubooks.wordpress.com

عن أهل النار فى الآخرة أنهم يسألون الرجعة لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة فى حال المعاينة ، والله تعالى يقول (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون) فعلق قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة فلا وجه لترك هذا الظاهر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا فى قوله سبحانه وتعالى (ارجعون) من المراد به ؟ فقال بعضهم الملائكة الذين يقبضون الأرواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع ، وقال آخرون بل المراد هو الله تعالى لأن قوله رب بمنزلة أن يقول يارب وإنما ذكر بلفظ الجمع للتعظيم كما يخاطب العظيم بلفظه فيقول فعلنا وصنعنا وقال الشاعر : فان شئت حرمت النساء سواكم

ومن يقول بالأول يجعل ذكر الرب للقسم ، فكأنه عند المعاينة قال بحق الرب ارجعون ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحة الدين بالضرورة ، ومن الدين أن لا رجعة ؟ (الجواب) أنه وإن كان كذلك فلا يمتنع أن يسألوه لأن الاستعانة بهذا الجنس من المسألة تحسن وإن علم أنه لا يقع فأما إرادته للرجعة فلا يمتنع أيضاً على سبيل مايفعله المتمنى .

﴿ السؤال الثانى ﴾ مامعنى قوله (لعلى أعمل صالحاً) أفيجوز أن يسأل الرجعة مع الشك؟ (الجواب) ليس المراد بلعل الشك فإنه فى هذا الوقت باذل للجهد فى العزم على الطاعة إن أعطى ماسأل ، بل هو مثل من قصر فى حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول مكنونى من التدارك لعلى أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه جازماً بانه سيتدارك ، ويحتمل أيضاً أن الأمر المستقبل إذا لم يعرفوه أوردوا الكلام الموضوع للترجى والظن دون اليقين ، فقد قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما المراد بقوله فيما تركت ؟ (الجواب) قال بعضهم فيما خلفت من المال ليصير عند الرجعة مؤدياً لحق الله تعالى منه ، والمعقول من قوله (تركت) التركة وقال آخرون بل المراد أعمل صالحاً فيما قصرت فيدخل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق ، وهذا أقرب كأنهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه ويطيعوا فى كل ماعصوا .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما المراد بقوله كلا ؟ (الجواب) فيه قولان (أحدهما) أنه كالجواب لهم فى المنع مما طلبوا ، كما يقال لطالب الأمر المستبعد هيهات ، روى أنه عليه السلام قال لعائشة رضى الله عنها «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك إلى دار الدنيا فيقول إلى دار الهموم والأحزان لا بل قدوماً على الله ، وأما الكافر فيقال له نرجعك فيقول ارجعون فيقال له إلى أى شىء ترغب إلى جمع المال أو غرس الغراس أو بناء البنيان أو شق الأنهار ؟ فيقول لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ! فيقول فيقول الجبار كلا » (الثانى) يحتمل أن يكون على وجه الإخبار بأنهم يقولون ذلك وأن هذا الخبر حق فكأنه قال : حقاً إنها كلمة هو قائلها ، والأقرب الأول .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

أما قوله (إنها كلمة هو قائلها) ففيه وجهان (الأول) أنه لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه (الثانى) أنه قائلها وحده ولا يجاب إليها ولا يسمع منه .

أما قوله تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فالبرزخ هو الحاجز والمانع كقوله فى البحرين (بينهما برزخ لا يبغيان) أى فهؤلاء صائرون إلى حالة مانعة من التلاقى حاجزة عن الاجتماع وذلك هو الموت ، وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث ، إنما هو إقناط كلى لما علم أنه لارجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة

قوله تعالى : ﴿ فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ .

إعلم أنه سبحانه لما قال (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) ذكر أحوال ذلك اليوم فقال (فاذا نفخ فى الصور) وفيه ثلاثة أقوال : (أحدها) أن الصور آلة إذا نفخ فيها يظهر صوت عظيم ، جعله الله تعالى علامة لخراب الدنيا ولإعادة الأموات ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرن ينفخ فيه (وثانيها) أن المراد من الصور مجموع الصور ، والمعنى فاذا نفخ فى فى الصور أرواحها وهو قول الحسن فكان يقرأ بفتح الواو والفتح والكسر عن أبى رزين وهو حجة لمن فسر الصور بجمع صورة (وثالثها) أن النفخ فى الصور استعارة والمراد منه البعث والحشر ، والأول أولى للخبر وفى قوله (ثم نفخ فيه أخرى) دلالة على أنه ليس المراد نفخ الروح والإحياء لأن ذلك لايتكرر .

أما قوله (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) فمن المعلوم أنه سبحانه إذا أعادهم فالأنساب ثابتة لأن المعاد هو الولد والوالد ، فلا يجوز أن يكون المراد نفى النسب فى الحقيقة بل المراد نفى حكمه . وذلك من وجوه : (أحدها) أن من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم كما يقال فى الدنيا : أسألك بالله والرحم أن تفعل كذا . فنفى سبحانه ذلك من حيث إن كل أحد من أهل النار

www.besturdubooks.wordpress.com

يكون مشغولا بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات إلى النسب ، وهكذا الحال فى الدنيا لأن الرجل متى وقع فى الأمر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده (وثانيها) أن من حق النسب أن يحصل به التفاخر فى الدنيا ، وأن يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض ، وفى الآخرة لا يتفرغون لذلك (وثالثها) أن يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرىء مشغول بنفسه عن بنيه وأخيه وفصيلته التى تؤويه فكيف بسائر الأمور . قال ابن مسعود رضى الله عنه يؤخذ العبد والأمة يوم القيامة على رءوس الأشهاد وينادى مناد ألا إن هذا فلان فمن له عليه حق فليأت إلى حقه فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حق على أمها أو أختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وعن قتادة لاشىء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شىء ثم تلا (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) وعن الشعبى قال : قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله ، أما نتعارف يوم القيامة ، أسمع الله تعالى يقول (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) فقال عليه الصلاة والسلام «ثلاث مواطن تذهل فيها كل نفس ؛ حين يرمى إلى كل إنسان كتابه ، وعند الموازين ، وعلى جسر جهنم » وطعن بعض الملحدة فقال قوله (ولا يتساءلون) وقوله (ولا يسأل حميم حميما) يناقض قوله (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) وقوله (يتعارفون بينهم) (الجواب) عنه من وجوه : (أحدها) أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ففيه أزمنة وأحوال مختلفة فيتعارفون ويتساءلون فى بعضها ، ويتحيرون فى بعضها لشدة الفزع (وثانيها) أنه إذا نفخ فى الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل ، فاذا نفخ فيه أخرى أقبل بعضهم على بعض وقالوا (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن) (وثالثها) المراد لا يتساءلون بحقوق النسب (ورابعها) أن قوله (لايتساءلون) صفة للكفار وذلك لشدة خوفهم .

أما قوله (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فهو صفة أهل الجنة إذا دخلوها ، واعلم أنه سبحانه قد بين أن بعد النفخ فى الصور تكون المحاسبة ، وشرح أحوال السعداء والأشقياء ، وقيل لما بين سبحانه أنه ليس فى الآخرة إلا ثقل الموازين وخفتها ، وجب أن يكون كل مكلف لا بد وأن يكون من أهل الجنة وأهل الفلاح أومن أهل النار فيبطل بذلك القول بأن فيهم من لا يستحق الثواب والعقاب أو من يتساوى له الثواب والعقاب ، ثم إنه سبحانه شرح حال السعداء بقوله (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) وفى الموازين أقوال : (أحدها) أنه استعارة من العدل (وثانيها) أن الموازين هى الأعمال الحسنة فمن أتى بما له قدر وخطر فهو الفائز الظافر ، ومن أتى بما لا وزن له كقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) فهو خالد فى جهنم . قال ابن عباس رضى الله عنهما الموازين جمع موزون وهى الموزونات من الأعمال أى الصالحات التى لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله (فلا نقيم لهم يوم

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ
عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ
عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا

القيامة وزناً) أى قدراً (وثالثها) أنه ميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات في أحسن صورة ، والسيئات فى أقبح صورة فمن ثقلت حسناته سيق إلى الجنة ومن ثقلت سيئاته فإلى النار ، وتمام الكلام فى هذا الباب قد تقدم فى سورة الأنبياء عليهم السلام . وأما الأشقياء فقد وصفهم الله تعالى بأمور أربعة : (أحدها) أنهم خسروا أنفسهم ، قال ابن عباس رضى الله عنهما غبنوها بأن صارت منازلهم للمؤمنين ، وقيل امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم فى العذاب (وثانيها) قوله (فى جهنم خالدون) ودلالته على خلود الكفار فى النار بينة . قال صاحب الكشاف (فى جهنم خالدون) بدل من خسروا أنفسهم أو خبر بعد خبر لأولئك أو خبر مبتدأ محذوف (وثالثها) قوله (تلفح وجوههم النار) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم ، قال الزجاج : اللفح والنفخ واحد إلا أن اللفح أشد تأثيراً (ورابعها) قوله (وهم فيها كالحون) والكلوح أن تتقلص الشفتان ويتباعدا عن الأسنان ، كما ترى الرءوس المشوية ، وعن النبي ﷺ أنه قال « تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته » ، وقرىء كلحون ، ثم إنه سبحانه لما شرح عذابهم ، حكى ما يقال لهم عند ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، وهو قوله تعالى (ألم تكن آياتى تتلى عليكم) ثم إنكم كنتم تكذبون بها مع وضوحها ، فلا جرم صرتم مستحقين لما أنتم فيه من العذاب الأليم . قالت المعتزلة : الآية تدل على أنهم إنما وقعوا فى ذلك العذاب لسوء أفعالهم ، ولو كان فعل العباد بخلق الله تعالى لما صح ذلك (والجواب) أن القادر على الطاعة والمعصية إن صدرت المعصية عنه لا لمرجح البتة كان صدورها عنه اتفاقياً لا اختيارياً ، فوجب أن لا يستحق العقاب ، وإن كان لمرجح ، فذاك المرجح ليس من فعله وإلا لزم التسلسل ، فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة عنه اضطرارياً لا اختيارياً ، فوجب أن لا يستحق الثواب .

قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا

www.besturdubooks.wordpress.com

أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾

وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ، إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ .

إعلم أنه سبحانه لما قال (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) ذكروا ما يجرى مجرى الجواب عنه وهو من وجهين (الأول) قولهم (ربنا غلبت علينا شقوتنا) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : غلبت علينا ملكتنا من قولك غلبنى فلان على كذا إذا أخذه منك ، والشقاوة سوء العاقبة ، قرىء : شقوتنا وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما ، قال أبو مسلم : الشقوة من الشقاء كجرية الماء ، والمصدر الجرى ، وقد يجىء لفظ فعله ، والمراد به الهيئة والحال ، فيقول جلسة حسنة وركبة وقعدة وذلك من الهيئة ، وتقول عاش فلان عيشة طيبة ومات ميتة كريمة ، وهذا هو الحال والهيئة ، فعلى هذا المراد من الشقوة حال الشقاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائى : المراد أن طلبنا اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا إلى هذه الشقاوة ، فأطلق اسم المسبب على السبب . وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بأن لا عذر لهم فيه ، ولكنه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم فى سوء صنيعهم ، قلنا إنك حملت الشقاوة على طلب تلك اللذات المحرمة ، وطلب تلك اللذات حصل باختيارهم أو لا باختيارهم فان حصل باختيارهم فذلك الاختيار محدث ، فان استغنى عن المؤثر فلم لا يجوز فى كل الحوادث ذلك ، وحينئذ ينسد عليك باب إثبات الصانع ، وإن افتقر إلى محدث فمحدثه إما العبد أو الله تعالى؟ فان كان هو العبد فذلك باطل لوجوه (أحدها) أن قدرة العبد صالحة للفعل والترك ، فان توقف صدور تلك الإرادة عنها إلى مرجح اخر ، عاد الكلام فيه ولزم التسلسل ، وإن لم يتوقف على المرجح فقد جوزت رجحان أحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح ، وذلك يسد باب إثبات الصانع (وثانيها) أن العبد لا يعلم كمية تلك الأفعال ولا كيفيتها ، والجاهل بالشىء لا يكون محدثاً له ، وإلا لبطلت دلالة الإحكام والإتقان على العلم (والثانى) أن أحداً فى الدنيا لا يرضى بأن يختار الجهل ، بل لا يقصد إلا تحصيل العلم ، فالكافر ما قصد إلا تحصيل العلم ، فان كان الموجد لفعله هو فوجب أن لا يحصل إلا ما قصد إيقاعه . لكنه لم يقصد إلا العلم فكيف حصل الجهل ؟ فثبت أن الموجد للدواعى والبواعث هو الله تعالى ، ثم إن الداعية إن كانت سائقة إلى الخير كانت سعادة ، وإن كانت سائقة إلى الشر كانت شقاوة (الوجه الثانى) لهم فى الجواب قولهم (وكنا قوماً ضالين) وهذا الضلال الذى جعلوه كالعلة فى إقدامهم على التكذيب إن كان هو نفس ذلك التكذيب لزم تعليل الشىء بنفسه ، ولما بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون ذلك الضلال عبارة عن شىء آخر ترتب عليه فعلهم وما ذاك إلا خلق الداعى إلى الضلال ، ثم إن القوم لما أوردوا هذين

www.besturdubooks.wordpress.com

العذرين ، قال لهم سبحانه (اخسئوا فيها ولا تكلمون) وهذا هو صريح قولنا فى أن المناظرة مع الله تعالى غير جائزة ، بل لا يسأل عما يفعل . قال القاضى فى قوله (ربنا غلبت علينا شقوتنا) دلالة على أنه لا عذر لهم إلا الإعتراف ، فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبإرادته وعلموا ذلك لكانوا بأن يذكروا ذلك أجدر وإلى العذر أقرب ، فنقول قد بينا أن الذى ذكروه ليس إلا ذلك ولكنهم مقرون أن لاعذر لهم فلا جرم ، قال لهم (اخسئوا فيها ولا تكلمون) .

أما قوله (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) فالمعنى : أخرجنا من هذه الدار إلى دار الدنيا ، فإن عدنا إلى الأعمال السيئة فإنا ظالمون ، فان قيل كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا أن عقابهم دائم ؟ قلنا يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك فى أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة . ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه الغوث والإستروح .

أما قوله (اخسئوا فيها) فالمعنى ذلوا فيها وانزجروا كما يزجر الكلاب إذا زجرت ، يقال : خسأ الكلب وخسأ بنفسه .

أما قوله (ولا تكلمون) فليس هذا نهياً لأنه لا تكاليف فى الآخرة ، بل المراد لا تكلمون فى رفع العذاب فانه لا يرفع ولا يخفف . قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير ، والعواء كعواء الكلاب ، لا يفهمون ولا يفهمون. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن لهم ست دعوات ، إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) فيجابون (حق القول منى) فينادون ألف سنة ثانية (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فيجابون (ذلك بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم) فينادون ألف ثالثة (يامالك ليقض علينا ربك) فيجابون (إنكم ما كثون) فينادون ألفاً رابعة (ربنا أخرجنا) فيجابون (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) فينادون ألفاً خامسة (أخرجنا نعمل صالحاً) فيجابون (أو لم نعمركم)فينادون ألفاً سادسة (رب ارجعون) فيجابون (اخسئوا فيها) ثم بين سبحانه وتعالى ، أن فزعهم بأمر يتصل بالمؤمنين ، وهو قوله (إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً) فوصف تعالى أحد ما لأجله عذبوا وبعدوا من الخير ، وهو ما عاملوا به المؤمنين . وفى حرف أبى (أنه كان فريق) بالفتح بمعنى لأنه . وقرأ نافع وأهل المدينة وأهل الكوفة عن عاصم بضم السين فى جميع القرآن ، وقرأ الباقون بالكسر ههنا وفى ص قال الخليل وسيبويه هما لغتان كدرى ودرى . وقال الكسائى والفراء الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول ، والضم بمعنى السخرية . قال مقاتل: إن رؤساء قريش مثل أبى جهل وعتبة وأبى بن خلف كانوا يستهزئون بأصحاب رسول الله ﷺ ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال وخباب وعمار وصهيب ، والمعنى اتخذتموهم هزواً حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ذكرى وأكد ذلك بقوله (وكنتم منهم تضحكون) ثم بين سبحانه ما يقتضى فيهم الأسف والحسرة بأن وصف ما جازى به أولئك المؤمنين فقال (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)

www.besturdubooks.wordpress.com

قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

قرأ حمزة والكسائى أنهم بالكسر والباقون بالفتح فالكسر استئناف أى قد فازوا حيث صبروا فجوزوا بصبرهم أحسن الجزاء، والفتح على أنه فى موضع المفعول الثانى من جزيت ، ويجوز أن يكون نصباً بإضمار الخافض أى جزيتهم الجزاء الوافر لأنهم هم الفائزون .

قوله تعالى : ﴿قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسئل العادين ، قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾

اعلم أن فى هذه الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف فى مصاحف أهل الكوفة (قال) وهو ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة ، و(قل) فى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام وهو ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار .

﴿المسألة الثانية﴾ الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ ، فقد كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة أصلا ولا يعدون اللبث إلا فى دار الدنيا ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ولا إعادة فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون سألهم (كم لبثتم فى الأرض) تنبيهاً لهم على أن ماظنوه دائماً طويلا فهو يسير بالإضافة إلى ماأنكروه ، فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ماكانوا يعتقدونه فى الدنيا من حيث أيقنوا خلافه ، فليس الغرض السؤال بل الغرض ماذكرنا . فان قيل فكيف يصح فى جوابهم أن يقولوا (لبثنا يوماً أو بعض يوم) ولا يقع من أهل النار الكذب قلنا لعلهم نسوا ذلك لكثرة ماهم فيه من الأهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا (فاسأل العادين) قال ابن عباس رضى الله عنهما أنساهم ماكانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل مرادهم بقولهم (لبثنا يوم أو بعض يوم) تصغير لبثهم وتحقيره بالإضافة إلى ما وقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلفوا فى أن السؤال عن أى لبث وقع ، فقال بعضهم لبثهم إحياؤهم فى

www.besturdubooks.wordpress.com

الدنيا ويكون المراد أنهم أمهلوا حتى تمكنوا من العلم والعمل فأجابوا بأن قدر لبثهم كان يسيراً بناء على أن الله تعالى أعلمهم أن الدنيا متاع قليل وأن الآخرة هى دار القرار ، وهذا القائل احتج على قوله بأنهم كانوا يزعمون أن لا حياة سواها ، فلما أحياهم الله تعالى فى النار وعذبوا سألوا عن ذلك توبيخاً لأنه إلى التوبيخ أقرب ، وقال آخرون بل المراد اللبث فى حال الموت ، واحتجوا على قولهم بأمرين (الأول) أن قوله في الأرض يفيد الكون فى القبر ومن كان حياً فالأقرب أن يقال إنه على الأرض وهذا ضعيف لقوله (ولا تفسدوا فى الأرض) ، (الثانى) قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) ثم بين سبحانه أنهم كذبوا فى ذلك وأخبر عن المؤمنين قولهم (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من أنكر عذاب القبر بهذه الآية فقال قوله (كم لبثتم في الأرض) يتناول زمان كونهم أحياء فوق الأرض وزمان كونهم أمواتاً في بطن الأرض فلو كانوا معذبين فى القبر لعلموا أن مدة مكثهم فى الأرض طويلة فما كانوا يقولون (لبثنا يوماً أو بعض يوم) (والجواب) من وجهين (أحدهما) أن الجواب لابد وأن يكون بحسب السؤال ، وإنما سألوا عن موت لا حياة بعده إلا فى الآخرة ، وذلك لا يكون إلا بعد عذاب القبر (والثانى) يحتمل أن يكونوا سألوا عن قدر اللبث الذى اجتمعوا فيه ، فلا يدخل فى ذلك تقدم موت بعضهم على البعض ، فيصح أن يكون جوابهم (لبثنا يوماً أو بعض يوم) عند أنفسنا .

أما قوله (فاسأل العادين) ففيه وجوه (أحدها) المراد بهم الحفظة وأنهم كانوا يحصون الأعمال وأوقات الحياة ويحسبون أوقات موتهم وتقدم من تقدم وتأخر من تأخر ، وهو معنى قول عكرمة فاسأل العادين أى الذين يحسبون (وثانيها) فاسأل الملائكة الذين يعدون أيام الدنيا وساعاتها (وثالثها) أن يكون المعنى سل من يعرف عدد ذلك فانا قد نسيناه (ورابعها) قرىء العادين بالتخفيف أى الظلمة فإنهم يقولون مثل ما قلنا (وخامسها) قرىء العاديين أى القدماء المعمرين ، فانهم يستقصرونها فكيف بمن دونهم ؟

أما قوله (لبثتم إلا قليلا) فالمعنى أنهم قالوا (لبثنا يوم أو بعض يوم) على معنى أنا لبثنا فى الدنيا قليلا ، فكأنه قيل لهم صدقتم مالبثتم فيها إلا قليلا إلا أنها انقضت ومضت ، فظهر أن الغرض من هذا السؤال تعريف قلة أيام الدنيا فى مقابلة أيام الآخرة .

فأما قوله تعالى (لو أنكم كنتم تعلمون) فبين فى هذا الوجه أنه أراد أنه قليل لو علمتم البعث والحشر ، لكنكم لما أنكرتم ذلك كنتم تعدونه طويلا .

ثم بين تعالى ما هو فى التوبيخ أعظم بقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) وفيه مسألتان .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (عبثاً)حال أى عابثين كقوله (لاعبين) أو مفعول به أى ما خلقناكم للعبث .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه سبحانه لما شرح صفات القيامة ختم الكلام فيها بإقامة الدلالة على وجودها وهي أنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي والصديق من الزنديق ، وحينئذ يكون خلق هذا العالم عبثاً ، وأما الرجوع إلى الله تعالى فالمراد إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه لا أنه رجوع من مكان إلى مكان لاستحالة ذلك على الله تعالى ثم إنه تعالى نزه نفسه عن العبث بقوله (فتعالى الله الملك الحق) والملك هو المالك للأشياء الذي لا يبيد ولا يزول ملكه وقدرته ، وأما الحق فهو الذي يحق له الملك لأن كل شيء منه وإليه ، وهو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه ، وبين أنه لا إله سواه وأن ماعداه فمصيره إلى الفناء وما يفنى لا يكون إلهاً وبين أنه تعالى (رب العرش الكريم). قال أبو مسلم والعرش ههنا السموات بما فيها من العرش الذي تطوف به الملائكة ويجوز أن يعنى به الملك العظيم ، وقال الأكثرون المراد هو العرش حقيقة وإنما وصفه بالكريم لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة ولنسبته إلى أكرم الأكرمين كما يقال بيت كريم إذا كان ساكنوه كراماً وقرىء الكريم بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد .

قوله تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين أنه هو الملك الحق لا إله إلا هو أتبعه بأن من ادعى إلهاً آخر فقد ادعى باطلا من حيث لا برهان لهم فيه ، ونبه بذلك على أن كل مالا برهان فيه لا يجوز إثباته ، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد ثم ذكر أن من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله (فإنما حسابه عند ربه) كأنه قال إن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلا الله تعالى وقرىء أنه لا يفلح بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة السورة (قد أفلح المؤمنون) وخاتمتها (أنه لا يفلح الكافرون) فشتان مابين الفاتحة والخاتمة . ثم أمر الرسول ﷺ بأن يقول رب اغفر وارحم ويثني عليه بأنه خير الراحمين ، وقد تقدم بيان أنه سبحانه خير الراحمين فان قيل كيف تتصل هذه الخاتمة بما قبلها ؟ قلنا لأنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر بالإنقطاع إلى الله تعالى والإلتجاء إلى دلائل غفرانه ورحمته ، فانهما هما العاصمان عن كل الآفات والمخافات ، وروى أن أول سورة (قد أفلح) وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها ، واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه وعترته وأهل بيته .

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة المؤمنون

مكيَّة كلُّها في قول الجميع[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ روى البيهقيُّ من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ جنةَ عَدْن، وغَرَسَ أشجارَها بيده، قال لها: تكلَّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون»[2].

وروى النَّسائيُّ عن عبد الله بن السائب قال: حضرتُ رسولَ الله ﷺ يومَ الفتح، فصلَّى في قُبُل الكعبة، فخلَعَ نعلَيْه، فوضعَهُما عن يساره، فافتتحَ سورة المؤمنين، فلمَّا جاء ذِكْرُ موسى - أو عيسى عليهما السلام - أخذته سَعْلةٌ، فركع. خرَّجه مسلم

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٧ ، والوسيط ٣/ ٢٨٣ ، وزاد المسير ٥/ ٤٥٨ .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (٦٩١)، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٩٢ ، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٣٧ . وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: بل ضعيف. اهـ. قلنا: وقد رُوي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم من قولهم، كما في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٣ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٧ .

بمعناه[١].

وفي الترمذيِّ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أُنزِل عليه الوحيُ، سُمِع عند وجهه كدَوِيِّ النَّحْل؛ وأُنزِل عليه يوماً، فمكثنا ساعةً، فسُرِّيَ عنه[٢]، فاستقبل القبلة، ورفع[٣] يديه، وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصْنا [وأكْرِمْنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا]، وأرضِنا وارْضَ عنَّا». ثم قال: «أُنزِل عَلَيَّ عَشْرُ آيات، مَنْ أقامَهُنَّ دخلَ الجنةَ»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم عَشْر آيات[٤]. صحَّحه ابنُ العربي[٥].

قال النحاس[٦]: معنى: «مَن أقامهنَّ»: مَن[٧] أقام عليهنَّ، ولم يخالف ما فيهنَّ؛ كما تقول: فلانٌ يقوم بعمله. ثم نزل بعد هذه الآيات فرضُ الوضوء والحجِّ، فدخل معهنَّ.

---

(١) صحيح مسلم (٤٥٥)، وسنن النسائي الصغرى ٢/ ١٧٦ ، وهو في مسند أحمد (١٥٣٩٤)، وعلقه البخاري إثر حديث (٧٧٤).

(٢) في (ظ): ثم سري عنه.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): فرفع، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٣١٧٣) وما بين حاصرتين منه. وهو من طريق عبد الرزاق، عن يونس بن سُليم، عن الزُّهري، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبدٍ القاري، عن عمر ﷺ. ثم أخرجه الترمذي بإثره وزاد في الإسناد يونس بن يزيد بعد يونس بن سليم، وقال: هذا أصح.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٠٣٨)، وأحمد (٢٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٤٤٣)، والحاكم ٢/ ٣٩٢ ، قال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه، والله أعلم. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا ـ يعني يونس بن سليم ـ فقال: أظنه لا شيء.

وأورده ابن أبي حاتم في العلل ٣/ ٧٥ - ٧٦ وقال: ويونس بن سليم لا أعرفه، ولا يعرف هذا الحديث من حديث الزهري.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٥ ، قال: وهو صحيح وإن كان قد تكلم فيه أبو عيسى وقطعه!

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١١١ .

(٧) في (ظ): أي، بدل: من.

وقرأ طلحة بنُ مُصَرِّف: «قد أُفْلِح المؤمنون» بضم الألف على الفعل المجهول[١]، أي: أُبْقُوا في الثواب والخير[٢]. وقد مضى في أوَّل «البقرة» معنى الفلاح لغةً ومعنًى[٣]، والحمد لله وحدَه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿خَٰشِعُونَ﴾ روى المُعْتَمِر، عن خالد، عن محمد بن سيرين قال: كان النبيُّ ﷺ ينظر إلى السماء في الصلاة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾. فجعل رسولُ الله ﷺ ينظرُ حيثُ يَسجدُ[٤]. وفي رواية هُشيم[٥]: كان المسلمون يلتفتون في الصلاة وينظرون، حتى أنزل الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ فأقبلوا على صلاتهم، ونظروا أمامهم[٦].

وقد تقدَّم ما للعلماء في حكم المصلِّي إلى حيث ينظر في «البقرة»[٧] عند قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الآية: ١٤٤].

وقد تقدَّم أيضاً معنى الخشوع لغةً ومعنًى في «البقرة»[٨] أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [الآية: ٤٥].

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٧ ، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٣٦ .

(٢) في (ظ): والخيرات.

(٣) ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٧ ، ومعتمر: هو ابن سليمان التَّيمي، وخالد: هو ابن مهران الحذاء.
وأخرجه عبد الرزاق (٣٢٦١) (٣٢٦٢)، وأبو داود في المراسيل (٤٥)، والطبري ١٧/ ٧ ، والبيهقي ٢/ ٢٨٣ من طريق أيوب عن ابن سيرين، بنحوه. وقال البيهقي: هذا هو المحفوظ مرسل. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٥ : هذا الحديث مقطوع مظنون.

(٥) في (ظ): إبراهيم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٣٥ .

(٦) في (د) و(م): وجعلوا ينظرون أمامهم، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الناسخ والمنسوخ للنحاس، ورواية هُشيم أخرجها الطبري ١٧/ ٧ ، وابنُ أبي شيبة ٢/ ٢٤٠ ، من طريقه، عن ابن عَوْن، عن ابن سيرين (واللفظ لابن أبي شيبة): كان رسول الله ﷺ مما ينظر إلى الشيء في الصلاة، فيرفع بصره حتى نزلت آية؛ إن لم تكن هذه، فلا أدري ما هي: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال: فوضع النبي ﷺ رأسَه.

(٧) ٢/ ٤٤٤ .

(٨) ٢/ ٧٠ .

والخشوع محلُّه القلب، فإذا خَشَع خشعتِ الجوارحُ كلُّها لخشوعه؛ إذ هو مَلِكُها، حسبما بيَّنَّاه أوَّل «البقرة».

وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة[١]، وقام إليها، يَهاب الرحمنَ أن يَمُدَّ بصره إلى شيء، وأن يُحدِّث نفسَه بشيء من الدنيا[٢].

وقال عطاء: هو ألَّا يعبثَ بشيءٍ من جسده في الصلاة[٣].

وأبصرَ النبيُّ ﷺ رجلاً يعبثُ بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خَشَع قلبُ هذا، لخشعت جوارحُه»[٤]. وقال أبو ذَرٍّ: قال النبيُّ ﷺ: «إذا قامَ أحدُكم إلى الصلاة، فإن الرَّحمة تُواجهه، فلا يُحرِّكَنَّ الحصى». رواه الترمذي[٥].

وقال الشاعر:

ألَا في الصلاة الخيرُ[٦] والفضل أجمعُ لأنَّ بها الآرابَ[٧] لله تخضعُ

---

(١) في (ظ) و(د): إذا قام إلى الصلاة، وفي (ز): إذا أقام إلى الصلاة، والمثبت من (خ) و(م).

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥.

(٣) أورده البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٢.

(٤) هو عند الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ٣١٧ من حديث أبي هريرة. وأورده العراقي كما في الفتح السماوي ٢/ ٨٥٤، وطرح التثريب ٢/ ٣٧٢، والمغني عن حمل الأسفار ١/ ١٥١ (بهامش الإحياء)، والسيوطي في الجامع الصغير ٥/ ٣١٩ (مع شرحه فيض القدير) ونسباه للحكيم الترمذي هكذا مرفوعاً، وضعفاه، وقال العراقي كما في الفتح السماوي: فيه سليمان بن عمرو أبو داود النخعي أحد من اتهم بوضع الحديث. اهـ وقال في المغني: سنده ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب، رواه ابن أبي شيبة في المصنف، وفيه رجل لم يسم. اهـ

وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٨٩، والزهد لابن المبارك (١١٨٩) من طريق معمر، وفي مصنف عبد الرزاق (٣٣٠٩) من طريق الثوري، كلاهما عن رجل عن ابن المسيب.

وأخرجه عبد الرزاق أيضاً (٣٣٠٨) عن معمر، عن أبان، عن ابن المسيب، وأبان - هو ابن أبي عياش - متروك.

(٥) في سننه برقم (٣٧٩)، ولفظه: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى، فإن الرحمة تواجهه». وقال: حديث حسن. اهـ. وهو في مسند أحمد (٢١٣٣٠).

(٦) في (د) و(ظ) و(ز): الحمد.

(٧) في (ظ): الأرباب، والمثبت من باقي النسخ، والآراب: جمع الإِرْب، وهو العضو، القاموس المحيط (أرب).

وأوّلُ فرضٍ من شريعة ديننا … وآخِرُ ما يبقى إذا[1] الدِّينُ يُرفعُ
فمن قام للتكبير لاقته رحمةٌ … وكان كعبدٍ بابَ مولاه يَقْرَعُ
وصار لربِّ العرش حين صَلاته … نَجِيًّا فيَا طُوباه لو كان يخشعُ

وروى أبو عِمْران الجَوْنيُّ قال: قيل لعائشة: ما كان خُلُق رسولِ الله ﷺ؟ قالت: أتقرؤون سورةَ المؤمنين؟ قيل: نعم. قالت: اقرؤوا، فقرئ عليها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى بلغ: ﴿يُحَافِظُونَ﴾[2].

وروى النَّسائيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يلحظُ في صلاته يميناً وشِمالاً، ولا يَلوي عُنُقه خلف ظهره[3].

وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل: ثم أصلِّي قريباً منه ـ يعني من النبيِّ ﷺ ـ وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي، نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه، أعرض عني... الحديث[4]؛ ولم يأمره بإعادة.

الثالثة: اختلف الناس في الخشوع، هل هو من فرائض الصلاة، أو من فضائلها ومكَمِّلاتها؟ على قولين: والصحيح الأوّل. ومحلُّه القلب.

---

(١) في (ظ): إذ.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥، والحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٧)، والحاكم ٢/ ٣٩٢ من طريق أبي عمران الجَوْني، عن يزيد بن بابنوس قال: قلت لعائشة... ويزيد بن بابنوس؛ قال فيه الحافظ في التقريب: مقبول. اهـ. يعني حيث يُتابع، لكنه تفرد به، ولم يتابع عليه.

(٣) سنن النسائي ٣/ ٩، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٢٤٨٥)، وأبو داود ـ كما في تحفة الأشراف ٥/ ١١٧ ـ والترمذي (٥٨٧)، والدارقطني (١٨٦٤)، والحاكم ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧، والبيهقي ٢/ ١٣. وقال الترمذي: هذا حديث غريب. اهـ. وصحح إسناده الحاكم. وقال الدارقطني: تفرد به الفضل بن موسى عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند متصلاً، وأرسله غيره. وكذا قال البيهقي، وصحح أبو داود المرسل منه. قال ابن حجر في التقريب: الفضل بن موسى ثقة ثبت وربما أغرب.

وقوله: يلحظ: من اللحظ، وهو النظر بشقِّ العين الذي يلي الصُّدْغ. النهاية (لحظ).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، وهو عند أحمد (١٥٧٨٩) وسلف ١٠/ ٤١٢ وما بعدها.

وهو أوّل علم يُرفع من الناس؛ قاله عُبادة بنُ الصامت، رواه الترمذيُّ من حديث جُبير بنِ نُفير عن أبي الدَّرداء، وقال: هذا حديث حسن غريب[١]. وقد خرَّجه النَّسائي من حديث جُبير بن نفير أيضاً، عن عوف بن مالك الأشجعيِّ من طريق صحيحة[٢]. قال أبو عيسى[٣]: ومعاوية بنُ صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحداً تكلَّم فيه غيرَ يحيى بنِ سعيدٍ القَطَّان.

قلت: معاوية بن صالح أبو عمرو - ويقال: أبو عمر[٤] - الحضرميُّ الحمصيُّ قاضي الأندلس، سُئل عنه أبو حاتم الرازي فقال: صالح الحديث، يُكتب حديثه ولا يحتجُّ به. واختلَف فيه قولُ يحيى بن معين، ووثَّقه عبد الرحمن بنُ مهدي وأحمد بنُ حنبل وأبو زُرْعة الرازي[٥]. واحتجَّ به مسلم في «صحيحه».

وتقدَّم في «البقرة» معنى اللغو والزكاة[٦]، فلا معنى للإعادة.

وقال الضَّحَّاك: إن اللغو هنا الشِّرك. وقال الحسن: إنه المعاصي كلُّها. فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال: هو الشرك، وقولُ مَن قال: هو الغناء؛ كما روى مالك ابنُ أنس عن محمد بن المُنْكَدِر[٧]، على ما يأتي في «لُقمان» بيانُه[٨].

(١) سنن الترمذي برقم (٢٦٥٣)، وهو من طريق معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، به.

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٥٨٧٨)، وأخرجه أحمد (٢٣٩٩٠)، والبخاري في خلق أفعال العباد (٣٣٧) و(٣٣٨) و(٣٣٩).

(٣) هو الترمذي، وقوله هذا بإثر الحديث السالف.

(٤) كذا قال، والمعروف له كنيتان: أبو عمرو، وأبو عبد الرحمن، ولعله: أبو عمر، تحريف أبي عمرو. ينظر تهذيب الكمال.

(٥) في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٦) ٢/ ٢٣ - ٢٤، ٤/ ١٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٩ - ١١٠، وأخرج قول الحسن عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٣، والطبري ١٧/ ١١.

(٨) عند تفسير الآية السادسة منها.

ومعنى «فاعلون» أي: مؤدُّون، وهي فصيحة، وقد جاءت في كلام العرب، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت[١]:

المُطْعِمون الطعامَ في السَّنة الأ زمة والفاعلون للزَّكَواتِ

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾ قال ابن العربي[٢]: مِن غريب القرآن أنَّ هذه الآياتِ العَشْرَ عامّةٌ في الرجال والنساء، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتمِلة لهم، فإنها عامَّة فيهم، إلا قولَه ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾، فإنما خاطب بها الرجال خاصَّةً دون الزوجات، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ [ولا إباحة بين النساء وبين مِلْك اليمين في الفرج]، وإنما عُرف حفظ المرأة فرجَها من أدلة أُخَر، كآيات الإحصان عموماً وخصوصاً، وغيرِ ذلك من الأدلّة.

قلت: وعلى هذا التأويل في الآية، فلا يحلُّ لامرأة أن يطأها مَن تملكه إجماعاً من العلماء؛ لأنها غيرُ داخلة في الآية، ولكنها لو أعتقته بعد مِلْكها له، جاز له أن يتزوَّجها، كما يجوز لغيره عند الجمهور. ورُوي عن عبيد بن عبد الله بن عُتبة، والشَّعْبيِّ، والنَّخَعيِّ: أنها لو أعتقته حين مَلَكته، كانا على نكاحهما. قال أبو عمر[٣]: ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار؛ لأن بملكها[٤] عندهم يبطل النكاح بينهما، وليس ذلك بطلاق، وإنما هو فسخ للنكاح؛ وأنها لو أعتقته بعد مِلْكها له، لم يراجعها إلا بنكاح جديد، ولو كانت في عِدَّة منه.

الخامسة: قال محمد بنُ عبد الحكم: سمعت حَرْملةَ بنَ عبد العزيز قال: سألتُ مالكاً عن الرجل يَجْلِد عُمَيرةَ، فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾ إلى

---

(١) ديوانه ص٣٠.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٨ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في الاستذكار ١٦/ ٣١٧ وما قبله منه.

(٤) في (م) و(د): تملكها.

قوله: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾. وهذا لأنهم يَكْنُون عن الذَّكَر بعُمَيْرة؛ وفيه يقول الشاعر:

إذا حَـلَـلْـتَ بـوادٍ لا أنـيـس بـه فـاجْـلِـدْ عُـمَـيـرةَ لا داءٌ ولا حَـرَجُ[(١)]

ويسمِّيه أهل العراق: الاستمناء، وهو استفعال من المَنِيّ[(٢)].

وأحمد بن حنبل على ورعه يجوِّزه[(٣)]، ويحتجُّ بأنه إخراج فَضْلة من البدن، فجاز عند الحاجة؛ أصله الفَصْد[(٤)] والحجامة.

وعامة العلماء على تحريمه.

وقال بعض العلماء: إنه كالفاعل بنفسه، وهي معصية أحدثها الشيطان، وأَجْراها بين الناس، حتى صارت مسألة[(٥)]، ويا ليتها لم تُقَل، ولو قام الدليل على جوازها؛ لكان ذو المروءة يُعْرِض عنها لدناءتها. فإن قيل: إنها خير من نكاح الأَمَة، قلنا: نكاح الأمة ـ ولو كانت كافرةً على مذهب بعض العلماء ـ خير من هذا، وإن كان قد قال به قائل أيضاً، ولكن الاستمناء ضعيف في الدليل، عارٌ بالرجل الدنيء، فكيف بالرجل الكبير؟![(٦)].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ قال الفرّاء: أي: [إلا] من أزواجهم اللاتي أحل الله لهم لا يُجاوَزْنَ[(٧)]. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ في موضع خفض معطوفة

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ٥/ ١٧٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٨ ، وما بعده منه.

(٣) كذا نقل المصنف عن أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٨ منسوباً للإمام أحمد، والمنقول عن أحمد قولان، أصحهما أن الاستمناء حرام، والآخر مكروه عند الضرورة، ينظر القواعد لابن رجب ٢٤٦ ، وفتاوى ابن تيمية ٣٤/ ٢٢٩ و ٢٣١ ، وكشاف القناع ٦/ ١٢٤ ، والإنصاف ٢٦/ ٤٦٦ .

(٤) في (خ) و(ظ): فجاز عند الحاجة كالفصد.

(٥) في (م): قيلة. وكذا في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٩ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٨ - ١٢٩٩ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): يجاوزون، والمثبت من (خ). وجاء في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١ : اللاتي أحل الله لهم من الأربع لا تجاوز.

على «أزواجهم» و«ما» مصدرية[١].

وهذا يقتضي تحريم الزنى وما قلناه من الاستمناء، ونكاحِ المُتْعة؛ لأن المتمتَّع بها لا تجري مَجرى الزوجات، لا تَرِث ولا تورث، ولا يلحق به ولدها، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها، وإنما يخرج[٢] بانقضاء المدّة التي عُقدت عليها وصارت كالمستأجَرَة[٣]. ابن العربي[٤]: إن قلنا: إن نكاح المتعة جائز، فهي زوجة إلى أجلٍ، ينطلق عليها اسم الزوجية[٥]، وإن قلنا بالحق الذي أجمعت عليه الأمةُ من تحريم نكاح المتعة، لَمَا كانت زوجةً، فلم تدخل في الآية.

قلت: وفائدة هذا الخلاف: هل يجب الحدُّ، ولا يُلحق الولد كالزنى الصريح، أو يُدفع الحدُّ للشبهة ويُلحق الولد؟ قولان لأصحابنا[٦].

وقد كان للمتعة في التحليل والتحريم أحوال؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة، ثم حرَّمها رسولُ الله ﷺ زَمَنَ خَيْبَر، ثم حلَّلها في غَزاة الفتح، ثم حرمها بعدُ؛ قاله ابن خُويْزمَنْدَاد من أصحابنا وغيرُه، وإليه أشار ابن العربي[٧]. وقد مضى في «النساء»[٨] القولُ فيها مستوفًى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فسمَّى مَن نَكَح ما لا يَحِلُّ عادِياً، وأوجب عليه الحدَّ بعدوانه[٩]، واللائطُ عادٍ، قرآناً ولغة، بدليل

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٠ ، ومعاني القرآن له أيضاً ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤ ، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) في (ظ): يخرج منه.

(٣) ينظر الاستذكار ١٦/ ٢٩٦ - ٢٩٧ ، والتمهيد ١٠/ ١١٦ . وسلف الكلام في هذا ٦/ ٢١٩ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٩ .

(٥) في (ظ): الزوجة، وكذا هي في أحكام القرآن لابن العربي.

(٦) المفهم ٤/ ٩٣ .

(٧) في أحكام القرآن ١/ ٣٨٩ ، والقبس ٢/ ٧١٣ - ٧١٤ .

(٨) ٦/ ٢١٨ - ٢١٩ .

(٩) في (م): لعدوانه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] ـ كما تقدم في «الأعراف»[١] ـ فوجب أن يقام الحدُّ عليهم، وهذا ظاهر لا غبارَ[٢] عليه[٣].

قلت: فيه نظر، ما لم يكن جاهلاً أو متأوِّلاً، وإن كان الإجماع منعقِداً على أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ خُصَّ به الرجال دون النساء؛ فقد روى مَعْمَر عن قتادة قال: تسرَّرَت امرأةٌ غلامَها؛ فذُكر ذلك لعمر، فسألها: ما حملكِ على ذلك؟ فقالت: كنتُ أُراه يحلّ لي بِمِلْك يمين، كما يحلُّ للرجل المرأة بمِلك اليمين. فاستشار عمرُ في رَجْمها أصحابَ رسول الله ﷺ، فقالوا: تأوّلَتْ كتابَ الله عزَّ وجلَّ على غير تأويله، لا رجمَ عليها. فقال عمر: لا جَرَم واللهِ لا أُحِلُّكِ لحرٍّ بعده أبداً. عاقبها بذلك ودرأ الحدَّ عنها، وأمر العبدَ ألّا يقْرَبها[٤].

وعن أبي بكر بن عبد الله، أنه سمع أباه يقول: أنا حضرتُ عمر بنَ عبد العزيز، جاءته امرأةٌ بغلام لها وَضيء، فقالت: إني اسْتَسْررتُه، فمنعني بنو عمي عن ذلك، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها؛ فانْهَ عني بني عمي؛ فقال عمر: أتزوَّجتِ قبله؟ قالت: نعم؛ قال: أمَا والله، لولا منزلتُكِ من الجهالة، لرجمتُكِ بالحجارة، ولكنِ اذهبوا به، فبيعوه إلى مَن يَخرج به إلى غير بلدها[٥].

و«وَرَاءَ» بمعنى: سِوى، وهو مفعول بـ «ابتغى»، أي: مَن طلب سِوى الأزواج والولائد المملوكةِ له[٦]. وقال الزجاج: أي: فمن ابتغى ما بعد ذلك[٧]. فمفعول

---

(١) ٩/ ٢٧٩.

(٢) في (د) و(ز): لا عناد عليهم.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٩.

(٤) الاستذكار ١٦/ ٣١٨، وأخرجه عبد الرزق (١٢٨١٨).

(٥) في الاستذكار ١٦/ ٣١٨، وأخرجه عبد الرزاق (١٢٨٢١) وفيهما، وفي الدر المنثور ٥/ ٥: بغلام لها رومي، بدل: بغلام لها وضيء.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٣.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧.

الابتغاء محذوف، و«وَرَاءَ» ظرف، و«ذَلِكَ» يُشار به إلى كلِّ مذكور، مؤنَّثاً كان أو مذكَّراً.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي: المجاوزون الحدَّ؛ مِن عدا، أي: جاوَزَ الحدَّ، وجازَه.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ قرأ الجمهور: «لأماناتهم» بالجمع، وابنُ كثير بالإفراد[1].

والأمانةُ والعهد يجمع كلَّ ما يحملُه الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يَعمُّ معاشرةَ الناس والمواعيدَ وغيرَ ذلك. ورعايةُ[2] ذلك: حفظُه والقيامُ به، والأمانة أعمُّ من العهد، وكلُّ عهد فهو أمانة فيما تقدَّم فيه قول أو فعل أو معتقَد.

التاسعة: قرأ الجمهور: «صَلَوَاتِهِمْ»، وحمزةُ والكسائيُّ: «صلاتِهم» بالإفراد[3]، وهذا الإفراد اسم جنس، فهو في معنى الجمع[4]، والمحافظةُ على الصلاة: إقامتُها والمبادرةُ إليها أوائلَ أوقاتها، وإتمامُ ركوعها وسجودها. وقد تقدَّم في «البقرة»[5] مستوفًى.

ثم قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ أي: مَن عمِلَ بما ذُكر في هذه الآيات فهم الوارثون، أي: يرثون منازل أهل النار من الجنة[6]. وفي الخبر عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى جعلَ لكلِّ إنسان مسكناً في الجنة، ومسكناً في النار، فأمَّا المؤمنون فيأخذون منازلَهم، ويرثون منازلَ الكفار، ويَحصُل[7] الكفار في منازلهم

(١) السبعة ص٤٤٤، والتيسير ص١٥٨.
(٢) في النسخ: وغاية. والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧، والكلام منه.
(٣) السبعة ص٤٤٤، والتيسير ص١٥٨.
(٤) في (د) و(م): الجميع، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧ والكلام منه.
(٥) ١/ ٢٥٣ وما بعدها.
(٦) الوسيط ٣/ ٢٨٥.
(٧) في (م) و(د): ويجعل. والمثبت من بقية النسخ، والمحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ١٣٧، والكلام منه.

في النار»[١]. خرَّجه ابنُ ماجه[٢] بمعناه عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا له[٣] منزلان، منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات، فدخل النار، وَرِث أهلُ الجنة منزِلَه، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾. إسناده صحيح.

ويحتمل أن يُسمَّى الحصول على الجنة وراثةً من حيث حَصَّلوها[٤] دون غيرهم، فهو اسمٌ مستعار على الوجهين[٥].

والفِرْدوس: رَبْوَةُ الجنة وأوسطُها وأفضلُها. خرَّجه الترمذيُّ من حديث الرُّبَيِّع بنتِ النَّضر أمِّ حارثة، وقال: حديث حسن صحيح[٦].

وفي حديث مسلم[٧]: «فإذا سألتم اللهَ، فسَلُوه الفردوسَ، فإنه أوسطُ الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهارُ الجنة». قال أبو حاتم محمد بن حِبَّان: قوله ﷺ: «فإنه أوسط الجنة» يريد أن الفردوسَ في وَسَط الجِنان في العرض. «وهو أعلى الجنة» يريد في الارتفاع[٨].

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٤، والطبري ١٧/ ١٥، والحاكم ٢/ ٣٩٣، والبيهقي في البعث (٢٦٨). قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) في سننه (٤٣٤١)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢.

(٣) في (م): إلا وله.

(٤) في (ظ): «حصولها لهم»، وفي بقية النسخ: «حصولها» والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧.

(٦) سنن الترمذي (٣١٧٤). لكن قوله: «الفردوس: ربوة الجنة وأوسطُها وأفضلُها» مُدْرَج من قول قتادة آخر الحديث، وليس من كلامه ﷺ، فقد جاء مصرحاً به عند البيهقي في السنن ٩/ ١٦٧، وفيه: قال رسول الله ﷺ لأمِّ حارثة: «إن ابنكِ أصاب الفردوس الأعلى». قال قتادة: الفردوس ربوة الجنة... الخ. وسلف قول قتادة هذا آخر سورة الكهف عند تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفروس نزلاً﴾. ويُشار إلى أن حديث أمِّ حارثة عند أحمد (١٣٢٠٠)، والبخاري (٢٨٠٩). يعني دون قول قتادة.

(٧) لم يخرجه مسلم، وقد عزاه المزي في تحفة الأشراف ١٠/ ٢٧٨ للبخاري فقط، وهو عند البخاري برقم (٢٧٩٠) وأحمد (٨٤١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ونسبه المصنف آخر الكهف للبخاري.

(٨) صحيح ابن حبان إثر حديث (٤٦١١).

وهذا كلُّه يصحِّح قول أبي هريرة: إنَّ الفردوسَ جبلُ الجنة الذي يتفجَّر[١] منه أنهار الجنة.

واللفظة فيما قال مجاهد: رُومية عُرِّبت[٢]. وقيل: هي فارسية عُرِّبت. وقيل: حبشية[٣]. وإن ثبت ذلك فهو وِفاقٌ بين اللغات. وقال الضحاك: هو عربيٌّ، وهو الكَرْم[٤]، والعرب تقول للكروم: فراديس[٥].

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فأُنِّث على معنى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الإنسان هنا: آدمُ عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة وغيره[٦]، لأنه استُلَّ من الطِّين[٧].

ويَجيء الضمير في قوله: «ثم جعلناه» عائداً على ابن آدم، وإن كان لم يُذكر لشهرة الأمر، فإن المعنى لا يصلُح إلا له، نظير ذلك: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

---

(١) في النسخ عدا (ظ): التي تتفجر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٤٧ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ١٦، وينظر المعرب للجواليقي ص٢٨٨.

(٣) تفسير الرازي ٢٣/ ٨٢.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ١٣٧.

(٦) لفظ: وغيره. ليس في (ظ) ولم نقف عليه في المصادر لغير قتادة.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٤، والطبري في تفسيره ١٧/ ١٨، وينظر الدر المنثور ٥/ ٦.

وقيل: المراد بالسُّلالة: ابنُ آدم؛ قاله ابن عباس وغيره. والسُّلالة على هذا: صفوة الماء، يعني المَنيَّ(١).

والسُّلالة فُعالة(٢) من السَّلّ، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سَلَلت الشعر من العجين، والسيفَ من الغِمد، فانسلّ(٣)، ومنه قوله:

فسُلِّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسُلِ(٤)

فالنطفة سُلالة، والولد سَليل وسُلَالة؛ عَنَى به الماء يُسَلُّ من الظهر سَلًّا(٥). قال الشاعر:

فجاءتْ به عَضْبَ الأدِيم غَضنْفَراً سُلالةَ فَرْجٍ كان غيرَ حصِينِ(٦)

وقال آخر:

وهل هِنْدُ(٧) إلَّا مُهْرَةٌ عربيَّةٌ سَليلةُ أفراسٍ تجلَّلها بَغْلُ(٨)

وقوله ﴿مِّن طِينٍ﴾ أي: إن الأصل آدمُ، وهو من طين(٩). قلت: أي: من طين

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧ والكلام قبله منه، وأخرج قول ابن عباس وغيره الطبري ١٧/ ١٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٦ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٩٢ وما بعدها.

(٤) هو عجز بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٣ ، وصدره: وإن كنتِ قد ساءتك مني خليقة. والمعنى: إن كان في خلقي ما لا ترضينه، فاقطعي أمري من أمرك.

(٥) ينظر الوسيط ٣/ ٢٨٥ .

(٦) قائله حسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص٤٨٢ .

(٧) في (م) والنكت والعيون ٤/ ٤٧ : وما هند، والمثبت من النسخ.

(٨) نُسب البيت في أدب الكاتب ص٤١ لهند بنت النعمان بن بشير، ونسب في الأغاني ١٦/ ٥٤ ، والاقتضاب ص١١٧ ، ٣٠٦ لحميدة بنت النعمان بن بشير. وجاء في الأغاني: وما أنا، بدل: وهل هند. وجاء في الاقتضاب: نَغْل ـ بالنون ـ، بدل: بغل. قال ابن السِّيد البطليوسي: وروى أبو علي: تجللها بغل، وأنكر كثير من أصحاب المعاني هذه الرواية، وقالوا: هي تصحيف؛ لأن البغل لا يَنْسُل، والصواب: نَغْل ـ بالنون ـ وهو الخسيس من الناس والدوابّ. وأصله: نَغِل ـ بكسر الغين ـ ثم تخفف الكسرة، فيقال: نَغْل.

(٩) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٤ .

خالص، فأمَّا ولده، فهو من طين ومنيٍّ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام[١].

وقال الكلبيُّ: السلالة: الطين؛ إذا عصرتَه انسلَّ من بين أصابعك، فالذي يخرج هو السُّلالة[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿نُطْفَةً﴾ قد مضى القول في النُّطْفة والعَلَقة والمُضْغة وما في ذلك من الأحكام في أول الحج، والحمد لله على ذلك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ اختلف الناس في الخَلْق الآخَر؛ فقال ابن عباس والشَّعْبيُّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد: هو نفخ الروح فيه[٣]، بعد أن كان جماداً. وعن ابن عباس: خروجُه إلى الدنيا[٤]. وقال قتادة عن فِرقة: نباتُ شَعره. الضحاك: خروج الأسنان ونباتُ الشَّعر. مجاهد: كمال شبابه؛ ورُوي عن ابن عمر[٥]. والصحيح أنه عامٌّ في هذا وفي غيره من النُّطق والإدراك وحُسْن المحاولة وتحصيلِ المعقولات إلى أن يموت[٦].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يروى أن عمر بنَ الخطاب ﷺ لَمَّا سمع صَدْرَ الآية إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال: فتبارك الله أحسن الخالقين؛ فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت»[٧].

---

(١) ٨/٣١٨.

(٢) أورده أبو الليث في تفسيره ٢/٤٠٩ والماوردي في النكت والعيون ٤/٤٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/١٣٨ والوسيط ٣/٢٨٦، وأخرجه الطبري ١٧/٢٢ - ٢٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/١٣٨.

(٥) أخرج قول قتادة والضحاك ومجاهد الطبري ١٧/ ٢٤، وأورده ـ عن ابن عمر ـ ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٦٣.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٤/١٣٨.

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٤٤)، وفي الأوسط (٥٦٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً، دون قوله: هكذا أنزلت. وأورده الهيثمي في «المجمع» ٩/٦٨، وقال: فيه أبو عبيدة بن فضيل ابن عياض، وهو لين، وبقية رجاله ثقات.

وفي «مسند الطَّيالِسيّ»: ونزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية؛ فلما نزلت قلت أنا: تبارك الله أحسن الخالقين؛ فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[١].

ويُروى أنَّ قائل ذلك معاذُ بنُ جَبَل[٢]. ويُروى أن قائل ذلك عبدُ الله بنُ أبي سَرْح، وبهذا السبب ارتدَّ وقال: آتي[٣] بمثل ما يأتي محمد، وفيه نزلت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] على ما تقدم بيانه في «الأنعام»[٤].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: أتقن الصانعين، يقال لمن صنع شيئاً: خَلَقه؛ ومنه قول الشاعر:

ولأنـت تَـفْـري مـا خـلـقـتَ وبعـ ... ـضُ الـقـوم يَـخْـلُـقُ ثـم لا يَـفْـري[٥]

وذهب بعض الناس إلى نَفْي هذه اللفظة عن الناس، وإنما يُضاف الخَلْق إلى

---

(١) مسند الطيالسي ص٩ - ١٠ ومن طريقه أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٩ ـ وابن أبي داود في المصاحف (٣٠٥) والواحدي في أسباب النزول ٣٢٣ عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد ابن جدعان، عن أنس ﷺ، قال عمر ﷺ: وافقت ربي في أربع... وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان، ولتفرده بذكر الموافقة في قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فالحديث مشهور من رواية حميد، عن أنس، عن عمر، كما في «صحيح البخاري» (٤٤٨٣)، و«مسند أحمد» (١٦٠) (٢٥٠)، وليس فيه ذكر الموافقة في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. وأخرجه مسلم (٢٣٩٩) من طريق ابن عمر، عن عمر أيضاً، وليس فيه ذكر هذه الموافقة.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٥٦٥٤)، وابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٩ ـ من حديث زيد بن ثابت ﷺ. وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٧٢ : فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ وقال ابن كثير في تفسيره ٥/ ٤٦٩ : في إسناده جابر بن يزيد الجعفي، ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد ابن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم.

(٣) في (ظ): إني آتي، وفي المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ : أنا آتي.

(٤) ٨/ ٤٥٩ .

(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى، يمدح به هَرِم بن سنان، وهو في ديوانه ص٩٤ . وأورده البغدادي في خزانة الأدب ٦/ ٣٢٣ ، والفري: القطع. لسان العرب (فري).

الله تعالى، وقال ابن جُريج: إنما قال: ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾؛ لأنه تعالى قد أَذِن لعيسى عليه السلام أن يَخلُق. واضطرب بعضُهم في ذلك، ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر في معنى الصُّنع، وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم[١].

مسألة: من هذه الآية قال ابن عباس لعمرَ حين سأل مَشْيَخة الصحابة عن ليلة القدر، فقالوا: الله أعلم، فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى خلق السماواتِ سبعاً، والأرضِينَ سبعاً، وخلق ابنَ آدم مِن سبعٍ، وجعل رزقه في سبعٍ، فأُراها في ليلة سبع وعشرين. فقال عمر ﷺ: أَعجزتُم[٢] أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه، وهذا الحديث بطوله في «مسند ابن أبي شيبة»[٣]، فأراد ابنُ عباس بقوله[٤]: «خلق ابن آدم من سبعٍ» هذه[٥] الآيةَ، وبقوله: «وجعل رزقَه في سبع» قولَه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ الآية [عبس: ٢٧-٣١]، السبع منها لابن آدم، والأبُّ للأنعام. والقَضْبُ يأكله ابنُ آدم، ويَسْمَن منه النِّساء؛ هذا قول. وقيل: القَضْب: البقول لأنها تُقْضَبُ، فهي رزق ابن آدم. وقيل: القَضْب والأبُّ للأنعام، والسِّتُّ الباقية لابن آدم،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ ، وأثر ابن جريج أخرجه الطبري ١٧/ ٢٥ بنحوه، وينظر الأسنى للمصنف ٣٣٤ .

(٢) في النسخ: أعجزكم، والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) كذا نسبه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٣/ ١٣٢ ، وابن حجر في المطالب العالية ٦/ ٢٢٧ لابن أبي شيبة في مسنده، وليس هو في مصنفه. وعند البوصيري: وما أراه إلا ليلة ثلاث وعشرين لسبع بقين.

وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢١٠ من طريق ابن أبي شيبة، عن عبد الله بن إدريس، عن عاصم ابن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس، فذكره.

وأخرجه ابن خزيمة (٢١٧٢)، والحاكم ٣/ ٥٣٩، ومن طريقه البيهقي في السنن ٤/ ٣١٣ ، وفي الشعب (٣٥٨٦)، من طريق أحمد بن عبد الجبار، عن ابن إدريس، بالإسناد السابق بنحوه.

وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢١١ - ٢١٢ من طريق آخر بنحوه، وفيه قال ابن عباس: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر.

(٤) لفظ: بقوله. من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ والكلام منه.

(٥) في (م) و(خ) و(ز): بهذه، وفي (د): فهذه. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

والسابعةُ هي للأنعام؛ إذ هي من أعظم رزق ابن آدم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي: بعد الخلق والحياة. النحاس: ويقال في هذا المعنى: لمائتون[١].

ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ قال أبو عبيدة: أي: سبعَ سماوات[٢]. وحكى غيره[٣] أنه يقال: طارقتُ الشيء، أي: جعَلت بعضه فوق بعض. فقيل للسماوات: طرائق؛ لأن بعضها فوق بعض، والعرب تُسمِّي كلَّ شيء فوق شيء طَرِيقة[٤]. وقيل: لأنها طرائق الملائكة[٥].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ قال بعض العلماء: أي: عن خلق السماوات[٦]. وقال أكثر المفسرين: أي: عن الخَلْق كلِّهم مِن أن تسقُط عليهم، فتُهلكَهم[٧].

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي: في القيام

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٩ ، واللفظة الواردة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ ، وأبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٣٩٩ ، وقيل: هي قراءة ابن أبي عبلة وزيد بن علي وابن محيصن، وقيل: قراءة عيسى بن عمر. والله أعلم.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٥٦ وقد نقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٤٩ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩ ، وزاد المسير ٥/ ٤٦٥ .

(٣) في النسخ: وحكي عنه. والمثبت من معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٩ ، فالكلام منه، وليس من مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو منقول في زاد المسير ٥/ ٤٦٥ عن ابن قتيبة، وينظر تفسير غريب القرآن له ٢٩٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٥ .

(٦) في النسخ: السماء، والمثبت من (ظ) وتفسير الرازي ٢٣/ ٨٧ .

(٧) المصادر السابقة.

بمصالحه وحفظه، وهو معنى ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ على ما تقدم(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: هذه الآية من نِعَم الله تعالى على خلقه، ومما امتنَّ به عليهم؛ ومن أعظم المِنَن الماءُ الذي هو حياة الأبدان ونَماءُ الحيوان.

والماءُ المُنزَّل من السماء على قسمين: هذا الذي ذكر الله سبحانه وتعالى، وأخبر عنه بأنه استودعه في الأرض، وجعله فيها مُخْتَزناً لسقْي الناس، يجدونه عند الحاجة إليه، وهو ماء الأنهار والعيون، وما يُستخرج من الآبار(٢).

ورُوي عن ابن عباس وغيرِه، أنه إنما أراد الأنهارَ الأربعة: سَيْحان، وجَيْحان، ونيل مصر، والفُرات(٣).

وقال مجاهد: ليس في الأرض ماءٌ إلا وهو من السماء. وهذا ليس على إطلاقه، وإلا فالأُجَاج ثابت في الأرض، فيمكن أن يُقيَّد قولُه بالماء العذب، ولا مَحالة أن الله تعالى قد جعل في الأرض ماءً، وأنزل من السماء ماءً(٤).

وقد قيل: إن قوله ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ إشارةٌ إلى الماء العذب، وأن أصله من

---

(١) ٤/٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٠، وقد نقل المصنف عنه القسم الأول. أما القسم الثاني فقال ابن العربي: هو الذي ينزل من السماء على الأرض في كل وقت.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ ولم ينسبه، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٨ لابن أبي الدنيا.

وأخرج أحمد (٧٨٨٦)، ومسلم (٢٨٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً قال: سيحان، وجيحان، والنيل، والفرات، وكلٌّ من أنهار الجنة.

وسَيْحان و جَيْحان: نهران بالعواصم عند المَصِّيصَة وطَرَسُوس، كما في النهاية (جيح)، يعني يقعان جنوب تركيا، ينظر أطلس تاريخ الإسلام (خريطة رقم: ٦٠ ، ٧٢).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩.

البحر، رفعه الله تعالى بلطفه وحُسْن تقديره من البحر إلى السماء، حتى طاب بذلك الرَّفْع والتصعيد، ثم أنزله إلى الأرض ليُنتفع به، ولو كان الأمر إلى ماء البحر، لَمَا انْتُفع به من ملوحته[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: على مقدارٍ مُصْلِح، لأنه لو كَثُر؛ أَهْلَك[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ يعني: الماءَ المُخْتَزَن. وهذا تهديد ووعيد، أي: في قدرتنا إذهابُه وتغويره، ويَهْلِك الناس بالعطش، وتَهْلِك مواشيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[٣] [الملك: ٣٠].

الثالثة: ذكر النحاس: قُرِئ على أبي يعقوب إسحاق بنِ إبراهيم بن يونس، عن جامع بن سَوَادة قال: حدَّثنا سعيد بنُ سابق، قال: حدَّثنا مَسْلمة بنُ عُلَيٍّ، عن مقاتل ابن حَيَّان، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «أنزل الله عزَّ وجلَّ من الجنة إلى الأرض خمسةَ أنهار: سَيْحون وهو نهر الهند، وجَيْحون وهو نهر بَلْخ، ودِجْلة والفُرات، وهما نهرا العراق، والنيل، وهو نهر مصرَ، أنزلها الله تعالى من عينٍ واحدة من عيون الجنة، في أسفلِ درجة من درجاتها، على جناحَي جبريلَ عليه السلام، فاستودعها الجبالَ، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وذلك قولُه جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإذا كان عند خروج يأجوجَ ومأجوجَ، أرسل الله عزَّ وجلَّ جبريل، فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة، فيرفع ذلك إلى السماء، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، فإذا رُفِعت هذه الأشياء من الأرض، فَقَدَ

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٣/ ٨٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٠ .

أهلُها خيرَ الدين والدنيا»[١].

الرابعة: كلُّ ما نزل من السماء ـ مُخْتَزَناً كان أو غيرَ مختزن ـ فهو طاهر مُطَهِّر، يُغتسل به ويُتوضأ منه؛ على ما يأتي في «الفرقان» بيانه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا﴾ أي: جعلنا ذلك سببَ النبات، وأوجدناه به وخلَقناه.

وذكر تعالى النخيل والأعناب؛ لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما؛ قاله الطبري[٣]. ولأنها أيضاً أشرف الثمار، فذكرها تشريفاً لها وتنبيهاً عليها.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ﴾ من غير الرُّطَب والعنب. ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصَّةً، إذ فيها مراتبُ وأنواع، والأوّل أعمُّ لسائر الثمرات.

الثانية: مَن حلَف ألّا يأكل فاكهةً؛ ففي الرواية عندنا: يحنث بالباقِلاء الخضراء وما أشبهها[٤].

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٤٥٠ - ٤٥١ ، وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٦ ، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٣٤ - ٣٥ ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١/ ٥٧ - ٥٨ من طريق مسلمة بن علي، به، قال ابن عدي: وهذا حديث غير محفوظ، بل منكر المتن وكل أحاديثه، ما ذكرته، وما لم أذكره، كلها أو عامتها غير محفوظة. وقال فيه ابن حجر في التقريب: متروك.

ونهر سَيْحون وجَيْحون غير سَيْحان وجَيْحان ـ المتقدمين في قول ابن عباس ـ كما ذكر النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٦ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٨)، منها في المسألة الأولى والثانية.

(٣) في تفسيره ١٧/ ٢٨ ، ونقله المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ ، وما سيأتي منه.

(٤) بنحوه في النوادر والزيادات ٤/ ١٠٦ .

وقال أبو حنيفة: لا يحنث بأكل القِثَّاء والخيار والجزر؛ لأنها من البقول، لا من الفاكهة[١].

وكذلك الجوز واللَّوز والفستق؛ لأن هذه الأشياءَ لا تُعدُّ من الفاكهة[٢].

وإن أكل تفاحاً أو خَوخاً أو مِشْمِشاً أو تِيناً أو إجَّاصاً، يحنث. وكذلك البِطِّيخ؛ لأن هذه الأشياء كلَّها تؤكل على جهة التفكُّه قبل الطعام وبعده، فكانت فاكهة. وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البِطِّيخ اليابس؛ لأن ذلك لا يؤكل إلا في بعض البلدان[٣].

ولا يحنث بأكل البِطِّيخ الهندي؛ لأنه لا يُعدُّ من الفواكه.

وإن أكل عِنَباً أو رُمَّاناً أو رُطَباً لا يحنث، وخالفه صاحباه فقالا: يحنث؛ لأن هذه الأشياءَ من أعزِّ الفواكه، وتُؤكل على وجه التَّنعُّم، والإفرادُ لها بالذِّكر في كتاب الله عزَّ وجلَّ لكمال معانيها، كتخصيص جبريلَ وميكائيلَ من بين[٤] الملائكة. واحتجَّ أبو حنيفة بأن قال: عَطَفَ هذه الأشياء على الفاكهة مرَّة فقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، ومرَّةً عَطفَ الفاكهة على هذه الأشياء فقال: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، والمعطوف غيرُ المعطوف عليه، ولا يَليق بالحكمة ذكرُ الشيء الواحد بلفظين مختلفين في موضع المنَّة، والعنب والرُّمَّان يُكتفى بهما في بعض البلدان، فلا يكون فاكهة، ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رَطْبه ويابسه، ويابسُ هذه الأشياء لا يُعدُّ فاكهة، فكذلك رَطْبُها[٥].

---

(١) المبسوط للسرخسي ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٨.

(٢) المبسوط للسرخسي ٨/ ١٧٧، وبدائع الصنائع ٤/ ١٣٠، وقد فرَّق أبو يوسف صاحب أبي حنيفة بين رطب الجوز ويابسه، فقال: رطبه فاكهة، ويابسه إدام.

(٣) ينظر المبسوط ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) لفظ: بين من (ظ).

(٥) ينظر المبسوط ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ۝٢٠﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ شجرة عطفٌ على «جنات»، وأجاز الفراء الرفع؛ لأنه لم يظهر الفعل، بمعنى: وثَمَّ شجرةٌ[1]؛ ويريد بها شجرةَ الزيتون.

وأفردها بالذِّكر لعظيم منافعها في أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد، وقلَّةِ تعاهُدها بالسَّقْي والحفر، وغير ذلك من المراعاة في سائر الأشجار[2].

﴿تَخْرُجُ﴾ في موضع الصِّفة.

﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي: أنبتها الله في الأصل من هذا الجبل الذي بارك الله فيه. وطورُ سَيْناء من أرض الشام، وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام؛ قاله ابن عباس وغيره[3]، وقد تقدَّم في البقرة[4] والأعراف.

والطُّور: الجبل في كلام العرب، وقيل: هو مما عُرِّب من كلام العجم[5]. وقال ابن زيد: هو جبل بيت المقدس ممدود من مصرَ إلى أيْلة[6].

واختُلف في سَيْناء؛ فقال قتادة: معناه الحسَن، ويلزم على هذا التأويل أن يُنوَّن الطُّور على النعت. وقال مجاهد: معناه: مبارَك. وقال مَعْمَر عن فرقة: معناه ذو شجر[7]، ويلزمهم أن يُنوِّنوا الطُّور. وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول: جبل

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٣، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٢.

(٢) ينظر النكت والعيون ٤/ ٥٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٠.

(٤) ٢/ ١٦٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩.

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٠، وأيلة مدينة في خليج العقبة على البحر الأحمر. ينظر أطلس تاريخ الإسلام ص١١٢.

(٧) في (خ) و(م): معناه شجر، وفي (د) و(ز): معناه وشجر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ - ١٤٠ والكلام منه، وأخرج الأقوال السالفة الطبري ١٧/ ٢٩ - ٣١، وقول مجاهد في تفسيره ص٤٣٠.

أُحُد. وعن مجاهد أيضاً: سَيْناء حجرٌ بعينه، أُضيف الجبل إليه لوجوده عنده. وقال مقاتل: كلُّ جبل يَحْمل الثمار فهو سَيْناء، أي: حَسَن[١].

وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فَعْلاء[٢]، وفَعلاء في كلام العرب كثير، يُمنع من الصَّرف في المعرفة والنكرة؛ لأن في آخرها ألف التأنيث، وألفُ التأنيث ملازِمةٌ لِمَا هي فيه، وليس في الكلام فِعلاء، ولكنْ مَن قرأ: «سِيناء» بكسر السين جعله فِعلالاً، فالهمزة فيه كهمزة: حِرباء، ولم يُصرف في هذه الآية؛ لأنه جُعِل اسم بقعة، وزعم الأخفش أنه اسم أعجمي[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ قرأ الجمهور «تَنبُت» بفتح التاء وضم الباء، والتقدير: تَنْبُت ومعها الدُّهن، كما تقول: خرج زيد بسلاحه[٤].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء[٥]. واختُلف في التقدير على هذه القراءة، فقال أبو عليٍّ الفارسي: التقدير: تُنْبِت جَناها ومعها[٦] الدُّهن، فالمفعول محذوف. وقيل: الباء زائدة، مثلُ ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾[٧] [البقرة: ١٩٥]. وهذا مذهب أبي عبيدة[٨]. وقال الشاعر:

نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج[٩]

---

(١) أورد قول مجاهد ومقاتل البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٦ .

(٢) هي قراءة: عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر الشامي. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بكسر السين. السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤ .

(٥) السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): ومعه.

(٧) الحجة ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٥٦ .

(٩) الرَّجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ ، وفيه: نضرب بالبيض... وسلف في المسألة السابعة من تفسير الآية (٢٥) من الحج.

وقال آخر:

هُنَّ الحرائرُ لا رَبَّاتُ أَحْمرةٍ[١] سودُ المحاجر لا يَقرأنَ بالسُّوَرِ[٢]

ونحو هذا قاله أبو عليٍّ أيضاً؛ وقد تقدَّم.

وقيل: نَبَت وأنبت بمعنًى، فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور[٣]، وهو مذهب الفراء وأبي إسحاق[٤]، ومنه قول زُهير:

.... حتى إذا أنبت البَقْلُ[٥]

والأصمعي ينكر أنبت، ويتَّهِم قصيدةَ زهير التي فيها:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حَوْلَ بيوتِهم قَطِيناً بها حتى إذا أَنبت البقلُ[٦]

أي: نبت.

وقرأ الزُّهْري والحسن والأعرج: «تُنْبَت بالدُّهن» برفع التاء ونصب الباء[٧]. قال ابن جِنِّي والزجَّاج[٨]: هي باء الحال، أي: تُنْبَت ومعها دهنُها. وفي قراءة ابن مسعود: «تَخْرُج بالدهن»، وهي باء الحال[٩].

---

(١) في النسخ الخطية: أخمرة، والمثبت من المصادر؛ وقال الجواليقي في شرح أدب الكاتب: الأحمرة: جمع حِمار - بالحاء المهملة، جمع قلة، وخصَّ الحمير، لأنها رُذال المال وشره، وقال البغدادي: وقد صحَّف الدماميني (في الحاشية الهندية): هذه الكلمة بالخاء المعجمة، وقال: والأخمرة جمع خمار، وهو ما تستر به المرأة رأسها. اهـ. تنظر خزانة الأدب ٩/ ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) البيت للراعي النميري، والبيت في ديوانه ص١٢٢ ، أو القتَّال الكلابي، وهو في ديوانه ص٥٣ . وينظر: أدب الكاتب ٥٢١ ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ٣٧٨ ، وخزانة الأدب ٩/ ١٠٩ وسلف عجز هذا البيت في مقدمة المصنف ١/ ١٠٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣ ، ومعاني القرآن للزجَّاج (وهو أبو إسحاق) ٤/ ١٠ .

(٥) سلف ١٢/ ٢٩٢ ، وسيذكره المصنف بتمامه.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وينظر الحجة ٥/ ٢٩٢ .

(٧) وهي قراءة شاذة المحتسب ٢/ ٨٨ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ .

(٨) المحتسب لابن جني ٢/ ٨٨ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وقراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٨٨ أيضاً، وذكرها ابن خالويه =

ابنُ دَرَسْتَوَيْه: الدُّهن: الماء اللَّيِّن[١]، تُنبت من الإنبات.

وقرأ زِرُّ بن حُبَيش: «تُنْبِت» بضم التاء وكسر الباء «الدُّهنَ» بحذف الباء ونصبه. وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب: «بالدِّهان»[٢].

والمراد من الآية تعديدُ نعمة الزيت على الإنسان، وهي من أركان النِّعَم التي لا غنًى بالصحة عنها، ويدخل في معنى الزيتون شجرُ الزيت كلُّه على اختلافه بحسب الأقطار[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ قراءة الجمهور. وقرأت فرقة: «وأصباغٍ» بالجمع. وقرأ عامر بنُ عبد قيس: «ومتاعاً»[٤].

والمراد به الزيت الذي يَصْطَبِغ به الآكِل؛ يقال: صِبغ وصِباغ، مثلُ: دِبْغ ودِباغ، ولِبْس ولِباس[٥]. وكلُّ إدام يُؤتدم به فهو صِبْغ؛ حكاه الهَرَوِيُّ[٦] وغيره. وأصل الصِّبغ ما يُلوَّن به الثوب، وشُبِّه الإدام به؛ لأن الخبز يُلوَّن بالصِّبغ إذا غُمس فيه[٧]. وقال مقاتل: الأُدْم الزيتون، والدُّهن الزيت. وقد جعل الله تعالى في هذه الشجرة أُدْماً ودُهْناً[٨]؛ فالصِّبغ على هذا الزيتونُ.

= في القراءات الشاذة ص٩٧ بلفظ: يُخرِج الدهن.

(١) النكت والعيون ٤/ ٥٠ .

(٢) أورد قراءة سليمان بن عبد الملك، ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ ، وقراءة زرٍّ بن حبيش وسليمان بن عبد الملك والأشهب في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، والبحر المحيط ٦/ ٤٠١ والدِّهان، جمع دُهن، كرمح، ورماح. الدر المصون ٨/ ٣٢٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وعامر بن عبد قيس، أبو عبد الله، ويقال: أبو عمرو التميمي، العنبري، من عباد التابعين، كان يقرئ الناس، توفي في زمن عثمان، وقيل: في زمن معاوية. السير ٤/ ١٥ ، وطبقات القراء ١/ ٣٥٠ .

(٥) تفسير غريب القرآن ص٢٩٦ .

(٦) في غريب الحديث ٢/ ١٥٢ .

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٨/ ٢٧ ، والوسيط ٣/ ٢٨٨ ، وزاد المسير ٥/ ٤٦٨ .

(٨) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٨٨ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٦ .

الرابعة: لا خلاف أن كلَّ ما يُصطبَغ فيه من المائعات، كالزيت والسَّمْن والعسل والرُّبِّ والخلِّ، وغير ذلك من الأمراق، أنه إدام[١]. وقد نصَّ رسول الله ﷺ على الخلّ، فقال: «نِعْمَ الإدامُ الخلُّ». رواه تسعةٌ من الصحابة، سبعةُ رجال وامرأتان، وممن رواه في الصحيح: جابرٌ، وعائشة، وخارجةُ، وعمرُ، وابنُه عبدُ الله[٢]، وابنُ عباس، وأبو هريرةَ، وسَمُرةُ بنُ جُنْدب، وأنسٌ، وأمُّ هانئ[٣].

الخامسة: واختُلف فيما كان جامداً، كاللَّحم والتمر والزيتون، وغيرِ ذلك من الجوامد؛ فالجمهور أنَّ ذلك كلَّه إدام، فمن حلف ألَّا يأكل إداماً، فأكل لحماً أو جُبْناً، حنِث. وقال أبو حنيفة: لا يحنث، وخالفه صاحباه، وقد رُوِي عن أبي يوسُفَ مثلُ قول أبي حنيفة[٤].

والبَقْل ليس بإدام في قولهم جميعاً[٥].

وعن الشافعي في التمر وجهان؛ والمشهور أنه ليس بإدام، لقوله في «التنبيه»[٦]:

---

(١) بنحوه في المفهم ٥/ ٣٢٦ .

(٢) قوله: عبد الله، ليس في (ظ)، وفي (خ) و(م): عبيد الله، والمثبت من (د) و(ز).

(٣) حديث جابر وعائشة في الصحيح، وقد سلفا ٨/ ١٤٤ ، وأما حديث عمر فأخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٨٦٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٢/ ٩٩ ، ٧٠/ ٢٤٩ - ٢٥٠ .

وحديث عبد الله بن عمر أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨ ، وابن عدي في الكامل ١/ ٢٦٣ .

وحديث ابن عباس أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨ ، والطبراني في الكبير (١١٣٣٨)، والبيهقي في الشعب (٥٩٤٥).

وحديث أبي هريرة أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨ - ٤٠٩ ، وابن عدي في الكامل ٣/ ٨٩٠ .

وحديث أنس أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨ ، والطبراني في الأوسط (٢٢٤٨)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٥٤ .

وحديث أم هانئ أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٤ . وينظر المقاصد الحسنة ص٦٩٨ .

(٤) بنحوه في المفهم ٥/ ٣٢٦ ، وينظر قول أبي حنيفة وصاحبيه أيضاً في المبسوط ٨/ ١٧٧ ، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٢ .

(٥) بدائع الصنائع ٤/ ١٢٣ .

(٦) التنبيه للشيرازي ص١٩٦ ، والعبارة فيه: إن أكل التمر لم يحنث وقيل: يحتمل أن يحنث.

والصحيح أنه لا يحنث[1] وقيل: يحنث. والصحيح أن هذا كلَّه إدام.

وقد روى أبو داود عن يوسُفَ بنِ عبد الله بن سلَام قال: رأيت النبيَّ ﷺ أخذَ كِسْرة من خبز شعير، فوضع عليها تمرة، فقال: «هذه إدامُ هذه»[2].

وقال ﷺ: «سيِّدُ إدام الدنيا والآخرة اللَّحمُ». ذكره أبو عمر[3].

وترجم البخاري: باب الإدام، وساق حديث عائشة[4].

ولأن الإدام مأخوذ من المؤادمة، وهي الموافقة، وهذه الأشياء توافق الخبز فكان إداماً، وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «ائتدموا ولو بالماء»[5].

ولأبي حنيفةَ أن حقيقة الإدام الموافقةُ في الاجتماع على وجه لا يَقبل الفصل؛ كالخلِّ والزيت ونحوهما، وأمَّا اللحم والبيض وغيرُهما فلا يوافق الخبز، بل يجاوره، كالبِطِّيخ والتمر والعنب[6]. والحاصل: أن كل ما يحتاج في الأكل إلى موافقة الخبز كان إداماً، وكلُّ ما لا يحتاج ويؤكل على حِدَة لا يكون إداماً، والله أعلم.

---

(١) عبارة: والصحيح أنه لا يحنث. من (ظ).

(٢) سنن أبي داود (٣٢٥٩) وفيه: يحيى بن العلاء؛ قال ابن حجر في تهذيب التهذيب. قال أحمد: كذاب يضع الحديث. وعن ابن معين: ليس بثقة. وقال في التقريب: رُمي بالوضع.
وأخرجه أيضاً (٣٢٦٠)، والترمذي في الشمائل (١٨٤) وفيه يزيد بن أبي أمية الأعور، وهو مجهول كما قال ابن حجر في التقريب.

(٣) في التمهيد ٣/ ٨٦ ، والاستذكار ٢٦/ ٣٤٦ ، والحديث سلف ٩/ ٢٠٨ وهو ضعيف جداً.

(٤) برقم (٥٤٣٠)، وفيه: دخل رسول الله ﷺ يوماً بيت عائشة وعلى النار برمة تفور، فدعا بالغداء، فأُتي بخبز وأُدْم من أُدْم البيت، فقال: «لم أر لحماً؟». قالوا: بلى يا رسول الله، ولكنه لحم تُصُدِّقَ به على بَريرة، فأهدته لنا، فقال: «هو صدقةٌ عليها، وهديةٌ لنا».

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٩٥)، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٤٣٠ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٥٣ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الهيثمي في المجمع ٥/ ٣٥ : وفيه غزيل بن سنان، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، أما غزيل فرجل مجهول.

(٦) ينظر المبسوط ٨/ ١٧٧ ، وتحفة الفقهاء للسمرقندي ٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣ ، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٢-١٢٣ .

السادسة: روى الترمذيُّ من حديث عمرَ بنِ الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيتَ وادَّهِنُوا به، فإنه من شجرةٍ مباركة» [قال:] هذا حديث لا يُعرف إلا من حديث عبد الرزاق، وكان يَضطرب فيه، فربَّما يذكر فيه: عن عمرَ عن النبيِّ ﷺ، وربما رواه على الشكِّ فقال: أحسِبه عن عمرَ عن النبيِّ ﷺ، وربما قال: عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ [مرسلاً](١).

وقال مقاتل: خُصَّ الطُّور بالزيتون؛ لأن أوَّل الزيتون نَبَت منها. وقيل: إن الزيتون أوَّلُ شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان(٢). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تقدَّم القول فيهما في «النحل»(٣) والحمد لله.

---

(١) سنن الترمذي (١٨٥١). وما بين حاصرتين منه وأخرجه عبد الرزاق (١٩٥٦١) من حديث زيد بن أسلم عن النبي ﷺ. وصوب ابن معين في تاريخه (٥٩٥) أن يكون عن زيد مرسلاً.

وله شاهد من حديث أبي أسيد في مسند أحمد (١٦٠٥٤) وفي إسناده جهالة.

(٢) تفسير البغوي ٣/٣٠٦ .

(٣) ١٢/٢٧١ - ٢٧٣ .

وفي هود قصةُ السفينة ونوحٍ[١]، وركوبُ البحر في غير موضع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: وعلى الأنعام في البرِّ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما يُحمل في البرِّ على الإبل، فيجوز أن تَرجع الكناية إلى بعض الأنعام. ورُوي أن رجلاً ركب بقرة في الزمان الأوّل، فأنطقها الله تعالى معه فقالت: إنَّا لم نخلق لهذا، وإنما خُلِقنا[٣] للحَرْث.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قُرِئ بالخفض ردًّا على اللفظ، وبالرفع ردًّا على المعنى. وقد مضى في «الأعراف»[٤].

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يَسُودُكم ويَشرُف عليكم؛ بأن يكون متبوعاً ونحن له تَبَع.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو شاء الله ألَّا يُعبد شيءٌ سواه؛ لجعل رسولَه مَلَكاً[٥].

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بمثل دعوته. وقيل: ما سمعنا بمثله بشراً أتى[٦] برسالة ربه ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في الأمم الماضية[٧]؛ قاله ابن عباس. والباء في «بهذا» زائدة، أي: ما سمعنا هذا كائناً في آبائنا الأولين.

ثم عطف بعضهم على بعض، فقالوا[٨]: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنُون نوحاً ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ

---

(١) ١١/١٠٨ وما بعدها.

(٢) ٢/٤٩٥.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): خلقت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر. والحديث أخرجه أحمد (٧٣٥١)، والبخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨) عن أبي هريرة ﷺ مطولاً.

(٤) قرأ بالخفض الكسائي من السبعة، وأبو جعفر من العشرة، وسلف ٩/ ٢٦٠.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٣٤، والوسيط ٣/ ٢٨٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٧.

(٦) في (خ) و(م): أي، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٥٢ والكلام منه.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٨٨.

(٨) في (ظ): فقال.

جِنَّةٌ﴾ أي: جنون لا يَدري ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظِروا موته. وقيل: حتى يستبينَ جنونُه[١]. وقال الفرَّاء: ليس يُراد بالحين هاهنا وقت بعينه، إنما هو كقوله: دَعْه إلى يومٍ ما[٢].

فقال حين تمادَوا على كفرهم: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: انتقم ممن لم يُطعني ولم يسمع رسالتي. ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ أي: أرسلنا إليه رُسُلاً من السماء ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ على ما تقدَّم بيانه[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾ أي: أدخِل فيها واجعل فيها، يقال: سَلَكتُه في كذا وأسلكته فيه، إذا أدخلته[٤]، قال عبد منافِ بنُ رِبْعٍ الهُذَليّ[٥]:

حتى إذا أسلَكوهم في قُتَائِدةٍ شَلًّا كما تَطْرُدُ الجَمَّالةُ الشُّرُدَا[٦]

﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ قرأ حفص: «مِن كلٍّ» بالتنوين، الباقون بالإضافة؛ وقد ذُكِر[٧]. وقال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلَّا ما يَلِد ويَبيض، فأما البَقُّ والذُّباب والدُّود، فلم يحمل شيئاً منها، وإنما خرج من الطِّين[٨]. وقد مضى القول في السفينة والكلامُ فيها مستوفًى[٩]، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٥٢، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٢.

(٢) معاني القرآن ٢/ ٢٣٤ للفراء، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٠٤.

(٣) ١١/ ١٠٨ - ١٠٩.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٣٦.

(٥) هو شاعر جاهلي من شعراء هذيل. خزانة الأدب ٣/ ١٧٤ (دار صادر).

(٦) ديوان الهذليين ٢/ ٤٢، وأدب الكاتب ص٤٣٤، والاقتضاب ص٤٠٢، وخزانة الأدب ٣/ ١٧٠ (دار صادر). ومعناه كما قاله البطليوسي أن الشاعر وصف قوماً هُزِموا حتى ألجئوا إلى الدخول في قتائدة، وهي ثنية ضيقة. والشَّل: الطرد. والجَمَّالة: أصحاب الجمال. والشُّرُد من الإبل: التي تفرُّ من الشيء إذا رأته، فإذا طُرِدت كان أشد لفرارها، فلذلك خصصها بالذكر.

(٧) ١١/ ١١٦.

(٨) أورده البغوي في تفسيره ٢/ ٣٨٤.

(٩) ١١/ ١٠٩ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أي: عَلَوْتَ ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ راكبين ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: احمدوا الله على تخليصه إياكم ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومن الغرق. و«الحمد لله» كلمةُ كلِّ شاكرٍ لله. وقد مضى في الفاتحة بيانه[١].

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ قراءة العامة: «مُنْزَلاً» بضم الميم وفتح الزاي[٢]، على المصدر الذي هو الإنزال، أي: أنزلني إنزالاً مباركاً. وقرأ زِرُّ بنُ حُبيش، وأبو بكر عن عاصم، والمفضَّل: «مَنزِلاً» بفتح الميم وكسر الزاي على الموضع، أي: أنزلني موضعاً مباركاً[٣]. الجوهري[٤]: المَنْزَل ـ بفتح الميم والزاي ـ: النزول، وهو الحُلول، تقول: نزلت نزولاً ومَنْزَلاً. وقال:

أَإِنْ ذكَّـرتْـكَ الـدارُ مَـنْـزَلَـهـا جُـمْـلُ ... بَكَيْتَ فدمعُ العين مُنْحَدِرٌ سَجْلُ[٥]

نُصِب «المَنْزَل» لأنه مصدر[٦]، وأنزله غيره واستنزله بمعنًى، ونَزَّله تنزيلاً، والتنزيل أيضاً: الترتيب.

---

(١) ١/ ٢٠٢ وما بعدها.

(٢) السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ .

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٨ ، والوسيط ٣/ ٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٢ ، وقراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ ، وقراءة المفضل في البحر المحيط ٦/ ٤٠٢ .

(٤) في الصحاح (نزل).

(٥) أنشده ثعلب في مجالسه ص٢٢٤ ، وفيه: فماء العين منهمل، بدل: فدمع العين منحدر. والسَّجْل: الدَّلْو الضخمة المملوءة ماءً، ولا يقال لها فارغة سَجْلٌ، ولكن دَلْو. ويقال: سجلت الماء فانسجل، أي: صببته فانصبّ. لسان العرب (سجل).

(٦) نقل ابن منظور في اللسان (نزل) عن ابن بَرِّي قوله: تقديرُه: أإنْ ذَكَّرَتْكَ الدارُ نُزولَها جُمْلُ، فَجُمْلُ فاعل بالنزول، والنزولُ مفعولٌ ثانٍ بذكَّرتْكَ. اهـ. وذكر ابن منظور أيضاً أن الرفع في قوله: مَنْزَلُها، صحيح، أراد: أإنْ ذكَّرتْكَ نزولُ جُمْلٍ إيَّاها، وأنَّثَ النزولَ حين أضافه إلى مؤنث.

قال ابن عباس ومجاهد: هذا حين خرج من السفينة[١]؛ مثلُ قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود:٤٨]. وقيل: حين دخلها. فعلى هذا يكون قوله: «مباركاً»، يعني بالسلامة والنجاة[٢].

قلت: وبالجملة فالآية تعليمٌ من الله عزَّ وجلَّ لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا هذا، بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلَّموا قالوها[٣]. وروي عن عليٍّ ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: اللهم أنزلني مُنزَلاً مباركاً وأنت خير المُنزِلين[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أي: في أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين. «لآيَاتٍ» أي: دَلالاتٍ على كمال قدرة الله تعالى، وأنه يَنْصرُ أنبياءه ويُهلكُ أعداءهم. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ أي: ما كنا إلا مبتلين الأُممَ قبلكم، أي: مختبِرين لهم بإرسال الرسل إليهم؛ ليَظْهر المطيع والعاصي[٥]، فيتبيَّن للملائكة حالُهم، لا أن يَستجِدَّ الربُّ علماً. وقيل: أي: نعاملهم معاملة المختبرين. وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة» وغيرها[٦]. وقيل: «وإن كُنَّا» أي: وقد كنا[٧].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من بعد هلاك قوم نوح ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ قيل: هم قوم عاد.

---

(١) قول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٨، ولم نقف على من نسبه لابن عباس.

(٢) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٧، وزاد المسير ٥/ ٤٧١.

(٣) في النسخ عدا (ظ): قالوا.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨.

(٦) ٢/ ٤٦٢.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني هوداً[١]؛ لأنه ما كانت أمة أُنشِئت في إثر قوم نوح إلا عاد. وقيل: هم قوم ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ يعني صالحاً، قالوا: والدليل عليه قولُه تعالى آخرَ الآية: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الآية: ٤١][٢] نظيرها: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧].

قلت: وممن أُخذ بالصيحة أيضاً أصحابُ مدينَ قومُ شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم.

﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من عشيرتهم، يَعرفون مولده ومَنْشأه، ليكون سكونُهم إلى قوله أكثر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف والقادة والرؤساء ﴿مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ يريد بالبعث والحساب ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: وسَّعْنا عليهم نِعَم الدنيا حتى بَطِروا وصاروا يُؤْتَوْن[٣] بالتُّرْفة، وهي مثلُ التُّحْفة[٤] ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فلا فضلَ له عليكم؛ لأنه محتاج إلى الطعام والشراب كأنتم. وزعم الفرَّاء أن معنى ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ على

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/٤١٣، والوسيط ٣/٢٨٩، وتفسير البغوي ٣/١٠٨.

(٢) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٥/٤٧١ لأبي سليمان الدمشقي، وينظر تفسير البغوي ٣/٣٠٨، وتفسير الرازي ٢٣/٩٧.

(٣) في (ظ): يأتون.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/٤٥٥، وتفسير أبي الليث ٢/٤١٣. والتُّرْفة: الطعام الطيب، وكل طرفة تُرْفة. والتُّحفة: الطُّرْفة من الفاكهة وغيرها من الرياحين. والتحفة: ما أتحفت به الرجل من البر واللطف. ينظر لسان العرب (ترف) و(تحف).

حذف «منه»[١]، أي: مما تشربون منه، وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يَحتاج إلى حذفٍ ألبتة؛ لأن «ما» إذا كانت[٢] مصدراً لم تَحتج إلى عائد، فإن جعلتها بمعنى الذي، حَذفت المفعول، ولم يحتج إلى إضمار «مِن».

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يريد: لمغبونون بترككم آلهتكم، واتّباعِكم إياه من غير فضيلة له عليكم.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أي: مبعوثون من قبوركم. و«أنّ» الأولى في موضع نصب بوقوع «يعدِكم» عليها، والثانية بدل منها. هذا مذهب سيبويه[٣]، والمعنى: أيعدكم أنكم مُخرَجون إذا مِتُّم[٤].

قال الفرّاء: وفي قراءة عبد الله: «أيعدكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخرَجون»[٥]؛ وهو كقولك: أظن إنْ خرجت أنك نادم[٦].

وذهب الفرّاء والجَرْميُّ وأبو العباس المبرِّد إلى أنَّ «أنَّ»[٧] الثانية مكَرَّرةٌ للتوكيد، لَمَّا طال الكلام كان تكريرها حسناً[٨].

---

(١) في النسخ: من، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٣ وعنه نقل المصنف.

(٢) في (م) والنسخ عدا (ظ): كان، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٣ .

(٣) في الكتاب ٣/ ١٣٢ - ١٣٣ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤ ، والمعاني للنحاس ٤/ ٤٥٥ والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٣ .

(٦) في (ظ): أظن أنك إن خرجت أنك نادم. بزيادة «أنك»، وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥ ، فإن الفراء ذكر أن كل اسمٍ أوقعت عليه «أن» بالظن وأخوات الظن ثم اعترض عليه الجزاء دون خبره، فإن شئت كررت اسمه، وإن شئت حذفته أولاً وآخراً، فتقول: أظن أنك إن خرجت أنك نادم، فإن حذفت «أنك» الأولى أو الثانية صلح، وإن ثبتا صلح.

(٧) لفظ «أن» الثانية من (ظ)، وهو الموافق لمعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥ .

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤ ، والمقتضب للمبرد ٢/ ٣٥٦ ، والكلام من معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥ . والجرمي هو صالح بن إسحاق.

وقال الأخفش: المعنى: أيعدكم أنكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً يَحدُث إخراجُكم؛ فـ «أنّ» الثانية في موضع رفع بفعل مضمر، كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يَحدُث القتال[(١)].

وقال أبو إسحاق: ويجوز «أيعدكم إنكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرَجون»؛ لأن معنى «أيعدكم»: أيقول إنكم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾

قال ابن عباس: هي كلمةٌ للبعد، كأنهم قالوا: بَعيدٌ ما توعدون[(٣)]، أي: إنَّ هذا لا يكون ما يُذكر من البعث. وقال أبو عليٍّ: هي بمنزلة الفعل، أي: بَعُد ما تُوعدون[(٤)].

وقال ابن الأنباري[(٥)]: وفي «هيهات» عَشْرُ لغات:

هيهاتَ لك، بفتح التاء، وهي قراءة الجماعة.

وهيهاتِ لك، بخفض التاء، ويُروى عن أبي جعفر بنِ القَعْقاع[(٦)].

وهيهاتٍ لك، بالخفض والتنوين، يُروى عن عيسى بنِ عمر[(٧)].

وهيهاتُ لك، برفع التاء، الثعلبي: وبها قرأ نصر بنُ عاصم وأبو العالية[(٨)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/٤٥٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج (وهو أبو إسحاق)، ٤/١٢ . ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/٤٥٦ ، والجواز المذكور يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٣) تفسير البغوي ٣/٣٠٨ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٧/٤٢ .

(٤) المسائل العضديات لأبي علي الفارسي ١٧١ .

(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ١/٢٩٩ .

(٦) النشر ٢/٣٢٨ .

(٧) القراءات الشاذة ص٩٧ ، والمحتسب ٢/٩٠ .

(٨) نسبها البغوي في التفسير ٣/٣٠٠٨ لنصر بن عاصم، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/١٤٣ وأبو حيان في البحر ٦/٤٠٤ لأبي حيوة، وهي في القراءات الشاذة ص٩٧ دون نسبة.

وهيهاتٌ لك، بالرفع والتنوين، وبها قرأ أبو حَيْوَة الشامي؛ ذكره الثعلبي أيضاً[١].

وهيهاتاً لك، بالنصب والتنوين[٢]، قال الأحوص[٣]:

تذكَّرت أياماً مَضَيْن من الصِّبا وهيهاتَ هيهاتاً إليكَ رُجُوعُها

واللغة السابعة: أَيْهات أَيْهات[٤]، وأنشد الفرّاء:

فأَيْهاتَ أيْهاتَ العقِيقُ ومَن به وأيهاتَ خِلٌّ بالعقيق نُواصِلُه[٥]

قال المهدويُّ: وقرأ عيسى الهَمْداني: هيهاتْ هيهاتْ، بالإسكان[٦].

قال ابن الأنباري: ومِن العرب مَن يقول: أَيْهان، بالنون، ومنهم مَن يقول: أَيْها، بلا نون. وأنشد الفرّاء:

ومِن دُونيَ الأعيان والقِنْع كلُّه وكُتْمانُ أيْهَا ما أشتَّ وأبْعَدَا[٧]

فهذه عَشْر لغات.

فمن قال: هيهاتَ، بفتح التاء، جعله مثلَ: أين وكيف[٨]. وقيل: لأنهما أداتان

(١) القراءات الشاذة ص٩٧ ، والمحتسب ٢/ ٩٠ .

(٢) نسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/١٤٣ لخالد بن إياس، وأبو حيان في البحر المحيط ٦/٤٠٤ لهارون عن أبي جعفر.

(٣) في ديوانه ص١٣١ .

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٨ نقلاً عن ابن الأنباري.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥ ، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ص٩٦٥ ، وجاء فيهما: وصلٌ، بدل: خِلّ. وجاء في الديوان: تواصله، بدل: نواصله.

(٦) المحتسب ٢/ ٩٠ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ لخارجة بن مصعب.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، والصحاح (أيه)، والأمكنة والمياه والجبال للزَّمخشري ص١٨٧ ، وفيها: الأعيار، بدل: الأعيان. وفي تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٥ : الأعراض، بدل: الأعيان. والأعيان والقِنْع وكُتْمان: أسماء مواضع، ينظر معجم البلدان ١/ ٢٢٣ ، ٤/ ٤٠٨ ، ٤٣٦ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨ .

مركَّبتان مثلُ: خمسةَ عشَر، وبَعْلَبَكّ، ورامَ هُرْمُز[١]، وتقف على الثاني بالهاء، كما تقول: خمس عَشْره، وسبع عَشْره. وقال الفرّاء: نصبُها كنصب ثُمَّتَ ورُبَّتَ[٢]. ويجوز أن يكون الفتح إتباعاً للألف والفتحةِ التي قبلها[٣].

ومَن كسره جعله مثلَ أمسِ وهؤلاءِ[٤]، قال:

وهيهاتِ هيهاتِ إليكَ رجوعُها[٥]

قال الكسائي: ومَن كسر التاء وقف عليها بالهاء[٦]، فيقول: هيهاه. ومَن نصبها وقف بالتاء، وإن شاء بالهاء. ومَن ضمَّها فعلى مثلِ منذُ وقطُّ وحيثُ[٧]. ومَن قرأ «هيهات» بالتنوين، فهو جمعٌ ذهب به إلى التنكير[٨]، كأنه قال: بُعْداً بُعْداً. وقيل: خُفِض ونُوِّن تشبيهاً بالأصوات بقولهم: غاقٍ وطاقٍ[٩].

وقال الأخفش: يجوز في «هيهات» أن تكون جماعةً، فتكون التاء التي فيها تاءَ الجميع[١٠] التي للتأنيث. ومَن قرأ «هيهاتٍ» جاز أن يكون أخلصها اسماً مُعرَباً فيه معنى البُعْد، ولم يجعله اسماً للفعل فيبنيَه[١١]. وقيل: شُبِّه التاء بتاء الجمع،

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥ ، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٣ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٦ .

(٣) ينظر الدر المصون ٨/ ٣٤٠ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨ .

(٥) سلف قريباً من قول الأحوص بلفظ: وهيهات هيهاتاً..

(٦) في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨ : ويروى عن الكسائي الوقف عليها بالهاء. وينظر جامع البيان لأبي عمرو الداني ١/ ٤١٧ - ٤١٨ .

(٧) ذكر توجيه قراءة الضم البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٨ .

(٨) في (د): الكثير، وفي (خ) و(ز) و(ظ): التكثير، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في المحتسب ٢/ ٩١ والكلام منه.

(٩) أورد هذا القول الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٥ .

(١٠) في (ز) و(ظ): الجمع.

(١١) ذكر هذا الوجه ابن جني في المحتسب ٢/ ٩١ .

كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٩٨].

قال الفرّاء: وكأني أستحب الوقف على التاء؛ لأن من العرب مَن يخفض التاء على كل حال، فكأنها مثلُ: عرفاتٍ وَمَلكُوت وما أشبه ذلك[١]. وكان مجاهد وعيسى ابنُ عمر وأبو عمرو بنُ العلاء والكسائي وابن كثير يقفون عليها «هيهاه» بالهاء[٢]. وقد رُوي عن أبي عمروٍ أيضاً أنه كان يقف على «هيهات» بالتاء[٣]، وعليه بقيةُ القُرَّاء لأنها حرف[٤].

قال ابن الأنباري[٥]: مَن جعلهما حرفاً واحداً لا يُفرِد أحدَهما من الآخر؛ وقف على الثاني بالهاء ولم يقف على الأوَّل؛ فيقول: هيهات هيهاه، كما يقول: خمس عَشْره، على ما تقدم. ومَن نوى إفراد أحدهما من الآخر، وقف فيهما جميعاً بالهاء والتاء؛ لأن أصل الهاء تاء.

قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ «هي» كناية عن الدنيا، أي: ما الحياة الدنيا[٦] إلا ما نحن فيه، لا الحياةُ الآخرة التي تَعِدُنا بعد البعث.

﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ يقال: كيف قالوا: نموت ونحيا، وهم لا يُقِرُّون بالبعث؟ ففي هذا أجوبة؛ منها: أن يكون المعنى: نكون مَوَاتاً، أي: نُطَفاً، ثم نحيا في الدنيا. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت؛ كما قال: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣]. وقيل: «نموت» يعني الآباء، «ونحيا» يعني الأولاد[٧]. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦.
(٢) التيسير ص٦٠.
(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩٨.
(٤) ينظر التيسير ص٦٠.
(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩٨.
(٦) لفظ: الدنيا، من (ظ)، والكلام في الوسيط ٣/ ٢٩٠.
(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٧ - ٤٥٨.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ يعنُون: الرسول[1] ﴿افْتَرَىٰ﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ تقدَّم[2].

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن قليل، و«ما» زائدة مؤكِّدة[3]. ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على كفرهم، واللام لامُ القسم، أي: واللهِ لَيُصْبِحُن.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ في التفاسير: صاح بهم جبريلُ عليه السلام صيحةً واحدةً مع الريح التي أهلكهم الله تعالى بها[4]، فماتوا عن آخرهم[5]. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: هَلْكَى هامدين، كغُثَاء السَّيل، وهو ما يحمله مِن بالي الشجر من الحشيش والقصب مما يبِس وتفتَّت[6]. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً لهم. وقيل: بُعْداً لهم من رحمة الله[7]، وهو منصوب على المصدر، ومِثْلُه: سَقْياً له ورَعْياً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعد هلاك هؤلاء ﴿قُرُونًا﴾ أي: أُمماً

---

(١) زاد المسير ٥/ ٤٧٣ .

(٢) ص٣٥ من هذا الجزء.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣ ، ومعاني النحاس ٤/ ٤٥٨ .

(٤) في (ظ): مع الريح التي أهلكتهم.

(٥) بنحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤ ، والوسيط ٣/ ٢٩٠ ، وزاد المسير ٥/ ٤٧٣ .

(٦) المراجع السابقة، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤ .

﴿ءَاخَرِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد بني إسرائيل(١). وفي الكلام حذف: فكذَّبوا أنبياءهم فأهلكناهم(٢).

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ «مِن» صلة، أي: ما تَسبِق أُمَّةٌ الوقتَ المؤقَّتَ لها ولا تتأخره، مثلُ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ومعنى ﴿تَتْرَا﴾: تتواتر، ويَتْبَع بعضُهم بعضاً، ترغيباً وترهيباً. قال الأصمعي: وَاترتُ كتبي عليه: أتبعتُ بعضَها بعضاً، إلا أنَّ بين كل واحد منها وبين الآخَر مُهلة. وقال غيره: المواتَرة: التتابعُ بغير مُهلة(٣).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «تترًى» بالتنوين(٤) على أنه مصدر، أدخل فيه التنوين على فتح الراء، كقولك: حَمْداً وشكراً، فالوقف على هذا على الألف المعوَّضةِ من التنوين. ويجوز أن يكون مُلحقاً بجعفر، فيكون مثلَ أرْطَى وعَلْقَى؛ كما قال:

يَسْتَنُّ في عَلْقَى وفي مُكُورِ(٥)

فإذا وُقِف على هذا الوجه جازت الإمالة، على أن ينويَ الوقفَ على الألف الملحقة(٦).

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٢.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٤.

(٤) يعني حالة الوصل، ويقفان عليها بالألف، ولأبي عمرو عند الوقف وجهان: الفتح والإمالة. السبعة ص٤٤٦، والتيسير ١٥٩.

(٥) قائله العجاج، وهو في ديوانه ص٢٣٦، وفيه: فَحَطَّ، بدل: يستن. والعَلْقَى: نبت قضبانه دقاق، عَسِر رضُّها، يتخذ منه المكانس. والمُكور: جمع مَكْرَة، وهي نبتة، أو الرُّطَبَة الفاسدة. القاموس المحيط (علق) و(مكر).

(٦) قرأ حمزة والكسائي بالإمالة وصلاً ووقفاً، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٢، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٨.

وقرأ ورْشٌ بين اللفظتين[١]؛ مثل: سَكْرَى وغَضْبَى، وهو اسم جمع؛ مثلُ: شَتَّى وأَسْرى[٢].

وأصله: وَتْرى، من المواترة والتواتر، فقلبت الواو تاء، مثلَ: التقوى والتُّكلان وتُجاه، ونحوِها[٣]. وقيل: هو الوِتر، وهو الفرد[٤]، فالمعنى: أرسلناهم فَرْداً فرداً. النحاس[٥]: وعلى هذا يجوز: «تِتْرا»؛ بكسر التاء الأولى، وموضعُها نَصْب على المصدر؛ لأن معنى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾: [ثم] واتَرنا. ويجوز أن يكون في موضع الحال، أي: متواتِرين.

ومعنى ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: بالهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمعُ أُحْدوثة، وهي ما يُتحدَّث به، كأعاجيب جمع أُعجوبة، وهي ما يُتعجَّب منه[٦]. قال الأخفش: إنما يقال هذا في الشَّرّ: «جعلناهم أحاديث»، ولا يقال في الخير، كما يقال: صار فلان حديثاً[٧]، أي: عِبرة ومَثَلاً، كما قال في آية أخرى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

قلت: وقد يقال: فلانٌ حديثٌ حَسَن، إذا كان مقيَّداً بذكر ذلك؛ ومنه قول ابن دُريد:

وإنما المرءُ حديثٌ بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وَعَى[٨]

(١) جامع البيان لأبي عمرو الداني ٢/ ٣٠٣ ، والكشف لمكي ٢/ ١٢٩ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٠٩ . قال السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٣٤٥ ـ بعد أن ذكر هذا الكلام ـ: وفيه نظر، إذ المشهور أن أسرى وشتَّى جمعا تكسير، لا اسما جمع.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٩ ، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٣ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٩ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٩ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١١٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٣ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٠٠ .

(٧) أورد قول الأخفش البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٩ .

(٨) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ١/ ٢٣٢ ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٩٤ .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ تقدَّم[١]. ومعنى ﴿عَالِينَ﴾: متكبِّرين قاهرين لغيرهم بالظلم[٢]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الآية، تقدَّم أيضاً[٣]. ومعنى ﴿مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ أي: بالغرق في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة[٤]، وخصَّ موسى بالذكر؛ لأن التوراة أُنزلت عليه في الطُّور وهارونُ خليفةٌ في قومه. ولو قال: «آتيناهما»[٥] جاز، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ تقدَّم في «الأنبياء» القولُ فيه[٦].

﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ الرَّبوة: المكانُ المرتفع من الأرض، وقد تقدَّم في «البقرة»[٧]. والمراد بها هاهنا في قول أبي هريرة: فلسطينُ. وعنه أيضاً:

---

(١) ١١/٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣١٠.

(٣) ١٢/ ١١٤.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٥، والوسيط ٣/ ٢٩١، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٥.

(٥) قبلها في (م): ولقد.

(٦) ١٤/ ٣٨١ - ٣٨٣.

(٧) ٤/ ٣٣٥ - ٣٣٦.

الرَّملة[١]، ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ[٢]. وقال ابن عباس وابن المسيِّب وابنُ سَلَام: دمشق[٣]. وقال كعب وقتادة: بيت المقدس. قال كعب: وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عَشَر مِيلاً[٤]. قال:

فكنتُ هَمِيداً تحت رَمْسٍ بِرَبْوَةٍ تَعاوَرُني رِيحٌ جَنوبٌ وَشَمْأَلُ[٥]

وقال ابن زيد: مصر[٦]. وروى سالمٌ الأفطسُ عن سعيد بن جُبير ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ قال: النَّشز من الأرض[٧].

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مُستويةٍ يُستقرُّ عليها[٨]. وقيل: ذات ثمار، ولأجل الثمار يَستقِرُّ فيها الساكنون[٩].

---

(١) أورد قوله الأول الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٩١، والثاني أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥ وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٦، والطبري ١٧/ ٥٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣ - ٥٤، والطبراني في الأوسط (٦٦٩١) من حديث مُرَّة البهزي ﷺ. وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٧٢: فيه من لم أعرفهم.

(٣) أورد قول ابن عباس النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦١، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢٩١، وأخرج قول سعيد بن المسيب عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٥، والطبري ١٧/ ٤٥. وأورد قول ابن سلام البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥، والوسيط ٣/ ٢٩١، وأخرج قول كعب وقتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٥ - ٤٦، والطبري ١٧/ ٥٥.

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥٦، وابن ميمون في منتهى الطلب ٨/ ٣٥٠ ونسباه لامرئ القيس السكوني، ووقع في منتهى الطلب: وإضتُ هميداً، بدل: فكنت هميداً. وقوله: هميداً، الهميد هو الموت. والرَّمس: القبر. وتعاورني، من قولهم: تعاورت الرياح رسمَ الدار حتى عفته، أي: تواظبت عليه، وقيل: أي: تداولته، فمرة تهب جنوباً ومرة شَمالاً. لسان العرب (همد) و(رمس) و(عور).

(٦) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥٦، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣١٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧٦.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٢، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ٢٠٩، وبنحوه الطبري ١٧/ ٥٧.

(٨) الوسيط ٣/ ٢٩١، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٠، وزاد المسير ٥/ ٤٧٥.

(٩) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٥٨ عن قتادة.

﴿وَمَعِينٍ﴾: ماء جارٍ ظاهر للعيون. يقال: مَعِين ومُعُن، كما يقال: رغيف ورُغُف؛ قاله علي بن سليمان[١]. وقال الزجّاج: هو الماء الجاري في العيون[٢]. فالميم على هذا زائدةٌ كزيادتها في مَبِيْع، وكذلك الميم زائدةٌ في قول مَن قال: إنه الماء الذي يُرى بالعين. وقيل: إنه فعيل بمعنى مفعول. قال عليُّ بنُ سليمان: يقال: مَعَن الماء: إذا جرى [وكثر]، فهو مَعين ومَمْعون[٣]. ابن الأعرابي: مَعَن الماء يَمْعَن مُعوناً: إذا جرى وسَهُل، وأَمعَن أيضاً وأمعنتُه، ومياه مُعْنان[٤].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: في[٥] الصحيح عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّها الناس، إنَّ الله طيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طيباً، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجلَ يُطيلُ السَّفر، أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديه إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ، ومَطْعَمُه حرام، ومَشْربُه حرام، ومَلْبسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك!»[٦].

الثانية: قال بعض العلماء: والخطاب في هذه الآية للنبيِّ ﷺ، وأنه أقامه مقام

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥، ونقله المصنف بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦٤.

(٣) في (م): معيون، ولم تجوَّد اللفظة في (د)، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٤ والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٥، وتهذيب اللغة ٣/ ١٦، وفي القاموس: المُعْنان، بالضم: مجاري الماء في الوادي.

(٥) في (م) و(د) و(خ): روى، وسقط من (ز)، والمثبت من (ظ).

(٦) صحيح مسلم (١٠١٥)، وسلف ٣/ ٢١.

الرسل، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، يعني: نُعيمَ بنَ مسعود(١).

وقال الزجَّاج: هذه مخاطبة للنبيِّ ﷺ، ودلَّ الجمع على أن الرسل كلَّهم كذا أُمِروا، أي: كُلُوا من الحلال(٢).

وقال الطبريُّ: الخطاب لعيسى عليه السلام، رُوِيَ أنه كان يأكل من غَزْل أُمِّه(٣). والمشهور عنه أنه كان يأكل من بَقْل البَرِّيَّة(٤). ووَجْهُ خطابه لعيسى ما ذكرناه من تقديره لمحمد ﷺ تشريفاً له.

وقيل: إن هذه المَقالةَ خُوطِب بها كلُّ نبيٍّ؛ لأن هذه طريقتُهم التي ينبغي لهم الكونُ عليها، فيكون المعنى: وقلنا: يا أيُّها الرسل كُلوا من الطيبات؛ كما تقول لتاجر: يا تجارُ، ينبغي أن تَجتنبوا الرِّبا، فأنت تخاطبه بالمعنى. وقد اقترن بذلك أنَّ هذه المقالةَ تصلُح لجميع صنفه، فلم يُخاطَبوا قطُّ مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما خُوطِب كلُّ واحد في عصره(٥). قال الفرَّاء: هو كما تقول للرجل الواحد: كُفُّوا عنا أذاكم(٦).

الثالثة: سوَّى الله تعالى بين النبيِّين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنُّب الحرام، ثم شَمَلَ الكلَّ في الوعيد الذي تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦٥.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩، ونسبه لعمرو بن شرحبيل، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦، وسلف ١٠/ ١٦١.

(٤) أخرج ابن المبارك في الزهد (٥٦٢) من رواية أبي صالح عن أبي هريرة، قال: كان عيسى ابن مريم يقول لأصحابه: ...كلوا من بقل البرّية.

وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٩٣ عن أبي صالح يرفعه إلى عيسى بن مريم، بمثله.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٧.

عَلِيمٌ﴾. صلَّى الله على رسله وأنبيائه. وإذا كان هذا معهم؛ فما ظنُّ كلِّ الناس بأنفسهم؟!(١).

وقد مضى القول في الطيبات والرِّزق في غير موضع(٢)، والحمد لله.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «يمد يديه» دليلٌ على مشروعية مدِّ اليدين عند الدعاء إلى السماء، وقد مضى الخلاف في هذا والكلام فيه، والحمد لله(٣).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «فأنَّى يستجاب لذلك!» على جهة الاستبعاد، أي: إنه ليس أهلاً لإجابة دعائه، لكنْ يجوز أن يَستجيب الله له تفضُّلاً ولُطفاً وكَرماً(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ المعنى: هذا الذي تقدَّم ذكره هو دينُكم ومِلَّتُكم، فالتزموه(٥). والأُمَّة هنا: الدِّين؛ وقد تقدَّم مَحامله(٦)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: على دين. وقال النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسكَ رِيبةً ... وهل يأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ(٧)

الثانية: قُرِئ: «وإنَّ هذه» بكسر «إنَّ» على القطع، وبفتحها وتشديد النون(٨). قال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .
(٢) ١/ ٢٧٢ ، ٩/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .
(٣) ٩/ ٢٤٥ - ٢٤٧ .
(٤) المفهم ٣/ ٦٠ .
(٥) في (خ) و(ظ): فالزموه.
(٦) ٢/ ٣٩٧ ، والأنبياء، الآية (٩٢).
(٧) سلف ٥/ ٢٦٠ .
(٨) قرأ بكسر همزة «إن» وتشديدها عاصم وحمزة والكسائي، وبفتحها وتشديدها نافع وأبو عمرو، وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة وتخفيف النون. السبعة ص٤٤٦ ، والتيسير ص١٥٩ .

الخليل: هي في موضع نصب لمَّا زال الخافض[1]، أي: أنا عالم بأنَّ هذا دينُكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به.

وقال الفرّاء[2]: «أنّ» متعلِّقة بفعل مضمر، تقديره: واعلموا أنَّ هذه أمتُكم.

وهي عند سيبويه متعلِّقة بقوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، والتقدير: فاتقونِ؛ لأنَّ أمتَكم واحدة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، أي: لأن المساجد لله، فلا تدعوا معه غيرَه، وكقوله: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، أي: فليعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلاف قريش[3].

الثالثة: وهذه الآية تقوّي أن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] إنما هو مخاطبةٌ لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم، وإذا قَدَّرت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ مخاطبةً لمحمد ﷺ قَلَق اتصال هذه الآية واتصال قوله: «فتقطَّعوا». أمَّا أنّ قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ وإن كان قيل للأنبياء، فأممُهم داخلون فيه بالمعنى[4]؛ فيحسُن بعد ذلك اتصال ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾. أي: افترقوا، يعني الأمم، أي: جَعلوا دينهم أدياناً بعد ما أُمِروا بالاجتماع[5]. ثم ذكر تعالى أنَّ كلًّا منهم مُعجَب برأيه وضلالته، وهذا غاية الضَّلال[6].

الرابعة: هذه الآية تنظر إلى قوله ﷺ: «ألَا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملَّة، وإن هذه الأمةَ ستفترِق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعة» الحديث. خرَّجه أبو داود[7]، ورواه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ ، وينظر الكتاب ٣/ ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٣) الكتاب ٣/ ١٢٧ ، وينظر الحجة ٥/ ٢٩٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٤) في (ظ): وإن لم يقل للأنبياء، فإنهم داخلون فيه بالمعنى، والمثبت من (خ) و(م) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ والكلام منه.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ - ١٤٧ .

(٧) في سننه (٤٥٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وسلف ٢/ ٢٢٣ .

الترمذي[١]، وزاد: قالوا: ومَن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» خرَّجه مِن حديث عبد الله بن عمرو.

وهذا يبيِّن أن الافتراق المُحذَّرَ منه في الآية والحديث، إنما هو في أصول الدين وقواعده؛ لأنه قد أَطلق عليها مِلَلاً، وأخبر أن التمسُّك بشيء من تلك الملل مُوجِبٌ لدخول النار، ومِثلُ هذا لا يقال في الفروع، فإنه لا يُوجِب تعديد المِلل ولا عذابَ النار؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿زُبُرًا﴾ يعني كُتُباً وضعوها، وضلالاتٍ أَلَّفوها؛ قاله ابن زيد. وقيل: إنهم فرَّقوا الكتب، فاتَّبعت فرقةٌ الصُّحُفَ، وفرقةٌ التوراةَ، وفرقةٌ الزبورَ، وفرقة الإنجيلَ، ثم حَرَّف الكلُّ وبدَّل؛ قاله قتادة[٢]. وقيل: أَخَذ كلُّ فريق منهم كتاباً آمنَ به وكَفَر بما سواه.

و«زُبُراً» بضم الباء، قراءةُ نافع، جمع زبور[٣]. والأعمشُ وأبو عمرو بخلافٍ عنه: «زُبَراً» بفتح الباء[٤]، أي: قِطَعاً كقطع الحديد؛ كقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦].

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ أي: فريق ومِلَّة ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما[٥] عندهم من الدِّين ﴿فَرِحُونَ﴾ أي: مُعجَبون به. وهذه الآية مثالٌ لقريش، خاطَبَ محمداً ﷺ في شأنهم، متصلاً بقوله ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: فَذَرْ هؤلاء الذين هم بمنزلة مَن

(١) برقم (٢٦٤١) وسلف ٥/ ٢٤٢ ، وقد أكد العلماء على صحة حديث الافتراق بمجموع رواياته وطرقه وشواهده.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣١ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢ مختصراً.

(٣) وهي قراءة بقية السبعة أيضاً.

(٤) كذا نسب المصنف هذه القراءة لأبي عمرو، تبعاً لابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧ ، ونسبها الطبري ١٧/ ٦٣ إلى عامة قرأة الشام، ونسبها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٣٠٣ إلى ابن عامر الشامي، لكن بخلاف بين أصحاب هشام راوي ابن عامر. فلعل النسبة إلى أبي عمرو وهم، وصوابه: ابن عامر، والله أعلم.

(٥) لفظ: بما، من (ظ).

تقدَّم[١]، ولا يَضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكلِّ شيء وقت.

والغَمْرة في اللغة: ما يَغْمُرك ويَعلُوك؛ وأصله السَّتر[٢]، ومنه الغَمْر: الحِقْد؛ لأنه يغطِّي القلب، والغَمْر: الماء الكثير؛ لأنه يغطِّي الأرض، وغَمْرُ الرِّداء: الذي يشمل الناس بالعطاء، قال:

غَمْرُ الرِّداء إذا تبسَّم ضاحكاً غَلِقتْ لضَحْكته رِقابُ المالِ[٣]

المراد هنا: الحَيْرة والغَفْلة والضلالة. ودخل فلانٌ في غِمار الناس، أي: في زَحْمتهم[٤].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال مجاهد: حتى الموت[٥]، فهو تهديد لا توقيت؛ كما يقال: سيأتي لك يوم[٦].

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ «ما» بمعنى الذي[٧]، أي: أيحسبون يا محمدُ أنَّ الذي نعطيهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم؟ إنما هو استدراجٌ وإملاء، وليس إسراعاً في الخيرات[٨].

وفي خبر «أنّ» ثلاثةُ أقوال:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧ .

(٢) قبلها في (ظ): من.

(٣) سلف ١٢/ ٢٨٧ .

(٤) الصحاح (غمر).

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥٨ ولم ينسبه.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٥٨ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٧ .

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٨ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦ ، والوسيط ٣/ ٢٩٢ .

منها أنه محذوف.

وقال الزجَّاج[١]: المعنى نسارع لهم به في الخيرات، وحُذِفت «به». وقال هشامٌ الضرير[٢] قولاً دقيقاً، قال: إن «ما» هي الخيرات، فصار المعنى: نسارع لهم فيه، ثم أظهر فقال: «في الخيرات». ولا حذفَ فيه على هذا التقدير[٣].

ومذهبُ الكسائي أنَّ «أنَّما» حرفٌ واحد، فلا يحتاج إلى تقدير حذف[٤]، ويجوز الوقف على قوله: «وبنين»، ومَن قال: «أنما» حرفان، فلابدَّ من ضمير يَرجع من الخبر إلى اسم «أنّ»: ولم يَتِمَّ الوقف على «وبنين»[٥].

وقال السِّجستاني[٦]: لا يَحْسُن الوقف على «وبنين»؛ لأن «يحسبون» يحتاج إلى مفعولين، فتمامُ المفعولين: «في الخيرات». قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن «أنّ» كافيةٌ من اسم «أنَّ» وخبرِها، ولا يجوز أن يُؤتى بعد «أنَّ» بمفعول ثان[٧].

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وعبد الرحمن بن أبي بَكرة: «يُسارِع» بالياء[٨]،

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ١٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٧ وما قبله منه.

(٢) هو أبو عبد الله هشام بن معاوية الضرير، النحوي الكوفي، صاحب الكسائي، المتوفى سنة ٢٠٩ هـ. إنباه الرواة ٣/ ٣٦٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٧ ، وتعقب هشاماً بقوله: وهذا قول بعيد. اهـ وينظر مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٥٠٤ وعبارته: وقال هشام تقديره: نسارع لهم فيه، ثم أظهر الضمير، وهو «الخيرات» و«ما» التي هي اسم «أن» هي للخيرات.

(٤) في (ظ): حرف.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٩١ - ٧٩٢ .

(٦) هو أبو حاتم سهل بن محمد، وتحرف في (م) إلى السختياني.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٩٢ ، وفيه: كافية من اسم «يحسبون» وخبرها. (وقد جاء في النسخة (ظ): كافية باسمها).

(٨) القراءات الشاذة ص٩٨ ، والمحتسب ٢/ ٩٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٧ ، وأخرج القراءة عن عبد الرحمن بن أبي بكرة الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٦٥ - ٦٦ ، وعبد الرحمن بن أبي بكرة ـ نفيع بن الحارث ـ البصري تابعي، كان أول مولود في الإسلام بالبصرة، توفي سنة ٩٦هـ. تهذيب التهذيب.

على أن يكون فاعله «إمدادُنا». وهذا يجوز أن[1] يكون على غير حذفٍ، أي[2]: يُسارع لهم الإمدادُ، ويجوز أن يكون فيه حذف، ويكون المعنى: يُسارع اللهُ لهم.

وقُرِئ: «يُسارَع لهم في الخيرات»، وفيه ثلاثة أوجه: أحدُها على حذف «به»، ويجوز أن يكون: يُسارَع الإمدادُ. ويجوز أن يكون «لهم» اسمُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه. ذكره النحاس[3].

قال المهدويُّ: وقرأ الحُرُّ النَّحْوي: «نُسرِع لهم في الخيرات»[4]، وهو معنى قراءة الجماعة.

قال الثعلبي: والصواب قراءة العامة؛ لقوله: «نمدهم».

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ ذلك فتنةٌ لهم واستدراج[5].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ لمَّا فَرَغ من ذِكر الكفرة وتوعَّدَهم، عقَّب ذلك بذكر المؤمنين المسارِعين في الخيرات، ووعدَهم، وذَكَرهم[6]

(١) قبلها في (خ) و(ز) و(ظ): على.

(٢) في (خ) و(ز) و(ظ): ويكون المعنى، بدل: أي، والمثبت من (د) و(م) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٨ ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦ ، والكلام منهما.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١١٧ ، وهذه القراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٩٤ ونسبها لعبد الرحمن ابن أبي بكرة.

(٤) قراءة الحُرِّ في المحتسب ٢/ ٩٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٧ ، وذكرها ابن خالويه في الشواذ ص٩٨ بالياء (يسرع لهم) ونسبها لبعضهم. والحُرُّ النحوي: هو ابن عبد الرحمن، سمع أبا الأسود الدؤلي، وعنه طلب القرآن. بغية الوعاة ١/ ٤٩٣ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٦ .

(٦) في النسخ عدا (ظ): وذكر ذلك، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧ والكلام منه.

بأبلغِ صفاتهم. و«مُشْفِقُونَ»: خائفون وَجلون مما خوَّفهم الله تعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ قال الحسن: يُؤتُون الإخلاص ويخافون ألّا يُقبلَ منهم[1]. وروى الترمذيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: أَهُم الذين يشربون الخمرَ ويسرقون؟! قال: «لا يا بنتَ الصدِّيق، ولكنَّهم الذين يصومون ويُصلُّون ويتصدَّقون وهم يخافون ألَّا يُقبَلَ منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[2].

وقال الحسن: لقد أَدركت[3] أقواماً كانوا من حسناتهم أنْ تُرَدَّ عليهم، أشفقَ منكم على سيئاتكم أن تُعذَّبوا عليها[4].

وقرأت عائشةُ رضي الله عنها وابنُ عباس والنَّخَعيُّ: «والذين يأتون ما أَتَوا» مقصوراً من الإتيان[5].

قال الفرَّاء: ولو صحَّت هذه القراءةُ عن عائشةَ، لم تُخالِف قراءةَ الجماعة؛ لأن الهمز؛ من العرب مَن يَلْزَم فيه الألفَ في كلِّ الحالات إذا كَتَب، فيكتب: سُئل الرجل، بألف بعد السِّين، ويستهزئون، بألف بين الزاي والواو، وشيءٌ، بألف بعد الياء، فغيرُ مستنكَر في مذهب هؤلاء أن يُكتب «يؤتُون» بألف بعد الياء، فيَحتمِل هذا

---

(١) أخرجه بمعناه ابن المبارك في الزهد (١٥)، والطبري ١٧/ ٦٧ ، والبيهقي في الشعب (٧٦٣).

(٢) الترمذي برقم (٣١٧٥)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤١٩٨) وأحمد (٢٥٧٠٥) من طريق سعيد بن عبد الرحمن الخيواني عن عائشة، به. وعبد الرحمن لم يدرك عائشة كما قاله أبو حاتم ونقله عنه ابنه في المراسيل ص١٠٩ ، وابن حجر في تهذيب التهذيب (في ترجمة عبد الرحمن).

(٣) في (م): أدركنا.

(٤) أورده الكيا الطبري في أحكام القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٨ لعائشة، وابن جني في المحتسب ٢/ ٩٥ لعائشة وابن عباس وقتادة والأعمش.

اللفظُ بالبناء على هذا الخطِّ قراءتين: «يؤتون ما آتوا» و«يأتُون ما أَتَوا».

ويَنفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين:

أحدُهما: والذين يُعطُون ما أَعطَوا من الزكاة والصدقة وقلوبُهم خائفة.

والآخر: والذين يؤتون الملائكة الذين يكتبون الأعمال على العباد[1] ما آتوا وقلوبُهم وجِلة، فيحذف[2] المفعول[3] في هذا الباب لوضوح معناه، كما حُذِف في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩]، والمعنى: يَعصِرون السِّمسِم والعنب؛ فاختُزِل المفعول لوضوح تأويله.

ويكونُ الأصل في الحرف[4] على هجائه الموجود في الإمام: «يأتون» بألف مبدَلة من الهمزة، فكُتِبت الألف واواً لتآخي حروف المدِّ واللِّين في الخفاء. حكاه ابن الأنباري.

قال النحاس: المعروف من قراءة ابن عباس: «والذين يأتون ما أَتَوا»، وهي القراءة المرويَّةُ عن النبيِّ ﷺ وعن عائشةَ رضي الله عنها، ومعناها: يعملون ما عملوا؛ كما رُويَ في الحديث[5].

والوجَلُ: نحوُ الإشفاق والخوف، فالتقيُّ والتائب خَوْفُه أَمْرَ العاقبة وما يطَّلع عليه بعد الموت. وفي قوله: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة[6]. وفي «صحيح البخاري»: «وإنما الأعمال بالخواتيم»[7]. وأما المخلِّط، فينبغي له أن يكون

---

(١) في (ظ): الذين يكتبون أعمال العباد.

(٢) في (م): فحذف.

(٣) في النسخ عدا (ظ): مفعول. والمثبت من (ظ).

(٤) في (ظ): ويكون الحرف.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٩ ، وسلفت القراءة قريباً.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ .

(٧) صحيح البخاري (٦٤٩٣)، وسلف ١/ ٢٩٦ .

تحت خوفٍ من أن يُنفَّذ عليه الوعيد بتخليطه[١].

وقال بعض[٢] أصحاب الخواطر: وَجَلُ العارف مِن طاعته أكثرُ وجلاً[٣] من وَجَلِه من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تُطلَب بتصحيح الغرض[٤].

﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: لأنهم ـ أو من أجل أنهم[٥] ـ إلى ربهم راجعون.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في عمل الخيرات[٦]، أي: في الطَّاعات؛ كي ينالوا بذلك أعلى الدَّرجات والغُرُفات.

وقُرِئ: «يُسْرِعون في الخيرات» أي: يكونون سِراعاً إليها. و«يُسارِعون» على معنى يسابقون مَن سابقهم إليها، فالمفعول محذوف[٧]. قال الزَّجَّاج[٨]: «يُسارِعون» أبلغُ مِن «يُسرِعون».

﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أحسنُ ما قيل فيه: أنهم يَسبِقون إلى أوقاتها، ودلَّ بهذا أن الصلاة في أوَّل الوقت أفضل ـ كما تقدَّم في «البقرة»[٩] ـ وكلُّ مَن تقدَّم في شيء فقد[١٠] سابق إليه، وكلُّ مَن تأخَّر عنه فقد سَبقَه وفاتَه، فاللام في «لها» على هذا القول بمعنى «إلى»، كما قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، أي: أوحى إليها.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٤٨.

(٢) لفظة: بعض، ليست في (م).

(٣) في (ظ): وجل العارف من طاعته كوجله من مخالفته.

(٤) النكت والعيون ٤/٥٩.

(٥) ما بين معترضتين ليس في (ظ)، والكلام في المحرر الوجيز ٤/١٤٨.

(٦) إعراب القرآن للنحاس، وقوله: أي في عمل الخيرات، ليس في (م).

(٧) المحتسب ٢/٩٦، ونسب ابن جني هذه القراءة للحرّ النحوي.

(٨) في معاني القرآن ٤/١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/١١٧.

(٩) ٢/ ٤٥٠ وما بعدها.

(١٠) في (م) و(د) و(ز): فهو، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/١١٧ والكلام منه.

وأنشد سيبويه:

تَجانَفُ عن جَوِّ اليمامة ناقتي وما قصدَتْ من أهلها لِسِوائكا[(١)]

وعن ابن عباس في معنى ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾: سبقت لهم من الله السعادةُ[(٢)]، فلذلك سارعوا في الخيرات. وقيل: المعنى: وهم من أجل الخيرات سابقون[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قد مضى في «البقرة»[(٤)]، وأنه ناسخ لجميع ما ورد في الشَّرع من تكليفِ ما لا يطاق.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ أظهرُ ما قيل فيه: أنه أراد كتابَ إحصاء الأعمال الذي تَرفعه الملائكة[(٥)]، وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمالَ العباد بأمره، فهو يَنطِق بالحق. وفي هذا تهديدٌ وتأنيس[(٦)] من الحَيْف والظلم.

ولفظ النُّطق يجوز في الكتاب، والمراد أن النبيين تَنطِق بما فيه، والله أعلم، وقيل: عنى اللوحَ المحفوظ، وقد أُثبِتَ فيه كلُّ شيء، فهم لا يُجاوِزون ذلك. وقيل: الإشارة بقوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ إلى[(٧)] القرآن، فالله أعلم، وكلٌّ محتمِل، والأوَّل أظهر[(٨)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٠، والبيت في الكتاب ١/ ٣٢، ٤٠٨، منسوب للأعشى، وسلف ٣/ ١١٦ وفيه: حجر، بدل: جوٍّ.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٧٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٠، والوسيط ٢/ ٤١٧، وزاد المسير ٥/ ٤٨٠.

(٤) ٤/ ٤٩٨ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٨.

(٦) في (ظ) و(م): وتأييس، والمثبت من (خ) و(د) و(ز) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ والكلام منه.

(٧) لفظة: إلى، من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ - ١٤٩ والكلام منه.

(٨) ينظر تفسير أبي الليث السمرقندي ٢/ ٤١٧، والوسيط ٣/ ٢٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ وزاد المسير ٥/ ٤٨١.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ قال مجاهد: أي: في غِطاء وغَفْلة وعَماية عن القرآن. ويقال: غَمَره الماء: إذا غطَّاه، ونهرٌ غَمْرٌ يُغطِّي مَن دَخَله[1]. ورجلٌ غَمْر يَغْمُره آراء الناس. وقيل: «غُمْرة»؛ لأنها تُغطِّي الوجه، ومنه: دَخَل في غُمار الناس وخُمارهم، أي: فيما يغطِّيه من الجمع[2].

وقيل: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: في حَيْرة وعَمًى، أي: ممَّا وَصَف من أعمال البِرِّ في الآيات المتقدِّمة؛ قاله قتادة. أو: مِن الكتاب الذي يَنْطِق بالحقّ[3].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال قتادة ومجاهد: أي: لهم خطايا لابُدَّ أن يعملوها من دون الحقّ[4]. وقال الحسن وابن زيد: المعنى: ولهم أعمال رديَّةٌ[5] لم يعملوها من دون ما هم عليه؛ لابُدَّ أن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لِمَا سبق لهم من الشِّقوة[6]. ويَحتمِل ثالثاً: أنه ظُلْم الخَلْق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي[7]. والمعنى متقارب.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ يعني: بالسيف يوم بدر، قاله ابن عباس[8]. وقال

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٢ ، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٧٤ .

(٢) الصحاح (غمر)، وفيه: رجل غُمْر: لم يجرب الأمور. وينظر تهذيب اللغة ٨/ ١٢٨ ، وما بعدها.

(٣) أورد هذا القول النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٨ .

(٤) قول قتادة في النكت والعيون ٤/ ٦٠ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٣ ، وأخرج قولهما الطبري ١٧/ ٧٥ - ٧٦ .

(٥) في (م): رديئة.

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٧٦ بنحوه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٦٠ .

(٨) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٩٠).

الضحَّاك: يعني: بالجوع حين قال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسف»[(١)]. فابتلاهم الله بالقَحْط والجوع، حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجِيَف، وهلك الأموال والأولاد[(٢)].

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: يَضِجُّون ويستغيثون، وأصلُ الجُؤَار رفعُ الصوت بالتضرُّع[(٣)]، كما يفعل الثور. وقال الأعشى يصِف بقرة:

فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ وكان النكير أن تُضِيف[(٤)] وتجأرا

قال الجوهري[(٥)]: الجُؤَار مثلُ الخُوار؛ يقال: جأر الثورُ يَجْأر، أي: صاح، وقرأ بعضهم: «عِجْلاً جسَداً لَهُ جُؤَار» [الأعراف:١٤٨]، حكاه الأخفش[(٦)]، وجَأَر الرجلُ إلى الله عزَّ وجلَّ: تضرَّع بالدعاء.

قتادة: يَصْرُخون بالتوبة فلا تُقبل منهم[(٧)]. قال:

يُراوِح من صلواتِ المَلِيك فطَوْراً سُجوداً وطَوْراً جُؤارا[(٨)]

وقال ابن جُريج: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ هم الذي قُتِلوا ببدر ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ هم الذين بمكة[(٩)]، فجمع بين القولَين المتقدِّمين، وهو حسَن.

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا﴾ أي: من عذابنا ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾: لا تُمنعون ولا

(١) سلف ٤/ ٣٠٤.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٤) في النسخ الخطية: وتطيف، والمثبت من (م) والمصادر، وقد سلف ٣٣٨/١٢.

(٥) في الصحاح (جأر).

(٦) معاني القرآن له ٢/ ٥٣٢، والقراءة أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ ونسبها لأبي السمال.

(٧) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦١ للحسن.

(٨) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٣.

(٩) أخرجه الطبري ٧٨/١٧.

يَنفعكم جزَعُكم[١]. وقال الحسن: لا تُنصَرون بقَبول التوبة[٢].

وقيل: معنى هذا النهي الإخبارُ، أي: إنكم إن تضرَّعتم لم ينفعكم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ الآيات يريد بها القرآن[٣]. «تُتْلَى عَلَيْكُمْ» أي: تُقرَأ. قال الضحاك: قبل أن تُعذَّبوا بالقتل[٤]، و«تَنْكِصُونَ»: تَرجِعون وراءكم[٥]. مجاهد: تستأخِرون[٦]، وأصله أن تَرجع الْقَهْقَرَى[٧]. قال الشاعر:

زعموا أنهمْ على سُبُل الحقِّ ... وأنَّا[٨] نُكُصٌ على الأعقابِ

وهو هنا استعارة للإعراض والإدبار[٩] عن الحقّ.

وقرأ عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: «على أدباركم» بدل: «على أعقابكم»، «تنكُصون» بضم الكاف[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٦٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩.

(٤) أورده النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٣، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٨٠.

(٧) تفسير غريب القرآن ص٢٩٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٣.

(٨) في (م): على سبل النجاة... وإنما، وفي (خ): على سبل الحق وإنما...، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٦١ والكلام منه.

(٩) لفظ: والإدبار، ليس في (م)، وفي (خ) و(د) و(ز): عن الإدبار، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩، والكلام منه.

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٩ لابن مسعود ﷺ.

و«مُسْتَكْبِرِينَ» حال.

والضمير في «به» قال الجمهور: هو عائدٌ على الحَرَم، أو المسجد الحرام[١]، أو البلد الذي هو مكة، وإن لم يتقدَّم له ذِكْر لشهرته في الأمر[٢]، أي: يقولون: نحن أهل الحرم فلا نَخاف[٣].

وقيل: المعنى: أنهم يعتقدون في نفوسهم أنَّ لهم بالمسجد والحَرَم أعظَمَ الحقوق على الناس والمنازل [عند الله]، فيستكبرون لذلك، وليس الاستكبارُ من الحقّ. وقالت فرقة: الضمير عائدٌ على القرآن من حيث ذُكِرتِ الآيات، والمعنى: يُحدِث لكم سماعُ آياتي كِبْراً وطُغياناً، فلا تؤمنوا به. قال ابن عطية[٤]: وهذا قول جيِّد.

النحاس[٥]: والقول الأوَّل أَوْلى، والمعنى: أنهم يفتخرون بالحرم، ويقولون: نحن أهل حرم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ **فيه أربعُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ «سامِراً» نصب على الحال، ومعناه: سُمَّاراً، وهو الجماعة يتحدَّثون بالليل، مأخوذٌ من السَّمَر، وهو ظِلُّ القمر، ومنه سُمْرة اللون. وكانوا يتحدَّثون حول الكعبة في سَمَر القمر، فسُمِّي التحدُّثُ به[٦].

قال الثوري: يقال لِظِلِّ القمر: السَّمَر ـ ومنه السُّمْرة في اللَّون ـ ويقال له: الفَخْت، ومنه قيل: فاخِتة[٧].

---

(١) لفظ: الحرام، من (ظ).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٩٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٣ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩ – ١٥٠ ، والكلام قبله وما بين حاصرتين منه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٤٧٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٥ . والفاختة: واحدة الفواخت، وهي ضرب من الحمام المُطوَّق. قال ابن بري: ذكر الجواليقي أن الفاختة مشتقة من الفَخْت الذي هو ظل القمر. اللسان (فخت).

وقرأ أبو رجاء: «سُمَّاراً»، وهو جمع سامر[١]، كما قال:

ألستَ ترى السُّمَّارَ والنَّاسَ أحوالي[٢]

وفي حديث قَيْلة: إذ[٣] جاء زوجها[٤] من السامر[٥]. يعني: من القوم الذين يَسْمُرون بالليل[٦]؛ فهو اسمٌ مفردٌ بمعنى الجمع[٧]، كالحاضر، وهم القوم النازلون على الماء، والباقِر جمع البَقَر، والجامِل جمع الإبل[٨]، ذكورتها وإناثها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي: أطفالاً. يقال: قوم سَمْر وسُمَّر وسامِر، ومعناه سهر الليل؛ مأخوذ من السَّمَر، وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر[٩].

قال الجوهري: السامر أيضاً السُّمَّار، وهم القوم الذين يَسْمُرون؛ كما يقال للحاجِّ: حُجَّاج[١٠]، وقول الشاعر:

وسامرٍ طال فيه اللَّهْوُ والسَّمَرُ

كأنه سَمَّى المكان الذي يُجتمَع فيه للسَّمر بذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٧، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣١، وصدره:

فقالت سباك الله إنك فاضحي

(٣) في النسخ: إذا، والمثبت من المصادر الآتية.

(٤) في (ظ): زوجي، وفي (خ) و(ز): زوجنا.

(٥) هو قطعة من حديث طويل أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٣١٧ - ٣٢٠، والطبراني في الكبير ٢٥/ ٧-١٠ وقيلة: هي بنت مخرمة العنبرية، صحابية هاجرت إلى النبي ﷺ. الإصابة ١٣/ ٩٨، والتقريب.

(٦) النهاية لابن الأثير (سمر).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠، والنهاية (سمر).

(٨) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٧، والنهاية لابن الأثير ٢/ ٤٠٠، والذي في المعاني: باقر لجماعة البقر، وجامل لجماعة الجمال.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠.

(١٠) في الصحاح (سمر): كما يقال: للحجاج: الحاجّ.

وقيل: وحَّد سامراً، وهو بمعنى السُّمَّار؛ لأنه وُضِع مَوضِع الوقت، كقول الشاعر:

مِـن دونـهـم إن جـئـتَـهـم سَـمَـراً عَـزْفُ الـقِـيَـانِ ومَـجْـلِـسٌ غَـمْـرُ[1]

فقال: سَمَراً؛ لأن معناه: إن جئتَهم ليلاً وجدتَهم وهم يَسْمُرون[2].

وابنا سَمِير: الليل والنهار؛ لأنه يُسْمَر فيهما، يقال: لا أفعلُه ما سَمَر ابنا سَمِير[3]، [أي:] أبداً. ويقال: السَّمير: الدَّهر، وابناه: الليلُ والنهار. ولا أفعلُه السَّمَرَ والقمرَ؛ أي: ما دام الناس يَسْمُرون في ليلة قمراء. ولا أفعلُه سَمِيرَ الليالي. قال الشَّنْفَرَى:

هـنـالـك لا أرجـو حـيـاةً تَـسُـرُّنـي سَـمِـيرَ الـلـيـالي مُـبْـسَـلاً بـالـجَـرَائِرِ[4]

والسَّمَارُ - بالفتح - اللَّبنُ الرقيق[5]. وكانت العرب تجلس للسَّمَر تتحدَّث، وهذا الذي[6] أَوجبَ معرِفتَها بالنجوم؛ لأنها تجلس في الصحراء، فترى الطَّوالع من الغوارب. وكانت قريشٌ تَسْمُر حول الكعبة مجالسَ السمر[7] في أباطيلها وكفرها[8]،

(١) مجاز القرآن ٢/ ٦٠ وغريب الحديث للحربي ٣/ ١٠٦٩ ، وتفسير الطبري ١٧/ ٨٢ ونسبه في مجاز القرآن لابن أحمر، وهو عمرو بن أحمر الباهلي والمعنى - كما في غريب الحديث -: هم أهل مجلسٍ غَمْرٍ يغمرون بالمعروف غيرهم لأنهم كرام.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٨٢ ، وما قبله منه.

(٣) الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٣٨١ ، وجمهرة الأمثال ٢/ ٢٨٢ .

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٨٠ ، والأغاني ٢١/ ١٨٢ ، والطرائف الأدبية ص٣٦ منسوباً للشنفرى، وفيه: سجيس، بدل: سمير، يقال أيضاً: لا أفعله سجيس الليالي، أي: أبداً.

وقال الجرجاني: ويقال: لتأبط شرًّا. اهـ. وهو في ديوانه ص٢٤٣ . وقوله: مُبْسلاً، أي: مُسْلَماً. لسان العرب (بسل).

(٥) الصحاح (سمر)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) لفظ: الذي، من (ظ).

(٧) لفظ: السمر. من (ظ).

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠ .

فعابهم الله بذلك[١].

و«تهجرون» قُرِئ بضم التاء وكسر الجيم، مِن أَهْجر: إذا نَطَق بالفُحش، وبنصب التاء وضم الجيم[٢]، مِن هَجَر المريضُ: إذا هَذَى. ومعناه: يتكلَّمون بهَوَسٍ وسَيِّئٍ من القول في النبيِّ ﷺ وفي القرآن. عن ابن عباس وغيره[٣].

الثانية: روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: إنما كُرِه السَّمَر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾، يعني أن الله تعالى ذمَّ أقواماً يَسْمُرون في غير طاعة الله تعالى، إمَّا في هَذَيان، وإمَّا في إذاية[٤].

وكان الأعمش يقول: إذا رأيتَ الشيخَ ولم يكتب الحديث، فاصْفَعه، فإنه من شيوخ القمر. يعني يجتمعون في ليالي القمر، فيتحدَّثون بأيام الخلفاء والأمراء، ولا يُحسِن أحدهم يتوضَّأ للصلاة[٥].

الثالثة: روى مسلمٌ عن أبي بَرْزَةَ قال: كان النبيُّ ﷺ يؤخِّر العِشاء إلى ثُلُث الليل، ويكره النومَ قبلها والحديثَ بعدها[٦].

قال العلماء: أما الكراهية للنوم قبلها، فلئلا يُعَرِّضها للفوات عن كل وقتها أو أفضلِ وقتها؛ ولهذا قال عمر: فَمَن نام فلا نامت عينه؛ ثلاثاً[٧].

---

(١) في (د): فعابهم الله بذلك، وفي (ز) و(ظ): فعاتبهم الله على ذلك، والمثبت من (خ) و(م).

(٢) قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم، والباقون بنصب التاء وضم الجيم. السبعة ص٤٤٦، والتيسير ص١٥٩.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٢٩٩، والوسيط ٣/ ٢٩٤، والبغوي ٣/ ٣١٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٧ - ١٣٠٨، وأخرجه الطبري ١٧/ ٨٤ - ٨٥ بنحوه مختصراً.

(٥) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٢٠٤)، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (١٤٢).

(٦) صحيح مسلم (٦٤٧): (٢٣٧)، وأخرجه - أيضاً - أحمد (١٩٨٠٠)، والبخاري (٥٩٩) وفيه: وكان يستحب أن يؤخِّر العشاء.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨، وقول عمر أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٦، وعبد الرزاق (٢١٤٢)، وابن المنذر في الأوسط (١٠٤١).

وممن كرِه النوم قبلها عمرُ وابنُه عبدُ الله وابنُ عباس وغيرُهم، وهو مذهب مالك. ورخَّص فيه بعضُهم، منهم عليٌّ وأبو موسى وغيرُهم، وهو مذهب الكوفيين. وشرطَ بعضهم أن يجعل معه مَن يُوقِظُه للصلاة. ورُوِي عن ابن عمَر مثلُه، وإليه ذهب الطَّحاوي[١].

وأمَّا كراهيةُ الحديث بعدَها، فلأن الصلاة قد كفَّرت خطاياه، فينامُ على سلامة، وقد خَتَم الكُتَّابُ صحيفته بالعبادة، فإنْ هو سَمَر وتحدَّث فيملؤها بالهَوَس، ويجعلُ خاتمتَها اللغوَ والباطل، وليس هذا مِن فعل المؤمنين[٢]. وأيضاً فإنَّ السَّمَر في الحديث مَظِنة غلبة النوم آخِرَ الليل، فينام عن قيام آخِرِ الليل، وربَّما ينام عن صلاة الصبح[٣].

وقد قيل: إنما يُكره السَّمَر بعدَها لِمَا روى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والسَّمَرَ بعد هَدْأة الرِّجل، فإنَّ أحدكم لا يَدري ما يَبُثُّ الله تعالى مِن خَلْقه، أَغلِقوا الأبواب، وأَوْكُوا السِّقاء، وخَمِّروا الإناء، وأَطفِئوا المصابيح»[٤].

ورُوِي عن عمرَ أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العِشاء، ويقول: أَسَمَراً أوَّلَ الليل ونوماً آخِره؟! أَريحوا كُتَّابكم[٥]. حتى إنه رُوِي عن ابن عَمْرو[٦] أنه قال: مَن قَرَض بيتَ شِعر بعد العِشاء، لم تُقبَل له صلاةٌ حتى يُصبِح[٧]. وأسنده شدَّاد بنُ

---

(١) في مختصر اختلاف العلماء ١/ ٣١٨ ، ونقله المصنف بواسطة أبي العباس القرطبي في المفهم ٢/ ٢٧١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨ .

(٣) المفهم ٢/ ٢٧١ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨ ، والحديث أخرجه الحميدي في مسنده (١٣١٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٣٠)، والحاكم مختصراً ٤/ ٢٨٤ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
وأخرجه أحمد (١٤٢٨٣)، وأبو داود (٥١٠٣)، وابن حبان (٥٥١٧) من حديث جابر أيضاً، بلفظ: أقلوا الخروجَ إذا هدأت الرِّجل فإن الله يبث في ليله من خلقه ما شاء...

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٢٧٩ .

(٦) في النسخ: ابن عمر، والتصويب من مصادر التخريج الآتية.

(٧) أورده ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٢٦٣ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٢٣٨) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً قال أبو حاتم كما في العلل لابنه: هذا خطأ، الناس يروون هذا الحديث لا يرفعونه يقولون: عن عبد الله بن عمرو فقط.

أَوْس إلى النبيِّ ﷺ[(١)].

وقد قيل: إن الحكمة في كراهية الحديث بعدها إنما هو لمَّا أنَّ الله تعالى جعل الليل سَكَناً ـ أي: يُسكَن فيه ـ فإذا تحدَّث الإنسان فيه، فقد جعله كالنهار[(٢)] الذي هو متصرَّف المعاش؛ فكأنه قصد إلى مخالفة حِكْمة الله تعالى التي أجرى عليها وجوده، فقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

الرابعة: هذه الكراهة إنما تختصُّ بما لا يكون من قَبِيل القُرَب والأذكار وتعليم العلم، ومُسامرةِ أهل العلم وتعليم المصالح[(٣)]، وما شابه ذلك، فقد ورد عن النبيِّ ﷺ وعن السَّلف ما يدلُّ على جواز ذلك، بل على نَدْبيَّته. وقد قال البخاريُّ: بابُ السَّمَر في الفقه والخير بعد العِشاء، وذكر أن قُرَّة بنَ خالد قال: انتَظَرْنا الحسن، ورَاثَ[(٤)] علينا، حتى جاء قريباً[(٥)] من وقت قيامه، فجاء فقال: دعانا جيرانُنا هؤلاء. ثم قال: [قال] أنس: انتَظَرْنا رسولَ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، حتى كان شطرُ الليل، فجاء فصلَّى، ثم خطبنا فقال: «إن الناس قد صَلَّوا [ثم رقدوا]، وإنكم لم تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتم

(١) أحكام القرآن ٣/١٣٠٨ ، وأخرجه أحمد (١٧١٣٤)، والبزار (٢٠٩٤ - كشف)، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني في الكبير (٧١٣٣)، والبيهقي في الشعب (٥٠٨٩)، وابن الجوزي في الموضوعات (٥٠٦) من طريق قزعة بن سويد، عن عاصم بن مخلد، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن شداد بن أوس مرفوعاً.

قال العقيلي: عاصم بن مخلد عن أبي الأشعث لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع. وعاصم في عداد المجهولين. قال أحمد بن حنبل: قزعة بن سويد مضطرب الحديث، وقال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم، فلما كثر ذلك في رواياته سقط الاحتجاج بأخباره. اهـ وينظر القول المسدد في الذب عن مسند أحمد ص٧٥ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): في النهار، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في المفهم ٢/ ٢٧١ والكلام منه.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في المفهم ٢/ ٢٧١ ، والكلام منه، غير أن في المفهم: تعلُّم، بدل: تعليم.

(٤) أي: أبطأ. ينظر النهاية (ريث).

(٥) في صحيح البخاري: حتى قربنا.

الصلاةَ». قال الحسن: فإن القوم لا يزالون في خير ما انتظروا الخير[(١)].

وقال: بابُ السَّمَر مع الضيف والأهل، وذكر حديثَ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكر[(٢)] أنَّ أصحابَ الصُّفَّة كانوا [أناساً] فقراء... الحديث[(٣)]. أخرجه مسلمٌ أيضاً[(٤)].

وقد جاء في حراسة الثُّغُور وحفظِ العساكر بالليل من الثَّواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار، وقد مضى من ذلك جملةٌ في آخِر «آل عمران»[(٥)] والحمدُ لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني القرآن[(٦)]؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وسُمِّيَ القرآن قولاً لأنهم خُوطِبوا به.

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأنكروه وأعرضوا عنه. وقيل: «أم» بمعنى بل، أي: بل جاءهم ما لا عَهْدَ لآبائهم به، فلذلك أنكروه وتركوا التَّدبُّر له، قاله ابن عباس[(٧)]. وقيل: المعنى: أم جاءهم أمان من العذاب، وهو شيءٌ لم يأتِ آباءهم الأوَّلين، فتركوا الأجر[(٨)].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨ - ١٣٠٩ ، وصحيح البخاري (٦٠٠) وما سلف بين حاصرتين منهما، وأخرج حديث أنس ﷺ أحمد (١٣٠٦٩)، ومسلم (٦٤٠): (٢٢٢) دون قول قرة بن خالد.

(٢) في النسخ: أبي بكر بن عبد الرحمن، والتصويب من أحكام القرآن وصحيح البخاري.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨ - ١٣٠٩ ، وصحيح البخاري (٦٠٢) وما بين حاصرتين منهما، وموضع الشاهد في تمامه، وهو أن أبا بكر تعشّى عند النبي ﷺ ثم لبث حيث صُلِّيت العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشى النبي ﷺ فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله تعالى.

(٤) صحيح مسلم (٢٠٥٧): (١٧٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧١٢).

(٥) ٥/ ٤٨٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٧ .

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٨٧ بنحوه.

(٨) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: الأعز، وينظر الكشاف ٣/ ٣٦ .

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾

هذا تستعمله العرب على معنى التوقيف والتقبيح، فيقولون: الخيرُ أحبُّ إليك أم الشَّر؟ أي: قد أُخبِرتَ الشَّرَّ[١] فتجنَّبه، وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصِّدق والأمانة، ففي اتِّباعه النجاةُ والخير لولا العَنَت. قال سفيان: بلى، قد عرفوه ولكنَّهم حسَدوه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ۝٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: أم يحتجُّون في ترك الإيمان به بأنه مجنون؟! فليس هو هكذا؛ لزوال أمارات الجنون عنه ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: القرآنَ والتوحيد الحقَّ والدِّينَ الحق ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: كلُّهم ﴿لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ حسداً وبَغْياً وتقليداً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ «الحقُّ» هنا: هو الله سبحانه وتعالى؛ قاله الأكثرون، منهم مجاهدٌ وابن جُريج وأبو صالح وغيرُهم. وتقديره في العربية: ولو اتَّبع صاحبُ الحق؛ قاله النحاس[٣].

وقد قيل: هو مجاز، أي: لو وافق الحقُّ أهواءهم. فجعل موافقته اتِّباعاً مجازاً، أي: لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصُون الله عزَّ وجلَّ، ثم لا يُعاقَبون ولا يُجازَون على ذلك، إمَّا عجزاً، وإمَّا جهلاً؛ لفسدت السماواتُ والأرضُ. وقيل: المعنى: ولو

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٨ وفيه: قد اخترت الشر، بدل: قد أخبرت الشر.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٨٨ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١١٩ ، وأورد قول مجاهد ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٨٤ ، وأخرج قول ابن جريج وأبي صالح الطبري ١٧/ ٨٩ .

كان الحقُّ ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى؛ لتنافست[١] الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدتِ السماواتُ والأرض، وإذا فسدتا فسد مَن فيهما.

وقيل: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: بما يهواه الناس ويَشْتهونه، لَبَطل نظام العالَم؛ لأنَّ شهواتِ الناس تختلف وتتضادُّ، وسبيلُ الحقِّ أن يكون متبوعاً، وسبيلُ الناس الانقيادُ للحق[٢].

وقيل: «الحق»: القرآن؛ أي: لو نزل القرآن بما يُحبُّون، لفسدتِ السماوات والأرض [ومن فيهن][٣].

﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ إشارةٌ إلى مَن يعقل مِن ملائكة السماوات، وإنسِ الأرض وجِنِّها. الماوردي[٤]: وقال الكلبي: يعني: وما بينهما مِن خَلْق، وهي قراءةُ ابنِ مسعود: «لفسدت السماواتُ والأرضُ وما بينهما»[٥]. فيكون على تأويل الكلبيِّ وقراءةِ ابن مسعود محمولاً على فساد من يعقلُ[٦] وما لا يعقل من حيوان وجماد. و[على] ظاهرِ التنزيل في قراءة الجمهور يكونُ محمولاً على فساد مَا يعقل[٧] من الحيوان[٨]؛ لأن ما لا يعقل تابعٌ لِمَا يَعقِل في الصَّلاح والفساد، فعلى هذا؛ ما يكون من الفساد يعود على مَن في السماوات من الملائكة بأن جُعلت أرباباً وهي مربوبة، وعُبِدت وهي

(١) في (م) و(خ) و(د) و(ز): لتنافت، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩ والكلام منه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٨ ، والنكت والعيون ٤/ ٦٢ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١١٢ ونسبه للقفال.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٨ ، وزاد المسير ٥/ ٤٨٤ وما بين حاصرتين منهما.

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٦٢ وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه دون قوله: وجِنها.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٩ .

(٦) قوله: من يعقل، ليس في النكت والعيون.

(٧) في (ظ): من يعقل.

(٨) جاء في النكت والعيون: . . . ما يعقل ولا يعقل من الحيوان.

مُستعبَدة. وفسادُ الإنس يكون على وجهين: أحدُهما: باتِّباع الهوى، وذلك مُهْلِك. الثاني: بعبادة غير الله، وذلك كفر. [وأمّا فسادُ الجن، فيكون بأن يُطاعوا فيطغوا] وأمّا فسادُ ما عدا ذلك فيكون على وجه التَّبَع؛ لأنهم مدبَّرون بذوِي العقول، فعاد فساد المدبِّرين عليهم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بما فيه شرفُهم وعِزُّهم، قاله السُّدِّيُّ وسفيان[١]. وقال قتادة: أي: بما لهم فيه ذِكْرُ ثوابِهم وعقابهم. ابن عباس: أي: ببيان الحقِّ، وذِكْرِ ما لهم به حاجةٌ من أمر الدين[٢]. ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: أجراً على ما جئتَهم به. قاله الحسن[٣] وغيرُه. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بنُ وَثّاب: «خراجاً» بألف، الباقون بغير ألف، وكلُّهم قد قرؤوا: «فخراج» بالألف، إلَّا ابنَ عامر وأبا حَيْوة، فإنهما قرأا بغير الألف[٤]. والمعنى: أم تسألُهم رزقاً؟ فرزقُ ربك خير[٥].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: ليس يَقْدِر أحد أن يَرْزُق مثل رزقه، ولا يُنعِم مثلَ إنعامه[٦]. وقيل: أي: ما يؤتيك الله من الأجر على طاعتك له والدعاءِ إليه خيرٌ من

(١) أورد قولهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٣، والقول دون نسبة في معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤١٨، والوسيط ٣/ ٢٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥١، وزاد المسير ٥/ ٤٨٤، وتفسير الرازي ٢٣/ ١١٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٨٩ مختصراً وبنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٩٠.

(٤) السبعة ص٤٤٧، والتيسير ص١٤٦ و ١٥٩.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩.

عَرَض الدنيا، وقد عَرَضوا عليك أموالهم حتى تكون كأغنى[١] رجل من قريش، فلم تُجِبهم إلى ذلك. قال معناه الحسن[٢].

والخَرْج والخَراج واحد، إلا أن اختلاف الكلام أحسن. قاله الأخفش. وقال أبو حاتم: الخَرْج: الجُعْل، والخراج العطاء. المبرِّد: الخَرْج المصدر، والخَراج الاسم[٣]. وقال النضر بنُ شُميل: سألت أبا عمرو بنَ العلاء عن الفرق بين الخَرْج والخَراج، فقال: الخَراج ما لَزِمَك، والخَرْج ما تبرَّعت به[٤]. وعنه: أن الخَرْج من الرِّقاب، والخَراج من الأرض[٥]. ذكر الأوَّل الثعلبيُّ والثاني الماوردي[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى دين قويم. والصِّراط في اللغة: الطريقُ، فسُمِّيَ الدِّينُ طريقاً؛ لأنه يؤدِّي إلى الجنة، فهو طريقٌ إليها.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بالبعث ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ قيل: هو مِثْل الأوَّل. وقيل: إنهم عن طريق الجنة لعادلون[٧]، حتى يصيروا إلى النار[٨]. نَكَب

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: كأعين.

(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٣، وينظر الوسيط ٣/ ٢٩٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩. وعنه نقل المصنف كلام أبي حاتم والأخفش. وينظر نزهة القلوب ص٢٢٠.

(٤) أورد قول أبي عمرو بن العلاء الرازيُّ في تفسيره ٢٣/ ١١٢، والزمخشري أيضاً ٣/ ٣٨ لكن دون أن ينسبه.

(٥) في (ظ): «وعنه أن الخَراج من الرقاب، والخرج من الأرض». وفي تهذيب اللغة ٧/ ٤٨، ومفردات ألفاظ القرآن (خرج)، ولسان العرب (خرج). ما يفيد أنه قد يطلق أحدهما على الآخر.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٦٣.

(٧) في (م): لناكبون.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩ - ١٢٠.

عن الطريق يَنْكُب نُكوباً: إذا عدلَ عنه ومال إلى غيره، ومنه: نَكَبت الريح: إذا لم تَسْتقم على مَجْرًى، وشَرُّ الرِّيح النَّكْباء[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: لو رددناهم إلى الدنيا ولم نُدْخِلهم النارَ وامتحنَّاهم ﴿لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ قال السُّدِّيّ: في معصيتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش: يتردَّدون[٢].

وقال ابن جُريج: «ولو رحمناهم» يعني: في الدنيا، «وَكَشَفْنَا ما بِهِم منْ ضُرٍّ» أي: من قَحْط وجوع، «لَلَجُّوا» أي: لَتمادَوْا «في طُغْيَانِهِمْ» وضلالتهم وتجاوزِهم الحدَّ، «يَعْمَهُونَ»: يتذبذبون ويَخبِطُون[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ قال الضحَّاك: بالجوع[٤]. وقيل: بالأمراض والحاجة والجوع. وقيل: بالقتل والجوع. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما خضعوا[٥]. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: ما يخشعون لله عزَّ وجلَّ في الشدائد تُصيبهم.

قال ابن عباس: نزلت في قصة ثُمامَة بنِ أُثال؛ لمَّا أَسَرته السَّريَّة وأسلم، وخَلَّى رسولُ الله ﷺ سبيلَه، حالَ بين مكة وبين المِيرة[٦]، وقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حَبَّةُ حِنْطة حتى يأذن فيها رسولُ الله ﷺ. وأخذ الله قريشاً بالقَحْط والجوع حتى أكلوا

---

(١) الصحاح (نكب).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠ وفيه: الأخفش، بدل: الأعمش. وأخرج قول الأعمش الطبري ١٤/ ٩٢.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٩٢، ومجمع البيان ١٨/ ١٦٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٩٩، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٠.

(٦) الميرة: هي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع. النهاية (مير).

الميتة والكلاب والعِلْهِز، قيل: وما العِلْهِز؟[١] قال: كانوا يأخذون الصُّوف والوَبَر، فيبُلُّونه بالدم، ثم يَشْوونه ويأكلونه، فقال له أبو سفيان: أَنْشُدُكَ اللهَ والرَّحِم، أليس تزعم أنَّ الله بعثك رحمةً للعالمين؟ قال: «بلى»، قال: فوالله ما أراكَ إلا قتلتَ الآباءَ بالسيف، وقتلتَ الأبناءَ بالجوع؛ فنزل قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال عكرمة: هو بابٌ من أبواب جهنم، عليه من الخَزَنة أربعُ مئة ألفٍ، سودٌ وجوهُهم، كالِحةٌ أنيابُهم، قد قُلِعت الرحمةُ من قلوبهم، إذا بلغوه فتحه الله عزَّ وجلَّ عليهم[٣].

وقال ابن عباس: هو قتلُهم بالسيف يوم بدر[٤].

مجاهد: هو القَحْط الذي أصابهم حتى أكلوا العِلْهِز من الجوع[٥]؛ على ما تقدَّم.

وقيل: فتح مكة[٦].

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: يائسون متحيِّرون، لا يدرون ما يصنعون، كالآيس من

---

(١) في (د) و(ز): والعهن، وقيل: وما العهن؟

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٨٩) والطبري ١٧/ ٩٣ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٨١ ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٣٩٢)، دون قوله: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، فقد أخرجه أحمد (٩٨٣٤)، والبخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤): (٥٩) في حديث طويل.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠ ، وأورده ابن رجب في التخويف من النار ص١٥٩ عن عكرمة وعزاه لابن أبي حاتم.

وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥٢ ، والدر المنثور ٤/ ١٠٠ ، من حديث سمرة بن جندب مرفوعاً مطولاً.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٦٤ وسلف ص٦١ من هذا الجزء.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤ بنحوه، وأخرجه الطبري ١٧/ ٩٥ بنحوه أيضاً.

(٦) نسبه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤١٩ للسدي.

الفَرَج ومن كلِّ خير. وقد تقدَّم في «الأنعام»[١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ عرَّفهم كثرةَ نِعَمه وكمالَ قدرته. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما تشكرون إلا شكراً قليلاً[٢]. وقيل: أي: لا تشكرون ألبتة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نشركم[٤] وبثَّكم وخلقكم. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجْمعون للجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا
يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: جعلهما مختلفَين، كقولك: لك الأجر والصِّلة، أي: إنك تُؤجَر وتَصِل[٥]؛ قاله الفرّاء. وقيل:

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٣.

(٣) زاد المسير ٥/ ٤٨٩.

(٤) في (م): أنشأكم.

(٥) في النسخ: وتوصل، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٠ والكلام منه.

اختلافُهما: نُقصانُ أحدِهما وزيادةُ الآخر[١]. وقيل: اختلافُهما في[٢] النُّور والظُّلمة. وقيل: تكرُّرُهما يوماً بعد ليلة، وليلةً بعد يوم. ويحتمل خامساً: اختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشَقاء وضلال وهُدى[٣].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كُنْهَ قدرتِه ورُبوبيَّته ووحدانيَّته، وأنه لا يجوز أن يكون له شريكٌ من خلقه، وأنه قادر على البعث.

ثم عيَّرهم بقولهم، وأخبر عنهم أنهم ﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ هذا لا يكون ولا يُتصوَّر ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: مِن قَبْل مجيء محمدٍ ﷺ، فلم نَرَ له حقيقة ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيلُهم وتُرَّهَاتُهم؛ وقد تقدَّم هذا كلُّه[٤].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، جواباً لهم عمَّا قالوه: ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ يُخبِر بربوبيَّته ووحدانيَّته ومُلْكِه الذي لا يزول، وقدرتِه التي لا تحول؛ فـ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولا بُدَّ لهم من ذلك. فـ ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتَّعِظون وتعلمون أنَّ مَنْ قَدَر على خلق ذلك ابتداءً، فهو على إحياء الموتى بعد موتهم قادر[٥].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يريدُ: أفلا تخافون حيث تَجعلون لي ما تكرهون، زعمتم أنَّ الملائكةَ بناتي، وكَرِهتم لأنفسكم البنات؟

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريدُ السماواتِ وما فوقَها وما بينَهنّ، والأرضينَ وما تحتَهنَّ وما بينَهنَّ، وما لا يعلمه أحدٌ إلا هو. وقال مجاهد: «ملكوت

(١) تفسير أبي الليث ١/ ١٧٣، والنكت والعيون ٤/ ٦٤.
(٢) لفظة: في، من (م) وتفسير البغوي ١/ ١٣٥، ونسب البغوي هذا القول لعطاء.
(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٤.
(٤) في تفسير الآية (٣٣) وما بعدها من هذه السورة.
(٥) الوسيط ٣/ ٢٩٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٥، وزاد المسير ٥/ ٤٨٧.

كلِّ شيء»: خزائنُ كلِّ شيء. الضحَّاك: مُلْكُ كلِّ شيء. والملكوتُ من صفات المبالغة كالجَبَرُوت والرَّهَبُوت[١]؛ وقد مضى في «الأنعام»[٢].

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: يَمنع ولا يُمنع منه[٣]. وقيل: «يُجير»: يُؤمِّن مَن شاء. «ولا يُجَار عَلَيْه»، أي: لا يُؤمَّن مَن أخافه[٤]. ثم قيل: هذا في الدنيا، أي: مَن أراد الله إهلاكَه وخوفَه؛ لم يمنعه منه مانع، ومَن أراد نَصْره وأَمْنَه؛ لم يدفعه مِن نصره وأمنه دافع. وقيل: هذا في الآخرة، أي: لا يمنعه مِن مستحِقِّ الثواب مانعٌ، ولا يدفعه عن مستوجِب العذاب دافع[٥].

﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: كيف تُخدعون وتُصرَفون عن طاعته وتوحيده؟[٦]. أو: كيف يُخيَّل إليكم[٧] أن تُشرِكوا به ما[٨] لا يَضرُّ ولا ينفع؟! والسِّحر: هو التخييل. وكلُّ هذا احتجاجٌ على العرب المُقِرِّين بالصانع.

وقرأ أبو عمرو: «سيقولون الله» في الموضعين الأخيرين، وهي قراءةُ أهل العراق، والباقون: «لله»[٩].

ولا خلاف في الأوَّل أنه «لله»؛ لأنه جواب لـ «قل لمن الأرض ومن فيها»، فلمَّا تقدَّمت اللام في «لمن» رجعت في الجواب، ولا خلافَ أنه مكتوبٌ في جميع المصاحف بغير ألف.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٦٥ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٤ ، وأخرج عنه الطبري ١٧/ ١٠٠ .

(٢) ٨/ ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٥ .

(٤) مراح لبيد ٢/ ٧٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٥ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٥ .

(٦) مراح لبيد ٢/ ٧٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٦ .

(٧) في (ظ): لكم.

(٨) في النسخ الخطية: من، والمثبت من (م).

(٩) السبعة ص٤٤٧ ، والتيسير ص١٦٠ .

وأمَّا مَن قرأ: «سيقولون الله»؛ فلأن السؤال بغير لام، فجاء الجواب على لفظه، وجاء في الأوَّل: (لله)؛ لمَّا كان السؤال باللام.

وأمَّا مَن قرأ: «لله» باللام في الأخيرين وليس في السؤال لامٌ، فلأن معنى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: قل: لمن السماواتُ السبعُ ولمن[1] العرش العظيم، فكان الجواب: «لله»؛ حين قَدَّرت اللام في السؤال. وعلَّةُ الثالثةِ كعلة الثانية[2]. وقال الشاعر:

إذا قيل مَن ربُّ المزالفِ والقُرَى ... وربُّ الجيادِ الجُرْدِ قيل[3] لخالد

أي: لمن المزالف، والمزالف: البراغيل، وهي البلاد التي بين الريف والبرّ، الواحدة مَزْلَفة[4].

ودلَّت هذه الآياتُ على جواز جِدال الكفار وإقامةِ الحجَّة عليهم، وقد تقدَّم في «البقرة»[5]. ونبَّهتْ على أنَّ مَنِ ابتدأ بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع، هو المستحِقُّ للألوهية والعبادة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالقول الصِّدق، لا ما تقوله الكفار من إثبات الشريك[6] ونَفْي البعث. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم[7] إنَّ الملائكة بناتُ

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): ورب. والمثبت من (ظ).

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٩٨ - ٩٩، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨١، والحجة ٥/ ٣٠١، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٠.

(٣) في (م): قلت، وأورد البيت النسفي في تفسيره ٣/ ١٢٦، والشوكاني في فتح القدير ٣/ ٤٩٦.

(٤) قوله: والمزالف البراغيل، إلخ... ليس في (ز) و(د)، وجاء في (ظ): والمزاليف، بدل: والمزالف.

(٥) ٤/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٦) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣١٦.

(٧) قوله: في قولهم، من (ظ).

الله[1]. فقال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ «مِن» صِلة ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ «مِن» زائدة؛ والتقدير: ما اتَّخذ الله ولداً كما زعمتم، ولا كان معه إله فيما خلَق. وفي الكلام حذف، والمعنى: لو كانت معه آلهةٌ[2]، لانفرَدَ كلُّ إلهٍ بخلقه[3] ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولَغَالَبَ، وطلب القويُّ الضعيفَ[4]، كالعادة بين الملوك، وكان الضعيفُ المغلوبُ لا يستحِقُّ الإلهية. وهذا الذي يدلُّ على نفي الشريك يدلُّ على نَفْيِ الولد أيضاً؛ لأن الولد يُنازِع الأبَ في المُلْك منازعةَ الشريك.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً له عن الولد والشريك. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهٌ وتقديس.

وقرأ نافع وأبو بكر وحمزةُ والكسائيُّ: «عالمُ» بالرفع على الاستئناف، أي: هو عالمُ الغيب، الباقون: بالجرِّ؛ على الصِّفة لله[5]، وَرَوى رُوَيس عن يعقوب: «عالِمِ» إذا وَصَل خفضاً، و«عالمُ» إذا ابتَدَأ رفعاً[6].

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤﴾

علَّمه ما يدعو به، أي: قل ربِّ، أي: يا ربِّ، إنْ أَرَيْتَني ما يُوعدون من العذاب ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في نزول العذاب بهم، بل أخرجني منهم[7].

---

(١) مراح لبيد ٢/ ٧٠ .

(٢) من قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلى هذا الموضع جاء بدلاً منه في (ظ): ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ كما زعمتم ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾.

(٣) قوله: وفي الكلام حذف... إلى هذا الموضع، هو تفسير لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٢ - ٤٨٣ ، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٣١٦ ، والوسيط ٣/ ٢٩٧ .

(٥) السبعة ص٤٤٧ ، والتيسير ص١٦٠ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣١ .

(٦) النشر ٢/ ٣٢٩ . والرواية المشهورة عن يعقوب (وهو من العشرة) الخفض في الحالين؛ وصلاً ووقفاً.

(٧) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٠ ، وزاد المسير ٥/ ٤٨٨ .

وقيل: النداء معترِض[١]، و«ما» في «إمَّا» زائدة[٢]. وقيل: إنَّ أصل «إمَّا»: إنْ ما؛ فـ «إن» شرط، و«ما» شرط، فَجمع بين الشرطين توكيداً[٣]، والجواب: «فلا تجعلني في القوم الظالمين»، أي: إذا أردتَ بهم عقوبةً، فأخرجني منهم[٤].

وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أنَّ الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نَزَل بهم العذاب، ومع هذا أمره الربُّ بهذا الدعاء والسؤال ليَعْظُم أجرُه، وليكون في كلِّ الأوقات ذاكراً لربِّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ۝٩٥﴾

نبَّه على أن خلافَ المعلوم مقدور، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيف، ونجَّاه الله ومَن آمن به مِن ذلك.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أمر بالصَّفح ومكارم الأخلاق، فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم[٥]؛ فهو مُحْكَم باقٍ في الأمة أبداً[٦]، وما كان[٧] فيها من معنى موادعة الكفار وتركِ التعرُّض لهم والصَّفحِ عن أمورهم؛ فمنسوخٌ بالقتال.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: مِن الشِّرك والتكذيب. وهذا يقتضي أنها آيةُ مُوادَعة[٨]، والله تعالى أعلم.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

(٣) لم نقف على هذا الوجه في (إما)، وذكر الهروي في الأُزْهيَّة ص١٤٢ أن «إما» تكون جزاءً بمعنى «إنْ»، وتكون «ما» زائدة للتوكيد.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢١ .

(٥) قوله: الأمة فيما بينهم، من (م).

(٦) جاء في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ ـ والكلام منه ـ: وما كان منها لهذا فهو حكم باق في الأمة أبداً.

(٧) لفظ: كان، من (م).

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الهَمَزاتُ: هي جمعُ هَمْزة، والهَمْزُ في اللغة: النَّخْس والدَّفع[1]، يقال: هَمزَه ولَمَزه ونَخَسه: دفعه.

قال الليث: الهَمْز كلامٌ مِن وراء القَفَا، واللَّمْزُ مواجهة. والشيطان يُوسوس فيَهْمِسُ في وَسواسه في صَدر ابن آدم[2]، وهو قولُه: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: نَزَغاتِ الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى[3].

وفي الحديث: كان يتعوَّذ من هَمْز[4] الشيطان ولَمْزه وهَمْسه[5].

قال أبو الهَيْثَم: إذا أَسرَّ الكلام وأخفاه، فذلك الهَمْس من الكلام. وسُمِّي الأسد هَمُوساً[6]؛ لأنه يمشي بخِفَّة؛ فلا يُسمع صوت وطئه. وقد تقدم في «طه»[7].

الثانية: أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين بالتعوُّذ من الشيطان في هَمَزاته، وهي سَوْراتُ الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسَه، وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المُحَادَّة، فلذلك اتصلت بهذه الآية، فالنَّزَغات وسَوْراتُ

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٤ .

(٢) تهذيب اللغة ٦/ ١٤٢ وفيه: بوسواسه، بدل: في وسواسه. والليث هو ابن المظفر، وقيل: ابن نصر، صاحب الخليل بن أحمد الفراهيدي. إنباه الرواة ٣/ ٤٢ .

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢١ .

(٤) في (د) و(ظ): همزات.

(٥) الأثر أورده الخليل في العين ٤/ ١١ والأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ١٤٣ ، وابن الأثير في النهاية (لمز) و(همس)، وقد أخرجه أحمد (٣٨٢٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، بلفظ: كان يتعوذ من الشيطان، من همزه ونفثه ونفخه.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ١٤٣ ، وأبو الهيثم: هو الرازي.

(٧) ١٤/ ١٣٩ .

الغضب الواردةُ من الشيطان هي المتعوَّذُ منها في الآية[١]، وقد تقدم في آخر «الأعراف»[٢] بيانُه مستوفًى، وفي أوَّل الكتاب أيضاً[٣].

ورُوِي عن عليِّ بن حرب بن محمدٍ الطائيِّ، حدَّثنا سفيان، عن أيوب، عن محمد ابن حَبَّان: أن خالداً كان يؤرَّق من الليل؛ فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فأمره أن يتعوَّذ بكلماتِ الله التَّامَّة، من غضب الله وعقابه، ومن شرِّ عباده، ومن هَمَزات الشياطين وأنْ يَحْضُرون[٤].

وفي كتاب أبي داود[٥]: قال عمرو[٦]: وهَمْزُه المُوتَةُ. قال ابنُ ماجه: المُوتةُ: يعني الجنون[٧]. والتعوُّذُ أيضاً من الجنون وَكِيد[٨].

وفي قراءة أُبَيّ: «رَبِّ عائذاً بك من هَمَزات الشياطين، وعائذاً بك ربِّ[٩] أن

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

(٢) ٩/ ٤٢٢ وما بعدها.

(٣) ١/ ١٣٥ وما بعدها.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٠٩ ، وفي الاستذكار ٢٧/ ٩٢ وابن حجر في نتائج الأفكار ٣/ ١١١ ، بهذا الإسناد قال ابن حجر: هذا مرسل صحيح الإسناد. اهـ، يعني أن محمد ابن حَبَّان (وهو محمد بن يحيى ابن حبان) تابعي صغير، لم يدرك خالد بن الوليد.

وأخرجه أحمد (١٦٥٧٣) وابن أبي شيبة٨/ ٦٠ ، وابن السني (٦٣٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٠٦) وابن حجر في نتائج الأفكار ٣/ ١١٢ من طريق يحيى بن سعيد، عن محمد بن حبان، أن الوليد ابن الوليد شكا إلى رسول الله ﷺ الأرق فذكره. قال البيهقي: هذا مرسل. قال ابن حجر: هذا مرسل صحيح الإسناد... ولم يخرج السند بذلك من الانقطاع فإن محمد بن يحيى من صغار التابعين، وجل روايته عن التابعين، والوليد بن الوليد مات في حياة النبي ﷺ.

(٥) برقم (٧٦٤) وسلف ١/ ١٣٦ .

(٦) في (خ) و(ظ) و(م): عمر، والمثبت من (د) و(ز)، وعمرو هذا: هو ابن مرة أحد رجال الإسناد.

(٧) لم نقف عليه في مطبوع سنن ابن ماجه، وسلف هذا الكلام ١/ ١٣٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

(٩) لفظة: رب، من (د) والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ والكلام منه.

يَحْضُرونِ»، أي: يكونوا معي في أموري، فإنهم إذا حضروا الإنسانَ كانوا مُعَذِّين للهَمْز، وإذا لم يكن حضورٌ، فلا هَمْز.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الشيطانَ يحضر أحدَكم عند كلِّ شيءٍ من شأنه، حتى يحضرَه عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللُّقمةُ، فلْيُمِط ما كان بها من أذًى، ثم ليأكلْها، ولا يَدَعْها للشيطان، فإذا فرغ فلْيَلْعَق أصابعَه، فإنه لا يدري في أيِّ طعامه البَرَكة»(١).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ عاد الكلام إلى ذِكْر المشركين، أي: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا﴾ إلى قوله ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الآية: ٨٢-٨٣]، ثم احتجَّ عليهم وذكَّرهم قدرتَه على كلِّ شيء [في الآية: ٨٤-٨٩]، ثم قال: هم مُصِرُّون على ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ تيقَّن ضلالتَه، وعايَنَ الملائكة التي تَقْبِض روحه ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠] ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ تمنَّى الرجعة كي يعملَ صالحاً فيما ترك(٢).

وقد يكون القول في النفس، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾(٣) [المجادلة: ٨].

فأمَّا قولُه: «ارْجِعُونِ» وهو يخاطِبُ(٤) ربَّه عزَّ وجلَّ، ولم يقل: «ارجعني»، فقيل(٥): جاء على تعظيم الذِّكْر للمخاطَب. وقيل: استغاثوا بالله عزَّ وجلَّ أوَّلاً، فقال

(١) صحيح مسلم (٢٠٣٣): (١٣٥)، وأخرج أحمد (١٤٥٥٢) مختصراً.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ١٠٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢١ - ١٢٢ .

(٤) في (م): مخاطب.

(٥) قوله: فقيل، ليست في (د) و(م).

قائلهم: ربِّ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال: ارجعون، أي: ارجعون[١] إلى الدنيا؛ قاله ابن جُريج[٢]. وقيل: إن معنى «ارجعون» على جهة التكرير، أي: ارجعني ارجعني[٣]. وهكذا قال المازنيُّ[٤] في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق:٢٤]، قال: معناه: أَلْقِ أَلْقِ. قال الضحَّاك: المراد به أهلُ الشرك[٥].

قلت: ليس سؤالُ الرجعة مختصًّا بالكافر، فقد يسألُها المؤمنُ، كما في آخر سورة المنافقين على ما يأتي[٦].

ودلَّت الآيةُ على أنَّ أحداً لا يموتُ حتى يعرفَ اضطراراً، أهو من أولياء الله، أم من أعداء الله[٧]، ولولا ذلك لَمَا سأل الرجعةَ، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذَواقه.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ قال ابن عباس: يريد «أشهد أن لا إله إلا الله»[٨]. ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ أي: فيما ضيَّعتُ وتركتُ العمل به من الطاعات[٩]. وقيل: «فيما تركت» من مالي[١٠] فأتصدَّق. و«لعلَّ» تتضمن تردُّداً، وهذا الذي يسأل الرجعة قد استيقن العذابَ، وهو يوطِّن نفسَه على العمل الصالح[١١] قطعاً من غير تردُّد، فالتردُّد يرجع

---

(١) قوله: أي ارجعون، ليست في (د) و(م).

(٢) أورده عن ابن جريج الطبري ١٧/ ١٠٨ ، وذكره دون نسبة ـ مع القول الذي قبله ـ البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ - ١٥٦ ، والرازي في تفسيره ٢٣/ ١٢٠ .

(٣) في (م): ارجعني ارجعني ارجعني.

(٤) في (د) و(م): المزني، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٥ والكلام منهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ١٠٨ .

(٦) عند تفسير الآية العاشرة منها.

(٧) مجمع البيان ١٨/ ١٧٦ .

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٩٨ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣١٧ ، وزاد المسير ٥/ ٤٩ ـ ونسبه لمقاتل ـ وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠ .

(١٠) في (م): المال، وينظر هذا القول في تفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠ .

(١١) لفظ: الصالح. من (م).

إمَّا إلى ردِّه إلى الدنيا، وإمَّا إلى التوفيق، أي: أعمل صالحاً إن وفقتني، إذ ليس على قطعٍ من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا.

﴿كَلَّآ﴾ هذه كلمةُ رَدٍّ[1]، أي: ليس الأمر على ما يظنُّه؛ من أنه يُجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، بل هو كلام يَطيح في أدراج الريح[2]. وقيل: لو أُجيب إلى ما يطلب لَمَا وَفَّى بما يقول، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[3] [الأنعام:٢٨]. وقيل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ترجع إلى الله تعالى، أي[4]: لا خُلْفَ في خبره، وقد أخبر أنه لن يؤخِّر نفساً إذا جاء أجلُها، وأخبر بأن هذا الكافر لا يؤمن. وقيل: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ عند الموت، ولكن لا تنفع[5].

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي: ومن أمامهم وبين أيديهم[6]. وقيل: مِن خلفهم. «بَرْزَخٌ» أي: حاجزٌ بين الموت والبعث؛ قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد[7]. وعن مجاهد أيضاً: أنَّ البرزخ هو الحاجز بين الميت[8] والرجوع إلى الدنيا. وعن الضحَّاك: هو ما بين الدنيا والآخرة[9]. ابن عباس: حجاب.السُّدِّي: أَجَل. قتادة: بقيَّةُ الدنيا[10]. وقيل: الإمهالُ إلى يوم القيامة؛ حكاه ابن عيسى. الكلبي: هو الأَجَل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة[11]. وهذه الأقوال متقاربة.

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ردّ.

(٢) تفسير الطبري ١٧/١٠٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢١، والوسيط ٣/٢٩٨، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/١٥٦.

(٤) قوله: أي، ليست في (د)، وفي (ظ): لأنه.

(٥) تفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٩٨، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠.

(٧) أخرج قول مجاهد وابن زيد الطبري ١٧/ ١١٠.

(٨) في (م) وتفسير مجاهد ٢/ ٤٣٤: الموت، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما أخرجه الطبري عنه ١٧/ ١١٠.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٥، والنكت والعيون ٤/ ٦٧.

(١٠) أخرج قول قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/٤٨، والطبري ١٧/ ١١٠.

(١١) أورد قول ابن عيسى والكلبي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٧.

وكلُّ حاجزٍ بين شيئين فهو بَرْزَخ، قال الجوهري[١]: البرزخُ: الحاجزُ بين الشيئين. والبرزخ: ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل في البرزخ.

وقال رجل بحضرة الشَّعْبيّ: رحم الله فلاناً؛ فقد صار من أهل الآخرة، فقال: لم يَصِر من أهل الآخرة، ولكنه صار من أهل البرزخ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة[٢].

وأُضِيف «يوم» إلى «يُبْعثون» لأنه ظرفُ زمان، والمراد بالإضافة المصدر[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ المرادُ بهذا النفخِ النفخةُ الثانية[٤] ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال ابن عباس: لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا: مِن أيِّ قبيلة أنت، ولا مِن أيِّ نسب، ولا يتعارفون لهَوْل ما أذهلهم[٥].

وعن ابن عباس: أن ذلك في النفخة الأولى، حين يَصْعَق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلَّا مَن شاء الله، فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون، ثم نُفِخ فيه أُخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[٦].

وسأل رجلٌ ابنَ عباس عن هذه الآية وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

---

(١) في الصحاح (برزخ).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢، وأخرج قول الشعبي هناد في الزهد (٣١٥) بنحوه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢١، والوسيط ٣/ ٢٩٨، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٩٨.

(٦) سلف ٥/ ٢٠ مطولاً، وهذا الكلام مقتبس من هذه الآية، والآية (٦٨) من سورة الزمر، والآية (٢٧) من سورة الصافات.

[الصافات:٢٧]، فقال: لا يتساءلون في النفخة الأولى؛ لأنه لا يبقى على الأرض حيٌّ، فلا أنسابَ ولا تساؤل، وأمَّا قولُه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فإنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا[١].

وقال ابن مسعود: إنما عَنَى في هذه الآية النفخةَ الثانية[٢].

وقال أبو عمر زاذان: دخلت على ابن مسعود، فوجدتُ أصحاب الخير واليُمْنة قد سبقوني إليه، فناديت بأعلى صوتي: يا عبدَ الله بنَ مسعود، مِن أجل أني رجلٌ أعجميٌّ أدْنيتَ هؤلاء وأقصيتني؟! فقال: ادْنُهْ. فدنوتُ، حتى ما كان بيني وبينه جليسٌ، فسمعته يقول: يُؤْخَذ بيد العبد أو الأَمَة يوم القيامة، فيُنْصَبُ على رؤوس الأوَّلين والآخِرين، ثم يُنادي منادٍ: هذا فلانُ بنُ فلان، مَن كان له حقٌّ فليأتِ إلى حقِّه، فتفرحُ المرأة أن يدور لها الحقُّ على أبيها، أو على زوجها، أو على أخيها[٣]، أو على ابنها. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾. فيقول الربُّ سبحانه وتعالى: آتِ هؤلاء حقوقَهم، فيقول: يا ربِّ قد فنِيتِ الدنيا فمن أين أُوْتيهم؟ فيقول الربُّ للملائكة: خُذُوا من حسناته فأعطُوا كلَّ إنسان بقَدْر طَلِبَتِه. فإن كان وليًّا لله، فَضَلَت[٤] من حسناته مثقالُ حبَّة مِن خَرْدل، فيضاعفُها[٥] الله تعالى حتى يُدْخِلَه بها الجنة، ثم قرأ ابن مسعود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وإن كان شقيًّا، قالت الملائكة: ربِّ، فنِيتْ حسناتُه وبقي طالبون، فيقول الله تعالى: خُذُوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيئاته، وصُكُّوا له صَكًّا إلى جَهَنَّمَ[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ١١١، والحاكم ٢/ ٣٩٤ - ٣٩٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١١٧.

(٣) في (ز) و(ظ): وأختها.

(٤) في (ظ): وفضل.

(٥) في (خ): يضاعفها، وفي (ظ): ضاعفها، والمثبت من (د) و(ز) و(م).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤١٦)، والطبري مقطعاً ١٧/ ١١٢، ١١٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢. وجاء في الزهد: من أجل أني رجل أعمى، بدل: من أجل أني رجل أعجمي.

قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

تقدم الكلام فيهما[١].

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ويقال: «تَنْفح»، وهو[٢] بمعناه، ومنه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء:٤٦]، إلَّا أنَّ «تَلْفَح» أبلغُ بأساً[٣]؛ يقال: لَفَحتْه النارُ والسَّمُومُ بحرِّها: أحرقَتْه، ولَفَحْتُه بالسيف لَفْحةً: إذا ضربتَه به ضربة[٤] خفيفة.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال ابن عباس: عابسون[٥]. وقال أهل اللغة: الكُلُوح تكشُّرٌ في عُبوس[٦]. والكالح: الذي قد تشمَّرت شفتاه وبَدَت أسنانه[٧]، قال الأعشى:

ولـه الـمُـقْـدَمُ لا مِـثْـلَ لـهُ ساعةَ الشِّـدْقِ عن النَّاب كَـلَـحْ[٨]

وقد كَلَح الرجل كُلوحاً وكُلَاحاً، وما أقبح كَلْحَتَه: يُرادُ به الفَمُ وما حواليه، ودهرٌ كالحٌ، أي: شديد[٩].

---

(١) ٩/١٥٨ وما بعدها.
(٢) لفظة: وهو، من (ظ).
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٢٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/٢٣.
(٤) لفظة: ضربة، من (م) والصحاح (لفح) والكلام منه.
(٥) أخرجه البخاري إثر حديث (٤٧٤٤) تعليقاً، ووصله الطبري ١٧/١١٥ - ١١٦، وابن أبي حاتم كما في تغليق التعليق ٤/٢٦٣.
(٦) الصحاح (كلح).
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٢٣، ومعاني القرآن للزجاج ٤/٢٣.
(٨) ديوان الأعشى ص٢٩١، وفيه: في الحرب إذا، بدل: لا مثل له. وهو بمثل رواية المصنف عند الطبري ١٧/١١٥.
(٩) الصحاح (كلح).

وعن ابن عباس أيضاً: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾: يريد كالذي كَلَح وتقلَّصت شفتاه، وسال صديدُه.

وقال ابن مسعود: ألم ترَ إلى الرأس المُشَيَّط بالنار، وقد بدت أسنانه وقَلَصت شفتاه[(١)]؟

وفي الترمذيِّ عن أبي سعيد الخُدْريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: تشويه النار، فتقْلِصُ شَفَتُه العليا، حتى تَبْلُغ وَسَطَ رأسه، وتسترخي شَفَتُه السُّفْلى حتى تضرب سُرَّته». قال: هذا حديث حسن صحيح غريب[(٢)].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصمٍ: «شِقْوَتُنا»[(٣)]، وقرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «شَقاوتنا»، وهذه القراءةُ مرويةٌ عن ابن مسعود والحسن[(٤)]. ويقال: شقاءً وشَقاً، بالمد والقصر.

وأحسنُ ما قيل في معناه: غلبت علينا لذَّاتُنا وأهواؤنا، فسَمَّى اللَّذاتِ والأهواءَ شِقوةً؛ لأنهما يُؤدِّيان إليها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، لأن ذلك يؤدِّيهم إلى النار[(٥)]. وقيل: ما سبق في علمك، وكُتِب علينا في أمِّ الكتاب من الشَّقاوة[(٦)]. وقيل: حُسْنُ الظَّن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٨ - ٤٩ ، وهناد في الزهد (٣٠٤)، والطبري ١٧/ ١١٦ . والمشيَّط هو من قولهم: شيَّط اللحمَ أو الشَّعَر أو الصوفَ: إذا أحرق بعضه. النهاية (شيط).

(٢) سنن الترمذي (٢٥٨٧) و(٣١٧٦) من طريق أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، وأخرجه بهذا السند أيضاً أحمد (١١٨٣٦). وأبو السَّمح هو درّاج بن سَمعان، وهو صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف كما قال ابن حجر في التقريب.

(٣) السبعة ص٤٤٨ ، والتيسير ص١٦٠ ، والنشر ٢/ ٣٢٩ ، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر أيضاً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ .

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ١١٧ .

بالنفس وسوءُ الظَّن بالخَلْق[١].

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أي: كنا في فِعْلنا ضالِّين عن الهدى. وليس هذا اعتذاراً منهم، إنما هو إقرار، ويدلُّ على ذلك قولُهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[٢]. طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر[٣] ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعَوْد إليه. فيُجابون بعد ألف سنة: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ابعُدُوا في جهنم، كما يقال للكلب: اخْسَأ، أي: ابعُدْ[٤]. خسأتُ الكلبَ خَسْأً: طردتُه. وخَسَأ الكلبُ بنفسه خُسُوءاً[٥]، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وانخسأ الكلب أيضاً[٦].

وذكر ابن المبارك[٧] قال: حدَّثنا سعيد بنُ أبي عَرُوبة، عن قتادة يذكره عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: إنَّ أهلَ جهنمَ يَدْعون مالكاً، فلا يُجيبهم أربعين عاماً، ثم يردُّ عليهم: إنكم ماكثون، قال: هانت ـ واللهِ ـ دعوتُهم على مالك وربِّ مالك، قال: ثم يدعُون ربَّهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ . رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، قال: فيسكت عنهم قَدْر الدنيا

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٦٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ .

(٣) زاد المسير ٥/ ٤٩٢ .

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣١٨ .

(٥) لفظ: خُسُوءاً، ليس في (ز) و(د)، ولا في الصحاح (خسأ) والكلام منه.

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ١٢٢ .

(٧) في الزهد (٣١٩) (زوائد)، وقد سقط في المطبوع بعضه لسقط في المخطوط كما أشار إلى ذلك محققه.

وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٩ (١٤٠٤٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٨٠)، وقال: هذا موقوف، وظاهره أن الله تعالى يجيبهم بقوله: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، وظاهر الكتاب أيضاً يدل على أن الله تعالى يجيبهم بذلك وإن كان يحتمل غير ذلك.

مرتين، قال: ثم يَردُّ عليهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون. قال: فواللهِ ما نَبَس القومُ بعدها بكلمة، وما هو إلا الزَّفِيرُ والشَّهيق في نار جهنم. فشبَّه أصواتَهم بصوت[1] الحمير، أوَّلُها زفيرٌ وآخرُها شهيق. خرجه الترمذيُّ مرفوعاً بمعناه من حديث أبي الدَّرداء[2].

وقال قتادة: صوت الكفار في النار كصوت الحمار، أوَّله زفيرٌ وآخرُه شهيق[3]. وقال ابن عباس: يصير لهم نُباح كنُباح الكلاب[4].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني ـ أو ذُكِر لي ـ أنَّ أهل النار استغاثوا بالخَزَنةِ. الخبر بطوله؛ ذكره ابن المبارك[5]، وقد ذكرناه بكماله في «التَّذكرة»[6]، وفي آخره: ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ قال: فلمَّا سمعوا صوته، قالوا: الآن يرحمنا ربُّنا، فقالوا عند ذلك: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، أي: الكتابُ الذي كُتِب علينا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ . رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فقال عند ذلك: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. فانقطع عند ذلك الدعاءُ والرجاء، وأقبل بعضُهم على بعض، ينبَحُ بعضُهم في وجوه بعض، وأُطْبِقت عليهم.

---

(١) في (ظ): بأصوات.

(٢) برقم (٢٥٨٦) وقال: إنما نعرف هذا الحديث عن الأعمش، عن شِمر بن عطية، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قولَه، وليس بمرفوع.
وأخرجه ـ موقوفاً ـ ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٥ – ١٥٦ ، والطبري ١٧/ ١٢٣ – ١٢٤ ، والبيهقي في البعث والنشور (٦٠٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٩ ، والطبري ١٧/ ١٢٤ – ١٢٥ .

(٤) أورده أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٢٢ بنحوه.

(٥) الزهد بزوائد نعيم بن حماد ص٩١ – ٩٢ وسقط بعضه أيضاً وقد أشار المحقق هناك إلى سقط في المخطوط، وقد سلف ١٢/ ١٦٢ – ١٦٣ ، ونسبه ثمة للبيهقي أيضاً.

(٦) ص٤١٧ – ٤١٩ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

قال مجاهد: هم بلالٌ وخَبَّاب وصُهَيب، وفلانٌ وفلانٌ من ضعفاء المسلمين، كان أبو جهل وأصحابُه يهزؤون بهم[١].

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ بالضم قراءةُ نافع وحمزةَ والكسائي هاهنا وفي «ص» [الآية: ٦٣]. وكَسَرَ الباقون[٢].

قال النحاس: وفرَّق أبو عمرو بينهما، فجعل المكسورة من جهة التهزُّؤ، والمضمومةَ من جهة السُّخْرة، ولا يَعرف هذا التفريقَ الخليلُ ولا سيبويه ولا الكسائيُّ ولا الفراء. قال الكسائي: هما لغتان بمعنًى واحد، كما يقال: عُصِيٌّ وعِصِيٌّ[٣]، ولُجِّيٌّ ولِجِّيٌّ[٤].

وحكى الثعلبيُّ عن الكسائيِّ والفرَّاء[٥] الفرقَ الذي ذكره أبو عمرو، وأن الكسر بمعنى الاستهزاءِ والسُّخريةِ بالقول، والضَّمَّ بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل[٦].

وقال المبرِّد: إنما يُؤخذ التفريقُ بين المعاني عن العرب، وأمَّا التأويل فلا يكون. والكَسرُ في سِخْرِيٍّ في المعنيين جميعاً؛ لأن الضمة تُستثقَل في مثل هذا[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) السبعة ص٤٤٨، والتيسير ص١٦٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٢٣.

(٤) في (د) و(ز): ويجي وتجي، وفي (خ) و(ظ): وبِختي وبُختي، والمثبت من (م).

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢٤٣.

(٦) قول الكسائي والفراء في تفسير البغوي ٣/ ٣١٩، والكشاف ٣/ ٤٤، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٥.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٤.

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ أي: حتى اشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكري ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم. وأضاف الإنساء إلى المؤمنين؛ لأنهم كانوا سبباً لاشتغالهم عن ذكره[(١)]، وتعدَّى شُؤمُ استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم.

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على أذاكم[(٢)]، وصبروا على طاعتي ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ بكسر الهمزة، على ابتداء المدح من الله تعالى لهم، وفَتَح الباقون، أي: لأنهم هم الفائزون. ويجوز نصبُه بوقوع الجزاء عليه، تقديره: إني جزيتهم اليوم الفوزَ بالجنة[(٣)].

قلت: ويُنْظَر إلى معنى هذا قولُه تعالى في آخر المُطَفِّفِين: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [الآية: ٣٤] إلى آخر السورة، على ما يأتي بيانُه هناك إن شاء الله تعالى.

ويُستفاد من هذا: التحذيرُ من السُّخريَة والاستهزاء بالضعفاء والمساكين، والاحتقارِ لهم، والإزراءِ[(٤)] عليهم، والاشتغالِ بهم فيما لا يعني، وأنَّ ذلك مُبْعِدٌ من الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قيل: يعني في القبور. وقيل: هو سؤالٌ لهم عن مدَّة حياتهم في الدنيا[(٥)]. وهذا السؤالُ للمشركين في عَرَصات القيامة،

(١) الوسيط ٣/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٨.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩.

(٣) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٤٤٨ - ٤٤٩، والتيسير ص١٦٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٣، وتفسير الطبري ١٧/ ١٢٨ - ١٢٩، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٢، والحجة ٥/ ٣٠٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٥.

(٤) الإزراء: التهاون بالشيء، يقال: زرى عليه فعله: عابه. الصحاح (زري).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٩، وينظر الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩.

أو في النار[١].

﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ بفتح النون، على أنه جمع مسلَّم، ومن العرب مَن يخفضُها ويُنوِّنها[٢].

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أنساهم شدَّةُ العذاب مدَّةَ مُكثهم في القبور[٣]. وقيل: لأن العذاب رُفِع عنهم بين النفختين، فنسُوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم. قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى الثانية[٤]، وذلك أنه ليس من أحد قَتَلَه نبيٌّ، أو قتل نبيًّا، أو مات بحضرة نبيٍّ إلَّا عُذِّب من ساعة يموت إلى النفخة الأولى، ثم يُمْسَك عنه العذابُ، فيكون كالنائم حتى تُنفخ الثانية[٥]. وقيل: استقصروا مدَّة لبثهم في الدنيا وفي القبور، ورأَوه يسيراً بالنسبة إلى ما هم بصدده[٦].

﴿فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾ أي: سَلِ الحُسَّاب الذين يعرفون ذلك، فإنا قد نسيناه. أو: فاسألِ الملائكةَ الذين كانوا معنا في الدنيا. الأوَّل قولُ قتادة، والثاني قولُ مجاهد[٧].

وقرأ ابن كَثير وحمزةُ والكسائي: ﴿قُلْ كم لبثتم في الأرض﴾ على الأمر[٨]، ويحتمل ثلاثةَ معانٍ:

أحدُها: قولوا: كم لبثتم، فأُخرِج الكلامُ مخرجَ الأمر للواحد، والمرادُ

---

(١) زاد المسير ٥/ ٤٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٤ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٥ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٦ .

(٥) في النسخ عدا (ظ): كالماء حتى تنفخ الثانية.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣١٩ ، والكشاف ٣/ ٤٤ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٥ ، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٩ ، وأخرج قوليهما الطبري ١٧/ ١٣١ - ١٣٢ .

(٨) السبعة ص٤٤٩ ، والتيسير ص١٦٠ .

الجماعة، إذ كان المعنى مفهوماً[١].

الثاني: أن يكون أمراً للمَلَك[٢]، ليسألهم يوم البعث عن قَدْر مُكثهم في الدنيا.

أو أراد قل ـ أيها الكافر ـ: كم لبثتم، وهو الثالث[٣].

الباقون: ﴿قَالَ كَمْ﴾ على الخبر[٤]، أي: قال الله تعالى لهم، أو قالت الملائكة لهم: كم لبثتم[٥].

وقرأ حمزة والكسائيُّ أيضاً: ﴿قُلْ إن لبِثتم إلا قلِيلاً﴾ الباقون: «قال» على الخبر[٦]، على ما ذُكِر من التأويل في الأوَّل، أي: ما لبثتم في الأرض إلَّا قليلاً، وذلك أنَّ مُكثَهم في القبور ـ وإن طال ـ كان متناهياً. وقيل: هو قليلٌ بالنسبة إلى مُكثهم في النار؛ لأنه لا نهاية له[٧].

﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: مُهمَلين كما خُلِقت البهائم، لا ثوابَ لها، ولا عقابَ عليها، مثلُ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] يريد كالبهائم مُهمَلين[٨] لغير فائدة.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٣٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٤.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٤.

(٤) السبعة ص٤٤٩، والتيسير ص١٦٠.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٤، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٦.

(٦) السبعة ص٤٤٩، والتيسير ١٦٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٥.

(٨) في النسخ عدا (ظ): مهملاً. والكلام في الوسيط ٣/ ٣٠٠ وقد نسبه الواحدي لابن عباس، وتفسير البغوي ٣/ ٣٢٠.

قال الترمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله محمدُ بنُ علي: إنَّ الله تعالى خلق الخلقَ عبيداً ليعبدوه، فيُثيبُهم على العبادة ويعاقبُهم على تركها، فإنْ عبدوه؛ فهم اليومَ له عبيدٌ أحرارٌ كرامٌ من رقِّ الدنيا، ملوكٌ في دار السلام[1]، وإن رفضوا العبوديَّة[2]، فهم اليوم عبيدٌ أُبَّاق سُقَّاط لِئام، وغداً أعداءٌ في السجون بين أطباق النيران[3].

و«عَبَثاً» نصب على الحال عند سيبويه وقُطْرُب. وقال أبو عبيدة: هو نصب على المصدر، أو لأنه مفعول له[4].

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فتُجازَون بأعمالكم.

قرأ حمزة والكسائيُّ: «تَرْجِعون»، بفتح التاء وكسر الجيم[5]، من الرجوع.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تنزَّه وتقدَّس الله الملِكُ الحقُّ، عن الأولاد والشركاء والأنداد[6]، وعن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سَفَهاً؛ لأنه الحكيم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ ليس في القرآن غيرُها. وقرأ ابن مُحَيْصِن ورُوِيَ عن ابن كثير: «الكريمُ» بالرفع نعتاً لله[7].

---

(١) في (د) و(م): الإسلام.

(٢) في (ظ): وإن رضوا عبودية دنياهم.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ذكر هذه الأوجه البغوي في تفسيره ٣/ ٣٢٠ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ٣٧٤ دون نسبة.

(٥) السبعة ص٤٥٠ ، والتيسير ص١٦٠ .

(٦) ينظر الوسيط ٣/ ٣٠٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٩ .

(٧) القراءات الشاذة ص٩٩ ، وقوله: نعتاً لله، أي: لـ «ربُّ» كما جاء مصرحاً به في زاد المسير ٥/ ٤٩٦ وفي المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩ . وجوز أبو حيان في البحر ٦/ ٤٢٤ أن يكون نعتاً للعرش أيضاً، ولكنه قطع عن إعرابه لأجل المدح، على خبر مبتدأ مضمر. وأما قراءة ابن كثير المتواترة عنه، فهي بالجر، كقراءة الجماعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا حُجَّةَ له عليه ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: هو يعاقبُه ويحاسبه ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء ضميرُ الأمر والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ـ وقرأ الحسن وقتادة: «لا يَفْلَح» بالفتح[1] ـ: مَنْ كذَب وجحدَ ما جئتَ به، وكفر نعمتي.

ثم أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لتَقْتديَ به الأمة. وقيل: أَمَره بالاستغفار لأمته[2].

وأسند الثعلبيُّ من حديث ابن لَهيعةَ عن عبد الله بنِ هُبيرة، عن حَنَش بن عبد الله الصنعانيِّ، عن عبد الله بن مسعود: أنه مرَّ بمصابٍ مُبتلًى، فقرأ في أُذُنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورةَ، فبَرأ، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا قرأت في أذنه»؟ فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده، لو أنَّ رجلاً مُوقِناً قرأها على جبل لزال»[3].

تمَّ تفسير سورة المؤمنون، والحمد لله.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٩ ، ولم ترد عبارة: وقرأ الحسن. . . الخ في (ظ)، وهو الأشبه بسياق التفسير.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٣ ، والوسيط ٣/ ٣٠١ .

(٣) أخرجه بهذا الإسناد أبو يعلى الموصلي (٥٠٤٥)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥١٣ (١٤٠٧٠)، والطبراني في الدعاء (١٠٨١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٣١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٧ ، والخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٣١٢ .

وأخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٥٩٧٩)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ١٦٣ ، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٧٠) من طريق سلام بن رزين، عن الأعمش، عن شقيق، عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: هذا الحديث موضوع، هذا حديث الكذابين، منكر الإسناد.

تفسير سورة المؤمنون [١]

مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنى يونس بن سُلَيْم قال: أملى علىّ يونس بن يزيد[٢] الأيْلِىّ، عن ابن شهاب، عن عُرْوَة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عَبْد القارىّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحىُ، يسمع عند وجهه كدَوِىّ النحل فَمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم، زدنا ولا تَنْقُصْنا، وأكرمنا ولا تُهِنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثِرْنا ولا تؤثر [علينا، وارض عنا][٣] وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزلت علىَّ عشر آيات، مَنْ أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العَشْر.

وكذا روى[٤] الترمذى فى تفسيره، والنسائى فى الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به[٥]. وقال الترمذى: منكر، لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

وقال النسائى فى تفسيره: أنبأنا قُتَيْبَة بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبى عمران عن يزيد بن بابَنُوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان[٦] خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلُق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، قالت: هكذا كان خُلُق رسول الله ﷺ[٧].

وقد رُوى عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبى العالية، وغيرهم: لَمَّا خلقَ الله جنةَ عَدْن،

(١) فى ف: «المؤمنين».
(٢) فى أ: «زيد».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) فى أ: «رواه».
(٥) المسند (١/ ٣٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٤٣٩).
(٦) فى أ: «حال».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٠).

www.besturdubooks.wordpress.com

وغرسها بيده، نظر إليها وقال لها. تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال كعب الأحبار: لِمَا أعدّ لهم فيها من الكرامة. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك فى كتابه.

وقد رُوى ذلك عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا، فقال أبو بكر البزار:

حدثنا محمد بن المُثَنَّى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وُهَيْب، عن الجُرَيرى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد قال: خلق الله الجنة، لَبِنةٌ من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها، وقال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، منزلَ الملوك![١].

ثم قال[٢]: وحدثنا بِشْر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العُمَرى، حدثنا عَدِىَ بن الفضل، حدثنا الجُرَيْرِى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الجنة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاَطها[٣] المِسْك». قال أبو بكر: ورأيت فى موضع آخر فى[٤] هذا الحديث: «حائط الجنة، لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك. فقال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك!».

ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عَدِىّ بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت[٥].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن على، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «لما خلق الله جنة عَدْن، خلق فيها ما لا عين رأت، [ولا أذن سمعت][٦]، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون﴾»[٧].

بَقِيَّة: عن الحجازيين ضعيف.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا مِنْجَابُ بن الحارث، حدثنا حماد ابن عيسى العَبْسى، عن إسماعيل السُّدِّى، عن أبى صالح، عن ابن عباس ـ يرفعه ـ : «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودَلَّى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون﴾. قال: وعزتى[٨] لا يجاورنى فيك بخيل»[٩].

---

(١) مسند البزار برقم (٣٥٠٧) «كشف الأستار».

تنبيه:

وقع فى مسند البزار سنده هكذا: «حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن المنهال، حدثنا حماد بن سلمة عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد.

(٢) فى أ: «وقال». (٣) فى أ: «بلاطها». (٤) فى أ: «من».

(٥) مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٧): «رجال الموقوف رجال الصحيح».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) المعجم الكبير (١١/ ١٨٤). (٨) فى أ: «وعزتى وجلالى».

(٩) المعجم الأوسط برقم (٤٨٦١) «مجمع البحرين»، وأبى صالح ضعيف.

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البَزَّار، حدثنا محمد بن زياد الكلبى، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من دُرّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زَبَرجَدَة خضراء، ملاَطُها المسك، وحَصْبَاؤها اللؤلؤ، وحَشِيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقى. قالت[(١)]: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فقال الله: وعزتى، وجلالى لا يجاورنى فيك بَخيلٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩][(٢)]. فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسُعِدوا وحَصَلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا رُوى عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهرى[(٣)].

وعن على بن أبى طالب، رَضِى الله عنه: الخشوعُ: خشوعُ القلب. وكذا قال إبراهيم النَّخعِىّ.

وقال الحسن البصرى: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضوا الجناح.

وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم.

[و][(٤)] قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلاَّه، فإن كان قد اعتاد النظر فَلْيُغمِضْ. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

ثم رَوَى[(٥)] ابنُ جرير عنه، وعن عطاء بن أبى رَبَاح أيضاً مرسلا: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية.

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل بمن فَرّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقُرَّة عين، كما قال النبى ﷺ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إلىّ الطِّيب والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا مِسْعَر، عن عمرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبى الجَعْد،

---

(١) فى أ: «فقالت».

(٢) صفة الجنة لابن أبى الدنيا برقم (٢٠) وفى إسناده محمد بن زياد الكلبى، قال ابن معين: لا شىء.

تنبيه:

وقع فى صفة الجنة: «حدثنا محمد بن زياد الكلبى حدثنا بشر بن الحسين» وفى النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير (٢/ ٢٧٩) «نفيس بن ضين».

(٣) فى ف، أ: «والزهرى وقتادة». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «ورواه».

(٦) المسند (٣/١٢٨) وسنن النسائى (٦١١٧).

www.besturdubooks.wordpress.com

عن رجل من أسلَم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[١].

وقال الإمام أحمد أيضاً؛ حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبى الجعد، أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار، فحَضَرت الصلاة، فقال: يا جارية، ائتنى بوَضُوء لعلى أصلى فأستريح. فرآنا[٢] أنكرنا عليه ذلك[٣]، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»[٤].

وقال[٥]: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك ـ كما قاله بعضهم ـ والمعاصى ـ كما قاله آخرون ـ وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقَذَهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه [الآية][٦] مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التى فرضت بالمدينة إنما هى ذات النّصَب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى فى سورة الأنعام، وهى مكية: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على أحد القولين فى تفسيرها.

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا[٧] قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أى: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المعتدون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن امرأة

---

(١) المسند (٥/ ٣٦٤).
(٢) فى ف، أ: «فرأى أنا».
(٣) فى ف: «ذلك عليه».
(٤) المسند (٥/ ٣٧١).
(٥) فى أ: «وقوله».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف: «فلهذا».

www.besturdubooks.wordpress.com

اتخذت مملوكها، وقالت: تأوّلت آية من كتاب الله: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾، [قال](١): فأتى بها عمر ابن الخطاب، فقال له ناس من أصحاب النبى(٢) ﷺ: تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها. قال: فَغرب(٣) العبدَ وجزّ رأسه: وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم.

هذا أثر غريب منقطع، ذكره(٤) ابن جرير فى أول تفسير سورة المائدة(٥)، وهو هاهنا أليق، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم.

وقد استدل الإمام الشافعى، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾. وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عَرَفَةَ فى جزئه المشهور حيث قال:

حدثنى على بن ثابت الجَزَرىّ، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد(٦)، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده(٧)، والفاعل، والمفعول به، ومدمن(٨) الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»(٩).

هذا حديث غريب، وإسنادُه فيه مَنْ لا يُعرَف؛ لجهالته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أى: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أى: يواظبون عليها فى مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، أىّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «برُّ الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله».

أخرجاه فى الصحيحين(١٠). وفى مستدرك الحاكم قال: «الصلاة فى أول وقتها»(١١).

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ف، أ: «فضرب» وهو الصحيح.
(٤) فى أ: «ذكرها».
(٥) تفسير الطبرى (٩/٥٨٦) ط ـ المعارف.
(٦) فى ف، أ: «أحمد». (٧) فى ف، أ: «الناكح يده». (٨) فى ف، أ: «المدمن».
(٩) جزء الحسن بن عرفة برقم (٤١).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٥٩٧٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥).
(١١) المستدرك (١/١٨٨) وقال الحاكم: «فقد صحت هذه اللفظة باتفاق الثقتين بندار بن بشار، والحسن بن مكرم على روايتهما عن عثمان بن عمرو، وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضّحَى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة.

وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها.

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»(١).

ولما وَصَفَهم [الله](٢) تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ .الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات فدخل النار وَرِثَ أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾»(٤).

وقال ابن جُريج، عن لَيْث، عن مجاهد: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنَى بيته الذي في الجنة، ويُهدّم بيته الذي في النار(٥)، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذي في الجنة، ويُبنى بيته الذي في النار. وروى عن سعيد بن جُبَير نحو ذلك.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم [كلهم](٦) خلقوا لعبادة الله تعالى(٧)، فلما قام هؤلاء المؤمنين بما وجب عليهم من العبادة، وتركَ أولئك ما أمرُوا به مما خُلقوا له ـ أحرزَ هؤلاء نصيب

(١) جاء من حديث ثوبان: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٧) من طريق سفيان عن منصور عن ابن أبي الجعد عنه به وفيه انقطاع.
ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٨) من طريق المعتمر عن ليث عن مجاهد عنه به، وليث بن أبي سليم ضعيف.
ومن حديث أبي أمامة: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٩) من طريق إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عنه به، وضعفه البوصيري في الزوائد.
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) البخاري في صحيحه برقم (٢٧٩٠)، (٧٤٢٣) عن أبي هريرة، ولم يعزه صاحب التحفة إلى غير البخاري.
(٤) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٤٣٤١) عن أبي بكر بن أبي شيبة وأحمد بن سنان، كلاهما عن أبي معاوية به. وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ٣٢٧): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».
(٥) في ف، أ: «فيهدم بيته الذي في النار، ويبنى بيته الذي في الجنة». (٦) زيادة من أ. (٧) في ف، أ: «وحده لا شريك له».

www.besturdubooks.wordpress.com

أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بُرْدَةَ[١]، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضَعُها على اليهود والنصارى»[٢].

وفى لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دَفَع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال[٣]: هذا فكَاكُكَ من النار». فاستحلف عُمر بن عبد العزيز أبا بُردةَ بالله الذى لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حَدَّثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له[٤]. قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جُبير: الجنة بالرومية هى الفردوس.

وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم[٥].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن أبى يحيى، عن ابن عباس: ﴿مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال: صَفوةُ الماء.

وقال مجاهد: ﴿مِن سُلالَةٍ﴾ أى: من منىّ آدم.

قال ابن جرير: وإنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوق منه.

وقال قتادة: استُلّ آدمُ من الطين. وهذا أظهر فى المعنى، وأقرب إلى السياق، فإنه آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

---

(١) فى ف، أ: «بردة بن أبى موسى».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).
(٣) فى ف، أ: «فيقول».
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).
(٥) فى ف، أ: «والله أعلم».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عَوْفَ، حدثنا قَسَامَة بن زُهَيْر، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك».

وقد رواه أبو داود والترمذى، من طرق، عن عوف الأعرابى، به نحوه(١). وقال الترمذى: حسن صحيح.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة ٧، ٨] أى: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ(٢) فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، يعنى: الرحمُ مُعَد لذلك مهيأ له، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أى: [إلى](٣) مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنَقَّل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أى: ثم صَيّرنا النطفة، وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل ـ وهو ظهره ـ وترائب المرأة ـ وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الثندوة ـ فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. قال عكرمة: وهى دم.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وهى قطعة كالبَضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يعنى: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

وقرأ آخرون: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا(٤)﴾.

قال ابن عباس: وهو عظم الصلب.

وفى الصحيح، من حديث أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق ومنه(٥) يركب»(٦).

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا جعفر بن مُسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر ـ يعنى: ابن كثير، مولى بنى هاشم ـ حدثنا زيد بن على، عن أبيه، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: إذا أتمت النطفة أربعة أشهر، بُعث إليها مَلَك فنفخ فيها الروح فى

---

(١) المسند (٤/ ٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥).
(٢) فى أ: «فجعلناه نطفة» وهو خطأ. (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ف، أ: «النطفة عظاماً».
(٥) فى أ: «وفيه».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى: نفخنا فيه الروح(١).

ورُوى عن أبى سعيد الخدرى أنه نَفْخُ الروح.

قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى به: الروح(٢). وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى، وابنُ زيد، واختاره ابنُ جرير(٣).

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى: ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلا، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلا، ثم شيخاً، ثم هرما.

وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك. ولا منافاة، فإنه من ابتداء(٤) نفخ الروح [فيه](٥) شَرَعَ فى هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم.

قال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خَلقُه فى بطن أمه فى أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل(٦) ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها».

أخرجاه من حديث سليمانَ بن مِهْرَان الأعمش(٧).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله(٨) ـ يعنى: ابن مسعود ـ إن النطفة إذا وقعت فى الرحم، طارت فى كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوما، ثم تتحدّر(٩) فى الرحم فتكون علقة.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا أبو كُدَيْنة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مَرّ يهودىّ برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودى، إن هذا يَزعُم أنه نبى. فقال: لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى. قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، مِمَّ يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودى، من كلٍّ

---

(١) فى ف: «يعنى به الروح».
(٢) فى ف: «يعنى نفخنا فيه الروح».
(٣) تفسير الطبرى (٨/ ٨١).
(٤) فى ف: «ابتدأ».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف: «أحدكم».
(٧) المسند (١/ ٣٨٢) وصحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٨) فى ف: «عن خيثمة عن عبد الله قال: قال».
(٩) فى ف، أ: «تنحدر».

www.besturdubooks.wordpress.com

يُخلَقُ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعَصَب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقام اليهودى فقال: هكذا كان يقول من قبلك[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو، عن أبى الطُّفَيْل، حُذَيْفَة بن أسَيْد الغفارى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل الملَك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقى أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتبان[(٢)]. فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله عز وجل، فيكتبان ويُكتَبُ عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص».

وقد رواه مسلم فى صحيحه، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو ـ وهو ابن دينار ـ به[(٣)] نحوه. ومن طُرُق أخرَى، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة بن أسيد أبى سريحة[(٤)] الغفارى بنحوه، والله أعلم[(٥)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبى بكر، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكّل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب، نطفة. أىْ رب، علقة[(٦)] أى رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب فى بطن أمه».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد به[(٧)].

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعنى: حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السَّوىّ الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا على ابن زيد، عن أنس، قال: قال عمر ـ يعنى: ابن الخطاب رضى الله عنه ـ: وافقت ربى ووافقنى فى أربع: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية، قلت[(٨)] أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

---

(١) المسند (١/ ٤٦٥).
(٢) فى ف: «ويكتبان».
(٣) المسند (٤/ ٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).
(٤) فى أ: «سريح».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٥).
(٦) فى ف: «فحلقه».
(٧) صحيح البخارى برقم (٣١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٦).
(٨) فى ف، أ: «الآية، فلما نزلت قلت».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شَيْبان، عن جابر الجُعْفى، عن عامر الشعبى، عن زيد بن ثابت الأنصارى قال: أملى علىّ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله ﷺ. فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾»[١].

جابر بن يزيد الجُعْفى ضعيف جداً، وفى خبره هذا نَكَارة شَديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة، وكذلك[٢] إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم[٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعنى: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تَصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعنى: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] يعنى: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كلّ عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾.

لما ذكر تعالى خَلْق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خَلْق السموات والأرض[٤] مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا فى أول ﴿الم﴾ السجدة، التى كان رسول الله ﷺ يقرأ بها [فى][٥] صبيحة يوم الجمعة، فى أولها خَلْقُ السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾: قال مجاهد: يعنى السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى: ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها،

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٣٦٧) «مجمع البحرين» عن أبى زرعة عن آدم بن إياس به وجابر الجعفى ضعيف.
(٢) فى ف، أ: «وكذا».
(٣) فى ف، أ: «والله أعلم».
(٤) فى أ: «السبع».
(٥) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

وما ينزل من السماء وما يعرُج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو ـ سبحانه ـ لا يَحجبُ عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما فى وَعْره، ولا بحر إلا يعلم ما فى قَعْره، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)** ﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده[١] التى لا تعدّ ولا تحصى، فى إنزاله القَطْر من السماء ﴿**بِقَدَرٍ**﴾ أى: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دِمْنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما فى أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرُز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها، فيأتى الماء يحمل طيناً[٢] أحمر، فيسقى أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿**فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ**﴾ أى: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض، وجعلنا[٣] فى الأرض قابليَّة له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿**وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**﴾ أى: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبرارى [والبحار][٤] والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشُرب ولا لسقى لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض، بل ينجرّ على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مَدًى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا، فيسكنه فى الأرض ويَسْلُكُه ينابيع فى الأرض، فيفتح[٥] العيون والأنهار، فيسقى[٦] به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون[٧] منه وتتطهرون

---

(١) فى ف، أ: «عبده».
(٢) فى ف: «الطين».
(٣) فى ف، أ: «وجعل».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ف: «فيفجر».
(٦) فى ف، أ: «ويسقى».
(٧) فى ف: «ويغتسلون وتغتسلون».

www.besturdubooks.wordpress.com

وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعنى: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين وحدائق ذات بهجة، أى: ذات منظر حسن.

وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشىء وبين نظيره، وكذلك فى حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يَعجِزُون عن القيام بشكره.

وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شىء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعنى: الزيتونة. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عَرِى عنها سمى جَبَلا لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كَلّم [الله][(١)] عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون.

وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾: قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تنبت الدهن، كما فى قول العرب: ألقى فلان بيده، أى: يده. وأما على قول من يُضَمِّن الفعل فتقديره: تخرج بالدهن، أو[(٢)] تأتى بالدهن؛ ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾ أى: أدْم، قاله قتادة. ﴿لِّلآكِلِينَ﴾ أى: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامى، عن أبى أسَيْد ـ واسمه مالك بن ربيعة الساعدى الأنصارى ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به[(٣)]؛ فإنه من شجرة مباركة»[(٤)].

وقال عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة».

ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه، عن عبد الرزاق[(٥)]. قال الترمذى: ولا يعرف إلا من

---

(١) زيادة من ف، وفى أ: «والله تعالى».
(٢) فى ف، أ: «أى». (٣) فى أ: «بالزيت».
(٤) المسند (٣/ ٤٩٧).
(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣) وسنن الترمذى برقم (١٨٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣١٩).

www.besturdubooks.wordpress.com

حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عمر[(١)]، وربما لم يذكره.

قال[(٢)] أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثني الصَّعْب بن حكيم بن شريك بن نملة، عن أبيه عن جده، قال: ضِفْتُ عمرَ بن الخطاب ليلة عاشوراء[(٣)]، فأطعمني[(٤)] من رأس بعير بارد، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ[(٥)].

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾: يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فَرْث ودم، ويأكلون من حُمْلانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها[(٦)] الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، حين بعثه[(٧)] إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟! فقال الملأ ـ وهم السادة والأكابر منهم ـ: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفّع عليكم ويتعاظم بدعوى[(٨)] النبوة، وهو بشر مثلكم. فكيف أوحى إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبياً، لبعث مَلَكاً من عنده ولم يكن بشراً! ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: ببعثة البشر في آبائنا الأولين. يعنون[(٩)] بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم[(١٠)] الماضية.

---

(١) في أ: «عمرو». (٢) في ف، أ: «وقال». (٣) في ف: «ضفت ليلة عمر بن الخطاب».
(٤) في ف: فأطعمني« عودا». وفي أ: «عسورا».
(٥) المعجم الكبير (١/ ٧٤) والصعب بن حكيم لا يعرف كما قال الذهبي.
(٦) في ف: «ويحملون». (٧) في ف، أ: «بعثه الله ». (٨) في ف، أ: «بدعوة».
(٩) في ف: «يعني». (١٠) في ف، أ: «الدهور».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أى: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحى ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبرا [عنه][1] فى الآية الأخرى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿[قَالَ][2] رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أى: ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أى: سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أى: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رأفة بقومك، وشفقة عليهم، وطَمَع فى تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسوطة فى سورة «هود»[3] بما يغنى عن إعادة ذلك هاهنا.

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]. وقد امتثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. فذكَر اللهَ تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ أى: إن فى هذا الصنيع ـ وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ـ

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) زيادة من أ.

(٣) انظر تفسير الآيات: ٢٥ ـ ٤٨.

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿لآيَاتٍ﴾ أى: لحججاً[1] ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شىء، عليم بكل شىء.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أى: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾.

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين[2] ـ قيل: المراد بهم عاد، فإنهم مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ ـ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشرى، فكذبوا بلقاء الله فى القيامة، وأنكروا المعاد الجثمانى، وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ .هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أى: بعيد بعيد ذلك. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: فيما جاءكم[3] به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ .قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربَّه عليهم، فأجاب دعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أى: بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أى: وكانوا يستحقون ذلك من الله لكفرهم وطغيانهم.

والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصَّرْصر العاصف القوىّ الباردة، ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ[4] إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أى: صرعى هَلْكى كغثاء السيل، وهو الشىء الحقير التافه الهالك الذى

---

(١) فى ف، أ: «الحجج». (٢) فى ف، أ: «آخر». (٣) فى ف، أ «جاء».
(٤) فى ف، أ: «ترى».

www.besturdubooks.wordpress.com

لا ينتفع بشيء منه. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله(١): ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أى: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أى: أمما وخلائق، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعنى(٢): بل يُؤخَذون(٣) حَسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وخلفاً بعد سلف.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾: قال ابن عباس: يعنى يتبع بعضهم بعضاً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعنى: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أى: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أى: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [الآية](٤) [سبأ: ١٩] [﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾](٥).

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بَشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن

---

(١) فى ف: «كقولهم». (٢) فى ف، أ: «بل». (٣) فى ف، أ: «يوجدون».
(٤) زيادة من ف. وفى هـ: ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾. (٥) زيادة من ف.

www.besturdubooks.wordpress.com

أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: **﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾** [القصص: ٤٣].

ثم قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: **﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾**: قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: **﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾** يقول: ذات خصب **﴿وَمَعِينٍ﴾** يعني: ماء ظاهراً[1].

وقال مجاهد: ربوة مستوية.

وقال سعيد بن جبير: **﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾**: استوى الماء فيها.

وقال مجاهد، وقتادة: **﴿وَمَعِينٍ﴾**: الماء الجارى.

ثم اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة فى أىّ أرض [الله][2] هى؟ فقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل[3] يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى.

وروى عن وهب بن مُنَبِّه نحو هذا، وهو بعيد جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى: **﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾**، قال: هى دمشق[4].

قال: ورُوى عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن مَعْدان نحو ذلك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكرِمة، عن ابن عباس: **﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾** قال: أنهار دمشق.

---

(١) فى ف: «ظاهراً». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «يسيل».
(٤) فى أ: «الدمشق».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ [ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ][(١)]﴾، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها.

وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبى عبد الله ابن عم أبى هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: فى قوله[(٢)]: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هى الرملة من فلسطين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى، حدثنا رَوّاد[(٣)] بن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا السيبانى[(٤)]، عن ابن[(٥)] وَعْلَة، عن كُرَيْب السَّحولى، عن مُرَّة البَهْزِى قال: سمعت النبى ﷺ يقول لرجل: «إنك ميت[(٦)] بالربوة» فمات بالرملة.[(٧)] وهذا حديث غريب جداً.

وأقرب الأقوال فى ذلك ما رواه العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجارى، وهو النهر الذى قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾.

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عَون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولا وعملا ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أُمِروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه.

وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعنى: الحلال.

---

(١) زيادة من ف. (٢) فى ف: «فى قول الله». (٣) فى ف: «داود».
(٤) فى ف، أ: «الشيبانى» وهو الصحيح. (٥) فى ف، أ: «أبى» وهو الصحيح. (٦) فى ف، أ: «تموت».
(٧) فيه عباد بن عباد له مناكير.

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى، عن أبى مَيْسَرَةَ بن شُرَحْبِيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه.

وفى الصحيح: «ما من نبى إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[١].

وفى الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده[٢].

وفى الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان[٣] ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سُدسَه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يَفر إذا لاقى»[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبى مريم، عن ضَمْرة بن حبيب، أن أم عبد الله، أخت[٥] شداد بن[٦] أوس بعثت إلى النبى ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك فى أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أنَّى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالى، فشرب منه، فلما كان الغد أتته أم عبد الله أخت[٧] شداد فقالت: يا رسول الله[٨]، بعثتُ إليك بلبن مَرثية[٩] لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إلىّ الرسول فيه؟. فقال لها: «بذلك أمرت الرسل، ألا تأكل إلا طيبا، ولا تعمل إلا صالحا»[١٠].

وقد ثبت فى صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومسند الإمام أحمد ـ واللفظ له ـ من حديث فُضَيْل بن مرزوق، عن عَدِىّ بن ثابت، عن أبى حازم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إنّ الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ **يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾. وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشْعَثَ أغْبَرَ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّى بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنَّى يستجاب لذلك»[١١].

وقال الترمذى: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فُضيل بن مرزوق.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٠٧٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى ف: «وكان».

(٤) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٥) فى أ: «بنت». (٦) فى ف: «بنت».

(٧) فى ف، أ: «بنت».

(٨) فى ف: «يا رسول الله صلى الله عليك»، وفى أ: « يارسول الله ﷺ». (٩) فى ف: «مرثته».

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٥) من طريق المعافى بن عمران عن أبى بكر بن أبى مريم به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى: «قلت: وابن أبى مريم واه».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٩) والمسند (٦/ ١٥٩).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى[1]: دينكم ـ يامعشر الأنبياء ـ دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «الأنبياء»، وأن قوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أى: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أى: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أى: فى غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ !كلا، ليس الأمر كما يزعمون فى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]، لقد أخطؤوا فى ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر:١١ـ ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ: ٣٧] والآيات فى هذا كثيرة.

قال[2] قتادة فى قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ قال: مُكِرَ والله بالقوم فى أموالهم وأولادهم، يابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد [بن عُبَيْد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمدانى، حدثنا عبد الله][3] بن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:«إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يُعطى الدنيا من يُحِبّ ومن لا يحب، ولا يعطى الدِّين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نَفْسِى بيده، لا يسلم [4] عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ـ قالوا: وما بوائقه يا نبى الله؟ قال: غشمه وظلمه ـ

(١) فى ف، أ: «وإن».
(٢) فى أ: «وقال».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) فى ف:«يؤمن».

www.besturdubooks.wordpress.com

ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل [١] منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[٢].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾.

يقول تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾** أى: هم مع [٣] إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصرى: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: **﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾** [التحريم: ١٢]، أى: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وماشرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيا[٤] فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾** أى: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾** أى: يعطون العطاء[٥] وهم خائفون [٦] ألا يتقبل منهم، لخوفهم [٧] أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة؛ أنها قالت: يارسول الله، **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾**، هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يابنت أبى بكر، يابنت الصديق، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل».

وهكذا رواه الترمذى وابن أبى حاتم، من حديث مالك بن مغول، به بنحوه[٨]. وقال: «لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، **﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾**». قال الترمذى: وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن

(١) فى ف: «منه ليتقبل »وفى أ: «فيتقبل».
(٢) المسند (١/ ٣٨٧).
(٣) فى ف: «قى» وفى أ: «من».
(٤) فى ف: «منهيا». (٥) فى ف: «العطاء فيه». (٦) فى أ: «خائفون وجلون».
(٧) فى ف: «تخوفهم».
(٨) المسند (٦/ ١٥٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٥).

www.besturdubooks.wordpress.com

أبى حازم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ نحو هذا[١].

وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى، والحسن البصرى فى تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة» أى: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروى هذا مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قرأ كذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جُوَيْرية، حدثنا إسماعيل المكى، حدثنى أبوخلف مولى بنى جُمَح: أنه دخل مع عُبَيد بن عُمَيْر على [٢] عائشة، رضى الله عنها، فقالت: مرحباً بأبى عاصم، ما يمنعك أن تزورنا ـ أو: تُلمّ بنا؟ ـ فقال: أخشى أن أُملَّك. فقالت: ماكنت لتفعل؟ قال: جئت لأسأل [٣] عن آية فى كتاب الله عز وجل، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: أيّة آية؟ فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أو ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾؟ فقالت: أيتهما [٤] أحب إليك؟ فقلت: والذى نفسى بيده، لإحداهما أحب إلى من الدنيا جميعاً [٥]ـ أو: الدنيا وما فيها ـ قالت: وماهى؟ فقلت: ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف[٦].

إسماعيل بن مسلم المكى، وهو ضعيف.

والمعنى على القراءة الأولى ـ وهى قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم ـ أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عَدْله فى شرعه على عباده فى الدنيا: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أى: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لا يضيع منه شىء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يبخسون من الخير شيئا، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٧٥).
(٢) فى أ: «إلى». (٣) فى ف: «لأسألك». (٤) فى أ: «أيتها».
(٥) فى ف: «جميعها».
(٦) المسند (٦/ ٩٥).

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أى: غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَذَا﴾ أى: القرآن الذى أنزله [الله تعالى] (١) على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: قال الحكم (٢) بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أى: سيئة من دون ذلك، يعنى: الشرك، ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال: لابد أن يعملوها. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أى: قد كتب عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب. ورُوِى نَحو هذا عن مقاتل بن حَيَّان والسُّدِّىّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوى حسن. وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود: «فوالذى لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها».

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يعنى: حتى إذا جاء مترفيهم ـ وهم السعداء المنعمون فى الدنيا ـ عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أى: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً. إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا. وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١١ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقوله: ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ أى: لا نجيركم (٣) مما حل بكم، سواء جأرتم أو سكتّم، لا محيد ولا مناص ولا وَزَرَ لزم الأمر ووجب العذاب.

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أى: إذا دعيتم أبيتم، وإن (٤) طُلبتم امتنعتم؛ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾: فى تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير فى ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدهما (٥): أنه الحرم بمكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون بالهُجْر (٦) من الكلام.

والثانى: أنه (٧) ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «الحكيم». (٣) فى أ: «يجيركم».
(٤) فى ف، أ: «وإذا». (٥) فى أ: «أحدها». (٦) فى أ: «الهجر».
(٧) فى أ: «هو».

www.besturdubooks.wordpress.com

والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم من [(١)] الحرم صاغرين أذلاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أى: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم [(٢)] أولياؤه، وليسوا[(٣)] بهم، كما قال النسائى فى التفسير [(٤)] من سننه:

أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سَامِرًا﴾ قال: يتكبرون [ويسمرون فيه، ولا] [(٥)] يعمرونه، ويهجرونه[(٦)].

وقد أطنب ابن أبى حاتم هاهنا بما ذا [(٧)] حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى عنهم.

وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذًا والله يجدون [(٨)] فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

---

(١) فى أ: «إلى». (٢) فى أ: «وتعتقدون أنكم». (٣) فى ف: «وليسم» وفى أ: «ولستم».
(٤) فى ف، أ: «تفسيره». (٥) زيادة من ف.
(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥١).
(٧) فى أ: «هذا». (٨) فى ف، أ: «تجدون».

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال منكرا على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: أفهم [١] لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم، أفيقدرون [٢] على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، للنجاشى ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: يحكى قول المشركين عن النبى ﷺ أنه تقوَّل [٣] القرآن، أى: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يَدافع، وقد تحدّاهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾: يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أى: فى حال كراهة [٤] أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره. فقال نبى الله ﷺ: «وإن كنت كارها». وذُكر لنا أنه لقى رجلا فقال له: «أسلم» فَتَصَعَّده [٥] ذلك وكبر عليه، فقال له نبى الله: «أرأيت لو كنتَ فى طريق وَعْر وَعْث، فلقيت رجلا تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنت متبعه[٦]؟» قال: نعم. فقال: «فوالذى [٧] نفس محمد بيده، إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإنى لأدعوك إلى أسهل من ذلك لو دعيت إليه». وذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا، فقال له: «أسلم» فَتَصَعَّده ذلك، فقال له نبى الله ﷺ: «أرأيت فَتَيَيْكَ، أحدهما إذا حَدَّثك صدقك، وإذا [٨] ائتمنته أدى إليك أهو أحب إليك، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك وإذا [٩] ائتمنته خانك؟». قال: بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى، وإذا ائتمنته أدى إلى. فقال النبى [١٠] ﷺ: «كذاكم أنتم عند ربكم».

وقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾: قال مجاهد، وأبوصالح والسدى: الحق هو الله عز وجل، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ[١١] وَمَن فِيهِنَّ﴾ أى: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم فى قولهم: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ

---

(١) فى ف: «هم» وفى أ: «أهم». (٢) فى ف، أ: «أفتقدرون». (٣) فى أ: «يقول».
(٤) فى ف: «كراهته». (٥) فى ف، أ: « فصعد». (٦) فى ف: «تتبعه».
(٧) فى ف: «والذى». (٨، ٩) فى ف: «وإن». (١٠) فى ف: «نبى الله».
(١١) فى ف: «الأرض والسموات».

www.besturdubooks.wordpress.com

نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، ففى هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقه[١]، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

ثم قال: **﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾** يعنى: القرآن، **﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾**.

وقوله: **﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾**: قال الحسن: أجرا. وقال قتادة: جعلا **﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾** أى: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: **﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾** [سبأ: ٤٧]، وقال: **﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾** [ص: ٨٦]، وقال: **﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾** [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: **﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: **﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾** قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أتاه ـ فيما يرى النائم ـ ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: اضرب مَثَل هذا ومثل أمته. فقال: إن مَثَلَه ومثل أمته، كمثل قوم سَفْر انتهوا إلى رأس مَفَازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينا[٢] هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعونى؟ فقالوا: نعم: قال. فانطلق، فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى؟ قالوا[٣]: بلى قال: فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه، وحياضا هى أروى من هذه، فاتبعونى. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لنتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه [٤].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعرى، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى ممسك بحجزكم: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبونى وتقاحمون فيها تَقَاحُم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فَرَطكم على الحوض، فتردون على معا وأشتاتا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل فى إبله، فيُذْهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أى رب، قومى، أى رب أمتى.

(١) فى ف: «بخلقه». (٢) فى أ: «فبينما». (٣) فى أ: «فقالوا».
(٤) المسند (١/ ٢٦٧).

www.besturdubooks.wordpress.com

فيقال: يامحمد، إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا. قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رُغَاء، ينادى: يامحمد، يامحمد. فأقول: لا أملك [1] شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة، فينادى: يامحمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم، ينادى: يامحمد، يامحمد: فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغت»[2].

وقال على بن المدينى: هذا حديث حسن الإسناد، إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعرى القمى.

قلت: بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح. ووثقه النسائى وابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أى: لعادلون جائرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يخبر تعالى عن غلظهم[3] فى كفرهم بأنه لو أراح عَلَلَهُم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون[4].

[و] [5] قال الضحاك، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبدا

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا

---

(١) فى ف، أ: «لا أملك لك».

(٢) ورواه البزار فى مسنده برقم (٩٠٠) وابن عبد البر فى التمهيد (٢/ ٣٠٠) من طريق مالك بن إسماعيل عن يعقوب بن عبد الله الأشعرى به نحوه.

وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٨٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير والبزار إلا أنه قال: يحمل قشعاً مكان سقاء. ورجال الجميع ثقات».

(٣) فى أ: «غلظهم». (٤) فى ف، أ: «ولو كان كيف كان يكون». (٥) زيادة فى ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)﴾.

يقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾** أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، **﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾**، أي: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيهم. **﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾** أي: ما خشعوا، **﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾** أي: ما دعوا، كما قال تعالى: **﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأنعام: ٤٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزى، حدثنا على ابن الحسين، حدثنا أبى، عن يزيد ـ يعنى: النحوى ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز ـ يعنى: الوبر والدم ـ فأنزل الله: **﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾**.

وهكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل، عن على بن الحسين، عن أبيه، به [(١)]. وأصل هذا الحديث فى الصحيحين: أن [(٢)] رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف» [(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سلمة بن شَبِيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم ابن عمر بن كَيْسَان، عن [(٤)] وهب بن عمر بن كيسان قال: حُبِس وهب بن منبه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن فى طرف من عذاب الله، والله تعالى يقول: **﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾**قال: وصام وهب ثلاثا متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أَحْدَثَ لنا فأحدثنا. يعنى: أحدث لنا الحبس، فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: **﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾** أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أَبْلَسُوا [(٥)] من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمته على عباده فى أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم، التى يدركون [(٦)] بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٢).

(٢) فى ف، أ: «عن».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

(٤) فى ف، أ: «حدثنى». (٥) فى أ: «أيسوا». (٦) فى ف: «تدركون».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، فى بَرْئة الخليقة وذرئه لهم فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا، ولا ذكرا ولا أنثى، ولا جليلا ولا حقيرا، إلا أعاده كما أبدأه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: يحيى الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، ولايفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذى قد قهر كل شىء، وعز كل شىء، وخضع له كل شىء.

ثم قال مخبرا عن منكرى البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعنى يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعنون: [أن][1] الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)﴾.

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الذى لا إله إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه فى

(١) زيادة من أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئا، ولا يستبدّون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا [١]نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ أى: من مالكها الذى خلقها ومن [٢] فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك[٣] ﴿قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [أى: لا تذكرون] [٤] أنه لا تنبغى [٥] العبادة إلا للخالق الرازق [٦] لا لغيره.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من هو خالق العالم العُلْوى بما فيه من الكواكب النيّرات، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعنى: الذى هو سقف المخلوقات، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك، إن [٧] عرشه على سمواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة[٨].

وفى الحديث الآخر: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة» [٩].
ولهذا قال بعض السلف: إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة، [وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة][١٠].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سمى عرشاً لارتفاعه.

وقال الأعمش عن كعب الأحبار: إن السموات والأرض فى العرش، كالقنديل المعلق بين السماء والأرض.

وقال مجاهد: ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فَلاَة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا وَكيع، حدثنا [١١] سفيان الثورى، عن عمار الدُّهنى[١٢]، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفى رواية: إلا الله عز وجل[١٣].

وقال بعض السلف: العرش من ياقوتة حمراء.

ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى: الكبير: وقال فى آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ

(١) فى أ: «إنما» وهو خطأ. (٢) فى ف،أ: «وما». (٣) فى ف،أ: «كذلك».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «يليق». (٦) فى ف: «الرزاق».
(٧) فى ف: «لأن».
(٨) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٦) عن حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه.
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٥/٣٩٩) من طريق ابن وهب عن ابن زيد عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه، وقد سبق من رواية ابن مردويه عند تفسير الآية: ٢ من سورة الرعد.
(١٠) زيادة من أ. (١١) فى أ: «عن». (١٢) فى أ: «الذهبى».
(١٣) ورواه ابن أبى شيبة فى صفة العرش (ق ١١٤) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٨٢) من طريق الضحاك بن مخلد عن سفيان عن عمار الذهنى به، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وأقره الذهبى.

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿الْكَرِيمِ﴾ أى: الحسن البهى. فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء.

وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور [١] العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أى: إذا كنتم تعترفون [٢] بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا إسحاق ابن إبراهيم، أخبرنا عبد الله [٣] بن جعفر، أخبرنى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها يرعى غنما، فقال لها ابنها: يا أماه، من خلقك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبى؟ قالت: الله. قال: فمن خلقنى؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإنى أسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع.

قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث.

قال عبد الله بن دينار: كان [٤] ابن عمر كثيرا ما يحدثنا بهذا الحديث.

قلت: فى إسناده عبد الله [٥] بن جعفر المدينى، والد الإمام على بن المدينى، وقد تكلموا فيه، فالله أعلم[٦].

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: بيده الملك، ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، أى: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذى نفسى بيده»، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال[٧]: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخْفَر فى جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أى: وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه، الذى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذى لا يمانع ولا يخالف، وما شاء[٨] كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أى: لا يسئل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته [٩]، والخلق كلهم يُسألون عن

---

(١) فى أ: «فوق». (٢) فى أ: «تعرفون». (٣) فى ف، أ: «عبيد الله».
(٤) فى ف: «وكان». (٥) فى أ: «عبيد الله».
(٦) ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ١٧٨) من طريق إسحاق بن أبى إسرائيل عن عبد الله بن جعفر به، وقال: «غير محفوظ لا يحدث به عن ابن دينار غير عبد الله بن جعفر» وعبد الله بن حعفر المدينى ضعيف عند الأئمة.
(٧) فى أ: «يقول». (٨) فى ف، أ: «وما شاء الله». (٩) فى ف، أ: «وحكمته وعدله».

www.besturdubooks.wordpress.com

أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سيقولون لله﴾ أى: سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له ﴿قل فأنى تسحرون﴾ أى: فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بل أتيناهم بالحق﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أى: فى عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك/ كما قال فى آخر السورة: ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك [عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك] (١) اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٩١) عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون (٩٢)﴾.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك، فقال: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ أى: لو قُدّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض، فى غاية الكمال، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالا، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا؛ ولهذا قال: ﴿ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ أى: عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا.

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أى: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فتعالى عما يشركون﴾ أى: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل[عما يقول الظالمون والجاحدون](٢).

(١، ٢) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾.

يقول تعالى آمرا [نبيه محمداً ﷺ] (١) أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أى: إن عاقبتهم ـ وإنى شاهدُ ذلك ـ فلا تجعلنى فيهم، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى ـ وصححه ـ: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون»(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا لأريناك ما نحل (٣) بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال مرشداً له إلى التِّرْياق النافع فى مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسىء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، وهذا كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]: أى ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة(٤) أو الصفة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ : أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع(٥) معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف.

وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه»(٦).

وقوله: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أى: فى شىء من أمرى؛ ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور ـ وذلك مطردة للشياطين (٧) ـ عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الهَرَم، وأعوذ بك من الهَدْم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخطبنى الشيطان عند الموت»(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه،

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) المسند (٥/٢٤٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(٣) فى ف، أ: «ما يحل». (٤) فى ف: «الخصلة أو الوصية». (٥) فى ف، أ: «لا ينفع».

(٦) انظر الاستعاذة عند تفسير سورة الفاتحة.

(٧) فى ف: «للشيطان».

(٨) سنن أبى داود برقم (١٥٥٢).

www.besturdubooks.wordpress.com

عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها فى عنقه.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث محمد بن إسحاق[1] ،قال الترمذى: حسن غريب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ .لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ . ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم فى غمرات عذاب الجحيم.

وقوله : هاهنا: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾: كلا: حرف ردع وزجر، أى: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

---

(١) المسند (٢/ ١٨١) وسنن أبى داود برقم (٣٨٩٣) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٦٠١).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا**﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لابد أن يقولها لا محالة كل مختصر ظالم.

ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أى: لأنها كلمة، أى: سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحا، ولكان يكذب فى مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾.

وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾قال: فيقول الجبار: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا**﴾.

وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرَة: إذا سمعت الله يقول: ﴿**كَلا**﴾، فإنما يقول: كذب[(١)].

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**﴾: قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل.

وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرَجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظى نحوه.

وقال محمد بن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل ـ يعنى: ابن عياض ـ عن لَيْث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: إذا وضع ـ يعنى: الكافر ـ فى قبره، فيرى مقعده من النار . قال: فيقول: رب، ارجعون أتوب وأعمل صالحا. قال: فيقال: قد عُمِّرت ما كنت مُعَمَّرا. قال : فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزع، تهوى[(٢)] إليه هَوَامّ الأرض وحياتها وعقاربها.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على، حدثنى سلمة بن تمام، حدثنا على بن زيد[(٣)]، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، أنها قالت: ويل لأهل المعاصى من أهل القبور!! تدخل [(٤)] عليهم فى قبورهم حيات سود ـ أو: دُهُم ـ حية عند رأسه، وحية عند رجليه، يقرصانه حتى يلتقيا [(٥)] فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى: ﴿**وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾.

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى: ﴿**وَمِن وَرَائِهِم**﴾ : يعنى: أمامهم.

وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا [(٦)] مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم.

وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر، لا هم فى الدنيا، ولا هم فى الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم

---

(١) فى ف: «كذبت». (٢) فى ف، أ: «ويهوى». (٣) فى أ: «يزيد».
(٤) فى ف، أ: «يدخل». (٥) فى ف: «تقرصانه حتى تلتقيا». (٦) فى ف، أ: «ليس».

www.besturdubooks.wordpress.com

يبعثون.

وفى قوله: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وقال: ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء فى الحديث: «فلا يزال معذبا فيها»[١]، أى: فى الأرض.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه نفخ فى الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور، ﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثى والد لولده، ولا يَلْوى عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو أعز الناس عليه ـ كان ـ فى الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعرضة، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه: قال: فيفرح[٢] المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا، ومصداق ذلك فى كتاب الله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ـ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المِسْوَر بن مَخْرَمَة، عن عُبَيد الله بن أبى رافع، عن المِسْوَر ـ هو ابن مَخْرَمَة ـ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بَضْعَةٌ منى، يَقْبضُنى ما يقبضها، ويَبْسُطنى ما يبسطها[٣]، وإن الأنساب تنقطع[٤] يوم القيامة غير نسبى وسببى وصهرى»[٥].

هذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور أن[٦] رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة منى،

---

(١) رواه الترمذى فى السنن برقم (١٠٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) فى أ: «فيفرح والله». (٣) فى أ: «يفيضنى ما يفيضها وينشطنى ما ينشطها». (٤) فى أ: «منقطع».

(٥) المسند (٤/٣٢٣).

(٦) فى ف، أ: «عن».

www.besturdubooks.wordpress.com

يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى، والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة، وإنى ـ أيها الناس ـ فرط لكم، إذا [٢] جئتم» قال رجل: يارسول الله، أنا فلان بن فلان، [وقال أخوه: أنا فلان ابن فلان] [٣] فأقول لهم: «أما النسب فقد عرفت، ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى»[٤].

وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[٥]، من طرق متعددة عنه، رضى الله عنه: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، قال: أما ـ والله ـ مابى إلا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبَبٍ ونَسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببى ونسبى».

رواه [٦] الطبرانى، والبزار والهيثم بن كليب، والبيهقى، والحافظ الضياء فى « المختارة» [٧] وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفا؛ إعظاماً وإكراما، رضى الله عنه؛ فقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى العاص بن الربيع ـ زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ـ من طريق أبى القاسم البغوى: حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد ابن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى»[٨]. وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: «سألت ربى عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتى، ولا يتزوج إلى أحد منهم، إلا كان معى فى الجنة، فأعطانى ذلك»[٩]، ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله ابن عمرو.

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس.

﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة.

وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٧١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٩).
(٢) فى ف، أ: «فإذا».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) المسند (٣/١٨).
(٥) مسند عمر بن الخطاب لابن كثير (١/٣٨٩).
(٦) فى أ: «ورواه الحافظ».
(٧) المعجم الكبير(٣/٤٥) ومسند البزار برقم (٢٤٤٥) «كشف الأستار» وسنن البيهقى الكبرى (٧/٦٤) والمختارة للمقدسى برقم (٢٨١).
(٨) تاريخ دمشق (١٩/١١٩ «المخطوط») ورواه على بن سعيد عن سليمان بن عمر الرقى عن إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦٣).
(٩) تاريخ دمشق (١٩/١١٩ «المخطوط») ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق يزيد بن الكميت عن عمار بن سيف به. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/٨٥): «إسناده واهٍ» وفى الباب عن ابن أبى أوفى رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى: ثقلت سيئاته على حسنات، ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أى: خابوا وهلكوا، وباؤوا بالصفقة [١] الخاسرة.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا داود بن المُحَبَّر، حدثنا صالح المُرِّىّ، عن ثابت البُنانى وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: «إن لله ملكا موكلا بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيوقف بين كفتى الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقى فلان شقاوة لا [٢] يسعد بعدها أبداً»[٣].

إسناده ضعيف، فإن داود بن المُحَبَّر متروك.

ولهذا قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أى: ماكثون، دائمون مقيمون لا يظعنون.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء[٤]، حدثنا محمد بن سلمان بن الأصبهانى، عن أبى سِنَان ضِرَار بن مُرَّة، عن عبد الله بن أبى الهذيل، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «إن جهنم لما سيق [إليها] [٥] أهلها يلقاهم [٦] لهبها، ثم تلفحهم لفحة، فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»[٧].

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى الفَزَّاز، حدثنا الخضر بن على بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبى الحارث بن الخضر القَطَّان، حدثنا سعد بن سعيد [٨] المقبرى، عن أخيه، عن أبيه، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله الله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، قال: «تلفحهم لفحة، فتسيل لحومهم على أعقابهم»[٩].

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى عابسون.

وقال الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمُشَيَّط الذى قد بدا أسنانه وقَلَصت شفتاه.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: أخبرنا على بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ هو ابن المبارك، رحمه

---

(١) فى أ: «وفازوا بالصفقة». (٢) فى ف: «فلا».

(٣) ورواه أبو نعيم فى الحلية كما فى تخريج الإحياء (٤٠٩٨) وقال: «تفرد به داود بن المحبر».

(٤) فى أ: «أبى الفراء». (٥) زيادة من ف. (٦) فى ف: «تلقيهم».

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٣٦٣) وقال: «لم يروه مرفوعًا متصلاً عن أبى سنان عن عبد الله إلا محمد بن سليمان الأصبهانى، ورواه ابن عيينة وابن فضيل وجرير عن أبى سنان فأوقفه ابن فضيل على أبى هريرة».

(٨) فى ف، أ: «سعيد بن أبى سعيد».

(٩) ورواه الضياء المقدسى فى صفة النار كما فى الدر المنثور (٦/ ١١٧) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

الله ـ أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبى السَّمْح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخُدْرى، عن النبى ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: «تَشْويه النار فَتَقَلَّصُ شفته العليا حتى تبلغ وَسَطَ رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تَضْرب سُرَّته».

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر(١)، عن عبد الله بن المبارك، به(٢). وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)﴾.

هذا تقريع من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التى أوبقتهم فى ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت(٣) شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٨ ـ ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أى: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فَضَلَلْنَا عنها ولم نُرْزَقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أى: رُدَّنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ. ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢] أى: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحَّده المؤمنون.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار(٤)، يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أى: امكثوا فيها صاغرين مُهَانين أذلاء. ﴿وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ أى: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندى.

---

(١) فى أ: «نصير».
(٢) المسند (٣/ ٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٦).
(٣) فى أ: «وأرخت». (٤) فى أ: «الدنيا».

www.besturdubooks.wordpress.com

قال العَوفى، عن ابن عباس: ﴿ **اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ** ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَبْدَة بن سليمان المروزى، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أبى أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاما، ثم يردّ عليهم: إنكم ماكثون. قال: هانت دعوتهم ـ والله[1] ـ على مالك وربّ مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿**رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ** ﴾ قال: فيسكت عنهم قَدْرَ الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿ **اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾. قال: والله ما نَبَس[2] القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيْل، حدثنا أبو الزَّعْرَاء قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أرادَ الله ألا يخرج منهم أحداً ـ يعنى: من جهنم ـ غَير وجوههم وألوانهم، فيجىء الرجل من المؤمنين، فيشفع فيقول: يا رب[3]. فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجىء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾، فعند ذلك يقول: ﴿ **اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾. وإذا[4] قال ذلك، أطبقت عليهم فلا[5] يخرج منهم بَشَر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا**﴾ أى: فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلىّ، ﴿**حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي**﴾ أى: حملكم بغضهم على أن نَسيتم معاملتى ﴿ **وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ** ﴾ أى: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أى: يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿**إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ أى: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿ **أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ أى: جعلتهم هم الفائزين[6] بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين[7] من النار.

---

(١) فى ف، أ: «والله دعوتهم».
(٢) فى ف: «فوالله ما يبس».
(٣) فى ف، أ: «يارب يارب».
(٤) فى ف، أ: «فإذا».
(٥) فى ف، أ: «فلم».
(٦) فى ف: «الفائزون».
(٧) فى ف: «الناجون».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾.

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صَبَروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم كانت إقامتكم فى الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أى: الحاسبين ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقى، ولما تَصَرَّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيِّئ، ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته[1] ـ كما فعل المؤمنون ـ لفزتم كما فازوا.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن الوَزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أيْفَع ابن عبد الكَلاَعى؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم. قال: لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم: رحمتى ورضوانى وجنتى، امكثوا فيها خالدين مخلدين؟ ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فيقول: بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم: نارى وسَخَطى، امكثوا فيها خالدين مخلدين»[2].

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ أى: لا تعودون فى الدار الآخرة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يعنى هملا[3].

وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تقدّس أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أى: حسن المنظر بهى الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا إسحاق بن سليمان ـ شيخ من أهل العراق ـ أنبأنا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال:

---

(١) فى ف: «على عبادته وطاعته».

(٢) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (١/ ١٨٧) بإسناده إلى الحكم بن موسى عن الوليد عن صفوان به.

(٣) فى أ: «مهملاً».

www.besturdubooks.wordpress.com

كان آخر خطبة خطب عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولن[١] تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر مَن خرج من رحمة الله، وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافدا بباق، وقليلا بكثير، وخوفا بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون مَن بعدكم الباقين، حتى تردون[٢] إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم فى كل يوم تُشيّعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه فى صَدْع من الأرض، فى بطن صَدْع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرتَهَن بعمله، غنى عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بكم ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن نصر[٣] الخَوْلاَنى، حدثنا ابن وَهْب، أخبرنى ابن لَهِيعة، عن أبى هُبَيْرَةَ عن حَنَش[٤] بن عبد الله؛ أن رجلا مصاباً مرَّ به عبد الله بن مسعود، فقرأ فى أذنه هذه الآية: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾، حتى ختم السورة فَبَرأ، [فذكر ذلك لرسول الله ﷺ][٥]، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا قرأت فى أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لو أن رجلا مُوقنا قرأها على جَبَل لزال».

وروى أبو[٦] نُعَيم من طريق خالد بن نِزَار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سَرِيّة، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**﴾، قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا[٧].

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العَلاَّف الواسطى، حدثنا أبو المسَيَّب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خُنَيْس[٨]، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضحاك بن مُزَاحِم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [هود: ٤١]»[٩].

---

(١) فى ف: «ولم».
(٢) فى ف: «حين تردوا».
(٣) فى أ: «نصير».
(٤) فى ف: «حسن».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف: «ابن».
(٧) معرفة الصحابة لأبى نعيم برقم (٧٢٦).
(٨) فى ف: «حبيش».
(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ١٢٤) وفى كتاب الدعاء برقم (٨٠٤) من طرق عن عبد الحميد الهلالى، عن نهشل به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣٢): «نهشل بن سعيد متروك».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره، وعَبَد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أى: لا دليل له على قوله ـ فقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط فى قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أى: الله يحاسبه على ذلك.

ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

قال قتادة: ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله، وكذا وكذا ـ حتى عد أصناما، فقال رسول الله ﷺ: «فأيّهم إذا أصابك ضُرٌّ فدعوتَه، كشفه عنك؟». قال: الله عز وجل. قال: [«فأيّهم إذا كانت لك حاجة فدعوتَه أعطاكها؟» قال: الله عز وجل. قال][1]: «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه أم حسبت أن يغلب عليه. فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا يعلمون» قال[2] الرجل بعد ما أسلم: لقيت رجلا خصمنى.

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذى فى جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك[3].

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالغَفْر ـ إذا أطلِق ـ معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى أ: «فقال».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٨٣) وقال: «هذا حديث غريب».

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٣ ـ سورة المؤمنون
﴿ مكية وآياتها مائة وثمانى عشرة آية ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٢٣ المؤمنون

ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ٢٣ المؤمنون

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ٢٣ المؤمنون

بل لا ولى ولا نصير فى الحقيقة سواه عز وجل . عن النبى ﷺ من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى .

﴿ سورة المؤمنون ﴾

﴿ مكية وهى عند البصريين مائة وتسع عشرة آية وعند الكوفيين مائة وثمانى عشرة آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (قد أفلح المؤمنون) الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء فى الخير والإفلاح الدخول فى ذلك كالإبشار الذى هو الدخول فى البشارة وقد يجىء متعدياً بمعنى الإدخال فيه وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول وكلمة قد ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل لا متوقع الإخبار به ضرورة أن المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح لهم لا الإخبار بذلك فالمعنى قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقعاً من حالهم فإن إيمانهم وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعى الفلاح بموجب الوعد الكريم خلا أنه إن أريد بالإفلاح حقيقة الدخول فى الفلاح الذى لا يتحقق إلا فى الآخرة فالإخبار به على صيغة الماضى الدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت وإن أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضى فى محلها وقرىء أفلحوا على الإبهام والتفسير أو على أكلونى البراغيث وقرىء أفلح بضمة اكتفى بها عن الواو كما فى قول من قال [ولو أن الأطبا كان حولى] والمراد بالمؤمنين إما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا ﷺ من التوحيد والنبوة والبعث
٢ والجزاء ونظائرها فقوله تعالى (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وما عطف عليه صفات مخصصة لهم وإما الآتون بفروعه أيضاً كما ينبىء عنه إضافة الصلاة إليهم فهى صفات موضحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر فى حيز الصلة من المعانى مع الإيمان إجمالا أو تفصيلا كما مر فى أوائل سورة البقرة والخشوع الخوف والتذلل أى خائفون من الله عز وجل متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم روى أنه ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده وأنه رأى مصلياً يعبث بلحيته فقال
٣ لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه (والذين هم عن اللغو) أى عما لا يعنيهم من الأقوال والأفعال

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ٢٣ المؤمنون

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ ٢٣ المؤمنون

إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ٢٣ المؤمنون

فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ٢٣ المؤمنون

(معرضون) أى فى عامة أوقاتهم كما ينبىء عنه الاسم الدال على الاستمرار فيدخل فى ذلك إعراضهم عنه حال اشتغالهم بالصلاة دخولا أولياً ومدار إعراضهم عنه مافيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه لامجرد الاشتغال بالجد فى أمور الدين كما قيل فإن ذلك ربما يوهم أن لا يكون فى اللغو نفسه مايزجرهم عن تعاطيه وهو أبلغ من أن يقال لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً
٤ وميلا وحضوراً فإن أصله أن يكون فى عرض غير عرضه (والذين هم للزكاة فاعلون) وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر مايوجب المروءة اجتنابه وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة والزكاة مصدر لأنه الأمر الصادر عن الفاعل لا المحل الذى هو موقعه ومعنى الفعل قد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف
٥، ٦ (والذين هم لفروجهم حافظون) ممسكون لها فالاستثناء فى قوله تعالى (إلا على أزواجهم) من نفى الإرسال الذى ينبىء عنه الحفظ أى لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم وفيه إيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى مالايخفى وأنهم حافظون لها من استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ويجوز أن تكون على بمعنى من وإليه ذهب الفراء كما فى قوله تعالى إذا اكتالوا على الناس أى حافظون لها من كل أحد إلا من أزواجهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير حافظون أى حافظون لها فى جميع الأحوال إلا حال كونهم والين أو قوامين على أزواجهم وقيل بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين وحمل الحفظ على القصر عليهن ليكون المعنى حافظون فروجهم على الأزواج لا يتعداهن ثم يقال غير حافظين إلا عليهن تأكيداً على تأكيد تكلف على تكلف (أو ما ملكت أيمانهم) أى سراريهم عبر عنهن بما إجراء لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء أو لأنوثتهن المنبئة عن القصور وقوله تعالى (فإنهم غير ملومين) تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم منهن أى
٧ فإنهم غير ملومين على عدم حفظها منهن (فمن ابتغى وراء ذلك) الذى ذكر من الحد المتسع وهو أربع من الحرائر وماشاء من الإماء (فأولئك هم العادون) الكاملون فى العدوان المتناهون فيه وليس فيه مايدل حتما على تحريم المتعة حسبما نقل عن القاسم بن محمد فإنه قال إنها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له أما

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ٢٣ المؤمنون

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ٢٣ المؤمنون

أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٢٣ المؤمنون

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ٢٣ المؤمنون

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ٢٣ المؤمنون

أنها ليست زوجة له فلأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم
نصف ماترك أزواجكم فوجب أن لاتحل لقوله تعالى إلا على أزواجهم لأن لهم أن يقولوا إنها زوجة له
فى الجملة وأما أن كل زوجة ترث فهم لا يسلمونها وأما ماقيل من أنه إن أريد لوكانت زوجة حال الحياة
٨ لم يفد وإن أريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فليس له معنى محصل نعم لوعكس الكان له وجه (والذين هم
لأماناتهم وعهدهم) لمايؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق (راعون) أى قائمون عليها حافظون
٩ لها على وجه الإصلاح وقرىء لأمانتهم (والذين هم على صلواتهم) المفروضة عليهم (يحافظون) يواظبون
عليها ويؤدونها فى أوقاتها ولفظ الفعل فيه لما فى الصلاة من التجدد والتكرر وهو السر فى جمعها وليس
فيه تكرير لما أن الخشوع فى الصلاة غير المحافظة عليها وفصلهما للإيذان بأن كلا منهما فضيلة مستقلة على
١٠ حيالها ولو قرنا فى الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة (أولئك) إشارة إلى
المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وإيثارها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم
ونزولهم منزلة المشار إليه حسا ومافيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم فى الفضل والشرف
أى أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (هم الوارثون) أى الأحقاء بأن يسموا وراثاً دون من
١١ عداهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمهما (الذين يرثون الفردوس) بيان لما يرثونه وتقييد
للوراثة بعد إطلاقها وتفسير لها بعد إبهامها تفخيما لشأنها ورفعاً لمحلها وهى استعارة لاستحقاقهم الفردوس
بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها
على أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار (هم فيها) أى فى الفردوس والتأنيث
لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا وهو البستان الجامع لأصناف الثمر روى أنه تعالى بنى جنة الفردوس لبنة
من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الأذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من
جيد الفاكهة وجيد الريحان (خالدون) لايخرجون منها أبداً والجملة إما مستأنفة مقررة لما قبلها وإما حال
١٢ مقدرة من فاعل يرثون أو مفعوله إذ فيها ذكر كل منهما ومعنى الكلام لايموتون ولايخرجون منها (ولقد
خلقنا الإنسان) شروع فى بيان مبدأ خلق الإنسان وتقلبه فى أطوار الخلقة وأدوار الفطرة بياناً إجمالياً

ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ٢٣ المؤمنون

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ٢٣ المؤمنون

إثر بيان حال بعض أفراده السعداء واللام جواب قسم والواو ابتدائية وقيل عاطفة على ماقبلها والمراد بالإنسان الجنس أى وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً حسبما تحققته فى سورة الحج وغيرها وأما كونه مخلوقا من سلالات جعلت نطفاً بعد أدوار وأطوار فبعيد (من سلالة) السلالة ماسل من الشىء واستخرج منه فإن فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصوداً منه كالخلاصة وأخرى غير مقصود منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الأول فإنها مقصودة بالسل ومن ابتدائية متعلقة بالخلق ومن فى قوله تعالى (من طين) بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة أى خلقناه من سلالة كائنة من طين ويجوز أن تتعلق بسلالة على أنها بمعنى مسلولة فهى ابتدائية كالأولى وقيل المراد بالإنسان آدم عليه السلام فإنه الذى خلق من صفوة سلت من الطين وقد وقفت على
١٣ التحقيق (ثم جعلناه) أى الجنس باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام أو جعلنا نسله على حذف المضاف إن أريد بالإنسان آدم عليه السلام (نطفة) بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتأويل الجوهر أو المسلول أو الماء (فى قرار) أى مستقر وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة وقوله تعالى (مكين) وصف لها بصفة ماا ستقر فيها مثل طريق سائر أو بمكانتها فى نفسها فإنها
١٤ مكنت بحيث هى وأحرزت (ثم خلقنا النطفة علقة) أى دماً جامداً بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) أى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها (فخلقنا المضغة) أى غالبها ومعظمها أو كلها (عظاماً) بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة (فكسونا العظام) المعهودة (لحماً) من بقية المضغة أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا مما يصل إليها أى كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة مناسبة له واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات وجمع العظام لاختلافها وقرىء على التوحيد فيهما اكتفاء بالجنس وبتوحيد الأول فقط وبتوحيد الثانى فحسب (ثم أنشأناه خلقاً آخر) هى صورة البدن أو الروح أو القوى بنفخه فيه أو المجموع وثم لكمال التفاوت بين الخلقين واحتج به أبو حنيفة رحمه الله على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر (فتبارك الله) فتعالى شأنه فى علمه الشامل وقدرته الباهرة والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن ماذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية وللإيذان بأن حق كل من سمع مافصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالا وإعظاماً لشؤونه تعالى (أحسن الخالقين) بدل من الجلالة وقيل نعت له بناء على أن الإضافة ليست لفظية وقيل خبر مبتدأ محذوف أى هو أحسن الخالقين خلقاً أى المقدرين تقديراً حذف المميز

ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ٢٣ المؤمنون

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ٢٣ المؤمنون

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ٢٣ المؤمنون

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ٢٣ المؤمنون

لدلالة الخالقين عليه كما حذف المأذون فيه فى قوله تعالى أذن للذين يقتلون لدلالة الصلة عليه أى أحسن الخالقين خلقاً فالحسن للخلق قيل نظيره قوله ﷺ إن الله جميل يحب الجمال أى جميل فعله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً فاستكن روى أن عبد الله بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ الوحى فلما انتهى ﷺ إلى قوله خلقاً آخر سارع عبد الله إلى النطق به قبل إملائه ﷺ فقال اكتبه هكذا نزلت فشك عبد الله فقال إن كان محمد يوحى إليه فأنا كذلك فلحق بمكة كافراً ثم أسلم يوم الفتح وقيل مات على كفره وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر رضى الله عنه فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله ﷺ هكذا نزل يا عمر وكان رضى الله عنه يفتخر بذلك ويقول وافقت ربى فى أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولى لهن أو ليبدله الله خيراً منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه إن طلقكن أن يبدله الآية والرابع فتبارك الله أحسن الخالقين انظر كيف وقعت هذه الواقعة سبباً لسعادة عمر رضى الله عنه وشقاوة ابن أبى سرح حسبما قال تعالى يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً لا يقال فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك قادح فى إعجازه لما أن الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار أقصر السور على أن إعجاز هذه الآية الكريمة منوط بما قبلها

١٥ كما أعرب عنه الفاء فإنها اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله (ثم إنكم بعد ذلك) أى بعد ماذكر من الأمور العجيبة حسبما ينبىء عنه مافى اسم الإشارة من معنى البعد المشعر بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل والكمال وكونه بذلك ممتازاً منزلا منزلة الأمور الحسية (لميتون) لصائرون إلى الموت لا محالة كما تؤذن به صيغة النعت الدالة على الثبوت دون الحدوث الذى تفيده صيغة الفاعل وقد قرىء لمائتون

١٦ (ثم إنكم يوم القيامة) أى عند النفخة الثانية (تبعثون) من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب

١٧ (ولقد خلقنا فوقكم) بيان لخلق مايحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم أى خلقنا فى جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لأن تلك النسبة إنما تعرض لها بعد خلقهم (سبع طرائق) هى السموات السبع سميت بها لأنها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل فإن كل مافوقه مثله فهو طريقة أو لأنها طرائق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها (وما كنا عن الخلق) عن ذلك المخلوق الذى هو السموات أو عن جميع المخلوقات التى هى من جملتها أو عن الناس (غافلين) مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ماقدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة ويصل إلى ما فى الأرض منافعها كما ينبىء عنه قوله تعالى

١٨ (وأنزلنا من السماء ماء) هو المطر أو الأنهار النازلة من

فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ٢٣ المؤمنون

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ٢٣ المؤمنون

الجنة قيل هى خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهر العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فى فنون معايشهم ومن ابتدائية متعلقة بأنزلنا وتقديمها على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والعدول عن الإضمار لأن الإنزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل بمجرد كونها جهة العلو (بقدر) بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم أو بمقدار ماعلمنا من حاجاتهم ومصالحهم (فأسكناه فى الأرض) أى جعلناه ثابتاً قاراً فيها (وإنا على ذهاب به) أى إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التغوير بحيث يتعذر استنباطه (لقادرون) كما كنا قادرين على إنزاله وفى تنكير ذهاب إيماء إلى كثرة طرقه ومبالغة فى الإبعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى قل أرأيتم
١٩ إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين (فأنشأنا لكم به) أى بذلك الماء (جنات من نخيل وأعناب لكم فيها) فى الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) من الجنات (تأكلون) تغذياً أو ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب أى لكم فى ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه
٢٠ (وشجرة) بالنصب عطف على جنات وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل عليه ماقبله أى ومما أنشىء لكم به شجرة وتخصيصها بالذكر من بين الأشجار لاستقلالها بمنافع معروفة قيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقوله تعالى (تخرج من طور سيناء) وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وقيل بفلسطين ويقال له طور سينين فإما أن يكون الطور اسم الجبل وسيناء اسم البقعة أضيف إليها أو المركب منهما علم له كامرىء القيس ومنع صرفه على قراءة من كسر السين للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة لا للألف لأنه فيعال كديماس من السناء بالمد وهو الرفعة أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعلال كعلباء من السين إذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف سيناء فإنه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء إذ لا فعلال فى كلامهم وقرىء بالكسر والقصر والجملة صفة لشجرة وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع أيضاً لتعظيمها ولأنه المنشأ الأصلى لها وقوله تعالى (تنبت بالدهن) صفة أخرى لشجرة والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا منها أى تنبت ملتبسة به ويجوز كونها صلة معدية أى تنبته بمعنى تتضمنه وتحصله فإن النبات حقيقة صفة للشجرة لا الدهن وقرىء تنبت من الإفعال وهو إما من الإنبات بمعنى النبات كما فى قول زهير [رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم * قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل] أو على تقدير تنبت زيتونها ملتبساً بالدهن وقرىء على البناء للمفعول وهو كالأول وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتنبت بالدهان (وصبغ للآكلين) معطوف على الدهن جار على إعرابه عطف أحد وصفى الشىء على

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ٢٣ المؤمنون

وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ٢٣ المؤمنون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ٢٣ المؤمنون

الآخر أى تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهناً يدهن به ويسرج منه وكونه إداما يصبغ فيه الخبز أى
٢١ يغمس فيه للائتدام وقرىء وصباغ كدباغ فى دبغ (وإن لكم فى الأنعام لعبرة) بيان للنعم الفائضة
عليهم من جهة الحيوان إثر بيان النعم الواصلة إليهم من جهة الماء والنبات وقد بين أنها مع كونها
فى نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتى عبرة لابد من أن يعتبروا بها ويستدلوا بأحوالها على عظيم
قدرة الله عز وجل وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه وخص هذا بالحيوان لما أن محل العبرة فيه
أظهر مما فى النبات وقوله تعالى (نسقيكم مما فى بطونها) تفصيل لما فيها من مواقع العبرة وما فى بطونها
عبارة إما عن الألبان فمن تبعيضية والمراد بالبطون الجوف أو عن العلف الذى يتكون منه اللبن فمن
ابتدائية والبطون على حقيقتها وقرىء بفتح النون وبالتاء أى تسقيكم الأنعام (ولكم فيها منافع كثيرة)
٢٢ غير ماذكر من أصوافها وأشعارها (ومنها تأكلون) فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها (وعليها)
أى على الأنعام فإن الحمل عليها لا يقتضى الحمل على جميع أنواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالإبل
ونحوها وقيل المراد هى الإبل خاصة لأنها هى المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال
ذو الرمة [سفينة بر تحت خدى زمامها] فالضمير فيه كما فى قوله تعالى وبعولتهن أحق بردهن (وعلى الفلك
تحملون) أى فى البر والبحر وفى الجمع بينها وبين الفلك فى إيقاع الحمل عليها مبالغة فى تحملها للحمل وهو
الداعى إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من المنافع الحاصلة منها عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها
٢٣ (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) شروع فى بيان إهمال الأمم السابقة وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد من
النعم الفائتة للحصر وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم وما حاق بهم لذلك من فنون العذاب تحذيراً للمخاطبين
وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه وفى إيرادها إثر قوله تعالى وعلى الفلك
تحملون من حسن الموقع مالا يوصف والواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وتصدير القصة به
لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها أى وبالله لقد أرسلنا نوحا الخ ونسبه الكريم وكيفية بعثه وكمية لبثه فيما
بينهم قد مر تفصيله فى سورة الأعراف وسورة هود (فقال) متعطفاً عليهم ومستميلا لهم إلى الحق
(ياقوم اعبدوا الله) أى اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى فى سورة هود أن لا تعبدوا إلا الله وترك
التقييد به للإيذان بأنها هى العبادة فقط وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة فى شىء رأساً وقوله تعالى
(مالكم من إله غيره) استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها أو تعليل الأمر بها وغيره بالرفع صفة

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ٢٣ المؤمنون

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ٢٣ المؤمنون

لإله باعتبار محله الذى هو الرفع على أنه فاعل أو مبتدأ خبره لكم أو محذوف ولكم للتخصيص والتبيين
أى مالكم فى الوجود أو فى العالم إله غيره تعالى وقرىء بالجر باعتبار لفظه (أفلا تتقون) أى أفلا تقون أنفسكم عذابه الذى يستوجبه ماأنتم عليه من ترك عبادته كما يفصح عنه قوله تعالى إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقوله تعالى عذاب يوم أليم وقيل أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذى هو ربكم الخ وليس بذاك وقيل أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه الخ وفيه ما فيه والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أتعرفون ذلك أى مضمون قوله تعالى مالكم من إله غيره فلا تتقون عذابه بسبب إشراككم به فى العبادة مالا يستحق الوجود لولا إيجاد الله تعالى إياه فضلا عن استحقاق العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه أو ألا تلاحظون ذلك فلا تتقونه فالمنكر كلا الأمرين
٢٤ فالمبالغة حينئذ فى الكمية وفى الأول فى الكيفية (فقال الملأ) أى الأشراف (الذين كفروا من قومه) وصف الملأ بما ذكر مع اشتراك الكل فيه للإيذان بكمال عراقتهم فى الكفر وشدة شكيمتهم فيه أى قالوا لعوامهم (ماهذا إلا بشر مثلكم) أى فى الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة فى وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة (يريد أن يتفضل عليكم) أى يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم وصفوه بذلك إغضابا للمخاطبين عليه عليه السلام وإغراء لهم على معاداته عليه السلام وقوله تعالى (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام أى لو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلا من الملائكة وإنما قيل لأنزل لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال فمفعول المشيئة مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما فى قوله تعالى ولو شاء لهداكم ونظائره (ماسمعنا بهذا) أى بمثل هذا الكلام الذى هو الأمر بعبادة الله خاصة وترك عبادة ماسواه وقيل بمثل نوح عليه السلام فى دعوى النبوة (فى آبائنا الأولين) أى الماضين قبل بعثته عليه السلام قالوه إما لكونهم وآباؤهم فى فترة متطاولة وإما لفرط غلوهم فى التكذيب والعناد وانهماكهم فى الغى والفساد وأياما كان فقولهم هذا ينبغى أن يكون هو الصادر عنهم فى مبادى دعوته عليه السلام كما تنبىء عنه الفاء فى قوله تعالى فقال الملأ الخ وقيل معناه ماسمعنا به عليه السلام أنه نبى فالمراد بآبائهم الأولين الذين مضوا قبلهم فى زمن نوح عليه السلام وقولهم المذكور هو الذى صدر عنهم فى أواخر أمره عليه السلام وهو المناسب لما بعده من حكاية
٢٥ دعائه عليه السلام وقولهم (إن هو) أى ماهو (إلا رجل به جنة) أى جنون أو جن يخبلونه ولذلك يقول مايقول (فتربصوا به) أى احتملوه واصبروا عليه وانتظروا (حتى حين) لعله يفيق مما فيه محمول حينئذ

قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ٢٣ المؤمنون

فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ٢٣ المؤمنون

على ترامى أحوالهم فى المكابرة والعناد وإضرابهم عما وصفوه عليه السلام به من البشرية وإرادة التفضل
إلى وصفه عليه السلام بما ترى وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا وعلى
الأول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله أنى يؤفكون (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من ٢٦
حكاية كلام الكفرة كأنه قيل فماذا قال عليه السلام بعد ماسمع منهم هذه الأباطيل فقيل قال لما رآهم قد
أصروا على الكفر والتكذيب وتمادوا فى الغواية والضلال حتى يئس من إيمانهم بالكلية وقد أوحى الله
إليه إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن (رب انصرنى) بإهلاكهم بالمرة فإنه حكاية إجمالية لقوله
عليه السلام رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا الخ (بما كذبونى) أى بسبب تكذيبهم إياى *
أو بدل تكذيبهم (فأوحينا إليه) عند ذلك (أن اصنع الفلك) أن مفسرة لما فى الوحى من معنى القول ٢٧
(بأعيننا) ملتبسا بحفظنا وكلاءتنا كأن معه عليه السلام منه عز وعلا حفاظا وحراسا يكلئونه بأعينهم من
التعدى أو من الزيغ فى الصنعة (ووحينا) وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها والفاء فى قوله تعالى (فإذا جاء *
أمرنا) لترتيب مضمون مابعدها على تمام صنع الفلك والمراد بالأمر العذاب كما فى قوله تعالى لا عاصم
اليوم من أمر الله لا الأمر بالركوب كما قيل وبمجيئه كمال اقترابه أو ابتداء ظهوره أى إذا جاء إثر تمام الفلك
عذابنا وقوله تعالى (وفار التنور) عطف بيان لمجىء الأمر روى أنه قيل له عليه السلام إذا فار الماء من *
التنور اركب أنت ومن معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار إلى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء
أخبرته امرأته فركبوا واختلف فى مكانه فقيل كان فى مسجد الكوفة أى فى موضعه عن يمين الداخل
من باب كندة اليوم وقيل كان فى عين وردة من الشام وقد مر تفصيله فى تفسير سورة هود عليه السلام
(فاسلك فيها) أى ادخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلكه فيه أدخله فيه ومنه قوله تعالى ماسلككم *
فى سقر (من كل) أى من كل أمة (زوجين) أى فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى (اثنين) فإنه *
نص فى الفردين دون الجمعين أو الفريقين وقرىء بالإضافة على أن المفعول اثنين أى من كل أمتى زوجين
وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك وهذا صريح فى أن الأمر كان قبل صنعة
الفلك وفى سورة هود حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين فالوجه أن يحمل إما على
أنه حكاية لأمر آخر تنجيزى ورد عند فوران التنور الذى نيط به الأمر التعليقى اعتناء بشأن المأمور به
أو على أن ذلك هو الأمر السابق بعينه لكن لما كان الأمر التعليقى قبل تحقق المعلق به فى حق إيجاب
المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث عند تحققه فحكى على صورة التنجيز وقد مر فى تفسير قوله

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ٢٣ المؤمنون

وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ٢٣ المؤمنون

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ٢٣ المؤمنون

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ٢٣ المؤمنون

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ٢٣ المؤمنون

---

* تعالى وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (وأهلك) منصوب بفعل معطوف على فاسلك لا بالعطف على
زوجين أو اثنين على القراءتين لأدائه إلى اختلال المعنى أى واسلك أهلك والمراد به امرأته وبنوه
وتأخير الأمر بإدخالهم عما ذكر من إدخال الأزواج فيها لكونه عريقاً فيما أمر به من الإدخال فإنه يحتاج
إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام بل إلى معاونة من أهله وأتباعه وأماهم فإنما يدخلونها باختيارهم بعد
ذلك ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره فتقديمه يؤدى إلى الإخلال بتجاوب أطراف
* النظم الكريم (إلا من سبق عليه القول منهم) أى القول بإهلاك الكفرة وإنما جيء بعلى لكون السابق
ضاراً كما جيء باللام فى قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى لكونه نافعاً (ولا تخاطبنى فى الذين
* ظلموا) بالدعاء لإنجائهم (إنهم مغرقون) تعليل للنهى أو لما ينبىء عنه من عدم قبول الدعاء أى إنهم مقضى
عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف
٢٨ لا وقد أمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى (فإذا استويت أنت ومن معك) أى من أهلك
وأشياعك (على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) على طريقة قوله تعالى فقطع دابر القوم
٢٩ الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (وقل رب أنزلنى) فى السفينة أو منها (منزلا مباركا) أى إنزالا أو
موضع إنزال يستتبع خيراً كثيراً وقرىء منزلا أى موضع نزول (وأنت خير المنزلين) أمر عليه السلام
بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عز وجل توسلا به إلى الإجابة وإفراده عليه السلام بالأمر مع شركة
٣٠ الكل فى الاستواء والنجاة لإظهار فضله عليه السلام والإشعار بأن فى دعائه وثنائه مندوحة عما عداه (إن
فى ذلك) الذى ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه (لآيات) جليلة يستدل بها أولو الأبصار ويعتبر بها
ذوو الاعتبار (وإن كنا لمبتلين) إن مخففة من أن واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشأن محذوف أى
وإن الشأن كنا مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر
٣١ ويتذكر كقوله تعالى ولقد تركناها آية فهل من مدكر (ثم أنشأنا من بعدهم) أى من بعد إهلاكهم (قرنا
آخرين) هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعليه أكثر المفسرين وهو الأوفق لما هو
٣٢ المعهود فى سائر السور الكريمة من إيراد قصتهم إثر قصة قوم نوح وقيل هم ثمود (فأرسلنا فيهم) جعلنا

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ٢٣ المؤمنون

وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ٢٣ المؤمنون

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ٢٣ المؤمنون

موضعاً للإرسال كما فى قوله تعالى كذلك أرسلناك فى أمة ونحوه لاغاية له كما فى مثل قوله تعالى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه للإيذان من أول الأمر بأن من أرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم بل إنما نشأ فيما بين أظهرهم كما ينبىء عنه قوله تعالى (رسولا منهم) أى من جملتهم نسباً فإنهما عليهما السلام كانا منهم * وأن فى قوله تعالى (أن اعبدوا الله) مفسرة لأرسلنا لتضمنه معنى القول أى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله تعالى وقوله تعالى (مالكم من إله غيره) تعليل للعبادة المأمورة بها أو للأمر بها أو لوجوب الامتثال به (أفلا تتقون) أى عذابه الذي يستدعيه ماأنتم عليه من الشرك والمعاصى والكلام فى العطف *

٣٣ كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام (وقال الملأ من قومه) حكاية لقولهم الباطل إثر حكاية القول الحق الذى ينطق به حكاية إرسال الرسول بطريق العطف على أن المراد حكاية مطلق تكذيبهم له عليه السلام إجمالا لاحكاية ماجرى بينه عليه السلام وبينهم من المحاورة والمقاولة تفصيلا حتى يحكى بطريق الاستئناف المبنى على السؤال كما ينبىء عنه ماسيأتى من حكاية سائر الأمم أى وقال الأشراف من قومه (الذين * كفروا) فى محل الرفع على أنه صفة للملأ وصفوا بذلك ذما لهم وتنبيهاً على غلوهم فى الكفر وتأخيره عن من قومه لعطف قوله تعالى (وكذبوا بلقاء الآخرة) وما عطف عليه على الصلة الأولى أى كذبوا بلقاء * مافيها من الحساب والثواب والعقاب أو بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث (وأترفناهم) ونعمناهم (فى الحياة الدنيا) بكثرة الأموال والأولاد أى قالوا لأعقابهم مضلين لهم (ماهذا إلا بشر مثلكم) أى فى الصفات والأحوال وإيثار مثلكم على مثلنا للمبالغة فى تهوين أمره عليه السلام وتوهينه (يأكل مما تأكلون منه * ويشرب مما تشربون) تقرير للمماثلة وماخبرية والعائد إلى الثانى منصوب محذوف أو مجرور قد حذف مع

٣٤ الجار لدلالة ماقبله عليه (ولئن أطعتم بشراً مثلكم) أى فيما ذكر من الأحوال والصفات أى إن امتثلتم بأوامره (إنكم إذاً) أى على تقدير الاتباع (لخاسرون) عقولكم ومغبونون فى آرائكم حيث أذللتم أنفسكم انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذى يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التى لاخسران وراءها قاتلهم الله أنى يؤفكون وإذا وقع بين اسم إن وخبرها لتأكيد مضمون الشرط والجملة جواب لقسم محذوف قبل إن الشرطية المصدرة باللام الموطئة أى والله لئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم

٣٥ إذاً لخاسرون (أيعدكم) استئناف مسوق لتقرير ماقبله من زجرهم عن اتباعه عليه السلام بإنكار وقوع مايدعوهم إلى الإيمان به واستبعاده (أنكم إذا متم) بكسر الميم من مات يموت وقرىء بضمها من مات

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ٢٣ المؤمنون

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ٢٣ المؤمنون

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ٢٣ المؤمنون

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ٢٣ المؤمنون

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ ٢٣ المؤمنون

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ٢٣ المؤمنون

يموت (وكنتم تراباً وعظاما) نخرة مجردة عن اللحوم والأعصاب أى كان بعض أجزائكم من اللحم ونظائره
تراباً وبعضها عظاماً وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية أو كان متقدموكم تراباً
صرفا ومتأخروكم عظاما وقوله تعالى (أنكم) تأكيد الأول لطول الفصل بينه وبين خبره الذى هو قوله
تعالى (مخرجون) أى من القبور أحياء كما كنتم وقيل أنكم مخرجون مبتدأ وإذا متم خبره على معنى إخراجكم إذا
متم ثم أخبر بالجملة عن أنكم وقيل رفع أنكم مخرجون بفعل هو جزاء الشرط كأنه قيل إذا متم وقع إخراجكم
ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن أنكم والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو الأول وقرىء أيعدكم
٣٦ إذا متم الخ (هيهات هيهات) تكرير لتأكيد البعد أى بعد الوقوع أو الصحة (لما توعدون) وقيل اللام
لبيان المستبعد ما هو كما فى هيت لك كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لماذا هذا الاستبعاد فقيل
لما توعدون وقيل هيهات بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره لما توعدون وقرىء بالفتح منوناً للتنكير وبالضم
منوناً على أنه جمع هيهة وغير منون تشبيهاً بقبل وبالكسر على الوجهين وبالسكون على لفظ الوقف
٣٧ وإبدال التاء هاء (إن هى إلا حياتنا الدنيا) أصله إن الحياة إلا حياتنا فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة
الثانية عليها حذراً من التكرار وإشعاراً بإغنائها عن التصريح كما فى هى النفس تتحمل ما حملت وهى
العرب تقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على الجنس كانت إن النافية بمنزلة لا النافية
للجنس وقوله تعالى (نموت ونحيا) جملة مفسرة لما ادعوه من أن الحياة هى الحياة الدنيا أى يموت بعضنا
٣٨ ويولد بعض إلى انقراض العصر (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت (إن هو) أى ما هو (إلا رجل افترى
على الله كذباً) فيما يدعيه من إرساله وفيما يعدنا من أن الله يبعثنا (وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين فيما يقوله
٣٩ (قال) أى هود عليه السلام عند يأسه من إيمانهم بعد ما سلك فى دعوتهم كل مسلك متضرعا إلى الله عز
وجل (رب انصرنى) عليهم وانتقم لى منهم (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم إياى وإصرارهم عليه
٤٠ (قال) تعالى إجابة لدعائه وعدة بالقبول (عما قليل) أى عن زمان قليل وما مزيدة بين الجار والمجرور
لتأكيد معنى القلة كما زيدت فى قوله تعالى فبما رحمة من الله أو نكرة موصوفة أى عن شىء قليل (ليصبحن
٤١ نادمين) على ما فعلوه من التكذيب وذلك عند معاينتهم للعذاب (فأخذتهم الصيحة) لعلهم حين أصابتهم

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ٢٣ المؤمنون

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ٢٣ المؤمنون

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ٢٣ المؤمنون

الريح العقيم أصيبوا فى تضاعيفها بصيحة هائلة أيضاً وقد روى أن شداد بن عاد حين أتم بناء إرم سار إليها
بأهله فلما دنا منها بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا وقيل الصيحة نفس العذاب والموت وقيل
هى العذاب المصطلم قال قائلهم [صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الأذقان] (بالحق)
متعلق بالأخذ أى بالأمر الثابت الذى لا دفاع له أو بالعدل من الله تعالى أو بالوعد الصدق (فجعلناهم
غثاء) أى كغثاء السيل وهو حميله (فبعداً للقوم الظالمين) إخبار أو دعاء وبعداً من المصادر التى لا يكاد
يستعمل ناصبها والمعنى بعدوا بعداً أى هلكوا واللام لبيان من قيل له بعداً ووضع الظاهر موضع الضمير
للتعليل (ثم أنشأنا من بعدهم) أى بعد هلاكهم (قروناً آخرين) هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام ٤٢
وغيرهم (ما تسبق من أمة أجلها) أى ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة الوقت الذى عين لهلاكهم أى ما تهلك ٤٣
أمة قبل مجىء أجلها (وما يستأخرون) ذلك الأجل بساعة وقوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا) عطف على ٤٤
أنشأنا لكن لا على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعاً بل على معنى أن إرسال كل
رسول متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول كأنه قيل ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين قد
أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصاً به والفصل بين المعطوفين بالجملة المعترضة الناطقة بعدم تقدم الأمم
أجلها المضروب لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجه إجمالى (تترى) أى متواترين واحداً بعد *
واحد من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو كما فى تولج ويتقوا والألف للتأنيث باعتبار أن الرسل
جماعة وقرىء بالتنوين على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا وقوله تعالى (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) *
استئناف مبين لمجىء كل رسول لأمته ولما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة والمراد بالمجىء إما التبليغ وإما
حقيقة المجىء للإيذان بأنهم كذبوه فى أول الملاقاة وإضافة الرسول إلى الأمة مع إضافة كلهم فيما سبق إلى
نون العظمة لتحقيق أن كل رسول جاء أمته الخاصة به لا أن كلهم جاءوا كل الأمم والإشعار بكمال شناعتهم
وضلالهم حيث كذبت كل واحدة منهم رسولها المعين لها وقيل لأن الإرسال لائق بالمرسل والمجىء
بالمرسل إليهم (فأتبعنا بعضهم بعضاً) فى الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضاً فى مباشرة أسبابه التى هى الكفر *
والتكذيب وسائر المعاصى (وجعلناهم أحاديث) لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون وهو اسم
جمع للحديث أو جمع أحدوثة وهى ما يتحدث به تلهياً كأعاجيب جمع أعجوبة وهى ما يتعجب منه أى جعلناهم
أحاديث يتحدث بها تلهياً وتعجباً (فبعداً لقوم لا يؤمنون) اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما *

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ٢٣ المؤمنون

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ٢٣ المؤمنون

فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ٢٣ المؤمنون

اقتصر على حكاية تكذيبهم إجمالا وأما القرون الأولون فحيث نقل عنهم مامر من الغلو وتجاوز الحد
٤٥ فى الكفر والعدوان وصفوا بالظلم (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) هى الآيات التسع من اليد
والعصا والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون ولا مساغ لعد فلق البحر منها إذ
المراد هى الآيات التى كذبوها واستكبروا عنها (وسلطان مبين) أى حجة واضحة ملزمة للخصم وهى
إما العصا وإفرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات لما أنها أم آياته عليه الصلاة والسلام وأولاها وقد
تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها ثعباناً وتلقفها لما أفكته السحرة حسبما فصل فى تفسير سورة طه
وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وحراستها وصيرورتها شمعة وشجرة
خضراء مثمرة ودلوا ورشاء وغير ذلك مما ظهر منها من قبل ومن بعد فى غير مشهد فرعون وقومه فغير
ملائم لمقتضى المقام وإما نفس الآيات كقوله إلى الملك القرم وابن الهمام الخ عبر عنها بذلك على طريقة
٤٦ العطف تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين وتنزيلا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتى (إلى فرعون وملئه) أى
أشراف قومه خصوا بالذكر لأن إرسال بنى إسرائيل منوط بآرائهم لا بآراء أعقابهم (فاستكبروا)
٤٧ عن الانقياد وتمردوا (وكانوا قوماً عالين) متكبرين متمردين (فقالوا) عطف على استكبروا وما بينهما
اعتراض مقرر للاستكبار أى كانوا قوما عادتهم الاستكبار والتمرد أى قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة
* (أنؤمن لبشرين مثلنا) ثنى البشر لأنه يطلق على الواحد كقوله تعالى بشراً سوياً كما يطلق على الجمع كما فى
قوله تعالى فإما ترين من البشر أحداً ولم يثن المثل نظراً إلى كونه فى حكم المصدر وهذه القصص كما ترى تدل
على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون
الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها فى مراقى الكمال ومهاوى النقصان بحيث يكون بعضها فى أعلى عليين
وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحانى
والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب
الحق وبعضها فى أسفل سافلين كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا (وقومهما) يعنون بنى
إسرائيل (لنا عابدون) أى خادمون منقادون لنا كالعبيد وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما
الصلاة والسلام وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام فى لنا متعلقة
بعابدون قدمت عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل نؤمن مؤكدة لإنكار الإيمان لهما بناء على زعمهم
الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ

فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ٢٣ المؤمنون

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ٢٣ المؤمنون

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ٢٣ المؤمنون

الدنية من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وقالوا لولا نزل هذا القرآن
على رجل من القريتين عظيم وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة ما ذكر من النعوت
العلية وإحراز الملكات السنية جبلة وا كتساباً (فكذبوهما) أى فتموا على تكذيبهما وأصروا واستكبروا ٤٨
استكباراً (فكانوا من المهلكين) بالغرق فى بحر قلزم (ولقد آتينا) أى بعد إهلاكهم وإنجاء بنى إسرائيل ٤٩
من ملكتهم (موسى الكتاب) أى التوراة وحيث كان إيتاؤه عليه الصلاة والسلام إياها لإرشاد قومه
إلى الحق كما هو شأن الكتب الإلهية جعلوا كأنهم أوتوها فقيل (لعلهم يهتدون) أى إلى طريق الحق
بالعمل بما فيها من الشرائع والأحكام وقيل أريد آتينا قوم موسى لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه
مقامه كما فى قوله تعالى على خوف من فرعون وملئهم أى من آل فرعون وملئهم ولا سبيل إلى عود
الضمير إلى فرعون وقومه لظهور أن التوراة إنما نزلت بعد إغراقهم لبنى إسرائيل وأما الاستشهاد على ذلك
بقوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى فمما لا سبيل إليه ضرورة أن ليس
المراد بالقرون الأولى ما يتناول قوم فرعون بل من قبلهم من الأمم المهلكة خاصة كقوم نوح وقوم هود
وقوم صالح وقوم لوط كما سيأتى فى سورة القصص (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) وأية آية دالة على عظيم ٥٠
قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد نسب إليهما أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم
فى المهد فظهرت منه معجزات جمة وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس لحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها
والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين وهما كونه عليه الصلاة والسلام ابنها وكونها أمه عليه الصلاة
والسلام للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية فإن نسبته عليه الصلاة والسلام إليها مع أن النسب
إلى الآباء دالة على أن لا أب له أى جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمه التى ولدته خاصة
من غير مشاركة الأب آية وتقديمه عليه الصلاة والسلام لأصالته فيما ذكر من كونه آية كما أن تقديم أمه
فى قوله تعالى وجعلناها وابنها آية للعالمين لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ (وآويناهما إلى
ربوة) أى أرض مرتفعة قيل هى أيليا أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة وأنها كبد الأرض وأقرب
الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا على ما يروى عن كعب وقيل دمشق وغوطتها وقيل فلسطين والرملة
وقيل مصر فإن قراها على الربا وقرىء بكسر الراء وضمها ورباوة بالكسر والضم (ذات قرار) مستقر
من أرض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها وقيل ذات ثمار وزروع لأجلها يستقر فيها ساكنوها
(ومعين) أى وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الإبعاد فى المشى أو من الماعون

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ٢٣ المؤمنون

وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) ٢٣ المؤمنون

وهو النفع لأنه نفاع أو مفعول من عانه إذا أدركه بالعين فإنه لظهوره يدرك بالعيون وصف ماؤها بذلك للإيذان بكونه جامعاً لفنون المنافع من الشرب وسقى مايسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة والتنزه
٥١ بمنظره المونق (يأيها الرسل كلوا من الطيبات) حكاية لرسول الله ﷺ على وجه الإجمال لما خوطب به كل رسول فى عصره جىء بها إثر حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمه إلى الربوة إيذاناً بأن ترتيب مبادى التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل إباحة الطيبات شرع قديم جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووصوا به أى وقلنا لكل رسول كل من الطيبات واعمل صالحاً فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالا للإيجاز وفيه من الدلالة على بطلان ماعليه الرهابنة من رفض الطيبات مالا يخفى وقيل حكاية لما ذكر لعيسى عليه السلام وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول مارزقا وقيل نداء وخطاب له والجمع للتعظيم وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبى رحمهم الله تعالى أنه خطاب لرسول الله ﷺ وحده على دأب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه إبانة لفضله وقيامه مقام الكل فى حيازة كمالاتهم والطيبات مايستطاب ويستلذ من مباحات المأكل والفواكه حسبما ينبىء عنه سياق النظم الكريم فالأمر للترفيه (واعملوا صالحاً) أى عملا صالحاً فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم (إنى بما تعملون) من الأعمال الظاهرة والباطنة (عليم) فأجازيكم عليه
٥٢ (وإن هذه) استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور مسوق لبيان أن ملة الإسلام والتوحيد مما أمر به كافة الرسل عليهم السلام والأمم وإنما أشير إليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة (أمتكم) أى ملتكم وشريعتكم أيها الرسل (أمة واحدة) أى ملة وشريعة متحدة فى أصول الشرائع التى لا تتبدل بتبدل الأعصار وقيل هذه إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل والمعنى إن هذه جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد فى العبادة (وأنا ربكم) من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية وضمير المخاطب فيه وفى قوله تعالى (فاتقون) أى فى شق العصا والمخالفة بالإخلال بمواجب ماذكر من اختصاص الربوبية بى للرسل والأمم جميعاً على أن الأمر فى حق الرسل للتهييج والإلهاب وفى حق الأمم للتحذير والإيجاب والفاء لترتيب الأمر أو وجوب الامتثال به على ماقبله من اختصاص الربوبية به تعالى واتحاد الأمة فإن كلا منهما موجب للاتقاء حتماً وقرىء وأن هذه بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون أى إن تتقون فاتقون كما فى قوله تعالى وإياى فارهبون وقيل على العطف على ما أى إنى عليم بأن أمتكم أمة الخ وقيل على حذف فعل عامل فيه أى واعلموا أن هذه أمتكم الخ وقرىء وإن هذه على أنها مخففة من إن .

فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ٢٣ المؤمنون

فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ٢٣ المؤمنون

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ٢٣ المؤمنون

نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ٢٣ المؤمنون

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ٢٣ المؤمنون

---

٥٣ (فتقطعوا أمرهم) حكاية لما ظهر من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر وشق العصا والضمير لما دل عليه
الأمة من أربابها أو لها على التفسيرين والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم أى تقطعوا
أمر دينهم مع اتحاده وجعلوه قطعاً متفرقة وأديانا مختلفة (بينهم زبراً) أى قطعاً جمع زبور بمعنى الفرقة
ويؤيده قراءة زبراً بفتح الباء جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من واو تقطعوا أو مفعول ثان له فإنه
متضمن لمعنى جعلوا وقيل كتباً فيكون مفعولا ثانياً أو حالا من أمرهم على تقدير المضاف أى مثل زبر
وقرىء بتخفيف الباء كرسل فى رسل (كل حزب) من أولئك المتحزبين (بما لديهم) من الدين الذى
٥٤ اختاروه (فرحون) معجبون معتقدون أنه الحق (فذرهم فى غمرتهم) شبه ماهم فيه من الجهالة بالماء الذى
يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها لاعبون بها وقرىء غمراتهم والخطاب لرسول الله ﷺ والفاء
لترتيب الأمر بالترك على ماقبله من كونهم فرحين بما لديهم فإن انهماكهم فيما هم فيه وإصرارهم عليه من
مخايل كونهم مطبوعا على قلوبهم أى اتركهم على حالهم (حتى حين) هو حين قتلهم أو موتهم على الكفر
أو عذابهم فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة وتسلية لرسول الله ﷺ ونهى له عن الاستعجال
٥٥ بعذابهم والجزع من تأخيره وفى التنكير والإبهام مالا يخفى من التهويل (أيحسبون أنما نمدهم به) أى
نعطيهم إياه ونجعله مدداً لهم فما موصولة وقوله تعالى (من مال وبنين) بيان لها وتقديم المال على البنين
٥٦ مع كونهم أعز منه قد مر وجهه فى سورة الكهف لاخبر لأن وإنما الخبر قوله تعالى (نسارع لهم فى
الخيرات) على حذف الراجع إلى الاسم أى أيحسبون أن الذى نمدهم به من المال والبنين نسارع به لهم فيما
فيه خيرهم وإكرامهم على أن الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وقوله تعالى (بل لا يشعرون) عطف
على مقدر ينسحب عليه الكلام أى كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشىء أصلا كالبهائم لا فطنة لهم ولا
شعور ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم واستجرار إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة
لهم فى الخيرات وقرىء يمدهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل أن يكون فيهما ضمير الممد به وقرىء
٥٧ يسارع مبنياً للمفعول (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) استئناف مسوق لبيان من له المسارعة
فى الخيرات إثر إقناط الكفار عنها وإبطال حسبانهم الكاذب أى من خوف عذابه حذرون .

وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ٢٣ المؤمنون

وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ٢٣ المؤمنون

وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ٢٣ المؤمنون

أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ٢٣ المؤمنون

٥٨ ٥٩ (والذين هم بآيات ربهم) المنصوبة والمنزلة (يؤمنون) بتصديق مدلولها (والذين هم بربهم لا يشركون)
شركا جلياً ولا خفياً ولذلك أخر عن الإيمان بالآيات والتعرض لعنوان الربوبيـة فى المواقع الثلاثة
٦٠ للإشعار بعليتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك (والذين يؤتون ما آتوا) أى يعطون ما أعطوه من
الصدقات وقرىء يأتون ما أتوا أى يفعلون مافعلوه من الطاعات وأياً ما كان فصيغة الماضى فى الصلة
الثانية للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع فى الأولى للدلالة عن الاستمرار (وقلوبهم وجلة) حال
من فاعل يؤتون أو يأتون أى يؤتون ما آتوه أو يفعلون من العبادات مافعلوه والحال أن قلوبهم خائفة
أشد الخوف (أنهم إلى ربهم راجعون) أى من أن رجوعهم إليه عز وجل على أن مناط الوجل أن
لا يقبل منهم ذلك وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به حينئذ لا لمجرد رجوعهم إليه تعالى وقيل
لأن مرجعهم إليه تعالى والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر فى حيز صلاتها
من الأوصاف الأربعة لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة كأنه قيل
إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون وبآيات ربهم يؤمنون الخ وإنما كرر الموصول إيذاناً باستقلال
كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف
٦١ بها (أولئك) إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بها وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبتهم فى الفضل أى
أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون غيرهم (يسارعون فى الخيرات) أى فى نيل
الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة كما فى قوله تعالى فآتاهم الله
ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وقوله تعالى وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين فقد
أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم خلا أنه غير الأسلوب حيث لم يقل أولئك نسارع لهم فى الخيرات بل أسند
المسارعة إليهم إيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم وإيثار كلمة فى على كلمة إلى للإيذان
بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة فى قوله تعالى
كما وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة الآية (وهم لها سابقون) أى إياها سابقون واللام لتقوية العمل كما
فى قوله تعالى هم لها عاملون أى ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا وقيل المراد بالخيرات الطاعات
والمعنى يرغبون فى الطاعات والعبادات أشد الرغبة وهم لأجلها سابقون فاعلون السبق أو لأجلها الناس

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ٢٣ المؤمنون

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ٢٣ المؤمنون

٦٢ والأول هو الأولى (ولا نكلف نفساً إلا وسعها) جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به
السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع
والطاقة أى عادتنا جارية على أن لا نكلف نفساً من النفوس إلا ما فى وسعها على أن المراد استمرار النفى بمعونة
المقام لا نفى الاستمرار كما مر مراراً أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان
أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما فى وسعهم فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد
أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم قال مقاتل من لم يستطع القيام فليصل قاعداً ومن لم يستطع القعود
* فليوم إيماء وقوله تعالى (ولدينا كتاب) الخ تتمة لما قبله ببيان أحوال ما كلفوه من الأعمال وأحكامها
المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب والمراد بالكتاب صحائف الأعمال التى يقرءونها عند الحساب
* حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ينطق بالحق) كقوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ
ما كنتم تعملون أى عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هى عليه أو أعمال السابقين والمقتصدين
جميعاً لا أنه أثبت فيه أعمال الأولين وأهمل أعمال الآخرين ففيه قطع معذرتهم أيضاً وقوله بالحق متعلق
بينطق أى يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتاً ووصفاً ويبينه للناظر كما يبينه النطق ويظهره للسامع
* فيظهر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها ويرتب عليها أجزيتها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وقوله تعالى (وهم
لا يظلمون) بيان لفضله تعالى وعدله فى الجزاء إثر بيان لطفه فى التكليف وكتب الأعمال أى لا يظلمون
فى الجزاء بنقص ثواب أو بزيادة عذاب بل يجزون بقدر أعمالهم التى كلفوها ونطقت بها صحائفها بالحق
وقد جوز أن يكون تقريراً لما قبله من التكليف وكتب الأعمال أى لا يظلمون بتكليف ما ليس فى وسعهم
ولا بعدم كتب بعض أعمالهم التى من جملتها أعمال المقتصدين بناء على قصورها عن درجة أعمال السابقين
بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها والتعبير عما ذكر من الأمور بالظلم مع أن شيئاً منها ليس بظلم
على ما تقرر من أن الأعمال الصالحة لا توجب أصل الثواب فضلا عن إيجاب مرتبة معينة منه حتى تعد
الإثابة بما دونها نقصاً وكذلك الأعمال السيئة لا توجب درجة معينة من العذاب حتى يعد التعذيب بما
فوقها زيادة وكذا تكليف ما فى الوسع وكتب الأعمال ليسا مما يجب عليه سبحانه حتى يعد تركهما ظلماً
لكمال تنزيه ساحة السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتها باسمه وقوله
٦٣ تعالى (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) إضراب عما قبله والضمير للكفرة لا للكل كما قبله أى بل قلوب
الكفرة فى غفلة غامرة لها من هذا الذى بين فى القرآن من أن لديه تعالى كتاباً ينطق بالحق ويظهر لهم
أعمالهم السيئة على رءوس الأشهاد فيجزون بها كما ينبىء عنه ما سيأتى من قوله تعالى قد كانت آياتى تتلى
عليكم الخ وقيل مما عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة (ولهم أعمال) سيئة كثيرة (من دون ذلك)

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ٢٣ المؤمنون

لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ٢٣ المؤمنون

قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ٢٣ المؤمنون

الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة مما ذكر وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ماسيأتى من طعنهم فى القرآن حسبما ينبىء عنه قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون وقيل متخطية لما وصف به المؤمنون من الأعمال الصالحة المذكورة وفيه أنه لا مزية فى وصف أعمالهم الخبيثة بالتخطى للأعمال الحسنة للمؤمنين وقيل متخطية عما هم عليه من الشرك ولا يخفى بعده لعدم جريان ذكره (هم لها عاملون)
٦٤ مستمرون عليها معتادون فعلها ضارون بها لا يكادون يبرحونها (حتى إذا أخذنا مترفيهم) أى متنعميهم وهم الذين أمدهم الله تعالى بما ذكر من المال والبنين وحتى مع كونها غاية لأعمالهم المذكورة مبدأ لما بعدها من مضمون الشرطية أى لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا رؤساءهم (بالعذاب) قيل هو القتل والأسر يوم بدر وقيل هو الجوع الذى أصابهم حين دعا عليهم رسول الله ﷺ بقوله اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والأولاد والحق أنه العذاب الأخروى إذ هو الذى يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط عن النصر وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبىء عنه قوله تعالى ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون فإن المراد بهذا العذاب ماجرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتما وأما عذاب الجوع فإن أبا سفيان وإن تضرع فيه إلى رسول الله ﷺ لكن لم يرد عليه بالإقناط حيث روى أنه ﷺ قد دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك (إذا هم يجأرون) أى فاجئوا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل كقوله تعالى فإليه تجأرون وهو جواب الشرط وتخصيص مترفيهم بما ذكر من الأخذ بالعذاب ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم أيضاً لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم وكون ذلك أشق عليهم ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم حين لقوا
٦٥ مالقوا من الحالة الفظيعة فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم (لا تجأروا اليوم) على إضمار القول مسوقا لردهم وتبكيتهم وإقناطهم مما علقوا به أطماعهم الفارغة من الإغاثة والإعانة من جهته تعالى وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار وقد جوز كونه جواب الشرط وأنت خبير بأن المقصود الأصلى فى الجملة الشرطية هو الجواب فيؤدى ذلك إلى أن يكون مفاجأتهم إلى الجؤار غير مقصود أصلى وقوله تعالى (إنكم منا لا تنصرون) تعليل للنهى عن الجؤار ببيان عدم إفادته ونفعه أى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تنجيكم مما دهمكم وقيل لا تغاثون ولا تمنعون منا ولا يساعده سباق النظم الكريم لأن جؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله ولا سياقه فإن
٦٦ قوله تعالى (قد كانت آياتى تتلى عليكم) الخ صريح فى أنه تعليل لما ذكرنا من عدم لحوق النصر من جهته

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ٢٣ المؤمنون

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ٢٣ المؤمنون

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ٢٣ المؤمنون

تعالى بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفى متوهما من الغير لعلل بعجزه وذلة أو بعزة الله تعالى
وقوته أى قد كانت آياتى تتلى عليكم فى الدنيا (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى تعرضون عن سماعها
أشد الإعراض فضلا عن تصديقها والعمل بها والنكوص الرجوع قهقرى (مستكبرين به) أى بالبيت ٦٧
الحرام أو بالحرم والإضمار قبل الذكر لاشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدامه وقوامه أو بكتابى
الذى عبر عنه بآياتى على تضمين الاستكبار معنى التكذيب أو لأن استكبارهم على المسلمين قد حدث
بسبب استماعه ويجوز أن تتعلق الباء بقوله تعالى (سامراً) أى تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه حيث
كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً
والسامر كالحاضر فى الإطلاق على الجمع وقيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل وقرىء سمراً وسماراً وأن
تتعلق بقوله تعالى (تهجرون) من الهجر بالفتح بمعنى الهذيان أو الترك أى تهذون فى شأن القرآن أو
تتركونه أو من الهجر بالضم وهو الفحش ويؤيده قراءة تهجرون من أهجر فى منطقه إذا فحش فيه وقرىء
تهجرون من هجر الذى هو مبالغة فى هجر إذا هذى (أفلم يدبروا القول) الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه ٦٨
والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم
يتدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم وصحة المدلول والإخبار عن الغيب أنه الحق من ربهم
فيؤمنوا به فضلا عما فعلوا فى شأنه من القبائح وأم فى قوله تعالى (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين)
منقطعة وما فيها من معنى بل للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر والهمزة لإنكار
الوقوع لا لإنكار الواقع أى بل أجاءهم من الكتاب مالم يأت آباءهم الأولين حتى استبدعوه واستبعدوه
فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال يعنى أن مجىء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام
سنة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنى إنكاره وأن مجىء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه وقيل أم جاءهم
من الأمن من عذابه تعالى مالم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل عليه السلام وأعقابه من عدنان وقحطان
ومضر وربيعة وقس والحرث بن كعب وأسد بن خزيمة وتميم بن مرة وتبع وضبة بن أد فآمنوا به تعالى
وبكتبه ورسله وأطاعوه (أم لم يعرفوا رسولهم) إضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه ٦٩
آخر والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً أى بل ألم يعرفوه ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكمال
العلم مع عدم التعلم من أحد وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام (فهم له منكرون)
أى جاحدون بنبوته لجحودهم بها مترتب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام ومن ضرورة انتفاء المبنى
بطلان ما بنى عليه أى فهم غير عارفين له عليه السلام فهو تأكيد لما قبله .

أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ٢٣ المؤمنون

وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ٢٣ المؤمنون

٧٠ (أم يقولون به جنة) انتقال إلى توبيخ آخر والهمزة لإنكار الواقع كالأولى أى بل أيقولون به جنة أى جنون مع أنه أرجح الناس عقلا وأثقبهم ذهناً وأتقنهم رأياً وأوفرهم رزانة واقدر وعى فى هذه التوبيخات الأربعة التى اثنان منها متعلقان بالقرآن والباقيان به ﷺ الترقى من الأدنى إلى الأعلى حيث وبخوا أولا بعدم التدبر وذلك يتحقق مع كون القول غير متعرض له بوجه من الوجوه ثم وبخوا بشىء لو اتصف به القول لكان سبباً لعدم تصديقهم به ثم وبخوا بما يتعلق بالرسول ﷺ من عدم معرفتهم به ﷺ وذلك يتحقق بعدم المعرفة بخير ولا شر ثم بما لو كان فيه ﷺ ذلك لقدح فى رسالته ﷺ (بل جاءهم بالحق) إضراب عما يدل عليه ما سبق أى ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن والرسول ﷺ بل جاءهم ﷺ بالحق أى الصدق الثابت الذى لا محيد عنه أصلا ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه (وأكثرهم للحق) من حيث هو حق أى حق كان لا لهذا الحق فقط كما ينبىء عنه الإظهار فى موقع الإضمار (كارهون) لما فى جبلتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلج وزاغوا عن الطريق الأنهج وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف لا يقتضى إلا عدم كراهة الباقين لكل حق من الحقوق وذلك لا ينافى كراهتهم لهذا الحق المبين فتأمل وقيل تقييد الحكم بالأكثر لأن منهم من ترك الإيمان استنكافا من توبيخ قومه أو لقلة فطنته وعدم تفكره لا لكراهته الحق وأنت خبير بأن التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق مع اتفاق الكل على الكفر به مما

٧١ لا يساعده المقام أصلا (ولو اتبع الحق أهواءهم) استئناف مسوق لبيان أن أهواءهم الزائغة التى ما كرهوا الحق إلا لعدم موافقته إياها مقتضية للطامة أى لو كان ما كرهوه من الحق الذى من جملته ما جاء به ﷺ موافقاً لأهوائهم الباطلة (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية لأن مناط النظام ليس إلا ذلك وفيه من تنويه شأن الحق والتنبيه على سمو مكانه مالا يخفى وأما ماقيل لو اتبع الحق الذى جاء به ﷺ أهواءهم وانقلب شركا لجاء الله تعالى بالقيامة ولأهلك العالم ولم يؤخر ففيه أنه لا يلائم فرض مجيئه ﷺ به وكذا ماقيل لو كان فى الواقع إلهان لا يناسب المقام وأما ماقيل لو اتبع الحق أهواءهم لخرج عن الإلهية فمالا احتمال له أصلا (بل آتيناهم بذكرهم) انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق الذى به يقوم العالم إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خيرها والمراد بالذكر القرآن الذى هو فخرهم وشرفهم حسبما ينطق به قوله تعالى وإنه لذكر لك ولقومك أى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال (فهم) بما فعلوه من النكوص (عن ذكرهم) أى فخرهم وشرفهم خاصة (معرضون) لا عن غير ذلك مما لا يوجب الإقبال عليه والاعتناء به وفى وضع الظاهر موضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريع والفاء لترتيب ما بعدها من إعراضهم عن ذكرهم

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ ٢٣ المؤمنون

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ ٢٣ المؤمنون

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ٢٣ المؤمنون

وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ٢٣ المؤمنون

على ماقبلها من إيتاء ذكرهم لا لترتيب الإعراض على الإيتاء مطلقاً فإن المستتبع لكون إعراضهم إعراضاً
عن ذكرهم هو إيتاء ذكرهم لا الإيتاء مطلقاً وفى إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة بعد إسناده إلى
ضميره ﷺ تنويه لشأن النبى ﷺ وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل وفى إيراد القرآن الكريم عند
نسبته إليه ﷺ بعنوان الحقية وعند نسبته إليه تعالى بعنوان الذكر من النكتة السرية والحكمة العبقرية
مالا يخفى فإن التصريح بحقيته المستلزمة لحقية من جاء به هو الذى يقتضيه مقام حكاية ماقاله المبطلون فى
شأنه وأما التشريف فإنما يليق به تعالى لاسيما رسول الله ﷺ أحد المشرفين وقيل المراد بالذكر ماتمنوه
بقولهم لو أن عندنا ذكراً من الأولين وقيل وعظهم وأيد ذلك بأنه قرىء بذكراهم والتشنيع على الأولين
أشد فإن الإعراض عن وعظهم ليس فى مثابة إعراضهم عن شرفهم أو عن ذكرهم الذى يتمنونه فى
٧٢ الشناعة والقباحة (أم تسألهم) انتقال من توبيخهم بما ذكر من قوله أم يقولون به جنة إلى التوبيخ بوجه
آخر كأنه قيل أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة (خرجا) أى جعلا لأجل ذلك لايؤمنون بك
وقوله تعالى (فخراج ربك خير) أى رزقه فى الدنيا وثوابه فى الآخرة تعليل لنفى السؤال المستفاد من
الإنكار أى لاتسألهم ذلك فإن مارزقك الله تعالى فى الدنيا والعقبى خير لك من ذلك وفى التعرض لعنوان
الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تعليل الحكم وتشريفه ﷺ مالا يخفى والخرج بإزاء الدخل
يقال لكل ماتخرجه إلى غيرك والخراج غالب فى الضريبة على الأرض وقيل الخرج ماتبرعت به والخراج
مالزمك وقيل الخرج أخص من الخراج ففى النظم الكريم إشعار بالكثرة واللزوم وقرىء خرجا فخرج
٧٣ وخراجا فخراج (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه تعالى (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم)
تشهد العقول السليمة باستقامته ليس فيه شائبة اعوجاج توهم اتهامهم لك بوجه من الوجوه ولقد ألزمهم
الله عز وعلا وأزاح عللهم فى هذه الآيات حيث حصر أقسام مايؤدى إلى الإنكار والاتهام وبين انتفاء
٧٤ ماعدا كراهتهم للحق وقلة فطنتهم (وإن الذين لايؤمنون بالآخرة) وصفوا بذلك تشنيعاً لهم بما هم
عليه من الانهماك فى الدنيا وزعمهم أن لاحياة إلا الحياة الدنيا وإشعاراً بعلة الحكم فإن الإيمان بالآخرة
وخوف مافيها من الدواهى من أقوى الدواعى إلى طلب الحق وسلوك سبيله (عن الصراط) أى عن
جنس الصراط (لناكبون) لعادلون فضلا عن الصراط المستقيم أو عن الصراط المستقيم الذى تدعوهم
إليه والأول أدل على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم لما أنه ينبىء عن كون ماذهبوا إليه مما لايطلق عليه اسم
٧٥ الصراط ولو كان معوجا (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر) أى قحط وجدب (للجوا) لتمادوا (فى

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ٢٣ المؤمنون

حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ٢٣ المؤمنون

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) ٢٣ المؤمنون

طغيانهم) إفراطهم فى الكفر والاستكبار وعداوة الرسول ﷺ والمؤمنين (يعمهون) أى عامهين عن الهدى روى أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفى ولحق باليمامة ومنع الميرة عن أهل مكة وأخذهم الله تعالى بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين قال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت والمعنى لو كشفنا عنهم ما أصابهم من القحط والهزال برحمتنا إياهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الإفراط فى الكفر والاستكبار ولذهب عنهم هذا التملق والإبلاس وقد كان كذلك وقوله تعالى

٧٦ (ولقد أخذناهم بالعذاب) استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون الشرطية والمراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر وما أصابهم من فنون العذاب التى من جملتها القحط المذكور واللام جواب قسم محذوف أى وبالله لقد أخذناهم بالعذاب (فما استكانوا لربهم) بذلك أى لم يخضعوا ولم يتذللوا على أنه إما استفعال من الكون لأن الخاضع ينتقل من كون إلى كون أو افتعال من السكون قد أشبعت فتحته كمنتزاح فى منتزح بل أقاموا على ما كانوا عليه من العتو والاستكبار وقوله تعالى (وما يتضرعون)

٧٧ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى وليس من عادتهم التضرع إليه تعالى (حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد) هو عذاب الآخرة كما ينبىء عنه التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة وقرىء فتحنا بالتشديد (إذا هم فيه مبلسون) أى متحيرون آيسون من كل خير أى محناهم بكل محنة من القتل والأسر والجوع وغير ذلك فما روى منهم لين مقادة وتوجه إلى الإسلام قط وأما ما أظهره أبو سفيان فليس من الاستكانة له تعالى والتضرع إليه تعالى فى شىء وإنما هو نوع خنوع إلى أن يتم غرضه فحاله كما قيل إذا جاع ضغا وإذا شبع طغا وأكثرهم مستمرون على ذلك إلى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذ يبلسون وقيل المراد بالباب الجوع فإنه أشد وأعم من القتل والأسر والمعنى أخذناهم أولا بما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجد منهم تضرع واستكانة حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذى هو أطم وأتم فأبلسوا الساعة

٧٨ وخضعت رقابهم وجاءك أعتاهم وأشدهم شكيمة فى العناد يستعطفك والوجه هو الأول (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار) لتشاهدوا بها الآيات التنزيلية والتكوينية (والأفئدة) لتتفكروا بها ما تشاهدونه وتعتبروا اعتباراً لائقاً (قليلا ما تشكرون) أى شكراً قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لما أن العمدة فى الشكر صرف تلك القوى التى هى فى أنفسها نعم باهرة إلى ما خلقت هى له وأنتم تخلون بذلك إخلالا عظيما .

وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ٢٣ المؤمنون

وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ٢٣ المؤمنون

بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ٢٣ المؤمنون

قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ٢٣ المؤمنون

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ٢٣ المؤمنون

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ٢٣ المؤمنون

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ٢٣ المؤمنون

(وهو الذى ذرأكم فى الأرض) أى خلقكم وبثكم فيها بالتناسل (وإليه تحشرون) أى تجمعون يوم ٧٩
القيامة بعد تفرقكم لا إلى غيره فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه (وهو الذى يحيى ويميت) من غير ٨٠
أن يشاركه فى ذلك شىء من الأشياء (وله) خاصة (اختلاف الليل والنهار) أى هو المؤثر فى اختلافهما
أى تعاقبهما أو اختلافهما ازدياداً أو انتقاصاً أو لأمره وقضائه اختلافهما (أفلا تعقلون) أى ألا تتفكرون
فلا تعقلون أو أتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات التى
من جملتها البعث وقرىء يعقلون على أن الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطبين لغيرهم وقيل
على أن الخطاب الأول لتغليب المؤمنين وليس بذاك (بل قالوا) عطف على مضمر يقتضيه المقام أى فلم ٨١
يعقلوا بل قالوا (مثل ما قال الأولون) أى آباؤهم ومن دان بدينهم (قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاما ٨٢
أئنا لمبعوثون) تفسير لما قبله من المبهم وتفصيل لما فيه من الإجمال وقد مر الكلام فيه (لقد وعدنا نحن ٨٣
وآباؤنا هذا) أى البعث (من قبل) متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم أى ووعد آباؤنا
من قبل أو بمحذوف وقع حالا من آباؤنا أى كائنين من قبل (إن هذا) أى ما هذا (إلا أساطير الأولين)
أى أكاذيبهم التى سطروها جمع أسطورة كأحدوثة وأعجوبة وقيل جمع أسطار جمع سطر (قل لمن الأرض ٨٤
ومن فيها) من المخلوقات تغليباً للعقلاء على غيرهم (إن كنتم تعلمون) جوابه محذوف ثقة بدلالة الاستفهام
عليه أى إن كنتم تعلمون شيئاً ما فأخبرونى به فإن ذلك كاف فى الجواب وفيه من المبالغة فى وضوح الأمر
وفى تجهيلهم ما لا يخفى أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبرونى وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم ولذلك أخبر
بجوابهم قبل أن يجيبوا حيث قيل (سيقولون لله) لأن بديهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه تعالى ٨٥
خالقها (قل) أى عند اعترافهم بذلك تبكيتاً لهم (أفلا تذكرون) أى أتعلمون ذلك أو أتقولون ذلك
فلا تتذكرون أن من فطر الأرض وما فيها ابتداء قادر على إعادتها ثانياً فإن البدء ليس بأهون من الإعادة

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ٢٣ المؤمنون

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ٢٣ المؤمنون

قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ٢٣ المؤمنون

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ٢٣ المؤمنون

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ٢٣ المؤمنون

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ٢٣ المؤمنون

---

٨٦ بل الأمر بالعكس فى قياس العقول وقرىء تتذكرون على الأصل (قل من رب السموات السبع
ورب العرش العظيم) أعيد الرب تنويها لشأن العرش ورفعاً لمحله عن أن يكون تبعاً للسموات وجوداً
٨٧ وذكراً ولقد روعى فى الأمر بالسؤال الترقى من الأدنى إلى الأعلى (سيقولون لله) باللام نظراً إلى
معنى السؤال فإن قولك من ربه ولمن هو فى معنى واحد وقرىء هو وما بعده بغير لام نظراً إلى لفظ
السؤال (قل) إلخاما لهم وتوبيخاً (أفلا تتقون) أى أتعلمون ذلك ولا تقون أنفسكم عقابه بعدم العمل
٨٨ بموجب العلم حيث تكفرون به وتنكرون البعث وتثبتون له شريكا فى الربوبية (قل من بيده ملكوت
كل شىء) مما ذكر ومالم يذكر أى ملكه التام القاهر وقيل خزائنه (وهو يجير) أى يغيث غيره إذا شاء
(ولا يجار عليه) أى ولا يغيث أحد عليه أى لا يمنع أحد منه بالنصر عليه (إن كنتم تعلمون) أى شيئاً
٨٩ ما أو ذلك فأجيبونى على ماسبق (سيقولون لله) أى لله ملكوت كل شىء وهو الذى يجير ولا يجار عليه
(قل فأنى تسحرون) أى فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد مع علمكم به إلى ماأنتم عليه من الغى فإن
٩٠ من لا يكون مسحوراً مختل العقل لا يكون كذلك (بل أتيناهم بالحق) الذى لا محيد عنه من التوحيد
٩١ والوعد بالبعث (وإنهم لكاذبون) فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث (ما اتخذ الله من ولد) كما يقوله
النصارى والقائلون إن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً (وما كان معه من إله) يشاركه فى
الألوهية كما يقوله عبدة الأوثان وغيرهم (إذن لذهب كل إله بما خلق) جواب لمحاجتهم وجزاء لشرط
قد حذف لدلالة ماقبله عليه أى لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به
وامتاز ملكه عن ملك الآخرين ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجارى فيما بين الملوك (ولعلا
بعضهم على بعض) فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شىء وهو باطل لا يقول به عاقل قط مع قيام البرهان
على استناد جميع الممكنات إلى واجب الوجود واحد بالذات (سبحان الله عما يصفون) أى يصفونه

عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾	٢٣ المؤمنون
قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾	٢٣ المؤمنون
رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾	٢٣ المؤمنون
وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾	٢٣ المؤمنون
ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾	٢٣ المؤمنون
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾	٢٣ المؤمنون

من أن يكون له أنداد وأولاد (عالم الغيب والشهادة) بالجر على أنه بدل من الجلالة وقيل صفة لها وقرىء ٩٢
بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وأياً ما كان فهو دليل آخر على انتفاء الشريك بناء على توافقهم فى تفرده
تعالى بذلك ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى (فتعالى عما يشركون) فإن تفرده تعالى بذلك موجب
لتعاليه عن أن يكون له شريك (قل رب إما ترينى) أى إن كان لا بد من أن ترينى (ما يوعدون) من العذاب ٩٣
الدنيوى المستأصل وأما العذاب الأخروى فلا يناسبه المقام (رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) أى قريناً ٩٤
لهم فيما هم فيه من العذاب وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه
من لا يكاد يمكن أن يحيق به ورد لإنكارهم إياه واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء به وقيل أمر به ﷺ هضما
لنفسه وقيل لأن شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم
خاصة وروى أنه تعالى أخبر نبيه ﷺ بأن له فى أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها فأمره بهذا الدعاء وتكرير
النداء وتصدير كل من الشرط والجزاء به لإبراز كمال الضراعة والابتهال (وإنا على أن نريك ما نعدهم) ٩٥
من العذاب (لقادرون) ولكنا نؤخره لعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون أو لأنا لا نعذبهم
وأنت فيهم وقيل قد أراه ذلك وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة ولا يخفى بعده فإن المتبادر أن يكون
ما يستحقونه من العذاب الموعود عذاباً هائلا مستأصلا لا يظهر على يديه ﷺ للحكمة الداعية إليه
(ادفع بالتى هى أحسن السيئة) وهو الصفح عنها والإحسان فى مقابلتها لكن لا بحيث يؤدى إلى وهن ٩٦
فى الدين وقيل هى كلمة التوحيد والسيئة الشرك وقيل هو الأمر بالمعروف والسيئة المنكر وهو أبلغ من
ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل وتقديم الجار والمجرور على المفعول فى الموضعين
للاهتمام (نحن أعلم بما يصفون) أى بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف ما أنت عليه وفيه وعيد
لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له ﷺ إلى تفويض أمره إليه تعالى (وقل رب ٩٧
أعوذ بك من همزات الشياطين) أى وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به من المحاسن التى من جملتها

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ٢٣ المؤمنون

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ٢٣ المؤمنون

لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ٢٣ المؤمنون

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ٢٣ المؤمنون

دفع السيئة بالحسنة وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم للناس على المعاصى بهمز الرائض
٩٨ الدواب على الإسراع أو الوثب والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف إليه (وأعوذ بك
رب أن يحضرون) أمر ﷺ بأن يعوذ به تعالى من حضورهم بعد ما أمر بالعوذ من همزاتهم للمبالغة
فى التحذير من ملابستهم وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية
الابتهال فى الاستدعاء أى أعوذ بك من أن يحضرونى ويحوموا حولى فى حال من الأحوال وتخصيص
حال الصلاة وقراءة القرآن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وحال حلول الأجل كما روى
٩٩ عن عكرمة رحمه الله لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها (حتى إذا جاء أحدهم الموت) حتى هى التى
يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بيصفون وما بينهما
اعتراض مؤكد للإغضاء بالاستعاذة به تعالى من الشياطين أن يزلوه ﷺ عن الحلم ويغروه على الانتقام
لكن لا بمعنى أنه العامل فيه لفساد المعنى بل بمعنى أنه معمول لمحذوف يدل عليه ذلك وتعلقها بكاذبون
فى غاية البعد لفظاً ومعنى أى يستمرون على الوصف المذكور حتى إذا جاء أحدهم أى أحد كان الموت
الذى لا مرد له وظهرت له أحوال الآخرة (قال) تحسراً على مافرط فيه من الإيمان والطاعة (رب
ارجعون) أى ردنى إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعنى كما قيل فى قفا نبك
١٠٠ ونظائره (لعلى أعمل صالحاً فيما تركت) أى فى الإيمان الذى تركته لم ينظمه فى سلك الرجاء كسائر الأعمال
الصالحة بأن يقول لعلى أومن فأعمل الخ للإشعار بأنه أمر مقرر الوقوع غنى عن الإخبار بوقوعه قطعاً
فضلا عن كونه مرجو الوقوع أى لعلى أعمل فى الإيمان الذى آتى به البتة عملا صالحاً وقيل فيما تركته من
المال أو من الدنيا وعنه ﷺ إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أنرجعك إلى الدنيا فيقول إلى دار الهموم
والأحزان بل قدوما إلى الله تبارك وتعالى وأما الكافر فيقول ارجعونى (كلا) ردع عن طلب الرجعة
واستبعاد لها (إنها) أى قوله رب ارجعون الخ (كلمة هو قائلها) لامحالة لتسلط الحسرة عليه (ومن
ورائهم) أى أمامهم والضمير لأحدهم والجمع باعتبار المعنى لأنه فى حكم كلهم كما أن الإفراد فى الضمائر
الأول باعتبار اللفظ (برزخ) حائل بينهم وبين الرجعة (إلى يوم يبعثون) يوم القيامة وهو إقناط كلى
عن الرجعة إلى الدنيا لما علم أنه لارجعة يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجعة يومئذ إلى الحياة الأخروية
١٠١ (فإذا نفخ فى الصور) لقيام الساعة وهى النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور وقيل المعنى فإذا نفخ

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ ٢٣ المؤمنون

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ٢٣ المؤمنون

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ٢٣ المؤمنون

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ٢٣ المؤمنون

قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ٢٣ المؤمنون

في الأجساد أرواحها على أن الصور جمع الصورة لا القرن ويؤيده القراءة بفتح الواو وبه مع كسر الصاد
(فلا أنساب بينهم) تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء
من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه أو لا أنساب يفتخرون بها (يومئذ) كما هي بينهم اليوم (ولا يتساءلون)
أي لا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغال كل منهم بنفسه ولا يناقضه قوله تعالى فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون
لأن هذا عند ابتداء النفخة الثانية وذلك بعد ذلك (فمن ثقلت موازينه) موزونات حسناته من العقائد ١٠٢
والأعمال أي فمن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى (فأولئك هم
المفلحون) الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مهروب (ومن خفت موازينه) أي ومن لم يكن له ١٠٣
من العقائد والأعمال ماله وزن وقدر عنده تعالى وهم الكفار لقوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً
وقد مر تفصيل ما في هذا المقام من الكلام في تفسير سورة الأعراف (فأولئك الذين خسروا أنفسهم)
ضيعوها بتضييع زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها واسم الإشارة في الموضعين عبارة عن
الموصول وجمعه باعتبار معناه كما أن إفراد الضميرين في الصلتين باعتبار لفظه (في جهنم خالدون) بدل من
الصلة أو خبر ثان لأولئك (تلفح وجوههم النار) تحرقها واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً منه وتخصيص ١٠٤
الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار وهو السر في تقديمها
على الفاعل (وهم فيها كالحون) من شدة الاحتراق والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان وقرىء كلحون
(ألم تكن آياتي تتلى عليكم) على إضمار القول أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا ١٠٥
به من العذاب ألم تكن آياتي تتلى عليكم في الدنيا (فكنتم بها تكذبون) حينئذ (قالوا ربنا غلبت علينا) ١٠٦
أي ملكتنا (شقوتنا) التي اقترفناها بسوء اختيارنا كما ينبىء عنه إضافتها إلى أنفسهم وقرىء شقوتنا بالفتح
وشقاوتنا أيضاً بالفتح والكسر (وكنا) بسبب ذلك (قوماً ضالين) عن الحق ولذلك فعلنا ما فعلنا من
التكذيب وهذا كما ترى اعتراف منهم بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم وأما ما قيل من أنه اعتذار
منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية فمع أنه باطل في نفسه لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة
والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ضرورة أن العلم تابع المعلوم يرده قوله تعالى

رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ٢٣ المؤمنون

قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ٢٣ المؤمنون

إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ٢٣ المؤمنون

فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ٢٣ المؤمنون

إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ٢٣ المؤمنون

قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ٢٣ المؤمنون

---

١٠٧ (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) أي أخرجنا من النار وارجعنا إلى الدنيا فإن عدنا بعد
ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي فإنا متجاوزون الحد في الظلم ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون
على ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ولما وعدوا الإيمان والطاعة بل قولهم فإن عدنا صريح في
أنهم حينئذ على الإيمان والطاعة وإنما الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثبات عليهما لا إحداثهما
١٠٨ (قال اخسئوا فيها) أي اسكتوا في النار سكوت هوان وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت من
خسأت الكلب إذا زجرته خسأ أي انزجر (ولا تكلمون) أي باستدعاء الإخراج من النار والرجع إلى
الدنيا وقيل لا تكلمون في رفع العذاب ويرده التعليل الآتي وقيل لا تكلمون رأساً وهو آخر كلام يتكلمون
به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون ويرده الخطابات
١٠٩ الآتية قطعاً وقوله تعالى (إنه) تعليل لما قبله من الزجر عن الدعاء أي إن الشأن وقرىء بالفتح أي لأن
الشأن (كان فريق من عبادي) وهم المؤمنون وقيل هم الصحابة وقيل أهل الصفة رضوان الله تعالى عليهم
١١٠ أجمعين (يقولون) في الدنيا (ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين) (فاتخذتموهم سخرياً) أي
اسكتوا عن الدعاء بقولكم ربنا الخ لأنكم كنتم تستهزئون بالداعين بقولهم ربنا آمنا الخ وتتشاغلون باستهزائهم
(حتى أنسوكم) أي الاستهزاء بهم (ذكري) من فرط اشتغالكم باستهزائهم (وكنتم منهم تضحكون)
١١١ وذلك غاية الاستهزاء وقوله تعالى (إني جزيتهم اليوم) استئناف لبيان حسن حالهم وأنهم انتفعوا بما
آذوهم (بما صبروا) بسبب صبرهم على أذيتكم وقوله تعالى (أنهم هم الفائزون) ثاني مفعولي الجزاء أي
جزيتهم فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به وقرىء بكسر الهمزة على أنه تعليل للجزاء وبيان لكونه
١١٢ في غاية ما يكون من الحسن (قال) أي الله عز وجل أو الملك المأمور بذلك تذكيراً لما لبثوا فيما سألوا
الرجوع إليه من الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله اخسئوا فيها الخ وقرىء قل على الأمر للملك (كم
لبثتم في الأرض) التي تدعون أن ترجعوا إليها (عدد سنين) تمييز لكم.

قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ٢٣ المؤمنون

قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ٢٣ المؤمنون

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ٢٣ المؤمنون

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ٢٣ المؤمنون

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ٢٣ المؤمنون

١١٣ (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصاراً لمدة لبثهم فيها (فاسأل العادين) أى المتمكنين من العد فإنا بما
دهمنا من العذاب بمعزل من ذلك أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم وقرىء العادين بالتخفيف أى
المعتدين فإنهم أيضاً يقولون ما نقول كأنهم الأتباع يسمون الرؤساء بذلك لظلمهم إياهم إضلالهم وقرىء
١١٤ العاديين أى القدماء المعمرين فإنهم أيضاً يستقصرون مدة لبثهم (قال) أى الله تعالى أو الملك وقرىء قل كما
سبق (إن لبثتم إلا قليلا) تصديقاً لهم فى ذلك (لو أنكم كنتم تعلمون) أى تعلمون شيئاً أو لو كنتم من أهل
العلم والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أى لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها كما علمتم اليوم ولعملتم بموجبه
١١٥ ولم تخلدوا إليها (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) أى ألم تعلموا شيئاً فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى
أنكرتم البعث فعبثاً حال من نون العظمة أى عابثين أو مفعول له أى أنما خلقناكم للعبث (وأنكم إلينا
لا ترجعون) عطف على أنما فإن خلقكم بغير بعث من قبيل العبث وإنما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على
١١٦ أعمالكم وقرىء ترجعون بفتح التاء من الرجوع (فتعالى الله) استعظام له تعالى ولشئونه التى تصرف
عليها عباده من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة
المخلوقين فى ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة (الملك
الحق) الذى يحق له الملك على الإطلاق إيجاداً وإعداما بدءاً وإعادة إحياء وإماتة عقاباً وإثابة وكل ما سواه
مملوك له مقهور تحت ملكوته (لا إله إلا هو) فإن كل ما عداه عبيده (رب العرش الكريم) فكيف
بما تحته ومحاط به من الموجودات كائناً ما كان ووصفه بالكرم إما لأنه منه ينزل الوحى الذى منه القرآن
الكريم أو الخير والبركة والرحمة أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين وقرىء الكريم بالرفع على أنه صفة الرب
١١٧ كما فى قوله تعالى ذو العرش المجيد (ومن يدع مع الله إلهاً آخر) يعبده إفراداً أو إشراكا (لا برهان له به)
صفة لازمة لإلها كقوله تعالى يطير بجناحيه جىء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيهاً على أن التدين بما
لا دليل عليه باطل فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه أو اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من

وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ٢٣ المؤمنون

أحسن إلى زيد لا أحق منه بالإحسان فالله مثيبه (فإنما حسابه عند ربه) فهو مجاز له على قدر ما يستحقه (إنه لا يفلح الكافرون) أى إن الشأن الخ وقرىء بالفتح على أنه تعليل أو خبر ومعناه حسابه عدم الفلاح والأصل حسابه أنه لا يفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لأن من يدع فى معنى الجمع وكذلك حسابه أنه لا يفلح فى معنى حسابهم أنهم لا يفلحون . بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين وختمت بنفى الفلاح عن الكافرين ثم أمر رسول الله ﷺ بالاستغفار والاسترحام فقيل
١١٨ (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) إيذاناً بأنهما من أهم الأمور الدينية حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف بمن عداه . عن النبى ﷺ من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت وعنه ﷺ أنه قال لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر وروى أن أولها وآخرها من كنوز الجنة من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح .

سورة المؤمنون

ترتيبها ٢٣ — آياتها ١١٨

مكية كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وفي البحر هي مكية بلا خلاف، واستثنى منها كما يقال في الإتقان قوله تعالى: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم﴾ [المؤمنون: ٦٤] إلى قوله سبحانه: ﴿مبلسون﴾ [المؤمنون: ٧٧] واستشكل الحكم على ما عداه بكونه مكياً لما فيه من ذكر الزكاة وهي إنما فرضت بالمدينة، وأجيب بأنه بعد تسليم أن ما ذكر فيه يدل على فرضيتها يقال: إن الزكاة كانت واجبة بمكة والمفروض بالمدينة ذات النصب وستسمع تمام الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى وهي كما في كتاب العدد للداني ومجمع البيان للطبرسي مائة وثمان عشرة آية في الكوفي ومائة وسبع عشرة آية في الباقي، وقد مدح النبي ﷺ العشر الأول منها فقد أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه والضياء في المختارة وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: «كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي نسمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسري عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وارضنا ثم قال: «لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ [المؤمنون: ١] حتى ختم العشر، ومناسبتها لآخر السورة قبلها ظاهرة لأنه تعالى خاطب المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا﴾ [المؤمنون: ١ . ٢٢] ﴿لعلكم تفلحون﴾ [الحج: ٧٧] فناسب أن يحقق ذلك فقال عز قائلاً:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ
غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ
﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا
ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ
خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ

بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ والفلاح الفوز بالمرام، وقيل: البقاء في الخير والإفلاح الدخول في ذلك كالإبشار الذي هو الدخول بالبشارة، وقد يجيء متعدياً وعليه قراءة طلحة بن مصرف وعمرو بن عبيد «أُفلِحَ» بالبناء للمفعول، و ﴿قد﴾ لثبوت أمر متوقع وتحققه، والظاهر أنه هنا الفلاح لأن قد دخلت على فعله وهو متوقع الثبوت من حال المؤمنين، وجعله الزمخشري الأخبار بثباته وذلك لأن الفلاح مستقبل أبرز في معرض الماضي مؤكداً بقد دلالة على تحققه فيفيد تحقق البشارة وثباتها كأنه قيل: قد تحقق أن المؤمنين من أهل الفلاح في الآخرة، وجوز أن يكون جملة ﴿قد أفلح﴾ جواب قسم محذوف وقد ذكر الزجاج في قوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس: ٩] أنه جواب القسم المذكور قبله بتقدير اللام.

وقرأ ورش عن نافع «قد أفلح» بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها لفظاً لالتقاء الساكنين كما قال أبو البقاء وهما الهمزة الساكنة بعد نقل حركتها والدال الساكنة بحسب الأصل لأنه لا يعتد بحركتها العارضة.

وقرأ طلحة أيضاً «وقد أفلحوا» بضم الهمزة والحاء والقاء واو الجمع وهي مخرجة على لغة أكلوني البراغيث، وقول ابن عطية هي قراءة مردودة مردود، وعن عيسى بن عمر قال: سمعت طلحة يقرأ «قد أفلحوا المؤمنون» فقلت له: أتلحن؟ قال: نعم كما لحن أصحابي، ولعل مراده أن مرجع قراءتي الرواية ومتى صحت في شيء لا يكون لحناً في نفس الأمر وإن كان كذلك ظاهراً، وإثبات الواو في الرسم مروي عن كتاب ابن خالويه.

وفي اللوامح أنها حذفت في الدرج لالتقاء الساكنين وحملت الكتابة على ذلك فهي محذوفة فيها أيضاً، ونظير ذلك ﴿يمح الله الباطل﴾ [الشورى: ٢٤] وقد جاء حذف الواو لفظاً وكتابة والاكتفاء بالضمة الدالة عليها كما في قوله:

ولو أن الأطبا كان حولي ... وكان مع الأطباء الاساة

وهو ضرورة عند بعض النحاة، والمراد بالمؤمنين قيل إما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا ﷺ من التوحيد والنبوة والحشر الجسماني والجزاء ونظائرها فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ وما عطف عليه صفات مخصصة لهم، وإما الآتون بفروعه أيضاً كما ينبىء عنه إضافة الصلاة إليهم فهي صفات موضحة أو مادحة لهم، وفي بعض الآثار ما يؤيد كونها مخصصة وجعل الزمخشري الإضافة للإشارة إلى أنهم هم المنتفعون بالصلاة دون المصلى له عز وجل، والخشوع التذلل مع خوف وسكون للجوارح، ولذا قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير وغيره خاشعون خائفون ساكنون وعن مجاهد أنه غض البصر وخفض الجناح، وقال مسلم بن يسار وقتادة: تنكيس الرأس، وعن علي كرّم الله تعالى وجهه ترك الالتفات، وقال الضحاك: وضع اليمين على الشمال.

وعن أبي الدرداء إعظام المقام وإخلاص المقال واليقين التام وجمع الاهتمام، ويتبع ذلك ترك الالتفات وهو من

الشيطان فقد روى البخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد».

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أنه قال في مرضه: أقعدوني أقعدوني فإن عندي وديعة أودعنيها رسول الله ﷺ قال: «لا يلتفت أحدكم في صلاته فإن كان لا بدّ فاعلاً ففي غير ما افترض الله تعالى عليه».

وترك العبث بثيابه أو شيء من جسده، وإنكار منافاته للخشوع مكابرة، وقد أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول لكن بسند ضعيف عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه»، وترك رفع البصر إلى السماء وإن كان المصلي أعمى وقد جاء النهي عنه، فقد أخرج مسلم وأبو داود وابن ماجة عن جابر بن سمرة قال: «قال النبي ﷺ: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم» وكان قبل نزول الآية غير منهي عنه، فقد أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ فطأطأ رأسه، وترك الاختصار وهو وضع اليد على الخاصرة وقد ذكروا أنه مكروه، وجاء عنه ﷺ «الاختصار في الصلاة أصل النار» أي إن ذلك فعل اليهود في صلاتهم استراحة وهم أهل النار لا أن فيها راحة كيف وقد قال تعالى: ﴿لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ [الزخرف: ٧٥] ومن أفعالهم أيضاً فيها التميل وقد جاء النهي عنه.

أخرج الحكيم الترمذي من طريق القاسم بن محمد عن أسماء بنت أبي بكر عن أم رومان والدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: رآني أبو بكر رضي الله تعالى عنه أتميل في صلاتي فزجرني زجرة كدت أنصرف عن صلاتي ثم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم في الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة» وقال في الكشاف: من الخشوع أن يستعمل الآداب وذكر من ذلك توقي كف الثوب والتمطي والتثاؤب والتغميض[١] وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك وتقلب الحصى، وفي البحر نقلاً عن التحرير أنه اختلف في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين والصحيح الأول ومحله القلب اهـ، والصحيح عندنا خلافه، نعم الحق أنه شرط القبول لا الإجزاء.

وفي المنهاج وشرحه لابن حجر ويسن الخشوع في كل صلاته بقلبه بأن لا يحضر فيه غير ما هو فيه وإن تعلق بالآخرة وبجوارحه بأن لا يعبث بأحدها، وظاهر أن هذا مراد النووي من الخشوع لأنه سيذكر الأول بقوله: ويسن دخول الصلاة بنشاط وفراغ قلب إلا أن يجعل ذلك سبباً له ولذا خصه بحالة الدخول.

وفي الآية المراد كل منهما كما هو ظاهر أيضاً، وكان سنة لثناء الله تعالى في كتابه العزيز على فاعليه ولانتفاء ثواب الصلاة بانتفائه كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، ولأن لنا وجهاً اختاره جمع أنه شرط للصحة لكن في البعض فيكره الاسترسال مع حديث النفس والعبث كتسوية ردائه أو عمامته لغير ضرورة من تحصيل سنة أو دفع مضرة، وقيل يحرم اهـ، وللإمام في هذا المقام كلام طويل من أراده فليرجع إليه.

وتقديم الظرف قيل لرعاية الفواصل، وقيل ليقرب ذكر الصلاة من ذكر الإيمان فإنهما أخوان وقد جاء إطلاق

---

(١) قيل هو فعل اليهود وجاء النهي عنه لكن من طريق ضعيف، وقال النووي: عندي أنه لا يكره ما لم يخف ضرراً انتهى، وربما يقال: إن فيه منعاً لتفريق الذهن فيكون سبباً لحضور القلب والخشوع، ولذا أفتى ابن عبد السلام بأنه أولى إذا شوش عدمه خشوعه أو حضور قلبه مع ربه عز وجل اهـ منه.

الإيمان عليها في قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: ١٤٣] وقيل للحصر على معنى الذين هم في جميع صلاتهم دون بعضها خاشعون، وفي تقديم وصفهم بالخشوع في الصلاة على سائر ما يذكر بعد ما لا يخفى من التنويه بشأن الخشوع، وجاء أن الخشوع أول ما يرفع من الناس، ففي خبر رواه الحاكم وصححه أن عبادة بن الصامت قال: يوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحاكم وصححه عن حذيفة قال: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة وتنتقض عرى الإسلام عروة عروة» الخبر ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وهو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال، وعن ابن عباس تفسيره بالباطل، وشاع في الكلام الذي يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى اللغاء وهو صوت العصافير ونحوها من الطير؛ وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً، ويقال فيه كما قال أبو عبيدة لغو ولغا نحو عيب وعاب، وأنشد. عن اللغا ورفث التكليم. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ في عامة أوقاتهم لما فيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه مع ما فيهم من الاشتغال بما يعنيهم، وهذا أبلغ من أن يقال: لا يلهون من وجوه، جعل الجملة اسمية دالة على الثبات والدوام، وتقديم الضمير المفيد لتقوي الحكم بتكريره، والتعبير في المسند بالاسم الدال كما شاع على الثبات، وتقديم الظرف عليه المفيد للحصر، وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً فإن أصله أن يكون في عرض أي ناحية غير عرضه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالزكاة المعنى المصدري ـ أعني التزكية ـ لأنه الذي يتعلق به فعلهم، وأما المعنى الثاني وهو القدر الذي يخرجه المزكي فلا يكون نفسه مفعولاً لهم فلا بد إذا أريد من تقدير مضاف أي لأداء الزكاة فاعلون أو تضمين ﴿فاعلون﴾ معنى مؤدون وبذلك فسره التبريزي إلا أنه تعقب بأنه لا يقال فعلت الزكاة أي أديتها، وإذا أريد المعنى الأول أدى وصفهم بفعل التزكية إلى أداء العين بطريق الكناية التي هي أبلغ، وهذا أحد الوجوه للعدول عن والذين يزكون إلى ما في النظم الكريم.

وجميع ما مر آنفاً في بيان أبلغية ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ من والذين لا يلهون جار هنا سوى الوجه الخامس اتفاقاً والرابع عند بعض لأن المقدم متعلق تعلق الجار والمجرور بما بعده كيف واللام زائدة لتقوية العمل من وجهين، تقديم المعمول، وكون العامل اسماً.

وقال بعض آخر: يمكن جريان مثله حيث قدم المعمول مع ضعف عامله لا للتخصيص بل لكونه مصب الفائدة، ويجوز اعتبار التخصيص الإضافي أيضاً بالنسبة إلى الإنفاق فيما لا يليق، ووصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنهم لم يألوا جهداً بالعبادة البدنية والمالية، وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة وإلا فأكثر ما تذكر هاتان العبادتان في القرآن معاً بلا فاصل.

وعن أبي مسلم أن الزكاة هنا بمعنى العمل الصالح كما في قوله: ﴿خيراً منه زكاة﴾ [الكهف: ٨١] واختار الراغب أن الزكاة بمعنى الطهارة واللام للتعليل، والمعنى والذين يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله تعالى أو ليزكوا أنفسهم، ونقل نحوه الطيبي عن صاحب الكشف فقال: قال صاحب الكشف: معنى الآية الذين هم لأجل الطهارة وتزكية النفس عاملون الخير، ويرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وقد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] و ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس: ٩] فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ولا ينبغي أن يعدل عن تفسير بعضه ببعض ما أمكن، وقال بعض الأجلة: إن اقتران ذلك بالصلاة ينادي على أن المراد وصفهم بأداء الزكاة الذي هو عبادة مالية، وتنظير ما نحن فيه بالآيتين بعيد لأنهما ليستا من هذا القبيل في شيء، وربما يقال: الفصل بينهما يشعر

بما اختاره الراغب ومن حذا حذوه، وأيضاً كون السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة يؤيده لئلا يحتاج إلى التأويل بما مر فتدبر.

وأياً ما كان فالآية في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة، وقول بعض زنادقة الأعاجم الذين حرموا ذوق العربية: ألا قيل مؤدون بدل ﴿فاعلون﴾ من محض الجهل والحماقة التي أعيت من يداويها فإنه لو فرض أن القرآن وحاشا لله سبحانه كلام النبي ﷺ فهو عليه الصلاة والسلام الذي مخضت له الفصاحة زبدها وأعطته البلاغة مقودها وكان ﷺ بين مصاقع نقاد لم يألوا جهداً في طلب طعن ليستريحوا به من طعن الصعاد، وقد جاء نظير ذلك في كلام أمية بن أبي الصلت قال:

المطعمون الطعام في السنة الأزمة والفاعلون للزكوات

ولم يرد عليه أحد من فصحاء العرب ولا أعابوه، واختار الزمخشري في هذا حمل الزكاة على العين وتقدير المضاف دون الآية، وعلل بجمعها وهو إنما يكون للعين دون المصدر، وتعقب بأنه قد جاء كثير من المصادر مجموعة كالظنون والعلوم والحلوم والأشغال وغير ذلك، وهي إذا اختلف فالأكثرون على جواز جمعها وقد اختلفت هاهنا بحسب متعلقاتها فإن إخراج النقد غير إخراج الحيوان وإخراج الحيوان غير إخراج النبات فليحفظ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وصف لهم بالعفة وهو وان استدعاه وصفهم بالإعراض عن اللغو إلا أنه جيء به اعتناء بشأنه، ويجوز أن يقال: إن ما تقدم وإن استدعى وصفهم بأصل العفة لكن جيء بهذا لما فيه من الإيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى وإنهم حافظون لها عن استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة، واللام للتقوية كما مر في نظيره، و ﴿على﴾ متعلق بحافظون لتضمينه معنى ممسكون على ما اختاره أبو حيان والإمساك يتعدى بعلى كما في قوله تعالى: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ [الأحزاب: ٣٧] وذهب جمع إلى اعتبار معنى النفي المفهوم من الإمساك ليصح التفريغ فكأنه قيل حافظون فروجهم لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم، وقال بعضهم: لا يلزم ذلك الصحة العموم هنا فيصح التفريغ في الإيجاب، وفي الكشف الوجه أن يقال: ما في الآية من قبيل حفظت على الصبي ماله إذا ضبطه مقصوراً عليه لا يتعداه، والأصل حافظون فروجهم على الأزواج لا تتعداهن ثم قيل غير حافظين إلا على الأزواج تأكيداً على تأكيد، وعلى هذا تضمين معنى النفي الذي ذكره الزمخشري من السياق واستدعاء الاستثناء المفرغ ذلك ولم يؤخذ مما في الحفظ من معنى المنع والإمساك لأن حرف الاستعلاء يمنعه انتهى وفيه ما فيه.

ويا ليت شعري كيف عد حرف الاستعلاء مانعاً عن ذلك مع أن كون الإمساك مما يتعدى به أمر شائع، وقال الفراء وتبعه ابن مالك وغيره: إن ﴿على﴾ هنا بمعنى من أي إلا من أزواجهم كما أن من بمعنى على في قوله تعالى: ﴿ونصرناه من القوم﴾ [الأنبياء: ٧٧] أي على القوم، وقيل هي متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ضمير ﴿حافظون﴾ والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا حال كونهم والين وقوامين على أزواجهم من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان ولذا سميت المرأة فراشاً أو متعلقة بمحذوف يدل على ﴿غير ملومين﴾ كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه، وكلا الوجهين ذكرهما الزمخشري.

واعترض بأنهما متكلفان ظاهراً فيهما العجمة وأورد على الأخير أن إثبات اللوم لهم في أثناء المدح غير مناسب مع أنه لا يختص بهم، وكون ذلك على فرض عصيانهم وهو مثل قوله تعالى: ﴿فمن ابتغى﴾ الخ لا يدفعه كما توهم؛

ولا يجوز أن تتعلق بملومين المذكور بعد لما قال أبو البقاء من أن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها وأن المضاف إليه لا يعمل فيما قبله، والمراد مما ملكت أيمانهم السريات، والتخصيص ذلك للإجماع على عدم حل وطء المملوك الذكر، والتعبير عنهن ـ بما ـ على القول باختصاصها بغير العقلاء لأنهن يشبهن السلع بيعاً وشراء أو لأنهن لأنوثتهن المنبئة عن قلة عقولهن جاريات مجرى العقلاء، وهذا ظاهر فيما إذا كن من الجركس أو الروم أو نحوهم فكيف إذا كن من الزنج والحبش وسائر السودان فلعمري إنهن حينئذٍ إن لم يكن من نوع البهائم فما نوع البهائم منهن ببعيد، والآية خاصة بالرجال فإن التسري للنساء لا يجوز بالإجماع، وعن قتادة[1] قال تسرت امرأة غلاماً فذكرت لعمر رضي الله تعالى عنه فسألها ما حملك على هذا؟ فقالت: كنت أرى أنه يحل لي ما يحل للرجال من ملك اليمين فاستشار عمر فيها أصحاب النبي ﷺ فقالوا: تأولت كتاب الله تعالى على غير تأويله فقال رضي الله تعالى عنه: لا جرم لا أحلك لحر بعده أبداً كأنه عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها وأمر العبد أن لا يقربها، ولو كانت المرأة متزوجة بعبد فملكته فأعتقته حالة الملك انفسخ النكاح عند فقهاء الأمصار.

وقال النخعي والشعبي وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة: يبقيان على نكاحهما ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم من المذكورات أي فإنهم غير ملومين على ترك حفظها منهن.

وقيل الفاء في جواب شرط مقدر أي فإن بذلوا فروجهم لأزواجهم أو إمائهم فإنهم غير ملومين على ذلك، والمراد بيان جنس ما يحل وطؤه في الجملة وإلا فقد قالوا: يحرم وطء الحائض والأمة إذا زوجت والمظاهر منها حتى يكفر وهذا مجمع عليه.

وفي الجمع بين الأختين من ملك اليمين وبين المملوكة وعمتها أو خالتها خلاف على ما في البحر، وذكر الآمدي في الأحكام أن علياً كرّم الله تعالى وجهه احتج على جواز الجمع بين الأختين في الملك بقوله تعالى: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الحد المتسع وهو أربع من الحرائر وما شاء من الإماء، وانتصاب ﴿وراء﴾ على أنه مفعول ﴿ابتغى﴾ أي خلاف ذلك وهو الذي ذهب إليه أبو حيان، وقال بعض المحققين: إن ﴿وراء﴾ ظرف لا يصلح أن يكون مفعولاً به وإنما هو ساد مسد المفعول به، ولذا قال الزمخشري: أي فمن أحدث ابتغاء وراء ذلك ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان المتناهون فيه كما يشير إليه الإشارة والتعريف وتوسيط الضمير المفيد لجعلهم جنس العادين أو جميعهم، وفي الآية رعاية لفظ ﴿من﴾ ومعناها ويدخل فيما وراء ذلك الزنا واللواط ومواقعة البهائم وهذا مما لا خلاف فيه.

واختلف في وطء جارية أبيح له وطؤها فقال الجمهور: هو داخل فيما وراء ذلك أيضاً فيحرم وهو قول الحسن وابن سيرين وروي ذلك عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، فقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد الرزاق عنه أنه سئل عن امرأة أحلت جاريتها لزوجها فقال: لا يحل لك أن تطأ فرجاً أي غير فرج زوجتك إلا فرجاً إن شئت بعت وإن شئت وهبت وإن شئت أعتقت، وعن ابن عباس أنه غير داخل فلا يحرم، فقد أخرج عبد الرزاق عنه رضي الله تعالى عنه قال: إذا أحلت امرأة الرجل أو ابنته أو أخته له جاريتها فليصبها وهي لها وهو قول طاوس، أخرج عنه عبد الرزاق أيضاً أنه قال: هو أحل من الطعام فإن ولدت فولدها للذي أحلت، وهي لسيدها الأول، وأخرج عن عطاء أنه قال: كان يفعل ذلك يحل الرجل وليدته لغلامه وابنه وأخيه وأبيه والمرأة لزوجها وقد بلغني أن الرجل يرسل وليدته لصديقه وإلى هذا ذهبت

(١) أخرجه عبد الرزاق ا هـ منه.

الشيعة، والآية ظاهرة في هذه لظهور أن المعارة للجماع ليست بزوجة ولا مملوكة وكذا قوله تعالى ﴿فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة وما ملكت أيمانكم﴾ [النساء: ٣] فإن السكوت في معرض البيان يفيد الحصر خصوصاً إذا كان المقام مقتضياً لذكر جميع ما لا يجب العدل فيه، وفي عدم وجوب العدل تكون العارية أقدم من الكل إذ لا يجب فيها ألا تحمل منة مالك الفرج فقط وكذا قوله سبحانه: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم﴾. إلى قوله تعالى:. ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم﴾ [النساء: ٢٥] فإنه لو جازت العارية لما كان خوف العنت والحاجة إلى نكاح الإماء وإلى الصبر على ترك نكاحهن متحققاً، ونحوه قوله سبحانه: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ [النور: ٣٣] فإنه لو كانت العارية جائزة لم يؤمر الذين لا يجدون نكاحاً بالاستعفاف، ولعل الرواية السابقة عن ابن عباس غير صحيحة، وكذا اختلف في المتعة فذهبت الشيعة أيضاً إلى جوازها، ويرد عليهم بما ذكرنا من الآيات الظاهرة في تحريم العارية، وأخرج عبد الرزاق وأبو داود في ناسخه عن القاسم بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال: هي محرمة في كتاب الله تعالى وتلا: **﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾** الآية وقرر وجه دلالة الآية على ذلك أن المستمتع بها ليست ملك اليمين ولا زوجة فوجب أن لا تحل له أما أنها ليست ملك اليمين فظاهر وأما أنها ليست زوجة له فلأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة لحصل التوارث لقوله تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ [النساء: ١٢] وتعقبه في الكشف بأن لهم أن يقولوا: إنها زوجة يكشف الموت عن بينونتها قبيله كما أنها تبين بانقضاء الأجل قضاء لحق التعليق والتأجيل، وحاصله منع استفسار في الملازمة إن أريد لو كانت زوجة حال الحياة لم يفد وإن أريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فإن قيل: لا تبين بالموت كالنكاح المؤبد، أجيب بأنه قياس في عين ما افترق النكاحان به وهو فاسد بالإجماع.

وتعقب هذا شيخ الإسلام لخفاء معناه عليه بأنه ليس للترديد معنى محصل ولو قيل: إن أريد لو كانت زوجة حال الحياة فالملازمة ممنوعة وإن أريد بعد الموت لم يفد لكان له وجه، وقال هو في رد الاستدلال لهم أن يقولوا إنها زوجة له في الجملة وأما إن كل زوجة ترث فهم لا يسلمونه، وقال بعضهم: الحق أن الآية دليل على الشيعة فإن ظاهر كلامهم أنها ليست بزوجة أصلاً حيث ينفون عنها لوازم الزوجية بالكلية من العدة والطلاق والإيلاء والظهار وحصول الإحصان وإمكان اللعان والنفقة والكسوة والتوارث ويقولون بجواز جمع ما شاء بالمتعة ولا شك أن نفي اللازم دليل نفي الملزوم. وتعقب بأن هذا حق لو سلم أنهم ينفون اللوازم كلها لكنه لا يسلم، ونفي بعض اللوازم لا يكفي في الرد عليهم إذا قالوا: إن الزوجية قسمان كاملة وغير كاملة إذ بنفي ذلك البعض إنما ينتفي القسم الأول وهو لا يضرهم، وقيل: الذي يقتضيه الإنصاف أن الآية ظاهرة في تحريم المتعة فإن المستمتع بها لا يقال لها زوجة في العرف ولا يقصد منها ما هو السر في مشروعية النكاح من التوالد والتناسل لبقاء النوع بل مجرد قضاء الوطر وتسكين دغدغة المني ونحو ذلك، وزعم أنه يتم الاستدلال بالآية بهذا الطرز على التحريم سواء نفيت اللوازم أم لم تنف كما هو مذهب بعض القائلين بالحل كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

ولعل الأقرب إلى الإنصاف أن يقال: متى قيل بنفي اللوازم من حصول الإحصان حرمة الزيادة على الأربع ونحو ذلك كانت الآية دليلاً على الحرمة لأن المتبادر من الزوجية فيها الزوجية التي يلزمها مثل ذلك وهو كاف في الاستدلال على مثل هذا المطلب الفرعي، ومتى لم يقل بنفي اللوازم ولم يفرق بينها وبين النكاح المؤبد إلا بالتوقيت وعدمه لم تكن الآية دليلاً على التحريم، هذا ولي هاهنا بحث لم أر من تعرض له وهو أنه قد ذكر في الصحيحين أن النبي ﷺ حرم المتعة يوم خيبر، وفي صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام حرمها يوم الفتح، ووافق ابن الهمام بأنها

حرمت مرتين مرة يوم خيبر ومرة يوم الفتح وذلك يقتضي أنها كانت حلالاً قبل هذين اليومين، وقد سمعت آنفاً ما يدل على أن هذه الآية مكية بالاتفاق فإذا كانت دالة على التحريم كما سمعت عن القاسم بن محمد وروى مثله ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عائشة رضي الله تعالى عنها لزم أن تكون محرمة بمكة يوم نزلت الآية وهو قبل هذين اليومين فتكون قد حرمت ثلاث مرات ولم أر أحداً صرح بذلك، وإذا التزمناه يبقى شيء آخر وهو عدم تمامية الاستدلال بها وحدها على تحريم المتعة لمن يعلم أنها أحلت بعد نزولها كما لا يخفى، لا يقال: إن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة، الأول أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بالمدينة أم بمكة عام الفتح أم عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار، الثاني أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني، الثالث أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، وحينئذٍ يمكن أن تكون هذه الآية مكية بالاصطلاح الثاني وتكون نازلة يوم الفتح يوم حرمت المتعة في المرة الثانية ولا يكون التحريم إلا مرتين ويكون استدلال من استدلوا بها من الصحابة والتابعين وغيرهم على التحريم وإن علموا أن المتعة أحلت بعد الهجرة في بعض الغزوات مما لا غبار عليه، وإذا التزم هذا الاصطلاح في مكية جميع السورة المجمع عليها حسبما سمعت عن البحر ينحل إشكال حمل الزكاة على الزكاة الشرعية مع فرضيته بالمدينة بأن يقال: إن أوائل السورة نزلت بعد فرضية الزكاة في المدينة عام الفتح في مكة لأنا نقول: لا شبهة في أنه يمكن كون الآية مكية بالاصطلاح الثاني وكونها نازلة يوم الفتح وكذلك يمكن كون كل السورة أو أغلبها مكياً بذلك الاصطلاح وكل ما بني على ذلك صحيح بناء عليه إلا أن المتبادر من المكي والمدني المعني المصطلح عليه أولاً لأن الاصطلاح الأول أشهر الاصطلاحات الثلاثة كما قاله الجلال السيوطي في الإتقان.

فالظاهر من قولهم: إن هذه السورة مكية أنها نزلت قبل الهجرة بل قد صرح الجلال المذكور بأنها إلا ما استثني منها مما سمعته مكية على الاصطلاح الأول دون الثاني ولا يحرم مثله بذلك إلا عن وقوف فما ذكر مجرد تجويز أمر لا يساعد على ثبوته صريح نقل بل النقل الصريح مساعد على خلافه وهو المرجع فيما نحن فيه.

فقد قال القاضي أبو بكر في الانتصار: إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، وكونهما قد يعرفان بالقياس على ما ذكره الجعبري وغيره مع عدم جدواه ليس بشيء. نعم إذا جعل استدلال الصحابي أو التابعي المطلع على إباحة المتعة بعد الهجرة بها قولاً باستثنائها عن أخواتها من آيات السورة وحكماً عليها بنزولها بعد الهجرة دونهن فالأمر واضح، وستطلع أيضاً إن شاء الله تعالى على ما يوجب استثناء غير ذلك، وبالجملة متى قيل المدار في أمثال هذه المقامات صريح النقل تعين القول بأن الآية مكية بمعنى أنها نزلت قبل الهجرة، وأشكل الاستدلال بها على تحريم المتعة بعد تحليلها بعد الهجرة لكون دليل التحليل مخصصاً لعمومها، ومذهب الأئمة الأربعة جواز تخصيص عموم القرآن بالسنة مطلقاً وهو المختار ويحتاج حينئذٍ إلى دليل غيرها على التحريم، وبعد ثبوت الدليل تكون هي دليلاً آخر بمعونته وهذا الدليل الأخبار الصحيحة من تحريم رسول الله ﷺ إياها وقد تقدم بعضها، وفي صحيح مسلم عنه عليه الصلاة والسلام «كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وقد حرم الله تعالى ذلك إلى يوم القيامة».

وأخرج الحازمي بسنده إلى جابر قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك حتى إذا كنا عند العقبة مما

يلي الشام جاءت نسوة فذكرنا تمتعنا وهن يطفن في رحالنا فجاء رسول الله ﷺ فنظر إليهن وقال: من هؤلاء النسوة؟ فقلنا: يا رسول الله نسوة تمتعنا منهن فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه وتمعر وجهه وقام فينا خطيباً فحمد الله تعال وأثنى عليه ثم نهى عن المتعة فتوادعنا يومئذ الرجال والنساء ولم نعد ولا نعود أبداً»، وقد روى تحريمها عنه عليه الصلاة والسلام أيضاً عليّ كرم الله تعالى وجهه وجاء ذلك في صحيح مسلم ووقع على ما قيل إجماع الصحابة على أنها حرام وصح عند بعض رجوع ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إلى القول بالحرمة بعد قوله بحلها مطلقاً أو وقت الاضطرار إليها، واستدل ابن الهمام على رجوعه بما رواه الترمذي عنه أنه قال: إنما كانت المتعة في أول الإسلام كان الرجل يقدم البلد ليس له بها معرفة فيتزوج بقدر ما يرى أنه مقيم فتحفظ له متاعه وتصلح له شأنه حتى إذا نزلت الآية **﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾**. قال ابن عباس: فكل فرج سواهما فهو حرام، ولا أدري ما عنى بأول الإسلام فإن عنى ما كان في مكة قبل الهجرة أفاد الخبر أنها كانت تفعل قبل إلى أن نزلت الآية فإن كان نزولها قبل الهجرة فلا إشكال في الاستدلال بها على الحرمة لو لم يكن بعد نزولها إباحة لكنه قد كان ذلك، وإن عنى ما كان بعد الهجرة أوائلها وأنها كانت مباحة إذ ذاك إلى أن نزلت الآية كان ذلك قولاً بنزول الآية بعد الهجرة وهو خلاف ما روي عنه من أن السورة مكية المتبادر منه الاصطلاح الأول ولعله يلتزم ذلك؛ ويقال: إن استدلاله بالآية قوله باستثنائها كما مر آنفاً أو يقال: إن هذا الخبر لم يصح، ويؤيدها قول العلامة ابن حجر: إن حكاية الرجوع عن ابن عباس لم تصح بل صح كما قال بعضهم عن جمع أنهم وافقوه في الحل لكن خالفوه فقالوا: لا يترتب على ذلك أحكام النكاح، وبهذا نازع الزركشي في حكاية الإجماع فقال: الخلاف محقق وإن ادعى جمع نفيه انتهى. ويفهم منه أن ابن عباس يدخل المستمتع بها في الأزواج وحينئذ لا تقوم الآية دليلاً عليه فتدبر.

ونسب القول بجواز المتعة إلى مالك رضي الله تعالى عنه وهو افتراء عليه بل هو كغيره من الأئمة قائل بحرمتها بل قيل إنه زيادة على القول بالحرمة يوجب الحد على المستمتع لم يوجبه غيره من القائلين بالحرمة لمكان الشبهة.

وكذا اختلف في استمناء الرجل بيده ويسمى الخضخضة وجلد عميرة فجمهور الأئمة على تحريمه وهو عندهم داخل فيما وراء ذلك، وكان أحمد بن حنبل يجيزه لأن المني فضلة في البدن فجاز إخراجها عند الحاجة كالفصد والحجامة، وقال ابن الهمام: يحرم فإن غلبته الشهوة ففعل إرادة تسكينها به فالرجاء أن لا يعاقب ومن الناس من منع دخوله فيما ذكر ففي البحر: كان قد جرى لي في ذلك كلام مع قاضي القضاة أبي الفتح محمد بن علي ابن مطيع القشيري بن دقيق العيد فاستدل على منع ذلك بهذه الآية فقلت: إن ذلك خرج مخرج ما كانت العرب تفعله من الزنا والتفاخر به في أشعارها وكان ذلك كثيراً فيهم بحيث كان في بغاياهم صاحبات رايات ولم يكونوا ينكرون ذلك وأما جلد عميرة فلم يكن معهوداً فيهم ولا ذكره أحد منهم في شعر فيما علمناه فليس بمندرج فيما وراء ذلك انتهى، وأنت تعلم أنه إذا ثبت أن جلد عميرة كناية عن الاستمناء باليد عند العرب كما هو ظاهر عبارة القاموس فالظاهر أن هذا الفعل كان موجوداً فيما بينهم وإن لم يكن كثيراً شائعاً كالزنا فمتى كان ذلك من أفراد العام لم يتوقف اندراجه تحته على شيوعه كسائر أفراده، وفي الأحكام إذا كان من عادة المخاطبين تناول طعام خاص مثلاً فورد خطاب عام بتحريم الطعام نحو حرمت عليكم الطعام فقد اتفق الجمهور من العلماء على إجراء اللفظ على عمومه في تحريم كل طعام على وجه يدخل فيه المعتاد و غيره وأن العادة لا تكون منزلة للعموم على تحريم المعتاد دون غيره خلافاً لأبي حنيفة عليه الرحمة وذلك لأن الحجة إنما هي في اللفظ الوارد وهو مستغرق لكل مطعوم بلفظه ولا ارتباط له بالعوائد وهو حاكم على العوائد فلا تكون العوائد حاكمة عليه، نعم لو كانت العادة في الطعام المعتاد أكله قد خصصت بعرف

الاستعمال اسم الطعام بذلك كما خصصت الدابة بذوات القوائم الأربع لكان لفظ الطعام منزلاً عليه دون غيره ضرورة تنزيل مخاطبة الشارع للعرب على ما هو المفهوم لهم من لغتهم.

والفرق أن العادة أولاً إنما هي مطردة في اعتياد أكل ذلك الطعام المخصوص فلا تكون قاضية على ما اقتضاه عموم لفظ الطعام، وثانياً هي مطردة في تخصيص اسم الطعام بذلك الطعام الخاص فتكون قاضية على الاستعمال الأصلي اهـ، ومنه يعلم أن الاستمناء باليد إن كان قد جرت عادة العرب على إطلاق ما وراء ذلك عليه دخل عند الجمهور وإن لم تجر عادتهم على فعله وإن كان لم تجر عادتهم على إطلاق ذلك عليه وجرت على إطلاقه على ما عداه من الزنا ونحوه لم يدخل ذلك الفعل في العموم عن الجمهور.

ومن الناس من استدل على تحريمه بشيء آخر نحو ما ذكره المشايخ من قوله ﷺ: «ناكح اليد معلون» وعن سعيد بن جبير: عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم، وعن عطاء: سمعت قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظن أنهم الذين يستمنون بأيديهم والله تعالى أعلم، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله، ولا يخفى أن كل ما يدخل في العموم تفيد الآية حرمة فعله على أبلغ وجه؛ ونظير ذلك إفادة قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ [الإسراء: ٣٢] حرمة فعل الزنا فافهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها، وأصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه، ثم استعمل في الحفظ مطلقاً، والأمانات جمع أمانة وهي في الأصل مصدر لكن أريد بها هنا ما ائتمن عليه إذ الحفظ للعين لا للمعنى وأما جمعها فلا يعين ذلك إذ المصادر قد تجمع كما قدمنا غير بعيد، وكذا العهد مصدر أريد به ما عوهد عليه لذلك، والآية عند أكثر المفسرين عامة في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والأيمان والنذور والعقود ونحوها، وجمعت الأمانة دون العهد قيل لأنها متنوعة متعددة جداً بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك ولا كذلك العهد.

وجوز بعض المفسرين كونها خاصة فيما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الناس وليس بذاك، ويجوز عندي أن يراد بالأمانات ما ائتمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى، والمراد برعيها حفظها عن التصرف بها على خلاف أمره عز وجل. وأن يراد بالعهد ما عاهدهم الله تعالى عليه مما أمرهم به سبحانه بكتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، والمراد برعيه حفظه عن الإخلال به وذلك بفعله على أكمل وجه فحفظ الأمانات كالتخلية وحفظ العهد كالتحلية، وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفروجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها، ويجوز أن تعمم الأمانات بحيث تشمل الأموال ونحوها وجمعها لما فيها لمن التعدد المحسوس المشاهد فتأمل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو في رواية «لأمانتهم» بالإفراد ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾ المكتوبة عليهم كما أخرج ابن المنذر عن أبي صالح وعبد بن حميد عن عكرمة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ بتأديتها في أوقاتها بشروطها وإتمام ركوعها وسجودها وسائر أركانها كما روي عن قتادة.

وأخرج جماعة عن ابن مسعود أنه قيل: إن الله تعالى يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ [المعارج: ٢٣] ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قال ذاك على مواقيتها قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على فعلها وعدم تركها قال: تركها الكفر، وقيل: المحافظة عليها المواظبة على فعلها على أكمل وجه. وجيء بالفعل دون الاسم كما في سائر رؤوس الآية السابقة لما في الصلاة من التجدد والتكرر ولذلك جمعت في قراءة السبعة ما

عدا الأخوين وليس ذلك تكريراً لما وصفهم به أولاً من الخشوع في جنس الصلاة للمغايرة التامة بين ما هنا وما هناك كما لا يخفى.

وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيم لشأنها، وتقديم الخشوع للاهتمام به فإن الصلاة بدونه كلا صلاة بالإجماع وقد قالوا: صلاة بلا خشوع جسد بلا روح، وقيل: تقديمه لعموم ما هنا له ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وإيثارها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار إليهم حساً، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم في الفضل والشرف أي أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الأحقاء أن يسموا وراثاً دون من عداهم ممن لم يتصف بتلك الصفات من المؤمنين، وقيل: ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها.

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ صفة كاشفة أو عطف بيان أو بدل، وإياً ما كان ففيه بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً، والفردوس أعلى الجنان، أخرج عبد بن حميد والترمذي وقال: حسن صحيح غريب عن أنس رضي الله تعالى عنه أن الربيع بنت نضير أتت رسول الله ﷺ وكان ابنها الحارث بن سراقة أصيب يوم بدر أصابه سهم غرب فقالت: أخبرني عن حارثة فإن كان أصاب الجنة احتسبت وصبرت وإن كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء فقال النبي ﷺ: «إنها جنان في جنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها» وعلى هذا لا إشكال في الحصر على ما أشرنا إليه أولاً فإن غير المتصف بما ذكر من الصفات وإن دخل الجنة لا يرث الفردوس التي هي أفضلها، وبتقدير إرثه إياها فهو ليس حقيقاً بأن يسمى وارثاً لما أن ذلك إنما يكون في الأغلب بعد كد ونصب، وإرثهم إياها من الكفار حيث فوتوها على أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار.

أخرج سعيد بن منصور وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون﴾» وقيل الإرث استعارة للاستحقاق وفي ذلك من المبالغة ما فيه لأن الإرث أقوى أسباب الملك، واختير الأول لأنه تفسير رسول الله عليه الصلاة والسلام على ما صححه القرطبي ﴿هُمْ فِيهَا﴾ أي في الفردوس وهو على ما ذكره ابن الشحنة مما يؤنث ويذكر.

وذكر بعضهم أن التأنيث باعتبار أنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا، وقد تقدم لك تمام الكلام في الفردوس.

﴿خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً، والجملة إما مستأنفة مقررة لما قبلها وإما حال مقدرة من فاعل ﴿يرثون﴾ أو مفعوله كما قال أبو البقاء إذ فيها ذكر كل منهما، ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ لما ذكر سبحانه أولاً أحوال السعداء عقبه بذكر مبدئهم ومآل أمرهم في ضمن ما يعمهم وغيرهم وفي ذلك إعظام للمنة عليهم وحث على الاتصاف بالصفات الحميدة وتحمل مؤن التكليفات الشديدة أو لما ذكر إرث الفردوس عقبه بذكر البعث لتوقفه عليه أو لما حث على عبادته سبحانه وامتثال أمره عقبه بما يدل على ألوهيته لتوقف العبادة على ذلك ولعل الأول أولى في وجه مناسبة الآية لما قبلها، ويجوز أن يكون مجموع الأمور المذكورة، واللام واقعة في جواب القسم والواو للاستئناف.

وقال ابن عطية: هي عاطفة جملة كلام على جملة وإن تباينتا في المعاني وفيه نظر، والمراد بالإنسان الجنس، والسلالة من سللت الشيء من الشيء إذا استخرجته منه فهي ما سلّ من الشيء واستخرج منه فإن فعالة اسم لما يحصل

من الفعل فتارة تكون مقصودة منه كالخلاصة وأخرى غير مقصودة منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الأول فإنها مقصودة بالسل.

وذكر الزمخشري أن هذا البناء يدل على القلة، ومن الأولى ابتدائية متعلقة بالخلق، ومن الثانية يحتمل أن تكون كذلك إلا أنها متعلقة بسلالة على أنها بمعنى مسلولة أو متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة، ويحتمل أن تكون على هذا تبعيضية وأن تكون بيانية، وجوز أن يكون ﴿من طين﴾ بدلاً أو عطف بيان بإعادة الجار، وخلق جنس الإنسان مما ذكر باعتبار خلق أول الأفراد وأصل النوع وهو آدم عليه السلام منه فيكون الكل مخلوقاً من ذلك خلقاً إجمالياً في ضمن خلقه كما مر تحقيقه، وقيل: خلق الجنس من ذلك باعتبار أنه مبدأ بعيد لأفراد الجنس فإنهم من النطف الحاصلة من الغذاء الذي هو سلالة الطين وصفوته، وفيه وصف الجنس بوصف أكثر أفراده لأن خلق آدم عليه السلام لم يكن كذلك أو يقال ترك بيان حاله عليه السلام لأنه معلوم، واقتصر على بيان حال أولاده. وجاء ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس، وقيل المراد بالطين آدم عليه السلام على أنه من مجاز الكون، والمراد بالسلالة النطفة وبالإنسان الجنس ووصفه بما ذكر باعتبار أكثر أفراده أو يقال كما قيل آنفاً، ولا يخفى خفاء قرينة المجاز وعدم تبادر النطفة من السلالة، وقيل المراد بالإنسان آدم عليه السلام وروي ذلك عن جماعة وما ذهبنا إليه أولاً أولى، والضمير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ عائد على الجنس باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام، وإذا أريد بالإنسان أولاً آدم عليه السلام فالضمير على ما في البحر عائد على غير مذكور وهو ابن آدم، وجاز لوضوح الأمر وشهرته وهو كما ترى أو على الإنسان والكلام على حذف مضاف أي ثم جعلنا نسله، وقيل يراد بالإنسان أولاً آدم عليه السلام وعند عود الضمير عليه ما تناسل منه على سبيل الاستخدام، ومن البعيد جداً أن يراد بالإنسان أفراد بني آدم والضمير عائد عليه ويقدر مضاف في أول الكلام أي ولقد خلقنا أصل الإنسان الخ، ومثله أن يراد بالإنسان الجنس أو آدم عليه السلام والضمير عائد على ﴿سلالة﴾ والتذكير بتأويل المسلول أو الماء أي ثم صيرنا السلالة نطفة.

والظاهر أن ﴿نطفة﴾ في سائر الوجوه مفعولاً ثانياً للجعل على أنه بمعنى التصيير وهو على الوجه الأخير ظاهر، وأما على وجه عود الضمير على الإنسان فلا بد من ارتكاب مجاز الأول بأن يراد بالإنسان ما سيصير إنساناً، ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الخلق المتعدي إلى مفعول واحد ويكون ﴿نطفة﴾ منصوباً بنزع الخافض واختاره بعض المحققين أي ثم خلقنا الإنسان من نطفة كائنة ﴿فِي قَرَارٍ﴾ أي مستقر وهو في الأصل من قريقر قراراً بمعنى ثبت ثبوتاً وأطلق على ذلك مبالغة، والمراد به الرحم ووصفه بقوله تعالى: ﴿مَكِينٍ﴾ أي متمكن مع أن التمكن وصف ذي المكان وهو النطفة هنا على سبيل المجاز كما يقال طريق سائر، وجوز أن يقال: إن الرحم نفسها متمكنة ومعنى تمكنها أنها لا تنفصل لثقل حملها أولاً تمج ما فيها فهو كناية عن جعل النطفة محرزة مصونة وهو وجه وجيه ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي دماً جامداً وذلك بإفاضة أعراض الدم عليها فتصيرها دماً بحسب الوصف، وهذا من باب الحركة في الكيف ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي قطعة لحم بقدر ما يمضغ لا استبانة ولا تمايز فيها، وهذا التصيير على ما قيل بحسب الذات كتصيير الماء حجراً وبالعكس، وحقيقته إزالة الصورة الأولى عن المادة وإفاضة صورة أخرى عليها وهو من باب الكون والفساد ولا يخلو ذلك من الحركة في الكيفية الاستعدادية فإن استعداد الماء مثلاً للصورة الأولى الفاسدة يأخذ في الانتقاص واستعداده للصورة الثانية الكائنة يأخذ في الاشتداد ولا يزال الأول ينقص والثاني يشتد إلى أن تنتهي المادة إلى حيث تزول عنها الصورة الأولى فتحدث فيها الثانية دفعة فتتوارد هذه الاستعدادات التي هي من مقولة الكيف على موضوع واحد ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ غالبها ومعظمها أو كلها ﴿عِظَامًا﴾

صغاراً وعظاماً حسبما تقتضيه الحكمة وذلك التصيير بالتصليب لما يراد جعله عظاماً من المضغة؛ وهذا أيضاً تصيير بحسب الوصف فيكون من الباب الأول.

وفي كلام العلامة البيضاوي إشارة ما إلى مجموع ما ذكرنا وهو يستلزم القول بأن النطفة والعلقة متحدان في الحقيقة وإنما الاختلاف بالأعراض كالحمرة والبياض مثلاً وكذا المضغة والعظام متحدان في الحقيقة وإنما الاختلاف بنحو الرخاوة والصلابة وأن العلقة والمضغة مختلفان في الحقيقة كما أنهما مختلفان بالأعراض.

والظاهر أنه تتعاقب في جميع هذه الأطوار على مادة واحدة صور حسب تعاقب الاستعدادات إلى أن تنتهي إلى الصورة الإنسانية، ونحن نقول به إلى أن يقوم الدليل على خلافه فتدبر ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ﴾ المعهودة ﴿لَحْماً﴾ أي جعلنا ساتراً لكل منها كاللباس، وذلك اللحم يحتمل أن يكون من لحم المضغة بأن لم تجعل كلها عظاماً بل بعضها ويبقى البعض فيمد على العظام حتى يسترها، ويحتمل أن يكون لحماً آخر خلقه الله تعالى على العظام من دم في الرحم.

وجمع ﴿العظام﴾ دون غيرها مما في الأطوار لأنها متغايرة هيئة وصلابة بخلاف غيرها ألا ترى عظم الساق وعظم الأصابع وأطراف الأضلاع، وعدة العظام مطلقاً على ما قيل مائتان وثمانية وأربعون عظماً وهي عدة رحم بالجمل الكبير، وجعل بعضهم هذه عدة أجزاء الإنسان والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبان والمفضل والحسن وقتادة وهارون والجعفي ويونس عن أبي عمرو وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما بإفراد ﴿العظام﴾ في الموضعين اكتفاء باسم الجنس الصادق على القليل والكثير مع عدم اللبس كما في قوله: «كلوا في بعض بطنكم تعفوا». واختصاص مثل ذلك بالضرورة على ما نقل عن سيبويه لا يخلو عن نظر، وفي الإفراد هنا مشاكلة لما ذكر قبل في الأطوار كما ذكره ابن جني.

وقرأ السلمي وقتادة أيضاً والأعرج والأعمش ومجاهد وابن محيصن بإفراد الأول وجمع الثاني.

وقرأ أبو رجاء وإبراهيم بن أبي بكر ومجاهد أيضاً بجمع الأول وإفراد الثاني ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ مبايناً للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعل حيواناً ناطقاً سميعاً بصيراً وأودع كل عضو منه وكل جزء عجائب وغرائب لا تدرك بوصف ولا تبلغ بشرح، ومن هنا قيل:

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وقيل الخلق الآخر الروح والمراد بها النفس الناطقة. والمعنى أنشأنا له أو فيه خلقاً آخر، والمتبادر من إنشاء الروح خلقها وظاهر العطف بثم يقتضي حدوث البدن وهو قول أكثر الإسلاميين وإليه ذهب أرسطو، وقيل إنشاؤها نفخها في البدن وهو عند بعض عبارة عن جعلها متعلقة به، وعند أكثر المسلمين جعلها سارية فيه، وإذا أريد بالروح الروح الحيوانية فلا كلام في حدوثها بعد البدن وسريانها فيه، وقيل: الخلق الآخر القوى الحساسة، وقال الضحاك ويكاد يضحك منه فيما أخرجه عنه عبد بن حميد: الخلق الآخر الأسنان والشعر فقيل له: أليس يولد وعلى رأسه الشعر؟ فقال: فأين العانة والإبط، وما أشرنا إليه من كون ﴿ثم﴾ للترتيب الزماني هو ما يقتضيه أكثر استعمالاتها، ويجوز أن تكون للترتيب الرتبي فإن الخلق الثاني أعظم من الأول ورتبته أعلى وجاءت المعطوفات الأول بعضها بثم وبعضها بالفاء ولم يجىء جميعها بثم أو بالفاء مع صحة ذلك في مثلها للإشارة إلى تفاوت الاستحالات فالمعطوف بثم مستبعد حصوله مما قبله فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسي لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً وكذا جعل النطفة البيضاء السيالة دماً أحمر جامداً بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً له في اللون والصورة

وكذا تصليب المضغة حتى تصير عظماً وكذا مد لحمها عليه ليستره كذا قيل ولا يخلو عن قيل وقال.

واستدل الإمام أبو حنيفة بقوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه﴾ الخ على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر، قال في الكشف: وفي هذا الاستدلال نظر على أصل مخالفيه لأن مباينته للأول لا تخرجه عن ملكه عندهم، وقال صاحب التقريب: إن تضمينه للفرخ لكونه جزءاً من المغضوب لا لكونه عينه أو مسمى باسمه، وفي هذا بحث وفي المسألة خلاف كثير وكلام طويل يطلب من كتب الفروع المبسوطة.

وقال الإمام: قالوا في الآية دلالة على بطلان قول النظام: إن الإنسان هو الروح لا البدن فإنه تعالى بين فيها أن الإنسان مركب من هذه الأشياء، وعلى بطلان قول الفلاسفة: إن الإنسان لا ينقسم وإنه ليس بجسم وكأنهم أرادوا أن الإنسان هو النفس الناطقة والروح الأمرية المجردة فإنها التي ليست بجسم عندهم ولا تقبل الانقسام بوجه وليست داخل البدن ولا خارجه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى وتقدس شأنه سبحانه في علمه الشامل وقدرته الباهرة، و﴿تبارك﴾ فعل ماض لا يتصرف والأكثر إسناده إلى غير مؤنث، والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وجل أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالاً وإعظاماً لشؤونه جل وعلا ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ نعت للاسم الجليل، وإضافة أفعل التفضيل محضة فتفيده تعريفاً إذا أضيف إلى معرفة على الأصح.

وقال أبو البقاء: لا يجوز أن يكون نعتاً لأنه نكرة وإن أضيف لأن المضاف إليه عوض عن ـ من ـ وهكذا جميع باب أفعل منك وجعله بدلاً وهو يقل في المشتقات أو خبر مبتدأ مقدر أي هو أحسن الخالقين والأصل عدم التقدير، وتميز أفعل محذوف لدلالة الخالقين عليه أي أحسن الخالقين خلقاً فالحسن للخلق قيل: نظيره قوله ﷺ: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال» أي جميل فعله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً فاستتر، والخلق بمعنى التقدير وهو وصف يطلق على غيره تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ [المائدة: ١١٠] وقول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وفي معنى ذلك تفسيره بالصنع كما فعل ابن عطية، ولا يصح تفسيره بالإيجاد عندنا إذ لا خالق بذلك المعنى غيره تعالى إلا أن يكون على الفرض والتقدير. والمعتزلة يفسرونه بذلك لقولهم بأن العبد خالق لأفعاله وموجد لها استقلالاً فالخالق الموجد متعدد عندهم، وقد تكفلت الكتب الكلامية بردهم.

ومعنى حسن خلقه تعالى إتقانه وإحكامه، ويجوز أن يراد بالحسن مقابل القبح وكل شيء منه عز شأنه حسن لا يتصف بالقبح أصلاً من حيث إنه منه فلا دليل فيه للمعتزلة بأنه تعالى لا يخلق الكفر والمعاصي كما لا يخفى.

روي أن عبد الله بن سعيد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ فأملى عليه ﷺ قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ حتى إذا بلغ عليه الصلاة والسلام ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ نطق عبد الله بقوله تعالى: ﴿فتبارك الله﴾ الخ قبل إملائه فقال له عليه الصلاة والسلام: هكذا نزلت فقال عبد الله: إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليّ فارتد ولحق بمكة كافراً ثم أسلم قبل وفاته عليه الصلاة والسلام وحسن إسلامه، وقيل: مات كافراً، وطعن بعضهم في صحة هذه الرواية بأن السورة مكية وارتداده بالمدينة كما تقتضيه الرواية، وأجيب بأنه يمكن الجمع بأن تكون الآية نازلة بمكة واستكتبها ﷺ إياه بالمدينة فكان ما كان أو يلتزم كون الآية مدنية لهذا الخبر، وقوله: إن السورة مكية باعتبار الأكثر وعلى هذا يكون اقتصار الجلال السيوطي على استثناء قوله تعالى: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم﴾ إلى

قوله سبحانه: ﴿مبلسون﴾ قصوراً فتذكر. وتروى هذه الموافقة عن معاذ بن جبل. أخرج ابن راهويه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: أملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ إلى قوله: ﴿خلقاً آخر﴾ فقال معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فضحك رسول الله ﷺ فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت» ورويت أيضاً عن عمر رضي الله عنه، أخرج الطبراني، وأبو نعيم في فضائل الصحابة وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما نزلت ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ إلى آخر الآية قال عمر رضي الله تعالى عنه: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فنزلت كما قال. وأخرج ابن عساكر، وجماعة عن أنس أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يفتخر بذلك ويذكر أنها إحدى موافقاته الأربع لربه عز وجل، ثم إن ذلك من حسن نظم القرآن الكريم حيث تدل صدور كثير من آياته على إعجازها، وقد مدحت بعض الأشعار بذلك فقيل:

قصائد إن تكن تتلى على ملإٍ ... صدورها علمت منها قوافيها

لا يقال: فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن الكريم وذلك قادح في إعجازه لما أن الخارج عن قدرة البشر على الصحيح ما كان مقدار أقصر سورة منه على أن إعجاز هذه الآية الكريمة منوط بما قبلها كما تعرب عنه الفاء فإنها اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ما ذكر من الأمور العجيبة حسبما ينبىء عنه ما في اسم الإشارة من معنى البعد المشعر بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل والكمال وكونه بذلك ممتازاً منزلاً منزلة الأمور الحسية ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ أي لصائرون إلى الموت لا محالة كما يؤذن به اسمية الجملة وإن اللام وصيغة النعت الذي هو للثبوت، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما وابن أبي عبلة وابن محيصن «لمائتون» وهو اسم فاعل يراد به الحدوث، قال الفراء وابن مالك: إنما يقال مايت في الاستقبال فقط.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عند النفخة الثانية ﴿تُبْعَثُونَ﴾ من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب، ولم يؤكد سبحانه أمر البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقاً آخر يستغرق العجائب ويستجمع الغرائب فإن في ذلك أدل دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل على بعثه وإعادته وأنه جل وعلا لا يهمل أمره ويتركه بعد موته نسياً منسياً مستقراً في رحم العدم كأن لم يكن شيئاً، ولما تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه تعالى شأنه أحكم خلق الإنسان وأتقنه بالغ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالة على موته مع أنه غير منكر لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله جل جلاله أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الاتقان، وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت وعدم زيادته في الجملة الدالة على البعث لم أر أني سبقت إليه، وقيل في ذلك: إنه تعالى شأنه لما ذكر في الآيات السابقة من التكليفات ما ذكر نبه على أنه سبحانه أبدع خلق الإنسان وقلبه في الأطوار حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله وبه يصح تكليفه بنحو تلك التكليفات وهو كونه حياً عاقلاً سميعاً بصيراً وكان ذلك مستدعياً لذكر طور يقع فيه الجزاء على ما كلفه تعالى به وهو أن يبعث يوم القيامة فنبه سبحانه عليه بقوله: ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ فالمقصود الأهم بعد بيان خلقه وتأهله للتكليف بيان بعثه لكن وسط حديث الموت لأنه برزخ بين طوره الذي تأهل به للأعمال التي تستدعي الجزاء وبين بعثه فلا بد من قطعه للوصول إلى ذلك فكأنه قيل: أيها المخلوق العجيب الشأن إن ماهيتك وحقيقتك تفنى وتعدم ثم إنها

بعينها من الأجزاء المتفرقة والعظام البالية والجلود المتمزقة المتلاشية في أقطار الشرق والغرب تبعث وتنشر ليوم الجزاء لإثابة من أحسن فيما كلفناه به وعقاب من أساء فيه، فالقرينة الثانية وهي الجملة الدالة على البعث لم تفتقر إلى التوكيد افتقار الأولى وهي الجملة الدالة على الموت لأنها كالمقدمة لها وتوكيدها راجع إليها، ومنه يعلم سر نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب انتهى، وفيه من البعد ما فيه.

وقيل: إنما بولغ في القرينة الأولى لتمادي المخاطبين في الغفلة فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين لذلك وأخليت الثانية لوضوح أدلتها وسطوع براهينها، قال الطيبي: هذا كلام حسن لو ساعد عليه النظم الفائق، وربما يقال: إن شدة كراهة الموت طبعاً التي لا يكاد يسلم منها أحد نزلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه، وأما البعث فمن حيث إنه حياة بعد الموت لا تكرهه النفوس ومن حيث إنه مظنة للشدائد تكرهه فلما لم يكن حاله كحال الموت ولا كحال الحياة بل بين بين أكدت الجملة الدالة عليه تأكيداً واحداً، وهذا وجه للتأكيد لم يذكره أحد من علماء المعاني ولا يضر فيه ذلك إذا كان وجيهاً في نفسه، وتكرير حرف التراخي للإيذان بتفاوت المراتب، وقد تضمنت الآية ذكر تسعة أطوار ووقع الموت فيها الطور الثامن ووافق ذلك أن من يولد لثمانية أشهر من حمله قلما يعيش، ولم يذكر سبحانه طور الحياة في القبر لأنه من جنس الإعادة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ إن لخلق ما يحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم، وقيل: استدلال على البعث أي خلقنا في جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لأن تلك النسبة إنما تعرض بعد خلقهم ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ هي السماوات السبع، و ﴿طرائق﴾ جمع طريقة بمعنى مطروقة من طرق النعل والخوافي إذ وضع طاقاتها بعضها فوق بعض قاله الخليل والفراء والزجاج، فهذا كقوله تعالى: ﴿طباقاً﴾ [الملك: ٣، نوح: ١٥] ولكل من السبع نسبة وتعلق بالمطارقة فلا تغليب، وقيل: جمع طريقة بمعناها المعروف وسميت السماوات بذلك لأنها طرائق الملائكة عليهم السلام في هبوطهم وعروجهم لمصالح العباد أو لأنها طرائق الكواكب في مسيرها.

وقال ابن عطية: يجوز أن يكون الطرائق بمعنى المبسوطات من طرقت الحديد مثلاً إذا بسطته وهذا لا ينافي القول بكريتها، وقيل: سميت طرائق لأن كل سماء طريقة وهيئة غير هيئة الأخرى، وأنت تعلم أن الظاهر أن الهيئة واحدة، نعم أودع الله تعالى في كل سماء ما لم يودعه سبحانه في الأخرى فيجوز أن تكون تسميتها طرائق لذلك ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ أي عن جميع المخلوقات التي من جملتها السماوات السبع ﴿غَافِلِينَ﴾ مهملين أمره بل نفيض على كل ما تقتضيه الحكمة، ويجوز أن يراد بالخلق الناس، والمعنى أن خلقنا السماوات لأجل منافعهم ولسنا غافلين عن مصالحهم، وأل على الوجهين للاستغراق وجوز أن تكون للعهد على أن المراد بالخلق المخلوق المذكور وهو السماوات السبع أي وما كنا عنها غافلين بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر أمرها، والإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بشأنها، وإفراد الخلق على سائر الأوجه لأنه مصدر في الأصل أو لأن المتعدد عنده تعالى في حكم شيء واحد.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر عند كثير من المفسرين، والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب أو معناها المعروف ولا يعجز الله تعالى شيء، وكان الظاهر على هذا ـ منها ـ بدل ﴿السماء﴾ ليعود الضمير على الطرائق إلا أنه عدل عنه إلى الإضمار لأن الإنزال منها لا يعتبر فيه كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، وقوله تعالى: ﴿بقَدَر﴾ صفة ﴿ماء﴾ أي أنزلنا ماء متلبساً بمقدار ما يكفيهم في حاجهم ومصالحهم أو بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم، وجوز على هذا أن

يكون في موضع الحال من الضمير، وقيل: هو صفة لمصدر محذوف أي إنزالاً متلبساً بذلك، وقيل: في الجار والمجرور غير ذلك ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ أي جعلناه ثابتاً قاراً فيها ومن ذلك ماء العيون ونحوها، ومعظم الفلاسفة يزعمون أن ذلك الماء من انقلاب البخار المحتبس في الأرض ماء إذا مال إلى جهة منها وبرد وليس لماء المطر دخل فيه، وكونه من السماء باعتبار أن لأشعة الكواكب التي فيها مدخلاً فيه من حيث الفاعلية.

وقال ابن سينا في نجاته: هذه الأبخرة المحتبسة في الأرض إذا انبعث عيوناً أمدت البحار بصب الأنهار إليها ثم ارتفع من البحار والبطائح وبطون الجبال خاصة أبخرة أخرى ثم قطرت ثانياً إليها فقامت بدل ما يتحلل منها على الدور دائماً. وما في الآية يؤيد ما ذهب إليه أبو البركات البغدادي منهم فقد قال في المعتبر: إن السبب في العيون والقنوات وما يجري مجراها هو ما يسيل من الثلوج ومياه الأمطار لأنا نجدها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها وإن استحالة الأهوية والأبخرة المنحصرة في الأرض لا مدخل لها في ذلك فإن باطن الأرض في الصيف أشد برداً منه في الشتاء فلو كان ذلك سبب استحالتها لوجب أن تكون العيون والقنوات ومياه الآبار في الصيف أزيد وفي الشتاء أنقص مع أن الأمر بخلاف ذلك على ما دلت عليه التجربة انتهى، واختار القاضي حسين المبيدي أن لكل من الأمرين مدخلاً، واعترض على دليل أبي البركات بأنه لا يدل إلا على نفي كون تلك الاستحالة سبباً تاماً وأما على أنها لا مدخل لها أصلاً فلا. والحق ما يشهد له كتاب الله تعالى فهو سبحانه أعلم بخلقه، وكل ما يذكره الفلاسفة في أمثال هذه المقامات لا دليل لهم عليه يفيد اليقين كما أشار إليه شارح حكمة العين، وقيل: المراد بهذا الماء ماء أنهار خمسة، فقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «أنزل الله تعالى من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند وجيحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض» وجعلها منافع للناس في أصناف معايشهم وذلك قوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام فرفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر من ركن البيت ومقام إبراهيم عليه السلام وتابوت موسى عليه السلام بما فيه وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قول الله تعالى: ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة. ولا يخفى على المتتبع أن هذا الخبر أخرجه ابن مردويه والخطيب بسند ضعيف، نعم حديث أربعة أنهار من الجنة سيحان وجيحان وهما غير سيحون وجيحون لأنهما نهران بالعواصم عند المصيصة وطرسوس وسيحون وجيحون نهرا الهند وبلخ كما سمعت على ما قاله ابن عبد البر والفرات والنيل صحيح لكن الكلام في تفسير الآية بذلك. وعن مجاهد أنه حمل الماء على ما يعم ماء المطر وماء البحر وقال ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء، وأنت تعلم أن الأوفق بالأخبار وبما يذكر بعد في الآية الكريمة كون المراد به ما عدا ماء البحر.

﴿إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ أي على إزالته بإخراجه عن المائية أو بتغويره بحيث يتعذر استخراجه أو بنحو ذلك ﴿لَقَادِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، فالجملة في موضع الحال وفي تنكير ﴿ذهاب﴾ إيماء إلى كثرة طرقه لعموم النكرة وإن كانت في الإثبات وبواسطة ذلك تفهم المبالغة في الإثبات، وهذه الآية أكثر مبالغة من قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾ [الملك: ٣٠].

وذكر صاحب التقريب ثمانية عشر وجهاً للأبلغية، الأول أن ذلك على الفروض والتقدير، وهذا الجزم على معنى أنه أدل على تحقيق ما أوعد به وإن لم يقع، الثاني التوكيد بأن الثالث اللام في الخبر الرابع أن هذه في مطلق الماء المنزل من السماء وتلك في ماء مضاف إليهم الخامس أن الغائر قد يكون باقياً بخلاف الذاهب السادس ما في

تنكير ﴿ذهاب﴾ من المبالغة السابع اسناده هاهنا إلى مذهب بخلافه تمت حيث قيل ﴿غوراً﴾. الثامن ما في ضمير المعظم نفسه من الروعة التاسع ما في «قادرون» من الدلالة على القدرة عليه والفعل الواقع من القادر أبلغ. العاشر ما في جمعه. الحادي عشر ما في لفظ ﴿به﴾ من الدلالة على أن ما يمسكه فلا مرسل له، الثاني عشر إخلاؤه من التعقيب بأطماع وهنالك ذكر الإتيان المطمع. الثالث عشر تقديم ما فيه الإيعاد وهو الذهاب على ما هو كالمتعلق له أو متعلقة على المذهبين البصري والكوفي. الرابع عشر ما بين الجملتين الاسمية والفعلية من التفاوت ثباتاً وغيره. الخامس عشر ما في لفظ «أصبح» من الدلالة على الانتقال والصيرورة. السادس عشر أن الإذهاب هاهنا مصرح به. وهنالك مفهوم من سياق الاستفهام. السابع عشر أن هنالك نفي ماء خاص أعني المعين بخلافه هاهنا. الثامن عشر اعتبار مجموع هذه الأمور التي يكفي كل منها مؤكداً. ثم قال: هذا ما يحضرنا الآن والله تعالى أعلم اهـ. وفي النفس من عد الأخير وجهاً شيء.

وقد يزاد على ذلك فيقال: التاسع عشر إخباره تعالى نفسه به من دون أمر للغير هاهنا بخلافه هنالك فإنه سبحانه أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك. العشرون عدم تخصيص مخاطب هاهنا وتخصيص الكفار بالخطاب هنالك. الحادي والعشرون التشبيه المستفاد من جعل الجملة حالاً كما أشرنا إليه فإنه يفيد تحقيق القدرة ولا تشبيه ثمت. الثاني والعشرون إسناد القدرة إليه تعالى مرتين، وقد زاد بعض أجلة أهل العصر العاصرين سلاف التحقيق من كرم أذهانهم الكريمة أكرم عصر أعني به ثالث الرافعي والنواوي أخي الملا محمد أفندي الزهاوي فقال: الثالث والعشرون تضمين الإيعاد هنا إيعادهم بالإبعاد عن رحمة الله تعالى لأن ذهب به يستلزم مصاحبة الفاعل المفعول وذهاب الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهاب رحمته سبحانه عنهم ولعنهم وطردهم عنها ولا كذلك ما هناك. الرابع والعشرون أنه ليس الوقت للذهاب معيناً هنا بخلافه في ﴿إن أصبح﴾ فإنه يفهم منه أن الصيرورة في الصبح على أحد استعمالي أصبح ناقصاً. الخامس والعشرون أن جهة الذهاب به ليست معينة بأنها السفل. السادس والعشرون أن الإيعاد هنا بما لم يبتلوا به قط بخلافه بما هنالك. السابع والعشرون إن الموعد به هنا إن وقع فهم هالكون البتة. الثامن والعشرون أنه لم يبق هنا لهم متشبث ولو ضعيفاً في تأميل امتناع الموعد به وهناك حيث أسند الإصباح غوراً إلى الماء ومعلوم أن الماء لا يصبح غوراً بنفسه كما هو تحقيق مذهب الحكيم أيضاً احتمل أن يتوهم الشرطية مع صدقها ممتنعة المقدم فيأمنوا وقوعه. التاسع و العشرون أن الموعد به هنا يحتمل في بادي النظر وقوعه حالاً بخلافه هناك فإن المستقبل متعين لوقوعه لمكان ﴿إن﴾ وظاهر أن التهديد بمحتمل الوقوع في الحال أهول ومتعين الوقوع في الاستقبال أهون. الثلاثون أن ما هنا لا يحتمل غير الإيعاد بخلاف ما هناك فإنه يحتمل ولو علم بعد أن يكون المراد به الامتنان بأنه ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ فلا يأتيكم بماء معين سوى الله تعالى، ويؤيده ما سن بعده من قول الله ربنا ورب العالمين انتهى فتأمل ولا تغفل والله تعالى الهادي لأسرار كتابه.

واختيرت المبالغة هاهنا على ما قاله بعض المحققين لأن المقام يقتضيها إذ هو لتعداد آيات الآفاق والأنفس على وجه يتضمن الدلالة على القدرة والرحمة مع كمال عظمة المتصف بهما ولذا ابتدىء بضمير العظمة مع التأكيد بخلاف ما تمت فإنه تتميم للحث على العبادة والترغيب فيها وهو كاف في ذلك ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ أي بذلك الماء وهو ظاهر فيما عليه السلف، وقال الخلف: المراد أنشأنا عنده ﴿جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قدمهما لكثرتهما وكثرة الانتفاع بهما لا سيما في الحجاز والطائف والمدينة ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكهون بها وتتنعمون زيادة على المعتاد من الغذاء الأصلي، والمراد بها ما عدا ثمرات النخيل والأعناب.

﴿وَمِنْهَا﴾ أي من الجنات والمراد من زروعها وثمارها، ومن ابتدائية وقيل إنها تبعيضية ومضمونها مفعول ﴿تَأْكُلُونَ﴾ والمراد بالأكل معناه الحقيقي.

وجوز أن يكون مجازاً أو كناية عن العيش مطلقاً أي ومنها ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته، وجوز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب أي لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والدبس من كل منهما وغير ذلك وطعام تأكلونه فثمرتها جامعة للتفكه والغذاء بخلاف ثمرة ما عداهما وعلى هذا تكون الفاكهة مطلقة على ثمرتهما.

وذكر الراغب في الفاكهة قولين: الأول أنها الثمار كلها، والثاني أنها ما عدا العنب والرمان، وصاحب القاموس اختار الأول وقال: قول مخرج التمر والرمان منها مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ [الرحمن: ٦٨] باطل مردود، وقد بينت ذلك مبسوساً في اللامع المعلم العجاب اهـ؛ وأنت تعلم أن للفقهاء خلافاً في الفاكهة فذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنها التفاح والبطيخ والمشمش والكمثرى ونحوها لا العنب والرمان والرطب، وقال صاحباه: المستثنيات أيضاً فاكهة وعليه الفتوى، ولا خلاف كما في القهستاني نقلاً عن الكرماني في أن اليابس منها كالزبيب والتمر وحب الرمان ليس بفاكهة.

وفي الدر المختار أن الخلاف بين الإمام وصاحبيه خلاف عصر فالعبرة فيمن حلف لا يأكل الفاكهة العرف فيحنث بأكل ما يعد فاكهة عرفاً ذكر ذلك الشمني وأقره الغزي، ولا يخفى أن شيئاً واحداً يقال له فاكهة في عرف قوم ولا يقال له ذلك في عرف آخرين، ففي النهر عن المحيط ما روي من أن الجوز واللوز فاكهة فهو في عرفهم أما في عرفنا فإنه لا يؤكل للتفكه اهـ، ثم إني لم أر أحداً من اللغويين ولا من الفقهاء عد الدبس فاكهة فتدبر ولا تغفل. ﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطف على ﴿جنات﴾، وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف، والأولى تقديره مقدماً أي أنشأنا لكم شجرة ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهو جبل موسى عليه السلام الذي ناجى ربه سبحانه عنده وهو بين مصر وأيلة، ويقال لها اليوم العقبة، وقيل بفلسطين من أرض الشام، ويقال له طور سينين، وجمهور العرب على فتح سين سيناء والمد. وبذلك قرأ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ويعقوب وأكثر السبعة هو اسم للبقعة والطور اسم للجبل المخصوص أو لكل جبل وهو مضاف إلى ﴿سيناء﴾ كما أجمعوا عليه، ويقصد تنكيره على الأول كما في سائر الأعلام إذا أضيفت وعلى الثاني يكون طور سيناء كمنارة المسجد.

وجوز أن يكون كامرىء القيس بمعنى أنه جعل مجموع المضاف والمضاف إليه علماً على ذلك العلم، وقيل سيناء اسم لحجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده. وروي هذا عن مجاهد وفي الصحاح طور سيناء جبل بالشام وهو طور أضيف إلى سيناء وهو شجر وقيل هو اسم الجبل والإضافة من إضافة العام إلى الخاص كما في جبل أحد.

وحكي هذا القول في البحر عن الجمهور لكن صحح القول بأنه اسم البقعة وهو ممنوع من الصرف للألف الممدودة فوزنه فعلاء كصحراء، وقيل: منع من الصرف للعلمية والعجمة، وقيل: للعلمية والتأنيث بتأويل البقعة ووزنه فيعال لا فعلال إذ لا يوجد هذا الوزن في غير المضاعف في كلام العرب إلا نادراً كخزعال لظلع الإبل حكاه الفراء ولم يثبته أبو البقاء والأكثرون على أنه ليس بعربي بل هو أما نبطي أو حبشي وأصل معناه الحسن أو المبارك، وجوز بعض أن يكون عربياً من السناء بالمد وهو الرفعة أو السنا بالقصر وهو النور.

وتعقبه أبو حيان بأن المادتين مختلفتان لأن عين السناء أو السنا نون وعين سيناء ياء. ورد بأن القائل بذلك يقول

إنه فيعال ويجعل عينه النون وياءه مزيدة وهمزته منقلبة عن واو، الحرميان وأبو عمرو والحسن «سيناء» بكسر السين والمد وهي لغة لبني كنانة وهو أيضاً ممنوع من الصرف للألف الممدودة عند الكوفيين لأنهم يثبتون أن همزة فعلاء تكون للتأنيث: وعند البصريين ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة أو العلمية والتأنيث لأن ألف فعلاء عندهم لا تكون للتأنيث بل للإلحاق بفعلال كعلباء وحزباء وهو ملحق بقرطاس وسرداح وهمزته منقلبة عن واو أو ياء لأن الإلحاق يكون بهما، وقال أبو البقاء: همزة سيناء بالكسر أصل مثل حملاق وليست للتأنيث إذ ليس في الكلام مثل حمراء والياء أصل إذ ليس في الكلام سناء، وجوز بعضهم أن يكون فيعالاً كديماس، وقرأ الأعمش «سينا» بالفتح والقصر، وقرىء «سِناء» بالكسر والقصر فألفه للتأنيث إن لم يكن أعجمياً، والمراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون وتخصيصه بالذكر من بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافع معروفة. وقد قيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وتعمر كثيراً، ففي التذكرة أنها تدوم ألف عام و لا تبعد صحته لكن علله بقوله: لتعلقها بالكوكب العالي وهو بعيد الصحة. وفي تفسير الخازن قيل تبقى ثلاثة آلاف سنة وتخصيصها بالوصف بالخروج من الطور مع خروجها من سائر البقاع أيضاً وأكثر ما تكون في المواضع التي زاد عرضها على ميلها واشتد بردها وكانت جبلية ذا تربة بيضاء أو حمراء لتعظيمها أو لأنه المنشأ الأصلي لها. ولعل جعله للتعظيم أولى فيكون هذا مدحاً لها باعتبار مكانها.

وقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِالدُّهۡنِ﴾ مدحاً لها باعتبار ما هي عليه في نفسها، والباء للملابسة والمصاحبة مثلها في قولك: جاء بثياب السفر وهي متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ضمير الشجرة أي تنبت ملتبسة بالدهن وهو عصارة كل ما فيه دسم، والمراد به هنا الزيت وملابستها به باعتبار ملابسة ثمرها فإنه الملابس له في الحقيقة.

وجوز أن تكون الباء متعلقة بالفعل معدية له كما في قولك: ذهبت بزيد كأنه قيل: تنبت الدهن بمعنى تتضمنه وتحصله، ولا يخفى أن هذا وإن صح إلا أن إنبات الدهن غير معروف في الاستعمال.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسلام وسهل ورويس والجحدري «تُنبِتُ» بضم التاء المثناة من فوق وكسر الباء على أنه من باب الافعال، وخرج ذلك على أنه من أنبت بمعنى نبت فالهمزة فيه ليست للتعدية وقد جاء كذلك في قول زهير:

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل

وأنكر ذلك الأصمعي وقال: إن الرواية في البيت نبت بدون همزة مع أنه يحتمل أن تكون همزة أنبت فيه إن كانت للتعدية بتقدير مفعول أي أنبت البقل ثمره أو ما يأكلون، ومنهم من خرج ما في الآية على ذلك وقال: التقدير تنبت زيتونها بالدهن، والجار والمجرور على هذا في موضع الحال من المفعول أو من الضمير المستتر في الفعل؛ وقيل: الباء زائدة كما في قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] و نسبة الإنبات إلى الشجرة بل وإلى الدهن مجازية قال الخفاجي: ويحتمل تعدية أنبت بالباء لمفعول ثان.

وقرأ الحسن والزهري وابن هرمز «تُنبَتُ» بضم أوله وفتح ما قبل آخره مبنياً للمفعول؛ والجار والمجرور في موضع الحال، وقرأ زر بن حبيش «تنبت» من الافعال «الدهن» بالنصب وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب «بالدهان» جمع دهن كرماح جمع رمح، وما رووا من قراءة عبد الله تخرج الدهن وقراءة أبي تثمر بالدهن محمول على التفسير ما في البحر لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور.

﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ معطوف على الدهن، ومغايرته له التي يقتضيها العطف باعتبار المفهوم وإلا فذاتهما واحدة عند كثير من المفسرين، وقد جاء كثيراً تنزيل تغاير المفهومين منزلة تغاير الذاتين، ومنه قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

والمعنى تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهن يدهن به ويسرج منه وكونه إداماً يصبغ فيه الخبز أي يغمس للائتدام قال في المغرب يقال: صبغ الثوب بصبغ حسن وصباغ ومنه الصبغ والصباغ من الإدام لأن الخبز يغمس فيه ويلون به كالخل والزيت، وظاهر هذا اختصاصه بكل إدام مائع وبه صرح في المصباح. وصرح بعضهم بأن إطلاق الصبغ على ذلك مجاز، ولعل في كلام المغرب نوع إشارة إليه وروي عن مقاتل أنه قال: الدهن الزيت والصبغ الزيتون وعلى هذا يكون العطف من عطف المتغايرين ذاتاً وهو الأكثر في العطف، ولا بد أن يقال عليه: إن الصبغ الإدام مطلقاً وهو ما يؤكل تبعاً للخبز في الغالب مائعاً كان أم جامداً والزيتون أكثر ما يأكله الفقراء في بلادنا تبعاً للخبز والأغنياء يأكلونه تبعاً لنحو الأرز وقلما يأكلونه تبعاً للخبز، وأنا مشغوف به مذ أنا يافع فكثيراً ما آكله تبعاً واستقلالاً، وأما الزيت فلم أر في أهل بغداد من اصطبغ منه وشذ من أكل منهم طعاماً وهو فيه وأكثرهم يعجب ممن يأكله ومنشأ ذلك قلة وجوده عندهم وعدم الفهم له فتعافه نفوسهم، وقد كنت قديماً تعافه نفسي وتدريجاً ألفته والحمد لله تعالى، فقد كان ﷺ يأكله. وصح أنه ﷺ طبخ له لسان شاة بزيت فأكل منه، وأخرج أبو نعيم في الطب عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ كلوا الزيت وادهنوا به فإنه شفاء من سبعين داء منها الجذام» وأخرج الترمذي في الأطعمة عن عمر رضي الله تعالى عنه مرفوعاً «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة» لكن قال بعضهم: هذا الأمر لمن قدر على استعماله ووافق مزاجه وهو كذلك فلا اعتراض على من لم يوافق مزاجه في عدم استعماله بل الظاهر حرمة استعماله عليه إن أضر به كما قالوا بحرمة استعمال الصفراوي للعسل ولا فرق في ذلك بين الأكل والادهان فإن الأدهان به قد يضر كالأكل، قال ابن القيم: الدهن في البلاد الحارة كالحجاز من أسباب حفظ الصحة وإصلاح البدن وهو كالضروري لأهلها وأما في البلاد الباردة فضار وكثرة دهن الرأس بالزيت فيها فيه خطر على البصر انتهى.

وقرأ عامر بن عبد الله «وصباغاً» وهو بمعنى صبغ كما مرت إليه الإشارة ومنه دبغ ودباغ ونصبه بالعطف على موضع ﴿بالدهن﴾ وفي تفسير ابن عطية وقرأ عامر بن عبد قيس ومتاعاً للآكلين وهو محمول على التفسير.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ بيان للنعم الواصلة إليهم من جهة الحيوان إثر بيان النعم الفائضة من جهة الماء والنبات وقد بين أنها مع كونها في نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتى عبرة لا بد من أن يعتبروا بها ويستدلوا بأحوالها على عظم قدرة الله عز وجل وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه، وخص هذا بالحيوان لما أن محل العبرة فيه أظهر.

وقوله تعالى: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ تفصيل لما فيها من مواقع العبر. وما في بطونها عبارة إما عن الألبان فمن تبعيضية والمراد بالبطون الأجواف فإن اللبن في الضروع أو عن العلف الذي يتكون منه اللبن فمن ابتدائية والبطون على حقيقتها. وأياً ما كان فضمير ﴿بطونها﴾ للأنعام باعتبار نسبة ما للبعض إلى الكل لا للإناث منها على استخدام لأن عموم ما بعده يأباه، وقرىء بفتح النون وبالتاء أي تسقيكم الأنعام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذكر من أصوافها وأشعارها وأوبارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ الظاهر أن الأكل على معناه الحقيقي ومن تبعيضية لأن من أجزاء الأنعام ما لا يؤكل، وتقديم المعمول للفاصلة أو للحصر الإضافي بالنسبة إلى الحمير ونحوها أو الحصر باعتبار ما في ﴿تأكلون﴾ من الدلالة على العادة المستمرة، وكان هذا بيان لانتفاعهم بأعيانها وما قبله بيان لانتفاعهم بمرافقها وما يحصل منها ويجوز عندي ولم أر من صرح به أن يكون الأكل مجازاً أو كناية عن التعيش مطلقاً كما سمعت قبل أي ومنها ترزقون وتحصلون معايشكم.

﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ في البر والبحر بأنفسكم وأثقالكم. وضمير ﴿عليها﴾ للأنعام باعتبار نسبة ما للبعض إلى الكل أيضاً. ويجوز أن يكون لها باعتبار أن المراد بها الإبل على سبيل الاستخدام لأنها هي المحمول عليها عندهم والمناسبة للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة في صيدحة:

سفينة بر تحت خدي زمامها

وهذا مما لا بأس به، وأما حمل الأنعام من أول الأمر على الإبل فلا يناسب مقام الامتنان ولا سياق الكلام، وفي الجمع بينهما وبين الفلك في إيقاع الحمل عليها مبالغة في تحملها للحمل، قيل: وهذا هو الداعي إلى تأخير هذه المنفعة مع كونها من المنافع الحاصلة منها عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا
بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا
كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ
فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ
إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾
وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ
بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ
ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ
مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ
إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ
﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ
فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ
أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا
فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ

وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ
بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ
فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِه﴾ [المؤمنون: ٢٣ . ٦٣] شروع في بيان إهمال الناس وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد سبحانه من النعم وما حاقهم من زوالها وفي ذلك تخويف لقريش.

وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه، وفي إيرادها إثر قوله تعالى: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ من حسن الموقع ما لا يوصف، وتصديرها بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها، والكلام في نسب نوح عليه السلام وكمية لبثه في قومه ونحو ذلك قد مر، والأصح أنه عليه السلام لم تكن رسالته عامة بل أرسل إلى قوم مخصوصين ﴿فَقَالَ﴾ متعطفاً عليهم ومستميلاً لهم إلى الحق ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله﴾ أي اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى في سورة [هود: ٢] ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ وترك التقييد به للإيذان بأنها هي العبادة فقط وأما العبادة مع الإشراك فليست من العبادة في شيء رأساً، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إله غَيْرُهُ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها أو تعليل الأمر بها، و ﴿غيره﴾ بالرفع صفة لإله باعتبار محله الذي هو الرفع على أنه فاعل ـ بلكم ـ أو مبتدأ خبره ﴿لكم﴾ أو محذوف و﴿لكم﴾ للتخصيص والتبيين أي ما لكم في الوجود إله غيره تعالى. وقرىء «غيره» بالجر اعتباراً للفظ «إله» ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أتعرفون ذلك أي مضمون قوله تعالى ﴿ما لكم من إله غيره﴾ فلا تتقون عذابه تعالى الذي يستوجبه ما أنتم عليه من ترك عبادته سبحانه وحده وإشراككم به عز وجل في العبادة ما لا يستحق الوجود لولا إيجاد الله تعالى إياه فضلاً عن استحقاق العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه، ويجوز أن يكون التقدير ألا تلاحظون فلا تتقون فالمنكر كلا الأمرين فالمبالغة حينئذ في الكمية وفي الأول في الكيفية، وتقدير مفعول ﴿تتقون﴾ حسبما أشرنا إليه أولى من تقدير بعضهم إياه زوال النعم ولا نسلم أن المقام يقتضيه كما لا يخفى ﴿فَقَالَ الْمَلأُ﴾ أي الإشراف ﴿الَّذين كَفَرُوا من قَوْمه﴾ وصف الملإ بالكفر مع اشتراك الكل فيه للإيذان بكمال عراقتهم وشدة شكيمتهم فيه، وليس المراد من ذلك إلا ذمهم دون التمييز عن أشراف آخرين آمنوا به عليه السلام إذ لم يؤمن به أحد من أشرافهم كما يفصح عنه قول: ﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ وقال الخفاجي: يصح أن يكون الوصف بذلك للتمييز وإن لم يؤمن بعض أشرافهم وقت التكلم بهذا الكلام لأن من أهله عليه السلام المتبعين له أشرافاً، وأما قول ﴿ما نراك﴾ [هود: ٢٧] الخ فعلى زعمهم أو لقلة المتبعين له من الأشراف، وأياً ما كان فالمعنى فقال الملأ لعوامهم ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة في وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة، ووصفوه بقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ إغضاباً للمخاطبين عليه عليه السلام وإغراء لهم على

معاداته، والتفضل طلب الفضل وهو كناية عن السيادة كأنه قيل: يريد أن يسودكم ويتقدمكم بادعائه الرسالة مع كونه مثلكم، وقيل: صيغة التفعل مستعارة للكمال فإنه ما يتكلف له يكون على أكمل وجه فكأنه قيل: يريد كمال الفضل عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام أي ولو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلاً من الملائكة، وإنما قيل ﴿لأنزل﴾ لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال فمفعول المشيئة مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما في قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لهداكم﴾ [النحل: ٩] ولا بأس في ذلك، وأما القول بأن مفعول المشيئة إنما يحذف إذا لم يكن أمراً غريباً وكان مضمون الجزاء فهو ضابطة للحذف المطرد فيه لا مطلقاً فإنه كسائر المفاعيل يحذف ويقدر بحسب القرائن، وعلى هذا يجوز أن يقال: التقدير ولو شاء الله تعالى عبادته وحده لأنزل ملائكة يبلغوننا ذلك عنه عز وجل وكان هذا منهم طعن في قوله عليه السلام لهم ﴿اعبدوا الله﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ بل هو طعن فيما ذكر على التقدير الأول أيضاً وذلك بناء على أن ﴿هذا﴾ إشارة إلى الكلام المتضمن الأمر بعبادة الله عز وجل خاصة والكلام على تقدير مضاف أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام في آبائنا الماضين قبل بعثته عليه السلام، وقدر المضاف لأن عدم السماع بكلام نوح المذكور لا يصلح للرد فإن السماع بمثله كاف للقبول، وقيل: الإشارة إلى نفس هذا الكلام مع قطع النظر عن المشخصات فلا حاجة إلى تقدير المضاف وهو كلام وجيه؛ ثم إن قولهم هذا إما لكونهم وآبائهم في فترة وإما لفرط غلوهم في التكذيب والعناد وانهماكهم في الغي والفساد، وأياً ما كان ينبغي أن يكون هو الصادر عنهم في مبادي دعوته عليه السلام كما ينبىء عنه الفاء الظاهرة في التعقيب في قوله تعالى: ﴿فقال الملأ﴾ الخ.

وقيل: ﴿هذا﴾ إشارة إلى نوح عليه السلام على معنى ما سمعنا بخبر نبوته، وقيل: إلى اسمه وهو لفظ نوح والمعنى لو كان نبياً لكان له ذكر في آبائنا الأولين، و على هذين القولين يكون قولهم المذكور من متأخري قومه المولودين بعد بعثته بمدة طويلة فيكون المراد من آبائهم الأولين من مضى قبلهم في زمنه عليه الصلاة والسلام، وصدور ذلك عنهم في أواخر أمره عليه السلام وقيل: بعد مضي آبائهم ولا يلزم أن يكون في الأواخر، وعليهما أيضاً يكون قولهم: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلاَّ رَجُلٌ به جِنَّةٌ﴾ أي جنون أو جن يخبلونه ولذلك يقول ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُوا به﴾ فاحتملوه و اصبروا عليه وانتظروا ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ لعله يفيق مما هو فيه محمولاً على ترامي أحوالهم في المكابرة والعناد وإضرابهم عما وصفوه عليه السلام به من البشرية وإرادة التفضل إلى وصفه بما ترى وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلاً وأرزنهم قولاً، وهو على ما تقدم محمول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ﴿قَالَ﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال عليه السلام بعدما سمع منهم هذه الأباطيل؟ فقيل: قال لما رآهم قد أصروا على ما هم فيه وتمادوا على الضلال حتى يئس من إيمانهم بالكلية وقد أوحي إليه ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن﴾ [هود: ٣٦] ﴿رَبِّ انْصُرْنِي﴾ بإهلاكهم بالمرة بناء على أنه حكاية إجمالية لقوله عليه السلام ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: ٢٦] الخ، والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ للسببية أو للبدل وما مصدرية أي بسبب تكذيبهم إياي أو بدل تكذيبهم، وجوز أن تكون الباء آلية وما موصولة أي انصرني بالذي كذبوني به وهو العذاب الذي وعدتهم إياه ضمن قولي: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [الأعراف: ٥٩، الشعراء: ١٣٥، الأحقاف: ٢١] وحاصله انصرني بإنجاز ذلك، ولا يخفى ما في حذف مثل هذا العائد من الكلام، وقرأ أبو جعفر وابن محيصن «ربُ» بضم الباء ولا يخفى وجهه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عقيب ذلك، وقيل: بسبب ذلك ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ ﴿أن﴾ مفسرة لما في الوحي من معنى القول ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً بمزيد حفظنا ورعايتنا لك من التعدي أو من

الزيغ في الصنع ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع الفلك، والمراد بالأمر العذاب كما في قوله تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ [هود: ٤٣] فهو واحد الأمور لا الأمر بالركوب فهو واحد الأوامر كما قيل، والمراد بمجيئه كمال اقترابه أي ابتداء ظهوره أي إذا جاء أثر تمام الفلك عذابنا، وقوله سبحانه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ بيان وتفسير لمجيء الأمر، روي أنه قيل له عليه السلام إذا فار التنور اركب أنت ومن معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار إلى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء أخبرته امرأته فركبوا، واختلفوا في مكانه فقيل كان في مسجد الكوفة أي في موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم، وقيل: كان في عين وردة من الشام، وقيل: بالجزيرة قريباً من الموصل، وقيل: التنور وجه الأرض، وقيل: فار التنور مثل كحمي الوطيس، وعن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه فسر ﴿فار التنور﴾ بطلع الفجر فقيل: معناه إن فوران التنور كان عند طلوع الفجر وفيه بعد وتمام الكلام في ذلك قد تقدم لك.

﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾ أي ادخل فيها يقال سلك فيه أي دخل فيه وسلكه فيه أي أدخله فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ما سلككم في سقر﴾ [المدثر: ٤٢] ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل أمة ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ أي فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ فإنه ظاهر في الفردين دون الجمعين.

وقرأ أكثر القراء من «كل زوجين» بالإضافة على أن المفعول «اثنين» أي اسلك من كل أمتي الذكر والأنثى واحدين مزدوجين كجمل وناقة وحصان ورمكة. روي أنه عليه السلام لم يحمل في الفلك من ذلك إلا ما يلد ويبيض وأما ما يتولد من العفونات كالبق والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منه، ولعل نحو البغال ملحقة في عدم الحمل بهذا الجنس لأنه يحصل بالتوالد من نوعين فالحمل منهما مغن عن الحمل منه إذا كان الحمل لئلا ينقطع النوع كما هو الظاهر فيحتاج إلى خلق جديد كما خلق في ابتداء الأمر. والآية صريحة في أن الأمر بالإدخال كان قبل صنعه الفلك، وفي سورة [هود: ٤٠] ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا حمل فيها من كل زوجين﴾ فالوجه أن يحمل على أنه حكاية لأمر آخر تنجيزي ورد عند فوران التنور الذي نيط به الأمر التعليقي اعتناء بشأن المأمور به أو على أن ذلك هو الأمر السابق بعينه لكن لما كان الأمر التعليقي قبل تحقق المعلق به في حق إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث عند تحققه فحكي على صورة التنجيز ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ قيل عطف على ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ على قراءة الإضافة وعلى ﴿زوجين﴾ على قراءة التنوين، ولا يخفى اختلال المعنى عليه فهو منصوب بفعل معطوف على ﴿فاسلك﴾ أي واسلك أهلك، والمراد بهم أمة الإجابة الذين آمنوا به عليه الصلاة والسلام سواء كانوا من ذوي قرابته أم لا وجاء إطلاق الأهل على ذلك، وإنما حمل عليه هنا دون المعنى المشهور ليشمل من آمن ممن ليس ذا قرابة فإنهم قد ذكروا في سورة هود والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ﴾ استثناء منقطعاً، واختار بعضهم حمل الأهل على المشهور وإرادة امرأته وبنيه منه كما في سورة هود وحينئذ يكون الاستثناء متصلاً كما كان هناك، وعدم ذكر من آمن للاكتفاء بالتصريح به ثمت مع دلالة ما في الاستثناء وكذا ما بعده على أنه ينبغي إدخاله، وتأخير الأمر بإدخال الأهل على التقديرين عما ذكر من إدخال الأزواج لأن إدخال الأزواج يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام وإلى معاونة أهله إياه وأما هم فإنما يدخلون باختيارهم، ولأن في المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره فتقديمه يخل بتجاوب النظم الكريم، والمراد بالقول القول بالإهلاك، والمراد بسبق ذلك تحققه في الأزل أو كتابة ما يدل عليه في اللوح المحفوظ قبل أن تخلق الدنيا، وجيء بعلى لكون السابق ضاراً كما جيء باللام في قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الأنبياء: ١٠١] لكون السابق نافعاً ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي لا تكلمني فيهم بشفاعة وإنجاء لهم من الغرق ونحوه، وإذا كان المراد بهم من سبق عليه القول

فالإظهار في مقام الإضمار لا يخفى وجهه ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لما ينبيء عنه من عدم قبول الشفاعة لهم أي إنهم مقضي عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصي ومن هذا شأنه لا ينبغي أن يشفع له أو يشفع فيه وكيف ينبغي ذلك وهلاكه من النعم التي يؤمر بالحمد عليها كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فإن الحمد على الإنجاء منهم متضمن للحمد على إهلاكهم، وإنما قيل ما ذكر ولم يقل فقل الحمد لله الذي أهلك القوم الظالمين لأن نعمة الإنجاء أتم، وقال الخفاجي: إن في ذلك إشارة إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو عدوا من حيث كونها مصيبة له بل لما تضمنته من السلامة من ضرره أو تطهير الأرض من وسخ شركه وإضلاله.

وأنت تعلم أن الحمد هنا رديف الشكر فإذا خص بالنعمة الواصلة إلى الشاكر لا يصح أن يتعلق بالمصيبة من حيث إنها مصيبة وهو ظاهر، وفي أمره عليه السلام بالحمد على نجاة أتباعه إلى أنه نعمة عليه أيضاً.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ في الفلك ﴿مُنْزَلًا﴾ أي إنزالاً أو موضع إنزال ﴿مُبَارَكًا﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي من يطلق عليه ذلك، والدعاء بذلك إذا كان بعد الدخول فالمراد إدامة ذلك الإنزال ولعل المقصود إدامة البركة، وجوز أن يكون دعاء بالتوفيق للنزول في أبرك منازلها لأنها واسعة، وإن كان قبل الدخول فالأمر واضح، وروى جماعة عن مجاهد أن هذا دعاء أمر نوح عليه السلام أن يقوله عند النزول من السفينة فالمعنى رب أنزلني منها في الأرض منزلاً الخ، وأخذ منه قتادة. ندب أن يقول راكب السفينة عند النزول منها ﴿رب أنزلني﴾ الخ، واستظهر بعضهم الأول إذ العطف ظاهر في أن القولين وقت الاستواء. وأعاد ﴿قل﴾ لتعدد الدعاء، والأول متضمن دفع مضرة ولذا قدم وهذا لجلب منفعة.

وأمره عليه السلام أن يشفع دعاءه ما يطابقه من ثنائه عز وجل توسلاً به إلى الإجابة فإن الثناء على المحسن يكون مستدعياً لإحسانه، وقد قالوا: الثناء على الكريم يعني عن سؤاله، وإفراده عليه السلام بالأمر مع شركة الكل في الاستواء لإظهار فضله عليه السلام وأنه لا يليق غيره منهم للقرب من الله تعالى والفوز بعز الحضور في مقام الإحسان مع الإيماء إلى كبريائه عز وجل وأنه سبحانه لا يخاطب كل أحد من عباده والإشعار بأن في دعائه عليه السلام وثنائه مندوحة عما عداه.

وقرأ أبو بكر والمفضل وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبان «مَنْزَلاً» بفتح الميم وفتح الزاي أي مكان نزول، وقرأ أبو بكر عن عاصم «مَنْزِلاً» بفتح الميم وكسر الزاي. قال أبو علي: يحتمل أن يكون المنزل على هذه القراءة مصدراً وأن يكون موضع نزول ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ جليلة يستدل بها أولو الأبصار ويعتبر ذوو الاعتبار ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ إن مخففة من ان واللام فارقة بينها وبين إن النافية وليست إن نافية واللام بمعنى إلا والجملة حالية أي وإن الشأن كنا مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويتذكر، والمراد معاملين معاملة المختبر وهذا كقوله تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ [القمر: ١٥] ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاك قوم نوح عليه السلام ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد أو ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح عليهما السلام، والأول هو المأثور عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وإليه ذهب أكثر المفسرين، وأيد بقوله تعالى حكاية عن هود ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ [الأعراف: ٦٩] وبمجيء قصة عاد بعد قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود وغيرهما؛ واختار أبو سليمان الدمشقي والطبري الثاني واستدلا عليه بذكر الصيحة آخر القصة والمعروف أن قوم صالح هم المهلكون بها دون قوم

هود، وسيأتي الجواب عنه إن شاء الله تعالى، وجعل القرن ظرفاً للإرسال كما في قوله تعالى: ﴿كذلك أرسلناك في أمة﴾ [الرعد: ٣٠] لا غاية له كما في قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ للإيذان من أول الأمر أن من أرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم بل إنما نشأ فيما بين أظهرهم، و ﴿أن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله، وجوز كونها مصدرية ولا مانع من وصلها بفعل الأمر وقبلها جار مقدر أي أرسلنا فيهم رسولاً بأن اعبدوا الله وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إله غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام في نظيره المار في قصة نوح عليه لسلام ﴿وَقَالَ الْمَلأُ﴾ أي الأشراف ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ بيان لهم، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بلقَاء الآخرةَ﴾ أي بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب أو بالمعاد أو بالحياة الثانية صفة للملأ جيء بها ذماً لهم وتنبيهاً على غلوهم في الكفر، ويجوز أن تكون للتمييز إن كان في ذلك القرن من آمن من الأشراف، وتقديم ﴿من قومه﴾ هنا على الصفة مع تأخيره في القصة السابقة لئلا يطول الفصل بين البيان والمبين لو جيء به بعد الصفة وما في حيزها مما تعلق بالصلة مع ما في ذلك من توهم تعلقه بالدنيا أو يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه لو جيء به بعد الوصف وقبل العطف كذا قيل.

وتعقب بأنه لا حاجة إلى ارتكاب جعل ﴿الذين﴾ صفة للملأ وإبداء نكتة للتقديم المذكور مع ظهور جواز جعله صفة لقومه. ورد بأن الداعي لارتكابه عطف قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي نعمناهم ووسعنا عليهم فيها على الصلة فيكون صفة معنى للموصوف بالموصول والمتعارف إنما هو وصف الأشراف بالمترفين دون غيرهم وكذا الحال إذا لم يعطف وجعل حالاً من ضمير ﴿كذبوا﴾ وأنت تعلم أنا لا نسلم أن المتعارف إنما هو وصف الأشراف بالمترفين ولئن سلمنا فوصفهم بذلك قد يبقى مع جعل الموصول صفة لقومه بأن يجعل جملة ﴿أترفناهم﴾ حالاً من ﴿الملأ﴾ بدون تقدير قد أو بتقديرها أي قال الملأ في حق رسولنا ﴿مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ الخ في حال إحساننا عليهم.

نعم الظاهر لفظاً جملة ﴿أترفناهم﴾ على جملة الصلة، والأبلغ معنى جعلها حالاً من الضمير لإفادته الإساءة إلى من أحسن وهو أقوى في الذم، وجيء بالواو العاطفة في ﴿وقال الملأ﴾ هنا ولم يجأ بها بل جيء بالجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً في موضع آخر لأن ما نحن فيه حكاية لتفاوت ما بين المقالتين أعني مقالة المرسل ومقالة المرسل إليهم لا حكاية المقاولة لأن المرسل إليهم قالوا ما قالوا بعضهم لبعض وظاهر إباء ذلك الاستئناف وأما هنالك فيحق الاستئناف لأنه في حكاية المقاولة بين المرسل و المرسل إليهم واستدعاء مقام المخاطبة ذلك بين كذا في الكشف، ولا يحسم مادة السؤال إذ يقال معه: لم حكي هنالك المقاولة وهنا التفاوت بين المقالتين ولم يعكس؟ ومثل هذا يرد على من علل الذكر هنا والترك هناك بالتفنن بأن يقال: إنه لو عكس بأن ترك هنا وذكر هناك لحصل التفنن أيضاً، وأنا لم يظهر لي السر في ذلك، وأما الإتيان بالواو هنا والفاء في ﴿فقال الملأ﴾ في قصة نوح عليه السلام فقد قيل: لعله لأن كلام الملأ هنا لم يتصل بكلام رسولهم بخلاف كلام قوم نوح عليه السلام والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

ولا يخفى ما في قولهم ﴿ما هذا﴾ الخ من المبالغة في توهين أمر الرسول عليه السلام وتهوينه قاتلهم الله ما أجهلهم، وقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة، والظاهر أن ﴿ما﴾ الثانية موصولة والعائد إليها ضمير مجرور حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه الحذف هنا مثله في قولك: مررت بالذي مررت في استيفاء الشرائط، وحسنه هنا كون ﴿تشربون﴾ فاصلة.

وفي التحرير زعم الفراء حذف العائد المجرور مع الجار في هذه الآية وهذا لا يجوز عند البصريين، والآية إما لا

حذف فيها أو فيها حذف المفعول فقط لأن ما إذا كانت مصدرية لم تحتج إلى عائد وإن كانت موصولة فالعائد المحذوف ضمير منصوب على المفعولية متصل بالفعل والتقدير مما تشربونه اهـ، وهذا تخريج على قاعدة البصريين ويفوت عليه فصاحة معادلة التركيب على أن الوجه الأول محوج إلى تأويل المصدر باسم المفعول وبعد ذلك يحتاج إلى تكلف لصحة المعنى ويحتاج إلى ذلك التكلف على الوجه الثاني أيضاً إذ لا يشرب أحد من مشروبهم ولا من الذي يشربونه وإنما يشرب من فرد آخر من الجنس فلا بد من إرادة الجنس على الوجهين.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ﴾ فيما ذكر من الأحوال والصفات أي إن امتثلتم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ عقولكم ومغبونون في آرائكم حيث أذللتم أنفسكم، واللام موطئة للقسم وجملة ﴿إنكم لخاسرون﴾ جواب القسم، و ﴿إذاً﴾ فيما أميل إليه ظرفية متعلقة بما تدل عليه النسبة بين المبتدأ والخبر من الثبوت أو بالخبر واللام لا تمنع عن العمل في مثل ذلك، وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور.

قال أبو حيان: ولو كان هذا هو الجواب للزمت الفاء فيه بأن يقال: فإنكم الخ بل لو كان بالفاء في تركيب غير القرآن الكريم لم يكن ذلك التركيب جائزاً إلا عند الفراء، والبصريون لا يجيزونه وهو عندهم خطأ اهـ.

وذكر بعضهم أن «إذاً» هنا للجزاء والجواب وتكلف لذلك ولا يدعو إليه سوى ظن وجوب اتباع المشهور وأن الحق في أمثال هذه المقامات منحصر فيما عليه الجمهور، وفي همع الهوامع وكذا في الإتقان للجلال السيوطي في هذا البحث ما ينفعك مراجعته فراجعه ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله من زجرهم عن اتباعه عليه السلام بإنكار وقوع ما يدعوهم للإيمان به واستبعاده، وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ﴾ على تقدير حرف الجر أي بأنكم، ويجوز أن لا يقدر ونحو وعدتك الخير ﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ بكسر الميم من مات يمات، وقرىء بضمها من مات يموت ﴿وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ أي وكان بعض أجزائكم من اللحم ونظائره تراباً وبعضها عظاماً نخرة مجردة عن اللحوم والأعصاب، وتقديم التراب لعراقته في الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية أو وكان متقدموكم تراباً صرفاً ومتأخروكم عظاماً، وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ﴾ تأكيد لأنكم الأول لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: ﴿مُخْرَجُونَ﴾ وإذا ظرف متعلق به أي أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولاً إذا متم وكنتم تراباً.

واختار هذا الإعراب الفراء والجرمي والمبرد، ولا يلزم من ذلك كون الإخراج وقت الموت كما لا يخفى خلافاً لما توهمه أبو نزار الملقب بملك النحاة. ورده السخاوي ونقله عنه الجلال السيوطي في الأشباه والمنقول عن سيبويه أن ﴿أنكم﴾ بدل من ﴿أنكم﴾ الأول وفيه معنى التأكيد وخبر أن الأولى محذوف لدلالة خبر الثانية عليه أي أيعدكم أنكم تبعثون إذا متم وهذا الخبر المحذوف هو العامل في إذا، ولا يجوز أن يكون هو الخبر لأن ظرف الزمان لا يخبر به عن الجثة، وإذا أول بحذف المضاف أي إن إخراجكم إذا متم جاز، وكان المبرد يأبى البدل لكونه من غير مستقل إذ لم يذكر خبر أن الأولى.

وذهب الأخفش إلى أن ﴿أنكم مخرجون﴾ مقدر بمصدر مرفوع بفعل محذوف تقديره يحدث إخراجكم، فعلى هذا التقدير يجوز أن تكون الجملة الشرطية خبر ﴿أنكم﴾ الأول ويكون جواب ﴿إذا﴾ ذلك الفعل المحذوف، ويجوز أن يكون ذلك الفعل هو خبر أن ويكون عاملاً في إذا، وبعضهم يحكي عن الأخفش أنه يجعل ﴿أنكم مخرجون﴾ فاعلاً بإذا كما يجعل الخروج في قولك: يوم الجمعة الخروج فاعلاً بيوم على معنى يستقر الخروج يوم الجمعة.

وجوز بعضهم أن يكون ﴿أنكم مخرجون﴾ مبتدأ و ﴿إذا متم﴾ خبراً على معنى إخراجكم إذا متم وتجعل

الجملة خبر أن الأولى، قال في البحر: وهذا تخريج سهل لا تكلف فيه ونسبه السخاوي في سفر السعادة إلى المبرد، والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم ما ذكرناه عن الفراء ومن معه، وفي قراءة عبد الله «أيعدكم إذا متم» بإسقاط ﴿أنكم﴾ الأولى ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسم لبعد وهو في الأصل اسم صوت وفاعله مستتر فيه يرجع للتصديق أو الصحة أو الوقوع أو نحو ذلك مما يفهمه السياق فكأنه قيل بعد التصديق أو الصحة أو الوقوع، وقوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ﴾ تكرير لتأكيد البعد، والغالب في هذه الكلمة مجيئها مكررة وجاءت غير مكررة في قول جرير:

وهيهات خل بالعقيق نواصله

وقوله سبحانه: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ بيان لمرجع ذلك الضمير فاللام متعلقة بمقدر كما في سقيا له أي التصديق أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما توعدون، ولا ينبغي أن يقال: إنه متعلق بالضمير الراجع إلى المصدر كما في قوله:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

فإن إعمال ضمير المصدر وإن ذهب إليه الكوفيون نادر جداً لا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى، وقيل: لم يثبت والبيت قابل للتأويل وهذا كله مع كون الضمير بارزاً فما ظنك إذا كان مستتراً، والقول بأن الفاعل محذوف وليس بضمير مستتر وهو مصدر كالوقوع والتصديق والجار متعلق به مما لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً لا سيما إذا كان ذلك المصدر المحذوف معرفاً كما لا يخفى، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير البعد واللام للبيان كأنه قيل، فعل البعد ووقع ثم قيل لماذا؟ فقيل: لما توعدون، وقيل: فاعل ﴿هيهات﴾ ما توعدون واللام سيف خطيب، وأيد بقراءة ابن أبي عبلة «هيهات هيهات ما توعدون» بغير لام ورد بأنها لم تعهد زيادتها في الفاعل، وقيل: هيهات بمعنى البعد وهو مبتدأ مبني اعتباراً لأصله خبره ﴿لما توعدون﴾ أي البعد كائن لما توعدون ونسب هذا التفسير للزجاج.

وتعقبه في البحر بأنه ينبغي أن يكون تفسير معنى لا تفسير إعراب لأنه لم تثبت مصدرية ﴿هيهات﴾ وقرأ هارون عن أبي عمرو «هيهاتاً هيهاتاً» بفتحهما منونتين للتنكير كما في سائر أسماء الأفعال إذا نونت فهو اسم فعل نكرة، وقيل: هو على هذه القراءة اسم متمكن منصوب على المصدرية، وقرأ أبو حيوة والأحمر بالضم والتنوين، قال صاحب اللوامح: يحتمل على هذا أن تكون ﴿هيهات﴾ اسماً متمكناً مرتفعاً بالابتداء و ﴿لما توعدون﴾ خبره والتكرار للتأكيد، ويحتمل أن يكون اسماً للفعل والضم للبناء مثل حوب في زجر الإبل لكنه نون لكونه نكرة اهـ، وقيل: هو اسم متمكن مرفوع على الفاعلية أي وقع بعد، وعن سيبويه أنها جمع كبيضات، وأخذ بعضهم منه تساوي مفرديهما في الزنة فقال مفردها هيهة كبيضة. وفي رواية عن أبي حيوة أنه ضمها من غير تنوين تشبيهاً لهما بقبل وبعد ذلك. وقرأ أبو جعفر وشيبة بالكسر فيهما من غير تنوين. ورُوي هذا عن عيسى وهو لغة في تميم وأسد وعنه أيضاً وعن خالد بن الياس أنهما قرآ بكسرهما والتنوين.

وقرأ خارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج وعيسى أيضاً بالإسكان فيهما، فمنهم من يبقي التاء ويقف عليها كما في مسلمات، ومنهم من يبدلها هاء تشبيهاً بتاء التأنيث ويقف على الهاء، وقيل: الوقف على الهاء لاتباع الرسم، والذي يفهم من مجمع البيان أن ﴿هيهات﴾ بالفتح تكتب بالهاء كأرطاة وأصلها هيهية كزلزلة قلبت الياء الثانية ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها وكذا هيهات بالرفع والتنوين، وهي على هذا اسم معرب مفرد، ومتى اعتبرت جمعاً كتبت بالتاء وذلك إذا كانت مكسورة منونة أو غير منونة ونقل ذلك عن ابن جني.

وقرأ «أيهاه» بإبدال الهزة من الهاء الأولى والوقف بالسكون على الهاء، والذي أميل إليه أن جميع هذه القراءات لغات والمعنى واحد، وفي هذه الكلمة ما يزيد على أربعين لغة وقد ذكر ذلك في التكميل لشرح التسهيل وغيره ﴿إن

﴿هيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنـيَا﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا ثم وضع الضمير موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها وبينها فالضمير عائد على متأخر وعوده كذلك جائز في صور، منها إذا فسر بالخبر كما هنا كذا قالوا. واعترض بأن الخبر موصوف فتلاحظ الصفة في ضميره كما هو المشهور في الضمير الراجع إلى موصوف وحينئذ يصير التقدير إن حياتنا الدنيا إلا حياتنا الدنيا.

وأجيب بأن الضمير قد يعود إلى الموصوف بدون صفته، وهذا في الآخرة يعود إلى القول بأن الضمير عائد على ما يفهم من جنس الحياة ليفيد الحمل ما قصدوه من نفي البعث فكأنهم قالوا: لا حياة إلا حياتنا الدنيا ومن ذلك يعلم خطأ من قال: إنه كشعري شعري، ومن هذا القبيل على رأي قولهم: هي العرب تقول ما شاءت، وقوله:

هي النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر أيام تجور وتعدل

وفي الكشف ليس المعنى النفس النفس لأنه لا يصلح الثاني حينئذ تفسيراً والجملة بعدها بياناً بل الضمير راجع إلى معهود ذهني أشير إليه ثم أخبر بما بعده كما في هذا أخوك انتهى فتأمل ولا تغفل، وقوله تعالى: ﴿نَـمُوتُ وَنَـحْيَا﴾ جملة مفسرة لما ادعوه من أن الحياة هي الحياة الدنيا وأرادوا بذلك يموت بعضنا ويولد بعض وهكذا، وليس المراد بالحياة حياة أخرى بعد الموت إذ لا تصلح الجملة حينئذ للتفسير ولا يذم قائلها وناقضت قولهم: ﴿وَمَا نَـحْنُ بِـمَبْعُوثِـينَ﴾ وقيل: أرادوا بالموت العدم السابق على الوجود أو أرادوا بالحياة بقاء أولادهم فإن بقاء الأولاد في حكم حياة الآباء ولا يخفى بعده، ومثله على ما قيل وأنا لا أراه كذلك أن القوم كانوا قائلين بالتناسخ فحياتهم بتعلق النفس التي فارقت أبدانهم بأبدان أخر عنصرية تنقلت في الأطوار حتى استعدت لأن تتعلق بها تلك النفس المفارقة فزيد مثلاً إذا مات تتعلق نفسه ببدن آخر قد استعد في الرحم للتعلق ثم يولد فإذا مات أيضاً تتعلق نفسه ببدن آخر كذلك وهكذا إلى ما لا يتناهى، وهذا مذهب لبعض التناسخية وهم مليون ونحليون، ويمكن أن يقال: إن هذا على حد قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾ [آل عمران: ٥٥] على قول فإن العطف فيه بالواو وهي لا تقتضي الترتيب فيجوز أن تكون الحياة التي عنوها الحياة قبل الموت ويحتمل أنهم قالوا نحيا ونموت إلا أنه لما حكي عنهم قيل: ﴿نـموت ونـحيا﴾ ليكون أوفق بقوله تعالى: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ ثم المراد بقولهم ﴿وما نـحن﴾ الخ استمرار النفي وتأكيده ﴿إنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبـاً﴾ فيما يدعيه من إرساله تعالى إياه وفيما يعدنا من أن الله تعالى يبعثنا ﴿وَمَا نَـحْنُ لَهُ بِـمُؤْمِنينَ﴾ بمصدقين فيما يقوله، والمراد أيضاً استمرار النفي وتأكيده ﴿قَالَ﴾ أي رسولهم عند يأسه من إيمانهم بعد ما سلك في دعوتهم كل مسلك متضرعاً إلى الله عز وجل ﴿رَبِّ انْصُرْنـي﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِـمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي وإصرارهم عليه أو بدل تكذيبهم، ويجوز أن تكون الباء آلية وما موصولة كما مر في قصة نوح عليه السلام ﴿قَالَ﴾ تعالى إجابة لدعائه وعدة بما طلب ﴿عَمَّا قَلِيـلٍ﴾ أي عن زمان قليل فما صلة بين الجار والمجرور جيء بها لتأكيد معنى القلة و ﴿قليـل﴾ صفة لزمان حذف واستغني به عنه ومجيئه كذلك كثير، وجوز أن تكون ﴿ما﴾ نكرة تامة و ﴿قليـل﴾ بدلاً منها، وأن تكون نكرة موصوفة بقليل، و ﴿عن﴾ بمعنى بعد هنا وهي متعلقة بقوله تعالى: ﴿لَـيُصْبِحُنَّ نَادمينَ﴾ وتعلقها بكل من الفعل والوصف محتمل، وجاز ذلك مع توسط لام القسم لأن الجار كالظرف يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره.

وقال أبو حيان: جمهور أصحابنا على أن لام القسم لا يتقدمها معمول ما بعدها سواء كان ظرفاً أم جاراً ومجروراً أم غيرهما، وعليه يكون ذلك متعلقاً بمحذوف يدل عليه ما قبله والتقدير عما قليل تنصر أو ما بعده أي يصبحون عما قليل ليصبحن الخ، ومذهب الفراء وأبي عبيدة أنه يجوز تقديم معمول ما في حيز هذه اللام عليها

مطلقاً، و «يصبح» بمعنى يصير أي بالله تعالى ليصيرن نادمين على ما فعلوا من التكذيب بعد زمان قليل وذلك وقت نزول العذاب في الدنيا ومعاينتهم له، وقيل: بعد الموت، وفي اللوامح عن بعضهم «لتصبحن» بتاء على المخاطبة فلو ذهب ذاهب إلى أن القول من الرسول إلى الكفار بعدما أجيب دعاؤه لكان جائزاً.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام صاح عليه السلام بهم فدمرهم، وهذا على القول بأن القرن قوم صالح عليه السلام ظاهر، ومن قال: إنهم قوم هود عليه السلام أشكل ظاهر هذا عليه بناءً على أن المصرح به في غير هذه السورة أنهم أهلكوا بريح عاتية، وأجاب بأن جبريل عليه السلام صاح بهم من الريح كما روي في بعض الأحاديث، وفي ذكر كل على حدة إشارة إلى أن كلاً لو انفرد لتدميرهم لكفى، ويجوز أن يراد بالصيحة العقوبة الهائلة والعذاب المصطلم كما في قوله:

صاح الزمان بآل برمك صيحة ... خروا لشدتها على الأذقان

﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بالأخذ أي بالأمر الثابت الذي لا مدافع له كما في قوله تعالى: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ [ق: ١٩] أو بالعدل من الله عز وجل من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه أو بالوعد الصدق الذي وعده الرسول في ضمن قوله تعالى: ﴿عما قليل ليصبحن نادمين﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي كغثاء السيل وهو ما يحمله من الورق والعيدان البالية ويجمع على أغثاء شذوذاً وقد تشدد ثاؤه كما في قول امرىء القيس:

كأن ذرى رأس المجيمر[1] غدوة ... من السيل والغثاء فلكة مغزل

﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل الاخبار والدعاء، والبعد ضد القرب والهلاك وفعلهما ككرم وفرح والمتعارف الأول في الأول والثاني في الثاني وهو منصوب بمقدر أي بعدوا بعداً من رحمة الله تعالى أو من كل خير أو من النجاة أو هلكوا هلاكاً، ويجب حذف ناصب هذا المصدر عند سيبويه فيما إذا كان دعائياً كما صرح به في الدر المصون، واللام لبيان من دعي عليه أو أخبر ببعده فهي متعلقة بمحذوف لا ببعداً، وضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن إبعادهم لظلمهم ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا من بَعْدِهِم﴾ أي بعد هلاكهم ﴿قُرُوناً آخَرِينَ﴾ هم عند أكثر المفسرين قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وغير ذلك.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة الوقت الذي عين لهلاكهم فمن سيف خطيب جيء بها لتأكيد الاستغراق المستفاد من النكرة الواقعة في سياق النفي، وحاصل المعنى ما تهلك أمة من الأمم قبل مجيء أجلها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ذلك الأجل ساعة، وضمير الجمع عائد على ﴿أمة﴾ باعتبار المعنى.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ عطف على ﴿أنشأنا﴾ لكن لا على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعاً بل على معنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إرسال قرن مخصوص بذلك الرسول كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به، والفصل بين المعطوفين بالجملة المعترضة للمسارعة إلى بيان هلاك أولئك القرون على وجه إجمالي، وتعليق الإرسال بالرسل نظير تعليق القتل بالقتيل في من قتل قتيلاً وللعلماء فيه توجيهات ﴿تَتْرَى﴾ من المواترة وهو التتابع مع فصل ومهلة على ما قاله الأصمعي واختاره الحريري في الدرة.

---

(١) من جبال بني أسد ا هـ منه.

وفي الصحاح المواترة المتابعة ولا تكون المواترة بين الأشياء إلا إذا وقعت بينها فترة وإلا فهي مداركة ومثله في القاموس، وعن أبي علي أنه قال: المواترة أن يتبع الخبر الخبر والكتاب الكتاب فلا يكون بينهما فصل كثير، ونقل في البحر عن بعض أن المواترة التتابع بغير مهلة، وقيل: هو التتابع مطلقاً، والتاء الأولى بدل من الواو كما في تراث وتجاه ويدل على ذلك الاشتقاق، وجمهور القراء والعرب على عدم تنوينه فألفه للتأنيث كألف دعوى وذكرى وهو مصدر في موضع الحال والظاهر أنه حال من المفعول، والمراد كما قال أبو حيان والراغب وغيرهما ثم أرسلنا رسلنا متواترين، وقيل: حال من الفاعل والمراد أرسلنا متواترين.

وقيل هو صفة لمصدر مقدر أي إرسالاً متواتراً، وقيل مفعول مطلق لأرسلنا لأنه بمعنى واترنا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وقتادة وأبو جعفر وشعبة وابن محيصن والإمام الشافعي عليه الرحمة «تترىً» بالتنوين وهو لغة كنانة، قال في البحر: وينبغي عند من ينون أن تكون الألف فيه للإلحاق كما في أرطى وعلقى لكن ألف الإلحاق في المصادر نادرة، وقيل: إنها لا توجد فيها.

وقال الفراء: يقال تتر في الرفع وتتر في الجر وتترى في النصب فهو مثل صبر ونصر ووزنه فعل لا فعلى ومتى قيل تترى بالألف فألفه بدل التنوين كما في صبرت صبراً عند الوقف. ورد بأنه لم يسمع فيه إجراء الحركات الثلاث على الراء وعلى مدعيه الإثبات، وأيضاً كتبه بالياء يأبى ذلك، وما ذكرنا من مصدرية ﴿تترى﴾ هو المشهور، وقيل: هو جمع، وقيل: اسم جمع وعلى القولين هو حال أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ استئناف مبين لمجيء كل رسول لأمته ولما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة، والمراد بالمجيء إما التبليغ وإما حقيقة المجيء للإيذان بأنهم كذبوه في أول الملاقاة، وإضافة الرسول إلى الأمة مع إضافة كلهم فيما سبق إلى نون العظمة لتحقيق أن كل رسول جاء أمته الخاصة به لا أن كلهم جاؤوا كل الأمم وللإشعار بكمال شناعة المكذبين وضلالهم حيث كذبوا الرسول المعين لهم، وقيل: أضاف سبحانه الرسول مع الإرسال إليه عز وجل ومع المجيء إلى المرسل إليهم لأن الإرسال إليه عز وجل ومع المجيء إلى المرسل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه تعالى والمجيء الذي هو منتهاه إليهم ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾ في الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضاً في مباشرة سببه وهو تكذيب الرسول ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع أحدوثة وهو ما يتحدث به تعجباً وتلهياً كأعاجيب جمع أعجوبة وهو ما يتعجب منه أي جعلناهم أحاديث يتحدث بها على سبيل التعجب والتلهي، ولا تقال الأحدوثة عند الأخفش إلا في الشر.

وجوز أن يكون جمع حديث وهو جمع شاذ مخالف للقياس كقطيع وأقاطيع ويسميه الزمخشري اسم جمع، والمراد إنا أهلكناهم ولم يبق إلا خبرهم ﴿فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ اقتصر هاهنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم إجمالاً، وأما القرون الأولون فحيث نقل عنهم ما مر من الغلو وتجاوز الحد في الكفر والعدوان وصفوا بالظلم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أي بالآيات المعهودة وهي الآيات التسع وقد تقدم الكلام في تفصيلها وما قيل فيه، و ﴿هارون﴾ بدل أو عطف بيان، وتعرض لإخوته لموسى عليهما السلام للإشارة إلى تبعيته له في الإرسال ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة واضحة أو مظهرة للحق، والمراد بها عند جمع العصا، وإفرادها بالذكر مع اندراجها في الآيات لتفردها بالمزايا حتى صارت كأنها شيء آخر، وجوز أن يراد بها الآيات والتعاطف من تعاطف المتحدين في الماصدق لتغاير مدلوليهما كعطف الصفة على الصفة مع اتحاد الذات وقد مر نظيره آنفاً أو هو من ناب قولك: مررت بالرجل والنسمة المباركة حيث جرد من نفس الآيات سلطان مبين وعطف عليه مبالغة،

والإتيان به مفرداً لأنه مصدر في الأصل أو للاتحاد في المراد، وعن الحسن أن المراد بالآيات التكاليف الدينية وبالسلطان المبين المعجز، وقال أبو حيان: يجوز أن يراد بالآيات نفس المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها لأنها وإن شاركت آيات الأنبياء عليهم السلام في أصل الدلالة على الصدق فقد فارقتها في قوة دلالتها على ذلك وهو كما ترى، وممكن أن يقال: المراد بالسلطان تسلط موسى عليه السلام في المحاورة والاستدلال على الصانع عز وجل وقوة الجأش والإقدام ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أشراف قومه خصوا بالذكر لأن إرسال بني إسرائيل وهو مما أرسلا عليهما السلام لأجله منوط بآرائهم، ويمكن أن يراد بالملأ قومه فقد جاء استعماله بمعنى الجماعة مطلقاً ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد لما أمروا به ودعوا إليه من الإيمان وإرسال بني إسرائيل وترك تعذيبهم، ليست الدعوة مختصة بإرسال بني إسرائيل وإطلاقهم من الأسر ففي سورة [النازعات: ١٧ - ١٩] ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ وأيضاً فيما نحن فيه ما يدل على عدم الاختصاص.

﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ متكبرين أو متطاولين بالبغي والظلم؛ والمراد كانوا قوماً عادتهم العلو.

﴿فَقَالُوا﴾ عطف على ﴿استكبروا﴾ وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار، والمراد فقالوا فيما بينهم بطريق المناصحة ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثنى البشر لأنه يطلق على الواحد كقوله تعالى: ﴿بشراً سوياً﴾ [مريم: ١٧] ويطلق على الجمع كما في قوله تعالى: ﴿فأما ترين من البشر أحداً﴾ [مريم: ٢٦] ولم يثن مثل نظراً إلى كونه في حكم المصدر، ولو أفرد البشر لصح لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره، وكذا لو ثنى المثل فإنه جاء مثنى في قوله تعالى: ﴿يرونهم مثليهم﴾ ومجموعاً في قوله سبحانه: ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ نظراً إلى أنه في تأويل الوصف إلا أن المرجح لتثنيته الأول وإفراده الثاني الإشارة بالأول إلى قلتهما وانفرادهما عن قومهما مع كثرة الملأ واجتماعهم وبالثاني إلى شدة تماثلهم حتى كأنهم مع البشرين شيء واحد وهو أدل على ما عنوه.

وهذه القصص كما ترى تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء عليهم السلام على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها في مراقي الكمال ومهاوي النقصان بحيث يكون بعضها في أعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين اللطيف والكثيف فيتلقون من جانب ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى حضرة الحق وبعضها في أسفل سافلين وهم كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

ومن العجب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر، وقد رضي أكثرهم للإلهية بحجر فقاتلهم الله تعالى ما أجهلهم، والهمزة للإنكار أي لا نؤمن لبشرين مثلنا. ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون سائر بني إسرائيل ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ خادمون منقادون لنا كالعبيد ففي ﴿عابدون﴾ استعارة تبعية نظراً إلى متعارف اللغة.

ونقل الخفاجي عن الراغب أنه صرح بأن العابد بمعنى الخادم حقيقة، وقال أبو عبيدة: العرب تسمي كل من دان للملك عابداً، وجوز الزمخشري الحمل على حقيقة العبادة فإن فرعون كان يدعي الإلهية فادعى للناس العبادة على الحقيقة.

واعترض بأن الظاهر أن هذا القول من الملأ وهو يأبى ذلك، وكونهم قالوه على لسان فرعون كما يقول خواص ملك: نحن ذوو رعية كثيرة وملك طويل عريض ومرادهم أن ملكنا ذو رعية الخ خلاف الظاهر، وقيل عليه أيضاً على تقدير أن يكون القائل فرعون: لا يلزم من ادعائه الإلهية عبادة بني إسرائيل له أو كونه يعتقد أو يدعي عبادتهم على

الحقيقة له؛ وأنت تعلم أنه متى سلم أن القائل فرعون وأنه يدعي الإلهية لا يقدح في إرادته حقيقة العباد عدم اعتقاده ذلك لأنه على ما تدل عليه بعض الآثار كثيراً ما يظهر خلاف ما يبطن حتى أنها تدل على أن دعواه الإلهية من ذلك، نعم الأولى تفسير ﴿عابدون﴾ بخادمون وهو مما يصح إسناده إلى فرعون وملئه، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأن الرسولين عليهما السلام وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية، و اللام في ﴿لنا﴾ متعلقة بعابدون قدمت عليه رعاية للفواصل، وقيل للحصر أي لنا عابدون لا لهما، والجملة حال من فاعل ﴿نؤمن﴾ مؤكدة لإنكار الإيمان لهما بناء على زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسة الدنيوية الدائرة على التقدم في نيل الحظوظ الدنيوية من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق في حيازة النعوت العلية والملكات السنية التي يتفضل الله تعالى بها على من يشاء من خلقه ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فاستمروا على تكذيبهما وأصروا واستكبروا استكباراً ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر القلزم، والتعقيب باعتبار آخر زمان التكذيب الذي استمروا عليه، وقيل: تعقيب التكذيب بذلك بناء على أن المراد محكوم عليهم بالإهلاك، وقيل: الفاء المحض السببية أي فكانوا بسبب تكذيب الرسولين من المهلكين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ بعد إهلاكهم وإنجاء بني إسرائيل من مملكتهم ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، وحيث كان إيتاؤه عليه السلام إياها لإرشاد قومه إلى الحق كما هو شأن الكتب الإلهية جعلوا كأنهم أوتوها فقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي إلى طريق الحق علماً وعملاً لما تضمنته من الاعتقاديات والعمليات.

وجوز أن يكون الكلام على تقدير مضاف أي أتينا قوم موسى وضمير ﴿لعلهم﴾ عائد عليه، وقيل أريد بموسى عليه السلام قومه كما يقال تميم وثقيف للقبيلة وتعقب بأن المعروف في مثله إطلاق أبي القبيلة عليهم وإطلاق موسى عليه السلام على قومه ليس من هذا القبيل وإن كان لا مانع منه، ولم يجعل ضمير ﴿لعلهم﴾ لفرعون وملئه لظهور أن التوراة إنما نزلت بعد إغراقهم لبني إسرائيل وقد يستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ [القصص: ٤٣] بناء على أن المراد بالقرون الأولى ما يعم فرعون وقومه ومن قبلهم من المهلكين كقوم نوح وهود لا ما يخص من قبلهم من الأمم المهلكين لأن تقييد الأخبار بإتيانه عليه السلام الكتاب بأنه بعد إهلاك من تقدم من الأمم معلوم فلو لم يدخل فرعون وقومه لم يكن فيه فائدة كما قيل، ولم يذكر هارون مع موسى عليهما السلام اقتصاراً على من هو كالأصل في الإيتاء، وقيل لأن الكتاب نزل بالطور وهارون عليه السلام كان غائباً مع بني إسرائيل.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ أي آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد مشترك بينهما فلذا أفردت، وجوز أن يكون الكلام على تقدير مضاف أي جعلنا حال ابن مريم وأمه آية أو جعلنا ابن مريم وأمه ذوي آية وأن يكون على حذف آية من الأول لدلالة الثاني عليه أو بالعكس أي جعلنا ابن مريم آية لما ظهر فيه عليه السلام من الخوارق كتكلمه في المهد بما تكلم صغيراً وإحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص وغير ذلك كبيراً وجعلنا أمة آية بأن ولدت من غير مسيس، وقال الحسن: إنها عليها السلام تكلمت في صغرها أيضاً حيث قالت: ﴿هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧] ولم تلتقم ثدياً قط، وقال الخفاجي: لك أن تقول: إنما يحتاج إلى توجيه إفراد الآية بما ذكر إذا أريد أنها آية على قدرة الله تعالى أما إذا كانت بمعنى المعجزة أو الإرهاص فلا لأنها إنما هي لعيسى عليه السلام لنبوته دون مريم اهـ. ولا يخفى ما فيه والوجه عندي ما تقدم، والتعبير

عن عيسى عليه السلام بابن مريم وعن مريم بأمه للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية فإن نسبته عليه السلام إليها مع أن النسب إلى الآباء دالة على أن لا أب له أي جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمه التي ولدته خاصة من غير مشاركة الأب آية، وتقديمه عليه السلام لأصالته فيما ذكر من كونه آية كما قيل أن تقديم أمه في قوله تعالى: ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ [الأنبياء: ٩١] لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ، ثم اعلم أن الذي أجمع عليه الإسلاميون أنه ليس لمريم ابن سوى عيسى عليه السلام.

وزعم بعض النصارى قاتلهم الله تعالى أنها بعد أن ولدت عيسى تزوجت بيوسف النجار وولدت منه ثلاثة أبناء، والمعتمد عليه عندهم أنها كانت في حال الصغر خطيبة يوسف النجار وعقد عليها ولم يقربها ولما رأى حملها بعيسى عليه السلام وهم بتخليتها فرأى في المنام ملكاً أوقفه على حقيقة الحال فلما ولدت بقيت عنده مع عيسى عليه السلام فجعل يربيه ويتعهده مع أولاد له من زوجة غيرها فأما هي فلم يكن يقربها أصلاً، والمسلمون لا يسلمون أنها كانت معقوداً عليها ليوسف ويسلمون أنها كانت خطيبته وأنه تعهدها وتعهد عيسى عليه السلام ويقولون: كان ذلك لقرابته منها ﴿وَآوَيْنَاهُمَا﴾ أي جعلناهما يأويان ﴿إِلَى رَبْوَةٍ﴾ هي ما ارتفع من الأرض دون الجبل.

واختلف في المراد هنا فأخرج وكيع وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن عساكر بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿إلى ربوة﴾ أنبئنا أنها دمشق، وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام وعن يزيد بن شجرة الصحابي وعن سعيد بن المسيب وعن قتادة عن الحسن أنهم قالوا: الربوة هي دمشق، وفي ذلك حديث مرفوع أخرجه ابن عساكر عن أبي أمامة بسند ضعيف.

وأخرج جماعة عن أبي هريرة أنه قال: هي الرملة من فلسطين، وأخرج ذلك ابن مردويه من حديثه مرفوعاً، وأخرج الطبراني في الأوسط، وجماعة عن مرة البهزي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الربوة الرملة، وأخرج ابن جرير وغيره عن الضحاك أنه قال: هي بيت المقدس، وأخرج هو وغيره أيضاً عن قتادة أنه قال: كنا نحدث أن الربوة بيت المقدس، وذكروا عن كعب أن أرضه كبد الأرض وأقربها إلى السماء بثمانية عشر ميلاً ولذا كان المعراج ورفع عيسى عليه السلام منه، وهذا القول أوفق بإطلاق الربوة على ما سمعت من معناها، وأخرج ابن المنذر، وغيره عن وهب وابن جرير وغيره عن ابن زيد الربوة مصر، وروي عن زيد بن أسلم أنه قال: هي الاسكندرية، وذكروا أي قرى مصر كل واحدة منها على ربوة مرتفعة لعموم النيل في زيادته جميع أرضها فلو لم تكن القرى على الربى لغرقت، وذكر أن سبب هذا الإيواء أن ملك ذلك الزمان عزم على قتل عيسى عليه السلام ففرت به أمه إلى أحد هذه الأماكن التي ذكرت كذا في البحر، ورأيت في إنجيل متى أن عيسى عليه السلام لما ولد في بيت لحم في أيام هيرودس الملك وافى جماعة من المجوس من المشرق إلى أورشليم يقولون: أين المولود ملك اليهود فقد رأينا نجمة في المشرق وجئنا لنسجد له فلما سمع هيرودس اضطرب وجمع رؤساء الكهنة وكتبة الشعب فسألهم أين يولد المسيح؟ فقالوا: في بيت لحم فدعا المجوس سراً وتحقق منهم الزمان الذي ظهر لهم فيه النجم وأرسلهم إلى بيت لحم وقال لهم: اجهدوا في البحث عن هذا المولود فإذا وجدتموه فأخبروني لأسجد له معكم فذهبوا فوجدوه مع مريم فسجدوا وقربوا القرابين ورأوا في المنام أن لا يرجعوا إلى هيرودس فذهبوا إلى كورتهم ورأى يوسف في المنام ملكاً يقول له قم فخذ الطفل وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك فإن هيرودس قد عزم على أن يطلب الطفل ليهلكه فقام وأخذ الطفل وأمه ليلاً ومضى إلى مصر وكان هناك وفاة هيرودس فلما توفي رأى يوسف الملك في المنام يقول له: قم فخذ الطفل وأمه واذهب إلى

أرض إسرائيل فقد مات من يطلب نفس الطفل فقام وأخذهما وجاء إلى أرض إسرائيل فلما سمع أن أرشلاوس قد ملك على اليهودية بعد أبيه هيرودس خاف أن يذهب هناك فأخبر في المنام وذهب إلى تخوم الجليل فسكن في مدينة تدعى ناصرة اهـ، فإن صح هذا كان الظاهر أن الربوة في أرض مصر أو ناصرة من أرض الشام والله تعالى أعلم، وقرأ أكثر القراء «رُبوة» بضم الراء وهي لغة قريش.

وقرأ أبو إسحاق السبيعي «ربوة» بكسرها، وابن أبي إسحاق «رُباة» بضم الراء وبالألف، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما والأشهب العقيلي والفرزدق والسلمي في نقل صاحب اللوامح بفتحها وبالألف. وقرىء بكسرها وبالألف ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي مستقر من أرض منبسطة، والمراد أنها في واد فسيح تنبسط به نفس من يأوي إليه، وقال مجاهد: ذات ثمار وزروع، والمراد أنها محل صالح لقرار الناس فيه لما فيه من الزروع والثمار وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي وماء معين أي جار، ووزنه فعيل على أن الميم أصلية من معنى جرى، وأصله الإبعاد في الشيء ومنه أمعن النظر.

وفي البحر معن الشيء معانة كثر أو من الماعون، وإطلاقه على الماء الجاري لنفعه، وجوز أن يكون وزنه مفعول كمخيط على أن الميم زائدة من عانه أدركه بعينه كركبه إذا ضربه بركبته وإطلاقه على الماء الجاري لما أنه في الأغلب يكون ظاهراً مشاهداً بالعين، ووصف الماء بذلك لأنه الجامع لانشراح الصدر وطيب المكان وكثرة المنافع ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ حكاية لرسول الله ﷺ على وجه الإجمال لما خوطب به كل رسول في عصره جيء بها إثر حكاية إيواء عيسى وأمه عليهما السلام إلى الربوة إيذاناً بأن ترتيب مبادي النعم لم تكن من خصائص عيسى عليه السلام بل إباحة الطيبات شرع قديم جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووصوا به أي وقلنا لكل رسول كل من الطيبات واعمل صالحاً فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالاً للإيجاز أو حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عليهما السلام عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول ما رزقا كأنه قيل آويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين وقلنا أو قائلين لهما هذا أي أعلمناهما أو معلميهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا فكلا واعملا اقتداء بهم، وجوز أن يكون نداء لعيسى عليه السلام وأمراً له بأن يأكل من الطيبات، فقد جاء في حديث مرسل عن حفص ابن أبي جبلة عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسل﴾ إلخ: ذاك عيسى ابن مريم كان يأكل[1] من غزل أمه، وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي أنه نداء لرسول الله ﷺ وخطاب له والجمع للتعظيم واستظهر ذلك النيسابوري، وما وقع في شرح التلخيص تبعاً للرضي من أن قصد التعظيم بصيغة الجمع في غير ضمير المتكلم لم يقع في الكلام القديم خطأ لكثرته في كلام العرب مطلقاً بل في جميع الألسنة وقد صرح به الثعالبي في فقه اللغة، والمراد بالطيبات على ما اختاره شيخ الإسلام وغيره ما يستطاب ويستلذ من مباحات المآكل والفواكه، واستدل له بأن السياق يقتضيه والأمر عليه للإباحة والترفيه وفيه إبطال للرهبانية التي ابتدعتها النصارى، وقيل المراد بالطيبات ما حل والأمر تكليفي، وأيد بتعقيبه بقوله تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ أي عملاً صالحاً، وقد يؤيد بما أخرجه أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس رضي الله تعالى عنها أنها بعثت إلى النبي ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم فرد إليها رسولها أنى لك هذا اللبن؟ قالت: من شاة لي فرد إليها رسولها أنى لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي فشرب منه عليه الصلاة والسلام فلما كان من الغد أتته أم

---

(١) والمشهور أنه عليه السلام كان يأكل من بطن البرية ا هـ منه.

عبد الله فقالت: يا رسول الله بعثت إليك بلبن فرددت إليّ الرسول فيه فقال ﷺ لها: «بذلك أمرت الرسل قبلي أن لا تأكل إلا طيباً ولا تعمل إلا صالحاً» وكذا بما أخرجه مسلم والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ يا أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المسلمين فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب فأنى يستجاب لذلك» وتقديم الأمر بأكل الحلال لأن أكل الحلال معين على العمل الصالح.

وجاء في بعض الأخبار أن الله تعالى لا يقبل عبادة من في جوفه لقمة من حرام، وصح أيما لحم نبت من سحت فالنار أولى به. ولعل تقديم الأمر الأول على تقدير حمل الطيب على ما يستلذ من المباحات لأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ وفي الأمر بعده بالعمل الصالح حث على الشكر.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه، وفي البحر أن هذا تحذير للرسل عليهم السلام في الظاهر والمراد أتباعهم ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ﴾ أي الملة والشريعة، وأشير إليها بهذه للإشارة إلى كمال ظهور أمرها في الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم والخطاب للرسل عليهم السلام على نحو ما مر؛ وقيل عام لهم ولغيرهم وروي ذلك عن مجاهد، والجملة على ما قال الخفاجي عطف على الجملة ﴿إني بما تعملون عليم﴾ فالواو من المحكي، وقيل هي من الحكاية وقد عطفت قولاً على قول، والتقدير قلنا يا أيها الرسل كلوا إلخ وقلنا لهم إن هذه أمتكم ولا يخفى بعده.

وقيل: الواو ليست للعطف والجملة بعدها مستأنفة غير معطوفة على ما قبلها وهو كما ترى، وقوله سبحانه ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حال مبنية من الخبر والعامل فيها معنى الإشارة أي أشير إليها في حال كونها شريعة متحدة في الأصول التي لا تتبدل بتبدل الأعصار؛ وقيل ﴿هذه﴾ إشارة إلى الأمم الماضية للرسل، والمعنى أن هذه جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أي من غير أن يكون لي شريك في الربوبية، وهذه الجملة عطف على جملة «إن هذه» الخ المعطوفة على ما تقدم وهما داخلان في حيز التعليل للعمل الصالح لأن الظاهر أن قوله سبحانه: ﴿إني بما تعملون عليم﴾ تعليل لذلك، ولعل المراد بالعمل الصالح ما يشمل العقائد الحقة والأعمال الصحيحة، واقتضاء المجازاة والربوبية لذلك ظاهر وأما اقتضاء اتحاد الشريعة في الأصول التي لا تتبدل لذلك فباعتبار أنه دليل حقية العقائد وحقيقتها تقتضي الإتيان بها والإتيان بها يقتضي الإتيان بغيرها من الأعمال الصالحة بل قيل لا يصح الاعتقاد مع ترك العمل، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ كالتصريح بالنتيجة فيكون الكلام نظير قولك: العالم حادث لأنه متغير وكل متغير حادث فالعالم حادث.

وفي إرشاد العقل السليم أن ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿ربكم﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿فاتقون﴾ للرسل والأمم جميعاً على أن الأمر في حق الرسل للتهييج والإلهاب وفي حق الأمة للتحذير والإيجاب، والفاء لترتيب الأمر أو وجوب الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به سبحانه واتحاد الأمة فإن كلاً منهما موجب للاتقاء حتماً، والمعنى فاتقون في شق العصا والمخالفة بالإخلال بموجب ما ذكر.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو «وأن» بفتح الهمزة وتشديد النون، وخرج على تقدير حرف الجر أي ولأن هذه الخ، والجار والمجرور متعلق باتقون، قال الخفاجي: والكلام في الفاء الداخلة عليه كالكلام في فاء قوله تعالى: ﴿فإياي فارهبون﴾ وهي للسببية وللعطف على ما قبله وهو ﴿اعملوا﴾ والمعنى اتقوني لأن العقول متفقة على ربوبيتي والعقائد

الحقة الموجبة للتقوى انتهى، ولا يخلو عن شيء، وجوز أن تكون ﴿إن هذه﴾ الخ على هذه القراءة معطوفاً على ﴿ما تعملون﴾ والمعنى إني عليم بما تعملون وبأن هذه أمتكم أمة واحدة الخ فهو داخل في حيز المعلوم. وضعف بأنه لا جزالة في المعنى عليه، وقيل: هو معمول لفعل محذوف أي واعلموا أن هذه أمتكم الخ وهذا المحذوف معطوف على «اعملوا» ولا يخفى أن هذا التقدير خلاف الظاهر.

وقرأ ابن عامر «وأن» بفتح الهمزة وتخفيف النون على أنها المخففة من الثقيلة ويعلم توجيه الفتح مما ذكرنا.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ الضمير لما دل عليه الأمة من أربابها إن كانت بمعنى الملة أو لها وإن كانت بمعنى الجماعة، وجوز أن يراد بالأمة أولاً الملة وعند عود الضمير عليها الجماعة على أن ذلك من باب الاستخدام، والمراد حكاية ما ظهر من أمم الرسل عليهم السلام من مخالفة الأمر، والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم، وتقطع بمعنى قطع كتقدم بمعنى قدم؛ والمراد بأمرهم أمر دينهم إما على تقدير مضاف أو على جعل الإضافة عهدية أي قطعوا أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة مع اتحاده، وجوز أن يراد بالتقطع التفرق، و «أمرهم» منصوب بنزع الخافض أي فتفرقوا وتحزبوا في أمرهم، ويجوز أن يكون ﴿أمرهم﴾ على هذا نصباً على التمييز عند الكوفيين المجوزين تعريف التمييز ﴿بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾ أي قطعاً جمع زبور بمعنى فرقة، ويؤيده أنه قرىء «زُبَراً» بضم الزاي و فتح الباء فإنه مشهور ثابت في جمع زبرة بمعنى قطعة وهو حال من «أمرهم» أو من واو ﴿تقطعوا﴾ أو مفعول ثان له فإنه مضمن معنى جعلوا، وقيل: جمع زبور بمعنى كتاب من زبرت بمعنى كتبت وهو مفعول ثان لتقطعوا المضمن معنى الجعل أي قطعوا أمر دينهم جاعلين له كتباً.

وجوز أن يكون حالاً من ﴿أمرهم﴾ على اعتبار تقطعوا لازماً أي تفرقوا في أمرهم حال كونه مثل الكتب السماوية عندهم. وقيل: إنها حال مقدرة أو منصوب بنزع الخافض أي في كتب، و تفسير ﴿زبراً﴾ بكتب رواه جماعة عن قتادة كما في الدر المنثور، ولا يخفى خفاء المعنى عليه ولا يكاد يستقيم إلا بتأويل فتدبر.

وقرىء «زبْراً» بإسكان الباء للتخفيف كرسل في رسل، وجاء ﴿فتقطعوا﴾ هنا بالفاء إيذاناً بأن ذلك اعتقب الأمر وفيه مبالغة في الذم كما أشرنا إليه، وجاء في سورة الأنبياء بالواو فاحتمل معنى الفاء واحتمل تأخر تقطعهم عن الأمر، وجاء هنا ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ وهو أبلغ في التخويف والتحذير مما جاء هناك من قوله تعالى هناك: ﴿وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٩٢] لأن هذه جاءت عقيب إهلاك طوائف كثيرين قوم نوح والأمم الذين من بعدهم وفي تلك السورة وإن تقدمت أيضاً قصة نوح وما قبلها فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام في قصة أيوب وزكريا ومريم فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته عز وجل قاله أبو حيان، وما ذكره أولاً غير واف بالمقصود، وما ذكره ثانياً قيل عليه: إنه مبني على أن الآية تذييل للقصص السابقة أو لقصة عيسى عليه السلام لابتداء كلام فإنه حينئذ لا يفيد ذلك إلا أن يراد أنه وقع في الحكاية لهذه المناسبة فتأمل.

﴿كُلُّ حزب﴾ من أولئك المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الأمر الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون منشرحو الصدر، والمراد أنهم معجبون به معتقدون أنه الحق، وفي هذا من ذم أولئك المتحزبين ما فيه.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ خطاب له ﷺ في شأن قريش الذين تقطعوا في أمر الدين الحق، والغمرة الماء الذي يغمر القامة وأصلها من الستر والمراد بها الجهالة بجامع الغلبة والاستهلاك، وكأنه لما ذكر سبحانه في ضمن ما كان من أمم الأنبياء عليهم السلام توزعهم واقتسامهم ما كان يجب اجتماعه واتفاق الكلمة عليه من الدين وفرحهم بفعلهم الباطل ومعتقدهم العاطل قال لنبيه ﷺ: فإذ ذاك دعهم في جهلهم هذا الذي لا جهل فوقه تخلية وخذلاناً ودلالة على

اليأس من أن ينجع القول فيهم وضمن التسلية في ذكر الغاية أعني قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فإن المراد بذلك حين قتلهم وهو يوم بدر على ما روي عن مقاتل أو موتهم على الكفر الموجب للعذاب أو عذابهم، وفي التنكير والإبهام ما لا يخفى من التهويل.

وجوز أن يقال: شبه حال هؤلاء مع ما هم عليه من محاولة الباطل والانغماس فيه بحال من يدخل في الماء الغامر للعب والجامع تضييع الوقت بعد الكدح في العمل، والكلام حينئذ على منوال سابقه أعني قوله تعالى: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ لما جعلوا فرحين غروراً جعلوا لاعبين أيضاً والأول أظهر؛ وقد يجعل الكلام عليه أيضاً استعارة تمثيلية بل هو أولى عند البلغاء كما لا يخفى.

وقرأ عليّ كرم الله تعالى وجهه وأبو حيوة والسلمي «في غمراتهم» على الجمع لأن لكل واحد غمرة.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ أي الذي نعطيهم إياه ونجعله مدداً لهم، فما موصولة اسم أن ولا يضر كونها موصولة لأنها في الإمام كذلك لسر لا نعرفه. وقوله تعالى: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لها. وتقديم المال على النبيين مع كونهم أعز منه قد مر وجهه، وقوله سبحانه: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ خبر أن والراجع إلى الاسم محذوف أي أيحسبون أن الذي نمدهم به من المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم على أن الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وحذف هذا العائد لطول الكلام مع تقدم نظيره في الصلة إلا أن حذف مثله قليل، وقال هشام بن معاوية: الرابط هو الاسم الظاهر وهو ﴿الخيرات﴾ وكأن المعنى نسارع لهم فيه ثم أظهر فقيل في الخيرات، وهذا يتمشى على مذهب الأخفش في إجازته نحو زيد قام أبو عبد الله إذا كان أبو عبد الله كنية لزيد، قيل: ولا يجوز أن يكون الخبر ﴿من مال وبنين﴾ لأن الله تعالى أمدهم بذلك فلا يعاب ولا ينكر عليهم اعتقاد المدد به كما يفيده الاستفهام الانكاري وتعقب بأنه لا يبعد أن يكون المراد ما نجعله مدداً نافعاً لهم في الآخرة ليس المال والبنين بل الاعتقاد والعمل الصالح كقوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٨] وفيه ما فيه. وما ذكرنا من كون ما موصولة هو الظاهر، ومن جوز كونها مصدرية وجعل المصدر الحاصل بعد السبك اسم أن وخبرها ﴿نسارع﴾ على تقدير مسارعة بناء على أن الأصل أن نسارع فحذفت أن وارتفع الفعل لم يوف القرآن الكريم حقه، وكذا من جعلها كافة كالكسائي ونقل ذلك عنه أبو حيان، وجوز عليه الوقف على ﴿بنين﴾ معللاً بأن ما بعد يحسب قد انتظم مسنداً ومسنداً إليه من حيث المعنى وإن كان في تأويل مفرد وهو كما ترى، وقرأ ابن وثاب «إنما نمدهم» بكسر همزة إن، وقرأ ابن كثير في رواية «يمدهم» بالياء.

وقرأ السلمي وعبد الرحمن بن أبي بكرة «يُسارِع» بالياء وكسر الراء فإن كان فاعله ضميره تعالى فالكلام في الرابط، على ما سمعت، وإن كان ضمير الموصول فهو الرابط وعن ابن أبي بكرة المذكور أنه قرأ «يُسَارَعُ» بالياء وفتح الراء مبنياً للمفعول، وقرأ الحر النحوي «نسرع» بالنون مضارع أسرع، وقرىء على ما في الكشاف «يسرع» بالياء مضارع أسرع أيضاً وفي فاعله الاحتمالان المشار إليهما آنفاً ﴿بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي كلا لا نفعل ذلك بل لا يشعرون أي ليس من شأنهم الشعور أن هم إلا كالأنعام بل هم أضل حتى يتأملوا ويتفكروا في ذلك هو استدراج أم مسارعة ومبادرة في الخيرات ومن هنا قيل: من يعص الله تعالى ولم ير نقصاناً فيما أعطاه سبحانه من الدنيا فليعلم أنه مستدرج قد مكر به، وقال قتادة: لا تعتبروا الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ الكلام فيه نظير ما مر في نظيره في سورة الأنبياء بيد أن استمرار

الإشفاق هنا في الدنيا والآخرة للمؤمنين ترددا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة والمنصوبة في الآفاق والأنفس، والباء للملابسة وهي متعلقة بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون، والمراد التصديق بمدلولها إذ لا مدح في التصديق بوجودها، والتعبير بالمضارع دون الاسم للإشارة إلى أنه كلما وقفوا على آية آمنوا بها وصدقوا بمدلولها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِم لاَ يُشْرِكُونَ﴾ فيخلصون بالعبادة له عز وجل فالمراد نفي الشرك الخفي كالرياء بالعبادة كذا قيل، وقد اختار بعض المحققين التعميم أي لا يشركون به تعالى شركاً جلياً ولا خفياً ولعله الأولى، ولا يغني عن ذلك وصفهم بالإيمان بآيات الله تعالى.

وجوز أن يراد مما سبق وصفهم بتوحيد الربوبية ومما هنا وصفهم بتوحيد الألوهية، ولم يقتصر على الأول لأن أكثر الكفار متصفون بتوحيد الربوبية ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨] ولا يأباه التعرض لعنوان الربوبية فإنه في المواضع الثلاثة للإشعار بالعلية وذلك العنوان يصلح لأن يكون علة لتوحيد الألوهية كما لا يخفى.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة من أن لا يقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به. وقرأت عائشة وابن عباس وقتادة والأعمش والحسن والنخعي ﴿يأتون ما أتوا﴾ من الإتيان لا الإيتاء فيهما، وأخرج ابن مردويه وسعيد بن منصور عن عائشة أنه ﷺ قرأ كذلك وأطلق عليها المفسرون قراءة رسول الله عليه الصلاة والسلام يعنون أن المحدثين نقلوها عنه ﷺ ولم يروها القراء من طرقهم والمعنى عليها يفعلون من العبادات ما فعلوه وقلوبهم وجلة، وروي نحو هذا عن رسول الله ﷺ.

فقد أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه وابن المنذر وابن جرير وجماعة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت يا رسول الله قول الله ﴿والذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله تعالى؟ قال: لا ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله تعالى أن لا يتقبل منه، وجملة ﴿قلوبهم وجلة﴾ في القراءتين في موضع الحال من ضمير الجمع في الصلة الأولى، والتعبير بالمضارع فيها للدلالة على الاستمرار وفي الثانية للدلالة على التحقق، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ بتقدير اللام التعليلية وهي متعلقة بوجلة أي خائفة من عدم القبول وعدم الوقوع على الوجه اللائق لأنهم راجعون إليه تعالى ومبعوثون يوم القيامة وحينئذ تنكشف الحقائق ويحتاج العبد إلى عمل مقبول لائق ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧،٨].

وجوز أن يكون بتقدير من الابتدائية التي يتعدى بها الوجل أي وجلة من أن رجوعهم إليه عز وجل على أن مناط الوجل أن لا يقبل ذلك منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به حينئذ لا مجرد رجوعهم إليه عز وجل، وقد يؤيد الوجه الأول بقراءة الأعمش ﴿إنهم﴾ بكسر الهمزة، ولعل التعبير بالجملة الاسمية المخبر فيها بالوصف دون الفعل المضارع للمبالغة في تحقق الرجوع حتى كأنه من الأمور الثابتة المستمرة كذا قيل.

وجوز على بعد أن يكون المراد من الرجوع المذكور الرجوع إليه عز وجل بالعبودية، فوجه التعبير بالجملة الاسمية عليه أظهر من أن يخفى، ووجه تعليل الخوف من عدم القبول وعدم وقوع فعلهم كائناً ما كان على الوجه اللائق بأنهم راجعون إليه تعالى بالعبودية عدم وجوب قبول عملهم عليه تعالى حينئذ لأنه سبحانه مالك وللمالك أن يفعل بملكه ما يشاء وظهور نقصهم كيف كانوا عن كماله جل جلاله والناقص مظنة أن لا يأتي بما يليق بالكامل لا سيما إذا كان ذلك الكامل هو الله عز وجل الذي لا يتناهى كماله ولا أراك ترى في هذا الوجه كلفاً سوى كلف العبد

فتأمل، ثم إن المواصلات الأربع على ما قاله شيخ الإسلام، وغيره عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر في حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة كأنه قيل: إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون وبآيات ربهم يؤمنون الخ، وإنما كرر الموصول إيذاناً باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها، وهذا جار على كلتا القراءتين في قوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ وللعلامة الطيبي في هذا المقام كلام لا أظنك تستطيبه كيف وفيه القول بأن الذين هم بربهم لا يشركون والذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هم العاصون من أمة محمد ﷺ وهو في غاية البعد.

وقد ذكر الإمام أن الصفة الرابعة نهاية مقامات الصديقين ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من ذكر باعتبار اتصافهم بتلك الصفات، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعد رتبتهم في الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والجملة من المبتدأ وخبره خبر إن، والكلام استئناف مسوق لبيان من له المسارعة في الخيرات إثر إقناط الكفار عنها وإبطال حسبانهم الكاذب أي أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون أولئك الكفرة يسارعون في نيل الخيرات التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة كما في قوله تعالى: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ [آل عمران: ١٤٨] وقوله سبحانه: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [النحل: ١٢٢] فقد أثبت لهم ما نفي عن أضدادهم خلا أنه غير الأسلوب حيث لم يقل أولئك يسارع لهم في الخيرات بل أسند المسارعة إليهم إيماء إلى استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة كما في قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾ [آل عمران: ١٣٣] ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي للخيرات التي من جملتها ما سمعت، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: ﴿سَابِقُونَ﴾ وهو إما منزل منزلة اللازم أي فاعلون السبق أو مفعوله محذوف أي سابقون الناس أو الكفار، وهو يتعدى باللام وبإلى فيقال: سبقت إلى كذا ولكذا، والمراد بسبقهم إلى الخيرات ظفرهم بها ونيلهم إياها.

وجعل أبو حيان هذه الجملة تأكيداً للجملة الأولى، وقيل سابقون متعد للضمير بنفسه واللام مزيدة، وحسن زيادتها كون العامل فرعياً وتقدم المعمول المضمر أي وهم سابقون إياها، والمراد بسبقهم إياها لازم معناه أيضاً وهو النيل أي وهم ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا فلا يرد ما قيل: إن سبق الشيء الشيء يدل على تقدم السابق على المسبوق فكيف يقال: هم يسبقون الخيرات والاحتياج إلى إرادة اللازم على هذا الوجه أشد منه على الوجه السابق ولهذا مع التزام الزيادة فيه قيل إنه وجه متكلف.

وجوز أن يكون المراد بالخيرات الطاعات وضمير ﴿لها﴾ لها أيضاً واللام للتعليل وهو متعلق بما بعده والمعنى يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة وهم لأجلها فاعلون السبق أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب أو إلى الجنة، و جوز على تقدير أن يراد بالخيرات الطاعات أن يكون ﴿لها﴾ خبر المبتدأ و ﴿سابقون﴾ خبر بعد خبر، ومعنى ﴿هم لها﴾ أنهم معدون لفعل مثلها من الأمور العظيمة، وهذا كقولك: لمن يطلب منه حاجة لا ترجى من غيره: أنت لها وهو من بليغ كلامهم، وعلى ذلك قوله:

مشكلات أعضلت ودهت ... يا رسول الله أنت لها

ورجح هذا الوجه الطبري بأن اللام متمكنة في هذا المعنى، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما هو ظاهر في جعل ﴿لها﴾ خبراً وإن لم يكن ظاهراً في جعل الضمير للخيرات بمعنى الطاعات، ففي البحر نقلاً عنه أن المعنى

سبقت لهم السعادة في الأزل فهم لها، وأنت تعلم أن أكثر هذه الأوجه خلاف الظاهر وأن التفسير الأول للخيرات أحسن طباقاً للآية المتقدمة، ومن الناس من زعم أن ضمير ﴿لها﴾ للجنة. ومنهم من زعم أنه للأمم وهو كما ترى. وقرأ الحر النحوي «يسرعون» مضارع أسرع يقال: أسرعت إلى الشيء وسرعت إليه بمعنى واحد و «يسارعون» كما قال الزجاج أبلغ من يسرعون، ووجه بأن المفاعلة تكون من اثنين فتقتفي حث النفس على السبق لأن من عارضك في شيء تشتهي أن تغلبه فيه ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به أولئك المشار إليهم من فعل الطاعات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاعة أي عادتنا جارية على أن لا نكلف نفساً من النفوس إلا ما في وسعها وقدر طاقتها على أن المراد استمرار النفي بمعونة المقام لا نفي الاستمرار أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما في وسعهم فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم. قال مقاتل: من لم يستطع القيام فليصل قاعداً ومن لم يستطع القعود فليوم إيماء.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ تتمة لما قبله ببيان أحوال ما كلفوه من الأعمال وأحكامها المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب، والمراد بالكتاب صحائف الأعمال التي يقرؤونها عند الحساب حسبما يؤذن به الوصف بهو كما في قوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: ٢٩] و ﴿الحق﴾ المطابق للواقع والنطق به مجاز عن إظهاره أي عندنا كتاب يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتاً ووصفاً ويبينه للناظر كما يبينه النطق ويظهره للسامع فيظهر هناك جلائل الأعمال ودقائقها ويترتب عليها أجزيتها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقيل: المراد بالكتاب صحائف يقرؤونها فيها ما ثبت لهم في اللوح المحفوظ من الجزاء وهو دون القول الأول، وأدون منه ما قيل: إن المراد به القرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ لبيان فضله عز وجل وعدله في الجزاء على أتم وجه إثر بيان لطفه سبحانه في التكليف وكتب الأعمال على ما هي عليه أي لا يظلمون في الجزاء بنقص ثواب أو زيادة عذاب بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلفوها ونطقت بها صحائفها بالحق، وجوز أن يكون تقريراً لما قبل من التكليف وكتب الأعمال أي لا يظلمون بتكليف ما ليس في وسعهم ولا بكتب بعض أعمالهم التي من جملتها أعمال غير السابقين بناء على قصورها عن درجة أعمال السابقين بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها.

وقوله عز وجل: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اضراب عما قبله ورجوع إلى بيان حال الكفرة فالضمير للكفرة أي بل قلوب الكفرة في غفلة وجهالة من هذا الذي بين في القرآن من أن لديه تعالى كتاباً ينطق بالحق ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد فيجزون بها كما ينبيء عنه ما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ الخ، وقيل: الإشارة إلى القرآن الكريم وما بين فيه مطلقاً وروي ذلك عن مجاهد، وقيل: إلى ما عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة وروي هذا عن قتادة، وقيل: إلى الدين بجملته، وقيل إلى النبي ﷺ والأول أظهر ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ سيئة كثيرة ﴿مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من كون قلوبهم في غمرة مما ذكر وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها طعنهم في القرآن الكريم المشار إليه في قوله تعالى: ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أن المراد بالغمرة الكفرة والشك وأن ﴿ذلك﴾ إشارة إلى هذا المذكور، والمعنى لهم أعمال دون الكفر وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أن ﴿ذلك﴾ كهذا إشارة إلى ما وصف به المؤمنون

من الأعمال الصالحة أي لهم أعمال متخطية لما وصف به المؤمنون أي أضداد ما وصفوا به مما وقع في حيز الصلات وهذا غاية الذم لهم ﴿هُمْ لها عَامِلُونَ﴾ أي مستمرون عليها معتادون فعلها ضارون بها لا يفطمون عنها و ﴿عاملون﴾ عامل في الضمير قبله واللام للتقوية، هذا وقال أبو مسلم: إن الضمير في قوله تعالى: ﴿بل هم﴾ الخ عائد على المؤمنين الموصوفين بما تقدم من الصفات كأنه سبحانه قال بعد وصفهم: ولا نكلف نفساً إلا وسعها ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق فلا يظلمون بل يوفي عليهم ثواب أعمالهم، ثم وصفهم سبحانه بالحيرة في قوله تعالى: بل قلوبهم في غمرة فكأنه عز وجل قال: وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين في أعمالهم أهي مقبولة أم مردودة ولهم أعمال من دون ذلك أي لهم أيضاً من النوافل ووجوه البرسوي ما هم عليه انتهى، قال الإمام: وهو الأولى لأنه إذا أمكن رد الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أولى من رده إلى ما بعد منه خصوصاً وقد يرغب المرء في فعل الخير بأن يذكر أن أعماله محفوظة كما يحذر بذلك من الشر، وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمرآخرته بأن قلبه في غمرة ويراد أنه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله أورده وفي أنه هل أداه كما يجب أو قصر، و ﴿هذا﴾ على هذا إشارة إلى إشفاقهم ووجلهم انتهى، ولا يخفى ما فيه على من ليس قلبه في غمرة.

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي
تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ
جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ
جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن
فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ
وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ
لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم
بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ
﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ
تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا
قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا
مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي
مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾
وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا
فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا
أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا
كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ
﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا
تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ
إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ
وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ ﴿حتى﴾ على ما في الكشاف هي التي يبتدأ بعدها الكلام وهي مع ذلك غاية لما قبلها كأنه قيل: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا إلخ، وقال ابن عطية: هي ابتداء لا غير، و ﴿إذا﴾ الأولى والثانية يمنعان من أن تكون غاية لعاملون وفيه نظر، و ﴿إذا﴾ شرطية شرطها ﴿أخذنا﴾ وهي مضافة إليه وجزاؤها قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ وهي معمولة له وإذا فيه فجائية نائبة مناب الفاء، وقال الحوفي: حتى غاية وهي عاطفة وإذا ظرف يضاف إلى ما بعده فيه معنى الشرط وإذا الثانية في موضع جواب الأولى ومعنى الكلام عامل في إذا الأولى والعامل في الثانية ﴿أخذنا﴾ انتهى.

وهو كلام مخبط يبعد صدوره من مثل هذا الفاضل، والمترف المتوسع في النعمة، والمراد بالعذاب ما أصابهم

يوم بدر من القتل والأسر كما روي عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة، وقد قتل وأسر في ذلك اليوم كثير من صناديدهم ورؤسائهم والجؤار مثل الخوار يقال جأر الثور يجأر إذا صاح وجأر الرجل إلى الله تعالى إذا تضرع بالدعاء كما في الصحاح وفي الأساس جأر الداعي إلى الله تعالى ضج ورفع صوته والمراد به الصراخ إما مطلقاً أو باستغاثة. وضميرا الجمع راجعان على ما رجع إليه الضمائر السابقة في ﴿مترفيهم﴾ و﴿لهم وقلوبهم﴾ وغيرها وهم كفار أهل مكة لكن بإرادة من بقي منهم بعد أخذ المترفين بالقتل. قال ابن جريج المعذبين قتلى بدر والذين يجأرون أهل مكة لأنهم ناحوا واستغاثوا، وفي إنسان العيون أو قريشاً ناحوا على قتلاهم في بدر شهراً وجز نساؤهم شعورهن وكن يأتين بفرس الرجل أو راحلته ويسترنها بالستور وينحن حولها ويخرجن بها إلى الأزقة إلى أن أشير عليهم بترك ذلك خوف الشماتة، وقال الربيع بن أنس: المراد بالجؤار الجزع إذ هو سبب الصراخ وفيه بعد لخفاء قرينة المجاز، وعن الضحاك أن المراد بالعذاب عذاب الجوع وذلك أنه ﷺ دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سني يوسف فاستجيب له عليه الصلاة والسلام فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرقة والعلهز وفي الأخبار ما يدل على أن ذلك كان قبل الهجرة. وفيها أيضاً ما يدل على أنه كان قبلها. ووفق البيهقي بأنه لعله كان مرتين، وسيأتي ذلك قريباً إن شاء الله تعالى وتخصيص المترفين بالذكر لأنه إذا جاع المترف جاع غيره من باب أولى، وقيل: المراد بالعذاب عذاب الآخرة، وتخصيص المترفين بما ذكر لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم وكون ذلك أشق عليهم ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم.

وقال شيخ الإسلام: إن هذا القول هو الحق لأن العذاب الأخروي هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط من النصر وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ [المؤمنون: ٧٦] فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتماً وأما عذاب الجوع فإن قريشاً وإن تضرعوا فيه إلى رسول الله ﷺ لكن لم يرد عليهم بالإقناط حيث روي أنه عليه الصلاة والسلام دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك انتهى، وستعلم إن شاء الله تعالى ما فيه، نعم حمل العذاب على ذلك أوفق بجعل ما في حيز ﴿حتى﴾ غاية لما قبلها.

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ على تقدير القول أي قلنا لهم ذلك، والكلام استئناف مسوق لبيان إقناطهم وعدم انتفاعهم بجؤارهم، والمراد باليوم الوقت الحاضر الذي اعتراهم فيه ما اعتراهم، والتقييد بذلك لزيادة إقناطهم والمبالغة في إفادة عدم نفع جؤارهم.

وقال شيخ الإسلام: إن ذلك التهويل اليوم والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار؛ والمراد بالقول على ما قيل: ما كان بلسان الحال كما في قوله: امتلأ الحوض وقال قطني. وجوز أن يراد به حقيقة القول وصدوره إما من الله تعالى وإما من الملائكة عليهم السلام، والظاهر على هذا الوجه أن يكون القول في الآخرة وكونه في الدنيا مع عدم إسماعهم إياه لا يخلو عن شيء، وتقديره فعل الأمر مسنداً إلى ضميره ﷺ أي قل لهم من قبلنا لا تجأروا بعيد جداً، ومن الناس من جوز كون القول المقدر جواب ﴿إذا﴾ الشرطية وحينئذ يكون ﴿إذا هم يجأرون﴾ قيداً للشرط أو بدلاً من إذا الأولى، وعلى الأول المعنى أخذنا مترفيهم وقت جؤارهم أو حال مفاجأتهم لجواز أن تكون ﴿إذا﴾ ظرفية أو فجائية حينئذ، ولم يجوز جعل النهي المذكور جواباً لخلوّه عن الفاء اللازمة فيه إذا وقع كذلك. وتعقب هذا القول بأنه لا يخفى أن المقصود الأصلي من الجملة الشرطية هو الجواب فيؤدي ذلك إلى أن يكون مفاجأتهم الجؤار غير مقصود أصلي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار ببيان عدم نفعه؛ ومن ابتدائية أي لا يلحقكم منا نصرة تنجيكم مما أنتم فيه، وجوز أن تكون من صلة النصر وضمن معنى المنع أو تجوز به عنه أي لا تمنعون منا. وتعقب بأنه لا يساعده سباق النظم الكريم لأن جؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله تعالى ولا سياقه فإن قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخره صريح في أنه تعليل لعدم لحوق النصر من جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفي متوهماً من الغير لعلل بعجزه أو بعزة الله تعالى وقوته، وأنت تعلم أنهم المشركون الذين شركاؤهم نصب أعينهم ولم يقيد الجؤار بكونه إلى الله تعالى وأمر التعليل سهل، وقد يقال: المعنى على هذا الوجه دعوى الصراخ فإنه لا يمنعكم منا ولا ينفعكم عندنا فقد ارتكبتم أمراً عظيماً وإثماً كبيراً لا يدفعه ذلك، ثم لا يخفى ما في كلام المتعقب بعد، والمراد قد كانت آياتي تتلى عليكم قبل أن يأخذ مترفيكم العذاب ﴿فَكُنتُمْ﴾ عند تلاوتها ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي تعرضون عن سمائها أشد الإعراض فضلاً عن تصديقها والعمل بها، والنكوص الرجوع، والأعقاب جمع عقب وهو مؤخر الرجل ورجوع الشخص على عقبه رجوعه في طريقه الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه، وجعل بعضهم التقييد بالأعقاب من باب التأكيد كما في بصرته بعيني بناء على أن النكوص الرجوع قهقرى وعلى الأعقاب، وأياً ما كان فهو مستعار للإعراض.

وقرأ عليّ كرّم الله تعالى وجهه «تنكصون» بضم الكاف ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي بالبيت الحرام. والباء للسببية، وسوغ هذا الإضمار مع أنه لم يجر له ذكر اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدام البيت وقوامه وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وقريب منه كون الضمير للحرام، وقال في البحر: الضمير عائد على المصدر الدال عليه «تنكصون» وتعقب بأنه لا يفيد كثير معنى فإن ذلك مفهوم من جعل مستكبرين حالاً. واعترض عليه بما فيه بحث، وذكر منذر بن سعيد أن الضمير لرسول الله ﷺ، ويحسنه أن في قوله تعالى: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ دلالة عليه عليه الصلاة والسلام، والباء إما للتعدية على تضمين الاستكبار معنى التكذيب أو جعله مجازاً عنه وإما للسببية لأن استكبارهم ظهر ببعثته ﷺ. وجوز أن يعود على القرآن المفهوم من الآيات أو عليها باعتبار تأويلها به وأمر الباء كما سمعت آنفاً، وجوز أن تكون متعلقة بقوله تعالى: ﴿سَامِراً﴾ أي تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه؛ وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً، والمعنى على ذاك وإن لم يعلق به ﴿بِهِ﴾ ويجوز على تقدير تعلقه بسامراً عود الضمير على النبي عليه الصلاة والسلام، وكذا يجوز كون المعنى عليه وإن لم يعلق به، وقيل: هي متعلقة بتهجرون وفيه من البعد ما فيه، ونصب «سامراً» على الحال وهو اسم جمع كالحاج والحاضر والجامل والباقر، وقيل: هو مصدر وقع حالاً على التأويل المشهور فهو يشمل القليل والكثير باعتبار أصله؛ ولا يخفى أن مجيء المصدر على وزن فاعل نادر ومنه العافية والعاقبة.

والسمر في الأصل ظل القمر وسمي بذلك على ما في المطلع لسمرته، وفي البحر هو ما يقع على الشجر من ضوء القمر، وقال الراغب: هو سواد الليل ثم أطلق على الحديث بالليل، وفسر بعضهم السامر بالليل المظلم، وكونه هنا بهذا المعنى وجعله منصوباً بما بعده على نزع الخافض ليس بشيء، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وأبو حيوة وابن محيصن وعكرمة والزعفراني ومحبوب عن أبي عمرو «سمراً» بضم السين وشد الميم مفتوحة جمع سامر، وابن عباس أيضاً، وزيد بن علي وأبو رجاء وأبو نهيك «سماراً» بزيادة ألف بعد الميم و هو جمع سامر أيضاً وهما جمعان مقيسان في مثل ذلك ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهجر بفتح فسكون بمعنى القطع والترك، والجملة في موضع الحال أي تاركين الحق أو القرآن أو النبي ﷺ، وعن ابن عباس تهجرون البيت ولا تعمرونه بما يليق به من العبادة.

وجاء الهجر بمعنى الهذيان كما في الصحاح يقال: هجر المريض يهجر هجراً إذا هذى، وجوز أن يكون المعنى عليه أي تهذون في شأن القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام أو أصحابه رضي الله تعالى عنهم أو ما يعم جميع ذلك. وفي الدر المصون أن ما كان بمعنى الهذيان هو الهجر بفتحتين.

وجوز أن يكون من الهجر بضم فسكون وهو الكلام القبيح، قال الراغب: الهجر الكلام المهجور لقبحه وهجر فلان إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد وأهجر المريض إذا أتى بذلك من غير قصد، وفي المصباح هجر المريض في كلامه هذى والهجر بالضم اسم مصدر بمعنى الفحش من هجر كقتل وفيه لغة أخرى اهجر بالألف وعلى هذه اللغة قراءة ابن عباس وابن محيصن ونافع وحميد «تُهْجِرُون» بضم التاء وكسر الجيم وهي تبعد كون «تهجرون» في قراءة الجمهور من الهجر بمعنى القطع.

وقرأ ابن أبي عاصم بالياء على سبيل الالتفات، وقرأ ابن مسعود وابن عباس أيضاً وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهم، وعكرمة وأبو نهيك. وابن محيصن أيضاً وأبو حيوة «تُهَجِّرُونَ» بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم وشدها على أنه من مضاعف هجر من الهجر بالفتح أو بالضم فالمعنى تقطعون أو تهذون أو تفحشون كثيراً.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي افعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبروا القرآن ليعلموا بما فيه من وجوه الإعجاز أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به، و «أم» في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ منقطعة، وما فيها من معنى بل للإضراب والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر، والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع أي بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين حتى استبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال بمعنى أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام لينذروا بها الناس سنة قديمة له تعالى لا تكاد تنكر وأن مجيء القرآن على طريقته فمم ينكرونه، وقيل: المعنى أفلم يتدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه فالمراد بآباءهم المؤمنون كإسماعيل عليه السلام وعدنان وقحطان، وكأن وصفهم بالأولين على هذا الاخراج الأقربين.

وفي الخبر «لا تسبوا مضر وربيعة فإنهما كانا مسلمين ولا تسبوا قساً فإنه كان مسلماً ولا تسبوا الحارث بن كعب ولا أسد بن خزيمة ولا تميم بن مر فإنهم كانوا على الإسلام وما شككتم في شيء فلا تشكوا في أن تبعاً كان مسلماً» وروي أن ضبة بن أد كان مسلماً وكان على شرطة سليمان بن داود عليهما السلام.

وفي الكشف أن جعل فائدة التدبر استعقاب العلم فالهمزة في المنقطعة للتقرير وإثبات أنهم مصرون على التقليد فلذلك لم يتدبروا ولم يعلموا، وإن جعلت الاعتبار والخوف فالهمزة فيها للإنكار أو التقرير تهكماً اهـ فتدبر، ثم لا يخفى أن إسناد المجيء إلى الأمن غير ظاهر ظهور إسناده إلى الكتاب وبهذا تنحط درجة هذا الوجه عن الوجه الأول.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ إضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر، والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً أي بل ألم يعرفوه عليه الصلاة والسلام بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق إلى غير ذلك من الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام.

وقد صح أن أبا طالب يوم نكاح النبي ﷺ خطب بمحضر رؤساء مضر وقريش فقال: أحمد الله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضيء معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتاً محجوجاً

وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

وفي هذا دليل واضح على أنهم عرفوه ﷺ بغاية الكمال وإلا لأنكروا قول أبي طالب فيه عليه الصلاة والسلام ما قال.

﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ الفاء سببية لتسبب الإنكار عن عدم المعرفة فالجملة داخلة في حيز الإنكار ومآل المعنى هم عرفوه بالكمال اللائق بالأنبياء عليهم السلام فكيف ينكرونه، واللام للتقوية، وتقديم المعمول للتخصيص أو الفاصلة، والكلام على تقدير مضاف أي منكرون لدعواه أو لرسالته عليه الصلاة والسلام.

﴿أَمْ يَقُولُونَ به جِنَّةٌ﴾ انتقال إلى توبيخ آخر والهمزة لإنكار الواقع كالأولى أي بل أيقولون به جنة أي جنون مع أنه عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلاً وأثقبهم رأياً وأوفرهم رزانة، وقد روعي في هذه التوبيخات الأربع التي اثنان منها متعلقان بالقرآن والباقيان به عليه الصلاة والسلام الترقي من الأدنى إلى الأعلى كما يبينه شيخ الإسلام، وقوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ إضراب عما يدل عليه ما سبق أي ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول ﷺ بل جاءهم بالحق أي بالصدق الثابت الذي لا محيد عنه، والمراد به التوحيد ودين الإسلام الذي تضمنه القرآن ويجوز أن يراد به القرآن.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لما في جبلتهم من كمال الزيغ والانحراف، والظاهر أن الضمائر لقريش، وتقييد الحكم بأكثرهم لأن منهم من أبى الإسلام واتباع الحق حذراً من تعيير قومه أو نحو ذلك لا كراهة للحق من حيث هو حق، فلا يرد ما قيل: إن من أحب شيئاً كره ضده فمن أحب البقاء على الكفر فقد كره الانتقال إلى الإيمان ضرورة، وقال ابن المنير: يحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي وفيه بعد، وكذا ما اختاره من كون ضمير ﴿أكثرهم﴾ للناس كافة لا لقريش فيكون الكلام نظير قوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: ١٠٣] وقد يقال: حيث كان المراد إثبات الكراهة للحق على سبيل الاستمرار وعلم الله تعالى أن فيهم من يؤمن ويتبع الحق لم يكن بد من تقييد الحكم بالأكثر، والظاهر بناء على القاعدة الأغلبية في إعادة المعرفة أن الحق الثاني عين الحق الأول، وأظهر في مقام الإضمار لأنه أظهر في الذم والضمير ربما يتوهم عوده للرسول عليه الصلاة والسلام، وقيل: اللام في الأول للعهد وفي الثاني للاستغراق أو للجنس أي وأكثرهم للحق أي حق كان لا لهذا الحق فقط كما ينبىء عنه الإظهار كارهون، وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف لا يقتضي إلا عدم كراهة بعضهم لكل حق من الحقوق وذلك لا ينافي كراهتهم لهذا الحق وفيه بحث إذ لا يكاد يسلم أن أكثرهم كارهون لكل حق، وكذا الظاهر أن يراد بالحق في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الحق الذي جاء به النبي ﷺ وجعل الاتباع حقيقياً والإسناد مجازياً، وقيل ما آل المعنى لو اتبع النبي ﷺ أهواءهم فجاءهم بالشرك بدل ما أرسل به ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي لخرب الله تعالى العالم وقامت القيامة لفرط غضبه سبحانه وهو فرض محال من تبديله عليه الصلاة والسلام وما أرسل به من عنده، وجوز أن يكون المراد بالحق الأمر المطابق للواقع في شأن الألوهية والاتباع مجازاً عن الموافقة أي لو وافق الأمر المطابق للواقع أهواءهم بأن كان الشرك حقاً لفسدت السموات والأرض حسبما قرر في قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولعل الكلام عليه اعتراض للإشارة إلى أنهم كرهوا شيئاً لا يمكن خلافه أصلاً فلا فائدة لهم في هذه الكراهة.

واعترض بأنه لا يناسب المقام وفيه بحث، وكذا ما قيل: إن ما يوافق أهواءهم هو الشرك في الألوهية لأن قريشاً كانوا وثنية وهو لا يستلزم الفساد والذي يستلزمه إنما هو الشرك في الربوبية كما تزعمه الثنوية وهم لم يكونوا كذلك كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨].

وجوز أن يكون المعنى لو وافق الحق مطلقاً أهواءهم لخرجت السموات والأرض عن الصلاح والانتظام بالكلية، والكلام استطراد لتعظيم شأن الحق مطلقاً بأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به ولا يخلو عن حسن. وقيل: المراد بالحق هو الله تعالى.

وقد أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح، وحكاه بعضهم عن ابن جريج والزمخشري عن قتادة، والمعنى عليه لو كان الله تعالى يتبع أهواءهم ويفعل ما يريدون فيشرع لهم الشرك ويأمرهم به لم يكن سبحانه إلهاً فتفسد السموات والأرض. وهذا مبني على أن شرع الشرك نقص يجب تنزيه الله تعالى عنه. وقد ذكر ذلك الخفاجي وذكر أنه قد قام الدليل العقلي عليه وأنه لا خلاف فيه. ولعل الكلام عليه اعتراض أيضاً للإشارة إلى عدم إمكان إرسال النبي عليه الصلاة والسلام إليهم بخلاف ما جاء به مما لا يكرهونه فكراهتهم لما جاء به عليه الصلاة والسلام لا تجديهم نفعاً فالقول بأنه بعيد عن مقتضى المقام ليس في محله. وقيل: المعنى عليه لو فعل الله تعالى ما يوافق أهواءهم لاختل نظام العالم لما أن آراءهم متناقضة، وفيه إشارة إلى فساد عقولهم وأنهم لذلك كرهوا ما كرهوه من الحق الذي جاء به عليه الصلاة والسلام وهو كما ترى.

وقرأ ابن وثاب «ولو اتبع» بضم الواو ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خيرها. والمراد بالذكر القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: ٤٤] أي بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال ويقبلوا ما فيه أكمل قبول ﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا من النكوص ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي فخرهم وشرفهم خاصة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا عن غير ذلك مما لا يوجب الإقبال عليه والاعتناء به، وفي وضع الظاهر موضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريع، والفاء لترتيب ما بعدها من إعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها من الإتيان بذكرهم، ومن فسر ﴿الحق﴾ في قوله تعالى: ﴿بل جاءهم بالحق﴾ بالقرآن الكريم قال هنا: في إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تنويه بشأن النبي ﷺ وتنبيه على كونه عليه الصلاة والسلام بمثابة عظيمة منه عز وجل، وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه ﷺ بعنوان الحقية وعند نسبته إليه تعالى بعنوان الذكر من النكتة السرية والحكمة العبقرية ما لا يخفى فإن التصريح بحقيته المستلزمة لحقية من جاء به هو الذي يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطلون في شأنه وأما التشريف فإنما يليق به تعالى لا سيما رسول الله ﷺ أحد المشرفين. وقيل: المراد بذكرهم ما تمنوه بقولهم: «لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين» فكأنه قيل: بل أتيناهم الكتاب الذي تمنوه وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد بالذكر الوعظ.

وأيد بقراءة عيسى «بذكراهم» بألف التأنيث، ورجح القولان الأولان بأن التشنيع عليهما أشد فإن الإعراض عن وعظهم ليس بمثابة إعراضهم عن شرفهم وفخرهم أو عن كتابهم الذي تمنوه في الشناعة والقباحة.

وقيل: إن الوعظ فيه بيان ما يصلح به حال من يوعظ فالتشنيع بالإعراض عنه لا يقصر عن التشنيع بالإعراض عن أحد ذينك الأمرين ولا يخفى ما فيه من المكابرة.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر ويونس عن أبي عمرو «بل أتيتهم» بتاء المتكلم، وابن أبي إسحاق وعيسى أيضاً وأبو حيوة والجحدري وابن قطيب وأبو رجاء «بل أتيتهم» بتاء الخطاب للرسول ﷺ وأبو عمرو وفي رواية «أتيناهم» بالمد ولا حاجة على هذه القراءة إلى ارتكاب مجاز أو دعوى حذف مضاف كما في قراءة الجمهور على تقدير جعل الباء للمصاحبة وقرأ قتادة «نذكرهم» بالنون مضارع ذكر ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿أم يقولون جنة﴾ فهو انتقال إلى توبيخ آخر، وغير للخطاب لمناسبته ما بعده، وكان المراد أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة ﴿خرجاً﴾ أي جعلاً فلأجل ذلك لا يؤمنون بك، وقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي رزقه في الدنيا وثوابه في الآخرة تعليل لنفي السؤال المستفاد من الإنكار أي لا تسألهم ذلك فإن ما رزقك الله تعالى في الدنيا والعقبى خير من ذلك لسعته ودوامه وعدم تحمل منة الرجال فيه، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تعليل الحكم وتشريفه ﷺ ما لا يخفى.

و «الخرج» بإزاء الدخل يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك والخراج غالب في الضريبة على الأرض ففيه إشعار بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ ولذلك عبر به عن عطاء الله تعالى، وكذا على ما قيل من أن الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك واللزوم بالنسبة إليه تعالى إنما هو لفضل وعده عز وجل، وقيل الخرج أعم من الخراج وساوى بينهما بعضهم.

وقرأ عامر «خُرجاً فخرج» وحمزة والكسائي «خراجاً فخراج» للمشاكلة وقرأ الحسن وعيسى «خرجاً فخرج» وكأن اختيار ﴿خرجاً﴾ في جانبه عليه الصلاة والسلام للإشارة إلى قوة تمكنهم في الكفر واختيار «خرجاً» في جانبه تعالى للمبالغة في حط قدر خراجهم حيث كان المعنى فالشيء القليل منه عز وجل خير من كثيرهم فما الظن بكثيره جل وعلا ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تأكيد لخيرية خراجه سبحانه وتعالى فإن من كان خير الرازقين يكون رزقه خيراً من رزق غيره.

واستدل الجبائي بذلك على أنه سبحانه لا يساويه أحد في الإفضال على عباده وعلى أن العباد قد يرزق بعضهم بعضاً ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته ليس فيه شائبة اعوجاج توجب الاتهام، قال الزمخشري: ولقد ألزمهم عز وجل الحجة وأزاح عللهم في هذه الآيات بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله تعالى بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حفظهم من الذكر اهـ. وهو من الحسن بمكان.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ هم كفرة قريش المحدث عنهم فيما مر وصفوا بذلك تشنيعاً لهم مما هم عليه من الانهماك في الدنيا وزعمهم أن لا حياة بعدها وإشعار بعلة الحكم فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهي من أقوى الدواعي إلى طلب الحق وسلوك سبيله، وجوز أن يكون المراد بهم ما يعمهم وغيرهم من الكفرة المنكرين للحشر ويدخلون في ذلك دخولاً أولياً ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾ المستقيم الذي تدعو إليه ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ أي لعادلون، وقيل: المراد بالصراط جنسه أي إنهم عن جنس الصراط فضلاً عن الصراط المستقيم الذي تدعوهم إليه لناكبون، ورجح بأنه أدل على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم لما أنه ينبىء عن كون ما ذهبوا إليه مما لا يطلق عليه اسم الصراط

ولو كان معوجاً، وفيه أن التعليل بمضمون الصلة لا يساعد إلا على إرادة الصراط المستقيم، وأظن أنه قد نكب عن الصراط من زعم أن المراد هنا الصراط الممدود على متن جهنم وهو طريق الجنة أي أنهم يوم القيامة عن طريق الجنة لمائلون يمنة ويسرة إلى النار.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي من سوء حال، قيل: هو ما عراهم بسبب أخذ مترفيهم بالعذاب يوم بدر أعني الجزع عليهم وذلك بإحيائهم وإعادتهم إلى الدنيا بعد القتل أي ولو رحمناهم وكشفنا ضرهم بإرجاع مترفيهم إليهم ﴿لَّلَجُّوا﴾ لتمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار وعداوة الرسول ﷺ والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عامهين مترددين في الضلال يقال عمه كمنع وفرح عمهاً وعموهاً وعموهة وعمهاناً، وقيل: هو ما هم فيه من شدة الخوف من القتل والسبي ومزيد الاضطراب من ذلك لما رأوا ما حل بمترفيهم يوم بدر وكشفه بأمر النبي ﷺ بالكف عن قتالهم وسبيهم بعد أو بنحو ذلك وهو وجه ليس بالبعيد وقيل: المراد بالضر عذاب الآخرة أي إنهم في الرداءة والتمرد إلى أنهم لو رحموا وكشف عنهم عذاب النار وردوا إلى الدنيا لعادوا لشدة لجاجهم فيما هم عليه وفيه من البعد ما فيه.

واستظهر أبو حيان أن المراد به القحط والجوع الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ وذكر أنه مروي عن ابن عباس وابن جريج، وقد دعا عليهم ﷺ بذلك في مكة يوم ألقى عليه المشركون وهو قائم يصلي عند البيت صلى جزور فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ودعا بذلك أيضاً بالمدينة، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام مكث شهراً إذا رفع رأسه من الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله سمع الله لمن حمده يقول: اللهم انج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين بمكة اللهم اشدد وطأتك الخ، وربما فعل ذلك بعد رفعه من الركعة الأخيرة من صلاة العشاء، وكلتا الروايتين ذكرهما برهان الدين الحلبي في سيرته، والكثير على أنه الجوع الذي أصابهم من منع ثمامة الميرة عنهم، وذلك أن ثمامة بن أثال الحنفي جاءت به إلى المدينة سرية محمد بن مسلمة حين بعثها ﷺ إلى بني بكربن كلاب فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثة أيام ثم خرج معتمراً فلما قدم مكة لبى وهو أول من دخلها ملبياً ومن هنا قال الحنفي:

ومنا الذي لبى بمكة معلناً برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم

فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا وقد صبوت يا ثمامة قال: أسلمت واتبعت خير دين دين محمد ﷺ والله لا يصل إليكم حبة من اليمامة وكانت ريفاً لأهل مكة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ثم خرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً حتى أضر بهم الجوع وأكلت قريش العلهز. فكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع إنك تأمر بصلة الرحم وأنت قد قطعت أرحامنا فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة رضي الله تعالى عنه خل بين قومي وبين ميرتهم ففعل، وفي رواية أن أبا سفيان جاءه ﷺ فقال: ألست الخ، ووجه الجمع ظاهر وكان هذا قبل الفتح بقليل، وعندي أن ﴿لو﴾ تبعد هذا القول كما لا يخفى، نعم أخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس ما هو نص في أن قصة ثمامة سبب لنزول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ إلى آخره فيكون الجوع مراداً من العذاب المذكور فيه على ذلك، ولا يرد على من قال به قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ فما خضعوا بذلك ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لأن له أن يقول: المراد بالخضوع له عز وجل الانقياد لأمره سبحانه والإيمان به جل وعلا وما كان منهم مع رسول الله ﷺ ليس منه شيء، والمشهور أن المراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر، ولا يرد على من فسر العذاب في قوله سبحانه: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾

به أيضاً لزوم المنافاة بين ما هناك من قوله تعالى: ﴿إذا هم يجأرون﴾ وما هنا من نفي الاستكانة لربهم ونفي التضرع المستفاد من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إذ له أن يقول: الجؤار مطلق الصراخ وهو غير الاستكانة لله عز وجل وغير التضرع إليه سبحانه وهو ظاهر، وكذا إذا أريد بالجؤار الصراخ باستغاثة بناء على أن المراد بالاستكانة له تعالى ما علمت آنفاً من الانقياد لأمره عز وجل وأن التضرع ما كان عن صميم الفؤاد والجؤار ما لم يكن كذلك، وكأن التعبير هناك بالجؤار للإشارة إلى أن استغاثتهم كانت أشبه شيء بأصوات الحيوانات، وقيل: ما تقدم لبيان حال المقتولين وما هنا لبيان حال الباقين، وعبر في التضرع بالمضارع ليفيد الدوام إلا أن المراد دوام النفي لا نفي الدوام أي وليس من عادتهم التضرع إليه تعالى أصلاً، ولو حمل ذلك على نفي الدوام كما هو الظاهر لا يرد ما يتوهم من المنافاة بين قوله تعالى: ﴿إذا هم يجأرون﴾ وقوله سبحانه: ﴿وما يتضرعون﴾ أيضاً، واستكان استفعل من الكون، وأصل معناه انتقل من كون إلى كون كاستحجر ثم غلب العرف على استعماله في الانتقال من كون الكبر إلى كون الخضوع فلا إجمال فيه عرفاً، وقال أبو العباس أحمد بن فارس: سئلت عن ذلك في بغداد لما دخلتها زمن الإمام الناصر وجمع لي علماءها فقلت واستحسن مني: هو مشتق من قول العرب: كنت لك إذا خضعت وهي لغة هذيلية وقد نقلها أبو عبيدة في الغريبين وعليه يكون من باب قر واستقر، ولا يجعل من استفعل المبني للمبالغة مثل استعصم واستحسر إلا أن يراد في الآية حينئذ المبالغة في النفي لا نفي المبالغة، وقيل هو من الكين اللحمة المستبطنة في الفرج لذلة المستكين، وجوز الزمخشري أن يكون افتعل من السكون والألف إشباع كما في قوله:

وأنت من الغوائل حين ترمي ... ومن ذم الرجال بمنتزاح

وقوله:

أعوذ بالله من العقراب ... الشائلات عقد الأذناب

واعترض بأن الإشباع المذكور مخصوص بضرورة الشعر وبأنه لم يعهد بكونه في جميع تصاريف الكلمة واستكان جميع تصاريفه كذلك فهو يدل على أنه ليس مما فيه إشباع ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ من عذاب الآخرة كما ينبىء عنه التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة وإلى هذا ذهب الجبائي، و ﴿حتى﴾ مع كونها غاية للنفي السابق مبتدأ لما بعدها من مضمون الشرطية كأنه قيل: هم مستمرون على هذه الحال حتى إذا فتحنا عليهم يوم القيامة باباً ذا عذاب شديد ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ﴾ أي في ذلك الباب أو في ذلك العذاب أو بسبب الفتح أقوال ﴿مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون آيسون من كل خير أو ذوو حزن من شدة البأس وهذا كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ [الروم: ١٢] ﴿لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ [الزخرف: ٧٥] وقيل: هذا الباب استيلاء النبي ﷺ والمؤمنين عليهم يوم الفتح وقد أيسوا في ذلك اليوم من كل ما كانوا يتوهمونه من الخير. وأخرج ابن جرير أنه الجوع الذي أكلوا فيه العلهز، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه القتل يوم بدر، وروت الإمامية ـ وهم بيت الكذب ـ عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه أن ذلك عذاب يعذبون به في الرجعة، ولعمري لقد افتروا على الله تعالى الكذب وضلوا ضلالاً بعيداً، والوجه في الآية عندي ما تقدم، والظاهر أن هذه الآيات مدنية وبعض من قال بمكيتها ادعى أن فيها أخباراً عن المستقبل بالماضي للدلالة على تحقق الوقوع.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ لتحسوا بها الآيات التنزيلية والتكوينية ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ لتتفكروا بها في الآيات وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع، وقدم السمع لكثرة منافعه، وأفرد لأنه مصدر في الأصل ولم يجمعه الفصحاء في الأكثر، وقيل: أفرد لأنه يدرك به نوع واحد من المدركات وهو الأصوات بخلاف البصر فإنه يدرك به

الأضواء والألوان والأكوان والأشكال وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك به أنواع شتى من التصورات والتصديقات. وفي الآية إشارة إلى الدليل الحسي والعقلي، وتقديم ما يشير إلى الأول قد تقدم فتذكر فما في العهد من قدم ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي شكراً قليلاً تشكرون تلك النعم الجليلة لأن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي في أنفسها نعم باهرة إلى ما خلقت هي له فنصب ﴿قليلاً﴾ على أنه صفة مصدر محذوف، والقلة على ظاهرها بناء على أن الخطاب للناس بتغليب المؤمنين، وجوز أن تكون بمعنى النفي بناء على أن الخطاب للمشركين على سبيل الالتفات، وقيل: هو للمؤمنين خاصة وليس بشيء، والأولى عندي للمشركين خاصة مع جواز كون القلة على ظاهرها كما لا يخفى على المتدبر؛ و ﴿ما﴾ علا سائر الأقوال مزيدة للتأكيد.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي خلقكم وبثكم فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم لا إلى غيره تعالى فما لكم لا تؤمنون به سبحانه وتشكرونه عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيء من الأشياء ﴿وَلَهُ﴾ تعالى شأنه خاصة ﴿اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي هو سبحانه وتعالى المؤثر في اختلافهما أي تعاقبهما من قولهم: فلان يختلف إلى فلان أي يتردد عليه بالمجيء والذهاب أو تخالفهما زيادة ونقصاً، وقيل: المعنى لأمره تعالى وقضائه سبحانه اختلافهما ففي الكلام مضاف مقدر، واللام عليه يجوز أن تكون للتعليل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أو أتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل صار منا وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات التي من جملتها البعث، وقرأ أبو عمرو في رواية «يعقلون» على أن الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطبين، وقيل: على أن الخطاب الأول لتغليب المؤمنين وليس بذاك.

﴿بَلْ قَالُوا﴾ عطف على مضمر يقتضيه المقام أي فلم يعقلوا بل قالوا ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي آباؤهم ومن دان بدينهم من الكفرة المنكرين للبعث ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا كُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تفسير لما قبله من المبهم وتفصيل لما فيه من الإجمال وقد مر الكلام فيه ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا﴾ البعث ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى المعطوف عليه والمعطوف على ما هو الظاهر، وصح ذلك بالنسبة إليهم لأن الأنبياء المخبرين بالبعث كانوا يخبرون به بالنسبة إلى جميع من يموت، ويجوز أن يكون متعلقاً به من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم أي ووعد آباؤنا من قبل أو بمحذوف وقع حالاً من آبائنا أي كائنين من قبل ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أكاذيبهم التي سطروها جمع أسطورة كأحدوثة وأعجوبة وإلى هذا ذهب المبرد وجماعة، وقيل: جمع أسطار جمع سطر كفرس وأفراس، والأول كما قال الزمخشري أوفق لأن جمع المفرد أولى وأقيس ولأن بنية أفعولة تجيء لما فيه التلهي فيكون حينئذ كأنه قيل مكتوبات لا طائل تحتها ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ من المخلوقات تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابه محذوف ثقة بدلالة الاستفهام عليه أي إن كنتم من أهل العلم ومن العقلاء أو عالمين بذلك فأخبروني به. وفي الآية من المبالغة في الاستهانة بهم وتقرير فرط جهالتهم ما لا يخفى.

ويقوي هذا أنه أخبر عن الجواب قبل أن يجيبوا فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإن بداهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه سبحانه خلقها فاللام للملك باعتبار الخلق ﴿قُلْ﴾ أي عند اعترافهم بذلك تبكيتاً لهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أتعلمون أو أتقولون ذلك فلا تتذكرون أي من فطر الأرض ومن فيها ابتداء قادر على إعادتها ثانياً فإن البدء ليس بأهون من الإعادة بل الأمر بالعكس في قياس المعقول. وقرىء «تتذكرون» على الأصل ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أعيد لفظ الرب تنويهاً بشأن العرش ورفعاً لمحله من أن يكون تبعاً للسماوات وجوداً وذكراً، وقرأ ابن محيصن «العظيمُ» بالرفع نعتاً للرب.

﴿سَيَقُولُونَ للهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بغير لام فيه. وفيما بعده ولم يقرأ على ما قيل في السابق بترك اللام والقراءة بغير لام على الظاهر وباللام على المعنى وكلا الأمرين جائزان فلو قيل: من صاحب هذه الدار؟ فقيل: زيد كان جواباً عن لفظ السؤال، ولو قيل: لزيد لكان جواباً على المعنى لأن معنى من صاحب هذه الدار؟ لمن هذه الدار وكلا الأمرين وارد في كلامهم، أنشد صاحب المطلع:

إذا قيل من رب المزالف والقرى ... ورب الجياد الجرد قلت لخالد

وأنشد الزجاج:

وقال السائلون لمن حفرتم ... فقال المخبرون لهم وزير

﴿قُلْ﴾ إفحاماً لهم وتوبيخاً ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أتعلمون ذلك ولا تتقون أنفسكم عقابه على ترك العمل بموجب العلم حيث تكفرون به تعالى وتنكرون ما أخبر به من البعث وتثبتون له سبحانه شريكاً.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر؛ وصيغة الملكوت للمبالغة في الملك فالمراد به الملك الشامل الظاهر، وقيل: المالكية والمدبرية، وقيل: الخزائن ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي يمنع من يشاء ممن يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ولا يمنع أحد منه جل وعلا أحداً، وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى النصرة أو الاستعلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير لاستهانتهم وتجهيلهم على ما مر ﴿سَيَقُولُونَ للهِ﴾ ملكوت كل شيء والوصف بأنه الذي يجير ولا يجار عليه ﴿قُلْ﴾ تهجيناً لهم وتقريعاً ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ كيف أو من أين تخدعون وتصرفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه من البغي فإن من لا يكون مسحوراً مختل العقل لا يكون كذلك، وهذه الآيات الثلاث أعني ﴿قل لمن﴾ إلى هنا على ما قرر في الكشف تقرير للسابق وتمهيد للاحق وقد روعي في السؤال فيها قضية الترقي فسئل عمن له الأرض ومن فيها، وقيل: ﴿من﴾ تغليباً للعقلاء ولأنه يلزم أن يكون له غيرهم من طريق الأولى ثم سئل عمن له السموات والعرش العظيم والأرض بالنسبة إليه كلا شيء ثم سئل عمن بيده ملكوت كل شيء فأتى بأعم العام وكلمة الإحاطة وأوثر الملكوت وهو الملك الواسع، وقيل: ﴿بيده﴾ تصويراً وتخييلاً وكذلك روعي هذه النكتة في الفواصل فعيروا أولاً بعدم التذكر فإن أيسر النظر يكفي في انحلال عقدهم ثم بعدم الاتقاء وفيه وعيد ثم بالتعجب من خدع عقولهم فتخيل الباطل حقاً والحق باطلاً وأنى لها التذكر والخوف.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ إضراب عن قولهم: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ والمراد بالحق الوعد بالبعث وقيل: ما يعمه والتوحيد ويدل على ذلك السياق وقرىء «بل أتيتهم» بتاء المتكلم وقرأ ابن أبي إسحاق بتاء الخطاب ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أو في ذلك قولهم بما ينافي التوحيد ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لتنزهه عز وجل عن الاحتياج وتقدسه تعالى عن مماثلة أحد.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ يشاركه سبحانه في الألوهية ﴿إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لاستبد بالذي خلقه واستقل به تصرفاً وامتاز ملكه عن ملك الآخر ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ولوقع التحارب والتغالب بينهم كما هو الجاري فيما بين الملوك والتالي باطل لما يلزم من ذلك نفي ألوهية الجميع أو ألوهية ما عدا واحداً منهم وهو خلاف المفروض أو لما أنه يلزم أن لا يكون بيده تعالى وحده ملكوت كل شيء وهو باطل في نفسه لما برهن عليه في الكلام وعند الخصم لأنه يقول باختصاص ملكوت كل شيء به تعالى كما يدل عليه السؤال والجواب السابقان آنفاً كذا قيل، ولا يخفى أن اللزوم في الشرطية المفهومة من الآية عادي لا عقلي ولذا قيل: إن الآية إشارة إلى دليل إقناعي للتوحيد لا قطعي.

وفي الكشف قد لاح لنا من لطف الله تعالى وتأييده أن الآية برهان نير على توحيده سبحانه، وتقريره أن مرجح الممكنات الواجب الوجود تعالى شأنه جل عن كل كثرة أما كثرة المقومات أو الأجزاء الكمية فبينة الانتفاء لإيذائها بالإمكان، وأما التعدد مع الاتحاد في الماهية فكذلك للافتقار إلى المميز ولا يكون مقتضى الماهية لاتحادهما فيه فيلزم الإمكان، ثم الميزان في الطرفين صفتا كمال لأن الاتصاف بما لا كمال فيه نقص فهما ناقصان ممكنان مفتقران في الوجود إلى مكمل خارج هو الواجب بالحقيقة، وكذلك الافتقار في كمال ما للوجود يوجب الإمكان لإيجابه أن يكون فيه أمر بالفعل وأمر بالقوة واقتضائه التركيب والإمكان.

ومن هنا قال العلماء: إن واجب الوجود بذاته واجب بجميع صفاته ليس له أمر منتظر ومع الاختلاف في الماهية يلزم أن لا يكون المرجح مرجحاً أي لا يكون الإله إلهاً لأن كل واحد واحد من الممكنات إن استقلا بترجيحه لزم توارد العلتين التامتين على معلول شخصي وهو ظاهر الاستحالة فكونه مرجحاً إلهاً يوجب الافتقار إليه وكون غيره مستقلاً بالترجيح يوجب الاستغناء عنه فيكون مرجحاً غير مرجح في حالة واحدة، وإن تعاونا فكمثل إذ ليس ولا واحد منهما بمرجح وفرضا مرجحين مع ما فيه من العجز عن الإيجاد والافتقار إلى الآخر، وإن اختص كل منهما ببعض مع أن الافتقار إليهما على السواء لزم اختصاص ذلك المرجح بمخصص يخصصه بذلك البعض بالضرورة وليس الذات لأن الافتقار إليهما على السواء فلا أولوية للترجيح من حيث الذات ولا معلول الذات لأنه يكون ممكناً والكلام فيه عائد فيلزم المحال من الوجهين الأولين أعني الافتقار إلى مميز غير الذات ومقتضاها ولزوم النقص لكل واحد لأن هذا المميز صفة كمال ثم مخصص كل بذلك التمييز هو الواجب الخارج لا هما، وإلى المحال الأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إذاً لذهب كل إله بما خلق**﴾ وهو لازم على تقدير التخالف في الماهية واختصاص كل ببعض، وخص هذا القسم لأن ما سواه أظهر استحالة، وإلى الثاني الإشارة بقوله سبحانه ﴿**ولعلا بعضهم على بعض**﴾ أي إما مطلقاً وإما من وجه فيكون العالي هو الإله أو لا يكون ثم إله أصلاً وهذا لازم على تقديري التخالف والاتحاد والاختصاص وغيره فهو تكميل للبرهان من وجه وبرهان ثان من آخر، فقد تبين ولا كفرق الفجر أنه تعالى هو الواحد الأحد جعل وجوده زائداً على الماهية أو لا فاعلاً بالاختيار أو لا، وليس برهان الوحدة مبنياً على أنه تعالى فاعل بالاختيار كما ظنه الإمام الرازي قدس سره انتهى، وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق، وربما يورد عليه بعض مناقشات تندفع بالتأمل الصادق، وما أشرنا إليه من انفهام قضية شرطية من الآية ظاهر جداً على ما ذهب إليه الفراء فقد قال: إن إذاً حيث جاءت بعدها اللام فقبلها لو مقدرة إن لم تكن ظاهرة نحو ﴿**إذاً لذهب كل إله بما خلق**﴾ فكأنه قيل: لو كان معه آلهة كما تزعمون لذهب كل إلخ.

وقال أبو حيان: إذا حرف جواب وجزاء ويقدر قسم يكون ﴿**لذهب**﴾ جواباً له، والتقدير والله إذاً أي إن كان معه من إله لذهب وهو في معنى ليذهبن كقوله تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا﴾ [الروم: ٥١] أي ليظلن لأن إذا تقتضي الاستقبال وهو كما ترى، وقد يقال: إن إذا هذه ليست الكلمة المعهودة وإنما هي إذا الشرطية حذفت جملتها التي تضاف إليها وعوض عنها التنوين كما في يومئذ والأصل إذا كان معه من إله لذهب الخ، والتعبير بإذا من قبيل مجاراة الخصم، وقيل: ﴿**كل إله**﴾ لما أن النفي عام يفيد استغراق الجنس و ﴿**ما**﴾ في ﴿**بما خلق**﴾ موصولة حذف عائدها كما أشرنا إليه.

وجوز أن تكون مصدرية ويحتاج إلى نوع تكلف لا يخفى. ولم يستدل على انتفاء اتخاذ الولد إما لغاية ظهور فساده أو للاكتفاء بالدليل الذي أقيم على انتفاء أن يكون معه سبحانه إله بناء على ما قيل إن ابن الإله يلزم أن يكون

إلهاً إذ الولد يكون من جنس الوالد وجوهره وفيه بحث ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مبالغة في تنزيهه تعالى عن الولد والشريك، وما موصولة وجوز أن تكون مصدرية. وقرىء «تصفون» بتاء الخطاب ﴿وَعالـم الْغَيْب والشَّهَادَة﴾ أي كل غيب وشهادة، وجر ﴿عالـم﴾ على أنه بدل من الاسم الجليل أو صفة له لأنه أريد به الثبوت والاستمرار فيتعرف بالإضافة.

وقرأ جماعة من السبعة، وغيرهم برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم، والجر أجود عند الأخفش والرفع أبرع عند ابن عطية، وأياً ما كان فهو على ما قيل إشارة إلى دليل آخر على انتفاء الشريك بناء على توافق المسلمين والمشركين في تفرده تعالى بذلك، وفي الكشف أن في قوله سبحانه: ﴿عالـم﴾ إلخ إشارة إلى برهان آخر راجع إلى إثبات العلو أو لزوم الجهل الذي هو نقص وضد العلو لأن المتعددين لا سبيل لهما إلى أن يعلم كل واحد حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة وهو نوع جهل وقصور، ثم علمه به يكون انفعالياً تابعاً لوجود المعلوم فيكون في إحدى صفات الكمال ـ أعني العلم ـ مفتقراً وهو يؤذن بالنقصان والإمكان ﴿فَتَعَالَـى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تفريع على كونه تعالى عالماً بذلك فهو كالنتيجة لما أشار إليه من الدليل.

وقال ابن عطية: الفاء عاطفة كأنه قيل علم الغيب والشهادة فتعالى كما تقول زيد شجاع فعظمت منزلته على معنى شجع فعظمت، ويحتمل أن يكون المعنى فأقول تعالى الخ على أنه إخبار مستأنف ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّـي﴾ أي إن كان لا بد من أن تريني لأن ما والنون زيدتا للتأكيد ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ أي الذي يوعدونه من العذاب الدنيوي المستأصل وأما العذاب الأخروي فلا يناسب المقام ﴿رَبِ فَلَا تَـجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِـمِينَ﴾ أي قريناً لهم فيما هم فيه من العذاب، ووضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى استحقاقهم للعذاب، وجاء الدعاء قبل الشرط وقبل الجزاء مبالغة في الابتهال والتضرع، واختير لفظ الرب لما فيه من الإيذان بأنه سبحانه المالك الناظر في مصالح العبد، وفي أمره ﷺ أن يدعو بذلك مع أنه عليه الصلاة والسلام في حرز عظيم من أن يجعل قريناً لهم إيذان بكمال فظاعة العذاب الموعود وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به. وهو متضمن رد إنكارهم العذاب واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء.

وقيل أمر ﷺ بذلك هضماً لنفسه وإظهاراً لكمال العبودية، وقيل لأن شؤم الكفرة قد يحيق بمن سواهم كقوله تعالى ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: ٢٥] وروي عن الحسن أنه جل شأنه أخبر نبيه ﷺ بأن له في أمته[1] نقمة ولم يطلعه على وقتها أهو في حياته أم بعدها فأمره بهذا الدعاء.

وقرأ الضحاك وأبو عمران الجوني «ترئني» بالهمز بدل الياء وهو كما في البحر إبدال ضعيف.

﴿وَإِنَّا عَلَى أَن نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ ولكنا لا نفعل بل نؤخره عنهم لعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم، وقيل قد أراه سبحانه ذلك وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة، قال شيخ الإسلام: ولا يخفى بعده فإن المتبادر أن يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذاباً هائلاً مستأصلاً لا يظهر على يديه ﷺ للحكمة الداعية إليه.

﴿ادْفَعْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع بالحسنة التي هي أحسن الحسنات التي يدفع بها ﴿السَّيِّئَةَ﴾ بأن تحسن إلى المسيء في مقابلتها ما استطعت، ودون هذا في الحسن أن يحسن إليه في الجملة، ودونه أن يصفح عن إساءته

---

(١) أي أمة الدعوة ا هـ منه.

فقط، وفي ذلك من الحث له ﷺ إلى ما يليق بشأنه الكريم من حسن الأخلاق ما لا يخفى، وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لمكان ﴿أحسن﴾ والمفاضلة فيه على حقيقتها على ما ذكرنا وهو وجه حسن في الآية، وجوز أن تعتبر المفاضلة بين الحسنة والسيئة على معنى أن الحسنة في باب الحسنات أزيد به من السيئة في باب السيئات ويطرد هذا في كل مفاضلة بين ضدين كقولهم: العسل أحلى من الخل فإنهم يعنون أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة، ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن أنه قال: نشأت أنا والأعمش في حجر فلان فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا فإنه عنى استواءهما في بلوغ كل منهما الغاية حيث بلغ هو الغاية في التدلي والأعمش الغاية في التعلي، وعلى الوجهين لا يتعين هذا الأحسن وكذا السيئة.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن أنس أنه قال في الآية: يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول: إن كنت كاذباً فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لك وإن كنت صادقاً فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لي.

وقيل: التي هي أحسن شهادة أن لا إله إلا الله والسيئة الشرك، وقال عطاء والضحاك: التي هي أحسن السلام والسيئة الفحش، وقيل: الأول الموعظة و الثاني المنكر، واختار بعضهم العموم وأن ما ذكر قبيل التمثيل، والآية قيل: منسوخة بآية السيف، وقيل: هي محكمة لأن الدفع المذكور مطلوب ما لم يؤد إلى ثلم الدين والإزراء بالمروءة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بوصفهم إياك أو بالذي يصفونك به مما أنت بخلافه، وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى تفويض أمره إليه عز وجل، والظاهر من هذا أن الآية آية موادعة فافهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به وهي جمع همزة، والهمز النخس والدفع بيد أو غيرها، ومنه مهماز الرائض لحديدة تربط على مؤخر رجله ينخس به الدابة لتسرع أو لتثب، وإطلاق ذلك على الوسوسة والحث على المعاصي لما بينهما من الشبه الظاهر، والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد الشياطين ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي من حضورهم حولي في حال من الأحوال، وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وحال حُلول الأجل كما روي عن عكرمة لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها لا سيما الحال الأخيرة ولذا قيل: اللهم إني أعوذ بك من النزع عند النزع، وإلى العموم ذهب ابن زيد، وفي الأمر بالتعوذ من الحضور بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة في التحذير من ملابستهم، وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال في الاستدعاء ويسن التعوذ من همزات الشياطين وحضورهم عند إرادة النوم، فقد أخرج أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ ﴿حتى﴾ ابتدائية وغاية لمقدر يدل عليه ما قبلها والتقدير فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين وتحضرهم حتى إذا جاء الخ، ونظير ذلك قوله:

فيا عجبا حتى كليب تسبني

فإن التقدير يسبني كل الناس حتى كليب إلا أنه حذفت الجملة هنا لدلالة ما بعد حتى، وقيل إن هذا الكلام مردود على ﴿يصفون﴾ الثاني على معنى إن حتى متعلقة بمحذوف يدل عليه كأنه قيل: لا يزالون على سوء المقالة والطعن في حضرة الرسالة حتى إذا الخ، وقوله تعالى: ﴿وقل رب﴾ الخ اعتراض مؤكد للإغضاء المدلول عليه بقوله سبحانه: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ الخ بالاستعاذة به تعالى من الشياطين أن يزلوه عليه الصلاة والسلام عما أمر به،

وقيل على ﴿يصفون﴾ الأول أو على ﴿يشركون﴾ وليس بشيء.

وجوز الزمخشري أن يكون مروراً على قوله تعالى: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ ويكون من قوله سبحانه ﴿ما اتخذ الله من ولد﴾ إلى هذا المقام من اعتراض تحقيقاً لكذبهم ولاستحقاقهم جزاءه وليس بالوجه، ويفهم من كلام ابن عطية أنه يجوز أن تكون ﴿حتى﴾ هنا ابتدائية لا غاية لما قبلها. وتعقبه أبو حيان بأنها إذا كانت ابتدائية لا تفارقها الغاية، والظاهر الذي لا ينبغي العدول عنه أن ضمير ﴿أحدهم﴾ راجع إلى الكفار، والمراد من مجيء الموت ظهوراً إماراته أي إذا ظهر لأحدهم أي أحد كان منهم أمارات الموت وبدت له أحوال الآخرة ﴿قَالَ﴾ تحسراً على ما فرط في جنب الله تعالى ﴿ربِّ ارجعُونِ﴾ أي ردني إلى الدنيا، والواو لتعظم المخاطب وهو الله تعالى كما في قوله:

ألا فارحموني يا إله محمد ... فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

وقول الآخر:

وإن شئت حرمت النساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً(١)

والحق أن التعظيم يكون في ضمير المتكلم والمخاطب بل والغائب والاسم الظاهر وإنكار ذلك غير رضي والإيهام الذي يدعيه ابن مالك هنا لا يلتفت إليه، وقيل: الواو لكون الخطاب للملائكة عليهم السلام والكلام على تقدير مضاف أي يا ملائكة ربي ارجعوني، وجوز أن يكون ﴿رب﴾ استغاثة به تعالى و ﴿ارجعوني﴾ خطاب للملائكة عليهم السلام، وربما يستأنس لذلك بما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله تعالى عنها: إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا: نرجعك إلى دار الدنيا؟ قال: إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله تعالى وأما الكافر فيقولون له: نرجعك؟ فيقول: رب ارجعوني، وقال المازني: جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب ارجعني ارجعني ارجعني، ومثل ذلك تتنبه الضمير في قفا نبك ونحوه.

واستشكل ذلك الخفاجي بأنه إذا كان أصل ارجعوا مثلاً ارجع ارجع إرجع لم يكن ضمير الجمع بل تركيبه الذي فيه حقيقة فإذا كان مجازاً فمن أي أنواعه وكيف دلالته على المراد وما علاقته وإلا فهو مما لا وجه له، ومن غريبه أن ضميره كان مفرداً واجب الاستتار فصار غير مفرد واجب الإظهار ثم قال: لم تزل هذه الشبهة قديماً في خاطري والذي خطر لي أن لنا استعارة أخرى غير ما ذكر في المعاني ولكونها لا علاقة لها بالمعنى لم تذكر وهي استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنكتة بقطع النظر عن معناه وهو كثير في الضمائر كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر في كفى به حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى ومن لفظ إلى لفظ آخر وما نحن فيه من هذا القبيل فإنه غير الضمائر المستترة إلى ضمير جمع ظاهر فلزم الاكتفاء بأحد ألفاظ الفعل وجعل دلالة ضمير الجمع على تكرر الفعل قائماً مقامه في التأكيد من غير تجوز فيه، ولابن جني في الخصائص كلام يدل على ما ذكرناه فتأمل انتهى كلامه.

ولعمري لقد أبعد جداً، ولعل الأقرب أن يقال: أراد المازني أنه جمع الضمير للتعظيم بتنزيل المخاطب الواحد منزلة الجماعة المخاطبين ويتبع ذلك كون الفعل الصادر منه بمنزلة الفعل الصادر من الجماعة ويتبعهما كون ﴿ارجعوني﴾ مثلاً بمنزلة ارجعني ارجعني أرجعني لكن إجراء نحو هذا في نحو ـ قفا نبك ـ لا يتسنى إلا إذا قيل بأنه قد يقصد بضمير التثنية التعظيم كما قد يقصد ذلك بضمير الجمع؛ ولم يخطر لي أني رأيته فليتتبع وليتدبر ﴿لَعَلّي

---

(١) النقاخ هو الماء البارد والبرد النوم ا هـ منه.

﴿أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي في الإيمان الذي تركته، ولعل للترجي وهو إما راجع للعمل والإيمان لعلمه بعدم الرجوع أو للعمل فقط لتحقيق إيمانه إن رجع فهو كما في قولك: لعليّ أربح في هذا المال أو كقولك: لعليّ أبني على أس أي أأسس ثم أبني، وقيل: فيما تركت من المال أو من الدنيا جعل مفارقة ذلك تركاً له، ويجوز أن تكون لعل للتعليل.

وفي البرهان حكى البغوي عن الواقدي أن جميع ما في القرآن من لعل فإنها للتعليل إلا قوله تعالى: **﴿لعلكم تخلدون﴾** فإنها للتشبيه.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك نحوه، ثم إن طلب الرجعة ليس من خواص الكفار. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن مانع الزكاة وتارك الحج المستطيع يسألان الرجعة عند الموت وأخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحق فيجعل بين عينيه فعند ذلك يقول: **﴿رب ارجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾**» وهذا الخبر يؤيد أن المراد مما تركت المال ونحوه **﴿كَلاَّ﴾** ردع عن طلب الرجعة واستبعاد لها **﴿إِنَّهَا﴾** أي قوله: **﴿رب ارجعوني﴾** الخ **﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾** لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة وتسلط الندم عليه فتقديم المسند إليه للتقوى أو هو قائلها وحده فالتقديم للاختصاص، ومعنى ذلك أنه لا يجاب إليها ولا تسمع منه بتنزيل الإجابة والاعتداد منزلة قولها حتى كأن المعتد بها شريك لقائلها، ومثل هذا متداول فيقول من كلمه صاحبه بما لا جدوى تحته: اشتغل أنت وحدك بهذه الكلمة فتكلم واستمع يعني أنها مما لا تسمع منك ولا تستحق الجواب، والكلمة هنا بمعنى الكلام كما في قولهم: كلمة الشهادة وهي في هذا المعنى مجاز عند النحاة، وأما عند اللغويين فقيل حقيقة، وقيل مجاز مشهور.

والظاهر أن **﴿كلا﴾** وما بعدها من كلامه تعالى، وأبعد جداً من زعم أن **﴿كلا﴾** من قول من عاين الموت وأنه يقول ذلك لنفسه على سبيل التحسر والندم **﴿ومن ورائهم﴾** أي أمامهم وقد مر تحقيقه، والضمير لأحدهم والجمع باعتبار المعنى لأنه في حكم كلهم كما أن الافراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ **﴿برزخ﴾** حاجز بينهم وبين الرجعة **﴿إلى يوم يبعثون﴾** من قبورهم وهو يوم القيامة، وهذا تعليق لرجعتهم إلى الدنيا بالمحال كتعليق دخولهم الجنة بقوله سبحانه: **﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾** [الأعراف: ٤٠] وعن ابن زيد أن المراد من ورائهم حاجز بين الموت و البعث في القيامة من القبور باق إلى يوم يبعثون، وقيل: حاجز بينهم وبين الجزاء التام باق إلى يوم القيامة فإذا جاء ذلك اليوم جوزوا على أتم وجه **﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾** لقيام الساعة وهي النفخة الثانية التي يقع عندها البعث والنشور، وقيل: المعنى فإذا نفخ في الأجساد أرواحها على أن الصور جمع صورة على نحو بسر وبسرة لا القرن، وأيد بقراءة ابن عباس والحسن وابن عياض «في الصُّوَر» بضم الصاد وفتح الواو، وقراءة ابن رزين «في الصِوَرِ» بكسر الصاد وفتح الواو فإن المذكور في هاتين القراءتين جمع صورة لا بمعنى القرن قطعاً والأصل توافق معاني القراءات، ولا تنافي بين النفخ في الصور بمعنى القرن الذي جاء في الخبر ودلت عليه آيات أخر وبين النفخ في الصور جمع صورة فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك **﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾** أي يوم إذ نفخ في الصور كما هي بينهم اليوم، والمراد أنها لا تنفعهم شيئاً فهي منزلة منزلة العدم لعظم الهول واشتغال كل بنفسه بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى الأولين والآخرين وفي لفظ «يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي مناد ألا إن هذا فلان ابن فلان فمن كان له حق قبله فليأت إلى

حقه ـ وفي لفظ ـ من كان له مظلمة فليجيء ليأخذ حقه فيفرح والله المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى ﴿**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم**﴾ وهذا الأثر يدل على أن هذا الحكم غير خاص بالكفرة بل يعمهم وغيرهم، وقيل: هو خاص بهم كما يقتضيه سياق الآية، وقيل لا ينفع نسب يومئذ إلا نسبه ﷺ.

فقد أخرج البزار والطبراني والبيهقي وأبو نعيم والحاكم والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي».

وقد أخرج جماعة نحوه عن مسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً، وأخرج ابن عساكر نحوه مرفوعاً أيضاً عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وهو خبر مقبول لا يكاد يرده إلا من في قلبه شائبة نصب، نعم ينبغي القول بأن نفع نسبه ﷺ إنما هو بالنسبة للمؤمنين الذين تشرفوا به وأما الكافر والعياذ بالله تعالى فلا نفع له بذلك أصلاً، وقد يقال: إن هذا الخبر لا ينافي إرادة العموم في الآية بأن يكون المراد نفي الالتفات إلى الأنساب عقيب النفخة الثانية من غير فصل حسبما يؤذن به الفاء الجزائية فإنها على المختار تدل على التعقيب ويكون المراد تهويل شأن ذلك الوقت ببيان أنه يذهل فيه كل أحد عمن بينه وبينه نسب ولا يلتفت إليه ولا يخطر هو بباله فضلاً عن أنه ينفعه أو لا ينفعه، وهذا لا يدل على عدم نفع كل نسب فضلاً عن عدم نفع نسبه ﷺ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وحكي عن الجبائي أن المراد أنه لا يفتخر يومئذ بالأنساب كما يفتخر بها في الدنيا وإنما يفتخر هناك بالأعمال والنجاة من الأهوال فحيث لم يفتخر بها ثمت كانت كأنها لم تكن، فعلى هذا و كذا على ما تقدم يكون قوله تعالى: ﴿**فلا أنساب**﴾ من باب المجاز.

وجوز أن يكون صفة مقدرة أي فلا أنساب نافعة أو ملتفتاً إليها أو مفتخراً بها وليس بذاك، والظاهر أن العامل في ﴿**يومئذ**﴾ هو العامل في ﴿**بينهم**﴾ لا ﴿**أنساب**﴾ لما لا يخفى ﴿**وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ أي ولا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله وممن هو ونحو ذلك لاشتغال كل منهم بنفسه عن الالتفات إلى أبناء جنسه وذلك عقيب النفخة الثانية من غير فصل أيضاً فهو مقيد بيومئذ وإن لم يذكر بعده اكتفاء بما تقدم، وكأن كلا الحكمين بعد تحقق أمر تلك النفخة لديهم ومعرفة أنها لماذا كانت، وحينئذ يجوز أن يقال: إن قولهم ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ [يس: ٥٢] قبل تحقق أمر تلك النفخة لديهم فلا إشكال، ويحتمل أن كلا الحكمين في مبدأ الأمر قبل القول المذكور كأنهم حين يسمعون الصيحة يذهلون عن كل شيء الأنساب وغيرها كالنائم إذا صيح به صيحة مفزعة فهب من منامه فزعاً ذاهلاً عمن عنده مثلاً فإذا سكن روعهم في الجملة قال قائلهم: ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ وقيل: لا نسلم أن قولهم ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ أنه كان بطريق التساؤل، وعلى الاحتمالين لا يشكل هذا مع قوله تعالى في شأن الكفرة يوم القيامة ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ [الصافات: ٢٧، الطور: ٢٥] وفي شأن المؤمنين ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ [الصافات: ٥٠] فإن تساؤل الكفرة المنفي في موطن وتساؤلهم المثبت في موطن آخر ولعله عند جهنم وهو بعد النفخة الثانية بكثير، وكذا تساؤل المؤمنين بعدها بكثير أيضاً فإنه في الجنة كما يرشد إليه الرجوع إلى ما قبل الآية، وقد يقال: إن التساؤل المنفي هنا تساؤل التعارف ونحوه مما يترتب عليه دفع مضرة أو جلب منفعة والتساؤل المثبت لأهل النار تساؤل وراء ذلك وقد بينه سبحانه بقوله عز من قائل: ﴿قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ [الصافات: ٢٨] الآية، وقد بين جل وعلا تساؤل أهل الجنة بقوله سبحانه: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ [الصافات: ٥١] الآية، وهو أيضاً نوع آخر من التساؤل ليس فيه أكثر من الاستئناس دون دفع مضرة عمن يتكلم معه أو جلب منفعة له.

وقيل المنفي التساؤل بالأنساب فكأنه قيل لا أنساب بينهم ولا يسأل بعضهم بعضاً بها، والمراد أنها لا تنفع في نفسها وعندهم والآية في شأن الكفرة وتساؤلهم المثبت في آية أخرى ليس تساؤلاً بالأنساب وهو ظاهر فلا إشكال. وروى جماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن وجه الجمع بين النفي هنا والإثبات في قوله سبحانه: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ [الصافات: ٢٧] فقال: إن نفي التساؤل في النفخة الأولى حين لا يبقى على وجه الأرض شيء وإثباته في النفخة الثانية، وعلى هذا فالمراد عنده بقوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور﴾ فإذا نفخ النفخة الأولى وهذه إحدى روايتين عنه رضي الله تعالى عنه، والرواية الثانية حمله على النفخة الثانية، وحينئذ يختار في وجه الجمع أحد الأوجه التي أشرنا إليها، وقرأ ابن مسعود «ولاَ يَسَّاءَلُونَ» بتشديد السين ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي موزونات حسناته من العقائد والأعمال، ويجوز أن تكون الموازين جمع ميزان ووجه جمعه قد مر.

والمعنى عليه من ثقلت موازينه بالحسنات ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مهروب ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي موازين أعماله الحسنة أو أعماله التي لا وزن لها ولا اعتداد بها وهي أعماله السيئة كذا قيل؛ وهو مبني على اختلافهم في وزن أعمال الكفرة فمن قال به قال بالأول ومن لم يقل به قال بالثاني، وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية في سورة الأعراف فتذكر.

﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ضيعوها بتضييع زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، واسم الإشارة في الموضعين عبارة عن الموصول، وجمعه باعتبار معناه كما أن افراد الضميرين في الصلتين باعتبار لفظه.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبر ثان لأولئك، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هم خالدون في جهنم، والجملة إما استئنافية جيء بها لبيان خسرانهم أنفسهم، وإما خبر ثان لأولئك أيضاً، وجوز أن يكون «الذين» نعتاً لاسم الإشارة ﴿خالدون﴾ وهو الخبر، وقيل: ﴿خالدون﴾ مع معموله بدل من الصلة، قال الخفاجي: أي بدل اشتمال لأن خلودهم في جهنم مشتمل على خسرانهم، وجعل كذلك نظراً لأنه بمعنى يخلدون في جهنم وبذلك يصلح لأن يكون صلة كما يقتضيه الإبدال من الصلة، وظاهر صنيع الزمخشري يقتضي ترجيح هذا الوجه وليس عندي بالوجه كما لا يخفى وجهه. وتعقب أبو حيان القول بأن ﴿في جهنم خالدون﴾ بدل فقال: هذا بدل غريب وحقيقته أن يكون البدل ما يتعلق به ﴿في جهنم﴾ أي استقروا، وكأنه من بدل الشيء من الشيء وهما لمسمى واحد على سبيل المجاز لأن من خسر نفسه استقر في جهنم، وأنت تعلم أن الظاهر تعلق ﴿في جهنم﴾ بخالدون وأن تعليقه بمحذوف وجعل ذلك المحذوف بدلاً وإبقاء ﴿خالدون﴾ مفلتاً مما لا ينبغي أن يلتفت إليه مع ظهور الوجه الذي لا تكلف فيه، وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ جملة حالية أو مستأنفة، واللفح مس لهب النار الشيء وهو كما قال الزجاج أشد من النفح تأثيراً، والمراد تحرق وجوههم النار، وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار وهو السر في تقديمها على الفاعل.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ متقلصو الشفاه عن الأسنان من أثر ذلك اللفح، وقد صح من رواية الترمذي وجماعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال في الآية: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته» وأخرج ابن مردويه والضياء في صفة النار عن أبي الدرداء قال: «قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿تلفح﴾ الخ: تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الكلوح بسور الوجه وتقطيبه، وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة «كَلِحُون» بغير ألف جمع كلح كحذر ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً لما به

استحقوا ما ابتلوا به من العذاب ألم تكن آياتي تتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ حينئذ ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي استولت علينا وملكتنا شقاوتنا التي اقتضاها سوء استعدادنا كما يومىء إلى ذلك إضافتها إلى أنفسهم. وقرأ شبل في اختياره «شَقوتنا» بفتح الشين، وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وحمزة والكسائي والمفضل عن عاصم وأبان والزعفراني وابن مقسم «شقاوتنا» بفتح الشين وألف بعد القاف، وقرأ قتادة أيضاً والحسن في رواية خالد بن حوشب عنه «شقاوتنا» بالألف وكسر الشين وهي في جميع ذلك مصدر ومعناها ضد السعادة، وفسرها جماعة بسوء العاقبة التي علم الله تعالى أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم ونسب ذلك لجمهور المعتزلة، وعن الأشاعرة أن المراد بها ما كتبه الله تعالى عليهم في الأزل من الكفر والمعاصي، وقال الجبائي: المراد بها الهوى وقضاء اللذات مجازاً من باب إطلاق المسبب على السبب، وأياً ما كان فنسبة الغلب إليها لاعتبار تشبيهها بمن يتحقق منه ذلك ففي الكلام استعارة مكنية تخييلية؛ ولعل الأولى أن يخرج الكلام مخرج التمثيل ومرادهم بذلك على جميع الأقوال في الشقوة الاعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم لأن منشأها على جميع الأقوال عند التحقيق ما هم عليه في أنفسهم فكأنهم قالوا: ربنا غلب علينا أمر منشؤه ذواتنا ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك ﴿قَوْماً ضَالِّينَ﴾ عن الحق مكذبين بما يتلى من الآيات فما تنسب إلى حيف في تعذيبنا، ولا يجوز أن يكون اعتذاراً بما علمه الله تعالى فيهم وكتبه عليهم من الكفر أي غلب علينا ما كتبته علينا من الشقاوة وكنا في علمك قوماً ضالين أو غلب علينا ما علمته وكتبته وكنا بسبب ذلك قوماً ضالين فما وقع منا من التكذيب بآياتك لا قدرة لنا على رفعه والإلزام انقلاب العلم جهلاً وهو محال لأن ذلك باطل في نفسه لا يصلح للاعتذار فإنه سبحانه ما كتب إلا ما علم وما علم إلا ما هم عليه في نفس الأمر من سوء الاستعداد المؤدي إلى سوء الاختيار فإن العلم على ما حقق في موضعه تابع للمعلوم، ويؤيد دعوى الاعتراف قوله تعالى حكاية عنهم.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أي ربنا أخرجنا من النار وأرجعنا إلى الدنيا فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه فيها من الكفر والمعاصي فإنا متجاوزون الحد في الظلم لأن اجتراءهم على هذا الطلب أوفق بكون ما قبله اعترافاً فإنه كثيراً ما يهون به المذنب غضب من أذنب إليه، والاعتذار وإن كان كذلك بل أعظم إلا أن هذا الاعتذار أشبه شيء بالاعتراض الموجب لشدة الغضب الذي لا يحسن معه الإقدام على مثل هذا الطلب، هذا مع أنهم لو لم يعتقدوا أن ذلك عذر مقبول والاعتذار به نافع لم يقدموا عليه؛ ومع هذا الاعتقاد لا حاجة بهم إلى طلب الإخراج والإرجاع، ولا يقال مثل هذا على تقدير كونه اعترافاً لأنهم إنما قالوه تمهيداً للطلب المذكور لما أنه مظنة تسكين لهب نار الغضب على ما سمعت، ثم إن القوم لعلهم ظنوا تغير ما هم عليه من سوء الاستعداد لو عادوا لما شاهدوا من حالهم في ذلك اليوم ولذلك طلبوا ما طلبوا.

وفي قولهم: ﴿عدنا﴾ إشارة إلى أنهم حين الطلب على الإيمان والطاعة فيكون الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثبات عليهما لينتفعوا بهما بعد أن يموتوا ويحشروا فتأمل ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه إقناطاً لهم أشد إقناط ﴿إخسؤوا فيهَا﴾ أي ذلوا وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت من خسأت الكلب إذا زجرته فخسأ أي انزجر أو اسكتوا سكوت هوان ففيه استعارة مكنية قرينتها تصريحية ﴿وَلَا تكلمون﴾ باستدعاء الإخراج من النار والرجع إلى الدنيا، وقيل: لا تكلمون في رفع العذاب، ولعل الأول أوفق بما قبله وبالتعليل الآتي، وقيل: لا تكلمون أبداً وهو آخر كلام يتكلمون به.

أخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن حذيفة «أن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى إذا قال لأهل النار اخسؤوا فيها

ولا تكلمون عادت وجوههم قطعة لحم ليس فيها أفواه ولا مناخر يتردد النفس في أجوافهم» وأخرج الطبراني والبيهقي في البعث وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والحاكم وصححه وجماعة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن أهل جهنم ينادون مالكاً ليقض علينا ربك فيذرهم أربعين عاماً لا يجيبهم ثم يجيبهم إنكم ماكثون ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فيذرهم مثلي الدنيا لا يجيبهم ثم يجيبهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون قال: فما يبس القوم بعدها بكلمة وما هو إلا الزفير والشهيق.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وغيرهما عن محمد بن كعب قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ [غافر: ١١] فيجيبهم الله تعالى ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ [غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبهم الله تعالى: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ [السجدة: ١٤] ثم يقولون ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ [إبراهيم: ٤٤] ثم يقولون: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ [فاطر: ٣٧] ثم يقولون: **﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾** فيجيبهم الله تعالى: **﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾** فلا يتكلمون بعدها أبداً، وفي بعض الآثار أنهم يلهجون بكل دعاء ألف سنة، ويشكل على هذه الأخبار ظواهر الخطابات الآتية كما لا يخفى ولعلها لا يصح منها شيء وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّهُ﴾ تعليل لما قبله من الزجر عن الدعاء أي إن الشأن، وقرأ أبي وهارون العتكي «أنه» بفتح الهمزة أي لأن الشأن **﴿كانَ﴾** في الدنيا التي تريدون الرجعة إليها **﴿فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي﴾** وهم المؤمنون، وقيل: هم الصحابة، وقيل: أهل الصفة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سخريا﴾ أي هزواً أي اسكتوا عن الدعاء بقولكم **﴿ربنا﴾** الخ لأنكم كنتم تستهزئون بالداعين خوفاً من هذا اليوم بقولهم **﴿ربنا آمنا﴾** إلخ **﴿حَتَّى أَنسَوْكُمْ﴾** بتشاغلكم بالاستهزاء بهم **﴿ذِكْرِي﴾** أي خوف عقابي في هذا اليوم.

﴿وَكُنتُم مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وذلك غاية الاستهزاء، وقيل: التعليل على معنى إنما خسأناكم كالكلب ولم نحتفلكم إذ دعوتم لأنكم استهزأتم غاية الاستهزاء بأوليائي حين دعوا واستمر ذلك منكم حتى نسيتم ذكري بالكلية ولم تخافوا عقابي فهذا جزاؤكم، وقيل: خلاصة معنى الآية أنه كان فريق من عبادي يدعون فتشاغلتم بهم ساخرين واستمر تشاغلكم باستهزائهم إلى أن جركم ذلك إلى ترك ذكري في أوليائي فلم تخافوني في الاستهزاء بهم، ثم قيل: وهذا التذنيب لازم ليصح قوله تعالى: **﴿إنه كان﴾** الخ تعليلاً ويرتبط الكلام ويتلاءم مع قوله سبحانه: **﴿وكنتم منهم تضحكون﴾** ولو لم يرد به ذلك يكون إنساء الذكر كالأجنبي في هذا المقام، وفيه تسخط عظيم لفعلهم ذلك ودلالة على اختصاص بالغ لأولئك العباد المسخور منهم كما نبه عليه أولاً في قوله تعالى: **﴿من عبادي﴾** وختمه بقوله سبحانه: **﴿إني جزيتهم﴾** إلى قوله تعالى: **﴿هم الفائزون﴾** وزاد في خسئهم بإعزاز أضدادهم انتهى ولا يخلو عن بحث.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي «سخرياً» بضم السين وباقي السبعة بكسرها، والمعنى عليهما واحد وهو الهزو عند الخليل وأبي زيد الأنصاري وسيبويه وقال أبو عبيدة والكسائي والفراء: مضموم السين بمعنى الاستخدام من غير أجرة ومكسورها بمعنى الاستهزاء، وقال يونس: إذا أريد الاستخدام ضم السين لا غير وإذا أريد الهزؤ جاز الضم والكسر، وهو في الحالين مصدر زيدت فيه ياء النسبة للمبالغة كما في أحمري.

وقوله تعالى: ﴿إِنِي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على أذيتكم استئناف لبيان حسن حالهم وأنهم انتفعوا بما آذوهم، وفيه إغاظة لهم، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ إما في موضع المفعول الثاني للجزاء وهو يتعدى له بنفسه و بالباء كما قال الراغب أي جزيتهم فوزهم بمجامع مراداتهم كما يؤذن به معمول الوصف حال كونهم مخصوصين بذلك كما يؤذن به توسيط ضمير الفصل، وأما في موضع جر بلام تعليل مقدرة أي لفوزهم بالتوحيد المؤدي إلى كل سعادة، ولا يمنع من ذلك تعليل الجزاء بالصبر لأن الأسباب لكونها ليست عللاً تامة يجوز تعددها.

وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي وخارجة عن نافع «إنهم» بالكسر على أن الجملة استئناف معلل للجزاء، وقيل: مبين لكيفيته فتدبر، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى شأنه أو الملك المأمور بذلك لا بعض رؤساء أهل النار كما قيل تذكيراً لما لبثوا فيما سألوا الرجعة إليه من الدنيا بعد التنبيه على استحالته وفيه توبيخ على إنكارهم الآخرة، وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير «قل» على الأمر للملك لا لبعض الرؤساء كما قيل ولا لجميع الكفار على إقامة الواحد مقام الجماعة كما زعمه الثعالبي ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ التي تدعون أن ترجعوا إليها أي كم أقمتم فيها أحياء ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز لكم وهي ظرف زمان للبثتم، وقال أبو البقاء: «عدداً» بدل من ﴿كَمْ﴾، وقرأ الأعمش والمفضل عن عاصم «عدداً» بالتنوين فقال أبو الفضل الرازي «سنين» نصب على الظرف و «عدداً» مصدر أقيم مقام الاسم فهو نعت مقدم على المنعوت، وتجويز أن يكون معنى «لبثتم» عددتم بعيد، وقال أبو البقاء: «سنين» على هذه القراءة بدل من «عدداً».

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم بالنسبة إلى ما تحققوه من طول زمان خلودهم في النار، وقيل: استقصروها لأنها كانت أيام سرورهم بالنسبة إلى ما هم فيه وأيام السرور قصار، وقيل: لأنها كانت منقضية والمنقضي لا يعتنى بشأنه فلا يدرى مقداره طولاً وقصراً فيظن أنه كان قصيراً ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أي المتمكنين من العد فإنا بما ذهمنا من العذاب بمعزل من ذلك أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم على ما رواه جماعة عن مجاهد.

وقرأ الحسن والكسائي في رواية «العَادِين» بتخفيف الدال أي الظلمة فإنهم يقولون كما نقول كان الأتباع يسمون الرؤساء بذلك لظلمهم إياهم بإضلالهم، وقرىء «العاديّين» بتشديد الياء جمع عادي نسبة إلى قوم عاد والمراد بهم المعمرون لأن قوم عاد كانوا يعمرون كثيراً أي فاسأل القدماء المعمرين فإنهم أيضاً يستقصرون مدة لبثهم ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى أو الملك وقرأ الإخوان «قل» على الأمر كما قرأ فيما مر كذلك.

وفي الدر المصون الفعلان في مصاحف الكوفة بغير ألف وبألف في مصاحف مكة والمدينة: والشام والبصرة، ونقل مثله عن ابن عطية، وفي الكشاف عكس ذلك وكأن الرسم بدون ألف يحتمل حذفها من الماضي على خلاف القياس وفي رسم المصحف من الغرائب ما لا يخفى فلا تغفل.

﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ تصديق لهم في مقالتهم ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون شيئاً أو

لو كنتم من أهل العلم، و ﴿لو﴾ شرطية وجوابها محذوف ثقة بدلالة الكلام عليه أي لو كنتم تعلمون لعلمتم يومئذ قصر أيام الدنيا كما علمتم اليوم ولعلمتم بموجب ذلك ولم يصدر منكم ما أوجب خلودكم في النار وقولنا لكم ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ وقيل المعنى لو كنتم تعلمون قلة لبثكم في الدنيا بالنسبة للآخرة ما اغتررتم بها وعصيتم، وكأن نفي العلم بذلك عنهم على هذا لعدم عملهم بموجبه ومن لم يعمل بعلمه فهو والجاهل سواء.

وقدر أبو البقاء الجواب لما أجبتم بهذه المدة، ولعله يجعل الكلام السابق رداً عليهم لا تصديقاً وإلا لا يصح هذا التقدير، وجوز أن تكون ﴿لو﴾ للتمني فلا تحتاج لجواب، ولا ينبغي أن تجعل وصلية لأنها بدون الواو نادرة أو غير موجودة، هذا وقال غير واحد من المفسرين: المراد سؤالهم عن مدة لبثهم في القبور حيث إنهم كانوا يزعمون أنهم بعد الموت يصيرون تراباً ولا يقومون من قبورهم أبداً.

وزعم ابن عطية أن هذا هو الأصوب وأن قوله سبحانه فيما بعد ﴿وإنكم إلينا لا ترجعون﴾ يقتضيه وفيه منع ظاهر، ويؤيد ما ذهبنا إليه ما روي مرفوعاً «أن الله تعالى إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال: يا أهل الجنة كم لبثم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قال: لنعم ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلدين ثم يقول: يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فيقول بئسما انجزتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلدين ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي ألم تعلموا شيئاً فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة حتى أنكرتم البعث فعبثاً حال من نون العظمة أي عابثين أو مفعول له أي أفحسبتم أنما خلقناكم للعبث وهو ما خلا عن الفائدة مطلقاً أو عن الفائدة المعتد بها أو عما يقاوم الفعل كما ذكره الأصوليون.

واستظهر الخفاجي إرادة المعنى الأول هنا واختار بعض المحققين الثاني ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ عطف على ﴿أنما خلقناكم﴾ أي أفحسبتم ذلك وحسبتم أنكم لا تبعثون.

وجوز أن يكون عطفاً على ﴿عبثاً﴾ والمعنى أفحسبتم أنما خلقناكم للعبث ولتركك غير مرجوعين أو عابثين ومقدرين أنكم إلينا لا ترجعون، وفي الآية توبيخ لهم على تغافلهم وإشارة إلى أن الحكمة تقتضي تكليفهم وبعثهم للجزاء، وقرأ الأخوان «تَرْجَعُون» بفتح التاء من الرجوع ﴿فَتَعَالَى اللهُ﴾ استعظام له تعالى ولشؤونه سبحانه التي يصرف عليها عباده جل وعلا من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أي ارتفع سبحانه بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح الحميدة.

﴿المَلِكُ الحَقُّ﴾ أي الحقيق بالمالكية على الإطلاق إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة إحياء وإماتة عقاباً وإثابة وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكوتيته، وقيل: الحق أي الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وهذا وإن كان أشهر إلا أن الأول أوفق بالمقام ﴿لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فإن كل ما عداه عبيده تعالى: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ وهو جرم عظيم وراء عالم الأجسام والأجرام وهو أعظمها وقد جاء في وصف عظمة ما يبهر العقول فيلزم من كونه تعالى ربه كونه سبحانه رب كل الأجسام والأجرام، ووصف بالكريم لشرفه وكل ما شرف في بابه وصف بالكرم كما في قوله تعالى: ﴿وزروع ومقام كريم﴾ [الدخان: ٢٦] وقوله سبحانه: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى غير ذلك.

وقد شرف بما أودع الله تعالى فيه من الأسرار، وأعظم شرف له تخصيصه باستوائه سبحانه عليه، وقيل إسناد الكرم إليه مجازي والمراد الكريم ربه أو المراد ذلك على سبيل الكناية، وقيل: هو على تشبيه العرش لنزول الرحمة والبركة منه بشخص كريم ولعل ما ذكرناه هو الأظهر.

وقرأ أبان بن تغلب وابن محيصن وأبو جعفر وإسماعيل عن ابن كثير «الكريم» بالرفع على أنه صفة الرب، وجوز أن يكون صفة للعرش على القطع وقد يرجح بأنه أوفق بقراءة الجمهور ﴿وَمَنْ يَدْعُ﴾ أي يعبد ﴿مَعَ اللهِ﴾ أي مع وجوده تعالى وتحققه سبحانه ﴿إِلَهاً آخَرَ﴾ إفراداً أو إشراكاً أو من يعبد مع عبادة الله تعالى إلهاً آخر كذلك، ويتحقق هذا في الكافر إذا أفرد معبوده الباطل بالعبادة تارة وأشركه مع الله تعالى أخرى، وقد يقتصر على إرادة الإشراك في الوجهين ويعلم حال من عبد غير الله سبحانه افراداً بالأولى.

وذكر ﴿آخر﴾ قيل إنه للتصريح بألوهيته تعالى وللدلالة على الشريك فيها وهو المقصود فليس ذكره تأكيداً لما تدل عليه المعية وإن جوز ذلك فتأمل.

نعم قوله تعالى: ﴿لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة لازمة لإلهاً لا مقيدة جيء بها للتأكيد، وبناء الحكم المستفاد من جزاء الشرط من الوعيد بالجزاء على قدر ما يستحق تنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلاً عما دل الدليل على خلافه، ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء جيء به للتأكيد كما في قولك: من أحسن إلى زيد لا أحق منه بالإحسان فالله تعالى مثيبه.

ومن الناس من زعم أنه جواب الشرط دون قوله تعالى: ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ وجعله تفريعاً على الجملة وليس بصحيح لأنه يلزم عليه حذف الفاء في جواب الشرط ولا يجوز ذلك كما قال أبو حيان إلا في الشعر.

والحساب كناية عن المجازاة كأنه قيل: من يعبد إلهاً مع الله تعالى فالله سبحانه مجاز له على قدر ما يستحقه ﴿إنه لا يفلح الكافرُون﴾ أي إن الشأن لا يفلح إلخ.

وقرأ الحسن وقتادة «أنه» بالفتح على التعليل أو جعل الحاصل من السبك خبر ﴿حسابه﴾ أي حسابه عدم الفلاح، وهذا على ما قال الخفاجي من باب. تحية بينهم ضرب وجيع. وبهذا مع عدم الاحتياج إلى التقدير رجح هذا الوجه على سابقه وتوافق القراءتين عليه في حاصل المعنى، ورجح الأول بأن التوافق عليه أتم، وأصل الكلام على الأخبار فإنما حسابه عند ربه أنه لا يفلح هو فوضع ﴿الكافرون﴾ موضع الضمير لأن ﴿من يدع﴾ في معنى الجمع وكذلك حسابه أنه لا يفلح في معنى حسابهم أنهم لا يفلحون.

وقرأ الحسن «يَفْلَحُ» بفتح الياء واللام، وما ألطف افتتاح هذه السورة بتقدير فلاح المؤمنين وإيراد عدم فلاح الكافرين في اختتامها، ولا يخفى ما في هذه الجمل من تسلية رسول الله ﷺ وكأنه سبحانه بعد ما سلاه بذكر مآل من لا ينجع دعاؤه فيه أمره بما يرمز إلى متاركة مخالفيه فقال جل وعلا: ﴿وَقُلْ رَّبِّ﴾ وقرأ ابن محيصن «رَبُّ» بالضم ﴿اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ والظاهر أن طلب كل من المغفرة والرحمة على وجه العموم له عليه الصلاة والسلام ولمتبعيه وهو أيضاً أعم من طلب أصل الفعل والمداومة عليه فلا إشكال، وقد يقال في دفعه غير ذلك، وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدل على أهمية ما فيه، وقد علم ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أن يقول نحوه في صلاته.

فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن حبان وجماعة عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم.

ولقراءة هذه الآيات أعني قوله تعالى: ﴿أفحسبتم﴾ إلى آخر السورة على المصاب نفع عظيم وكذا المداومة على قراءة بعضها في السفر.

أخرج الحكيم الترمذي وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية وآخرون عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قرأ في أذن مصاب ﴿أفحسبتم﴾ حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأ بها على جبل لزال».

وأخرج ابن السني وابن منده وأبو نعيم في المعرفة بسند حسن من طريق محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبيه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ فقرأناها فغنمنا وسلمنا» هذا والله تعالى المسؤول لكل خير.

ومن باب الإشارة في الآيات قيل: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي وصلوا إلى المحل الأعلى والقربة والسعادة ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ ظاهراً وباطناً، والخشوع في الظاهر انتكاس الرأس والنظر إلى موضع السجود وإلى ما بين يديه وترك الالتفات والطمأنينة في الأركان ونحو ذلك، والخشوع في الباطن سكون النفس عن الخواطر والهواجس الدنيوية بالكلية أو ترك الاسترسال معها وحضور القلب لمعاني القراءة والأذكار ومراقبة السر بترك الالتفات إلى المكونات واستغراق الروح في بحر المحبة، والخشوع شرط لصحة الصلاة عند بعض الخواص نقل الغزالي عن أبي طالب المكي عن بشر الحافي من لم يخشع فسدت صلاته وهو قول لبعض الفقهاء وتفصيله في كتبهم، ولا خلاف في أنه لا ثواب في قول أو فعل من أقوال أو أفعال الصلاة أدى مع الغفلة؛ وما أقبح مصل يقول ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ٢] وهو غافل عن الرب جل شأنه متوجه بشراشره إلى الدرهم والدينار ثم يقول: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] وليس في قلبه وفكره غيرهما؛ ونحو هذا كثير، ومن هنا قال الحسن: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

وقد ذكروا أن الصلاة معراج المؤمن افترى مثل صلاة هذا تصلح لذلك حاش لله تعالى من زعم ذلك فقد افترى ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ قال بعضهم: اللغو كل ما يشغل عن الحق عز وجل.

وقال أبو عثمان: كل شيء فيه للنفس حظ فهو لغو، وقال أبو بكر بن طاهر: كل ما سوى الله تعالى فهو لغو ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ هي تزكية النفس عن الأخلاق الذميمة ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم وما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ إشارة إلى استيلائهم على القوة الشهوية فلا يتجاوزون فيها ما حد لهم، وقيل: الإشارة فيه إلى حفظ الأسرار أي والذين هم ساترون لما يقبح كشفه من الأسرار عن الأغيار إلا على أقرانهم ومن ازدوج معهم أو على مريديهم الذين هم كالعبيد لهم ﴿والذين هم لأماناتهم﴾.

قال محمد بن الفضل: سائر جوارحهم ﴿وعهدهم﴾ الميثاق الأزلي ﴿راعون﴾ فهم حسنو الأفعال والأقوال والاعتقادات ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ فيؤدونها بشرائطها ولا يفعلون فيها وبعدها ما يضيعها كالرياء والعجب ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ قيل المخلوق من ذلك هو الهيكل المحسوس وأما الروح فهي مخلوقة من نور إلهي يعز على العقول إدراك حقيقته، وفي قوله سبحانه: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ إشارة إلى نفخ تلك الروح المخلوقة من ذلك النور وهي الحقيقة الآدمية المرادة في قوله ﷺ «خلق الله تعالى آدم على صورته» أي على صفته سبحانه من كونه حياً عالماً مريداً قادراً إلى غير ذلك من الصفات ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ إشارة إلى مراتب النفس التي بعضها فوق بعض وكل مرتبة سفلى

منها تحجب العليا أو إشارة إلى حجب الحواس الخمس الظاهرة وحاستي الوهم والخيال، وقيل غير ذلك **﴿وأنزلنا من السماء﴾** قيل أي سماء العناية **﴿ماء﴾** أي ماء الرحمة **﴿بقدر﴾** أي بمقدار استعداد السالك **﴿فأسكناه في الأرض﴾** أي أرض وجوده **﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل﴾** أي نخيل المعارف **﴿وأعناب﴾** أي أعناب الكشوف، وقيل النخيل إشارة إلى علوم الشريعة والأعناب إشارة إلى علوم الطريقة **﴿لكم فيها فواكه كثيرة﴾** هي ما كان منها زائداً على الواجب **﴿ومنها تأكلون﴾** إشارة إلى ما كان واجباً لا يتم قوام الشريعة والطريقة بدونه **﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾** إشارة إلى النور الذي يشرق من طور القلب بواسطة ما حصل له من التجلي الإلهي **﴿تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾** أي تنبت بالجامع لهذين الوصفين وهو الاستعداد، والآكلين إشارة إلى المتغذين بأطعمة المعارف **﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾** فيه من الأمر بمكارم الأخلاق ما فيه. **﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾** فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي الاغترار بالأعمال وإرشاد إلى التشبث برحمة الملك المتعال، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لطاعته ويغفر لنا ما ارتكبناه من مخالفته ويتفضل علينا بأعظم مما نؤمله من رحمته كرامة لنبيه الكريم وحبيبه الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وشرف وعظم وكرم.

(٢٤) سورة النور مدنية
وآياتها أربع وستون

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون ﴾

قرأ العامة سورة بالرفع ، وقرأ طلحة بن مصرف بالنصب ، أما الذين قرأوا بالرفع فالجمهور قالوا الابتداء بالنكرة لا يجوز ، والتقدير هذه سورة أنزلناها ، أو نقول سورة أنزلناها مبتدأ موصوف ، والخبر محذوف أى فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها ، وقال الأخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلنا خبره ، ومن نصب فعلى معنى الفعل ، يعنى اتبعوا سورة أو أتل سورة أو أنزلنا سورة ، وأما معنى السورة ومعنى الإنزال فقد تقدم ، فإن قيل الإنزال إنما يكون من صعود إلى نزول ، فهذا يدل على أنه تعالى فى جهة ، قلنا (الجواب) من وجوه (أحدها) أن جبريل عليه السلام كان يحفظها من اللوح المحفوظ ثم ينزلها عليه صلى الله عليه وسلم ، فلهذا جاز أن يقال أنزلناها توسعاً (وثانيها) أن الله تعالى أنزلها من أم الكتاب فى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزلها بعد ذلك نجوماً على لسان جبريل عليه السلام (وثالثها) معنى (أنزلناها) أى أعطيناها الرسول ، كما يقول العبد إذا كلم سيده رفعت إليه حاجتى ، كذلك يكون من السيد إلى العبد الإنزال قال الله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .

أما قوله (وفرضناها) فالمشهور قراءة التخفيف ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد .

أما قراءة التخفيف فالفرض هو القطع والتقدير قال الله تعالى (فنصف مافرضتم) أى قدرتم (إن الذى فرض عليك القرآن) أى قدر ، ثم إن السورة لا يمكن فرضها لأنها قد دخلت فى الوجود وتحصيل الحاصل محال ، فوجب أن يكون المراد وفرضنا مابين فيها ، وإنما قال ذلك لأن أكثر ما فى هذه السورة من باب الأحكام والحدود فلذلك عقبها بهذا الكلام ، وأما قراءة التشديد فقال الفراء : التشديد للمبالغة والتكثير ، أما المبالغة فمن حيث إنها حدود وأحكام فلا بد من المبالغة فى إيجابها ليحصل الانقياد لقبولها ، وأما التكثير فلوجهين (أحدهما) أن الله تعالى بين فيها أحكاماً مختلفة (والثانى) أنه سبحانه وتعالى أوجبها على كل المكلفين إلى آخر

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

الدهر ، أما قوله (وأنزلنا فيها آيات بينات) ففيه وجوه (أحدها) أنه سبحانه ذكر فى أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود وفى آخرها دلائل التوحيد فقوله (وفرضناها) إشارة إلى الأحكام التى بينها أولا ثم قوله (وأنزلنا فيها آيات بينات) إشارة إلى مابين من دلائل التوحيد ، والذى يؤكد هذا التأويل قوله (لعلكم تذكرون) فان الأحكام والشرائع ماكانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكيرها . أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكيرها. (وثانيها) قال أبو مسلم يجوز أن تكون الآيات البينات ما ذكر فيها من الحدود والشرائع كقوله (رب اجعل لى آية ، قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً) سأل ربه أن يفرض عليه عملا (وثالثها) قال القاضى إن السورة كما اشتملت على عمل الواجبات فقد اشتملت على كثير من المباحثات بأن بينها الله تعالى ، ولما كان بيانه سبحانه لها مفصلا وصف الآيات بأنها بينات .

أما قوله تعالى (لعلكم تذكرون) فقرىء بتشديد الذال وتخفيفها ، ومعنى لعل قد تقدم فى سورة البقرة ، قال القاضى لعل بمعنى كى ، وهذا يدل على أنه سبحانه أراد من جميعهم أن يتذكروا (والجواب) أنه سبحانه لو أراد ذلك من الكل لما قوى دواعيهم إلى جانب المعصية ، ولو لم توجد تلك التقوية لزم وقوع الفعل لا لمرجح ، ولو جاز ذلك لما جاز الاستدلال بالإمكان والحدوث على وجود المرجح ويلزم نفى الصانع ، وإذا كان كذلك وجب حمل لعل على سائر الوجوه المذكورة فى سورة البقرة واعلم أنه سبحانه ذكر فى هذه السورة أحكاماً كثيرة :

﴿الحكم الأول﴾ قوله تعالى : ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾

إعلم أن قوله تعالى (الزانية والزانى) رفعهما على الإبتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه على معنى : فيما فرض الله عليكم الزانية والزانى أى فاجلدوهما ، ويجوز أن يكون الخبر فاجلدوا وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذى وتضمنه معنى الشرط تقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما كما تقول من زنا فاجلدوه ، وقرىء بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ، وقرىء والزان بلا ياء ، واعلم أن الكلام فى هذه الآية على نوعين (أحدهما) ما يتعلق

www.besturdubooks.wordpress.com

بالشرعيات (والثانى) مايتعلق بالعقليات ونحن نأتى على البابين بقدر الطاقة إن شاء الله تعالى

﴿ النوع الأول ﴾ الشرعيات ، واعلم أن الزنا حرام وهو من الكبائر ويدل عليه أمور : (أحدها) أن الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس فى قوله تعالى (والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) وقال (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) ، (وثانيها) أنه تعالى أوجب المائة فيها بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر ، وشرع فيه الرجم ، ونهى المؤمنين عن الرأفة وأمر بشهود الطائفة للتشهير وأوجب كون تلك الطائفة من المؤمنين ، لأن الفاسق من صلحاء قومه أخجل (وثالثها) ما روى حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يا معشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة ، أما التى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر ، وأما التى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار » وعن عبد الله قال قلت يا رسول الله : أى الذنب أعظم عند الله؟ قال « أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال ، وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت : ثم أى ؟ قال : وأن تزنى بحليلة جارك » فأنزل الله تعالى تصديقها (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) واعلم أنه يجب البحث فى هذه الآية عن أمور (أحدها) عن ماهية الزنا (وثانيها) عن أحكام الزنا (وثالثها) عن الشرائط المعتبرة فى كون الزنا موجباً لتلك الأحكام (ورابعها) عن الطريق الذى به يعرف حصول الزنا (وخامسها) أن المخاطبين بقوله (فاجلدوهم) من هم ؟ (وسادسها) أن الرجم والجلد المأمور بهما فى الزنا كيف يكون حالهما ؟.

﴿ البحث الأول ﴾ عن ماهية الزنا قال بعض أصحابنا إنه عبارة عن إيلاج فرج فى فرج مشتهى طبعاً محرم قطعاً وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى أن اللواطة هل ينطلق عليها اسم الزنا أم لا ؟ فقال قائلون نعم . واحتج عليه بالنص والمعنى ، أما النص فما روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان » وأما المعنى فهو أن اللواط مثل الزنا صورة ومعنى . أما الصورة فلأن الزنا عبارة عن إيلاج فرج فى فرج مشتهى طبعاً محرم قطعاً ، والدبر أيضاً فرج لأن القبل إنما سمى فرجا لما فيه من الإنفراج ، وهذا المعنى حاصل فى الدبر أكثر ما فى الباب أن فى العرف لا تسمى اللواطة زنا ولكن هذا لا يقدح فى أصل اللغة ، كما يقال هذا طبيب وليس بعالم مع أن الطب علم ، وأما المعنى فلأن الزنا قضاء للشهوة من محل مشتهى طبعاً على جهة الحرام المحض ، وهذا موجود فى اللواط لأن القبل والدبر يشتهيان لأنهما يشتركان فى المعانى التى هى متعلق الشهوة من الحرارة واللين وضيق المدخل ، ولذلك فان من يقول بالطبائع لا يفرق

www.besturdubooks.wordpress.com

بين المحلين ، وإنما المفرق هو الشرع فى التحريم والتحليل ، فهذا حجة من قال اللواط داخل تحت اسم الزنا ، وأما الأكثرون من أصحابنا فقد سلموا أن اللواط غير داخل تحت اسم الزنا واحتجوا عليه بوجوه : (أحدها) العرف المشهور من أن هذا لواط وليس بزنا وبالعكس والأصل عدم التغيير (وثانيها) لو حلف لا يزنى فلاط لايحنث (وثالثها) أن الصحابة اختلفوا فى حكم اللواط وكانوا عالمين باللغة فلوسمي اللواط زناً لأغناهم نص الكتاب فى حد الزنا عن الاختلاف والاجتهاد، وأما الحديث فهو محمول على الإثم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام « إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان » وقال عليه الصلاة والسلام « اليدان تزنيان والعينان تزنيان » وأما القياس فبعيد لأن الفرج وان كان سمى فرجاً لما فيه من الإنفراج فلا يجب أن يسمى كل ما فيه انفراج بالفرج وإلا لكان الفم والعين فرجاً ، وأيضاً فهم سموا النجم نجماً لظهوره ، ثم ما سموا كل ظاهر نجماً . وسموا الجنين جنيناً لاستتاره ، وما سموا كل مستتر جنيناً ، واعلم أن للشافعى رحمه الله فى فعل اللواط قولان أصحهما عليه حد الزنا إن كان محصناً يرجم ، وإن لم يكن محصناً يجلد مائة ويغرب عاماً (وثانيهما) يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصناً أو لم يكن محصناً ، لما روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » ثم فى كيفية قتله أوجه : (أحدها) تحز رقبته كالمرتد (وثانيها) يرجم بالحجارة وهو قول مالك واحمد وإسحق (وثالثها) يهدم عليه جدار ، يروى ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه (ورابعها) يرمى من شاهق جبل حتى يموت ، يروى ذلك عن على عليه السلام وإنما ذكروا هذه الوجوه : لأن الله تعالى عذب قوم لوط بكل ذلك فقال تعالى (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) وعند أبى حنيفة رحمه الله لا يحد اللوطى بل يعذر ، أما المفعول به فان كان عاقلا بالغاً طائعاً فان قلنا على الفاعل القتل فيقتل المفعول به على صفة قتل الفاعل للخبر ، وإن قلنا على الفاعل حد الزنا فعلى المفعول به مائة جلدة وتغريب عام محصناً كان أو غير محصن ، وقيل إن كانت امرأة محصنة فعليها الرجم ، وليس بصحيح لأنها لاتصير محصنة بالتمكين فى الدبر فلايلزمها حد المحصنات كما لو كان المفعول به ، ذكر حجة الشافعى رحمه الله على وجوب الحد من وجوه : (الأول) أن اللواط ، إما أن يساوى الزنا فى الماهية أو يساويه فى لوازم هذه الماهية وإذا كان كذلك وجب الحد (بيان الأول) قوله عليه الصلاة والسلام « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان » فاللفظ دل على كون اللائط زانياً ، واللفظ الدال بالمطابقة على ماهية دال بالالتزام على حصول جميع لوازمها ، ودلالة المطابقة والالتزام مشتركان فى أصل الدلالة ، فاللفظ الدال على حصول الزنا دال على حصول جميع اللوازم ، ثم بعد هذا إن تحقق مسمى الزنا فى اللواط دخل تحت قوله (الزانية والزانى فاجلدوا) وإن لم يتحقق مسمى الزنا وجب أن يتحقق لوازم مسمى الزنا لما ثبت أن اللفظ الدال على تحقق ماهية دال على تحقق جميع تلك اللوازم ترك العمل به فى حق الماهية

www.besturdubooks.wordpress.com

فوجب أن يبقى معمولا به فى الدلالة على جميع تلك اللوازم ، لكن من لوازم الزنا وجوب الحد فوجب أن يتحقق ذلك فى اللواط . أكثر ما فى الباب أنه ترك العمل بذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام «إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» لكن لا يلزم من ترك العمل هناك تركه ههنا (الثانى) أن اللائط يجب قتله فوجب أن يقتل رجماً (بيان الأول) قوله عليه السلام «من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل منهما والمفعول به » (وبيان الثانى) أنه لما وجب قتله وجب أن يكون زانياً وإلا لما جاز قتله لقوله عليه السلام «لا يحل دم امرىء مسلم إلا لإحدي ثلاث » وههنا لم يوجد كفر بعد إيمان ولا قتل نفس بغير حق فلو لم يوجد الزنا بعد الإحصان لوجب أن لا يقتل . وإذا ثبت أنه وجد الزنا بعد الإحصان وجب الرجم لهذا الحديث (الثالث) نقيس اللواط على الزنا ، والجامع أن الطبع داع إليه لما فيه من الإلتذاذ وهو قبيح فيناسب الزجر ، والحد يصلح زاجراً عنه . قالوا : والفرق من وجهين (أحدهما) أنه وجد فى الزنا داعيات ، فكان وقوعه أكثر فساداً فكانت الحاجة إلى الزاجر أتم (الثانى) أن الزنا يقتضى فساد الأنساب (والجواب) إلغاؤهما بوطء العجوز الشوهاء واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) اللواط ليس بزنا على ما تقدم فوجب أن لا يقتل لقوله عليه الصلاة والسلام « لا يحل دم امرئ مسلم إلا لإحدى ثلاث » (وثانيها) أن اللواط لا يساوى الزنا فى الحاجة إلى شرع الزاجر ، ولا فى الجناية فلا يساويه فى الحد . بيان عدم المساواة فى الحاجة ، أن اللواطة وإن كانت يرغب فيها الفاعل لكن لا يرغب فيها المفعول طبعاً بخلاف الزنا ، فان الداعى حاصل من الجانبين ، وأما عدم المساواة فى الجناية فلأن فى الزنا إضاعة النسب ولا كذلك اللواط ، إذا ثبت هذا فوجب أن لا يساويه فى العقوبة ، لأن الدليل ينفى شرع الحد لكونه ضرراً ترك العمل به فى الزنا ، فوجب أن يبقى فى اللواط على الأصل (وثالثها) أن الحد كالبدل عن المهر فلما لم يتعلق باللواط المهر فكذا الحد (والجواب) عن الأول أن اللواط وإن لم يكن مساوياً للزنا فى ماهيته لكنه يساويه فى الأحكام (وعن الثانى) أن اللواط وإن كان لا يرغب فيه المفعول لكن ذلك بسبب اشتداد رغبة الفاعل ، لأن الإنسان حريص على ما منع (وعن الثالث) أنه لا بد من الجامع والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أجمعت الأمة على حرمة إتيان البهائم . وللشافعى رحمه الله فى عقوبته أقوال (أحدها) يجب به حد الزنا فيرجم المحصن ويجلد غير المحصن ويغرب (والثانى) أنه يقتل محصناً كان أو غير محصن . لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه» فقيل لابن عباس : ماشأن البهيمة؟ فقال : ما أراه قال ذلك إلا أنه كره أن يؤكل لحمها ، وقد عمل بها ذلك العمل (والقول الثالث) وهو الأصح وهو قول أبى حنيفة ومالك والثورى وأحمد رحمهم الله : أن عليه التعزير لأن الحد شرع للزجر عما تميل النفس إليه ، وهذا الفعل لا تميل النفس إليه ، وضعفوا حديث ابن عباس رضى الله عنهما لضعف إسناده وإن ثبت فهو معارض بما روي أنه عليه السلام نهى عن ذبح الحيوان إلا لأكله .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ السحق من النسوان وإتيان الميتة والاستمناء باليد لايشرع فيها إلا التعزير.

﴿ البحث الثاني ﴾ عن أحكام الزنا . واعلم أنه كان في أول الإسلام عقوبة الزاني الحبس إلى الممات في حق الثيب ، والأذى بالكلام في حق البكر . قال الله تعالى (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب ، ولنذكر هاتين المسألتين :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الخوارج أنكروا الرجم واحتجوا فيه بوجوه : (أحدها) قوله تعالى (فعليهن نصف ما على المحصنات) فلو وجب الرجم على المحصن لوجب نصف الرجم على الرقيق لكن الرجم لانصف له (وثانيها) أن الله سبحانه ذكر في القرآن أنواع المعاصي من الكفر والقتل والسرقة ، ولم يستقص في أحكامها كما استقصى في بيان أحكام الزنا . ألا ترى أنه تعالى نهى عن الزنا بقوله (ولا تقربوا الزنا) ثم توعد عليه ثانياً بالنار كما في كل المعاصي ، ثم ذكر الجلد ثالثاً ثم خص الجلد بوجوب احضار المؤمنين رابعاً ، ثم خصه بالنهي عن الرأفة عليه بقوله (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) خامساً ، ثم أوجب على من رمى مسلماً بالزنا ثمانين جلدة ، وسادساً ، لم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر وهما أعظم منه ، ثم قال سابعاً (ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، ثم ذكر ثامناً من رمى زوجته بما يوجب التلاعن واستحقاق غضب الله تعالى ثم ذكر تاسعاً أن (الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) ، ثم ذكر عاشراً أن ثبوت الزنا مخصوص بالشهود الأربعة فمع المبالغة في استقصاء أحكام الزنا قليلا وكثيراً لايجوز إهمال ما هو أجل أحكامها وأعظم آثارها ، ومعلوم أن الرجم لو كان مشروعاً لكان أعظم الآثار فحيث لم يذكره الله تعالى في كتابه دل على أنه غير واجب (وثالثها) قوله تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا) يقتضي وجوب الجلد على كل الزناة ، وإيجاب الرجم على البعض بخبر الواحد يقتضي تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد ، وهو غير جائز. لأن الكتاب قاطع في متنه ، وخبر الواحد غير قاطع في متنه ، والمقطوع راجح على المظنون ، واحتج الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصن لما ثبت بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك ، قال أبو بكر الرازي روى الرجم أبو بكر وعمر وعلي وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وبريدة الأسلمي وزيد بن خالد في آخرين من الصحابة وبعض هؤلاء الرواة روى خبر رجم ماعز وبعضهم خبر اللخمية والغامدية وقال عمر رضي الله عنه : لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لأثبته في المصحف . (والجواب) عما احتجوا به أولا أنه مخصوص بالجلد . فان قيل فيلزم تخصيص القرآن بخبر الواحد قلنا بل بالخبر المتواتر لما بينا أن الرجم منقول بالتواتر ، وأيضاً فقد بينا في أصول الفقه أن تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز (والجواب) عن الثاني أنه لايستبعد تجدد الأحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح

www.besturdubooks.wordpress.com

فلعل المصلحة التى تقضى وجوب الرجم حدثت بعد نزول تلك الآيات (والجواب) عن الثالث أنه نقل عن على عليه السلام أنه كان يجمع بين الجلد والرجم وهو اختيار أحمد واسحق وداود واحتجوا عليه بوجوه : (أحدها) أن عموم هـذه الآية يقتضى وجوب الجلد والخبر المتواتر يقتضى وجوب الرجم ولا منافاة فوجب الجمع (وثانيها) قوله عليه السلام « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » (وثالثها) روى أبو بكر الرازى فى أحكام القرآن عن ابن جريج عن ابن الزبير عن جابر « أن رجلا زنى بامرأة فأمر النبى ﷺ فجلد ثم أخبر النبى ﷺ أنه كان محصناً فأمر به فرجم » (ورابعها) روى أن علياً عليه السلام جلد شراحة الهمدانية ثم رجمها وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن أكثر المجتهدين متفقون على أن المحصن يرجم ولا يجلد ، واحتجوا عليه بأمور (أحدها) قصة العسيف وإنه عليه السلام قال « يا أنيس اغد إلى امرأة هذا ، فان اعترفت فارجمها » ولم يذكر الجلد ولو وجب الجلد مع الرجم لذكره (وثانيها) أن قصة ماعز رويت من جهات مختلفة ولم يذكر فى شىء منها مع الرجم جلد ، ولو كان الجلد معتبراً مع الرجم لجلده النبى عليه السلام ولو جلده لنقل كما نقل الرجم إذ ليس أحدهما بالنقل أولى من الآخر ، وكذا فى قصة الغامدية حين أقرت بالزنا فرجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن وضعت ولو جلدها لنقل ذلك (وثالثها) ماروى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال قال عمر رضى الله عنه قد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى ، وقد قرأنا : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة ، رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمنا بعده ، فأخبر أن الذى فرضه الله تعالى هو الرجم ولو كان الجلد واجباً مع الرجم لذكره (أما الجواب) عن التمسك بالآية فهو أنها مخصوصة فى حق المحصن وتخصيص عموم القرآن بالخبر المتواتر غير ممتنع ، وأما قوله عليه السلام « الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » فلعل ذلك كان قبل قوله « يا أنيس اغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » وأما أنه عليه السلام جلد امرأة ثم رجمها ، فلعله عليه السلام ما علم إحصانها فجلدها ، ثم لما علم إحصانها رجمها ، وهو الجواب عن فعل على عليه السلام ، فهذا ما يمكن من التكلف فى هذه الأجوبة والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الشافعى رحمه الله يجمع بين الجلد والتغريب فى حد البكر ، وقال أبو حنيفة رحمه الله يجلد ، وأما التغريب فمفوض إلى رأى الإمام ، وقال مالك يجلد الرجل ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب ، حجة الشافعى رحمه الله حديث عبادة أنه عليه السلام قال « خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » ويدل أيضاً عليه ماروى أبو هريرة رضى الله عنه وزيد بن خالد « أن رجلا جاء إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إن ابنى كان عسيفاً على هذا وزنى بامرأته فافتديت منه بوليدة ومائة شاة ، ثم أخبرنى أهل العلم أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم فاقض بيننا ، فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله أما الغنم والوليدة فرد عليك ، وأما ابنك فان عليه جلد مائة وتغريب عام ، ثم قال لرجل من أسلم اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها » واحتج أبو حنيفة رحمه الله على نفى التغريب بوجوه (أحدها) أن إيجاب التغريب يقتضى نسخ الآية ونسخ القرآن بخبر الواحد لايجوز وقرروا النسخ من ثلاثة أوجه (الأول) أنه سبحانه رتب الجلد على فعل الزنا بالفاء وحرف الفاء للجزاء إلا أن أئمة اللغة قالوا اليمين بغير الله ذكر شرط وجزاء وفسروا الشرط بالذى دخل عليه كلمة إن والجزاء بالذى دخل عليه حرف الفاء والجزاء اسم لما يقع به الكفاية مأخوذ من قولهم جازيناه أى كافأناه ، وقال عليه السلام «تجزيك ولاتجزى أحداً بعدك» أى تكفيك ، ومنه قول القائل : اجتزت الإبل بالعشب بالماء وإنما تقع الكفاية بالجلد إذا لم يجب معه شيء آخر فإيجاب شيء آخر يقتضى نسخ كونه كافياً (الثانى) أن المذكور فى الآية لما كان هو الجلد فقط كان ذلك كمال الحد فلو جعلنا النفى معتبراً مع الجلد لكان الجلد بعض الحد لا كل الحد فيفضى إلى نسخ كونه كل الحد (الثالث) ان بتقدير كون الجلد كمال الحد فانه يتعلق بذلك رد الشهادة ولو جعلناه بعض الحد لزال ذلك الحكم ، فثبت أن إيجاب التغريب يقتضى نسخ الآية (ثانيها) قال أبو بكر الرازى لو كان النفى مشروعاً مع الجلد لوجب على النبى ﷺ عند تلاوة الآية توقيف الصحابة عليه لئلا يعتقدوا عند سماع الآية أن الجلد هو كمال الحد ولو كان كذلك لكان اشتهاره مثل اشتهار الآية ، فلما لم يكن خبر النفى بهذه المنزلة بل كان وروده من طريق الآحاد علم أنه غير معتبر (وثالثها) ماروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الأمة «إذا زنت فاجلدوها ، فان زنت فاجلدوها ، فان زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بطفير » وفى رواية أخرى « فليجلدها الحد ولا تثريب عليه » ووجه الاستدلال به أنه لو كان النفى ثابتاً لذكره مع الجلد (ورابعها) أنه إما أن يشرع التغريب فى حق الأمة أو لايشرع ، ولا جائز أن يكون مشروعاً لأنه يلزم منه الإضرار بالسيد من غير جناية صدرت منه وهو غير جائز ، ولأنه قال صلى الله عليه وسلم « بيعوها ولو بطفير » ولو وجب نفيها لما جاز بيعها لأن المكنة من تسليمها إلى المشترى لاتبقى بالنفى ولا جائز أن لا يكون مشروعاً لقوله تعالى (فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب) (وخامسها) أن التغريب لو كان مشروعاً فى حق الرجل لكان إما أن يكون مشروعاً فى حق المرأة أولا يكون ، والثانى بطل لأن التساوى فى الجناية قدوجد فى حقهما ، وإن كان مشروعاً فى حق المرأة فإما أن يكون مشروعاً فى حقها وحدها أو مع ذى محرم والأول غير جائز للنص والمعقول ، أما النص فقوله عليه السلام « لايحل لامرأة أن تسافر من غير ذى محرم » وأما المعقول فهو أن

www.besturdubooks.wordpress.com

الشهوة غالبة فى النساء ، والانزجار بالدين إنما يكون فى الخواص من الناس ، فان الغالب لعدم الزنا من النساء بوجود الحفاظ من الرجال ،وحيائهن من الأقارب . وبالتغريب تخرج المرأة من أيدى القرباء والحفاظ ، ثم يقل حياؤها لبعدها عن معارفها فينفتح عليها باب الزنا ، فربما كانت فقيرة فيشتد فقرها فى السفر ، فيصير مجموع ذلك سبباً لفتح باب هذه الفاحشة العظيمة عليها . ولا جائز أن يقال إنا نغربها مع الزوج أو المحرم ، لأن عقوبة غير الجانى لاتجوز لقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (وسادسها) ماروى عن عمر أنه غرب ربيعة بن أمية بن خلف فى الخمر إلى خيبر فلحق بهرقل ، فقال عمر لاأغرب بعدها أحداً ولم يستثن الزنا . وروى عن على عليه السلام أنه قال فى البكرين إذا زنيا يجلدان ولا ينفيان وإن نفيهما من الفتنة ، وعن ابن عمر أن أمة له زنت فجلدها ولم ينفها ، ولو كان النفى معتبراً فى حد الزنا لما خفى ذلك على أكابر الصحابة (وسابعها) ماروى «أن شيخاً وجد على بطن جارية يحنث بها فى خربة فأتى به إلى النبى ﷺ فقال اجلدوه مائة ، فقيل إنه ضعيف من ذلك فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها وخلوا سبيله» ولو كان النفى واجباً لنفاه ، فإن قيل إنما لم ينفه لأنه كان ضعيفاً عاجزاً عن الحركة ، قلنا كان ينبغى أن يكترى له دابة من بيت المال ينفى عليها . فان قيل كان عسى يضعف عن الركوب ، قلنا من قدر على الزنا كيف لا يقدر على الاستمساك ! (وثامنها) أن التغريب نظير القتل لقوله تعالى (أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم) فنزلها منزلة واحدة ، فاذا لم يشرع القتل فى زنا البكر وجب أن لا يشرع أيضاً نظيره وهو التغريب . (والجواب) عن الأول أنه ليس فى كلام الله تعالى إلا إدخال حرف الفاء على الأمر بالجلد ، فأما أن الذى دخل عليه هذا الحرف فإنه يسمى جزاء ، فليس هذا من كلام الله ولا من كلام رسوله ، بل هو قول بعض الأدباء فلا يكون حجة .

أما قوله (ثانياً) لو كان النفى مشروعاً لما كان الجلد كل الحد ، فنقول لانزاع فى أنه زال أمره لأن إثبات كل شىء لا أقل من أن يقتضى زوال عدمه الذى كان ، إلا أن الزائل ههنا ليس حكما شرعياً ، بل الزائل محض البراءة الأصلية ، ومثل هذه الإزالة لايمتنع إثباتها بخبر الواحد ، وإنما قلنا إن الزائل محض العدم الأصلى ، وذلك لأن إيجاب الجلد مفهوم مشترك بين إيجاب التغريب وبين إيجابه مع نفى التغريب . والقدر المشترك بين القسمين لاإشعار له بواحد من القسمين .

فإذن إيجاب الجلد لا إشعار فيه البتة لا بإيجاب التغريب ولا بعدم إيجابه ، إلا أن نفى التغريب كان معلوماً بالعقل نظراً إلى البراءة الأصلية ، فاذا جاء خبر الواحد ودل على وجوب التغريب ، فما أزال البتة شيئاً من مدلولات اللفظ الدال على وجوب الجلد بل أزال البراءة الأصلية ، فأما كون الجلد وحده مجزياً ، وكونه وحده كمال الحد . وتعلق رد الشهادة عليه ، فكل ذلك تابع لنفى وجوب الزيادة . فلما كان ذلك النفى معلوماً بالعقل جاز قبول خبر الواحد فيه ، كما أن الفروض لو كانت خمساً لتوقف على أدائها الخروج عن عهدة التكليف ، وقبول الشهادة

www.besturdubooks.wordpress.com

ولو زيد فيها شيء آخر لتوقف الخروج عن العهدة وقبول الشهادة على أداء تلك الزيادة ، مع أنه يجوز إثباته بخبر الواحد والقياس فكذا ههنا . أما لو قال الله تعالى الجلد كمال الحد وعلمنا أنها وحدها متعلق رد الشهادة ، فلا يقبل ههنا فى إثبات الزيادة خبر الواحد لأن نفى وجوب الزيادة ثبت بدليل شرعى متواتر (والجواب) عن الثانى أنه لو صح ماذكره لوجب فى كل ما خصص آية عامة أن يبلغ فى الاشتهار مبلغ تلك الآية ، ومعلوم أنه ليس كذلك (والجواب) عن الثالث أن قوله «ثم بيعوها» لا يفيد التعقيب فلعلها تنفى ثم بعد النفى تباع (والجواب) عن الرابع أنه معارض بما روى الترمذى فى جامعه أنه عليه السلام جلد وغرب ، وأن أبا بكر جلد وغرب (والجواب) عن الخامس أن للشافعى رحمه الله فى تغريب العبد قولين (أحدهما) لا يغرب لأنه عليه السلام قال « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد » ولم يأمر بالتغريب ، ولأن التغريب للمعرة ولا معرة على العبد فيه ، لأنه ينقل من يد إلى يد ، ولأن منافعه للسيد ففى نفيه إضرار بالسيد (والثانى) وهو الأصح أنه يغرب لقوله تعالى (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) ولا ينظر إلى ضرر المولى كما يقتل العبد بسبب الردة ويجلد العبد فى الزنا والقذف ، وإن تضرر به المولى فعلى هذا كم يغرب فيه قولان (أحدهما) يغرب نصف سنة لأنه يقبل التنصيف كما يجلد نصف حد الأحرار (والثانى) يغرب سنة لأن التغريب المقصود منه الإيحاش وذلك معنى يرجع إلى الطبع فيستوى فيه الحر والعبد كمدة الإيلاء أو العنة (والجواب) عن السادس أن المرأة لا تغرب وحدها بل مع محرم ، فان لم يتبرع المحرم بالخروج معها أعطى أجرته من بيت المال ، وإن لم يكن لها محرم تغرب مع النساء الثقات ، كما يجب عليها الخروج إلى الحج معهن . قوله التغريب يفتح عليها باب الزنا ، قلنا لا نسلم فان أكثر الزنا بالإلف والمؤانسة وفراغ القلب ، وأكثر هذه الأشياء تبطل بالغربة ، فان الأنسان يقع فى الوحشة والتعب والنصب فلا يتفرغ للزنا (والجواب) عن السابع ، أى استبعاد فى أن يكون الانسان الذى يعجز عن ركوب الدابة يقدر على الزنا ؟ (والجواب) عن الثامن أنه ينتقض بالتغريب إذا وقع على سبيل التعزير والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفقت الأمة على أن قوله سبحانه وتعالى (الزانية والزانى) يفيد الحكم فى كل الزناة ، لكنهم اختلفوا فى كيفية تلك الدلالة فقال قائلون لفظ الزانى يفيد العموم ، والمختار أنه ليس كذلك ويدل عليه أمور (أحدها) أن الرجل إذا قال لبست الثوب أو شربت الماء لايفيد العموم (وثانيها) أنه لايجوز توكيده بما يؤكد به الجمع ، فلا يقال جاءنى الرجل أجمعون (وثالثها) لاينعت بنعوت الجمع فلا يقال جاءنى الرجل الفقراء ، وتكلم الفقيه الفضلاء ، فأما قولهم أهلك الناس الدرهم البيض والدينار الصفر ، فمجاز بدليل أنه لايطرد ، وأيضاً فان كان الدينار الصفر حقيقة وجب أن يكون الدينار الأصفر مجازاً ، كما أن الدنانير الصفر لما كان له

www.besturdubooks.wordpress.com

حقيقة كان الدنانير الأصفر مجازاً (ورابعها) أن الزانى جزئى من هذا الزانى ، فايجاب جلد هذا الزانى إيجاب جلد الزانى ، فلو كان إيجاب جلد الزانى إيجاباً لجلد كل زان لزم أن يكون إيجاب جلد هذا الزانى إيجاب جلد كل زان ، ولما لم يكن كذلك بطل ماقالوه . فان قيل لم لايجوز أن يقال اللفظ المطلق إنما يفيد العموم بشرط العراء عن لفظ التعيين ، أو يقال اللفظ المطلق وإن اقتضى العموم إلا أن لفظ التعيين يقتضى الخصوص ، قلنا أما الأول فباطل لأن العدم لادخل له فى التأثير ، أما الثانى فلأنه يقتضى التعارض وهو خلاف الأصل (وخامسها) أن يقال الإنسان هو الضحاك فلو كان المفهوم من قولنا الإنسان هو كل الانسان لنزل ذلك منزلة مايقال كل إنسان هو الضحاك ، وذلك متناقض لأنه يقتضى حصر الانسانية فى كل واحد من الناس ومعنى الحصر هو أن يثبت فيه لافى غيره فيلزم أن يصدق على كل واحد من أشخاص الناس أنه هو الضحاك لاغير واحتج المخالف بوجهين (الأول) أنه يجوز الاستثناء منه لقوله تعالى (إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل تحته (الثانى) أن الألف واللام للتعريف ، وليس ذلك لتعريف الماهية ، فإن ذلك قد حصل بأصل الإسم ، ولا لتعريف واحد بعينه ، فإنه ليس فى اللفظ دلالة عليه ، ولا لتعريف بعض مراتب الخصوص فانه ليس بعض المراتب أولى من بعض ، فوجب حمله على تعريف الكل (والجواب) عن الأول أن ذلك الاستثناء مجاز بدليل أنه لا يصح أن يقال رأيت الإنسان إلا المؤمنين ، وعن الثانى أنه يشكل بدخول الألف واللام على صيغة الجمع ، فان جعلتها هناك للتأكيد فكذا ههنا ، ومن الناس من قال إن قوله تعالى (الزانية والزانى) وإن كان لا يفيد العموم بحسب اللفظ ، لكنه يفيده بحسب القرينة وذلك من وجهين (الأول) أن ترتيب الحكم على الوصف المشتق يفيد كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، لا سيما إذا كان الوصف مناسباً وههنا كذلك ، فيدل ذلك على أن الزنا علة لوجوب الجد ، فيلزم أن يقال أينما تحقق الزنا يتحقق وجوب الجلد ضرورة أن العلة لا تنفك عن المعلول (الثانى) أن المراد من قوله (الزانية والزانى) إما أن يكون كل الزناة أو البعض ، فان كان الثانى صارت الآية مجملة وذلك يمنع من إمكان العمل به ، لكن العمل به مأمور وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فوجب حمله على العموم حتى يمكن العمل به والله أعلم .

﴿البحث الثالث﴾ فى الشرائط المعتبرة فى كون الزنا موجباً للرجم تارة والجلد أخرى ، فنقول : أجمعوا على أن كون الزنا موجباً لهذين الحكمين مشروط بالعقل وبالبلوغ فلا يجب الرجم والحد على الصبى والمجنون وهذان الشرطان ليسا من خواص هذين الحكمين بل هما معتبران فى كل العقوبات ، أما كونهما موجبين للرجم فلا بد مع العقل والبلوغ من أمور أخر : (الشرط الأول) الحرية وأجمعوا على أن الرقيق لايجب عليه الرجم البتة (الشرط الثانى) التزوج بنكاح صحيح ، فلا يحصل الإحصان بالإصابة بملك اليمين ولا بوطء الشبهة ولا بالنكاح الفاسد (الشرط

www.besturdubooks.wordpress.com

الثالث) الدخول ولابد منه لقوله عليه السلام «الثيب بالثيب» وإنما تصير ثيباً بالوطء وههنا مسألتان.

﴿ المسألة الأولى ﴾ هل يشترط أن تكون الإصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل ، فيه وجهان : (أحدهما) لا يشترط حتى لو أصاب عبد أمة بنكاح صحيح أو فى حال الجنون والصغر ثم كمل حاله فزنى يجب عليه الرجم ، لأنه وطء يحصل به التحليل للزوج الأول فيحصل به الإحصان كالوطء فى حال الكمال ، ولأن عقد النكاح يجوز أن يكون قبل الكمال فكذلك الوطء (والثانى) وهو الأصح وهو ظاهر النص ، وقول أبى حنيفة رحمه الله يشترط أن تكون الإصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل ، لأنه لما شرط أكمل الإصابات وهو أن يكون بنكاح صحيح شرط أن يكون تلك الإصابة فى حال الكمال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هل يعتبر الكمال فى الطرفين أو يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه دون صاحبه فيه قولان : (أحدهما) معتبر فى الطرفين حتى لو وطىء الصبى بالغة حرة عاقلة فانه لا يحصنها وهو قول أبى حنيفة ومحمد (والثانى) يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه وهو قول أبى يوسف رحمه الله .

﴿ حجة القول الأول ﴾ أنه وطء لا يفيد الإحصان لأحد الوطئين فلا يفيد فى الآخر كوطء الأمة .

﴿ حجة القول الثانى ﴾ أنه لا يشترط كونهما على صفة الاحصان وقت النكاح وكذا عند الدخول (الشرط الرابع) الإسلام ليس شرطاً فى كون الزنا موجباً للرجم عند الشافعى رحمه الله وأبى يوسف ، وقال أبو حنيفة رحمه الله شرط ، احتج الشافعى بأمور : (أحدها) قوله عليه السلام «فاذا قبلوا الجزية فانبئوهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين» ومن جملة ما على المسلم كونه بحيث يجب عليه الرجم عند الاقدام على الزنا ، فوجب أن يكون الذمى كذلك لتحصل التسوية (وثانيها) حديث مالك عن نافع عن ابن عمر أنه عليه السلام رجم يهودياً ويهودية زنيا فإما أن يقال إنه عليه السلام حكم بذلك بشريعته أو بشريعة من قبله ، فان كان الأول فالاستدلال به بين ، وإن كان الثانى فكذلك لأنه صار شرعا له (وثالثها) أن زنا الكافر مثل زنا المسلم فيجب عليه مثل ما يجب على المسلم وذلك لأن الزنا محرم قبيح فيناسب الزجر وإيجاب الرجم يصلح زاجراً له ولا يبقى إلا التفاوت بالكفر والايمان ، والكفر وإن كان لا يوجب تغليظ الجناية فلا يوجب تخفيفها واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه : (أحدها) التمسك بعموم قوله (الزانية والزانى) وجب العمل به فى حق المسلم ولا يجب فى الذمى لمعنى مفقود فى الذمى ، ووجه الفرق أن القتل بالأحجار عقوبة عظيمة فلا يجب إلا بجناية عظيمة ، والجناية تعظم بكفران النعم فى حق الجانى عقلا وشرعاً ، أما العقل فلأن المعصية كفران النعمة وكلما كانت النعم أكثر وأعظم كان كفرانها أعظم وأقبح ، وأما الشرع فلأن الله تعالى قال فى حق نساء النبى ﷺ (يانساء النبى من يأت

منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) فلما كانت نعم الله تعالى فى حقهن أكثر كان العذاب فى حقهن أكثر ، وقال فى حق الرسول (لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) وإنما عظمت معصيته لأن النعمة فى حقه أعظم وهى نعمة النبوة ، ومن المعلوم أن نعم الله تعالى فى حق المسلم المحصن أكثر منها فى حق الذمى ، فكانت معصية المسلم أعظم فوجب أن تكون عقوبته أشد (وثانيها) أن الذمى لم يزن بعد الإحصان فلا يجب عليه القتل (بيان الأول) قوله عليه السلام « من أشرك بالله طرفة عين فليس بمحصن » (بيان الثانى) أن المسلم الذى لا يكون محصناً لا يجب عليه القتل لقوله عليه السلام « لا يحل دم امرىء مسلم إلا لإحدى ثلاث » وإذا كان المسلم كذلك وجب أن يكون الذمى كذلك لقوله عليه السلام « إذا قبلوا عقد الجزية فأعلمهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين » (وثالثها) أجمعنا على أن إحصان القذف يعتبر فيه الاسلام ، فكذا إحصان الرجم والجامع ما ذكرنا من كمال النعمة (والجواب) عن الأول أنه خص عنه الثيب المسلم فكذا الثيب الذمى ، وما ذكروه من حديث زيادة النعمة على المؤمنين فنقول نعمة الاسلام حصلت بكسب العبد فيصير ذلك كالخدمة الزائدة ، وزيادة الخدمة إن لم تكن سبباً للعذر فلا أقل من أن لا تكون سبباً لزيادة العقوبة ، وعن الثانى لا نسلم أن الذمى مشرك سلمناه ، لكن الاحصان قد يراد به التزوج لقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) وفى التفسير (فاذا أحصن) يعنى فاذا تزوجن إذا ثبت هذا فنقول الذمى الثيب محصن بهذا التفسير فوجب رجمه لقوله ﷺ أو زنا بعد إحصان رتب الحكم فى حق المسلم على هذا الوصف فدل على كون الوصف علة والوصف قائم فى حق الذمى فوجب كونه مستلزماً للحكم بالرجم وعن الثالث أن حد القذف لدفع العار كرامة للمقذوف ، والكافر لا يكون محلا للكرامة وصيانة العرض بخلاف ماههنا والله أعلم ، أما ما يتعلق بالجلد ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اتفقوا على أن الرقيق لا يرجم واتفقوا على أنه يجلد ، وثبت بنص الكتاب أن على الاماء نصف ما على المحصنات من العذاب ، فلا جرم اتفقوا على أن الأمة تجلد خمسين جلدة ، أما العبد فقد اتفق الجمهور على أنه يجلد أيضاً خمسين إلا أهل الظاهر فإنهم قالوا عموم قوله (الزانية والزانى) يقتضى وجوب المائة على العبد والأمة إلا أنه ورد النص بالتنصيف فى حق الأمة ، فلو قسنا العبد عليها كان ذلك تخصيصاً لعموم الكتاب بالقياس وأنه غير جائز ، ومنهم من قال الأمة إذا تزوجت فعليها خمسون جلدة وإذا لم تتزوج فعليها المائة ، لظاهر قوله تعالى (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وذكروا أن قوله (فاذا أحصن) أى تزوجن (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله ، الذمى يجلد ، وقال مالك رحمه الله لا يجلد لنا وجوه (أحدها) عموم قوله (الزانية والزانى) (وثانيها) قوله عليه السلام « إذا زنت

www.besturdubooks.wordpress.com

أمة أحدكم فليجلدها» وقوله «أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم» ولم يفرق بين الذمي والمسلم (وثالثها) أنه عليه السلام رجم اليهوديين ، فذاك الرجم إن من كان من شرع محمد ﷺ فقد حصل المقصود ، وإن كان من شرعهم فلما فعله الرسول ﷺ صار ذلك من شرعه ، وحقيقة هذه المسألة ترجع إلى أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع .

﴿ البحث الرابع ﴾ فيما يدل على صدور الزنا منه ، اعلم أن ذلك لا يحصل إلا من أحد ثلاثة أوجه ، إما بأن يراه الامام بنفسه أو بأن يقر أو بأن يشهد عليه الشهود ، أما الوجه (الأول) وهو ما إذا رآه الإمام قال الإمام محيي السنة فى كتاب التهذيب لا خلاف أن على القاضى أن يمتنع عن القضاء بعلم نفسه مثل ما إذا ادعى رجل على آخر حقاً وأقام عليه بينة ، والقاضى يعلم أنه قد أبرأه ، أو ادعى أنه قتل أباه وقت كذا ، وقد رآه القاضى حياً بعد ذلك ، أو ادعى نكاح امرأة وقد سمعه القاضى طلقها ، لا يجوز أن يقضى به وإن أقام عليه شهوداً ، وهل يجوز للقاضى أن يقضى بعلم نفسه مثل أن ادعى عليه ألفاً وقد رآه القاضى أقرضه أو سمع المدعى عليه أقر به فيه قولان أصحهما وبه قال أبو يوسف ومحمد والمزنى رحمهم الله ، أنه يجوز له أن يقضى بعلمه لأنه لما جاز له أن يحكم بشهادة الشهود وهو من قولهم على ظن فلأن يجوز بما رآه وسمعه وهو منه على علم أولى ، قال الشافعى رحمه الله فى كتاب الرسالة أقضى بعلمى وهو أقوى من شاهدين أو بشاهدين وشاهد وامرأتين وهو أقوى من شاهد ويمين أو بشاهد ويمين وهو أقوى من النكول ورد اليمين .

﴿ والقول الثانى ﴾ لا يقضى بعلمه وهو قول ابن أبى ليلى ، لأن انتفاء التهمة شرط فى القضاء ولم يوجد هذا فى المال ، أما فى العقوبات فينظر إن كان ذلك من حقوق العباد كالقصاص وحد القذف هل يحكم فيه بعلم نفسه يرتب على المال إن قلنا هناك لا يقضى فههنا أولى وإلا فقولان ، والفرق أن مبنى حقوق الله تعالى على المساهلة والمسامحة ، ولا فرق على القولين أن يحصل العلم للقاضى فى بلد ولايته وزمان ولايته أو فى غيره ، وقال أبو حنيفة رحمه الله إن حصل له العلم فى بلد ولايته أو فى زمان ولايته له أن يقضى بعلمه وإلا فلا ، فنقول العلم لا يختلف باختلاف هذه الأحوال ، فوجب أن لا يختلف الحكم باختلافها والله أعلم .

﴿ الطريق الثانى ﴾ الإقرار قال الشافعى رحمه الله الإقرار بالزنا مرة واحدة يوجب الحد ، وقال أبو حنيفة رحمه الله بل لابد من الإقرار أربع مرات فى أربع مجالس ، وقال أحمد لابد من الإقرار أربع مرات لكن لا فرق بين أن يكون فى أربع مجالس أو فى مجلس واحد ، حجة الشافعى رحمه الله أمران (الأول) قصة العسيف فانه قال عليه السلام فان اعترفت فارجمها ، وذلك دليل على أن الإعتراف مرة واحدة كاف (الثانى) أنه لما أقر بالزنا وجب الحد عليه لقوله عليه السلام اقض بالظاهر ، والإقرار مرة واحدة يوجب الظهور لاسيما ههنا ، وذلك لأن الصارف عن الاقرار بالزنا قوي ، لما أنه سبب العار فى الحال والألم الشديد فى المآل ، والصارف عن الكذب أيضاً

www.besturdubooks.wordpress.com

قائم وعند اجتماع الصارفين يقوى الانصراف، فثبت أنه إنما أقدم على هذا الاقرار لكونه صادقاً . وإذا ظهر اندرج تحت الحديث وتحت الآية ، أو نقيسه على الاقرار بالقتل والردة ، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) قصة ماعز والاستدلال بها من وجوه (الأول) أنه عليه السلام أعرض عنه فى المرة الأولى ، ولو وجب عليه الحد لم يعرض عنه ، لأن الاعراض عن إقامة حد الله تعالى بعد كمال الحجة لا يجوز (الثانى) أنه عليه السلام قال « إنك شهدت على نفسك أربع مرات » ولو كان الواحد مثل الأربع فى إيجاب الحد كان هذا القول لغوا (والثالث) روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لماعز بعد ما أقر ثلاث مرات «لو أقررت الرابعة لرجمك» رسول الله (والرابع) عن بريدة الأسلمى قال « كنا معشر أصحاب النبى ﷺ نقول لو لم يقر ماعز أربع مرات ما رجمه رسول الله ﷺ » (وثانيها) أنهم قاسوا الاقرار على الشهادة فكما أنه لا يقبل فى الزنا إلا أربع شهادات فكذا فى الاقرار به والجامع السعى فى كتمان هذه الفاحشة (وثالثها) أن الزنا لا ينتفى إلا بأربع شهادات أو بأربع أيمان فى اللعان فجاز أيضاً أن لا يثبت إلا بالاقرار أربع مرات ، وبه يفارق سائر الحقوق فانها تنتفى بيمين واحد ، فجاز أيضاً أن يثبت بإقرار واحد (والجواب) عن الأول أنه ليس فى الحديث إلا أنه عليه السلام حكم بالشهادات الأربع وذلك لا ينافى جواز الحكم بالشهادة الواحدة (وعن الثانى) أن الفرق بينهما أن المقذوف لو أقر بالزنا مرة لسقط الحد عن القاذف ، ولولا أن الزنا ثبت لما سقط كما لو شهد اثنان بالزنا لا يسقط الحد عن القاذف حيث لم يثبت به الزنا والله أعلم ،

(والطريق الثالث) الشهادة وقد أجمعوا على أنه لابد من أربع شهادات ، ويدل عليه قوله تعالى (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) والكلام فيه سيأتى إن شاء الله تعالى فى قوله (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) .

﴿ البحث الخامس ﴾ فى أن المخاطب بقوله تعالى (فاجلدوا) من هو ؟ ، أجمعت الأمة على أن المخاطب بذلك هو الامام ، ثم احتجوا بهذا على وجوب نصب الامام ، قالوا لأنه سبحانه أمر بإقامة الحد ، وأجمعوا على أنه لا يتولى إقامته إلا الامام وما لا يتم الواجب المطلق إلا به ، وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب فكان نصب الإمام واجباً ، وقد مر بيان هذه الدلالة فى قوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) بقى ههنا ثلاث مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الشافعى رحمه الله السيد يملك إقامة الحد على مملوكه . وهو قول ابن مسعود وابن عمر وفاطمة وعائشة . وعند أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا يملك ، وقال مالك يحده المولى فى الزنا وشرب الخمر والقذف ولا يقطعه فى السرقة وإنما يقطعه الامام وهو قول الليث ، واحتج الشافعى رحمه الله بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام « أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال عليه السلام « إذا زنت أمة أحدكم

www.besturdubooks.wordpress.com

فليجلدها » وفى رواية أخرى «فليجلدها الحد» قال أبو بكر الرازى لا دلالة فى هذه الأخبار ، لأن قوله « أقيموا الحدود على ماملكت أيمانكم » هو كقوله (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) ومعلوم أن المراد منه رفعه إلى الإمام لإقامة الحد والمخاطبون بإقامة الحد هم الأئمة ، وسائر الناس مخاطبون برفع الأمر إليهم حتى يقيموا عليهم الحدود فكذلك قوله « أقيموا الحدود على ماملكت أيمانكم » على هذا المعنى ، وأما قوله « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها » فانه ليس كل جلد حداً ، لأن الجلد قد يكون على وجه التعزير ، فإذا عزرنا فقد وفينا بمقتضى الحديث . (والجواب) أن قوله « أقيموا الحدود » أمر بإقامة الحد فحمل هذا اللفظ على رفع الواقعة إلى الامام عدول عن الظاهر ، أقصى مافى الباب أنه ترك الظاهر فى قوله فاجلدوا ، لكن لا يلزم من ترك الظاهر هناك تركه ههنا ، أما قوله « فليجلدها » المراد هو التعزير فباطل لأن الجلد المذكور عقيب الزنا لايفهم منه إلا الحد (وثانيها) أن السلطان لما ملك إقامة الحد عليه فسيده به أولى لأن تعلق السيد بالعبد أقوى من تعلق السلطان به ، لأن الملك أقوى من عقد البيعة ، وولاية السادة على العبيد فوق ولاية السلطان على الرعية ، حتى إذا كان للأمة سيد وأب فإن ولاية النكاح للسيد دون الأب ، ثم إن الأب مقدم على السلطان فى ولاية النكاح فيكون السيد مقدماً على السلطان بدرجات فكان أولى ، ولأن السيد يملك من التصرفات فى هذا المحل ما لا يملكه الامام فثبت أن المولى أولى (وثالثها) أجمعنا على أن السيد يملك التعزير فكذا الحد ، لأن كل واحد نظير الآخر وإن كان أحدهما مقدراً والآخر غير مقدر ، واحتج أبو بكر الرازى على مذهب أبى حنيفة بوجوه (أحدها) قال قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) لاشك أنه خطاب مع الأئمة دون عامة الناس ، فالتقدير فاجلدوا أيها الأئمة والحكام كل واحد منهما مائة جلدة ، ولم يفرق فى هذه الآية بين المحدودين من الأحرار والعبيد ، فوجب أن تكون الأئمة هم المخاطبون باقامة الحدود على الأحرار والعبيد دون الموالى (وثانيها) أنه لو جاز للمولى أن يسمع شهادة الشهود على عبده بالسرقة فيقطعه ، فلو رجعوا عن شهادتهم لوجب أن يتمكن من تضمين الشهود ، لأن تضمين الشهود يتعلق بحكم الحاكم بالشهادة ، لأنه لولم يكن يحكم بشهادتهم لم يضمنوا شيئاً فكان يصير حاكما لنفسه بايجاب الضمان عليهم وذلك باطل لأنه ليس لأحد من الناس أن يحكم لنفسه . فعلمنا أن المولى لايملك استماع البينة على عبده بذلك ولا قطعه (وثالثها) أن المالك ربما لايستوفى الحد بكماله لشفقته على ملكه ، وإذا كان متهما وجب أن لا يفوض إليه (والجواب) عن الأول أن قوله (فاجلدوا) ليس بصريحه خطاباً مع الامام ، لكن بواسطة أنه لما انعقد الاجماع على أن غير الامام لايتولاه حملنا ذلك الخطاب على الامام ، وههنا لم ينعقد الاجماع على أن الامام لايتولاه لأنه عين النزاع (والجواب) عن الثانى قال محيى السنة فى كتاب التهذيب هل يجوز للمولى قطع يد عبده بسبب السرقة أو قطع الطريق ؟ فيه وجهان أصحهما أنه يجوز ، نص عليه فى رواية البويطى لما روي

www.besturdubooks.wordpress.com

عن ابن عمر أنه قطع عبداً له سرق وكما يجلده فى الزنا وشرب الخمر (والثانى) لا بل القطع إلى الإمام بخلاف الجلد لأن المولى يملك جنس الجلد وهو التعزير ولا يملك جنس القطع ، ثم قال وكل حد يقيمه المولى على عبده إنما يقيمه إذا ثبت باعتراف العبد ، فان كانت عليه بينة فهل يسمع المولى الشهادة ، فيه وجهان (أحدهما) يسمع لأنه ملك الإقامة بالاعتراف فيملك بالبينة كالامام (والثانى) لا يسمع بل ذاك إلى الحكام (والجواب) عن الثالث أنه منقوض بالتعزير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا فقد الامام فليس لآحاد الناس إقامة هذه الحدود ، بل الأولى أن يعينوا واحداً من الصالحين ليقوم به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الخارجي المتغلب هل له إقامة الحدود ؟ قال بعضهم له ذلك وقال آخرون : ليس له ذلك ، لأن إقامة الحد من جهة من لم يلزمنا أن نزيل ولايته أبعد من أن نفوض ذلك إلى رجل من الصالحين .

﴿ البحث السادس ﴾ فى كيفية إقامة الحد ، أما الجلد ، فاعلم أن المذكور فى الآية هو الجلد ، وهذا مشترك بين الجلد الشديد ، والجلد الخفيف ، والجلد على كل الأعضاء أو على بعض الأعضاء ، فحينئذ لا يكون فى الآية إشعار بشىء من هذه القيود ، بل مقتضى الآية أن يكون الآتى بالجلد كيف كان خارجا عن العهدة ، لأنه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج من العهدة ، قال صاحب الكشاف وفى لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغى أن يتجاوز الألم إلى اللحم ، ولأن الجلد ضرب الجلد ، يقال جلده كقولك ظهره بفتح الهاء وبطنه ورأسه ، إلا أنا لما عرفنا أن المقصود منه الزجر والزجر لا يحصل إلا بالجلد الخفيف لاجرم تكلم العلماء فى صفة الجلد على سبيل القياس ثم هنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المحصن يجلد مع ثيابه ولا يجرد ، ولكن ينبغى أن يكون بحيث يصل الألم إليه ، وينزع من ثيابه الحشو والفرو . روى أن أبا عبيدة بن الجراح أتى برجل فى حد فذهب الرجل ينزع قميصه ، وقال ماينبغى لجسدى هذا المذنب أن يضرب وعليه قميص ، فقال أبو عبيدة : لاتدعوه ينزع قميصه فضربه عليه . أما المرأة فلا خلاف فى أنه لا يجوز تجريدها ، بل يربط عليها ثيابها حتى لا تنكشف ، ويلى ذلك منها امرأة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لا يمد ولا يربط بل يترك حتى يتقى بيديه ، ويضرب الرجل قائماً والمرأة جالسة . قال أبو يوسف رحمه الله : ضرب ابن أبى ليلى المرأة القاذفة قائمة فخطأه أبو حنيفة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يضرب بسوط وسط لا جديد يجرح ولا خلق لم يؤلم ، ويضرب ضرباً بين ضربين لا شديد ولا واه . روى أبو عثمان النهدى قال أتى عمر برجل فى حد ثم جىء بسوط فيه شدة ، فقال أريد ألين من هذا ، فأتى بسوط فيه لين ، فقال أريد أشد من هذا ، فأتى بسوط بين السوطين فرضى به .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ تفرق السياط على أعضائه ولا يجمعها فى موضع واحد ، واتفقوا على

www.besturdubooks.wordpress.com

أنه يتقى المهالك كالوجه والبطن والفرج ، ويضرب على الرأس عند الشافعي رحمه الله . وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا يضرب على الرأس ، وهو قول على حجة الشافعي رحمه الله . قال أبو بكر أضرب على الرأس فان الشيطان فيه . وعن عمر أنه ضرب صبيغ بن عسيل على رأسه حين سأل عن الذاريات على وجه التعنت ، حجة أبي حنيفة رحمه الله ، أجمعنا على أنه لا يضرب على الوجه فكذا الرأس والجامع الحكم والمعنى . أما الحكم فلأن الشين الذى يلحق الرأس بتأثير الضرب كالذى يلحق الوجه ، بدليل أن الموضحة وسائر الشجاج حكمها فى الرأس والوجه واحد ، وفارقا سائر البدن ، لأن الموضحة فيما سوى الرأس والوجه إنما يجب فيها حكومة ولا يجب فيها أرش الموضحة الواقعة فى الرأس والوجه ، فوجب استواء الرأس والوجه فى وجوب صونهما عن الضرب . وأما المعنى فهو إنما منع من ضرب الوجه لما كان فيه من الجناية على البصر ، وذلك موجود فى الرأس ، لأن ضرب الرأس يظلم منه البصر ، وربما حدث منه الماء فى العين ، وربما حدث منه اختلاط العقل . أجاب أصحابنا عنه بأن الفرق بين الوجه والرأس ثابت ، لأن الضربة إذا وقعت على الوجه ، فعظم الجبهة رقيق فربما انكسر بخلاف عظم القفا ، فانه فى نهاية الصلابة ، وأيضاً فالعين فى نهاية اللطافة ، فالضرب عليها يورث العمى ، وأيضاً فالضرب على الوجه يكسر الأنف لأنه من غضروف لطيف ، ويكسر الأسنان لأنها عظام لطيفة ، ويقع على الخدين وهما لحمان قريبان من الدماغ ، والضربة عليهما فى نهاية الخطر لسرعة وصول ذلك الأثر إلى جرم الدماغ ، وكل ذلك لم يوجد فى الضرب على الرأس .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لو فرق سياط الحد تفريقاً لايحصل به التنكيل ، مثل أن يضرب كل يوم سوطاً أو سوطين لايحسب ، وإن ضرب كل يوم عشرين أو أكثر يحسب ، والأولى أن لا يفرق .

﴿ المسألة السادسة ﴾ إن وجب الحد على الحبلى لا يقام حتى تضع ، روى عمران بن الحصين: أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى حبلى من الزنا ، فقالت يا نبى الله أصبت حداً فأقمه على ، فدعا نبى الله وليها فقال أحسن إليها ، فاذا وضعت فأتنى بها ففعل ، فأمر بها نبى الله صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ، ولأن المقصود التأديب دون الإتلاف .

﴿ المسألة السابعة ﴾ إن وجب الجلد على المريض نظر ، فان كان به مرض يرجى زواله من صداع أو ضعف أو ولادة يؤخر حتى يبرأ ، كما لو أقيم عليه حد أو قطع لا يقام عليه حد آخر حتى يبرأ من الأول ، وإن كان به مرض لا يرجى زواله ، كالسل والزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط فإنه يموت وليس المقصود موته ، وذلك لا يختلف سواء كان زناه فى حال الصحة ثم مرض أو فى حال المرض ، بل يضرب بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام مائة جلدة . كما قال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث) وعند

www.besturdubooks.wordpress.com

أبى حنيفة رحمه الله : يضرب بالسياط ، دليلنا ما روى أن رجلا مقعداً أصاب امرأة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذوا مائة شمراخ فضربوه بها ضربة واحدة ، ولأن الصلاة إذا كانت تختلف باختلاف حاله فالحد أولى بذلك .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ يقام الحد فى وقت اعتدال الهواء ، فان كان فى حال شدة حر أو برد نظر إن كان الحد رجماً يقام عليه كما يقام فى المرض لأن المقصود قتله ، وقيل إن كان الرجم ثبت عليه بإقراره فيؤخر إلى اعتدال الهواء وزوال المرض الذى يرجى زواله ، لأنه ربما رجع عن إقراره فى خلال الرجم وقد أثر الرجم فى جسمه فتعين شدة الحر والبرد والمرض على أهلاكه بخلاف ما لو ثبت بالبينة لأنه لايسقط ، وإن كان الحد جلداً لم يجز إقامته فى شدة الحر والبرد كما لا يقام فى المرض . أما الرجم ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الشافعى رحمه الله ، ومالك رحمه الله : يجوز للامام أن يحضر رجمه وأن لايحضر ، وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور . وقال أبو حنيفة رحمه الله : إن ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدأوا بالرجم ثم الإمام ثم الناس ، وإن ثبت بإقرار بدأ الإمام ثم الناس . حجة الشافعى رحمه الله : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إن ثبت الزنا بإقراره فمتى رجع ترك ، وقع به بعض الحد أو لم يقع . وبه قال أبو حنيفة رحمه الله والثورى وأحمد وإسحق ، وقال الحسن وابن أبى ليلى وداود لا يقبل رجوعه ، وعن مالك رحمه الله روايتان .

﴿حجة القول الأول﴾ أن ماعزاً لما مسته الحجارة وهرب ، فقال عليه السلام «هلا تركتموه»

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يحفر للمرأة إلى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى إليها ، ولا يحفر للرجل ، لما روى أبو سعيد الخدرى «أن ماعزاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله إنى أصبت فاحشة فأقم على الحد ، فرده النبي عليه السلام مراراً . ثم سأل قومه ، فقالوا : لانعلم به بأساً فأمرنا أن نرجمه ، فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد فما أوثقناه ولاحفرنا له ، قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف ، قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة وانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكن » وجه الاستدلال أنه قال «فما أوثقناه ولاحفرنا له» ولأنه هرب ، ولو كان فى حفرة لما أمكنه ذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا مات فى الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين ، فهذا ما أردنا ذكره من بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية .

﴿ أما المباحث العقلية ﴾ فاعلم أن من الناس من قال : لا شك أن البدن مركب من أجزاء كثيرة ، فإما أن يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة أو يقوم بكل الأجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة ، والثانى محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين

www.besturdubooks.wordpress.com

الأول ، وإذا كان كذلك كان كل جزء من أجزاء البدن حياً على حدة وعالماً على حدة وقادراً على حدة ، وإذا ثبت هذا فنقول الزانى هو الفرج لا الظهر ، فكيف يحسن من الحكيم أن يأمر بجلد الظهر ، ولأنه ربما كان الإنسان حال إقدامه على الزنا عجيفاً نحيفاً ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز إيلام تلك الأجزاء الزائدة مع أنها كانت بريئة عن فعل الزنا ، فان قال قائل هذا مدفوع من وجهين : (الأول) وهو أنه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلا على حدة وحياً على حدة وذلك محال ، بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحيية والعالمية والقادرية لمجموع الأجزاء ، فيكون المجموع حياً واحداً عالماً واحداً قادراً واحداً ، وعلى هذا التقدير يزول السؤال (الثانى) أن يقال الذى هو الفاعل والمحرك والمدرك شىء ليس بجسم ولا جسمانى . وإنما هو مدبر لهذا البدن ، وعلى هذا التقدير أيضاً يزول السؤال (والجواب) أما الأول فضعيف ، وذلك لأن العلم إذا قام بجزء واحد ، وإما أن يحصل بمجموع الأجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال ، أو يقوم بكل جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور ، وأما الثانى فى نهاية البعد لأنه إذا كان الفاعل للقبيح هو ذلك المباين فلم يضرب هذا الجسد ؟ واعلم أن المقصود من أحكام الشرع رعاية المصالح ، ونحن نعلم أن شرع الحد يفيد الزجر ، فكان المقصود حاصلا والله أعلم .

أما قوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الرأفة الرقة والرحمة وقراءة العامة بسكون الهمزة وقرىء رأفة بفتح الهمزة ورآفة على فعالة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن لا تأخذكم رأفة بأن يعطل الحد أو ينقص منه ، والمعنى لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا إقامتها للشفقة والرحمة ، وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير واختيار الفراء والزجاج ، ويحتمل أن لا تأخذكم رأفة بأن يخفف الجلد وهو قول سعيد ابن المسيب والحسن وقتادة ، ويحتمل كلا الأمرين والأول أولى لأن الذى تقدم ذكره الأمر بنفس الجلد ، ولم يذكر صفته ، فما يعقبه يجب أن يكون راجعاً اليه وكفى برسول الله أسوة فى ذلك حيث قال « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » ونبه بقوله فى دين الله على أن الدين إذا أوجب أمراً لم يصح استعمال الرأفة فى خلافه .

أما قوله تعالى (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فهو من باب التهييج والتهاب الغضب لله تعالى ولدينه . قال الجبائى تقدير الآية : إن كنتم مؤمنين فلا تتركوا اقامة الحدود ، وهذا يدل على أن الاشتغال بأداء الواجبات من الإيمان بخلاف ما تقوله المرجئة (والجواب) أن الرأفة لا تحصل إلا إذا حكم الإنسان بطبعه أن الأولى أن لا تقام تلك الحدود ، وحينئذ يكون منكراً للدين فيخرج عن الإيمان فى الحديث « يؤتى بوال نقص من الحد سوطاً ، فيقال له لم فعلت ذلك ؟

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

فيقول رحمة لعبادك ، فيقال له أنت أرحم بهم منى ! فيؤمر به إلى النار ، ويؤتى بمن زاد سوطاً فيقال له لم فعلت ذلك ؟ فيقول لينتهوا عن معاصيك ، فيقول أنت أحكم به منى ! فيؤمر به إلى النار » .

أما قوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة) أمر وظاهره للوجوب ، لكن الفقهاء قالوا يستحب حضور الجمع والمقصود إعلان إقامة الحد ، لما فيه من مزيد الردع ، ولما فيه من رفع التهمة عمن يجلد ، وقيل أراد بالطائفة الشهود لأنه يجب حضورهم ليعلم بقاؤهم على الشهادة.

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أقل الطائفة على أقوال : (أحدها) أنه رجل واحد وهو قول النخعي ومجاهد ، واحتجا بقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) (وثانيها) أنه اثنان وهو قول عكرمة وعطاء واحتجا بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين) وكل ثلاثة فرقة والخارج من الثلاثة واحد أو اثنان ، والاحتياط يوجب الأخذ بالأكثر (وثالثها) أنه ثلاثة وهو قول الزهرى وقتادة ، قالوا الطائفة هى الفرقة التى يمكن أن تكون حلقة ، كأنها الجماعة الحافة حول الشيء ، وهذه الصورة أقل ما لابد فى حصولها هو الثلاثة (ورابعها) أنه أربعة بعدد شهود الزنا ، وهو قول ابن عباس والشافعى رضى الله عنهم (وخامسها) أنه عشرة وهو قول الحسن البصرى ، لأن العشرة هى العدد الكامل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تسميته عذاباً يدل على أنه عقوبة ، ويجوز أن يسمى عذاباً لأنه يمنع المعاودة كما سمى نكالا لذلك ، ونبه تعالى بقوله (من المؤمنين) على أن الذين يشهدون يجب أن يكونوا بهذا الوصف ، لأنهم إذا كانوا كذلك عظم موقع حضورهم فى الزجر وعظم موقع إخبارهم عما شاهدوا فيخاف المجلود من حضورهم الشهرة ، فيكون ذلك أقوى فى الانزجار . والله أعلم .

﴿ الحكم الثانى ﴾ قوله تعالى : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ .

قرىء (لا ينكح) بالجزم عن النهى ، وقرىء (وحرم) بفتح الحاء ثم إن فى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) ظاهره خبر ، ثم إنه ليس الأمر كما يشعر به هذا الظاهر ، لأنا نرى أن الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه قال (وحرم ذلك على المؤمنين) وليس كذلك ، فإن المؤمن يحل له

www.besturdubooks.wordpress.com

التزوج بالمرأة الزانية (والجواب) اعلم أن المفسرين لأجل هذين السؤالين ذكروا وجوها : (أحدها) وهو أحسنها ، ما قاله القفال : وهو أن اللفظ وإن كان عاماً لكن المراد منه الأعم الأغلب ، وذلك لأن الفاسق الخبيث الذى من شأنه الزنا والفسق لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء ، وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله أو فى مشركة ، والفاسقة الخبيثة لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين ، فهذا على الأعم الأغلب كما يقال لا يفعل الخير إلا الرجل التقى ، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقى فكذا ههنا .

وأما قوله (وحرم ذلك على المؤمنين) فالجواب من وجهين (أحدهما) أن نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها ، وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرم عليه ، لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة ، والتسبب لسوء المقالة فيه والغيبة . ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام ، فكيف بمزاوجة الزوانى والفجار (الثانى) وهو أن صرف الرغبة بالكلية إلى الزوانى وترك الرغبة فى الصالحات محرم على المؤمنين ، لأن قوله (الزانى لا ينكح إلا زانية) معناه أن الزانى لا يرغب إلا فى الزانية فهذا الحصر محرم على المؤمنين ، ولا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج بالزانية ، فهذا هو المعتمد فى تفسير الآية (الوجه الثانى) أن الألف واللام فى قوله (الزانى) وفى قوله (وحرم ذلك على المؤمنين) وإن كان للعموم ظاهراً لكنه ههنا مخصوص بالأقوام الذين نزلت هذه الآية فيهم ، قال مجاهد وعطاء بن أبى رباح وقتادة . قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر ، وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ، ولكل واحدة منهن علامة على بابها كعلامة البيطار ، ليعرف أنها زانية ، وكان لا يدخل عليها إلا زان أو مشرك فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن إلى أن يغنينا الله عنهن ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فتقدير الآية أولئك الزوانى لا ينكحون إلا تلك الزانيات ، وتلك الزانيات لا ينكحهن إلا أولئك الزوانى وحرم نكاحهن على المؤمنين (الوجه الثالث) فى الجواب أن قوله (الزانى لا ينكح إلا زانية) وإن كان خبراً فى الظاهر ، لكن المراد النهى ، والمعنى أن كل من كان زانياً فلا ينبغى أن ينكح إلا زانية وحرم ذلك على المؤمنين . وهكذا كان الحكم فى ابتداء الإسلام ، وعلى هذا الوجه ذكروا قولين (أحدهما) أن ذلك الحكم باق إلى الآن حتى يحرم على الزانى والزانية التزوج بالعفيفة والعفيف وبالعكس ويقال هذا مذهب أبى بكر وعمر وعلى وابن مسعود وعائشة ، ثم فى هؤلاء من يسوى بين الابتداء والدوام فيقول كما لا يحل للمؤمن أن يتزوج بالزانية فكذلك لا يحل له إذا زنت تحته أن يقيم عليها . ومنهم من يفصل لأن فى جملة ما يمنع من التزويج ما لا يمنع من دوام النكاح كالإحرام والعدة .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً

﴿ والقول الثانى ﴾ أن هذا الحكم صار منسوخاً واختلفوا فى ناسخه ، فعن الجبائى أن ناسخه هو الإجماع وعن سعيد بن المسيب أنه منسوخ بعموم قوله تعالى (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) (وأنكحوا الأيامى) قال المحققون هذان الوجهان ضعيفان (أما الأول) فلأنه ثبت فى أصول الفقه أن الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به ، وأيضاً فالإجماع الحاصل عقيب الخلاف لا يكون حجة ، والإجماع فى هذه المسألة مسبوق بمخالفة أبى بكر وعمر وعلى فكيف يصح ؟

وأما قوله تعالى(فانكحوا ماطاب لكم) فهو لايصلح أن يكون ناسخاً ، لأنه لابدمن أن يشترط فيه أن لا يكون هناك مانع من النكاح من سبب أو نسب أو غيرهما ، ولقائل أن يقول لايدخل فيه تزويج الزانية من المؤمن ،كما لا يدخل فيه تزويجها من الأخ وابن الأخ ، ونقول إن للزنا تأثيراً فى الفرقة ماليس لغيره ، ألا ترى أنه إذا قذفها بالزنا يتبعها بالفرقة على بعض الوجوه ، ولا يجب مثل ذلك فى سائر مايوجب الحد . ولأن من حق الزنا أن يورث العار ويؤثر فى الفراش ففارق غيره .ثم احتج هؤلاء الذين يدعون هذا النسخ ، بأنه سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن رجل زنى بامرأة فهل له أن يتزوجها ؟فأجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه ، وعن النبى ﷺ أنه سئل عن ذلك فقال «أوله سفاح وآخره نكاح» والحرام لايحرم الحلال ، (الوجه الرابع) أن يحمل النكاح على الوطء والمعنى أن الزانى لا يطأ حين يزنى إلا زانية أو مشركة وكذا الزانية(وحرم ذلك على المؤمنين) أى وحرم الزنا على المؤمنين وعلى هذا تأويل أبى مسلم ، قال الزجاج هذا التأويل فاسد من وجهين (الأول) أنه ماورد النكاح فى كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج ، ولم يرد البتة بمعنى الوطء (الثانى) أن ذلك يخرج الكلام عن الفائدة ، لأنا لو قلنا المراد أن الزانى لا يطأ إلا الزانية فالإشكال عائد ، لأنا نرى أن الزانى قد يطأ العفيفة حين يتزوج بها ولو قلنا المراد أن الزانى لا يطأ إلا الزانية حين يكون وطؤه زنا فهذا الكلام لا فائدة فيه ، وهذا آخر الكلام فى هذا المقام .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أى فرق بين قوله (الزانى لا ينكح إلا زانية) وبين قوله (والزانية لا ينكحها إلا زان) ؟ (والجواب) الكلام الأول يدل على أن الزانى لا يرغب إلا فى نكاح الزانية وهذا لا يمنع من أن يرغب فى نكاح الزانية غير الزانى فلا جرم بين ذلك بالكلام الثانى .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قدمت الزانية على الزانى فى الآية المتقدمة وههنا بالعكس (الجواب) سبقت تلك الآية لعقوبتها على جنايتها ، والمرأة هى المادة فى الزنا ، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والطالب .

﴿ الحكم الثالث ﴾ القذف قوله تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

اعلم أن ظاهر الآية لا يدل على الشيء الذى به رموا المحصنات وذكر الرمى لايدل على الزنا ، إذ قد يرميها بسرقة وشرب خمر وكفر ، بل لابد من قرينة دالة على التعيين ، وقد أجمع العلماء على أن المراد الرمى بالزنا وفى الآية أقوال تدل عليه (أحدها) تقدم ذكر الزنا (وثانيها) أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف ، فدل ذلك على أن المراد بالرمى رميهن بضد العفاف (وثالثها) قوله (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يعنى على صحة ما رموهن به ، ومعلوم أن هذا العدد من الشهود غير مشروط إلا فى الزنا (ورابعها) انعقاد الاجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمى بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمى بالزنا ، إذا عرفت هذا فالكلام فى هذه الآية يتعلق بالرمى والرامى والمرمى .

﴿ البحث الأول ﴾ فى الرمى وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ألفاظ القذف تنقسم إلى صريح وكناية وتعريض ، فالصريح أن يقول يازانية أوزنيت أوزنى قبلك أودبرك ، ولوقال زنى بدنك فيه وجهان(أحدها)أنه كناية كقوله:زنى يدك ، لأن حقيقة الزنا من الفرج فلا يكون من سائر البدن إلا المعونة (والثانى) وهو الأصح أنه صريح ، لأن الفعل إنما يصدر من جملة البدن . والفرج آلة فى الفعل .أما الكنايات فمثل أن يقول يا فاسقة ، يا فاجرة ، ياخبيثة ، يا مؤاجرة ، يا ابنة الحرام ، أو امرأتى لاترد يد لامس ، وبالعكس فهذا لايكون قذفاً إلا أن يريده ، وكذلك لو قال لعربى يانبطى ، فهذا لا يكون قذفاً إلا أن يريده ، فإن أراد به القذف فهو قذف لأم المقول له وإلا فلا ، فإن قال عنيت به نبطى الدار واللسان ، وادعت أم المقول له أنه أراد القذف ، فالقول قوله مع يمينه . أما التعريض فليس بقذف وإن أراده ، وذلك مثل قوله : ياابن الحلال ، أما أنا فما زنيت وليست أمى زانية ، وهذا قول الشافعى وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد وزفر وابن شبرمة والثورى والحسن بن صالح رحمهم الله . وقال مالك رحمه الله : يجب الحد فيه ، وقال أحمد وإسحق : هو قذف فى حال الغضب دون حال الرضا ، لنا ، أن التعريض بالقذف محتمل للقذف ولغيره ، فوجب أن لا يجب الحد ، لأن الأصل براءة الذمة فلا يرجع عنه بالشك ، وأيضاً فلقوله عليه السلام : « ادرأوا الحدود بالشبهات » ولأن الحدود شرعت على خلاف النص النافى للضرر . والإيذاء الحاصل بالتصريح فوق الحاصل بالتعريض ، واحتج المخالف بما روى الأوزاعى عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال : كان عمر

www.besturdubooks.wordpress.com

يضرب الحد فى التعريض . وروى أيضاً أن رجلين استبا فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال أحدهما للآخر : والله ما أنا بزان ولا أمى بزانية ، فاستشار عمر الناس فى ذلك ، فقال قائل : مدح أباه وأمه ، وقال آخرون : قد كان لأبيه وأمه مدح غير هذا ، فجلده عمر ثمانين جلدة (والجواب) أن فى مشاورة عمر الصحابة فى حكم التعريض دلالة على أنه لم يكن عندهم فيه توقيف ، وأنهم قالوا رأياً واجتهاداً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تعدد القذف اعلم أنه إما أن يقذف شخصاً واحداً مراراً أو يقذف جماعة ، فان قذف واحداً مراراً نظر إن كان أراد بالكل زنية واحدة بأن قال : زنيت بعمرو قاله مراراً لا يجب إلا حد واحد ، ولو أنشأ الثانى بعد ماحد للأول عزر للثانى ، وإن قذفها بزنيات مختلفة بأن قال زنيت بزيد ، ثم قال زنيت بعمرو ، فهل يتعدد الحد أم لا ؟ فيه قولان (أحدهما) يتعدد اعتباراً باللفظ ولأنه من حقوق العباد فلا يقع فيه التداخل كالديون (والثانى) وهو الأصح يتداخل فلا يجب فيه إلا حد واحد لأنهما حدان من جنس واحد لمستحق واحد فوجب أن يتداخل كحدود الزنا ، ولو قذف زوجته مراراً ، فالأصح أنه يكتفى بلعان واحد سواء قلنا يتعدد الحد أو لا يتعدد . أما إذا قذف جماعة معدودين نظر ، إن قذف كل واحد بكلمة يجب عليه لكل واحد حد كامل ، وعند أبى حنيفة رحمه الله : لا يجب عليه إلا حد واحد . واحتج أبو بكر الرازى على قول أبى حنيفة بالقرآن والسنة والقياس .

أما القرآن فهو قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) والمعنى أن كل أحد يرمى المحصنات وجب عليه الجلد ، وذلك يقتضى أن قاذف جماعة من المحصنات لا يجلد أكثر من ثمانين فمن أوجب على قاذف جماعة المحصنات أكثر من حد واحد فقد خالف الآية .

وأما السنة : فما روى عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء ، فقال النبى عليه السلام «لا ، البينة أو حد فى ظهرك» فلم يوجب النبى صلى الله عليه وسلم على هلال إلا حداً واحداً مع قذفه لإمرأته ولشريك بن سحماء ، إلى أن نزلت آية اللعان فأقيم اللعان فى الزوجات مقام الحد فى الأجنبيات .

وأما القياس : فهو أن سائر ما يوجب الحد إذا وجد منه مراراً لم يجب إلا حد واحد كمن زنى مراراً أو شرب مراراً أو سرق مراراً فكذا ههنا ، والمعنى الجامع دفع مزيد الضرر (والجواب) عن الأول أن قوله (والذين) صيغة جمع ، وقوله (المحصنات) صيغة جمع ، والجمع إذا قوبل بالجمع يقابل الفرد بالفرد فيصير المعنى كل من رمى محصناً واحداً وجب عليه الجلد ، وعند ذلك يظهر وجه تمسك الشافعى رحمه الله بالآية ، ولأن قوله (والذين يرمون المحصنات فاجلدوهم) يدل على ترتيب الجلد على رمى المحصنات وترتيب الحكم على الوصف ، لاسيما إذا كان مناسباً فإنه مشعر بالعلية ، فدلت الآية على أن رمى المحصن من حيث إنه هذا المسمى يوجب الجلد إذا ثبت

www.besturdubooks.wordpress.com

هذا فنقول : إذا قذف واحداً صار ذلك القذف موجباً للحد ، فاذا قذف الثانى وجب أن يكون القذف الثانى موجباً للحد أيضاً ، ثم موجب القذف الثانى لايجوز أن يكون هو الحد الأول لأن ذلك قد وجب بالقذف الأول وإيجاب الواجب محال ، فوجب أن يحد بالقذف الثانى حداً ثانياً ، أقصى ما فى الباب أن يورد على هذه الدلالة حدود الزنا. لكنا نقول ترك العمل هناك بهذا الدليل لأن حد الزنا أغلظ من حد القذف . وعند ظهور الفارق يتعذر الجمع .

وأما السنة فلا دلالة فيها على هذه المسألة لأن قذفهما بلفظ واحد ، ولنا فى هذه المسألة تفصيل سيأتى إن شاء .

وأما القياس ففاسد لأن حد القذف حق الآدمى . بدليل أنه لا يحد إلا بمطالبة المقذوف وحقوق الآدمى لا تتداخل بخلاف حد الزنا ، فانه حق الله تعالى . هذا كله إذا قذف جماعة كل واحد منهم بكلمة على حدة . أما إذا قذفهم بكلمة واحدة فقال أنتم زناة أو زنيتم ، ففيه قولان (أصحهما) وهو قوله فى الجديد : يجب لكل واحد حد كامل لأنه من حقوق العباد فلا يتداخل ، ولأنه أدخل على كل واحد منهم معرة فصار كما لو قذفهم بكلمات . وفى القديم لا يجب للكل إلا حد واحد اعتباراً باللفظ ، فان اللفظ واحد والأول أصح لأنه أوفق لمفهوم الآية . فعلى هذا لو قال لرجل يا ابن الزانيين يكون قذفاً لأبويه بكلمة واحدة فعليه حدان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فيما يبيح القذف : القذف ينقسم إلى محظور ومباح وواجب ، وجملة الكلام أنه إذا لم يكن ثم ولد يريد نفيه فلا يجب ، وهل يباح أم لاينظر إن رآها بعينه تزنى أو أقرت هى على نفسها ووقع فى قلبه صدقها أو سمع ممن يثق بقوله أو لم يسمع ، لكنه استفاض فيما بين الناس أن فلاناً يزنى بفلانة ، وقد رآه الزوج يخرج من بيتها أو رآه معها فى بيت ، فإنه يباح له القذف لتأكد التهمة ، ويجوز أن يمسكها ويستر عليها .

لما روى « أن رجلا قال يارسول الله إن لى امرأة لا ترد يد لامس ، قال طلقها . قال إنى أحبها ، قال فأمسكها» أما إذا سمعه ممن لايوثق بقوله أو استفاض من بين الناس ولكن الزوج لم يره معها أو بالعكس لم يحل له قذفها ، لأنه قد يذكره من لا يكون ثقة فينتشر ويدخل بيتها خوفاً من قاصد أو لسرقة أو لطلب فجور فتأبى المرأة قال الله تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أما إذا كان ثم ولد يريد نفيه ، نظر فإن تيقن أنه ليس منه بأن لم يكن وطئها الزوج أو وطئها لكنها أتت به لأقل من ستة أشهر من وقت الوطء أو لأكثر من أربع سنين يجب عليه نفيه باللعان لأنه ممنوع من استلحاق نسب الغير كما هو ممنوع من نفى نسبه ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله فى شىء ولم يدخلها الله جنته» فلما حرم على المرأة أن تدخل على قوم من ليس منهم كان الرجل أيضاً كذلك ، أما إن احتمل أن يكون منه بأن أتت به لأكثر من ستة أشهر من وقت الوطء ولدون أربع سنين ، نظر إن لم

www.besturdubooks.wordpress.com

يكن قد استبرأها بحيضة ، أو استبرأها وأتت به لدون ستة أشهر من وقت الاستبراء ، لا يحل له القذف والنفى وإن اتهمها بالزنا ،قال النبي صلى الله عليه وسلم « أيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رءوس الأولين والآخرين » فان استبرأها وأتت به لأكثر من ستة أشهر من وقت الاستبراء يباح له القذف والنفى . والأولى أن لا يفعل لأنها قد ترى الدم على الحبل وإن أتت امرأته بولد لا يشبهه بأن كانا أبيضين فأتت به أسود ، نظر إن لم يكن يتهمها بالزنا فليس له نفيه ، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه «أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن امرأتى ولدت غلاماً أسود ، فقال هل لك من إبل؟ قال نعم ،قال ما ألوانها؟قال حمر، قال فهل فيها أورق؟ قال نعم ، قال فكيف ذاك؟ قال نزعه عرق قال فلعل هذا نزعه عرق » وإن كان يتهمها بزنا أو يتهمها برجل فأتت بولد يشبهه هل يباح له نفيه فيه وجهان (أحدهما) لا لأن العرق ينزع (والثانى) له ذلك لأن التهمة قد تأكدت بالشبهة .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى الرامى وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا قذف الصبي أو المجنون امرأته أو أجنبياً فلا حد عليهما ولا لعان ، لا فى الحال ولا بعد البلوغ ، لقوله عليه الصلاة والسلام « رفع القلم عن ثلاث » ولكن يعزران للتأديب إن كان لهما تمييز ، فلو لم تتفق إقامة التعزير على الصبي حتى بلغ ، قال القفال يسقط التعزير لأنه كان للزجر عن إساءة الأدب وقد حدث زاجر أقوى وهو البلوغ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأخرس إذا كانت له إشارة مفهومة أو كتابة معلومة وقذف بالإشارة أو بالكناية لزمه الحد ، وكذلك يصح لعانه بالإشارة والكناية ، وعند أبى حنيفة رحمه الله لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه ، وقول الشافعى رحمه الله أقرب إلى ظاهر الآية لأن من كتب أو أشار إلى القذف فقد رمى المحصنة وألحق العار بها فوجب اندراجه تحت الظاهر ، ولأنا نقيس قذفه ولعانه على سائر الأحكام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فيما إذا قذف العبد حراً فقال الشافعى وأبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر وعثمان البتى عليه أربعون جلدة ، روى الثورى عن جعفر بن محمد عن أبيه أن علياً عليه السلام قال « يجلد العبد فى القذف أربعين » وعن عبد الله بن عمر أنه قال « أدركت أبا بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم من الخلفاء وكلهم يضربون المملوك فى القذف أربعين » وقال الأوزاعى يجلد ثمانين وهو مروى عن ابن مسعود ، وروى أنه جلد عمر بن عبد العزيز العبد فى الفرية ثمانين . ومدار المسألة على حرف واحد وهو أن هذه الآية صريحة فى إيجاب الثمانين فمن رد هذا الحد إلى أربعين فطريقه أن الله تعالى قال (فاذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) فنص على أن حد الأمة فى الزنا نصف حد الحرة ، ثم قاسوا العبد على الأمة فى تنصيف حد الزنا ، ثم قاسوا تنصيف حد قذف العبد على تنصيف حد الزنا فى حقه ، فرجع حاصل الأمر إلى تخصيص عموم الكتاب بهذا القياس .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اتفقوا على دخول الكافر تحت عموم قوله (والذين يرمون المحصنات) لأن الاسم يتناوله ولا مانع ، فاليهودى إذا قذف المسلم يجلد ثمانين والله أعلم .

﴿ البحث الثالث ﴾ فى المرمى وهى المحصنة ، قال أبو مسلم : اسم الإحصان يقع على المتزوجة وعلى العفيفة وإن لم تتزوج ، لقوله تعالى فى مريم (والتى أحصنت فرجها) وهو مأخوذ من منع الفرج فاذا تزوجت منعته إلا من زوجها ، وغير المتزوجة تمنعه كل أحد ، ويتفرع عليه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ظاهر الآية يتناول جميع العفائف سواء كانت مسلمة أو كافرة وسواء كانت حرة أو رقيقة ، إلا أن الفقهاء قالوا : شرائط الإحصان خمسة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا ، وإنما اعتبرنا الاسلام لقوله عليه السلام « من أشرك بالله فليس بمحصن » وإنما اعتبرنا العقل والبلوغ لقوله عليه السلام « رفع القلم عن ثلاث » وإنما اعتبرنا الحرية لأن العبد ناقص الدرجة فلا يعظم عليه التعيير بالزنا ، وإنما اعتبرنا العفة عن الزنا لأن الحد مشروع لتكذيب القاذف ، فاذا كان المقذوف زانياً فالقاذف صادق فى القذف . وكذلك إذا كان المقذوف وطىء امرأة بشبهة أو نكاح فاسد لأن فيه شبهة الزنا كما فيه شبهة الحل ، فكما أن إحدى الشبهتين أسقطت الحد عن الواطىء فكذا الأخرى تسقطه عن قاذفه أيضاً ، ثم نقول من قذف كافراً أو مجنوناً أو صبياً أو مملوكا ، أو من قد رمى امرأة ، فلا حد عليه ، بل يعزر للأذى ، حتى لو زنى فى عنفوان شبابه مرة ثم تاب وحسن حاله وشاخ فى الصلاح لايحد قاذفه ، وكذلك لو زنى كافر أو رقيق ثم أسلم وعتق وصلح حاله فقذفه قاذف لاحد عليه ، بخلاف ما لو زنى فى حال صغره أو جنونه ثم بلغ أو أفاق فقذفه قاذف يحد ، لأن فعل الصبي والمجنون لايكون زناً ، ولو قذف محصناً فقبل أن يحد القاذف زنا المقذوف سقط الحد عن قاذفه لأن صدور الزنا يورث ريبة فى حاله فيما مضى لأن الله تعالى كريم لايهتك ستر عبده فى أول ما يرتكب المعصية ، فبظهوره يعلم أنه كان متصفاً به من قبل ، روى أن رجلا زنى فى عهد عمر ، فقال والله مازنيت إلا هذه ، فقال عمر كذبت إن الله لايفضح عبده فى أول مرة ، وقال المزنى وأبو ثور : الزنا الطارىء لايسقط الحد عن القاذف.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الحسن البصرى قوله (والذين يرمون المحصنات) يقع على الرجال والنساء ، وسائر العلماء أنكروا ذلك لأن لفظ المحصنات جمع لمؤنث فلا يتناول الرجال ، بل الاجماع دل على أنه لافرق فى هذا الباب بين المحصنين والمحصنات .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ رمى غير المحصنات لايوجب الحد بل يوجب التعزير إلا أن يكون المقذوف معروفاً بما قذف به فلا حد هناك ولا تعزير ، فهذا مجموع الكلام فى تفسير قوله سبحانه (والذين يرمون المحصنات) ،

أما قوله سبحانه (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ اعلم أن الله تعالى حكم فى القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء بثلاثة أحكام

www.besturdubooks.wordpress.com

(أحدها) جلد ثمانين (وثانيها) بطلان الشهادة (وثالثها) الحكم بفسقه إلى أن يتوب ، واختلف أهل العلم فى كيفية ثبوت هذه الأحكام ، بعد اتفاقهم على وجوب الحد عليه بنفس القذف عند عجزه عن إقامة البينة على الزنا . فقال قائلون قد بطلت شهادته ولزمه سمة الفسق قبل إقامة الحد عليه وهو قول الشافعي والليث بن سعد . وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر شهادته مقبولة ما لم يحد . قال أبو بكر الرازى وهذا مقتضى قولهم إنه غير موسوم بسمة الفسق مالم يقع به الحد ، لأنه لو لزمته سمة الفسق لما جازت شهادته إذ كانت سمة الفسق مبطلة لشهادة من وسم بها ، ثم احتج أبو بكر على صحة قول أبى حنيفة رحمه الله بأمور (أحدها) قوله سبحانه (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) ظاهر الآية يقتضى ترتب وجوب الحد على مجموع القذف والعجز عن إقامة الشهادة ، فلو علقنا هذا الحكم على القذف وحده قدح ذلك فى كونه معلقاً على الأمرين وذلك بخلاف الآية . وأيضاً فوجوب الجلد حكم مرتب على مجموع أمرين فوجب أن لا يحصل بمجرد حصول أحدهما ، كما لو قال لامرأته إن دخلت الدار وكلمت فلاناً فأنت طالق ، فأتت بأحد الأمرين دون الآخر لم يوجد الجزاء . فكذا ههنا (وثانيها) أن القاذف لا يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه وإذا كان كذلك وجب أن لا ترد شهادته بمجرد القذف . بيان الأول من ثلاثة أوجه (الاول) أن مجرد قذفه لو أوجب كونه كاذباً لوجب أن لا تقبل بعد ذلك بينته على الزنا إذ قد وقع الحكم بكذبه ، والحكم بكذبه فى قذفه حكم ببطلان شهادة من شهد بصدقه فى كون المقذوف زانياً . ولما أجمعوا على قبول بينته ثبت أنه لم يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه (الثانى) أن قاذف امرأته بالزنا لا يحكم بكذبه بنفس قذفه ، وإلا لما جاز إيجاب اللعان بينه وبين امرأته ، ولما أمر بأن يشهد بالله أنه لصادق فيما رماها به من الزنا مع الحكم بكذبه . ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما لاعن بين الزوجين « الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب » فأخبر أن أحدهما بغير تعيين هو الكاذب ولم يحكم بكذب القاذف ، وفى ذلك دليل على أن نفس القذف لا يوجب كونه كاذباً (الثالث) قوله تعالى (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) فلم يحكم بكذبهم بنفس القذف فقط ، فثبت بهذه الوجوه أن القاذف غير محكوم عليه بكونه كاذباً بمجرد القذف ، وإذا كان كذلك وجب أن لا تبطل شهادته بمجرد القذف لأنه كان عدلا ثقة والصادر عنه غير معارض ، ولما كان يجب أن يبقى على عدالته فوجب أن يكون مقبول الشهادة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام « المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا محدوداً فى قذف » أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ببقاء عدالة القاذف ما لم يحد (ورابعها) ماروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة هلال ابن أمية لما قذف امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله « يجلد هلال وتبطل شهادته فى المسلمين » فأخبر أن بطلان شهادته متعلق بوقوع الجلد ، به وذلك يدل على أن مجرد القذف

www.besturdubooks.wordpress.com

لا يبطل الشهادة (وخامسها) أن الشافعي رحمه الله زعم أن شهود القذف إذا جاءوا متفرقين قبلت شهادتهم ، فإن كان القذف قد أبطل شهادته فواجب أن لا يقبلها بعد ذلك ، وإن شهد معه ثلاثة لأنه قد فسق بقذفه ووجب الحكم بكذبه ، وفي قبول شهادتهم إذا جاءوا متفرقين ما يلزمه أن لا تبطل شهادتهم بنفس القذف ، وأما وجه قول الشافعي رحمه الله فهو أن الله تعالى رتب على القذف مع عدم الإتيان بالشهداء الأربعة أموراً ثلاثة معطوفاً بعضها على بعض بحرف الواو ، وحرف الواو لا يقتضي الترتيب.فوجب أن لا يكون بعضها مرتباً على البعض ، فوجب أن لا يكون رد الشهادة مرتباً على إقامة الحد ،بل يجب أن يثبت رد الشهادة سواء أقيم الحد عليه أو ما أقيم والله أعلم.

﴿ البحث الثاني ﴾ في كيفية الشهادة على الزنا قال الله تعالى (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) وقال تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) وقال سعد بن عبادة «يارسول الله أرأيت إن وجدت مع امرأتي رجلا أمهله حتى آتي بأربعة شهداء ؟ قال نعم » ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين فيه قولان (أحدهما) لا يثبت إلا بأربعة كفعل الزنا (والثاني) يثبت بخلاف فعل الزنا ، لأن الفعل يغمض الاطلاع عليه فاحتيط فيه باشتراط الأربع والإقرار أمر ظاهر فلا يغمض الإطلاع عليه ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا شهدوا على فعل الزنا يجب أن يذكروا الزاني ومن زنى بها ، لأنه قد يراه على جارية له فيظن أنها أجنبية ، ويجب أن يشهدوا أنا رأينا ذكره يدخل في فرجها دخول الميل في المكحلة ، فلو شهدوا مطلقاً أنه زنى لا يثبت ، لأنهم ربما يرون المفاخذة زنا ، بخلاف ما لو قذف إنساناً فقال زنيت يجب الحد ولا يستفسر ، ولو أقر على نفسه بالزنا ، هل يشترط أن يستفسر ؟ فيه وجهان (أحدهما) نعم كالشهود (والثاني) لا يجب كما في القذف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الشافعي رحمه الله لا فرق بين أن يجيء الشهود متفرقين أو مجتمعين ، وقال أبو حنيفة رحمه الله إذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف ، حجة الشافعي رحمه الله من وجوه (الأول) أن الإتيان بأربعة شهداء قدر مشترك بين الإتيان بهم مجتمعين أو متفرقين واللفظ الدال على ما به الاشتراك لا إشعار له بما به الامتياز ، فالآتي بهم متفرقين يكون عاملا بالنص فوجب أن يخرج عن العهدة (الثاني) كل حكم يثبت بشهادة الشهود إذا جاءوا مجتمعين يثبت إذا جاءوا متفرقين كسائر الأحكام ، بل هذا أولى لأنهم إذا جاءوا متفرقين كان أبعد عن التهمة ، وعن أن يتلقن بعضهم من بعض ، فلذلك قلنا إذا وقعت ريبة للقاضي في شهادة الشهود فرقهم ليظهر على عورة إن كانت في شهادتهم (الثالث) أنه لا يشترط أن يشهدوا معاً في حالة واحدة ، بل إذا اجتمعوا عند القاضي وكان يقدم واحد بعد آخر ويشهد فإنه تقبل شهادتهم ، فكذا إذا اجتمعوا على بابه . ثم كان يدخل واحد بعد واحد ، حجة أبي حنيفة رحمه الله من وجهين (الأول) أن الشاهد الواحد

www.besturdubooks.wordpress.com

لما شهد فقد قذفه ولم يأت بأربعة من الشهداء فوجب عليه الحـد لقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) أقصى مافى الباب أنهم عبروا عن ذلك القذف بلفظ الشهادة ، وذلك لاعبرة به لأنه يؤدى إلى إسقاط حد القذف رأساً ، لأن كل قاذف لايعجزه لفظ الشهادة ، فيجعل ذلك وسيلة إلى إسقاط الحد عن نفسه ، ويحصل مقصوده من القذف (الثانى) ماروى «أن المغيرة بن شعبة شهد عليه بالزنا عند عمر بن الخطاب أربعة : أبو بكرة ونافع ونفيع وقال زياد وكان رابعهم رأيت إستاً تنبو ونفساً يعلو ورجلاها على عاتقه كأذنى حمار ، ولا أدرى ما وراء ذلك ، فجلد عمر الثلاثة ولم يسأل هل معهم شاهد آخر » فلو قبل بعد ذلك شهادة غيرهم لتوقف ، لأن الحدود مما يتوقف فيها ويحتاط .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لو شهد على الزنا أقل من أربعة لايثبت الزنا ، وهل يجب حد القذف على الشهود فيه قولان (أحدهما) لا يجب لأنهم جاءوا مجىء الشهود ، ولأنا لو حددنا لانسد باب لشهادة على الزنا ، لأن كل واحد لا يأمن أن لا يوافقه صاحبه فيلزمه الحد (والقول الثانى)وهو الأصح . وبه قال أبو حنيفة رحمه الله : يجب عليهم الحد ، والدليل عليه الوجهان اللذان ذكرناهما فى المسألة الثالثة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إذا قذف رجل رجلا فجاء بأربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا ، قال أبو حنيفة رحمه الله : يسقط الحد عن القاذف ولا يجب الحد على الشهود . وقال الشافعى رحمه الله فى أحد قوليه : يحدون ، وجه قول أبى حنيفة قوله (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) وهذا قد أتى بأربعة شهداء فلا يلزمه الحد . ولأن الفاسق من أهل الشهادة وقد وجدت شرائط شهادة الزنا من اجتماعهم عند القاضى ، إلا أنه لم تقبل شهادتهم لأجل التهمة ، فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن المشهود عليـه فكذلك وجب اعتبارها فى نفى الحد عنهم ، ووجه قول الشافعى رحمه الله أنهم غير موصوفين بالشرائط المعتبرة فى قبول الشهادة فخرجوا عن أن يكونوا شاهدين ، فبقوا محض القاذفين ، وههنا آخر الكلام فى تفسير قوله تعالى (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء).

أما قوله تعالى (فاجلدوهم ثمانين جلدة) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المخاطب بقوله (فاجلدوهم) هو الإمام على مابيناه فى آية الزنا ، أو المالك على مذهب الشافعى ، أو رجل صالح ينصبه الناس عند فقد الإمام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خص من عموم هذه الآية صور (أحدها) الوالد يقذف ولده أو أحداً من نوافله ، فلا يجب عليه الحد ، كما لا يجب عليه القصاص بقتله (الثانية) القاذف إذا كان عبداً فالواجب جلد أربعين ، وكذا المكاتب وأم الولد ، ومن بعضه حر وبعضه رقيق فحدهم حد العبيد (الثالثة)من قذف رقيقة عفيفة أو من زنت فى قديم الأيام ثم تابت فهى بموجب اللغة محصنة ، ومع ذلك لا يجب الحد بقذفها .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالوا أشد الضرب فى الحدود ضرب الزنا ، ثم ضرب شرب الخمر ، ثم ضرب القاذف ، لأن سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب ، إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وزجراً عن هتكها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال مالك والشافعي حد القذف يورث ، فاذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد وقبل العفو يثبت لوارثه حد القذف ، وكذلك إذا كان الواجب بقذفه التعزير ، فإنه يورث عنه ، وكذا لو أنشأ القذف بعد موت المقذوف ثبت لوارثه طلب الحد . وعند أبى حنيفة رحمه الله : حد القذف لايورث ويسقط بالموت . حجة الشافعي رحمه الله ، أن حد القذف هو حق الآدمي لأنه يسقط بعفوه ولا يستوفى إلا بطلبه ويحلف فيه المدعي عليه إذا أنكر ، وإذا كان حق الآدمي وجب أن يورث لقوله عليه السلام « ومن ترك حقاً فلورثته » حجة أبى حنيفة رحمه الله : أنه لو كان موروثاً لكان للزوج أو الزوجة فيه نصيب ، ولأنه حق ليس فيه معنى المال والوثيقة فلا يورث كالوكالة والمضاربة (والجواب) عن الأول أن الأصح عند الشافعية أنه يرثه جميع الورثة كالمال ،وفيه وجه ثان أنه يرثه كلهم إلاالزوج والزوجة ، لأن الزوجية ترتفع بالموت ، ولأن المقصود من الحد دفع العار عن النسب ، وذلك لا يلحق الزوج والزوجة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إذا قذف إنسان إنساناً بين يدى الحاكم ، أو قذف امرأته برجل بعينه والرجل غائب ، فعلى الحاكم أن يبعث إلى المقذوف ويخبره بأن فلاناً قذفك وثبت لك حد القذف عليه ، كما لو ثبت له مال على آخر وهو لايعلمه يلزمه إعلامه ، وعلى هذا المعنى « بعث النبى صلى الله عليه وسلم أنيساً ليخبرها بأن فلاناً قذفها بابنه ولم يبعثه ليتفحص عن زناها » قال الشافعي رحمه الله وليس للامام إذا رمى رجل بزنا أن يبعث إليه فيسأله عن ذلك لأن الله تعالى قال (ولا تجسسوا) وأراد به إذا لم يكن القاذف معيناً ، مثل إن قال رجل بين يدى الحاكم الناس يقولون: إن فلاناً زنى فلا يبعث الحاكم إليه فيسأله .

أما قوله تعالى (ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) فاختلف الفقهاء فيه . فقال أكثر الصحابة والتابعين إنه إذا تاب قبلت شهادته وهو قول الشافعي رحمه الله ، وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن ابن صالح رحمهم الله لا تقبل شهادة المحدود فى القذف إذا تاب ، وهذه المسألة مبنية على أن قوله (إلا الذين تابوا) هل عاد إلى جميع الأحكام المذكورة أو اختص بالجملة الأخيرة ، فعند أبى حنيفة رحمه الله الاستثناء المذكور عقيب الجمل الكثيرة مختص بالجملة الأخيرة ، وعند الشافعي رحمه الله يرجع إلى الكل ، وهذه المسألة قد لخصناها فى أصول الفقه ، ونذكر ههنا مايليق بهذا الموضع إن شاء الله تعالى ، احتج الشافعي رحمه الله على أن شهادته مقبولة بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ومن لاذنب له مقبول الشهادة ، فالتائب يجب أن يكون أيضاً مقبول الشهادة (وثانيها) أن الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع ، فالقاذف

www.besturdubooks.wordpress.com

المسلم إذا تاب عن القذف وجب أن تقبل شهادته ، لأن القذف مع الإسلام أهون حالا من القذف مع الكفر ، فإن قيل المسلمون لا يألمون بسب الكفار ، لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل ، فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنآن ما يلحقه بقذف مسلم مثله ، فشدد على القاذف من المسلمين زجراً عن إلحاق العار والشنآن ، وأيضاً فالتائب من الكفر لا يجب عليه الحد والتائب من القذف لا يسقط عنه الحد ، قلنا هذا الفرق ملغى بقوله عليه السلام « أنبئهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين» (وثالثها) أجمعنا على أن التائب عن الكفر والقتل والزنا مقبول الشهادة فكذا التائب عن القذف ، لأن هذه الكبيرة ليست أكبر من نفس الزنا (ورابعها) أن أبا حنيفة رحمه الله يقبل شهادته إذا تاب قبل الحد مع أن الحد حق المقذوف فلا يزول بالتوبة . فلأن تقبل شهادته إذا تاب بعد إقامة الحد وقد حسنت حالته وزال اسم الفسق عنه كان أولى (وخامسها) أن قوله (إلا الذين تابوا) استثناء مذكور عقيب جمل فوجب عوده إليها بأسرها ويدل عليه أمور (أحدها) أجمعنا على أنه لو قال عبده حر وامرأته طالق إن شاء الله ، فانه يرجع الاستثناء إلى الجميع فكذا فيما نحن فيه ، فان قيل الفرق أن قوله (إن شاء الله) يدخل لرفع حكم الكلام حتى لا يثبت فيه شيء ، والاستثناء المذكور بحرف الاستثناء لا يجوز دخوله لرفع حكم الكلام رأساً. ألا ترى أنه يجوز أن يقول أنت طالق إن شاء الله فلا يقع شيء ، ولو قال أنت طالق إلا طلاقاً كان الطلاق واقعاً والاستثناء باطلا لاستحالة دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية ، فثبت أنه لا يلزم من رجوع قوله (إن شاء الله) إلى جميع ما تقدم صحة رجوع الاستثناء بحرفه إلى جميع ما تقدم ، قلنا هذا فرق فى غير محل الجمع ، لأن إن شاء الله جاز دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية ، فلا جرم جاز رجوعه إلى جميع الجمل المذكورة وإلا جاز دخوله لرفع بعض الكلام فوجب جواز رجوعه إلى جميع الجمل على هذا الوجه ،حتى يقتضى أن يخرج من كل واحد من الجمل المذكورة بعضه (وثانيها) أن الواو للجمع المطلق فقوله (فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) صار الجمع كأنه ذكر معاً لا تقدم للبعض على البعض ، فلما دخل عليه الاستثناء لم يكن رجوع الاستثناء إلى بعضها أولى من رجوعه إلى الباقى إذ لم يكن لبعضها على بعض تقدم فى المعنى البتة فوجب رجوعه إلى الكل ، ونظيره على قول أبى حنيفة رحمه الله قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) فان فاء التعقيب ما دخلت على غسل الوجه بل على مجموع هذه الأمور من حيث إن الواو لا تفيد الترتيب ، فكذا ههنا كلمة إلا ما دخلت على واحد بعينه لأن حرف الواو لا يفيد الترتيب بل دخلت على المجموع ، فان قيل الواو قد تكون للجمع على ما ذكرت وقد تكون للاستئناف وهى فى قوله (فأولئك هم الفاسقون) لأنها إنما تكون للجمع فيما لا يختلف معناه ونظمه جملة واحدة ، فيصير الكل كالمذكور معاً مثل آية الوضوء فان الكل أمر

www.besturdubooks.wordpress.com

واحد كأنه قال فاغسلوا هذه الأعضاء فان الكل قد تضمنه لفظ الأمر. وأما آية القذف فإن ابتداءها أمر وآخرها خبر فلا يجوز أن ينظمهما جملة واحدة ، وكان الواو للإستئناف فيختص الاستثناء به ، قلنا لم لايجوز أن نجعل الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط كأنه قيل ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم ، أى فاجمعوا لهم الجلد والرد والفسق ، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فان الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين (وثالثها) أن قوله (وأولئك هم الفاسقون) عقيب قوله (ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) يدل على أن العلة فى عدم قبول تلك الشهادة كونه فاسقاً ، لأن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية ، لاسيما إذا كان الوصف مناسباً وكونه فاسقاً يناسب أن لا يكون مقبول الشهادة . إذا ثبت أن العلة لرد الشهادة ليست إلا كونه فاسقاً ، ودل الاستثناء على زوال الفسق فقد زالت العلة فوجب أن يزول الحكم لزوال العلة (ورابعها) أن مثل هذا الاستثناء موجود فى القرآن ، قال الله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) إلى قوله (إلا الذين تابوا) ولا خلاف أن هذا الاستثناء راجع إلى ماتقدم من أول الآية ، وأن التوبة حاصلة لهؤلاء جميعاً وكذلك قوله (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) إلى قوله (فلم تجدوا ماء فتيمموا) وصار التيمم لمن وجب عليه الاغتسال ، كما أنه مشروع لمن وجب عليه الوضوء ، وهذا الوجه ذكره أبو عبيد فى إثبات مذهب الشافعى رحمه الله ، واحتج أصحاب أبى حنيفة على أن حكم الاستثناء مختص بالجملة الأخيرة بوجوه (أحدها) أن الاستثناء من الاستثناء يختص بالجملة الأخيرة ، فكذا فى جميع الصور طرداً للباب (وثانيها) أن المقتضى لعموم الجمل المتقدمة قائم والمعارض وهو الاستثناء يكفى فى تصحيحه تعليقه بجملة واحدة ، لأن بهذا القدر يخرج الاستثناء عن أن يكون لغواً فوجب تعليقه بالجملة الواحدة فقط (وثالثها) أن الاستثناء لو رجع إلى كل الجمل المتقدمة لوجب أنه إذا تاب أن لايجلد وهذا باطل بالإجماع فوجب أن يختص الاستثناء بالجملة الأخيرة (والجواب) عن الأول أن الاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبات نفى ، فالاستثناء عقيب الاستثناء لو رجع إلى الاستثناء الأول وإلى المستثنى فبقدر مانفى من أحدهما أثبت فى الآخر فينجبر الناقص بالزائد ويصير الاستثناء الثانى عديم الفائدة ، فلهذا السبب قلنا فى الاستثناء من الاستثناء إنه يختص بالجملة الأخيرة (والجواب) عن الثانى أنا بينا أن واو العطف لاتقتضى الترتيب فلم يكن بعض الجمل متأخراً فى التقدير عن البعض ، فلم يكن تعليقه بالبعض أولى من تعليقه بالباقى ، فوجب تعليقه بالكل (والجواب) عن الثالث أنه ترك العمل به فى حق البعض فلم يترك العمل به فى حق الباقى ، واحتج أصحاب أبى حنيفة رحمه الله فى المسألة بوجوه من الأخبار (أحدها) ماروى ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة هلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك ابن سحماء فقال رسول الله ﷺ «يجلد هلال وتبطل شهادته فى المسلمين» فأخبر رسول الله صلى الله

www.besturdubooks.wordpress.com

عليه وسلم أن وقوع الجلد به يبطل شهادته من غير شرط التوبة فى قبولها (وثانيها) أن قوله عليه السلام «المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا محدود فى قذف» ولم يشترط فيه وجود التوبة منه(وثالثها) ماروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا تجوز شهادة محدود فى الاسلام» قالت الشافعية هذا معارض بوجوه : (أحدها) قوله عليه السلام « إذا علمت مثل الشمس فاشهد » والأمر للوجوب فاذا علم المحدود وجبت عليه الشهادة ولو لم تكن مقبولة لما وجبت لأنها تكون عبثاً (وثانيها) قوله عليه السلام « نحن نحكم بالظاهر » وههنا قد حصل الظهور لأن دينه وعقله وعفته الحاصلة بالتوبة تفيد ظن كونه صادقاً (وثالثها) ما روى عن عمر بن الخطاب « أنه ضرب الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة وهم أبو بكرة ونافع ونفيع ، ثم قال لهم من أكذب نفسه قبلت شهادته ومن لا يفعل لم أجز شهادته فأكذب نافع ونفيع أنفسهما وتابا وكان يقبل شهادتهما . وأما أبو بكرة فكان لا يقبل شهادته » وما أنكر عليه أحد من الصحابة فيه ، فهذا تمام الكلام فى هذه المسألة .

أما قوله تعالى (وأولئك هم الفاسقون) فاعلم أنه يدل على أمرين : (الأول) أن القذف من جملة الكبائر لأن اسم الفسق لا يقع إلا على صاحب الكبيرة (الثانى) أنه اسم لمن يستحق العقاب لأنه لو كان مشتقاً من فعله لكانت التوبة لا تمنع من دوامه كما لا تمنع من وصفه بأنه ضارب وبأنه رام إلى غير ذلك .

وأما قوله تعالى (إلا الذين تابوا) فاعلم أنهم اختلفوا فى أن التوبة عن القذف كيف تكون ، قال الشافعى رحمه الله التوبة منه إكذابه نفسه ، واختلف أصحابه فى معناه فقال الأصطخرى يقول كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله ، وقال أبو إسحق لا يقول كذبت لأنه ربما يكون صادقاً فيكون قوله كذبت كذباً والكذب معصية ، والإتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى ، بل يقول القاذف باطلا ندمت على ماقلت ورجعت عنه ولا أعود إليه .

أما قوله (وأصلحوا) فقال أصحابنا إنه بعد التوبة لابد من مضى مدة عليه فى حسن الحال حتى تقبل شهادته وتعود ولايته ، ثم قدروا تلك المدة بسنة حتى تمر عليه الفصول الأربع التى تتغير فيها الأحوال والطباع كما يضرب للعنين أجل سنة ، وقد علق الشرع أحكاماً بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما .

وأما قوله تعالى (فان الله غفور رحيم) فالمعنى أنه لكونه غفوراً رحيما يقبل التوبة وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلا إذ لو كان واجباً لما كان فى قبوله غفوراً رحيما ، لأنه إذا كان واجباً فهو إنما يقبله خوفاً وقهراً لعلمه بأنه لولم يقبله لصار سفيهاً ، ولخرج عن حد الإلهية . أما إذا لم يكن واجباً فقبله . فهناك تتحقق الرحمة والإحسان وبالله التوفيق .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ
أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ
عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ
بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿ الحكم الرابع : حكم اللعان ﴾ قوله تعالى ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ويدرؤ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾

إعلم أنه سبحانه لما ذكر أحكام قذف الأجنبيات عقبه بأحكام قذف الزوجات ، ثم هذه الآية مشتملة على أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ فى سبب نزوله وذكروا فيه وجوها : (أحدها) قال ابن عباس رحمهم الله «لما نزل قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) قال عاصم بن عدى الانصارى إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فان جاء بأربعة رجال يشهدو بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قتل به ، وإن قال وجدت فلاناً مع تلك المرأ ضرب وإن سكت سكت على غيظ . اللهم افتح . وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امر يقال لها خولة بنت قيس فأتى عويمر عاصما فقال : لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خو فاسترجع عاصم وأتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله ماأسرع ماابتليت بهذا فى أهل بيتى ، فق رسول الله ﷺ وماذاك ؟ فقال أخبرنى عويمر ابن عمى بأنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خو وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعاً وقال لعويمر اتق الله زوجتك وابنة عمك ولا تقذفها فقال يارسول الله أقسم بالله أنى رأيت شريكا على بطنها وأنى ماقر منذ أربعة أشهر وأنها حبلى من غيرى . فقال لها رسول الله ﷺ اتق الله ولا تخبرى إلا بما صنعت فقالت يارسول الله إن عويمراً رجل غيور وإنه رأى شريكا يطيل النظر إلى ويتحدث فحملته الغ على ما قال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ حتى نودى الصلاة جامعة فصلى العص

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال لعويمر قم وقل أشهد بالله أن خولة لزانية وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الثانية قل أشهد بالله أنى رأيت شريكا على بطنها وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الثالثة قل أشهد بالله أنها حبلى من غيرى وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الرابعة قل أشهد بالله أنها زانية وأنى ما قربتها منذ أربعة أشهر وإنى لمن الصادقين . ثم قال فى الخامسة قل لعنة الله على عويمر يعنى نفسه إن كان من الكاذبين فيما قال . ثم قال اقعد ، وقال لخولة قومى ، فقامت وقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وإن زوجى عويمراً لمن الكاذبين ، وقالت فى الثانية أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الثالثة أشهد بالله أنى حبلى منه وإنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الرابعة أشهد بالله أنه ما رآنى على فاحشة قط وإنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الخامسة غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين فى قوله ، ففرق رسول الله ﷺ بينهما» (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبى «أن عاصما ذات يوم رجع إلى أهله فوجد شريك بن سحماء على بطن امرأته فأتى رسول الله ﷺ» وتمام الحديث كما تقدم (وثالثها) ماروى عكرمة عن ابن عباس «لما نزل (والذين يرمون المحصنات) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار لو وجدت رجلا على بطنها فإنى إن جئت بأربعة من الشهداء يكون قد قضى حاجته وذهب ، فقال رسول الله ﷺ يامعشر الأنصار أما تسمعون ما يقول سيدكم ؟ فقالوا يارسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، فقال سعد يارسول الله والله إنى لأعرف أنها من الله وأنها حق ، ولكنى عجبت منه ، فقال عليه السلام فان الله يأبى إلا ذلك ، قال فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم ، فقال يارسول الله إنى وجدت مع امرأتى رجلا رأيت بعينى وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به ، فقال هلال والله يارسول الله إنى لأرى الكراهة فى وجهك مما أخبرتك به والله يعلم أنى لصادق وما قلت إلا حقاً ، فقال رسول الله ﷺ «إما البينة وإما إقامة الحد عليك» فاجتمعت الأنصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد ، فبينا هم كذلك إذ نزل عليه الوحى وكان إذا نزل عليه الوحى اربد وجهه وعلا جسده حمرة فلما سرى عنه قال عليه السلام أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ، قال قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى فقرأ عليهم هذه الآيات فقال عليه السلام ادعوها فدعيت فكذبت هلالا ، فقال عليه السلام الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب وأمر بالملاعنة فشهد هلال أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين فقال عليه السلام له عند الخامسة اتق الله يا هلال فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقال والله لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى رسول الله ﷺ وشهد الخامسة ، ثم قال رسول الله أتشهدين فشهدت أربع شهادات بالله أنه لمن الكاذبين فلما أخذت فى الخامسة قال لها اتقى الله فان الخامسة هى الموجبة ، فتفكرت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومى وشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، ثم قال: انظروها إن جاءت به أثيبج أصهب أحمش الساقين فهو لهلال ، وإن

www.besturdubooks.wordpress.com

جاءت به خدلج الساقين أورق جعداً فهو لصاحبه ، فجاءت به أورق خدلج الساقين فقال عليه السلام لو لا الإيمان لكان لى ولها شأن» قال عكرمة لقد رأيته بعد ذلك أمير مصر من الأمصار ولا يدرى من أبوه ! .

﴿ البحث الثانى ﴾ مايتعلق بالقراءة قرىء ولم تكن بالتاء لأن الشهداء جماعة أو لأنهم فى معنى الأنفس ووجه من قرأ أربع أن ينصب لأنه فى حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة أحدهم وهى مبتدأ محذوف الخبر فتقديره فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات ، وقرىء أن لعنة الله وأن غضب الله على تخفيف أن ورفع ما بعدها ، وقرىء أن غضب الله على فعل الغضب ، وقرىء بنصب الخامستين على معنى ويشهد الخامسة .

﴿ البحث الثالث ﴾ ما يتعلق بالأحكام ، والنظر فيه يتعلق بأطراف :

﴿ الطرف الأول ﴾ فى موجب اللعان وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ اعلم أنه إذا رمى الرجل امرأته بالزنا يجب عليه الحد إن كانت محصنة والتعزير إن لم تكن محصنة ، كما فى رمى الأجنبية لا يختلف موجبهما غير أنهما يختلفان فى المخلص ففى قذف الأجنبى لا يسقط الحد عن القاذف إلا بإقرار المقذوف أو ببينة تقوم على زناها ، وفى قذف الزوجة يسقط عنه الحد بأحد هذين الأمرين أو باللعان ، وإنما اعتبر الشرع اللعان فى هذه الصورة دون الأجنبيات لوجهين : (الأول) أنه لا معرة عليه فى زنا الأجنبية والأولى له ستره ، أما إذا زنى بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد ، فلا يمكنه الصبر عليه وتوقيفه على البينة كالمعتذر ، فلا جرم خص الشرع هذه الصورة باللعان (الثانى) أن الغالب فى المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته أنه لا يقصدها بالقذف إلا عن حقيقة ، فاذا رماها فنفس الرمى يشهد بكونه صادقاً إلا أن شهادة الحال ليست بكاملة فضم إليها مايقويها من الأيمان ، كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قال أبو بكر الرازى كان حد قاذف الأجنبيات والزوجات والجلد ، والدليل عليه قول النبى ﷺ لهلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك ابن سحماء «إئتنى بأربعة يشهدون لك وإلا فحد فى ظهرك » فثبت بهذا أن حد قاذف الزوجات كان كحد قاذف الأجنبيات إلا أنه نسخ عن الأزواج الجلد باللعان ، وروى نحو ذلك فى الرجل الذى قال أرأيتم لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فإن تكلم جلدتموه ، وإن قتل قتلتموه ، وإن سكت سكت على غيظ . فدلت هذه الأخبار على أن حد قاذف الزوجة كان الجلد وأن الله نسخه باللعان .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ قال الشافعى رحمه الله إذا قذف الزوج زوجته فالواجب هو الحد ولكن المخلص منه باللعان ، كما أن الواجب بقذف الأجنبية الحد والمخلص منه بالشهود ، فاذا نكل الزوج عن اللعان يلزمه الحد للقذف ، فإذا لاعن ونكلت عن اللعان يلزمها حد الزنا ، وقال أبو حنيفة رحمه

www.besturdubooks.wordpress.com

الله إذا نكل الزوج عن اللعان حبس حتى يلاعن ، وكذا المرأة إذا نكلت حبست حتى لا تلاعن حجة الشافعي وجوه : (أحدها) أن الله تعالى قال فى أول السورة (والذين يرمون المحصنات) يعنى غير الزوجات (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) ثم عطف عليه حكم الأزواج فقال (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم) الآية فكما أن مقتضى قذف الأجنبيات الإتيان بالشهود أو الجلد فكذا موجب قذف الزوجات الإتيان باللعان أو الحد (وثانيها) قوله تعالى (ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله) والألف واللام الداخلان على العذاب لا يفيدان العموم لأنه لم يجب عليها جميع أنواع العذاب فوجب صرفهما إلى المعهود السابق والمعهود السابق هو الحد لأنه تعالى ذكر فى أول السورة (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) والمراد منه الحد وإذا ثبت أن المراد من العذاب فى قوله (ويدرأ عنها العذاب) هو الحد ثبت أنها لو لم تلاعن لحدت وأنها باللعان دفعت الحد ،فان قيل المراد من العذاب هو الحبس. قلنا قد بينا أن الألف واللام للمعهود المذكور ، وأقرب المذكورات فى هذه السورة العذاب بمعنى الحد ، وأيضاً فلو حملناه على الحد لا تصير الآية مجملة . أما لو حملناه على الحبس تصير الآية مجملة لأن مقدار الحبس غير معلوم (وثالثها) قال الشافعي رحمه الله ومما يدل على بطلان الحبس فى حق المرأة أنها تقول إن كان الرجل صادقاً فحدونى وإن كان كاذباً فخلونى فما بالى والحبس وليس حبسى فى كتاب الله ولا سنة رسوله ولا الاجماع ولا القياس (ورابعها) أن الزوج قذفها ولم يأت بالمخرج من شهادة غيره أو شهادة نفسه . فوجب عليه الحد لقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم) وإذا ثبت ذلك فى حق الرجل ثبت فى حق المرأة لأنه لا قائل بالفرق (وخامسها) قوله عليه السلام لخولة « فالرجم أهون عليك من غضب الله » وهو نص فى الباب حجة أبى حنيفة رحمه الله ، أما فى حق المرأة فلأنها مافعلت سوى أنها تركت اللعان ، وهذا الترك ليس بينة على الزنا ولا إقراراً منها به ، فوجب أن لا يجوز رجمها ، لقوله عليه السلام « لا يحل دم امرىء » الحديث . وإذا لم يجب الرجم إذا كانت محصنة لم يجب الجلد فى غير المحصن لأنه لا قائل بالفرق ، وأيضاً فالنكول ليس بصريح فى الإقرار فلم يجز إثبات الحد به كاللفظ المحتمل للزنا ولغيره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الجمهور إذا قال لها يازانية وجب اللعان . وقال مالك رحمه الله لا يلاعن إلا أن يقول رأيتك تزنى أو ينفى حملا لها أو ولداً منها ، حجة الجمهور أن عموم قوله (والذين يرمون المحصنات) يتناول الكل ، ولأنه لا تفاوت فى قذف الأجنبية بين الكل ، فكذا فى حق قذف الزوجة .

﴿ الطرف الثانى ﴾ الملاعن قال الشافعي رحمه الله من صح يمينه صح لعانه ، فيجرى اللعان بين الرقيقين والذميين والمحدودين ، وكذا إذا كان أحدهما رقيقاً أو كان الزوج مسلماً والمرأة ذمية ، وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يصح فى صورتين (إحداهما) أن تكون الزوجة ممن لا يجب على

www.besturdubooks.wordpress.com

قاذفها الحد إذا كان أجنبياً نحو أن تكون الزوجة مملوكة أو ذمية (والثانى) أن يكون أحدهما من غير أهل الشهادة بأن يكون محدوداً فى قذف أو عبداً أو كافراً ، ثم زعم أن الفاسق والأعمى مع أنهما ليسا من أهل الشهادة يصح لعانهما ، وجه قول الشافعى رحمه الله أن ظاهر قوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) يتناول الكل ولا معنى للتخصيص والقياس أيضاً ظاهر من وجهين (الأول) أن المقصود دفع العارعن النفس ، ودفع ولد الزنا عن النفس ، وكما يحتاج غير المحدود إليه فكذا المحدود محتاج إليه (والثانى) أجمعنا على أنه يصح لعان الفاسق والأعمى ، وإن لم يكونا من أهل الشهادة فكذا القول فى غيرهما ، والجامع هو الحاجة إلى دفع عار الزنا ، ووجه قول أبو حنيفة رحمه الله النص والمعنى ، أما النص فما روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه عليه السلام قال « أربع من النساء ليس بينهن وبين أزواجهن ملاعنة اليهودية والنصرانية تحت المسلم والحرة تحت المملوك والمملوكة تحت الحر» أما المعنى فنقول أما فى الصورة الأولى فلأنه كان الواجب على قاذف الزوجة والأجنبية الحد بقوله (والذين يرمون المحصنات) ثم نسخ ذلك عن الأزواج وأقيم اللعان مقامه فلما كان اللعان مع الأزواج قائماً مقام الحد فى الأجنبيات لم يجب اللعان على من لا يجب عليه الحد لو قذفها أجنبى ، وأما فى الصورة الثانية فالوجه فيه أن اللعان شهادة فوجب أن لا يصح إلا من أهل الشهادة وإنما قلنا إن اللعان شهادة لوجهين (الأول) قوله تعالى (ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) فسمى الله تعالى لعانهما شهادة كما قال (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) وقال (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) (الثانى) أنه عليه السلام حين لاعن بين الزوجين أمرهما باللعان بلفظ الشهادة ، ولم يقتصر على لفظ اليمين ، إذا ثبت أن اللعان شهادة وجب أن لا تقبل من المحدود فى القذف لقوله تعالى (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) وإذا ثبت ذلك فى المحدود ثبت فى العبد والكافر ، إما للاجماع على أنهما ليسا من أهل الشهادة أو لأنه لا قائل بالفرق ، أجاب الشافعى رحمه الله بأن اللعان ليس شهادة فى الحقيقة بل هو يمين لأنه لا يجوز أن يشهد الإنسان لنفسه ، ولأنه لو كان شهادة لكانت المرأة تأتى بثمان شهادات ، لأنها على النصف من الرجل ، ولأنه يصح من الأعمى والفاسق ولا يجوز شهادتهما ، فإن قيل الفاسق والفاسقة قد يتوبان قلنا ، وكذلك العبد قد يعتق فتجوز شهادته ، ثم أكد الشافعى رحمه الله ذلك بأن العبد إذا عتق تقبل شهادته فى الحال والفاسق إذا تاب لا تقبل شهادته فى الحال ، ثم ألزم أبا حنيفة رحمه الله بأن شهادة أهل الذمة مقبولة بعضهم على بعض ، فينبغى أن يجوز اللعان بين الذمى والذمية ، وهذا كله كلام الشافعى رحمه الله . ثم قال بعد ذلك : وتختلف الحدود بمن وقعت له ، ومعناه أن الزوج إن لم يلاعن تنصف حد القذف عليه لرقه ، وإن لاعن ولم تلاعن اختلف حدها بإحصانها وعدم إحصانها وحريتها ورقها .

﴿ الطرف الثالث ﴾ الأحكام المرتبة على اللعان قال الشافعى رحمه الله يتعلق باللعان خمسة أحكام درء الحد ونفى الولد والفرقة والتحريم المؤبد ووجوب الحد عليها ، وكلها تثبت بمجرد لعانه

www.besturdubooks.wordpress.com

ولا يفتقر فيه إلى لعانها ولا إلى حكم الحاكم ، فان حكم الحاكم به كان تنفيذاً منه لا إيقاعا للفرقة . فلنتكلم فى هذه المسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف المجتهدون فى وقوع الفرقة باللعان على أربعة أقوال : (أحدها) قال عثمان البتى : لا أرى ملاعنة الزوج امرأته تقتضى شيئاً يوجب أن يطلقها (وثانيها) قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد لا تقع الفرقة بفراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما (وثالثها) قال مالك والليث وزفر رحمهم الله إذا فرغا من اللعان وقعت الفرقة وإن لم يفرق الحاكم (ورابعها) قال الشافعى رحمه الله إذا أكمل الزوج الشهادة والإلتعان فقد زال فراش امرأته ولا تحل له أبداً التعنت أو لم تلتعن ، حجة عثمان البتى وجوه (أحدها) أن اللعان ليس بصريح ولا كناية عن الفرقة فوجب أن لا يفيد الفرقة كسائر الأقوال التى لا إشعار لها بالفرقة لأن أكثر ما فيه أن يكون الزوج صادقاً فى قوله وهو لا يوجب تحريماً ألا ترى أنه لو قامت البينة عليها لم يوجب ذلك تحريماً فإذا كان كاذباً والمرأة صادقة يثبت أنه لا دلالة فيه على التحريم (وثانيها) لو تلاعنا فيما بينهما لم يوجب الفرقة فكذا لو تلاعنا عند الحاكم (وثالثها) أن اللعان قائم مقام الشهود فى قذف الأجنبيات فكما أنه لا فائدة فى إحضار الشهود هناك إلا إسقاط الحد ، فكذا اللعان لا تأثير له إلا إسقاط الحد (ورابعها) إذا أكذب الزوج نفسه فى قذفه إياها ثم حد لم يوجب ذلك فرقة فكذا إذا لاعن لأن اللعان قائم مقام درء الحد ، قال وأما تفريق النبى ﷺ بين المتلاعنين فكان ذلك فى قصة العجلانى وكان قد طلقها ثلاثاً بعد اللعان فلذلك فرق بينهما ، وأما قول أبى حنيفة وهو أن الحاكم يفرق بينهما فلا بد من بيان أمرين (أحدهما) أنه يجب على الحاكم أن يفرق بينهما ودليله ما روى سهل بن سعد فى قصة العجلانى مضت السنة فى المتلاعنين أن يفرق بينهما ثم لا يجتمعان أبداً (والثانى) أن الفرقة لا تحصل إلا بحكم الحاكم ، واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) روى فى قصة عويمر أنهما لما فرغا «قال عويمر: كذبت عليها يارسول الله إن أمسكتها ، هى طالق ثلاثاً » فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستدلال بهذا الخبر من وجوه (أحدها) أنه لو وقعت الفرقة باللعان لبطل قوله « كذبت عليها إن أمسكتها » لأن إمساكها غير ممكن (وثانيها) ما روى فى هذا الخبر أنه طلقها ثلاث تطليقات فأنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتنفيذ الطلاق إنما يمكن لو لم تقع الفرقة بنفس اللعان (وثالثها) ماقال سهل بن سعد فى هذا الخبر مضت السنة فى المتلاعنين أن يفرق بينهما ولا يجتمعان أبداً ، ولو كانت الفرقة واقعة باللعان استحال التفريق بعدها (وثانيها) قال أبو بكر الرازى قول الشافعى رحمه الله خلاف الآية ، لأنه لو وقعت الفرقة بلعان الزوج للاعنت المرأة وهى أجنبية وذلك خلاف الآية لأن الله تعالى إنما أوجب اللعان بين الزوجين (وثالثها) أن اللعان شهادة لا يثبت حكمه إلا عند الحاكم فوجب أن لا يوجب الفرقة إلا بحكم الحاكم كما لا يثبت المشهود به إلا بحكم الحاكم (ورابعها)

www.besturdubooks.wordpress.com

اللعان تستحق به المرأة نفسها كما يستحق المدعى بالبينة ، فلما لم يجز أن يستحق المدعى مدعاه إلا بحكم الحاكم وجب مثله فى استحقاق المرأة نفسها (وخامسها) أن اللعان لا إشعار فيه بالتحريم لأن أكثر ما فيه أنها زنت ولو قامت البينة على زناها أو هى أقرت بذلك فذاك لا يوجب التحريم فكذا اللعان وإذا لم يوجد فيها دلالة على التحريم وجب أن لا تقع الفرقة به ، فلا بد من إحداث التفريق إما من قبل الزوج أو من قبل الحاكم ، أما قول مالك وزفر فحجته أنهما لو تراضيا على البقاء على النكاح لم يخليا بل يفرق بينهما ، فدل على أن اللعان قد أوجب الفرقة. أما قول الشافعى رحمه الله فله دليلان (الأول) قوله تعالى (ويدرؤ عنها العذاب أن تشهد . الآية) فدل هذا على أنه لا تأثير للعان المرأة إلا فى دفع العذاب عن نفسها ، وأن كل ما يجب باللعان من الأحكام فقد وقع بلعان الزوج (الثانى) أن لعان الزوج وحده مستقل بنفى الولد فوجب أن يكون الاعتبار بقوله فى الإلحاق لا بقولها ، ألا ترى أنها فى لعانها تلحق الولد به ونحن ننفيه عنه فيعتبر نفى الزوج لا إلحاق المرأة ، ولهذا إذا أكذب الزوج نفسه ألحق به الولد وما دام يبقى مصراً على اللعان فالولد منفى عنه إذا ثبت أن لعانه مستقل بنفى الولد وجب أن يكون مستقلا بوقوع الفرقة ، لأن الفرقة لو لم تقع لم ينتف الولد لقوله عليه السلام « الولد للفراش » فما دام يبقى الفراش التحق به ، فلما انتفى الولد عنه بمجرد لعانه وجب أنه يزول الفراش عنه بمجرد لعانه ، وأما الأخبار التى استدل بها أبو حنيفة رحمه الله فالمراد بها أن النبى عليه السلام أخبر عن وقوع الفرقة وحكم بها وذلك لا ينافى أن يكون المؤثر فى الفرقة شيئاً آخر ، وأما الأقيسة التى ذكرها فمدارها على أن اللعان شهادة وليس الأمر كذلك بل هو يمين على ما بينا ، وأما قوله : اللعان لا إشعار فيه بوقوع الحرمة . قلنا بينته على نفى الولد مقبولة ونفى الولد يتضمن نفى حلية النكاح والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال مالك والشافعى وأبو يوسف والثورى وإسحق والحسن المتلاعنان لا يجتمعان أبداً ، وهو قول على وعمر وابن مسعود ، وقال أبو حنيفة ومحمد إذا أكذب نفسه وحد زال تحريم العقد وحلت له بنكاح جديد . حجة الشافعى رحمه الله أمور (أحدها) قوله عليه السلام للملاعن بعد اللعان « لا سبيل لك عليها » ولم يقل حتى تكذب نفسك ولو كان الإكذاب غاية لهذه الحرمة لردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الغاية ، كما قال فى المطلقة بالثلاث (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) . (وثانيها) ماروى عن على وعمر وابن مسعود أنهم قالوا لا يجتمع المتلاعنان أبداً ، وهذا قد روى أيضاً مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثالثها) ماروى الزهرى عن سهل بن سعد فى قصة العجلانى « مضت السنة أنهما إذا تلاعنا فرق بينهما ثم لا يجتمعان أبداً » حجة أبى حنيفة رحمه الله قوله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلكم) وقوله (فانكحوا ما طاب لكم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفق أهل العلم على أن الولد قد ينفى عن الزوج باللعان ، وحكى عن

www.besturdubooks.wordpress.com

بعض من شذ أنه للزوج ولا ينتفى نسبه باللعان ، واحتج بقوله عليه السلام « الولد للفراش » وهذا ضعيف لأن الأخبار الدالة على أن النسب ينتفى باللعان كالمتواترة فلا يعارضها هذا الواحد.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الشافعى رحمه الله : لو أتى أحدهما ببعض كلمات اللعان لايتعلق به الحكم ، وقال أبو حنيفة رحمه الله أكثر كلمات اللعان تعمل عمل الكل إذا حكم به الحاكم ، والظاهر مع الشافعى لأنه يدل على أنها لا تدرأ العذاب عن نفسها إلا بتمام ما ذكره الله تعالى ، ومن قال بخلاف ذلك فانما يقوله بدليل منفصل .

﴿ الطرف الرابع ﴾ فى كيفية اللعان والآية دالة عليها صريحاً ، فالرجل يشهد أربع شهادات بالله بأن يقول : أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا ، ثم يقول من بعد ، وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين . ويتعلق بلعان الزوج تلك الأحكام الخمسة على قول الشافعى رحمه الله ، ثم المرأة إذا أرادت إسقاط حد الزنا عن نفسها عليها أن تلاعن ولا يتعلق بلعانها إلا هذا الحكم الواحد ، ثم ههنا فروع (الفرع الأول) أجمعوا على أن اللعان كالشهادة فلا يثبت إلا عند الحاكم (الثانى) قال الشافعى رحمه الله يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة ، وتقام المرأة حتى تشهد والرجل قاعد ، ويأمر الإمام من يضع يده على فيه عند الانتهاء إلى اللعنة والغضب ويقول له إنى أخاف إن لم تك صادقا أن تبوء بلعنة الله (الثالث) اللعان بمكة بين المقام والركن وبالمدينة عند المنبر وبيت المقدس فى مسجده وفى غيرها فى المواضع المعظمة ولعان المشرك كغيره فى الكيفية ، وأما الزمان فيوم الجمعة بعد العصر ، ولا بد من حضور جماعة من الأعيان أقلهم أربعة .

﴿ الطرف الخامس ﴾ فى سائر الفوائد وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان قول الخوارج فى أن الزنا والقذف كفر من وجهين (الأول) أن الرامى إن صدق فهى زانية ، وإن كذب فهو قاذف فلا بد على قولهم من وقوع الكفر من أحدهما ، وذلك يكون ردة فيجب على هذا أن تقع الفرقة ولا لعان أصلا ، وأن تكون فرقة الردة حتى لايتعلق بدلك توارث البتة (الثانى) أن الكفر إذا ثبت عليها بلعانه ، فالواجب أن تقتل لا أن تجلد أو ترجم ، لأن عقوبة المرتد مباينة للحد فى الزنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الآية دالة على بطلان قول من يقول إن وقوع الزنا يفسد النكاح ، وذلك لأنه يجب إذا رماها بالزنا أن يكون قوله هذا كأنه معترف بفساد النكاح حتى يكون سبيله سبيل من يقر بأنها أخته من الرضاع أو بأنها كافرة ، ولو كان كذلك لوجب أن تقع الفرقة بنفس الرمى من قبل اللعان وقد ثبت بالإجماع فساد ذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أن القاذف مستحق للعن الله تعالى إذا كان كاذباً وأنه قد فسق ، وكذلك الزانى والزانية يستحقان غضب الله تعالى وعقابه وإلا لم يحسن منهما أن يلعنا أنفسهما ، كما لا يجوز أن يدعو أحد ربه أن يلعن الأطفال والمجانين ، وإذا صح ذلك فقد

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

استحق العقاب ، والعقاب يكون دائماً كالثواب ولا يجتمعان فثوابهما أيضاً محبط ، فلا يجوز إذا لم يتوبا أن يدخلا الجنة ، لأن الأمة مجمعة على أن من دخل الجنة من المكلفين فهو مثاب على طاعاته وذلك يدل على خلود الفساق فى النار ، قال أصحابنا لا نسلم أن كونه مغضوباً عليه بفسقه ينافى كونه مرضياً عنه لجهة إيمانه ، ثم لو سلمناه فلم نسلم أن الجنة لا يدخلها إلا مستحق الثواب والإجماع ممنوع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله تغليظاً عليها لأنها هى أصل الفجور ومنبعه بخيلائها وإطماعها ولذلك كانت مقدمة فى آية الجلد .

واعلم أنه سبحانه لما بين حكم الرامى للمحصنات والأزواج على ما ذكرنا وكان فى ذلك من الرحمة والنعمة مالا خفاء فيه ، لأنه تعالى جعل باللعان للمرء سبيلا إلى مراده ، ولها سبيلا إلى دفع العذاب عن نفسها ، ولهما السبيل إلى التوبة والإنابة ، فلأجل هذا بين تعالى بقوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) عظم نعمه فيما بينه من هذه الأحكام وفيما أمهل وأبقى ومكن من التوبة ولا شبهة فى أن فى الكلام حذفاً إذ لابد من جواب إلا أن تركه يدل على أنه أمر عظيم لا يكتنه ، ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به .

﴿ الحكم الخامس ــ قصة الإفك ﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾

الكلام فى هذه الآية من وجهين (أحدهما) تفسيره (والثانى) سبب نزوله :

أما التفسير فاعلم أن الله تعالى ذكر فى هذه الآية ثلاثة أشياء (أولها) أنه حكى الواقعة وهو قوله (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) والإفك أبلغ مايكون من الكذب والإفتراء ، وقيل هو البهتان وهو الأمر الذى لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الإفك وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه ، وأجمع المسلمون على أن المراد ماأفك به على عائشة ، وإنما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه إفكاً لأن المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه (أحدها) أن كونها زوجة للرسول ﷺ المعصوم يمنع من ذلك ، لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم

www.besturdubooks.wordpress.com

ويستعطفوهم ، فوجب أن لا يكون معهم ماينفرهم عنهم وكون الإنسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنفرات ، فإن قيل كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة وأيضاً فلو لم يجز ذلك لكان الرسول أعرف الناس بامتناعه ولو عرف ذلك لما ضاق قلبه ، ولما سأل عائشة عن كيفية الواقعة قلنا (الجواب) عن الأول أن الكفر ليس من المنفرات ، أما كونها فاجرة فمن المنفرات (والجواب) عن الثانى أنه عليه السلام كثيراً ماكان يضيق قلبه من أقوال الكفار مع علمه بفساد تلك الأقوال ، قال تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) فكان هذا من هذا الباب (وثانيها) أن المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور ، ومن كان كذلك كان اللائق إحسان الظن به (وثالثها) أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم ، وقد عرف أن كلام العدو المفترى ضرب من الهذيان ، فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحى . أما العصبة فقيل إنها الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة واعصوصبوا اجتمعوا ، وهم عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق ، وزيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم .

أما قوله (منكم) فالمعنى أن الذين أتوا بالكذب فى أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون ، لأن عبد الله كان من جملة من حكم له بالإيمان ظاهراً (ورابعها) أنه سبحانه شرح حال المقذوفة ومن يتعلق بها بقوله (لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) والصحيح أن هذا الخطاب ليس مع القاذفين ، بل مع من قذفوه وآذوه ، فإن قيل هذا مشكل لوجهين (أحدهما) أنه لم يتقدم ذكرهم (والثانى) أن المقذوفين هما عائشة وصفوان فكيف تحمل عليهما صيغة الجمع فى قوله (لا تحسبوه شراً لكم) ، (والجواب عن الأول) أنه تقدم ذكرهم فى قوله (منكم) (وعن الثانى) أن المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومن يتصل به ، فإن قيل فمن أى جهة يصير خيراً لهم مع أنه مضرة فى العاجل ؟ قلنا لوجوه (أحدها) أنهم صبروا على ذلك الغم طلباً لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم (وثانيها) أنه لولا إظهارهم للافك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة فى صدور البعض ، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر (وثالثها) أنه صار خيراً لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك وأوجب عليهم اللعن والذم وهذا غاية الشرف والفضل (ورابعها) صيرورتها بحال تعلق الكفر والإيمان بقدحها ومدحها فإن الله

www.besturdubooks.wordpress.com

تعالى لما نص على كون تلك الواقعة إفكا وبالغ فى شرحه فكل من يشك فيه كان كافراً قطعاً وهذه درجة عالية . ومن الناس من قال قوله تعالى (لاتحسبوه شراً لكم) خطاب مع القاذفين وجعله الله تعالى خيراً لهم من وجوه (أحدها) أنه صار ما نزل من القرآن مانعاً لهم من الاستمرار عليه فصار مقطعة لهم عن إدامة هذا الإفك (وثانيها) صار خيراً لهم من حيث كان هذا الذكر عقوبة معجلة كالكفارة (وثالثها) صار خيراً لهم من حيث تاب بعضهم عنده . واعلم أن هذا القول ضعيف لأنه تعالى خاطبهم بالكاف ، ولما وصف أهل الإفك جعل الخطاب بالهاء بقوله تعالى (لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم) ومعلوم أن نفس ما اكتسبوه لايكون عقوبة ، فالمراد لهم جزاء ما اكتسبوه من العقاب فى الآخرة والمذمة فى الدنيا ، والمعنى أن قدر العقاب يكون مثل قدر الخوض .

أما قوله (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء كبره بالضم والكسر وهو عظمه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الضحاك : الذى تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عذرها . وجلد معهما امرأة من قريش ، وروى أن عائشة رضى الله عنها ذكرت حساناً وقالت « أرجو له الجنة . فقيل أليس هو الذى تولى كبره ؟ فقالت إذا سمعت شعره فى مدح الرسول رجوت له الجنة » وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله يؤيد حساناً بروح القدس فى شعره » وفى رواية أخرى « وأى عذاب أشد من العمى » ولعل الله جعل ذلك العذاب العظيم ذهاب بصره ، والأقرب فى الرواية أن المراد به عبد الله بن أبى بن سلول فانه كان منافقاً يطلب ما يكون قدحا فى الرسول عليه السلام ، وغيره كان تابعاً له فيما كان يأتى ، وكان فيهم من لايتهم بالنفاق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من إضافة الكبر إليه أنه كان مبتدئاً بذلك القول ، فلا جرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » وقيل سبب تلك الاضافة شدة الرغبة فى إشاعة تلك الفاحشة وهو قول أبى مسلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الجبائى قوله تعالى (لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم) أى عقاب ما اكتسب ، ولو كانوا لايستحقون على ذلك عقاباً لما جاز أن يقول تعالى ذلك ، وفيه دلالة على أن من لم يتب منهم صار إلى العذاب الدائم فى الآخرة ، لأن مع استحقاق العذاب لايجوز استحقاق الثواب (والجواب) أن الكلام فى المحابطة قدمر غير مرة فلا وجه للاعادة والله أعلم .

أما سبب النزول فقد روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبى وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة بن مسعود كلهم رووا عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها معه ، قالت فأقرع بيننا فى

www.besturdubooks.wordpress.com

غزوة غزاها قبل غزوة بنى المصطلق فخرج فيها اسمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرب من المدينة نزل منزلا ثم أذن بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى وأقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فاذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع فرجعت والتمست عقدى وحبسنى طلبه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى ، فإنى كنت جارية حديثة السن ، فظنوا أنى فى الهودج وذهبوا بالبعير ، فلما رجعت لم أجد فى المكان أحداً فجلست وقلت لعلهم يعودون فى طلبى فنمت ، وقد كان صفوان ابن المعطل يمكث فى العسكر يتتبع أمتعة الناس فيحمله إلى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شىء فلما رآنى عرفنى ، وقال ماخلفك عن الناس ؟ فأخبرته الخبر فنزل وتنحى حتى ركبت ، ثم قاد البعير وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج الناس فى ذكرى ، فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فتكلم الناس وخاضوا فى حديثى ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولحقنى وجع ، ولم أر منه عليه السلام ماعهدته من اللطف الذى كنت أعرف منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول كيف تيكم فذاك الذى يريبنى ، ولا أشعر بعد بما جرى حتى نقهت فخرجت فى بعض الليالى مع أم مسطح لمهم لنا ، ثم أقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح . فأنكرت ذلك وقلت أتسبين رجلا شهد بدراً ! فقالت وما بلغك الخبر ! فقلت وماهو فقال[ت] أشهد أنك من المؤمنات الغافلات ، ثم أخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى فرجعت أبكى ، ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كيف تيكم ، فقلت ائذن لى أن آتى أبوى فأذن لى فجئت أبوى وقلت لأمى يا أمه ماذا يتحدث الناس ؟ قالت يابنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، ثم قالت ألم تكونى علمت ما قيل حتى الآن ؟ فأقبلت أبكى فبكيت تلك الليلة ثم أصبحت أبكى فدخل على أبى وأنا أبكى فقال لأمى ما يبكيها ؟ قالت لم تكن علمت ما قيل فيها حتى الآن فأقبل يبكى ثم قال اسكتى يابنية ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب عليه السلام وأسامة بن زيد واستشارهما فى فراق أهله فقال أسامة يارسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً ، وأما على فقال لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك فدعا رسول الله ﷺ بريرة وسألها عن أمرى قالت بريرة يارسول الله والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها حتى تأتى الداجن فتأكله ، قالت فقام النبى ﷺ خطيباً على المنبر ، فقال يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى يعنى عبد الله بن أبى فوالله ماعلمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلى إلا معى ، فقام سعد بن معاذ فقال أعذرك يارسول الله منه إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا فعلناه ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج

www.besturdubooks.wordpress.com

وكان رجلا صالحاً ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت والله لا تقدر على قتله ، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال كذبت لعمر الله لنقتلنه وإنك لمنافق تجادل عن المنافقين ، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ، قالت ومكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى ، فبينا هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس ، قالت ولم يجلس عندى منذ قيل فى ماقيل ولقد لبث شهراً لا يوحى الله إليه فى شأنى شيئاً ، ثم قال : أما بعد يا عائشة فانه بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فان العبد إذا تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، فاض دمعى ثم قلت لأبى أجب عنى رسول الله ، فقال والله ماأدرى ماأقول ، فقلت لأمى أجيبى عنى رسول الله فقالت والله لا أدرى ما أقول ، فقلت وأنا جارية حديثة السن ما أقرأ من القرآن كثيراً إنى والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به فان قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى وإن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى بريئة لتصدقونى والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) قالت ثم تحولت واضطجعت على فراشى ، وأنا والله أعلم أن الله تعالى يبرئنى ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحياً يتلى فشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها : قالت فوالله ماقام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحى حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل الوحى ، فسجى بثوب ووضعت وسادة تحت رأسه فوالله مافزعت ولا باليت لعلمى ببراءتى ، وأما أبواى فوالله ماسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت أن نفسى أبوى ستخرجان فرقا من أن يأتى الله بتحقيق ما قال الناس ، فلما سرى عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : ابشرى يا عائشة أما والله لقد برأك الله . فقلت بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك ، فقالت أمى قومى إليه ، فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد أحداً إلا الله أنزل براءتى ، فأنزل الله تعالى (إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم) العشر آيات ، فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد هذا وكان ينفق عليه لقرابته منه وفقره ، فأنزل الله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم) إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فقال أبو بكر بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع النفقة على مسطح قالت فلما نزل عذرى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل ضرب عبد الله بن أبى ومسطحاً وحمنة وحسان الحد » .

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر القصة وذكر حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بها من الآداب والزواجر ، وهى أنواع :

www.besturdubooks.wordpress.com

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

﴿ النوع الأول ﴾ قوله تعالى ﴿ لولا إذ سمعتوه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ﴾

وهذا من جملة الآداب التى كان يلزمهم الإتيان بها ،(ولولا) معناه هلاوذلك كثير فى اللغة إذا كان يليه الفعل كقوله (لولا أخرتنى) وقوله (فلولا كانت قرية آمنت) فأما إذا وليه الاسم فليس كذلك كقوله (لولا أنتم لكنا مؤمنين) وقوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) والمراد كان الواجب على المؤمنين إذ سمعوا قول القاذف أن يكذبوه ويشتغلوا بإحسان الظن ولا يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ هلا قيل لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم فلم عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن المضمر إلى الظاهر ؟ (الجواب) ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات ، وفى التصريح بلفظ الايمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضى أن لا يظن بالمسلمين إلا خيراً ، لأن دينه يحكم بكون المعصية منشأ للضرر ، وعقله يهديه إلى وجوب الاحتراز عن الضرر ، وهذا يوجب حصول الظن باحترازه عن المعصية ، فاذا وجد هذا المقتضى للاحتراز ولم يوجد فى مقابلته راجح يساويه فى القوة وجب إحسان الظن ، وحرم الاقدام على الطعن

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد من قوله بأنفسهم ؟ (الجواب) فيه وجهان (الأول) المراد أن يظن بعضهم ببعض خيراً ونظيره قوله (ولا تلمزوا أنفسكم) وقوله (فأقتلوا أنفسكم) وقوله (إذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) ومعناه أى بأمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم ، روى أن أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال لأم أيوب أما ترين مايقال ؟ فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءاً ؟ قال لا ، قالت ولو كنت بدل عائشة ماخنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعائشة خير منى وصفوان خير منك . وقال ابن زيد ذلك معاتبة للمؤمنين إذ المؤمن لا يفجر بأمه ولا الأم بابنها وعائشة رضى الله عنها هى أم المؤمنين (والثانى) أنه جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجرى عليها من الأمور فاذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم . عن النعمان بن بشير قال عليه السلام « مثل المسلمين فى تواصلهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا وجع بعضه بالسهر والحمى وجع كله » وعن أبى بردة قال عليه السلام « المؤمنون للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

﴿ السؤال الثالث ﴾ مامعنى قوله (هذا إفك مبين) وهل يحل لمن يسمع ما لا يعرفه

www.besturdubooks.wordpress.com

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

أن يقول ذلك؟(الجواب) من وجهين (الأول) كذلك يجب أن يقول ، لكنه يخبر بذلك عن قول القاذف الذى لا يستند إلى أمارة ولاعن حقيقة الشيء الذى لا يعلمه (الثانى) أن ذلك واجب فى أمر عائشة لأن كونها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم عن جميع المنفرات كالدليل القاطع فى كون ذلك كذباً ، قال أبو بكر الرازى هذا يدل على أن الواجب فيمن كان ظاهره العدالة أن يظن به خيراً ، ويوجب أن يكون عقود المسلمين وتصرفاتهم محمولة على الصحة والجواز ، ولذلك قال أصحابنا فيمن وجد رجلا مع امرأة أجنبية فاعترفا بالتزويج إنه لا يجوز تكذيبهما بل يجب تصديقهما وزعم مالك أنه يحدهما أن لم يقيما بينة على النكاح ، ومن ذلك أيضاً ما قال أصحابنا رضى الله عنهم فيمن باع درهما وديناراً بدرهمين ودينارين إنه يخالف بينهما لأنا قد أمرنا بحسن الظن بالمؤمنين فوجب حمله على ما يجوز وهو المخالفة بينهما ، وكذلك إذا باع سيفاً محلى فيه مائة درهم بمائتى درهم إنا نجعل المائة بالمائة والفضل بالسيف ، وهو يدل أيضاً على قول أبى حنيفة رحمه الله فى أن المسلمين عدول ما لم يظهر منهم ريبة لأنا مأمورون بحسن الظن ، وذلك يوجب قبول الشهادة ما لم يظهرمنه ريبة توجب التوقف عنها أوردها ، قال تعالى (إن الظن لايغنى من الحق شيئاً) .

﴿ النوع الثانى ﴾ قوله تعالى ﴿ لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ .

وهذا من باب الزواجر ، والمعنى هلا أتوا على ما ذكروه بأربعة شهداء يشهدون على معاينتهم فيما رموها به (فاذ لم يأتوابالشهداء) أى فحين لم يقيموا بينةعلى ماقالوا ، فأولئك عند الله أى فى حكمه هم الكاذبون ، فان قيل : أليس إذا لم يأتوا بالشهداء فانه يجوز كونهم صادقين كما يجوز كونهم كاذبين فلم جزم بكونهم كاذبين ؟ والجواب من وجهين : (الأول) أن المراد بذلك الذين رموا عائشة خاصة وهم كانوا عند الله كاذبين (الثانى) المراد فأولئك عند الله فى حكم الكاذبين فإن الكاذب يجب زجره عن الكذب ، والقاذف إنلم يأت بالشهود فإنه يجب زجره فلما كان شأنه شأن الكاذب فى الزجر لاجرم أطلق عليه لفظ الكاذب مجازاً .

﴿ النوع الثالث ﴾ قوله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

وهذا من باب الزواجر أيضاً ، ولولا ههنا لامتناع الشيء لوجود غيره ، ويقال أفاض فى الحديث واندفع وخاض ، وفى المعنى وجهان : (الأول) ولولا أنى قضيت أن أتفضل عليكم فى فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الإمهال للتوبة ، وأن أترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك (والثانى) ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة معاً ، فيكون فيه تقديم وتأخير ، والخطاب للقذفة وهو قول مقاتل ، وهذا الفضل هو حكم الله تعالى من تأخيره العذاب وحكمه بقبول التوبة لمن تاب .

﴿ النوع الرابع ﴾ قوله تعالى ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ .

وهذا أيضاً من الزواجر قال صاحب الكشاف إذ ظرف لمسكم أو لأفضتم ومعنى تلقونه يأخذه بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه ومنه قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) وقرىء على الأصل تتلقونه وإتلقونه بإدغام الذال فى التاء وتلقونه من لقيه بمعنى لقفه وتلقونه من إلقائه بعضهم على بعض وتلقونه ، وتألقونه من الولق والألق وهو الكذب ، وتلقونه محكية عن عائشة ، وعن سفيان : سمعت أمى تقرأ إذ تثقفونه ، وكان أبوها يقرأ بحرف عبدالله بن مسعود ، واعلم أن الله تعالى وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعاق مس العذاب العظيم بها (أحدها) تلقى الإفك بألسنتهم وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له ما وراءك ؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع واشتهر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه ، فكأنهم سعوا فى إشاعة الفاحشة وذلك من العظائم (وثانيها) أنهم كانوا يتكلمون بما لا علم لهم به ، وذلك يدل على أنه لا يجوز الإخبار إلا مع العلم فأما الذى لا يعلم صدقه فالإخبار عنه كالإخبار عما علم كذبه فى الحرمة ، ونظيره قوله (ولا تقف ما ليس لك به علم) فان قيل ما معنى قوله (بأفواهكم) والقول لا يكون إلا بالفم ؟ قلنا معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه باللسان وهذا الإفك ليس إلا قولا يجرى على ألسنتكم من غير أن يحصل فى القلب علم به ، كقوله (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) (وثالثها) أنهم كانوا يستصغرون ذلك وهو عظيم من العظائم ، ويدل على أمور ثلاثة (الأول) يدل على أن القذف من الكبائر لقوله (وهو عند الله عظيم) (الثانى) نبه بقوله (وتحسبونه هيناً) على أن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه ، بل ربما كان ذلك مؤكداً لعظمها من حيث جهل كونها عظيما ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

(الثالث) الواجب على المكلف فى كل محرم أن يستعظم الإقدام عليه ، إذ لا يأمن أنه من الكبائر ، وقيل لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار .

﴿ النوع الخامس ﴾ قوله تعالى ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

وهذا من باب الآداب ، أى هلا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . وإنما وجب عليهم الإمتناع منه لوجوه : (أحدها) أن المقتضى لكونهم تاركين لهذا الفعل قائم وهو العقل والدين ، ولم يوجد ما يعارضه فوجب أن يكون ظن كونهم تاركين للمعصية أقوى من ظن كونهم فاعلين لها ، فلو أنه أخبر عن صدور المعصية لكان قد رجح المرجوح على الراجح وهو غير جائز (وثانيها) وهو أنه يتضمن إيذاء الرسول وذلك سبب للعن لقوله تعالى (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة) (وثالثها) أنه سبب لإيذاء عائشة وإيذاء أبويها ومن يتصل بهم من غير سبب عرف إقدامهم عليه ، ولا جناية عرف صدورها عنهم ، وذلك حرام (ورابعها) أنه إقدام على ما يجوز أن يكون سبباً للضرر مع الاستغناء عنه ، والعقل يقتضى التباعد عنه لأن القاذف بتقدير كونه صادقاً لا يستحق الثواب على صدقه بل يستحق العقاب لأنه أشاع الفاحشة ، وبتقدير كونه كاذباً فانه يستحق العقاب العظيم ، ومثل ذلك مما يقتضى صريح العقل الاحتراز عنه (وخامسها) أنه تضييع للوقت بما لا فائدة فيه ، وقال عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (وسادسها) أن فى إظهار محاسن الناس وستر مقابحهم تخلقاً بأخلاق الله تعالى ، وقال عليه السلام « تخلقوا بأخلاق الله » فهذه الوجوه توجب على العاقل أنه إذا سمع القذف أن يسكت عنه وأن يجتهد فى الاحتراز عن الوقوع فيه ، فإن قيل كيف جاز الفصل بين لولا وبين قلتم بالظرف ؟ قلنا الفائدة فيه أنه كان الواجب عليهم أن يحترزوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به .

أما قوله (سبحانك هذا بهتان عظيم) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف يليق سبحانك بهذا الموضع ؟ (الجواب) من وجوه : (الأول) المراد منه التعجب من عظم الأمر ، وإنما استعمل فى معنى التعجب لأنه يسبح الله عند رؤية العجيب من صانعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه (الثانى) المراد تنزيه الله تعالى عن أن تكون زوجة نبيه فاجرة (الثالث) أنه منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين (الرابع) أنه منزه عن أن لا يعاقب هؤلاء القذفة الظلمة .

www.besturdubooks.wordpress.com

يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم أوجب عليهم أن يقولوا هذا بهتان عظيم مع أنهم ما كانوا عالمين بكونه كذباً قطعاً ؟ (والجواب) من وجهين (الأول) أنهم كانوا متمكنين من العلم بكونه بهتاناً ، لأن زوجة الرسول لا يجوز أن تكون فاجرة (الثانى) أنهم لما جزموا أنهم ما كانوا ظانين له بالقلب كان إخبارهم عن ذلك الجزم كذباً ، ونظيره قوله (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) .

﴿ النوع السادس ﴾ قوله تعالى ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾

وهذا من باب الزواجر ، والمعنى يعظكم الله بهذه المواعظ التى بها تعرفون عظم هذا الذنب وأن فيه الحد والنكال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، لكى لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبدا وأبدهم ماداموا أحياء مكلفين ، وقد دخل تحت ذلك من قال ومن سمع فلم ينكر ، لأن حالهما سواء فى أن فعلا ما لا يجوز وإن كان من أقدم عليه أعظم ذنباً ، فبين أن الغرض بما عرفهم من هذه الطريقة أن لا يعودوا إلى مثل ما تقدم منهم وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ استدلت المعتزلة بقوله (إن كنتم مؤمنين) على أن ترك القذف من الإيمان وعلى أن فعل القذف لا يبقى معه الإيمان ، لأن المعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط (والجواب) هذا معارض بقوله (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى منكم أيها المؤمنون فدل ذلك على أن القذف لا يوجب الخروج عن الإيمان وإذا ثبت التعارض حملنا هذه الآية على التهييج فى الإتعاظ والإنزجار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أنه تعالى أراد من جميع من وعظه مجانبه مثل ذلك فى المستقبل وإن كان فيهم من لا يطيع ، فمن هذا الوجه تدل على أنه تعالى يريد من كلهم الطاعة وإن عصوا ، لأن قوله (يعظكم الله أن تعودوا) معناه لكى لا تعودوا لمثله وذلك دلالة الارادة (والجواب) عنه قد تقدم مراراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هل يجوز أن يسمى الله تعالى واعظاً لقوله (يعظكم الله أن تعودوا) ؟ الأظهر أنه لا يجوز كما لا يجوز أن يسمى معلماً لقوله (الرحمن علم القرآن) .

أما قوله تعالى (ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) فالمراد من الآيات ما به يعرف المرء ما ينبغى أن يتمسك به ، ثم بين أنه لكونه عليما حكيما يؤثر بما يجب أن يبينه ويجب أن يطاع لأجل ذلك ، لأن من لا يكون عالماً لا يجب قبول تكليفه ، لأنه قد يأمر بما لا ينبغى ، ولأن

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

المكلف إذا أطاعه فقد لا يعلم أنه أطاعه ، وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة ، وأما من كان عالماً لكنه لا يكون حكيما فقد يأمره بما لا ينبغي فإذا أطاعه المكلف فقد يعذب المطيع وقد يثيب العاصي ، وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة ، وأما إذا كان عليما حكيما فإنه لا يأمر إلا بما ينبغي ولا يهمل جزاء المستحقين ، فلهذا ذكر هاتين الصفتين وخصهما بالذكر ، وههنا سؤالات :

﴿ الأول ﴾ الحكيم هو الذى لا يأتى بما لا ينبغي ، وإنما يكون كذلك لو كان عالماً بقبح القبيح وعالماً بكونه غنياً عنه فيكون العليم داخلا فى الحكيم ، فكان ذكر الحكيم مغنياً عنه . هذا على قول المعتزلة ، وأما على قول أهل السنة والجماعة فالحكمة هى العلم فقط ، فذكر العليم الحكيم يكون تكراراً محضاً (الجواب) يحمل ذلك على التأكيد .

﴿ السؤال الثانى ﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أنه إنما يجب قبول بيان الله تعالى لمجرد كونه عالماً حكيما ، والحكيم هو الذى لا يفعل القبائح فتدل الآية على أنه لو كان خالقاً للقبائح لما جاز الاعتماد على وعده ووعيده (والجواب) الحكيم عندنا هو العليم ، وإنما يجوز الاعتماد على قوله لكونه عالماً بكل المعلومات ، فان الجاهل لا اعتماد على قوله البتة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قالت المعتزلة قوله (يبين الله لكم) أى لأجلكم ، وهذا يدل على أن أفعاله معللة بالأغراض ، ولأن قوله (لكم) لا يجوز حمله على ظاهره لأنه ليس الغرض نفس ذواتهم بل الغرض حصول انتفاعهم وطاعتهم وإيمانهم ، فدل هذا على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل (والجواب) المراد أنه سبحانه فعل بهم مالو فعله غيره لكان ذلك غرضاً .

﴿ النوع السابع ﴾ قوله تعالى ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين ما على أهل الافك وما على من سمع منهم ، وما ينبغي أن يتمسكوا به من آداب الدين أتبعه بقوله (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة) ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك فى هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره ، وليعلم أن أهل الافك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه ، فكذلك يستحقون العقاب بما أسروه من محبة إشاعة الفاحشة فى المؤمنين ، وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضرهم ، وههنا مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ معنى الاشاعة الانتشار يقال فى هذا العقار سهم شائع إذا كان فى الجميع ولم يكن منفصلا ، وشاع الحديث إذا ظهر فى العامة .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ لاشك أن ظاهر قوله (إن الذين يحبون) يفيد العموم وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة ، ولا شك أن هذه الآية نزلت فى قذف عائشة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب إجراؤها على ظاهرها فى العموم ، ومما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذفة عائشة قوله تعالى فى (الذين آمنوا) فإنه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك ، والذين خصصوه بقذفة عائشة منهم من حمله على عبد الله بن أبى ، لأنه هو الذى سعى فى إشاعة الفاحشة قالوا معنى الآية (إن الذين يحبون) والمراد عبد الله أن تشيع الفاحشة أى الزنا فى الذين آمنوا أى فى عائشة وصفوان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « إنى لأعرف قوماً يضربون صدورهم ضربا يسمعه أهل النار ، وهم الهمازون اللمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ماليس فيهم » وعنه عليه الصلاة والسلام « لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة ومن أقال مسلماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة ومن ستر عورته ستر الله عورته يوم القيامة » وعنه عليه الصلاة والسلام « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » وعن عبدالله بن عمر عنه عليه الصلاة والسلام قال « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويحب أن يؤتى إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » وعن أنس قال : قال عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير » .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا فى عذاب الدنيا ، فقال بعضهم إقامة الحد عليهم ، وقال بعضهم هو الحد واللعن والعداوة من الله والمؤمنين ، ضرب رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى وحسان ومسطح ، وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف فكف بصره ، وقال الحسن عنى به المنافقين لأنهم قصدوا أن يغموا رسول الله ﷺ ومن أراد غم رسول الله ﷺ فهو كافر ، وعذابهم فى الدنيا هو ما كانوا يتعبون فيه وينفقون لمقاتلة أوليائهم مع أعدائهم ، وقال أبو مسلم : الذين يحبون هم المنافقون يحبون ذلك فأوعدهم الله تعالى العذاب فى الدنيا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمجاهدة لقوله (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) والأقرب أن المراد بهذا العذاب ما استحقوه بإفكهم وهو الحد واللعن والذم . فأما عذاب الآخرة فلا شك أنه فى القبر عذابه ، وفى القيامة عذاب النار .

أما قوله (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) فهو حسن الموقع بهذا الموضع لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات ، أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شئ ، فصار هذا الذكر نهاية فى الزجر لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ فى إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه وإن علمه سبحانه بذلك الذى أخفاه كعلمه بالذى أظهره ويعلم قدر الجزاء عليه .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ *
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الآية تدل على أن العزم على الذنب العظيم عظيم ، وأن إرادة الفسق فسق ، لأنه تعالى علق الوعيد بمحبة إشاعة الفاحشة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال الجبائى دلت الآية على أن كل قاذف لم يتب من قذفه فلا ثواب له من حيث استحق هذا العذاب الدائم ، وذلك يمنع من استحقاق ضده الذى هو الثواب ، فمن هذا الوجه تدل على مانقوله فى الوعيد، واعلم أن حاصله يرجع إلى مسألة المحابطة وقد تقدم الكلام عليه.

﴿ المسألة السابعة ﴾ قالت المعتزلة : إن الله تعالى بالغ فى ذم من أحب إشاعة الفاحشة ، فلو كان تعالى هو الخالق لأفعال العباد لما كان مشيع الفاحشة إلا هو ، فكان يجب أن لا يستحق الذم على إشاعة الفاحشة إلا هو ، لأنه هو الذى فعل تلك الإشاعة وغيره لم يفعل شيئاً منها ، والكلام عليه أيضاً قد تقدم .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قال أبو حنيفة رحمه الله : المصابة بالفجور لا تستنطق ، لأن استنطاقها إشاعة للفاحشة وذلك ممنوع منه .

﴿ النوع الثامن ﴾ قوله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أن جوابه محذوف وكأنه قال لهلكتم أو لعذبكم الله واستأصلكم لكنه رؤوف رحيم ، قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة ، ويجوز أن يكون الخطاب عاماً (والثانى) جوابه فى قوله (مازكى منكم من أحد أبداً) (والثالث) جوابه لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة وهو قول أبى مسلم ، والأقرب أن جوابه محذوف لأن قوله من بعد (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد) كالمنفصل من الأول فلا يجب أن يكون جواباً للأول، خصوصاً وقد وقع بين الكلامين كلام آخر ، والمراد أنه لولا إنعامه بأن بقى وأمهل ومكن من التلافى لهلكوا ، لكنه لرأفته لا يدع ما هو للعبد أصلح وإن جنى على نفسه .

﴿ النوع التاسع ﴾ قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

قرىء خطوات بضم الطاء وسكونها ، والخطوات جمع خطوة وهو من خطا الرجل يخطو خطواً ، فإذا أردت الواحدة قلت خطوة مفتوحة الأول ، والجمع يفتح أوله ويضم ، والمراد بذلك السيرة والطريقة ، والمعنى لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه فى الإصغاء إلى الإفك والتلقى له وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا ، والله تعالى وإن خص بذلك المؤمنين فهو نهى لكل المكلفين وهو قوله (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) ومعلوم أن كل المكلفين ممنوعون من ذلك ، وإنما قلنا إنه تعالى خص المؤمنين بذلك لأنه توعدهم على اتباع خطواته بقوله (ومن يتبع خطوات الشيطان) وظاهر ذلك أنهم لم يتبعوه ، ولو كان المراد به الكفار لكانوا قد اتبعوه ، فكأنه سبحانه لما بين ما على أهل الإفك من الوعيد أدب المؤمنين أيضاً ، بأن خصهم بالذكر ليتشددوا فى ترك المعصية ، لئلا يكون حالهم كحال أهل الإفك . والفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه ، والمنكر ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه .

أما قوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً) فقرأ يعقوب وابن محيصن ماذكى بالتشديد ، واعلم أن الزكى من بلغ فى طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال زكى الزرع ، فاذا بلغ المؤمن من الصلاح فى الدين إلى ما يرضاه الله تعالى سمى زكياً ، ولا يقال زكى إلا إذا وجد زكياً ، كما لا يقال لمن ترك الهدى هداه الله تعالى مطلقاً ، بل يقال هداه الله فلم يهتد ، واحتج أصحابنا فى مسألة المخلوق بقوله (ولكن الله يزكى من يشاء) فقالوا التزكية كالتسويد والتحمير فكما أن التسويد تحصيل السواد ، فكذا التزكية تحصيل الزكاء فى المحل ، قالت المعتزلة ههنا تأويلان (أحدهما) حمل التزكية على فعل الألطاف (والثانى) حملها على الحكم بكون العبد زكياً ، قال أصحابنا : الوجهان على خلاف الظاهر ، ثم نقيم الدلالة العقلية على بطلانهما أيضاً (أما الوجه الأول) فيدل على فساده وجوه (أحدها) أن فعل اللطف هل يرجح الداعى أو لا يرجحه فان لم يرجحه البتة لم يكن به تعلق فلا يكون لطفاً ، وإن رجحه فنقول المرجح لابد وأن يكون منتهياً إلى حد الوجوب ، فإنه مع ذلك القدر من الترجيح إما أن يمتنع وقوع الفعل عنده أو يمكن أو يجب ، فان امتنع كان مانعاً لا داعياً ، وإن أمكن أن يكون وأن لا يكون ، فكل مايمكن لا يلزم من فرض وقوعه محال ، فليفرض تارة واقعاً وأخرى غير واقع ، فامتياز وقت الوقوع عن وقت اللاوقوع ، إما أن يتوقف على انضمام قيد إليه أولا يتوقف ، فان توقف كان المرجح هو المجموع الحاصل بعد انضمام هذا القيد ، فلا يكون الحاصل أولا مرجحاً ، وإن لم يتوقف كان اختصاص أحد الوقتين بالوقوع والآخر باللاوقوع ترجيحاً للممكن من غير مرجح وهو محال ، وأما إن اللطف مرجحاً موجباً كان فاعل اللطف فاعلا للملطوف فيه ، فكان تعالى فاعلا لفعل العبد (الثانى) أنه تعالى قال (ولكن الله يزكى من يشاء) علق التزكية على المشيئة وفعل اللطف واجب ، والواجب لا يتعلق بالمشيئة (الثالث) أنه علق التزكية على الفضل والرحمة وخلق

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

الألطاف واجب فلا يكون معلقاً بالفضل والرحمة (وأما الوجه الثانى) وهو الحكم بكونه زكياً فذلك واجب لأنه لو يحكم به لكان كذباً والكذب على الله تعالى محال، فكيف يجوز تعليقه بالمشيئة؟ فثبت أن قوله (ولكن الله يزكى من يشاء) نص فى الباب.

أما قوله (والله سميع عليم) فالمراد أنه يسمع أقوالكم فى القذف وأقوالكم فى إثبات البراءة، عليم بما فى قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو من كراهيتها، وإذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته.

قوله تعالى: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله، وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾

اعلم أنه تعالى كما أدب أهل الافك ومن سمع كلامهم كما قدمنا ذكره، فكذلك أدب أبا بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح أبداً، قال المفسرون: نزلت الآية فى أبى بكر حيث حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبى بكر، وقد كان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه وعلى قرابته، فلما نزلت الآية قال لهم أبو بكر قوموا فلستم منى ولست منكم ولا يدخلن على أحد منكم، فقال مسطح أنشدك الله والاسلام وأنشدك القرابة والرحم أن لاتحوجنا إلى أحد، فما كان لنا فى أول الأمر من ذنب، فقال لمسطح إن لم تتكلم فقد ضحكت! فقال قد كان ذلك تعجباً من قول حسان فلم يقبل عذره، وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذراً ولا فرجا، فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الأرض، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بأن الله تعالى قد أنزل على كتاباً ينهاك فيه أن تخرجهم فكبر أبو بكر وسره، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية عليه فلما وصل إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) قال بلى يارب إنى أحب أن يغفر لى، وقد تجاوزت عما كان، فذهب أبو بكر إلى بيته وأرسل إلى مسطح وأصحابه، وقال قبلت ما أنزل الله على الرأس والعين، وإنما فعلت بكم مافعلت إذ سخط الله عليكم، أما إذ عفا عنكم فمرحباً بكم، وجعل له مثلى ما كان له قبل ذلك اليوم، وههنا مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ ذكروا فى قوله (ولا يأتل) وجهين (الأول) وهو المشهور أنه من ائتلى إذا حلف، افتعل من الألية، والمعنى لايحلف، قال أبو مسلم هذا ضعيف لوجهين (أحدهما)

www.besturdubooks.wordpress.com

أن ظاهر الآية على هذا التأويل يقتضى المنع من الحلف على الإعطاء وهم أرادوا المنع من الحلف على ترك الإعطاء ، فهذا المتأول قد أقام النفى مكان الإيجاب وجعل المنهى عنه مأموراً به ؛ (وثانيهما) أنه قلما يوجد فى الكلام افتعلت مكان أفعلت ، وإنما يوجد مكان فعلت ، وهنا آليت من الألية افتعلت . فلا يقال أفعلت كما لا يقال من ألزمت التزمت ومن أعطيت اعتطيت ، ثم قال فى يأتل إن أصله يأتلى ذهبت الياء للجزم لأنه نهى وهو من قولك ما آلوت فلاناً نصحاً ، ولم آل فى أمرى جهداً ، أى ما قصرت ولا يأل ولا يأتل واحداً ، فالمراد لاتقصروا فى أن تحسنوا إليهم ويوجد كثيراً افتعلت مكان فعلت تقول كسبت واكتسبت وصنعت واصطنعت ورضيت وارتضيت ، فهذا التأويل هو الصحيح دون الأول ، ويروى هذا التأويل أيضاً عن أبى عبيدة . أجاب الزجاج عن السؤال الأول بأن لاتحذف فى اليمين كثيراً قال الله تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا) يعنى أن لاتبروا ، وقال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى إليك وأوصالى

أى لا أبرح ، وأجابوا عن السؤال الثانى ، أن جميع المفسرين الذين كانوا قبل أبى مسلم فسروا اللفظة باليمين وقول كل واحد منهم حجة فى اللغة فكيف الكل ، ويعضده قراءة الحسن ولا يتأل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أجمع المفسرون على أن المراد من قوله (أولوا الفضل) أبو بكر ، وهذه الآية تدل على أنه رضى الله عنه كان أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الفضل المذكور فى هذه الآية إما فى الدنيا وإما فى الدين ، والأول باطل لأنه تعالى ذكره فى معرض المدح له ، والمدح من الله تعالى بالدنيا غير جائز ، ولأنه لو كان كذلك لكان قوله (والسعة) تكريراً فتعين أن يكون المراد منه الفضل فى الدين ، فلو كان غيره مساوياً له فى الدرجات فى الدين لم يكن هو صاحب الفضل لأن المساوى لا يكون فاضلا ، فلما أثبت الله تعالى له الفضل مطلقاً غير مقيد بشخص دون شخص وجب أن يكون أفضل الخلق ترك العمل به فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقى معمولا به فى حق الغير ، فان قيل نمنع إجماع المفسرين على اختصاص هذه الآية بأبى بكر ، قلنا كل من طالع كتب التفسير والأحاديث علم أن اختصاص هذه الآية بأبى بكر بالغ إلى حد التواتر ، فلو جاز منعه لجاز منع كل متواتر ، وأيضاً فهذه الآية دالة على أن المراد منها أفضل الناس ، وأجمعت الأمة على أن الأفضل إما أبو بكر أو على ، فإذا بينا أنه ليس المراد علياً تعينت الآية لأبى بكر ، وإنما قلنا إنه ليس المراد منه علياً لوجهين (الأول) أن ماقبل هذه الآية وما بعدها يتعلق بابنة أبى بكر فيكون حديث على فى البين سمجاً (الثانى) أنه تعالى وصفه بأنه من أولى السعة ، وإن علياً لم يكن من أولى السعة فى الدنيا فى ذلك الوقت ، فثبت أن المراد منه أبو بكر قطعاً . واعلم أن الله تعالى وصف أبا بكر فى هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه فى الدين (أحدها) أنه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع والواحد إذا كنى عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه

www.besturdubooks.wordpress.com

كقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) ، (إنا أعطيناك الكوثر) فانظر إلى الشخص الذى كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون علو شأنه ! (وثانيها) وصفه بأنه صاحب الفضل على الاطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص ، والفضل يدخل فيه الافضال ، وذلك يدل على أنه رضى الله عنه كما كان فاضلا على الاطلاق كان مفضلا على الاطلاق (وثالثها) أن الافضال إفادة ماينبغى لالعوض ، فمن يهب السكين لمن يقتل نفسه لا يسمى مفضلا لأنه أعطى مالا ينبغى ، ومن أعطى ليستفيد منه عوضاً إما مالياً أو مدحا أو ثناء فهو مستفيض والله تعالى قد وصفه بذلك فقال (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) وقال فى حق على (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً) فعلى أعطى للخوف من العقاب ، وأبو بكر ما أعطى إلا لوجه ربه الأعلى ، فدرجة أبى بكر أعلى فكانت عطيته فى الافضال أتم وأكمل (ورابعها) أنه قال (أولوا الفضل منكم) فكلمة من للتمييز ، فكأنه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصفة كونه أولى الفضل ، والصفة التى بها يقع الامتياز يستحيل حصولها فى الغير ، وإلا لما كانت مميزة له بعينه . فدل ذلك على أن هذه الصفة خاصة فيه لا فى غيره البتة (وخامسها) أمكن حمل الفضل على طاعة الله تعالى وخدمته وقوله (والسعة) على الاحسان إلى المسلمين . فكأنه كان مستجمعاً للتعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله وهما من أعلى مراتب الصديقين ، وكل من كان كذلك كان الله معه لقوله (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ولأجل اتصافه بهاتين الصفتين قال له (لاتحزن إن الله معنا) (وسادسها) إنما يكون الانسان موصوفاً بالسعة لو كان جواداً بذولا ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام « خير الناس من ينفع الناس » فدل على أنه خير الناس من هذه الجهة ، ولقد كان رضى الله عنه جواداً بذولا فى كل شيء ، ومن جوده أنه لما أسلم بكرة اليوم جاء بعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعثمان بن مظعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلموا على يده ، وكان جوده فى التعليم والارشاد إلى الدين والبذل بالدنيا كما هو مشهور ، فيحق له أن يوصف بأنه من أهل السعة ، وأيضاً فهب أن الناس اختلفوا فى أنه هل كان إسلامه قبل إسلام على أو بعده ، ولكن اتفقوا على أن علياً حين أسلم لم يشتغل بدعوة الناس إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم وأن أبا بكر اشتغل بالدعوة فكان أبو بكر أول الناس اشتغالا بالدعوة إلى دين محمد ، ولا شك أن أجل المراتب فى الدين هذه المرتبة فوجب أن يكون أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر من هذه الجهة ولأنه عليه السلام قال « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » فوجب أن يكون لأبى بكر مثل أجر كل من يدعو الى الله ، فيدل على الأفضلية من هذه الجهه أيضاً (وسابعها) أن الظلم من ذوى القربى أشد ، قال الشاعر :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

www.besturdubooks.wordpress.com

وأيضاً فالإنسان إذا أحسن إلى غيره فإذا قابله ذلك الغير بالإساءة كان ذلك أشد عليه مما إذا صدرت الإساءة من الأجنبي، والجهتان كانتا مجتمعتين فى حق مسطح ثم إنه آذى أبا بكر بهذا النوع من الإيذاء الذى هو أعظم أنواع الايذاء، فانظر أين مبلغ ذلك الضرر فى قلب أبى بكر، ثم إنه سبحانه أمره بأن لا يقطع عنه بره وأن يرجع معه إلى ما كان عليه من الاحسان، وذلك من أعظم أنواع المجاهدات، ولا شك أن هذا أصعب من مقاتلة الكفار لأن هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكافر ومجاهدة النفس أشق، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» (وثامنها) أن الله تعالى لما أمر أبا بكر بذلك لقبه بأولى الفضل وأولى السعة كأنه سبحانه يقول أنت أفضل من أن تقابل إساءته بشىء وأنت أوسع قلباً من أن تقيم للدنيا وزناً، فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ما صدر منه من الاساءة، ومعلوم أن مثل هذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو فى الدين (وتاسعها) أن الألف واللام يفيدان العموم فالألف واللام فى الفضل والسعة يدلان على أن كل الفضل وكل السعة لأبى بكر كما يقال فلان هو العالم يعنى قد بلغ فى الفضل إلى أن صار كأنه كل العالم وما عداه كالعدم، وهذا وأيضاً منقبة عظيمة (وعاشرها) قوله (وليعفوا وليصفحوا) وفيه وجوه (منها) أن العفو قرينة التقوى وكل من كان أقوى فى العفو كان أقوى فى التقوى، ومن كان كذلك كان أفضل لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (ومنها) أن العفو والتقوى متلازمان فلهذا السبب اجتمعا فيه، أما التقوى فلقوله تعالى (وسيجنبها الأتقى) وأما العفو فلقوله تعالى (وليعفوا وليصفحوا) (وحادى عاشرها) أنه سبحانه قال لمحمد ﷺ (فاعف عنهم واصفح) وقال فى حق أبى بكر (وليعفوا وليصفحوا) فمن هذا الوجه يدل على أن أبا بكر كان ثانى اثنين لرسول الله ﷺ فى جميع الأخلاق حتى فى العفو والصفح (وثانى عشرها) قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فانه سبحانه ذكره بكناية الجمع على سبيل التعظيم، وأيضاً فإنه سبحانه علق غفرانه له على إقدامه على العفو والصفح فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه، ثم قوله (يغفر الله لكم) بصيغة المستقبل وأنه غير مقيد بشىء دون شىء فدلت الآية على أنه سبحانه قد غفر له فى مستقبل عمره على الاطلاق فكان من هذا الوجه ثانى اثنين للرسول ﷺ فى قوله (ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ودليلا على صحة إمامته رضى الله عنه فاذ إمامته لوكانت على خلاف الحق لما كان مغفوراً له على الاطلاق ودليلا على صحة ما ذكره الرسول ﷺ فى خبر بشارة العشرة بأن أبا بكر فى الجنة (وثالث عشرها) أنه سبحانه وتعالى لما قال (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) وصف نفسه بكونه غفوراً رحيما، والغفور مبالغة فى الغفران فعظم أبا بكر حيث خاطبه بلفظ الجمع الدال على التعظيم، وعظم نفسه سبحانه حيث وصفه بمبالغة الغفران، والعظيم إذا عظم نفسه ثم عظم مخاطبه فالعظمة الصادرة منه لأجله لابد وأن تكون فى غاية التعظيم، ولهذا قلنا بأنه سبحانه لما قال (إنا أعطيناك الكوثر) وجب أن تكون

www.besturdubooks.wordpress.com

العطية عظيمة ، فدلت الآية على أن أبا بكر ثاني اثنين للرسول ﷺ في هذه المنقبة أيضاً (ورابع عشرها) أنه سبحانه لما وصفه بأنه أولوا الفضل والسعة على سبيل المدح وجب أن يقال إنه كان خالياً عن المعصية ، لأن الممدوح إلى هذا الحد لا يجوز أن يكون من أهل النار ، ولو كان عاصياً لكان كذلك لقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) وإذا ثبت أنه كان خاليا عن المعاصي فقوله (يغفر الله لكم) لا يجوز أن يكون المراد غفران معصية لأن المعصية التي لا تكون . لا يمكن غفرانها وإذا ثبت أنه لا يمكن حمل الآية على ذلك وجب حملها على وجه آخر ، فكأنه سبحانه قال والله أعلم (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) لأجل تعظيمكم هؤلاء القذفة العصاة ، فيرجع حاصل الآية إلى أنه سبحانه قال ياأبابكر إن قبلت هؤلاء العصاة فأنا أيضاً أقبلهم وإن رددتهم ، فأنا أيضاً أردهم فكأنه سبحانه أعطاه مرتبة الشفاعة في الدنيا ، فهذا ماحضرنا في هذه الآية والله أعلم (فان قيل) هذه الآية تقدح في فضيلة أبي بكر من وجه آخر وذلك لأنه نهاه عن هذا الحلف فدل على صدور المعصية منه (قلنا الجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن النهي لا يدل على وقوعه ، قال الله تعالى لمحمد ﷺ (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ولم يدل ذلك على أنه عليه الصلاة والسلام أطاعهم بل دلت الأخبار الظاهرة على صدور هذا الحلف منه ، ولكن على هذا التقدير لا تكون الآية دالة على قولكم (وثانيها) هب أنه صدر عنه ذلك الحلف ، فلم قلتم إنه كان معصية ، وذلك لأن الإمتناع من التفضل قد يحسن خصوصاً فيمن يسيء إلى من أحسن إليه أو في حق من يتخذه ذريعة إلى الأفعال المحرمة لا يقال فلولم تكن معصية لما جاز أن ينهى الله عنه بقوله (ولا يأتل أولوا الفضل) لأنا نقول هذا النهي ليس نهي زجر وتحريم بل هو نهي عن ترك الأولى كأنه سبحانه قال لأبي بكر اللائق بفضلك وسعة همتك أن لا تقطع هذا فكان هذا إرشاداً إلى الأولى لا منعا عن المحرم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أجمعوا على أن المراد من قوله (أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) مسطح لأنه كان قريباً لأبي بكر وكان من المساكين وكان من المهاجرين ، واختلفوا في الذنب الذي وقع منه فقال بعضهم قذف كما فعله عبد الله بن أبي فانه عليه الصلاة والسلام حده وأنه تاب عن ذلك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان تاركا للنكر ومظهراً للرضا ، وأي الأمرين كان فهو ذنب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة وقالوا إنه سبحانه وصفه بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد أن أتى بالقذف ، وهذه صفة مدح ، فدل على أن ثواب كونه مهاجراً لم يحبط بإقدامه على القذف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أجمعوا على أن مسطحاً كان من البدريين وثبت بالرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام قال «لعل الله نظر إلى أهل بدر فقال افعلوا ماشئتم فقد غفرت لكم» فكيف

www.besturdubooks.wordpress.com

صدرت الكبيرة منه بعد أن كان بدرياً ؟ (والجواب) أنه لا يجوز أن يكون المراد منه افعلوا ماشئتم من المعاصى فيأمر بها أو يقيمها لأنا نعلم بالضرورة أن التكليف كان باقياً عليهم لو حملناه على ذلك لاقتضى زوال التكليف عنهم . ولأنه لو كان كذلك لما جاز أن يحد مسطح على ما فعل ويلعن ، فوجب حمله على أحد أمرين (الأول) أنه تعالى اطلع على أهل بدر وقد علم توبتهم وإنابتهم فقال افعلوا ماشئتم من النوافل من قليل أو كثير فقد غفرت لكم وأعطيتكم الدرجات العالية فى الجنة (الثانى) يحتمل أن يكون المراد أنهم يوافون بالطاعة فكأنه قال قد غفرت لكم لعلمى بأنكم تموتون على التوبة والإنابة فذكر حالهم فى الوقت وأراد العاقبة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ العفو والصفح عن المسيء حسن مندوب إليه ، وربما وجب ذلك ولولم يدل عليه إلا هذه الآية لكفى ، ألا ترى إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فعلق الغفران بالعفو والصفح وعنه عليه الصلاة والسلام «من لم يقبل عذراً لمتنصل كاذباً كان أو صادقاً فلا يرد على حوضى يوم القيامة» وعنه عليه الصلاة والسلام « أفضل أخلاق المسلمين العفو » وعنه أيضاً « ينادى مناد يوم القيامة ألا من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا أهل العفو ، ثم تلا فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وعنه عليه الصلاة والسلام أيضاً « لا يكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه» .

﴿ المسألة السابعة ﴾ فى هذه الآية دلالة على أن اليمين على الامتناع من الخير غير جائزة ، وإنما تجوز إذا جعلت داعية للخير لا صارفة عنه .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ مذهب الجمهور الفقهاء أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أنه ينبغى له أن يأتى الذى هو خير ثم يكفر عن يمينه ، وقال بعضهم إنه يأتى بالذى هو خير ، وذلك كفارته واحتج ذلك القائل بالآية والخبر ، أما الآية فهى أن الله تعالى أمر أبا بكر بالحنث ولم يوجب عليه كفارة ، وأما الخبر فما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وذلك كفارته » وأما دليل قول الجمهور فأمور (أحدها) قوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) فكفارته وقوله (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) وذلك عام فى الحانث فى الخير وغيره (وثانيها) قوله تعالى فى شأن أيوب حين حلف على امرأته أن يضربها (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث) وقد علمنا أن الحنث كان خيراً من تركه وأمره الله بضرب لا يبلغ منها ، ولو كان الحنث فيها كفارتها لما أمر بضربها بل كان يحنث بلا كفارة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه» (أما الجواب) عما ذكره أولا فهو أنه تعالى لم يذكر أمر الكفارة فى قصة أبى بكر لا نفياً ولا إثباتاً لأن حكمه كان معلوماً فى سائر الآيات (والجواب) عما ذكره ثانياً فى قوله « وليأت الذى هو خير وذلك كفارته» فمعناه تكفير الذنب لا الكفارة

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

المذكورة فى الكتاب ، وذلك لأنه منهى عن نقض الأيمان فأمره ههنا بالحنث والتوبة ، وأخبر أن ذلك يكفر ذنبه الذى ارتكبه بالحلف .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ روى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها أنها « قالت فضلت أزواج النبى ﷺ بعشر خصال تزوجنى رسول ﷺ بكراً دون غيرى ، وأبواى مهاجران ، وجاء جبريل عليه السلام بصورتى فى حريرة وأمره أن يتزوج بى ، وكنت أغتسل معه فى إناء واحد ، وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحى وأنا معه فى لحاف واحد ، وتزوجنى فى شوال وبنى بى فى ذلك الشهر ، وقبض بين سحرى ونحرى ، وأنزل الله تعالى عذرى من السماء ، ودفن فى بيتى وكل ذلك لم يساونى غيرى فيه » وقال بعضهم برأ الله أربعة بأربعة : برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد ، وشهد شاهد من أهلها ، وبرأ موسى عليه السلام من قول اليهود بالحجر الذى ذهب بثوبه ، وبرأ مريم بإنطاق ولدها ، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر ، وروى أنه لما قربت وفاة عائشة جاء ابن عباس يستأذن عليها ، فقالت : يجىء الآن فيثنى على ، فخبره ابن الزبير فقال ماأرجع حتى تأذن لى ، فأذنت له فدخل فقالت عائشة : أعوذ بالله من النار ، فقال ابن عباس يا أم المؤمنين مالك والنار قد أعاذك الله منها ، وأنزل براءتك تقرأ فى المساجد وطيبك فقال (الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) كنت أحب نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ، ولم يحب صلى الله عليه وسلم إلا طيباً وأنزل بسببك التيمم فقال (فتيمموا صعيداً طيباً) وروى أن عائشة وزينب تفاخرتا ، فقالت زينب : أنا التى أنزل ربى تزويجى ، وقالت عائشة أنا التى برأنى ربى حين حملنى ابن المعطل على الراحلة ، فقالت لها زينب : ماقلت حين ركبتيها ؟ قالت قلت : حسبى الله ونعم الوكيل . فقالت قلت كلمة المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ وفيه مسألتان :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى قوله (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات) هل المراد منه كل من كان بهذه للصفة أو المراد منه الخصوص ؟ أما الأصوليون فقالوا الصيغة عامة ولا مانع من إجرائها على ظاهرها فوجب حمله على العموم فيدخل فيه قذفة عائشة وقذفة غيرها ، ومن الناس من خالف فيه وذكر وجوهاً (أحدها) أن المراد قذفة عائشة قالت عائشة « رميت وأنا غافلة وإنما بلغنى بعد ذلك ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم عندى إذ أوحى الله إليه فقال أبشرى وقرأ (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) ، (وثانيها) أن المراد جملة أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهن لشرفهن خصصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد لاحق به واحتج هؤلاء بأمور (الأول) أن قاذف سائر المحصنات تقبل توبته لقوله تعالى فى أول السورة (والذين يرمون المحصنات ـ إلى قوله ـ وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا) وأما القاذف فى هذه الآية ، فإنه لاتقبل توبته لأنه سبحانه قال (لعنوا فى الدنيا والآخرة) ولم يذكر الاستثناء ، وأيضاً فهذه صفة المنافقين فى قوله (ملعونين أينما ثقفوا) ، (الثانى) أن قاذف سائر المحصنات لايكفر ، والقاذف فى هذه الآية يكفر لقوله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) وذلك صفة الكفار والمنافقين كقوله (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار) الآيات الثلاث . (الثالث) أنه قال (ولهم عذاب عظيم) والعذاب العظيم يكون عذاب الكفر ، فدل على أن عقاب هذا القاذف عقاب الكفر ، وعقاب قذفه سائر المحصنات لا يكون عقاب الكفر (الرابع) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة ، وكان يسأل عن تفسير القرآن ، فسئل عن تفسير هذه الآية فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة . أجاب الأصوليون عنه بأن الوعيد المذكور فى هذه الآية لابد وأن يكون مشروطاً بعدم التوبة لأن الذنب سواء كان كفراً أو فسقاً ، فاذا حصلت التوبة منه صار مغفوراً فزال السؤال ، ومن الناس ذكر فيه قولا آخر ، وهو أن هذه الآية نزلت فى مشركى مكة حين كان بينهم وبين رسول الله عهد فكانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة . وقالوا إنما خرجت لتفجر ، فنزلت فيهم والقول الأول هو الصحيح ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الله تعالى ذكر فيمن يرمى المحصنات الغافلات المؤمنات ثلاثة أشياء (أحدها) كونهم ملعونين فى الدنيا والآخرة وهو وعيد شديد ، واحتج الجبائى بأن التقييد باللعن عام فى جميع القذفة ومن كان ملعوناً فى الدنيا فهو ملعون فى الآخرة والملعون فى الآخرة لايكون من أهل الجنة وهو بناء على المحابطة وقد تقدم القول فيه (وثانيها) قوله (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ونظيره قوله (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) وعندنا البنية ليست شرطاً للحياة فيجوز أن يخلق الله تعالى فى الجوهر الفرد علماً وقدرة وكلاماً ، وعند المعتزلة لايجوز ذلك فلا جرم ذكروا فى تأويل هذه الآية وجهين (الأول) أنه سبحانه يخلق فى هذه

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

الجوارح هذا الكلام ، وعندهم المتكلم فاعل الكلام ، فتكون تلك الشهادة من الله تعالى فى الحقيقة إلا أنه سبحانه أضافها إلى الجوارح توسعاً (الثانى) أنه سبحانه بنى هذه الجوارح على خلاف ماهى عليه ويلجئها أن تشهد على الإنسان وتخبر عنه بأعماله ، قال القاضى وهذا أقرب إلى الظاهر ، لأن ذلك يفيد أنها تفعل الشهادة (وثالثها) قوله تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) ولا شبهة فى أن نفس دينهم ليس هو المراد لأن دينهم هو عملهم . بل المراد جزاء عملهم ، والدين بمعنى الجزاء مستعمل كقولهم كما تدين تدان ، وقيل الدين هو الحساب كقوله ذلك الدين القيم أى الحساب الصحيح ومعنى قوله (الحق) أى أن الذى نوفيهم من الجزاء هو القدر المستحق لأنه الحق وما زاد عليه هو الباطل ، وقرىء الحق بالنصب صفة للدين وهو الجزاء وبالرفع صفة لله .

وأما قوله (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) فمن الناس من قال إنه سبحانه إنما سمى بالحق لأن عبادته هى الحق دون عبادة غيره أو لأنه الحق فيما يأمر به دون غيره ومعنى (المبين) يؤيد ما قلنا لأن المحق فيما يخاطب به هو المبين من حيث يبين الصحيح بكلامه دون غيره ، ومنهم من قال الحق من أسماء الله تعالى ومعناه الموجود ، لأن نقيضه الباطل وهو المعدوم ، ومعنى المبين المظهر ومعناه أن بقدرته ظهر وجود الممكنات ، فمعنى كونه حقاً أنه الموجود لذاته ، ومعنى كونه مبيناً أنه المعطى وجود غيره .

قوله تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

اعلم أن الخبيثات يقع على الكلمات التى هى القذف الواقع من أهل الإفك ، ويقع أيضاً على الكلام الذى هو كالذم واللعن ، ويكون المراد من ذلك لا نفس الكلمة التى هى من قبل الله تعالى ، بل المراد مضمون الكلمة ، ويقع أيضاً على الزوانى من النساء ، وفى هذه الآية كل هذه الوجوه محتملة ، فإن حملناها على القذف الواقع من أهل الإفك كان المعنى الخبيثات من قول أهل الإفك للخبيثين من الرجال ، وبالعكس والطيبات من قول منكرى الإفك للطيبين من الرجال وبالعكس ، وإن حملناها على الكلام الذى هو كالذم واللعن ، فالمعنى أن الذم واللعن معدان للخبيثين من الرجال ، والخبيثون منهم معرضون للعن والذم . وكذا القول فى الطيبات وأولئك إشارة إلى الطيبين وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلمات ، وإن حملناه حملناه على الزوانى فالمعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال وبالعكس ، على معنى قوله تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ
أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا
حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(الزانى لا ينكح إلا زانية) والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والمعنى أن مثل ذلك الرمى الواقع من المنافقين لا يليق إلا بالخبيثات والخبيثين لا بالطيبات والطيبين ، كالرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه . فان قيل فعلى هذا الوجه يلزم أن لا يتزوج الرجل العفيف بالزانية (والجواب) ما تقدم فى قوله (الزانى لا ينكح إلا زانية) وقوله (أولئك مبرءون) يعنى الطيبات والطيبين مما يقوله أصحاب الإفك ، سوى قول من حمله على الكلمات فكأنه قال الطيبون مبرءون مما يقوله الخبيثون ، ومتى حمل أولئك على هذا الوجه كان لفظه كمعناه فى أنه جمع ، ومتى حملته على عائشة وصفوان وهما اثنان فكيف يعبر عنهما بلفظ الجمع ؟ فجوابه من وجهين : (الأول) أن ذلك الرمى قد تعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم وبعائشة وصفوان فبرأ الله تعالى كل واحد منهم من التهمة اللائقة به (الثانى) أن المراد به كل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فكأنه تعالى برأهن من هذا الإفك . لكن لا يقدح فيهن أحد كما أقدموا على عائشة ، ونزه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك عن أمثال هذا الأمر وهذا أبين كأنه تعالى بين أن الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، ولا أحد أطيب ولا أطهر من الرسول ، فأزواجه إذن لا يجوز أن يكن إلا طيبات ، ثم بين تعالى (أن لهم مغفرة) يعنى براءة من الله ورسوله ورزق كريم فى الآخرة ، ويحتمل أن يكون ذلك خبراً مقطوعاً به ، فيعلم بذلك أن أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام هن معه فى الجنة ، وقد وردت الأخبار بذلك ويحتمل أن يكون المراد بشرط اجتناب الكبائر والتوبة ، والأول أولى لأنا إنما نحتاج إلى الشرط إذا لم يمكن حمل الآية عليه ، أما إذا أمكن فلا وجه لطلب الشرط ، وهذا يدل على أن عائشة رضى الله عنها تصير إلى الجنة بخلاف مذهب الرافضة الذين يكفرونها بسبب حرب يوم الجمل فانهم يردون بذلك نص القرآن فان قيل القطع بأنها من أهل الجنة إغراء لها بالقبيح . قلنا أليس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلمه الله تعالى بأنه من أهل الجنة ولم يكن ذلك إغراء له بالقبيح ، وكذا العشرة المبشرة بالجنة فكذا ههنا ، والله أعلم تمت قصة أهل الإفك .

﴿ الحكم السادس — فى الاستئذان ﴾ قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون

www.besturdubooks.wordpress.com

عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

علیم،ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وما تكتمون ﴾

اعلم أنه تعالى عدل عما يتصل بالرمى والقذف وما يتعلق بهما من الحكم إلى ما يليق به لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمة، فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام ، لأن فى الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة ، وفى ذلك من المضرة مالا خفاء به فقال (يا أيها الذين آمنوا) الخ وفى الاية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ الاستئناس عبارة عن الأنس الحاصل من جهة المجالسة ، قال تعالى ولا مستأنسين لحديث ، وإنما يحصل ذلك بعد الدخول والسلام فكان الأولى تقديم السلام على الاستئناس فلم جاء على العكس من ذلك ؟ (والجواب) عن هذا من وجوه : (أحدها) ما يروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ، إنما هو حتى تستأذنوا فأخطأ الكاتب ، وفى قراءة أبى : حتى تستأذنوا لكم والتسليم خير لكم من تحية الجاهلية والدمور ، وهو الدخول بغير إذن واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب ، وفى الحديث « من سبقت عينه استئذانه فقد دمر » ، واعلم أن هذا القول من ابن عباس فيه نظر لأنه يقتضى الطعن فى القرآن الذى نقل بالتواتر ويقتضى صحة القرآن الذى لم ينقل بالتواتر وفتح هذين البابين يطرق الشك إلى كل القرآن وأنه باطل (وثانيها) ما روى عن الحسن البصرى أنه قال إن فى الكلام تقديماً وتأخيراً ، والمعنى : حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا ، وذلك لأن السلام مقدم على الاستئناس ، وفى قراءة عبد الله : حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا ، وهذا أيضاً ضعيف لأنه خلاف الظاهر (وثالثها) أن تجرى الكلام على ظاهره . ثم فى تفسير الاستئناس وجوه : (الأول) حتى تستأنسوا بالإذن وذلك لأنهم إذا استأذنوا وسلموا أنس أهل البيت ، ولو دخلوا بغير إذن لاستوحشوا وشق عليهم (الثانى) تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف استفعال من آنس الشىء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً ، والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم . ومنه قولهم استأنس هل ترى أحداً ، واستأنست فلم أر أحداً أى تعرفت واستعلمت ، فان قيل وإذا حمل على الأنس ينبغى أن يتقدمه السلام كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول « السلام عليكم أأدخل » قلنا المستأذن ربما لا يعلم أن أحداً فى المنزل فلا معنى لسلامه والحالة هذه ، والأقرب أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن ، فاذا أذن ودخل صار مواجهاً له فيسلم عليه . (والثالث) أن يكون اشتقاق الاستئناس

www.besturdubooks.wordpress.com

من الإنس وهو أن يتعرف هل ثم إنسان ، ولا شك أن هذا مقدم على السلام (والرابع) لو سلمنا أن الاستئناس إنما يقع بعد السلام ولكن الواو لاتوجب الترتيب ، فتقديم الاستئناس على السلام فى اللفظ لايوجب تقديمه عليه فى العمل .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الحكمة فى إيجاب تقديم الاستئذان ؟ (والجواب) تلك الحكمة هى التى نبه الله تعالى عليها فى قوله (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة) فدل بذلك على أن الذى لأجله حرم الدخول إلا على هذا الشرط هو كون البيوت مسكونة ، إذ لا يأمن من يهجم عليها بغير استئذان أن يهجم على ما لايحل له أن ينظر اليه من عورة ، أو على مالا يحب القوم أن يعرفه غيرهم من الأحوال ، وهذا من باب العلل المنبه عليها بالنص ، ولأنه تصرف فى ملك الغير فلا بد وأن يكون برضاه وإلا أشبه الغصب .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كيف يكون الاستئذان ؟ (الجواب) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أ ألج ؟ فقال عليه الصلاة والسلام لامرأة يقال لها روضة «قومى إلى هذا فعلميه فانه لا يحسن أن يستأذن قولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقالها ، فقال ادخل فدخل وسأل رسول الله ﷺ عن أشياء وكان يجيب ، فقال هل فى العلم ما لا تعلمه ، فقال عليه الصلاة والسلام : لقد آتانى الله خيراً كثيراً وإن من العلم مالا يعلمه إلا الله ، وتلا إن الله عنده علم الساعة إلى آخره » وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته حييتم صباحاً وحييتم مساء ، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد ، فصدق الله تعالى عن ذلك وعلم الأحسن والأجمل ، وعن مجاهد حتى تستأنسوا هو التنحنح ، وقال عكرمة هو التسبيح والتكبير ونحوه .

﴿ السؤال الرابع ﴾ كم عدد الاستئذان (الجواب) روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «الاستئذان ثلاث بالأولى يستنصتون ، وبالثانية يستصلحون ، وبالثالثة يأذنون أو يردون » وعن جندب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ، فلم يؤذن له فليرجع » وعن أبى سعيد الخدرى قال « كنت جالساً فى مجلس من مجالس الأنصار ، فجاء أبو موسى فزعاً ، فقلنا له ما أفزعك ؟ فقال أمرنى عمر أن آتيه فأتيته . فاستأذنت ثلاثاً ، فلم يؤذن لى فرجعت ، فقال مامنعك أن تأتينى ؟ فقلت قد جئت فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى . وقد قال عليه الصلاة والسلام : إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع فقال لتأتينى على هذا بالبينة ، أو لأعاقبنك . فقال أبى لا يقوم معك إلا أصغر القوم ، قال فقام أبو سعيد فشهد له » وفى بعض الأخبار أن عمر قال لأبى موسى إنى لم أتهمك ، ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن قتادة الاستئذان ثلاثة : الأول يسمع الحى ، والثانى ليتأهبوا والثالث إن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ، واعلم أن هذا من محاسن الآداب ، لأن فى اول مرة

www.besturdubooks.wordpress.com

ربما منعهم بعض الأشغال من الإذن ، وفى المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع أو يقتضى المنع أو يقتضى التساوى ، فاذا لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الإذن على مانع ثابت ، وربما أوجب ذلك كراهة قربه من الباب فلذلك يسن له الرجوع ، ولذلك يقول يجب فى الاستئذان ثلاثاً ، أن لا يكون متصلا ، بل يكون بين كل واحدة والأخرى وقت ، فأما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار ، فذاك حرام لأنه يتضمن الايذاء والايحاش ، وكفى بقصة بنى أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) .

﴿ السؤال الخامس ﴾ كيف يقف على الباب (الجواب) روى أن أبا سعيد استأذن على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل الباب ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا تستأذن وأنت مستقبل الباب . وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم ، وذلك لأن الدور لم يكن عليها حينئذ ستور .

﴿ السؤال السادس ﴾ أن كلمة حتى للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ماقبلها فقوله (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا) يقتضى جواز الدخول بعد الاستئذان وإن لم يكن من صاحب البيت إذن فما قولكم فيه ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان ، والاستئناس لا يحصل إلا إذا حصل الإذن بعد الاستئذان (وثانيها) أنا لما علمنا بالنص أن الحكمة فى الاستئذان أن لايدخل الانسان على غيره بغير إذنه فان ذلك مما يسوءه ، وعلمنا أن هذا المقصود لايحصل إلا بعد حصول الاذن ، علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الاذن وجب أن لا يكون كافياً (وثالثها) أن قوله تعالى (فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) لحظر الدخول إلا بإذن ، فدل على أن الاذن مشروط بإباحة الدخول فى الآية الأولى ، فان قيل إذا ثبت أنه لابد من الاذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا ؟ قلنا روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « رسول الرجل إلى الرجل إذنه » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى عليه الصلاة والسلام قال « إذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له إذن » وهذا الخبر يدل على معنيين (أحدهما) أن الاذن محذوف من قوله (حتى تستأنسوا) وهو المراد منه (والثانى) أن الدعاء إذن إذا جاء مع الرسول وأنه لايحتاج إلى استئذان ثان ، وقال بعضهم إن من قدجرت العادة له بإباحة الدخول فهو غيرمحتاج إلى الاستئذان.

﴿ السؤال السابع ﴾ ماحكم من اطلع على دارغيره بغير إذنه ؟ (الجواب) قال الشافعى رحمه الله: لو فقئت عينه فهى هدر ، وتمسك بما روى سهل بن سعد قال « اطلع رجل فى حجرة من حجر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال : لو علمت أنك تنظر إلى لطعنت بها فى عينك إنما الاستئذان قبل النظر » وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال « من

www.besturdubooks.wordpress.com

اطلع فى دار قوم بغير إذنهم ففقؤا عينه فقد هدرت عينه » قال أبو بكر الرازى : هذا الخبر يرد لوروده على خلاف قياس الأصول ، فانه لاخلاف أنه لو دخل داره بغير إذنه ففقأ عينه كان ضامناً وكان عليه القصاص إن كان عامداً والأرش إن كان مخطئاً ، ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع ، فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق ، فان صح فمعناه : من اطلع فى دار قوم ونظر إلى حرمهم ونسائهم فمونع فلم يمتنع فذهبت عينه فى حال الممانعة فهى هدر ، فأما إذا لم يكن إلا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهى ، ثم جاء إنسان ففقأ عينه ، فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى (العين بالعين) إلى قوله (والجروح قصاص) واعلم أن التمسك بقوله تعالى (والعين بالعين) فى هذه المسألة ضعيف ، لأنا أجمعنا على أن هذا النص مشروط بما إذا لم تكن العين مستحقة ، فانها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص ، فلم قلت : إن من اطلع فى دار إنسان لم تكن عينه مستحقة ؟ وهذا أول المسألة .

أما قوله : إنه لو دخل لم يجز فقء عينه ، فكذا إذا نظر ، قلنا الفرق بين الأمرين ظاهر ، لأنه إذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا ، فأما إذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه ، فلا يبعد فى حكم الشرع أن يبالغ ههنا فى الزجر حسما لباب هذه المفسدة ، وبالجملة فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز .

﴿ السؤال الثامن ﴾ لما بينتم أنه لابد من الإذن فهل يكفى الإذن كيف كان أو لابد من إذن مخصوص ؟ (الجواب) ظاهر الآية يقتضى قبول الإذن مطلقاً سواء كان الآذن صبياً أو امرأة أو عبداً أو ذمياً فإنه لا يعتبر فى هذا الإذن صفات الشهادة وكذلك قبول أخبار هؤلاء فى الهدايا ونحوها .

﴿ السؤال التاسع ﴾ هل يعتبر الإستئذان على المحارم ؟ (والجواب) نعم ، عن عطاء بن يسار «أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال أستأذن على أختى ؟ فقال النبى عليه الصلاة والسلام نعم أتحب أن تراها عريانة »وسأل رجل حذيفة أستأذن على أختى ، فقال إن لم تستأذن عليها رأيت مايسوؤك ، وقال عطاء سألت ابن عباس رضى الله عنهما أستأذن على أختى ومن أنفق عليها ؟ قال نعم إن الله تعالى يقول (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما أستأذن الذين من قبلهم) ولم يفرق بين من كان أجنبياً أو ذا رحم محرم .

واعلم أن ترك الإستئذان على المحارم وإن كان غير جائز إلا أنه أيسر لجواز النظر إلى شعرها وصدرها وساقها ونحوها من الأعضاء . والتحقيق فيه أن المنع من الهجوم على الغير إن كان لأجل أن ذلك الغير ربما كان منكشف الأعضاء فهذا دخل فيه الكل إلا الزوجات وملك اليمين ، وإن كان لأجل أنه ربما كان مشتغلا بأمر يكره اطلاع الغير عليه وجب أن يعم فى الكل ، حتى لا يكون له أن يدخل على الزوجة والأمة إلا بإذن .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ السؤال العاشر ﴾ إذا عرض أمر فى دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر فهل يجب الاستئذان ؟ (الجواب) كل ذلك مستثنى بالدليل فهذا جملة الكلام فى الإستئذان ، وأما السلام فهو من سنة المسلمين التى أمروا بها ، وأمان للقوم وهو تحية أهل الجنة ومجلبة للمودة ونافٍ للحقد والضغينة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح عطس ، فقال الحمد لله ، فحمد الله بإذن الله ، فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى هؤلاء الملائكة ، وهم ملأ منهم جلوس فقل السلام عليكم ، فلما فعل ذلك رجع إلى ربه فقال هذه تحيتك وتحية ذريتك» وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حق المسلم على المسلم ست ؛ يسلم عليه إذا لقيه ، ويجيبه إذا دعاه ، وينصح له بالغيب ، ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويشهد جنازته إذا مات» وعن ابن عمر قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام « إن سركم أن يسل الغل من صدوركم فأفشوا السلام بينكم » .

أما قوله تعالى (ذلكم خير لكم) فالمعنى فيه ظاهر . إذ المراد أن فعل ذلك خير لكم وأولى لكم من الهجوم بغير إذن (لعلكم تذكرون) أى لكى تتذكروا هذا التأديب فتتمسكوا به ، ثم قال (فان لم تجدوا فيها) أى فى البيوت أحداً (فلا تدخلوها) لأن العلة فى الصورتين واحدة وهى جواز أن يكون هناك أحوال مكتومة يكره اطلاع الداخل عليها ، ثم قال (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) وذلك لأنه كما يكون الدخول قد يكرهه صاحب الدار فكذا الوقوف على الباب قد يكرهه ، فلا جرم كان الأولى والأزكى له أن يرجع إزالة للايحاش والإيذاء ، ولما ذكر الله تعالى حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور التى هى غير مسكونة ، فقال (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة)وذلك لأن المانع من الدخول إلا بإذن زائل عنها واختلف المفسرون فى المراد من قوله (بيوتاً غير مسكونة) على أقوال : (أحدها) وهو قول محمد بن الحنفية أنها الخانات والرباطات وحوانيت البياعين والمتاع المنفعة ، كالاستكنان من الحر والبرد ، وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع ، يروى أن أبا بكر قال يارسول الله إن الله قد أنزل عليك آية فى الاستئذان وإنا نختلف فى تجارتنا فننزل هذه الخانات ، أفلا ندخلها إلا باذن ؟ فنزلت هذه الآية . (وثانيها) أنها الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز (وثالثها) الأسواق (ورابعها) أنها الحمامات ، والأولى أن يقال إنه لا يمتنع دخول الجميع تحت الآية فيحمل على الكل ، والعلة فى ذلك أنها إذا كانت كذلك فهى مأذون بدخولها من جهة العرف ، فكذلك نقول إنها لو كانت غير مسكونة ولكنها كانت مغصوبة ، فانه لا يجوز للداخل أن يدخل فيها لكن الظاهر من حال الخانات أنها موضوعة لدخول الداخل .

وأما قوله (والله يعلم ماتبدون وما تكتمون) فهو وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة .

www.besturdubooks.wordpress.com

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا
يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ
عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

﴿ الحكم السابع ﴾ حكم النظر قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾

اعلم أنه تعالى قال (قل للمؤمنين) وإنما خصهم بذلك لأن غيرهم لا يلزمه غض البصر عما لا يحل له ويحفظ الفرج عما لا يحل له ، لأن هذه الأحكام كالفروع للاسلام والمؤمنون مأمورون بها ابتداء ، والكفار مأمورون قبلها بما تصير هذه الأحكام تابعة له ، وإن كان حالهم كحال المؤمنين فى استحقاق العقاب على تركها ، لكن المؤمن يتمكن من هذه الطاعة من دون مقدمة ، والكافر لا يتمكن إلا بتقديم مقدمة من قبله ، وذلك لا يمنع من لزوم التكاليف له .

www.besturdubooks.wordpress.com

واعلم أنه سبحانه أمر الرجال بغض البصر وحفظ الفرج ، وأمر النساء بمثل ما أمر به الرجال وزاد فيهن أن لا يبدين زينتهن إلا لأقوام مخصوصين .

أما قوله تعالى (يغضوا من أبصارهم) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قال الأكثرون من ههنا للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل ، وجوز الأخفش أن تكون مزيدة ، ونظيره قوله (ما لكم من إله غيره) (وما منكم من أحد عنه حاجزين) وأباه سيبويه ، فإن قيل كيف دخلت فى غض البصر دون حفظ الفرج ؟ **قلنا** دلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وكذا الجوارى المستعرضات ، وأما أمر الفرج فضيق ، وكفاك فرقا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه وحظر الجماع إلا ما استثنى منه ، ومنهم من قال (يغضوا من أبصارهم) أى ينقصوا من نظرهم فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض ممنوع عنه ، وعلى هذا من ليست بزائدة ولا هى للتبعيض بل هى من صلة الغض يقال غضضت من فلان إذا نقصت من قدره .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ اعلم أن العورات على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة ، فأما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر إلى جميع بدنه إلا عورته وعورته مابين السرة والركبة ، والسرة والركبة ليستا بعورة ، وعند أبى حنيفة رحمه الله الركبة عورة ، وقال مالك الفخذ ليست بعورة ، والدليل على أنها عورة ماروى عن حذيفة « أن النبى صلى الله عليه وسلم مر به فى المسجد وهو كاشف عن فخذه فقال عليه السلام غط فخذك فإنها من العورة » وقال لعلى رضى الله عنه « لا تبرز فخذك ولا تنظر إلى فخذ حى ولا ميت » فإن كان فى نظره إلى وجهه أوسائر بدنه شهوة أو خوف فتنة بأن كان أمرد لا يحل النظر إليه ، ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل ، وإن كان كل واحد منهما فى جانب من الفراش ، لما روى أبو سعيد الخدرى أنه عليه الصلاة والسلام قال « لا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ، ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى ثوب واحد » وتكره المعانقة وتقبيل الوجه إلا لولده شفقة ، وتستحب المصافحة لما روى أنس قال « قال رجل يارسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له ؟ قال لا ، قال أيلتزمه ويقبله ؟ قال لا ، قال أفيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال نعم » أما عورة المرأة مع المرأة فكعورة الرجل مع الرجل ، فلها النظر إلى جميع بدنها إلا مابين السرة والركبة ، وعند خوف الفتنة لا يجوز ، ولا يجوز المضاجعة . والمرأة الذمية هل يجوز لها النظر إلى بدن المسلمة ، قيل يجوز كالمسلمة مع المسلمة ، والأصح أنه لا يجوز لأنها أجنبية ، فى الدين والله تعالى يقول (أو نسائهن) وليست الذمية من نسائنا ، أما عورة المرأة مع الرجل فالمرأة إما أن تكون أجنبية أو ذات رحم محرم ، أو مستمتعة ، فان كانت أجنبية فإما أن تكون حرة أو أمة فإن كانت حرة فجميع بدنها عورة ، ولا يجوز له أن ينظر إلى شىء منها إلا الوجه والكفين ، لأنها تحتاج إلى إبراز الوجه فى البيع والشراء ، وإلى إخراج

www.besturdubooks.wordpress.com

الكف للأخذ والعطاء ، ونعني بالكف ظهرها وبطنها إلى الكوعين ، وقيل ظهر الكف عورة .

واعلم أنا ذكرنا أنه لا يجوز النظر إلى شيء من بدنها ، ويجوز النظر إلى وجهها وكفها ، وفي كل واحد من القولين استثناء . أما قوله يجوز النظر إلى وجهها وكفها ، فاعلم أنه على ثلاثة أقسام لأنه إما أن لا يكون فيه غرض ولا فيه فتنة ، وإما أن يكون فيه فتنة ولا غرض فيه ، وإما أن يكون فيه فتنة وغرض (أما القسم الأول) فاعلم أنه لا يجوز أن يتعمد النظر إلى وجه الأجنبية لغير غرض وإن وقع بصره عليها بغتة يغض بصره ، لقوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) وقيل يجوز مرة واحدة إذا لم يكن محل فتنة ، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله ولا يجوز أن يكرر النظر إليها لقوله تعالى (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان مسئولا) ولقوله عليه السلام «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة» وعن جابر قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري» ولأن الغالب أن الاحتراز عن الأولى لا يمكن فوقع عفواً قصد أو لم يقصد (أما القسم الثاني) وهو أن يكون فيه غرض ولا فتنة فيه فذاك أمور (أحدها) بأن يريد نكاح امرأة فينظر إلى وجهها وكفيها ، روى أبو هريرة رضي الله عنه «أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً» وقال عليه الصلاة والسلام «إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها إذا كان إنما ينظر إليها للخطبة» وقال المغيرة بن شعبة «خطبت امرأة فقال عليه السلام نظرت إليها ، فقلت لا ، قال فانظر فإنها أحرى أن يدوم بينكما» فكل ذلك يدل على جواز النظر إلى وجهها وكفيها للشهوة إذا أراد أن يتزوجها ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى (لا تحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) ولا يعجبه حسنهن إلا بعد رؤية وجوههن (وثانيها) إذا أراد شراء جارية فله أن ينظر إلى ما ليس بعورة منها (وثالثها) أنه عند المبايعة ينظر إلى وجهها متأملا حتى يعرفها عند الحاجة إليه (ورابعها) ينظر إليها عند تحمل الشهادة ولا ينظر إلى غير الوجه لأن المعرفة تحصل به (أما القسم الثالث) وهو أن ينظر إليها للشهوة فذاك محظور ، قال عليه الصلاة والسلام «العينان تزنيان» وعن جابر قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري» وقيل : مكتوب في التوراة النظرة تزرع في القلب الشهوة ، ورب شهوة أورثت حزنا طويلا . (أما الكلام الثاني) وهو أنه لا يجوز للأجنبي النظر إلى بدن الأجنبية فقد استثنوا منه صوراً (إحداها) يجوز للطبيب الأمين أن ينظر إليها للمعالجة ، كما يجوز للختان أن ينظر إلى فرج المختون ، لأنه موضع ضرورة . (وثانيتها) يجوز أن يتعمد النظر إلى فرج الزانيين لتحمل الشهادة على الزنا ، وكذلك ينظر إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

فرجها لتحمل شهادة الولادة ، وإلى ثدى المرضعة لتحمل الشهادة على الرضاع ، وقال أبو سعيد الاصطخرى لا يجوز للرجل أن يقصد النظر فى هذه المواضع ، لأن الزنا مندوب إلى ستره ، وفى الولادة والرضاع تقبل شهادة النساء فلا حاجة إلى نظر الرجال للشهادة (وثالثها) لو وقعت فى غرق أوحرق فله أن ينظر إلى بدنها ليخلصها ، أما إذا كانت الأجنبية أمة فقال بعضهم عورتها مابين السرة والركبة ، وقال آخرون عورتها ما لا يبين للمهنة فخرج منه أن رأسها وساعديها وساقيها ونحرها وصدرها ليس بعورة ، وفى ظهرها وبطنها وما فوق ساعديها الخلاف المذكور ، ولا يجوز لمسها ولا لها لمسه بحال لا لحجامة ولا اكتحال ولا غيره ، لأن اللمس أقوى من النظر بدليل أن الإنزال باللمس يفطر الصائم وبالنظر لا يفطره ، وقال أبو حنيفة رحمه الله يجوز أن يمس من الأمة مايحل النظر إليه أما إن كانت المرأة ذات محرم له بنسب أو رضاع أو صهرية فعورتها معه ما بين السرة والركبة كعورة الرجل ، وقال آخرون بل عورتها ما لا يبدو عند المهنة ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله فأما سائر التفاصيل فستأتى إن شاء الله تعالى فى تفسير الآية ، أما إذا كانت المرأة مستمتعة كالزوجة والأمة التى يحل له الاستمتاع بها ، فيجوز له أن ينظر إلى جميع بدنها حتى إلى فرجها غير أنه يكره أن ينظر إلى الفرج وكذا إلى فرج نفسه . لأنه يروى أنه يورث الطمس ، وقيل لا يجوز النظر إلى فرجها ولا فرق بين أن تكون الأمة قنة أو مدبرة أو أم ولد أو مرهونة . فان كانت مجوسية أو مرتدة أو وثنية أو مشتركة بينه وبين غيره أو متزوجة أو مكاتبة فهى كالأجنبية ، روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا زوج أحدكم جاريته عبده أو أجيره فلا ينظر إلى مادون السرة وفوق الركبة » وأما عورة الرجل مع المرأة [ففيه] نظر إن كان أجنبياً منها فعورته معها ما بين السرة والركبة ، وقيل جميع بدنه إلا الوجه والكفين كهى معه ، والأول أصح بخلاف المرأة فى حق الرجل ، لأن بدن المرأة فى ذاته عورة بدليل أنه لا تصح صلاتها مكشوفة البدن وبدن الرجل بخلافه ، ولا يجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة ولا تكرير النظر إلى وجهه لما روى عن أم سلمة « أنها كانت عند النبى صلى الله عليه وسلم وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليها فقال عليه الصلاة والسلام : احتجبا منه ، فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه » وإن كان محرماً لها فعورته معها مابين السرة والركبة وإن كان زوجها أو سيدها الذى يحل له وطؤها فلها أن تنظر إلى جميع بدنه غير أنه يكره النظر إلى الفرج كهو معها ، ولا يجوز للرجل أن يجلس عارياً فى بيت خال وله مايستر عورته ، لأنه روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال « الله أحق أن يستحيى منه » ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال « إياكم والتعرى فان معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط ، وحين يفضى الرجل إلى أهله » والله أعلم ،

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سئل الشبلى عن قوله (يغضوا من أبصارهم) فقال أبصار الرءوس عن عن المحرمات ، وابصار القلوب عما سوى الله تعالى ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما قوله تعالى (ويحفظوا فروجهم) فالمراد به عما لايحل ، وعن أبى العالية أنه قال : كل ما فى القرآن من قوله (يحفظوا فروجهم) ، ويحفظن فروجهن ، من الزنا إلا التى فى النور (يحفظوا فروجهم ، ويحفظن فروجهن) أن لا ينظر إليها أحد ، وهذا ضعيف لأنه تخصيص من غير دلالة ، والذى يقتضيه الظاهر أن يكون المعنى حفظها عن سائر ماحرم الله عليه من الزنا والمس والنظر ، وعلى أنه إن كان المراد حظر النظر فالمس والوطء أيضاً مرادان بالآية ، إذ هما أغلظ من النظر ، فلو نص الله تعالى على النظر لكان فى مفهوم الخطاب ما يوجب حظر الوطء والمس ، كما أن قوله تعالى (ولا تقل لهما أف) اقتضى حظر مافوق ذلك من السب والضرب .

أما قوله تعالى (ذلك أزكى لهم) أى تمسكهم بذلك أزكى لهم وأطهر ، لانه من باب ما يزكون به ويستحقون الثناء والمدح ، ويمكن أن يقال إنه تعالى خص فى الخطاب المؤمنين لما أراده من تزكيتهم بذلك ، ولا يليق ذلك بالكافر .

أما قوله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) فالقول فيه على ماتقدم ، فان قيل فلم قدم غض الأبصار على حفظ الفروج ، قلنا لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشد وأكثر ، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه .

أما قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) فمن الأحكام التى تختص بها النساء فى الأغلب ، وإنما قلنا فى الأغلب لأنه محرم على الرجل أن يبدى زينته حلياً ولباساً إلى غير ذلك للنساء الأجنبيات ، لما فيه من الفتنة وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى المراد بزينتهن ، واعلم أن الزينة اسم يقع على محاسن الخلق التى خلقها الله تعالى وعلى سائر ما يتزين به الإنسان من فضل لباس أو حلى وغير ذلك ، وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة على الخلقة ، لأنه لايكاد يقال فى الخلقة إنها من زينتها . وإنما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل وخضاب وغيره ، والأقرب أن الخلقة داخلة فى الزينة ، ويدل عليه وجهان (الأول) أن الكثير من النساء ينفردن بخلقتهن عن سائرمايعد زينة ، فاذا حملناه على الخلقة وفينا العموم حقه ، ولا يمنع دخول ما عدا الخلقة فيه أيضاً (الثانى) أن قوله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) يدل على أن المراد بالزينة ما يعم الخلقة وغيرها فكأنه تعالى منعهن من إظهار محاسن خلقتهن بأن أوجب سترها بالخمار ، وأما الذين قالوا الزينة عبارة عما سوى الخلقة فقد حصروه فى أمور ثلاثة (أحدها) الأصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة فى حاجبيها والغمرة فى خديها والحناء فى كفيها وقدميها (وثانيها) الحلى كالخاتم والسوار والخلخال والدملج والقلادة والاكليل والوشاح والقرط (وثالثها) الثياب قال الله تعالى (خذوا زينتكم عند كل مسجد) وأراد الثياب

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى المراد من قوله (إلا ما ظهر منها) أما الذين حملوا الزينة على الخلقة ، فقال القفال معنى الآية إلا مايظهره الانسان فى العادة الجارية ، وذلك فى النساء الوجه والكفان ، وفى الرجل الأطراف من الوجه واليدين والرجلين ، فأمروا بستر ما لاتؤدى

www.besturdubooks.wordpress.com

الضرورة إلى كشفه ورخص لهم فى كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة إلى إظهاره إذ كانت شرائع الاسلام حنيفية سهلة سمحة ، ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضرورى لا جرم اتفقوا على أنهما ليسا بعورة ، أما القدم فليس ظهوره بضرورى فلا جرم اختلفوا فى أنه هل هو من العورة أم لا ؟ فيه وجهان : الأصح أنه عورة كظهر القدم ، وفى صوتها وجهان أصحهما أنه ليس بعورة ، لأن نساء النبى صلى الله عليه وسلم كن يروين الأخبار للرجال ، وأما الذين حملوا الزينة على ماعدا الخلقة فقالوا إنه سبحانه إنما ذكر الزينة لأنه لاخلاف أنه يحل النظر إليها حالما لم تكن متصلة بأعضاء المرأة ، فلما حرم الله سبحانه النظر إليها حال اتصالها ببدن المرأة كان ذلك مبالغة فى حرمة النظر إلى أعضاء المرأة ، وعلى هذا القول يحل النظر إلى زينة وجهها من الوشمة والغمرة وزينة بدنها من الخضاب والخواتيم وكذا الثياب ، والسبب فى تجويز النظر إليها أن تسترها فيه حرج لأن المرأة لا بد لها من مناولة الأشياء بيديها والحاجة إلى كشف وجهها فى الشهادة والمحاكمة والنكاح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفقوا على تخصيص قوله (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) بالحرائر دون الإماء ، والمعنى فيه ظاهر ، وهو أن الأمة مال فلا بد من الاحتياط فى بيعها وشرائها ، وذلك لا يمكن إلا بالنظر إليها على الاستقصاء بخلاف الحرة .

أما قوله تعالى (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فالخمر واحدها خمار ، وهى المقانع . قال المفسرون : إن نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن ، وإن جيوبهن كانت من قدام فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن ، فأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينة من الحلى فى الأذن والنحر وموضع العقدة منها ، وفى لفظ الضرب مبالغة فى الإلقاء ، والباء للالصاق ، وعن عائشة رضى الله عنها «ما رأيت خيراً من نساء الأنصار ، لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها فصدعت منه صدعة فاختمرت فأصبحن على رؤوسهن الغربان » وقرىء (جيوبهن) بكسر الجيم لأجل الياء وكذلك (بيوتاً غير بيوتكم) .

فأما قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) فاعلم أنه سبحانه لما تكلم فى مطلق الزينة تكلم بعد ذلك فى الزينة الخفية التى نهاهن عن إبدائها للأجانب ، وبين أن هذه الزينة الخفية يجب إخفاؤها عن الكل ، ثم استثنى اثنتى عشرة صورة (أحدها) أزواجهن (وثانيها) آباؤهن وإن علون من جهة الذكران والاناث كآباء الآباء وآباء الأمهات (وثالثها) آباء أزواجهن (ورابعها وخامسها) أبناؤهن وأبناء بعولتهن ، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سفلوا من الذكران والإناث كبنى البنين وبنى البنات (وسادسها) إخوانهن سواء كانوا من الأب أو من الأم أو منهما (وسابعها) بنو إخوانهن (وثامنها) بنو أخواتهن وهؤلاء كلهم محارم ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أفيحل لذوى المحرم فى المملوكة والكافرة ما لا يحل له فى المؤمنة ؟

www.besturdubooks.wordpress.com

(الجواب) إذا ملك المرأة وهى من محارمه فله أن ينظر منها إلى بطنها وظهرها لا على وجه الشهوة ، بل لأمر يرجع إلى مزية الملك على اختلاف بين الناس فى ذلك .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف القول فى العم والخال ؟ (الجواب) القول الظاهر أنهما كسائر المحارم فى جواز النظر وهو قول الحسن البصرى ، قال لأن الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب وقال فى سورة الأحزاب (لا جناح عليهن فى آبائهن) الآية . ولم يذكر فيها البعولة ولا أبناءهم وقد ذكروا ههنا ، وقد يذكر البعض لينبه على الجملة . قال الشعبى : إنما لم يذكرهما الله لئلا يصفهما العم عند ابنه والخال كذلك ، ومعناه أن سائر القرابات تشارك الأب والإبن فى المحرمية إلا العم والخال وأبناءهما ، فاذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم فيقرب تصوره لها بالوصف من نظره إليها ، وهذا أيضاً من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن فى التستر .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما السبب فى إباحة نظر هؤلاء إلى زينة المرأة ؟ (الجواب) لأنهم مخصوصون بالحاجة إلى مداخلتهن ومخالطتهن ولقلة توقع الفتنة بجهاتهن ، ولما فى الطباع من النفرة عن مجالسة الغرائب ، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى الأسفار وللنزول والركوب (وتاسعها) قوله تعالى (أو نسائهن) وفيه قولان (أحدهما) المراد والنساء اللاتى هن على دينهن ، وهذا قول أكثر السلف . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس للمسلمة أن تتجرد بين نساء أهل الذمة ولا تبدى للكافرة إلا ما تبدى للأجانب إلا أن تكون أمة لها لقوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهن) وكتب عمر إلى أبى عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب من دخول الحمام مع المؤمنات (وثانيهما) المراد بنسائهن جميع النساء ، وهذا هو المذهب وقول السلف محمول على الاستحباب والأولى (وعاشرها) قوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهن) وظاهر الكلام يشمل العبيد والإماء ، واختلفوا فمنهم من أجرى الآية على ظاهرها ، وزعم أنه لا بأس عليهن فى أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوى محارمهن ، وهو مروى عن عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما ، واحتجوا بهذه الآية وهو ظاهر . وبما روى أنس « أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مابها ، قال : إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » وعن مجاهد : كان أمهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهن مابقى عليه درهم . وعن عائشة رضى الله عنها : أنها قالت لذكوان « إنك إذا وضعتنى فى القبر وخرجت فأنت حر . وروى أن عائشة رضى الله عنها : كانت تمتشط والعبد ينظر إليها ، وقال ابن مسعود ومجاهد والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب رضى الله عنهم : إن العبد لا ينظر إلى شعر مولاته ، وهو قول أبى حنيفة رحمه الله ، واحتجوا عليه بأمور (أحدها) قوله عليه الصلاة والسلام « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً فوق ثلاث إلا مع ذى محرم » والعبد ليس بذى محرم منها فلا يجوز أن يسافر بها ، وإذا لم يجز له السفر بها لم

www.besturdubooks.wordpress.com

يجز له النظر إلى شعرها كالحر الأجنبي (وثانيها) أن ملكها للعبد لايحلل مايحرم عليه قبل الملك إذ ملك النساء للرجال ليس كملك الرجال للنساء ، فانهم لم يختلفوا فى أنها لا تستبيح بملك العبد منه شيئاً من التمتع كما يملكه الرجل من الأمة (وثالثها) أن العبد وإن لم يجز له أن يتزوج بمولاته إلا أن ذلك التحريم عارض كمن عنده أربع نسوة فانه لا يجوز له التزوج بغيرهن فلما لم تكن هذه الحرمة مؤبدة كان العبد بمنزلة سائر الأجانب . إذا ثبت هذا ظهر أن المراد من قوله(أوما ملكت أيمانهن) الإماء فإن قيل الإماء دخلن فى قوله (نسائهن) فأى فائدة فى الاعادة ؟ قلنا الظاهر أنه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن من فى صحبتهن من الحرائر والاماء ، وبيانه أنه سبحانه ذكر أولا أحوال الرجال بقوله (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) إلى آخر ما ذكر فجاز أن يظن ظان أن الرجال مخصوصون بذلك إذ كانوا ذوى المحارم أو غير ذات المحارم ، ثم عطف على ذلك الاماء بقوله (أو ما ملكت أيمانهن) لئلا يظن أن الاباحة مقصورة على الحرائر من النساء إذ كان ظاهر قوله (أو نسائهن) يقتضى الحرائر دون الاماء كقوله (شهيدين من رجالكم) على الأحرار لاضافتهم إلينا كذلك قوله (أو نسائهن) على الحرائر ، ثم عطف عليهن الاماء فأباح لهن مثل ما أباح فى الحرائر (وحادى عشرها) قوله تعالى (أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قيل هم الذين يتبعونكم لينالوا من فضل طعامكم ، ولا حاجة بهم إلى النساء ، لأنهم بله لا يعرفون من أمرهن شيئاً ، أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم ، ومعلوم أن الخصى والعنين ومن شاكلهما قد لايكون له إربة فى نفس الجماع ويكون له إربة قوية فيما عداه من التمتع ، وذلك يمنع من أن يكون هو المراد . فيجب أن يحمل المراد على من المعلوم منه إنه لا إربة له فى سائر وجوه التمتع ، إما لفقد الشهوة ، وإما لفقد المعرفة ، وإما للفقر والمسكنة ، فعلى هذه الوجوه الثلاثة اختلف العلماء . فقال بعضهم هم الفقراء الذين بهم الفاقة ، وقال بعضهم : المعتوه والأبله والصبى ، وقال بعضهم : الشيخ ، وسائر من لاشهوة له ، ولا يمتنع دخول الكل فى ذلك ، وروى هشام بن عروة عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة « أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها مخنث فأقبل على أخى أم سلمة فقال ياعبد الله إن فتح الله لكم غداً الطائف دللتك على بنت غيلان ، فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان » فقال عليه الصلاة والسلام «لا يدخلن عليكم هذا » فأباح النبى عليه الصلاة والسلام دخول المخنث عليهن حين ظن أنه من غير أولى الاربة ، فلما علم أنه يعرف أحوال النساء وأوصافهن علم أنه من أولى الإربة فحجبه ، وفى الخصى والمجبوب ثلاثة أوجه : (أحدها) استباحة الزينة الباطنة معهما (والثانى) تحريمها عليهما (والثالثة) تحريمها على الخصى دون المجبوب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الاربة الفعلة من الأرب كالمشية والجلسة من المشى والجلوس والأرب

www.besturdubooks.wordpress.com

الحاجة والولوع بالشيء والشهوة له ، والإربة الحاجة فى النساء ، والإربة العقل ومنه الأريب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى (غير) قراءتان قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر غير بالنصب على الاستثناء أو الحال يعنى أو التابعين عاجزين عنهن والقراءة الثانية بالخفض على الوصفية (وثانى عشرها) قوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الطفل اسم للواحد لكنه وضع ههنا موضع الجمع لأنه يفيد الجنس ، ويبين ما بعده أنه يراد به الجمع ونظيره قوله تعالى (ثم نخرجكم طفلا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الظهور على الشيء على وجهين : (الأول) العلم به كقوله تعالى (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم) أى إن يشعروا بكم (والثانى) الغلبة له والصولة عليه كقوله (فأصبحوا ظاهرين) فعلى الوجه الأول يكون المعنى أو الطفل الذين لم يتصوروا عورات النساء ولم يدروا ما هى من الصغر وهو قول ابن قتيبة ، وعلى الثانى الذين لم يبلغوا أن يطيقوا إتيان النساء ، وهو قول الفراء والزجاج .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن الصغير الذى لم يتنبه لصغره على عورات النساء فلا عورة للنساء معه ، وإن تنبه لصغره ولمراهقته لزم أن تستتر عنه المرأة مابين سرتها وركبتها ، وفى لزوم ستر ما سواه وجهان : (أحدهما) لا يلزم لأن القلم غير جار عليه (والثانى) يلزم كالرجل لأنه يشتهى والمرأة قد تشتهيه وهو معنى قوله (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) واسم الطفل شامل له إلى أن يحتلم ، وأما الشيخ إن بقيت له شهوة فهو كالشاب ، وإن لم يبق له شهوة ففيه وجهان : (أحدهما) أن الزينة الباطنة معه مباحة والعورة معه ما بين السرة والركبة (والثانى) أن جميع البدن معه عورة إلا الزينة الظاهرة ، وههنا آخر الصور التى استثناها الله تعالى ، قال الحسن هؤلاء وإن اشتركوا فى جواز رؤية الزينة الباطنة فهم على أقسام ثلاثة ، فأولهم الزوج وله حرمة ليست لغيره يحل له كل شيء منها ، والحرمة الثانية للابن والأب والأخ والجد وأبى الزوج وكل ذى محرم والرضاع كالنسب يحل لهم أن ينظروا إلى الشعر والصدر والساقين والذراع وأشباه ذلك ، والحرمة الثالثة هى للتابعين غير أولى الإربة من الرجال وكذا مملوك المرأة فلا بأس أن تقوم المرأة الشابة بين يدى هؤلاء فى درع وخمار صفيق بغير ملحفة ، ولا يحل لهؤلاء أن يروا منها شعراً ولا بشراً والستر فى هذا كله أفضل ، ولا يحل للشابة أن تقوم بين يدى الغريب حتى تلبس الجلباب ، فهذا ضبط هؤلاء المراتب .

أما قوله تعالى (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) فقال ابن عباس وقتادة كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها ، ومعلوم أن الرجل الذى يغلب عليه شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة فى مشاهدتهن ، وقد علل تعالى ذلك بأن قال (ليعلم ما يخفين من زينتهن) فنبه به على أن الذى لأجله نهى عنه أن يعلم زينتهن من

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

الحلي وغيره وفى الآية فوائد : (الفائدة الأولى) لما نهى عن استماع الصوت الدال على وجود الزينة فلأن يدل على المنع من إظهار الزينه أولى (الثانية) أن المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الأجانب إذ كان صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها ، ولذلك كرهوا أذان النساء لأنه يحتاج فيه إلى رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك (الثالثة) تدل الآية على حظر النظر إلى وجهها بشهوة إذا كان ذلك أقرب إلى الفتنة .

أما قوله سبحانه وتعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى التوبة وجهان : (أحدهما) أن تكاليف الله تعالى فى كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد ، ولا ينفك من تقصير يقع منه ، فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا (والثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما توبوا مما كنتم تفعلونه فى الجاهلية لعلكم تسعدون فى الدنيا والآخرة ، فإن قيل قد صحت التوبة بالإسلام والإسلام يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة ؟ قلنا قال بعض العلماء إن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه لزمه كلما ذكره أن يجدد عنه التوبة ، لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه إلى أن يلقى ربه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (أيه المؤمنون) بضم الهاء ، ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف ، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تفسير لعل قد تقدم فى سورة البقرة فى قوله (اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) والله أعلم .

(الحكم الثامن — ما يتعلق بالنكاح) قوله تعالى: ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أمر من قبل بغض الأبصار وحفظ الفروج بين من بعد أن الذى أمر به إنما هو فيما لا يحل ، فبين تعالى بعد ذلك طريق الحل فقال (وأنكحوا الأيامى منكم) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف الأيامى واليتامى أصلهما أيايم ويتايم فقلبا ، وقال النضر بن شميل الأيم فى كلام العرب كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك ، تقول : زوجوا أياماكم بعضكم من بعض ، وقال الشاعر :

فإن تنكحى انكح وإن تتأيمى ... وإن كنت أفتى منكموا أتأيم

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (وأنكحوا الأيامى) أمر وظاهر الأمر للوجوب على ما بيناه مراراً ، فيدل على أن الولى يجب عليه تزويج مولاته وإذا ثبت هذا وجب أن لا يجوز النكاح إلا بولى ، إما لأن كل من أوجب ذلك على الولى حكم بأنه لا يصح من المولية ، وإما لأن المولية لو فعلت ذلك لفونت على الولى التمكن من أداء هذا الواجب وأنه غير جائز ، وإما لتطابق هذه الآية مع الحديث وهو قوله عليه الصلاة والسلام «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» قال أبو بكر الرازى هذه الآية وإن اقتضت بظاهرها الإيجاب إلا أنه أجمع السلف على أنه لم يرد به الإيجاب ، ويدل عليه أمور (أحدها) أنه لو كان ذلك واجباً لورد النقل بفعله من النبى صلى الله عليه وسلم ومن السلف مستفيضاً شائعاً لعموم الحاجة إليه . فلما وجدنا عصر النبى صلى الله عليه وسلم وسائر الأعصار بعده قد كان فى الناس أيامى من الرجال والنساء ، فلم ينكروا عدم تزويجهن ثبت أنه ما أريد به الإيجاب (وثانيها) أجمعنا على أن الأيم الثيب لو أبت التزوج لم يكن للولى إجبارها عليه (وثالثها) اتفاق الكل على أنه لا يجبر على تزويج عبده وأمته وهو معطوف على الأيامى ، فدل على أنه غير واجب فى الجميع بل ندب فى الجميع (ورابعها) أن اسم الأيامى ينتظم فيه الرجال والنساء وهو فى الرجال ما أريد به الأولياء دون غيرهم كذلك فى النساء (والجواب) أن جميع ما ذكرته تخصيصات تطرقت إلى الآية والعام بعد التخصيص يبقى حجة ، فوجب أن يبقى حجة فيما إذا التمست المرأة الأيم من الولى التزويج وجب ، وحينئذ ينتظم وجه الكلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الشافعى رحمه الله الآية تقتضى جواز تزويج البكر البالغة بدون رضاها ، لأن الآية والحديث يدلان على أمر الولى بتزويجها ، ولولا قيام الدلالة على أنه لا يزوج الثيب الكبيرة بغير رضاها لكان جائزاً له تزويجها أيضاً بغير رضاها ، لعموم الآية . قال أبو بكر الرازى قوله تعالى (وأنكحوا الأيامى) لا يختص بالنساء دون الرجال على ما بينا فلما كان الاسم شاملا للرجال والنساء وقد أضمر فى الرجال تزويجهم بإذنهم فوجب استعمال ذلك الضمير فى النساء ، وأيضاً فقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم باستئمار البكر بقوله «البكر تستأمر فى نفسها وإذنها صماتها» وذلك أمر وإن كان فى صورة الخبر ، فثبت أنه لا يجوز تزويجها إلا باذنها (والجواب) أما الأول فهو تخصيص للنص وهو لا يقدح فى كونه حجة والفرق أن الأيم من الرجال يتولى أمر نفسه فلا يجب على الولى تعهد أمره بخلاف المرأة ، فان احتياجها إلى من يصلح أمرها فى التزويج أظهر ، وأيضاً فلفظ الأيامى وإن تناول الرجال والنساء ، فاذا أطلق لم يتناول إلا النساء ، وإنما يتناول الرجال إذا قيد (وأما الثانى) فى تخصيص الآية بخبر الواحد كلام مشهور .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال أبو حنيفة رحمه الله العم والأخ يليان تزويج البنت الصغيرة ، ووجه الاستدلال بالآية كما تقدم .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الشافعي رحمه الله ، الناس فى النكاح قسمان منهم من تتوق نفسه فى النكاح فيستحب له أن ينكح إن وجد أهبة النكاح سواء كان مقبلا على العبادة أولم يكن كذلك ، ولكن لا يجب أن ينكح ، وإن لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته لما روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإن الصوم له وجاء ، أما الذى لا تتوق نفسه إلى النكاح فان كان ذلك لعلة به من كبر أو مرض أو عجز يكره له أن ينكح ، لأنه يلتزم ما لا يمكنه القيام بحقه ، وكذلك إذا كان لا يقدر على النفقة وإن لم يكن به عجز وكان قادراً على القيام بحقه لم يكره له النكاح ، لكن الأفضل أن يتخلى لعبادة الله تعالى ، وقال أبوحنيفة رحمه الله : النكاح أفضل من التخلى للعبادة ، وحجة الشافعي رحمه الله وجوه (أحدها) قوله تعالى (وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) مدح يحيي عليه السلام بكونه حصوراً والحصور الذى لا يأتى النساء مع القدرة عليهن ، ولا يقال هو الذى لا يأتى النساء مع العجز عنهن ، لأن مدح الإنسان بما يكون عيباً غير جائز ، وإذا ثبت أنه مدح فى حق يحيي وجب أن يكون مشروعا فى حقنا لقوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ولا يجوز حمل الهدى على الأصول لأن التقليد فيها غير جائز فوجب حمله على الفروع (وثانيها) قوله عليه الصلاةوالسلام «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن أفضل أعمالكم الصلاة» ويتمسك أيضاً بما روىعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « أفضل أعمال أمتى قراءة القرآن » (وثالثها) أن النكاح مباح لقوله عليه الصلاة والسلام « أحب المباحات إلىالله تعالى النكاح » ويحمل الأحب على الأصلح فى الدنيا لئلا يقع التناقض بين كونه أحب وبين كونه مباحا ، والمباح ما استوى طرفاه فى الثواب والعقاب ، والمندوب ما ترجح وجوده على عدمه فتكون العبادة أفضل (ورابعها) أن النكاح ليس بعبادة بدليل أنه يصح من الكافر والعبادة لا تصح منه ، فوجب أن تكون العبادة أفضل منه لقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) والاشتغال بالمقصود أولى (وخامسها) أن الله تعالى سوى بين التسرى والنكاح ثم التسرى مرجوح بالنسبة إلىالعبادة ومساوى المرجوح مرجوح ، فالنكاح مرجوح ،وإنما قلنا إنه سوى بين التسرى والنكاح لقوله تعالى (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم) وذكر كلمة أو للتخيير بين الشيئين ، والتخيير بين الشيئين أمارة التساوى ، كقول الطبيب للمريض كل الرمان أو التفاح ، وإذا ثبت الاستواء فالتسرى مرجوح ، ومساوى المرجوحمرجوح ، فالنكاح يجبأن يكون مرجوحاً (وسادسها) أن النافلة أشق فتكون أكثر ثواباً بيان أنها أشق أن ميل الطباع إلىالنكاحأكثر، ولولاترغيب الشرع لما رغب أحد فى النوافل، وإذا ثبت أنها أشق وجب أن تكون أكثر ثواباً لقوله عليه الصلاة والسلام «أفضل العبادات أحمزها» وقوله ﷺ لعائشة «أجرك علىقدرنصبك» (وسابعها) لوكان النكاح مساوياً للنوافل فىالثواب مع

www.besturdubooks.wordpress.com

أن النوافل أشق منه لما كانت النوافل مشروعة . لأنه إذا حصل طريقان إلى تحصيل المقصود وكانا فى الإفضاء إلى المقصود سيين وكان أحدهما شاقاً والآخر سهلا ، فإن العقلاء يستقبحون تحصيل ذلك المقصود بالطريق الشاق مع المكنة من الطريق السهل، ولما كانت النوافل مشروعة علمنا أنها أفضل (وثامنها) لوكان الاشتغال بالنكاح أولى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة والزراعة أولى من النافلة بالقياس على النكاح والجامع كون كل واحد منهما سبباً لبقاء هذا العالم ومحصلا لنظامه (وتاسعها) أجمعنا على أنه يقدم واجب العبادة على واجب النكاح ، فيقدم مندوبها على مندوبه لاتحاد السبب (وعاشرها) أن النكاح اشتغال بتحصيل اللذات الحسية الداعية إلى الدنيا ، والنافلة قطع العلائق الجسمانية وإقبال على الله تعالى فأين أحدهما من الآخر ؟ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني فى الصلاة » فرجح الصلاة على النكاح ، حجة أبي حنيفة رحمه الله من وجوه (الأول) أن النكاح يتضمن صون النفس عن الزنا فيكون ذلك دفعاً للضرر عن النفس ، والنافلة جلب النفع ودفع الضرر أولى من جلب النفع (الثانى) أن النكاح يتضمن العدل والعدل أفضل من العبادة لقوله عليه الصلاة والسلام « لعدل ساعة خير من عبادة ستين سنة » (الثالث) النكاح سنة مؤكدة لقوله عليه الصلاة والسلام « من رغب عن سنتى فليس منى » وقال فى الصلاة وإنها خير موضوع « فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقلل » فوجب أن يكون النكاح أفضل .

﴿ **المسألة السادسة** ﴾ قوله تعالى (وأنكحوا الأيامى) وإن كانت تتناول جميع الأيامى بحسب الظاهر لكنهم أجمعوا على أنه لابد فيها من شروط ، وقد تقدم شرحها فى قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) .

أما قوله تعالى (منكم) فقد حمله كثير من المفسرين على أن المراد هم الأحرار لينفصل الحر من العبد ، وقال بعضهم بل المراد بذلك من يكون تحت ولاية المأمور من الولد أو القريب ، ومنهم من قال الإضافة تفيد الحرية والإسلام .

أما قوله تعالى (والصالحين من عبادكم وإمائكم) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ ظاهر أنه أيضاً أمر للسادة بتزويج هذين الفريقين إذا كانوا صالحين . وأنه لافرق بين هذا الأمر وبين الأمر بتزويج الأيامى فى باب الوجوب ، لكنهم اتفقوا على أنه إباحة أو ترغيب ، فأما أن يكون واجباً فلا ، وفرقوا بينه وبين تزويج الأيامى بأن فى تزويج العبد التزام مؤنة وتعطيل خدمة ، وذلك ليس بواجب على السيد وفى تزويج الأمة استفادة مهر وسقوط نفقة ، وليس ذلك بلازم على المولى .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ إنما خص الصالحين بالذكر لوجوه (الأول) ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم (الثانى) لأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم [و] ينزلونهم منزلة

www.besturdubooks.wordpress.com

الأولاد فى المودة ، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم ، وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك (الثالث) أن يكون المراد الصلاح لأمر النكاح حتى يقوم العبد بما يلزم لها ، وتقوم الأمة بما يلزم للزوج (الرابع) أن يكون المراد الصلاح فى نفس النكاح بأن لا تكون صغيرة فلا تحتاج إلى النكاح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ظاهر الآية يدل على أن العبد لا يتزوج بنفسه ، وإنما يجوز أن يتولى المولى تزويجه ، لكن ثبت بالدليل أنه إذا أمره بأن يتزوج جاز أن يتولى تزويج نفسه ، فيكون توليه باذنه بمنزلة أن يتولى ذلك نفس السيد ، فأما الإماء فلا شبهة فى أن المولى يتولى تزويجهن خصوصاً على قول من لا يجوز النكاح إلى بولى .

أما قوله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الأصح أن هذا ليس وعداً من الله تعالى بإغناء من يتزوج . بل المعنى لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها ففى فضل الله ما يغنيهم ، والمال غاد ورائح ، وليس فى الفقر ما يمنع من الرغبة فى النكاح ، فهذا معنى صحيح وليس فيه أن الكلام قصد به وعد الغنى حتى لا يجوز أن يقع فيه خلف ، وروى عن قدماء الصحابة ما يدل على أنهم رأوا ذلك وعداً ، عن أبى بكر قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى ، وعن عمر وابن عباس مثله قال ابن عباس : التمسوا الرزق بالنكاح ، وشكى رجل إلى رسول الله ﷺ الحاجة فقال «عليك بالباءة» وقال طلحة بن مطرف : تزوجوا فانه أوسع لكم فى رزقكم وأوسع لكم فى أخلاقكم ويزيد فى مروءتكم ، فان قيل : فنحن نرى من كان غنياً فيتزوج فيصير فقيراً ؟ قلنا الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن هذا الوعد مشروط بالمشيئة كما فى قوله تعالى (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) والمطلق محمول على المقيد ، (وثانيها) أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أنه يكون خاصاً فى بعض المذكورين دون البعض وهو فى الأيامى الأحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون (وثالثها) أن يكون المراد الغنى بالعفاف فيكون المعنى وقوع الغنى بملك البضع والاستغناء به عن الوقوع فى الزنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من استدل بهذه الآية على أن العبد والأمة يملكان ، لأن ذلك راجع إلى كل من تقدم فتقتضى الآية بيان أن العبد قد يكون فقيراً وقد يكون غنياً ، فإن دل ذلك على الملك ثبت أنهما يملكان ، ولكن المفسرون تأولوه على الأحرار خاصة . فكأنهم قالوا هو راجع إلى الأيامى ، أما إذا فسرنا الغنى بالعفاف فالاستدلال به على ذلك ساقط .

أما قوله (والله واسع عليم) فالمعنى أنه سبحانه فى الإفضال لا ينتهى إلى حد تنقطع قدرته على الإفضال دونه ، لأنه قادر على المقدورات التى لا نهاية لها ، وهو مع ذلك عليم بمقادير ما يصلحهم من الإفضال والرزق .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ

قوله تعالى : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾

إعلم أنه سبحانه لما ذكر تزويج الحرائر والإماء. ذكر حال من يعجز عن ذلك ، فقال : (وليستعفف) أى وليجتهد فى العفة ، كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه .

وأما قوله (لايجدون نكاحاً) فالمعنى لا يتمكنون من الوصول إليه ، يقال لا يجد المرء الشيء إذا لم يتمكن منه ، قال الله تعالى (فمن لم يجد فصيام شهرين) والمراد به بالإجماع من لم يتمكن ، ويقال فى أحدنا هو غير واجد للماء وإن كان موجوداً ، إذا لم يمكنه أن يشتريه ، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال ، فبين سبحانه وتعالى أن من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف ، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله ، ثم يصل إلى بغيته من النكاح ، فان قيل أفليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح ؟ قلنا لكن من لم يجد المهر والنفقة ، فبأن لا يجد ثمن الجارية أولى والله أعلم .

﴿ الحكم التاسع ﴾ فى الكتابة : قوله تعالى ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾

إعلم أنه تعالى لما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء مع الرق ، رغبهم فى أن يكاتبوهم إذاطلبوا ذلك ، ليصيروا أحراراً فيتصرفوا فى أنفسهم كالأحرار ، فقال (والذين يبتغون الكتاب) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (والذين يبتغون) مرفوع على الابتداء ، أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم ، كقولك زيداً فاضربه ، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكتاب والكتابة كالعتاب والعتابة ، وفى اشتقاق لفظ الكتابة وجوه (أحدها) أن أصل الكلمة من الكتب وهو الضم والجمع ومنه الكتيبة سميت بذلك لأنها تضم النجوم بعضها إلى بعض وتضم ماله إلى ماله (وثانيها) يحتمل أن يكون اللفظ مأخوذاً من الكتاب ومعناه كتبت لك على نفسى أن تعتق منى إذا وفيت بالمال ، وكتبت لى على نفسك أن تفى لى بذلك ، أو كتبت لى كتاباً عليك بالوفاء بالمال وكتبت على العتق ، وهذا ما ذكره الأزهرى (وثالثها) إنما سمى بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه ، لأنه لا يجوز أن يقع على مال هو فى يد العبد حين يكاتب ، لأن ذلك مال لسيده اكتسبه فى حال ما كانت يد السيد غير

www.besturdubooks.wordpress.com

مقبوضة عن كسبه ، فلا يجوز لهذا المعنى أن يقع هذا العقد حالا ولكنه يقع مؤجلا ليكون متمكناً من الإكتساب وغيره حين ما انقبضت يد السيد عنه ، ثم من آداب الشريعة أن يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب ، فسمى لهذا المعنى هذا العقد كتاباً لما يقع فيه من الأجل ، قال تعالى (لكل أجل كتاب) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال محي السنة : الكتابة أن يقول لمملوكه كاتبتك على كذا ويسمى مالا معلوماً يؤديه فى نجمين أو أكثر ، ويبين عدد النجوم وما يؤدى فى كل نجم ، ويقول إذا أديت ذلك المال فأنت حر ، أو ينوى ذلك بقلبه ويقول العبد قبلت ، وفى هذا الضبط أبحاث .

﴿ البحث الأول ﴾ قال الشافعى رحمه الله : إن لم يقل بلسانه أو لم ينو بقلبه إذا أديت ذلك المال فأنت حر لم يعتق ، وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا حاجة إلى ذلك ، حجة أبى حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى (فكاتبوهم) خال عن هذا الشرط فوجب أن تصح الكتابة بدون هذا الشرط ، وإذا صحت الكتابة وجب أن يعتق بالأداء للاجماع . حجة الشافعى رحمه الله : أن الكتابة ليست عقد معاوضة محضة ، لأن ما فى يد العبد فهو ملك السيد والإنسان لا يمكنه بيع ملكه بملكه ، بل قوله كاتبتك كتابة فى العتق فلابد من لفظ العتق أو نيته .

﴿ البحث الثانى ﴾ لا تجوز الكتابة الحالة عند الشافعى ، وتجوز عند أبى حنيفة . وجه قول الشافعى رحمه الله أن العبد لا يتصور له ملك يؤديه فى الحال ، وإذا عقد حالا توجهت المطالبة عليه فى الحال ، فإذا عجز عن الأداء لم يحصل مقصود العقد ، كما لو أسلم فى شىء لا يوجد عند المحل لا يصح بخلاف ما لو أسلم إلى معسر فإنه يجوز ، لأنه حين العقد يتصور أن يكون له ملك فى الباطن ، فالعجز لا يتحقق عن أدائه ، وجه قول أبى حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى (فكاتبوهم) مطلق يتناول الكتابة الحالة والمؤجلة ، وأيضاً لما كان مال الكتابة بدلا عن الرقبة كان بمنزلة أثمان السلع المبيعة فيجوز عاجلا وآجلا ، وأيضاً أجمعوا على جواز العتق معلقاً على مال حال فوجب أن تكون الكتابة مثله ، لأنه بدل عن العتق فى الحالين إلا أن فى أحدهما العتق معلق على شرط الأداء وفى الآخر معجل ، فوجب أن لا يختلف حكمهما .

﴿ البحث الثالث ﴾ قال الشافعى رحمه الله : لا تجوز الكتابة على أقل من نجمين ، يروى ذلك عن على وعثمان وابن عمر ، روى أن عثمان رضى الله عنه غضب على عبده ، فقال : لأضيقن الأمر عليك ، ولأكاتبنك على نجمين ، ولو جاز على أقل من ذلك لكاتبه على الأقل ، لأن التضييق فيه أشد ، وإنما شرطنا التنجيم لأنه عقد إرفاق ، ومن شرط الإرفاق التنجيم ليتيسر عليهم الأداء . وقال أبو حنيفة رحمه الله : تجوز الكتابة على نجم واحد ، لأن ظاهر قوله (فكاتبوهم) ليس فيه تقييد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ تجوز كتابة المملوك عبداً كان أو أمة ، ويشترط عند الشافعى رحمه الله أن يكون عاقلا بالغاً ، فإذا كان صبياً أو مجنوناً لا تصح كتابته ، لأن الله تعالى قال (والذين

www.besturdubooks.wordpress.com

يبتغون الكتاب) ولا يتصور الابتغاء من الصبى والمجنون . وعند أبى حنيفة رحمه الله : تجوز كتابة الصبى ويقبل عنه المولى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ يشترط أن يكون المولى مكلفاً مطلقاً ، فإن كان صبياً أو مجنوناً أو محجوراً عليه بالسفه لا تصح كتابته كما لا يصح بيعه ، ولأن قوله (فكاتبوهم) خطاب فلا يتناول غير العاقل ، وعند أبى حنيفة رحمه الله تصح كتابة الصبى بإذن الولى .

﴿ المسألة السادسة ﴾ اختلف العلماء فى أن قوله (فكاتبوهم) أمر إيجاب أو أمر استحباب ؟ فقال قائلون هو أمر إيجاب ، فيجب على الرجل أن يكاتب مملوكه إذا سأله ذلك بقيمته أو أكثر إذا علم فيه خيراً ، ولو كان بدون قيمته لم يلزمه ، وهذا قول عمرو بن دينار وعطاء ، وإليه ذهب داود بن على ومحمد بن جرير ، واحتجوا عليه بالآية والأثر . أما الآية فظاهر قوله تعالى (فكاتبوهم) لأنه أمر وهو للايجاب ، ويدل عليه أيضاً سبب نزول الآية ، فإنها نزلت فى غلام لحويطب ابن عبد العزى يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه ، فنزلت الآية فكاتبه على مائة دينار ووهب له منها عشرين ديناراً ، وأما الأثر فما روى أن عمر أمر أنساً أن يكاتب سيرين أبا محمد ابن سيرين فأبى ، فرفع عليه الدرة وضربه وقال (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) وحلف عليه ليكاتبنه ، ولو لم يكن ذلك واجباً لكان ضربه بالدرة ظلماً ، وما أنكر على عمر أحد من الصحابة فجرى ذلك مجرى الإجماع ، وقال أكثر الفقهاء إنه أمر استحباب وهو ظاهر قول ابن عباس والحسن والشعبى وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعى والثورى واحتجوا عليه بقوله عليه الصلاة والسلام « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه » وأنه لا فرق أن يطلب الكتابة أو يطلب بيعه ممن يعتقه فى الكفارة ، فكما لا يجب ذلك فكذا الكتابة وهذه طريقة المعاوضات أجمع وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف يصح أن يبيع ماله بماله ؟ قلنا إذا ورد الشرع به فيجب أن يجوز كما إذا علق عتقه على مال يكتسبه فيؤديه أو يؤدى عنه صار سبباً لعتقه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هل يستفيد العبد بعقد الكتابة ما لا يملكه ؟ لولا الكتابة ؟ قلنا نعم لأنه لو دفع إليه الزكاة ، ولم يكاتب لم يحل له أن يأخذها وإذا صار مكاتباً حل له وإذا دفع إلى مولاه حل له ، سواء أدى فعتق أو عجز فعاد إلى الرق ، ويستفيد أيضاً أن الكتابة تبعثه على الجد والاجتهاد فى الكسب ، فلولاها لم يكن ليفعل ذلك ، ويستفيد المولى الثواب لأنه إذا باعه فلا ثواب ، وإذا كاتبه ففيه ثواب ، ويستفيد أيضاً الولاء لأنه لو عتق من قبل غيره لم يكن له ولاء وإذا عتق بالكتابة فالولاء له ، فورد الشرع بجواز الكتابة لما ذكرناه من الفوائد .

أما قوله تعالى (إن علمتم فيهم خيراً) فذكروا فى الخير وجوهاً : (أحدها) ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن علمتم لهم حرفة ، فلا تدعوهم كلا على الناس » (وثانيها) قال عطاء الخير

www.besturdubooks.wordpress.com

المال وتلا (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً)أى ترك مالا ، قال وبلغنى ذلك عن ابن عباس (وثالثها) عن ابن سيرين قال إذا صلى وقال النخعى وفاء وصدقاً وقال الحسن صلاحا فى الدين (ورابعها) قال الشافعى رحمه الله المراد بالخير الأمانة والقوة على الكسب ، لأن مقصود الكتابة قلما يحصل إلا بهما فإنه ينبغى أن يكون كسوباً يحصل المال ويكون أميناً يصرفه فى نجومه ولا يضيعه فاذا فقد الشرطان أو أحدهما لايستحب أن يكاتبه ، والأقرب أنه لايجوز حمله على المال لوجهين : (الأول) أن المفهوم من كلام الناس إذا قالوا فلان فيه خير إنما يريدون به الصلاح فى الدين ولو أراد المال لقال إن علمتم لهم خيراً ، لأنه إنما يقال لفلان مال ولا يقال فيه مال(الثانى) أن العبد لامال له بل المال لسيده ، فالأولى أن يحمل على ما يعود على كتابته بالتمام ، وهو الذى ذكره الشافعى رحمه الله وهو أن يتمكن من الكسب ويوثق به بحفظ ذلك لأن كل ذلك مما يعود على كتابته بالتمام ودخل فيه تفسير النبى صلى الله عليه وسلم الخير لأنه عليه الصلاة والسلام فسره بالكسب وهو داخل فى تفسير الشافعى رحمه الله .

أما قوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى المخاطب بقوله (وآتوهم) على وجوه : (أحدها) أنه هو المولى يحط عنه جزءاً من مال الكتابه أو يدفع اليه جزءاً مما أخذ منه ، وهؤلاء اختلفوا فى قدره فنهم من جعل الخيار له وقال يجب أن يحط قدراً يقع به الاستغناء ، وذلك يختلف بكثرة المال وقلته ومنهم من قال يحط ربع المال ، روى عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن أنه كاتب غلاماً له فترك له ربع مكاتبته ، وقال إن علياً كان يأمرنا بذلك ويقول هو قول الله تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) فإن لم يفعل فالسبع ، لما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كاتب عبداً له بخمس وثلاثين ألفاً ووضع عنه خمسة آلاف ، ويروى أن عمر كاتب عبداً له فجاء بنجمه فقال له اذهب فاستعن به على أداء مال الكتابة ، فقال المكاتب لو تركته إلى آخر نجم؟ فقال إنى أخاف أن لا أدرك ذلك ثم قرأ هذه الآية ، وكان ابن عمر يؤخره إلى آخر النجوم مخافة أن يعجز (وثانيها) المراد وآتوهم سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات فى قوله (وفى الرقاب) وعلى هذا فالخطاب لغير السادة وهو قول الحسن والنخعى ، ورواية عطاء عن ابن عباس ، وأجمعوا على أنه لا يجوز للسيد أن يدفع صدقته المفروضة إلى مكاتب نفسه (وثالثها) أن هذا أمر من الله تعالى للسادة والناس أن يعينوا المكاتب على كتابته بما يمكنهم ، وهذا قول الكلبى وعكرمة والمقاتلين والنخعى وقال عليه الصلاة والسلام « من أعان مكاتباً على فك رقبته أظله الله تعالى فى ظل عرشه » ، وروى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم علمنى عملا يدخلنى الجنة قال « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعظمت المسألة ، أعتق النسمة وفك الرقبة ، فقال أليسا واحداً ؟ فقال لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها» قالوا ويؤكد هذا القول وجوه : (أحدها) أنه أمر بإعطائه

www.besturdubooks.wordpress.com

من مال الله تعالى وما أطلق عليه هذه الإضافة فهو ما كان سبيله الصدقة وصرفه فى وجوه القرب (وثانيها) أن قوله (من مال الله الذى آتاكم) هو الذى قد صح ملكه للمالك وأمر بإخراج بعضه ، ومال الكتابة ليس بدين صحيح لأنه على عبده والمولى لا يثبت له على عبده دين صحيح (وثالثها) أن ما آتاه الله فهو الذى يحصل فى يده ويمكنه التصرف فيه ، وما سقط عقيب العقد لم يحصل له عليه يد ملك ، فلا يستحق الصفة بأنه من مال الله الذى آتاه ، فان قيل ههنا وجهان يقدحان فى صحة هذا التأويل (أحدهما) أنه كيف يحل لمولاه إذا كان غنياً أن يأخذ من مال الصدقة (والثانى) أن قوله (وآتوهم) معطوف على قوله (فكاتبوهم) فيجب أن يكون المخاطب فى الموضعين واحداً ، وعلى هذا التأويل يكون المخاطب فى الآية الأولى السادات ، وفى الثانية سائر المسلمين قلنا : أما الأول فجوابه أن تلك الصدقة تحل لمولاه وكذلك إذا لم تقف الصدقة بجميع النجوم وعجز عن أداء الباقى كان للمولى ما أخذه لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة ، ولكن بسبب عقد الكتابة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها منه . يدل عليه قوله عليه الصلاة السلام فى حديث بريرة « هو لها صدقة ولنا هدية » (والجواب) عن الثانى أنه قد يصح الخطاب لقوم ثم يعطف عليه بمثل لفظه خطاباً لغيرهم ، كقوله تعالى (وإذا طلقتم النساء) فالخطاب للأزواج ثم خاطب الأولياء بقوله (فلا تعضلوهن) وقوله (مبرءون مما يقولون) والقائلون غير المبرئين فكذا ههنا قال للسادة (فكاتبوهم) وقال لغيرهم (وآتوهم) أو قال لهم ولغيرهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الشافعى رحمه الله يجب على المولى إيتاء المكاتب وهو أن يحط عنه جزءاً من مال الكتابة أو يدفع إليه جزءاً مما أخذ منه ، وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابه إنه مندوب اليه لكنه غير واجب ، حجة الشافعى رحمه الله ظاهر قوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) والأمر للوجوب فقيل عليه إن قوله (فكاتبوهم) وقوله (وآتوهم) أمران وردا فى صورة واحدة فلم جعلت الأولى ندبا والثانى إيجاباً ؟ وأيضاً فقد ثبت أن قوله (وآتوهم) ليس خطاباً مع الموالى بل مع عامة المسلمين . حجة أبى حنيفة رحمه الله من حيث السنة والقياس ، أما السنة فما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه عليه الصلاة والسلام قال «أيما عبد كاتب على مائة أوقية فأداها إلا عشر أواق فهو عبد» فلو كان الحط واجبا لسقط عنه بقدره ، وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت «جاءتنى بريرة فقالت يا عائشة إنى قد كاتبت أهلى على تسع أواق فى كل عام أوقية فأعيتنى ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً فقالت عائشة رضى الله عنها ارجعى إلى أهلك فإن أحبوا أن أعطيهم ذلك جميعاً ويكون ولاؤك لى فعلت ، فأبوا فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال لا يمنعك ذلك منها ابتاعى وأعتقى ، فانما الولاء لمن أعتق» وجه الاستدلال أنها ما قضت من كتابتها شيئاً وأرادت عائشة أن تؤدى عنها كتابتها بالكلية وذكرته لرسول الله ﷺ وترك رسول الله النكير عليها ، ولم يقل إنها تستحق أن يحط عنها بعض كتابتها فثبت قولنا . وأما القياس فمن وجهين (الأول) لوكان الإيتاء واجباً لكان وجوبه متعلقاً بالعقد فيكون العقد موجباً

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

له ومسقطاً له وذلك محال لتنافى الإسقاط والإيجاب (الثانى) لو كان الحط واجباً لما احتاج إلى أن يضع عنه بل كان يسقط القدر المستحق كمن له على إنسان دين ثم حصل لذلك الآخر على الأول مثله فإنه يصير قصاصاً ، ولو كان كذلك لكان قدر الايتاء إما أن يكون معلوماً أو مجهولا فان كان معلوماً وجب أن تكون الكتابة بألفين فيعتق إذا أدى ثلاثة آلاف . والكتابة أربعة آلاف وذلك باطل لأن أداء جميعها مشروط فلايعتق بأداء بعضها ، ولأنه عليه السلام قال « المكاتب عبد مابقى عليه درهم » وإن كان مجهولا صارت الكتابة مجهولة لأن الباقى بعد الحط مجهول فيصير بمنزلة من كاتب عبده على ألف درهم إلا شيئاً وذلك غير جائز والله أعلم .

﴿ الحكم العاشر ﴾ الاكراه على الزنا ، قوله تعالى ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم من تزويج العبيد والإماء وكتابتهم أتبع ذلك بالمنع من إكراه الإماء على الفجور ، وههنا مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ اختلفوا فى سبب نزولها على وجوه (الأول) كان لعبد الله بن أبى المنافق ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت [ا] ثنتان منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية (وثانيها) أن عبد الله ابن أبى أسر رجلا فراود الأسير جارية عبد الله وكانت الجارية مسلمة فامتنعت الجارية لإسلامها وأكرهها ابن أبى على ذلك ، رجاء أن تحمل من الأسير فيطلب فداء ولده فنزلت (وثالثها) روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « جاء عبدالله بن أبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جارية من أجمل النساء تسمى معاذة ، فقال يا رسول الله هذه لأيتام فلان أفلا نأمرها بالزنا فيصيبون من منافعها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام لا فأعاد الكلام » فنزلت الآية وقال جابر بن عبد الله « جاءت جارية لبعض الناس فقالت إن سيدى يكرهنى على البغاء » فنزلت الآية .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ الإكراه إنما يحصل متى حصل التخويف بما يقتضى تلف النفس فأما باليسير من الخوف فلا تصير مكرهة ، فحال الإكراه على الزنا كحال الإكراه على كلمة الكفر والنص وإن كان مختصاً بالإماء إلا أن حال الحرائر كذلك .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ العرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة ، قال تعالى (فلما جاوزا قال لفتاه) وقال (تراود فتاها) وقال (مما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) وفى الحديث

www.besturdubooks.wordpress.com

« ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدي وأمتى » .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ البغاء الزنا يقال بغت تبغى بغاء فهى بغى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الذى نقول به أن المعلق بكلمة إن على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء ، والدليل عليه اتفاق أهل اللغه على أن كلمة إن للشرط واتفاقهم على أن الشرط ما ينتفى الحكم عند انتفائه ، وبمجموع هاتين المقدمتين النقليتين يوجب الحكم بأن المعلق بكلمة إن على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء ، واحتج المخالف بهذه الآيه فقال إنه سبحانه علق المنع من الإكراه على البغاء على إرادة التحصن بكلمة إن فلو كان الأمر كما ذكرتموه لزم أن لا ينتفى المنع من الإكراه على الزنا إذا لم توجد إرادة التحصن وذلك باطل، فإنه سواء وجدت إدارة التحصن أو لم توجد فان المنع من الإكراه على الزنا حاصل (والجواب) لا نزاع أن ظاهر الآية يقتضى جواز الإكراه على الزنا عند عدم إرادة التحصن ولكنه فسد ذلك لامتناعه فى نفسه لأنه متى لم توجد إرادة التحصن فى حقها لم تكن كارهة للزنا ، وحال كونها غير كارهة للزنا يمتنع إكراهها على الزنا فامتنع ذلك لامتناعه فى نفسه وذاته ، ومن الناس من ذكر فيه جواباً آخر وهو أن غالب الحال أن الإكراه لا يحصل إلا عند إرادة التحصن ، والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم ، الخطاب كما أن الخلع يجوز فى غير حالة الشقاق ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع فى حالة الشقاق لاجرم لم يكن لقوله تعالى (فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) مفهوم ومن هذا القبيل قوله (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) والقصر لا يختص بحال الخوف ولكنه سبحانه أجراه على سبيل الغالب ، فكذا ههنا (والجواب) الثالث معناه إذا أردن تحصناً لأن القصة التى وردت الآية فيها كانت كذلك على مارويناه أن جارية عبد الله بن أبى أسلمت وامتنعت عليه طلباً للعفاف فأكرهها فنزلت الآية موافقة لذلك ، نظيره قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) أى وإذا كنتم فى ريب .

﴿ المسألة السادسة ﴾ أنه تعالى لما منع من إكراههن على الزنا ففيه ما يدل على أن لهم إكراههن على النكاح فليس لها أن تمتنع على السيد إذا زوجها بل له أن يكرهها على ذلك وهذه الدلالة دلالة دليل الخطاب .

أما قوله (إن أردن تحصناً) أى تعففاً (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) يعنى كسبهن وأولادهن

أما قوله (ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) فاعلم أنه ليس فى الآية [بيان] أنه تعالى غفور رحيم للمكره أو للمكرهة لا جرم ذكروا فيه وجهين (أحدهما) فان الله غفور رحيم بهن ، لأن الإكراه أزال الإثم والعقوبة ، لأن الإكراه عذر للمكرهة ، أما المكره فلا عذر له فيما فعل (الثانى) المراد فان الله غفور رحيم بالمكره بشرط التوبة وهذا ضعيف لأن على التفسير

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ

الأول لا حاجة إلى هذا الإضمار ، وعلى التفسير الثانى يحتاج إليه .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر فى هذه السورة هذه الأحكام وصف القرآن بصفات ثلاثة (أحدها) قوله (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) أى مفصلات ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم مبينات بكسر الياء على معنى أنها تبين للناس كما قال (بلسان عربى مبين) أو تكون من بين بمعنى تبين ، ومنه المثل: قد بين الصبح لذى عينين (وثانيها) قوله (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) وفيه وجهان (أحدهما) أنه تعالى يريد بالمثل ماذكر فى التوراة والإنجيل من إقامة الحدود فأنزل فى القرآن مثله ، وهو قول الضحاك (والثانى) قوله (ومثلا) أى شبهاً من حالهم بحالكم فى تكذيب الرسل،يعنى بينا لكم ما أحللنا بهم من العقاب لتمردهم على الله تعالى ، فجعلنا ذلك مثلا لكم لتعلموا أنكم إذا شاركتموهم فى المعصية كنتم مثلهم فى استحقاق العقاب ، وهو قول مقاتل (وثالثها) قوله (وموعظة للمتقين) والمراد به الوعيد والتحذير من فعل المعاصى ولا شبهة فى أنه موعظة للكل ، لكنه تعالى خص المتقين بالذكر للعلة التى ذكرناها فى قوله (هدى للمتقين) وههنا آخر الكلام فى الأحكام .

القول فى الالهيات

اعلم أنه تعالى ذكر مثلين (أحدهما) فى بيان أن دلائل الإيمان فى غاية الظهور (الثانى) فى بيان أن أديان الكفرة فى نهاية الظلمة والخفاء .

أما المثل الأول فهو قوله **قوله تعالى :** ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره

www.besturdubooks.wordpress.com

مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾

اعلم أن الكلام فى هذه الآية مرتب على فصول :

﴿ الفصل الأول فى إطلاق اسم النور على الله تعالى ﴾

اعلم أن لفظ النور موضوع فى اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما ، وهذه الكيفية يستحيل أن تكون إلهاً لوجوه (أحدها) أن هذه الكيفية إن كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالا على حدوثها ، وإن كانت عرضاً فمتى ثبت حدوث جميع الأعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة إنما تثبت بعد إقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال (وثانيها) أنا سواء قلنا النور جسم أو أمر حال فى الجسم فهو منقسم ، لأنه إن كان جسما فلا شك فى أنه منقسم ، وإن كان حالا فيه ، فالحال فى المنقسم منقسم ، وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فانه يفتقر فى تحققه إلى تحقق أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره ، وكل مفتقر فهو فى تحققه مفتقر إلى غيره ، والمفتقر إلى الغير ممكن لذاته محدث بغيره ، فالنور محدث فلا يكون إلهاً (وثالثها) أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى (ورابعها) أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب . وذلك على الله محال (وخامسها) أن هذه الأنوار لو كانت أزلية لكانت إما أن تكون متحركة أو ساكنة ، لا جائز أن تكون متحركة لأن الحركة معناها الانتقال من مكان إلى مكان فالحركة مسبوقة بالحصول فى المكان الأول . والأزلى يمتنع أن يكون مسبوقاً بالغير فالحركة الأزلية محال . ولا جائز أن تكون ساكنة لأن السكون لو كان أزلياً لكان ممتنع الزوال لكن السكون جائز الزوال ، لأنا نرى الأنوار تنتقل من مكان إلى مكان فدل ذلك على حدوث الأنوار (وسادسها) أن النور إما أن يكون جسما أو كيفية قائمة بالجسم ، والأول محال لأنا قد نعقل الجسم جسما مع الذهول عن كونه نيراً ولأن الجسم قد يستنير بعد أن كان مظلماً فثبت الثانى لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة إلى الجسم ، والمحتاج إلى الغير لا يكون إلهاً ، وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون أن الإله سبحانه هو النور الأعظم . وأما المجسمة المعترفون بصحة القرآن فيحتج على فساد قولهم بوجهين : (الأول) قوله (ليس كمثله شيء) ولو كان نوراً لبطل ذلك لأن الأنوار كلها متماثلة (الثانى) أن قوله تعالى (مثل نوره) صريح فى أنه ليس ذاته نفس النور بل النور مضاف اليه . وكذا قوله (يهدى الله لنوره من يشاء) فان قيل قوله (الله نور السموات) يقتضى ظاهره أنه فى ذاته نور . وقوله (مثل نوره) يقتضى أن لا يكون هو فى ذاته نوراً وبينهما تناقض ، قلنا نظير هذه الآية قولك زيد

www.besturdubooks.wordpress.com

كرم وجود ، ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده ، وعلى هذا الطريق لا تناقض (الثالث) قوله سبحانه وتعالى (وجعل الظلمات والنور) وذلك صريح فى أن ماهية النور مجعولة لله تعالى فيستحيل أن يكون الإله نوراً ، فثبت أنه لابد من التأويل ، والعلماء ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أن النور سبب للظهور والهداية لما شاركت النور فى هذا النور فى هذا المعنى صح إطلاق اسم النور على الهداية وهو كقوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).

وقوله (أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً) وقال (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) فقوله (الله نور السموات والأرض) أى ذو نور السموات والأرض والنور هو الهداية ولا تحصل إلا لأهل السموات ، والحاصل أن المراد الله هادى أهل السموات والأرض وهو قول ابن عباس والأكثرين رضى الله عنهم (وثانيها) المراد أنه مدبر السموات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد، فانه إذا كان مدبرهم تدبيراً حسناً فهولهم كالنور الذى يهتدى به إلى مسالك الطرق ، قال جرير :

وأنت لنا نور وغيث وعصمة

وهذا اختيار الأصم والزجاج (وثالثها) المراد ناظم السموات والأرض على الترتيب الأحسن فانه قد يعبر بالنور على النظام ، يقال ما أرى لهذا الأمر نوراً (ورابعها) معناه منور السموات والأرض ثم ذكروا فى هذا القول ثلاثة أوجه (أحدها) أنه منور السماء بالملائكة والأرض بالأنبياء (والثانى) منورها بالشمس والقمر والكواكب (والثالث) أنه زين السماء بالشمس والقمر والكواكب وزين الأرض بالأنبياء والعلماء ، وهو مروى عن أبى بن كعب والحسن وأبى العالية والأقرب هو القول الأول لأن قوله فى آخر الآية (يهدى الله لنوره من من يشاء) يدل على أن المراد بالنور الهداية إلى العلم والعمل . واعلم أن الشيخ الغزالى رحمه الله صنف فى تفسير هذه الآية الكتاب المسمى بمشكاة الأنوار ، وزعم أن الله نور فى الحقيقة بل ليس النور إلا هو ، وأنا أنقل محصل ما ذكره مع زوائد كثيرة تقوى كلامه ثم ننظر فى صحته وفساده على سبيل الإنصاف فقال : اسم النور إنما وضع للكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الأجسام الكثيفة ، فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الثوب ونور السراج على الحائط ، ومعلوم أن هذه الكيفية إنما اختصت بالفضيلة والشرف لأن المرئيات تصير بسببها ظاهرة منجلية ، ثم من المعلوم أنه كما يتوقف إدراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة فكذا يتوقف على وجود العين الباصرة إذ المرئيات بعد استنارتها لا تكون ظاهرة فى حق العميان فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهرة فى كونه ركناً لابد منه للظهور ، ثم يرجح عليه فى أن الروح الباصرة هى المدركة وبها الإدراك ، وأما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الإدراك بل عنده الإدراك ، فكان وصف الإظهار بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر فلا جرم أطلقوا

www.besturdubooks.wordpress.com

اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا فى الخفاش إن نور عينه ضعيف ، وفى الأعمش إنه ضعف نوره بصره . وفى الأعمى إنه فقد نور البصر . إذا ثبت هذا فنقول إن للانسان بصراً وبصيرة فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان، والبصيرة هى القوة العاقلة وكل واحد من الإدراكين يقتضى ظهور المدرك ، فكل واحد من الإدراكين نور إلا أنهم عددوا لنور العين عيوباً لم يحصل شىء منها فى نور العقل ، والغزالى رحمه الله ذكر منها سبعة ، ونحن جعلناها عشرين (الأول) أن القوة الباصرة لاتدرك نفسها ولا تدرك إدراكها ولا تدرك آلتها . أما أنها لاتدرك نفسها ولا تدرك إدراكها فلأن القوة الباصرة وإدراك القوة الباصرة ليسا من الأمور المبصرة بالعين الباصرة ، وأما آلتها فهى العين ، والقوة الباصرة بالعين لا تدرك العين ، وأما القوة العاقلة فانها تدرك نفسها وتدرك إدراكها وتدرك آلتها فى الادراك وهى القلب والدماغ ، فثبت أن نور العقل أكمل من نور البصر (الثانى) أن القوة الباصرة لاتدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها ، ومدرك الكليات وهو القلب أشرف من مدرك الجزئيات . أما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلأن القوة الباصرة لو أدركت كل ما فى الوجود فهى ما أدركت الكل لأن الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله فى الوجود فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وأما أن القوة العاقلة تدرك الكليات فلأنا نعرف أن الأشخاص الإنسانية مشتركة فى الإنسانية ومتمايزة بخصوصياتها ، وما به المشاركة غير ما به المايزة ، فالإنسانية من حيث هى إنسانية أمر مغاير لهذه المشخصات فقد عقلنا الماهية الكلية . وأما أن إداك الكليات أشرف فلأن إدراك الكليات ممتنع التغير ، وإدراك الجزئيات واجب التغير ، ولأن إدراك الكلى يتضمن إدراك الجزئيات الواقعة تحته ، لأن ماثبت للماهية ثبت لجميع أفرادها ولا ينعكس ، فثبت أن الادراك العقلى أشرف (الثالث) الادراك الحسى غير منتج والادراك العقلى منتج فوجب أن يكون العقل أشرف . أما كون الادراك الحسى غير منتج فلأن من أحس بشىء لا يكون ذلك الاحساس سبباً لحصول إحساس آخر له ، بل لو استعمل له الحس مرة أخرى لأحس به مرة أخرى ولكن ذلك لا يكون إنتاج الاحساس لإحساس آخر ، وأما أن الادراك العقلى منتج فلأنا إذا عقلنا أموراً ثم ركبناها فى عقولنا توسلنا بتركيبها إلى اكتساب علوم أخرى ، وهكذا كل تعقل حاصل فانه يمكن التوسل به إلى تحصيل تعقل آخر إلى ما لانهاية له ، فثبت أن الادراك العقلى أشرف (الرابع) الادراك الحسى لا يتسع للامور الكثيرة والادراك العقلى ، يتسع لها فوجب أن يكون الادراك العقلى أشرف . أما أن الادراك الحسى لا يتسع لها فلأن البصر إذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها ، فأدرك لوناً كأنه حاصل من اختلاط تلك الألوان [و] السمع إذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التمييز ، وأما أن الادراك العقلى متسع لها فلأن كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل ، وبالعكس وذلك يوجب الحكم بأن الادراك العقلى أشرف (الخامس) القوة الحسية إذا

www.besturdubooks.wordpress.com

أدركت المحسوسات القوية في ذلك الوقت تعجز عن إدراك الضعيفة ، فان من سمع الصوت الشديد ففي تلك الحالة لا يمكنه أن يسمع الصوت الضعيف والقوة العقلية لا يشغلها معقول عن معقول (السادس) القوى الحسية تضعف بعد الأربعين ، وتضعف عند كثرة الأفكار التي هي موجبا لاستيلاء النفس على البدن الذي هو موجب لخراب البدن ، والقوى العقلية تقوى بعد الأربعين وتقوى عند كثرة الأفكار الموجبة لخراب البدن ، فدل ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات واحتياج القوى الحسية إليها (السابع) القوة الباصرة لا تدرك المرئي مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد ، والقوة العقلية لا يختلف حالها بحسب القرب والبعد ، فإنها تترقى إلى ما فوق العرش وتنزل إلى ما تحت الثرى في أقل من لحظة واحدة ، بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزها عن القرب والبعد والجهة فكانت القوة العقلية أشرف (الثامن) القوة الحسية لا تدرك من الأشياء إلا ظواهرها فإذا أدركت الانسان فهي في الحقيقة ما أدركت الانسان لأنها ما أدركت إلا السطح الظاهر من جسمه ، وإلا اللون القائم بذلك السطح ، وبالاتفاق فليس الانسان عبارة عن مجرد السطح واللون فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ في الباطن ، أما القوة العاقلة فان باطن الأشياء وظاهرها بالنسبة اليها على السواء فإنها تدرك البواطن والظواهر وتغوص فيها وفي أجزائها ، فكانت القوة العاقلة نوراً بالنسبة إلى الباطن والظاهر ، أما القوة الباصرة فهي بالنسبة إلى الظاهر نور وبالنسبة إلى الباطن ظلمة ، فكانت القوة العاقلة أشرف من القوة الباصرة (التاسع) أن مدرك القوة العاقلة هو الله تعالى وجميع أفعاله ، ومدرك القوة الباصرة هو الألوان والأشكال ، فوجب أن تكون نسبة شرف القوة العاقلة إلى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى إلى شرف الألوان والأشكال (العاشر) القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التي هي معروضات الموجودات والمعدومات ، ولذلك فإن أول حكمه أن الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وذلك مسبوق لا محالة بتصور مسمى الوجود ومسمى العدم فكأنه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الأمور من بعض الوجوه . وأما القوة الباصرة فإنها لا تدرك إلا الأضواء والألوان وهما من أخس عوارض الأجسام والأجسام أخس من الجواهر الروحانية ، فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات. وأما متعلق القوة العاقلة فهو جميع الموجودات والمعدومات فكانت القوة العاقلة أشرف (الحادي عشر) القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير وتكثير الواحد ، والقوة الباصرة لا تقوى على ذلك . أما أن القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير ، فذاك لأنها تضم الجنس إلى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة ، وأما أنها تقوى على تكثير الواحد فلأنها تأخذ الإنسان وهي ماهيه واحدة فتقسمها إلى مفهوماتها وإلى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة ، ثم تقسم مقوماته إلى الجنس وجنس الجنس ، والفصل وفصل الفصل ، وجنس الفصل وفصل الجنس ،

www.besturdubooks.wordpress.com

إلى سائر الأجزاء المقومة التى لا تعد من الأجناس ولا من الفصول ، ثم لا تزال تأتى بهذا لتقسيم فى كل واحد من هذه الأقسام حتى تنتهى من تلك المركبات إلى البسائط الحقيقية ، ثم عتبر فى العوارض اللازمة أن تلك العوارض مفردة أو مركبة ولازمة بوسائط أو بوسط ، أو غير وسط ، فالقوة العاقلة كأنها نفذت فى أعماق الماهيات وتغلغلت فيها وميزت كل واحد من جزائها عن صاحبه ، وأنزلت كل واحد منها فى المكان اللائق به . فأما القوة الباصرة فلا تطلع على أحوال الماهيات ، بل لا ترى إلا أمراً واحداً ولا تدرى ما هو وكيف هو ، فظهر أن القوة العاقلة أشرف (الثانى عشر) القوة العاقلة تقوى على إدراكات غير متناهية ، والقوة الحاسة لا تقوى على ذلك بيان الأول من وجوه (الأول) القوة العاقلة يمكنها أن تتوسل بالمعارف الحاضرة إلى استنتاج المجهولات ، ثم إنها تجعل تلك النتائج مقدمات فى نتائج أخرى لا إلى نهاية ، وقد عرفت أن القوة الحاسة لا تقوى على الاستنتاج أصلا (الثانى) أن القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الأعداد ولا نهاية لها (الثالث) أن القوة العاقلة يمكنها أن تعقل نفسها ، وأن تعقل أنها عقلت وكذا إلى غير النهاية (الرابع) النسب والإضافات غير متناهية وهى معقولة لامحسوسة فظهر أن القوة العاقلة أشرف (الثالث عشر) الإنسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى فى إدراك الحقائق وبقوته الحاسة يشارك البهائم ، والنسبة معتبرة فكانت القوة العاقلة أشرف (الرابع عشر) القوة العاقلة غنية فى إدراكها العقلى عن وجود المعقول فى الخارج ، والقوة الحاسة محتاجة فى إدراكها الحسى إلى وجود المحسوس فى الخارج ، والغنى أشرف من المحتاج (الخامس عشر) هذه الموجودات الخارجية ممكنة لذواتها وأنها محتاجة إلى الفاعل ، والفاعل لا يمكنه الايجاد على سبيل الاتقان إلا بعد تقدم العلم ، فإذن وجود هذه الأشياء فى الخارج تابع للادراك العقلى ، وأما الاحساس بها فلا شك أنه تابع لوجودها فى الخارج ، فإذن القوة الحساسة تبع لتبع القوة العاقلة (السادس عشر) القوة العاقلة غير محتاجة فى العقل إلى الآلات بدليل أن الانسان لو اختلت حواسه الخمس ، فانه يعقل أن الواحد نصف الاثنين ، وأن الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية . وأما القوة الحساسة فانها محتاجة إلى آلات كثيرة ، والغنى أفضل من المحتاج ، (السابع عشر) الادراك البصرى لا يحصل إلا للشىء الذى فى الجهات ، ثم إنه غير متصرف فى كل الجهات بل لا يتناول إلا المقابل أو ماهو فى حكم المقابل ، واحترزنا بقولنا فى حكم المقابل عن أمور أربعة (الأول) العرض فانه ليس بمقابل لأنه ليس فى المكان ، ولكنه فى حكم المقابل لأجل كونه قائماً بالجسم الذى هو مقابل (الثانى) رؤية الوجه فى المرآة ، فان الشعاع يخرج من العين إلى المرآة ، ثم يرتد منها إلى الوجه فيصير الوجه مرئياً ، وهو من هذا الاعتبار كالمقابل لنفسه (الثالث) رؤية الانسان قفاه إذا جعل إحدى المرآتين محاذية لوجهه والأخرى لقفاه (والرابع) رؤية ما لا يقابل بسبب انعطاف الشعاع فى الرطوبات كما هو مشروح فى كتب المناظر (١) وأما

(١) يريد بالمناظر المرايا.

www.besturdubooks.wordpress.com

القوة العاقلة فإنها مبرأة عن الجهات ، فإنها تعقل الجهة والجهة ليست فى الجهة ، ولذلك تعقل أن الشيء إما أن يكون فى الجهة ، وإما ان لا يكون فى الجهة ، وهذا الترديد لايصح إلا بعد تعقل معنى قولنا ليس فى الجهة (الثامن عشر) القوة الباصرة تعجز عند الحجاب ، وأما القوة العاقلة فإنها لايحجبها شيء أصلاً فكانت أشرف (التاسع عشر) القوة العاقلة كالأمير ، والحاسة كالخادم والأمير أشرف من الخادم ، وتقرير [الفرق بين] الامارة والخدمة مشهور (العشرون) القوة الباصرة قد تغلط كثيراً فإنها قد تدرك المتحرك ساكناً وبالعكس ، كالجالس فى السفينة ، فانه قد يدرك السفينة المتحركة ساكنة والشط الساكن متحركا ، ولولا العقل لما تميز خطأ البصر عن صوابه ، والعقل حاكم والحس محكوم ، فثبت بما ذكرنا أن الإدراك العقلى أشرف من الإدراك البصرى ، وكل واحد من الإدراكين يقتضى الظهور الذى هو أشرف خواص النور ، فكان الإدراك العقلى أولى بكونه نوراً من الإدراك البصرى ، وإذا ثبت هذا فنقول هذه الأنوار العقلية قسمان (أحدهما) واجب الحصول عند سلامة الأحوال وهى التعقلات الفطرية (والثانى) ما يكون مكتسباً وهى التعقلات النظرية .أما الفطرية فليست هى من لوازم جوهر الانسان لأنه حال الطفولية لم يكن عالماً البتة فهذه الأنوار الفطرية إنما حصلت بعد أن لم تكن فلا بد لها من سبب وأما النظريات فعلوم أن الفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ فى الأكثر وإذا كان كذلك فلا بد من هاد مرشد ولا مرشد فوق كلام الله تعالى وفوق إرشاد الأنبياء ، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة إذ به يتم الابصار ، فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً كما يسمى نور الشمس نوراً ، فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور العين وبهذا يظهر معنى قوله (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) وقوله (قد جاءكم برهان من ربكم) (وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) وإذا ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم فى النورانية من الشمس ، وكما أن الشمس فى عالم الأجسام تفيد النور لغيره ولا تستفيده من غيره فكذا نفس النبى ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية ، ولا تستفيد الأنوار العقلية من شيء من الأنفس البشرية ، فلذلك وصف الله تعالى الشمس بأنها سراج حيث قال (وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) ووصف محمداً ﷺ بأنه سراج منير ، إذا عرفت هذا فنقول ثبت بالشواهد العقلية والنقلية أن الانوار الحاصلة فى أرواح الأنبياء مقتبسة من الأنوار الحاصلة فى أرواح الملائكة قال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) وقال (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقال (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال تعالى (إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى) والوحى لا يكون إلا بواسطة الملائكة فإذا جعلنا أرواح الانبياء أعظم استنارة من الشمس فأرواح الملائكة التى هى كالمعادن لأنوار عقول الأنبياء لابد وأن تكون أعظم من أنوار أرواح الأنبياء ، لأن السبب لابد وأن يكون أقوى من المسبب. ثم نقول ثبت أيضاً بالشواهد العقلية والنقلية أن الأرواح السماوية مختلفة فبعضها مستفيدة وبعضها

www.besturdubooks.wordpress.com

مفيدة ، قال تعالى فى وصف جبريل عليه السلام (مطاع ثم أمين) وإذا كان هو مطاع الملائكة فالمطيعون لابد وأن يكونوا تحت أمره وقال (وما منا إلا له مقام معلوم) وإذا ثبت هذا فالمفيد أولى بأن يكون نوراً من المستفيد للعلة المذكورة ولمراتب الأنوار فى عالم الإرواح مثال وهو أن ضوء الشمس إذا وصل إلى القمر ثم دخل فى كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منها إلى حائط آخر نصب عليه مرآة أخرى ثم انعكس منها إلى طست مملوء من الماء موضوع على الارض انعكس منه إلى سقف البيت فالنور الأعظم فى الشمس التى هى المعدن ، وثانياً فى القمر ، وثالثاً ما وصل إلى المرآة الأولى ، ورابعاً ما وصل إلى المرآة الثانية ، وخامساً ما وصل إلى الماء ، وسادساً ما وصل إلى السقف ، وكل ما كان أقرب إلى المنبع الأول فانه أقوى مما هو أبعد منه فكذا الأنوار السماوية لما كانت مرتبة لاجرم كان نور المفيد أشد إشراقاً من نور المستفيد ، ثم تلك الأنوار لا تزال تكون مترقية حتى تنتهى إلى النور الأعظم والروح الذى هو أعظم الأرواح منزلة عند الله الذى هو المراد من قوله سبحانه (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ثم نقول لاشك أن هذه الأنوار الحسية إن كانت سفلية كانت كأنوار النيران أو علوية كانت كأنوار الشمس والقمر والكواكب ، وكذا الأنوار العقلية سفلية كانت كالأرواح السفلية التى للأنبياء والأولياء أو علوية كالأرواح العلوية التى هى الملائكة ، فانها بأسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره ، والعدم هو الظلمة الحاصلة والوجود هو النور ، فكل ماسوى الله مظلم لذاته مستنير بإنارة الله تعالى وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى ، فالحق سبحانه هو الذى أظهرها بالوجود بعد أن كانت فى ظلمات العدم وأفاض عليها أنوار المعارف بعد أن كانت فى ظلمات الجهالة ، فلا ظهور لشىء من الأشياء إلا بإظهاره ، وخاصة النور إعطاء الإظهار والتجلى والانكشاف ، وعند هذا يظهر أن النور المطلق هو الله سبحانه وأن إطلاق النور على غيره مجاز إذ كل ماسوى الله ، فانه من حيث هو هو ظلمة محضة لأنه من حيث إنه هو عدم محض ، بل الأنوار إذا نظرنا إليها من حيث هى هى فهى ظلمات ، لأنها من حيث هى هى ممكنات ، والممكن من حيث هو هو معدوم ، والمعدوم مظلم . فالنور إذا نظر إليه من حيث هو هو ظلمة ، فأما إذا التفت إليها من حيث أن الحق سبحانه أفاض عليها نور الوجود فبهذا الاعتبار صارت أنواراً . فثبت أنه سبحانه هو النور . وأن كل ماسواه فليس بنور إلا على سبيل المجاز . ثم إنه رحمه الله تكلم بعد هذا فى أمرين (الأول) أنه سبحانه لم أضاف النور إلى السموات والأرض ؟ وأجاب فقال قد عرفت أن السموات والأرض مشحونة بالأنوار العقلية والأنوار الحسية ، أما الحسية فما يشاهد فى السموات من الكواكب والشمس والقمر وما يشاهد فى الأرض من الأشعة المنبسطة على سطوح الأجسام حتى ظهرت به الألوان المختلفة ، ولولاها لم يكن للألوان ظهور بل وجود ، وأما الأنوار العقلية فالعالم الأعلى مشحون بها وهى جواهر الملائكة والعالم الأسفل

www.besturdubooks.wordpress.com

مشحون بها وهى القوى النباتية والحيوانية والإنسانية وبالنور الانسانى السفلى ظهر نظام عالم السفل كما بالنور الملكى ظهر نظام عالم العلو ، وهو المعنى بقوله تعالى (ليستخلفنهم فى الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) فاذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنية العقلية ، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج فإن السراج هو الروح النبوى ، ثم أن الأنوار النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النور ، وأن العلويات مقتبسة بعضها من بعض وأن بينها ترتيباً فى المقامات ، ثم ترتقى جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول ، وأن ذلك هو الله وحده لاشريك له ، فإذن الكل نوره فلهذا قال (الله نور السموات والأرض) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ فاذا كان الله النور فلم احتيج فى إثباته إلى البرهان ؟ أجاب فقال إن معنى كونه نور السموات والأرض معروف بالنسبة إلى النور الظاهر البصرى ، فاذا رأيت خضرة الربيع فى ضياء النهار فلست تشك فى أنك ترى الألوان فربما ظننت أنك لا ترى مع الألوان غيرها ، فإنك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة إلا أنك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه وحال عدم وقوعه عليه ، فلا جرم تعرف أن النور معنى غير اللون يدرك مع الألوان إلا أنه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يختفى وقد يكون الظهور سبب الخفاء ، إذا عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شىء للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شىء للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شىء لايفارقه ، ولكن بقى ههنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ، ويحجب فحينئذ يظهر أنه غير اللون ، وأما النور الالهى الذى به يظهر كل شىء لايتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الأشياء دائماً ، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ، ولو تصورت غيبته لا نهدمت السموات والأرض ولأدرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضرورى به ، ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد فى الشهادة على وجود خالقها ، وأن كل شىء يسبح بحمده لا بعض الأشياء ، وفى جميع الأوقات لا فى بعض الأوقات ارتفعت التفرقة وخفى الطريق ، إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالاضداد فما لاضد له ولا تغير له بتشابه أحواله ، فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه ، فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم بإشراق نوره ، واعلم أن هذا الكلام الذى رويناه عن الشيخ الغزالى رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق إلى أن معنى كونه سبحانه نوراً أنه خالق للعالم وأنه خالق للقوى الدراكة ، وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والأرض أنه هادى أهل السموات والأرض ، فلا تفاوت بين ماقاله وبين الذى نقلناه عن المفسرين فى المعنى والله أعلم .

﴿ الفصل الثانى ﴾ فى تفسير قوله عليه الصلاه والسلام « إن لله سبعين حجاباً من نور

www.besturdubooks.wordpress.com

وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره » وفى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها سبعون ألفاً ، فأقول : لما ثبت أن الله سبحانه وتعالى متجل فى ذاته لذاته كان الحجاب بالإضافة إلى المحجوب لامحالة والمحجوب لابد وأن يكون محجوباً ، إما بحجاب مركب من نور وظلمة ، وإما بحجاب مركب من نور فقط ، أو بحجاب مركب من ظلمة فقط ، أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا فى الاشتغال بالعلائق البدنية إلى حيث لم يلتفت خاطرهم إلى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا ؟ وذلك لأنك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم ، وإنما كان مستنيراً من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى ، فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هى هى وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات إلى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ، ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر .

﴿ القسم الثانى ﴾ المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة .

اعلم أن من نظر إلى هذه المحسوسات فاما أن يعتقد فيها أنها غنيـــة عن المؤثر ، أو يعتقد فيها أنها محتاجة ، فان اعتقد أنها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة (أما النور) فلأنه تصور ماهية الاستغناء عن الغير ، وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور (وأما الظلمة) فلأنه اعتقد حصول ذلك الوصف فى هذه الأجسام مع أن ذلك الوصف لا يليق بهذا الوصف وهذا ظلمة ، فثبت أن هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ، ثم أصناف هذا القسم كثيرة ، فان من الناس من يعتقد أن الممكن غنى عن المؤثر ، ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها إلى حركات الأفلاك أو إلى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم .

﴿ القسم الثالث الحجب النورانية المحضة ﴾

واعلم أنه لاسبيل إلى معرفة الحق سبحانه إلا بواسطة تلك الصفات السلبية والإضافية ولا نهاية لهذه الصفات ولمراتبها ، فالعبد لايزال يكون مترقياً فيها فان وصل إلى درجة وبقى فيها كان استغراقه فى مشاهدة تلك الدرجة حجاباً له عن الترقى إلى مافوقها ، ولما كان لا نهاية لهذه الدرجات كان العبد أبداً فى السير والانتقال ، وأما حقيقته المخصوصة فهى محتجبة عن الكل فقد أشرنا إلى كيفية مراتب الحجب ، وأنت تعرف أنه عليه الصلاة والسلام إنما حصرها فى سبعين ألفاً تقريباً لاتحديداً فانها لانهاية لها فى الحقيقة .

﴿ الفصل الثالث فى شرح كيفية التمثيل ﴾

اعلم أنه لابد فى التشبيه من أمرين : المشبه والمشبه به ، واختلف الناس ههنا فى أن المشبه أى شىء هو ؟ وذكروا وجوهاً (أحدها) وهو قول جمهور المتكلمين ونصره القاضى أن المراد

www.besturdubooks.wordpress.com

من الهدى التى هى الآيات البينات ، والمعنى أن هداية الله تعالى قد بلغت فى الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات وصارت فى ذلك بمنزلة المشكاة التى تكون فيها زجاجة صافية . وفى الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية فى الصفاء ، فان قيل لم شبهه بذلك وقد علمنا أن ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير ، قلنا إنه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذى يلوح وسط الظلمة لأن الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم إنما هو الشبهات التى هى كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذى يظهر فيما بين الظلمات ، وهذا المقصود لا يحصل من ضوء الشمس لأن ضوءها إذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص ، وإذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلا جرم كان ذلك المثل ههنا أليق وأوفق ، واعلم أن الأمور التى اعتبرها الله تعالى فى هذا المثال مما توجب كمال الضوء (فأولها) المصباح لأن المصباح إذا لم يكن فى المشكاة تفرقت أشعته ، أما إذا وضع فى المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر إنارة ، والذى يحقق ذلك أن المصباح إذا كان فى بيت صغير فانه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر فى البيت الكبير (وثانيها) أن المصباح إذا كان فى زجاجة صافية فان الأشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لما فى الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور ، والذى يحقق ذلك أن شعاع الشمس إذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء ، فان انعكست تلك الأشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة إلى الجانب الآخر كثرت الأنوار والأضواء وبلغت النهاية الممكنة (وثالثها) أن ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به ، فاذا كان ذلك الدهن صافياً خالصاً كانت حالته بخلاف حالته إذا كان كدراً وليس فى الأدهان التى توقد ما يظهر فيه من الصفاء مثل الذى يظهر فى الزيت فربما يبلغ فى الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد فى أجزائه (ورابعها) أن هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته ، فإذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى أنها كانت بارزة للشمس فى كل حالاتها يكون زيتونها أشد نضجاً ، فكان زيته أكثر صفاء وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره لأن زيادة الشمس تؤثر فى ذلك ، فاذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصاً كاملا فيصلح أن يجعل مثلا لهداية الله تعالى (وثانيها) أن المراد من النور فى قوله (مثل نوره) القرآن ويدل عليه قوله تعالى (قد جاءكم من الله نور) وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن أسلم (وثالثها) أن المراد هو الرسول لأنه المرشد ، ولأنه تعالى قال فى وصفه (وسراجاً منيراً) وهو قول عطاء ، وهذان القولان داخلان فى القول الأول ، لأن من جملة أنواع الهداية إنزال الكتب وبعثة الرسل . قال تعالى فى صفة الكتب (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقال فى صفة الرسل (رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (ورابعها) أن المراد منه ما فى قلب المؤمنين من معرفة

www.besturdubooks.wordpress.com

الله تعالى ومعرفة الشرائع ، ويدل عليه أن الله تعالى وصف الإيمان بأنه نور والكفر بأنه ظلمة ، فقال (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهوعلى نور من ربه) وقال تعالى (ليخرج الناس من الظلمات إلى النور) وحاصله أنه حمل الهدى على الاهتداء ، والمقصود من التمثيل أن إيمان المؤمن قد بلغ فى الصفاء عن الشبهات ، والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور ، وهو قول أبى ابن كعب وابن عباس ، قال أبى : مثل نور المؤمن ، وهكذا كان يقرأ ، وقيل إنه كان يقرأ : مثل نور من آمن به ، وقال ابن عباس : مثل نوره فى قلب المؤمن (وخامسها) ماذكره الشيخ الغزالى رحمه الله وهو : أنا بينا أن القوى المدركة أنوار ، ومراتب القوى المدركة الإنسانية خمسة (أحدها) القوة الحساسة ، وهى التى تتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنها أصل الروح الحيوانى ، وأوله إذ به يصير الحيوان حيواناً وهو موجود للصبى الرضيع (وثانيها) القوة الخيالية وهى التى تستثبت ما أورده الحواس وتحفظه مخزوناً عندها لتعرضه على القوة العقلية التى فوقها عند الحاجة إليه . (وثالثها) القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية (ورابعها) القوة الفكرية وهى التى تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفاً فتستنتج من تأليفها علماً بمجهول (وخامسها) القوة القدسية التى تختص بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الأولياء ، وتتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت وإليه الإشارة بقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) وإذا عرفت هذه القوى فهى بجملتها أنوار ، إذ بها تظهر أصناف الموجودات ، وأن هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالأمور الخمسة التى ذكرها الله تعالى وهى : المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت . أما الروح الحساس فاذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من عدة أثقب كالعينين والأذنين والمنخرين وأوفق مثال له من عالم الأجسام المشكاة (وأما الثانى) وهو الروح الخيالى فنجد له خواص ثلاثة (الأولى) أنه من طينة العالم السفلى الكثيف لأن الشيء المتخيل ذو قدر وشكل وحيز ، ومن شأن العلائق الجسمانية أن تحجب عن الأنوار العقلية المحضة التى هى التعقلات الكلية المجردة (والثانية) أن هذا الخيال الكثيف إذا صفا ورق وهذب صار موازناً للمعانى العقلية ومؤدياً لأنوارها وغير حائل عن إشراق نورها ، ولذلك فان المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعانى العقلية ، كما يستدل بالشمس على الملك ، وبالقمر على الوزير ، وبمن يختم فروج الناس وأفواههم على أنه مؤذن يؤذن قبل الصبح (والثالثة) أن الخيال فى بداية الأمر محتاج إليه جداً ليضبط بها المعارف العقلية ولا تضطرب ، فنعم المثالات الخيالية الجالبة للمعارف العقلية ،وأنت لا تجد شيئاً فى الأجسام يشبه الخيال فى هذه الصفات الثلاثة إلا الزجاجة ، فانها فى الأصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ، ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة (وأما الثالث) وهو القوة العقلية فهى القوية على إدراك الماهيات الكلية والمعارف

www.besturdubooks.wordpress.com

الإلهية ، فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح ، وقد عرفت هذا حيث بينا كون الأنبياء سرجاً منيرة (وأما الرابع) وهو القوة الفكرية فمن خواصها أنها تأخذ ماهية واحدة ، ثم تقسمها إلى قسمين كقولنا الموجود إما واجب وإما ممكن ، ثم تجعل كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ، ثم تقضي بالآخرة إلى نتائج وهي ثمراتها ، ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذوراً لأمثالها حتى تتأدى إلى ثمرات لا نهاية لها ، فبالحرى أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة ، وإذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف ونباتها ، فبالحرى أن لا يمثل بشجرة السفرجل والتفاح ، بل بشجرة الزيتون خاصة ، لأن لب ثمرتها هو الزيت الذى هو مادة المصابيح ، وله من بين سائر الأدهان خاصية زيادة الاشراق وقلة الدخان ، وإذا كانت الماشية التى يكثر درها ونسلها والشجرة التى تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالذى لا يتناهى إلى حد محدود أولى أن يسمى شجرة مباركة ، وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الأجسام ، فبالحرى أن تكون لاشرقية ولا غربية (وأما الخامس) وهو القوة القدسية النبوية فهى فى نهاية الشرف والصفاء ، فان القوة الفكرية تنقسم إلى مايحتاج إلى تعليم وتنبيه وإلى ما لايحتاج إليه ، ولا بد من وجود هذا القسم قطعاً للتسلسل ، فبالحرى أن يعبر عن هذا القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بأنه يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، فهذا المثال موافق لهذا القسم ، ولما كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض فالحس هو الأول وهو كالمقدمة للخيال والخيال كالمقدمة للعقل ، فبالحرى أن تكون المشكاة كالظرف للزجاجة التى هى كالظرف للمصباح (وسادسها) ماذكره أبو على بن سينا فإنه نزل هذه الأمثلة الخمسة على مراتب إدراكات النفس الانسانية ، فقال لاشك أن النفس الانسانية قابلة للمعارف الكلية والإدراكات المجردة ، ثم إنها فى أول الأمر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تسمى عقلا هيولياً وهى المشكاة (وفى المرتبة الثانية) يحصل فيها العلوم البديهية التى يمكن التوصل بتركيباتها إلى اكتساب العلوم النظرية ، ثم إن أمكنه الإنتقال إن كانت ضعيفة فهى الشجرة ، وإن كانت أقوى من ذلك فهى الزيت ، وإن كانت شديدة القوة جداً فهى الزجاجة التى تكون كأنها الكوكب الدرى ، وإن كانت فى النهاية القصوى وهى النفس القدسية التى للأنبياء فهى التى يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار (وفى المرتبة الثالثة) يكتسب من العلوم الفطرية الضرورية العلوم النظرية إلا أنها لاتكون حاضرة بالفعل ولكنها تكون بحيث متى شاء صاحبها استحضارها قدر عليه وهذا يسمى عقلا بالفعل وهذا المصباح (وفى المرتبة الرابعة) أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية حاصلة بالفعل ويكون صاحبها كأنه ينظر إليها وهذا يسمى عقلا مستفاداً وهو نور على نور لأن الملكة نور وحصول ماعليه الملكة نور آخر ، ثم زعم أن هذه العلوم التى تحصل فى الأرواح البشرية ، إنما تحصل من جوهر روحانى يسمى بالعقل الفعال وهو مدبر ما تحت كرة القمر وهو النار (وسابعها) قول بعض الصوفية هو أنه سبحانه شبه الصدر بالمشكاة والقلب

www.besturdubooks.wordpress.com

بالزجاجة والمغرفة بالمصباح ، وهذا المصباح إنما توقد من شجرة مباركة وهى إلهامات الملائكة لقوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره) وقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وإنما شبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم ، وإنما وصفها بأنها لاشرقية ولاغربية لأنها روحانية وإنما وصفهم بقوله (يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار) لكثرة علومها وشدة اطلاعها على أسرار ملكوت الله تعالى والظاهر ههنا أن المشبه غير المشبه به (وثامنها) قال مقاتل مثل نوره أى مثل نور الإيمان فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة فيها مصباح ، فالمشكاة نظير صلب عبد الله والزجاجة نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والمصباح نظير الإيمان فى قلب محمد أو نظير النبوة فى قلبه (وتاسعها) قال قوم المشكاة نظير إبراهيم عليه السلام والزجاجة نظير اسماعيل عليه السلام والمصباح نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والشجرة النبوة والرسالة (وعاشرها) أن قوله مثل نوره يرجع إلى المؤمن وهوقول أبى بن كعب وكان يقرأها مثل نورالمؤمن ، وهو قول سعيد ابن جبير والضحاك ، واعلم أن القول الأول هو المختار لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) فاذا كان المراد بقوله (مثل نوره) أى مثل هداه وبيانه كان ذلك مطابقاً لما قبله ، ولأنا لما فسرنا قوله (الله نورالسموات والأرض) بأنه هادى أهل السموات والأرض فاذا فسرنا قوله (مثل نوره) بأن المراد مثل هداه كان ذلك مطابقاً لما قبله .

﴿ الفصل الرابع — فى بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المشكاة الكوة فى الجدار غير النافذة ، هذا هو القول المشهور ، وذكروا فيه وجوهاً أخر : (أحدها) قال ابن عباس وأبو موسى الأشعرى المشكاة القائم الذى فى وسط القنديل الذى يدخل فيه الفتيلة ، وهو قول مجاهد والقرظى (والثانى) قال الزجاج هى ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التى توضع فيها الفتيلة (الثالث) قال الضحاك إنها الحلقة التى يعلق بها القنديل والأول هو الأصح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ زعموا أن المشكاة هى الكوة بلغة الحبشة ، قال الزجاج المشكاة من كلام العرب ومثلها المشكاة وهى الدقيق الصغير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم هذه الآية من المقلوب ، والتقدير مثل نوره كمصباح فى مشكاة لأن المشبه به هو الذى يكون معدناً للنور ومنبعاً له وذلك هو المصباح لا المشكاة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المصباح السراج وأصله من الضوء ومنه الصبح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرىء (زجاجة) الزجاجة بالضم والفتح والكسر ، أما (درى) فقرىء بضم الدال وكسرها وفتحها ، أما الضم ففيه ثلاثة أوجه : (الأول) ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة ، ومعناه أنه يشبه الدر لصفائه ولمعانه ، وقال عليه الصلاة والسلام « إنكم لترون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء » (الثانى)

www.besturdubooks.wordpress.com

أنه كذلك إلا أنه بالمد والهمزة وهو قراءة حمزة وعاصم فى رواية أبى بكر وصار بعض أهل العربية إلى أنه لحن قال سيبويه وهذا أضعف اللغات وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس بمنسوب إلى الدر ، قال أبو على وجه هذه القراءة أنه فعيل من الدرء بمعنى الدفع وأنه صفة وأنه فى الصفة مثل المرىء فى الاسم (والثالث) ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز ، أما الكسر ففيه وجهان : (الأول) درىء بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز ، وهى قراءة أبى عمرو والكسائى قال الفراء هو فعيل من الدرء وهو الدفع كالسكير والفسيق فكان ضوأه يدفع بعضه بعضاً من لمعانه (الثانى) بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد وهى قراءة ابن خليد وعتبة بن حماد عن نافع ، أما الفتح ففيه وجوه أربعة : (الأول) بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الأعمش (الثانى) بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة (الثالث) بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزا من غير مد ولا ياء عن عاصم (الرابع) كذلك إلا أنه غير مهموز وبياء خفيفة بدل الهمزة ، أما قوله (توقد) القراءة المعروفة توقد بالفتحات الأربعة مع تشديد القاف بوزن تفعل وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك إلا أنه يضم الدال ، وذكر صاحب الكشاف يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب ، وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة واسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص كذلك إلا أنه بالتاء ، وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها ، وعن أبى عمرو كذلك إلا أنه بالتاء ، وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكنة وكسر القاف وتخفيفها .

﴿ **المسألة السادسة** ﴾ قوله (كأنها كوكب درى) أى ضخم مضىء ودرارى النجوم عظامها ، واتفقوا على أن المراد به كوكب من الكواكب المضيئة كالزهرة والمشترى والثوابت التى فى العظم الأول .

﴿ **المسألة السابعة** ﴾ قوله (من شجرة مباركة) أى من زيت شجرة مباركة أى كثيرة البركة والنفع ، وقيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبياً ، منهم الخليل ، وقيل المراد زيتون الشام ، لأنها هى الأرض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة .

﴿ **المسألة الثامنة** ﴾ اختلفوا فى معنى وصف الشجرة بأنها لا شرقيه ولا غربية على وجوه (أحدها) قال الحسن إنها شجرة الزيت من الجنة إذ لو كانت من شجر الدنيا لكانت إما شرقية أو غربية وهذا ضعيف لأنه تعالى إنما ضرب المثل بما شاهدوه وهم ماشاهدوا شجر الجنة (وثانيها) أن المراد شجرة الزيتون فى الشام لأن الشام وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بأنها شرقية أو غربية وهذا أيضاً ضعيف لأن من قال الأرض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة ، ولأن المثل مضروب لكل من يعرف الزيت ، وقد يوجد فى

www.besturdubooks.wordpress.com

غير الشام كوجوده فيها (وثالثها) أنها شجرة تلتف بها الأشجار فلا تصيبها الشمس فى شرق ولا غرب، ومنهم من قال هى شجرة يلتف بها ورقها التفافاً شديداً فلا تصل الشمس إليها سواء كانت الشمس شرقية أو غربية، وليس فى الشجر مايورق غصنه من أوله إلى آخره مثل الزيتون والرمان، وهذا أيضاً ضعيف لأن الغرض صفاء الزيت وذلك لا يحصل إلا بكمال نضج الزيتون وذلك إنما يحصل فى العادة بوصول أثر الشمس إليه لا بعدم وصوله (ورابعها) قال ابن عباس المراد الشجرة التى تبرز على جبل عال أو صحراء واسعة فتطلع الشمس عليها حالتى الطلوع والغروب، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج، قالا ومعناه لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما يقال فلان لا مسافر ولا مقيم إذا كان يسافر ويقيم، وهذا القول هو المختار لأن الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها فى نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصود التمثيل أكمل وأتم (وخامسها) المشكاة صدر محمد ﷺ والزجاجة قلبه والمصباح مافى قلبه ﷺ من الدين، توقد من شجرة مباركة، يعنى (واتبعوا ملة أبيكم إبراهيم) صلوات الله عليه فالشجرة هى إبراهيم عليه السلام، ثم وصف إبراهيم فقال لا شرقية ولا غربية أى لم يكن يصلى قبل المشرق ولا قبل المغرب كاليهود والنصارى بل كان عليه الصلاة والسلام يصلى إلى الكعبة.

﴿ المسألة التاسعة ﴾ وصف الله تعالى زيتها بأنه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار لأن الزيت إذا كان خالصاً صافياً ثم رؤى من بعيد يرى كأن له شعاعاً، فاذا مسه النار ازداد ضوءاً على ضوء، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد نوراً على نور وهدى على هدى، قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » وقال كعب الأحبار المراد من الزيت نور محمد ﷺ أى يكاد نوره يبين للناس قبل أن يتكلم، وقال الضحاك يكاد محمد ﷺ يتكلم بالحكمة قبل الوحى، وقال عبد الله بن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

﴿ المسألة العاشرة ﴾ قوله تعالى (نور على نور) المراد ترادف هذه الأنوار واجتماعها، قال أبى بن كعب : المؤمن بين أربع خلال أن أعطى شكر وإن ابتلى صبر وإن قال صدق وإن حكم عدل، فهو فى سائر الناس كالرجل الحى الذى يمشى بين الأموات يتقلب فى خمس من النور، كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة، قال الربيع سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته.

﴿ المسألة الحادية عشرة ﴾ قال الجبائى دلت الآية على أن كل من جهل فمن قبله أتى وإلا فالأدلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا، قال أصحابنا هذه الآية صريح مذهبنا فانه سبحانه بعد أن

www.besturdubooks.wordpress.com

بين أن هذه الدلائل بلغت فى الظهور والوضوح إلى هذا الحد الذى لا يمكن الزيادة عليه ، قال (يهدى الله لنوره من يشاء) يعنى وضوح هذه الدلائل لا يكفى ولا ينفع مالم يخلق الله الايمان ولا يمكن أن يكون المراد من قوله (يهدى الله) إيضاح الأدلة والبيانات لأنا لو حملنا النور على إيضاح الأدلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضاً ، وإلا لخرج الكلام عن الفائدة ، فلم يبق إلا حمل الهدى ههنا على خلق العلم أجاب أبو مسلم بن بحر عنه من وجهين (الأول) أن قوله (يهدى الله لنوره من يشاء) محمول على زيادات الهدى الذى هو كالضد للخذلان الحاصل للضال (الثانى) أنه سبحانه يهدى لنوره الذى هو طريق الجنة من يشاء وشبهه بقوله (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات) وزيف القاضى عبد الجبار هذين الجوابين (أما الأول) فلأن الكلام المتقدم هو فى ذكر الآيات المنزلة فاذا حملناه على الهدى دخل الكل فيه وإذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه إلا البعض ، وإذا حمل على طريق الجنة لا يكون داخلا فيه أصلا إلا من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ولما زيف هذين الجوابين ، قال الأولى أن يقال إنه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغهم حد التكليف .

واعلم أن هذا الجواب أضعف من الجوابين الأولين ، لأن قوله (يهدى الله لنوره من يشاء) يفهم منه أن هذه الآيات مع وضوحها لا تكفى ، وهذا لا يتناول الصبى والمجنون فسقط ما قالوه .

﴿ المسألة الثانية عشرة ﴾ قوله تعالى (ويضرب الله الأمثال للناس) والمراد للمكلفين من الناس وهو النبى ومن بعث إليه ، فانه سبحانه ذكر ذلك فى معرض النعمة العظيمة ، واستدلت المعتزلة به فقالوا إنما يكون ذلك نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به ، ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به ، وجوابه ما تقدم ، ثم بين أنه سبحانه (بكل شىء عليم) وذلك كالوعيد لمن لا يعتبر ولا يتفكر فى أمثاله ولا ينظر فى أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات .

بحمد الله تم الجزء الثالث والعشرون ، ويليه الجزء الرابع والعشرون وأوله تفسير قول الله تعالى :
فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال
أعان الله على إكماله ، بحق محمد صلى الله وسلم عليه وآله

www.besturdubooks.wordpress.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قوله تعالى (فى بيوت أذن الله) يقتضى محذوفاً يكون فيها وذكروا فيه وجوه (أحدها) أن التقدير كمشكاة فيها مصباح فى بيوت أذن الله وهو اختيار كثير من المحققين ، اعترض أبو مسلم بن بحر الأصفهانى عليه من وجهين (الأول) أن المقصود من ذكر المصباح المثل وكون المصباح فى بيوت أذن الله لا يزيد فى هذا المقصود لأن ذلك لا يزيد المصباح إنارة وإضاءة (الثانى) أن ما تقدم ذكره فيه وجوه تقتضي كونه واحداً كقوله (كمشكاة) وقوله (فيها مصباح) وقوله (فى زجاجة) وقوله (كأنها كوكب درى) ولفظ البيوت جمع ولا يصح كون هذا الواحد فى كل البيوت (والجواب) عن الأول أن المصباح الموضوع فى الزجاجة الصافية إذا كان فى المساجد كان أعظم وأضخم فكان أضوأ ، فكان التمثيل به أتم وأكمل (وعن الثانى) أنه لما كان القصد بالمثل هو الذى له هذا الوصف فيدخل تحته كل كمشكاة فيها مصباح فى زجاجة تتوقد من الزيت ، وتكون الفائدة فى ذلك أن ضوأها يظهر فى هذه البيوت بالليالى عند الحاجة إلى عبادة الله تعالى ، ولو أن رجلا قال الذى يصلح لخدمتى رجل يرجع إلى علم وكفاية وقناعة يلتزم بيته . لكان وإن ذكره بلفظ الواحد فالمراد النوع فكذا ما ذكره الله سبحانه فى هذه الآية (وثانيها) التقدير توقد من شجرة مباركة فى بيوت أذن الله أن ترفع (وثالثها) وهو قول

www.besturdubooks.wordpress.com

أبي مسلم أنه راجع إلى قوله (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أي ومثلا من الذين خلوا من قبلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ، ويكون المراد بالذين خلوا الأنبياء والمؤمنين والبيوت المساجد ، وقد اقتص الله أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذكر أماكنهم فسماها محاريب بقوله (إذ تسوروا المحراب) و (كلما دخل عليها زكريا المحراب) فيقول : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ، وأنزلنا أقاصيص من بعث قبلكم من الأنبياء والمؤمنين في بيوت أذن الله أن ترفع (ورابعها) قول الجبائي إنه كلام مستأنف لا تعلق له بما تقدم والتقدير صلوا في بيوت أذن الله أن ترفع (وخامسها) وهو قول الفراء والزجاج إنه لا حذف في الآية بل فيه تقديم وتأخير كأنه قال يسبح في بيوت أذن الله أن ترفع رجال صفتهم كيت وكيت . وأما قول أبي مسلم فقد اعترض عليه القاضي من وجهين (الأول) أن قوله (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) المراد منه خلا من المكذبين للرسل لتعلقه بما تقدم من الإكراه على الزنا ابتغاء للدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت لأنها بيوت أذن أن يذكر فيها اسمه (الثاني) أن هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية بما تخلل بينهما من قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) وأما قول الجبائي فقيل الاضمار لا يجوز المصير إليه إلا عند الضرورة وعلى التأويل الذي ذكره الفراء والزجاج لا حاجة إليه فلا يجوز المصير إليه فإن قيل على قول الزجاج يتوجه عليه إشكال أيضاً لأن على قوله يصير المعنى في بيوت أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكراراً من غير فائدة ، قلنا قلتم إن تحمل مثل هذه الزيادة أولى من تحمل ذلك النقصان ؟ قلنا الزيادة لأجل التأكيد كثيرة فكان المصير إليها أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أكثر المفسرين قالوا المراد من قوله (في بيوت) المساجد وعن عكرمة في بيوت قال هي البيوت كلها والأول أولى لوجهين (الأول) أن في البيوت ما لا يمكن أن يوصف بأن الله تعالى أذن أن ترفع (الثاني) أنه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة وذلك لا يليق إلا بالمساجد ثم للقائلين بأن المراد هو المساجد قولان (أحدهما) أن المراد أربع مساجد الكعبة بناها إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام ، وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ، ومسجد المدينة بناه النبي ﷺ ومسجد قباء الذي أسس على التقوى بناه نبي ﷺ وعن الحسن هو بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل (والثاني) أن المراد هو جميع المساجد والأول ضعيف لأنه تخصيص بلا دليل فالأول حمل اللفظ على جميع المساجد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في المراد من قوله (أن ترفع) على أقوال (أحدها) المراد من رفعها بناؤها لقوله (بناها رفع سمكها فسواها) وقوله (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي المساجد أمر الله أن تبنى (وثانيها) ترفع أي تعظم وتطهر عن الأنجاس وعن اللغو من الأقوال عن الزجاج (وثالثها) المراد مجموع الأمرين .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ والقول الثانى ﴾ أولى لأن قوله (فى بيوت أذن الله أن ترفع) ظاهره أنها كانت بيوتاً قبل الرفع فأذن الله أن ترفع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا فى المراد من قوله (ويذكر فيها اسمه) فالقول (الأول) أنه عام فى كل ذكر (والثانى) أن يتلى فيها كتابه عن ابن عباس (والثالث) لا يتكلم فيها بما لا ينبغى والأول أولى لعموم اللفظ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يسبح بفتح الباء والباقون بكسرها فعلى القراءة الأولى يكون القول مبتدأ إلى آخر الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغدو والآصال ، ثم قال الزجاج رجال مرفوع لأنه لما قال يسبح له فيها فكأنه قيل من يسبح ؟ فقيل يسبح رجال .

﴿ المسألة السادسة ﴾، اختلفوا فى هذا التسبيح فالأكثرون حملوه على نفس الصلاة ، ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتى الصبح والعصر فقال كانتا واجبتين فى ابتداء الحال ثم زيد فيهما ، ومنهم من حمله على التسبيح الذى هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به فى ذاته وفعله ، واحتج عليه بأن الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهذا الوجه أظهر .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الآصال جمع أُصُل والأُصُل جمع أصيل وهو العشى وإنما وجد الغدو لأنه فى الأصل مصدر لا يجمع والأصيل اسم جمع ، قال صاحب الكشاف بالغدو أى بأوقات الغد أى بالغدوات وقرىء والإيصال وهو الدخول فى الأصيل يقال آصل كأعتم وأظهر ، قال ابن عباس رحمهما الله إن صلاة الضحى لفى كتاب الله تعالى مذكورة وتلا هذه الآية وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « ما من أحد يغدو ويروح الى المسجد يؤثره على ما سواه إلا وله عند الله نزل يعد له فى الجنة » وفى رواية سهل بن سعد مرفوعا «من غدا إلى المسجد وراح ليعلم خيراً أو ليتعلمه كان كمثل المجاهد فى سبيل الله يرجع غانماً» .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ اختلفوا فى قوله تعالى (لا تلهيهم تجارة) فقال بعضهم نفى كونهم تجاراً وباعة أصلا ، وقال بعضهم بل أثبتهم تجاراً وباعة وبين أنهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات ، وهذا قول الأكثرين ، قال الحسن أما والله إن كانوا ليتجرون ، ولكن إذا جاءت فرائض الله لم يلهم عنها شىء فقاموا بالصلاة والزكاة ، وعن سالم نظر إلى قوم من أهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا إلى الصلاة فقال هم الذين قال تعالى فيهم (لا تلهيهم تجارة) ، وعن ابن مسعود مثله ، واعلم أن هذا القول أولى من الأول ، لأنه لا يقال إن فلاناً لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت إلا وهو تاجر ، وإن احتمل الوجه الأول وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لما قال (لا تلهيهم تجارة) دخل فيه البيع فلم أعاد ذكر البيع ؟ قلنا (الجواب) عنه من وجوه (الأول) أن التجارة جنس يدخل تحته أنواع الشراء والبيع إلا أنه

www.besturdubooks.wordpress.com

سبحانه خص البيع بالذكر لأنه فى الإلهاء أدخل ، لأن الربح الحاصل فى البيع يقين ناجز ، والربح الحاصل فى الشراء شك مستقبل (الثانى) أن البيع يقتضى تبديل العرض بالنقد ، والشراء بالعكس والرغبة فى تحصيل النقد أكثر من العكس (الثالث) قال الفراء : التجارة لأهل الجلب ، يقال : اتجر فلان فى كذا إذا جلبه من غير بلده ، والبيع ما باعه على يديه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم خص الرجال بالذكر ؟ (والجواب) لأن النساء لسن من أهل التجارات أو الجماعات .

﴿ **المسألة التاسعة** ﴾ اختلفوا فى المراد بذكر الله تعالى ، فقال قوم : المراد الثناء على الله تعالى والدعوات ، وقال آخرون : المراد الصلوات ، فإن قيل فما معنى قوله (وإقام الصلاة) ؟ قلنا عنه جوابان (أحدهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد باقام الصلاة إقامتها لمواقيتها (والثانى) يجوز أن يكون قوله (وإقام الصلاة) تفسيراً لذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفى الصلاة .

﴿ **المسألة العاشرة** ﴾ قد ذكرنا فى أول تفسير سورة البقرة فى قوله (ويقيمون الصلاة) أن إقام الصلاة هو القيام بحقها على شروطها ، والوجه فى حذف الهاء ماقاله الزجاج ، يقال أقمت الصلاة إقامة وكان الأصل إقواماً ، ولكن قلبت الواو ألفاً فاجتمع ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فبقى : أقمت الصلاة إقاما ، فأدخلت الهاء عوضاً من المحذوف وقامت الإضافة ههنا فى التعويض مقام الهاء المحذوفة ، قال وهذا إجماع من النحويين .

﴿ المسألة الحادية عشرة ﴾ اختلفوا فى الصلاة فنهم من قال هى الفرائض ، ومنهم من أدخل فيه النفل على ماحكيناه فى صلاة الضحى عن ابن عباس ، والأول أقرب لأنه إلى التعريف أقرب وكذلك القول فى الزكاة أن المراد المفروض لأنه المعروف فى الشرع المسمى بذلك ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد من الزكاة طاعة الله تعالى والاخلاص ، وكذا فى قوله (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) وقوله (ما زكى منكم من أحد) وقوله (تطهرهم وتزكيهم بها) وهذا ضعيف لما تقدم ولأنه تعالى علق الزكاة بالإيتاء ، وهذا لايحمل إلا على مايعطى من حقوق المال .

﴿ المسألة الثانية عشرة ﴾ أنه سبحانه بين أن هؤلاء الرجال وإن تعبدوا بذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) وذلك الخوف إنما كان لعلمهم بأنهم ماعبدوا الله حق عبادته . واختلفوا فى المراد بتقلب القلوب والأبصار على أقوال : فالقول الأول أن القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الأبصار لقوله (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) (الثانى) أنها تتغير أحوالها فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لاتفقه وتبصر الأبصار بعد أن كانت لاتبصر ، فكأنهم انقلبوا من الشك إلى الظن ، ومن الظن إلى اليقين ، ومن اليقين إلى المعاينة ، لقوله (وبدا لهم من الله ما لم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ

يكونوا يحتسبون) وقوله (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك) . (الثالث) أن القلوب تتقلب فى ذلك اليوم طمعاً فى النجاة وحذراً من الهلاك والأبصار تتقلب من أى ناحية يؤمر بهم ، أمن ناحية اليمين أم من ناحية الشمال ؟ ومن أى ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الإيمان أم من قبل الشمائل؟ والمعتزلة لايرضون بهذا التأويل ، فانهم قالوا إن أهل الثواب لاخوف عليهم البتة فى ذلك اليوم ، وأهل العقاب لايرجون العفو ، لكنا بينا فساد هذا المذهب غير مرة (الرابع) أن القلوب تزول عن أماكنها فتبلغ الحناجر ، والأبصار تصير زرقاً ، قال الضحاك : يحشر الكافر وبصره حديد وتزرق عيناه ثم يعمى ، ويتقلب القلب من الخوف حيث لا يجد مخلصاً حتى يقع فى الحنجرة فهو قوله (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) ، (الخامس) قال الجبائى المراد بتقلب القلوب والأبصار تغيرهيئاتهما بسبب ماينالها من العذاب ، فتكون مرة بهيئة ماأنضج بالنار ومرة بهيئة ما احترق ، قال ويجوز أن يريد به تقلبها على جمر جهنم ، وهو معنى قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

﴿ المسألة الثالثة عشرة ﴾ قوله (ليجزيهم الله أحسن ماعملوا) أى يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ما عملوا ، وفيه وجوه (الأول) المراد بالأحسن الحسنات أجمع ، وهى الطاعات فرضها ونفلها ، قال مقاتل : إنما ذكر الأحسن تنبيهاً على أنه لايجازيهم على مساوىء أعمالهم بل يغفرها لهم . (الثانى) أنه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ماعملوا على الواحد عشراً إلى سبعمائة (الثالث) قال القاضى : المراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وإنما يجزيهم الله تعالى بأحسن الأعمال ، وهذا مستقيم على مذهبه فى الإحباط والموازنة .

أما قوله تعالى (ويزيدهم من فضله) فالمعنى أنه تعالى يجزيهم بأحسن الأعمال ولا يقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ما ذكره تعالى فى سائر الآيات من التضعيف ، فان قيل فهذا يدل على أن لفعل الطاعة أثراً فى استحقاق الثواب ، لأنه تعالى ميز الجزاء عن الفضل وأنتم لاتقولون بذلك ، فان عندكم العبد لا يستحق على ربه شيئاً ، قلنا نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذاك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال (والله يرزق من يشاء بغير حساب) نبه به على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة إحسانه ، فكان سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ، ومع ذلك يكونون فى نهاية الخوف ، فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ، ويزيدهم الفضل الذى لا حد له فى مقابلة خوفهم .

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده

يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

اعلم أنه سبحانه لما بين حال المؤمن ، وأنه فى الدنيا يكون فى النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ، ثم بين أنه فى الآخرة يكون فائزاً بالنعيم المقيم والثواب العظيم ، أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون فى الآخرة فى أشد الخسران ، وفى الدنيا فى أعظم أنواع الظلمات ، وضرب لكل واحد منهما مثلا ، أما المثل الدال على خيبته فى الآخرة فهو قوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) قال الأزهرى (السراب) ما يتراءى للعين وقت الضحى الأكبر فى الفلوات شبيه الماء الجارى وليس بماء . ولكن الذى ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جارياً ، يقال سرب الماء يسرب سروباً إذا جرى فهو سارب ، أما (الآل) فهو ما يتراءى للعين فى أول النهار فيرى الناظر الصغير كبيراً ، وظاهر كلام الخليل أن الآل والسراب واحد ، وأما (القيعة) فقال الفراء هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوى من الأرض وقال صاحب الكشاف القيعة بمعنى القاع ، وقال الزجاج (الظمآن) قد يخفف همزه ، وهو الشديد العطش ، ثم وجه التشبيه أن الذى يأتى به الكافر إن كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثواباً ، مع أنه يعتقد أن له ثواباً عليه ، وإن كان من أفعال الإثم فهو يستحق عليه عقاباً مع أنه يعتقد أنه يستحق عليه ثواباً ، فكيف كان فهو يعتقد أن له ثواباً عند الله تعالى ، فاذا وافى عرصات القيامة ، ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه ، فيشبه حاله حال الظمآن الذى تشتد حاجته إلى الماء فاذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فاذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه . وهذا المثال فى غاية الحسن ، قال مجاهد السراب عمل الكافر وإتيانه إياه موته ومفارقة الدنيا فان قيل قوله (حتى إذا جاءه) يدل على كونه شيئاً وقوله (لم يجده شيئاً) مناقض له ؟ قلنا الجواب عنه من وجوه ثلاثة : (الأول) المراد معناه أنه لم يجده شيئاً نافعاً كما يقال فلان ما عمل شيئاً وإن كان قد اجتهد (الثانى)

www.besturdubooks.wordpress.com

حتى إذا جاءه أى جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئاً فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه (الثالث) الكناية للسراب لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء وإذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء.

أما قوله (ووجد الله عنده فوفاه حسابه) أى وجد عقاب الله الذى توعد به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم إلى تيقن الضرر العظيم ، أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم (عاملة ناصبة) ، (ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً) ، (وقدمنا الى ما عملوا من عمل) وقيل نزلت فى عتبه بن ربيعة بن أمية ، كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين فى الجاهلية ثم كفر فى الاسلام.

أما قوله (والله سريع الحساب) فذاك لأنه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب ، وقال بعض المتكلمين معناه لايشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن ، ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك ، وأما المثل الثانى فهو قوله (أو كظلمات فى بحر لجى) وفى لفظة أو ههنا وجوه : (أحدها) اعلم أن الله تعالى بين أن أعمال الكفار إن كانت حسنة فمثلها السراب وإن كانت قبيحة فهى الظلمات (وثانيها) تقدير الكلام أن أعمالهم إما كسراب بقيعة وذلك فى الآخرة . وإما كظلمات فى بحر وذلك فى الدنيا (وثالثها) الآية الأولى فى ذكر أعمالهم وأنهم لايتحصلون منها على شىء ، والآية الثانية فى ذكر عقائدهم فانها تشبه الظلمات كما قال (يخرجهم من الظلمات إلى النور) أى من الكفر إلى الإيمان يدل عليه قوله تعالى (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) وأما البحر اللجى فهو ذو اللجة التى هى معظم الماء الغمر البعيد القعر ، وفى اللجى لغتان كسر اللام وضمها ، وأما تقرير المثل فهو أن البحر اللجى يكون قعره مظلما جداً بسبب غمورة الماء ، فاذا ترادفت عليه الأمواج إزدادت الظلمة فاذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى ، فالواقع فى قعر هذا البحر اللجى يكون فى نهاية شدة الظلمة ، ولما كانت العادة فى اليد أنها من أقرب ما يراها ومن أبعد مايظن أنه لا يراها . فقال تعالى (لم يكد يراها) وبين سبحانه بهذا بلوغ تلك الظلمة إلى أقصى النهايات ثم شبه به الكافر فى اعتقاده وهو ضد المؤمن فى قوله تعالى (نور على نور) وفى قوله (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) ولهذا قال أبى بن كعب الكافر يتقلب فى خمس من الظلم كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره إلى النار ، وفى كيفية هذا التشبيه وجوه أخر : (أحدها) أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل عن الحسن (وثانيها) شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث عن ابن عباس (وثالثها) أن الكافر لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى ، ويعتقد أنه يدرى ، فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات (ورابعها) أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة إصراره على كفره ، قد تراكمت عليه

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

الضلالات حتى أن أظهر الدلائل إذا ذكرت عنده لا يفهمها (وخامسها) قلب مظلم فى صدر مظلم.

أما قوله (ظلمات بعضها فوق بعض) فروى عن ابن كثير أنه قرأ سحاب وقرأ ظلمات بالجر على البدل من قوله (أو كظلمات) وعنه أيضاً أنه قرأ سحاب ظلمات كما يقال سحاب رحمة وسحاب عذاب على الإضافة وقراءة الباقين سحاب ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين وتمام الكلام عند قوله (سحاب) ثم ابتدأ (ظلمات) أى ما تقدم ذكره (ظلمات بعضها فوق بعض).

أما قوله (لم يكد يراها) ففيه قولان : (أحدهما) أن كاد نفيه إثبات وإثباته نفى فقوله (وما كادوا يفعلون) نفى فى اللفظ ولكنه اثبات فى المعنى لأنهم فعلوا ذلك وقوله عليه الصلاه والسلام «كاد الفقر أن يكون كفراً» إثبات فى اللفظ لكنه نفى فى المعنى لانه لم يكفر فكذا ههنا قوله (لم يكد يراها) معناه أنه رآها (والثانى) أن كاد معناه المقاربة فقوله (لم يكد يراها) معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أن الذى لم يقارب الوقوع لم يقع أيضاً وهذا القول هو المختار والأول ضعيف لوجهين (الأول) أن مايكون أقل من هذه الظلمات فانه لا يرى فيه شىء فكيف مع هذه الظلمات (الثانى) أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة فى جهالة الكفار وذلك إنما يحصل إذا لم توجد الرؤية البتة مع هذه الظلمات.

أما قوله (ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور) فقال أصحابنا إنه سبحانه لما وصف هداية المؤمن بأنها فى نهاية الجلاء والظهور عقبها بأن قال (يهدى الله لنوره من يشاء) ولما وصف ضلالة الكافر بأنها فى نهاية الظلمة عقبها بقوله (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) والمقصود من ذلك أن يعرف الانسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الايمان وظلمة الطريق لا تمنع منه، فان الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه، وقال القاضى المراد بقوله (ومن لم يجعل الله له نوراً) أى فى الدنيا بالألطاف (فما له من نور) أى لا يهتدى فيتحير ويحتمل (ومن لم يجعل الله له نوراً) أى مخلصاً فى الآخرة وفوزاً بالثواب (فما له من نور) والكلام عليه تزييفاً وتقريراً معلوم.

قوله تعالى : ﴿ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير﴾

اعلم أنه سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد:

﴿فالنوع الأول﴾ ما ذكره فى هذه الآية ولا شبهة فى أن المراد ألم تعلم، لأن التسبيح لا

www.besturdubooks.wordpress.com

تتناوله الرؤية بالبصر ويتناوله العلم بالقلب ، وهذا الكلام وإن كان ظاهره استفهاماً فالمراد التقرير والبيان ، فنبه تعالى على ما يلزم من تعظيمه بأن من فى السموات يسبح له وكذلك من فى الأرض .

واعلم أنه إما أن يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الأشياء على كونه تعالى منزهاً عن النقائص موصوفاً بنعوت الجلال ، وإما أن يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح وتتكلم به ، وإما أن يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان ، والقسم الأول أقرب لأن القسم الثانى متعذر ، لأن فى الأرض من لا يكون مكلفاً لا يسبح بهذا المعنى ، والمكلفون منهم من لا يسبح أيضاً بهذا المعنى كالكفار ، أما القسم الثالث وهو أن يقال إن من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان، وأما الذين فى الأرض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على سبيل الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معاً . وهو غير جائز . فلم يبق إلا القسم الأول وذلك لأن هذه الأشياء مشتركة فى أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته وإلهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيهاً على وجه التوسع . فإن قيل فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء ؟ قلنا لأن خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه لأن العجائب والغرائب فى خلقهم أكثر وهى العقل والنطق والفهم .

أما قوله تعالى (والطير صافات) فلقائل أن يقول ما وجه اتصال هذا بما قبله ؟ (والجواب) أنه سبحانه لما ذكر أن أهل السموات وأهل الأرض يسبحون ذكر أن الذين استقروا فى الهواء الذى هو بين السماء والأرض وهو الطير يسبحون ،وذلك لأن إعطاء الجرم الثقيل القوة التى بها يقوى على الوقوف فى جو السماء صافة باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل على قدرة الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجوداً منها له سبحانه ، وذلك يؤكد ما ذكرناه من أن المراد من التسبيح دلالة هذه الأحوال على التنزيه لا النطق اللسانى .

أما قوله (كل قد علم صلاته وتسبيحه) ففيه ثلاثة أوجه (الأول) المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا ويدل عليه قوله سبحانه (والله عليم بما يفعلون) وهو اختيار جمهور المتكلمين (والثانى) أن يعود الضمير فى الصلاة والتسبيح على لفظ كل أى أنهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح (والثالث) أن تكون الهاء راجعة على ذكر الله يعنى قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التى كلفه اياها وعلى هذين التقديرين فقوله (والله عليم) استئناف وروى عن أبى ثابت قال كنت جالساً عند محمد بن جعفر الباقر رضى الله عنه فقال لى : أتدرى ماتقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها ؟ قال لا ، قال فانهن يقدسن ربهن ويسألنه قوت يومهن . واستبعد المتكلمون ذلك فقالوا الطير لو كانت عارفة بالله تعالى لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا وإشارتنا لكنها ليست كذلك ، فانا نعلم بالضرورة أنها أشد نقصاناً من الصبي الذى

www.besturdubooks.wordpress.com

لايعرف هذه الأمور فبأن يمتنع ذلك فيها أولى ، وإذا ثبت أنها لاتعرف الله تعالى استحال كونها مسبحة له بالنطق ، فثبت أنها لا تسبح الله إلا بلسان الحال على ماتقدم تقريره .

قال بعض العلماء إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم الطيور وسائر الحشرات أعمالا لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء ، وإذا كان كذلك فلم لايجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه ، وبيان أنه سبحانه ألهمها الأعمال اللطيفة من وجوه (أحدها) احتيالها فى كيفية الاصطياد فتأمل فى العنكبوت كيف يأتى بالحيل اللطيفة فى اصطياد الذباب ، ويقال إن الدب يستلقى فى ممر الثور فاذا أرام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ولايزال ينهش مابين ذراعيه حتى يثخنه ، وأنه يرمى بالحجارة ويأخذ العصا ويضرب الانسان حتى يتوهم أنه مات فيتركه وربما عاود يتشممه ويتجسس نفسه ويصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تعريضاً بالواحدة وصدمة بالأخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويستف لبه ، ويحكى عن الفأر فى سرقته أمور عجيبة (وثانيها) أمر النحل ومالها من الرياسة وبناء البيوت المسدسة التى لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين (وثالثها) انتقال الكراكى من طرف من أطراف العالم إلى الطرف الآخر طلبا لما يوافقها من الأهوية ، ويقال إن من خواص الخيل أن كل واحد منها يعرف صوت الفرس الذى قابله وقتاً ما والكلاب تتصايح بالعية المعروفة لها ، والفهد إذا سقى أو شرب من الدواء المعروف بخانق الفهد عمد إلى زبل الإنسان فأكله ، والتماسيح تفتح أفواهها لطائر يقع عليها كالعقعق وينظف ما بين أسنانها ، وعلى رأس ذلك الطير كالشوك فاذا هم التمساح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك فيفتح فاه فيخرج الطائر ، والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعتراً جبلياً ثم تعود وقد عوفيت من ذلك ، وحكى بعض الثقات المجربين للصيد أنه شاهد الحبارى تقاتل الأفعى وتنهزم عنه إلى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا يزال ذلك دأبه فكان ذلك الشيخ قاعداً فى كن غائر فعل القنصة وكانت البقلة قريبة من مكمنه فلما اشتغل الحبارى بالأفعى قلع البقلة فعادت الحبارى إلى منبتها ففقدته وأخذت تدور حول منبتها دوراناً متتابعاً حتى خر ميتاً فعلم الشيخ أنه كان يتعالج بأكلها من اللسعة ، وتلك البقلة كانت هى الجرجير البرى ، وأما ابن عرس فيستظهر فى قتال الحية بأكل السذاب فان النكهة السذابية مما تنفر منها الأفعى والكلاب إذا دودت بطونها أكلت سنبل القمح ، وإذا جرحت اللقالق بعضها بعضاً داوت جراحها بالصعتر الجبلى (ورابعها) القنافذ قد تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل إلى جحرها وكان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بانذاره وكان السبب فيه قنفذاً فى داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به ، والخطاف صانع جيد فى اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان أعوزه الطين ابتل وتمرغ فى التراب ليحمل جناحاه قدراً من الطين ، وإذا أفرخ بالغ فى تعهد الفراخ ويأخذ ذرقها بمنقاره ويرميها عن العش ، ثم يعلمها إلقاء الذرق نحو طرف العش ، وإذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

ليتبعها ثم تذهب إلى جانب آخر سوى جانب فراخها ، وناقر الخشب قلما يقع على الأرض بل على الشجر ينقر الموضع الذى يعلم أن فيه دوداً ، والغرانيق تصعد فى الجو جداً عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها حفيفاً مسموعا يلزم به بعضها بعضاً ، فاذا نامت على جبل فانها تضع رؤوسها تحت أجنحتها إلا القائد فانه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه ، وإذا سمع حرساً صاح ، وحال النمل فى الذهاب إلى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا أمر عجيب ، واعلم أن الاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتاب طبائع الحيوان ، والمقصود أن الأكياس من العقلاء يعجزون عن أمثال هذه الحيل . فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال إنها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه ، وإن كانت غير عارفة بسائر الأمور التى يعرفها الناس ؟ ولله در شهاب الاسلام السمعانى حيث قال : جل جناب الجلال ، عن أن يوزن بميزان الاعتزال .

أما قوله سبحانه (ولله ملك السموات والأرض) وإلى الله المصيرفهو مع وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدأ والمعاد ، فقوله (ولله ملك السموات والأرض) تنبيه على أن الكل منه لأن كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدان إلا عند الانتهاء إلى القديم الواجب فدخل فى هذه القضية جميع الأجرام والأعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم .

وأما قوله (وإلى الله المصير) فهو عبارة تامة فى معرفة المعاد وهو أنه لابد من مصير الكل إليه سبحانه ، وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الأشرف فالأشرف نازلا إلى الأخس فالأخس ثم يأخذ من الأخس فالأخس مترقياً إلى الأشرف فالأشرف ، فانه يكون جسما ثم يصيره موصوفاً بالنباتية ثم الحيوانية ثم الانسانية ثم الملكية ثم ينتهى إلى واجب الوجود لذاته ، فالاعتبار الأول هو قوله (ولله ملك السموات والأرض)والثانى هو قوله (وإلى الله المصير) .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن هذا هو النوع الثانى من الدلائل وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (ألم تر) بعين عقلك والمراد التنبيه والإزجاء السوق قليلا قليلا ، ومنه البضاعة المزجاة التى يزجيها كل أحد وإزجاء السير فى الإبل الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً ثم يؤلف بينه ، قال الفراء بين لا يصلح إلا مضافاً إلى اسمين فما زاد ، وإنما قال بينه لأن السحاب واحد فى اللفظ ، ومعناه الجمع والواحد سحابة ، قال الله تعالى (وينشىء السحاب الثقال) والتأليف ضم شىء إلى شىء أى يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحاباً واحداً ثم يجعله ركاماً أى مجتمعاً ، والركم جمعك شيئاً فوق شىء حتى تجعله مركوماً ، والودق : المطر ، قاله ابن عباس وعن مجاهد : القطر ، وعن أبى مسلم الأصفهانى : الماء (من خلاله) من شقوقه ومخارقه جمع خلل كجبال فى جمع جبل ، وقرىء من خلله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن قوله (يزجى سحاباً) يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيئاً بعد شىء ، ويحتمل أن يغيره من سائر الأجسام لا فى حالة واحدة ، فعلى الوجه الأول يكون نفس السحاب محدثاً ، ثم إنه سبحانه يؤلف بين أجزائه ، وعلى الثانى يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التى باعتبارها صارت تلك الأجسام سحاباً ، وفى قوله (ثم يؤلف بينه) دلالة على وجودها متقدماً متفرقاً إذ التأليف لا يصح إلا بين موجودين . ثم إنه سبحانه يجعله ركاماً ، وذلك بتركب بعضها على البعض ، وهذا مما لابد منه لأن السحاب إنما يحمل الكثير من الماء إذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره ، قال أهل الطبائع إن تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع فى أكثر الأمر يكون من تكاثف البخار وفى الأقل من تكاثف الهواء ، أما الأول فالبخار الصاعد إن كان قليلا وكان فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ ينحل وينقلب هواء . وأما إن كان البخار كثيراً ولم يكن فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الأبخرة المتصاعدة إما أن تبلغ فى صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ فان بلغت فاما أن يكون البرد هناك قوياً أو لا يكون ، فان لم يكن البرد هناك قوياً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد ، واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب ، والمتقاطر هو المطر ، والديمة والوابل إنما يكون من أمثال هذه الغيوم ، وأما إن كان البرد شديداً فلا يخلو إما أن يصل البرد إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كباراً أو بعد صيرورتها كذلك ، فان كان على الوجه الأول نزل ثلجاً ، وإن كان على الوجه الثانى نزل برداً ، وأما إذا لم تبلغ الأبخرة إلى الطبقة الباردة فهى إما أن تكون كثيرة أو تكون قليلة ، فإن كانت كثيرة فهى قد تنعقد سحاباً ماطراً وقد لا تنعقد ، أما الأول فذاك لأحد أسباب خمسة (أحدها) إذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الأبخرة (وثانيها) أن تكون الرياح ضاغطة إياها إلى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح . (وثالثها)

www.besturdubooks.wordpress.com

أن تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الأبخرة حينئذ (ورابعها) أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ، ثم يلتصق به سائر الأجزاء الكثيرة المدد (وخامسها) لشدة برد الهواء القريب من الأرض . وقد نشاهد البخار يصعد فى بعض الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ، ويكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون فى الشمس ، وأما إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة . فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوساً فنزل نزولا متفرقاً لا يحس به إلا عند اجتماع شيء يعتد به ، فان لم يجمد كان طلا ، وإن جمد كان صقيعاً ، ونسبة الصقيع إلى الطل نسبة الثلج إلى المطر ، وأما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء وينقبض ، وحينئذ يحصل منه الأقسام المذكورة (والجواب) أنا لما دللنا على حدوث الأجسام وتوسلنا بذلك إلى كونه قادراً مختاراً يمكنه إيجاد الأجسام لم يمكننا القطع بما ذكرتموه لاحتمال أنه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذى ذكرتموه ، وأيضاً فهب أن الأمر كما ذكرتم ، ولكن الأجسام بالاتفاق ممكنة فى ذواتها فلا بد لها من مؤثر . ثم إنها متماثلة ، فاختصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لابد له من مخصص ، فاذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة فى هذه الأحوال وخالق السبب خالق المسبب ، فكان سبحانه هو الذى يزجى سحاباً ، لأنه هو الذى خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الأبخرة من باطن الأرض إلى جو الهواء ، ثم إن تلك الأبخرة إذا ترادفت فى صعودها والتصق بعضها بالبعض فهو سبحانه هو الذى جعلها ركاماً ، فثبت على جميع التقديرات أن وجه الاستدلال بهذه الأشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين .

أما قوله سبحانه (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذه الآية قولان (أحدهما) أن فى السماء جبالا من برد خلقها الله تعالى كذلك ، ثم ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه أكثر المفسرين ، قال مجاهد والكلبى : جبال من برد فى السماء (والقول الثانى) أن السماء هو الغيم المرتفع على رؤوس الناس سمى بذلك لسموه وارتفاعه ، وأنه تعالى أنزل من هذا الغيم الذى هو سماء البرد وأراد بقوله من جبال السحاب العظام لأنها إذا عظمت أشبهت الجبال ، كما يقال فلان يملك جبالا من مال ووصفت بذلك توسعاً وذهبوا إلى أن البرد ماء جامد خلقه الله تعالى فى السحاب ، ثم أنزله إلى الأرض ، وقال بعضهم إنما سمى الله ذلك الغيم جبالا ، لأنه سبحانه خلقها من البرد ، وكل جسم شديد متحجر فهو من الجبال ، ومنه قوله تعالى (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين) ومنه فلان مجبول على كذا . قال المفسرون والأول أولى لأن السماء اسم لهذا الجسم المخصوص ، فجعله اسماً للسحاب بطريقة الاشتقاق مجاز ، وكما يصح أن يجعل الله الماء فى السحاب ثم ينزله برداً ، فقد يصح أن يكون فى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي

السماء جبال من برد ، وإذا صح فى القدرة كلا الأمرين فلا وجه لترك الظاهر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو على الفارسى قوله تعالى (من السماء من جبال فيها من برد) فمن الأولى لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى فى السماء ، والثالثة للتبيين لأن جنس تلك الجبال جنس البرد ، ثم قال ومفعول الإنزال محذوف والتقدير وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، إلا أنه حذف للدلالة عليه .

أما قوله (فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء) فالظاهر أنه راجع إلى البرد ، ومعلوم من حاله أنه قد يضر ما يقع عليه من حيوان ونبات ، فبين سبحانه أنه يصيب به من يشاء على وفق المصلحة ويصرفه ، أى يصرف ضرره عمن يشاء بأن لا يسقط عليه ، ومن الناس من حمل البرد على الحجر وجعل نزوله جارياً مجرى عذاب الاستئصال وذلك بعيد .

أما قوله تعالى (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (يكاد سنا برقه) على الادغام وقرئ برقه جمع برقة وهى المقدار من البرق وبرقه بضمتين للاتباع كما قيل فى جمع فعلة فعلات كظلمات ، وسناء برقه على المد والمقصور بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سنى للمرتفع و(يذهب بالأبصار) على زيادة الباء كقوله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) عن أبى جعفر المدنى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وجه الاستدلال بقوله (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) أن البرق الذى يكون صفته ذلك لابد وأن يكون ناراً عظيمة خالصة ، والنار ضد الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضى ظهور الضد من الضد ، وذلك لايمكن إلا بقدرة قادر حكيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف النحويون فى أنك إذا قلت ذهبت بزيد إلى الدار فهل يجب أن تكون ذاهباً معه إلى الدار . فالمنكرون احتجوا بهذه الآية .

أما قوله (يقلب الله الليل والنهار) فقيل فيه وجوه : منها تعاقبهما ومجىء أحدهما بعد الآخر وهو كقوله (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) ومنها ولوج أحدهما فى الآخر ، وأخذ أحدهما من الآخر . ومنها تغير أحوالهما فى البرد والحر وغيرهما ولا يمتنع فى مثل ذلك أن يريد تعالى معانى الكل لأنه فى الإنعام والاعتبار أولى وأقوى .

أما قوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) فالمعنى أن فيما تقدم ذكره دلالة لمن يرجع إلى بصيرة ، فمن هذا الوجه يدل أن الواجب على المرء أن يتدبر ويتفكر فى هذه الأمور ، ويدل أيضاً على فساد التقليد .

قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين

www.besturdubooks.wordpress.com

عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شيء قدير . لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية وذلك لأنه لما استدل أولا بأحوال السماء والأرض وثانياً بالآثار العلوية استدل ثالثاً بأحوال الحيوانات ، واعلم أن على هذه الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال الله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) مع أن كثيراً من الحيوانات غير مخلوقة من الماء ؟ أما الملائكة فهم أعظم الحيوانات عدداً وهم مخلوقون من النور ، وأما الجن فهم مخلوقون من النار ، وخلق الله آدم من التراب لقوله (خلقه من تراب) وخلق عيسى من الريح لقوله (فنفخنا فيه من روحنا) وأيضاً نرى أن كثيراً من الحيوانات متولد لا عن النطفة (والجواب) من وجوه : (أحدها) وهو الأحسن ما قاله القفال وهو أن قوله (من ماء) صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق ، والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهي مخلوقة لله تعالى (وثانيها) أن أصل جميع المخلوقات الماء على ما يروى أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور ، ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الأصل الأول هو الماء لاجرم ذكره على هذا الوجه (وثالثها) أن المراد من الدابة التي تدب على وجه الأرض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجن ، ولما كان الغالب جداً من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء ، إما لأنها متولدة من النطفة ، وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء لاجرم أطلق لفظ الكل تنزيلا للغالب منزلة الكل .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم نكر الماء في قوله (من ماء) وجاء معرفاً في قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ؟ (والجواب) إنما جاء ههنا منكراً لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة ، وإنما جاء معرفاً في قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) لأن المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قوله (فمنهم) ضمير العقلاء ، وكذلك قوله (من) فلم استعمله في غير العقلاء ؟ (والجواب) أنه تعالى ذكر مالا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والإنس والجن فغلب

www.besturdubooks.wordpress.com

اللفظ اللائق بمن يعقل ، لأن جعل الشريف أصلا والخسيس تبعاً أولى من العكس ، ويقال فى الكلام : من المقبلان ؟ لرجل وبعير .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم سمى الزحف على البطن مشياً ؟ ويبين صحة هذا السؤال أن الصبى قد يوصف بأنه يحبو ولا يقال إنه يمشى وإن زحف على حد ما تزحف الحية (والجواب) هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر ، ويقال فلان لا يتمشى له أمر أو على طريق المشاكلة لذلك الزاحف مع الماشين .

﴿ السؤال الخامس ﴾ أنه لم يستوف القسمة لأنا نجد ما يمشى على أكثر من أربع مثل العناكب والعقارب والرتيلات بل مثل الحيوان الذى له أربعة وأربعون رجلا الذى يسمى دخال الأذن (والجواب) القسم الذى ذكرتم كالنادر فكان ملحقاً بالعدم ولأن الفلاسفة يقرون بأن ما له قوائم كثيرة فاعتماده إذا مشى على أربع جهاته لاغير فكأنه يمشى على أربع ، ولأن قوله تعالى (يخلق الله مايشاء) كالتنبيه على سائر الأقسام .

﴿ السؤال السادس ﴾ لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب ؟ (والجواب) قد قدم ما هو أعجب وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع ، واعلم أن قوله (يخلق الله ما يشاء) تنبيه على أن الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشى فكذا هى مختلفة بحسب أمور أخر ، فلنذكر ههنا بعض التقسيمات :

﴿ التقسيم الأول ﴾ الحيوانات قد تشترك فى أعضاء وقد تتباين بأعضاء ، أما الشركة فمثل اشتراك الإنسان والفرس فى أن لهما لحماً وعصباً وعظاما ، وأما التباين فإما أن يكون فى نفس العضو أو فى صفته ، أما التباين فى نفس العضو فعلى وجهين : (أحدهما) أن لا يكون العضو حاصلا للآخر ، وإن كانت أجزاؤه حاصلة للثانى كالفرس والإنسان ، فان الفرس له ذنب والإنسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست إلا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر ، وكل ذلك حاصل للانسان (والثانى) أن لا يكون ذلك العضو حاصلا للثانى لابذاته ولا بأجزائه مثل أن للسلحفاة صدفاً يحيط به وليس للانسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شىء منها للانسان وأما التباين فى صفة العضو ، فإما أن يكون من باب الكمية أو الكيفية أو الوضع أو الفعل أو الانفعال ، أما الذى فى الكم ، فإما أن يتعلق بالمقدار مثل أن عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة أو بالعدد مثل أن أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أو عشرة ، والذى فى الكيف فكاختلافها فى الألوان والأشكال والصلابة واللين ، والذى فى الوضع فمثل اختلاف وضع ثدى الفيل فإنه يكون قريباً من الصدر وثدى الفرس فانه عند السرة . وأما الذى فى الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحاً للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك فى الإنسان وكون

www.besturdubooks.wordpress.com

أنفه آلة للقبض دون أنف غيره . وأما الذى فى الانفعال فثل كون عين الخفاش سريعة التحير فى الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك .

﴿ التقسيم الثانى ﴾ الحيوان إما أن يكون مائياً بمعنى أن مسكنه الأصلى هو الماء أو أرضياً أو يكون مائياً ثم يصير أرضياً ، أما الحيوانات المائية فتغير أحوالها من وجوه : (الأول) أنه إما أن يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائياً فله بدل التنفس فى الهواء التنشق المائى فهو يقبل الماء إلى باطنه ثم يرده ولا يعيش إذا فارقه . والسمك كله كذلك ومنه ما مكانه وغذاؤه مائى ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية ، ومنه ما مكانه وغذاؤه مائى وليس يتنفس ولا يستنشق مثل أصناف من الصدف لا تظهر للهواء ولاتستدخل الماء إلى باطنها (الوجه الثانى) الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الأنهار الجارية وبعضها مياه البطائح مثل الضفادع وبعضها مأواها مياه البحر (الوجه الثالث) منها لجية ومنها شطية ومنها طينية ومنها صخرية (الوجه الرابع) الحيوان المنتقل فى الماء منه مايعتمد فى غوصه على رأسه وفى السباحة على أجنحته كالسمك ومنه مايعتمد فى السباحة على رجليه كالضفدع ومنه مايمشى فى قعر الماء كالسرطان ومنه مايزحف مثل ضرب من السمك لاجناح له وكالدود ، أما الحيوانات البرية فتغير أحوالها أيضاً من وجهين (الأول) أن منها مايتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها ما لا يتنفس كذلك بل على نحو آخر من مسامه مثل الزنبور والنحل (الثانى) أن الحيوانات الأرضية منها ما له مأوى معلوم ، ومنها ما مأواه كيف اتفق إلا أن يلد فيقيم للحضانة واللواتى لها مأوى فبعضها مأواه شق وبعضها حفر وبعضها مأواه قلة رابية وبعضها مأواه وجه الأرض (الثالث) الحيوان البرى كل طائر منه ذو جناح فإنه يمشى برجليه ، ومن جملة ذلك ما مشيه صعب عليه كالخطاف الكبير الأسود والخفاش . وأما الذى جناحه جلد أو غشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات الحبشية يطير (الرابع) الطير يختلف فبعضها يتعايش معاً كالكراكى وبعضها يؤثر التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التى تتنازع على الطعم لاحتياجها إلى الاحتيال لتصيد ومنافستها فيه ، ومنها مايتعايش زوجاً ويكون معاً كالقطا ، ومنه مايجتمع تارة وينفرد أخرى والحيوانات المنفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية صرفة وقد تكون بستانية والانسان من بين الحيوان هو الذى لا يمكنه أن يعيش وحده فان أسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية والنحل والنمل وبعض الغرانيق يشارك الانسان فى ذلك لكن النحل والكراكى تطيع رئيساً واحداً والنمل له اجتماع ولا رئيس (الخامس) الطير منه آكل لحم ومنه لاقط حب ومنه آكل عشب ، وقد يكون لبعض الطير طعم معين كالنحل فان غذاءه زهر والعنكبوت فان غذاءه الذباب وقد يكون بعضه متفق الطعم (أما القسم الثالث) وهو الحيوان الذى يكون تارة مائياً ، وأخرى بريا فيقال إنه حيوان يكون فى البحر ويعيش فيه ثم إنه يبرز إلى البر ويبقى فيه .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ التقسيم الثالث ﴾ الحيوان منه ما هو إنسى بالطبع كالانسان ومنه ماهو إنسى بالمولد كالهرة والفرس ومنه ماهو إنسى بالقسر كالفهد ومنه ما لا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه ما يسرع استئناسه ويبقى مستأنساً كالفيل ومنه مايبطىء كالأسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف إنسى وصنف وحشى حتى من الناس.

﴿ التقسيم الرابع ﴾ من الحيوان ما هو مصوت ومنه مالاصوت له وكل مصوت فانه يصير عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتاً إلا الانسان، وأيضاً لبعض الحيوان شبق يشتد كل وقت كالديك ومنه عفيف له وقت معين.

﴿ التقسيم الخامس ﴾ بحسب الأخلاق بعض الحيوانات هادىء الطبع قليل الغضب مثل البقرة وبعضه شديد الجهل حاد الغضب كالخنزير البرى وبعضها حليم خدوع كالبعير وبعضها ردىء الحركات مغتال كالحية وبعضها جرىء قوى شهم كبير النفس كريم الطبع كالأسد ومنها قوى مغتال وحشى كالذئب وبعضها محتال مكار ردىء الحركات كالثعلب وبعضها غضوب شديد الغضب سفيه إلا أنه ملق متودد كالكلب وبعضها شديد الكيس مستأنس كالفيل والقرد وبعضها حسود متباه بجماله كالطاووس وبعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار.

﴿ التقسيم السادس ﴾ من الحيوان ما تناسله بأن تلد أنثاه حيواناً وبعضها ما تناسله بأن تلد أنثاه دوداً كالنحل والعنكبوت فانها تلد دوداً، ثم إن أعضاءه تستكمل بعد وبعضها تناسله بأن تبيض أنثاه بيضاً.

واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على سبيل الكمال، ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لأنه لوكان الأمر بتركيب الطبائع الأربع فذلك بالنسبة إلى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها لابد وأن يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون. وأحسن كلام فى هذا الموضع قوله سبحانه (يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير) لأنه هو القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات، فأى عقل يقف عليها وأى خاطر يصل إلى ذرة من أسرارها، بل هو الذى يخلق مايشاء ولا يمنعه منه مانع ولا دافع.

وأما قوله (لقد أنزلنا آيات مبينات) فالأولى حمله على كل الأدلة والعبر، ولما كان القرآن كالمشتمل على كل ذلك صح أن يكون هو المراد.

أما قوله (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فاستدلال أصحابنا به كما تقدم (والجواب) أجاب القاضى عنه بأن المراد يهدى من بلغه حد التكليف دون غيره، أو يكون المراد من أطاعه واستحق الثواب فيهديه إلى الجنة على ماتقدم فى نظائره، وجوابنا عن هذا الجواب أيضاً كما تقدم فى نظائره والله أعلم.

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال مقاتل نزلت هذه الآية فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهودياً فى أرض وكان اليهودى يجره إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما ، وجعل المنافق يجره إلى كعب ابن الأشرف ، ويقول إن محمداً يحيف علينا وقد مضت قصتهما فى سورة النساء ، وقال الضحاك نزلت فى المغيرة بن وائل كان بينه وبين على بن أبى طالب أرض فتقاسما فوقع إلى على منها ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة ، فقال المغيرة بعنى أرضك فباعها إياه وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء . فقال لعلى اقبض أرضك فانما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء ، فقال على بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ، ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ فقال المغيرة ، أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فانه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على فنزلت هذه الآية ، وقال الحسن نزلت هذه الآية فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ويقولون آمنا ـ إلى قوله ـ وما أولئك بالمؤمنين) يدل على أن الإيمان لا يكون بالقول إذ لو كان به لما صح أن ينفى كونهم مؤمنين ، وقد فعلوا ما هو إيمان فى الحقيقة ، فان قيل إنه تعالى حكى عن كلهم أنهم يقولون آمنا ، ثم حكى عن فريق منهم التولى

www.besturdubooks.wordpress.com

فكيف يصح أن يقول فى جميعهم ، (وما أولئك بالمؤمنين) مع أن الذى تولى منهم هو البعض ؟ قلنا إن قوله (وما أولئك بالمؤمنين) راجع إلى الذين تولوا لا إلى الجملة الأولى ، وأيضاً فلو رجع إلى الأول يصح ويكون معنى قوله (ثم يتولى فريق منهم) أى يرجع هذا الفريق إلى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه ، ثم بين سبحانه أنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وهذا ترك للرضا بحكم الرسول ، ونبه بقوله تعالى (وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم أوشكوا فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا ، وفى ذلك دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق ، وإنما يريدون النفع المعجل ، وذلك أيضاً نفاق .

أما قوله تعالى (أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) ففيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ كلمة أم للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى (والجواب) اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   [وأندي العالمين بطون راح

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا فى الدين وإذ ارتابوا ففى قلوبهم مرض ، فالكل واحد ، فأى فائدة فى التعديد؟ (الجواب) قوله (أفى قلوبهم مرض) إشارة إلى النفاق وقوله (أم ارتابوا) إشارة إلى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الاسلام فى القلب ، وقوله (أم يخافون أن يحيف الله عليهم) إشارة إلى أنهم بلغوا فى حب الدنيا إلى حيث يتركون الدين بسببه .

﴿ السؤال الثالث ﴾ هب أن هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أم ؟ (الجواب) الأقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الأوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق ، وكان فيها شك وارتياب ، وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ، ثم بين تعالى بقوله (بل أولئك هم الظالمون) بطلان ماهم عليه لأن الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) إذ المرء لا يخلو من أن يكون ظالماً لنفسه أو ظالماً لغيره ، ويمكن أن يقال أيضاً لما ذكر تعالى فى الأقسام كونهم خائفين من الحيف ، أبطل ذلك بقوله (بل أولئك هم الظالمون) أى لا يخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم بأمانته وصيانته وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم وهم له جحود ، وذلك شىء لا يستطيعونه فى مجلس رسول الله ﷺ ثم يأبون المحاكمة إليه .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ، وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون . قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن يسلكه المؤمنون ، فقال تعالى (إنما كان قول المؤمنين) وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ الحسن قول المؤمنين بالرفع والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما في التعريف وأن يقولوا أوغل لأنه لاسبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قوله (إنما كان قول المؤمنين) معناه كذلك يجب أن يكون قولهم وطريقتهم إذا دعوا إلى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، فيكون إتيانهم إليه وانقيادهم له سمعاً وطاعة ، ومعنى (سمعنا) أجبنا على تأويل قول المسلمين سمع الله لمن حمده أى قبل وأجاب ، ثم قال (ومن يطع الله ورسوله) أى فيما ساءه وسره (ويخش الله) فيما صدر عنه من الذنوب في الماضى (ويتقه) فيما بقى من عمره (فأولئك هم المفلحون) وهذه الآية على إيجازها حاوية لكل ماينبغى للمؤمنين أن يفعلوه ،

أما قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن) فقال مقاتل : من حلف بالله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

فقد أجهد فى اليمين ، ثم قال لما بين الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله ، فقالوا والله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا ، ثم إنه تعالى أمر رسوله أن ينهاهم عن هذا القسم بقولهُ (قل لا تقسموا) ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهى عنه لأن من حلف على القيام بالبر والواجب لا يجوز أن ينهى عنه ، وإذا ثبت ذلك ثبت أن قسمهم كان لنفاقهم وأن باطنهم خلاف ظاهرهم ، ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه لا يكون إلا قبيحاً .

أما قوله (طاعة معروفة) فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، أى المطلوب منكم طاعة معروفة لا أيمان كاذبة ، أو مبتدأ خبره محذوف أى طاعة معروفة أمثل من قسمكم بما لا تصدقون فيه ، وقيل معناه دعوا القسم ولا تغتروا به وعليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها . وقرأ اليزيدى (طاعة معروفة) بالنصب على معنى أطيعوا طاعة الله (إن الله خبير بما تعملون) أى بصير لا يخفى عليه شىء من سرائركم ، وإنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم .

أما قوله (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) ، فاعلم أنه تعالى صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ، وهو أبلغ فى تبكيتهم (فان تولوا) يعنى إن تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فانما على الرسول ما حمل من تبليغ الرسالة (وعليكم ما حملتم) من الطاعة (وإن تطيعوه تهتدوا) أى تصيبوا الحق ، وإن عصيتموه فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، والبلاغ بمعنى التبليغ ، والمبين الواضح ، والموضح لما بكم إليه الحاجة ، وعن نافع أنه قرأ (فانما عليه ما حمل) بفتح الحاء والتخفيف أى فعليه إثم ما حمل من المعصية .

قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن تقدير النظم بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون ، فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أى الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح أن يستخلفهم فى الأرض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين كما استخلف عليها من قبلهم فى زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما ، وأنه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك هو أن يؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم ، فيعبدوننى آمنين لا يشركون بى شيئاً ولا يخافون (فمن كفر) أى من بعد هذا الوعد وارتد (فأولئك هم الفاسقون) .

واعلم أن هذه الآية مشتملة على بيان أكثر المسائل الأصولية الدينية فلنشر إلى معاقدها :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم) يدل على أنه سبحانه متكلم لأن الوعد نوع من أنواع الكلام والموصوف بالنوع موصوف بالجنس ، ولأنه سبحانه ملك مطاع والملك المطاع لابد وأن يكون بحيث يمكنه وعد أوليائه ووعيد أعدائه فثبت أنه سبحانه متكلم .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ الآية تدل على أنه سبحانه يعلم الأشياء قبل وقوعها خلافاً لهشام بن الحكم، فانه قال لا يعلمها قبل وقوعها ووجه الإستدلال به أنه سبحانه أخبر عن وقوع شىء فى المستقبل إخباراً على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقاً للخبر ومثل هذا الخبر لا يصح إلا مع العلم .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ الآية تدل على أنه سبحانه حى قادر على جميع الممكنات لأنه قال (ليستخلفنهم فى الأرض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) وقد فعل كل ذلك وصدور هذه الأشياء لا يصح إلا من القادر على كل المقدورات .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ الآية تدل على أنه سبحانه هو المستحق للعبادة لأنه قال يعبدوننى ، وقالت المعتزلة الآية تدل على أن فعل الله تعالى معلل بالغرض لأن المعنى لكى يعبدوننى وقالوا أيضاً الآية دالة على أنه سبحانه يريد العبادة من الكل ، لأن من فعل فعلا لغرض فلا بد وأن يكون مريداً لذلك الغرض .

﴿ **المسألة الخامسة** ﴾ دلت الآية على أنه تعالى منزه عن الشريك لقوله (لا يشركون بى شيئاً) وذلك يدل على نفى الإله الثانى ، وعلى أنه لا يجوز عبادة غير الله تعالى سواء كان كوكباً كما تقوله الصابئة أو صنما كما تقوله عبدة الأوثان .

﴿ **المسألة السادسة** ﴾ دلت الآية على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه أخبر عن الغيب فى قوله (ليستخلفنهم فى الأرض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) وقد وجد هذا المخبر موافقاً للخبر ومثل هذا الخبر معجز ، والمعجز دليل الصدق فدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ **المسألة السابعة** ﴾ دلت الآية على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان ، خلافاً للمعتزلة لأنه عطف العمل الصالح عن الايمان والمعطوف خارج عن المعطوف عليه .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثامنة ﴾ دلت الآية على إمامة الأئمة الأربعة وذلك لأنه تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين فى زمان محمد ﷺ وهو المراد بقوله ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكن لهم دينهم المرضى وأن يبدلهم بعد الخوف أمناً ، ومعلوم أن المراد بهذا الوعد بعد الرسول هؤلاء لأن استخلاف غيره لا يكون إلا بعده ومعلوم أنه لا نبى بعده لأنه خاتم الأنبياء ، فإذن المراد بهذا الاستخلاف طريقة الامامة ومعلوم أن بعد الرسول الاستخلاف الذى هذا وصفه إنما كان فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان لأن فى أيامهم كانت الفتوح العظيمة وحصل التمكين وظهور الدين والأمن ولم يحصل ذلك فى أيام على رضى الله عنه لأنه لم يتفرغ لجهاد الكفار لاشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصلاة فثبت بهذا دلالة الآية على صحة خلافة هؤلاء ، فان قيل الآية متروكة الظاهر لأنها تقتضى حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحاً ولم يكن الأمر كذلك . نزلنا عنه ، لكن لم لا يجوز أن يكون المراد من قوله (ليستخلفنهم) هو أنه تعالى يسكنهم الأرض ويمكنهم من التصرف لا أن المراد منه خلافة الله تعالى ومما يدل عليه قوله (كما استخلف الذين من قبلهم) واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الامامة فوجب أن يكون الأمر فى حقهم أيضاً كذلك . نزلنا عنه ، لكن ههنا ما يدل على أنه لا يجوز حمله على خلافة رسول الله لأن من مذهبكم ، أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحداً وروى عن على عليه السلام أنه قال أتركم كما تركم رسول الله . نزلنا عنه . لكن لم لا يجوز أن يكون المراد منه علياً عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقال فى حق على عليه السلام (والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) نزلنا عنه ، ولكن نحمله على الأئمة الإثنى عشر (والجواب) عن الأول . أن كلمة من للتبعيض فقوله (منكم) يدل على أن المراد بهذا الخطاب بعضهم (وعن الثانى) أن الاستخلاف بالمعنى الذى ذكرتموه حاصل لجميع الخلق فالمذكور ههنا فى معرض البشارة لا بد وأن يكون مغايراً له .

وأما قوله تعالى (كما استخلف الذين من قبلهم) فالذين كانوا قبلهم كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الامامة والخلافة حاصلة فى الصورتين (وعن الثالث) أنه وإن كان من مذهبنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحداً بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والأمر بالاختيار فلا يمتنع فى هؤلاء الائمة الأربعة أنه تعالى يستخلفهم وأن الرسول استخلفهم ، وعلى هذا الوجه قالوا فى أبى بكر يا خليفة رسول الله ، فالذى قيل إنه عليه السلام لم يستخلف أريد به على وجه التعيين وإذا قيل استخلف فالمراد على طريقة الوصف والأمر (وعن الرابع) أن حمل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الأصل (وعن الخامس) أنه باطل لوجهين (أحدهما) قوله تعالى (منكم) يدل على أن هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الأئمة ما كانوا حاضرين (الثانى) أنه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ فى العالم ولم يوجد ذلك فيهم فثبت بهذا صحة إمامة الأئمة

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

الأربعة وبطل قول الرافضة الطاعنين على أبي بكر وعمر وعثمان وعلى بطلان قول الخوارج الطاعنين على عثمان وعلى ، ولنرجع إلى التفسير .

أما قوله (ليستخلفنهم) فلقائل أن يقول أين القسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم ، قلنا هو محذوف تقديره وعدهم الله ليستلخفنهم أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال أقسم الله ليستخلفنهم .

أما قوله (كما استخلف الذين من قبلهم) يعنى كما استخلف هرون ويوشع وداود وسليمان . وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافاً كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، وقرىء كما استخلف بضم التاء وكسر اللام ، وقرىء بالفتح .

أما قوله تعالى (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) فالمعنى أنه يثبت لهم دينهم الذى ارتضى لهم وهو الاسلام ، وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب (وليبدلنهم) من الابدال بالتخفيف والباقون بالتشديد ، وقد ذكرنا الفرق بينهما فى قوله تعالى (بدلناهم جلوداً غيرها) .

أما قوله (يعبدوننى لايشركون بى شيئاً) ففيه دلالة على أن الذين عناهم لايتغيرون عن عبادة الله تعالى إلى الشرك . وقال الزجاج يجوز أن يكون فى موضع الحال على معنى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) فى حال عبادتهم وإخلاصهم لله ليفعلن بهم كيت وكيت ويجوز أن يكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم .

أما قوله (ومن كفر بعد ذلك) أى جحد حق هذه النعم (فأولئك هم الفاسقون) أى العاصون

قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ، لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير ﴾ .

أما تفسير إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . ولفظة لعل ولفظة الرحمة ، فالكل قد تقدم مراراً ، وأما قوله (لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) فالمعنى لاتحسبن يامحمد الذين كفروا سابقين فائتين حتى يعجزوننى عن إدراكهم . وقرىء لايحسبن بالياء المعجمة من تحتها ، وفيه أوجه (أحدها) أن يكون معجزين فى الأرض هما المفعولان ، والمعنى لايحسبن الذين كفروا

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

أحداً يعجز الله فى الأرض حتى يطمعوا هم فى مثل ذلك (وثانيها) أن يكون فيه ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره فى قوله (وأطيعوا الرسول) والمعنى لايحسبن الذين كفروا معجزين (وثالثها) أن يكون الأصل ولا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذى هو المفعول الأول.

وأما قوله (ومأواهم النار ولبئس المصير) فقال صاحب [الكشاف]: النظم لا يحتمل أن يكون متصلا بقوله (لا تحسبن) لأن ذلك نفى. وهذا إيجاب، فهو إذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض بل هم مقهورون ومأواهم النار.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم، وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم، والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال القاضى : قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) وإن كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء لأن التذكير يغلب على التأنيث فاذا لم يميز فيدخل تحت قوله (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم) الكل ويبين ذلك قوله تعالى (الذين ملكت أيمانكم) لأن ذلك يقال فى الرجال والنساء والأولى عندى أن الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى ، وذلك لأن النساء فى باب حفظ العورة أشد حالا من الرجال ، فهذا الحكم لما ثبت فى الرجال فثبوته فى النساء بطريق الأولى ، كما أنا نثبت حرمة الضرب بالقياس الجلى على حرمة التأفيف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر قوله (الذين ملكت أيمانكم) يدخل فيه البالغون والصغار ، وحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد الصغار ، واحتجوا بأن الكبير من المماليك ليس له أن ينظر من المالك إلا إلى ما يجوز للحر أن ينظر إليه ، قال ابن المسيب : لا يغرنكم قوله (وما ملكت أيمانكم) لا ينبغى للمرأة أن ينظر عبدها إلى قرطها وشعرها وشىء من محاسنها ، وقال الآخرون : بل البالغ من المماليك له أن ينظر إلى شعر مالكته وما شاكله ، وظاهر الآية يدل على اختصاص عبيد المؤمنين والأطفال من الأحرار بإباحة ما حظره الله تعالى من قبل على جماعة المؤمنين بقوله (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) فانه أباح لهم إلا فى الأوقات الثلاثة وجوز دخولهم مع من لم يبلغ بغير إذن ودخول الموالى عليهم بقوله تعالى (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم) أى يطوف بعضكم على بعض فيما عدا الأوقات الثلاثة ، وأكد ذلك بأن أوجب على من بلغ الحلم الجرى على سنة من قبلهم من البالغين فى الاستئذان فى سائر الأوقات وألحقهم بمن دخل تحت قوله (لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إن أريد به العبيد والإماء إذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمراً لهم فى الحقيقة ، وإن أريد الذين لم يبلغوا الحلم لم يجز أن يكون أمراً لهم ، ويجب أن يكون أمراً لنا بأن نأمرهم بذلك ونبعثهم عليه كما أمرنا بأمر الصبى ، وقد عقل الصلاة أن يفعلها لا على وجه التكليف لهم ، لكنه تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ ، ولا يبعد أن يكون لفظ الأمر وإن كان فى الظاهر متوجهاً عليهم إلا أنه يكون فى الحقيقة متوجهاً على المولى كقولك للرجل : ليخفك أهلك وولدك ، فظاهر الأمر لهم وحقيقة الأمر له بفعل مايخافون عنده .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما إن رسول الله صلى الله بعث غلاماً من الأنصار إلى عمر ليدعوه فوجده نائماً فى البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ عمر فعاد ورد الباب

www.besturdubooks.wordpress.com

وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام أللهم أيقظه لى ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من عمر شيء وعرف عمر أن الغلام رأى ذلك منه فقال وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا فى هذه الساعات إلا باذن ثم انطلق معه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فوجده قد نزل عليه (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) فحمد الله تعالى عمر عند ذلك فقال عليه السلام وما ذاك ياعمر ؟ فأخبره بما فعل الغلام فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنعه وتعرف اسمه ومدحه ، وقال : إن الله يحب الحليم الحى العفيف المتعفف ، ويبغض البذيء الجريء السائل الملحف » فهذه الآية إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر . وقال بعضهم : نزلت فى أسماء بنت أبى مرثد قالت إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان فى لحاف واحد ، وقيل دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت الآية .

﴿ **المسألة الخامسة** ﴾ قال ابن عمر ومجاهد قوله (ليستأذنكم) عنى به الذكور دون الإناث لأن قوله (الذين ملكت أيمانكم) صيغة الذكور لا صيغة الإناث ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى فى الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار ، والصحيح أنه يجب إثبات هذا الحكم فى النساء ، لأن الانسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضاً اطلاع النساء عليها ولكن الحكم يثبت فى النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه .

﴿ **المسألة السادسة** ﴾ من العلماء من قال الأمر فى قوله (ليستأذنكم) على الندب والاستحباب ومنهم من قال إنه على الإيجاب وهذا أولى ، لما ثبت أن ظاهر الأمر للوجوب .

أما قوله تعالى (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ ابن عمر الحلم بالسكون .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ اتفق الفقهاء على أن الاحتلام بلوغ ، واختلفوا إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون الغلام بالغاً حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة ويستكملها وفى الجارية سبع عشرة سنة ، وقال الشافعى وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله فى الغلام والجارية خمس عشرة سنة قال أبو بكر الرازى قوله تعالى (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة إذا لم يحتلم لأن الله تعالى لم يفرق بين من بلغها وبين من قصر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من جهات كثيرة « رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يحتلم » ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها ، فان قيل فهذا الكلام يبطل التقدير أيضاً بثمانى عشرة سنة أجاب بأنا قد علمنا بأن العادة فى البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان مبنياً على طريق العادات فقد تجوز الزيادة فيه والنقصان منه ، وقد وجدنا من بلغ فى اثنتى عشرة سنة ، وقد بينا أن الزيادة على

www.besturdubooks.wordpress.com

المعتاد جائزة كالنقصان منه فجعل أبو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان . وهى ثلاث سنين ، وقد حكى عن أبى حنيفة رحمه الله تسع عشرة سنة للغلام ، وهو محمول على استكمال ثمانى عشرة سنة والدخول فى التاسعة عشرة . حجة الشافعى رحمه الله ماروى ابن عمر أنه عرض على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وله أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه اعترض أبو بكر الرازى عليه فقال هذا الخبر مضطرب لأن أحداً كان فى سنة ثلاث والخندق فى سنة خمس فكيف يكون بينهما سنة ؟ ثم مع ذلك فان الأجازة فى القتال لاتعلق لها بالبلوغ لأنه قد يرد البالغ لضعفه ويؤذن غير البالغ لقوته ولطاقته حمل السلاح ويدل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ما سأله عن الاحتلام والسن .

﴿ البحث الثانى ﴾ اختلفوا فى الانبات هل يكون بلوغا . فأبو حنيفة وأصحابه ما جعلوه بلوغاً والشافعى رحمه الله جعله بلوغا ، قال أبو بكر الرازى رحمه الله ظاهر قوله (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) ينفى أن يكون الإنبات بلوغا إذا لم يحتلم كما نفى كون خمس عشرة سنة بلوغا وكذلك قوله عليه السلام وعن الصبى حتى يحتلم حجة الشافعى رحمه الله تعالى ما روى عطية القرظى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال فنظروا إلى فلم أكن قد أنبت فاستبقانى قال أبو بكر الرازى هذا الحديث لايجوز إثبات الشرع به وبمثله لوجوه : (أحدها) أن عطية هذا مجهول لا يعرف إلا من هذا الخبر لاسيما مع اعتراضه على الآية ، والخبر فى نفى البلوغ إلا بالاحتلام (وثانيها) أنه مختلف الألفاظ ففى بعضها أنه أمر بقتل من جرت عليه الموسى ، وفى بعضها من اخضر عذاره ومعلوم أنه لايبلغ هذه الحال إلا وقد تقدم بلوغه ولا يكون قد جرت عليه الموسى إلا وهو رجل كبير ، فجعل الإنبات وجرى الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذى ذكرنا من السن وهى ثمانى عشرة سنة فأكثر (وثالثها) أن الانبات يدل على القوة البدنية فالأمر بالقتل لذاك لا للبلوغ ، قال الشافعى رحمه الله هذه الاحتمالات مردودة بما روى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سئل عن غلام فقال هل اخضر عذاره ؟ وهذا يدل على أن ذلك كان كالأمر المتفق عليه فيما بين الصحابة .

﴿ البحث الثالث ﴾ ويروى عن قوم من السلف أنهم اعتبروا فى البلوغ أن يبلغ الانسان فى طوله خمسة أشبار ، روى عن على عليه السلام أنه قال إذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود ويقتص له ويقتص منه ، وعن ابن سيرين عن أنس قال أتى أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلى عنه ، وهذا المذهب أخذ به الفرزدق فى قوله :

ما زال مذ عقدت يداه إزاره وسما فأدرك خمسة الأشبار

وأكثر الفقهاء لايقولون بهذا المذهب ، لأن الانسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلا ، وفوق البلوغ ويكون قصيراً فلا عبرة به .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال أبو بكر الرازى دلت هذه الآية على أن من لم يبلغ ، وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح فإن الله أمرهم بالاستئذان فى هذه الأوقات ، وقال عليه السلام « مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر » وعن ابن عمر رضى الله عنه قال نعلم الصبى الصلاة إذا عرف يمينه من شماله ، وعن زين العابدين أنه كان يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعاً والمغرب والعشاء جميعاً ، فقيل له يصلون الصلاة لغير وقتها فقال هذا خير من أن يتناهوا عنها ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه إذا بلغ الصبى عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب عليه السيئات حتى يحتلم ، ثم قال أبو بكر الرازى إنما يؤمر بذلك على وجه التعليم وليعتاده ويتمرن عليه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ وأقل نفوراً منه ، وكذلك يجنب شرب الخمر ولحم الخنزير ، وينهى عن سائر المحظورات لأنه لو لم يمنع منه فى الصغر لصعب عليه الامتناع بعد الكبر ، وقال الله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) قيل فى التفسير أدبوهم وعلموهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الأخفش : يقال فى الحلم حلم الرجل بفتح اللام ، يحلم حلماً بضم اللام ، ومن الحلم حلم بضم اللام ، يحلم حلماً بكسر اللام .

أما قوله تعالى (ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (ثلاث مرات) يعنى ثلاث أوقات ، لأنه تعالى فسرهن بالأوقات ، وإنما قيل ثلاث مرات للأوقات ، لأنه أراد مرة فى كل وقت من هذه الأوقات ، لأنه يكفيهم أن يستأذنوا فى كل واحد من هذه الأوقات مرة واحدة ، ثم بين الأوقات فقال : من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، يعنى الغالب فى هذه الأوقات الثلاثة أن يكون الإنسان متجرداً عن الثياب مكشوف العورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ثلاث عورات) قرأ أهل الكوفة : ثلاث بالنصب على البدل من قوله (ثلاث مرات) وكأنه قال فى أوقات ثلاث عورات لكم ، فلما حذف المضاف أعرب المضاف إليه بإعرابه وقراءة الباقين بالرفع ، أى هى ثلاث عورات فارتفع لأنه خبر مبتدأ محذوف ، قال القفال فكأن المعنى ثلاث انكشافات والمراد وقت الانكشاف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ العورة الخلل ومنه اعور الفارس واعور المكان والأعور المختل العين ، فسمى الله تعالى كل واحدة من تلك الأحوال عورة ، لأن الناس يختل حفظهم وتسترهم فيها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل فى الأحكام إذا أمكن لأنه تعالى نبه على العلة فى هذه الأوقات الثلاثة من وجهين (أحدهما) بقوله تعالى (ثلاث عورات لكم) (والثانى) بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة وبين ما عداها بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف فى هذه الأوقات الثلاثة ، وأنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها ، وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الخامسة ﴾ من الناس من قال إن قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) فهذا يدل على أن الاستئذان واجب فى كل حال ، وصار ذلك منسوخاً بهذه الآية فى غير هذه الأحوال الثلاثة ، ومن الناس من قال الآية الأولى أريد بها المكلف لأنه خطاب لمن آمن ، وما ذكره الله تعالى فى هذه الآية فهو فيمن ليس بمكلف فقيل فيه إن فى بعض الأحوال لا يدخل إلا بإذن ، وفى بعضها بغير إذن . فلا وجه لحمل ذلك على النسخ ، لأن ما تناولته الآية الأولى من المخاطبين لم تتناوله الآية الثانية أصلا ، فإن قيل بتقدير أن يكون قوله تعالى (الذين ملكت أيمانكم) يدخل فيه من قد بلغ فالنسخ لازم ، قلنا لا يجب ذلك أيضاً ، لأن قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) لا يدخل إلا من يملك البيوت لحق هذه الإضافة ، وإذا صح ذلك لم يدخل تحته العبيد والإماء ، فلا يجب النسخ أيضاً على هذا القول ، فأما إن حمل الكلام على صغار المماليك فالقول فيه أبين .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال أبو حنيفة رحمه الله : لم يصر أحد من العلماء إلى أن الأمر بالاستئذان منسوخ . وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : ثلاث آيات من كتاب الله تركهن الناس ولا أرى أحداً يعمل بهن ، قال عطاء حفظت اثنتين ونسيت واحدة ، وقرأ هذه الآية وقوله (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وذكر سعيد بن جبير أن الآية الثالثة قوله (وإذا حضر القسمة أولو القربى) الآية .

أما قوله تعالى (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض) ، ففيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أتقولون فى قوله (ليس عليكم ولا عليهم جناح) أنه يقتضى الإباحة على كل حال ؟ (الجواب) قد بينا أن ذلك هو فى الصغار خاصة ، فمباح لهم الدخول للخدمة بغير الاذن فى غير الأوقات الثلاثة ، ومباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم أيضاً .

﴿ السؤال الثانى ﴾ فهل يقتضى ذلك إباحة كشف العورة لهم ؟ (الجواب) لا ، وإنما أباح الله تعالى ذلك من حيث كانت العادة أن لا تكشف العورة فى غير تلك الأوقات ، فمتى كشفت المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم إليها فذلك يحرم عليها ، فإن كان الخادم ممن يتناوله التكليف فيحرم عليه الدخول أيضاً إذا ظن أن هناك كشف عورة . فإن قيل أليس من الناس من جوز للبالغ من المماليك أن ينظر إلى شعر مولاته ؟ قلنا من جوز ذلك أخرج الشعر من أن يكون عورة لحق الملك ، كما يخرج من أن يكون عورة لحق الرحم ، إذ العورة تنقسم ففيه ما يكون عورة على كل حال : وفيه ما يختلف حاله بالاضافة فيكون عورة مع الأجنبى غير عورة مع غيره على ما تقدم ذكره .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أتقولون هذه الإباحة مقصورة على الخدم دون غيرهم ؟ (الجواب) نعم

www.besturdubooks.wordpress.com

وفى قوله (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) دلالة على أن هذا الحكم يختص بالصغار دون البالغين على ما تقدم ذكره ، وقد نص تعالى على ذلك من بعد فقال (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) والمراد من تجدد منه البلوغ يجب أن يكون بمنزلة من تقدم بلوغه فى وجوب الاستئذان ، فهذا معنى قوله (كما استأذن الذين من قبلهم) وقد يجوز أن يظن ظان أن من خدم فى حال الصغر ، فإذا بلغ يجوز له أن لا يستأذن ويفارق حاله حال من لم يخدم ولم يملك ، فبين تعالى أنه كما حظر على البالغين الدخول إلا بالاستئذان ، فكذلك على هؤلاء إذا بلغوا وإن تقدمت لهم خدمة أو ثبت فيهم ملك لهن .

﴿ السؤال الرابع ﴾ الأمر بالاستئذان هل هو مختص بالمملوك ، ومن لم يبلغ الحلم أو يتناول الكل من ذوى الرحم ؟ والأجنبي أيضاً لو كان المملوك من ذوى الرحم هل يجب عليه الاستئذان ؟ (الجواب) أما الصورة الأولى فنعم ، إما لعموم قوله تعالى (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا) أو بالقياس على المملوك ، ومن لم يبلغ الحلم بطريق الأولى ، وأما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان لعموم الآية .

﴿ السؤال الخامس ﴾ ما محل ليس عليكم ؟ (الجواب) إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك فى محل الرفع على الوصف ، والمعنى هن ثلاث عورات مخصوصة بالإستئذان ، وإذا نصبت لم يكن له محل ، وكان كلاماً مقرراً للأمر بالإستئذان فى تلك الأحوال خاصة .

﴿ السؤال السادس ﴾ مامعنى قوله (طوافون عليكم) ؟ (الجواب) قال الفراء والزجاج إنه كلام مستأنف كقولك فى الكلام إنما هم خدمكم وطوافون عليكم ، والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد ، وأصله من الطواف ، والمعنى يطوف بعضكم على بعض بغير إذن .

﴿ السؤال السابع ﴾ بم ارتفع بعضكم ؟ (الجواب) بالإبتداء وخبره على بعض على معنى طائف على بعض ، وإنما حذف لأن طوافون يدل عليه .

أما قوله (والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن السكيت : امرأة قاعد إذا قعدت عن الحيض والجمع قواعد ، وإذا أردت القعود قلت قاعدة ، وقال المفسرون : القواعد هن اللواتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهن فى الأزواج ، والأولى أن لا يعتبر قعودهن عن الحيض لأن ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية ، فالمراد قعودهن عن حال الزوج . وذلك لا يكون إلا إذا بلغن فى السن بحيث لا يرغب فيهن الرجال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى فى النساء (لا يرجون) كقوله (إلا أن يعفون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا شبهة أنه تعالى لم يأذن فى أن يضعن ثيابهن أجمع لما فيه من كشف كل عورة ، فلذلك قال المفسرون: المراد بالثياب ههنا الجلباب والبرد والقناع الذى فوق الخمار ، وروى

www.besturdubooks.wordpress.com

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ أن يضعن جلابيبهن وعن السدى عن شيوخه أن يضعن خمرهن رءوسهن وعن بعضهم أنه قرأ أن يضعن من ثيابهن ، وإنما خصهن الله تعالى بذلك لأن التهمة مرتفعة عنهن ، وقد بلغن هذا المبلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب. ولذلك قال (وأن يستعففن خير لهن) وإنما جعل ذلك أفضل من حيث هو أبعد من المظنة وذلك يقتضى أن عند المظنة يلزمهن أن لا يضعن ذلك كما يلزم مثله فى الشابة .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ حقيقة التبرج تكلف إظهار ما يجب اخفاؤه من قولهم سفينة بارج لا غطاء عليها ، والتبرج سعة العين التى يرى بياضها محيطاً بسوادها كله ، لا يغيب منه شىء إلا أنه اختص بأن تنكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها .

قوله تعالى ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت أخوانكم أو بيوت إخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ اختلفوا فى المراد من رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فقال

www.besturdubooks.wordpress.com

ابن زيد المراد أنه لاحرج عليهم ولاإثم فى ترك الجهاد ، وقال الحسن نزلت الآية فى ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف لأنه تعالى عطف عليه قوله (أن تأكلوا) فنبه بذلك على أنه إنما رفع الحرج فى ذلك ، وقال الأكثرون المراد منه أن القوم كانوا يحظرون الأكل مع هؤلاء الثلاثة وفى هذه المنازل ، فالله تعالى رفع ذلك الحظر وأزاله ، واختلفوا فى أنهم لأى سبب اعتقدوا ذلك الحظر ، أما فى حق الأعمى والأعرج والمريض فذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنهم كانوا لا يأكلون مع الأعمى لأنه لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذه ، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فإلى أن يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين ، وكذا المريض لأنه لا يتأتى له أن يأكل كما يأكل الصحيح .قال الفراء : فعلى هذا التأويل تكون على بمعنى فى يعنى ليس عليكم فى مواكلة هؤلاء حرج (وثانيها) أن العميان والعرجان والمرضى تركوا مواكلة الأصحاء : أما الأعمى فقال إنى لا أرى شيئاً فربما آخذ الأجود وأترك الأردأ ، وأما الأعرج والمريض نخافا أن يفسدا الطعام على الأصحاء لأمور تعترى المرضى ، ولأجل أن الأصحاء يتكرهون منهم ولأجل أن المريض ربما حمله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير ، وذلك مما يكرهه ذلك الغير . فلهذه الأسباب احترزوا عن مواكلة الأصحاء ، فالله تعالى أطلق لهم فى ذلك (وثالثها) روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله فى هذه الآية أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يسلمون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك قالوا لاندخلها وهم غائبون ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضى الله عنها فعلى هذا معنى الآيه نفى الحرج عن الزمنى فى أكلهم من بيت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج إلى الغزو (ورابعها) نقل عن ابن عباس ومقاتل بن حيان نزلت هذه الآية فى الحارث بن عمرو وذلك أنه خرج مع رسول الله ﷺ غازياً وخلف بن مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك ، وأما فى حق سائر الناس فذكروا وجهين (الأول) كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها ، فلما نزل قوله تعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة) أى بيعاً فعند ذلك امتنع الناس أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية (الثانى) قال قتادة : كانت الأنصار فى أنفسها قزازة وكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا ، قال السدى كان الرجل يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتتحفه المرأة بشىء من الطعام فيتحرج ، لأنه ليس ثم رب البيت . فأنزل الله تعالى هذه الرخصة .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قال الزجاج الحرج فى اللغة الضيق ومعناه فى الدين الإثم .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ أنه سبحانه أباح الأكل للناس من هذه المواضع وظاهر الآية يدل على

www.besturdubooks.wordpress.com

أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان ، واختلف العلماء فيه فنقل عن قتادة أن الأكل مباح ولكن لا يحمل ، وجمهور العلماء أنكروا ذلك ثم اختلفوا على وجوه (الأول) كان ذلك فى صدر الإسلام ، ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام « لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه » ومما يدل على هذا النسخ قوله (لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) وكان فى أزواج النبى ﷺ من لهن الآباء والإخوة والأخوات ، فعم بالنهى عن دخول بيوتهن إلا بعد الإذن فى الدخول وفى الأكل ، فإن قيل إنما أذن تعالى فى هذا لأن المسلمين لم يكونوا يمنعون قراباتهم هؤلاء من أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أو غابوا ، فجاز أن يرخص فى ذلك ، قلنا لو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الأقارب بالذكر معنى لأن غيرهم كهم فى ذلك (الثانى) قال أبو مسلم الأصفهانى : المراد من هؤلاء الأقارب إذا لم يكونوا مؤمنين ، وذلك لأنه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) ثم إنه سبحانه أباح فى هذه الآية ما حظره هناك ، قال ويدل عليه أن فى هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال (حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) وفى بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك ، بل أمر أن يسلموا على أنفسهم ، والحاصل أن المقصود من هذه الآية إثبات الإباحة فى الجملة ، لا إثبات الإباحة فى جميع الأوقات (الثالث) أنه لما علم بالعادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل من يدخل عليهم والعادة كالاذن فى ذلك ، فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر ، لأن هذه العادة فى الأغلب توجد فيهم ولذلك ضم إليهم الصديق ، ولما علمنا أن هذه الاباحة إنما حصلت فى هذه الصورة لأجل حصول الرضا فيها ، فلا حاجة إلى القول بالنسخ .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ أن الله تعالى ذكر أحد عشر موضعاً فى هذه الآية (أولها) قوله (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) وفيه سؤال وهو أن يقال أى فائدة فى إباحة أكل الإنسان طعامه فى بيته ؟ وجوابه المراد فى بيوت أزواجكم وعيالكم أضافه إليهم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج ، وهذا قول الفراء . وقال ابن قتيبة : أراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء لأن الولد كسب والده وماله كماله ، قال عليه السلام « إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه » والدليل على هذا أنه سبحانه وتعالى عدد الأقارب ولم يذكر الأولاد لأنه إذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذى هو أقرب منهم أولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الأمهات (ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الأخوات (وسادسها) بيوت الأعمام (وسابعها) بيوت العمات (وثامنها) بيوت الأخوال (وتاسعها) بيوت الخالات (وعاشرها) قوله تعالى (أو ما ملكتم مفاتحه) وقرئ مفتاحه وفيه وجوه (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته ، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر

www.besturdubooks.wordpress.com

ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته، وملك المفاتح كونها فى يده وفى حفظه (الثانى) قال الضحاك: يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لأن مال العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم، وواحد المفاتيح مفتح بالكسر (الحادى عشر) قوله (أو صديقكم) والمعنى أو بيوت أصدقائكم، والصديق يكون واحداً وجمعاً، وكذلك الخليط والقطين والعد(١) ويحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد أخرجوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون، فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الصديق أكثر من الوالدين، لأن أهل جهنم لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل بالأصدقاء، فقالوا مالنا من شافعين ولا صديق حميم، وحكى أن أخاً للربيع بن خيثم فى الله دخل منزله فى حال غيبته فانبسط إلى جاريته حتى قدمت إليه ما أكل، فلما عاد أخبرته بذلك، فلسروره بذلك قال إن صدقت فأنت حرة.

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية، على أن من سرق من ذى رحم محرم أنه لا يقطع لإباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الأكل من بيوتهم ودخولها بغير إذنهم، فلا يكون ماله محرزاً منهم، فإن قيل فيلزم أن لا يقطع إذا سرق من مال صديقه، قلنا من أراد سرقة ماله لا يكون صديقاً له.

أما قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) فقال أكثر المفسرين: نزلت الآية فى بنى ليث بن عمرو وهم حى من كنانة، كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فان لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فأعلم الله تعالى أن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه، هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما، وقال عكرمة وأبو صالح رحمهما الله: كانت الأنصار إذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل إلا وضيفه معه، فرخص الله لهم أن يأكلوا كيف شاءوا مجتمعين ومتفرقين. وقال الكلبى: كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعمى طعاماً على حدة، وكذلك للزمن والمريض، فبين الله لهم أن ذلك غير واجب، وقال آخرون: كانوا يأكلون فرادى خوفاً من أن يحصل عند الجمعية ماينفر أو يؤذى، فبين الله تعالى أنه غير واجب وقوله (جميعاً) نصب على الحال (وأشتاتاً) جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت قاله المفضل وقيل الشت مصدر بمعنى التفرق ثم يوصف به ويجمع.

أما قوله تعالى (فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) فالمعنى أنه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) قال ابن عباس: فان لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا، وإذا دخل المسجد فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا. قال قتادة: وحدثنا أن الملائكة ترد عليه. قال القفال: وإن كان فى البيت أهل الذمة

---

(١) فى القاموس: العد من القوم من يعد فيهم.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

فليقل السلام على من اتبع الهدى وقوله تحية نصب على المصدر، كأنه قال: فحيوا تحية من عند الله، أى مما أمركم الله به . قال ابن عباس رضى الله عنهما : من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله (مباركة طيبة) قال الضحاك : معنى البركة فيه تضعيف الثواب . وقال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك ثابت لما فيه من الأجر والثواب وأنه إذا أطاع الله فيه أكثر خيره وأجزل أجره (كذلك يبين الله لكم الآيات) أى يفصل الله شرائعه لكم (لعلكم تعقلون) لتفهموا عن الله أمره ونهيه، وروى حميد عن أنس قال «خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى فى شىء فعلته لم فعلته ولا قال لى فى شىء تركته لم تركته، وكنت واقفاً على رأس النبى صلى الله عليه وسلم أصب الماء على يديه فرفع رأسه إلى وقال : ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بهن؟ قلت بأبى وأمى أنت يا رسول الله بلى، فقال من لقيت من أمتى فسلم عليهم يطل عمرك، وإذا دخلت بيتاً فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين» .

قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ، لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ، ألا إن لله ما فى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم ﴾ وفى الآية مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء على أمر جميع ثم ذكروا فى قوله على أمر جامع وجوهاً (أحدها) أن الأمر الجامع هو الأمر الموجب للاجتماع عليه فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز ، وذلك نحو مقاتلة عدو أو تشاور فى خطب مهم أو الأمر الذى يعم ضرره ونفعه وفى قوله (إذا كانوا معه على أمر جامع) إشارة إلى أنه خطب جليل لابد لرسول صلى الله عليه وسلم من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم فمفارقة أحدهم فى هذه الحالة مما يشق على قلبه (وثانيها) عن الضحاك فى أمر جامع الجمعة والأعياد وكل شيء تكون فيه الخطبة (وثالثها) عن مجاهد فى الحروب وغيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى سبب نزوله قال الكلبي كان صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يميناً وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا ، وإن أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفاً ، فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير إذن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الجبائى هذا يدل على أن استئذانهم الرسول من إيمانهم ، ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملى الإيمان وإن تركوا الاستئذان ، وذلك يدل على أن كل فرض لله تعالى واجتناب محرم من الايمان (والجواب) هذا بناء على أن كلمة إنما للحصر وأيضاً فالمنافقون إنما تركوا الاستئذان استخفافا ولا نزاع فى أنه كفر .

أما قوله تعالى (إن الذين يستأذنونك) إلى قوله (إن الله غفور رحيم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (إن الذين يستأذنونك) المعنى تعظيما لك ورعاية للأدب (أولئك هم الذين يؤمنون بالله ورسوله) أى يعملون بموجب الايمان ومقتضاه ، قال الضحاك ومقاتل : المراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك لأنه استأذن فى غزوة تبوك فى الرجوع إلى أهله فأذن له وقال له انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام ، فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد إذا استأذنه أصحابه أذن لهم ، وإذا استأذناه لم يأذن لنا فوالله ما نراه يعدل ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما إن عمر استأذن رسول الله ﷺ فى العمرة فأذن له ، ثم قال يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك ، وفى قوله (واستغفر لهم الله) وجهان : (أحدهما) أن يستغفر لهم تنبيهاً على أن الأولى أن لا يقع الاستئذان منهم وإن أذن ، لأن الاستغفار يدل على الذنب وربما ذكر عند بعض الرخص (الثانى) يحتمل أنه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى فى الاستئذان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال قتادة نسخت هذه الآية قوله تعالى (لم أذنت لهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أنه سبحانه فوض إلى رسوله بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه .

أما قوله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) ففيه وجوه : (أحدها) وهو اختيار المبرد والقفال ، ولا تجعلوا أمره إياكم ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض إذ كان

www.besturdubooks.wordpress.com

أمره فرضاً لازما ، والذى يدل على هـذا قوله عقيب هذا (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) (وثانيها) لا تنادوه كما ينادى بعضكم بعضاً ، يا محمد ، ولـكن قولوا يا رسول الله يا نبي الله ، عن سعيد بن جبير (وثالثها) لاترفعوا أصواتكم فى دعائه وهو المراد من قوله (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) عن ابن عباس (ورابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره ، والوجه الأول أقرب إلى نظم الآية .

أما قوله تعـالى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) فالمعنى يتسللون قليلا قليلا ، ونظير تسلل تدرج وتدخل ، واللواذ الملاوذة وهى أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا ، يعنى يتسللون عن الجماعة على سبيل الخفية واستتار بعضهم ببعض ، ولواذاً حال أى ملاوذين وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيؤذن له فينطلق الذى لم يؤذن له معه ، وقرىء لواذاً بالفتح ثم اختلفوا على وجوه : (أحدها) قال مقاتل : كان المنافقون تثقل عليهم خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحابه ويخرجون من غير استئذان (وثانيها) قال مجاهد يتسللون من الصف فى القتال (وثالثها) قال ابن قتيبة هذا كان فى حفر الخنـدق (ورابعها) يتسللون عن رسول الله ﷺ وعن كتابه وعن ذكره ، وقوله (قد يعلم الله) معناه التهديد بالمجازاة .

أما قوله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الأخفش عن صلة والمعنى (يخالفون أمره) وقال غيره معناه يعرضون عن أمره ويميلون عن سنته فدخلت عن لتضمين المخالفة معنى الاعراض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لـكن القصد هو الرسول فإليه ترجع الـكناية ، وقال أبو بكر الرازى الأظهر أنها لله تعالى لأنه يليه ، وحكم الـكناية رجوعها إلى ما يليها دون ما تقدمها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أن ظاهر الأمر للوجوب ، ووجه الاستدلال به أن نقول : تارك المأمور به مخالف لذلك الأمر ومخالف الأمر مستحق للعقاب فتارك المأمور به مستحق للعقاب ولا معنى للوجوب إلا ذلك ، إنمـا قلنا إن تارك المأمور به مخالف لذلك الأمر ، لأن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ، والمخالفة ضد الموافقة فكانت مخالفة الأمر عبارة عن الإخلال بمقتضاه فثبت أن تارك المأمور به مخالف ، وإنمـا قلنا إن مخالف الأمر مستحق للعقاب لقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) فأمر مخالف هذا الأمر بالحذر عن العقاب ، والأمر بالحذر عن العقاب إنمـا يكون بعد قيام المقتضى لنزول العقاب ، فثبت أن مخالف أمر الله تعالى أو أمر رسوله قد وجد فى حقه ما يقتضى نزول العذاب ، فإن قيل لا نسلم أن تارك المأمور به مخالف للأمر قوله موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الإخلال بمقتضاه ، قلنا لا نسلم أن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ، فمـا الدليل عليه ؟ ثم

www.besturdubooks.wordpress.com

إنا نفسر موافقة الأمر بتفسيرين (أحدهما) أن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بما يقتضيه الأمر على الوجه الذى يقتضيه الأمر فإن الأمر ، لو اقتضاه على سبيل الندب ، وأنت تأتى به على سبيل الوجوب كان ذلك مخالفة للأمر (الثانى) أن موافقة الأمر عبارة عن الإعتراف بكون ذلك الأمر حقاً واجب القبول فمخالفته تكون عبارة عن إنكار كونه حقاً واجب القبول ، سلمنا أن ماذكرته يدل على أن مخالفة الأمرعبارة عن ترك مقتضاه لكنه معارض بوجوه أخر ، وهو أنه لوكان ترك المأمور به مخالفة للأمر لكان ترك المندوب لا محالة مخالفة لأمر الله تعالى ، وذلك باطل وإلا لاستحق العقاب على مابينتموه فى المقدمة الثانية ، سلمنا أن تارك المأمور به مخالف للأمر فلم قلت إن مخالف الأمر مستحق للعقاب لقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) ؟ قلنا لا نسلم أن هذه الآية دالة على أمر من يكون مخالفاً للأمر بالحذر بل هى دالة على الأمر بالحذر عن مخالفة الأمر ، فلم لايجوزأن يكون كذلك ؟ سلمناذلك لكنها دالة على أن المخالف عن الأمريلزمه الحذر ، فلم قلت إن مخالف الأمرلايلزمه الحذر ؟ فان قلت لفظة عن صلة زائدة فنقول الأصل فى الكلام لا سيما فى كلام الله تعالى أن لايكون زائداً ، سلمنا دلالة الآية على أن مخالف أمر الله تعالى مأمور بالحذر عن العذاب ، فلم قلت إنه يجب عليه الحذر عن العذاب ؟ أقصى ما فى الباب أنه ورد الأمر به لكن لم قلت إن الأمرللوجوب ؟ وهذا أول المسألة ، فإن قلت هب أنه لايدل على وجوب الحذر لكن لابد وأن يدل على حسن الحذر ، وحسن الحذر إنما يكون بعد قيام المقتضى لنزول العذاب. قلت : لا نسلم أن حسن الحذر مشروط بقيام المقتضى لنزول العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب . ولهذا يحسن الإحتياط ، وعندنا مجرد الاحتمال قائم لأن هذه المسألة احتمالية لاقطعية ، سلمنا دلالة الآية على وجود ما يقتضى نزول العقاب ، لكن لافى كل أمربل فى أمر واحد لأن قوله عن أمره لايفيد إلا أمراً واحداً ، وعندنا أن أمراً واحداً يفيد الوجوب ، فلم قلت إن كل أمر كذلك ؟ سلمنا أن كل أمر كذلك ، لكن الضمير فى قوله (عن أمره) يحتمل عوده إلى الله تعالى وعوده إلى الرسول ، والآية لا تدل إلا على أن الأمرللوجوب فى حق أحدهما ، فلم قلتم إنه فى حق الآخر كذلك ؟ (الجواب) قوله لم قلتم إن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ؟ قلنا الدليل عليه أن العبد إذا امتثل أمر السيد حسن أن يقال إن هذا العبد موافق للسيد ويجرى على وفق أمره ، ولولم يمتثل أمره يقال إنه ما وافقه بل خالفه . وحسن هذا الإطلاق معلوم بالضرورة من أهل اللغة فثبت أن موافقة الأمرعبارة عن الإتيان بمقتضاه ، قوله الموافقة عبارة عن الإتيان بما يقتضيه الأمر على الوجه الذى يقتضيه الأمر، قلنا لما سلمتم أن موافقة الأمر لاتحصل إلا عند الإتيان بمقتضى الأمر ، فنقول لاشك أن مقتضى الأمر هوالفعل لأن قوله (افعل) لا يدل إلا على اقتضاء الفعل ، وإذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الأمر ، فلا توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة لأنه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة قوله(الموافقة) عبارة عن اعتقاد كون ذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

الأمر حقاً واجب القبول ، قلنا هذا لايكون موافقة للأمر بل يكون موافقة للدليل الدال على أن ذلك الأمر حق ، فان موافقة الشيء عبارة عن الإتيان بما يقتضى تقرير مقتضاه ، فاذا دل على حقية الشيء كان الإعتراف بحقيته يقتضى تقرير مقتضى ذلك الدليل ، أما الأمر فلما اقتضى دخول الفعل فى الوجود كانت موافقته عبارة عما يقرر ذلك الدخول وإدخاله فى الوجود يقتضى تقرير دخوله فى الوجود فكانت موافقة الأمر عبارة عن فعل مقتضاه . قوله لوكان كذلك لكان تارك المندوب مخالفاً فوجب أن يستحق العقاب ، قلنا هذا الإلزام إنما يصح أن لو كان المندوب مأموراً به وهو ممنوع ، قوله لم لايجوز أن يكون قوله (فليحذر) أمراً بالحذر عن المخالف لاأمراً للمخالف بالحذر ؟ قلنا لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتسللون لواذاً عن الذين يخالفون أمره وحينئذ يبقى قوله (أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) ضائعاً لأن الحذر ليس فعلا يتعدى إلى مفعولين . قوله كلمة عن ليست بزائدة ، قلنا ذكرنا اختلاف الناس فيها فى المسألة الأولى . قوله لم قلتم إن قوله (فليحذر) يدل على وجوب الحذر عن العقاب ؟ قلنا لا ندعى وجوب الحذر ، ولكن لاأقل من جواز الحذر وذلك مشروط بوجود ما يقتضى وقوع العقاب . قوله لم قلت إن الآية تدل على أن كل مخالف للأمر يستحق العقاب ؟ قلنا لأنه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون معللا به ، فيلزم عمومه لعموم العلة . قوله هب أن أمر الله أو أمر رسوله للوجوب ، فلم قلتم إن الأمر كذلك ؟ قلنا لأنه لا قائل بالفرق والله أعلم .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ من الناس من قال لفظ الأمر مشترك بين الأمر القولى ، وبين الشأن والطريق ، كما يقال أمر فلان مستقيم وإذا ثبت ذلك كان قوله تعالى (عن أمره) يتناول قول الرسول وفعله وطريقته ، وذلك يقتضى أن كل ما فعله عليه الصلاة والسلام يكون واجباً علينا ، وهذه المسألة مبنية على أن الكناية فى قوله عن أمره راجعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أما لو كانت راجعة إلى الله تعالى فالبحث ساقط بالكلية ، وتمام تقرير ذلك ذكرناه فى أصول الفقه ، والله أعلم .

أما قوله تعالى (أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) فالمراد أن مخالفة الأمر توجب أحد هذين الأمرين ، والمراد بالفتنة العقوبة فى الدنيا ، وبالعذاب الأليم عذاب الآخرة ، وإنما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك فى الدنيا ، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد ، ثم قال الحسن : الفتنة هي ظهور نفاقهم ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : القتل . وقيل : الزلازل والأهوال ، وعن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر .

أما قوله تعالى (ألا إن لله ما فى السموات والأرض) فذاك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما

www.besturdubooks.wordpress.com

وعلى مابينهما وما فيهما ، واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو بعقاب ، وعلمه بما يخفيه ويعلنه ، وكل ذلك كالزجر عن مخالفة أمره .

أما قوله تعالى (قد يعلم ما أنتم عليه) فانما أدخل قد لتوكيد علمه بما هم عليه من المخالفة فى الدين والنفاق . ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد : وذلك لأن قد إذا أدخلت على المضارع كانت بمعنى ربما ، فوافقت ربما فى خروجها إلى معنى التكثير . كما فى قول الشاعر :

فان يمس مهجور الفناء فربما   أقام به بعد الوفود وفود

والخطاب والغيبة فى قوله تعالى (قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه) يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات ، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاماً ويرجعون للمنافقين ، وقد تقدم فى غير موضع أن الرجوع إليه هو الرجوع إلى حيث لا حكم إلا له فلا وجه لإعادته والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة النور

مدنية بالإجماع(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾

مقصودُ هذه السورة ذكرُ أحكام العفاف والسّتر.

وكتب عمر ﷺ إلى أهل الكوفة: علّموا نساءكم سورةَ النور(2).

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تُنزلوا النساءَ الغُرَف، ولا تعلموهنَّ الكتابةَ، وعلموهنَّ سورةَ النُّور والغَزْل(3).

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قرئ بتخفيف الراء(4)؛ أي: فرضنا عليكم وعلى مَنْ بعدَكم ما فيها من الأحكام(5). وبالتشديد أي: أنزلنا فيها فرائض مختلفة.

---

(1) زاد المسير ٦/ ٣، ومجمع البيان ١٨/ ٥، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٣٧ عن ابن عباس قال: سورة النور نزلت بالمدينة فهي مدنية.

(2) أخرجه عبد الرزاق (١١٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٣٧).

(3) لم نقف عليه من قول عائشة موقوفاً، وإنما أخرجه الحاكم ٢/ ٣٩٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٥٣) من طريق عبد الوهاب بن الضحاك عن شعيب بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، مرفوعاً.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: بل موضوع؛ وآفته عبد الوهاب، قال أبو حاتم: كذاب. اهـ. وسلف بنحوه ٥/ ٤٤.

(4) وهي قراءة نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. السبعة ص٤٥٢، والتيسير ص١٦١.

(5) ما ذكره المصنف على معنى التخفيف، ذكره الفراء ومكي والنحاس وغيرهم على معنى التشديد، وأما المعنى على التخفيف فقالوا: أوجبنا أحكامها بالفرض عليكم. ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٤ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٧، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٣ وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٩.

وقرأ أبو عمرو: «وفَرّضناها» بالتشديد[١]؛ أي: قطّعناها في الإنزال، نَجْماً نَجْماً، والفرض: القطع، ومنه: فُرْضة القوس، وفرائض الميراث، وفرض النفقة.

وعنه أيضاً: «فرّضناها»: فصّلناها وبيّنّاها[٢].

وقيل: هو على التكثير؛ لكثرة ما فيها من الفرائض[٣].

والسورة في اللغة: اسم للمنزلة الشَّريفة؛ ولذلك سُمّيت السورة من القرآن سورةً. قال النابغة[٤]:

ألم تَرَ أنَّ الله أعطاكَ سورةً ... ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يَتَذبذَبُ

وقد مضى في مقدّمة الكتاب القول فيها[٥].

وقرئ: «سورةٌ» بالرفع على أنها مبتدأ، وخبرها: «أنزلناها». قاله أبو عبيدة[٦] والأخفش. وقال الزجاج والفرّاء والمُبَرّد: «سورةٌ» بالرفع، لأنها خبر الابتداء؛ لأنها نكرة، ولا يبتدأ بالنكرة في كلِّ موضع، أي: هذه سورة[٧]. ويحتمل أن يكون قوله «سورة» ابتداء، وما بعدها صفة لها أخرجتها عن حدّ النكرة المحضة، فحسن الابتداء لذلك، ويكون الخبر في قوله «الزّانِيَةُ والزّانِي»[٨].

وقرئ: «سورةً» بالنصب، على تقدير: أنزلنا سورة أنزلناها[٩]. وقال الشاعر:

---

(١) وهي قراءة ابن كثير أيضاً. السبعة ص٤٥٢ ، والتيسير ص١٦١ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٩٣ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٧ .

(٤) في الأصول: زهير، وهو خطأ، وقد سلف على الصواب ١/ ١٠٦ .

(٥) ١/ ١٠٦ فما بعدها.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٦٣ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٣ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠ .

(٩) القراءات الشاذة ص١٠٠ ، والمحتسب ٢/ ٩٩ .

والــذئــبَ أخــشــاه إن مــررتُ بــه   وَحْدِي وأخشى الريـاحَ والـمطرا[١]

أو تكون منصوبة بإضمار فعل؛ أي: اتل سورة. وقال الفرّاء: هي حال من الهاء والألف، والحال من المكني يجوز أن يتقدمَ عليه[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

فيه اثنتان وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ كان الزِّنَى في اللغة معروفاً قبل الشرع، مثل اسم السرقة والقتل، وهو اسمٌ لوطءِ الرجلِ امرأةً في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نِكاح، بمطاوعتها[٣]. وإن شئت قلت: هو إدخال فرج في فرج مشتهًى طبعاً محرّمٍ شرعاً[٤]، فإذا كان ذلك وجب الحدُّ. وقد مضى الكلام في حدّ الزنى وحقيقته وما للعلماء في ذلك[٥].

وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى، اللّتين في سورة النساء باتفاق[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذا حدّ الزاني الحرّ البالِغ البِكر، وكذلك الزانية البِكر البالغة الحرّة، وثبت بالسُّنّة تغريب عامٍ، على الخلاف في ذلك[٧].

---

(١) نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٨٩ للربيع بن ضبع الفزاري، وسلف ٩/ ١٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠ .

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٢٨٧ .

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ١٣١ .

(٥) ٧/ ١٣٦ وما بعدها.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ ، والحق أن العلماء لم يختلفوا أن آيتي الحبس والإيذاء قد نُسختا، وإنما الخلاف في الناسخ الذي نسخهما، أهو سورة النور أم حديث؟ أم أن سورة النور هي بيان وتفصيل لهما؟ انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ١٦٢ ، والإيضاح لناسخ القرآن لمكي ص٣٥٩ ، والنسخ في القرآن لمصطفى زيد ١/ ١٣٩ .

(٧) سلف ٦/ ١٤٠ ، و ١٤٤ .

وأما المملوكات فالواجب خمسون جلدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥]، وهذا في الأَمَة، ثم العبدُ في معناها. وأما المُحْصَن من الأحرار فعليه الرّجْم دوْن الجلد. ومن العلماء من يقول: يجلد مئة ثم يُرْجَم[١]. وقد مضى هذا كلُّه ممهَّداً في «النساء»[٢] فأغنى عن إعادته، والحمد لله.

الثالثة: قرأ جمهور الناس[٣]: «الزَّانِيَةُ والزّانِي» بالرفع.

وقرأ عيسى بن عمر الثَّقَفِيّ: «الزانيةَ» بالنصب[٤]، وهو أوجهُ عند سيبويه[٥]؛ لأنه عنده كقولك: زيداً اضرب. ووجه الرفع عنده: خبر ابتداء، تقديره: فيما يتلى عليكم الزانيةُ والزاني. وأجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب. وأما الفرّاء والمبرّد والزجّاج[٦] فإنَّ الرفعَ عندهم هو الأوجه، والخبر في قوله: «فاجلدوا»؛ لأنَّ المعنى: الزانية والزاني مجلودان بحكم الله. وهو قول جيد، وهو قول أكثر النحاة، وإن شئتَ قدّرتَ الخبر: ينبغي أن يُجلدا. وقرأ ابن مسعود: «والزَّان» بغير ياء[٧].

الرابعة: ذكر الله سبحانه وتعالى الذَّكَرَ والأنثى، والزَّاني كان يكفي منها، فقيل: ذكرهما للتأكيد، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]. ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا لئلا يظنَّ ظانٌّ أنَّ الرجلَ لما كان هو الواطئَ والمرأةُ

---

(١) بداية المجتهد ٤/ ٢٧٣، ٢٧٦ - ٢٧٧، والاستذكار ٢٤/ ٤٨ - ٤٩، وينظر التمهيد ٩/ ٧٩.

(٢) ٦/ ٢٣٧ وما بعدها.

(٣) في (م): الجمهور.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠، والقراءات الشاذة ص١٠٠، والمحتسب ٢/ ١٠٠.

(٥) الكتاب ١/ ١٤٢ - ١٤٣.

(٦) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٠٦، والكامل ٢/ ٨٢٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧، ونقله المصنف عنهم بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠ - ١٦١ والكلام منه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠ - ١٦١، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص١٠٠.

محلٌّ ليست بواطئة؛ فلا يجب عليها حدٌّ؛ فذَكَرها رفعاً لهذا الإشكال الذي أوقع جماعةً من العلماء، منهم الشافعيُّ[(١)]، فقالوا: لا كفارة على المرأة في الوطء في رمضان؛ لأنَّه قال: جامعتُ أهلي في نهار رمضان؛ فقال له النبيُّ ﷺ «كَفِّر». فأمره بالكفَّارة، والمرأةُ ليست بمجامعةٍ ولا واطئةٍ[(٢)].

الخامسة: قُدّمت «الزانيةُ» في هذه الآية؛ من حيث كان في ذلك الزمان زِنَى النساء فاش، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت راياتٌ، وكنَّ مجاهراتٍ بذلك[(٣)].

وقيل: لأنَّ الزنى في النساء أَعرُّ[(٤)]، وهو لأجل الحَبَل أضرّ. وقيل: لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب؛ فصدّرها تغليظاً لتَرْدَع شهوتها، وإن كان قد رُكِّب فيها حياء، لكنها إذا زنت ذهب الحياء كلُّه[(٥)].

وأيضاً فإن العار بالنساء أَلْحق؛ إذ موضوعهنّ الحجبة[(٦)] والصيانة، فقُدِّم ذكرهنّ تغليظاً واهتماماً.

السادسة: الألف واللام في قوله: «الزانية والزاني» للجنس، وذلك يعطي أنها عامة في جميع الزناة.

ومن قال بالجَلد مع الرَّجم، قال: السُّنة جاءت بزيادة حكم؛ فيقام مع الجلد. وهو قول إسحاق بن راهويه والحسن بن أبي الحسن، وفعلَه عليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه

(١) ينظر الأم ٢/ ٨٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٣، والحديث أخرجه أحمد (٦٩٤٤)، والبخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (٢٥٠٩٢)، والبخاري (١٩٣٥)، ومسلم (١١١٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١.

(٤) من عرَّ، يقال: عرَّ فلان قومه، إذا دخل عليهم بشرٍّ يلطخهم به. تهذيب اللغة ١/ ١٠١.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٤.

(٦) في (م): الحجب، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٦١، والكلام منه.

بشُرَاحة[١]، وقد مضى في «النساء» بيانه[٢].

وقال الجمهور: هي خاصة في البِكْرين، واستدلُّوا على أنها غير عامّة بخروج العبيد والإماء منها[٣].

السابعة: نصّ الله سبحانه وتعالى [على][٤] ما يجب على الزانِيَيْن إذا شُهد بذلك عليهما على ما يأتي[٥]، وأجمع العلماء على القول به.

واختلفوا فيما يجب على الرجل يوجد مع المرأة في ثوب واحد، فقال إسحاق ابن راهويه: يضرب كلُّ واحد منهما مئة جلدة. وروي ذلك عن عمر وعليّ، وليس يثبت ذلك عنهما. وقال عطاء وسفيان الثَّورِيّ: يؤدّبان. وبه قال مالك وأحمد، على قدر مذاهبهم في الأدب. قال ابن المنذر[٦]: والأكثر ممن رأيناه يرى على من وُجد على هذه الحال الأدبَ. وقد مضى في «هود»[٧] اختيارُ ما في هذه المسألة، والحمد لله وحده.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر، والأمرُ مضارع للشرط. وقال المبرّد: فيه معنى الجزاء، أي: إن زنى زانٍ فافعلوا به كذا، ولهذا دخلت الفاء، وهكذا ﴿السارقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾[٨] [المائدة:٣٨].

التاسعة: لا خلاف أنَّ المخاطبَ بهذا الأمر الإمامُ ومَنْ نابَ مَنَابَه، وزاد مالك والشافعيّ السادةَ في العبيد، قال الشافعيّ: في كلِّ جلدٍ وقَطْعٍ، وقال مالك: في

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ .
(٢) ٦/ ١٤٤ .
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ .
(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.
(٥) عند تفسير الآية (٤) من هذه السورة.
(٦) في الإشراف ٢/ ٥٥ ، وما قبله منه.
(٧) ١١/ ٢٣٢ .
(٨) الكامل ٢/ ٨٢٢ - ٨٢٣ .

الجلد دون القطع(١).

وقيل: الخطاب للمسلمين؛ لأنَّ إقامةَ مراسم الدِّين واجبةٌ على المسلمين، ثم الإمام ينوبُ عنهم؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود(٢).

العاشرة: أجمع العلماء على أنَّ الجلد بالسَّوْط يجب، والسَّوْط الذي يجب أن يجلد به: يكون سوطاً بين سَوْطين، لا شديداً ولا ليِّناً. وروى مالك، عن زيد بن أسلم، أنَّ رجلاً اعترف على نفسه بالزِّنى على عهد رسول الله ﷺ، فدعا له رسولُ الله ﷺ بسَوْط، فأُتيَ بسَوْط مكسورٍ، فقال: «فوق هذا»، فأُتي بسَوْط جديد لم تقطع ثمرتُه، فقال: «دون هذا»، فأُتي بسَوْط قد رُكِّب به ولَانَ، فأَمرَ به رسولُ الله ﷺ فجُلِد. الحديث(٣). قال أبو عمر: هكذا رَوى هذا الحديث مرسلاً جميعُ رواة الموطّأ، ولا أعلمه يستندُ بهذا اللفظ من وجهٍ من الوجوه، وقد روى مَعْمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن النبيّ ﷺ مثلَه سواء(٤).

وقد تقدّم في «المائدة» ضَرْب عمر قُدامةَ(٥) في الخمر بسوط تامٍّ. يريد: وَسَطاً.

الحادية عشرة: اختلف العلماء في تجريد المجلود في الزنى، فقال مالك وأبو حنيفة وغيرُهما: يُجرّد، ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يَقِيها الضربَ. وقال الأوزاعِيُّ: الإمامُ مخيَّر، إنْ شاء جَرّد وإنْ شاء ترك. وقال الشَّعْبيُّ والنَّخَعِيُّ:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٤ .

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٧ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) الموطأ ٢/ ٨٢٥ عن زيد بن أسلم مرسلاً، وأخرجه البيهقي من طريقه ٨/ ٣٢٦ ونقل عن الشافعي قوله: هذا حديث منقطع ليس مما يثبت به، هو نفسه حجة، وقد رأيت من أهل العلم عندنا من يعرفه ويقول به، فنحن نقول به. اهـ . وقوله: سوط مكسور: أي: ليّن ضعيف، وسوط لم تقطع ثمرته، أي: طرفه الذي يكون في أسفله. النهاية (كسر)، (ثمر).

(٤) التمهيد ٥/ ٣٢١ - ٣٢٢ ، وأخرج خبر معمر عبد الرزاق (١٣٥١٥).

(٥) في النسخ: الجارود، وهو سبق قلم، والتصويب مما تقدم في سورة المائدة ٨/ ١٧٤ ، من قصة الجارود مع عمر بن الخطاب في جلد قدامة بن مظعون.

لا يُجرّد، ولكن يُترك عليه قميصٌ[١]. قال ابن مسعود: لا يحلُّ في هذه الأُمّة تجريدٌ ولا مدٌّ. وبه قال الثورِيّ[٢].

الثانية عشرة: اختلف العلماء في كيفية ضرب الرجال والنساء:

فقال مالك: الرجل والمرأة في الحدود كلّها سواء، لا يقام واحد منهما، ولا يجزي عنده إلا في الظهر[٣].

وأصحاب الرأي والشافعي يرونَ أن يُجلدَ الرجلُ وهو واقف، وهو قول عليّ بن أبي طالب ﷺ[٤].

وقال اللَّيْث وأبو حنيفة والشافعيّ: الضرب في الحدود كلِّها وفي التعزير، مجرّداً قائماً غير ممدود، إلا حدّ القذف، فإنه يضرب وعليه ثيابه. وحكاه المهدِوِيّ في «التحصيل» عن مالك. وينزع عنه المَحْشُو والفَرْو. وقال الشافعي: إن كان مدّه صلاحاً مُدَّ[٥].

الثالثة عشرة: واختلفوا في المواضع التي تضرب من الإنسان في الحدود:

فقال مالك: الحدود كلُّها لا تضرب إلا في الظهر، وكذلك التعزير. وقال الشافعيّ وأصحابه: يُتّقَى الوجه والفرج وتضرب سائر الأعضاء، وروي عن عليّ[٦].

وأشار ابن عمر بالضرب إلى رِجْلَيْ أَمَةٍ جَلَدَها في الزِّنى. قال ابن عطية[٧]:

---

(١) الإشراف لابن المنذر ٢/ ٢٣ - ٢٤ .

(٢) الإشراف ٢/ ٢٥ ، وأخرج قول ابن مسعود عبد الرزاق (١٣٥٢٢)، والطبراني في الكبير ٩/ ٣٤٠ (٩٦٩٠)، والبيهقي ٨/ ٣٢٦ .

(٣) التمهيد ٥/ ٣٣٥ و٣٣٦ .

(٤) الإشراف ٢/ ٢٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦١ .

(٥) التمهيد ٥/ ٣٣٦ .

(٦) التمهيد ٥/ ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ وما قبله منه.

والإجماع في تسليم الوجه والعورة والمَقاتل.

واختلفوا في ضرب الرأس؛ فقال الجمهور: يُتّقى الرأس. وقال أبو يوسف: يضرب الرأس. وروي عن عمر وابنه قالا: لا يضرب الرأس[١]. وضرب عمر ﷺ صَبِيغاً في رأسه وكان تعزيراً لا حدًّا[٢]. ومن حجة مالك ما أدرك عليه الناس[٣]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «البينةَ؛ وإلا حَدٌّ في ظهرك» وسيأتي[٤].

الرابعة عشرة: الضرب الذي يجب هو أن يكون مؤلماً؛ لا يَجرح ولا يَبْضَع[٥].

ولا يُخرج الضاربُ يدَه من تحت إبطه، وبه قال الجمهور، وهو قول عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما[٦]. وأُتيَ عمر ﷺ برجل في حدٍّ، فأتى بسوط بين سوطين وقال للضارب: اضرب ولا يُرى إبطك، وأعط كلَّ عضو حقَّه[٧]. وأُتيَ ﷺ بشارب فقال: لأبعثنَّك إلى رجلٍ لا تأخذه فيك هَوَادةٌ؛ فبعثه إلى مطيع بن الأسود العدويّ[٨]، فقال: إذا أصبحتَ الغدَ، فاضربه الحدَّ، فجاء عمرُ ﷺ وهو يضربه ضرباً شديداً، فقال: قتلتَ الرجلَ! كم ضربتَه؟ قال: ستين. قال: أَقِصَّ عنه بعشرين[٩]. قال أبو عبيد[١٠]: «أَقِصَّ عنه بعشرين» يقول: اجعل شدَّة هذا الضربِ الذي ضربتَه

(١) في النسخ: يضرب الرأس، والمثبت من التمهيد ٥/ ٣٣٥ والكلام منه.

(٢) سلف ٥/ ٢٣ - ٢٤.

(٣) التمهيد ٥/ ٣٣٦.

(٤) ص١٣٩ من هذا الجزء، والحديث أخرجه البخاري (٢٦٧١) عن ابن عباس.

(٥) الإشراف ٢/ ٢٧.

(٦) الإشراف ٢/ ٢٥ دون ذكر ابن مسعود، وأخرج قول ابن مسعود عبد الرزاق (١٣٥١٩)، والطبراني في الكبير ٩/ ١٠٩ (٨٥٧٢)، والبيهقي ٨/ ٣٢٦.

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٣٥١٦)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٨، والبيهقي ٨/ ٣٢٦.

(٨) أسلم يوم الفتح، ومات في خلافة عثمان ﷺ بالمدينة. الإصابة ٩/ ٢١٧.

(٩) أخرجه البيهقي ٨/ ٣١٧.

(١٠) في (م) و(د) و(ز): أبو عبيدة، والمثبت من (خ) و(ظ)، والكلام في غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة البيهقي ٨/ ٣١٧ - ٣١٨.

قصاصاً بالعشرين التي بقيت؛ ولا تضربه العشرينَ، وفي هذا الحديث من الفقه أن ضربَ الشارب ضربٌ خفيف.

وقد اختلف العلماء في أشدِّ الحدود ضرباً، وهي:

الخامسة عشرة: فقال مالك وأصحابه والليث بن سعد: الضرب في الحدود كلِّها سواء، ضربٌ غير مُبَرِّح، ضربٌ بين ضربين[١]. وهو قول الشافعيّ ﷺ[٢]. وقال أبو حنيفة وأصحابه: التعزير أشدُّ الضرب، وضربُ الزنى أشدُّ من الضرب في الخمر، وضربُ الشارب أشدُّ من ضرب القذف. وقال الثَّوْرِيّ: ضربُ الزنى أشدُّ من ضرب القذف، وضرب القذف أشدُّ من ضرب الخمر. احتجَّ مالك بورود التوقيف على عدد الجلدات، ولم يَرِد في شيءٍ منها تخفيفٌ ولا تثقيلٌ عمن يجب التسليم له. احتجَّ أبو حنيفة بفعل عمر؛ فإنه ضرب في التعزير ضرباً أشدّ منه في الزنى. احتج الثورِيّ بأن الزنى لما كان أكثر عدداً في الجلدات استحال أن يكون القذف أبلغَ في النكاية. وكذلك الخمر؛ لأنه لم يثبت فيه الحدُّ إلا بالاجتهاد، وسبيل مسائل الاجتهاد لا تقوى قوّة مسائل التوقيف[٣].

السادسة عشرة: الحدُّ الذي أَوجب الله في الزنى والخمر والقذف وغير ذلك؛ ينبغي أن يُقام بين أيدي الحُكّام، ولا يُقيمه إلا فضلاءُ الناس وخيارُهم، يختارهم الإمامُ لذلك، وكذلك كانت الصحابةُ تفعلُ كلَّما وقع لهم شيءٌ من ذلك، ﷺ. وسبب ذلك: أنه قيامٌ بقاعدةٍ شرعيةٍ وقُرْبةٍ تعبُّديّة، تجبُ المحافظة على فعلها وقَدْرها ومحلِّها وحالها، بحيث لا يُتعدّى شيءٌ من شروطها ولا أحكامها؛ فإنَّ دمَ المسلم وحرمتَه عظيمةٌ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن[٤]. رُويَ في[٥] الصحيح عن حُضين بن

(١) التمهيد ٥/ ٣٢٧ .

(٢) الإشراف ٢/ ٢٣ .

(٣) التمهيد ٥/ ٣٢٧ - ٣٣١ ، والاستذكار ٢٤/ ٩١ - ٩٢ .

(٤) المفهم ٥/ ١٣٤ - ١٣٥ .

(٥) لفظة «في» من (د).

المنذر أبي ساسان[١] قال: شهدتُ عثمانَ بن عفان أُتِي بالوليد قد صلَّى الصبحَ ركعتين، ثم قال: أَزيدُكم؟ فَشهِد عليه رجلان ـ أحدهما حُمرانُ ـ أنَّه شربَ الخمرَ، وشهد آخرُ أنَّه رآه يتقيَّأُ؛ فقال عثمانُ: إنه لم يتقيَّأ حتى شربَها، فقال: يا عليُّ، قُمْ فاجلِدْهُ. فقال عليّ: قم يا حسنُ فاجلدْه، فقال الحسن: وَلِّ حارَّها من تَوَلَّى قارَّها. فكأنه وَجَد عليه، فقال: يا عبد الله بن جعفر، قُمْ فاجلِدْه. فجَلَده وعليٌّ يَعُدُّ. الحديث[٢]. وقد تقدَّم في المائدة[٣]، فانظر قولَ عثمان للإمام عليّ: قم فاجلده.

السابعة عشرة: نصَّ الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقذف، وثبت التوقيفُ في الخمر على ثمانين من فعل عمر في جمعِ[٤] الصحابة ـ على ما تقدم في المائدة[٥] ـ فلا يجوز أن يُتعدَّى الحدُّ في ذلك كلِّه.

قال ابن العربيّ[٦]: وهذا ما لم يتتابع الناسُ في الشرِّ، ولا احْلَوْلت لهم المعاصي، حتى يتخذوها ضَرَاوة[٧]، ويعطفون عليها بالهَوَادة، فلا يتناهَوْا عن منكرٍ فعلوه؛ فحينئذٍ تتعيّن الشدّةُ، ويزاد الحدُّ لأجل زيادة الذنب. وقد أُتيَ عمر بسكران في رمضان، فضربه مئة: ثمانين حدّ الخمر، وعشرين لهتك حرمة الشهر[٨]، فهكذا يجبُ

---

(١) الرقّاشي البصري، كان صاحب راية عليّ يوم صفين مات سنة ٩٧هـ، قال العجلي والنسائي: ثقة. تهذيب التهذيب ١/٤٤٨ .

(٢) صحيح مسلم (١٧٠٧) (٣٨)، وهو في مسند أحمد (١٢٣٠). وقوله: «ولِّ حارَّها من تولَّى قارّها» هذا مثل من أمثال العرب، قال الأصمعي: معناه: ولِّ شدَّتَها من تولّى هنيئتها، والقارُّ: البارد؛ أي: ولِّ شدة إقامة الحدِّ من تولى إمرة المسلمين وتناول حلاوة ذلك. قاله في المفهم ٥/١٣٥ ، وينظر «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري ٢/ ٣٨١ .

(٣) لم يتقدم في المائدة ولا غيرها.

(٤) في (م) و(د) و(ز) و(ظ): جميع، والمثبت من (خ).

(٥) ٨/ ١٧٤ .

(٦) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣١٥ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) أي: عادة. تهذيب اللغة ١٢/٥٦ .

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/٥٣ .

أن تُركّب العقوبات على تغليظ الجنايات وهتك الحُرُمات. وقد لعب رجلٌ بصبيٍّ، فضربه الوالي ثلاث مئة سوطٍ. فلم يغيّر [ذلك] مالكٌ حين بَلَغه، فكيف لو رأى زماننا هذا، بهتك الحرمات والاشتهار بالمعاصي[1]، والتظاهر بالمناكر[2]، وبيع الحدود، واستيفاء العبيد لها في منصب القُضاة، لمات كَمَداً ولم يُجالس أحداً؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قلت: ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ زِيدَ في حدِّ الخمر حتى انتهى إلى ثمانين.

وروى الدّارَقُطْنِيّ: حدّثنا القاضي الحسين بن إسماعيل، حدّثنا يعقوبُ بن إبراهيم الدّوْرَقِيّ، حدّثنا صفوان بن عيسى، حدّثنا أسامة بن زيد، عن الزُّهريّ، قال: أخبرني عبد الرحمنُ بن أزهر، قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يومَ حُنين وهو يتخلَّل الناسَ يسألُ عن منزل خالد بن الوليد، فأُتيَ بسكران، قال: فقال رسول الله ﷺ لمن عنده، فضربوه بما في أيديهم. قال: وحَثَا رسولُ الله ﷺ عليه التراب. قال: ثم أُتيَ أبو بكر ﷺ بسكران، قال: فتوخّى الذي كان مِن ضربهم يومئذ، فضرب أربعين[3].

قال الزُّهريّ: ثم أخبرني حُميد بن عبد الرحمن، عن ابن وَبْرَة الكلبي قال: أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر، فأتيته[4] ومعه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن

---

(١) في (م) و(ف): الاستهتار بالمعاصي، وفي (ظ): الأستار بالمعاصي. والمثبت من (د) و(ز).

(٢) في النسخ الخطية: بالمنكر، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي.

(٣) سنن الدارقطني (٣٣٢٠)، وأخرجه أحمد (١٦٨٠٩)، وأبو داود (٤٤٨٧)، والنسائي في الكبرى (٥٢٦٢) من طريق أسامة بن زيد عن الزهري، به. وهذا إسناد منقطع، الزهري لم يسمع من عبد الرحمن بن أزهر فيما ذكر الرازي في المراسيل ص١٩٠ عن الإمام أحمد، بينهما عبد الله بن عبد الرحمن بن الأزهر، كما أخرجه أبو داود (٤٤٨٨)، والنسائي في الكبرى (٥٢٦٤)، والدارقطني (٣٣٢٤) وقال النسائي: وهذا أولى بالصواب. اهـ وعبد الله بن عبد الرحمن بن الأزهر مجهول الحال، انفرد بالرواية عنه الزهري، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان.

وأخرجه بإسناد حسن النسائي في الكبرى (٥٢٦٥)، والحاكم ٤/ ٣٧٤ من طريق محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبي سلمة، عن عبد الرحمن بن أزهر، به مختصراً. وصححه الحاكم.

(٤) في (م) و(خ): قال فأتيته. ولم ترد هذه الزيادة عند الدارقطني.

عوف وعليّ وطلحة والزُّبير، وهم معه متكئون في المسجد، فقلت: إنَّ خالد بن الوليد أرسلني إليك وهو يقرأ عليك السلام ويقول: إنَّ الناس قد انهمكوا في الخمر، وتحاقروا العقوبة فيه، فقال عمر: هم هؤلاء عندك، فسَلْهم. فقال عليّ: نُراه إذا سكِر هَذَى، وإذا هَذَى افترى، وعلى المفتري ثمانون. قال: فقال عمر: أَبلِغْ صاحبَك ما قال. قال: فجلَدَ خالدٌ ثمانين، و[جلد] عمرُ ثمانين. قال: وكان عمر إذا أُتيَ بالرجل الضعيف الذي كانت منه الزَّلَّةُ، ضرَبَه أربعين. قال: وجلد عثمان أيضاً ثمانين وأربعين(١).

ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «لو تأخَّر الهلالُ لزدتكم». كالمُنَكِّل لهم حين أبَوْا أن ينتهوا، في رواية: «لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالاً يَدَع المتعمِّقون تعمُّقَهم»(٢).

وروى حامد بن يحيى، عن سفيان، عن مِسْعَر، عن عطاء بن أبي مَرْوان، أن عليًّا ضرب النجاشيَّ في الخمر مئة جلدة. ذكره أبو عمر(٣)، ولم يذكر سبباً.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقةً على المحدود، ولا تُخفِّفوا الضربَ من غير إيجاعٍ. هذا قول جماعة أهل التفسير(٤).

وقال الشَّعْبيّ والنَّخَعِيّ وسعيد بن جُبير: «لا تأخذكم بِهِما رأفةٌ» قالوا: في الضرب والجَلْد(٥). وقال أبو هريرة ﷺ: «إقامة حدّ بأرضٍ، خيرٌ لأهلها من مطر

---

(١) سنن الدارقطني (٣٣٢١).

(٢) سلف ٣/ ٢١٠.

(٣) في التمهيد ٥/ ٣١٧، وأخرجه عبد الرزاق (١٣٥٥٦)، والبيهقي ٨/ ٣٢١ من طريق سفيان، عن عطاء ابن أبي مروان، عن أبيه، أن علياً ضرب النجاشي الحارثي الشاعر، شرب الخمر في رمضان، فضربه ثمانين، ثم حبسه، فأخرجه من الغد، فضربه عشرين، ثم قال له: إنما جلدتك هذه العشرين لجرأتك على الله، وإفطارك في رمضان.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٧٢، وزاد المسير ٦/ ٧.

(٥) أخرج قولهم الطبري في تفسيره ١٧/ ١٤١ - ١٤٢.

أربعين ليلة». ثم قرأ هذه الآية[١].

والرأفة: أرقُّ الرحمة[٢]. وقرئ: «رأَفةٌ» بفتح الألف على وزن فَعَلة[٣]، وقُرئ: «رآفة» على وزن فَعالة[٤]، ثلاث لغات، وهي كلُّها مصادر، أشهرها الأولى، من رَؤُفَ: إذا رَقَّ ورَحِم[٥].

ويقال: رأْفة ورآفة، مثل كَأْبة وكآبة، وقد رَأَفْتُ به ورؤُفْت به، والرؤوف من صفات الله تعالى: العطوفُ الرحيم[٦].

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُكم الله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦] أي: في حكمه. وقيل: «في دِينِ اللهِ» أي: في طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود. ثم قرّرهم على معنى التثبيت والحضّ بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. وهذا كما تقول لرجل تحضّه: إن كنت رَجلاً فافعل كذا؛ أي: هذه أفعال الرجال[٧].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: لا يشهد التعذيبَ إلا من لا يستحقّ التأديب[٨].

قال مجاهد: رَجُلٌ فما فوقه إلى ألف[٩]. وقال ابن زيد: لابدّ من حضور أربعة

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى ٨/ ٧٦ ، وفي الكبرى (٧٣٥١). وأخرجه أيضاً ٨/ ٧٥ و(٧٣٥٠) عنه مرفوعاً، وصوَّب الموقوف منه.

(٢) الفائق ١/ ٤١٦ .

(٣) وهي قراءة ابن كثير. السبعة ص٤٥٢ ، والتيسير ص١٦١ .

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٠ لابن جريج.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ .

(٦) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢ ، وينظر تفسير الطبري ١٧/ ١٤٤ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٧٢ .

(٩) أخرجه عبد الرزاق (١٣٥٠٥)، والطبري في تفسيره ١٧/ ١٤٦ .

قياساً على الشهادة على الزنى، وأن هذا باب منه، وهو قول مالك والليث والشافعيّ. وقال عكرمة وعطاء: لابدّ من اثنين، وهذا مشهور قول مالك، فرآها موضع شهادة. وقال الزهريّ: ثلاثة؛ لأنه أقلّ الجمع[١]. الحسن: واحد فصاعداً[٢]، وعنه: عشرة[٣]. الربيع: ما زاد على الثلاثة.

وحجة مجاهد قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] وقولُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] ونزلت في تقاتل رجلين، فكذلك قوله تعالى: «ولْيَشْهَدْ عذابَهما طائِفةٌ مِن المؤمِنِين»، والواحد يسمى: «طائفة»، إلى الألف[٤]. وقاله ابن عباس وإبراهيم[٥].

وأمر أبو بَرْزَة الأسلميُّ بجاريةٍ له قد زَنَتْ وولَدَت، فألقى عليها ثوباً، وأمر ابنَه أن يضربَها خمسين ضربةً، غير مُبَرِّحٍ ولا خفيفٍ لكن مؤلم، ودعا جماعة ثم تلا: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦].

الحادية والعشرون: اختلف في المراد بحضور الجماعة، هل المقصد[٧] بها الإغلاظ على الزُّناة والتوبيخ بحضرة الناس[٨]، وأن ذلك يَرْدَع المحدود، ومن شَهِده

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢، والنكت والعيون ٤/ ٧٢، وأخرج الأقوال الطبري في تفسيره ١٧/ ١٤٧-١٤٨.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٧٢.

(٣) زاد المسير ٦/ ٨، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٤٩، والكشاف ٣/ ٤٨.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦٢.

(٥) زاد المسير ٦/ ٨، وذكر قول ابن عباس النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٩٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢، وقول إبراهيم ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٣١٥، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ١٤٦.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ١٤٨، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٢٠ (١٤١٠٨).

(٧) في (م) و(د): المقصود، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز والكلام منه.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢.

وحضره يتّعظ به ويزدجر لأجله، ويَشِيع حديثُه فيَعْتبر به مَن بعده[١]، أو الدعاء لهما بالتوبة والرحمة؟ قولان للعلماء.

الثانية والعشرون: روي عن حُذيفةَ ﷺ، أنَّ النبيّ ﷺ قال: «يا معشر[٢] الناس، اتقوا الزنى، فإنَّ فيه ستَّ خصال: ثلاثاً في الدنيا، وثلاثاً في الآخرة، فأما اللواتي في الدنيا: فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما اللواتي في الآخرة: فيوجب السخط، وسوء الحساب، والخلود في النار»[٣].

وعن أنس، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أعمالَ أمتي تُعرضُ عليَّ في كلِّ جمعة مرتين، فاشتد غضبُ الله على الزُّناة»[٤].

وعن النبيّ ﷺ قال: «إذا كان ليلةُ النصف من شعبان، اطَّلع الله على أمتي، فغَفَر لكلِّ مؤمنٍ لا يشرك بالله شيئاً، إلا خمسةً: ساحراً، أو كاهناً، أو عاقًّا لوالديه، أو مدمِنَ خمر، أو مصِرًّا على الزِّنى»[٥].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٥ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): معاشر، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٨ ، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١١١ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٧٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٥٥٧). وفي إسناده مسلمة بن عُلَي الخشني، وهو متروك، وقال ابن عدي: غير محفوظ وهو منكر، وقال أبو نعيم: تفرد به مسلمة، وهو ضعيف الحديث، وقال البيهقي: إسناده ضعيف، مسلمة متروك. وقال ابن حبان في «المجروحين» ١/ ٩٨ : لا أصل له عن رسول الله ﷺ.

وقد روي من حديث ابن عباس ـ كما عند ابن عدي ٥/ ١٧٦٥ ـ ، وابن الجوزي في الموضوعات (١٥٥٤)، وحديث أنس كما عند الخطيب في تاريخه ١٢/ ٤٩٣ ، وابن الجوزي في الموضوعات (١٥٥٩)، قال ابن الجوزي: ليس فيها شيء يصح عن رسول الله ﷺ.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ١٧٩ . وفي إسناده محمد بن مصطفى له أوهام، وبقية بن الوليد يدلس، وهو ضعيف. وقد أخرج مسلم في صحيحه (٢٥٦٥) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «تعرض الأعمال في كل يوم اثنين وخميس، فيغفر الله عزَّ وجلَّ في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا».

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن ماجه (١٣٩٠) من حديث أبي موسى مرفوعاً: «إن الله ليطلع في ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن». وفي إسناده ضعف.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أوجهٍ من التأويل:

الأوّل: أن يكون مقصدُ الآية تشنيعَ الزنى وتبشيعَ أمرِه، وأنه محرّمٌ على المؤمنين. واتصال هذا المعنى بما قبلُ حسن بليغ، ويريد بقوله: «لا يَنْكِح» أي: لا يطأ؛ فيكون النكاح بمعنى الجماع. وردّد القصةَ مبالغةً وأخذاً من كِلَا الطرفين، ثم زاد تقسيمَ المُشْركةِ والمُشْرك من حيث إنَّ[1] الشرك أعمُّ في المعاصي من الزنى؛ فالمعنى: الزَّاني لا يطأُ في وقت زناه إلا زانيةً من المسلمين، أو مَنْ هي أخسُّ[2] منها من المشركات. وقد روي عن ابن عباس وأصحابه أنَّ النكاحَ في هذه الآية: الوطء[3]. وأنكر ذلك الزجّاج[4]، وقال: لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج. وليس كما قال؛ وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] وقد بيّنه النبيُّ ﷺ أنه بمعنى الوطء، وقد تقدّم في «البقرة»[5]. وذكر الطبريّ[6] ما يَنْحُو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة، ولكن غير مخلّص ولا مكمّل.

وحكاه الخطابيّ[7] عن ابن عباس، وأن معناه: الوطء، أي: لا يكون زِنًى إلا بزانية، ويفيد أنه زنًى في الجهتين، فهذا قول.

---

(١) لفظ: إن. زيادة من (ظ).

(٢) في (م) و(د) و(خ) أحسن، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢ والكلام منه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٥١ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز.

(٥) ٤/ ٩٠ .

(٦) في تفسيره ١٧/ ١٥٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢ .

(٧) لم نقف عليه، وينظر معالم السنن ٣/ ١٨١ .

الثاني: ما رواه أبو داود والتّرمذِيّ عن عَمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدّه، أن مَرْثد بن أبي مرثد كان يحمل الأُسارى بمكة، وكان بمكةَ بَغِيّ يقال لها: عَناق، وكانت صديقته، قال: فجئتُ النبيَّ ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أنكِح عَناق؟ قال: فسكتَ عني؛ فنزلت ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ﴾ فدعاني فقرأها عليَّ، وقال: «لا تَنكِحْها»(١). لفظ أبي داود، وحديث الترمذي أكمل.

قال الخطابيّ(٢): هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة، فأما الزانية المسلمة فإنّ العقدَ عليها لا يفسخ.

الثالث: أنها مخصوصة في رجل من المسلمين أيضاً، استأذن رسولَ الله ﷺ في نكاح امرأةٍ يقال لها: أمّ مَهْزُول، وكانت من بغايا الزّانيات، وشرطت أن تنفق عليه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. قاله [عبد الله بن] عمرو بن العاصي ومجاهد(٣).

الرابع: أنها نزلت في أهل الصُّفّة، وكانوا قوماً من المهاجرين، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشائر، فنزلوا صُفَّة المسجد، وكانوا أربع مئة رجلٍ يلتمسون الرزقَ بالنهار، ويأوون إلى الصُّفّة بالليل، وكان بالمدينة بغايا مُتَعالِنات بالفجور، مخاصِيب بالكُسْوة والطعام، فهمَّ أهلُ الصُّفَّة أن يتزوّجوهنّ، فيأووا إلى مساكنهنّ ويأكلوا من طعامهنّ وكسوتهنّ، فنزلت هذه الآية؛ صيانةً لهم عن ذلك. قاله ابن أبي صالح(٤).

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٥١)، وسنن الترمذي (٣١٧٧)، وسلف ٣/ ٤٥٤ .

(٢) في معالم السنن ٣/ ١٨١ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٦ ، والخبر أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٧٣ ، وأسباب النزول للواحدي ص٣٢٧ ، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج. وأثر عبد الله بن عمرو أخرجه أحمد (٦٤٨٠) و(٧٠٩٩)، والنسائي في الكبرى (١١٢٩٥) والواحدي في أسباب النزول ٣٢٧-٣٢٨ ، وأما أثر مجاهد فأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ١٥٢ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٧ ، والنكت والعيون ٤/ ٧٣ ، وقد نسباه لأبي صالح.

الخامس: ذكره الزجاج[١] وغيره[٢] عن الحسن، وذلك أنه قال: المراد الزاني المحدودُ والزانيةُ المحدودة، قال: وهذا حكم من الله، فلا يجوز لزانٍ محدودٍ أن يتزوّجَ إلا محدودة. وقال إبراهيم النَّخَعِيّ نحوه[٣]. وفي «مصنَّف أبي داود» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْكحُ الزَّاني المجلودُ[٤] إلا مثلَه»[٥]. ورويَ أنَّ محدوداً تزوّج غيرَ محدودة، ففرّق عليٌّ ﷺ بينهما[٦].

قال ابن العربي[٧]: وهذا معنًى لا يصح نظراً، كما لم يثبت نقلاً، وهل يصحُّ أن يُوقفَ نكاحُ من حُدَّ من الرجال على نكاحِ من حُدّ من النساء، فبأيّ أثرٍ يكون ذلك، وعلى أيِّ أصلٍ يُقاس من الشريعة!

قلت: وحكى هذا القول الكِيا[٨] عن بعض أصحاب الشافعي المتأخرين، وأنَّ الزاني إذا تزوَّج غيرَ زانيةٍ، فُرّق بينهما لظاهر الآية. قال الكِيَا: وإنْ هو عَمِلَ بالظاهر؛ فيلزمه عليه أن يجوّز للزاني التزوّجَ بالمشركة، ويجوّز للزَّانية أن تزوّج نفسَها من مشركٍ، وهذا في غاية البُعْد، وهو خروج عن الإسلام بالكلِّية، وربما قال هؤلاء: إنَّ الآية منسوخةٌ في المشركة[٩] خاصّةً، دون الزانية.

السادس: أنها منسوخة، روى مالك عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب

(١) في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠ ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٣ .

(٢) الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٧٣ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) في النسخ عدا (خ): المحدود، والمثبت من (خ) ومصادر التخريج.

(٥) سنن أبي داود (٢٠٥٢)، وهو في مسند أحمد (٨٣٠٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٥٤٨).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٣ . وأخرج ابن أبي شيبة ٤/ ٢٧٣ عن ابن سابط أن علياً أُتي بمحدود... وابن سابط ـ وهو عبد الرحمن ـ كثير الإرسال، ولم يثبت سماعه من الصحابة.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٣١٨ .

(٨) في أحكام القرآن له ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٩) في النسخ: المشرك، والمثبت من أحكام القرآن للكيا الطبري.

قال: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال: نَسختْ هذه الآيةَ التي بعدها: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] ـ وقاله ابن عمر ـ وقال: دخلت الزانية في أيامَى المسلمين(١).

قال أبو جعفر النحاس: وهذا القول عليه أكثر العلماء، وأهل الفُتْيا يقولون: إنّ مَنْ زنى بامرأةٍ، فله أن يتزوَّجها ولغيره أن يتزوّجها، وهو قول ابن عمر، وسالم، وجابر بن زيد، وعطاء، وطاوس، ومالك بن أنس، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، وقال الشافعيّ: القول فيها كما قال سعيد بن المسيّب، إن شاء الله هي منسوخة(٢).

قال ابن عطية: وذِكْر الإشراك في هذه الآية يضعف هذه المناحي(٣).

قال ابن العربيّ(٤): والذي عندي أنَّ النكاح لا يخلو أنْ يُراد به الوطء، كما قال ابن عباس، أو العقد، فإن أريد به الوطء، فإن معناه: لا يكون زنًى إلا بزانية، وذلك عبارة عن أنَّ الوطأين من الرجل والمرأة زنًى من الجهتين؛ ويكون تقدير الآية: وطءُ الزانية لا يقع إلا من زانٍ أو مشركٍ، وهذا يُؤثَر عن ابن عباس، وهو معنى صحيح. فإن قيل: فإذا زنى بالغٌ بصبيةٍ، أو عاقلٌ بمجنونةٍ، أو مستيقظٌ بنائمةٍ، فإنَّ ذلك من جهة الرجل زنًى، فهذا زانٍ نَكَح غير زانية، فيخرج المرادُ عن بابه الذي تقدم. قلنا: هو زنًى من كلِّ جهة، إلا أن أحدهما سقط فيه الحدُّ، والآخر ثبت فيه. وإن أُريد به العقد كان معناه: أنَّ متزوّجَ الزانيةِ التي قد زَنتْ ودَخَل بها ولم يستبرئها يكون بمنزلة

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٩، وأخرج الخبر من غير طريق مالك: الشافعي في الأم ٥/ ١٢، وابن أبي شيبة ٤/ ٢٧١ والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٣٨، والطبري في تفسيره ١٧/ ١٥٩، وقول ابن عمر في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٤٣.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٣٨ -٥٣٩. وأخرج قول ابن عمر وسالم وجابر وعطاء وطاوس: ابن أبي شيبة ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠، وقول مالك في المدونة ٢/ ٢٧٨، وقول أبي حنيفة في أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٦٥، وقول الشافعي في الأم ٥/ ١٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٣.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣١٨.

الزاني، إلا أنه لا حدَّ عليه؛ لاختلاف العلماء في ذلك، وأما إذا عَقَد عليها ولم يدخل بها حتى يستبرئها، فذلك جائز إجماعاً[١].

وقيل: ليس المراد في الآية أنَّ الزَّاني لا ينكحُ قطُّ إلا زانيةً؛ إذ قد يتصوّر أن يتزوّج غير زانية، ولكن المعنى أنَّ من تزوج بزانيةٍ فهو زانٍ، فكأنه قال: لا ينكح الزانيةَ إلا زانٍ، فقلَب الكلامَ، وذلك أنه لا ينكح زانية إلا وهو راضٍ بزناها، وإنما يرضى بذلك إذا كان هو أيضاً يزني[٢].

الثانية: في هذه الآية دليل على أنَّ التزوّج بالزانية صحيح، وإذا زنت زوجةُ الرجل، لم يفسد النكاح، وإذا زنى الزوج، لم يفسد نكاحه مع زوجته؛ وهذا على أنَّ الآية منسوخة[٣]. وقيل: إنها محكمة. وسيأتي[٤].

الثالثة: رُوي أن رجلاً زنى بامرأة في زمن أبي بكر ﷺ، فجلدهما مئة جلدة، ثم زوّج أحدَهما من الآخر مكانه، ونفاهما سنةً[٥]. وروي مثل ذلك عن عمر، وابن مسعود، وجابر ﷺ[٦].

وقال ابن عباس: أوله سفاحٌ وآخره نكاح[٧]. ومَثَلُ ذلك مَثَلُ رجل سَرَق من حائطٍ ثمره، ثم أتى صاحبَ البستان فاشترى منه ثمره، فما سَرَق حرام؛ وما اشترى حلال. وبهذا أخذ الشافعيّ وأبو حنيفة، ورأوا أنَّ الماء لا حرمة له[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٨ - ١٣١٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٧ -١٣١٨ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٥٣٨ - ٥٣٩ ، والإشراف ٤/ ١٠٢ .

(٤) في المسألة الخامسة الآتية.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٩ ، وأخرج أثر أبي بكر عبد الرزاق (١٢٧٩٦)، والبيهقي ٨/ ٢٢٣ .

(٦) أخرج هذه الآثار ابن أبي شيبة ٤/ ٢٤٨ - ٢٥٠ .

(٧) أخرجه سعيد بن منصور (٨٨٨) و(٨٨٩) (٨٩٠) والدارقطني (٣٦٨١)، والبيهقي ٧/ ١٥٥ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٨ ، وقول ابن عباس المذكور أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٩٤) من قول عكرمة.

وروي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: إذا زنى الرجلُ بالمرأة ثم نَكَحها بعد ذلك، فهما زانيانِ أبداً. وبهذا أخذ مالك ﷺ؛ فرأى أنَّه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسد؛ لأنَّ النكاح له حرمة، ومن حرمته ألا يُصَبّ على ماء السِّفاح؛ فيختلط الحرامُ بالحلالِ، ويمتزج ماءُ المَهَانة بماء العِزّة[1].

الرابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: من كان معروفاً بالزِّنى أو بغيره من الفسوق، مُعْلِناً به، فتزوّج إلى أهل بيت سترٍ وغَرَّهم من نفسه، فلهم الخيارُ في البقاء معه أو فراقه، وذلك كعَيْبٍ من العيوب، واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينكحُ الزَّاني المجلودُ إلا مثلَه»[2]. قال ابن خُوَيْزمنداد: وإنما ذكر المجلودَ لاشتهاره بالفسق، وهو الذي يجب أن يفرّق بينه وبين غيره، فأما من لم يشتهر بالفسقِ فلا.

الخامسة: قال قوم من المتقدمين: الآية محكمةٌ غير منسوخة، وعند هؤلاء: مَنْ زنى فَسَد النكاح بينه وبين زوجته، وإذا زنت الزوجةُ فَسدَ النكاح بينها وبين زوجها. وقال قوم من هؤلاء: لا ينفسخُ النكاحُ بذلك، ولكن يُؤمر الرجلُ بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أَثِم، ولا يجوز التَّزوّج بالزانية ولا من الزَّاني، بل لو ظهرت التوبةُ، فحينئذ يجوز النكاح[3].

السادسة: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نكاح أولئك البغايا، فيزعم بعض أهل التأويل أنَّ نكاح أولئك البغايا حرَّمه الله تعالى على أمةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، ومن أشهرهنَّ عَناق[4].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣١٨ ، وأخرج أثر ابن مسعود عبد الرزاق (١٢٨٠٢)، وسعيد بن منصور (٨٩٦)، والطبراني في الكبير ٩/ ٣٣٦ (٩٦٧٠) البيهقي ٧/ ١٥٦ بلفظ «فهما زانيان ما اجتمعا»، وينظر المدونة ٢/ ٢٧٨ .

(٢) سلف في المسألة الأولى ـ القول الخامس .

(٣) ينظر الإشراف ٤/ ١٠٢ ، ومصنف عبد الرزاق (١٢٨٠٧) و(١٢٨٠٨)، ومصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٣ ، وسلف ذكر عناق في المسألة الأولى ـ القول الثاني .

السابعة: حرَّم الله تعالى الزنى في كتابه، فحيثما زنى الرجلُ فعليه الحدُّ، وهذا قول مالك والشافعيّ وأبي ثَوْر، وقال أصحاب الرأي في الرجل المسلم: إذا كان في دار الحرب بأمانٍ وزنى هنالك ثم خَرجَ: لم يُحدّ. قال ابن المنذر[١]: دار الحرب ودار الإسلام سواءٌ، ومَنْ زنى فعليه الحدُّ؛ على ظاهر قوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

فيه ست وعشرون مسألة:

الأولى: هذه الآية نزلت في القاذفين، قال سعيد بن جُبير: كان سببها ما قيل في عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها. وقيل: بل نزلت بسبب القَذَفة عامًّا لا في تلك النازلة[٢].

وقال ابن المنذر[٣]: لم نجد في أخبار رسول الله ﷺ خبراً يدلُّ على تَصريح القذف، وظاهرُ كتاب الله تعالى مستغنًى به، دالٌّ[٤] على القذف الذي يُوجبُ الحدَّ، وأهل العلم على ذلك مجمعون.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يريد يَسبُّون، واستعير له اسم الرَّمْي؛ لأنه إذايةٌ بالقول، كما قال النابغة:

وجرحُ اللسان كجرح اليدِ[٥]

(١) في الإشراف ٢/ ٤٣ وما قبله منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .

(٣) في الإشراف ٢/ ٦١ - ٦٢ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): دالاً، والمثبت من (ظ) والإشراف لابن المنذر.

(٥) نسبه ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ٣٢٠ لأبي كبشة، ونسبه الثعالبي في ثمار القلوب ص ٣٣٣ لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٨٥ ، وصدره: ولو عن نثا غيره جاءني.

وقال آخر:

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ ووالِدِي بريئاً ومن أجْلِ الطَّوِيِّ رمانِي[١]

ويسمّى: قذفاً، ومنه الحديث: «إنَّ ابنَ أميّة قذفَ امرأته بشَرِيك بن السَّحماء»[٢] أي: رماها.

الثالثة: ذكر الله تعالى في الآية النساء من حيث هنَّ[٣] أهمّ، ورَمْيُهنَّ بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس، وقَذْفُ الرجال داخلٌ في حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك، وهذا نحو نصّه على تحريم لحم الخنزير، ودخل شحمه وغضارِيفه ونحو ذلك بالمعنى والإجماع. وحكى الزَّهراوِيُّ أن المعنى: والأنفس المحصنات؛ فهي بلفظها تعمُّ الرجالَ والنساءَ، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٤][٤].

وقال قوم: أراد بالمحصنات الفُروجَ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، فيدخل فيه فروجُ الرجال والنساء. وقيل: إنما ذكر المرأة الأجنبية إذا قُذفت؛ ليعطف عليها قذف الرجل زوجته، والله أعلم.

وقرأ الجمهور: «المحصَناتُ» بفتح الصاد، وكَسَرَها يحيى بن وَثّاب. والمحصَنات العفائف في هذا الموضع[٥]. وقد مضى في «النساء»[٦] ذكر الإحصان ومراتبه. والحمد لله.

---

(١) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي، وسلف ١/ ٤٨٣ .

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٥٠)، ومسلم (١٤٩٦) عن أنس، وأخرجه البخاري (٢٦٧١) عن ابن عباس.

(٣) المثبت من (م) و(ظ) وفي (خ) و(د) و(ز): هو .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ ، وقرأ: المحصِنات، بكسر الصاد: الكسائي. السبعة ص٢٣٠ ، والتيسير ص٩٥ .

(٦) ٦/ ٢٤٠ .

الرابعة: للقذف شروط عند العلماء تسعة:

شرطان في القاذف، وهما العقل والبلوغ؛ لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما.

وشرطان في الشيء المقذوف به، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحدُّ ـ وهو الزنى أو اللواط ـ أو ينفيه من أبيه، دون سائر المعاصي.

وخمسة في المقذوف، وهي العقل، والبلوغ، والإسلام، والحريّة، والعفَّة عن الفاحشة التي رُميَ بها، كان عفيفاً من غيرها أم لا، وإنما شرطنا في المقذوف العقل والبلوغ ـ كما شرطناهما في القاذف ـ وإن لم يكونا من معاني الإحصان؛ لأجل أنَّ الحدَّ إنما وضع للزَّجر عن الإذاية بالمضرَّة الداخلة على المقذوف، ولا مضرّة على من عَدِم العقلَ والبلوغ؛ إذ لا يوصف الوطء[1] فيهما ولا منهما بأنه زنًى.

الخامسة: اتفق العلماءُ على أنه إذا صرَّح بالزنى؛ كان قذفاً ورَمْياً موجباً للحدّ، فإن عرَّض ولم يُصرِّح؛ فقال مالك: هو قذف. وقال الشافعيُّ وأبو حنيفة: لا يكون قذفاً حتى يقول: أردت به القذف. والدليل لما قاله مالك: هو أنَّ موضوع الحدّ في القذف إنَّما هو لإزالة المعرَّة التي أوقعها القاذف بالمقذوف، فإذا حصلت المعرّة بالتعريض، وَجَب أن يكون قذفاً كالصّريح[2] والمعوّل على الفهم، وقد قال تعالى مُخبراً عن شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] أي: السفيه الضالّ، فعرّضوا له بالسبِّ بكلام ظاهره المدح في أحد التأويلات، حسبما تقدم في هود[3]. وقال تعالى في أبي جهل: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[4] [الدخان:٤٩]. وقال حكايةً عن مريم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم:٢٨]

(١) في (م): اللواط، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٠-١٣٢١ والكلام منه.

(٢) في (م) و(د) و(ظ): كالتصريح، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٢ .

(٣) ١١/ ١٩٤ - ١٩٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢١ - ١٣٢٢ .

فمدحوا أباها ونَفَوْا عن أُمِّها البغاء، أي: الزنى، وعرّضوا لمريم بذلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦] وكفرُهم معروف، والبهتان العظيم: هو التعريض لها، أي: ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمُّك بغيًّا، أي: أنت بخلافهما وقد أتَيْتِ بهذا الولد. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]. فهذا اللفظ قد فُهِم منه أنَّ المراد به أنَّ الكفّار على غير هدًى، وأن الله تعالى ورسوله على الهُدَى؛ ففُهِم من هذا التعريض ما يفهم من صريحه.

وقد حبس عمر ﷺ الحُطيئة لما قال:

دَعِ المكارِمَ لا ترحل لبُغْيتها ... واقْعد فإنَّك أنت الطّاعِمُ الكاسي[(١)]

لأنه شبهه بالنساء في أنَّهنَّ يُطْعَمْن ويُسقين ويُكسون.

ولما سمع عمر[(٢)] قول النجاشيّ:

قُبيِّلةٌ[(٣)] لا يَغدِرونَ بذمَّةٍ ... ولا يظلمونَ الناسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

قال: ليت آل الخَطّاب[(٤)] كذلك. وإنما أراد الشاعر ضعفَ القبيلة، ومثلُه كثير.

السادسة: الجمهور من العلماء على أنَّه لا حدَّ على مَنْ قذف رجلاً من أهل الكتاب، أو امرأةً منهم.

وقال الزُّهريّ وسعيد بن المسيّب وابن أبي لَيْلَى: عليه الحدُّ إذا كان لها ولد من مسلم.

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ١١٦، وبهجة المجالس ٣/ ١٠٦، والعقد الفريد ٥/ ٣١٧ - ٣١٨، والبيت سلف ١١/ ١٢٥.

(٢) لفظة: عمر من (ظ).

(٣) في (م): قبيلته. والنجاشي هو قيس بن عمرو، الحارثي الشاعر، كان فاسقاً رقيق الإسلام. قاله ابن قتيبة في الشعر والشعراء ص٣٢٩، والبيت فيه ص٣٣١.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ليت الخطاب، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الشعر والشعراء ١/ ٣٣١.

وفيه قول ثالث: وهو أنه إذا قَذَف النصرانيةَ تحت المسلم، جُلِد الحدَّ.

قال ابن المنذر[١]: وجُلّ العلماء مجمِعون وقائلون بالقول الأوّل، ولم أُدرك أحداً ولا لقِيته يخالف في ذلك، وإذا قذف النصرانيُّ المسلمَ الحرَّ، فعليه ما على المسلم: ثمانون جلدة، لا أعلم في ذلك اختلافاً.

السابعة: والجمهور من العلماء على أنَّ العبدَ إذا قذف حُرًّا يُجلد أربعين؛ لأنه حَدٌّ يتشطّر بالرقّ كحدّ الزنى.

وروي عن ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقَبِيصة بن ذؤيب: يجلد ثمانين. وجلدَ أبو بكر بن محمد عبداً قذف حُرًّا ثمانين، وبه قال الأوزاعيّ[٢].

احتج الجمهور بقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥][٣].

وقال الآخرون: فَهِمنا هناك أنَّ حدَّ الزنى لله تعالى، وأنه ربما كان أخفَّ فيمن قلَّت نِعمُ الله عليه، وأفحشَ فيمن عَظُمت نِعمُ الله عليه، وأما حدُّ القذف فحقٌّ للآدميّ وجب للجناية على عِرْض المقذوف، والجناية لا تختلف بالرقّ والحرية، وربما قالوا: لو كان يختلف لذُكر كما ذكر في الزنى.

قال ابن المنذر[٤]: والذي عليه علماء الأمصار القولُ الأوّل، وبه أقول.

الثامنة: وأجمع العلماء على أنَّ الحرَّ لا يُجلد للعبد إذا افترى عليه[٥]؛ لتباين مرتبتهما، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَذَف مملوكَه بالزنى؛ أُقيم عليه الحدُّ

---

(١) في الإشراف ٢/ ٦٢ - ٦٣ وما قبله منه.

(٢) الإشراف ٢/ ٦٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٤ ، والاستذكار ٢٤/ ١١٩ .

(٣) الاستذكار ٢٤/ ١١٩ .

(٤) في الإشراف ٢/ ٦٤ .

(٥) الإجماع لابن المنذر ص١٣٣ ، والإشراف له ٢/ ٦٤ .

يومَ القيامة، إلا أن يكون كما قال» خرَّجه البخاريّ ومسلم[١]. وفي بعض طرقه: «مَنْ قَذَف عبدَه بزنًى ثمَّ لم يتب[٢]، أقيم عليه يوم القيامة الحدُّ ثمانين» ذكره الدّارَقُطْنيّ[٣].

قال العلماء: وإنما كان ذلك في الآخرة؛ لارتفاع المِلْك واستواء الشريف والوضيع والحرّ والعبد، ولم يكن لأحدٍ فضلٌ إلا بالتقوى؛ ولما كان ذلك؛ تكافأ الناسُ في الحدود والحرمة، واقتُصَّ من كلٍّ واحد لصاحبه إلا أن يعفوَ المظلومُ عن الظالم، وإنما لم يتكافؤوا في الدنيا؛ لئلا تدخل الداخلة على المالكين في مكافأتهم لهم، فلا تصح لهم حرمة ولا فضل في منزلة، وتبطل فائدة التسخير؛ حكمة من الحكيم العليم، لا إله إلا هو.

التاسعة: قال مالك والشافعيّ: مَنْ قَذَف من يحسَبه عبداً فإذا هو حرٌّ، فعليه الحدُّ. وقاله الحسن البصريّ، واختاره ابن المنذر[٤]. قال مالك: ومَنْ قَذَف أمَّ الولد حُدَّ. وروي عن ابن عمر، وهو قياس قول الشافعيّ. وقال الحسن البصريّ: لا حَدَّ عليه[٥].

العاشرة: واختلف العلماء فيمن قال لرجل: يا مَنْ وطئ بين الفخذين. فقال ابن القاسم: عليه الحدُّ؛ لأنه تعريض. وقال أشهب: لا حدَّ فيه؛ لأنه نسبةٌ إلى فعلٍ لا يُعدُّ زنًى إجماعاً[٦].

الحادية عشرة: إذا رمى صبيةً يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى، كان قذفاً عند مالك.

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٥٨)، وصحيح مسلم (١٦٦٠) واللفظ له، وهو في مسند أحمد (٩٥٦٧) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (م) و(ف): يثبت، والمثبت من باقي النسخ.

(٣) في سننه (٣٥٠٠) ورجال إسناده ثقات.

(٤) في الإشراف ٢/ ٦٥ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٢ .

وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأبو ثور: ليس بقذفٍ؛ لأنه ليس بزنًى، إذ لا حدَّ عليها، ويعزّر. قال ابن العربيّ[١]: والمسألة محتملة مشكلة، لكن مالك طلب[٢] حمايةَ عِرْض المقذوف، وغيرُه راعى حمايةَ ظهر القاذف؛ وحمايةُ عرض المقذوف أولى؛ لأنَّ القاذف كَشَف ستره بطرف لسانه؛ فلزمه الحدُّ.

قال ابن المنذر[٣]: وقال أحمد في الجارية بنت تسعٍ: يُجلد قاذفها، وكذلك الصبيُّ إذا بلغ عشراً، ضُرب قاذفه. قال إسحاق: إذا قذف غلاماً يَطأُ مثلُه، فعليه الحدُّ، والجارية إذا جاوزت تسعاً مثل ذلك. قال ابن المنذر: لا يُحدّ من قَذَف من لم يبلغ، لأنَّ ذلك كذب، ويعزّر على الأذى.

قال أبو عبيد[٤]: في حديث عليّ ﷺ أنَّ امرأةً جاءته، فذكرت أنَّ زوجها يأتي جاريتها، فقال: إن كنتِ صادقةً رجمناه، وإن كنت كاذبةً جلدناك. فقالت: رُدّوني إلى أهلي غَيْرَى نَغِرَةً[٥].

قال أبو عبيد[٦]: في هذا الحديث من الفقه أنَّ على الرجل إذا واقع جارية امرأته الحدَّ.

وفيه أيضاً: أنَّه[٧] إذا قَذَفه بذلك قاذفٌ، كان على قاذفه الحدُّ؛ ألا تسمع قولَه: «وإن كنتِ كاذبةً جلدناك». ووجه هذا كلِّه إذا لم يكن الفاعل جاهلاً بما يأتي وبما يقول، فإن كان جاهلاً وادّعى شُبهة، دُرِئ عنه الحدُّ في ذلك كلِّه.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٢٢، وما قبله منه، وينظر الإشراف ٢/ ٧٣.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٢: غلّب.

(٣) في الإشراف ٢/ ٧٤.

(٤) في غريب الحديث ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٨.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ١٢ دون قوله «فقالت: ردوني إلى أهلي غيرى نغرة» وسيرد معنى هذه العبارة قريباً.

(٦) في غريب الحديث ٣/ ٤٤٧.

(٧) لفظة «أنه» من (ظ).

وفيه أيضاً: أنَّ رجلاً لو قذف رجلاً بحضرة حاكم، وليس المقذوف بحاضر، أنَّه لا شيء على القاذف حتى يجيء: فيطلب حدَّه؛ لأنَّه لا يدري لعله يُصدِّقه، ألا ترى أنَّ عليًّا لم يعرض لها.

وفيه: أنَّ الحاكم إذا قُذف عنده رجلٌ، ثم جاء المقذوف يطلب حقَّه، أخذَه الحاكم بالحدِّ بسماعه؛ ألا تراه يقول: وإن كنتِ كاذبةً جلدناكِ؛ وهذا لأنه من حقوق الناس.

قلت: اختُلف: هل هو من حقوق الله، أو من حقوق الآدميين؟ وسيأتي(١).

قال أبو عبيد(٢): قال الأصمعي: سألني شُعبة عن قوله: «غَيْرَى نَغِرة» فقلت له: هو مأخوذ من نَغَرِ القِدْرِ، وهو غليانُها وفَوْرُها؛ يقال منه: نَغِرت تَنْغَر، ونَغَرت تَنْغِر: إذا غلت. فمعناه: أنَّها أرادت أنَّ جوفَها يَغْلي من الغيظ والغَيْرة؛ لمّا لم تجد عنده ما تُريد. قال: ويقال منه: رأيت فلاناً يتنغّر على فلانٌ، أي: يغلي جوفُه عليه غيظاً.

الثانية عشرة: من قذف زوجةً من أزواج النبيّ ﷺ، حُدّ حدَّين. قاله مسروق. قال ابن العربيّ(٣): والصحيح أنه حدّ واحد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية، ولا يقتضي شرفُهنَّ زيادةً في حَدِّ من قَذَفهن؛ لأنَّ شَرفَ المنزلة لا يُؤثّر في الحدود [بزيادة]، ولا نَقْصها يُؤثِّر في الحدِّ بتنقيص. والله أعلم. وسيأتي الكلام فيمن قَذَف عائشةَ رضي الله عنها، هل يقتل أم لا؟(٤)

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾.

الذي يفتقر إلى أربعة شهداء دون سائر الحقوق: هو الزنى(٥)؛ رحمةً بعباده،

---

(١) في المسألة السابعة عشرة.

(٢) في غريب الحديث ٣/ ٤٤٧ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٢١ وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) ص١٧٦-١٧٧ من هذا الجزء.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢١ .

وستراً لهم. وقد تقدّم في سورة النساء[١].

الرابعة عشرة: مِن شرطِ أداءِ الشهود الشهادةَ عند مالك رحمه الله: أن يكونَ ذلك في مجلسٍ واحدٍ فإن افترقت لم تكن شهادةً. وقال عبد الملك: تقبل شهادتُهم مجتمعين ومفترقين. فرأى مالك: أنَّ اجتماعَهم تعبُّد، وبه قال ابن الحسن. ورأى عبد الملك أن المقصودَ أداءُ الشهادة واجتماعها، وقد حصل[٢]، وهو قول عثمان البَتِّيّ وأبي ثَوْر، واختاره ابن المنذر[٣]؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ ولم يذكر مفترقين ولا مجتمعين.

الخامسة عشرة: فإن تمَّت الشهادةُ، إلا أنهم لم يُعَدَّلوا؛ فكان الحسنُ البصريُّ والشَّعْبيُّ يَريَان أنْ لا حدَّ على الشهود ولا على المشهود. وبه قال أحمد، والنّعمان، ومحمد بن الحسن. وقال مالك: إذا شهد عليه أربعةٌ بالزنى؛ فإن كان أحدهم مسخوطاً[٤] أو عبداً، يُجلدون جميعاً. وقال سفيان الثوريّ وأحمد وإسحاق في أربعة عميان يشهدون على امرأةٍ بالزنى: يضربون[٥].

السادسة عشرة: فإن رجع أحدُ الشهود وقد رُجم المشهود عليه في الزنى، فقالت طائفة: يَغرَمُ ربعَ الدِّية، ولا شيء على الآخرين. وكذلك قال قتادة، وحماد، وعكرمة، وأبو هاشم، ومالك، وأحمد، وأصحاب الرأي. وقال الشافعيّ: إن قال: عَمَدتُ ليُقتلَ، فالأولياء بالخيار إن شاؤوا قَتَلوا، وإن شاؤوا عَفَوا وأخذوا ربعَ الدِّية، وعليه الحدُّ. وقال الحسن البصريّ: يُقتل، وعلى الآخرين ثلاثةُ أرباع الدِّية. وقال ابن سِيرين: إذا قال: أَخطأتُ وأردتُ غيرَه، فعليه الدِّية كاملةً، وإن قال: تعمّدتُ، قُتل

(١) ٦/ ١٣٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٣ ، والإشراف ٢/ ٥١ .

(٣) في الإشراف ٢/ ٥١ وما قبله وما بعده منه.

(٤) في (د) و(ز): مسقوطاً، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الإشراف، وجاء بعدها في (خ) و(ظ) و(ف): عليه.

(٥) الإشراف ٢/ ٥٣ .

به. وبه قال ابن شُبْرُمَة[١].

السابعة عشرة: واختلف العلماء في حدِّ القذف: هل هو من حقوق الله، أو من حقوق الآدميّين، أو فيه شائبة منهما؟ الأول: قول أبي حنيفة. والثاني: قول مالك والشافعيّ. والثالث: قاله بعض المتأخرين. وفائدة الخلاف: أنّه إنْ كان حقًّا لله تعالى وبلَغَ الإمامَ، أقامه وإن لم يَطلب ذلك المقذوفُ، ونفعت القاذفَ التوبةُ فيما بينه وبين الله تعالى، ويتشطَّر فيه الحدُّ بالرقِّ كالزنى. وإن كان حقًّا للآدمي، فلا يقيمه الإمامُ إلا بمطالبة المقذوف، ويسقط بعفوه، ولم تنفع القاذفَ التوبةُ حتى يحلِّله المقذوفُ[٢].

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ قرأ الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء. وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار، وأبو زُرعة بن عمرو بن جرير: «بِأربعةٍ» بالتنوين «شُهَدَاءَ»[٣].

وفيه أربعة أوجه: يكون في موضع جرٍّ على النعت لأربعة، أو بدلاً، ويجوز أن يكون حالاً من نكرة أو تمييزاً، وفي الحال والتمييز نظر؛ إذ الحال من نكرة، والتمييز مجموع، وسيبويه[٤] يرى أنَّ تنوين العدد وتركَ إضافته إنما يجوز في الشعر. وقد حسّن أبو الفتح عثمان ابن جِنّي[٥] هذه القراءةَ وحبب[٦] على قراءة الجمهور.

---

(١) الإشراف ٢/ ٥٣ - ٥٤ . وفيه رواية أخرى عن الحسن: يقتل الذي أكذب نفسه، وعلى الآخرين الدية.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٤ ، وينظر الإشراف ٢/ ٧٩ ، وأحكام القرآن للكيا ٤/ ٢٩٩ ، وزاد المسير ٦/ ١١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ ، وقراءة عبد الله وأبي زرعة في القراءات الشاذة ص١٠٠ ، والمحتسب ٢/ ١٠١ .

(٤) في الكتاب ١/ ٢٠٨ ، ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .

(٥) في المحتسب ٢/ ١٠١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .

(٦) كذا في (م) والمثبت منه، ولم تجود هذه الكلمة في النسخ الخطية، وسقطت من (ظ)، ووقع في المحرر الوجيز. ورجحها، بدل: حبب.

قال النحاس[(١)]: ويجوز أن يكون «شهداء» في موضع نصب، بمعنى: ثم لم يُحضروا أربعةَ شهداءَ.

التاسعة عشرة: حكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينَة، يرَوْن ذلك كالمِرْوَد في المُكْحُلة[(٢)]، على ما تقدّم في «النساء»[(٣)] في نص الحديث. وأن تكون في موطنٍ واحد، على قول مالك[(٤)]، وإن اضطرب واحد منهم جُلد الثلاثةُ، كما فعل عمر ﷺ في أمر المغيرة بن شُعبة؛ وذلك أنه شَهد عليه بالزِّنى أبو بكرة نُفيع بن الحارث، وأخوه نافع ـ وقال الزهراوي: عبد الله ـ بن الحارث، وزياد أخوهما لأمٍّ وهو مستلحق معاوية، وشِبْل بن مَعْبد البَجَلي، فلما جاؤوا لأداء الشهادة وتوقَّف زياد ولم يؤدِّها، جَلَد عمرُ الثلاثةَ المذكورين[(٥)].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ الجَلْد: الضرب، والمجالدة: المضاربة في الجلود أو بالجلود، ثم استعير الجَلْد لغير ذلك من سيفٍ أو غيره، ومنه قول قيس بن الخَطِيم:

أجالدُهم يومَ الحديقةِ حاسراً   كأنَّ يدي بالسَّيف مِخراقُ لاعبِ[(٦)]

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٢٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .

(٣) ٦/ ١٣٨ .

(٤) سلف في المسألة الرابعة عشرة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ ، وعلق البخاري الخبر مختصراً قبل الحديث (٢٦٤٨)، وأخرجه الشافعي في الأم ٧/ ٤١ ، وعبد الرزاق (١٣٥٦٤) (١٣٥٦٥) (١٣٥٦٦)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٩٢ ، والطحاوي في شرح المعاني ٤/ ١٥٣ ، والطبراني في الكبير (٧٢٢٧)، والحاكم ٣/ ٤٤٨ ، والبيهقي ٨/ ٢٣٥ قال ابن كثير في إرشاد الفقيه ٢/ ٣٦٨ : وهو مشهور من طرق جيدة، وهو كالمستفيض بين العلماء وأهل السير والتواريخ.

(٦) البيت في ديوان قيس ص٢٠٧ ، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ . والحديقة: قرية من أعراض المدينة من طريق مكة، كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام. معجم البلدان ٢/ ٢٣٢ ، والمِخراق: ما يلعب به الصبيان من الخِرَق المفتولة. تهذيب اللغة ٧/ ٢٤ .

﴿ثَمَٰنِينَ﴾ نصب على المصدر ﴿جَلۡدَةٗ﴾ تمييز. ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ هذا يقتضي مدةَ أعمارهم، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ[(١)].

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ في موضع نصب على الاستثناء، ويجوز أن يكون في موضع خفضٍ على البدل، والمعنى: ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، إلا الذين تابوا[(٢)] وأصلحوا من بعد القذف ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

فتضمنت الآية ثلاثة أحكامٍ في القاذف: جَلْدَهُ، وردّ شهادتِه أبداً، وفسقَه، فالاستثناء غير عاملٍ في جَلده بإجماعٍ؛ إلا ما رُوي عن الشَّعْبيّ على ما يأتي، وعاملٌ في فسقه بإجماعٍ[(٣)].

واختلف الناس في عمله في ردّ الشهادة؛ فقال شُريح القاضي، وإبراهيم النَّخَعِيّ، والحسن البصريّ، وسفيان الثَّوْريّ، وأبو حنيفة: لا يعمل الاستثناء في ردِّ شهادته، وإنَّما يزول فسقه عند الله تعالى، وأما شهادة القاذف فلا تُقبل البتةَ ولو تاب وأكذبَ نفسَه، ولا بحال من الأحوال. وقال الجمهور: الاستثناء عامل في ردِّ الشهادة، فإذا تاب القاذف، قُبلت شهادتُه[(٤)]، وإنما كان ردُّها لعلة الفسق، فإذا زال بالتوبة، قُبلت شهادتُه مطلقاً قبل الحدِّ وبعده، وهو قول عامة الفقهاء.

ثم اختلفوا في صورة توبته: فمذهب عمر بن الخطاب ﷺ، والشّعبيّ، وغيره: أن توبتَه لا تكون إلا بأن يُكذِّب نفسَه في ذلك القذف الذي حُدَّ فيه، وهكذا فعل عمر؛ فإنه قال للذين شهدوا على المغيرة: مَنْ أكذبَ نفسَه، أَجَزْتُ شهادتَه فيما استقبل، ومن لم يفعل لم أُجِز شهادتَه. فأكذبَ شِبْل بن معبد ونافع بن الحارث بن كَلَدة

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ . وسيرد خبر الشعبي .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ .

أنفسَهما وتابا، وأبى أبو بكرةَ أن يفعلَ؛ فكان لا يقبل شهادته[١]. وحكى هذا القولَ النحاسُ[٢] عن أهل المدينة.

وقالت فرقة ـ منها مالك رحمه الله تعالى وغيره ـ: توبتُه أن يَصْلُح ويَحْسُن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيبٍ، وحسبه النَّدمُ على قَذْفه والاستغفارُ منه، وتركُ العَود إلى مثله، وهو قول ابن جرير[٣].

ويروى عن الشّعبيّ أنه قال: الاستثناء من الأحكام الثلاثة؛ إذا تاب وظهرت توبته: لم يُحدّ، وقُبلت شهادتُه، وزال عنه التفسيق؛ لأنَّه قد صار ممن يُرْضَى من الشهداء، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] الآية[٤].

الثانية والعشرون: اختلف علماؤنا رحمهم الله تعالى متى تسقط شهادة القاذف، فقال ابن الماجِشُون: بنفس قذفه. وقال ابن القاسم وأشهبُ وسُحْنون: لا تسقط حتى يجلد، فإن مَنع من جَلده مانعُ عفوٍ أو غيره، لم تردّ شهادته. وقال الشيخ أبو الحسن اللَّخْمِيُّ: شهادته في مدة الأجل موقوفة، ورجّح القول بأنَّ التوبةَ إنما تكون بالتكذيب في القذف، وإلا فأيّ رجوع لعَدْل إن قَذف وحُدَّ وبقي على عدالته[٥].

الثالثة والعشرون: واختلفوا أيضاً على القول بجواز شهادته بعد التوبة في أيِّ شيء تجوز؟

فقال مالك رحمه الله تعالى: تجوز في كلِّ شيءٍ مطلقاً، وكذلك كلّ من حُدَّ في شيء من الأشياء[٦]، رواه نافع وابن عبد الحكم عن مالك، وهو قول ابن كنانة[٧].

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥، وأخرج خبر عمر: الطبري في تفسيره ١٧/ ١٦٣ و ١٦٤.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٥٠٢.

(٣) في تفسيره ١٧/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٠٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥.

(٧) النوادر والزيادات ٨/ ٣٣٧، والكافي ٢/ ٨٩٧.

وذكر الوَقَار[١] عن مالك أنه لا تقبل شهادته فيما حُدّ فيه خاصة، وتقبل فيما سوى ذلك، وهو قول مُطَرِّف وابن الماجِشُون، وروى العُتْبِيّ عن أَصْبَغ وسُحنون مثله[٢].

قال سُحْنون: من حُدَّ في شيءٍ من الأشياء، فلا تجوز شهادتُه في مثل ما حُدَّ فيه. وقال مُطَرِّف وابن الماجشون: من حُدَّ في قذف أو زنًى، فلا تجوز شهادتُه في شيءٍ من وجوه الزنى، ولا في قذفٍ ولا لِعانٍ، وإن كان عدلاً. وروياه عن مالك، واتفقوا على ولد الزنى: أن شهادته لا تجوز في الزنى[٣].

الرابعة والعشرون: الاستثناء إذا تعقَّب جُمَلاً معطوفةً، عاد إلى جميعها عند مالك والشافعيّ وأصحابهما، وعند أبي حنيفة وجُلِّ أصحابه: يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور، وهو الفسق، ولهذا لا تُقبل شهادته، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة[٤].

وسبب الخلاف في هذا الأصل شيئان[٥]:

أحدهما: هل هذه الجمل في حُكم الجملة الواحدة للعطف الذي فيها، أو لكلِّ جملةٍ حُكمُ نفسِها في الاستقلال، وحرفُ العطف محسِّنٌ لا مُشْرِك، وهو الصحيح في عطف الجمل؛ لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض، على ما يعرف من النحو.

السبب الثاني: يُشبَّه الاستثناء بالشرط في عَوْده إلى الجُمل المتقدِّمة، فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء، أَوْ لا يُشبَّه به؛ لأنه من باب القياس في اللغة، وهو فاسد

(١) هو محمد أبو بكر بن أبي يحيى زكريا، كان حافظاً للمذهب، توفي سنة (٢٦٩هـ) وقيل غير ذلك. ترتيب المدارك ٣/ ٩١ .

(٢) الكافي ٢/ ٨٩٧ ، والنوادر والزيادات ٨/ ٣٣٨، وعقد الجواهر ٣/ ١٤٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ . والنوادر والزيادات ٨/ ٣٣٩ .

(٤) إحكام الفصول للباجي ٢٧٧ ، والمحصول لابن العربي ص٨٤ - ٨٥ ، والمحصول للرازي ٣/ ٤٣ .

(٥) ينظر لهذين الشيئين: المحصول للرازي ٣/ ٤٣ وما بعدها.

على ما يعرف في أصول الفقه. والأصل أنَّ كلَّ ذلك محتمِل ولا ترجيح، فتعيَّن ما قاله القاضي من الوقف[(١)].

ويتأيّد الإشكال بأنه قد جاء في كتاب الله عزَّ وجلَّ كِلَا الأمرين؛ فإن آية المحاربة[(٢)] فيها عودُ الضمير إلى الجميع باتفاق، وآية قتل المؤمن خطأً[(٣)] فيها ردُّ الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق، وآية القذف محتملة للوجهين؛ فتعيّن الوقف من غير مَيْن[(٤)].

قال علماؤنا: وهذا نظر كُليٌّ أصوليٌّ، ويترجَّح قولُ مالك والشافعيّ رحمهما الله من جهة نظر الفقه الجزئي، بأن يقال: الاستثناء راجع إلى الفسق [والنهي عن قبول الشهادة][(٥)] جميعاً، إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له، وأجمعت الأمة على أنَّ التوبةَ تمحو الكفرَ، فيجب أن يكون ما دون ذلك أوْلى، والله أعلم.

قال أبو عبيد[(٦)]: الاستثناء يرجع إلى الجُمَل السابقة، قال: وليس مَن نُسبَ إلى الزنى بأعظم جُرْماً من مرتكب الزنى، ثم الزّاني إذا تاب قُبلت شهادتُه؛ لأن «التائبَ من الذَّنْب كمَنْ لا ذَنْبَ له»[(٧)]، وإذا قبل الله التوبةَ من العبد، كان العباد بالقبول

---

(١) ينظر إحكام الفصول ٢٧٧ للباجي.

(٢) في سورة المائدة الآية ٣٣: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

(٣) في سورة النساء الآية ٩٢: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾.

(٤) المَيْن: الكذب. القاموس (مين).

(٥) في النسخ الخطية: والتوبة، بدل الكلام الواقع بين حاصرتين، والمثبت من فتح القدير ٤/ ٩، ومما سيرد في المسألة الآتية.

(٦) في الناسخ والمنسوخ له ص١٥٣ - ١٥٤.

(٧) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠٢٨١) عن ابن مسعود من طريق أبي عبيدة قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٠: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.

وله شواهد عن ابن عباس، وأبي سعدة الأنصاري، وأبي عتبة الخولاني. ينظر سنن البيهقي ١٠/ ١٥٤.

أولى؛ مع أنَّ مثل هذا الاستثناء موجودٌ في مواضع من القرآن؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [المائدة:٣٣]، ولا شك أنَّ هذا الاستثناء إلى الجميع.

وقال الزجاج[(١)]: وليس القاذف بأشدَّ جُرْماً من الكافر، فحقُّه إذا تاب وأصلَحَ أن تُقبل شهادته، قال: وقوله: «أبَداً» أي: ما دام قاذفاً، كما يقال: لا تُقبل شهادة الكافر أبداً؛ فإنَّ معناه: ما دام كافراً.

وقال الشَّعْبي للمخالف في هذه المسألة: يقبلُ الله توبتَه، ولا تَقبلون شهادتَه![(٢)].

ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة عند أقوامٍ من الأصوليين، فقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ تعليل لا جملة مستقلةٌ بنفسها، أي: لا تقبلوا شهادتَهم لفسقهم، فإذا زال الفسقُ فلِمَ لا تُقبل شهادتهم؟. ثم توبةُ القاذف إكذابُه نفسَه، كما قال عمرُ لقَذَفة المغيرة بحضرةِ الصحابة من غير نكيرٍ، مع إشاعة القضية وشهرتِها من البصرة إلى الحجاز وغيرِ ذلك من الأقطار. ولو كان تأويل الآية ما تأوَّله الكوفيون، لم يجز أن يذهب علمُ ذلك عن الصحابة، ولقالوا لعمر: لا يجوز قبول توبة القاذف أبداً، ولم يسعهم السكوتُ عن القضاء بتحريف تأويل الكتاب؛ فسقط قولُهم، والله المستعان.

الخامسة والعشرون: قال القُشيريّ: ولا خلاف أنَّه إذا لم يُجلد القاذفُ، بأن مات المقذوفُ قبل أن يطالِبَ القاذفَ بالحدِّ، أو لم يُرفع إلى السلطان، أو عفا المقذوفُ، فالشهادة مقبولةٌ؛ لأنَّ عند الخصم في المسألة النهي عن قبول الشهادة معطوفٌ على الجلد، قال الله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ﴾. وعند هذا قال الشافعيّ[(٣)]: هو قبل أن يُحَدَّ شرٌّ منه حين حُدَّ؛ لأنَّ الحدود كفاراتٌ،

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٣١.

(٢) أخرجه أبو عبيد في الناسخ ص١٥١، وعبد الرزاق (١٥٥٥٢).

(٣) في الأم ٧/ ٤١ – ٤٢.

فكيف تُردُّ شهادتُه في أحسن حاليه دون أخسِّهما.

قلت: هكذا قال، ولا خلاف، وقد تقدَّم[١] عن ابن الماجشون أنه بنفس القذف تُردُّ شهادته، وهو قول الليث، والأوزاعيّ، والشافعيّ: تردُّ شهادتُه وإن لم يحدّ[٢]؛ لأنَّه بالقذف يفسق؛ لأنه من الكبائر، فلا تُقبل شهادته حتى تصحَّ براءتُه بإقرار المقذوف له بالزنى، أو بقيام البينة عليه.

السادسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ يريد: إظهارَ التوبة. وقيل: وأصلحوا العملَ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث تابوا وقَبِلَ توبتَهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاثون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ «أنفسُهم»[٤] بالرفع على البدل، ويجوز النصب على الاستثناء، وعلى خبر «يكن».

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ بالرفع قراءةُ الكوفيين[٥] على الابتداء والخبر، أي: فشهادةُ أحدهم التي تُزيل عنه حدَّ القذف أربعُ شهادات. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: «أربعَ» بالنصب[٦]؛ لأن معنى «فشهادةُ»: أن يشهدَ، والتقدير: فعليهم

(١) ص١٣٤ من هذا الجزء.
(٢) قول الشافعي في الأم ٧/ ٤١ .
(٣) الوسيط ٣/ ٣٠٥ .
(٤) زيادة من (م).
(٥) يعني هي قراءة عاصم في رواية حفص عنه، وحمزة، والكسائي. السبعة ص٤٥٢ ، والتيسير ص١٦١ .
(٦) وقرأ بها أيضاً ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية شعبة عنه، كما في المصدرين السالفين.

أن يَشهد أحدُهم أربعَ شهادات، أو: فالأمرُ أن يشهدَ أحدُهم أربعَ شهادات[1]، ولا خلافَ في الثاني أنه منصوبٌ بالشهادة.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ رفع بالابتداء، والخبرُ «أنَّ» وصلتُها، ومعنى المخفَّفة كمعنى المُثقَّلة؛ لأن معناها: أنَّه[2]. وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحةُ وعاصم في رواية حفص «والخامسةَ» بالنصب[3]، بمعنى: وتشهدُ الشهادةَ الخامسة. الباقون بالرفع على الابتداء، والخبرُ في «أنَّ لعنةَ الله عليه»، أي: والشهادةُ الخامسةُ قولُه: لعنةُ الله عليه.

الثانية: في سبب نزولها، وهو ما رواه أبو داود عن ابن عباس أنَّ هلالَ بنَ أميةَ قذفَ امرأتَه عند النبيِّ ﷺ بشَرِيك بن سَحْماء، فقال النبيُّ ﷺ: «البيِّنةَ، أو حدٌّ في ظهرك». قال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا رجلاً على امرأته يلتمس البينة! فجعل النبيُّ ﷺ يقول: «البينةَ، وإلَّا حَدٌّ في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك بالحقِّ، إني لصادق، وليُنْزِلنَّ الله في أمري ما يُبرِّئ ظهري من الحدِّ. فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. الحديث بكماله[4].

وقيل: لمَّا نزلت الآية المتقدِّمةُ في الذين يرمون المحصنات، وتناولَ ظاهرُها الأزواجَ وغيرَهم، قال سعد بن معاذ[5]: يا رسول الله، إن وجدتُ مع امرأتي رجلاً؛ أُمهلُه حتى آتيَ بأربعة! والله لأضربنَّه بالسَّيف غيرَ مُصْفِح عنه. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٩ ، وقراءة التخفيف في الموضعين هي قراءة نافع، فقد قرأ: «أنْ لعنةُ الله»، و«أنْ غَضِبَ اللهُ».

(٣) ذِكر عاصم هنا وهم، ولم يذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٢٩ ، وعنه نقل المصنف، وقد قرأ عاصم وحده من العشرة في رواية حفص: والخامسةَ، بالنصب، في الموضع الثاني. وأما في الموضع الأول فالعشرة قرؤوا بالرفع. وقرأ أبو عبد الرحمن ـ وهو السُّلَمي ـ وطلحة بالنصب في الموضعين. ينظر السبعة ص٤٥٣ ، والتيسير ص١٦١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦٦ .

(٤) سنن أبي داود (٢٢٥٤)، وأخرجه البخاري أيضاً (٤٧٤٧)، وسلفت قطعة منه ص١٠٨ من هذا الجزء.

(٥) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ ، وهو وهم، وصوابه: سعد بن عبادة كما في المصادر.

«أتعجبون من غَيْرة سعدٍ؟! لأنا أغْيَرُ منه، واللهُ أغْيَرُ مني»[(١)]. وفي ألفاظ سعد رواياتٌ مختلفة، هذا نحو معناها.

ثم جاء من بعد ذلك هلالُ بنُ أميةَ الواقفي، فرمى زوجته بشَرِيك بن سَحْماء البَلَوي على ما ذكرنا، وعزمَ النبيُّ ﷺ على ضربه حدَّ القذف، فنزلت هذه الآيةُ عند ذلك، فجمعهما رسول الله ﷺ في المسجد وتلاعنا، فتلكَّأتِ المرأة عند الخامسة لمَّا وُعِظت وقيل: إنها مُوجِبة، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فالْتَعَنَت، وفرَّق رسول الله ﷺ بينهما، ووَلَدت غلاماً كأنه جَمَلٌ أوْرَق ـ على النَّعت المكروه ـ ثم كان الغلام بعد ذلك أميراً بمصر، وهو لا يعرف لنفسه أباً[(٢)].

وجاء أيضاً عُوَيْمِرٌ العَجْلانيُّ، فرمى امرأته ولاعن[(٣)]. والمشهورُ أن نازلة هلالٍ كانت قبلُ، وأنها سبب الآية[(٤)]. وقيل: نازلةُ عويمرِ بن أشقر[(٥)] كانت قبلُ، وهو حديث صحيحٌ مشهورٌ خرَّجه الأئمة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨١٦٨)، والبخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ. دون قوله: لما نزلت الآية المتقدمة. . . وقوله: غير مصفح: قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٣٢١ : قال عياض: هو بكسر الفاء وسكون الصاد المهملة. قال: ورويناه أيضاً بفتح الفاء. فمن فتح جعله وصفاً للسيف وحالاً منه، ومن كسر جعله وصفاً للضارب وحالاً منه. اهـ . وزعم ابن التين أنه وقع في سائر الأمهات بتشديد الفاء، وهو من صفح السيف، أي: عرضه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ - ١٦٦ ، وخبر الملاعنة بين هلال وزوجته هو من حديث ابن عباس السالف. وقوله: أورق، أي: أسمر.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٨٣٠)، والبخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (١٤٩٢): (١) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٦ .

(٥) كذا قال المصنف: عويمر بن أشقر، وهي رواية القعنبي عن مالك كما ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٤٤٧ ، وقال: وكذا أخرجه أبو داود وأبو عوانة من طريق عياض بن عبد الله الفهري عن الزهري، ووقع في الاستيعاب: عويمر بن أبيض، وعند الخطيب في «المبهمات»: عويمر بن الحارث، وهذا هو المعتمد، فإن الطبري نسبه في «تهذيب الآثار» فقال: هو عويمر بن الحارث بن زيد بن الجدّ بن عجلان، فلعل أباه كان يلقب أشقر، أو أبيض.

قال أبو عبد الله بنُ أبي صُفْرة: الصحيحُ أنَّ القاذفَ لزوجه عُويمر، وهلال بن أميةَ خطأ[١].

قال الطبريُّ ـ يستنكر قوله في الحديث: هلال بن أمية ـ: وإنما القاذفُ عويمرُ بن [الحارث] زيد بنِ الجَدِّ بن العَجْلاني، شهد أُحُداً مع النبيِّ ﷺ، رماها بشَرِيك بن السَّحْماء[٢]، والسَّحماءُ أمُّه، قيل لها ذلك لسوادها، وهو ابنُ عبدةَ بنِ الجدِّ بن العَجْلاني؛ كذلك كان يقول أهل الأخبار.

وقيل: قرأ النبيُّ ﷺ على الناس في الخطبة يوم الجمعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، فقال عاصم بن عَديٍّ الأنصاري: جعلني الله فداك، لو أن رجلاً منَّا وجد على بطن امرأته رجلاً، فتكلَّم فأخبر بما جرى، جُلِد ثمانين، وسمَّاه المسلمون فاسقاً، فلا تُقبل شهادته، فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء، وإلى أن يلتمس أربعةَ شهود، فقد فرغ الرجل من حاجته! فقال عليه الصلاة والسلام: «كذلك أُنزِلت يا عاصم بنَ عَدي». فخرج عاصم سامعاً مطيعاً، فاستقبله هلال بن أمية يسترجع، فقال: ما وراءك؟ فقال: شرٌّ! وجدت شريك بن السَّحْماء على بطن امرأتي خَولةَ يزني بها. وخولةُ هذه: بنتُ عاصم بن عدي[٣]، كذا في هذا الطريق أنَّ الذي وجد مع امرأته شريكاً هو هلالُ بن أمية، والصحيح خلافُه حسبما تقدَّم بيانه.

---

(١) أورد قوله أبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٣٠٠، قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٥٠: قول ابن أبي صفرة دعوى مجردة، وكيف يجزم بخطأ حديث ثابت في الصحيحين مع إمكان الجمع؟. وذكر ٩/ ٤٥٠ كيفية الجمع بأن يكون هلال سأل أولاً، ثم سأل عويمر، فنزلت في شأنهما معاً... وقال أيضاً ٨/ ٤٥٠: ويحتمل أن النزول سبق بسبب هلال، فلما جاء عويمر ولم يكن علمَ بما وقع لهلال؛ أعلمَه النبي ﷺ بالحكم...

(٢) أورد قول الطبري ابن عبد البر في الاستيعاب (بهامش الإصابة ٩/ ٥٤) والقاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٨٦، وأبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٣٠٠، وابن الأثير في أسد الغابة ٤/ ٣١٧، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٣) لم نقف عليه بهذا السياق وأورد نحوه البغوي في تفسيره ٣/ ٣٢٥ - ٣٢٦ عن ابن عباس ومقاتل مطولاً، وفيه: أن الذي لقي عاصماً هو عويمر العجلاني.

قال الكلبي: والأظهرُ أن الذي وجد مع امرأته شريكاً عُوَيمرٌ العَجْلاني؛ لكثرة ما رُويَ أن النبيَّ ﷺ لاعَنَ بين العَجْلاني وامرأتِه. واتفقوا على أن هذا الزاني هو شَريكُ ابن عبدَةَ، وأمُّه السَّحْماء، وكان عُويمرٌ وخولةُ بنت قيس وشَريكٌ بني عمٍّ عاصم.

وكانت هذه القصة في شعبانَ سنة تسع من الهجرة، منصرَفَ رسول الله ﷺ من تَبُوك إلى المدينة. قاله الطبري(١).

وروى الدَّارَقُطْنيُّ عن عبد الله بن جعفر قال: حضرتُ رسول الله ﷺ حين لاعن بين عُويمر العجلاني وامرأتِه، مرجعَ رسولِ الله ﷺ من غَزْوة تَبُوك، وأنكر حملها الذي في بطنها، وقال: هو لابن السَّحْماء، فقال له رسول الله ﷺ: «هاتِ امرأتك، فقد نزل القرآن فيكما». فلاعن بينهما بعد العصر عند المنبر على حمل(٢). في طريقه الواقدي عن الضحاك بن عثمان، عن عمرانَ بنِ أبي أنس قال: سمعت عبد الله بن جعفر يقول... فذكره(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ عامٌّ في كلِّ رَمْي، سواء قال: زنيتِ، أو: يا زانية، أو: رأيتُها تزني، أو: هذا الولدُ ليس مني، فإن الآية مشتمِلةٌ عليه(٤). ويجب اللِّعانُ إن لم يأتِ بأربعة شهداء، وهذا قولُ جمهور العلماء، وعامَّةِ الفقهاء، وجماعةِ أهل الحديث. وقد رُويَ عن مالك مثلُ ذلك(٥).

وكان مالك يقول: لا يلاعن، إلَّا أن يقول: رأيتكِ تزني، أو ينفيَ حملاً أو ولداً

---

(١) نقله عن الطبري ابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الإصابة ٩/ ٥٤ ، والقاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٨٦ ، وابن الأثير في أسد الغابة ٤/ ٣١٧ .

(٢) في (م): خمل، وفي (خ): جمل، وفي (د): (جبل)، والمثبت من (ز) و(ظ) وهو الموافق للمصادر الآتية.

(٣) سنن الدارقطني (٣٧٠٩)، وأخرجه من طريقه البيهقي ٧/ ١٩٨ والواقدي متروك كما قاله ابن حجر في التقريب.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٠ .

(٥) التمهيد ٦/ ٢٠٦ ، والاستذكار ١٧/ ٢٠٨ .

منها. وقولُ أبي الزِّناد ويحيى بنِ سعيد والبَتِّي مثلُ قول مالك: إن الملاعنة لا تجب بالقذف، وإنما تجب بالرؤية، أو نفي الحمل مع دعوى الاستبراء[(١)]. هذا هو المشهور عن[(٢)] مالك، وقاله ابن القاسم[(٣)].

والصحيح الأوَّل لعموم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾. قال ابن العربي: وظاهر القرآن يكفي لإيجاب اللِّعان بمجرد القذف من غير رؤية، فَلْتُعَوِّلوا عليه، لا سيَّما وفي الحديث الصحيح: أرأيتَ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً؟ فقال النبيُّ ﷺ: «فاذهب فأتِ بها»، ولم يكلِّفه ذِكْر الرؤية[(٤)]. وأجمعوا أن الأعمى يلاعن إذا قذف امرأته، ولو كانت الرؤية من شرط اللعان ما لاعن الأعمى. قاله أبو عمر[(٥)].

وقد ذكر ابن القصَّار عن مالك أنَّ لعانَ الأعمى لا يصح إلَّا أن يقول: لمستُ فرجه في فرجها[(٦)]. والحجَّةُ لمالك ومَن اتبعه ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء هلال بنُ أمية، وهو أحدُ الثلاثة الذين تِيب عليهم، فجاء من أرضه عِشاء، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنه، فلم يَهِجْه حتى أصبح، ثم غدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عِشاءً، فوجدتُ عندهم رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني. فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتدَّ عليه، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ الآية، وذكر الحديث[(٧)].

---

(١) التمهيد ٦/ ٢٠٤ ، والاستذكار ١٧/ ٢٠٥ .

(٢) في (م): عند.

(٣) المدونة ٣/ ١١٤ .

(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٣٣١ ، وهذا الحديث قطعة من حديث سهل بن سعد الساعدي السالف ذكره في المسألة الثانية في قصة عويمر العجلاني، وهو بهذا اللفظ عند أحمد (٢٢٨٥١)، والبخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢): (١).

(٥) في التمهيد ٦/ ٢٠٧ ، وينظر الاستذكار ١٧/ ٢٠٨ .

(٦) أورد قول ابن القصار ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٤٤٠ .

(٧) سنن أبي داود (٢٢٥٦)، وأخرجه أحمد أيضاً (٢١٣١) وهو من طريق عبَّاد بن منصور، عن عكرمة، =

وهو نصٌّ على أن الملاعَنة التي قضى فيها رسول الله ﷺ إنما كانت في الرؤية، فلا يجب أن يُتعدَّى ذلك. ومَن قذف امرأته ولم يذكر رؤية حُدَّ؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾[1].

الرابعة: إذا نفى الحمل فإنه يلتعن؛ لأنه أقوى من الرؤية، ولابدَّ من ذِكر عدم الوطء والاستبراءِ بعده. واختلف علماؤنا في الاستبراء، فقال المغيرة ومالك في أحد قوليهما: يُجزئ في ذلك حَيْضة. وقال مالك أيضاً: لا يَنفيه[2] إلا بثلاث حِيَض. والصحيحُ الأوَّل؛ لأن براءة الرَّحم من الشُّغْل تقع بها كما في استبراء الأمة، وإنما راعَيْنا الثلاث حِيَض في العِدَد لحكم آخرَ[3]؛ يأتي بيانُه في «الطَّلاق» إن شاء الله تعالى.

وحكى اللَّخْمِيُّ عن مالك أنه قال مرة: لا يُنْفَى الولد بالاستبراء؛ لأن الحيض يأتي على الحمل. وقاله[4] أشهب في كتاب ابن المَوَّاز، وقاله المغيرة. وقال: لا يُنْفَى الولد إلا بخمس سنين؛ لأنه أكثرُ مدَّةِ الحمل على ما تقدَّم[5].

الخامسة: اللِّعانُ عندنا يكون في كلِّ زوجين، حرَّين كانا أو عبدين، مؤمنَيْن أو

= عن ابن عباس وهو معلول بعَبَّاد بن منصور، قال البخاري: عباد بن منصور روى عن ابن أبي يحيى الأسلمي، عن داود بن الحصين، عن عكرمة أشياء ربما نسيها، فجعلها عن عكرمة. وقال يحيى بن معين: عباد بن منصور ضعيف قدري. وقال ابن حبان: كان قدرياً داعياً إلى القدر، وكل ما روى عن عكرمة سمعه من ابن أبي يحيى عن داود، فدلَّسها على عكرمة. نصب الراية ٣/ ٢٥١ . وقوله: فلم يَهِجْه، أي: لم يزعجه ولم يُنَفِّره. النهاية (هيج).

(١) التمهيد ٦/ ٢٠٦ ، وينظر الاستذكار ١٧/ ٢٠٧ .

(٢) في (د) و(ز) والمحرر الوجيز ٤/ ١٦٧ والكلام منه: لا ينفعه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣١ .

(٤) في (م) و(د): وبه قال، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٧ والكلام منه.

(٥) ١٢/ ١٩ وما بعدها. وقد ذكرنا هناك أن الحمل لا يزيد عن وقته ـ وهو تسعة أشهر ـ أكثرَ من شهر، وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

كافرين، فاسقَين أو عَدْلَين. وبه قال الشافعي[١].

ولا لعانَ بين الرجل وأَمَته، ولا بينه وبين أمِّ ولده. وقيل: لا يَنتفي ولدُ الأَمة عنه إلا بيمين واحدة، بخلاف اللِّعان. وقد قيل: إنه إذا نفى ولدَ أمِّ الولد، لاعن. والأوَّلُ تحصيلُ مذهب مالك، وهو الصَّواب[٢].

وقال أبو حنيفة: لا يصحُّ اللِّعان إلا من زوجين حُرَّين مسلِمَين، وذلك لأن اللِّعان عنده شهادةٌ، وعندنا وعند الشافعيِّ يمينٌ، فكلُّ مَن صحَّت يمينه، صحَّ قذفه ولعانه. واتفقوا على أنه لابُدَّ أن يكونا مكلَّفَيْن[٣].

وفي قوله: [أرأيت رجلاً] وجد مع امرأته رجلاً، دليلٌ على أن الملاعَنة تجب على كلِّ زوجين؛ لأنه لم يَخُصَّ رجلاً من رجل، ولا امرأةً من امرأة، ونزلت آية اللِّعان على هذا الجواب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، ولم يَخُصَّ زوجاً من زوج. وإلى هذا ذهب مالك وأهلُ المدينة، وهو قول الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي عبيد وأبي ثَوْر. وأيضاً فإن اللِّعان يُوجِب فسخ النكاح، فأشبه الطلاقَ، فكلُّ مَن يجوز طلاقُه، يجوز لِعانُه[٤].

واللِّعان أيمانٌ لا شهاداتٍ، قال الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ [المائدة:١٠٧] أي: أيمانُنا. وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]. ثم قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ [المجادلة:١٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «لولا الأيمانُ لكان لي ولها شأن»[٥].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣١، وينظر التمهيد ٦/ ١٩٢، والاستذكار ١٧/ ٢٤١ وما بعدها.

(٢) الكافي ٢/ ٦١٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣١ دون قوله: فكل من صحت يمينه، صح قذفه ولعانه.

(٤) التمهيد ٦/ ١٩٢ - ١٩٣ وما بين حاصرتين منه، وجاء فيه: ونزلت آية اللعان على هذا السؤال بهذا العموم، بدل: ونزلت آية اللعان على هذا الجواب.

(٥) هو قطعة من حديث ابن عباس عند أبي داود (٢٢٥٦) السالف في المسألة الثالثة.

وأمَّا ما احتجَّ به الثوريُّ وأبو حنيفة فهي حُجج لا تقوم على ساق[1]، منها: حديثُ عمرو بنِ شعيب، عن أبيه، عن جدِّه عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعةٌ ليس بينهم لِعان: ليس بين الحرِّ والأمة لِعانٌ، وليس بين الحرَّة والعبد لِعانٌ، وليس بين المسلم واليهودية لِعانٌ، وليس بين المسلم والنصرانية لِعان». أخرجه الدَّارَقُطْنيُّ[2] من طرق ضعَّفَها كلَّها.

ورُويَ عن الأوزاعي وابن جريج ـ وهما إمامان ـ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قوله، ولم يرفعه[3] إلى النبيِّ ﷺ[4].

واحتجُّوا من جهة النَّظر أن الأزواج لمَّا استُثْنوا من جملة الشهداء بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾، وجَب ألَّا يلاعِن إلا مَن تجوز شهادته[5]. وأيضاً فلو كانت يميناً ما رُدِّدَت، والحكمةُ في ترديدها قيامُها في الأعداد مَقام الشُّهود في الزنى[6].

قلنا: هذا يَبطل بيمين القَسامة، فإنها تُكَرَّر وليست بشهادة إجماعاً، والحكمةُ في تكرارها التغليظُ في الفروج والدِّماء [على فاعلها، لعله أن يَكُفَّ عنها، فيقع الستر في الفرج، والحقن في الدم][7].

قال ابن العربي[8]: والفَيْصل في أنها يمينٌ لا شهادةٌ، أن الزوج يحلِف لنفسه في

(١) التمهيد ٦/ ١٩٢.

(٢) في سننه (٣٣٣٨)، وأخرجه البيهقي من طريقه ٧/ ٣٩٦.

(٣) جاء في سنن الدارقطني وسنن البيهقي: ولم يرفعاه.

(٤) أخرجه الدارقطني (٣٣٤٠)، والبيهقي من طريقه ٧/ ٣٩٦ - ٣٩٧، قال البيهقي في المعرفة ١١/ ١٣٣: قال أحمد: وفي ثبوته عن عبد الله موقوفاً أيضاً نظر، وذاك لأنه إنما رواه عن ابن جريج والأوزاعي عمرُ ابن هارون وليس بالقوي. ورواه أيضاً يحيى بن أبي أنيسة عن عمرو موقوفاً، ويحيى بن أبي أنيسة متروك.

(٥) التمهيد ٦/ ١٩٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٢.

(٧) في (د) و(ز) و(ظ): والدِّية، والمثبت من (ف) و(م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٢ والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٨) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٣٢.

إثبات دعواها[١]، وتخليصِه من العذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدَّعيَ في الشريعة أن شاهداً يشهد لنفسه بما يُوجِب حكماً على غيره؟! هذا بعيدٌ في الأصل، معدومٌ في النظر.

السادسة: واختلف العلماء في ملاعنة الأخرس، فقال مالك والشافعي: يلاعن؛ لأنه ممن يصحُّ طلاقه وظِهارُه وإيلاؤه، إذا فُهِم ذلك عنه. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن؛ لأنه ليس من أهل الشهادة، ولأنه قد ينطق بلسانه فيُنكِر اللِّعان، فلا يمكِنُنا إقامةُ الحدِّ عليه[٢]. وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة مريم عليها السلام والدليلُ عليه، والحمد لله[٣].

السابعة: قال ابن العربي: رأى أبو حنيفة عمومَ الآية فقال: إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها، فإنه يلاعن، ونسيَ أن ذلك قد تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، وهذا رماها محصنةً غيرَ زوجة، وإنما يكون اللِّعان في قذفٍ يَلحقُ فيه النَّسب، وهذا قذفٌ لا يلحق فيه نسبٌ، فلا يُوجِب لِعاناً، كما لو قذف أجنبية [ثم تزوجها][٤].

الثامنة: إذا قذفها بعد الطَّلاق نَظَرتَ[٥]، فإن كان هنالك نسبٌ يريد أن يَنفيَه، أو حَمْلٌ يتبرَّأ منه، لاعن، وإلَّا لم يلاعن.

وقال عثمان البَتِّي: لا يلاعن بحال؛ لأنها ليست بزوجة.

وقال أبو حنيفة: لا يلاعن في الوجهين؛ لأنها ليست بزوجة. وهذا يُنتقَض عليه

(١) في (م): دعواه.

(٢) التمهيد ٦/٢٠٧ ، وينظر الاستذكار ١٧/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) ١٣/٤٤٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٢ وما بين حاصرتين منه، وجاء فيه: راعى أبو حنيفة، بدل: رأى أبو حنيفة.

(٥) في (ظ): نُظر.

بالقذف قبل الزوجية كما ذكرناه آنفاً، بل هذا أولى؛ لأن النكاح قد تقدَّم، وهو يريد الانتفاءَ من النسب، وتبرئتَه من ولد يُلحق به، فلابُدَّ من اللِّعان.

وإذا لم يكن هناك[1] حملٌ يُرجى، ولا نسبٌ يُخاف تعلُّقُه؛ لم يكن للِّعان فائدةٌ، فلم يُحكم فيه[2]، وكان قذفاً مطلقاً داخلاً تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الآية، فوجب عليه الحدُّ، وبطل ما قاله البَتِّي لظهور فساده[3].

التاسعة: لا ملاعنةَ بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العِدَّة، إلَّا في مسألة واحدة، وهي أن يكون الرجل غائباً، فتأتيَ امرأته بولد في مَغِيبه وهو لا يعلم، فيطلِّقها، فتنقضي عدُّتها، ثم يَقْدَم[4] فينفيه، فله أن يلاعنها هاهنا بعد العِدَّة.

وكذلك لو قدِم بعد وفاتها ونفى الولد؛ لاعن لنفيه[5] وهي ميتةٌ بعد مدَّة من[6] العِدَّة، ويرثُها؛ لأنها ماتت قبل وقوع الفُرقة بينهما.

العاشرة: إذا انتفى من الحمل، ووقع ذلك بشرطه[7]؛ لاعن قبل الوضع، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن إلَّا بعد أن تضع؛ لأنه يحتمل أن يكون ريحاً، أو داءً من الأدواء. ودليلُنا النصُّ الصريحُ بأن النبيَّ ﷺ لاعنَ قبل الوضع، وقال: «إن جاءت به كذا فهو لأبيه، وإن جاءت به كذا فهو لفلان» فجاءت به على النعت المكروه[8].

---

(١) في (ف) و(م): هنالك.

(٢) في (م): به.

(٣) هذه المسألة بتمامها من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٢ - ١٣٣٣ .

(٤) في (ظ) والكافي ٢/ ٦١١ (والمسألة بتمامها منه): يقوم.

(٥) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): لنفسه، والمثبت من (ز) وهو الموافق لما في الكافي.

(٦) لفظة: من ، ليست في (ظ).

(٧) وهو أن يذكر عدم الوطء والاستبراء بعده، كما سلف في المسألة الرابعة.

(٨) هذه المسألة بتمامها من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٣ ، والحديث المشار إليه أخرجه أحمد (٢٢٨٣٠)، والبخاري (٤٧٤٥) من حديث سهل بن سعد مطولاً.

الحادية عشرة: إذا قذف بالوطء في الدُّبر [لزوجة]، لاعن. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن، وبناه على أصله في أن اللِّواط لا يُوجِب الحدَّ. وهذا فاسدٌ؛ لأن الرمْيَ به فيه معرَّةٌ، وقد دخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾[1]. وقد تقدم في «الأعراف» و«المؤمنون»[2] أنه يجب به الحدّ.

الثانية عشرة: قال ابن العربي[3]: مِن غريب أمر هذا الرجل أنه [قال]: إذا قذف زوجته وأمَّها بالزنى: إنه إن حُدَّ للأم سقط أمر[4] البنت، وإن لاعن للبنت لم يسقط حدُّ الأم. وهذا لا وجه له، وما رأيت لهم [فيه] شيئاً يُحكى، وهذا باطل جدًّا، فإنه خَصَّ عموم الآية في البنت ـ وهي زوجة ـ بحدِّ الأم من غير أثر ولا أصلٍ قاسه عليه.

الثالثة عشرة: إذا قذف زوجته، ثم زنت قبل التعانه، فلا حدَّ ولا لِعان. وبهذا قال أبو حنيفةَ والشافعيُّ وأكثرُ أهل العلم.

وقال الثوريُّ والمُزَنيُّ: لا يسقط الحدُّ عن القاذف، وزِنَى المقذوفِ بعد أن قُذِف لا يقدح في حصانته المتقدِّمة ولا يرفعُها؛ لأن الاعتبار الحصانةُ والعِفَّةُ في حال القذف لا بعده. كما لو قذف مسلماً، فارتدَّ المقذوف بعد القذف وقَبْلَ أن يُحدَّ القاذف؛ لم يسقط الحدُّ عنه. وأيضاً فإن الحدود كلَّها معتبرةٌ بوقت الوجوب، لا وقت الإقامة.

ودليلُنا هو أنه قد ظهر قبل استيفاء اللِّعان والحدِّ معنًى؛ لو كان موجوداً في الابتداء؛ مَنَع صحة اللِّعان ووجوبَ الحدِّ، فكذلك إذا طرأ في الثاني، كما إذا شهد شاهدان ظاهرُهما العدالةُ، فلم يَحكم الحاكم بشهادتهما حتى ظهر فسقُهما بأن زنيا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٣ وما بين حاصرتين منه.

(٢) ٩/ ٢٧٤ - ٢٧٦ ، ص١٣-١٤ من هذا الجزء .

(٣) في أحكام القرآن: ٣/ ١٣٣٣ - ١٣٣٤ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (م) وأحكام القرآن: حد.

أو شربا خمراً؛ لم[١] يَجُز للحاكم أن يحكم بشهادتهما تلك. وأيضاً فإن الحكم بالعفَّة والإحصان يُؤخَذ من طريق الظاهر، لا من حيث[٢] القطعُ واليقين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ظَهْرُ المؤمن حِمًى»[٣]، فلا يُحدُّ القاذف إلا بدليل قاطع. وبالله التوفيق.

الرابعة عشرة: مَن قذف امرأته وهي كبيرةٌ لا تَحْمِل، تلاعنا، هو لدفع الحدِّ، وهي لدرء العذاب. فإن كانت صغيرةً لا تحمل، لاعن هو لدفع الحدِّ، ولم تلاعن هي؛ لأنها لو أقرَّت لم يلزمها شيء. وقال ابن الماجِشُون: لا حدَّ على قاذفِ مَن لم تبلغ. قال اللَّخْميُّ: فعلى هذا لا لِعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل[٤].

الخامسة عشرة: إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى، أحدُهم زوجُها، فإن الزوج يلاعن، وتُحَدُّ الشهود الثلاثة، وهو أحدُ قولَي الشافعي. والقول الثاني: أنهم لا يُحدُّون. وقال أبو حنيفة: إذا شهد الزوج والثلاثةُ ابتداءً، قُبِلت شهادتهم، وحُدَّت المرأة.

ودليلنا قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية. فأخبر أنَّ مَن قذف محصَناً، ولم يأت بأربعة شهداءَ، حُدَّ، فظاهرُه يقتضي أن يأتي بأربعة شهداء سِوى الرامي[٥]، والزوجُ رامٍ لزوجته، فخرج عن أن يكون أحدَ الشُّهود، والله أعلم.

السادسة عشرة: إذا ظهر بامرأته حملٌ، فترك أن يَنفيَه، لم يكن له نَفْيُه بعد سكوته. وقال شُريح ومجاهد: له أن ينفيَه أبداً. وهذا خطأ؛ لأن سكوته بعد العلم به

(١) في (د) و(ز) و(م): فلم.

(٢) في (ظ): جهة.

(٣) أخرجه الطبراني ١٧/ ١٨٠ (٤٧٦) من حديث عصمة بن مالك الخطمي ﷺ. قال الهيثمي في المجمع ٦/ ٢٥٣ : فيه الفضل بن المختار وهو ضعيف. اهـ. وترجم البخاري قبل حديث (٦٧٨٥): باب ظهر المؤمن حمى إلا في حدٍّ أو حق.

(٤) المحرر الوجيز ١٦٧/٤ .

(٥) قوله: فظاهره يقتضي أن يأتي بأربعة شهداء سوى الرامي، من (م).

رِضًى به، كما لو أقرَّ به ثم أراد أن[1] ينفيَه، فإنه لا يُقبل منه، والله أعلم.

السابعة عشرة: فإن أخَّر ذلك إلى أن وضعت، وقال: رجوت أن يكون رِيحاً يَنْفَشُّ، أو تُسقِطَه فأستريح من القذف، فهل لنَفْيه بعد وضعه مدَّةٌ ما، فإذا تجاوزها لم يكن له ذلك؟ فقد اختُلِف في ذلك:

فنحن نقول: إن[2] لم يكن له عذرٌ في سكوته حتى مضت ثلاثة أيام، فهو راضٍ به، ليس له نفيُه. وبهذا قال الشَّافعيّ.

وقال أيضاً: متى أمكنه نفيه على ما جرت به العادة من تمكُّنه من الحاكم، فلم يفعل، لم يكن له نفيُه من بعد ذلك، وبهذا قال مالك: إنه إن تَرَكَ اليوم واليومين، لم يكن له نفيه[3].

وقال أبو حنيفة: لا أعتبر مدَّة.

وقال أبو يوسف ومحمد: يُعتبر فيه أربعون يوماً، مدَّةُ النِّفاس.

قال ابن القَصَّار: والدليل لقولنا: هو أنَّ نفْيَ ولده محرَّمٌ عليه، واستلحاقَ ولد ليس منه محرَّمٌ عليه، فلابدَّ أن يُوسَّع عليه لكي ينظر فيه ويفكِّر، هل يجوز له نفيه أو لا. وإنما جعلنا الحدّ ثلاثة أيام[4]؛ لأنه أوَّلُ حدِّ الكثرة، وآخرُ حدِّ القلَّة، وقد جُعِلت ثلاثةُ أيام يُختبر بها حالُ المُصَرَّاة، فكذلك ينبغي أن يكون هنا. وأمَّا أبو يوسف ومحمد، فليس اعتبارهم مدَّةَ النِّفاس[5] بأولى من اعتبار مدَّة الولادة والرَّضاع، إذ لا شاهدَ لهم في الشريعة، وقد ذكرنا نحن شاهداً في الشريعة من مدَّة المُصَرَّاة.

---

(١) قوله: أراد أن، من (ظ).

(٢) في (م): إذا.

(٣) قوله: وبهذا قال مالك... لم يكن له نفيه، ليست في (خ) و(م).

(٤) لفظة: أيام، من (ظ).

(٥) قوله: مدة النفاس، من (ظ).

الثامنة عشرة: قال ابن القصَّار: إذا قالت امرأة لزوجها أو لأجنبيٍّ: يا زانية - بالهاء -، وكذلك الأجنبيُّ لأجنبيٍّ[١]، فلستُ أعرف فيه نصًّا لأصحابنا، ولكنه عندي يكون قذفاً، وعلى قائله الحدُّ، وقد زاد حرفاً، وبه قال الشافعيُّ ومحمدُ بن الحسن.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: لا يكون قذفاً. واتفقوا على[٢] أنه إذا قال لامرأته: يا زانِ، أنه قَذْف.

والدليلُ على أنه يكون في الرجل قذفاً: هو أن الخطاب إذا فُهِم منه معناه ثَبَت حكمه، سواء كان بلفظ أعجميٍّ أو عربيٍّ. ألا ترى أنه إذا قال للمرأة: زنيتَ - بفتح التاء - كان قذفاً؛ لأن معناه يُفهم منه.

ولأبي حنيفةَ وأبي يوسف أنه لمَّا جاز أن يُخاطَب المؤنَّث بخطاب المذكَّر كقوله[٣] تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠]، صَلَح أن يكون قولُه: يا زانِ للمؤنَّث قذفاً. ولمَّا لم يَجُز أن يُؤنَّث فعلُ المذكَّر إذا تقدَّم عليه، لم يكن لخطابه بالمؤنث حكمٌ، والله أعلم.

التاسعة عشرة: يلاعن في النكاح الفاسد زوجتَه؛ لأنها صارت فراشاً، ويلحق النسب فيه، فجرى اللِّعان عليه[٤].

الموفية عشرين: اختلفوا في الزوج إذا أبى من الالتعان، فقال أبو حنيفة: لا حدَّ عليه؛ لأن الله تعالى جعل على الأجنبيِّ الحدَّ وعلى الزوج اللِّعان، فلمَّا لم ينتقل اللِّعان إلى الأجنبيِّ، لم ينتقل الحدُّ إلى الزوج، ويُسجن أبداً حتى يلاعن؛ لأن

---

(١) في (د): وكذلك الأجنبية للأجنبي، وفي (ظ): وكذلك الأجنبية، وفي (ف): وكذلك الأجنبي للأجنبي، والمثبت من (م).

(٢) لفظة: على، من (ظ).

(٣) في (م) و(د) و(ز): لقوله.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٤ .

الحدود لا تؤخذ[١] قياساً. وقال مالك والشافعيُّ وجمهور الفقهاء: إن لم يلتعن الزوج حُدَّ؛ لأن اللِّعان له براءةٌ كما الشهودُ[٢] للأجنبيّ، فإن لم يأتِ الأجنبيُّ بأربعة شهداءَ حُدَّ، فكذلك الزوجُ إن لم يلتعن. وفي حديث العَجْلانيِّ ما يدلُّ على هذا؛ لقوله: إن سكَتُّ سكتُّ على غَيظ، وإن قَتلتُ قُتِلت، وإن نطقْتُ جُلِدت[٣].

الحادية والعشرون: واختلفوا أيضاً هل للزوج أن يلاعن مع شهوده؟ فقال مالك والشافعيُّ: يلاعن، كان له شهودٌ أو لم يكن؛ لأن الشُّهود ليس لهم عملٌ في غير دَرْء الحدِّ، وأمّا رفعُ الفراش ونفيُ الولد؛ فلابدَّ فيه من اللِّعان. وقال أبو حنيفةَ وأصحابُه: إنما جُعِل اللِّعان للزوج إذا لم يكن له شهودٌ غير نفسه[٤]؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾.

الثانية والعشرون: البداءةُ في اللِّعان بما بدأ الله به، وهو الزوج، وفائدتُه دَرْءُ الحدِّ عنه ونفيُ النسب منه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «البيِّنةَ، وإلا حَدٌّ في ظهرك»[٥]. ولو بَدأ[٦] بالمرأة قبله لم يَجْزِ؛ لأنه عَكْسُ ما رتَّبه الله تعالى. وقال أبو حنيفة: يَجْزيه[٧]. وهذا باطل؛ لأنه خلافُ القرآن، وليس له أصلٌ يَردُّه إليه ولا معنًى

---

(١) في (م): لا تؤخر.

(٢) في (م) و(ظ): كالشهود.

(٣) التمهيد ٦/١٩٨ - ١٩٩ ، وينظر الاستذكار ١٧/٢٠٩ ، والحديث أخرجه أحمد (٤٠٠١)، ومسلم (١٤٩٥): (١٠) عن ابن مسعود بلفظ: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدتموه... والكلام فيه لرجل من الأنصار، وليس للعجلاني، وقد أورده المصنف عن ابن عبد البر. وهو ـ بنحوه أيضاً ـ قطعة من حديث سهل بن سعد السالف في المسألة الثانية.

(٤) التمهيد ٦/١٩٩ ، والاستذكار ١٧/٢٠٩ .

(٥) سلف تخريجه في المسألة الثانية.

(٦) في (م) و(خ) و(ز): بُدئ، والمثبت من (د) و(ظ) و(ف) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٤ - ١٣٣٥ والكلام وما سيأتي إلى آخر المسألة منه.

(٧) في (م): يجزي، وفي (د): تجزيه، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) و(ف) وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

يُقوَّى به، بل المعنى لنا؛ لأن المرأة إذا بدأت باللِّعان فتنفي ما لم يُثبِت، وهذا لا وجه له.

الثالثة والعشرون: وكيفيةُ اللِّعان أن يقول الحاكم للملاعِن: قل: أشهد بالله لَرأيتها تزني، ورأيت فرج الزاني في فرجها كالمِرْوَد في المُكْحُلة، وما وطئتها بعد رؤيتي. وإن شئتَ قلت: لقد زنت وما وطئتها بعد زناها. يُردِّد ما شاء من هذينِ اللفظين أربعَ مرات، فإن نَكَل عن هذه الأيمان أو عن شيء منها، حُدَّ.

وإذا نفى حملاً قال: أشهد بالله لقد استبرأتُها وما وطئتها بعدُ، وما هذا الحملُ مني، ويُشير إليه، فيحلف بذلك أربعَ مرات، ويقول في كلِّ يمين منها: وإني لمن الصادقين في قولي هذا عليها. ثم يقول في الخامسة: عليَّ لعنةُ الله إنْ كُنتُ من الكاذبين. وإن شاء قال: إن كنتُ كذاباً فيما ذكرتُ عنها. فإذا قال ذلك، سقط عنه الحدُّ، وانتفى عنه الولد.

فإذا فرغ الرجل من لِعانه[1]، قامت المرأة بعده، فحلفت بالله أربعةَ أيمان، تقول فيها: أشهد بالله إنه لكاذب، أو: إنه لمن الكاذبين فيما ادَّعاه عليَّ وذكر عني. وإن كانت حاملاً قالت: وإنَّ حملي هذا منه. ثم تقول في الخامسة: وعليَّ غضبُ الله إن كان صادقاً، أو: إن كان من الصادقين في قوله ذلك [فإن نكلت المرأة، حُدَّت إن لم يكن دخل بها، وإن كان دخل بها، رجمت].

ومَن أوجب اللِّعان بالقذف [قال]: يقول في كلِّ شهادة من الأربع: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رمَيت به فلانة من الزنى. ويقول في الخامسة: عليَّ لعنةُ الله إن كنت كاذباً فيما رمَيت به [فلانة] من الزنى. وتقول هي: أشهد بالله إنه لكاذبٌ فيما رماني به من الزنى [أربع مرات]. وتقول في الخامسة: عليَّ غضبُ الله إن كان صادقاً فيما رماني به من الزنى[2].

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): التعانه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الكافي ٢/ ٦١٢ - ٦١٣ والكلام منه.

(٢) الكافي ٢/ ٦١٢ - ٦١٣ وما سلف بين حاصرتين منه.

وقال الشافعيُّ: يقول الملاعن: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي(١) فلانةَ بنتَ فلان، ويشير إليها إن كانت حاضرة، يقول ذلك أربع مرات، ثم يُقعِده(٢) الإمام، ويذكِّره الله تعالى ويقول [له]: إني أخاف إن لم تكن صدقتَ أن تبوء بلعنة الله، فإن رآه يريد أن يَمضي على ذلك، أمر مَن يضع يده على فيه، ويقول: إنَّ قولك: وعليَّ لعنةُ الله إن كنتُ من الكاذبين مُوجِبةٌ(٣) [إن كنت كاذباً]، فإن أبى، تَرَكَه يقول ذلك: لعنةُ الله عليَّ إن كنت من الكاذبين فيما رَمَيت به فلانة من الزنى. واحتج(٤) بما رواه أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً حين(٥) أمر المتلاعنَيْن أن يضع يده على فيه عند الخامسة يقول: إنها مُوجِبة(٦).

الرابعة والعشرون: اختلف العلماء في حكم مَن قذف امرأته برجل سمَّاه، هل يُحدُّ له(٧) أم لا؟ فقال مالك: عليه اللِّعان لزوجته، وحُدَّ للمرميّ. وبه قال أبو حنيفة؛ لأنه قاذفٌ لمن لم يكن له ضرورةٌ إلى قذفه. وقال الشافعيُّ: لا حَدَّ عليه؛ لأن الله عزَّ وجلَّ لم يجعل على مَن رمى زوجته بالزنى إلا حدًّا واحداً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، ولم يفرِّق بين مَن ذكر رجلاً بعينه، وبين مَن لم يذكره(٨)، وقد رمى العَجْلانيُّ زوجته بشَريك، وكذلك هلالُ بن أمية، فلم يُحَدَّ واحدٌ منهما(٩).

(١) في (د) و(م): زوجي.
(٢) في (م): يوعظه، وفي (د): يبعده.
(٣) في النسخ: موجباً، والمثبت من التمهيد ٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨، والاستذكار ١٧/ ٢١٣ والكلام وما سلف بين حاصرتين منهما.
(٤) في (م): احتج.
(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(ظ) و(ف): حيث، والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج الآتية.
(٦) سنن أبي داود (٢٢٥٥)، وأخرجه النسائي أيضاً ٦/ ١٧٥.
(٧) لفظة: له، ليست في (د) و(م).
(٨) في (م): يذكر.
(٩) التمهيد ٦/ ١٨٩ - ١٩٠.

قال ابن العربي[١]: وظاهرُ القرآن لنا؛ لأن الله تعالى وضع الحدَّ في قذف الأجنبيِّ والزوجة مطلَقَيْن[٢]، ثم خصَّ حدَّ[٣] الزوجة بالخلاص باللِّعان، وبقي الأجنبيُّ على مطلق الآية. وإنما لم يُحَدَّ العجلانيُّ لشريك ولا هلالٌ[٤]؛ لأنه لم يطلبه، وحَدُّ القذف لا يقيمه الإمام إلا بعد المطالبة إجماعاً منا ومنه.

الخامسة والعشرون: إذا فرغ المتلاعنان من تلاعنهما جميعاً، تفرَّقا، وخرج كلُّ واحد منهما من[٥] باب من المسجد الجامع غيرِ الباب الذي يخرج منه صاحبه، ولو خرجا من باب واحد، لم يَضُرَّ ذلك لِعانَهما. ولا خلاف في أنه لا يكون اللِّعان إلا في مسجد جامع تُجمع فيه الجمعة بحضرة السلطان، أو مَن يقوم مقامه من الحكام[٦]. وقد استحبَّ جماعة من أهل العلم أن يكون اللِّعان في الجامع بعد العصر[٧]. وتلتعن النصرانية من زوجها المسلم في الموضع الذي تُعظِّمه من كنيستها مثلَ ما تلتعن به المسلمة[٨].

السادسة والعشرون: قال مالك وأصحابه: وبتمام اللِّعان تقع الفُرقة بين المتلاعنَيْن، فلا يجتمعان أبداً، ولا يتوارثان، ولا يَحِلُّ له مراجعتها أبداً، لا قبل زوج ولا بعده[٩]، وهو قول اللَّيث بن سعد وزُفَرَ بن الهُذَيل والأوزاعيّ[١٠].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٣٥ .

(٢) في (ظ): مطلقاً.

(٣) لفظة: حد، ليست في (ظ).

(٤) جاء في أحكام القرآن: واحتج الشافعي بأن النبي ﷺ لم يحد هلالاً لشريك بن سحماء، بدل: وإنما لم يحد العجلاني لشريك ولا هلال.

(٥) في (م) و(خ) و(د) و(ز): على، والمثبت من (ظ).

(٦) الكافي ٢/ ٦١٤ .

(٧) التمهيد ٦/ ١٩١ ، والاستذكار ١٧/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٨) الكافي ٢/ ٦١٠ .

(٩) الكافي ٢/ ٦١٤ .

(١٠) التمهيد ٦/ ١٩٤ - ١٩٥ ، والاستذكار ١٧/ ٢٢٢ .

وقال أبو حنيفةَ وأبو يوسف ومحمدُ بن الحسن: لا تقع الفُرقة بعد فراغهما من اللِّعان حتى يفرِّق الحاكم بينهما، وهو قول الثوريِّ؛ لقول ابن عمر: فرَّق رسول الله ﷺ بين المتلاعنَيْن[١]، فأضاف الفرقة إليه، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «لا سبيل لك عليها»[٢].

وقال الشافعيُّ: إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان، فقد زال فراش امرأته، الْتَعنت أو لم تلتعن. قال: وأمَّا التعانُ المرأة، فإنما هو لدرء الحدِّ عنها لا غير، وليس لالتعانها في زوال الفراش معنًى. ولمَّا كان لعانُ الزوج يَنفي الولدَ ويُسقِط الحدَّ، رُفِع الفراش.

وكان عثمانُ البَتِّي لا يرى التلاعن يُنقِص شيئاً من عصمة الزوجين حتى يطلِّق. وهذا قولٌ لم يتقدَّمه إليه أحدٌ من الصحابة، على أن البَتِّيَّ قد استحبَّ للملاعن أن يطلِّق بعد اللِّعان، ولم يستحبَّه[٣] قبل ذلك، فدلَّ على أن اللِّعان عنده قد أحدث حكماً[٤]. وبقول عثمان قال جابر بن زيد فيما ذكره الطبري[٥]، وحكاه اللَّخْميُّ عن محمد بن أبي صُفْرة.

ومشهورُ المذهب أن نَفْس تمام اللِّعان بينهما فرقة[٦].

واحتج أهل هذه المقالة بأنه ليس في كتاب الله تعالى إذا لاعن أو لاعنت يجب وقوع الفرقة، وبقول عُوَيْمِر: كذبتُ عليها إن أمسكتُها، فطلَّقها ثلاثاً[٧]، قال: ولم

(١) أخرجه الشافعي في مسنده ٢/ ٤٧، وسعيد بن منصور (١٥٥٤)، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٥٣، والدارمي (٢٢٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٨٧)، والبخاري (٥٣١٢)، ومسلم (١٤٩٣): (٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) في (خ) و(ز) و(ف) و(م): يستحسنه، وفي (د): يستحسه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في التمهيد ٦/ ١٩٦ والكلام منه.

(٤) التمهيد ٦/ ١٩٤ - ١٩٦، وينظر الاستذكار ١٧/ ٢٢٣، ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٥) المفهم ٤/ ٢٩٣.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٧) سلف تخريجه في المسألة الثالثة.

يُنكر النبيُّ ﷺ ذلك عليه، ولم يقل له: لِمَ قلت هذا، وأنت لا تحتاج إليه؛ لأن باللِّعان قد طلقت.

والحجةُ لمالك في المشهور ومَن وافقه قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا سبيل لك عليها». وهذا إعلامٌ منه أن تمام اللِّعان رَفَع سبيله عنها، وليس تفريقه بينهما باستئناف حكم، وإنما كان تنفيذاً لِمَا أوجب الله تعالى بينهما من المباعدة، وهو معنى اللِّعان في اللغة[1].

السابعة والعشرون: ذهب الجمهور من العلماء إلى[2] أن المتلاعنَيْن لا يتناكحان أبداً، وإن[3] أكذب نفسه، جُلِد الحدَّ ولحق به الولد، ولم ترجع إليه أبداً. وعلى هذا السنةُ التي لا شكَّ فيها ولا اختلاف.

وذكر ابن المنذر عن عطاء أن الملاعِن إذا أكذب نفسه بعد اللِّعان، لم يُحدَّ، وقال: قد تفرَّقا بلعنة من الله[4].

وقال أبو حنيفة ومحمد: إذا أكذب نفسه، جُلِد الحدَّ ولحق به الولد، وكان خاطباً من الخُطَّاب إن شاء، وهو قول سعيد بن المسيِّب والحسنِ وسعيدِ بن جبير وعبد العزيز بن أبي سلمة. وقالوا: يعود النكاح حلالاً كما لحق به الولد؛ لأنه لا فرق بين شيء من ذلك[5].

وحجة الجماعة قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا سبيل لك عليها»، ولم يقل: إلا أن تُكذِّب نفسك[6]. وروى ابن إسحاق وجماعةٌ عن الزهري قال: فمضت السنة

---

(١) التمهيد ١٥/ ٢٣ ، والاستذكار ١٧/ ٢٢٦ .

(٢) لفظة: إلى، من (ظ).

(٣) في (م) و(د): فإن، وفي (ز): فإذا، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في الاستذكار ١٧/ ٢٣١-٢٣٤ والكلام منه، وينظر التمهيد ٦/ ٢٠٠ .

(٤) وأخرجه عبد الرزاق (١٢٤٢٨) عن عطاء.

(٥) الاستذكار ١٧/ ٢٣٥ - ٢٣٧ ، وينظر التمهيد ٦/ ٢٠٠ - ٢٠٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦٨ .

(٦) الاستذكار ١٧/ ٢٣٤ .

أنهما إذا تلاعنا، فُرِّق بينهما، فلا يجتمعان أبداً[١]. ورواه الدَّارَقُطْنيُّ[٢] مرفوعاً من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «المتلاعنان إذا تفرَّقا[٣] لا يجتمعان أبداً». ورَوى عن عليٍّ وعبد الله قالا: مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان. عن عليّ: أبداً[٤].

الثامنة والعشرون: اللِّعان يفتقر إلى أربعة أشياء:

عدد الألفاظ: وهو أربعُ شهادات على ما تقدَّم.

والمكان: وهو أن يقصد به أشرف البِقاع بالبلدان، إن كان بمكَّةَ فعند الرُّكن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة، وإن كان في سائر البلدان ففي مساجدها، وإن كانا كافرَيْن، بُعث بهما إلى الموضع الذي يعتقدان تعظيمه، إن كانا يهوديين فالكنيسة، وإن كانا مجوسيين ففي بيت النار، وإن كانا لا دين لهما مثلَ الوثنيين، فإنه يلاعن بينهما في مجلس حكمه.

والوقت: وذلك بعد صلاة العصر.

وجمعُ الناس: وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعداً، فاللفظُ وجمعُ الناس مشروطان، والزمانُ والمكانُ مستحبَّان.

التاسعة والعشرون: مَن قال: إن الفراق لا يقع إلا بتمام التعانهما، فعليه لو مات أحدُهما قبل تمامه، ورِثه الآخر. ومَن قال: لا يقع إلا بتفريق الإمام، فمات أحدهما قبل ذلك وتمام اللِّعان[٥]، ورِثه الآخر. وعلى قول الشافعيِّ: إن مات أحدهما قبل أن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٣٥٢، وأبو عوانة ٣/ ٢٠٠. وأخرجه أبو داود (٢٢٥٠)، والدارقطني (٣٧٠٤)، والبيهقي ٧/ ٤١٠ عن الزهري عن سهل بن سعد ﷺ.

(٢) بعدها في (م) و(خ) و(د) و(ز): ورواه.

(٣) في (م) و(د) و(ز): افترقا، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في سنن الدارقطني (٣٧٠٦). قال ابن عبد الهادي في التنقيح ـ كما في نصب الراية ٣/ ٢٥١ ـ: إسناده جيد. وقال ابن حجر في الدراية ٢/ ٧٦: إسناده لا بأس به.

(٤) سنن الدارقطني (٣٧٠٧) (٣٧٠٨)، وأخرجه أيضاً عن علي ﷺ ابن أبي شيبة ٤/ ٣٥١، والبيهقي ٧/ ٤١٠.

(٥) في (ظ): لعانهما.

تلتعن المرأة، لم يتوارثا.

الموفية ثلاثين: قال ابن القصّار: تفريق اللِّعان عندنا ليس بفسخ، وهو مذهب المدوَّنة؛ فإن اللِّعان حكمُ تفريقه حكمُ تفريق الطلاق، ويُعطى لغير المدخول بها نصفُ الصَّداق. وفي مختصر ابن الجَلَّاب: لا شيء لها، وهذا على أن تفريق اللِّعان فسخ[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ
﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ
أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ
﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ
يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟
أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ
ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

فيه ثمان وعشرون[٢] مسألة:

---

(١) المحرر الوجيز ١٦٨/٤ بتقديم وتأخير، وجاء فيه قول ابن القصار: تفريق اللِّعان عندنا فسخ.

(٢) كذا في النسخ، والذي سيرد سبع وعشرون مسألة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ «عُصْبَةٌ» خبر «إنَّ». ويجوز نصبُها على الحال، ويكون الخبر: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾(١).

وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل في قصة عائشةَ رضوانُ الله عليها، وهو خبر صحيحٌ مشهور، أغنى اشتهارُه عن ذكره، وسيأتي مختصراً.

وأخرجه البخاريُّ تعليقاً، وحديثه أتم؛ قال: وقال [أبو] أسامة عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة(٢).

وأخرجه أيضاً عن محمد بن كثير، عن أخيه سليمان من حديث مسروق، عن أمّ رُومان أمِّ عائشةَ أنها قالت: لمَّا رُميت عائشةُ خرَّتْ مَغْشيًّا عليها(٣).

وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبي وائل قال: حدثني مسروق بن الأجدع قال: حدثتني أمُّ رُومان ـ وهي أمُّ عائشة ـ قالت: بينا أنا قاعدةٌ أنا وعائشةُ، إذ وَلَجتِ امرأةٌ من الأنصار فقالت: فعل الله بفلان وفعل(٤)، فقالت أمُّ رومان: وما ذاكِ؟ قالت: ابني فيمن حدَّث الحديث، قالت: وما ذاك؟ قالت: كذا وكذا. قالت عائشة: سمع رسولُ الله ﷺ؟ قالت: نعم. قالت: وأبو بكر؟ قالت: نعم. فخرَّت مغشيًّا عليها، فما أفاقت إلَّا وعليها حُمَّى بنافضٍ(٥)، فطرحتُ عليها ثيابها فغطَّيتُها، فجاء النبيُّ ﷺ فقال: «ما شأنُ هذه؟». قلت: يا رسول الله، أخذتها الحُمَّى بنافض. قال: «فلعلَّ في حديثٍ تُحُدِّثَ به». قالت: نعم. فقعدت عائشة فقالت: والله لئن حلفتُ لا تُصدِّقوني، ولئن قلت لا تَعْذِروني(٦)، مَثَلي ومَثَلُكم كيعقوبَ وبَنِيه، واللهُ المستعان على ما

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٠ .

(٢) صحيح البخاري (٤٧٥٧)، ووصله أحمد (٢٤٣١٧)، ومسلم (٢٧٧٠): (٥٨). وما سيأتي بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٥١)، وهو من طريق سليمان بن كثير، عن حصين، عن أبي وائل، عن مسروق، به.

(٤) بعدها في (م): بفلان.

(٥) أي: بِرِعْدة شديدة، كأنها نفضتها، أي: حركتها. النهاية (نفض).

(٦) في (خ) و(د): لا تصدقوني ... لا تعذرونني.

تصفون. قالت: فانصرف ولم يقل شيئاً، فأنزل الله عُذْرَها. قالت: بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك(١).

قال أبو عبد الله الحُميدي(٢): كان بعض من لقينا من الحفاظ البغداديين يقول: الإرسال في هذا الحديث أبْيَن، واستدلَّ على ذلك بأن أمَّ رُومان تُوفِّيت في حياة رسول الله ﷺ، ومسروقٌ لم يشاهد النبيَّ ﷺ بلا خلاف(٣).

وللبخاريِّ(٤) من حديث عبد الله بن عُبيد الله بن أبي مُلَيكة(٥) أن عائشةَ كانت تقرأ: «إِذْ تَلِقُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ»(٦) وتقول: الوَلْق: الكذب. قال ابن أبي مُليكة: وكانت أعلمَ بذلك من غيرها؛ لأنه نزل فيها.

قال البخاريُّ: وقال النعمان(٧) بن راشد عن الزهري: وكان حديث الإفك في غَزْوَة المُرَيْسِيع(٨). قال ابن إسحاق: وذلك سنةَ ستٍّ(٩). وقال موسى بن عقبة:

---

(١) صحيح البخاري (٤١٤٣)، وأخرجه أحمد أيضاً (٢٧٠٧٠).

(٢) في الجمع بين الصحيحين ٤/ ٣٠٨.

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح ٧/ ٤٣٨ أن الخطيب البغدادي هو القائل بالإرسال في هذا الحديث معتمداً بذلك على قول الواقدي: إن أمَّ رُومان ماتت في حياة النبي ﷺ. قال الحافظ ابن حجر: ولا تُتعقب الأسانيد الصحيحة بما يأتي عن الواقدي، ثم ذكر الحافظ رحمه الله أخباراً وأقوالاً تؤكد خطأ قول الواقدي وأن وفاة أمّ رُومان تأخرت عن وفاة النبي ﷺ، وأن مسروقاً سمع من أمّ رُومان، وحديث البخاري رحمه الله على الاتصال، وليس ثمة انقطاع بين مسروق وأمّ رُومان كما ذكر الخطيب البغدادي ومن تبعه على ذلك.

(٤) برقم (٤١٤٤).

(٥) في (م) و(خ) و(د) و(ز): عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة، وهو خطأ، وفي (ظ): عبد الله بن أبي مليكة، (نُسب فيها إلى جدِّه)، والمثبت من صحيح البخاري وكتب التراجم.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٠ ، والمحتسب ٢/ ١٠٤ .

(٧) في (م) والنسخ الخطية: معمر، والمثبت من صحيح البخاري قبل حديث (٤١٣٨)، والجمع بين الصحيحين ٤/ ٣٠٨ والكلام منه.

(٨) صحيح البخاري قبل حديث (٤١٣٨)، وقول الزهري وصله الجَوْزَقي ـ كما في فَتح الباري ٧/ ٤٣٠ ـ ، والبيهقي في الدلائل من طريق حماد بن زيد، عن النعمان بن راشد، ومعمر عن الزهري، عن عائشة رضي الله عنها اهـ وينظر تغليق التعليق ٤/ ١٢٣ .

(٩) صحيح البخاري، وابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٩٧ .

سنة أربع[(١)].

وأخرج البخاريُّ من حديث مَعْمَر عن الزُّهريِّ قال: قال لي الوليد بن عبد الملك: أبَلَغك أن عليًّا كان فيمن قَذَف؟ قال: قلت: لا، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك - أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن وأبو بكر بنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بنِ هشام - أن عائشة قالت لهما: كان عليٌّ مُسَلِّماً في شأنها[(٢)].

وأخرجه أبو بكر الإسماعيليُّ في كتابه «المخرج على الصحيح» من وجه آخرَ من حديث مَعْمَر عن الزهري، وفيه: قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولَّى كِبْرَه منهم عليُّ بن أبي طالب؟ فقلت: لا، حدثني سعيد بن المسيِّب وعُروةُ وعلقمةُ وعبيدُ الله بنُ عبد الله بنِ عتبةَ كلُّهم يقول: سمعت عائشة تقول: والذي تولَّى كِبْرَه: عبدُ الله بن أُبَيٍّ[(٣)].

وأخرج البخاري أيضاً من حديث الزهري عن عروةَ، عن عائشة: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ عبدُ الله بن أُبَيٍّ[(٤)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ الإفك: الكذب، والعصبةُ ثلاثةُ رجال، قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: من الثلاثة إلى العشرة[(٥)]. ابن عُيينة: أربعون رجلاً[(٦)]. مجاهد:

---

(١) صحيح البخاري قبل حديث (٤١٣٨)، قال ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٤٣٠ : كذا ذكره البخاري، وكأنه سبق قلم، أراد أن يكتب سنة خمس، فكتب سنة أربع، والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق أخرجها الحاكم، وأبو سعيد النيسابوري، والبيهقي في الدلائل [١/ ٤٥] وغيرهم: سنة خمس...اهـ وينظر تغليق التعليق ٤/ ١٢٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤١٤٢)، وقوله: كان علي مسلِّماً في شأنها، أي: سالماً لم يُبْدِ بشيء من أمرها، ويروى بكسر اللام، أي: مسلِّماً للأمر، والفتح أشبه، أي: أنه لم يقل فيها سوءاً. النهاية (سلم).

(٣) نقله المصنف عن الإسماعيلي بواسطة أبي عبد الله الحميدي في الجمع بين الصحيحين ٤/ ١٢٤-١٢٥ .

(٤) صحيح البخاري (٤٧٤٩)، وأخرجه - أيضاً - أحمد (٢٥٦٢٣)، ومسلم (٢٧٧٠): (٥٦) مطولاً.

(٥) أخرج قولي ابن عباس الطبري ١٨/ ٣١٦ .

(٦) ذكر هذا القول المرتضى الزبيدي في تاج العروس (عصب) ولم ينسبه.

مِن عَشَرة إلى خمسةَ عشَر[١]. وأصلُها في اللغة وكلام العرب: الجماعةُ الذين يَتعصَّب بعضهم لبعض[٢].

والخيرُ حقيقتُه ما زاد نفعُه على ضَرِّه. والشرُّ ما زاد ضَرُّه على نفعه. وإنَّ خيراً لا شرَّ فيه هو الجنة. وشرًّا لا خيرَ فيه هو جهنم.فأمَّا البلاءُ النازلُ على الأولياء فهو خير؛ لأن ضرره من الألم قليلٌ في الدنيا، وخيرَه هو الثواب الكثير في الآخرة[٣]. فنبَّه الله تعالى عائشةَ وأهلَها وصَفْوان، إذ الخطاب لهم في قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لرُجحان النفع والخير على جانب الشَّر.

الثالثة: لمَّا خرج رسول الله ﷺ بعائشةَ معه في غَزْوة بني المُصْطَلِق ـ وهي غزوة المُرَيْسِيع ـ وقَفَل ودنا من المدينة، آذَن ليلةً بالرَّحيل، قامت حين آذَنوا بالرَّحيل، فمشت حتى جاوزت الجيش، فلمَّا فرغت من شأنها، أقبلت إلى الرَّحْل، فلمستْ صدرها، فإذا عِقدٌ من جَزْعِ ظَفَارِ[٤] قد انقطع، فرجعتْ فالتمستْه، فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانصرفتْ فلم تجد أحداً، وكانت شابَّة قليلةَ اللَّحم، فرفع الرجال هَوْدَجها ولم يشعروا بزوالها منه، فلمَّا لم تجد أحداً، اضطجعت في مكانها رجاءَ أن تُفتقَد فيُرجع إليها، فنامت في الموضع، ولم يُوقظها إلا قولُ صَفْوانَ بنِ المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك أنه كان تَخَلَّف وراء الجيش لحِفْظ الساقة[٥].

وقيل: إنها استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته، وتَنحَّى عنها حتى ركبت

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٨٩، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٦.

(٢) ينظر مفردات ألفاظ القرآن (عصب).

(٣) في (م) و(خ) و(د) و(ز): الأخرى، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤١ - ١٣٤٢ والكلام منه.

(٤) الجَزْع بالفتح: الخَرَز اليماني، الواحدة جَزْعة. النهاية (جزع). وظَفَار مدينة باليمن في موضعين، إحداهما قرب صنعاء، وهي التي ينسب إليها الجَزْع الظَّفاري وبها كان مسكن ملوك حمير. معجم البلدان ٤/ ٦٠.

(٥) هي مؤخَّر الجيش.

عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيشَ في نَحْر الظَّهِيرة، فوقع أهل الإفك في مقالتهم، وكان الذي يُجتمَع إليه فيه ويَسْتَوْشِيهِ[١] ويُشْعلُه[٢] عبدُ الله بنُ أُبَيِّ ابنِ سَلُول المنافق، وهو الذي رأى صفوان آخذاً بزمام ناقة عائشة، فقال: والله ما نجتْ منه ولا نجا منها[٣]، وقال: امرأةُ نبيِّكم باتت مع رجل. وكان مِن قالته حسانُ بن ثابت، ومِسْطحُ بن أُثَاثة، وحَمْنَةُ بنت جَحْش. هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإتقانه في البخاريِّ ومسلم، وهو في مسلم أكمل[٤].

ولمَّا بلغ صَفْوانَ قولُ حسان في الإفك، جاء فضربه بالسيف ضربةً على رأسه، وقال:

تَلَقَّ ذُبابَ السيف عني فإنني غلامٌ إذا هُوجِيتُ ليس بشاعرِ

فأخذ جماعةٌ صفوان[٥] ولَبَّبُوه[٦] وجاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فأهدر رسول الله ﷺ جُرْحَ حسان، واستوهبه إيَّاه[٧]. وهذا يدلُّ على أن حسان ممن تَوَلَّى الكِبْر، على ما يأتي، والله أعلم.

وكان صفوان هذا صاحبَ ساقة رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خِيار الصحابة. وقيل: كان حَصُوراً لا يأتي النساء. ذكره ابن إسحاق من طريق

---

(١) أي: يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يُفشيه ويشيعه ويحركه. صحيح مسلم بشرح النووي ١١٦/١٧ .

(٢) في (د) و(ظ): ويستوشيه ويشغله، وفي (ظ): وينشره ويشيعه، والمثبت من (خ) و(م).

(٣) في (ز) و(ظ): وما نجا منها.

(٤) صحيح البخاري (٤١٤١)، وصحيح مسلم (٢٧٧٠): (٥٦)، وهو في مسند أحمد أيضاً (٢٥٦٢٣).

(٥) في (م) و(خ) و(د) و(ز): حسان، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١٦٩/٤ والكلام منه.

(٦) أي جمعوا ثيابه عند نحره، ثم جرُّوه. ينظر القاموس (لبب).

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١٤/٢٣ (١٥١) مطولاً، والحاكم في المستدرك ٥١٩/٣ عن عائشة رضي الله عنها بنحوه. وجاء عند الطبراني والحاكم: تلق ذباب السيف مني... بدل: ...عني. وينظر السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٤/٢ - ٣٠٥ .

عائشة[١]. وقيل: كان له ابنان، يدلُّ على ذلك حديثُه المرويُّ مع امرأته، وقولُ النبيِّ ﷺ في ابنيه: «لهما أَشْبهُ به من الغراب بالغراب»[٢]. وقولُه في الحديث: والله ما كَشَفْتُ كَنَف أنثى قطُّ[٣]، يريد بزنًى.

وقُتِل شهيداً ﷺ في غزوة أرمِينِيَة سنة تسعَ عَشْرة في زمان عمر، وقيل: ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ يعني: ممن تَكلَّم بالإفك. ولم يُسَمَّ من أهل الإفك إلا حسانُ ومِسْطَحُ وحَمْنةُ وعبدُ الله، وجُهِل الغير، قاله عروة بن الزبير، وقد سأله عن ذلك عبدُ الملك بنُ مروان، وقال: ألا إنهم كانوا عُصْبة، كما قال الله تعالى[٤].

وفي مصحف حَفْصة: «عُصْبة أربعة»[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ وقرأ حُميد الأعرج[٦] ويعقوب: «كُبْرَه» بضم الكاف[٧]. قال الفراء: وهو وجه جيِّدٌ؛ لأن العرب تقول: فلان تولَّى

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٦ ، ونقله المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٩ ، وما قبله منه ص١٦٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٩ وما سيأتي منه، ولم نقف على الحديث. وذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٦٢ وقال: لم أقف على مستند القرطبي في ذلك. اهـ وذكر ابن حجر ما يفيد أن المقول فيه ذلك غير صفوان .

وقد وقع هذا اللفظ عند البخاري (٥٨٢٥) في حق عبد الرحمن بن الزَّبير القرظي وابنيه .

(٣) هو قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٢٤٣٧١)، والبخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠): (٥٧) و(٥٨) من حديث عائشة. والكنف هو الثوب هنا، وأصله الساتر، وهو كناية عن الجماع. أقسم أنه ما جامع امرأة قط، وكأنه لم يكن له أرب في النساء، والله تعالى أعلم. المفهم ٧/ ٣٧٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٩ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ١٩٠ بنحوه وورد قول عروة أيضاً في حديث عائشة المذكور آنفاً.

(٥) لم نقف على هذه القراءة.

(٦) في (د) و(ظ): حميد والأعرج، والمثبت من (خ) و(ز) و(م) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٠ والكلام منه، وحميد هو ابن قيس الأعرج.

(٧) قراءة حميد في القراءات الشاذة ص١٠١ ، والمحتسب ٢/ ١٠٣ - ١٠٤ ، وقراءة يعقوب - وهو من العشرة - في النشر ٢/ ٣٣١ .

عُظْم كذا وكذا، أي: أكْبَره[١].

رُويَ عن عائشةَ أنه حسَّان، وأنها قالت حين عَميَ: لعلَّ العذابَ العظيم الذي أوعده الله به ذهابُ بصره. رواه عنها مسروق[٢]. ورُويَ عنها أنه: عبدُ الله بن أبَيّ، وهو الصحيح. وقاله ابن عباس[٣].

وحكى أبو عمر بن عبد البر[٤] أن عائشةَ برَّأت حسان من الفِرْية، وقالت: إنه لم يقل شيئاً. وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئاً من ذلك في قوله:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتُصبح غَرْثَى من لُحوم الغَوافِلِ[٥]
حَلِيلةُ خيرِ الناس دِيناً ومَنْصِباً ... نَبِيِّ الهُدَى والمَكْرُمَات الفواضلِ
عَقِيلةُ حَيٍّ[٦] من لُؤَيِّ بن غالبٍ ... كرامِ المساعي مَجْدُها[٧] غيرُ زائلِ
مُهَذَّبةٌ قد طَيَّب الله خِيمَها ... وطهَّرها من كلِّ شَيْن وباطلِ[٨]

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٠ وجاء عندهما: أكثره، بدل: أكبره، قال النحاس: والذي جاء به لا حجة فيه؛ لأنه قد يكون الشيء بمعنى الشيء والحركة فيها مختلفة.

(٢) هو بنحوه عند البخاري (٤١٤٦) و(٤٧٥٥)، ومسلم (٢٤٨٨).

(٣) سلف قول عائشة في آخر المسألة الأولى، وأما قول ابن عباس فقد أخرجه الطبري ١٧/ ١٩٠، والطبراني ٢٣/ ١٣٧ (١٨١).

(٤) في الاستيعاب بهامش الإصابة ٣/ ٢٤ - ٢٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي العباس في المفهم ٦/ ٤٢٢.

(٥) الحصان: هنا العفيفة. والرَّزَان: الملازمة موضعها التي لا تتصرف كثيراً. ما تُزَنُّ، أي: ما تُتَّهم. وغَرْثى، أي: جائعة. والغوافل جمع غافلة، ومعنى هذا الكلام أنها كافَّة عن أعراض الناس. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٣/ ٤٣ - ٤٤ وما سيأتي من شرح الغريب منه.

(٦) جاء في الاستيعاب بهامش الإصابة ١٣/ ٩٠: عقيلة أصل، والعقيلة: الكريمة.

(٧) جاء في الاستيعاب، والسيرة النبوية ٢/ ٣٠٦: مجدهم، بدل: مجدها. والمساعي جمع مَسْعاة: وهو ما يُسعى فيه من طلب المجد والمكارم.

(٨) جاء في الاستيعاب: بغي بدل قوله: شين، وفي ديوان حسان ص٣٨١ والسيرة النبوية والمعجم الكبير ٢٣/ ١١٦: سوء. وقوله: مهذَّبة، أي: صافية مخلَّصة. والخِيمُ: الطَّبع والأصل.

فإن كان ما بُلِّغْتِ عنِّيَ قلتُه[١] فلا رفعَتْ سَوْطي إليَّ أناملي
فكيف ووُدِّي ما حَيِيتُ ونُصْرتي لآل رسول الله زَيْنِ المحافلِ
له رُتَبٌ عالٍ على الناس فضلُها تقاصَرُ عنها سَوْرةُ المتطاولِ[٢]

وقد رُوِيَ أنه لمَّا أنشدها: حَصانٌ رَزانٌ، قالت له: [لكنَّك] لستَ كذلك، تريد أنك وقعت في الغوافل[٣]. وهذا تَعارُض، ويمكن الجمع بأن يقال: إن حساناً لم يقل ذلك نصًّا وتصريحاً، ويكون عرَّض بذلك وأَوْمأ إليه، فنُسِب ذلك إليه، والله أعلم[٤].

وقد اختلف الناس فيه، هل خاض في الإفك أم لا؟ وهل جُلِد الحدَّ أم لا؟ فالله أعلم أيُّ ذلك كان[٥]، وهي المسألة:

السادسة: فروى محمد بنُ إسحاق[٦] وغيرُه أن النبيَّ ﷺ جَلَد في الإفك رجلين وامرأة: مِسْطَحاً وحسَّان وحَمْنَة. وذكره الترمذي[٧].

وذكر القُشَيريُّ عن ابن عباس قال: جلد رسول الله ﷺ ابنَ أُبَيٍّ ثمانين جلدة، وله في الآخرة عذابُ النار[٨]. قال القُشَيْري: والذي ثبت في الأخبار أنه ضرب ابنَ أُبَيٍّ وضرب حسان وحَمْنة، وأمَّا مِسْطح، فلم يثبت عنه قذفٌ صريح، ولكنه كان يسمع

(١) في (م): أني، بدل: عني وجاء هذا الشطر في الاستيعاب بلفظ: فإن كان ما قد قيل عنديَ قلته. وفي الديوان والسيرة النبوية: فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم.

(٢) قوله: السَّورة ـ بفتح السين ـ الوَثْبة، وبضم السين: المنزلة، والبيت الأول سلف ٦/ ١٩٨ ، وذكرت هذه الأبيات كلُّها في ديوان حسان ص٣٨٠ - ٣٨١ ، والسيرة النبوية ٢/ ٣٠٦ وليس فيه البيت الثاني، والاستيعاب بهامش الإصابة ١٣/ ٩٠ دون البيت الثاني والأخير.
وأخرجها كلَّها الطبراني في الكبير ٢٣/ ١١٦ (١٥١) في حديث طويل عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٩ وما بين حاصرتين منه، ومن صحيح البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨).

(٤) المفهم ٦/ ٤٢٢ .

(٥) المفهم ٦/ ٤٢٢ .

(٦) كما في السيرة النبوية ٢/ ٣٠٢ ، ونقله المصنف بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٣٤٢ .

(٧) في سننه (٣١٨١) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولم يُسمَّ فيه الرجلان والمرأة.

(٨) أخرجه الحاكم في الإكليل كما في فتح الباري ٨/ ٤٧٩ .

ويُشيع من غير تصريح[(١)].

قال الماورديُّ[(٢)] وغيرُه: اختلفوا هل حَدَّ النبيُّ ﷺ أصحابَ الإفك، على قولين:

أحدُهما: أنه لم يَحُدَّ أحداً من أصحاب الإفك؛ لأن الحدود إنما تُقام بإقرار أو ببيِّنة، ولم يتعبَّده الله أن يُقيمها بإخباره عنها، كما لم يتعبَّده بقتل المنافقين، وقد أخبره بكفرهم.

قلت: وهذا فاسدٌ مخالفٌ لنصِّ القرآن، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: على صِدْق قولهم ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾.

والقول الثاني: أن النبيَّ ﷺ حدَّ أهل الإفك: عبد الله بنَ أُبَيٍّ، ومِسْطحَ بن أُثَاثة، وحسَّانَ بن ثابت، وحَمْنَةَ بنتَ جحش، وفي ذلك قال شاعر من المسلمين:

لقد ذاق حسَّانُ الذي كان أهلَه وحَمْنَةُ إذ قالوا هجيراً[(٣)] ومِسْطَحُ
وابنُ سَلُولٍ ذاق في الحَدِّ خِزْيةً كما خاض في إفكٍ من القول يُفْصِح
تعاطَوْا برجم[(٤)] الغيب زَوْجَ نبيِّهم وسخطةَ ذي العرش الكريم فأُبْرِحوا[(٥)]
وآذَوْا رسولَ الله فيها فَجُلِّلُوا مخازِيَ تبقى عُمِّمُوها وفُضِّحوا
وصُبَّتْ[(٦)] عليهم مُحْصَداتٌ كأنها شآبيبُ قَطْرٍ من ذُرَى المُزْن تَسْفَحُ[(٧)]

---

(١) لم نقف على هذا الخبر.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٨١ - ٨٢ . ولفظة: وغيره، ليست في (د) و(ظ) و(ف).

(٣) قوله: هجيراً: الهَجِير الهُجْر هنا وهو القول الفاحش القبيح. الإملاء المختصر ٣/ ٤٤ - ٤٥ ، وما سيأتي من شرح الغريب منه.

(٤) قوله: برجم، الرجم الظَّن هنا.

(٥) قوله: فأُبْرِحوا، من البَرْح، وهو المشقَّة والشِّدة. وجاء في السيرة النبوية ٢/ ٣٠٧ ، وتاريخ المدينة ١/ ٣٤٧ ، والمعجم الكبير ٢٣/ ١١٧ : فأُتْرِحوا، بالتاء، أي: أُحْزِنوا من التَّرَح وهو الحُزْن.

(٦) في (م) و(د): فَصُبَّ، وفي (خ) و(ز) والنكت والعيون: فَصُبَّت، والمثبت من (ظ) والسيرة النبوية وتاريخ المدينة.

(٧) قوله: محصدات: يعني سياطاً محكمة الفَتْل شديداتٍ. والشآبيب: جمع شُؤْبوب، وهي الدُّفْعة من =

قلت: المشهورُ من الأخبار، والمعروف عند العلماء، أن الذي حُدَّ: حسانُ ومِسْطحٌ وحَمْنةُ، ولم يُسمع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَيّ. روى أبو داود عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: لمَّا نزل عُذْري، قام النبيُّ ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلمَّا نزل من المنبر، أمر بالرجلين والمرأة فضُرِبوا حدَّهم[1]. وسمَّاهم: حسَّان بن ثابت، ومِسْطح ابن أُثاثة، وحَمْنة بنت جحش[2]. وفي كتاب الطحاوي: «ثمانين ثمانين».

قال علماؤنا: وإنما لم يُحدَّ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ، لأن الله تعالى قد أعدَّ له في الآخرة عذاباً عظيماً، فلو حُدَّ في الدنيا، لكان ذلك نَقْصاً من عذابه في الآخرة، وتخفيفاً عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشةَ رضي الله عنها، وبِكَذِب كلِّ مَن رماها، فقد حصلت فائدةُ الحدِّ، إذ مقصودُه إظهارُ كَذِب القاذف وبراءةِ المقذوف، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. وإنما حُدَّ هؤلاء المسلمون؛ ليُكَفَّر عنهم إثمُ ما صَدَر عنهم من القذف، حتى لا يبقى عليهم تَبِعةٌ من ذلك في الآخرة، وقد قال ﷺ في الحدود: «إنها كفارةٌ لمن أقيمت عليه»[3]، كما في حديث عُبَادةَ بنِ الصامت.

ويحتمل أن يُقال: إنما ترك حَدَّ ابنِ أُبَيٍّ استئلافاً لقومه، واحتراماً لابنه، وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقَّعة من ذلك، وقد كان ظَهَر مبادئُها من سعد بن عُبَادةَ ومن قومه،

= المطر. والذُّرى: الأعالي. والمُزْن: السحاب. وتسفح: أي: تسيل. وأورد هذه الأبيات الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٨١ - ٨٢، وابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٣٠٧ ولم يذكر البيت الثاني، وابن شبَّة في تاريخ المدينة ١/ ٣٤٧. وأورد البيت الأول والثالث والخامس الطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ١١٧، وجاء عنده الشطر الأول من البيت الأول بلفظ: لقد كان عبد الله ما كان أهله.

(١) سنن أبي داود (٤٤٧٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٤٠٦٦)، والترمذي (٣١٨١)، وابن ماجه (٢٥٦٧) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق.

(٢) المفهم ٧/ ٣٧٩ والكلام إلى آخر المسألة منه، والحديث أخرجه أبو داود (٤٤٧٥) من طريق محمد بن إسحاق... عن عمرة مرسلاً.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، لكن سلف ٧/ ٤٢ بنحوه، وفيه: تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا... ومن أصاب شيئاً من ذلك، فعوقب به، فهو كفارة له.

كما في صحيح مسلم(١). والله أعلم.

السابعة: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ هذا عتابٌ من الله سبحانه تعالى للمؤمنين في ظنِّهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا. قال ابن زيد: ظنَّ المؤمنون أن المؤمن لا يَفْجُر بأمِّه(٢). قاله المَهْدَوِي. و«لولا» بمعنى هَلَّا(٣).

وقيل: المعنى: أنه كان ينبغي أن يَقيس فُضَلاءُ المؤمنين والمؤمنات الأمرَ على أنفسهم، فإن كان ذلك يَبْعد فيهم، فذلك في عائشةَ وصفوانَ أبعد(٤). ورُوِيَ أن هذا النظرَ السَّديد وقع من أبي أيوب الأنصاريِّ وامرأتِه، وذلك أنه دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعتَ ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذبُ، أكنتِ أنت يا أمَّ أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله. قال: فعائشةُ واللهِ أفضلُ منك، قالت أمُّ أيوب: نعم(٥). فهذا الفعلُ ونحوُه هو الذي عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ قال النحاس(٦): معنى «بأنفسهم»: بإخوانهم.

---

(١) برقم (٢٧٧٠): (٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «مَن يعذِرُني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي... فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه... قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً ولكن اجتهلته الجاهلية ـ فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله... فثار الحيَّان الأوس والخزرج...» وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٢٤٣١٧)، والبخاري (٢٦٦١).

(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ١٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٨٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٠ وما سيأتي منه، وفيه: وإذا كان ذلك يبعد فيهم، فكانوا يقضون بأنه من صفوان وعائشة أبعد لفضلهما.

(٥) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ٢/ ٣٠٢ ، وابن راهويه في مسنده (١٦٩٨)، والطبري ١٧/ ٢١٢ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٠ .

فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً، ويذكُرُه بقبيح لا يعرفونه به، أن يُنكِروا عليه ويُكَذِّبوه. وتواعد[١] مَن ترك ذلك ومَن نقله.

قلت: ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصلٌ في أنَّ درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلةَ الصَّلاح التي حلَّها المرء[٢]، ولُبْسةَ العفاف التي يستتر بها المسلم، لا يُزيلها عنه خبرٌ محتمِلٌ وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ هذا توبيخٌ لأهل الإفك. و«لولا» بمعنى هلَّا، أي: هلَّا جاؤوا بأربعة شهداءَ على ما زعموا من الافتراء. وهذا ردٌّ على الحكم الأوَّل، وإحالةٌ على الآية السابقة في آية القذف[٣].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: هم في حكم الله كاذبون. وقد يَعجِز الرجل عن إقامة البينة وهو صادقٌ في قذفه، ولكنه في حكم الشرع وظاهرِ الأمر كاذبٌ، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانه إنما رتَّبَ الحدود على حكمه الذي شَرَعه في الدنيا، لا على مقتضى علمه الذي تَعلَّق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يُبنى على ذلك حكمُ الآخرة.

قلت: ومما يقوِّي هذا المعنى ويَعْضُده ما خرَّجه البخاريُّ[٤] عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّها الناسُ، إنَّ الوَحْيَ قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فَمَن أظهر لنا خيراً أمِنَّاه وقرَّبناه، وليس لنا من سريرته شيءٌ، اللهُ يحاسبه في سريرته، ومَن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه[٥] ولم نصدِّقه، وإنْ قال إنَّ سريرته

(١) في(ز): ويواعد، وفي (ظ): وتوعَّد. والمثبت من باقي النسخ وإعراب النحاس.

(٢) في (م): المؤمن، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٣ والكلام منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٣ ، والمسألة الآتية منه.

(٤) برقم (٢٦٤١)، وسلف ٣/ ٣٨٣ .

(٥) في (م): نؤمنه .

حسنة. وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائرَ إلى الله عزَّ وجلَّ[(١)].

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ «فَضْلُ» رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبرُ محذوفٌ لا تُظهِره العرب. وحُذِف جوابُ «لولا»؛ لأنه قد ذُكر مثلُه بعدُ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لمسَّكم ـ أي: بسبب ما قلتم في عائشةَ ـ عذابٌ عظيم في الدنيا والآخرة[(٢)]. وهذا عتابٌ من الله تعالى بليغٌ، ولكنه برحمته سَتَر عليكم في الدنيا، ويرحمُ في الآخرة مَن أتاه تائباً.

والإفاضة: الأخذُ في الحديث، وهو الذي وقع عليه العتاب[(٣)]، يُقال: أفاض القوم في الحديث، أي: أخذوا فيه.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قراءةُ محمدِ بن السَّمَيْفَع بضم التاء وسكون اللام وضمِّ القاف، من الإلقاء[(٤)]، وهذه قراءةٌ بيِّنة. وقرأ أُبَيٌّ وابن مسعود: «إذ تَتلقَّونه» من التَّلَقِّي، بتاءين[(٥)].

وقرأ جمهور السبعة بحذف[(٦)] التاء الواحدة، وإظهارِ الذَّال دون إدغام، وهو[(٧)] أيضاً من التَّلَقِّي. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ بإدغام الذَّال في التاء[(٨)].

---

(١) التمهيد ١٠/ ١٥٧.

(٢) حقُّ هذا الكلام أن يُذكر في تفسير الآية (١٠) قبل آية الإفك. وهو في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٩، وينظر الوسيط ٣/ ٣١١، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٧٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١.

(٤) المحتسب ٢/ ١٠٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٠ ولم ينسبها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ ووقع في مطبوعه: ...«إذ تتلقونه» بضم التاء، وهو خطأ. وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٠ ونسبها لأُبَيٍّ فقط.

(٦) في (م): بحرف.

(٧) في (م): وهذا.

(٨) وكذلك قرأ ابن عامر في رواية هشام. السبعة ص٤٥٣ - ٤٥٤، والتيسير ص٤٢.

وقرأ ابن كثير بإظهار الذال وإدغامِ التاء في التاء[١]، وهذه قراءةٌ قَلِقة؛ لأنها تقتضي اجتماعَ ساكنين، وليست كالإدغام في قراءة مَن قرأ: «فلا تناجَوْا»[٢] [المجادلة: ٩]، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟﴾[٣] [الحجرات: ١١] لأن دونه الألفَ الساكنةَ، وكونها حرفَ لِين حَسُنت هنالك ما لا تحسن مع سكون الذَّال.

وقرأ ابن يَعْمَر وعائشةُ رضي الله عنهما ـ وهم أعلمُ الناس بهذا الأمر ـ: «إذ تَلِقُونه» بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف[٤]، ومعنى هذه القراءة مِن قول العرب: وَلَق الرجلُ يَلِق وَلْقاً: إذا كَذَبَ واستمر عليه، فجاؤوا بالمتعدِّي شاهداً على غير المتعدِّي.

قال ابن عطية[٥]: وعندي أنه أراد: إذ تَلِقُون فيه، فَحَذف حرفَ الجر، فاتصل الضمير.

وقال الخليل وأبو عمرو: أصل الوَلْق: الإسراع، يقال: جاءت الإبل تَلِق، أي: تُسرِع[٦]. قال:

لـمَّـا رأَوْا جـيـشـاً عـلـيـهـم قـد طَـرَقْ ... جـاؤوا بـأسـراب مـن الـشـأم وَلَـقْ
إنَّ الـحُـصَـيْـن زَلِـقٌ وزُمَّـلِـقْ ... جـاءت بـه عَـنْـسٌ مـن الـشـأمِ تَـلِـقْ[٧]

(١) التيسير ص٤٢ .

(٢) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٣ لابن محيصن، قال: ثم رجع.

(٣) قرأ ابن كثير في رواية البزِّيّ وصلاً بتشديد التاء مع المدّ المشبع لالتقاء الساكنين .

(٤) المحتسب ٢/ ١٠٤ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٠ لعائشة فقط، وسلف ذكرها في المسألة الأولى .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ وما قبله منه.

(٦) العين للخليل ٥/ ٢١٤ ، والصحاح (ولق).

(٧) البيت الثاني للشماخ بن ضرار الذبياني، وهو في ديوانه ص٤٥٢ - ٤٥٣ ، وفيه: إن الجليد، بدل: إن الحصين. وكذا جاء في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٨ ، وتفسير الطبري ١٧/ ٢١٦ ولم ينسباه. وجاء في الصحاح (ولق)، ولسان العرب (زلق) كرواية المصنف، قال ابن منظور: وصوابه: إن الجليد، وهو الجليد الكلابي. اهـ. وقوله: عنس، العَنْس: الناقة الصلبة. لسان العرب (عنس). ولم نقف على الأول.

يقال: رجلٌ زَلِقٌ وزُمَلِق، مثالُ: هُدَبِد[١]، وزُمَالِق وزُمَّلِق ـ بتشديد الميم ـ وهو الذي يُنْزِل قبل أن يُجامِع، قال الراجز:

إنّ الـحُـصَـيـن زَلِـق وزُمَّـلِـق[٢]

والوَلْق أيضاً: أخفُّ الطَّعن. وقد وَلَقه يَلِقه وَلْقاً. يقال: وَلَقه بالسيف وَلَقاتٍ، أي: ضربات[٣]، فهو مشترك.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ مبالغةٌ وإلزامٌ وتأكيد. والضمير في «تَحْسَبُونَهُ» عائدٌ على الحديث، والخوضِ فيه، والإذاعةِ له[٤]. و﴿هَيِّنًا﴾ أي: شيئاً يسيراً لا يَلْحقكم فيه إثم. ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الوزر ﴿عَظِيمٌ﴾. وهذا مِثلُ قوله عليه الصلاة والسلام في حديث القَبْرَين: «إنهما لَيُعذَّبان، وما يُعذَّبان في كبير»[٥] أي: بالنسبة إليكم.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تُنْكِروه، ولا يَتعاطاه بعضُكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تُنَزِّهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيِّه عليه الصلاة والسلام، وأن تَحكُموا على هذه المقالة بأنها بُهتان. وحقيقةُ البُهتان: أن يُقال في الإنسان ما ليس فيه، والغِيبة: أن يُقال في الإنسان ما فيه[٦]. وهذا المعنى قد جاء في صحيح الحديث عن النبيِّ ﷺ[٧].

---

(١) هو اللَّبن الخاثر جداً. القاموس (هدبد).

(٢) الصحاح (زلق).

(٣) الصحاح (ولق).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ .

(٥) ١٣/ ٨٩ - ٩٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ .

(٧) أخرجه مسلم (٥٢٨٩)، وأحمد (٧١٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ١٢٢ .

ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة. و«أنْ» مفعولٌ من أجله، بتقدير: كراهيةَ أنْ، ونحوه(١).

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ توقيفٌ وتأكيد(٢)، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يعني: في عائشة(٣)؛ لأن مثله لا يكون إلَّا نظيرَ القول في المقُول عنه بعينه، أو فيمن كان في مرتبته من أزواج النبيِّ ﷺ؛ لِمَا في ذلك من إذاية رسول الله ﷺ في عِرْضه وأهله، وذلك كفرٌ من فاعله(٤).

السابعة عشرة: قال هشام بن عمار: سمعت مالكاً يقول: مَن سَبَّ أبا بكر وعمرَ أُدِّب، ومَن سبَّ عائشة قُتِل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فمن سَبَّ عائشة فقد خالف القرآن، ومَن خالف القرآن قُتِل(٥).

قال ابن العربي(٦): قال أصحاب الشافعيِّ: مَن سبَّ عائشة رضي الله عنها أُدِّبَ كما في سائر المؤمنين، وليس قولُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في عائشة [لأن ذلك] كفرٌ، وإنما هو كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يُؤمِنُ مَن لا يَأْمنُ جارُه بوائقَه»(٧). ولو كان سلبُ الإيمان في سبِّ مَن سبَّ عائشةَ حقيقةً، لكان سلبُه في قوله: «لا يزني

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ .

(٢) في (م) و(د) و(ف): وتوكيد، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ والكلام منه.

(٣) قبلها في (ظ): شأن.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٣ - ١٣٤٤ .

(٥) المصدر السابق، وأخرج هذا الخبر ابن حزم في المحلى ١١/ ٤١٤ - ٤١٥ .

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٤٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) أخرجه البخاري، وسلف ٦/ ٣٠٤ .

الزاني حين يزني وهو مؤمن»[١] حقيقةً. قلنا: لئن كان كما زعمتم أنَّ[٢] أهل الإفك رَمَوْا عائشة المطهَّرة بالفاحشة، فبرَّأها الله تعالى، فكان[٣] مَن سبَّها بما برَّأها الله منه مكذِّب لله، ومَن كذَّب الله فهو كافر، فهذا طريقُ قول مالك، وهي سبيلُ الآية[٤] لأهل البصائر. ولو أنَّ رجلاً سبَّ عائشة بغير[٥] ما برَّأها الله منه، لكان جزاؤه الأدب[٦].

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي: تفشو، يُقال: شاع الشيء شُيُوعاً وشَيْعاً وشَيَعاناً وشَيْعُوعة، أي: ظهر وتفرَّق. ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: في المحصنين والمحصنات. والمرادُ بهذا اللفظِ العامِّ عائشةُ وصَفْوان رضي الله عنهما[٧].

والفاحشة: الفعلُ القبيحُ المُفرِطُ القُبحِ. وقيل: الفاحشةُ في هذه الآية: القولُ السَّيِّئ.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الحدُّ. وفي الآخرة عذابُ النار، أي: للمنافقين، فهو مخصوص[٨]. وقد بيَّنَّا أن الحَدَّ للمؤمنين كفارة[٩]. وقال الطبري: معناه: إن مات مُصِرًّا غيرَ تائب[١٠].

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٢١٦)، والبخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧): (١٠٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) جاء في أحكام القرآن: ليس كما زعمتم، فإن.

(٣) في (م): فكل.

(٤) في أحكام القرآن: لائحة، بدل: الآية.

(٥) في (ز) و(ظ) و(ف): بعين، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن والكلام منه.

(٦) في النسخ: الكفر، والمثبت من أحكام القرآن.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٣، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٨٣.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣٣.

(٩) في آخر المسألة السادسة.

(١٠) تفسير الطبري ١٧/ ٢٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ١٧٢.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ أي: يعلم مِقدار عِظَم هذا الذنب والمجازاةِ عليه، ويعلم كلَّ شيء[1]. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ رُويَ من حديث أبي الدَّرْدَاء أن رسول الله ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ شَدَّ عَضُدَ امرئٍ من الناس في خصومة لا عِلم له بها، فهو في سَخَط الله حتى يَنزِع عنها. وأيُّما رجلٍ حال[2] بشفاعته دون حدٍّ من حدود الله أن يُقام، فقد عاند الله حقًّا، وأقدم على سَخَطه، وعليه لعنةُ الله تتابع إلى يوم القيامة. وأيُّما رجلٍ أشاع على رجل مسلم كلمةً وهو منها بريءٌ، يَرى أن يَشينه بها في الدنيا، كان حقًّا على الله تعالى أن يرميَه بها في النار[3]، ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

الموفيةُ عشرين: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ يعني: مسالكَه ومذاهبَه، المعنى: لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليها الشيطان[4]. وواحدُ الخُطُوات خُطْوة، وهو ما بين القدمين. والخَطْوة ـ بالفتح ـ المصدر، يقال: خَطَوتُ خَطْوة، وجمعُها خَطَوات. وتخطَّى إلينا فلان[5]، ومنه الحديث: أنه رأى رجلاً يَتخطَّى رقابَ الناس يوم الجمعة[6].

وقرأ الجمهور: «خُطُوات» بضمِّ الطاء. وسكَّنها عاصم[7] والأعمش. وقرأ الجمهور: «مَا زَكَى» بتخفيف الكاف، أي: ما اهتدى ولا أسلم، ولا عرف رُشْداً[8].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣١ .

(٢) في (م) و(ف): قال.

(٣) قال المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ١٤٢ : رواه الطبراني، ولا يحضرني الآن حال إسناده، وروى بعضه بإسناد جيد. وقال الهيثمي في المجمع ٤/ ٢٠١ : فيه من لم أعرفه.

(٤) ينظر مجاز القرآن ٢/ ٦٥ ، وتفسير الطبري ١٧/ ٢٢١ .

(٥) ينظر الصحاح (خطا)، والمحرر الوجيز ٤/ ١٧٢ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٨٥ .

(٦) أخرجه أحمد (١٧٦٩٧)، وأبو داود (١١١٨)، والنسائي ٣/ ١٠٣ من حديث عبد الله بن بُسْر ﷺ. وأخرجه ابن ماجه (١١١٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٧) في رواية أبي بكر عنه، وهي ـ أيضاً ـ قراءة نافع وأبي عمرو، وابن كثير في رواية البزِّي، وحمزة. السبعة ص١٧٣ - ١٧٤ ، والتيسير ص٧٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٢ .

وقيل: «ما زَكَى» أي: ما صلح[1]، يقال: زَكَا يزكُو زَكاءً، أي: صلح. وشدَّدها الحسن وأبو حَيْوة، أي: إن تزكيته لكم وتطهيرَه وهدايتَه إنما هي بفضله لا بأعمالكم[2].

وقال الكسائيُّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ معترِضٌ، وقولُه: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ جوابٌ لقوله أولاً وثانياً: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ الآية. المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قُحافة ﷺ ومِسْطحِ ابن أُثاثة. وذلك أنه كان ابنَ بنت خالته، وكان من المهاجرين البَدْرِيِّين المساكين. وهو مِسْطحُ بن أُثاثةَ بنِ عَبَّاد بن المطلب بن عبد مناف. وقيل: اسمه عَوف، ومِسْطح لقب. وكان أبو بكر ﷺ يُنفق عليه لمسكنته وقرابته، فلمَّا وقع أمر الإفك وقال فيه مِسْطَحٌ ما قال، حلف أبو بكر ألَّا ينفقَ عليه ولا ينفَعه بنافعة أبداً، فجاء مِسْطَحٌ فاعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجلس[3] حسان، فأسمع ولا أقول. فقال له أبو بكر: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل. ومَرَّ على يمينه، فنزلت الآية.

وقال الضحاك وابن عباس: إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كلِّ مَن قال في الإفك، وقالوا: والله لا نصِل مَن تكلَّم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم. والأول أصحُّ، غيرَ أن الآية تتناول الأُمَّة إلى يوم القيامة بألا يَغْتاظَ ذو فضل وسَعة، فيحلفَ ألا ينفعَ من هذه صفتُه غابرَ الدهر[4].

روى الصَّحيح أن الله تبارك وتعالى لمَّا أنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ﴾

---

(١) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٣١٢، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٣٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣ ونسبوه لمقاتل.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٢، وقراءة الحسن وأبي حَيْوة في القراءات الشاذة ص١٠١.

(٣) في (م) و(ظ): مجالس، والمثبت من (د) و(ز) و(ف) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٢-١٧٣ والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣، وأخرج أثر الضحاك وابن عباس الطبري ١٧/ ٢٢٥ - ٢٢٦ بنحوه.

العشر آيات، قال أبو بكر ـ وكان ينفق على مِسطحٍ لقرابته وفَقره ـ: واللهِ لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾ ـ قال عبد الله بن المبارك: هذه أرْجَى آية في كتاب الله تعالى ـ فقال أبو بكر: والله إني لأحِبُّ أن يغفر الله لي، فرجَع إلى مِسْطَحٍ النفقةَ التي كان يُنفِق عليه وقال: لا أنْزِعُها منه أبداً[1].

الثانية والعشرون: في هذه الآية دليلٌ على أن القذف ـ وإن كان كبيراً ـ لا يُحبِط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مِسْطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان[2]، وكذلك سائر الكبائر، ولا يُحبِط الأعمالَ غيرُ الشرك[3]، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الثالثة والعشرون: مَن حلف على شيء لا يفعله، فرأى فعلَه أوْلَى منه، أتاه وكفَّر عن يمينه، أو كفَّر عن يمينه وأتاه، كما تقدَّم في «المائدة»[4]. ورأى الفقهاء أنَّ مَن حلف ألَّا يفعل سُنَّة من السُّنن، أو مندوباً وأبَّد ذلك، أنها جُرْحةٌ في شهادته. ذكره الباجي في «المنتقى»[5].

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ معناه: لا يحلف، وزنُها يَفْتَعِل، من الألِيَّة، وهي اليمين[6]، ومنه قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، وقد تقدَّم في «البقرة»[7]. وقالت فرقة: معناه: يُقَصِّر، مِن قولك: ألَوْتُ في كذا: إذا

---

(١) هو قطعة من حديث عائشة الطويل في قصة الإفك أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠): (٥٦)، وأحمد (٢٥٦٢٣) وليس عند البخاري وأحمد قول عبد الله بن المبارك.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٥.

(٣) بعدها في (م): بالله.

(٤) ٨/ ١٣٩.

(٥) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣.

(٧) ٤/ ٢١.

قَصَّرتَ فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[١] [آل عمران: ١١٨].

الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ تمثيلٌ وحُجَّة، أي: كما تحبُّون عَفْو الله عن ذنوبكم، فكذلك اغفروا لمن دونكم، ويُنْظَر إلى هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَن لا يَرحم لا يُرحم»[٢].

السادسة والعشرون: قال بعض العلماء: هذه أرْجَى آيةٍ في كتاب الله تعالى، مِن حيث لطفُ الله بالقَذَفة العُصاة بهذا اللفظ[٣].

وقيل: أرجى آيةٍ في كتاب الله عزَّ وجلَّ قولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشَّر به المؤمنين في تلك.

ومِن آيات الرجاء قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩].

وقال بعضهم: أرْجَى آيةٍ في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحدٍ من أُمَّته في النار[٤].

السابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟﴾ أي: ألَّا يؤتوا، فَحذف «لا»، كقول القائل:

فقلت يمينُ اللهِ أبْرَحُ قاعداً[٥]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣، والحديث أخرجه أحمد (٧١٢١)، والبخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣، وما سيرد إلى آخر المسألة منه.

(٤) أخرجه الخطيب في تلخيص المتشابه ١/ ١٧٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبنحوه أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٤٥).

(٥) صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: ولو قطَّعوا رأسي لديكِ وأوصالي. وسلف ١١/ ٤٣٣.

ذكره الزجاج[١]. وعلى قول أبي عبيدة لا حاجة إلى إضمار «لا»[٢].

﴿وَلْيَعْفُوا﴾ مِن عَفا الرَّبْعُ، أي: دَرَسَ، فهو مَحْوُ الذنب حتى يعفوَ، كما يعفو أثرُ الرَّبع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ تقدّم في «النساء»[٣]. وأجمع العلماءُ على أنَّ حكمَ المحصنين في القذف كحكم المحصنات قياساً واستدلالاً، وقد بيناه أولَ السورة والحمد لله[٤].

واختلف فيمن المرادُ بهذهِ الآية: فقال سعيدُ بن جُبير: هي في رُماة عائشة رضوان الله عليها خاصّةً. وقال قوم: هي في عائشة وسائرِ أزواج النبيّ ﷺ. قاله ابنُ عباس والضحاك وغيرهما[٥]. ولا تنفع التوبةُ، ومن قذفَ غيرَهن من المحصنات، فقد جعلَ الله له توبةً؛ لأنَّه قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾، فجعل الله لهؤلاء توبةً، ولم يجعل لأولئك توبة. قاله الضحاك[٦]. وقيل: هذا الوعيد لمن أصرَّ على القذف ولم يتب.

وقيل: نزلت في عائشة، إلا أنه يراد بها كلُّ من اتّصف بهذه الصفةِ[٧].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٣٦ .

(٢) يعني أن قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يقصِّر ـ كما سلف في المسألة الرابعة والعشرين ـ فيكون التقدير: ولا يقصِّر أولو الفضل في أن يحسنوا. ينظر تفسير الرازي ٢٣/ ١٨٧ .

(٣) ٦/ ١٩٨ فما بعدها.

(٤) عند الآية (٤)، المسألة الرابعة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣٤ وأخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٢٧-٢٢٨ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣١٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣٤ .

(٧) تفسير الطبري ١٧/ ٢٢٩ .

وقيل: إنه عامٌّ لجميع الناسِ القَذَفةِ، من ذكرٍ وأنثى، ويكون التقدير: إنَّ الذين يرمون الأنفسَ المحصناتِ، فدخل في هذا المذكرُ والمؤنثُ، واختاره النحاس[١].

وقيل: نزلت في مشركي مكةَ؛ لأنَّهم يقولون للمرأةِ إذا هاجرت: إنَّما خرجتْ لتَفْجُر[٢].

الثانية: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال العلماءُ: إن كان المرادُ بهذه الآية المؤمنين من القَذَفة، فالمرادُ باللعنة الإبعادُ وضَرْبُ الحدِّ، واستيحاشُ المؤمنين منهم، وهجرُهم لهم، وزوالُهم عن رتبة العدالة، والبعدُ عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين. وعلى قول من قال: هي خاصةٌ لعائشة، تترتبُ هذه الشدائدُ في جانب عبد الله بن أُبَيّ وأشباهه[٣]. وعلى قولِ من قال: نزلتْ في مشركي مكةَ فلا كلام، فإنَّهم مبعدون، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم، ومَنْ أسلم فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.

وقال أبو جعفر النحاس[٤]: مِن أحسنِ ما قيل في تأويل هذه الآية: إنَّه عامٌّ لجميع الناس القَذَفةِ من ذكر وأنثى، ويكون التقدير: إنَّ الذين يرمون الأنفسَ المحصنات، فدخل في هذا المذكَّرُ والمؤنَّثُ، وكذا في ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ إلا أنه غُلِّب المذكرُ على المؤنث.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قراءةُ العامة بالتاء، واختارَه أبو حاتم، وقَرأ الأعمشُ، ويحيى، وحمزةُ، والكسائيُّ، وخَلَف: «يشهد» بالياء[٥]، واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الجارَّ والمجرور قد حال بين الاسم والفعل، والمعنى: يوم تشهد ألسنةُ بعضِهم على بعض[٦] بما كانوا

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٢، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٧.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٥، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٩٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٤.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٢.

(٥) السبعة ص٤٥٤، والتيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٣٣١، وقراءة يحيى في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٨.

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٢٣٠، وزاد المسير ٦/ ٢٦.

يعملون من القذف والبهتان.

وقيل: تشهد عليهم ألسنتُهم ذلك اليوم بما تكلموا به.

﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ أي: وتتكلم الجوارح بما عملوا في الدّنيا[1].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

أي: حسابهم وجزاؤهم[2].

وقرأ مجاهد: «يومئذ يُوَفِّيهم اللهُ دينَهم الحقُّ» برفع: «الحق»[3] على أنه نعت لله عزَّ وجلَّ. قال أبو عبيد: ولولا كراهةُ خلاف الناس، لكان الوجهُ الرفعَ؛ ليكون نعتاً لله عزَّ وجلَّ، ويكون موافقةً لقراءة أُبَيٍّ، وذلك أنَّ جريرَ بن حازم قال: رأيت في مصحف أُبَيّ: «يُوَفِّيهمُ اللهُ الْحَقُّ دِينَهُمْ». قال النحاس[4]: وهذا الكلام من أبي عبيد غيرُ مَرْضِيّ؛ لأنَّه احتجَّ بما هو مخالف للسّواد الأعظم، ولا حجةَ أيضاً فيه؛ لأنَّه لو صحَّ هذا أنه في مصحف أُبَيّ كذا، جاز أن تكون القراءةُ: يومئذٍ يوفيهم اللهُ الحقَّ دينَهم، يكون «دينهم» بدلاً من الحق، وعلى قراءة العامَّة: «دِينَهُمُ الْحَقَّ» يكون «الحقّ» نعتاً لدينهم، والمعنى حسن؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ذكر المسيئينَ، وأعلمَ أنَّه يُجازيهم بالحقِّ، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧] لأنَّ مجازاةَ الله عزَّ وجلَّ للكافر والمسيء بالحقِّ والعدلِ، ومجازاته للمحسنِ بالإحسان والفضل.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾: اسمان من أسمائه سبحانه. وقد ذكرناهما في غير موضعٍ، وخاصّةً في «الكتاب الأسنى»[5].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣١٤.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠١، والمحتسب ٢/ ١٠٧.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٢، وما قبله منه، وقراءة أُبي في القراءات الشاذة ص١٠١، والمحتسب ٢/ ١٠٧.

(٥) ص١٤٤، ١٤٩.

قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

قال ابن زيد: المعنى: الخبيثاتُ من النِّساء للخبيثين من الرِّجال، وكذا «الخبيثون للخبيثات» وكذا: «الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات»(١).

وقال مجاهد، وابنُ جُبير، وعطاء، وأكثر المفسرين: المعنى: الكلماتُ الخبيثاتُ من القول للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول، وكذا الكلماتُ الطيباتُ من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول. قال النحاسُ في كتاب «معاني القرآن»(٢): وهذا أحسنُ ما قيل في هذه الآية، ودلَّ على صحة هذا القول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: عائشة وصفوان مبرؤون(٣) مما يقول الخبيثون والخبيثات.

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ مبنيةٌ على قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية [النور: ٣](٤)؛ فالخبيثاتُ الزَّواني، والطيباتُ العفائفُ، وكذا الطيبون والطيبات. واختار هذا القول النحاسُ أيضاً(٥)، وهو معنى قول ابن زيد(٦).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني به الجنسَ. وقيل: عائشة وصفوان، فجمع، كما قال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، والمراد: أخوان. قاله الفراء(٧).

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٨٤.

(٢) ٤/ ٥١٦ وما قبله منه، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٧، والنكت والعيون ٤/ ٨٥. وأخرج الأقوال الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٣٣ - ٢٣٧، وقول مجاهد أيضاً في تفسيره ٢/ ٤٣٩.

(٣) كلمة: مبرؤون، من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥١٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٥.

(٥) في إعراب القرآن له ٣/ ١٣٣، ومعاني القرآن أيضاً ٤/ ٥١٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٤.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٢٤٩، ونقله المصنف عنه بواسطة معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥١٦، وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٢٣٨.

و﴿مُبَرَّءُونَ﴾ يعني منزّهين مما رُمُوا به.

قال بعضُ أهل التحقيق: إنَّ يوسفَ عليه السلام لما رُمي بالفاحشة، برّأه الله على لسان صبيٍّ في المهد، وإنَّ مريمَ لما رُميتْ بالفاحشة، برأها اللهُ على لسان ابنها عيسى صلواتُ الله عليه، وإنَّ عائشةَ لما رُميتْ بالفاحشة، برّأها الله تعالى بالقرآن، فما رضي لها ببراءة صبيٍّ ولا نبيٍّ حتى برّأها الله بكلامه من القذف والبهتان[١].

وروي عن عليّ بن زيد بن جُدعان، عن جدّته، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لقد أُعطيتُ تسعاً ما أُعطيتهن امرأةٌ: لقد نزلَ جبريلُ عليه السلام بصورتي في راحته حين أمرَ رسول الله ﷺ أنْ يتزوَّجني، ولقد تزوَّجني بِكْراً، وما تزوَّج بِكْراً غيري، ولقد تُوُفّيَ ﷺ وإنَّ رأسَه لفي حِجْري، ولقد قُبرَ في بيتي، ولقد حفَّتِ الملائكةُ بيتي، وإنْ كان الوحيُ لينزلُ عليه وهو في أهله فيتفرقون[٢] عنه، وإن كان لَينزلُ عليه وأنا معه في لحافِه فما يُبِينُني عن جسده، وإني لابنةُ خليفتِه وصديقِه، ولقد نَزَل عُذْرِي من السماء، ولقد خُلقتُ طيّبةً وعند طيِّبٍ، ولقد وُعدتُ مغفرةً ورزقاً كريماً؛ تَعْني قولَه تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة[٣].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه سبع عشرة مسألة:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٧ .

(٢) في (م): فينصرفون، وفي (د) فيفرقون، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف).

(٣) الوسيط ٣/ ٣١٤ - ٣١٥ ، وأخرجه أبو يعلى (٤٦٢٦)، من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن جدته، عن عائشة. وإسناده ضعيف جداً، علي بن زيد بن جدعان ضعيف، وجدته مجهولة. وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٢٤١ : في الصحيح وغيره بعضه، وفي إسناد أبي يعلى من لم أعرفهم.
وأورده البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٧/ ٢٤٨ وزاد نسبته للحميدي ولابن أبي عمر. وقد أخرج البخاري (٣٨٩٥) ومسلم (٢٤٣٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُريتُك في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سَرَقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك. . . وأخرج البخاري (٤٤٤٧) ومسلم (٢٤٤٣) عن عائشة قولها: لما كان يومي قبضه الله بين سَحْري ونَحْري.

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا﴾ لما خصَّص الله سبحانه ابنَ آدم الذي كرَّمه وفضَّله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار، وملَّكهم الاستمتاعَ بها على الانفراد، وحَجَر على الخلق أن يطَّلعوا على ما فيها من خارج، أو يَلِجُوها من غير إذنِ أربابها[١]، أدَّبهم بما يرجع إلى الستر عليهم؛ لئلا يطَّلع أحدٌ منهم على عَوْرة.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنِ اطَّلعَ في بيتِ قومٍ بغير[٢] إذنهم، حلَّ لهم أن يفقؤوا عينَه»[٣].

وقد اختلف في تأويله؛ فقال بعضُ العلماء: ليس هذا على ظاهره، فإن فقأ فعليه الضمانُ، والخبرُ منسوخٌ[٤]، وكان قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ﴾ [النحل: ١٢٦].

ويحتمل أن يكونَ خَرَج على وجه الوعيدِ، لا على وجه الحَتْم، والخبرُ إذا كان مخالفاً لكتاب الله تعالى، لا يجوز العملُ به، وقد كان النبيُّ ﷺ يتكلَّم بالكلام في الظاهر وهو يريد شيئاً آخر، كما جاء في الخبر: أنَّ عباس بن مِرْداس لمَّا مَدَحه قال لبلال: «قُمْ فاقطع لسانَه»[٥] وإنَّما أراد بذلك أن يدفعَ إليه شيئاً، ولم يُرِدْ به القطعَ في الحقيقة.

وكذلك هذا يحتمل أن يكون ذكر فَقْء العين، والمراد أن يُعمل به عملٌ؛ حتى لا ينظرَ بعد ذلك في بيت غيرِه.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٤٦ .

(٢) في (م) و(د) و(ز): من غير، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم (٢١٥٨)، وأخرجه بنحوه أحمد (٨٩٩٧)، والبخاري (٦٩٠٢).

(٤) لم نقف على من ذكر أن الخبر منسوخ، ومن قال: عليه الضمان؛ تأول الحديث بما سيرد. ينظر فتح الباري ١٢/٢٤٤ - ٢٤٥ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/٣١٣ - ٣١٤ ، والمعلم للمازري ٢/٢٤٩ ، وإكمال المعلم ٥/٤٧٢ ، والمفهم ٥/٣٤ .

(٥) سلف ١٠/٢٦٣ .

وقال بعضهم: لا ضمانَ عليه ولا قصاص، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لحديث أنس، على ما يأتي[(١)].

الثانية: سببُ نزول هذه الآيةِ ما رواه الطبريُّ وغيرُه: عن عَدِيّ بن ثابت، أنَّ امرأةً من الأنصار قالت: يا رسول الله، إنِّي أكونُ في بيتي على حالٍ لا أحِبُّ أن يراني عليها أحدٌ، لا والد ولا ولد، فيأتي الأبُ فيدخل عليَّ، وإنَّه لا يزال يدخل عليَّ رجلٌ من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية[(٢)].

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسولَ الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرقِ الشام ليس فيها ساكن؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾[(٣)].

الثالثة: مدّ الله سبحانه وتعالى التحريمَ في دخول بيتٍ ليس هو بيتك إلى غاية هي الاستئناس[(٤)]، وهو الاستئذان، قال ابنُ وهب: قال مالك: الاستئناس فيما نرى والله أعلم: الاستئذان، وكذا في قراءة أُبَيّ وابنِ عباس وسعيدِ بن جُبير: «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا»[(٥)].

وقيل: إنَّ معنى «تستأنسوا»: تستعلموا، أي: تستعلموا مَنْ في البيت. قال مجاهد: بالتنحنح، أو بأي وجهٍ أمكن، ويتأنّى قدرَ ما يَعلم أنّه قد شُعِر به، ويدخل إثْر ذلك. وقال معناه الطبري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء:٦] أي: علمتم[(٦)]. وقال الشاعر[(٧)]:

---

(١) عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة، المسألة الثانية.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤٢ - ٢٤٣ ، والواحدي في أسباب النزول ص٣٣٧ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٣٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٧ ، والتمهيد ٣/ ١٩٢ ، ١٩٦ ، والاستذكار ٢٧/ ١٥٩ - ١٦٠ ، ولم يذكر قراءة سعيد بن جبير.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٥ . وتفسير الطبري ١٧/ ٢٤٣ ، وتفسير مجاهد ٢/ ٤٣٩ .

(٧) هو الحارث بن حِلِّزة، كما في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٥٧ ، والمعاني الكبير ١/ ٣٤٣ ، =

آنَسَتْ نَبْأَةً وأفزعها القُنَّـ ـاصُ عصراً وقد دنا الإمساءُ

قلت: وفي «سنن ابن ماجه»: حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدّثنا عبدُ الرحيم بن سليمان، عن واصل بن السائب، عن أبي سَوْرة، عن أبي أيوب الأنصاريّ قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئذان؟ قال: «يتكلم الرجلُ بتسبيحةٍ وتكبيرةٍ وتحميدةٍ، ويَتَنحنَح، ويُؤذِن أهلَ البيت(١)».

قلت: وهذا نصٌّ في أنَّ الاستئناسَ غيرُ الاستئذان، كما قال مجاهد ومن وافقه.

الرابعة: وروي عن ابن عباس ـ وبعض الناس يقول: عن سعيد بن جُبير ـ: «حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا» خطأ أو وَهَم من الكاتب، إنَّما هو: «حتى تستأذنوا». وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيرِه(٢)؛ فإنَّ مصاحفَ الإسلام كلَّها قد ثبت فيها ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾، وصحَّ الإجماع فيها من لَدُن مدَّة عثمان، فهي التي لا يجوزُ خلافُها، وإطلاقُ الخطأ والوَهَم على الكاتبِ في لفظٍ أجمع الصحابةُ عليه قولٌ لا يصح عن ابن عباس(٣)، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

= والحيوان ٤/ ٣٨٩ . قال النحاس: آنست: أحست، النبأة: الصوت الخفي، القنّاص: الصيادون، والعصر: العشي.

(١) سنن ابن ماجه (٣٧٠٧). قال في مصباح الزجاجة ٤/ ١١٠ : هذا إسناد ضعيف؛ أبو سورة هذا، قال البخاري: منكر الحديث، يروي عن أبي أيوب مناكير لا يتابع عليها.

وفيه أيضاً واصل بن السائب؛ قال البخاري في التاريخ الكبير ٨/ ١٧٣ : منكر الحديث.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ ، وأخرج أثر ابن عباس الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٣٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٨٠٢) من طريقين عن أبي بشر جعفر بن إياس أبي وحشية، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وأخرجه الطبري ١٧/ ٢٤٠ ، والبيهقي في الشعب (٨٨٠٣) من طريق شعبة، عن جعفر أبي بشر، عن سعيد بن جبير. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٨٠): وهذا غريب جداً عن ابن عباس. وقال أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٤٤٥ : ومن روى عن ابن عباس أن قوله: تستأنسوا خطأ أو وهم من الكاتب فهو طاعن في الإسلام؛ ملحد في الدين، وابن عباس بريء من هذا القول.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

وقد روي عن ابن عباس: أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، والمعنى: حتى تسلِّموا على أهلها وتستأنسوا. حكاه أبو حاتم[١].

قال ابنُ عطية[٢]: ومما يَنْفِي هذا القولَ عن ابن عباس وغيره أنَّ «تستأنسوا» متمكنة في المعنى، بيِّنةُ الوجه في كلام العرب. وقد قال عمر للنبيِّ ﷺ: أستأنسُ يا رسول الله؟ وعمرُ واقفٌ على باب الغرفة. الحديث المشهور[٣]. وذلك يقتضي أنه طلبَ الأنس به ﷺ، فكيف يخطِّئ ابنُ عباس أصحابَ الرسول في مثل هذا.

قلت: قد ذكرنا من حديث أبي أيوب أنَّ الاستئناسَ إنَّما يكون قبل السلام، وتكون الآية على بابها لا تقديم فيها ولا تأخير، وأنه إذا دخل سلّم. والله أعلم.

الخامسة: السُّنَّةُ في الاستئذان ثلاثُ مرات لا يُزاد عليها. قال ابن وهب: قال مالك: الاستئذان ثلاث، لا أحبُّ أن يزيدَ أحدٌ عليها، إلا من علم أنه لم يسمع، فلا أرى بأساً أن يزيدَ إذا استيقن أنه لم يسمع[٤].

وصورةُ الاستئذان أن يقولَ الرجل: السلام عليكم أأدخل؟ فإن أُذِن له دَخَل، وإن أمر[٥] بالرجوع انصرف، وإن سُكت عنه استأذن ثلاثاً، ثمَّ ينصرف من بعد الثلاث. وإنَّما قلنا: إنَّ السنَّةَ الاستئذانُ ثلاث مرات لا يزاد عليها؛ لحديث أبي موسى الأشعريّ، الذي استعمله مع عمر بن الخطاب، وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخُدريُّ، ثم أُبيّ بن كعب، وهو حديثٌ مشهور أخرجه الصحيح[٦]، وهو نصٌّ

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٤٥ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤١ .

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩) (٣٤) مطولاً من حديث ابن عباس.

(٤) التمهيد ٣/ ١٩٢ ، والاستذكار ٢٧/ ١٥٩ .

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) أمره، وفي (ف) أمر له، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ والكلام منه.

(٦) صحيح البخاري (٦٢٤٥)، وصحيح مسلم (٢١٥٣)، وهو في مسند أحمد (١٩٦١١)، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

صريح؛ فإن فيه: فقال ـ يعني عمر ـ: ما مَنَعك أنْ تأتِينا؟ فقلت: أتيتُ فسلَّمتُ على بابِكَ ثلاثَ مراتٍ فلم تردّ عليَّ، فرجعتُ، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «إذا استأذنَ أحدُكم ثلاثاً فلم يُؤذَن له فَلْيرجِع».

وأما ما ذكرناه من صورة الاستئذان، فلِما[1] رواه أبو داود، عن رِبْعِيّ قال: حدّثنا رجلٌ من بني عامر، استأذن على النبيِّ ﷺ وهو في بيتٍ، فقال: ألِجُ[2]؟ فقال النبيُّ ﷺ لخادمه: «اخرُجْ إلى هذا فعلِّمْهُ الاستئذانَ؛ فقل[3] له: قُل: السلامُ عليكم، أأَدخل» فسمعه الرجلُ، فقال: السلام عليكم، أأدخلُ؟ فأَذِنَ له النبيُّ ﷺ فدخل[4].

وذكره الطبري، وقال: فقال رسول الله ﷺ لأمةٍ له يقال لها: روضة: «قولي لهذا يقول: السلامُ عليكم، أأدخلُ؟» الحديث[5].

وروي أنَّ ابنَ عمر آذته الرَّمضاءُ يوماً، فأتى فُسْطاطاً لامرأةٍ من قريش، فقال: السلام عليكم أأَدخلُ؟ فقال المرأةُ: ادخل بسلامٍ، فأعاد فأعادتْ، فقال لها: قولي: ادخُلْ، فقالت ذلك، فَدَخل. فتوقَّف لما قالت: بسلامٍ؛ لاحتمال اللفظِ أن تريدَ بسلامك لا بشخصك[6].

---

(١) في (م): فما.

(٢) في (د) و(ظ): أألج.

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ف): فقال، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في سنن أبي داود.

(٤) سنن أبي داود (٥١٧٧). وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١٠٠٧٥)، وأحمد (٢٣١٢٧) من طريق منصور، عن ربعي بن حِراش، عن رجل من بني عامر. وهذا إسناد منقطع، ربعي لم يسمعه من الرجل العامري، فقد أخرجه أبو داود (٥١٧٨) من طريق منصور، عن ربعي، قال: حُدِّثْتُ أن رجلاً من بني عامر...، وكذلك أخرجه من طريق منصور، عن ربعي، ولم يقل عن رجل من بني عامر. وله شاهد من حديث كلدة بن حنبل، سيرد في المسألة الثالثة عشرة. ومن حديث ابن عمر سيرد قريباً.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤١ - ٢٤٢ من طريق ابن سيرين وعمر بن سعيد الثقفي: أن رجلاً استأذن ...، فذكره، وهو خبر منقطع، ابن سيرين وعمرو بن سعيد تابعيان، لم يدركا عهد النبوة.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ ، وأخرج الأثر الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤١ وإسناده منقطع. والرمضاء: الأرض الشديدة الحرارة، والفسطاط: بيت يتخذ من الشعر. القاموس (رمض)، والمعجم الوسيط (فسط).

السادسة: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما خُصّ الاستئذان بثلاث؛ لأنَّ الغالبَ من الكلام إذا كُرِّر ثلاثاً سُمع وفُهم؛ ولذلك كان النبيُّ ﷺ إذا تكلَّم بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى يُفهم عنه، وإذا سلَّم على قومٍ سلَّم عليهم ثلاثاً[(١)]. وإذا كان الغالبُ هذا؛ فإذا لم يُؤذن له بعد ثلاثٍ، ظهر أنَّ ربَّ المنزل لا يريدُ الإذنَ، أو لعلَّه يمنعه من الجواب عنه عذرٌ لا يُمكنُه قطعُه؛ فينبغي للمستأذن أن ينصرفَ؛ لأنَّ الزيادةَ على ذلك قد تُقلق ربَّ المنزل، وربَّما يضره الإلحاحُ حتى ينقطع عما كان مشغولاً به، كما قال النبيّ ﷺ لأبي أيوب حين استأذن عليه، فخرج مستعجلاً فقال: «لعلَّنا أعجلناك...» الحديث[(٢)].

وروى عُقيل عن ابن شهاب قال: أما سنة التسليمات الثلاث فإنَّ رسولَ الله ﷺ أتى سعد بن عُبادة فقال: «السَّلام عليكم» فلم يردّوا، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «السلام عليكم» فلم يردّوا، فانصرف رسولُ الله ﷺ، فلما فَقَد سعدٌ تسليمَه، عرف أنه قد انصرف؛ فخرج سعدٌ في أثره حتى أدركه، فقال: وعليكَ السَّلام يا رسولَ الله، إنَّما أردنا أنْ نستكثرَ من تسليمك، وقدْ ـ واللهِ ـ سمعنا، فانصرف رسولُ الله ﷺ مع سعدٍ حتى دخل بيتَه[(٣)].

قال ابنُ شهاب: فإنَّما أخِذ التسليم ثلاثاً من قِبَل ذلك، رواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعيّ قال: سمعت يحيى بن أبي كثيرٍ يقول: حدثني محمدُ بن عبد الرحمن بنِ أسعد بن زُرارة [عن قيس بن سعد] قال: زارنا رسولُ الله ﷺ في منزلنا، فقال:

---

(١) المفهم ٥/ ٤٧٤ ، والحديث أخرجه أحمد (١٣٢٢١)، والبخاري (٩٤) عن أنس ﷺ.

(٢) المفهم ٥/ ٤٧٤ - ٤٧٥ ، وهذه القصة لم نقف عليها منسوبة لأبي أيوب، وقد أخرج أحمد (١١١٦٢) والبخاري (١٨٠)، ومسلم (٣٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجلٍ من الأنصار، فأرسل إليه، فخرج ورأسه يقطر، فقال له: «لعلنا أعجلناك». وهذا الرجل الأنصاري سماه مسلم في رواية أخرى (٣٤٣): عِتْبان. وينظر فتح الباري ١/ ٢٨٤ .

(٣) أخرج قصة سعد بن عبادة أحمد (١٥٤٧٦)، وأبو داود (٥١٨٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٨٣). ولم نقف على قول الزُّهري.

«السلام عليكم ورحمة الله» قال: فردَّ سعدٌ ردًّا خفيًّا، قال قيس: فقلتُ: ألا تأذنُ لرسولِ الله ﷺ؟ فقال: ذَرْه يُكثرْ علينا من السلام... الحديث. أخرجه أبو داود[١] وليس فيه «قال ابنُ شهاب: فإنَّما أخذ التسليم ثلاثاً من قِبَل ذلك». قال أبو داود[٢]: ورواه عمر بن عبد الواحد وابن سماعة عن الأوزاعيّ مرسلاً، لم يذكرا قيس بن سعد.

السابعة: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الاستئذانَ تَرَكَ العملَ به الناسُ. قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وذلك لاتخاذ الناس الأبوابَ وقَرْعها، والله أعلم[٣].

روى أبو داود عن عبد الله بن بُسر قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أتى بابَ قومٍ، لم يستقبل البابَ من تلقاءِ وجههِ، ولكنْ من رُكنه الأيمن أو الأيسر، فيقول: «السَّلامُ عليكم السَّلامُ عليكم» وذلك أنَّ الدُّورَ لم يكن عليها يومئذٍ ستورٌ[٤].

الثامنة: فإن كان البابُ مردوداً، فله أن يقفَ حيثُ شاء منه ويستأذن[٥]، وإن شاء دقَّ الباب؛ لما رواه أبو موسى الأشعري، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان في حائطٍ بالمدينة على قُفِّ البئر مدلٍ[٦] رجليه في البئر، فدقَّ البابَ أبو بكر، فقال له رسولُ الله ﷺ: «اِيذن له وبشِّرْه بالجنةِ»[٧]. هكذا رواه عبدُ الرحمن بن أبي الزناد، وتابعه صالح بن

---

(١) في سننه (٥١٨٥)، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٠٨٤) وأحمد (١٥٤٧٦) وما بين حاصرتين منهما.

(٢) في سننه عقب الحديث السالف.

(٣) التمهيد ٣/ ٢٠٣، وخبر ابن عباس أخرجه أبو داود (٥١٩٢) من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٨/ ٦٦: قال بعضهم: هذا لا يصح عن ابن عباس.

(٤) سنن أبي داود (٥١٨٦). وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٨/ ٦٢: في إسناده بقية، وفيه مقال. اهـ وهو متابع بإسماعيل بن عياش كما عند أحمد (١٧٦٩٢)، وعثمان بن سعيد بن كثير ويحيى بن سعيد العطار كما عند البيهقي في شعب الإيمان (٨٨٢٢) و(٨٨٢٣).

(٥) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب ١/ ٢٣٨.

(٦) في (م): فمد.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٦٥٣)، والبخاري (٧٠٩٧)، ومسلم (٢٤٠٣) مطولاً، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٣٩. واللفظ له، قوله: قُفّ البئر: هو الدَّكّة التي تُجعل حولها، وأصل القفّ: ما غلظ من الأرض وارتفع. النهاية (قفف).

كَيْسان ويونس بن يزيد، فرووه جميعاً عن أبي الزناد، عن أبي سلمة، عن عبد الرحمن ابن نافع، عن أبي موسى. وخالفهم محمدُ بن عمرو الليثي، فرواه عن أبي الزِّناد، عن أبي سلمة، عن نافع بن عبد الحارث، عن النبيِّ ﷺ كذلك، وإسناد الأوّل أصح، والله أعلم[١].

التاسعة: وصفةُ الدَّقِّ أن يكون خفيفاً بحيث يسمع، ولا يَعنُف في ذلك؛ فقد روى أنسُ بن مالكٍ ﵁ قال: كانت أبوابُ النبيِّ ﷺ تُقرع بالأظافير. ذكره أبو بكر أحمدُ بن علي بن ثابت الخطيب في «جامعه»[٢].

العاشرة: روى الصحيحان وغيرُهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: استأذنتُ على النبيِّ ﷺ، فقال: «مَنْ هذا»؟ فقلتُ: أنا، فقال النبيُّ ﷺ: «أنا أنا»! كأنَّه كره ذلك[٣].

قال علماؤنا: إنَّما كره النبيُّ ﷺ ذلك؛ لأنَّ قولَه: أنا، لا يحصل بها تعريف[٤]، وإنَّما الحكمُ في ذلك أنْ يذكرَ اسمَه، كما فعل عمر بنُ الخطاب ﵁ وأبو موسى؛ لأنَّ في ذِكْر الاسم إسقاطَ كُلْفة السؤال والجواب[٥]. ثبت عن عمرَ بنِ الخطاب، أنَّه أتى النبيَّ ﷺ وهو في مَشْرُبة له، فقال: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله، السَّلامُ عليكم، أيدخلُ عمر؟[٦] وفي «صحيح مسلم»[٧] أنَّ أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: السَّلامُ عليكم، هذا أبو موسى، السَّلامُ عليكم، هذا الأشعري...الحديث.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٢) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٤٠ ، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٨٢١).

(٣) صحيح البخاري (٦٢٥٠)، وصحيح مسلم (٢١٥٥)، وهو في مسند أحمد (١٤٤٣٩).

(٤) معالم السنن ٤/ ١٥٤ ، والمفهم ٥/ ٤٧٨ .

(٥) المفهم ٥/ ٤٧٨ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٥٦)، وأبو داود (٥٢٠١)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) (٢١٥٤) وسلف في المسألة الخامسة.

الحادية عشرة: ذكر الخطيب في «جامعه»[١] عن عليّ بن عاصم الواسطيِّ، قال: قدمتُ البصرةَ، فأتيتُ منزلَ شُعبة، فدققتُ عليه البابَ، فقال: مَنْ هذا؟ قلتُ: أنا، فقال: يا هذا، ما لي صديقٌ يقال له: أنا، ثم خرج إليَّ، فقال: حدّثني محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في حاجةٍ لي فضربتُ[٢] عليه البابَ فقال: «مَنْ هذا»؟ فقلتُ: أنا، فقال: «أنا أنا»! كأنّ رسولَ الله ﷺ كره قولي هذا، أو قولَه هذا. وذَكَر عن عمر بن شَبَّة، حدّثنا محمد بن سلام، عن أبيه، قال: دققتُ على عمرو بن عُبيد[٣] الباب فقال لي: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: لا يعلم الغيب إلا الله. قال الخطيب: سمعت عليَّ بن المُحَسِّن القاضي[٤]، يحكى عن بعض الشيوخ، أنه كان إذا دُقَّ بابُه فقال: مَنْ ذا؟ فقال الذي على الباب: أنا، يقول الشيخ: أنا، هَم دَقّ[٥].

الثانية عشرة: ثم لكلِّ قومٍ في الاستئذان عُرْفُهم في العبارة[٦]، كما رواه أبو بكر الخطيب[٧] مُسنداً عن أبي عبد الملك مولى أُمّ مسكين بنتِ عاصم بن عمر بن الخطاب قال: أرسلتني مَوْلاتي إلى أبي هريرة، فجاء معي، فلما قامَ بالبابِ، قال:

---

(١) ١/ ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(٢) في (م) فطرقت، وفي (د) و(ز) فصرخت، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الجامع لأخلاق الراوي.

(٣) هو أبو عثمان البصري، كبير المعتزلة، توفي سنة ١٤٤هـ. السير ٦/ ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) هو أبو القاسم التنوخي البصري، البغدادي، كان يتشيع ويذهب إلى الاعتزال، مات سنة ٤٤٧هـ. السير ١٧/ ٦٥٠ .

(٥) كذا في النسخ غير (ظ)، والجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٤٤ ، ووقع في (ظ): لم يفتح، بدل قوله: يقول الشيخ أنا هم دق.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

(٧) في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٤٧ من طريق البخاري في الأدب المفرد (١١٠٠). وأبو عبد الملك: مجهول. التقريب.

أَنْدِرايم؟[(١)] قالت: أندَرُون. وترجم عليه: باب الاستئذان بالفارسية[(٢)]. وذَكَر عن أحمد بن صالح قال: كان الدَّرَاوَرْدِيُّ من أهلِ أصبهان نزل المدينةَ، فكان يقول للرجلِ إذا أراد أن يدخلَ: أندَرون، فلقبَّه أهلُ المدينة الدراوردي[(٣)].

الثالثة عشرة: روى أبو داود عن كَلَدةَ بن حنبل، أنَّ صفوان بن أُمَيَّة بعثَه إلى رسول الله ﷺ بلَبنٍ وجَدَاية وضَغَابِيس، والنبيُّ ﷺ بأعلى مكةَ، فدخلتُ ولم أُسلِّم، فقال: «ارْجِعْ فقُل: السَّلام عليكم» وذلك بعد ما أسلم صفوان بن أمية[(٤)].

وروى أبو الزُّبير، عن جابر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من لم يبدأْ بالسلام، فلا تَأذَنُوا له»[(٥)].

وذَكَر ابنُ جُريج، أخبرني عطاء قال: سمعتُ أبا هريرةَ يقول: إذا قال الرجلُ: أأدخلُ؟ ولم يُسلِّم فقل: لا. حتى يأتيَ بالمفتاح، فقلتُ: السلام عليكم؟ قال: نعم[(٦)].

ورُوي أنَّ حذيفة جاءَه رجلٌ، فنظر إلى ما في البيت، فقال: السَّلامُ عليكم، أأدخلُ؟ فقال حذيفةُ: أمَّا بعينك فقد دَخَلْتَ، وأما باسْتِكَ فلم تَدْخُل[(٧)].

---

(١) في (د) و(م): أندر. ولم تجود في باقي النسخ. والمثبت من الجامع. قال أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٧٩ : هذه كلمة فارسية معناها: آدخلُ. وينظر «النهاية» (أندرم)، والمفصَّل في الألفاظ الفارسية المعرّبة ص٩٦ .

(٢) من قوله (وترجم) إلى هنا ليس في (د) و(ز) و(ظ)، والمثبت من (م) و(ف).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٤٧ .

(٤) سنن أبي داود (٥١٧٦)، وأخرجه أحمد (١٥٤٢٥)، والترمذي (٢٧١٠)، والنسائي في الكبرى (٦٧٠٢). والجداية: من أولاد الظباء ما بلغ ستة أشهر أو سبعة، والضغابيس: واحدها ضُغبوس، وهي صغار القِثّاء. النهاية (جدا) (ضغبس).

(٥) أخرجه أبو يعلى (١٨٠٩)، والخطيب في جامعه ١/ ٢٤١ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٢ : رواه أبو يعلى، وفيه من لم أعرفه.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٦٧) ومن طريقه الخطيب في جامعه ١/ ٢٤١ .

(٧) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٩٠).

الرابعة عشرة: ومما يدخلُ في هذا الباب ما رواه أبو داود[١] عن أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رسولُ الرَّجلِ إلى الرَّجلِ إذْنُه». أي: إذا أرسل إليه فقد أذن له في الدُّخول، يبينه قولُه عليه الصلاة والسلام: «إذا دُعِيَ أحدُكم [إلى طعامٍ] فجاء مع الرسول، فإنَّ ذلك له إذنٌ». أخرجه أبو داود أيضاً عن أبي هريرة[٢].

الخامسة عشرة: فإن وقعت العينُ على العينِ، فالسلام قد تعيَّنَ، ولا تُعدُّ رؤيتُه إذناً لكَ في دخولك عليه، فإذا قضيتَ حقَّ السلام ـ لأنَّك الواردُ عليه ـ تقول: آدخلُ؟ فإنْ أذنَ لك وإلا رجعتَ[٣].

السادسة عشرة: هذه الأحكام كلُّها إنَّما هي في بيتٍ ليس لك، فأما بيتُك الذي تسكُنُه، فإن كان فيه أهلُك، فلا إذن عليها[٤]، إلا أنك تُسلِّم إذا دخلتَ. قال قتادة: إذا دخلتَ بيتَك فسلِّم على أهلك[٥]؛ فهم أحقُّ من سلَّمتَ عليهم.

فإن كان فيه معك أمُّك أو أختُك، فقالوا: تَنَحنَح واضرِبْ برجلك حتى يَنْتَبِها لدخولك؛ لأنَّ الأهلَ لا حِشْمة بينَك وبينها. وأما الأم والأُخت فقد يكونا على حالةٍ لا تُحبُّ أن تَرَاهما فيها. قال ابن القاسم: قال مالك: ويستأذن الرجلُ على أُمِّه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما. وقد روى عطاء بن يسار، أنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: أستأذنُ على أُمِّي؟ قال: «نعم»، قال: إنِّي أخدمها؟ قال: «اسْتأذِنْ عليها» فعاوده ثلاثاً، قال: «أَتحبُّ أن تراها عُرْيانة»؟ قال: لا؛ قال: «فاستأذِنْ عليها». ذكره الطبري[٦].

---

(١) في سننه (٥١٨٩).

(٢) في سننه (٥١٩٠) وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٨٩٤) وعلَّقه البخاري قبل الحديث (٦٢٤٦). وقال أبو داود: قتادة لم يسمع من أبي رافع شيئاً. اهـ. وتعقبه الحافظ في الفتح ١١/ ٣١ بقوله: قد ثبت سماعه منه في الحديث الذي سيأتي في البخاري في كتاب التوحيد (٧٥٥٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٩ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٩ .

(٥) أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٦/ ٨٧ من قول قتادة. وأخرجه الترمذي في سننه (٢٦٩٨) مرفوعاً عن أنس ﷺ وقال: حديث حسن غريب. اهـ. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(٦) في تفسيره ١٧/ ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٩ ، =

السابعة عشرة: فإن دخل بيتَ نفسِه وليس فيه أحد، فقال علماؤنا: يقول: السلام علينا، من ربِّنا التحياتُ الطيباتُ المباركاتُ، لله السلامُ. رواه ابنُ وهب عن النبيِّ ﷺ، وسندُه ضعيف[١]. وقال قتادة: إذا دخلتَ بيتاً ليس فيه أحد، فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنَّه يؤمر بذلك. قال: وذكر لنا أنَّ الملائكة تردّ عليهم[٢]. قال ابن العربي[٣]: والصحيحُ تركُ السلام والاستئذان، والله أعلم.

قلت: قول قتادة حَسَن.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ الضمير في ﴿تَجِدُوا فِيهَا﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير. وحكى الطبريُّ عن مجاهدٍ أنه قال: معنى قوله ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ أي: لم يكن لكم فيها متاع[٤]. وضعّف الطبريُّ هذا التأويل، وكذلك هو في غاية الضعف، وكأنَّ مجاهداً رأى أنَّ البيوتَ غيرَ المسكونة إنَّما تُدْخَل دونَ إذن إذا كان للدَّاخل فيها متاع. ورأى لفظة «المتاع» متاع البيت، الذي هو البُسُط والثياب، وهذا كلُّه ضعيف[٥].

= والكلام الذي قبله منه، وأخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٦٣ ، وأبو داود في المراسيل (٤٨٨)، والبيهقي ٧/٩٧ . قال ابن عبد البر في التمهيد ١٦/٢٢٩ : وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجهٍ صحيح بهذا اللفظ، وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٠ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٨٣٤) وقال: لا أعرفه إلا من حديث يزيد بن عياض، وليس بالقوي.

(٢) أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٦/ ٨٧ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٥٠ .

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٤٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ والكلام وما قبله وما بعده منه. وخبر مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٤٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

والصحيح أنَّ هذه الآيةَ مرتبطةٌ بما قبلها والأحاديثِ، والتقدير: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا، فإن أُذن لكم فادخلوا وإلا فارجعوا؛ كما فعل عليه الصلاة والسلام مع سعدٍ، وأبو موسى مع عمر رضي الله عنهما. فإنْ لم تجدوا فيها أحداً يأذَنُ لكم، فلا تدخلوها حتى تجدوا إذناً[١].

وأسند الطبريُّ[٢] عن قتادة قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبتُ عُمُري كلَّه[٣] هذه الآيةَ فما أدركتها، أن أستأذن على بعض إخواني، فيقولَ لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

الثانية: لا بد من الإذن[٤]؛ سواء كان البابُ مغلقاً أو مفتوحاً؛ لأنَّ الشرعَ قد أَغلقَه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذنُ من ربِّه، بل يجبُ عليه أن يأتي البابَ ويحاول الإذنَ على صفةٍ لا يطَّلعُ منه على البيت لا في إقباله ولا في انقلابه، فقد روى علماؤنا عن عمرَ بنِ الخطاب أنه قال: مَنْ مَلأَ عينيه من قاعة بيت، فقد فَسَق[٥].

وروى الصحيح عن سهل بن سعد، أنَّ رجلاً اطَّلع من جُحْرٍ في باب رسولِ الله ﷺ، ومع رسولِ الله ﷺ مِدْرًى يُرجِّل به رأسَه، فقال له رسولُ الله ﷺ: «لو أعلم أنَّك تنظرُ، لطَعَنْتُ به في عينك؛ إنَّما جَعلَ اللهُ الإذنَ من أجل البصر»[٦].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٠ وحديث عمر سلف ص١٩٤ من هذا الجزء، وحديث سعد سلف أيضاً ص١٩٢ من هذا الجزء.

(٢) في تفسيره ١٧/ ٢٤٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

(٣) قوله: كله، من (م) وتفسير الطبري.

(٤) قوله: لا بد من الإذن، من (ظ).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥١ ، وأخرج أثر عمر البخاريُّ في الأدب المفرد (١٠٩٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٨٢٨)، والقزويني في التدوين ١/ ١٥٢ من طريق عمار بن سعد التُّجِيبي، عن عمر موقوفاً. وعمار بن سعد لم يدرك عمر بن الخطاب ﷺ. تهذيب الكمال ٥/ ٣١٤ .

(٦) صحيح البخاري (٦٩٠١)، وصحيح مسلم (٢١٥٦)، وهو في مسند أحمد (٢٢٨٠٢). المدرى، والمدراة: شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سِنٍّ من أسنان المشط يسرح به الشَّعَر المتلبد. النهاية (درى)، والمفهم ٥/ ٤٧٩ .

وروى عن أنس، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنَّ رجلاً اطَّلع عليك بغير إذنٍ فَخَذَفته بحصاةٍ، ففقأتَ عينَه، ما كان عليك من جُناح»[(١)].

الثالثة: إذا ثبت أنَّ الإذنَ شرطٌ في دخول المنزل، فإنه يجوز من الصغير والكبير، وقد كان أنس بن مالك دون البلوغ، يستأذنُ على رسول الله ﷺ، وكذلك الصحابةُ مع أبنائهم وغلمانهم ﷺ[(٢)]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في آخر السورة[(٣)] إن شاء الله تعالى.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ توعّدٌ لأهل التَّجسُّس على البيوت وطلب الدخول على غفلةٍ للمعاصي والنظر إلى ما لا يحل[(٤)]، ولغيرهم ممن يقع في محظور.

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾

فيه مسألتان:

الأولى: رُويَ أنَّ بعضَ الناس لما نزلت آيةُ الاستئذان تعمَّق في الأمر، فكان لا يأتي موضعاً خَرِباً ولا مسكوناً إلا سلَّم واستأذَنَ؛ فنزلتْ هذه الآيةُ، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كلِّ بيتٍ لا يسكنُه أحدٌ؛ لأنَّ العلةَ في الاستئذان إنَّما هي لأجل خوف الكَشْفة على الحُرُمات، فإذا زالت العلةُ زال الحكمُ[(٥)].

---

(١) لم نقف عليه من حديث أنس، وأخرجه البخاري (٦٩٠٢)، ومسلم (٢١٥٨) (٤٤) وأحمد (٧٣١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥١ .

(٣) عند تفسير الآية (٥٨).

(٤) في (م) ما لا يحل ولا يجوز، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ والكلام منه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧ .

الثانية: اختلف العلماء في المراد بهذه البيوت:

فقال محمدُ بن الحنفيّة، وقتادةُ، ومجاهد: هي الفنادق التي في طرق السَّابلة. قال مجاهد: لا يسكنها أحدٌ، بل هي موقوفةٌ ليأويَ إليها كلُّ ابن سبيلٍ، وفيها متاع لهم، أي: استمتاع بمنفعتها.

وعن محمد بن الحنفية أيضاً: أنَّ المراد بها دورُ مكة، ويُبيِّنه قول مالك، وهذا على القول بأنها غير متملَّكة، وأنَّ الناسَ شركاءُ فيها، وأنَّ مكةَ أُخذت عَنْوةً.

وقال ابن زيد والشَّعْبيّ: هي حوانيت القَيْسَارِيّات[١]. قال الشعبيُّ: لأنَّهم جاؤوا ببيوعهم فجعلوها فيها، وقالوا للناس: هَلُمّ. وقال عطاء: المراد بها الخِرَب التي يدخلها الناسُ للبول والغائط؛ ففي هذا أيضاً متاع[٢].

وقال جابر بن زيد: ليس يعني بالمتاع الجَهازَ، ولكن ما سواهُ من الحاجة، أمَّا منزل ينزله قومٌ من ليلٍ أو نهار، أو خَرِبة يدخلها [الرجل] لقضاء حاجة، أو دار ينظر إليها، فهذا متاع، وكلُّ منافع الدنيا متاع. قال أبو جعفر النحاس[٣]: وهذا شرحٌ حسنٌ من قول إمامٍ من أئمة المسلمين، وهو موافقٌ للغة. والمتاع في كلام العرب: المنفعة، ومنه: أمتعَ الله بك، ومنه: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩].

قلت: واختاره أيضاً القاضي أبو بكر بن العربيّ[٤]، وقال: أمَّا مَنْ فسَّر المتاعَ بأنَّه جميع الانتفاع، فقد طبَّق المفصَّل وجاء بالفَيْصل، وبيَّن أنَّ الداخلَ فيها إنَّما هو لما لَه من الانتفاع؛ فالطالبُ يدخل في الخانكات - وهي المدارس - لطلب العلم، والساكنُ يدخل الخانات، - وهي الفناتق، أي: الفنادق[٥] - [للمنزل فيه]، والزَّبون

(١) القيسارية: الخان الكبير الذي يشغله التجار والمسافرون، قد يشمل على سوق مسقوفة، معروف من العصر المملوكي، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ٣٥٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧. وأخرج الأقوال السابقة الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤٩-٢٥١.

(٣) في الناسخ والمنسوخ له ٢/ ٥٤٩، وما قبله منه.

(٤) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣٥٢ و وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٩، وتهذيب اللغة ٩/ ٤١٢.

يدخل الدُّكان للابتياع، والحاقن يدخل الخلاءَ للحاجة، وكلٌّ يؤتى على وجهه من بابه.

وأما قول ابن زيد والشَّعبيّ فقول [غلط]، وذلك أنَّ بيوتَ القَيْساريّات محظورةٌ بأموال الناس، غيرُ مباحة لكلِّ من أراد دخولَها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أذِن له ربُّها، بل أربابُها موكَّلون بدفع الناس[١].

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ وَصَل تعالى بذكر السَّتر ما يتعلّقُ به من أمر النَّظر، يقال: غضَّ بَصَره يغُضُّه غضًّا، قال الشاعر:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّك من نُمَيرٍ فلا كَعْباً بلَغْتَ ولا كِلابا[٢]

وقال عَنْتَرة[٣]:

وأغضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها

ولم يذكر اللهُ تعالى ما يُغَضّ البصر عنه ويحفظ الفرج، غيرَ أنَّ ذلك معلوم بالعادة، وأنَّ المرادَ منه المحرَّم دون المحلَّل.

وفي البخاري: وقال سعيدُ بن أبي الحسن للحسن: إنَّ نساءَ العَجَم يكشِفْنَ صدورَهن ورؤوسَهن؟ قال: اصْرِفْ بصَرك؛ يقول الله تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ﴾. وقال قتادة: عما لا يحلُّ لهم، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩] [من] النَّظرِ إلى ما نُهِيَ عنه[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧ . وما بين حاصرتين منه.

(٢) ينظر الصحاح (غضض)، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ص٦٣ .

(٣) وهو في ديوانه ص٧٦ .

(٤) صحيح البخاري، قبل حديث (٦٢٢٨) وما بين حاصرتين منه، وينظر تغليق التعليق ٥/ ١٢٠ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ «من» زائدة، كقوله ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧]. وقيل: «من» للتبعيض؛ لأنَّ من النَّظرِ ما يُباح. وقيل: الغضُّ: النقصان، يقال: غضَّ فلان من فلان، أي: وَضَع منه، فالبصر إذا لم يمكَّن من عمله، فهو موضوعٌ منه ومنقوص. فـ«من» صلة للغضّ، وليست للتبعيض ولا للزيادة(١).

الثالثة: البَصَر هو الباب الأكبرُ إلى القلب، وأعْمَرُ طرقِ الحواسِّ إليه، وبحسب ذلك كَثُر السقوطُ من جهته، ووجب التحذيرُ منه(٢)، وغضُّه واجب عن جميع المحرمات، وكلِّ ما يخشى الفتنة من أجله، وقد قال ﷺ: «إياكم والجلوسَ على الطُّرُقات»، فقالوا: يا رسولَ الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدَثُ فيها، فقال: «فإذا أبَيْتُم إلا المجلسَ، فأعطُوا الطريقَ حقَّه» قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسولَ الله؟ قال: «غَضُّ البَصَر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر». رواه أبو سعيد الخُدْريّ، خرّجه البخاري ومسلم(٣).

وقال ﷺ لعليّ: « لا تُتبع النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنَّما لك الأُولى، وليست لك الثانية»(٤).

وروى الأوزاعِيُّ، قال: حدثني هارون بن رِئاب، أنَّ غَزْوان وأبا موسى الأشعرِيَّ كانا في بعض مَغازِيهم، فتكشَّفتْ جاريةٌ، فنَظَر إليها غَزْوان، فرفع يده فلطم عينَه حتى نَفَرَت، فقال: إنكِ لَلحّاظة إلى ما يضرك ولا ينفعك، فلقِيَ أبا موسى، فسأله، فقال: ظلمتَ عينَك، فاستغفرِ اللهَ وتُب، فإنَّ لها أوَّلَ نظرة، وعليها ما كان بعد ذلك. قال الأوزاعي، وكان غَزْوان مَلَك نفسَه، فلم يضحك حتى مات ﷺ(٥).

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٠٢ بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧ .

(٣) صحيح البخاري (٢٤٦٥)، وصحيح مسلم (٢١٢١)، وهو في مسند أحمد (١١٣٠٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٣٦٩)، وأبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧).

(٥) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ٣/ ٢٥٢ دون إسناد، وورد الخبر أيضاً بنحوه عن عتبة بن غزوان، فيما أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦١ ـ ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (ترجمة عتبة بن =

وفي «صحيح مسلم» عن جرير بن عبد الله قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن نظرة الفُجَاءة، فأمرني أن أصرفَ بصري»[(١)].

وهذا يقوّي قولَ من يقول: إن «من» للتبعيض؛ لأنَّ النظرة الأولى لا تُمْلَك، فلا تدخل تحت خطاب تكليف؛ إذ وقوعها لا يتأتّى أن يكون مقصوداً، فلا تكون مكتسبةً، فلا يكون مكلفاً بها[(٢)]، فوجب التبعيض لذلك، ولم يقل ذلك في الفرج؛ لأنَّها تُمْلك.

ولقد كره الشعبيُّ أن يُديمَ الرجلُ النظرَ إلى ابنته أو أمه أو أخته، وزمانُه خيرٌ من زماننا هذا، وحرام على الرجل أن ينظرَ إلى ذاتِ مَحْرم[(٣)] نظرَ شهوةٍ يُردِّدُها.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ﴾ أي: يستروها عن أنْ يراها من لا يحلّ.

وقيل: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ﴾ أي: عن الزِّنى، وعلى هذا القول لو قال: «من فروجهم» لجاز، والصحيح أنَّ الجميع مرادٌ، واللفظ عام[(٤)].

ورَوى بَهْز بن حكيم بن معاوية القُشَيْرِيُّ عن أبيه عن جده قال: قلتُ: يا رسول الله، عوراتُنا ما نَأْتي منها وما نَذَرُ؟ قال: «احفَظْ عورتَكَ إلا من زوجتِكَ أو ما ملكتْ يَمينُك». قال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: «إن استطعتَ ألا يراها [أحدُ] فافعل». قلت: فالرجل يكون خالياً؟ فقال: «الله أحقُّ أن يُستحيا منه من الناس»[(٥)].

= غزوان) - من طريق الأوزاعي، عن هارون بن رئاب، قال: عن عتبة بن غزوان.

وأورد خبر عتبة بن غزوان أيضاً أحمد في الورع ١١٦، ونعيم بن حمَّاد في زوائده على الزهد (٣٢٤) مختصراً. ونفرت العين، أي: هاجت وورِمتْ. لسان (نفر).

(١) صحيح مسلم (٢١٥٩)، وهو في مسند أحمد (١٩١٦٠).

(٢) المفهم ٥/ ٤٨٣ .

(٣) في (م) و(د) و(ف): ذاتِ محرمة. وليست في (خ) و (ز)، والمثبت من (ظ). وهو الموافق لما في الاستذكار ٢٦/ ٣٤٤ ، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، والنسائي في الكبرى (٨٩٢٣)، =

وقد ذكرت عائشةُ رضي الله عنها رسول الله ﷺ وحالَها معه، فقال: ما رأيتُ ذلك منه، ولا رأى ذلك مني[1].

الخامسة: بهذه الآية حرَّم العلماءُ نصًّا دخولَ الحمَّام بغير مِئزر[2]. وقد رُوي عن ابن عمر أنَّه قال: أطْيَبُ ما أنفقَ الرجلُ درهمٌ يعطيه للحمّام في خلوة.

وصحَّ عن ابن عباس أنه دَخلَ الحمَّامَ وهو مُحرِم بالجُحْفة[3]. فدخولُه جائزٌ للرجال بالمآزر، وكذلك النساء للضرورة، كغُسْلهنَّ من الحيض، أو النِّفاس، أو مرض يلحقهنّ، والأوْلَى بهنَّ والأفضلُ لهنَّ غُسْلُهن إن أمكن ذلك في بيوتهنَّ؛ فقد رَوى أحمدُ بن مَنيع، حدّثنا الحسن بن موسى، حدّثنا ابن لَهِيعة، حدّثنا زَبّان، عن سهل بن معاذ، عن أبيه، عن أمّ الدَّرْداء، أنَّه سمعها تقول، لقِيَني رسولُ الله ﷺ وقد خرجتُ من الحمَّام، فقال: «مِنْ أينَ يا أمَّ الدَّرداء»؟ فقالت: من الحمَّام، فقال: «والذي نفسي بيده، ما من امرأةٍ تَضعُ ثيابَها في غير بيت أحدٍ من أُمَّهاتِها، إلا وهي هاتِكةٌ كلَّ سترٍ بينها وبين الرحمن عزَّ وجلَّ»[4].

= وابن ماجه (١٩٢٠) قال الترمذي: هذا حديث حسن، وجد بهز اسمه معاوية بن حيدة القشيري . اهـ. وما بين حاصرتين من المصادر.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٣ ، وأخرجه أحمد (٢٤٣٤٤)، وابن ماجه (٦٦٢)، والترمذي في الشمائل (٣٥٢) عن عائشة بنحوه. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عائشة.

وأخرجه الطبراني في الصغير (١٣٨)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٧٩ عن عائشة بنحوه، وفي إسناده بركة بن محمد، قال ابن عدي: سائر أحاديث بركة مناكير، باطل كلها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧-١٧٨ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٣٩٤ (نشرة العمروي).

(٤) هو عند أحمد بن منيع، كما في إتحاف الخيرة المهرة ١/ ٣٠١، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٠٣٨)، والطبراني في الكبير ٢٤/ (٦٤٥) بهذا الإسناد، وهو مسلسل بالضعفاء، وهم ابن لهيعة، وزبّان بن فائد، وسهل بن معاذ بن أنس الجهني.

وأخرجه أحمد (٢٧٠٤١)، والطبراني في الكبير ٢٤/ (٦٥٢) من طريق آخر عن أمّ الدرداء، وإسناده حسن. قال الهيثمي في المجمع ١/ ٢٧٧ : رواه أحمد والطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح.

وخرّج أبو بكر البزّار عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «احذروا بيتاً يقال له الحمَّام». قالوا: يا رسولَ الله، يُنقي الوَسَخ، قال: «فاستتروا»[١].

قال أبو محمد عبد الحق[٢]: هذا أصحُّ إسنادِ حديثٍ في هذا الباب، على أنَّ الناس يرسلونَه عن طاوس، وأما ما خرّجه أبو داود في هذا من الحظر والإباحة، فلا يصحُّ منه شيءٌ؛ لضَعْفِ الأسانيد، وكذلك ما خرَّجه الترمذيُّ[٣].

قلت: أما دخولُ الحمام في هذه الأزمان، فحرامٌ على أهل الفضل والدِّين؛ لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسَّطوا الحمامَ رمْيَ مآزرهم، حتى يُرَى الرجل البَهِيُّ ذو الشيبة قائماً منتصباً وسطَ الحمام وخارجَه بادِياً عن عورته، ضامًّا بين فخذيه، ولا أحدَ يغيّر عليه[٤]. هذا أمر بين الرجال، فكيف بالنساء، لا سيّما بالدِّيار المصرية، إذ حماماتُهم خاليةٌ عن المظاهر التي هي عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

السادسة: قال العلماء: فإن استتر، فليدخل بعشرة شروط:

الأوّل: ألّا يدخلَ إلا بنيَّة التداوي، أو بنيّة التطهير عن الرُّحَضاء[٥].

---

(١) كشف الأستار (٣١٩)، قال البزار: وهذا رواه الناس عن طاوس مرسلاً ولا نعلم أحداً وصله إلا يوسف عن يعلى عن الثوري. اهـ، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٢٧٧ : رجاله عند البزار رجال الصحيح، إلا أن البزار قال: رواه الناس عن طاوس مرسلاً. اهـ.

(٢) في الأحكام الصغرى له ١/ ١٥٠ .

(٣) سنن أبي داود (٤٠٠٩)، وسنن الترمذي (٢٨٠٢)، وهو من حديث عائشة رضي الله عنها. قال الترمذي: إسناده ليس بذاك القائم. ونقل المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦/ ١٤ عن أبي بكر بن حازم الحافظ: أحاديث الحمام كلها معلولة، وإنما يصح فيها عن الصحابة ﷺ، فإن كان هذا الحديث محفوظاً فهو صريح في النسخ، والله أعلم بالصواب.

(٤) في (ف): يعير، والمثبت من (م) و (ظ)، ولم تجود في (د).

(٥) الرحضاء: العرق الكثير يغسل الجلد، أو العَرَق إثر الحُمّى. المعجم الوسيط (رحض).

الثاني: أن يعتمدَ أوقات الخلوة، أو قلَّةَ الناس.

الثالث: أن يسترَ عورتَه بإزار صَفيق.

الرابع: أن يكون نظرُه إلى الأرض، أو يستقبلَ الحائط؛ لئلا يقع بصرُه على محظور.

الخامس: أن يُغيّر ما يرى من منكرٍ برفقٍ؛ يقول: استتر سَتَرَكَ اللهُ.

السادس: إن دلَّكه أحدٌ، لا يمكّنه من عورته؛ من سرته إلى ركبته، إلا امرأته أو جاريته. وقد اختلف في الفخذين: هل هما عورة أم لا؟

السابع: أن يدخلَه بأجرةٍ معلومةٍ بشرطٍ أو بعادة[(١)].

الثامن: أن يصبَّ الماءَ على قدر الحاجة.

التاسع: إن لم يقدر على دخوله وحدَه، اتفق مع قومٍ يحفظون أديانَهم على كِرائه.

العاشر: أن يتذكَّر به جهنَّم.

فإن لم يمكنه ذلك كله، فليستتر وليجتهد في غضِّ البصر[(٢)].

ذكر الترمذِيّ أبو عبد الله في «نوادر الأصول» من حديث طاوس، عن عبد الله ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا بيتاً يقال له: الحمام»، قيل: يا رسول الله، إنَّه يذهبُ به الوسخُ ويذكّر النارَ، فقال: «إن كنتم لا بُدَّ فاعلين، فادخلوه مستترين»[(٣)].

وخرّج من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعم البيتُ يدخله الرجلُ المسلم بيتُ الحمام، وذلك لأنَّه[(٤)] إذا دَخَله سأل الله الجنةَ، واستعاذَ به من النار،

(١) في (م) بعادة الناس.

(٢) عارضة الأحوذي ١٠/٢٤٥، وجامع الأمهات لابن الحاجب ١/٥٦٣.

(٣) نوادر الأصول ص١٦٦، والحديث أخرجه الطبراني في الكبير ١١/٢٧ (١٠٩٣٢)، والحاكم ٤/٣٢٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٧٦٥). قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وسلف الحديث بأخصر منه، وسلف كلام عبد الحق أن الناس يرسلونه عن طاوس.

(٤) في (د) و (ظ) أنه، والمثبت من (م).

وبئس البيتُ يدخله الرجلُ [المسلم] بيتُ العروس، وذلك لأنَّه يرغّبه في الدنيا وينسيه الآخرة»[١]. قال أبو عبد الله: فهذا لأهل الغفلة، صيَّر الله هذه الدنيا بما فيها سبباً للذِّكر لأهل الغفلة، ليذَّكَّروا بها آخرتهم، فأما أهلُ اليقين فقد صارت الآخرةُ نُصبَ أعينهم، فلا بيت حمّامٍ يُزعجه، ولا بيت عروس يستفزُّه، لقد دَقَّت الدنيا بما فيها من الصنفين والضربين في جنب الآخرة، حتى إنَّ جميعَ نعيمِ الدنيا في أعينهم كنُثَارة الطعام من مائدةٍ عظيمة، وجميعَ شدائد الدنيا في أعينهم كتَفْلةٍ[٢] عُوقب بها مجرمٌ أو مسيءٌ، قد كان استوجب القتلَ أو الصلبَ من جميع عقوبات أهل الدنيا.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: غضُّ البصر وحفظُ الفرج أطهرُ في الدين، وأبعدُ من دنس الآثام[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

(١) نوادر الأصول ص١٦٥، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٧٧٩) وما بين حاصرتين منهما، وابن عساكر في تاريخه ٨/ ١٨٨. قال البيهقي: في إسناده ضعف.

(٢) في (د): كفعلة، وفي (ظ): كنقلة، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في نوادر الأصول ص١٦٥ والكلام منه.

(٣) في (م): الأنام، والمثبت من (د) و (ظ).

زِينَتَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾ **فيه ثلاث وعشرون مسألة:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خصَّ الله سبحانه وتعالى الإناثَ هنا بالخطاب على طريق التأكيد؛ فإنَّ قولَه ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يكفي؛ لأنَّه قولٌ عامٌّ يتناول الذَّكَر والأنثى من المؤمنين، حسب كلّ خطاب عامٍّ في القرآن[١].

وظهر التضعيف في «يَغْضُضْنَ»؛ ولم يظهر في «يَغُضُّوا»؛ لأنَّ لامَ الفعل من الثاني[٢] ساكنةٌ، ومن الأوّل متحركة، وهما في موضع جزم جواباً[٣]. وبدأ بالغَضّ قبل الفرج؛ لأنَّ البصرَ رائد للقلب[٤]، كما أنَّ الحُمَّى رائد الموت. وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

ألم تَرَ أنَّ العينَ للقلب رائدٌ فما تألفُ العينانِ فالقلبُ آلفُ[٥]

وفي الخبر: «النظرُ سَهْمٌ من سهام إبليسَ مسمومٌ، فمن غضَّ بصرَه، أورثه الله الحلاوةَ في قلبه»[٦].

وقال مجاهد: إذا أقبلتِ المرأةُ، جلس الشيطانُ على رأسِها؛ فزيَّنَها لمن ينظرُ،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٥ .

(٢) يعني في قوله: يَغْضُضْنَ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٣ .

(٤) الكشاف ٣/ ٦١ .

(٥) البيت لمضرس بن قرط كما في الحماسة البصرية ٢/ ٢٠٣ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٩٣ ، والخزانة ٥/ ٢٣ ، وهو في بهجة المجالس ٣/ ٢٢ دون نسبة. وعندهم: ألا إنما العينان للقلب رائد..

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩٢) من حديث حذيفة ﷺ قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: إسحاق واهٍ، وعبد الرحمن بن إسحاق هو الواسطي ضعفوه. وأخرجه الطبراني في الكبير ١٠/ ١٧٣ (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود، وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي أيضاً. وأورده المنذري في الترغيب ٢/ ٦٥١ ، والهيثمي في المجمع ٨/ ٦٣ ، وذكرا ضعف عبد الرحمن بن إسحاق.

وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق أيضاً.

فإذا أدبرت، جلس على عَجُزِها؛ فزيَّنها لمن ينظر.

وعن خالد بن أبي عمران، قال: لا تُتْبِعنّ النظرةَ النظرة، فربما نَظَرَ العبدُ نظرةً، نَغِلَ منها قلبُه كما يَنْغَلُ الأديمُ فلا يُنتفع به[١].

فأمر الله سبحانَه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغضِّ الأبصار عما لا يحلُّ؛ فلا يحلُّ للرجل أن ينظرَ إلى المرأة، ولا المرأةُ إلى الرجل؛ فإنَّ علاقتها به كعلاقته بها، وقَصْدَها منه كقصده منها[٢].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله كَتَب على ابنِ آدمَ حظَّه من الزِّنى، أدرك ذلك لا محالة، فالعينانِ تَزنيانِ وزناهُما النظر،...» الحديث[٣].

وقال الزهري في النظر إلى التي لم تَحِض من النساء: لا يَصلحُ النظرُ إلى شيءٍ منهن؛ ممن يُشْتَهَى النظرُ إليهن، وإن كانت صغيرة. وكره عطاء النظرَ إلى الجواري اللاتي يُبَعن بمكةَ، إلا أن يريد أن يشتري[٤].

وفي «الصحيحين» عنه عليه الصلاة والسلام، أنَّه صرفَ وجهَ الفَضْلِ عن الخَثْعَمِيّة حين سألته، وطَفِق الفضلُ ينظر إليها[٥]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الغَيْرة من الإيمان، والمِذاء من النِّفاق»[٦].

---

(١) نوادر الأصول ص٣٠٦ . والنَّغَل بالتحريك: الفساد، وقد نَغِلَ الأديم: إذا عَفِن وتهرَّى في الدِّباغ فينفسد ويهلك. النهاية (نغل).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٥ .

(٣) صحيح مسلم (٢٦٥٧)، وأخرجه أحمد (٧٧١٩)، والبخاري (٦٦١٢).

(٤) ذكر قول الزهري وعطاء البخاريُّ قبل حديث (٦٢٢٨)، ووصل قول عطاء ابن أبي شيبة ٦/ ٦٨ .

(٥) صحيح البخاري (١٥١٣) و(٦٢٢٨)، وصحيح مسلم (١٣٣٤)، وهو في مسند أحمد (٢٢٦٦).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٢٠) والبيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٦ ، وفي شعب الإيمان (١٠٧٩٧) عن زيد بن أسلم عن النبي ﷺ مرسلاً، قال البيهقي: هكذا جاء مرسلاً، وقد رويناه عن أبي مرحوم، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، قال: الغيرة من الإيمان... =

والمِذَاء: هو أن يجمع الرجلُ بين النِّساء والرجال ثم يخلِّيهم يُماذِي بعضُهم بعضاً، مأخوذ من المَذْي. وقيل: هو إرسالُ الرجال إلى النساء، من قولهم: مَذَيْتُ الفرس: إذا أرسلتَها تَرْعَى[(١)]. وكلّ ذَكَر يَمْذي، وكلّ أُنثى تَقْذِي[(٢)]. فلا يحلّ لامرأةٍ تؤمنُ بالله واليوم الآخرِ أن تُبديَ زينتَها إلا لمن تحلُّ له، أو لمن هي محرّمةٌ عليه على التأبيد؛ فهو آمنٌ أن يتحرَّك طبعُه إليها، لوقوع اليأس له منها.

الثانية: روى الترمذيّ عن نَبْهان مولى أم سلمة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها ولميمونةَ وقد دخل عليها ابنُ أمّ مَكْتُوم: «احتجِبا» فقالتا: إنَّه أعمى، قال: «أفَعَمْيَاوَانِ أنتما، ألستما تُبصِرانِه؟»[(٣)].

فإن قيل: هذا الحديث لا يصحُّ عند أهل النقل؛ لأنَّ راويه عن أم سلمة نبهان مولاها، وهو ممَّن لا يحتج بحديثه، وعلى تقدير صحته، فإنَّ ذلك منه عليه الصلاة والسلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن، كما غلَّظ عليهن أمرَ الحجاب، كما أشار إليه أبو داود وغيرُه من الأئمة[(٤)]. ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت، وهو أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَر فاطمةَ بنتَ قيس أن تعتدّ في بيت أُمّ شَريك، ثم قال: «تلك امرأةٌ يغشاها

= وهذا الموصول أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٤٩٠). وفي إسناده أبو مرحوم ـ وهو عبد الرحمن بن كردم ـ وهو مجهول، كما ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٦٠٦، وقد وهم الهيثمي في المجمع ٤/ ٣٢٧، فقال: فيه أبو مرحوم، وثقه النسائي، وضعفه ابن معين. اهـ. وهذا الذي أشار إليه الهيثمي هو عبد الرحيم بن ميمون، وكنيته أبو مرحوم أيضاً، وهو من رجال التهذيب.

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/ ٣٩٧، ونقله عنه البيهقي في الشعب ٧/ ٤١١.

(٢) الصحاح: (قذى).

(٣) سنن الترمذي (٢٧٧٨)، وأخرجه أحمد (٢٦٥٣٧)، وأبو داود (٤١١٢)، والنسائي في الكبرى (٩١٩٧) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال النسائي: ما نعلم أحداً روى عن نبهان غير الزهري. اهـ.
قلنا: ونبهان مولى أم سلمة لم يذكروا في الرواة عنه سوى الزهري، وقال ابن عبد البر: مجهول، وقال الإمام أحمد: نبهان روى حديثين عجيبين، فذكر حديث المكاتب، وحديث: أفعمياوان أنتما. ثم إن الحديث معارض بما سيذكر المصنف ها هنا. وينظر شرح مشكل الآثار ١/ ٢٦٥.

(٤) المفهم ٤/ ٢٧٠-٢٧١، وقول أبي داود في سننه عقب الحديث (٤١١٢).

أصحابي، اعتدِّي عند ابنِ أمّ مَكْتُوم؛ فإنه رجلٌ أعمى، تضعين ثيابَك ولا يَرَاكِ[١]».

قلنا: قد استدلّ بعضُ العلماء بهذا الحديث على أنَّ المرأة يجوز لها أن تطَّلعَ من الرَّجل على ما لا يجوز للرَّجُل أن يطَّلع عليه[٢] من المرأة، كالرأس ومعلَّق القُرْط، وأما العورة فلا[٣]. فعلى هذا يكون مخصِّصاً لعموم قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾، وتكون «من» للتبعيض كما هي في الآية قبلها.

قال ابن العربي[٤]: وإنَّما أمرها بالانتقال من بيت أم شَريك إلى بيت ابنِ أُمِّ مكتوم؛ لأنَّ ذلك أوْلى بها من بقائها في بين أُمّ شريك؛ إذ كانت أُمُّ شريك مُوسرةً[٥] بكثرة الدَّاخل إليها، فيكثر الرَّائي لها، وفي بيت ابن أمّ مكتوم لا يراها أحدٌ؛ فكان إمساكُ بصرها عنه أقربَ من ذلك وأوْلى، فرخَّص لها في ذلك، والله أعلم.

الثالثة: أمر الله سبحانه وتعالى النساءَ بألَّا يُبدين زينتهنَّ للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية؛ حذراً من الافتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزِّينة، واختلف الناس في قدر ذلك؛ فقال ابن مسعود: ظاهرُ الزِّينة هو الثياب. وزاد ابن جبير: الوجهَ. وقال سعيد بن جبير أيضاً، وعطاء والأوزاعِيّ: الوجه والكفَّان والثياب. وقال ابنُ عباس وقتادة والمِسْوَر بن مَخْرمة: ظاهرُ الزينة هو الكُحْلُ، والسِّوار، والخِضاب إلى نصف الذِّراع، والقِرطة والفَتَخ[٦]، ونحو هذا فمباح أن تُبدِيَه المرأة لكلِّ من دَخَل عليها من الناس[٧].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨٠)، وأحمد (٢٧٣٢٧).

(٢) لفظ: عليه، من (ظ) وهو الموافق لما في المفهم ٤/ ٢٧٠ .

(٣) المفهم ٤/ ٢٧٠ .

(٤) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣٥٦ .

(٥) في (د) و(م): مؤثرة.

(٦) الفتخ: جمع فَتَخَة، وهي الخواتيم. غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣١٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ ، وأخرج الأقوال السابقة الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٥٦-٢٦١ .

وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي ﷺ[١]، وذكر آخرَ عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركَتْ أن تظهرَ إلا وجهها ويديها إلى هاهنا» وقبض على نصف الذراع[٢].

قال ابن عطية[٣]: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية، أنَّ المرأةَ مأمورةٌ بألا تُبديَ، وأن تجتهدَ في الإخفاء لكلِّ ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابدّ منه، أو إصلاح شأنٍ، ونحو ذلك. فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدّي إليه الضرورةُ في النساء، فهو المعفوّ عنه.

قلت: هذا قول حسنٌ، إلا أنه لما كان الغالبُ من الوجه والكفين ظهورهما عادةً وعبادةً وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما.

يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دَخَلْت على رسول الله ﷺ وعليها ثيابٌ رِقاق، فأعرض عنها رسولُ الله ﷺ، وقال: «يا أسماء إنَّ المرأةَ إذا بَلَغتِ المَحِيضَ، لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا [وهذا]». وأشار إلى وجهه وكفّيه[٤].

فهذا أقوى في جانب الاحتياط، ولمراعاة فساد الناس؛ فلا تُبدي المرأةُ من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفَّيها، والله الموفق لا ربّ سواه[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/٢٥٩ من طريق عبد الرزاق، وهو في تفسيره ٢/٥٦ . والكلام في المحرر الوجيز ٤/١٧٨ .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٢٦٠ . وقوله: عركت، أي: حاضت. القاموس (عرك).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/١٧٨ .

(٤) سنن أبي داود (٤١٠٤) من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن دُرَيك، عن عائشة، به ـ وما بين حاصرتين منه ـ. وقال أبو داود: هذا مرسل؛ خالد بن دُرَيك لم يدرك عائشة رضي الله عنها. اهـ. وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦/٥٨ : في إسناده سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصري، نزيل دمشق، مولى بني نصر، وقد تكلم فيه غير واحد، وذكر الحافظ أبو أحمد الجرجاني هذا الحديث، وقال: لا أعلم من رواه عن قتادة غير سعيد بن بشير، وقال مرة فيه: عن خالد بن دريك، عن أم سلمة، بدل: عائشة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/١٧٨ .

وقد قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد من علمائنا: إنَّ المرأة إذا كانت جميلةً وخِيفَ من وجهها وكفَّيها الفتنةُ، فعليها سَتْر ذلك، وإن كانت عجوزاً أو مُقَبَّحة، جاز أن تكشف وجهها وكفّيها.

الرابعة: الزينة على قسمين: خَلْقِية ومُكتَسبة؛ فالخَلْقية: وجهُها؛ فإنه أصلُ الزينة وجمالُ الخلقة ومعنى الحيوانية؛ لما فيه من المنافع وطرق العلوم. وأما الزينة المكتسبة: فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خِلقتها، كالثياب والحليّ والكُحْل والخِضاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣٠]. وقال الشاعر:

يأخُذْنَ زينتَهنّ أحسنَ ما تَرَى وإذا عَطِلْنَ فهنّ خيرُ عواطلِ[١]

الخامسة: من الزينة ظاهر وباطن، فما ظهر، فمباحٌ أبداً لكلِّ الناس من المحارم والأجانب، وقد ذكرنا ما للعلماء فيه. وأما ما بَطَن، فلا يحل إبداؤه إلا لمن سمَّاهم الله تعالى في هذه الآية، أو حلَّ محلهم[٢].

واختلف في السِّوار، فقالت عائشة: هو من الزينة الظاهرة؛ لأنه في اليدين. وقال مجاهد: هو من الزينة الباطنة؛ لأنَّه خارج عن الكفين، وإنَّما يكون في الذراع. قال ابن العربي[٣]: وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ قرأ الجمهور بسكون اللام التي هي للأمر. وقَرأ أبو عمرو في رواية عباس[٤] بكسرها على الأصل؛ لأنَّ الأصلَ في لام الأمر الكسرُ، وحُذفت الكسرةُ لثقلها، وإنما تسكينها كتسكين عَضُد

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٥٦ ، والبيت منسوب في الأغاني ٢٢/ ٣٣٣ ، والأمالي للزجاجي ص/ ١٠٠ ، والوافي بالوفيات ١٩/ ٥٣٧ للعديل العجلي، وروايتهم (غير) بدل (خير).

عَطِلَت المرأةُ: إذا لم يكن عليها حلي، ولم تلبس الزينة، وخلا جيدها من القلائد. اللسان (عطل).

(٢) هو في النكت والعيون ٤/ ٩٠-٩١ بنحوه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٥٧ وما قبله منه.

(٤) في (م): ابن عباس، والمثبت من (د) و (ظ)، وهو الصواب، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجمهور. السبعة ص٤٥٤ .

وفَخِذ[١]. و«يَضْرِبْن» في موضع جزم بالأمر، إلا أنه بُني على حالة واحدة إتباعاً للماضي عند سيبويه[٢].

وسبب هذه الآية أنَّ النساء كُنَّ في ذلك الزمان إذا غطَّينَ رؤوسَهنَّ بالأَخْمِرة ـ وهي المقانع ـ سَدَلْنَها من وراء الظهر. قال النقَّاش: كما يصنع النَّبطُ[٣]؛ فيبقى النحرُ والعنقُ والأذنان لا ستر على ذلك، فأمر الله تعالى بلَيِّ الخمارِ على الجيوب، وهيئةُ ذلك: أن تضربَ المرأةُ بخمارها على جيبها لتستُرَ صدرَها[٤].

روى البخاري عن عائشةَ، أنَّها قالت: رَحِم اللهُ نساءَ المهاجراتِ الأُوَل؛ لما نزل: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ أُزُرَهنَّ، فاختمَرْنَ بها[٥].

ودخلت على عائشةَ حفصةُ بنتُ أخيها عبدِ الرحمن ﷺ وقد اختمرتْ بشيءٍ يَشِفُّ عن عُنقها وما هنالك، فشقَّته عليها، وقالت: إنَّما يُضرب بالكثيف الذي يَستر[٦].

السابعة: الخُمُر: جمع الخِمار، وهو ما تُغطِّي به رأسَها، ومنه: اختمرت المرأةُ وتخمَّرت، وهي حَسَنة الخِمْرة[٧]. والجيوب: جمع الجيب، وهو موضع القطع من الدّرع والقميص، وهو من «الجَوْب» وهو القطع.

ومشهور القراءة ضم الجيم من «جُيوبهنّ»، وقرأ بعضُ الكوفيين بكسرها بسبب الياء، كقراءتهم ذلك في: «بِيوت» و «شِيوخ»[٨]، والنَّحْويون القدماء لا يُجيزون هذه

(١) المحرر الوجيز ٤/١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٣ .

(٣) النَّبط: جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين. الصحاح (نبط).

(٤) المحرر الوجيز ٤/١٧٨ .

(٥) صحيح البخاري (٤٧٥٨). وفيه شققن (مروطهن) بدل (أزرهن).

(٦) المحرر الوجيز ٤/١٧٨ ، وأثر عائشة أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٧٢ عدا القول الأخير منه.

(٧) تهذيب اللغة ٧/ ٣٧٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/١٧٨ ، وقرأ بكسر الجيم: ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي، والقراءة في التيسير ص١٦١ .

القراءةَ، ويقولون: بَيْت وبُيوت، كفَلْس وفُلوس. وقال الزجَّاج: يجوز على أن تُبدل من الضمة كسرة؛ فأما ما روي عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر، فمحال، لا يقدر أحدٌ أن ينطق به إلا على الإيماء إلى ما يجوز(١).

وقال مقاتل: «على جيوبهنَّ» أي: على صدورهنّ، يعني على مواضع جيوبهنّ.

الثامنة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الجَيْب إنما يكون في الثوب موضعَ الصدر، وكذلك كانت الجيوبُ في ثياب السلَف رضوان الله عليهم، على ما يصنعه النساءُ عندنا بالأندلس، وأهلُ الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرِهم.

وقد ترجم البخارِيُّ رحمة الله تعالى عليه: باب جيب القميص من عند الصدر وغيره، وساق حديثَ أبي هريرة قال: ضربَ رسولُ الله ﷺ مَثَلَ البخيلِ والمُتصدِّق، كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، قد اضْطرَّت أيدِيَهما إلى ثُديِّهما وتراقِيهما... الحديث، وقد تقدَّم بكماله(٢)، وفيه: قال أبو هريرة: فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جَيْبه، فلو رأيتَه يوسِّعها ولا تتوسَّع(٣).

فهذا يبيّن لك أن جَيْبه عليه الصلاة والسلام كان في صدرِه، لأنَّه لو كان في منكِبه، لم تكن يداه مضطرَّةً إلى ثَدْيَيه وتراقِيه. وهذا استدلال حسن.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ البَعْل: هو الزوج والسَّيِّد في كلام العرب، ومنه قول النبيِّ ﷺ في حديث جبريل: «إذا وَلَدتِ الأَمَةُ بَعْلَها...»(٤) يعني: سيِّدَها؛ إشارة إلى كثرة السَّراري بكثرة الفتوحات، فيأتي الأولاد من الإماء، فتعتق كلُّ أمٍّ بولدها، وكأنه سيِّدُها الذي مَنّ عليها بالعتق؛ إذ كان العتق حاصلاً لها من

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤.

(٢) صحيح البخاري (٥٧٩٧)، وسلف ١٠/ ٢٥٠.

(٣) صحيح البخاري (٥٧٩٧)، وقال ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢٦٨: جوابه محذوف، وتقديره: لتعجبت منه.

(٤) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٩٥٠١)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩): (٦) - واللفظ له -، وأخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ﷺ.

سببه. قاله ابن العربيّ[١].

قلت: ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في ماريَة: «أَعتقَها ولدُها»[٢] فنسب العتقَ إليه. وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث. والله أعلم.

مسألة: فالزوج والسَّيِّد يرى الزينةَ من المرأة وأكثرَ من الزينة؛ إذ كلُّ محلٍّ من بدنها حلالٌ له، لذةً ونظراً. ولهذا المعنى بدأ بالبُعولة؛ لأنَّ اطلاعَهم يقع على أعظم من هذا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[٣] [المؤمنون: ٥-٦].

العاشرة: اختلف الناس في جواز نظرِ الرجل إلى فرج المرأة؛ على قولين:

أحدهما: يجوز؛ لإنه إذا جاز له التلذُّذُ به، فالنظر أولى. وقيل: لا يجوز؛ لقول عائشةَ رضي الله عنها في ذكر حالها مع رسولِ الله ﷺ: ما رأيتُ ذلك منه ولا رأى ذلك مني. والأول أصحُّ، وهذا محمولٌ على الأدب. قاله ابنُ العربي[٤]. وقد قال أَصْبغ من علمائنا: يجوز له أن يلحسَه بلسانه.

وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: أما الزوجُ والسيِّد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد وظاهِر الفرج دون باطنه. وكذلك المرأةُ يجوز أن تنظرَ إلى عورة زوجها، والأَمَةُ إلى عورة سيدها.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٥٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥١٦) من حديث ابن عباس، قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٣/ ٩٧ : هذا إسناد ضعيف، حسين بن عبد الله بن عبيد الله الهاشمي، تركه علي بن المديني، وأحمد بن حنبل والنسائي وضعفه أبو حاتم وأبو زرعة.

وأخرجه أيضاً ابن حزم في المحلى ٩/ ٢١٩ من طريق آخر عن ابن عباس، وقال: هذا خبر جيد الإسناد، كل رواته ثقات.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٧-١٣٥٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٥٨ ، وقول أصبغ الآتي منه، وحديث عائشة رضي الله عنها سلف عند الآية (٣٠) من هذه السورة.

قلت: وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «النظرُ إلى الفرج يُورث الطمس»[١] أي: العمى، أي: في الناظر. وقيل: إنَّ الولد بينهما يُولَد أعمى. والله أعلم.

الحادية عشرة: لما ذَكَر الله تعالى الأزواجَ وبَدأ بهم، ثنَّى بذوي المحارم، وسوَّى بينهم في إبداءِ الزينة، ولكن تختلف مراتبهم [في الحرمة] بحسب ما في نفوس البشر، فلا مِرْيةَ أنَّ كشفَ الأب والأخ على المرأة أحْوَط من كشف ولد زوجها. وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم، فَيُبْدَى للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج[٢].

وقد ذكر القاضي إسماعيل عن الحسن والحسين رضي الله عنهما، أنَهما كانا لا يَرَيان أمهات المؤمنين. وقال ابنُ عباس: إنَّ رؤيتهما لهنَّ تحِلّ[٣]. قال إسماعيل: أحسِب أن الحسنَ والحسين ذهبا في ذلك إلى أنَّ أبناء البُعُولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبي ﷺ، وهي قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

وقال في سورة النُّور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية، فذهب ابن عباس إلى هذه الآية، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يريد ذكورَ أولادِ الأزواج، ويدخل فيه: أولادُ الأولادِ وإن سَفَلوا، من ذُكرانٍ كانوا أو إناثٍ، كبني البنين وبني

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٥٠٧، والبيهقي ٧/ ٩٤ - ٩٥، وابن الجوزي في الموضوعات (١١١٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً، ونقل ابن الجوزي عن ابن حبان أنه موضوع. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٤٩: قال ابن أبي حاتم في العلل: سألت أبي عنه، فقال: موضوع،... وخالف ابن الصلاح فقال: إنه جيد الإسناد، كذا قال، وفيه نظر.

وأخرجه ابن الجوزي (١١١٦) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وفي إسناده إبراهيم بن محمد، قال الأزدي: ساقط. وأورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢/ ١٤٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩، وما بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٧٨، وسعيد بن منصور في سننه (٩٦٥)، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٧.

البنات. وكذلك آباءُ البعولة والأجداد وإن عَلَوا من جهة الذُّكران لآباءِ الآباء وآباء الأُمهات، وكذلك أبناؤهنَّ وإن سَفَلوا. وكذلك أبناءُ البنات وإن سَفَلن؛ فيستوي فيه أولادُ البنين وأولادُ البنات. وكذلك أخواتهنَّ، وهم مَن ولدَه الآباء والأمهات، أو أحد الصّنفين. وكذلك بنو الإخوة وبنو الأخوات وإن سَفَلُوا من ذُكرانٍ كانوا أو إناث، كبني بني الأخوات وبني بنات الأخوات. وهذا كلُّه في معنى ما حُرِّم من المناكح، فإنَّ ذلك على المعاني في الوِلادات، وهؤلاء محارم، وقد تقدم في «النساء»(١). والجمهور على أنَّ العَمَّ والخالَ كسائر المحارم في جواز النظر لهما إلى ما يجوز لهم، وليس في الآية ذكر الرضاع، وهو كالنسب على ما تقدم(٢).

وعند الشعبِيّ وعكرمة: ليس العمُّ والخال من المحارم. وقال عكرمة: لم يذكرهما في الآية؛ لأنَّهما ينعتانها(٣) لأبنائهما.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: المسلمات، ويدخل في هذا الإماءُ المؤمنات، ويخرج منه نساءُ المشركين من أهل الذمة وغيرهم؛ فلا يحلُّ لامرأة مؤمنةٍ أن تكشفَ شيئاً من بدنها بين يدي امرأةٍ مشركةٍ، إلا أن تكونَ أَمَةً لها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾(٤).

وكان ابن جُريج، وعُبَادة بن نُسَيّ، وهشام القارىء، يكرهون أن تَقْبَلَ(٥) النصرانيةُ المسلمةَ أو ترى عورتَها، ويتأوَّلون ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾(٦).

قال عُبَادة بن نُسَيّ: وكتب عمرُ ﷺ إلى أبي عُبيدة بن الجرّاح: أنه بلغني أنَّ نساءَ

---

(١) ٦/١٧٣ وما بعدها.

(٢) تنظر المسألة في تفسير الرازي ٢٣/٢٠٦-٢٠٧.

(٣) في النسخ: تبعان، والتصويب من التمهيد وبقية المصادر، وقد أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/٢٣٠-٢٣١، وابن أبي شيبة ٤/٣٣٨. وأورده الرازي في تفسيره ٢٣/٢٠٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/١٧٩.

(٥) قَبِلَت القابلةُ المرأة تَقْبَلها: إذا قَبِلَت الولد، أي تَلقَّته عند الولادة. اللسان: «قبل».

(٦) مصنف عبد الرازق (١١٣٦) ونسبه إلى عبادة بن نسي، ومكحول وسليمان.

أهلِ الذمّةِ يدخُلنَ الحمّامات مع نساء المسلمين؛ فامنعْ من ذلك، وحُلْ دونَه؛ فإنَّه لا يجوز أن ترى الذمّيةُ عِرْيَةَ[١] المسلمة. قال: فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل، وقال أيُّما امرأةٍ تدخل الحمامَ من غير عذرٍ لا تُريد إلا أن تبيِّض وجهها، فسوَّد اللهُ وجهَها يوم تبيضُّ الوجوه[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يحلُّ للمسلمةِ أن تراها يهوديةٌ أو نصرانيةٌ؛ لئلا تصفَها لزوجها. وفي هذه المسألة خلافٌ للفقهاء. فإن كانت الكافرة أمَةً لمسلمة، جاز أن تنظرَ إلى سيدتها، وأما غيرها فلا؛ لانقطاع الولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر، ولما ذكرناه. والله أعلم.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيدَ والإماءَ المسلمات والكتابيّات، وهو قول جماعة من أهل العلم، وهو الظاهر من مذهب عائشةَ وأمِّ سلمة رضي الله عنهما[٣].

وقال ابن عباس: لا بأس أن ينظر المملوكُ إلى شَعَر مولاته[٤]. وقال أشهب: سُئل مالك: أتُلْقي المرأةُ خِمارَها بين يدي الخَصيّ؟ فقال: نعم، إذا كان مملوكاً لها أو لغيرها؛ وأما الحرّ فلا، وإن كان فحلاً كبيراً وَغْداً تملكه، لا هيئة له ولا مَنْظَر، فلينظرْ إلى شعرها. قال أشهب: قال مالك: ليس بواسعٍ أن تَدْخلَ جاريةُ الولدِ أو الزوجة على الرجل المرحاض؛ قال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾. وقال أشهب عن مالك: ينظر الغلامُ الوغد إلى شَعَر سيّدته، ولا أُحبه لغلام الزوج[٥].

وقال سعيد بن المسيب: لا تغرّنَّكم هذه الآية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ إنمّا عَنى

---

(١) عِرْية المرأة: يريد ما يَعْرى منها وينكشف. النهاية (عرا).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ ولم ينسبه لعبادة بن نسي، وأخرجه عبد الرزاق (١١٣٤)، والبيهقي ٧/ ٩٥ عن عبادة بن نسي. وأخرجاه أيضاً عن عبادة بن نسي عن الحارث بن قيس.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٣٥-٢٣٦ ، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٤ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦١ . والوغد: هو ضعيف العقل، أو الخفيف الأحمق. اللسان (وغد).

بها الإماءَ، ولم يَعْن بها العبيدَ[١]. وكان الشعبيُّ يكره أن ينظرَ المملوكُ إلى شَعَر مولاته. وهو قول مجاهد وعطاء[٢].

وروى أبو داود عن أنس، أنَّ رسولَ الله ﷺ أتى فاطمةَ بعَبْدٍ قد وهَبَه لها، قال: وعلى فاطمةَ ثوبٌ إذا غطَّتْ به رأسَها، لم يبلغ رجليها، وإذا غطّتْ به رجليها، لم يبلغْ رأسَها؛ فلما رأى النبيُّ ﷺ ما تَلْقَى من ذلك قال: «إنَّه لا بأسَ عليك؛ إنَّما هو أبوك وغلامُك»[٣].

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: غير أُولي الحاجة. والإرْبَةُ: الحاجة، يقال: أرِبْتُ إلى كذا آربُ أَرَباً. والإرْب والإرْبةُ والمَأْرُبَةُ والأَرَب: الحاجة، والجمع مآرب، أي: حوائج[٤]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] وقد تقدم[٥].

وقال طَرَفة:

إذا المرءُ قال الجهلَ والحُوْبَ والخَنا ... تـقـدّمَ يـومـاً ثـمَّ ضـاعـتْ مـآربُـهْ[٦]

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ فقيل: هو الأحمق الذي لا حاجةَ به إلى النساء. وقيل: الأبله. وقيل: الرجلُ يتبع القومَ، فيأكل معهم ويرتفق بهم، وهو ضعيف لا يكترثُ للنساء و لا يَشتهيهنَّ. وقيل: العِنِّين. وقيل: الخَصِيّ. وقيل: المخنَّث. وقيل: الشيخُ الكبير، والصبي الذي لم يُدْرِك[٧].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٣٥ ، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٥ .

(٢) التمهيد ١٦/ ٢٣٦ ، وأخرج قولهم ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٣٤-٣٣٥ .

(٣) سنن أبي داود (٤١٠٦). وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦/ ٥٩ : في إسناده أبو جُميع سالم ابن دينار الهُجيمي البصري، قال ابن معين: ثقة، وقال أبو زرعة الرازي: مصري لين الحديث، وهو سالم بن راشد. قال الحافظ في التقريب: مقبول.

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٥٧ ، ومجمل اللغة ١/ ٩٣ ، والمفردات للراغب (أرب).

(٥) ١٤/ ٤٤ .

(٦) لم نقف عليه، الحُوْب: الإثم، والخنا: الفحش. الصحاح (حوب) (خنا).

(٧) التمهيد ٢٢/ ٢٧٤ .

وهذا الاختلاف كلُّه متقارب المعنى، ويجتمع فيمن لا فَهْم له ولا هِمّة ينتبه بها إلى أمر النساء، وبهذه الصفة كان هِيْت المخنَّث عند رسول الله ﷺ، فلمّا سمع منه ما سمع من وصفِ محاسنِ المرأة - بادِيَةَ ابنة غَيْلان - أَمَر بالاحتجاب منه[١]. أخرج حديثَه مسلم وأبو داود ومالك في «الموطأ» وغيرهم، عن هشام بن عروة، عن عروة، عن عائشة[٢].

قال أبو عمر[٣]: ذكر عبد الملك بن حبيب، عن حبيب كاتبِ مالك، قال: قلت لمالك: إنَّ سفيان زاد في حديث ابنة غَيْلان: «أنَّ مخنَّثاً يقال له: هِيْت» وليس في كتابك: هِيت؟ فقال مالك: صَدَق، هو كذلك، وغرّبه النبي ﷺ إلى الحِمَى؛ وهو موضع من ذي الحُلَيفَة ذات الشمال من مسجدها. قال حبيب: وقلت لمالك: وقال سفيان في الحديث: إذا قعدت تَبَنّت، وإذا تكلّمت تَغَنّت[٤]. قال مالك: صدق، هو كذلك.

قال أبو عمر[٥]: ما ذكره حبيب كاتبُ مالكٍ عن سفيان، أنه قال في الحديث يعني حديثَ هشام بن عروة: «أنَّ مخنثاً يدعى هِيْتاً» فغير معروف عند أحدٍ من رواته عن هشام، لا ابن عيينة ولا غيره، ولم يقل في نَسَق الحديث: «أنّ مخنَّثاً يدعى هيتاً»، وإنَّما ذَكَره عن ابن جُريج بعد تمام الحديث، وكذلك قوله عن سفيان، أنه

(١) التمهيد ٢٢/ ٢٧٤ ، و٢٢/ ٢٧٦ .

(٢) صحيح مسلم (٢١٨١)، وسنن أبي داود (٤١٠٨)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٥١٨٥) من حديث عائشة.
وهو في «الموطأ» ٢/ ٧٦٧ من طريق هشام بن عروة، عن عروة، عن أم سلمة، مرسل.
وأخرجه أحمد (٢٦٤٩٠)، والبخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠) عن أم سلمة رضي الله عنها موصولاً.

(٣) في التمهيد ٢٢/ ٢٧٠-٢٧١ .

(٤) تبنَّت: أي فرّجت رجليها، كأنه شبَّهها بالقُبَّة من الأدم، وهي المبناة لسمنها وكثرة لحمها. النهاية (بني)
وتغنَّت: من الغنة لا من الغناء؛ أي: كانت تتغنن في كلامها من لينها ورخامة صوتها. التمهيد ٢٢/ ٢٧٧ .

(٥) في التمهيد ٢٢/ ٢٧١-٢٧٢ ، وينظر تفسير غريب الموطأ لابن حبيب ٢/ ٥٥-٥٦ .

يقول في الحديث: إذا قعدت تبنّت، وإذا تكلّمت تغنّت، هذا ما لم يقله سفيان ولا غيره في حديث هشام بن عروة، وهذا اللفظ لا يوجدُ إلا من رواية الواقدي، والعجب أنه يحكيه عن سفيان، ويحكي عن مالكٍ أنه كذلك، فصارت روايةً عن مالك، ولم يروه عن مالك غيرُ حبيب، ولا ذكره عن سفيان غيره أيضاً، والله أعلم. وحبيب كاتب مالك متروكُ الحديث ضعيفٌ عند جميعهم، لا يُكتب حديثه ولا يلتفت إلى ما يجيء به.

ذكر الواقِدِيّ[١] والكَلْبي أنَّ هِيْتاً المخنَّث قال لعبد الله بن [أبي] أُميَّة المخزوميّ وهو أخو أُمّ سَلَمة لأبيها، وأُمّه عاتكة عمةُ رسول الله ﷺ، قال له وهو في بيت أُخته أمّ سَلَمة ورسول الله ﷺ يسمع: إنْ فَتَح الله عليكم الطائفَ، فعليك ببادِيَةَ بنت غيلان ابن سَلَمة الثَّقَفِيّ؛ فإنها تُقْبل بأربع وتُدْبر بثمان[٢]، مع ثَغْرٍ كَالأقْحُوان[٣]، إن جلست تَبَنّت، وإن تكلّمت تغنّت، بين رجليها كالإناء المكفوء، وهي كما قال قَيْس بن الخَطِيم:

تغتَرِق الطّرفَ وهي لاهِيَةٌ ... كأنَّما شَفَّ وَجْهَها نُزُفُ[٤]

بين شُكُول النِّساء خِلْقَتُها ... قَصْدٌ فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَفُ

تنام عن كُبْر شأنِها فإذا ... قامتْ رُوَيْداً تكاد تَنْقَصِفُ[٥]

---

(١) أخرجه عن الواقدي ابن حبيب في تفسير غريب الموطأ ٢/ ٦٠ .

(٢) تقبل بأربع وتدبر بثمان: وصف امرأةً لها في بطنها أربع عُكن [والعكنة: الطي الذي يكون في جانبي البطن من السمن] فإذا بلغت خصريها صارت أطراف العُكَن ثمانية، أربع من هاهنا، وأربع من هاهنا، فإذا أقبلت إليك استقبلتك ببطنها، رأيت لها أربعاً، فإذا أدبرت عنك صارت تلك الأربع ثمانياً من جهة الأطراف المجتمعة. التمهيد ٢٢/ ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، والمفهم ٥/ ٥١٣ ، وتفسير غريب الموطأ ٢/ ٥٤ .

(٣) هو نبت طيب الريح، حواليه ورق أبيض، ووسطه أصفر. الصحاح (قحا).

(٤) النُّزْف: الضعف الحادث عن خروج الدم، وحركت الزاي لضرورة الشعر، والمعنى: أنها رقيقة المحاسن حتى كأن دمها منزوف. اللسان (نزف).

(٥) التمهيد ٢٢/ ٢٧٦ ، والمفهم ٥/ ٥١٣-٥١٤ . والأبيات في الأصمعيات ص١٩٦-١٩٧ ، الشكول: الضروب، والقَصْد: الوسط، والجَبْلة: الغليظة، والقضف: الدِّقَّة وقلة اللحم. اللسان (شكل)، (جبل)، (قصد)، (قضف).

فقال له النبيّ ﷺ: «لقد غلغلتَ[١] النظرَ إليها يا عدوّ الله»، ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمَى، قال: فلما افتُتحتِ الطائف، تزوَّجها عبدُ الرحمن بن عَوف، فوَلَدت له منه بُرَيْهة - في قول الكلبي - ولم يزل هِيت بذلك المكان حتى قُبض النبيُّ ﷺ، فلما وَلِيَ أبو بكر كُلِّم فيه، فأبى أن يردَّه، فلما وَلِيَ عمر كُلِّم فيه فأبى، ثم كُلِّم فيه عثمان بعدُ، وقيل: إنَّه قد كَبِر وضَعُف واحتاج، فأذن له أن يدخلَ كلَّ جمعةٍ؛ فيسأل ويرجع إلى مكانه[٢]. قال: وكان هِيت مولًى لعبد الله بن [أبي] أمية المخزومي، وكان له طُوَيْس[٣] أيضاً، فمن ثَمّ قيل: الخَنِث.

قال أبو عمر: يقال «بادية» بالياء، و«بادنة» بالنون، والصواب فيه عندهم بالياء، وهو قول أكثرهم، وكذلك ذكره الزُّبيري بالياء.

السادسة عشرة: وصف التابعين بـ «غير»؛ لأنّ التابعين غيرُ مقصودين بأعيانهم، فصار اللفظ كالنكرة، و«غير» لا يتمحّض نكرةً؛ فجاز أن يجري وصفاً على المعرفة[٤]. وإن شئت قلت: هو بدل. والقول فيها كالقول في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[٥] [الفاتحة: ٧].

وقرأ عاصم[٦] وابن عامر: «غيرَ» بالنصب، فيكون استثناء؛ أي: يبدين زينتهنَّ للتابعين إلا ذا الإرْبة منهم[٧]. ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: والذين يتبعونهن عاجزين

(١) أي: بلغتَ بنظرك من محاسن هذه المرأة حيث لا يبلغ النظر، ولا يصل واصل، ولا يصف واصف. النهاية (غلغل).

(٢) التمهيد ٢٢/ ٢٧٥-٢٧٧ ، والمفهم ٥/ ٥١٣-٥١٤ ، والأغاني ٣/ ٣٠-٣١ .

(٣) هو عيسى بن عبد الله، أحد من يضرب به المثل في صناعة الغناء، مات سنة اثنتين وتسعين. السير ٤/ ٣٦٤ .

(٤) الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥١١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ .

(٦) في رواية أبي بكر (شعبة) عنه .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤ ، وينظر السبعة ٤٥٥ ، والتيسير ١٦١ .

عنهن. قاله أبو حاتم. وذو الحال ما في «التابعين» من الذكر[(١)].

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع، والدليل على ذلك نعتُه بـ «الذين»[(٢)]. وفي مصحف حَفْصة: «أو الأطفال» على الجمع. ويقال: طفلٌ ما لم يراهق الحُلُم. و﴿يَظۡهَرُواْ﴾ معناه: يطلعوا بالوطء[(٣)]؛ أي: لم يكشفوا عن عوراتهنّ للجماع لصغرهنّ[(٤)]. وقيل: لم يبلغوا أن يطيقوا النساءَ[(٥)]، يقال: ظهرت على كذا أي: علمته، وظهرت على كذا أي: قهرته[(٦)].

والجمهورُ على سكون الواو من «عَوْرات»؛ لاستثقال الحركة على الواو، وروي عن ابن عامر فتح الواو[(٧)]، مثل جَفْنة وجَفَنَات. وحكى الفراءُ أنَّها لغةُ قيس «عَوَرات» بفتح الواو. النحاس[(٨)]: وهذا هو القياسُ؛ لأنَّه ليس بنعت، كما تقول: جفنة وجَفَنات، إلا أن التسكين أجودُ في «عَوْرات» وأشباهه، لأنَّ الواو إذا تحرّكت وتحركَ ما قبلها، قُلبت ألفاً؛ فلو قيل[(٩)] هذا لذهب المعنى[(١٠)].

الثامنة عشرة: اختلف العلماء في وجوب ستر ما سوى الوجهِ والكفينِ منه، على

---

(١) في (ظ): الضمير، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٦ ، وينظر قول أبي حاتم في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٧١ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٠ .

(٦) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٢٦ .

(٧) في (م) و(ظ) والبحر المحيط ٦/ ٤٤٩ : ابن عباس، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ ، وقراءة ابن عامر ذكرها الداني في جامع البيان ٢/ ٣٠٨ من رواية يحيى عنه، وليست هي في التيسير ولا في السبعة لابن مجاهد.

(٨) في إعراب القرآن له ٣/ ١٣٤ .

(٩) في إعراب القرآن: فُعِل.

(١٠) من قوله: (بفتح الواو) إلى ها هنا، ليس في النسخ، أثبتناه من (م).

قولين: أحدهما: لا يلزم؛ لأنَّه لا تكليفَ عليه، وهو الصحيح. والآخر: يلزمُهُ؛ لأنَّه قد يشتهي وقد تشتهي أيضاً هي، فإن رَاهَق، فحكمه حكمُ البالغ في وجوب السَّتر. ومثله الشيخ الذي سقطت شهوتُه، اختلف فيه أيضاً على قولين كما في الصَّبي، والصحيح بقاء الحرمةِ. قاله ابن العربي[١].

التاسعة عشرة: أجمع المسلمون على أن السَّوْءتين عورةٌ من الرجل والمرأة، وأنَّ المرأةَ كلَّها عورةٌ، إلا وجهها ويديها، فإنهم اختلفوا فيهما. وقال أكثر العلماء في الرجل: من سرته إلى ركبته عورة، لا يجوز أن تُرَى[٢]. وقد مضى في «الأعراف» القولُ في هذا مستوفًى[٣].

المُوفِية عشرين: قال أصحاب الرأي: عورةُ المرأة مع عبدها من السُّرة إلى الركبة. ابن العربي[٤]: وكأنهم ظنُّوها رجلاً أو ظنُّوه امرأةً، والله تعالى قد حرَّم المرأةَ على الإطلاق لنظرٍ أو لذةٍ، ثم استثنى اللذَّةَ للأزواج ومِلْك اليمين، ثم استثنى الزينةَ لاثني عَشَر شخصاً، العبدُ منهم، فما لنا ولذلك! هذا نظر فاسدٌ، واجتهادٌ عن السَّدادِ متباعدٌ. وقد تأوّلَ بعضُ الناس قولَه ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ على الإماءِ دون العبيدِ؛ منهم سعيدُ بن المسيِّب، فكيف يُحملون على العبيد ثم يُلحقون بالنساء، هذا بعيد جدًّا!

وقد قيل: إنَّ التقدير أو ما ملكت أيمانهنّ من غير أولي الإرْبة أو التابعين غير أولي الإربة من الرِّجال. حكاه المهدوِيّ.

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية، أي: لا تَضرب المرأةُ برجلها إذا مَشت لتُسْمِع صوت خَلْخالها؛ فإسماع صوت الزِّينة كإبداء الزينة

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٦٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٣ .

(٣) ٩/ ١٨٢ فما بعدها.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٦٣ وما قبله منه.

وأشدّ، والغرض التستر.

أسند الطبريُّ[١] عن المعتمر، عن أبيه، أنه قال: زعم حضرمِيٌّ أنَّ امرأةً اتخذتْ بُرَتَيْن من فضةٍ، واتخذت جَزْعاً[٢]، فجعلت[٣] في ساقها، فمرّت على القومِ، فضربت برِجْلها الأرضَ، فوقع الخَلْخال على الجَزْع فصوَّتَ، فنزلت هذه الآية. وسماع هذه الزينة أشدُّ تحريكاً للشهوة من إبدائها. قاله الزجاج[٤].

الثانية والعشرون: مَن فَعَل ذلك منهنَّ فَرَحاً بحُلِيِّهنَّ، فهو مكروه، ومن فعل ذلك منهنّ تبرُّجاً وتعرُّضاً للرِّجال، فهو حرامٌ مذموم. وكذلك من ضرب بنعله من الرجال، إنْ فعل ذلك تعجُّباً؛ حَرُم، فإنَّ العُجْبَ كبيرةٌ، وإن فعل ذلك تَبَرُّجاً، لم يَجُز[٥].

الثالثة والعشرون: قال مَكِّيٌّ رحمه الله تعالى: ليس في كتاب الله تعالى آيةٌ أكثرَ ضمائر من هذه، جَمَعت خمسةً وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوضٍ ومرفوع[٦].

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ **فيه مسألتان**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾ أمْرٌ، ولا خلاف بين الأُمّة في وجوب التوبة، وأنها فرضٌ متعيّن، وقد مضى الكلامُ فيها في «النساء»[٧] وغيرها؛ فلا معنى لإعادة ذلك. والمعنى: وتوبوا إلى الله؛ فإنكم لا تَخلونَ من سهوٍ وتقصيرٍ في أداء حقوق الله تعالى، فلا تتركوا التوبةَ في كلِّ حال.

---

(١) في تفسيره ١٧/ ٢٧٢، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) البُرَة: كلُّ حلقة من سِوار وقُرْط وخَلخال. والجَزْع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة، مختلفة الألوان. «المعجم الوسيط».

(٣) كذا في النسخ الخطية غير (ظ)، والمحرر الوجيز، وفي(ظ): فجعلته.

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ٤٠.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠.

(٧) ٦/ ١٤٩.

الثانية: قرأ الجمهورُ: «أَيُّهَ» بفتح الهاء، وقرأ ابنُ عامر بضمها[١]؛ ووجهُه أن تُجعل الهاءُ من نفس الكلمةِ، فيكون إعرابَ المنادى فيها، وضعّف أبو عليٍّ ذلك جدًّا[٢]، وقال: آخر الاسم هو الياء الثانية من «أيّ»، فالمضموم ينبغي أن يكون آخر الاسم، ولو جاز ضمُّ الهاء هاهنا لاقترانها بالكلمة، لجاز ضمُّ الميم في «اللَّهُمَّ»؛ لاقترانها بالكلمة. في كلام طويل.

والصحيح أنَّه إذا ثَبتَ عن النبيِّ ﷺ قراءةٌ، فليس إلا اعتقادُ الصحةِ في اللغة؛ فإنَّ القرآن هو الحجة. وأنشد الفراء:

يـا أيُّـهَ الـقـلـبُ الـلَّـجُـوجُ الـنَّـفـس أفـق عـن الـبِـيـض الـحِـسـان الـلُّـعْـسِ

اللَّعَس: لون الشَّفَة إذا كانت تَضرب إلى السواد قليلاً، وذلك يُستملَح، يقال: شَفَةٌ لَعْساء، وفِتيةٌ ونسوةٌ لُعْسٌ[٣].

وبعضهم يقف: «أَيُّهْ»، وبعضهم يقف: «أيّها» بالألف؛ لأنَّ علةَ حذفها في الوصل إنَّما هو سكونُها وسكونُ اللام، فإذا كان الوقفُ ذهبت العلةُ فرجعت الألفُ كما ترجع الياءُ إذا وقفت على «مُحِلِّي» من قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١]. وهذا الاختلاف الذي ذكرناه كذلك هو في ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩]، و﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[٤] [الرحمن: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) السبعة ص٤٥٥، والتيسير ص١٦١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠، وما سيأتي من كلام أبي علي هو في الحجة ٥/ ٣٢٠.

(٣) الصحاح (لعس).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠، وقراءة الوقف على «أيُّهْ» بغير ألف مع سكون الهاء قرأ بها الجمهور سوى أبي عمرو والكسائي، ورواية عن قنبل، فقد قرؤوا فيها بالألف وقفاً. السبعة ٤٥٥، وجامع البيان ٢/ ٣٠٨.

الأولى: هذه المخاطبة تدخل في باب السّتر والصلاح؛ أي: زوِّجوا مَنْ لا زَوْجَ له منكم؛ فإنَّه طريقُ التَّعفُّف، والخطاب للأولياء. وقيل: للأزواج. والصحيح الأوّل؛ إذ لو أرادَ الأزواجَ لقال: «وانْكحُوا» بغير همز، وكانت الألفُ للوصل[1].

وفي هذا دليل على أنَّ المرأةَ ليس لها أن تُنكِح نفسَها بغير وَليٍّ، وهو قولُ أكثر العلماء. وقال أبو حنيفةَ: إذا زَوَّجت الثيِّبُ أو البكرُ نفسَها بغير وَليٍّ كُفْأً لها، جاز. وقد مضى هذا في «البقرة» مستوفًى[2].

الثانية: اختلف العلماءُ في هذا الأمر على ثلاثة أقوال، فقال علماؤنا: يختلف الحكم في ذلك باختلاف حالِ المؤمن مِن خوفِ العَنَت، ومن عدم صَبْره، ومن قوَّته على الصبر وزوالِ خشيةِ العَنَتِ عنه، وإذا خاف الهلاكَ في الدِّين أو الدنيا أو فيهما، فالنكاحُ حَتْمٌ. وإن لم يخشَ شيئاً وكانت الحالُ مطلقةً، فقال الشافعيّ: النكاحُ مباحٌ. وقال مالك وأبو حنيفة: هو مستحبٌّ. تعلّق الشافِعيُّ بأنَّه قضاءُ لذةٍ، فكان مُباحاً كالأكل والشراب، وتعلَّق علماؤنا بالحديث الصحيح: «من رَغِب عن سُنَّتِي فليس منّي»[3].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: الذين لا أزواجَ لهم من الرِّجال والنساء؛ واحدهم أيِّم. قال أبو عمرو: «أيامى» مقلوب: أيايم.

واتفق أهلُ اللغة على أنَّ الأيّم في الأصل: هي المرأةُ التي لا زوجَ لها، بكراً كانت أو ثيِّباً، حكى ذلك أبو عمرو والكسائي وغيرهما[4]. تقول العرب: تأيَّمتِ المرأةُ: إذا أقامتْ لا تتزوّج[5]. وفي حديث النبيّ ﷺ: «أنا وامرأةٌ سَفْعاءُ الخَدَّين

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٤ بنحوه.

(٢) ٣/ ٤٦٢ فما بعدها، وينظر التمهيد ١٩/ ٨٤ ، ٩٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٤-١٣٦٥ ، والحديث سلف ٢/ ٢٣٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٥ ، والمفهم ٤/ ١١٤ .

(٥) المفهم ٤/ ١١٤ .

تأيَّمت على ولدِها الصّغار حتى يبلغوا أو يُغنيَهم اللهُ من فضله، كهاتين في الجنة»[١].

وقال الشاعر:

فإن تَنْكِحي أنْكِحْ وإن تَتَأيّمِي وإنْ كنتُ أفْتَى منكُمُ أتأيَّمُ[٢]

ويقال: أيِّم بيِّن الأيْمة، وقد آمَتْ هي، وإمتُ أنا. قال الشاعر:

لقد إمْتُ حتى لامَني كلُّ صاحبٍ رجاءً بسَلْمَى أنْ تَئِيمَ كما إمْتُ[٣]

قال أبو عُبيد: يقال رجل أيِّم وامرأةٌ أيِّمٌ، وأكثر ما يكون ذلك في النِّساء، وهو كالمستعار في الرّجال[٤].

وقال أميَّة بن أبي الصَّلْت:

للّه دَرُّ بني عَلِيٍّ أيّم منهم وناكحْ[٥]

وقال قوم: هذه الآية ناسخةٌ لحكم قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦]. وقد بينّاه في أوّل السورة والحمد لله[٧].

الرابعة: المقصود من قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الحرائرُ والأحرار[٨]. ثم بيَّن حُكمَ المماليك، فقال: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠٠٦)، وأبو داود (٥١٤٩) من حديث عوف بن مالك الأشجعي. وفيه: آمت، بدل: تأيمت. وإسناده ضعيف لضعف النهّاس بن قَهْم، ولانقطاعه بين شداد بن عمار وعوف بن مالك.
وسفعاء الخدين: أي متغيرة لونها بسبب خدمة الأيتام. قاله السندي في حاشيته على المسند.

(٢) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٦٥، وأحكام القرآن لإبن العربي ٣/ ١٣٦٣، وتفسير الطبري ١٨/ ٢٧٤ دون نسبة.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٣٠٦ ونسبه لابن المعذّل، وفيه: (تأيمت) بدل: (لقد إمت).

(٤) المفهم ٤/ ١١٤.

(٥) ديوان أمية ص٣٦، والعقد الفريد ٣/ ٣٠١.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠.

(٧) عند تفسير الآية (٣) المسألة السادسة.

(٨) الأضداد لابن الأنباري ص٣٣١.

وقرأ الحسن: «والصالحين من عبيدكم»، وعَبيد اسم للجمع[١]. قال الفراء[٢]: ويجوز «وإماءَكم» بالنصب، يردّه على «الصالحين»، يعني الذكور والإناث، والصلاحُ الإيمان.

وقيل: المعنى ينبغي أن تكونَ الرغبةُ في تزويج الإماءِ والعبيدِ إذا كانوا صالحين، فيجوز تزويجهم، ولكن لا ترغيب فيه ولا استحباب، كما قال: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. ثم قد تجوز الكتابة وإن لم يُعلم أن في العبد خيراً، ولكن الخطاب ورد في الترغيب والاستحباب، وإنما يُستحب كتابة من فيه خير[٣].

الخامسة: أكثرُ العلماء على أنَّ للسيِّد أن يكْرِهَ عبدَه وأمتَه على النكاح، وهو قول مالك وأبي حنيفة وغيرِهما. قال مالك: ولا يجوز ذلك إذا كان ضرراً[٤]. ورُوي نحوُه عن الشافعيّ، ثم قال[٥]: ليس للسيّد أن يكره العبدَ على النكاح.

وقال النَّخَعِيّ: كانوا يكرهون المماليكَ على النكاحِ ويُغلقون عليهم الأبوابَ.

تمسّك أصحاب الشافعيّ فقالوا: العبدُ مكلَّف، فلا يُجبر على النكاح؛ لأنَّ التكليفَ يدلُّ على أن العبدَ كاملٌ من جهة الآدميّة، وإنَّما تتعلق به المملوكيّةُ فيما كان حظًّا للسيد من مِلْك الرقبةِ والمنفعة، بخلاف الأَمَة، فإنَّه له حقُّ المملوكية في بُضْعها ليستوفيَه؛ فأما بُضْع العبد فلا حقَّ له فيه، ولأجل ذلك لا تُباحُ السيّدةُ لعبدها. هذه عمدة أهل خراسان والعراق، وعمدتُهم أيضاً الطلاقُ، فإنه يملكه العبدُ بتملُّك عَقْدِه. ولعلمائنا النُّكتةُ العظمى في أنَّ مالكيَّة العبدِ استغرقتها مالكيةُ السيِّد؛ ولذلك لا يتزوَّجُ إلا بإذنه بإجماعٍ، والنكاح وبابُه إنَّما هو من المصالح، ومصلحةُ العبد موكولةٌ إلى

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٥، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٠٢.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٥١، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٥.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٢٧٧، والنكت والعيون ٤/ ٩٩.

(٤) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٣١٢-٣١٣.

(٥) في الأم ٥/ ٤٢.

السيِّد، هو يراها ويقيمها للعبد[(١)].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ رجع الكلامُ إلى الأحرار؛ أي: لا تمتنعوا عن التَّزويج بسبب فَقْر الرجل والمرأة؛ ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ .وهذا وَعْدٌ بالغنى للمتزوِّجين طلبَ رضا الله واعتصاماً من معاصيه. وقال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النِّكاح، وتلا هذه الآية. وقال عمر ﷺ: عَجَبي ممن لا يطلب الغنى في النكاح، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[(٢)]. وروي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً[(٣)]، ومن حديث أبي هريرة ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عونُه: المجاهدُ في سبيل الله، والناكحُ يريد العفافَ، والمكاتَبُ يريد الأداء». أخرجه ابن ماجه في «سننه»[(٤)].

فإن قيل: فقد نَجِدُ الناكحَ لا يستغني؟ قلنا: لا يلزم أن يكون هذا على الدَّوام، بل لو كان في لحظةٍ واحدةٍ لصدَق الوعدُ. وقد قيل: يغنيه، أي: يغني النفس[(٥)]. وفي الصحيح: «ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، إنَّما الغنى غِنَى النفس»[(٦)]. وقد قيل: ليس وعدٌ لا يقع فيه خُلْف؛ بل المعنى: أن المال غادٍ ورائح، فارْجُوا الغنى. وقيل: المعنى يُغنهم اللهُ من فضله إن شاء[(٧)]، كقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقال تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٦].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠ ، وأخرج أثر ابن مسعود الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٢٧٥ ، وأخرج أثر عمر عبد الرزاق كما في كشف الخفاء ١/ ٢٠٣ .

(٣) أورده الرازي في تفسيره ٢٣/ ٢١٤ ، والديلمي في الفردوس (٢٨٢) بلفظ: «التمسوا الرزق بالنكاح». قال في كشف الخفاء ١/ ٢٠٢ : رواه الثعلبي في تفسيره والديلمي بسند فيه لين.

(٤) برقم (٢٥١٨)، وأخرجه أحمد (٧٤١٦)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٥ ، وفي الكبرى (٤٣١٣) قال الترمذي: حديث حسن .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٧ .

(٦) صحيح البخاري (٦٤٤٦)، وصحيح مسلم (١٠٥١) وسلف ٧/ ٥٢ - ٥٣ .

(٧) تفسير الرازي ٢٣/ ٢١٤ بنحوه.

وقيل: المعنى: إن يكونوا فقراءَ إلى النِّكاح، يُغْنِهِمُ اللهُ بالحلال ليتعفَّفُوا عن الزنى.

السابعة: هذه الآية دليلٌ على تزويج الفقير، ولا يقول: كيف أتزوَّج وليس لي مال؛ فإنَّ رزقَه على الله، وقد زوَّج النبيُّ ﷺ المرأةَ التي أتته تَهَبُ له نفسَها لمن ليس له إلا إزار واحدٌ، وليس لها بعد ذلك فسخُ النِّكاح بالإعسار؛ لأنَّها دخلتْ عليه، وإنما يكون ذلك إذا دخلت على اليَسَار فخرج معسراً، أو طرأ الإعسارُ بعد ذلك؛ لأنَّ الجوعَ لا صبرَ عليه. قاله علماؤنا(١).

وقال النقَّاش: هذه الآية حجةٌ على من قال: إنَّ القاضي يُفرِّق بين الزوجين إذا كان الزوجُ فقيراً لا يقدرُ على النفقة؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: يفرّق. وهذا انتزاع ضعيف، ليست(٢) هذه الآيةُ حكماً فيمن عَجَزَ عن النفقة، وإنَّما هي وعدٌ بالإغناء لمن تزوّج فقيراً، فأمّا من تزوَّج موسِراً وأعسرَ بالنفقة، فإنَّه يفرَّق بينهما؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] ونفحاتُ الله تعالى مأمولةٌ في كلِّ حالٍ موعودٍ بها(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ **فيه أربع مسائل**:

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٨ .

(٢) في النسخ: ليس، والمثبت من المحرر الوجيز والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ﴾ الخطاب لمن يَملك أمر نفسه، لا لمن زِمامُه بيد غيره، فإنه يقوده إلى ما يراه، كالمحجور ـ قولاً واحداً ـ والأَمةِ والعبد، على أحد قولَي العلماء[١].

الثانية: و«اسْتَعْفَفَ» وزنه استفعل، ومعناه: طَلَبَ أن يكون عفيفاً، فأمر الله تعالى بهذه الآية كلَّ مَن تعذَّر عليه النكاحُ ولا يجدُه بأيِّ وجهٍ تَعذَّرَ أن يستعففَ. ثم لمَّا كان أغلبَ الموانع على النكاح عدمُ المال، وعدَ بالإغناء من فضله[٢]، فيرزقُه ما يتزوَّج به، أو يجدُ امرأة ترضى باليسير من الصَّداق، أو تزولُ عنه شهوة النساء. وروى النسائيُّ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عزَّ وجلَّ عونُه[٣]: المجاهدُ في سبيل الله، والناكحُ الذي يريد العفاف، والمكاتَبُ الذي يريد الأداء»[٤].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: طَوْلَ نكاح، فحذف المضاف. وقيل: النكاحُ هاهنا ما تُنكَح به المرأةُ من المهر والنفقة، كاللِّحافِ اسمٌ لِمَا يُلتحَف به. واللِّباس اسمٌ لِمَا يُلبس، فعلى هذا لا حذفَ في الآية، قاله جماعة من المفسرين، وحَمَلَهم على هذا قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فظنُّوا أن المأمور بالاستعفاف إنما هو مَن عَدِمَ المالَ الذي يتزوَّج به. وفي هذا القول تخصيصُ المأمورين بالاستعفاف، وذلك ضعيف، بل الأمرُ بالاستعفاف متوجِّهٌ لكلِّ مَن تعذَّر عليه النكاح بأيِّ وجهٍ تعذَّرَ[٥]، كما قدَّمناه، والله تعالى أعلم.

الرابعة: مَن تاقت نفسُه إلى النكاح، فإن وجد الطَّوْل، فالمستحبُّ له أن يتزوَّج، وإن لم يجد الطَّوْل، فعليه بالاستعفاف ما أمكن ولو بالصوم، فإن الصوم له وِجَاء،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٦٨ ، وسلفت أقوال العلماء في تزويج العبد والأمة في المسألة الخامسة في تفسير الآية قبلها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ .

(٣) في (م): عونهم.

(٤) سنن النسائي ٦/ ١٥ - ١٦ ، و ٦١ ، وسلف في المسألة السادسة في تفسير الآية قبلها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ .

كما جاء في الخبر الصحيح[(١)]. ومَن لم تَتُق نفسُه إلى النكاح، فالأولى له التخلي لعبادة الله تعالى. وفي الخبر: «خيرُكم الخفيفُ الحاذِ الذي لا أهلَ له ولا ولد»[(٢)].

وقد تقدَّم جواز نكاح الإماء عند عَدَم الطَّوْل للحرة في «النساء»[(٣)] والحمد لله.

ولمَّا لم يجعل الله بين[(٤)] العِفَّة والنكاح درجةً، دلَّ على أنَّ ما عداهما محرَّمٌ، ولا يدخل فيه مِلْك اليمين؛ لأنه بنصٍّ آخرَ مباح، وهو قولُه تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، فجاءت فيه زيادة، ويبقى على التحريم الاستمناءُ ردًّا على أحمد. وكذلك يخرج عنه نكاحُ المُتْعَة بنسخه[(٥)]، وقد تقدَّم هذا في «المؤمنين»[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾

فيه ستَّ عَشْرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ «الذين» في موضع رفع. وعند الخليل وسيبويه في موضع نصبٍ على إضمار فعل؛ لأن بعده أمراً[(٧)]. ولمَّا جرى ذِكْر العبيد والإماء فيما سبق، وَصَل به أن العبد إن طلب الكتاب فالمستحبُّ كتابتُه، فرُبَّما

---

(١) يشير المصنف بذلك إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٤٠٢٣)، والبخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠): (١). عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء». والوِجاء هو رضُّ الخصيتين، والمراد هنا أن الصوم يقطع الشهوة، ويقطع شرِ المني كما يفعله الوِجاء. شرح صحيح مسلم للنووي ٩/ ١٧٣ .

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٦٩ ، والخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ١٩٨ ، وابن عساكر في تاريخه ٦/ ٥٥ ، ١٨/ ٢١١ من حديث حذيفة مرفوعاً. قال أبو حاتم كما في علل الحديث ٢/ ١٣٢ : هذا حديث باطل. وقال أيضاً ٢/ ٤٢٠ : هذا حديث منكر. وكذا قال الذهبي في المغني في الضعفاء ١/ ٢٣٣ . وقال في السير ١٣/ ١٤ : غريب جداً.

(٣) ٦/ ٢٢٥ وما بعدها.

(٤) في (م): له بين.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٩ .

(٦) ص١١-١٢ من هذا الجزء.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٥ .

يقصد بالكتابة أن يَستقِلَّ ويكتسب ويتزوَّج إذا أراد، فيكون أعفَّ له.

قيل: نزلت في غلامٍ لحُوَيْطِب بن عبد العُزَّى يُقال له صُبْح ـ وقيل: صُبَيح ـ طلب من مولاه أن يُكاتبه، فأبى، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فكاتبه حُوَيطب على مئة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً، فأدَّاها، وقُتِل بحُنَيْنٍ في الحرب. ذكره القُشَيْريُّ، وحكاه النقاش[١].

وقال مَكِّيّ: هو صبيحٌ القِبطي غلامُ حاطبِ بن أبي بَلْتَعَة. وعلى الجملة فإن الله تعالى أمر المؤمنين كافَّةً أن يكاتِب منهم كلُّ مَن له مملوكٌ، وطلب المملوكُ الكتابة، وعلم سيِّدُه منه خيراً[٢].

الثانية: الكِتاب والمكاتبة سواء، مُفاعلة ممَّا لا تكون إلا بين اثنين؛ لأنها معاقَدةٌ بين السيِّد وعبده، يُقال: كاتب يكاتب كتاباً[٣] ومكاتبة، كما يُقال: قاتل قتالاً ومقاتلة. فالكتاب في الآية مصدرٌ، كالقتال والجِلاد والدِّفاع[٤].

وقيل: الكتاب هاهنا هو الكتابُ المعروفُ الذي يُكتب فيه الشيء، وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد، كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتاباً. فالمعنى: يطلبون العتق الذي يُكتب به الكتاب، فيُدفَعُ إليهم.

الثالثة: معنى المكاتبة في الشرع: هو أن يُكاتِب الرجلُ عبدَه على مال يؤدِّيه مُنَجَّماً عليه، فإذا أدَّاه فهو حُرٌّ[٥]. ولها حالتان:

الأولى: أن يطلبَها العبد ويُجِيبَه السيِّد، فهذا مطلَقُ الآية وظاهرُها.

---

(١) نقله عن النقاش ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ ، وأورد الخبر الواحدي في أسباب النزول ص٣٣٧ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٤٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣٧ ، والرازي في تفسيره ٢٣/ ٢١٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ .

(٣) بعدها في (ظ) والمفهم ٤/ ٣١٨ والكلام منه: وكتابة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ .

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠ ـ ٤١ ، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٥٠ ، والصحاح (كتب).

الثانية: أن يطلبها العبد ويأباها السيِّد، وفيها قولان: الأوَّل لعكرمةَ وعطاءٍ ومسروق وعمرو بن دينار والضحاكِ بن مُزاحم وجماعةِ أهل الظاهر أنَّ ذلك واجبٌ على السيِّد. وقال علماء الأمصار: لا يجب ذلك[١].

وتعلَّق مَن أوجبها بمطلق الأمر، وافعلْ بمطلقه يدلّ[٢] على الوجوب حتى يأتي الدليل بغيره[٣]. ورُوِيَ ذلك عن عمرَ بنِ الخطاب وابنِ عباس، واختاره الطبري[٤]. واحتج داودُ أيضاً بأنَّ سِيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك الكتابةَ ـ وهو مولاه ـ فأبى أنس، فرفع عمر عليه الدِّرَّة، وتلا: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، فكاتبه أنس. قال داود: ما كان عمرُ لِيرفعَ الدِّرَّة على أنس فيما له مباح ألَّا يفعله[٥].

وتمسك الجمهور بأن الإجماع منعقِدٌ على أنه لو سأله أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك، ولم يُجبَر عليه وإن ضوعف له في الثمن. وكذلك لو قال له: أعتقني، أو دَبِّرْني، أو زوِّجني، لم يلزمه ذلك بإجماع، فكذلك الكتابةُ؛ لأنها معاوضةٌ، فلا تصح إلا عن تراضٍ[٦].

وقولُهم: مطلق الأمر يقتضي الوجوب: صحيحٌ، لكن إذا عَرِيَ عن قرينة تقتضي صرفَه عن الوجوب، وهي[٧] تعليقُه هنا بشرط علم الخير فيه، فعلَّق الوجوب على أمر باطن، وهو علمُ السيِّد بالخيريَّة. وإذا قال العبد: كاتبني، وقال السيِّد: لم أعلم فيك

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٦٩ - ١٣٧٠، وينظر التمهيد ٢٢/١٦٧، والاستذكار ٢٣/٢٥٠.

(٢) كلمة: يدلّ، من (ظ).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٠.

(٤) في تفسيره ١٧/ ٢٧٨، وأخرج قول عمر وابن عباس ١٧/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٥) التمهيد ٢٢/ ١٦٧. وداود هو الظاهري. وأورد هذا الأثر البخاري معلقاً قبل الحديث (٢٥٦٠) عن عطاء عن موسى بن أنس، ووصله عبد الرازق (١٥٥٧٨).

(٦) الاستذكار ٢٣/ ٢٥٢ دون قوله: ولم يجبر عليه وإن ضوعف له في الثمن. فقد ذكرها أبو العباس في المفهم ٤/ ٣١٩.

(٧) لفظة: هي، من (ظ).

خيراً، وهو أمرٌ باطن، فيُرجَع فيه إليه، ويُعوَّل عليه. وهذا قويٌّ في بابه[١].

الرابعة: واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾ فقال ابن عباس وعطاء: المال[٢]. مجاهد: المال والأداء[٣]. الحسن والنَّخَعيّ: الدِّين والأمانة[٤]. وقال مالك: سمعت بعض أهل العلم يقولون: هو القوَّةُ على الاكتساب والأداء[٥]. وعن الليث نحوه، وهو قول الشافعيّ[٦]. وقال عَبيدةُ السَّلْمانيّ: إقامةُ الصلاة والخير[٧].

قال الطحاوي: وقولُ مَن قال: إنه المال، لا يصحُّ عندنا؛ لأن العبد مالٌ لمولاه، فكيف يكون له مال؟ والمعنى عندنا: إنْ علمتم فيهم الدِّينَ والصِّدق، وعلمتم أنهم يعاملونكم على أنهم متعبّدون بالوفاء لكم بما عليهم من الكتابة والصدق في المعاملة، فكاتبوهم.

وقال أبو عمر[٨]: مَن لم يقل: إن الخير هنا المالُ، أنكر أن يُقال: إن علمتم فيهم مالاً، وإنما يقال: علمتُ فيه الخير والصلاح والأمانة، ولا يقال: علمتُ فيه المال، وإنما يقال: علمتُ عنده المال.

قلت: وحديثُ بَرِيرةَ يردُّ قول مَن قال: إن الخير المالُ، على ما يأتي.

الخامسة: اختلف العلماء في كتابة مَن لا حِرْفةَ له، فكان ابن عمر يكره أن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٠.

(٢) أخرج قولهما عبد الرزاق (١٥٥٧٠)، والطبري ١٧/ ٢٨٠ - ٢٨٢، والبيهقي ١٠/ ٣١٨. وأخرج ابن أبي شيبة ٧/ ٢٠٢ قول عطاء فقط.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٢٠١، والطبري ١٧/ ٢٧٩، والبيهقي ١٠/ ٣١٨.

(٤) أخرج قول الحسن عبد الرزاق (١٥٥٧٤)، وابن أبي شيبة ٧/ ٢٠١. وأخرج قول النخعي عبد الرزاق (١٥٥٧٥)، وابن أبي شيبة ٧/ ٢٠٢، والطبري ١٧/ ٢٧٩ - ٢٨٠، والبيهقي ١٠/ ٣١٨ بلفظ: صدقاً ووفاء.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٦) أحكام القرآن للشافعي ٢/ ١٦٨، والتمهيد ٢٢/ ١٦٤، والاستذكار ٢٣/ ٢٤٨.

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٥٥٧٣)، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان ٣/ ٢١٦ دون قوله: والخير.

(٨) في الاستذكار ٢٣/ ٢٤٩.

يكاتب عبده إذا لم تكن له حِرْفة، ويقول: تأمرني[(١)] أن آكلَ أوساخ الناس. ونحوُه عن سلمانَ الفارسي[(٢)].

ورَوى حكيم بن حِزام قال: كتب عمر بن الخطاب إلى عُمير بن سعد: أما بعد، فانْهَ مَن قِبَلك من المسلمين أن يكاتبوا أرقَّاءهم على مسألة الناس[(٣)]. وكَرِهه الأوزاعيُّ وأحمدُ وإسحاق[(٤)].

ورخَّص في ذلك مالكٌ وأبو حنيفة والشافعيُّ[(٥)]. ورُوِيَ عن عليٍّ ﷺ أنَّ ابنَ النَّبَّاح[(٦)] مؤذِّنَه قال له: أُكاتَبُ وليس لي مال؟ قال: نعم، ثم حضَّ الناسَ على الصَّدقة عليَّ، فأعطَوْني ما فَضَل عن مكاتبتي، فأتيت عليًّا فقال: اجعلها في الرِّقاب[(٧)].

---

(١) في (م): أتأمرني.

(٢) أخرجه عن ابن عمر وسلمان الفارسي عبد الرزاق (١٥٥٨٣) و(١٥٥٨٥)، وابن أبي شيبة ٧/ ٢٣-٢٤، والبيهقي ١٠/ ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) الاستذكار ٢٣/ ٢٤٩، وأخرجه عبد الرزاق (١٥٥٨٦) عن معمر قال: أخبرني رجل من أهل الشام أنهم وجدوا في خزانة حمص كتاباً من عمر بن الخطاب، إلى عمير..

وأخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٢٣، والبيهقي ١٠/ ٣١٩ - ٣٢٠ من حديث حزام بن حكيم. وحزام هذا هو ابن الصحابي حكيم بن حزام الأسدي، وهو مقبول كما قال ابن حجر في التقريب.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٦٥، والاستذكار ٢٣/ ١٩٦، وإكمال المعلم ٥/ ١١٠، والمفهم ٤/ ٣٢٩. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ١٦٦: وفي هذا الحديث ـ يعني حديث بريرة الآتي ـ دليل على إجازة أخذ السيد نجوم المكاتبة من مسألة الناس... وهذا يردُّ قول من كره كتابة المكاتب الذي يسأل الناس، وقال: تطعمني أوساخ الناس، وليس كما قال ولا كما ظن؛ لأن ما طاب لبريرة أخذه، كان لسيدها قبضه عنها في الكتابة؛ لأنه داخل عليه من غير الجهة التي دخل عليها، وهو كاللحم الذي تُصُدِّقَ به على بريرة، فقال رسول الله ﷺ: هو عليها صدقة، ولنا هدية. انتهى بتصرف يسير. وينظر الاستذكار ٢٣/ ١٩٤.

(٥) التمهيد ٢٢/ ١٦٥، والاستذكار ٢٣/ ١٩٦.

(٦) في النسخ وسنن البيهقي ١٠/ ٣٢٠: ابن التَّيَّاح، والتصويب من التاريخ الكبير ٦/ ٤٥١، والجرح والتعديل ٦/ ٣٢٨، والمؤتلف والمختلف ١/ ٣١٥، وتوضيح المشتبه ٩/ ٢٣ وجاء فيها: ابن النَّبَّاح، واسمه عامر، مؤذِّن علي بن أبي طالب، يروي عنه.

(٧) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الدارقطني في المؤتلف والمختلف ١/ ٣١٥. وأخرجه البخاري في التاريخ =

وقد رُوِيَ عن مالك كراهةُ ذلك، وأنَّ الأَمَة التي لا حِرفة لها يُكره مكاتبتُها[١]؛ لِمَا يؤدِّي إليه من فسادها.

والحجةُ في السُّنة لا فيما خالفها. روى الأئمة عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: دخلتْ عليَّ بَرِيرةُ فقالت: إنَّ أهلي كاتبوني على تسع أواقٍ في تسع سنين، كلَّ سنة أوقيَّة، فأعِينِيني... الحديث[٢]. فهذا دليلٌ على أن للسيِّد أن يكاتب عبده وهو لا شيء معه، ألا ترى أن بَريرة جاءت عائشةَ تخبرها بأنها كاتبت أهلها وسألتها أن تعينها؟ وذلك كان في أوَّل كتابتها قبل أن تُؤدِّيَ منها شيئاً، كذلك ذكره ابن شهاب عن عروة أن عائشة أخبرته أن بَريرة جاءت تستعينُها في كتابتها، ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً[٣]. أخرجه البخاريُّ وأبو داود[٤].

وفي هذا دليلٌ على إجازة[٥] كتابة الأَمَة، وهي غيرُ ذاتِ صَنْعة ولا حِرْفة ولا مال، ولم يسأل النبيُّ ﷺ: هل لها كسب، أو عملٌ واصبٌ[٦]، أو مالٌ؟ ولو كان هذا واجباً لسأل عنه؛ ليقعَ حكمه عليه؛ لأنه بُعث مبيِّناً معلِّماً ﷺ.

وفي هذا الحديث ما يدلُّ على أن مَن تأوَّل في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ المال الخيرُ، ليس بالتأويل الجيِّد، وأن الخير المذكورَ هو القوَّةُ على الاكتساب مع الأمانة[٧]، والله أعلم.

= الكبير ٢/ ١٨٨ مختصراً. وأخرجه عبد الرزاق (١٥٥٨١)، وابن أبي شيبة ٦/ ٤٢٤، والبيهقي ١٠/ ٣٢٠ بنحوه. وجاء عند عبد الرزاق: أبو التَّيَّاح، بدل: ابن التَّبَّاح.

(١) الاستذكار ٢٣/ ١٩٦، والمفهم ٤/ ٣٢٩.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٧٨٦)، والبخاري (٢١٦٨)، ومسلم (١٥٠٤): (٨).

(٣) التمهيد ٢٢/ ١٦٢ - ١٦٣، والاستذكار ٢٣/ ١٩٣.

(٤) صحيح البخاري (٢٥٦١)، وسنن أبي داود (٣٩٢٩)، وهو عند أحمد (٢٤٠٥٣)، ومسلم (١٥٠٤): (٦).

(٥) في (م) و(د): جواز، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في التمهيد ٢٢/ ١٦٣، والاستذكار ٢٣/ ١٩٣ والكلام منهما.

(٦) أي: دائم، ووقع في (ظ) والتمهيد والاستذكار: واجب.

(٧) الاستذكار ٢٣/ ١٩٣ - ١٩٤.

السادسة: الكتابة تكون بقليل المال وكثيره، وتكون على أَنْجُم؛ لحديث بَرِيرة. وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء[(١)] والحمد لله. فلو كاتبه على ألف درهم ولم يذكر أجلاً، نُجِّمت عليه بقَدْر سِعايته، وإن كره السيِّد[(٢)]. قال الشافعيُّ: لابُدَّ فيها من أجل، وأقلُّها ثلاثةُ أَنْجُم. واختلفوا إذا وقعت على نَجْم واحد؛ فأكثرُ أهل العلم يُجيزونها على نجم واحد. وقال الشافعيُّ: لا تجوز على نجم واحد، ولا تجوز حالَّةً ألْبَتَّةَ، وإنما ذلك عِتْقٌ على صفة، كأنه قال: إذا أدَّيتَ كذا وكذا، فأنت حرٌّ، وليست كتابة[(٣)].

قال ابن العربي[(٤)]: اختلف العلماء والسَّلف في الكتابة إذا كانت حالَّةً على قولين، واختلف قول علمائنا كاختلافهم. والصحيحُ في النَّظر أن الكتابة مؤجَّلةٌ، كما ورد بها الأثر في حديث بَريرةَ حين كاتبتْ أهلها على تسع أواق، في كلِّ عام أُوقِيَّة، وكما فعلت الصحابة، ولذلك سُمِّيت كتابةً؛ لأنها تُكتَب ويُشهَد عليها، فقد استَوْسَق[(٥)] الاسم والأثر، وعَضَده المعنى، فإن المال إن جعله حالًّا وكان عند العبد شيءٌ، فهو مالُ مقاطعةٍ وعقدُ مقاطعةٍ[(٦)]، لا عقدُ كتابة.

وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: إذا كاتبه على مال معجَّل، كان عتقاً على مال، ولم تكن كتابة.

وأجاز غيره من أصحابنا الكتابةَ الحالَّة وسمَّاها قِطاعةً، وهو القياس؛ لأن الأَجَل فيها إنما هو فُسْحةٌ للعبد في التكسُّب. ألا ترى أنه لو جاء بالمنجَّم عليه قَبْل

(١) التمهيد ٢٢/ ١٦٨.

(٢) ينظر مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٤١١، والكافي ٢/ ٩٨٨، وإكمال المعلم ٥/ ١١٠.

(٣) الاستذكار ٢٣/ ١٩٦، والتمهيد ٢٢/ ١٦٨.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧١.

(٥) أي: اجتمع، القاموس (وسق). وفي (د) وأحكام القرآن: استوثق.

(٦) المقاطعة هو أن يجعل عتق المكاتَب على شيء يقاطع عليه، معجَّل أو مؤجَّل. المنتقى ٧/ ١٦ - ١٧.

مَحِلِّه؛ لوجب على السيد أن يأخذه ويتعجَّل للمكاتَب عتقَه[١]. وتجوز الكتابة الحالَّة؛ قاله الكوفيون[٢].

قلت: لم يَرِد عن مالك نصٌّ في الكتابة الحالَّة، والأصحابُ يقولون: إنها جائزة، ويسمُّونها قِطاعة. وأمَّا قولُ الشافعيِّ: إنها لا تجوز على أقلَّ من ثلاثة أَنْجُم، فليس بصحيح؛ لأنه لو كان صحيحاً، لجاز لغيره أن يقول: لا تجوز على أقلَّ من خمسة أنجم[٣]؛ لأنها أقلُّ النجوم التي كانت على عهد رسول الله ﷺ في بَرِيرة، وعَلِم بها النبيُّ ﷺ وقضى فيها، فكان بصواب الحُجَّة أَوْلى. روى البخاريُّ عن عائشةَ أن بَرِيرة دخلت عليها تستعينُها في كتابتها، وعليها خمسةُ أواقٍ نُجِّمت عليها في خمس سنين... الحديث. كذا قال اللَّيث عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: وعليها خمسةُ أواقٍ نُجِّمت عليها في خمس سنين[٤]. وقال أبو أسامة: عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت بَرِيرة فقالت: إني كاتبتُ أهلي على تسع أواق... الحديث[٥]. وظاهرُ الروايتين تعارضٌ، غيرَ أنَّ حديث هشام أَوْلى؛ لاتصاله وانقطاع حديث يونس؛ لقول البخاري: وقال اللَّيث: حدثني يونس؛ ولأن هشاماً أثبتُ في حديث أبيه وجدَّته[٦] من غيره، والله أعلم.

---

(١) المفهم ٤/ ٣١٨.

(٢) مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٤١١.

(٣) في (د) و(م): نجوم.

(٤) كذا علقه البخاري عن الليث (٢٥٦٠)، ووصله الذهلي في الزهريات كما في تغليق التعليق ٣/ ٣٤٩ وفتح الباري ٥/ ١٨٧. قال ابن حجر في الفتح: والمحفوظ رواية الليث له عن ابن شهاب نفسه بغير واسطة... وهذا هو المحفوظ أن يونس رفيق الليث فيه لا شيخه، ووقع التصريح بسماع الليث له من ابن شهاب ...

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤): (٧)، وسلف في المسألة السابقة. قال ابن حجر في الفتح: ٥/ ١٨٧: وقد جزم الإسماعيلي بأن الرواية المعلقة غلط، ويمكن الجمع بأن التسع أصل والخمس كانت بقيت عليها... ويعكِّر عليه قوله في رواية قتيبة: «ولم تكن أدت من كتابتها شيئاً». ويجاب بأنها كانت حصَّلت الأربع أواق قبل أن تستعين بعائشة، ثم جاءتها وقد بقي عليها خمس.

(٦) في (د) و(م): وجده، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في المفهم ٤/ ٣٢١ والكلام منه دون قوله: لقول البخاري: وقال الليث: حدثني يونس.

السابعة: المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه من مال الكتابة شيءٌ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «المكاتَبُ عبدٌ ما بقيَ عليه من مكاتبته درهم». أخرجه أبو داود[(١)] عن عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه. ورُويَ عنه أيضاً أن النبيَّ ﷺ قال: «أيُّما عبدٍ كاتب على مئة دينار، فأدَّاها إلا عَشْرةَ دنانير، فهو عبد»[(٢)]. وهذا قولُ مالك والشافعيِّ وأبي حنيفةَ وأصحابِهم والثوريِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي ثور وداود والطبري. ورُويَ ذلك عن ابن عمر من وجوه، وعن زيد بن ثابت وعائشةَ وأمِّ سلمة، لم يُختلف عنهم في ذلك ﷺ. ورُويَ ذلك عن عمرَ بنِ الخطاب، وبه قال ابن المسيِّب والقاسم وسالم وعطاء[(٣)]. قال مالك: وكلُّ مَن أَدْركْنا ببلدنا يقول ذلك.

وفيها قولٌ آخَرُ رُويَ عن عليٍّ أنه إذا أدَّى الشَّطْر، فهو غريم. وبه قال النَّخَعي. ورُويَ ذلك عن عمرَ ﷺ[(٤)]، والإسنادُ عنه بأن المكاتَبَ عبدٌ ما بقي عليه درهمٌ، خيرٌ من الإسناد عنه بأن المكاتَب إذا أدَّى الشَّطر فلا رِقَّ عليه. قاله أبو عمر[(٥)].

وعن عليٍّ أيضاً: يَعْتِق منه بقَدْر ما أدَّى.

وعنه أيضاً أن العَتاقة تَجري فيه بأوَّل نَجْم يُؤَدِّيه[(٦)].

وقال ابن مسعود: إذا أدَّى ثُلُث الكتابة، فهو عَتيق غَرِيم. وهو[(٧)] قولُ شُرَيح[(٨)].

---

(١) برقم (٣٩٢٦)، وسلف ١٠/ ٢٧٨.

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٢٦)، وأبو داود (٣٩٢٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٠٠٨).

(٣) التمهيد ٢٢/ ١٧٤.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٧٤، وأخرج قول النَّخَعي ابن أبي شيبة ٦/ ١٥١. وأخرج قول عمر عبد الرزاق (١٥٧٣٦)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٥٠.

(٥) في الاستذكار ٢٣/ ٢٤١.

(٦) التمهيد ٢٢/ ١٧٢، وأخرج قول علي الأول عبد الرزاق (١٥٧٤١)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٥٢. وأخرج قوله الثاني ابن أبي شيبة ٦/ ١٥٠.

(٧) في (م): وهذا.

(٨) التمهيد ٢٢/ ١٧٤، والاستذكار ٢٣/ ٢٣٥، وأخرجه عن ابن مسعود عبد الرزاق (١٥٧٢١)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٤٩، والبيهقي ١٠/ ٣٢٦.

وعن ابن مسعود: لو كانت الكتابة مئتي دينار، وقيمةُ العبد مئة دينار، فأدَّى العبدُ المئة التي هي قيمته، عَتَق. وهو قولُ النَّخعيِّ أيضاً.

وقول سابع: إذا أدَّى الثلاثةَ الأرباعِ، وبقي الرُّبع، فهو غريمٌ ولا يعود عبداً. قاله عطاء بن أبي رَباح، رواه ابن جُريج عنه[١].

وحُكيَ عن بعض السَّلف أنه بنفس عقد الكتابة حرٌّ[٢]، وهو غريم بالكتابة، ولا يرجع إلى الرِّقِّ أبداً. وهذا القول يردُّه حديث بَرِيرةَ لصحته عن النبيِّ ﷺ[٣]. وفيه دليلٌ واضحٌ على أن المكاتَب عبدٌ، ولولا ذلك ما بِيعت بَرِيرة[٤]، ولو كان فيها شيء من العتق، ما أجاز بيعَ ذلك، إذ مِن سنَّته المُجْمَعِ[٥] عليها ألَّا يباع الحرُّ. وكذلك كتابةُ سَلْمان وجُوَيْرِيَة، فإن النبيَّ ﷺ حكم لجميعهم بالرِّقِّ حتى أدَّوا[٦] الكتابة. وهي حُجَّةٌ للجمهور في أن المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه شيء.

وقد ناظر عليَّ بنَ أبي طالب زيدُ بن ثابت في المكاتَب، فقال لعليٍّ: أكنت راجمَه لو زنى، أو مُجيزاً شهادتَه لو شَهِد؟ فقال عليٌّ: لا. فقال زيد: هو عبدٌ ما بقيَ عليه شيء[٧].

وقد روى النَّسائيُّ عن عليٍّ وابنِ عباس ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المكاتَب يَعْتِق منه بقَدْر ما أدَّى، ويُقام عليه الحدُّ بقَدْر ما أدَّى، ويَرِث بقَدْر ما عَتَقَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٥٧٤٣) بنحوه مطولاً.

(٢) في (ظ): يعتبر حرًّا.

(٣) ينظر المفهم ٤/ ٣٢٩.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٧٤.

(٥) في (ظ) و(ف) والتمهيد ٢٢/ ١٨٠ ـ والكلام منه ـ: المجتمع.

(٦) في (د): ردوا، وفي (ف) والمفهم ٤/ ٣٢٩ والكلام منه: وَدَوا.

(٧) التمهيد ٢٢/ ١٧٦، وأورد قول زيد فقط دون مناظرته مع علي البخاري تعليقاً قبل حديث (٢٥٦٤)، ووصله عبد الرزاق (١٥٧١٧)، والبيهقي ١٠/ ٣٢٤.

منه». وإسناده صحيح[1]. وهو حُجَّةٌ لِمَا رُويَ عن علي، ويعتضد بما رواه أبو داود عن نَبْهانَ مكاتَبِ أمِّ سلمةَ قال: سمعت أمَّ سلمة تقول: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا كان لإحداكنَّ مكاتَب، وكان عنده ما يُؤدِّي، فَلْتَحْتجب منه». وأخرجه الترمذيُّ وقال: حديث حسن صحيح[2]. إلا أنه يَحْتمل أن يكون خطاباً مع زوجاته، أخذاً بالاحتياط والورع في حقِّهنّ، كما قال لسَوْدة: «احتجبي منه»[3] مع أنه قد حكم بأُخُوَّتها له، وبقوله لعائشة وحفصة: «أفَعَمْيَاوَان أنتما، أَلَسْتُما تُبصرانه» يعني: ابنَ أمِّ مكتوم، مع أنه قال لفاطمةَ بنت قيس: «اعتدِّي عند ابن أمّ مكتوم»[4]. وقد تقدم هذا المعنى.

الثامنة: أجمع العلماء على أن المكاتَب إذا حلَّ عليه نَجْمٌ من نجومه أو نجمان أو نجومُه كلُّها، فوقف السيد عن مطالبته، وَتَركه بحاله، أنَّ الكتابة لا تنفسخ ما داما على ذلك ثابتَيْن[5].

التاسعة: قال مالك: ليس للعبد أن يُعجِّز نفسه إذا كان له مالٌ ظاهر، وإن لم يظهر له مالٌ فذلك إليه. وقال الأوزاعيُّ: لا يُمَكَّن من تعجيز نفسه إذا كان قويًّا على الأداء. وقال الشافعيُّ: له أن يُعَجِّز نفسه، عُلِم له مالٌ أو قوَّةٌ على الكتابة أو لم يُعلم، فإذا قال: قد عَجَزت وأبطلت الكتابة؛ فذلك إليه[6].

---

(١) سنن النسائي ٨/ ٤٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: ويقام عليه الحد بقدر ما عتق منه، بدل: ويقام عليه الحد بقدر ما أدى، وأخرجه عنه أحمد (١٩٤٤) مختصراً. ولم نقف عليه عند النسائي عن علي ﷺ، وقد أخرجه عنه عبد الرزاق (١٥٧٣٤) بنحوه.

(٢) سنن أبي داود (٣٩٢٨)، والترمذي (١٢٦١)، وهو عند أحمد (٢٦٤٧٣)، وابن ماجه (٢٥٢٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٠٨٦)، والبخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها. وقوله: احتجبي منه، أي: من ابن وليدة زمعة، وذلك أن عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد أن ابن وليدة زمعة مني فاقبضه، فلما كان عام الفتح أخذه سعد وقال: ابن أخي، قد عهد إليَّ فيه، فقام عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فتساوقا إلى النبي ﷺ...

(٤) المفهم ٤/ ٣٣٠ ، وقد سلف هذان الحديثان ص٢١١-٢١٢ من هذا الجزء .

(٥) التمهيد ٢٢/ ١٧٨ ، والمفهم ٤/ ٣٣١ .

(٦) التمهيد ٢٢/ ١٧٨ ، والمفهم ٤/ ٣٣١ .

وقال مالك: إذا عَجَز المكاتَب، فكلُّ ما قبضه منه سيِّدُه قبل العجز حَلٌّ له، كان من كسبه أو من صدقة عليه. وأمَّا ما أُعِين به على فَكاك رقبته، فلم يَفِ ذلك بكتابته، كان لكلِّ مَن أعانه الرجوعُ بما أعْطَى، أو تحلَّل منه المكاتَب. ولو أعانوه صدقةً لا على فَكاك رقبته، فذلك إن عَجَز حَلٌّ لسيِّده، ولو تمَّ به فَكاكه وبقيت منه فَضْلة. فإن كان بمعنى الفَكاك؛ ردَّها إليهم بالحِصَص أو يحلِّلونه منها. هذا كلُّه مذهب مالك فيما ذكر ابن القاسم[١].

وقال أكثر أهل العلم: إنَّ ما قبضه السيد منه من كتابته، وما فَضَل بيده بعد عجزه من صدقة أو غيرها، فهو لسيده، يَطيب له أخذُ ذلك كلِّه. هذا قولُ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ وأصحابِهما وأحمدَ بن حنبل، وروايةٌ عن شُريح.

وقال الثَّوريّ: يجعل السيد ما أعطاه في الرقاب، وهو قول مسروق والنَّخَعيّ، وروايةٌ عن شريح.

وقالت طائفة: ما قبض منه السيد فهو له، وما فضَل بيده بعد العجز فهو له دون سيده، وهذا قول بعض من ذهب إلى أن العبد يملك.

وقال إسحاق: ما أُعطِيَ بحال الكتابة رُدَّ على أربابه.

العاشرة: حديثُ بَرِيرة على اختلاف طرقه وألفاظه يتضمَّن أن بريرة وقع فيها بيعٌ بعد كتابةٍ تقدَّمت. واختلف الناس في بيع المكاتَب بسبب ذلك[٢]. وقد ترجم البخاريُّ[٣]: بابُ بيع المكاتَب إذا رضي. وإلى جواز بيعه للعتق إذا رضي المكاتَب بالبيع ولو لم يكن عاجزاً ذهب ابن المنذر[٤] والدَّاوُديُّ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر

(١) التمهيد ٢٢/ ١٧٩ - ١٨٠، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) المفهم ٤/ ٣٣٠ - ٣٣١.

(٣) قبل الحديث (٢٥٦٤).

(٤) في الإشراف ١/ ٣٤٠.

ابن عبد البر[١]، وبه قال ابن شهاب وأبو الزِّناد وربيعة، غير أنهم قالوا: لأن رضاه بالبيع عجزٌ منه.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابُهما: لا يجوز بيع المكاتَب ما دام مكاتَباً حتى يعجِز، ولا يجوز بيع كتابته بحال، وهو قول الشافعيّ بمصر. وكان بالعراق يقول: بيعه جائز، وأمَّا بيعُ كتابته فغيرُ جائزة[٢]. وأجاز مالك بيع الكتابة، فإن أداها عَتَق، وإلَّا كان رقيقاً لمشتري الكتابة. ومنع من ذلك أبو حنيفة؛ لأنه بيع غَرَر. واختلف قول الشافعيّ في ذلك بالمنع والإجازة[٣].

وقالت طائفة: يجوز بيع المكاتَب على أن يَمضيَ في كتابته، فإن أدَّى عَتق، وكان ولاؤه للذي ابتاعه، ولو عَجَز فهو عبد له. وبه قال النَّخَعيُّ وعطاء واللَّيث وأحمدُ وأبو ثور[٤].

وقال الأوزاعيُّ: لا يباع المكاتَب إلا للعتق، ويُكره أن يباع قبل عجزه، وهو قول أحمد وإسحاق[٥].

قال أبو عمر[٦]: في حديث بَريرةَ إجازةُ بيع المكاتَب إذا رضي بالبيع و[إن] لم يكن عاجزاً عن أداء نَجْم قد حلَّ عليه، بخلاف قولِ مَن زعم أن بيع المكاتَب غيرُ جائز إلا بالعجز؛ لأن بَريرة لم تذكر أنها عَجَزت عن أداء نجم، ولا أخبرت بأن النجم قد حلَّ عليها، ولا قال لها النبيُّ ﷺ: أعاجزةٌ أنتِ، أم هل حلَّ عليكِ نجم فلم تؤدِّه[٧]؟ ولو لم يجز بيع المكاتَب والمكاتَبة إلا بالعجز عن أداء ما قد حلَّ، لكان

(١) في التمهيد ٢٢/١٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي العباس في المفهم ٤/ ٣٣١ والكلام منه.

(٢) التمهيد ٢٢/ ١٧٧.

(٣) المفهم ٤/ ٣٣١.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٧٧، والمفهم ٤/ ٣٣١.

(٥) ينظر الاستذكار ٢٣/ ٢٩٧.

(٦) في التمهيد ٢٢/١٧٦ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) قوله: فلم تؤدِّه، ليس في (م).

النبيُّ ﷺ قد سألها: أعاجزةٌ هي أم لا، وما كان ليأذن في شرائها إلا بعد علمه ﷺ أنها عاجزة؛ ولو عن أداء نجم واحد قد حلَّ عليها. وفي حديث الزُّهريِّ أنها لم تكن قضت من كتابتها شيئاً[1]. ولا أعلم في هذا الباب حجَّةً أصحَّ من حديث بَريرة هذا، ولم يُرْوَ عن النبيِّ ﷺ شيءٌ يعارضه، ولا في شيء من الأخبار دليلٌ على عجزها.

استدلَّ مَن منع من بيع المكاتَب بأمور: منها أن قالوا: إن الكتابة المذكورة لم تكن انعقدت، وإنَّ قولها: كاتبت أهلي، معناه أنها راوضتهم عليها، وقدَّروا مبلغها وأجلَها ولم يَعْقدوها. وظاهرُ الأحاديث خلافُ هذا إذا تُؤُمِّل مساقُها[2].

وقيل: إن بريرة عجزت عن الأداء، فاتفقت هي وأهلُها على فسخ الكتابة، وحينئذٍ صحَّ البيع، إلا أن هذا إنما يتمشَّى على قول مَن يقول: إن تعجيز المكاتَب غيرُ مفتقِر إلى حكم حاكم إذا اتفق العبد والسيد عليه؛ لأن الحقَّ لا يعدوهما، وهو المذهب المعروف. وقال سُحْنُون: لابُدَّ من السلطان، وهذا إنما خاف أن يتواطأا على ترك حقِّ الله تعالى. ويدل على صحة أنها عجزت ما رُوِيَ أن بَريرةَ جاءت عائشةَ تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً، فقالت لها عائشة: ارجعي إلى أهلك، فإن أحبُّوا أن أقضيَ عنك كتابتك، فعلت[3]. فظاهر هذا أن جميع كتابتها أو بعضَها استُحِقَّ عليها؛ لأنه لا يُقْضَى من الحقوق إلا ما وجبت المطالبة به، والله أعلم[4]. هذه التأويلات[5] أشبهُ ما لهم، وفيها من الدَّخَلِ ما بيَّنَّاه.

وقال ابن المنذر: ولا أعلم حجَّةً لمن قال: ليس له بيع المكاتَب إلا أن يقول: لعل بريرة عَجَزت. قال الشافعيُّ: وأظهر معانيه أن لمالك المكاتَب بَيْعَه.

---

(١) سلف في المسألة الخامسة.

(٢) المفهم ٤/٣١٩ - ٣٢٠.

(٣) سلف في المسألة الخامسة.

(٤) المفهم ٤/٣٢٠.

(٥) في (ظ): هذان التأويلان.

الحادية عشرة: المكاتَب إذا أدَّى كتابته عَتَق، ولا يحتاج إلى ابتداء عِتق من السيِّد. وكذلك ولدُه الذين وُلِدوا في كتابته من أَمَته، يَعْتِقون بعتقه ويَرِقُّون برقِّه؛ لأن ولد الإنسان من أمَته بمثابته اعتباراً بالحرِّ، وكذلك ولدُ المكاتَبة، فإن كان لهما ولدٌ قبل الكتابة، لم يدخل في الكتابة إلا بشرط.

الثانية عشرة: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هذا أمرٌ للسَّادة بإعانتهم في مال الكتابة، إمَّا بأن يُعطوهم شيئاً ممَّا في أيديهم ـ أعني: أيدي السادة ـ أو يحطُّوا عنهم شيئاً من مال الكتابة. قال مالك: يُوضع عن المكاتَب من آخر كتابته، وقد وضع ابن عمر خمسةَ آلاف من خمسة وثلاثين ألفاً[(١)]. واستحسن عليٌّ ﷺ أن يكون ذلك ربعَ الكتابة[(٢)]. قال الزَّهراويُّ: رُويَ ذلك عن النبيِّ ﷺ[(٣)]. واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبي الحسن ثلثَها. وقال قتادة: عُشْرها[(٤)]. ابن جُبير: يُسقِط عنه شيئاً، ولم يَحُدَّه، وهو قولُ الشافعيِّ، واستحسنه الثوري.

قال الشافعي: والشيء أقلُّ شيء يقع عليه اسم شيء، ويُجبَر عليه السيِّد، ويَحكم به الحاكم على الورثة إن مات السيد.

ورأى مالك رحمه الله تعالى هذا الأمر على الندب، ولم ير لقَدْر الوضيعة حدًّا[(٥)].

احتجَّ الشافعيُّ بمطلق الأمر في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾، ورأى أن عطف الواجب

---

(١) قول مالك في الموطأ ٢/ ٧٨٨، ونقله عنه المصنف بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ١٨٩، وأخرج أثر ابن عمر الطبري ١٧/ ٢٨٦، والبيهقي ١٠/ ٣٣٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٥٥٩٠)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٠١٩)، والطبري ١٧/ ٢٨٣.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٥٥٨٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٠١٧) من حديث علي ﷺ. قال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٣/ ٢٥٦: والصحيح أنه موقوف على علي ﷺ. وقال ابن كثير ٦/ ٥٤: هذا حديث غريب، ورفعه منكر، والأشبه أنه موقوف على علي.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق (١٥٥٩٤).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١.

على الندب معلومٌ في القرآن ولسان العرب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] وما كان مثله[١]. قال ابن العربي ـ وذكره قبله إسماعيلُ بن إسحاق القاضي ـ: جعل الشافعيُّ الإيتاء واجباً، والكتابةَ غيرَ واجبة؛ فجعل الأصل غيرَ واجب والفرعَ واجباً، وهذا لا نظير له، فصارت دعوى محضة. فإن قيل: يكون ذلك كالنكاح لا يجب، فإذا انعقد وجبت أحكامه، منها المتعة. قلنا: عندنا لا تجب المتعة، فلا معنى لأصحاب الشافعيّ. وقد كاتب عثمان ابن عفان عبده وحلف ألَّا يحطَّه...، في حديث طويل[٢].

قلت: وقد قال الحسن والنَّخعيُّ وبُريدة: إنما الخطاب بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ للناس أجمعين في أن يتصدَّقوا على المكاتَبين، وأن يعينوهم في فَكاك رقابهم. وقال زيد بن أسلم: إنما الخطاب للولاة بأن يُعطوا المكاتَبين من مال الصدقة حظَّهم، وهو الذي تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[٣]. وعلى هذين القولين فليس لسيد المكاتب أن يضع شيئاً عن مكاتَبه. ودليلُ هذا أنه لو أراد حطَّ شيء من نجوم الكتابة لقال: وضَعُوا عنهم كذا.

الثالثة عشرة: إذا قلنا: إن المراد بالخطاب السادة، فرأى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك من أوَّل نجومه، مبادرةً إلى الخير خوفاً ألَّا يُدرِك آخرها[٤]. ورأى مالك رحمه الله تعالى وغيرُه أن يكون الوضع من آخر نجم. وعلَّة ذلك أنه إذا وُضِع من أوَّل نَجم ربَّما عَجَز العبد، فرجع هو وماله إلى السيد، فعادت إليه وَضِيعتُه، وهي شبه الصدقة. وهذا قول عبد الله بن عمر[٥] وعليّ. وقال مجاهد: يَتْرك له من كلِّ نجم.

(١) الاستذكار ٢٣/ ٢٥٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٢ - ١٣٧٣، ولم نقف على هذا الأثر.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٨٧ (١٤٥١٠)، والبيهقي ١٠/ ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١، وقول مالك في الموطأ ٢/ ٧٨٨، وأخرج قول ابن عمر عبد الرزاق (١٥٥٩٥)، والبيهقي ١٠/ ٣٣٠.

قال ابن العربي[١]: والأقوى عندي أن يكون في آخرها؛ لأن الإسقاط أبداً إنما يكون في أُخْرَيات الدُّيون.

الرابعة عشرة: المكاتَب إذا بِيع للعتق رضاً منه بعد الكتابة، وقبض بائعه ثمنه، لم يجب عليه أن يعطيه من ثمنه شيئاً، سواء باعه لعتق أو لغير عتق، وليس ذلك كالسيد يؤدِّي إليه مكاتَبُه[٢] كتابتَه فيؤتيه منها، أو يضع عنه من آخرها نَجماً أو ما شاء، على ما أمره[٣] الله به في كتابه، لأن النبيَّ ﷺ لم يأمر موالي بريرةَ بإعطائها ممَّا قبضوا شيئاً، وإن كانوا قد باعوها للعتق[٤].

الخامسة عشرة: اختلفوا في صفة عقد الكتابة، فقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: صفتُها: أن يقول السيد لعبده: كاتبتك على كذا وكذا من المال، في كذا وكذا نجماً، إذا أدَّيته فأنت حرّ. أو يقول له: أدِّ إليَّ ألفاً في عَشَرة أنجم وأنت حرّ. فيقول العبد: قد قبلت، ونحو ذلك من الألفاظ، فمتى أدَّاها عَتَق. وكذلك لو قال العبد: كاتبني، فقال السيد: قد فعلت، أو قد كاتبتك. قال ابن العربي[٥]: وهذا لا يلزم؛ لأن لفظ القرآن لا يقتضيه والحال يشهد له، فإن ذكره فحسن، وإن تركه فهو معلوم لا يُحتاج إليه.

ومسائل هذا الباب وفروعُه كثيرةٌ، وقد ذكرنا من أصوله جملة، فيها لمن اقتصر عليها كفاية، والله الموفِّق للهداية.

السادسة عشرة: في ميراث المكاتَب، واختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال: فمذهب مالك أنَّ المكاتَب إذا هلك وترك مالاً أكثَر ممَّا بقي عليه من كتابته، وله ولدٌ وُلِدوا في كتابته، أو كاتَبَ عليهم، ورِثوا ما بقي من المال بعد قضاء كتابته؛

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٣، وقول مجاهد منه.

(٢) في (م): مكاتب.

(٣) في (م): أمر.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٤.

لأن حكمهم كحكمه، وعليهم السعي فيما بقي من كتابته لو لم يخلِّف مالاً، ولا يَعْتِقون إلا بعتقه، ولو أدَّى عنهم ما رجع بذلك عليهم؛ لأنهم يَعْتِقون عليه، فهم أولى بميراثه لأنهم مساوون له في جميع حاله.

والقول الثاني: أنه يُؤدَّى عنه من ماله جميعُ كتابته، وجُعِل كأنه قد مات حُرًّا، ويَرِثه جميع ولده، وسواءٌ في ذلك مَن كان حرًّا قبل موته من ولده، ومَن كاتب عليهم، أو وُلِدوا في كتابته؛ لأنهم قد استَوَوا في الحرِّية كلُّهم حين تأدَّت عنهم كتابتُهم. رُويَ هذا القول عن عليٍّ وابن مسعود، ومن التابعين عن عطاء والحسن وطاوس وإبراهيم، وبه قال فقهاء الكوفة؛ سفيانُ الثوريُّ وأبو حنيفةَ وأصحابُه والحسنُ بن صالح بن حَيّ، وإليه ذهب إسحاق.

والقول الثالث: أن المكاتَب إذا مات قبل أن يُؤدِّيَ جميع كتابته فقد مات عبداً، وكلُّ ما يخلفه من المال فهو لسيده، ولا يرثه أحد من أولاده، لا الأحرارُ ولا الذين معه في كتابته؛ لأنه لمَّا مات قبل أن يؤدِّي جميع كتابته، فقد مات عبداً، ومالُه لسيده، فلا يصح عِتقه بعد موته؛ لأنه مُحالٌ أن يَعتِق عبد بعد موته، وعلى ولده الذين كاتب عليهم، أو وُلِدوا في كتابته أن يسعَوْا في باقي الكتابة، ويَسْقُط عنهم منها قَدْرُ حصته، فإن أدَّوا عَتَقوا لأنهم كانوا فيها تَبَعاً لأبيهم، وإن لم يُؤدُّوا ذلك رَقُّوا. هذا قول الشافعيِّ، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو قول عمرَ بنِ الخطاب وزيدِ بن ثابت، وعمرَ بنِ عبد العزيز والزُّهريِّ وقتادة[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ رُويَ عن جابر بن عبد الله وابنِ عباس ﷺ أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أُبَيٍّ، وكانت له جاريتان؛ إحداهما تسمَّى مُعاذة، والأخرى مُسَيْكة، وكان يُكرِهُهما على الزنى، ويضربهما عليه ابتغاء الأجر وكسب الولد، فشكتا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين. ومعاذةُ هذه أمُّ خولةَ التي جادلت النبيَّ ﷺ في زوجها.

(١) ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن عبد البر في الاستذكار ٢٣/ ٢٤١ - ٢٤٣ .

وفي «صحيح مسلم»[١] عن جابر أن جاريةً لعبد الله بن أُبَيٍّ يقال لها: مُسَيكة، وأخرى يقال لها: أُمَيمة، فكان يُكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجعٌ إلى الفَتَيات، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التحصُّن، فحينئذٍ يمكن ويُتَصوَّر أن يكون السيد مكرِهاً، ويمكن أن يُنهى عن الإكراه. وإذا كانت الفتاة لا تريد التحصُّن، فلا يُتصوَّر أن يقال للسيد: لا تكرهها؛ لأن الإكراه لا يُتصوَّر فيها وهي مريدةٌ للزنى. فهذا أمرٌ في سادة وفتيات حالُهم هذه[٢]. وإلى هذا المعنى أشار ابن العربي فقال[٣]: إنما ذكر الله تعالى إرادة التحصُّن من المرأة؛ لأن ذلك هو الذي يُصَوِّر الإكراه، فأمَّا إذا كانت هي راغبةً في الزنى، لم يُتَصوَّر إكراه، فحصِّلوه.

وذهب هذا النظرُ عن كثير من المفسِّرين، فقال بعضهم: قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجعٌ إلى الأَيَامى. قال الزَّجَّاج والحسينُ بن الفضل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إنْ أردن تحصناً[٤]. وقال بعضهم: هذا الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ مُلْغًى، ونحو ذلك مما يَضْعُف[٥]. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الشيءَ الذي تكتسبه[٦] الأَمَة بفرجها، والولدَ ليُستَرَقَّ[٧] فيباع. وقيل: كان الزاني يَفتدي ولده من المزنيِّ بها بمئة

(١) برقم (٣٠٢٩): (٢٧).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٤ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠ ، وكلام الحسين بن الفضل في تفسير البغوي ٣/ ٣٤٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): تكسبه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢ والكلام منه.

(٧) في (د): يسترق.

من الإبل يدفعُها إلى سيدها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ أي: يقْهَرْهنَّ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهنَّ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهنَّ. وقرأ ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن جبير: «لهنَّ غفور» بزيادة: لهنَّ[١]. وقد مضى الكلام في الإكراه في «النحل»[٢] والحمد لله.

ثم عدَّد تعالى على المؤمنين نِعَمَه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات، وفيما[٣] ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم؛ ليقع التحفُّظ مما وقع أولئك فيه.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾

النور في كلام العرب: الأضواءُ المدركة بالبصر. واستعمل مجازاً فيما صحَّ من المعاني ولاح، فيقال منه: كلام له نور. ومنه: الكتاب المنير، ومنه قول الشاعر:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضُّحا ... نوراً ومن فَلَقِ الصباح عمودا[٤]

والناس يقولون: فلانٌ نور البلد، وشمس العصر وقمرُه. قال:

فإنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ[٥]

وقال آخر:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٠٨ لابن عباس وسعيد بن جبير.

(٢) ١٢/ ٤٣٢ وما بعدها.

(٣) في (د) و(م): وفيها، والمثبت من (ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢ والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣. والبيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٤١٣.

(٥) المفهم ٢/ ٣٩٦-٣٩٧. وهذا صدر بيت للنابغة الذبياني، وعجزه: إذا طلعت لم يبد منهن كوكب. والبيت في ديوانه ص١٨.

هلَّا خصصت من البلادِ بمقصدٍ ... قمرَ القبائلِ خالدَ بن يزيد[١]

وقال آخر:

إذا سار عبدُ الله من مَرْوَ ليلةً ... فقد سارَ منها نورُها وجمالُها[٢]

فيجوز أن يقال: لله تعالى نور، من جهة المدح؛ لأنَّه أوجد الأشياءَ، ونوَّرَ جميع الأشياء، منه ابتداؤها وعنه صدورُها، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدرَكة، جلّ وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيراً.

وقد قال هشام الجواليقي[٣] وطائفة من المُجَسِّمة: هو نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام[٤]. وهذا كلُّه مُحالٌ على الله تعالى عقلاً ونقلاً، على ما يُعرف في موضعه من علم الكلام. ثم إنَّ قولَهم متناقض؛ فإنَّ قولهم: جسم أو نور، حكمٌ عليه بحقيقة ذلك، وقولهم: لا كالأنوار ولا كالأجسام، نفيٌ لما أثبتوه من الجسمِيّة والنور، وذلك متناقض، وتحقيقه في علم الكلام[٥].

والذي أوقعهم في ذلك ظواهر اتبعوها؛ منها هذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل يتهجَّد: «اللَّهُمّ لك الحمدُ أنت نورُ السماوات والأرض»[٦]. وقال عليه الصلاة والسلام وقد سُئل: هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «رأيت نوراً»[٧]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

---

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٣٩٤ وصدره فيه: كنت الربيع أمامه ووراءه، بدل: هلا خصصت من البلاد بمقصد.

(٢) المفهم ٢/ ٣٩٧ ولم ينسبه.

(٣) هو هشام بن سالم الجواليقي، على مذهب الإمامية ومن الطائفة الهشامية، ومع ذلك هو مفرط في التشبيه والتجسيم، ينظر الفرق للبغدادي ٥١ ، ومقالات الإسلاميين ص٣٤ ، والملل والنحل ١/ ١٨٤ .

(٤) المفهم ١/ ٤٠٧ ، وتنظر المصادر السابقة.

(٥) المفهم ١/ ٤٠٧-٤٠٨ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٠٩)، والبخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧٨): (٢٩٢) من حديث أبي ذر ﷺ.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: المعنى أي: به وبقدرته أنارتْ أضواؤها، واستقامت أمورُها، وقامتْ مصنوعاتُها. فالكلام على التقريب للذِّهن، كما يقال: المَلِك نور أهل البلد؛ أي: به قِوامُ أمرها وصلاحُ جملتها؛ لجَرَيان أموره على سنن السَّداد. فهو في المَلِكِ مجاز، وهو في صفة الله حقيقة محضة؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقلَ نوراً هادياً؛ لأنَّ ظهورَ الموجود به حصل كما حصل بالضّوْء ظهور المبصَرات، تبارك الله تعالى لا ربّ غيره[١]. قال معناه مجاهد والأزهري[٢] وغيرهما. قال ابن عرفة: أي منوِّر السماوات والأرض. وكذا قال الضحاك والقُرَظي. كما يقولون: فلان غياثنا، أي: مغيثنا. وفلان زادي؛ أي: مزوِّدي. قال جرير:

وأنت لنا نورٌ وغَيْثٌ وعِصْمةٌ ونبْتٌ لمن يرجو نَداك ورِيقُ[٣]

أي: ذو وَرَق.

وقال مجاهد: مدبِّر الأمور في السماوات والأرض.

أُبَيّ بن كعب، والحسن، وأبو العاليَة: مزيِّنُ السماوات بالشمس والقمر والنجوم، ومزيِّن الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. وقال ابن عباس وأنس: المعنى: الله هادي أهل السماوات والأرض[٤]. والأول أعمّ للمعاني وأصحّ مع التأويل.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: صفةُ دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن، والدلائل تسمى: نوراً. وقد سمَّى الله تعالى كتابه نُوراً، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وسمى نبيَّه نوراً، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣.

(٢) في (م) الزهري، والمثبت من (د) و(ظ) وكلام الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٥.

(٣) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٥، ولم نقف عليه في ديوان جرير.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٥ - ٢٩٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٥، والنكت والعيون ٤/ ١٠٢.

مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وهذا لأنَّ الكتابَ يهدي ويبيّن، وكذلك الرسول. ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبيِّنها وواضعها.

وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزءٍ من الممثَّل به، بل وقع التشبيه فيه جملةً بجملة، وذلك أن يريد: مَثَل نور الله الذي هو هداه وإتقانُه صنعةَ كلِّ مخلوقٍ وبراهينه الساطعة على الجملة، كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة، التي هي أبلغُ صفات النور الذي بين أيدي الناس، فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكُم أيها البشر.

والمِشْكاة: الكوَّة في الحائط غير النافذة. قاله ابن جبير وجمهور المفسرين، وهي أجمع للضوء، والمصباحُ فيها أكثر إنارةً منه في غيرها[1]. وأصلها: الوعاء يجعل فيه الشيء، والمشكاة: وعاء من أَدَم[2]، كالدَّلْو يبرّد فيها الماء، وهو على وزن مِفعلة، كالمِقراة[3] والمِصْفاة، قال الشاعر:

كأنَّ عَيْنيه مِشكاتان في حَجَرٍ قِيضا اقتياضاً بأطرافِ المناقيرِ[4]

وقيل: المِشْكاة عمودُ القِنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل[5].

وقال: ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ لأنَّه جسمٌ شفاف، والمصباح فيه أنورُ منه في غير الزُّجاج، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾: الفتيل بناره[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.

(٢) الصحاح (شكا) وتهذيب اللغة ١٠/ ٢٩٩ بنحوه.

(٣) المقراة: إناء يجتمع فيه الماء، والقَصْعةُ التي يُقرى فيها الضيف. اللسان (قرا).

(٤) ورد هذا البيت في الصناعتين للعسكري ص/ ١٢٤، والحيوان للجاحظ ٤/ ٤٥٧، منسوباً لأبي زبيد، وفيهما: «كأن عينيه في وقبين من حجر» بدل: «كأن عينيه مشكاتان في حجر»، وفي الشعر والشعراء ٢/ ٨٠١ وفيه: «وقبان» بدل «في وقبين». والوقب: النقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء، و«قيضا»: القيض: الشق، والمناقير جمع المنقار: وهي حديدة كالفأس ينقر بها. تاج العروس (وقب)، (قيض)، (نقر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٠٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.

﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: في الإنارة والضوء. وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنَّها بالمصباح كذلك، وإما أن يريد أنَّها في نفسها، لصفائها وجودة جوهرها كذلك. وهذا التأويلُ أبلغ في التعاون على النور. قال الضحاك: الكوكب الدُّرِّي هو الزُّهَرة[١].

قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: من زيت شجرةٍ، فحُذِف المضاف. و﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ المُنَمّاة، و«الزيتون» من أعظم الثمار نَماءً، والرُّمان كذلك. والعِيان يقتضي ذلك[٢]. وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أميّة بن عبد شمس:

ليتَ شِعْرِي مسافِرَ بنَ أبي عَمْـ ـرِو وليتٌ يقولها المحزونُ
بورك الميِّتُ الغريبُ كما بُو رِكَ بيعُ[٣] الرُّمان والزَّيتون[٤]

وقيل: من بركتهما أنَّ أغصانهما تُورق من أسفلها إلى أعلاها[٥]. وقال ابن عباس: في الزيتونة منافع، يُسرج بالزيت، وهو إدامٌ ودِهانٌ ودِباغ، ووَقود يوقد بحطبه وتُفْله، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعةٌ، حتى الرَّماد يغسل به الإِبْرِيسَم[٦]. وهي أول شجرةٍ نبتَتْ في الدنيا، وأوّلُ شجرة نبتت بعد الطوفان، وتنبتُ في منازل الأنبياء والأرضِ المقدسة، ودعا لها سبعون نبيًّا بالبركة، منهم إبراهيم[٧]، ومنهم محمد ﷺ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.

(٢) في المحرر الوجيز: يقضي بذلك.

(٣) في (د) و(م): نبع.

(٤) المصدر السابق، والبيتان في كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ ص٧٤، والأغاني ٩/ ٥١، ومصارع العشاق ١/ ٢٥٠ والخزانة ١٠/ ٤٦٣. واختلفت الرواية في الشطر الثاني من البيت الثاني منهما، فرواية الجاحظ: «كما بورك نضح الرمان والزيتون» ورواية الأغاني ومصارع العشاق: «كما بورك نضر الريحان والزيتون» ورواية الخزانة: «كما بورك غصن الريحان والزيتون».

(٥) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٣٦ بنحوه.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٢٠ دون نسبته إلى ابن عباس.

(٧) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٣٦.

فإنَّه قال: «اللّهُمّ باركْ في الزيت والزيتون». قاله مرتين[١].

قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ اختلف العلماءُ في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقال ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: الشرقية التي تُصيبها الشمسُ إذا شَرَقت ولا تُصيبها إذا غَرَبت؛ لأنَّ لها ستراً، والغربِيّة عكسها؛ أي: إنَّها شجرة في صحراء ومنكشفٍ من الأرض، لا يُواريها عن الشمس شيءٌ، وهو أجود لزَيْتِها، فليست خالصةً للشرق فتسمَّى شرقية، ولا للغرب فتسمَّى غربِيّة، بل هي شرقية غربية[٢].

وقال الطبريُّ عن ابن عباس[٣]: إنَّها شجرة في دَوْحة قد أحاطت بها، فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب. قال ابن عطية[٤]: وهذا قولٌ لا يصحُّ عن ابن عباس؛ لأنَّ الشجرة[٥] التي بهذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهَدٌ في الوجود. وقال الحسن: ليست هذه الشجرةُ من شجر الدنيا، وإنّما هو مَثَل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إمّا شرقيةً وإمّا غربية[٦].

الثعلبي: وقد أفصح القرآن بأنَّها من شجر الدنيا؛ لأنَّها بدلٌ من الشجرة، فقال: «زيتونة».

وقال ابن زيد: إنَّها من شجر الشام؛ فإنَّ شجر الشام لا شرقيّ ولا غربيّ، وشجر

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ٩٠ من حديث يعلى بن الأشدق عن عبد الله بن جراد ﷺ مرفوعاً. ويعلى بن الأشدق قال البخاري: لا يكتب حديثه. وقال أبو زرعة: ليس بشيء، وقال ابن حبان: وضعوا له أحاديث يحدث بها ولم يدر. ميزان الاعتدال ٤/ ٤٥٦ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٢ دون نسبة، وأخرجه بنحوه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣١١-٣١٢ عن عكرمة وابن عباس.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٣١٢ بنحوه.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ ، وما قبله منه.

(٥) في (م) و(د) و(ز): الثمرة، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ ، وأخرج قول الحسن الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٣١٣ .

الشام هو أفضل الشجر، وهي الأرض المباركة[١].

و«شرقيةٍ» نعت لـ «زيتونَةٍ»، و«لا» ليست تحول بين النعت والمنعوت، «ولا غربية» عطف عليه[٢].

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مبالغةٌ في حُسنه وصفائه وجودته[٣].

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: اجتمع في المِشكاة ضوءُ المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت؛ فصار لذلك نوراً على نور[٤]. واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة؛ فصارت كأنور ما يكون، فكذلك براهين الله تعالى واضحة، وهي برهانٌ بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه، كإرساله الرسلَ وإنزاله الكتبَ، ومواعظُ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر.

ثم ذكر تعالى هداه لنوره مَن شاء وأسعدَ من عباده، وذكر تفضله للعباد في ضرب الأمثال؛ لتقع لهم العبرةُ والنظر المؤدي إلى الإيمان[٥].

وقرأ عبد الله بن عَيّاش بن أبي ربيعة، وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ: «اللهُ نَوَّر»؛ بفتح النون والواو المشدّدة[٦].

واختلف المتأوّلون في عود الضمير في «نوره»؛ على من يعود، فقال كعبُ الأحبار وابن جُبير: هو عائدٌ على محمد ﷺ؛ أي: مَثَل نور محمد ﷺ[٧].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٠٥ بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣ ، والقراءة ذكرها أيضاً أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٤٥٥ .

(٧) المصدر السابق.

قال ابن الأنباري[١]: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقفٌ حسن، ثم تبتدىء: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ على معنى محمد ﷺ.

وقال أُبَيّ بن كعب وابن جبير أيضاً والضحاك: هو عائدٌ على المؤمنين. وفي قراءة أُبَيّ: «مَثَل نور المؤمنين». وروي أنَّ في قراءته: «مثل نور المؤمن». وروي أنَّ فيها: «مثل نور من آمن به»[٢].

وقال الحسن: هو عائدٌ على القرآن والإيمان. قال مكِّيّ: وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: «والأرض».

قال ابن عطية[٣]: وهذه الأقوال فيها عودُ الضمير على من لم يجرِ له ذكر، وفيها مقابلةُ جزءٍ من المثال بجزء من الممثَّل، فعلى من قال: الممثّل به محمدٌ ﷺ ـ وهو قول كَعْب الحَبر ـ فرسولُ الله ﷺ هو المشكاة أو صدره، والمصباحُ هو النبوّة وما يتصل بها من عمله وهداه، والزجاجةُ قلبه، والشجرةُ المباركة هي الوحي، والملائكة رسلُ الله إليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحُجج والبراهين والآيات التي تضمّنها الوَحْي. ومن قال: الممثّل به المؤمن ـ وهو قول أُبَيّ ـ فالمشكاةُ صدرُه، والمصباحُ الإيمان والعلم، والزجاجةُ قلبه، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمّنها، قال أُبَيّ: فهو على أحسن الحال يمشي في الناس، كالرجل الحيّ يمشي في قبور الأموات. ومن قال: إنَّ الممثّل به هو القرآن والإيمان؛ فتقدير الكلام: مثل نوره الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه كمشكاة، أي: كهذه الجملة. وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين؛ لأنَّ المشكاةَ ليست تقابلُ الإيمانَ[٤].

وقالت طائفة: الضمير في «نوره» عائدٌ على الله تعالى. وهذا قول ابن عباس فيما

---

(١) في الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣، والقراءتان الأخيرتان أخرجهما الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٩٨.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣ وما قبله منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣-١٨٤.

ذكر الثعلبيّ والماوَرْدِيّ(١) والمهدوِيّ، وقد تقدم معناه. ولا يوقف على هذا القول على «الأرض».

قال المهدوِيّ: الهاء لله عزَّ وجلَّ، والتقدير: الله هادي أهلِ السموات والأرض، مَثَل هداه في قلوب المؤمنين كمِشْكاةٍ. وروي ذلك عن ابن عباس(٢). وكذلك قال زيد بن أسلم والحسن: إنَّ الهاء لله عزَّ وجلَّ. وكان أُبَيّ وابن مسعود يقرآنها: «مثلُ نُوره في قلب المؤمن كمشكاة»(٣).

قال محمد بن علي الترمذي: فأما غيرهما فلم يقرأها في التنزيل هكذا، وقد وافقهما في التأويل أنَّ ذلك نوره في قلب المؤمن، وتصديقه في آية أخرى يقول: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. واعتلَّ الأوّلون بأن قالوا: لا يجوز أن يَكون الهاء لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا حدّ لنوره.

وأمال الكسائيُّ ـ فيما روى عنه أبو عمر الدُّورِيّ ـ الألفَ من «مشكاة» وكسرَ الكاف التي قبلها(٤).

وقرأ نصر بن عاصم: «زَجاجة» بفتح الزاي، و«الزَّجاجة» كذلك، وهي لغة(٥).

وقرأ [نافع وابن كثير و] ابن عامر، وحفصٌ عن عاصم: «دُرِّيٌّ» بضم الدال وشدّ الياء(٦)، ولهذه القراءة وجهان: إمّا أن ينسبَ الكوكب إلى الدُّرِّ؛ لبياضه وصفائه، وإمّا أن يكونَ أصلُه دُرِّيء ـ مهموز ـ، فُعِّيل من الدَّرء، وهو الدفع، وخُفّفت الهمزة(٧).

(١) في النكت والعيون ٤/ ١٠٢.

(٢) قول ابن عباس في زاد المسير ٦/ ٤٠.

(٣) أورد هذه القراءة عنهما الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٢٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٠.

(٤) السبعة ص٤٥٥، والتيسير ص٥٠، والمحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٠٢، والمحتسب ٢/ ١٠٩.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤، وينظر السبعة ص٤٥٦، والتيسير ص١٦٢، وما بين حاصرتين مستدرك منهما.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.

ويقال للنجوم العظام التي لا تُعرف أسماؤُها: الدَّراريّ، بغير همز؛ فلعلّهم خفّفوا الهمزةَ، والأصل من الدَّرء الذي هو الدفع[١].

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم: «دُرِّيءٌ» بالهمز والمدّ، وهو فُعِّيل من الدَّرء؛ بمعنى أنَّها يدفع بعضها بعضاً. وقرأ الكسائي وأبو عمرو: «دِرِّيءٌ» بكسر الدال والهمز من الدَّرء والدفع[٢]، مثل السِّكّير والفِسِّيق.

قال سيبويه: أي: يدفع بعض ضوئه بعضاً من لمعانه.

قال النحاس[٣]: وضعّف أبو عبيد قراءةَ أبي عمرو والكسائي تضعيفاً شديداً؛ لأنَّه تأوّلها من دَرأتُ، أي: دفعتُ، أي: كوكب يجري من الأفق إلى الأفق، وإذا كان التأويلُ على ما تأوله، لم يكن في الكلام فائدة، ولا كان لهذا الكوكب مزيةٌ على أكثر الكواكب، ألا ترى أنه لا يقال: جاءني إنسانٌ من بني آدم؟ ولا ينبغي أن يُتأوّلَ لمثل أبي عمرو والكسائي مع علمهما وجلالتهما هذا التأويل البعيد، ولكن التأويل لهما على ما روي عن محمد بن يزيد أنَّ معناهما في ذلك: كوكبٌ مندفع بالنور؛ كما يقال: اندرأ الحريقُ، أي: اندفع. وهذا تأويل صحيحٌ لهذه القراءة. وحكى سعيد بن مَسْعدة أنه يقال: دَرأَ الكوكبُ بضوئه: إذا امتدَّ ضوءُه وعلا.

وقال الجوهري: في «الصّحاح»[٤]: ودرأ علينا فلان يدرأُ دُروءاً، أي: طَلَع مفاجأة. ومنه: «كوكب دِرّيء»، على فِعِّيل، مثل: سِكِّير وخِمِّير؛ لشدّة توقّده وتلألئه، وقد دَرأَ الكوكبُ دروءاً. قال أبو عمرو بن العلاء: سألتُ رجلاً من سعد بن بكرٍ من أهل ذات عِرقْ، فقلت: هذا الكوكبُ الضخمُ؛ ما تُسمُّونه؟ قال: الدِّرّيء، وكان من أفصح الناس.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٣٠٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤، وينظر السبعة ص٤٥٦، والتيسير ص١٦٢.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٧.

(٤) الصحاح (درأ).

قال النحاس[1]: فأما قراءةُ حمزةَ، فأهل اللغة جميعاً قالوا: هي لحنٌ لا تجوز؛ لأنَّه ليس في كلام العرب اسمٌ على فُعِّيل، وقد اعترض أبو عبيد في هذا، فاحتجَّ لحمزة، فقال: ليس هو فُعِّيل، وإنَّما هو فُعُّول، مثل سُبُّوح، أُبدل من الواو ياء، كما قالوا: عُتيّ.

قال أبو جعفر النحاس[2]: وهذا الاعتراضُ والاحتجاجُ من أعظم الغلط وأشدّه؛ لأنَّ هذا لا يجوز البتة، ولو جاز ما قال، لقيل في سُبّوح: سُبّيح، وهذا لا يقوله أحدٌ، وليس عُتيّ من هذا، والفرق بينهما واضحٌ بَيّن؛ لأنَّه ليس يخلو عُتِيّ من إحدى جهتين: إما أن يكون جمعَ عاتٍ، فيكون البدلُ فيه لازماً؛ لأنَّ الجمع باب تغييرٍ، والواو لا تكون طرفاً في الأسماء وقبلها ضمة، فلما كان قبل هذه ساكنٌ، وقبل الساكن ضمةٌ، والساكن ليس بحاجز حصِين، أُبدل من الضمة كسرةٌ، فقلبت الواو ياءً، وإن كان عُتِيّ واحداً كان بالواو أَوْلى، وجاز قلبها لأنَّها طرف، والواو في فُعول ليست طرفاً؛ فلا يجوز قلبها.

قال الجوهري[3]: قال أبو عبيد: إن ضَممتَ الدالَ قُلتَ: دُرِّيّ، يكون منسوباً إلى الدُّرِّ، على فُعْليٍّ، ولم تهمزه، لأنَّه ليس في كلام العرب فُعّيل، ومن هَمَزه من القُرَّاء، فإنَّما أراد فُعُّول[4]، مثل سُبُّوح، فاستُثقل، فردَّ بعضُه إلى الكسر. وحكى الأخفش[5] عن بعضهم: «دَرِّيء» من درأتُه، وهَمَزها وجعلها على فَعِّيل مفتوحةَ الأوّل. قال: وذلك من تَلَأْلُئِه.

قال الثعلبيّ: وقرأ سعيدُ بن المسيب وأبو رَجاء: «دَرِّيء» بفتح الدال مهموزاً[6].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٧-١٣٨ .

(٣) في الصحاح (درأ).

(٤) في (م) فعولاً.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٦٤١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (درأ) والكلام منه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٦ دون أن ينسبه للثعلبي، والقراءتان في القراءات الشاذة ص١٠٢ ، والمحتسب ٢/ ١١٠ .

قال أبو حاتم: هذا خطأ؛ لأنَّه ليس في الكلام فَعِّيل، فإن صحّ عنهما، فهما حُجَّة.

﴿يُوقَدُ﴾ قرأ شيبة، ونافع، وأيوب، وسلام، وابن عامر وأهل الشام، وحفص: «يُوقَدُ» بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال(١).

وقرأ الحسن، والسُّلَمِيّ، وأبو جعفر، وأبو عمرو بن العلاء البصري: «تَوَقَّدَ» مفتوحةَ الحروف كلِّها مشدّدةَ القاف(٢)، واختارها أبو حاتم وأبو عبيد.

قال النحاس(٣): وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنَّهما جميعاً للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف؛ لأنَّه الذي ينير ويُضيء، وإنَّما الزجاجة وعاء له. و«تَوَقَّدَ» فعلٌ ماضٍ من تَوَقّد يتوقّد، ويُوقد فعل مستقبل من أُوقِد يُوقَد. وقرأ نصر بنُ عاصم: «تَوَقَّدُ» والأصل على قراءته: تتوقدُ، حذف إحدى التاءين؛ لأنَّ الأخرى تدل عليها. وقرأ الكوفيون: «تُوقَد» بالتاء، يعنون الزجاجةَ. فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة(٤).

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقدم القول فيه.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ على تأنيث النار، وزعم أبو عبيد، أنَّه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم: أنَّ السُّدِّيَّ روى عن أبي مالك، عن ابن عباس، أنَّه قرأ: «ولَوْ لم يَمْسَسْه نار» بالياء(٥). قال محمد بن يزيد: التذكير على أنه تأنيث غير حقيقي، وكذا سبيل المؤنث عنده.

قال ابن عمر: المشكاة جَوْف محمد ﷺ، والزجاجة قلبُه، والمصباح النورُ الذي

(١) قراءة شيبة في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٨ ، وقراءة نافع وابن عامر وحفص في السبعة ص٤٥٦ والتيسير ص١٦٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٨ ، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٣٢ ، وقراءة أبي عمرو في السبعة ٤٥٥-٤٥٦ وهي قراءة ابن كثير أيضاً. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٢ أن قراءة الحسن والسلمي برفع الدال والتشديد (تَوَقَّدُ)، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٨ ، وينظر السبعة ص٤٥٦ ، والتيسير ص١٦٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٨ ، وما بعده منه، وقراءة ابن عباس في القراءات الشاذة ص١٠٢ .

جعله الله تعالى في قلبه، يوقد من شجرة مباركة، أي: أنّ أصلَه من إبراهيم، وهو شجرته، فأوقد الله تعالى في قلب محمد ﷺ النور، كما جعله في قلب إبراهيم عليه السلام(١).

وقال محمد بن كعب: المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل، والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين، سمّاه الله تعالى مصباحاً كما سماه سراجاً(٢)، فقال: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦]، يوقد من شجرة مباركة، وهي آدم عليه السلام، بُورك في نسله وكَثُر منه الأنبياء والأولياء.

وقيل: هي إبراهيم عليه السلام، سمّاه الله تعالى مباركاً؛ لأنَّ أكثر الأنبياء كانوا من صُلْبه ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: لم يكن يهودِيًّا ولا نصرانيًّا، وإنَّما كان حَنِيفاً مسلماً. وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّ اليهودَ تصلِّي قِبَل المغرب، والنصارى تصلِّي قِبَل المشرق. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ أي: يكاد محاسنُ محمد ﷺ تظهرُ للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نَبِيٌّ من نَسْل نبيّ(٣).

قال الضحَّاك: شبَّه عبدَ المطلب بالمِشكاة، وعبدَ الله بالزُّجاجة، والنبيَّ ﷺ بالمصباح(٤) كان في قلبهما، فورث النبوّةَ من إبراهيم ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: شجرة التُّقَى والرضوان وعشيرة الهدى والإيمان، شجرة أصلُها نبوّة، وفرعها مُروءة، وأغصانها تنزيل، وورقها تأويلٌ، وخَدَمُها جبريل وميكائيل.

قال القاضي أبو بكر بن العربي(٥): ومن غريب الأمر أنَّ بعضَ الفقهاء قال: إنَّ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٧، وأخرج قول ابن عمر بنحوه ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٥٥٦، وفي إسناده الوازع بن نافع العقيلي، قال ابن معين: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس حديثه بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث وقال النسائي: متروك الحديث. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه عن شيوخه بالأسانيد التي يرويها غير محفوظة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٤٤.

(٤) المرجع السابق.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٦-١٣٧٧.

هذا مَثَل ضربه اللهُ تعالى لإبراهيم، ومحمدٍ، ولعبد المطلب وابنه عبدِ الله؛ فالمشكاة هي الكوّة بلغة الحبشة، فشبَّه عبدَ المطلب بالمشكاة فيها القِنديل وهو الزُّجاجة، وشبَّه عبدَ الله بالقِنديل، وهو الزجاجة؛ ومحمد كالمصباح، يعني من أصلابهما، وكأنه كوكب دُرِّيٌّ، وهو المشتَرِي ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ يعني إرْثَ النبوّة من إبراهيم عليه السلام، وهو الشجرة المباركة، يعني حَنيفِيّة ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: لا يهودية ولا نصرانية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يقول: يكاد إبراهيمُ يتكلم بالوحي من قبل أن يوحَى إليه ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ إبراهيم ثم محمد ﷺ. قال القاضي: وهذا كلُّه عدول عن الظاهر، وليس يمتنع في التمثيل أن يتوسع المرء فيه.

قلت: وكذلك في جميع الأقوال؛ لعدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأوّل، وأنَّ هذا مَثَل ضَرَبه الله تعالى لنوره، ولا يمكن أن يضربَ لنوره المعظَّم مثلاً تنبيهاً لخلقه إلا ببعض خلقه؛ لأنَّ الخلقَ لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم، ولولا ذلك ما عَرف اللهَ إلّا اللهُ وحدَه. قاله ابن العربي[(١)].

قال ابن عباس: هذا مَثَلُ نورِ الله وهُداه في قلب المؤمن، كما يكادُ الزيتُ الصافي يضيء قبل أن تمسَّه النار، فإن مسّته النار زاد ضوءه، كذلك قلب المؤمن، يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيَه العلم، فإذا جاءه العلمُ، زاده هُدًى على هدًى ونوراً على نور، كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧-٧٨]، من قبل أن يخبره أحدٌ أنَّ له رَبًّا؛ فلما أخبره اللهُ أنه ربُّه زاد هُدًى[(٢)]، فـ ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

ومن قال: إنَّ هذا مَثَل للقرآن في قلب المؤمن، قال: كما أنَّ هذا المصباحَ يُستضاء به ولا ينقص؛ فكذلك القرآن يُهتدَى به ولا ينقص، فالمصباح القرآن، والزجاجة قلبُ المؤمن، والمِشْكاة لسانُه وفمُه[(٣)]، والشجرةُ المباركةُ شجرةُ الوحي

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٣٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٧ .

(٣) في (م) و(د): وفهمه.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ تكاد حجج القرآن تتّضِح ولو لم يقرأ. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ يعني أنَّ القرآنَ نورٌ من الله تعالى لخلقه، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن، فازدادوا بذلك نوراً على نور.

ثم أخبر أنَّ هذا النورَ المذكورَ عزيز، وأنه لا يناله إلا من أراد اللهُ هداه، فقال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ أي: يبين الأشباه[1] تقريباً إلى الأفهام[2] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۭ﴾ أي: بالمَهدِي والضّال.

وروي عن ابن عباس أنَّ اليهود قالوا: يا محمد، كيف يَخْلُص نور الله تعالى من دون السماء؟ فضَرَب الله تعالى ذلك مثلاً لنوره[3].

قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ﴾ **فيه تسع عشرة مسألة:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ الباء في «بُيوت» تضم وتكسر، وقد تقدّم[4]. واختلف في الفاء من قوله «في»، فقيل: هي متعلقةٌ بـ ﴿مِصْبَاحٌۖ﴾. وقيل: بـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾؛ فعلى هذا التأويل يوقف على ﴿عَلِيمٌ﴾[5].

---

(١) في (د): الأشياء.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٤.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٠٦.

(٤) ٣/ ٢٣٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥.

قال ابن الأنباري[١]: سمعتُ أبا العباس يقول: هو حالٌ للمصباح والزجاجة والكوكب، كأنه قال: وهي في بيوت.

وقال الترمذيُّ الحكيمُ محمد بن علي: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ منفصل، كأنه يقول: الله في بيوت أذن اللهُ أن تُرفع؛ وبذلك جاءت الأخبار، أنَّه «مَنْ جلس في المسجد فإنما[٢] يجالس ربَّه»[٣]. وكذا ما جاء في الخبر فيما يحكى عن «التوراة»: أنَّ المؤمنَ إذا مشى إلى المسجد، قال الله تبارك اسمه: عبدي زارني وعليَّ قِراه، ولن أرضى له قِرىً دون الجنة[٤].

قال ابن الأنباري[٥]: إن جعلت «في» متعلقة بـ «يُسبِّح» أو رافعة للرِّجال، حَسُنَ الوقفُ على قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقال الرُّمَّاني: هي متعلقة بـ «يوقد»، وعليه فلا يوقف على «عليم»[٦].

فإن قيل: فما الوجهُ إذا كان البيوتُ متعلقة بـ «يوقد» في توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت، ولا يكون مشكاة واحدة إلا في بيت واحد. قيل: هذا من الخطاب المتلوّن الذي يُفتح بالتوحيد ويُختم بالجمع، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ونحوه. وقيل: رجع إلى كلِّ واحد من البيوت[٧].

---

(١) في الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٧ .

(٢) في (م): فإنّه، والمثبت من (د) و(ظ) وهو الموافق لما في مصادر التخريج.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤١٦) من طريق الزهري عن خاله عبد الله مؤذن، عن سعيد بن المسيب قوله. وعبد الله مؤذن. أورده البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢٠٢ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج البزار (١٩١٨) (زوائد)، وأبو يعلى (٤١٤٠)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٤٠٩ ، من حديث أنس بن مالك ﷺ، مرفوعاً، بلفظ: «ما من عبدٍ مسلم أتى أخاً له يزوره في الله إلا ناداه منادٍ من السماء: أن طبت وطابت لك الجنة، وإلا قال الله في ملكوت عرشه: عبدي زارني وعليَّ قراه، فلم أرضَ له بقرى دون الجنة». وفي إسناده ميمون بن سياه ضعيف فيما ذكر ابن معين، ونقله عنه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٤٠٨ .

(٥) في الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٧-٧٩٨ ، وينظر كلام المصنف في المسألة الثالثة عشرة.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ .

(٧) زاد المسير ٦/ ٤٦ .

وقيل: هو كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]. وإنَّما هو في واحدة منها.

واختلف الناس في البيوت هنا على خمسة أقوال:

الأول: أنَّها المساجدُ المخصوصةُ لله تعالى بالعبادة، وأنَّها تضيء لأهل السماء كما تضيء النجومُ لأهل الأرض. قاله ابن عباس ومجاهد والحسن(١).

الثاني: هي بيوت بيت المقدس، عن الحسن أيضاً. الثالث: بيوت النبيِّ ﷺ، عن مجاهد أيضاً. الرابع: هي البيوت كلُّها، قاله عكرمة(٢)، وقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ والآصال» يقوّي أنَّها المساجد. وقول خامس: أنَّها المساجدُ الأربعةُ التي لم يبنها إلا نبيّ: الكعبة، وبيت أرِيحَا، ومسجد المدينة، ومسجد قُبَاء، قاله ابن بُريدة(٣). وقد تقدّم ذلك في «براءة»(٤).

قلت: الأظهر القول الأوّل؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحبَّ الله عزَّ وجلَّ فليحبَّني، ومن أحبّني فلْيُحِبَّ أصحابي، ومن أحبَّ أصحابي فليُحِبَّ القرآن، ومن أحبَّ القرآن فلْيُحِبَّ المساجد؛ فإنَّها أفنيةُ الله وأبنيته(٥)، أذن الله في رفعها وبارك فيها، ميمونةٌ ميمون أهلُها، محفوظةٌ محفوظٌ أهلُها، هم في صلاتهم والله عزَّ وجلَّ في حوائجهم، هم في مساجدهم والله من ورائهم»(٦).

---

(١) مجمع البيان ١٨/ ٥٠ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣١٦-٣١٧ عن جماعة.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥، وأخرج الطبري في تفسيره ١٧/ ٣١٧ قول عكرمة.

(٣) التمهيد ١٣/ ٢٦٨ .

(٤) ١٠/ ٣٨٠ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: أبنيته، دون واو.

(٦) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٥٥ من طريق أبي معمر ـ لعله: عباد بن عبد الصمد ـ عن أنس ابن مالك مرفوعاً. وأبو معمر قال ابن حبان: أبو معمر يروي عن أنس بن مالك ما لم يحدث به أنس قط، لا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل الإنباء عن أمره.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٤٨ من طريق موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، عن ابن جريج، =

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾.

«أَذِن» معناه: أَمرَ وقضى. وحقيقة الإذن: العلم والتمكين دون حظر، فإن اقترن بذلك أمرٌ وإنفاذ، كان أقوى[1].

و«تُرفع» قيل: معناه تُبْنَى وتُعْلى، قاله مجاهد[2] وعكرمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾[3] [البقرة:١٢٧]، وقال ﷺ: «من بنى مسجداً من ماله، بنى اللهُ له بيتاً في الجنة»[4]. وفي هذا المعنى أحاديث كثيرةٌ تحضُّ على بنيان المساجد[5].

وقال الحسن البصري وغيره: معنى ﴿تُرۡفَعَ﴾: تعظَّم، ويرفع شأنها[6]، وتطهر من الأنجاس والأقذار، ففي الحديث: «إنَّ المسجد لَيَنْزَوِي من النجاسة كما ينزوي الجلدُ من النار»[7].

وروى ابن ماجه في «سننه»[8] عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

= عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً. قال ابن عدي: موسى بن عبد الرحمن منكر الحديث، ثم قال: لا أعلم له أحاديث غير ما ذكرته، وقد يقبل بابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وهذه الأحاديث بواطيل.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥-١٨٦ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣١٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٦ .

(٤) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (٧٣٧) من طريق الوليد بن مسلم، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، عن علي ﷺ. قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٥٩ : هذا إسناد ضعيف الوليد مدلس، وابن لهيعة ضعيف. قلنا: وللحديث شواهد يصح بها كما سيرد .

(٥) منها حديث عثمان ﷺ عند أحمد (٥٠٦)، والبخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣): (٢٥)، وحديث جابر ﷺ عند ابن ماجه (٧٣٨)، وعن ابن عباس عند أحمد (٢١٥٧).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٦ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٦٩١)، وابن أبي شيبة ٢/ ٣٦٦ عن أبي هريرة موقوفاً. والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٨ . قال في النهاية (زوى): ينزوي، أي: ينضم وينقبض، وقيل: أراد أهل المسجد وهم الملائكة.

(٨) سنن ابن ماجه (٧٥٧). من طريق محمد بن صالح المدني، عن مسلم بن أبي مريم، عن أبي سعيد الخدري ﷺ. قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٣ : هذا إسناد ضعيف مسلم [ابن أبي مريم] هو ابن يسار، لم يسمع من أبي سعيد، ومحمد فيه لين.

«مَنْ أخرجَ أذىً من المسجدِ، بنى اللهُ له بيتاً في الجنة». وروى عن عائشةَ قالت: أَمَرنا رسولُ الله ﷺ أن تُتَّخَذَ[١] المساجدُ في الدُّور، وأن تُطهَّر وتُطيَّب[٢].

الثالثة: إذا قلنا: إنَّ المرادَ بنيانُها، فهل تُزيَّن وتُنْقش؟ اختلف في ذلك: فكرهه قومٌ وأباحه آخرون.

فروى حماد بن سلمةَ، عن أيوب، عن أبي قِلَابة عن أنس، وقتادة عن أنس، أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى يتباهى الناسُ في المساجد». أخرجه أبو داود[٣].

وفي البخاري: وقال أنس[٤]: «يتباهَوْن بها ثُمَّ لا يَعْمُرونها إلا قليلاً». وقال ابن عباس[٥]: لَتزَخْرِفُنّها كما زَخْرفتِ اليهود والنصارى.

وروى الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»[٦] من حديث أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زخرفتُم مساجدَكم وحلَّيتُم مصاحفَكم، فالدَّبار عليكم».

احتجّ من أباح ذلك بأنَّ فيه تعظيم المساجد، والله تعالى أَمَر بتعظيمها في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ يعني: تُعظَّم. وروي عن عثمان أنَّه بنى مسجدَ النبيِّ ﷺ

---

(١) في (م): نتخذ، وفي سنن ابن ماجه: أمر، بدل: أمرنا.

(٢) سنن ابن ماجه (٧٥٩)، وأخرجه أحمد (٢٦٣٨٦)، وأبو داود (٤٥٥)، والترمذي (٥٩٤). قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ١/ ٢٥٨ : أخرجه الترمذي وابن ماجه، وأخرجه الترمذي مرسلاً وقال: وهذا أصح من الحديث الأول.

(٣) سنن أبي داود (٤٤٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٣٧٩)، والنسائي ٢/ ٣٢ ، وابن ماجه (٧٣٩). من طريق أبي قلابة عن أنس ﷺ.

(٤) علقه البخاري عنه قبل حديث (٤٤٦)، ووصله أبو يعلى (٢٨١٧)، و ابن خزيمة في صحيحه (١٣٢١)، وابن حجر في التغليق ٢/ ٢٣٦ . وإسناده حسن.

(٥) علقه البخاري عنه قبل حديث (٤٤٦)، ووصله أبو داود (٤٤٨).

(٦) ص٣٣٤ . وسلف ١/ ٥٤ .

بالسَّاج وحسّنه(١).

قال أبو حنيفة: لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب(٢). وروي عن عمر بن عبد العزيز، أنه نقش مسجدَ النبيِّ ﷺ وبالغ في عِمارته وتزيينه، وذلك في زمن ولايته قبل خلافته، ولم ينكر عليه أحد ذلك.

وذكر أنَّ الوليد بن عبد الملك أنفق في عمارة مسجد دمشقَ وفي تزيينه مثل خَراج الشام ثلاث مرات. وروي أنَّ سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجدَ بيت المقدس وبالغ في تزيينه.

الرابعة: ومما تُصان عنه المساجد وتُنزَّه عنه الروائحُ الكريهة، والأقوال السيئةُ، وغيرُ ذلك على ما نبيِّنه؛ وذلك من تعظيمها. وقد صحَّ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال في غَزْوةٍ(٣): «من أكلَ من هذه الشجرةِ ـ يعني الثُّومَ ـ فلا يأتِيَنَّ المساجدَ»(٤).

وفي حديث جابر بن عبد الله، عن النبيّ ﷺ، قال: «مَنْ أكلَ من هذه البقلةِ الثُّوم ـ وقال مرة: من أكل البصلَ والثومَ والكُرَّاث ـ فلا يقربنَّ مسجدنا؛ فإنَّ الملائكةَ تتأذَّى مما يتأذَّى منه بنو آدم»(٥).

وقال عمر بن الخطاب ﷺ في خطبته: ثم إنَّكم أيُّها الناسُ تأكلون شجرتين، ولا أُراهما إلا خبيثتين، هذا البصل والثُّوم، لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ إذا وَجدَ ريحَهما من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦)، وأحمد (٦١٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. والساج: نوع من الخشب معروف، يؤتى به من الهند. فتح الباري ١/ ٥٤٠.

(٢) ينظر تبيين الحقائق للزيلعي ١/ ١٦٨.

(٣) في (م) و(د): غزوة تبوك، والمثبت من (ظ)، فإنه لم يرد في مصادر التخريج ذكر غزوة تبوك، وجاء في بعضها: غزوة خيبر، وينظر فتح الباري ٢/ ٣٣٨.

(٤) أخرجه البخاري (٨٥٣)، ومسلم (٥٦١) (واللفظ له)، وأحمد (٤٧١٥) من حديث ابن عمر مرفوعاً، وعند الشيخين: في غزوة خيبر. ولم تذكر عند أحمد.

(٥) أخرجه أحمد (١٥١٥٩)، ومسلم (٥٦٤).

رجلٍ في المسجد، أمَرَ به فأُخرِجَ إلى البقيع، فمن أكَلهما فَلْيُمِتْهُما طبخاً. خرَجه مسلم في «صحيحه»[(١)].

قال العلماء: وإذا كانت العلَّةُ في إخراجه من المسجد أنه يُتأذَّى به، ففي القياس: أنَّ كلَّ مَنْ تأذَّى به جيرانُه في المسجد، بأن يكون ذَرِب[(٢)] اللِّسان سفيهاً عليهم، أو كان ذا رائحةٍ قبيحةٍ لا تَرِيمه[(٣)] لسوء صناعته، أو عاهة مؤذيةٍ؛ كالجُذَام وشبهه، وكل ما يتأذَّى به الناس، كان لهم إخراجُهُ، ما كانت العلةُ موجودةً فيه حتى تزولَ[(٤)].

وكذلك يجتنبُ مجتمعَ الناسِ حيث كان لصلاةٍ أو غيرها ـ كمجالس العلم والولائم، وما أشبهها ـ مَن أكلَ الثُّومَ وما في معناه، مما له رائحة كريهة تؤذي الناسَ، ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث، وأخبر أنَّ ذلك مما يتأذى به[(٥)].

قال أبو عمر بن عبد البر[(٦)]: وقد شاهدت شيخَنا أبا عمر أحمدَ بنَ عبد الملك بن هاشم[(٧)] رحمه الله، أفتى في رجلٍ شَكاهُ جيرانُه واتفقوا عليه أنه يُؤذيهم في المسجد بلسانه ويده، فشُووِرَ فيه، فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعادِه عنه، وألا يُشاهِد معهم الصلاةَ؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه، فذاكرتُه يوماً أَمْرَه، وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك، وراجعته فيه القولَ، فاستدلَّ بحديث الثُّوم، وقال: هو عندي أكثر أذًى من آكل الثوم، وصاحبه يُمنع من شهودِ الجماعة في المسجد.

---

(١) صحيح مسلم (٥٦٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩).

(٢) ذرب: ذرب لسانه إذا كان حادَّ اللسان، لا يبالي ما قال. اللسان (ذرب).

(٣) لا تريمه: لا تبرحه. اللسان (ريم)، ووقع في (ظ) بدلها: لازمة.

(٤) التمهيد ٦/ ٤٢٣ .

(٥) المفهم ٢/ ١٦٦ .

(٦) في التمهيد ٦/ ٤٢٣ .

(٧) في النسخ: هشام، والمثبت من التمهيد ومصادر ترجمته، وهو أبو عمر المعروف بابن المَكْوِيِّ، المتوفى سنة (٤٠١هـ). السير ١٧/ ٢٠٦ .

قلت: وفي الآثار المرسلة: «أنَّ الرجلَ ليكذبُ الكِذْبَة، فيتباعد عنه المَلَك من نَتَنِ رِيحهِ»[١]. فعلى هذا يُخرجُ من عُرف منه الكذب والتقوُّل بالباطل، فإنَّ ذلك يؤذي.

الخامسة: أكثر العلماء على أنَّ المساجد كلَّها سواء[٢]؛ لحديث ابن عمر[٣].

وقال بعضهم: إنَّما خَرَج النهيُ على مسجد رسولِ الله ﷺ من أجل جبريل عليه السلام ونزوله فيه، ولقوله في حديث جابر: «فلا يقربَنَّ مسجدنا»[٤]. والأوّل أصح؛ لأنه ذكر الصفةَ في الحكم، وهي المسجدية، وذِكْرُ الصفةِ في الحكم تعليل.

وقد روى الثعلبي بإسناده عن أنس ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يأتي اللهُ يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنّها نجائبُ بيض، قوائمها من العنبر، وأعناقُها من الزعفران، ورؤوسُها من المسك، وأزِمّتُها من الزبرجد الأخضر، وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها، وأئمتها يسوقونها، وعمَّارها متعلقون بها، فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف، فيقول أهلُ الموقف: هؤلاء ملائكةٌ مقرّبون وأنبياء مرسلون، فينادى: ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء، ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمدٍ ﷺ»[٥].

وفي التنزيل ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]. وهذا عام في كلِّ مسجد.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٢) وابن حبان في المجروحين ٢/ ١٣٧ من طريق عبد الرحيم بن هارون، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً. قال الترمذي: هذا حديث حسن جيد غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، تفرَّد به عبد الرحيم بن هارون .اهـ. وقال ابن حبان: روى عبد العزيز عن نافع عن ابن عمر نسخة موضوعة، لا يحل ذكرها إلا على سبيل الاعتبار .

(٢) التمهيد ٦/ ٤١٤ .

(٣) سلف في المسألة الرابعة.

(٤) سلف في المسألة الرابعة.

(٥) لم نقف عليه.

وقال النبيُّ ﷺ: «إذا رأيتم الرجلَ يعتاد المسجدَ، فاشهدوا له بالإيمان؛ إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:١٨]. وقد تقدم[١].

السادسة: وتصان المساجدُ أيضاً عن البيع والشراء وجميعِ الاشتغال؛ لقوله ﷺ للرجل الذي دعا إلى الجمل الأحمر: «لا وَجَدْتَ؛ إنَّما بُنيت المساجدُ لِمَا بُنيت له». أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بُريدة، عن أبيه، أنَّ النبي ﷺ لما صلَّى قام رجل، فقال: مَنْ دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «لا وَجدتَ؛ إنَّما بُنيت المساجدُ لِمَا بُنيت له»[٢].

وهذا يدل على أنَّ الأصلَ ألا يُعمل في المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن[٣]. وكذا جاء مفسراً من حديث أنس، قال: بينما نحن في المسجد مع رسولِ الله ﷺ، إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد، فقال أصحابُ رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، فقال النبيّ ﷺ: «لا تُزْرِمُوه، دَعُوه». فتركوه حتى بَالَ، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إنَّ هذه المساجدَ لا تَصلُح لشيءٍ من هذا البول ولا القَذَر، ؛ إنَّما هي لذكرِ الله والصلاةِ وقراءة القرآن» ـ أو كما قال رسولُ الله ﷺ ـ قال: «فأمر رجلاً من القوم؛ فجاء بدَلْوٍ من ماء، فشَنَّه عليه». خرّجه مسلم[٤].

ومما يدلُّ على هذا من الكتاب قوله الحق: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وقوله ﷺ لمعاوية بن الحكم السُّلَمِيّ: «إنَّ هذه المساجدَ لا يَصلُح فيها شيٌ من كلام الناس؛ إنَّما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآن ـ أو كما قال رسولُ الله ﷺ ـ الحديث بطوله

(١) مسند أحمد (١١٦٥١)، وسنن الترمذي (٢٦١٧)، وسلف ١٠/ ١٣٤ .

(٢) صحيح مسلم (٥٦٩)، وهو في مسند أحمد (٢٣٠٥١).

(٣) المفهم ٢/ ١٧٥ .

(٤) في صحيحه (٢٨٥) وهو في مسند أحمد (١٢٩٨٤)، وأخرجه البخاري (٢١٩) مختصراً. قوله: لا تزرموه: أي: لا تقطعوا عليه بولَه، فشنَّه: أي صبَّها. النهاية (زرم)، واللسان (شنن).

خرَّجه مسلم في «صحيحه»[(١)]، وحسبك!

وسمع عمرُ بن الخطاب ﷺ صوتَ رجلٍ في المسجد، فقال: ما هذا الصوتُ! أتدري أين أنتَ؟![(٢)]

وكان خَلَفُ بن أيوب[(٣)] جالساً في مسجده، فأتاه غلامُه يسألُهُ عن شيءٍ، فقام وخَرَج من المسجد وأجابه، فقيل له في ذلك، فقال: ما تكلمتُ في المسجد بكلامِ الدنيا منذُ كذا وكذا، فكرهت أن أتكلَّم اليوم.

السابعة: روى الترمذِيُّ من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، عن رسول الله ﷺ: «أنَّه نهى عن تَناشُد الأشعارِ في المسجد، وعن البيعِ والشراءِ فيه، وأن يتحلَّق الناسُ يومَ الجمعة قبل الصلاة». قال: وفي الباب عن بُريدة وجابر وأنس، حديث عبد الله بن عمرو حديث حسن. قال محمد بن إسماعيل: رأيت أحمد[(٤)] وإسحاق وذكَر غيرَهما يحتجُّون بحديث عمرو بن شعيب. وقد كره قومٌ من أهل العلم البيعَ والشراءَ في المسجد، وبه يقول أحمد وإسحاق[(٥)].

وروي أنَّ عيسى ابن مريم عليهما السلام أتى على قومٍ يتبايعونَ في المسجد، فجعل رداءَه مخراقاً، ثم جعل يسعى عليهم ضَرْباً، ويقول: يا أبناء الأفاعي، اتخذتُم مساجدَ الله أسواقاً! هذا سوق[(٦)] الآخرة[(٧)].

---

(١) (٥٣٧)، وهو في مسند أحمد (٢٣٧٦٢).. وفيهما: (الصلاة) بدل: (المساجد).

(٢) سلف ٢/ ٣٧٩.

(٣) العامري أبو سعيد البلخي، فقيه أهل الرأي، توفي سنة ٢١٥ هـ. تقريب التهذيب.

(٤) في النسخ الخطية: محمداً، والمثبت من سنن الترمذي، والكلام منه، ومحمد بن إسماعيل: هو البخاري.

(٥) سنن الترمذي (٣٢٢)، وأخرج الحديث أيضاً النسائي في المجتبى ٢/ ٤٨، وفي الكبرى (٧٩٥-٧٩٦)، وابن ماجه (٧٤٩).

(٦) في (ظ) هذه أسواق.

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٨٣ من طريق الحكم بن سنان أبي عون، عن مالك بن دينار، قال: =

قلت: وقد كره بعض أصحابنا تعليمَ الصبيان في المساجد، ورأى أنَّه من باب البيع، وهذا إذا كان بأجرة، فلو كان بغير أجرةٍ لمنعَ أيضاً من وجهٍ آخر، وهو أنَّ الصبيان لا يتحرَّزون عن الأقذار والوَسَخ، فيؤدّي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد، وقد أَمرَ ﷺ بتنظيفها وتطييبها[١]، فقال: «جَنِّبُوا مساجدَكم صبيانَكم ومجانينكم، وسلَّ سيوفِكم، وإقامةَ حدودِكم، ورفعَ أصواتكم وخصوماتِكم، وأجمروها في الجُمَع، واجعلوا على أبوابها المطاهرَ». في إسناده العلاء بن كثير الدمشقي مولى بني أمية، وهو ضعيف عندهم، ذكره أبو أحمد بن عديّ الجرجاني الحافظ[٢].

وذكر أبو أحمد أيضاً[٣] من حديث عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: صلّيتُ العصرَ مع عثمان أميرِ المؤمنين، فرأى خياطاً في ناحية المسجد، فأمر بإخراجه، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنه يكنس المسجدَ، ويغلِق الأبوابَ، ويرشُّ أحياناً. فقال عثمان: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «جنِّبوا صُنَّاعكم من مساجدكم». هذا حديث غيرُ محفوظ، في إسناده محمد بن مجيب الثقفي، وهو ذاهب الحديث.

قلت: ما ورد في هذا المعنى وإن كان طريقهُ لَيِّناً فهو صحيح معنىً، يدلُّ على صحته ما ذكرناه قبل.

= دخل عيسى ابن مريم مسجد بيت المقدس وهم يتبايعون... ، فذكره دون قوله «هذا سوق الآخرة». والحكم بن سنان ضعيف. والمخراق: ثوب يُلَف ويضرب به الصبيانُ بعضهم بعضاً. النهاية (خرق).

(١) المفهم ٢/ ١٧٥ .

(٢) في الكامل ٥/ ١٨٦١ من حديث العلاء بن كثير، عن مكحول، عن واثلة وأبي الدرداء وأبي أمامة مرفوعاً. وقال ابن عدي: للعلاء بن كثير عن مكحول عن الصحابة، عن النبي ﷺ نسخ كلها غير محفوظة، وهو منكر الحديث. وأخرجه ابن ماجه (٧٥٠) من طريق الحارث بن نبهان، عن عتبة بن يقظان، عن أبي سعيد، عن مكحول، عن واثلة مرفوعاً، قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٢ : أبو سعيد هو محمد بن سعيد، قال النسائي: كذاب، والحارث بن نبهان ضعيف.

وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ ١٧٣ من طريق يحيى بن العلاء، عن مكحول، عن معاذ مرفوعاً. قال البيهقي في السنن ١٠/ ١٠٣ : ليس بصحيح.

(٣) في الكامل له ٦/ ٢٢٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الأحكام الوسطى لأبي محمد عبد الحق ١/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

قال الترمِذيّ[١]: وقد رُويَ عن بعض أهل العلم من التابعين رُخْصةٌ في البيع والشراء في المسجد، وقد رُويَ عن النبيّ ﷺ في غير حديثٍ رخصةٌ في إنشاد الشعر في المسجد[٢].

قلت: أما تناشدُ الأشعار في المسجد[٣] فاختلف في ذلك، فمن مانع مطلقاً، ومن مجيز مطلقاً. والأوْلى التفصيل، وهو أن يُنظر إلى الشعر، فإن كان مما يقتضي الثناءَ على الله عزَّ وجلَّ، أو على رسوله ﷺ، أو الذبَّ عنهما كما كان شعر حسان، أو يتضمن الحضَّ على الخير والوعظ، والزهد في الدنيا والتقلّل منها، فهو حسن في المساجد وغيرها[٤]، كقول القائل:

طوِّفي يا نفسُ كي أقصدَ فرداً صمدا وذريني لستُ أبغي غير ربِّي أحدا
فهو أُنْسي وجليسي ودعي الناس فما إنْ تجدي من دونه مُلتحدا[٥]

وما لم يكن كذلك لم يجز؛ لأنَّ الشعرَ في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والتزيين[٦] بالباطل، ولو سلم من ذلك، فأقل ما فيه اللّغْوُ والهَذَر[٧]، والمساجد مُنزَّهةٌ عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾[٨].

وقد يجوز إنشاده في المسجد، كقول القائل:

---

(١) في سننه ٢/١٤٢-١٤٤.

(٢) منها ما أخرجه البخاري (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) عبارة: في المسجد. لم ترد في (م) و(د): أثبتناها من (ظ) ومن المفهم والكلام منه.

(٤) المفهم ٦/٤١٨.

(٥) كذا في النسخ ولم نقف عليه.

(٦) في (م) و(د): التزين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المفهم.

(٧) أي: الهذيان. الصحاح (هذر).

(٨) المفهم ٦/٤١٨.

كفَحْل العَذَاب الفَرْدِ يضربُه النَّدَى تَعَلَّى النّدَى في متنه وتَحدّرا[١]

وقول الآخر:

إذا سقَطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيناه وإن كانوا غِضابَا[٢]

فهذا النوع ـ وإن لم يكن فيه حَمْدٌ ولا ثناءٌ ـ يجوز؛ لأنَّه خالٍ عن الفواحش والكذب. وسيأتي ذكر الأشعار الجائزة وغيرِها بما فيه كفاية في «الشعراء» إن شاء الله تعالى[٣].

وقد روى الدَّارقطنِيُّ من حديث هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ذُكرَ الشِّعرُ عند رسول الله ﷺ، فقال: «هو كلامٌ حَسَنُه حَسَنٌ، وقبيحُه قبيحٌ»[٤]. وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي هريرة، وابن عباس عن النبيّ ﷺ. ذكره في «السنن»[٥].

قلت: وأصحاب الشافعيّ يأثرون هذا الكلام عن الشافعيّ وأنه لم يتكلم به غيره، وكأنهم لم يقفوا على الأحاديث في ذلك. والله أعلم.

الثامنة: وأما رفعُ الصوت؛ فإن كان مما يقتضي مصلحةً للرَّافع صوته، دُعي عليه بنقيض قصده[٦]؛ لحديث بريدة المتقدّم[٧]، وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) البيت لابن أحمر الباهلي كما في أدب الكاتب ص٩٦، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٣٩، والصحاح (عدب) وروايتهم: كثور العداب، بدل: كفحل العداب. والعداب: ما استرق من الرمل. الصحاح (عدب)، وقال ابن قتيبة: والعرب تسمي النبت ندى؛ لأنه بالمطر يكون.

(٢) البيت لمعوّد الحكماء، معاوية بن مالك، كما في المفضليات ص٣٥٩ وروايته: إذا نزل السحاب، بدل: إذا سقط السماء. والبيت ورد أيضاً في أدب الكاتب ص٩٧، والأمالي ١/ ١٨١ ، وشرح ديوان الحماسة ٣/ ١٤٣٢ . قال ابن قتيبة: يقولون للمطر: سماء؛ لأنه من السماء ينزل.

(٣) عند تفسير الآية (٢٢٤) منها.

(٤) سنن الدارقطني (٤٣٠٦) وفي إسناده عبد العظيم بن حبيب بن رغبان، قال الدارقطني: ليس بثقة كما في «الميزان» وتابعه عبد الرحمن بن ثابت عند أبي يعلى (٤٧٦٠)، والبيهقي ١٠/ ٢٣٩ .

(٥) برقم (٤٣٠٨)، (٤٣٠٩)، (٤٣١٠).

(٦) المفهم ٢/ ١٧٤ .

(٧) في المسألة السادسة.

«من سمع رجلاً يَنْشُد ضالّةً في المسجد، فليقل: لا ردّها الله عليك؛ فإنَّ المساجدَ لم تُبْن لهذا»[١].

وإلى هذا ذهب مالك وجماعة، حتى كرهوا رفعَ الصوت في المسجد في العلم وغيره. وأجاز أبو حنيفةَ وأصحابُه ومحمد بن مسلمة من أصحابنا رفعَ الصوت فيه في الخصومة والعلم، قالوا: لأنَّهم لا بُدَّ لهم من ذلك، وهذا مخالف لظاهر الحديث، وقولهم: لابُدَّ لهم من ذلك، ممنوع، بل لهم بُدٌّ من ذلك بوجهين: أحدهما: بملازمة الوَقَار والحرمة، وبإحضار ذلك بالبال والتحرُّز من نقيضه. والثاني: أنه إذا لم يتمكن من ذلك، فليتخذ لذلك موضعاً يخصّه، كما فعل عمر حيث بَنَى رحبةً تُسمَّى البُطَيْحاء، وقال: من أراد أن يَلْغَط أو يُنْشِد شعراً ـ يعني في مسجد رسول الله ﷺ ـ فليخرج إلى هذه الرحبة[٢]. وهذا يدل على أنَّ عمرَ كان يكره إنشادَ الشعر في المسجد، ولذلك بنى البُطَيحاء خارجه.

التاسعة: وأما النوم في المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجلٍ أو امرأةٍ، كالغُرباء[٣] ومن لا بيت له، فجائز[٤]؛ لأنَّ في البخاري: وقال أبو قِلابة عن أنس: قَدِم رهطٌ من عُكْل على النبي ﷺ، فكانوا في الصُّفَّة[٥]. وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: كان أصحابُ الصُّفَّة فقراء[٦].

وفي «الصحيحين»[٧] عن ابن عمر، أنَّه كان ينام وهو شابٌّ أعزبُ لا أهل له في

(١) أخرجه أحمد (٨٥٨٨)، ومسلم (٥٦٨).

(٢) المفهم ٢/ ١٧٤، وأثر عمر ذكره مالك في الموطأ ١/ ١٧٥ بلاغاً، وهو موصول برواية أبي مصعب (٥٨١)، والبيهقي ١٠/ ١٠٣.

(٣) في (م): من الغرباء.

(٤) المفهم ٦/ ٤٠٩ بنحوه.

(٥) علقه البخاري في صحيحه قبل الحديث (٤٤٠) وقد وصله برقم (٦٨٠٤). وسلف ٧/ ٤٣١.

(٦) علقه البخاري في صحيحه قبل الحديث (٤٤٠)، ووصله برقم (٦٠٢)

(٧) صحيح البخاري (٤٤٠)، وصحيح مسلم (٢٠٥٧)، وهو في مسند أحمد (٦٣٠٣).

مسجد النبيِّ ﷺ. لفظ البخاري. وترجم: «باب نوم المرأة في المسجد» وأَدخلَ حديثَ عائشة في قصة السَّوداء التي اتهمها أهلُها بالوِشاح، قالت عائشة: وكان لها خِبَاء في المسجد أو حِفْش... الحديث[١].

ويقال: كان مبيتُ عطاء بن أبي رَبَاح في المسجد أربعين سنة.

العاشرة: روى مسلم عن أبي حُميد أو عن أبي أُسَيْد، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا دَخَل أحدُكم المسجدَ فلْيَقُل: اللَّهُمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتِك، وإذا خرج فليقلْ: اللّهُمّ إنِّي أسأَلُكَ من فضلك»[٢]. خرَّجه أبو داود كذلك، إلا أنَّه زاد بعد قوله «إذا دخل أحدكم المسجد: فليسلِّم، ولْيصلِّ على النبيِّ ﷺ، ثمَّ ليقل: اللهم افتح لي .....» الحديث[٣].

وروى ابنُ ماجه عن فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا دَخَل المسجدَ قال: «باسم الله، والسَّلامُ على رسول الله، اللّهُمَ اغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ رحمتكَ، وإذا خَرَج قال: باسم الله، والسلام[٤] على رسول الله، اللّهُمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبوابَ رحمتك وفضلك»[٥].

وروي عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أحدُكم المسجدَ، فليصلِّ على النبيِّ ﷺ، وليقل: اللّهُمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتك، وإذا خرج، فلْيُسَلِّم على

(١) صحيح البخاري (٤٣٩). والوشاح: شيء ينسج عريضاً من أديم. والخِباء: أحد بيوت العرب من وبر أو صوف. الحفش: البيت الصغير الذليل القريب السَّمْك. النهاية (وشح)، (خبا)، (حفش). والسوداء ـ كما ورد في الحديث ـ هي وليدة كانت سوداء لحيٍّ من العرب، فأعتقوها فكانت معهم.

(٢) صحيح مسلم (٧١٣).

(٣) سنن أبي داود (٤٦٥)، وأخرجه أحمد (١٦٠٥٧).

(٤) في (م) و (ظ) والصلاة.

(٥) سنن ابن ماجه (٧٧١). وأخرجه أحمد (٢٦٤١٧)، والترمذي (٣١٤) من طريق فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندهم: افتح لي أبواب فضلك. دون قوله: رحمتك. قال الترمذي: حديث فاطمة حديث حسن، وليس إسناده بمتصل، وفاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى، إنَّما عاشت فاطمة بعد النبي ﷺ أشهراً.

النبي ﷺ، وليقل: اللّهُمّ اعْصِمْنِي من الشيطان الرجيم»[١].

وخرج أبو داود[٢] عن حَيْوة بن شُريح قال: لَقِيت عقبة بنَ مسلم، فقلت له: بلغني أنَّك حدّثت عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبيّ ﷺ، أنَّه كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيمِ، وبوجههِ الكريمِ، وسلطانهِ القديمِ من الشيطان الرجيم». قال: نعم. قال: فإذا قال ذلك، قال الشيطانُ: حُفِظ مني سائرَ اليوم.

الحادية عشرة: روى مسلم عن أبي قتادةَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «إذا دخل أحدُكم المسجدَ، فليركعْ ركعتين قبل أن يجلس»[٣]. وعنه قال: دخلتُ المسجدَ ورسولُ الله ﷺ جالسٌ بين ظَهْرَانَي الناسِ، قال: فجلستُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما مَنَعك أن تركعَ ركعتين قبل أن تجلسَ»؟ فقلتُ: يا رسول الله، رأيتُك جالساً والناسُ جلوس، قال: «فإذا دَخَل أحدُكم المسجدَ، فلا يجلسْ حتى يركعَ ركعتين»[٤].

قال العلماء: فجعل ﷺ للمسجد مزيّةً يتميَّز بها عن سائر البيوت، وهو ألا يجلسَ حتى يركع.

وعامّةُ العلماء على أنَّ الأمرَ بالركوع على الندب والترغيب، وقد ذهب داودُ وأصحابُه إلى أنَّ ذلك على الوجوب، وهذا باطل، ولو كان الأمر على ما قالوه، لَحَرُمَ دخولُ المسجد على المُحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ، ولا قائل به فيما أعلم، والله أعلم[٥].

فإن قيل: فقد روى إبراهيم بن يزيد، عن الأوزاعيّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن

---

(١) سنن ابن ماجه (٧٧٣). قال البوصيري في الزوائد ١/ ١٦٥: إسناده صحيح رجاله ثقات. وحسنه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار ١/ ٢٧٧.

(٢) في سننه (٤٦٦). وقال الحافظ في نتائج الأفكار ١/ ٢٧٧: هذا حديث حسن غريب ورجاله موثقون، وهم من رجال الصحيح إلا إسماعيل وعقبة.

(٣) صحيح مسلم (٧١٤)، وأخرجه أحمد (٢٢٥٢٣)، والبخاري (٤٤٤).

(٤) صحيح مسلم (٧١٤) (٧٠)، وهو في مسند أحمد (٢٢٦٠١).

(٥) المفهم ٢/ ٣٥٢.

أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دَخَل أحدُكم المسجدَ، فلا يجلسْ حتى يركعَ ركعتين، وإذا دخلَ أحدُكم بيتَه، فلا يجلسْ حتى يركعَ ركعتين، فإنَّ الله جاعل [له] من ركعتيه في بيته خيراً»[١]، وهذا يقتضي التسوِيَة بين المسجد والبيت.

قيل: هذه الزيادةُ في الركوع عند دخول البيت لا أصل لها، قال ذلك البخاري[٢]. وإنَّما يصحُ في هذا حديثُ أبي قتادةَ الذي تقدم لمسلم، وإبراهيم هذا؛ لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الحميد، ولا أعلم له إلَّا هذا الحديثَ الواحد، قاله أبو محمد عبد الحق[٣].

الثانية عشرة: روى سعيد بن زبَّان، حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن أبي هند ﷺ قال: حَمَل تميمٌ ـ يعني الدّارِيَّ ـ من الشام إلى المدينة قناديلَ وزَيْتاً ومُقُطاً، فلما انتهى إلى المدينةِ، وَافقَ ذلك ليلةَ الجمعة، فأَمَر غلاماً يقال له: أبو البرَّاد، فقام فنَشَط المُقُطَ[٤]، وعلَّق القناديلَ، وصبَّ فيها الماءَ والزيتَ، وجعل فيها الفتيلَ، فلما غَربَت الشمسُ أمرَ أبا البرَّاد فأَسرجَها، وخرج رسولُ الله ﷺ إلى المسجد، فإذا هو بها تَزْهَر؛ فقال: «مَنْ فَعلَ هذا»؟ قالوا: تميمٌ الدَّارِيُّ يا رسول الله، فقال: «نوّرتَ الإسلامَ، نوّرَ الله عليك في الدنيا والآخرة، أما إنَّه لو كانت لي ابنةٌ لزوّجْتُكَها». قال نَوْفلُ بن الحارث: لي ابنةٌ يا رسول الله ـ تسمى المغيرة بنت نَوْفلٍ ـ فافعل بها ما أردتَ. فأنكَحه إيّاها[٥].

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٧٢، وابن عدي في الكامل ١/ ٢٥١، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٧٩). وما بين حاصرتين من المصادر. وقال العقيلي: لا أصل له من حديث الأوزاعي، وقال في إبراهيم بن يزيد: في حديثه وهم وغلط.

وقال ابن عدي: وهذا بهذا الإسناد منكر. وقال البيهقي: أنكره البخاري بهذا الإسناد.

(٢) في التاريخ الكبير ١/ ٣٣٦.

(٣) في الأحكام الوسطى ١/ ٢٩٩.

(٤) جمع المقاط، وهو الحبل، كما سيره، ونشطها، أي: عَقَدَها.

(٥) ذكره المستغفري في الصحابة، فيما ذكر الحافظ في الإصابة ١١/ ٣٢-٣٣. وقال: سنده ضعيف.

زَبّان: «بفتح الزاي والباء وتشديدها بنقطة واحدة من تحتها»[(١)]، ينفرد بالتّسمّي به سعيدٌ وحدَه، فهو أبو عثمان سعيدُ بن زبَّان بن فائد[(٢)] بن زبَّان بن أبي هند، وأبو هند هذا: مولى ابن بياضة حجّام النبيّ ﷺ.

والمُقُط: جمع المِقاط، وهو الحبل، فكأنَّه مقلوبُ القِماط[(٣)]. والله أعلم.

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: أوّلُ مَنْ أَسرَجَ في المساجد تَميمٌ الدَّارِيّ[(٤)].

وروي عن أنس، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَسرجَ في مسجدٍ سراجاً، لم تَزلِ الملائكةُ وحَمَلةُ العرش يُصلُّون عليه ويستغفرونَ له ما دَامَ ذلك الضوءُ فيه، وإنَّ كَنْسَ غُبار المسجدِ نقدُ الحُور العين»[(٥)].

قال العلماء: ويستحب أن يُنورَ البيتُ الذي يُقرأ فيه القرآن بتعليق القناديلِ ونصبِ

---

(١) كذا قال المصنف رحمه الله، والذي في توضيح المشتبه ٤/ ٣٢٠-٣٢٢، والإصابة ١١/ ٣٢. زيّاد، بفتح الزاي، وتشديد الياء المثناة من تحت وبعد الألف دال.

(٢) في (م) و(ظ): قائد، بالقاف، والمثبت من (د) وهو الموافق لما في توضيح المشتبه، والإصابة.

(٣) الصحاح (مقط).

(٤) سنن ابن ماجه (٧٦٠) وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢٤٧) من قول أبي هريرة ﷺ وفي سندهما خالد ابن إياس، وهو متروك، ينظر مصباح الزجاجة ١/ ١٦٣-١٦٤، ومجمع الزوائد ٩/ ٣٩٢.

(٥) أخرجه الحارث بن أبي أسامة (١٢٧) (زوائد) عن إسحاق بن بشر، عن أبي عامر الأسدي مهاجر بن كثير، عن الحكم بن مسقلة العبدي، عن أنس مرفوعاً دون قوله: وإن كنس الخ.... قال البوصيري في إتحاف المهرة ٢/ ٤٢: إسناده ضعيف، قال الذهبي في الميزان [١/ ٥٨٠]: الحكم بن مسقلة، قال الأزدي: كذاب، وقال البخاري: عنده عجائب. اهـ ثم قال: وإسحاق بن بشر كذبه علي بن المديني، وقال ابن حبان: لا يحل كتب حديثه إلا على جهة التعجب، وقال الدار قطني: كذاب متروك. اهـ قلنا: وفيه مهاجر بن كثير قال أبو حاتم: متروك الحديث. الميزان ٤/ ١٩٣.

وقوله: «وإن كنس غبار المسجد..» أورده الديلمي في مسند الفردوس ٣/ ٢٩٩ من حديث أنس ﷺ ونقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٣٨٣ عن ابن الجوزي [في الموضوعات (١٨٠٨)] أنه لا يصح، فيه مجاهيل وعبد الواحد بن زيد متروك، وتعقبه بما أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٢١) من حديث أبي قرصافة مرفوعاً، وفيه: «وإخراج القمامة منها مهور حور العين»، وأن الضياء المقدسي صححه في المختارة. قلنا: لكن الهيثمي قال في المجمع ٢/ ٩: رواه الطبراني وفي إسناده مجاهيل.

الشموع فيه، ويُزاد في شهر رمضان في أنوار المساجدِ.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ . رِجَالٌ﴾. اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبِّحين: فقيل: هم المراقبون أمرَ الله، الطالبون رضاءَه، الذين لا يشغلُهم عن الصلاة وذكرِ الله شيءٌ من أمور الدنيا. وقال كثيرٌ من الصحابة: نَزلَت هذه الآيةُ في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النِّداءَ بالصلاة تَركوا كلَّ شُغل وبادروا. ورأى سالم بنُ عبد الله أهلَ الأسواق وهم مُقبلون إلى الصلاة، فقال: هؤلاء الذين أراد اللهُ بقوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وروي ذلك عن ابن مسعود[1].

وقرأ عبد الله بنُ عامر، وعاصم في رواية أبي بكر عنه، والحسن: «يُسبَّح له فيها» بفتح الباء على ما لم يسمّ فاعلُه. وكان نافع وأبو عمرو[2] وحمزة يقرؤون: «يُسَبِّح» بكسر الباء، وكذلك روى أبو عمر عن عاصم[3].

فمن قرأ: «يُسبَّح» بفتح الباء، كان على معنيين: أحدهما: أن يرتفعَ «رجال» بفعل مضمر دلَّ عليه الظاهرُ، بمعنى يُسبّحه رجال، فيوقف على هذا على «الآصال»[4]. وقد ذكر سيبويه مثل هذا، وأنشد:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخصُومةٍ ومُخْتَبِطٌ مما تُطيح الطَّوائحُ

المعنى: يبكيه ضارع[5]. وعلى هذا تقول: ضُرب زيد عمرو؛ على معنى ضربه عمرو.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٦، وأخرج أثر سالم بن عبد الله وابن مسعود الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٣٢١-٣٢٢.

(٢) في (م): نافع وابن عمر وأبو عمرو، والمثبت من (د) و(ظ).

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٨، ووقع في النسخ: أبو عمرو، بدل: أبو عمر، وهو خطأ، وهو أبو عمر حفص بن سليمان راوي عاصم، وقرأ بكسر الباء أيضاً ابن كثير والكسائي. وينظر السبعة ص٤٥٦ والتيسير ص١٦٢.

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٦، والكتاب لسيبويه ١/ ٢٨٨ و٣٦٦ وسلف الشطر الأول للبيت ٨/ ٤٣٢.

والوجه الآخر: أن يرتفعَ «رجالٌ» بالابتداء، والخبر: «في بيوت»؛ أي: في بيوت أَذِن الله أن تُرفع رجالٌ. و«يُسبَّح له فيها» حالٌ من الضمير في «تُرفع»، كأنّه قال: أنْ تُرفع مسبَّحاً له فيها، ولا يوقف على «الآصال» على هذا التقدير.

ومن قرأ: «يُسبِّح» بكسر الباء لم يقف على «الآصال»؛ لأنَّ «يُسبِّح» فعل للرجال، والفعل مضطر إلى فاعله ولا إضمار فيه[1]. وقد تقدَّم القول في «الغدوّ والآصال» في آخر «الأعراف»[2] والحمد لله وحده.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ قيل: معناهُ يصلِّي. وقال ابن عباس: كلُّ تسبيحٍ في القرآن صلاةٌ، ويدل عليه قولُه: «بِالغدوّ والآصالِ»، أي: بالغداة والعَشِيّ[3].

وقال أكثر المفسرين: أراد الصلاةَ المفروضةَ؛ فالغدوُّ صلاةُ الصبح، والآصال صلاةُ الظهر والعصر والعشاءين[4]؛ لأنَّ اسم الآصال يجمعها.

الخامسة عشرة: روى أبو داود[5]، عن أبي أمامةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ خَرَج من بيته متطهِّراً إلى صلاةٍ مكتوبةٍ، فأجرُه كأجر الحاجِّ المُحْرِم، ومَنْ خَرَج إلى تسبيحِ الضُّحى لا يُنصِبه إلا إياه، فأجرُه كأجرِ المُعْتَمِر، وصلاةٌ على إثرِ صلاةٍ [لا لَغْوَ بينهما] كتابٌ في عِلِّيِّين».

وخرّج عن بُريدة، عن النبي ﷺ قال: «بَشِّر المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنُّور التَّامِّ يومَ القيامة»[6].

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٩٨-٧٩٩ .

(٢) ٩/ ٤٣٤-٤٣٥ .

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٢٠ .

(٤) زاد المسير ٦/ ٤٧ .

(٥) في سننه (٥٥٨) وما بين حاصرتين منه وفي إسناده القاسم أبو عبد الرحمن، قال المنذري في مختصر معالم السنن ١/ ٢٩٤ : فيه مقال.

(٦) سنن أبي داود (٥٦١)، وأخرجه الترمذي (٢٢٣) وقال: هذا حديث غريب. وقال المنذري في =

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غدا إلى المسجدِ أو رَاحَ، أعدَّ اللهُ له نُزُلاً في الجنة كُلَّما غَدَا أو راح»[١].

في غير الصحيح من الزيادة: «كما أنَّ أحدَكم لو زَارَ مَنْ يحب زيارته لاجتهد في كرامته» ذكره الثعلبي[٢].

وخرّج مسلم[٣] من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تطهَّر في بيته، ثمَّ مشى إلى بيتٍ من بيوتِ الله ليقضيَ فريضةً من فرائض الله، كانت خَطْوتاه إحداهما تَحطُّ خطيئةً، والأخرى تَرفعُ درجةً».

وعنه: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرَّجل في جماعةٍ تزيدُ على صلاته في بيته وصلاتِه في سُوقه بِضْعاً وعشرين درجةً، وذلك أنَّ أحدَهم إذا توضَّأ فأَحسنَ الوضوءَ، ثمَّ أتى المسجدَ، لا يَنْهَزُهُ إلا الصلاةُ، لا يريد إلا الصلاةَ، فلم يَخْطُ خُطوةً إلا رُفع له بها درجةٌ، وحُطَّ عنه بها خطيئةٌ، حتى يدخلَ المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانتِ الصلاةُ هي تحبِسُهُ، والملائكةُ يُصلُّون على أحدِكم ما دَامَ في مجلسِهِ الذي صلَّى فيه؛ يقولون: اللّهُمَّ ارْحَمه، اللَّهم اغْفِرْ له، اللّهُمّ تُبْ عليه، ما لم يُؤْذِ فيه، ما لم يُحْدِث فيه»[٤].

= مختصر معالم السنن ١/ ٢٩٥ : قال الدارقطني: تفرد به إسماعيل بن سليمان الضبي البصري الكحال عن عبد الله بن أوس.

وأخرجه ابن ماجه (٧٨١) من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٨ : هذا إسناد ضعيف؛ سليمان بن داود قال فيه العقيلي: لا يتابع على حديثه.

وأخرجه ابن ماجه أيضاً (٧٨٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٧ : هذا إسناد فيه مقال؛ إبراهيم بن محمد هذا قال ابن حبان في الثقات: يخطئ. اهـ. وبمجموع هذه الطرق يتحسن الحديث.

(١) صحيح مسلم (٦٦٩)، وهو في صحيح البخاري (٦٦٢)، وأخرجه أحمد (١٠٦٠٨).

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس (٦١٠٤).

(٣) في صحيحه برقم (٦٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (٧٤٣٠)، والبخاري (٤٧٧)، ومسلم (٦٤٩): (٢٧٢). والنهز: الدفع. اللسان (نهز).

في رواية: ما يُحدِثُ؟ قال: «يَفْسُو أو يَضْرِطُ»(١).

وقال حكيم بن زُريق: قيل لسعيد بن المسيب: أحضورُ الجنازةِ أحبُّ إليكَ أمِ الجلوسُ في المسجد؟ فقال: مَنْ صلَّى على جنازةٍ فله قِيراطٌ، ومَنْ شَهدَ دَفْنَها، فله قيراطان، والجلوسُ في المسجد أحبُّ إليَّ؛ لأنَّ الملائكةَ تقول: اللَّهُمَّ اغْفِر له، اللهم ارْحَمْه، اللّهم تُبْ عليه(٢).

وروي عن الحكم بن عُمير صاحبِ رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُونُوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجدَ بيوتاً، وعوّدوا قلوبَكم الرِّقةَ، وأكثِروا التَّفكر والبكاء، ولا تختلف بكم الأهواءُ، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتؤمّلون ما لا تدركون»(٣).

وقال أبو الدَّرْداء لابنه: ليكُن المسجدُ بيتَك؛ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ المساجدَ بيوتُ المُتَّقين، ومن كانت المساجدُ بيتَه، ضَمِنَ الله تعالى له الرَّوح والرَّاحة والجَوَاز على الصِّراط»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (٦٤٩): (٢٧٤)، وأخرجه أحمد (٩٣٧٤).

(٢) التمهيد ١٩/ ٣٩ - ٤٠ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٣٥٨ من طريق بقية، عن عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، به. قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٧٤ : قال ابن أبي حاتم عن أبيه: روى عن النبي ﷺ أحاديث منكرة يرويها عيسى بن إبراهيم، وهو ضعيف، عن موسى بن أبي حبيب وهو ضعيف، عن عمه الحكم. وقال ابن عبد البر: رويت عنه أحاديث مناكير من حديث أهل الشام لا تصح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣١٧ ، وابن أبي عمر العدني ـ كما في إتحاف المهرة ٢/ ٤٩ والمطالب العالية ٣/ ٥٦١ ـ، وهناد في الزهد (٩٥١) من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن رجل عن محمد بن واسع، عن أبي الدرداء، به. وهذا إسناد ضعيف لإبهام الرجل الراوي عن محمد بن واسع، ولانقطاعه محمد بن واسع لم يسمع من أبي الدرداء.

وأخرجه البزار (٤٣٤) (زوائد) و(٢٧٧) (مختصر) من طريق عبد الله بن المختار، عن محمد بن واسع، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، قال: لتكن المساجد... قال البزار: لا نعلم هذا الحديث بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وإسناده حسن، وقد روي نحوه بغير لفظه. وقال الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٢ : رجال البزار كلهم رجال الصحيح. اهـ. قلنا: لكن في العلل للدارقطني ٢/ ورقة ٧٣ أن المرسل هو =

وكَتَب أبو صادق الأزدي إلى شُعيب بن الحَبْحاب: أنْ عليكَ بالمساجدِ فالْزَمْها؛ فإنه بلغني: أنَّها كانت مجالسَ الأنبياء(١).

وقال أبو إدريس الخَوْلانِيّ: المساجدُ مجالسُ الكرام من الناس(٢).

وقال مالك بن دينار: بلغني أنَّ الله تبارك وتعالى يقول: «إني أَهُمُّ بعذابِ عبادي، فأَنظُر إلى عُمَّار المساجدِ وجُلساء القرآنِ ووُلدان الإسلام، فيسكُنُ غضبي»(٣).

ورويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «سيكونُ في آخر الزَّمان رجالٌ يأتونَ المساجدَ، فيقعُدونَ فيها حِلَقاً حِلَقاً، ذِكْرُهم الدُّنيا وحبُّها، فلا تُجالسوهم، فليس لله بهم حاجة»(٤).

= المحفوظ. يعني الذي ليس فيه: أم الدرداء، وكذا أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٧٢) من طريق مطعم بن المقدام وغيره عن محمد بن واسع، قال: كتب أبو الدرداء إلى سلمان، فذكره.

وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٠٢٩)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢١٤ ، والبيهقي في الشعب (١٠٦٥٨) من طريق معمر، عن صاحب له، أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان ، فذكره، وهذا إسناد ضعيف لإبهام شيخ معمر.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧١٤٥)، والخطيب في تاريخه ٨/ ٣٤٠ من طريق عمرو بن جرير، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال سمعت أبا الدرداء يقول لابنه، فذكره. وعمرو بن جرير، قال أبو حاتم: كان يكذب. الميزان ٣/ ٢٥٠ .

وأخرجه الطبراني في الكبير (٦١٤٣)، وأبو نعيم ٦/ ١٧٦ من طريق صالح المري، عن الجريري، عن أبي عثمان قال: كتب سلمان إلى أبي الدرداء، فذكره. قال أبو نعيم: غريب من حديث صالح لم نكتبه إلا من هذا الوجه. اهـ وقال الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٢ : فيه صالح المري، وهو ضعيف.

(١) أخرج الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٢٠٠) من قول علي ﷺ: المساجد مجالس الأنبياء.

وأورده الديلمي في مسند الفردوس (٦٦٥٢) من قول أنس ﷺ.

وشعيب بن الحبحاب، هو أبو صالح البصري، تابعي ثقة، توفي سنة ١٣١هـ. وأبو صادق الأزدي كوفي صدوق. تقريب التهذيب.

(٢) أخرجه عنه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٢٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٥٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٢٠١).

(٣) ذكره في نوادر الأصول ص٤٣ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٤٥٢)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٩٣ ، وأبو نعيم في الحلية =

وقال ابن المسيِّب: من جلس في مسجد فإنَّما يجالس ربّه[١]، فما حقّه أن يقول إلا خيراً. وقد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه كفاية[٢].

وقد جمع بعضُ العلماء في ذلك خمسَ عشرة خصلة، فقال: من حرمة المسجد أن يُسلِّم وقتَ الدُّخول إنْ كان القومُ جلوساً، وإن لم يكن في المسجد أحدٌ قال: السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين، وأن يركعَ ركعتين قبل أن يجلس، وألا يشتري فيه ولا يبيع، ولا يَسُلَّ فيه سَهْماً ولا سيفاً، ولا يطلب فيه ضالَّةً، و لا يرفع فيه صوتاً بغير ذكر الله تعالى، ولا يتكلَّم فيه بأحاديثِ الدنيا، ولا يتخطَّى رقابَ الناس، ولا يُنازع في المكان، ولا يُضيِّق على أحدٍ في الصف، ولا يَمرّ بين يدي مصلٍّ، ولا يبصق، ولا يتنخّم، ولا يتمخّط فيه، ولا يفرقع أصابعَه، ولا يَعبث بشيءٍ من جسده، وأن يُنزِّه عن النجاسات والصبيان والمجانين، وإقامةِ الحدود، وأن يُكثرَ ذكرَ الله تعالى ولا يغفلَ عنه. فإذا فعل هذه الخصال، فقد أدّى حقَّ المسجد، وكان المسجدُ حرزاً له وحِصْناً من الشيطان الرجيم.

وفي الخبر: «أنَّ مسجداً ارتفع بأهلِه إلى السماء يشكُوهم إلى الله لما يتحدَّثون فيه من أحاديث الدنيا»[٣].

وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عامر الشَّعْبِيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقترابِ الساعةِ أن يُرَى الهلالُ قَبَلاً، فيقال: لليلتين، وأن تُتَّخذ المساجد طُرُقاً، وأن يظهرَ موتُ

= ٤/ ١٠٩ . من حديث ابن مسعود، مرفوعاً. قال ابن عدي: لا أعلم يرويه غير بزيع أبو الخليل. وقال أبو نعيم: غريب من حديث الأعمش تفرد به ابن صدران عن بزيع، وبزيع هو الخصاف البصري واهي الحديث. وقال ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٠٠ : روى بزيع هذا أحرفاً يسيرة إلا أن فيها مناكير لا تشبه حديث الأثبات، فوجب مجانبته في الروايات. وقال في مجمع الزوائد ٢/ ٢٤ : رواه الطبراني في الكبير، وفيه بزيع، ونسب إلى الوضع.

(١) سلف ص٢٦٩ من هذا الجزء.

(٢) ١٠/ ١٣٤ فما بعدها.

(٣) لم نقف عليه.

الفجأة». هذا يرويه عبد الكبير بن المعافى، عن شريك، عن العباس بن ذَرِيح، عن الشعبي، عن أنس، وغيره يرويه عن الشعبي مرسلاً، والله أعلم[١].

وقال أبو حاتم: عبد الكبير بن معافى ثقة كان يُعَدّ من الأبدال[٢].

وفي البخاري: عن أبي موسى، عن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ مَرَّ في شيءٍ من مساجدنا أو أسواقنا بنَبْلٍ، فليأخُذْ على نِصالها؛ لا يَعْقِر بكفِّه مسلماً»[٣].

وخرّج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «البُزاقُ في المسجدِ خطيئةٌ، وكفَّارتها دَفْنُها»[٤]. وعن أبي ذَرٍّ عن النبيّ ﷺ قال: «عُرِضت عليَّ أعمالُ أُمّتي حَسَنُها وسيئُها، فوجدتُ في محاسن أعمالها الأذى يُماطُ عن الطريق، ووجدتُ في مساوي أعمالها النُّخاعَةُ تكون في المسجد لا تُدفن»[٥].

وخرّج أبو داود عن الفَرَج بن فَضالة، عن أبي سعيد الحميري[٦] قال: رأيتُ واثلةَ بن الأَسْقع في مسجد دمشق بَصَق على الحصير، ثمَّ مسَحَه برجله، فقيل له: لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: لأنِّي رأيت رسولَ الله ﷺ يفعله[٧]. فرج بن فضالة ضعيف، وأيضاً:

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٣٧٦)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٣٢٥) (٢٣٢٦) (٢٣٢٧) قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن العباس بن ذريح إلا شريك، تفرد به عبد الكبير بن المعافى. اهـ. وقال الضياء: ذكر الدارقطني هذه الرواية. ثم قال: وغيره يرويه عن الشعبي مرسلاً، والله أعلم. اهـ. قلنا: وشريك ضعيف.

وأخرجه مرسلاً ابن أبي شيبة ١٥/ ١٦٦ ، والداني في السنن الواردة في الفتن ٤/ ٧٩٣ مختصراً. قوله: «أن يُرى الهلال قَبَلاً»، أي: يُرى ساعة ما يطلع؛ لعظمه ووضوحه، من غير أن يُتطلَّب، وهو بفتح القاف والباء . النهاية (قبل).

(٢) الجرح والتعديل ٦/ ٦٣ . والأبدال: هم الأولياء والعبّاد، سمّوا بذلك لأنهم كلما مات واحد منهم أبدل بآخر. النهاية (بدل).

(٣) صحيح البخاري (٤٥٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٥٤٥)، ومسلم (٢٦١٥).

(٤) صحيح مسلم (٥٥٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٣٤٣٣)، والبخاري (٤١٥).

(٥) أخرجه أحمد (٢١٥٤٩)، ومسلم (٥٥٣). والنخاعة: البزقة التي تخرج من أصل الفم. النهاية (نخع).

(٦) في النسخ: الخدري، والتصويب من سنن أبي داود، وتحفة الأشراف ٩/ ٨١ .

(٧) سنن أبي داود (٤٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٦٠٠٩). وإسناده ضعيف. أبو سعيد الحميري مجهول، وفرج بن فضالة ضعيف كما ذكر المصنف.

فلم يكن في مسجدِ رسول الله ﷺ حُصُر، والصحيح أنَّ رسولَ الله ﷺ إنَّما بَصَق على الأرض ودلكه بنعله اليسرى(١)، ولعلّ واثلةَ إنَّما أراد هذا فحمل الحصير عليه.

السادسة عشرة: لما قال تعالى: «رجال» وخصَّهم بالذِّكر، دلَّ على أنَّ النساءَ لا حظَّ لهنَّ في المساجد؛ إذ لا جُمعةَ عليهنَّ ولا جماعة(٢)، وأنَّ صلاتهن في بيوتهن أفضلُ. روى أبو داود عن عبد الله ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال: «صلاةُ المرأةِ في بيتها أفضلُ من صلاتِها في حُجْرتها، وصلاتُها في مَخْدعها أفضلُ من صلاتها في بيتها»(٣).

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ أي: لا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ خصّ التجارة بالذكر؛ لأنَّها أعظمُ ما يشتغل بها الإنسانُ عن الصلاة، فإن قيل: فلمَ كرَّر ذِكْرَ البيعِ والتجارةُ تشملُه؟ قيل له: أراد بالتجارةِ الشراءَ؛ لقوله ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾. نظيرُه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: ١١] قاله الواقدي(٤).

وقال الكلبي: التجارُ هم الجُلّاب المسافرون، والباعةُ هم المقيمون(٥).

﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ اختلف في تأويله: فقال عطاء: يعني حضورَ الصلاة(٦). وقاله ابن عباس، وقال: المكتوبة(٧).

وقيل: عن الأذان، ذكره يحيى بن سلام. وقيل: عن ذكره بأسمائه الحسنى(٨)؛ أي: يُوحِّدونه ويمجِّدونه.

---

(١) صحيح مسلم (٥٥٤).

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٨.

(٣) سنن أبي داود (٥٧٠). والمخدع: هو البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير، وتضم ميمه وتفتح. النهاية (خدع).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٨. دون ذكر الواقدي، وزاد المسير ٦/ ٤٧.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٠٧.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٩.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٢٢، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٠٨.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٠٧.

والآية نزلت في أهل الأسواق. قاله ابن عمر. قال سالم: جاز عبد الله بنُ عمر بالسّوق وقد أغلقُوا حوانيتَهم وقاموا ليُصلُّوا في جماعة، فقال: فيهم نزلت ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ الآية[١].

وقال أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ: «هم الذين يضربونَ في الأرض يبتغونَ من فضل الله»[٢].

وقيل: إنَّ رجلين كانا في عهد النبيِّ ﷺ، أحدُهما بياعاً، فإذا سمع النداءَ بالصلاة، فإن كان الميزانُ بيده طَرَحه ولا يضعه وَضْعاً، وإن كان بالأرض لم يرفعه، وكان الآخر قَيْناً يعملُ السيوفَ للتجارة، فكان إذا كانت مِطْرقتُه على السَّنْدان أبقاها موضوعة، وإن كان قد رَفَعها ألقاها من وراءِ ظهره إذا سمع الأذانَ؛ فأنزل الله تعالى هذا ثناءً عليهما وعلى كلٍّ من اقتدى بهما.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: هذا يدلّ على أنَّ المرادَ بقوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ غير الصلاة؛ لأنَّه يكون تكراراً.

يقال: أقام الصلاة إقامةً، والأصل: إقوامةً[٣]، فقلبت حركةُ الواو على القاف فانقلبت الواو ألفاً وبعدها ألفٌ ساكنة، فحذفت إحداهما، وأُثبتت الهاء لئلا تحذفها فتُجْحف، فلما أُضيفت قام المضاف [إليه] مقام الهاء، فجاز حذفها، وإن لم تضف لم يجز حذفها؛ ألا ترى أنك تقول: وَعَد عِدَة، ووَزَن زِنَة؛ فلا يجوز حذفُ الهاء؛ لأنَّك قد حذفت واواً؛ لأنَّ الأصلَ وَعَد وِعْدَةً، ووَزَن وِزْنة، فإن أضفت حذفت الهاء، وأنشد الفراء:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٣٩، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٨، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٦١.

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ٥/ ٧٩، وقال أبو حاتم كما في العلل ١/ ٣٩٤. حديث رواه ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن دراج، عن ابن حجيرة، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ فذكره، قال: هذا حديث منكر، ودراج في حديثه صنعة. وأورده الديلمي أيضاً ٢/ ٢٧٧، عن أبي سعيد ﷺ.

(٣) في (م): إقواماً، وفي (د): قوامه.

إنّ الخَلِيطَ أجَدُّوا البَيْنَ فانْجَرَدُوا وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذي وَعَدُوا(١)

يريد: عِدَة، فحذف الهاء لما أضاف.

وروي من حديث أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يأتي اللهُ يومَ القيامة بمساجدِ الدنيا كأنَّها نُجُب بيضٌ، قوائمُها من العنبر، وأعناقُها من الزَّعفران، ورؤوسها من المسك، وأزِمّتها من الزَّبرجد الأخضر، وقُوّامُها والمؤذنون فيها يقودونها، وأئمتُها يسوقونها، وعُمّارُها متعلقون بها، فتجوز عَرَصات القيامة كالبرق الخاطف، فيقول أهل الموقف: هؤلاء ملائكةٌ مقرَّبون أو أنبياء مرسلون، فينادَى: ما هؤلاء بملائكةٍ ولا أنبياءَ، ولكنَّهم أهلُ المساجد والمحافظون على الصلوات من أُمة محمد ﷺ»(٢).

وعن عليّ ﷺ أنَّه قال: يأتي على الناسِ زمانٌ لا يبقى من الإسلام إلا اسمُه، ولا من القرآنِ إلا رَسْمُه، يعمرون مساجدَهم وهي من ذكر الله خَرَاب، شرُّ أهلِ ذلك الزَّمن علماؤهم، منهم تخرج الفتنةُ وإليهم تعودُ. يعني أنَّهم يعلمون ولا يعملون بواجبات ما علموا(٣).

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ قيل: الزكاة المفروضة. قاله الحسن. وقال ابن عباس: الزكاة هنا: طاعةُ الله تعالى والإخلاص(٤)؛ إذ ليس لكلِّ مؤمن مال.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٩-١٤٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه. الخليط: القوم الذين أمرهم واحد، والبين: الفُرقة. اللسان (خلط)، (بين).

(٢) سلف ص٢٧٥ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٤٣ ، والداني في السنن الواردة في الفتن ٣/ ٥٤٥ ، والبيهقي في الشعب (١٩٠٩) وفي إسناده عبد الله بن دكين، قال معين: ليس بشيء، وفي إسناده انقطاع.
وأخرجه ابن عدي أيضاً ٤/ ١٥٤٣ والبيهقي في الشعب (١٩٠٨) عن علي مرفوعاً. وإسناده ضعيف كسابقه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٦ ، وأخرج قول ابن عباس ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٠٩ .

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني: يومَ القيامة ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يعني من هولِهِ وحَذَرِ الهلاك. والتقلّب: التحوّل، والمرادُ: قلوبُ الكفار وأبصارهم، فتقلُّبُ القلوب: انتزاعُها من أماكنها إلى الحناجر، فلا هي تَرجعُ إلى أماكنها، ولا هي تخرج[١]. وأما تقلّب الأبصار فالزَّرَق بعد الكَحَل، والعَمَى بعد البصر. وقيل: تتقلُّب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تنظر من أيّ ناحية يُعطَون كتبهم، وإلى أيّ ناحية يؤخذ بهم[٢].

وقيل: إنَّ قلوبَ الشاكّين تتحول عمَّا كانت عليه من الشك، وكذلك أبصارهم؛ لرؤيتهم اليقين، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] فما كان يراه في الدنيا غَيّاً يراه رُشْداً، إلا أنَّ ذلك لا ينفعهم في الآخرة.

وقيل: تقلّب على جمر جهنم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] في قول من جعل المعنى تقلّبها على لهب النار.

وقيل: تقلب بأن تلفحها النارُ مرةً وتُنْضِجها مرة. وقيل: إن تقلب القلوب وَجِيبُها[٣]، وتقلّب الأبصار النظر بها إلى نواحي الأهوال[٤].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فذكَر الجزاء على الحسنات، ولم يذكر الجزاءَ على السيئات ـ وإنْ كان يُجازي عليها ـ لأمرين: أحدهما: أنَّه ترغيب، فاقتصر على ذكر الرغبة. الثاني: أنّه في صفة قوم لا تكون منهم الكبائر؛ فكانت صغائرهم مغفورة.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: ما يُضاعفه من الحسنة بعشر أمثالها. الثاني: ما يتفضَّل به من غير جزاء[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٣/٣٤٨.

(٢) زاد المسير ٦/٤٨.

(٣) وجب القلب وجيباً: اضطرب. الصحاح (وجب).

(٤) النكت والعيون ٤/١٠٧.

(٥) النكت والعيون ٤/١٠٨.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير أن يُحاسبه على ما أعطاه؛ إذ لا نهايةَ لعطائه.

ورويَ أنَّه لمّا نزلت هذه الآيةُ، أَمر رسولُ الله ﷺ ببناء مسجدِ قُباء، فحَضَر عبدُالله بن رَوَاحة، فقال: يا رسولَ الله، قد أفلَح من بنى المساجد؟ قال: «نعم يا ابنَ رواحة» قال: وصلَّى فيها قائماً وقاعداً؟ قال: «نعم يا ابنَ رواحة» قال: ولم يَبِت لله إلا ساجداً؟ قال: «نعم يا ابنَ رواحة، كُفَّ عن السَّجْع، فما أُعطيَ عبدٌ شيئاً شرًّا من طلاقة في لسانه». ذكره الماوَرْدِيّ[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ لمَّا ضرب مَثَلَ المؤمن؛ ضرب مَثَلَ الكافر. قال مقاتل: نزلت في شيبةَ بنِ ربيعةَ بن عبد شمس، كان يترهَّب متلمِّساً[٢] للدِّين، فلمَّا خرج ﷺ كفر[٣]. أبو سهل: في أهل الكتاب. الضحاك: في أعمال الخير للكافر، كصلة الرَّحم ونفع الجيران.

والسَّراب: ما يُرَى نصفَ النهار في اشتداد الحَرِّ، كالماء في المفاوِز، يلتصق بالأرض[٤]. والآلُ: الذي يكون ضُحىً كالماء، إلَّا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء[٥]. وسُمِّيَ السَّراب سراباً؛ لأنه يَسْرُب، أي: يجري كالماء[٦]. ويقال: سَرَب الفحل، أي: مضى وسار في الأرض. ويُسمَّى الآلَ أيضاً،

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ١٠٨ .

(٢) في (ز) و (ظ): ملتمساً.

(٣) بعدها في (ظ): به، وذكر نحو هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١١٠ ولم ينسبه.

(٤) تهذيب اللغة ١٢/ ٤١٦ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٤ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢١٦ ، وزاد المسير ٦/ ٤٩ .

(٦) تهذيب اللغة ١٢/ ٤١٦ .

ولا يكون إلَّا في البَرِّيَّة والحرِّ، فيغترُّ به العطشان. قال الشاعر:

فكنت كمُهْرِيق الذي في سِقائه ... لِرَقراقِ آلٍ فوق رابِيَةِ صَلْدِ[1]

وقال آخر:

فلمَّا كَفَفْنا الحربَ كانت عهودُهم ... كلَمْعِ سَرَابٍ بالفلا متألِّقِ[2]

وقال امرؤ القيس:

ألم أُنْضِ المَطِيَّ بكلِّ خَرْقٍ ... طويلِ الطُّولِ لَمَّاعِ السَّرابِ[3]

والقِيعة جمعُ القاع، مثلُ: جِيرة وجار؛ قاله الهَرَوِيُّ[4]. وقال أبو عبيدة[5]: قِيعةٌ وقاعٌ واحد. حكاه النحاس[6]. والقاع ما انبسط من الأرض واتسع، ولم يكن فيه نبت[7]، وفيه يكون السَّراب[8]. وأصلُ القاع: الموضعُ المنخفضُ الذي يستقرُّ فيه الماء، وجمعه قِيعان. قال الجوهري[9]: والقاع: المستوي من الأرض، والجمع أَقْوُع وأَقْواع وقِيعان، صارت الواو ياءً لكسرة[10] ما قبلها، والقِيعةُ مثلُ القاع، وهو

---

(١) نسبه محمد بن عبد الرحمن العبيدي في التذكرة السعدية ص٩٣، والبغدادي في الخزانة ٩/ ٢٧٩ للعديل بن الفُرخ، ونسبه ابن ميمون في منتهى الطلب ٨/ ١٨٠ لأبي الأخيل العجلي. وجاء في التذكرة السعدية ومنتهى الطلب: لكنت، بدل: فكنت. والرابية: ما ارتفع من الأرض. والصَّلْد: الصُّلْب الأملس. القاموس (ربا) و(صلد).

(٢) سلف ١/ ٣٤٢، وجاء هناك: عهودكم، بدل: عهودهم. وفي الملا، بدل: بالفلا.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٩٨، وفيه: أمقّ الطول، بدل: طويل الطول. وقوله: ألم أُنْضِ المطيَّ، يقول: ألم أُهزل المطيَّ بطول السفر ودؤب السير بكل فلاة منخرقة. نقلاً عن شرح الديوان.

(٤) في غريب الحديث ٢/ ٢٣٩.

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٦٦.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٥٤٠.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٧، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤٠، وزاد المسير ٦/ ٤٩.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٩.

(٩) في الصحاح (قوع).

(١٠) في (د) و(ز) و(م): لكسر.

أيضاً من الواو. وبعضهم يقول: هو جمع.

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ أي: العطشان. ﴿مَآءً﴾ أي: يحسَب السَّرَابَ ماءً[1]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ مما قدَّره، ووجد أرضاً لا ماء فيها[2]. وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكفار، يُعَوِّلون على ثواب أعمالهم، فإذا قَدِموا على الله تعالى، وجدوا ثواب أعمالهم محبَطةً بالكفر[3]، أي: لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السَّراب إلَّا أرضاً لا ماء فيها، فهو يهلِكُ أو يموت. ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: وجد الله بالمِرصاد. ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: جزاءَ عمله[4]. قال امرؤ القيس:

فَوَلَّى مُدْبِراً يَهْوي حَثِيثاً وأيقَنَ أنَّه لاقَى الحِسابَا[5]

وقيل: وَجَد وعْد الله بالجزاء على عمله. وقيل: وجد أمر الله عند حَشْره[6]، والمعنى متقارب.

وقُرِئ: «بقِيْعات»[7]. المهدويُّ: ويجوز أن تكون الألف مُشْبعَة من فتحة العين. ويجوز أن تكون مثل رَجُلٍ عِزْهٍ وعِزْهاة، للذي لا يَقْرب النساء. ويجوز أن يكون جمع قِيعة، ويكون على هذا بالتاء في الوصل والوقف.

ورُوِيَ عن نافع وأبي جعفر وشيبة: «الظَّمان» بغير همز[8]، والمشهور عنهما الهمز، يقال: ظمِئ يَظْمَأ فهو ظَمآن، وإن خفَّفت الهمزة، قلت: الظَّمان.

(١) النكت والعيون ٤/ ١٠٩ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٠٩ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٩ .

(٥) هو في النكت والعيون ٤/ ١٠٩ دون قوله: يهوي حثيثاً، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٦) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٠٩ .

(٧) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٢ ، وابن جني في المحتسب ٢/ ١١٣ لمسلمة بن محارب.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٧ .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ابتداء ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ ابتداء ثان. والكاف من ﴿كَسَرَابٍ﴾ الخبرُ، والجملةُ خبرٌ عن «الذين». ويجوز أن تكون ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ بدلاً من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]، أي: وأعمالُ الذين كفروا كسراب، فحذف المضاف.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ ضرب تعالى مثلاً آخر للكفار، أي: أعمالُهم كسراب بقِيعة أو كظلمات. قال الزجاج: إن شئتَ مَثِّلْ بالسَّراب، وإن شئتَ مَثِّلْ بالظلمات[2]. فـ «أو» للإباحة حسبما تقدَّم من القول في ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾[3] [البقرة: ١٩]. وقال الجُرْجَانيُّ: الآيةُ الأولى في ذِكْر أعمال الكفار، والثانيةُ في ذِكر كفرهم، ونُسِّق الكفر على أعمالهم؛ لأن الكفر أيضاً من أعمالهم، وقد قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي: من الكفر إلى الإيمان. وقال أبو علي: «أوْ كظلمات»: أو كذي الظلمات، ودلَّ على هذا المضافِ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ﴾، فالكنايةُ تعود إلى المضاف المحذوف[4].

قال القشيريُّ: فعند الزجَّاج التمثيلُ وقع لأعمال الكفار، وعند الجُرْجاني لكفر الكافر، وعند أبي عليٍّ للكافر.

وقال ابن عباس في رواية: هذا مَثَلُ قلب الكافر[5].

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٨ .

(٣) ذكرَ المصنف في تفسير قوله: «أو كصيب» ١/ ٣٢٦ أن «أو» للتخيير، وثمة فرق بين التخيير والإباحة، فيمكن الجمع بين الشيئين في الإباحة، ويمتنع ذلك في التخيير، ينظر مغني اللبيب ص٨٩ – ٩٠ .

(٤) أورد قول أبي علي الطبرسيُّ في مجمع البيان ١٨/ ٥٣ .

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٣٠ بنحوه.

﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ قيل: هو منسوب إلى اللُّجَّة، وهو الذي لا يُدْرَكُ قَعْره. واللُّجَّةُ مُعظم الماء، والجمع لُجَج. والتَجَّ البحر: إذا تلاطمت أمواجه، ومنه ما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن رَكب البحر إذا التَجَّ، فقد بَرِئت منه الذِّمة»[(١)]. والتجَّ الأمر: إذا عَظُم واختلط. وقولُه تعالى: ﴿حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ﴾ [النمل:٤٤]، أي: مالَه عمق. ولَجَّجَتِ السفينة، أي: خاضت اللُّجَّة، بضمِّ اللام.

فأمَّا اللَّجَّةُ ـ بفتح اللام ـ فأصوات الناس، تقول: سمعت لَجَّةَ الناس، أي: أصواتَهم وضجَّتَهم[(٢)]. قال أبو النَّجْم:

فـي لَـجَّـةٍ أمْـسِـكْ فُـلاَنـاً عـن فُـلِ[(٣)]

والتجَّت الأصوات، أي: اختلطت وعَظُمت.

﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ أي: يعلو ذلك البحرَ اللُّجِّيَّ مَوْج[(٤)]. ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ أي: من فوق الموج موجٌ، ومن فوق هذا الموجِ الثاني سحابٌ، فيجتمع خوفُ الموج وخوفُ الرِّيح[(٥)] وخوفُ السَّحاب.

وقيل: المعنى يغشاه موجٌ من بعده موج، فيكون المعنى: المَوْجُ يَتْبع بعضُه بعضاً حتى كأنَّ بعضَه فوق بعض، وهو أَخوفُ ما يكون إذا توالى مَوْجُه وَتقارَب، ومن فوق هذا الموجِ سحاب. وهو أعظمُ للخوف من وجهين: أحدُهما: أنه قد غَطَّى النجوم

(١) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ١/ ٢٧٥ ، وأحمد (٢٠٧٤٨)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٤٢٦ والحديث ضعيف لاضطراب إسناده. وينظر الكلام عليه مفصلاً في مسند أحمد. وجاء عند أحمد: ... عند ارتجاجه فمات. وعند البخاري: حين يرتج فهلك. قال أبو عبيد: وأكثر ظني أنه: التج.

(٢) في (د) و (م): وصخبهم، والمثبت من(ظ) و (ف)، وهو الموافق لما في الصحاح (لجج)، والكلام منه.

(٣) ديوان أبي النجم العجلي ص١٩٩ ، قوله: فُل، أي: فلان.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٢٢ ، وزاد المسير ٦/ ٥٠ .

(٥) في (ظ): البحر.

التي يُهتدَى بها. الثاني: الريح التي تنشأ مع السحاب، والمطر الذي يَنْزل منه[١].

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن والبَزِّيُّ عن ابن كثير: ﴿سحابُ ظلماتٍ﴾ بالإضافة والخفض. قُنْبُل: ﴿سَحَابٌۢ﴾ منوَّناً، ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ بالجرِّ والتنوين. الباقون بالرفع والتنوين[٢]. قال المهدويُّ: مَن قرأ: ﴿مِن فَوقِهِ سحابُ ظلماتٍ﴾ بالإضافة، فلأن السَّحاب يرتفع وقت هذه الظلمات، فأُضيف إليها، كما يقال: سحابُ رحمةٍ، إذا ارتفع في وقت المطر. ومَن قرأ: ﴿سحابٌ ظلماتٍ﴾ جَرَّ «ظلماتٍ» على التأكيد لـ«ظلماتٍ» الأولى أو البدلِ منها. و«سحابٌ» ابتداء و«من فوقه» الخبر. ومَن قرأ: «سحابٌ ظلماتٌ» فظلمات خبرُ ابتداء محذوف، التقدير: هي ظلماتٌ، أو: هذه ظلمات.

قال ابن الأنباريِّ[٣]: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٌ﴾ غيرُ تام؛ لأن قوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۢ﴾ صلةٌ للمَوْج، والوقف على قوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۢ﴾ حَسَن، ثم تبتدئ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ على معنى: هي ظلماتٌ بعضُها فوق بعض. ورُوِيَ عن أهل مكَّة أنهم قرؤوا: «ظُلُماتٍ» على معنى: أو كظُلُماتٍ ظُلُماتٍ[٤] بعضها فوق بعض، فعلى هذا المذهب لا يَحسُن الوقف على السحاب.

ثم قيل: المرادُ بهذه الظُّلمات: ظلمةُ السَّحاب، وظلمةُ الموج، وظلمةُ اللَّيل، وظلمةُ البحر[٥]، فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئاً ولا كَوْكباً. وقيل: المرادُ بالظُّلمات الشَّدائد، أي: شدائدُ بعضُها فوق بعض[٦]. وقيل: أراد بالظُّلماتِ أعمالَ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١١٠ .

(٢) السبعة ص٤٥٧ ، والتيسير ص١٦٢ .

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٩-٨٠٠ .

(٤) قوله: ظلمات، ليس في (د).

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٤٣ ، والنكت والعيون ٤/ ١١١ ولم يذكرا ظلمة الموج، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٠ ، والوسيط ٣/ ٣٢٢ ، ولم يذكرا ظلمة الليل.

(٦) النكت والعيون ٤/ ١١١ .

الكافر، وبالبحرِ اللُّجِّيِّ قلبَه، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبَه من الجهل والشكِّ والحَيْرة، وبالسحاب الرَّيْنَ والخَتْمَ والطَّبع على قلبه[١]. رُوِيَ معناه عن ابن عباس[٢] وغيره، أي: لا يُبصر بقلبه نورَ الإيمان، كما أن صاحب الظُّلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها.

وقال أُبَيُّ بن كعب: الكافرُ يتقلَّب في خمسٍ من الظُّلمات: كلامُهُ ظُلمة، وعملُه ظُلمة، ومدخلُه ظلمة، ومخرجُهُ ظلمة، ومصيرُه يوم القيامة إلى الظُّلمات في النار وبئس المصير[٣].

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾ يعني الناظر. ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ أي: من شدَّة الظُّلمات. قال الزَّجَّاج وأبو عبيدة: المعنى لم يَرَها ولم يَكَد[٤]، وهو معنى قول الحسن[٥]. ومعنى «لم يَكَدْ»: لم يطمع أن يراها[٦].

وقال الفَرَّاء: «كاد» صلةٌ، أي: لم يرها[٧]، كما تقول: ما كدت أعرفه.

وقال المبرِّد: يعني: لم يرها إلا من بعد الجَهْد، كما تقول: ما كدت أراك من الظُّلمة، وقد رآه بعد يأس وشدَّة[٨].

وقيل: معناه: قَرُب من الرؤية ولم يَرَ، كما يقال: كاد العروس يكون أميراً، وكاد النَّعَام يطير[٩]، وكاد المنتعِل يكون راكباً.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٣٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٣١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٤ (١٤٦٨٨)، والحاكم ٢/ ٤٠٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٨، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٤/ ٥٤٢.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١١١، والوسيط ٣/ ٣٢٣.

(٦) النكت والعيون ٤/ ١١١.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٥، ونقله عنه المصنف بواسطة البغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٠.

(٨) كذا ذكر المصنف والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٥٠ عن المبرد، والذي في المقتضب ٣/ ٧٥، والكامل ١/ ٢٥٢ قوله: لم يرها ولم يكد، أي: لم يدن من رؤيتها.

(٩) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٥٠.

النحاس[١]: وأصحُّ الأقوال في هذا أن المعنى: لم يقارب رؤيتها، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يَرَها[٢] رؤية بعيدة ولا قريبة.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ يهتدي به، أظلمتْ عليه الأمور. وقال ابن عباس: أي: مَن لم يجعل الله له دِيناً، فما له من دين، ومَن لم يجعل الله له نوراً يمشي به يوم القيامة، لم يهتدِ إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[٣] [الحديد:٢٨]. وقال الزجاج[٤]: ذلك في الدنيا، والمعنى: مَن لم يهده الله لم يهتد.

وقال مقاتل بن سليمان: نزلت في عتبةَ بنِ ربيعة، كان يلتمس الدِّين في الجاهلية، ولَبِسَ المُسُوح، ثم كفر في الإسلام[٥]. الماوَرْديُّ[٦]: في شيبةَ بن ربيعة، وكان يترهَّب في الجاهلية، ويلبسُ الصُّوف، ويطلب الدِّين، فكفر في الإسلام.

قلت: وكلاهُمَا مات كافراً، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالآية وغيرُهما.

وقد قيل: نزلت في عبيد الله[٧] بن جَحْش، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصَّر بعد إسلامه. وذكر الثَّعلبيُّ: وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «إن الله تعالى خلقني من نور، وخلق أبا بكرٍ من نوري، وخلق عمرَ وعائشةَ من نور أبي بكر، وخلق المؤمنين من أمتي من نور عمر، وخلق المؤمناتِ من أمتي من نور عائشة، فمن لم يحبَّني ويحبَّ أبا بكر وعمرَ وعائشةَ، فما له من نور»، فنزلت: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[٨].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٥٤٢.

(٢) في (ظ): فإذاً فلم يرها... ، بدل: فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها...

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٢٣، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٠ مختصراً.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٨.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٥٠، والمُسُوح جمع مِسح وهو كساء غليظ من شعر. معجم متن اللغة (مسح).

(٦) في النكت والعيون ٤/ ١١٠.

(٧) في النسخ: عبد الله، وهو خطأ، وينظر الإصابة ١٢/ ٢٦٠.

(٨) أورده الديلمي في الفردوس (٦٤٠) عن ابن عباس بنحوه مختصراً. والذهبي في الميزان ١/ ١٦٦ عن =

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ لمَّا ذكر وضوح الآيات، زاد في الحجَّة والبيِّنات، وبيَّن أن مصنوعاتِه تدلُّ بتغييرها على أنَّ لها صانعاً قادراً على الكمال، فله بِعْثَةُ الرُّسل، وقد بعثهم وأيَّدهم بالمعجزات، وأخبروا بالجنة والنار. والخطاب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للنبيِّ ﷺ، ومعناه: ألم تعلم، والمرادُ الكُلُّ.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الجنِّ والإنس. ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ قال مجاهد وغيره: الصلاةُ للإنسان، والتسبيحُ لِمَا سواه من الخلق[1]. وقال سفيان: للطَّير صلاةٌ ليس فيها ركوع ولا سجود. وقيل: إنَّ ضَرْبها بأجنحتها صلاةٌ، وإنَّ أصواتها تسبيح. حكاه النقَّاش[2]. وقيل: التسبيح ها هنا ما يُرى في المخلوق من أثَر الصَّنعة. ومعنى ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: مصطفَّاتِ الأجنحةِ في الهواء.

وقراءة[3] الجماعة: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفاً على «مَنْ». وقال الزجاج[4]: ويجوز «والطيرَ» بمعنى: مع الطَّير. قال النحاس[5]: وسمعته يخبر: قمتُ وزيداً، بمعنى: مع زيد. قال: وهو أجودُ من الرفع. قال: فإن قلت: قمت أنا وزيدٌ، كان الأجود الرفع،

= أبي هريرة بنحوه مختصراً. قال الذهبي: قال أبو نعيم: هذا باطل مخالف كتاب الله.

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٣ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٣٣ ، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٤٣ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٦ (١٤٧٠٢).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١١٢ .

(٣) في (م): وقرأ.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٤١ وما قبله منه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٤١ .

ويجوز النصب.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يجوز أن يكون المعنى: كلٌّ قد علم اللهُ صلاتَه وتسبيحه[١]، أي: عَلِم صلاة المصلِّي وتسبيحَ المسبِّح. ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه طاعتُهم ولا تسبيحُهم[٢]. ومن هذه الجهة يجوز نصب «كلّ» عند البصريين والكوفيين[٣] بإضمار فعل يفسِّره ما بعده. وقيل: المعنى: قد عَلِم كلٌّ مُصَلٍّ ومسبِّح صلاةَ نفسه وتسبيحَه الذي كُلِّفه[٤].

وقرأ بعض الناس: «كلٌّ قد عُلِم صلاتُه وتسبيحُه» غير مسمَّى الفاعل[٥]. وذكر بعض النَحْويين أن بعضهم قرأ: «كلٌّ قد عَلَّم صلاتَه وتسبيحه»، فيجوز أن يكون تقديره: كلٌّ قد علَّمه الله صلاته وتسبيحه. ويجوز أن يكون المعنى: كلٌّ قد علَّم غيرَه صلاته وتسبيحَه، أي: صلاةَ نفسه، فيكون التعليم الذي هو الإفهام، والمراد الخصوص؛ لأن من الناس مَن لم يُعَلِّم.

ويجوز أن يكون المعنى: كلٌّ قد استدلَّ منه المستدِلُّ، فعبَّر عن الاستدلال بالتعليم. قاله المهدويُّ.

والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكُرِّر تأكيداً، كقوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٦] [طه:٧]. والصلاةُ قد تسمَّى تسبيحاً. قاله القُشَيْريُّ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تقدَّم في غير موضع[٧].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٢٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤١.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٣٣٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٠، وزاد المسير ٦/ ٥٢.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٢ لقتادة.

(٦) في (د) و (م): يعلم السِّرَّ والنجوى.

(٧) ٢/ ٣١١، و ٧/ ٣٨٩.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ ذكر من حُجَجه شيئاً آخر، أي: ألم تَرَ بعَيْنَيْ قلبِك أن الله[1] يُزْجي سَحَاباً، أي: يسوقه[2] إلى حيث يشاء. والرِّيح تُزْجي السَّحاب، والبقرة تُزْجي ولدها، أي: تسوقه. ومنه زجا الخَراجُ يزجو زَجاءً ـ ممدوداً ـ إذا تيسَّرت جِبايته[3]. وقال النابغة:

إنـي أتيـتـك مـن أهـلـي ومـن وطـنـي ... أُزجي حُشاشة نفسٍ ما بها رَمَقُ[4]

وقال أيضاً:

أسْرَتْ عـلـيـه مـن الـجـوزاء سـارِيَـةٌ ... تُزْجي الشَّمالُ عليه جامِدَ البَرَدِ[5]

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: يجمعه عند انتشائه؛ ليقوَى ويتَّصلَ ويَكْثُفَ[6]. والأصلُ في التأليف الهمزُ، تقول: تألَّف. وقُرِئ: «يُوَلِّف» بالواو تخفيفاً[7]. والسُّحاب واحدٌ في اللَّفظ، ولكن معناه جمعٌ، ولهذا قال: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ [الرعد: ١٢].

و«بين» لا يقع إلا لاثنين فصاعداً، فكيف جاز «بينه»؟ فالجواب أنَّ «بينه» هنا

---

(١) قوله: أن الله، من (ظ).

(٢) في النسخ: يسوق، والمثبت من النكت والعيون ٤/ ١١٢ .

(٣) الصحاح (زجا).

(٤) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١١٢ ولم نقف عليه في ديوان النابغة. والحُشاشة: بقية الرُّوح في المريض والجريح. والرَّمَق: بقية الحياة. القاموس. (حشش) و(رمق).

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٣١ ، وفيه: سَرَت، بدل: أَسرَتْ، وسلف ١١/ ١٨٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ١١٢ .

(٧) نسبها ابن مجاهد في السبعة ص٤٥٧ لنافع من رواية ورش عنه.

لجماعة السحاب، كما تقول: الشَّجر قد جلستُ بينه[١]، لأنه جمعٌ، وذكَّر الكناية على اللَّفظ. قال معناه الفراء[٢].

وجواب آخر: وهو أن يكون السَّحاب واحداً، فجاز أن يقال: بينه؛ لأنه مشتمل على قِطَع كثيرة، كما قال:

. . . . . بيـن الـدَّخُـول فَـحوْمَـلِ[٣]

فأوقع «بين» على الدَّخول، وهو واحد لاشتماله على مواضع[٤]. وكما تقول: مازلت أدور بين الكوفة؛ لأن الكوفة أماكنُ كثيرةٌ. قاله الزجاج[٥] وغيره. وزعم الأصْمَعيُّ أن هذا لا يجوز، وكان يَروي:

. . . . . بيـن الـدَّخُـول وحَـوْمَـلِ[٦]

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: مجتمِعاً، يَرْكَب بعضُه بعضاً، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]. والرَّكْمُ: جمعُ الشيء، يقال منه: رَكَم الشيءَ يَرْكُمُه رَكْماً: إذا جمعه وألقى بعضه على بعض. وارْتكمَ الشيءُ وتراكمَ: إذا اجتمع. والرُّكْمةُ: الطِّينُ المجموع. والرُّكَامُ: الرَّمل المتراكم. وكذلك السَّحابُ وما أشبهه. ومُرْتكَمُ الطريق ـ بفتح الكاف ـ جادَّتُه[٧].

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في «الوَدْق» قولان: أحدهما: أنه البرق. قاله أبو الأشهب العقيلي، ومنه قول الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤١.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٥٦.

(٣) قطعة من بيت لامرئ القيس، وقد أورده بهذه الرواية أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٧٠، والبغدادي ٣/ ٢٢٤، وسلف الشطر الأول ١٠/ ٣٦٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤١.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٤٩.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٢، والبيت بهذه الرواية في ديوان امرئ القيس ص٨ برواية الأصمعي.

(٧) الصحاح (ركم).

أَثَـرنَ[١] عَـجـاجـةً وخـرجـنَ مـنـهـا خـروجَ الـوَدْق من خـلَـلِ السَّحـابِ[٢]

الثاني: أنه المطر. قاله الجمهور. ومنه قول الشاعر:

فـلا مُـزْنـةٌ ودَقَـتْ ودْقَـهـا ولا أرضَ أبْـقَـلَ إبْـقـالَـهـا[٣]

وقال امرؤ القيس:

فـدمـعُـهـمـا وَدْقٌ وسَـحٌّ ودِيـمَـةٌ وسَـكْـبٌ وتَـوْكَـافٌ وتَـنْـهَـمِـلانِ[٤]

يقال: وَدَقت السَّحابة فهي وادقة. ووَدَق المطر يَدِق وَدْقاً، أي: قَطَر. ووَدَقْتُ إليه: دنوتُ منه. وفي المَثَل: وَدَق العَيْرُ[٥] إلى الماء، أي: دنا منه. يُضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه. والموضع مَوْدِق. ووَدَقْتُ [به] وَدْقاً: استأنستُ به. ويقال لذات الحافر إذا أرادت الفحل: ودَقَتْ تَدِق وَدْقاً، وأوْدَقَتْ واستودَقَتْ. وأتانٌ وَدُوق، وفرسٌ وَدُوق، ووَدِيقٌ أيضاً، وبها وِداق. والوَدِيقة: شدَّة الحَرّ.

وخِلالٌ جمع خَلَل، مثلُ الجبل والجبال، وهي فُرَجُه ومخارجُ القَطْر منه.

وقد تقدَّم في «البقرة»[٦] أن كعباً قال: إن السَّحاب غِرْبالُ المطر، لولا السَّحابُ حين ينزل الماء من السماء، لأفسد ما يقع عليه من الأرض.

---

(١) في (د): أبرن، وفي (م): أثرنا، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ١١٣ والكلام منه.

(٢) نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٦٨ لزيد الخيل، وجاء الشطر الأول فيه: ضَرَبنَ بغَمرة فخرجن منها.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١١٣ ، والبيت لعامر بن جوين الطائي، وقد سلف ٩/ ٢٥١ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص٨٨ ، وفيه: سكب، بدل: ودق، ورشٌّ، بدل: وسكب. قال شارح الديوان: معنى قوله: فدمعهما سكب: شبه توالي دموعه بضروب الأمطار. والسحُّ: الصبُّ الشديد، والسَّكْب نحوه. والدِّيمة: مطر دائم في ليل. والتَّوكاف: القليل من المطر.

(٥) في (د) و (ظ) و (ف): البعير، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في الصحاح (ودق) والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه والعَيْر: الحمار. والمثل في جمهرة الأمثال ٢/ ٣٣٥ ، ومجمع الأمثال ٢/ ٣٦٢ ، والمستقصى ٢/ ٣٧٤ .

(٦) ٢/ ٥٠٤ .

وقرأ ابن عباس والضَّحاك وأبو العالية: مِن خَلَله، على التوحيد(١). وتقول: كنت في خِلال القوم، أي: وسطهم.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قيل: خلق الله في السماء جبالاً من بَرد، فهو يُنزِّل منها بَرداً، وفيه إضمار، أي: يُنزِّل من جبال البَرد بَرداً، فالمفعول محذوف. ونحو هذا قول الفرَّاء(٢)؛ لأن التقدير عنده: من جبالٍ بَرَدٍ، فالجبالُ عنده هي البَرد. و«بَرَدٍ» في موضع خفض، ويجب أن يكون على قوله المعنى: من جبالٍ بردٍ فيها، بتنوين «جبال»(٣).

وقيل: إن الله تعالى خلق في السماء جبالاً فيها بَرَدٌ، فيكون التقدير: ويُنزِّل من السماء من جبال فيها بَرَدٌ. و«من» صِلة(٤). وقيل: المعنى: ويُنَزِّل من السماء قَدْرَ جبال، أو مِثلَ جبال من بَرَد إلى الأرض، فـ«من» الأولى للغاية؛ لأن ابتداء الإنزال من السماء، والثانية للتبعيض لأن البَرَد بعضُ الجبال، والثالثة لتبيين الجنس؛ لأن جنس تلك الجبال من البَرَد.

وقال الأخفش: إنَّ «مِن» في الجبال و«بَرَد» زائدةٌ في الموضعين، والجبالُ والبَرَد في موضع نصب، أي: يُنزِّل من السماء بَرَداً يكون كالجبال. والله أعلم.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيكون إصابته نِقمة، وصرفُه نعمة. وقد مضى في «البقرة»، و«الرَّعد»(٥) أنَّ مَن قال حين يسمع الرَّعد: سبحان مَن يسبِّح الرَّعد بحمده، والملائكة من خِيفته، ثلاثاً، عُوفي ممَّا يكون في ذلك الرَّعد.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي: ضوءُ ذلك البرق الذي في السحاب ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ من

---

(١) قراءة ابن عباس والضحاك في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠ ، وقراءة الثلاثة في زاد المسير ٦/ ٥٢ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٥٦-٢٥٧ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٢ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥١٤ .

(٥) ١/ ٣٢٩ و ١٢/ ٣٨ .

شدَّة بَريقه وضوئه[1]. قال الشَّمَّاخ:

وما كادت إذا رفعَتْ سَناهَا ليُبْصِر ضوءَها إلَّا البَصِيرُ[2]

وقال امرؤ القيس:

يُضيء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ أهان السَّلِيطَ في الذُّبال المُفَتَّلِ[3]

فالسَّنَا ـ مقصور ـ: ضَوْءُ البرق. والسَّنَا أيضاً: نبتٌ يُتداوَى به. والسَّناء من الرِّفعة، ممدود[4]. وكذلك قرأ طلحة بنُ مُصَرِّف: «سناء» بالمدِّ على المبالغة في شدَّة الضوء والصَّفاء، فأطلق عليه اسم الشَّرف[5]. قال المبرِّد[6]: السَّنَا ـ مقصور ـ وهو اللَّمع، فإذا كان من الشَّرف والحَسَب فهو ممدود، وأصلُهما واحد، وهو الالتماع.

وقرأ طلحة بنُ مُصَرِّف: «سَنَاءُ بُرَقِه[7]»، قال احمد بن يحيى: وهو جمع بُرْقة. قال النحاس[8]: البُرْقة المقدار من البَرْق، والبَرْقة المرَّة الواحدة.

وقرأ الجَحْدَريُّ وابن القَعْقاع: ﴿يُذهِب بالأبصار﴾ بضمِّ الياء وكسر الهاء[9]، من الإذهاب، وتكون الباء في: «بالأبصار» صلةً زائدة. والباقون: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بفتح الياء والهاء، والباء للإلصاق. والبرْقُ[10] دليلٌ على تكاثُف السَّحاب،

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٥١ .

(٢) ديوان الشَّمَّاخ ص١٥٢ ، وفيه: فما كادت ولو رفعوا، بدل: وما كادت إذا رفعت. ورواية المصنف في النكت والعيون ٤/ ١١٣ .

(٣) ديوان امرئ القيس ص٢٤ . والسَّليط: الزيت. والذُّبال جمع الذُّبلة: الفتيلة. القاموس (سلط) و(ذبل). قال شارح الديوان قوله: أهان السَّليط: أي كثَّر منه؛ لأنه كان كثيراً هنياً.

(٤) الصحاح (سنا).

(٥) المحتسب ٢/ ١١٤ .

(٦) في الكامل ١/ ٢٨٦ ، ٢/ ١٠٤٣ ، ٣/ ١٤٤١ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠ ، وجاءت قراءته في القراءات الشاذة ص١٠٢ : سنا بُرُقه؛ بضمتين.

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٥٤٥ ، وقول أحمد بن يحيى منه.

(٩) قراءة الجحدري في القراءات الشاذة ص١٠٢ ، وقراءة ابن القعقاع في النشر ٢/ ٣٣٢ .

(١٠) في (ظ): والبرد.

ونذيرٌ[١] بقوَّة المطر، ومحذِّرٌ من نزول الصواعق[٢].

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ قيل: تقليبُهما أن يأتيَ بأحدهما بعد الآخر. وقيل: تقليبهما نقصُهما وزيادتهما. وقيل: هو تغيير النهار بظُلمة السَّحاب مرَّة وبضَوْء الشمس أخرى، وكذا اللَّيلُ؛ مرَّة بظلمة السَّحاب ومرَّة بضوء القمر. قاله النقاش. وقيل: تقليبهما باختلاف ما يُقدَّر فيهما من خير وشرٍّ، ونفع وضَرّ[٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في الذي ذكرناه من تقلُّب اللَّيل والنهار، وأحوال المطر، والصيف والشتاء ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتباراً ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لأهل البصائر من خَلْقي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ﴾ قرأ يحيى بن وَثَّاب والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿والله خَالِقُ كلِّ﴾ بالإضافة. الباقون: ﴿خَلَقَ﴾ على الفعل[٤]. قيل: إن المعنيين في القراءتين صحيحان. أخبر الله عز وجل بخبرين، ولا ينبغي أن يقال في هذا: أحد[٥] القراءتين أصحُّ من الأخرى.

وقد قيل: إنَّ «خلق» لشيء مخصوص، وإنما يقال: خالق على العموم، كما قال الله عز وجل: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وفي الخصوص: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وكذا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾

---

(١) في (د): برير، وفي (م): وبشير.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١١٤ .

(٣) القولان الأخيران من النكت والعيون ٤/ ١١٤ .

(٤) السبعة ص٤٥٧ ، والتيسير ص١٣٤ ، وقراءة ابن وثاب والأعمش في البحر المحيط ٦/ ٤٦٥ .

(٥) في (م): إحدى.

[الأعراف: ١٨٩]. فكذا يجب أن يكون: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[(١)].

والدَّابَّة كلُّ ما دَبَّ على[(٢)] الأرض من الحيَوان، يقال: دَبَّ يَدِبُّ فهو دابٌّ، والهاء للمبالغة[(٣)]. وقد تقدم في «البقرة»[(٤)].

﴿مِّن مَّآءٍ﴾ لم يدخل في هذا الجنُّ والملائكة؛ لأنَّا لم نشاهدهم[(٥)]، ولم يَثْبُت أنهم خُلِقوا من ماء، بل في الصحيح: «أن الملائكة خُلِقوا من نور، والجانَّ[(٦)] من نار». وقد تقدم[(٧)]. وقال المفسِّرون: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾، أي: من نُطْفة[(٨)]. قال النقَّاش: أراد أَمْنِيةَ الذكور. وقال جمهور النَّظَرة: أراد أن خلْقة كلِّ حيوَان فيها ماءٌ، كما خُلِق آدمُ من الماء والطِّين، وعلى هذا يتخرَّج قول النبيِّ ﷺ للشيخ الذي سأله في غَزاة بدر: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء». الحديث[(٩)].

وقال قوم: لا يُستثنى الجنُّ والملائكة، بل كلُّ حيوان خُلِق من الماء، وخُلِق النار من الماء، وخُلِق الريح من الماء، إذ أوَّلُ ما خلق الله تعالى من العالم الماء، ثم خلق منه كلَّ شيء.

قلت: ويدلُّ على صحة هذا قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ المشيُ على البطن للحيَّات والحُوت، ونحوِهِ من الدُّود وغيرِهِ. وعلى الرِّجْلين للإنسان والطَّير إذا

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٣.

(٢) بعدها في (د) و(م): وجه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٤.

(٤) ٢/ ٤٩٧.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٢٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥١.

(٦) في (م): والجن.

(٧) ١٢/ ٢٠٧.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٢٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥١، وزاد المسير ٦/ ٥٣.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠، والحديث أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ١/ ٦١٦، ومن طريقه الطبري في التاريخ ٢/ ٤٣٥ عن محمد بن يحيى بن حبَّان.

مشى. والأربع لسائر الحيوان. وفي مصحف أُبَيّ: «ومنهم مَن يمشي على أكثر»، فعمَّ بهذه الزيادة جميع الحيوان كالسَّرطان والخِشَاش[١]، ولكنه قرآن لم يُثْبِته إجماع، لكن قال النَّقَّاش: إنما اكتفى في القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذِكْر ما يمشي على أكثر؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتمادُه على أربع، وهي قِوامُ مشيه، وكثرةُ الأرجُل في بعضه زيادةٌ في خلقته، لا يحتاج ذلك الحيوان في مَشْيه إلى جميعها. قال ابن عطية[٢]: والظاهر أن تلك الأرجلَ الكثيرةَ ليست باطلاً، بل هي محتاجٌ إليها في تنقُّل الحيوان، وهي كلُّها تتحرك في تصرُّفه.

وقال بعضهم: ليس في الكتاب ما يمنع من المشي على أكثرَ من أربع، إذ لم يقل: ليس منها ما يمشي على أكثرَ من أربع.

وقيل: فيه إضمار: ومنهم مَن يمشي على أكثرَ من أربع، كما وقع في مصحف أُبَيّ. والله أعلم.

و﴿دَآبَّةٍ﴾ تشمل مَن يعقل وما لا يعقل، فغُلِّب مَن يعقل لمَّا اجتمع مع مَن لا يعقل؛ لأنه المخاطَب والمتعبَّد[٣]، ولذلك قال: ﴿فَمِنْهُم﴾. وقال: ﴿مَّن يَمْشِى﴾ فأشار بالاختلاف إلى ثبوت الصانع، أي: لولا أن للجميع صانعاً مختاراً لَمَا اختلفوا، بل كانوا من جنس واحد، وهو كقوله ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ [الرعد: ٤].

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يريد خلقه ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تقدم بيانه في غير موضع[٤].

---

(١) الخِشاش: هي حشرات الأرض. القاموس (خشش).

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠-١٩١ وما قبله منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٤ .

(٤) ٢/ ٤٣٣ ، ١٠/ ٤٨١ .

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ يعني المنافقين، يقولون بألسنتهم: آمنَّا بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص[1]. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: ويقولون، وكَذَبوا. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قال الطبريُّ وغيرُه: إن رجلاً من المنافقين اسمُه بِشرٌ كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومةٌ في أرضٍ، فدعاه اليهوديُّ إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، وكان المنافق مبطِلاً، فأبى من ذلك وقال: إن محمداً يَحيف علينا، فلنُحَكِّم كعبَ بن الأشرف، فنزلت الآية فيه[2].

وقيل: نزلت في المغيرة بن وائل من بني أميَّةَ، كان بينه وبين عليِّ بن أبي طالب ﷺ خصومةٌ في ماء وأرض، فامتنع المغيرة أن يحاكم عليًّا إلى رسول الله ﷺ، وقال: إنه يُبْغِضني، فنزلت الآية. ذكره الماورديّ[3].

وقال: ﴿لِيَحْكُمَ﴾، ولم يقل: ليحكما؛ لأن المعنيَّ به الرسولُ ﷺ، وإنما بدأ

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٥٢.

(٢) أخرجه الطبري ٧/ ١٩٣-١٩٤ بنحوه عن مجاهد في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [الآية: ٦٠]. ونقله المصنف عنه بواسطة أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٨. وذكرت هذه القصة أيضاً في تفسير أبي الليث ٢/ ٤٤٥، وأسباب النزول ص٣٤٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩١.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١١٥.

بذكر الله إعظاماً لله واستفتاحَ كلام[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي: طائعين منقادين؛ لعلمهم أنه عليه الصلاة والسلام يحكم بالحقّ. يقال: أذعن فلانٌ لحكم فلان يُذعِن إذعاناً. وقال النقَّاش: ﴿مُذْعِنِينَ﴾: خاضعين[٢]. مجاهد: مُسرِعين[٣]. الأخفش وابن الأعرابي: مُقِرِّين[٤].

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: شكٌّ وريْب. ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾: أم حَدَث لهم شكٌّ في نبوَّته وعدله[٥]. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: يَجُورَ في الحكم والظُّلم. وأتى بلفظ الاستفهام؛ لأنه أشدُّ في التوبيخ وأبلغُ في الذَّمّ، كقول جرير في المدح:

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأنْدَى العالمين بُطُونَ راحِ[٦]

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المعاندون الكافرون؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى.

الثالثة: القضاء يكون للمسلمين إذا كان الحكم بين المُعَاهَد والمسلم، ولا حقَّ لأهل الذِّمة فيه. وإذا كان بين ذِمِّيَّين فذلك إليهما. فإن جاءا قاضيَ الإسلام، فإن شاء حكم، وإن شاء أعرض[٧]، كما تقدم في «المائدة»[٨].

الرابعة: هذه الآيةُ دليلٌ على وجوب إجابة الدَّاعي إلى الحاكم؛ لأن الله سبحانه

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٨، وتفسير الطبري ١٧/ ٣٤٢.
(٢) النكت والعيون ٤/ ١١٥.
(٣) أخرجه عنه الطبري ١٧/ ٣٤٢.
(٤) في (ظ) والنكت والعيون ٤/ ١١٦: مقرنين!، والمثبت من (د) و(ف) و(م) وتهذيب اللغة ٢/ ٣٢٠ وقول ابن الأعرابي فيه.
(٥) ينظر النكت والعيون ٤/ ١١٧.
(٦) ديوان جرير ١/ ٨٩، وسلف ٩/ ٣٤٩، وسلف الشطر الأول ٤/ ٣١٢.
(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٨.
(٨) ٧/ ٤٨٨.

ذمَّ مَن دُعيَ إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه فلم يُجِب بأقبح الذمِّ، فقال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية[١].

قال ابن خُوَيْزِمنداد: واجبٌ على كلِّ مَن دُعيَ إلى مجلس الحاكم[٢] أن يجيب، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق، أو يعلم[٣] عداوةً بين المدَّعي والمدَّعى عليه.

وأسند الزهراويُّ عن الحسن بن أبي الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «مَن دعاه خصمه إلى حاكم من حُكَّام المسلمين، فلم يُجِب، فهو ظالم ولا حقَّ له». ذكره الماوَرديّ أيضاً[٤]. قال ابن العربي[٥]: وهذا حديثٌ باطل، فأمَّا قوله: «فهو ظالم»، فكلام صحيح، وأمَّا قوله: «فلا حقَّ له»، فلا يصحُّ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحقّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إلى كتاب الله وحكم رسوله .﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ قال ابن عباس: أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار، وإن كان ذلك فيما يكرهون، أي: هذا قولُهم، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. فالقولُ نصب على خبر كان، واسمُها في قوله: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ نحو: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران:١٤٧].

وقيل: إنما قولُ المؤمنين، و«كان» صلةٌ في الكلام، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٩ وما بين حاصرتين منه.

(٢) في (ظ): الحكم.

(٣) لفظة: يعلم، هي من قول ابن خويزمنداد السالف في سورة آل عمران ٥/ ٧٨ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ١١٦ ، وسلف هذا الحديث وكلام ابن العربي الآتي ٥/ ٧٨ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٩ .

وقرأ ابن القَعْقَاع: ﴿لِيُحكَمَ بينهم﴾ غير مسمَّى الفاعل[١]. عليُّ بن أبي طالب: «إنما كان قولُ» بالرفع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمر به وحكم. ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾ قرأ حفص: «وَيَتَّقْه» بإسكان القاف على نية الجزم، قال الشاعر:

ومَن يَتَّقْ فإنَّ اللهَ معه ... ورِزْقُ اللهِ مُؤْتابٌ وغادي[٣]

وكسرها الباقون، لأن جزمه بحذف آخره. وأسكن الهاءَ أبو عمرو وأبو بكر. واختلس الكسرةَ يعقوبُ، وقالُون عن نافع، والمثنى[٤] عن أبي عمرو، وحفص. وأشبع كسرةَ الهاء الباقون[٥].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ ذَكر أسلمُ أن عمر بينما هو قائم في مسجد النبيِّ ﷺ وإذا رجلٌ من دَهَاقين[٦] الروم قائمٌ على رأسه وهو يقول: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت لله. قال: هل لهذا سبب! قال: نعم، إني قرأت التَّوراة والزَّبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جُمِع فيها كلُّ ما في الكتب المتقدِّمة، فعلمت أنه من عند الله، فأسلمت. قال: ما هذه الآية؟ قال: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في السنن، ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره، ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾

---

(١) النشر ٢/ ٢٢٧.

(٢) المحتسب ٢/ ١١٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٣ ونسبها للحسن.

(٣) أورده ابن جني في المحتسب ١/ ٣٦١، وفي الخصائص ١/ ٣٠٦، والبغدادي في شرح شواهد الشافية ٢/ ٢٢٩.

(٤) في (د) و(ف): المسيبي، وفي (م): البستي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما وقع في فتح القدير ٤/ ٤٦.. ولم نعرفه.

(٥) السبعة ص٤٥٧-٤٥٨، والتيسير ص١٦٣، وقراءة يعقوب في النشر ١/ ٣٠٧.

(٦) الدَّهاقين، جمع: الدِّهقان وهو التاجر، فارسي معرَّب. اللسان (دهق).

فيما بقي من عمره، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، والفائزُ مَن نجا من النار وأُدخِل الجنة. فقال عمر: قال النبيُّ ﷺ: «أُوتيتُ جوامعَ الكَلِم»[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ عاد إلى ذكر المنافقين، فإنه لمَّا بيَّن كراهتهم لحكم النبيِّ ﷺ أتَوْه فقالوا: والله لو أمرتنا أن نَخْرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فنزلت هذه الآية[٢]. أي: وأقسموا بالله أنهم يَخْرجون معك في المستأنف ويطيعون. ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: طاقةَ ما قَدَروا أن يحلفوا. وقال مقاتل: مَن حلف بالله فقد أجهد في اليمين[٣]. وقد مضى في «الأنعام»[٤] بيانُ هذا. و«جَهْدَ» منصوبٌ على مذهب المصدر تقديره: إقساماً بليغاً.

﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ وتمَّ الكلام[٥].

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: طاعة معروفة[٦] أوْلَى بكم من أيمانكم، أو: ليكن منكم طاعةٌ معروفة[٧]، وقولٌ معروف بإخلاص القلب، ولا حاجةَ إلى اليمين. وقال مجاهد: المعنى: قد عُرِفتْ طاعتُكم، وهي الكذب والتكذيب[٨]، أي: المعروفُ منكم الكذبُ دون الإخلاص.

---

(١) لم نقف عليه. وقوله منه: «أوتيت جوامع الكلم» قطعة من حديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٧٤٠٣)، والبخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣): (٥)، وسلف ١٢/ ٢٤٣ .

(٢) ينظر الوسيط ٢/ ٣٢٦ ، وزاد المسير ٦/ ٥٦ ، وتفسير الرازي ٢٤/ ٢٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٣ .

(٤) ٨/ ٤٩٣ وما بعدها.

(٥) تفسير غريب القرآن ص٣٠٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤٩ .

(٦) قوله: أي طاعة معروفة، من (د) و(ظ).

(٧) ينظر تفسير غريب القرآن ص٣٠٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤٩ ، وذكر هذا القول الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٢٦ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٣ ونسباه لمقاتل بن حيان.

(٨) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٤٤ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل[(١)].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ بإخلاص الطَّاعة وترك النفاق. ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: فإن تتولَّوا، فحذف إحدى التاءين[(٢)]. ودلَّ على هذا أن بعده: ﴿وَعَلَيۡكُم﴾، ولم يقل: وعليهم[(٣)]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: من تبليغ الرسالة. ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ أي: من الطاعة له[(٤)]، عن ابن عباس وغيره. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ جعل الاهتداء مقروناً بطاعته. ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ أي: التبليغ ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾

نزلت في أبي بكر وعمرَ رضي الله عنهما. قاله مالك[(٥)]. وقيل: إن سبب نزول[(٦)] هذه الآية أن بعض أصحاب النبيِّ ﷺ شكا جَهْد مكافحة العدوِّ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم، فنزلت الآية[(٧)].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٥، وزاد المسير ٦/ ٥٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤٩.

(٤) ينظر النكت والعيون ٤/ ١١٧، والوسيط ٣/ ٣٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٣، وزاد المسير ٦/ ٥٦.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٠.

(٦) لفظة: نزول، من (ظ).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٢.

وقال أبو العالية: مكث رسول الله ﷺ بمكةَ عَشْرَ سنين - بعدما أُوحي إليه - خائفاً هو وأصحابُه، يَدْعون إلى الله سرًّا وجهراً، ثم أُمِر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين، يُصْبِحون ويُمسُون في السِّلاح. فقال رجل: يا رسول الله، ما[1] يأتي علينا يومٌ نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لن تلبثوا[2] إلَّا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً ليس عليه حديد»[3]. ونزلت هذه الآية، وأظهر الله نبيَّه على جزيرة العرب، فوضعوا السلاح وأَمِنوا[4].

قال النحاس[5]: فكان في هذه الآية دِلالةٌ على نبوَّة رسول الله ﷺ؛ لأن الله جلَّ وعزَّ أنجز ذلك الوعد.

قال الضحاك في كتاب النقَّاش: هذه الآية[6] تتضمَّن خلافة أبي بكر وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ؛ لأنهم أهلُ الإيمان وعملوا الصالحات. وقد قال رسول الله ﷺ: «الخلافةُ بعدي ثلاثون»[7].

وإلى هذا القول ذهب ابن العربيّ في أحكامه[8]، واختاره وقال: قال علماؤنا: هذه الآيةُ دليلٌ على صحة خلافة الخلفاء الأربعة ﷺ، وأنَّ الله استخلفهم ورضي أمانتهم، وكانوا على الدِّين الذي ارتضى لهم، لأنهم لم يتقدَّمهم أحدٌ في الفضيلة إلى يومنا هذا، فاستقرَّ الأمر لهم، وقاموا بسياسة المسلمين، وذَبُّوا عن حَوْزة الدِّين،

---

(١) في (م): أما.

(٢) في (د): لم تلبثوا، وفي (م): لا تلبثون، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في أسباب النزول للواحدي ص٣٤١ والكلام منه.

(٣) في (م): حديدة.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٤٨، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٢٩ (١٤٧٧٢).

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٤٥.

(٦) لفظة: الآية، من (ف) والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٣ والكلام منه.

(٧) هو قطعة من حديث سيرد بتمامه.

(٨) ٣/ ١٣٨٠، وما سيرد بين حاصرتين منه.

فَنَفَذ الوعدُ فيهم، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نَجَز، وفيهم نَفَذ، وعليهم ورَدَ، ففيمن يكون إذاً؟! وليس بعدهم مثلُهم إلى يومنا هذا، ولا يكون فيما بعده، ﷺ.

وحكى هذا القولَ القُشَيْريُّ عن ابن عباس. واحتجُّوا بما رواه سَفِينة مولى رسول الله ﷺ قال: سَمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة من[1] بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلْكاً». قال سفينة: أَمسِك[2] خلافة أبي بكر سنتين، وخلافةَ عمرَ عَشْراً، وخلافةَ عثمانَ ثنتي عَشْرة سنة، وخلافةَ عليٍّ ستًّا[3].

وقال قوم: هذا وعدٌ لجميع الأمة في مِلك الأرض كلِّها تحت كلمة الإسلام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «زُوِيَتْ لي الأرضُ، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغُ مُلْك أمتي ما زُوِيَ لي منها»[4]. واختار هذا القولَ ابنُ عطية في تفسيره حيث قال: والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور، واستخلافُهم هو أن يُمَلِّكهم البلاد ويجعلَهم أهلها، كالذي جرى في الشام والعراق وخراسان والمغرب[5].

قال ابن العربي[6]: قلنا لهم: هذا وعدٌ عامٌّ في النبوَّة والخلافة، وإقامةِ الدعوة، وعمومِ الشريعة، فَنَفَذ الوعد في كلِّ أحد بقَدْره وعلى حاله، حتى في المفتين والقُضاة[7] والأئمة، وليس للخلافة محلٌّ تَنْفُذ فيه الموعِدةُ الكريمةُ إلَّا مَن تقدَّم من الخلفاء [الأربعة].

---

(١) لفظة: من، ليست في (م).

(٢) بعدها في (م): عليك.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٩١٩)، وأبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (٨٠٩٩).
قال الترمذي: هذا حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جُمْهان، ولا نعرفه إلا من حديث سعيد ابن جُمْهان. اهـ. وسفينة هو أبو عبد الرحمن مولى رسول الله ﷺ، كان عبداً لأمّ سلمة، فأعتقته، وشرطت عليه خدمة رسول الله ﷺ ما عاش. توفي بعد سنة سبعين. السير ٣/ ١٧٢-١٧٣.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٣، والحديث في صحيح مسلم (٢٨٨٩)، وسلف ٨/ ٤١٥ وزُوِيَت: جُمِعَت.

(٥) في (ظ): الغرب، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٢-١٩٣.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) في (د) و(ظ): المتقين والعصاة.

ثم ذكر قبل هذا[١] اعتراضاً وانفصالاً معناه: فإن قيل: هذا الأمر لا يصحُّ إلَّا في أبي بكر وحده، فأمَّا عمرُ وعثمانُ فقُتِلا غِيلَةً، وعليٌّ قد نُوزِع في الخلافة. قلنا: ليس في ضمن الأمن السلامةُ من الموت بأيِّ وجه كان، وأمَّا عليٌّ، فلم يكن نِزاله في الحرب مُذْهباً للأمن، وليس من شرط الأمن رفعُ الحرب، إنما شرطه مِلْكُ الإنسان لنفسه باختياره، لا كما كان أصحاب النبيِّ ﷺ بمكَّة[٢].

ثم قال في آخر كلامه: وحقيقةُ الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين، فهذا نهايةُ الأمن والعزّ.

قلت: هذه الحالُ لم تختص بالخلفاء الأربعة ﷺ حتى يُخَصُّوا بها من عموم الآية، بل شاركهم في ذلك جميعُ المهاجرين، بل وغيرُهم. ألا ترى إلى إغزاء قريشٍ المسلمينَ في أُحُد وغيرها وخاصَّة الخندق، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم[٣] فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]. ثم إن الله ردَّ الكافرين لم ينالوا خيراً، وأمَّن المؤمنين، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وهو المراد بقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وقولُه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيل، إذ أهلك الله الجبابرة بمصر، وأورثهم أرضهم وديارهم فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وهكذا كان الصَّحابة مستضعفين خائفين، ثم إن الله تعالى أمَّنهم ومكَّنهم وملَّكهم، فصحَّ أن الآية عامَّةٌ لأمة محمد ﷺ غيرُ مخصوصة، إذ التخصيصُ لا يكون إلا بخبر ممن يجب [له][٤] التسليم، ومن الأصل المعلوم التمسكُ بالعموم.

---

(١) قوله: قبل هذا، من (ظ).

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٢-١٣٨٣ وما بعده منه.

(٣) في (ظ): جمعهم.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله ﷺ لمَّا قال أصحابه: ما[(١)] يأتي علينا يومٌ نأمن فيه ونضع السلاح. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تلبثون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً، ليس عليه حديدة»[(٢)]. وقال ﷺ: «واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون». خرَّجه مسلم في صحيحه[(٣)]، فكان كما أخبر ﷺ. فالآية معجِزةُ النبوَّة؛ لأنها إخبارٌ عمَّا سيكون فكان.

قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يعني أرضَ مكة؛ لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك، فوُعِدوا كما وُعِدت بنو إسرائيل. قال معناه النقاش[(٤)].

الثاني: بلاد العرب والعجم. قال ابن العربيّ[(٥)]: وهو الصحيح؛ لأن أرض مكَّةَ محرَّمةٌ على المهاجرين، قال النبيُّ ﷺ: «لكنِ البائسُ سعدُ بن خَوْلة». يَرثي له رسول الله ﷺ أنْ مات بمكَّة[(٦)]. وقال في الصحيح أيضاً: «يمكث المهاجر بمكَّةَ بعد قضاء نُسُكه ثلاثاً»[(٧)].

واللامُ في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جوابُ قَسَم مُضْمَر؛ لأن الوعد قولٌ، مجازُها: قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات: واللهِ لَيستخلفنَّهم في الأرض، فيجعلهم ملوكها وسُكَّانَها.

---

(١) في (د): أم، وفي (م): أما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٣، وسلف الخبر ص٣٢١ من هذا الجزء.

(٣) ليس هو في صحيح مسلم، وأخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خَبَّاب بن الأرتّ، وسلف ١٢/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١١٨، دون قوله: فوعدوا كما وعدت بنو إسرائيل.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٣ وما قبله منه.

(٦) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨): (٥) من حديث سعد بن أبي وقاص، وسلف ١٤/ ٣٧٨.

(٧) أخرجه أحمد (١٨٩٨٥)، والبخاري (٣٩٣٣)، ومسلم (١٣٥٢): (٤٤٢) من حديث العلاء بن الحضرمي.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيل، أهلك الجبابرة بمصرَ والشام، وأورثهم أرضهم وديارهم[1]. وقراءةُ العامة: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ بفتح التاء واللام؛ لقوله: «وَعَدَ»، وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾. وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضَّل عن عاصم: «استُخلِف» بضم التاء وكسر اللام على الفعل المجهول[2].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] وقد تقدَّم[3]. ورَوى سُلَيم بن عامر، عن المِقْداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما على ظهر الأرض بيتُ حجر ولا مَدَر إلا أدخله الله كلمة الإسلام؛ بعزِّ عزيز، أو ذُلِّ ذليل، إمَّا يُعزُّهم[4] فيجعلُهم من أهلها، وإمَّا يُذلُّهم[5] فيدينون بها». ذكره الماورديُّ[6] حجة لمن قال: إن المراد بالأرض بلادُ العرب والعجم، وهو القول الثاني، على ما تقدَّم آنفاً.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ويعقوبُ وأبو بكر بالتخفيف[7]، مِن أَبدل، وهي قراءةُ الحسن، واختيارُ أبي حاتم. الباقون بالتشديد، مِن بدَّل، وهي اختيار أبي عبيد؛ لأنها أكثرُ ما في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:٦٤]. وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ [النحل:١٠١] ونحوه، وهما لغتان.

---

(١) ذكر هذا الكلام الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٢٦-٣٢٧ ونسبه لمقاتل، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٤ دون نسبة.

(٢) قراءة عاصم من رواية أبي بكر عنه في السبعة ص٤٥٨ ، والتيسير ص١٦٣ .

(٣) ٧/ ٢٩٥-٢٩٦ .

(٤) في (ظ) و(م): بعزهم، والمثبت من (د) و(ف) وهو الموافق لمصادر التخريج الآتية.

(٥) في (ظ) و(م): بذلهم، والمثبت من (د) و(ف) وهو الموافق لمصادر التخريج.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ١١٨ ، وأخرجه أحمد (٢٣٨١٤)، وابن حبان (٦٦٩٩)، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٦٠١)، والحاكم ٤/ ٤٣٠ .

(٧) قراءة ابن كثير وأبي بكر في السبعة ص٤٥٩ ، والتيسير ص١٦٣ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٣ ، وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٣ .

قال النحاس[١]: وحكى محمدُ بن الجَهْم عن الفَرَّاء[٢] قال: قرأ عاصم والأعمش: «وليبدِّلنَّهم» مشدَّدة، وهذا غلطٌ على عاصم، وقد ذكر بعده غلطاً أشدَّ منه، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف.

قال النحاس: وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيل والتخفيف فرقاً، وأنه يقال: بدَّلته، أي: غيَّرته، وأبدلته: أزلته وجعلت غيره. قال النحاس: وهذا القولُ صحيحٌ، كما تقول: أَبدِلْ لي هذا الدِّرهم، أي: أزله وأعطني غيره. وتقول: قد بدّلتَ بعدنا، أي: غيّرت، غير أنه قد يُستعمل أحدهما موضع الآخر، والذي ذكره أكثر.

وقد مضى هذا في «النساء»[٣] والحمد لله، وذكرنا في سورة إبراهيم[٤] الدليلَ من السنة على أن بدَّل معناه: إزالة العَين، فتأمَّله هناك. وقُرئ: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ [القلم: ٣٢] مخفَّفاً ومثقلاً[٥].

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ هو في موضع الحال، أي: في حال عبادتهم اللهَ بالإخلاص. ويجوز أن يكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم[٦]. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا يعبدون إلهاً غيري. حكاه النقاش. الثاني: لا يُراؤون بعبادتي أحداً. الثالث: لا يخافون غيري. قاله ابن عباس. الرابع: لا يحبُّون غيري. قاله مجاهد[٧]. ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بهذه النِّعم. والمراد كُفرانُ النِّعمة؛ لأنه قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ والكافر بالله فاسقٌ بعد هذا الإنعام وقبله.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٤٥-١٤٦ وكذا ما بعده.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٥٨.

(٣) ٦/ ٤٢٠ وما بعدها.

(٤) ١٢/ ١٦٨-١٧٠.

(٥) قرأ من السبعة بالتشديد نافع وأبو عمرو، والباقون بالتخفيف. السبعة ص٤٥٨-٤٥٩، والتيسير ص١٤٥.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٥١.

(٧) النكت والعيون ٤/ ١١٩، وقول ابن عباس عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٥٥ لعبد بن حميد.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾

تقدَّم[١]، فأعاد الأمر بالعبادة تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ ووعدٌ بالنَّصر[٢]. وقراءةُ العامَّة: «تَحْسبَنَّ» بالتاء خطاباً. وقرأ ابن عامر وحمزةُ وأبو حَيْوة: «يَحْسَبَنَّ» بالياء[٣]، بمعنى: لا يحسبنَّ الذين كفروا أنفسَهم[٤] مُعجِزين اللهَ في الأرض؛ لأن الحُسْبان يتعدَّى إلى مفعولين. وهذا قولُ الزجاج[٥].

وقال الفرَّاء وأبو عليٍّ: يجوز أن يكون الفعل للنبيِّ ﷺ، أي: لا يحسبنَّ محمدٌ الذين كفروا مُعجِزين في الأرض[٦]. فـ«الذين» مفعول أوَّل، و«مُعجِزين» مفعول ثان. وعلى القول الأوَّل: «الذين كفروا» فاعل، «أنفسهم» مفعول أوَّل، وهو محذوفٌ مرادٌ، «مُعجزين» مفعول ثان.

قال النحاس: وما علمت أحداً من أهل العربية بَصْرِيًّا ولا كوفِيًّا إلا وهو يُخَطِّئ قراءةَ حمزة، فمنهم مَن يقول: هي لَحْنٌ؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد لـ«يحسبنَّ». وممن قال هذا أبو حاتم[٧].

---

(١) ١/ ٢٥٣ وما بعدها، و ٢/ ٢٣-٢٤ ، و ٥/ ٣١٢ .

(٢) في (م): بالنُّصرة.

(٣) السبعة ص٣٠٧ ، والتيسير ص١٦٣ ، وكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي .

(٤) في (ظ): أنهم .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٥٢ .

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٣٣٢ ، وقد ضعف أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٤٧٠ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ٤٣٥ أن يكون الفاعل هو الرسول عليه الصلاة والسلام، لأن مثل هذا الحسبان لا يُتصوَّر منه حتى يُنهى عنه.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٦ وفيه: إلا وهو يحظر أن تقرأ هذه القراءة، بدل: إلا وهو يخطئ قراءة حمزة.

وقال الفرَّاء: هو ضعيف، وأجازه على ضعفه، على أنه يحذف المفعول الأوَّل[١]، وقد بيَّناه.

قال النحاس[٢]: وسمعت عليَّ بنَ سليمان يقول في هذه القراءة: يكون «الذين كفروا» في موضع نصب. قال: ويكون المعنى: ولا يحسبنَّ الكافرُ الذين كفروا مُعجِزين في الأرض.

قلت: وهذا موافقٌ لما قاله الفرَّاء وأبو عليٍّ؛ لأن الفاعل هناك النبيُّ ﷺ. وفي هذا القولِ الكافرُ.

و«معجزين» معناه: فائتين. وقد تقدَّم[٣]. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قال العلماء: هذه آية[٤] خاصَّةٌ، والتي قبلها عامَّة؛ لأنه قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، ثم خصَّ هنا فقال: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾، فخصَّ في هذه الآية بعض المستأذنين، وكذلك أيضاً يتناول[٥] القول في الأولى[٦] جميع الأوقات عموماً.

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٩، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٤٦.
(٢) في إعراب القرآن ٤/ ١٤٦.
(٣) ٩/ ٣٥.
(٤) في (د) و(م): الآية.
(٥) في (د) و(ف) و(م): يتأوَّل، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٤-١٣٨٥ والكلام منه: تناول، والمثبت من (ز).
(٦) بعدها في (د) و(ف) و(م): في.

وخصَّ في هذه الآية بعض الأوقات، فلا يدخل فيها عبدٌ ولا أَمَة، وَغْداً كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان.

قال مقاتل: نزلت في أسماءَ بنتِ مَرْثَد، دخل عليها غلام لها كبير، فاشتكت إلى رسول الله ﷺ، فنزلت عليه الآية[١].

وقيل: سبب نزولها دخولُ مُدْلج على عمر، وسيأتي[٢].

الثانية: اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ﴾ على ستة أقوال:

الأول: أنها منسوخة. قاله ابن المسيِّب وابنُ جبير[٣].

الثاني: أنها ندب غير واجبة. قاله أبو قِلَابة، قال: إنما أُمِروا بهذا نظراً لهم[٤].

الثالث: عنى بها النساء. قاله أبو عبد الرحمن السُّلَميّ[٥].

وقال ابن عمر: هي في الرجال دون النساء[٦]. وهو القول الرابع.

الخامس: كان ذلك واجباً، إذ كانوا لا غَلَق لهم ولا أبواب، ولو عاد الحال لعاد الوجوب. حكاه المهدويُّ عن ابن عباس[٧].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٤٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٥ ، وزاد المسير ٦/ ٦٠ .

(٢) في المسألة الرابعة.

(٣) أخرجه عن ابن المسيب النحاس في الناسخ والمنسوخ (٧١٧). وعن ابن جبير الطبري ١٧/ ٣٥٥ ، والنحاس (٧١٨). وأخرج أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٥) واللفظ له، والطبري ١٧/ ٣٥٥ عن سعيد بن جبير في هذه الآية، قال: يقولون هي منسوخة، لاوالله ما نسخها شيء، ولكنها مما تهاون به الناس.

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥١-٥٥٢ . وأبو قِلابة هو عبد الله بن زيد الجَرْمي.

(٥) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٢)، وابن أبي شيبة ٤/ ٤٠٠ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٢٠)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٣٣ (١٤٧٩٢). وأخرج الطبري ١٧/ ٣٥١-٣٥٢ عن أبي عبد الرحمن في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم...﴾ قال: هي في الرجال والنساء، يستأذنون على كل حال، بالليل والنهار. وكذا جاء في النكت والعيون ٤/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٦/ ٦١ .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٧)، والطبري ١٧/ ٣٥١ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٢١).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

السادس: أنها محكمةٌ واجبة ثابتة على الرجال والنساء، وهو قول أكثر أهل العلم، منهم القاسمُ وجابر بن زيد والشَّعْبيّ[١].

وأضعفُها قولُ السُّلَمِيِّ؛ لأن «الذين» لا يكون للنساء في كلام العرب، إنما يكون للنساء: اللَّاتي واللَّواتي. وقولُ ابن عمر يستحسنه أهل النظر، لأن «الذين» للرجال في كلام العرب، وإن كان يجوز أن يَدخل معهم النساء، فإنَّما يقع ذلك بدليل، والكلامُ على ظاهره، غيرَ أنَّ في إسنادِهِ لَيْثَ بنَ أبي سُلَيم[٢].

وأمَّا قولُ ابن عباس، فروى أبو داود[٣] عن عُبَيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول: آيةٌ لم يُؤمَر[٤] بها أكثرُ الناس: آيةُ الاستئذان، وإني لآمرُ جاريتي هذه تستأذن عليّ. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس: يأمر به.

وروى عكرمةُ أنَّ نفراً من أهل العراق قالوا: يا ابن عباس، كيف ترى في هذه الآية التي أُمِرنا فيها بما أُمِرنا ولا يعمل بها[٥] [أحد]، قول الله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾. قال أبو داود: قرأ القَعْنَبيُّ إلى: ﴿عَلِيمٌ

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥١، ٥٥٧، وقول القاسم بن محمد أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٤٠٠ واللفظ له، والطبري١٧/ ٣٥٥ عن حنظلة قال: سمعت القاسم وسئل عن الإذن، فقال: استأذن عند كل عورة، ثم هو طوَّاف بعدها.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس٢/ ٥٥٣-٥٥٤. وليث هذا قال فيه ابن حبان في المجروحين ص٢٣١: اختلط في آخر عمره حتى كان لا يدري ما يحدث به، فكان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل، ويأتي عن الثقات بما ليس من أحاديثهم، تركه يحيى القطان وابن مهدي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين. اهـ. وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب: قال البزار: كان أحد العباد، إلا أنه أصابه اختلاط فاضطرب حديثه.

(٣) برقم (٥١٩١).

(٤) في (د): لم يأمر، وفي (ظ) و(ف): لم يؤمن، والمثبت من(م) وهو الموافق لسنن أبي داود.

(٥) في (د): ولا تفعل بها، وفي (ف): ولا نعمل بها، وليست في (ز) و(ظ).

حَكِيمٌ﴾. قال ابن عباس: إنَّ الله حليم[١] رحيم بالمؤمنين يحبُّ السِّتر، وكان الناس ليس لبيوتهم[٢] سُتُور ولاحِجال[٣]، فربما دخل الخادم، أو الولدُ، أو يتيمةُ الرجل[٤] والرجلُ على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالسُّتور والخير، فلم أر أحداً يعمل بذلك [بعد][٥].

قلت: هذا متنٌ حسن، وهو يَرُدُّ قول سعيد وابنِ جبير، فإنه ليس فيه دليلٌ على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مِثلُ ذلك الحال، فحكمها قائمٌ كما كان[٦]، بل حكمها لليوم[٧] ثابتٌ في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصَّحارى ونحوِها. وروى وَكيعٌ، عن سفيانَ، عن موسى بن أبي عائشةَ، عن الشَّعبي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾قال: ليست بمنسوخة. قلت: إنَّ الناس لا يعملون، قال: الله عزَّ وجلَّ المستعان[٨].

الثالثة: قال بعض أهل العلم: إن الاستئذان ثلاثاً مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ قال: يريد ثلاثَ دُفعات. قال: فورد القرآن في المماليك والصبيان، وسنَّةُ رسول الله ﷺ في الجميع. قال ابن عبد البر[٩]: ما قاله من هذا وإن كان له وجه، فإنه غيرُ معروف عن

(١) في (د) و(ف): عليم، وفي (ز): حكيم.

(٢) في النسخ الخطية: لأبوابهم، والمثبت من (م) وسنن أبي داود.

(٣) في (ظ): ولا حجاب. والحجال جمع الحَجَلة ـ بالتحريك ـ : بيت كالقُبَّة يستر بالثياب، وتكون له أزرار كبار. النهاية (حجل).

(٤) لفظة: الرجل، من (م) وسنن أبي داود.

(٥) سنن أبي داود (٥١٩٢) وما بين حاصرتين منه.

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥٥ دون قوله: وهو يرد قول سعيد وابن جبير.

(٧) في (د) و(ف): اليوم.

(٨) أخرجه بهذا الإسناد ابن أبي شيبة ٤/ ٤٠٠، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٤٠٤). وأخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٤)، والطبري ١٧/ ٣٥٤ من طريق يحيى بن سعيد وعبد الرحمن عن سفيان به.

(٩) في التمهيد ٣/ ١٩٧، والاستذكار ٢٧/ ١٦١-١٦٢.

العلماء في تفسير الآية التي نَزَع بها، والذي عليه جمهورُهم في قوله.﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾أي: في ثلاثة أوقات. ويدلُّ على صحَّة هذا القول ذِكْرُه فيها: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾.

الرابعة: أدَّب الله عز وجل عباده في هذه الآية بأن يكون العبيدُ إذ لا بال لهم، والأطفالُ الذين لم يبلغوا الحُلُم إلا أنهم عَقَلُوا معاني الكَشْفة ونحوها، يستأذنون على أهليهم في هذه الأوقات الثلاثة، وهي الأوقاتُ التي تقتضي عادةُ الناس الانكشافَ فيها وملازمة التَعرِّي. فما قبلَ الفجر وقتُ انتهاء النوم، ووقتُ الخروج من ثياب النوم، ولبس ثياب النهار. ووقتُ القائلة وقتُ التجرُّد أيضاً وهي الظَّهيرة، لأن النهار يظهر فيها إذا علا[١] واشتد حَرُّه. وبعد صلاة العشاء وقتُ التّعرِّي للنوم[٢]، فالتكشُّف غالبٌ في هذه الأوقات.

يُروى أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار ـ يقال له: مُدْلج إلى عمرَ بن الخطاب ظَهِيرةً ليدعوه، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب، فدقَّ عليه الغلام الباب فناداه ودخل، فاستيقظ عمر وجلس، فانكشف منه شيء، فقال عمر: وَدِدتُ أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد هذه الآية قد أُنزلت، فخرَّ ساجداً شكراً لله[٣]. وهي مكية[٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ أي: الذين لم يحتلموا من أحراركم. قاله مجاهد[٥]. وذكر إسماعيل بن إسحاق [أن ابن عباس] كان يقول:

---

(١) بعدها في (م): شعاعه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

(٣) أخرجه ابن منده ـ كما في الإصابة ٩/ ١٥٥ ـ من طريق السُّدِّي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس بنحوه. وهذا إسناد تالف. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٢٠ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٥ .

(٤) لم نقف على من ذكر أن هذه الآية مكية. وسلف في أول السورة أنها مدنية كلها بالإجماع.

(٥) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٨)، والطبري ١٧/ ٣٥٢ .

لِيستأذِنْكم الذين لم يبلُغوا الحُلُم ممّا ملكت أيمانكم[١]، على التقديم والتأخير، وأنَّ الآية في الإماء. وقرأ الجمهور بضمِّ اللام، وسكَّنها الحسن بن أبي الحسن لثِقَل الضَّمة. وكان أبو عمرو يستحسِنُها[٢].

و﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ نصب على الظرف؛ لأنهم لم يُؤمروا بالاستئذان ثلاثاً، إنما أُمِروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن، والظرفيةُ في «ثلاث» بيِّنةٌ[٣]: من قبل صلاة الفجر، وحِين تَضَعُون ثيابكم من الظَّهِيرة، ومن بعد صلاة العشاء. وقد مضى معناه. ولا يجب أن يُستأذَن ثلاث مرات في كلِّ وقت.

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ﴾ قرأ جمهور السبعة: «ثلاثُ عَوْراتٍ» برفع «ثلاث». وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم: «ثلاثَ» بالنصب على البدل من الظرف في قوله: «ثلاثَ مرَّات»[٤]. قال أبو حاتم: النصب ضعيفٌ مردود. وقال الفرَّاء[٥]: الرفعُ أحبُّ إليَّ. قال: وإنما اخترتُ الرفع لأن المعنى: هذه الخصالُ ثلاثُ عورات. والرفع عند الكسائيِّ بالابتداء، والخبر عنده ما بعده، ولم يقل بالعائد، وقال نَصًّا بالابتداء. قال: والعَوْرات: الساعاتُ التي تكون فيها العَوْرة، إلا أنه قَرَأ بالنصب، والنصب فيه قولان: أحدهما: أنه مردود على قوله: «ثلاثَ مرَّات»، ولهذا استبعده الفرَّاء. وقال الزجاج[٦]: المعنى: لِيستأذِنكم أوقاتَ ثلاثِ عورات، فحُذِف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه.

---

(١) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٢١ ومابين حاصرتين منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٣ دون ذكر قراءة الحسن، وقد ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٤٦، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٣ في هذه الآية والتي بعدها لعبد الوارث عن أبي عمرو.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤، والسبعة ص٤٥٩، والتيسير ص١٦٣.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢٦٠، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٤٧ وماقبله وماسيرد منه.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٥٢.

و«عَوْرات» جمعُ عَوْرة، وبابُه في الصَّحيح أن يجيء على فَعَلات ـ بفتح العين ـ كجَفْنة وجَفَنات، ونحو ذلك. وسكَّنوا العَيْن في المُعْتَلِّ كبَيْضة وبَيْضات؛ لأن فتحه داعٍ إلى اعتلاله، فلم يُفتح لذلك[(١)]، فأمّا قول الشاعر:

أبـو بَـيَـضـاتٍ رائـحٌ أو مُـغْـتَـدِ[(٢)] عـجـلانَ ذا زاد وغـيـرَ مُـزَوَّد[(٣)]

[فضرورة][(٤)].

السادسة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾أي: في الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبذِّلين.﴿طَوَّافُونَ﴾ بمعنى: هم طوَّافون. قال الفرَّاء[(٥)]: كقولك في الكلام: إنما هم خدمُكم وطوَّافون عليكم. وأجاز الفراء نصب «طوَّافين»[(٦)]؛ لأنه نكرة، والمضمرُ في «عليكم»[(٧)] معرفة. ولا يُجيز البصريون أن يكون حالاً من المضمَرَيْن اللَّذَين في «عليكم» وفي «بعضكم» لاختلاف العاملين. ولا يجوز: مررتُ بزيد ونزلت على عمرو العاقليْن، على النعت لهما[(٨)]. ومعنى[(٩)]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

(٢) كذا وقع في (ف)، وهو غير موزون، ولم تجود اللفظتان الأخيرتان في (د) و(ظ)، وهذا القسم من التفسير سقط من (خ) و(ز).

(٣) المثبت من (ظ)، ولم تجود اللفظة الأخيرة في (د) و(ف)، ولم نقف على البيت بهذا السياق، ووقع في ديوان النابغة الذبياني ص٣٨ :

أمِـنَ آل مـيَّـةَ رائـح أو مـغـتـد عـجـلان ذا زاد وغـيـر مـزوَّد

ووقع هذا البيت في الخصائص ٣/ ١٨٤ ، ولسان العرب (بيض)، وخزانة الأدب ٨/ ١٠٢ وما بعدها:

أخـو بَـيَـضـات رائـحٌ مـتـأوِّبٌ رفـيـق بـمـسـح الـمَـنْـكـبـيـن سَـبُـوحُ

(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق. وفتح حرف العلة في: بيضات، هي لغة هذيل، وعند غير هذيل يكون الفتح ضرورة. ينظر خزانة الأدب ٨/ ١٠٣ .

(٥) في معاني القرآن٢/ ٢٦٠ .

(٦) وهذه قراءة ابن أبي عبلة كما في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

(٧) في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٠ : عليهم.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٧ .

(٩) في (د) و(م): فمعنى.

«طَوَّافون عليكم»، أي: يطوفون عليكم وتطوفون عليهم، ومنه الحديثُ في الهِرَّة: «إنما هي من الطوَّافين عليكم أو الطوَّافات»[(١)]. فمنع في الثلاث العورات من دخولهم علينا؛ لأن حقيقة العَوْرة كلُّ شيء لا مانع دونه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب:١٣] أي: سهلةُ المَدْخَل[(٢)]، فبيَّن العلة الموجبة للإذن، وهي الخَلوة في حال العورة، فتعيَّن امتثاله وتعذَّر نسخه.

ثـم رفـع الـجـنـاح بـقـولـه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ أي: يطوف بعضكم على بعض

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِۗ﴾ الكاف في موضع نصب، أي: يبيِّن الله لكم آياته الدَّالة على متعبَّداته بياناً مثلَ ما يبيِّن لكم هذه الأشياء[(٣)].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم[(٤)].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ﴾ يريد العَتَمة. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تَغْلِبَنَّكم الأعراب على اسم صلاتكم، ألَا إنَّها العِشاء، وهم يُعْتِمون بالإبل»[(٥)]. وفي رواية «فإنها في كتاب الله العِشاءُ، وإنها تُعْتِم بِحِلاب الإبل»[(٦)].

وفي البخاريِّ عن أبي بَرْزة: كان النبيُّ ﷺ يؤخِّر العشاء[(٧)]. وقال أنس: أخَّر

---

(١) قطعة من حديث أبي قتادة أخرجه أحمد (٢٢٥٨٠)، وأبو داود(٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي ١/ ٥٥ و١٧٨ ، وابن ماجه (٣٦٧). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) في (د) و(ف) و(م): للمدخل، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٧ والكلام منه .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٧ .

(٤) ١/ ٤٢٩ .

(٥) صحيح مسلم (٦٤٤): (٢٢٨)، وهو عند أحمد (٤٥٧٢).

(٦) برقم (٦٤٤): (٢٢٩).

(٧) علقه بهذا اللفظ قبل حديث (٥٦٤)، ووصله (٥٩٩) بلفظ: وكان يستحب أن يؤخر العشاء . وسلف ص٦٧ من هذا الجزء .

النبيُّ ﷺ العشاء[(١)]. وهذا يدلُّ على العشاء الأولى.

وفي الصحيح: فصلَّاها - يعني العصر - بين العشاءين المغربِ والعشاء[(٢)]. وفي الموَطَّأ[(٣)] وغيره: «ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح، لأتَوْهما ولوْ حَبْواً».

وفي مسلم عن جابر بن سَمُرةَ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلواتِ نحواً من صلاتكم، وكان يؤخِّر العَتَمة بعد صلاتكم شيئاً، وكان يُخِفُّ الصلاة[(٤)].

قال القاضي أبو بكر بن العربي[(٥)]: وهذه أخبارٌ متعارضة، لا يعلم منها الأولُ من الآخِر بالتاريخ، ونهيُه عليه الصلاة السلام عن تسمية المغرب عشاءً[(٦)] وعن تسمية العشاء عَتَمةً ثابتٌ، فلا مَردَّ له من أقوال الصحابة فضلاً عمن عداهم. وقد كان ابن عمر يقول: مَن قال: صلاة العَتَمة؛ فقد أَثِم[(٧)]. وقال ابن القاسم: قال مالك: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ فاللهُ سمَّاها صلاةَ العشاء، فأحبَّ النبيُّ ﷺ أن تُسمَّى بما سمَّاها الله تعالى به، ويُعلِّمها الإنسانُ أهله وولده، ولايُقال: عَتَمة، إلَّا عند خطاب مَن لايفهم. وقد قال حسَّان:

وكانت لا يَزال بها أنيسٌ ... خلالَ مُروجِها نَعَمٌ وَشاءُ

---

(١) علقه البخاري بهذا اللفظ قبل حديث (٥٦٤)، ووصله (٥٧٢)، وأحمد (١٢٨٨٠)، ومسلم (٦٤٠): (٢٢٢). وسلف ٤/ ١٧٥ من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٦٢٧): (٢٠٥)، وأحمد (٦١٧) من حديث علي ﷺ.

(٣) الموطأ ١/ ١٣١ عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١): (٢٥٢)، وسلف ٤/ ١٨٠.

(٤) صحيح مسلم (٦٤٣): (٢٢٧)، وهو عند أحمد (٢١٠٠٢). وجاء عنده وفي رواية عند مسلم: يخفِّف، بدل: يخف.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٦.

(٦) يشير المصنف بذلك إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٦٣) عن عبد الله المزني أن النبي ﷺ قال: «لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم المغرب» قال: وتقول الأعراب: هي العشاء.

(٧) لم نقف عليه، وأخرج عبد الرزاق (٢١٥٤) عن عبد العزيز بن أبي روَّاد، وابن أبي شيبة ٢/ ٤٣٩ عن نافع كلاهما قال (واللفظ لنافع): كان ابن عمر إذا سمعهم يقولون: العتمة، غضب غضباً شديداً، ونهى نهياً شديداً.

فَـدَعْ هــذا ولــكــن مَــنْ لِــطَــيْــفٍ يُــؤَرِّقــنــي إذا ذهــب الــعِــشــاء[1]

وقد قيل: إن هذا النهيَ عن اتِّباع الأعراب في تسميتهم العشاءَ عَتَمة، إنَّما كان لئلا يُعدَل بها عما سمَّاها الله تعالى في كتابه إذ قال: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾، فكأنه نَهْيُ إرشاد إلى ما هو الأَوْلى، وليس على جهة التحريم، ولا على أنَّ تسميتها العَتَمة لا يجوز. ألا ترى أنه قد ثبت أن النبيَّ ﷺ قد أطلق عليها ذلك، [إذ قال: «ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح»] وقد أباح تسميتها بذلك أبو بكر وعمرُ رضي الله عنهما[2].

وقيل: إنما نهى عن ذلك تنزيهاً لهذه العبادة الشريفة الدِّينية عن أن يُطلق عليها ما هو اسم لفِعلة دُنْيَويَّة، وهي الحَلْبةُ التي كانوا يَحلُبونها في ذلك الوقت ويسمُّونها العَتَمة، ويشهد لهذا قوله: «فإنها تُعْتِم بِحلاب الإبل».

الثامنة: روى ابن ماجه في سننه: حدَّثنا عثمان بن أبي شيبةَ، حدَّثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن عُمارةَ بن غَزِيَّة، عن أنس بن مالك، عن عمرَ بنِ الخطاب، عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقول: «مَن صَلَّى في[3] جماعة أربعين ليلةً، لاتفوته الرَّكعة الأولى من صلاة العشاء، كتب الله له بها عِتْقاً من النار»[4].

وفي «صحيح مسلم»[5] عن عثمانَ بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلَّى العشاء في جماعة، فكأنَّما قام نصفَ الليل، ومَن صلَّى الفجر في جماعة، فكأنَّما قام الليلَ كلَّه».

وروى الدارقطني في سننه[6] عن سُبَيع أو تُبَيْع، عن كعب قال: مَن توضأ فأحسن

---

(١) سلف البيت الأول ٥/ ٥٤، والبيت الثاني ٩/ ٤٢٦ .

(٢) المفهم ٢/ ٢٦٨ وما سلف بين حاصرتين وما سيرد منه، وفيه: ابن عباس، بدل: عمر.

(٣) بعدها في سنن ابن ماجه: مسجد .

(٤) سنن ابن ماجه (٧٩٨)، وقد أشار إليه الترمذي إثر الحديث (٢٤١) دون أن يذكر لفظه، وقال: هذا حديث غير محفوظ ، وهو حديث مرسل، وعمارة بن غَزِيَّة لم يدرك أنساً. اهـ . وقال ابن حجر في التقريب: لا بأس به، وروايته عن أنس مرسلة. وينظر مصباح الزجاجة ١/ ١٦٩ .

(٥) برقم (٦٥٦)، وسلف ٤/ ١٨٠-١٨١ .

(٦) برقم (٣٤٣٤).

الوضوء، وصلَّى العشاء الآخرة، وصلَّى بعدها أربع ركعات، فأتمَّ ركوعهن وسجودهن، ويعلمُ ما يَقترِئ فيهنَّ، كُنَّ له بمنزلة ليلة القدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

قرأ الحسن: «الحُلْم»، فَحَذف الضمةَ لثِقَلها[١]. والمعنى أن الأطفال أُمِروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة، وأُبيح لهم الأمرُ في غير ذلك كما ذكرنا. ثم أمر الله تعالى في هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحُلُم على حكم الرجال في الاستئذان في كلِّ وقت[٢]. وهذا بيانٌ من الله عزَّ وجل لأحكامه، وإيضاح حلاله وحرامه[٣]، وقال: «فَلْيَسْتَأْذِنُوا»، ولم يقل: فليستأذنوكم.

وقال في الأولى: «لِيَسْتَأْذِنْكُم» لأن الأطفال غيرُ مخاطَبين ولا متعبَّدين[٤]. وقال ابن جُريح: قلت لعطاء: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ قال: واجبٌ على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا، أحراراً كانوا أو عبيداً[٥]. وقال أبو إسحاق الفَزَاريُّ: قلت للأوزاعيِّ: ما حدُّ الطفل الذي يستأذن؟ قال: أربع سنين، قال: لايدخل على امرأة حتى يستأذن[٦]. وقال الزهريُّ: أي يستأذن الرجلُ على أمِّه. وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس٣/ ١٤٧ ، ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٣ القراءة في الموضعين لعبد الوارث عن أبي عمرو.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس٣/ ١٤٧ .

(٥) الاستذكار ٢٦/ ٣٤٤-٣٤٥ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٥٨-٣٥٩ بنحوه .

(٦) الاستذكار ٢٦/ ٣٤٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس٤/ ٥٥٥ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ القواعدُ واحدتُها قاعِد، بلا هاء؛ ليدلَّ حذفها على أنه قُعُود الكِبَر، كما قالوا: امرأة حامل؛ ليدلَّ بحذف الهاء أنه حملُ حَبَل[1]. قال الشاعر:

فلو أنَّ ما في بطنه بين نِسوةٍ حَبِلْن وإن كنَّ القواعد عُقَّرا[2]

وقالوا في غير ذلك: قاعدةٌ في بيتها، وحاملةٌ على ظهرها، بالهاء[3]. والقواعدُ أيضاً: أساس البيت، واحده قاعدة، بالهاء.

الثانية: القواعد: العُجَزُ اللَّواتي قَعَدْنَ عن التصرُّف من السنِّ، وقَعَدْنَ عن الولد والمَحِيض. هذا قول أكثر العلماء[4]. قال ربيعة: هي التي إذا رأيتها تستقذرُها من كِبَرِها[5]. وقال أبو عبيدة اللاتي قَعَدْنَ عن الولد[6]. وليس ذلك بمستقيم، لأن المرأة تقعد عن الولد فيها مستمتَع. قاله المهدويّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ إنما خصَّ القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن، إذ لا مَذْهب للرجال

---

(١) تفسير غريب القرآن ص٣٠٨.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٢١، وأورده أيضاً ابن منظور في اللسان (عقر)، وجاء فيه الشطر الثاني: حبلن ولو كانت قواعد عقَّرا.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٣٠٨.

(٤) ينظر تفسير غريب القرآن ص٣٠٧، والنكت والعيون ٤/ ١٢١، والوسيط٣/ ٣٢٨، والمحرر الوجيز٤/ ١٩٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٥٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٥.

(٦) مجاز القرآن ٢/ ٦٩.

فيهنَّ، فأُبيح لهنَّ ما لم يُبَح لغيرهنَّ، وأُزيل عنهنَّ كُلْفةُ التحفُّظِ المتعِبِ لهنّ[١].

الرابعة: قرأ ابن مسعود وأُبَيّ وابنُ عباس: «أنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيابهن» بزيادة: من[٢]. قال ابن عباس: وهو الجِلْباب[٣]. ورُوِيَ عن ابن مسعود أيضاً: «من جلابيبهن». والعرب تقول: امرأة واضع، للتي كَبِرت فوضعت خِمارها[٤]. وقال قوم: الكبيرة التي أَيِست من النكاح، لو بدا شعرها فلابأس، فعلى هذا يجوز لها وضع الخمار. والصحيح أنها كالشابة في التستُّر، إلا أن الكبيرة تضع الجِلباب الذي يكون فوق الدِّرع والخِمار. قاله ابن مسعود وابن جُبير وغيرهما[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غيرَ مُظهِرات ولا متعرِّضات بالتزيُّن[٦] ليُنْظر إليهنَّ[٧]، فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعدِه عن الحقّ. والتبرُّج: التكشُّف والظُّهورُ للعيون، ومنه: بروج مُشَيَّدةٌ، وبروجُ السماء والأسوار[٨]، أي: لا حائلَ دونها يسترها.

وقيل لعائشةَ رضي الله عنها: يا أمَّ المؤمنين، ما تقولين في الخِضاب والصِّباغ والتمائم والقُرْطين والخَلْخال وخاتم الذهب ورِقاق الثياب؟ فقالت: يا معشر النساء، قصتُّكنَّ قصةُ امرأة واحدة، أحلَّ الله لكُنَّ الزينة غيرَ متبرِّجات لمن لا يحلُّ لَكُنَّ أن

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ .

(٢) قراءة ابن مسعود وأُبي في تفسير البغوي ٣/ ٣٥٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ ، وقراءة ابن عباس في مجمع البيان ١٨/ ٧١ .

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٩٣ ، والبيهقي ١٧/ ٣٦٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ .

(٥) ينظر المحرر الوجيز٤/ ١٩٥ ، وأخرجه عن ابن مسعود الطبري١٧/ ٣٦٢ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٠ (١٤٨٣٨) و(١٤٨٤٠). وأخرجه عن سعيد بن جبير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤١ (١٤٨٤٥).

(٦) في (م): بالزِّينة.

(٧) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٩ .

(٨) المحرر الوجيز٤/ ١٩٥ .

يَرَوْا منكنَّ مُحرَّماً[١].

وقال عطاء: هذا في بيوتهنّ، فإذا خرجت فلا يحلُّ لها وضع الجلباب. وعلى هذا: «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ» غير خارجات من بيوتهن. وعلى هذا يلزم أن يقال: إذا كانت في بيتها فلابدَّ لها من جلباب فوق الدِّرع. وهذا بعيد، إلا إذا دخل عليها أجنبيّ.

ثم ذكر تعالى أنَّ تحفُّظ الجميع منهنَّ، واستعفافَهنَّ عن وضع الثياب، والتزامَهنَّ ما يَلْزَم الشبابَ أفضلُ لهنَّ وخير. وقرأ ابن مسعود: «وأن يَعْفِفْنَ» بغير سين[٢].

ثم قيل: من التبرُّج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يَصِفانها[٣]. روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سِيَاط كأذناب البَقَر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسُهن كأَسْنِمة البُخْتِ المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدنَ ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[٤]. قال ابن العربي[٥]: وإنما جعلهنَّ كاسياتٍ لأن الثياب عليهنَّ، وإنما وصفهنَّ بأنهنَّ عاريات؛ لأن الثوب إذا رقَّ يصفهنَّ، ويُبدي محاسنهنَّ، وذلك حرام. قلت: هذا أحد التأويلين للعلماء في هذا المعنى.

والثاني: أنهنَّ كاسياتٌ من الثياب، عارِياتٌ من لباس التَّقْوَى الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٦] [الأعراف: ٢٦]. وأنشدوا:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٢ (١٤٨٤٩) عن أم الضياء أنها دخلت على عائشة، فقالت: يا أم المؤمنين ما تقولين...

(٢) في (م): يتعففن، ولم تجوَّد في (د)، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ والكلام منه، والقراءات الشاذة ص١٠١.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٩.

(٤) صحيح مسلم (٢١٢٨)، وهو عند أحمد (٨٦٦٥). والبُخْت ـ وسيأتي شرحها عند المصنف ـ: ضرب من الإبل، عظام الأجسام، عظام الأسنمة.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٩.

(٦) المفهم ٥/ ٤٥٠.

إذا المرءُ لم يلبس ثياباً من التُّقَى ... تقلَّب عُرْياناً وإن كان كاسِيا
وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربِّه ... ولا خيرَ فيمن كان لِله عاصِيا[1]

وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائمٌ رأيت الناس يُعْرَضون عليَّ وعليهم قُمُص؛ منها ما يبلغ الثُّدِيَّ، ومنها ما دون ذلك، ومرَّ عمر بن الخطاب وعليه قميصٌ يجرُّه» قالوا: ماذا أوَّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: «الدِّين»[2]. فتأويلُه ﷺ القميصَ بالدِّين مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. والعرب تُكَنِّي عن الفضل والعفاف بالثياب، كما قال شاعرهم:

ثيابُ بني عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ[3]

وقد قال ﷺ لعثمان: «إن الله سيُلْبِسك قميصاً، فإن أرادوك أن تخلعه، فلا تخلعه»[4]. فعبَّر عن الخلافة بالقميص، وهي استعارة حسنةٌ معروفة[5].

قلت: هذا التأويل أصحُّ التأويلين، وهو اللائق بهنَّ في هذه الأزمان، وخاصَّة الشباب، فإنهنَّ يتزيَّنَّ ويَخْرُجنَ متبرِّجات، فهنَّ كاسياتٌ بالثياب، عارياتٌ من التَّقْوَى حقيقةً، ظاهراً وباطناً، حيث تُبْدِي زينتها، ولا تُبالي بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودُهنَّ، وذلك مشاهدٌ في الوجود منهنَّ، فلو كان عندهنَّ شيءٌ من التَّقوى لَمَا فعلن ذلك، ولم يعلم أحد ما هنالك.

وممَّا يقوِّي هذا التأويل ما ذُكر من وصفهنَّ في بقيَّة الحديث في قوله: «رؤوسُهنَّ كأسنمة البُخْت». والبُخْت ضربٌ من الإبل عظام الأجسام، عظامِ الأسنمة، شبَّه رؤوسهنَّ بها لما رفعن من ضفائر شعورهنَّ على أوساط رؤوسهنَّ [تزيُّناً وتصنُّعاً][6].

---

(١) البيت الأول لأبي العتاهية، وسلف البيتان ٩/ ١٨٥ .

(٢) صحيح مسلم (٢٣٩٠)، وهو عند أحمد (١١٨١٤)، والبخاري (٢٣).

(٣) صدر بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٨٣ ، وعجزه: وأوجُههم عند المَشاهد غُرَّانُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٥٦٦)، وابن حبان (٦٩١٥) مطولاً من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) المفهم ٦/ ٢٥٣ .

(٦) المفهم ٥/ ٤٥٠ وما بين حاصرتين منه.

وهذا مشاهَد معلوم، والناظرُ إليهنَّ ملوم.

قال ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء». خرَّجه البخاري(١).

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

فيه إحدى عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ اختلف العلماءُ في تأويل هذه الآية على أقوال ثمانية: أقربها: هل هي منسوخةٌ، أو ناسخة، أو مُحْكَمة؛ فهذه ثلاثة أقوال:

الأول: أنها منسوخةٌ من قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية؛ قاله عبدالرحمن بن زيد، قال: هذا شيءٌ قد انقطع، كانوا في أول الإسلام ليس على أبوابهم أغلاقٌ، فكانت السُّتورُ مُرْخَاةً، فربما جاء الرَّجلُ فدخَل البيتَ وهو جائع وليس فيه أحدٌ؛ فسوَّغ اللهُ عزَّ وجلَّ أن يأكلَ منه، ثم صارت الأغلاقُ على البيوت، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يفتحها، فذهب هذا وانقطع(٢). قال ﷺ: «لا يَحْتَلِبَنَّ أحدٌ ماشيةَ أحدٍ إلا بإذنه» الحديث. خرَّجهُ الأئمةُ(٣).

---

(١) برقم(٥٠٩٦)، وهو عند أحمد (٢١٧٤٦) و(٢١٨٢٩)، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/٥٥٩ ، وأخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره ١٧/٣٦٩ ، وابن أبي حاتم ٨/٢٦٤٦ (١٤٨٧٤)، وذكره مكي في الإيضاح لناسخ القرآن ص٣٦٩ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤٤٧١)، والبخاري (٢٤٣٥)، ومسلم (١٧٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وسلف ٤/٤٧٣ .

الثاني: أنها ناسخةٌ؛ قاله جماعة. روى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: لمَّا أنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال المسلمون: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد نهانا أن نأكل أموالَنا بيننا بالباطل، وإنَّ الطعامَ من أفضل الأموال، فلا يَحِلُّ لأحدٍ منَّا أن يأكلَ عند أحدٍ، فكفَّ الناسُ عن ذلكَ؛ فأنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قال: هو الرجلُ يوكِّل الرجل بضيعته[1].

قلت: عليُّ بن أبي طلحة هذا هو مولى بني هاشم، سكَن الشامَ، يُكْنَى أبا الحسن، ويقال: أبا محمد، واسمُ أبيه أبي طلحة: سالمٌ، تُكلِّم في تفسيره؛ فقيل: إنه لم يَرَ ابنَ عباس[2]، واللهُ أعلم.

الثالث: أنها محكمة؛ قاله جماعةٌ من أهل العلم ممن يُقْتَدَى بقولهم؛ منهم سعيدُ ابن المسيِّب، وعبيدُ اللهِ بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[3].

وروى الزُّهْرِيُّ، عن عروةَ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يُوعِبُون في النَّفِير مع رسول الله ﷺ، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضَمناهم، ويقولون: إن احتجتم فكُلُوا؛ فكانوا يقولون: إنما أحلُّوه لنا عن غيرِ طِيبِ نَفْسٍ؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ إلى آخر الآية[4].

---

(١) في (ظ): بصنعته. وضيعة الرجل ما يكون منها معاشه، كالصنعة والتجارة والزراعة... ينظر «النهاية» (ضيع). والأثر أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٠، وأبو عبيد الهروي في الناسخ والمنسوخ (٤٤٣) والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٦٦، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٨ (١٤٨٨٦)، وأخرجه البيهقي ٧/ ٢٧٤-٢٧٥ من طريق عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تهذيب الكمال ٢٠/ ٤٩٠ وما بعدها، بنحوه.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٦٤.

(٤) أخرجه البزار (٢٢٤١) (زوائد)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٦ (١٤٨٧٥)، والنحاس في الناسخ =

قال النحاس[(١)]: «يُوعِبون» أي: يَخرجون بأجمعهم في المغازي؛ يقال: أوْعَب بنو فلانٍ لبني فلان، إذا جاؤوهم بأجمعهم. وقال ابن السكِّيت: يقال: أوْعب بنو فلان جلاءً؛ فلم يَبْقَ ببلدهم منهم أحدٌ. وجاء الفرسُ برَكْضٍ وَعِيبٍ، أي: بأقصى ما عنده[(٢)]. وفي الحديث: «في الأنف إذا استُوعِبَ جَدْعُه الدِّيَةُ»: إذا لم يُتْرَكْ منه شيء. واستيعاب الشيء: استئصالُه[(٢)]. ويقال: بَيْتٌ وَعِيبٌ: إذا كان واسعاً يَسْتَوْعِبُ كلَّ ما جُعِل فيه. والضَّمْنَى هم الزَّمْنَى، واحدُهم ضَمِنٌ؛ مثل زَمِن. قال النحاس[(٣)]: وهذا القولُ من أَجَلِّ ما رُوِيَ في الآية؛ لِما فيه عن الصحابة والتابعين من التوقيف أنَّ الآيَةَ نَزلت في شيءٍ بعينه.

قال ابن العربي[(٤)]: وهذا كلامٌ منتظم لأجلِ تخلُّفِهم عنهم في الجهاد وبقاء أموالهم بأيديهم، لكن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قد اقتضاه[(٥)]؛ فكان هذا القولُ بعيداً جداً، لكن المختار أن يقال: إن اللهَ رفَع الحَرَجَ عن الأعمى فيما يتعلَّق بالتكليف الذي يُشترط فيه البَصَرُ، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به من المشي؛ وما يتعذَّر من الأفعال مع وجود العَرَج، وعن المريض فيما يُؤثِّر المرضُ في إسقاطه، كالصوم وشروطِ الصلاة وأركانها، والجهادِ ونحو ذلك. ثم قال [تعالى] بعد ذلك مبيِّناً: وليس عليكم حرجٌ في أن تأكلوا من بيوتكم. فهذا معنى صحيحٌ، وتفسيرٌ مبينٌ[(٦)] مفيد، يَعْضُده الشرع والعقلُ، ولا يَحتاج في تفسير الآية إلى نقل.

= والمنسوخ ٢/ ٥٦٥ . قال البزار: لا نعلم رواه عن الزهري إلا صالح . وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٨٣ - ٨٤ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(١) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٦ .

(٢) الصحاح (وعب)، والحديث أخرجه البزار (١٥٣١) (زوائد) من حديث عمر ﷺ؛ قال البزار: لا نعلمه عن عمر إلا بهذا الإسناد...، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٩٦ : رواه البزار، وفيه محمد بن أبي ليلى، وهو سيئ الحفظ، وبقية رجاله ثقات.

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٦ ، وما قبله منه.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٩٢-١٣٩٣ ، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في (د): هذا مقتضاه.

(٦) في (م): بيِّنٌ .

قلت: وإلى هذا أشار ابن عطية[١]، فقال: فظاهرُ الآية وأمرُ الشريعة يدلُّ على أن الحَرجَ عنهم مرفوعٌ في كلِّ ما يضطرهم إليه العذرُ، وتقتضي نيتهم فيه الإتيان بالأكمل، ويقتضي العذر أن يَقَعَ منهم الأنقصُ؛ فالحرج مرفوع[٢] عنهم في هذا. فأما ما قال الناس في هذا الحرج هنا، وهي:

الثانية: فقال ابن زيد: هو الحَرجُ في الغزو، أي: لا حَرَجَ عليهم في تأخُّرِهم، وقوله تعالى: «وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» الآية، معنًى مقطوع من الأوَّل[٣].

وقالت فرقةٌ: الآية كلُّها في معنى المطاعم. قالت: وكانت العرب ومَن بالمدينة قبل المَبْعث تَتَجنَّب الأكلَ مع أهل الأعذار؛ فبعضُهم كان يفعلُ ذلك تقَذُّراً، لِجَوَلانِ اليدِ من الأعمى، ولانبساط الجِلسةِ من الأعرج، ولرائحةِ المريض وعلَّاته؛ وهي أخلاقٌ جاهلية وكِبرٌ، فنزلت الآية مؤدِّبة[٤]. وبعضُهم كان يَفعل ذلك تحرُّجاً من عين[٥] أهل الأعذارِ، إذ هم مقصرون[٦] عن درجة الأصحاء في الأكل؛ لعدم الرؤية في الأعمى، وللعجز عن المُزاحمة في الأعرج، ولضعف المريض؛ فنزلت الآيةُ في إباحة الأكل معهم.

وقال ابنُ عباس في كتاب الزَّهْرَاويِّ: إن أهلَ الأعذار تَحَرَّجوا في الأكل مع الناس[٧] من أجل عُذرهم؛ فنزَلت الآيةُ مبيحةً لهم.

وقيل: كان الرجل إذا ساق أهلَ العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب به إلى

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥-١٩٦ .

(٢) في (ظ): مدفوع.

(٣) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٦ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٦٩ .

(٤) في (ف) و(م): مؤذنة، وفي المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ مؤيدة. والمثبت من (د) و(ظ).

(٥) في (م): غير، وفي المحرر الوجيز: غبن. والمثبت من (ظ) و(ف).

(٦) في (ظ): مقصورون.

(٧) في (ظ): الأصحاء .

بيوت قرابته؛ فتحرَّج أهلُ الأعذار من ذلك؛ فنزَلت الآية[١].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ هذا ابتداء كلام؛ أي: ولا عليكم أيها الناس، ولكن لمَّا اجتمع المخاطَب وغيرُ المخاطب، غُلِّب المخاطبُ لينتظمَ الكلامُ[٢].

وذَكَر بيوتَ القرابات وسقط منها بيوتُ الأبناء؛ فقال المفسرون: ذلك لأنها داخلةٌ في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ لأن بيت ابن الرجل بيتُه[٣]؛ وفي الخبر: «أنت ومالُكَ لأبيك»[٤]، ولأنه ذكر الأقرباء بعدُ ولم يذكر الأولادَ.

قال النحاس[٥]: وعارَض بعضُهم هذا القولَ، فقال: هذا تحكُّمٌ على كتاب اللهِ تعالى؛ بل الأولى في الظاهر ألَّا يكون الابنُ مخالفاً لهؤلاء، وليس الاحتجاجُ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «أنت ومالك لأبيك» بقويٍّ، لِوَهاء[٦] هذا الحديثِ، وأنه لو صحَّ لم تكن فيه حجة؛ إذ قد يكون النبيُّ ﷺ عَلِمَ أنَّ مالَ ذلك المخاطب لأبيه. وقد قيل: إن معناه[٧]: أنت لأبيك، ومالُكَ مبتدأ؛ أي: ومالك لك. والقاطعُ لهذا التوارثُ بين الأب والابن.

وقال الترمذيُّ الحكيم[٨]: ووجهُ قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٤، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٤، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٦٨، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٥ (١٤٨٦٩-١٤٨٧٠) من قوله.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٦٦٧٨)، وأبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص، وأخرجه ابن ماجه أيضاً (٢٢٩١) من حديث جابر بن عبد الله.

(٥) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦١-٥٦٣.

(٦) جاءت العبارة في (ظ): تقوى لهذا، وفي (م): بقوي لَوْهي، والمثبت من (ف)، والناسخ والمنسوخ.

(٧) في (م): المعنى، وفي (د) و(ظ) و(ف): معنى. والمثبت من الناسخ والمنسوخ.

(٨) لم نقف على قوله.

بُيُوتِكُمْ﴾ كأنه يقول: مساكنكم التي فيها أهاليكم وأولادكم، فيكون للأهل[١] والولد هناك شيءٌ قد أفادهم هذا الرجلُ الذي له المسكن، فليس عليه حَرَج أن يأكل معهم من ذلك القُوت، أو يكون للزوجة والولد هناك شيءٌ من ملكهم، فليس عليه في ذلك حرج.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ قال بعض العلماء: هذا إذا أَذِنوا له في ذلك[٢]. وقال آخرون: أَذِنوا له أَوْ لم يأذنوا، فلَه أن يأكلَ؛ لأن القرابةَ التي بينهم هي إذنٌ منهم؛ وذلك لأن في تلك القرابة عَطْفاً تَسمَحُ النفوسُ منهم بذلك العطفِ أن يأكل هذا من شيئهم، ويُسَرُّوا بذلك إذا علموا[٣].

ابن العربي[٤]: أباح لنا الأكلَ من جهة النَّسب من غير استئذانٍ، إذا كان الطعامُ مبذولاً، فإذا كان مُحرزاً[٥] دونهم لم يكن لهم أخذه، ولا يجوز أن يجاوزوا[٦] إلى الادِّخار، ولا إلى ما ليس بمأكولٍ وإن كان غير مُحْرَزٍ[٧] عنهم إلا بإذنٍ منهم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني مما اختَزَنتم وصار في قَبضتكم، وعُظْمُ ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غَلَقه؛ وذلك هو تأويل الضحاك

---

(١) في (د) و(ظ): الأهل.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٨ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٣٥، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٤٩ - ٤٥٠، وتفسير الرازي ٢٤/ ٣٦ بنحوه.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٩١.

(٥) في (ظ): محروزاً، وفي (ف): محوزاً.

(٦) في (د): يُجَاوز، وفي (ظ): يتجاوز.

(٧) في (ظ): محروز، وفي (ف): محوز.

وقتادة ومجاهد[١]. وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيدُ والأُجَراء[٢]. قال ابن عباس: عنى وكيلَ الرجلِ على ضيعته، وخازنَه على ماله؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قَيِّمٌ عليه[٣]. وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال: إذا ملك الرجلُ المفتاحَ، فهو خازنٌ، فلا بأسَ أن يَطْعَم الشيءَ اليسيرَ[٤].

ابن العربي[٥]: وللخازن أن يأكل مما يخزُن إجماعاً؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة، فأما إن كانت له أجرة على الخَزْن حَرُم عليه الأكلُ.

وقرأ سعيدُ بن جُبير: «مُلِّكْتُم» بضم الميم، وكسرِ اللام وشدِّها[٦].

وقَرَأ أيضاً: «مفاتيحه» بياء بين التاء والحاء، جمع مفتاح[٧]؛ وقد مضى في «الأنعام»[٨]. وقرَأ قتادة: «مفتاحه» على الإفراد[٩].

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآيةُ في الحارث بن عمرو، خرَج مع رسول الله ﷺ غازِياً، وخلَّف مالكَ بنَ زيد على أهله، فلمَّا رجع وَجَده مجهوداً، فسأله عن حاله، فقال: تحرَّجتُ أن آكل من طعامك بغير إذنك؛ فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ[١٠].

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧١، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٤ عن قتادة، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٧ (١٤٨٧٨) عن الضحاك و(١٤٨٧٩) عن قتادة.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ وما قبله منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٩١، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٠.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٥ عن معمر، به. وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٤، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٨ (١٤٨٨٤) من قول قتادة.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٩٤.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٣.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦.

(٨) ٨/ ٤٠١.

(٩) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٦.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٨ (١٤٨٨٥) عن مقاتل بن حيان بأطول منه.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصديق بمعنى الجمع، وكذلك العدوُّ؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء:٧٧]. وقال جرير:

دعَوْن الهوَى ثم ارْتَمَيْنَ قلوبَنا بأسهمِ أعداء وهنَّ صديقُ[1]

والصديق مَن يَصْدقك في مودَّته وتَصْدُقه في مودَّتك. ثم قيل: إن هذا منسوخٌ بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلم إلا بطِيبة نفس منه»[2]. وقيل: هي محكمة[3]؛ وهو أصحُّ.

ذكر محمد بن ثَوْر، عن مَعْمَر قال: دخلتُ بيتَ قتادة، فأبصرت فيه رُطَباً، فجعلتُ آكله؛ فقال: ما هذا؟ قلت: أبصرت رطباً في بيتك فأكلتُ؛ قال: أحسنتَ، قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[4].

وذكر عبدُ الرزاق عن معمر، عن قتادة في قوله: «أَوْ صَدِيقِكُمْ» قال: إذا دخلتَ بيتَ صديقك من غير مؤامرته لم يكن بذلك بأس. وقال معمر: قلت لقتادة: ألا أشرب من هذا الحُبِّ؟ قال: أنتَ لي صديق، فما هذا الاستئذان؟![5].

وكان ﷺ يدخلُ حائطَ أبي طلحة المسمَّى بـ: بَيْرَحا، ويشربُ من ماءٍ فيها

(١) النكت والعيون ٤/ ١٢٤ ، والبيت في ديوان جرير ١/ ٣٧٢ ، وهو أيضاً في ديوان نُصيب بن رباح ص١٠٩ ، وفيه: بأعين أعداء . بدل: بأسهم أعداء .

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٢٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ ، والحديث أخرجه أحمد (١٥٤٨٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٧٩)، والفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٣٣٢ من حديث عمرو بن يثربي الضمري.

وأخرجه أيضاً الإمام أحمد (٢٠٦٩٥) من حديث عمّ أبي حُرَّة الرقاشي . وأخرجه أيضاً الدارقطني (٢٨٨١) من حديث ابن عباس.

(٣) كما ذكر النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٤ ، ومكي في الإيضاح ص٣٧٠ .

(٤) التمهيد ١/ ٢٠٢ .

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٦٤-٦٥ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٤ . قوله: الحُبّ، أي: الجرة، أو الضخمة منها. القاموس (حبب).

طيِّبٍ[(١)]، بغير إذنه، على ما قاله علماؤنا؛ قالوا: والماء متملَّكٌ لأهله، وإذا جاز الشربُ من ماء الصديق بغير إذنه، جاز الأكلُ من ثماره وطعامه إذا علم أن نَفْسَ صاحبه تطيبُ به لتفاهته ويسير مؤنته، أو لِما بينهما من المَودَّة[(٢)]. ومن هذا المعنى: إطعامُ أمِّ حَرامٍ له ﷺ إذ نام عندها[(٣)]؛ لأن الأغلبَ أنَّ ما في البيت من الطعام هو للرجل، وأن يدَ زوجته في ذلك عارِيَة، وهذا كلُّه ما لم يتخذ الأكل خُبْنة[(٤)]، ولم يقصد بذلك وقاية ماله، وكان تافهاً يسيراً[(٥)].

السابعة: قَرَن اللهُ عزَّ وجلَّ في هذه الآية الصديقَ بالقرابة المَحْضة الوكيدة؛ لأن قُرب المودَّة لَصِيق. قال ابنُ عباس في كتاب النقَّاش: الصديق أَوْكد من القرابة؛ ألا ترى استغاثة الجَهَنمِيِّين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۞ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[(٦)] [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

قلت: ولهذا لا تجوز عندنا شهادةُ الصديق لصديقه، كما لا تجوز شهادةُ القريب لقريبه[(٧)]. وقد مضى بيانُ هذا والعلةُ فيه في «النساء»[(٨)]، وفي المَثَل: أيُّهم أحبُّ إليكَ أخوك أمْ صديقُك؟ قال: أخي إذا كان صديقي[(٩)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢٤٣٨)، والبخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وسلف ٥/ ١٩٩ .

(٢) التمهيد ١/ ٢٠١ بنحوه .

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٨-٢٧٨٩)، ومسلم (١٩١٢)، وهو عند أحمد (٢٧٠٣٢) من حديث أنس بن مالك، ولفظه: كان رسول الله ﷺ يَدخل على أُمِّ حَرَام بِنْتِ مِلحان فتطعمه، وكانت أمُّ حَرام تحت عبادة ابن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تُفْلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك... الحديث. وسلفت قطعة منه ١/ ٢١٩ .

قال ابنُ عبد البر في التمهيد ١/ ٢٢٦ : أمُّ حرام هذه خالةُ أنس بن مالك، أخت أم سليم بنت ملحان أم أنس، وأظنها أرضعت رسول الله ﷺ، أو أم سليم أرضعت رسولَ الله ﷺ، فحصلت أم حرام خالة له من الرضاعة فلذلك كانت تفلي رأسه وينام عندها، وكذلك كان ينام عند أم سليم .

(٤) أي يأكل من طعام صديقه ويُخبِّئ طعامه إلى وقت الشِّدَّة. اللسان: (خبن).

(٥) التمهيد ١/ ٢٢٨ و٢٣٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ ، والنكت والعيون ٤/ ١٢٤ بنحوه .

(٧) عقد الجواهر الثمينة ٣/ ١٤٤ .

(٨) ٧/ ١٧٣ وما بعدها.

(٩) ذكره ابنُ قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦ ، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣١٣ ونسباه لبُزرجمهر، =

الثامنة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قيل: إنها نَزَلت في بني ليث بن بكر، وهم حيٌّ من بني كِنانة، كان الرجلُ منهم لا يَأكل وحدَه، وَيمكُثُ أياماً جائعاً حتى يَجِدَ من يُؤاكله[١]. ومنه قولُ بعض الشعراء:

إذا ما صَنَعتِ الزَّادَ فالتمسي له أَكِيلاً فإني لستُ آكِلَه وَحْدي[٢]

قال ابن عطية: وكانت هذه السيرةُ موروثةً عندهم عن إبراهيم ﷺ، فإنه كان لا يأكل وحدَه[٣].

وكان بعضُ العرب إذا كان له ضيفٌ لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه؛ فنزلت الآيةُ مبيِّنة سُنَّةَ الأكل، ومذهبةً كلَّ ما خالفها من سيرة العرب، ومبيحةً من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرَّماً، نَحَتْ به نَحْوَ كَرَمِ الخُلق، فأفرطت في إلزامه، وإن إحضار الأَكيل لحَسَنٌ، ولكن بألا يحرم الانفراد[٤].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ «جميعاً» نصب على الحال[٥]. و«أَشْتَاتاً» جمع شَتٍّ، والشَّتُّ المصدر بمعنى التفرُّق[٦]؛ يقال: شتَّ القومُ، أي: تفرَّقوا.

وقد ترجم البخاريُّ في «صحيحه»: باب ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ

= ونسبه ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٨٩ لعبد الحميد الكاتب، وذكره ابن العربي ٣/ ١٣٩٤ دون نسبة.

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٥ عن قتادة، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٦ عن قتادة والضحاك، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٩ (١٤٨٨٨) عن قتادة، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٤ عنهما.

(٢) هو في البيان والتبيين ٣/ ٣١٠، وعيون الأخبار ٣/ ٢٦٣، وديوان الحماسة شرح المرزوقي ٤/ ١٦٦٨، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ دون نسبة، وهو منسوب في الكامل للمبرد ٢/ ٧٠٩، والأغاني ١٤/ ٧١ لقيس بن عاصم المِنقري، ونسبه التبريزي في شرح الحماسة ٤/ ١٠٠ لحاتم الطائي.

(٣) هذه العبارة هي في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٩٤، وكلام ابن عطية هو الآتي بعده.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٩.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٣٠، والرازي ٢٤/ ٣٧، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٥٤.

حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الآية، والنِّهدِ والاجتماعِ [على الطعام][1]. ومقصودُه فيما قاله علماؤنا في هذا الباب: إباحةُ الأكلِ جميعاً وإن اختلفت أحوالهم في الأكل. وقد سوَّغ النبيُّ ﷺ ذلك، فصارت تلك سنَّةً في الجماعات التي تُدعى إلى الطعام في النِّهد والولائم وفي الإملاق في السفر. وما ملكتَ مفاتحه بأمانةٍ أو قَرابةٍ أو صداقة، فلَك أن تأكلَ مع القريب أو الصديق وَوَحدَك.

والنِّهد: ما يَجمعه الرُّفقاءُ من مالٍ أو طعام على قدرٍ في النفقة ينفقونه بينهم؛ وقد تَناهدوا[2]؛ عن صاحب العين. وقال ابن دُرَيد[3]: يقال من ذلك: تَنَاهَد القومُ الشيءَ بينهم. الهَرَوِيُّ: وفي حديث الحَسَن: «أخرِجوا نِهْدَكم، فإنه أعظمُ للبركة وأحسن لأخلاقكم». النِّهد: ما تُخرجه الرُّفقة عند المناهدة؛ وهو استقسام النفقةِ بالسَّويَّة في السفر وغيره[4]. والعرب تقول: هات نِهْدَك؛ بكسر النون[5]. قال المهلَّب: وطعامُ النِّهد لم يُوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسَّواء، وإنما يأكل كلُّ واحدٍ على قدرِ نَهْمته، وقد يأكل الرَّجلُ أكثرَ من غيره[6].

وقد قيل: إن تركها أشبهُ بالوَرَع. وإن كانت الرُّفقة تجتمع كلَّ يومٍ على طعام أحدِهم، فهو أحسن من النهد؛ لأنهم لا يَتناهدون إلا لِيُصيبَ كلُّ واحدٍ منهم من ماله، ثم لا يدرى لعلَّ أحدَهم يقصِّر عن ماله، ويأكلُ غيرُه أكثرَ من ماله، وإذا كانوا

(١) صحيح البخاري قبل الحديث (٥٣٨٤)، وما بين حاصرتين منه، وقد أشار الحافظ في الفتح ٩/ ٥٢٩ أن قوله: والنِّهد والاجتماع على الطعام. هي رواية المستملي وحده، وذكر العيني في عمدة القاري ٢١/ ٣٣-٣٤: أنها رواية النسفي وحده.

(٢) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٦/ ٢٠٩ ، والصحاح (نهد).

(٣) في جمهرة اللغة ٢/ ٣٠٤ .

(٤) ذكر قول الهروي مع الأثر ابنُ الأثير في النهاية (نهد)، وذكر الأثر أيضاً ابنُ حجر في الفتح ٥/ ١٢٩ ، والعيني في عمدة القاري ١٣/ ٤٠ .

(٥) تهذيب اللغة ٢/ ٢٠٩ .

(٦) ذكره عنه بنحوه ابنُ حجر في الفتح ٩/ ٥٢٩ ، والعيني في عمدة القاري ٢١/ ٣٤ ، وينظر أحكام القرآن للكيا ٣/ ٢٦٥ .

يوماً عند هذا ويوماً عند هذا بلا شرطٍ؛ فإنما يكونون أضيافاً، والضَّيفُ يأكل بطِيب نَفْسٍ ممَّا يُقدَّم إليه.

وقال أيوب السَّختياني: إنما كان النِّهد أنَّ القومَ كانوا يكونون في السفر، فيسبق بعضُهم إلى المنزل، فيَذْبحُ ويهيِّئ الطعامَ ثم يأتيهم، ثم يسبق أيضاً[1] إلى المنزلِ، فيفعل مثلَ ذلك؛ فقالوا: إنَّ هذا الذي تصنع كلُّنا نحبُّ أن نصنعَ مثلَه، فتعالوْا نجعل بيننا شيئاً لا يتفضَّل بعضُنا على بعض، فوضعوا النِّهد بينهم. وكان الصُّلحاء إذا تَناهدوا تحرَّى أفضلُهم أن يزيدَ على ما يُخرجه أصحابُه، وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه، فعله سرًّا دونهم.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

اختلف المتأوِّلون في أيِّ البيوت أراد؛ فقال إبراهيم النَّخَعِيُّ والحسنُ: أراد المساجدَ؛ والمعنى: سلِّموا على مَن فيها من صنفكم[2]، فإن لم يكن في المساجد أحدٌ، فالسلام أن يقول المرءُ: السَّلام على رسول الله. وقيل: يقول: السَّلام عليكم؛ يريد الملائكةَ، ثم يقول: السَّلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين[3]. وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن عمرو بن دِينار، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية، قال: إذا دخلتَ المسجدَ، فقل: السلام علينا وعلى عباد اللهِ الصالحين[4].

وقيل: المراد بالبيوت البيوتُ المسكونة، أي: فسلِّموا على أنفسكم. قاله جابر

(١) في (د): ضائفاً.

(٢) في (ظ) و(م): ضيفكم. والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ والكلام منه، وأخرج الأثر عن إبراهيم والحسن الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٣٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٦٦، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٠ (١٤٨٩٤)، والحاكم ٢/ ٤٠١، والبيهقي في الشعب (٨٨٣٦).

ابن عبد الله، وابن عباس أيضاً، وعطاء بن أبي رباح[١]، قالوا: يدخل في ذلك البيوت غير المسكونة، ويسلّم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

قال ابن العربي[٢]: القولُ بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليلَ على التخصيص؛ وأطلَق القولَ ليدخل تحت هذا العموم كلُّ بيتٍ كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتاً لغيره استأذن كما تقدَّم، فإذا دخل بيتاً لنفسه سلَّم كما ورَد في الخبر، يقول: السلام علينا وعلى عباد اللهِ الصالحين؛ قاله ابن عمر[٣]. وهذا إذا كان فارغاً، فإن كان فيه أهلُه [وعياله] وخدمُه، فليقل: السلام عليكم. وإنْ كان مسجداً، فليقل: السَّلام علينا وعلى عباد اللهِ الصالحين. وعليه حَمل ابنُ عمر البيتَ الفارغ. قال ابن العربي[٤]: والذي اختاره إذا كان البيتُ فارِغاً ألا يلزم السلام، فإنه إن كان المقصود الملائكة؛ فالملائكةُ لا تفارِقُ العبدَ بحال، أما إنه إذا دخلت بيتك يُستحب لك ذِكْرُ الله بأن تقول: ما شاء اللهُ لا قوةَ إلا بالله، وقد تقدَّم في سورة الكهف[٥].

وقال القُشَيْريُّ في قوله: ﴿إذا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾: والأوجَهُ أن يقال: إن هذا عامٌّ في دخول كلِّ بيت، فإن كان فيه ساكنٌ مسلم يقول: السلام عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، وإن لم يكن فيه ساكن يقول: السلام علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين، وإن كان في البيت مَنْ ليس بمسلم، قال: السلام على مَنِ اتّبع الهُدى، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وذكر ابن خُوَيزمَنداد قال: كتب إليَّ أبو العباس الأصمُّ، قال: حدثنا محمدُ بن

(١) أخرج أقوالهم الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٨-٣٨٠ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٠ (١٤٨٩٥).

(٢) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣٩٦-١٣٩٧ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٥)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨٣ .

(٤) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣٩٧ ، والكلام قبله وما بين حاصرتين منه.

(٥) ١٣/ ٢٨٠ - ٢٨١ .

عبد الله بن عبد الحكم، قال: حدثنا ابنُ وهب، قال: حدثنا حفص[(١)] بنُ ميسرة، عن زيد بن أسلم، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إذا دخلتُم بيوتاً فسلِّموا على أهلها، واذكروا اسمَ اللهِ؛ فإنَّ أحدَكم إذا سلَّم حين يَدخل بيتَه، وذكر اسمَ اللهِ تعالى على طعامه، يقول الشيطانُ لأصحابه: لا مَبِيتَ لكم هاهنا ولا عَشاء، وإذا لم يُسلِّم أحدُكم إذا دَخَل ولم يذكرِ اسمَ الله على طعامه، قال الشيطانُ لأصحابه: أدركتُم المبيتَ والعَشاءَ»[(٢)].

قلت: هذا الحديث ثَبَت معناه مرفوعاً من حديث جابر، خرَّجه مسلم[(٣)].

وفي كتاب أبي داود، عن أبي مالك الأشعري[(٤)]، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وَلَج الرجلُ بيتَه، فلْيقل: اللَّهُمَّ إني أسألُكَ خَيْرَ المَوْلَج وخيرَ المخرج، باسم اللهِ وَلَجْنَا، وباسم الله خَرَجنا، وعلى الله ربِّنا توكلنا. ثم ليسلِّم على أهله»[(٥)].

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً﴾ مصدر؛ لأن قوله ﴿فَسَلِّمُواْ﴾ معناه: فحيُّوا[(٦)].

ووصفَها بالبركة، لأن فيها الدعاءَ واستجلاب مودَّةِ المسلَّم عليه، ووصفها أيضاً

---

(١) في النسخ: جعفر، وهو تصحيف، والمثبت من (د).

(٢) الحديث مرسل. زيد بن أسلم من التابعين.

(٣) صحيح مسلم (٢٠١٨)، وهو عند أحمد (١٥١٠٨)، ولفظه: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء...».

(٤) في (ظ) و(ف) و(م): الأشجعي، والمثبت من(د) وسنن أبي داود.

(٥) سنن أبي داود (٥٠٩٦). وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٥٢) ومن طريقه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار ١/ ١٧٢ من طريق محمد بن إسماعيل بن عياش، عن أبيه، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري، به. قال الحافظ: هذا حديث غريب، ونقل عن النووي قوله: لم يضعفه أبو داود، فتعقبه الحافظ بقوله: يريد في السنن، وإلا فقد ضعف راويه في أسئلة الآجري، فقال: محمد بن إسماعيل بن عياش ليس بذاك وقال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه، ثم قال: وفي السند علة أخرى، قال أبو حاتم: رواية شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري مرسلة.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٩.

بالطِّيب، لأن سامعها يستطيبها. والكاف من قوله «كذلك»: كافُ تشبيهٍ، و«ذلك» إشارةٌ إلى هذه السُّنَن؛ أي: كما بيَّن لكم سُنَّةَ دينِكم في هذه الأشياء، يبيِّن لكم سائرَ ما بكم حاجة إليه في دينكم[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. «إِنَّمَا» في هذه الآية للحصر؛ المعنى: لا يَتمُّ ولا يَكملُ إيمانُ من آمن باللهِ ورسولهِ إلا بأن يَكونَ من الرسول سامعاً، غير معنِّت في أن يكونَ الرسولُ يُريد إكمالَ أمرٍ فيريد هو إفسادَه بزواله في وقت الجمع، ونحو ذلك[2]. وبيَّن تعالى في أول السورة، أنَّه أنزَل آياتٍ بيِّنات، وإنما النزول على محمدٍ ﷺ؛ فختم السورةَ بتأكيد الأمر في متابعته عليه الصلاة والسلام؛ ليعلم أن أوامرَه كأوامر القرآن.

الثانية: واختلف في «الأمر الجامع» ما هو؟ فقيل: المراد به ما للإمام من حاجةٍ إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، من إقامة سُنَّةٍ في الدِّين[3]، أو لترهيب عدوٍّ باجتماعهم، وللحروب؛ قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فإذا كان أمرٌ يَشملهم نفعُه وضرُّه جمعَهم للتشاور في ذلك.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٧ .

(٣) المصدر السابق .

والإمام الذي يُرتَقَب[١] إذنُه هو إمام الإمْرة، فلا يذهب أحدٌ لعذرٍ إلا بإذنه، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظنُّ السيِّئ . وقال مَكْحُول والزُّهْرِيُّ: الجمعة من الأمر الجامع[٢]. وإمام الصلاة ينبغي أن يُستأذن إذا قدَّمه إمامُ الإمرة، إذا كان يرى المستأذن[٣].

قال ابن سيرين: كانوا يستأذنون الإمامَ على المنبر؛ فلما كثُرَ ذلك، قال زياد: مَنْ جعل يدَه على أنفه[٤] فليَخرج دونَ إذن، وقد كان هذا بالمدينة، حتى إنَّ سهيل[٥] ابن أبي صالح رَعَف يومَ الجمعة فاستأذن الإمامَ[٦].

وظاهرُ الآية يَقتضي أن يُستأذن أميرُ الإمْرةِ الذي هو في مَقعد النبوَّة، فإنه ربما كان له رأيٌ في حبس ذلك الرجل لأمرٍ من أمور الدِّين، فأمَّا إمامُ الصلاة فقط فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيلٌ على جزءٍ من أجزاء الدِّين للذي هو في مقعد النبوَّة[٧].

ورُوي أنَّ هذه الآية نَزلَت في حفرِ الخندق، حين جاءت قريش وقائدُها أبو سفيان، وغَطفان وقائدُها عُيَيْنة بن حِصْن؛ فضَربَ النبيُّ ﷺ الخندقَ على المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المنافقونَ يتسلَّلون لِوَاذاً من العمل، ويَعتذرون بأعذارٍ كاذبة[٨]. ونحوه رَوَى أشهب وابنُ عبد الحكم عن مالك، وكذلك

---

(١) في (د) و(م) يُتَرَقَّب. والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٧ والكلام منه.

(٢) أخرج قولهما عبد الرزاق (٥٥٠٧) و(٥٥٠٨)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨٦ ، وأخرج قول مكحول ابن أبي حاتم في تفسيره ٨/ ٢٦٥٣ (١٤٩١٨).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٧ .

(٤) في النسخ: فيه، والتصويب من المصادر الآتية.

(٥) في (ف) و(م): سهل . والمثبت من (د) و(ظ) وأحكام القرآن .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٩٨ ، وأخرج خبر زياد عبد الرزاق (٥٥٠٩)، وابن أبي شيبة ٢/ ١١٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٧ .

(٨) المحرر الوجيز٤/ ١٩٧ بنحوه، وينظر السيرة النبوية ٣/ ٢١٥-٢١٦ .

قال محمدُ بن إسحاق[١].

وقال مقاتل: نَزَلت في عمر ﷺ، استأذن النبيَّ ﷺ في غَزْوةِ تَبُوك في الرجعة، فأذِن له، وقال: «انطلق، فواللهِ ما أنتَ بمنافقٍ»[٢] يريد بذلك أن يُسمِعَ المنافقين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما استأذن عمرُ ﷺ في العُمْرة، فقال عليه الصلاة والسلام لمَّا أذِن له: «يا أبا حَفْص لا تَنْسنا في صالح دعائك»[٣].

قلت: والصحيح الأوّلُ لتناوله جميعَ الأقوال، واختار ابن العربيّ[٤] ما ذكره في نزول الآية عن مالك وابن إسحاق، وأنَّ ذلك مخصوصٌ في الحرب، قال: والذي يبيِّن ذلك أمران:

أحدهما: قوله في الآية الأخرى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ وذلك أنَّ المنافقين كانوا يتلوَّذون، ويَخرجون عن الجماعة، ويتركون رسولَ الله ﷺ، فأمَرَ اللهُ جميعَهم بألَّا يَخرجَ أحدٌ منهم حتى يأذنَ له رسول الله ﷺ، وبذلك يتبيَّن إيمانُه.

الثاني: قوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ وأيُّ إذنٍ في المحدث[٥] والإمام يَخطُب، وليس للإمام خيارٌ في مَنعهِ ولا إبقائه، وقد قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾؛ فبيَّن بذلك أنه مخصوص في الحرب.

قلت: القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى.

(١) أحكام القرآن لابن العربي٣/١٣٩٨ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون٤/ ١٢٧ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٩٥)، وأبو داود(١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤) من حديث ابن عمر، عن عمر، بنحوه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. اهـ. وفي إسناده عاصم بن عبيد الله، وهو ضعيف.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٩٨ .

(٥) في (م): الحدث.

﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فكان النبيُّ ﷺ بالخيار إن شاء أن يأذن وإن شاء منع. وقال قتادة: قوله ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ منسوخةٌ[(١)] بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أي: لخروجهم عن الجماعة إن علمتَ لهم عذراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ يريدُ: يَصيح من بعيدٍ: يا أبا القاسم! بل عظِّموه، كما قال في الحُجُرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية [٣].

وقال سعيدُ بن جُبير ومُجاهد: المعنى قُولوا: يا رسول اللهِ، في رِفقٍ ولِين، ولا تقولوا: يا محمَّد، بتجَهُّم[(٢)].

وقال قتادة: أمرهم أن يشرِّفوه ويفخِّموه[(٣)]. ابن عباس: لا تتعرَّضوا لدعاءِ الرسولِ عليكم بإسخاطه؛ فإنَّ دعوته موجِبة[(٤)].

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ﴾ التسلُّلُ والانسلال: الخروج. واللِّواذ

---

(١) كذا، وفي تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٥ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس٢/ ٤٣٩ ، والنكت والعيون٤/ ١٢٧ عن قتادة أن آية النور ناسخة لآية التوبة ﴿عفا الله عنك...﴾. وكذا روي عن ابن عباس والحسن وعكرمة كما في الناسخ والمنسوخ للنحاس٢/ ٤٣٨ ، وسلف قول قتادة على الصواب ١٠/ ٢٢٨ .

(٢) هو في تفسير مجاهد٢/ ٤٤٥ ، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨٩ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٥ (١٤٩٢٦). وأما قول سعيد بن جبير فقد أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٥ (١٤٩٢٥) بلفظ: لا تقولوا: يا محمد قولوا: يا رسول الله يا نبي الله بأبي أنت وأمي.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٦ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨٩ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٥ (١٤٩٢٧).

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٨٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٥ (١٤٩٢٩).

من المُلاوَذَة، وهو[١] أن تَستتر بشيءٍ مخافةَ من يراك؛ فكان المنافقون يتسلَّلون عن صلاة الجمعة[٢]. «لِوَاذاً» مصدر في موضع الحال، أي: متلاوِذين[٣]، أي: يَلوذ بعضُهم ببعضٍ، يَنضمُّ إليه استتاراً من رسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة؛ حكاه النقاش، وقد مضى القول فيه. وقيل: كانوا يتسلَّلون في الجهاد رجوعاً عنه؛ يَلُوذُ بعضهم ببعض. وقال الحسن: لِواذاً: فراراً من الجهاد؛ ومنه قولُ حسان[٤]:

وقريشٌ تجول منكم[٥] لِوَاذاً ... لم تحافظ وخَفّ منها الحُلُوم

وصحَّت[٦] واوها لتحركها في لاوَذ، يقال: لاوَذ يلاوِذ ملاوذةً ولِواذاً، ولَاذَ يَلُوذ [لِوذاً] ولِياذاً؛ انقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها إتباعاً لِلَاذ في الاعتلال؛ فإذا كان مصدرَ فاعَل لم يُعَلَّ؛ لأن فاعَل لا يجوز أن يُعَلّ[٧].

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ بهذه الآية احتجَّ الفقهاءُ على أنَّ الأمرَ على الوجوب[٨]. ووجهها: أنَّ الله تبارَك وتعالى قد حذَّر من مخالفةِ أمرِه، وتوَّعدَ بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فتحرُم مخالفته، فيجب امتثالُ أمرِه. والفتنةُ هاهنا: القتلُ، قاله ابن عباس. وعن[٩] عطاء: الزلزالُ والأهوال. جعفر بن محمد: سلطانٌ جائر يُسلَّط عليهم. وقيل: الطبعُ على

(١) في (م): هي والكلام بنحوه في زاد المسير ٦/ ٦٨-٦٩، ومجمع البيان ١٨/ ٨٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٢٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٢٨-١٢٩، والبيت في ديوانه ص٤٣٥، وهو أيضاً في السيرة النبوية ٣/ ٢١٧.

(٥) في الديوان والسيرة النبوية: منّا.

(٦) في (ظ): وفتحت.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٠ وما بين حاصرتين منه.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٠.

(٩) لفظ: وعن، من (ظ) والكشاف ٣/ ٧٩، وذكر قول ابن عباس، وعطاء، وجعفر أيضاً الرازيُّ ٢٤/ ٤٢.

القلوب بشؤم مخالفةِ الرسول.

والضمير في «أَمْرِهِ» قيل هو عائدٌ إلى أمر اللهِ تعالى؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: إلى أمر رسوله عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة(١).

ومعنى«يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ» أي: يُعرضون عن أمره(٢).

وقال أبو عبيدة والأخفش: «عن» في هذا الموضع زائدة(٣). وقال الخليل وسيبويه: ليست بزائدة، والمعنى: يُخالفون بعد أمره؛ كما قال:

...لم تَنْتَطِق عن تَفَضُّلِ(٤)

ومنه قوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أي: بَعْدَ أمر ربه.

و«أن» في موضع نصب بـ «يَحْذر»، ولا يجوز عند أكثر النحويين حَذِر زيداً، وهو في «أن» جائز؛ لأن حروف الخفض تُحذَف معها(٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ

---

(١) النكت والعيون٤/ ١٢٩ .

(٢) في(د) و(ظ): يعرضون عنه. والمثبت من(م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون٤/ ١٢٩ .

(٣) قول أبي عبيدة في مجاز القرآن٢/ ٦٩ ، وقول الأخفش في النكت والعيون٤/ ١٢٩ ، وزاد الميسر ٦/ ٩٩ .

(٤) قطعة من بيت لامرئ القيس في ديوانه ص١٧ ، وتمامه:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل.

ووردت أيضاً في ديوان كثير عزة ص٢٨٥ ، قال:

أخاضت إليَّ الليلَ خَوْدٌ غريرةٌ جَبَانُ السُّرى لم تنتطق عن تفضل

وقوله: لم تنتطق أي: لم تشدَّ عليها نطاقاً بعد تفضل، والتفضل: لبْس ثوب واحد. كذا في شرح ديوان امرئ القيس.

(٥) إعراب القرآن للنحاس٣/ ١٥٠ .

عَلَيۡهِ﴾ فهو يُجازيكم به. و«يعلم» هنا بمعنى عَلِمَ.﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾؛ بعد ما كان في خطابٍ رجعَ في خبر؛ وهذا يقال له: خطاب التلوين .﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ أي: يخبرهم بأعمالهم ويجازيهم بها .﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ من أعمالهم وأحوالهم[1].

ختمت السورة بما تضمنت من التفسير، والحمد لله على التيسير.

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث السمرقندي ٢/ ٤٥١، والكشاف ٣/ ٨٠.

تفسير سورة النور

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ .

يقول تعالى : هذه ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ ، فيه تنبيه على (١) الاعتناء بها ولا ينفى ما عداها .

﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ : قال مجاهد وقتادة : أىْ بيّنا الحلال والحرام ، والأمر والنهى ، والحدود .

وقال البخارى : ومن قرأ « فَرَضْنَاها » يقول : فَرَضنا عليكم وعلى من بعدكم .

﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : مفسَّرات واضحَات ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرًا ، وهو الذى لم يتزوج . أو محصنا ، وهو الذى قد وَطئَ فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فإن حده مائة جلدة (٢) ، كما فى الآية ، ويزاد على ذلك أن يُغرّب عاما [عن بلده] (٣) عند جمهور العلماء ، خلافا لأبى حنيفة ، رحمه الله ؛ فإن عنده أن التغريبَ إلى رأى الإمام ، إن شاء غَرَّب وإن شاء لم يغرِّب .

وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين ، من رواية الزهرى ، عن عُبَيْد الله بن عبد الله ابن عُتبة بن مسعود ، عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجُهَنِىّ ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسولَ الله ﷺ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابنى كان عَسيفا ـ يعنى : أجيرا ـ على هذا ، فزنى بامرأته ، فافتديت [ابنى] (٤) منه بمائة شاة وَوَليدَة ، فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن (٥) على ابنى جلد مائة وتغريبَ عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله :الوليدة والغنم ردٌّ عليك ،وعلى ابنك جَلْدُ مائة وتغريبُ عام .واغد يا أنيس ـ لرجل من أسلم ـ إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » . فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها (٦) .

ففى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج ، فأما إن كان محصنا فإنه يرجم ، كما قال الإمام مالك :

---

(١) فى أ : « إلى » .

(٢) فى ف ، أ : « جلد مائة » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) زيادة من ف ، أ ، وصحيحى البخارى ومسلم .

(٥) فى أ : « إنما » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٣١٤ ، ٦٦٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٩٧) .

www.besturdubooks.wordpress.com

حدثنى ابن شهاب ، أخبرنا [١] عبيد اللّه بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أن ابن عباس أخبره ، أن عمر ، رضى اللّه عنه ، قام فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن [٢] الله بعث محمدًا بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها وَوَعَيْناها ، ورَجمَ رسول اللّه ﷺ ورَجَمْنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم فى كتاب اللّه ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها اللّه ، فالرجم فى كتاب اللّه حق على من زنى، إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو الحبل ، أو الاعتراف .

أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك مطولا [٣] ، وهذا [٤] قطعة منه ، فيها مقصودنا هاهنا .

وروى الإمام أحمد عن هُشَيْم ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد اللّه ، عن ابن عباس : حدثنى عبد الرحمن بن عوف ؛ أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول : ألا وَإنّ أناسا [٥] يقولون : ما بالُ الرجم ؟ فى كتاب اللّه الجلدُ . وقد رَجَم رسول اللّه ﷺ ورَجَمنا بعده . ولولا أن يقول قائلون ـ أو يتكلم [٦] متكلمون ـ أن عمر زاد فى كتاب اللّه ما ليس منه [٧] ، لأثبتها كما نزلت .

وأخرجه النسائى ، من حديث عُبَيْد اللّه بن عبد اللّه ، به [٨] .

وقد روى أحمد [٩] أيضًا عن هُشَيْم ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مِهْران ، عن ابن عباس قال : خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال : لا تُخْدَعُن [١٠] عنه ؛ فإنه حَدٌّ من حدود اللّه ، ألا إن رسول اللّه ﷺ قد رجم ورَجَمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر فى كتاب اللّه ما ليس فيه ، لكتبت فى ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وفلان وفلان : أن رسول اللّه ﷺ قد رجم ورجمنا بعده . ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالدجال [١١] وبالشفاعة وبعذاب القبر ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما امتُحِشُوا [١٢] .

وروى أحمد [١٣] أيضا عن يحيى القَطَّان ، عن يحيى الأنصارى ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن عمر بن الخطاب [١٤] : إياكم أن تَهلكوا عن آية الرجم .

الحديث رواه الترمذى ، من حديث سعيد عن عُمَر ، وقال : صحيح [١٥] .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا عُبَيْد اللّه بن عمر القواريرى ، حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، حدثنا ابن [١٦] عَوْن ، عن محمد ـ هو ابن سِيرِين ـ قال : نُبِّئتُ عن كَثِير بن الصلت قال : كنا عند

---

(١) فى ف : « عن » . (٢) فى ف : « إن » .

(٣) الموطأ (٢ / ٨٢٢) وصحيح البخارى برقم (٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٩١) وهو عندهما بهذا السياق من حديث ابن شهاب الزهرى .

(٤) فى ف ، أ : « وهذه » . (٥) فى ف : « ناسًا » . (٦) فى ف : « ويتكلم » . (٧) فى أ : « فيه » .

(٨) المسند (١ / ٢٩) والنسائى فى السنن الكبرى (٧١٥٤) .

(٩) فى ف ، أ : « الإمام أحمد » . (١٠) فى أ : « لا تحيد عنه » . (١١) فى ف : « والدجال » .

(١٢) المسند (١ / ٢٣) .

(١٣) فى ف ، أ : « الإمام أحمد » . (١٤) فى ف ، أ : « عمر رضى الله عنه » .

(١٥) المسند (١ / ٣٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٣١) .

(١٦) فى ف : « أبو » .

www.besturdubooks.wordpress.com

مروان وفينا زيد ، فقال زيد : كنا نقرأ : « والشيخ والشيخة فارجموهما [١] البتة » . قال مروان : ألا كتبتَها فى المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك . قال: قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم ، فقال: يا رسول اللّه ، أكْتِبْنى آية الرجم : قال : « لا أستطيع الآن » . هذا أو نحو [٢] ذلك .

وقد رواه النسائى عن محمد بن المثنى ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جُبَير، عن كَثِير بن الصَّلْت ، عن زيد بن ثابت ، به [٣] .

وهذه طرق كلها متعددة [٤] ، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها ، وبقى حكمها معمولا به ، وللّه الحمد [٥] .

وقد أمر رسول اللّه ﷺ برجم هذه المرأة ، وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زَنَت مع الأجير . ورجم النبى [٦] ﷺ ماعزًا والغامديَّة . وكل هؤلاء لم يُنقَل عن رسول اللّه ﷺ أنه جَلدهم قبل الرجم . وإنما وردت الأحاديث الصِّحَاح المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد ؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، رحمهم اللّه . وذهب الإمام أحمد ، رحمه اللّه ، إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصَن بين [٧] الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى اللّه عنه ، أنه لما أتى بشُرَاحة [٨] ، وكانت قد زنت وهى مُحْصَنَةٌ ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتُها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول اللّه ﷺ .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن الأربعة ، من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن حطَّان [٩] بن عبد اللّه الرَّقَاشىّ ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول اللّه ﷺ : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل اللّه لهن سبيلا : البِكْر بالبِكْر ، جَلْد مائة وتغريب سنة [١٠] ، والثيب بالثيب ، جلد مائة والرجم » [١١] .

وقوله : ﴿ **وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ** ﴾ أى : فى حكم اللّه . لا ترجموهما وترأفوا بهما فى شرع اللّه ، وليس المنهى عنه [١٢] الرأفة الطبيعية [ألا تكون حاصلة] [١٣] على ترك الحد ، [وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد] [١٤] ، فلا [١٥] يجوز له ذلك .

قال مجاهد : ﴿ **وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ** ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان ، فتقام ولا تعطل . وكذا رُوى عن سعيد بن جُبَيْر ، وعَطَاء بن أبى رَبَاح . وقد جاء فى الحديث :

---

(١) فى ف ، أ : « والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما » . (٢) فى ف : « أو نحوه » .
(٣) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٧١٤٨) .
(٤) فى ف ، أ : « متعاضدة » . (٥) فى ف ، أ : « والله أعلم » . (٦) فى ف ، أ : « رسول الله » .
(٧) فى أ : « من » .
(٨) فى أ : « بسراجة » . (٩) فى أ : « عطاء » . (١٠) فى أ : « عام » .
(١١) المسند (٥ / ٣١٧) وصحيح مسلم برقم (١٦٩٠) وسنن أبى داود برقم (٤٤١٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٣٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٩٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٥٠) .
(١٢) فى ف : « النهى عن » . (١٣ ، ١٤) زيادة من ف ، أ . (١٥) فى ف : « فإنه لا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

«تعافَوُا الحدود فيما بينكم ، فما بلغنى من حَدٍّ فقد وَجَب » (١) . وفى الحديث الآخر : « لَحَدٌّ يقام فى الأرض ، خير لأهلها من أن يُمطَروا أربعين صباحا » (٢) .

وقيل : المراد : ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ : فلا تقيموا الحد كما ينبغى ، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرِّح .

قال عامر الشعبى : ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة (٣) فى شدة الضرب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرِّح . وقال سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن حماد بن أبى سليمان : يجلد (٤) القاذف وعليه ثيابه ، والزانى تخلع ثيابه ، ثم تلا : ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، فقلت : هذا فى الحكم ؟ قال : هذا فى الحكم والجلد ـ يعنى فى إقامة الحد ، وفى شدة الضرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن عبد اللّه الأوْدىّ (٥) ،حدثنا وَكيع ، عن نافع ، [عن] (٦) ابن عُمْر ، عن (٧) ابن أبى مُلَيْكَة ، عن عبيد الله (٨) بن عبد اللّه بن عمر : أن جارية لابن عمر زنت، فضرب رجليها ـ قال نافع : أراه قال : وظهرها ـ قال : قلت : ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، قال : يا بنى ، ورأيتَنى أخَذَتْنى بها رأفة ؟ إن اللّه لم يأمرنى أن أقتلها ، ولا أن أجعل جَلدها فى رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت (٩) .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أى : فافعلوا ذلك : أقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرِّحا ؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول اللّه ، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها ، فقال : « ولك فى ذلك أجر » (١٠) .

وقوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ فى زجرهما ، وأنجع فى ردعهما ، فإن فى ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحة إذا كان الناس حضورا .

قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى : علانية .

ثم قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، الطائفة: الرجل فما فوقه .

وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف . وكذا قال عكرمة ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدُق على واحد .

وقال عطاء بن أبى رباح: اثنان .وبه قال إسحاق بن رَاهَويه. وكذا قال سعيد بن جبير : ﴿ طَائِفَةٌ

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٣٧٦) والنسائى فى السنن (٨ / ٧٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .
(٢) المسند (٢ / ٣٦٢) والنسائى فى السنن (٨ / ٧٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .
(٣) فى ف ، أ : « رحمة الله » . (٤) فى أ : « نجلد » . (٥) فى ف : « الأزدى » ، وفى أ : « الأرزمى » .
(٦) زيادة من جـ ، أ . (٧) فى ف ، أ : « وعن » . (٨) فى ف ، أ : « عبد الله » .
(٩) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٥٢) من طريق نافع عن ابن عمر فذكره .
(١٠) المسند (٣ / ٤٣٦) من حديث قرة المزنى ، رضى الله عنه .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : يعنى : رجلين فصاعدا .

وقال الزهرى : ثلاثة نفر فصاعدا .

وقال عبد الرزاق : حدثنى ابن وَهْب ، عن الإمام مالك فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : الطائفة : أربعة نفر فصاعدا ؛ لأنه لا يكون شهادة فى الزنا دون أربعة شهداء فصاعدًا . وبه قال الشافعى .

وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصرى : عشرة . وقال قتادة : أمر اللّه أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، أى : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا بَقِيَّةُ قال : سمعت نصر بن علقمة فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : ليس ذلك للفضيحة ، إنما ذلك ليدعى اللّهُ تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ .

هذا خَبَر من اللّه تعالى بأن الزانى لايَطأ إلا زانية أو مشركة . أى : لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة ، لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك : ﴿ الزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلا زَانٍ ﴾ أى : عاص بزناه ، ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ : لا يعتقد تحريمه .

قال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى عَمْرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى اللّه عنهما : ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ قال : ليس هذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يزنى بها إلا زانٍ أو مشرك .

وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد رُوى عنه من غير وجه أيضا . وقد رُوى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعُرْوَة بن الزبير ، والضحاك ، ومكحول ، ومُقَاتِل بن حَيَّان ، وغير واحد ، نحوُ ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا قَيْس ، عن أبى حُصَين ، عن سعيد بن جُبَيْرٍ ، عن ابن عباس : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : حرَّم اللّه الزنا على المؤمنين .

وقال قتادة ، ومقاتل بن حيّان : حرّم اللّه على المؤمنين نكاح البغايا ، وتَقَدّم فى ذلك فقال : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ، وقوله : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ الآية [المائدة : ٥] . ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه اللّه ، إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت

www.besturdubooks.wordpress.com

كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم [١] ، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان قال : قال أبى : حدثنا الحضرمى، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عَمْرو ، رضى الله عنهما ، أن رجلا من المسلمين استأذنَ رسول الله ﷺ فى امرأة ـ يقال لها : « أم مهزول » ـ كانت تسافح ، وتشترط له أن تنفق عليه ـ قال : فاستأذن رسول الله ﷺ ـ أو : ذكر له أمرها ـ قال : فقرأ عليه رسول [٢] الله ﷺ : ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [٣] .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحضرمى ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة ـ يقال لها : « أم مهزول » ـ وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول [٤] الله ﷺ أن يتزوجها ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [٥] .

[و] [٦] قال الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا رَوح بن عُبَادة بن عُبَيد الله بن الأخنس ، أخبرنى عمرو بن شُعَيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له « مَرْثَد بن أبى مرثد » ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بَغى [٧] بمكة يقال لها « عَنَاق » ، وكانت صديقة له ، وأنه واعد [٨] رجلا من أسارى مكة يحمله . قال : فجئت حتى انتهيتُ إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة ، قال : فجاءت « عناق » فأبصرت سواد ظلى تحت الحائط ، فلما انتهت إلىّ عرفتنى [٩] ، فقالت : مَرْثَد ؟ فقلت : مرثد . فقالت : مرحبًا وأهلا ، هلم فبت عندنا الليلة . قال : فقلت [١٠] : يا عناق ، حرم الله الزنا . فقالت [١١] : يا أهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فتبعنى ثمانية ودخلت الخَندمة [١٢] ، فانتهيت إلى غار ـ أو : كهف ـ فدخلت فيه [١٣] ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسى فبالوا ، فظل بولهم على رأسى ، فأعماهم الله عنى ـ قال : ثم رجعوا ، فرجعتُ إلى صاحبى فحملته ، وكان رجلا ثقيلا ، حتى انتهيت إلى الإذخَر ، ففككت عنه أكبُله [١٤] ، فجعلت أحمله ويعيننى ، حتى أتيت به [١٥] المدينة، فأتيت رسولَ الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناقا ؟ أنكح عناقا ؟ ـ مرتين ـ فأمسك رسول الله ﷺ ، فلم يرد على شيئا ، حتى نزلت : ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً**

---

(١) فى ف ، أ : « عارم بن الفضل » . (٢) فى ف ، أ : « نبى » .
(٣) المسند (٢ / ١٥٩) .
(٤) فى ف : « النبى » .
(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٥٩) .
(٦) زيادة فى ف ، أ . (٧) فى أ : « تغنى » . (٨) فى ف : « وعد » . (٩) فى ف ، أ : « عرفت » .
(١٠) فى ف : « قلت » . (١١) فى ف : « قالت » . (١٢) فى ف ، أ : « الحديقة » . (١٣) فى أ : « به » .
(١٤) فى أ : « أكليله » . (١٥) فى ف : « قدمت » .

www.besturdubooks.wordpress.com

[وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ] [(١)]﴾ ، فلا تنكحها » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد رواه أبو داود والنسائى ، فى كتاب النكاح من سننهما [(٢)] ، من حديث عبيد الله بن الأخنس، به [(٣)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا مُسَدَّد أبو الحسن ، حدثنا عبد الوارث ، عن حبيب المعلم ، حدثنى عمرو بن شعيب ، عن سعيد المَقْبُرِىّ ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » .

وهكذا أخرجه أبو داود فى سننه عن مسدد وأبى معمر ـ عبد الله بن عمرو ـ كلاهما عن عبد الوارث ، به [(٤)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن أخيه عمر بن محمد ، عن عبد الله بن يسار ـ مولى ابن عمر ـ قال : أشهد لسمعت سالما يقول : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة ، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ـ المتشبهة بالرجال ـ والديوث . وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومُدْمِن الخمر ، والمنَّان بما أعطى » .

ورواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس ، عن يزيد بن زُرَيع ، عن عُمَر بن محمد العُمَرى ، عن عبد الله بن يسار ، به [(٥)] .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن قَطَن بن وهب، عن عُوَيْمر بن الأجدع ، عمن حدثه ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : حدثنى عبد الله ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والدَّيُّوث الذى يقر فى أهله الخبث » [(٦)] .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده : حدثنا شعبة ، حدثنى رجل ـ من آل سهل بن حُنَيْف ـ عن محمد بن عَمَّار ، عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة ديُّوث » [(٧)] .

يستشهد به لما قبله من الأحاديث .

وقال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سَلام بن سَوَّار ، حدثنا كَثِير بن سُلَيم ، عن الضحاك بن مُزَاحِم : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ [يقول] [(٨)] : « من أراد أن يلقى الله طاهرًا مُطَهَّرًا ، فليتزوج الحرائر » .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « سننيهما » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٧٧) وسنن أبى داود برقم (٢٠٥١) وسنن النسائى (٦ / ٦٦) .

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٠٥٢) .

(٥) المسند (٢ / ١٣٤) وسنن النسائى (٨ / ٨٠) .

(٦) المسند (٢ / ٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨ / ١٤٧) : « فيه راوٍ لم يسم » .

(٧) مسند الطيالسى برقم (٦٤٢) .

(٨) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

فى إسناده ضعف [(١)] .

قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهرى فى كتاب « الصحاح فى اللغة » : الدَّيُّوث القُنذُع وهو الذى لا غَيرَةَ له [(٢)] .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائى فى كتاب « النكاح » من [(٣)] سننه : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة وغيره ، عن هارون ابن رئاب ، عن عبد اللّه بن عبيد بن عمير ـ وعبد الكريم ، عن عبد اللّه بن عُبَيد بن عمير ، عن ابن عباس ـ عبدُ الكريم رفعه إلى ابن عباس ، وهارون لم يرفعه ـ قالا : جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال : إن عندى امرأة [هى] [(٤)] من أحبِّ الناس إلى [(٥)] ، وهى لا تمنع يد لامِس . قال : «طلقها». قال : لا صبر لى عنها . قال : « استمتع بها » .

ثم قال النسائى : هذا الحديث غير ثابت ، وعبد الكريم ليس بالقوى ، وهارون أثبت منه ، وقد أرسل الحديث وهو ثقة ، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم [(٦)] .

قلت : وهو ابن أبى المخارق البصرى المؤدب تابعى ضعيف الحديث ، وقد خالفه هارون بن رئاب، وهو تابعى ثقة من رجال مسلم ، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائى . لكن قد رواه النسائى فى كتاب « الطلاق » ، عن إسحاق بن راهويه ، عن النضر بن شُمَيل [(٧)] ، عن حماد بن سلمة ، عن هارون بن رئاب ، عن عبد اللّه بن عُبَيد بن عمير ، عن ابن عباس مسندا ، فذكره بهذا الإسناد ، رجاله على شرط مسلم ، إلا أن النسائى بعد روايته له قال : « وهذا خطأ ، والصواب مرسل » [(٨)] . ورواه غير النضر على الصواب .

وقد رواه النسائى أيضا وأبو داود ، عن الحسين بن حُرَيث ، أخبرنا الفضل بن موسى ، أخبرنا الحسين بن واقد ، عن عُمَارة بن أبى حفصة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره . وهذا إسناد جيد [(٩)] .

وقد اختلف الناس فى هذا الحديث ما بين مُضَعِّف له ، كما تقدم عن النسائى ، وكما قال الإمام أحمد : هو حديث منكر .

وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا . وحكاه النسائى فى سننه عن بعضهم فقال : وقيل : « سخية تعطى » ، ورُدَّ هذا بأنه لو كان المراد لقال : لا تَرُدّ يد ملتمس .

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (١٨٦٢) ووجه ضعف إسناده ؛ لأن فيه كثير بن سليم ، وهو ضعيف ، وسلام هو ابن سليمان بن سوار المدائنى، قال ابن عدى : « عنده مناكير » ، وقال العقيلى : « فى حديثه مناكير » ، قال ذلك البوصيرى فى مصباح الزجاجة (٢/ ٧٣).

(٢) الصحاح (١ / ٢٨٢) .

(٣) فى ف ، أ : « فى » . (٤) زيادة من ف ، أ ، والنسائى . (٥) فى ف : « لى » .

(٦) سنن النسائى (٦ / ٦٧) .

(٧) فى ف ، أ : « إسماعيل » .

(٨) سنن النسائى (٦ / ١٧٠) .

(٩) سنن النسائى (٦ / ١٦٩) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقيل : المراد أن سجيتها لا تَرُدّ يد لامس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة؛ فإن رسول الله ﷺ لا يأذن فى مصاحبة من هذه صفتها . فإن زوجها ــ والحالة هذه ــ يكون ديّوثا ، وقد تقدم الوعيد على ذلك . ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد ، أمره رسولُ الله ﷺ بفراقها . فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها ؛ لأن محبته لها محققة ، ووقوع الفاحشة منها متوهم (١) ، فلا يُصَار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

قالوا : فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج ، كما قال الإمام أبو محمد بن أبى حاتم ، رحمه الله :

حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو خالد ،عن ابن أبى ذئب ،قال :سمعت [شعبة] (٢) ـ مولى ابن عباس ، رضى الله عنه ـ قال : سمعت ابن عباس وسأله رجل قال (٣) : إنى كنت ألم بامرأة آتى منها ما حَرّم الله ، عز وجل ، علىّ ، فرزق الله ، عز وجل من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها ، فقال أناس : إن الزانى لا ينكح إلا زانية . فقال ابن عباس : ليس هذا فى هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلى .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن يحيي بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ذُكر عنده ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ** ﴾ ، قال : كان يقال: نسختها [الآية] (٤) التى بعدها : ﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [النور: ٣٢] ، قال : كان يقال الأيامى من المسلمين .

وهكذا رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « الناسخ والمنسوخ » له ، عن سعيد بن المسيب . ونص على ذلك أيضا الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، رحمه الله .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهى الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء . فأما إن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله ، رُدّ عنه الحد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ ، فأوجب على القاذف إذا لم يقم بينة على

(١) فى أ : « يتوهم » .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) فى أ : « فقال » .
(٤) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

صحة ما قاله ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة .

الثاني : أنه (١) ترد شهادته دائما .

الثالث : أن يكون فاسقًا ليس بعدل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم ﴾ ، اختلف العلماء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ـ فذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب ـ سيد التابعين ـ وجماعة من السلف أيضًا .

وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبدًا . وممن ذهب إليه من السلف القاضى ـ شُرَيح ، وإبراهيم النَّخَعِىّ ، وسعيد ابن جُبَيْر ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (٢) .

وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها فَرَج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله ، عز وجل (٣) ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء ، ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِين ﴾ أى : فيما رماها به من الزنا ، ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ . فإذا قال ذلك ، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبدًا ، ويعطيها مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، أى : فيما رماها به ، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِين ﴾ . ولهذا قال : ﴿ وَيَدْرَأُ

(١) فى ف : « أن » . (٢) فى ف : « جابر » . (٣) فى أ : « الله تعالى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ يعني : الحد ، ﴿ **أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ . فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهى تعلم صدقه فيما رماها به . ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب اللّه عليها . والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورأفته بهم ، وشرعه [١] لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ** ﴾ أى : لحرجتم [٢] ولشق عليكم كثير من أموركم ، ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ** ﴾ [أى] [٣] : على عباده ـ وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة ـ ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ فيما يشرعه [٤] ويأمر به وفيما ينهى عنه .

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا عَبَّاد بن منصور عن عكرِمَة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا** ﴾ قال سعد بن عبادة ـ وهو سيد الأنصار ـ : هكذا أنزلت يا رسول اللّه ؟ فقال رسول اللّه ﷺ :« يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » قالوا : يا رسول اللّه ، لا تَلُمه فإنه رجل غيور ، واللّه ما تزوج امرأة قَطّ [إلا بكرًا ، وما طلق امرأة له قط] [٥] فاجترأ رجل منا أن يتزوجها ، من شدة غيرته. فقال سعد : واللّه ـ يا رسول اللّه ـ إنى لأعلم أنها حق ، وأنها من اللّه ، ولكنى قد تعجَبت أنى لو وجدت لكاعًا قد تَفَخَّذها رجل ، لم يكن لى أن أهيّجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فواللّه لا آتى بهم حتى يقضى حاجته . قال : فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تِيبَ عليهم ـ فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينيه ، وسمع بأذنيه، فلم يُهَيّجه حتى أصبح ، فغدا على رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، إنى جئت أهلى عشاء ، فوجدتُ عندها رجلا ، فرأيت بعينى ، وسمعت بأذنى . فكَرِهَ رسولُ اللّه ﷺ ما جاء به ، واشتدّ عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا [٦] : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول اللّه ﷺ هلالَ بن أمية ، ويبْطل شهادته فى المسلمين [٧] . فقال هلال : واللّه إنى لأرجو أن يجعل اللّه لى منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول اللّه ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما [٨] جئت به ، واللّه يعلم إنى لصادق . فواللّه إن رسول اللّه ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذا أنزل اللّه على رسول اللّه ﷺ الوحى ـ وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك ، فى تَرَبُّد وجهه [٩] . يعنى : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى ـ فنزلت : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ** ﴾ [١٠] الآية، فَسُرِّى عن رسول اللّه ﷺ ، فقال : « أبشر يا هلال ، قد جعل اللّه لك فرجًا ومخرجًا » . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى ، عز وجل . فقال رسول اللّه ﷺ : « أرسلوا إليها » .

---

(١) فى ف ، أ : « فى شرعه » . (٢) فى ف : « خرجتم » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى أ : « فيما شرعه » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٦) فى ف : « فقالت » .
(٧) فى هـ : « ويبطل شهادته فى الناس » والمثبت من ف ، أ ، والمسند . (٨) فى ف : « فيما » .
(٩) فى أ : « جلده » . (١٠) فى ف ، أ : ﴿ **فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ** ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

فأرسلوا إليها ، فجاءت ، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، وذكرهما وأخبرهما أن عذابَ الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله ـ يا رسول الله ـ لقد صَدَقتُ عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لاعنوا بينهما » . فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كان فى الخامسة قيل له : يا هلال ، اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبةُ التى توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبنى الله عليها ، كما لم يجلدنى عليها . فشهد فى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل [لها : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل] (١) لها : اتقى الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبةُ التى توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة ، ثم قالت : والله لا أفضح قومى . فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى ألا [بيت لها عليه ولا] (٢) قوت لها ، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ،ولا مُتَوَفى عنها. وقال : « إن جاءت به أُصَيْهِب أُرَيسح حَمْش الساقين فهو لهلال ، وإن جاءت به أورق جعدًا جُمَاليًّا خَدَلَّج الساقين سابغ الأليتينِ ، فهو الذى رميت به » . فجاءت به أورقَ جَعدًا جَمَاليًّا خَدَلَّج الساقين سابغ الأليتين ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » .

قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميرًا على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب .

ورواه أبو داود عن الحسن بن علىّ ، عن يزيد (٣) بن هارون ، به نحوه مختصرًا (٤) .

ولهذا الحديث شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما قال البخارى :

حدثنى محمد بن بَشَّار ، حدثنا ابن أبى عَدىّ ، عن هشام بن حسان ، حدثنى عكْرِمَة ، عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشَرِيك بن سَحْماء ، فقال رسولَ الله (٥) ﷺ : « البينة أوحَدٌّ فى ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إذا أرى (٦) أحدنا على امرأته رجلا ينطلقُ يلتمس البينة ؟ فجعل النبى ﷺ يقول : « البينة وإلا حدّ فى ظهرك » . فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن (٧) الله ما يُبرئ ظهرى (٨) من الحد . فنزل جبريل ، وأنزل (٩) عليه : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُم** ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : ﴿ **إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ . فانصرف النبى ﷺ ، فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد ، والنبى ﷺ يقول : « الله يشهد أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب » ؟ ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وَقَّفُوها وقالوا : إنها مُوجبة . قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم . فمضت ، فقال النبى ﷺ : « أبْصرُوها ، فإن جاءت به أكحلَ العينين ، سابغ الأليتين ، خَدَلَّج الساقين ، فهو لشَرِيك بن سَحْمَاَء». فجاءت به كذلك ،فقال النبى ﷺ:« لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن» .

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٣) فى ف : « زيد » .
(٤) المسند (١ / ٢٣٨) وسنن أبى داود برقم (٢٢٥٦) .
(٥) فى ف ، أ : « النبى » . (٦) فى ف ، أ : « رأى » . (٧) فى أ : « ولينزل » .
(٨) فى ف : « ما يطهرنى » . (٩) فى ف : « فأنزل » .

www.besturdubooks.wordpress.com

انفرد به البخارى من هذا الوجه [(١)] ، وقد رواه من غير وجه ، عن ابن عباس وغيره .

وقال ابن أبى حاتم :حدثنا أحمد بن منصور الزيادى [(٢)] ،حدثنا يونس بن محمد ،حدثنا صالح ـ وهو ابن عمر ـ حدثنا عاصم ـ يعنى : ابن كُلَيْب ـ عن أبيه ، حدثنى ابن عباس قال : جاء رجل إلى رسول اللّه ، فرمى امرأته برجل ، فكره ذلك رسولُ اللّه ﷺ ، فلم يزل يُرَدِّده حتى أنزل اللّه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء [إِلا أَنفُسُهُم] [(٣)] ﴾ ، [فقرأ] [(٤)] حتى فرغ من الآيتين ، فأرسل إليهما فدعاهما ، فقال : « إن اللّه ، عَزّ وجل ، قد أنزل فيكما » . فدعا الرجل فقرأ عليه ، فشهد أربع شهادات باللّه إنه لمن الصادقين . ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه ، فقال له : « كل شىء أهون عليه من لعنة اللّه » . ثم أرسله فقال : ﴿ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ثم دعا بها ، فقرأ عليها ، فشهدت أربع شهادات باللّه إنه لمن الكاذبين ، ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها ، وقال : « ويحك . كل شىء أهون من غضب اللّه » . ثم أرسلها ، فقالت : ﴿ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فقال رسول اللّه ﷺ :« أما واللّه لأقضينّ بينكما قضاء فصلا » . قال : فولدت ، فما رأيت مولودًا بالمدينة أكثر غاشية منه، فقال : « إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا ، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا » . فجاءت به يشبه الذى قُذفت به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان قال : سمعت سعيد بن جُبَير قال : سُئِلْتُ عن المتلاعنين أيفرّق بينهما ـ فى إمارة ابن الزبير ؟ فما دَرَيْتُ ما أقول ، فقمت من مكانى إلى منزل ابن عمر فقلتُ : أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان اللّه ، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول اللّه ، أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تَكَلَّم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذى سألتك عنه قد ابتُليت به . فأنزل اللّه عز وجل هذه الآيات [(٥)] فى سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُم﴾، حتى بلغ : ﴿ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فبدأ بالرجل فوعظه وذكَّره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة ، فقال : والذى بعثك بالحق ما كَذَبْتُك . ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذَكَّرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذى بعثك بالحق [(٦)] ، إنه لكاذب . قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات باللّه إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة اللّه عليه إن كان من الكاذبين . ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات باللّه إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب اللّه عليها إن كان من الصادقين ، ثم فَرَّقَ بينهما .

رواه النسائى فى التفسير ، من حديث عبد الملك بن أبى سليمان ، به [(٧)] . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث سعيد بن جبير ، عن ابن عباس [(٨)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٧) .
(٢) فى أ : « الرمادى » . (٣ ، ٤) زيادة من أ .
(٥) فى أ : « الآية » . (٦) زيادة من ف ، أ . فى ف ، أ : « والذى بعثك بالحق ما كذبتك » .
(٧) المسند (٢ / ١٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٥٧) .
(٨) صحيح البخارى برقم (٥٣١٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٣) .

www.besturdubooks.wordpress.com

علقمة ، عن عبد اللّه قال : كنّا جلوسًا عشية الجمعة فى المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت عن غيظ ؟ واللّه لَئن أصبحت صالحًا لأسألن رسول اللّه ﷺ . قال : فسأله . فقال : يا رسول اللّه ، إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ اللهم احكم . قال : فأنزل آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طُرُق ، عن سليمان بن مِهْران الأعمش ، به (١) .

وقال الإمام أحمد أيضًا : حدثنا أبو كامل : حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن سهل بن سعد ، قال : جاء عُوَيْمر إلى عاصم بن عَدِىّ فقال : سَلْ رسول اللّه ﷺ : أرأيت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسولَ اللّه ﷺ ، فعابَ رسولَ اللّه ﷺ المسائل . قال: فلقيه عُوَيمر فقال : ما صنعْتَ ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتنى بخير ؛ سألت رسول ﷺ فعاب المسائل . فقال عُوَيمر : واللّه لآتين رسول اللّه ﷺ فَلأسألنه . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما . قال : فدعا بهما فَلاعَن بينهما . قال عُوَيمر : لئن انطلقتُ بها يا رسول اللّه لقد كذبت عليها . قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول اللّه ﷺ ، فصارت سنة المتلاعنين ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَة فلا أراه إلا كاذبًا » . فجاءت به على النعت المكروه .

أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذى ، من طرق ، عن الزهرى ، به (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا النضر بن شُمَيْل ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن أبيه ، عن زيد (٣) بن يُثَيْع ، عن حذيفة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ لأبى بكر : « لو رأيت مع أم رومان رجلا ما كنت فاعلا به ؟ قال : كنت واللّه فاعلا به شرًا . قال : « فأنتَ ياعمر ؟ » . قال : كنتُ واللّه فاعلا ، كنت أقول : لعن اللّه الأعجز ، وإنه خبيث . قال : فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ ﴾ .

ثم قال : لا نعلم أحدًا أسنده إلا النَّضْر بن شُمَيْل ، عن يونس بن أبى إسحاق ، ثم رواه من حديث الثورى عن [أبى] (٤) أبى إسحاق ، عن زيد بن يُثَيْع مرسلا ، فاللّه أعلم (٥) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا مسلم بن أبى مسلم الجَرْمى ، حدثنا مُخَلَّدُ بن الحسين ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك ، رضى اللّه عنه ، قال : لأول لعان كان فى الإسلام أن شَرِيكَ بن سَحْمَاء قذَفه هلال بن أمية بامرأته ، فرفعه إلى رسول اللّه ﷺ ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أربعة شهود وإلا فَحَدٌّ فى ظهرك » . فقال : يا رسول اللّه ، إن اللّه يعلم إنى لصادق ، ولينزلن اللّه عليك ما يبرئ به ظهرى من الجلد. فأنزل اللّه آية اللعان : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنفُسُهُمْ ﴾ إلى آخر الآية. قال : فدعاه النبى ﷺ فقال : « اشهد باللّه إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا » فشهد بذلك أربع

---

(١) المسند (١ / ٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٥) .

(٢) المسند (٥ / ٣٣٤) وصحيح البخارى برقم (٤٧٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٢) وسنن أبى داود برقم (٢٢٤٥) وسنن النسائى (٦ / ١٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٦٦) .

(٣) فى أ : « يزيد » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٣٧) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٧٤) : « رجاله ثقات » .

www.besturdubooks.wordpress.com

شهادات ، ثم قال له فى الخامسة : « ولعنة اللّه عليك إن كنتَ من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا » ، ففعل. ثم دعاها رسول اللّه ﷺ فقال : « قومى فاشهدى باللّه إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا » . فشهدت بذلك أربع شهادات ، ثم قال لها فى الخامسة : « وغَضب اللّه عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا » ، فقالت : فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة ، حتى ظنوا أنها ستعترف ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم . فمضت على القول ، ففرّق رسول اللّه ﷺ بينهما ، وقال : « انظروه ، فإن جاءت به جَعْدًا حَمْشَ الساقين ، فهو لشَرِيك بن سَحْماء ، وإن جاءت به أبيض سبطا قَضىء (١) ، العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به آدَمَ جَعَدًا حَمْش الساقين ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب اللّه ، لكان لى ولها شأن » (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾ .

هذه العشر الآيات كلها نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين ، رضى اللّه عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التى غار اللّه تعالى (٣) لها ولنبيه ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، فأنزل [اللّه عز وجل] (٤) براءتها صيانة لعرض الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام (٥) ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ أى : جماعة منكم ، يعنى : ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّم فى هذه اللعنة (٦) عبد اللّه بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه ، حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وَجوّزه آخرون منهم ، وبقى الأمر كذلك قريبًا من شهر، حتى نزل القرآن ، وسياق ذلك فى الأحاديث الصحيحة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى قال : أخبرنى سعيد بن المسيَّب ، وعُرْوَة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص ، وعُبَيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ، عن حديث عائشة زوج النبى ﷺ ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها اللّه ، وكلّهم قد حدثنى بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصًا ، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذى حدثنى ، وبعض حديثهم يصدق بعضًا : ذكروا أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد أن يخرج سفَرًا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول اللّه ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمى ، وخرجت مع رسول اللّه ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجابُ ، فأنا أُحْمَل فى هَودَجى وأنزل فيه مسيرنا ، حتى إذا فرغ رسول اللّه ﷺ من غَزْوه وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى ، فإذا عقْدٌ من جَزْع ظَفَار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحَبَسنى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فحملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب ـ وهم يحسبون أنى فيه ـ قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يُهَبَّلْهُنَّ ولم يغشهن اللحمُ ، إنما يأكلن العُلْقَة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقَل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ،

(١) فى أ : « قضى قصير » .
(٢) مسند أبى يعلى (٥ / ٢٠٧) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٦) من طريق هشام عن محمد ، به .
(٣) فى أ : « جل شأنه » . (٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « ﷺ » . (٦) فى أ : « العصبة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلىّ . فبينا أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى فنمت ــ وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكْوَانَى قد عَرَس من وراء الجيش ـ فادّلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يُضْرَب علىّ الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمَّرت وجهى بجلبابى ، واللّه ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غيرَ استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فَوَطِئ على يَدها فركبتُها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مُوغرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كِبْره عبد اللّه بن أبى بن سلول . فَقَدمتُ المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرا ، والناس يُفيضُون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشىء من ذلك ، وهو يَريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول اللّه ﷺ اللُّطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول اللّه ﷺ فيسلم ، ثم يقول : « كيف تِيكُم ؟ » فذلك يَريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نَقَهْتُ وخرَجَت مَعى أم مِسْطح قبل المناصع ــ وهو مُتَبرَّزُنا ـ ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نَتَّخذَ الكُنُف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها فى بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسْطح ــ وهى ابنة أبى رُهْم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة ضخر بن عامر ، خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسْطَح بن أثاثة بن عَبَّاد بن المطلب ــ فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبَلَ بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسْطح فى مِرْطها فقالت : « تَعس مسْطح » . فقلت لها : بئسما قلت . تسبين رجلا [قد] (١) شهد (٢) بدرا ؟ قالت : أىْ هَنْتاه ، ألم (٣) تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتنى (٤) بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضًا إلى (٥) مرضى . فلما رجعتُ إلى بيتى فدخل على رسول اللّه ﷺ فسلم ، ثم قال : « كيف تِيكُم ؟ » قلت : أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ ـ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبَلهما ـ فأذنَ لى رسول اللّه ﷺ ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمَّتاه ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أىْ بُنَية (٦) ، هَوِّنى عليك ، فواللّه لقلما كانت (٧) امرأة قَطّ وضيئة ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلتُ : سبحان اللّه أوقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول اللّه ﷺ عَليًا (٨) ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحىُ، يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول اللّه ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه له من الود ، فقال : يا رسول اللّه ، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يُضيق اللّه عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدُقك الخبر. قالت (٩) : فدعا رسول اللّه ﷺ بَريرة ، فقال : « أىْ بَريرة ، هل رأيت من شىء يَريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إنْ رأيت عليها أمرا قَطّ أغمصُه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول اللّه ﷺ فاستعذر من عبد اللّه بن أبى بن سَلُول . قالت : فقال رسول اللّه ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، مَنْ يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فواللّه ما علمت على أهلى إلا خيرًا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا ،

---

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٢) فى أ : « شاهد » . (٣) فى ف : « أولم » .
(٤) فى ف ، أ : « وماذا قال ؟ قالت : فأخبرتنى » . (٥) فى أ : « على » . (٦) فى ف ، أ : « يا بنية » .
(٧) فى ف : « ما كانت » . (٨) فى المسند : « على بن أبى طالب » . (٩) فى ف : « قال » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وماكان يدخل على أهلى إلا معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله[١]، ولا تقدر على قتله . فقام أُسَيد بن حُضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت ! لعمر الله [٢] لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هَمّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ [قائم على المنبر . فلم يزل رسول الله ﷺ] [٣] يُخَفّضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكيت يومى ذلك ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى . قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، استأذَنَت على امرأة من الأنصار ، فأذنتُ لها ، فجلست تبكى معى ، فبينا نحن على ذلك [٤] ، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ـــ قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل [لى] [٥] ما قيل ، وقد لبث شهرًا لا يُوحَى إليه فى شأنى شىء ـــ قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كُنت ألْمَمْت بذنب فاستغفرى الله ثم توبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت [٦] لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدرى ما أقول للرسول . فقلت لأمى: أجيبى عنى رسول الله . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن ، لا أحفظ [٧] كثيرا من القرآن ـ : [إنى] [٨] والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا ، حتى استقر [٩] فى أنفسكم وصدقتم به ، ولَئن [١٠] قلت لكم إنى بريئة ـــ والله يعلم إنى بريئة ـــ لا تصدقونى [بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقونى][١١] ، وإنى والله ما أجد لى [١٢] ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مُبَرِّئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى، ولشأنى كان أحقرَ فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يُتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرّئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجُمَان من العرق فى اليوم الشاتى ، من ثقَل القول الذى أنزل عليه . قالت [١٣] : فلما سُرّىَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى يا عائشة ، أما الله [١٤] فقد برّأك[١٥]». فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى[١٦] ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ** ﴾ عشر آيات . فأنزل الله هذه الآيات براءتى قالت : فقال أبو بكر ، رضى الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره ـ : والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله عز

---

(١) فى ف : « لعمر والله لنقتلنه » . (٢) فى ف : « والله » . (٣) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٤) فى ف ، أ : « كذلك » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٦) فى ف ، أ : « قلت » .
(٧) فى ف ، أ : « لا أقرأ » . (٨) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٩) فى ف ، أ : « استقرت » .
(١٠) فى ف : « وإن » . (١١) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (١٢) فى ف : « والله إنى لا أجد لى » .
(١٣) فى ف : « ذلك » . (١٤) فى ف ، أ : « والله » . (١٥) فى ف ، أ : « فقد برأك الله » .
(١٦) فى أ : « هو الذى برأنى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وجل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم ﴾ [النور : ٢٢]، فقال أبو بكر (١) : واللّه إنى لأحب أن يغفر اللّه لى ، فَرَجَّع إلى مِسْطَح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال: لا أنزعها منه أبدًا .

قالت عائشة : وكان رسول اللّه ﷺ سأل زينبَ بنت جحش ـ زوجَ النبى ﷺ ـ عن أمرى : يا زينب ، ما علمت ، أو : ما رأيت [أو ما بلغك] (٢) ؟ فقالت : يا رسول اللّه ، أحمى سمعى وبصرى ، واللّه ما علمتُ إلا خيرًا . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسَامينى من أزواج النبى ﷺ (٣) ، فعصمها اللّه تعالى بالورع . وطَفِقَت أختها حَمنة بنت جحش تُحارب لها ، فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط .

أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، من حديث الزهرى (٤) . وهكذا رواه ابن إسحاق ، عن الزهرى كذلك ، قال : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد اللّه بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة . وحدثنى عبداللّه بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، عن عمرة ، عن عائشة (٥) بنحو (٦) ما تقدم ، واللّه أعلم (٧) .

ثم قال البخارى : وقال أبو أسامة ، عن هشام بن عُرْوَة قال : أخبَرَنى أبى ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : لما ذُكرَ من شأنى الذى ذُكر وما عَلمتُ به ، قام رسولُ اللّه ﷺ فىَّ خطيبا ، فتشهد فَحَمدَ اللّه وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أشيروا عَلَىّ فى أناس أبَنُوا أهلى ، وَايمُ اللّه ما علمت على أهلى من سوء (٨) ، وأبَنُوهم بمَن واللّه ما علمتُ عليه من سوء قطّ ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : ائذن يا رسول اللّه أن نضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج ـ وكانت أمّ حسان [بن ثابت] (٩) من رهط ذلك الرجل ـ فقال : كذبت، أما واللّه لو كانوا من الأوس ما أحببتَ أن تُضرب أعناقهم . حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شَرٌّ فى المسجد ، وما عَلمتُ . فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فعثَرتْ فقالت: تَعس مسطح ، فقلت : أىْ أمّ ، أتسبين ابنك ؟ وسكتت ، ثم عثَرت الثانية فقالت : تَعس مسطح. فقلت لها: أىْ أمّ ، تسبين ابنك ؟ ثم عثَرت الثالثة فقالت : تَعس مسْطح . فانتهرتها فقالت : واللّه ما أسبه إلا فيك، فقلت : فى أىّ شأنى ؟ قالت : فَبَقَرت لى الحديث . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم واللّه . فرجعتُ إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرًا ، ووُعكت ، وقلت لرسول اللّه ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى . فأرسل معى الغلام ، فدخلتُ الدار ، فوجدت أم رومان فى السّفل ، وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت [لى] (١٠) أمى : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها ، وذكرتُ لها الحديثَ ، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ منى ، [فقالت : يا بنية ، خَفِّضى عليك الشأن ؛ فإنه ـ واللّه ـ لَقَلَّما كانت امرأة

(١) فى ف ، أ : « فقال أبو بكر : أى والله » . (٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٣) فى ف ، أ : « رسول الله » .

(٤) المسند (٦ / ١٩٤) وصحيح البخارى برقم (٤٧٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٠) .

(٥) فى ف ، أ : « عمرة ، أخبرنى أبى عن عائشة » . (٦) فى ف : « نحو » .

(٧) رواه ابن هشام فى السيرة (٢ / ٢٩٧) من طريق ابن إسحاق ، ورواه الحافظ ابن ديزيل فى جزئه برقم (٢) من طريق أبى أويس عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم الأنصارى عن عمرة عن عائشة .

(٨) فى ف ، أ : « ما علمت على أهلى إلا خيرا ، أو ما علمت على أهلى من سوء » . (٩) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

(١٠) فى ف ، أ : « فقالت لى أمى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

حسناء ، عند رجل يحبها ، لها ضرائر إلا حَسَدنها ، وقيل فيها وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ منى ، فقلت : وقد عَلِمَ به أبى ؟ قالت : نعم . قلت : ورسولُ الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، ورسول الله ﷺ][1] . فاستَعْبَرْتُ وبكيت ، فسمعَ أبو بكر صوتى ، وهو فوق البيت يقرأ ، فنزل فقال لأمى : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذى ذُكر من شأنها . ففاضت عيناه وقال [2] : أقسمت عليك ـ أىْ بُنَيَّة ـ إلا رجعت إلى بيتك . فَرَجعتُ ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتى ، فسأل عنى خادمى [3] ، فقالت : لا ، والله ما علمت عليها عيبا ، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خَميرها ـ أو : عجينها ـ وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقى رَسُولَ الله ﷺ ، حتى أسقطوا لها به ، فقالت : سبحان الله . والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبْر الذهب الأحمر . وبلغ الأمر ذلك الرجلَ الذى قيل له ، فقال : سبحان الله . والله ما كَشَفَتُ كَنَف أنثى قط ـ قالت عائشة : فقتل شهيدا فى سبيل الله ـ قالت : وأصبح أبواى عندى ، فلم يزالا حتى دخل على رسول الله ﷺ وقد صَلَّى العصر ، ثم دخل وقد اكتنفَنى أبواى عن يمينى وعن شمالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة ، إن كنت قارفت سُوءًا أو ظَلَمت فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده » . قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار ، فهى [4] جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ؟ فوَعَظَ رسولُ الله ﷺ ، فالتفتّ إلى أبى ، فقلت له : أجبْه . قال : فماذا أقول ؟ فالتفتُ إلى أمى فقلت : أجيبيه . قالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيباه ، تَشَهَّدتُ فحمدتُ الله وأثنيت عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد ، فَوَالله لَئن قلت لكم إنى لم أفعل ـ والله عز وجل يشهد إنى لصادقة ـ ما ذاك بنافعى عندكم ، لقد تكلمتم به ، وأشْربته قلوبكم ، وإن قلت : إنى قد فعلت ـ والله يعلم أنى لم أفعل ـ لتقولُنَّ : قد باءت به على نفسها ، وإنى ـ والله ـ ما أجد لى ولكم مثلا ـ والتمستُ اسم يعقوب فلم أقدر عليه ـ إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ١٨]، وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته ، فسكتنا ، فَرُفع عنه وإنى لأتبين السرور فى وجهه، وهو يمسح جبينه ويقول : « أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك » ، قالت : وكنت [5] أشد ما كنتُ غضبًا ، فقال لى أبواى : قومى [إليه][6] . فقلت : لا ، والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيَّرتموه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدينها ، فلم تقل إلا خيرًا . وأما أختها حَمنة بنت جحش ، فهلكت فيمن هلك . وكان الذى يتكلم به [7] مسطح وحسان بن ثابت . وأما المنافق عبد الله بن أبى بن سلول فهو الذى [كان] [8] يستوشيه ويجمعه ، وهو الذى تولى كبْرَه منهم هو وحمنة . قالت : وحلف أبو بكر ألا ينفع مسطحا بنافعة أبدًا ، فأنزل الله : ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ** ﴾ إلى آخر الآية ، يعنى : أبا بكر ، ﴿ **وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ** ﴾ يعنى : مسطحا ، إلى قوله : ﴿ **أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر: بلى والله يا ربّنا ، إنا لنُحبّ أن تغفر لنا وعاد له بما كان يصنع .

هكذا رواه البخارى من هذا الوجه مُعَلَّقا بصيغة الجزم [9] ، عن أبى أسامة حماد بن أسامة [أحد

---

(١) زيادة من ف ، أ ، والبخارى . (٢) فى ف : « فقال » . (٣) فى ف ، أ : « خادمتى » .
(٤) فى ف : « وهى » . (٥) فى ف : « فكنت » . (٦) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .
(٧) فى ف : « فيه » . (٨) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٧) .

www.besturdubooks.wordpress.com

الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير فى تفسيره عن سفيان بن وَكِيع ، عن أبى أسامة] [١] ، به مطولا، مثله أو نحوه [٢] . ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، ببعضه .

وقال الإمام أحمد : حَدّثنا هُشَيْم ، أخبرنا عمر [٣] بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : لما نزل عُذْرى من السماء ، جاءنى النبى ﷺ فأخبرنى بذلك ، فقلت : نَحمدُ الله لا نَحمدك [٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنى ابن أبى عَدىّ ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد اللّه بن أبى بكر ، عن عَمْرَةَ ، عن عائشة قالت : لما نزل عُذْرىَ قام رسول اللّه ﷺ فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمَرَ برجلين وامرأة فَضُربوا حدهم [٥] .

وأخرجه أهل السنن الأربعة ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ووقع عند أبى داود تسميتهم: حسان بن ثابت ، ومَسْطح بن أثاثة ، وحَمْنة بنت جحش .

فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة ، رضى اللّه عنها ، فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها[٦] .

وقد رُوى من حديث أمها أمّ رومان ، رضى اللّه عنها ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا على بن عاصم ، أخبرنا حُصَين عن أبى وائل ، عن مسروق ، عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها [٧] امرأة من الأنصار فقالت : فعل اللّه ـ بابنها ـ وفعل . فقالت عائشة : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حَدَّث الحديث . قالت عائشة : وأىّ حديث ؟ قالت : كذا وكذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسولَ اللّه ﷺ ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم ، فخرت عائشة ، رضى اللّه عنها ، مغشيا عليها ، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض . قالت : فقمت فدثرتها، قالت : وجاء النبى ﷺ فقال : « ما شأن هذه ؟ » قلت : يا رسول اللّه ، أخذتها حمى بنافض . قال : فلعله فى حديث تُحدّث به » . قالت : فاستوت له عائشة قاعدة فقالت : واللّه لئن حلفت لكم لا تصدقونى ، ولئن اعتذرت إليكم لا تُعذرُونى ، فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه ﴿ **وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : وخرج رسول اللّه ﷺ ، فأنزل اللّه عُذرها ، فرجع رسول اللّه ﷺ معه أبو بكر ، [فدخل فقال : « يا عائشة ، إن اللّه تعالى قد أنزل عذرك » . فقالت : بحمد اللّه لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول اللّه ﷺ ؟ قالت: نعم . قالت : فكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر] [٨] ، فحلف أبو بكر ألا يصله ، فأنزل اللّه : ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ** ﴾ إلى آخر الآية [النور : ٢٢] ، قال أبو بكر : بلى . فوصله .

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) تفسير الطبرى (١٨ / ٧٤) ورواه الحافظ ابن ديزيل فى جزئه برقم (١) من طريق إسماعيل بن أبى أويس عن أبيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مثله .

(٣) فى أ : « عمرو » .

(٤) المسند (٦ / ٣٠) .

(٥) المسند (٦ / ٣٥) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٨١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٣٥١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٦٧) .

(٦) فى ف : « وغيرهم » .

(٧) فى ف : « علينا » .

(٨) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

www.besturdubooks.wordpress.com

تفرد به البخارى دون مسلم ، من طريق حُصَين [١] . وقد رواه البخارى عن موسى بن إسماعيل عن أبى عَوَانة ـ وعن محمد بن سلام ـ عن محمد بن فضيل ، كلاهما عن حصين ، به [٢] . وفى لفظ أبى عوانة : حدثتنى أم رومان . وهذا صريح فى سماع مسروق منها ، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ ، منهم الخطيب البغدادى ، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت فى زمان النبى ﷺ ، قال الخطيب : وقد كان مسروق يرسله فيقول : « سئلت أم رومان » ، ويسوقه ، فلعل بعضهم كتب «سُئلت » بألف ، فاعتقد الراوى أنها « سَألت » ، فظنه متصلا . قال الخطيب : « وقد رواه البخارى كذلك ، ولم تظهر [٣] له علته » . كذا قال ، والله أعلم .

فقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ** ﴾ أى : بالكذب والبهت والافتراء ، ﴿ **عُصْبَةٌ** ﴾ أى : جماعة منكم ، ﴿ **لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم** ﴾ أى : يا آل أبى بكر ، ﴿ **بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُم** ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة، لسانُ صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى براءتها فى القرآن العظيم الذى ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت : ٤٢] ؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ، رضى الله عنه[٤]، وهى فى سياق الموت ، قال لها : أبشرى ، فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكرًا غيرك ، وأنزل [٥] براءتك من السماء [٦] .

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنى محمد بن عثمان الواسطى ، حدثنا جعفر بن عَوْن ، عن المعلى بن عرفان ، عن محمد بن عبد الله بن جَحْش قال : تفاخَرَت عائشةُ وزينبُ ، رضى الله عنهما، فقالت زينب : أنا التى نزل تزوجى [من السماء] [٧] ، قال : وقالت عائشة : أنا التى نزل عُذرى فى كتابه ، حين حملنى ابن المعطل على الراحلة . فقالت لها زينب : يا عائشة ، ما قلت حين ركبتيها؟ قالت : قلت : حسبى الله ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة المؤمنين [٨] .

وقوله : ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ** ﴾ أى : لكل من تكلم فى هذه القضية ورَمَى أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بشىء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب .

﴿ **وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ** [٩] ﴾ : قيل : ابتدأ به . وقيل : الذى كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه، ﴿ **لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ أى : على ذلك .

ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى بن سَلُول ــ قبحه الله ولعنه ــ وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث ، وقال ذلك مجاهد وغير واحد .

وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما

(١) المسند (٦ / ٣٦٧) وصحيح البخارى برقم (٤٧٥١) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٤٣) من رواية موسى بن إسماعيل ، وبرقم (٣٣٨٨) من رواية محمد بن سلام .

(٣) فى ف : « يظهر » . (٤) فى ف : « عنها » . (٥) فى ف : « ونزلت » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٣) .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) تفسير الطبرى (١٨ / ٧٠) .

(٩) فى ف ، أ : « كبره منهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن محاسنه أنه كان يَذُبّ عن رسول الله ﷺ [بشعره] (١) ، وهو الذى قال له رسول الله ﷺ : «هاجهم وجبريل معك » .

وقال الأعمش ، عن أبى الضُّحَى ، عن مسروق قال : كنتُ عندَ عائشة ، رضى الله عنها ، فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فألقى له وسادة ، فلما خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعنى : يدخل عليك ـ وفى رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك ، وقد قال الله : ﴿ **وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ؟ قالت : وأىّ عذاب أشدّ من العمى ـ وكان قد ذهب بصره ـ لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم . ثم قالت : إنه كان يُنافحُ عن رسول الله ﷺ .

وفى رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها [شعرًا] (٢) يمتدحها به ، فقال :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنّ (٣) بريبة ... وتُصْبح غَرْثَى من لحُوم الغوَافل

فقالت : أما أنت فلست كذلك . وفى رواية : لكنك لست كذلك (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن قَزْعَة ، حدثنا سلمة بن علقمة ، حدثنا داود ، عن عامر عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشىء أحسن من شعر حسان ، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبى سفيان ـ يعنى ابن [الحارث] (٥) ابن عبد المطلب ـ :

هَجَوتَ مُحَمَّدًا ، فَأَجبتُ (٦) عنه ... وَعندَ الله فى ذاك الجَزَاءُ
فَإنَّ أبى وَوَالده وعرْضى ... لعرْض مُحَمَّد منكم وقاءُ
أتَشْتُمُه ، ولستَ لَه بكُفء ؟ ... فَشَرُّكُما لخَيْرِكُما الفداءُ
لِسَانِى صَارمٌ لا عَيْبَ فيه ... وَبَحْرِى لا تُكَدِّرُه الدِّلاءُ

فقيل : يا أم المؤمنين ، أليس هذا لغوا ؟ قالت : لا ، إنما اللغو ما قيل عند النساء . قيل : أليس الله يقول : ﴿ **وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ، قالت : أليس قد أصابه [عذاب] (٧) عظيم؟ [أليس] (٨) قد ذهب بصره وكُنِّع بالسيف ؟ تعنى : الضربة التى ضربه إياها (٩) صفوان بن المعطل [السلمى] (١٠) ، حين بلغه عنه أنه يتكلم فى ذلك ، فعلاه بالسيف ، وكاد أن يقتله (١١) .

﴿ **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)** ﴾ .

هذا تأديب من الله للمؤمنين فى قضية (١٢) عائشة ، رضى الله عنها ، حين أفاض بعضهم فى

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « ما ترن » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٤٦) حدثنى بشر بن خالد عن محمد بن جعفر عن شعبة عن الأعمش ، به .
(٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « وأجبت » . (٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(٩) فى ف : « ضربها إياه » . (١٠) زيادة من ف ، أ .
(١١) تفسير الطبرى (١٨ / ٦٩) .
(١٢) فى ف : « قصة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ذلك الكلام السيئ ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال : ﴿ لَوْلا ﴾ بمعنى : هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أى: ذلك الكلام ، أى : الذى رميت به أم المؤمنين ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أى: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

وقد قيل : إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامرأته ، رضى اللّه عنهما ، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار ، عن أبيه ، عن بعض رجال بنى النجار ؛ أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ، رضى اللّه عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا ، واللّه ما كنتُ لأفعله . قال : فعائشة واللّه خير منك . قالَ : فلما نزل القرآن ذكر اللّه ، عز وجل ، من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الإفك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾[النور : ١١] ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾ الآية ، أى : كما قال أبو أيوب وصاحبته (٢) .

وقال محمد بن عمر الواقدى : حدثنى ابن أبى حبيبة (٣) ، عن داود بن الحصين ، عن أبى سفيان ، عن أفلح مولى أبى أيوب ، أن أم أيوب قالت لأبى أيوب : ألا تسمع (٤) ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أفكنت يا أم أيوب [فاعلة ذلك] (٥) ؟ قالت : لا والله . قال: فعائشة واللّه خير منك : فلما نزل القرآن ، وذكر أهل الإفك ، قال اللّه ، عز وجل : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ يعنى : أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال .

ويقال : إنما قالها أُبى بن كعب .

وقوله : ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أى : هَلا ظنوا الخبر ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ،﴿ وَقَالُوا ﴾ أى : بألسنتهم : ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذى وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجىء أم المؤمنين راكبة جَهْرَةً على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول اللّه ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا (٦) جَهْرَة ، ولا كانا يُقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ،بل كان يكون هذا ـ لو قُدر ـ خفية مستورا،فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوا به أم المؤمنين هو الكذب البحت،والقول الزور، والرّعُونة الفاحشة [الفاجرة] (٧)، والصفقة الخاسرة .

قال اللّه تعالى : ﴿ لَوْلا ﴾ أى : هلا ﴿ جَاءُوا عَلَيْهِ ﴾ أى : على ما قالوه ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به ،﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أى : فى حكم اللّه كَذَبَةٌ فاجرون (٨) .

---

(١) فى ف ، أ : « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا » .
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٧٧) .
(٣) فى ف ، أ : « حبيب » . (٤) فى ف : « تستمع » . (٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) فى ف : « هذا » . (٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف : « فجرة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ .

يقول : [الله] (١) : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أيها الخائضون فى شأن عائشة ، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ، ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ ، من قضية الإفك ، ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه ، كمِسْطَح ، وحسان ، وحَمْنَةَ بنت جحش ، أخت زينبَ بنت جحش . فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى بن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين فى هذه الآية ؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عَمَل صالح يوازنُه أو يَرجح عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أى : يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا : سمعته من فلان ، وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا .

وقرأ آخرون « إِذْ تَلِقُونَه بألسنتكم » . وفى صحيح البخارى عن عائشة : أنها كانت تقرؤها كذلك (٢) . وتقول : هو من وَلَق القول . يعنى : الكذب الذى يستمر صاحبه عليه (٣) ، تقول العرب : وَلَق فلان فى السير : إذا استمر فيه (٤) . والقراءة الأولى أشهر ، وعليها الجمهور ، ولكن الثانية مَرْوِيّة عن أم المؤمنين عائشة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو أسامة ، عن نافع بن عمر (٥) ، عن ابن أبى مليكة ، [عن عائشة أنها كانت تقرأ : « إِذْ تَلِقُونَه » ، وتقول : إنما هو وَلَق القول ـ والوَلَقُ : الكذب . قال ابن أبى مليكة (٦)] : هى أعلم به من غيرها .

وقوله : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى : تقولون ما لا تعلمون .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أى : تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرا [سهلاً] (٧) ، ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هَيِّنا ، فكيف وهى زوجة النبى الأمى ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة رسوله ما قيل ! الله يغار لهذا ، وهو ، سبحانه وتعالى ، لا يُقَدِّر على زوجة نبى من أنبيائه ذلك ، حاشا وكَلاَ ، ولما [لم يكن ذلك] (٨) ، فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ؟ ! ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، وفى الصحيحين :

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٤٤ ، ٤٧٥٢) .

(٣) فى ف : « فيه » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٤٤) .

(٥) فى ف ، أ : « نافع عن ابن عمر » .

(٦ ، ٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله، لا يدرى ما تَبْلُغ ، يَهْوِى بها فى النار أبْعَد ما بين السماء والأرض » . وفى رواية : « لا يلقى لها بالا » (١) .

﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) ﴾ .

هذا تأديب آخر بعد الأول : الآمر بالظن خيرا ، أى : إذا ذكر ما لا يليق من القول فى شأن الخيرة(٢) ، فأولى ينبغى الظن بهم خيرا ، وألا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن عَلق بنفسه شىء من ذلك ـ وسوسةً أو خيالاً ـ فلا ينبغى أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتى عما حَدَّثت به أنفسها (٣) ، ما لم تقل أو تعمل » . أخرجاه فى الصحيحين (٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أى : ما ينبغى لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ ، أى : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على(٥) زوجة [نبيه و] (٦) رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أى : ينهاكم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدًا ، أى : فيما يستقبل . فلهذا قال : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسولَه ﷺ ، فأما من كان متصفًا بالكفر فذاك له حكم آخر .

ثم قال : ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ أى : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَرِيّة ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى شَرْعه وقَدَره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) ﴾ .

وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيئ ، فقام بذهنه منه شىء ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى (٧) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ ، أى : بالحد ، وفى الآخرة بالعذاب ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : فردوا الأمور إليه تَرْشُدُوا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون بن أبى محمد المَرَئىّ ، حدثنا محمد بن عَبّاد المخزومى ، عن ثَوبَان ، عن النبى ﷺ قال : « لا تُؤذوا عبادَ الله ولا تُعيِّروهم ، ولا تطلبوا

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٨٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٢) فى أ : « الحرة » . (٣) فى ف : « نفسها » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٧) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٥) فى ف : « عن » . (٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : « قال الله تعالى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب اللّه عورته ، حتى يفضحه فى بيته »[١] .

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أى : لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده ، رحيم بهم . فتاب على من تاب إليه من هذه [القضية][٢] ، وظهر من ظهر منهم بالحد الذى أقيم عليه .

ثم قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** ﴾ يعنى : طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿**وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ : هذا تنفير وتحذير من ذلك ، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** ﴾ : عمله . وقال عكرمة : نزغاته. وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان . وقال أبو مِجْلَز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان .

وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إنى حرمت أن آكل طعامًا ؟ فقال : هذا من نزغات الشيطان ، كَفِّر عن يمينك ، وكُلْ .

وقال الشعبى فى رجل نَذَر ذَبْح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشًا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حسان بن عبد اللّه المصرى ، حدثنا السُّرِّىّ بن يحيى ، عن سلمان التيمى ، عن أبى رافع قال : غضبت على امرأتى فقالت : هى يومًا يهودية ، ويومًا نصرانية، وكل مملوك لها حر ، إن لم تطلق امرأتك . فأتيت عبد اللّه بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان . وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ، وهى يومئذ أفقه امرأة بالمدينة ، وأتيت عاصم ابن عمر، فقال مثل ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ أى : لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودسها وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ، ﴿**وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾ أى : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغىّ .

وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ** ﴾ أى : سميع لأقوال عباده[٣] ، ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بهم ، مَنْ يستحق منهم الهدى والضلال .

---

(١) المسند (٥ / ٢٧٩) .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) فى ف : « العباد » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَلا يَأْتَلِ** ﴾ من الألِيّة ، [وهى : الحلف] [(١)] ، أى : لا يحلف ﴿ **أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ** ﴾ أى : الطَّول والصدقة والإحسان ﴿ **وَالسَّعَةِ** ﴾ أى : الجِدَةَ ، ﴿ **أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ أى : لا تحلفوا ألا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين . وهذه[(٢)] فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا** ﴾ أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت فى الصدِّيق ، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثَاثَه بنافعة بعدما قال فى عائشة ما قال ، كما تقدم فى الحديث . فلما أنزل اللّه براءةَ أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب اللّه على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على مَن أقيم عليه [(٣)] ــ شَرَعَ تبارك وتعالى ، وله الفضل والمنة ، يعطفُ الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مِسْطَح بن أثاثة ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، رضى اللّه عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل اللّه ، وقد ولَق ولْقَة [(٤)] تاب اللّه عليه منها ، وضُرب الحد عليها . وكان الصديق ، رضى اللّه عنه ، معروفًا بالمعروف ، له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ **أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ، أى : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر [(٥)] عن المذنب إليك نغفر [(٦)] لك ، وكما تصفح نصفح [(٧)] عنك . فعند ذلك قال الصديق : بلى ، واللّه إنا نحب ـ يا ربنا ـ أن تغفر لنا . ثم رَجَع إلى مِسْطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : واللّه لا أنزعها منه أبدًا ، فى مقابلة ما كان قال : واللّه لا [(٨)] أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصدّيق هو الصديق [رضى الله عنه وعن بنته] [(٩)] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) ﴾ .

هذ وعيد من اللّه تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات ـ خُرِّج مخرج الغالب ـ المؤمنات .

فأمهات المؤمنين أولى بالدخول فى هذا من كل محصنة ، ولاسيما التى كانت سبب النزول ، وهى عائشة بنت الصديق ، رضى اللّه عنهما .

وقد أجمع العلماء ، رحمهم اللّه ، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به [بعد هذا

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « وهذا » . (٣) فى ف ، أ : « من أقيم الحد عليه » .
(٤) فى ف : « زلق زلقة » . (٥) فى ف : « يغفر » . (٦) فى ف : « يغفر » .
(٧) فى ف : « يصفح » . (٨) فى ف : « ما » . (٩) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

الذى ذكر] (١) فى هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا** (٢) ﴾ [الأحزاب : ٥٧] .

وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد الله بن خراش ، عن العوَّام ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [قال] (٣) : نزلت فى عائشة خاصة.

وكذا قال [سعيد بن جبير و] (٤) مقاتل بن حيان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال :

حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ الضبِّى ، حدثنا أبو عوَانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : رُميت بما رميت به وأنا غافلة ، فبلغنى بعد ذلك . قالت : فبينا رسول الله ﷺ جالس عندى(٥) ، إذ أوحى (٦) إليه . قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السُّبات ، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ، ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه ، وقال : « يا عائشة ، أبشرى » . قالت : قلت: بحمد الله لا بحمدك . فقرأ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ ، حتى قرأ(٧) : ﴿ **أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ** ﴾ [النور : ٢٦] (٨) .

هكذا أورده ، وليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها ، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله ، والله أعلم .

وقال الضحاك ، وأبو الجوزاء ، وسلمة بن نُبَيْط : المراد بها أزواج النبىّ خاصة ، دون غيرهن من النساء .

وقال العَوْفىّ ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ الآية: يعنى أزواج النبى ﷺ ، رماهن أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباؤوا بسخط من الله ، فكان (٩) ذلك فى أزواج النبى ﷺ ثم نزل بعد ذلك : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ، فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل، والشهادة تُرَدّ .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا العوام بن حوشب ، عن شيخ (١٠) من بنى أسد ، عن ابن عباس ـ قال : فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا** ﴾ الآية ـ قال : فى شأن عائشة ، وأزواج النبىﷺ، وهى مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا** ﴾ الآية [النور : ٤ ، ٥] ، قال : فجعل

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « والآخرة ولهم عذاب مهين » وهو خطأ . (٣ ، ٤) زيادة فى ف ، أ .
(٥) فى ف ، أ : « عندى جالس » . (٦) فى ف ، أ : « أوحى الله تعالى إليه » . (٧) فى ف ، أ : « بلغ » .
(٨) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٢) .
(٩) فى ف : « وكان » . (١٠) فى ف ، أ : « العوام بن حوشب عن شيخ » .

www.besturdubooks.wordpress.com

لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهمّ بعضُ القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسر به سورة النور (١) .

فقوله : « وهي مبهمة » ، أي : عامة فى تحريم قذف كل محصنة ، ولَعْنته فى الدنيا والآخرة .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا فى عائشة ، ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم فى المسلمات ، فله ما قال اللّه ، عز وجل ، ولكن عائشة كانت إمَامَ ذلك .

وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح ، ويعضد العموم (٢) ما رواه ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ـ ابن أخى ابن وهب ـ حدثنا عمى ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن أبى الغَيث (٣) ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول اللّه ، وما هُنَّ ؟ قال : « الشرك باللّه ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم اللّه إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سليمان بن بلال ، به (٤) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عَمْرو بن خالد الحَذَّاء الحرانى ، حدثنى أبى، (ح) وحدثنا أبو شُعَيب الحرانى ، حدثنا جدى أحمد بن أبى شُعَيب ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ، عن أبى إسحاق ، عن صِلَة بن زُفَر ، عن حذيفة ، عن النبى ﷺ قال : « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » (٥) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو يحيى الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن مُطَرِّف ، عن المِنْهَال ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : إنهم ـ يعنى : المشركين ـ إذا رَأوا أنه لا يدخلُ الجَنةَ إلا أهل الصلاة ، قالوا : تعالوا حتى نجحد . فيجحدون فيختم [الله] (٦) على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون اللّه حديثًا .

وقال ابن جرير ، وابن أبى حاتم أيضًا : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن دَرَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد عن رسول اللّه ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة ، عُرف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول : كذبوا . فيقول : أهلك وعشيرتك . فيقول : كذبوا ، فيقول : احلفوا . فيحلفون، ثم يُصمتهم اللّه ، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار » (٧) .

وقال ابن أبى حاتم أيضًا : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد اللّه بن أبى شيبة الكوفى ، حدثنا

---

(١) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٣) .

(٢) فى ف ، أ : « الصحيح » . (٣) فى أ : « المغيب » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٨٩) .

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (٣ / ١٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٢٧٩) : « وفيه ليث بن أبى سليم وهو ضعيف وقد يحسن حديثه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) تفسير الطبرى (١٨ / ١٠٥) ورواه أبو يعلى فى مسنده برقم (١٣٩٢) من طريق ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبى الهيثم به ، ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

www.besturdubooks.wordpress.com

مِنْجَاب بن الحارث التميمى (١) ، حدثنا أبو عامر الأسَدِىَ ، حدثنا سفيان ، عن عبيد المُكْتب ، عن فُضَيل بن عمرو الفُقَيمى ، عن الشعبى ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نَوَاجذُه ، ثم قال : « أتدرون (٢) مِمَّ أضحك ؟ » قلنا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : يا رب ، ألم تُجرْنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز علىّ شاهدًا إلا من نفسى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام عليك شهودا(٣). فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعدًا لَكُنَّ وسُحْقًا ، فعنكُنَّ كنتُ أناضل » .

وقد رواه مسلم والنسائى جميعًا ، عن أبى بكر بن أبى النضر ، عن أبيه ، عن عُبَيد اللّه (٤) الأشجعى ، عن سفيان الثورى ، به (٥) . ثم قال النسائى : لا أعلم أحدًا روى هذا الحديث عن سفيان الثورى غير (٦) الأشجعى ، وهو حديث غريب ، واللّه أعلم . هكذا قال .

وقال قتادة : ابن آدم ، والله إن عليك لَشُهودًا غيرَ متهمة فى بدنك ، فراقبهم واتق اللّه فى سرك(٧) وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء (٨) ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو باللّه حسن الظن ، فليفعل ولا قوة إلا باللّه .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَق ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ دِينَهُم ﴾ أى : حسابهم، وكل ما فى القرآن ﴿ دِينَهُم ﴾ أى : حسابهم . وكذا قال غير واحد .

ثم إن قراءة الجمهور بنصب ﴿ الْحَق ﴾ على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع ، على أنه نعت الجلالة . وقرأها بعض السلف فى مصحف أبى بن كعب : « يومئذ يوفيهم اللّه الحقّ دينهم »(٩).

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِين ﴾ أى : وعده ووعيده وحسابه هو العدل ، الذى لا جور فيه .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾ .

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول ، للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول . قال: ونزلت فى عائشة وأهل الإفك .

وهكذا رُوِى عن مجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جُبَير ، والشعبى ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وحبيب بن أبى ثابت ، والضحاك . واختاره ابن جرير ، ووجَّهَهُ بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم

---

(١) فى ف : « التيمى » . (٢) فى ف : « تدرون » . (٣) فى ف ، أ : « شهيدًا » . (٤) فى أ : « عبد الله » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩) .
(٦) فى أ : « إلا » . (٧) فى أ : « سرائرك » . (٨) فى ف : « ضياء » . (٩) فى أ : « يوفيهم الله دينهم الحق » .

www.besturdubooks.wordpress.com

أولى به ، وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ [١] مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء .

وهذا ـ أيضًا ـ يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم ، أى : ما كان اللّه ليجعل عائشة زوجة لرسول اللّه ﷺ إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له ، لا شرعًا ولا قدرا ؛ ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى : هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ، ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أى : بسبب ما قيل فيهم من الكذب ، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : عند اللّه فى جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة النبىّ ﷺ فى الجنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن مسلم ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن يزيد بن عبد الرحمن ، عن الحكم ، عن يحيى بن الجزار قال : جاء أسير[٢] بن جابر إلى عبد اللّه فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة اليوم تكلم بكلام أعجبنى . فقال عبد اللّه : إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة غير طيبة [٣] تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها [٤] رجل عنده يَتُلّها فيضمها إليه . وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها [٥] الرجل الذى عنده يَتُلّها [٦] فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد اللّه : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ .

ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد فى المسند مرفوعًا : « مثل الذى يسمع الحكمة ثم لا يُحدِّث إلا بشر ما سمع ، كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم ، فقال : أجْزرنى شاة . فقال : اذهب فَخُذ بأذن أيها شئتَ . فذهب فأخذ بأذن كَلْب الغنم » [٧] . وفى الحديث الآخر : « الحكمة [٨] ضالة المؤمن ، حيث وجدها أخذها » [٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « فأولئك » وهو خطأ . (٢) فى ف ، أ : « أسيد » . (٣) فى أ : « طائل » .
(٤ ، ٥) فى أ : « فسمعها » . (٦) فى أ : « مثلها » .
(٧) المسند (٢ / ٣٥٣) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه .
(٨) فى أ : « الكلمة » .
(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٨٧) وابن ماجة فى السنن برقم (٤١٦٩) من طريق عبد الله بن نمير ، عن إبراهيم بن الفضل ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم ابن الفضل المدنى المخزومى ، يضعف فى الحديث من قبل حفظه » .

www.besturdubooks.wordpress.com

هذه آداب شرعية ، أدّب اللّه بها عباده المؤمنين ، وذلك فى الاستئذان ، أمر اللّه المؤمنين ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أى : يستأذنوا قبلّ الدخول ويسلموا بعده . وينبغى أن يستأذن ثلاثًا ، فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت (١) فى الصحيح : أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثًا ، فلم يؤذن له ، انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد اللّه بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما رَجَعَك ؟ قال : إنى استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثًا ، فلم يؤذن له ، فلينصرف » . فقال : لَتَأتيَنَّ على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا . فذهب إلى ملأ من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد (٢) لك إلا أصغرنا . فقام معه أبو سعيد الخُدْرِىّ فأخبر عمر بذلك، فقال : ألهانى عنه الصَّفْق بالأسواق (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر عن ثابت ، عن أنس ـ أو : غيره (٤) ـ أن رسول اللّه ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة اللّه » . فقال سعد : وعليك السلام ورحمة اللّه ولم يسمع النبى ﷺ حتى سلم ثلاثًا . ورد عليه (٥) سعد ثلاثًا ولم يُسْمعه. فرجع النبى ﷺ ، واتبعه سعد فقال : يا رسول اللّه ، بأبى وأنت وأمى ، ما سلمتَ تسليمة إلا وهى بأذنى، ولقد رَدَدْتُ عليك ولم أُسْمعك ، وأردتُ أن أستكثر من سلامك ومن البركة . ثم أدخله البيت ، فقرَّبَ إليه زَبيبًا ، فأكل نبىّ اللّه . فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار ، وصلَّت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » (٦) .

وقد رَوَى أبو داود والنسائى ، من حديث أبى عمرو الأوزاعى : سمعت يحيى بن أبى كثير يقول: حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن سعد (٧) بن زرارة ، عن قيس بن سعد ــ هو ابن عبادة ــ قال : زارنا رسولُ اللّه ﷺ فى منزلنا ، فقال : « السلام عليكم ورحمة اللّه » ، فردّ سعد ردًا خفيًا(٨)، قال قيس : فقلت : ألا تأذنْ لرسول اللّه ﷺ ؟ فقال : ذَرْه (٩) يكثر علينا من السلام . فقال رسول اللّه ﷺ : « السلام عليكم ورحمة اللّه » ، فرد سعد رَدًا خفيًا (١٠) ، ثم قال رسول اللّه ﷺ: « السلام عليكم ورحمة اللّه » ، ثم رَجَع رسول اللّه ﷺ ، واتبعه سعد فقال : يا رسول اللّه ، إنى كنت أسمع تسليمك ، وأرد عليك ردًا خفيًا (١١) ، لتكثر علينا من السلام . قال : فانصرف معه [رسول اللّه ﷺ ، فأمر له سعد بغسل ، فاغتسل ، ثم ناوله ملْحَفَة مصبوغة] (١٢) بزعفران ـ أو : وَرَس ـ فاشتمل بها ، ثم رفع رسول اللّه ﷺ يديه وهو يقول : « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » . قال : ثم أصاب رسول اللّه ﷺ من الطعام ، فلما أراد الانصراف قَرّب إليه سعد حمارًا قد وَطّأ عليه بقطيفة ، فركب رسول اللّه ﷺ ، فقال سعد : يا قيس ، اصحب رسول

---

(١) فى أ : « وثبت » .
(٢) فى أ : « لا نشهد » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٢٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٣) .
(٤) فى أ : « وغيره » .
(٥) فى أ : « على » .
(٦) المسند (٣ / ١٣٨) .
(٧) فى أ : « أسعد » .
(٨) فى أ : « خفيفًا » .
(٩) فى أ : « ودعه » .
(١٠) فى أ : « خفيفًا » .
(١١) فى أ : « خفيفًا » .
(١٢) زيادة من أ ، وأبى داود .

www.besturdubooks.wordpress.com

اللّه ﷺ . قال قيس : فقال رسول اللّه ﷺ : « اركب » . فأبيت ، فقال : « إما أن تركب وإما أن تنصرف » . قال : فانصرفت .

وقد روى هذا من وجه آخر [١] ، فهو حديث جيد قوىّ ، واللّه أعلم .

ثم ليُعْلمْ أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن [٢] البابُ عن يمينه أو يساره ؛ لما رواه أبو داود : حدثنا مُؤَمَّل بن الفضل الحرانى ـ فى آخرين ـ قالوا : حدثنا بَقِيَّة ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ، عن عبد اللّه بن بُسْر [٣] ، قال : كان رسول اللّه ﷺ إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . تَفَرد به أبو داود [٤] .

وقال أبو داود أيضًا : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، (ح) قال أبو داود : وحدثنا أبوبكر بن أبى شيبة ، حدثنا حفص ، عن الأعمش ، عن طلحة ، عن هُزَيل قال : جاء رجل ـ قال عثمان : سعد ـ فوقف على باب النبى ﷺ يستأذن ، فقام على الباب ـ قال عثمان : مستقبل الباب ـ فقال له النبى ﷺ : « هكذا عنك ـ أو : هكذا ـ فإنما الاستئذان من النظر » [٥] .

وقد رواه أبو داود الطيالسى ، عن سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن طلحة بن مُصَرّف ، عن رجل ، عن سعد عن النبى ﷺ . رواه أبو داود من حديثه [٦] .

وفى الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فَخَذَفته بحصاة، ففقأت عينه ، ما كان عليك من جُنَاح » [٧] .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المُنْكَدر ، عن جابر قال : أتيتُ النبى ﷺ فى دَين كان على أبى ، فدققتُ الباب ، فقال : « من ذا » ؟ قلت : أنا . قال : « أنا ، أنا » ، كأنه كرهه [٨] .

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها ، وإلا ، فكل أحد يُعبِّر عن نفسه بـ « أنا » ، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذى هو الاستئناس المأمور به فى الآية .

وقال العَوْفى ، عن ابن عباس : الاستئناس : الاستئذان . وكذا قال غيرُ واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بَشَّار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشْر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ **لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا**

---

(١) سنن أبى داود برقم (٥١٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٥٧) ، (٥٠١٥٩) من طريق عبد الله عن الأوزاعى عن يحيى ابن أبى كثير عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان : أن رسول الله ﷺ أتى سعد بن عبادة زائرًا ، فذكر الحديث .

(٢) فى أ : « ليكون » .

(٣) فى أ : « بشر » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٨٦) .

(٥) سنن أبى داود برقم (٥١٧٤) .

(٦) سنن أبى داود برقم (٥١٧٥) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٩٠٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٨) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٢٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٥) وسنن أبى داود برقم (٥١٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٧١١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٦٠) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٠٩) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَتُسلِّمُوا﴾[١] قال : إنما هي خطأ من الكاتب ، « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وتُسَلِّمُوا » .

وهكذا رواه [٢] هُشَيْم عن أبى بشر ـ وهو جعفر بن إياس ـ به . وروى معاذ بن سليمان ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، بمثله ، وزاد : وكان ابن عباس يقرأ : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وتُسَلِّمُوا » ، وكان يقرأ على قراءة أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

وهذا غريب جدًا عن ابن عباس .

وقال هُشَيْم [٣] : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم قال : فى مصحف ابن مسعود : « حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا » . وهذا أيضًا رواية عن ابن عباس ، وهو اختيار ابن جرير .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا رَوْح ، حدثنا ابن جُرَيْج ، أخبرنى عمرو بن أبى سفيان : أن عمرو بن أبى صفوان أخبره ، أن كَلَدَةَ بن الحنبل أخبره ، أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بلبأ وجَدَايَة وضَغَابيس ، والنبى ﷺ بأعلى الوادى . قال : فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن ، فقال النبى ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » ، وذلك بعدما أسلم صفوان .

ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث ابن جريج ، به [٤] وقال الترمذى : حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديثه .

وقال أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو الأحوَص ، عن منصور ، عن رِبْعِى قال: حدثنا [٥] رجل من بنى عامر استأذن على النبى ﷺ ، وهو فى بيته ، فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : « اخرج إلى هذا فعلِّمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبى ﷺ ، فدخل [٦] .

وقال هُشَيْم : أخبرنا منصور ، عن ابن سيرين ــ وأخبرنا يونس بن عبيد ، عن عَمْرو بن سعيد الثقفى ـ أن رجلا استأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ـ أو : أنلج ؟ ـ فقال النبى ﷺ لأمة له ، يقال لها روضة : « قومى إلى هذا فعلميه ، فإنه لا يحسن يستأذن ، فقولى له يقول : السلام عليكم، أأدخل » . فسمعها الرجل ، فقالها ، فقال : « ادخُل » [٧] .

وقال الترمذى : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عَنْبَسَةَ بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذان ، عن محمد بن المنْكَدِر ، عن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : «السلام قبل الكلام » [٨] .

ثم قال الترمذى : عنبسة ضعيف الحديث ذاهب ، ومحمد بن زاذان مُنكَر الحديث .

وقال هُشَيْم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرمضاء ، فأتى فُسْطَاط امرأة من قريش ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ قالت : ادخل بسلام . فأعاد ، فأعادت،

---

(١) فى ف ، أ زيادة : « على أهلها » . (٢) فى أ : « روى » . (٣) فى أ : « سفيان » .

(٤) المسند (٣ / ٤١٤) .

(٥) فى أ : « جاء » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٥١٧٧) .

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .

(٨) سنن الترمذى برقم (٢٦٩٩) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهو يُرَاوِح بين قدميه ، قال : قولى : ادخل . قالت : ادخل ، فدخل (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم الأحول ، حدثنا خالد بن إياس، حدثتنى جدتى أم إياس قالت : كنت فى أربع نسوة نستأذن [على عائشة] (٢) فقلت : ندخل ؟ قالت: لا ، قلن (٣) لصاحبتكن : تستأذن . فقالت : السلام عليكم ، أندخل ؟ قالت : ادخلوا ، ثم قالت : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ [الآية] (٤) .

وقال هُشَيْم : أخبرنا أشعث بن سَوَّار ، عن كُرْدُوس ، عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم . قال أشعث ، عن عدى بن ثابت : إن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى منزلى على الحال التى لا أحب أن يرانى أحد عليها ، والد ولا ولد ، وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى ، وأنا على تلك الحال ؟ قال : فنزلت : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ (٥) .

وقال ابن جُرَيْج : سمعت عطاء بن أبى رباح يخبر عن ابن عباس ، رضى الله عنه ، قال : ثلاث آيات جَحَدها الناس : قال الله : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، قال : ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتًا . قال : والإذن كله قد جحده الناس . قال : قلت : أستأذن على أخواتى أيتام فى حجرى ، معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت ليرخِّص (٦) لى ، فأبى . قال : تحب أن تراها عريانة؟ قلت : لا . قال : فاستأذن . قال : فراجعته أيضًا ، فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قلت : نعم . قال : فاستأذن .

قال ابن جُرَيْج : وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عريتها من ذات محرم . قال : وكان يشدد فى ذلك .

وقال ابن جريج ، عن الزهرى : سمعت هُزَيل بن شُرَحْبِيل الأوْدِىّ الأعمى ، أنه سمع ابن مسعود يقول : عليكم الإذن على أمهاتكم .

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا .

وهذا محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .

وقال أبو جعفر بن جَرِير : حدثنا القاسم ، [قال] (٧) حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن حازم ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخى زينب ـ امرأة عبد الله بن مسعود ـ عن زينب ، رضى الله عنها ، قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق ؛ كراهية (٨) أن يهجُم منا على أمر يكرهه (٩) . إسناد صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سِنَان الواسطى ، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر ، حدثنا

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .
(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى هـ ، أ : « قلت » ، والمثبت من ف . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .
(٦) فى أ : « على لمن خضرنى » . (٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) فى ف : « كراهة » .
(٩) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٨) .

www.besturdubooks.wordpress.com

الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى هُبَيْرة [١] قال : كان عبد اللّه إذا دخل الدار استأنس ــ تكلم ورفع صوته .

[و] [٢] قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ قال : تنحنحوا ــ أو [٣] : تَنَخَّموا .

وعن الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه اللّه ، أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه .

ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول اللّه ﷺ : أنه نَهَى أن يطرقَ الرجل أهلَه طُروقاً ــ وفى رواية: ليلا يَتَخونّهم [٤] .

وفى الحديث الآخر : أن رسول اللّه ﷺ قدم المدينة نهارًا ، فأناخ بظاهرها ، وقال : « انتظروا حتى تدخل عشاء ـ يعنى : آخر النهار ـ حتى تمتشط الشَّعِثَة وتستحدّ المُغَيبة » [٥] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا عبد الرحمن [٦] بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثنى أبو سَوْرَة ابن أخى أبى أيوب ، عن أبى أيوب قال : قلت: يا رسول اللّه ، هذا السلام ، فما الاستئناس ؟ قال : « يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنحنح فَيؤذنُ أهل البيت » . هذا حديث غريب [٧] .

وقال قتادة فى قوله : ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ ، قال : هو الاستئذان . [قال : وكان يقال : الاستئذان] [٨] ثلاث ، فمن لم يؤذن له فيهن ، فليرجع . أما الأولى : فليسمع [٩] الحى ، وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم ، وأما الثالثة : فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا . ولا تَقِفَنَّ على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال ، واللّه أولى بالعذر .

وقال مقاتل بن حيَّان فى قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه ، لا يسلم عليه ، ويقول: حُيِّيتَ صباحًا وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم . وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول : « قد دخلتُ » . فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله، فغَيَّر اللّه ذلك كله ، فى ستر وعفة ، وجعله نقيًا نَزهًا من الدنس والقذر والدرَن ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بيُوتًا غَيْرَ بيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « عبيدة » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى أ : « و » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٤٣ ، ٥٢٤٤) وصحيح مسلم برقم (٧١٥) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٤٧) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٦) فى هـ : « عبد الرحيم » .

(٧) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٨ / ٦٠٧) ومن طريقه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٧٠٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٨/٤) ، حدثنا عبيد بن غنام عن أبى بكر بن أبى شيبة ، به . قال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ١٧١) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف ، أ : « فليستمع » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهذا الذى قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُم ﴾ يعنى : الاستئذان خير لكم ، بمعنى : هو خير للطرفين (١) : للمستأذن ولأهل البيت ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أى : إذا ردّوكم من الباب قبلَ الإذن أو بعده ، ﴿ فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أى : رجوعكم (٢) أزكى لكم وأطهر ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم ﴾ .

وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ عمرى كلَّه هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذنَ على بعض إخوانى ، فيقول لى : « ارجع » ، فأرجع وأنا مغتبط (٣) [لقوله] (٤) : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُم وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم ﴾ .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ أى : لا تقفوا على أبواب الناس .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُون ﴾: هذه الآية الكريمة أخص من التى (٥) قبلها ، وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التى ليس فيها أحد ، إذا كان له (٦) فيها متاع ، بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف ، إذا أذن له فيه أولَ مرة ، كفى .

قال ابن جُرَيْج : قال ابن عباس : ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُم ﴾ ، ثم نُسخ واستثنى فقال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُم ﴾ . وكذا روى عن عكرمة ، والحسن البصرى .

وقال آخرون : هى بيوت التجار ، كالخانات (٧) ، ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة ، وغير ذلك . واختار ذلك ابن جرير ، وحكاه عن جماعة . والأول أظهر ، والله أعلم .

وقال مالك عن زيد بن أسلم : هى بيوت الشَّعر .

ـ ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون (٣٠) ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه (٨) ، وأن يغضوا (٩) أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحرَّم من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعًا ، كما رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث يونس بن عُبَيد ، عن عَمرو بن سعيد ، عن أبى زُرْعَة بن عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبد الله البجلى، رضى الله عنه ، قال : سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أصرفَ بَصَرى .

وكذا رواه الإمام أحمد ، عن هُشَيْم ، عن يونس بن عبيد ، به . ورواه أبو داود والترمذى

---

(١) فى ف ، أ : « من الطرفين » . (٢) فى أ : « رجعوكم » . (٣) فى أ : « متغيظ » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « الذى » . (٦) فى ف ، أ : « لكم » .
(٧) فى أ : « فى الخانات » . (٨) فى ف : « إليهم » . (٩) فى ف : « يغمصوا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

والنسائى ، من حديثه أيضًا [١] . وقال الترمذى : حسن صحيح . وفى رواية لبعضهم : فقال : «أطرقْ بصرك » ، يعنى : انظر إلى الأرض . والصرف أعم ؛ فإنه قد يكون إلى الأرض ، وإلى [٢] جهة أخرى ، واللّه أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفَزَارى ، حدثنا شَرِيك ، عن أبى ربيعة الإيادى ، عن عبد اللّه بن بُرَيْدة ، عن أبيه قال : قال رسول اللّه ﷺ لعلى : « يا علىّ ، لا تتبع النظرة النظرةَ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » .

ورواه الترمذى من حديث شَريك [٣] ، وقال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه .

وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » . قالوا : يا رسول اللّه ، لابد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها . فقال رسول اللّه ﷺ : « إن أبيتم ، فأعطوا الطريق حقَّه » . قالوا : وما حقّ الطريق يا رسول اللّه ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » [٤] .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا فضل [٥] بن جبير : سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « اكفلوا لى بِستّ أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اؤتمن فلا يَخُن ، وإذا وَعَد فلا يخلف . وَغُضُّوا أبصاركم ، وكُفُّوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » [٦] .

وفى صحيح البخارى : « من يكفل [٧] لى ما بين لَحْيَيه و ما بين رجليه ، أكفل له الجنة » [٨] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا مَعْمَر ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة قال : كل ما عُصى اللّه به ، فهو كبيرة . وقد ذكر الطَّرْفين فقال : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ .

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب ، كما قال بعض السلف : « النظر سهام سم إلى القلب » ؛ ولذلك أمر اللّه بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك ، فقال : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾ . وحفظُ الفَرج تارةً يكون بمنعه من الزنا ، كما قال : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾ [المعارج : ٢٩ ، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد [٩] والسنن :

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٥٩) والمسند (٤ / ٣٦١) وسنن أبى داود برقم (٢١٤٨) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٢٣٣) .

(٢) فى أ : « أو إلى » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢١٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٧) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٢١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(٥) فى هـ : « فضال » .

(٦) رواه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٧ / ٣٩٢) من طريق أبى القاسم البغوى ، به . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨ / ٣١٤) وابن حبان فى المجروحين (٢ / ٢٠٤) من طريق فضال بن جبير . ويقال : ابن زبير ، به . وقال ابن حبان : « فضال بن جبير لا يحل الاحتجاج به » .

(٧) فى أ : « كفل » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه .

(٩) فى أ : « المسند » .

www.besturdubooks.wordpress.com

«احفظ عورتك ، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » (١) .

﴿ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُم ﴾ أى : أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم ، كما قيل : « من حفظ بصره ، أورثه اللّه نورًا فى بصيرته » . ويروى : « فى قلبه » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عَتَّاب ، حدثنا عبد اللّه بن المبارك ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن عُبَيْد اللّه بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أوّل مرّة] (٢) ، ثم يَغُضّ بصره ، إلا أخلف اللّه له عبادة يجد حلاوتها » (٣) .

ورُوى هذا مرفوعًا عن ابن عمر ، وحذيفة ، وعائشة ، رضى اللّه عنهم (٤) ، ولكن فى إسنادها ضعف ، إلا أنها فى الترغيب ، ومثله يتسامح فيه .

وفى الطبرانى من طريق عبيد اللّه بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعًا : « لَتغضُنَّ أبصاركم ، ولتحفظن فروجكم ، ولتقيمُنّ وجوهكم ـ أو : لتكسفن وجوهكم»(٥).

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التُّسْتَرِىّ قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ ، حدثنا يحيى بن أبى بُكَيْر ، حدثنا هُرَيْم بن سفيان ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد اللّه بن مسعود ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتى ، أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » (٦) .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور ﴾ [غافر : ١٩] .

وفى الصحيح ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كُتبَ على ابن آدم حَظّه من الزنا ، أدركَ ذلك لا محالة . فَزنا العينين : النظر . وزنا اللسان : النَطقُ . وزنا الأذنين: الاستماع . وزنا اليدين : البطش . وزنا الرجلين : الخطى . والنفس تَمَنّى وتشتهى ، والفرج يُصَدِّق ذلك أو يُكذبه » .

---

(١) المسند (٥ / ٣ ، ٤) وسنن أبى داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة ، رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) المسند (٥ / ٢٦٤) . وفى إسناده عبيد الله بن زحر ، قال ابن حبان : « يروى الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات ، وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم أبو عبد الرحمن ، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم » .

(٤) أما حديث حذيفة ، فرواه الحاكم فى المستدرك (٤ / ٣١٤) من طريق إسحاق القرشى عن هشيم عن عبد الرحمن عن إسحاق عن محارب عن صلة بن زفر عن حذيفة ، رضى الله عنه ، وصححه الحاكم ، وتعقبه الذهبى . قلت : إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه . وأما حديث ابن عمر ، فرواه أبو نعيم فى الحلية (٦ / ١٠١) من طريق أبى اليمان عن أبى المهدى عن أبى الزاهرية عن كثير بن مرة عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، وإسناده ضعيف جدًا .

(٥) المعجم الكبير (٨ / ٢٤٦) وعبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ضعفاء .

(٦) المعجم الكبير (١٠ / ٢١٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٨ / ٦٣) : « وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى وهو ضعيف » .

www.besturdubooks.wordpress.com

رواه البخارى تعليقاً ، ومسلم مسنداً من وجه آخر [١] ، بنحو ما تقدم .

وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهَون أن يحدَّ الرجل بَصَره [٢] إلى الأمرد . وقد شَدَد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحَرَمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان ، وشَدَّد آخرون فى ذلك كثيراً جداً .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو سعيد المدنى [٣] ، حدثنا عمر بن سهل المازنى ، حدثنى عمر بن محمد بن صُهْبَان ، حدثنى صفوان بن سليم ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ: « كل عين باكية [٤] يوم القيامة ، إلا عينًا غَضّت عن محارم اللّه ، وعينًا سهرت فى سبيل اللّه ، وعينًا يخرج منها مثل رأس الذباب ، من خشية اللّه ، عز وجل » [٥] .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ .

هذا [٦] أمْرٌ من اللّه تعالى للنساء المؤمنات ، وغَيْرَة [٧] منه لأزواجهنّ ، عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات . وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيَّان قال : بلغنا ـ واللّه أعلم ـ أن جابر بن عبد اللّه الأنصارى حَدث : أن « أسماء بنت مُرْشِدَة » كانت فى محل لها فى بنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتَأزّرات فيبدو ما فى أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل اللّه : **﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُن ﴾** الآية .

فقوله تعالى : **﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾** أى : عما حَرَّم اللّه عليهن من النظر إلى غير أزواجهن . ولهذا ذهب [كثير من العلماء] [٨] إلى أنه : لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً . واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى ، من حديث الزهرى ، عن نبهان ـ مولى أم سلمة ـ أنه حدثه : أن أم سلمة حَدَّثته : أنها كانت عند رسول اللّه ﷺ وميمونة، قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابنُ أمّ مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول اللّه ﷺ:« احتجبا منه » . فقلت :يا رسول اللّه ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧) .

(٢) فى أ : « نظره » . (٣) فى أ : « المقبرى » . (٤) فى أ : « زانية » .

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣ / ١٦٣) من طريق داود بن عطاء عن عمر بن صهبان ، عن صفوان عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . فلا أدرى أسقط أبو سلمة من إسناد ابن أبى الدنيا أم لا ؟ وعمر بن صهبان منكر الحديث اتفق الأئمة على تضعيفه .

(٦) فى ف ، أ : « وهذا » . (٧) فى أ : « وعزة » . (٨) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

فقال رسول الله ﷺ : « أو عمياوان (١) أنتما؟ ألستما تبصرانه » (٢) .
ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .
وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ جَعَلَ ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه : وهو يسترها منهم حتى مَلَّت ورجعت (٣) .
وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُن ﴾ : قال سعيد بن جُبَيْر : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُن ﴾ ألا يراها أحد .
وقال (٤) : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أي : ولا يُظهرْنَ شيئا من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه .
وقال ابن مسعود : كالرداء والثياب . يعني : على ما كان يتعاناه نساء العرب ، من المقَنعة التي تُجَلِّل ثيابها ، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه ؛ لأن هذا لا يمكن اخفاؤه . [ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه . وقال] (٥) بقول ابن مسعود : الحسن ، وابن سيرين ، وأبو الجوزاء ، وإبراهيم النَّخَعي ، وغيرهم .
وقال الأعمش ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم . ورُوي عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبي الشعثاء ، والضحاك ، وإبراهيم النَّخَعي ، وغيرهم ـ نحوُ ذلك . وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها ، كما قال أبو إسحاق السَّبيعي ، عن أبي الأحْوَص ، عن عبد الله قال في قوله : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ : الزينة القُرْط والدُّمْلُج والخلخال والقلادة . وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتان : فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، [وزينة يراها الأجانب ، وهي] (٦) الظاهر من الثياب .
وقال الزهري : [لا يبدو] (٧) لهؤلاء الذين سَمَّى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر ، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم .
وقال مالك ، عن الزهري : ﴿ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ : الخاتم والخلخال .
ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه :
حدثنا يعقوب بن كعب الإنطاكي ومُؤَمَّل بن الفضل الحَرَّاني قالا : حدثنا الوليد ، عن سعيد بن بَشير ، عن قتادة ، عن خالد بن دُرَيك عن عائشة ، رضي الله عنها ؛ أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم

---

(١) في أ : « أفعمياوان » .
(٢) سنن أبي داود برقم (٤١١٢) وسنن الترمذي برقم (٢٧٧٨) .
(٣) صحيح البخاري برقم (٤٥٤) .
(٤) في أ : « وقوله » .
(٥ ، ٦ ، ٧) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

يصلح أن يُرَى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه (١) .

لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازى : هذا مرسل ؛ خالد بن دُرَيك لم يسمع من عائشة ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : المقانع يعمل لها صَنفات ضاربات على صدور النساء ، لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ؛ ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها ، لا يواريه شىء ، وربما أظهرت (٢) عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ والخمر : جمع خمار ، وهو ما يُخَمر به ، أى : يغطى به الرأس ، وهى التى تسميها الناس المقانع .

قال سعيد بن جبير : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ : وليشددن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : على النحر والصدر ، فلا يرى منه شىء .

وقال البخارى : وقال أحمد بن شَبِيب (٣) : حدثنا أبى ، عن يونس ، عن (٤) ابن شهَاب ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققْنَ مُرُوطهن فاختمرن به (٥) (٦) .

وقال أيضا : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن الحسن بن مسلم ، عن صَفيّة بنت شيبة ؛ أن عائشة ، رضى الله عنها ، كانت تقول (٧) : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزرهن فَشَقَقنها من قبل الحواشى ، فاختمرن بها (٨) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنى الزنجىّ بن خالد ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة ، قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن . فقالت عائشة ، رضى الله عنها : إن لنساء قريش لفضلاً ، وإنى ـ والله ـ وما رأيت أفضلَ من نساء الأنصار أشدّ تصديقاً بكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل . لقد أنزلت سورة النور : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابة (٩) ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مِرْطها المُرَحَّل فاعتجرت به ، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحْنَ وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات ، كأن على رؤوسهن الغربان .

---

(١) سنن أبى داود برقم (٤١٠٤) .

(٢) فى ف : « ظهرت » .

(٣) فى هـ : « حدثنا أحمد بن شبيب » وفى ف ، أ : « حدثنا أحمد بن شبيب قال » والمثبت من البخارى .

(٤) فى ف ، أ : « قال » .

(٥) فى ف : « بها » وفى أ : « بهن » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٨) .

(٧) فى هـ ، ف : « رضى الله عنها قالت : لما » ، والمثبت من البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٩) .

(٩) فى ف : « قرابته » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ورواه أبو داود من غير وجه ، عن صفية بنت شيبة ، به [١] .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أن قُرَّة بن عبد الرحمن أخبره ، عن ابن شهاب ، عن عُرْوَة ، عن عائشة ؛ أنها قالت : يرحم اللّه النساء المهاجرات الأوَل ، لما أنزل اللّه : ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾ شقّقن أكثَف مروطهن فاختمرن به . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب ، به [٢] .

وقوله : ﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ** ﴾ يعنى : أزواجهن ، ﴿ **أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ** ﴾ ، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج [٣] .

وقال ابن المنذر : حدثنا موسى ـ يعنى : ابن هارون ـ حدثنا أبو بكر ـ يعنى ابن أبى شيبة ـ حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود ، عن الشعبى وعكْرِمَة فى هذه الآية : ﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ** ﴾ ـ حتى فرغ منها قال : لم يذكر العم ولا الخال ؛ لأنهما ينعَتان [٤] لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : ﴿ **أَوْ نِسَائِهِنَّ** ﴾ يعنى : تُظهر زينتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ؛ لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك ـ وإن كان محذورًا فى جميع النساء ـ إلا أنه فى نساء أهل الذمة أشدّ ، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع ، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه . وقد قال رسول اللّه ﷺ : « لا تباشر المرأة المرأةَ ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » . أخرجاه فى الصحيحين ، عن ابن مسعود [٥] .

وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن هشام بن الغاز ، عن عبادة بن نُسَىّ ، عن أبيه ، عن الحارث بن قيس قال : كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة : أما بعد، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه مَنْ قِبَلَك فلا[٦] يحل لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها [٧] .

وقال مجاهد فى قوله : ﴿ **أَوْ نِسَائِهِنَّ** ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدى المشركة .

وروى عَبدُ فى تفسيره [٨] ، عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس : ﴿ **أَوْ نِسَائِهِنَّ** ﴾ قال: هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية ، وهو النَّحْر والقُرْط والوُشَاح ، وما لا يحل أن يراه إلا محرم .

---

(١) سنن أبى داود برقم (٤١٠٠ ، ٤١٠١) .

(٢) تفسير الطبرى (١٨ / ٩٤) وسنن أبى داود برقم (٤١٠٢) .

(٣) فى أ : « بهرج » .

(٤) فى أ : « يتبعان » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٢٤١) .

(٦) فى ف ، أ : « فإنه لا » .

(٧) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ٩٥) من طريق سعيد بن منصور ، به .

(٨) فى ف : « تفسير » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وروى سعيد : حدثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ ، فليست [١] من نسائهن .

وعن مكحول وعبادة بن نُسَيّ : أنهما كرها أن تقبل النصرانيةُ واليهودية والمجوسية المسلمة .

فأما ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو عمير ، حدثنا ضَمْرَة قال : قال ابن عطاء ، عن أبيه : ولما قدم أصحاب النبي ﷺ بيت المقدس ، كان قَوَابل نسائهم اليهوديات والنصرانيات فهذا ـ إن صح ـ محمول على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان ، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولابد ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُن ﴾ قال ابن جُرَيج [٢] : يعني : من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر [زينتها لها وإن كانت مشركة ؛ لأنها أمتها . وإليه ذهب سعيد بن المسيَّب . وقال الأكثرون : بل يجوز لها أن تظهر] [٣] على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود :

حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس ، رضي الله عنه، أن النبي [٤] ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها . قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قَنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك » [٥] .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه [في] [٦] ترجمة حُدَيْج الخَصِيّ ـ مولى معاوية ـ أن عبدالله بن مَسْعَدَة الفزاري كان أسود شديد الأدمة ، وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة ، فربّته ثم أعتقته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان من أشد الناس على عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه [٧] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة ، عن الزهري ، عن نَبْهَان ، عن أم سلمة ، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان لإحداكن مُكَاتَب ، وكان له ما يؤدي ، فلتحتجب منه » .

ورواه أبو داود ، عن مُسَدَّد ، عن سفيان ، به [٨] .

وقوله : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعني : كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك في عقولهم وَلَه وخَوَث [٩] ، ولا هَم لهم إلى النساء ولا يشتهونهن .

قال ابن عباس : هو المغفل الذي لا شهوة له .

وقال مجاهد : هو الأبْلَه .

وقال عكرمة : هو المخَنَّث الذي لا يقوم زُبُّه . وكذلك قال غير واحد من السلف .

وفي الصحيح من حديث الزهري ، عن عُرْوَة ، عن عائشة ؛ أن مخنثاً كان يدخل على أهل

---

(١) في ف : « فليس » ، وفي أ : « فلسن » .
(٢) في أ : « جرير » .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) في ف : « نبي الله » .
(٥) سنن أبي داود برقم (٤١٠٦) .
(٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) تاريخ دمشق (٤ / ٢٧٨ « المخطوط ») .
(٨) المسند (٦ / ٢٨٩) وسنن أبي داود برقم (٣٩٢٨) .
(٩) في ف ، أ : « وحوب » .

www.besturdubooks.wordpress.com

رسول الله ﷺ ، وكانوا يعدّونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبىّ ﷺ وهو ينعَت امرأة : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا، لا يدخلَنّ عليكُنَ » فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عُرْوَةَ ، عن أبيه ، عن زينب بنت أبى سلمة ، عن أم سلمة قالت : دخل عليها [رسول الله ﷺ] (٢) وعندها مخنث ، وعندها [أخوها](٣) عبد الله بن أبى أمية [والمخنث يقول لعبد الله : يا عبد الله بن أبى أمية] (٤) ، إن فتح الله عليكم الطائف غدًا ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر (٥) بثمان . قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : « لا يدخلن هذا عليك » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث هشام بن عروة ، به (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبى ﷺ مخنث ، وكانوا يعُدّونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبى ﷺ يوما وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة . فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال النبى ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ؟ لا يدخلَنَ عليكم هذا » ، فحجبوه .

ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى من طريق عبد الرزاق ، به (٧) .

وقوله : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يعنى : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهنّ من كلامهن (٨) الرخيم ، وتعطفهن فى المشية وحركاتهن ، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء . فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إياكم والدخول على النساء » . قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت الحمْوُ؟ قال : «الحَمْوُ الموت » .

وقوله : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ :كانت المرأة فى الجاهلية إذا كانت (٩) تمشى فى الطريق وفى رجلها خلخال صامت ـ لا يسمع صوته ـ ضربت برجلها الأرض ، فيعلم الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شىء من زينتها مستورًا ، فتحركت بحركة لتظهر (١٠) ما هو خفى ، دخل فى هذا النهى ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ . ومن ذلك أيضا أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها لَيَشْتَمَ (١١) الرجال طيبها ، فقد قال أبو عيسى الترمذى :

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٨١) وزيادة : « فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعة .... الحديث » أخرجها أبو داود فى السنن برقم (٤١٠٩) من طريق الزهرى ، به ، وليست فى صحيح مسلم .

(٢ ـ ٤) زيادة من ف ، أ ، والمسند. (٥) فى ف ، أ : « وتذهب » .

(٦) المسند (٦ / ٢٩٠) وصحيح البخارى برقم (٥٨٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٠) .

(٧) المسند (٦ / ١٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٨١) وسنن أبى داود برقم (٤١٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى (٩٢٤٧) .

(٨) فى ف : « كلامهم » . (٩) فى ف : « كانت المرأة إذا كانت فى الجاهلية » .

(١٠) فى ف : « ليظهر » . (١١) فى أ : « ليشم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد القَطَّان ، عن ثابت بن عُمَارة الحنفى ، عن غُنَيْم ابن قيس ، عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرَّت بالمجلس فهى كذا وكذا » يعنى زانية (١) .

قال : وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حسن صحيح .

رواه أبو داود والنسائى ، من حديث ثابت بن عمارة ، (٢) به .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن عاصم بن (٣) عبيد الله ، عن عبيد مولى أبى رُهْم ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : لقيتْه امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار فقال : يا أمة الجبار ، جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : [وله] (٤) تَطَيَّبت ؟ قالت: نعم . قال : إنى سمعت حبى أبا القاسم (٥) ﷺ يقول : « لا يقبل الله صلاة امرأة تَطَيَّبت لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغتسل غُسلها من الجنابة » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن سفيان ــ هو ابن عيينة ــ (٦) به .

وروى الترمذى أيضًا من حديث موسى بن عُبَيدة ، عن أيوب بن خالد ، عن ميمونة بنت سعد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » (٧) .

ومن ذلك أيضًا أنهن يُنهَين عن المشى فى وسط الطريق ؛ لما فيه من التبرج . قال أبو داود :

حدثنا القَعْنَبِىّ ، حدثنا عبد العزيز ــ يعنى : ابن محمد ــ عن (٨) أبى اليمان ، عن شداد بن أبى عمرو بن حماس ، عن أبيه ، عن حمزة بن أبى أسيد الأنصارى ، عن أبيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد ـ وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق ـ فقال رسول الله ﷺ للنساء : « استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْن (٩) الطريق ، عليكن بحافات الطريق » ، فكانت المرأة تلصق بالجدار ، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار ، من لصوقها به (١٠) .

وقوله : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفَلاح كل الفَلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا (١١) عنه ، والله تعالى هو المستعان [وعليه التكلان] (١٢) .

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن

(١) سنن الترمذى برقم (٢٧٨٦) .
(٢) سنن أبى داود برقم (٤١٧٣) وسنن النسائى (٨ / ١٥٣) .
(٣) فى ف : « عن » . (٤) زيادة من ف ، أ ، وأبى داود . (٥) فى ف : « رسول الله » .
(٦) سنن أبى داود برقم (٤١٧٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٠٠٢) .
(٧) سنن الترمذى برقم (١١٦٧) وقال الترمذى : « وهذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف فى الحديث من قبل حفظه وهو صدوق ، وقد رواه بعضهم عن موسى بن عبيدة ولم يرفعه » .
(٨) فى ف : « ابن » . (٩) فى ف : « تحتضن » ، وفى أ : « تختص » .
(١٠) سنن أبى داود برقم (٥٢٧٢) .
(١١) فى أ : « ما نهاه » . (١٢) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَضْلِه وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ﴾ .

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : ﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ** ﴾ :هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قَدَر عليه . واحتجوا بظاهر قوله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء » . أخـرجاه من حديث ابن مسعود(١).

وجاء فى السنن ــ من غير وجه ــ أن رسول اللّه ﷺ قال : « تَزَوَّجوا ، توالدوا ، تناسلوا ، فإنى مُبَاه بكم الأمم يوم القيامة » (٢) . وفى رواية : « حتى بالسقط » .

الأيامى : جمع أيِّم ، ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها ، وللرجل الذى لا زوجة له . وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهرى عن أهل اللغة ، يقال : رجل أيِّم وامرأة أيِّم أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ **إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ ، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : رغبهم اللّه فى التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى ، فقال : ﴿ **إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمود بن خالد الأزرق ، حدثنا عمر بن عبد الواحد ، عن سعيد ــ يعنى : ابن عبد العزيز ــ قال : بلغنى أن أبا بكر الصديق ، رضى اللّه عنه ، قال : أطيعوا اللّه فيما أمركم به من النكاح ، ينجز [لكم] (٣) ما وعدكم من الغنى ، قال : ﴿ **إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ .

وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول اللّه تعالى : ﴿ **إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ . رواه (٤) ابن جرير ، وذكر البغوى عن عمر بنحوه .

وعن الليث عن محمد بن عَجْلان ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال: قال رسول اللّه ﷺ : « ثلاثة حَقٌّ على اللّه عَوْنهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتَب يريد الأداء، والغازى فى سبيل اللّه » . رواه الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه (٥) .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٥٠) وسنن النسائى (٦ / ٦٥) .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « ورواه » .

(٥) المسند (٢ / ٢٥١) وسنن الترمذى برقم (١٦٥٥) وسنن النسائى (٦ / ٦١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥١٨) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقد زوج رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد إلا إزاره (١) ، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوّجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما يحفظه من القرآن .

والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه [وإياها] (٢) ما فيه كفاية له ولها . فأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث : « تزوجوا فقراء يغنكم الله » ، فلا أصل له ، ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن ، وفى القرآن غنية عنه ، وكذا (٣) هذا الحديث الذى أوردناه ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ : هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً [بالتعفف] (٤) عن الحرام ، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام (٥) ـ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغَضُّ للبصر ، وأحْصَنُ للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء » .

وهذه (٦) الآية مطلقة ، والتي فى سورة النساء أخص منها ، وهى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ **ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [النساء : ٢٥] ، أى صبركم عن تزويج الإماء خير؛ لأن الولد يجىء رقيقا ، ﴿ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

قال عكرمة فى قوله : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا** ﴾ قال : هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى ، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض (٧) حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر فى ملكوت السموات [والأرض] (٨) حتى يغنيه الله .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** ﴾ : هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكاتبوا (٩) ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيِّده المال الذى شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرُ إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكاتبه .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الشعبى : إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه .

وقال ابن وهب ، عن إسماعيل بن عياش ، عن رجل ، عن عطاء بن أبى رَبَاح : إن يشأ يكاتبه وإن لم يشأ لم يكاتبه (١٠) . وكذا قال مُقاتل بن حيَّان ، والحسن البصرى .

وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبدُه ذلك ، أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر :

قال البخارى : وقال روح ، عن ابن جُرَيْج قلت لعَطَاء : [أواجب علىّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبًا . وقال عمرو بن دينار : قلت لعطاء] (١١) : أتأثُرُه عن أحد ؟ قال : لا . ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره ، أن سيرين سأل أنسًا المكاتبةَ ـ وكان كثير المال ، فأبى .

---

(١) فى أ : « الإزارة » .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) فى ف : « وكذلك » .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ف : « ﷺ » .
(٦) فى ف : « فهذه » .
(٧) فى ف : « فليقض » .
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) فى ف : « يكاتبوهم » .
(١٠) فى ف ، أ : « إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه » .
(١١) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

www.besturdubooks.wordpress.com

فانطلق إلى عمر بن الخطاب فقال : كاتبه . فأبى ، فضربه بالدّرة ، ويتلو عمر ، رضى الله عنه : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ (١) إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ، فكاتبه (٢) .

هكذا ذكره البخارى تعليقا (٣) ، ورواه عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج قال : قلت لعطاء : أواجب عليّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبًا . وقال عمرو (٤) بن دينار ، قال : قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بَشَّار ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن سيرين أراد أن يكاتبه ، فتلكأ عليه ، فقال له عمر : لتكاتبَنَّه . إسناد صحيح (٦).

وقال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيْم بن جُوَيْبِر ، عن الضحاك قال : هى عَزْمَة .

وهذا هو القول القديم من قولى الشافعى ، رحمه الله ، وذهب فى الجديد إلى أنه لا يجب ؛ لقوله ، عليه الصلاة والسلام (٧) : « لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه » (٨) .

وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أنْ ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحدًا من الأئمة أكره أحدًا على أن يكاتب عبده . قال مالك : وإنما ذلك أمر من الله ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب .

وكذا قال الثورى ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم . واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ، قال بعضهم : أمانة . وقال بعضهم : صدقا . [وقال بعضهم: مالا] (٩) . وقال بعضهم : حيلة وكسبا .

وروى أبو داود فى كتاب المراسيل ، عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول الله ﷺ : «﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ »قال: « إن علمتم فيهم حرفة ،ولا ترسلوهم كَلا (١٠) على الناس».

وقوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾ ، اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ، ثم قال بعضهم : مقدار الربع . وقيل : الثلث . وقيل : النصف . وقيل : جزء من الكتابة من غير واحد .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾ : هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكوات . وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل ابن حيان . واختاره ابن جرير .

---

(١) فى ف : « وكاتبوهم » وهو خطأ .
(٢) صحيح البخارى (٥ / ١٨٤) « فتح » .
(٣) فى أ : « معلقا » . (٤) فى أ : « عمر » .
(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٩٨) من طريق عبد الرزاق به .
(٦) تفسير الطبرى (١٨ / ٩٨) .
(٧) فى ف : « ﷺ » .
(٨) رواه أحمد فى مسنده (٥ / ٧٢) من حديث عم أبى حرة الرقاشى ، وفى (٥ / ٤٢٥) من حديث أبى حميد الساعدى ، وفى (٣/ ٤٢٣) من حديث عمرو بن يثربى .
(٩) زيادة من ف ، أ . (١٠) فى ف ، أ : « كلايا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال إبراهيم النَّخَعيّ في قوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾ قال : حَثَّ الناس عليه (١) ، مولاه وغيره . وكذلك قال بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلمى ، وقتادة .

وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب . وقد تقدَّمَ فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاثة حق على الله عونهم » : فذكر منهم المكاتَب يريد الأداء ، والقول الأول أشهر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا وَكِيع ، عن ابن شَبِيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن عمر ؛ أنه كاتب عبداً له ، يكنى أبا أمية ، فجاء بنجمه حين حل ، فقال : يا أبا أمية ، اذهب فاستعن به فى مكاتبتك . قال : يا أمير المؤمنين ، لو تركتَه حتى يكون من آخر نجم ؟ قال : أخاف ألا أدرك ذلك . ثم قرأ : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾، قال عكرمة : كان (٢) أول نجم أدّى فى الإسلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا هارون بن المغيرة ، عن عنبَسَة ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتَبه لم يضع عنه شيئا من أول نجومه ، مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته . ولكنه إذا كان فى آخر مكاتبته ، وضع عنه ما أحبّ (٣) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾ قال : يعنى : ضعوا عنهم من مكاتبتهم . وكذلك قال مجاهد ، وعطاء ، والقاسم بن أبى بَزَّة ، وعبد الكريم بن مالك الجَزَرِىّ ، والسدى .

وقال محمد بن سيرين فى قوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾ : كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتَبه طائفة من مكاتبته .

وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا الفضل بن شاذان المقرئ ، أخبرنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام ابن يوسف ، عن ابن جُرَيْج ، أخبرنى عطاء بن السائب : أن عبد الله بن جندب أخبره ، عن على ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ربع الكتابة » (٤) .

وهذا حديث غريب ، ورفعه منكر ، والأشبه أنه موقوف على علىّ ، رضى الله عنه ، كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله (٥) .

وقوله : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية : كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة ، أرسلها تزنى ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كلّ وقت . فلما جاء الإسلام ، نهى الله المسلمين (٦) عن ذلك .

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة ـ فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، من السلف والخلف ـ فى شأن عبد الله بن أبى بن سلول [المنافق] (٧) ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرههن على البِغاء طلبا لخَراجهن ، ورغبة فى أولادهن ، ورياسة منه فيما يزعم [قبحه الله ولعنه] (٨) .

---

(١) فى ف ، أ : « على » . (٢) فى ف ، أ : « فكان » .

(٣) تفسير الطبرى (١٨ / ١٠١) .

(٤) ورواه عبد الرزاق فى المصنف برقم (١٥٥٨٩) من طريق ابن جريج ، به . وقال : « قال ابن جريج : وأخبرنى غير واحد عن عطاء ابن السائب أنه كان يحدث بهذا الحديث ، لا يذكر فيه النبى ﷺ » .

(٥) ورواه عبد الرزاق فى مصنفه برقم (١٥٥٩٠) من طريق معمر ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، به .

(٦) فى ف ، أ : « المؤمنين » . (٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

[ذكر الآثار (١) الواردة فى ذلك] (٢) :

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزَّار ، رحمه الله ، فى مسنده : حدثنا أحمد ابن داود الواسطى ، حدثنا أبو عمرو اللخمى ـ يعنى : محمد بن الحجاج ـ حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهرى قال : كانت جارية لعبد الله بن أبى بن سلول ، يقال لها : معاذة ، يكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيم** ﴾ (٣) .

وقال الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر فى هذه الآية : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء** ﴾ قال: نزلت فى أمة لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها : مُسَيْكَة ، كان يكرهها على الفجور ـ وكانت لا بأس بها ـ فتأبى . فأنزل الله ، عز وجل ، هذه الآية إلى قوله : ﴿ **وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيم** ﴾ (٤) .

وروى النسائى ، من حديث ابن جُرَيْج ، عن أبى الزبير ، عن جابر نحوه (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا على بن سعيد ، حدثنا الأعمش ، حدثنى أبو سفيان ، عن جابر قال : كان لعبد الله بن أبى بن سلول جارية يقال لها : مسيكة ، وكان يكرهها على البغاء ، فأنزل الله : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيم** ﴾ .

صرح الأعمش بالسماع من أبى سفيان طلحة بن نافع ، فدل على بطلان قول من قال : « لم يسمع منه ، إنما هو صحيفة » حكاه البزار .

قال أبو داود الطيالسى ، عن سليمان بن معاذ ، عن سمَاك ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس ؛ أن جارية لعبد الله بن أبى كانت تزنى فى الجاهلية ، فولدت أولاداً من الزَنا ، فقال لها : ما لك لا تزنين؟ قالت (٦) : لا ، والله لا أزنى . فضربها ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** ﴾ (٧) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى : أن رجلا من قريش أُسر يوم بدر ، وكان عند عبد الله بن أُبَىّ أسيرًا ، وكانت لعبد الله بن أُبىّ جارية يقال لها : معاذة ، وكان القرشى الأسير يريدها على نفسها ، وكانت مسلمة (٨) ، وكانت تمتنع منه لإسلامها ، وكان عبد الله بن أبى يكرهها على ذلك ويضربها ، رجاء أن تحمل للقرشى ، فيطلب فداء ولده ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** ﴾ (٩) .

---

(١) فى أ : « الأحاديث » . (٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٠) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٨٣) : « فيه محمد بن الحجاج اللخمى وهو كذاب» .

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١٠٣) من طريق الأعمش به .

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٦٥) من طريق ابن جريج عن أبى الزبير ، به .

(٦) فى ف : « فقالت » .

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١ / ٢٨٤) من طريق أبى داود الطيالسى ، به .

(٨) فى أ : « تسلم » .

(٩) تفسير عبد الرزاق (٢ / ٥٠) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادة الثواب منه والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبى بكر ، رضى الله عنه ، فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبى ﷺ ، فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبى : من يَعْذُرنى من محمد ، يغلبنا على مملوكتنا ؟ فأنزل الله فيهم هذا.

وقال مُقَاتِل بن حَيَّان : بلغنا ـ والله أعلم ـ أن هذه الآية نزلت فى رجلين كانا يكرهان أمتين لهما، إحداهما اسمها مُسَيْكَة ، وكانت للأنصارىّ ، وكانت أميمة أم مسيكة لعبد الله بن أبى ، وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة ، فأتت مسيكة وأمها النبى ﷺ ، فذكرتا ذلك له ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ** ﴾ يعنى : الزنا .

وقوله : ﴿ **إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** ﴾ : هذا خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له .

وقوله : ﴿ **لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ [الْحَيَاةِ]** [١] **الدُّنْيَا** ﴾ أى : من خَرَاجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجَّام ، ومهر البَغىّ وحُلْوان الكاهن [٢] ـ وفى رواية : « مهر البغى خبيث ، وكسب الحجَّام خبيث ، وثمن الكلب خبيث » [٣] .

وقوله : ﴿ **وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [أى : لهن ، كما تقدم فى الحديث عن جابر .

وقال ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم][٤] وإثمهن على من أكرههن : وكذا قال مجاهد ، وعطاء الخراسانى ، والأعمش ، وقتادة .

وقال أبو عبيد : حدثنى إسحاق الأزرقَ ، عن عَوْف ، عن الحسن فى هذه الآية : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ قال : لهن والله . لهن والله .

وعن الزهرى قال : غفور لهن ما أُكْرِهْنَ عليه .

وعن زيد بن أسلم قال : غفور رحيم للمكرهات .

حكاهن ابن المنذر فى تفسيره بأسانيده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن عبد الله ، حدثنى ابن لَهِيعَة ، حدثنى عطاء ، عن سعيد بن جُبَيْر قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود : « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لهن غَفُورٌ [٥] رَّحِيم » وإثمهن على من أكرههن .

وفى الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفِع عن أمَّتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » [٦] .

---

(١) زيادة من ف ، أ . وهو الصواب .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٢٣٧) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٦٧) من حديث أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه : «أن النبى ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغى وحلوان الكاهن » ، وأما كسب الحجَّام ، فروى ابن ماجة فى السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عقبة بن عمرو : « نهى النبى ﷺ عن كسب الحجَّام » .

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٣ / ٤٦٤) من حديث رافع بن خديج ، رضى الله عنه .

(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « غفور لهن » .

(٦) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٠٤٣) وقد سبق الكلام عليه فى سورة الأعراف .

www.besturdubooks.wordpress.com

ولما فصل تعالى (١) هذه الأحكام وبيّنها قال : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى : القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ، ﴿ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : خبرا عن الأمم الماضية ، وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر اللّه تعالى (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] .

﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أى : زاجرًا عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لمن اتقى اللّه وخافه .

قال على بن أبى طالب ، رضى اللّه عنه ، فى صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفَصْل ليس بالهَزْل ، من تركه من جَبَّار قَصَمَه اللّه . ومن ابتغى الهدى من (٣) غيره أضله اللّه .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يقول : هادى أهل السموات والأرض .

وقال ابن جُرَيْج : قال مجاهد وابن عباس فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ : يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما .

وقال ابن جرير : حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرَّقِّى ، حدثنا وهب بن راشد ، عن فَرْقَد ، عن أنس بن مالك قال : إن إلهى يقول : نورى هداى .

واختار هذا القول ابن جرير ، رحمه اللّه .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبَىّ بن كعب فى قول اللّه تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ قال : هو المؤمن الذى قد جعل [اللّه] (٤) الإيمان والقرآن فى صدره ، فضرب اللّه مثله فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به . قال : فكان أُبى بن كعب يقرؤها : « مثل نور من آمن به (٥) » ، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن فى صدره .

وهكذا قال (٦) سعيد بن جُبير ، وقيس بن سعد ، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك : « نور من آمن باللّه » .

وقرأ بعضهم : « اللَّهُ نَوَّر السَّمَوَات وَالأرْض » .

وعن الضحاك : « اللَّهُ نَوَّر السَّمَوَات وَالأَرْض » .

---

(١) فى ف ، أ : « ولما فصل تبارك وتعالى » . (٢) فى ف ، أ : « عز وجل » . (٣) فى أ : « فى » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « بالله » . (٦) فى ف : « روى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال السدى فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ : فبنوره أضاءت السموات والأرض .

وفى الحديث الذى رواه محمد بن إسحاق فى السيرة ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال فى دعائه يوم آذاه أهل الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بى غَضبك أو ينزل بى سَخَطُك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك[١] » [٢] .

وفى الصحيحين عن ابن عباس : كان رسول اللّه ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد، أنت قَيّم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن» الحديث [٣] .

وعن ابن مسعود ، رضى اللّه عنه ، قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ : فى هذا الضمير قولان :

أحدهما : أنه عائد إلى اللّه ، عز وجل ، أى : مثل هداه فى قلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ .

والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام : تقديره : مثل نور المؤمن الذى فى قلبه ، كمشكاة . فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود : ١٧] ، فشبه قلب [٤] المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

فقوله [٥] : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل . هذا هو المشهور ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو الذُّبالة التى تضىء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس [فى] [٦] قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ : وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : كيف يخلص نور اللّه من دون السماء ؟ فضرب اللّه مثل ذلك لنوره ، فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ . والمشكاة : كُوَّة فى البيت ـ قال: وهو مثل ضَرَبه اللّه لطاعته [٧] . فسمى اللّه طاعَتَه نُورًا ، ثم سَمَاها أنواعا شَتَّى .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد : الكوة بلُغة الحبشة . وزاد غيره فقال : المشكاة : الكوة التى لا منفذ لها . وعن مجاهد : المشكاة : الحدائد التى يعلق بها القنديل .

والقول الأول أولى ، وهو : أن المشكاة هى موضع الفَتِيلة من القنديل ؛ ولهذا قال : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو النور الذى فى الذُّبالة .

---

(١) فى ف ، أ : « بالله » .

(٢) رواه ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٤٢٠) عن ابن إسحاق .

(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢٠) وصحيح مسلم برقم (٧٦٩) .

(٤) فى ف ، أ : « القلب » . (٥) فى أ : « وقوله » . (٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف : « لأهل طاعته » .

www.besturdubooks.wordpress.com

قال أبيّ بن كعب : المصباح : النور ، وهو القرآن والإيمان الذى فى صدره .
وقال السُّدِّى : هو السراج .
﴿ **الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** ﴾ أى : هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية .
قال أبىّ بن كعب وغير واحد : وهى نظير قلب المؤمن . ﴿ **الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** ﴾ : قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة ، من الدّر ، أى : كأنها كوكب من دُرّ .
وقرأ آخرون : « درّىء » و « دُرِّىء » بكسر الدال وضمها مع الهمز ، من الدَّرْء وهو الدفع ؛ وذلك أن النجم إذا رُمِى به يكون أشدّ استنارةً من سائر الأحوال ، والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب دراريّ .
قال أبىّ بن كعب : كوكب مضىء . وقال قتادة : مضىء مبين ضخم .
﴿ **يُوقَدُ** [١] **مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ** ﴾ أى : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿ **زَيْتُونَةٍ** ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ أى : ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا فى غربيها فيتقلّص عنها الفىء قبل الغروب ، بل هى فى مكان وسط ، تَفْرَعه [٢] الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجىء زيتها معتدلا صافيا مشرقا .
وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد اللّه بن سعد ، أخبرنا عمرو بن أبى قيس ، عن سمَاك بن حرب ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال: شجرة بالصحراء ، لا يظلها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يواريها شىء ، وهو أجود لزيتها .
وقال يحيى بن سعيد القَطَّان ، عن عمران بن حُدَيْر ، عن عكرمة ، فى قوله : ﴿ **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال : هى بصحراء ، وذلك أصفى لزينتها .
وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نُعَيْم ، حدثنا عُمَر بن فَرُّوخ ، عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة ـ وسأله رجل عن : ﴿ **زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال [٣] : تلك [زيتونة] [٤] بأرض فلاة، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، وإذا غربت غربت عليها فذاك أصفى ما يكون من الزيت .
وقال مجاهد فى قوله : ﴿ [**زَيْتُونَةٍ**] [٥] **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال : ليست بشرقية ، لا تصيبها الشمس إذا غربت ، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت ، [ولكنها شرقية وغربية ، تصيبها إذا طلعت] [٦] وإذا غربت .
وقال سعيد بن جُبَيْر فى قوله : ﴿ **زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ** ﴾ قال : هو أجود الزيت . قال : إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق ، فإذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيبها بالغداة والعَشىّ ، فتلك لا تعد شرقية ولا غربية .
وقال السدى [فى] [٧] قوله : ﴿ **زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ يقول : ليست بشرقية يحوزها

---

(١) فى ف ، أ : « توقد » . (٢) فى هـ ، أ : « تقصرها » والمثبت من ف . (٣) فى ف ، أ : « فقال » .
(٤ ـ ٧) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو فى صحراء ، تصيبها الشمس النهارَ كلَّه .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ **زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ : إنها فى وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبى بن كعب ، فى قول اللّه تعالى : ﴿ **زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال : فهى خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أى حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت . قال : فكذلك هذا المؤمن ، قد أجير من أن يصيبه شىء من الفتن ، وقد ابتلى بها فيثبته اللّه فيها ، فهو بين أربع خلال : إن قال صَدَق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر ، فهو فى سائر الناس كالرجلِ الحى يمشى فى قبور الأموات .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّد قال : حدثنا أبو عَوَانة ، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال : هى وسط الشجر ، لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا .

وقال عطية العوفى : ﴿ **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال : هى شجرة فى موضع من الشجر ، يرى ظل ثمرها فى ورقها ، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن الدَّشْتَكِى ، حدثنا عمرو بن أبى قيس ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى اللّه عنهما ، فى قوله تعالى : ﴿ **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ : ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية .

وقال محمد بن كعب القُرَظى : ﴿ **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال : هى القِبْلية .

وقال زيد بن أسلم : ﴿ **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال : الشام .

وقال الحسن البصرى : لو كانت هذه الشجرة فى الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنه مثل ضربه اللّه لنوره .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ **تُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ** ﴾ قال : رجل صالح ، ﴿ **زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ قال : لا يهودى ولا نصرانى .

وأولى هذه الأقوال القولُ الأول ، وهو أنها فى مستوى من الأرض ، فى مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، تَفْرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزينتها وألطف ، كما قال غير واحد ممن تقدم ؛ ولهذا قال : ﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : لضوء إشراق الزيت .

وقوله : ﴿ **نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ** ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك إيمان العبد وعمله .

وقال مجاهد ، والسدى : يعنى نور النار ونور الزيت .

وقال أُبى بن كعب : ﴿ **نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ** ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة .

وقال شِمْر بن عَطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثنى عن قول اللّه : ﴿ **يَكَادُ**

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ قال : يكاد محمد يبين للناس ، وإن [١] لم يتكلم ، أنه نبى ، كما يكاد ذلك الزيت أن يضىء .

وقال السُّدِّى فى قوله : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت ، حين اجتمعا أضاءا ، ولا يضىء واحد بغير صاحبه [كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه] [٢] .

وقوله : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى ربيعة بن يَزيد ، عن عبد الله [بن] [٣] الديلمى ، عن عبد الله بن عمرو ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصاب يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل . فلذلك أقول : جف القلم على علم الله ، عز وجل » [٤] .

طريق أخرى عنه : قال البزار : حدثنا أيوب [٥] بن سُوَيْد ، عن يحيى بن أبى عمرو الشَّيْبانى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، فألقى عليهم نورًا من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه [٦] ضل . [ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر ، بلفظه وحروفه] [٧] [٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداه فى قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر : حدثنا أبو معاوية ـ يعنى [٩] شيبان ـ عن ليث ، عن عمرو ابن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرى ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يُزهرُ ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصْفَح: فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب [المنافق] [١٠] ، عَرَفَ ثم أنكر . وأما القلب المُصْفَح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يَمُدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القَرحة يَمُدَها القيح والدم ، فأى المَدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » . إسناد جيد [١١] ولم يخرجوه .

---

(١) فى ف ، أ : « ولو » .   (٢) زيادة من ف ، أ .   (٣) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٤) المسند (٢ / ١٧٦) .
(٥) فى ف ، أ : « قال البزار : حدثنا شهاب بن عثمان حدثنا أيوب » . (٦) فى ف ، أ : « أخطأ » . (٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) مسند البزار برقم (٢١٤٥) « كشف الأستار » ، ورواه أحمد فى مسنده (٢ / ١٩٧) من طريق محمد بن مهاجر عن عروة بن رويم عن ابن الديلمى عن عبد الله بن عمرو ، به .
(٩) فى هـ : « حدثنا » والمثبت من ف ، أ ، والمسند .   (١٠) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(١١) المسند (٣ / ١٧) .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ .

لما ضرب اللّه تعالى [مثل] [١] قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح فى الزجاجة الصافية المتوقّد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهى المساجد ، التى هى أحب البقاع إلى اللّه تعالى من الأرض ، وهى بيوته التى يعبد فيها ويُوَحّد ، فقال : **﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾** أى : أمر اللّه تعالى برفعها ، أى : بتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التى لا تليق فيها، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية الكريمة : **﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾** قال : نهى ، اللّه سبحانه ، عن اللغو فيها . وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، ونافع بن جبير ، وأبو بكر بن سليمان بن أبى حَثْمة [٢] ، وسفيان بن حسين ، وغيرهم من علماء المفسرين [٣] .

وقال قتادة : هى هذه المساجد ، أمر اللّه ، سبحانه ، ببنائها ورفعها ، وأمر بعمارتها وتطهيرها . وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول : إن فى التوراة مكتوباً : « ألا إن بيوتى فى الأرض المساجد ، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم زارنى فى بيتى أكرمته ، وحَقّ على المَزُور كرامةُ الزائر » . رواه عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطييبها وتبخيرها . وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت فى ذلك جزءًا على حدَة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون اللّه تعالى نذكر [٤] هاهنا طرفا من ذلك ، إن شاء اللّه تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان :

فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى اللّه عنه ، قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : «من بنى مسجدا يبتغى به وجه اللّه ، بنى اللّه له مثله فى الجنة » . أخرجاه فى الصحيحين [٥] .

وروى ابن ماجه ، عن عمر بن الخطاب ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من بنى مسجدا يذكر فيه اسم اللّه ، بنى اللّه له بيتا فى الجنة » [٦] .

وللنسائى عن عمرو بن عَبَسَة [٧] مثله [٨] . والأحاديث فى هذا كثيرة جدا .

وعن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : أمر رسول اللّه ﷺ ببناء المساجد فى الدور ، وأن تنظف

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « خيثمة » . (٣) فى ف ، أ : « التفسير » . (٤) فى ف : « سنذكر » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٠) وصحيح مسلم برقم (٥٣٣) .

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٧٣٥) من طريق الوليد بن أبي الوليد عن عثمان بن عبد الله عن عمر . وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٠) : « هذا إسناد مرسل ، عثمان بن عبد الله بن سراقة روى عن عمر وهو جده لأمه ، ولم يسمع منه . قاله المزى » .

(٧) فى أ : « عنبسة » .

(٨) سنن النسائى (٢ / ٣١) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وتطيب [١] . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائى . ولأحمد وأبى داود ، عن سَمُرة بن جُنْدَب نحوه[٢] .

وقال البخارى : قال عمر : ابن للناس ما يكنهم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس [٣] .

وروى ابن ماجة عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما ساء عملُ قوم قطّ إلا زخرفوا مساجدهم»[٤] . وفى إسناده ضعف .

وروى أبو داود عن ابن عباس ، رضى اللّه عنهما ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما أُمِرْتُ بتشييد المساجد » . قال ابن عباس : لَتُزَخرفُنّها كما زَخْرَفت اليهود والنصارى [٥] .

وعن أنس ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد » . رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى [٦] .

وعن بُرَيْدَةَ أن رَجُلا أنشدَ فى المسجد ، فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبى ﷺ : «لا وجدت ، إنما بُنِيت المساجد لما بُنيت له » . رواه مسلم [٧] .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول اللّه ﷺ عن البيع والابتياع ، وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن [٨] ، وقال الترمذى : حسن .

وعن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاعِ فى المسجد ، فقولوا : لا أربح اللّه تجارتك . وإذا رأيتم من يَنشُد ضالة فى المسجد ، فقولوا : لا ردّ اللّه عليك » . رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب [٩] .

وقد روى ابن ماجه وغيره ، من حديث ابن عمر مرفوعًا ، قال : « خصال لا تنبغى فى المسجد: لا يُتَّخذُ طريقًا ، ولا يُشهَر فيه سلاح ، ولا يُنبَض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، ولا يُمَرّ فيه بلحم نيئ : ولا يُضرَبُ فيه حَدُّ ، ولا يقتَص فيه من أحد ، ولا يُتَّخذ سوقاً » [١٠] .

وعن واثلة بن الأسقع ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « جَنِّبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ، وشراءكم وبيعكم ، وخصوماتكم ورفع أصواتكم ، وإقامة حدودكم وسل سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجَمّروها فى الجُمَع » .

---

(١) المسند (٦ / ٢٧٩) وسنن أبى داود برقم (٤٥٥) وسنن الترمذى برقم (٥٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (٧٥٩) .

(٢) المسند (٥ / ١٧) وسنن أبى داود برقم (٤٥٦) .

(٣) صحيح البخارى (١ / ٥٣٩) « فتح » .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٧٤١) من طريق جبارة بن المغلس عن عبد الكريم بن عبد الرحمن عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب، به. قال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٢) : « هذا إسناد فيه جبارة بن المغلس وقد اتهم » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٤٨) .

(٦) المسند (٣ / ١٣٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٩) وسنن النسائى (٢ / ٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٧٣٩) .

(٧) صحيح مسلم برقم (٥٦٩) .

(٨) المسند (٢ / ١٧٩) وسنن أبى داود برقم (١٠٧٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢) وسنن النسائى (٢ / ٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٧٤٩) .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣١٢١) .

(١٠) سنن ابن ماجه برقم (٧٤٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٤) : « هذا إسناد فيه زيد بن جبيرة . قال ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ضعيف » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ورواه ابن ماجة أيضًا (١) ، وفى إسنادهما (٢) ضعف .

أما أنه « لا يتخذ طريقًا » ، فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وَجَد مندوحة عنه . وفى الأثر : « إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلى فيه » .

وأما أنه « لا يشهر فيه بسلاح (٣) ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل (٤) » ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها ؛ لئلا يؤذى أحدًا ، كما ثبت فى الصحيح (٥) .

وأما النهى عن المرور باللحم النيئ فيه ، فَلِما يخشى من تقاطر الدم منه ، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث .

وأما أنه « لا يضرب فيه حد أو يقتص » ، فَلِما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع .

وأما أنه « لا يتخذ سوقًا » ، فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بنى لذكر الله والصلاة كما قال النبى ، عليه الصلاة والسلام ، (٦) لذلك الأعرابى الذى بال فى طائفة المسجد :« إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » . ثم أمر بسَجْل من ماء ، فأهريق على بوله(٧) .

وفى الحديث الثانى : « جنِّبوا مساجدكم صبيانكم » ؛ وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، إذا رأى صبيانًا يلعبون فى المسجد (٨) ، ضربهم بالمِخْفَقَة ـ وهى الدِّرَّة ـ وكان يَعُسّ (٩) المسجد بعد العشاء ، فلا يترك فيه أحدًا .

« ومجانينكم » يعنى : لأجل ضعف عقولهم ، وسَخْر الناس بهم ، فيؤدى إلى (١٠) اللعب فيها، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ، ونحو ذلك .

« وبيعكم وشراءكم » ، كما تقدم .

« وخصوماتكم » يعنى : التحاكم والحكم فيه ؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية فى المسجد ، بل يكون فى موضع غيره ؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط (١١) الذى لا يناسبه ؛ ولهذا قال بعده : « ورفع أصواتكم » .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا الجُعَيد (١٢) بن عبدالرحمن قال : حدثنى (١٣) يزيد بنُ خَصَيفة (١٤) ، عن السائب بن يَزيدَ الكنْدىَ قال : كنت قائمًا فى المسجد ، فحصبنى رجل ، فنظرت فإذا عمر (١٥) بن الخطاب ، فقال : اذهب فائتنى بهذين . فجئته بهما ، فقال : من أنتما ؟ أو : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال:لو كنتما من أهل

---

(١) سنن ابن ماجه برقم (٧٥٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٥) : « هذا إسناد ضعيف ، أبو سعيد هو محمد بن سعيد المصلوب ، قال أحمد : عمدًا كان يضع الحديث ، ثم قال : والحارث بن نبهان ضعيف » .

(٢) فى ف ، أ : « إسناده » . (٣) فى أ : « السلام » . (٤) فى ف : « بنبل » .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦١٥) من حديث أبى موسى الأشعرى .

(٦) فى أ : « ﷺ » .

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٤) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .

(٨) فى ف : « فيه » . (٩) فى ف ، أ : « يفتش » . (١٠) فى أ : « على » .

(١١) فى أ : « والغياظ » . (١٢) فى ف ، أ : « الجعد » . (١٣) فى ف ، أ : « عن » .

(١٤) فى ف ، أ : « حفصة » . (١٥) فى ف ، أ : « فإذا هو عمر » .

www.besturdubooks.wordpress.com

البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ (١) .

وقال النسائى : حدثنا سُوَيْد بن نصر ، عن عبد الله بن المبارك ، عن شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل فى المسجد فقال : أتدرى أين أنت ؟ وهذا أيضًا صحيح (٢) .

وقوله : « وإقامة حدودكم ، وسل سيوفكم » : تقدمًا (٣) .

وقوله : « واتخذوا على أبوابها المطاهر » ، يعنى : المراحيض التى يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريبًا من مسجد رسول الله ﷺ آبار (٤) يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون، ويتوضؤون وغير ذلك .

وقوله : « وجمِّروها فى الجُمَع » يعنى : بخروها فى أيام الجُمَع لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا عبيد الله ، حدثنا عبد الرحمن (٥) بن مهدى ، عن عبد الله بن عمر ، عن نافع عن ابن عمر ؛ أن عمر كان يُجَمِّر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به (٦) ، والله أعلم .

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صلاة الرجل فى الجماعة تُضَعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقة ، خمسًا وعشرين ضعفًا . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه (٧) ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يَخطُ خَطوة إلا رُفع له بها درجة ، وحطّ عنه بها خطيئة ، فإذا صَلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مُصَلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » (٨) .

وعند الدارقطنى مرفوعًا : « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » (٩) .

وفى السنن : « بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة » (١٠) .

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى ، وأن يقول كما ثبت فى صحيح البخارى عن عبد الله بن عَمرو (١١) ، رضى الله عنه (١٢) ، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال :

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٠) .

(٢) وذكره المزى فى تحفة الأشراف (٨ / ٤) وعزاه للنسائى فى السنن الكبرى فى المواعظ .

(٣) فى أ : « تقدم » . (٤) فى أ : « أباريق » . (٥) فى أ : « عبد الله » .

(٦) مسند أبى يعلى (١ / ١٧٠) .

(٧) فى ف ، أ : « الوضوء » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٤٧) وصحيح مسلم برقم (٦٤٩) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٩) سنن الدارقطنى (١ / ٤٢٠) من طريق سليمان بن داود اليمامى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعًا ، به . وقد رواه الحاكم فى المستدرك (١ / ٢٤٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣ / ٥٧) من طريق سليمان بن داود ، به . وسليمان بن داود مجمع على تضعيفه . ومن حديث جابر ، رواه الدارقطنى أيضا فى السنن (١ / ٤٢٠) من طريق محمد بن مسكين عن عبد الله بن بكير عن محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعًا ، به . وقال أبو الطيب فى التعليق : « فيه محمد بن مسكين، قال الذهبى : لا يعرف وخبره منكر . وقال البخارى : فى إسناد حديثه نظر » .

(١٠) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٦١) والترمذى فى السنن برقم (٢٢٣) من حديث بريدة بن الحصيب ، رضى الله عنه ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه مرفوع ، وهو صحيح مسند وموقوف إلى أصحاب النبى ﷺ ، ولم يسند إلى النبى ﷺ » .

(١١) فى أ : « عمر » . (١٢) فى ف ، أ : « عنهما » .

www.besturdubooks.wordpress.com

«أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » [قال : أقط ؟ قال: نعم] [(١)] . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حُفظ منى سائر اليوم [(٢)] .

وروى مسلم بسنده عن أبى حميد ـ أو : أبى أسَيْد ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » .

ورواه النسائى عنهما ، عن النبى [(٣)] ﷺ [مثله] [(٤)] [(٥)] .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم اعصمنى من الشيطان الرجيم » .

ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبَّان فى صحيحيهما [(٦)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا لَيْث بن أبى سليم ، عن عبد الله بن حسن [(٧)] ، عن أمه فاطمة بنت حسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، ثم قال : « اللهم ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك » . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك » .

ورواه الترمذى وابن ماجه [(٨)] ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن وإسناده ليس بمتصل ؛ لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى .

فهذا الذى ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك لحال الطول [(٩)] ، كله داخل فى قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أى : اسم الله ، كقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

قال ابن عباس : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يعنى : يتلى فيها كتابه .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ أى : فى البُكَرات والعَشيَّات . والآصال :جمع أصيل،

---

(١) زيادة من أ .

(٢) لم أجده فى صحيح البخارى ، وقد ذكره المزى فى تحفة الأشراف وابن الأثير فى جامع الأصول ولم يعزواه إلا لأبى داود فى السنن برقم (٤٦٦) .

(٣) فى ف ، أ : « رسول الله » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) صحيح مسلم برقم (٧١٣) وسنن النسائى (٢ / ٥٣) .

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٧٧٣) وصحيح ابن خزيمة برقم (٤٥٢) وصحيح ابن حبان برقم (٢٠٤٨) « الإحسان » كلهم من طريق أبى بكر الحنفى عن الضحاك بن عثمان عن المقبرى عن أبى هريرة ، به . وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٩٧) : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) فى أ : « حسين » .

(٨) المسند (٦ / ٢٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣١٤) وسنن ابن ماجه برقم (٧٧١) .

(٩) فى ف ، أ : « لجافى القول » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهو آخر النهار .

وقال سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى بالغدو : صلاة الغداة ، ويعنى بالآصال : صلاة العصر ، وهما أول ما افترض اللّه من الصلاة ، فأحب أن يَذْكُرهما وأن يُذكِّرَ بهما عباده .

وكذا قال الحسن ، والضحاك : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ يعنى : الصلاة .

ومن قرأ من القَرَأة [(١)] : « يُسبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَال » ـ بفتح الباء من « يُسبح » على أنه مبنى لما لم يسم فاعله ـ وقف [(٢)] على قوله : ﴿ والآصَال ﴾ وقفًا تامًا ، وابتدأ بقوله : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّه ﴾ وكأنه مُفَسِّر للفاعل المحذوف ، كما قال الشاعر [(٣)] :

لِيُبْكَ يزيدُ ، ضارعٌ لخُصُومة ومُختَبِطٌ مما تُطيح الطّوَائحُ

كأنه قال : من يبكيه ؟ قال : هذا يبكيه . وكأنه قيل : من يسبح له فيها ؟ قال : رجال .

وأما على قراءة مَنْ قرأ : ﴿ يسبِّح ﴾ ـ بكسر الباء ـ فجعله فعلا ، وفاعله : ﴿رِجَال ﴾ ، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل ؛ لأنه تمام الكلام .

فقوله : ﴿ رِجَال ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التى بها صاروا عُمَّارا للمساجد ، التى هى بيوت اللّه فى أرضه ، ومواطن عبادته وشكره ، وتوحيده وتنزيهه ، كما قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْه ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فأما النساء فَصَلاتهن فى بيوتهن أفضل لهن ؛ لما رواه أبو داود ، عن عبد اللّه بن مسعود ، رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال : « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » [(٤)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غَيْلان ، حدثنا رِشْدين ، حدثنى عمرو ، عن أبى السمح ، عن السائب ـ مولى أم سلمة ـ عن أم سلمة ، رضى اللّه عنها ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « خير مساجد النساء [قعر] [(٥)] بيوتهن » [(٦)] .

وقال الإمام أحمد أيضًا : حدثنا هارون ، أخبرنى عبد اللّه بن وهب ، حدثنا داود بن قيس ، عن عبد اللّه بن سُوَيد الأنصارى ، عن عمته أم حميد ـ امرأة أبى حميد الساعدى ـ : أنها جاءت النبى ﷺ فقالت : يا رسول اللّه ، إنى أحب الصلاة معك قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معى ، وصلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك ، وصلاتك فى حُجْرَتك خير من صلاتك فى دارك ، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى » . قال : فأمَرَت فبُنى لها مسجد فى أقصى بيت من بيوتها وأظلمه [(٧)] ، فكانت تصلى فيه حتى لقيت اللّه ، عز وجل . لم يخرجوه [(٨)] .

---

(١) فى ف ، أ : « القراء » . (٢) فى ف : « ويقف » .

(٣) ينسب للشاعر نهشل بن حرى ولغيره ، وهو من شواهد الكتاب لسيبويه (١ / ١٤٥) والمقتضب للمبرد (٣ / ٣٨٢) ومغنى اللبيب لابن هشام الشاهد رقم (١٠٤٨) ا . هـ ، مستفادًا من حاشية الشعب .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥٨٠) .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) المسند (٦ / ٢٩٧) .

(٧) فى هـ : « بيوتها والله » وفى ف ، أ : « بيتها والله » ، والمثبت من المسند .

(٨) المسند (٦ / ٣٧١) .

www.besturdubooks.wordpress.com

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال ، بشرط ألا تؤذى أحدًا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عُمَر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (١) .

رواه البخارى ومسلم ، ولأحمد وأبى داود : « بيوتهن خير لهن » (٢) ، وفى رواية : «وليخرجن وهن تَفِلات » (٣) أى : لا ريح لهن .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن زينب ـ امرأة ابن مسعود ـ قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبًا » (٤) .

وفى الصحيحين عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : كان نساء المؤمنين (٥) يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمُرُوطهن ، ما يُعْرَفْن من الغَلَس (٦) .

وفى الصحيحين أيضًا عنها أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهُنّ المساجد ، كما مُنعت نساء بنى إسرائيل (٧) .

وقوله : ﴿ **رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المنافقون : ٩] ،وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الجمعة : ٩] .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها ومَلاذ بَيعها وريحها ، عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ؛ ولهذا قال : ﴿ **لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾ أى: يقدمون طاعته ومُرَاده ومحبته على مرادهم ومحبتهم .

قال هُشَيْم : عن سَيَّار (٨) : [قال] (٩) حُدِّثت عن ابن مسعود أنه رأى قومًا من أهل السوق ، حيث نودى بالصلاة ، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد الله : هؤلاء من الذين ذكر الله فى كتابه : ﴿ **رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ (١٠) .

وهكذا روى عَمْرو بن دينار القَهْرَمَانىّ ، عن سالم ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أنه كان فى السوق (١١) فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٩٠٠) وصحيح مسلم برقم (٤٤٢) .
(٢) المسند (٢ / ٧٦) وسنن أبى داود برقم (٥٦٧) من حديث عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما .
(٣) وهى فى المسند (٢ / ٤٣٨) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه .
(٤) صحيح مسلم برقم (٤٤٣) .
(٥) فى ف ، أ : « المؤمنات » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٧٨) وصحيح مسلم برقم (٦٤٥) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٨٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٤٥) .
(٨) فى ف ، أ : « شيبان » .
(٩) زيادة من ف ، أ .
(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١١٣) .
(١١) فى ف ، أ : « بالسوق » .

www.besturdubooks.wordpress.com

نزلت : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير [١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر [٢] الصنعانى ، حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم [٣] ، حدثنا عبد الله بن بُجَيْر ، حدثنا أبو عبد رب [٤] قال : قال أبو الدرداء ، رضى الله عنه: إنى قمت[٥] على هذا الدرج أبايع عليه ، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار ، أشهد الصلاة فى كل يوم فى المسجد ، أما إنى لا أقول : « إن ذلك ليس بحلال » ، ولكنى أحب أن أكون من الذين قال الله : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمَّروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، ثم قال : هم هؤلاء .

وكذا قال سعيد بن أبى الحسن ، والضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة فى وقتها.

وقال مطر الورَّاق : كانوا يبيعون ويشترون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانُه فى يده خفضه ، وأقبل إلى الصلاة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يقول : عن الصلاة المكتوبة . وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيَّان .

وقال السُّدِّى : عن الصلاة فى جماعة .

وعن مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم [٦] الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها ، وما استحفظهم الله فيها .

وقوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ أى : يوم القيامة الذى تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أى : من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨ ـ ١٢] .

وقال هاهنا ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم .

وقوله : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وقال : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة:

---

(١) تفسير الطبرى (١٨ / ١١٣) .
(٢) فى ف ، أ : « بكير » . (٣) فى أ : « هشام » . (٤) فى ف ، أ : « عبد ربه » .
(٥) فى أ : « اقمت » . (٦) فى ف ، أ : « أمر » .

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٦١] ، كما قال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وعن ابن مسعود : أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحدًا واحدًا ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائمًا ، فتناوله ابن مسعود وكان مفطرًا فشربه ، ثم تلا قوله تعالى [١] : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ ، رواه النسائى ، وابن أبى حاتم ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة، عنه [٢] .

وقال [ابن أبى حاتم] [٣] أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا سُوَيْد بن سعيد ، حدثنا على بن مُسْهِر عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حَوْشَب عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول اللّه ﷺ: «إذا جمع اللّه الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فناد بصوت يُسمِع الخلائق : سيعلم أهلُ الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه . فيقومون ، وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق » [٤] .

وروى الطبرانى ، من حديث بَقِيَّة ، عن إسماعيل بن عبد اللّه الكندى ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : ٣٠] قال : ﴿ أُجُورَهُم ﴾ يدخلهم الجنة ، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ : الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع لهم المعروف فى الدنيا [٥] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ .

هذان مثلان ضربهما اللّه تعالى لنوعى الكفار ، كما ضرب للمنافقين فى أول « البقرة » [٦] مثلين ناريًا ومائيًا ، وكما ضرب لما يقر فى القلوب من الهدى والعلم فى سورة « الرعد » [٧] مثلين مائيًا وناريًا ، وقد تكلمنا على كل منها [٨] فى موضعه بما أغنى عن إعادته ، وللّه الحمد والمنة .

فأما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شىء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا فى نفس الأمر على شىء ، فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن [٩] بعد كأنه بحر طام .

---

(١) فى ف ، أ : « عز وجل » .
(٢) ذكره المزى فى تحفة الأشراف برقم (٩٤٣٥) وعزاه للنسائى فى المواعظ .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) ورواه هناد فى الزهد برقم (١٧٦) من طريق أبى معاوية عن عبد الرحمن بن إسحاق ، به . وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيف .
(٥) المعجم الكبير للطبرانى (١٠ / ٢٤٨) وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية : ١٧٣ من سورة النساء : « هذا إسناد لا يثبت ، وإذا روى عن ابن مسعود موقوفًا فهو جيد » .
(٦) عند الآية : ١٧ ، والآية : ١٩ . (٧) عند الآية : ١٧ . (٨) فى ف ، أ : « منهما » . (٩) فى ف : « من » .

www.besturdubooks.wordpress.com

والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرَة . والقاع أيضًا : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران . وهى : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل [١] فإنما يكون أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، حسبه ماءً فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حَصَّل شيئًا ، فإذا وافى اللّه يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئًا بالكلية قد قُبل ، إما لعدم الإخلاص ،وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . وهكذا رُوى عن أُبى بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وغير واحد .

وفى الصحيحين [٢] : أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عُزَيْر ابن اللّه . فيقال : كذبتم ، ما اتخذ اللّه من ولد ،ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربَّنَا ، عَطشنا فاسقنا. فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ، فينطلقون فيتهافتون فيها [٣] .

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الطَّماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر ، الصم البكم الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ . قال قتادة : وهو العميق . ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يدرى أين يذهب ، ولا [هو] [٤] يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدرى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس ، رضى اللّه عنهما : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾: يعني بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر ، وهى كقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[البقرة : ٧] ، وكقوله [٥] : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية : ٢٣] .

وقال أُبىّ بن كعب فى قوله : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات ، إلى النار .

وقال الربيع بن أنس ، والسُّدِّى نحو ذلك أيضًا .

وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ أى : من لم يهده اللّه فهو هالك جاهل حائر بائر كافر ، كما قال تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾[الأعراف : ١٨٦] ، وهذا [فى] [٦]

---

(١) فى أ : « الأول » . (٢) فى أ : « الصحيح » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٨١) وصحيح مسلم برقم (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « وقوله » . (٦) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

مُقابلة ما قال فى مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ : فنسأل اللّه العظيم أن يجعل فى قلوبنا نورًا ، وعن أيماننا نورًا ، وعن شمائلنا نورًا ، وأن يعظم لنا نورا .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحه من فى السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأناسى ، والجان والحيوان ، حتى الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ أى : فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هى فاعلة ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة اللّه ، عز وجل .

ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ؛ ولهذا [(١)] قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أخبر تعالى : أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذى لا معقب لحكمه ، وهو الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ؛ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم فى الدنيا والأخرى ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؟ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (٤٤) ﴾ .

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهى ضعيفة ، وهو الإزجاء ، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى : يجمعه بعد تفرقه ، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أى : متراكمًا ، أى : يركب بعضه بعضًا ، ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أى المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ﴾ أى : من خَلَله . وكذا [(٢)] قرأها ابن عباس والضحاك.

قال عبيد بن عمير الليثى : يبعث اللّه المثيرة فَتَقُمّ الأرض قماً ، ثم يبعث اللّه الناشئة فتنشئ السحاب ، ثم يبعث اللّه المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث [الله] [(٣)] اللواقح فتلقح السحاب . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، رحمهما اللّه .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ : قال بعض النحاة : « من » الأولى : لابتداء الغاية ، والثانية : للتبعيض ، والثالثة : لبيان الجنس . وهذا إنما يجىء على قول من ذهب من

(١) فى ف ، أ : « ولذا » . (٢) فى ف ، أ : « وكذلك » . (٣) زيادة من ف .

www.besturdubooks.wordpress.com

المفسرين إلى أن قوله : ﴿ **مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ** ﴾ ومعناه : أن فى السماء جبالَ بَرَد ينزل اللّه منها البرد. وأما من جعل الجبال هاهنا عبارة [١] عن السحاب ، فإن « من » الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضًا ، لكنها بَدَل من الأولى ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ **فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ** ﴾ : يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ **فَيُصِيبُ بِهِ** ﴾ أى : بما ينزل من السماء من نوعى البرد والمطر [٢] ، فيكون قوله : ﴿ **فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ رحمة لهم ، ﴿ **وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ** ﴾ أى : يؤخر عنهم الغيث .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ **فَيُصِيبُ بِهِ** ﴾ أى : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم . ويصرفه عمن يشاء [أى :] [٣] رحمة بهم .

وقوله : ﴿ **يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ** ﴾ أى : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

وقوله : ﴿ **يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول الذى كان قصيرًا ، ويقصر الذى كان طويلا . واللّه هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه .

﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ** ﴾ أى : لدليلاً على عظمته تعالى ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)** ﴾ .

يذكر تعالى قدرتَه التامة وسلطانه العظيم ، فى خلقه أنواع [المخلوقات] [٤] ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، ﴿ **فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ** ﴾ كالحية وما شاكلها ، ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ** ﴾ كالإنسان والطير ، ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ** ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ؛ ولهذا قال : ﴿ **يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ أى : بقدرته ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ .

﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)** ﴾ .

يقرر تعالى أنه أنزل فى هذا القرآن من الحكم [٥] والأمثال البينة المحكمة ، كثيرًا [٦] جدًا ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الألباب والبصائر والنهى ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « كناية » . (٢) فى ف : « المطر والبرد » . (٣ ، ٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى هـ : « من الحكم والحكم والأمثال » . والمثبت من ف ، أ . (٦) فى ف : « المحكمة ما هو كثير » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن صفات المنافقين ، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولا بألسنتهم : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أى : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى ، فيما أنزل اللّه على رسوله ، أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه . وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء : ٦٠ : ٦١] .

وفى الطبرانى من حديث روح بن عطاء بن (١) أبى ميمونة ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سَمُرَة مرفوعًا : « من دُعى إلى سلطان فلم يجب ، فهو ظالم لا حق له » (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى : إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم ، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ ، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى ﷺ ليروج باطله ثَمّ . فإذعانه أولاًس لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ؛ ولهذا لما خالف الحقّ قصده ، عدل عنه إلى غيره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ يعنى : لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مَرَض لازم لها ، أو قد عرض لها شك فى الدين ، أو يخافون أن يجور اللّه ورسوله عليهم فى الحكم . وأيا مّا كان فهو كفر محض ، واللّه عليم بكل منهم ، وما هو عليه منطو من هذه الصفات .

وقوله : ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : بل هم الظالمون الفاجرون ، واللّه ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى اللّه ورسوله عن ذلك .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا مبارك ، حدثنا الحسن قال :

---

(١) فى ف ، أ : « عن » .

(٢) المعجم الكبير للطبرانى (٧ / ٢٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ١٩٨) : « فيه روح بن عطاء ، وثقه ابن عدى وضعفه الأئمة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبى ﷺ وهو مُحقّ أذعن ، وعلم أن النبى ﷺ سيقضى له بالحق . وإذا أراد أن يظلم فدُعى إلى النبى ﷺ أعرض ، وقال : أنطلقُ إلى فلان . فأنزل الله هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شيء ، فَدُعِى إلى حكَم من حُكَّام المسلمين فأبى أن يجيب ، فهو ظالم لا حق له » (١) .

وهذا حديث غريب ، وهو مرسل .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ أى : سمعًا وطاعة ؛ ولهذا وصفهم تعالى بفلاح ، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال : ﴿ **وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ **أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ : ذُكر لنا أن عُبَادة بن الصامت ــ وكان عَقَبِيًّا بدريا ، أحد نقباء الأنصار ــ : أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك ومَاذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومَنْشَطك ومكرهك ، وأثرةً عليك . وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وألا تنازع الأمرَ أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحا ، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله ، فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة : وَذُكر (٢) لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

قال : وقد ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كان يقول : عُروة الإسلام شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

رواه ابن أبى حاتم . والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله [وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله] (٣) كثيرة جدًا ، أكثر من أن تحصر فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ أى : فيما أمراه به وترك (٤) وما نهياه (٥) عنه ، ﴿ **وَيَخْشَ اللَّهَ** ﴾ فيما مضى من ذنوبه ، ﴿ **وَيَتَّقْهِ** ﴾ فيما يستقبل .

وقوله : ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير ، وأمنُوا من كل شر(٦) فى الدنيا والآخرة .

﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)** ﴾ .

---

(١) ورواه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن مرسلاً كما فى الدر المنثور (٦ / ٢١٣) .
(٢) فى ف : « وذكروا » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « ويترك » .
(٥) فى ف ، أ : « نهيا » . (٦) فى ف ، أ : « سوء » .

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرهم [١] بالخروج [فى الغزو] [٢] ، قال الله تعالى : ﴿ **قُل لا تُقْسِمُوا** ﴾ أى : لا تحلفوا .

وقوله : ﴿ **طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ** ﴾ : قيل : معناه [٣] : طاعتكم طاعة معروفة ، أى : قد عُلمت طاعتكم، إنما هى قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم ، كما قال تعالى : ﴿ **يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون** ﴾ [المنافقون : ٢] ، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُون** ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ **طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ** ﴾ أى : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أى : بالمعروف من غير حَلف ولا إقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون** ﴾ أى : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى ،فالحلف وإظهار الطاعة ـ والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق [٤] ـ فالخالق ، تعالى ، يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شىء من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها .

ثم قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول** ﴾ أى : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله .

وقوله : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا** ﴾ أى : تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ، ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ** ﴾ أى : إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، ﴿ **وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُم** ﴾ أى : من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ، ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ ؛ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ **صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُور** ﴾ [الشورى : ٥٣] .

وقوله : ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِين** ﴾ كقوله : ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَاب** ﴾ [الرعد: ٤٠] ، وقوله : ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِر** ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] .

وقال وهب بن مُنَبِّه : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل ـ يقال له : شعياء ـ : أن قم فى بنى إسرائيل فإنى سأطلق لسانك بوحى . فقام فقال : يا سماء اسمعى ، ويا أرض أنصتى ، فإن الله يريد أن يقضى شأنًا ويدبر أمرًا هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والآجام [٥] فى الغيطان ، والأنهار فى الصحارى ، والنعمة فى الفقراء ، والملك فى الرعاة ، ويريد أن يبعث أميا من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخّاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشى على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه . أبعثه مُبَشِّرًا ونذيرًا ، لا يقول

---

(١) فى ف ، أ : « أمرتهم » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف ، أ : « تقديره » .
(٤) فى ف : « المحلوف » . (٥) فى أ : « الأجسام » .

www.besturdubooks.wordpress.com

الخنَا ، أفتح به أعينا عُميًا ، وآذانًا صمّا ، وقلوبا غُلْفًا ، وأسَدِّده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته، وأحمد اسمه ، أهْدى به بعد الضلالة ، وأعلّم به من الجهالة ، وأرْفَعُ به بعد الخمَالة ، وأعرف به بعد النُكْرَة ، وأكثر به بعَد القلّة وأغنى به بعد العَيلَة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيما من الهَلَكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين بما جاءت به رُسُلى . رواه ابن أبى حاتم [١] .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ .

هذا وعد من اللّه لرسوله ﷺ [٢] ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمةَ الناس والولاةَ عليهم ، وبهم تصلح [٣] البلاد ، وتخضع [٤] لهم العباد ، ولَيُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك ، وله الحمد والمنة ، فإنه لم يمت رسول اللّه ﷺ حتى فتح اللّه عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مجوس هَجَر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية ـ وهو المقوقس ـ وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة ،الذى تَملَّك بعد أصْحَمة ،رحمه اللّه وأكرمه .

ثم لما مات رسول اللّه ﷺ واختار اللّه له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبوبكر الصديق ، فَلَمّ شعَث ما وَهَى عند [٥] موته ، عليه الصلاة والسلام [٦] ، وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ، رضى اللّه عنه ، ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة ، رضى اللّه عنه ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص ، رضى اللّه عنه ، إلى بلاد مصر ، ففتح اللّه للجيش الشامى فى أيامه بُصَرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها ، وتوفاه اللّه ، عزوجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام فى الأمر بعده قياما تاما ، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء [عليهم السلام] [٧] على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس ، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقَصَّر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة ، وأنفق أموالهما فى سبيل اللّه ، كما أخبر

---

(١) وروى عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار كما فى الشفاء للقاضى عياض (١ / ١٥) .
(٢) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٣) فى ف ، أ : « يصلح » . (٤) فى ف ، أ : « ويخضع » .
(٥) فى ف : « بعد » . (٦) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٧) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية ، أمتدت المماليك [١] الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سَبْتَةَ مما يلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجُبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه . وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح [٢] عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زَوَى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زُوِى لى منها » [٣] . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل [٤] الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سَمُرَة قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا » . ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت عنى [٥] فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : «كلهم من قريش » .

ورواه البخارى من حديث شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، به [٦] .

وفى رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك ، وذكر معه أحاديث أخر [٧] .

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لابد من وجود اثنى عشرَ خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شىء ؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يَلُون فيعدلون . وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعا ومتفرقا ، وقد وُجِد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبوبكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، رضى الله عنهم . ثم كانت [٨] بعدهم [٩] فترة ، ثم وُجِد منهم ما شاء الله ، ثم قد يُوجَد منهم مَن بقى فى وقت يعلمه الله . ومنهم المهدى الذى يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ ، وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورًا وظلما .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث سعيد بن جُمْهان ، عن سَفِينة ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال : قال رسول الله ﷺ [١٠] : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم

---

(١) فى جـ ، أ : « الممالك » .
(٢) فى أ : « الصحيحين » .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان ، رضى الله عنه .
(٤) فى ف : « ونسأل » .
(٥) فى ف ، أ : « علىَّ » .
(٦) صحيح مسلم برقم (١٨٢١) وصحيح البخارى برقم (٧٢٢٢) .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٨٢٢) .
(٨) فى ف ، أ : « كان » .
(٩) فى ف ، أ : « بينهم » .
(١٠) فى ف ، أ : « عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال » ، والمثبت من المسند وسننى أبى داود والترمذى .

www.besturdubooks.wordpress.com

يكون ملكا عَضُوضا » [١] .

وقال الربيع بن أنس ، عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** [٢] **فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ الآية ، قال : كان النبى ﷺ وأصحابه بمكة [٣] نحوا من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وعبادته وحده لا شريك له سرًا وهم خائفون ، لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعدُ بالهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يُمْسُون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فَغَبَرُوا [٤] بذلك ما شاء الله . ثم إن رجلا من أصحابه [٥] قال : يا رسول الله ، أبدَ الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا [فيه] [٦] السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لن تَغْبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتَبِيًا ليست فيهم حديدة » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله ، عز وجل ، قبض نبيه ﷺ ، فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا ، فأدخل [الله] [٧] عليهم الخوف فاتخذوا الحَجَزَةَ والشرط وغيّروا ، فَغُيِّر بهم .

وقال بعض السلف : خلافة أبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، حق فى كتابه ، ثم تلا هذه الآية .

وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن فى خوف شديد .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وقوله : ﴿ **كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ كما قال تعالى عن موسى ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٩]، وقال تعالى : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ ، كما قال رسول الله ﷺ لعدىّ بن حاتم ، حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة ؟ » قال [٨] : لم أعرفها ، ولكن قد [٩] سمعت بها . قال : « فوالذى نفسى بيده ، ليُتمّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحِيَرة حتى

---

(١) المسند (٥ / ٢٢٠) وسنن أبى داود برقم (٤٦٤٦) وسنن الترمذى برقم (٢٢٢٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٥٥) وقال الترمذى : « حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جمهان » ، ولم ترد لفظة : « عضوض » فى هذه المصادر ، وإنما وردت فى حديث آخر عن أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة ، وكائنًا خلافة ورحمة ، وكائنًا ملكًا عضوضًا ، وكائنًا عنوة وجبرية وفسادًا فى الأمة . . . الحديث » أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٥٩/٨) .

(٢) فى ف : « لنستخلفنهم » . (٣) فى ف ، أ : « بمكة وأصحابه » . (٤) فى ف : « فصبروا » ، وفى أ : « فعيروا » .

(٥) فى ف ، أ : « الصحابة » . (٦ ، ٧) زيادة من أ ، والدر المنثور ٥ / ٥٥ .

(٨) فى ف : « قلت له » . (٩) فى ف ، أ : « لم أرها وقد » .

www.besturdubooks.wordpress.com

تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال: « نعم ، كسرى بن هرمز ، وليُبذَلَنّ المالُ حتى لا يقبله أحد » . قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن افتتح (١) كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده ، لتكونن الثالثة ؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبى سلمة ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة ، والدين والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة نصيب » (٣) .

وقوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة عن أنس ، أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا (٤) أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرَّحْل ، قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله وَسعْديك . قال : ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك. [ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك»](٥) . قال : « هل تدرى ما حق الله على العباد » ، قلت : الله ورسوله أعلم . قال : «[فإن] (٦) حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » . قال : ثم سار ساعة . ثم قال : «يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « فهل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟» ،قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال :« فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم » .

أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة (٧) .

وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون ﴾ أى : فمن خرج عن طاعتى بعد ذلك ، فقد فَسَقَ عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبًا عظيما . فالصحابة ، رضى الله عنهم ، لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر الله ، عز وجل ، وأطوعهم لله ــ كان نصرهم بحسبهم ، وأظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييدًا عظيما ، وتحكموا فى سائر العباد والبلاد . ولما قَصَّر الناس بعدهم فى بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى اليوم (٨) القيامة » . وفى رواية : « حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك (٩) » . وفى رواية : « حتى يقاتلوا الدجال » . وفى رواية : « حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون » . وكل

(١) فى أ : « فتح » .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٩٥) .
(٣) المسند (٥ / ١٣٤) .
(٤) فى أ : « بينما » . (٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٧) المسند (٥ / ٢٤٢) وصحيح البخارى برقم (٥٩٦٧) وصحيح مسلم برقم (٣٠) .
(٨) فى ف ، أ : « يوم » . (٩) فى ف ، أ : « على ذلك » .

www.besturdubooks.wordpress.com

هذه الروايات صحيحة ، ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بإقام الصلاة ، وهى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين للرسول ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، أى : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وتاركين [1] ما عنه زجرهم ، لعل اللّه يرحمهم بذلك . ولا شك أن من فعل ذلك أن اللّه سيرحمهم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ** ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقوله ﴿ **لا تَحْسَبَنَ** ﴾ ، أى : [لا تظن] [2] يا محمد ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أى : خالفوك وكذبوك ، ﴿ **مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أى : لا يعجزون اللّه ، بل اللّه قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَمَأْوَاهُم** ﴾ أى : فى الدار الآخرة ﴿ **النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ أى : بئس المآل مآلُ الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر اللّه تعالى المؤمنين أن يستأذنَهم خدَمُهم مما ملكَت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال : الأول من قبل صلاة الغداة ؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا فى فرشهم ، ﴿ **وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ** ﴾ أى : فى وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله ، ﴿ **وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ** ﴾ ؛ لأنه وقت النوم ، فيُؤمَرُ الخدمُ والأطفال ألا يهجمُوا على أهل البيت فى هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل

---

(١) فى ف : « وترك » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

على أهله ، ونحو ذلك من الأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ **ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ** ﴾ أى : إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئا فى غير تلك الأحوال ؛ لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ، ولأنهم ﴿ **طَوَّافُون** ﴾ عليكم، أى : فى الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم ؛ ولهذا رَوَى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول اللّه ﷺ قال فى الهِرَّة : « إنها ليست بنجَس ؛ إنها من الطوافين عليكم ـ أو ـ والطوافات » (١) .

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء ، وكان عمل الناس بها قليلا جدًا ، أنكر عبد اللّه ابن عباس ذلك على الناس ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن عبد اللّه بن بُكَيْر ، حدثنى عبد اللّه بن لَهيعة ، حدثنى عطاء ابن دينار ، عن سعيد بن جُبَيْر قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ [مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ]** (٢) ﴾ إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء : ﴿ **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ** ﴾ [النساء : ٨] ، والآية التى فى الحجرات : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم** ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وروى أيضًا من حديث إسماعيل بن مسلم ـ وهو ضعيف ـ عن عمرو بن دينار ، عن عطاء بن أبى رَبَاح ، عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم** ﴾ إلى آخر الآية .

وقال أبو داود : حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة ـ وهذا حديثه ـ أخبرنا سفيان ، عن عبيد اللّه بن أبى يزيد ، سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر (٣) الناس ـ آية الإذن ـ وإنى لآمر جاريتى هذه تستأذن على .

قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء ، عن ابن عباس يأمر به (٤) .

وقال الثورى ، عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبى : ﴿ **لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم** ﴾ ، قال : لم تنسخ قلت . فإن الناس لا يعملون بها . فقال : اللّه المستعان .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا سليمان بن بلال ، عن عمرو بن أبى عَمرو ، عن عكرمة عن ابن عباس ؛ أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى الثلاث عورات التى أمر اللّه بها فى القرآن ، فقال ابن عباس : إن اللّه ستِّير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حِجال فى بيوتهم ، فربما فاجأ الرجلَ خادمُه أو ولده أو يتيمه فى حجره ،

---

(١) الموطأ (١ / ٢٣) والمسند (٥ / ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٧٥) وسنن الترمذى برقم (٩٢) وسنن النسائى (١ / ٥٥) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٧) .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف ، أ : « كثير من » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٩١) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهو على أهله ، فأمرهم اللّه أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمَّى اللّه . ثم جاء اللّه بعد بالستور (١) ، فبسط [الله] (٢) عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود ، عن القَعْنَبِىّ ، عن الدَّرَاوَرْدِىّ ، عن عمرو ابن أبى عَمْرو ، به (٣) .

وقال السُّدِّىّ : كان أناس من الصحابة ، رضى اللّه عنهم ، يحبون أن يُوَاقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم اللّه أن يأمروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذنَ .

وقال مقاتل بن حَيَّان : بلغنا ـ واللّه أعلم ـ أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرْشدة صنعا للنبى ﷺ طعاما ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد ، غلامهما بغير إذن ! فأنزل اللّه فى ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ منكُمْ [ثَلاثَ مَرَّاتٍ]** (٤) ﴾ الآية .

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ ، قوله : ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ منكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ يعنى : إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير : إذا كان الغلام رباعيا فإنه يستأذنَ فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير .

وقال فى قوله : ﴿ **كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ يعنى : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وقوله : ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ** ﴾ : قال سعيد بن جُبَيْر ، ومُقَاتِل بن حَيَّان ، وقتادة ، والضحاك: هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ، ﴿ **اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا** ﴾ أى : لم يبق لهن تَشوُّف إلى التزويج ، ﴿ **فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** ﴾ أى : ليس عليها من الحرج فى التستر كما على غيرها من النساء .

قال أبو داود : حدثنا أحمد بن محمد المروزي حدثني علي بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴾ الآية [النور : ٣١] فنسخ ، واستثنى من ذلك ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا** ﴾ الآية (٥) .

قال ابن مسعود [فى قوله] (٦) : ﴿ **فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ** ﴾ قال : الجلباب ، أو

(١) فى ف : « بعده بالستور » ، وفى أ : « بعده الستر » . (٢) زيادة من أ ، والدر المنثور ٥ / ٥٦ .
(٣) سنن أبى داود برقم (٥١٩٢) .
(٤) زيادة من أ .
(٥) سنن أبى داود برقم (٤١١١) .
(٦) زيادة من أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

الرداء : وكذا رُوى عن ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى الشعثاء [١] ، وإبراهيم النَّخَعِىّ ، والحسن ، وقتادة ، والزهرى ، والأوزاعى ، وغيرهم .

وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدى الرجل فى الدرع والخمار .

وقال سعيد بن جُبَيْر وغيره ، فى قراءة عبد الله بن مسعود : « أن يضعن من ثيابهن » : وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره ، بعد أن يكون عليها خمَار صَفيق .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ، أن يرى ما عليها من الزينة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا ابن المبارك ، [حدثنى سَوَّار ابن ميمون ، حدثتنا طلحة بنت عاصم ، عن أم المصاعن ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت: دخلت علىّ] [٢] فقلت : يا أم المؤمنين ، ما تقولين فى الخضاب ، والنفاض ، والصباغ ، والقُرطين، والخلخال ، وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ؟ فقالت : يا معشر النساء ، قصتكن [٣] كلها واحدة ، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات . أى : لا يحلّ لكنّ أن يَرَوَا منكن محرما .

وقال السدى : كان شريك لى يقال له : « مسلم » ، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان ، فجاء يوما إلى السوق وأثر الحنّاء فى يده ، فسألته عن ذلك ، فأخبرنى أنه خَضَب رأس مولاته ـ وهى امرأة حذيفة ـ فأنكرت ذلك . فقال : إن شئت أدخلتك عليها ؟ فقلت : نعم . فأدخلنى عليها ، فإذا امرأة جليلة ، فقلت : إن مسلما حدثنى أنه خضب رأسك ؟ فقالت : نعم يا بنى ، إنى من القواعد اللاتى لا يرجون نكاحًا ، وقد قال الله فى ذلك ما سمعت .

وقوله : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُن ﴾ أى : وترك وضعهن لثيابهن ـ وإن كان جائزًا ـ خير وأفضل لهن ، والله سميع عليم.

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ .

اختلف المفسرون ـ رحمهم الله ـ فى المعنى الذى رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا ، فقال عطاء الخرَاسانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى الجهاد .

(١) فى أ : « والشعبى » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى أ : « فصلن » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتى فى سورة الفتح [١] . وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى : أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد ؛ لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة : ٩١ ، ٩٢] .

وقيل : المراد [هاهنا] [٢] أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك . ولا مع الأعرج ؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فيفتات عليه جليسُه . والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره ، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل اللّه هذه الآية رخصة فى ذلك . وهذا قول سعيد بن جبير ، ومِقْسَم .

وقال الضحاك : كانوا قبل المبعث يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتَقَزُّزًا ، ولئلا يتفضلوا عليهم ، فأنزل اللّه هذه الآية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ** ﴾ الآية قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه، أو بيت أخته ، أو بيت عمته ، أو بيت خالته . فكان الزّمنى يتحرجون [٣] من ذلك ، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم [٤] . فنزلت هذه الآية رخصةً لهم [٥] .

وقال السُّدّى : كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتُتْحفه المرأة بالشيء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رَبَّ البيت ليس ثَمّ . فقال اللّه تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُم** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُم** ﴾ ، إنما ذَكَر هذا ـ وهو معلوم ـ ليعطفَ عليه غيره فى اللفظ ، وليستأديه [٦] ما بعده فى الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء ؛ لأنه لم ينص عليهم . ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أنَ مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « أنت ومالك لأبيك » [٧] .

وقوله : ﴿ **أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُم** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَه** ﴾ ، هذا ظاهر. وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب [الإمام] [٨] أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، فى المشهور عنهما .

(١) عند الآية : ١٧ . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « يحرجون » . (٤) فى أ : « عشيرتهم » .
(٥) تفسير عبد الرزاق (٢ / ٥٣) .
(٦) فى أ : « ولا يساوى » .
(٧) المسند (٢ / ١٧٩) وسنن أبى داود برقم (٣٥٣٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما .
(٨) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾ : فقال سعيد بن جُبَير ، والسُّدِّى : هو خادم الرجل من عبد وقَهْرَمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

وقال الزهرى ، عن عُرْوَة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضُمَنائهم ، ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه . فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء . فأنزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُم ﴾ أى : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها، إذا علمتم أن ذلك لا يَشُقّ عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : وذلك لما أنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فكف الناسُ عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى ﴾ (١) ، إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُم ﴾ (٢) . وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فى ذلك ، فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

وقال قتادة : وكان هذا الحى من بنى كنانة ، يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده فى الجاهلية ، حتى إن كان الرجلُ لَيَسوُق الذَّودَ الحُفَّل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿ لَيْس عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

فهذه رخصة من الله تعالى فى أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن وَحْشىّ بن حَرْب ، عن أبيه ، عن جده ؛ أنّ رجلا قال للنبىّ ﷺ : إنا نأكلُ ولا نشبَع . قال : « فلعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله يُبَارِكْ لكم فيه » .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث الوليد بن مسلم ، به (٣) .

وقد رَوَى ابن ماجه أيضاً ، من حديث عمرو بن دينار القهرمانى ، عن سالم ، عن أبيه ، عن عمر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كلوا جميعًا ولا تَفَرّقُوا ؛ فإن البركة مع الجماعة » (٤) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴾ : قال سعيد بن جبير ، والحسن البصرى ،

---

(١) بعدها فى ف ، أ : « ولا على الأعرج حرج » . (٢) قبلها فى ف ، أ : « أو ما ملكتم مفاتحه » .

(٣) المسند (٣ / ٥٠١) وسنن أبى داود برقم (٣٧٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٦) .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ٧٧) : « هذا إسناد ضعيف » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقتادة ، والزهرى : فليسلم بعضكم على بعض .

وقال ابن جُرَيْج : حدثنا أبو الزبير : سمعتُ جابر بن عبد اللّه يقول : إذا دخلتَ على أهلك ، فسلم عليهم تحية من عند اللّه مباركة طيبة . قال : ما رأيته إلا يوجبه .

قال ابن جريج : وأخبرنى زياد ، عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخلَ أحدكم بيته ، فليسلِّم.

قال ابن جُرَيج : قلت لعطاء : أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلِّم عليهم ؟ قال : لا ، ولا آثرُ وجوبه عن أحد ، ولكن هو أحب إلى ، وما أدعه إلا ناسيًا (١) .

وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول اللّه . وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين .

وروى الثورى ، عن عبد الكريم الجَزَرىّ ، عن مجاهد : إذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل : بسم اللّه ، والحمد للّه ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين .

وقال قتادة : [إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين] (٢) . فإنه كان يؤمر بذلك ، وحُدّثنا أن الملائكة ترد عليه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عَوْبَدُ بن أبى عمران الجونى ، عن أبيه ، عن أنس قال : أوصانى النبىّ (٣) ﷺ بخمس خصال ، قال : « يا أنس ، أسبغ الوضوء يُزَد فى عمرك ، وسَلِّم على من لقيك من أمتى تَكْثُر حسناتك ، وإذا دخلت ـ يعنى : بيتك ـ فسلم على أهل بيتك ، يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضُّحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقِّر الكبير ، تَكُنْ من رفقائى يوم القيامة » (٤) .

وقوله : ﴿ **تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً** ﴾ : قال محمد بن إسحاق : حدثنى داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهدَ إلا من كتاب اللّه ، سمعت اللّه يقول: ﴿ **فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً** ﴾ ، فالتشهد فى الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات للّه ، أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة اللّه وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين . ثم يدعو لنفسه ويسلم.

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث ابن إسحاق .

والذى فى صحيح مسلم ، عن ابن عباس ، عن رسول اللّه ﷺ يخالف هذا (٥) ، واللّه أعلم .

---

(١) فى ف ، أ : « ناسيًا » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « رسول الله » .

(٤) ورواه ابن عدى فى الكامل (٥ / ٣٨٢) من طريق موسى عن عويد بن أبى عمران الجونى ، به . ونقل عن البخارى : « عويد بن أبي عمران عن أبيه منكر الحديث » ثم قال ابن عدى : « وعويد بين على حديثه الضعف » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٤٠٣) ولفظه : كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تعْقِلُون ﴾ : لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة ، نَبَّه تعالى على أنه يُبيِّن لعباده الآيات بيانًا شافيًا ، ليتدبروها ويتعقلوها .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾ .

وهذا أيضًا أدب أرشد الله عبادَه المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ـ لا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، من صلاة جمعة أو [١] عيد أو [٢] جماعة ، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك ـ أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته . وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين .

ثم أمر رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا استأذنه أحد منهم فى ذلك أن يأذن له ، إن شاء؛ ولهذا قال : ﴿ **فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

وقد قال أبو داود : حدثنا أحمد بن حَنْبَل ومُسَدَّد ، قالا : حدثنا بشر ـ هو ابن المفضل ـ عن عَجْلان عن سعيد المقْبُرِىّ ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلِّم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلِّم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » .

وهكذا رواه الترمذى والنسائى ، من حديث محمد بن عجلان ، به [٣] . وقال الترمذى : حسن.

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾ .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل، عن ذلك ، إعظاماً لنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه [٤] . قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبى الله . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جُبَير .

وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ ، وأن يُبَجَّل وأن يعظم وأن يسود .

(١ ، ٢) فى ف : « و » .
(٣) سنن أبى داود برقم (٥٢٠٨) وسنن الترمذى برقم (٢٧٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٠١) .
(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال مقاتل [بن حيَّان] (١) فى قوله : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ يقول : لا تُسَمّوه إذا دَعَوتموه : يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبد اللّه ، ولكن شَرِّفوه فقولوا: يانبى اللّه ، يا رسول اللّه (٢) .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ قال : أمرهم اللّه أن يشرِّفوه .

هذا قول . وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ [البقرة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات : ٢ ـ ٥] .

فهذا كله من باب الأدب [فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته] (٣) .

والقول الثانى فى ذلك أن المعنى فى : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ أى: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا .

حكاه ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصرى ، وعطية العَوفى ، واللّه (٤) أعلم .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ : قال مقاتل بن حَيَّان : هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ـ ويعنى بالحديث الخطبة ـ فيلوذون ببعض الصحابة ـ أصحاب محمد ﷺ ـ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبىّ ﷺ فى يوم الجمعة ، بعدما يأخذ فى الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروجَ أشارَ بإصبعه إلى النبى ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى ـ ﷺ ـ يخطب ، بطلتْ جُمعته .

قال السُّدِّى كانوا إذا كانوا معه فى جماعة ، لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم.

وقال قتادة فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، يعنى : لواذا [عن نبى اللّه وعن كتابه :

وقال سفيان : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، قال : من الصف . وقال مجاهد فى الآية : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾] (٥) قال : خلافًا .

وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أى : عن أمر رسول اللّه ﷺ ، سبيله هو (٦)

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « يا رسول الله ، يا نبى الله » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف ، أ : « فالله » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « وهو سبيله » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ومنهاجه وطريقته [وسنته] (١) وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبِل ، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله ، كائنا ما كان ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عَمَلاً ليس عليه أمرنا فهو رَدّ » (٢) .

أى : فليحذر وليخْشَ من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى : فى قلوبهم ، من كفر أو نفاق أو بدعة ، ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : فى الدنيا ، بقتل ، أو حَد ، أو حبس ، أو نحو ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبوهُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا ، فلما أضاءت ما حولها(٣) ، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتى [يقعن فى النار] (٤) يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ويتقحّمن فيها » : قال : « فذلك مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبونى وتقتحمون فيها » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٥) .

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم غيب السموات والأرض ، وهو عالم بما العباد عاملون فى سرهم وجهرهم ، فقال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ و « قد » للتحقيق ، كما قال قبلها: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] : وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣]، وقال : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ [فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا] (٦)﴾ [البقرة : ١٤٤] . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ « قد » ، كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا : « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة»: فقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى : هو عالم به ، مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[الشعراء : ٢١٧ ـ ٢٢٠] . وقال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) صحيح البخارى برقم (٢٦٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٧١٨) .
(٣) فى ف ، أ : « حوله » . (٤) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٥) المسند (٢ / ٣١٢) ومسلم برقم (٢٢٨٤) وليس عند البخارى من هذا الطريق .
(٦) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

السَّماء (١) وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِين ﴾ [يونس : ٦١] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] أي : هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور] (٢) ﴾ [هود: ٥] وقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد : ١٠] : وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وقال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدًا .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي : ويوم ترجع (٣) الخلائق إلى الله ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقير ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] . وقال : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف : ٤٩] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ والحمد لله رب العالمين ، ونسأله التمام .

(١) فى ف : « فى السموات ولا فى الأرض » ، وهو خطأ .
(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « يرجع » .

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٤ — سورة النور

(مدنيـة وهى أربع وستون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٢٤ النور

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٢٤ النور

(سورة النور مدنية وهى اثنتان أو أربع وستون آية)

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (سورة) خبر مبتدأ محذوف أى هذه سورة وإنما أشير إليها مع عدم
سبق ذكرها لأنها باعتبار كونها فى شرف الذكر فى حكم الحاضر المشاهد وقوله تعالى (أنزلناها) مع
ماعطف عليه صفات لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات
وأما كونها مبتدأ محذوف الخبر على أن يكون التقدير فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها فيأباه أن مقتضى
المقام بيان شأن السورة الكريمة لا أن فى جملة ماأوحى إلى النبى ﷺ سورة شأنها كذاوكذا وحملها على
السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم أن غيرها من السور الكريمة ليست على تلك الصفات وقرىء بالنصب
على إضمار فعل يفسره أنزلناها فلا محل له حينئذ من الإعراب أو على تقدير اقرأ ونحوه أو دونك عند من
يسوغ حذف أداة الإغراء فمحل أنزلنا النصب على الوصفية (وفرضناها) أى أوجبنا مافيها من الأحكام
إيجاباً قطعياً وفيه من الإيذان بغاية وكادة الفرضية مالا يخفى وقرىء فرضناها بالتشديد لتأكيد الإيجاب
أو لتعدد الفرائض أو لكثرة المفروض عليهم من السلف والخلف (وأنزلنا فيها) أى فى تضاعيف
السورة (آيات بينات) إن أريد بها الآيات التى نيطت بها الأحكام المفروضة وهو الأظهر فكونها فى
السورة ظاهر ومعنى كونها بينات وضوح دلالاتها على أحكامها لا على معانيها على الإطلاق فإنها أسوة
لسائر الآيات فى ذلك وتكرير أنزلنا مع استلزام إنزال السورة لإنزالها لإبراز كمال العناية بشأنها وإن
أريد جميع الآيات فالظرفية باعتبار اشتمال الكل على كل واحد من أجزائه وتكرير أنزلنا مع أن جميع الآيات
عين السورة وإنزالها عين إنزالها لاستقلالها بعنوان رائق داع إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانة لخطرها ورفعاً
لمحلها كقوله تعالى ونجيناه من عذاب غليظ بعد قوله تعالى نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا (لعلكم
تذكرون) بحذف إحدى التاءين وقرىء بإدغام الثانية فى الذال أى تتذكرونها فتعملون بموجبها عند وقوع
الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على ذكر منهم بحيث متى مست
٢ الحاجة إليها استحضروها (الزانية والزانى) شروع فى تفصيل ماذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها

ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

٢٤ النور

والزانية هى المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبىء عنه الصيغة لا المزنية كرهاً وتقديمها على الزانى
لأنها الأصل فى الفعل لكون الداعية فيها أوفر ولولا تمكينها منه لم يقع ورفعهما على الابتداء والخبر
قوله تعالى (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط إذ اللام بمعنى الموصول
والتقدير التى زنت والذى زنى كما فى قوله تعالى واللذان يأتيانها منكم فآذوهما وقيل الخبر محذوف أى فيما
أنزلنا أو فيما فرضنا الزانية والزانى أى حكمهما وقوله تعالى فاجلدوا الخ بيان لذلك الحكم وكان هذا عاما فى حق
المحصن وغيره وقد نسخ فى حق المحصن قطعاً ويكفينا فى تعيين الناسخ القطع بأنه ﷺ قد رجم ماعزا وغيره
فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة المشهورة وفى الإيضاح الرجم حكم ثبت بالسنة المشهورة المتفق
عليها فجازت الزيادة بها على الكتاب وروى عن على رضى الله عنه جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة
رسول الله ﷺ وقيل نسخ بآية منسوخة التلاوة هى الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من
الله والله عزيز حكيم ويأباه ماروى عن على رضى الله عنه (ولا تأخذكم بهما رأفة) وقرىء بفتح الهمزة
والمد أيضاً على فعالة أى رحمة ورقة (فى دين الله) فى طاعته وإقامة حده فتعطلوه أو تسامحوا فيه وقد
قال رسول الله ﷺ لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) من
باب التهييج والإلهاب فإن الإيمان بهما يقتضى الجد فى طاعته تعالى والاجتهاد فى إجراء أحكامه وذكر
اليوم الآخر لتذكير مافيه من العقاب فى مقابلة المسامحة والتعطيل (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)
أى لتحضره زيادة فى التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب والطائفة فرقة يمكن أن تكون
حافة حول شىء من الطوف وأقلها ثلاثة كما روى عن قتادة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أربعة إلى أربعين
٣ وعن الحسن عشرة والمراد جمع يحصل به التشهير والزجر (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية
لا ينكحها إلا زان أو مشرك) حكم مؤسس على الغالب المعتاد جىء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزوانى بعد
زجرهم عن الزنا بهن وقد رغب بعض من ضعفة المهاجرين فى نكاح موسرات كانت بالمدينة من بغايا المشركين
فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى ذلك فنفروا عنه ببيان أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين كأنه قيل
الزانى لا يرغب إلا فى نكاح إحداهما والزانية لا يرغب فى نكاحها إلا أحدهما فلا تحوموا حوله كيلا تنتظموا
فى سلكهما أو تتسموا بسمتهما فإيراد الجملة الأولى مع أن مناط التنفير هى الثانية إما للتعريض بقصرهم
الرغبة عليهن حيث استأذنوا فى نكاحهن أو لتأكيد العلاقة بين الجانبين مبالغة فى الزجر والتنفير وعدم
التعرض فى الجملة الثانية للمشركة للتنبيه على أن مناط الزجر والتنفير هو الزنا لا مجرد الإشراك وإنما تعرض
لها فى الأولى إشباعا فى التنفير عن الزانية بنظمها فى سلك المشركة (وحرم ذلك) أى نكاح الزوانى (على
المؤمنين) لما أن فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والتسبب لسوء القالة والطعن فى النسب واختلال

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾
٢٤ النور

أمر المعاش وغير ذلك من المفاسد مالا يكاد يليق بأحد من الأدانى والأراذل فضلا عن المؤمنين ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة فى الزجر وقيل النفى بمعنى النهى وقد قرىء به والتحريم على حقيقته والحكم إما مخصوص بسبب النزول أو منسوخ بقوله تعالى وأنكحوا الأيامى منكم فإنه متناول للمسافحات ويؤيده ماروى أنه ﷺ سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لايحرم الحلال وماقيل من أن المراد
بالنكاح هو الوطء بين البطلان (والذين يرمون المحصنات) بيان لحكم العفائف إذا نسبن إلى الزنا بعد ٤
بيان حكم الزوانى ويعتبر فى الإحصان ههنا مع مدلوله الوضعى الذى هو العفة عن الزنا الحرية والبلوغ والإسلام وفى التعبير عن التفوه بما قالوا فى حقهن بالرمى المنبىء عن صلابة الآلة وإيلام المرمى وبعده عن الرامى إيذان بشدة تأثيره فيهن وكونه رجماً بالغيب والمراد به رميهن بالزنا لاغير وعدم التصريح به للاكتفاء بإيرادهن عقيب الزوانى ووصفهن بالإحصان الدال بالوضع على نزاهتهن عن الزنا خاصة فإن ذلك بمنزلة التصريح بكون رميهن به لامحالة ولا حاجة فى ذلك إلى الاستشهاد باعتبار الأربعة من الشهداء على أن فيه مؤنة بيان تأخر نزول الآية عن قوله تعالى فاستشهدوا عليهن أربعة ولا بعدم وجوب الحد بالرمى بغير الزنا على أن فيه شبهة المصادرة كأنه قيل والذين يرمون العفائف المنزهات عما رمين به من
الزنا (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) يشهدون عليهن بما رموهن به وفى كلمة ثم إشعار بجواز تأخير الإتيان ٥
بالشهود كما أن فى كلمة لم إشارة إلى تحقيق العجز عن الإتيان بهم وتقرره خلا أن اجتماع الشهود لابد منه عند الأداء خلافا للشافعى رحمه الله تعالى فإنه جوز التراخى بين الشهادات كما بين الرمى والشهادة ويجوز أن
يكون أحدهم زوج المقذوفة خلافا له أيضاً وقرىء بأربعة شهداء (فاجلدوهم ثمانين جلدة) لظهور كذبهم ٥
وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء لقوله تعالى فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ونصب جلدة على التمييز وتخصيص رميهن بهذا الحكم مع أن حكم رمى
المحصنين أيضاً كذلك لخصوص الواقعة وشيوع الرمى فيهن (ولا تقبلوا لهم شهادة) عطف على اجلدوا داخل ٥
فى حكمه تتمة له لما فيه من معنى الزجر لأنه مؤلم للقلب كما أن الجلد مؤلم للبدن وقد آذى المقذوف بلسانه فعوقب باهدار منافعه جزاء وفاقا واللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة قدمت عليها لكونها نكرة ولو تأخرت عنها لكانت صفة لها وفائدتها تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن أهليتهم الثابتة لهم عند الرمى وهو السر فى قبول شهادة الكافر المحدود فى القذف بعد التوبة والإسلام لأنها ليست ناشئة عن أهليته السابقة بل عن أهلية حدثت له بعد إسلامه فلا يتناولها الرد فتدبر ودع عنك ماقيل من أن المسلمين لا يعبأون بسبب الكفار فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار مايلحقه بقذف المسلم فإن ذلك بدون مامر من الاعتبار تعليل فى مقابلة النص ولا يخفى حاله فالمعنى لا تقبلوا منهم شهادة من الشهادات حال كونها

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ٢٤ النور

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ
بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ٢٤ النور

حاصلة لهم عند الرمى (أبداً) أى مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا لما عرفت من أنه تتمة للحد كأنه قيل فاجلدوهم وردوا شهادتهم أى فاجمعوا لهم الجلد والرد فيبقى كأصله (وأولئك هم الفاسقون) كلام مستأنف مقرر لما قبله ومبين لسوء حالهم عند الله عز وجل وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد أى أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون
٥ فيه كأنهم هم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم لا غيرهم من الفسقة وقوله تعالى (إلا الذين تابوا) استثناء من الفاسقين كما ينبىء عنه التعليل الآتى ومحل المستثنى النصب لأنه من موجب وقوله تعالى (من بعد ذلك) لتهويل المتوب عنه أى من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل (وأصلحوا) أى أصلحوا أعمالهم التى من جملتها ما فرط منهم بالتلافى والتدارك ومنه الاستسلام للحد والاستحلال من المقذوف (فإن الله غفور رحيم) تعليل لما يفيده الاستثناء من العفو عن المؤاخذة بموجب الفسق كأنه قيل لحينئذ لا يؤاخذهم الله تعالى بما فرط منهم ولا ينظمهم فى سلك الفاسقين لأنه تعالى مبالغ فى المغفرة والرحمة هذا وقد علق الشافعى رحمه الله الاستثناء بالنهى فمحل المستثنى حينئذ الجر على البدلية من الضمير فى لهم
٦ وجعل الأبد عبارة عن مدة كونه قاذفا فتنتهى بالتوبة فتقبل شهادته بعدها (والذين يرمون أزواجهم) بيان لحكم الرامين لأزواجهم خاصة بعد بيان حكم الرامين لغيرهن لكن لا بأن يكون هذا مخصصاً للمحصنات بالأجنبيات ليلزم بقاء الآية السابقة ظنية فلا يثبت بها الحد فإن من شرائط التخصيص أن لا يكون المخصص متراخى النزول بل بكونه ناسخاً لعمومها ضرورة تراخى نزولها كما سيأتى فتبقى الآية السابقة قطعية الدلالة فيما بقى بعد النسخ لما بين فى موضعه أن دليل النسخ غير معلل (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون بما رموهن به من الزنا وقرىء بتأنيث الفعل (إلا أنفسهم) بدل من شهداء أو صفة لها على أن إلا بمعنى غير جعلوا من جملة الشهداء إيذاناً من أول الأمر بعدم إلغاء قولهم بالمرة ونظمه فى سلك الشهادة فى الجملة وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم فى قوله تعالى (فشهادة أحدهم) أى شهادة كل واحد منهم وهو مبتدأ وقوله تعالى (أربع شهادات) خبره أى فشهادتهم المشروعة أربع شهادات (بالله) متعلق بشهادات لقربها وقيل بشهادة لتقدمها وقرىء أربع شهادات بالنصب على المصدر والعامل فشهادة على أنه إما خبر لمبتدأ محذوف أى فالواجب شهادة أحدهم وإما مبتدأ محذوف الخبر أى فشهادة أحدهم واجبة (إنه لمن الصادقين) أى فيما رماها به من الزنا وأصله على أنه الخ لحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنها للتأكيد.

وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ ٢٤ النور

وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ ٢٤ النور

وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ٢٤ النور

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ٢٤ النور

٧ (والخامسة) أى الشهادة الخامسة للأربع المتقدمة أى الجاعلة لها خمساً بانضمامها إليهن وإفرادها عنهن
مع كونها شهادة أيضاً لاستقلالها بالفحوى ووكادتها فى إفادة مايقصد بالشهادة من تحقيق الخبر وإظهار
الصدق وهى مبتدأ خبره (أن لعنة الله عليه إن من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا فإذا لاعن الزوج حبست
٨ الزوجة حتى تعترف فترجم أو تلاعن (ويدرأ عنها العذاب) أى العذاب الدنيوى وهو الحبس المغيا
على أحد الوجهين بالرجم الذى هو أشد العذاب (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه) أى الزوج (لمن الكاذبين)
٩ أى فيما رمانى به من الزنا (والخامسة) بالنصب عطفا على أربع شهادات (أن غضب الله عليها إن كان)
أى الزوج (من الصادقين) أى فيما رمانى به من الزنا وقرىء والخامسة بالرفع على الابتداء وقرىء أن
بالتخفيف فى الموضعين ورفع اللعنة والغضب وقرىء أن غضب الله وتخصيص الغضب بجانب المرأة
للتغليظ عليها لما أنها مادة الفجور ولأن النساء كثيراً مايستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط
وقعه عن قلوبهن بخلاف غضبه تعالى روى أن آية القذف لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ على المنبر فقام
عاصم بن عدى الأنصارى رضى الله عنه فقال جعلنى الله فداك إن وجد رجل مع امرأته رجلا فأخبر
جلد ثمانين وردت شهادته وفسق وإن ضربه بالسيف قتل وإن سكت سكت على غيظ وإلى أن يجىء بأربعة
شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال ماوراءك
قال شر وجدت على امرأتى خولة وهى بنت عاصم شريك بن سحماء فقال والله هذا سؤالى ماأسرع ما ابتليت
به فرجعا فأخبرا رسول الله ﷺ فكلم خولة فأنكرت فنزلت فلاعن بينهما والفرقة الواقعة باللعان فى
حكم التطليقة البائنة عند أبى حنيفة ومحمد رحمهما الله ولا يتأبد حكمها حتى إذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك
فحد جاز له أن يتزوجها وعند أبى يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعى رحمهم الله هى فرقة بغير طلاق
١٠ توجب تحريماً مؤبداً ليس لهما اجتماع بعد ذلك أبداً (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم)
التفات إلى خطاب الرامين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه وجواب لولا محذوف
لتهويله والإشعار بضيق العبارة عن حصره كأنه قيل ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ فى
قبول التوبة حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه التى من جملتها ماشرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان مما لا يحيط
به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لولم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه
لأنه أعرف بحال زوجته وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما فى الفضاحة وبعد ماشرع لهم ذلك لو جعل

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ٢٤ النور

شهاداته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر لها ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ولا ريب فى خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتما دارئة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية وقد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأطم وفى ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى أما على الصادق فظاهر وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه فى الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبىء عنه
١١ التعرض لعنوان توابيته سبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته (إن الذين جاءوا بالإفك) أى بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الإفك وهو القلب لأنه مأفوك عن وجهه وسننه والمراد به ما أفك به الصديقة أم المؤمنين رضى الله عنها وفى لفظ المجىء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها قالت عائشة رضى الله عنها فأقرع بيننا فى غزوة غزاها قيل غزوة بنى المصطلق فخرج سهمى فخرجت معه ﷺ بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودى بالرحيل فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقدى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد ما استمرت الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلى وظننت أنى سيفقدوننى ويعودون فى طلبى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش فلما رآنى عرفنى فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فقمت إليها فركبتها وانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاض الناس فى حديثى فهلك من هلك وقوله تعالى (عصبة منكم) خبر إن أى جماعة وهى من العشرة إلى الأربعين وكذا العصابة وهم عبد الله بن أبى وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لا تحسبوه شراً لكم) استئناف خوطب به رسول الله ﷺ وأبو بكر وعائشة وصفوان رضى الله عنهم تسلية لهم من أول الأمر والضمير للإفك (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بإنزال ثمانى عشرة آية فى نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيراً (لكل امرىء

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ٢٤ النور

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ٢٤ النور

منهم) أى من أولئك العصبة (ما اكتسب من الإثم) بقدر ماخاض فيه (والذى تولى كبره) أى معظمه
وقرىء بضم الكاف وهى لغة فيه (منهم) من العصبة وهو ابن أبى فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس عداوة
لرسول الله ﷺ وقيل هو وحسان ومسطح فإنهما شايعاه بالتصريح به فإفراد الموصول حينئذ
باعتبار الفوج أو الفريق أو نحوهما (له عذاب عظيم) أى فى الآخرة أو فى الدنيا أيضاً فإنهم جلدوا
وردت شهاداتهم وصار ابن أبى مطروداً مشهوداً عليه بالنفاق وحسان أعمى وأشل اليدين ومسطح
مكفوف البصر وفى التعبير عنه بالذى وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل
١٢ الخطب مالا يخفى (لولا إذ سمعتموه) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ وذويه إلى الخائضين
بطريق الالتفات لتشديد ما فى لولا التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه إلى الغيبة فى قوله تعالى (ظن
المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً) لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لا بطريق الإعراض عنهم وحكاية
جناياتهم لغيرهم على وجه المثابة بل بالتوسل بذلك إلى وصفهم بما يوجب الإتيان بالمحضض عليه ويقتضيه
اقتضاء تاما ويزجرهم عن ضده زجراً بليغاً فإن كون وصف الإيمان مما يحملهم على إحسان الظن ويكفهم
عن إساءته بأنفسهم أى بأبناء جنسهم النازلين منزلة أنفسهم كقوله تعالى ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم
وقوله تعالى ولا تلمزوا أنفسكم مما لا ريب فيه فإخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع والتوبيخ
عليه أدخل مع ما فيه من التوسل به إلى التصريح بتوبيخ الخائضات ثم إن كان المراد بالإيمان الإيمان
الحقيقى فإيجابه لما ذكر واضح والتوبيخ خاص بالمؤمنين وإن كان مطلق الإيمان الشامل لما يظهره المنافقون
أيضاً فإيجابه له من حيث إنهم كانوا يحترزون عن إظهار ماينافى مدعاهم فالتوبيخ حينئذ متوجه إلى الكل
وتوسيط الظرف بين لولا وفعلها لتخصيص التحضيض بأول زمان سماعهم وقصر التوبيخ على تأخير
الإتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتردد فيه ليفيد أن عدم الإتيان به رأساً فى غاية ما يكون من القباحة
والشناعة أى كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات أول ما سمعوه ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة
من غير تلعثم وتردد بمثلهم من آحاد المؤمنين خيراً (وقالوا) فى ذلك الآن (هذا إفك مبين) أى ظاهر
١٣ مكشوف كونه إفكا فكيف بالصديقة ابنة الصديق أم المؤمنين حرمة رسول الله ﷺ (لولا جاءوا عليه
بأربعة شهداء) إما من تمام القول المحضض عليه مسوق لحث السامعين على إلزام المسمعين وتكذيبهم
إثر تكذيب ما سمعوه منهم بقولهم هذا إفك مبين وتوبيخهم على تركه أى هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء
يشهدون على ما قالوا (فإذ لم يأتوا) بهم وإنما قيل (بالشهداء) لزيادة التقرير (فأولئك) إشارة إلى الخائضين
وما فيه من معنى البعد للإيذان بغلوهم فى الفساد وبعد منزلتهم فى الشر أى أولئك المفسدون (عند الله) أى
فى حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة (هم الكاذبون) الكاملون فى الكذب المشهود

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ٢٤ النور

إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ٢٤ النور

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ٢٤ النور

عليهم بذلك المستحقون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم ولذلك رتب عليه الحد خاصة وإما كلام مبتدأ
١٤ مسوق من جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون ماقالوه قولا لا يساعده الدليل أصلا (ولولا فضل الله
عليكم) خطاب للسامعين والمسمعين جميعاً (ورحمته فى الدنيا) من فنون النعم التى من جملتها الإمهال
للتوبة (والآخرة) من الآلاء التى من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة (لمسكم) عاجلا (فيما أفضتم فيه)
بسبب ماخضتم فيه من حديث الإفك والإبهام لتهويل أمره والاستهجان بذكره يقال أفاض فى الحديث
١٥ وخاض واندفع وهضب بمعنى (عذاب عظيم) يستحقر دونه التوبيخ والجلد (إذ تلقونه) بحذف إحدى
التاءين ظرف للمس أى لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم إياه من المخترعين (بألسنتكم) والتلقى
والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا أن فى الأول معنى الاستقبال وفى الثانى معنى الخطف والأخذ بسرعة
وفى الثالث معنى الحذق والمهارة وقرىء تتلقونه على الأصل وتلقونه من لقيه وتلقونه بكسر حرف
المضارعة وتلقونه من إلقاء بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والإلق وهو الكذب وتثقفونه
من ثقفته إذا طلبته فوجدته وتثقفونه أى تتبعونه (وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم) أى تقولون
قولا مختصاً بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ فى القلوب لأنه ليس بتعبير عن علم به فى قلوبكم
كقوله تعالى يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم (وتحسبونه هيناً) سهلا لا تبعة له أو ليس له كثير عقوبة
١٦ (وهو عند الله) والحال أنه عنده عز وجل (عظيم) لا يقادر قدره فى الوزر واستجرار العذاب (ولولا
إذ سمعتموه) من المخترعين أو المشايعين لهم (قلتم) تكذيباً لهم وتهويلا لما ارتكبوه (ما يكون لنا)
ما يمكننا (أن نتكلم بهذا) وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه وحاصله نفى وجود التكلم به لا نفى
وجوده على وجه الصحة والاستقامة والإنبغاء وهذا إشارة إلى ماسمعوه وتوسيط الظرف بين لولا
وقلتم لما مر من تخصيص التحضيض بأول وقت السماع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور
عن ذلك الآن ليفيد أنه المحتمل للوقوع المفتقر إلى التحضيض على تركه وأما ترك القول نفسه رأساً فمما
لا يتوهم وقوعه حتى يحضض على فعله ويلام على تركه وعلى هذا ينبغى أن يحمل ماقيل إن المعنى إنه كان
الواجب عليهم أن يتفادوا أول ماسمعوا بالإفك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم وأما
ماقيل من أن ظروف الأشياء منزلة منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها مالا

يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ٢٤ النور

وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ٢٤ النور

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ٢٤ النور

يتسع فى غيرها فهى ضابطة ربما تستعمل فيما إذا وضع الظرف موضع المظروف بأن جعل مفعولا صريحاً
لفعل مذكور كما فى قوله تعالى واذكروا إذجعلكم خلفاء أو مقدر كعامة الظروف المنصوبة بإضمار اذكر وأما
ههنا فلا حاجة إليها أصلا لما تحققت أن مناط التقديم توجه التحضيض إليه وذلك يتحقق فى جميع متعلقات
الفعل كما فى قوله تعالى فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها (سبحانك) تعجب ممن تفوه به وأصله أن
يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى تنزيهاً له سبحانه عن أن يصعب عليه أمثاله ثم كثر حتى استعمل
فى كل متعجب منه أو تنزيه له تعالى عن أن تكون حرمة نبيه فاجرة فإن فجورها تنفير عنه ومخل بمقصود
الزواج فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله تعالى (هذا بهتان عظيم) لعظمة المبهوت عليه واستحالة
١٧ صدقه فإن حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها (يعظكم الله) أى ينصحكم (أن تعودوا لمثله) أى
كراهة أن تعودوا أو يزجركم من أن تعودوا أو فى أن تعودوا من قولك وعظته فى كذا فتركه (أبداً) أى
١٨ مدة حياتكم (إن كنتم مؤمنين) فإن الإيمان وازع عنه لامحالة وفيه تهييج وتقريع (ويبين الله لكم
الآيات) الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها أى ينزلها كذلك أى
مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك وهذا كما فى قولهم سبحان من صغر
البعوض وكبر الفيل أى خلقهما صغيراً وكبيراً ومنه قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها وإظهار الاسم
الجليل فى موقع الإضمار لتفخيم شأن البيان (والله عليم) بأحوال جميع مخلوقاته جلائلها دقائقها (حكيم)
فى جميع تدابيره وأفعاله فأنى يمكن صدق ماقيل فى حق حرمة من اصطفاه لرسالاته وبعثه إلى كافة الخلق
ليرشدهم إلى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيراً وإظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى
١٩ والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة (إن الذين يحبون) أى يريدون ويقصدون (أن تشيع الفاحشة)
أى تنتشر الخصلة المفرطة فى القبح وهى الفرية والرمى بالزنا أو نفس الزنا فالمراد بشيوعها شيوع خبرها أى
يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها وإنما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة فإنها مستتبعة له لامحالة
(فى الذين آمنوا) متعلق بتشيع أى تشيع فيما بين الناس وذكر المؤمنين لأنهم العمدة فيهم أو بمضمر هو حال
من الفاحشة فالموصول عبارة عن المؤمنين خاصة أى يحبون أن تشيع الفاحشة كائنة فى حق المؤمنين وفى شأنهم
(لهم) بسبب ماذكر (عذاب أليم فى الدنيا) من الحد وغيره مما يتفق من البلايا الدنيوية ولقد ضرب رسول
الله ﷺ عبدالله بن أبى وحسانا ومسطحا حد القذف وضرب صفوان حسانا ضربة بالسيف وكف بصره

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ٢٤ النور

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ٢٤ النور

(والآخرة) من عذاب النار وغير ذلك مما يعلمه الله عز وجل (والله يعلم) جميع الأمور التي من جملتها ما في الضمائر من المحبة المذكورة (وأنتم لا تعلمون) مايعلمه تعالى بل إنما تعلمون ماظهر لكم من الأقوال والأفعال المحسوسة فابتلوا أموركم على ماتعلمونه وعاقبوا في الدنيا على ماتشاهدونه من الأحوال الظاهرة والله سبحانه هو المتولى للسرائر فيعاقب في الآخرة على ماتكنه الصدور هذا إذا جعل العذاب الأليم في الدنيا عبارة عن حد القذف أو متنظما له كما أطبق عليه الجمهور أما إذا بقي على إطلاقه يراد بالمحبة نفسها من غير أن يقارنها التصدى للإشاعة وهو الأنسب بسياق النظم الكريم فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيها على أن عذاب من يباشر الإشاعة ويتولاها أشد وأعظم ويكون الاعتراض التذييلي أعني قوله تعالى
٢٠ والله يعلم وأنتم لا تعلمون تقريراً لثبوت العذاب الأليم لهم وتعليلا له (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للتنبيه على كمال عظم الجريرة (وأن الله رءوف رحيم) عطف على فضل الله وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة وتغيير سبكه وتصديره بحرف التحقيق لما أن بيان اتصافه تعالى في ذاته بالرأفة التي هي كمال الرحمة والرحيمية التي هي المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم كما أنه المراد بالمعطوف عليه
٢١ وجواب لولا محذوف لدلالة ماقبله عليه (يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) أي لا تسلكوا مسالكه في كل ما تأتون وما تذرون من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة وحبها وقرىء خطوات بسكون الطاء وبفتحها أيضاً (ومن يتبع خطوات الشيطان) وضع الظاهران موضع ضميريهما حيث لم يقل ومن يتبعهما أو ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير (فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) علة للجزاء وضعت موضعه كأنه قيل فقدار تكب الفحشاء والمنكر لأن دأبه المستمر أن يأمر بهما فمن اتبع خطواته فقد امتثل بأمره قطعاً والفحشاء ما أفرط قبحه كالفاحشة والمنكر ماينكره الشرع وضمير إنه للشيطان وقيل للشأن على رأي من لا يوجب عود الضمير من الجملة الجزائية إلى اسم الشرط أو على أن الأصل يأمره وقيل هو عائد إلى من أي فإن ذلك المتبع يأمر الناس بهما لأن شأن الشيطان هو الإضلال فمن اتبعه يترقى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) بما من جملته هاتيك البيانات والتوفيق للتوبة الماحصة للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها (مازكا) أي ماطهر من دنسها وقرىء مازكى بالتشديد أي ماطهر الله تعالى ومن في قوله تعالى (منكم) بيانية وفي قوله

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ٢٤ النور

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ٢٤ النور

تعالى (من أحد) زائدة وأحد فى حيز الرفع على الفاعلية على القراءة الأولى وفى محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية (أبداً) لا إلى نهاية (ولكن الله يزكى) يطهر (من يشاء) من عباده بإضافة آثار فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم (والله سميع) مبالغ فى سمع الأقوال التى من جملتها ما أظهروه من التوبة (عليم) بجميع المعلومات التى من جملتها نياتهم وفيه حث لهم على الإخلاص فى التوبة وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى (ولا يأتل) أى لا يحلف افتعال من الألية وقيل لا يقصر من الألو والأول هو الأظهر ٢٢
لنزوله فى شأن الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح بعد وكان ينفق عليه لكونه ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين ويعضده قراءة من قرأ ولا يتأل (أولو الفضل منكم) فى الدين وكفى به دليلا على فضل الصديق رضى الله تعالى عنه (والسعة) فى المال (أن يؤتوا) أى على أن لا يؤتوا وقرىء بتاء الخطاب على الالتفات (أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) صفات لموصوف واحد جىء بها بطريق العطف تنبيهاً على أن كلا منها علة مستقلة لاستحقاقه الإيتاء وقيل لموصوفات أقيمت هى مقامها وحذف المفعول الثانى لغاية ظهوره أى على أن لا يؤتوهم شيئاً (وليعفوا) ما فرط منهم (وليصفحوا) بالإغضاء عنه وقد قرىء الأمران بتاء الخطاب على وفق قوله تعالى (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أى بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم (والله غفور رحيم) مبالغ فى المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة ذنوب الداعية إليها وفيه ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته روى أنه ﷺ قرأها على أبى بكر رضى الله عنه فقال بلى أحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح نفقته وقال والله لا أنزعها أبداً
٢٣ (إن الذين يرمون المحصنات) أى العفائف مما رمين به من الفاحشة (الغافلات) عنها على الإطلاق بحيث لم يخطر ببالهن شىء منها ولا من مقدماتها أصلا ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس فى المحصنات أى السليمات الصدور النقيات القلوب عن كل سوء (المؤمنات) أى المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها إيماناً حقيقياً تفصيلياً كما ينبىء عنه تأخير المؤمنات عما قبلها مع أصالة وصف الإيمان فإنه للإيذان بأن المراد بها المعنى الوصفى المعرب عما ذكر لا المعنى الاسمى المصحح لإطلاق الاسم فى الجملة كما هو المتبادر على تقدير التقديم والمراد بها عائشة الصديقة رضى الله عنها والجمع باعتبار

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ٢٤ النور

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٢٤ النور

أن رميها رمى لسائر أمهات المؤمنين لاشتراك الكل فى العصمة والنزاهة والانتساب إلى رسول الله ﷺ كما فى قوله تعالى كذبت قوم نوح المرسلين ونظائره وقيل أمهات المؤمنين فيدخل فيهن الصديقة دخولا أولياً وأما ماقيل من أن المراد هى الصديقة والجمع باعتبار استتباعها للمتصفات بالصفات المذكورة من نساء الأمة فيأباه أن العقوبات المترتبة على رمى هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين ولا ريب فى أن رمى غير أمهات المؤمنين ليس بكفر فيجب أن يكون المراد إياهن على أحد الوجهين فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات فجعل رميهن كفراً إبرازاً لكرامتهن على الله عز وجل وحماية لحمى الرسالة من أن يحوم حوله أحد بسوء حتى أن ابن عباس رضى الله عنهما جعله أغلظ من سائر أفراد الكفر حين سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة رضى الله عنها وهل هو منه رضى الله عنه إلا لتهويل أمر الإفك والتنبيه على أنه كفر غليظ (لعنوا) بما قالوه فى حقهن (فى الدنيا والآخرة) حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبداً (ولهم) مع ماذكر من
٢٤ اللعن الأبدى (عذاب عظيم) هائل لا يقادر قدره لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية وقوله تعالى (يوم تشهد عليهم) الخ إما متصل بما قبله مسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور جناياتهم الموجبة له مع سائر جناياتهم المستتبعة لعقوباتها على كيفية هائلة وهيئة خارقة للعادات فيوم ظرف لما فى الجار والمجرور المتقدم من معنى الاستقرار لا للعذاب وإن أغضينا عن وصفه لإخلاله بجزالة المعنى وإما منقطع عنه مسوق لتهويل اليوم بتهويل مايحويه على أنه ظرف لفعل مؤخر قد ضرب عنه الذكر صفحاً للإيذان بقصور العبارة عن تفصيل مايقع فيه من الطامة التامة والداهية العامة كأنه قيل يوم تشهد عليهم (ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) يكون من الأحوال والأهوال مالا يحيط به حيطة المقال على أن الموصول المذكور عبارة عن جميع أعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة لاعن جناياتهم المعهودة فقط ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنه تعالى ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها لا أن كلا منها يخبر بجناياتهم المعهودة فحسب والموصول المحذوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتبة عليها كافة لاعن إحداها خاصة ففيه من ضروب التهويل بالإجمال والتفصيل مالامزيد عليه وجعل الموصول المذكور عبارة عن خصوص جناياتهم المعهودة وحمل شهادة الجوارح على إخبار الكل بها فقط تحجير للواسع وتهوين لأمر الوازع والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم عليها فى الدنيا وتقديم عليهم على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون
٢٥ الشهادة ضارة لهم مع مافيه من التشويق إلى المؤخر كما مر مراراً وقوله تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أى يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم الثابت الذى يحقق أن يثبت

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ٢٤ النور

لهم لامحالة وافياً كاملا كلام مبتدأ مسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المبهم المحذوف على وجه الإجمال ويجوز أن يكون يوم يشهد ظرفا ليوفيهم ويومئذ بدلا منه وقيل هو منصوب على أنه مفعول لفعل مضمر أى اذكر يوم تشهد بالتذكير للفصل (ويعلمون) عند معاينتهم الأهوال والخطوب حسبما نطق به القرآن الكريم (أن الله هو الحق) الثابت الذى يحق أن يثبت لامحالة فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها كلماته التامات المنبئة عن الشئون التى يشاهدونها منطبقة عليها (المبين) المظهر للأشياء كما هى فى أنفسها أو الظاهر أنه هو الحق وتفسيره بظهور ألوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها وعدم قدرة ماسواه على الثواب والعقاب ليس له كثير مناسبة المقام كما أن تفسير الحق بذى الحق البين أى العادل الظاهر عدله كذلك ولو تتبعت مافى الفرقان المجيد من آيات الوعيد الواردة فى حق كل كفار مريد وجبار عنيد لاتجد شيئاً منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبى ﷺ فى علو الشأن والنباهة وإبراز رتبة الصديقة رضى الله عنها فى العفة والنزاهة وقوله تعالى (الخبيثات) الخ كلام مستأنف مسوق على قاعدة السنة الإلهية الجارية فيما بين الخلق على موجب أن ٢٦
لله تعالى ملكا يسوق الأهل إلى الأهل أى الخبيثات من النساء (للخبيثين) من الرجال أى مختصات بهم لايكدن يتجاوزنهم إلى غيرهم على أن اللام للاختصاص (والخبيثون) أيضاً (للخبيثات) لأن المجانسة من دواعى الانضمام (والطيبات) منهن (للطيبين) منهم (والطيبون) أيضاً (للطيبات) منهن بحيث لايكادون يجاوزونهن إلى من عداهن وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين وخيرة الأولين والآخرين تبين كون الصديقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة واتضح بطلان ماقيل فى حقها من الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى (أولئك مبرءون مما يقولون) على أن الإشارة إلى أهل البيت المنتظمين للصديقة انتظاماً أولياً وقيل إلى رسول الله ﷺ والصديقة وصفوان ومافى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بعلو الشأن مبرءون مما تقوله أهل الإفك فى حقهم من الأكاذيب الباطلة وقيل الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والنساء أى مختصة ولائقة بهم لا ينبغى أن تقال فى حق غيرهم وكذا الخبيثون من الفريقين أحقاء بأن يقال فى حقهم خبائث القول والطيبات من الكلم للطيبين من الفريقين مختصة وحقيقة بهم وهم أحقاء بأن يقال فى شأنهم طيبات الكلم أولئك الطيبون مبرءون مما يقول الخبيثون فى حقهم فمآله تنزيه الصديقة أيضاً وقيل خبيثات القول مختصة بالخبيثين من فريقى الرجال والنساء لاتصدر عن غيرهم والخبيثون من الفريقين مختصون بخبائث القول متعرضون لها والطيبات من الكلام للطيبين من الفريقين أى مختصة بهم لاتصدر عن غيرهم والطيبون من الفريقين مختصون بطيبات الكلام لايصدر عنهم غيرها أولئك الطيبون مبرءون مما يقوله الخبيثون من

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ٢٤ النور

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ٢٤ النور

الخبائث أى لا يصدر عنهم مثل ذلك فما له تنزيه القائلين سبحانك هذا بهتان عظيم (لهم مغفرة) عظيمة
٢٧ لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم)
إثر ما فصل الزواجر عن الزنا وعن رمى العفائف عنه شرع فى تفصيل الزواجر عما عسى يؤدى إلى أحدهما
من مخالطة الرجال والنساء ودخولهم عليهن فى أوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والأفاعيل المرضية
المستتبعة لسعادة الدارين ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم خارج مخرج العادة التى هى سكنى كل أحد فى
ملكه وإلا فالمآجر والمعير أيضاً منهيان عن الدخول بغير إذن وقرىء بيوتاً غير بيوتكم بكسر الباء لأجل
الياء (حتى تستأنسوا) أى تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها من الاستئناس بمعنى الاستعلام من آنس
الشيء إذا أبصره فإن المستأنس مستعلم للحال مستكشف أنه هل يؤذن له أو من الاستئناس الذى هو
خلاف الاستيحاش لما أن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا أذن له استأنس (وتسلموا على
أهلها) عند الاستئذان روى عن النبى ﷺ أن التسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فإن
أذن له دخل وإلا رجع (ذلكم) أى الاستئذان مع التسليم (خير لكم) من أن تدخلوا بغتة أو على تحية
الجاهلية حيث كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته يقول حييتم صباحا حييتم مساء فيدخل
فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف وروى أن رجلا قال للنبى ﷺ أستأذن على أمى قال له نعم قال
ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت قال ﷺ أتحب أن تراها عريانة قال لا قال ﷺ فاستأذن
(لعلكم تذكرون) متعلق بمضمر أى أمرتم به أو قيل لكم هذا كى تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه
٢٨ (فإن لم تجدوا فيها أحداً) أى ممن يملك الإذن على أن من لا يملكه من النساء والولدان وجدانه كفقدانه
أو أحداً أصلا على أن مدلول النص الكريم عبارة هو النهى عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الاطلاع
على ما يعتاد الناس إخفاءه مع أن التصرف فى ملك الغير محظور مطلقاً وأما حرمة دخول ما فيه النساء والولدان
فثابتة بدلالة النص لأن الدخول حيث حرم مع ما ذكر من العلة فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى منه
إليه أعنى الإطلاع على العورات أولى (فلا تدخلوها) واصبروا (حتى يؤذن لكم) أى من جهة من يملك
الإذن عند إتيانه ومن فسره بقوله حتى يأتى من يأذن لكم أو حتى تجدوا من يأذن لكم فقد أبرز القطعى
فى معرض الاحتمال ولما كان جعل النهى مغيا بالإذن مما يوهم الرخصة فى الانتظار على الأبواب مطلقاً
بل فى تكرير الاستئذان ولو بعد الرد دفع ذلك بقوله تعالى (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) أى إن

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ٢٤ النور

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ٢٤ النور

أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الآمر ممن يملك الإذن أولا فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستئذان كما فى الوجه الأول ولا تلجوا بالإصرار على الانتظار إلى أن يأتى الآذن كما فى الثانى فإن ذلك مما يجلب الكراهة فى قلوب الناس ويقدح فى المروءة أى قدح (هو) أى الرجوع (أزكى لكم) أى أطهر مما لا يخلو عنه اللج والعناد والوقوف على الأبواب من دنس الدناءة والرذالة (والله بما تعملون عليم)
٢٩ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه فيجازيكم عليه (ليس عليكم جناح أن تدخلوا) أى بغير استئذان (بيوتاً غير مسكونة) أى غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط بل ليتمتع بها من يضطر إليها كائناً من كان من غير أن يتخذها سكناً كالربط والخانات والحوانيت والحمامات ونحوها فإنها معدة لمصالح الناس كافة كما ينبىء عنه قوله تعالى (فيها متاع لكم) فإنه صفة للبيوت أو استئناف جار مجرى التعليل لعدم الجناح أى فيها حق تمتع لكم كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والرجال والشراء والبيع والاغتسال وغير ذلك مما يليق بحال البيوت وداخليها فلا بأس بدخولها بغير استئذان من داخليها من قبل ولا ممن يتولى أمرها ويقوم بتدبيرها من قوام الرباطات والخانات وأصحاب الحوانيت ومتصرفى الحمامات ونحوهم ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال يارسول الله إن الله تعالى قد أنزل عليك آية فى الاستئذان وإنا نختلف فى تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن فنزلت وقيل هى الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز والظاهر أنها من جملة ما ينتظمه البيوت لا أنها المرادة فقط وقوله تعالى (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون)
٣٠ وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات (قل للمؤمنين) شروع فى بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجا أولياً وتلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ وتفويض ما فى حيزه من الأوامر والنواهى إلى رأيه ﷺ لأنها تكاليف متعلقة بأمور جزئية كثيرة الوقوع حقيقة بأن يكون الآمر بها والمتصدى لتدبيرها حافظاً ومهيمناً عليهم ومفعول الأمر أمر آخر قد حذف تعويلا على دلالة جوابه عليه أى قل لهم غضوا (يغضوا من أبصارهم) عما يحرم ويقتصروا به على ما يحل (ويحفظوا فروجهم) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وتقييد الغض بمن التبعيضية دون الحفظ لما فى أمر النظر من السعة وقيل المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر (ذلك) أى ما ذكر من الغض والحفظ (أزكى لهم) أى أطهر لهم من دنس الريبة (إن الله خبير بما يصنعون) لا يخفى عليه شىء مما يصدر عنهم من الأفاعيل التى من جملتها إجالة النظر واستعمال سائر الحواس وتحريك

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

٢٤ النور

٣١ الجوارح وما يقصدون بذلك فليكونوا على حذر منه فى كل ما يأتون وما يذرون (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه (ويحفظن فروجهن) بالتستر أو التصون عن الزنا وتقديم الغض لأن النظر بريد الزنا ورائد الفساد (ولا يبدين زينتهن) كالحلى وغيرها مما يتزين به وفيه من المبالغة فى النهى عن إبداء مواضعها ما لا يخفى (إلا مظهر منها) عند مزاولة الأمور التى لابد منها عادة كالخاتم والكحل والخضاب ونحوها فإن فى سترها حرجا بينا وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخليقية والتزيينية والمستثنى هو الوجه والكفان لأنها ليست بعورة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) إرشاد إلى كيفية إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن إبدائها وقد كانت النساء على عادة الجاهلية يسدلن خمرهن من خلفهن فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن لوسعها فأمرن بإرسال خمرهن إلى جيوبهن ستراً لما يبدو منها وقد ضمن الضرب معنى الإلقاء فعدى بعلى وقرىء بكسر الجيم كما تقدم (ولا يبدين زينتهن) كرر النهى لاستثناء بعض موادالرخصة عنه باعتبار الناظر بعد ما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور (إلا لبعولتهن) فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الموضع المعهود (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن) لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما فى طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة وعدم ذكر الأعمام والأخوال لما أن الأحوط أن يتسترن عنهم حذاراً من أن يصفوهن لأبنائهم (أو نسائهن) المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات فإن الكوافر لا يتحرجن عن وصفهن للرجال (أو ما ملكت أيمانهن) أى من الإماء فإن عبد المرأة بمنزلة الأجنبى منها وقيل من الإماء والعبيد لما روى أنه ﷺ أتى فاطمة رضى الله عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فقال ﷺ إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك (أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) أى أولى الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الهم والممسوحون وفى المجبوب والخصى خلاف وقيل هم البله الذين يتتبعون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء وقرىء غير بالنصب على الحالية (أو الطفل الذين لم يظهروا على عوارت النساء)

وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾
٢٤ النور

لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع أو لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين) أى مايخفينه من الرؤية (من زينتهن) أى ولا يضربن بأرجلهن الأرض ليتقعقع خلخالهن فيعلم أنهن ذوات خلخال فإن ذلك مما يورث الرجال ميلا إليهن ويوهم أن لهن ميلا إليهم وفى النهى عن إبداء صوت الحلى بعد النهى عن إبداء عينها من المبالغة فى الزجر عن إبداء موضعها مالا يخفى (وتوبوا إلى الله جميعاً) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل بطريق التغليب لإبراز كمال العناية بما فى حيزه من أمر التوبة وأنها من معظمات المهمات الحقيقة بأن يكون سبحانه وتعالى هو الآمر بها لما أنه لايكاد يخلو أحد من المكلفين عن نوع تفريط فى إقامة مواجب التكاليف كما ينبغى وناهيك بقوله ﷺ شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله عز وجل فاستقم كما أمرت لاسيما إذا كان المأمور به الكف عن الشهوات وقيل توبوا عما كنتم تفعلونه فى الجاهلية فإنه وإن جب بالإسلام لكن يجب الندم عليه والعزم على تركه كلما خطر بباله وفى تكرير الخطاب بقوله تعالى (أيها المؤمنون) تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتما
٣٢ وقرىء أيه المؤمنون (لعلكم تفلحون) تفوزون بذلك بسعادة الدارين (وأنكحوا الأيامى منكم) بعد مازجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فإنه مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خير مزجرة عن ذلك وأيامى مقلوب أيايم جمع أيم وهو من لازوج له من الرجال والنساء بكراً كان أو ثيباً كما يفصح عنه قول من قال [فإن تنكحى أنكح وإن تتأيمى * وإن كنت أفتى منكم أتأيم] أى زوجوا من لازوج له من الأحرار والحرائر (والصالحين من عبادكم وإمائكم) على أن الخطاب للأولياء والسادات واعتبار الصلاح فى الأرقاء لأن من لاصلاح له منهم بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتنى مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف فى نظم مصالحه بما لابد منه شرعا وعادة من بذل المال والمنافع بل حقه أن يستبقيه عنده وأما عدم اعتبار الصلاح فى الأحرار والحرائر فلأن الغالب فيهم الصلاح على أنهم مستبدون فى التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم فإذا عزموا النكاح فلابد من مساعدة الأولياء لهم إذ ليس عليهم فى ذلك غرامة حتى يعتبر فى مقابلتها غنيمة عائدة إليهم عاجلة أو آجلة وقيل المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) إزاحة لما عسى يكون وازعا من النكاح من فقر أحد الجانبين أى لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن فى فضل الله عز وجل غنية عن المال فإنه غادورائح يرزق من يشاء من حيث لايحتسب أو وعد منه سبحانه بالإغناء لقوله ﷺ اطلبوا الغنى فى هذه الآية لكنه مشروط بالمشيئة كما فى قوله تعالى وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء (والله واسع) غنى ذو سعة لايرزؤه إغناء الخلائق إذ لانفاد لنعمته ولا غاية لقدرته مع ذلك (عليم) يبسط

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا
تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ
فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

٣٣ الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (وليستعفف) إرشاد للعاجزين عن مبادى النكاح
وأسبابه إلى ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء أى ليجتهد فى العفة وقمع الشهوة (الذين
لا يجدون نكاحا) أى أسباب نكاح أو لا يتمكنون مما ينكح به من المال (حتى يغنيهم الله من فضله) عدة كريمة
بالتفضل عليهم بالغنى ولطف لهم فى استعفافهم وتقوية لقلوبهم وإيذان بأن فضله تعالى أولى بالأعفاء وأدنى
* من الصلحاء (والذين يبتغون الكتاب) بعد ما أمر بإنكاح صالحى المماليك الأحقاء بالإنكاح أمر بكتابة من
* يستحقها منهم والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة أى الذين يطلبون المكاتبة (مما ملكت أيمانكم) عبداً كان أو أمة
وهى أن يقول المولى لمملوكه كاتبتك على كذا درهما تؤديه إلى وتعتق ويقول المملوك قبلته أو نحو ذلك فإن أداه
إليه عتق قالوا معناه كتبت لك على نفسى أن تعتق منى إذا وفيت بالمال وكتبت لى على نفسك أن تفى بذلك أو
كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق عنده والتحقيق أن المكاتبة اسم للعقد الحاصل من مجموع
كلاميهما كسائر العقود الشرعية المنعقدة بالإيجاب والقبول ولا ريب فى أن ذلك لا يصدر حقيقة إلا من
المتعاقدين وليس وظيفة كل منهما فى الحقيقة إلا الإتيان بأحد شطريه معربا عما يتم من قبله ويصدر عنه
من الفعل الخاص به من غير تعرض لما يتم من قبل صاحبه ويصدر عنه من فعله الخاص به إلا أن كلا من
ذينك الفعلين لما كان بحيث لا يمكن تحققه فى نفسه إلا منوطاً بتحقق الآخر ضرورة أن التزام العتق
بمقابلة البدل من جهة المولى لا يتصور تحققه وتحصله إلا بالتزام البدل من طرف العبد كما أن عقد البيع
الذى هو تمليك المبيع بالثمن من جهة البائع لا يمكن تحققه إلا بتملكه به من جانب المشترى لم يكن بد من
تضمين أحدهما الآخر وقت الإنشاء فكما أن قول البائع بعت إنشاء لعقد البيع على معنى أنه إيقاع لما يتم من
قبله أصالة ولما يتم من قبل المشترى ضمناً إيقاعا متوقفاً على رأيه توقفاً شبيهاً بتوقف عقد الفضولى كذلك قول
المولى كاتبتك على كذا إنشاء لعقد الكتابة أى إيقاع لما يتم من قبله من التزام العتق بمقابلة البدل أصالة ولما
يتم من قبل العبد من التزام البدل ضمناً إيقاعا متوقفاً على قبوله فإذا قبل تم العقد ومحل الموصول الرفع على
* الابتداء خبره (فكاتبوهم) والفاء لتضمنه معنى الشرط أو النصب على أنه مفعول لمضمر يفسره هذا
والأمر فيه للندب لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق فلا تجب كغيرها ويجوز حالا ومؤجلا ومنجماً
* وغير منجم وعند الشافعى رحمه الله لا يجوز إلا مؤجلا منجما وقد فصل فى موضعه (إن علمتم فيهم خيراً)
أى أمانة ورشداً وقدرة على أداء البدل بتحصيله من وجه حلال وصلاحا لا يؤذى الناس بعد العتق
* وإطلاق العنان (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أمر للموالى ببذل شىء من أموالهم وفى حكمه حط شىء

من مال الكتابة ويكفى فى ذلك أقل مايتمول وعن على رضى الله عنه حط الربع وعن ابن عباس رضى الله عنهما الثلث وهو للندب عندنا وعند الشافعى للوجوب ويرده قوله ﷺ المكاتب عبد مابقى عليه درهم إذ لو وجب الحط لسقط عنه الباقى حتما وأيضاً لو وجب الحط لكان وجوبه معلقاً بالعقد فيكون العقد موجباً ومسقطاً معاً وأيضاً فهو عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع وقيل معنى آتوهم أقرضوهم وقيل هو أمر لهم بأن ينفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا وإضافة المال إليه تعالى ووصفه بإيتائه إياهم للحث على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به كما فى قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فإن ملاحظة وصول المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقى له من أقوى الدواعى إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها وقيل هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات فالأمر للوجوب حتما والإضافة والوصف لتعيين المأخذ وقيل هو أمر ندب لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين بالتصدق عليهم ويحل ذلك للمولى وإن كان غنياً لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله ﷺ فى حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (ولا تكرهوا فتياتكم) * أى إماءكم فإن كلا من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والأمة وعلى ذلك مبنى قوله ﷺ ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى ولهذه العبارة فى هذا المقام باعتبار مفهومها الأصلى حسن موقع ومزيد مناسبة لقوله تعالى (على البغاء) وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء لأنهن اللاتى يتوقع منهن * ذلك غالباً دون من عداهن من العجائز والصغائر وقوله تعالى (إن أردن تحصناً) ليس لتخصيص النهى * بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا وإخراج ماعداها من حكمه كما إذا كان الاكراه بسبب كراهتهن الزنا لخصوص الزانى أو لخصوص الزمان أو لخصوص المكان أو لغير ذلك من الأمور المصححة للإكراه فى الجملة بل للمحافظة على عادتهم المستمرة حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور وقصورهن فى معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطى القبائح فإن عبدالله بن أبى كانت له ست جوار يكرههن على الزنا وضرب عليهن ضرائب فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ماكانوا عليه من القبائح مالا يخفى فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه فضلا عن أمرهن به أو إكراههن عليه لاسيما عند إرادتهن التعفف فتأمل ودع عنك ماقيل من أن ذلك لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن وما قيل من أنه إن جعل شرطاً للنهى لا يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهى لامتناع المنهى عنه فإنهما بمعزل من التحقيق وإيثار كلمة إن على إذا مع تحقق الإرادة فى مورد النص حتما للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصن فى حيز التردد والشك فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع وتعليله بأن الإرادة المذكورة منهن فى حيز الشاذ النادر مع خلوه عن الجدوى بالكلية يأباه اعتبار تحققها إباء ظاهراً وقوله تعالى (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) قيد للإكراه * لكن لا باعتبار أنه مدار للنهى عنه بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم كما قبله جىء به تشنيعاً لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لأجل النزر الحقير أى لا تفعلوا ماأنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال فالمراد بالابتغاء الطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل إذ

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ٢٤ النور

هو الصالح لكونه غاية للإكراه مترتباً عليه لا المطلق المتناول للطلب السابق الباعث عليه (ومن يكرههن) الخ جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهى وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارة ورجوع غائلة الإكراه إلى المكرهين إشارة أى ومن يكرههن على ماذكر من البغاء (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) أى لهن كما وقع فى مصحف ابن مسعود وعليه قراءة ابن عباس رضى الله تعالى عنهم وكما ينبىء عنه قوله تعالى من بعد إكراههن أى كونهن مكرهات على أن الإكراه مصدر من المبنى للمفعول فإن توسيطه بين اسم إن وخبرها للإيذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة وكان الحسن البصرى رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول لهن والله لهن والله وفى تخصيصهما بهن وتعيين مدارهما مع سبق ذكر المكرهين أيضاً فى الشرطية دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية كأنه قيل لا للمكره ولظهور هذا التقدير اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط فتجويز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالا أو معهن إخلال بجزالة النظم الجليل وتهوين لأمر النهى فى مقام التهويل وحاجتهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم إما باعتبار أنهن وإن كن مكرهات لايخلون فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة مابحكم الجبلة البشرية وإما باعتبار أن الإكراه قد يكون قاصراً عن حد الالجاء المزيل للاختيار بالمرة وإما لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت فى التجافى عنه والتشديد فى تحذير المكرهين ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة لولا أن تداركهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر فى حقهن فما حال من
٢٤ يكرههن فى استحقاق العذاب (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) كلام مستأنف جىء به فى تضاعيف ماورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شئونها المستوجبة للإقبال الكلى على العمل بمضمونها وصدر بالقسم الذى تعرب عنه اللام لإبراز كمال العناية بشأنه أى وبالله لقد أنزلنا إليكم فى هذه السورة الكريمة آيات مبينات لكل مابكم حاجة إلى بيانه من الحدود وسائر الأحكام والآداب وغير ذلك مما هو من مبادى بيانها على أن إسناد التبيين إليها مجازى أو آيات واضحات تصدقها الكتب القديمة والعقول السليمة على أن مبينات من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين وقرىء على صيغة المفعول أى التى بينت وأوضحت فى هذه السورة من معانى الأحكام والحدود وقد جوز أن يكون الأصل مبيناً فيها الأحكام فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) عطف على آيات أى وأنزلنا مثلا كائناً من قبيل أمثال الذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة والأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء عليهم السلام فينتظم قصة عائشة رضى الله عنها المحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مريم رضى الله عنها وسائر الأمثال الواردة فى السورة الكريمة انتظاما واضحاً وتخصيص الآيات المبينات بالسوابق وحمل المثل على القصة العجيبة فقط يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى من التمثيلات (وموعظة) تتعظون به وتنزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر مايخل بمحاسن الآداب فهى عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها من المواعظ بالمعنى المذكور

اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

٢٤ النور

ومدار العطف هو التغاير العنوانى المنزل منزلة التغاير الذاتى وقد خصت الآيات بما يبين الحدود والأحكام والموعظة بما وعظ به من قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى لولا إذ سمعتموه وغير ذلك من الآيات الواردة فى شأن الآداب وإنما قيل (للمتقين) مع شمول الموعظة للكل حسب شمول الإنزال لقوله تعالى أنزلنا إليكم حثاً للمخاطبين على الاعتناء بالانتظام فى سلك المتقين ببيان أنهم المغتنمون لآثارها المقتبسون من أنوارها فحسب وقيل المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة جميع ما فى القرآن المجيد من الآيات والأمثال والمواعظ فقوله تعالى (الله نور السموات والأرض) الخ حينئذ استئناف مسوق ٣٥
لتقرير ما فيها من البيان مع الإشعار بكونه فى غاية الكمال على الوجه الذى ستعرفه وأما على الأول فلتحقيق أن بيانه تعالى ليس مقصوراً على ماورد فى السورة الكريمة بل هو شامل لكل مايحق بيانه من الأحكام والشرائع ومباديها وغاياتها المترتبة عليها فى الدنيا والآخرة وغير ذلك مما له مدخل فى البيان وأنه واقع منه تعالى على أتم الوجوه وأكملها حيث عبر عنه بالتنوير الذى هو أقوى مراتب البيان وأجلاها وعبر عن المنور بنفس النور تنبيهاً على قوة التنوير وشدة التأثير وإيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته وكل ماسواه ظاهر بإظهاره كما أن النور نير بذاته وماعداه مستنير به وأضيف النور إلى السموات والأرض للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له وغاية شموله لكل مايليق به من الأمور التى لها مدخل فى إرشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع مايقبله ويستحقه من الأجرام العلوية والسفلية فإنهما قطران للعالم الجسمانى الذى لا مظهر للنور الحسى سواه أو على شمول البيان لأحوالها وأحوال مافيهما من الموجودات إذ ما من موجود إلا وقد بين من أحواله مايستحق البيان إما تفصيلا أو إجمالا كيف لا ولا ريب فى بيان كونه دليلا على وجود الصانع وصفاته وشاهداً بصحة البعث أو على تعلق البيان بأهلهما كما قال ابن عباس رضى الله عنهما هادى أهل السموات والأرض فهم بنوره يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون هذا وأما حمل التنوير على إخراجه تعالى للماهيات من العدم إلى الوجود إذ هو الأصل فى الإظهار كما أن الإعدام هو الأصل فى الإخفاء أو على تزيين السموات بالنيرين وسائر الكواكب ومايفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة عليهم السلام وتزيين الأرض بالأنبياء عليهم السلام والعلماء والمؤمنين أو بالنبات والأشجار أو على تدبيره تعالى لأمورهما وأمور مافيهما فمما لا يلائم المقام ولا يساعده حسن النظام (مثل نوره) أى نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين كما يعرب عنه ماقبله من وصف آياته بالإنزال والتبيين وقد صرح بكونه نوراً أيضاً فى قوله تعالى وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وزيد

ابن أسلم رحمهم الله تعالى وجعله عبارة عن الحق وإن شاع استعارته له كاستعارة الظلمة للباطل يأباه مقام بيان شأن الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع عدم سبق ذكر الحق ولأن المعتبر فى مفهوم النور هو الظهور والإظهار كما هو شأن القرآن الكريم وأما الحق فالمعتبر فى مفهومه من حيث هو حق هو الظهور لا الإظهار والمراد بالمثل الصفة العجيبة أى صفة نوره العجيبة (كمشكاة) أى كصفة كوة غير نافذة فى الجدار فى الإنارة والتنوير (فيها مصباح) سراج ضخم ثاقب وقيل المشكاة الأنبوبة فى وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة (المصباح فى زجاجة) أى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر وقرىء بفتح الزاى وكسرها فى الموضعين (الزجاجة كأنها كوكب درى) متلألىء وقاد شبيه بالدر فى صفائه وزهرته ودرارى الكواكب عظامها المشهورة وقرىء درىء بدال مكسورة وراء مشددة وياء ممدودة بعدها همزة على أنه فعيل من الدرء وهو الدفع أى مبالغ فى دفع الظلام بضوئه أو فى دفع بعض أجزاء ضيائه لبعض عند البريق واللمعان وقرىء بضم الدال والباقى على حاله وفى إعادة المصباح والزجاجة معرفين إثر سبقهما منكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال كمشكاة فيها مصباح فى زجاجة كأنها كوكب درى من تفخيم شأنهما ورفع مكانهما بالتفسير إثر الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وبإثبات مابعدهما لهما بطريق الإخبار المنبىء عن القصد الأصلى دون الوصف المبنى على الإشارة إلى الثبوت فى الجملة مالا يخفى ومحل الجملة الأولى الرفع على أنها صفة لمصباح ومحل الثانية الجر على أنها صفة لزجاجة واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها مصباح هو فى زجاجة هى كأنها كوكب درى (يوقد من شجرة) أى يبتدأ إيقاد المصباح من شجرة (مباركة) أى كثيرة المنافع بأن رويت ذبالته بزيتها وقيل إنما وصفت بالبركة لأنها تنبت فى الأرض التى بارك الله تعالى فيها للعالمين (زيتونة) بدل من شجرة وفى إبهامها ووصفها بالبركة ثم الإبدال منها تفخيم لشأنها وقرىء توقد بالتاء على أن الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح وقرىء توقد على صيغة الماضى من التفعل أى ابتداء ثقوب المصباح منها وقرىء توقد بحذف إحدى التاءين من تتوقد على إسناده إلى الزجاجة (لا شرقية ولا غربية) تقع الشمس عليها حينا دون حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتى على قلة أو صحراء واسعة فتقع الشمس عليها حالتى الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة وقال الفراء والزجاج لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها لكنها شرقية وغربية أى تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ وقيل لا نابتة فى شرق المعمورة ولا فى غربها بل فى وسطها وهو الشام فإن زيوتها أجود ما يكون وقيل لا فى مضحى تشرق الشمس عليها دائما فتحرقها ولا فى مقنأة تغيب عنها دائما فتتركها نيأ وفى الحديث لا خير فى شجرة ولا فى نبات فى مقنأة ولا خير فيهما فى مضحى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) أى هو فى الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضىء بنفسه من غير مساس نار أصلا وكلمة لو فى أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شىء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على

كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له إجمالا بإدخالها على أبعدها منه إما لوجود المانع كما فى قوله تعالى أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإما لعدم الشرط كما فى هذه الآية الكريمة ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع ماينافيه من وجود المانع أوعدم الشرط فلأن يتحقق بدون ذلك أولى ولذلك لا يذكر معه شىء آخر من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال وهذا أمر مطرد فى الخبر الموجب والمنفى فإنك إذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيراً أو بخيل لا يعطى ولو كان غنياً تريد بيان تحقق الإعطاء فى الأول وعدم تحققه فى الثانى فى جميع الأحوال المفروضة والتقدير يعطى لولم يكن فقيراً ولو كان فقيراً ولا يعطى لو لم يكن غنياً ولوكان غنياً فالجملة مع ماعطفت هى عليه فى حيز النصب على الحالية من المستكن فى الفعل الموجب أو المنفى أى يعطى أولا يعطى كائناً على جميع الأحوال وتقدير الآية الكريمة يكاد زيتها يضىء لومسته نار ولولم تمسسه نار أى يضىء كائناً على كل حال من وجود الشرط وعدمه وقد حذفت الجملة الأولى حسبما هو المطرد فى الباب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة (نور) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (على نور) متعلق بمحذوف هو صفة له مؤكدة ٭ لما أفاده التنكير من الفخامة والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بما حصل منه وتمهيد لما يعقبه أى ذلك النور الذى عبر به عن القرآن ومثلت صفته العجيبة الشأن بما فصل من صفة المشكاة نور عظيم كائن على نور كذلك لا على أنه عبارة عن نور واحد معين أوغير معين فوق نور آخر مثله ولا عن مجموع نورين اثنين فقط بل عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة فإن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه إلى أصل الشعاع بخلاف المكان المتسع فإن الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقا ويمده باضاءة مرتبة أخرى عادة هذا وجعل النور عبارة عن النور المشبه به مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل (يهدى الله لنوره) أى يهدى هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتما لذلك النور ٭ المتضاعف العظيم الشأن وإظهاره فى مقام الإضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل (من يشاء) هدايته من عباده بأن يوفقهم لفهم مافيه من دلائل ٭ حقيته وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والاخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان به وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية وملاكها ليس إلا مشيئته تعالى وأن تظاهر الأسباب بدونها بمعزل من الإفضاء إلى المطالب (ويضرب الله الأمثال للناس) فى تضاعيف الهداية حسبما يقتضى حالهم فإن له دخلا ٭ عظيما فى باب الإرشاد لأنه إبراز للمعقول فى هيئة المحسوس وتصوير لأوابد المعانى بصورة المأنوس ولذلك مثل نوره المعبر به عن القرآن المبين بنور المشكاة وإظهار الاسم الجليل فى مقام الإضمار للإيذان

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ ٢٤ النور

باختلاف حال ما أسند إليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الأمثال الذى هو من قبيل الهداية العامة
كما يفصح عنه تعليق الأولى بمن يشاء والثانية بالناس كافة (والله بكل شيء عليم) مفعولا كان أو محسوساً
ظاهراً كان أو باطناً ومن قضيته أن تتعلق مشيئته بهداية من يليق بها ويستحقها من الناس دون من عداهم
لمخالفته الحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وأن تكون هدايته العامة على فنون مختلفة وطرائق
شتى حسبما تقتضيه أحوالهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وإظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال
٣٦ الجملة والإشعار بعلة الحكم وبما ذكر من اختلاف حال المحكوم به ذاتاً وتعلقاً (فى بيوت أذن الله أن
ترفع ويذكر فيها اسمه) لما ذكر شأن القرآن الكريم فى بيانه للشرائع والأحكام ومباديها وغاياتها المترتبة
عليها من الثواب والعقاب وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالها وأشير إلى كونه فى غاية ما يكون من
التوضيح والإظهار حيث مثل بما فصل من نور المشكاة وأشير إلى أن ذلك النور مع كونه فى أقصى
مراتب الظهور إنما يهتدى بهداه من تعلقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون من عداه عقب ذلك بذكر
الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم فى الاهتداء وعدمه والمراد بالبيوت المساجد
كلها حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هى المساجد التى بناها نبى من أنبياء الله تعالى الكعبة
التى بناها إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام وبيت المقدس الذى بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد
المدينة ومسجد قباء اللذان بناهما رسول الله ﷺ وتنكيرها للتفخيم والمراد بالإذن فى رفعها الأمر ببنائها
رفيعة لا كسائر البيوت وقيل هو الأمر برفع مقدارها بعبادة الله تعالى فيها فيكون عطف الذكر عليه
من قبيل العطف التفسيرى وأياً ما كان ففى التعبير عنه بالإذن تلويح بأن اللائق بحال المأمور أن يكون
متوجهاً إلى المأمور به قبل ورود الأمر به ناوياً لتحقيقه كأنه مستأذن فى ذلك فيقع الأمر به موقع
الإذن فيه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يعم جميع أذكاره تعالى وكلمة فى متعلقة بقوله تعالى (يسبح له) وقوله
تعالى (فيها) تكريرلها للتأكيد والتذكير لما بينهما من الفاصلة والإيذان بأن التقديم للاهتمام لا لقصر
التسبيح على الوقوع فى البيوت فقط وأصل التسبيح التنزيه والتقديس يستعمل باللام وبدونها أيضاً كما فى
قوله تعالى سبح اسم ربك الأعلى قالوا أريد به الصلوات المفروضة كما ينبىء عنه تعيين الأوقات بقوله
تعالى (بالغدو والآصال) أى بالغدوات والعشايا على أن الغدو إما جمع غداة كقنى فى جمع قناة كما قيل أو
مصدر أطلق على الوقت حسبما يشعر به اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل وهو العشى وهو شامل لإلأوقات
ماعدا صلاة الفجر المؤداة بالغداة ويجوز أن يراد به نفس التنزيه على أنه عبارة عما يقع منه فى أثناء
الصلوات وأوقاتها لزيادة شرفه وإنافته على سائر أفراده أو عما يقع فى جميع الأوقات وأفراد طرفى النهار
بالذكر لقيامهما مقام كلها لكونهما العمدة فيها بكونهما مشهودين وكونهما أشهر ما يقع فيه المباشرة
للأعمال والاشتغال بالاشغال وقرىء والإيصال وهو الدخول فى الأصيل وقوله تعالى :

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ٢٤ النور

لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ٢٤ النور

٣٧ (رجال) فاعل يسبح وتأخيره عن الظروف لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ولأن في وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام وقرىء يسبح على البناء للمفعول بإسناده إلى أحد الظروف ورجال مرفوع بما ينبىء عنه حكاية الفعل من غير تسمية الفاعل على طريقة قوله [ليبك يزيد ضارع لخصومة) كأنه قيل من يسبح له فقيل يسبح له رجال وقرىء تسبح بتأنيث الفعل مبنياً للفاعل لأن جمع التكسير قد يعامل معاملة المؤنث ومبنياً للمفعول على أن يسند إلى أوقات الغدو والآصال بزيادة الباء وتجعل الأوقات مسبحة مع كونها مسبحاً فيها أو يسند إلى ضمير التسبيحة أى تسبح له التسبيحة على المجاز المسوغ لإسناده إلى الوقتين كما خرجوا قراءة أبى جعفر ليجزى قوما أى ليجزى الجزاء قوما بل هذا أولى من ذلك إذ ليس هنا مفعول صريح (لا تلهيهم تجارة) صفة لرجال مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم كائناً ما كان وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها أى لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة (ولا بيع) أى ولا فرد من أفراد البياعات وإن كان فى غاية الربح وإفراده بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن ناجز وربح ماعداه متوقع فى ثانى الحال عند البيع فلم يلزم من نفى إلهاء ماعداه نفى إلهائه ولذلك كررت كلمة لا لتذكير النفى وتأكيده وقد نقل عن الواقدى أن المراد بالتجارة هو الشراء لأنه أصلها ومبدؤها وقيل هو الجلب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجر فى كذا أى جلبه (عن ذكر الله) بالتسبيح والتحميد (وإقام الصلاة) أى إقامتها لمواقيتها من غير تأخير وقد أسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال وعوض عنها الإضافة كما فى قوله [وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا] أى عدة الأمر (وإيتاء الزكاة) أى المال الذى فرض إخراجه للمستحقين وإيراده ههنا وإن لم يكن مما يفعل فى البيوت لكونه قرينة لا تفارق إقامة الصلاة فى عامة المواضع مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد وكذلك قوله تعالى (يخافون) الخ فإنه صفة ثانية لرجال أو حال من مفعول لا تلهيهم وأياً ما كان فليس خوفهم مقصوراً على كونهم فى المساجد وقوله تعالى (يوما) مفعول ليخافون لا ظرف له وقوله تعالى (تتقلب فيه القلوب والأبصار) صفة ليوما أى تضطرب وتتغير فى أنفسها من الهول والفزع وتشخص كما فى قوله تعالى وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر أو تتغير أحوالها وتتقلب فتتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياء أو تتقلب القلوب بين توقع النجاة وخوف الهلاك والأبصار من أى ناحية يؤخذبهم ويؤتى كتابهم

٣٨ (ليجزيهم الله) متعلق بمحذوف يدل عليه ما حكى من أعمالهم المرضية أى

وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ
ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ٢٤ النور

يفعلون مايفعلون من المداومة على التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة والخوف من غير صارف لهم عن ذلك
* ليجزيهم الله تعالى (أحسن ماعملوا) أى أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعد لهم بمقابلة حسنة واحدة عشرة
* أمثالها إلى سبعمائة ضعف (ويزيدهم من فضله) أى يتفضل عليهم بأشياء لم توعد لهم بخصوصياتها أو بمقاديرها ولم تخطر ببالهم كيفياتها ولا كمياتها بل إنما وعدت بطريق الإجمال فى مثل قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وقوله ﷺ حكاية عنه عز وجل أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا
* أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وغير ذلك من المواعيد الكريمة التى من جملتها قوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فإنه تذييل مقرر للزيادة وعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات مالا يفى به الحساب وأما عدم سبق الوعد بالزيادة ولو إجمالا وعدم خطورها ببالهم ولو بوجه ما فيأباه نظمها فى سلك الغاية والموصول عبارة عمن ذكرت صفاتهم الجميلة كأنه قيل والله يرزقهم بغير حساب ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره تعالى لا لظاهر الأسباب والإيذان بأنهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم كما أنهم ممن شاء الله تعالى أن يهديهم لنوره حسبما يعرب عنه مافصل من أعمالهم الحسنة فإن جميع ماذكر من الذكر والتسبيح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وخوف اليوم الآخر وأهواله ورجاء الثواب مقتبس من القرآن العظيم الذى هو المعنى بالنور وبه يتم بيان أحوال من اهتدى بهداه على أوضح وجه وأجلاه هذا وقد قيل قوله تعالى فى بيوت الخ من تتمة التمثيل وكلمة فى متعلقة بمحذوف هى صفة لمشكاة أى كائنة فى بيوت وقيل لمصباح وقيل لزجاجة وقيل متعلقة بيوقد والكل مما لايليق بشأن التنزيل الجليل كيف لا وأن مابعد قوله تعالى ولو لم تمسسه نار على ماهو الحق أو مابعد قوله تعالى نور على نور على ماقيل إلى قوله تعالى بكل شىء عليم كلام متعلق بالممثل قطعاً فتوسيطه بين أجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالأجنبى يؤدى إلى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهديين لنور القرآن الكريم بطريق الاستتباع والاستطراد مع كون بيان حال أضدادهم مقصوداً بالذات ومثل
٣٩ هذا مما لا عهد به فى كلام الناس فضلا أن يحمل عليه الكلام المعجز (والذين كفروا) عطف على ماينساق إليه ماقبله كأنه قيل الذين آمنوا أعمالهم حالا ومآلا كما وصف والذين كفروا (أعمالهم) أى أعمالهم التى هى من أبواب البر كصلة الأرحام وفك العناة وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف ونحو ذلك مما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب كما فى قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد الآية (كسراب) وهو مايرى فى الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أى يجرى (بقيعة) متعلق بمحذوف هو صفة لسراب أى كائن فى قاع وهى الأرض المنبسطة

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ٢٤ النور

المستوية وقيل هي جمع قاع كجيرة جمع جار وقرىء بقيعات بتاء ممدودة كديمات إما على أنها جمع قيعة أو على أن الأصل قيعة قد أشبعت فتحة العين فتولد منها ألف (يحسبه الظمآن ماء) صفة أخرى لسراب وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائناً من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه الذي هو المطلع المطمع والمقطع المؤيس (حتى إذا جاءه) أي إذا جاء العطشان ما حسبه ماء وقيل موضعه (لم يجده) أي ما حسبه ماء وعلق به رجاءه (شيئاً) أصلا لا محققاً ولا متوهما كما كان يراه من قبل فضلا عن وجدانه ماء وبه تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل وقوله تعالى (ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شأن الظمآن ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلا فليست الجملة معطوفة على لم يجده شيئاً بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عيناً ولا أثراً كما في قوله تعالى وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً كيف لا وأن الحكم بأن أعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً حكم بأنها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعة لهم في الآخرة حتى إذا جاءوها لم يجدوها شيئاً كأنه قيل حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة لم يجدوها شيئاً ووجدوا الله أي حكمه وقضاءه عند المجيء وقيل عند العمل فوفاهم أي أعطاهم وافياً كاملا حسابهم أي حساب أعمالهم المذكورة وجزاءها فإن اعتقادهم لنفعها بغير إيمان وعملهم بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعاً وإفراد الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا إما لإرادة الجنس كالظمآن الواقع في التمثيل وإما للحمل على كل واحد منهم وكذا الإفراد فيما يرجع إلى أعمالهم هذا وقد قيل نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد في الجاهلية

٤٠ ولبس المسوح والتمس الدين فلما جاء الإسلام كفر (أو كظلمات) عطف على كسراب وكلمة أو للتنويع إثر ما مثلت أعمالهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها في كل واد وناد بما ذكر من حال السراب مع زيادة حساب وعقاب مثلت أعمالهم القبيحة التي ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بظلمات كائنة (في بحر لجي) أي عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر وقيل إلى اللجة وهي أيضاً معظمه (يغشاه) صفة أخرى للبحر أي يستره ويغطيه بالكلية (موج) وقوله تعالى (من فوقه موج) جملة من مبتدأ وخبر محلها الرفع على أنها صفة لموج أو الصفة هي الجار والمجرور وموج الثاني فاعل له لاعتماده على الموصوف والكلام فيه كما مر في قوله تعالى نور على نور أي يغشاه أمواج متراكمة متراكبة بعضها على بعض وقوله تعالى (من فوقه سحاب) صفة لموج الثاني على أحد الوجهين المذكورين أي من فوق ذلك الموج سحاب ظلماني ستر أضواء النجوم وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعيفها حتى كأنها بلغت

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ٢٤ النور

السحاب (ظلمات) خبر مبتدأ محذوف أى هى ظلمات (بعضها فوق بعض) أى متكاثفة متراكمة وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كما أن قوله تعالى نور على نور بيان لغاية قوة النور خلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه ما بعده وقرىء بالجر على الإبدال من الأولى وقرىء بإضافة السحاب إليها (إذا أخرج) أى من ابتلى بها وإضماره من غير ذكره لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة (يده) وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر إليها (لم يكد يراها) وهى أقرب شىء منه فضلا عن أن يراها (ومن لم يجعل الله له نوراً) الخ اعتراض تذييلى جىء به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفرة كما فصل وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره وإيراد الموصول للإشارة بما فى حيز الصلة إلى علة الحكم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم أى ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذى هو القرآن هداية خاصة مستتبعة

٤١ للاهتداء حتما ولم يوفقه للإيمان به (فما له من نور) أى فما له هداية ما من أحد أصلا وقوله تعالى (ألم تر) الخ استئناف خوطب به النبى ﷺ للإيذان بأنه تعالى قد أفاض عليه ﷺ أعلى مراتب النور وأجلاها وبين له من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها والهمزة للتقرير أى قد علمت علماً يقينياً شبيهاً بالمشاهدة فى القوة والرصانة بالوحى الصريح والاستدلال الصحيح (أن الله يسبح له) أى ينزهه تعالى على الدوام فى ذاته وصفاته وأفعاله عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص أو خلل (من فى السموات والأرض) أى ما فيهما إما بطريق الاستقرار فيهما من العقلاء وغيرهم كائناً ما كان أو بطريق الجزئية منهما تنزيهاً تفهمه العقول السليمة فإن كل موجود من الموجودات الممكنة مركباً كان أو بسيطاً فهو من حيث ماهيته ووجوده وأحواله يدل على وجود صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال مقدس عن كل ما لا يليق بشأن من شئونه الجليلة وقد نبه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذى هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال وأكد ذلك بإيثار كلمة من على ما كأن كل شىء مما عز وهان وكل فرد من أفراد الأعراض والأعيان عاقل ناطق ومخبر صادق بعلو شأنه تعالى وعزة سلطانه وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضاً لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة فى إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له فى الألوهية ونسبتهم إياه إلى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك علواً كبيراً وحمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات بأن يراد به معنى مجازى شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم حسبما هو المتبادر من قوله تعالى كل قد علم صلاته وتسبيحه يرده أن بعضاً من العقلاء وهم الكفرة من الثقلين لا يسبحونه بذلك المعنى قطعاً وإنما تسبيحهم ما ذكر من الدلالة التى يشاركهم فيها غير العقلاء أيضاً وفيه مزيد تخطئة لهم وتعيير ببيان أنهم يسبحونه تعالى باعتبار أخس جهاتهم التى هى الجمادية والجسمية والحيوانية ولا

يسبحونه باعتبار أشرفها التي هي الإنسانية (والطير) بالرفع عطفاً على من وتخصيصها بالذكر مع اندارجها * في جملة مافي الأرض لعدم استقرار قرارها فيها واستقلالها بصنع بارع وإنشاء رائع قصد بيان تسبيحها من تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى (صافات) أي تسبيحه تعالى حال كونها صافات أجنحتها فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة ماتتمكن * من الوقوف في الجو والحركة كيف تشاء من الأجنحة والأذناب الخفيفة وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط حجة نيرة واضحة المكنون وآية بينة لقوم يعقلون دالة على كمال قدرة الصانع المجيد وغاية حكمة المبدىء المعيد وقوله تعالى (كل قد علم صلاته وتسبيحه) بيان لكمال عراقة كل واحد مما ذكر * في التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية وقد أدمج في تضاعيفه الإشارة إلى أن لكل واحد من الأشياء المذكورة مع ماذكر من التنزيه حاجة ذاتية إليه تعالى واستفاضة منه لما يهمه بلسان استعداده وتحقيقه أن كل واحد من الموجودات الممكنة في حد ذاته بمعزل من استحقاق الوجود لكنه مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه من الوجود وما يتبعه من الكمالات ابتداء وبقاء فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار فيفيض عليه في كل آن من فيوض الفنون المتعلقة بذاته وصفاته مالا يحيط به نطاق البيان بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل وإفادة المزايا المذكورة فيما مر على التفصيل وتقديمها على التسبيح في الذكر لتقدمها عليه في الرتبة هذا ويجوز أن يكون العلم على حقيقته ويراد به مطلق الإدراك وبما ناب عنه التنوين في كل أنواع الطير وأفرادها وبالصلاة وبالتسبيح ما ألهمه الله تعالى كل واحد منها من الدعاء والتسبيح المخصوصين به لكن لا على أن يكون الطير معطوفاً على كلمة من مرفوعاً برافعها فإنه يؤدي إلى أن يراد بالتسبيح معنى مجازي شامل للتسبيح المقالي والحالي من العقلاء وغيرهم وقد عرفت مافيه بل بفعل مضمر أريد به التسبيح المخصوص بالطير معطوف على المذكور كما مر في قوله تعالى وكثير من الناس أي وتسبح الطير تسبيحاً خاصاً بها حال كونها صافات أجنحتها وقوله تعالى كل قد علم صلاته وتسبيحه أي دعاءه وتسبيحه اللذين ألهمهما الله عز وجل إياه لبيان كمال رسوخه فيهما وأن صدورهما عنه ليس بطريق الاتفاق بلا روية بل عن علم وإيقان من غير إخلال بشيء منهما حسبما ألهمه الله تعالى فإن إلهامه تعالى لكل نوع من أنواع المخلوقات علوماً دقيقة لا يكاد يهتدي إليه جهابذة العقلاء مما لا سبيل إلى إنكاره أصلا كيف لا وأن القنفذ مع كونه أبعد الأشياء من الإدراك قالوا إنه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبها فيغير المدخل إلى جحره حتى روي أنه كان بقسطنطينية قبل الفتح الإسلامي رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر الناس بالرياح قبل هبوبها وينتفعون بإنذاره بتدارك أمور سفائنهم وغيرها وكان السبب في ذلك أنه كان يقتني في داره قنفذاً يستدل بأحواله على ماذكر وتخصيص تسبيح الطير بهذا المعنى بالذكر لما أن أصواتها أظهر وجوداً وأقرب حملا على التسبيح وقوله تعالى (والله عليم بما يفعلون) أي ما يفعلونه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وما على الوجه * الأول عبارة عما ذكر من الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسنداً

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ٢٤ النور

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ٢٤ النور

إلى ضمير العقلاء لما مر غير مرة وعلى الثانى إما عبارة عنها وعن التسبيح الخاص بالطير معاً أوعن تسبيح الطير فقط فالفعل على حقيقته وإسناده إلى ضمير العقلاء لما مر والاعتراض حينئذ مقرر لتسبيح الطير فقط وعلى الأولين لتسبيح الكل هذا وقد قيل إن الضمير فى قوله تعالى قد علم لله عز وجل وفى صلاته وتسبيحه لكل أى قد علم الله تعالى صلاة كل واحد مما فى السموات والأرض وتسبيحه فالاعتراض حينئذ مقرر لمضمونه على الوجهين لكن لاعلى أن تكون ماعبارة عما تعلق به علمه تعالى من صلاته
٤٢ وتسبيحه بل عن جميع أحواله العارضة له وأفعاله الصادرة عنه وهما داخلان فيها دخولا أولياً (ولله ملك السموات والأرض) لا لغيره لأنه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف فى جميعها إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة وقوله تعالى (وإلى الله) أى إليه تعالى خاصة لا إلى غيره (المصير) أى رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى فى المعاد إثر بيان اختصاصه به تعالى فى
٤٣ المبدأ وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم (ألم تر أن الله يزجى سحاباً) الإزجاء سوق الشيء برفق وسهولة غلب فى سوق شيء يسير أوغير معتد به ومنه البضاعة المزجاة ففيه إيماء إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى مما لا يعتد به (ثم يؤلف بينه) أى بين أجزائه بضم بعضها إلى بعض وقرىء يولف بغير همزة (ثم يجعله ركاماً) أى متراكماً بعضه فوق بعض (فترى الودق) أى المطر إثر تراكمه وتكاثفه وقوله تعالى (يخرج من خلاله) أى من فتوقه حال من الودق لأن الرؤية بصرية وفى تعقيب الجعل المذكور برؤيته خارجا لا بخروجه من المبالغة فى سرعة الخروج على طريقة قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ومن الاعتناء بتقرير الرؤية مالا يخفى والخلال جمع خلل كجبال وجبل وقيل مفرد كحجاب وحجاز ويؤيده أنه قرىء من خلله (وينزل من السماء) من الغمام فإن كل ماعلاك سماء (من جبال) أى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم كائنة (فيها) وقوله تعالى (من برد) مفعول ينزل على أن من تبعيضية والأوليان لابتداء الغاية على أن الثانية بدل اشتمال من الأولى بإعادة الجار أى ينزل مبتدئاً من السماء من جبال فيها بعض برد وقيل المفعول محذوف ومن برد بيان للجبال أى ينزل مبتدئاً من السماء من جبال فيها من جنس البرد برداً والأول أظهر لخلوه عن ارتكاب الحذف والتصريح ببعضية المنزل وقيل المفعول من جبال على أن من تبعيضية ومن برد بيان للجبال أى ينزل من السماء بعض جبال كائنة فيها من برد أى مشبهة بالجبال فى الكثرة وأياً ما كان فتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ٢٤ النور

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم

مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ٢٤ النور

والتشريق إلى المؤخر وقيل المراد بالسماء المظلة وفيها جبال من برد كما أن فى الأرض جبالا من حجر
وليس فى العقل ماينفيه من قاطع والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة
الباردة من الهواء وقوى البرد اجتمع هناك وصار سحاباً وإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً وإن اشتد فإن
وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل برداً وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً فينقبض
وينعقد سحاباً وينزل منه المطر أو الثلج وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى ومشيئته المبنية على الحكم
والمصالح (فيصيب به) أى بما ينزله من البرد (من يشاء) أن يصيبه به فيناله مايناله من ضرر فى نفسه ٭
وماله (ويصرفه عمن يشاء) أن يصرفه عنه فينجو من غائلته (يكاد سنا برقه) أى ضوء برق السحاب ٭
الموصوف بما مر من الإزجاء والتأليف وغيرهما وإضافة البرق إليه قبل الإخبار بوجوده فيه للإيذان
بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به وقرىء بالمد بمعنى الرفعة والعلو وبإدغام الدال فى السين وبرقه
بفتح الراء على أنه جمع برقة وهى مقدار من البرق كالغرفة وبضمها للاتباع لضمة الباء (يذهب بالأبصار) ٭
أى يخطفها من فرط الإضاءة وسرعة ورودها وفى إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره وبيان لشدة
تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة من حيث
إنه توليد للضد من الضد وقرىء يذهب من الإذهاب على زيادة الباء (يقلب الله الليل والنهار) بالمعاقبة ٤٤
بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما مما يقع فيهما من الأمور
التى من جملتها ماذكر من إزجاء السحاب وماترتب عليه (إن فى ذلك) إشارة إلى مافصل آنفاً وما فيه من
معنى البعد مع قرب المشار إليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته (لعبرة) أى لدلالة واضحة على وجود ٭
الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته وإحاطة علمه بجميع الأشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما لا يليق بشأنه
العلى (لأولى الأبصار) لكل من له بصر (والله خلق كل دابة) أى كل حيوان يدب على الأرض وقرىء ٤٥
خالق كل دابة بالإضافة (من ماء) هو جزء مادته أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلا للغالب
منزلة الكل لأن من الحيوانات مايتولد لا عن نطفة وقيل من ماء متعلق بدابة وليست صلة لخلق (فمنهم
من يمشى على بطنه) كالحية وتسمية حركتها مشياً مع كونها زحفاً بطريق الاستعارة أو المشاكلة (ومنهم
من يمشى على رجلين) كالإنس والطير (ومنهم من يمشى على أربع) كالنعم والوحش وعدم التعرض لما
يمشى على أكثر من أربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها وتذكير الضمير فى منهم
لتغليب العقلاء والتعبير عن الأصناف بكلمة من ليوافق التفصيل الإجمال والترتيب لتقديم ماهو أعرف
فى القدرة (يخلق الله مايشاء) مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً كان أو مركباً على مايشاء من الصور والأعضاء

لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ٢٤ النور

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٢٤ النور

وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ٢٤ النور

وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ٢٤ النور

والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل مع اتحاد العنصر وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار
لتفخيم شأن الخلق المذكور والإيذان بأنه من أحكام الألوهية (إن الله على كل شيء قدير) فيفعل مايشاء
٤٦ كما يشاء وإظهار الجلالة لما ذكر مع تأكيد استقلال الاستئناف التعليلي (لقد أنزلنا آيات مبينات) أي
لكل مايليق بيانه من الأحكام الدينية والأسرار التكوينية (والله يهدي من يشاء) أن يهديه بتوفيقه للنظر
الصحيح فيها وإرشاده إلى التأمل فى مطاويها (إلى صراط مستقيم) موصل إلى حقيقة الحق والفوز بالجنة
٤٧ (ويقولون آمنا بالله وبالرسول) شروع فى بيان أحوال بعض من لم يشأ الله هدايته إلى الصراط المستقيم
قال الحسن نزلت فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر وقيل نزلت فى بشر المنافق
خاصم يهوديا فدعاه إلى كعب بن الأشراف واليهودي يدعوه إلى النبي ﷺ وقيل فى المغيرة بن وائل
خاصم علياً رضي الله عنه فى أرض وماء فأبى أن يحاكم إلى الرسول ﷺ وأياً ما كان فصيغة الجمع للإيذان
بأن للقائل طائفة يساعدونه ويشايعونه فى تلك المقالة كما يقال بنو فلان قتلوا فلاناً والقاتل واحد منهم
(وأطعنا) أي أطعناهما فى الأمر والنهي (ثم يتولى) عن قبول حكمه (فريق منهم من بعد ذلك) أي
من بعد ما صدر عنهم ما صدر من ادعاء الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لهما على التفصيل وما فى ذلك
من معنى البعد للإيذان بكونه أمراً معتداً به واجب المراعاة (وما أولئك) إشارة إلى القائلين لا إلى
الفريق المتولي منهم فقط لعدم اقتضاء نفي الإيمان عنهم نفيه عن الأولين بخلاف العكس فإن نفيه عن
القائلين مقتض لنفيه عنهم على أبلغ وجه وآكده وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الكفر
والفساد أي وما أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشاركونهم فى العقد
والعمل (بالمؤمنين) أي المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام أي ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص
٤٨ فى الإيمان والثبات عليه (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم) أي الرسول (بينهم) لأنه المباشر حقيقة
للحكم وإن كان ذلك حكم الله حقيقة وذكر الله تعالى لتفخيمه ﷺ والإيذان بجلالة محله عنده تعالى (إذا
فريق منهم معرضون) أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ﷺ لكون الحق عليهم وعلمهم
٤٩ بأنه ﷺ يحكم بالحق عليهم وهو شرح للتولي ومبالغة فيه (وإن يكن لهم الحق) لا عليهم (يأتوا إليه
مذعنين) منقادين لجزمهم بأنه ﷺ يحكم لهم وإلى صلة ليأتوا فإن الإتيان والمجيء يعديان بإلى أو لمذعنين

أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ٢٤ النور

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ٢٤ النور

٥٠ على تضمين معنى الإسراع والإقبال كما فى قوله تعالى فأقبلوا إليه يزفون والتقديم للاختصاص (أفى قلوبهم مرض) إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم والمتوقعة منهم وترديد المنشئية بينها فمدار الاستفهام ليس نفس ماوليته الهمزة وأم من الأمور الثلاثة بل هو منشئيتها له كأنه قيل أذلك أى إعراضهم المذكور لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم (أم) لأنهم (ارتابوا) فى أمر نبوته ﷺ مع ظهور حقيتها (أم) لأنهم (يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) ثم أضرب عن الكل وأبطلت منشئيته وحكم بأن المنشأ شىء آخر من شنائعهم حيث قيل (بل أولئك هم * الظالمون) أى ليس ذلك لشىء مما ذكر أما الأولان فلأنه لوكان لشىء منها لأعرضوا عنه ﷺ عند كون الحق لهم ولما أتوا إليه ﷺ مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضاً وأما الثالث فلا نتفائه رأساً حيث كانوا لايخافون الحيف أصلا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله ﷺ فى الأمانة والثبات على الحق بل لأنهم هم الظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جحوده فيأبون المحاكمة إليه ﷺ لعلمهم بأنه ﷺ يقضى عليهم بالحق فمناط النفى المستفاد من الإضراب فى الأولين هو وصف منشئيتهما للإعراض فقط مع تحققهما فى نفسهما وفى الثالث هو الأصل والوصف جميعاً هذا وقد خص الارتياب بماله منشأ مصحح لعروضه لهم فى الجملة والمعنى أم ارتابوا بأن رأوا منه ﷺ تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم به ﷺ فمدار النفى حينئذ نفس الارتياب ومنشئيته معاً فتأمل فيما ذكر على التفصيل ودع عنك ماقيل وقيل حسبما

٥١ يقتضيه النظر الجليل (إنما كان قول المؤمنين) بالنصب على أنه خبر كان وأن مع ما فى حيزها اسمها وقرىء بالرفع على العكس والأول أقوى صناعة لأن الأولى للاسمية ماهو أوغل فى التعريف وذلك هو الفعل المصدر بأن إذ لا سبيل إليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين فإنه يحتمله كما إذا اعتزلت عنه الإضافة لكن قراءة الرفع أقعد بحسب المعنى وأوفى لمقتضى المقام لما أن مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل هو الخبر فالأحق بالخبرية ماهو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدوث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا ريب فى أن ذلك ههنا فى أن مع مافى حيزها أتم وأكمل فإذا هو أحق بالخبرية وأما ماتفيده الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية فحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجاً وذهناً كان حقها أن تلاحظ ملاحظة مجملة وتجعل عنواناً للموضوع فالمعنى إنما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين (إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم) أى الرسول ﷺ (بينهم) أى وبين *

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ٢٤ النور

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ٢٤ النور

* خصومهم سواء كانوا منهم أو من غيرهم (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) أى خصوصية هذا القول المحكى
عنهم لاقولا آخر أصلا وأما قراءة النصب فمعناها إنما كان قول المؤمنين أى إنما كان قولالهم عند الدعوة
خصوصية قولهم المحكى عنهم ففيه من جعل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعا وحضوراً فى الأذهان
وأحقهما بالبيان مفروغا عنها عنواناً للموضوع وإبراز ماهو بخلافها فى معرض القصد الأصلى مالا يخفى
وقرىء ليحكم على بناء الفعل للمفعول مسنداً إلى مصدره مجاوياً لقوله تعالى إذا دعوا أى ليفعل الحكم كما
* فى قوله تعالى لقد تقطع بينكم أى وقع التقطع بينكم (وأولئك) إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول
المذكور عنهم وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون
٥٢ بما ذكر من النعت الجميل (هم المفلحون) أى هم الفائزون بكل مطلب والناجون من كل محذور (ومن
يطع الله ورسوله) استئناف جىء به لتقرير مضمون ماقبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم
فى الانتظام فى سلكهم أى ومن يطعهما كائناً من كان فيما أمرا به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية
وقيل فى الفرائض والسنن والأول هو الأنسب بالمقام (ويخش الله ويتقه) بإسكان القاف المبنى على
تشبيهه بكتف وقرىء بكسر القاف والهاء وبإسكان الهاء أى ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه
فيما يستقبل (فأولئك) الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والاتقاء (هم الفائزون) بالنعيم المقيم
٥٣ لا من عداهم (وأقسموا بالله) حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكد بالأيمان الفاجرة وقوله تعالى
(جهد أيمانهم) نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله الذى هو فى حيز النصب على أنه حال من فاعل أقسموا
أى أقسموا به تعالى يجهدون أيمانهم جهداً ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم
جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها أى جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين فى الشدة والوكادة
وقيل هو مصدر مؤكد لأقسموا أى أقسموا إقسام اجتهاد فى اليمين قال مقاتل من حلف بالله فقد اجتهد
فى اليمين (لئن أمرتهم) أى بالخروج إلى الغزو لاعن ديارهم وأموالهم كما قيل لأنه حكاية لما كانوا يقولون
لرسول الله ﷺ أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وإن أقمت أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا
وقوله تعالى (ليخرجن) جواب لأقسموا بطريق حكاية فعلهم لا حكاية قولهم وحيث كانت مقالتهم هذه
كاذبة ويمينهم فاجرة أمر ﷺ بردها حيث قيل (قل) أى رداً عليهم وزجراً لهم عن التفوه بها وإظهاراً
لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها (لا تقسموا) أى على ماينبىء عنه كلامكم من الطاعة وقوله تعالى (طاعة
معروفة) خبر مبتدأ محذوف والجملة تعليل للنهى أى لا تقسموا على ماتدعون من الطاعة لأن طاعتكم
طاعة نفاقية واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب وإنما عبر عنها بمعروفة للإيذان بأن كونها كذلك

قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

٢٤ النور

مشهور معروف لكل أحد وقرىء بالنصب والمعنى تطيعون طاعة معروفة هذا وحملها على الطاعة الحقيقية بتقدير ما يناسبها من مبتدأ أو خبر أو فعل مثل الذى يطلب منكم طاعة معروفة حقيقية لا نفاقية أو طاعة معروفة أمثل أو ليكن طاعة معروفة أو أطيعوا طاعة معروفة مما لا يساعده المقام (إن الله خبير بما تعملون) * من الأعمال الظاهرة والباطنة التى من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة وما تضمرونه فى قلوبكم من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها من فنون الشر والفساد والجملة تعليل للحكم بأن طاعتهم طاعة نفاقية مشعر بأن مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين إخباره تعالى بذلك ووعيد لهم بأنه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التى منها نفاقهم (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) كرر ٥٤
الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به والإشعار باختلافهما من حيث أن المقول فى الأول نهى بطريق الرد والتقريع كما فى قوله تعالى اخسئوا فيها ولا تكلمون وفى الثانى أمر بطريق التكليف والتشريع وإطلاق الطاعة المأمور بها عن وصف الصحة والإخلاص ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذكر للتنبيه على أنها ليست من الطاعة فى شىء أصلا وقوله تعالى (فإن تولوا) خطاب للمأمورين بالطاعة من جهته تعالى وارد * لتأكيد الأمر بها والمبالغة فى إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترهيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع كما أشير إليه فى تفسير قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا لا سيما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة إلى الخطاب بالذات فإن فى خطابه تعالى إياهم بالذات بعد أمره تعالى إياهم بواسطته ﷺ وتصديه لبيان حكم الامتثال بالأمر والتولى عنه إجمالا وتفصيلا من إفادة ما ذكر من التأكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه وتوهم أنه داخل تحت القول المأمور بحكايته من جهته تعالى وأنه أبلغ فى التبكيت تعكيس للأمر والفاء لترتيب ما بعدها على تبليغه ﷺ للمأمور به إليهم وعدم التصريح به للإيذان بغاية ظهور مسارعته ﷺ إلى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة إلى الذكر أى إن تتولوا عن الطاعة إثر ما أمرتم بها (فإنما عليه) * أى فاعلموا أنما عليه ﷺ (ما حمل) أى أمر به من التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول (وعليكم ما حملتم) أى ما أمرتم به من الطاعة ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه * مؤنة باقية فى عهدتهم بعد كأنه قيل وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل وقوله تعالى ما حمل محمول على المشاكلة (وإن تطيعوه) أى فيما أمركم به من الطاعة (تهتدوا) إلى الحق الذى هو المقصد الأصلى * الموصل إلى كل خير والمنجى من كل شر وتأخيره عن بيان حكم التولى لما فى تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم وقوله تعالى (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) اعتراض * مقرر لما قبله من أن غائلة التولى وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم واللام إما للجنس المنتظم له ﷺ

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ٢٤ النور

انتظاما أولياً أو للعهد أى ماعلى جنس الرسول كائناً من كان أو ماعليه ﷺ إلا التبليغ الموضح لكل
مايحتاج إلى الإيضاح أو الواضح على أن المبين من أبان بمعنى بان وقد علمتم أنه قد فعله بما لامزيد عليه
٥٥ وإنما بقى ماحملتم وقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم) استئناف مقرر لما فى قوله تعالى وإن تطيعوه
تهتدوا من الوعد الكريم ومعرب عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ماأجمل فيه من فنون السعادات
الدينية والدنيوية التى هى من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التى نيط بها الاهتداء والمراد
بالذين آمنوا كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أى طائفة كان وفى أى وقت كان لا من
آمن من طائفة المنافقين فقط ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة لحسب ضرورة عموم الوعد الكريم
للكل كافة فالخطاب فى منكم لعامة الكفرة لا للمنافقين خاصة ومن تبعيضية (وعملوا الصالحات) عطف
على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التى أمر بها ورتب عليها ماانتظم فى سلك الوعد
الكريم كما أشير إليه وتوسيط الظرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته فى استتباع الآثار
والأحكام وللإيذان بكونه أول مايطلب منهم وأهم مايجب عليهم وأما تأخيره عنهما فى قوله تعالى وعد
الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما فلأن من هناك بيانية والضمير للذين معه
ﷺ من خلص المؤمنين ولا ريب فى أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة مثابرون عليهما فلابد
من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة بكمالها هذا ومن جعل الخطاب للنبى ﷺ والأمة عموماً على أن
من تبعيضية أوله ﷺ ولمن معه من المؤمنين خصوصاً على أنها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سباق النظم
الكريم وسياقه بمنازل وأبعد عما يليق بشأنه ﷺ بمراحل (ليستخلفنهم فى الأرض) جواب للقسم
إما بالإضمار أو بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقق إنجازه لامحالة أى ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها
تصرف الملوك فى ممالكهم أو خلفاً من الذين لم يكونوا على حالهم من الإيمان والأعمال الصالحة (كما استخلف
الذين من قبلهم) هم بنو إسرائيل استخلفهم الله عز وجل فى مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبابرة
أو هم ومن قبلهم من الأمم المؤمنة التى أشير إليهم فى قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد
وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات إلى قوله تعالى فأوحى إليهم ربهم
لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ومحل الكاف النصب على أنه مصدر تشبيهى مؤكد للفعل
بعد تأكيده بالقسم وما مصدرية أى ليستخلفنهم استخلافا كائناً كاستخلافه تعالى الذين من قبلهم
وقرىء كما استخلف على البناء للمفعول فليس العامل فى الكاف حينئذ الفعل المذكور بل مايدل هو عليه
من فعل مبنى هو للمفعول جار منه مجرى المطاوع فإن استخلافه تعالى إياهم مستلزم لكونهم مستخلفين

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ٢٤ النور

لا محالة كأنه قيل ليستخلفنهم فى الأرض فيستخلفن فيها استخلافا أى مستخلفية كائنة كمستخلفية من قبلهم وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى كما سئل موسى من قبل ومن هذا القبيل قوله تعالى وأنبتها نباتاً حسناً على أحد الوجهين أى فنبتت نباتاً حسناً وعليه قول من قال [وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع ٭ من المال إلا مسحت أو مجلف] أى فلم يبق إلا مسحت الخ (وليمكنن لهم دينهم) عطف على ليستخلفنهم منتظم معه فى سلك الجواب وتأخيره عنه مع كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها لما أن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل فتصدير المواعيد بها فى الاستمالة أدخل والمعنى ليجعلن دينهم ثابتاً مقرراً بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه فى كل ما يأتون وما يذرون والتعبير عن ذلك بالتمكين الذى هو جعل الشىء مكاناً لآخر يقال مكن له فى الأرض أى جعلها مقراً له ومنه قوله تعالى إنا مكنا له فى الأرض ونظائره وكلمة فى للإيذان بأن ما جعل مقراً له قطعة منها لا كلها للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته من التغيير والتبديل لابتنائه على تشبيهه بالأرض فى الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف فى الأرض وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقاً لهم إليه وترغيباً لهم فى قبوله عند وروده ولأن فى توسيطها بينه وبين وصفه أعنى قوله تعالى (الذى ارتضى لهم) وفى تأخيرها عنه من الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى وفى إضافة الدين إليهم وهو دين الإسلام ثم وصفه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه (وليبدلنهم) بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الإبدال (من بعد خوفهم) أى من الأعداء (أمناً) حيث كان أصحاب النبى ﷺ قبل الهجرة عشر سنين بل أكثر خائفين ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يصبحون فى السلاح ويمسون كذلك حتى قال رجل منهم ما يأتى علينا يوم نأمن فيه فقال ﷺ لا تغبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدة فأنزل الله عز وجل هذه الآية وأنجز وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم وفيه من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى وقيل المراد الخوف من العذاب والأمن منه فى الآخرة (يعبدوننى) حال من الموصول الأول مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف وما انتظم معه فى سلك الوعد (لا يشركون بى شيئاً) حال من الواو أى يعبدوننى غير مشركين بى فى العبادة شيئاً (ومن كفر) أى اتصف بالكفر بأن ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترهيب والترغيب فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف زائدة على الأصل وقيل كفر بعد الإيمان وقيل كفر هذه النعمة العظيمة والأول هو الأنسب بالمقام (بعد ذلك) أى بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى الجميل فى حيازتها (فأولئك) البعداء عن الحق التائهون فى تيه الغواية والضلال (هم الفاسقون) الكاملون فى الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان (وأقيموا الصلاة وآتوا ٥٦

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ٢٤ النور

الزكاة) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإن خطابه تعالى للمأمورين بالطاعة على طريق الترهيب من التولى بقوله تعالى فإن تولوا الخ وترغيبه تعالى إياهم فى الطاعة بقوله تعالى وإن تطيعوه تهتدوا الخ ووعده تعالى إياهم على الإيمان والعمل الصالح بما فصل من الاستخلاف ومايتلوه من الرغائب الموعودة ووعيده على الكفر مما يوجب الأمر بالإيمان والعمل الصالح والنهى عن الكفر فكأنه قيل فآمنوا واعملوا صالحاً وأقيموا أو فلا تكفروا وأقيموا وعطفه على أطيعوا الله مما لا يليق بجزالة النظم الكريم (وأطيعوا الرسول) أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذات بما أمرهم به بواسطة الرسول ﷺ من طاعته التى هى طاعته تعالى فى الحقيقة تأكيداً للأمر السابق وتقريراً لمضمونه على أن المراد بالمطاع فيه جميع الأحكام الشرعية المنتظمة للآداب المرضية أيضاً أى وأطيعوه فى كل مايأمركم به وينهاكم عنه أو تكميلا لما قبله من الأمرين الخاصين المتعلقين بالصلاة والزكاة على أن المراد بما ذكر ماعداهما من الشرائع أى وأطيعوه فى سائر مايأمركم به الخ وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) متعلق على الأول بالأمر الأخير المشتمل على جميع الأوامر وعلى الثانى بالأوامر الثلاثة أى افعلوا ماذكر من الإقامة والإيتاء

٥٧ والإطاعة راجين أن ترحموا (لاتحسبن الذين كفروا) لمابين حال من أطاعه ﷺ وأشير إلى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عقب ذلك ببيان حال من عصاه ﷺ ومآل أمره فى الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه فى الفسق تكميلا لأمر الترغيب والترهيب والخطاب إما لكل أحد ممن يصلح له كائناً من كان وإما للرسول ﷺ على منهاج قوله تعالى فلا تكونن من المشركين ونظائره للإيذان بأن الحسبان المذكور من القبح والمحذورية بحيث ينهى عنه من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه ومحل الموصول النصب على أنه مفعول أول للحسبان وقوله تعالى (معجزين) ثانيهما وقوله تعالى (فى الأرض) ظرف لمعجزين لكن لا لإفادة كون الإعجاز المنفى فيها لا فى غيرها فإن ذلك مما لا يحتاج إلى البيان بل لإفادة شمول عدم الإعجاز بجميع أجزائها أى لا تحسبنهم معجزين الله عز وجل عن إدراكهم وإهلاكهم فى قطر من أقطار الأرض بما رحبت وإن هربوا منها كل مهرب وقرىء لايحسبن بياء الغيبة على أن الفاعل كل أحد والمعنى كما ذكر أى لا يحسبن أحد الكافرين معجزين له سبحانه فى الأرض أو هو الموصول والمفعول الأول محذوف لكونه عبارة عن أنفسهم كأنه قيل لايحسبن الكافرون أنفسهم معجزين فى الأرض وأما جعل معجزين مفعولا أول وفى الأرض مفعولا ثانياً فبمعزل من المطابقة لمقتضى المقام ضرورة أن مصب الفائدة هو المفعول الثانى ولا فائدة فى بيان كون المعجزين فى الأرض وقد مر فى قوله تعالى إنى جاعل فى الأرض خليفة وقوله تعالى (ومأواهم النار) معطوف على جملة النهى بتأويلها بجملة خبرية لأن المقصود بالنهى عن الحسبان تحقيق نفى الحسبان كأنه قيل ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم الخ أو على جملة مقدرة وقعت تعليلا للنهى كأنه قيل لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض فإنهم مدركون ومأواهم الخ وقيل الجملة المقدرة بل هم مقهورون فتدبر (ولبئس المصير)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ ٢٤ النور

جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبئس المصير هى أى النار والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وفى إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيراً لهم إثر نفى فوتهم بالهرب فى الأرض كل مهرب من الجزالة مالا غاية وراءه فلله در شأن التنزيل (يأيها الذين آمنوا) رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة ٥٨
بعد تمهيد مايوجب الامتثال بالأوامر والنواهى الواردة فيها وفى الأحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد والخطاب إما للرجال خاصة وللنساء داخلات فى الحكم بدلالة النص أو للفريقين جميعاً بطريق التغليب روى أن غلاما لأسماء بنت أبى مرثد دخل عليها فى وقت كرهته فنزلت وقيل أرسل رسول الله ﷺ مدلج بن عمرو الأنصارى وكان غلاما وقت الظهيرة ليدعو عمر رضى الله عنه فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضى الله عنه لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى رسول الله ﷺ فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) من العبيد والجوارى (والذين لم يبلغوا الحلم) *
أى الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ المعهود والتعبير عنه بالحلم لكونه أظهر دلائله (منكم) أى من الأحرار (ثلاث مرات) أى ثلاثة أوقات فى اليوم والليلة والتعبير عنها بالمرات للإيذان بأن مدار وجوب الاستئذان مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا أنفسها (من قبل صلاة الفجر) *
لظهور أنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث مرات أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى أحدها من قبل الخ (وحين تضعون ثيابكم) أى ثيابكم *
التى تلبسونها فى النهار وتخلعونها لأجل القيلولة وقوله تعالى (من الظهيرة) وهى شدة الحر عند انتصاف *
النهار بيان للحين والتصريح بمدار الأمر أعنى وضع الثياب فى هذا الحين دون الأول والآخر لما أن التجرد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لقلة زمانها كما ينبىء عنها إيراد الحين مضافا إلى فعل حادث منقض ووقوعها فى النهار الذى هو مئنة لكثرة الورود والصدور ومظنة لظهور الأحوال وبروز الأمور ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما فى الوقتين المذكورين فإن تحقق التجرد واطراده فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به (ومن بعد صلاة العشاء) ضرورة أنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف وليس *
المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين مطلقهما المتحقق فى الوقت الممتد المتخلل بين الصلاتين كما فى قوله تعالى وإن كنت من قبله لمن الغافلين وقوله تعالى من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين أخوتى بل ما يعرض منهما

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ
ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ٢٤ النور

* لطر في ذلك الوقت الممتد المتصلين بالصلاتين المذكورتين اتصالا عادياً وقوله تعالى (ثلاث عورات)
* خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (لكم) متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات أى كائنة لكم والجملة
استئناف مسوق لبيان علة وجوب الاستئذان أى هن ثلاثة أوقات يختل فيها التستر عادة والعورة فى
الأصل هو الخلل غلب فى الخلل الواقع فيما يهم حفظه ويعتنى بستره أطلقت على الأوقات المشتملة عليها
* مبالغة كأنها نفس العورة وقرىء ثلاث عورات بالنصب بدلا من ثلاث مرات (ليس عليكم ولا عليهم)
أى على المماليك والصبيان (جناح) أى إثم فى الدخول بغير استئذان لعدم مايوجبه من مخالفة الأمر
* والاطلاع على العورات (بعدهن) أى بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث وهى الأوقات المتخللة
بين كل اثنتين منهن وإيرادها بعنوان البعدية مع أن كل وقت من تلك الأوقات قبل عورة من العورات
كما أنها بعد أخرى منهن لتوفية حق التكليف والترخيص الذى هو عبارة عن رفعه إذ الرخصة إنما تتصور
فى فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلف والجملة على القراءتين مستأنفة مسوقة لتقرير ماقبلها بالطرد
والعكس وقد جوز على القراءة الأولى كونها فى محل الرفع على أنها صفة أخرى لثلاث عورات وأما
على القراءة الثانية فهى مستأنفة لاغير إذ لو جعلت صفة لثلاث عورات وهى بدل من ثلاث مرات لكان
التقدير ليستأذنكم هؤلاء فى ثلاث عورات لا إثم فى ترك الاستئذان بعدهن وحيث كان انتفاء الإثم
حينئذ مما لم يعلمه السامع إلا بهذا الكلام لم يتسن إبرازه فى معرض الصفة بخلاف قراءة الرفع فإن انتفاء
* الإثم حينئذ معلوم من صدر الكلام وقوله تعالى (طوافون عليكم) استئناف ببيان العذر المرخص فى ترك
الاستئذان وهى المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة وفيه دليل على تعليل الأحكام وكذا فى الفرق بين
* الأوقات الثلاثة وبين غيرها بكونها عورات (بعضكم على بعض) أى بعضكم طائف على بعض طوافا
* كثيراً أو بعضكم يطوف على بعض (كذلك) إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده ومافيه من معنى البعد لما
مر مراراً من تفخيم شأن المشار إليه والإيذان ببعد منزلته وكونه من الوضوح بمنزلة المشار إليه حساً أى
* مثل ذلك التبيين (يبين الله لكم الآيات) الدالة على الأحكام أى ينزلها بينة واضحة الدلالات عليها لا أنه
تعالى يبينها بعد أن لم تكن كذلك والكاف مقحمة وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة
وسطاً ولكم متعلق بيبين وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى
* المؤخر وقيل يبين علل الأحكام وليس بواضح مع أنه مؤد إلى تخصيص الآيات بما ذكر ههنا (والله عليم)
* مبالغ فى العلم بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم (حكيم) فى جميع أفاعيله فيشرع لكم مافيه صلاح أمركم
معاشاً ومعاداً (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم) لما بين فيما مر آنفاً حكم الأطفال فى أنه لاجناح عليهم فى ٥٩
ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة عقب ببيان حالهم بعد البلوغ دفعاً لما عسى يتوهم أنهم وإن كانو

وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ
مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ٢٤ النور

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن
تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ
أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً
مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ٢٤ النور

أجانب ليسوا كسائر الأجانب بسبب اعتيادهم الدخول أى إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب (فليستأذنوا) إذا أرادوا الدخول عليكم وقوله تعالى (كما استأذن الذين من قبلهم) فى حيز النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق والموصول عبارة عمن قيل لهم لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية ووصفهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم قبل ذكرهم لا باعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل لما أن المقصود بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة إيضاحه ولا يتسنى ذلك إلا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع ولا ريب فى أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال أحد وإن كان الأمر كذلك فى الواقع وإنما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم أى فليستأذنوا استئذاناً كائناً مثل استئذان المذكورين قبلهم بأن يستأذنوا فى جميع الأوقات ويرجعوا إن قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) الكلام فيه كالذى سبق والتكرير للتأكيد والمبالغة فى الأمر بالاستئذان وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لتشريفها (والقواعد من النساء) أى العجائز ٦٠
اللاتى قعدن عن الحيض والحمل (اللاتى لا يرجون نكاحا) أى لا يطمعن فيه لكبرهن (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) أى الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه والفاء فيه لأن اللام فى القواعد بمعنى اللاتى أو للوصف بها (غير متبرجات بزينة) غير مظهرات لزينة مما أمر بإخفائه فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن وأصل التبرج التكلف فى إظهار ما يخفى من قولهم سفينة بارجة لا غطاء عليها والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطاً بسوادها كله إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها ومحاسنها الرجال (وأن يستعففن) بترك الوضع (خير لهن) من الوضع لبعده من التهمة (والله سميع) مبالغ فى سمع جميع ما يسمع فيسمع ما يجرى
بينهن وبين الرجال من المقاولة (عليم) فيعلم مقاصدهن وفيه من الترهيب ما لا يخفى (ليس على الأعمى حرج ٦١
ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) كانت هؤلاء الطوائف يتحرجون من المؤاكلة الأصحاء حذاراً من استقذارهم إياهم وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم وأوضاعهم فإن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت إليه عين أكيله وهو لا يشعر به والأعرج يتفسح فى مجلسه فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه

والمريض لا يخلو عن حالة تؤذى قرينه وقيل كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو إلى بعض من سماهم الله عز وجل فى الآية الكريمة فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا إلى بيت غيره ولعل أهله كارهون لذلك وكذا كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو خلفوا هؤلاء الضعفاء فى بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتيحها وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها مخافة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم وكان غير هؤلاء أيضاً يتحرجون من الأكل فى بيوت غيرهم فقيل لهم ليس على الطوائف المعدودة (ولا على أنفسكم) أى عليكم وعلى من يماثلكم فى الأحوال من المؤمنين حرج (أن تأكلوا) أى تأكلوا أنتم وهم معكم وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضاً يأباه ماقبله وما بعده فإن الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتما (من بيوتكم) أى البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيتهم كبيته لقوله ﷺ أنت ومالك لأبيك وقوله ﷺ إن أطيب مال الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم) وقرىء بكسر الهمزة والميم وبكسر الأولى وفتح الثانية (أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ماملكتم مفاتحه) من البيوت التى تملكون التصرف فيها بإذن أربابها على الوجه الذى مر بيانه وقيل هى بيوت المماليك والمفاتح جمع مفتح وجمع المفتاح مفاتيح وقرىء مفتاحه (أو صديقكم) أى أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية فإنهم أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من الأقرباء روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الصديق أكبر من الوالدين إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والصديق يقع على الواحد والجمع كالخليط والقطين وأضرابهما وهذا فيما إذا علم رضا صاحب البيت بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه ولذلك خصص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم وقوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) كلام مستأنف مسوق لبيان حكم آخر من جنس ما بين قبله حيث كان فريق من المؤمنين كبنى ليث ابن عمرو من كنانة يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل وقيل كان الغنى منهم يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصدقته فيدعوه إلى طعامه فيقول إنى أتحرج أن آكل معك وأنا غنى وأنت فقير وقيل كان قوم من الأنصار لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم فرخص لهم فى أن يأكلوا كيف شاءوا وقيل كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للأعمى وأشباهه طعاما على حدة فبين الله تعالى أن ذلك ليس بواجب وقوله تعالى جميعاً حال من فاعل تأكلوا وأشتاتاً عطف عليه داخل فى حكمه وهو جمع شت على أنه صفة كالحق يقال أمر شت أى متفرق أو على أنه فى الأصل مصدر وصف به مبالغة أى ليس عليكم جناح أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين (فإذا دخلتم) شروع فى بيان الآداب التى تجب رعايتها عند مباشرة مارخص فيه إثر بيان الرخصة فيه (بيوتاً) أى من البيوت

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ٢٤ النور

المذكورة (فسلموا على أنفسكم) أى على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك (تحية من عند الله) أى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ويجوز أن يكون صلة للتحية فإنها طلب الحياة التى هى من عنده تعالى وانتصابها على المصدرية لأنها بمعنى التسليم (مباركة) مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما (طيبة) تطيب بها نفس المستمع وعن أنس رضى الله عنه أنه ﷺ قال ❁ متى لقيت أحداً من أمتى فسلم عليه يطل عمرك وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين (كذلك يبين الله لكم الآيات) تكرير لتأكيد الأحكام المختتمة ❁ به وتفخيمها (لعلكم تعقلون) أى ما فى تضاعيفها من الشرائع والأحكام وتعملون بموجبها وتحوزون ❁ بذلك سعادة الدارين وفى تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الأولين بما يوجبهما من الجزالة

62 مالا يخفى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) استئناف جىء به فى أواخر الأحكام السابقة تقريراً لها وتأكيداً لوجوب مراعاتها وتكميلا لها ببيان بعض آخر من جنسها وإنما ذكر الإيمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبراً للمبتدأ مع تضمنه له قطعاً تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وإيذاناً بأنه حقيق بأن يجعل قريناً الإيمان بهما منتظما فى سلكه فقوله تعالى (وإذا كانوا معه على أمر جامع) الخ معطوف ❁ على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة أى إنما الكاملون فى الإيمان الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم وأطاعوهما فى جميع الأحكام التى من جملتها ما فصل من قبل من الأحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة فى الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما إذا كانوا معه ﷺ على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية إلى اجتماع أولى الآراء والتجارب ووصف الأمر بالجمع للمبالغة وقرىء أمر جميع (لم يذهبوا) أى من المجمع مع كون ذلك الأمر مما لا يوجب ❁ حضورهم لا محالة كما عند إقامة الجمعة ولقاء العدو بل يسوغ التخلف عنه (حتى يستأذنوه) ﷺ فى الذهاب ❁ لا على أن نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب بل الغاية هى الإذن المنوط برأيه ﷺ والاقتصار على ذكره لأنه الذى يتم من قبلهم وهو المعتبر فى كمال الإيمان لا الإذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره فى ذلك لما أنه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فإن ديدنه التسلل للفرار ولتعظيم ما فى الذهاب بغير إذنه ﷺ من الجناية وللتنبيه على ذلك عقب بقوله تعالى (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ❁ ورسوله) فقضى بأن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم فى الأول بأن الكاملين فى الإيمان هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان وفى أولئك من تفخيم شأن المستأذنين ما لا يخفى (فإذا ❁ استأذنوك) بيان لما هو وظيفته ﷺ فى هذا الباب إثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين وأن الإذن عند الاستئذان

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ
ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ٢٤ النور

ليس بأمر محتوم بل هو مفوض إلى رأيه ﷺ والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها أى بعد ماتحقق أن الكاملين فى الإيمان هم المستأذنون فإذا استأذنوك (لبعض شأنهم) أى لبعض أمرهم المهم وخطبهم الملم (فأذن لمن شئت منهم) لما علمت فى ذلك من حكمة ومصلحة (واستغفر لهم الله) فإن الاستئذان وإن كان لعذر قوى لايخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة (إن الله غفور) مبالغ فى مغفرة فرطات العباد (رحيم) مبالغ فى إفاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعودة فى ضمن الأمر
٦٣ بالاستغفار لهم (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله والالتفات لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه أى لاتجعلوا دعوته ﷺ إياكم فى الاعتقاد والعمل بها (كدعاء بعضكم بعضاً) أى لاتقيسوا دعاءه ﷺ إياكم على دعاء بعضكم بعضاً فى حال من الأحوال وأمر من الأمور التى من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه ﷺ بغير استئذان فإن ذلك من المحرمات وقيل لاتجعلوا دعاءه ﷺ ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب لامرد له عند الله عز وجل وتقرير الجملة حينئذ لما قبلها إما من حيث إن استجابته تعالى لدعائه ﷺ مما يوجب امتثالهم بأوامره ﷺ ومتابعتهم له فى الورود والصدور أكمل إيجاب وإما من حيث إنها موجبة للاحتراز عن التعرض لسخطه ﷺ المؤدى إلى مايوجب هلاكهم من دعائه ﷺ عليهم وأما ماقيل من أن المعنى لاتجعلوا نداءه ﷺ كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن بلقبه المعظم مثل يارسول الله يانبى الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت فلا يناسب المقام فإن قوله تعالى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم) الخ وعيد لمخالفى أمره ﷺ فيما ذكر من قبل فتوسيط ماذكر بينهما مما لاوجه له والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما أن رب تجىء للتكثير حسبما بين فى مطالع سورة الحجر أى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية (لواذاً) أى ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج أو بأن يلوذ بمن يخرج بالإذن إراءة أنه من أتباعه وقرىء بفتح اللام وانتصابه على الحالية من ضمير يتسللون أى ملاوذين أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة أى يلوذون لواذاً والفاء فى قوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) لترتيب الحذر أو الأمر به على ماقبلها من علمه تعالى بأحوالهم فإنه مما يوجب الحذر البتة أى يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتاً خلاف سمته وعن إما لتضمنه معنى الإعراض أو حمله على معنى يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه وحذف المفعول لما أن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى لأنه الآمر حقيقة أو للرسول ﷺ لأنه المقصود بالذكر (أن تصيبهم فتنة) أى محنة فى الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) أى فى الآخرة وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع وإعادة الفعل صريحاً

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ٢٤ النور

للاعتناء بالتهديد والتحذير واستدل به على أن الأمر للإيجاب فإن ترتيب العذابين على مخالفته كما يعرب
٦٤ عنه التحذير عن إصابتهما يوجب وجوب الامتثال به حتما (ألا إن لله مافى السموات والأرض) من
الموجودات بأسرها خلقاً وملكا وتصرفا إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة (قد يعلم ماأنتم عليه) أيها المكلفون
من الأحوال والأوضاع التى من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق (ويوم يرجعون إليه) *
عطف على ماأنتم عليه أى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للأمر إليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق
علمه تعالى بيوم رجوعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع
الشىء مستلزم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه وآكده وفيه إشعار بأن علمه تعالى لنفس رجوعهم من الظهور
بحيث لايحتاج إلى البيان قطعاً ويجوز أن يكون الخطاب أيضاً خاصاً بالمنافقين على طريقة الالتفات وقرىء
يرجعون مبنياً للفاعل (فينبئهم بما عملوا) من الأعمال السيئة التى من جملتها مخالفة الأمر فيرتب عليه *
مايليق به من التوبيخ والجزاء وقد مر وجه التعبير عن الجزاء بالتنبئة فى قوله تعالى إنما بغيكم على أنفسكم
الآية (والله بكل شىء عليم) لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . عن النبى ﷺ من قرأ *
سورة النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى والله سبحانه
وتعالى أعلم .

سورة النور

ترتيبها ٢٤ — آياتها ٦٤

مدنية كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم، وحكى أبو حيان الإجماع على مدنيتها ولم يستثن الكثير من آيها شيئاً، وعن القرطبي أن آية ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم﴾ [النور: ٥٨] الخ مكية، وهي اثنتان وستون آية، وقيل أربع وستون آية، ووجه اتصالها بسورة المؤمنين أنه سبحانه لما قال فيها ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ [المؤمنون: ٥] ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني وما اتصل بذلك من شأن القذف وقصة الإفك والأمر بغض البصر الذي هو داعية الزنا والاستئذان الذي إنما جعل من أجل النظر وأمر فيها بالإنكاح حفظاً للفرج وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا.

وقال الطبرسي في ذلك: إنه تعالى لما ذكر فيما تقدم أنه لم يخلق الخلق للعبث بل للأمر والنهي ذكر جل وعلا هاهنا جملة من الأوامر والنواهي ولعل الأول أولى، وجاء عن مجاهد قال: «قال رسول الله ﷺ: علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور» وعن حارثة بن مضرب رضي الله تعالى عنه قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور.

﴿بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ
وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

﴿سُورَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذه سورة وأشير إليها بهذه تنزيلاً لها منزلة الحاضر المشاهد، وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ مع ما عطف عليه صفات لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات على ما ذكره شيخ الإسلام، والقول بجواز أن تكون للتخصيص احترازاً عما هو قائم بذاته تعالى ليس بشيء أصلاً كما لا يخفى.

وجوز أن تكون ﴿سورة﴾ مبتدأ محذوف الخبر أي ما يتلى عليكم أو فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها إلخ، وذكر بعضهم أنه قصد من هذه الجملة الامتنان والمدح والترغيب لا فائدة الخبر ولا لازمها وهو كون المخبر عالماً

بالحكم للعلم بكل ذلك، والكلام فيما إذا قصد به مثل هذا إنشاء على ما اختاره في الكشف وهو ظاهر قول الإمام المرزوقي في قوله

قـومـي هـمُ قـتـلـوا أمـيـم أخـي

هذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار، واختار آخرون أن الجملة خبرية مراد بها معناها إلا أنها إنما أوردت لغرض سوى إفادة الحكم أو لازمه وإليه ذهب السالكوتي، وأول كلام المروزي بأن المراد بالإخبار فيه الإعلام، وتحقيق ذلك في موضعه، واعترض شيخ الإسلام هذا الوجه بما بحث فيه.

وجوز ابن عطية أن تكون ﴿سورة﴾ مبتدأ والخبر قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني﴾ إلخ وفيه من البعد ما فيه والوجه الوجيه هو الأول، وعندي في أمثال هذه الجمل أن الإثبات فيها متوجه إلى القيد، وقد ذكر ذلك الشيخ عبد القاهر وهو هنا إنزالها وفرضها، وإنزال آيات بينات فيها لأجل أن يتذكر المخاطبون أو مرجواً تذكرهم فتأمل.

وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وعيسى بن عمر الثقفي البصري وعيسى بن عمر الهمداني الكوفي وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو وأم الدرداء «سورة» بالنصب على أنها مفعول فعل محذوف أي اتل، وقدر بعضهم اتلوا بضمير الجمع لأن الخطابات الآتية بعده كذلك وليس بلازم لأن الفعل متضمن معنى القول فيكون الكلام حينئذ نظير قوله تعالى: ﴿قل أطيعوا الله﴾ [آل عمران: ٣٢] ولا شك في جوازه.

وجوز الزمخشري أن تكون نصباً على الإغراء أي دونك سورة، ورده أبو حيان بأنه لا يجوز حذف أداة الإغراء لضعفها في العمل لما أن عملها بالحمل على الفعل، وكلام ابن مالك يقتضي جوازه وزعم أنه مذهب سيبويه وفيه بحث، وجوز غير واحد كون ذلك من باب الاشتغال وهو ظاهر على مذهب من لا يشترط في المنصوب على الاشتغال صحة الرفع على الابتداء وأما على مذهب من يشترط ذلك فغير ظاهر لأن «سورة» نكرة لا مسوغ لها فلا يجوز رفعها على الابتداء، ولعل من يشترط ذلك ويقول بالنصب على الاشتغال هنا يجعل النكرة موصوفة بما يدل عليه التنوين كأنه قيل: سورة عظيمة كما قيل: ـ شر أهر ذا ناب ـ.

وقال الفراء: نصب «سورة» على أنها حال من ضمير النصب في ﴿أنزلناها﴾ والحال من الضمير يجوز أن يتقدم عليه انتهى، ولعل الضمير على هذا للأحكام المفهومة من الكلام فكأنه قيل: أنزلنا الأحكام سورة أي في حال كونها سورة من سور القرآن وإلى هذا ذهب في البحر، وربما يقال: يجوز أن يكون الضمير للسورة الموجودة في العلم من غير ملاحظة تقييدها بوصف، و «سورة» المذكورة موصوفة بما يدل عليه تنوينها فكأنه قيل: أنزلنا السورة حال كونها سورة عظيمة، ولا يخفى أن كل ذلك تكلف لا داعي إليه مع وجود الوجه الذي لا غبار عليه، وقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إما على تقدير مضاف أي فرضنا أحكامها وإما على اعتبار المجاز في الإسناد حيث أسند ما للمدلول للدال لملابسة بينهما، تشبه الظرفية، ويحتمل على بعد أن يكون في الكلام استخدام بأن يراد بسورة معناها الحقيقي وبضميرها معناها المجازي أعني الأحكام المدلول عليها بها، والفرض في الأصل قطع الشيء الصلب والتأثير فيه، والمراد به هنا الإيجاب على أتم وجه فكأنه قيل: أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً وفي ذكر ذلك براعة استهلال على ما قيل.

وقرأ عبد الله وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة وأبو عمرو وابن كثير «وَفَرَّضْنَاهَا» بتشديد الراء لتأكيد الإيجاب، والإشارة إلى زيادة لزومه أو لتعدد الفرائض وكثرتها أو لكثرة المفروض عليهم من السلف والخلف، وفي

الحواشي الشهابية قد فسر ﴿فرضناها﴾ بفصلناها ويجري فيه ما ذكر أيضاً ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا﴾ أي في هذه السورة ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يحتمل أن يراد بها الآيات التي نيطت بها الأحكام المفروضة وأمر الظرفية عليه ظاهر، ومعنى كونها بينات وضوح دلالتها على أحكامها لا على معانيها مطلقاً لأنها أسوة لأكثر الآيات في ذلك، وتكرير ﴿أنزلنا﴾ مع استلزام إنزال السورة إنزالها إبراز كمال العناية بشأنها، ويحتمل أن يراد بها جميع آيات السورة والظرفية حينئذ باعتبار اشتمال الكل على كل واحد من أجزائه، ومعنى كونه بينات أنها لا إشكال فيها يحوج إلى تأويل كبعض الآيات، وتكرير ﴿أنزلنا﴾ مع ظهور أن إنزال جميع الآيات عين إنزال السورة لاستقلالها بعنوان رائق داع إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانة لخطرها ورفعاً لمحلها كقوله تعالى: ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ [هود: ٥٨] بعد قوله سبحانه: ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ [هود: ٥٨] والاحتمال الأول أظهر، وقال الإمام: إنه تعالى ذكر في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود وفي آخرها دلائل التوحيد فقوله تعالى: ﴿فرضناها﴾ إشارة إلى الأحكام المبنية أولاً، وقوله سبحانه: ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ إشارة إلى ما بين من دلائل التوحيد ويؤيده قوله عز وجل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى يتذكرونها انتهى، وهو عندي وجه حسن، نعم قيل فيما ذكره من التأييد نظر إذ لمن ذهب إلى الاحتمال أن يقول: المراد من التذكر غايته وهو اتقاء المحارم بالعمل بموجب تلك الآيات، ولقائل أن يقول: إن هذا محوج إلى ارتكاب المجاز في التذكر دون ما ذكره الإمام فإن التذكر عليه على معناه المتبادر ويكفي هذا القدر في كونه مؤيداً، وأصل ﴿تذكرون﴾ تتذكرون حذف إحدى التاءين وقرىء بإدغام الثانية منهما في الذال ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ شروع في تفصيل الأحكام التي أشير إليها أولاً، ورفع «الزانية» على أنها خبر مبتدأ محذوف والكلام على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه والأصل مما يتلى عليكم أو في الفرائض أي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وفرضناها﴾ حكم الزانية والزاني، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ سببية وقيل سيف خطيب، وذهب الفراء والمبرد والزجاج إلى أن الخبر جملة «فاجلدوا» إلخ، والفاء في المشهور لتضمن المبتدأ معنى الشرط إذ اللام فيه وفيما عطف عليه موصولة أي التي زنت والذي زنى فاجلدوا الخ، وبعضهم يجوز دخول الفاء في الخبر إذا كان في المبتدأ معنى يستحق به أن يترتب عليه الخبر وإن لم يكن هناك موصول كما في قوله: «وقائلة خولان فانكح فتاتهم» فإن هذه القبيلة مشهورة بالشرف والحسن شهرة حاتم بالسخاء وعنترة بالشجاعة وذلك معنى يستحق به أن يترتب عليه الأمر بالنكاح وعلى هذا يقوى أمر دخول الفاء هنا كما لا يخفى، وقال العلامة القطب: جيء بالفاء لوقوع المبتدأ بعد أما تقديراً أي أما الزانية والزاني فاجلدوا الخ، ونقل عن الأخفش أنها سيف خطيب، والداعي لسيبويه على ما ذهب إليه ما يفهم من الكتاب كما قيل من أن النهج المألوف في كلام العرب إذا أريد بيان معنى وتفصيله اعتناء بشأنه أن يذكر قبله ما هو عنوان وترجمة له وهذا لا يكون إلا بأن يبنى على جملتين فما ذهب إليه في الآية أولى لذلك مما ذهب إليه غيره، وأيضاً هو سالم من وقوع الإنشاء خبراً والدغدغة التي فيه، وأمر الفاء عليه ظاهر لا يحتاج إلى تكلف، وقال أبو حيان: سبب الخلاف أن سيبويه والخليل يشترطان في دخول الفاء الخبر كون المبتدأ موصولاً لا بما يقبل مباشرة أداة الشرط وغيرهما لا يشترط ذلك.

وقرأ عبد الله «والزان» بلا ياء تخفيفاً، وقرأ عيسى الثقفي ويحيى بن يعمر وعمرو بن قائد وأبو جعفر وشيبة وأبو السمال ورويس «الزانية والزاني» بنصبهما على إضمار فعل يفسره الظاهر، والفاء على ما قال ابن جني لأن مآل المعنى إلى الشرط والأمر في الجواب يقترن بها فيجوز زيداً فأضربه لذلك ولا يجوز زيداً فضربته بالفاء لأنها لا تدخل في جواب الشرط إذا كان ماضياً.

والمراد هنا على ما في بعض شروح الكشاف إن أردتم معرفة حكم الزانية والزاني فاجلدوا الخ، وقيل: إن جلدتم الزانية والزاني فاجلدوا الخ وهو لا يدل على الوجوب المراد؛ وقيل دخلت الفاء لأن حق المفسر أن يذكر عقب المفسر كالتفصيل بعد الإجمال في قوله تعالى: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ [البقرة: ٥٤] ويجوز أن تكون عاطفة والمراد جلد بعد جلد وذلك لا ينافي كونه مفسراً للمعطوف عليه لأنه باعتبار الاتحاد النوعي انتهى.

وأنت تعلم أنه لم يعهد العطف بالفاء فيما اتحد فيه لفظ المفسر والمفسر وقد نصوا على عدم جواز زيداً فضربته بالاتفاق فلو ساغ العطف فيما ذكر لجاز هذا على معنى ضرب بعد ضرب، على أن كون المراد فيما نحن فيه جلد بعد جلد مما لا يخفى ما فيه فالظاهر ما نقل عن ابن جني، والمشهور أن سيبويه والخليل يفضلان قراءة النصب لمكان الأمر، وغيرهما من البصريين والكوفيين يفضلون الرفع لأنه كالإجماع في القراءة وهو أقوى في العربية لأن المعنى عليه من زنى فاجلدوه كذا قال الزجاج، وقال الخفاجي بعد نقله كلام سيبويه في هذا المقام: ليس في كلام سيبويه شيء مما يدل على التفضيل كما سمعت بل يفهم منه أن الرفع في نحو ذلك أفصح وأبلغ من النصب من جهة المعنى وأفصح من الرفع على أن الكلام جملة واحدة من جهة المعنى واللفظ معاً فليراجع وليتأمل والجلد ضرب الجلد وقد طرد صوغ فعل المفتوح العين الثلاثي من أسماء الأعيان فيقال رأسه وظهره وبطنه إذا ضرب رأسه وظهره وبطنه، وجوز الراغب أن يكون معنى جلده ضربه بالجلد نحو عصاه ضربه بالعصا، والمراد هنا المعنى الأول فإن الأخبار قد دلت على أن الزانية والزاني يضربان بسوط لا عقدة عليه ولا فرع له، وقيل: إن كون الجلد بسوط كذلك كان في زمن عمر رضي الله تعالى عنه بإجماع الصحابة وأما قبله فكان تارة باليد وتارة بالنعل وتارة بالجريدة الرطبة وتارة بالعصا، ثم الظاهر من ضرب الجلد أعم من أن يكون بلا واسطة أو بواسطة، وزعم بعضهم وليس بشيء أن الظاهر أن يكون بلا واسطة وأنه ربما يستأنس به لما ذهب إليه أصحابنا وبه قال مالك من أنه ينزع عن الزاني عند الجلد ثيابه إلا الإزار فإنه لا ينزع لستر عورته به، وعن الشافعي، وأحمد أنه يترك عليه قميص أو قميصان، وروى عبد الرزاق بسنده عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه أتي برجل في حد فضربه وعليه كساء قسطلاني، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لا يحل في هذه الأمة تجريد ولا مد، وأما الامرأة فلا ينزع عنها ثيابها عندنا إلا الفرو والمحشو ووجهه ظاهر.

وفي بعض الأخبار ما يدل على أن الرجل والمرأة في عدم نزع الثياب إلا الفرو والمحشو سواء، وكأن من لا يقول بنزع الثياب يقول: إن الجلد في العرف الضرب مطلقاً وليس خاصاً بضرب الجلد بلا واسطة، نعم ربما يقال: إن في اختياره على الضرب إشارة إلى أن المراد ضرب يؤلم الجلد وكأنه لهذا قيل ينزع الفرو والمحشو فإن الضرب في الأغلب لا يؤلم جلد من عليه واحد منهما، وينبغي أن لا يكون الضرب مبرحاً لأن الإهلاك غير مطلوب، ومن هنا قالوا: إذا كان من وجب عليه الحد ضعيف الخلقة فخيف عليه الهلاك يجلد جلداً ضعيفاً يحتمله، وكذا قالوا: يفرق الضرب على أعضاء المحدود لأن جمعه في عضو قد يفسده وربما يفضي إلى الهلاك، وينبغي أن يتقى الوجه والمذاكير لما روي موقوفاً على عليّ كرّم الله تعالى وجهه أنه أتي برجل سكران أو في حد فقال: اضرب واعط كل عضو حقه واتق الوجه والمذاكير، وكذا الرأس لأنه مجمع الحواس الباطنة فربما يفسد وهو اهلاك معنى، وكان أبو يوسف يقول باتقائه ثم رجع وقال يضرب ضربة واحدة، وروي عنه أنه استثنى البطن والصدر وفيه نظر إلا أن يقال: كان الضرب في زمانه كالضرب الذي يفعله ظلمة زماننا وحينئذ ينبغي أن يقول باستثناء الرأس قطعاً، وعن مالك أنه خص الظهر وما يليه بالجلد لما صح من قوله ﷺ لهلال بن أمية: «البينة وإلا فحد في ظهرك» وأجيب بأن المراد بالظهر فيه نفسه أي فحد

ثابت عليك بدليل ما ثبت عن كبار الصحابة من عمر وعلي وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم، وقوله ﷺ: «إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه» فإنه في نحو الحد فما سواه داخل في الضرب، ثم خص منه الفرج بدليل الإجماع، وعن محمد في التعزيز ضرب الظهر وفي الحدود ضرب الأعضاء، ثم هذا الضرب يكون للرجل قائماً غير ممدود وللمرأة قاعدة وجاء ذلك عن عليّ كرم الله تعالى وجهه، وكأن وجهه أن مبني الحد على التشهير زجراً للعامة عن مثله والقيام أبلغ فيه، والمرأة مبني أمرها على الستر فيكتفى بتشهير الحد فقط من غير زيادة، وإن امتنع الرجل ولم يقف أو لم يصبر فلا بأس بربطه على أسطوانة أو إمساك أحد له، والمراد من العدد المفروض في جلد كل واحد منهما أعني مائة جلدة ما يقال له مائة جلدة بوجه من الوجوه وإن لم تتعين الأولى والثانية والثالثة وهكذا إلى تمام المائة فلو ضربه مائة رجل بمائة سوط دفعة واحدة كفى في الحد بل قالوا: جاز أن تجمع الأسواط فيضرب مرة واحدة بحيث يصيبه كل واحد منها وروي عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه ضرب في حد بسوط له طرفان أربعين ضربة فحسب كل ضربة بضربتين، وقدمت الزانية على الزاني مع أن العادة تقديم الزاني عليها لأنها هي الأصل إذ الباعثة فيها أقوى ولولا تمكينها لم يزن، واشتقاقهما من الزنا وهو مقصور في اللغة الفصحى وهي لغة أهل الحجاز وقد يمد في لغة أهل نجد وعليها قال الفرزدق.

أبا طاهر من يزن يعرف زناؤه ... ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكرا

والزنا في عرف اللغة والشرع على ما قيل وطء الرجل المرأة في القبل في غير الملك وشبهة الملك، وفيه أنه يرد عليه زنى المرأة فإنه زنى ولا يصدق عليه التعريف، وما قيل في الجواب عنه: إنه فعل الوطء أمر مشترك بين الرجل والمرأة فإذا وجد بينهما يتصف كل منهما به وتسمى هي واطئة ولذا سماها سبحانه وتعالى زانية لا يخفى ما فيه مع أن في التعريف ما لا يصلحه هذا الجواب لو كان صحيحاً، والحق أن زناها لغة تمكينها من زنى الرجل بها وأنه إذا أريد تعريف الزنا المراد في الآية بحيث يشمل زناها فلا بد من زيادة التمكين بالنسبة إليها بل زيادته بالنسبة إلى كل منهما وأن يقال: هو إدخال المكلف الطائع قدر حشفته قبل مشتهاة حالاً أو ماضياً بلا ملك أو شبهة أو تمكينه من ذلك أو تمكينها في دار الإسلام ليصدق على ما لو كان مستلقياً فقعدت على ذكره فتركها حتى أدخلته فإنهما يحدان في هذه الصورة وليس الموجود منه سوى التمكين، ويعلم من هذا التعريف أنه لا حد على الصبي والمجنون ومن أكرهه السلطان، ولا على من أولج في دبر أو في فرج صغير غير مشتهاة أو ميتة أو بهيمة بخلاف من أولج في فرج عجوز، ولا على من زنى في دار الحرب، ولا على من زنى مع شبهة، وفي بعض ما ذكر كلام يطلب من كتب الفقه، والحكم عام فيمن زنى وهو محصن وفي غيره لكن نسخ في حق المحصن قطعاً فإن الحكم في حقه الرجم، ويكفينا في تعيين الناسخ القطع بأمره ﷺ بالرجم وفعله في زمانه عليه الصلاة والسلام مرات فيكون من نسخ الكتاب بالسنة القطعية.

وقد أجمع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن تقدم من السلف وعلماء الأمة وأئمة المسلمين على أن المحصن يرجم بالحجارة حتى يموت، وإنكار الخوارج ذلك باطل لأنهم إن أنكروا احجية إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم فجهل مركب، وإن أنكروا وقوعه من رسول الله ﷺ لإنكارهم حجية خبر الواحد فهو بعد بطلانه بالدليل ليس ما نحن فيه لأن ثبوت الرجم منه عليه الصلاة والسلام متواتر المعنى كشجاعة عليّ كرم الله تعالى وجهه وجود حاتم، والآحاد في تفاصيل صوره وخصوصياته وهم كسائر المسلمين يوجبون العمل بالمتواتر معنى كالمتواتر لفظاً إلا أن انحرافهم عن الصحابة والمسلمين وترك التردد إلى علماء المسلمين والرواة أوقعهم في جهالات كثيرة لخفاء السمع عنهم والشهرة، ولذا حين عابوا على عمر بن عبد العزيز في القول بالرجم من كونه ليس في كتاب الله تعالى

ألزمهم بأعداد الركعات ومقادير الزكوات فقالوا: ذلك من فعله ﷺ والمسلمين فقال لهم: وهذا أيضاً كذلك، وقد كوشف بهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وكاشف بهم حيث قال كما روى البخاري: خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى عز وجل فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف، وروى أبو داود أنه رضي الله تعالى عنه خطب وقال: «إن الله عز وجل بعث محمداًﷺ بالحق وأنزل عليه كتاباً فكان فيما أنزل عليه آية الرجم يعني بها قوله تعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» فقرأناها ووعيناها إلى أن قال: وإني خشيت أن يطول بالناس زمان فيقول قائل: «لا نجد الرجم» الحديث بطرقه، وقال: لولا أن يقال: إن عمر زاد في الكتاب لكتبتها على حاشية المصحف الشريف ومن الناس من ذهب إلى أن الناسخ الآية المنسوخة التي ذكرها عمر رضي الله تعالى عنه.

وقال العلامة ابن الهمام: إن كون الناسخ السنة القطعية أولى من كون الناسخ ما ذكر من الآية لعدم القطع بثبوتها قرآناً، ثم نسخ تلاوتها وإن ذكرها عمر رضي الله تعالى عنه وسكت الناس فإن كون الإجماع السكوتي حجة مختلف فيه وبتقدير حجيته لا نقطع بأن جميع المجتهدين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا إذ ذاك حضوراً ثم لا شك في أن الطريق في ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه ظني ولهذا والله تعالى أعلم قال علي كرّم الله تعالى وجهه حين جلد شراحة ثم رجمها: جلدتها بكتاب الله تعالى ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ ولم يعلل الرجم بالقرآن المنسوخ التلاوة، ويعلم من قوله المذكور كرم الله تعالى وجهه أنه قائل بعدم نسخ عموم الآية فيكون رأيه أن الرجم حكم زائد في حق المحصن ثبت بالسنة وبذلك قال أهل الظاهر وهو رواية عن أحمد، واستدلوا على ذلك بما رواه أبو داود من قوله ﷺ: «الثيب بالثيب جلد مائة ورمي الحجارة» وفي رواية غيره «ورجم بالحجارة» وعند الحنفية لا يجمع بين الرجم والجلد في المحصن وهو قول مالك والشافعي ورواية أخرى عن أحمد لأن الجلد يعري عن المقصود الذي شرع الحد له وهو الانزجار أو قصده إذا كان القتل لاحقاً له، والعمدة في استدلالهم على ذلك أنه ﷺ لم يجمع بينهما قطعاً، فقد تظافرت الطرق أنه ﷺ بعد سؤاله ماعزاً عن الإحصان وتلقينه الرجوع لم يزد على الأمر بالرجم فقال: اذهبوا به فارجموه، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «اغديا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت بذلك فارجمها» ولم يقل فاجلدها ثم ارجمها، وجاء في باقي الحديث الشريف «فاعترفت فأمر بها ﷺ فرجمت» وقد تكرر الرجم في زمانه ﷺ ولم يرو أحد أنه جمع بينه وبين الجلد فقطعنا بأنه لم يكن إلا الرجم فوجب كون الخبر السابق منسوخاً وإن لم يعلم خصوص الناسخ، وأجيب عما فعل عليّ كرم الله تعالى وجهه من الجمع بأنه رأي لا يقاوم ما ذكر من القطع عن رسول الله ﷺ وكذا لا يقاوم إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ويحتمل أن يقال: إنه كرم الله تعالى وجهه لم يثبت عنده الإحصان إلا بعد الجلد وهو بعيد جداً كما يظهر من الرجوع إلى القصة والله تعالى أعلم، وإحصان الرجم يتحقق بأشياء نظمها بعضهم فقال:

شروط[1] إحصان أتت ستة ... فخذها عن النص مستفهما
بلوغ وعقل وحرية ... ورابعها كونه مسلما
وعقد صحيح ووطء مباح ... متى اختل شرط فلن يرجما

(١) قوله: شروط إحصان كذا بالأصل وهو غير متزن ولعله هكذا ـ شروط حصان.

وزاد غير واحد كون واحد من الزوجين مساوياً الآخر في شرائط الإحصان وقت الإصابة بحكم النكاح فلو تزوج الحر المسلم البالغ العاقل أمة أو صبية أو مجنونة أو كتابية ودخل بها لا يصير محصناً بهذا الدخول حتى لو زنى من بعد لا يرجم، وكذا لو تزوجت الحرة البالغة العاقلة المسلمة من عبد أو مجنون أو صبي ودخل بها لا تصير محصنة فلا ترجم لو زنت بعد.

وذكر ابن الكمال شرطاً آخر وهو أن لا يبطل إحصانهما بالارتداد فلو ارتد والعياذ بالله تعالى ثم أسلما لم يعد إلا بالدخول بعده ولو بطل بجنون أو عته عاد بالإفاقة، وقيل بالوطء بعده. والشافعي لا يشترط المساواة في شرائط الإحصان وقت الإصابة فلا رجم عنده في المسألتين السابقتين، وكذا لا يشترط الإسلام فلو زنى الذمي الثيب الحر يجلد عندنا ويرجم عنده وهو رواية عن أبي يوسف وبه قال أحمد، وقول مالك كقولنا.

واستدل المخالف بما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا فقال رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام: كذبتم فيما زعمتم أن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فسردوها فوضع أحدهم يعني عبد الله بن صور يا يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم فقالوا: صدق يا محمد فأمر بهما النبي ﷺ فرجما.

ودليلنا ما رواه إسحاق بن رهوايه في مسنده قال: أخبرنا عبد العزيز بن محمد حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من أشرك بالله فليس بمحصن» وقد رفع هذا الخبر كما قال اسحاق مرة ووقف أخرى، ورواه الدارقطني في سننه وقال: لم يرفعه غير راهويه بن راهويه، ويقال: إنه رجع عن ذلك والصواب أنه موقوف اهـ. وفي العناية أن لفظ إسحاق كما تراه ليس فيه رجوع وإنما ذكر عن الراوي أنه مرة رفعه ومرة أخرجه مخرج الفتوى ولم يرفعه ولا شك في أن مثله بعد صحة الطريق إليه محكوم برفعه على ما هو المختار في علم الحديث من أنه إذا تعارض الرفع والوقف حكم بالرفع وبعد ذلك إذا خرج من طرق فيها ضعف لا يضر.

وأجاب بعض أجلة أصحابنا بأنه كان الرجم مشروعاً بدون اشتراط الإسلام حين رجم ﷺ الرجل والمرأة اليهوديين وذلك بما أنزله الله تعالى إليه عليه الصلاة والسلام، وسؤاله ﷺ اليهود عما يجدونه في التوراة في شأنه ليس لأن يعلم حكمه من ذلك.

والقول بأنه عليه الصلاة والسلام كان أول ما قدم المدينة مأموراً بالحكم بما في التوراة ممنوع بل ليس ذلك إلا ليبكتهم بترك الحكم بما أنزل الله تعالى عليهم فلما حصل الغرض حكم ﷺ برجمهما بشرعه الموافق لشرعهم وإذا علم أن الرجم كان ثابتاً في شرعنا حال رجمها بلا اشتراط الإسلام. وقد ثبت حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما المفيد لاشتراط الإسلام وليس تاريخ يعرف به تقدم اشتراط الإسلام على عدم اشتراطه أو تأخره عنه حصل التعارض بين فعله ﷺ رجم اليهوديين وقوله المذكور فيطلب الترجيح، وقد قالوا: إذا تعارض القول والفعل ولم يعلم المتقدم من المتأخر يقدم القول على الفعل، وفيه وجه آخر وهو أن تقديم هذا القول موجب لدرء الحد وتقديم ذلك الفعل يوجب الاحتياط في إيجاب الحد والأولى في الحدود ترجيح الرافع عند التعارض.

ولا يخفى أن كل مترجح فهو محكوم بتأخره اجتهاداً فيكون المعول عليه في الحكم حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، وقول المخالف: إن المراد بالمحصن فيه المحصن الذي يقتص له من المسلم خلاف الظاهر لأن أكثر استعمال الإحصان في إحصان الرجم.

ورد بعضهم بالآية على القائلين: إن حد زنا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة وهم الإمام الشافعي والإمام أحمد والثوري والحسن بن صالح، ووجه الرد أن قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني﴾ إلخ شروع في بيان حكم الزنا ما هو فكان المذكور تمام حكمه وإلا كان تجهيلاً لا بياناً وتفصيلاً إذ يفهم منه أنه تمام وليس بتمام في الواقع فكان مع الشروع في البيان أبعد من البيان، لأنه أوقع في الجهل المركب وقبله كان الجهل بسيطاً فيفهم بمقتضى ذلك أن حد الزانية والزاني ليس إلا الجلد، وأخصر من هذا أن المقام مقام البيان فالسكوت فيه يفيد الحصر، وقال المخالف: لو سلمنا الدلالة على الحصر وأن المذكور تمام الحكم ليكون المعنى أن حد كل ليس إلا الجلد فذلك منسوخ بما صح من رواية عبادة بن الصامت عنه ﷺ «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام» وأجيب بأنه بعد التسليم لا تصح دعوى النسخ بما ذكر لأنه خبر الواحد وعندنا لا يجوز نسخ الكتاب به؛ والقول بأن الخبر المذكور قد تلقته الأمة بالقبول لا يجدي نفعاً لأنه إن أريد بتلقيه بالقبول إجماعهم على العمل به فممنوع، فقد صح عن عليّ كرم الله تعالى وجهه أنه لا يقول بتغريبهما وقال: حسبهما من الفتنة أن ينفيا، وفي رواية كفى بالنفي فتنة، وإن أريد إجماعهم على صحته بمعنى صحة سنده فكثير من أخبار الآحاد كذلك ولم تخرج بذلك عن كونها آحاداً، على أنه ليس فيه أكثر من كون التغريب واجباً ولا يدل على أنه واجب بطريق الحد بل ما في صحيح البخاري من قول أبي هريرة: إن رسول الله ﷺ قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفي عام وإقامة الحد ظاهر في أن النفي ليس من الحد لعطفه عليه، وكونه استعمل الحد في جزء مسماه وعطف على الجزء الآخر بعيد فجاز كونه تعزيراً لمصلحة، وقد يغرب الإمام لمصلحة يراها في غير ما ذكر كما صح أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه غرب نصر بن حجاج إلى البصرة بسبب أنه لجماله افتتن بعض النساء به فسمع قائلة يقال: إنها أم الحجاج الثقفي ولذا قال له عبد الملك يوماً يا ابن المتمنية تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أو هل سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق[1] مقتبل ... سهل المحيا كريم غير ملجاج

والقول بأنه لا يجتمع التعزير مع الحد لا يخفى ما فيه، و ادعى الفقيه المرغيناني أن الخبر المذكور منسوخ فإن شطره الثاني الدال على الجمع بين الجلد والرجم منسوخ كما علمت، وفيه أنه لا لزوم فيجوز أن تروى جمل نسخ بعضها وبعضها لم ينسخ، نعم ربما يكون نسخ أحد الشطرين مسهلاً لتطرق احتمال نسخ الشطر الآخر فيكون هذا الاحتمال قائماً فيما نحن فيه فيضعف عن درجة الآحاد التي لم يتطرق ذلك الاحتمال إليها فيكون أحرى أن لا ينسخ ما أفاده الكتاب من أن الحد هو الجلد لا غير على ما سمعت تقريره فتأمل.

ثم إن التغريب ليس مخصوصاً بالرجل عند أولئك الأئمة فقد قالوا: تغرب المرأة مع محرم وأجرته عليها في قول وفي بيت المال في آخر، ولو امتنع ففي قول يجبره الإمام وفي آخر لا، ولو كانت الطريق آمنة ففي تغريبها بلا محرم قولان، وعند مالك والأوزاعي إنما ينفى الرجل ولا تنفى المرأة لقوله عليه الصلاة والسلام: «البكر بالبكر» الخ، وقال غيرهما ممن تقدم: إن الحديث يجب أن يشملها فإن أوله «خذوا عني قد جعل الله تعالى لهن سبيلاً البكر بالبكر» إلخ وهو نص على أن النفي والجلد سبيل للنساء والبكر يقال: على الأنثى ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «البكر تستأذن» ومع قطع النظر عن كل ذلك قد يقال: إن هذا من المواضع التي تثبت الأحكام فيه في النساء بالنصوص المفيدة إياها للرجال بتنقيح المناط، هذا ثم لا يخفى أن الظاهر من ﴿الزانية والزاني﴾ ما يشمل الرقيق وغيره فيكون

---

(١) هو الذي لم يظهر فيه أثر كبر انتهى منه.

مقدار الحد في الجميع واحداً لكن قوله تعالى: ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ [النساء: ٢٥] الآية أخرجت الإماء فإن الآية نزلت فيهن، وكذا أخرجت العبيد إذ لا فرق بين الذكر والأنثى بتنقيح المناط فيرجع في ذلك إلى دلالة النص بناء على أنه لا يشترط في الدلالة أولوية المسكوت بالحكم من المذكور بل المساواة تكفي فيه وقيل تدخل العبيد بطريق التغليب عكس القاعدة وهي تغليب الذكور.

ولا يشترط الإحصان في الرقيق لما روى مسلم وأبو داود والنسائي عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: «قال رسول الله ﷺ: أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم من أحصن ومن لم يحصن» وفيه دليل على أن الشرط أعني الإحصان في الآية الدالة على تنصيف الحد لا مفهوم له، ونقل عن ابن عباس وطاوس أنه لا حد على الأمة حتى تحصن بزوج، وفيه اعتبار المفهوم، ثم هذا الإحصان شرط للجلد لأن الرجم لا يتنصف، وللشافعي في تغريب العبد أقوال: يغرب سنة يغرب نصف سنة لا يغرب أصلاً والخطاب في قوله تعالى: ﴿فاجلدوا﴾ لأئمة المسلمين ونوابهم.

واختلف في إقامة المولى الحد على عبده فعندنا لا يقيمه إلا بإذن الإمام؛ والشافعي ومالك وأحمد يقيمه من غير إذن، وعن مالك إلا في الأمة المزوجة، واستثنى الشافعي من المولى الذمي والمكاتب والمرأة، و كذا اختلف في إقامة الخارجي المتغلب الحد فقيل يقيم وقيل لا، وأدلة الأقوال المذكورة وتحقيق ما هو الحق منها في محله، والظاهر أن إقامة الحد المذكور بعد تحقق الزنا بإحدى الطرق المعلومة، وقال إسحاق: إذا وجد رجل وامرأة في ثوب واحد يجلد كل واحد منهما مائة جلدة وروي ذلك عن عمر وعلي رضي الله تعالى عنهما، وقال عطاء والثوري ومالك وأحمد: يؤديان على مذاهبهم في الأدب ﴿وَلاَ تَأْخُذُكم بهمَا رَأْفَةٌ﴾ تلطف ومعاملة برفق وشفقة ﴿في دين الله﴾ في طاعته وإقامة حده الذي شرعه عز وجل، والمراد النهي عن التخفيف في الجلد بأن يجلدوهما جلداً غير مؤلم أو بأن يكون أقل من مائة جلدة.

وقال أبو مجلز ومجاهد وعكرمة وعطاء: المراد النهي عن إسقاط الحد بنحو شفاعة كأنه قيل: أقيموا عليهما الحد ولا بد، وروي معنى ذلك عن عمر وابن جبير، وفي هذا دليل على أنه لا يجوز الشفاعة في إسقاط الحد، والظاهر أن المراد عدم جواز ذلك بعد ثبوت الحد عند الحاكم، وأما قبل الوصول إليه والثبوت فإن الشفاعة عند الرافع لمن اتصف بسبب الحد إلى الحاكم ليطلقه قبل الوصول وقبل الثبوت تجوز، ولم يخصوا ذلك بالزنا لما صح أنه عليه الصلاة والسلام أنكر على حبه أسامة بن زيد حين شفع في فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية السارقة قطيفة وقيل حلياً فقال له: «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟ ثم قام فخطب فقال: أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله تعالى لو أن فاطمة بنت محمد سرقت وحاشاها لقطعت يدها» وكما تحرم الشفاعة يحرم قبولها فعن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه أنه قال: إذا بلغ الحد إلى الإمام فلا عفا الله تعالى عنه إن عفا، و ﴿بهما﴾ قيل متعلق بمحذوف على البيان أي أعني بهما، وقيل بترأفوا محذوفاً أي ولا ترأفوا بهما، ويفهم صنيع أبي البقاء اختيار تعلقه بتأخذ والباء للسببية أي ولا تأخذكم بسببهما رأفة ولم يجوز تعلقه برأفة معللاً بأن المصدر لا يتقدم معموله عليه، وعندي هو متعلق بالمصدر ويتوسع في الظرف ما لا يتوسع في غيره.

وقد حقق ذلك العلامة سعد الملة والدين في أول شرح التلخيص بما لا مزيد عليه، و ﴿في دين﴾ قيل متعلق بتأخذ وعليه أبو البقاء، وقيل متعلق بمحذوف وقع صفة لرأفة. وقرأ عليّ كرم الله تعالى وجهه والسلمي وابن مقسم وداود بن أبي هند عن مجاهد «ولا يأخذكم» بالياء التحتية لأن تأنيث ﴿رأفة﴾ مجازي وحسن ذلك الفصل وقرأ ابن

كثير «رَأَفَةٌ» بفتح الهمزة، وابن جريج «رآفة» بألف بعد الهمزة على وزن فعالة وروي ذلك عن عاصم وابن كثير، ونقل أبو البقاء أنه قرأ «رافة» بقلب الهمزة الفاً وهي في كل ذلك مصدر مسموع إلا أن الأشهر في الاستعمال ما وافق قراءة الجمهور.

﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ من باب التهييج والإلهاب كما يقال: إن كنت رجلاً فافعل كذا ولا شك في رجوليته وكذا المخاطبون هنا مقطوع بإيمانهم لكن قصد تهييجهم وتحريك حميتهم ليجدوا في طاعة الله تعالى ويجتهدوا في إجراء أحكامه على وجهها، وذكر ﴿اليوم الآخر﴾ لتذكير ما فيه من العقاب في مقابلة الرأفة بهما ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليحضره زيادة في التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر من التعذيب أو لذلك وللعبرة والموعظة، وعن نصر بن علقمة أن ذلك ليدعى لهما بالتوبة والرحمة لا للتفضيح وهو في غاية البعد من السياق، والأمر هنا على ما يدل عليه كلام الفقهاء للندب.

واختلف في هذه الطائفة فأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن عباس أنه قال: الطائفة الرجل فما فوقه وبه قال أحمد وقال عطاء وعكرمة وإسحاق بن راهويه: إثنان فصاعداً وهو القول المشهور لمالك وقال قتادة والزهري: ثلاثة فصاعداً، وقال الحسن: عشرة، وعن الشافعي وزيد: أربعة وهو قول لمالك قال الخفاجي: وتحقيق المقام أن الطائفة في الأصل اسم فاعل مؤنث من الطواف الدوران أو الإحاطة فهي إما صفة نفس أي نفس طائفة فتطلق على الواحد أو صفة جماعة أي جماعة طائفة فتطلق على ما فوقه فهي كالمشترك بين تلك المعاني فتحمل في كل مقام على ما يناسبه.

وذكر الراغب أنها إذا أريد بها الواحد يصح أن تكون جمعاً كني به عن الواحد، ويصح أن تكون مفرداً والتاء فيها كما في رواية، وفي حواشي العضد للهروي يصح أن يقال للواحد طائفة ويراد نفس طائفة فهي من الطواف بمعنى الدوران.

وفي شرح البخاري حمل الشافعي الطائفة في مواضع من القرآن على أوجه مختلفة بحسب المواضع فهي في قوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ [التوبة: ١٢٢] واحد فأكثر واحتج به على قبول خبر الواحد وفي قوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة﴾ أربعة وفي قوله سبحانه: ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ [النساء: ١٠٢] ثلاثة، وفرقوا في هذه المواضع بحسب القرائن، أما في الأولى فلأن الإنذار يحصل به، وأما في الثانية فلأن التشنيع فيه أشد، وأما في الثالثة فلضمير الجمع بعد في قوله تعالى: ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ [النساء: ١٠٢] وأقله ثلاثة، وكونها مشتقة من الطواف لا ينافيه لأنه يكون بمعنى الدوران أو هو الأصل وقد لا ينظر إليه بعد الغلبة فلذا قيل: إن تاءها للنقل انتهى ولا يخلو عن بحث.

والحق أن المراد بالطائفة هنا جماعة يحصل بهم التشهير، والزجر وتختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص فرب شخص يحصل تشهيره وزجره بثلاثة وآخر لا يحصل تشهيره وزجره بعشرة، وللقائل بالأربعة هنا وجه وجيه كما لا يخفى.

﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ تقبيح لأمر الزاني أشد تقبيح ببيان أنه بعد أن رضي بالزنا لا يليق به أن ينكح العفيفة المؤمنة فبينهما كما بين سهيل والثريا فترى هذه شامية إذا ما استقلت وترى ذاك إذا ما استقل يمانياً وإنما يليق به أن ينكح زانية هي في ذلك طبقه ليوافق ـ كما قيل ـ شن طبقه أو مشركة هي أسوأ منه حالاً وأقبح أفعالاً «فلا ينكح» خبر مراد منه لا يليق به أن ينكح كما تقول: السلطان لا يكذب أي لا يليق به أن يكذب نزل فيه عدم لياقة

الفعل منزلة عدمه وهو كثير في الكلام، ثم المراد اللياقة وعدم اللياقة من حيث الزنا فيكون فيه من تقبيح الزنا ما فيه.

ولا يشكل صحة نكاح الزاني المسلم الزانية المسلمة وكذا العفيفة المسلمة وعدم صحة نكاحه المشركة المذكورة في الآية إذا فسرت بالوثنية بالإجماع لأن ذلك ليس من اللياقة وعدم اللياقة من حيث الزنا بل من حيثية أخرى يعلمها الشارع كما لا يخفى، وعلى هذا الطرز قوله تعالى: ﴿**وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ**﴾ أي الزانية بعد أن رضيت بالزنا فولغ فيها كلب شهوة الزاني لا يليق أن ينكحها من حيث إنها كذلك إلا من هو مثلها وهو الزاني أو من هو أسوأ حالاً منها وهو المشرك، وأما المسلم العفيف فإن غيرته تأبى ورود جفرتها.

تـجـتـنب الأسـود ورود مـاء ... إذا كـان الـكـلاب يـلـغـن فـيـه

ولا يشكل على هذا صحة نكاحه إياها وعدم صحة نكاح المشرك سواء فسر بالوثني أو بالكتابي ليحتاج إلى الجواب وهو ظاهر؛ والإشارة في قوله سبحانه: ﴿**وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ يحتمل أن تكون للزنا المفهوم مما تقدم والتحريم عليه على ظاهره وكذا المؤمنين، ولعل هذه الجملة وما قبلها متضمنة لتعليل ما تقدم من الأمر والنهي ولذا لم يعطف قوله سبحانه: ﴿**الزاني لا ينكح**﴾ الخ عليه كما عطف قوله عز وجل الآتي: ﴿**والذين يرمون المحصنات**﴾ الخ، وأمر إشعار ما تقدم بالتحريم سهل، وتخصيص المؤمنين بالتحريم عليهم على رأي من يقول: إن الكفار غير مكلفين بالفروع ظاهر، وأما على رأي من يقول بتكليفهم بها كالأصول وإن لم تصح منهم إلا بعد الإيمان فتخصيصهم بالذكر لشرفهم، ويحتمل أن تكون لنكاح الزانية وعليه فالمراد من التحريم المنع وبالمؤمنين المؤمنون الكاملون، ومعنى منعهم عن نكاح الزواني جعل نفوسهم أبية عن الميل إليه فلا يليق ذلك بهم، ولا يأبى حمل الآية على ما قرر فيها ما روي في سبب نزولها مما أخرج أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه والبيهقي وابن المنذر وغيرهم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان رجل يقال له مرثد يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه وعد رجلاً من أسارى مكة بحمله قال فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت إلى غرفتي فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد فقالت: مرحباً وأهلاً هلم فبت عندنا الليلة قلت: يا عناق حرم الله تعالى الزنا قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم قال فتبعني ثمانية وسلكت الخندمة فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فطل بولهم على رأسي وعماهم الله تعالى عني ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته حتى قدمت المدينة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناق؟ فأمسك فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزل ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة**﴾ الآية فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: يا مرثد ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين**﴾ فلا تنكحها لأن تفريع النهي فيه عن نكاح تلك البغي مما لا شبهة في صحته على تقدير كون الآية المفرع عليها لتقبيح أمر الزاني والزانية فكأنه قيل: إذا علمت أمر الزانية وأنها بلغت في القبح إلى حيث لا يليق أن ينكحها إلا مثلها أو من هو أسوأ حالاً فلا تنكحها.

نعم في هذا الخبر ما هو أوفق بجعل الإشارة فيما مر إلى نكاح الزانية ويعلم منه وجه تقديم ﴿**الزاني**﴾والأخبار عن الزانية بأنه لا ينكحها إلا زان أو مشرك على خلاف ما تقتضيه المقابلة، هذا وللعلماء في هذه الآية الجليلة كلام كثير لا بأس بنقل ما تيسر منه وإبداء بعض ما قيل فيه ثم انظر فيه وفيما قدمناه واختر لنفسك ما يحلو فأقول: نقل عن الضحاك والقفال، وقال النيسابوري: إنه أحسن الوجوه في الآية أن قوله سبحانه: ﴿**الزاني لا**

ينكح﴾ الخ حكم مؤسس على الغالب المعتاد جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا وذلك أن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والتقحب لا يرغب غالباً في نكاح الصوالح من النساء اللاتي على خلاف صفته وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله أو في مشركة والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة والمشركين، ونظير هذا الكلام لا يفعل الخير إلا تقي فإنه جار مجرى الغالب، ومعنى التحريم على المؤمنين على هذا قيل التنزيه وعبر به عنه للتغليظ، ووجه ذلك أن نكاح الزواني متضمن التشبه بالفساق والتعرض للتهمة والتسبب لسوء القالة والطعن في النسب إلى كثير من المفاسد، وقيل: التحريم على ظاهره وذلك الفعل يتضمن محرمات والحرمة ليست راجعة إلى نفس العقد ليكون العقد باطلاً وعلى القولين الآية محكمة، ولا يخفى أن حمل الزاني والزانية على من شأنهما الزنا والتقحب لا يخلو عن بعد لأنهما فيما تقدم لم يكونا بهذا المعنى والظاهر الموافقة، وأيضاً لا يكاد يسلم أن الغالب عدم رغبة من شأنه الزنا في نكاح العفائف ورغبته في الزواني أو المشركات فكثيراً ما شاهدنا كثيراً من الزناة يتحرون في النكاح أكثر من تحري غيرهم فلا يكاد أحدهم ينكح من في أقاربها شبهة زنا فضلاً عن أن تكون فيها وقليلاً ما سمعنا برغبة الزاني في نكاح زانية أو مشركة، وأيضاً في حمل التحريم على التنزيه نوع بعد وكذا حمله على ظاهره مع التزام أن الحرمة ليست راجعة إلى نفس العقد.

وفي البحر روي عن ابن عمر وابن عباس وأصحابه أن الآية في قوم مخصوصين كانوا يزنون في جاهليتهم ببغايا مشهورات فلما جاء الإسلام وأسلموا لم يمكنهم الزنا فأرادوا لفقرهم زواج أولئك النسوة إذ كان من عادتهن الإنفاق على من تزوجهن فنزلت الآية لذلك، والإشارة بالزاني إلى أحد أولئك القوم أطلق عليه اسم الزنا الذي كان في الجاهلية للتوبيخ، ومعنى ﴿**لا ينكح إلا زانية أو مشركة**﴾ لا يريد أن يتزوج إلا زانية أو مشركة أي لا تنزع نفسه إلا إلى هذه الخسائس لقلة انضباطها، والإشارة ـ بذلك ـ إلى نكاح أولئك البغايا والتحريم على ظاهره، ويرد على هذا التأويل أن الإجماع على أن الزانية لا يجوز أن يتزوجها مشرك انتهى.

وأنت تعلم أن هذا لا يرد بعد حمل نفي النكاح على نفي إرادة التزوج إذ يكون المعنى حينئذ الزانية لا يريد أن يتزوجها إلا زان أو مشرك وليس في الإجماع ما يأباه، وفيه أيضاً كلام ستعلمه قريباً إن شاء الله تعالى، نعم كون ﴿**الزاني**﴾ إشارة إلى أحد أولئك القوم وهم من المهاجرين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كما جاء في آثار كثيرة وقد أسلموا وتابوا من الزنا محل تردد إذ يبعد كل البعد أن يسم الله عز وجل بالزنا صحابياً كان قد زنى قبل إسلامه ثم أسلم وتاب فخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ويطلق سبحانه عليه هذا الوصف الشنيع الذي غفره تبارك وتعالى له بمجرد أنه مال إلى نكاح زانية بسبب ما به من الفقر قبل العلم بحظر ذلك مع أنهم كانوا نادين على فراق من ينكحونهن إذا وجدوا عنهن غنى.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال: لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم والمدينة غالية السعر شديدة الجهد وفي السوق زوان متعالنات من أهل الكتاب وإماء لبعض الأنصار قد رفعت كل امرأة منهن على بابها علامة لتعرف أنها زانية وكن من أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيراً فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن للذي فيهم من الجهد فأشار بعضهم على بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من فضول ما يكتسبن فقال بعضهم: نستأمر رسول الله ﷺ فأتوه فقالوا: يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولا نجد ما نأكل وفي السوق بغايا نساء أهل الكتاب وولائدهن وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن فيصلح لنا أن نتزوج منهن

فنصيب من فضول ما يكتسبن فإذا وجدنا عنهن غنى تركناهن فأنزل الله تعالى الآية، وأيضاً إطلاق الزاني عليه بهذا المعنى لا يوافق إطلاق الزانية على إحدى صاحبات الرايات، وكذا لا يوافق إطلاق الزاني على من أطلق عليه في قوله سبحانه: ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا**﴾ الخ.

وقال أبو مسلم وأبو حيان وأخرجه أبو داود في ناسخه والبيهقي في سننه، و الضياء في المختارة وجماعة من طريق ابن جبير عن ابن عباس أن النكاح بمعنى الوطء أي الزنا و ﴿**ذلك**﴾ إشارة إليه، والمعنى الزاني لا يطأ في وقت زناه إلا زانية من المسلمين أو أخس منها وهي المشركة والزانية لا يطؤها حين زناها إلا زان من المسلمين أو أخس منه وهو المشرك وحرم الله تعالى الزنا على المؤمنين.

وتعقب بأنه لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج وبأنه يؤدي إلى قولك الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا تزني إلا بزان وهو غير مسلم إذ قد يزني الزاني بغير زانية يعلم أحدهما بالزنا والآخر جاهل به يظن الحل، وإذا ادعى أن ذلك خارج مخرج الغالب كان من الأخبار بالواضحات، وإن حمل النفي على النهي كان المعنى نهي الزاني عن الزنا إلا بزانية وبالعكس وهو ظاهر الفساد.

وأجيب عن الأول بأن جل العلماء على أن النكاح في قوله تعالى: ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ [البقرة: ٢٣٠] بمعنى الوطء دون العقد وردوا على من فسره بالعقد وزعم أن المطلقة ثلاثاً تحل لزوجها الأول بعقد الثاني عليها دون وطء، وعن الثاني بأنه إخبار خارج مخرج الغالب أريد به تشنيع أمر الزنا ولذلك زيدت المشركة، والاعتراض بالوضوح ليس بشيء.

وللفاضل سري الدين المصري كلام طويل في ذلك، وما قيل: إنه حينئذ يكون كقوله تعالى: ﴿الخبيثات للخبيثين﴾ [النور: ٢٦] الخ فيحصل التكرار ستعلم إن شاء الله تعالى أنه لا يتم إلا في قول، وقيل: النكاح بمعنى التزوج والنفي بمعنى النهي وعبر به عنه للمبالغة، وأيد بقراءة عمرو بن عبيد «لا ينكحْ» بالجزم والتحريم على ظاهره.

قال ابن المسيب: وكان الحكم عاماً في الزناة أن لا يتزوج أحدهم إلا زانية ثم جاءت الرخصة و نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ [النور: ٣٢] وقوله سبحانه: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ [النساء: ٣] وروي القول بالنسخ عن مجاهد، وإلى ذلك ذهب الإمام الشافعي قال في الأم: اختلف أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية**﴾ إلخ اختلافاً متبايناً، قيل: هي عامة ولكنها نسخت؛ أخبرنا سفيان عن يحيى عن سعيد بن المسيب أنه قال: هي منسوخة نسختها ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ فهي أي الزانية من أيامي المسلمين كما قال ابن المسيب إن شاء الله تعالى، ولنا دلائل من الكتاب والسنة على فساد غير هذا القول وبسط الكلام، وقد نقل هذا عن الإمام الشافعي البقاعي ثم قال: إن الشافعي لم يرد أن هذا الحكم نسخ بآية الأيامى فقط بل مع ما انضم إليها من الإجماع وغيره من الآيات والأحاديث بحيث صير ذلك دلالتها على ما تناولته متيقناً كدلالة الخاص على ما تناوله فلا يقال: إنه خالف أصله في أن الخاص لا ينسخ بالعام بل العام المتأخر محمول على الخاص لأن ما تناوله الخاص متيقن وما تناوله العام مظنون اهـ.

والجبائي يزعم أن النسخ بالإجماع ولعله أراد أنه كاشف عن ناسخ وإلا فالإجماع لا يكون ناسخاً كما بين في علم الأصول، نعم في تحقق الإجماع هنا كلام، واعترض هذا الوجه بأنه يلزم عليه حل نكاح المشرك للمسلمة، وأقول: إن نكاح الكافر للمسلمة كان حلالاً قبل الهجرة وبعدها إلى سنة الست وفيها بعد الحديبية نزلت آية التحريم كما صرح بذلك العلامة ابن حجر الهيتمي وغيره، وقد صح أن النبي ﷺ زوج بنته زينب رضي الله تعالى عنها لأبي

العاص بن الربيع قبل البعثة وبعث عليه الصلاة والسلام ثم هاجر وهاجرت معه وهي في نكاح أبي العاص ولم يكن مؤمناً إذ ذاك واستمر الأمر على ذلك إلى سنة الست فلما نزلت آية التحريم لم يلبث إلا يسيراً حتى جاء وأظهر إسلامه رضي الله تعالى عنه فردها ﷺ له بنكاحه الأول.

فيحتمل أن يكون النكاح المذكور حلالاً عند نزول الآية التي من فيها بأن يكون نزولها قبل سنة الست ثم نسخ، وفي هذه السورة آيات نصوا على أن نزولها كان قبل ذلك وهي قوله تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك﴾ [النور: ١١] إلخ قال: إنها نزلت عام غزوة بني المصطلق وكانت سنة خمس لليلتين خلتا من شعبان فلعل هذه الآية من هذا القبيل بل في أثر رواه ابن أبي شيبة عن ابن جبير وذكره العراقي وابن حجر ما ظاهره أن هذه الآية مكية فإذا انضم هذا إلى ما روي عن ابن المسيب وقال به الشافعي يكون فيها نسخان لكن لم أر من نبه على ذلك، وإذا صح كان هذا الوجه أقل من الأوجه السابقة مؤنة وكأني بك لا تفضل عليه غيره.

وذهب قوم إلى أن حرمة التزوج بالزانية أو من الزاني إن لم تظهر التوبة من الزنا باقية إلى الآن، وعندهم أنه إن زنى أحد الزوجين يفسد النكاح بينهما، وقال بعضهم: لا ينفسخ إلا أن الرجل يؤمر بطلاق زوجته إذا زنت فإن أمسكها أثم، وعند بعض من العلماء أن الزنا عيب من العيوب التي يثبت بها الخيار فلو تزوجت برجل فبان لها أنه ممن يعرف بالزنا ثبت لها الخيار في البقاء معه أو فراقه، وعن الحسن أن حرمة نكاح الزاني للعفيفة إنما هي فيما إذا كان مجلوداً وكذا حرمة نكاح العفيف للزانية إنما هي إذا كانت مجلودة فالمجلود عنده لا يتزوج إلا مجلودة والمجلودة لا يتزوجها إلا مجلود وهو موافق لما في بعض الأخبار.

فقد أخرج أبو داود وابن المنذر وجماعة عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله» وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر «أن رجلاً تزوج امرأة ثم إنه زنى فأقيم عليه الحد فجاؤوا به إلى عليّ كرم الله تعالى وجهه ففرق بينه وبين امرأته وقال له: لا تتزوج إلا مجلودة مثلك، وعن ابن مسعود والبراء بن عازب أن من زنى بامرأة لا يجوز له أن يتزوجها أصلاً، وأبو بكر الصديق وابن عمر وابن عباس وجابر وجماعة من التابعين والأئمة على خلافه.

واستدل على ذلك بما أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة وأراد أن يتزوجها فقال: الحرام لا يحرم الحلال» هذا ومن أضعف ما قيل في الآية: إنه يجوز أن يكون معناها ما في الحديث من أن من زنى تزني امرأته ومن زنت يزني زوجها فتأمل جميع ذاك والله عز وجل يتولى سداك.

وقرأ أبو البرهسم «وَحَرَّمَ» بالبناء للفاعل وهو الله تعالى، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «وحرم» بفتح الحرم وضم الراء ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ شروع في بيان حكم من نسب الزنا إلى غيره بعد بيان حكم من فعله، والموصول على ما اختاره العلامة الثاني في التلويح منصوب بفعل محذوف يدل فعل الأمر بعد عليه أي اجلدوا الذين، ويجوز أن يكون في محل رفع على الابتداء ولا يخفى عليك خبره والآية نزلت في امرأة عويمر كما في صحيح البخاري، وعن سعيد بن جبير أنها نزلت بسبب قصة الإفك والرمي مجاز عن الشتم.

وجرح اللسان كجرح اليد والمراد الرمي بالزنا كما يدل عليه إيراد ذلك عقيب الزواني مع جعل المفعول ﴿المحصنات﴾ الدال على النزاهة عن الزنا وهذا كالصريح في ذلك، وربما يدعى أن اشتراط أربعة من الشهود يشهدون بتحقق ما رمي به كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ قرينة

على المراد بناء على العلم بأنه لا شيء يتوقف ثبوته بالشهادة على شهادة أربعة إلا الزنا، والظاهر أن المراد النساء المحصنات وعليه يكون ثبوت وجوب جلد رامي المحصن بدلالة النص للقطع بإلغاء الفارق وهو صفة الأنوثة واستقلال دفع عار ما نسب إليه بالتأثير بحيث لا يتوقف فهمه على ثبوت أهلية الاجتهاد، وكذا ثبوت وجوب جلد رامية المحصن أو المحصنة بتلك الدلالة وإلا فالذين يرمون للجمع المذكر، وتخصيص الذكور في جانب الرامي والإناث في جانب المرمي لخصوص الواقعة، وقيل المراد الفروج المحصنات وفيه أن إسناد الرمي يأباه مع ما فيه من التوصيف بالمحصنات من مخالفة الظاهر.

وقال ابن حزم وحكاه الزهراوي: المراد الأنفس المحصنات؛ واستدل له أبو حيان بقوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء﴾ [النساء: ٢٤] فإنه لولا أن المحصنات صالح للعموم لم يقيد وتعقب بأن من النساء هناك قرينة على العموم ولا قرينة هنا، وجعل كون حكم الرجال كذلك قرينة لا يخلو عن شيء فالأولى الاعتماد على ما تقدم؛ والإحصان هنا، وجعل كون حكم الرجال كذلك قرينة لا يخلو عن شيء فالأولى الاعتماد على ما تقدم؛ والإحصان هنا لا يتحقق إلا بتحقق العفة عن الزنا وهو معناه المشهور وبالحرية والبلوغ والعقل والإسلام.

قال أبو بكر الرازي: ولا نعلم خلافاً بين الفقهاء في ذلك، ولعل غيره علم كما ستعلم إن شاء الله تعالى، وثبوته بإقرار القاذف أو شهادة رجلين أو رجل وامرأتين خلافاً لزفر، ووجه اعتبار العفة عن الزنا ظاهر لكن في شرح الطحاوي في الكلام على العفة عدم الاقتصار على كونها عن الزنا حيث قال فيها: بأن لم يكن وطىء امرأة بالزنا ولا بشبهة ولا بنكاح فاسد في عمره فإن كان فعل ذلك مرة يريد النكاح الفاسد تسقط عدالته ولا حد على قاذفه، وكذا لو وطىء في غير الملك كما إذا وطىء جارية مشتركة بينه وبين غيره سقطت عدالته، ولو وطىء في الملك إلا أنه محرم فإنه ينظر إن كانت الحرمة مؤقتة لا تسقط عدالته كما إذا وطىء امرأته في الحيض أو أمته المجوسية، وإن كانت مؤبدة سقطت عدالته كما إذا وطىء أمته وهي أخته من الرضاعة.

ولو مس امرأة أو نظر إلى فرجها بشهوة ثم تزوج بنتها فدخل بها أو أمها لا يسقط إحصانه عند أبي حنيفة عليه الرحمة(١) وعندهما يسقط، ولو وطىء امرأة بالنكاح ثم تزوج بها سقط إحصانه انتهى.

والمذكور في غير كتاب أن أبا حنيفة يشترط في سقوط الحد عن قاذف الواطىء في الحرمة المؤبدة كون تلك الحرمة ثابتة بحديث مشهور كحرمة وطء المنكوحة بلا شهود الثابتة بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا نكاح إلا بشهود» وهو حديث مشهور أو ثابتة بالإجماع كموطوءة أبيه بالنكاح أو بملك اليمين لو تزوجها الابن أو اشتراها فوطئها، ومثل ذلك عنده وطء مزنيته فإنه لا يعتبر الخلاف عند ثبوت الحرمة بالنص وهنا قد ثبتت به لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ [النساء: ٢٢] وإنما يعتبره إذا ثبتت بقياس أو احتياط كثبوتها بالنظر إلى الفرج والمس بشهوة فإن ثبوتها فيما ذكر لإقامة السبب مقام المسبب احتياطاً، ومن هذا يعلم حال فروع كثيرة فليحفظ، وما ذكر من سقوط إحصان من وطىء أمته وهي أخته من الرضاع فيه خلاف الكرخي فإنه قال: لا يسقط الإحصان بوطئها وهو قول الشافعي ومالك وأحمد لقيام الملك فكان كوطء أمته المجوسية، وفيه أن الحرمة في وطء المجوسية يمكن ارتفاعها فتكون مؤقتة وحرمة الرضاع لا يمكن ارتفاعها فلم يكن المحل قابلاً للحل أصلاً، واشترط في الملك أن لا يظهر فساده بالاستحقاق فلو اشترى جارية فوطئها ثم استحقت فقذفه إنسان لا يحد. وفي كافي

---

(١) وكذا عند الأئمة الثلاثة ا هـ منه.

الحاكم والقهستاني والفتح أن الوطء في الشراء الفاسد يسقط الحد عن القاذف وحمله بعضهم على ما ذكرنا، وقال بعض الأجلة: كما يشترط العفة عن الزنا يشترط السلامة عن تهمته ويحترز به عن قذف ذات ولد ليس له أب معروف فإنهم ذكروا أنه لا يحد قاذفها لمكان التهمة، وقد ذكر ذلك الحصكفي في باب اللعان من شرح تنوير الأبصار، ولا تقاس اللواطة على الزنا فلو قذف بها لا يحد القاذف خلافاً لأبي يوسف ومحمد وقد اختلفا في أحكام كثيرة ذكرها زين الدين في بحره، وأما اعتبار الحرية فلأنها يطلق عليها اسم الإحصان قال الله تعالى: ﴿**فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب**﴾ فإن المراد بالمحصنات فيه الحرائر فالرقيق ليس محصناً بهذا المعنى وكونه محصناً بمعنى آخر كالإسلام وغيره فيكون محصناً من وجه دون وجه وذلك شبهة في إحصانه فوجب درء الحد عن قاذفه فلا يحد حتى يكون محصناً بجميع المفهومات التي يطلق عليها لفظ الإحصان إلا ما أجمع على عدم اعتباره في تحقق الإحصان وهو كون المقذوفة زوجة أو كون المقذوف زوجاً فإنه جاء بمعناه في قوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء﴾ [النساء: ٢٤] أي المتزوجات ولا يعتبر في إحصان القذف بل في إحصان الرجم، ثم لا شك في أن الإحصان أطلق بمعنى الحرية كما سمعت وبمعنى الإسلام في قوله عز وجل: ﴿فإذا أحصن﴾ [النساء: ٢٥] قال ابن مسعود: أسلمن وهذا يكفي في إثبات اعتبار الإسلام في الإحصان، وعن داود عدم اشتراط الحرية وأنه يحد قاذف العبد؛ وأما اعتبار العقل والبلوغ ففيه إجماع إلا ما روي عن أحمد عليه الرحمة من أن الصبي الذي يجامع مثله محصن فيحد قاذفه، والأصح عنه موافقة الجماعة، وقول مالك في الصبية التي يجامع مثلها يحد قاذفها خصوصاً إذا كانت مراهقة فإن الحد لعلة إلحاق العار ومثلها يلحقه العار، وكذا قوله وقول الليث: إنه يحد قاذف المجنون لذلك؛ والجماعة يمنعون كون الصبي والمجنون يلحقهما العار بنسبتهما إلى الزنا بل ربما يضحك من ناسبهما إليه إما لعدم صحة قصده منهما وإما لعدم مخاطبتهما بالمحرمات وما أشبه ذلك، ولو فرضنا لحوق عار بالمراهق فليس ذلك على الكمال فيندرىء الحد، ومثل الصبي والمجنون في أنه ربما يضحك من نسبة الزنا إليهما الرتقاء والمجبوب بل هما أولى بذلك لعدم تصوره فيهما ولذا لا يحد بقذفهما، وإلا ما روي عن سعيد وابن أبي ليلى من أنه يحد بقذف الذمية إذا كان لها ولد مسلم، وكذا ما قيل: إنه يحد بقذفها إذا كانت تحت مسلم، ثم إن الإسلام والحرية إذا لم يكونا موجودين وقت الزنا المقذوف به بل كانا موجودين وقت القذف لا يفيدان شيئاً فلو قذف امرأة مسلمة زنت في نصرانيتها أو رجلاً مسلماً زنى في نصرانيته وقال: زنيت وأنت كافرة أو زنيت وأنت كافر أو قذف معتقاً زنى وهو عبد أو معتقة زنت وهي أمة وقال: زنيت أو زنيت وأنت عبد أو أنت أمة لا يحد، وكذا المكاتب والمكاتبة والكافر الحربي إذا زنى في دار الحرب ثم أسلم، ويفهم من كلامهم أن البلوغ والعقل كالإسلام والحرية في ذلك، فقد صرحوا فيما إذا قال: زنيت وأنت صغيرة أو زنيت وأنت مجنون بأنه لا يحد، وكان المدار في درء الحد الصدق في كل ذلك، ومن هنا قال في المبسوط: إن الموطوءة إذا كانت مكرهة يسقط إحصانها ولا يحد قاذفها كما يسقط إحصان المكره الواطىء ولا يحد قاذفه لأن الإكراه يسقط الإثم ولا يخرج الفعل به من أن يكون زنى، لكن ذكر فيه أن من قذف زانياً لا حد عليه سواء قذفه بذلك الزنا بعينه أو بزنى آخر من جنسه أو أبهم في حالة القذف، ووجه أن الله تعالى أوجب الحد على من رمى المتصف بالإحصان وبالزنا لا يبقى إحصان فلا يثبت الحد خلافاً لإبراهيم وابن أبي ليلى، نعم إذا كان القذف بزنا تاب عنه المقذوف يعزر القاذف، وهذا يقتضي أنه لا يحتاج سقوط الحد في المسائل السابقة إلى التقييد فليتأمل، ولو تزوج مجوسي بأمه أو بنته ثم أسلم ففسخ النكاح فقذفه مسلم في حال إسلامه يحد عند أبي حنيفة عليه الرحمة بناء على ما يراه من أن أنكحة المجوس لها حكم الصحة.

وقال الإمامان: لا يحد بناء على أن ليس لها حكم الصحة وهو قول الأئمة الثلاثة، ولا يعلم خلاف بين من يعتبر الحرية في الإحصان في أنه لا حد على من قذف مكاتباً مات وترك وفاء لتمكن الشبهة في شرط الحد وهو الإحصان لاختلاف الصحابة رضي الله تعالى عنهم في أنه مات حراً أو عبداً وذلك يوجب درء الحد ولأنه يدرأ بالشبهة، لا يحد من قذف أخرس فإن هناك احتمال أن يصدقه لو نطق ولا يعول على إشارته هنا وإن قالوا: إنها تقوم مقام عبارته في بعض الأحكام لقيام الاحتمال فيها، واشترطوا أيضاً أن يوجد الإحصان وقت الحد حتى لو ارتد المقذوف سقط الحد ولو أسلم بعد، وكذا لو زنى أو وطىء وطأً حراماً أو صار معتوهاً أو أخرس وبقي ذلك لم يحد كما في كافي الحاكم، واشترطوا أيضاً أن لا يموت قبل أن يحد القاذف لأن الحد لا يورث، وأن لا يكون المقذوف ولد القاذف أو ولد ولده فلا يحد من قذف أحدهما إلى غير ذلك مما ستعلم بعضه إن شاء الله تعالى، ولم يصرح أكثر الفقهاء بشروط القاذف، ويفهم من كلامهم أنه يشترط فيه أن يكون ـ بالغا ـ فلا يحد الصبي إذا قذف ويعزر ـ عاقلاً ـ فلا يحد المجنون ولا لسكران إلا إذا سكر بمحرم ـ ناطقاً ـ فلا يحد الأخرس لعدم التصريح بالزنا، وصرح بهذا ابن الشلبي عن النهاية ـ طائعاً ـ فلا يحد المكره ـ قاذفاً ـ في دار العدل. فلا يحد القاذف في دار الحرب أو البغي، وفي الآية إشارة إلى بعض ذلك، ويحتمل أن يعد من الشروط كونه عالماً بالحرمة حقيقة أو حكماً بأن يكون ناشئاً في دار الإسلام، لكن في كافي الحاكم حربي دخل دار الإسلام بأمان فقذف مسلماً يحد في قوله الأخير وهو قول صاحبيه، وظاهره أنه يحد ولو كان قذفه في فور دخوله، ولعل وجهه أن الزنا حرام في كل ملة فيحرم القذف به أيضاً فلا يصدق بالجهل، ويشترط أن يكون القذف بصريح الزنا بأي لسان كان كما صرح به جمع من الفقهاء وألحقوا به بعض ألفاظ ثبت الحد بها بالأثر والإجماع فيحد بقوله: زنيت أو زاني بياء ساكنة وكذا يا زانىء بهمزة مضمومة عند أبي حنيفة وأبي يوسف خلافاً لمحمد فلا يحد بذلك عنده لأنه حقيقة عنده في الصعود. وتعقب بأن ذلك إنما يفهم منه إذا ذكر مقروناً بمحل الصعود، على أنه ينبغي أن يكون المذهب أنه لو قيل مع ذكر محل الصعود في حالة الغضب والسباب يكون قذفاً، فقد جزم في المبسوط بالحد فيما إذا قال: زنأت في الجبل أو على الجبل في حالة الغضب ولو قال لامرأة: يا زاني حد اتفاقاً، وعلله في الجوهرة بأن الأصل في الكلام التذكير، ولو قال للرجل: يا زانية لا يحد عند الإمام وأبي يوسف لأنه أحال كلامه فوصف الرجل بصفة المرأة، وقال محمد: يحد لأن الهاء تدخل للمبالغة كما في علامة، وأجيب بأن كونها للمبالغة مجاز بل هي لما عهد لها من التأنيث ولو كانت في ذلك حقيقة فالحد لا يجب للشك، ويحد بقوله: أنت أزنى من فلان أو مني على ما في الظهيرية وهو الظاهر، لكن في الفتح عن المبسوط أنه لا حد في أنت أزنى من فلان أو أزنى الناس، وعلله في الجوهرة بأن معناه أنت أقدر على الزنا، وفي الفتح بأن أفعل في مثله يستعمل للترجيح في العلم فكأنه قال: أنت أعلم بالزنا، ولا يخفى أن قصد ذلك في حالة السباب بعيد، وفي الخانية في أنت أزنى الناس أو أزنى من فلان الحد، وفي أنت أزنى مني لا حد، ولا يخفى أن التفرقة غير ظاهرة، وقد يقال: إن قوله: أنت أزنى من فلان فيه نسبة فلان إلى الزنا وتشريك المخاطب معه في ذلك بخلاف أنت أزنى مني لأن فيه نسبة نفسه إلى الزنا وذلك غير قذف فلا يكون قذفاً للمخاطب لأنه تشريك له فيما ليس بقذف، ويحد بلست لأبيك لما فيه من نسبة الزنا إلى الأم ولما جاء في الأثر عن ابن مسعود لا حد إلا في قذف محصنة أو نفي رجل من أبيه، وقيد بكونه في حالة الغضب إذ هو في حالة الرضا يراد به المعاتبة بنفي مشابهته له، وذكر أن مقتضى القياس أن لا حد به مطلقاً لجواز أن ينفى النسب من أبيه من غير أن تكون الأم زانية من كل وجه بأن تكون موطوءة بشبهة ولدت في عدة الواطىء لكن ترك ذلك للأثر، ولا حد بالتعريض كأن يقول ما أنا بزان أو ليست أمي زانية وبه قال الشافعي وسفيان الثوري وابن شبرمة والحسن بن صالح وهو الرواية المشهورة عن أحمد، وقال مالك وهو رواية عن أحمد: يحد

بالتعريض لما روى الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: كان عمر رضي الله تعالى عنه يضرب الحد بالتعريض، وعن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه جلد رجلاً بالتعريض، ولأنه إذا عرف المراد بدليله من القرينة صار كالصريح، وللجماعة أن الشارع لم يعتبر مثله فإنه حرم صريح خطبة المتوفى عنها زوجها في العدة وأباح التعريض فقال سبحانه: ﴿ولا تواعدوهن سراً﴾ [البقرة: ٢٣٥] وقال تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم﴾ [البقرة: ٢٣٥] فإذا ثبت من الشرع عدم اتحاد حكمهما في غير الحد لم يجز أن يعتبر مثله على وجه يوجب الحد المحتاط في درئه، وهو أولى من الاستدلال بأنه ﷺ لم يلزم الحد للذي قال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسود يعرض بنفسه لأن إلزام حد القذف متوقف على الدعوى والمرأة لم تدع ذلك، ولا حد بوطئك فلان وطأً حراماً أو جامعك حراماً أو فجرت بفلانة أو يا حرام زاده أو اذهب فقل لفلان: إنك زان فذهب الرسول فقال له ذلك عنه بأن قال: فلان يقول إنك زان لا إذا قال له: إنك زان فإنه يحد الرسول حينئذ، واستيفاء ما فيه حد وما لا حد فيه في كتب الفقه، وقولنا في كذا حد على إرادة إذا تحقق الشرط المفهوم من قوله سبحانه: ﴿ثم لم يأتوا﴾ الخ، واشترط الإتيان بأربعة شهداء تشديداً على القاذف، ويشترط كونهم رجالاً لما صرحوا به من أنه لا مدخل لشهادة النساء في الحدود، وظاهر إتيان التاء في العدد مشعر باشتراط كونهم كذلك، ولا يشترط فيهم العدالة ليلزم من عدم الإتيان بأربعة شهداء عدول الجلد لما صرح به في الملتقط من أنه لو أتى بأربعة فساق فشهدوا أن الأمر كما قال درىء الحد عن القاذف والمقذوف والشهود، ووجه ذلك أن في الفاسق نوع قصور وإن كان من أهل الأداء والتحمل ولذا لو قضى بشهادته نفذ عندنا فيثبت بشهادتهم شبهة الزنا فيسقط الحد عنهم وعن القاذف وكذا عن المقذوف لاشتراط العدالة في الثبوت، ولو كانوا عمياناً أو عبيداً أو محدودين في قذف فإنهم يحدون للقذف دون المشهود عليه لعدم أهلية الشهادة فيهم كما قيل.

والظاهر أن القاذف يحد أيضاً لأن الشهود إذا حدوا مع أنهم إنما تكلموا على وجه الشهادة دون القذف فحد القاذف أولى، والظاهر أن المراد ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون على من رمي بأنه زنى، والمتبادر أن يكون ذلك عن معاينة لكن قال في الفتح: لو شهد رجلان أو رجل وامرأتان على إقرار المقذوف بالزنا يدرأ عن القاذف الحد وكذا عن الثلاثة أي الرجل والمرأتين لأن الثابت بالبينة كالثابت فكأنا سمعنا إقراره بالزنا انتهى.

وأنت تعلم أن البينة على الإقرار لا تعتبر بالنسبة إلى حد المقذوف لأنه إن كان منكراً فقد رجع بالإنكار عن الإقرار وهو موجب لدرء الحد فتلغو البينة، وإن أقر بشرطه لا تسمع فإنها إنما تسمع مع الإقرار في سبعة مواضع ليس هذا الموضع منها، ويشترط اجتماع شهود الزنا في مجلس الحاكم بأن يأتوا إليه مجتمعين أو فرادى ويجتمعوا فيه ويقوم منهم إلى الحاكم واحد بعد واحد فإن لم يأتوا كذلك بأن أتوا متفرقين أو اجتمعوا خارج مجلس الحاكم ودخلوا واحداً بعد واحد لم تعتبر شهادتهم وحدوا حد القذف.

والظاهر أنه يجوز أن يكون أحد الشهود زوج المقذوفة لاندراجه في ﴿أربعة شهداء﴾ وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وروي ذلك عن الحسن والشعبي وقال مالك والشافعي: يلاعن الزوج وتحد الثلاثة، وروي مثله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وظاهر الآية أنه إذا لم يأت القاذف بتمام العدة بأن أتى باثنين أو ثلاثة منها جلد وحده ولا يجلد الشاهد إلا أن المأثور جلده، فقد روي أنه شهد على المغيرة بالزنا شبل بن معبد البجلي وأبو بكرة وأخوه نافع وتوقف زياد فحد الثلاثة عمر رضي الله تعالى عنه بمحضر من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولم ينكروا عليه وهم هم وفي كلمة ﴿ثم﴾ إشعار بجواز تأخير الإتيان بالشهود كما أن في كلمة ﴿لم﴾ إشارة إلى تحقق العجز عن الإتيان بهم وتقرره.

وفي غير كتاب من كتب الفروع لأصحابنا أن القاذف إذا عجز عن الشهود للحال واستأجل لإحضارهم زاعماً أنهم في المصر يؤجل مقدار قيام الحاكم من مجلسه فإن عجز حد ولا يكفل ليذهب لطلبهم بل يحبس ويقال: ابعث إليهم من يحضرهم عند الإمام، وأبي يوسف في أحد قوليه لأن سبب وجوب الحد ظهر عند الحاكم فلا يكون له أن يؤخر الحد لتضرر المقذوف بتأخير دفع العار عنه والتأخير مقدار قيامه من المجلس قليل لا يتضرر به، وفي قول أبي يوسف الآخر وهو قول محمد يكفل أي بالنفس إلى ثلاثة أيام.

وكان أبو بكر الرازي يقول: مراد أبي حنيفة أن الحاكم لا يجبره على إعطاء الكفيل فأما إذا سمحت نفسه به فلا بأس لأن تسليم نفسه مستحق عليه والكفيل بالنفس إنما يطالب بهذا القدر، وذكر ابن رستم عن محمد أنه إذا لم يكن له من يأتي بالشهود يبعث معه الحاكم واحداً ليرده عليه، والأمر في قوله سبحانه: ﴿فاجلدوهم﴾ لولاة الأمر ونوابهم.

والظاهر وجوب الجلد إن لم يطالب المقذوف وبه قال ابن ليلى، وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي والشافعي: لا يحد إلا بمطالبته. وقال مالك: كذلك إلا أن يكون الإمام سمعه يقذفه فيحده إن كان مع الإمام شهود عدول وإن لم يطالب المقذوف كذا قال أبو حيان وللمقذوف المطالبة وإن كان آمراً للقاذف بقذفه لأن بالأمر لا يسقط الحد كما نقل الحصكفي ذلك عن شرح التكملة ثم لا يخفى أن القول بأن القاذف لا يحد إلا بمطالبة المقذوف ظاهر في أن الحد حق العبد ويشهد لذلك أحكام كثيرة ذكرها أصحابنا. منها أنه لا تبطل الشهادة على ما يوجبه بالتقادم، ومنها أنه لا يدفعه الرجوع عن الإقرار بموجبه. ومنها أنه يقام على المستأمن وإنما يؤاخذ المستأمن بما هو من حقوق العباد، ومنها أنه يقدم استيفاؤه على استيفاء حد الزنا وحد السرقة وشرب الخمر ومنها أنه يقيمه القاضي بعلمه إذا علمه في أيام قضائه ولذا لو قذف بحضرته يحده.

وعندنا أحكام تشهد بأنه حق الله عز وجل. منها أن استيفاءه إلى الإمام وهو إنّما يتعين نائباً في استيفاء حق الله تعالى وأما حق العبد فاستيفاؤه إليه. ومنها أنه لا يحلف القاذف إذا أنكر سببه وهو القذف ولم تقم عليه بينة. ومنها أنه لا ينقلب مالاً عند السقوط. ومنها أنه يتصف بالرق كسائر العقوبات الواجبة حقاً له عز وجل، وذكر ابن الهمام أنه لا خلاف في أن فيه حق الله تعالى وحق العبد إلا أن الشافعي مال إلى تغليب حق العبد باعتبار حاجته وغنى الحق سبحانه وتعالى ونحن صرنا إلى تغليب حق الله تعالى لأن ما للعبد من الحقوق يتولى استيفاءه مولاه فيصير حق العبد موجباً لتغليب حق الله تعالى لا مهدراً ولا كذلك عكسه أي لو غلب حق العبد لزم أن لا يستوفي حق الله عز وجل إلا بأن يجعل ولاية استيفائه إليه وذلك لا يجوز إلا بدليل ينصبه الشرع على إنابة العبد في الاستيفاء ولم يثبت ذلك بل الثابت هو استنابة الإمام حتى كان هو الذي يستوفيه كسائر الحدود التي هي حقه سبحانه وتعالى. ويتفرع على الخلاف أن من ثبت أنه قذف فمات قبل إقامة الحد على القاذف لا يورث عنه إقامة الحدّ عندنا إذ الإرث يجري في حقوق العباد بشرط كونها مالاً أو ما يتصل بالمال[1] أو ما ينقلب إليه[2] وتورث عنده، وأن الحد لا يسقط عندنا بعد ثبوته إلا أن يقول المقذوف: لم يقذفني أو كذب شهودي وحينئذ يظهر أن القذف لم يقع موجباً للحد لا أنه وقع ثم سقط بقوله ذلك وهو كما إذا صدقه المقذوف، وقال زين الدين: إن المقذوف إذا عفا لم يكن للإمام استيفاء الحد

(١) كالكفالة.

(٢) كالقصاص.

لعدم الطلب فإذا عاد وطلب يقيمه ويلغو العفو، وعند الشافعي يصح العفو وعن أبي يوسف مثله، وكأن المراد أنه إذا عفا سقط الحد ولا ينفع العود إلى المطالبة وأنه لا يجوز الاعتياض عنه عندنا وبه قال مالك، وعنده يجوز وهو قول أحمد وأنه يجري فيه التداخل عندنا لا عنده وبقولنا قال مالك والثوري والشعبي والنخعي والزهري وقتادة وطاوس وحماد وأحمد في رواية حتى إذا حد إلا سوطاً فقذف آخر فإنه يتم الأول ولا شيء للثاني.

وكذا إذا قذف واحداً مرات أو جماعة بكلمة مثل أنتم زناة أو بكلمات مثل أنت يا زيد زان وأنت يا عمرو زان وأنت يا بشر زان في يوم أو أيام يحد حداً واحداً إذا لم يتخلل حد بين القذفين.

ووافقنا الشافعي في الحد الواحد لقاذف جماعة بكلمة مرة واحدة، وفي الظهيرية من قذف إنساناً فحد ثم قذفه ثانياً لم يحد، والأصل فيه ما روي أن أبا بكرة لما شهد على المغيرة فحد لما سمعت كان يقول بعد ذلك في المحافل: أشهد إن المغيرة لزان فأراد عمر رضي الله تعالى عنه أن يحده ثانياً فمنعه علي كرم الله تعالى وجهه فرجع إلى قوله وصارت المسألة إجماعاً اهـ، والظاهر أن هذا فيما إذا قذفه ثانياً بالزنا الأول أو أطلق لحمل إطلاقه على الأول لأن المحدود بالقذف يكرر كلامه لإظهار صدقه فيما حد به كما فعل أبو بكرة فإنه لم يرد أن المغيرة لزان أنه زان غير الزنا الأول، أما إذا قذفه بعد الحد بزنا آخر فإنه يحد به كما في الفتح.

وذكر صدر الإسلام أبو اليسر في مبسوطه الصحيح أن الغالب في هذا الحد حق العبد كما قال الشافعي لأن أكثر الأحكام تدل عليه والمعقول يشهد له وهو أن العبد ينتفع به على الخصوص، وقد نص محمد في الأصل على أن حد القذف كالقصاص حق العبد، وتفويضه إلى الإمام لأن كل أحد لا يهتدي إلى إقامته ولأنه ربما يريد المقذوف موته لحنقه فيقع متلفاً، وإنما لا يورث لأنه مجرد حق ليس مالاً ولا بمنزلته فهو كخيار الشرط وحق الشفعة بخلاف القصاص فإنه ينقلب إلى المال، وأيضاً هو في معنى ملك العين لأن من له القصاص يملك إتلاف العين وملك الإتلاف ملك العين عند الناس فصار من عليه القصاص كالملك لمن له القصاص فيملكه الوارث في حق استيفاء القصاص، وإنما لا يصح عفوه لأنه متعنت فيه لأنه رضا بالعار والرضا بالعار عار ولا يخفى ما في ذلك من الأبحاث.

والشافعي يستدل بالآية لعدم التدخل فإن مقتضاها ترتب الحكم على الوصف المشعر بالعلية فيتكرر بتكرره ويجاب بأن الإجماع لما كان على دفع الحدود بالشبهات كان مقيداً لما اقتضته الآية من التكرر عند التكرر بالتكرر الواقع من بعد الحد الأول بل هذا ضروري لظهور أن المخاطبين بالإقامة في قوله تعالى: ﴿**فاجلدوهم**﴾ هم الحكام ولا يتعلق بهم هذا الخطاب إلا بعد الثبوت عندهم فكان حاصل الآية إيجاب الحد إذا ثبت عندهم السبب وهو الرمي وهو أعم من كونه بوصف الكثرة أو القلة فإذا ثبت وقوعه منه كثيراً كان موجباً للجلد ثمانين ليس غير فإذا جلد ذلك وقع الامتثال، ثم هو عليه الرحمة ترك مقتضى التكرر بالتكرر فيما إذا قذف واحداً مرة ثم قذفه ثانياً بذلك الزنا فإنه لا يحد مرتين عنده أيضاً، وكذا في حد الزنا والشرب فإنه إذا زنى ألف مرة أو شرب كذلك لا يحد إلا مرة، فالحق أن استدلاله بالآية لا يخلص فإنه ملجىء إلى ترك منها من آية أخرى وهي آية حد الزنا فيعود إلى أن هذا حق آدمي بخلاف الزنا فكان المبني هو إثبات أنه حق الله عز وجل أو حق العبد، والنظر الدقيق يقتضي أن الغالب فيه حق الله سبحانه وتعالى فتدبر.

ثم الظاهر أن الرمي المراد في الآية لا يتوقف على حضور المرمي وخطابه فقذف المحصن حاضراً أو غائباً له الحكم المذكور كما في التتار خانية نقلاً عن المضمرات واعتمده في الدرر، ويدل على أن الغيبة كالحضور حده ﷺ أهل الإفك مع أنه لم يشافه أحد منهم به من نزهها الله تعالى عنه، فما في حاوي الزاهدي سمع من أناس كثيرة أن

فلاناً يزني بفلانة فتكلم بما سمعه منهم مع آخر في غيبة فلان لا يجب حد القذف لأنه غيبة لا رمي وقذف بالزنا لأن الرمي والقذف به إنما يكون بالخطاب كقوله: يا زاني يا زانية ضعيف لايعول عليه.

والظاهر أيضاً أنه لا فرق بين رمي الحي ورمي الميت فإذا قال: أبوك زان أو أمك زانية كان قاذفاً ويحد عند تحقق الشرط لا لو قال: جدك زان فإنه لا حد عليه لما في الظهيرية من أنه لا يدري أي جد هو، وفي الفتح لأن في أجداده من هو كافر فلا يكون قاذفاً ما لم يعين محصناً. ويطالب بحد القذف للميت من يقع القدح في نسبه بالقذف وهو الوالد وإن علا والولد وإن سفل، ولا يطالبان عن غائب خلافاً لابن أبي ليلى لعدم اليأس عن مطالبته ولأنه يجوز أن يصدق القاذف، وولد البنت كولد الابن في هذا الفصل خلافاً لما روي عن محمد، وتثبت المطالبة للمحروم عن الميراث بقتل أو رق أو كفر، نعم ليس للعبد أن يطالب مولاه بقذف أمه الحرة التي قذفها في حال موتها، وعند زفر إذا كان الولد عبداً أو كافراً لا حق له فيها مطلقاً، وتثبت للأبعد مع وجود الأقرب فيطالب ولد الولد مع وجود الولد خلافاً لزفر ولو عفا بعضهم كان لغيره المطالبة لأنها لدفع العار عن نفسه، والأم كالأب تطالب بحد قذف ولدها لا أم الأم وأبوها، ولا يطالب الابن أباه وجده وإن علا بقذف أمه وهو قول الشافعي وأحمد ورواية عن مالك، والمشهور عنه أن للابن أن يطالب الأب بقذف الأم فيقيم عليه الحد وهو قول أبي ثور وابن المنذر لعموم الآية أو إطلاقها ولأنه حد هو حق الله عز وجل ولا يمنع من إقامته قرابة الولاد.

وأجيب بأن عموم قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] مانع من إقامة الولد الحد على أبيه ولا فائدة للمطالبة سوى ذلك والمانع مقدم وقد صح أنه ﷺ قال: «لا يقاد الوالد بولده ولا السيد بعبده» وأجمعوا على أنه لا يقتص منه بقتل ولده ولا شك أن إهدار جنايته على نفس الولد توجب إهدارها في عرضه بطريق الأولى مع أن القصاص متيقن سببه والمغلب فيه حق العبد بخلاف حد القذف فيهما، ولا حق لأخي الميت وعمه وعمته وخاله وخالته في المطالبة بحد قذفه.

وعند الشافعي ومالك عليهما الرحمة تثبت المطالبة لكل وارث وهو رواية غريبة عن محمد، وللشافعية فيمن يرثه ثلاثة أوجه، الأول جميع الورثة. والثاني غير الوارث بالزوجية. والثالث ذكور العصبات لا غير. والظاهر أن مطالبة من له المطالبة بالحد غير واجبة عليه بل في التتار خانية وحسن أن لا يرفع القاذف إلى القاضي ولا يطالب بالحد وحسن من الإمام أن يقول للمطالب أعرض عنه ودعه اهـ.

وكأنه لا فرق في هذا بين أن يعلم الطالب صدق القاذف وأن يعلم كذبه وما نقل في القنية من أن المقذوف إذا كان غير عفيف في السر له مطالبة القاذف ديانة فيه نظر لا يخفى، وظاهر الآية أنه لا فرق بين أن يكون الرامي حراً وأن يكون عبداً فيجلد كل منهما إذا قذف وتحقق الشرط ثمانين جلدة، وبذلك قال عبد الله بن مسعود والأوزاعي وجمهور الأئمة على أن العبد ينصف له الحد لما علمت أول السورة وإذا أريد إقامة الحد على القاذف لا يجرد من ثيابه إلا في قول مالك لأن سببه هو النسبة إلى الزنا كذباً غير مقطوع به لجواز كونه صادقاً غير أنه عاجز عن البيان.

نعم ينزع عنه الفرو والثوب المحشو لأنهما يمنعان من وصول الألم إليه كذا في عامة الكتب، ومقتضاه أنه لو كان عليه ثوب ذو بطانة غير محشو لا ينزع، والظاهر كما في الفتح أنه لو كان هذا الثوب فوق قميص نزع لأنه يصير مع القميص كالمحشو أو قريباً من ذلك ويمنع إيصال الألم وكيف لا والضرب هنا أخف من ضرب الزنا، هذا وقرأ أبو

زرعة وعبد الله بن مسلم «بأربعةٍ» بالتنوين فشهداء بدل أو صفة، وقيل حال أو تمييز وليس بذاك، وهي قراءة فصيحة ورجحها ابن جني على قراءة الجمهور بناء على إطلاق قولهم: إنه إذا اجتمع اسم العدد والصفة كان الإتباع أجود من الإضافة.

وتعقب بأن ذاك إذا لم تجر الصفة مجرى الأسماء في مباشرتها العوامل وأما إذا جرت ذلك المجرى فحكمها حكمها في العدد وغيره غاية ما في الباب أنه يجوز فيها الإبدال بعد العدد نظراً إلى أنها غير متمحضة الاسمية و ﴿شهداء﴾ من ذلك القبيل . فأربعة شهداء . بالإضافة أفصح من «أربعة شهداء» بالتنوين والاتباع. وقال ابن عطية: وسيبويه يرى أن تنوين العدد وترك إضافته إنما يجوز في الشعر انتهى، وكأنه أراد الطعن في هذه القراءة على هذا القول، وفيه أن سيبويه إنما يرى ذلك في العدد الذي بعده اسم نحو ثلاثة رجال دون الذي بعده صفة فإنه على التفصيل الذي ذكر كما قال أبو حيان.

وقوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ أي مدة حياتهم كما هو الظاهر عطف على ﴿اجلدوا﴾ داخل في حكمه تتمة له كأنه قيل: فاجلدوهم وردوا شهادتهم أي فاجمعوا لهم الجلد والرد، ورد شهادتهم عند الإمام أبي حنيفة عليه الرحمة معلق باستيفاء الجلد فلو شهدوا قبل الجلد أو قبل تمام استيفائه قبلت شهادتهم، وقيل: ترد إذا ضربوا سوطاً، وقيل: ترد إذا أقيم عليهم الأكثر، ومن الغريب ما روى ابن الهمام عن مالك أنه مع قوله: إن للابن أن يطالب بحد والده إذا قذف أمه قال: إنه إذا حد الأب سقطت عدالة الابن لمباشرته سبب عقوبة أبيه أي وكذا عدالة الأب وهذا ظاهر، وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كلام مستأنف مبين لسوء حالهم في حكم الله عز وجل، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الشر والفساد أي أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون فيه كأنهم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم لا غيرهم من الفسقة، ويعلم مما أشرنا إليه أنهم فسقة عند الشرع الحاكم بالظاهر لا أنهم كذلك في نفس الأمر وعند الله عز وجل العالم بالسرائر لاحتمال صدقهم مع عجزهم عن الإتيان بالشهداء كما لا يخفى، وصرح بهذا بعض المفسرين.

وجوز أن يكون المراد الإخبار عن فسقهم عند الله تعالى وفي علمه، ووجهه إذا كانوا كاذبين ظاهر، وأما وجهه إذا كانوا صادقين فهو أنهم هتكوا ستر المؤمنين وأوقعوا السامع في الشك من غير مصلحة دينية بذلك والعرض مما أمر الله تعالى بصونه إذا لم يتعلق بهتكه مصلحة فكانوا فسقة غير ممتثلين أمره عز وجل، ولا يخفى حسن حمل الآية على هذا المعنى وهو أوفق لما ذكره الحصكفي في شرح الملتقى نقلاً عن النجم الغزي من أن الرمي بالزنا من الكبائر وإن كان الرامي صادقاً ولا شهود له عليه ولو من الوالد لولده وإن لم يحد به بل يعزر ولو غير محصن؛ وشرط الفقهاء الإحصان إنما هو لوجوب الحد لا لكونه كبيرة، وقد روى الطبراني عن واثلة عن النبي ﷺ أنه قال: «من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار» وهذه مسألة مختلف فيها، ففي شرح جمع الجوامع للعلامة المحلي قال الحليمي: قذف الصغيرة والمملوكة والحرة المتهتكة من الصغائر لأن الإيذاء في قذفهن دونه الحرة الكبيرة المستترة، وقال ابن عبد السلام: قذف المحصن في خلوة بحيث لا يسمعه إلا الله تعالى والحفظة ليس بكبيرة موجبة للحد لانتفاء المفسدة أما قذف الرجل زوجته إذا أتت بولد يعلم أنه ليس منه فمباح، وكذا جرح الراوي والشاهد بالزنا إذا علم بل هو واجب انتهى، وظاهر ما نقل عن ابن عبد السلام ففي إيجاب الحد لا نفي كونه كبيرة أيضاً لشيوع توجه النفي إلى القيد في مثله، وإن قلنا: إنه هنا لنفي القيد والمقيد فهو ظاهر كما قال الزركشي فيما إذا كان صادقاً لا فيما إذا كان كاذباً لجرأته على الله تعالى جل شأنه فهو كبيرة وإن كان في الخلوة، ولعل ما ذكره من وجوب جرح الشاهد بالزنا

إذا علم مقيد بما إذا قدر على الإتيان بالشهود، والأولى عندي فيما إذا كان الضرر في قبول شهادته عليه يسيراً عدم الجرح بذلك وإن قدر على إثباته، وما ذكره في جرح الراوي لا يتم فيما أرى على رأي من يعتبر الجرح المجرد عن بيان السبب، ولا يبعد القول بأن الرمي منه ما هو كفر كرمي عائشة رضي الله تعالى عنها سواء كان جهراً أو سراً وسواء كان بخصوص الذي برأها الله تعالى منه أو بغيره وكذا رمي سائر أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن وكذا القول في مريم عليها السلام، ومنه ما هو كبيرة دون الكفر ومثاله ظاهر، ومنه ما هو صغيرة كرمي المملوكة والصغيرة، ومنه ما هو واجب كرمي شاهد على مسلم معصوم الدم بما يكون سبباً لقتله لو قبلت شهادته وعلم كونها زوراً وتعين ذلك لرد شهادته وصيانة ذلك المسلم من القتل ولو كان رميه مع إقامة البينة عليه بالزنا موجباً لرجمه، ومنه ما هو سنة كرمي ترتبت عليه مصلحة دون مصلحة الرمي الواجب، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي رجعوا عما قالوا وندموا على ما تكلموا استثناء من الفاسقين كما صرح به أكثر الأصحاب، وقال بعضهم: المستثنى منه في الحقيقة ﴿أولئك﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذلك، ومحل المستثنى النصب لأنه عن موجب، وقوله عز وجل: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ لتهويل المتوب عنه أي من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ على معنى وأصلحوا أعمالهم بالاستحلال ممن رموه. وهذا ظاهر إن كان قد بقي حياً فإن كان قد مات فلعل الاستغفار له يقوم مقام الاستحلال منه كما قيل في نظير المسألة. فإن كانوا قد رموا أمواتاً فالظاهر أنهم يستحلون ممن خاصمهم وطلب إقامة الحد عليهم، ويحتمل أن يغني عنه الاستغفار لمن رموه. والجمع بين الاستحلال من أولئك المخاصمين والاستغفار للمرميين أولى ولم أر من تعرض لذلك.

وكون الاستثناء من الجملة الأخيرة مذهب الحنفية فعندهم لا تقبل شهادة المحدود في قذف وإن تاب وأصلح لكن قالوا: إن حد الكافر ثم أسلم قبلت شهادته وإن لم تكن تقبل قبل على أهل الذمة، ووجهه أن النص موجب لرد شهادته الناشئة عن أهليته الثابتة له عند القذف ولذا قيل: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة﴾ دون ولا تقبلوا شهادتهم أي ولا تقبلوا منهم شهادة من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند الرمي و الشهادة التي كانت حاصلة للكافر عند الرمي هي الشهادة على أبناء جنسه فتدخل تحت الرد، وأما الشهادة التي اعتبرت بعد الإسلام فغير تلك الشهادة ولهذا قبلت على أهل الإسلام وغيرهم فلم تدخل تحت الرد، وهذا بخلاف العبد إذا حد في قذف ثم أعتق فإنه لا تقبل شهادته لأنه لم تكن له شهادة من قبل للرق فلزم كون تتميم حده بر شهادته التي تجددت له، وقد طلب الفرق بينه وبين من زنى في دار الحرب ثم خرج إلى دار الإسلام فإنه لا يحد حيث توقف حكم الموجب في العبد إلى أن أمكن ولم يتوقف في الزنا في دار الحرب إلى الإمكان بالخروج إلى دار الإسلام.

وأجيب بأن الزنا في دار الحرب لم يقع موجباً أصلاً لعدم قدرة الإمام فلم يكن الإمام مخاطباً بإقامته أصلاً لأن القدرة شرط التكليف فلو حد بعد خروجه من غير سبب آخر كان بلا موجب وغير الموجب لا ينقلب موجباً بنفسه خصوصاً في الحد المطلوب درؤه، وأما قذف العبد فموجب حال صدوره للحد غير أنه لم يكن تمامه في الحال فتوقف تتميمه على حدوث ذلك بعد العتق كذا قيل، وقال في المبسوط في الفرق بين الكافر إذا أسلم بعد الحد والعبد إذا أعتق بعده: إن الكافر استفاد بالإسلام عدالة لم تكن موجودة له عند إقامة الحد وهذه العدالة لم تكن مجروحة بخلاف العبد فإنه بالعتق لا يستفيد عدالة لم تكن من قبل وقد صارت عدالته مجروحة بإقامة الحد، ثم لا فرق في العبد بين أن يكون حد ثم أعتق وبين أن يكون أعتق ثم حد حيث لم تقبل شهادته في الصورتين، وأما الكافر فإنه لو قذف محصناً ثم أسلم ثم حد لا تقبل شهادته، ومقتضى الآية عدم قبول كل شهادة للمحدود حادثة كانت أو

قديمة لما أن ﴿شهادة﴾ نكرة وهي واقعة في حيز النهي فتفيد العموم كالنكرة الواقعة في حيز النفي، وهذا يعكر على ما مر من قبول شهادة الكافر المحدود إذا أسلم، وأجاب العلامة ابن الهمام بأن التكليف بما في الوسع وقد كلف الحكام برد شهادته فالامتثال إنما يتحقق برد شهادة قائمة فحيث ردت تحقق الامتثال وتم وقد حدثت أخرى فلو ردت كانت غير مقتضى إذ الموجب أخذ مقتضاه وللبحث فيه مجال، ومقتضى العموم أيضاً عدم قبول شهادة المحدود في الديانات غيرها وهي رواية المنتقى، وفي رواية أخرى أنها تقبل في الديانات وكأنهم اعتبروها رواية وخبراً لا شهادة ورب شخص ترد شهادته وتقبل روايته، وأورد على العموم أنهم اكتفوا في النكاح بشهادة المحدودين. وأجيب بأن الشهادة هناك بمعنى الحضور وإنما يكتفى به في انعقاد النكاح وقد صرحوا بأن للنكاح حكمين حكم الانعقاد وحكم الإظهار ولا يقبل في الثاني إلا شهادة من تقبل شهادته في سائر الأحكام كما في شرح الطحاوي والحاصل أن الآية تدل على وجوب رد شهادة المحدود على الحكام بمعنى أنه إذا شهد عندهم على حكم وجب عليهم رد شهادته ويندرج في ذلك شهادته في النكاح لأنه يشهد عندهم إذا وقع التجاحد فلا يعكر على العموم اعتبار حضوره مجلس النكاح في صحة انعقاده إذ ذلك أمر وراء ما نحن فيه كذا قيل فليتدبر، وذهب الشافعي إلى قبول شهادة المحدود إذا تاب، والمراد بتوبته أن يكذب نفسه في قذفه، ومبنى الخلاف على المشهور الخلاف فيما إذا جاء استثناء بعد جمل مقترنة بالواو هل ينصرف للجملة الأخيرة أو إلى الكل أو هناك تفصيل فالذي ذهب إليه أصحاب الشافعي انصرافه إلى الكل، والذي ذهب إليه أصحاب أبي حنيفة انصرافه للجملة الأخيرة، وقال القاضي عبد الجبار وأبو الحسين البصري وجماعة من المعتزلة إن كان الشروع في الجملة الثانية إضراباً عن الأولى ولا يضمر فيها شيء مما في الأولى فالاستثناء مختص بالجملة الأخيرة لأن الظاهر أنه لم ينتقل عن الجملة الأولى مع استقلالها بنفسها إلى غيرها إلا وقد تم مقصوده منها وذلك على أربعة أقسام، الأول أن تختلف الجملتان نوعاً كما لو قال: أكرم بني تميم والنحاة البصريون إلا البغاددة إذ الجملة الأولى أمر والثانية خبر، الثاني أن يتحدا نوعاً ويختلفا اسماً وحكماً كما لو قال: أكرم بني تميم واضرب ربيعة إلا الطوال إذ هما أمران، الثالث أن يتحدا نوعاً ويشتركا حكماً لا اسماً كما لو قال: سلم على بني تميم وسلم على بني ربيعة إلا الطوال، الرابع أن يتحدا نوعاً ويشتركا اسماً لا حكماً ولا يشترك الحكمان في غرض من الأغراض كما لو قال: سلم علي بني تميم واستأجر بني تميم إلا الطوال، وقوة اقتضاء اختصاص الاستثناء بالجملة الأخيرة في هذه الأقسام على هذا الترتيب وإن لم يكن الشروع في الجملة الثانية اضراباً عن الأولى بأن كان بين الجملتين نوع تعلق فالاستثناء ينصرف إلى الكل وذلك على أربعة أقسام، الأول أن يتحد الجملتان نوعاً واسماً لا حكماً غير أن الحكمين قد اشتركا في غرض واحد كما لو قال: أكرم بني تميم وسلم على بني تميم إلا الطوال لاشتراكهما في غرض الإعظام، الثاني أن يتحد الجملتان نوعاً ويختلفا حكماً واسم الأولى مضمر في الثانية كما لو قال: أكرم بني تميم واستأجرهم إلا الطوال، الثالث بعكس ما قبله كما لو قال: أكرم بني تميم وربيعة إلا الطوال، الرابع أن يختلف نوع الجمل إلا أنه قد أضمر في الأخيرة ما تقدم أو كان غرض الأحكام المختلفة فيها واحداً، وجعل آية الرمي التي نحن فيها من ذلك حيث قيل: إن جملها مختلفة النوع من حيث إن قوله تعالى: ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ أمر وقوله سبحانه: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا﴾ نهي وقوله جل وعلا: ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾ خبر وهي داخلة أيضاً تحت القسم الأول من هذه الأقسام الأربعة لاشتراك أحكام هذه الجمل في غرض الانتقام والإهانة وداخلة أيضاً تحت القسم الثاني من جهة إضمار الاسم المتقدم فيها، وذهب الشريف المرتضى من الشيعة إلى القول بالاشتراك وذهب القاضي أبو بكر والغزالي وجماعة إلى الوقف، وقال الآمدي: المختار أنه مهما ظهر كون الواو للابتداء فالاستثناء يكون مختصاً بالجملة الأخيرة كما في القسم الأول من الأقسام الثمانية لعدم تعلق إحدى

الجملتين بالأخرى وهو ظاهر وحيث أمكن أن تكون الواو للعطف أو للابتداء كما في باقي الأقسام السبعة فالواجب الوقف، وذكر حجج المذاهب بما لها وعليها في الأحكام، وفي التلويح وغيره أنه لا خلاف في جواز رجوع الاستثناء إلى كل وإنما الخلاف في الأظهر وفيه نظر فإن بعض حجج القائلين برجوعه إلى الجملة الأخيرة قد استدل بما يدل على عدم جواز رجوعه للجميع، قال القلانسي: إن نصب ما بعد الاستثناء في الإثبات إنما كان بالفعل المتقدم بإعانة إلا على ما ذهب إليه أكابر البصريين فلو قيل برجوعه إلى الجميع لكان ما بعد إلا منتصباً بالأفعال المقدرة في كل جملة ويلزم منه اجتماع عاملين على معمول واحد وذلك لا يجوز لأنه بتقدير مضادة أحدهما للآخر في العمل يلزم أن يكون المعمول الواحد مرفوعاً منصوباً معاً وهو محال ولأنه إن كان كل منهما مستقلاً في العمل لزم عدم استقلاله ضرورة أنه لا معنى لكون كل مستقلاً إلا أن الحكم ثبت به دون غيره وإن لم يكن كل منهما مستقلاً لزم خلاف المفروض، وإن كان المستقل البعض دون البعض لزم الترجيح بلا مرجح، ووجه دلالته وإن بحث فيه على عدم جواز رجوعه للجميع ظاهر وكما اختلف الأصوليون في ذلك اختلف النحاة فيه ففي شرح اللمع أنه يختص بالأخيرة وأن تعليقه بالجميع خطأ للزوم تعدد العامل في معمول واحد إلا على القول بأن العامل إلا أو تمام الكلام.

وقال أبو حيان: لم أر من تكلم على هذه المسألة من النحاة غير المهاباذي وابن مالك فاختار ابن مالك عود الاستثناء إلى الجمل كلها كالشرط، واختار المهاباذي عوده إلى الجملة الأخيرة، وقال الولي بن العراقي: لم يطلق ابن مالك عوده إلى الجمل كلها بل استثنى من ذلك ما إذا اختلف العامل والمعمول كقولك: اكس الفقراء وأطعم أبناء السبيل إلا من كان مبتدعاً فقال في هذه الصورة: إنه يعود إلى الأخيرة خاصة، ونقل عن أبي علي الفارسي القول برجوعه إلى الأخيرة مطلقاً وهذا كقول الحنفية في المشهور، والحق أنهم إنما يقولون برجوعه إلى الأخيرة فقط إذا تجرد الكلام عن دليل رجوعه إلى الكل أما إذا وجد الدليل عمل به وذلك كما في قوله تعالى في المحاربين: ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ فإن قوله تعالى: ﴿من قبل أن تقدروا عليهم﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤] يقتضي رجوعه إلى الكل فإنه لو عاد إلى الأخيرة أعني قوله سبحانه: **﴿ولهم عذاب عظيم﴾** لم يبق للتقييد بذلك فائدة للعلم لأن التوبة تسقط العذاب فليس فائدة «من قبل» الخ إلا سقوط الحد وعلى مثل ذلك ينبغي حمل قول الشافعية بأن يقال: إنهم أرادوا رجوع الاستثناء إلى الكل إذا لم يكن دليل يقتضي رجوعه إلى الأخيرة.

وذكر بعض أجلة المحققين أن الحنفية إنما قالوا برجوع الاستثناء إلى الجملة الأخيرة هنا لأن الجملتين الأوليين وردتا جزاء لأنهما أخرجتا بلفظ الطلب مخاطباً بهما الأئمة ولا يضر اختلافهما أمراً ونهياً والجملة الأخيرة مستأنفة بصيغة الإخبار دفعاً لتوهم استبعاد كون القذف سبباً لوجوب العقوبة التي تندرىء بالشبهة وهي قائمة هنا لأن القذف خبر يحتمل الصدق وربما يكون حسبة، ووجه الدفع أنهم فسقوا بهتك ستر العفة بلا فائدة حيث عجزوا عن الإثبات فلذا استحقوا العقوبة وحيث كانت مستأنفة توجه الاستثناء إليها.

ونقل عن الشافعي أنه جعل **﴿ولا تقبلوا﴾** استئنافاً منقطعاً عن الجملة السابقة وأبى أن يكون من تتمة الحد لأنه لا مناسبة بين الجلد وعدم قبول الشهادة وجعل الاستثناء مصروفاً إليه بجعل من تاب مستثنى من ضمير **﴿لهم﴾** ويكون قوله تعالى: **﴿وأولئك هم الفاسقون﴾** اعتراضاً جارياً مجرى التعليل لعدم قبول الشهادة غير منقطع عما قبله ولهذا جاز توسطه بين المستثنى والمستثنى منه ولا تعلق للاستثناء به، وآثر ذلك ابن الحاجب في أماليه حيث قال: إن الاستثناء لا يرجع إلى الكل أما الجلد فبالاتفاق، وأما قوله تعالى: **﴿وأولئك هم الفاسقون﴾** فلأنه إنما جيء به لتقرير

منع الشهادة فلم يبق إلا الجملة الثانية فيرجع إليها، وتعقب بأن استئناف ﴿**ولا تقبلوا**﴾ الخ في غاية البعد، والمراد من عدم قبول الشهادة ردها ومناسبته للجلد ظاهرة لأن كلاً منهما مؤلم زاجر عن ارتكاب جريمة الرمي وكم من شخص لا يتألم بالضرب كما يتألم برد شهادته، وربما يقال: إن رد الشهادة قطع للآلة الخائنة معنى وهي اللسان فيكون كقطع اليد حقيقة في السرقة، ومن أنصف رأى مناسبته للجلد أتم من مناسبة التغريب له لأن التغريب ربما يكون سبباً لزيادة الوقوع في الزنا لقلة من يراقب ويستحي منه في الغربة وقد تضطر المرأة إذا غربت إلى ما يسد رمقها فتسلم نفسها لتحصيل ذلك، وأيضاً الجلد فعل يلزم على الإمام فعله و الرد المراد من عدم القبول كذلك وقد خوطب بكلتا الجملتين الإنشائيتين لفظاً ومعنى الأئمة وبهذا يقوى أمر المناسبة.

واعترض الزيلعي على القول بأن جملة ﴿**وأولئك هم الفاسقون**﴾ تعليل لرد الشهادة فقال: لا جائز أن يكون رد شهادته لفسقه لأن الثابت بالنص في خبر الفاسق هو التوقف لقوله تعالى: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ [الحجرات: ٦] لا الرد وعلة الرد هنا ليست إلا أنه حد انتهى، وفيه نظر ولم يجعل الشافعي على هذا النقل الجملة المذكورة مع كونها جارية مجرى التعليل لما قبلها معطوفة عليه لما قال غير واحد من أن العطف بالواو يمنع قصد التعليل لرد الشهادة بسبب الفسق لأن العلة لا تعطف على الحكم بالواو بل إنما تذكر بالفاء، وكذا ينبغي أن لا تكون معطوفة على ما أشير إليه سابقاً من أنها علة لاستحقاق العقوبة إذ ذلك غير منطوق، وانتصر للشافعي عليه الرحمة فيما ذهب إليه من قبول شهادته إذا تاب بأنه إذا جعلت الجملة تعليلاً للرد يتم ذلك ولو سلم رجوع الاستثناء إلى الجملة الأخيرة من الجمل المتعاقبة بالواو وجوب زوال الحكم بزوال العلة، ولا أظنه يدفع إلا بالتزام أنها ليست للتعليل.

وقال بعضهم: لا انقطاع بين الجمل عند الشافعي ومقتضى أصله المشهور رجوع الاستثناء إلى الجميع فيلزم حينئذ سقوط الجلد بالتوبة لكنه لا يقول بذلك لأن تحقيق مذهبه أن الرجوع إلى الكل قد يعدل عنه وذلك عند قيام الدليل وظهور المانع والمانع هنا من رجوعه إلى الجملة الأولى على ما قيل الإجماع على عدم سقوط الجلد بالتوبة لما فيه من حق العبد، وأولى منه ما أومأ إليه القاضي البيضاوي من أن الاستسلام للجلد من تتمة التوبة فكيف يعود إليه، ولا يمكن أن يقال: إن عدم قبول الشهادة والتفسيق من تتمتها أيضاً كما لا يخفى، وقيل يجوز أن تخرج الآية على أصله المشهور، ولا مانع من رجوع الاستثناء إلى الجملة الأولى أيضاً لما أن المستثنى هو ﴿**الذين تابوا وأصلحوا**﴾ ومن جملة الإصلاح الاستحلال وطلب العفو من المقذوف وعند وقوع ذلك يسقط الجلد أيضاً، وفيه أن كون طلب العفو من الاصلاح غير نافع لأن الجلد لا يسقط بطلب العفو بل العفو وهو ليس من جملة هذا الإصلاح إذ العفو فعل المقذوف وهذا الإصلاح فعل القاذف فلم يصح صرف الاستثناء إلى الكل كما هو أصله المشهور.

وقال الزمخشري: الذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن يكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط، والمعنى من قذف فاجمعوا لهم بين الأجزئة الثلاثة إلا الذين تابوا منهم فيعودون غير مجلودين ولا مردودي الشهادة ولا مفسقين، قال في الكشف: وهذا جار على أصل الشافعي من أن الاستثناء يرجع إلى الكل وانضم إليه هاهنا أن الجمل دخلت في حيز الشرط فصرن كالمفردات، وتعقب القول بدخول قوله تعالى: ﴿**وأولئك هم الفاسقون**﴾ في حيز الجزاء بأن دليل عدم المشاركة في الشرط يقتضي عدم الدخول فإنه جملة خبرية غير مخاطب بها الأئمة لإفراد الكاف في ﴿**أولئك**﴾ فهو عطف على الجملة الاسمية أي الذين يرمون الخ أو مستأنف لحكاية حال الرامين عند الشرع، وأورد عليه أن عطف الخبر على الإنشاء وعكسه لاختلاف الأغراض شائعان في الكلام وأن إفراد كاف الخطاب مع

الإشارة جائز في خطاب الجماعة كقوله تعالى: ﴿ثم عفونا عنكم من بعد﴾ [البقرة: ٥٢] على أن التحقيق ﴿**إن الذين يرمون**﴾ منصوب بفعل محذوف أي اجلدوا الذين الخ فهو أيضاً جملة فعلية إنشائية مخاطب بها الأئمة فالمانع المذكور قائم هنا زيادة العدول عن الأقرب إلى الأبعد ولو سلم أن ﴿**الذين**﴾ مبتدأ فلا بد في الإنشائية الواقعة موقع الخبر من تأويل وصرف عن الإنشائية عند الأكثر وحينئذ يصح عطف ﴿**أولئك هم الفاسقون**﴾ عليه، وقال الزمخشري: معنى ﴿**أولئك هم الفاسقون**﴾ فسقوهم والإنصاف يحكم بعدم ظهور دخول الجملة الأخيرة في حيز الجزاء وجميع ما ذكروه إنما يفيد الصحة لا الظهور.

ولعل الظاهر أنها استئناف تذييلي لبيان سوء حال الرامين في حكم الله تعالى وحينئذ عود الاستئناف إليه ظاهر، لا يقال، إن ذلك ينفي الفائدة لأنه معلوم شرعاً أن التوبة تزيل الفسق من غير هذه الآية لأنا نقول: لا شبهة في أن العلم بذلك من طريق السمع وقد ذكر الدال عليه منه وكون آية أخرى تفيده لا يضر للقطع بأن طريق القرآن تكرار الدوال خصوصاً إذا كان التأكيد مطلوباً، هذا وإلى ما ذهب إليه أبو حنيفة من عدم قبول شهادة المحدود في القذف إذا تاب ذهب الحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وقد روى ذلك عن كل الجلال السيوطي في الدر المنثور وإلى ما ذهب إليه الشافعي من قبول شهادته ذهب مالك وأحمد، وروي ذلك عن عمر بن عبد العزيز وطاوس ومجاهد والشعبي والزهري ومحارب وشريح ومعاوية بن قرة وعكرمة وسعيد بن جبير على ما ذكره الطيبي وعد ابن جبير من القائلين كقول الشافعي يخالفه ما سمعت آنفاً، وعد ابن الهمام شريحاً ممن قال كقول أبي حنيفة وعن ابن عباس روايتان، وفي صحيح البخاري جلد عمر رضي الله عنه أبا بكرة وشبل بن معبد ونافعاً بقذف المغيرة ثم استتابهم، وقال من تاب قبلت شهادته، ومن تتبع تحقق أن أكثر الفقهاء قائلون كقول الشافعي عليه الرحمة ودعوى إجماع فقهاء التابعين عليه غير صحيحة كما لا يخفى والله تعالى أعلم، ووجه التعليل المستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ على القولين ظاهر لكن قيل إنه على قول أبي حنيفة أظهر وهو تعليل لما يفيده الاستثناء ولا محل من الإعراب، وجوز أبو البقاء كون ﴿**الذين**﴾ مبتدأ وهذه الجملة خبره والرابط محذوف أي لهم.

واختار الجمهور الاستئناف والاستثناء وهو على ما ذهب إليه أصحابنا منقطع، وبينه أبو زيد الدبوسي في التقويم بما حاصله أن المستثنى وإن دخل في الصدر لكن لم يقصد إخراجه من حكمه على ما هو معنى الاستثناء المتصل بل قصد إثبات حكم آخر له وهو أن التائب لا يبقى فاسقاً، وتعقبه العلامة الثاني بأنه إنما يتم إذا لم يكن معنى ﴿**هم الفاسقون**﴾ الثبات والدوام وإلا فلا تعذر للاتصال فلا وجه للانقطاع، وبينه فخر الإسلام بأن المستثنى غير داخل في صدر الكلام لأن التائب ليس بفاسق ضرورة إنه عبارة عمن قام به الفسق والتائب ليس كذلك لزوال الفسق بالتوبة، وهذا مبني على أنه يشترط في حقيقة اسم الفاعل بقاء معنى الفعل، وأما إذا لم يشترط ذلك فيتحقق التناول لكن لا يصح الإخراج لأن التائب ليس بمخرج ممن كان فاسقاً في الزمان الماضي.

واعترض بأن المستثنى منه على تقدير اتصال الاستثناء ليس هو الفاسقين بل الذين حكم عليهم بذلك وهم الذين يرمون المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وأولئك**﴾ ولا شك أن التائبين داخلون فيهم مخرجون عن حكمهم وهو الفسق كأنه قيل جميع القاذفين فاسقون إلا التائبين منهم كما يقال القوم منطلقون إلا زيداً استثناء متصلاً بناء على أن زيداً داخل في القوم مخرج عن حكم الانطلاق فيصح الاستثناء المتصل سواء جعل المستثنى منه بحسب اللفظ هو القوم أو الضمير المستتر في منطلقون بناء على أنه أقرب وأن عمل الصفة في المستثنى أظهر، وليس المراد أن المستثنى منه لفظاً هو لفظ القوم البتة وإذا جعل المستثنى منه ضمير منطلقون فمعنى الكلام إن زيداً داخل في الذوات المحكوم

عليهم بالإطلاق مخرج عن حكم الإنطلاق كما في قولنا: انطلق القوم إلا زيداً وكذا الكلام في الآية.

وأجيب بأن الفاسقين هاهنا إما أن يكون بمعنى الفاسق على قصد الدوام والثبات أو بمعنى من صدر عنه الفسق في الزمان الماضي أو من قام به الفسق في الجملة ماضياً كان أو حالاً فإن أريد الأول فالتائب ليس بفاسق ضرورة قضاء الشارع بأن التائب ليس بفاسق حقيقة، ومن شرط الاستثناء المتصل أن يكون الحكم متناولاً للمستثنى على تقدير السكوت عن الاستثناء وهذا مراد فخر الإسلام بعدم تناول الفاسقين للتائبين بخلاف منطلقون فإنه يدخل فيه زيد على تقدير عدم الاستثناء وإن أريد الثاني أو الثالث فلا صحة لإخراج التائب عن الفاسقين لأنه فاسق بمعنى صدور الفسق عنه في الجملة ضرورة أنه قاذف والقذف فسق.

ولا يخفى أن منع عدم دخول التائبين في الفاسقين بالمعنى الذي ذكرنا ومنع عدم صحة إخراجهم عنهم بالمعنى الآخر غير موجه وأن الاستدلال على دخولهم بأنه قد حكم بالفسق على ﴿**أولئك**﴾ المشار به إلى ﴿**الذين يرمون**﴾ وهو عام ليس بصحيح للإجماع القاطع على أنه لا فسق مع التوبة، وكفى به مخصصاً اهـ. وفيه أن الإجماع لا يكون مخصصاً فيما نحن فيه لكونه متراخياً عن النص ضرورة أنه لا إجماع إلا بعد زمان النبي ﷺ فالحكم بالفسق على ﴿**أولئك**﴾ المشار به إلى ﴿**الذين يرمون**﴾ وهو عام فيتم الاستدلال.

وأجيب عن هذا بأن المراد بالتخصيص قصر العام على بعض ما يتناوله اللفظ لا التخصيص المصطلح وهو كما ترى وفي قوله: ومن شرط الاستثناء المتصل الخ بحث يعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً، وقال العلامة: الظاهر كون الاستثناء متصلاً أي أولئك الذين يرمون محكوم عليهم بالفسق إلا التائبين منهم فإنه غير محكوم عليهم بالفسق لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وكأنه أراد أنهم غير محكوم عليهم بالفسق الدائم وهو المحكوم به عليهم في الصدر بقرينة الجملة الاسمية.

وذكر بعض الأفاضل في توجيه كونه متصلاً أن دخول المستثنى في المستثنى منه إنما يكون باعتبار تناول المستثنى منه وشموله إياه لا بحسب ثبوته له في الواقع كيف ولو ثبت الحكم له صح استثناؤه فهاهنا ﴿**الذين يرمون**﴾ شامل للتائبين منهم فلا يضر في صحة الاستثناء أنهم ليسوا بفاسقين وأن التوبة تنافي ثبوت الفسق كما إذا لم يدخل زيد في الانطلاق فإنه يصح استثناؤه باعتبار دخوله في القوم مثل انطلق القوم إلا زيداً.

والحاصل أنه يكفي في الاستثناء دخول المستثنى في حكم المستثنى منه بحسب دلالة اللفظ وإن لم يدخل فيه بحسب دليل خارج كما يقال: خلق الله تعالى كل شيء إلا ذاته سبحانه وصفاته العلى، قال العلامة: ويمكن الجواب عن هذا بأنه لا فائدة للاستثناء المتصل على هذا التقدير لأن خروج المستثنى من حكم المستثنى منه معلوم فيحمل على المنقطع المفيد لفائدة جديدة وهذا مراد فخر الإسلام بعدم دخول التائبين في صدر الكلام وبحث فيه بأن عدم التناول الشرعي مستفاد من الاستثناء المذكور في الآية والحديث أعني التائب من الذنب كمن لا ذنب له مبين له فلا وجه لمنع وجود الفائدة وبأن كون خروج المستثنى من حكم المستثنى منه معلوماً هنا غير معلوم لمكان الخلاف في اشتراط بقاء الفعل وبأن الفائدة الجديدة في المنقطع التي يعرى عنها المتصل غير ظاهرة، وقال أيضاً: لا يقال لم لا يجوز أن يكون المستثنى منه هو الفاسقون ويكون الاستثناء لإخراج التائبين منهم في الحكم الذي هو الحمل على أولئك القاذفين والإثبات له فإن الاستثناء كما يجوز من المحكوم به يجوز من غيره كما يقال: كرام أهل بلدتنا أغنياؤهم إلا زيداً بمعنى أن زيداً وإن كان غنياً لكنه خارج عن الحمل على الكرام لأنا نقول: فحينئذ يلزم أن يكون التائبون من الفاسقين ولا يكونوا من القاذفين والأمر بالعكس، وقد يقال: إن الاستثناء منقطع على معنى أنهم

فاسقون في جميع الأحوال إلا حال التوبة، ولا يخفى أنه يحتاج إلى تكليف في التقدير أي إلا حال توبة الذين الخ أو إلا توبة القاذفين أي وقت توبتهم على أن يجعل ﴿الذين﴾ حرفاً مصدرياً لا إسماً موصولاً وضمير ﴿تابوا﴾ عائداً على ﴿أولئك﴾ وبعد اللتيا والتي يكون الاستثناء مفرغاً متصلاً لا منقطعاً انتهى فتأمل.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ
أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا
وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور: ٦ ـ ٢٠] بيان لحكم الرامين لأزواجهم خاصة وهو ناسخ لعموم المحصنات وكانوا قبل نزول هذه الآية يفهمون من آية ﴿والذين يرمون﴾ الخ أن حكم [النور: ٤] من رمى الأجنبية وحكم من رمى زوجته سواء فقد أخرج أبو داود وجماعة عن ابن عباس قال: لما نزلت و ﴿الذين يرمون المحصنات﴾ [النور: ٤] الآية قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟ قالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً وما طلق امرأة فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته فقال: سعد والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من عند الله تعالى ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته قال: فما لبثوا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول إني جئت أهلي[1] عشاء فوجدت عندها رجلاً[2] فرأيت بعيني

(١) اسمها خولة بنت عاصم ا هـ منه.

(٢) هو شريك بن سحماء كما في صحيح البخاري ا هـ منه.

وسمعت بأذني فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت الأنصار فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام هلال بن أمية وتبطل شهادته في المسلمين فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله تعالى لي منها مخرجاً فقال: يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله تعالى يعلم إني لصادق فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوحي وكان إذا نزل عليه عليه الصلاة والسلام الوحي عرفوا ذلك في تربد جلده فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت ﴿**والذين يرمون أزواجهم**﴾ الآية فسري عن رسول الله ﷺ فقال أبشر يا هلال قد كنت أرجو ذلك من ربي، وقال عليه الصلاة والسلام أرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فقال: هلال والله يا رسول الله لقد صدقت عليها فقالت: كذب فقال: رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما» الحديث، ومنه وكذا من رواية أخرى ذكرها البخاري في صحيحه والترمذي: وابن ماجة يعلم أن قصة هلال سبب نزول الآية، وقيل: نزلت في عاصم بن عدي، وقيل: في عويمر بن نصر العجلاني؛ وفي صحيح البخاري ما يشهد له بل قال السهيلي إن هذا هو الصحيح ونسب غيره للخطأ، والمشهور كما في البحر أن نازلة هلال قبل نازلة عويمر، وأخرج أبو يعلى. وابن مردويه عن أنس أنه قال: لأول لعان كان في الإسلام ما وقع بين هلال بن أمية وزوجته، ونقل الخفاجي هنا عن السبكي إشكالاً وأنه قال: إنه إشكال صعب وارد على آية اللعان والسرقة والزنا وهو أن ما تضمن الشرط نص في العلية مع الفاء ومحتمل لها بدونها ولتنزيله منزلة الشرط يكون ما تضمنه من الحدث مستقبلاً لا ماضياً فلا ينسحب حكمه على ما قبله ولا يشمل ما قبله من سبب النزول، وتعقبه بأنه لا صعوبة فيه بل هو أسهل من شرب الماء البارد في حر الصيف لأن هذا وأمثاله معناه إن أردتم معرفة هذا الحكم فهوكذا فالمستقبل معرفة حكمه وتنفيذه وهو مستقبل في سبب النزول وغيره، والقرينة على أن المراد هذا أنها نزلت في أمر ماض أريد بين حكمه ولذا قالوا: دخول سبب النزول قطعي.

ولا حاجة إلى القول بأن الشرط قد يدخل على الماضي ولا أن ما تضمن الشرط لا يلزمه مساواته لصريحه من كل وجه ولا أن دخول ما ذكر بدلالة النص لفساده هنا انتهى، ثم إن المراد هنا نظير ما مر والذين يرمون بالزنا أزواجهم المدخول بهن وغير المدخول بهن وكذا المعتدات في طلاق رجعي ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ**﴾ أربعة يشهدون بما رموهن به من الزنا. وقرىء «تكن» بالتاء الفوقية وقراءة الجمهور أفصح ﴿**إِلاَّ أَنفُسُهُمْ**﴾ بدل من ﴿**شهداء**﴾ لأن الكلام غير موجب والمختار فيه الإبدال أو إلا بمعنى غير صفة لشهداء ظهر إعرابها على ما بعدها لكونها على صورة الحرف كما قالوا في أل الموصولة الداخلة على أسماء الفاعلين مثلاً، وفي جعلهم من جملة الشهداء إيذان كما قيل من أول الأمر بعدم إلغاء قولهم بالمرة ونظمه في سلك الشهادة وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم في قوله تعالى: ﴿**فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ**﴾ أي شهادة كل واحد منهم وهو مبتدأ وقوله سبحانه: ﴿**أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ**﴾ خبره أي فشهادتهم المشروعة أربع شهادات ﴿**بِاللَّهِ**﴾ متعلق بشهادات، وجوز بعضهم تعلقه بشهادة.

وتعقب بأنه يلزم حينئذ الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي وهو الخبر، وأنت تعلم أن في كون الخبر أجنبياً كلاماً وأن بعض النحويين أجاز الفصل مطلقاً وبعضهم أجازه فيما إذا كان المعمول ظرفاً كما هنا.

وقرأ الأكثر «أربَع» بالنصب على المصدرية والعامل فيه «شهادة» وهي خبر مبتدأ محذوف أي فالواجب شهادة أو مبتدأ خبره محذوف أي فعليهم شهادة أو فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله واجبة أو كافية، ولا خلاف في جواز تعلق الجار على هذه القراءة بكل من الشهادة والشهادات وإنما الخلاف في الأولى ﴿**إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ أي فيما

رماها به من الزنا، والأصل على أنه الخ فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنها باللام للتأكيد، ولا يختص التعليق بأفعال القلوب بل يكون فيما يجري مجراها ومنه الشهادة لإفادتها العلم، وجوز أن تكون الجملة جواباً للقسم بناء على أن الشهادة هنا بمعنى القسم حتى قال الراغب. إنه يفهم منها ذلك وإن لم يذكر ﴿بالله﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك ﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ أي والشهادة الخامسة للأربع المتقدمة أي الجاعلة لها خمساً بانضمامها اليهن، وإفرادها مع كونها شهادة أيضاً لاستقلالها بالفحوى ووكادتها في إفادتها ما يقصده بالشهادة من تحقيق الخبر وإظهار الصدق، وهي مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا ﴿وَيَدْرَؤُا﴾ أي يدفع ﴿عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي العذاب الدنيوي وهو الحبس عندنا والحد عند الشافعي، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق الكلام فيه ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ﴾ أي الزوج ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أربع شهادات﴾ وقوله تعالى: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ﴾ أي الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا بتقدير حرف الجر أي بأن غضب الخ، وجوز أن تكون ﴿أن﴾ وما بعدها بدلاً من ﴿الخامسة﴾ وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لما أنها مادة الفجور ولأن النساء كثيراً ما يستعملن اللعن فربما يتجرين على التفوه به لسقوط وقعه عن قلوبهن بخلاف غضبه جل جلاله.

وقرأ طلحة والحسن والأعمش وخالد بن اياس بنصب ﴿الخامسة﴾ في الموضعين وقد علمت وجه النصب في الثاني، وأما وجه النصب في الأول فهو عطف ﴿الخامسة﴾ على ﴿أربع شهادات﴾ على قراءة من نصب ﴿أربع﴾ وجعلها مفعولاً لفعل محذوف يدل عليه المعنى على قراءة من رفع ﴿أربع﴾ أي ويشهد الخامسة، والكلام في ﴿أن لعنة﴾ الخ كما سمعت في ﴿أن غضب﴾ الخ. وقرأ نافع ﴿أن لعنة﴾ بتخفيف ﴿أن﴾ ورفع ﴿لعنة﴾ و ﴿أن غضب﴾ بتخفيف أن وغضب فعل ماض والجلالة بعد مرفوعة، و ﴿أن﴾ في الموضعين مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن؛ ولم يؤت بأحد الفواصل بين قد والسين ولا بينها وبين الفعل في الموضع الثاني لكون الفعل في معنى الدعاء فما هناك نظير قوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار﴾ [النمل: ٨] فلا غرابة في هذه القراءة خلافاً لما يوهمه كلام ابن عطية.

وقرأ الحسن وأبو رجاء، وقتادة وعيسى وسلام وعمرو بن ميمون والأعرج ويعقوب بخلاف عنهما «أن لعنة» كقراءة نافع و «أن غضب» بتخفيف «أن» و «غضب» مصدر مرفوع، هذا ظاهر قوله تعالى: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ العموم والمذكور في كتب الأصحاب أنه يشترط في القاذف وزوجته التي قذفها أن يكون لهما أهلية أداء الشهادة على المسلم فلا يجري اللعان بين الكافرين والمملوكين ولا إذا كان أحدهما مملوكاً أو صبياً أو مجنوناً أو محدوداً في قذف، ويشترط في الزوجة كونها مع ذلك عفيفة عن الزنا وتهمته بأن لم توطأ حراماً لعينه ولو مرة بشبهة أو بنكاح فاسد ولم يكن لها ولد بلا أب معروف في بلد القذف، واشتراط هذا لأن اللعان قائم مقام حد القذف في حق الزوج كما يشير إليه ما قدمناه من الخبر لكن بالنسبة إلى كل زوجة على حدة لا مطلقاً ألا ترى أنه لو قذف بكلمة أو كلمات أربع وزوجات له بالزنا لا يجزيه لعان واحد لهن بل لا بد أن يلاعن كلاً منهن، ولو قذف أربع أجنبيات كذلك حد حداً واحداً بهن، فمتى لم تكن الزوجة ممن يحد قاذفها كما إذا لم تكن عفيفة لم يتحقق في قذفها ما يوجب الحد ليقام اللعان مقامه، وأما اشتراط كونهما ممن له أهلية أداء الشهادة فلأن اللعان شهادات مؤكدات بالأيمان عندنا خلافاً للشافعي فإنه عنده أيمان مؤكدة وهو الظاهر من قول مالك وأحمد فيقع ممن كان أهلاً لليمين وهو ممن يملك الطلاق فكل من يملكه فهو أهل اللعان عنده فيكون من كل زوج عاقل وإن كان كافراً أو عبداً.

واستدل على أن اللعان أيمان مؤكدة بقوله سبحانه: ﴿**فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله**﴾ وذلك أن قوله تعالى: ﴿**بالله**﴾ محكم في اليمين والشهادة محتملة لليمين ألا يرى أنه لو قال: أشهد ينوي به اليمين كان يميناً فيحمل المحتمل على المحكم لأن حمله على حقيقته متعذر لأن المعهود في الشرع عدم قبول شهادة الإنسان لنفسه بخلاف يمينه، وكذا المعهود شرعاً عدم تكرر الشهادة في موضع بخلاف اليمين فإن تكرره معهود في القسامة، ولأن الشهادة محلها الإثبات واليمين للنفي فلا يتصور تعلق حقيقتهما بأمر واحد فوجب العمل بحقيقة أحدهما ومجاز الآخر فليكن المجاز لفظ الشهادة لما سمعت من الموجبين.

واستدل أصحابنا على أنه شهادات مؤكدة بأيمان بالآية أيضاً لأن الحمل على الحقيقة يجب عند الإمكان وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم**﴾ أثبت أنهم شهداء لأن الاستثناء من النفي إثبات وجعل الشهداء مجازاً عن الحالفين يصير المعنى ولم يكن لهم حالفون إلا أنفسهم وهو غير مستقيم لأنه يفيد أنه إذا لم يكن للذين يرمون أزواجهم من يحلف لهم يحلفون لأنفسهم وهذا فرع تصور حلف الإنسان لغيره ولا وجود له أصلاً فلو كان معنى اليمين حقيقياً للفظ الشهادة كان هذا صارفاً عنه إلى مجازه كيف وهو مجازي لها ولو لم يكن هذا كان إمكان العمل بالحقيقة موجباً لعدم الحمل على اليمين فكيف وهذا صارف عن المجاز وما توهم كونه صارفاً مما ذكر غير لازم قوله قبول الشهادة لنفسه وتكرر الأداء لا عهد بهما قلنا: وكل من الحلف لغيره والحلف لإيجاب الحكم لا عهد به بل اليمين لرفع الحكم فإن جاز شرعية هذين الأمرين في محل بعينه ابتداء جاز أيضاً شرعية ذلك ابتداء بل هي أقرب لعقلية كون التعدد في ذلك أربعاً بدلاً عما عجز عنه من إقامة شهود الزنا وهم أربع وعدم قبول الشهادة له عند التهمة ولذا تثبت عند عدمها أعظم ثبوت قال الله عز وجل: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ [آل عمران: ١٨] فغير بعيد أن تشرع عند ضعفها بواسطة تأكيدها باليمين وإلزام اللعنة والغضب إن كان كاذباً مع عدم ترتب موجبها في حق كل من الشاهدين إذ موجب شهادة كل إقامة حد على الآخر وليس ذلك بثابت هنا بل الثابت عند الشهادتين هو الثابت بالأيمان وهو اندفاع موجب دعوى كل عن الآخر، وإنما قيل عندهما ولم يقل بهما لأن هذا الاندفاع ليس موجب الشهادتين بل هو موجب تعارضهما، وأما قوله: واليمين للنفي الخ فمحله ما إذا وقعت في إنكار دعوى مدع وإلا فقد يحلف على إخبار بأمر نفي أو إثبات وهنا كذلك فإنها على صدقه في الشهادة، والحق أنها على ما وقعت الشهادة به وهو كونه من الصادقين فيما رماها به كما إذا جمع أيماناً على أمر واحد يخبر به فإن هذا هو حقيقة كونها مؤكدة للشهادة إذ لو اختلف متعلقهما لم يكن أحدهما مؤكداً للآخر.

وأورد على اشتراط الأهلية لأداء الشهادة أنهم قالوا: إن اللعان يجري بين الأعميين والفاسقين مع أنه لا أهلية لهما لذلك. ودفع بأنهما من أهل الأداء إلا أنه لا يقبل للفسق ولعدم تمييز الأعمى بين المشهود له وعليه وهنا هو قادر على أن يفصل بين نفسه وزوجته فيكون أهلاً لهذه الشهادة دون غيرها، وروى ابن المبارك عن أبي حنيفة أن الأعمى لا يلاعن وعمم القهستاني الأهلية فقال: ولو بحكم القاضي والفاسق يصح القضاء بشهادته وكذا الأعمى على القول بصحتها فيما يثبت بالتسامع كالموت والنكاح والنسب وهذا بخلاف المحدود بالقذف فإنه لا يصح القضاء بشهادته، ولعل مراد ابن كمال باشا بقوله: لو قضى بشهادة المحدود بالقذف نفذ نفاذ الحكم بصحتها ممن يراها كشافعي على ما قيل وهو خلاف ظاهر كلامه كما لا يخفى على من رجع إليه، ويشترط كون القذف في دار الإسلام وكونه بصريح الزنا فلا لعان بالقذف باللواط عند الإمام وعندهما فيه لعان ولا لعان بالقذف كناية وتعريضاً والقذف بصريحه نحو أن يقال: أنت زانية أو يا زانية أو رأيتك تزنين، والمشهور عن مالك أن القذف بالأولين يوجب الحد

والذي يوجب اللعان القذف بالأخير وهو قول الليث وعثمان ويحيى بن سعيد، وضعف بأن الكل رمي بالزنا وهو السبب كما تدل عليه الآية فلا فرق، وبمنزلة القذف بالصريح نفي نسب ولدها منه أو من غيره.

وفي المحيط والمبتغى إذا نفى الولد فقال: ليس هذا بابني ولم يقذفها بالزنا لا لعان بينهما لأن النفي ليس بقذف لها بالزنا يقيناً لاحتمال أن يكون الولد من غيره بوطء شبهة وهو احتمال ساقط لا يلتفت إليه كما حققه زين في البحر، ويشترط في وجوب اللعان طلب الزوجة في مجلس القاضي كما في البدائع إذا كان القذف بصريح الزنا لأن اللعان حقها فإنه لدفع العار عنها وبذلك قالت الأئمة الثلاثة أيضاً، وإذا كان القذف بنفي الولد فيشترط طلب القاذف لأنه حقه أيضاً لاحتياجه إلى نفي من ليس ولده عنه ويجب عليه هذا النفي إذا تيقن أن الولد ليس منه لما في السكوت أو الإقرار من استلحاق نسب من ليس منه وهو حرام كنفي نسب من هو منه، فقد روى أبو داود والنسائي أنه عليه الصلاة والسلام قال حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله تعالى في شيء ولن يدخلها الله تعالى جنته وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله عز وجل عنه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين» وإن احتمل أن يكون الولد منه فلا يجب بل قد يباح وقد يكون خلاف الأولى بحسب قوة الاحتمال وضعفه، وقد يضعف الاحتمال إلى حد لا يباح معه النفي كأن أتت امرأته المعروفة بالعفاف بولد لا يشبهه فعن أبي هريرة «أن رجلاً قال للنبي ﷺ إن امرأتي ولدت غلاماً أسود فقال: هل لك من إبل؟ قال: نعم قال ما ألوانها؟ قال: حمر قال: فهل فيها أورق؟ قال: نعم قال: فكيف ذلك؟ قال: نزعه عرق قال: فلعل هذا نزعه عرق» وذكروا فيما إذا كانت متهمة برجل فأتت بولد يشبهه وجهين إباحة النفي وعدمها، وأما القذف بصريح الزنا فمع التحقق يباح ويجوز أن يستر عليها ويمسكها لظاهر ما روي من «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن امرأتي لا ترد يد لامس قال طلقها قال: إني أحبها قال فأمسكها» وفيه احتمال آخر ذكره شراح الحديث مع عدم التحقق لا يباح ذلك، والأفضل للزوجة أن لا تطالب باللعان وتستر الأمر وللحاكم أن يأمرها وإذا طلبت وقد أقر الزوج بقذفها أو ثبت بالبينة وهي رجلان لا رجل وامرأتان إذ لا شهادة للنساء في الحدود، وما في النهر والدر المنتقى من جواز ذلك سبق قلم لاعن إن كان مصراً وعجز عن البينة على زناها أو على إقرارها به أو على تصديقها له أو أقام البينة على ذلك ثم عمي الشاهدان أو فسقا أو ارتدا وهذا بخلاف ما إذا ماتا أو غابا بعدما عدلا فإنه حينئذ لا يقضى باللعان فإن امتنع حد حد القذف وكذا إذا لاعن فامتنعت تحد عنده حد الزنا وعندنا تحبس حتى تلاعن أو تصدقه فيرتفع سبب وجوب لعانهما وهو التكاذب على ماقيل، والأوجه كون السبب القذف والتكاذب شرطه: وكما لا لعان مع التصديق إذا كان بلفظ صدقت لا حد عليها ولو أعادت ذلك أربع مرات في مجالس متفرقة لأن التصديق المذكور ليس بإقرار قصداً وبالذات فلا يعتبر في وجوب الحد بل في درئه فيندفع به اللعان ولا يجب به الحد وكذا يندفع بذلك كما في كافي الحاكم الحد عن قاذفها بعد ولو صدقته في نفي الولد فلا حد ولا لعان أيضاً وهو ولدهما لأن النسب إنما ينقطع بحكم اللعان ولم يوجد وهو حق الولد فلا يصدقان في إبطاله وما في شرحي الوقاية والنقاية من أنها إذا صدقته ينتفي غير صحيح كما نبه عليه في شرح الدرر والغرر.

ووجه قول الشافعي بالحد عند الامتناع أن الواجب بالقذف مطلقاً الحد لعموم قوله سبحانه: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ إلخ إلا أنه يتمكن من دفعه فيما إذا كانت المقذوفة زوجة باللعان تخفيفاً عليه فإذا لم يدفعه به يحد وكذا المرأة تلاعن بعدما أوجب الزوج عليها اللعان بلعانه فإذا امتنعت حدت للزنا ويشير إليه قوله سبحانه وتعالى: **﴿ويدرأ عنها العذاب﴾** ووجه قولنا إن قوله تعالى: **﴿والذين يرمون أزواجهم﴾** إلى قوله تعالى: **﴿فشهادة أحدهم﴾**

إلخ يفهم منه كيفما كانت القراءة أن الواجب في قذف الزوجات اللعان ولا ينكر ذلك إلا مكابر فإما أن يكون ناسخاً أو مخصصاً لعموم ذلك العام والظاهر عندنا كونه ناسخاً لتراخي نزوله كما تشهد له الأخبار الصحيحة والمخصص لا يكون متراخي النزول وعلى التقديرين يلزم كون الحكم الثابت في قذف الزوجات إنما هو ما تضمنته الآية من اللعان حال قيام الزوجية كما هو الظاهر فلا يجب غيره عند الامتناع عن إيفائه بل يحبس لإيفائه كما في كل حق امتنع من هو عليه عن إيفائه ولم يتعين كون المراد من العذاب في الآية الحد لجواز كونه الحبس وإذا قام الدليل على أن اللعان هو الواجب وجب حمله عليه.

قيل: والعجب من الشافعي عليه الرحمة لا يقبل شهادة الزوج عليها بالزنا مع ثلاثة عدول ثم يوجب الحد عليها بقوله وحده وإن كان عبداً فاسقاً، وأعجب منه أن اللعان يمين عنده وهو لا يصلح لإيجاب المال ولا لإسقاطه بعد الوجوب وأسقط به كل من الرجل والمرأة الحد عن نفسه وأوجب به الرجم الذي هو أغلظ الحدود على المرأة، فإن قال: إنما يوجب عليها لنكولها بامتناعها عن اللعان قلنا: هو أيضاً من ذلك العجب فإن كون النكول إقراراً فيه شبهة والحد مما يندفع بها مع أنه غاية ما يكون بمنزلة إقراره مرة، ثم إن هذه الشبهة أثرت عنده في منع إيجاب المال مع أنه يثبت مع الشبهة فكيف يوجب الرجم به وهو أغلظ الحدود وأصعبها إثباتاً وأكثرها شروطاً انتهى، وليراجع في ذلك كتب الشافعية. وفي النهر نقلاً عن الأسبيجابي أنهما يحبسان إذا امتنعا عن اللعان بعد الثبوت، ثم قال: وينبغي حمله على ماذا لم تعف المرأة كما في البحر، وعندي في حبسها بعد امتناعه نوع إشكال لأن اللعان لا يجب عليها إلا بعد لعانه فقبله ليس امتناعاً لحق وجب عليها انتهى.

وأجاب الطحاوي بأنه بعد الترافع منهما صار إمضاء اللعان حق الشرع فإذا لم تعف وأظهرت الامتناع تحبس بخلاف ما إذا أبى هو فقط فلا تحبس انتهى.

وقيل: ليس المراد امتناعهما في آن واحد بل المراد امتناعه بعد المطالبة به وامتناعها بعد لعانه فتأمل.

والمتبادر من الشهادة ما كان قولاً حقيقة، ولذا قالوا: لا لعان لو كانا أخرسين أو أحدهما لفقد الركن وهو لفظ أشهد، وعلل أيضاً بأن هناك شبهة احتمال تصديق أحدهما للآخر لو كان ناطقاً والحد يدرأ بالشبهة وكتابة الأخرس في هذا الفصل كإشارته لا يعول عليها، وذكروا لو طرأ الخرس بعد اللعان قبل التفريق فلا تفريق ولا حد، ويشعر ظاهر الآية بتقديم لعان الزوج وهو المأثور في السنة فلو بدأ القاضي بأمرها فلاعنت قبله فقد أخطأ السنة ولا يجب كما في الغاية أن تعيد لعانها بعد وبه قال مالك.

وفي البدائع ينبغي أن تعيد لأن اللعان شهادة المرأة وشهادتها تقدح في شهادة الزوج فلا تصح إلا بعد وجود شهادته ولهذا يبدأ بشهادة المدعي في باب الدعوى ثم بشهادة المدعى عليه بطريق الدفع له، ونقل ذلك عن الشافعي وأحمد عليهما الرحمة وأشهب من المالكية، والوجه ما تقدم فقد أعقب في الآية الرمي بشهادة أحدهم وشهادتها الدارئة عنها العذاب فيكون هذا المجموع بعد الرمي، وليس في الآية ما يدل على الترتيب بين أجزاء المجموع، وهذا نظير ما قرره بعض أجلّة الأصحاب في قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾ [المائدة: ٦] الآية في بيان أنه لا يدل على فرضية الترتيب كما يقوله الشافعية، وظاهر الآية أنه لا يجب في لعانه أن يأتي بضمير المخاطبة ولا في لعانها أن تأتي بضمير المخاطب، ففي الهداية صفة للعان أن يبتدىء به القاضي فيشهد أربع مرات يقول في كل مرة: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا ويقول في الخامسة: لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا يشير في جميع ذلك ثم تشهد المرأة أربع مرات تقول في كل مرة أشهد

بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا وتقول في الخامسة: غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماني به من الزنا والأصل فيه الآية، وروى الحسن عن أبي حنيفة أنه يأتي بلفظة المواجهة ويقول فيما رميتك به من الزنا أي وتأتي هي بذلك أيضاً وتقول: إنك لمن الكاذبين فيما رميتني به من الزنا لأنه أقطع للاحتمال وهو احتمال إضمار مرجع للضمير الغائب غير المراد، ووجه الأول أن لفظة المغايبة إذا انضمت إليها الإشارة انقطع الاحتمال، وعن الليث أنه يكتفي في اللعان بالكيفية المذكورة في الآية ويأتي الملاعن مكان ضمير الغائب بضمير المتكلم في شهادته مطلقاً وتأتي الملاعنة بذلك في شهادتها الخامسة فتدخل على ﴿علي﴾ ياء الضمير، والمراد من الاكتفاء بالكيفية المذكورة أنه لا يحتاج إلى زيادة فيما رميتها به من الزنا في شهادته وإلى زيادة فيما رماني به من الزنا في شهادتها، وماذكر من الإتيان بضمير المتكلم هو الظاهر ولم يؤت به في النظم الكريم لتتسق الضمائر وتكون في جميع الآية على طرز واحد مع ما في ذلك من نكتة رعاية التالي على ما قيل، وليس في الآية التفات أصلاً كما توهم بعض من أدركناه من فضلاء العصر، وأما ما أشير من عدم الاحتياج إلى زيادة ما تقدم فالظاهر أن الأحوط خلافه وقد جاءت تلك الزيادة فيما وقع في زمانه ﷺ من اللعان بين هلال وزوجته على ما في بعض الروايات، وذكر الأصحاب أنه يزيد في صورة اللعان بالقذف بنفي الولد بعد قوله: لمن الصادقين قوله فيما رميتك به من نفي الولد وأنها تزيد بعد لمن الكاذبين قولها: فيما رميتني به من نفي الولد: ولو كان القذف بالزنا ونفي الولد ذكر في اللعان الأمران، ونقل أبو حيان عن مالك أن الملاعن يقول: أشهد بالله إني رأيتها تزني والملاعنة تقول أشهد بالله ما رآني أزني وعن الشافعي أن الزوج يقول: أشهد بالله إني لصادق فيما رميت به زوجتي فلانة بنت فلان ويشير إليها إن كانت حاضرة أربع مرات ثم يقعده الإمام ويذكره الله تعالى فإن رآه يريد أن يمضي أمر من يضع يده على فيه فإن لم يمتنع تركه وحينئذ يقول الخامسة ويأتي بياء الضمير مع ﴿علي﴾ وإن كان قد قذفها بأحد يسميه بعينه واحداً أو اثنين في كل شهادة، وإن نفى ولدها زاد وإن هذا الولد ولد زنا ما هو مني، والتخويف بالله عز وجل مشروع في حق المتلاعنين، فقد صح في قصة هلال أنه لما كان الخامسة قيل له: اتق الله تعالى واحذر عقابه فإن عذاب الدنيا أسهل من عذاب الآخرة وإن هذه هي الموجبة التي توجب عليك العقاب، وقيل: نحو ذلك لامرأته عند الخامسة أيضاً.

وفي ظاهر الآية رد على الشافعي عليه الرحمة حيث قال إنه بمجرد لعان الزوج تثبت الفرقة بينهما وذلك لأن المتبادر أنها تشهد الشهادات وهي زوجة ومتى كانت الفرقة بلعان الزوج لم تبق زوجة عند لعانها، والذي ذهب إليه أبو حنيفة عليه الرحمة أنه إذا وقع التلاعن تثبت حرمة الوطء ودواعيه عن الملاعن فإن طلقها فذاك وإن لم يطلقها بانت بتفريق الحاكم وإن لم يرضيا بالفرقة، ولو فرق خطأ بعد وجود الأكثر من كل منهما صح، ويشترط كون التفريق بحضورهما وحضور الوكيل كحضور الأصيل ويتوارثان قبله، ولو زالت أهلية اللعان بعده فإن كان بما يرجى زواله كجنون فرق وإلاّ لا، وقال زفر: تقع الفرقة بتلاعنهما وإن أكذب نفسه من بعد اللعان والتفريق وحد أم لم يحد يحل له تزوجها عند أبي حنيفة ومحمد وقال أبو يوسف إذا افترق المتلاعنان فلا يجتمعان أبداً وتثبت بينهما حرمة كحرمة الرضاع وبه قالت الأئمة الثلاثة، وأدلة هذه الأقوال وما لها وما عليها تطلب من كتب الفقه المبسوطة، واستدل بمشروعية اللعان على جواز الدعاء باللعن على كاذب معين فإن قوله: ﴿لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ دعاء على نفسه باللعن على تقدير كذبه وتعليقه على ذلك لا يخرجه عن التعيين، نعم يقال إن مشروعيته إن كان صادقاً فلو كان كاذباً فلايحل له، واستدل الخوارج على أن الكذب كفر لاستحقاق من يتصف به اللعن وكذا الزنا كفر لاستحقاق فاعله الغضب فإن كلاً من اللعن والغضب لا يستحقه إلا الكافر لأن اللعن الطرد عن الرحمة وهو لا يكون

إلا لكافر والغضب أعظم منه، وفيه أنه لا يسلم أن اللعن في أي موضع وقع بمعنى الطرد عن الرحمة فإنه قد يكون بمعنى الإسقاط عن درجة الأبرار وقد يقصد به إظهار خساسة الملعون، وكذا لا يسلم اختصاص الغضب بالكافر وإن كان أشد من اللعن والله تعالى أعلم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ التفات إلى خطاب الرامين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف لتهويله حتى كأنه لا توجد عبارة تحيط ببيانه، وهذا الحذف شائع في كلامهم.

قال جرير:

كذب العواذل لو رأين مناخنا ... بحزيز رامة والمطي سوام

ومن أمثالهم لو ذات سوار لطمتني فكأنه قيل: لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته سبحانه وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان مما لا يحيط به نطاق البيان، ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لأنه أعرف بحال زوجته وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضاحة، وبعد ما شرع لهم لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر إليها، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة، فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتماً دارئة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية، وقد ابتلي الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأطم وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى أما على الصادق فظاهر؛ وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبىء عنه التعرض لعنوان توابيته تعالى فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته قاله شيخ الإسلام، وعن ابن سلام تفسير الفضل بالإسلام ولا يخفى أنه مما لا يقتضيه المقام، وعن أبي مسلم أنه أدخل في الفضل النهي عن الزنا ويحسن ذلك لو جعلت الجملة تذييلاً لجميع ما تقدم من الآيات وفيه من البعد ما فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وكثيراً ما يفسر بالكذب مطلقاً، وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك، وجوز فيه فتح الهمزة والفاء وأصله من الأفك بفتح فسكون وهو القلب والصرف لأن الكذب مصروف عن الوجه الذي يحق، والمراد به ما افك به الصديقة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها على أن اللام فيه للعهد، وجوز حمله على الجنس قيل فيفيد القصر كأنه لا إفك إلا ذلك الإفك، وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل، وتفصيل القصة ما أخرجه البخاري وغيره عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة. فأقرع بيننا في غزوة[1] غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما

---

(١) هي غزوة بني المصطلق وكانت في سنة ست ا. هـ منه.

نأكل العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك فيّ من هلك وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبيّ ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل علي رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هنتاه أولم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي فقلت لأمي[٢]: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا كثرن عليها قالت: فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيراً وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي ابن سلول قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان

---

(١) هي أم رومان زينب بنت دهمان ا هـ منه.

من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت: فأصبح أبواي عندي قد وبكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظناني أن البكاء فالق كبدي قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل قبلها وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله فقلت لأمي: أجيبي رسول الله قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم: إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٨] فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئني ببراءتي ولكن ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه قالت: فلما سري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها: يا عائشة أما الله فقد برأك فقالت أمي: قومي إليه فقلت: والله لا أقوم ولا أحمد إلا الله وأنزل الله ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك﴾ العشر الآيات كلها، والظاهر أن قوله تعالى:

﴿عُصْبَةٌ منكُمْ﴾ خبر إن وإليه ذهب الحوفي وأبو البقاء، وقال ابن عطية: هو بدل من ضمير «جاؤوا» والخبر جملة قوله تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ﴾ والتقدير إن فعل الذين وهذا أنسق في المعنى وأكثر فائدة من أن يكون ﴿عصبة﴾ الخبر انتهى، ولا يخفى أنه تكلف، والفائدة في الاخبار على الأول قيل: التسلية بأن الجائين بذلك الإفك فرقة متعصبة متعاونة وذلك من أمارات كونه إفكاً لا أصل له، وقيل: الأولى أن تكون التسلية بأن ذلك مما لم يجمع عليه بل جاء به شرذمة منكم، وزعم أبو البقاء أنه بوصف العصبة بكونها منهم أفاد الخبر، وفيه نظر.

والخطاب في ﴿منكم﴾ على ما أميل إليه لمن ساءه ذلك من المؤمنين ويدخل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وأم رومان وعائشة وصفوان دخولاً أولياً، وأصل العصبة الفرقة المتعصبة قلت أو كثرت وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين وعليه اقتصر في الصحاح، وتطلق على أقل من ذلك ففي مصحف حفصة عصبة أربعة. وقد صح أن عائشة رضي الله تعالى عنها عدت المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول وحمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب رضي الله تعالى عنها وزوجة طلحة بن عبيد الله ومسطح بن أثاثة. وحسان بن ثابت، ومن الناس من برأ حسان وهو خلاف ما في صحيح البخاري وغيره.

نعم الظاهر أنه رضي الله تعالى عنه لم يتكلم به عن صميم قلب وإنما نقله عن ابن أبيّ لعنه الله تعالى، وقد جاء أنه رضي الله تعالى عنه اعتذر عما نسب إليه في شأن عائشة رضي الله تعالى عنها فقال:

حصان رزان ما تزنُّ بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس ديناً ومنصباً ... نبي الهدى ذي المكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتمو ... فلا رفعت سوطي إليَّ أناملي
وكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل
له رتب عال على الناس كلهم ... تقاصر عنه سورة المتطاول
فإن الذي قد قيل ليس بلائط ... ولكنه قول امرىء بي[1] ماحل

وكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تكرمه بعد ذلك وتذكره بخير وإن صح أنها قالت له حين أنشدها أول هذه الأبيات: لكنك لست كذلك، فقد أخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين أن عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تأذن لحسان وتدعو له بالوسادة وتقول: لا تؤذوا حساناً فإنه كان ينصر رسول الله ﷺ بلسانه.

وأخرج ابن جرير من طريق الشعبي عنها أنها قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

هجوت محمداً وأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

وعد بعضهم مع الأربعة المذكورين زيد بن رفاعة ولم نر فيه نقلاً صحيحاً، وقيل إنه خطأ، ومعنى «منكم» من أهل ملتكم وممن ينتمي إلى الإسلام سواء كان كذلك في نفس الأمر أم لا فيشمل ابن أبيّ لأنه ممن ينتمي إلى الإسلام ظاهراً وإن كان كافراً في نفس الأمر: وقيل إن قوله تعالى: ﴿**منكم**﴾ خارج مخرج الأغلب وأغلب أولئك العصبة مؤمنون مخلصون، وكذا الخطاب في ﴿**لا تحسبوه شراً لكم**﴾ وقيل: الخطاب في الأول للمسلمين وفي هذا لسيد المخاطبين رسول الله ﷺ ولأبي بكر وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم والكلام مسوق لتسليتهم.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن سعيد بن جبير أن الخطاب في الثاني لعائشة وصفوان، وأبعد عن الحق من زعم أنه للذين جاؤوا بالإفك وتكلف للخيرية ما تكلف، ولعل نسبته إلى الحسن لا تصح، والظاهر أن ضمير الغائب في ﴿**لا تحسبوه**﴾ عائد على الإفك.

وجوز أن يعود على القذف وعلى المصدر المفهوم من ﴿**جاؤوا**﴾ وعلى ما نال المسلمين من الغم والكل كما ترى، وعلى ما ذهب إليه ابن عطية يعود على المحذوف المضاف إلى اسم إن الذي هو الاسم في الحقيقة؛ ونهوا عن حسبان ذلك شراً لهم إراحة لبالهم بإزاحة ما يوجب استمرار بلبالهم، وأردف سبحانه النهي عن ذلك بالإضراب بقوله عز وجل: ﴿**بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ اعتناء بأمر التسلية، والمراد بل هو خير عظيم لكم لنيلكم بالصبر عليه الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بإنزال ما فيه تعظيم شأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم بما أحزنكم، والآيات

---

(١) يقال محل به إذا سعى إلى السلطان فهو ماحل ا هـ منه

المنزلة في ذلك على ما سمعت آنفاً عن عائشة رضي الله تعالى عنها عشر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال: نزلت ثماني عشرة آية متواليات بتكذيب من قذف عائشة وبراءتها. وأخرج الطبراني عن الحكم بن عتيبة قال: إنه سبحانه أنزل فيها خمس عشرة آية من سورة النور ثم قرأ حتى بلغ ﴿الخبيثات للخبيثين﴾ [النور: ٢٦] وكأن الخلاف مبني على الخلاف في رؤوس الآي، وفي كتاب العدد للداني ما يوافق المروي عن ابن جبير.

﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ﴾ أي من الذين جاؤوا بالإفك ﴿مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي جزاء ما اكتسب وذلك بقدر ما خاض فيه فإن بعضهم تكلم وبعضهم ضحك كالمعجب الراضي بما سمع وبعضهم أكثر وبعضهم أقل.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ بكسر الكاف. وقرأ الحسن والزهري وأبو رجاء ومجاهد والأعمش وأبو البرهسم وحميد وابن أبي عبلة وسفيان الثوري ويزيد بن قطيب ويعقوب والزعفراني وابن مقسم وعمرة بنت عبد الرحمن وسورة عن الكسائي ومحبوب عن أبي عمرو «كُبره» بضم الكاف وهو ومكسورها مصدران لكبر الشيء عظم ومعناهما واحد، وقيل: الكبر بالضم المعظم وبالكسر البداءة بالشيء، وقيل: الإثم، والجمهور على الأول أي والذي تحمل معظمه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الجائين به ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فقط، وفي التعبير بالموصول وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى، والمراد بالذي تولى كبره كما في صحيح البخاري عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها عبد الله بن أبي عليه اللعنة وعلى ذلك أكثر المحدثين.

وكان لعنه الله تعالى يجمع الناس عنده ويذكر لهم ما يذكر من الإفك وهو أول من اختلقه وأشاعه لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ، وعذابه في الآخرة بعد جعله في الدرك الأسفل من النار لا يقدر قدره إلا الله عز وجل، وأما في الدنيا فوسمه بميسم الذل وإظهار نفاقه على رؤوس الأشهاد وحده حدين على ما أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما من أنه ﷺ بعد أن نزلت الآيات خرج إلى المسجد فدعا أبا عبيدة بن الجراح فجمع الناس ثم تلا عليهم ما أنزل الله تعالى من البراءة لعائشة وبعث إلى عبد الله بن أبيّ فجيء به فضربه عليه الصلاة والسلام حدين وبعث إلى حسان ومسطح وحمنة فضربوا ضرباً وجيعاً ووجئوا في رقابهم، وقيل: حد حداً واحداً، فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس أنه فسر العذاب في الدنيا بجلد رسول الله ﷺ إياه ثمانين جلدة وعذابه في الآخرة بمصيره إلى النار، وقيل: إنه لم يحد أصلاً لأنه لم يقر ولم يلتزم إقامة البينة عليه تأخيراً لجزائه إلى يوم القيامة كما أنه لم يلتزم إقامة البينة على نفاقه وصدور ما يوجب قتله لذلك وفيه نظر.

وزعم بعضهم أنه لم يحد مسطح، وآخرون أنه لم يحد أحداً ممن جاء بالإفك إذ لم يكن إقرار ولم يلتزم إقامة بينة. وفي البحر أن المشهور حد حسان ومسطح وحمنة، وقد أخرجه البزار وابن مردويه بسند حسن عن أبي هريرة، وقد جاء ذلك في أبيات ذكرها ابن هشام في ملخص السيرة لابن إسحاق وهي:

لقد ذاق حسان الذي كان أهله ... وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطح
تعاطوا برجم الغيب أمر نبيهم ... وسخطة ذي العرش الكريم فأنزحوا
وآذوا رسول الله فيها فجللوا ... مخازي بغي يمحوها وفضحوا
وصب عليهم محصدات كأنها ... شآبيب قطر من ذرى المزن تسفح

وقيل: الذي تولى كبره حسان و استدل بما في صحيح البخاري أيضاً عن مسروق قال: دخل حسان على عائشة فشبب وقال: حصان «البيت» قالت: لكنك لست كذلك قلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله

تعالى ﴿**والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم**﴾ فقالت: وأي عذاب أشد من العمى، وجاء في بعض الأخبار أنها قيل لها: أليس الله تعالى يقول: ﴿**والذي تولى كبره**﴾ الآية؟ فقالت: أليس أصابه عذاب عظيم أليس قد ذهب بصره وكسع بالسيف؟ تعني الضربة التي ضربها إياه صفوان حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك، فإنه يروى أنه ضربه بالسيف على رأسه لذلك والأبيات[1] عرض فيها به وبمن أسلم من العرب من مضر وأنشد:

تلقَّ ذباب السيف مني فإنني ... غلام إذا هوجيت لست بشاعر

ولكنني أحمي حماي وأتقي ... من الباهت الرأي البريء الظواهر

وكاد يقتله بتلك الضربة. فقد روى ابن إسحاق أنه لما ضربه وثب عليه ثابت بن قيس بن شماس فجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج فلقيه عبد الله بن رواحة فقال: ما هذا؟ قال: أما أعجبك ضرب حسان بالسيف والله ما أراه إلا قد قتله فقال له عبد الله: هل علم رسول الله ﷺ بذلك وبما صنعت؟ قال: لا والله قال: لقد اجترأت أطلق الرجل فأطلقه فأتوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فذكروا ذلك له فدعا حسان وصفوان فقال صفوان: يا رسول الله آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته فقال ﷺ: يا حسان أتشوهت على قومي بعد أن هداهم الله تعالى للإسلام ثم قال: أحسن يا حسان في الذي أصابك فقال: هي لك يا رسول الله فعوضه رسول الله ﷺ منها بيرحاء وكان أبو طلحة بن سهل أعطاها إياه عليه الصلاة والسلام ووهبه أيضاً سيرين أمة قبطية فولدت له عبد الرحمن بن حسان.

وفي رواية في صحيح البخاري عن عائشة أيضاً رضي الله تعالى عنها أنها قالت في ﴿**الذي تولى كبره منهم**﴾ هو أي المنافق ابن أبيّ وحمنة، وقيل: هو وحسان ومسطح، وعذاب المنافق الطرد وظهور نفاقه وعذاب الأخيرين بذهاب البصر، ولا يأبى إرادة المتعدد إفراد الموصول لما في الكشف من أن ﴿**الذي**﴾ يكون جمعاً وإفراد ضميره جائز باعتبار إرادة الجمع أو الفوج أو الفريق أو نظراً إلى أن صورته صورة المفرد، وقد جاء إفراده في قوله تعالى: ﴿**والذي جاء بالصدق وصدق به**﴾ [الزمر: ٣٣] وجمعه في قوله سبحانه: ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ [التوبة: ٦٩] والمشهور جواز استعمال «الذي» جمعا مطلقاً. واشترط ابن مالك في التسهيل أن يراد به الجنس لا جمع مخصوص فإن أريد الخصوص قصر على الضرورة هذا ولا يخفى أن إرادة الجمع هنا لا تخلو عن بعد، والذي اختاره إرادة الواحد وأن ذلك الواحد هو عدو الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين ابن أبيّ، وقد روى ذلك الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبي وقاص وعبد الله بن عتبة وكلهم سمع عائشة تقول: ﴿**الذي تولى كبره**﴾ عبد الله بن أبي، وقد تظافرت روايات كثيرة على ذلك، والذاهبون إليه من المفسرين أكثر من الذاهبين منهم إلى غيره. ومن الإفك الناشيء من النصب قول هشام بن عبد الملك عليه من الله تعالى ما يستحق حين سئل الزهري عن ﴿**الذي تولى كبره**﴾ فقال له: هو ابن أبيّ كذبت هو علي. يعني به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه. وقد روى ذلك عن هشام البخاري والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، ولا بدع من أمويّ الافتراء على أمير المؤمنين عليّ كرم الله تعالى وجهه ورضي عنه. وأنت تعلم أن قصارى ما روي عن الأمير رضي الله تعالى عنه أنه قال لأخيه وابن عمه رسول الله ﷺ حين استشاره يا رسول الله لم يضيق الله تعالى عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك.

---

(١) ذكر ابن هشام في السيرة ا هـ منه.

وفي رواية أنه قال: يا رسول الله قد قال الناس وقد حل لك طلاقها، وفي رواية أنه رضي الله تعالى عنه ضرب بريرة وقال: اصدقي رسول الله ﷺ وليس في ذلك شيء مما يصلح مستنداً لذلك الأموي الناصبي، وجل غرض الأمير مما ذكر أن يسري عن رسول الله ﷺ ما هو فيه من الغم غاية ما في الباب أنه لم يسلك في ذلك مسلك أسامة وهو أمر غير متعين، ومن دقق النظر عرف مغزى الأمير كرم الله تعالى وجهه وأنه بعيد عما يزعمه النواصب بعد ما بين المشرق والمغرب فليتدبر ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ التفات إلى خطاب الخائضين ما عدا من تولى كبره منهم، واستظهر أبو حيان كون الخطاب للمؤمنين دونه، واختير الخطاب لتشديد ما في لولا التحضيضية من التوبيخ، ولتأكيد التوبيخ عدل إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ لكن لا بطريق الإعراض عن المخاطبين وحكاية جناياتهم لغيرهم بل بالتوسل بذلك إلى وصفهم بما يوجب الإتيان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاء تاماً ويزجرهم عن ضده زجراً بليغاً وهو الإيمان وكونه مما يحملهم على إحسان الظن ويكفهم عن إساءته بأنفسهم أي بأبناء جنسهم وأهل ملتهم النازلين منزلة أنفسهم كقوله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ [الحجرات: ١١] وقوله سبحانه: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ [البقرة: ٨٥] ولا حاجة إلى تقدير مضاف أي ظن بعض المؤمنين والمؤمنات بأنفس بعضهم الآخر وإن قيل بجوازه مما لا ريب فيه فإخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع والتوبيخ عليه أدخل مع ما فيه من ا لتوسل به إلى توبيخ الخائضات والمشهور منهن حمنة؛ ثم إن كان المراد بالإيمان الإيمان الحقيقي فإيجابه لما ذكر واضح والتوبيخ خاص بالمتصفين به، وإن كان مطلق الإيمان الشامل لما يظهره المنافقون أيضاً فإيجابه له من حيث إنهم كانوا يحترزون عن إظهار ما ينافي مدعاهم فالتوبيخ حينئذ متوجه إلى الكل، والنكتة في توسيط معمول الفعل المحضض عليه بينه وبين أداة التخصيص وإن جاز ذلك مطلقاً أي سواء كان المعمول الموسط ظرفاً أو غيره تخصيص التخضيض بأول وقت السماع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير الإتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتردد فيه ليفيد أن عدم الإتيان به رأساً في غاية ما يكون من القباحة والشناعة أي كان الواجب على المؤمنين والمؤمنات أن يظنوا أول ما سمعوا ذلك الإفك ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثم وتردد بأهل ملتهم من آحاد المؤمنين والمؤمنات خيراً ﴿وَقَالُوا﴾ في ذلك الآن ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر مكشوف كونه إفكاً فكيف بأم المؤمنين حليلة رسول الله ﷺ بنت المهاجرين رضي الله تعالى عنهما.

ويجوز أن يكون المعنى هلا ظن المؤمنون والمؤمنات أول ما سمعوا ذلك خيراً بأهل ملتهم عائشة وصفوان وقالوا الخ ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إما من تمام القول المحضض عليه مسوق لتوبيخ السامعين على ترك الزام الخائضين أي هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ الأربعة، وكان الظاهر فإذا لم يأتوا بهم إلا أنه عدل إلى ما في النظم الجليل لزيادة التقرير ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الخائضين، وما فيها من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد أي فأولئك المفسدون ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وشريعته ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي المحكوم عليهم بالكذب شرعاً أي بأن خبرهم لم يطابق في الشرع الواقع، وقيل: المعنى فأولئك في علم الله تعالى هم الكاذبون الذين لم يطابق خبرهم الواقع في نفس الأمر لأن الآية في خصوص عائشة رضي الله تعالى عنها وخبر أهل الإفك فيها غير مطابق للواقع في نفس الأمر في علمه عز وجل.

وتعقب بأن خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم مع أن ظاهر التقييد بالظرف يأبى ذلك، و جعله من قبيل قوله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ [الأنفال: ٦٦] خلاف الظاهر، وأياً ما كان فالحصر للمبالغة، وإما كلام مبتدأ مسوق من جهته سبحانه وتعالى تقريراً لكون ذلك إفكاً ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ أي تفضله سبحانه

﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ إياكم ﴿في الدُّنْيَا﴾ بفنون النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿وَ﴾ في ﴿الآخرَةِ﴾ بضروب الآلاء التي من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة، وفي الكلام نشر على ترتيب اللف، وجوز أن يتعلق ﴿في الدنيا والآخرة﴾ بكل من فضل الله تعالى ورحمته، والمعنى لولا الفضل العام والرحمة العامة في كلا الدارين ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً ﴿في مَا أَفَضْتُمْ فيه﴾ أي بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك.

والإبهام لتهويل أمره واستهجان ذكره يقال أفاض في الحديث وخاض وهضب واندفع بمعنى، والإفاضة في ذلك مستعارة من إفاضة الماء في الإناء، و ﴿لولا﴾ امتناعية وجوابها ﴿لمسكم﴾ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه التوبيخ والجلد، والخطاب لغير ابن أبي من الخائضين، وجوز أن يكون لهم جميعاً.

وتعقب بأن ابن أبي رأس المنافقين لاحظ له من رحمة الله تعالى في الآخرة لأنه مخلد في الدرك الأسفل من النار ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ بحذف إحدى التاءين و ﴿إذ﴾ ظرف للمس، وجوز أن يكون ظرفاً لأفضتم وليس بذاك، والضمير المنصوب لما أي لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه، والتلقي والتلقف والتلقن متقاربة المعاني إلا أن في التلقي معنى الاستقبال وفي التلقف معنى الخطف والأخذ بسرعة وفي التلقن معنى الحذق والمهارة. وقرأ أُبيّ رضي الله تعالى عنه: «تتلقونه» على الأصل، وشد التاء البزي، وأدغم الذال في التاء النحويان وحمزة.

وقرأ ابن السميفع «تُلْقُونَهُ» بضم التاء والقاف وسكون اللام مضارع ألقى، وعنه «تَلْقَوْنَهُ» بفتح التاء والقاف وسكون اللام مضارع لقي، وقرأت عائشة وابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعيسى وابن يعمر وزيد بن علي بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف من ولق الكلام كذبه حكاه السرقسطي، وفيه رد على من زعم أن ولق إذا كان بمعنى كذب لا يكون متعدياً وهو ظاهر كلام ابن سيده وارتضاءه أبو حيان ولذا جعل ذلك من باب الحذف والإيصال والأصل تلقون فيه، وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت تقرأ ذلك وتقول: الولق الكذب، وقال ابن أبي مليكة: وكانت أعلم بذلك من غيرها لأنه نزل فيها.

وقال ابن الأنباري: من ولق الحديث أنشأه واخترعه، وقيل: من ولق الكلام دبره، وحكى الطبري وغيره أن هذه اللفظة مأخوذة من الولق الذي هو الإسراع بالشيء بعد الشيء كعدد في أثر عدد وكلام في أثر كلام ويقال: ناقة ولقى سريعة، ومنه الأولق للمجنون لأن العقل باب من السكون والتماسك والجنون باب من السرعة والتهافت.

وعن ابن جني أنه فسر ما في الآية بما ذكر يكون ذلك من باب الحذف والإيصال والأصل تسرعون فيه أو إليه، قرأ زيد بن أسلم وأبو جعفر «تَأْلَقونه» بفتح التاء وهمزة ساكنة بعدها لام ساكنة من الألق وهو الكذب. وقرأ يعقوب في رواية المازني «تيلقونه» بتاء فوقانية مكسورة بعدها ياء ولام مفتوحة كأنه مضارع ولق بكسر اللام كما قالوا تيجل مضارع وجل، وعن سفيان بن عيينة سمعت أمي تقرأ «إذ تثقفونه» من ثقفت الشيء إذا طلبته فأدركته جاء مثقلاً ومخففاً أي تتصيدون الكلام في الإفك من هاهنا ومن هاهنا.

وقرىء «تقفونه» من قفاه إذا تبعه أي تتبعونه.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تقولون قولاً مختصاً بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم فهذا كقوله تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقال ابن المنير: يجوز أن يكون قوله سبحانه: ﴿تقولون بأفواهكم﴾ توبيخاً كقولك: أتقول ذلك بملء فيك فإن القائل ربما رمز وعرض وربما تشدق جازماً كالعالم، وقد قيل هذا في قوله سبحانه: ﴿بدت البغضاء من أفواههم﴾ [آل عمران: ١١٨] وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يقال فائدة ذكر ﴿بأفواهكم﴾ أن لا يظن أنهم قالوا ذلك بالقلب لأن القول يطلق على غير الصادر من الأفواه كما في قوله تعالى: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١] وقول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطني ... مهلاً رويداً قد ملأت بطني

فهو تأكيد لدفع المجاز. وأنت تعلم أن السياق يقتضي الأول وإليه ذهب الزمخشري، وكان الظاهر وتقولونه بأفواهكم إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الجليل لما لا يخفى ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعة له: ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي والحال أنه عند الله عز وجل أمر عظيم لا يقادر قدره في الوزر واستجرار العذاب، والجملتان الفعليتان معطوفتان على جملة ﴿تلقونه﴾ داخلتان معها في حيز ﴿إذ﴾ فيكون قد علق مس العذاب العظيم بتلقي الإفك بألسنتهم والتحدث به من غير روية وفكر وحسبانهم ذلك مما لا يعبأ به وهو عند الله عز وجل عظيم.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ممن اخترعه أو المتابع له ﴿قُلْتُم﴾ تكذيباً له وتهويلاً لما ارتكبه ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ﴾ أي ما يمكننا وما يصدر عنا بوجه من الوجوه التكلم ﴿بِهَٰذَا﴾ إشارة إلى القول الذي سمعوه باعتبار شخصه.

وجوز أن يكون إشارة إلى نوعه فإن قذف آحاد الناس المتصفين بالإحصان محرم شرعاً، وجاء عن حذيفة مرفوعاً أنه يهدم عمل مائة سنة فضلاً عن تعرض الصديقة حرمة رسول الله ﷺ، والكلام في توسيط الظرف على نحو ما مر ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تعجب ممن تفوه به، وأصله أن يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى شأنه تنزيهاً له سبحانه من أن يصعب عليه أمثاله ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه واستعماله فيما ذكر مجاز متفرع على الكناية، ومثله في استعماله للتعجب لا إله إلا الله، والعوام يستعملون الصلاة على النبي ﷺ في ذلك المقام أيضاً ولم يسمع في لسان الشرع بل قد صرح بعض الفقهاء بالمنع منه.

وجوز أن يكون ﴿سبحانك﴾ هنا مستعملاً في حقيقته والمراد تنزيه الله تعالى شأنه من أن يصم نبيه عليه الصلاة والسلام ويشينه فإن فجور الزوجة وصمة في الزوج تنفر عنه القلوب وتمنع عن اتباعه النفوس ولذا صان الله تعالى أزواج الأنبياء عليهم السلام عن ذلك، وهذا بخلاف الكفر فإن كفر الزوجة ليس وصمة في الزوج، وقد ثبت كفر زوجتي نوح ولوط عليهما السلام كذا قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما يتعلق به، وعلى هذا يكون ﴿سبحانك﴾ تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ﴾ أي كذب يبهت ويحير سامعه لفظاعته ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره لعظمة المبهوت عليه فإن حقارة الذنوب وعظمها كثيراً ما يكونان باعتبار متعلقاتها، والظاهر أن التوبيخ للسامعين الخائضين لا للسامعين مطلقاً، فقد روي عن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر عائشة رضي الله تعالى عنها قال: سبحانك هذا بهتان عظيم. وعن سعيد بن المسيب أنه قال: كان رجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا سمعا شيئاً من ذلك قالا ما ذكر أسامة بن زيد بن حارثة وأبو أيوب رضي الله تعالى عنهما. وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: إن امرأة أبي أيوب الأنصاري قالت له: يا أبا أيوب ألا تسمع ما يتحدث به الناس؟ فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، ومنشأ هذا الجزم على ما قاله الإمام الرازي العلم بأن زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام لا يجوز أن تكون فاجرة، وعلل بأن ذلك ينفر عن الاتباع فيخل بحكمة البعثة كدناءة الآباء وعهر الأمهات، وقد نص العلامة الثاني على أن من شروط النبوة السلامة عن ذلك بل عن كل ما ينفر عن الاتباع. واستشكل ذلك بأنه إذا كان ما ذكر شرطاً فكيف علمه من سمعت حتى قالوا ما قالوا وخفي الأمر على رسول

الله ﷺ حتى قال كما في صحيح البخاري وغيره: «يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه».

وجاء في بعض الروايات «يا عائشة إن كنت فعلت هذا الأمر فقولي لي حتى أستغفر الله تعالى لك» وكذا خفي على صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فقد أخرج البزار بسند صحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه لما نزل عذرها قبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه رأسها فقالت: ألا عذرتني فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت ما لا أعلم؟.

وأجيب بأن ذلك ليس من الشروط العقلية للنبوة كالأمانة والصدق بل هو من الشروط الشرعية والعادية، كما قال اللقاني فيجوز أن يقال: إنه لم يكن معلوماً قبل وإنما علم بعد نزول آيات براءة عائشة رضي الله تعالى عنها، وعدم العلم بمثل ذلك لا يقدح في منصب النبوة، وأما دعوى علم من ذكر به فلا دليل عليها، وقولهم ذلك يجوز أن يكون ناشئاً عن حسن الظن لا عن علم بكون السلامة من المنفر عن الاتباع من شروط النبوة، ويشهد لهذا نظراً إلى بعض القائلين والظاهر تساويهم ما أخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن بعض الأنصار أن امرأة أبي أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله تعالى عنها؟ قال: بلى وذلك الكذب أكنت أنت فاعلة يا أم أيوب؟ قالت: لا والله فقال: فعائشة رضي الله تعالى عنها والله خير منك وأطيب إنما هذا كذب وإفك باطل، وروى قريباً منه الحاكم وابن عساكر أيضاً عن أفلح مولى أبي أيوب، ولعله المعني ببعض الأنصار في الخبر السابق، ولم يقل ﷺ نحو ذلك لحسن الظن لشدة غيرته عليه الصلاة والسلام والغيور لا يكاد يعول في مثل ذلك على حسن الظن، ويمكن أن يكون قولهم ذلك ناشئاً عن العلم بكون السلامة من المنفر عن الاتباع من شروط النبوة بأن يكونوا قد تفطنوا لكون حكمة البعثة تقتضي تلك السلامة وقد يتفطن العالم لما لا يتفطن له من هو أعلم منه.

وجوز أن يدعى أن النبي ﷺ كان عالماً بعدم جواز فجور نساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما فيه من النفرة المخلة بحكمة البعثة لكن أراد عليه الصلاة والسلام أن يظهر أمر براءة الصديقة رضي الله تعالى عنها ظهور الشمس في رابعة النهار بحيث لا يبقى فيه خفاء عند أحد من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم، وما عراه من الهم إنما هو أمر طبيعي حصل بسبب خوض المنافقين ومن تبعهم وشيوع ما لا أصل له من الباطل بين الناس، ويحتمل أنه ﷺ كان عالماً بأن السلامة من المنفر من شروط النبوة لكن خشي من الله عز وجل الذي لا يجب عليه شيء أن لا يجعل ما خاض المنافقون وأتباعهم فيه من المنفر بأن لا يرتب سبحانه خلق النفرة في القلوب عليه ليمنع من الاتباع فتختل حكمة البعثة فداخله عليه الصلاة والسلام من الهم ما داخله وجعل يتتبع الأمر على أتم وجه وما ذلك إلا من مزيد العلم و نهاية الحزم، ونظيره من وجه خوفه عليه الصلاة والسلام من قيام الساعة عند اشتداد الريح بحيث لا يستطيع أن ينام ما دام الأمر كذلك حتى تمطر السماء.

وقيل يجوز أن لا يعد فجور الزوجة منفراً إلا إذا أمسكت بعد العلم به فلم لا يجوز أن يقع فيجب طلاقها وإذا طلقت لا يتحقق المنفر المخل بالحكمة، هذا ولا يخفى عليك ما في بعض الاحتمالات من البحث بل بعضها في غاية البعد عن ساحة القبول، ولعل الحق أنه عليه الصلاة والسلام قد أخفي عليه أمر الشرطية إلى أن اتضح أمر البراءة ونزلت الآيات فيها لحكمة الابتلاء وغيره مما الله تعالى أعلم به. وإن قول أولئك الأصحاب رضي الله تعالى عنهم: سبحانك هذا بهتان عظيم لم يكن ناشئاً إلا عن حسن الظن، ولم يتمسك به ﷺ لأنه لا يحسم القال والقيل ولا يرد

به شيء من الأباطيل، ولا ينبغي لمن يؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ أن يخالج قلبه بعد الوقوف على الآيات والأخبار شك في طهارة نساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الفجور في حياة أزواجهن وبعد وفاتهم عنهن، ونسب للشيعة قذف عائشة رضي الله تعالى عنها بما برأها الله تعالى منه وهم ينكرون ذلك أشد الإنكار وليس في كتبهم المعول عليها عندهم عين منه ولا أثر أصلاً، وكذلك ينكرون ما نسب إليهم من القول بوقوع ذلك منها بعد وفاته ﷺ وليس له أيضاً في كتبهم عين ولا أثر.

والظاهر أنه ليس في الفرق الإسلامية من يختلج في قلبه ذلك فضلاً عن الإفك الذي برأها الله عز وجل منه.

﴿يَعِظُكُمُ اللهُ﴾ أي ينصحكم ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً﴾ أي كراهة أن تعودوا أو لئلا تعودوا أو يعظمكم في العود أي في شأنه وما فيه من الإثم والمضار كما يقال وعظته في الخمر وما فيها من المعار أو يزجركم عن العود على تضمين الوعظ معنى الزجر، ويقال عاده وعاد إليه وعاد له وعاد فيه بمعنى، والمراد بأبداً مدة الحياة.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ من باب إن كنت أباً لك فلم لا تحسن إليّ يتضمن تذكيرهم بالإيمان الذي هو العلة في الترك والتهييج لإبرازه في معرض الشك وفيه طرف من التوبيخ.

﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ أي ينزلها مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها، والمراد بها الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن آداب معاملة المسلمين، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم شأن البيان.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلها ودقها ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله فأنى يمكن صدق ما قيل في حق حرم من اصطفاه لرسالته وبعثه إلى كافة الخلق ليرشدهم إلى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيراً، وإظهار الاسم الجليل هاهنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي والإشعار بعلية الألوهية للعلم والحكمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أي يريدون ويقصدون ﴿أَنْ تَشِيعَ﴾ أن تنتشر ﴿الْفَاحِشَةُ﴾ أي الخصلة المفرطة في القبح وهي الفرية والرمي بالزنا أو نفس الزنا كما روي عن قتادة، والمراد بشيوعها شيوع خبرها ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعلق بتشيع أي تشيع فيما بين الناس.

وذكر المؤمنين لأنهم العمدة فيهم أو بمضمر هو حال من الفاحشة أي كائنة في حق المؤمنين وفي شأنهم والمراد بهم المحصنون والمحصنات كما روي عن ابن عباس ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ مما يصيبه من البلاء كالشلل والعمى ﴿وَ﴾ في ﴿الآخِرَةِ﴾ من عذاب النار ونحوه، وترتب ذلك على المحبة ظاهر على ما نقل عن الكرماني من أن أعمال القلب السيئة كالحقد والحسد ومحبة شيوع الفاحشة يؤاخذ العبد إذا وطن نفسه عليها، ويعلم من الآية على أتم وجه سوء حال من نزلت الآية فيهم كابن أُبيّ ومن وافقه قلباً وقالباً. وأن لهم الحظ الأوفر من العذابين حيث أحبوا الشيوع وأشاعوا.

وقال بعضهم: المراد من محبة الشيوع الإشاعة بقرينة ترتب العذاب عليها فإنه لا يترتب إلا على الإشاعة دون المحبة التي لا اختيار فيها، وإن سلم أن المراد بها محبة تدخل تحت الاختيار وهي مما يترتب عليها العذاب قلنا: إن ذلك هو العذاب الأخروي دون العذاب الدنيوي مثل الحد، وقد فسر ابن عباس وابن جبير العذاب الأليم في الدنيا هنا بالحد وهو لا يترتب على المحبة مطلقاً بالاتفاق، ومن هنا قيل أيضاً: إن ذكر المحبة من قبيل الاكتفاء عن ذكر الشيء وهو الإشاعة بذكر مقتضيه تنبيهاً على قوة المقتضى، وقيل: إن الكلام على التضمين أي يشيعون الفاحشة محبين شيوعها لأن كلا معنى المحبة والإشاعة مقصودان.

واستشكل تفسير العذاب الأليم في الدنيا بالحد بأنه لا يضم إليه العذاب الأليم في الآخرة لأن الحدود مكفرة. وأجيب بأن حكم الآية مخصوص بمن أشاع ذلك في حق أم المؤمنين، وقيل: الحد لمن نقل الإفك من المسلمين والعذاب الأخروي لأبي عذرته ابن أبيّ والموصول عام لهما، على أن في كون الحدود مطلقاً مكفرة خلافاً فبعضهم قال به فيما عدا الردة وبعضهم أنكره وبعضهم توقف فيه لحديث أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا» ولعل الأنسب بمساق النظم الكريم من تقبيح الخائضين في الإفك المشيعين له هو ما ذكرناه أولاً، والمراد بالموصول إما هم على أن يكون للعهد الخارجي كما روي عن مجاهد وابن زيد؛ والتعبير بالمضارع في الصلة للإشارة إلى زيادة تقبيحهم بأنه قد صارت محبتهم لشيوع الفاحشة عادة مستمرة، وإما ما يعمهم وغيرهم من كل من يتصف بمضمون الصلة على إرادة الجنس ويدخل أولئك المشيعون دخولاً أولياً كما قيل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور التي من جملتها ما في الضمائر من المحبة المذكورة وكذا وجه الحكمة في تغليظ الوعيد ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمه سبحانه وتعالى.

والجملة اعتراض تذييلي جيء به تقريراً لثبوت العذاب لهم وتعليلاً له، قيل: المعنى والله يعلم ما في ضمائرهم فيعاقبهم عليه في الآخرة وأنتم لا تعلمون ذلك بل تعلمون ما يظهر لكم من أقوالهم فعاقبوا عليه في الدنيا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الخطاب على ما أخرج الطبراني عن ابن عباس لمسطح وحسان وحمنة أو لمن عدا ابن أبيّ وأضرابه من المنافقين الخائضين، وهذا تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للتنبيه على كمال عظم الجريرة وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ عطف على ﴿فضل الله﴾ وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة، وتغيير سبكه وتصديره بحرف التحقيق لما أنه المراد بيان اتصافه تعالى في ذاته بهاتين الصفتين الجليلتين على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلقهما بهم كما أن المراد بالمعطوف عليه وجواب ﴿لولا﴾ محذوف كما مر

وهذه نظير الآية المارة في آخر حديث اللعان إلا أن في التعقيب بالرؤوف الرحيم بدل التواب الحكيم هنالك ما يؤذن بأن الذنب في هذا أعظم وكأنه لا يرتفع إلا بمحض رأفته تعالى وهو أعظم من أن يرتفع بالتوبة كما روي عن ابن عباس من خاض في حديث الإفك وتاب لم تقبل توبته والغرض التغليظ فلا تغفل.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا
يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ
وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ
ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا
كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ
وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ

وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبعُوا خُطُوات الشيطَان﴾ [النور: ٢١ ـ ٢٨] أي لا تسلكوا مسالكه في كل ما تأتون وما تذرون والكلام كناية عن اتباع الشيطان وامتثال وساوسه فكأنه قيل: لا تتبعوا الشيطان في شيء من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة وحبها.

وقرأ نافع والبزي في رواية ابن ربيعة عنه وأبو عمرو وأبو بكر وحمزة «خَطْوَات» بسكون الطاء وقرىء بفتحها وهو في جميع ذلك جمع خطوة بضم الخاء وسكون الطاء اسم لما بين القدمين، وأما الخطوة بفتح الخاء فهو مصدر خطا، والأصل في الاسم إذا جمع أن تحرك عينه فرقاً بينه وبين الصفة فيضم اتباعاً للفاء أو بفتح تخفيفاً وقد يسكن ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَات الْشيطَان﴾ وضع الظاهران موضع ضميري الخطوات والشيطان حيث لم يقل ومن يتبعها أو من يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بـالْفَحْشَاء﴾ هو ما أفرط قبحه كالفاحشة ﴿وَالْـمُنْكَر﴾ هو ما ينكره الشرع، وضمير إنه للشيطان؛ وقيل للشأن وجواب الشرط مقدر سد ما بعد الفاء مسده وهو في الأصل تعليل للجملة الشرطية وبيان لعلة النهي كأنه قيل: من يتبع الشيطان ارتكب الفحشاء والمنكر فإنه لا يأمر إلا بهما ومن كان كذلك لا يجوز اتباعه وطاعته، وقد قرر ذلك النسفي وابن هشام في الباب الخامس من المغني. وتعقب بأنه يأباه ما نص عليه النحاة من أن الجواب لا يحذف إلا إذا كان الشرط ماضياً حتى عدوا من الضرورة قوله:

لئن تك قد ضاقت علي بيوتكم ... ليعلم ربي أن بيتي أوسع

وأجيب بأن الآية ليست من قبيل ما ذكروه في البيت فإنه مما حذف فيه الجواب رأساً وهذا مما أقيم مقامه ما يصح جعله جواباً بحسب الظاهر، وقال أبو حيان: الضمير عائد على من الشرطية ولم يعتبر في الكلام حذفاً أصلاً، والمعنى على ذلك من يتبع الشيطان فإنه يصير رأساً في الضلال بحيث يكون آمراً بالفحشاء والمنكر وهو مبني على اشتراط ضمير في جواب الشرط الاسمي يعود إليه وسيأتي إن شاء الله تعالى ما فيه.

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بما من جملته إنزال هاتيك الآيات البينات والتوفيق للتوبة الممحصة من الذنوب وكذا شرع الحدود المكفر لما عدا الردة منها على ما ذهب إليه جمع وأجابوا عن حديث أبي هريرة السابق آنفاً بأنه كان قبل أن يوحى إليه ﷺ بذلك ﴿مَا زَكَى﴾ أي ما طهر من دنس الذنوب.

وقرأ روح والأعمش «ما زكى» بالتشديد والإمالة، وكتب «زكي» المخفف بالياء مع أنه من ذوات الواو وحقها أن تكتب بالألف، قال أبو حيان: لأنه قد يمال أو حملاً على المشدد، ومن في قوله تعالى: ﴿منكُمْ﴾ بيانية، وفي قوله سبحانه: ﴿منْ أَحَد﴾ سيف خطيب و ﴿أحد﴾ في حيز الرفع على الفاعلية على القراءة الأولى وفي محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية والفاعل عليها ضميره تعالى أي ما زكى الله تعالى منكم أحداً ﴿أبَداً﴾ لا إلى غاية ﴿وَلَكنَّ الله يُزَكّي﴾ يطهر ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة وقبولها منه كما فعل سبحانه بمن سلم عن داء النفاق ممن وقع في شرك الإفك منكم.

﴿وَالله سَميعٌ﴾ مبالغ في سمعه الأقوال التي من جملتها ما أظهروه من التوبة ﴿عَليمٌ﴾ بجميع المعلومات التي من جملتها نياتهم، وفيه حث لهم على الإخلاص في التوبة، وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد الاستقلال التذييلي ﴿وَلاَ يَأْتَل﴾ أي لا يحلف افتعال من الألية.

وقال أبو عبيدة. واختاره أبو مسلم: أي لا يقصر من الألو بوزن الدلو والألو بوزن العتو، قيل: والأول أوفق بسبب النزول وذلك أنه صح عن عائشة وغيرها أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه حلف لما رأى براءة ابنته أن لا ينفق على مسطح شيئاً أبداً وكان من فقراء المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدراً وكان ابن خالته، وقيل: ابن أخته رضي الله تعالى عنه فنزلت ﴿ولا يأتل﴾ الخ وهذا هو المشهور.

وعن محمد بن سيرين أن أبا بكر حلف لا ينفق على رجلين كانا يتيمين في حجره حيث خاضا في أمر عائشة أحدهما مسطح فنزلت، وعن ابن عباس، والضحاك أنه قطع جماعة من المؤمنين منهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه منافعهم عمن قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم فيه فنزلت، وقرأ عبد الله بن عباس بن ربيعة وأبو جعفر مولاه وزيد بن أسلم «يتال» مضارع تالى بمعنى حلف، قال الشاعر:

تالى ابن أوس حلفة ليردني ... إلى نسوة لي كأنهن مقائد

وهذه القراءة تؤيد المعنى الأول ليأتل ﴿أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي الزيادة في الدين ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أي في المال ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أي على أن لا يؤتوا أو كراهة أن يؤتوا أو لا يقصروا في أن يؤتوا.

وقرأ أبو حيوة وابن قطيب وأبو البرهسم «تؤتوا» بتاء الخطاب على الالتفات.

﴿أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد بناء على ما علمت من أن الآية نزلت على الصحيح بسبب حلف أبي بكر أن لا ينفق على مسطح وهو متصف كما سمعت بها فالعطف لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الموصوفات، والجمع وإن كان السبب خاصاً لقصد العموم وعدم الاكتفاء بصفة للمبالغة في إثبات استحقاق مسطح ونحوه الإيتاء فإن من اتصف بواحدة من هذه الصفات إذا استحقه فمن جمعها بالطريق الأولى، وقيل: هي لموصوفات أقيمت هي مقامها وحذف المفعول الثاني لغاية ظهوره أي أن يؤتوهم شيئاً ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ ما فرط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإغضاء عنه، وقرأ عبد الله والحسن وسفيان بن الحسين وأسماء بنت يزيد «ولتعفو ولتصفحوا» بتاء الخطاب على وفق قوله تعالى:

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته سبحانه على المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها، وفيه ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل: ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته، وصح أن أبا بكر لما سمع الآية قال: بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا وأعاد له نفقته، وفي رواية أنه صار يعطيه ضعفي ما كان يعطيه أولاً، ونزلت هذه الآية على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بعد أن أقبل مسطح إلى أبي بكر معتذراً فقال: جعلني الله تعالى فداك والله الذي أنزل على محمد ﷺ ما قذفتها وما تكلمت بشيء مما قيل لها أي خال فقال أبو بكر ولكن قد ضحكت وأعجبك الذي قيل فيها فقال مسطح لعله يكون قد كان بعض ذلك، وفي الآية من الحث على مكارم الأخلاق ما فيها. واستدل بها على فضل الصديق رضي الله تعالى عنه لأنه داخل في أولي الفضل قطعاً لأنه وحده أو مع جماعة سبب النزول، ولا يضر في ذلك عموم الحكم لجميع المؤمنين كما هو الظاهر، ولا حاجة إلى دعوى أنها فيه خاصة والجمع للتعظيم، وكونه مخصوصاً بضمير المتكلم مردود على أن فيها من ارتكاب خلاف الظاهر ما فيها، وأجاب الرافضة بأن المراد بالفضل الزيادة في المال، ويرد عليه أنه حينئذ يتكرر مع قوله سبحانه: ﴿والسعة﴾ وادعى الإمام أنها تدل على أن الصديق رضي الله تعالى عنه أفضل جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبين ذلك بما هو بعيد عن فضله، وذكر أيضاً دلالتها على وجوه من مدحه رضي الله تعالى عنه وأكثرها للبحث فيها مجال، واستدل بها

على أن ما لا يكون ردة من المعاصي لا يحبط العمل وإلا لما سمى الله تعالى مسطحاً مهاجراً مع أنه صدر منه ما صدر، وعلى أن الحلف على ترك الطاعة غير جائز لأنه تعالى نهى عنه بقوله سبحانه: ﴿لا يأتل﴾ ومعناه على ما يقتضيه سبب النزول لا يحلف، وظاهر هذا حمل النهي على التحريم، وقيل: هو للكراهة، وقيل: الحق أن الحلف على ترك الطاعة قد يكون حراماً، وقد يكون مكروهاً، فالنهي هنا لطلب الترك مطلقاً وفيه بحث.

وذكر جمهور الفقهاء أنه إذا حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه كما جاء في الحديث، وقال بعضهم. إذا حلف فليأت الذي هو خير وذلك كفارته كما جاء في حديث آخر.

وتعقب بأن المراد من الكفارة في ذلك الحديث تكفير الذنب لا الكفارة الشرعية التي هي إحدى الخصال.

﴿إِنَّ الَّذينَ يَرْمُونَ الْـمُحْصَنَاتِ﴾ قد تقدم تفسيرها ﴿الْغَافلاتِ﴾ عما يرمين به بمعنى أنه لم يخطر لهن ببال أصلاً لكونهن مطبوعات على الخير مخلوقات من عنصر الطهارة ففي هذا الوصف من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في المحصنات ﴿الْـمُؤْمنَاتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها إيماناً حقيقياً تفصيلياً كما ينبىء عنه تأخير المؤمنات عما قبلها مع أصالة وصف الإيمان فإنه للإيذان بأن المراد بها المعنى الوصفي المعرب عما ذكر لا المعنى الاسمي المصحح لإطلاق الاسم في الجملة كما هو المتبادر على تقدير التقديم كذا في إرشاد العقل السليم.

وفرع عليه كون المراد بذلك عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها وروي ما ظاهره ذلك عن ابن عباس وابن جبير، والجمع على هذا باعتبار أن رميها رمي لسائر أمهات المؤمنين لاشتراك الكل في النزاهة والانتساب إلى رسول الله ﷺ، ونظير ذلك جمع «المرسلين» في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [الشعراء: ١٠٥] وقيل: المراد أمهات المؤمنين فيدخل فيهن الصديقة دخولاً أولياً. وروي ما يؤيده عن أبي الجوزاء والضحاك وجاء أيضاً عن ابن عباس ما يقتضيه، فقد أخرج عند سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه أنه رضي الله تعالى عنه قرأ سورة النور ففسرها فلما أتى على هذه الآية ﴿إن الذين﴾ الخ قال: هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة ثم قرأ ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا﴾ [النور: ٤ . ٥] الخبر، وظاهره أنه لا تقبل توبة من قذف إحدى الأزواج الطاهرات رضي الله تعالى عنهن.

وقد جاء عنه في بعض الروايات التصريح بعدم قبول توبة من خاض في أمر عائشة رضي الله تعالى عنها، ولعل ذلك منه خارج مخرج المبالغة في تعظيم أمر الإفك كما ذكرنا أولاً وإلا فظاهر الآيات قبول توبته وقد تاب من تاب من الخائضين كمسطح وحسان وحمنة ولو علموا أن توبتهم لا تقبل لم يتوبوا، نعم ظاهر هذه الآية على ما سمعت من المراد من الموصوف بتلك الصفات كفر قاذف أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن لأن الله عز وجل رتب على رميهن عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين فقال سبحانه ﴿لُعِنُوا﴾ أي بسبب رميهم إياهن ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخرَة﴾ حيث يلعنهم اللاعنون والملائكة في الدارين ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذكر من اللعن ﴿عَذَابٌ عَظيمٌ﴾ هائل لا يقادر قدره لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية.

وكذا ذكر سبحانه أحوالاً مختصة بأولئك فقال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ الخ، ودليل الاختصاص قوله

سبحانه: ﴿ويوم يحشر أعداء الله﴾ [فصلت: ١٩] إلى آخر الآيات الثلاث، ومن هنا قيل: إنه لا يجوز أن يراد بالمحصنات الخ المتصفات بالصفات المذكورة أمهات المؤمنين وغيرهن من نساء الأمة لأنه لا ريب في أن رمي غير أمهات المؤمنين ليس بكفر، والذي ينبغي أن يعول الحكم عليه بكفر من رمى إحدى أمهات المؤمنين بعد نزول الآيات وتبين أنهن طيبات سواء استباح الرمي أم قصد الطعن برسول الله ﷺ أم لم يستبح ولم يقصد، وأما من رمى قبل فالحكم بكفره مطلقاً غير ظاهر.

والظاهر أنه يحكم بكفره إن كان مستبيحاً أو قاصداً الطعن به عليه الصلاة والسلام كابن أبيّ لعنه الله تعالى فإن ذلك مما يقتضيه إمعانه في عداوة رسول الله ﷺ ولا يحكم بكفره إن لم يكن كذلك كحسان ومسطح وحمنة فإن الظاهر أنهم لم يكونوا مستحلين ولا قاصدين الطعن بسيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله أجمعين وإنما قالوا ما قالوا تقليداً فوبخوا على ذلك توبيخاً شديداً، ومما يدل دلالة واضحة على عدم كفر الرامين قبل بالرمي أنه عليه الصلاة والسلام لم يعاملهم معاملة المرتدين بالإجماع وإنما أقام عليهم حد القذف على ما جاء في بعض الروايات فالآية بناء على القول بخصوص المحصنات وهو الذي تعضده أكثر الروايات إن كانت لبيان حكم من يرمي عائشة أو إحدى أمهات المؤمنين مطلقاً بعد تلك القصة كما هو ظاهر الفعل المضارع الواقع صلة الموصول فأمر الوعيد المذكور فيها على القول بأنه مختص بالكفار والمنافقين ظاهر لما سمعت من القول بكفر الرامي لإحدى أمهات المؤمنين بعد مطلقاً، وإن كانت لبيان حكم من رمى قبل احتاج أمر الوعيد إلى القول بأن المراد بالموصول أناس مخصوصون رموا عائشة رضي الله تعالى عنها استباحة لعرضها وقصد إلى الطعن برسول الله ﷺ كابن أبيّ وإخوانه المنافقين عليهم اللعنة، وعلى هذا يكون التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة التي هي من أغرب الغرائب أو للإشارة كما قيل إلى أن شأنهم الرمي وأنه يتجدد منهم آناً فآناً. وعلى هذا يمكن أن يقال المراد بيان حكم من لم يتب من الرمي فإن التائب من فعل قلما يقال فيه إن شأنه ذلك الفعل فيكون الوعيد مخصوصاً بمن لم يتب.

والذي تقتضيه الأخبار أن كل من وقع في تلك المعصية تاب سوى اللعين ابن أبيّ وأشياعه من المنافقين. وعن ابن عباس أنها نزلت فيه خاصة ولا يخفى وجه الجمع عليه، وقيل المراد بيان حكم من رمى والوعيد مشروط بعدم التوبة ولم يذكر للعلم به من القواعد المستقرة إذ الذنب كيفما كان يغفر بالتوبة، فلا حاجة إلى أن يقال: المراد إن الذين شأنهم الرمي ليشعر بعدم التوبة، والظاهر أن من لم يتب بعد نزول هذه الآيات كافر وليس هو إلا اللعين وأشياعه المنافقين.

واختار جمع وقال النحاس: هو أحسن ما قيل أن الحكم عام فيمن يرمي الموصوفات بالصفات المذكورة من نساء الأمة، ورميهن إن كان مع استحلال فهو كفر فيستحق فاعله الوعيد المذكور وإن لم يتب على ما علم من القواعد؛ وإن كان بدون استحلال فهو كبيرة وليس بكفر، ويحتاج إلى منع اختصاص تلك العقوبات والأحوال بالكفار والمنافقين أو التزام القول بأن ذلك ثابت للجنس ويكفي في ثبوته لبعض أفراده ولا شك أن فيها من يموت كافراً. وفي البحر يناسب أن تكون هذه الآية كما قيل نزلت في مشركي مكة كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا: خرجت لتفجر قاله أبو حمزة اليماني، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يوم تشهد﴾ الخ اهـ.

وأنت تعلم أن الأوفق بالسياق والسباق ما عليه الأكثر من نزولها في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وحكم رمي سائر أمهاتهم حكم رميها وكذا حكم رمي سائر أزواج الأنبياء عليهم السلام وكذا أمهاتهم، وعندي أن حكم رمي بنات النبي عليه الصلاة والسلام كذلك لا سيما بضعته الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء صلى الله تعالى

على أبيها وعليها وسلم ولم أر من تعرض لذلك فتدبر، واعلم أنه لا خلاف في جواز لعن كافر معين تحقق موته على الكفر إن لم يتضمن إيذاء مسلم أو ذمي إذا قلنا باستوائه مع المسلم في حرمة الإيذاء أما إن تضمن ذلك حرم.

ومن الحرام لعن أبي طالب على القول بموته كافراً بل هو من أعظم ما يتضمن ما فيه إيذاء من يحرم إيذاؤه، ثم إن لعن من يجوز لعنه لا أرى أنه يعد عبادة إلا إذا تضمن مصلحة شرعية، وأما لعن كافر معين حي فالمشهور أنه حرام ومقتضى كلام حجة الإسلام الغزالي أنه كفر لما فيه من سؤال تثبيته على الكفر الذي هو سبب اللعنة وسؤال ذلك كفر؛ ونص الزركشي على ارتضائه حيث قال عقبة: فتفطن لهذه المسألة فإنها غريبة وحكمها متجه وقد زل فيه جماعة، وقال العلامة ابن حجر في ذلك: ينبغي أن يقال: إن أراد بلعنه الدعاء عليه بتشديد الأمر أو أطلق لم يكفر وإن أراد سؤال بقائه على الكفر أو الرضى ببقائه عليه كفر: ثم قال: فتدبر ذلك حق التدبر فإنه تفصيل متجه قضت به كلماتهم اهـ.

وكلعن الكافر الحي المعين بالشخص في الحرمة لعن الفاسق كذلك، وقال السراج البلقيني: بجواز لعن العاصي المعين واحتج على ذلك بحديث الصحيحين «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح» وهو ظاهر فيما يدعيه؛ وقول ولده الجلال البلقيني في بحثه معه: يحتمل أن يكون لعن الملائكة لها ليس بالخصوص بل بالعموم بأن يقولوا: لعن الله من دعاها زوجها إلى فراشه فأبت فبات غضبان بعيد جداً. ومما يؤيد قول السراج خبر مسلم أنه ﷺ مرّ بحمار وسم في وجهه فقال: «لعن الله من فعل هذا» وهو أبعد عن الاحتمال الذي ذكره ولده، وقد صح أنهﷺ لعن قبائل من العرب بأعيانهم فقال: «اللهم العن رعلاً وذكوان وعصية عصوا الله تعالى ورسوله»، وفيه نوع تأييد لذلك أيضاً، لكن قيل: إنه يجوز أن يكون قد علم عليه الصلاة والسلام موتهم أو موت أكثرهم على الكفر فلم يلعن ﷺ إلا من علم موته عليه، ولا يخفى عليك الأحوط في هذا الباب، فقد صح «من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه» وأرى الدعاء للعاصي المعين بالصلاح أحب من لعنه على القول بجوازه، وأرى لعن من لعنه رسول الله ﷺ بالوصف أو بالشخص عبادة من حيث إن فيه اقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذا لعن من لعنه الله تعالى على الوجه الذي لعنه سبحانه به، هذا وقوله عز وجل: ﴿يوم تشهد﴾ إلخ إما متصل بما قبله مسوق لتقرير العذاب العظيم بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور جناية الرامين المستتبعة لعقوباتها على كيفية هائلة وهيئة خارقة للعادات فيوم ظرف لما في ﴿لهم﴾ من معنى الاستقرار لا لعذاب كما ذهب إليه الحوفي لما في جواز إعمال المصدر الموصوف من الخلاف، وقيل: لإخلاله بجزالة المعنى وفيه نظر، وإما منقطع عنه على أنه ظرف لا ذكر محذوفاً أو ليوفيهم الآتي كما قيل بكل، واختير أنه ظرف لفعل مؤخر وقد ضرب عنه الذكر صفحاً للإيذان بأن العبارة لا تكاد تحيط بتفصيل ما يقع فيه من العظائم والكلام مسوق لتهويل اليوم بتهويل ما يحويه كأنه قيل: يوم تشهد عليهم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يظهر من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال على أن الموصول المذكور عبارة عن جمع أعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة لا عن جناياتهم المعهودة فقط.

ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنه عز وجل ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها لا أن كلاً منها يخبر بجناياتهم المعهودة فحسب. والموصول المحذوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتبة عليها كافة لا عن إحداها خاصة ففيه من ضروب التهويل بالإجمال والتفصيل ما لا مزيد عليه قاله شيخ الإسلام، ثم قال: وجعل الموصول المذكور عبارة عن جناياتهم المعودة وحمل شهادة الجوارح على إخبار الكل

بها فقط تحجير للواسع وتهوين للأمر الرادع. والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرارهم على هاتيك الأعمال في الدنيا وتجددها منهم آناً فآناً. وتقديم ﴿عليهم﴾ على الفاعل للمسارعة إلى كون الشهادة ضارة لهم مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر اهـ ولا يخلو عن حسن.

وجوز أن تكون الشهادة بما ذكر مجازاً عن ظهور آثاره على هاتيك الأعضاء بحيث يعلم من يشاهدهم ما عملوه وذلك بكيفية يعلمها الله تعالى. واعترض بأنه معارض بقوله تعالى: ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ [فصلت: ٢١].

وأجيب بأن مجوز ما ذكر يجعل النطق مجازاً عن الدلالة الواضحة كما قيل به في قولهم نطقت الحال أو يقول: هذا في حال وذاك في حال أو كل منهما في قوم.

ولا يخفى أن الظاهر بقاء الشهادة على حقيقتها إلا أنه استشكل ذلك بأنه حينئذ يلزم التعارض بين ما هنا وقوله تعالى في سورة يس ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ الآية [يس: ٦٥] لأن الختم على الأفواه ينافي شهادة الألسن.

وأجيب بأن المراد من الختم على الأفواه منعهم عن التكلم بالألسنة التي فيها وذلك لا ينافي الألسنة نفسها الذي هو المراد من الشهادة كما أشرنا إليها فإن الألسنة في الأول آلة للفعل وفي الثاني فاعلة له فيجتمع الختم على الأفواه وشهادة الألسن بأن يمنعوا عن التكلم بالألسنة وتجعل الألسنة نفسها ناطقة متكلمة كما جعل سبحانه الذراع المسموم ناطقاً متكلماً حتى أخبر النبي ﷺ بأنه مسموم وللمعتزلة في ذلك كلام، وقيل في التوفيق يجوز أن يكون كل من الختم والشهادة في موطن وحال، وأن يكون الشهادة في حق الرامين والختم في حق الكفرة، وكأنه لما كانت هذه الآية في حق القاذف بلسانه وهو مطالب معه بأربعة شهداء ذكر فيها خمسة أيضاً وصرح باللسان الذي به عمله ليفضحه جزاء له من جنس عمله قاله الخفاجي وقال: إنها نكتة سرية والله تعالى أعلم بأسرار كتابه فتدبر.

وقرأ الأخوان و الزعفراني وابن مقسم وابن سعدان «يشهد» بالياء آخر الحروف ووجهه ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله سبحانه: ﴿يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ والتنوين عوض عن الجملة المضافة إليها، والتوفية إعطاء الشيء وافياً، والدين هنا الجزاء ومنه كما تدين تدان، والحق الموجد بحسب مقتضى الحكمة، وقريب منه تفسيره بالثابت الذي يحق أن يثبت لهم لا محالة أي يومئذٍ تشهد عليهم أعضاؤهم المذكورة بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم المطابق لمقتضى الحكمة وافياً تاماً، والكلام استئناف مسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المبهم المحذوف فيما سبق على وجه الإجمال، وجوز أن يكون ﴿يومئذ﴾ بدلاً من ﴿يوم تشهد﴾ من جوز تعلق ذاك بيوفيهم. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «يُوفِيهم» مخففاً، وقرأ عبد الله ومجاهد وأبو روق وأبو حيوة «الحقُّ» بالرفع على أنه صفة للاسم الجليل، ويجوز الفصل بالمفعول بين الموصوف وصفته، ومعنى الحق على هذه القراءة على ما قال الراغب الموجد للشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة، وفسره بعضهم بالعادل، والأكثرون على تفسيره بالواجب لذاته، وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ والمبين إما من أبان اللازم أي الظاهر حقيته على تقدير جعله نعتاً للحق أو الظاهر ألوهيته عز وجل على تقدير جعله خبراً ثانياً أو من أبان المعتدي أي المظهر للأشياء كما هي في أنفسها، وجملة ﴿يعلمون﴾ معطوفة على جملة ﴿يوفيهم الله﴾ فإن كانت مقيدة بما قيدت به الأولى فالمعنى يوم إذ تشهد عليهم أعضاؤهم المذكورة بأعمالهم القبيحة يعلمون أن الله الخ، وإن لم تكن مقيدة بذلك جاز أن يكون المعنى ويعلمون عند معاينتهم الأهوال والخطوب أن الله الخ، والظاهر أن الشهادة على الأول وللمعاينة على الثاني دخلاً في حصول العلم بمضمون ما في حيز

﴿يعلمون﴾ فتأمل لتعرف كيفية الاستدلال على ذلك فإن فيه خفاء لا سيما مع ملاحظة الحصر المأخوذ من تعريف الطرفين وضمير الفصل، وقيل: إن علم الخلق بصفاته تعالى يوم القيامة ضروري: وإن تفاوتوا في ذلك من بعض الوجوه فيعلمون ما ذكر من غير مدخلية أحد الأمرين، ولعل فائدة هذا العلم يأسهم من إنقاذ أحد إياهم مما هم فيه أو انسداد باب الاعتراض المروح للقلب في الجملة عليهم أو تبين خطئهم في رميهم حرم رسول الله ﷺ بالباطل لما أن حقيته تأبى كونه عز وجل حقاً أي موجداً للأشياء بحسب ما تقتضيه الحكمة لما قدمنا من أن فجور زوجات الأنبياء عليهم السلام مخل بحكمة البعثة، وكذا تأبى كونه عز وجل حقاً أي واجباً لذاته بناء على أن الوجوب الذاتي يستتبع الإنصاف بالحكمة بل بجميع الصفات الكاملة، وهذه الجملة ظاهرة جداً في أن الآية في ابن أُبيّ وأضرابه من المنافقين الرامين حرم الرسول ﷺ لأن المؤمن عالم أن الله تعالى هو الحق المبين منذ كان في الدنيا لا أنه يحدث له علم ذلك يوم القيامة. ومن ذهب إلى أنها في الرامين من المؤمنين أو فيهم وفي غيرهم من المنافقين قال: يحتمل أن يكون المراد من العلم بذلك التفات الذهن وتوجهه إليه ولا يأبى ذلك كونه حاصلاً قبل. قد حمل السيد السند قدس سره في حواشي المطالع العلم في قولهم في تعريف الدلالة كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر على ذلك لئلا يرد أنه يلزم على الظاهر أن لا يكون للفظ دلالة عند التكرار لامتناع علم المعلوم ويحتمل أن يكون قد نزل علمهم الحاصل قبل منزلة غير الحاصل لعدم ترتب ما يقتضيه من الكف عن الرمي عليه ومثل هذا التنزيل شائع في الكتاب الجليل، ويحتمل أن يكون المراد يعلمون عياناً مقتضى أن الله هو الحق المبين . أعني الانتقام من الظالم للمظلوم . ويحتمل غير ذلك.

وأنت تعلم أن الكل خلاف الظاهر فتدبر، وقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ إلخ كلام مستأنف مؤسس على السنة الجارية فيما بين الخلق على موجب أن الله تعالى ملكاً يسوق الأهل إلى الأهل، وقول القائل: «إن الطيور على أشباهها تقع» أي الخبيثات من النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال أي مختصات بهم لا يتجاوزنهم إلى غيرهم على أن اللام للاختصاص ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ أيضاً ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ لأن المجانسة من دواعي الانضمام ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ منهن ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ منهم ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ أيضاً ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ منهن بحيث لا يتجاوزونهن إلى من عداهن وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين وخيرة الأولين والآخرين تبين كون الصديقة رضي الله تعالى عنها من أطيب الطيبات بالضرورة واتضح بطلان ما قيل فيها من الخرافات حسبما نطق به قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ على أن الإشارة إلى أهل البيت النبوي رجالاً ونساء ويدخل في ذلك الصديقة رضي الله تعالى عنها دخولاً أولياً، وقيل: إلى رسول الله ﷺ والصديقة وصفوان وقال الفراء: إشارة إلى الصديقة وصفوان والجمع يطلق على ما زاد على الواحد.

وفي الآية على جميع الأقوال تغليب أي أولئك منزهون مما يقوله أهل الإفك في حقهم من الأكاذيب الباطلة. وجعل الموصوف للصفات المذكورة النساء والرجال حسبما سمعت رواه الطبراني عن ابن عباس ضمن خبر طويل ورواه الإمامية عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما واختاره أبو مسلم والجبائي وجماعة وهو الأظهر عندي وجاء في رواية أخرى عن ابن عباس أخرجها الطبراني أيضاً وابن مردويه وغيرهما أن ﴿الخبيثات﴾ و ﴿الطيبات﴾ صفتان للكلم ﴿والخبيثون﴾ و ﴿الطيبون﴾ صفتان للخبيثين من الناس وروي ذلك عن الضحاك والحسن و ﴿الخبيثون﴾ عليه شامل للرجال والنساء على سبيل التغليب وكذا ﴿الطيبون﴾ و ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الطيبين وضمير ﴿يقولون﴾ للخبيثين، وقيل للآفكين أي الخبيثات من الكلم للخبيثين من الرجال والنساء أي مختصة ولاصقة بهم لا ينبغي أن تقال في حق غيرهم وكذا الخبيثون من الفريقين أحقاء بأن يقال في حقهم خبائث الكلم

والطيبات من الكلم للطيبين من الفريقين مختصة وحقيقة بهم وهم أحقاء بأن يقال في شأنهم طيبات الكلم أولئك الطيبون مبرؤون عن الاتصاف مما يقول الخبيثون وقيل الآفكون في حقهم فمآله تنزيه الصديقة رضي الله تعالى عنها أيضاً.

وقيل: المراد الخبيثات من القول مختصة بالخبيثين من فريقي الرجال والنساء لا تصدر عن غيرهم والخبيثون من الفريقين مختصون بالخبيثات من القول متعرضون لها والطيبات من القول للطيبين من الفريقين أي مختصة بهم لا تصدر عن غيرهم والطيبون من الفريقين مختصون بالطيبات من القول لا يصدر عنهم غيرها أولئك الطيبون مبرؤون مما يقول الخبيثون أي لا يصدر عنهم مثل ذلك، وروي ذلك عن مجاهد، والكلام عليه على حذف مضاف إلى ما، ومآله الحط على الآفكين وتنزيه القائلين سبحانك هذا بهتان عظيم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لما لا يخلو البشر عنه من الذنب، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة كما قاله أكثر المفسرين، ويشهد له قوله تعالى في سورة الأحزاب في أمهات المؤمنين ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ [الأحزاب: ٣١] فإن المراد به ثمت الجنة بقرينة ﴿أعتدنا﴾ والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وفي هذه الآيات من الدلالة على فضل الصديقة ما فيها، ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله عز وجل قد غلظ في شيء تغليظه في الإفك وهو دال على فضلها أيضاً، وكانت رضي الله تعالى عنها تتحدث بنعمة الله تعالى عليها بنزول ذلك في شأنها.

فقد أخرج ابن أبي شيبة عنها أنها قالت: خلال فيّ لم تكن في أحد من الناس إلا ما آتى الله تعالى مريم ابنة عمران والله ما أقول هذا اني أفتخر على صواحباتي قيل: وما هن؟ قالت: نزل الملك بصورتي وتزوجني رسول الله ﷺ لسبع سنين وأهديت له لتسع سنين وتزوجني بكراً لم يشركه فيّ أحد من الناس وأتاه الوحي وأنا وإياه في لحاف واحد وكنت من أحب الناس إليه ونزل فيّ آيات من القرآن كادت الأمة تهلك فيهن ورأيت جبريل عليه لسلام ولم يره أحد من نسائه غيري وقبض في بيتي لم يله أحد غير الملك وأنا.

وأخرج ابن مردويه عنها أنها قالت: لقد نزل عذري من السماء ولقد خلقت[1] طيبة عند طيب ولقد وعدت مغفرة وأجراً عظيماً، وفي قوله سبحانه: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ بناء على شموله عائشة رضي الله تعالى عنها رد على الرافضة القائلين بكفرها وموتها على ذلك وحاشاها لقصة وقعة الجمل مع أشياء افتروها ونسبوها إليها، ومما يرد زعم ذلك أيضاً قول عمار بن ياسر في خطبته حين بعثه الأمير كرّم الله تعالى وجهه مع الحسن رضي الله تعالى عنه يستنفران أهل المدينة وأهل الكوفة: إني لأعلم أنها زوجة نبيكم عليه الصلاة والسلام في الدنيا والآخرة ولكن الله تعالى ابتلاكم ليعلم أتطيعونه أم تطيعونها، ومما يقضى منه العجب ما رأيته في بعض كتب الشيعة من أنها خرجت من أمهات المؤمنين بعد تلك الوقعة لأن النبي ﷺ قال للأمير كرم الله تعالى وجهه: قد أذنت لك أن تخرج بعد وفاتي من الزوجية من شئت من أزواجي فأخرجها كرم الله تعالى وجهه من ذلك لما صدر منها معه ما صدر، ولعمري إنَّ هذا مما يكاد يضحك الثكلى، وفي حسن معاملة الأمير كرم الله تعالى وجهه إياها رضي الله تعالى عنها بعد استيلائه على العسكر الذي صحبها الثابت عند الفريقين ما يكذب ذلك، ونحن لا نشك في فضلها رضي الله تعالى عنها لهذه الآيات ولما جاء في مدحها عن رسول الله ﷺ، ولو لم يكن من ذلك سوى ما أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ إن فضل عائشة على

---

(١) بالقاف ويروى بالفاء وتشديد اللام أي تركت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته طيبة ا هـ منه.

النساء كفضل الثريد على الطعام» لكني مع هذا لا أقول بأنها أفضل من بضعته ﷺ الكريمة فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها والوجه لا يخفى، وفي هذا المقام أبحاث تطلب من محلها، ثم إن الذي أراه أن إنزال هذه الآيات في أمرها لمزيد الاعتناء بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام ولجبر قلب صاحبه الصديق رضي الله تعالى عنه وكذا قلب زوجته أم رومان فقد اعتراهما من ذلك الإفك ما الله تعالى أعلم به. ولمزيد انقطاع عائشة رضي الله تعالى عنها إليه عز وجل مع فضلها وطهارتها في نفسها. وقد جاء في خبر غريب ذكره ابن النجار[1] في تاريخ بغداد بسنده عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «كنت جالساً عند أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها لأقر عينها بالبراءة وهي تبكي فقالت: هجرني القريب والبعيد حتى هجرتني الهرة وما عرض عليّ طعام ولا شراب فكنت أرقد وأنا جائعة ظامئة فرأيت في منامي فتى فقال لي: ما لك؟ فقلت: حزينة مما ذكر الناس فقال: ادعي بهذه الدعوات يفرج الله تعالى عنك فقلت: وما هي؟ فقال قولي: يا سابغ النعم ويا دافع النقم ويا فارج الغمم ويا كاشف الظلم يا أعدل من حكم يا حسب من ظلم يا ولي من ظلم يا أول بلا بداية ويا آخر بلا نهاية يا من له اسم بلا كنية اللهم اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً قالت: فانتبهت وأنا ريانة شبعانة وقد أنزل الله تعالى فرجي، ويسمى هذا الدعاء دعاء الفرج فليحفظ وليستعمل، ثم إنه عز وجل إثر ما فصل الزواجر عن الزنا وعن رمي العفائف عنه شرع في تفصيل الزواجر عما عسى يؤدي إلى أحدهما من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والأفاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْر بُيُوتِكُمْ﴾ إلخ، وسبب النزول على ما أخرج الفريابي وغيره من طريق عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار أن امرأة قالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أحب أن يراني عليها أحد لا ولد ولا والد فيأتيني آت فيدخل عليّ فكيف أصنع؟ فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلخ، وإضافة البيوت إلى ضمير المخاطبين لامية اختصاصية، والمراد عند بعض الاختصاص الملكي، ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم بهذا المعنى خارج مخرج العادة التي هي سكنى كل أحد في ملكه وإلا فالآجر والمعير أيضاً منهيان عن الدخول بغير إذن.

وقال بعضهم: المراد اختصاص السكنى أي غير بيوتكم التي تسكنونها لأن كون الآجر والمعير منهيين كغيرهما عن الدخول بغير إذن دليل على عدم إرادة الاختصاص الملكي فيحمل ذلك على الاختصاص المذكور فلا حاجة إلى القول بأن ذاك خارج مخرج العادة، وقرىء ﴿بِيوتاً غير بِيوتكم﴾ بكسر الباء لأجل الياء ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها، وتفسيره بذلك أخرجه ابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ر ضي الله تعالى عنهما، ويخالفه ما روى الحاكم وصححه والضياء في المختارة والبيهقي في شعب الإيمان وناس آخرون عنه أنه قال في ﴿حتى تستأنسوا﴾ أخطأ الكاتب وإنما هي «حتى تستأذنوا» لكن قال أبو حيان: من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين وابن عباس بريء من ذلك القول انتهى.

وأنت تعلم أن تصحيح الحاكم لا يعول عليه عند أئمة الحديث لكن للخبر المذكور طرق كثيرة، وكتاب الأحاديث المختارة للضياء كتاب معتبر، فقد قال السخاوي في فتح المغيث في تقسيم أهل المسانيد ومنهم من يقتصر على الصالح للحجة كالضياء في مختارته، والسيوطي بعد ما عد في ديباجة جمع الجوامع الكتب الخمسة

---

(١) ونقله السيوطي في الدر المنثور ا هـ منه.

وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان والمستدرك والمختارة للضياء قال وجميع ما في هذه الكتب الخمسة صحيح.

ونقل الحافظ ابن رجب في طبقات الحنابلة عن بعض الأئمة أنه قال: كتاب المختارة خير من صحيح الحاكم فوجود هذا الخبر هناك مع ما ذكر من تعدد طرقه يبعد ما قاله أبو حيان، وابن الأنباري أجاب عن هذا الخبر ونحوه من الأخبار الطاعنة بحسب الظاهر في تواتر القرآن المروية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وسيأتي في تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى بعضها أيضاً. بأن الروايات ضعيفة ومعارضة بروايات أخر عن ابن عباس أيضاً وغيره وهذا دون طعن أبي حيان. وأجاب ابن اشته عن جميع ذلك بأن المراد الخطأ في الاختيار وترك ما هو الأولى بحسب ظنه رضي الله تعالى عنه لجمع الناس عليه من الأحرف السبعة لا أن الذي كتب خطأ خارج عن القرآن.

واختار الجلال السيوطي هذا الجواب وقال: هو أولى وأقعد من جواب ابن الأنباري، ولا يخفى عليك أن حمل كلام ابن عباس على ذلك لا يخلو عن بعد لما أن ما ذكر خلاف ظاهر كلامه، وأيضاً ظن ابن عباس أولوية ما أجمع سائر الصحابة رضي الله تعالى عنهم على خلافه مما سمع من رسول الله ﷺ في العرضة الأخيرة بعيد وكأنهم رأوا أن التزام ذلك أهون من إنكار ثبوت الخبر عن ابن عباس مع تعدد طرقه وإخراج الضياء إياه في مختارته، ويشجع على هذا الإنكار اعتقاد جلالة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وثبوت الإجماع على تواتر خلاف ما يقتضيه ظاهر كلامه فتأمل.

واستعمال الاستئناس بمعنى الاستئذان بناء على أنه استفعال من آنس الشيء بالمد علمه أو أبصره وإبصاره طريق إلى العلم فالاستئناس استعلام والمستأذن طالب العلم بالحال مستكشف أنه هل يراد دخوله أو لا.

وقيل الاستئناس خلاف الاستيحاش فهو من الأنس بالضم خلاف الوحشة. والمراد به المأذونية فكأنه قيل: حتى يؤذن لكم فإن من يطرق بيت غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فإذا أذن له استأنس، وهو في ذلك كناية أو مجاز، وقيل: الاستئناس من الإنس بالكسر بمعنى الناس أي حتى تطلبوا معرفة من في البيوت من الإنس. وضعف بأن فيه اشتقاقاً من جامد كما في المسرج أنه مشتق من السراج وبأن معرفة من في البيت لا تكفي بدون الإذن فيوهم جواز الدخول بلا إذن. ومن الناس من رجحه بمناسبته لقوله تعالى: **﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾** ولا يكافىء التضعيف بما سمعت.

وذهب الطبري إلى أن المعنى حتى تؤنسوا أهل البيت من أنفسكم بالاستئذان ونحوه وتؤنسوا أنفسكم بأن تعلموا أن قد شعر بكم ولا يخفى ما فيه، وقيل: المعنى حتى تطلبوا علم أهل البيت، والمراد حتى تعلموهم على أتم وجه، ويرشد إلى ذلك ما روي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: قلنا يا رسول الله ما الاستئناس؟ فقال: «يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة يتنحنح يؤذن أهل البيت» وما أخرجه ابن المنذر وجماعة عن مجاهد أنه قال: تستأنسوا تنحنحوا وتنخموا، وقيل المراد حتى تؤنسوا أهل البيت بإعلامهم بالتسبيح أو نحوه، والخبران المذكوران لا يأبيانه وكلا القولين كما ترى، وفي دلالة ما ذكر من تفسير الاستئناس في الخبر على ما سبق له بحث سنشير إليه إن شاء الله تعالى **﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾** أي الساكنين فيها، وظاهر الآية بأن الاستئذان قبل التسليم وبه قال بعضهم.

وقال النووي: الصحيح المختار تقديم التسليم على الاستئذان، فقد أخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ السلام قبل الكلام» وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة فيمن يستأذن قبل أن يسلم قال: لا يؤذن له حتى يسلم، وأخرج ابن أبي شيبة وابن وهب في كتاب المجالس عن زيد بن أسلم قال: أرسلني أبي إلى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فجئته فقلت: أألج؟ فقال: ادخل فلما دخلت قال:

مرحباً يا ابن أخي لا تقل أألج ولكن قل: السلام عليكم فإذا قيل: وعليك فقل: أأدخل؟ فإذا قالوا: ادخل فادخل.

وأخرج قاسم بن أصبغ وابن عبد البر في التمهيد عن ابن عباس قال: استأذن عمر رضي الله تعالى عنه على النبي ﷺ فقال: السلام على رسول الله السلام عليكم أيدخل عمر؟ واختار الماوردي التفصيل وهو أنه إن وقعت عين المستأذن على من في البيت قبل دخوله قدم السلام وإلا قدم الاستئذان، والظاهر أن الاستئذان بما يدل على طلب الإذن صريحاً والمأثور المشهور في ذلك أأدخل؟ كما سمعت، وجوز أن يكون بما يفهم منه ذلك مطلقاً وجعلوا منه التسبيح والتكبير ونحوهما مما يحصل به إيذان أهل البيت بالجائي فإن في إيذانهم دلالة على ما طلب الإذن منهم، وحملوا ما تقدم من حديث أبي أيوب وكلام مجاهد على ذلك، وهو على ما روي عن عطاء واجب على كل محتلم ويكفي فيه المرة الواحدة على ما يقتضيه ظاهر الآية، وأخرج البيهقي في الشعب وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال: كان يقال الاستئذان ثلاثاً فمن لم يؤذن له فيهن فليرجع، أما الأولى فيسمع الحي، وأما الثانية فيأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردوا. وفي الأمر بالرجوع بعد الثلاث حديث مرفوع أخرجه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود عن أبي سعيد الخدري.

وذكر أبو حيان أنه لا يزيد على الثلاث إلا إن تحقق أن من في البيت لم يسمع، وظاهر الآية مشروعية الاستئذان إذا أريد الدخول على المحارم، وقد أخرج مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي؟ قال: نعم قال: ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا قال: فاستأذن عليها» وأخرج ابن جرير، والبيهقي عن ابن مسعود عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم، وهو أيضاً على ما يقتضيه بعض الآثار مشروع للنساء إذا أردن دخول بيوت غير بيوتهن. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أم إياس قالت: كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة رضي الله عنها تعالى عنها فقلت: ندخل؟ فقالت: لا فقال واحد: السلام عليكم أندخل؟ قالت: ادخلوا ثم قالت: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم**﴾ إلخ؛ وإذا صح ذلك ففي الآية نوع تغليب، ووجه مشروعية الاستئذان لهن نحو وجه مشروعيته للرجال فإن أهل البيت قد يكونون على حال لا يحبون اطلاع النساء عليه كما لا يحبون اطلاع الرجال.

وصح من حديث أخرجه الشيخان. وغيرهما «إنما جعل الاستئذان من أجل النظر» ومن هنا لا ينبغي النظر في قعر البيت قبل الاستئذان، وقد أخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «من كان يشهد أني رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتى يستأذن ويسلم فإذا نظر في قعر البيت فقد دخل» وكان رسول الله ﷺ كما أخرج أبو داود والبخاري في الأدب المفرد عن عبد الله بن بشر إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور فاستقبال الباب ربما يفضي إلى النظر، وظاهر الآية أيضاً مشروعية الاستئذان للأعمى لدخوله في عموم الموصول، ووجهها كراهة اطلاعه بواسطة السمع على ما لا يجب أهل البيت اطلاعه عليه من الكلام مثلاً.

وفي الكشاف إنما شرع الاستئذان لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ولم يشرع لئلا يطلع الدامر على عورة أحد ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط، وهو تعليل حسن إلا أنه يحتاج القول بذلك إلى القول بأن قوله عليه الصلاة والسلام إنما جعل الاستئذان من أجل النظر» خارج مخرج الغالب.

وجيء بإنما لمزيد الاعتناء لا للحصر وقد صرحوا بمجيء إنما لذلك فلا تغفل؛ ثم اعلم أن الاستئذان والتسليم

متغايران لكن ظاهر بعض الأخبار يقتضي أن الاستئذان داخل في التسليم كما أن بعضها يقتضي مغايرته له وعدم دخوله فيه، ووجه جعله من التسليم أنه بدونه كالعدم لما أن السنة فيه أن يقرن بالتسليم. هذا وفي مصحف عبد الله كما أخرج ابن جرير وغيره عن إبراهيم «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا» ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة على ما قيل إلى الدخول بالاستئذان والتسليم المفهوم من الكلام، وقيل: إشارة إلى المذكور في ضمن الفعلين المغيا بهما أي الاستئذان والتسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الدخول بغتة والدخول على تحية الجاهلية، فقد كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته يقول: حييتم صباحاً حييتم مساء فيدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف، وخيرية المفضل عليه قيل على زعمهم لما في الانتظار من المذلة ولعدم تحية الجاهلية حسنة كما هو عادة الناس اليوم في قولهم: صباح الخير ومساء الخير، ولعل الأولى أن يقال: إن ذلك من قبيل الخل أحلى من العسل.

وجوز أن يكون ﴿خير﴾ صفة فلا تقدير، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تعليل على ما اختاره جمع لمحذوف أي أرشدتم إلى ذلك أو قيل لكم هذا كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً﴾ بأن كانت خالية من الأهل ﴿فَلاَ تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من جهة من يملك الإذن عند وجدانكم إياه، ووجه ذلك أن الدخول في البيوت الخالية من غير إذن سبب للقيل والقال، وفيه تصرف بملك الغير بغير رضاه وهو يشبه الغصب، وهذه الآية لبيان حكم البيوت الخالية عن أهلها كما أن الآية الأولى لبيان حكم البيوت التي فيها أهلها.

وجوز أن تكون هذه تأكيداً لأمر الاستئناس وأنه لا بدّ منه والأمر دائر عليه، والمعنى فإن لم تجدوا فيها أحداً من الآذنين أي ممن يملك الإذن فلا تدخلوها إلخ ويفيد هذا حرمة دخول ما فيه من لا يملك الإذن كعبد وصبي من دون إذن من يملكه، ومن اختار الأول قال: إن حرمة ما ذكر ثابتة بدلالة النص فتأمل. وقال سبحانه: ﴿فإن لم تجدوا﴾ إلى آخره دون فإن لم يكن فيها أحد لأن المعتبر وجد أنها خالية من الأهل مطلقاً أو ممن يملك ذلك الإذن سواء كان فيها أحد في الواقع أم لم يكن كذا قيل: وعليه فالمراد من قولهم في تفسير ذلك، بأن كانت خالية كونها خالية بحسب الاعتقاد، وكذا يقال في نظيره فلا تغفل، ثم إن ما أفادته الآيتان من الحكم قد خصصه الشرع فجوز الدخول لإزالة منكر توقفت على الدخول من غير إذن أهل البيت والدخول في البيت الخالي لإطفاء حريق فيه أو نحو ذلك.

وقد ذكر الفقهاء السور التي فيها الدخول من غير إذن ممن يملك الإذن فلتراجع، وقيل: المراد بالإذن في قوله سبحانه: ﴿حتى يؤذن لكم﴾ ما يعم الإذن دلالة وشرعاً ولذا وقع بصيغة المجهول وحينئذٍ لا حاجة إلى القول بالتخصيص وفيه خفاء ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ إي إن امرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الآمر من يملك الإذن أم لا فارجعوا ولا تلحوا ﴿هُوَ﴾ أي الرجوع ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي أطهر مما لا يخلو عنه اللج والعناد والوقوف على الأبواب بعد القول المذكور من دنس الدناءة والرذالة أو أنفع لدينكم ودنياكم على أن ﴿أزكى﴾ من الزكاة بمعنى النمو.

والظاهر أن صيغة أفعل في الوجهين للمبالغة، وقيدنا الوقوف على الأبواب بما سمعت لأنه ليس فيه دناءة مطلقاً، فقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان يأتي دور الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب ولا يستأذن حتى يخرج إليه فإذا خرج ورآه قال: يا ابن عم رسول الله لو أخبرتني بمكانك فيقول: هكذا أمرنا أن نطلب العلم، وكأنه رضي الله تعالى عنه عد ذلك من التواضع وهو من أقوى أسباب الفتوح لطالب العلم، وقد أعطاني الله عز

وجل نصيباً وافياً منه فكنت أكثر التلامذة تواضعاً وخدمة للمشايخ والحمد لله تعالى على ذلك ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه فيجازيكم عليه.

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ
﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾
وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ
وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ
نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ
يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا
أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟
فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ
ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ
مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا**﴾ أي بغير استئذان ﴿**بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَة**﴾ أي موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط بل ليتمتع بها من يحتاج إليها كائناً من كان من غير أن يتخذها سكناً كالربط و الخانات والحوانيت والحمامات وغيرها فإنها معدة لمصالح الناس كافة كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿**فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ**﴾ فإنه صفة للبيوت أو استئناف جار مجرى التعليل لنفي الجناح أي فيها حق تمتع لكم كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع والاغتسال وغيرها مما يليق بحال البيوت وداخليها فلا بأس بدخولها بغير استئذان من داخليها من قبل ولا ممن يتولى أمرها ويقوم بتدبيرها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا**﴾ إلخ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله فكيف بتجار قريش الذين يختلفون من مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ولهم بيوت معلومة على الطريق فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان؟ فرخص سبحانه في ذلك فأنزل قوله تعالى: ﴿**ليس عليكم**﴾ إلخ، وعنى الصديق رضي الله تعالى عنه بالبيوت المعلومة الخانات التي في الطرق وهي في الآية أعم من ذلك، ولا عبرة بخصوص السبب فما روي عن ابن جبير ومحمد بن الحنفية والضحاك وغيرهم من تفسيرها فيها بذلك من باب التمثيل، وكذا ما أخرجه جماعة عن عطاء وعبد بن حميد وإبراهيم النخعي أنها البيوت الخربة التي تدخل للتبرز، وأما ما روي عن ابن الحنفية أيضاً من أنها دور مكة فهو من باب التمثيل أيضاً لكن صحة ذلك مبنية

على القول بأن دور مكة غير مملوكة والناس فيها شركاء وقد علمت ما في المسألة من الخلاف.

وأخرج أبو داود في الناسخ وابن جرير عن ابن عباس أن قوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ قد نسخ بقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح﴾ إلخ واستثنى منه البيوت الغير المسكونة، وروي حديث الاستثناء عن عكرمة والحسن وهو الذي يقتضيه ظاهر خبر مقاتل وإليه ذهب الزمخشري وتعقبه أبو حيان بأنه لا يظهر ذلك الآن الآية الأولى في البيوت المملوكة والمسكونة وهذه الآية في البيوت المباحة التي لا اختصاص لها بواحد دون واحد. والذي يقتضيه النظر الجليل أن البيوت فيما تقدم أعم من هذه البيوت فيكون ما ذكر تخصيصاً لذلك وهو المعني بالاستثناء فتدبر ولا تغفل.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجاً أولياً. وتلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ﷺوتفويض ما في حيزه من الأوامر والنواهي إليه عليه الصلاة والسلام قيل لأنها تكاليف متعلقة بأمور جزئية كثيرة الوقوع حرية بأن يكون الآمر بها والمتصدي لتدبيرها حافظاً ومهيمناً عليهم. وقيل: إن ذلك لما أن بعض المؤمنين جاء إلى رسول الله ﷺ كالمستدعي لأن يقول له ما في حيز القول.

فقد أخرج ابن مردويه عن عليّ كرّم الله تعالى وجهه قال: مر رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة فنظر إلى امرأة ونظرت إليه فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشق أنفه فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأخبره أمري فأتاه فقص عليه قصته فقال النبي ﷺ: هذا عقوبة ذنبك وأنزل الله تعالى ﴿قل للمؤمنين﴾ ﴿يَغُضّوا من أَبْصَارِهِمْ﴾ ومفعول القول مقدر، و ﴿يغضوا﴾ جواب لقل لتضمنه معنى حرف الشرط كأنه قيل: إن تقل لهم غضوا يغضوا، وفيه إيذان بأنهم لفرط مطاوعتهم لا ينفك فعلهم عن أمره عليه الصلاة والسلام وأنه كالسبب الموجب له وهذا هو المشهور.

وجوز أن يكون ﴿يغضوا﴾ جواباً للأمر المقدر المقول للقول. وتعقب بأن الجواب لا بد أن يخالف المجاب إما في الفعل والفاعل نحو ائتني أكرمك أو في الفعل نحو أسلم تدخل الجنة أو في الفاعل نحو قم أقم ولا يجوز أن يتوافقا فيه، وأيضاً الأمر للمواجهة و ﴿يغضوا﴾ غائب ومثله لا يجوز، وقيل عليه: إنه لم لا يجوز أن يكون من قبيل «من كانت هجرته» الحديث ولا نسلم أنه لا يجاب الأمر بلفظ الغيبة إذا كان محكياً بالقول لجواز التلوين حينئذ وفيه بحث، ومن أنصف لا يرى هذا الوجه وجيهاً وهو على ما فيه خلاف الظاهر جداً، وجوز الطبرسي. وغيره أن يكون ﴿يغضوا﴾ مجزوماً بلام أمر مقدرة لدلالة ﴿قل﴾ أي قل لهم ليغضوا والجملة نصب على المفعولية للقول، وغض البصر إطباق الجفن على الجفن، و ﴿من﴾ قيل صلة وسيبويه يأبى ذلك في مثل هذا الكلام والجواز مذهب الأخفش، وقال ابن عطية: يصح أن تكون من لبيان الجنس ويصح أن تكون لابتداء الغاية. وتعقبه في البحر بأنه لم يتقدم مبهم لتكون من لبيان الجنس على أن الصحيح أنها ليس من موضوعاتها أن تكون لبيان الجنس انتهى، والجل على أنها هنا تبعيضية؛ والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل، وجعل الغض عن بعض المبصر غض بعض البصر وفيه كما في الكشف كناية حسنة ثم إن غض البصر عما يحرم النظر إليه واجب ونظرة الفجأة التي لا تعمد فيها معفو عنها، فقد أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «لا تتبع النظرة

النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة» وبدأ سبحانه بالإرشاد إلى غض البصر لما في ذلك من سد باب الشر فإن النظر باب إلى كثير من الشرور وهو بريد الزنا وراء الفجور، وقال بعضهم:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين العين موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب فاعلها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر ناظره ما ضر خاطره ... لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

والظاهر أن الإرشاد لكل واحد من المؤمنين ولفظ الجمع لا يأبى ذلك، والظاهر أيضاً أن المؤمنين أعم من العباد وغيرهم، وزعم بعضهم جواز أن يكون المراد بهم العباد والمؤمنين المخلصين على أن يكون المعنى قل للمؤمنين الكاملين يغضوا من أبصارهم ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي عما لا يحل لهم من الزنا واللواطة، ولم يؤت هنا بمن التبعيضية كما أتى بها فيما تقدم لما أنه ليس فيه حسن كناية كما في ذلك. وفي الكشاف دخلت ﴿مِن﴾ في غض البصر دون حفظ الفرج دلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وثديهن وأعضادهن وسوقهن وأقدامهن وكذلك الجواري المستعرضات للبيع والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين وأما أمر الفرج فمضيق، وكفاك فرقاً أن أبيح النظر إلا ما استثني منه وحظر الجماع إلا ما استثنى منه انتهى، وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يقال: المراد غض البصر عن الأجنبية والأجنبية يحل النظر إلى بعضها وأما الفرج فلا طريق إلى الحل فيه أصلاً بالنسبة إلى الأجنبية فلا وجه لدخول ﴿مِن﴾ فيه و فيه تأمل، وقيل: لم يؤت بمن هنا لأن المراد من حفظ الفروج سترها.

فقد أخرج ابن المنذر وجماعة عن أبي العالية أنه قال: كل آية يذكر فيها حفظ الفرج فهو من الزنا إلا هذه الآية في النور ﴿ويحفظوا فروجهم﴾ ﴿ويحفظن فروجهن﴾ فهو أن لا يراها أحد، وروي نحوه عن أبي زيد، والستر مأمور به مطلقاً.

وتعقب بأنه يجوز الكشف في مواضع فلو جيء بمن لكان فيه إشارة إلى ذلك، وتفسير حفظ الفروج هنا خاصة بسترها قيل لا يخلو عن بعد لمخالفته لما وقع في القرآن الكريم كما اعترف به من فسره بماذكر.

واختار بعض المدققين أن المراد من ذلك حفظ الفروج عن الإفضاء إلى ما لا يحل وحفظها عن الإبداء لأن الحفظ لعدم ذكر صلته يتناول القسمين، وذكر أن الحفظ عن الإبداء يستلزم الآخر من وجهين عدم خلوه عن الإبداء عادة وكون الحفظ عن الإبداء بل الأمر بالتستر مطلقاً للحفظ عن الإفضاء، ومن هنا تعلم أن من ضعف ما روي عن أبي العالية. وابن زيد بعدم تعرض الآية عليه بحفظ الفرج عن الزنا لم يصب المحز.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الغض والحفظ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي أطهر من دنس الريبة أو انفع من حيث الدين والدنيا فإن النظر بريد الزنا وفيه من المضار الدينية أو الدنيوية ما لا يخفى وأفعل للمبالغة دون التفضيل.

وجوز أن تكون للتفضيل على معنى أزكى من كل شيء نافع أو مبعد عن الريبة، وقيل على معنى أنه أنفع من الزنا والنظر الحرام فإنهم يتوهمون لذة ذلك نفعاً ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء مما يصدر عنهم من الأفاعيل التي من جملتها إجالة النظر واستعمال سائر الحواس وتحريك الجوارح وما يقصدون بذلك فليكونوا على حذر منه عز وجل في كل ما يأتون وما يذرون ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلاينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه كالعورات من الرجال والنساء وهي ما بين السرة والركبة، وفي الزواجر لابن حجر المكي كما يحرم نظر

الرجل للمرأة يحرم نظرها إليه ولو بلا شهوة ولا خوف فتنة، نعم إن كان بينهما محرمية نسب أو رضاع أو مصاهرة نظر كل إلى ما عدا ما بين سرة الآخر وركبته. والمذكور في بعض كتب الأصحاب إن كان نظرها إلى ما عدا السرة والركبة بشهوة حرم وإن بدونها لا يحرم نعم غضها بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها وأحسن، فقد أخرج أبو داود والترمذي وصححه. والنسائي. والبيهقي في سننه عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه الصلاة والسلام فقال رسول الله ﷺ: احتجبا منه فقلت: يا رسول الله هو أعمى لا يبصر قال: أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه؟، واستدل به من قال بحرمة نظر المرأة إلى شيء من الرجل الأجنبي مطلقاً، ولا يبعد القول بحرمة نظر المرأة المرأة إلى ما عدا ما بين السرة والركبة إذا كان بشهوة ولا تستبعد وقوع هذا النظر فإنه كثير ممن يستعملن السحاق من النساء والعياذ بالله تعالى ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق أو من الإبداء أو مما يعم ذلك والإبداء ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي ما يتزين به من الحلي ونحوه ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره والأصل فيه الظهور كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب فلا مؤاخذة في إبدائه للأجانب وإنما المؤاخذة في إبداء ما خفي من الزينة كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط.

وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر لأن هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها إلا لمن استثني في الآية بعد وهي الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن فنهى عن إبداء الزين نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها كالنظر إلى سوار امرأة يباع في السوق لا مقال في حله كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكناً في الخطر ثابت القدم في الحرمة شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله تعالى في الكشف عنها كذا في الكشاف، وهو على ما قال الطيبي مشعر بأن ما ذكر من باب الكناية على نحو قولهم: فلان طاهر الجيب طاهر الذيل.

وقال صاحب الفرائد: هو من باب إطلاق إسم الحالّ على المحل فالمراد بالزينة مواقعها فيكون حرمة النظر إلى المواقع بعبارة النص بدلالته وهي أقوى، وفيه بحث.

وقيل: الكلام على تقدير مضاف أي لا يبدين مواقع زينتهن، وقال ابن المنير: الزينة على حقيقتها وما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله عز وجل: ﴿ولا يضربن بأرجلهن﴾ الآية يحقق أن إبداء الزينة مقصود بالنهي، وأيضاً لو كان المراد من الزينة موقعها للزم أن يحل للأجانب النظر إلى ما ظهر من مواقع الزين الظاهرة وهذا باطل لأن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة، وأنت تعلم أن ابن المنير مالكي وما ذكره مبني على مذهبه وما ذكره الزمخشري مبني على المشهور من مذهب الإمام أبي حنيفة من أن مواقع الزين الظاهرة من الوجه والكفين[١] والقدمين ليست بعورة مطلقاً فلا يحرم النظر إليها، وقد أخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها، وقال يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفه ﷺ، وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿إلا ما ظهر منها﴾ رقعة الوجه وباطن

---

(١) وفي رواية أن الذراعين ليستا بعورة ا هـ منه

الكف، وأخرجا عن ابن عمر أنه قال: الوجه والكفان ولعل القدمين عندهما كالكفين إلا أنهما لم يذكراهما اكتفاء بالعلم بالمقايسة فإن الحرج في سترهما أشد من الحرج في ستر الكفين لا سيما بالنسبة إلى أكثر نساء العرب الفقيرات اللاتي يمشين لقضاء مصالحهن في الطرقات. ومذهب الشافعي عليه الرحمة كما في الزواجر أن الوجه والكفين ظهرهما وبطنهما إلى الكوعين عورة في النظر من المرأة ولو أمه على الأصح وإن كانا ليسا عورة من الحرة في الصلاة، وفي المنهاج وشرحه لابن حجر في باب شروط الصلاة عورة الأمة ولو مبعضة ومكاتبة وأم ولد كعورة الرجل ما بين السرة والركبة في الأصح وعورة الحرة ولو غير مميزة والخنثى الحر ما سوى الوجه والكفين وإنما حرم نظرهما كالزائد على عورة الأمة لأن ذلك مظنة الفتنة، ويجب في الخلوة ستر سوأة الأمة كالرجل وما بين سرة وركبة الحرة فقط إلا لأدنى غرض كتبريد وخشية غبار على ثوب تجمل انتهى.

وذكر في الزواجر حرمة نظر سائر ما انفصل من المرأة لأن رؤية البعض ربما جر إلى رؤية الكل فكان اللائق حرمة نظره أيضاً بل قال: حرم أئمتنا النظر لقلامة ظفر المرأة المنفصلة ولو من يدها، وذهب بعض الشافعية إلى حلّ النظر إلى الوجه والكف إن أمنت الفتنة وليس يعول عليه عندهم، وفسر بعض أجلتهم ما ظهر بالوجه والكفين بعد أن ساق الآية دليلاً على أن عورة الحرة ما سواهما، وعلل حرمة نظرهما بمظنة الفتنة فدل ذلك على أنه ليس كل ما يحرم نظره عورة، وأنت تعلم أن إباحة إبداء الوجه والكفين حسبما تقتضيه الآية عندهم مع القول بحرمة النظر إليهما مطلقاً في غاية البعد فتأمل. واعلم أنه إذا كان المراد النهي عن إبداء مواقع الزينة، وقيل: بعمومها الوجه والكفين والتزم القول بكونهما عورة وحرمة إبدائهما لغير من استثنى بعد يجوز أن يكون الاستثناء في قوله تعالى: ﴿**إلا ما ظهر منها**﴾ من الحكم الثابت بطريق الإشارة وهو المؤاخذة في دار الجزاء، ويكون المعنى أن ما ظهر منها من غير إظهار كأن كشفته الريح مثلاً فهن غير مؤاخذات به في دار الجزاء، وفي حكم ذلك ما لزم إظهاره لنحو تحمل شهادة ومعالجة طبيب، وروى الطبراني والحاكم وصححه وابن المنذر وجمع آخرون عن ابن مسعود أن ما ظهر الثياب والجلباب، وفي رواية الاقتصار على الثياب وعليها اقتصر ايضاً الإمام أحمد. وقد جاء إطلاق الزينة عليها في قوله تعالى: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ [الأعراف: ٣١] على ما في البحر، وجاء في بعض الروايات عن ابن عباس أن ما ظهر الكحل والخاتم والقرط والقلادة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة أنه الكف وثغرة النحر، وعن الحسن أنه الخاتم والسوار. وروي غير ذلك، ولا يخفى أن بعض الأخبار ظاهر في حمل الزينة على المعنى المتبادر منها وبعضها ظاهر في حملها على مواقعها، وقال ابن بحر: الزينة تقع على محاسن الخلق التي فعلها الله تعالى وعلى ما يتزين به من فضل لباس، والمراد في الآية النهي عن إبداء ذلك لمن ليس بمحرم واستثنى ما لا يمكن إخفاؤه في بعض الأوقات كالوجه والأطرف، وأنكر بعضهم إطلاق الزينة على الخلقة، قال في البحر: والأقرب دخولها في الزينة وأي زينة أحسن من الخلقة المعتدلة ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بخمرهنّ عَلَى جُيُوبهن**﴾ إرشاد إلى كيفية إخفاء بعض مواقع الزينة بعد النهي عن إبدائها، والخمر جمع خمار ويجمع في القلة على أخمرة وكلا الجمعين مقيس وهو المقنعة التي تلقيها المرأة على رأسها من الخمر وهو الستر، والجيوب جمع جيب وهو فتح في أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد، وأصله على ما قيل من الجيب بمعنى القطع؛ وفي الصحاح تقول: جبت القميص أجوبه وأجيبه إذا قورت جيبه، قال الراجز:

باتت تجيب أدعج الظلام ... جيب البيطر مدرع الهمام

وإطلاقه على ما ذكر هو المعروف لغة، وأما إطلاقه على ما يكون في الجنب لوضع الدراهم ونحوها كما هو

الشائع بيننا اليوم فليس من كلام العرب كما ذكره ابن تيمية لكنه ليس بخطأ بحسب المعنى، والمراد من الآية كما روى ابن أبي حاتم عن ابن جبير أمرهن بستر نحورهنّ وصدورهن بخمرهن لئلا يرى منها شيء وكان النساء يغطين رؤوسهن بالخمر ويسدلنها كعادة الجاهلية من وراء الظهر فيبدو نحورهن وبعض صدورهن، وصح أنه لما نزلت هذه الآية سارع نساء المهاجرين إلى امتثال ما فيها فشققن مروطهن فاختمرن بها تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله تعالى من كتابه، وعدي يضرب بعلى على ما قال أبو حيان لتضمينه معنى الوضع والإلقاء، وقيل: معنى الشد، وظاهر كلام الراغب أنه يتعدى بعلى بدون تضمين، وقرأ عباس عن أبي عمرو «وليضربن» بكسر اللام وقرأ غير واحد من السبعة «جيوبهن» بكسر الجيم والضم هو الأصل لأن فعلاً بجمع على فعول في الصحيح والمعتل كفلوس وبيوت والكسر لمناسبة الياء، وزعم الزجاج أنها لغة رديئة.

﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرر النهي لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعدما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور ﴿إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي أزواجهن فإنهم المقصودون بالزينة والمأمورات نساؤهم بها لهم حتى أن لهم ضربهن على تركها ولهم النظر إلى جميع بدنهن حتى المحل المعهود كما في إرشاد العقل السليم.

وكره النظر إلى ذلك أكثر الشافعية وحرمه بعضهم، وقيل: إنه خلاف الأولى وهو على ما قال الخفاجي: مذهب الحنفية وتفصيله في الهداية وفيما ذكرنا إشارة إلى وجه تقديم بعولتهن.

﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة وهذا الحكم ليس خاصاً بالآباء الأقربين بل آباء الآباء وإن علوا كذلك ومثلهم آباء الأمهات وكذا ليس خاصاً بالأبناء والبنين الصلبيين بل يعمهم وأبناء الأبناء وبني البنين وإن سفلوا، والمراد بالإخوان ما يشمل الأعيان وهم الإخوة لأب واحد وأم واحدة وبني العلات وهم أولاد الرجل من نسوة شتى والأخياف وهم أولاد المرأة من آباء شتى ونظير ذلك يقال في الأخوات، واستعمل ﴿بني﴾ معهم دون أبناء لأنه أوفق بالعموم وأكثر استعمالاً في الجماعة ينتمون إلى شخص مع عدم اتحاد صنف قرابتهم فيما بينهم ألا ترى أنك كثيراً ما تسمع بني آدم وبني تميم وقلما تسمع أبناء آدم وأبناء تميم وفيما نحن فيه قد يجتمع للمرأة ابن أخ شقيق وابن أخ لأب وابن أخ لأم بل قد يجتمع لها أبناء أخ شقيق أو إخوة أشقاء أعيان وبنو علات وأبناء أخ أو إخوة لأب وأبناء أخ أو إخوة لأم كذلك ويتأتى مثل ذلك في ابن الأخت لكن لا يتصور هنا بنو العلات كما لا يتصور في أبناء الأخ الأخياف والاجتماع في أبنائهن وأبناء بعولتهن وإن اتفق لكنه ليس بتلك المثابة.

وقيل اختير في الأخيرين ﴿بني﴾ لأنه لو جيء بأبناء تلاقت همزتان إحداهما همزة أبناء والثانية همزة إخوان أو أخوات وهو على ما فيه لا يحسم مادة السؤال إذ للسائل أن يقول بعد: لم اختير في الأولين ﴿أبناء﴾ دون ﴿بني﴾ ويحتاج إلى نحو أن يقال اختير ذلك لأنه أوفق بآباء، وقيل اختير ﴿أبناء﴾ في الأولين لهذا، واختير بني في ﴿بني أخواتهن﴾ ليكون المضاف والمضاف إليه من نوع واحد، وفي بني اخوانهن للمشاكلة وفيه ما فيه، ولم يذكر سبحانه الأعمام والأخوال مع أنهم كما قال الحسن. وابن جبير كسائر المحارم في جواز إبداء الزينة لهم قيل لأنهم في معنى الإخوان من حيث كون الجد سواء كان أب الأب أو أب الأم في معنى الأب فيكون ابنه في معنى الأخ، وقيل لم يذكرهم سبحانه لما أن الأحوط أن يستترن عنهم حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم فيؤدي ذلك إلى نظر الأبناء إليهن.

وأخرج ذلك ابن المنذر وابن أبي شيبة عن الشعبي وفيه من الدلالة على وجوب التستر من الأجانب ما فيه. وضعف بأنه يجري في آباء البعولة إذ لو رأوا زينتهن لربما وصفوهن لأبنائهم وهم ليسوا محارم فيؤدي إلى نظرهم إليهن لا سيما إذا كن خليات، وقيل لم يذكروا اكتفاء بذكر الآباء فإنهم عند الناس بمنزلتهم لا سيما الأعمام وكثيراً ما يطلق الأب على العم، ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ [الأنعام: ٧٤] ثم إن المحرمية المبيحة للإبداء كما تكون من جهة النسب تكون من جهة الرضاع فيجوز أن يبدين زينتهنّ لآبائهن وأبنائهن مثلاً من الرضاع ﴿أَوْ نسائهنَّ﴾ المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات فإن الكوافر لا يتحرجن أن يصفنهن للرجال فهن في إبداء الزينة لهن كالرجال الأجانب، ولا فرق في ذلك بين الدمية وغيرها وإلى هذا ذهب أكثر السلف.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كتب إلى أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه أما بعد فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانه من قبلك عن ذلك فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تنظر إلى عورتها إلا من كانت من أهل ملتها. وفي روضة النووي في نظر الذمية إلى المسلمة وجهان أصحهما عند الغزالي أنها كالمسلمة وأصحهما عند البغوي المنع، وفي المنهاج له الأصح تحريم نظر ذمية إلى مسلمة، ومقتضاه أنها معها كالأجنبي واعتمده جمع من الشافعية، وقال ابن حجر: الأصح تحريم نظرها إلى ما لا يبدو في المهنة من مسلمة غير سيدتها ومحرمها ودخول الذميات على أمهات المؤمنين الوارد في الأحاديث الصحيحة دليل لحل نظرها منها ما يبدو في المهنة. وقال الإمام الرازي: المذهب أنها كالمسلمة، والمراد بنسائهن جميع النساء. وقول السلف محمول على الاستحباب وهذا القول أرفق بالناس اليوم فإنه لا يكاد يمكن احتجاب المسلمات عن الذميات.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي من الإماء ولو كوافر وأما العبيد فهم كالأجانب، وهذا مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، وأحد قولين في مذهب الشافعي عليه الرحمة وصححه كثير من الشافعية والقول الآخر أنهم كالمحارم، وصحح أيضاً، ففي المنهاج وشرحه لابن حجر والأصح أن نظر العبد العدل ولا يكفي العفة عن الزنا فقط غير المشترك والمبعض وغير المكاتب كما في الروضة عن القاضي وأقره وإن أطالوا في رده إلى سيدته المتصفة بالعدالة كالنظر إلى محرم فينظر منها ما عدا بين السرة والركبة وتنظر منه ذلك ويلحق بالمحرم أيضاً في الخلوة والسفر اهـ بتلخيص، وإلى كون العبد كالأمة ذهب ابن المسيب ثم رجع عنه وقال: لا يغرنكم آية النور فإنها في الإناث دون الذكور، وعلل بأنهم فحول ليسوا أزواجاً ولا محارم والشهوة متحققة فيهم لجواز النكاح في الجملة كما في الهداية.

وروي عن ابن مسعود والحسن وابن سيرين أنهم قالوا: لا ينظر العبد إلى شعر مولاته، وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن طاوس أنه سئل هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها؟ قال: ما أحب ذلك إلا أن يكون غلاماً يسيراً فأما رجل ذو لحية فلا، ومذهب عائشة وأم سلمة رضي الله تعالى عنهما، وروي عن بعض أئمة أهل البيت رضي الله تعالى عنهم أنه يجوز للعبد أن ينظر من سيدته ما ينظر أولئك المستثنون: وروي عن عائشة أنها كانت تمتشط وعبدها ينظر إليها وأنها قالت لذكوان: إذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر، وعن مجاهد كانت أمهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهن ما بقي عليه درهم.

وأخرج أحمد في مسنده وأبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ أتى فاطمة رضي الله تعالى عنها بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة رضي الله تعالى عنها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك.

والذي يقتضيه ظاهر الآية عدم الفرق بين الذكر والأنثى لعموم «ما» ولأنه لو كان المراد الإناث خاصة لقيل أو إمائهن فإنه أخصر ونص في المقصود، وإذا ضم الخبر المذكور إلى ذلك قوي القول بعدم الفرق والتفصي عن ذلك صعب، وأحسن ما قيل في الجواب عن الخبر أن الغلام فيه كان صبياً إذ الغلام يختص حقيقة به فتأمل، وخرج بإضافة الملك إليهن عبد الزوج فهو والأجنبي سواء قيل: وجعله بعضهم كالمحرم لقراءة «أو ما ملكت أيمانكم» ﴿**أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ**﴾ أي الذين يتبعون ليصيبوا من فضل الطعام غير أصحاب الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الطاعنون في السن الذين فنيت شهواتهم والممسوحون الذين قطعت ذكورهم وخصاهم، وفي المجبوب وهو الذي قطع ذكره والخصي وهو من قطع خصاه خلاف واختير أنهما في حرمة النظر كغيرهما من الأجانب وكان معاوية يرى جواز نظر الخصي ولا يعتد برأيه وهو على ما قيل أول من اتخذ الخصيان، وعن ميسون الكلبية أن معاوية دخل عليها ومعه خصي فتقنعت منه فقال: هو خصي فقالت: يا معاوية أترى أن المثلة به تحلل ما حرم الله تعالى، وليس له أن يستدل بما روي أن المقوقس أهدى للنبي ﷺ خصياً فقبله إذ لا دلالة فيه على جواز إدخاله على النساء.

وأخرج ابن جرير وجماعة عن مجاهد أن غير أولي الإربة الأبله الذي لا يعرف أمر النساء وروي ذلك عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه وعن ابن جبير أنه المعتوه ومثله المجنون كما قال ابن عطية.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه المخنث الذي لا يقوم زبه لكن أخرج مسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث فكانوا يعدونه من غير أولي الإربة فدخل النبي عليه الصلاة والسلام يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي ﷺ: ألا ترى هذا يعرف ما هاهنا لا يدخل عليكن فحجبوه، وجاء أنه عليه الصلاة والسلام أخرجه فكان بالبيداء يدخل كل جمعة يستطعم، ولعل الأولى حمل غير أولي الإربة على الذين لا حاجة لهم بالنساء ولا يعرفون شيئاً من أمورهن بحيث لا تحدثهم أنفسهم بفاحشة ولا يصفونهن للأجانب ولا أرى الاكتفاء في غير أولي الاربة بعدم الحاجة إلى النساء إذ لا تنتفي به مفسدة الإبداء بالكلية كما لا يخفى.

ولعل في الخبر نوع إيماء إلى هذا؛ وفي المنهاج وشرحه لابن حجر عليه الرحمة، والأصح أن نظر الممسوح ذكره كله وأنثياه بشرط أن لا يبقى فيه ميل للنساء أصلاً وإسلامه في المسلمة ولو أجنبياً لأجنبية متصفة بالعدالة كالنظر إلى محرم فينظر منها ما عدا ما بين السرة والركبة وتنظر منه ذلك ويلحق بالمحرم أيضاً في الخلوة والسفر ويعلم منه أن التمثيل بالممسوح فيما سبق ليس على إطلاقه، وأما الشيخ الهم والمخنث فهما عند الشافعية في النظر إلى الأجنبيات ليسا كالممسوح، وصححوا أيضاً أن المجنون يجب الاحتجاب منه فلا تغفل، وجر ﴿**غَيْرِ**﴾ قيل على البدلية لا الوصفية لاحتياجها إلى تكلف جعل التابعين لعدم تعينهم كالنكرة كما قال الزجاج أو جعل ﴿**غَيْرِ**﴾ متعرفاً بالإضافة هنا مثلها في الفاتحة وفيه نظر وقرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿**غَيْرَ**﴾ بالنصب على الحال والاستثناء.

﴿**أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ**﴾ أي الأطفال الذين لم يعرفوا ما العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها على أن ﴿**لَمْ يَظْهَرُوا**﴾ إلخ من قولهم ظهر على الشيء إذا اطلع عليه فجعل كناية عن ذلك أو الذين لم يبلغوا حد الشهوة والقدرة على الجماع على أنه من ظهر على فلان إذا قوي عليه ومنه قوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾ [الصف: ١٤] ويشمل الطفل الموصوف بالصفة المذكورة بهذا المعنى المراهق الذي لم يظهر منه تشوق للنساء، وقد ذكر بعض أئمة الشافعية أنه كالبالغ فيلزم الاحتجاب منه على الأصح كالمراهق الذي ظهر منه ذلك،

ويشمل أيضاً من دون المراهق لكنه بحيث يحكي ما يراه على وجهه. وذكروا في غير المراهق أنه إن كان بهذه الحيثية فكالمحرم وإلا فكالعدم فيباح بحضوره ما يباح في الخلوة فلا تغفل.

والظاهر أن ﴿الطفل﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿لبعولتهن﴾ أو على ما بعده من نظائره لا على ﴿الرجال﴾ وكلام أبي حيان ظاهر في أنه عطف عليه وليس بشيء، ثم هو مفرد محلى بأل الجنسية فيعم ولهذا كما قال في البحر: وصف بالجمع فكأنه قيل: أو الأطفال كما هو المروي عن مصحف حفصة، ومثل ذلك قولهم: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض، وقيل هو مفرد وضع موضع الجمع، ونحوه قوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ [غافر: ٦٧].

وتعقب بأن وضع المفرد موضع الجمع لا ينقاس عند سيبويه وما هنا عنده من باب المفرد المعرف بلام الجنس وهو يعم بدليل صحة الاستثناء منه، والآية المذكور يحتمل أن تكون عنده على معنى ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً كما قيل في قوله تعالى: ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾ [يوسف: ٣١] أنه على معنى واعتدت لكل واحدة منهن متكأ فلا يتعين كون «طفلاً» فيها مما لا ينقاس عنده، وقال الراغب: إن «طفلاً» يقع على الجمع كما يقع على المفرد ونص على ذلك الجوهري، وكذا قال بعض النحاة: إنه في الأصل مصدر فيقع على القليل والكثير والأمر على هذا ظاهر جداً، والعورات جمع عورة وهي في الأصل ما يحترز من الاطلاع عليه وغلبت في سوأة الرجل والمرأة؛ ولغة أكثر العرب تسكين الواو في الجمع وهي قراءة الجمهور.

وروي عن ابن عامر أنه قرأ «عورات» بفتح الواو، والمشهور أن تحريك الواو وكذا الياء في مثل هذا الجمع لغة هذيل بن مدركة. ونقل ابن خالويه في كتاب شواذ القراءات أن ابن أبي إسحاق والأعمش قرأ «عورات» بالفتح ثم قال: وسمعنا ابن مجاهد يقول: هو لحن، وإنما جعله لحناً وخطأً من قبل الرواية وإلا فله مذهب في العربية فإن بني تميم يقولون: روضات وجوزات وعورات بالفتح فيها وسائر العرب بالإسكان، وقال الفراء: العرب على تخفيف ذلك إلا هذيلاً فتثقل ما كان من هذا النوع من ذوات الياء والواو؛ وأنشدني بعضهم:

أبو بيضات رائح متأدب ... رفيق بمسح المنكبين سبوح

﴿وَلا يضربنَ بأرْجُلهِنَّ ليُعْلم مَا يُخْفينَ﴾ أي ما يسترنه عن الرؤية ﴿مِنْ زينَتهِنَّ﴾ أي لا يضربن بأرجلهن الأرض ليتقعقع خلاخلهن فيعلم أن هن ذوات خلاخل فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن ويوهم أن لهن ميلاً إليهم. أخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت خلخالاً من فضة واتخذت جزعاً فمرت على قوم فضربت برجلها فوقع الخلخال على الجزع فصوت فأنزل الله تعالى ﴿ولا يضربن﴾ إلخ، والنساء اليوم على جعل الخرز ونحوها في جوف الخلخال فإذا مشين به ولو هوناً صوت، ولهن من أنواع الحلي غير الخلخال ما يصوت عند المشي أيضاً لا سيما إذا كان مع ضرب الرجل وشدة الوطء، ومن الناس من يحرك شهوته وسوسة الحلي أكثر من رؤيته. وفي النهي عن إبداء صوت الحلي بعد النهي عن إبداء عينه من النهي عن إبداء مواضعه ما لا يخفى. وربما يستدل بهذا النهي على النهي عن استماع صوتهن.

والمذكور في معتبرات كتب الشافعية وإليه أميل أن صوتهن ليس بعورة فلا يحرم سماعه إلا إن خشي منه فتنة، وكذا إن التذ به كما بحثه الزركشي. وأما عند الحنفية فقال الإمام ابن الهمام: صرح في النوازل أن نغمة المرأة عورة ولذا قال النبي ﷺ: «والتكبير للرجال والتصفيق للنساء» فلا يحسن أن يسمعها الرجل اهـ.

ثم اعلم أن عندي مما يلحق بالزينة المنهي عن إبدائها ما يلبسه أكثر مترفات النساء في زماننا فوق ثيابهن

ويتسترن به إذا خرجن من بيوتهن وهو غطاء منسوج من حرير ذي عدة ألوان وفيه من النقوش الذهبية أو الفضية ما يبهر العيون، وأرى أن تمكين أزواجهن ونحوهم لهن من الخروج بذلك ومشيهن به بين الأجانب من قلة الغيرة وقد عمت البلوى بذلك، ومثله ما عمت به البلوى أيضاً من عدم احتجاب أكثر النساء من إخوان بعولتهن وعدم مبالاة بعولتهن بذلك وكثيراً ما يأمرونهن به.

وقد تحتجب المرأة منهم بعد الدخول أياماً إلى أن يعطوها شيئاً من الحلي ونحوه فتبدو لهم ولا تحتجب منهم بعد وكل ذلك ما لم يأذن به الله تعالى ورسوله ﷺ وأمثال ذلك كثير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل بطريق التغليب لإبراز كمال العناية بما في حيزه من أمر التوبة وأنها من معظمات المهمات الحقيقية بأن يكون سبحانه وتعالى الآمر بها لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين عن نوع تفريط في إقامة مواجب التكاليف كما ينبغي لا سيما في الكف عن الشهوات.

وقد أخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد ومسلم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن الأغر رضي الله تعالى عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة» والمراد بالتوبة على هذا التوبة عما في الحال، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد التوبة عما كانوا يفعلونه قبل من إرسال النظر وغير ذلك وهو وإن جب بالإسلام لكنه يلزم الندم عليه والعزم على الكف عنه كلما يتذكر، وقد قالوا: إن هذا يلزم كل تائب عن خطيئة إذا تذكرها، ومنه يعلم أن ما يفعله كثير ممن يزعمون التوبة من نقل ما فعلوه من الذنوب على وجه التبجح والاستلذاذ دليل عن عدم صدق توبتهم.

وفي تكرير الخطاب بقوله تعالى: ﴿أيه المؤمنون﴾ تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتماً، وفي دليل على أن المعاصي لا تخرج عن الإيمان. وقرأ ابن عامر «أيهُ المؤمنون» بضم الهاء، ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها، وضم ها التي للتنبيه بعد أي لغة لبني مالك رهط شقيق بن مسلمة ووقف بعضهم بسكون الهاء لأنها كتبت في المصحف بلا ألف بعدها. ووقف أبو عمرو والكسائي ويعقوب. كما في النشر. بالألف على خلاف الرسم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تفوزوا بذلك بسعادة الدارين أو مرجواً فلا حكم.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ﴾ بعدما زجر سبحانه عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فإنه مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونه مناطاً لبقاء النوع على وجه سالم من اختلاط الأنساب مزجرة من ذلك.

و ﴿الْأَيَامَى﴾. كما نقل في التحرير عن أبي عمرو وإليه ذهب الزمخشري. مقلوب أيايم جمع أيم لأن فيعل لا يجمع على فعالى أي إن أصله ذلك فقدمت الميم وفتحت للتخفيف فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها وذهب ابن مالك ومن تبعه إلى أنه جمع شاذ لا قلب فيه ووزنه فعالى وهو ظاهر كلام سيبويه، والأيم قال النضر بن شميل: كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها بكراً أو ثيباً ويقال: آم وآمت إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين وقال:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي ... وإن كنت أفتى منكم أتأيم

وقال التبريزي في شرح ديوان أبي تمام: قد كثر استعمال هذه الكلمة في الرجل إذا ماتت امرأته وفي المرأة إذا مات زوجها، وفي الشعر القديم ما يدل على أن ذلك بالموت وبترك الزوج من غير موت قال الشماخ:

يقر لعيني أن أحدث أنها ... وإن لم أنلها أيم لم تزوج

انتهى، وفي شرح كتاب سيبويه لأبي بكر الخفاف: الأيم التي لا زوج لها وأصله التي كانت متزوجة ففقدت

زوجها برزء طرأ عليها ثم قيل في البكر مجازاً لأنها لا زوج لها، وعن محمد أنها الثيب واستدل له بما روي أنه ﷺ قال: «الأيم أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها» حيث قابلها بالبكر، وفيه أنه يجوز أن تكون مشتركة لكن أريد منها ذلك لقرينة المقابلة؛ والأكثرون على ما قاله النضر أي زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ على أن الخطاب للأولياء والسادات، والمراد بالصلاح معناه الشرعي، واعتباره في الأرقاء لأن من لا صلاح له منهم بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف في نظم مصالحه بما لا بد منه شرعاً وعادة من بذل المال والمنافع بل ربما يحصل له ضرر منه بتزويجه فحقه أن يستبقيه عنده ولما لم يكن من لا صلاح له من الأحرار والحرائر بهذه المثابة لم يعتبر صلاحهم، وقيل المراد بالصلاح معناه اللغوي أي الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه، والأمر هنا قيل للوجوب وإليه ذهب أهل الظاهر، وقيل للندب وإليه ذهب الجمهور.

ونقل الإمام عن أبي بكر الرازي أن الآية وإن اقتضت الإيجاب إلا أنه أجمع السلف على أنه لم يرد الإيجاب، ويدل عليه أمور، أحدها أن الانكاح ولو كان واجباً لكان النقل بفعله من النبي ﷺ ومن السلف مستفيضاً شائعاً لعموم الحاجة فلما وجدنا عصره عليه الصلاة والسلام وسائر الأعصار بعده قد كانت فيه أيامى من الرجال والنساء ولم ينكر ذلك ثبت أنه لم يرد بالأمر والإيجاب، وثانيها أنا أجمعنا على أن الأيم الثيب لو أبت التزويج لم يكن للولي إجبارها، وثالثها اتفاق الكل على أنه لا يجب على السيد تزويج أمته وعبده فيقتضي للعطف عدم الوجوب في الجميع، ورابعها أن اسم الأيامى ينتظم الرجال والنساء فلما لزم في الرجال تزويجهم بإذنهم لزم ذلك في النساء انتهى، وقال الإمام نفسه: ظاهر الأمر للوجوب فيدل على أن الولي يجب عليه تزويج موليته وإذا ثبت هذا وجب أن لا يجوز النكاح إلاّ بولي وإلا لفوتت المولية على الولي المكنة من أداء هذا الواجب وإنه غير جائز. والجواب عما نقل عن أبي بكر أن جميع ما ذكره تخصيصات تطرقت إلى الآية والعام بعد التخصيص يبقى حجة فوجب إذا التمست المرأة الأيم من الولي التزويج وجب انتهى. وفي الإكليل استدل بعموم الآية من أباح نكاح الإماء بلا شرط ونكاح العبد الحرة.

وأنت تعلم أنها لم تبق على العموم، والذي أميل إليه أن الأمر لمطلق الطلب وأن المراد من الإنكاح المعاونة والتوسط في النكاح أو التمكين فيه، وتوقف صحته في بعض الصور على الولي يعلم من دليل آخر.

والاستدلال بهذه الآية على اشتراط الولي وعلى أن له الجبر في بعض الصور لا يخلو عن بحث ودون تمامه خرط القتاد فتدبر وقرأ الحسن ومجاهد «من عبيدكم» بالياء مكان الألف وفتح العين وهو كالعباد جمع عبد إلا أن استعماله في المماليك أكثر من استعمال العباد فيهم ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الظاهر أنه وعد من الله عز وجل بالإغناء، وأخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ ولا يبعد أن يكون في ذلك سد لباب التعلل بالفقر وعده مانعاً من المناكحة.

وفي الآية شرط مضمر وهو المشيئة فلا يرد أن كثيراً من الفقراء تزوج ولم يحصل له الغنى ودليل الإضمار قوله تعالى: ﴿فإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ [التوبة: ٢٨] وكونه وارداً في منع الكفار عن الحرم لا يأبى الدلالة كما توهم أو قوله تعالى: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ أي غني ذو سعة لا يرزأه إغناء الخلائق إذ لا نفاد لنعمته ولا غاية لقدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فإن مآل هذا إلى المشيئة وهو السر في اختيار ﴿عليم﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فإن مآل هذا إلى المشيئة وهو السر في اختيار ﴿عليم﴾ دون كريم مع أنه أوفق بواسع نظراً إلى الظاهر. وفي الانتصاف فإن قيل العزب كذلك

فإن غناه معلق بالمشيئة أيضاً فلا وجه للتخصيص، فالجواب أنه قد تقرر في الطباع الساكنة إلى الأسباب أن العيال سبب للفقر وعدمهم سبب توفر المال فأريد قطع هذا التوهم المتمكن بأن الله تعالى قد ينمي المال مع كثرة العيال التي هي في الوهم سبب لقلة المال وقد يحصل الإقلال مع العزوبة والواقع يشهد فدل على أن ذلك الارتباط الوهمي باطل وأن الغنى والفقر بفعل الله تعالى مسبب الأسباب ولا توقف لهما إلا على المشيئة فإذا علم الناكح أن النكاح لا يؤثر في الإقتار لم يمنعه في الشروع فيه، ومعنى الآية حينئذ أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل الله تعالى فعبر عن نفي كونه مانعاً عن الغنى بوجوده معه، ومنه قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة: ١٠] فإن ظاهره الأمر بالانتشار عند انقضاء الصلاة والمراد تحقيق زوال المانع وأن الصلاة إذا قضيت فلا مانع من الانتشار فعبر عن نفي مانع الانتشار بما يقتضي تقاضي الانتشار مبالغة انتهى، وقال بعضهم في الفرق بين المتزوج والعزب؛ أن الغنى للمتزوج أقرب وتعلق المشيئة به أرجى للنص على وعده دون العزب وكذلك يوجد الحال إذا استقرىء.

وتعقب بأن فيه غفلة عن قوله تعالى: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته﴾ [النساء: ١٣٠] وكذا عن قوله سبحانه: ﴿**وليستعفف**﴾ إلخ، وأشار صاحب الكشف إلى أن في هذه الآية والتي بعدها وعداً للمتزوج والعزب معاً بالغنى فلا ورود للسؤال قال: إنه تعالى أمر الأولياء أن لا يبالوا بفقر الخاطب بعد وجود الصلاح ثقة بلطف الله تعالى في الإغناء ثم أمر الفقراء بالاستعفاف إلى وجدان الغنى تأميلاً لهم وأدمج سبحانه أن مدار الأمر على العفة و الصلاح على التقديرين وهو الجواب عن سؤال المعترض انتهى، ولا يخفى عليك أن الأخبار الدالة على وعد الناكح بالغنى كثيرة ولم نجد في وعد العزب الذي ليس بصدد النكاح من حيث هو كذلك خبراً.

فقد أخرج عبد الرزاق وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله تعالى عونهم الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله تعالى».

وأخرج الخطيب في تاريخه عن جابر قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو إليه الفاقة فأمره أن يتزوج.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: أطيعوا الله تعالى فيما أمركم[1] به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى: ﴿**إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله**﴾.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة في المصنف عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: ابتغوا الغنى في الباءة ـ وفي لفظ ـ ابتغوا الغنى في النكاح يقول الله تعالى: ﴿**إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله**﴾.

وأخرج الثعلبي والديلمي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن النبي ﷺ قال: التمسوا الرزق بالنكاح» إلى غير ذلك من الأخبار، ولغنى الفقير إذا تزوج سبب عادي وهو مزيد اهتمامه في الكسب والجد التام في السعي حيث ابتلي بمن تلزمه نفقتها شرعاً وعرفاً وينضم إلى ذلك مساعدة المرأة له وإعانتها إياه على أمر دنياه، وهذا كثير في العرب وأهل القرى فقد وجدنا فيهم من تكفيه امرأته أمر معاشه ومعاشها بشغلها، وقد ينضم إلى ذلك حصول أولاد له فيقوى أمر التساعد والتعاضد، وربما يكون للمرأة أقارب يحصل له منهم الإعانة بحسب مصاهرته إياهم ولا يوجد ذلك

---

(١) يعني ضمناً فلا تغفل ا هـ.

في العزب، ويشارك هذا الفقير المتزوج الفقير الذي هو بصدد التزوج بمزيد الاهتمام في الكسب لكن هذا الاهتمام لتحصيل ما يتزوج به وربما يكون لذلك ولتحصيل ما يحسن به حاله بعد التزوج، ولا يخفى أن حال الامرأة المتزوجة وحال الامرأة التي بصدد التزوج على نحو حال الرجل والفرق يسير.

هذا والظاهر من كلام بعضهم أن ما ذكر في الأيامى والصالحين مطلقاً وأمر تذكير الضمير ظاهر، وقيل: هو في الأحرار والحرائر خاصة وبذلك صرح الطبرسي لأن الأرقاء لا يملكون وإن ملكوا ولذا لا يرثون ولا يورثون، والمتبادر من الإغناء بالفضل أن يملكوا ما به يحصل الغنى ويدفع الحاجة وهو لا يتحقق مع بقاء الرق، نعم إذا أريد بالإغناء التوسعة ودفع الحاجة سواء كان ذلك بما يملك أم لا فلا بأس بالعموم فتدبر.

وجوز أن تكون الآية في الأحرار خاصة بأن يكون المراد منها نهي الأولياء عن التعلل بفقرهم إذا استنكحوهم، وأن تكون في المستنكحين من الرجال مطلقاً والمراد نهي الأولياء عن ذلك أيضاً فتدبر جميع ذلك.

واحتج بعضهم . كما قال ابن الفرس . بالآية على أن النكاح لا يفسخ بالعجز عن النفقة لأنه سبحانه وعد فيها بالغنى، وفيه مناقشة لا تخفى ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ إرشاد للتائقين العاجزين عن مبادي النكاح وأسبابه إلى ما هو أولى لهم وأحرى بهم أي وليجتهد في العفة وصون النفس ﴿الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ أي أسباب نكاح أو لا يتمكنون مما ينكح به من المال على أن فعالاً اسم آلة كركاب لما يركب به ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى ولطف بهم في استعفافهم وربط على قلوبهم وإيذان بأن فضله تعالى أولى بالإعفاء وأدنى من الصلحاء.

واستدل بالآية بعض الشافعية على ندب ترك النكاح لمن لا يملك أهبته مع التوقان وكثير من الناس ذهب إلى استحبابه له لآية ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ وحملوا الأمر بالاستعفاف في هذه الآية على من لم يجد زوجة بجعل فعال صفة بمعنى مفعول ككتاب بمعنى مكتوب، ولا يخفى أن الغاية المذكورة تبعده، ولا يلزم من الفقر وجدان الأهبة المفسرة عندهم بالمهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه، والمذكور في معتبرات كتبنا أن النكاح يكون واجباً عند التوقان أي شدة الاشتياق بحيث يخاف الوقوع في الزنا لو لم يتزوج وكذا فيما يظهر لو كان لا يمكنه منع نفسه عن النظر المحرم أو عن الاستمناء بالكف ويكون فرضاً بأن كان لا يمكنه الاحتراز عن الزنا إلا به بأن لم يقدر على التسري أو الصوم الكاسر للشهوة كما يدل عليه حديث «ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» فلو قدر على شيء من ذلك لم يبق النكاح فرضاً أو واجباً عيناً بل هو أو غيره مما يمنعه من الوقوع في المحرم، وكلا القسمين مشروط بملك المهر والنفقة، وزاد في البحر شرطاً آخر فيهما وهو عدم خوف الجور ثم قال: فإن تعارض خوف الوقوع في الزنا لو لم يتزوج وخوف الجور لو تزوج قدم الثاني ويكره التزوج حينئذ كما أفاده الكمال في الفتح ولعله لأن الجور معصية متعلقة بالعباد دون المنع من الزنا وحق العبد مقدم عند التعارض لاحتياجه وغنى المولى عز وجل انتهى، ومقتضاه الكراهة أيضاً عند عدم ملك المهر والنفقة لأنهما حق عبد أيضاً وإن خاف الزنا لكن ذكروا أنه يندب استدانة المهر ومقتضاه أنه يجب إذا خاف الزنا وإن لم يملك المهر إذا قدر على استدانته، وهذا مناف للاشتراط السابق إلا أن يقال: الشرط ملك النفقة والمهر ولو بالاستدانة أو يقال: هذا في العاجز عن الكسب ومن ليس له جهة وفاء.

وذكر بعض الأجلة أنه ينبغي حمل ما ذكروا من ندب الاستدانة على ندبها إذا ظن القدرة على الوفاء وحينئذ فإذا كانت مندوبة مع هذا الظن عند أمنه من الوقوع في الزنا ينبغي وجوبها عند تيقن الزنا بل ينبغي وجوبها حينئذ وإن لم

يغلب على ظنه قدرة الوفاء وهو معذور فيما أرى عند الله عز وجل إذا فعل ومات ولم يترك وفاء فتأمل، ويكون مكروهاً عند خوف الجور كما سمعت، وحراماً عند تيقنه لأن النكاح إنما شرع لمصلحة تحصين النفس وتحصيل الثواب وبالجور يأثم ويرتكب المحرمات فتنعدم المصالح لرجحان هذه المفاسد، ويكون سنة مؤكدة في الأصح حالة القدرة على الوطء والمهر والنفقة مع عدم الخوف من الزنا والجور وترك الفرائض والسنن فلو لم يقدر على واحد من الثلاثة الأول أو خاف واحداً من الثلاثة الأخيرة فلا يكون النكاح سنة في حقه كما أفاده في البدائع، ويفهم من أشباه ابن نجيم توقف كونه سنة على النية، وذكر في الفتح أنه إذا لم يقترن بها كان مباحاً لأن المقصود منه حينئذ مجرد قضاء الشهوة ومبنى العبادة على خلافه فلا يثاب والنية التي يثاب بها أن ينوي منع نفسه وزوجته عن الحرام، وكذا نية تحصيل ولد تكثر به المسلمون وكذا نية الإتباع وامتثال الأمر وهو عندنا أفضل من الاشتغال بتعلم وتعليم كما في درر البحار وأفضل من التخلي للنوافل كما نص عليه غير واحد، وفي بعض معتبرات كتب الشافعية أن النكاح مستحب لمحتاج إليه يجد أهبته من مهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه ولا يستحب لمن في دار الحرب النكاح مطلقاً خوفاً على ولده التدين بدينهم والاسترقاق ويتعين حمله على من لم يغلب على ظنه الزنا لو لم يتزوج إذ المصلحة المحققة الناجزة مقدمة على المصلحة المستقبلة المتوهمة وإنه إن فقد الأهبة استحب تركه لقوله تعالى: ﴿وليستعفف﴾ الآية ويكسر شهوته بالصوم للحديث، وكونه يثير الحرارة والشهوة إنما هو بابتدائه فإن لم تنكسر به تزوج، ولا يكسرها بنحو كافور فيكره بل يحرم على الرجل والمرأة إن أدى إلى اليأس من النسل، وقول جمع: إن الحديث يدل على حل قطع العاجز الباءة بالأدوية مردود على أن الأدوية خطيرة وقد استعمل قوم الكافور فأورثهم عللاً مزمنة ثم أرادوا الاحتيال لعود الباءة بالأدوية الثمينة فلم تنفعهم، فإن لم يحتج للنكاح كره له إن فقد الأهبة وإلا يفقدها مع عدم حاجته له فلا يكره له لقدرته عليه ومقاصده لا تنحصر في الوطء والتخلي للعبادة أفضل منه فإن لم يتعبد فالنكاح أفضل في الأصح كما قال النووي لأن البطالة تفضي إلى الفواحش فإن وجد الأهبة وبه علة كهرم أو مرض دائم أو تعنن كذلك كره له لعدم حاجته مع عدم تحصين المرأة المؤدي غالباً إلى فسادها، وبه يندفع قول الإحياء يسن لنحو الممسوح تشبهاً بالصالحين كما يسن إمرار الموسى على رأس الأصلع، وقول الفزاري: أي نهي ورد في نحو المجبوب والحاجة لا تنحصر في الجماع. ولو طرأت هذه الأحوال بعد العقد فهل يلحق بالابتداء أولاً لقوة الدوام تردد فيه الزركشي والثاني هو الوجه كما هو ظاهر انتهى، وفيه ما لم يتعرض له في كتب أصحابنا فيما علمت لكن لا تأباه قواعدنا، ثم إن الظاهر أن الآية خاصة بالرجال فهم المأمورون بالاستعفاف عند العجز عن مبادي النكاح وأسبابه، نعم يمكن القول بعمومها واعتبار التغليب إذا أريد بالنكاح ما ينكح لكن قد علمت ما فيه ولا تتوهمن من هذا أنه لا يندب الاستعفاف للنساء أصلاً لظهور أنه قد يندب في بعض الصور بل من تأمل أدنى تأمل يرى جريان الأحكام في نكاحهن لكن لم أر من صرح به من أصحابنا، نعم نقل بعض الشافعية عن الأم ندب النكاح للتائقة وألحق بها محتاجة للنفقة وخائفة من اقتحام فجرة.

وفي التنبيه من جاز لها النكاح إن احتاجته ندب لها، ونقله الأذرعي عن أصحاب الشافعي ثم بحث وجوبه عليها إذا لم تندفع عنها الفجرة إلا به ولا دخل للصوم فيها، وبما ذكر علم ضعف قول الزنجاني: يسن لها مطلقاً إذ لا شيء عليها مع ما فيه من القيام بأمرها وسترها، وقول غيره: لا يسن لها مطلقاً لأن عليها حقوقاً للزوج خطيرة لا يتيسر لها القيام بها بل لو علمت من نفسها عدم القيام بها ولم تحتج له حرم عليها اهـ، ولا يخفى أن ما ذكره بعد بل متجه واستدل بعضهم بالآية على بطلان نكاح المتعة لأنه لو صح لم يتعين الاستعفاف على فاقد المهر، وظاهر الآية تعينه ولا يلزم من ذلك تحريم ملك اليمين لأن من لا يقدر على النكاح لعدم المهر لا يقدر على شراء الجارية غالباً ذكره

الكيا وهو كما ترى ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ بعدما أمر سبحانه بإنكاح صالحي المماليك الأحقاء بالإنكاح أمر جل وعلا بكتابة من يستحقها منهم ليصير حراً فيتصرف في نفسه، وأخرج ابن السكن في معرفة الصحابة عن عبد الله بن صبيح قال: كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة فأبى فنزلت ﴿والذين يبتغون﴾ إلخ ويلوح من هذا أن عبد الله المذكور أول من كوتب، وربما يتخيل منه أن الكتابة كانت معلومة من قبل لكن نقل الخفاجي عن الدميري أنه قال: الكتابة لفظة إسلامية وأول من كاتبه المسلمون عبد لعمر رضي الله تعالى عنه يسمى أبا أمية.

وصرح ابن حجر أيضاً بأنها لفظة إسلامية لا تعرفها الجاهلية، والله تعالى أعلم، والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة ونظيره العتاب والمعاتبة أي والذين يطلبون منكم المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ذكوراً كانوا أو إناثاً، وهو عندنا شرعاً اعتاق المملوك يداً حالاً ورقبة مآلاً وركنه الإيجاب بلفظ الكتابة أو ما يؤدي معناه والقبول نحو أن يقول المولى: كاتبتك على كذا درهماً تؤديه إليَّ وتعتق ويقول المملوك: قبلته وبذلك يخرج من يد المولى دون ملكه فإذا أدى كل البدل عتق وخرج من ملكه، ومعناه كتب الحروف أي جمعها وإطلاقه على ما ذكر لأن فيه ضم حرية اليد إلى حرية الرقبة أو لأن البدل يكون في الأغلب منجماً بنجوم يضم بعضها إلى بعض أو لأنه يكتب المملوك على نفسه لمولاه ثمنه ويكتب المولى له عليه العتق وهذا أوفق بصيغة المفاعلة أعني المكاتبة.

وفي إرشاد العقل السليم قالوا: معناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق عنده، ثم قال: والتحقيق أن المكاتبة اسم للعقد الحاصل من مجموع كلامي المالك والمملوك كسائر العقود الشرعية المنعقدة بالإيجاب والقبول.

ولا ريب في أن ذلك لا يصدر حقيقة إلا من المتعاقدين وليس وظيفة كل منهما في الحقيقة إلا الإتيان بأحد شطريه معرباً عما يتم من قبله ويصدر عنه من الفعل الخاص به من غير تعرض لما يتم من قبل صاحبه ويصدر عنه من فعله الخاص به إلا أن كلاً من ذينك الفعلين لما كان بحيث لا يمكن تحققه في نفسه إلا منوطاً بتحقق الآخر ضرورة أن التزام العتق بمقابلة البدل من جهة المولى لا يتصور تحققه وتحصله إلا بالتزام البدل من طرف العبد كما أن عقد البيع الذي هو تمليك المبيع بالثمن من جهة البائع لا يمكن تحققه إلا بتملكه به من جانب المشتري لم يكن بد من تضمين أحدهما الآخر وقت الإنشاء فكما أن قول البائع بعت إنشاء لعقد البيع على معنى أنه إيقاع لما يتم من قبله أصالة ولما يتم من قبل المشتري ضمناً إيقاعاً متوقفاً على رأيه توقفاً شبيهاً بتوقف عقد الفضولي كذلك قول المولى كاتبتك على كذا إنشاء لعقد الكتابة أي إيقاع لما يتم من قبله من التزام العتق بمقابلة البدل أصالة ولما يتم من قبل العبد من التزام البدل ضمناً إيقاعاً متوقفاً على قبوله فإذا قبل تم العقد اهـ وبه ينحل إشكال صعب وارد على إسناد أفعال العقود وهو أنه إذا كان ركن كل منها الإيجاب والقبول يلزم أن لا يصح نحو بعت كذا بكذا مثلاً لأن المتكلم به لم يوقع إلا ما يتم من قبله وليس ذلك بيعاً شرعياً إذ لابد في البيع الشرعي من فعل آخر أعني قبول المشتري وهو مما لم يوقعه المتكلم المذكور.

والحاصل أن إسناد باع إلى ضمير المتكلم يقتضي أنه أوقع البيع مع أنه لم يوقع إلا أحد ركنيه فكيف يصح الاسناد، ووجه انحلال هذا بما ذكر ظاهر إلا أنه أورد عليه أن فيه دعوى يكذبها وجدان كل عاقد عاقل ألا ترى أنك إذا قلت بعت مثلاً لا يخطر ببالك إيقاع ضمني منك لشراء غيرك إيقاعاً متوقفاً على رأيه أصلاً بل قصارى ما يخطر بالبال إيقاعه الشراء دون إيقاعك لشرائه على نحو فعل الفضولي ومن ادعى ذلك فقد كابر وجدانه. وأجيب بأن الأمور

الضمنية قد تعتبر شرعاً وان لم تقصد كما يرشد إلى ذلك أنهم اعتبروا في قول القائل لآخر: أعتق عبدك عني بكذا فأعتقه البيع الضمني بركنيه وإن لم يكن القائل خاطراً بباله ذلك وقاصداً له.

وبحث فيه بانهم إنما اعتبروا أولاً العتق الذي هو مدلول اللفظ والمقصود منه ترجيحاً لجانب الحرية ثم لما رأوا أن ذلك موقوف على الملك الموقوف على البيع حسب العادة الغالبة اعتبروا البيع ليتم لهم الاعتبار الأول ولم يعتبروه مدلولاً للفظ العتق أصلاً ليشترط القصد وإن أوهمه تسميتهم إياه بيعاً ضمنياً بخلاف ما نحن فيه على ما سمعت فإن إيقاع القبول قد توقف عليه ماهية البيع الشرعي واعتبر مدلولاً ضمنياً له بحيث صار عندهم كما يقتضيه ظاهر كلام الارشاد نحو بعت بمعنى أوقعت إيجاباً مني أصالة وقبولاً منك نيابة وظاهر في مثل ذلك تحقق القصد وحيث نفى بالوجدان قصد إيقاع القبول نيابة علم أنه ليس مدلولاً ضمنياً.

ومن الناس من تفصى عن الاشكال بالتزام أن البيع هو الايجاب والقبول شرط صحته فقول القائل بعت إنشاء لبيع يحتمل الصحة وعدمها ومتى قال الآخر اشتريت تعينت الصحة وأن قولهم ركن البيع الايجاب والقبول من المسامحات الشائعة أو بالتزام أن للبيع ونحوه إطلاقين، أحدهما العقد الحاصل من مجموع الايجاب والقبول كما في نحو قولك: وقع البيع بين زيد وعمرو وثانيهما الايجاب فقط كما في نحو قولك بعته كذا فلم يشتر والبيع الدال عليه بعت الانشائي من هذا القبيل فلا إشكال في إسناده إلى المتكلم فتأمل وتدبر.

وفي هذا المقام أبحاث تركناها خوفاً مزيد البعد عما نحن بصدده والله تعالى الموفق، و ﴿الذين﴾ يحتمل أن يكون في محل رفع على الابتداء والخبر قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ وهو بتقدير القول بناءً على المشهور من أن الجملة الانشائية لا تقع خبراً عن المبتدأ إلا كذلك، وقال بعض المحققين: لا حاجة في مثل هذا إلى التأويل لأنه في معنى الشرط والجزاء ولذا جيء في الخبر بالفاء.

ويحتمل أن يكون في محل نصب على أنه مفعول لمحذوف يفسره المذكور والفاء فيه لتضمن الشرط أيضاً؛ وفي البحر يجوز أن تقول: زيداً فاضرب وزيداً اضرب فإذا دخلت الفاء كان التقدير تنبه فاضرب فالفاء في جواب أمر محذوف اهـ. وأنت تعلم أنه لا يحتاج إلى هذا في الآية، وذكر بعض الأفاضل أن الفاء فيها على الاحتمال الثاني لأن حق المفسر أن يعقب المفسر، والمراد كتابة بعد كتابة فإن في الموالي كثرة وكذا في المكاتبين فليس الأمر به للمولى بالنسبة إلى مكاتب واحد اهـ. وهو يشبه الرطانة بالأعجمية.

والأمر للندب على الصحيح، وقيل هو للوجوب وهو مذهب عطاء وعمرو بن دينار والضحاك وابن سيرين وداود، وما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أنس بن مالك قال: سألني سيرين المكاتبة فأبيت عليه فأتى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فأقبل عليَّ بالدرة وتلا قوله تعالى: ﴿فكاتبوهم﴾ إلخ وفي رواية كاتبه أو لأضربنك بالدرة ظاهر في القول بالوجوب، وجمهور الأئمة كمالك والشافعي، وغيرهما على أن المكاتبة بعد الطلب وتحقق الشرط الآتي إن شاء الله تعالى مندوبة بيد أن من قال منهم بأن ظاهر الأمر للوجوب كالشافعي لم يقل بظاهره هنا لأنه بعد الحظر وهو بيع ماله بماله للاباحة، وادعى أن ندبها من دليل آخر، وظاهر الآية جواز الكتابة سواء كان البدل حالاً أو مؤجلاً أو منجماً أو غير منجم لمكان الاطلاق وإلى ذلك ذهب الحنفية.

وذهب جمهور الشافعية إلى أنه يشترط أن يكون منجماً بنجمين فأكثر فلا تجوز بدون أجل وتنجيم مطلقاً،

وقيل إن ملك السيد بعض العبد وباقيه حر لم يشترط أجل وتنجيم، ورده محققوهم وأجابوا عن دعوى إطلاق الآية بأن الكتابة تشعر بالتنجيم فتغني عن التقييد لأنه[1] يكتب أنه يعتق إذا أدى ما عليه ومثله لا يكون في الحال. واعترضوا أيضاً على القول بصحة الكتابة الحالة بأن الكتابة لو عقدت حالة توجهت المطالبة عليه في الحال وليس له مال يؤديه فيه فيعجز عن الأداء فيرد إلى الرق فلا يحصل مقصود العقد، وهذا كما لو أسلم فيما لا يوجد عند حلول الأجل فإنه لا يجوز. وأنت تعلم ما في دعوى إشعار الكتابة بالتنجيم وأنها تضر الشافعية لأن التنجيم الذي تشعر به الكتابة على زعمهم يتحقق بنجم واحد فيقتضي أن تجوز به كما ذهب إليه أكثر العلماء وهم لا يجوزون ذلك ويشترطون نجمين فأكثر. وما ذكروه في الاعتراض ليس بشيء فإنه لا عجز مع أمر المسلمين بإعانته بالصدقة والهبة والقرض، والقياس على السلم لا يصح لظهور الفارق، ولعل ما ذكر كالبيع لمن لا يملك الثمن ولا شك في صحته كذا قيل وفيه بحث.

وقال ابن خويزمنداد: إذا كانت الكتابة على مال معجل كانت عتقاً على مال ولم تكن كتابة، والفرق بين العتق على مال والكتابة مذكور في موضعه ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ أي أمانة وقدرة على الكسب، وبهما الخير فسره الشافعي. وذكر البيضاوي أنه روي هذا التفسير مرفوعاً وجاء نحو ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس، وفسرت الأمانة بعدم تضييع المال، قيل ويحتمل أن يكون المراد بها العدالة لكن يشترط على هذا الاستحباب المكاتبة أن لا يكون العبد معروفاً بانفاق ما بيده بالطاعة لأن مثل هذا لا يرجى له عتق بالكتابة. وأخرج أبو داود في المراسيل والبيهقي في سننه عن يحيى بن أبي كثير قال: «قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ إن علمتم فيهم حرفة، وظاهره الاكتفاء بالقدرة على الكسب وعدم اشتراط الأمانة، وهو قول نقله ابن حجر عن بعضهم، وتعقبه بأن المكاتب إذا لم يكن أميناً يضيع ما كسبه فلا يحصل المقصود.

وأخرج عبد بن حميد عن عبيدة السلماني وقتادة وابراهيم وأبي صالح أنهم فسروا الخير بالأمانة وظاهر كلامهم الاكتفاء بها وعدم اشتراط القدرة على الكسب، ونقله أيضاً ابن حجر عن بعضهم وتعقبه بأن المكاتب إذا لم يكن قادراً على الكسب كان في مكاتبته ضرر على السيد ولا وثوق بإعانته بنحو الصدقة والزكاة. وأخرج ابن مردويه عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه فسر الخير بالمال، وأخرجه جماعة عن ابن عباس وعن ابن جريج وروي عن مجاهد وعطاء والضحاك، وتعقب بأن ذلك ضعيف لفظاً ومعنى أما لفظاً فلأنه لا يقال فيه مال بل عنده أو له مال، وأما معنى فلأن العبد لا مال له ولأن المتبادر من الخير غيره وإن أطلق الخير على المال في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية﴾ [البقرة: ١٨٠]. وأجيب بأنه يمكن أن يكون المراد بالخير عند هؤلاء الأجلة القدرة على كسب المال إلا أنهم ذكروا ما هو المقصود الأصلي منه تساهلاً في العبارة ومثله كثير.

وقال أبو حيان: الذي يظهر من الاستعمال أنه الدين تقول: فلان فيه خير فلا يتبادر إلى الذهن إلا الصلاح. وتعقب بأنه لا يناسب المقام ويقتضي أن لا يكاتب غير المسلم، وفسره كثير من أصحابنا بأن لا يضروا المسلمين بعد العتق وقالوا: إن غلب ظن الضرر بهم بعد العتق فالأفضل ترك مكاتبتهم، وظاهر التعليق بالشرط أنه إذا لم يعلموا فيه خيراً لا يستحب لهم مكاتبتهم أو لا تجب عليهم، وهذا للخلاف في أن الأمر هل هو للندب أو للوجوب فلا تفيد الآية عدم الجواز عند انتفاء الشرط فإن غاية ما يلزم انتفاءه انتفاء المشروط وليس هو فيها إلا الأمر الدال على الوجوب

---

(١) أي الشأن ا هـ منه.

أو الندب، ومن قال: إنه للاباحة التزم أن الشرط هنا لا مفهوم له لجريه على العادة في مكاتبة من علم خيريته كذا قيل، والذي أراه حرمه المكاتبة إذا علم السيد أن المكاتب لو عتق أضر المسلمين.

ففي التحفة لابن حجر في باب الكتابة عند قول النووي هي مستحبة إن طلبها رقيق أمين قوي على كسب ولا تكره بحال ما نصه: لكن بحث البلقيني كراهتها لفاسق يضيع كسبه في الفسق ولو استولى عليه السيد لامتنع من ذلك، وقال هو وغيره: بل ينتهي الحال للتحريم أي وهو قياس حرمة الصدقة والقرض إذا علم أن من أخذهما يصرفهما في محرم، ثم رأيت الأذرعي بحثه فيمن علم أنه يكتسب بطريق الفسق وهو صريح فيما ذكرته إذ المدار على تمكينه بسببها من المحرم اهـ، وما ذكر من المدار موجود فيها قلنا، ثم المراد من العلم الظن القوي وهو مدار أكثر الأحكام الشرعية ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ الظاهر أنه أمر للموالي بإيتاء المكاتبين شيئاً من أموالهم إعانة لهم، وفي حكمه حط شيء من مال الكتابة ويكفي في ذلك أقل ما يتمول.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهما من طريق عبد الله بن حبيب عن علي كرّم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال: «يترك للمكاتب الربع» وجاء هذا أيضاً في بعض الروايات موقوفاً على علي كرّم الله تعالى وجهه، وقال ابن حجر الهيتمي: هو الأصح ولعل ذلك اجتهاد منه رضي الله تعالى عنه.

وادعاء أن هذا لا يقال من قبل الرأي فهو في حكم المرفوع ممنوع، ولهذا الخبر وقول ابن راهويه: أجمع أهل التأويل على أن الربع هو المراد بالآية قالوا: إن الأفضل إيتاء الربع، واستحسن ابن مسعود والحسن إيتاء الثلث، وابن عمر رضي الله تعالى عنهما إيتاء السبع، وقتادة إيتاء العشر؛ والأمر بالايتاء عندنا للندب وقال الشافعية: للوجوب إذ لا صارف عنه، وصرحوا بأنه يلزم السيد أو وارثه مقدماً له على مؤن التجهيز. أما الحط عن المكاتب كتابة صحيحة لجزء من المال المكاتب عليه أو دفع جزء من المعقود عليه بعد أخذه أو من جنسه إليه وأن الحط أولى من الدفع لأنه المأثور عن الصحابة ولأن الاعانة فيه محققة والمدفوع قد ينفقه في جهة أخرى، وهو في النجم الأخير أفضل، والأصح أن وقت الوجوب قبل العتق ويتضيق إذا بقي من النجم قدر ما يفي به من مال الكتابة، وشاع أنهم يقولون بوجوب الحط. ويرده قوله ﷺ: «المكاتب عبد ما بقي عليه درهم» إذ لو وجب الحط لسقط عنه الباقي حتماً وأيضاً لو وجب الحط لكان وجوبه معلقاً بالعقد فيكون العقد موجباً ومسقطاً معاً، وأيضاً هو عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع، قيل: معنى ﴿آتوهم﴾ أقرضوهم، وقيل: هو أمر لهم بالانفاق عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا، وإضافة المال إليه تعالى ووصفه بإيتائه تعالى إياهم للحث على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به فإن ملاحظة وصول المال إليهم من جهته سبحانه مع كونه عزّ وجلّ هو المالك الحقيقي له من أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها، وقيل: هو أمر ندب لعامة المسلمين إعانة المكاتبين بالتصدق عليهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه أمر للولاة أن يعطوهم من الزكاة وهذا نحو ما ذكر في الكشاف من أنه أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله تعالى لهم في بيت المال كقوله سبحانه: ﴿وفي الرقاب﴾ [البقرة: ١٧٧، التوبة: ٦٠، محمد: ٤] عند أبي حنيفة وأصحابه، ويحل للمولى إذا كان غنياً أن يأخذ ما تصدق به على المكاتب لتبدل الملك كما فيما إذا اشترى الصدقة من فقير أو وهبها الفقير له فإن المكاتب يتملكه صدقة والمولى عوضاً عن العتق، وكذا الحكم لو عجز بعد اداء البعض عن الباقي فأعيد إلى الرق أو أعتق من غير جهة الكتابة، والعلة تبدل الملك أيضاً عند محمد وفيه خفاء لأن ما أخذ لم يقع عوضاً عن العتق، أما فيما إذا أعيد إلى الرق فظاهر، وأما فيما إذا أعتق من غير جهة الكتابة فلأن العتق لم يكن مشروطاً بأداء ذلك فتدبر.

وعلل أبو يوسف المسألة بأنه لا خبث في نفس الصدقة وإنما الخبث في فعل الآخذ لكونه إذلالاً بالآخذ ولا يجوز ذلك له من غير حاجة والأخذ لم يوجد من السيد. وأورد عليه أنه ينافي جعلها أوساخ الناس في الحديث. ونقل عن الشافعي أنه إذا أعيد المكاتب إلى الرق أو أعتق من غير جهة الكتابة يلزم السيد رد ما أخذه إلا أن يتلف قبله لأن ما دفع للمكاتب لم يقع موقعه ولم يترتب عليه الغرض المطلوب.

قال الطيبي: وبهذا يظهر أن قياس ذلك على الصدقة التي اشتريت من الفقير غير صحيح، والمدار عندي اختلاف جهتي الملك فمتى تحقق لم تبق شبهة في الحل، وقد صح أن بريرة مولاة عائشة رضي الله تعالى عنها جاءت بعد العتق بلحم بقر فقالت عائشة للنبي ﷺ: هذا ما تصدق به على بريرة فقال عليه الصلاة والسلام: هو لها صدقة ولنا هدية فأشار عليه الصلاة والسلام إلى حله لآل البيت الذين لا تحل لهم الصدقة باختلاف جهتي الملك فتأمل، وللمكاتبة أحكام كثيرة تطلب من كتب الفقه.

﴿**وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء**﴾ أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضي الله تعالى عنه أن جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كان لعبد الله بن أبيّ جارية تدعى معاذة فكان إذا نزل ضيف أرسلها له ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فشكت ذلك إليه فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبيّ من يعذرنا من محمد ﷺ يغلبنا على مماليكنا؟ فنزلت، وقيل: كانت لهذا اللعين ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت. وقيل: نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما على الزنا أحدهما ابن أبيّ، وأخرج ابن مردويه عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنهم كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن فنهوا عن ذلك في الاسلام. ونزلت الآية، وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعلى جميع الروايات لا اختصاص للخطاب بمن نزلت فيه الآية بل هي عامة في سائر المكلفين.

والفتيات جمع فتاة وكل من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والأمة مطلقاً وقد أمر الشارع ﷺ بالتعبير بهما مضافين إلى ياء المتكلم دون العبد والأمة مضافين إليه فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولكن فتاي وفتاتي» وكأنه ﷺ كره العبودية لغيره عزّ وجلّ ولا حجر عليه سبحانه في إضافة الأخيرين إلى غيره تعالى شأنه، وللعبارة المذكورة في هذا المقال باعتبار مفهومها الأصلي حسن موقع ومزيد مناسبة لقوله سبحانه: ﴿**على البغاء**﴾ وهو زنا النساء كما في البحر من حيث صدوره عن شوابهن لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالباً دون من عداهن من العجائز والصغائر.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿**إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً**﴾ ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا وإخراج ما عداها عن حكمه كما إذا كان الاكراه بسبب كراهتهن الزنا لخصوص الزاني أو لخصوص الزمان أو لخصوص المكان أو لغير ذلك من الأمور المصححة للاكراه في الجملة بل هو للمحافظة على عادة من نزلت فيهم الآية حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور وقصورهن في معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطي القبائح، وفيه من الزيادة لتقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبائح ما لا يخفى فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه بيته من إمائه فضلاً عن أمرهن به أو إكراههن عليه لا سيما عند إرادة التعفف ووفر الرغبة فيها كما يشعر به التعبير بأردن بلفظ الماضي، وإيثار كلمة ﴿**إن**﴾ على إذا لأن

إرادة التحصن من الاماء كالشاذ النادر أو للايذان بوجوب الانتهاء عن الاكراه عند كون إرادة التحصن في حيز التردد والشك فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع،ويعلم من توجيه هذا الشرط مع ما أشرنا إليه من بيان حسن موقع الفتيات هنا باعتبار مفهومها الأصلي أنه لا مفهوم لها ولو فرضت صفة لأن شرط اعتبار المفهوم عند القائلين به أن لا يكون المذكور خرج مخرج الغالب، وقد تمسك جمع بالآية لإبطال القول بالمفهوم فقالوا: إنه لو اعتبر يلزم جواز الاكراه عند عدم إرادة التحصن والاكراه على الزنا غير جائز بحال من الأحوال إجماعاً ومما ذكرنا يعلم الجواب عنه.

وفي شرح المختصر الحاجبي للعلامة العضد الجواب عن ذلك، أولاً أنه مما خرج مخرج الأغلب إذا الغالب[١] أن الاكراه عند إرادة التحصن ولا مفهوم في مثله، وثانياً أن المفهوم اقتضى ذلك وقد انتفى لمعارض أقوى منه وهو الاجماع، وقد يجاب عنه بأنه يدل على عدم الحرمة[٢] عند عدم الارادة وأنه ثابت إذ لا يمكن الاكراه حينئذ لأنهن إذ لم يردن التحصن لم يكرهن البغاء والاكراه إنما هو إلزام فعل مكروه وإذا لم يكن لم يتعلق به التحريم لأن شرط التكليف الامكان ولا يلزم من عدم التحريم الاباحة انتهى، ولعل ما ذكرناه أولاً هو الأولى، وجعل غير واحد زيادة التقبيح والتشنيع جواباً مستقلاً بتغيير يسير ولا بأس به.

وزعم بعضهم أن ﴿إن أردن﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿وانكحوا الأيامى منكم﴾ وهو مما يقضي منه العجب وبالجملة لا حجة في ذلك لمبطلي القول بالمفهوم وكذا لا حجة لهم في قوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإنه كما في إرشاد العقل السليم قيد للاكراه لا باعتبار أنه مدار للنهي عنه بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم أيضاً جيء به تشنيعاً لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لأجل النزر الحقير أي لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال، فالمراد بالابتغاء الطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل إذ هو الصالح لكونه غاية للاكراه مترتباً عليه لا المطلق المتناول للطلب السابق الباعث عليه ولا اختصاص لعرض الحياة الدنيا بكسبهن أعني أجورهن التي يأخذنها على الزنا بهن وإن كان ظاهر كثير من الأخبار يقتضي ذلك بل ما يعمه وأولادهن من الزنا وبذلك فسره سعيد بن جبير كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم وفي بعض الأخبار ما يشعر بأنهم كانوا يكرهونهن على ذلك للأولاد.

أخرج الطبراني والبزار وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس أن جارية لعبد الله بن أبيّ كانت تزني في الجاهلية فولدت له أولاداً من الزنا فلما حرم الله تعالى الزنا قال لها: ما لك لا تزنين؟ قالت: والله لا أزني أبداً فضربها فأنزل الله تعالى ﴿ولا تكرهوا﴾ الآية، ولا يقتضي هذا وأمثاله تخصيص العرض بالأولاد كما لا يخفى.

وسمعت أن بعض قبائل أعراب العراق كآل عزة يأمرون جواريهم بالزنا للأولاد كفعل الجاهلية ولا يستغرب ذلك من الاعراب لا سيما في مثل هذه الأعصار التي عرا فيها كثيراً من رياض الأحكام الشرعية في كثير من المواضع إعصار فإنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههنَّ﴾ إلى آخره جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهي وتأكيد وجوب العمل ببيان خلاص المكرهات من عقوبة المكره عليه عبارة ورجوع غائلة الإكراه إلى المكرهين إشارة أي ومن يكرههن على ما ذكر من

---

(١) الظاهر أنه أراد بالغالب الراجح ا هـ ميرزاجان.

(٢) أو عدم طلب الكف عن الإكراه فتأمل ا هـ منه.

البغاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهن كما في قراءة ابن مسعود وقد أخرجها عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عنه لكن بتقديم ﴿لهن﴾ ﴿غفور رحيم﴾ ورويت كذلك أيضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وينبيء عنه على ما قيل قوله تعالى: ﴿ومن بعد إكراههن﴾ أي كونهن مكرهات على أن الإكراه مصدر المبني للمفعول فإن توسيطه بين اسم إن وخبرها للإيذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وغيرهما عن مجاهد أنه قال: غفور رحيم لهن وليست لهم، وكان الحسن إذا قرأ الآية يقول: لهن والله لهن، وفي تخصيص ذلك بهن وتعيين مداره على ما سمعت مع سبق ذكر المكرهين أيضاً في الشرطية دلالة على كونهم محرومين من المغفرة والرحمة بالكلية كأنه قيل: لا لهم أو لا له ولظهور هذا التقدير اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط اللازم في الجملة الشرطية على الأصح كما في المغني، وقيل: في توجيه أمر العائد: إن ﴿إكراههن﴾ مصدر مضاف إلى المفعول وفاعل المصدر ضمير محذوف عائد على اسم الشرط والمحذوف كالملفوظ والتقدير من بعد إكراههم إياهن. ورده أبو حيان بأنهم لم يعدوا في الروابط الفاعل المحذوف للمصدر في نحو هند عجبت من ضرب زيد وإن كان المعنى من ضربها زيداً فلم يجوزوا هذا التركيب ولا فرق بينه وبين ما نحن فيه، وقيل: جواب الشرط محذوف والمذكور تعليل لما يفهم من ذلك المحذوف والتقدير ومن يكرههن فعليه وبال إكراههن لا يتعدى إليهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهن، وفيه عدول عن الظاهر وارتكاب مزيد إضمار بلا ضرورة، وكون ذلك لتسبب الجزاء على الشرط ليس بشيء.

وقال في البحر: الصحيح أن التقدير ﴿غفور رحيم﴾ لهم ليكون في جواب الشرط ضمير يعود على اسم الشرط المخبر عنه بجملة الجواب ويكون ذلك مشروطاً بالتوبة، وفيه إخلال بجزالة النظم الجليل وتهوين لأمر النهي في مقام التهويل وأمر الربط لا يتوقف على ذلك، ومثله ما قيل: إن التقدير لهما فالوجه ما تقدم، والجار والمجرور في قراءة من سمعت قال ابن جني: متعلق بغفور لأنه أدنى إليه ولأن فعولاً أقعد في التعدي من فعيل، ويجوز أن يتعلق برحيم لأجل حرف الجر إذا قدر خبراً بعد خبر، ولم يقدر صفة لغفور لامتناع تقدم الصفة على موصوفها والمعمول إنما يصح وقوعه حيث يقع عامله وليس الخبر كذلك، وأيضاً يحسن في الخبر لأن رتبة الرحمة أعلى من رتبة المغفرة لأن المغفرة مسببة عنها فكأنها متقدمة معنى وإن تأخرت لفظاً والمعنى على تعلقه بهما كما لا يخفى، وتعليق المغفرة لهن مع كونهن مكرهات لا إثم لهن بناءً على أن المكره غير مكلف ولا إثم بدون تكليف، وتفصيل المسألة في الأصول قيل: لشدة المعاقبة على المكره لأن المكرهة مع قيام العذر إذا كانت بصدد المعاقبة حتى احتاجت إلى المغفرة فما حال المكره وللدلالة على أن حد الإكراه الشرعي والمصابرة إلى أن ينتهي إليه فيرتكب ضيق والله تعالى يغفر ذلك بلطفه. وقيل: لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التشبث في التجافي عنه أو لاعتبار أنهن وإن كن مكرهات لا يخلون في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة بحكم الجبلة البشرية.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ
مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ
يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ

وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ
ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ
كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ
يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [٣٤ . ٤٠] كلام مستأنف جيء به في تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شؤونها المستوجبة للإقبال الكلي على العمل بمضمونها، وصدر بالقسم المعربة عنه اللام لإبراز كمال العناية بشأنه أي وبالله لقد أنزلنا إليكم في هذه السورة الكريمة آيات مبينات لكل مالكم حاجة إلى بيانه من الحدود وسائر الأحكام والآداب وغير ذلك مما هو من مبادي بيانها على أن ﴿مبينات﴾ من بين المتعدي والمفعول محذوف وإسناد التبيين إلى الآيات مجازي أو آيات واضحات صدقتها الكتب القديمة والعقول السليمة على أنها من بين بمعنى تبين اللازم أي آيات تبين كونها آيات من الله تعالى، ومنه المثل قد بين الصبح لذي عينين. وقرأ الحرميان وأبو عمرو وأبو بكر «مبينات» على صيغة المفعول أي آيات بينها الله تعالى وجعلها واضحة الدلالة على الأحكام والحدود وغيرها، وجوز أن يكون الأصل مبيناً فيها الأحكام فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول.

﴿وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا من قَبْلِكُمْ﴾ عطف على ﴿آيات﴾ أي وأنزلنا مثلاً كائناً من قبيل أمثال الذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء عليهم السلام فينتظم قصة عائشة رضي الله تعالى عنها المحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مريم رضي الله تعالى عنها حيث أسند إليهما مثل ما أسند إلى عائشة من الإفك فبرأهما الله تعالى منه وسائر الأمثال الواردة في هذه السورة الكريمة انتظاماً أولياً، وهذا أوفق بتعقيب الكلام بما سيأتي إن شاء الله تعالى من التمثيلات من تخصيص الآيات بالسوابق وحمل المثل على القصة العجيبة فقط ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ تتعظون بها وتنزجرون عما لا ينبغي من المحرمات والمكروهات وسائر ما يخل بمحاسن الآداب فهي عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها من المواعظ بالمعنى المذكور، ويكفي في العطف التغاير العنواني المنزل منزلة التغاير الذاتي، وقد خصت الآيات بما يبين الحدود والأحكام والموعظة بما يتعظ به كقوله تعالى ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ [النور: ٢] وقوله سبحانه: ﴿لولا إذ سمعتموه﴾ [النور: ١٢] إلخ وغير ذلك من الآيات الواردة في شأن الآداب؛ وقيدت الموعظة بقوله سبحانه: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ مع شمولها للكل حسب شمول الإنزال حثاً للمخاطبين على الاغتنام بالانتظام في سلك المتقين ببيان أنهم المغتنمون لآثارها المقتبسون من أنوارها فحسب، وقيل: المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة جميع ما في القرآن المجيد من الآيات والأمثال والمواعظ ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ النور في اللغة ـ على ما قال ابن السكيت ـ الضياء وهذا ظاهر في عدم الفرق بين النور والضياء، وفرق بينهما جمع وإن كان إطلاق أحدهما على الآخر شائعاً فقال الإمام السهيلي في الروض في قول ورقة:

ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن يموجا

إنه يوضح معنى النور والضياء وإن الضياء هو المنتشر عن النور والنور هو الأصل، وفي التنزيل ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم﴾ [البقرة: ١٧] ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ [يونس: ٥] لأن نور القمر لا ينتشر عنه ما ينتشر عن الشمس لا سيما في طرفي الشهر، وقال الفلاسفة: الضياء ما يكون للشيء من ذاته والنور ما يفيض عليه من مقابلة المضيء وعلى هذا جاء فيما زعم إسلاميوهم قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ فإن اختلاف تشكلات القمر بالقرب والبعد من الشمس مع خسوفه وقت حيلولة الأرض بينه وبينها دليل على أن نوره فائض عليه من مقابلتها، وأنت تعلم أن في هذا مقالاً لعلماء الإسلام وقد قدمنا ما فيه في غير هذا المقام، ولعل الأولى في وجه الفرق ما تقدم آنفاً في كلام السهيلي.

وذكر بعض المحققين أنه يعلم من كلامهم أن لكل من النور والضياء جهة أبلغية فجهة أبلغية النور كونه أصلاً ومبدأ للضياء وجهة أبلغية الضياء أن الابصار بالفعل بمدخليته. وادعى بعضهم أن النور على الإطلاق أبلغ من الضياء للآية التي نحن فيها، وفيه بحث يعلم إن شاء الله تعالى أثناء تفسيرها، واعلم أن الفلاسفة اختلفوا في حقيقة النور فمنهم من زعم أنه أجسام صغار تنفصل عن المضيء وتتصل بالمستضيء وأبطل بعدة أوجه، الأول أنه لو كان جسماً متحركاً لكانت حركته طبيعية والحركة الطبيعية إلى جهة واحدة دون سائر الجهات لكن النور يقع على الجسم في كل جهة كانت له، والثاني أنه إذا دخل من كوة ثم سددناها دفعة فتلك الأجزاء النورانية إما أن تكون باقية في البيت فيلزم أن يكون البيت مستنيراً كما كان قبل السد وليس كذلك وإما أن تكون خارجة من الكوة قبل انسدادها وهو محال لأن السد كان سبب انقطاعها فلا بد أن يكون سابقاً عليه بالذات أو بالزمان وإما أن تكون غير باقية أصلاً فيلزم أن يكون تخلل جسم بين جسمين موجباً انعدام أحدهما وهو معلوم الفساد، والثالث أن كون تلك الأجسام الصغار أنواراً إما أن يكون هو عين كونها أجساماً وهو باطل لأن المفهوم من النورية مغاير للمفهوم من الجسمية وإما أن يكون مغايراً لها بأن تكون تلك الأجسام حاملة لتلك الكيفية منفصلة من المضيء متصلة بالمستضيء فإن لم تكن تلك الأجسام محسوسة فهو ظاهر البطلان لأنها حينئذ كيف تكون واسطة لإحساس غيرها وإن كانت محسوسة كانت ساترة لما وراءها ويجب أنها كلما ازدادت اجتماعاً ازدادت ستراً لكن الأمر بالعكس فإن النور كلما ازداد قوة ازداد إظهاراً، والرابع أن الشمس إذا طلعت من الأفق يستنير وجه الأرض كله دفعة ومن البعيد أن تنتقل تلك الأجزاء من الفلك الرابع إلى وجه الأرض في تلك اللحظة اللطيفة، ولا يخفى حاله على القول باستحالة الخرق على الأفلاك، والخامس أن انفصال الأجزاء من الأجرام الكوكبية يستلزم الذبول والانتقاص وخلو مواضعها عن تمام مقدارها أو مقدار أجزائها أو كونها دائمة التحليل مع إيراد البدل عما يتحلل عن جرمها فتكون أجسامها أجساماً مستحيلة غذائية كائنة فاسدة وذلك محال في الفلكيات.

وتعقبها بعض متأخريهم بأنها في غاية الضعف أما الأول فلأن كون النور جسماً لا يستلزم كونه متحركاً ولا كون حدوثه بالحركة بل هو مما يوجد دفعة بلا حركة، وأما الثاني فلقائل أن يقول: إن قيام المجعول بلا مادة إنما يكون بالفاعل الجاعل إياه مع اشتراط عدم الحجاب المانع عن الإفاضة فإذا طرأ المانع لم تقع الإفاضة فينعدم المفاض بلا مادة باقية عنه لأن وجوده لم يكن بشركة المادة فكذا عدمه فعند انسداد الباب المانع عن الإفاضة ينعدم الشعاع عن البيت دفعة، ولا فرق في ذلك بين كونه عرضاً أو جوهراً والسر فيهما جميعاً أن النور مطلقاً ليس حصوله من جهة انفعال المادة وشركة الهيولى كسائر الجواهر والأعراض الانفعاليات ولذلك لا ينعدم شيء منها دفعة لو فرض حجاب بينها وبين المبدأ الفاعلي إلا بعد زمان واستحالة وأما الذي ذكر ثالثاً فجوابه أن المغايرة في المفهوم لا تنافي

الاتحاد والعينية في الوجود فما ذكر مغالطة من باب الاشتباه بين مفهوم الشيء وحقيقته، وأما المذكور رابعاً وخامساً فلأن مبناه على الانفصال والقطع للمسافة لا على مجرد الجوهرية والجسمية.

هذا وذهب بعضهم إلى أنه عرض من الكيفيات المحسوسة وقالوا: هو غني عن التعريف كسائر المحسوسات، وتعريفه بأنه كمال أول للشفاف من حيث إنه شفاف أو بأنه كيفية لا يتوقف الإبصار بها على الإبصار بشيء آخر تعريف بما هو أخفى وكأن المراد به التنبيه على بعض خواصه. ومن هؤلاء من قال: إنه نفس ظهور اللون، ومنهم من قال بمغايرتهما واستدلوا بأوجه، الأول أن ظهور اللون إشارة إلى تجدد أمر فهو إما اللون أو صفة نسبية أو غير نسبية والأول باطل لأن النور إما أن يجعل عبارة عن تجدد اللون أو اللون المتجدد، والأول يقتضي أن لا يكون مستنيراً إلا في آن تجدده، والثاني يوجب كون الضوء نفس اللون فلا يبقى لقولهم: الضوء هو ظهور اللون معنى، وإن جعلوا الضوء كيفية ثبوتية زائدة على ذات اللون وسموه بالظهور فذلك نزاع لفظي، وإن زعموا أن ذلك الظهور تجدد حالة نسبية فهو باطل لأن الضوء أمر غير نسبي وإلا لكان أمراً عقلياً واقعاً تحت مقولة المضاف فلم يكن محسوساً أصلاً لكن الحس البصري مما ينفعل عنه ويتضرر بالشديد منه حتى يبطل.

والأمور الذهنية لا تؤثر مثل هذا التأثير فإذا لم يمكن أمراً نسبياً لم يمكن تفسيره بالحالة النسبية، والثاني أن البياض قد يكون مضيئاً مشرقاً وكذا السواد فلو كان ضوء كل منهما عين ذاته لزم أن يكون بعض الضوء ضد بعضه وهو محال لأن ضد الضوء الظلمة، والثالث أن اللون يوجد بدون الضوء كما في الجسم الملون في الظلمة وكذا الضوء يوجد بدون اللون كما في البلور إذا وقع عليه الضوء فهما متغايران لوجود كل منهما بدون الآخر، والرابع أن الجسم الأحمر مثلاً المضيء إذا انعكس عنه إلى مقابله فتارة ينعكس الضوء عنه إلى جسم آخر وتارة ينعكس منه اللون والضوء معاً إذا قريا حتى يحمر المنعكس إليه فلو كان مجرد ظهور اللون لاستحال أن يفيد غيره لمعاناً ساذجاً، وليس لقائل أن يقول: هذا البريق عبارة عن إظهار اللون في ذلك القابل لأنه يقال: فلماذا إذا اشتد لون الجسم المنعكس منه ضوءه أخفى ضوء المنعكس إليه وأبطله وأعطاه لون نفسه.

وقال بعض المتأخرين: استقر الرأي على أن النور المحسوس بما هو محسوس عبارة عن نحو وجود الجوهر المبصر الحاضر عند النفس في غير هذا العالم وأما الذي في الخارج بإزائه فلا يزيد وجوده على وجود اللون والأوجه التي ذكرت لمغايرتهما مقدوحة، أما الوجه الأول فهو مقدوح بأن ظهور اللون عبارة عن وجوده وهو صفة حقيقية من شأنها أن ينسب ويضاف إلى القوة المدركة وبهذا الاعتبار يقع له التجدد قولهم: يوجب أن يكون الضوء نفس اللون قلنا: نعم ولكنهما متغايران بالاعتبار كما أن الماهية والوجود في كل شيء متحدان بالذات متغايران بالاعتبار فإن النور والضوء يرجع معناه إلى وجود خاص عارض لبعض الأجسام والظلمة عبارة عن عدم الوجود الخاص بالكلية والظل عبارة عن عدمه في الجملة واللون عبارة عن امتزاج يقع بين حامل هذا الوجود النوري وحامل عدمه على أنحاء مختلفة فليست الألوان إلا مراتب تراكيب الأنوار والأدلة الموردة على إبطال ذلك ضعيفة فعلى هذا صح قولهم: النور هو ظهور اللون وصح أيضاً قول من يقول إنه غير اللون لأن النور بما هو نور لا يختلف إذ لا يعتبر فيه امتزاج ولا شوب مع عدم أو ظلمة والألوان مختلفة، وأما الوجه الثاني فهو أيضاً مندفع بما مهد وبأن اللون وإن لم يكن غير النور إلا أن مراتب الأنوار مختلفة شدة وضعفاً، ومع هذا الاختلاف قد تختلف بوجوه أخر بحسب تركيبات وامتزاجات كثيرة تقع بين أعداد من النور وإمكانها وفعليتها وأصلها وفرعها واعداد من الظلمة أعني عدم ذلك النور وإمكانها وفعليتها وأصلها وفرعها فإن هذه الألوان أمور مادية في الأكثر أو متعلقة بها والمادة منبع الانقسام والتركيب بين الوجودات والإعدام والإمكانات

فليس بعجب أن يحصل من ضروب تركيبات النور بالظلمة هذه الألوان التي نراها فتقع تلك الأقسام في محالها على الوجه المذكور ثم يقع عليها نور آخر بمقابلة المنير.

ومن قال بأن النور عين اللون لم يقل بأن كل نور عين كل لون كما أن من قال بأن الوجود عين الماهية لم يقل بأن كل وجود عين كل ماهية ليلزمه أن لا يطرد وجود على وجود ولا تضاد وجود لوجود فالألوان متخالفة الأحكام وبعضها أمور متضادة لكن بما هي ألوان لا بما هي أنوار كما أن الموجودات متخالفة الأحكام وبعضها أشياء متضادة لكن بما هي ماهيات لا بما هي موجودات مع أن الوجود والماهية واحد، وأما الوجه الثالث فسبيل دفعه سهل بما بين وكذا الوجه الرابع بأدنى أعمال روية فإن عدم ظهور اللون قد يكون لضعف اللمعان الواقع على شيء وقد يكون لشدة اللمعان فالواقع على المقابل من عكس المضيء الملون قد يكون ضوءه فقط وذلك عند قصور الضوء واللون أو قصور استعداد القابل المقابل وقد يكون كلاهما لقوتهما وقوة استعداد المنعكس إليه، على أن الكلام في مباحث العكوس طويل، وكون المنعكس من الجسم المضيء إلى جسم آخر ضوءه دون لونه ربما كان لأجل صقالته فإن الصقيل قد يكون ذا لون وضوء ولكن المنعكس منه إلى مقابله ليس إلا ما حصل من نير آخر بتوسطه على نسبة وضعية مخصوصة بينهما له إليهما لا اللون والضوء اللذان يستقران فيه فالمنعكس في ذلك المقابل ليس إلا الضوء فقط من ذلك النير لا من المنعكس منه إلا أن يكون المنعكس إليه أيضاً جسماً صقيلاً فيقع فيه حكاية منهما أي الضوء واللون أو من أحدهما أيضاً.

هذا غاية ما قالوه في النور المحسوس الذي يظهر به الأجسام على الأبصار؛ ولهم في النور إطلاق آخر وهو الظاهر بذاته والمظهر لغيره وقالوا: هو بهذا المعنى مساو للوجود بل نفسه فيكون حقيقة بسيطة كالوجود منقسماً كانقسامه، فمنه نور واجب لذاته قاهر على ما سواه، ومنه أنوار عقلية ونفسية وجسمية، والواجب تعالى نور الأنوار غير متناهي الشدة وما سواه سبحانه أنوار متناهية الشدة بمعنى أن فوقها ما هو أشد منها وإن كان بعضها كالأنوار العقلية لا تقف آثارها عند حد، والكل من لمعات نوره عز وجل حتى الأجسام الكثيفة فإنها أيضاً من حيث الوجود لا تخلو عن نور لكنه مشوب بظلمات الإعدام والإمكانات، إذ علمت هذا فاعلم أن إطلاق النور على الله سبحانه وتعالى بالمعنى اللغوي والحكمي السابق غير صحيح لكمال تنزهه جل وعلا عن الجسمية والكيفية ولوازمهما، وإطلاقه عليه سبحانه بالمعنى المذكور وهو الظاهر بذاته والمظهر لغيره قد جوزه جماعة منهم حجة الإسلام الغزالي فإنه قدس سره بعد أن ذكر في رسالته مشكاة الأنوار ومعنى النور ومراتبه قال: إذا عرفت أن النور يرجع إلى الظهور والإظهار فاعلم أن لا ظلمة أشد من كتم العدم لأن المظلم سمي مظلماً لأنه ليس بظاهر للابصار مع أنه موجود في نفسه فما ليس موجوداً أصلاً كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية في الظلمة.

وفي مقابلته الوجود وهو النور فإن الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره، والوجود ينقسم إلى ما للشيء من ذاته وإلى ما له من غيره، فما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لأقوام له بنفسه بل إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض وإنما هو وجود من حيث نسبته إلى غيره وذلك ليس بوجود حقيقي، فالوجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله عز وجل، وقد قال قبل هذا. أقول ولا أبالي إن إطلاق اسم النور على غير النور الأول مجاز محض إذ كل ما سواه سبحانه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له بل نورانيته مستعارة من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها بل بغيرها ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض، وفسر النور في هذه الآية أعني قوله تعالى: ﴿**الله نور السماوات والأرض**﴾ بذلك، ثم أشار إلى وجه الإضافة إلى ﴿**السماوات والأرض**﴾ بقوله: لا ينبغي أن

يخفى عليك ذلك بعد أن عرفت أنه تعالى هو النور ولا نور سواه وإنه كل الأنوار والنور الكلي لأن النور عبارة عما تنكشف به الأشياء وأعلى منه ما تنكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباسه واستمداده بل ذلك له في ذاته لذاته لا من غيره، ثم عرفت أن هذا لا يتصف به إلا النور الأول، ثم عرفت أن السماوات والأرض مشحونة نوراً من طبقتين النور أعني المنسوب إلى البصر والمنسوب إلى البصيرة أي إلى الحسن والعقل كنور الكواكب وجواهر الملائكة وكالأنوار المشاهدة المنبسطة على كل ما على الأرض وكأنوار النبوة والقرآن إلى غير ذلك.

وهذا منزع صوفي والصوفية لا يتحاشون من القول بأنه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً هو الكل بل هو هو لا هوية لغيره إلا بالمجاز ويقولون: لا إله إلا الله توحيد العوام ولا إله إلا هو توحيد الخواص لأنه أتم وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل لصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة، وقد قال بذلك الغزالي في رسالته المذكورة أيضاً، وأنت تعلم أنه مما لا يهتدى إليه بنور الاستدلال بل هو طور وراء طور العقل لا يهتدى إليه إلا بنور الله عز وجل.

وجوز بعض المحققين كون المراد من النور في الآية الموجد كأنه قيل: الله موجد السماوات والأرض، ووجه ذلك بأنه مجاز مرسل باعتبار لازم معنى النور وهو الظهور في نفسه وإظهاره لغيره وقيل: هو استعارة والمستعار منه النور بمعنى الظاهر بنفسه المظهر لما سواه والمستعار له الواجب الوجود الموجد لما عداه، وكون المراد به مفيض الإدراك ومعطيه مجازاً مرسلاً أو استعارة والكلام على حذف مضاف أي نور أهل والسماوات والأرض، وهذا قريب مما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: الله نور السماوات والأرض هادي أهل السماوات والأرض وهو وجه حسن، وجاء في رواية أخرى أخرجها ابن جرير عنه رضي الله تعالى عنه أنه فسر النور بالمدبر فقال: الله نور السماوات والأرض يدبر الأمر فيهما، وروي ذلك عن مجاهد أيضاً، وجعل ذلك بعضهم من التشبيه البليغ.

ووجه الشبه كون كل من التدبير والنور سبب الاهتداء إلى المصالح. وجوز أن يكون هناك استعارة تصريحية. وتعقب بأن ذكر طرفي التشبيه وهو الله تعالى والنور ينافي ذلك وأجيب بأن ذكرهما إنما ينافيه إذا كان على وجه ينبىء عن التشبيه وكان كل من المشبه والمشبه به مذكوراً بعينه وهنا لم يشبه الله سبحانه بالنور بل شبه المدبر به وذكر جزئي يصدق عليه المشبه أو كلي يشمله لا ينافي ذلك كما أشار إليه صاحب الكشاف في مواضع منه وصرح به أهل المعاني، وقيل: المراد به المنزه من كل عيب، ومن ذلك قولهم: امرأة نوار أي بريئة من الريبة بالفحشاء وهو من باب المجاز أيضاً، وقيل: الكلام على حذف مضاف كما في زيد كرم أي ذو نور، ويؤيده كما قيل قوله تعالى بعد **﴿مثل نوره﴾** و **﴿يهدي الله لنوره﴾**.

وقيل: نور بمعنى منور وروي ذلك عن الحسن وأبي العالية والضحاك وعليه جماعة من المفسرين، ويؤيده قراءة بعضهم «منور» وكذا قراءة علي كرم الله تعالى وجهه وأبي جعفر وعبد العزيز المكي وزيد بن علي وثابت بن أبي حفصة والقورصي ومسلمة بن عبد الملك وأبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن عباس بن أبي ربيعة **«نَوَّرَ»** فعلاً ماضياً **«والأرضَ»** بالنصب، وتنويره سبحانه السماوات والأرض قيل بالشمس والقمر وسائر الكواكب ونسب إلى الحسن ومن معه، وقيل: تنوير السماوات بالملائكة عليهم السلام وتنوير الأرض بالأنبياء عليهم السلام والعلماء ونسب إلى أُبيّ بن كعب، والتنوير على الأول حسي وعلى الثاني عقلي. وقيل وهو الذي اختاره: تنويره سبحانه إياهما بما فيهما من الآيات التكوينية والتنزيلية الدالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته عز وجل والهادية إلى صلاح

المعاش والمعاد، والجملة استئناف مسوق إما لتحقيق أن بيانه تعالى المؤذن به قوله سبحانه: ﴿**ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات**﴾ الآية ليس مقصوراً على ما ورد في هذه السورة الكريمة. وإما لتقرير ما في القرآن الجليل من البيان، ويتأتى نحو هذا على بعض الأقوال السابقة في بيان المراد بالنور وهو وجه قوي في مناسبة الآية لما قبلها ولا يكاد يظهر مثله على بعض آخر منها. وذكر العلامة الطيبي في بيان المناسبة كلاماً فيه الغث والسمين إن أردته فارجع إليه.

وتخصيص السماوات والأرض بالذكر لأنهما المقر المعروف للمكلفين المحتاجين لما يدلهما ويهديهما لما سبق.

وقال العلامة البيضاوي بعد ذكر عدة احتمالات في المراد بالنور: إن إضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالهما على الأنوار الحسية والعقلية وقصور الإدراكات البشرية عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما، وقيل: المراد بهما العالم كله كإطلاق المهاجرين والأنصار على جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

وتعقب بأن هذا من إطلاق اسم البعض على الكل مجازاً وقد اشترط في التلويح أن يكون الكل مركباً تركيباً حقيقياً ولم يثبت في اللغة إطلاق الأرض على مجموع الأرض والسماء والإنسان على الآدمي والسبع.

وأجيب بأنه لا يتعين كونه مجازاً لجواز كونه كناية ولو سلم فما في التلويح غير مسلم أو هو أغلبي، فقد ذكر الزمخشري في قوله تعالى: ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ [آل عمران: ٥] أنه عبر عن جميع العالم بالسماء والأرض، وقال العلامة في شرحه: إنه من إطلاق الجزء على الكل فالمعنى حينئذ الله نور العالم كله ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ أي أدلته سبحانه العقلية والسمعية في السماوات والأرض التي هدى بها من شاء إلى ما فيه صلاحه وحكي هذا عن أبي مسلم وينتظم ذلك القرآن انتظاماً أولياً، وعن ابن عباس والحسن وزيد بن أسلم أن المراد بالنور هنا القرآن كما يعرب عنه ما قبل من وصف آياته بالإنزال والتبيين، وقد صرح بكونه نوراً أيضاً في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ [النساء: ١٧٤] وقيل المراد به الحق فقد جاء استعارة النور له كاستعارة الظلمة للباطل في قوله سبحانه: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي من أنواع الباطل إلى الحق ووجه الشبه الظهور، ومن أمثالهم الحق أبلج، ويكفي ذلك في جواز الاستعارة ولا تتوقف على تحقق ما في النور من معنى الإظهار في الحق، نعم إذا تحقق ذلك أيضاً فهو نور على نور لكن رجح ضعف تفسيره بما ذكر دون القرآن بأنه يأباه مقام بيان شأن الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع عدم سبق ذكر الحق.

وفي الكشف المراد بالحق الذي فسر النور به ما يقابل الباطل وهو يتناول التوحيد والشرائع وما دل عليه بدليل السمع والعقل، وليس المراد به كون السماوات والأرض دليلين على وجود فاطرهما بل ذلك أيضاً داخل في عموم اللفظ انتهى، ويضعف عليه أمر هذا التضعيف، وقيل المراد به الهدى الذي دل عليه الآيات المبينات، وقيل: الهدى مطلقاً، فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال: مثل نوره مثل هداه في قلب المؤمن، وأخرج ابن جرير عن أنس قال: إن إلهي يقول نوري هداي؛ وذكر بعضهم أن تفسيره بالهدى مختار الأكثرين وأن تفسيره بالحق بالمعنى العام يوافقه، وقيل: المراد به المعارف والعلوم التي أفاضها عز وجل على قلب المؤمن وإضافة ذلك إليه سبحانه لأنه مفاضه تعالى، وعن أُبيّ بن كعب والضحاك تفسيره بالإيمان الذي أعطاه، سبحانه المؤمن ووفقه إليه. وجاء في بعض الروايات عن ابن عباس تفسيره بالطاعات التي حلى بها جل شأنه قلب المؤمن فيشمل الإيمان وسائر الأعمال القلبية الحميدة، وقيل المراد بنوره رسوله محمد ﷺ وقد جاء إطلاق النور عليه عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [المائدة: ١٥] على

قول، وقيل: غير ذلك مما ستعلمه إن شاء الله تعالى، والضمير على جميع هذه الأقوال راجع إليه تعالى كما هو الظاهر.

وجوز رجوع الضمير إلى المؤمن وروي ذلك عن عكرمة وهو إحدى الروايات وصححها الحاكم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وروي أيضاً عن أُبيّ بن كعب بل أخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن الشعبي أنه قال قرأ أُبيّ بن كعب «مثل نور المؤمن» وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبي العالية أن أبياً قرأ «مثل نور من آمن به» أو قال: «مثل من آمن به».

وفي البحر روي عن أبيّ أنه قرأ «مثل نور المؤمنين» وقيل: الضمير راجع إلى محمد ﷺ وروى ذلك جماعة عن ابن عباس عن كعب الأحبار، وحكاه أبو حيان عن ابن جبير أيضاً، وقيل: هو راجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإيمان، ولا يخفى أن رجوع الضمير إلى غير مذكور في الكلام إذا لم يكن في الكلام ما يدل عليه أو كان لكن كانت دلالته عليه خفية خلاف الظاهر جداً لا سيما إذا فات المقصود من الكلام على ذلك، والمراد بالمثل بالصفة العجيبة أي صفة نوره سبحانه العجيبة الشأن ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي كصفتها في الإنارة والتنوير، وقال أبو حيان: أي كنور مشكاة وهي الكوة غير النافذة كما قال ابن عباس وأبو مالك وابن جبير وسعيد بن عياض والجمهور، وقال أبو موسى: هي الحديدة أو الرصاصة التي تكون فيها الفتيلة في جوف الزجاجة وعن مجاهد أنها الحديدة التي يعلق بها القنديل وهو كما ترى، والمعول عليه قول الجمهور، وعن ابن عطية أنه أصح الأقوال وعلى جميعها هو لفظ حبشي معرب كما قال ابن قتيبة والكلبي وغيرهما، وقيل: رومي معرب، وقال الزجاج كما في مجمع البيان: يجوز أن يكون عربياً فيكون مفعلة والأصل مشكوة فقلبت الواو الفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها وإلى أن أصل ألفها الواو ذهب ابن جني واستدل عليه بأن العرب قد نحوا بها منحاة الواو كما فعلوا بالصلاة.

وقرأ الكسائي برواية الدوري بالإمالة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج ضخم ثاقب، وقيل الفتيلة المشتعلة ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج الصافي الأزهر وضم الزاي لغة الحجاز وكسرها وفتحها لغة قيس، بالفتح قرأ أبو رجاء ونصر بن عاصم في رواية ابن مجاهد.

وقرأ بعضهم بالكسر أيضاً وكذا قرىء بهما في قوله تعالى: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء متلألىء كالزهرة في صفائه وزهرته منسوب إلى الدر فوزنه فعلي، وجوز أن يكون أصله دريء بهمزة آخره كما قرأ به حمزة وأبو بكر فقلبت ياء وأدغمت في الياء فوزنه فعيل وهو من الدرء بمعنى الدفع فإنه يدفع الظلام بضوئه أو يدفع بعض ضوئه بعضاً من لمعانه، وجوز أن يكون من الدرء بمعنى الجري وليس بذاك ومثله ما قيل إنه من درأ إذا طلع وفاجأ ولا يخفى على المتتبع أن فعيلاً قليل في كلامهم ففي اللباب فعيل غريب لا نظير له إلا مريق لحب المصفر أو ما سمن من الخيل وعلية وسرية وذرية قاله أبو علي، وفي البحر سمع أيضاً مريخ الذي في داخل القرن اليابس وفيه لغتان ضم الميم وكسرها. وقال الفراء: لم يسمع إلا مريق وهو أعجمي وسيبويه عد ذلك من أبنية العرب ولم يثبت بعضهم هذا الوزن أصلاً.

وقال أبو عبيد: أصل «دريء» دروء كسبوح فجعلت الضمة كسرة للاستثقال والواو ياء لانكسار ما قبلها كما قالوا في عتو عتى فوزنه فعول وكذا قيل في سرية وذرية، وجعل بعضهم سرية من السر وهو النكاح أو الإخفاء والضم من تغييرات النسب فوزنه فعلية كما في الصحاح، والأخفش يرى أنه من السرور وقد أبدلت الراء الأخيرة ياء وهو معهود في الفعل فقد قالوا: تسررت جارية وتسريت كما قالوا: تظننت وتظنيت فوزنه على هذا كما قال الخفاجي

فعليلة، وجعل بعضهم ذرية نسبة إلى الذر على غير القياس لإخراجهم كالذر من ظهر آدم عليه السلام.

وقرأ قتادة وزيد بن علي والضحاك «دَري» بفتح الدال وروي ذلك عن نصر بن عاصم وأبي رجاء وابن المسيب وقرأ الزهري «درِي» بكسر الراء وقرأ أبو عمرو والكسائي «دريء» بالكسر والهمزة آخره، وهو بناء كثير في الأسماء نحو سكين وفي الأوصاف نحو سكير. وقرأ قتادة أيضاً وأبان بن عثمان وابن المسيب وأبو رجاء وعمرو بن قائد والأعمش ونصر بن عاصم «دَرىء» بالهمز وفتح الدال، قال ابن جني: وهذا عزيز لم يحفظ منه إلا السكينة بفتح السين وشد الكاف في لغة حكاها أبو زيد. وقرىء «دءري» بتقديم الهمزة ساكنة على الراء وهي من نادر الشواذ وفي إعادة ﴿المصباح﴾ و ﴿الزجاجة﴾ معرفين أثر سبقهما منكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال: كمشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنها كوكب دري من تفخيم شأنهما ورفع مكانتهما بالتفسير إثر الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المنبيء عن القصد الأصلي دون الوصف المبني عن الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى، والجملة الأولى في محل الرفع على أنها صفة لمصباح والجملة الثانية في محل الجر على أنها صفة لزجاجة واللام مغنية كما في مجمع البيان وإرشاد العقل السليم عن الرابط كأنه قيل: فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دري ﴿يوقد من شجرة﴾ أي يبتدأ إيقاد المصباح من شجرة ﴿مباركة﴾ أي كثيرة المنافع بأن رويت ذبالته بزيتها، وقيل إنما وصفت بالبركة لأنها تثبت في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، وقيل بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام ﴿زيتونة﴾ بدل من ﴿شجرة﴾ وقال أبو علي: عطف بيان عليها وهو مبني على مذهب الكوفيين من تجويزهم عطف البيان في النكرات، وأما البصريون فلا يجوزونه إلا في المعارف.

وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم الإبدال عنها أو بيانها تفخيم لشأنها، وقد جاء في الحديث مدح الزيت لأنه منها، أخرج عبد بن حميد في مسنده. والترمذي وابن ماجة عن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة».

وأخرج البيهقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها ذكر عندها الزيت فقالت: «كان رسول الله ﷺ يأمر أن يؤكل ويدهن ويسعط به ويقول إنه من شجرة مباركة وهو في حد ذاته ممدوح، ففي الحديث أنه مصحة من الباسور وذكر له الأطباء منافع كثيرة، وكان ﷺ يأكل الخبز به وأكل عليه الصلاة والسلام اللسان مطبوخاً بالشعير وفيه الزيت والتوابل[1] فليحفظ. وقرأ الأخوان وأبو بكر والحسن وزيد بن علي وقتادة وابن وثاب وطلحة وعيسى والأعمش «توقت» بالتاء المثناة من فرق مضارع أوقدت مبنياً للمفعول على أن الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة وإسناد الفعل إليها قيل على سبيل المبالغة، وقيل هو بتقدير مضاف أي مصباحها. وقرأ الحسن والسلمي وقتادة أيضاً وابن محيصن وسلام ومجاهد وابن أبي إسحاق والمفضل عن عاصم «توقد» بالتاء الفوقية أيضاً مضارع توقد وأصله نتوقد بتاءين فخفف بحذف أحدهما.

وذكر الخفاجي أنها قراءة أبي عمرو وابن كثير والإسناد فيها للزجاجة على ما مر. وقرأ السلمي وقتادة وسلام أيضاً «يوقد» بالياء التحتية على أنه مضارع توقد أيضاً، وجاء كذلك عن الحسن وابن محيصن، وأصله يتوقد أي المصباح فحذفت التاء وهو غير معروف مع الياء وإنما المعروف هو الحذف عند اجتماع التاءين المتماثلين.

ووجه ذلك على ما قال ابن جني أنه شبه فيه حرف مضارعة بحرف مضارعة يعني الياء بالتاء فعومل معاملته

---

(١) كالفلفل ونحوه اهـ منه.

كما شبهت التاء والنون في تعد ونعد بياء يعد فحذف الواو معهما كما حذفت فيه لوقوعها بين ياء وكسرة.

وقرىء «توقد» بالتاء من فوق على صيغة الماضي من التفعل والضمير للمصباح أي ابتداء توقد المصباح من شجرة.

﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ أي ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شيء من حين تطلع إلى أن تغرب وذلك أحسن لزيتها، وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والكلبي وهو تفسير بلازم المعنى أعني به كونها بين الشرق والغرب. وعن ابن زيد أي ليست من شجر الشرق ولا من شجر الغرب لأن ما اختص بإحدى الجهتين كان أقل زيتاً وأضعف ضوءاً لكنها من شجر الشام وهي ما بين المشرق و المغرب وزيتونها أجود ما يكون، وقال أبو حيان في تذكرته: المعنى ليست في مشرقة أبداً أي في موضع لا يصيبه ظل وليست في مقناة أبداً أي في موضع لا تصيبه الشمس، وحاصله ليست الزيتونة تصيبها الشمس خاصة ولا الظل خاصة ولكن يصيبها هذا في وقت وهذا في وقت، وقال الفراء والزجاج: المعنى لا شرقية فقط ولا غربية فقط لكنها شرقية غربية أي تصيبها الشمس عند طلوعها وغروبها، وأنت تعلم أنه لا بد من تقدير قيد فقط بعد كل من ﴿شرقية﴾ و ﴿غربية﴾ كما سمعت ليتوجه النفي إليه فيفيد التركيب اجتماع الأمرين وإلا فظاهره نفيهما، وعن المطلع أن هذا كقول الفرزدق:

بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم ... ولم تكثر القتلى بها حين سلت

إذ معناه شاموا سيوفهم وأكثروا بها القتلى، وتعقبه في الكشف بأنه لا استدلال بالبيت على ذلك لجواز أن يريد لم يشيموا غير مكثري القتلى على الحال وإفادته المعنى المذكور واضحة حينئذ، وعن ابن عباس أنها في دوحة أحاطت بها فليست منكشفة لا من جهة الشرق ولا من جهة الغرب، وتعقب بأن هذا لا يصح عن ابن عباس لأنها إذا كانت بهذه الصفة فسد جناها، وعن الحسن أن هذا مثل وليست من شجر الدنيا إذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية، وعن عكرمة أنها من شجر الجنة ولعله إنما جزم بذلك لما ذكر الحسن ولا يخفى ما فيه، وقرأ الضحاك «لا شرقية ولا غربية» بالرفع أي هي لا شرقية ولا غربية.

وقال أبو حيان: أي لا هي شرقية ولا غربية، ولعل ما ذكرنا أولى، والجملة في موضع الصفة لزيتونة.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مساس نار أصلاً، وكلمة ﴿لو﴾ في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشيء لانتفاء غيره في الزمان الماضي فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هي لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له إجمالاً بإدخالها على أبعدها منه، والواو الداخلة عليها لعطف الجملة المذكورة على جملة محذوفة مقابلة لها عند الجزولي ومن وافقه، ومجموع الجملتين في حيز النصب على الحالية من المستكن في الفعل الموجب أو المنفي، وتقدير الآية الكريمة يكاد زيتها يضيء لو مسته نار ولو لم تمسسه نار أي يضيء كائناً على كل حال من وجود شرط الإضاءة وعدمه، وحذفت الجملة الأولى حسبما هو المطرد في الباب ثقة بدلالة الثانية عليها دلالة واضحة.

وقال الزمخشري: الواو للحال ومقتضاه أن ﴿لو﴾ مع ما بعدها حال فالتقدير والحال لو كان أو لم يكن كذا أي مفروضاً ثبوته أو انتفاؤه، لكن الزمخشري ومثله المرزوقي يقدر ولو كان الحال كذا. وتعقب ذلك بأن أدوات الشرط لا تصلح للحالية لأنها تقتضي عدم التحقق والحال يقتضي خلافه. والتزم لذلك أنه انسلخ عنها الشرطية وأنها مؤولة

بالحال كما أن الحال تكون في معنى الشرط نحو لأفعلنه كائناً ما كان أي إن كان هذا أو غيره ولذا لا تحتاج إلى الجزاء أصلاً، وإنما قدر الحال بعد لو على ما قيل: إشارة إلى أنه قصد إلى جعل الجملة حالاً قبل دخول الشرط المنافي له ثم دخلت ﴿لو﴾ تنبيهاً على أنها حال غير محققة؛ واعترض الرضي للقول بأنها عاطفة بأنه لو كان كذلك لوقع التصريح بالمعطوف عليه في الاستعمال وليس كذلك وذهب إلى أنها اعتراضية.

ويجوز الاعتراض في آخر الكلام و المقصود منه التأكيد. وأجيب عن اعتراضه بأن ظهور ترتب الجزاء على المعطوف عليه أغنى عن ذكره حتى كان ذكره تكراراً، وبالجملة الذي عطف عليه الأكثرون وارتضوه كونها عاطفة، ويجعل مجموع الجملتين في موضع الحال على ما سمعت يندفع ما يتوهم من أن كاد تنافي اعتبار العطف هنا فتأمل، وقرأ ابن عباس والحسن «يمسسه» بالياء التحتية وحسنه الفصل وكون الفاعل غير حقيقي التأنيث ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي هو نور عظيم كائن على نور على أن يكون ﴿نور﴾ خبر مبتدأ محذوف والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة، والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بما حصل منه وتمهيد لما يعقبه فالمراد من الضمير النور الذي مثلت صفته العظيمة الشأن بما سمعت لا النور المشبه به وحمله عليه لا يليق كما قيل بشأن التنزيل الجليل، وليس معنى كونه نوراً فوق نور أنه نور واحد معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ولا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل إنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة فإن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه إلى أصل الشعاع بخلاف المكان المتسع فإن الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقاً ويمده بإضاءة مرتبة أخرى عادة.

والظاهر عندي أن التشبيه الذي تضمنته الآية الكريمة من تشبيه المعقول وهو نوره تعالى بمعنى أدلته سبحانه لكن من حيث إنها أدلة أو القرآن أو التوحيد والشرائع وما دل عليه بدليل السمع والعقل أو الهدى أو نحو ذلك بالمحسوس وهو نور المشكاة المبالغ في نعته وأنه ليس في المشبه به أجزاء ينتزع منها الشبه ليبني عليه أنه مركب أو مفرق، وذكر أنه إذا كان المراد تشبيه النور بمعنى الهدى الذي دلت عليه الآيات المبينات فهو من التشبيه المركب العقلي وقد شبه فيه الهيئة المنتزعة بأخرى فإن النور وإن كان لفظه مفرداً دال على متعدد وكذا إذا كان المراد تشبيه ما نور الله تعالى به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها، وفي الحواشي الطيبة الطيبية بعد اختيار أن المراد بالنور الهداية بوحي ينزله ورسول يبعثه ما هو ظاهر في أن التشبيه من التشبيه المفرق بل صرح بذلك أخيراً، واستدل عليه بأن التكرير في الآية يستدعي ذلك وقد أطال الكلام في هذا المقام، ومنه أن المشبهات المناسبة على هذا المعنى صدر الرسول ﷺ وقلبه الشريف واللطيفة الربانية فيه والقرآن وما يتأثر منه القلب عند استمداده. والتفصيل أنه شبه صدره عليه الصلاة والسلام بالمشكاة لأنه كالكوة ذو وجهين فمن وجه يقتبس النور من القلب المستنير ومن آخر يفيض ذلك النور المقتبس على الخلق وذلك لاستعداده بانشراحه مرتين مرة في صباه وأخرى عند إسرائه قال الله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: ٢٢] وهذا تشبيه صحيح قد اشتهر عن جماعة من المفسرين، روى محيي السنة عن كعب هذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه ﷺ المشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة والشجرة المباركة شجرة النبوة، وروى الإمام عن بعضهم أن المشكاة صدر محمد عليه الصلاة والسلام والزجاجة قلبه والمصباح ما في قلبه من الدين، و في حقائق السلمي عن أبي سعيد الخزاز

المشكاة حوف محمد ﷺ والزجاجة قلبه الشريف والمصباح النور الذي فيه، وشبه قلبه صلوات الله تعالى وسلامه عليه بالزجاجة المنعوتة بالكوكب الدري لصفائه وإشراقه وخلوصه عن كدورة الهوى ولوث النفس الأمّارة وانعكاس نور اللطيفة إليه. وشبهت اللطيفة القدسية المزهرة في القلب بالمصباح الثاقب.

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ: القلوب أربعة قلب أجود فيه مثل السراج يزهر ـ وفيه ـ أما القلب الأجود فقلب المؤمن سراجه فيه نوره» الحديث، وشبه نفس القرآن بالشجرة المباركة لثبات أصلها وتشعب فروعها وتأديها إلى ثمرات لا نهاية لها قال الله تعالى: ﴿كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] الآية. وروى محيي السنة عن الحسن وابن زيد الشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم تقرأ. وشبه ما يستمده نور قلبه الشريف صلوات الله تعالى وسلامه عليه من القرآن وابتداء تقويته منه بالزيت الصافي قال الله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى: ٥٢] فكما جعل سبحانه القرآن سبب توقده منه في قوله تعالى: ﴿**يوقد من شجرة مباركة**﴾ جعل ضوءه مستفاداً من انعكاس نور اللطيفة إليه في قوله عز وجل ﴿**ولو لم تمسسه نار**﴾.

والمعنى على ما ذكر في انسان العين يكاد سر القرآن يظهر للخلق قبل دعوة النبي ﷺ وفيه مسحة من معنى قوله:

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

ومنه وصفت الشجرة بكونها لا شرقية ولا غربية. وعن ابن عباس تشبيه فؤاده ﷺ بالكوكب الدري وأن الشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام. ومعنى لا شرقية ولا غربية أنه ليس بنصراني فيصلي نحو المشرق ولا يهودي فيصلي نحو المغرب. والزيت الصافي دين إبراهيم عليه السلام، وقد يقال على تفريق التشبيه لكن على مشرع آخر شبه القرآن بالمصباح على ما سبق ونفسه ﷺ الزكية الطاهرة بالشجرة لكونها نابتة من أرض الدين متشعبة فروعها إلى سماء الإيمان متدلية أثمارها إلى فضاء الإخلاص والإحسان وذلك لاستقامتها بمقتضى قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ [هود: ١١٢] غير مائلة إلى طرفي الإفراط والتفريط وذلك معنى قوله تعالى: ﴿**لا شرقية ولا غربية**﴾ ويشبه ما محض من تلك الثمرات بعد التصفية التامة للتهيئة وقبول الآثار بالزيت الصافي لوفور قوة استعدادها للاستضاءة للدهنية القابلة للاشتعال، ومن ثم خصت شجرة الزيتون لأن لب ثمرتها الزيت الذي تشتعل به المصابيح، وخص هذا الدهن لمزيد إشراقه مع قلة الدخان يكاد زيت استعداده صلوات الله تعالى وسلامه عليه لصفائه وزكائه يضيء ولو لم يمسسه نور القرآن، روى البغوي عن محمد بن كعب القرظي تكاد محاسن محمد ﷺ تظهر للناس قبل أن يوحى إليه، قال ابن رواحة:

لو لم يكن فيه آيات مبينة ... كانت بداهته تنبيك عن خبره

وفي حقائق السلمي مثل نوره في عبده المخلص والمشكاة القلب والمصباح النور الذي قذف فيه والمعرفة تضيء في قلب العارف بنور التوفيق يوقد من شجرة مباركة يضيء على شخص مبارك تتبين أنوار باطنة على آداب ظاهرة وحسن معاملته زيتونة لا شرقية ولا غربية جوهرة صافية لا لها حظ في الدنيا ولا في الآخرة لاختصاصها بموالاة

العزيز الغفار وتفردها بالفرد الجبار إلى غير ذلك، وجعل بعضهم التشبيه من المركب الوهمي بناء على أن المراد من النور المشبه الهدى من حيث إنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم.

وكان الظاهر على هذا دخول الكاف على المصباح دون المشكاة المشتملة عليه، ومن هنا قيل إن في الآية قلباً، ووجه بعضهم دخولها على المشكاة بأن المشتمل مقدم على المشتمل عليه في رأي العين فقدم لفظاً ودخل الكاف عليه رعاية لذلك، وقيل إنه على هذا أيضاً تشبيه مفرق لأنه شبه الهدى بالمصباح والجهالات بظلم استلزمتها وهو كما ترى.

ومن الناس من جعل التشبيه مفرقاً لكن بنى كلامه على ما أسسه الفلاسفة فجعل النور المشبه ما منح الله تعالى به عباده من القوى الخمس الدراكة المترتبة التي نيط بها المعاش وهي القوة الحساسة أعني الحس المشترك الذي يدرك المحسوسات بجواسيس الحواس الخمس الظاهرة والقوة الخيالية التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاء والقوة العقلية المدركة للحقائق الكلية والقوة الفكرية التي تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها على وجه يحصل به العلم بالمجهولات والقوة القدسية التي يختص بها الأنبياء والأولياء وتنجلي فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت، وجعل ما في حيز الكاف عبارة عن أمور شبه بكل منها واحد من هذه الخمس فقال: شبهت القوة الحساسة بالمشكاة من حيث إن محلها تجويف في مقدم الدماغ كالكوة تضع فيه الحواس الظاهرة ما تحس به وبذلك يضيء، وشبهت القوة الخيالية بالزجاجة من حيث إنها تقبل الصور المدركة من الجوانب كما تقبل الزجاجة الأنوار الحسية من الجوانب ومن حيث إنها تضبط الأنوار العقلية وتحفظها كما تحفظ الزجاجة الأنوار الحسية، ومن حيث إنها تستنير بما يشتمل عليها من المعقولات، وشبهت القوة العقلية بالمصباح لإضاءتها بالإدراكات و المعارف وشبهت القوة الفكرية بالشجرة المباركة من حيث إنها تؤدي إلى نتائج كثيرة هي بمنزلة ثمرات الشجرة، واعتبرت زيتونة لأن لها فضيلة على سائر الأشجار من حيث إن لب ثمرتها هو الزيت الذي له منافع جمة، منها أنه مادة المصابيح والأنوار الحسية وله من بين سائر الأدهان خاصة زيادة الإشراق وقلة الدخان، واعتبار وصف **﴿لا شرقية ولا غربية﴾** في جانب المشبه من حيث إن القوة الفكرية مجردة عن اللواحق الجسمية أو من حيث إن انتفاعها ليس مختصاً بجانب الصور ولا بجانب المعاني، وشبهت القوة القدسية بالزيت الذي يكاد يضيء من غير أن تمسسه نار من حيث إنها لكمال صفائها وشدة استعدادها لا تحتاج إلى تعليم أو تفكر. واعترض بأن حق النظم الكريم على هذا أن يقال: مثل نوره كمشكاة وزجاجة ومصباح وشجرة مباركة زيتونة وزيت يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار حتى يفيد تشبيه كل واحد بكل واحد. وأجيب بأنه لما كان كل من هذه الحواس يأخذ ما يدركه مما قبله كما يأخذ المظروف من ظرفه أشار سبحانه إلى ذلك بأداة الظرفية دلالة على بديع صنعه سبحانه وحكمته جل شأنه.

وجوز أن يراد تشبيه النور المراد به القوة العقلية للنفس بمراتبها بذلك ومراتبها أربع، الأولى أن تكون النفس خالية عن جميع العلوم الضرورية والنظرية مستعدة لها كما في مبدأ الطفولية وتسمى القوة العقلية في هذه المرتبة بالعقل الهيولاني لأنها كالهيولى في أنها في ذاتها خالية عن جميع الصور قابلة لها، وثانيتها أن تستعمل آلاتها أي الحواس مطلقاً فيحصل لها علوم أولية، وتستعد لاكتساب علوم نظرية وتسمى القوة المذكورة في هذه المرتبة عقلاً بالملكة لحصول ملكة الانتقال إلى النظريات لها بسبب تلك الأوليات، وثالثتها أن تصير النظريات مخزونة عندها وتحصل لها ملكة استحضارها متى شاءت من غير تجشم كسب جديد وتسمى تلك القوة في هذه المرتبة عقلاً بالفعل لحصول تلك العلوم لها بالقوة القريبة من الفعل، ورابعتها أن ترتب العلوم الأولية وتدرك العلوم النظرية مشاهدة

إياها بالفعل وتسمى تلك القوة في هذه المرتبة عقلاً مستفاداً لاستفادتها من العقل الفعال فشبهت القوة بالمرتبة الأولى بالمشكاة الخالية في بدء الأمر عن الأنوار الحسية المستعدة للاستنارة بها وبالمرتبة الثانية بالزجاجة المتلألئة في نفسها القابلة للأنوار الفائضة عليها من الغير الخارجي وبالمرتبة الثالثة بالمصباح الذي اشتعلت فتيلته المشبعة من الزيت وبالمرتبة الرابعة بالنور المتضاعف المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نور على نور﴾والشيخ ابن سينا بعد أن بين المراتب حمل مفردات التنزيل عليها، وحقق في المحاكمات وجه الترتيب فيها حيث جعل الزجاجة في المشكاة والمصباح في الزجاجة بأن هناك استعداداً محضاً كما في المرتبة الأولى واستعداد اكتساب كما في المرتبة الثانية واستعداد استحضار كما في المرتبة الثالثة ولا شك أن استعداد الاكتساب بحسب الاستعداد المحض واستعداد الاستحضار بحسب استعداد الاكتساب فتكون الزجاجة التي هي عبارة عن العقل بالملكة كأنما هي في المشكاة التي هي عبارة عن العقل الهيولاني والمصباح وهو العقل بالفعل في الزجاجة التي هي العقل بالملكة لأنه إنما يحصل باعتبار حصول العقل أولاً وحيث إن العقل بالملكة إنما يخرج من القوة إلى الفعل بالفكر أو بالحدس أو بالقوة القدسية أشير إلى الفكر بالشجرة الزيتونة وإلى الحدس بالزيت وإلى القوة القدسية بيكاد زيتها يضيء؛ ودفع ما يظهر من عدم انطباق ما ذكر على النظم الجليل لأنه وصف فيه الشجرة بما سمعت من الصفات، وهذه أمور متباينة لا يجوز وصف أحدها بالآخر بأن الشجرة الزيتونة شيء واحد فإذا ترقت في أطوارها حصل لها زيت إذا ترقى وصفا كاد يضيء؛ وكذلك الاكتساب قوة نفسية هي فكرة فإذا ترقت كانت حدساً، ثم قوة قدسية فهي وإن كانت متباينة ترجع إلى شيء واحد كالشجرة وذكر أن قوله تعالى: ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ إشارة إلى أنها ليست من عالم الحس الذي لا يخلو عن أحد الأمرين، ولا يخفى عليك أن هذا مع تكلفه وابتنائه على ما أسسه الفلاسفة الذين هم في عمى عن نور الشريعة ولله تعالى در من قال فيهم:

قطعت الأخوة عن معشر ... بهم مرض من كتاب الشفا
فماتوا على دين رسطالس ... وعشنا على سنة المصطفى

لا يناسب المقام ولا ينتظم معه أطراف الكلام، وفيه ما يقتضي أن قوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ داخل في التمثيل وفيه خلاف، ثم اعلم أنه يعلم بمعونة ما ذكرنا حال التشبيه على سائر الأقوال في المراد بالنور، ولعل ما ذكرناه فيه أتم نوراً وأشد ظهوراً والله تعالى أعلم بحقائق الأمور، ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ [النور: ٤٠] ﴿يهدي الله لنوره﴾ [النور: ٣٥] أي يهدي سبحانه هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتماً لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن، وإظهاره في مقام الإضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته من عباده بأن يوفقهم سبحانه لفهم وجوه دلالة الأدلة العقلية والسمعية التي نور بها السماوات والأرض على وجه ينتفعون به أو بأن يوفقهم لفهم ما في القرآن من دلائل حقيته وكونه من عنده عز وجل من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان وفيه احتمالات أخر بحسب ما في النور من الأقوال، وأياً ما كان ففيه إيذان بأن مناط هذه الهداية وملاكها ليس إلا مشيئته تعالى وأن إظهار الأسباب بدونها بمعزل عن الإفضاء إلى المطالب:

إذا لم يك التوفيق عوناً لطالب ... طريق الهدى أعيت عليه مطالبه

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ في تضاعيف الهداية حسبما يقتضيه حالهم فإن لضرب المثل دخلاً عظيماً في باب الإرشاد لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس وتصوير لأوابد المعاني بصورة المأنوس ولذلك مثل جل وعلا

نوره المراد به ما يشمل القرآن أو القرآن المبين فقط بنور المشكاة، وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار على ما في إرشاد العقل السليم للإيذان باختلاف ما أسند إليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الأمثال الذي هو من قبيل الهداية العامة كما يفصح عنه تعليق الأولى بمن شاء والثانية بالناس كافة.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو باطناً ومن قضيته أن تتعلق مشيئته تعالى بهداية من يليق بها ويستحقها من الناس دون من عداهم لمخالفته الحكمة التي هي مبنى التكوين والتشريع وأن تكون هدايته سبحانه العامة على فنون مختلفة وطرائق شتى حسبما تقتضيه أحوالهم وتقوم به الحجة له تعالى عليهم، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله، وقيل جيء بها لوعد من تدبر الأمثال ووعيد من لم يكترث بها، وقيل لبيان أن فائدة ضرب الأمثال التي هي للتوضيح إنما هي للناس وليس بذاك، وإظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة والاشعار بعلة الحكم وبما ذكر آنفاً من اختلاف حال المحكوم به ذاتاً وتعلقاً.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾ إلخ استئناف لبيان حال من حصلت لهم الهداية لذلك النور وذكر بعض أعمالهم القلبية والقالبية، فالجار والمجرور ـ أعني متعلق قوله تعالى: ﴿في بيوت﴾ بيسبح وفيها تكرير لذلك جيء به للتأكيد والتذكير بما بعد في الجملة وللإيذان بأن التقديم للاهتمام دون الحصر، ومثل ما ذكر في التكرير للتأكيد وقوله تعالى: ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ [آل عمران: ١٠٧] وقولك مررت بزيد به، وبعض النحاة أعرب نحو ذلك بدلاً كما في شرح التسهيل، وفي المغني هو من توكيد الحرف بإعادة ما دخل عليه مضمراً وليس الجار والمجرور توكيداً للجار والمجرور لأن الظاهر لكونه أقوى لا يؤكد بالضمير، وليس المجرور بدلاً بإعادة الجار لأنه لا يبدل مضمر من مظهر وإنما جوزه بعض النحاة قياساً، وأنت تعلم أن ما ذكر غير وارد لأن المجموع بدل أو توكيد، وأتي بالظاهر هرباً من التكرار، و ﴿رجال﴾ فاعل ﴿يسبح﴾ وتأخيره عن الظروف لأن في وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام وقال الرماني ﴿في بيوت﴾ متعلق بيوقد، وقال الحوفي: متعلق بمحذوف وقع صفة لمشكاة، وقيل هو صفة لمصباح، وقيل صفة لزجاجة، وهو على هذه الأقوال الأربعة تقييد للممثل به للمبالغة فيه، والتنوين في الموصوف للنوعية لا للفردية لينافي ذلك في جمع البيوت. وأورد على ما ذكر أن شيئاً منه لا يليق بشأن التنزيل الجليل كيف لا وأن ما بعد قوله تعالى ﴿ولو لم تمسسه نار﴾ على ما هو الحق أو بعد قوله سبحانه ﴿نور على نور﴾ على ما قيل إلى قوله تعالى ﴿بكل شيء عليم﴾ كلام متعلق بالممثل قطعاً فتوسطيه بين أجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجرة ولحائه بالأجنبي يؤدي إلى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهديين لنوره تعالى بطريق الاستتباع والاستطراد مع كون بيان حال أضدادهم مقصوداً بالذات ومثل هذا مما لا عهد به في كلام الناس فضلاً أن يحمل عليه الكلام المعجز. وتعقبه الخفاجي بأنه زخرف من القول إذ لا فصل فيه وما قبله إلى هنا من المثل، والظاهر عندي أن التمثيل قد تم عند قوله تعالى: ﴿ولو لم تمسسه نار﴾ وقيل هو متعلق بسبحوا أو نحوه محذوفاً، وتلك الجملة على ما قيل مترتبة على ما قبلها وترك الفاء للعلم به كما في نحو قم يدعوك، ومنعوا تعلقه بيذكر لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله، والمراد بالبيوت المساجد كلها كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة ومجاهد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال: إنما هي أربع مساجد لم ينهن إلا نبي، الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما رسول

الله ﷺ، وعن الحسن أن المراد بها بيت المقدس والجمع من حيث إن فيه مواضع يتميز بعضها عن بعض وهو خلاف الظاهر جداً.

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة قال: «قرأ رسول الله ﷺ: هذه الآية ﴿في بيوت﴾ إلخ فقام إليه عليه الصلاة والسلام رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «بيوت الأنبياء عليهم السلام فقام إليه أبو بكر رضي الله تعالى فقال: يا رسول الله هذا البيت منها لبيت علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما قال: نعم من أفاضلها» وهذا إن صح لا ينبغي العدول عنه.

وقال أبو حيان: الظاهر أنها مطلقة تصدق على المساجد والبيوت التي تقع فيها الصلاة والعلم، وجوز أن يراد بها صلاة المؤمنين أو أبدانهم بأن تشبه صلاتهم الجامعة للعبادات القولية والفعلية أو أبدانهم المحيطة بالأنوار بالبيوت المذكورة ـ أعني المساجد ـ ثم يستعار اسمها لذلك. وتعقب بأنه لا حسن فيما ذكر وأظنك لا تكتفي بهذا المقدار من الجرح، والمراد بالإذن الأمر وبالرفع التعظيم أي أمر سبحانه بتعظيم قدرها، ورروي هذا عن الحسن والضحاك ولا يخفى أنه إذا أريد بها المساجد فتعظيم قدرها يكون بأشياء شتى كصيانتها عن دخول الجنب والحائض والنفساء ولو على وجه العبور وقد قالوا بتحريم ذلك وإدخال بحاسة فيها يخاف منها التلويث ولذا قالوا: ينبغي لمن أراد أن يدخل المسجد أن يتعاهد النعل والخف عن النجاسة ثم يدخل فيه احترازاً عن تلويث المسجد، ومنع إدخال الميت فيها ومنع إدخال الصبيان والمجانين وهو حرام حيث غلب تنجيسهم وإلا فهو مكروه، وقد جاء الأمر بتجنيبهم عن المساجد مطلقاً.

أخرج ابن ماجة عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ أنه قال: جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع ومنع إنشاد الضالة وإنشاد الأشعار، فقد أخرج الطبراني وابن السني وابن منده عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأيتموه ينشد شعراً في المسجد فقولوا فض الله تعالى فاك ثلاث مرات ومن رأيتموه ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا وجدتها ثلاث مرات» الحديث. وينبغي أن يقيد المنع من إنشاد الشعر بما إذا كان فيه شيء مذموم كهجو المسلم وصفة الخمر وذكر النساء والمردان وغير ذلك مما هو مذموم شرعاً، وأما إذا كان مشتملاً على مدح النبوة والإسلام أو كان مشتملاً على حكمة أو باعثاً على مكارم الأخلاق والزهد ونحو ذلك من أنواع الخير فلا بأس بإنشاده فيها، ومنع إلقاء القملة فيه بعد قتلها وهو مكروه تنزيهاً على ما صرح به بعض المتأخرين، ويندب أن لا تلقى حية في المسجد، فقد أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وجد أحدكم القملة في المسجد فليصرها في ثوبه حتى يخرجها» ومنع البول فيها ولو في إناء وقد صرحوا بحرمة ذلك، وفي الأشباه وأما الفصد في المسجد في إناء فلم أره، وينبغي أن لا فرق أي لأن كلاً من البول والدم نجس مغلظ، ومنع إلقاء البصاق فيها.

وفي البدائع يكره التوضيء في المسجد لأنه مستقذر طبعاً فيجب تنزيه المسجد عنه كما يجب تنزيهه عن المخاط والبلغم، وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي «أن النبي ﷺ رأى في قبلة المسجد نخامة فقام إليها فحكها بيده الشريفة ﷺ ثم دعا بخلوق فلطخ مكانها» فقال الشعبي: هو سنة، وذكروا أن إلقاء النخام فوق الحصير أخف من وضعها تحته فإن اضطر إليه دفنها، وفي حديث أخرجه ابن أبي شيبة عن أنس مرفوعاً «التفل في المسجد خطيئة وكفارته أن يواريه» وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس مرفوعاً أيضاً نحوه، ومنع الوطء فيها وفوقها كالتخلي

وصرحوا بحرمة ذلك، ومنع دخول من أكل ذا رائحة كريهة فيها كالثوم و البصل والكراث وأكل الفجل إذا تجشأ كذلك، وقد كان الرجل في زمان النبي ﷺ إذا وجد منه ريح الثوم يؤخذ بيده ويخرج إلى البقيع، والظاهر أن الأبخر أو من به صنان مستحكم حكمه حكم آكل الثوم و البصل، وكذا حكم من رائحة ثيابه كريهة كثياب الزياتين والدباغين، وعن مالك أن الزياتين يتأخرون ولا يتقدمون إلى الصف الأول ويقعدون في أخريات الناس، ومنع الثوم والأكل فيها لغير معتكف، ومنع الجلوس فيها للمصيبة أو للتحدث بكلام الدنيا، ومنع اتخاذها طريقاً وهو مكروه أو حرام، وقد جاء النهي عن ذلك في حديث رواه ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً.

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أن اتخاذها طريقاً من أشراط الساعة؛ وفي القنية معتاد ذلك يأثم ويفسق، نعم إن كان هناك عذر لم يكره المرور، ومن تعظيمها رشها وقمها، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم قال: كان المسجد يرش ويقم على عهد رسول الله ﷺ. وأخرج عن يعقوب بن زيد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يتبع غبار المسجد بجريدة؛ وكذا تعليق القناديل فيها وفرشها بالآجر والحصير، وفي مفتاح السعادة ولأهل المسجد أن يفرشوا المسجد بالآجر والحصير ويعلقوا القناديل لكن من مال أنفسهم لا من مال المسجد إلا بأمر الحاكم، ولعل محل ذلك ما لم يعين الواقف شيئاً من ريع الوقف لذلك، وينبغي أن يكون إيقاد القناديل الكثيرة فيها في ليالي معروفة من السنة كليلة السابع والعشرين من رمضان الموجب لاجتماع الصبيان وأهل البطالة ولعبهم ورفع أصواتهم وامتهانهم بالمساجد بدعة منكرة، وكذا ينبغي أن يكون فرشها بالقطائف المنقوشة التي تشوش على المصلين وتذهب خشوعهم كذلك، ومن التعظيم أيضاً تقديم الرجل اليمنى عند دخولها واليسرى عند الخروج منها، وصلاة الداخل ركعتين قبل الجلوس إذا كان دخوله لغير الصلاة على ما ذكره بعضهم، وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: «أعطوا المساجد حقها: قيل وما حقها؟ قال: ركعتان قبل أن تجلس» ومن ذلك أيضاً بناؤها رفيعة عالية لا كسائر البيوت لكن لا ينبغي تزيينها بما يشوش على المصلين، وفي حديث أخرجه ابن ماجة والطبراني عن جبير بن مطعم مرفوعاً أنها لا تبنى بالتصاوير ولا تزين بالقوارير. وفسر بعضهم الرفع ببنائها رفيعة كما في قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ [البقرة: ١٢٧] والأولى عندي تفسيره بما سبق وجعل بنائها كذلك داخلاً في العموم ويدخل فيه أمور كثيرة غير ما ذكرنا وقد ذكرها الفقهاء وأطالوا الكلام فيها.

زعم بعض المفسرين أن إسناد الرفع إليها مجاز، والمراد ترفع الحوائج فيها إلى الله تعالى، وقيل: ترفع الأصوات بذكر الله عز وجل فيها، ولا يخفى مافيه، وفي التعبير عن الآمر بالإذن تلويح بأن اللائق بحال المأمور أن يكون متوجهاً إلى المأمور به قبل الآمر به ناوياً لتحقيقه كأنه مستأذن في ذلك فيقع الأمر به موقع الأمر فيه، والمراد بذكر اسمه تعالى شأنه ما يعم جميع أذكاره تعالى، وجعل من ذلك المباحث العلمية المتعلقة به عز وجل، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المراد به توحيده عز وجل وهو قول: لا إله إلا الله، وعنه أيضاً المراد تلاوة كتابه سبحانه. وقيل: ذكر أسمائه تعالى الحسنى. والظاهر ما قدمنا، وعطف الذكر على الرفع من قبيل عطف الخاص على العام فإن ذكر اسمه تعالى فيها من أنواع تعظيمها، وليس من عطف التفسير في شيء خلافاً لمن توهمه، والتسبيح التنزيه والتقديس ويستعمل باللام وبدونها كما في قوله تعالى: ﴿سبح باسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] والمراد به إما ظاهره أو الصلاة لاشتمالها عليه وروي هذا عن ابن عباس والحسن والضحاك.

وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن صلاة، وأيد إرادة الصلاة هنا تعيين الأوقات بقوله سبحانه: **﴿بالغدو والآصال﴾** والغدو جمع غداة كقنى وقناة أو مصدر أطلق على الوقت الغدو، وأيد بأن أبا مجلز قرأ «والايصال» مصدراً

أي الدخول في وقت الأصيل، و ﴿الآصال﴾ كما قال الجوهري جمع أصيل كشريف وأشراف، واختاره جماعة مع أن جمع فعيل على أفعال ليس بقياسي.

واختار الزمخشري أنه جمع أصل كعنق وأعناق؛ والأصل كالأصيل العشي وهو من زوال الشمس إلى الصباح فيشمل الأوقات ما عدا الغداة وهي من أول النهار إلى الزوال ويطلقان على أول النهار وآخره، وإفرادهما بالذكر لشرفهما وكونهما أشهر ما يقع فيه المباشرة للأعمال والاشتغال بالأشغال. وعن ابن عباس أنه حمل الغداة على وقت الضحى وهو مقتضى ما أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان عنه رضي الله تعالى عنه من قوله: «إن صلاة الضحى لفي القرآن وما يغوص عليها الأغواص وتلا الآية حتى بلغ الآصال.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر والبحتري عن حفص ومحبوب عن أبي عمرو والمنهال عن يعقوب والمفضل وأبان «يسبح» بالياء التحتية والبناء للمفعول ونائب الفاعل ﴿له﴾ أو ﴿فيها﴾ إن لم يتعلق ﴿في بيوت﴾ به أو ﴿بالغدو﴾ والأولية للأول لأنه ولي الفعل والإسناد إليه حقيقي دون الأخيرين. وجوز أن يكون المجرور فيما ذكر نائب الفاعل والجار فيه زائداً، وفيه ارتكاب لما لا داعي إليه، ورفع «رجال» على هذه القراءة على أنه فاعل لفعل محذوف أو خبر مبتدأ محذوف على ما في البحر أي يسبح له أو المسبح له رجال. والجملة استئناف بياني وقع جواباً لسؤال نشأ من الكلام السابق. وهذا نظير قوله:

ليبك يزيد ضارع لخصومة ... متخبط مما تطيح الطوائح

وهو قياسي عند الكثير فيجوز عندهم أن يقال: ضربت هند زيد بتقدير ضربها أو ضاربها زيد. وليس هذا كذكر الفاعل تمييزاً بعد الفعل المبني للمفعول نحو ضرب أخوك رجلاً المصرح بعدم جوازه ابن هشام في الباب الخامس من المغني وإن أوهمت العلة أنه مثله فتأمل.

وقرأ أبو حيوة وابن وثاب «تسبح» بالتاء الفوقية والبناء للفاعل وهو «رجال» والتأنيث لأن جمع التكثير كثيراً ما يعامل معاملة المؤنث، وقرأ أبو جعفر «تسبيح» بالتاء الفوقية والبناء للمفعول وهو قوله تعالى: ﴿بالغدو والآصال﴾ على أن الباء زائدة والإسناد مجازي بجعل الأوقات المسبح فيها ربها مسبحة، وجوز أبو حيان أن يكون الإسناد إلى ضمير التسبيحة الدال عليه «تسبح» أي تسبح هي أي التسبيحة كما قالوا في قوله تعالى: ﴿ليجزي قوما﴾ [الجاثية: ١٤] على قراءة من بنى ﴿يجزي﴾ للمفعول أي ليجزي هو أي الجزاء. قال في إرشاد العقل السليم: وهذا أولى من التوجيه الأول إذ ليس هنا مفعول صريح. وضعفه بعضهم هنا بأن الوحدة لا تناسب المقام، وأجيب بالتزام كون الوحدة جنسية. وأياً ما كان فرفع «رجال» على هذه القراءة على الفاعلية أو الخبرية كما سمعت آنفاً. والتنوين فيه على جميع القراءات للتفخيم، وقوله سبحانه: ﴿لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم كائناً مّا كان. وتخصيص الرجال بالذكر لأنهم الأحقاء بالمساجد. فقد أخرج أحمد والبيهقي عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ «خير مساجد النساء قعر بيوتهن» وتخصيص التجارة التي هي المعاوضة مطلقاً بذلك لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها أي لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة ﴿وَلاَ بَيْعٌ﴾ أي ولا فرد من أفراد البياعات وإن كان في غاية الربح. وإفراده بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن ناجز وربح ما عداه متوقع في ثاني الحال عند البيع فلم يلزم من نفي إلهاء ما عداه نفي إلهائه ولذلك كرر كلمة ﴿لا﴾ لتذكير النفي وتأكيده، وجوز أن يراد بالتجارة المعاوضة الرابحة بالبيع المعاوضة مطلقاً فيكون ذكره بعدها من باب التعميم بعد التخصيص للمبالغة، ونقل عن الواقدي أن المراد بالتجارة هو الشراء لأنه

أصلها ومبدؤها فلا تخصيص ولا تعميم، وقيل: المراد بالتجارة الجلب لأنه الغالب فيها فهو لازم لها عادة. ومنه يقال: تجر في كذا أي جلبه. ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال في هؤلاء الموصوفين بما ذكر: هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى.

وأخرج الديلمي وغيره عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه، وفي ذلك أيضاً ما يقتضي أنهم كانوا تجاراً وهو الذي يدل عليه ظاهر الآية لأنه لا يقال فلان لا تلهيه التجارة إلا إذا كان تاجراً وروي ذلك عن ابن عباس.

أخرج الطبراني وابن مردويه عنه أنه قال: أما والله لقد كانوا تجاراً فلم تكن تجارتهم ولا بيعهم يلهيهم عن ذكر الله تعالى، وبه قال الضحاك، وقيل إنهم لم يكونوا تجاراً والنفي راجع للقيد والمقيد كما في قوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

كأنه قيل: لا تجارة لهم ولا بيع فيلهيهم فإن الآية نزلت فيمن فرغ عن الدنيا كأهل الصفة، وأنت تعلم أن الآية على الأول المؤيد بما سمعت أمدح ولم نجد لنزولها فيمن فرغ عن الدنيا سنداً قوياً أو ضعيفاً ولا يكتفى في هذا الباب بمجرد الاحتمال ﴿عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ بالتسبيح والتحميد ونحوهما ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير. والأصل أقوام فنقلت حركة الواو لما قبلها فالتقى ساكنان فحذفت فقيل: إقام، وعن الزجاج أنه قلبت الواو ألفاً ثم حذف لاجتماع ألفين. وأورد عليه أنه لا داعي إلى قلبها ألفاً مع فقد شرطه وهو أن لا يسكن ما بعدها. وأوجب الفراء لجواز هذا الحذف تعويض التاء فيقال: إقامة أو الإضافة كما هنا. وعلى هذا جاء قوله:

إن الخليط أجدوا البين وانجردوا ... وأخلفوك عدا الأمر الذي وعدوا

فإنه أراد عدة الأمر. وتأول خالد بن كلثوم ما في البيت على أن عدا جمع عدوة بمعنى ناحية كأن الشاعر أراد نواحي الأمر وجوانبه. ومذهب سيبويه جواز الحذف من غير تعويض التاء أو الإضافة ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي المال الذي فرض إخراجه للمستحقين كما روي عن الحسن. ويدل على تفسير الزكاة بذلك دون الفعل ظاهر إضافة الإيتاء إليها. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير إيتاء الزكاة بإخلاص طاعة الله تعالى وفيه بعد كما ترى، وإيراد هذا الفعل هاهنا وإن لم يكن مما يفعل في البيوت لكونه قرينة لا تفارق إقامة الصلاة في عامة المواضع مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد. وكذا قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾ إلى آخره فإنه صفة أخرى لرجال أو حال من مفعول ﴿لا تلهيهم﴾ أو استئناف مسوق للتعليل. وأياً مّا كان فليس خوفهم مقصوراً على كونهم في المساجد.

وقوله تعالى: ﴿يَوْماً﴾ مفعول ليخافون على تقدير مضاف أي عقاب يوم وهو له أو بدونه وجعله ظرفاً لمفعول محذوف بعيد. وأما جعله ظرفاً ليخافون والمفعول محذوف فليس بشيء أصلاً إذ المراد أنهم يخافون في الدنيا يوماً ﴿تَتَقَلَّبُ فيه الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ لا أنهم يخافون شيئاً في ذلك اليوم الموصوف بأنه تتقلب فيه إلخ، والمراد به يوم القيامة. ومعنى تقلب القلوب والأبصار فيه اضطرابها وتغيرها أنفسها فيه من الهول والفزع كما في قوله تعالى: ﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: ١٠] أو تغير أحوالها بأن تفقه القلوب ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصر أو بأن تتوقع القلوب النجاة تارة وتخاف الهلاك أخرى وتنظر الأبصار يميناً تارة وشمالاً أخرى لما أن أغلب أهل الجمع لا يدرون من أي ناحية يؤخذ بهم ولامن أي وجهة يؤتون كتبهم، وقيل: المراد تقلب فيه القلوب والأبصار على جمر جهنم وليس بشيء، ومثله قول الجبائي: إن المراد تنتقل من حال إلى حال فتلفحها النار ثم تنضجها ثم تحرقها، وقرأ ابن محيصن «تنقلب» بإسكان التاء الثانية.

وقوله سبحانه ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق على ما استظهره أبو حيان بيسبح وجوز أبو البقاء أن يتعلق بلا تلهيهم أو بيخافون ولا يخفى أن تعلقه بأحد المذكورين محوج إلى تأويل، ولعل تعلقه بفعل محذوف يدل عليه ما حكي عنهم أولى من جميع ذلك أي يفعلون ما يفعلون من التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة والخوف من غير صارف لهم عن ذلك ليجزيهم الله تعالى ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ واللام على سائر الأوجه للتعليل. وقال أبو البقاء: يجوز أن تكون لام الصيرورة كالتي في قوله تعالى: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: ٨] وموضع الجملة حال والتقدير يخافون ملهمين ليجزيهم الله وهو كما ترى، والجزاء المقابلة والمكافأة على ما يحمد ويتعدى إلى الشخص المجزي بعن قال تعالى: ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ [البقرة: ٤٨، ١٢٣] وإلى ما فعله ابتداء بعلى تقول جزيته على فعله وقد يتعدى إليه بالباء فيقال جزيته بفعله وإلى ما وقع في مقابلته بنفسه وبالباء، قال الراغب: يقال جزيته كذا وبكذا، والظاهر أن أحسن هو ما وقع في المقابلة فيكون الجزاء قد تعدى إليه بنفسه ويحتاج إلى تقدير مضاف أي ليجزيهم أحسن جزاء عملهم أو الذي عملوه حسبما وعد لهم بمقابلة حسنة واحدة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ليكون الأحسن من جنس الجزاء.

وجوز أن يكون الأحسن هو الفعل المجزى عليه أو به الشخص وليس هناك مضاف محذوف والكلام على حذف الجار أي ليجزيهم على أحسن أو بأحسن ما عملوا، وأحسن العمل أدناه المندوب فاحترز به عن الحسن وهو المباح إذ لا جزاء له ورجح الأول بسلامته عن حذف الجار الذي هو غير مقيس في مثل ما نحن فيه بخلاف حذف المضاف فإنه كثير مقيس، وجوز أن يكون المضاف المحذوف قبل «أحسن» أي جزاء أحسن ما عملوا، والظاهر أن المراد بما عملوا أعم مما سبق وبعضهم فسره به ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم توعد لهم بخصوصياتها أو بمقاديرها ولم يخطر ببالهم كيفياتها ولا كميتها بل إنما وعدت بطريق الإجمال في مثل قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [يونس: ٢٦] وقوله ﷺ حكاية عنه عز وجل «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» إلى غير ذلك من المواعيد الكريمة التي من جملتها قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فإنه تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب والموصول عبارة عمن ذكرت صفاتهم الجميلة كأنه قيل والله يرزقهم بغير حساب، ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما في حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره عز وجل وللإيذان بأنهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم كما أنهم ممن شاء سبحانه أن يهديهم لنوره حسبما يعرب عنه ما فصل من أعمالهم الحسنة فإن جميعها من آثار تلك الهداية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخره عطف على ما قبله عطف القصة على القصة أو على مقدر ينساق إليه ما قبله كأنه قيل الذين آمنوا أعمالهم حالاً ومآلاً كما وصف الذين كفروا ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ أي أعمالهم التي هي من أبواب البر كصلة الأرحام وفك العناة سقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف ونحو ذلك على ما قيل، وقيل أعمالهم التي يظنون الانتفاع بها سواء كان مما يشترط فيها الإيمان كالحج أم كانت مما لا يشترط فيها ذلك كسقاية الحاج وسائر ما تقدم، وقيل المراد بها ما يشمل الحسن والقبيح ليتأتى التشبيهان، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك، والسراب بخار رقيق يرتفع من قعور القيعان فإذا اتصل به ضوء الشمس أشبه من بعيد الماء السارب أي الجاري واشترط فيه الفراء اللصوق في الأرض، وقيل هو ما ترقرق من الهواء في الهجير في فيافي الأرض المنبسطة، وقيل: هو الشعاع الذي يرى نصف النهار عند اشتداد الحر في البر يخيل للناظر أنه ماء سارب، قال الشاعر:

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كلمع سراب في الفلا متألق

وإلى هذا ذهب الطبرسي، وفسر الآل بأنه شعاع يرتفع بين السماء والأرض كالماء ضحوة النهار ﴿بقيعة﴾ متعلق بمحذوف هو صفة سراب أي كائن بقيعة وهي الأرض المنبسطة المستوية، وقيل هي جمع قاع كجيرة في جار ونيرة في نار، وقرأ مسلمة بن محارب «بقيعات» بتاء طويلة على أنه جمع قيعة كديمات وقيمات في ديمة وقيمة، وعنه أيضاً قرأ «بقيعاة» بتاء مدورة ويقف عليها بالهاء فيحتمل أن يكون جمع قيعة ووقف بالهاء على لغة طيىء كما قالوا: البناه والاخواه، ويحتمل كما قال صاحب اللوامح أن يكون مفرداً وأصله قيعة كما في قراءة الجمهور لكنه أشبع الفتحة فتولدت منها الألف ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ صفة أخرى لسراب.

وجوز أن يكون هو الصفة وبقيعة ظرفاً لما يتعلق به الكاف وهو الخبر؛ والحسبان الظن على المشهور وفرق بينهم الراغب بأن الظن أن يخطر النقيضان بباله ويغلب أحدهما على الآخر والحسبان أن يحكم بأحدهما من غير أن يخطر الآخر بباله فيعقد عليه الأصبع ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله كل من يراه كائناً من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه الذي هو المطلع والمقطع المؤيس.

وقرأ شيبة وأبو جعفر ونافع بخلاف عنهما «الظمآن» بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الميم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ أي إذا جاء العطشان ما حسبه ما، وقيل: إذا جاء موضعه ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾ أي لم يجد ما حسبه ماء وعلق رجاءه به ﴿شَيْئًا﴾ أصلاً لا محققاً ولا مظنوناً كان يراه من قبل فضلاً عن وجه أنه ماء، ونصب ﴿شيئا﴾ قيل على الحالية، وأمر الاشتقاق سهل، وقيل على أنه مفعول ثان لوجد بناء على أنها من أخوات ظن، وجوز أن يكون منصوباً على البدلية من الضمير، ويجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا نعت إذا كان مفيداً كما صرح به الرضي، واختار أبو البقاء أنه منصوب على المصدرية كأنه قيل لم يجده وجداناً وهو كما ترى ﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ﴾ عطف على جملة ﴿لم يجده﴾ فهو داخل في التشبيه أي ووجد الظمآن مقدوره تعالى من الهلاك عند السراب المذكور، وقيل أي وجد الله تعالى محاسباً إياه على أن العندية بمعنى الحساب لذكر التوفية بعد بقوله سبحانه: ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أي أعطاه وافياً كاملاً حساب عمله وجزاءه أو أتم حسابه بعرض الكتبة ما قدمه ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب.

وفي إرشاد العقل السليم أن بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل قد تم بقوله سبحانه: ﴿لم يجده شيئاً﴾، وقوله تعالى: ﴿ووجد﴾ الخ بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شأن الظمآن، ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر للخيبة عنده أصلاً فليست الجملة معطوفة على ﴿لم يجده شيئاً﴾ بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم عيناً ولا أثراً كما في قوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ [الفرقان: ٢٣] كيف لا وأن الحكم بأن أعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً حكم بأنها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعة لهم في الآخرة حتى إذا جاؤوها لم يجدوها شيئاً كأنه قيل: حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة لم يجدوها شيئاً ووجدوا الله أي حكمه وقضاءه عند المجيء، وقيل: عند العمل فوفاهم أي أعطاهم وافياً حسابهم أي حساب أعمالهم المذكورة وجزاءها فإن اعتقادهم لنفعها بغير إيمان وعملهم بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعاً، وإفراد الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا إما لإرادة الجنس كالظمآن

الواقع في التمثيل وإما للحمل على كل واحد منهم، وكذا إفراد ما يرجع إلى أعمالهم انتهى، ولا يخفى ما فيه من البعد وارتكاب خلاف الظاهر.

وأياً ما كان فالمراد بالظمآن مطلق الظمآن، وقيل المراد به الكافر، وإليه ذهب الزمخشري قال: شبه سبحانه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجده ويجد زبانية الله تعالى عنده يأخذونه فيسقونه الحميم والغساق وكأنه مأخوذ مما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق السدي في غرائبه عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: «إن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً فيقولون أين الماء فيمثل لهم السراب فيحسبونه ماء فينطلقون إليه فيجدون الله تعالى عنده فيوفيهم حسابهم والله سريع الحساب»، واستطيب ذلك العلامة الطيبي حيث قال: إنما قيد المشبه به برؤية الكافر وجعل أحواله ما يلقاه يوم القيامة ولم يطلق لقوله تعالى: ﴿ووجد الله عنده﴾ الخ لأنه من تتمة أحوال المشبه به، وهذا الأسلوب أبلغ لأن خيبة الكافر أدخل وحصوله على خلاف ما يؤمله أعرق.

وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم من حمل الظمآن على الكافر تشبيه الشيء نفسه، ورد بأن التشبيه على ما ذكره جار الله تمثيلي أو مقيد لا مفرق كما توهم فلا يلزم من اتحاد بعض المفردات في الطرفين تشبيه الشيء بنفسه كاتحاد الفاعل في ـ أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ـ، وبالجملة هو أحسن مما في الإرشاد كما لا يخفى على من سلم ذهنه من غبار العناد.

والآية على ما روي عن مقاتل نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان تعبد وليس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام ولا يأبى ذلك قوله تعالى: ﴿والذين كفروا﴾ لأنه غير خاص بسبب النزول وإن دخل فيه دخولاً أولياً، ولا يرد عليه أن الآية مدنية نزلت بعد بدر وعتبة قتل في بدر فإن كثيراً من الآيات نزل بسبب الأموات وليس في ذلك محذور أصلاً، ثم لا يبعد أن يكون في حكم هؤلاء الكفرة الفلاسفة ومتبعوهم من المتزينين بزي الإسلام فإن اعتقادهم وأعمالهم حيث لم تكن على وفق الشرع كسراب بقيعة. ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على ﴿كسراب﴾، وكلمة أو قيل لتقسيم حال أعمالهم الحسنة، وجوز الإطلاق باعتبار وقتين فإنها كالسراب في الآخرة من حيث عدم نفعها وكالظلمات في الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق، وخص هذا بالدنيا لقوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ فإنه ظاهر في الهداية والتوفيق المخصوص بها، والأول بالآخرة لقوله تعالى: ﴿ووجد﴾ الخ وقدم أحوال الآخرة التي هي أعظم وأهم لاتصال ذلك بما يتعلق بها من قوله سبحانه: ﴿ليجزيهم﴾ الخ ثم ذكر أحوال الدنيا تتميماً لها.

وجوز أن يعكس ذلك فيكون المراد من الأول تشبيه أعمالهم بالسراب في الدنيا حال الموت، ومن الثاني تشبيهها بالظلمات في القيامة كما في الحديث «الظلم ظلمات يوم القيامة» ويكون ذلك ترقياً مناسباً للترتيب الوقوعي وليس بذلك لما سمعت، وقيل للتنويع، وذلك أنه أثر ما مثلت أعمالهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها في كل واد وناد بما ذكر من حال السراب مثلت أعمالهم القبيحة التي ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بالظلمات المذكورة، وزعم الجرجاني أن المراد هنا تشبيه كفرهم فقط وهو كما ترى. و الظاهر على التنويع أن يراد من الأعمال في قوله تعالى: ﴿أعمالهم﴾ ما يشمل النوعين.

واعترض بأنه يأبى ذلك قوله تعالى: ﴿ووجد الله عنده﴾ بناء على دخوله في التشبيه لأن أعمالهم الصالحة وإن سلم أنها لا تنفع مع الكفرة لا وخامة في عاقبتها كما يؤذن به قوله سبحانه: ﴿ووجد﴾ الخ. وأجيب بأنه ليس فيه ما

يدل على أن سبب العقاب الأعمال الصالحة بل وجد أن العقاب بسبب قبائح أعمالهم لكنها ذكرت جميعها لبيان أن بعضها جعل هباء منثوراً وبعضها معاقب به، وجوز أن تكون للتخيير في التشبيه لمشابهة أعمالهم الحسنة أو مطلقاً السراب لكونها لاغية لا منفعة فيها، والظلمات المذكورة لكونها خالية عن نور الحق، واختاره الكرماني.

واعترض بأن الرضي كغيره ذكر أنها لا تكون للتخيير إلا في الطلب. وأجيب بأنه وإن اشتهر ذلك فقد ذهب كثير إلى عدم اختصاصه به كابن مالك والزمخشري ووقوعه في التشبيه كثير، وأياً ما كان فليس في الكلام مضاف محذوف. وقال أبو علي الفارسي: فيه مضاف محذوف والتقدير أو كذي ظلمات، ودل عليه ما يأتي من قوله سبحانه: ﴿إذا أخرج يده﴾ والتشبيه عنده هنا يحتمل أن يكون للأعمال على نمط التشبيه السابق ويقدر أو كأعمال ذي ظلمات. ويحتمل أن يكون للكفرة ويقدر أو هم كذي ظلمات والكل خلاف الظاهر، وأمر الضمير سيظهر لك إن شاء الله تعالى.

وقرأ سفيان بن حسين «أَوَ كظلمات» بفتح الواو، ووجه ذلك في البحر بأنه جعلها واو عطف تقدمت عليها الهمزة التي لتقرير التشبيه الخالي عن محض الاستفهام. وقيل هي ﴿أو﴾ التي في قراءة الجمهور وفتحت الواو للمجاورة كما كسرت الدال لها في قوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾ على بعض القراءات ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ أي عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر. وقيل اللجة وهي أيضاً معظمه وهو صفة ﴿بحر﴾ وكذا جملة قوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ﴾ أي يغطي ذلك البحر ويستره بالكلية ﴿مَوْجٌ﴾ وقدمت الأولى لإفرادها. وقيل الجملة صفة ذي المقدر والضمير راجع إليه، وقد علمت حال ذلك التقدير وقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها الرفع على أنها صفة لموج أو الصفة الجار والمجرور وما بعده فاعل له لاعتماده على الموصوف. والمراد يغشاه أمواج متراكمة متراكبة بعضها على بعض، وقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ صفة لموج الثاني على أحد الوجهين المذكورين أي من فوق ذلك الموج سحاب ظلماني ستر أضواء النجوم، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي متكاثفة متراكمة، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كما أن قوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ بيان لغاية قوة النور خلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه ما بعده.

وأجاز الحوفي أن يكون ﴿ظلمات﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بعضها فوق بعض﴾. وتعقبه أبو حيان وتبعه ابن هشام بأن الظاهر أنه لا يجوز لما فيه من الابتداء بالنكرة من غير مسوغ إلا أن يقدر صفة لها يؤذن بها التنوين أي ظلمات كثيرة أو عظيمة وهو تكلف. وأجاز أيضاً أن يكون ﴿بعضها﴾ بدلاً من ﴿ظلمات﴾. وتعقب بأنه لا يجوز من جهة المعنى لأن المراد والله تعالى أعلم الإخبار بأنها ظلمات وأن بعض تلك الظلمات فوق بعض أي هي ظلمات متراكمة لا الإخبار بأن بعض ظلمات فوق بعض من غير إخبار بأن تلك الظلمات السابقة متراكمة. وقرأ قنبل «ظلماتٍ» بالجر على أنه بدل من ﴿ظلمات﴾ الأولى لا تأكيد لها. وجملة ﴿بعضها فوق بعض﴾ في موضع الصفة له. وقرأ البَزي «سحاب ظلمات» بإضافة سحاب إلى ظلمات وهذه الإضافة كالإضافة في لجين الماء أو لبيان أن ذلك السحاب ليس سحاب مطر ورحمة.

﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ أي من ابتلى بها، وإضماره من غير ذكر لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة. وكذا تقدير ضمير يرجع إلى ﴿ظلمات﴾ واحتج إليه لأن جملة ﴿إذا أخرج﴾ الخ في موضع الصفة لظلمات ولا بد لها من رابط ولا يتعين ما أشرنا إليه. وقيل: ضمير الفاعل عائد على اسم الفاعل المفهوم من الفعل على حد «لا يشرب الخمر وهو

مؤمن» أي إذا أخرج المخرج فيها ﴿يَدَهُ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينيه لينظر إليها ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي لم يقرب من رؤيتها وهي أقرب شيء إليه فضلاً عن أن يراها. وزعم ابن الأنباري زيادة ﴿يكد﴾. وزعم الفراء والمبرد أن المعنى لم يرها إلا بعد الجهد فإنه قد جرى العرف أن يقال: ما كاد يفعل ولم يكد يفعل في فعل قد فعل بجهد مع استبعاد فعله وعليه جاء قوله تعالى: ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ [البقرة: ٧١] ومن هنا خطأ ابن شبرمة ذا الرمة بقوله:

ذا غير النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

وناداه يا أبا غيلان أراه قد برح ففك وسلم له ذو الرمة ذلك فغير لم يكد بل لم يكن أو لم أجد، والتحقيق أن الذي يقتضيه لم يكد وما كاد يفعل أن الفعل لم يكن من أصله ولا قارب في الظن أن يكون ولا يشك في هذا.

وقد علم أن كاد موضوعة لشدة قرب الفعل من الوقوع ومشارفته فمحال أن يوجب نفيه وجود الفعل لأنه يؤدي إلى أن يكون ما قارب كذلك فالنظر إلى أنه إذا لم يكن المعنى على أن ثمت حالاً يبعد معها أن تكون ثم تغيرت كما في قوله تعالى: ﴿فذبحوها﴾ الخ يلتزم الظاهر ويجعل المعنى أن الفعل لم يقارب أن يكون فضلاً عن أن يكون والآية على ذلك وكذا البيت، وقد ذكر أن لم يكد فيهما جواب ﴿إذا﴾ فيكون مستقبلاً وإذا قلت: إذا خرجت لم أخرج فقد نفيت خروجاً في المستقبل فاستحال أن يكون المعنى فيهما على أن الفعل قد كان.

وهذا التحقيق خلاصة ما حقق الشيخ في دلائل الإعجاز، ومنه يعلم تخطئة من زعم أن كاد نفيها إثبات وإثباتها نفي.

وفي الحواشي الشهابية أن نفي كاد على التحقيق المذكور أبلغ من نفي الفعل الداخلة عليه لأن نفي مقاربته يدل على نفيه بطريق برهاني إلا أنه إذا وقع في الماضي لا ينافي ثبوته في المستقبل وربما أشعر بأنه وقع بعد اليأس منه كما في آية البقرة، وإذا وقع في المستقبل لا ينافي وقوعه في الماضي فإن قامت قرينة على ثبوته فيه أشعر بأنه انتفى وأيس منه بعد ما كان ليس كذلك كما في هذه الآية فإنه لشدة الظلمة لا يمكنه رؤية يده التي كانت نصب عينيه، ثم فرع على هذا أن لك أن تقول: إن مراد من قال: إن نفيها إثبات وإثباتها نفي أن نفيها في الماضي يشعر بالثبوت في المستقبل وعكسه كما سمعت، وهذا وجه تخطئة ابن شبرمة وتغيير ذي الرمة لأن مراده أن قديم هواها لم يقرب من الزوال في جميع الأزمان ونفيه في المستقبل يوهم ثبوته في الماضي فلا يقال: إنهما من فصحاء العرب المستشهد بكلامهم فكيف خفي ذلك عليهما ولذا استبعده في الكشف وذهب إلى أن قصتهما موضوعة أوصى بحفظ ذلك حيث قال: فاحفظه فإنه تحقيق أنيق وتوفيق دقيق سنح بمحض اللطف والتوفيق انتهى.

ولعمري أن ما أول به كلام القائل بعيد غاية البعد ولا أظنه يقع موقع القبول عنده ونفى كل فعل في الماضي لا ينافي ثبوته في المستقبل ونفيه في المستقبل لا ينافي وقوعه في الماضي ولا اختصاص لكاد بذلك فيا ليت شعري هل دفع الإيهام ما غير إليه ذو الرمة بيته فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك، ثم إن ظاهر الآية يقتضي أن مانع الرؤية شدة الظلمة وهو كذلك لأن شرط الرؤية بحسب العادة في هذه النشأة الضوء سواء كانت بمحض خلق الله تعالى كما ذهب إليه أهل الحق أو كانت بخروج الشعاع من العين على هيئة مخروط مصمت أو مؤلف من خطوط مجتمعة في الجانب الذي يلي الرأس أو لا على هيئة مخروط بل على استواء لكن مع ثبوت طرفه الذي يلي العين واتصاله بالمرئي أو بتكيف الشعاع الذي في العين بكيفية الهواء وصيرورة الكل آلة للرؤية كما ذهب إليه فرق الرياضيين أو كانت

بانطباع شبح المرئي في جزء من الرطوبة الجليدية التي تشبه البرد والجمد كما ذهب إليه الطبيعيون، وهذان المذهبان هما المشهوران للفلاسفة ونسب للإشراقيين منهم.

واختاره شهاب الدين القتيل أن الرؤية بمقابلة المستنير للعضو الباصر الذي فيه رطوبة صقلية وإذا وجدت هذه الشروط مع زوال المانع يقع للنفس علم إشراقي حضوري على المبصر فتدركه النفس مشاهدة ظاهرة جلية بلا شعاع ولا انطباع، واختار الملا صدرا أنها بإنشاء صورة مماثلة للمرئي بقدرة الله تعالى من عالم الملكوت النفساني مجردة عن المادة الخارجية حاضرة عند النفس المدركة قائمة بها قيام الفعل بفاعله لا قيام المقبول بقابله، وتحقيق ذلك بما له وما عليه في مبسوطات كتب الفلسفة. وربما يظن أن الظلمة سواء كانت وجودية أو عدم ملكة من شروط الرؤية كالضوء لكن بالنسبة إلى بعض الأجسام كالأشياء التي تلمع بالليل. ونفى ابن سينا ذلك وقال: لا يمكن أن تكون الظلمة شرطاً لوجود اللوامع مبصرة وذلك لأن المضيء مرئي سواء كان الرائي في الظلمة أو في الضوء كالنار نراها مطلقاً، وأما الشمس فإنما لا يمكننا أن نراها في الظلمة لأنها متى طلعت لم تبق الظلمة، وأما الكواكب واللوامع فإنما ترى في الظلمة دون النهار لأن ضوء الشمس غالب على ضوئها وإذا انفعل الحس عن الضوء القوي لا جرم لا ينفعل عن الضعيف، فأما في الليل فليس هناك ضوء غالب على ضوئها فلا جرم ترى، وبالجملة فصيرورتها غير مرئية ليس لتوقف ذلك على الظلمة بل لوجود المانع عن الرؤية وهو وجود الضوء الغالب انتهى، ويمكن أن يقال: إن ضوء الشمس على ما ذكر مانع عن رؤية اللوامع ورفع مانع الرؤية شرط لها ودفع الضوء هو الظلمة فالظلمة شرط رؤية اللوامع بالليل وهو المطلوب فتدبر ولا تغفل والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ من نُّورٍ﴾ اعتراض تذييلي جيء به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفار كما فصل وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره، وإيراد الموصول للإشارة بما في حيز الصلة إلى علة الحكم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم أي من لم يشأ الله تعالى أن يهديه الله سبحانه لنور في الدنيا فما له هداية ما من أحد أصلاً فيها، وقيل: معنى الآية من لم يكن له نور في الدنيا فلا نور له في الآخرة. وقيل: كلا الأمرين في الآخرة، والمعنى من لم ينوره الله تعالى بعفوه ويرحمه برحمته يوم القيامة فلا رحمة له من أحد فيها والمعول عليه ما تقدم. والظاهر أن المراد تشبيه أعمال الكفرة بالظلمات المتكاثفة من غير اعتبار أجزاء في طرفي التشبيه يعتبر تشبيه بعضها ببعض، ومنهم من اعتبر ذلك فقال: الظلمات الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة والبحر اللجي صدر الكافر وقلبه والموج الضلال والجهالة التي قد غمرت قلبه والموج الثاني الفكر المعوجة والسحاب شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان. وقيل: الظلمات أعمال الكافر والبحر هواه العميق القعر الكثير لخطر الغريق هو فيه والموج ما يغشى قلبه من الجهل والغفلة. والموج الثاني ما يغشاه من شك وشبهة والسحاب ما يغشاه من شرك وحيرة فيمنعه من الاهتداء والكل كما ترى ولو جعل من باب الإشارة لهان الأمر.

ومن باب الإشارة ما قيل إن في قوله تعالى: ﴿**وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**﴾ إشارة إلى أنه ينبغي للشيخ إذا أراد تأديب المريد وكسر نفسه الأمارة أن يؤدبه بمحضر طائفة من المريدين الذين لا يحتاجون إلى تأديب. ومن هنا قال أبو بكر بن طاهر: لا يشهد مواضع التأديب إلا من لا يستحق التأديب وهم طائفة من المؤمنين لا المؤمنون أجمع، والزنا عندهم إشارة إلى الميل للدنيا وشهواتها، وفي قوله تعالى: ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية**﴾ إلخ. وقوله تعالى: ﴿**الخبيثات للخبيثين**﴾ الخ إشارة إلى أنه لا ينبغي للأخيار معاشرة الأشرار إن الطيور على أشباهها تقع. وفي

قوله تعالى: ﴿**لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم**﴾ إشارة إلى أنه لا ينبغي لمن يشنع عليه المنكرون من المشايخ أن يحزن من ذلك ويظنه شراً له فإنه خير له موجب لترقيه.

وفي قوله تعالى: ﴿**ولا يأتل أولوا الفضل**﴾ الخ إشارة إلى أنه ينبغي للشيوخ والأكابر أن لا يهجروا أصحاب العثرات وأهل الزلات من المريدين وأن لا يقطعوا إحسانهم وفيوضاتهم عنهم، وفي قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها**﴾ إشارة إلى أنه لا ينبغي لمن يريد الدخول على الأولياء أن يدخل حتى يجد روح القبول والإذن بإفاضة المدد الروحاني على قلبه المشار إليه بالاستئناس فإنه قد يكون للولي حال لا يليق للداخل أن يحضره فيه وربما يضره ذلك، وأطرد بعض الصوفية ذلك فيمن يريد الدخول لزيارة قبور الأولياء قدس الله تعالى أسرارهم فقال: ينبغي لمن أراد ذلك أن يقف بالباب على أكمل ما يكون من الأدب ويجمع حواسه ويعتمد بقلبه طالباً الإذن ويجعل شيخه واسطة بينه وبين الولي المزور في ذلك فإن حصل له انشراح صدر ومدد روحاني وفيض باطني فليدخل وإلاّ فليرجع، وهذا هو المعني بأدب الزيارة عندهم ولم نجد ذلك عن أحد من السلف الصالح. والشيعة عند زيارتهم للأئمة رضي الله تعالى عنهم ينادي أحدهم أأدخل يا أمير المؤمنين أو يا ابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام أو نحوه ذلك ويزعمون أن علامة الإذن حصول رقة القلب ودمع العين وهو أيضاً مما لم نعرفه عن أحد من السلف ولا ذكره فقهاؤنا وما أظنه إلا بدعة ولا يعد فاعلها إلا مضحكة للعقلاء، وكون المزور حياً في قبره لا يستدعي الاستئذان في الدخول لزيارته، وكذا ما ذكره بعض الفقهاء من أنه ينبغي للزائر التأدب مع المزور كما يتأدب معه حياً كما لا يخفى. وقد رأيت بعد كتابتي هذه في الجوهر المنتظم في زيارة القبر المعظم صلى الله تعالى على صاحبه وسلم لابن حجر المكي ما نصه، قال بعضهم: وينبغي أن يقف ـ يعني الزائر ـ بالباب وقفة لطيفة كالمستأذن في الدخول على العظماء انتهى.

وفيه أنه لا أصل لذلك ولا حال ولا أدب يقتضيه انتهى. ومنه يعلم أنه إذا لم يشرع ذلك في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام فعدم مشروعيته في زيارة غيره من باب أولى فاحفظ ذاك والله تعالى يعصمنا من البدع وإياك. وقيل في قوله تعالى: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم**﴾ الخ إن فيه أمراً بغض بصر النفس عن مشتهيات الدنيا وبصر القلب عن رؤية الأعمال ونعيم الآخرة وبصر السر عن الدرجات والقربات وبصر الروح عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى وبصر الهمة عن أن يرى نفسه أهلاً لشهود الحق تنزيهاً له تعالى وإجلالاً، وأمراً بحفظ فرج الباطن عن تصرفات الكونين فيه، والإشارة بأمر النساء بعدم إبداء الزينة إلا لمن استثنى إلى أنه لا ينبغي لمن تزين بزينة الأسرار أن يظهرها لغير المحارم ومن لم يسترها عن الأجانب. وبقوله تعالى: ﴿**وأنكحوا الأيامى منكم**﴾ الخ إلى النكاح المعنوي وهو أن يودع الشيخ الكامل في رحم القلب من صلب الولاية نطفة استعداد قبول الفيض الإلهي. وقد أشير إلى هذا الاستعداد بقوله سبحانه: ﴿**إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله**﴾ ثم قال جل وعلا: ﴿**وليستعفف**﴾ أي ليحفظ ﴿**الذين لا يجدون**﴾ شيخاً في الحال أرحام قلوبهم عن تصرفات الدنيا والهوى والشيطان ﴿**حتى يغنيهم الله**﴾ بأن يوفق لهم شيخاً كاملاً أو يخصهم سبحانه بجذبة من جذباته، وأشير بقوله تعالى: ﴿**والذين يبتغون الكتاب**﴾ إلخ إلى أن المريد إذا طلب الخلاص عن قيد الرياضة لزم إجابته إن علم فيه الخير وهو التوحيد والمعرفة والتوكل والرضا والقناعة وصدق العمل والوفاء بالعهد ووجب أن يؤتي بعض المواهب[1] التي خصها الله تعالى بها الشيخ، وأشير بقوله تعالى: ﴿**ولا**

(١) قوله خصها الله تعالى بها الشيخ كذا بالأصل ا هـ.

تكرهوا﴾ إلخ إلى أن النفس إذا لم تكن مائلة إلى التصرف في الدنيا لم تكره عليه. ولهم في قوله تعالى: **﴿الله نور السموات والأرض﴾** كلام طويل عريض وفيما قدمنا ما يصح أن يكون من هذا الباب، وذكر أن قوله تعالى: **﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾** مما يدخل في عمومه أهل الطريقة العلية النقشبندية الذين حصل لهم الذكر القلبي ورسخ في قلوبهم بحيث لا يغفلون عنه سبحانه في حال من الأحوال وهذا وإن ثبت لغيرهم أيضاً من أرباب الطرائق فإنما يثبت في النهايات دون المبادي كما يثبت لأهل تلك الطريقة. وفي مكتوبات الإمام الرباني قدس سره ما يغني عن الإطالة في شرح أحوال هؤلاء القوم وبيان منزلتهم في الذكر والحضور بين سائر الأقوام حشرنا الله تعالى وإياهم تحت لواء النبي عليه الصلاة والسلام، وقيل إن قوله تعالى: **﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾** إشارة لما ورد في حديث «خلق الله تعالى الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه منه اهتدى ومن أخطأه ضل» والله تعالى الموفق لصالح العمل.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ
يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ
عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ
﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ
يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ
إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن
تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلخ استئناف خوطب به النبي ﷺ للإيذان كما في إرشاد العقل السليم بأن الله تعالى قد أفاض عليه أعلى مراتب النور وأجلاها وبين له من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها. وقال الطبرسي: هو بيان للآيات التي جعلها نوراً والخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد به جميع المكلفين والهمزة للتقرير والرؤية هنا بمعنى العلم والظاهر أن إطلاقها عليه حقيقة. وقيل هي حقيقة في الأبصار وإطلاقها على العلم استعارة أو مجاز لعلاقة اللزوم، وأياً ما كان فالمراد ألم تعلم بالوحي أو بالمكاشفة أو بالاستدلال إن الله تعالى ينزهه آناً فآناً في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص أو خلل تنزيهاً معنوياً تفهمه العقول السليمة جميع من في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم كائناً ما كان فإن كل موجود من الموجودات الممكنة مركباً كان أو بسيطاً فهو من حيث ذاته ووجوده وأحواله المتجددة له يدل على صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال منزه عن كل ما لا يليق بشأن من شؤونه الجليلة وقد نبه سبحانه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلاً للسان الحال منزلة لسان المقال وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضاً لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له سبحانه في الألوهية ونسبتهم إياه عز وجل إلى اتخاذ الولد ونحو ذلك مما تعالى الله عنه علواً كبيراً، وإطلاق من على العقلاء وغيرهم بطريق التغليب، ولا يغني عن اعتباره أو اعتبار مجاز مثله إسناد التسبيح المختص بالعقلاء بحسب الظاهر كما توهمه بعض الأجلة، وحمل بعضهم التسبيح على معنى مجازي شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم ويسمى عموم المجاز. ورد بأن بعضاً من العقلاء وهم الكفرة من الثقلين لا يسبحونه بذلك المعنى قطعاً وإنما تسبيحهم ما ذكر من الدلالة التي يشاركهم فيها غير العقلاء أيضاً. وفي ذلك من تخطئتهم وتعبيرهم ما فيه، والقول بأن الكفرة يسبحون كالمؤمنين لكن من حيث لا يشعرون كما قال الحلاج: جحودي لك تقديس مما لا يقبله ذوو العقول وحري بأن لا يكون من المقبول، وقال بعضهم: إذا كانت من للتغليب يندرج في عمومها العقلاء المطيعون والعقلاء العاصون وغير العقلاء مطلقاً فيحمل التسبيح على معنى مجازي يصح نسبته إلى كل ما ذكر وأي مانع من ذلك وهو كما ترى.

واستظهر أبو حيان إبقاء التسبيح على ظاهره وتخصيص من بالعقلاء المطيعين وما ذكر أولاً أولى.

﴿وَالطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿مَن﴾ وتخصيصها بالذكر عليه مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استمرار قرارها فيها واستقلالها بصنع بارع وإنشاء رائع قصد بيان تسبيحها من تلك الجهة لوضوح أنبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى: ﴿صَافَّاتٍ﴾ أي تسبيحه الطير أي حال كونها صافات أجنحتها فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة ما يتمكن به من الوقوف في الجو والحركة كيف شاء من الأجنحة والأذناب الخفيفة وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يميناً وشمالاً ونحو ذلك حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد، وغاية حكمة المبدىء المعيد، والعطف على ما استظهره أبو حيان على ﴿مَن﴾ أيضاً وقد صرح بذلك، ونقل عن الجمهور أن تسبيحها حقيقي وظاهره أنه على نحو تسبيح العقلاء من الثقلين، ولعل ملتزم ذلك لا يلتزم وجوب كون التسبيح الحقيقي بالألفاظ المألوفة لنا وإلا لا يتسنى القول بأن تسبيحها حقيقي مع هذا الوجوب لفقد الألفاظ المألوفة لنا منها، ويجوز أن يقال: إنه تعالى ألهم الطير تسبيحاً مخصوصاً يليق

بها هو غير التسبيح الحالي الذي هو الدلالة السابقة ويقدر فعل رافع لها يراد منه ذلك المعنى الملهم أي ويسبح الطير، وتخصيص تسبيحها بذلك المعنى بالذكر لما أن أصواتها أظهر وجوداً وأقرب حملاً على التسبيح لكن التقييد بالحال على هذا حاله في الحسن دون حاله على ما سبق.

وقرأ الأعرج «والطيرَ» بالنصب على أنه مفعول معه، وقرأ الحسن وخارجة عن نافع «والطيرُ صافاتٌ» برفعهما على الابتداء والخبرية، والظاهر على هذه القراءة أن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ خبر بعد خبر وعلى قراءة الجمهور استئناف جيء به لبيان كمال عراقة كل واحد مما ذكر من الطير وما اندرج في عموم ﴿من في السموات والأرض﴾ في التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية، وقد أدمج سبحانه في تضاعيفه الإشارة إلى أن لكل واحد من الأشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه حاجة ذاتية إليه تعالى واستفاضة منه عز وجل لما يهمه بلسان استعداده، وتحقيقه أن كل واحد من الموجودات الممكنة في حد ذاته بمعزل عن استحقاق الوجود لكنه مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه من الوجود وما يتبعه من الكمالات ابتداء وبقاء فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار فيفيض عليه في كل آن من فنون الفيوض المتعلقة بذاته وصفاته ما لا يحيط به نطاق البيان بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة، وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل، وتقديمها على التسبيح في الذكر لتقدمها عليه في الرتبة كذا في إرشاد العقل السليم، والكلام عليه استعارة تمثيلية والمضاف إليه الذي ناب عنه تنوين ﴿كل﴾ ما يشمل المذكور المصرح به والمندرج تحت العموم حتى الجماد وضمير ﴿علم﴾ وكذا ضميراً ﴿صلاته وتسبيحه﴾ لكل واحد وإليه ذهب الزجاج.

وزعم بعضهم أنه يكون في ﴿علم﴾ على ذلك استعارة تبعية وقال في بيان ذلك: إنه يشبه دلالة كل واحد من المذكورين على الحق بلسان الحق والمقال وميل كل منهم إلى النفع اختياراً أو طبعاً بعلم التسبيح والصلاة فيطلق على كل واحد من تلك الدلالة والميل اسم العلم على سبيل الاستعارة ويشتق منه لفظ علم، و من له أدنى ذوق لا يرتضيه، وجوز أيضاً أن يكون الصلاة مجازاً عن الميل والتسبيح مجازاً عن الدلالة ومع هذا قيل إنه وإن صح غير مناسب للتمثيل، وزعم بعض أن الأولى أن يجعل المضاف إليه غير شامل للجماد وليس بذاك، وجوز أن يكون ضميرا ﴿صلاته وتسبيحه﴾ لله تعالى على أن الإضافة للمفعول، وجوز أن يكون لكل واحد مما في السموات والأرض ويكون ضمير ﴿علم﴾ لله عز وجل، وقال غير واحد: يجوز أن لا يكون هناك استعارة والعلم على حقيقته ويراد به مطلق الإدراك ويراد بما ناب عنه التنوين أنواع الطير أو أفرادها وبالصلاة والتسبيح ما ألهمه الله عز وجل كل واحد من الدعاء والتسبيح المخصوصين به، ولا بعد في هذا الإلهام فقد ألهم سبحانه كل نوع من أنواع الحيوانات علوماً دقيقة لا يكاد يهتدي إليها جهابذة العقلاء وهذا مما لا سبيل إلى إنكاره أصلاً كيف لا وأن القنفذ مع كونه أبعد الحيوانات من الإدراك قالوا: إنه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبهما فيغير المدخل إلى جحره، والجملة على هذا لبيان كمال الرسوخ في الأمرين وأن صدورهما عن الطير ليس بطريق الإتفاق بلا روية بل عن علم واتقان نظير ما مر لكن لا على سبيل التمثيل، وقدر فعل رافع للطير عليه أي ويسبح الطير كما تقدم ولم تجعل معطوفة على ﴿من﴾ مرفوعة برافعها قيل لأنه يؤدي إلى أن يراد بالتسبيح الدال عليه الفعل المذكور معنى مجازي شامل للتسبيح المقالي والحالي من العقلاء وغيرهم، وقد تقدم ما فيه، وجوز جعل ما ناب عنه التنوين ما يشمل الطير وغيره من المندرج في العموم السابق، وفيه أن مما اندرج في العموم الجماد ولا ينسب إليه العلم وإن كان بمعنى مطلق الإدراك والتزم أن له علماً وأنه

سبحانه ألهمه صلاة وتسبيحاً لائقين به مما لا يرتضيه كثير من الناس، وقد تقدم لك ما يتعلق بهذا المقام في سورة الإسراء فتذكر.

وجوز بعضهم على تقدير حمل العلم على المعنى الحقيقي أن يكون عطف التسبيح على الصلاة من عطف التفسير، وأنت تعلم أنه إذا قبل ذلك على ذلك التقدير فما المانع من قبوله على التقدير السابق من جعل الاستعارة تمثيلية، نعم يفوت حينئذ الإدماج الذي أشير إليه فيما مر وهو ليس بمانع، والحق أن احتمال التفسير بعيد ولا داعي إلى ارتكابه بل يفوت عليه ما يفوت كما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي بالذي يفعلونه اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، و﴿ما﴾ إما عبارة عن الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسنداً إلى ضمير العقلاء لما أشرنا إليه أول الكلام، وأما عبارة عنها وعن التسبيح الخاص بالطير معاً أو عن تسبيح الطير فقط فالفعل على حقيقته وإسناده إلى ضمير العقلاء لما مر، والاعتراض حينئذ مقرر لتسبيح الطير فقط وعلى الأولين لتسبيح الكل، وإما عبارة عن الأعم من الصلاة والتسبيح وغيرهما من الأفعال الصادرة عمن في السموات والأرض والأحوال العارضة له والاعتراض حينئذ مقرر لمضمون ﴿كل قد علم﴾ أي الله تعالى صلاته وتسبيحه، وأمر التعبير بالفعل والإسناد إلى ضمير العقلاء لا يخفى، ولتعدد الأوجه فيما مر تعددت الاحتمالات هنا فتأمل ولا تغفل.

وقرأ الحسن وعيسى وسلام وهارون عن أبي عمرو «تفعلون» بتاء الخطاب، وفيه كما قيل وعيد وتخويف ولعل الظاهر أن الخطاب فيه للكفرة، وربما يجوز أن يكون ضمير الجمع على قراءة الجمهور لهم أيضاً على أن المراد بالجملة تخويفهم لإعراضهم عن تسبيحه تعالى بعد أن أخبر سبحانه عمن أخبر بأنه قد علم صلاته وتسبيحه، وهذا وإن كان بعيداً إلا أن في القراءة المذكورة نوع تأييد له ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لغيره تعالى استقلالاً أو اشتراكاً لأنه سبحانه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف في جميعها إيجاداً وإعداماً إبداء وإعادة، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللهِ﴾ أي إليه عز وجل خاصة لا إلى غيره أصلاً ﴿الْمَصِيرُ﴾ أي رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى في المنتهى إثر بيان اختصاصه به تعالى في المبتدأ، وقيل: إن الجملة لبيان أن ما يرى من ظهور بعض الآثار على أيدي المخلوقات لا ينافي الحصر السابق بإفادة أن الانتهاء إليه تعالى لا إلى غيره ويكفي ذلك في الحصر ولعل الأول أولى، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ الخ كالتأكيد لما قبله والتنوير والإزجاء له سوق الشيء برفق وسهولة، وقيل: سوق الثقيل برفق وغلب على ما ذكر بعض الأجلة في سوق شيء يسير أو غير معتد به، ومنه البضاعة المزجاة أي المسوقة شيئاً بعد شيء على قلة وضعف، وقيل: أي التي تزجى أي تدفع للرغبة عنها، وفي التعبير بيزجي على ما ذكر إيماءً إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى مما لا يعتد به، وهو اسم جنس جمعي واحده سحابه، والمعنى كما في البحر يسوق سحابة إلى سحابة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ بأن يوصل سحابة بسحابة، وقال غير واحد: السحاب واحد كالعماء والمراد يؤلف بين أجزائه وقطعه وهذا لأن بين لا تضاف لغير متعدد وبهذا التأويل يحصل التعدد كما قيل به في قوله: بين الدخول فحومل، واستغنى بعضهم عنه بجعل السحاب اسم جنس جمعي على ما سمعت.

وقرأ ورش عن نافع «يولف» غير مهموز ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي المطر شديداً كان أو ضعيفاً إثر تراكمه وتكاثفه، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بجيلة عن أبيه أنه فسر الودق بالبرق

ولم نره لغيره والذي رأيناه في معظم التفاسير وكتب اللغة أنه المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خلاله﴾ أي من فتوقه ومخارجه التي حدثت بالتراكم والانعصار وهو جمع خلل كجبال وجبل، وقيل: هو مفرد كحجاب وحجاز، وأيد بقراءة ابن عباس وابن مسعود وابن زيد والضحاك ومعاذ العنبري عن أبي عمرو والزعفراني من «خلله» والمراد حينئذ الجنس، والجملة في موضع الحال من ﴿الودق﴾ لأن الرؤية بصرية، وفي تعقيب الجعل المذكور برؤيته خارجاً لا بخروجه من المبالغة في سرعة الخروج على طريقة قوله تعالى: ﴿فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ [الشعراء: ٦٣] ومن الاعتناء بتقرير الرؤية ما لا يخفى ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب فإن كل ما علاك سماء، وكأن العدول عنه إلى السماء للإيماء إلى أن للسمو مدخلاً فيما ينزل بناء على المشهور في سبب تكون البرد، وجوز أن يراد بها جهة العلو وللإيماء المذكور ذكرت مع التنزيل ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾ أي من قطع عظام تشبه الجبال في العظم على التشبيه البليغ كما في قوله تعالى: ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ [الكهف: ٩٦] والمراد بها قطع السحاب، ومن الغريب الذي لا تساعده اللغة كما في الدرر والغرر الرضوية قول الأصبهاني: إن الجبال ما جبله الله تعالى أي خلقه من البرد ﴿فِيهَا﴾ أي في السماء، والجار والمجرور في موضع الصفة لجبال، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ وهو معروف، وسمي برداً لأنه يبرد وجه الأرض أي يقشره من بردت الشيء بالمبرد مفعول ﴿ينزل﴾ على أن من تبعيضية، وقيل: زائدة على رأي الأخفش والأوليان لابتداء الغاية، والجار والمجرور الثاني بدل من الأول بدل اشتمال أو بعض أي ينزل مبتدأ من السماء من جبال كائنة فيها بعض برد أو برداً.

وزعم الحوفي أن من الثانية للتبعيض كالثالثة مع قوله بالبدلية وهو خطأ ظاهر، وقيل: من الأولى ابتدائية والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول، وقيل: زائدة على رأي الأخفش أيضاً والثالثة للبيان أي ينزل مبتدأ من السماء بعض جبال أو جبالاً كائنة فيها التي هي برد فالمنزل برد، عن الأخفش أن ﴿من﴾ الثانية ومن الثالثة زائدتان وكل من المجرورين في محل نصب أما الأول فعلى المفعولية لينزل وأما الثاني فعلى البدلية منه أي ينزل من السماء جبالاً لا برداً ومآله ينزل من السماء برداً.

وقال الفراء: هما زائدتان إلا أن المجرور بأولاهما في موضع نصب على المفعولية والمجرور بثانيتهما في موضع رفع إما على أنه مبتدأ و ﴿فيها﴾ خبره والضمير من ﴿فيها﴾ للجبال أي ينزل من السماء جبالاً في تلك الجبال برد لا شيء آخر من حصى وغيره، وإما على أنه فاعل ﴿فيها﴾ لأنه قد اعتمد على الموصوف أعني الجبال وضمير راجع إليها أيضاً. والمراد بالجبال على غير ما قول الكثرة مجازاً وقد جاء استعمالها فيها كذلك في قول ابن مقبل:

إذا مت عن ذكر القوافي فلن ترى ... لها شاعراً مني أطلب وأشعرا
وأكثر بيتاً شاعر ضربت له ... بطون جبال الشعر حتى تيسرا

ويقال: عنده جبل من ذهب وجبل من علم، وعن مجاهد والكلبي وأكثر المفسرين أن المراد بالسماء المظلة وبالجبال حقيقتها قالوا: إن الله تعالى خلق في السماء جبالاً من برد كما خلق في الأرض جبالاً من حجر وليس في العقل ما ينفيه من قاطع فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها كما قيل، والمشهور بين أهل الحكمة أن انبعاث قوى السماويات وأشعتها قد يوجب تصعيد أجسام لطيفة مرتفعة عن الماء ممتزجة مع الهواء وهي التي سمي بخاراً ولثقله بالنسبة إلى الدخان لرطوبته ويبس الدخان يقف في حيز الهواء بحيث لا يكون واصلاً إليه الحرارة الكائنة من الشعاع المنعكس عن جرم الأرض ويكون متباعداً عن المتسخن بحرارة النار فيبقى في الطبقة الباردة من الهواء فيبرد ويتكاثف

بالتصاعد شيئاً فشيئاً فيرتكم منه سحاب فيقطر مطراً إما كله أو بعضه ويتفرق بعضه لبقائه على صورته الهوائية واستحالة ما قطر إلى صورته المائية فإن طالت مسافتها اتصلت فكانت قطراتها أكبر وإن اشتد البرد عليها صارت برداً أو نزلت ثلجاً وامتنع تصاعد البخار عند ذلك فيبرد وجه الأرض مع برد الجو فيكون من ذلك البرد القوي فإن صادف ريحاً اشتد البرد لإزالتها البخار الأرضي وإن لم يصادف ريحاً أذاب البخار الثلج وسخن وجه الأرض، وذكروا أنه كلما طالت المسافة حتى اتصلت وكبرت القطرات وصادف البرد كان البرد أكبر مقداراً وقد ينعقد المطر برداً داخل السحاب ثم ينزل وذلك في الربيع عندما يصيبه سخونة من خارجه فتبطن البرودة في داخله عند انحلاله قطرات فيجمد وقد يكون البخار أكثر تكاثفاً فلا يقوى على الارتفاع ويبرد بسرعة بما يوافيه من برد الليل لعدم الشعاع، وليس بحيث يصير سحاباً فيكون منه الظل وقد يجمد في الأعالي قبل تراكمه فيكون منه الصقيع وقد يتكاثف الهواء لإفراط البرد فينعقد سحاباً ويمطر بحاله، والحق أن كل ذلك مستنداً إلى إرادة الله عز وجل ومشيئته سبحانه المبنية على الحكم والمصالح والأسباب التي ذكرت عادية ولا أرى بأساً بالقول بذلك وباعتبار أن أول الأسباب القوى السماوية وأشعتها صح أن يقال: إن الإنزال مبتدأ من السماء على ما أشار إليه العلامة البيضاوي في الكلام على سورة البقرة، وحمل الآية على ما يوافق المشهورة لا يخل بجزالتها بل هي عليه أجزل وعن شكوك العوام أبعد لا سيما أهل الجبال الذين قد يمطرون وينزل على أرضهم البرد وهم فوق الجبال في الشمس ﴿**فَيُصِيبُ بِهِ**﴾ أي بما ينزل من البرد ﴿**مَنْ يَشَاءُ**﴾ أي يصيبه فيناله ما يناله من ضرر في ماله ونفسه ﴿**وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ**﴾ أن يصرفه عنه فينجو من غائلته، ورجوع الضميرين إلى البرد هو الظاهر.

وفي البحر يحتمل رجوعهما إلى ﴿**الودق**﴾ والبرد وجرى فيهما مجرى اسم الإشارة كأنه قيل فيصيب بذلك ويصرف ذلك والمطر أغلب في الإصابة والصرف وأبلغ في المنفعة والامتنان اهـ وفيه بعد ومنع ظاهر.

﴿**يَكَادُ سَنَا بَرْقِه**﴾ أي ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الإزجاء والتأليف وغيرهما، وإضافة البرق إليه قبل الإخبار بوجوده فيه للإيذان بظهور أمره واستغنائه على التصريح به وعلى ما سمعت عن أبي بجيلة لا يحتاج إلى هذا ورجوع الضمير إلى البرد أي برق البرد الذي يكون معه ليس بشيء، وتقدم الكلام في حقيقة البرق فتذكر.

وقرأ طلحة بن مصرف «سناء» ممدوداً «بُرَقِهِ» بضم الباء وفتح الراء جمع برقة بضم الباء وهي المقدار من البرق كالغرفة. واللقمة، وعنه أيضاً أنه قرأ «بُرُقِهِ» بضم الباء والراء أتبع حركة الراء لحركة الباء كما قيل نظيره في ﴿**ظلمات**﴾ والسناء ممدوداً بمعنى العلو وارتفاع الشأن، وهو هنا كناية عن قوة الضوء، وقرىء «يكاد سنا» بإدغام الدال في السين ﴿**يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**﴾ أي يخطفها من فرط الإضاءة وسرعة ورودها؛ وفي إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة من حيث إنه توليد للضد من الضد.

وقرأ أبو جعفر «يُذْهِبُ» بضم الياء وكسر الهاء، وذهب الأخفش وأبو حاتم إلى تخطئته في هذه القراءة قالا: لأن الباء تعاقب الهمزة، ولا يجوز اجتماع أداتي تعدية، وقد أخطآ في ذلك لأنه لم يكن ليقرأ إلا بما روي وقد أخذ القراءة عن سادات التابعين الآخذين عن جلة الصحابة أُبيّ وغيره رضي الله تعالى عنهم ولم ينفرد هو بها كما زعم الزجاج بل قرأ أيضاً كذلك شيبة وخرج ذلك على زيادة الباء أي يذهب الأبصار وعلى أن الباء بمعنى من كما في قوله:

فلثمت فاها قابضاً بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

والمفعول محذوف أي يذهب النور من الأبصار، وأجاز الحريري كما نقل عنه الطيبي الجمع بين أداتي تعدية.

﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بإتيان أحدهما بعد الآخر أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما مما يقع فيهما من الأمور التي من جملتها ما ذكر من إزجاء السحاب وما ترتب عليه، وكأن الجملة على هذا استئناف لبيان الحكمة فيما مر، وعلى الأولين استئناف لبيان أنه عز وجل لا يتعاصاه ما تقدم من الإزجاء وما بعده، وقيل هي معطوفة على ما تقدم داخلة في حيز الرؤية وأسقط حرف العطف لقصد التعداد وهو كما ترى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فصل آنفاً، وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار إليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته ﴿لَعِبْرَةً﴾ لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته وإحاطة علمه بجميع الأشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلي، ودلالة ذلك على الوحدة بواسطة برهان التمانع وإلا ففيه خفاء بخلاف دلالته على ما عدا ذلك فإنها واضحة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لكل من له بصيرة يراجعها ويعلمها فالأبصار هنا جمع بصر بمعنى البصيرة بخلافها فيما سبق. وقيل: هو بمعنى البصر الظاهر كما هو المتبادر منه، والتعبير بذلك دون البصائر للإيذان بوضوح الدلالة.

وتعقب بأنه يلزم عليه ذهاب حسن التجنيس وارتكاب ما هو كالإيطاء، واشتهر أنه ليس في القرآن جناس تام غير ما في قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ [الروم: ٥٥] وفيه كلام نقله السيوطي في الإتقان ناشىء عند من دقق النظر من عدم الإتقان، واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني موضعاً آخر وهو هذه الآية الكريمة وهو لا يتم إلا على ما قلنا، وأشار إليه البيضاوي وغيره(١) ولعل من اختار المتبادر راعى أن حسن تلك الإشارة فوق حسن التجنيس فتأمل ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ أي كل حيوان يدب على الأرض وأدخلوا في ذلك الطير والسمك، وظاهر كلام بعض أئمة التفسير أن الملائكة والجن يدخلون في عموم الدابة، ولعلها عنده كل ما دب وتحرك مطلقاً ومعظم اللغويين يفسرها بما سمعت، والتاء فيها للنقل إلى الاسمية لا للتأنيث، و قيل دابة واحد داب كخائنة وخائن.

وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش «خالق» اسم فاعل «كل دابة» بالجر بالإضافة ﴿مِن مَّاءٍ﴾ هو جزء مادته وخصه بالذكر لظهور مزيد احتياج الحيوان بعد كمال تركيبه إليه وأن امتزاج الأجزاء الترابية به إلى غير ذلك أو ماء مخصوص هو النطفة فالتنكير على الأول للإفراد النوعي، وعلى الثاني للإفراد الشخصي.

وجوز أن يكون عليهما لذلك، وكلمة ﴿كل﴾ على الثاني للتكثير كما في قوله تعالى: ﴿يُجبىَ إليه ثمرات كل شيء﴾ [القصص: ٥٧] لأن من الدواب ما يتولد لا عن نطفة. وزعم بعضهم أنها على الأول لذلك أيضاً بناء على شمول الدابة للملائكة المخلوقين من نور وللجن المخلوقين من نار، وادعى أيضاً أن من الإنس من لم يخلق من ماء أيضاً وهو آدم وعيسى عليهما السلام فإن الأول خلق من التراب والثاني خلق من الروح ولا يخفى ما فيه، وجوز أن يعتبر العموم في «كل» ويراد بالدابة ما يخلق بالتوالد بقرينة من ماء أي نطفة وفيه بحث، وقيل ما من شيء دابة كان أو غيره إلا وهو مخلوق من الماء فهو أصل جميع المخلوقات لما روي أن أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق من ذلك الماء النار والهواء والنور وخلق منها الخلق، وأياً ما كان فمن متعلقة بخلق، وقال القفال واستحسنه الإمام: هي متعلقة بمحذوف وقع صفة لدابة فالمراد الإخبار بأنه تعالى خلق كل دابة كائنة أو متولدة من الماء فعموم الدابة عنده مخصص بالصفة وعموم ﴿كل﴾ على ظاهره.

---

(١) كالثعالبي ا هـ منه.

والظاهر أنه متعلق بخلق وهو أوفق بالمقام كما لا يخفى على ذوي الأفهام، وتنكير الماء هنا وتعريفه في قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء: ٣٠] لأن القصد هنا إلى معنى الإفراد شخصاً أو نوعاً والقصد هناك إلى معنى الجنس وأن حقيقة الماء مبدأ كل شيء حي ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِه﴾ كالحيات والسمك وتسمية حركتها مشياً مع كونها زحفاً مجاز للمبالغة في إظهار القدرة وأنها تزحف بلا آلة كشبه المشي وأقوى، ويزيد ذلك حسناً ما فيه من المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين، ونظير ما هنا من وجه قوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ [الفتح: ١٠] على رأي ﴿وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْن﴾ كالإنس والطير ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَع﴾ كالنعم والوحش.

والظاهر أنه المراد أربع أرجل فيفيد إطلاق الرجل على ما تقدم من قوائم ذوات القوائم الأربع وقد جاء إطلاق اليد عليه وعدم ذكر من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب وأم أربع وأربعين وغير ذلك من الحشرات لعدم الاعتداد بها مع الإشارة إليها بقوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً كان أو مركباً على ما يشاء من الصور والأعضاء والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل. وزعم الفلاسفة أن اعتماد ما له أكثر من أربع من الحيوان إنما هو على أربع ولا دليل لهم على ذلك. وفي مصحف أبي ومنهم من يمشي على أكثر وهو ظاهر في خلاف ما يزعمون لكنه لم يثبت قرآناً، وتذكير الضمير في ﴿منهم﴾ لتغليب العقلاء، وبني على تغليبهم في الضمير التعبير بمن واقعة على ما لا يعقل قاله الرضي، وظاهر بعض العبارات يشعر باعتبار التغليب في ﴿كل دابة﴾ وليس بمراد بل المراد أن ذلك لما شمل العقلاء وغيرهم على طريق الاختلاط لزم اعتبار ذلك في الضمير العائد عليه وتغليب العقلاء فيه، ويفهم من كلام بعض المحققين أن لا تغليب في ﴿من﴾ الأولى والثالثة بل هو في الثانية فقط، وقد يقال: لا تغليب في الثلاثة بعد اعتباره في الضمير فتدبر. وترتيب الأصناف حسبما رتبت لتقديم ما هو أعرف في القدرة؛ ولا ينافي ذلك كون المشي على البطن بمعنى الزحف مجازاً كما توهم، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور والإيذان بأنه من أحكام الألوهية، والإظهار في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فيفعل ما يشاء كما يشاء لذلك أيضاً مع تأكيد استقلال الاستئناف التعليلي ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية والأسرار التكوينية أو واضحات في أنفسها، وهذا كالمقدمة لما بعده ولذا لم يأت بالعاطف فيه كما أتى سبحانه به فيما مر من قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذي خلوا﴾ [النور: ٣٤] الآية، ومن اختلاف المساق يعلم وجه ذكر ﴿إليكم﴾ هناك وعدم ذكره هنا.

﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته بتوفيقه للنظر الصحيح فيها والتدبر لمعانيها ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى حقيقة الحق والفوز بالجنة ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ شروع في بيان أحوال بعض من لم يشأ الله تعالى هدايته إلى صراط مستقيم وهم صنف من الكفرة الذي سبق وصف أعمالهم. أخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنها نزلت في المنافقين وروي عن الحسن نحوه، وقيل نزلت في بشر المنافق دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ ودعا هو اليهودي إلى كعب بن الأشرف ثم تحاكما إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فحكم لليهودي فلم يرض المنافق بقضائه عليه الصلاة والسلام وقال: نتحاكم إلى عمر رضي الله تعالى عنه فلما ذهبا إليه قال له اليهودي: قضى لي النبي ﷺ فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ فقال: نعم فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل رضي الله تعالى عنه بيته وخرج بسيفه فضرب عنق ذلك المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ فنزلت، وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي لذلك الفاروق، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

وقال الضحاك: نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي كرم الله تعالى وجهه خصومة في أرض فتقاسما فوقع لعلي ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة فقال المغيرة: بعني أرضك فباعها إياه وتقابضا فقيل للمغيرة: أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعليّ كرم الله تعالى وجهه: اقبض أرضك فإنما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فإن الماء لا ينالها فقال علي: قد اشتريتها ورضيتها وقبضتها وأنت تعرف حالها لا أقبلها منك ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ فقال: أما محمد فلست آتيه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ فنزلت، وعلى هذا وما قبله جمع الضمير لعموم الحكم أو لأن مع القائل طائفة يساعدونه ويشايعونه في تلك المقالة كما في قولهم بنو فلان قتلوا قتيلاً والقاتل واحد منهم، وإعادة الباء للمبالغة في دعوى الإيمان وكذا التعبير عنه ﷺ بعنوان الرسول وقولهم مع ذلك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعنا الله تعالى والرسول ﷺ في الأمر والنهي ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ أي يعرض عما يقتضيه هذا القول من قبول الحكم الشرعي عليه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد ما صدر عنهم من ادعاء الإيمان بالله تعالى وبالرسول ﷺ والطاعة لهما، وما في ذلك من معنى البعد للإيذان بكونه أمراً معتداً به واجب المراعاة ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى القائلين ﴿آمَنَّا﴾ إلخ وهم المنافقون جميعهم لا إلى الفريق المتولي منهم فقط، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الكفر والفساد أي وما أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشاركونهم في العقد والعمل ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام أي ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص والثبات عليه، ونفي الإيمان بهذا المعنى عنهم مقتض لنفيه عن الفريق على أبلغ وجه وآكده ولذا اختير كون الإشارة إليهم، وجوز أن تكون للفريق على أن المراد بهم فريق منافقون، وضمير ﴿يقولون﴾ للمؤمنين مطلقاً، والحكم على أولئك الفريق بنفي الإيمان لظهور أمارة التكذيب الذي هو التولي منهم، و ﴿ثم﴾ على هذا حسبما قرره الطيبي للاستبعاد كأنه قيل كيف يدخلون في زمرة المؤمنين الذين يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يعرضون ويتجاوزون عن الفريق المؤمنين ويرغبون عن تلك المقالة وهذا بعيد عن العاقل المميز، وعلى الأول حسبما قرره أيضاً للتراخي في الرتبة إيذاناً بارتفاع درجة كفر الفريق المتولي عنهم انحطاط درجة أولئك.

وفي الكشف أن الكلام على تقدير كون الإشارة إلى القائلين لا إلى الفريق المتولي وحده كالاستدراك وفيه دلالة على توغل المتولين في الكفر وأصل الكفر شامل للطائفتين، وأما على تقدير اختصاص الإشارة بالمتولين ففائدة ﴿ثم﴾ استبعاد التولي بعد تلك المقالة، وفائدة الإخبار إظهار أنهم لم يثبتوا على قولهم كأنه قيل: يقولون هذا ثم يوجد فيهم ما يضاده فلا يكون في دليل خطابه أن غيرهم مؤمن انتهى، وعليه فضمير ﴿يقولون﴾ للمنافقين الشاملين للفريق المتولي لا للمؤمنين مطلقاً على الوجهين فتأمل.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي وبين خصومهم، وضمير ﴿يحكم﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام، وجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ما يفهم من الكلام أي المدعو إليه وهو شامل لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام لكن المباشر للحكم هو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر الله تعالى على الوجهين لتفخيمه عليه الصلاة والسلام والإيذان بجلالة محله عنده تعالى وأن حكمه في الحقيقة حكم الله عز وجل فقد قالوا: إنه إذا ذكر اسمان متعاطفان والحكم إنما هو لأحدهما كما في نحو قوله تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ [البقرة: ٩] أفاد قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه وإنهما بمنزلة شيء واحد بحيث يصح نسبة أوصاف أحدهما وأحواله إلى الآخر، وضمير ﴿دعوا﴾ يعود إلى ما يعود إليه ضمير ﴿يقولون﴾ أي وإذا دعي المنافقون أو المؤمنون مطلقاً ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام لكون الحق عليهم وعلمهم

بأنه ﷺ لا يحكم إلا بالحق، والجملة الشرطية شرح للتولي ومبالغة فيه حيث أفادت مفاجأتهم الإعراض عقب الدعوة دون الحكم عليهم مع ما في الجملة الاسمية الواقعة جزاء من الدلالة على الثبوت والاستمرار على ما هو المشهور، والتعبير ﴿بينهم﴾ دون عليهم لأن المتعارف قول أحد المتخاصمين للآخر: اذهب معي إلى فلان ليحكم بيننا لا عليك وهو الطريق المنصف، وقيل: هذا الإعراض إذا اشتبه عليهم الأمر، ولذا قال سبحانه: ﴿بينهم﴾ لا عليهم وفي ذلك زيادة في المبالغة في ذمهم وفيه بحث.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾ أي لا عليهم كما يؤذن به تقديم الخبر ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لعلمهم بأنه عليه الصلاة والسلام يحكم لهم، والظاهر تعلق إلى بيأتوا، وجوز تعلقها بمذعنين على أنها بمعنى اللام أو على تضمين الإذعان معنى الإسراع وفسره الزجاج بالإسراع مع الطاعة، وتقديم المعمول للاختصاص أو للفاصلة أو لهما، وعبر بإذا فيما مر إشارة إلى تحقق الشرط وبأن هنا إشارة إلى عدم تحققه وفي ذلك أيضاً ذم لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ ترديد لسبب الإعراض المذكور فمدار الاستفهام ما يفهم من الكلام كأنه قيل: أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه ﷺ أنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا في أمر نبوته عليه الصلاة والسلام مع ظهور حقيتها أم سببه أنهم يخافون أن يحيف ويجور الله تعالى شأنه عليهم ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وهذا نظير قولك أفيه مرض أم غاب عن البلد أم يخاف من الواشي بعد قول: هجر الحبيب مثلاً فإن كون المعنى أسبب هجره أن فيه مرضاً أم سببه أنه غاب عن البلد أم سببه أنه يخاف من الواشي ظاهر جداً وهو كثير في المحاورات إلا أن الاستفهام في الآية إنكاري وهو لإنكار السببية، وقوله تعالى:

﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تعيين للسبب بعد إبطال سببية جميع ما تقدم ففيه تأكيد لما يفيده الاستفهام كأنه قيل: ليس شيء مما ذكر سبباً لذلك الإعراض، أما الأولان فلأنه لو كان شيء منهما سبباً له لأعرضوا عن المحاكمة إليه صلى الله تعالى عليه وسلم عند كون الحق لهم ولما أتوا إليه عليه الصلاة والسلام مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضاً، وأما الثالث فلانتفائه رأساً حيث كانوا لا يخافون الحيف أصلاً لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه الصلاة والسلام في الأمانة والثبات على الحق بل سبب ذلك أنهم هم الظالمون يريدون أن يظلموا من الحق له عليهم ولا يتأتى مرامهم مع الانقياد إلى المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام فيعرضون عنها لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يقضي بالحق عليهم، فمناط النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري والإضراب الإبطالي في الأولين وهو وصف سببيتهما للإعراض فقط مع تحققهما في نفسهما، وفي الثالث هو الأصل والوصف جميعاً، وإذا خص الارتياب بما له جهة مصححة لعروضه لهم في الجملة كما فعل البعض حيث جعل المعنى أم ارتابوا بأن رأوا منه صلى الله تعالى عليه وسلم تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم به عليه الصلاة والسلام كان مناط النفي في الثاني كما في الثالث كذا قرره بعض الأجلة، و ﴿أم﴾ عليه متصلة. وقد ذهب إلى أنها كذلك الزمخشري والبيضاوي حيث جعلا ما تقدم تقسيماً لسبب الإعراض إلا أن الأول جعل الإضراب عن الأخير من الأمور الثلاثة ووجه بأنه أدل على ما كانوا عليه وأدخل في الإنكار من حيث إنه يناقض تسرعهم إليه صلى الله تعالى عليه وسلم إذا كان الحق لهم على الغير، والثاني جعله إضراباً عن الأخيرين منها لتحقيق القسم الأول، وقال: وجه التقسيم أن امتناعهم عن المحاكمة إليه صلى الله تعالى عليه وسلم إما أن يكون لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محققاً أو متوقعاً وفسر الارتياب برؤية مثل تهمة تزيل يقينهم

ثم قال: وكلاهما باطلان فتعين الأول. أما الأول فظاهر. وأما الثاني فلأن منصب النبوة وفرط أمانته عليه الصلاة والسلام يمنعه وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم إلى الحيف.

وقال العلامة الطيبي: الحق أن بل إضراب عن نفس التقسيم وهو إضراب انتقالي كأنه قيل: دع التقسيم فإنهم هم الكاملون في الظلم الجامعون لتلك الأوصاف فلذلك صدوا عن حكومتك يدل عليه الإتيان بإسم الإشارة. والخطاب وتعريف الخبر بلام الجنس وتوسيط ضمير الفصل، ونقل عن الإمام ما يدل على أن أم منقطعة قال: أثبتهم على كل واحد من هذه الأوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق فكان فيها ارتياب فكانوا يخافون الحيف، ووجه الإضراب أن كلاً مسبب عن الآخر علم على وجوده وزيادة، واعترض بأنه لا يجب التسبب إلا أن يدعي في هذه المادة خصوصاً، وصرح أبو حيان بأنها منقطعة وبأن الاستفهام للتوقيف والتوبيخ ليقروا بأحد هذه الأوجه التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم ويستعمل في الذم والمدح كما في قوله:

ألست من القوم الذين تعاهدوا ... على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر

وقوله:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

ولا يخفى أن الأظهر أنها متصلة والتلازم بين الأمور الثلاثة ممنوع على أنه لا يضر وأن معنى الآية ما ذكرناه أولاً، وتقديم ﴿عليهم﴾ على الرسول لتأكيد أن حكمه عليه الصلاة والسلام هو حكم الله تعالى، ووجه اختلاف أساليب الجمل يظهر بأدنى تأمل.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ جار على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي، ونصب ﴿قول﴾ على أنه خبر كان وأن مع ما في حيزها في تأويل مصدر اسمها، ونص سيبويه في مثل ذلك على جواز العكس فيرفع ﴿قول﴾ على الاسمية وينصب المصدر الحاصل من السبك على الخبرية.

وقد قرأ عليّ كرم الله تعالى وجهه وابن أبي إسحاق والحسن: برفع «قول» على ذلك قال الزمخشري: والنصب أقوى لأن الأولى للاسمية ما هو أوغل في التعريف وذلك هو المصدر الذي أول به أن يقولوا لأنه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف ﴿قول المؤمنين﴾ فإنه يحتمله كما إذا اختزلت عنه الإضافة، وقيل في وجه أعرفيته إنه لا يوصف كالضمير، ولا يخفى أنه لا دخل له في الأعرفية، ثم أنت تعلم أن المصدر الحاصل من سبك أن والفعل لا يجب كونه مضافاً في كل موضع ألا ترى أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿ما كان هذا القرآن أن يفترى﴾ [يونس: ٣٧] إنه بمعنى ما كان هذا القرآن افتراء.

وذكر أن جواز تنكيره مذهب الفارسي وهو ومتعين في نحو أن يقوم رجل إذ هو مؤول قطعاً بقيام رجل وهو نكرة بلا ريب. وفي إرشاد العقل السليم أن النصب أقوى صناعة لكن الرفع أقعد معنى وأوفى لمقتضى المقام لما أن مصب الفائدة وموقع البيان في الجمل هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدوث وأوفر اشتمالاً على نسب خاصة بعيدة من الوقوع في الخارج وفي ذهن السامع ولا ريب في أن ذلك هاهنا في أن مع ما في حيزها أتم وأكمل فإذن هو أحق بالخبرية، وأما ما تفيده الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية فحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجاً وذهناً كان حقها أن تلاحظ ملاحظة مجملة وتجعل عنواناً للموضوع فالمعنى إنما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين إذا دعوا إلى الله تعالى ورسوله ﷺ ليحكم بينهم وبين خصومهم أن يقولوا

سمعنا إلخ أي خصوصية هذا القول المحكي عنهم لا قولاً آخر أصلاً، وأما النصب فالمعنى عليه إنما كان قولاً للمؤمنين خصوصية قولهم ﴿سمعنا﴾ إلخ ففيه من جعل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعاً وحضوراً في الأذهان وأحقهما بالبيان مفروغاً عنها عنواناً للموضوع وإبراز ما هو بخلافها في معرض القصد الأصلي ما لا يخفى انتهى، وبحث فيه بعضهم بأن مساق الآية يقتضي أن يكون قول المؤمنين سمعنا وأطعنا في مقابلة إعراض المنافقين فحيث ذم ذلك على أتم وجه ناسب أن يمدح هذا، ولا شك أن الأنسب في مدحه الإخبار عنه لا الإخبار به فينبغي أن يجعل ﴿أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ اسم كان و ﴿قول المؤمنين﴾ خبرها وفي ذلك مدح لقولهم سمعنا وأطعنا إذ معنى كونه قول المؤمنين أنه قول لائق بهم ومن شأنهم على أن الأهم بالإفادة كون ذلك القول الخاص هو قولهم ﴿إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ أي قولهم المقيد بما ذكر ليظهر أتم ظهور مخالفة حال قولهم سمعنا وأطعنا وحال قول المنافقين آمنا بالله وبالرسول وأطعنا فتدبر فإنه لا يخلو عن دغدغة، والظاهر أن المراد من ﴿أطعنا﴾ هنا غير المراد منه فيما سبق فكأنهم أرادوا سمعنا كلامكم وأطعنا أمركم بالذهاب إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينكم وبيننا، وقيل المعنى قبلنا قولكم وانقدنا له وأجبنا إلى حكم الله تعالى ورسوله ﷺ، وعن ابن عباس ومقاتل أن المعنى سمعنا قول النبي ﷺ وأطعنا أمره، وقيل المراد من الطاعة الثبوت أو الإخلاص لتغاير ما مر وهو كما ترى.

وقرأ الجحدري وخالد بن الياس «ليحكم» بالبناء للمفعول مجاوباً لدعوا، وكذلك قرأ أبو جعفر هنا وفيما مر ونائب الفاعل ضمير المصدر أي ليحكم هو أي الحكم، والمعنى ليفعل الحكم كما في قوله تعالى: ﴿وحيل بينهم﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل أي وأولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجليل ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون بكل مطلوب والناجون عن كل محذور.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم في الانتظام في سلكهم أي ومن يطع الله تعالى ورسوله ﷺ كائنا من كان فيما أمر به من الأحكام اللازمة والمتعدية، وعن ابن عباس أنه قال: ومن يطع الله ورسوله في الفرائض والسنن وهو يحتمل اللف والنشر وعلى ذلك جرى في البحر ﴿وَيَخْشَى اللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والاتقاء ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم لا من عدهم.

وقرأ أبو جعفر وقالون عن نافع ويعقوب «ويتقِهِ» بكسر القاف وكسر الهاء من غير إشباع. وقرأ أبو عمرو وحمزة في رواية العجلي وخلاد وأبو بكر في رواية حماد ويحيى بكسر القاف وسكون الهاء. وقرأ حفص بسكون القاف وكسر الهاء غير مشبعة والباقون بكسر القاف وكسر الهاء مشبعة بحيث يتولد ياء، ووجه ذلك أبو علي بأن الأصل في هاء الضمير إذا كان ما قبلها متحركاً أن تشبع حركتها كما في يؤته ويؤده ووجه عدم الإشباع أن ما قبل الضمير ساكن تقديراً ولا إشباع بحركته فيما إذا سكن ما قبله كفيه ومنه، ووجه إسكان الهاء أنها هاء السكت وهي تسكن في كلامهم، وقيل: هي هاء الضمير لكن أجريت مجرى هاء السكت فسكنت وكثيراً ما يجري الوصل مجرى الوقف، وقد حكي عن سيبويه أنه سمع من يقول: هذه أمة الله في الوصل والوقف، ووجه قراءة حفص أنه أعطى «يتقه» حكم

كتف لكونه على وزنه فخفف بسكون وسطه لجعله ككلمة واحدة كما خفف يلدا في قوله: «وذي ولد لم يلده أبوان» وعن ابن الأنباري أنه لغة لبعض العرب في كل معتل حذف آخره فيقولون لم أر زيداً يسقطون الحرف للجزم ثم يسكنون ما قبل، وعلى ذلك قوله:

ومـن يـتـق فـإن الـلـه مـعـه ... ورزق الـلـه مـؤتـاب وغـاد

وقوله:

قـالـت سـلـيـمـى اشتر لـنـا سـويـقـا ... وهـات خـبـز الـبـر أو دقـيـقـا

والهاء إما للسكت وحركت لالتقاء الساكنين أو ضمير، وكان القياس ضمها حينئذ كما في منه لكن السكون لعروضه لم يعتد به ولئلا ينتقل من كسر لضم تقديراً، وضعف الأول لتحريك هاء السكت وإثباتها في الوصل كذا قيل فلا تغفل ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ حكاية لبعض آخر من أكاذيب الكفرة المنافقين مؤكداً بالأيمان الفاجرة فهو عود على بدء، والقسم الحلف وأصله من القسامة وهي أيمان تقسم على متهمين بقتل حسبما بين في كتب الفقه ثم صار اسماً لكل حلف، وقوله سبحانه: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المحذوف، وجملة ذلك الفعل مع فاعله في موضع الحال أو هو نصب على الحال أي حلفوا به تعالى يجهدون أيمانهم جهداً أو جاهدين أيمانهم، ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم: جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها، والمراد أقسموا بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة والوكادة، وجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لأقسموا أي أقسموا أقسام اجتهاد في اليمين، قال مقاتل: من حلف بالله تعالى فقد اجتهد في اليمين.

والظاهر هنا أنهم غلظوا الأيمان وشددوها ولم يكتفوا بقول والله ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ أي بالخروج كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ والمراد بهذا الخروج الخروج للجهاد كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما يدل على أن المراد الخروج من الأموال.

وأياً ما كان فالجملة جواب لأقسموا وجواب الشرط محذوف لدلالة هذه الجملة عليه وهي حكاية بالمعنى والأصل لنخرجن بصيغة المتكلم مع الغير، وقيل الأصل لخرجنا إلا أنه أريد حكاية الحال الماضية فعبر بذلك. وتعقب بأن المعتبر زمان الحكم هو مستقبل ﴿قُل﴾ أي رداً عليهم وزجراً لهم عن التفوه بتلك الأيمان وإظهاراً لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها ﴿لاَ تُقْسِمُوا﴾ على ما ينبيء عنه كلامكم من الطاعة ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي طاعتكم طاعة، والجملة تعليل للنهي كأنه قيل لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة لأن طاعتكم طاعة معروفة بأنها واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب لا يجهلها أحد من الناس، وقيل التقدير المطلوب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها كطاعة الخلص من المؤمنين، وقيل ﴿طاعة﴾ مبتدأ خبره محذوف أي طاعة معروفة متوسطة على قدر الاستطاعة أمثل وأولى بكم من قسمكم. واختاره الزجاج، وقيل: مرفوع بفعل مقدر أي لتكن طاعة معروفة منكم، وضعف الكل بأنه مما لا يساعده المقام والأخير بأن فيه حذف الفعل في غير موضع الحذف.

وقال البقاعي: لا تقدير في الكلام و ﴿طاعة﴾ مبتدأ خبره ﴿معروفة﴾ وسوغ الابتداء بالنكرة أنها أريد بها الحقيقة فتعم والعموم من المسوغات، ولم تعرف لئلا يتوهم أن تعريفها للعهد، والجملة تعليل للنهي أي لا تقسموا فإن الطاعة معروفة منكم ومن غيركم لا تخفى فقد جرت سنة الله تعالى على أن العبد وإن اجتهد في إخفاء الطاعة لا بد وأن يظهر سبحانه مخايلها على شمائله، وكذا المعصية فلا فائدة في إظهار ما يخالف الواقع، وفي الأحاديث ما يشهد لما ذكر، فقد روى الطبراني عن جندب «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها» وروى الحاكم وقال صحيح

الإسناد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله لإنسان كائناً من كان» وهذا المعنى على ما قيل حسن لكنه خلاف الظاهر.

وقرأ زيد بن علي واليزيدي «طاعةً معروفةً» بالنصب على تقدير تطيعون طاعة معروفة نفاقية، وقيل أطيعوا طاعة معروفة حقيقية وطاعة بمعنى إطاعة كما في قوله تعالى: ﴿أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ [نوح: ١٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة وما تضمرونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها من فنون الشر والفساد والمراد الوعيد بأنه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التي منها نفاقهم، وفي الإرشاد أن الجملة تعليل للحكم بأن طاعتهم طاعة نفاقية مشعر بأن مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين إخباره تعالى بذلك ووعيد لهم بالمجازاة.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به والإشعار باختلافهما حيث إن المقول الأول نهي بطريق الرد والتبكيت، وفي الثاني أمر بطريق التكليف والتشريع، وفي تكرر فعل الإطاعة والعدول عن اطيعوني إلى أطيعوا الرسول ما لا يخفى من الحث على الطاعة وإطلاقها عن وصف الصحة والإخلاص ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما تقدم للتنبيه على أنها ليست من الطاعة في شيء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ خطاب للمنافقين الذين أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ما سمعت وارد من قبله عز وجل غير داخل في حيز ﴿قل﴾ على ما اختاره صاحب التقريب وغيره وفيه تأكيد للأمر السابق والمبالغة في إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترهيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع لا سيما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة بالذات كما هنا، والفاء لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه الصلاة والسلام للمأمور به إليهم، وعدم التصريح للإيذان بغاية مسارعته ﷺ إلى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة إلى الذكر أي إن تتولوا عن الطاعة إثر ما أمركم الرسول ﷺ بها ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي ما أمر به من التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي ما أمرتم به من الطاعة، ولعل التعبير بالتحميل أولاً للإشعار بثقل الوحي في نفسه، وثانياً للإشعار بثقل الأمر عليهم، وقيل: لعل التعبير بذلك في جانبهم للإشعار بثقله وكون مؤنه باقية في عهدتهم بعد كأنه قيل: وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل، والتعبير به في جانبه عليه الصلاة والسلام للمشاكلة والفاء واقعة في جواب الشرط وما بعدها قائم مقام الجواب أو جواب على حد ما في قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النحل: ٥٣] كأنه قيل فإن تتولوا فاعلموا أنما عليه الخ. هذا واختار بعضهم دخول الجملة الشرطية في حيز القول. قال الطيبي: الظاهر أنه تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يقول لهم: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا يخاف مضرتهم فكان أصل الكلام قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليك ما حملت وعليهم ما حملوا بمعنى فما يضرونك شيئاً وإنما يضرون أنفسهم على الماضي والغيبة في ﴿تولوا﴾ فصرف الكلام إلى المضارع، والخطاب في تتولوا بحذف إحدى التاءين بمعنى فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم لتكون المواجهة بالخطاب أبلغ في تبكيتهم، وجعل ذلك جارياً مجرى الالتفات وجعله غيره التفاتاً حقيقياً من حيث إنهم جعلوا أولاً غيباً حيث أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بخطابهم بقل لهم. ثم خوطبوا بأن تتولوا استقلالاً من الله تعالى لا من رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يخفى أن حمل الآية على الخطاب الاستقلالي الغير الداخل تحت القول أدخل في التبكيت.

وفي الأحكام أنه استدل بهذه الآية على أن الأمر للوجوب لأنه تعالى أمر بالإطاعة ثم هدد بقوله تعالى: ﴿فإن تولوا﴾ إلخ والتهديد على المخالفة دليل الوجوب. وتعقب بأنه لا نسلم أن ذلك للتهديد بل للإخبار وإن سلمنا أنه للتهديد فهو دليل على الوجوب فيما هدد على تركه ومخالفته من الأوامر وليس فيه ما يدل على أن كل أمر مهدد بمخالفته بدليل أمر الندب فإن المندوب مأمور به وليس مهدداً على مخالفته وإذا انقسم الأمر إلى مهدد عليه وغير مهدد عليه وجب اعتقاد الوجوب فيما هدد عليه دون غيره وبه يخرج الجواب عن كل صيغة أمر هدد على مخالفتها وحذر منها ووصف مخالفها بكونه عاصياً وبه يدفع أكثر ما ذكره القائلون بالوجوب في معرض الاستدلال على دعواهم فتدبر.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ فيما أمركم به عليه الصلاة والسلام من الطاعة ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأصلي الموصل إلى كل خير المنجي عن كل شر، ولعل في تقديم الشق الأول وتأخير هذا إشارة إلى أن الترهيب أولى بهم وأنهم ملابسون لما يقتضيه، وفي الإرشاد تأخير بيان حكم الإطاعة عن بيان حكم التولي لما في تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من أن غائلة التولي وفائدة الإطاعة مقصورتان على المخاطبين، وأل إما للجنس المنتظم له ﷺ انتظاماً أولياً أو للعهد أي ما على جنس الرسول كائناً من كان أو ما على رسولنا محمد ﷺ إلا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح أو الواضح في نفسه على أن المبين من أبان المتعدي بمعنى بان اللازم، وقد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام قد فعله بما لا مزيد عليه وإنما بقي ما عليكم، وقوله تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ ومن آمن معه ففي الآية تنويع الخطاب حيث خاطب سبحانه المقسمين على تقدير التولي ثم صرفه تعالى عنهم إلى المؤمنين الثابتين وهو كالاعتراض بناء على ما سيأتي إن شاء الله تعالى من كون ﴿وأقيموا الصلاة﴾ عطفاً على قوله سبحانه: ﴿أطيعوا الله﴾ وفائدته أنه لما أفاد الكلام السابق أنه ينبغي أن يأمرهم بالطاعة كفاحاً ولا يخاف مضرتهم أكد بأنه عليه الصلاة والسلام هو الغالب ومن معه فأنى للخوف مجال، وإن شئت فاجعله استئنافاً جيء به لتأكيد ما يفيده الكلام من نفي المضرة على أبلغ وجه من غير اعتبار كونه اعتراضاً فإن في العطف المذكور ما ستسمعه إن شاء الله تعالى؛ ومن بيانية، ووسط الجار والمجرور بين جملة ﴿آمنوا﴾ والجملة المعطوفة عليها الداخلة معها في حيز الصلة أعني قوله تعالى: ﴿وعملوا الصالحات﴾ مع التأخير في قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ [الفتح: ٢٩] قيل للدلالة على أن الأصل في ثبوت الاستخلاف الإيمان، ولهذا كان الأصح عدم الانعزال بالفسق الطارىء ودل عليه صحاح الأحاديث ومدخلية الصلاح في ابتداء البيعة وأما في المغفرة والأجر العظيم فكلاهما أصل فكان المناسب التأخير. وقد يقال: إن ذلك لتعجيل مسرة المخاطبين حيث إن الآية سيقت لذلك، وقيل: الخطاب للمقسمين والكلام تتميم لقوله تعالى: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ ببيان ما لهم في العاجل من الاستخلاف وما يترتب عليه وفي الآجل ما لا يقادر قدره على ما أدمج في قوله سبحانه: ﴿لعلكم ترحمون﴾ والجار للتبعيض وأمر التوسيط على حاله، ولم يرتضه بعض الأجلة لأن ﴿آمنوا﴾ إن كان ماضياً على حقيقته لم يستقم إذ لم يكن فيهم من كان آمن حال الخطاب وإن جعل بمعنى المضارع على المألوف من أخبار الله تعالى فمع نبوه عن هذا المقام لم يكن دليلاً على صحة أمر الخلفاء ولم يطابق الواقع أيضاً لأن هؤلاء الأجلاء لم يكن من بعض من آمن من أولئك المخاطبين ولا كان في المقسمين من نال الخلافة انتهى، وفيه شيء. ولعله لا يضر بالغرض وارتضى أبو السعود تعلق الكلام بذلك وادعى أنه استئناف مقرر لما في قوله تعالى: ﴿وإن

تطيعوه تهتدوا﴾ إلخ من الوعد الكريم معرب عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التي هي من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التي نيط بها الاهتداء وأن المراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أي طائفة كان وفي أي وقت كان لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم الوعد الكريم وأن الخطاب ليس للرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين المخلصين أو من يعمهم وغيرهم من الأمة ولا للمنافقين خاصة بل هو لعامة الكفرة وأن من للتبعيض، وقال في نكتة التوسيط: إنه لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام والإيذان بكونه ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم، وأما التأخير في آية سورة الفتح فلان من هناك بيانية والضمير للذين معه عليه الصلاة والسلام من خلص المؤمنين ولا ريب في أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة مثابرون عليها فلا بد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة بكمالها انتهى.

وأنت تعلم أن كون الخطاب لعامة الكفرة خلاف الظاهر، وحمل الفعل الماضي على ما يعم الماضي والمستقبل كذلك وفيما ذكره أيضاً بعد عن سبب النزول، فقد أخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة عن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله تعالى فنزلت **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾** الآية ولا يتأتى معه الاستدلال بالآية على صحة أمر الخلفاء أصلاً، ولعله لا يقول به ويستغني عنه بما هو أوضح دلالة، وعن ابن عباس ومجاهد عامة في أمة محمد ﷺ وأطلقا الأمة وهي تطلق على أمة الإجابة وعلى أمة الدعوة لكن الأغلب في الاستعمال الإطلاق الأول فلا تغفل، وإذا كانت من بيانية فالمعنى وعد الله الذين آمنوا الذين هم أنتم **﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾** أي ليجعلهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم أو خلفاء من الذين كانوا يخافونهم من الكفرة بأن ينصرهم عليهم ويورثهم أرضهم، والمراد بالأرض على ما قيل جزيرة العرب، وقيل مأواه عليه الصلاة والسلام من مشارق الأرض ومغاربها ففي الصحيح «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» واللام واقعة في جواب القسم المحذوف ومفعول وعد الثاني محذوف دل عليه الجواب أي وعد الله الذين آمنوا استخلافهم وأقسم ليستخلفنهم، ويجوز أن ينزل وعده تعالى لتحقق إنجازه لا محالة منزلة القسم وإليه ذهب الزجاج ويكون **﴿ليستخلفنهم﴾** منزل منزلة المفعول فلا حذف.

وما في قوله تعالى: **﴿كما استخلف﴾** مصدرية والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر محذوف أي ليستخلفهم استخلافاً كائناً كاستخلافه **﴿الذين من قبلهم﴾** وهم بنو إسرائيل استخلفهم الله عزّ وجلّ في الشام بعد إهلاك الجبابرة وكذا في مصر على ما قيل من أنها صارت تحت تصرفهم بعد هلاك فرعون وإن لم يعودوا إليها وهم ومن قبلهم من الأمم المؤمنة الذين أسكنهم الله تعالى في الأرض بعد إهلاك أعدائهم من الكفرة الظالمين.

وقرىء «كما اسْتُخْلِفَ» بالبناء فيكون التقدير ليستخلفهم في الأرض فيستخلفون فيها استخلافاً أي مستخلفية كائنة كمستخلفية الذين من قبلهم **﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم﴾** عطف على **﴿ليستخلفنهم﴾** والكلام فيه كالكلام فيه، وتأخيره عنه مع كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها لما أنه كالأثر للاستخلاف المذكور.

وقيل: لما أن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل فتصدير المواعيد بها في الإستمالة أدخل، والتمكين في

الأصل جعل الشيء في مكان ثم استعمل في لازمه وهو التثبيت والمعنى ليجعلن دينهم ثابتاً مقرراً بأن يعلي سبحانه شأنه ويقوي بتأييده تعالى أركانه ويعظم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره ويستنهضون الرجل والخيل للتوصل إلى إعفاء آثاره فيكونون بحيث ييأسون من التجمع لتفريقهم عنه ليذهب من البين ولا تكاد تحدثهم أنفسهم بالحيلولة بينهم وبينه ليعود أثراً بعد عين.

وقيل: المعنى ليجعله مقرراً بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يذرون، وأصل التمكين جعل الشيء مكاناً لآخر والتعبير عن ذلك به للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته عن التغيير والتبديل لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض انتهى، وفيه بحث. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم مع التشويق إلى المؤخر ولأن في توسيطه بينه وبين وصفه أعني قوله تعالى: ﴿**الذي ارتضى لهم**﴾ وتأخيره عن الوصف من الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى، وفي إضافة الدين وهو دين الإسلام إليهم ثم وصفه بارتضائه لهم من مزيد الترغيب فيه والتثبيت عليه ما فيه ﴿**وليبدلنهم**﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو بكر والحسن وابن محيصن بالتخفيف من الإبدال؛ وأخرج ذلك عبد بن حميد عن عاصم وهو عطف على ﴿**ليستخلفنهم**﴾ و ﴿**ليمكنن**﴾ ﴿**من بعد خوفهم**﴾ بمقتضى البشرية في الدنيا من أعدائهم في الدين ﴿**أمناً**﴾ لا يقادر قدره، وقيل: الخوف في الدنيا من عذاب الآخرة والأمن في الآخرة ورجح بأن الكلام عليه أبعد من احتمال التأكيد بوجه من الوجوه بخلافه على الأول.

وأنت تعلم أن الأول أوفق بالمقام والأخبار الواردة في سبب النزول تقتضيه وأمر احتمال التأكيد سهل.

﴿**يَعْبُدُونَنِي**﴾ جوز أن تكون الجملة في موضع نصب على الحال إما من ﴿**الذين**﴾ الأول لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد لأن ما في حيز الصلة من الإيمان وعمل الصالحات بصيغة الماضي لما دل على أصل الاتصاف به جيء بما ذكر حالاً بضيغة المضارع الدال على الاستمرار التجددي وإما من الضمير العائد عليه في ﴿**ليستخلفنهم**﴾ أو في ﴿**ليبدلنهم**﴾ وجوز أن تكون مستأنفة إما لمجرد الثناء على أولئك المؤمنين على معنى هم يعبدونني وإما لبيان علة الاستخلاف وما انتظم معه في سلك الوعد، وقوله تعالى: ﴿**لا يُشرِكُونَ بي شَيْئاً**﴾ حال من الواو في ﴿**يعبدونني**﴾ أو من ﴿**الذين**﴾ أو بدل من الحال أو استئناف. ونصب ﴿**شيئاً**﴾ على أنه مفعول به أي شيئاً مما يشرك به أو مفعول مطلق أي شيئاً من الإشراك. ومعنى العبادة وعدم الإشراك ظاهر.

وأخرج عبد بن حميد بن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في قوله سبحانه ﴿**يعبدونني لا يشركون بي شيئاً**﴾ لا يخافون أحداً غيري، وأخرج هو وجماعة عن مجاهد نحوه. ولعلهما أرادا بذلك تفسير ﴿**لا يشركون بي شيئاف**﴾ وكأنهما عدا خوف غير الله نوعاً من الإشراك، واختير على هذا حالية الجملة من الواو كأنه قيل: يعبدونني غير خائفين أحداً غيري، وجوز أن يكونا قد أرادا بيان المراد بمجموع ﴿**يعبدونني لا يشركون**﴾ إلخ وكأنهما ادعيا أن عدم خوف أحد غيره سبحانه من لوازم العبادة والتوحيد وأن جملة ﴿**يعبدونني**﴾ إلخ استئناف لبيان ما يصلون إليه في الأمن كأنه قيل: يأمنون إليّ حيث لا يخافون أحداً غير الله تعالى ولا يخفى ما في التعبير بضمير المتكلم وحده في ﴿**يعبدونني ولا يشركون بي**﴾ دون ضمير الغائب ودون ضمير العظمة من اللطافة.

﴿**وَمَنْ كَفَرَ**﴾ أي ومن ارتد من المؤمنين ﴿**بَعْدَ ذَلكَ**﴾ أي بعد حصول الموعود به ﴿**فَأُولَئِكَ**﴾ المرتدون البعداء عن الحق ﴿**هُمُ الفَاسِقُونَ**﴾ أي الكاملون في الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان إذ لا عذر لهم حينئذ

ولا كجناح بعوضة، وقيل: كفر من الكفران لا من الكفر مقابل الإيمان وروي ذلك عن أبي العالية وكمالهم في الفسق لعظم النعمة التي كفروها، وقيل: إشارة إلى الوعد السابق نفسه، وفي إرشاد العقل السليم أن المعنى ومن اتصف بالكفر بأن ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترغيب والترهيب بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها فأولئك هم الكاملون في الفسق، وكون المراد بكفر ما ذكر أنسب بالمقام من كون المراد به ارتد أو كفر النعمة انتهى. والأولى عندي ما تقدم فإنه الظاهر، وفي الكلام عليه تعظيم لقدر الموعود به من حيث إنه لا يبقى بعد حصوله عذراً لمن يرتد، وقوة مناسبته للمقام لا تخفى. وهو ظاهر قول حذيفة رضي الله تعالى عنه فقد أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال: كنت جالساً مع حذيفة وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما فقال حذية: ذهب النفاق إنما كان النفاق على عهد رسول الله ﷺ وإنما هو الكفر بعد الإيمان فضحك ابن مسعود ثم قال: بم تقول؟ قال: بهذه اقية ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات**﴾ إلى آخر اقية وكن ضحك ابن مسعود كان استغراباً لذلك وسكوته بعد الاستدلال ظاهر في ارتضائه لما فهمه معدن سر رسول الله ﷺ من الآية. ﴿**ومن**﴾ تحتمل أن تكون موصولة وتحتمل أن تكون شرطية وجملة ﴿**من كفر**﴾ إلخ قيل معطوفة على جملة ﴿**وعد الله**﴾ إلخ أو على جملة محذوفة كأنه قيل: من آمن فهم الفائزون ومن كفر إلخ، إن هذه الجملة وكذا جملة ﴿**يعبدونني**﴾ استئناف بياني أما ذلك في الأولى فالسؤال ناشيء من قوله تعالى: ﴿**وعد الله**﴾ إلخ فكأنه قيل: فما ينبغي للمؤمنين بعد هذا الوعد الكريم أو بعد حصوله؟ فقيل: يعبدونني لا يشركون بي شيئاً. وأما في الثانية فالسؤال ناشيء من الجواب المذكور فأنه قيل فإن لم يفعلوا فماذا؟ فقيل: ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وجزاؤهم معلوم وهو كما ترى.

هذا واستدل كثير بهذه الآية على صحة خلافة الأربعة رضي الله تعالى عنهم لأن الله تعالى وعد فيها من في حضررة الرسالة من المؤمنين بالإستخلاف وتمكين الدين والأمن العظيم من الأعداء ولا بدّ من وقوع ما وعد به ضرورة امتناع الخلف في وعده تعالى ولم يقع ذلك المجموع إلا في عهدهم فكان كل منهم خليفة حقاً باستخلاف الله تعالى إياه حسبما وعد جلّ وعلا ولا يلزم عموم الاستخلاف لجميع الحاضرين المخاطبين بل وقوعه فيهم كبنو فلان قتلوا فلاناً فلا ينافي ذلك عموم الخطاب الجميع، وكون من بيانية، وكذا لا ينافيه ما وقع في خلافة عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما من الفتن لأن المراد من الأمن الأمن من أعداء الدين وهم الكفار كما تقدم.

وأقامها بعض أهل السنة دليلاً على الشيعة في اعتقادهم عدم صحة خلافة الخلفاء الثلاثة، ولم يستدل بها على صحة خلافة الأمير كرم الله تعالى وجهه لأنها مسلمة عند الشيعة والأدلة كثيرة عند الطائفتين على من ينكرها من النواصب عليهم من الله تعالى ما يستحقون فقال: إن الله تعالى وعد فيها جمعاً من المؤمنين الصالحين الحاضرين وقت نزولها بما وعد من الاستخلاف وما معه ووعده سبحانه الحق ولم يقع ذلك إلا في عهد الثلاثة، والإمام المهدي لم يكن موجوداً حين النزول قطعاً بالإجماع فلا يمكن حمل الآية على وعده بذلك، والأمير كرم الله تعالى وجهه وإن كان موجوداً إذ ذاك لكن لم يكن يرج الدين المرضي كما هو حقه في زمانه رضي الله تعالى عنه بزعم الشيعة بل صار أسوأ حالاً بزعمهم مما كان في عهد الكفار كما صرح بذلك المرتضى في تنزيه الأنبياء والأئمة عليهم السلام بل كل كتب الشيعة تصرح بأن الأمير وشيعته كانوا يخفون دينهم ويظهرون دين المخالفين تقية ولم يكن الأمن الكامل حاصلاً أصلاً في زمانه رضي الله تعالى عنه فقد كان أهل الشام ومصر والمغرب ينكرون أصل إمامته ولا يقبلون أحكامه وهم كفرة بزعم الشيعة وأغلب عسكر الأمير يخافونهم ويحذرون غاية الحذر منهم، ومع هذا الأمير فرد يمكن إرادته من

الذين آمنوا ليكون هو رضي الله تعالى عنه مصداق الآية كما يزعمون فإن حمل لفظ الجمع على واحد خلاف أصولهم إذ أقل الجمع عندهم ثلاثة أفراد، وأما الأئمة الآخرون الذين ولدوا بعد فلا احتمال لإرادتهم من الآية إذ ليسوا بموجودين حال نزولها ولم يحصل لهم التسلط في الأرض ولم يقع رواج دينهم المرتضى لهم وما كانوا آمنين بل كانوا خائفين من أعداء الدين منهم كما أجمع عليه الشيعة فلزم أن الخلفاء الثلاثة هم مصداق الآية فتكون خلافتهم حقة وهو المطلوب.

وزعم الطبرسي أن الخطاب للنبي وأهل بيته ﷺ فهم الموعودون بالاستخلاف وما معه ويكفي في ذلك تحقق الموعود في زمن المهدي رضي الله تعالى عنه، ولا ينافي ذلك عدم وجوده عند نزول الآية لأن الخطاب الشفاهي لا يخص الموجودين، وكذا لا ينافي عدم حصوله للكل لأن الكلام نظير بنو فلان قتلوا فلاناً، واستدل على ذلك بما روى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أنه قرأ الآية فقال: هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يد رجل منا وهو مهدي هذه الأمة وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله تعالى ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

وزعم أنه روي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما وهذا على ما فيه مما يأباه السياق والأخبار الصحيحة الواردة في سبب النزول وأخبار الشيعة لا يخفى حالها لا سيما على من وقف على التحفة الأثني عشرية. نعم ورد من طريقنا ما يستأنس به لهم في هذا المقام لكنه لا يعول عليه أيضاً مثل أخبارهم وهو ما أخرجه عبد بن حميد عن عطية أنه عليه الصلاة والسلام قرأ الآية فقال: أهل البيت هاهنا وأشار بيده إلى القبلة. وزعم بعضهم نحو ما سمعت عن الطبرسي إلا أنه قال: هي في حق جميع أهل البيت علي كرم الله تعالى وجهه وسائر الأئمة الإثني عشر وتحقق ذلك فيهم زمن الرجعة حين يقوم القائم رضي الله تعالى عنه. وزعم أنها أحد أدلة الرجعة، وهذا قد زاد في الطنبور نغمة. وقال الملا عبد الله المشهدي في كتابه إظهار الحق لإبطال الاستدلال على صحة خلافة الخلفاء الثلاثة: يحتمل أن يكون الاستخلاف بالمعنى اللغوي وهو الإتيان بواحد خلف آخر أي بعده كما في قوله تعالى في حق بني إسرائيل: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ [الأعراف: ١٢٩] فقصارى ما يثبت أنهم خلفاء بالمعنى اللغوي وليس النزاع فيه بل هو دفي المعنى الاصطلاحي وهو معنى مستحدث بعد رحلة النبي ﷺ اهـ.

وأجيب بأنه لو تم هذا لا يتم لهم الاستدلال على خلافة الأمير كرم الله وجهه بالمعنى المصطلح بحديث «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» المعتضد بما حكاه سبحانه عن موسى عليه السلام من قوله لهارون ﴿اخلفني في قومي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وبما يروونه من قوله ﷺ: «يا علي أنت خليفتي من بعدي» وكذا لا يتم لهم الاستدلال على إمامة الأمير كرم الله وجهه بما تضمن لفظ الإمام لأنه لم يستعمل في الكتاب المجيد بالمعنى المصطلح أصلاً وإنما استعمل بمعنى النبي والمرشد والهادي والمقتدى به في أمر خيراً كان أو شراً ومتى ادعى فهم المعنى المصطلح من ذلك بطريق اللزوم فليدع فهم المعنى المصطلح من الخليفة كذلك وربما يدعي أن فهمه منه أقوى لأنه مقرون من حيث وقع في الكتاب العزيز بلفظ في الأرض الدال على التصرف العام الذي هو شأن الخليفة بذلك المعنى على أن مبنى الاستدلال على خلافة الثلاثة بهذه الآية ليس مجرد لفظ الاستخلاف حتى يتم غرض المناقش فيه بل ذلك مع ملاحظة إسناده إلى الله تعالى، وإذا أسند الاستخلاف اللغوي إلى الله عزّ وجلّ فقد صار استخلافاً شرعياً وقد يستفتى

في هذه المسألة من علماء الشيعة فيقال: إن إتيان بني إسرائيل بمكان آل فرعون والعمالقة وجعلهم متصرفين في أرض مصر والشام هل كان حقاً أو لا ولا أظنهم يقولون إلا أنه حق وحينئذٍ يلزمهم أن يقولوا به في الآية لعدم الفرق وبذلك يتم الغرض هذا حاصل ما قيل في هذا المقام.

والذي أميل إليه أن الآية ظاهرة في نزاهة الخلفاء الثلاثة رضي الله تعالى عنهم عما رماهم للشيعة به من الظلم والجور والتصرف في الأرض بغير الحق لظهور تمكين الدين والأمن التام من أعدائه في زمانهم ولا يكاد يحسن الامتنان بتصرف باطل عقباه العذاب الشديد. وكذا لا يكاد يحسن الامتنان بما تضمنته الآية على أهل عصرهم مع كونهم الرؤساء الذين بيدهم الحل والعقد لو كانوا وحاشاهم كما يزعم الشيعة فيهم، ومتى ثبت بلك نزاهتهم عما يقولون اكتفينا به وهذا لا يتوقف إلا على اتصافهم بالإيمان والعمل الصالح حال نزول الآية وإنكار الشيعة له إنكار للضروريات، وكون المراد بالآية علياً كرم الله وجهه أو المهدي رضي الله تعالى عنه وأهل البيت مطلقاً مما لا يقوله منصف.

وفي كلام الأمير كرم الله تعالى وجهه ما يقتضي بسوقه خلاف ما عليه الشيعة ففي نهج البلاغة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما استشار الأمير كرم الله وجهه لانطلاقه لقتال أهل فارس حين تجمعوا للحرب قال له: إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة وهو دين الله تعالى الذي أظهره وجنده الذي أعزه وأيده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال عزّ اسمه: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾** والله تعالى منجز وعده وناصر جنده ومكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز فإن انقطع النظام تفرق ورب متفرق لم يجتمع والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت منهذه الأرض تنقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العوارث أهم إليك مما بين يديك وكان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غداً يقولون هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطعمهم فيك فأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما نقاتل بالنصر والمعونة اهـ فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ جوز أن يكون عطفاً على **﴿أطيعوا الله﴾** داخلاً معه في حيز القول والفاصل وليس بأجنبي منكل وجه فإنه وعد المأمور به وبعضه من تتمته. وفي الكشاف ليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه والفاصل يؤكد المغايرة ويرشحها لأن المجاورة مظنة الاتصال والاتحاد فيكون تكرير الأمر بإطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام للتأكيد وأكد دون الأمر بطاعة الله تعالى لما أن في النفوس لا سيما نفوس العرب من صعوبة الإنقياد للبشر ما ليس فيها من صعوبة الانقياد لله تعالى ولتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه وهي الجمل الواقعة في حيز القول بقوله تعالى: **﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** كما علق الاهتداء بالإطاعة في قوله تعالى: **﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾** والإنصاف أن هذا العطف بعيد بل قال بعضهم: إنه مما لا يليق بجزالة النظم الكريم.

وجوز أن يكون عطفاً على **﴿يعبدونني﴾** وفيه تخصيص بعد التعميم، وكان الظاهر أن يقال يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الرسول لعلهم يرحمون، لكن عدل عن ذلك إلى ما ذكر التفاتاً إلى الخطاب لمزيد الاعتناء وحسنه هنا الخطاب في **﴿منكم﴾**. وتعقب بأنه مما لا وجه له لأنه بعد تسليم

الالتفات وجواز عطف الإنشاء على الاخبار لا يناسب ذلك؛ وكون الجملة السابقة حالاً أو استئنافاً بيانياً، والذي اختاره كونه عطفاً على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإنه سبحانه لما ذكر ﴿**ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ فهم النهي عن الكفر فكأنه قيل: فلا تكفروا وأقيموا الصلاة إلخ.

وجوز أن يكون انفهام المقدر من مجموع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿**قل أطيعوا الله**﴾ إلخ، حيث إنه يوجب الأمر بالإيمان والعمل الصالح فكأنه قيل فآمنوا واعملوا الصالحات وأقيموا إلخ، وجوز في ﴿**أطيعوا**﴾ أن يكون أمراً بإطاعته ﷺ بجميع الأحكام الشرعية المنتظمة للآداب المرضية وأن يكون أمراً بالإطاعة فيما عدا الأمرين السابقين فيكون ذكره لتكميلهما كأنه قيل: وأطيعوا الرسول في سائر ما يأمركم به، وقوله تعالى: ﴿**لعلكم**﴾ إلخ متعلق بالأوامر الثلاثة وجعل على الأول متعلقاً بالأخير، وقوله تعالى: ﴿**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ إلخ بيان لمآل الكفرة في الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيهم في الفسق وفوز أضدادهم بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين، وفي ذلك أيضاً رفع استبعاد تحقق الوعد السابق مع كثرة عدد الكفرة وعددهم والخطاب لكل من يتأتى منه الحسبنا نظير ما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذا المجرمون ناكسو رؤوسهم﴾ [السجدة: ١٢].

وجوز أن يكون للرسول ﷺ على سبيل التعريض بمن صدر منه ذلك كقوله: «إياك عني فاسمعي يا جارة» أو الإشارة إلى أن الحسبان المذكور بلغ في القبح والمحذورية إلى حيث ينهى من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه كما قيل في قوله تعالى: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ [الأنعام: ١٤، يونس: ١٠٥، القصص: ٨٧] فقول أبي حيان: إن جعل الخطاب للرسول ﷺ ليس بجييد لأن مثل هذا الحسبان لا يتصور وقوعه منه عليه الصلاة والسلام ليس بجيد لما فيه من الغفلة عما ذكر؛ ومحمل الموصول نصب على أنه مفعول أول للحسبان وقوله تعالى: ﴿**مُعْجِزِينَ**﴾ ثانيهما وقوله تعالى ﴿**في الأرض**﴾ ظرف لمعجزين لكن لا لإفادة كون الإعجاز المقصود بالنفي فيها لا في غيرها فإن ذلك غني عن البيان بل لإفادة شمول عدم الإعجاز لجميع أجزائها أي لا تحسبنهم معجزين الله تعالى عن إدراكهم وإهلاكهم في قطر من أقطار الأرض بما رحبت وإن هربوا منها كل مهرب. وقرأ حمزة وابن عامر «يحسبن» بالياء آخر الحروف على أن الفاعل كل أحد كأنه قيل لا يحسبن حاسب الكافرين معجزين له عزّ وجلّ في الأرض و ضميره ﷺ لتقدم ذكره عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿**وأطيعوا الرسول**﴾ وإليه ذهب أبو علي.

وزعم أبي حيان أنه ليس بجيد لما تقدم ليس بجيد أو ضمير الكافر أي لا يحسبن الكافر الذين كفروا معجزين، ونقل ذلك عن علي بن سليمان أو الموصول والمفعول الأول محذوف كأنه قيل: لا يححسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض، وذكر أن الأصل على هذا لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول وكأن الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت كالشيء الواحد اقتنع بذكر اثنين عن ذلك الثالث، وتعقبه في البحر بأن هذا الضمير ليس من الضمائر التي يفسرها ما بعدها فلا يجوز كون الأصل ﴿**لا يحسبهم الذين**﴾ إلخ كما لا يجوز ظنه زيد قائماً، وقال الكوفيون ﴿**معجزين**﴾ المفعول الأول و﴿**في الأرض**﴾ المفعول الثاني، والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله تعالى في الأرض حتى يطمعوا في مثل ذلك، قال الزمخشري: وهذا معنى قوي جيد، وتعقب بأنه بمعزل عن المطابقة لمقتضى المقام ضرورة أن مصب الفائدة هو المفعول الثاني ولا فائدة في بيان كون المعجزين في الأرض. ورد بأنه وإن كان مصب الفائدة جعل مفروغاً منه وإنما المطلوب بيان المحل أي لا يعجزوه سبحانه في الأرض والانصاف أن ما ذكر خلاف الظاهر، والظاهر إنما هو تعلق ﴿**في الأرض**﴾ بمعجزين وأياً ما كان فالقراءة المذكورة صحيحة وإن اختلفت مراتب تخريجاتها قوة وضعفاً، ومن ذلك يعلم ما في

قول النحاس ما علمت أحداً من أهل العربية بصرياً ولا كوفياً إلا وهو يخطىء قراءة حمزة، فمنهم من يقول: هي لحن لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبن، ومنهم من قال هذا أبو حاتم انتهى من قلة الوقوف ومزيد الهذيان والجسارة على الطعن في متواتر من القرآن، ولعمري لو كانت القراءة بالرأي لكان اللائق بمن خفي عليه وجه قراءة حمزة أن لا يتكلم بمثل ذلك الكلام ويتهم نفسه ويحجم عن الطعن في ذلك الإمام، وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ عطف على جملة النهي بتأويلها بجملة خبرية لأن المقصود بالنهي عن الحسبان تحقيق نفي الحسبان كأنه قيل الذين كفروا معجزين ومأواهم النار.

وجوز أن يكون عطفاً على مقدر لأن الأول وعيد الدنيا كأنه قيل مقهورون في الدنيا بالاستئصال ومخزون في الآخرة بعذاب النار، وعن صاحب النظم تقديره بل هم مقدور عليهم ومحاسبون ومأواهم النار.

قال في الكشف: وجعله حالاً على معنى لا ينبغي الحسبان لمن مأواه النار كأنه قيل أنى للكافر هذا الحسبان وقد أعد له النار، والعدول إلى ﴿ومأواهم النار﴾ للمبالغة في التحقق وأن ذلك معلوم لهم لا ريب وجه حسن خال عن كلف لكلفة ألم به بعض الأئمة انتهى، ولا يخفى أن في ظاهره ميلاً إلى بعض تخريجات قراءة «يحسبن» بياء الغيبة.

وتعقب في البحر تأويل جملة النهي لتصحيح العطف عليها بقوله: الصحيح أنه يجوز عطف الجمل على اختلافها بعضاً على بعض وإن لم تتحد في النوعية وهو مذهب سيبويه، والمأوى اسم مكان، وجوز فيه المصدرية والأول أظهر، وقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف أي وبالله ﴿لبئس المصير﴾ هي أي النار، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله، وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيراً لهم أثر نفي فوتهم بالهرب في الأرض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه فلله تعالى در شأن التنزيل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ
الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا
عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ
عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلخ رجوع عند الأكثرين إلى بيان تتمة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها وفي الأحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وفي التحقيق ويحتمل أن يقال: إنه مما يطاع الله تعالى ورسوله لله فيه، وتخصيصه بالذكر لأن دخوله في الطاعة باعتبار أنه من الآداب أبعد من غيره، والخطاب إما للرجال خاصة والنساء داخلات في الحكم بدلالة النص أو للفريقين تغليباً، واعترض الأول بأن الآية نزلت بسبب النساء، فقد روي أن أسماء بنت أبي مرثد[1] دخل عليها غلام كبير لها في وقت كرهت دخوله فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها فنزلت، وقد ذكر الاتقان أن دخول سبب النزول في الحكم قطعي.

وأجيب بأنه ما المانع من أن يعلم الحكم في السبب بطريق الدلالة والقياس الجلي ويكون ذلك في حكم الدخول، ونقل عن السبكي أنه ظني فيجوز إخراجه؛ وتمام الكلام في ذلك في كتب الأصول، ثم ما ذكر في سبب النزول ليس مجمعاً عليه، فقد روي أن رسول الله ﷺ بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضي الله تعالى عنه غلاماً من الأنصار يقال له مدلج وكان رضي الله تعالى عنه نائماً فدق عليه الباب ودخل فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيء فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن فانطلق معه رسول الله ﷺ فوجد هذه الآية قد نزلت فخر ساجداً، وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضي الله تعالى عنه للوحي، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات فيغتسلوا ثم يخرجون إلى الصلاة فىمرهم الله تعالى أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ويعلم منه أن الأمر في قوله سبحانه ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُم منكُم﴾ وإن كان في الظاهر للمملوكين والصبيان لكنه في الحقيقة للمخاطبين فكأنهم أمروا أن يأمروا المذكورين بالاستئذان وبهذا ينحل ما قيل: كيف يأمر الله عزّ وجلّ من لم يبلغ الحلم بالاستئذان وهو تكليف ولا تكليف قبل البلوغ، وحاصله أن الله تعالى لم يأمره حقيقة وإنما أمر سبحانه الكبير أن يىمره بذلك كما أمره أن يأمره بالصلاة، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «مروا أولادكم بالصلاة وهم

---

(١) وقيل أبي مرشد بالشين المعجمة واختاره جمع ا هـ منه.

أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين» وأمره بما ذكر ونحوه من باب التأديب والتعليم ولا إشكال فيه، وقيل: الأمر للبالغين من المذكورين على الحقيقة ولغيرهم على وجه التأديب. وقيل: هو للجميع على الحقيقة والتكليف يعتمد التمييز ولا يتوقف على البلوغ فالمراد بالذين لم يبلغوا الحلم المميزون من الصغار وهو كما ترى. واختلف في هذا الأمر فذهب بعض إلى أنه للوجوب، وذهب الجمهور إلى أنه للندب وعلى القولين هو محكم على الصحيح وسيأتي تمام الكلام في ذلك، والجمهور على عموم ﴿**الذين ملكت أيمانكم**﴾ في العبيد والإماء الكبار والصغار، وعن ابن عمر ومجاهد أنه خاص بالذكور كما هو ظاهر الصيغة وروى ذلك عن أبي جعفر. وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما، وقال السلمي: إنه خاص بالإناث وهو قول غريب لا يعول عليه، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تخصيصه بالصغار وهو خلاف الظاهر جداً، والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم الصبيان ذكوراً وإناثاً على ما يقتضيه ما مر في سابقه عن الجمهور وخص بالمراهقين منهم، و﴿**منكم**﴾ لتخصيصهم بالأحرار ويشعر به المقابلة أيضاً.

وفي البحر هو عام في الأطفال عبيداً كانوا أو أحراراً، وكني عن القصور عن درجة البلوغ بما ذكر لأن الاحتلام أقوى دلائله، وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا احتلم الصبي فقد بلغ، واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة في المشهور: لا يكون بالغاً حتى يتم له ماني عشرة سنة وكذا الجارية إذا لم تحتلم أو لم تحض أو لم تحبل لا تكون بالغة عنده حتى يتم لها سبع عشرة سنة، ودليله قوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده**﴾ [الأنعام: ١٥٢] وأشد الصبي كما روي عن ابن عباس وتبعه القتيبي ثماني عشرة سنة وهو أقل ما قيل فيه فيبنى الحكم عليه للتيقن به غير أن الإناث نشؤهن وإدراكهن أسرع فنقص في حقهن سنة لاشتمالها على الفصول الأربعة ۯالتي يوافق واحد منها المزاج لا محالة وقال صاحباه والشافعي وأحمد: إذا بلغ الغلام والجارية خمس عشرة سنة فقد بلغا وهو رواية عن الإمام رضي الله تعالى عنه أيضاً وعليه الفتوى.

ولهم أن العادة الفاشية أن لا يتأخر البلوغ فيهما عن هذه المدة وقيدت العادة بالفاشية لأنه قد يبلغ الغلام في اثنتي عشرة سنة وقد تبلغ الجارية في تسع سنين، واستدل بعضهم على ما تقدم بما روى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه عرض على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوم أحد وله أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه عليه الصلاة والسلام يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه، واعترض أبو بكر الرازي على ذلك بأن أحداً كان في سنة ثلاث والخندق في سنة خمس فكيف يصح ما ذكر في الخبر، وأيضاً لا دلالة فيه على المدعى لأن الإجازة في القتال لا تعلق لها بالبلوغ فقد لا يؤذن البالغ لضعفه ويؤذن غير البالغ لقوته وقدرته على حمل السلاح.

ولعل عدم إجازته عليه الصلاة والسلام ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أولاً إنما كان لضعفه ويشعر بذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما سأله عن الاحتلام والسن. ومما تفرد به الشافعي رضي الله تعالى عنه على ما قيل جعل الإنبات دليلاً على البلوغ واحتج له بما روى عطية القرظي أن النبي ﷺ أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال: فنظروا إليّ فلم أكن قد أنبت فاستبقاني ﷺ؛ وتعقبه أبو بكر الرازي بأن هذا الخبر لا يجوز إثبات الشرع بمثله فإن عطية هذا مجهول لا يعرف إلا من هذا الخبر، وأيضاً هو مختلف الألفاظ ففي بعض رواية أن النبي ﷺ أمر بقتل من جرت عليه المواسي، وأيضاً يجوز أن يكون الأمر بقتل من أنبت ليس لأنه بالغ بل لأنه قوي فإن الإنبات يدل على القوة البدنية، وانتصر للشافعي بأن الاحتمال مردود بما روي عن عثمان رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن غلام فقال: هل اخضر إزاره فإنه يدل على أن ذلك كان كالأمر المتفق عليه فيما بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ثم

المشهور عن الشافعي عليه الرحمة جعل ذلك دليلاً على البلوغ في حق أطفال الكفار، وتكلف الشافعية في الانتصار له ورد التشنيع عليه بما لا يخفى ما فيه على من راجعه.

ومن الغريب ما روي عن قوم من السلف أنهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الإنسان في طوله خمسة أشبار، وروي عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: إذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود يقتص له ويقتص منه.

وعن ابن سيرين عن أنس قال: أتي أبو بكر رضي الله تعالى عنه بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلى عنه، وبهذا المذهب أخذ الفرزدق في قوله يمدح يزيد بن المهلب:

ما زال مذ عقدت يداه إزاره ... وسما فأدرك خمسة الأشبار

يدني كتائب من كتائب تلتقي ... بالطعن يوم تجاول وغوار

وأكثر الفقهاء لا يقولون به لأن الإنسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلاً وفوق البلوغ ويكون قصيراً فلا عبرة بذلك. ولعل الأخبار السابقة لا تصح. وما نقل عن الفرزدق لا يتعين إرادة البلوغ فيه، ومن الناس من قال: إنه أراد بخمسة الأشبار القبر كما قال الآخر:

عجباً لأربع أذرع في خمسة ... في جوفه جبل أشم كبير

هذا وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية «الحلْم» بسكون اللام وهي لغة تميم، وذكر الراغب أن الحلم بالضم والحلم السكون كلاهما مصدر حلم في نومه بكذا بالفتح إذا رآه في المنام يحلم بالضم ولم يخص ذلك بلغة دون أخرى، وعن بعضهم عد حلماً بالفتح مصدراً لذلك أيضاً، وفي الصحاح الحلم بالضم ما يراه النائم تقول منه: حلم بالفتح واحتلم وتقول حلمت بكذا وحلمته أيضاً فيتعدى بالباء وبنفسه قال:

فحلمتها وبنو رفيدة دونها ... لا يبعدن خيالها المحلوم

والحلم بكسر الحاء الأناة تقول منه: حلم الرجل بالضم إذا صار حليماً، وفي القاموس الحلم بالضم وبضمتين الرؤيا جمعه أحلام ثم قال: وحلم به وعنه رأى له رؤيا أو رآه في النوم والحلم بالضم والاحتلام الجماع في النوم والاسم الحلم كعنق والحلم بالكسر الأناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم اهـ، والظهر أن ما نحن فيه بمعنى الجماع في النوم وهو الاحتلام المعروف ووجه الكناية السابقة عليه ظاهر.

وقال الراغب: الحلم زمان البلوغ وسمي الحلم لكونه جديراً صاحبه بالحلم أي الأناة وضبط النفس عن هيجان الغضب وفي النفس منه شيء ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة، والتعبير عنها بالمرات للإيذان بأن مدار طلب الاستئذان مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا أنفسها فنصب ﴿ثلاث مرات﴾ على الظرفية للاستئذان وهو الذي ذهب إليه الجمهور ويدل على ما ذكر قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ صَلَاةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ إلخ فإن الظاهر أنه في محل النصب أو الجر كما قيل إنه بدل من ﴿ثلاث﴾ أو من ﴿مرات﴾ بدل مفصل من مجمل.

وجوز أن يكون في محل الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي أحدها من قبل إلخ وهو أيضاً يدل على ما ذكرنا، واختار في البحر أن المعنى ثلاث استئذانات كما هو الظاهر فإنك إذا قلت: ضربت ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام الاستئذان ثلاث، وعليه يكون ﴿ثلاث مرات﴾ مفعولاً مطلقاً للاستئذان و ﴿من قبل﴾ الخ ظرف له، وشرع الاستئذان من قبل صلاة الفجر لظهور أنه وقت القيام عن المضاجع

وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة[١] وكل ذلك مظنة انكشاف العورة. وأيضاً كثيراً ما يجنب الشخص ليلاً فيغتسل في ذلك الوقت ويستحي من الاطلاع عليه في تلك الحالة ولو مستور العورة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ أي وحين تخلعون ثيابكم التي تلبسونها في النهار وتحطونها عنكم ﴿مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين، والظهيرة كما قال الراغب وقت الظهر، وفي القاموس هي حد انتصاف النهار وإنما ذلك في القيظ.

وجوز أن تكون ﴿من﴾ أجلية والكلام على حذف مضاف أي وحين تضعون ثيابكم من أجل حر الظهيرة، وفسر بعضهم الظهيرة بشدة الحر عند انتصاف النهار فلا حاجة إلى الحذف؛ و ﴿حين﴾ عطف على ﴿من قبل﴾ وهو ظاهر على تقدير كونه في محل نصب، وأما على التقديرين الآخرين فيلتزم القول ببناء حين على الفتح وإن أضيف إلى مضارع كما قيل في قوله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ [المائدة: ١١٩] على قراءة فتح ميم يوم، والتصريح بمدار الأمر أعني وضع الثياب في هذا الحين دون ما قيل وما بعد لما أن التجرد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لقلة زمانها كما ينبىء عنه إيراد الحين مضافاً إلى فعل حادث متقض ووقوعها في النهار الذي هو مئنة لكثرة الورود والصدور ومظنة لظهور الأحوال وبروز الأمور ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما في الوقتين المذكورين فإن تحقق المدار فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به.

﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاَةِ العشاء﴾ ضرورة أنه وقت التجرد عن لباس اليقظة والالتحاف بثياب النوم وكثيراً ما يتعاطى فيه مقدمات الجماع وإن كان الأفضل تأخيره لمن لا يغتسل على الفور إلى آخر الليل، ويعلم مما ذكر في حيز بيان حكمة مشروعية الاستئذان في الوقت الأول والوقت الأخير أن المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين ليس مطلقهما المتحقق في الوقت الممتد المتخلل بين صلاة الفجر وصلاة العشاء بل المراد بهما طرفا ذلك الوقت الممتد المتصلان اتصالاً عادياً بالصلاتين المذكورتين وعدم التعرض للأمر بالاستئذان في الباقي من الوقت الممتد إما لانفهامه بعد الأمر بالاستئذان في الأوقات المذكورة من باب الأولى، وإما لندرة الوارد فيه جداً كما قيل، وقيل إن ذاك لجريان العادة على أن من ورد فيه لا يرد حتى يعلم أهل البيت لما في الورود ودخول البيت فيه من دون إعلام أهله من التهمة ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ثَلاَثُ عَوَرَاتٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وقوله سبحانه ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له أي هن ثلاث عورات كائنة لكم، والعورة الخلل ومنه أعور الفارس وأعور المكان إذا اختل حاله والأعور المختل العين، وعورة الإنسان سوأته وأصلها كما قال الراغب: من العار وذلك لما يلحق في ظهورها من العار أي المذمة، وضميرهن المحذوف للأوقات الثلاثة، والكلام على حذف مضاف أي هي ثلاث أوقات يختل فيها التستر عادة، وقدر أبو البقاء المضاف قبل ﴿ثلاث﴾ فقال: أي هي أوقات ثلاث عورات أو لا حذف فيه، وإطلاق العورات على الأوقات المذكورة المشتملة عليها للمبالغة كأنها نفس العورات، والجملة استئناف مسوق لبيان علة طلب الاستئذان في تلك الأوقات.

وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي «ثلاث» بالنصب على أنه بدل من ﴿ثلاث مرات﴾ وجوز أبو البقاء كونه بدلاً من الأوقات المذكورة، وكونه منصوباً بإضمار أعني. وقرأ الأعمش «عَوَرَاتٍ» بفتح الواو وهي لغة هذيل بن مدركة وبني تميم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴿جُنَاحٌ﴾ أي

---

(١) بفتح القاف وتسكينها غير جائز إلا في الضرورة اهـ شهاب اهـ منه.

في الدخول بغير استئذان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث وهي الأوقات المتخللة بين كل اثنين منهن، وإيرادها بعنوان البعدية مع أن كل وقت من تلك الأوقات قبل كل عورة من العورات كما أنها بعد أخرى منهن لتوفية حق التكليف والترخيص الذي هو عبارة عن رفعه إذ الرخصة إنما تتصور في فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلف كذا في إرشاد العقل السليم، وظاهره أنه لا حرج في الدخول بغير استئذان في الوقت المتخلل بين ما بعد صلاة العشاء وما قبل صلاة الفجر بالمعنى السابق للبعدية والقبلية، ومقتضى ما قدمنا ثبوت الحرج في ذلك فيكون كالمستثنى مما ذكر.

وكان الظاهر أن يقال: ليس عليهم جناح بعدهن وعدم التعرض لنفي أن يكون على المخاطبين جناح لأن المأمورين ظاهراً فيما تقدم بالاستئذان في العورات الثلاث هم المماليك والمراهقون الأحرار لا غير، وإن اعتبر المأمورون في الحقيقة فيما مر كان الظاهر هاهنا أن يقال: ليس عليكم جناح بعدهن مقتصراً عليه، ولعل اختيار ما في النظم الجليل لرعاية المبالغة في الإذن بترك الاستئذان فيما عدا تلك الثلاث حيث نفي الجناح عن المأمورين به فيها ظاهراً وحقيقة.

والظاهر أن المراد بالجناح الإثم الشرعي، واستشكل بأنه يفهم من الآية ثبوت ذلك للمخاطبين إذا دخل المماليك والذين لم يبلغوا الحلم منهم عليهم من غير استئذان في تلك العورات مع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى وثبوته للمماليك والصغار كذلك مع أن الصغار غير مكلفين فلا يتصور في حقهم الإثم الشرعي.

وأجيب بأن ثبوت ذلك لمن ذكر بواسطة المفهوم ولا عبرة به عندنا، وعلى القول باعتباره يمكن أن يكون ثبوته للمخاطبين حينئذ لتركهم تعليمهم والتمكين من الدخول عليهم ويبقى إشكال ثبوته للصغار ولا مدفع له إلا بالتزام القول بأن التكليف يعتمد التمييز ولا يتوقف على البلوغ وهو خلاف ما عليه جمهور الأئمة.

ويرد على القول بأن ثبوت ذلك لمن ذكر بواسطة المفهوم بحث لا يخفى. والتزم في الجواب كون المراد بالجناح لإثم العرفي الذي مرجعه ترك الأولى وإلا خلق من حيث المروءة والأدب وجواز ثبوت ذلك للمكلف وغير المكلف مما لا كلام فيه فكأن المعنى ليس عليكم أيها المؤمنون جناح في دخولهم عليكم بعدهن لترككم تعليمهم وتمكينكم إياهم منه المفضي إلى الوقوف على ما تأبى المروءة والغيرة الوقوف عليه ولا عليهم جناح في ذلك لإخلالهم بالأدب المفضي إلى الوقوف على ما تكره ذوو الطباع السليمة الوقوف عليه وينفعلون منه. ولا يأبى ذلك تقدم الأمر السابق ولا في الإرشاد من بيان نكتة إيراد العورات الثلاث بعنوان البعدية بما سمعت فتدبر فإنه دقيق.

وذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ [النور: ٢٧] منسوخ بهذه الآية حيث دلت على جواز الدخول بدون استئذان بعد الأوقات الثلاثة ودل ذلك على خلافه. ومن لم يذهب إليه قال: إنها في الصبيان ومماليك المدخول عليه وآية الاستئذان في الأحرار البالغين ومماليك الغير في حكمهم فلا منافاة ليلتزم النسخ. ثم اعلم أن نفي الجناح بعدهن على من ذكر ليس على عمومه فإنه متى تحقق أو ظن كون أهل البيت على حال يكرهون اطلاع المماليك والمراهقين من الأحرار عليها كانكشاف عورة أحدهم ومعاشرته لزوجته أو أمته إلى غير ذلك لا ينبغي الدخول عليهم بدون استئذان سواء كان ذلك في إحدى العورات الثلاث أو في غيرها والأمر بالاستئذان فيها ونفي الجناح بعدها بناء على العادة الغالبة من كون أهل البيت في الأوقات الثلاث المذكورة على حال يقتضي الاستئذان وكونهم على حال لا يقتضيه في غيرها.

هذا وفي الآية توجيه آخر ذكره أبو حيان وظاهر صنيعه اختياره وعليه اقتصر أبو البقاء هو أن التقدير ليس عليكم ولا عليهم جناح بعد استئذانهم فيهن فحذف الفاعل وحرف الجر فبقي بعد استئذانهن ثم حذف المصدر فصار بعدهن، وعليه تقل مؤونة الكلام في الآية إلا أنه خلاف الظاهر جداً. والجمهور على ما سمعت أولاً في معناها، والظاهر أن الجملة على القراءتين السابقتين في ثلاث مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها، و في الكشاف أنها إذا رفع ﴿ثلاث﴾ كانت في محل رفع على الوصف. والمعنى هن ثلاث مخصوصة بالاستئذان وإذا نصب لم يكن لها محل وكانت كلاماً مقرراً للاستئذان في تلك الأحوال خاصة، وقال في ذلك صاحب التقريب: إن رفع الحرج وراء الأوقات الثلاثة مقصود في نفسه فإذا وصف به ﴿ثلاث عورات﴾ نصباً وهو بدل من ثلاث مرات كان التقدير ليستأذنكم هؤلاء في ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان. ويدفعه وجوه مستفادة من علم المعاني. أحدها اشتراط تقدم علم السامع بالوصف وهو منتف إذ لم يعلم إلا من هذا. والثاني جعل الحكم المقصود وصفاً للظرف فيصير غير مقصود. والثالث أن الأمر بالاستئذان في المرات الثلاث حاصل وصفت بأن لا حرج وراءها أو لم توصف فيضيع الوصف. وأما إذا وصف المرفوع فيزول الدوافع لأنه ابتداء تعليم أي هن ثلاث مخصوصة بالاستئذان وصفة للخبر المقصود ولم يتقيد أمر الاستئذان به فليتأمل فإنه دقيق جليل انتهى، وتعقب بأن الوجهين الأخيرين ساقطان لا طائل تحتهما والأول هو الوجه. فإن قيل: هو مشترك الإلزام قيل: قد تقدم في قوله تعالى: ﴿ليستأذنكم﴾ ما يرشد إلى العلم بذلك وليست الجملة الأخيرة من أجزائه كما هي كذلك على فرض جعلها صفة للبدل ولا يحتاج مع هذا إلى حديث أن رفع الحرج وراء الأوقات الثلاثة مقصود في نفسه بل قيل هو في نفسه ليس بشيء فقد قال الطيبي: إن المقصود الأولى الاستئذان في الأوقات المخصوصة ورفع الحرج في غيرها تابع له لقول المحدث رضي الله تعالى عنه لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن ثم انطلق إلى النبي ﷺ وقد نزلت الآية. وفي الكشف أنه جيء به أي بالكلام الدال على رفع الحرج أعني ﴿ليس عليكم﴾ إلخ على رفع ﴿ثلاث﴾ مؤكداً للسالف على طريق الطرد والعكس وكذلك إذا نصب وجعل استئنافاً وأما إذا جعل وصفاً فيفوت هذا المعنى. وهذا أيضاً من الدوافع انتهى فتأمل ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيۡكُم﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم طوافون والجملة استئناف ببيان العذر المرخص في ترك الاستئذان وهو المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة. وفيه دليل على تعليل الأحكام الشرعية وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاثة وغيرها بأنها عورات. وقوله عز وجل: ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ جوز أن يكون مبتدأ وخبراً ومتعلق الجار كون خاص حذف لدلالة ما قبله عليه أي بعضكم طائف على بعض، وجوز أن يكون معمولاً لفعل محذوف أي يطوف بعضكم على بعض، وقال ابن عطية ﴿بعضكم﴾ بدل من ﴿طوافون﴾، وتعقبه في البحر بأنه إن أراد أنه بدل من ﴿طوافون﴾ نفسه فلا يجوز لأنه يصير التقدير هم بعضكم على بعض وهو معنى لا يصح وإن أراد أنه بدل من الضمير فيه فلا يصح أيضاً إن قدر الضمير ضمير غيبة لتقديرهم لأنه يصير التقدير هم يطوف بعضكم على بعض وإن جعل التقدير أنتم يطوف عليكم بعضكم على بعض فيدفعه أن ﴿عليكم﴾ يدل على أنهم هم المطوف عليهم وأنتم طوافون يدل على أنهم طائفون فيتعارضان، وقيل: يقدر أنتم طوافون ويراد بأنتم المخاطبون والغيب من المماليك والصبيان وهو كما ترى، وجوز أبو البقاء كون الجملة بدلاً من التي قبلها وكونها مبينة مؤكدة، ولا يخفى عليك ما تضمنته من جبر قلوب المماليك بجعلهم بعضاً من المخاطبين وبذلك يقوى أمر العلية. وقرأ ابن أبي عبلة «طوافين» بالنصب على الحال من ضمير عليهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعد على ما مر تفصيله في تفسير قوله تعالى:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] وفي غيره أيضاً أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الأَيَاتِ﴾ الدالة على ما فيه نفعكم وصلاحكم أي ينزلها مبينة واضحة الدلالة لا أنه سبحانه يبينها بعد أن لم تكن كذلك، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصحيح لما مر غير مرة، وقيل: يبين علل الأحكام. وتعقب بأنه ليس بواضح مع أنه مؤد إلى تخصيص الآيات بما ذكر هاهنا.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاحكم معاشاً ومعاداً.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ﴾ لما بين سبحانه آنفاً حكم الأطفال من أنهم لا يحتاجون إلى الاستئذان في غير الأوقات الثلاثة عقب جل وعلا ببيان حالهم إذا بلغوا دفعاً لما عسى أن يتوهم أنهم وإن كانوا أجانب ليسوا كسائر الأجانب بسبب اعتيادهم الدخول فاللام في ﴿الأطفال﴾ للعهد إشارة إلى الذين لم يبلغوا الحلم المجعولين قسيماً للمماليك أي إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي الذين ذكروا من قبلهم في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ [النور: ٢٧] وجوز أن تكون القبلية باعتبار الوصف لا باعتبار الذكر في النظم الجليل بقرينة ذكر البلوغ وحكم الطفولية أي الذين بلغوا من قبلهم. وأخرج هذا ابن أبي حاتم عن مقاتل وزعم بعضهم أنه أظهر.

وتعقب بأن المراد بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة إيضاحه ولا يتسنى ذلك إلا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع، ولا ريب في أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال أحد وإن كان الأمر كذلك في الواقع وإنما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم، فالمعنى فليستأذنوا استئذاناً كائناً مثل استئذان المذكورين قبلهم بأن يستأذنوا في جميع الأوقات ويرجعوا إن قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف، وكون المراد بالأطفال الأطفال الأحرار الأجانب قد ذهب إليه غير واحد، وقال بعض الأجلة: المراد بهم ما يعم الأحرار والمماليك فيجب الاستئذان على من بلغ من الفريقين وأوجب هذا استئذان العبد البالغ على سيدته لهذه الآية، وقال في البحر ﴿منكم﴾ أي من أولادكم وأقربائكم.

وأخرج ابن أبي حاتم نحو هذا التفسير عن سعيد بن جبير. وأخرج عن سعيد بن المسيب أنه قال: يستأذن الرجل على أمه فإنما نزلت ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾في ذلك. وأخرج سعيد بن منصور والبخاري في الأدب وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطاء أنه سأل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أأستأذن على أختي؟ قال: نعم قلت: إنها في حجري وأنا أنفق عليها وإنها معي في البيت أأستأذن عليها؟ قال: نعم إن الله تعالى يقول: ﴿ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾ الآية فلم يأمر هؤلاء بالاستئذان إلا في العورات الثلاث وقال تعالى: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ فالإذن واجب على خلق الله تعالى أجمعين، وروي عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن وإني لآمر جارتي يعني زوجته أن تستأذن عليّ، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم، ونقل عن بعضهم أن وجوب الاستئذان المستفاد من الأمر الدال عليه في الآية منسوخ وأنكر ذلك سعيد بن جبير روي عنه يقولون: هي منسوخة لا والله ما هي منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها، وعن الشعبي ليست منسوخة فقيل له: إن الناس لا يعملون بها فقال: الله تعالى المستعان، وقيل: ذلك مخصوص بعدم الرضا وعدم باب يغلق كما كان في العصر الأول ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِه وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الكلام فيه كالذي سبق، والتكرير

للتأكيد والمبالغة في طلب الاستئذان، وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لتشريفها وهو مما يقوي أمر التأكيد والمبالغة ﴿وَالقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي العجائز وهو جمع قاعد كحائض وطامث فلا يؤنث لاختصاصه ولذا جمع على فواعل لأن التاء فيه كالمذكورة أو هو شاذ، قال ابن السكيت: امرأة قاعد قعدت عن الحيض، وقال ابن قتيبة: سميت العجائز قواعد لأنهن يكثرن القعود لكبر سنهن، وقال ابن ربيعة: لقعودهن عن الاستمتاع حيث أيسن ولم يبق لهن طمع في الأزواج فقوله تعالى: ﴿اللاَّتِي لاَ يَرجُونَ نكَاحاً﴾ أي لا يطمعن فيه لكبرهن صفة كاشفة ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثيَابَهُنَّ﴾ أي الثياب الظاهرة التي لا يفضي وضعها لكشف العورة كالجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار.

وأخرج ابن المنذر عن ميمون بن مهران أنه قال: في مصحف أُبيّ بن كعب ومصحف ابن مسعود «فليس عليهن جناح أن يضعن جلابيبهن» وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهما كانا يقرآن كذلك، ولعله لذلك اقتصر بعض في تفسير الثياب على الجلباب، والجملة خبر ﴿القواعد﴾ والفاء إما لأن اللام في القواعد موصولة بمعنى اللاتي وإما لأنها موصوفة بالموصول. وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَات بزينة﴾ حال، وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى من قولهم: سفينة بارج لا غطاء عليها، والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء، وقيل: أصله الظهور من البرج أي القصر ثم خص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها، وليست الزينة مأخوذة في مفهومه حتى يقال: إن ذكر الزينة من باب التجريد، والظاهر أن الباء للتعدية، وقيل زائدة في المفعول لأنهم يفسرون التبرج بمتعد، ففي القاموس تبرجت أظهرت زينتها للرجال وفيه نظر، والمراد بالزينة الزينة الخفية لسبق العلم باختصاص الحكم بها ولما في لفظ التبرج من الإشعار، والتنكير لإفادة الشياع وأن زينة ما وإن دقت داخلة في الحكم أي غير مظهرات زينة مما أمر بإخفائه في قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ [النور: ٣١].

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفنَ﴾ بترك الوضع والتستر كالشواب ﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ من الوضع لبعده من التهمة فلكل ساقطة لاقطة، وذكر ابن المنير للآية معنى استحسنه الطيبي فقال: يظهر لي والله تعالى أعلم أن قوله تعالى: ﴿غير متبرجات بزينة﴾ من باب: «على لا حب لا يهتدى بمناره» أي لا منار فيه فيهتدى به وكذلك المراد والقواعد من النساء لا زينة لهن فيتبرجن بها لأن الكلام فيمن هن بهذه المثابة، وكأن الغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهن عن وضع الثياب خير لهن فما ظنك بذوات الزينة من الشواب، وأبلغ ما في ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذاناً بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة هذا في القواعد فكيف بالكواعب ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ مبالغ في سمع جميع ما يسمع فيسمع بما يجري بينهن وبين الرجال من المقاولة ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم سبحانه مقاصدهن. وفيه من الترهيب ما لا يخفى.

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في كتاب الزهراوي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هؤلاء الطوائف كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذاراً من استقذارهم إياهم وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم وأوضاعهم فنزلت. وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون: ذهب بنا إلى بيت غيره ولعل أهله كارهون لذلك. وكذا كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو وخلفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتيحها وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها مخافة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم.

وكان غير هؤلاء أيضاً يتحرجون من الأكل في بيوت غيرهم، فعن عكرمة كانت الأنصار في أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من البيوت الذي ذكر الله تعالى، وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فيتحرج لأجل أنه ليس ثم رب البيت، والحرج لغة كما قال الزجاج الضيق من الحرجة وهو الشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه، وقال الراغب: هو في الأصل مجتمع الشيء ثم أطلق على الضيق وعلى الإثم، والمعنى على الرواية الأولى ليس على هؤلاء حرج في أكلهم مع الأصحاء، ويقدر على سائر الروايات ما يناسب ذلك مما لا يخفى، و ﴿على﴾ على معناها في جميع ذلك، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه لما نزل ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ [البقرة: ١٨٨] تحرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل: كانت العرب ومن بالمدينة قبل البعث تجتنب الأكل مع أهل هذه الأعذار لمكان جولان يد الأعمى وانبساط جلسة الأعرج وعدم خلو المريض من رائحة تؤذي أو جرح ينض أو أنف يذن فنزلت. ومن ذهب إلى هذا جعل ﴿على﴾ بمعنى في أي ليس في مؤاكلة الأعمى حرج وهكذا وإلا لكان حق التركيب ليس عليكم أن تأكلوا مع الأعمى حرج وكذا يقال فيما بعد وفيه بعد لا يخفى، وقيل: لا حاجة إلى أن يقدر محذوف بعد قوله تعالى: ﴿حرج﴾ حسبما أشير إليه إذ المعنى ليس على الطوائف المعدودة ﴿وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا﴾ أنتم وهم معكم ﴿مِن بُيُوتِكُمْ﴾ إلخ، وإلى كون المعنى كذلك ذهب مولانا شيخ الإسلام ثم قال: وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضاً يأباه ما قبله وما بعده فإن الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتماً ولعل ما تقدم أولى، وأما تعميم الخطاب فلا أقول به أصلاً، وعن ابن زيد والحسن وذهب إليه الجبائي وقال أبو حيان: هو القول الظاهر أن الحرج المنفي عن أهل العذر هو الحرج في القعود عن الجهاد وغيره مما رخص لهم فيه والحرج المنفي عمن بعدهم الحرج في الأكل من البيوت المذكورة، قال صاحب الكشاف: والكلام عليه صحيح لالتقاء الطائفتين في أن كلا منفي عنه الحرج، ومثاله أن يستفتى مسافر عن الإفطار في رمضان وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر فتقول: ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر وهو تحقيق لأمر العطف وذلك أنه لما كان فيه غرابة لبعد الجامع بادىء النظر ازاله بأن الغرض لما كان بيان الحكم كفاء الحوادث والحادثتان وإن تباينتا كل التباين إذا تقارنتا في الوقوع والاحتياج إلى البيان قرب الجامع بينهما ولا كذلك إذا كان الكلام في غير معرض الإفتاء والبيان، وليس هذا القول منه بناء على أن الاكتفاء في تصور ما كاف في الجامعية كما ظن، وبهذا يظهر الجواب عما اعترض به على هذه الرواية من أن الكلام عليها لا يلائم ما قبله ولا ما بعده لأن ملاءمته لما بعده قد عرفت وجهها، وأما ملاءمته لما قبله فغير لازمة إذ لم يعطف عليه، وربما يقال في وجه ذكر نفي الحرج عن أهل العذر بترك الجهاد وما يشبهه مما رخص لهم فيه أثناء بيان الاستئذان ونحوه: إن نفي الحرج عنهم بذلك مستلزم عدم وجوب الاستئذان منه ﷺ لترك ذلك فلهم القعود عن الجهاد ونحوه من غير استئذان ولا إذن كما أن للماليك والصبيان الدخول في البيوت في غير العورات الثلاث من غير استئذان ولا إذن من أهل البيت، ومثل هذا يكفي وجهاً في توسيط جملة اثناء جمل ظاهرة التناسب، ويرد عليه شيء عسى أن يدفع بالتأمل، وإنما لم يذكر الحرج في قوله تعالى: ﴿ولا على أنفسكم﴾ بأن يقال: ولا على أنفسكم حرج اكتفاء بذكره فيما مر والأواخر محل الحذف، ولم يكتف بحرج واحد بأن يقال: ليس على الأعمى والأعرج والمريض وأنفسكم حرج أن تأكلوا دفعاً لتوهم خلاف المراد، وقيل حذف الحرج آخراً للإشارة إلى مغايرته للمذكور ولا تقدح في دلالته عليه لا سيما إذا قلنا: إن الدال غير منحصر فيه وهو كما ترى، ومعنى ﴿على أنفسكم﴾ كما في الكشاف عليكم وعلى من في مثل حالكم من

المؤمنين، وفيه كما في الكشف إشارة إلى فائدة إقحام النفس وأن الحاصل ليس على الضعفاء المطعمين ولا على الذاهبين إلى بيوت القرابات ومن في مثل حالهم وهم الأصدقاء حرج. وقيل: إن فائدة إقحامها الإشارة إلى أن الأكل المذكور مع أنه لا حرج فيه لا يخل بقدر من له شأن وهو وجه حسن دقيق لا يلزمه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ظاهراً، وكان منشؤه كثرة إقحام النفس في ذوي الشأن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام: ٥٤] ولم يقل سبحانه: كتب ربكم عليه الرحمة، وقوله عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» دون أن يقول جل وعلا: إني حرمت الظلم عليّ إلى غير ذلك مما يعرفه المتتبع المنصف، وما قيل من أنّ فائدة الإقحام الإشارة إلى أن التجنب عن الأكل المذكور لا يخلو عن رعاية حظ النفس مع خفائه لا يلائم إلا بعض الروايات السابقة في سبب النزول، ونحو ما قيل من أنها أقحمت للإشارة إلى أن نفي الحرج عن المخاطبين في الأكل من البيوت المذكورة لذواتهم بخلاف نفي الحرج عن أهل الأعذار في الأكل منها فإنه لكونهم مع المخاطبين وذهابهم بهم إليها، والتعرض لنفي الحرج عنهم في أكلهم من بيوتهم مع ظهور انتفاء ذلك لإظهار التسوية بينه وبين قرنائه كما في قوله تعالى: ﴿يكلم الناس في المهد وكهلا﴾ [آل عمران: ٤٦] لكن ذلك فيما نحن فيه من أول الأمر، ولم يتعرض لبيوت أولادهم لظهور أنها كبيوتهم، وذكر جمع أنها داخلة في بيوت المخاطبين، فقد روى أبو داود وابن ماجة «أنت ومالك لأبيك» في حديث رواه الشيخان وغيرهما «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه» وقال بعضهم: المراد ببيوت المخاطبين بيوت أولادهم وأضافها إليهم لمزيد اختصاصها بهم كما يشهد به الشرع والعرف، وقيل: المعنى أن تأكلوا من بيوتكم من مال أولادكم وأزواجكم الذين هم في بيوتكم ومن جملة عيالكم وهو كما ترى ﴿أَو بُيُوت آبَائِكُمْ أَو بُيُوت أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وقرأ حمزة بكسر الهمزة والميم، والكسائي وطلحة بكسر الهمزة وفتح الميم ﴿أَو بُيُوت إِخْوَانِكُمْ أَو بُيُوت أَخَوَاتِكُمْ أَو بُيُوت أَعْمَامِكُمْ أَو بُيُوت عَمَّاتِكُمْ أَو بُيُوت أَخْوَالِكُمْ أَو بُيُوت خَالاَتِكُمْ أَو مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي أو مما تحت أيديكم وتصرفكم من بستان أو ماشية وكالة أو حفظاً وهو الذي يقتضيه كلام ابن عباس. فقد روى عنه غير واحد أنه قال: ذاك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته فلا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر. وقال السدي: هو الرجل يولي طعام غيره ويقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه.

وقال ابن جرير: هو الزمن يسلم إليه مفتاح البيت ويؤذن له بالتصرف فيه، وقيل: ولي اليتيم الذي له التصرف بماله فإنه يباح له الأكل منه بالمعروف. وملك المفتاح على جميع ذلك كناية عن كون الشيء تحت يد الشخص وتصرفه. والعطف على ما أشرنا إليه على ما بعد ﴿من﴾ وعن قتادة أن المراد بما ملكتم مفاتحه العبيد فالعطف على ما بعد ﴿بيوت﴾ والتقدير أو بيوت الذين ملكتم مفاتحهم. وكان ملك المفتاح لما شاع كناية لم ينظر فيه إلى أن المتصرف مما يتوصل إليه بالمفتاح أولاً ومثله كثير، أو هو ترشيح لجري العبيد مجرى الجماد من الأموال المشعر به استعمال ما فيهم، ولا يخفى عليك بعد هذا القول وأنه يندرج بيوت العبيد في قوله تعالى: ﴿بيوتكم﴾ لأن العبد لا ملك له، وإرادة المعتوقين منهم بقرينة ﴿ملكتم﴾ بلفظ الماضي مما لا ينبغي أن يلتفت إليه. و قرأ ابن جبير «مُلِكْتُمْ» بضم الميم وكسر اللام مشددة «ومفاتيحه» بياء بعد التاء جمع مفتاح. وقرأ قتادة وهارون عن أبي عمرو «مفتاحه» بالإفراد وهو آلة الفتح وكذا المفتح كما في القاموس، وقال الراغب: المفتح والمفتاح ما يفتح به وجمعه مفاتيح ومفاتح وفي بعض الكتب أن جمع مفتح مفاتح وجمع مفتاح مفاتيح ﴿أَو صَدِيقِكُمْ﴾ أي أو بيوت صديقكم وهو من يصدق في مودتك وتصدق في مودته يقع على الواحد والجمع، والمراد به هنا الجمع، وقيل: المفرد، وسر التعبير به دون أصدقائكم الإشارة إلى قلة الأصدقاء حتى قيل:

صاد الصديق وكاف الكيمياء معا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

ونقل عن هشام بن عبد الملك أنه قال: نلت ما نلت حتى الخلافة وأعوزني صديق لا أحتشم منه، وقيل: إنه إشارة إلى أن شأن الصداقة رفع الاثنينية ورفع الحرج في الأكل من بيت الصديق لأنه أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من ذوي القرابة؛ روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الصديق أكبر من الوالدين إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات فقالوا: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ، وقيل لأفلاطون: من أحب إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: لا أحب أخي إلا إذا كان صديقي، وقد كان السلف ينبسطون بأكل أصدقائهم من بيوتهم ولو كانوا غيباً.

يحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال: هكذا وجدناهم هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين، وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك، وهذا شيء قد كان.

«إذا الناس ناس والزمان زمان» وأما اليوم فقد طوي فيما أعلم بساطه واضمحل والأمر لله تعالى فسطاطه وعفت آثاره وأفلت أقماره وصار الصديق اسماً للعدو الذي يخفي عداوته وينتظر لك حرب الزمان وغارته فآه ثم آه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

ثم إن نفي الحرج في الأكل المذكور مشروط بما إذا علم الآكل رضا صاحب المال بإذن صريح أو قرينة، ولا يرد أنه إذا وجد الرضا جاز الأكل من مال الأجنبي والعدو أيضاً فلا يكون للتخصيص وجه لأن تخصيص هؤلاء لاعتياد التبسط بينهم فلا مفهوم له، وقال أبو مسلم: هذا في الأقارب الكفرة أباح سبحانه في هذه الآية ما حظره في قوله سبحانه: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ [المجادلة: ٢٢] وليس بشيء، وقيل: كان ذلك في صدر الإسلام ثم نسخ بقوله ﷺ: «لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه» وقوله عليه الصلاة والسلام من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: «لا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه»، وقوله تعالى: ﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ [النور: ٢٧] الآية، وقوله عز وجل: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ [الأحزاب: ٥٣] فإنهم إذا منعوا من منزله ﷺ إلا بالشرط المذكور وهو عليه الصلاة والسلام أكرم الناس وأقلهم حجاباً فغيره صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم بالطريق الأولى.

وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى القول بالنسخ بناء على ما قلنا أولاً، واحتج بالآية بعض أئمة الحنفية على أنه لا قطع بسرقة مال المحارم مطلقاً لا فرق في ذلك بين الوالدين والمولودين وبين غيرهم لأنها دلت على إباحة دخول دارهم بغير إذنهم فلا يكون مالهم محرزاً ومجرد احتمال إرادة الظاهر وعدم النسخ كاف في الشبهة المدرئة للحد، وبحث فيه بأن درء الحدود بالشبهات ليس على إطلاقه عندهم كما يعلم من أصولهم، وأورد عليه أيضاً أنه يستلزم أن لا تقطع يد من سرق من الصديق، وأجيب عن هذا بأن الصديق متى قصد سرقة مال صديقه انقلب عدواً، وتعقب بأن الشرع ناظر إلى الظاهر لا إلى السرائر، وقرىء «صديقكم» بكسر الصاد اتباعاً لحركة الدال حكى ذلك حميد الخزاز **﴿لَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً﴾** أي مجتمعين وهو نصب على الحال من فاعل **﴿تأكلوا﴾** وهو في الأصل

بمعنى كل ولا يفيد الاجتماع خلافاً للفراء، ودل عليه هنا لمقابلته بقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فإنه عطف عليه داخل في حكمه وهو جمع شت على أنه صفة كالحق يقال: أمر شت أي متفرق أو على أنه في الأصل مصدر وصف به مبالغة. والآية على ما ذهب أكثر المفسرين كلام مستأنف مسوق لبيان حكم آخر من جنس ما بين قبله، وقد نزلت على ما روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة في بني ليث بن عمرو بن كنانة تحرجوا أن يأكلوا طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل، قيل: وهذا التحرج سنة موروثة من الخليل عليه الصلاة والسلام، وقد قال حاتم:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي

وفي الحديث «شر الناس من أكل وحده وضرب عبده ومنع رفده» وهذا الذم لاعتياده بخلاً بالقرى ونفي الجناح عن وقوعه أحياناً بياناً لأنه لا إثم فيه ولا يذم به شرعاً كما ذمت به الجاهلية فلا حاجة إلى القول بأن الوعيد في الحديث لمن اجتمعت فيه الخصال الثلاث دون الانفراد بالأكل وحده فإنه يقتضي أن كلاً منها على الانفراد غير منهي عنه وليس كذلك، والقول بأنهم أهل لسان لا يخفى عليهم مثله ولكن لمجيء الواو بمعنى أو تركوا كل واحد منها احتياطاً لا وجه له لأن هؤلاء المتحرجين لم يتمسكوا بالحديث، وكون الواو بمعنى أوتوهم لا عبرة به، ولا شك أن إجتماع الأيدي على الطعام سنة فتركه بغير داع مذمة انتهى.

وعن عكرمة وأبي صالح أنها نزلت في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا، قيل: كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول: إني لأتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير وروي ذلك عن ابن عباس، وقال الكلبي: كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعمى ونحوه طعاماً على حدة فبين الله تعالى أن ذلك ليس بواجب.

وقيل: كانوا يأكلون فرادى خوفاً أن يزيد أحدهم على الآخر في الأكل أو أن يحصل من الاجتماع ما ينفر أو يؤذي فنزلت لنفي وجوب ذلك، وأياً كان فالعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وقيل: الآية من تتمة ما قبلها على معنى أنها وقعت جواباً لسؤال نشأ منه كأن سائلاً يقول: هل نفي الحرج في الأكل من بيوت من ذكر خاص فيما إذا كان الأكل مع أهل تلك البيوت أم لا؟ فأجيب بقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا﴾ أي مجتمعين مع أهل تلك البيوت في الأكل أو أشتاتاً أي متفرقين بأن يأكل كل منكم وحده ليس معه صاحب البيت وما ألطف نفي الحرج فيما اتسعت دائرته ونفي الجناح فيما ورد فيه بين أمرين والنكات لا يجب اطرادها كذا قيل فتدبر.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم﴾ شروع في بيان الأدب الذي ينبغي رعايته عند مباشرة ما رخص فيه بعد بيان الرخصة فيه ﴿بيوتا﴾ أي من البيوت المذكورة كما يؤذن به الفاء. ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي على أهلها كما أخرج ذلك ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وقريب منه ما أخرجه عبد الرزاق وجماعة عن الحسن أن المعنى فليسلم بعضكم على بعض نظير قوله تعالى: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ [البقرة: ٥٤] والتعبير عن أهل تلك البيوت بالأنفس لتنزيلهم منزلتها لشدة الاتصال، وفي الانتصاف في التعبير عنهم بذلك تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من تلك البيوت المعدودة وأن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه للقرابة ونحوها، وقيل: المراد السلام على أهلها على أبلغ وجه لأن المسلم إذا ردت تحيته عليه فكأنه سلم على نفسه كما أن القاتل

لاستحقاقه القتل بفعله كأنه قاتل نفسه. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس أنه قال في الآية: هو المسجد إذا دخلته فقل السلام علينا وعلى عباد الله تعالى الصالحين. فحمل البيوت فيها على المساجد والسلام على الأنفس على ظاهره، وقيل: المراد بيوت المخاطبين وأهلهم، وذكر أن الرجل إذا دخل على أهله سن له أن يقول: السلام عليكم تحية من عند الله مباركة طيبة فإن لم يجد أحداً فليقل السلام علينا من ربنا وروي هذا عن عطاء، وقيل السلام على الأنفس على ظاهره والمراد ببيوت بيوت الكفار وذكر أن داخلها وكذا داخل البيوت الخالية يقول ما سمعت آنفاً عن ابن عباس وقيل يقول على الكفار يقول: السلام على من اتبع الهدى، ولا يخفى المناسب للمقام، والسلام بمعنى السلام من الآفات؛ وقيل: اسم من أسمائه عز وجل وقد مر الكلام في ذلك على أتم وجه فتذكر.

﴿تَحِيَّةً مِنْ عِندِ اللهِ﴾ أي ثابتة بأمره تعالى مشروعة من لدنه عز وجل فالجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لتحية، وجوز أن يتعلق بتحية فإنها طلب الحياة وهي من عنده عز وجل، وأصل معناها أن تقول حياك الله تعالى أي أعطاك سبحانه الحياة ثم عمم لكل دعاء، وانتصابها على المصدرية ليسلموا على طريق قعدت جلوساً فكأنه قيل فسلموا تسليماً أو فحيوا تحية ﴿مُبَارَكَةً﴾ بورك فيها بالأجر كما روي عن مقاتل، قال الضحاك: في السلام عشر حسنات ومع الرحمة عشرون ومع البركات ثلاثون ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيب بها نفس المستمع، والظاهر أنه يزيد المسلم ما ذكر في سلامه، وعن بعض السلف زيادته كما مر آنفاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ما أخذت التشهد إلامن كتاب الله تعالى سمعت الله تعالى يقول: ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ فالتشهد في الصلاة التحيات المباركات الطيبات لله.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ تكرير لمزيد التأكيد، وفي ذلك تفخيم فخيم للأحكام المختتمة به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في تضاعيفها من الشرائع والأحكام وتعملون بموجبها وتحوزون بذلك سعادة الدارين، وفي تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الأولين بما يوجبها من الجزالة ما لا يخفى، وذكر بعض الأجلة أنه سبحانه بدأ السورة بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ [النور: ١] وختمها بقوله عز وجل: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ ثم جعل تبارك وتعالى ختام الختم قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلخ دلالة على أن ملاك ذلك كله والمنتفع بتلك الآيات جمع من سلم نفسه لصاحب الشريعة صلوات الله تعالى وسلامه عليه كالميت بين يدي الغاسل لا يحجم ولا يقدم دون إشارته ﷺ ولهذه الدقيقة أورد هذه الآية شهاب الحق والدين أبو حفص عمر السهروردي قدس سره في باب سير المريد مع الشيخ ونبه بذلك أن كل ما يرسمه من أمور الدين فهو أمر جامع.

وقال شيخ الإسلام: إن هذا استئناف جيء به في أواخر الأحكام السابقة تقريراً لها وتأكيداً لوجوب مراعاتها وتكميلاً لها ببيان بعض آخر من جنسها، وإنما ذكر الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ صلة للموصول الواقع خبراً للمبتدأ مع تضمنه له قطعاً تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وإيذاناً بأنه حقيق بأن يجعل قريناً للإيمان المذكور منتظماً في سلكه فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إلخ معطوف على ﴿آمنوا﴾ داخل معه في حيز الصلة وبذلك يصح الحمل، والحصر باعتبار الكمال أي إنما الكاملون في الإيمان الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ عن صميم قلوبهم وأطاعوا في جميع الأحكام التي من جملتها ما فصل من قبل من الأحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة في الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما إذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع لغرض من الأغراض، وعن ابن زيد أن الأمر

الجامع الجهاد وقال الضحاك وابن سلام هو كل صلاة فيها خطبة كالجمعة والعيدين والاستسقاء، وعن ابن جبير هو الجهاد وصلاة الجمعة والعيدين، ولا يخفى أن الأولى العموم وإن كانت الآية نازلة في حفر الخندق ولعل ما ذكر من باب التمثيل، ووصف الأمر بالجمع مع أنه سبب له للمبالغة، والظاهر أن ذلك من المجاز العقلي، وجوز أن يكون هناك استعارة مكنية.

وقرأ اليماني «على أمر جميع» وهو بمعنى جامع أو مجموع له على الحذف والإيصال ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ عنه ﷺ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ عليه الصلاة والسلام في الذهاب فيأذن لهم به فيذهبون فالغاية هي الإذن الحاصل بعد الاستئذان والاقتصار على الاستئذان لأنه الذي يتم من قبلهم وهو المعتبر في كمال الإيمان لا الإذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره في ذلك لما أنه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص عن المنافق فإن ديدنه التسلل للفرار، ولتعظيم ما في الذهاب بغير إذنه عليه الصلاة والسلام من الجناية وللتنبيه على ذلك عقب سبحانه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنونَ بـالله وَرَسُوله﴾ فقد جعل فيه المستأذنين هم المؤمنون عكس الأول دلالة على أنهما متعاكسان سواء بسواء ومنه يلزم أنه كالمصداق لصحة الإيمانين وكذلك من اسم الإشارة لدلالته على أن استئهال الإيمانين لذلك ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ﴾ بيان لما هو وظيفته صلى الله تعالى عليه وسلم في هذا الباب إثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي بعدما تحقق أن الكاملين في الإيمان هم المستأذنون فإذا استأذنوك ﴿لبَعْض شَأْنهمْ﴾ أي لبعض أمرهم المهم وخطبهم الملم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويض للأمر إلى رأيه ﷺ؛ واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه مسألة التفويض المختلف في جوازها بين الأصوليين وهي أن يفوض الحكم إلى المجتهد فيقال له: احكم بما شئت فإنه صواب فأجاز ذلك قوم لكن اختلفوا فقال موسى بن عمران: بجواز ذلك مطلقاً للنبي وغيره من العلماء، وقال أبو علي الجبائي: بجواز ذلك للنبي خاصة في أحد قوليه، وقد نقل عن الإمام الشافعي عليه الرحمة في الرسالة ما يدل على التردد بين الجواز والمنع ومنع من ذلك الباقون. والمجوزون اختلفوا في الوقوع، قال الآمدي والمختار الجواز دون الوقوع، وقد أطال الكلام في هذا المقام فليراجع. والذي أميل إليه جواز أن يفوض الحكم إلى المجتهد إذا علم أنه يحكم تروياً لا تشهياً ويكون التفويض حينئذ كالأمر بالاجتهاد، والأليق بشأن الله تعالى وشأن رسوله ﷺ أن ينزل ما هنا على ذلك وتكون المشيئة مقيدة بالعلم بالمصلحة. وذكر بعض الفضلاء أنه لا خلاف في جواز أن يقال: احكم بما شئت تروياً بل الخلاف في جواز أن يقال: احكم بما شئت تشهياً كيفما اتفق، وأنت تعلم أنه بعد التقييد لا يكون ما نحن فيه من محل النزاع، ومن الغريب ما قيل: إن المراد ممن شئت منهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ولا يخفى ما فيه ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ فإن الاستئذان وإن كان لعذر قوي لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة. وتقديم «لهم» للمبادرة إلى أن الاستغفار للمستأذنين لا للإذن.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ مبالغ في مغفرة فرطات العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في إفاضة شآبيب الرحمة عليهم، والجملة تعليل للمغفرة الموعودة في ضمن الاستغفار لهم، وقد بالغ جل شأنه في الاحتفال برسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه فجعل سبحانه الاستئذان للذهاب عنه ذنباً محتاجاً للاستغفار فضلاً عن الذهاب بدون إذن ورتب الإذن على الاستئذان لبعض شأنهم لا على الاستئذان مطلقاً ولا على الاستئذان لأي أمر مهما كان أو غير مهم ومع ذلك علق الإذن بالمشيئة، وإذا اعتبرت وجوه المبالغة في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون﴾ إلى هنا وجدتها تزيد على العشرة. وفي أحكام القرآن للجلال السيوطي أن في الآية دليلاً على وجوب استئذانه صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الانصراف

عنه عليه الصلاة والسلام في كل أمر يجتمعون عليه، قال الحسن: وغير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الأئمة مثله في ذلك لما فيه من أدب الدين وأدب النفس، وقال ابن الفرس: لا خلاف في الغزو أنه يستأذن إمامه إذا كان له عذر يدعوه إلى الانصراف واختلف في صلاة الجمعة إذا كان له عذر كالرعاف وغيره فقيل يلزمه الاستئذان سواء كان أمامه الأمير أم غيره أخذاً من الآية وروي ذلك عن مكحول والزهري ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُول بَينَكُمْ كَدُعَاء بَعْضكُمْ بَعْضاً﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله، والالتفات لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه أي لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في حال من الأحوال وأمر من الأمور التي من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان فإن ذلك من المحرمات، وإلى نحو هذا ذهب أبو مسلم واختاره المبرد والقفال وقيل: المعنى لا تحسبوا دعاءه صلى الله تعالى عليه وسلم عليكم كدعاء بعضكم على بعض فتعرضوا لسخطه ودعائه عليكم عليه الصلاة والسلام بمخالفة أمره والرجوع عن مجلسه بغير استئذان ونحو ذلك، وهو مأخوذ مما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وروي عن الشعبي وتعقبه ابن عطية بأن لفظ الآية يدفع هذا المعنى، وكأنه أراد أن الظاهر عليه على بعض، وقيل: إنه يأباه ﴿بينكم﴾ وهو في حيز المنع، وقيل: المعنى لا تجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل كدعاء صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم يسأله حاجته فربما أجابه وربما رده فإن دعاءه صلى الله تعالى عليه وسلم مستجاب لا مرد له عند الله عز وجل فتعرضوا لدعائه لكم بامتثال أمره واستئذانه عند الانصراف عنه إذا كنتم معه على أمر جامع وتحققوا قبول استغفاره لكم ولا تتعرضوا لدعائه عليكم بضد ذلك.

ولا يخفى وجه تقرير الجملة لما قبلها على هذين القولين؛ لكن بحث في دعوى أن جميع دعائه عليه الصلاة والسلام مستجاب بأنه قد صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سأل الله تعالى في أمته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعه، وهو ظاهر في أنه قد يرد بعض دعائه عليه الصلاة والسلام. وتعقب بأنه كيف يرد وقد قال الله تعالى: ﴿ادعوني استجب لكم﴾ وفي الحديث «إن الله تعالى لا يرد دعاء المؤمن وإن تأخر» وقد قال الإمام السهيلي في الروض: الاستجابة أقسام إما تعجيل ما سال أو أن يدخر له خير مما طلب أو يصرف عنه من البلاء بقدر ما سال من الخير، وقد أعطى صلى الله تعالى عليه وسلم عوضاً من أن لا يذيق بعضهم بأس بعض الشفاعة وقال: «أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب عذابها في الدنيا الزلزال والفتن» كما في أبي داود فإذا كانت الفتنة سبباً لصرف عذاب الآخرة عن الأمة فلا يقال: ما أجاب دعاءه ﷺ لأن عدم استجابته أن لا يعطي ما سأل أو لا يعوض عنه ما هو خير منه، والمراد بالمنع في الحديث منع ذلك بخصوصه لا عدم استجابة الدعاء بذلك بالمعنى المذكور، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله.

وقيل: المعنى لا تجعلوا نداءه عليه الصلاة والسلام وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداء وراء الحجرات ولكن بلقبه المعظم مثل يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت.

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله تعالى عن ذلك بقوله سبحانه: ﴿لا تجعلوا﴾ الآية إعظاماً لنبيه ﷺ فقالوا: يا نبي الله يا رسول الله، وروي نحو هذا عن قتادة والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وفي أحكام القرآن للسيوطي أن في هذا النهي تحريم ندائه ﷺ باسمه.

والظاهر استمرار ذلك بعد وفاته إلى الآن. وذكر الطبرسي أن من جملة المنهي عنه النداء بيا ابن عبد الله فإنه

مما ينادي به العرب بعضهم بعضاً. وتعقب هذا القول بأن الآية عليه لا تلائم السباق واللحاق.

وقال بعضهم: وجه الارتباط بما قبلها عليه الإرشاد إلى أن الاستئذان ينبغي أن يكون بقولهم: يا رسول الله إنا نستأذنك ونحوه، وكذا خطاب من معه في أمر جامع إياه ﷺ ينبغي أن يكون بنحو يا رسول الله لا بنحو يا محمد، ويكفي هذا القدر من الارتباط بما قبل ولا حاجة إلى بيان المناسبة بأن في كل منهما ما ينافي التعظيم اللائق بشأنه العظيم ﷺ، نعم الأظهر في معنى الآية ما ذكرناه أولاً كما لا يخفى. وقرأ الحسن ويعقوب في رواية «نبيكم» بنون مفتوحة وباء مكسورة وياء آخر الحروف مشددة بدل ﴿بينكم﴾ الظرف في قراءة الجمهور، وخرج على أنه بدل من ﴿الرسول﴾ ولم يجعل نعتاً له لأنه مضاف إلى الضمير والمضاف إليه في رتبة العلم وهو أعرف من المعرف بأل ويشترط في النعت أن يكون دون المنعوت أو مساوياً له في التعريف، وقال أبو حيان: ينبغي أن يجوز النعت لأن ﴿الرسول﴾ قد صار علماً بالغلبة كالبيت للكعبة فقد تساويا في التعريف.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ وعيد لمن هو بضد أولئك المؤمنين الذين لم يذهبوا حتى يستأذنوه عليه الصلاة والسلام، والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية، وقد للتحقيق، وجوز أن تكون لتقليل المتسللين في جنب معلوماته تعالى وأن تكون للتكثير إما حقيقة أو استعارة ضدية، وقال أبو حيان: إن قول بعض النحاة بإفادة قد التكثير إذا دخلت على المضارع غير صحيح وإنما التكثير مفهوم من سياق الكلام كما في قول زهير:

أخي ثقة لا يهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله

فإن سياق الكلام للمدح يفهم منه ذلك أي قد يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلاً قليلاً على خفية ﴿لِوَاذاً﴾ أي ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج. وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل قال: كان لا يخرج أحد لرعاف أو إحداث حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بإصبعه التي تلي الإبهام فيأذن له النبي ﷺ يشير إليه بيده وكان من المنافقين من تثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج فأنزل الله تعالى: ﴿قد يعلم﴾ الآية، وقيل يلوذ به إراءة أنه من أتباعه.

ونصب ﴿لواذاً﴾ على المصدرية أو الحالية بتأويل ملاوذين وهو مصدر لاوذ لعدم قلب واوه ياء تبعاً لفعله ولو كان مصدر لاذ لقيل لياذاً كقياماً.

وقرأ يزيد بن قطيب «لَواذاً» بفتح اللام فاحتمل أن يكون مصدر لاذ ولم تقلب واوه ياء لأنه لا كسرة قبلها فهو كطواف مصدر طاف، واحتمل أن يكون مصدر لاوذ وفتحة اللام لأجل فتحة الواو، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ لترتيب الحذر أو الأمر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم فإنه مما يوجب الحذر البتة، والمخالفة كما قال الراغب: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله والأكثر استعمالها بدون عن فيقال خالف زيد عمراً وإذا استعملت بعن فذاك على تضمين معنى الإعراض.

وقيل الخروج أي يخالفون معرضين أو خارجين عن أمره. وقال ابن الحاجب: عدي يخالفون بعن لما في المخالفة من معنى التباعد والحيد كأنه قيل الذين يحيدون عن أمره بالمخالفة وهو أبلغ من أن يقال: يخالفون أمره.

وقيل على تضمين معنى الصد، وقيل إذا عدي بعن يراد به الصد دون تضمين ويتعدى إلى مفعول بنفسه يقال: خالف زيداً عن الأمر أي صده عنه والمفعول عليه هنا محذوف أي يخالفون المؤمنون أي يصدونهم عن أمره وحذف المفعول لأن المراد تقبيح حال المخالف وتعظيم أمر المخالف عنه فذكر الأهم وترك ما لا اهتمام به وقد يتعدى بإلى فيقال خالف إليه إذا أقبل نحوه.

وقال ابن عطية: ﴿عن﴾ هنا بمعنى بعد، والمعنى يقع خلافهم بعد أمره كما تقول: كان المطر عن ريح وأطعمته عن جوع. وقال أبو عبيدة والأخفش: هي زائدة أي يخالفون ﴿أمره﴾ وضمير أمره لله عز وجل فإن الأمر له سبحانه في الحقيقة أو للرسول ﷺ فإنه المقصود بالذكر، والأمر له قيل الطلب أو الشأن أو ما يعمهما، ولا يخفى أن في تجويز على كل من الاحتمالين في الضمير نظراً فلا تغفل. وقرىء «يخلفون» بالتشديد أي يخلفون أنفسهم عن أمره ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء ومحنة في الدنيا كما روي عن مجاهد وعن ابن عباس تفسير الفتنة بالقتل، وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه تفسيرها بتسليط سلطان جائر، وعن السدي ومقاتل تفسيرها بالكفر والأول أولى.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة. وقيل في الدنيا، والمراد بالعذاب الأليم القتل وبالفتنة ما دونه وليس بشيء. وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع. وإعادة الفعل صريحاً للاعتناء بالتهديد والتحذير. وشاع الاستدلال بالآية على أن الأمر للوجوب فإنه تعالى أوجب فيها على مخالف الأمر الحذر عن العذاب وذلك تهديد على مخالفة الأمر وهو دليل كون الأمر للوجوب إذ لا تهديد على ترك غير الواجب، وأيضاً بناء حكم الحذر عن العذاب إلى المخالف يقتضي أن يكون حذره عنه من حيث المخالفة، وذلك إنما يكون إذا أفضى إلى العذاب كما في قولك فليحذر الشاتم للأمير أن يضربه ولا إفضاء في ترك غير الواجب.

وهذا الأمر أعني ﴿فليحذر﴾ بخصوصه مستعمل في الإيجاب إذ لا معنى لندب الحذر عن العقاب أو إباحته، وأيضاً إشعار الآية بوجوب الحذر غير خاف بقرينة ورودها في معرض الوعيد بتوقع إصابة العذاب على أنه لو حمل الأمر المذكور على أنه للندب يحصل المطلوب وذلك لأن التحذير عما لم يعلم أو لم يظن تحققه ولا تحقق ما يفضي إلى وقوعه في الجملة سفه غير جائز بمعنى أنه مخالف للحكمة ولهذا يلام من يحذر عن سقوط الجدار المحكم الغير المائل، وأياً ما كان يندفع ما يقال: لا نسلم أن قوله تعالى: ﴿فليحذر﴾ للوجوب لأنه عين محل النزاع إذ يكفي في المطلوب على ما قررنا استعماله في الندب أيضاً، والقول بأن معنى مخالفة الأمر عدم اعتقاد حقيته أو حمله على غير ما هو عليه بأن يكون للوجوب أو الندب مثلاً فيحمل على غيره بعيد جداً، والظاهر المتبادر إلى الفهم أنه ترك الامتثال والإتيان بالمأمور فلا يترك إلى ذلك إلا بدليل. واعترض بأنه بعد هذا القيل والقال لا يدل على أن جميع الأوامر حقيقة في الوجوب لإطلاق الأمر.

وأجيب بأن ﴿أمره﴾ مصدر مضاف وهو يفيد العموم حيث فقدت قرينة العهد على أن الإطلاق كاف في المطلوب، وهو كون الأمر المطلق للوجوب خاصة. إذ لو كان حقيقة لغيره أيضاً لم يترتب التهديد على مخالفة مطلق الأمر. وقال بعض الأجلة: لا قائل بالفصل في صيغ الأمر بأن بعضها للوجوب وبعضها لغيره. وزعم بعضهم أن الاستدلال لا يتم إذا أريد بالأمر الطلب، ولو فسر بالشأن وكان الضمير للرسول عليه الصلاة والسلام لزم من القول بدلالتها على الوجوب أن يكون كل ما يفعله ﷺ واجباً علينا ولا قائل به. والزمخشري فسره بالدين والطاعة.

وقال صاحب الكشف: إن الاستدلال بالآية على أن الأمر للوجوب مشهور سواء فسر بما ذكر لأن الطاعة امتثال الأمر القولي أو فسر على الحقيقة، وأما إذا جعل إشارة إلى ما سبق من الأمر الجامع ومعنى ﴿يخالفون عن أمره﴾ ينصرفون عنه فلا وليس بالوجه وإن آثره جمع لفوات المبالغة والتناول الأولي والعدول عن الحقيقة في لفظ الأمر ثم المخالفة من غير ضرورة انتهى، وهذا الذي آثره جمع ذكره الطيبي عن البغوي ثم قال: هذا هو التفسير الذي عليه

التعويل ويساعد عليه النظم والتأويل لأن الأمر حينئذ بمعنى الشأن وواحد الأمورد وبيانه أن ما قبله حديث في الأمر الجامع وهو الأمر الذي يجمع عليه الناس ومدح من لزم مجلس رسولا لله ﷺ ولم يذهب عنه وذم من فارقه بغير الإذن وأمر بالاستغفار في حق من فارق بالإذن لأن قوله تعالى: ﴿**فأذن لمن شئت منهم**﴾ يؤذن أن القوم ثلاث فرق المأذون في الذهاب بعد الاستئذان والمتخلف عنه ثم المتخلف إما أن يدوم في مجلسه عليه الصلاة والسلام ولم يذهب وهم المؤمنون المخلصون أو يتسلل لواذاً وهم المنافقون وقوله تعالى: ﴿**فليحذر**﴾ إلخ مترتب على القسم الثالث على سبيل الوعيد والفعل المضارع يفيد معنى الدأب والعادة وقد أقيم المظهر موضع المضمر علة لاستحقاقهم فتنة الدارين انتهى، وقد كشف عن بعض ما فيه صاحب الكشف نعم قيل عليه: إن فوات المبالغة والتناول لا يقاوم العهد ولا عدول عن الحقيقة لأن الأمر حقيقة في الحادثة وكذا المخالفة فيما ذكر ولو سلم فهو مشترك الإلزام فإن الأمر ليس حقيقة في الأمر العام وقوله: بلا ضرورة ممنوع فإن إضافة العهد صارفة. وتعقب بأن هذا مكابرة ومنع مجرد لا يسمع فإن الأبلغية لا شبهة فيا فإن تهديد من لم يمتثل أمره عليه الصلاة والسلام أشد من تركه بلا إذن وكون الأمر حقيقة في الطلب هو الأصح في الأصول والمخالفة المقارنة للأمر لا شبهة في أن حقيقتها عدم الامتثال واشتراك الإلزام ليس بتام لأن أمره إذا عم يشمل الأمر الجامع بمعنى الطلب أيضاً وعهد الإضافة ليس بمتعين حتى يعد صارفاً كذا قيل وفيه بحث فتأمل، وقد يقال بناء على كون الأمر المذكور إشارة إلى الأمر الجامع: إنه جيء بأوفى قوله: ﴿**أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ لما أن الأمر الجامع إما أن يكون أمراً دنيوياً كالتشاور وفي الأمور الحربية فالانصراف عنه مظنة إصابة المحنة الدنيوية للمنصرفين وإما أن يكون أمراً دينياً كإقامة الجمعة التي فيها تعظيم شعائر الإسلام فالانصراف عنه مظنة إصابة العذاب الأخروي.

وبالجملة لا استدلال بالآية على اعتبار العهد وأما إذا لم يعتبر فقد استدل بها، وقد سمعت شيئاً من الكلام في ذلك وتمامه جرحاً وتعديلاً وغير ذلك في كتب الأصول ﴿**أَلَا إِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ من الموجودات بأسرها خلقاً وملكاً وتصرفاً إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة لا لأحد غيره شركة أو استقلالاً ﴿**قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ودخول المنافقين مع أن الخطاب فيما قبل للمؤمنين بطريق التغليب، وقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ**﴾ خاص بالمنافقين وهو مفعول به عطف على ﴿**ما أنتم**﴾ أي يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للأمر إليه عز وجل للجزاء والعقاب.

وتعليق علمه بيوم رجعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه سبحانه بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوع الشيء على أبلغ وجه وآكده، وفيه إشعار بأن علمه جعل وعلا بنفس رجعهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعاً. ويجوز أن يكون الخطاب السابق خاصاً بهم أيضاً فيتحقق التفاتان التفات من الغيبة إلى الخطاب في ﴿**أنتم**﴾ والتفات من الخطاب إلى الغيبة في ﴿**يرجعون**﴾ والعطف على حاله. وجوز أن يكون على مقدر أي ما أنتم عليه الآن ويوم إلخ فإن الجملة الأسمية تدل على الحال في ضمن الدوام والثبوت. وقيل: يجوز أن يكون ﴿**يوم**﴾ ظرفاً لمحذوف يعطف على ما قبله أي وسيحاسبهم يوم أو نحو ذلك ولا أرى اختصاصه بالوجه الثاني في الخطاب

وفي البحر بعد ذكر الوجهين فيه والظهر عطف ﴿**يوم**﴾ على ﴿**ما أنتم عليه**﴾ وقال ابن عطية: يجوز أن يكون التقدير والعلم يظهر لكم أو نحو هذا يوم فيكون ﴿**يوم**﴾ نصباً على الظرفية بمحذوف وقد للتحقيق وفيا الاحتمالان

المتقدمان آنفاً، وقد مر غير مرة ما يراد بمثل هذه الجملة من الوعيد أو الوعد. ولا يخفى المناسب لكل من الاحتمالات في ﴿أنتم﴾ و ﴿يرجعون﴾ وقرأ ابن يعمر وابن أبي إسحاق وأبو عمرو «يُرْجَعُونَ» مبنياً للمفعول ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي بعملهم أو بالذي عملوه من الأعمال السيئة التي من جملتها مخالفة الأمر فيرتب سبحانه عليه ما يليق به من التوبيخ والجزاء أو فينبئهم بما عملوا خيراً أو شراً فيرتب سبحانه على ذلك ما يليق به إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء. والجملة تذييل مقرر لما قبله، وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتأكيد استقلال الجملة والإشعار بعلة الحكم، وتقديم الظرف لرعاية رؤوس الآي. وقيل وفيه بحث: إنه للحصر على معنى والله عليم بكل شيء لا ببعض الأشياء كما يزعمه بعض جهلة الفلاسفة ومن حذا حذوهم حفظنا الله تعالى والمسلمين مما هم عليه من الضلالات لنا نوراً نهتدي به إذا ادلهم ليل الجهالات هذا.

ومن باب الإشارة في الآيات ما قيل في قوله تعالى: ﴿ألـم تر أن الله يزجي سحابـاً﴾ إلى آخره أنه إشارة إلى جمع العناصر الأربعة وتركيب الإنسان منها ثم خروج مطر الإحساس من عينيه وأذنيه مثلاً وينزل من سماء العقل الفياض برد حقائق العلوم فيصيب به من يشاء فتظهر آثاره عليه ويصرفه عمن يشاء حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية ﴿يكاد سنا برقه﴾ نور تجليه ﴿يذهب الأبصار﴾ بأن يعطلها عن الابصار ويفني أصحابها عنها لما أن الإدراك بنوره فوق الإدراك بنور الابصار ﴿يقلب الله الليـل والنهار﴾ إشارة إلى ليل المحو ونهار الصحو أو ليل القبض ونهار البسط أو ليل الجلال ونهار الجمال أو نحو ذلك. وقيل: يزجي سحاب المعاصي إلى أن يتراكم فترى مطر التوبة يخرج من خلاله كما خرج من سحاب ﴿وعصى آدم﴾ مطر ﴿ثم اجتباه﴾ ربه وينزل من سماء القلوب من جبال القسوة فيها من برد القهر يقلب الله ليل المعصية لمن يشاء إلى نهار الطاعة وبالعكس ﴿والله خـلق كل دابة من ماء﴾ تقدم الكلام في الماء ﴿فمنهم من يـمشي على بطنه﴾ يعتمد في سيره على الباطن وهم أهل الجذبة المغمورون في بحار المحبة ﴿ومنهم من يـمشي على رجلين﴾ يعتمد في سيره الشريعة والطريقة لكن فيما يتعلق به خاصة منهما وهم صنف من الكاملين سكنوا زوايا الخمول ولم يخالطوا الناس ولم يشتغلوا بالإرشاد ﴿ومنهم من يـمشي على أربع﴾ يعتمد في سيره الشريعة والطريقة فيما يتعلق به وبغيره منهما وهم صنف آخر من الكاملين برزوا للناس وخالطوهم واشتغلوا بالإرشاد وعملوا في أنفسهم بما تقتضيه الشريعة والطريقة وعاملوا الناس والمريدين بذلك أيضاً ﴿يخـلق الله ما يشاء﴾ فلا يبعد أن يكون في خلقه من يمشي على أكثر كالكاملين الذين أوقفهم الله تعالى على أسرار الملك والملكوت وما حده لكل أمة من الأمم ونوع من أنواع المخلوقات فعاملوا بعد أن عملوا في أنفسهم ما يليق بهم كل أمة وكل نوع بما حد له ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ويقولون آمنا بـالله وبـالرسول﴾ الآيات إشارة إلى أحوال المنكرين في القلب على المشايخ وأحوال المصدقين بهم قلباً وقالباً وفي قوله سبحانه: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ إشارة إلى أن طاعة الرسول سبب لحصول المكاشفات ونحوها، وقال أبو عثمان: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بـالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لـم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ إشارة إلى أنه لا ينبغي للمريد الاستبداد بشيء قال عبد الله الرازي: قال قوم من أصحاب أبي عثمان لأبي عثمان أوصنا فقال: عليكم بالاجتماع على الدين وإياكم ومخالفة الأكابر والدخول في شيء من الطاعات إلا بإذنهم ومشورتهم وواسوا المحتاجين بما أمكنكم فإذا فعلتم

أرجو أن لا يضيع الله تعالى لكم سعياً ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا**﴾ فيه من تعظيم أمر الرسول ﷺ ما فيه، وذكر أن الشيخ في جماعته كالنبي في أمته فينبغي أن يحترم في مخاطبته ويميز على غيره ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ قال أبو سعيد الخراز: الفتنة إسباغ النعم مع الاستدراج، وقال الجنيد قدس سره: قسوة القلب عن معرفة المعروف والمنكر، وقال بعضهم: طبع على القلوب والعذاب الأليم هو عذاب البعد والحجاب عن الحضرة نعوذ بالله تعالى من ذلك ونسأله سبحانه التوفيق إلى أقوم المسالك فلا رب غيره ولا يرجى إلا خيره.

(٢٥) سورة الفرقان مكية
وآياتها سبع وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾

اعلم أن الله سبحانه وتعالى تكلم فى هذه السورة فى التوحيد والنبوة وأحوال القيامة ، ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين ، ولما كان إثبات الصانع وإثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدماً على الكل لاجرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزجاج : تبارك ، تفاعل من البركة ؛ والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان (أحدهما) تزايد خيره وتكاثر ، وهو المراد من قوله (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) (والثانى) تزايد عن كل شىء وتعالى عنه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو المراد من قوله (ليس كمثله شىء) وأما تعاليه عن كل شىء فى ذاته ، فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه ، وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شىء من الممكنات ، وأماتعاليه عن كل شىء فى صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضرورياً أو كسبياً أو تصوراً أو تصديقاً وفى قدرته أن يحتاج إلى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال ، وأمافى أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود إلا من قبله ، وقال آخرون : أصل الكلمة تدل على البقاء ، وهو مأخوذ من بروك البعير ، ومن بروك الطير على الماء ، وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيها ، والمعنى أنه سبحانه وتعالى باق فى ذاته أزلا وأبداً ممتنع التغير وباق

www.besturdubooks.wordpress.com

فى صفاته يمتنع التبدل ، ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع والمصالح والمبقى لها وجب وصفه سبحانه بأنه تبارك وتعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أهل اللغة : كلمة الذى موضوعة للاشارة إلى الشىء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة ، وعند هذا يتوجه الإشكال ، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذى نزل الفرقان فكيف حسن ههنا لفظ الذى ؟ (وجوابه) أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزاً ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله ، فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لانزاع أن الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث إنه سبحانه فرق به بين الحق والباطل فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الحلال والحرام ، أو لأنه فرق فى النزول كما قال (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث) وهذا التأويل أقرب لأنه قال (نزل الفرقان) ولفظة نزل تدل على التفريق ، وأما لفظة (أنزل) فتدل على الجمع ، ولذلك قال فى سورة آل عمران (نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والإنجيل) واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال أولا (تبارك) ومعناه كثرة الخير والبركة ، ثم ذكر عقبه أمر القرآن دل ذلك على أن القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات ، لكن القرآن ليس إلا منبعاً للعلوم والمعارف والحكم ، فدل هذا على أن العلم أشرف المخلوقات وأعظم الأشياء خيراً وبركة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لانزاع أن المراد من العبد ههنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله وأمته ، كما قال (لقد أنزلنا إليكم) ، (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) ، وقوله (ليكون للعالمين نذيراً) فالمراد ليكون هذا العبد نذيراً للعالمين ، وقول من قال : إنه راجع إلى الفرقان فأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه فى قوله (إن هذا القرآن يهدى) فبعيد وذلك لأن المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف ، وإذا وصف به القرآن فهو مجاز ، وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن هو الواجب ، ثم قالوا هذه الآية تدل على أحكام : (الأول) أن العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة ، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا إلى الملائكة فوجب أن يكون رسولا إلى الجن والإنس جميعاً ، ويبطل بهذا قول من قال إنه كان رسولا إلى البعض دون البعض (الثانى) أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على أنه رسول للخلق إلى يوم القيامة ، فوجب أن يكون خاتم الأنبياء والرسل (الثالث) قالت المعتزلة دلت الآية على أنه سبحانه أراد الإيمان وفعل الطاعات من الكل ، لأنه إنما بعثه إلى الكل ليكون نذيراً للكل ، وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والإعراض عن القبيح وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم) الآية (الرابع) لقائل أن يقول إن قوله تبارك كما دل على كثرة الخير والبركة لابد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سبباً لكثرة الخير

www.besturdubooks.wordpress.com

والمنافع ، والإنذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع ؟ (جوابه) أن هذا الانذار يجرى مجرى تأديب الولد ، وكما أنه كلما كانت المبالغة فى تأديب الولد أكثر كان الاحسان إليه أكثر ، لما أن ذاك يؤدى فى المستقبل إلى المنافع العظيمة ، فكذا ههنا كلما كان الانذار كثيراً كان رجوع الخلق إلى الله أكثر ، فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر ، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى المنافع العاجلة ، وذلك لأنه سبحانه لما وصف نفسه بأنه الذى يعطى الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين ، ولم يذكر البتة شيئاً من منافع الدنيا .

ثم إنه سبحانه وصف ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء (أولها) قوله (الذى له ملك السموات والأرض) وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لأنه لا طريق إلى إثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه ، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب وقوله (له مافى السموات والأرض) إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها فى ماهيتها وفى وجودها ، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء (وثانيها) قوله (ولم يتخذ ولدا) فبين سبحانه أنه هو المعبود أبداً ، ولا يصح أن يكون غيره معبوداً ووارثاً للملك عنه . فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله (تبارك) ولقوله (الذى له ملك السموات والأرض) وهذا كالرد على النصارى (وثالثها) قوله (ولم يكن له شريك فى الملك) والمراد أنه هو المنفرد بالإلهية ، وإذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل ، ولا يبقى مشغول القلب إلا برحمته وإحسانه . وفيه الرد على الثنوية ، والقائلين بعبادة النجوم ، والقائلين بعبادة الأوثان (ورابعها) قوله (وخلق كل شىء فقدره تقديراً) وفيه سؤالات :

﴿الأول﴾ هل فى قوله (وخلق كل شىء) دلالة على أنه سبحانه خالق لأعمال العباد؟ (والجواب) نعم من وجهين (الأول) أن قوله (وخلق كل شىء) يتناول جميع الأشياء فيتناول أفعال العباد ، (والثانى) وهو أنه تعالى بعد أن نفى الشريك ذكر ذلك ، والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلا قال : ههنا أقوام يعترفون بنفى الشركاء والأنداد ، ومع ذلك يقولون إنهم يخلقون أفعال أنفسهم . فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة فى الرد عليهم ، قال القاضى الآية لاتدل عليه لوجوه (أحدها) أنه سبحانه صرح بكون العبد خالقاً فى قوله (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير) وقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) (وثانيها) أنه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به خلق الفساد (وثالثها) أنه سبحانه تمدح بأنه قدره تقديراً ولا يجوز أن يريد به إلا الحسن والحكمة دون غيره ، فثبت بهذه الوجوه أنه لابد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه ، فكيف ولا دلالة فيها البتة ، لأن الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول إلا مايظهر فيه التقدير ، وذلك إنما يظهر فى الأجسام لا فى الأعراض . والجواب :

أما قوله (وإذ تخلق) وقوله (أحسن الخالقين) فهما معارضان بقوله (الله خالق كل شىء)

www.besturdubooks.wordpress.com

وبقوله (هل من خالق غير الله) وأما قوله لا يجوز التمدح بخلق الفساد ، قلنا لم لا يجوز أن يقع التمدح به نظراً إلى تقادير القدرة وإلى أن صفة الايجاد من العدم والاعدام من الوجود ليست إلا له ؟ وأما قوله : الخلق لا يتناول إلا الأجسام ، فنقول لو كان كذلك لكان قوله خلق كل شيء خطأ لأنه يقتضي إضافة الخلق إلى جميع الأشياء مع أنه لا يصح فى العقل إضافته إليها .

﴿ السؤال الثانى ﴾ فى الخلق معنى التقدير فقوله (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) معناه وقدر كل شيء فقدره تقديراً (والجواب) المعنى أحدث كل شيء إحداثاً يراعى فيه التقدير والتسوية ، فقدره تقديراً وهيأه لما يصلح له ، مثاله أنه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذى تراه ، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى باب الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما ، ومصلحة ما ، مطابقاً لما قدر غير متخلف عنه .

﴿ السؤال الثالث ﴾ هل فى قوله (فقدره تقديراً) دلالة على مذهبكم ؟ (الجواب) نعم وذلك من وجوه (أحدها) أن التقدير فى حقنا يرجع إلى الظن والحسبان ، أما فى حقه سبحانه فلا معنى له إلا العلم به والاخبار عنه ، وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة ، فلما علم فى الشيء الفلانى أنه لا يقع . فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلا وانقلاب خبره الصدق كذباً ، وذلك محال والمفضى إلى المحال محال فاذن وقوع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد فذلك الشيء غير مراد وإنه مأمور به ، فثبت أن الأمر والارادة لا يتلازمان ، وظهر أن السعيد من سعد فى بطن أمه ، والشقى من شقى فى بطن أمه (وثانيها) أنه عند حصول القدرة والداعية الخالصة إن وجب الفعل ، كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى ، وحينئذ يبطل قول المعتزلة ، وإن لم يجب فان استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب إثبات الصانع وإن لم يستغن عن المرجح ، فالكلام يعود فى ذلك المرجح ، ولا ينقطع إلا عند الانتهاء إلى واجب الوجود (وثالثها) أن فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع إلا الشيء الذى أراد تكوينه وإيجاده ، لكن الانسان لا يريد إلا العلم والحق فلا يحصل له إلا الجهل والباطل ، فلو كان الأمر بقدرته لما كان كذلك ، فان قيل إنما كان لأنه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل ، قلنا إن اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى جهل أول ، ووقع فى قلب الانسان لا بسبب جهل سابق ، بل الانسان أحدثه ابتداء من غير موجب ، وذلك محال لأن الانسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول إلا العلم ، فوجب أن لا يحصل له إلا ما قصده وأراده ، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الكل بقضاء سار وقدر نافذ ، وهو المراد من قوله (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾.

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الأوثان وبين نقصانها من وجوه (أحدها) أنها ليست خالقة للأشياء ، والإله يجب أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد (وثانيها) أنها مخلوقة والمخلوق محتاج ، والإله يجب أن يكون غنياً (وثالثها) أنها لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً ، ومن كان كذلك فهو لا يملك لغيره أيضاً نفعاً ، ومن كان كذلك فلا فائدة فى عبادته (ورابعها) أنها لا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، أى لا تقدر على الإحياء والاماتة فى زمان التكليف وثانياً فى زمان المجازاة ، ومن كان كذلك كيف يسمى إلهاً ؟ وكيف يحسن عبادته مع أن حق من يحق له العبادة أن ينعم بهذه النعم المخصوصة ، وههنا سؤالات :

﴿ الأول ﴾ قوله (واتخذوا من دونه آلهة) هل يختص بعبدة الأوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة ؟ (والجواب) قال القاضى : بعيد أن يدخل فيه النصارى لأنهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع ، فالأقرب أن المراد به عباد الأصنام ، ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لأن لمعبودهم كثرة ، ولقائل أن يقول قوله واتخذوا صيغة جمع وقوله آلهة جمع ، والجمع إذا قوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد ، فلم يكن كون معبود النصارى واحداً مانعاً من دخوله تحت هذا اللفظ .

﴿ السؤال الثانى ﴾ احتج بعض أصحابنا بقوله (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، فقال إن الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيئاً ، وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن يعبد ، فلو كان العبد خالقاً لكان معبوداً إلهاً ، أجاب الكعبى عنه بأنا لا نطلق اسم الخالق إلا على الله تعالى . وقال بعض أصحابنا فى الخلق إنه الإحداث لا بعلاج وفكر وتعب ، ولا يكون ذلك إلا لله تعالى ، ثم قال : وقد قال تعالى (ألهم أرجل يمشون بها) فى وصف الأصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد ؟ فاذا قالوا لا قيل فكذلك ما ذكرتم ، وقد قال تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) هذا كله كلام الكعبى (والجواب) قوله لا يطلق اسم الخالق على العبد ، قلنا بل يجب ذلك لأن الخلق فى اللغة هو التقدير ، والتقدير يرجع إلى الظن والحسبان ، فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة فى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾

العبد مجازاً فى الله تعالى ، فكيف يمكنكم منع إطلاق لفظ الخالق على العبد ؟ أما قوله تعالى (ألهم أرجل يمشون بها) فالعيب إنما وقع عليهم بالعجز فلا جرم أن كل من تحقق العجز فى حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته . وأما قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقد تقدم الكلام عليه .

واعلم أن هذه الآية لا يقوى استدلال أصحابنا بها لاحتمال أن العيب لا يحصل إلا بمجموع أمرين . أحدهما أنهم ليسوا بخالقين ، والثانى أنهم مخلوقون ، والعبد وإن كان خالقاً إلا أنه مخلوق فلزم أن لا يكون إلهاً معبوداً .

﴿ السؤال الثالث ﴾ هل تدل هذه الآية على البعث ؟ (الجواب) نعم لأنه تعالى ذكر النشور ومعناه أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال الثواب إلى المطيعين والعقاب إلى العصاة ، فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للالهية .

قوله تعالى :﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما ، وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أنه سبحانه تكلم أولا فى التوحيد ، وثانياً فى الرد على عبدة الأوثان ، وثالثاً فى هذه الآية ، تكلم فى مسألة النبوة ، وحكى سبحانه شبههم فى إنكار نبوة محمد ﷺ (الشبهة الأولى) قولهم (إن هذا إلا إفك افتراه) وأعانه عليه قوم آخرون ، ونظيره قوله تعالى (إنما يعلمه بشر) واعلم أنه يحتمل أن يريدوا به أنه كذب فى نفسه ، ويحتمل أن يريدوا به أنه كذب فى إضافته إلى الله تعالى ، ثم ههنا بحثان :

﴿ الأول ﴾ قال أبو مسلم : الافتراء افتعال من فريت ، وقد يقال فى تقدير الأديم فريت الأديم ، فإذا أريد قطع الإفساد قيل افريت وافتريت وخلقت واختلقت ، ويقال فيمن شتم امرءاً بما ليس فيه افترى عليه .

﴿البحث الثانى﴾ قال الكلبي ومقاتل : نزلت فى النضر بن الحارث . فهو الذى قال هذا القول (وأعانه عليه قوم آخرون) يعنى عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار غلام عامر بن الحضرمى ، وجبر مولى عامر ، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب ، وكانوا يقرأون التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبي ﷺ يتعهدهم ، فمن أجل ذلك قال النضر ما قال . واعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله (فقد جاءوا ظلماً وزوراً) وفيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ أن هذا القدر إنما يكفى جواباً عن الشبهة المذكورة ، لأنه قد علم كل عاقل أنه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية فى الفصاحة ، وقد بالغوا فى الحرص على إبطال أمره كل غاية ، حتى أخرجهم ذلك إلى ما وصفوه به فى هذه الآيات ، فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا ، ولكان ذلك أقرب إلى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه فى هذه الآية وغيرها ، ولو استعان محمد عليه السلام فى ذلك بغيره لأمكنهم أيضاً أن يستعينوا بغيرهم ، لأن محمداً ﷺ كأولئك المنكرين فى معرفة اللغة وفى المكنة من الاستعانة ، فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم أن القرآن قد بلغ النهاية فى الفصاحة وانتهى إلى حد الإعجاز ، ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات فى القرآن وظهر بسببها سقوط هذا السؤال ، ظهر أن إعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الأدلة الواضحة لايكون إلا للتمادى فى الجهل والعناد ، فلذلك اكتفى الله فى الجواب بقوله (فقد جاءوا ظلماً وزوراً)

﴿ البحث الثانى ﴾ قال الكسائى : قوله تعالى (فقد جاءوا ظلماً وزوراً) أى أتوا ظلماً وكذباً وهو كقوله (لقد جئتم شيئاً إداً) فانتصب بوقوع المجىء عليه ، وقال الزجاج : انتصب بنزع الخافض ، أى جاءوا بالظلم والزور .

﴿ البحث الثالث ﴾ أن الله تعالى وصف كلامهم بأنه ظلم وبأنه زور . أما أنه ظلم فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأ عنه ، فقد وضعوا الشىء فى غير موضعه وذلك هو الظلم ، وأما الزور فلأنهم كذبوا فيه ، وقال أبو مسلم : الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه . والزور كذبهم عليه .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ الشبهة الثانية لهم ﴾ قوله تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ الأساطير ماسطره المتقدمون كأحاديث رستم واسفنديار ، جمع أسطار أوأسطورة كأحدوثة (اكتتبها) انتسخها محمد من أهل الكتاب يعنى عامراً ويساراً وجبراً ، ومعنى اكتتب ههنا أمرأن يكتب له كما يقال احتجم وافتصد إذا أمر بذلك (فهى تملى عليه) أى تقرأ عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أمى فهى تلقى عليه من كتابه ليحفظها لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب .

أما قوله (بكرة وأصيلا) قال الضحاك ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية ، وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال الحسن قوله (فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) كلام الله ذكره جواباً عن قولهم كأنه تعالى قال إن هذه الآيات تملى عليه بالوحى حالا بعد حال ، فكيف ينسب إلى أنه أساطير الأولين ، وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم ، وأرادوا به أن أهل الكتاب أملوا عليه فى هذه الأوقات هذه الأشياء ، ولا شك أن هذا القول أقرب لوجوه (أحدها) شدة تعلق هذا الكلام بما قبله ، فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الأولين فهى تملى عليه (وثانيها) أن هذا هو المراد بقولهم (وأعانه عليه قوم آخرون) و (ثالثها) أنه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله (قل أنزله الذى يعلم السر) قال صاحب الكشاف ، وقول الحسن إنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذى فى معنى الإنكار وحق الحسن أن يقف على الأولين ، وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ فى بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة ؟ وتقريره ما قدمنا أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضاً أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن ، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه ، فلهذا قال (قل أنزله الذى يعلم السر) وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لابد وأن يكون عالماً بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه (أحدها) أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات (وثانيها) أن القرآن مشتمل على الإخبار عن الغيوب ، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات (وثالثها) أن القرآن مبرأ عن النقص وذلك لا يتأتى إلا من العالم على ما قال تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (ورابعها) اشتماله على الأحكام التى هى مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد ، وذلك لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات (وخامسها) اشتماله على أنواع العلوم وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل

www.besturdubooks.wordpress.com

المعلومات ، فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس إلا كلام العالم بكل المعلومات لا جرم اكتفى فى جواب شبههم بقوله (قل أنزله الذى يعلم السر) .

﴿ البحث الثانى ﴾ اختلفوا فى المراد بالسر ، فنهم من قال المعنى أن العالم بكل سر فى السموات والأرض هو الذى يمكنه إنزال مثل هذا الكتاب ، وقال أبو مسلم المعنى أنه أنزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين) وقال آخرون المعنى أنه يعلم كل سر خفى فى السموات والأرض ، ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن ما يقوله حق ضرورة ، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ وبراءته مما تتهمونه به ، وهو سبحانه مجازيكم ومجازيه على ماعلم منكم وعلم منه .

﴿ البحث الثالث ﴾ إنما ذكر الغفور الرحيم فى هذا الموضع لوجهين (الأول) قال أبو مسلم المعنى أنه إنما أنزله لأجل الإنذار فوجب أن يكون غفوراً رحيما غير مستعجل فى العقوبة (الثانى) أنه تنبيه على أنهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفوراً رحيما يمهل ولا يعجل .

﴿ الشبهة الثالثة ﴾ وهى فى نهاية الركاكة ذكروا له صفات خمسة فزعموا أنها تخل بالرسالة (إحداها) قولهم (مال هذا الرسول يأكل الطعام) (وثانيتها) قولهم (ويمشى فى الأسواق) يعنى أنه لما كان كذلك فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا فى هذه الأمور (وثالثتها) قولهم (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً) يصدقه أو يشهد له ويرد على من خالفه (ورابعتها) قولهم (أو يلقى إليه كنز) أى من السماء فينفقه فلا يحتاج إلى التردد لطلب المعاش (وخامستها) قولهم (أو تكون له جنة يأكل منها) قرأ حمزة والكسائى نأكل منها بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى إن لم يكن لك كنز فلا أقل من أن تكون كواحد من الدهاقين فيكون لك بستان تأكل منه (وسادستها) قولهم (إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) وقد تقدمت هذه القصة فى آخر سورة بنى إسرائيل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه (أحدها) قوله (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وفيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ أن هذا كيف يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة ؟ وبيانه أن الذى يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الأشياء التى ذكروها لا يقدح شىء منها فى المعجزة فلا يكون شىء منها قادحاً فى النبوة ، فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال التى لا فائدة فيها لأجل أنهم لما ضلوا وأرادوا القدح فى نبوتك لم يجدوا إلى القدح فيه سبيلا البتة إذ الطعن عليه إنما يكون بما يقدح فى المعجزات التى ادعاها لا بهذا الجنس من القول وفيه وجه آخر وهو أنهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق ، وهذا إنما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر ، وذلك لأن الإنسان ، إما أن يكون مستوى الداعى إلى الحق والباطل ، وإما أن يكون داعيته إلى أحدهما أرجح من داعيته إلى الثانى ، فإن كان الأول فحال الإستواء يمتنع الرجحان فيمتنع الفعل

www.besturdubooks.wordpress.com

تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل
لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم
مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟
هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

وإن كان الثانى لحال رجحان أحد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعاً ، فثبت أن حال رجحان الضلاله فى قلبه استحال منه قبول الحق ، وما كان محالا لم يكن عليه قدرة ، فثبت أنهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين .

قوله تعالى : ﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ، بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقوا منها من مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ .

اعلم أن هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة فقوله (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك) أى من الله ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله (جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً) نبه بذلك سبحانه على أنه قادر على أن يعطى الرسول كل ما ذكروه ، ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب الصالح أو على وفق المشيئة ولا اعتراض لأحد عليه فى شيء من أفعاله ، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ، ويسد عليه أبواب الدنيا ، وفى حس الآخر بالعكس وما ذاك إلا أنه فعال لما يريد ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس خير من ذلك مما عيروك بفقده الجنة ، لأنهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على أن يعطيك جنات كثيرة ، وقال فى رواية عكرمة (خيراً من ذلك) أى من المشى فى الأسواق ، وابتغاء المعاش .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إن شاء) معناه أنه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك لأن الشك لايجوز على الله تعالى ، وقال قوم (إن) ههنا بمعنى إذا ، أى قد جعلنا لك فى الآخرة جنات وبنينا لك قصوراً وإنما أدخل أن تنبيهاً للعباد على أنه لاينال ذلك إلا برحمته ، وأنه معلق على

www.besturdubooks.wordpress.com

محض مشيئته وأنه ليس لأحد من العباد على الله حق لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكناً ومتنزهاً ، ويجوز أن يكون القصور مجموعة والجنات مجموعة . وقال مجاهد (إن شاء جعل لك جنات) فى الآخرة وقصوراً فى الدنيا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف القراء فى قوله ويجعل فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون . فمن جزم فلأن المعنى إن شاء يجعل لك جنات ويجعل لك قصوراً ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى سيجعل لك قصوراً ، هذا قول الزجاج : قال الواحدى وبين القراءتين فرق فى المعنى ، فمن جزم فالمعنى إن شاء يجعل لك قصوراً فى الدنيا ولا يحسن الوقوف على الأنهار ، ومن رفع حسن له الوقوف على الأنهار ، واستأنف أى ويجعل لك قصوراً فى الآخرة . وفى مصحف أبى وابن مسعود : تبارك الذى إن شاء يجعل .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ عن طاوس عن ابن عباس قال « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه فى زيارتك فلم يلبث إلا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إن الله يخيرك بين أن يعطيك مفاتيح كل شىء لم يعطها أحداً قبلك ولا يعطيه أحداً بعدك من غير أن ينقصك مما ادخر لك شيئاً ، فقال عليه السلام بل يجمعها جميعاً لى فى الآخرة ، فنزل قوله تبارك الذى إن شاء» الآية ، وعن ابن عباس قال عليه السلام « عرض على جبريل بطحاء مكة ذهباً فقلت بل شبعة وثلاث جوعات » وذلك أكثر لذكرى ومسألتى لربى ، وفى رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب قال عليه السلام « أشبع يوماً وأجوع ثلاثاً ، فأحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت » وعن الضحاك « لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزياً له ، وقال إن الله يقرؤك السلام ويقول (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام) الآية . قال فبينما جبريل عليه السلام والنبى صلى الله عليه وسلم يتحدثان إذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ، ثم قال أبشر يامحمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال إن ربك يخيرك بين أن تكون نبياً ملكا وبين أن تكون نبياً عبداً ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير أن ينقصك الله مما أعدلك فى الآخرة جناح بعوضة فنظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل نبياً عبداً » قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئاً حتى فارق الدنيا .

أما قوله تعالى (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً) فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ماتعلقوا به شبهة علمية فى نفس المسألة ، بل الذى حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها ، ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون

www.besturdubooks.wordpress.com

بالساعة فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً ولا يتحملون كلفة النظر والفكر ، فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل ، ثم قال (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أبو مسلم : (وأعتدنا) أى جعلناها عتيداً ومعدة لهم ، والسعير النار الشديدة الاستعار ، وعن الحسن أنه اسم من أسماء جهنم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى (أعدت للمتقين) وعلى أن النار التى هى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهى قوله (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً) وقوله (اعتدنا) إخبار عن فعل وقع فى الماضى ، فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة قال الجبائى يحتمل وأعتدنا النار فى الدنيا وبها نعذب الكفار والفساق فى قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى (وأعتدنا) أى سنعدها لهم كقوله (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) واعلم أن هذا السؤال فى نهاية السقوط لأن المراد من السعير ، إما نار الدنيا وإما نار الآخرة ، فان كان الأول فإما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم فى الدنيا بنار الدنيا أو يعذبهم فى الآخرة بنار الدنيا ، والأول باطل لأنه تعالى ما عذبهم بالنار فى الدنيا ، والثانى أيضاً باطل لأنه لم يقل أحد من الأمة أنه تعالى يعذب الكفرة فى الآخرة بنيران الدنيا ، فثبت أن المراد نار الآخرة وثبت أنها معدة ، وحمل الاية على أن الله سيجعلها معدة ، ترك للظاهر من غير دليل ، وعلى أن الحسن قال السعير اسم من أسماء جهنم فقوله (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) صريح فى أنه تعالى أعد جهنم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن السعيد من سعد فى بطن أمه فقالوا إن الذين أعد الله تعالى لهم السعير وأخبر عن ذلك ، وحكم به أن صاروا مؤمنين من أهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من أهل السعير كذباً وانقلب بذلك علمه جهلا ، وهذا الانقلاب محال والمؤدى إلى المحال محال . فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال ، فثبت أن السعيد لا ينقلب شقياً ، والشقى لا ينقلب سعيداً ، ثم إنه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات إحداها قوله (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ السعير مذكر ولكن جاء ههنا مؤنثاً لأنه تعالى قال (رأتهم) وقال (سمعوا لها) وإنما جاء مؤنثاً على معنى النار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مذهب أصحابنا أن البنية ليست شرطاً فى الحياة ، فالنار على ما هى عليه ، يجوز أن يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها ، وعند المعتزلة ذلك غير جائز . وهؤلاء المعتزلة ليس لهم فى هذا الباب حجة إلا استقراء العادات ، ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات فى حق الرسل ، فهؤلاء قولهم متناقض ، بل إنكار العادات لا يليق إلا بأصول الفلاسفة ، فعلى هذا قال أصحابنا قول الله تعالى فى صفة النار (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) يجب إجراؤه على الظاهر ، لانه لا امتناع فى أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار ، أما

www.besturdubooks.wordpress.com

المعتزلة فقد احتاجوا إلى التأويل وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر، وقال عليه السلام «إن المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما» أى لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك، ويقال دور فلان متناظرة، أى متقابلة (وثانيها) أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم (وثالثها) قال الجبائى : إن الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار، لأن الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار، فهو كقوله (واسأل القرية) أراد أهلها

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لقائل أن يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعاً، فكيف قال الله تعالى (سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) ؟ و(الجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن التغيظ وإن لم يسمع فإنه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله : رأيت غضب الأمير على فلان إذا رأى ما يدل عليه، وكذلك يقال فى المحبة فكذا ههنا، والمعنى سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج (وثانيها) المعنى علموا لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً، وهذا قول قطرب، وهو كقول الشاعر : متقلداً سيفاً ورمحاً (وثالثها) المراد تغيظ الخزنة.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال عبيد بن عمير : «إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا وترعد فرائصه حتى أن إبراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسى نفسى».

﴿ الصفة الثانية للسعير ﴾ قوله تعالى (وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً) واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حينما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عند ما يلقون فيها، نعوذ بالله منه بما لا شىء أبلغ منه، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى ضيقا قراءتان التشديد والتخفيف، وهو قراءة ابن كثير.

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل فى تفسير الضيق أمور، قال قتادة : ذكر لنا عبد الله بن عمر قال «إن جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح» وسئل النبى ﷺ عن ذلك فقال «والذى نفسى بيده إنهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط» قال الكلبى : الأسفلون يرفعهم اللهيب، والأعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون فى تلك الأبواب الضيقة، قال صاحب الكشاف: الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض، وجاء فى الأحاديث «إن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا» ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء حيث ضم إلى العذاب الشديد الضيق.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالوا فى تفسير قوله تعالى (مقرنين فى الأصفاد) إن أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد، يكونون مقرنين فى السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة، وفى أرجلهم الأصفاد، ثم إنه سبحانه حكى عن أهل النار أنهم حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا، والثبور الهلاك، ودعاؤهم

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) ﴾

أن يقولوا واثبوراه ، أى يقولوا يا ثبور هذا حينك وزمانك ، وروى أنس مرفوعا « أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على جانبيه ويسحبها من خلفه ذريته وهو يقول ياثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يردوا النار » .

أما قوله (لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً) أى يقال لهم ذلك ، وهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يكن ثم قول ، ومعنى وادعوا ثبوراً كثيراً ، أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحداً ، إنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته . أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، أو لأن ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم فى كل وقت من الأوقات التى لا نهاية لها ثبور ، أو لأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعاً من الخفة ، فإن المعذب إذا صاح وبكى وجد بسببه نوعاً من الخفة فيزجرون عن ذلك ، ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه ، قال الكلبي نزل هذا كله فى حق أبى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات .

قوله تعالى : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً ، لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسئولا ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة ، فقال لرسوله (قل أذلك خير أم جنة الخلد) أن يلتمسوها بالتصديق والطاعة ، فإن قيل : كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد ، وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى أم الصبر ؟ قلنا هذا يحسن فى معرض التفريع ، كما إذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضرباً وجيعاً ، ويقول على سبيل التوبيخ : هذا أطيب أم ذاك ؟

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بقوله (وعد المتقون) على أن الثواب غير واجب على الله تعالى ، لأن من قال السلطان وعد فلاناً أن يعطيه كذا ، فإنه يحمل ذلك على التفضيل ، فأما لو كان ذلك الإعطاء واجباً لا يقال إنه وعده به ، أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضاً على مذهبهم قالوا لأنه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى ، وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية . فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد إنما حصل معللا بصفة التقوى ، والتفضيل غير مختص بالمتقين . فوجب أن يكون المختص بهم واجباً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال أبو مسلم : جنة الخلد . هى التى لا ينقطع نعيمها ، والخلد والخلود سواء ، كالشكر

www.besturdubooks.wordpress.com

والشكور قال الله تعالى (لانريد منكم جزاء ولا شكوراً) فإن قيل : الجنة اسم لدار الثواب وهى مخلدة فأى فائدة فى قوله (جنة الخلد) ؟ قلنا الإضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال ، كما يقال الله الخالق البارىء ، وما هنا من هذا الباب .

أما قوله (كانت لهم جزاء ومصيراً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على إثبات الاستحقاق من وجهين (الأول) أن اسم الجزاء لايتناول إلا المستحق ، فأما الوعد بمحض التفضيل فإنه لايسمى جزاء . (والثانى) لو كان المراد من الجزاء الأمر الذى يصيرون إليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله (جزاء) وبين قوله (مصيراً) تفاوت فيصير ذلك تكراراً من غير فائدة . قال أصحابنا رحمهم الله لانزاع فى كونه جزاء ، إنما النزاع فى أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق ، وليس فى الآية مايدل على التعيين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين (الأول) أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقاً للثواب ، لأن الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر ، والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع ، والجمع بينهما محال ، وما كان يمتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه ، فإذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب ، فنقول : لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان إما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة ، وذلك باطل بالإجماع لأنهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة . إما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار ، لأنه تعالى قال (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) وإما أن يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لأن الجنة حق المتقين لقوله تعالى (كانت لهم جزاء ومصيراً) فجعل الجنة لهم ومختصة بهم وبين أنها إنما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقاً لهم ، وإعطاء حق الإنسان لغيره لا يجوز ، ولما بطلت الأقسام ثبت أن العفو غير جائز (أجاب) أصحابنا لم لايجوز أن يقال : المتقون يرضون بإدخال الله أهل العفو فى الجنة ؟ فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها ، (الوجه الثانى) قالوا : المتقى فى عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر ، وإن اختلفنا فى أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمناً أم لا ، لكننا اتفقنا على أنه لايسمى متقياً ، ثم قال فى وصف الجنة إنها كانت لهم جزاء ومصيراً ، وهذا للحصر ، والمعنى أنها مصير للمتقين لا لغيرهم ، وإذا كان كذلك وجب أن لايدخلها صاحب الكبيرة ، قلنا أقصى ما فى الباب أن هذا العموم صريح فى الوعيد فتخصه بآيات الوعد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لقائل أن يقول : إن الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيراً ، لكنها بعد ما صارت كذلك ، فلم قال الله تعالى (كانت لهم جزاء ومصيراً) ؟ جوابه من وجهين (الأول) أن ماوعد الله فهو فى تحققه كأنه قد كان (والثانى) أنه كان مكتوباً فى اللوح قبل أن يخلقهم

www.besturdubooks.wordpress.com

الله تعالى بأزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم .

أما قوله تعالى (لهم فيها مايشاءون خالدين) فهو نظير قوله (ولكم فيها ما تشتهى الأنفس) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لقائل أن يقول أهل الدرجات النازلة إذا شاهدوا الدرجات العالية لابد وأن يريدوها ، فإذا سألوها ربهم ، فان أعطاهم إياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة ، وإن لم يعطها قدح ذلك فى قوله (لهم فيها مايشاءون) وأيضاً فالأب إذا كان ولده فى درجات النيران وأشد العذاب إذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلا بد وأن يسأل ربه أن يخلصه منه ، فإن فعل الله تعالى ذلك قدح فى أن عذاب الكافر مخلد ، وإن لم يفعل قدح ذلك فى قوله (ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم) وفى قوله (لهم فيها مايشاءون) و (جوابه) أن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلا عن الالتفات إلى حال غيرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ شرط نعيم الجنة أن يكون دائماً ، إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم ولذلك قال المتنبى :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال (لهم فيها ما يشاءون خالدين) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (لهم فيها مايشاءون) كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لايكون إلا فى الجنة فأما فى غيرها فلا يحصل ذلك ، بل لابد فى الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ، ولذلك قال عليه السلام « من طلب مالم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق ، فقيل وما هو يا رسول الله ؟ فقال سرور يوم » .

أما قوله (كان على ربك وعداً مسئولا) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كلمة على للوجوب قال عليه السلام « من نذر وسمى فعليه الوفاء بما سمى » فقوله (كان على ربك) يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى ، والواجب هو الذى لو لم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم ، أو أنه الذى يكون عدمه ممتنعاً ، فإن كان الوجوب على التفسير الأول كان تركه محالا ، لأن تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ، ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور ، فلم يكن الله تعالى قادراً على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ إلى الفعل ، وإن كان الوجوب على التفسير الثانى وهو أن يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعاً يكون القول بالإلجاء لازماً ، فلم يكن الله قادراً ، فان قيل إنه ثبت بحكم الوعد ، فنقول لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذباً وعلمه جهلا وذلك محال ، والمؤدى إلى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ إلى الفعل والملجأ إلى الفعل لا يكون قادراً ، ولا يكون مستحقاً للثناء والمدح ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ
أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ
أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا
كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى

تمام السؤال (وجوابه) أن فعل الشيء متقدم على الإخبار عن فعله وعن العلم بفعله، فيكون ذلك للفعل فعلا لا على سبيل الإلجاء، فكان قادرا ومستحقاً للثناء والمدح.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وعداً) يدل على أن الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (مسئولا) ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أن المكلفين سألوه بقولهم (ربنا آتنا ماوعدتنا على رسلك)، (وثانيها) أن المكلفين سألوه بلسان الحال لأنهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعته كان ذلك قائماً مقام السؤال، قال المتنبى:

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى كلام عندها وخطاب

(وثالثها) الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم (ربنا وأدخلهم جنات عدن) (ورابعها) (وعداً مسئولا) أى واجباً، يقال لأعطينك ألفاً وعداً مسئولا أى واجباً وإن لم تسأل، قاله الفراء. وسائر الوجوه أقرب من هذا لأن سائر الوجوه أقرب إلى الحقيقة، وما قاله الفراء مجاز (وخامسها) مسئولا أى من حقه أن يكون مسئولا لأنه حق واجب، إما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة، أو بحكم الوعد على قول أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل، قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً. فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً. وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾

اعلم أن قوله تعالى (ويوم يحشرهم) راجع إلى قوله (واتخذوا من دونه آلهة) ثم ههنا مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ (يحشرهم) فنقول كلاهما بالنون والياء وقرىء (نحشرهم) بكسر الشين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر قوله (وما يعبدون) أنها الأصنام ، وظاهر قوله (فيقول أأنتم أضللتم عبادى) أنه من عبد من الأحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما ، لأن الإضلال وخلافه منهم يصح فلأجل هذا اختلفوا ، فمن الناس من حمله على الأوثان ، فإن قيل لهم الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى ، وكيف قدر على الجواب؟ فعندذلك ذكروا وجهين (أحدهما) أن الله تعالى يخلق فيهم الحياة ، فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب (وثانيها) أن يكون ذلك الكلام لا بالقول اللسانى بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم فى تسبيح الموات وكلام الأيدى والأرجل ، وكما قيل: سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ؟ فان لم تجبك حواراً ، اجابتك اعتباراً ! وأما الأكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام ، قالوا ويتأكد هذا القول بقوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وإذا قيل لهم : لفظة ما لا تستعمل فى العقلاء أجابوا عنه من وجهين (الأول) لا نسلم أن كلمة ما لما لا يعقل بدليل أنهم قالوا من لما لا يعقل (والثانى) أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم ، وقوله تعالى (والسماء وما بناها) (ولا أنتم عابدون ما أعبد) لا يستقيم إلا على أحد هذين الوجهين ، وكيف كان فالسؤال ساقط .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ حاصل الكلام أن الله تعالى يحشر المعبودين ، ثم يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادى فى الضلال عن طريق الحق ، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم ؟ قالت المعتزلة : وفيه كسر بين لقول من يقول إن الله يضل عباده فى الحقيقة لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا إلهنا ههنا قسم ثالث غيرهما هو الحق وهو أنك أنت أضللتهم ، فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا إضلالهم إلى أنفسهم . علمنا أن الله تعالى لا يضل أحداً من عباده . فإن قيل لا نسلم أن المعبودين ما تعرضوا لهذا القسم بل ذكروه ، فإنهم قالوا (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر) وهذا تصريح بأن ضلالهم إنما حصل لأجل ما فعل الله بهم وهو أنه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا . قلنا : لو كان الأمر كذلك لكان يلزمهم أن يصير الله محجوجاً فى يد أولئك المعبودين ، ومعلوم أنه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوجاً مفحماً ملزماً هذا تمام تقرير المعتزلة فى فى الآية ، أجاب أصحابنا بأن القدرة على الضلال إن لم تصلح للاهتداء فالإضلال من الله تعالى ، وإن صلحت له لم تترجح مصدريتها للاضلال على مصدريتها للاهتداء إلا لمرجح من الله تعالى ، وعند

www.besturdubooks.wordpress.com

الك يعود السؤال، وأما ظاهر هذه الآية فهو وإن كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال ـ من الله تعالى، وإن احتمل أن يكون ذلك من الملائكة ـ بأمر الله تعالى. بقى على الآية سؤالات.

﴿الأول﴾ ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل أأضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل؟ (الجواب) ليس السؤال عن الفعل ووجوده، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن فاعله فلابد من ذكره، وإيلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسئول عنه.

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه سبحانه كان عالماً فى الأزل بحال المسئول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ (الجواب) هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسىٰ (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) ولأن أولئك المعبودين لما برؤا أنفسهم، وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد فى حسرتهم وحيرتهم.

﴿ السؤال الثالث ﴾ قال تعالى (أم هم ضلوا السبيل) والقياس أن يقال ضل عن السبيل، (الجواب) الأصل ذلك، إلا أن الإنسان إذا كان متناهياً فى التفريط وقلة الإحتياط، يقال ضل السبيل.

أما قوله (سبحانك) فاعلم أنه سبحانه حكى جوابهم، وفى قوله (سبحانك) وجوه (أحدها) أنه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذى هو مختص بإبليس وحزبه (وثانيها) أنهم نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المقدسون المؤمنون بذلك فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده (وثالثها) قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، سواء كان وثناً أو نبياً أو ملكا (ورابعها) قصدوا تنزيهه أن يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم أو إيذاء من كان بريئاً عن الجرم، بل إنه إنما سألهم تقريعاً للكفار وتوبيخاً لهم.

أما قوله (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) ففيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ القراءة المعروفة أن نتخذ بفتح النون وكسر الخاء وعن أبى جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على مالم يسم فاعله، قال الزجاج أخطأ من قرأ أن نتخذ بضم النون لأن من إنما تدخل فى هذا الباب فى الأسماء إذا كانت مفعولا أولا ولاتدخل على مفعول الحال تقول ما اتخذت من أحد ولياً، ولايجوز ما اتخذت أحداً من ولى، قال صاحب الكشاف اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك اتخذ ولياً، وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلاناً ولياً، قال الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) والقراءة الأولى من المتعدى إلى واحد وهو من أولياء، والأصل أن نتخذ أولياء فزيدت من التأكيد معنى النفى، والثانية من المتعدى إلى مفعولين، فالأول ما بنى له الفعل، والثانى من

www.besturdubooks.wordpress.com

أولياء من للتبعيض ، أى لا نتخذ بعضاً أولياء وتنكير أولياء من حيث إنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى تفسير هذه الآية وجوهاً (أولها) وهو الأصح الأقوى ، أن المعنى إذا كنا لا نرى أن نتخذ من دونك أولياء فكيف ندعو غيرنا إلى ذلك (وثانيها) ما كان ينبغى لنا أن نكون أمثال الشياطين فى توليهم الكفار كما يوليهم الكفار ، قال تعالى (فقاتلوا أولياء الشيطان) يريد الكفرة ، وقال والذين : كفروا أولياؤهم الطاغوت عن أبى مسلم (وثالثها) ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من أولياء ، أى لما علمنا أنك لا ترضى بهذا ما فعلناه ، والحاصل أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه (ورابعها) قالت الملائكة إنهم عبيدك ، فلا ينبغى لعبيدك أن يتخذوا من دون إذنك ولياً ولا حبيباً ، فضلا عن أن يتخذ عبد عبداً آخر إلهاً لنفسه (وخامسها) أن على قراءة أبى جعفر الإشكال زائل ، فإن قيل هذه القراءة غير جائزة لأنه لا مدخل لهم فى أن يتخذهم غيرهم أولياء ، قلنا : المراد إنا لا نصلح لذلك ، فكيف ندعوهم إلى عبادتنا (وسادسها) أن هذا قول الأصنام ، وأنها قالت لا يصح منا أن نكون من العابدين ، فكيف يمكننا ادعاؤنا أنا من المعبودين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله ، فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع .

أما قوله تعالى (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى الآية أنك يا إلهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهى توجب الشكر والإيمان لا الإعراض والكفران ، والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند أنفسهم لا بإضلالنا ، فإنه لولا عنادهم الظاهر ، وإلا فمع ظهور هذه الحجة لا يمكن الإعراض عن طاعة الله تعالى . وقال آخرون إن هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام فى قوله (إن هى إلا فتنتك) وذلك لأن المجيب قال : إلهى أنت الذى أعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق فى بحر الشهوات ، واستغراقه فيها صار صاداً له عن التوجه إلى طاعتك والاشتغال بخدمتك ، فإن هى إلا فتنتك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الذكر ذكر الله والإيمان به والقرآن والشرائع ، أو ما فيه حسن ذكرهم فى الدنيا والآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال أبو عبيدة : يقال رجل بور ورجلان بور ورجال بور ، وكذلك الأنثى ، ومعناه هالك ، وقد يقال رجل بائر وقوم بور ، وهو مثل هائر وهور ، والبوار الهلاك ، وقد احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسألة القضاء والقدر ، ولا شك أن المراد منه وكانوا من الذين حكم عليهم فى الآخرة بالعذاب والهلاك ، فالذى حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك وأثبته

www.besturdubooks.wordpress.com

فى اللوح المحفوظ وأطلع الملائكة عليه ، لوصار مؤمناً لصار الخبر الصدق كذباً ، ولصار العلم جهلا ولصارت الكتابة المثبتة فى اللوح المحفوظ باطلة ، ولصار اعتقاد الملائكة جهلا . وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال ، فصدور الإيمان منه محال ، فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقياً ، والشقى لا يمكنه أن ينقلب سعيداً ، ومن وجه آخر هو أنهم ذكروا أن الله تعالى آتاهم أسباب الضلال وهو إعطاء المرادات فى الدنيا واستغراق النفس فيها ، ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغاً يوجب البوار ، فإن ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار إنما حصل لأجل ذلك السبب ، فرجع حاصل الكلام إلى أنه تعالى فعل بالكافر ماصار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر ، وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقياً ، وأن الشقى لا ينقلب سعيداً .

أما قوله تعالى (فقد كذبوكم بما تقولون) فاعلم أنه قرئ يقولون بالياء والتاء ، فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم إنهم آلهة ، أى كذبوكم فى قولكم إنهم آلهة ، ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت ، فالمعنى أنهم كذبوكم بقولكم سبحانك ، ومثاله قولك كتبت بالقلم .

أما قوله (فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً) فاعلم أنه قرئ يستطيعون بالياء والتاء أيضاً ، يعنى فما تستطيعون أنتم يا أيها الكفار صرف العذاب عنكم ، وقيل الصرف التوبة ، وقيل الحيلة من قولهم إنه ليتصرف ، أى يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب وأن يحتالوا لكم .

أما قوله تعالى (ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً) ففيه مسألتان :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرئ يذقه بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير الظلم .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى القطع بوعيد أهل الكبائر ، فقالوا ثبت أن من للعموم فى معرض الشرط ، وثبت أن الكافر ظالم لقوله (إن الشرك لظلم عظيم) والفاسق ظالم لقوله (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) فثبت بهذه الآية أن الفاسق لا يعفى عنه ، بل يعذب لا محالة (والجواب) أنا لا نسلم أن كلمة من فى معرض الشرط للعموم ، والكلام فيه مذكور فى أصول الفقه ، سلمنا أنه للعموم ولكن قطعاً أم ظاهراً ؟ ودعوى القطع ممنوعة ، فانا نرى فى العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم ، مع أن المراد هو الأكثر ، أو لأن المراد أقوام معينون ، والدليل عليه قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ثم إن كثيراً من الذين كفروا قد آمنوا فلا دافع له إلا أن يقال قوله (الذين كفروا) وإن كان يفيد العموم ، لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون . وعلى التقديرين ثبت أن استعمال ألفاظ العموم فى الأغلب عرف ظاهر ، وإذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة ، وذلك لا ينفى تجويز العفو . سلمنا دلالته قطعاً ، ولكنا أجمعنا على أن قوله (ومن يظلم منكم)مشروط بأن لا يوجد ما يزيله ، وعند هذا نقول هذا مسلم . لكن لم قلت بأن لم يوجد ما يزيله ؟ فان العفو عندنا أحد الأمور التى تزيله ، وذلك هو أحد الثلاثة أول المسألة سلمنا .

www.besturdubooks.wordpress.com

دلالته على ماقال ، ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) فإن قيل آيات الوعيد أولى لأن السارق يقطع على سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقاً للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل ، فإذا ثبت أنه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق الثواب أحبط لما بينا أن الجمع بين الاستحقاقين محال . قلنا لا نسلم أن السارق يقطع على سبيل التنكيل ، ألا ترى أنه لو تاب فإنه يقطع لا على سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة ، نزلنا عن هذه المقامات ، ولكن قوله تعالى (ومن يظلم منكم) إنه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب أنه لا يعفو عنهم فلم قلت إنه لا يعفو عن غيرهم ؟

أما قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا جواب عن قولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) بين الله تعالى أن هذه عادة مستمرة من الله فى كل رسله فلا وجه لهذا الطعن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ حق الكلام أن يقال (إلا أنهم) بفتح الألف لأنه متوسط والمكسورة لا تليق إلا بالإبتداء ، فلأجل هذا ذكروا وجوهاً (أحدها) قال الزجاج : الجملة بعد إلا صفة لموصوف محذوف ، والمعنى وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف لأن فى قوله (من المرسلين) دليلا عليه ، ونظيره قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) على معنى وما منا أحد (وثانيها) قال الفراء إنها صلة لاسم متروك اكتفى بقوله (من المرسلين) عنه ، والمعنى إلا من أنهم كقوله (وما منا إلا له مقام معلوم) أى من له مقام معلوم ، وكذلك قوله (وإن منكم إلا واردها) أى إلا من يردها فعلى قول الزجاج : الموصوف محذوف ، وعلى قول الفراء : الموصول هو المحذوف . ولا يجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين ، (وثالثها) قال ابن الأنبارى : تكسر إن بعد الاستثناء بإضمار واو على تقدير إلا وإنهم (ورابعها) قال بعضهم المعنى إلا قيل إنهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء (يمشون) على البناء للمفعول أى يمشيهم حوائجهم أو الناس ، ولو قرىء يمشون لكان أوجه لولا الرواية .

أما قوله تعالى (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيه أقوال (أحدها) أن هذا فى رؤساء المشركين وفقراء الصحابة ، فإذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف أن يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه ، ودليله قوله تعالى (لو كان خيراً ماسبقونا إليه) وهذا قول الكلبى والفراء والزجاج (وثانيها) ان هذا عام فى جميع الناس ، روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ويل للعالم من الجاهل ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان ، وويل للمالك من

الفخر الرازي ــ ج ٢٤ م ٥

www.besturdubooks.wordpress.com

المملوك ، وويل للشديد من الضعيف ، وللضعيف من الشديد ، بعضهم لبعض فتنة» وقرأ هذه الآية (وثالثها) أن هذا فى أصحاب البلاء والعافية ، هذا يقول لم لم أجعل مثله فى الخلق والخلق وفى العقل وفى العلم وفى الرزق وفى الأجل ؟ وهذا قول ابن عباس والحسن (ورابعها) هذا احتجاج عليهم فى تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته إياهم فى البشرية وصفاتها ، فابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وأنواع أذاهم على ماقال (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) والمرسل إليهم يتأذون أيضاً من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفاً بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيساً مخدوماً ، والأولى حمل الآية على الكل لأن بين الجميع قدراً مشتركا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر لأنه تعالى قال (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) قال الجبائى هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق ، إن فلاناً لص جعله لصاً ، وهذا التأويل ضعيف لأنه تعالى أضاف الجعل إلى وصف كونه فتنة لا إلى الحكم بكونه كذلك ، بل العقل يدل على أن المراد غير ماذكره وذلك لأن فاعل السبب فاعل للمسبب ، فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الإدراك الذى يطلعه على الشىء المغضب . فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لامحالة ، وكذا القول فى الحسد وسائر الأخلاق والأفعال ، وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذى جعل البعض فتنة للبعض . سلمنا أن المراد ماقاله الجبائى أن المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول إن انقلب لزم انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق إلى الكذب وذلك محال ، فانقلاب ذلك الجعل محال ، فانقلاب المجعول أيضاً محال ، وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الوجه فى تعلق هذه الآية بما قبلها أن القوم لما طعنوا فى الرسول ﷺ بأنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى الخرافات ، فإنه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشىء من هذه الأشياء أثر فى القدح فيها ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم من حيث إنهم كانوا يشتمونه ، ومن حيث إنهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وما كانوا يفهمون الجواب الجيد ، فلا جرم صبره الله تعالى على كل تلك الأذية ، وبين أنه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض .

أما قوله تعالى (أتصبرون وكان ربك بصيراً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة لو كان المراد من قوله (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) الخبر لما ذكر عقيبه (أتصبرون) لأن أمر العاجز غير جائز .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المعنى أتصبرون على البلاء فقد علمتم ماوعد الله الصابرين (وكان ربك بصيراً) أى هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر ، فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أتصبرون) استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء فى قوله (لنبلوكم أيكم أحسن عملا) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ، وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ، أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا ﴾

اعلم أن قوله تعالى (وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) هو الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد ﷺ ، وحاصلها : لم لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق فى دعواه (أو نرى ربنا) حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا ؟ و تقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شيء ، وكان له إلى تحصيله طريقان ، أحدهما يفضى إليه قطعاً والآخر قد يفضى وقد لايفضى ، فالحكيم يجب عليه فى حكمته أن يختار فى تحصيل ذلك المقصود الطريق الأقوى والأحسن ، ولا شك أن إنزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أكثر إفضاء إلى المقصود ، فلو أراد الله تعالى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أراد تصديقه . هذا حاصل الشبهة ، ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الفراء قوله تعالى (وقال الذين لايرجون لقاءنا) معناه لا يخافون لقاءنا ووضع الرجاء فى موضع الخوف لغة تهامية ، إذا كان معه جحد ، ومثله قوله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقاراً) أى لاتخافون له عظمة ، وقال القاضى لا وجه لذلك ، لأن الكلام متى أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز ، ومعلوم أن من حال عباد الأصنام أنهم كما لايخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد ، فكذلك لايرجون لقاءنا وعدنا على الطاعة من الجنة والثواب ، ومعلوم أن من

www.besturdubooks.wordpress.com

لا يرجو ذلك لا يخاف العقاب أيضاً ، فالخوف تابع لهذا الرجاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المجسمة تمسكوا بقوله تعالى (لقاءنا) أنه جسم وقالوا اللقاء هو الوصول يقال هذا الجسم لقي ذلك أي وصل إليه واتصل به ، وقال تعالى (فالتقى الماء على أمر قد قدر) فدلت الآية على أنه سبحانه جسم (والجواب) على طريقين (الأول) طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء هو الرؤية . وذلك لأن الرائي يصل برؤيته إلى حقيقة المرئي فسمي اللقاء أحد أنواع الرؤية والنوع الآخر الإتصال والمماسة ، فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية (الطريق الثاني) وهو كلام المعتزلة ، قال القاضي تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة ، فيقال في الدعاء لقاك الله الخير وقد يقول القائل لم ألق الأمير وإن رآه من بعد أو حجب عنه ، ويقال في الضرير لقي الأمير إذا أذن له ولم يحجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء . ولا يراه بل المراد من اللقاء ههنا هو المصير إلى حكمه حيث لا حكم لغيره في (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) لا أنه رؤية البصر ، واعلم أن هذا الكلام ضعيف لأنا لا نفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر ، وبين الاتصال والمماسة وهو الوصول إلى الشيء ، وقد بينا أن الرائي يصل برؤيته إلى المرئي واللفظ الموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة ، ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله لقاك الخير ، ويصح قول الأعمى لقيت الأمير ، ويصح قول البصير لقيته بمعنى رأيته وما لقيته بمعنى ما وصلت إليه ، وإذا ثبت هذا فنقول قوله (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) مذكور في معرض الذم لهم ، فوجب أن يكون رجاء اللقاء حاصلا ، ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني ، وبين الوصول بالرؤية ، وقد تعذر الأول فتعين الثاني ، وقوله المراد من اللقاء الوصول الى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل . فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها ، بل على أن إنكارها ليس إلا من دين الكفار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لولا أنزل) معناه هلا أنزل . قال الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد وأصحابهما الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث .

أما قوله تعالى (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) فاعلم أن هذا هو الجواب عن تلك الشبهة ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تقرير كونه جواباً ، وذلك من وجوه : (أحدها) أن القرآن لما ظهر كونه معجزاً فقد ثبتت دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فبعد ذلك يكون اقتراح أمثال هذه الآيات لا يكون إلا محض الاستكبار والتعنت (وثانيها) أن نزول الملائكة لو حصل لكان أيضاً من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه بنزول الملك ، بل لعموم كونه معجزاً ، فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحاً لأحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح ، وهو محض الاستكبار والتعنت (وثالثها) أنهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن

www.besturdubooks.wordpress.com

صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يقول نعم هو رسولى ، فذلك لا يزيد فى التصديق على إظهار المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول إذ لا فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول اللهم إن كنت صادقاً فأحى هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين أن يقول له صدقت ، وإذا كان التصديق الحاصل بالقول أو الحاصل بالمعجز سيين فى كونه تصديقاً للمدعى كان تعيين أحدهما محض الاستكبار والتعنت (ورابعها) وهو أنا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة ، أو نقول إن الله تعالى يفعل بحسب المشيئة على مايقوله أصحابنا ، فإن كان الأول لم يجزلهم أن يعينوا المعجز إذ ربما كان إظهار ذلك المعجز مشتملا على مفسدة لايعرفها إلا الله تعالى ، وكان التعيين استكبارا وعتواً من حيث إنه لما ظنه مصلحة قطع بكونه مصلحة ، فمن قال ذلك فقد اعتقد فى نفسه أنه عالم بكل المعلومات ، وذلك استكبار عظيم ، وإن كان الثانى وهو قول أصحابنا فليس للعبد أن يقترح على ربه فانه سبحانه فعال لما يريد فكان الاقتراح استكباراً وعتواً وخروجاً عن حد العبودية إلى مقام المنازعة والمعارضة (وخامسها) وهوأن المقصود من بعثة الأنبياء الإحسان إلى الخلق فالملك الكبير إذا أحسن إلى بعض الضعفاء رحمة عليه فأخذ ذلك الضعيف إلى اللجاج والنزاع ، ويقول لا أريد هذا بل أريد ذاك، حسن أن يقال إن هذا المكدى قد استكبر فى نفسه وعتا عتواً شديداً من حيث لايعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا ههنا (وسادسها) يمكن أن يكون المراد أن الله تعالى قال لو علمت أنهم ما ذكروا هذا السؤال لأجل الاستكبار والعتو الشديد لأعطيتهم مقترحهم ، ولكنى علمت أنهم ذكروا هذا الاقترح لأجل الاستكبار والتعنت فلو أعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلا جرم لا أعطيهم ذلك ، وهذا التأويل يعرف من اللفظ (وسابعها) لعلهم سمعوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يرى فى الدنيا ، وأنه تعالى لاينزل الملائكة فى الدنيا على عوام الخلق ، ثم إنهم علقوا إيمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قالت المعتزلة الآية دلت على أن الله تعالى لا تجوز رؤيته لأن رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتواً واستكباراً ، قالوا وقوله (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) ليس إلا لأجل سؤال الرؤية . حتى لوأنهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك ، والدليل عليه أن الله تعالى ذكر أمر الرؤية فى آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو قوله (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة) وذكر نزول الملائكة على حدة فى آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم (لولا أنزل علينا الملائكة) وهل نرى الملائكة فثبت بهذا أن الاستكبار والعتو فى هذه الآية إنما حصل لأجل سؤال الرؤية .

واعلم أن الكلام على ذلك قد تقدم فى سورة البقرة ، والذى نريده ههنا أنا بينا أن قوله

www.besturdubooks.wordpress.com

(وقال الذين لا يرجون لقاءنا) يدل على الرؤية ، وأما الاستكبار والعتو ، فلا يمكن أن يدل ذلك على أن الرؤية مستحيلة لأن من طلب شيئاً محالا ، لا يقال إنه عتا واستكبر، ألا ترى أنهم لما قالوا (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتواً واستكبارا ، بل قال (إنكم قوم تجهلون) بل العتو والاستكبار لا يثبت إلا إذا طلب الانسان ما لا يليق به ممن فوقه أوكان لائقاً به ،ولكنه يطلبه على سبيل التعنت . وبالجملة فقد ذكرنا وجوهاً كثيرة فى تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة . ومما يدل عليه أن موسى لما سأل الرؤية ماوصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو ، لأنه عليه السلام طلب الرؤية شوقاً ، وهؤلاء طلبوها امتحاناً وتعنتاً ، لا جرم وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ إنما قال فى أنفسهم لأنهم أضمروا الاستكبار فى قلوبهم واعتقدوه كما قال (إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه) وقوله (وعتوا عتواً كبيراً) أى تجاوزوا الحد فى الظلم يقال عتا فلان وقد وصف العتو بالكبر فبالغ فى إفراطه ، يعنى أنهم لم يجترئوا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو .

أما قوله تعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً) فهو جواب لقولهم (لولا أنزل علينا الملائكة) فبين تعالى أن الذى سألوه سيوجد ، ولكنهم يلقون منه ما يكرهون ، وههنا مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ ذكروا فى انتصاب يوم وجهين (الأول) أن العامل مادل عليه لا بشرى أى يوم يرون الملائكة يبغون البشرى ويومئذ للتكرير (الثانى) أن التقدير اذكر يوم يرون الملائكة .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ اختلفوا فى ذلك اليوم ، فقال ابن عباس يريد عند الموت ، وقال الباقون يريد يوم القيامة .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ إنما يقال للكافر لا بشرى لأن الكافر وإن كان ضالا مضلا إلا أنه يعتقد فى نفسه أنه كان هادياً مهتدياً ، فكان يطمع فى ذلك الثواب العظيم ، ولأنهم ربما عملوا مارجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم ، ولكنه أبطلها بكفره فبين سبحانه أنهم فى أول الأمر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة ، وذلك هو النهاية فى الإيلام وهو المراد من قوله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ حق الكلام أن يقال يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم ، لكنه قال لا بشرى للمجرمين وفيه وجهان (أحدهما) أنه ظاهر فى موضع ضمير (والثانى) أنه عام فقد تناولهم بعمومه ، قالت المعتزلة تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو ، لأن قوله (لا بشرى للمجرمين) نكرة فى سياق النفى ، فيعم جميع أنواع البشرى فى جميع الأوقات ، بدليل أن من

www.besturdubooks.wordpress.com

أراد تكذيب هذه القضية قال بل له بشرى فى الوقت الفلانى ،فلما كان ثبوت البشرى فى وقت من الأوقات يذكر لتكذيب هذه القضية ، علمنا أن قوله تعالى (لا بشرى) يقتضى نفى جميع أنواع البشرى فى كل الأوقات ، ثم إنه سبحانه أكد هذا النفى بقوله (حجراً محجورا) والعفو من الله من أعظم البشرى ، والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم البشرى ، وشفاعة الرسول ﷺ من أعظم البشرى . فوجب أن لا يثبت ذلك لأحد من المجرمين . والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة ، قال المفسرون المراد بالمجرمين ههنا الكفار بدليل قوله (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى تفسير قوله (حجراً محجورا) ذكر سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو معاذ الله وقعدك وعمرك ، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو أو هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة ، قال سيبويه يقول الرجل للرجل يفعل كذا وكذا فيقول حجراً ، وهى من حجره إذا منعه لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه ، فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً ومجيئه على فعل أو فعل فى قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد ، فان قيل لما ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجورا ؟ قلنا جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا ذيل ذايل فالذيل الهوان وموت مائت وحرام محرم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ اختلفوا فى أن الذين يقولون حجراً محجوراً من هم ؟ على ثلاثة أقوال : (القول الأول) أنهم هم الكفار وذلك لأنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ، ثم إذا رأوهم عند الموت ويوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم ، لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون. فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو ونزول الشدة (القول الثانى) أن القائلين هم الملائكة ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أى جعل الله ذلك حراماً عليكم ، ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم إن الكفار إذا خرجوا من قبورهم ، قالت الحفظة لهم حجراً محجورا ، وقال الكلبى الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين حجرا محجورا ،وقال عطية إذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فاذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم بشرونا فيقولون حجراً محجوراً (القول الثالث) وهو قول القفال والواحدى وروى عن الحسن أن الكفار يوم القيامة إذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون حجراً محجوراً ، فتقول الملائكة لا يعاذ من شر هذا اليوم .

أما قوله تعالى (وقدمنا) فقد استدلت المجسمة بقوله (وقدمنا) لأن القدوم لا يصح إلا على الأجسام ، وجوابه أنه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه لأن القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث ، ولذلك استدل الخليل عليه السلام بأفول الكواكب على حدوثها وثبت أن الله عز

www.besturdubooks.wordpress.com

وجل لا يجوز أن يكون محدثاً ، فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه (أحدها) (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) أى وقصدنا إلى أعمالهم ، فإن القادم إلى الشيء قاصد له ، فالقصد هو المؤثر فى المقدوم إليه وأطلق المسبب على السبب مجازاً (وثانيها) المراد قدوم الملائكة إلى موضع الحساب فى الآخرة ، ولما كانوا بأمره يقدمون جاز أن يقول ، وقدمنا على سبيل التوسع ونظيره قوله (فلما آسفونا انتقمنا منهم) (وثالثها) (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) فلما أباد الله أعمالهم وأفسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التى يقدمها الملك فلا جرم قال وقدمنا .

أما قوله (إلى ما عملوا من عمل) يعنى الأعمال التى اعتقدوها براً وظنوا أنها تقربهم إلى الله تعالى ، والمعنى إلى ما عملوا من أى عمل كان .

أما قوله (فجعلناه هباء منثوراً) فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذى لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى (كسراب بقيعة) (كرماد اشتدت به الريح) (كعصف مأكول) قال أبو عبيدة والزجاج : الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس . وقال مقاتل : إنه الغبار الذى يستطير من حوافر الدواب .

أما قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) فاعلم أنه سبحانه لما بين حال الكفار فى الخسار الكلى والخيبة التامة شرح وصف أهل الجنة تنبيهاً على أن الحظ كل الحظ فى طاعة الله تعالى ، وههنا سؤالات :

﴿ الأول ﴾ كيف يكون أصحاب الجنة خيراً مستقراً من أهل النار ، ولا خير فى النار ، ولا يقال فى العسل هو أحلى من الخل ؟ (والجواب) من وجوه (الأول) ما تقدم فى قوله (أذلك خير أم جنة الخلد) (والثانى) يجوز أن يريد أنهم فى غاية الخير ، لأن مستقر خير من النار، كقول الشاعر:

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

(الثالث) التفاضل الذى ذكر بين المنزلتين إنما يرجع إلى الموضع ، والموضع من حيث إنه موضع لا شر فيه (الرابع) هذا التفاضل واقع على هذا التقدير ، أى لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيراً منه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك؟ (والجواب) من وجوه (الأول) أن المستقر مكان الاستقرار ، والمقيل زمان القيلولة ، فهذا إشارة إلى أنهم من المكان فى أحسن مكان ، ومن الزمان فى أطيب زمان (الثانى) أن مستقر أهل الجنة غير مقيلهم ، فانهم يقيلون فى الفردوس ، ثم يعودون إلى مستقرهم (الثالث) أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب إلى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة ، قال ابن مسعود : «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار » وقرأ ابن مسعود : ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

وقال سعيد بن جبير : إن الله تعالى إذا أخذ فى فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار. وقال مقاتل: يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، ثم يقيلون من يومهم ذلك فى الجنة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كيف يصح القيلولة فى الجنة والنار ، وعندكم أن أهل الجنة فى الآخرة لا ينامون ، وأهل النار أبدا فى عذاب يعرفونه ، وأهل الجنة فى نعيم يعرفونه ؟ (والجواب) قال الله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) وليس فى الجنة بكرة وعشى ، لقوله تعالى (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً)ولأنه إذا لم يكن هناك شمس لم يكن هناك نصف النهار ولا وقت القيلولة ، بل المراد منه بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع وأحسنها ، كما أن موضع القيلولة يكون أطيب المواضع والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ، ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾

اعلم أن هذا الكلام مبنى على ما استدعوه من إنزال الملائكة فبين سبحانه أنه يحصل ذلك فى يوم له صفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ أن فى ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (إذا السماء انفطرت) يدل على التشقق وقوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) يدل على الغمام فقوله (تشقق السماء بالغمام) جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى (وفتحت السماء فكانت أبواباً) وقوله (فهى يومئذ واهية) .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا ، وفى سورة ق والباقون بالتشديد ، قال أبو عبيدة : الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الفراء : المراد من قوله (بالغمام) أى عن الغمام ، لأن السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام ، وقال القاضي : لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله (السماء منفطر به) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لابد من أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة ، فقيل الملائكة فى أيام الأنبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها ، ثم فى ذلك اليوم تشقق السماء فاذا انشقت خرج من أن يكون حائلا بين الملائكة وبين الأرض فنزلت الملائكة إلى الأرض .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ونزل الملائكة) صيغة عموم فيتناول الكل ، ولأن السماء مقر الملائكة فاذا تشقق وجب أن ينزلوا إلى الأرض ، ثم قال مقاتل : تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من سكان الدنيا ، كذلك تتشقق سماء سماء ، ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ، ثم ينزل الرب تعالى . وروى الضحاك عن ابن عباس : قال تتشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم ، واعلم أن نزول الرب بالذات باطل قطعاً ، لأن النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والإله لا يكون محدثاً . وأما نزول الملائكة إلى الأرض فعليه سؤال ، وذلك لأنه ثبت أن الأرض بالقياس إلى سماء الدنيا كحلقة فى فلاة ، فكيف بالقياس إلى الكرسى والعرش فملائكة هذه المواضع بأسرها كيف تتسع لهم الأرض جميعاً ؟ فلعل الله تعالى يزيد فى طول الأرض وعرضها ويبلغها مبلغاً يتسع لكل هؤلاء ، ومن المفسرين من قال : الملائكة يكونون فى الغمام منه ، والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة. قال الحسن : والغمام سترة بين السماء والأرض تعرج الملائكة فيه بنسخ أعمال بنى آدم والمحاسبة تكون فى الأرض .

﴿ المسألة السادسة ﴾ أما نزول الملائكة فظاهر ، ومعنى تنزيلا توكيد للنزول ودلالة على إسراعهم فيه .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الألف واللام فى الغمام ليس للعموم فهو للمعهود ، والمراد ماذكروه فى قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قرىء : ونزل الملائكة ، وننزل الملائكة ، ونزل الملائكة ، ونزلت الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من ننزل قراءة أهل مكة .

﴿ الصفة الثانية لذلك اليوم ﴾ قوله (الملك يومئذ الحق الرحمن) قال الزجاج الحق صفة للملك وتقديره الملك الحق يومئذ للرحمن ، ويجوز الحق بالنصب على تقدير أعنى ولم يقرأ به ، ومعنى

www.besturdubooks.wordpress.com

وصفه بكونه حقاً أنه لايزول ولا يتغير ، فان قيل مثل هذا الملك لم يكن قط إلا للرحمن فماالفائدة فى قوله يومئذ ؟ قلنا لأن فى ذلك اليوم لامالك سواه لا فى الصورة ولا فى المعنى ، فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الأيام ، واعلم أن هذه الآية دالة على فساد قول المعتزلة فى أنه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لأنه لو وجب لاستحق الذم بتركه فكان خائفاً من أن لايفعل فلم يكن ملكا مطلقاً . وأيضاً فقوله (الملك يومئذ الحق للرحمن) يفيد أنه ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة ، لأن كل من استحق عليه شيئاً فانه يكون مالكا له ، ولا يكون هو سبحانه مالكا لذلك المستحق ، ولأنه سبحانه إذا استحق على أحد شيئاً أمكنه أن يعفو عنه ، أما غيره إذا استحق عليه شيئاً فانه لا يصح إبراؤه عنه ، فكانت العبودية ههنا أتم ، ولأن من كفر بالله إلى آخر عمره ثم فى آخر عمره عرف الله لحظة ومات فهو سبحانه لو أعطاه ألف ألف سنة أنواع الثواب وأراد بعد ذلك أن لايعطيه لحظة واحدة صار سفيهاً ، وهذا نهاية العبودية والذل فكيف يليق بمن هذا حاله أن يقال له (الملك يومئذ الحق للرحمن) وأيضاً فكل من فعل فعلا لو لم يفعله لكان مستوجباً للذم وكان بذلك الفعل مكتسباً للكمال وبتركه مكتسباً للنقصان فلم يكن ملكا بل فقيراً مستحقاً ، فثبت أن قوله سبحانه (الملك يومئذ الحق للرحمن) غير لائق بأصول المعتزلة .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) فالمعنى ظاهر لأنه تعالى عالم بالأحوال قادر على كل مايريده . وأما غيره فالكل فى ربقة العجز ولجام القهر ، فكان فى نهاية العسر على الكافر .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (ويوم يعض الظالم على يديه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الألف واللام فى الظالم فيه قولان (أحدهما) أنه للعموم (والثانى) أنه للمعهود ، والقائلون بالمعهود على قولين (الأول) قال ابن عباس المراد عقبة بن أبي معيط ابن أمية بن عبد شمس كان لايقدم من سفر إلا صنع طعاماً يدعو إليه جيرته من أهل مكة ويكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه فصنع طعاماً ودعا الرسول فقال صلى الله عليه وسلم ما آكل من طعامك حتى تأتى بالشهادتين ففعل فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه فبلغ أمية بن خلف فقال صبوت ياعقبة . وكان خليله . فقال إنما ذكرت ذلك ليأكل من طعامى فقال لاأرضى أبدا حتى تأتيه فتبزق فى وجهه وتطأ على عنقه ، ففعل ، فقال عليه السلام لاألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فنزل (ويوم يعض الظالم على يديه) ندامة يعنى عقبة يقول : ياليتنى لم أتخذ أمية خليلا لقد أضلنى عن الذكر . أى صرفنى عن الذكر وهو القرآن والإيمان بعد إذ جاءنى مع محمد صلى الله عليه وسلم فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبراً ولم يقتل يومئذ من الأسارى غيره وغير النضر بن الحارث (الثانى) قالت الرافضة : هذا الظالم هو رجل بعينه . وإن المسلمين غيروا اسمه

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

وكتموه وجعلوا فلاناً بدلا من اسمه ، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله ، واعلم أن إجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ ، لأنا بينا فى أصول الفقه أن الألف واللام إذا دخل على الاسم المفرد لايفيد العموم بل إنما يفيده للقرينة من حيث إن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف ، فدل ذلك على أن المؤثر فى العض على اليدين كونه ظالما وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا القول أولى من التخصيص بصورة واحدة لأن هذا الذى ذكرناه يقتضى العموم ، ونزوله فى واقعة أخرى خاصة لاينافى أن يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها . ولأن المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم وذلك لايحصل إلا بالعموم ، وأما قول الرافضة فذلك لايتم إلا بالطعن فى القرآن وإثبات أنه غير وبدل ولا نزاع فى أنه كفر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استدلت المعتزلة بقوله (ويوم يعض الظالم على يديه) قالوا الظالم يتناول الكافر والفاسق ، فدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (يعض الظالم على يديه) قال الضحاك : يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت ، وقال أهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم ، يقال عض أنامله وعض على يديه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ كما بينا أن الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله فلاناً ليس شخصاً واحداً بل كل من أطيع فى معصية الله ، واستشهد القفال بقوله (وكان الكافر على ربه ظهيراً) ، (ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً) يعنى به جماعة الكفار .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرىء ياويلتى بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادى ويلته وهى هلكته يقول لها : تعالى فهذا أوانك ، وإنما قلبت الياء ألفاً كما فى صحارى وعذارى .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (عن الذكر) أى عن ذكر الله أو القرآن وموعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وغيرته على الإسلام والشيطان ، إشارة إلى خليله سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه فى العاقبة ، أو أراد إبليس فانه هو الذى حمله على أن صار خليلا لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله . أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والإنس ، ويحتمل أن يكون (وكان الشيطان) حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله .

قوله تعالى :﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن الكفار لما أ كثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله تعالى وقال (يارب إن قومى اتخذوا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أكثر المفسرين أنه قول واقع من الرسول ﷺ وقال أبو مسلم بل المراد أن الرسول عليه السلام يقوله فى الآخرة وهو كقوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) والأول أولى لأنه موافق للفظ ولأن ما ذكره الله تعالى من قوله (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين) تسلية للرسول ﷺ ولا يليق إلا إذا كان وقع ذلك القول منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى المهجور قولين (الأول) أنه من الهجران أى تركوا الإيمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه (الثانى) أنه من أهجر أى مهجوراً فيه ثم حذف الجار ويؤكده قوله تعالى (مستكبرين به سامراً تهجرون) ثم هجرهم فيه أنهم كانوا يقولون إنه سحر وشعر وكذب وهجر أى هذيان ، وروى أنس عن النبى ﷺ أنه قال « من تعلم القرآن وعلق مصحفاً لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجوراً ، اقض بينى وبينه » ثم إنه تعالى قال مسلياً لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعزياً له (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين) وبين بذلك أن له أسوة بسائر الرسل ، فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خالق الخير والشر لأن قوله تعالى (جعلنا لكل نبى عدواً) يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولا شك أن تلك العداوة كفر قال الجبائى : المراد من الجعل التبيين ، فانه تعالى لما بين أنهم أعداؤه ، جاز أن يقول : جعلناهم أعداءه ، كما إذا بين الرجل أن فلانا لص يقال جعله لصاً كما يقال فى الحاكم عدل فلاناً وفسق فلاناً وجرحه ، قال الكعبى : إنه تعالى لما أمر الأنبياء بعداوة الكفار وعداوتهم للكفار تقتضى عداوة الكفار لهم ، فلهذا جاز أن يقول (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين) لأنه سبحانه هو الذى حمله ودعاه إلى ما استعقب تلك العداوة ، وقال أبو مسلم : يحتمل فى العدو أنه البعيد لا القريب إذ المعاداة المباعدة كما أن النصر القرب والمظاهرة ، وقد باعد الله تعالى بين المؤمنين والكافرين (والجواب عن الأول) أن التبيين لا يسمونه البتة جعلا لأن من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال إنه جعل الصانع وجعل قدمه (والجواب عن الثانى) أن الذى أمره الله تعالى به هل له تأثير فى وقوع العداوة فى قلوبهم أو ليس له تأثير ؟ فان كان الاول فقد تم الكلام لأن عداوتهم للرسول ﷺ كفر فاذا أمر الله الرسول بما له أثر فى تلك العداوة فقد أمره بما له أثر فى وقوع الكفر وإن لم يكن فيه تأثير البتة كان منقطعاً عنه بالكلية فيمتنع إسناده إليه . وهذا هو الجواب عن قول أبى مسلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول إن قول محمد عليه السلام (يارب إن قومى اتخذوا هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

القرآن مهجوراً) فى المعنى كقول نوح عليه السلام (رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً) وكما أن المقصود من هذا إنزال العذاب فكذا ههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة فى قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ؟(جوابه) أن نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم، وأما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا ما دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين) كان ذلك كالأمر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله جعلنا صيغة العظماء والعظيم إذا ذكر نفسه فى كل معرض من التعظيم وذكر أنه يعطى فلابد وأن تكون تلك العطية عظيمة كقوله (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى) وقوله (إنا أعطيناك الكوثر) فكيف يليق بهذه الصيغة أن تكون تلك العطية هى العداوة التى هى منشأ الضرر فى الدين والدنيا ؟(وجوابه) أن خلق العداوة سبب لازدياد المشقة التى هى موجبة لمزيد الثواب والله أعلم.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يجوز أن يكون العدو واحداً وجمعاً كقوله (فإنهم عدو لى) وجاء فى التفسير أن عدو الرسول ﷺ أبو جهل.

أما قوله (وكفى بربك هادياً ونصيراً) فقال الزجاج الباء زائدة يعنى كفى ربك وهادياً ونصيراً منصوبان على الحال هادياً إلى مصالح الدين والدنيا، ونصيراً على الأعداء، ونظيره (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين).

قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلا ﴾.

اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكرى نبوة محمد ﷺ، وأن أهل مكة قالوا تزعم أنك رسول من عند الله أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والإنجيل على عيسى

www.besturdubooks.wordpress.com

والزبور على داود ، وعن ابن جريج بين أوله وآخره اثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله (كذلك لنثبت به فؤادك) وبيان هذا الجواب من وجوه : (أحدها) أنه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو ، وإنما نزلت التوراة جملة لأنها مكتوبة يقرؤها موسى (وثانيها) أن من كان الكتاب عنده ، فربما اعتمد على الكتاب وتساهل فى الحفظ فالله تعالى ماأعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل (وثالثها) أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك ، أما لما نزل مفرقاً منجماً لاجرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها أسهل (ورابعها) أنه إذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل ، وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتماله أذية قومه وعلى الجهاد (وخامسها) أنه لما تم شرط الإعجاز فيه مع كونه منجماً ثبت كونه معجزاً ، فانه لو كان ذلك فى مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجماً مفرقاً (وسادسها) كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة ، لأن بسبب ذلك كان ينضم إلى الفصاحة الإخبار عن الغيوب (وسابعها) أن القرآن لما نزل منجماً مفرقاً وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الأمر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت فى فؤاده أن القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة (وثامنها) أن السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه إلى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن يقال إنه تعالى لو أنزل القرآن على محمد ﷺ دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقاً منجماً بقى ذلك المنصب العالى عليه فلأجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقاً منجماً .

أما قوله (كذلك) ففيه وجهان (الأول) أنه من تمام كلام المشركين أى جملة واحدة كذلك أى كالتوراة والإنجيل ، وعلى هذا لا يحتاج إلى إضمار فى الآية وهو أن يقول : أنزلناه مفرقاً لنثبت به فؤادك (الثانى) أنه كلام الله تعالى ذكره جواباً لهم أى (كذلك أنزلناه مفرقاً) فان قيل ذلك فى كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شىء تقدمه والذى تقدم فهو إنزاله جملة فكيف فسر به كذلك أنزلناه مفرقاً ؟ قلنا لأن قولهم لولا نزل عليه جملة واحدة معناه لم نزل مفرقاً فذلك إشارة إليه .

أما قوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) فمعنى الترتيل فى الكلام أن يأتى بعضه على أثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل فى الأسنان وهو تفلجها يقال ثغر رتل وهو ضد المتراص ، ثم إنه سبحانه وتعالى لما بين فساد قولهم بالجواب الواضح قال (ولا يأتونك بمثل) من الجنس الذى تقدم ذكره من الشبهات إلا جئناك بالحق الذى يدفع قولهم ، كما قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

فيدمغه فاذا هو زاهق) وبين أن الذى يأتى به أحسن تفسيراً لأجل ما فيه من المزية فى البيان والظهور ، ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه ، فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا.

أما قوله (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ « يحشر الناس على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه » وعنه عليه السلام « إن الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه الأسئلة على سبيل التعنت ، وإن كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ حمله بعضهم على أنهم يمشون فى الآخرة مقلوبين ، وجوههم إلى القرار وأرجلهم إلى فوق ، روى ذلك عن الرسول ﷺ وقال آخرون المراد أنهم يحشرون ويسحبون على وجوههم ، وهذا أيضاً مروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أولى ، وقال الصوفية : الذين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فاذا ماتوا بقى ذلك التعلق فعبر عن تلك الحالة بأنهم يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، ثم بين تعالى إنهم شر مكانا من أهل الجنة وأضل سبيلا وطريقاً ، والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً) وقد تقدم الجواب عنه .

واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم فى التوحيد ونفى الأنداد وإثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفى أحوال القيامة شرع فى ذكر القصص على السنة المعلومة .

﴿ القصة الأولى ـ قصة موسى عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً) أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء وعرفه بما نزل بمن كذب من أممهم فقال (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً) والمعنى : لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب ، وآتيناه الآيات فرد ، فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هرون ومع ذلك فقد رد ، وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ كونه وزيراً لا يمنع من كونه شريكا له فى النبوة ، فلا وجه لقول من قال فى قوله (فقلنا اذهبا) إنه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجرى مجرى قوله (اذهبا إلى فرعون إنه طغى) فإن قيل إن كونه وزيراً كالمنافى لكونه شريكا بل يجب أن يقال إنه لما صار شريكا خرج عن كونه وزيراً ، قلنا لامنافاة بين الصفتين لأنه لا يمتنع أن يشركه فى النبوة ويكون وزيراً وظهيراً ومعيناً له .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج الوزير فى اللغة الذى يرجع إليه ويتحصن برأيه والوزر ما يعتصم به ، ومنه (كلا لاوزر) أى لامنجى ولاملجأ ، قال القاضى ، ولذلك لا يوصف تعالى بأن له وزيراً ولا يقال فيه أيضاً بأنه وزير لأن الإلتجاء إليه فى المشاورة والرأى على هذا الحد لا يصح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (دمرناهم) أهلكناهم إهلاكا فإن قيل الفاء للتعقيب والإهلاك لم يحصل عقيب ذهاب موسى وهرون إليهم بل بعد مدة مديدة ، قلنا التعقيب محمول ههنا على الحكم لا على الوقوع ، وقيل إنه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها أعنى إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) إن حملنا تكذيب الآيات على تكذيب آيات الإلهية فلا إشكال ، وإن حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ ، وإن كان للماضى إلا أن المراد هو المستقبل .

﴿ القصة الثانية ـ قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليماً ﴾

اعلم أنه تعالى إنما قال (كذبوا الرسل) إما لأنهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل أو لأنه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع ، لأن تكذيب الواحد منهم لا يمكن إلا بالقدح فى المعجز ، وذلك يقتضى تكذيب الكل ، أو لأن المراد بالرسل وإن كان نوحا عليه السلام وحده ولكنه كما يقال فلان يركب الأفراس .

أما قوله (أغرقناهم) فقال الكلبى : أمطر الله عليهم السماء أربعين يوماً وأخرج ماء الأرض أيضاً فى تلك الأربعين فصارت الأرض بحراً واحداً (وجعلناهم) أى وجعلنا إغراقهم أو قصتهم آية ، وأعتدنا للظالمين أى لكل من سلك سبيلهم فى تكذيب الرسل عذاباً أليما ، ويحتمل أن يكون المراد قوم نوح .

الفخر الرازي ـ ج ٢٤ م ٦
www.besturdubooks.wordpress.com

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

﴿ القصة الثالثة ـ قصة عاد وثمود وأصحاب الرس ﴾

قوله تعالى : ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عطف عاداً على (هم) فى و (جعلناهم) أو على (الظالمين) لأن المعنى ووعدنا الظالمين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ وثمود على تأويل القبيلة ، وأما على المنصرف فعلى تأويل الحى أو لأنه اسم للأب الأكبر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال أبو عبيدة الرس هو البئر غير المطوية ، قال أبو مسلم : فى البلاد موضع يقال له الرس فجائز أن يكون ذلك الوادى سكناً لهم ، والرس عند العرب الدفن ، ويسمى به الحفر يقال رس الميت إذا دفن وغيب فى الحفرة ، وفى التفسير أنه البئر ، وأى شىء كان فقد أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكر المفسرون فى أصحاب الرس وجوهاً (أحدها) كانوا قوماً من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش ، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً عليه السلام فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا فى طغيانهم وفى إيذائه فبينماهم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم (وثانيها) الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود (وثالثها) أصحاب النبى حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء ، وهى أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها . وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ وهى تنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا (ورابعها) هم أصحاب الأخدود ، والرس هو الأخدود (وخامسها) الرس أنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار ، وقيل كذبوه ورسوه فى بئر أى دسوه فيها (وسادسها) عن على عليه السلام أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة الصنوبر وإنما سموا بأصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم فى الأرض (وسابعها) أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطىء نهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى إليهم نبياً من ولد يهودا ابن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمناً فشكى إلى الله تعالى منهم فحفروا بئراً ورسوه فيها . وقالوا نرجو أن يرضى عنا إلهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم يقول : إلهى وسيدى ترى ضيق مكانى وشدة كربى وضعف قلبى وقلة حيلتى فعجل قبض روحى حتى مات ، فأرسل الله تعالى ريحاً

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ

عاصفة شديدة الحمرة فصارت الأرض من تحتهم حجر كبريت متوقد وأظلتهم سحابة سوداء فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص (وثامنها) روى ابن جرير عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا عبد أسود ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه حجراً ضخما ، وكان ذلك العبد يحتطب فيشترى له طعاماً وشراباً ويرفع الصخرة ويدليه إليه فكان ذلك ما شاء الله فاحتطب يوماً فلما أراد أن يحملها وجد نوماً فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين أخرى ، ثم هب فحمل حزمته فظن أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته واشترى طعاماً وشراباً وذهب إلى الحفرة فلم يجد أحداً ، وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه ، وكان ذلك النبي يسألهم عن الأسود ، فيقولون لاندرى حاله حتى قبض الله النبي وقبض ذلك الأسود ، فقال عليه السلام «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة» واعلم أن القول ماقاله أ مسلم وهو أن شيئاً من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن ، ولا بخبر قوى الإسناد ، ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهلكوا بسبب كفرهم .

﴿ **المسألة الخامسة** ﴾ قال النخعى : القرن أربعون سنة ، وقال على عليه السلام : بل سبعون سنة ، وقيل مائة وعشرون .

﴿ **المسألة السادسة** ﴾ قوله بين ذلك أى بين ذلك المذكور وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ، ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود .

أما قوله (وكلا ضربنا له الأمثال) فالمراد بينا لهم وأزحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيراً ويحتمل (وكلا ضربنا له الأمثال) بأن أجبناهم عما أوردوه من الشبه فى تكذيب الرسل كما أورده قومك يامحمد ، فلما لم ينجع فيهم تبرناهم تتبيراً ، فحذر تعالى بذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم فى الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذى نزل بالقوم عاجلا وآجلا .

﴿ **المسألة السابعة** ﴾ كلا الأول منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو أنذرنا أو حذرنا ، والثانى بتبرنا لأنه فارغ له .

﴿ **المسألة الثامنة** ﴾ التتبير التفتيت والتكسير ، ومنه التبر وهو كسارة الذهب والفضة والزجاج .

﴿القصة الرابعة قصة لوط عليه السلام﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا

www.besturdubooks.wordpress.com

لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا
﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

لا يرجون نشوراً ﴾

واعلم أنه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمساً أهلك الله تعالى أربعاً بأهلها وبقيت واحدة ، (ومطر السوء) الحجارة . يعنى أن قريشاً مروا مراراً كثيرة فى متاجرهم إلى الشأم على تلك القرية التى أهلكت بالحجارة من السماء ، (أفلم يكونوا) فى مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله تعالى ونكاله (بل كانوا قوماً) كفرة (لايرجون نشوراً) وذكروا فى تفسير (يرجون) وجوها (أحدها) وهو الذى قاله القاضى وهو الأقوى أنه محمول على حقيقة الرجاء لأن الإنسان لايتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال إلا ارجاء ثواب الآخرة ، فاذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب (وثانيها) معناه لايتوقعون نشوراً ، فوضع الرجاء موضع التوقع لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن ، (وثالثها) معناه لايخافون على اللغة التهامية ، وهو ضعيف والأول هو الحق .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولا ، إن كادليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ، أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين مبالغة المشركين فى إنكار نبوته وفى إيراد الشبهات فى ذلك ، بين بعد ذلك أنهم إذا رأوا الرسول اتخذوه هزواً فلم يقتصروا على ترك الايمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ، ويقول بعضهم لبعض (أهذا الذى بعث الله رسولا) وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قال صاحب الكشاف إن الأولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة بينهما .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ جواب إذا هو ما أضمر من القول يعنى وإذا رأوك مستهزئين قالوا أبعث الله هذا رسولا ، وقوله (إن يتخذونك) جملة اعترضت بين إذا وجوابها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتخذوه هزوا فى معنى استهزؤا به . والأصل اتخذوه موضع هزء أو مهزواً به.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أن الله تعالى أخبر عن المشركين أنهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الأفعال أحدهما أنهم يستهزئون به ، وفسر ذلك الاستهزاء بقوله (أهذا الذى بعث الله رسولا) وذلك جهل عظيم ، لأن الاستهزاء إما أن يقع بصورته أو بصفته . أما الأول فباطل لأنه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخلقة ، وبتقدير أنه لم يكن كذلك ، لكنه عليه السلام ما كان يدعى التميز عنهم بالصورة بل بالحجة . وأما الثانى فباطل ، لأنه عليه السلام ادعى التميز عنهم فى ظهور المعجز عليه دونهم ، وأنهم ما قدروا على القدح فى حجته ودلالته ، فنى الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأ بهم ، ثم إنهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام ، وذلك يدل على أنه ليس للمبطل فى كل الأوقات إلا السفاهة والوقاحة . وثانيهما أنهم كانوا يقولون فيه (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) وذلك يدل على أمور (الأول) أنهم سموا ذلك إضلالا ، وذلك يدل على أنهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم وفى استعظام صنيعه ﷺ فى صرفهم عنه ، وذلك يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق ، فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف فى أنه لا يكفر إلا من يعرف الدلائل لأنهم جهلوه ، ثم نسبهم الله تعالى إلى الكفر والضلال ، وقولهم (لولا أن صبرنا عليها) يدل أيضاً على ذلك (الثانى) يدل هذا القول منهم على جد الرسول عليه السلام واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الأوثان ، ولولا ذلك لما قالوا (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) وهكذا كان عليه السلام فإنه فى أول الأمر بالغ فى إيراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الأدب (الثالث) أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا البتة على دلائل الرسول ﷺ وما عارضوها إلا بمحض الجحود والتقليد لأن قولهم (لولا أن صبرنا عليها) إشارة إلى الجحود والتقليد ، ولو ذكروا اعتراضاً على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والإصرار الذى هو دأب الجهال ، وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام ، وأنه ما كان فى أيديهم إلا مجرد الوقاحة (الرابع) الآية تدل على أن القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين لأنهم استهزؤا به أولا ، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والإصرار ، فهذا الكلام الأخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الأول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق إلا بالجاهل العاجز ، فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على أنهم كانوا كالمتحيرين فى أمره ، فتارة بالوقاحة يستهزئون منه ، وتارة يصفونه بما لا يليق إلا بالعالم الكامل ، ثم إنه سبحانه لما حكى عنهم هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

الكلام زيف طريقتهم فى ذلك من ثلاثة أوجه (أولها) قوله (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) لأنهم لما وصفوه بالإضلال فى قولهم (إن كاد ليضلنا) بين تعالى أنه سيظهر لهم من المضل ومن الضال عند مشاهدة العذاب الذى لا مخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامى والإعراض عن الاستدلال والنظر (وثانيها) قوله تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) والمعنى أنه سبحانه بين أن بلوغ هؤلاء فى جهالتهم وإعراضهم عن الدلائل إنما كان لاستيلاء التقليد عليهم وأنهم اتخذوا أهواءهم آلهة ، فكل ما دعاهم الهوى إليه انقادوا له ، سواء منع الدليل منه أو لم يمنع ، ثم ههنا أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قوله (أرأيت) كلمة تصلح للاعلام والسؤال ، وههنا هى تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته .

﴿ الثانى ﴾ قوله (اتخذ إلهه هواه) معناه اتخذ إلهه ما يهواه أو إلهاً يهواه ، وقيل هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه إلهه ، وهذا ضعيف ، لأن قوله (اتخذ إلهه هواه) يفيد الحصر ، أى لم يتخذ لنفسه إلهاً إلا هواه ، وهذا المعنى لا يحصل عند القلب . قال ابن عباس : الهوى إله يعبد ، وقال سعيد بن جبير: كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده.

﴿الثالث﴾ قوله(أفأنت تكون عليه وكيلا) أي حافظاً تحفظه من اتباع هواه أى لست كذلك.

﴿ الرابع ﴾ نظير هذه الآية قوله تعالى (لست عليهم بمسيطر) وقوله (وما أنت عليهم بجبار) وقوله (لا إكراه فى الدين) قال الكلبى : نسختها آية القتال (وثالثها) قوله (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) أم ههنا منقطعة ، معناه بل تحسب ، وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها ، وهى كونهم مسلوبى الأسماع والعقول ، لأنهم لشدة عنادهم لا يصغون إلى الكلام ، وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه ، فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع البتة ، فعند ذلك شبههم بالأنعام فى عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر وإقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية وإعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وهاهنا سؤالات:

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال (أم تحسب أن أكثرهم) فحكم بذلك على الأكثر دون الكل ؟ (والجواب) لأنه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق ، إلا أنه ترك الإسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل .

﴿السؤال الثانى﴾ لم جعلوا أضل من الأنعام ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الأنعام تنقاد لأربابها وللذى يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يميزون بين إحسانه إليهم وبين إساءة الشيطان إليهم الذى هو عدو لهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يحترزون من العقاب الذى هو أعظم المضار (وثانيها) أن قلوب الأنعام كما أنها تكون خالية عن العلم فهى

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

خالية عن الجهل الذى هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم. وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فإنهم لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون ، بل هم مصرون على أنهم يعلمون (وثالثها) أن عدم علم الأنعام لا يضر بأحد . أما جهل هؤلاء فإنه منشأ للضرر العظيم ، لأنهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجاً (ورابعها) أن الأنعام لا تعرف شيئاً ولكنهم عاجزون عن الطلب . وأما هؤلاء الجهال فإنهم ليسوا عاجزين عن الطلب ، والمحروم عن طلب المراتب العالية إذا عجز عنه لا يكون فى استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له لسوء اختياره (وخامسها) أن البهائم لا تستحق عقاباً على عدم العلم ، أما هؤلاء فانهم يستحقون عليه أعظم العقاب (وسادسها) أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ماقال (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وقال (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات) إلى قوله (والدواب) وقال (والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) وإذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الأنعام .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أنه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل ، فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث الرسول إليهم فان من شرط التكليف العقل ؟ (الجواب) ليس المراد أنهم لا يعقلون بل إنهم لا ينتفعون بذلك العقل ، فهو كقول الرجل لغيره إذا لم يفهم إنما أنت أعمى وأصم .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ، وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أنه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم فى ذلك ذكر بعده أنواعاً من الدلائل الدالة على وجود الصانع .

﴿ النوع الأول ﴾ الإستدلال بحال الظل فى زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال ، وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قوله (ألم تر) فيه وجهان (أحدهما) أنه من رؤية العين (والثانى) أنه من رؤية القلب يعنى العلم ، فان حملناه على رؤية العين فالمعنى ألم تر إلى الظل كيف مده ربك وإن كان تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وإن حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج ، فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل إذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى فى تمديده غير مرئى بالإتفاق ، ولكنه معلوم من حيث إن كل متغير جائز وكل جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ المخاطب بهذا الخطاب وإن كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام فى المعنى ، لأن المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل ، وجميع المكلفين مشتركون فى أنه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الإستدلال بها على وجود الصانع .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ الناس أكثروا فى تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع إلى وجهين (الأول) أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو مابين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس ، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنيه الجدران وهذه الحالة أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس ، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية ، فاذن أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال (وظل ممدود) وإذا ثبت هذا فنقول إنه سبحانه بين أنه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ، ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئاً سوى الجسم وسوى اللون ، ونقول الظل ليس أمراً ثالثاً ، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً وماهية لأن الأشياء إنما تعرف بإضدادها ، فلولا الشمس لما عرف الظل ، ولولا الظلمة لما عرف النور ، فكأنه سبحانه وتعالى لما طلع الشمس على الأرض وزال الظل ، فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون ، فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أى خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع واللذات ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ، ثم قبضناه أى أزلنا الظل لا دفعة بل يسيراً يسيراً فان كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل فى جانب المغرب ، ولما كانت الحركات المكانية لاتوجد دفعة بل يسيراً يسيراً فكذا زوال الإظلال لايكون

www.besturdubooks.wordpress.com

دفعة بل يسيراً يسيراً ، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ، ولكن قبضها يسيراً يسيراً يفيد معه أنواع مصالح العالم ، والمراد بالقبض الإزالة والإعدام . هذا أحد التأويلين .

﴿ التأويل الثانى ﴾ وهو أنه سبحانه وتعالى لما خلق الأرض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الأرض ، ثم إنه سبحانه خلق الشمس دليلا عليه وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما . فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر ، وكما أن المهتدى يهتدى بالهادى والدليل ويلازمه . فكذا الأظلال كأنها مهتدية وملازمة للأضواء. فلهذا جعل الشمس دليلا عليها .

وأما قوله (ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً) فاما أن يكون المراد منه انتهاء الأظلال يسيرا يسيرا إلى غاية نقصاناتها ، فسمى إزالة الأظلال قبضاً لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة ، وذلك بقبض أسبابها وهى الأجرام التى تلقى الأظلال وقوله (يسيرا) هو كقوله (ذلك حشر علينا يسير) فهذا هو التأويل الملخص .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء ، وأما حصول الضوء الخالص ، أو الظلمة الخالصة ، فهو ليس من باب المنافع ، فحصول ذلك الظل ، إما أن يكون من الواجبات أومن الجائزات ، والأول باطل وإلا لما تطرق التغير إليه ، لأن الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات ، فلابد له فى وجوده بعدالعدم ، وعدمه بعدالوجود ، من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع ، وما ذاك إلا من يقدر على تحريك الأجرام العلوية وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن والترتيب الأكمل ، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى . فإن قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضيء ، فكيف استدل بالأمر العدمى على ذاته ، وكيف عده من النعم ؟ قلنا الظل ليس عدما محضاً ، بل هو أضواء مخلوطة بظلم ، والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثانى وهو أمر وجودى ، وفى تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه إلى كتبنا العقلية .

﴿ النوع الثانى ﴾ قوله تعالى (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا) اعلم أنه تعالى شبه الليل من حيث إنه يستر الكل ويغطى باللباس الساتر للبدن ، ونبه على ما لنا فيه من النفع بقوله (والنوم سباتاً) والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتاً لأنه سبب للراحة ، قال أبو مسلم السبات الراحة . ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه ، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة مسبوت ، وقال صاحب الكشاف السبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة قال ، وهذا كقوله (وهو الذى يتوفاكم بالليل) وإنما قلنا إن تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة ، لأن النشور فى مقابلته يأباه ، قال أبو مسلم : وجعل النهار نشوراً ، هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الإنسان وفاة ، فقال (الله يتوفى الأنفس

www.besturdubooks.wordpress.com

حين موتها) والتي لم تمت في منامها كذلك وفق بين القيام من النوم والقيام من الموت في التسمية بالنشور ، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمه على خلقه ، لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية ، والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة ، وعن لقمان أنه قال لابنه : كما تنام فتوقظ ، كذلك تموت فتحشر .

﴿النوع الثالث﴾ قوله (وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) وقد تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، ثم فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء الريح والرياح ، قال الزجاج : وفى نشراً خمسة أوجه بفتح النون وبضمها وبضم النون والشين وبالباء الموحدة مع ألف والمؤنث وبشرا بالتنوين ، قال أبو مسلم من قرأ بشرا أراد جمع بشير مثل قوله تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) وأما بالنون فهو فى معنى قوله (والناشرات نشرا) وهى الرياح ، والرحمة الغيث والماء والمطر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) نص فى أنه تعالى ينزل الماء من السماء ، لا من السحاب . وقول من يقول السحاب سماء ضعيف لأن ذاك بحسب الاشتقاق ، وأما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أن الطهور ما هو ؟ قال كثير من العلماء الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به ، والسحور ما يتسحر به وهو مروى أيضاً عن ثعلب ، وأنكر صاحب الكشاف ذلك ، وقال ليس فعول من التفعيل فى شىء والطهور على وجهين فى العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك (ماء طهور) كقولك طاهر ، والاسم قولك طهور لما يتطهر به . كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به النار . حجة القول الأول قوله عليه السلام «التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج» ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام ، وكذا قوله عليه السلام «طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعاً» ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر إناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام ، ولأنه تعالى قال (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) فبين أن المقصود من الماء إنما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهورا أنه هو المطهر به لأنه تعالى ذكره فى معرض الإنعام ، فوجب حمله على الوصف الأكمل . ولا شك أن المطهر أكمل من الطاهر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أن الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين : (أحدهما) ما يتعلق بالنبات (والثانى) ما يتعلق بالحيوان ، أما أمر النبات فقوله (لنحيى به بلدة ميتاً) وفيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال لنحيى به بلدة ميتاً ولم يقل ميتة ؟ (الجواب) لأن البلدة فى معنى البلد فى قوله (فسقناه إلى بلد ميت) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد من حياة البلد وموتها ؟ (الجواب) الناس يسمون ما لا عمارة فيه من الأرض مواتاً ، وسقيها المقتضى لعمارتها إحياء لها .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿السؤال الثالث﴾ أن جماعة الطبائعيين(١) وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا إن بطبع الأرض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى (لنحيي به بلدة ميتاً) فإن الباء في به تقتضي أن للماء تأثيراً في ذلك (الجواب) الظاهر وإن دل عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع. وأما أمر الحيوان فقوله سبحانه (ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً) وفيه سؤالات:

﴿السؤال الأول﴾ لم خص الإنسان والأنعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء؟ (الجواب) لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام لأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكأن الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام عليهم بسقيهم.

﴿السؤال الثاني﴾ ما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفهما بالكثرة؟ (الجواب) معناه أن أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار ومنافع المياه فهم في غنية في شرب المياه عن المطر، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر وذلك قوله (لنحيي به بلدة ميتاً) يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل في كثير أن يرجع إلى قوله (ونسقيه) لأن الحي يحتاج إلى الماء حالا بعد حال وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين، حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان إلى الضرر أقرب، والحيوان يحتاج إليه حالا بعد حال ما دام حياً.

﴿السؤال الثالث﴾ لم قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي (الجواب) لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً لأرضهم ومواشيهم فقد ظفروا أيضاً بسقياهم وأيضاً فقوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم) يعني صرف المطر كل سنة إلى جانب آخر، وإذا كان كذلك فلا يسقي الكل منه بل يسقي كل سنة أناسي كثيرا منه.

﴿السؤال الرابع﴾ ما الأناسي؟ (الجواب) قال الفراء والزجاج الإنسي والأناسي كالكرسي والكراسي، ولم يقل كثيرين لأنه قد جاء فعيل مفردا ويراد به الكثرة كقوله (وقروناً بين ذلك كثيرا) (وحسن أولئك رفيقاً) واعلم أن الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) ونحن نشير إلى معاقد تلك المسائل فنقول ههنا نظران: (أحدهما) أن الماء مطهر (والثاني) أن غير الماء هل هو مطهر أم لا؟ (النظر الأول) أن نقول الماء إما أن لا يتغير أو يتغير القسم الأول وهو الذي لا يتغير فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره، إلا الماء المستعمل

(١) هكذا في الأصل وهو مخالف للقياس فان النسبة لا تكون إلا المفرد فالأولى أن يقول (جماعة الطبيعيين) نسبة للطبيعة، وقد خطأ العلماء ذلك أيضاً فقالوا: الصواب النسبة للطبع وللطبيعة. وحينئذ يكون الصواب أن يقال (جماعة الطبيعيين) وقد سبق المصنف إلى هذا أبو عثمان بن جني إمام أهل العربية فسمى كتابه بالتصريف الملوكي خروجا على القياس المقتضى كون التسمية التصريف الملكي فلعله من خطأ النساخ.

www.besturdubooks.wordpress.com

فإنه عند الشافعي طاهر وليس بمطهر ، وقال مالك والثورى يجوز الوضوء به ، وقال أبو حنيفة فى فى رواية أبى يوسف إنه نجس فهنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى بيان أنه ليس بمطهر ، ودليلنا قوله عليه السلام « لا يغتسل أحدكم فى الماء الدائم وهو جنب » ولو بقى الماء كما كان طاهراً مطهراً لما كان للمنع منه معنى ، ومن وجه القياس أن الصحابة كانوا يتوضؤون فى الأسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك إلى الماء ، ولو كان ذلك الماء مطهراً لحملوه ليوم الحاجة ، واحتج مالك بالآية والخبر والقياس . أما الآية فمن وجهين (الأول) قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) وقوله (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) فدلت الآية على حصول وصف المطهرية للماء ، والأصل فى الثابت بقاؤه ، فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملا ، وأيضاً قوله (طهوراً) يقتضى جواز التطهر به مرة بعد أخرى (والثانى) أنه أمر بالغسل مطلقاً فى قوله (فاغسلوا) واستعمال كل المائعات غسل ، لأنه لا معنى للغسل إلا أمرار الماء على العضو ، قال الشاعر :

فياحسنها إذ يغسل الدمع كحلها

فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل ، فوجب أن يكون مجزئاً له لأنه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة (وأما السنة) فما روى أنه عليه السلام « توضأ فمسح رأسه بفضل ما فى يده » وعنه عليه السلام « أنه توضأ فأخذ من بلل لحيته فمسح به رأسه » وعن ابن عباس أنه عليه السلام « اغتسل فرأى لمعة فى جسده لم يصبها الماء ، فأخذ شعرة عليها بلل فأمرها على تلك اللمعة » . (وأما القياس) فإنه ماء طاهر لقى جسداً طاهراً فأشبه ما إذا لقى حجارة أو حديداً ، وكذا الماء المستعمل فى الكرة الرابعة والمستعمل فى التبرد والتنظف . ولأنه لا خلاف أنه إذا وضع الماء على أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع ، ثم نزل ذلك الماء بعينه إلى بقية الوجه فإنه يجزيه مع أن ذلك الماء صار مستعملا فى أعلى الوجه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الدليل على أن الماء المستعمل طاهر ، قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) ومن السنة أنه عليه السلام : أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه ، وقال « خلق الماء طهوراً لا ينجسه شىء إلا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه » وقال الشافعي : إنه عليه السلام توضأ ولا شك أنه أصابه ما تساقط منه ، ولم ينقل أنه غير ثوبه ولا أنه غسله ، ولا أحد من المسلمين فعل ذلك ، فثبت أنهم أجمعوا على أنه ليس بنجس ، ولأنه ماء طاهر لقى جسما طاهراً فأشبه ما إذا لاقى حجارة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الماء المستعمل إما أن يكون مستعملا فى أعضاء الوضوء أو فى غسل الثياب ، أما المستعمل فى أعضاء الوضوء فإما أن يكون مستعملا فيما كان فرضاً وعبادة ، أو فيما كان فرضاً ولا يكون عبادة ، أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضاً ، أو فيما لا يكون فرضاً ولا عبادة .

(أما القسم الأول) وهو المستعمل فيما كان فرضاً وعبادة فهو غير مطهر باتفاق أصحاب الشافعي .

(وأما القسم الثانى) فهو كالماء الذى استعملته الذمية التى تحت الزوج المسلم ، أى فى غسل

www.besturdubooks.wordpress.com

حيضها ليحل للزوج غشيانها . (وأما القسم الثالث) فهو كالماء المستعمل فى الكرة الثانية والثالثة ، والماء المستعمل فى تجديد الوضوء ، والماء المستعمل فى الأغسال المسنونة ، فلأصحاب الشافعى فى هذين القسمين وجهان . (وأما القسم الرابع) فهو كالماء المستعمل فى الكرة الرابعة ، وفى التبرد والتنظف ، فذاك باتفاق أصحاب الشافعى غير مستعمل ، وهو طاهر مطهر ، أما الماء المستعمل فى غسل الثياب ، فاذا غسل ثوباً من نجاسة وطهر بغسلة واحدة ، يستحب أن يغسله ثلاثاً . فالمنفصل فى الكرة الثانية والثالثة مطهر على الأصح (القسم الثانى) الماء الذى يتغير فنقول الماء إذا تغير ، فإما أن يتغير بنفسه أو بغيره ، أما الأول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به ، لأنه عليه السلام كان يتوضأ من بئر قضاعة ، وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء ، وأما المتغير بسبب غيره فذلك الغير إما أن لا يكون متصلا به أو يكون متصلا به . أما الذى لا يكون متصلا به فهو كما لو وقع بقرب الماء جيفة فصار الماء منتناً بسببها فهو أيضاً مطهر ، وأما إذا تغير بسبب شىء متصل به فذلك المتصل إما أن يكون طاهراً أو نجساً (القسم الأول) إذا كان طاهراً فهو إما أن لا يخالطه أو يخالطه ، فان لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه . وهذا أيضاً مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة ، ولأن الطهورية ثبتت بقوله (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) والأصل فى الثابت بقاؤه ، وأما المتغير بسبب شىء يخالطه . فذلك المخالط إما أن لا يمكن صون الماء عنه أو يمكن . أما الذى لا يمكن فكالمتغير بالتراب والحمأة والأوراق التى تقع فيه والطحلب الذى يتولد فيه ، وهذا أيضاً مطهر ، لأن الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسير ، فيكون مرفوعاً لقوله (ما جعل عليكم فى الدين من حرج) وكذا لو جرى الماء فى طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل أو وقع شىء منها فيه أو نبع من معادنها ، أما إذا تغير الماء بسبب مخالطة ما يستغنى الماء عن جنسه نظر إن كان التغير قليلا ، بحيث لا يضاف الماء إليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلا ، أو دقيق فابيض قليلا ، جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب ، لأنه لم يسلبه إطلاق اسم الماء ، وأما إن كان التغير كثيراً فان استحدث اسماً جديداً كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق ، وإن لم يستحدث اسماً جديداً فعند الشافعى لا يجوز الوضوء به ، وعند أبى حنيفة يجوز.

﴿ حجة الشافعى ﴾ من وجوه (أحدها) أنه عليه السلام توضأ ثم قال « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به » فذلك الوضوء إن كان واقعاً بالماء المتغير وجب أن لا يجوز إلا به ، وبالاتفاق ليس الأمر كذلك ، فثبت أنه كان بماء غير متغير وهو المطلوب (وثانيها) أنه إذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الإنسان به ، فيحتمل أن بعض الأعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء ، وإذا كان كذلك فقد وقع الشك فى حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائماً ، والشك لا يعارض اليقين . فوجب أن يبقى على الحدث ، بخلاف ما إذا كان قليلا لا يظهر أثره فإنه صار كالمعدوم ،

www.besturdubooks.wordpress.com

أما إذا ظهر أثره علمنا أنه باق فيتوجه ما ذكرناه (وثالثها) أن الوضوء تعبد لا يعقل معناه، فإنه لو توضأ بماء الورد لايصح وضوؤه، ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوؤه. وما لا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس.

﴿ حجة أبي حنيفة ﴾ وجوه (أحدها) قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) دلت الآية على كون الماء مطهراً والأصل في الثابت بقاؤه، فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة (وثانيها) قوله تعالى (فاغسلوا) أمر بمطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقرير هذا الوجه فيما تقدم (وثالثها) قوله تعالى (فلم تجدوا ماء فتيمموا) علق جواز التيمم بعدم وجدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء لأن الماء المتغير ماء مع صفة التغير، والموصوف موجود حال وجود الصفة، فوجب أن لايجوز له التيمم (ورابعها) قوله عليه السلام في البحر «هو الطهور ماؤه» ظاهره يقتضي جواز الطهارة به وإن خالطه غيره، لأن النبي ﷺ أطلق ذلك (وخامسها) أنه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر الهرة وسؤر الحائض وإن خالطه شيء من لعابهما(وسادسها)لاخلاف في الوضوء بماء المدر والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين وما يكون في الصحاري من الحشيش والنبات، ومن أجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيراً إلى السواد وأخرى إلى الحمرة والصفرة فصار ذلك أصلا في جميع ما خالط الماء إذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء (القسم الثاني) إذا كان المخالط للماء شيئاً نجساً فمن الناس من زعم أن الماء لا ينجس مالم يتغير بالنجاسة سواء كان قليلا أو كثيراً وهو قول الحسن البصري والنخعي ومالك وداود، وإليه مال الشيخ الغزالي في كتاب الإحياء، وقال أبو بكر الرازي مذهب أصحابنا ان كل ما تيقنا فيه جزأ من النجاسة أو غلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولا يختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجاري، لأن ماء البحر لو وقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذي فيه النجاسة وكذلك الماء الجاري، وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذي إذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر، فانما هو كلام في جهة تغليب الظن في بلوغ النجاسة الواقعة في أحد طرفيه إلى الطرف الآخر، وليس هو كلامنا في أن بعض المياه الذي فيه النجاسة قد يجوز استعمالها، وبعضها لا يجوز استعماله هذا كله كلام أبي بكر (وأقول) من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبدالله بن عمر «إذا كان الماء أربعين قلة لم ينجسه شيء» وعن ابن عباس رضي الله عنهما «الحوض لا يغتسل فيه جنب إلا أن يكون فيه أربعون غرباً» وهو قول محمد بن كعب القرظي، وقال مسروق وابن سيرين : إذا كان الماء كثيراً لا ينجسه شيء، وقال سعيد بن جبير : الماء الراكد لا ينجسه شيء إذا كان قدر ثلاث قلال (وقال الشافعي) إذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه إلا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه، وإن كان أقل ينجس لظهور النجاسة فيه.

واعلم أنه يمكن التمسك لنصرة قول مالك بوجوه (أحدها) قوله تعالى (وأنزلنا من السماء

www.besturdubooks.wordpress.com

ماء طهوراً) ترك العمل به فى الماء الذى تغير لونه أو طعمه أو ريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الأصل (وثانيها) قوله عليه السلام « خلق الله الماء طهوراً لا ينجسه شىء إلا ما غير طعمه أو لونه أو ريحه » وهو نص فى الباب (وثالثها) قوله تعالى (فاغسلوا وجوهكم) والمتوضىء بهذا الماء قد غسل وجهه فيكون آتياً بما أمر به فيخرج عن العهدة (ورابعها) أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالباً على الآخر أن يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت فى الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء ، وكون أحدهما غالباً على الآخر إنما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهى الطعم أو اللون أو الريح ، فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكا فيها ، فلا جرم يغلب حكم النجاسة . فاذا لم يظهر شىء من ذلك كان الغالب هو الماء وكانت النجاسة مستهلكة ، فيه فيغلب حكم الطهارة (وخامسها) ماروى عن عمر [أنه] توضأ من جرة نصرانية ، مع أن نجاسة أوانى النصارى معلومة بظن قريب من العلم ، وذلك يدل على أن عمر لم يعول إلا على عدم التغير (وسادسها) أن تقدير الماء بمقدار معلوم ولو كان معتبراً كالقلتين عند الشافعى وعشر فى عشر عند أبى حنيفة رضى الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة لأنه لا تكثر المياه هناك لا الجارية وإلا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول ﷺ إلى آخر عصر الصحابة لم ينقل أنهم خاضوا فى تقدير المياه بالمقادير المعينة ، ولا أنهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أوانى مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات (وسابعها) إصغاء رسول الله ﷺ الإناء للهرة وعدم منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد أن كانوا يرون أنها تأكل الفأرة ولم يكن فى بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل إلى الآبار (وثامنها) أن الشافعى نص على أن غسالة النجاسات طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إذا تغيرت ، وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأى معنى لقول القائل إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع المخالطة (وتاسعها) أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ، ولا خلاف أن مذهب الشافعى إذا وقع بول فى ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وإن كان قليلا ، وأى فرق بين الجارى والراكد ؟ وليت شعرى الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ؟ (وعاشرها) إذا وقع بول فى قلتين ثم فرقتا فكل كوز يؤخذ منه فهو طاهر على قول الشافعى ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل ، فأى فرق بينه إذا وقع ذلك القليل فى ذلك القدر من الماء ابتداء . وبينه إذا وصل إليه عند اتصال غيره به ؟ (وحادى عشرها) أن الحمامات لم تزل فى الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدى والأوانى فى ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بأن الأيدى الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبراً لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك إلى حد التواتر ، لأن الأمر الذى تشتد حاجة

www.besturdubooks.wordpress.com

الجمهور إليه يجب بلوغ نقلة إلى حد التواتر لما لم يكن كذلك علمنا أنه غير معتبر (و ثانى عشرها) أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا أن نحكم بنجاسة الماء إن كان فى غاية الكثرة مثل ماء الأدوية العظيمة والغدران الكبار ، فان ذلك بالاجماع باطل ، فلا بد من التقدير بمقدار معين ، وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة فليس بعضها أولى من بعض فوجب التعارض والتساقط ، أما تقدير أبى حنيفة بعشر فى عشر فمعلوم أنه مجرد تحكم ، وأما تقدير الشافعى بالقلتين بناء على قوله عليه السلام «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً» فضعيف أيضاً لأن الشافعى لما روى هذا الخبر ، قال أخبرنى رجل فيكون الراوى مجهولا ، ويكون الحديث مرسلا وهو عنده ليس بحجة ، وأيضاً زعم كثير من المحدثين أنه موقوف على ابن عمر رضى الله عنه ، سلمنا صحة الرواية لكنه إحالة مجهول على مجهول لأن القلة غير معلومة فانها تصلح للكوز والجرة ولكل ما نقل باليد ، وهو أيضاً اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل ، سلمنا كون القلة معلومة لكن فى متن الخبر اضطراب فانه روى إذا بلغ الماء قلتين ، وروى إذا بلغ قلة ، وروى أربعين قلة ، وروى إذا بلغ قلتين أو ثلاثاً ، وروى إذا بلغ كوزين . سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر لأن قوله لم يحمل خبثاً لا يمكن إجراؤه على ظاهره ، فان الخبث إذا ورد عليه فقد حمله ، سلمنا إمكان إجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعى وخبث حقيقى ، والاسم إذا دار بين المسمى اللغوى والمسمى الشرعى ، كان حمله على المسمى اللغوى أولى ، لأن الاسم حقيقة فى المسمى اللغوى مجاز فى المسمى الشرعى ، دفعاً للاشتراك والنقل ، وإذا كان كذلك وجب حمله عليه ، والمسمى اللغوى للخبث المستقذر بالطبع قال عليه السلام « ما استخبثته العرب فهو حرام » إذا ثبت هذا فنقول معنى قوله لم يحمل خبثاً أى لا يصير مستقذرا طبعاً ، ونحن نقول بموجبه لكن ، لم قلت إنه لا ينجس شرعا ، سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية لكن قوله لم يحمل خبثاً أى يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثره به ، فيكون هذا دليلا على صيرورته نجساً لا على بقائه طاهرا (لا يقال) الجواب عن هذه الأسئلة أن يقال إن الشافعى وإن لم يذكر اسم الراوى فى بعض المواضع فقد ذكره فى سائر المواضع فخرج عن كونه مرسلا ، ولأن سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوى . قوله إنه موقوف على ابن عمر ، قلنا لا نسلم فان يحيى بن معين قال إنه جيد الإسناد فقيل له إن ابن علية وقفه على ابن عمر ، فقال إن كان ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله القلة مجهولة قلنا لا نسلم لأن ابن جريج قال فى روايته بقلال هجر . ثم قال ، وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئاً . قوله فى متنه اضطراب قلنا لا نسلم لأنا وأنتم توافقنا على أن سائر المقادير غير معتبرة فيبقى ما ذكرناه معتبرا . قوله إنه متروك الظاهر قلنا إذا حملناه على الخبث الشرعى اندفع ذلك ، وذلك أولى لأن حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى العقلى ، لاسيما وفى حمله على المعنى العقلى يلزم التعطيل ، قوله المراد أنه يضعف عن حمله قلنا صح فى بعض الروايات أنه قال : إذا كان الماء قلتين لم ينجس ، ولأنه عليه السلام جعل القلتين شرطاً لهذا الحكم ، والمعلق على الشرط عدم

www.besturdubooks.wordpress.com

عند عدم الشرط وعلى ما ذكروه لا يبقى للقلتين فائدة (لأنا نقول) لاشك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضي تخصيص عموم قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) وعموم قوله (ولكن يريد ليطهركم) وعموم قوله (فاغسلوا وجوهكم) وعموم قوله صلى الله عليه وسلم « خلق الماء طهوراً لا ينجسه شيء » وهذا المخصص لابد وأن يكون بعيداً عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئاً ، ليس بحجة ، لأن القلة كما أنها مجهولة فكذا القربة مجهولة فانها قد تكون كبيرة ، وقد تكون صغيرة . ولأن الروايات أيضاً مختلفة فتارة قال إذا بلغ الماء قلتين ، وتارة أربعين قلة ، وتارة كرين فاذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر . هذا تمام الكلام في نصرة قول مالك ، واحتج من حكم بنجاسة الماء الذى تقع النجاسة فيه بوجوه : (أولها) قوله تعالى (ويحرم عليهم الخبائث) والنجاسات من الخبائث ، وقال تعالى (إنما حرم عليكم الميتة والدم) ، وقال في الخمر (رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) ومر عليه السلام بقبرين فقال « إنهما ليعذبان ومايعذبان في كبير ، إن أحدهما كان لا يستبرىء من البول والآخر كان يمشي بالنميمة » فحرم الله هذه الأشياء تحريماً مطلقاً ، ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء ، فوجب تحريم استعمال كل ما يبقى فيه جزء من النجاسة . أكثر ما في الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء مطهراً تقتضى جواز الطهارة به ، ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التى ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر إذا اجتمعا فالغلبة للحاظر ، ألا ترى أن الجارية بين رجلين لو كان لأحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد ، أن جهة الحظر فيها أولى من جهة الإباحة ، وأنه غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا ههنا (وثانيها) قوله عليه السلام « لايبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه من الجنابة » ذكره على الإطلاق من غير فرق بين القليل والكثير (وثالثها) قوله عليه السلام « إذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثاً قبل أن يدخلها الإناء فإنه لا يدرى أين باتت يده » فأمر بغسل اليد احتياطاً من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء ، ومعلوم أن مثلها إذا أدخلت الماء لم تغيره ولولا أنها تفسده ما كان للأمر بالاحتياط منها معنى (ورابعها) قوله عليه السلام « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً » يدل بمفهومه على أنه إذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث . أجاب مالك عن الوجه الأول فقال لا نزاع في أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة إذا وقع في الماء لم يظهر فيه لونه ولا طعمه ولا رائحته ، فلم قلتم إن تلك النجاسة بقيت ، ولم لا يجوز أن يقال إنها انقلبت عن صفتها ؟ وتقريره ما قدمناه . وأما قوله عليه السلام « لايبولن أحدكم في الماء الدائم » فلم قلتم إن هذا النهى ليس إلا لما ذكرتموه . بل لعل النهى إنما كان لأنه ربما شربه إنسان وذلك مما ينفر طبعه عنه ، وليس الكلام في نفرة الطبع ، وأما قوله « إذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا » فقد أجمعنا على أن هذا الأمر استحباب ، فالمرتب عليه كيف يكون أمر إيجاب

وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

ثم بتقدير أن يكون أمر إيجاب ، فلم قلتم إنه لم يوجه ذلك الإيجاب إلا لما ذكرتموه ؟ وأما قوله عليه السلام « إذا بلغ الماء قلتين » فقد سبق الكلام عليه ، ثم بعد النزول عن كل ماقلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التى ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم ، والله أعلم .

﴿ النظر الثانى ﴾ فى أن غير الماء هل هو طهور أم لا ؟ فقال الأصم والأوزاعى يجوز الوضوء بجميع المائعات ، وقال أبو حنيفة يجوز الوضوء بنبيذ التمر فى السفر ، وقال أيضاً تجوز إزالة النجاسة بجميع المائعات التى تزيل أعيان النجاسات ، وقال الشافعى رضى الله عنه الطهورية مختصة بالماء على الإطلاق ودليله فى صورة الحدث قوله تعالى (فإن لم تجدوا ماء فتيمموا) أوجب التيمم عند عدم الماء ، ولو جاز الوضوء بالخل أو نبيذ التمر لما وجب التيمم عند عدم الماء ، وأما فى صورة الخبث ، فلأن الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهوراً لأنه لامعنى للطهور إلا المطهر ولو كان طهوراً لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام « لايقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه » وكلمة حتى لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول ، فلو كان الخل طهوراً لحصل باستعماله قبول الصلاة ، وحيث لم يحصل علمنا أن الطهورية فى الخبث أيضاً مختصة بالماء .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ، ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً ، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنهم اختلفوا فى أن الهاء فى قوله (ولقد صرفناه) إلى أى شىء يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو الذى عليه الجمهور أنه يرجع إلى المطر ، ثم من هؤلاء من قال معنى صرفناه أنا أجريناه فى الأنهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وأنواع المعاش به ، وقال آخرون معناه أنه سبحانه ينزله فى مكان دون مكان وفى عام دون عام ، ثم فى العام الثانى يقع بخلاف ما وقع فى العام الأول ، قال ابن عباس ماعام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه فى الأرض ، ثم قرأ هذه الآية ، وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من عام بأمطر من عام ، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافى » (وثانيها) وهو قول أبى مسلم : أن قوله (صرفناه) راجع إلى المطر والرياح والسحاب والأظلال وسائر ما ذكر الله تعالى من الأدلة (وثالثها) (ولقد صرفناه) أى هذا القول بين الناس فى القرآن وسائر الكتب والصحف التى أنزلت على

www.besturdubooks.wordpress.com

رسل وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع ، والوجه الأول أقرب لأنه أقرب المذكورات إلى الضمير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائي قوله تعالى (ليذكروا) يدل على أنه تعالى مريد من الكل أن يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك ، وذلك يبطل قول من قال إن الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر ، قال ودل قوله (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) على قدرتهم على فعل هذا التذكر إذ لو لم يقدروا لما جاز أن يقال أبوا أن يفعلوه كما لا يقال فى الزَّمِن أبى أن يسعى . وقال الكعبي قوله (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) حجة على من زعم أن القرآن وبال على الكافرين وأنه لم يرد بإنزاله أن يؤمنوا لأن قوله (ليذكروا) عام فى الكل . وقوله (فأبى أكثر الناس) يقتضى أن يكون هذا الأكثر داخلا فى ذلك العام لأنه لا يجوز أن يقال أنزلناه على قريش ليؤمنوا ، فأبى أكثر - بنى تميم - إلا كفورا . واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مرارا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته وإحسانه . وقيل المراد من الكفور هو الكفر وذلك الكفر إنما حصل لأنهم يقولون مطرنا بنوء كذا لأن من جحد كون النعم صادرة من المنعم ، وأضاف شيئاً من هذه النعمة إلى الأفلاك والكواكب فقد كفر ، واعلم أن التحقيق أن من جعل الأفلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الأشياء فلاشك فى كفره ، وأما من قال الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضى هذه الحوادث ، فلعله لا يبلغ خطؤه إلى حد الكفر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالوا الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له لأن كلمة لو دلت على أنه تعالى ماشاء أن يبعث فى كل قرية نذيراً ، ثم إنه تعالى أخبر عن كونه قادراً على ذلك فدل ذلك على أن خلاف معلوم الله مقدور له .

أما قوله تعالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) فالأقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه (أحدها) كأنه تعالى بين له أنه مع القدرة على بعثة رسول ونذير فى كل قرية خصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك أتبعه بقوله (فلا تطع الكافرين) أى لا توافقهم (وثانيها) المراد ولو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة إلى كل العالمين و(لبعثنا فى كل قرية نذيرا) ولكنا قصرنا الأمر عليك وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل ، فقابل هذا الإجلال بالتشدد فى الدين (وثالثها) أن الآية تقتضى مزج اللطف بالعنف لأنها تدل على القدرة على أن يبعث فى كل قرية نذيراً مثل محمد ، وأنه لا حاجة بالحضرة الإلهية إلى محمد البتة ، وقوله (ولو) يدل على أنه سبحانه لا يفعل ذلك ، فبالنظر إلى الأول يحصل التأديب ، وبالنظر إلى الثانى يحصل الإعزاز .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾

أما قوله (فلا تطع الكافرين) فالمراد نهيه عن طاعتهم ، ودلت هذه الآية على أن النهى عن الشيء لايقتضى كون المهى عنه مشتغلا به .

وأما قوله (وجاهدهم به جهاداً كبيراً) فقال بعضهم : المراد بذل الجهد فى الأداء ، والدعاء وقال بعضهم : المراد القتال ، وقال آخرون : كلاهما ، والأقرب الأول لأن السورة مكية ، والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وإنما قال (جهاداً كبيرا) لأنه لو بعث فى كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريته ، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له (وجاهدهم) بسبب كونك نذير كافة القرى (جهاداً كبيرا) جامعاً لكل مجاهدة .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا ﴾ .

اعلم أن هذا هو ﴿ النوع الرابع من دلائل التوحيد ﴾ وقوله (مرج البحرين) أى خلاهما وأرسلهما ، يقال : مرجت الدابة إذا خليتها ترعى ، وأصل المرج الإرسال والخلط ، ومنه قوله تعالى (فهم فى أمر مريج) سمى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين . قال ابن عباس : مرج البحرين ، أى أرسلهما فى مجاريهما كما ترسل الخيل فى المرج وهما يلتقيان ، وقوله (هذا عذاب فرات) والمقصود من الفرات البليغ فى العذوبة حتى يصير إلى الحلاوة ، والأجاج نقيضه ، وأنه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ، وجعل من عظيم اقتداره برزخاً حائلا من قدرته ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما معنى قوله (وحجراً محجوراً) ؟ (الجوب) هى الكلمة التى يقولها المتعوذ وقد فسرناها ، وهى ههنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجراً محجوراً ، كما قال (لا يبغيان) أى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغى كالتعوذ ، وههنا جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه ، فهو يتعوذ منه وهى من أحسن الاستعارات .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لا وجود للبحر العذب ، فكيف ذكره الله تعالى ههنا ؟ لا يقال : هذا مدفوع من وجهين (الأول) أن المراد منه الأودية العظام كالنيل وجيحون (الثانى) لعله جعل فى البحار موضعاً يكون أحد جانبيه عذباً والآخر ملحاً ، لأنا نقول : أما الأول فضعيف لأن هذه الأودية ليس فيها ماء ملح ، والبحار ليس فيها ماء عذب ، فلم يحصل البتة موضع التعجب . وأما

www.besturdubooks.wordpress.com

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾

الثانى فضعيف ، لأن موضع الاستدلال لا بد وأن يكون معلوماً ، فأما بمحض التجويز فلا يحسن الاستدلال ، لأنا نقول المراد من البحر العذب هذه الأودية ، ومن الأجاج البحار الكبار ، وجعل بينهما برزخاً ، أى حائلا من الأرض ، ووجه الاستدلال ههنا بين ، لأن العذوبة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء ، فلا بد من الاستواء ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الأجسام بصفة خاصة معينة .

قوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً) .

واعلم أن هذا هو ﴿ النوع الخامس من دلائل التوحيد ﴾ وفيه بحثان :

﴿ الأول ﴾ ذكروا فى هذا الماء قولين (أحدهما) أنه الماء الذى خلق منه أصول الحيوان ، وهو الذى عناه بقوله (والله خلق كل دابة من ماء) (والثانى) أن المراد النطفة لقوله (خلق من ماء دافق) ، (من ماء مهين) .

﴿ البحث الثانى ﴾ المعنى أنه تعالى قسم البشر قسمين ذوى نسب ، أى ذكوراً ينسب إليهم ، فيقال فلان بن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر ، أى إناثاً يصاهرن ونحوه ، قوله تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) ، (وكان ربك قديراً) حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والأنثى .

قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ، قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرتهم فى عبادة الأوثان ، وفى الآية مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الأولى ﴾ قيل المراد بالكافر أبو جهل لأن الآية نزلت فيه ، والأولى حمله على العموم ، لأن خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ ، ولأنه أوفق بظاهر قوله (ويعبدون من دون الله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى الظهير وجوهاً (أحدها) أن الظهير بمعنى المظاهر ، كالعوين بمعنى المعاون ، وفعيل بمعنى مفاعل غير غريب ، والمعنى أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة . فإن قيل كيف يصح فى الكافر أن يكون معاوناً للشيطان على ربه بالعداوة ؟ قلنا إنه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله (إن الذين يؤذون الله) (وثانيها) يجوز أن يريد بالظهير الجماعة ، كقوله (والملائكة بعد ذلك ظهير) كما جاء الصديق والخليط ، وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس ، وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور الله تعالى ، قال تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) ، (وثالثها) قال أبو مسلم الأصفهانى : الظهير من قولهم ، ظهر فلان بحاجتى إذا نبذها وراء ظهره ، وهو من قوله تعالى (واتخذتموه وراءكم ظهرياً) ويقال فيمن يستهين بالشىء : نبذه وراء ظهره ، وقياس العربية أن يقال مظهور ، أى مستخف به متروك وراء الظهر ، فقيل فيه ظهير فى معنى مظهور ، ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره .

أما قوله تعالى (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) فتعلق ذلك بما تقدم ، هو أن الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله ، والله تعالى بعث رسوله لنفعهم ، لأنه بعثه ليبشرهم على الطاعة ، وينذرهم على المعصية ، فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب ، فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده فى إيذاء شخص استفرغ جهده فى إصلاح مهماته ديناً ودنيا ، ولا يسألهم على ذلك البتة أجراً .

أما قوله (إلا من شاء) فذكروا فيه وجوهاً متقاربة (أحدها) لا يسألهم على الأداء والدعاء أجراً ، إلا أن يشاءوا أن يتقربوا بالإنفاق فى الجهاد وغيره ، فيتخذوا به سبيلا إلى رحمة ربهم ونيل ثوابه (وثانيها) قال القاضى : معناه لا أسألكم عليه أجراً لنفسى وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف : مثال قوله (إلا من شاء) والمراد إلا فعل من شاء ، واستثناؤه عن الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال : ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت ، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه ، فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين إحداهما قلع شبهة الطمع فى الثواب من أصله كأنه يقول لك إن كان حفظك لمالك ثواباً ، فانى أطلب الثواب ، والثانية إظهار الشفقة البالغة ، وأن حفظك لمالك يجرى مجرى الثواب العظيم الذى توصله إلى ، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا ، تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة ، وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة فى سبيل الله .

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

أما قوله (وتوكل على الحى الذى لا يموت) فالمعنى أنه سبحانه لما بين أن الكفار متظاهرون على إيذائه ، فأمره بأن لا يطلب منهم أجراً البتة ، أمره بأن يتوكل عليه فى دفع جميع المضار ، وفى جلب جميع المنافع ، وإنما قال (على الحى الذى لا يموت) لأن من توكل على الحى الذى يموت ، فاذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعاً ، أما هو سبحانه وتعالى فإنه حى لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه البتة .

أما قوله (وسبح بحمده) فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول ، ومنهم من حمله على الصلاة ، ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لايليق به فى توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال(وكفى به بذنوب عباده خبيرا) وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال : كفى بالعلم جمالا ، وكفى بالأدب مالا . وهو بمعنى حسبك ، أى لاتحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد ، كأنه قال إن أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة .

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً ، وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾

اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور (أولها) بأنه حى لايموت وهو قوله (وتوكل على الذى لا يموت) (وثانيها) أنه عالم بجميع المعلومات وهو قوله (وكفى به بذنوب عباده خبيراً) (وثالثها) أنه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله (الذى خلق السموات والأرض) فقوله (الذى خلق) متصل بقوله (الحى الذى لا يموت) لأنه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والأرضين ولكل ما بينهما ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار ، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لايجوز التوكل إلا عليه . وفى الآيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ الأيام عبارة عن حركات الشمس فى السموات فقبل السموات لاأيام ، فكيف قال الله خلقها فى ستة أيام ؟ (الجواب) يعنى فى مدة مقدارها هذه المدة لايقال الشىء الذى يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدماً محضاً ، بل لابد وأن يكون موجوداً فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضى قدم الزمان ، لأنا نقول هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

معارض بنفس الزمان ، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لاتحتمل خمسة أيام ، والمدة المتوهمة التى تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام ، فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى ، فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه . وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خالق المدة أولا ثم خلق السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام ، ومن الناس من قال فى ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لأن التعريف لابد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قدر الخلق والإيجاد بهذا التقدير ؟ (الجواب) أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية فى التخصيص ، قالت المعتزلة بل لابد من داعى حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين (أحدهما) أن حصول تلك الحكمة ، إما أن يكون واجباً لذاته أو جائزا فان كان واجباً وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا فى كل الأزمنة ، فلا يصلح أن يكون سبباً لتخصيص زمان معين وإن كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة فى ذلك الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل (والثانى) أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله ، فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح فى حصول المصالح .

واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة ، فانه بحر لاساحل له . من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثنى عشر والسموات بالسبع وكذا الأرض وكذا القول فى عدد الصلوات ومقادير النصب فى الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات . فالإقرار بأن كل ماقاله الله تعالى حق هو الدين ، وترك البحث عن هذه الأشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى فى قوله (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) ثم قال (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وهذا هو الجواب أيضاً فى أنه لم لم يخلقها فى لحظة وهو قادر على ذلك ؟ وعن سعيد بن جبير أنه إنما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت ، قيل تم خلقها يوم الجمعة فجعلها الله تعالى عيدا للمسلمين .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما معنى قوله (ثم استوى على العرش) ؟ ولا يجوز حمله على الإستيلاء والقدرة ، لأن الإستيلاء والقدرة فى أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول ثم فيه و (الجواب) الاستقرار غير جائز ، لأنه يقتضى التغير الذى هو دليل الحدوث ، ويقتضى التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم) فان المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون ، فان قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات . وليس كذلك لقوله تعالى (وكان عرشه على الماء) قلنا : كلمة ثم

www.besturdubooks.wordpress.com

ما دخلت على خلق العرش ، بل على رفعه على السموات .

﴿ السؤال الرابع ﴾ كيف إعراب قوله (الرحمن فاسأل به خبيراً)؟ (الجواب) الذى خلق مبتدأ والرحمن خبره ، أو هو صفة للحى ، أو الرحمن خبر مبتدأ محذوف . ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله على العرش ثم يبتدئ بالرحمن أى هو الرحمن الذى لا ينبغى السجود والتعظيم إلا له ، ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله (فاسأل به خبيراً) .

﴿ السؤال الخامس ﴾ ما معنى قوله (فاسأل به خبيراً)؟ (الجواب) ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال الكلبى معناه فاسأل خبيراً به وقوله (به) يعود إلى ما ذكرنا من خلق السماء والأرض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عزوجل لأنه لادليل فى العقل على كيفية خلق الله السموات والأرض فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وإنما قدم لرءوس الآى وحسن النظم (وثانيها) قال الزجاج قوله (به) معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيراً ، وهو قول الأخفش ، ونظيره قوله (سأل سائل بعذاب واقع) وقال علقمة بن عبدة :

فإن تسألونى بالنساء فاننى بصير بأدواء النساء طبيب

(وثالثها) قال ابن جرير الباء فى قوله (به) صلة والمعنى فسله خبيراً ، وخبيراً نصب على الحال (ورابعها) أن قوله به يجرى مجرى القسم كقوله (واتقوا الله الذى تساءلون به) .

أما قوله (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول . ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى ، ويحتمل أنهم وإن عرفوه لكنهم جحدوه ، ويحتمل أنهم وإن اعترفوا به لكنهم جهلوا أن هذا الإسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الأخير . قالوا الرحمن اسم من أسماء الله مذكور فى الكتب المتقدمة ، والعرب ماعرفوه قال مقاتل: إن أبا جهل قال إن الذى يقوله محمد شعر ، فقال عليه السلام الشعر غير هذا إن هذا إلا كلام الرحمن فقال أبو جهل بخ بخ . لعمرى والله إنه لكلام الرحمن الذى باليمامة هو يعلمك . فقال عليه السلام «الرحمن الذى هو إله السماء ومن عنده يأتينى الوحى» فقال يا آل غالب من يعذرنى من محمد يزعم أن الله واحد ، وهو يقول الله يعلمنى والرحمن ، ألستم تعلمون أنهما إلهان ثم قال ربكم الله الذى خلق هذه الأشياء ، أما الرحمن فهو مسيلمة . قال القاضى والأقرب أن المراد إنكارهم لله لا للاسم ، لأن هذه اللفظة عربية ، وهم كانوا يعلمون أنها تفيد المبالغة فى الإنعام ، ثم إن قلنا بأنهم كانوا منكرين لله كان قولهم (وما الرحمن) سؤال طالب عن الحقيقة ، وهو يجرى مجرى قول فرعون (وما رب العالمين) وإن قلنا بأنهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم (وما الرحمن) سؤالا عن الإسم .

أما قوله (أنسجد لما تأمرنا) فالمعنى للذى تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير ، أو لأمرك

www.besturdubooks.wordpress.com

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

لنا ، وقرىء يأمرنا بالياء كان بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولانعرف ماهو ، وزادهم أمره نفوراً ، ومن حقه أن يكون باعثاً على الفعل والقبول . قال الضحاك فسجد رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وعثمان بن مظعون وعمرو بن عنبسة ، ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين . فهذا هو المراد من قوله (وزادهم نفوراً) أى فزادهم سجودهم نفوراً .

قوله تعالى : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ .

اعلم أنه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن ، فقال (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً) أما تبارك فقد تقدم القول فيه . وأما البروج فهى منازل السيارات وهى مشهورة سميت بالبروج التى هى القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها ، واشتقاق البروج من التبرج لظهوره ، وفيه قول آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن البروج هى الكواكب العظام والأول أولى لقوله تعالى (وجعل فيها) أى فى البروج فإن قيل لم لايجوز أن يكون قوله فيها راجعاً إلى السماء دون البروج ؟ قلنا لأن البروج أقرب فعود الضمير إليها أولى والسراج الشمس لقوله تعالى (وجعل الشمس سراجاً) وقرىء (سراجاً) وهى الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والأعمش (وقمراً منيراً) وهى جمع ليلة قمراء كأنه قيل وذا قمر منيراً ، لأن الليالى تكون قمراء بالقمر فأضافه إليها ، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب . وأما الخلفة ففيها قولان : (الأول) أنها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر ويأتى خلفه ، يقال فلان خلفة واختلاف، إذا اختلف كثيراً إلى متبرزه ، والمعنى جعلهما ذوى خلفة أى ذوى عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا . قال ابن عباس رضى الله عنهما جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرط فى عمل فى أحدهما قضاه فى الآخر ، قال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل « يا ابن الخطاب لقد أنزل الله فيك آية وتلا : وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر . مافاتك من النوافل بالليل فاقضه فى نهارك ، وما فاتك من النهار فاقضه فى ليلك » (القول الثانى) وهو قول مجاهد وقتادة والكسائى يقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان فقوله خلفة أى مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير، والقول الأول أقرب

www.besturdubooks.wordpress.com

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟
سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا
عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ
إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

أما قوله تعالى (أن يذكر) فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبى بن كعب يتذكر ، والمعنى لينظر الناظر فى اختلافهما فيعلم أنه لابد فى انتقالهما من حال إلى حال من ناقل ومغير وقوله (أن يذكر) راجع إلى كل ما تقدم من النعم ، بين تعالى أن الذين قالوا وما الرحمن لو تفكروا فى هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته ؛ ولشكر الشاكرين على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين ، من فاته فى أحدهما ورد من العبادة قام به فى الآخر ، والشكور مصدر شكر يشكر شكوراً .

قوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾

اعلم أن قوله (وعباد الرحمن) مبتدأ خبره فى آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة ، ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون ، واعلم أنه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية ، فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات ، وقرىء (وعبَّاد الرحمن) واعلم أنه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (الذين يمشون على الأرض هوناً) وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرىء (يمشون هوناً) حال أو صفة للمشى بمعنى هينين أو بمعنى مشياً هيناً ، إلا أن فى وضع المصدر موضع الصفة مبالغة ، والهون الرفق واللين . ومنه الحديث «أحبب حبيبك هوناً ما» وقوله «المؤمنون هينون لينون» والمعنى أن مشيهم يكون فى لين وسكينة ووقار وتواضع ، ولا يضربون بأقدامهم أشراً وبطراً ، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء كما قال (ولا تمش فى الأرض مرحاً) وعن زيد بن

www.besturdubooks.wordpress.com

أسلم التمست تفسير (هوناً) فلم أجد ، فرأيت فى النوم فقيل لى هم الذين لا يريدون الفساد فى الأرض ، وعن ابن زيد لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علواً فى الأرض .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أى نسلم منكم تسليما ، فأقيم السلام مقام التسليم ، ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت ، ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكى يمتنعوا ، ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة ، ويحتمل أن يكون المراد إظهار الحلم فى مقابلة الجهل ، قال الأصم (قالوا سلاماً) أى سلام توديع لا تحية ، كقول إبراهيم لأبيه (سلام عليك) ثم قال الكلبى وأبو العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) واعلم أنه تعالى لما ذكر سيرتهم فى النهار من وجهين (أحدهما) ترك الإيذاء ، وهو المراد من قوله (يمشون على الأرض هوناً) والآخر تحمل التأذى ، وهو المراد من قوله (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق فى النهار ، فبين فى هذه الآيات سيرتهم فى الليالى عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ثم قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وإن لم ينم كما يقال بات فلان قلقاً ، ومعنى (يبيتون لربهم) أن يكونوا فى لياليهم مصلين ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : من قرأ شيئاً من القرآن فى صلاة وإن قل ، فقد بات ساجداً وقائما ، وقيل ركعتين بعد المغرب وأربعاً بعد العشاء الأخيرة ، والأولى أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائماً ويبيت قائماً ، قال الحسن يبيتون لله على أقدامهم ويفرشون له وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم خوفا من ربهم .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً) قال ابن عباس رضى الله عنهما يقولون فى سجودهم وقيامهم هذا القول ، وقال الحسن خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقاً من عذاب جهنم ، وقوله (غراماً) أى هلاكا وخسراناً ملحاً لازماً ، ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه ، ويقال فلان مغرم بالنساء إذا كان مولعاً بهن ، وسأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع ، وعن محمد بن كعب فى (غراماً) أنه سأل الكفار ثمن نعمه فما أدوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار ، واعلم أنه تعالى وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله فى صرف العذاب عنهم كقوله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) .

أما قوله تعالى (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) فقوله (ساءت) فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره مستقراً ، والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقراً ومقاماً هى ومستقراً حال أو

www.besturdubooks.wordpress.com

تمييز ، فإن قيل دلت الآية على أنهم سألوا الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين : إحداهما أن عذابها كان غراماً ، (وثانيهما) أنها ساءت مستقراً ومقاماً ، فما الفرق بين الوجهين ؟ وأيضاً فما الفرق بين المستقر والمقام ؟ قلنا المتكلمون ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة ، فقوله (إن عذابها كان غراماً) إشارة إلى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع ، وقوله (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) إشارة إلى كونها دائمة ، ولا شك فى المغايرة ، أما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من أهل الإيمان فإنهم يستقرون فى النار ولا يقيمون فيها ، وأما الإقامة فللكفار ، واعلم أن قوله (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) يمكن أن يكون من كلام الله تعالى ويمكن أن يكون حكاية لقولهم .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) قرىء يقتروا بكسر التاء وضمها . ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء . وأيضاً بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات . والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الإسراف ، والإسراف مجاوزة الحد فى النفقة . وذكر المفسرون فى الإسراف والتقتير وجوهاً (أحدها) وهو الأقوى أنه تعالى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وعن وهيب بن الورد : قال لعالم ما البناء الذى لا سرف فيه ؟ قال : ما سترك عن الشمس وأكنك من المطر ، فقال له فما الطعام الذى لا سرف فيه ؟ قال ماسد الجوعة ، فقال له فى اللباس ، قال ماستر عورتك ووقاك من البرد ، وروى أن رجلا صنع طعاماً فى إملاك فأرسل إلى الرسول عليه السلام فقال « حق فأجيبوا » ثم صنع الثانية فأرسل إليه فقال « حق فمن شاء فليجب وإلا فليقعد » ثم صنع الثالثة فأرسل إليه فقال « رياء ولا خير فيه » (وثانيها) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك أن الإسراف الإنفاق فى معصية الله تعالى ، والإقتار منع حق الله تعالى ، قال مجاهد : لو أنفق رجل مثل أبى قبيس ذهباً فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفاً . ولو أنفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفاً ، وقال الحسن لم ينفقوا فى معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى ، وذلك قد يكون فى الإمساك عن حق الله ، وهو أقبح التقتير ، وقد يكون عما لا يجب ، ولكن يكون مندوباً مثل الرجل الغنى الكثير المال إذا منع الفقراء من أقاربه (وثالثها) المراد بالسرف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا ، وإن كان من حلال . فإن ذلك مكروه لأنه يؤدى إلى الخيلاء ، والإقتار هو التضييق . فالأكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف . وإن أكل بقدر الحاجة فذاك إقتار ، وهذه الصفة صفة أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة ، ولكن كانوا يأكلون مايسد جوعهم ويعينهم على عبادة ربهم ، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد ، وههنا مسألتان :

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ القوام قال ثعلب : القوام بالفتح العدل والاستقامة ، وبالكسر ما يدوم عليه الأمر ويستقر ، قال صاحب الكشاف : القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ، ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء . وقرىء قواماً بالكسر وهو ما يقام به الشيء ، يقال أنت قوامنا ، يعني مايقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص.

﴿ المسألة الثانية ﴾ المنصوبان أعني بين ذلك قواماً جائز أن يكونا خبرين معاً ، وأن يجعل بين ذلك لغواً وقواماً مستقراً ، وأن يكون الظرف خبراً وقواماً حالا مؤكدة ، قال الفراء : وإن شئت جعلت بين ذلك اسم كان ، كما تقول كان دون هذا كافياً ، تريد أقل من ذلك ، فيكون معنى بين ذلك ، أي كان الوسط من ذلك قواماً ، أي عدلا ، وهذا التأويل ضعيف ، لأن القوام هو الوسط فيصير التأويل ، وكان الوسط وسطاً وهذا لغو .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله تعالى ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب ، ثم استثنى من جملتهم التائب ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أنه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الأمور الخفيفة ، فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الأمور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا ، أليس أنه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى ؟ (الجواب) أن الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

متمسكا بالشرك تديناً ومقدماً على قتل الموءودة تديناً وعلى الزنا تديناً ، فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن ، حتى يضاف إلى ذلك كونه مجانباً لهذه الكبائر ، وأجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر: فقال المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار ، كأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، وأنتم تدعون (ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق) وأنتم تقتلون الموءودة ، (ولا يزنون) وأنتم تزنون .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما معنى قوله (ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق) ومعلوم أنه من يحل قتله لا يدخل فى النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء ؟ (الجواب) المقتضى لحرمة القتل قائم أبداً ، وجواز القتل إنما ثبت بالمعارض فقوله (حرم الله) إشارة إلى المقتضى وقوله (إلا بالحق) إشارة إلى المعارض .

﴿السؤال الثالث﴾ بأى سبب يحل القتل ؟ (الجواب) بالردة وبالزنا بعد الإحصان ، وبالقتل قوداً ، على ما فى الحديث ، وقيل وبالمحاربة وبالبينة ، وإن لم يكن لما شهدت به حقيقة .

﴿ السؤال الرابع ﴾ منهم من فسر قوله (ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق) بالردة فهل يصح ذلك ؟ (الجواب) لفظ القتل عام فيتناول الكل . وعن ابن مسعود «قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تزنى بحليلة جارك » فأنزل الله تصديقه .

﴿السؤال الخامس﴾ ما الأثام ؟ (الجواب) فيه وجوه (أحدها)أن الأثام جزاء الإثم ، بوزن الوبال والنكال (وثانيها) وهو قول أبى مسلم: أن الأثام والإثم واحد ، والمراد ههنا جزاء الأثام فأطلق اسم الشيء على جزائه (وثالثها) قال الحسن : الأثام اسم من أسماء جهنم . وقال مجاهد : أثاماً واد فى جهنم ، وقرأ ابن مسعود أثاماً ، أى شديداً ، يقال يوم ذو أثام لليوم العصيب .

أما قوله (يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يضاعف ، بدل من يلق ، لأنهما فى معنى واحد ، وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب ، وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال ، وكذلك يخلد ويخلد على البناء للمفعول مخففاً ومثقلا من الإخلاد والتخليد ، وقرئ وتخلد بالتاء على الالتفات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ سبب تضعيف العذاب ، أن المشرك إذا ارتكب المعاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعاً ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه ، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القاضى : بين الله تعالى أن المضاعفة والزيادة يكون حالها فى الدوام كحال الأصل ، فقوله (ويخلد فيه) أى ويخلد فى ذلك التضعيف ، ثم إن ذلك التضعيف إنما حصل بسبب العقاب على المعاصى ، فوجب أن يكون عقاب هذه المعاصى فى حق الكافر دائماً ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وإذا كان كذلك وجب أن يكون فى حق المؤمن كذلك ، لأن حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره أو منفرداً (والجواب) لم لا يجوز أن يكون للاتيان بالشيء مع غيره أثر فى مزيد القبح ، ألا ترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما فى نفسه حسناً وإن كان الجمع بينهما قبيحاً ، وقد يكون كل واحد منهما قبيحاً ، ويكون الجمع بينهما أقبح ، فكذا ههنا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ويخلد فيه مهاناً) إشارة إلى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالإذلال والإهانة ، كما أن الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم .

أما قوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ دلت الآية على أن التوبة مقبولة ، والاستثناء لايدل على ذلك ، لأنه أثبت أنه يضاعف له العذاب ضعفين ، فيكفي لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين ، وإنما الدال عليه قوله (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل عن ابن عباس أنه قال : توبة القاتل غير مقبولة ، وزعم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) وقالوا نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة ، وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين ، وقد تقدم الكلام فى ذلك فى سورة النساء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فإن قيل العمل الصالح يدخل فيه التوبة والإيمان ، فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوا ، قلنا أفردهما بالذكر لعلو شأنهما ، ولما كان لابد معهما من سائر الأعمال لاجرم ذكر عقيبهما العمل الصالح .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا فى المراد بقوله (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) على وجوه (أحدها) قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة : إن التبديل إنما يكون فى الدنيا ، فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الأعمال فى الإسلام فيبدلهم بالشرك إيماناً ، وبقتل المؤمنين قتل المشركين ، وبالزنا عفة وإحصاناً ، فكأنه تعالى يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب (وثانيها) قال الزجاج : السيئة بعينها لا تصير حسنة ، ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات . (وثالثها) قال قوم : إن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية ، وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ، ويحتجون بما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات » وعلى هذا التبديل فى الآخرة (ورابعها) قال القفال والقاضي : أنه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما ، وإذا حمل على ذلك كانت الإضافة إلى الله حقيقة لأن الإثابة لا تكون إلا من الله تعالى .

أما قوله تعالى (ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب إلى الله متاباً) ففيه سؤالان :

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾

﴿ السؤال الأول ﴾ ما فائدة هذا التكرير ؟ (الجواب) من وجهين (الأول) أن هذا ليس بتكرير لأن الأول لما كان فى تلك الخصال بين تعالى أن جميع الذنوب بمنزلتها فى صحة التوبة منها (الثانى) أن التوبة الأولى رجوع عن الشرك والمعاصى ، والتوبة الثانية رجوع إلى الله تعالى للجزاء والمكافأة كقوله تعالى (عليه توكلت وإليه متاب) أى مرجعى .

﴿السؤال الثانى﴾ هل تكون التوبة إلا إلى الله تعالى فما فائدة قوله (فإنه يتوب إلى الله متابا)؟ (الجواب) من وجوه (الأول) ما تقدم من أن التوبة الأولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع إلى حكم الله تعالى وثوابه (الثانى) معناه أن من تاب إلى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم (الثالث) قوله (ومن تاب) يرجع إلى الماضى فإنه سبحانه ذكر أن من أتى بهذه التوبة فى الماضى على سبيل الإخلاص فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة فى المستقبل، وهذا من أعظم البشارات .

﴿ الصفة السابعة ﴾ قوله تعالى ﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ الزور يحتمل إقامة الشهادة الباطلة ، ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة الزور لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى (فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) ويحتمل حضور كل موضع يجرى فيه ما لا ينبغى ويدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفساق ، لأن من خالط أهل الشر ونظر إلى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم فى تلك المعصية ، لأن الحضور والنظر دليل الرضا به ، بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه ، لأن الذى حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر إليه ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد مجالس الزور التى يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله ، وقال محمد ابن الحنفية الزور الغناء ، واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله فى الكذب أكثر .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ الأصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك ، ومنهم من فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة ، وهو ضعيف لأن المباحات لا تعد لغواً فقوله (وإذا مروا باللغو) أى بأهل اللغو .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ لا شبهة فى أن قوله (مروا كراماً) معناه أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو وإكرامهم لها لا يكون إلا بالإعرض وبالإنكار وبترك المعاونة والمساعدة ، ويدخل فيه الشرك واللغو فى القرآن وشتم الرسول ، والخوض فيما لا ينبغى . وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند الحلب تكرماً ، كأنها لا تبالى بما يحلب منها للغزارة ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

فاستعير ذلك للصفح عن الذنب ، وقال الليث يقال تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه(١) ونظير هذه الآية قوله (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) وعن الحسن لم تسفههم المعاصي وقيل إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا ، وقيل إذا ذكر النكاح كنوا عنه .

﴿ الصفة الثامنة ﴾ قوله تعالى ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ قال صاحب الكشاف قوله (لم يخروا عليها صماً وعمياناً) ليس بنفي للخرور ، وإنما هو إثبات له ونفي للصم والعمى كما يقال لا يلقاني زيد مسلماً ، هو نفي للسلام لا للقاء ، والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها ، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية ، مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والصميان حيث لا يفهمونها ولا يبصرون ما فيها كالمنافقين .

﴿ الصفة التاسعة ﴾ قوله تعالى ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم (ذرياتنا) بألف الجمع وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحداً وجمعاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه لا شبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم في الدين لا في الأمور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهان (أحدهما) أنهم سألوا أزواجا وذرية في الدنيا يشاركونهم فأحبوا أن يكونوا معهم في التمسك بطاعة الله تعالى فيقوى طمعهم في أن يحصلوا معهم في الجنة فيتكامل سرورهم في الدنيا بهذا الطمع وفي الآخرة عند حصول الثواب (والثاني) أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذريتهم بهم في الجنة ليتم سرورهم بهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فإن قيل من في قوله (من أزواجنا) ما هي ؟ قلنا يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل (هب لنا قرة أعين) ثم بينت القرة ، وفسرت بقوله (من أزواجنا) وهو من قولهم

---

(١) في الأصل عنها ، ولعل الصواب ما أثبته لأن الضمير راجع إلى (مايشينه) وهو واقع على مذكر .

www.besturdubooks.wordpress.com

أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ

رأيت منك أسداً أى أنت أسد ، وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ماتقر به عيوننا من طاعة وصلاح ، فإن قيل لم قال قرة أعين فنكر وقلل ؟ قلنا أما التنكير فلأجل تنكير القرة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قال : هب لنا منهم سروراً وفرحا . وإنما قال أعين دون عيون لأنه أراد أعين المتقين وهى قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ، قال تعالى (وقليل من عبادى الشكور) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الزجاج أقر الله عينك أى صادف فؤادك ما يحبه ، وقال المفضل فى قرة العين ثلاثة أقوال (أحدها) برد دمعتها وهى التى تكون مع الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة (والثانى) نومها لأنه يكون مع ذهاب الحزن والوجع (والثالث) حصول الرضا .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (واجعلنا للمتقين إماماً) الأقرب أنهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم فى الطاعة المبلغ الذى يشار إليهم ويقتدى بهم ، قال بعضهم فى الآية ما يدل على أن الرياسة فى الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) وقيل نزلت هذه الآيات فى العشرة المبشرين بالجنة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، قالوا لأن الإمامة فى الدين لا تكون إلا بالعلم والعمل ، فدل على أن العلم والعمل إنما يكون بجعل الله تعالى وخلقه ، وقال القاضى المراد من السؤال الألطاف التى إذا كثرت صاروا مختارين لهذه الأشياء فيصيرون أئمة و(الجواب) أن تلك الألطاف مفعولة لامحالة فيكون سؤالها عبثاً .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال الفراء : قال إماما ، ولم يقل أئمة كما قال للاثنين (إنا رسول رب العالمين) ويجوز أن يكون المعنى اجعل كل واحد منا إماماً كما قال (يخرجكم طفلا) وقال الأخفش الإمام جمع واحده آم كصائم وصيام . وقال القفال وعندى أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل اجعلنا حجة للمتقين ، ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان . واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك أنواع إحسانه إليهم وهى مجموعة فى أمرين المنافع والتعظيم .

(أما المنافع) فهى قوله ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ﴾ والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله (وهم فى الغرفات آمنون) وقال (لهم غرف من فوقها غرف) والغرفه فى اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية . وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة ، فالمعنى يجزون الجنة وهى جنات كثيرة ، وقرأ بعضهم : أولئك يجزون فى الغرفة وقوله (بما صبروا) فيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ احتج بالآية من ذهب إلى أن الجنة بالاستحقاق ، فقال الباء فى قوله (بما

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

صبروا) تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك .

﴿ البحث الثانى ﴾ ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه ، ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال فى معرفة الله تعالى ، وعلى مشاق الطاعات ، وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق أذى المشركين . وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس . فلا وجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة ، لأن هذه الصفات إذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر .

(وثانيهما التعظيم) وهو قوله تعالى ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاماً ﴾ قرىء (يلقون) كقوله (ولقاهم نضرة وسروراً) ويلقون كقوله (يلق أثاما) ، والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة ، فيرجع حاصل التحية إلى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع ، ويرجع السلام إلى كون ذلك النعيم خالصا عن شوائب الضرر ، ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله (سلام قولا من رب رحيم) ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض .

أما قوله ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ فالمراد أنه سبحانه لما وعد بالمنافع أولا وبالتعظيم ثانياً ، بين أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله (خالدين فيها) ومن صفتهما الخلوص أيضاً وهو المراد من قوله (حسنت مستقراً ومقاما) وهذا فى مقابلة قوله (ساءت مستقراً ومقاما) أى ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا .

أما قوله ﴿ قل مايعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما شرح صفات المتقين ، وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول (قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم) فدل بذلك على أنه تعالى غنى عن عبادتهم ، وأنه تعالى إنما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الخليل ما أعبأ بفلان أى ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره ، وقال أبو عبيدة ما أعبأ به أى وجوده وعدمه عندى سواء ، وقال الزجاج معناه أى لا وزن لكم عند ربكم ، والعبء فى اللغة الثقل ، وقال أبو عمرو بن العلاء ما يبالى بكم ربى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى ما قولان أحدهما أنها متضمنة لمعنى الاستفهام وهى فى محل النصب وهى عبارة عن المصدر ، كأنه قيل وأى عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم ، والثانى أن تكون ما نافية .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى قوله (لولا دعاؤكم) وجهين : (أحدهما) لولا دعاؤه إياكم إلى الدين والطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف إلى المفعول (وثانيهما) أن الدعاء مضاف إلى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوهاً : (أحدها) لولا دعاؤكم لولا إيمانكم (وثانيها) لولا عبادتكم (وثالثها) لولا دعاؤكم إياه فى الشدائد كقوله (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله) (ورابعها) دعاؤكم يعني لولا شكركم له على إحسانه لقوله (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم) (وخامسها) ما خلقتكم وبى إليكم حاجة إلا أن تسألونى فأعطيكم وتستغفرونى فأغفر لكم .

أما قوله (فقد كذبتم) فالمعنى أنى إذا أعلمتكم أن حكمى أنى لا أعتد بعبادى إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم وهو عقاب الآخرة ، ونظيره أن يقول الملك لمن استعصى عليه : إن من عادتى أن أحسن إلى من يطيعنى ، وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك . فإن قيل إلى من يتوجه هذا الخطاب ؟ قلنا إلى الناس على الإطلاق ، ومنهم عابدون ومكذبون عاصون ، فخوطبوا بما وجد فى جنسهم من العبادة والتكذيب ، وقرىء فقد كذب الكافرون فسوف يكون العذاب لزاما ، وقرىء (لزاما) بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت ، والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ماعلم أنه مما توعد به لأجل الإبهام ويتناول ما لا يحيط به الوصف ، ثم قيل هذا العذاب فى الآخرة ، وقيل كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله ، والله أعلم .

تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على سيدنا محمد النبي الأمى وآله وصحبه أجمعين .

www.besturdubooks.wordpress.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفرقان

مكيَّةٌ كلها في قول الجمهور[١]. وقال ابنُ عباس وقتادة: إلا ثلاث آياتٍ منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢] [الآية:٦٨-٧٠] وقال الضحَّاك: هي مدنيةٌ، وفيها آيات مكية؛ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيات[٣].

ومقصودُ هذه السورة ذِكرُ موضع عِظم[٤] القرآن، وذِكْرُ مطاعنِ الكفَّار في النبوَّة، والردُّ على مقالاتهم[٥]، فمن جملتها قولُهم: إنَّ القرآن افتراه محمدٌ، وإنه ليس من عند اللهِ[٦].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ «تَبارَكَ» اختلف في معناه؛ فقال الفرَّاءُ: هو

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٠ ، وزاد المسير ٦/ ٧١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

(٤) في النسخ: عظيم . والمثبت من (م).

(٥) بعدها في (م) وجهالاتهم .

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

في العربية و«تقدَّس» واحدٌ، وهما للعظَمة. وقال الزجاج: «تَبَارَكَ»: تَفَاعَلَ من البركة. قال: ومعنى البَرَكَة: الكَثْرَةُ من كلِّ ذي خيرٍ. وقيل: «تَبَارَكَ»: تعالى. وقيل: تعالى عطاؤه، أي: زاد وكثُر. وقيل: المعنى دام وثبَت إنعامُه. قال النحاس[1]: وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق؛ من بَرك الشيءُ: إذا ثبَت، ومنه: بَرك الجملُ والطيرُ على الماء، أي: دام وثبت. فأما القولُ الأوَّل فمخلَّط؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة، وليس من ذا في شيءٍ. قال الثعلبيُّ: ويقال: تبارك اللهُ، ولا يقال له[2]: متبارَكٌ ولا مبارَكٌ؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته إلى حيث ورَد التوقيفُ. وقال الطِّرِمَّاح:

تباركتَ لا مُعطي لشيءٍ منعتَه وليس لِما أعطيتَ يا ربِّ مانعُ[3]

وقال آخر:

تَبَارَكْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ[4]

قلت: قد ذكر بعضُ العلماءِ في أسمائه الحسنى: «المبارك»، وذكرناه أيضاً في كتابنا[5]. فإن كان وقع اتفاقٌ على أنه لا يقال، فيسلَّم للإجماع، وإن كان وقع فيه اختلاف؛ فكثيرٌ من الأسماء اختُلف في عدِّه؛ كالدَّهر وغيرِه. وقد نبَّهنا على ذلك هنالك، والحمدُ للهِ.

و«الفرقان»: القرآن. وقيل: إنه اسمٌ لكلِّ مُنزَّل، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وفي تسميته فرقاناً وجهان:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥١، وما قبله منه، وينظر قول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٢، وقولُ الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٥٧.

(٢) لفظة: له من النسخ الخطية.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) عجز بيت لأبي صخر الهذلي، وصدره: ولا عائداً ذاك الزمان الذي مضى. وسلف ١٤/ ٢٧١.

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من كتاب الأسنى للمصنف، ومعلومٌ أن أسماءه سبحانه وصفاته توقيفية كما ذكر الثعلبي وغيره من العلماء.

أحدهما: لأنه فرَق بين الحقِّ والباطل، والمؤمنِ والكافر.

الثاني: لأن فيه بيانَ ما شرع من حلالٍ وحرام؛ حكاه النقاش[١]. ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ يريد محمَّداً ﷺ. ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ اسم «يَكُونَ» فيها مضمر يعود على «عَبْدِهِ» وهو أوْلى لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون يعود على «الفرقان».

وقرأ عبدُ الله بن الزبير: «عَلَى عِبَادِهِ»[٢]. ويقال: أنذر: إذا خوَّف؛ وقد تقدَّم في أول «البقرة»[٣]. والنذير: المحذِّر من الهلاك. الجوهريُّ[٤]: والنذير: المنذِرُ، والنذير: الإنذارُ.

والمراد بـ«العالَمِين» هنا الإنس والجِنُّ، لأن النبيَّ ﷺ قد كان رسولاً إليهما، ونذيراً لهما، وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عامَّ الرسالة إلا نوحٌ؛ فإنه عمَّ برسالته جميعَ الإنس بعد الطوفان؛ لأنه بَدأ به الخَلقَ[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عظَّمَ تعالى نفسَه. ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا﴾ نزَّه سبحانه وتعالى نفسه عمَّا قاله المشركون من أن الملائكة أولادُ اللهِ؛ يعني بنات الله سبحانه وتعالى، وعما قالت اليهودُ: عُزَيرٌ ابن الله؛ جلَّ اللهُ تعالى، وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله؛ تعالى اللهُ عن ذلك. ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ كما قال عبدةُ الأوثان[٦]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثَّنَوِيَّة[٧]: إن الشيطان أو الظُّلْمةَ يخلقُ بعضَ الأشياء. ولا كما يقول من قال: للمخلوق قدرةُ الإيجاد. فالآية ردٌّ على هؤلاء[٨]. ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا﴾ أي: قدَّر كلَّ شيءٍ مما خلَق

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٣١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٧.

(٣) ١/ ٢٨١.

(٤) في الصحاح (نذر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٣١.

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٣٩٦، والوسيط ٣/ ٣٣٢.

(٧) الثَّنَوية: فرقة زعمت أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام ... اهـ. الملل والنحل ١/ ٢٤٤.

(٨) ينظر تفسير الرازي ٤/ ٤٦، والفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ص٢٦١.

بحكمته على ما أراد، لا عن سَهوٍ[١] وغَفْلة، بل جَرَت المقاديرُ على ما خلق اللهُ إلى يوم القيامة وبعد القيامة، فهو الخالق المقدِّر؛ فإياه فاعبدوه.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ذكر ما صنَع المشركون على جهة التعجيبِ[٢] في اتخاذهم الآلهة، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يعني الآلهة. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمَّا اعتقَد الكفار[٣] فيها أنها تضرُّ وتنفع، عبَّر عنها كما يعبِّر عما يَعقل. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا دفع ضرٍّ وجلب نفع، فحذف المضاف.

وقيل: لا يقدرون أن يضروا أنفسَهم أو ينفعوها بشيءٍ، ولا لمن يعبدهم، لأنها جمادات. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: لا يُميتون أحداً، ولا يُحيونه[٤]. والنُّشور: الإحياءُ بعد الموت؛ أنشَر اللهُ الموتى فنشروا. وقد تقدَّم[٥]. وقال الأعشى[٦]:

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا   يا عجباً للميِّتِ النَّاشِرِ

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني مشركي قريش. وقال ابنُ عباس: القائل

---

(١) في (د) و(ف) شهوة، وفي (م) سهوة، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) في (د) و(ظ): التعجب، وفي (ز): النعت.

(٣) في (م): المشركون.

(٤) ينظر زاد المسير ٦/ ٧٢.

(٥) ٩/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٦) ديوانه ص١٩١.

منهم ذلك النضرُ بن الحارث ؛ وكذا كلُّ ما كان في القرآن فيه ذكر الأساطير[١] . قال محمد بن إسحاق: وكان مؤذياً للنبيِّ ﷺ[٢]. ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يعني القرآن .﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: كَذِبٌ اخْتَلَقه .﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعني اليهود؛ قاله مجاهد[٣]. وقال ابن عباس: المراد بقوله: «قَوْمٌ آخَرُونَ»: أبو فُكَيْهة مولى بني الحضرمي، وعدّاس، وجبر ، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب[٤] . وقد مضى في «النحل» ذِكْرُهم[٥] ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ أي: بظلم. وقيل: المعنى: فقد أتوا ظلماً ﴿وَزُورًا . وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال الزجاج[٦]: واحد الأساطير أسطورة؛ مثل: أحدوثة وأحاديث.

وقال غيره: أساطير جمع أسطار ؛ مثل أقوال وأقاويل[٧]. ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعني محمداً. ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلقى عليه وتقرأ .﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ حتى تُحفظ[٨]. و«تملى» أصله: تُملَل، فأبدلت اللام الأخيرة ياء [هرباً] من التضعيف[٩]: كقولهم: تقَضّى البازي[١٠]؛ وشبهه.

(١) النكت والعيون ٤/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ .

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٠ مطولاً، وأخرجه الطبري في التفسير ١٧/ ٣٩٩-٤٠٠ عن ابن عباس، من رواية ابن إسحاق.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٤٧ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٢٩٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٣٦٦٣ (١٤٩٧٢).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٧٢-٧٣ عن قتادة.

(٥) ١٢/ ٤٢٨ .

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٥٨ .

(٧) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢٠٢ .

(٨) زاد المسير ٦/ ٧٣ .

(٩) ينظر سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٥٨ وما بين حاصرتين منه.

(١٠) قال الزبيدي في تاج العروس (قض): الأصل: تقضض، فلما اجتمعت ثلاث ضادات؛ قلبت إحداهنَّ ياءً، كما قالوا: تمطى، وأصله: تمطط، أي: تمدد، وكذلك: تظنى من الظن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: قل يا محمد: أنزَل هذا القرآنَ الذي يعلم السرَّ، فهو عالِمُ الغيبِ، فلا يحتاج إلى مُعلِّم.

وذكر «السرَّ» دون الجهر؛ لأنه مَن علم السِّر فهو في الجهر أعلم. ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لَمَا زاد عليها، وقد جاء بِفُنون تخرج عنها، فليس مأخوذاً منها. وأيضاً: ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكَّن محمدٌ ﷺ؛ فهلَّا عارَضوه؟! فبطَل اعتراضُهم من كلِّ وجهٍ[١]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: «وَقَالُوا»؛ ذكَر شيئاً آخرَ من مطاعنهم. والضمير في «قَالُوا» لقريش؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهور، وقد تقدَّم في «سبحان»[٣]. ذكره ابن إسحاق في السيرة وغيره، مضمَّنه: أنَّ سادتهم عتبةَ بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا: يا محمد، إن كنتَ تحبُّ الرياسةَ وَلَّيناك علينا، وإن كنتَ تحب المالَ جمعنا لك من أموالنا. فلمَّا أَبَى رسولُ الله ﷺ عن ذلك رجَعوا في باب الاحتجاج معه، فقالوا: ما بالُك وأنت رسولُ الله تأكلُ الطعامَ، وتقِفُ بالأسواق[٤]!

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ٥١.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٣٤.

(٣) ٢٣/ ١٧٢ وما بعدها.

(٤) في (ظ) في الأسواق، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠-٢٠١، وعنه نقل المصنف كلام ابن إسحاق، وهو بنحوه في السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤.

فعيَّروه بأكل الطعام؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسولُ ملَكاً، وعيَّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرةَ والقياصرةَ والملوك الجبابرةَ يَترفَّعون عن الأسواق، وكان عليه الصلاة والسلام يخالطهم في أسواقهم، ويأمرُهم ويَنْهاهم؛ فقالوا: هذا يَطلب أن يتملَّك علينا، فماله يخالف سيرةَ الملوك؟ فأجابهم اللهُ بقوله، وأنزل على نبيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] فلا تَغْتَمَّ ولا تَحزن، فإنها شَكاة ظاهرٌ عنك عارُها[١].

الثانية: دخولُ الأسواق مباحٌ للتجارة وطلبِ المعاش. وكان عليه الصلاة والسلام يَدخلها لحاجته؛ ولتذكرة الخلق بأمر اللهِ ودعوته، ويَعرِض نفْسَه فيها على القبائل، لعلَّ اللهَ أن يرجع بهم إلى الحقّ[٢]. وفي البخاري[٣] في صفته عليه الصلاة والسلام: «ليس بفظٍّ ولا غلِيظ ولا سخَّاب في الأسواق» وقد تقدَّم في «الأعراف»[٤].

وذِكر السوق مذكور في غير ما حديثٍ، ذكره أهلُ الصحيح. وتجارة الصحابة فيها معروفة، وخاصةً المهاجرين؛ كما قال أبو هريرة: وإنَّ إخواننا من المهاجرين كان يَشغلُهم الصَّفْق بالأسواق؛ خرَّجه البخاري[٥]. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله[٦].

---

(١) في قوله: «شكاة ظاهر عنك عارها» تضمين لبيت أبي ذؤيب الهُذلي

وعيَّرها الواشون أني أحبُّها ... وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارُها

وسلف في تفسير الآية (٢٢) من سورة الكهف.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٢، والكلام بنحوه في السيرة النبوية ١/ ٣٠٩.

(٣) برقم (٢١٢٥) وهو من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) ٩/ ٣٥٤.

(٥) برقم (١١٨) وهو عند أحمد (٧٢٧٥)، ومسلم (٢٤٩٢).

وقوله: الصَّفْقُ: قال السندي: كناية عن البيع والشراء، أي: أنهم كانوا أصحاب تجارات، وكان الأنصار أصحابَ زرعات وبساتين.

(٦) عند تفسير الآية (٢٠).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلّا. ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ جوابُ الاستفهام. ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ﴾ في موضع رفع؛ والمعنى: أوْ هَلّا يُلقى ﴿إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ﴿أَوْ﴾ هلّا ﴿تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[١] «يأكُلُ» بالياء قرَأ المدنيون وأبو عمرو وعاصمٌ. وقرَأ سائر الكوفيين بالنون[٢]، والقراءتان حَسنتان تؤديان عن معنى، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه قد تقدَّم ذِكْرُ النبيِّ ﷺ وحدَه، فأَنْ يعودَ الضميرُ عليه أبين؛ ذكره النحاس[٣]. ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ تقدَّم في «سبحان»[٤] والقائلُ عبدُ الله بن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماورديُّ[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: ضرَبوا لك هذه الأمثالَ ليتوصلوا إلى تكذيبك، ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن سبيل الحقِّ وعن بلوغ ما أرادوا. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ﴾ شرطٌ ومجازاة، ولم يُدغم «جَعَلَ لَكَ» لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين[٦]. ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ في موضع جزْم عطفاً على موضع «جعل». ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعاً من الأول. وكذلك قَرَأ أهلُ الشام. ويروى عن عاصمٍ أيضاً: «وَيَجْعلُ لَكَ» بالرفع، أي: وسيَجعلُ لك في الآخرة قصوراً[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٢ .

(٢) قرأ حمزة والكسائي بالنون، والباقون من السبعة بالياء. السبعة ص٤٦٢ ، والتيسير ص١٦٣ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٢-١٥٣ .

(٤) ١٣/ ٩٧ .

(٥) في النكت والعيون ٤/ ١٣٤ .

(٦) وهو هنا من الإدغام الكبير لأبي عمرو من رواية السوسي.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٣ ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية شعبة: ويجعلُ، =

قال مجاهد: كانت قريشٌ ترى البيتَ من حجارة يسمى[١] قصراً كائناً ما كان[٢].

والقصر في اللغة: الحبس، وسمي القصر قصراً لأن مَن فيه مقصورٌ عن أن يُوصَل إليه[٣].

وقيل: العرب تسمي بيوتَ الطين القَصْرَ، وما يُتخذ من الصوف والشَّعَر البيتَ[٤]؛ حكاه القُشَيريُّ.

وروى سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خَيْثَمة قال: قيل للنبيِّ ﷺ: إن شئتَ أن نُعطيَك خزائنَ الدنيا ومفاتيحها، ولم يُعْطَ ذلك مَن قبلك ولا يعطاه أحدٌ بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئاً؛ وإن شئتَ جمعنا لك ذلك في الآخرة؛ فقال: «يجمع[٥] ذلك لي في الآخرة». فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[٦].

ويروى أن هذه الآيةَ أنزلها رضوان خازنُ الجِنان إلى النبيِّ ﷺ، وفي الخبر: إن رضوان لمَّا نَزَل سلَّم على النبيِّ ﷺ، ثم قال: يا محمد! ربُّ العِزَّة يُقرئك السلامَ، وهذا سَفَط[٧] ـ فإذا سَفَط[٨] مِن نور[٩] يتلألأ ـ يقول لك ربُّك: هذه مفاتيحُ خزائنِ الدنيا، مع أنه لا ينقص مالَك في الآخرة مثلَ جناح بعوضة؛ فنظر النبيُّ ﷺ إلى جبريلَ كالمستشير له، فضَرب جبريل بيده الأرضَ؛ يُشير[١٠] أن تَواضع، فقال: «يا

= بالرفع، والباقون بالجزم. السبعة ص٤٦٢ . والتيسير ص١٦٣ .

(١) لفظة يسمى من (ظ).

(٢) تفسير مجاهد ٢/٤٤٨ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/٤٠٧ ، وابن أبي حاتم ٨/٢٦٦٦ (١٤٩٩٦).

(٣) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٨/٣٥٩.

(٤) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٢٠١ .

(٥) في (ظ) تجمع.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٠٩ ، وابن أبي حاتم ٨/٢٦٦٦ (١٤٩٩١)، وهو مرسل . وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/٤٠٨ عن حبيب قال: قيل للنبي ﷺ.

(٧) في النسخ الخطية: سوط. والمثبت من (م)، والسَّفَط وعاء، كالقُفَّة. القاموس (سفط).

(٨) في (د) و(ز) سوط ، وفي (ظ) و(ف) بسوط، والمثبت من (م).

(٩) في (د) لؤلؤ.

(١٠) بعدها في (ظ): إلى .

رضوان، لا حاجة لي فيها، الفقرُ أحبُّ إليَّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً». فقال رضوان: أَصبتَ! أصاب[١] اللهُ لك. وذكر الحديث[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ يريد يومَ القيامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يريد جهنم تتلظّى عليهم. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: من مسيرة خمس مئة عام[٣]. ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قيل: المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوتَ التغيُّظ عليهم. وقيل: المعنى: إذا رأتهم خزَّانُها سمعوا لهم[٤] تغيظاً وزفيراً حرصاً على عذابهم[٥]. والأول أصحُّ؛ لِما روي مرفوعاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن كذَب عليَّ متعمِّداً فليتبوأ بَيْنَ عيني جهنمَ مقعداً» قيل: يا رسول الله! ولها عينان؟ قال: «أما سمعتم اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾»[٦]. يخرج عُنُقٌ من النار له عينان تبصران، ولسانٌ يَنْطق فيقول: وُكِّلت بكلِّ مَن جَعَلَ مع

(١) لفظة أصاب من (ز) وأسباب النزول. وجاءت العبارة في (ز): أصاب اللهُ بك.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٥-٣٤٦ عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا إسناد ضعيف جداً.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٥٥.

(٤) في النسخ الخطية: لها، والمثبت من (م).

(٥) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٤/ ٥٦.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٠٩، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٧ (١٤٩٩٩) عن خالد بن دريك، عن رجل من أصحاب محمد ﷺ... وخالد بن دُريك؛ قال الحافظ ابن حجر في التقريب: ثقة يرسل. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٣١-١٣٢ (٧٥٩٩) من حديث أبي أمامة. قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٤٨: رواه الطبراني في الكبير وفيه الأحوص بن حكيم، ضعفه النسائي وغيره، ووثقه العجلي ويحيى بن سعيد القطان في رواية، ورواه عن الأحوص محمدُ بن الفضل بن عطية، وهو ضعيف.

وقوله ﷺ: «مَنْ كذب عليَّ متعمداً فليتبوَّأ مقعده من النار» صحيح متواتر، وسلف ١/ ٥٧.

اللهِ إلهاً آخرَ ، فلَهُو أبصرُ بهم من الطير بِحَبِّ السِّمْسِم فيلتقطه»[١].

وفي رواية: «فيَخرج عُنُقٌ من النار فيلتقطُ الكفارَ لَقْطَ الطائرِ حبَّ السِّمْسِم» ذكره رَزِين في كتابه، وصححَّه ابنُ العربي في قبسه[٢]، وقال: أي: يَفْصِلهم[٣] عن الخلق في المعرفة كما يَفصل الطائرُ حبَّ السِّمسِمِ من التربة.

وخرَّجَه الترمذيُّ من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يَخرج عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وُكِّلت بثلاث: بكلِّ جَبَّار عنيد ، وبكلِّ مَن دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصوِّرين».

وفي الباب عن أبي سعيدٍ . قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ غريب صحيحٌ[٤].

وقال الكلبيُّ: سمعوا لها تغيظاً كتغيظ بني آدم وصوتاً كصوت الحمار[٥].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير ، سمعوا لها زفيراً وعلموا لها تغيُّظاً.

وقال قطرب: التغيظ لا يُسمع ، ولكن يُرى ، والمعنى: رأوا لها تغيظاً، وسمعوا لها زفيراً[٦]؛ كقول الشاعر:

ورأيت زوجَكِ في الوَغَى ... مُتقلِّدا سيفاً ورُمحا

أي: وحاملاً رمحاً[٧].

وقيل: «سَمِعُوا لَهَا» أي: فيها، أي: سمعوا فيها تغيُّظاً وزفيراً للمعذَّبين ، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦] و«في» واللام يتقاربان؛ تقول: أفعل هذا في اللهِ ولله.

---

(١) أخرجه بنحوه الحارث بن أسامة (١١٢٢) (بغية الباحث) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً.
(٢) ١/ ١٠٩-١١٠ .
(٣) في (ز) و(ف) و(م) تفصلهم . والمثبت من (ظ) والقبس.
(٤) سنن الترمذي (٢٥٧٤)، وحديثا أبي هريرة وأبي سعيد عند أحمد برقمي (٨٤٣٠) و(١١٣٥٤).
وقوله: «عنُق» أي: طائفة منها. النهاية (عنق).
(٥) هو في تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٥ دون نسبة، وجاءت العبارة في (ظ): تغيظاً وزفيراً كغيظ بني آدم...
(٦) ذكره عنه الرازيُّ - بنحوه - في تفسيره ٢٤/ ٥٦ .
(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٣ والبيت قائله عبد الله بن الزبعرى. ديوانه ص٣٢ ، وسلف ١/ ٢٩١ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن عبدَ اللهِ كان يقول: إن جهنَّمَ لتضيَّق على الكافر كتضييق الزُّج على الرمح؛ ذكره ابن المبارك في رقائقه[(١)]. وكذا قال ابن عباس، ذكره الثعلبي والقُشَيريُّ عنه، وحكاه الماورديُّ عن عبد الله بن عمرو[(٢)]. ومعنى «مُقَرَّنين»: مكتَّفينَ؛ قاله أبو صالح. وقيل: مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: قُرِنوا مع الشياطين، أي: قُرِن كلُّ واحدٍ منهم إلى شيطانه؛ قاله يحيى بن سلام[(٣)]. وقد مضى هذا في «إبراهيم»[(٤)] وقال عمرو بن كلثوم:

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا وأُبْنَا بالملوكِ مُقَرَّنِينا

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: هلاكاً؛ قاله الضحاك. ابن عباس: ويْلاً[(٥)].

ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: أول مَن يقوله إبليس، وذلك أنه «أولُ مَن يُكْسَى حُلَّةً من النار، فتوضعُ على حَاجبيه، ويَسْحَبُها من خَلْفه، وذُرِّيَّتُه مِن خلْفه، وهو يقول: واثُبُوراه»[(٦)].

وانتصب على المصدر، أي: ثَبَرنا ثبوراً؛ قاله الزجاج[(٧)]. وقال غيره: هو

---

(١) في زوائد نعيم بن حماد ص٨٦ (٢٩٩)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨ (١٥٠٠٦) وقال: لم يروه عنه إلا ابن المبارك.

وقوله الزُّج: هو الحديدة في أسفل الرُّمح. القاموس (زجج).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٤، وفيه أيضاً قول أبي صالح الآتي. وأخرجه عنه ابنُ أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨ (١٥٠٠٧)، و ٢٦٦٩ (١٥٠٠٨).

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٣٤، والكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٦٣.

(٤) ١٢/ ١٧٠-١٧١، وسلف ثمة بيت عمرو الآتي، وسلف البيت أيضاً ٢/ ١٥٥.

(٥) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ١٧/ ٤١١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٩ (١٥٠١٣) عن ابن عباس و(١٥٠١٤) عن الضحاك.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١٢٥٣٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب قوله: واثبوراه قال السندي كما في حاشية المسند: كأنه ينادي الهلاكَ، ويقول له: هذا أوانك فالحقني.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٥٩-٦٠، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٧٦.

مفعول به.

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فإنَّ هلاككم أكثرُ من أن تدعوا مرَّةً واحدة. وقال: ثبوراً؛ لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، فلذلك لم يجمع، وهو كقولك: ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلاً. ونَزلت الآياتُ في ابن خَطَل وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾.

إن قيل: كيف قال: «أَذَٰلِكَ خَيْرٌ» ولا خيرَ في النار؟ فالجواب: أن سيبويه حكى عن العرب: الشقاءُ أحبُّ إليك أم السعادة؟ وقد علم أن السعادةَ أحبُّ إليه.

وقيل: ليس هو من باب أفعل منك، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس[1]: وهذا قولٌ حسن؛ كما قال:

فَشَرُّكُما لِخَيرِكُما الفِداءُ[2]

قيل: إنما قال ذلك؛ لأنَّ الجنةَ والنارَ قد دَخلتا في باب المنازل[3]؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين.

وقيل: هو مردودٌ على قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الآية.

وقيل: هو مردودٌ على قوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤، وما قبله منه.

(٢) عجز بيت لحسان بن ثابت ﷺ، وصدره: أتهجوه ولست له بكفءٍ. وهو في ديوانه ص٦٤، وسلف ١/ ٣٤٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٠.

﴿مِنْهَا﴾ .وقيل: إنما قال ذلك على معنى: عِلمكم واعتقادُكم أيها الكفار؛ وذلك أنهم لمَّا كانوا يَعملون عملَ أهلِ النار صاروا كأنهم يقولون: إن في النار خيراً.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: من النعيم. ﴿خَـٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ قال الكلبيُّ: وَعَدَ اللهُ المؤمنين الجنةَ جزاءً على أعمالهم، فسألوه ذلك الوعدَ فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]. وهو معنى قولِ ابن عباس[(١)].

وقيل: إن الملائكةَ تسأل لهم الجنةَ؛ دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨] الآية. وهذا قولُ محمد بن كعب القُرَظِيِّ[(٢)].

وقيل: معنى «وَعْداً مَسْؤُولاً» أي: واجباً وإن لم يكن يُسْأَل كالدَّين؛ حكي عن العرب: لأُعطينَّك ألفاً. وقيل: «وَعْداً مَسْؤُولاً» يعني أنه واجبٌ لك فتسْألُه[(٣)]. وقال زيد بن أسلم: سألوا اللهَ الجنةَ في الدنيا، ورغِبوا إليه بالدعاء، فأجَابهم في الآخرة إلى ما سَألوا وأعطاهم ما طَلبوا[(٤)]. وهذا يرْجع إلى القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ ابن مُحيصِن، وحميد، وابن كثير، وحفص،

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤١٤، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧١ (١٥٠٢١) عن ابن عباس بلفظ: فاسألوا الذي وعدَكم وتنَجَّزوه.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٥، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧١ (١٥٠٢٢).

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٣، وتفسير الطبري ١٧/ ٤١٤، وفيهما: «لأعطينك ألفاً وعداً مسؤولاً»، بمعنى أنه واجب لك فتسأله».

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٣٥.

ويعقوب، وأبو عمرو في رواية الدُّوريّ: «يَحشرهم» بالياء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله في أول الكلام: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾، وفي آخره: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾. الباقون بالنون على التعظيم[١]. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجِن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وابن جُريج. الضحاك وعكرمة: الأصنام[٢]. ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ ابنُ عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم[٣].

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ وهذا استفهام توبيخ للكفار. ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: قال المعبُودون من دون اللهِ: سبحانَك، أي: تنزيهاً لك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

فإن قيل: فإن كانت الأصنامُ التي تُعبد تُحشَرُ؛ فكيف تَنطق وهي جمادٌ؟ قيل له: يُنطقها اللهُ تعالى يومَ القيامة كما يُنطق الأيدي والأرجل[٤]. وقرَأ الحسنُ وأبو جعفر: «أَنْ نُتَّخَذَ» بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول[٥]. وقد تكلَّم في هذه القراءة النحْويون؛ فقال أبو عمرو بنُ العلاء وعيسى بنُ عمر: لا يجوز «نُتَّخذ».

وقال أبو عمرو: لو كانت «نُتَّخذ» لحذفتَ «مِن» الثانية فقلتَ: «أن نُتَّخذ من دونك أولياءَ». كذلك[٦] قال أبو عبيدة: لا يجوز «نُتَّخذ» لأنَّ الله تعالى ذَكَرَ «مِن»

(١) قراءة ابن كثير وحفص - بالياء - في السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٣، والقراءة المشهورة عن أبي عمرو البصري هي بالنون.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٣٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦٣-٣٦٤، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٨٤، وأخرجه عنه الطبري مع قول ابن جريج في تفسيره ١٧/ ٤١٥، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٢ (١٥٠٢٧) عن مجاهد. دون قوله: والإنس والجن.

(٣) السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣.

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٤.

(٥) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٣٣، وذكرها الزجاج في معانيه ٤/ ٦٠، والنحاس في إعرابه ٣/ ١٥٤، وأبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٥، وابن عطية في المحرر ٤/ ٢٠٤، وقراءة الحسن في زاد المسير ٦/ ٧٨.

(٦) في (ظ) وكذا.

مرَّتين، ولو كان كما قرأ لقال: «أن نُتخذ من دونك أولياء».

وقيل: إن «مِن» الثانية صلة.

قال النحاس[١]: ومثل أبي عمرو على جلالته ومحلِّه يُستَحْسَن [منه] ما قال؛ لأنه جاء ببينةٍ.

وشرحُ ما قال أنه يقال: ما اتخذتُ رَجلاً وليًّا، فيجوز أن يقع هذا لواحد[٢] بعينه؛ ثم يقال: ما اتخذت من رَجُلٍ وليًّا. فيكون نفياً عاماً، وقولك «وليًّا» تابعٌ لما قبله، فلا يجوز أن يُدخل[٣] فيه «مِن» لأنه لا فائدةَ في ذلك.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ أي: في الدنيا بالصحة والغنى وطولِ العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم. ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: تركوا ذكرك، فأشركوا بك بَطَراً وجهلاً، فعبدونا من غير أن نأمرهم[٤] بذلك.

وفي الذكر قولان:

أحدهما: القرآن المنزَّل على الرسل، تركوا العملَ به، قاله ابن زيد.

الثاني: الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم.

إنهم ﴿كَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أي: هلكى؛ قاله ابن عباس. مأخوذٌ من البوار وهو الهلاك[٥]. وقال أبو الدرداء ﷺ وقد أَشرف على أهل حِمص: يا أهل حِمص! هلمَّ[٦] إلى أخٍ لكم ناصحٍ، فلمَّا اجتمعوا حوله قال: ما لَكم لا تَستحيون[٧]! تَبنون ما لا

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤-١٥٥، وما قبله منه عدا كلام أبي عبيدة، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في (م) للواحد، وفي (ظ) الواحد. والمثبت من (ز) وإعراب القرآن للنحاس.

(٣) في (م) تدخل.

(٤) في (م) و(د): أمرناهم.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٣٦-١٣٧.

(٦) في (ز) هلموا.

(٧) في (م) تستحون.

تَسكنون، وتَجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تُدركون، إنَّ مَن كان قبلكم بَنَوْا شديداً[(١)]، وجمعوا عبيداً، وأمَّلوا بعيداً، فأصبح جمعُهم بُوراً، وآمالهم[(٢)] غروراً، ومساكنُهم قبورا[(٣)]. فقوله: «بُورًا» أي: هلكى.

وفي خبرٍ آخر: فأصبحت منازلهُم بوراً، أي: خالية لا شيءَ فيها.

وقال الحسن: «بُورًا»: لا خيرَ فيهم. مأخوذٌ من بَوار الأرض، وهو تعطيلُها من الزرع، فلا يكون فيها خير.

وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: البَوار: الفَساد والكساد؛ مأخوذٌ من قولهم: بارَت السلعة: إذا كسدت كسادَ الفاسد؛ ومنه الحديث: «نعوذ بالله من بَوَارِ الأَيِّم»[(٤)]. وهو اسم مصدر كالزُّور؛ يستوي فيه الواحدُ والاثنان والجمعُ والمذكر والمؤنث[(٥)]. قال ابن الزِّبَعْرى[(٦)]:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني ... راتِقٌ ما فَتَقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أُباري الشيطانَ في سَنَنِ الغَـ ... ـيِّ ومَنْ مالَ ميلَه مَثْبُورُ

وقال بعضهم: الواحدُ: بائر، والجمع: بور[(٧)]. كما يقال: عائذ وعُوذ، وهائد

---

(١) في (م) مشيدا . والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وتاريخ مدينة دمشق .

(٢) في (ظ): ومالهم، وكذلك في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٧/ ١٣١ ، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٣٩) و(١٠٧٤٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ١٣٣ ، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ١/ ٦٣٥ أنه قال على درج مسجد دمشق: يا أهل دمشق. . .

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٣٧ ، والحديث قطعة من حديثٍ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٣٢٣ (١١٨٨٢) ، والخطيب البغدادي في تاريخه ١٢/ ٤٥٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٤٣ وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط والصغير باختصار، وفيه عباد ابن زكريا الصريمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٤ .

(٦) ديوانه ص٣٦ .

(٧) الوسيط ٣/ ٣٣٧ .

وهُود[١]. وقيل: «بُورًا»: عُمياً عن الحق.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: يقول اللهُ تعالى عند تبرّي المعبودين: «فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ» أي: في قولكم إنهم آلهة[٢]. ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني الآلهة صرفَ العذابِ عنكم ولا نصرَكم. وقيل: فما يستطيعُ هؤلاء الكفارُ لمَّا كذَّبهم المعبودون ﴿صَرْفًا﴾ للعذاب ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ من الله[٣]. وقال ابن زيد: المعنى فقد كذَّبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفارُ بما جاء به محمدٌ؛ وعلى هذا فمعنى «بِمَا تَقُولُونَ»: بما تقولون من الحقِّ[٤]. وقال أبو عبيد: المعنى: فيما تقولون[٥]، فما يَستطيعون لكم صرفاً عن الحقِّ الذي هداكم الله إليه، ولا نصراً لأنفسهم مما يَنزل بهم من العذاب بتكذيبهم إيَّاكم.

وقراءةُ العامة: «بِمَا تَقُولُونَ» بالتاء على الخطاب. وقد بَيَّنَّا معناه.

وحكى الفراءُ أنه يقرأ: «فَقَدْ كَذَبُوكُمْ» مخفَّفاً، «بِمَا يَقُولُونَ». وكذا قرَأ مجاهد والبَزِّيُّ بالياء[٦]، ويكون معنى «يَقُولُونَ»: بقولهم. وقرَأ أبوحَيْوَة: «بِمَا يَقُولُونَ» بياء «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ» بتاء على الخطاب لمتخِذي الشركاء[٧]. ومن قرأ بالياء فالمعنى: فما يستطيع الشركاء.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ قال ابن عباس: من يُشرك منكم ثم مات عليه[٨] ﴿نُذِقْهُ﴾

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤، والكشاف ٣/ ٨٦. وفي (ز) و(ظ) عائد وعود.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦١.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط٣/ ٣٣٧.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤٢٠، وأخرجه أيضاً عن ابن زيد ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٣ (١٥٠٤٠).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٥.

(٦) ذكر كلام الفراء النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٥. وقال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٣٤: نص عليها ابن مجاهد عن البزي سماعاً من قنبل.

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٤ قراءة أبي حيوة. وقرأ حفص: تستطيعون، بالتاء، والباقون بالياء. السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣.

(٨) أخرج نحوه عبد الرزاق ٢/ ٧٢، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٢-٤٢٣ عن الحسن.

أي: في الآخرة. ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي شديداً؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] أي: شديداً.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ نزلت جواباً للمشركين حيثُ قالوا: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الْأَسْوَاقِ»[1]. وقال ابن عباس: لمَّا عيَّر المشركون رسولَ الله ﷺ بالفاقة وقالوا: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ» الآية؛ حَزِن النبيُّ ﷺ لذلك، فَنَزَلت تعزيةً له، فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسولَ الله! الله ربُّك يقرئك السَّلامَ ويقول لك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: يَبتغون المعاشَ[2] في الدنيا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إذا دخلت اللام؛ لم يكن في «إن» إلا الكسر، ولو لم تكن اللامُ ما جاز أيضاً إلا الكسر؛ لأنها مستأنفة. هذا قولُ جميع النحويين. قال النحاس[3]: إلا أنَّ عليَّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال: يجوز في «إنَّ» هذه الفتحُ وإن كان بعدها اللام، وأحسِبه وَهْماً منه. قال أبو إسحاق الزجاجُ[4]: وفي الكلام حذفٌ، والمعنى: وما أرسلنا قبلك رسلاً إلا إنهم

---

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٢) في (ز) و(م) المعايش، والمثبت من (د) و(ظ) وأسباب النزول للواحدي ص٣٤٥ وقد أخرجه عنه مطولاً، وسلف بعضه ص٣٧٢-٣٧٣ من هذا الجزء.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٥-١٥٦، وما قبله منه.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن له ٤/ ٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن.

ليأكلون الطعامَ، ثم حذف رسلاً؛ لأن في قوله: «مِنَ الْمُرْسَلِينَ» ما يدلُّ عليه. فالموصوف محذوفٌ عند الزجاج، ولا يجوز عنده حذفُ الموصول وتبقيةُ الصلة كما قال الفراء. قال الفراء[١]: والمحذوف «مَن»، والمعنى: إلا مَنْ إنهم لَيأكلون الطعامَ، وشبَّهه بقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أي: ما منكم إلا مَن هو وارِدُها. وهذا قول الكسائيِّ أيضاً. وتقول العرب: ما بعثتُ إليك مِن الناس إلا مَن إنه لَيطيعك[٢]. فقولك: إنه لَيطيعك صلةُ «مَن».

قال الزجاج[٣]: هذا خطأٌ، لأن مَن موصولةٌ، فلا يجوز حذفها.

وقال أهل المعاني: المعنى: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل: إنهم ليأكلون؛ دليله قولهُ تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

وقال ابن الأنباريِّ[٤]: كسرت «إِنَّهُم» بعد «إلا» للاستئناف بإضمار واو، أي: إلا وإنهم.

وذهبت فرقةٌ إلى أن قوله: «لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» كنايةٌ عن الحدث[٥].

قلت: وهذا بليغٌ في معناه، ومثله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ قرأ الجمهورُ: «يَمْشُونَ» بفتح الياء وسكون الميم وتخفيفِ الشين. وقرأ عليٌّ وابنُ عوف وابنُ مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى يُدْعَون إلى المشي ويُحملون عليه. وقرأ أبوعبد الرحمن السُّلَميُّ

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٦٥.

(٢) في (د) و(ظ) ليعطيك (في الموضعين).

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٦٢، ونقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦.

(٤) ذكره عن ابن الأنباري ابنُ الجوزي في زاد المسير ٦/ ٨٠، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٦٥، وما قبله فيه بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة، وهي بمعنى يَمْشُونَ؛ قال الشاعر:

أُمَشِّي بأعطان المياه وأبتغي[(١)] ... قلائصَ منها صعبةٌ وركُوبُ[(٢)]

وقال كعب بن زهير:

منه تظلُّ سِباعُ الجوِّ ضامِزة ... ولا تُمَشِّي بوادِيهِ الأراجيلُ[(٣)]

بمعنى تَمْشي.

الثالثة: هذه الآيةُ أصلٌ في تناول الأسباب وطلبِ المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. وقد مضَى هذا المعنى في غير موضع، لكنَّا نذكُر هنا مِن ذلك ما يكفي، فنقول: قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جَرَى: إن الأنبياء عليهم الصلاة السلام إنما بُعثوا ليَسُنوا الأسبابَ للضعفاء.

فقلت مجيباً له: هذا قولٌ لا يصدُر إلا من الجهال والأغبياء، والرَّعَاع السفهاء، أومن طاعنٍ في الكتاب والسنة العَلياء، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف، فقال وقولهُ الحقُّ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ قال العلماء: أي يتَّجِرون ويحترفون. وقال عليه الصلاة والسلام: «جُعِل رزقي تحت ظل رُمْحي»[(٤)].

---

(١) في (م) ومَشَّى بأعطان المباءة وابتغَى، ووقع في النسخ الخطية: وأتقي، بدل: وأبتغي، والمثبت من المصدرين الآتيين.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥ ، ونسبه أبو علي القالي في الأمالي ١/ ٢٨ للعلاء بن حذيفة الغَنَوي. قوله: قلائص: هو جمع قَلُوص، وهي من الإبل: الشابَّة، أو الباقية على السير، أو أول ما يُركب من إناثها إلى أن تُثني، ثم هي ناقة، أو الناقة الطويلة القوائم . القاموس (قلص).

(٣) ديوان كعب ص ٩٠ وروايته فيه: منه تظل حمير الوحش ضامزة، وهو في السيرة النبوية ٢/ ٥١٢ وفيه: نافرة، بدل: ضامزة .

والضامز في اللغة: الساكت لا يتكلم، والبعير إذا لم يجتر وأغلق فمه فقد ضمز. تهذيب اللغة ١١/ ٤٨٩ . وقوله الأراجيل: الجماعات من الرجال. الجو: موضع. الإملاء المختصر ٣/ ١٣٨ ، يصف كعبٌ أسداً بأن السباع والأسود والرِّجال تخافه من هيبته، ولا تمشي بالوادي الذي يوجد فيه.

(٤) سلف ١٠/ ١٦٠ .

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

وكان الصحابةُ ﷺ يَتجرون ويحترفون، وفي أموالهم يَعملون، ومَن خالفهم من الكفار يقاتلون؛ أتُراهم ضعفاءَ! بل هم كانوا واللهِ الأقوياءَ، وبهم الخَلَف الصالحُ اقتدى، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء.

قال: إنما تناولوها لأنهم أئمةُ الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حقِّ الضعفاء، فأما في حقِّ أنفسهم فلا؛ وبيان ذلك أصحابُ الصُّفَّة.

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيانُ؛ كما ثبت في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩] الآية. وهذا من البينات والهدى.

وأما أصحاب الصُّفَّة فإنهم كانوا ضيفَ الإسلامِ عند ضِيق الحال، فكان عليه الصلاة والسلام إذا أَتَته صَدقةٌ خصَّهم بها، وإذا أتته هديةٌ أكلها معهم، وكانوا مع هذا يَحتطِبون ويَسُوقون الماءَ إلى أبيات رسولِ الله ﷺ. كذا وصفهم البخاريُّ(١) وغيرُه. ثم لمَّا افتتح اللهُ عليهم البلادَ ومهَّد لهم المهاد تأمَّروا، وبالأسباب أُمِروا.

ثم إن هذا القول يدلُّ على ضعفِ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ؛ لأنهم أُيِّدوا بالملائكة وثُبِّتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدُهم(٢) إذ ذلك سببٌ من أسباب النصر؛ نعوذُ بالله من قولٍ وإطلاقٍ يَؤول إلى هذا، بل القولُ بالأسباب والوسائط سنةُ اللهِ وسنةُ رسولِهِ ﷺ، وهو الحقُّ المبين، والطريقُ المستقيم الذي انعقد عليه إجماعُ المسلمين؛ وإلا كان يكون قولُه الحق: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] الآية؛ مقصوراً على الضعفاء، وجميعُ الخطابات كذلك. وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكليمَ: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] وقد كان قادراً على فَلْق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّي

---

(١) في صحيحه برقم (٦٤٥٢)، وسلف ١٠/ ١٦٠.

(٢) في (د) و(ظ) و(ف): تثبيتهم.

إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥]، وقد كان قادراً على سقوط الرُّطَب دون هَزٍّ ولا تعب؛ ومع هذا كلِّه فلا ننكر أن يكون رجل يُلطَفُ به ويُعان، أو تجاب دعوتُه، أو يُكرم بكرامةٍ في خاصة نفسِه أو لأجل غيرِه، ولا تهدُّ لذلك القواعدُ الكلية والأمورُ الجُملية. هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] فإنَّا نقول: صَدَق اللهُ العظيمُ، وصدَق رسولُه الكريم، وإن الرزقَ هنا المطرُ بإجماعِ أهل التأويل؛ بدليل؛ قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر:١٣] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق:٩]، ولم يشاهَد ينزِّل من السماء على الخلق أطباقَ الخبز ولا جِفانَ اللحم، بل الأسبابُ أصلٌ في وجود ذلك؛ وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا الرزق في خبايا الأرض»[1]، أي: بالحرث والحفْرِ والغرس. وقد يسمى الشيء بما يَؤول إليه، فسمي[2] المطرُ رزقاً؛ لأنه عنه يكون الرزقُ، وذلك مشهورٌ في كلام العرب. وقال عليه الصلاة والسلام: «لأن يَأخذَ أحدُكم حَبْلَه، فيَحْتَطِبَ على ظهرِه؛ خيرٌ له من أن يسأل أحداً أعطاه أو مَنَعَه»[3]، وهذا فيما خرَج بغير[4] تعبٍ من الحشيش والحطب. ولو قُدِّر رَجُلٌ بالجبال منقطعاً عن الناس لَمَا كان[5] له بُدٌّ من الخروج إلى ما تُخرجه الآكامُ وظهورُ الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يَعيش به، وهومعنى قولِهِ عليه الصلاة والسلام: «لو أنَّكُمْ كُنتم تَوكَّلون على اللهِ حقَّ توكُّله، لَرزقتم كما تُرزق الطيرُ، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»[6].

فغدوُّها ورَواحها سببٌ؛ فالعَجَبُ العجب ممن يدَّعي التجريدَ والتوكل على

---

(١) ضعيف، وسلف ٤/ ٣٢٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في (م) وسمي.

(٣) سلف ١/ ٣٤٦ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في (د) و(م) من غير.

(٥) في النسخ الخطية: لكان والمثبت من (م).

(٦) سلف ٧/ ٢٩٧ و ١٠/ ١٥٨-١٥٩ .

التحقيق، ويقعدُ على ثَنِيَّاتِ الطريق، ويَدَعُ الطريقَ المستقيم، والمنهجَ الواضحَ القويم.

ثبَت في البخاريِّ(١) عن ابن عباسٍ قال: كان أهلُ اليمن يَحجُّون ولا يَتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا [مكة] سألوا الناسَ؛ فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾. ولم يُنقل عن النبيِّ ﷺ وأصحابِه ـ رضوان الله عليهم ـ أنَّهم خرَجوا إلى أسفارهم بغير زَادٍ، وكانوا المتوكِّلين حَقًّا.

والتوكل: اعتمادُ القلب على الرَّبِّ في أن يَلمَّ شعَثَه ويَجمعَ عليه أرَبَه؛ ثم يتناول الأسبابَ بمجرد الأمر، وهذا هو الحقُّ.

سأل رجلٌ الإمام أحمدَ بن حنبل فقال: إني أريد الحجَّ على قدم التوكل. فقال: اخرج وحدَك، فقال: لا، إلاَّ مع الناس. فقال له: أنت إذن متَّكلٌ على أجربتهم(٢). وقد أتينا على هذا في كتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردُّ ذلِّ السؤال(٣) بالكسب والصناعة»(٤).

الرابعة: خَرَّج مسلمٌ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أحبُّ البلادِ إلى اللهِ مساجدُها، وأبغضُ البلاد إلى اللهِ أسواقها»(٥).

وخرَّج البزَّار(٦) عن سلمان الفارسيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكوننَّ ـ إن استطعتَ ـ أولَ مَن يَدخل السُّوقَ، ولا آخِرَ من يَخرجُ منها، فإنَّها معركةُ الشيطان، وبها

(١) في صحيحه (١٥٢٣) وما بين معقوفتين منه، وسلف٣/ ٣٢٨.

(٢) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص١٤١ و٢٧٤-٢٧٥، وسلف ٣/ ٣٢٩. وقوله: أجربتهم ـ الجراب: المزود أو الوعاء، ويجمع أيضاً على جُرُب، القاموس «جرب».

(٣) في (د) الناس.

(٤) في (د) و(ظ) و(ف) بالكتب والشفاعة وفي (ز) بالكسب والشفاعة. وجاء في ذيل كشف الظنون ٤/ ٢٤١ بالكف والشفاعة، وقال: إن القرطبي: رتبه على أربعين باباً في التفسير والحديث.

(٥) صحيح مسلم برقم (٦٧١).

(٦) في مسنده (٢٥٤١)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٤٥١).

يَنصبُ رايته». أخرجه أبوبكر البَرْقانيُّ مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ ـ من رواية عاصم ـ عن أبي عثمان النهديِّ، عن سلمان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تكن أولَ مَن يدخلَ السُّوقَ ولا آخرَ مَن يَخرج منها، فبها باضَ الشيطانُ وفرَّخ»[١].

ففي هذه الأحاديث ما يدلُّ على كراهة دخول الأسواق، ولا سيما في هذه الأزمان التي يُخالط فيها الرجال النسوان[٢]. وهكذا قال علماؤنا لمَّا كثُرَ الباطلُ في الأسواق وظهَرت فيها المناكرُ: كُره دخولُها لأرباب الفضلِ والمقتدَى بهم في الدِّين؛ تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُعصى اللهُ فيها[٣]. فحقّ على من ابتلاه اللهُ بالسُّوق أن يخطر بباله أنه قد دخَل محلَّ الشيطان ومحلَّ جنودِه، وأنه إن أقام هناك هَلك، ومن كانَت هذه حالُه اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرَّز من سُوء عاقبته وبَليته[٤].

الخامسة: تشبيه النبيِّ ﷺ السوقَ بالمعركة تشبيهٌ حسن، وذلك أنَّ المعركةَ موضعُ القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومُصارعةِ بعضهم بعضاً. فشبَّه السوقَ وفعلَ الشيطانِ بها ونيلَه منهم ـ بما[٥] يَحملهم [عليه] من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة، والكذِب والأيمان الكاذبة، واختلاطِ الأصوات وغيرِ ذلك ـ بمعركة الحرب، ومن[٦] يصرع فيها.

السادسة: قال ابنُ العربيِّ[٧]: أما أكلُ الطعام فضرورةُ الخلق، لا عارَ ولا دَرَكَ فيه[٨]، وأما الأسواقُ فسمعت مشيخةَ أهل العلم يقولون: لا يَدخل إلا سوقَ الكتب

---

(١) ١٣/٣٠١ .

(٢) جاءت العبارة في (ظ) : .. تخالَط فيها الرجال والنسوان .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٢ .

(٤) المفهم ٦/ ٣٥٩ .

(٥) في (م) : مما والمثبت من (د) و(ظ) و(ف) والمفهم ٦/ ٣٥٨-٣٥٩ ، والكلام وما بين حاصرتين منه .

(٦) في (ظ) : فيمن .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣ .

(٨) أي: لا تَبِعةَ فيه.

والسلاح. وعندي أنه يَدخل كلَّ سوقٍ للحاجة إليه ولا يَأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاطٌ للمروءة، وهدمٌ للحِشمة؛ ومِن الأحاديث الموضوعةِ: «الأكل في السوق دناءة»(١).

قلت: ما ذَكَرته مشيخةُ أهل العلم فنِعِمّا هو، فإنّ ذلك خالٍ عن النظر إلى النّسوان ومخالطتهِنّ، إذ ليس ذلك(٢) من حاجتهنّ. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهنّ، وقلّةُ الحياءِ قد غلبت عليهنّ، حتى ترى المرأةَ في القيساريات(٣) وغيرهن قاعدةً متبرجة بزينَتِها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا، نعوذُ بالله من سخطه.

السابعة: خرَّج أبو داود الطيالسيُّ في مسنده(٤): حدَّثنا حماد بنُ زيد قال: حدَّثنا عمرو بن دينار ـ قهرمان(٥) آل الزبير ـ عن سالم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: «من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال: لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير، كتب الله له ألفَ ألفِ حسنة، ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئةٍ، وبنى له قصراً في الجنة». خرَّجه الترمذيُّ أيضاً وزاد بعد «ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئةٍ»: «ورفع له ألفَ ألفِ درجة». في رواية(٦): «وبنى له بيتاً في الجنة». وقال: هذا حديثٌ غريب(٧). قال

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (١٤٤٤)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٥٠، والخطيب البغدادي في تاريخه ٣/ ١٦٣ و٧/ ٢٨٣، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٣٥ من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٤٩ (٧٩٧٧)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٧٠، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ١٩٢، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٣٦ من حديث أبي أمامة ﷺ.
قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وقال العقيلي: ولا يثبت في هذا الحديث شيء عن النبي ﷺ.

(٢) في (م) بذلك.

(٣) جمع قيسارية، وهي الخان الكبير الذي يشغله التجار والمسافرون، وقد يشتمل على سوق مسقوفة. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: ٣٥٧.

(٤) ص٤.

(٥) هو كالخازن والوكيل والحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل، بلغة الفرس. النهاية (قهرم).

(٦) عبارة: في رواية، من (د) و(ظ).

(٧) سنن الترمذي (٣٤٢٨) و(٣٤٢٩)، قال الترمذي: وعمرو بن دينار هذا هو شيخ بصري، وقد تكلم فيه بعض أصحاب الحديث من غير هذا الوجه.

ابن العربيِّ[١]: وهذا إذا لم يَقصد في البقعة سواه[٢] ليعمرها بالطاعة إذ عُمرت بالمعصية ولِيحلِّيَها بالذِّكر إذ عُطلت بالغفلة، وليعلِّم الجَهَلةَ ويذكِّرَ الناسين.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ﴾ أي: إن الدنيا دارُ بلاء وامتحان، فأرَاد سبحانه أن يَجْعَل بعضَ العبيد فتنةً لبعضٍ على العموم في جميع الناس مؤمنٍ وكافر، فالصحيحُ فتنةٌ للمريض، والغنيُّ فتنةٌ للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنيِّ[٣]. ومعنى هذا أن كلَّ واحدٍ مختبَرٌ بصاحبه، فالغنيُّ ممتحَن بالفقير، عليهِ أن يواسِيَه ولا يسخرَ منه. والفقيرُ ممتحَن بالغنيِّ، عليه ألا يحسدَه ولا يأخذَ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبرَ كلُّ واحدٍ منهما على الحقِّ؛ كما قال الضحاك في معنى «أَتَصْبِرُونَ» أي: على الحق[٤].

وأصحابُ البلايا يقولون: لِمَ لم نُعافَ؟ والأعمى يقول: لِمَ لمْ أُجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كلِّ آفةٍ[٥].

والرسولُ المخصوصُ بكرامة النبوَّة فتنةٌ لأشراف الناس من الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكَّام العدل[٦]. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فالفتنةُ أن يَحسُدَ المبتلَى المعافى، ويَحقِرَ المعافَى المبتلى. والصبرُ أن يَحبِس كلاهما نفسَه، هذا عن البَطَر، وذاك عن الضَّجَر.

«أَتَصْبِرُونَ» محذوف الجواب، يعني أم لا تَصبرون. فيقتضي جوابًا كما قاله

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣.

(٢) أي سوى الله سبحانه وتعالى.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٦.

(٥) أخرج نحواً من هذا الكلام الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٤، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٥ (١٥٠٤٧)، والبيهقي في الشعب (١٠٠٧٢) عن الحسن.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

المزنيُّ وقد أخرَجته الفاقةُ، فرأى خَصِيًّا في مراكب ومناكب، فَخَطَر بباله شيءٌ فسمِع مَن يقرأ الآية: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فقال: بلى ربَّنا! نصبِرُ ونَحتَسِب[١].

وقد تلا ابنُ القاسم صاحبُ مالك هذه الآيةَ حين رأى أشهبَ بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، ثم أجاب نفسه بقوله: سَنَصْبِر[٢].

وعن أبي الدرداء أنه سمِع النبيَّ ﷺ يقول: «ويلٌ للعالم من الجاهل، وويلٌ للجاهل من العالم، وويلٌ للمالك من المملوك، وويلٌ للمملوك من المالك، وويلٌ للشديد من الضعيف، وويلٌ للضعيف من الشديد، وويلٌ للسلطان من الرَّعيَّة، وويلٌ للرَّعيَّة من السلطان، وبعضُهم لبعضٍ فتنةٌ، وهو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾» أسندَه الثعلبيُّ تغمَّده الله برحمته[٣].

وقال مقاتل: نزَلت في أبي جهلِ بن هشام، والوليد بنِ المغيرة والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي مُعَيط، وعُتْبة بن ربيعة، والنضرِ بن الحارثِ حين رَأَوا أبا ذرٍّ وعبدَ الله ابن مسعود، وعماراً وبلالاً وصُهَيباً وعامرَ بن فُهَيرة، وسالماً مولى أبي حُذَيفة ومِهْجَعاً مولى عمر بن الخطاب وجبراً مولى الحضْرَمي، وذويهم، فقالوا على سبيل الاستهزاء: أَنُسلمُ فنكونَ مثل هؤلاء؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء المؤمنين: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على ما تَرَون من هذه الحال الشديدةِ والفقر[٤]، فالتوقيف بـ«أَتَصْبِرونَ» خاصٌ للمؤمنين المحقِّين من أمة محمدٍ ﷺ. كأنه جعل إمهالَ الكفار والتوسعةَ عليهم فتنةً للمؤمنين، أي: اختباراً لهم[٥]. ولمَّا صبَر المسلمون أنزَل اللهُ فيهم: ﴿إِنِّي

---

(١) ذكر الخطَّابيُّ في كتاب العزلة ص١٠٥-١٠٦ نحو هذه القصة عن المزني، وفيها أن ابن عبد الحكم أقبل في موكبه، فبهره ما رأى .. فتلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ ...

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥ دون قوله: في مملكته عابراً عليه.

(٣) أخرجه البزار (٣٤٤٢كشف)، وأبو يعلى في مسنده (٤٠٠٩)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٥٥ من رواية الأعمش عن أنس ﷺ. والأعمش لم يرو عن الصحابة، ينظر جامع التحصيل ص٢٢٨-٢٢٩.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥، وذكر سبب النزول أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٣٨، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٨٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ [المؤمنون: ١١١].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بكلِّ امرئٍ وبمن يَصبر أو يَجزع[١]، وبمن يؤمن ومن لا يؤمن، وبمن أدَّى ما عليه من الحقِّ ومن لا يُؤدِّي[٢].

وقيل: «أَتَصْبِرُونَ» أي: اصبروا[٣]. مثل: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا، فهو أمرٌ للنبيِّ ﷺ بالصبر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يريدُ: لا يَخافون البعثَ[٤] ولقاءَ الله، أي: لا يؤمنون بذلك.

قال:

إذا لَسَعَته النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها ... وخالَفَها في بيت نُوبٍ عَوامِلِ[٥]

وقيل: «لَا يَرْجُونَ»: لا يُبالون. قال:

لَعمركَ ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِماً ... على أيِّ جَنْبٍ كان في اللهِ مَصْرَعي[٦]

ابن شجرة: لا يأملون؛ قال:

أَترجو أُمَّةٌ قتلتْ حُسَيناً ... شفاعةَ جدِّه يومَ الحسابِ[٧]

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٢٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٦.

(٤) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٥) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وسلف ٣/ ٤٣٣.

(٦) قائله خبيب بن عدي ﷺ، وهو في السيرة النبوية ٣/ ١٧٦ وسلف بنحوه ١٣/ ٣٤٤.

(٧) البيت أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٢٣ (٢٨٧٣)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق =

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ أي: هلّا أنزل. ﴿عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيخبروا أن محمداً صادقٌ. ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عياناً فيخبرنا برسالته[١]. نظيرُه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]. قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ حيثُ سألوا اللهَ الشَّططَ؛ لأنَّ الملائكةَ لا تُرى إلا عندَ الموت، أو عند نزولِ العذاب، واللهُ تعالى لا تُدركه الأبصارُ، وهو يدرك الأبصارَ، فلا عينٌ تراه. وقال مقاتل: «عُتُوًّا» علوًّا في الأرض. والعتوُّ: أشدُّ الكفر وأفحش الظلم[٢]. وإذا[٣] لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن، فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين، ولابدَّ لهم من معجزة يُقيمها من يَدَّعي أنه مَلَكٌ، وليس للقوم طلبُ معجزةٍ بعد أن شاهدوا معجزةً، وأن ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحدٌ إلا عند الموت[٤]: فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تَخرج أنفسهم. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يُريد تقول الملائكة: حراماً محرَّماً أن يدخل الجنة إلا من قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وأقام شرائعَها، عن ابن عباس وغيرِه[٥].

وقيل: إن ذلك يوم القيامة، قاله مجاهد[٦] وعطية العوفيُّ. قال عطية: إذا كان

= ٢٤٣/١٤، والمزي في تهذيب الكمال ٢/ ١٩٤-١٩٥، وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي قبيل وابن لهيعة صدوق خلط بعد احتراق كتبه، وأبو قبيل صدوق يَهم. كما في تقريب التهذيب.

وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة ٣/ ١١٨ قائلاً: وهذا البيت زعموا قديماً ولا يدرى قائله، وذكره برهان الدين الوطواط في غرر الخصائص ص٣٣٨، والهيثمي في المجمع ٩/ ١٩٩ وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه.

والأبيات الثلاثة في النكت والعيون٤/ ١٣٩.

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥.

(٣) في(ظ) و(ف) وإذ.

(٤) النكت والعيون٤/ ١٤٠.

(٥) ذكره عنه الواحدي في الوسيط٣/ ٣٣٨، والبغوي في تفسيره٣/ ٣٦٥.

(٦) تفسيره ٢/ ٤٤٩.

يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى، فإذا رأى ذلك الكافرُ تمناه، فلم يره من الملائكة[١].

وانتصب «يَوْمَ يَرَوْنَ» بتقدير: لا بشرى للمجرمين يومَ يَرون الملائكة. «يومَئِذٍ» تأكيدٌ لـ «يَوْمَ يَرَوْنَ»[٢]. قال النحاس[٣]: لا يَجوز أن يكون «يَوْمَ يَرَوْنَ» منصوباً بـ «بُشْرَى» لأنَّ ما في خبر[٤] النفي لا يَعمل فيما قبله، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى: يُمنعون البشارة يومَ يرون الملائكة؛ ودلَّ على هذا الحذف ما بعده.

ويجوز أن يكون التقدير: لا بشرى تكون «يومَ يرون الملائكة» و«يَوْمَئِذٍ» مؤكدٌ. ويجوز أن يكون المعنى: اذكر يومَ يرون الملائكة، ثم ابتدأ فقال: «لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا» أي: وتقول الملائكة: حَراماً محرَّماً أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين. قال الشاعر:

أَلَا أَصْبَحَتْ أسماءُ حِجْراً مُحَرَّماً   وأَصْبَحْتُ من أدْنَى حُمُوَّتها حَمَا

أراد: أَلَا أصبحت أسماءُ حراماً محرَّماً[٥].

وقال آخر:

حَنَّت إلى النَّخْلَةِ القُصْوى فقلتُ لها   حِجْرٌ حرامٌ أَلَا تِلْكَ الدَّهارِيسُ[٦]

(١) النكت والعيون٤/ ١٤٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٣ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦ .

(٤) في(د) و(م) حيز ... والمثبت من(ز) و(ظ) و(ف) وإعراب القرآن .

(٥) الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٨٠٣-٨٠٤ ، وقائل البيت عبد الله بن عجلان كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/ ٧١٦ ، وعيون الأخبار٤/ ١٣١ ، والأغاني للأصبهاني ٢٢/ ٢٤٢ بلفظ: ألا إن هنداً أصبحت منك محرماً ...، وذكر البيت ابن منظور في اللسان (حمو) دون نسبة .

(٦) البيت للمتلمس بن جرير ، ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٧٣ ، والمبرد في الفاضل ص٧٨ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٧ ، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٤١-١٤٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وابن الشجري في المختارات ١/ ٣٢ ، واللسان (دهرس)، ولفظه عند المبرد وابن الشجري: بسل .. بدل حجر، وقوله: الدهاريس، أي: الدواهي.

ورويَ عن الحسن أنه قال: «وَيَقُولُونَ حِجْراً» وقفٌ من قول المجرمين، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: «مَحْجُورًا» عليهم أن يُعاذوا أو يُجاروا؛ فحجَر اللهُ ذلك عليهم يومَ القيامة. والأول قولُ ابن عباس. وبه قال الفرَّاء؛ قاله ابن الأنباريّ[(١)].

وقرأ الحسن وأبورجاء: «حُجْرًا» بضم الحاء، والناسُ على كسرها[(٢)].

وقيل: إنَّ ذلك من قول الكفار؛ قالوه لأنفسهم؛ قاله قتادة فيما ذكر الماورديُّ[(٣)].

وقيل: هو من قول الكفار للملائكة[(٤)].

وهي كلمةُ استعاذة، وكانت معروفةً في الجاهلية؛ فكان إذا لقيَ الرجلُ مَن يَخافُه قال: حجراً محجوراً، أي: حراماً عليك التعرُّضُ لي[(٥)].

وانتصابه على معنى: حَجَرتُ عليك؛ أو حجَر اللهُ عليك؛ كما تقول: سُقْياً ورعياً[(٦)]. أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكةَ يُلقونهم في النار قالوا: نَعُوذُ بالله منكم؛ ذكره القشيريُّ، وحكى معناه المهدويُّ عن مجاهد[(٧)].

وقيل: «حِجْرًا» من قول المجرمين. «مَحْجُورًا» من قول الملائكة، أي: قالوا للملائكة: نعوذُ باللهِ منكم أن تَتعرَّضوا لنا. فتقول الملائكة: «مَحجُورًا» أن تُعاذوا من شرِّ هذا اليوم؛ قاله الحسن[(٨)].

---

(١) في بيان الوقف والابتداء ٢/ ٨٠٤ ، وبنحوه في المكتفى للداني ص٤١٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٠٤عن الحسن والضحاك .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٤١ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٩-٤٣٠ عن ابن جُريج .

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٦٧ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٨ (١٥٠٦٤) عن الحسن وقتادة.

(٦) ينظر الكتاب ١/ ٣٢٥ ، والكشاف ٣/ ٨٨ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٦٥ بنحوه.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وتفسير الرازي ٢٤/ ٧١ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ هذا تنبيهٌ على عِظم قَدرِ يوم القيامة، أي: قَصدنا في ذلك إلى ما كان يَعمله المجرمون من عملِ بِرٍّ عند أنفسهم. يقال: قَدِم فلانٌ إلى أمر كذا، أي: قصده. وقال مجاهد: «قَدِمْنَا» أي: عَمدنا[1]. وقال الراجز:

وقَدِم الخوارجُ الضُّلّالُ إلى عِبادِ ربِّهم فقالوا
إن دماءكم لنا حَلالُ[2]

وقيل: هو قُدوم الملائكة[3]، أخبر به عن نفسه تعالى فاعلَه.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي: لا يُنتَفَعُ به، أي: أبطلناه بالكفر. وليس «هَبَاءً» من ذوات الهمز وإنما هُمِزت لالتقاء الساكنين. والتصغير: هُبَيّ في موضع الرفع، ومن النحويين مَن يقول: هُبيّ في موضع الرفع؛ حكاه النحاسُ[4]. و واحده هباءة والجمع أهباء. قال الحارث بن حِلِّزة يصف [ناقةً]:

فَتَرى خلْفَها من الرَّجع والوَقْـ ـعِ مَنِيناً كأنه أهباءُ[5]

وروى الحارث عن عليٍّ قال: الهباء المنثورُ: شعاعُ الشمس الذي يَدخل من الكُوَّة[6].

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٩، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٨ (١٥٠٦٥).

(٢) الرجز في مجاز القرآن ٢/ ٧٤، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٣٠، والنكت والعيون ٤/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦، ومجمع البيان للطبرسي ١٩/ ١٠٠ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٧.

(٥) شرح المعلقات العشر للنحاس ص٥٧، وقال في شرحه: «الرَّجع»: رجع قوائمها. «الوقع»: وقع خفافها. «المنين»: الغبار الضعيف كأنه الذي ذهبت مُنَّتُهُ، أي: قوته.

(٦) ذكره عنه أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٨٣، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٩ (١٥٠٧١)

وقال الأزهريُّ[1]: الهَباءُ: ما يَخرج من الكُوَّة في ضوء الشمس؛ شبيهٌ بالغبار. تأويله: إنَّ الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور. فأما الهباءُ المنبثُّ فهوما تُثيره الخيلُ بسنابكها من الغبار. والمنبثّ: المتفرِّق. وقال ابن عرفة: الهبوَة والهبَاء: التراب الدقيق. الجوهريُّ[2]: ويقال له إذا ارتفع هبَا يَهْبُو هُبُوّاً، وأهبيته أنا. والهَبْوة: الغَبَرة. قال رؤبة:

تَـبْـدُو لـنـا أعـلَامُـه بـعـدَ الـغَـرَقْ ... فـي قِـطَـعِ الآلِ وهَـبْـوَاتِ الـدُّقَـقْ[3]

وموضعٌ هابي التراب، أي: كأن ترابه مثل الهباءِ في الرِّقَّة.

وقيل: إنه ما ذَرَته الرياحُ من يابس أوراقِ الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس أيضاً: إنه الماء المُهراق. وقيل: إنه الرَّماد؛ قاله عبيدُ بن يعلى[4].

قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾

تقدم القول فيه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥]. قال النحاس[5]: والكوفيون يُجيزون: «العسل أحلى من الخل» وهذا قولٌ مردودٌ؛ لأن معنى «فلان خيرٌ من فلان» أنه أكثر خيراً منه، ولا حلاوةَ في الخَلِّ. ولا يجوز أن يقول[6]: النصرانيُّ خيرٌ من اليهودي؛ لأنه لا خيرَ فيهما فيكون أحدهما أزيدَ في الخير [من الآخر]. ولكن يقال: اليهوديُّ شرٌّ من النصراني؛ فعلى هذا كلامُ العرب.

---

(١) في تهذيب اللغة ٦/ ٤٥٤-٤٥٥ بنحوه.

(٢) في الصحاح (هبو).

(٣) ديوان رؤبة ص١٠٤ والدُّقق: جمع دُقَّة، وهو التراب الليِّن الذي كَسَحَتْه الريح من الأرض. الصحاح (دقق).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٤١، وأخرج قول قتادة وابن عباس الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٣.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في (م) والنسخ عدا (د) يقال. والمثبت من (د) وإعراب القرآن.

و«مُسْتَقَرًّا» نصب على الظرف إذا قدِّر على غير باب «أفعل منك» والمعنى: لهم خير في مستقر. وإذا كان من باب «أفعل منك» فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس[(١)] والمهدويُّ.

قال قتادة: «وَأَحْسَنُ مَقِيلاً»: منزلاً ومأوًى[(٢)].

وقيل: هو على ما تعرفه العربُ من مقيلِ نصفِ النهار[(٣)]. ومنه الحديثُ المرفوع: «إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم، فَيَقِيلُ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار» ذكره المهدوِيُّ[(٤)].

وقال ابن مسعود: لا يَنتصف النهارُ يومَ القيامة من نهارِ الدنيا حتى يَقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرَأ: «ثم إن مقِيلهم لإلى الجحيم» كذا هي في قراءة ابنِ مسعود[(٥)]. وقال ابن عباس: الحساب من ذلك اليوم في أوله، فلا يَنتصف النهارُ من يوم القيامة حتى يَقيل أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار[(٦)].

ومنه ما روي: «قِيلوا فإنَّ الشياطين لا تَقِيل»[(٧)] وذكر قاسم بن أصبغ، من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة»

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٧.

(٢) أخرجه عنه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨١ (١٥٠٨٤).

(٣) زاد المسير ٦/ ٨٤.

(٤) وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣١٤)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٤، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٣٢ عن الأعمش، عن إبراهيم النخعي قوله، ولفظه كانوا يرون أنه يُفرغ من حساب الناس...

(٥) أخرجه عنه في الزهد (١٣١٣)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٥، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٠ (١٥٠٧٩)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٠٢.

(٦) ذكره أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٨، والواحدي في الوسيط ٣/ ٣٣٨، وأخرجه عنه بنحوه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٥.

(٧) أخرجه الأصبهاني في أخبار أصبهان ١/ ٣٥٣، والطبراني في الأوسط (٢٨) من حديث أنس ﷺ وذكره ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٦٨ في ترجمة عباد بن منصور الناجي، والهيثمي في المجمع ٨/ ١١٢، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه كثير بن مروان وهو كذاب.

فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه لَيُخَفَّفُ عن المؤمن حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةِ المكتوبة يُصلِّيها في الدنيا»[1].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: واذكر يومَ تشقَّق السماء بالغمام. وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «تَشَقَّقُ»[2] بتخفيف الشين، وأصله تتشقَّق بتائين، فحذفوا الأولى تخفيفاً، واختاره أبوعبيد. الباقون: «تَشَّقَّقُ» بتشديد الشين على الإدغام، واختاره أبو حاتم. وكذلك في «ق»[3].

«بِالْغَمَام» أي: عن الغمام. والباءُ و«عن» يتعاقبان، كما تقول: رميت بالقوس، وعن القوس[4].

وروي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيض رقيقٍ مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تِيهِهم، فتنشق السماءُ عنه؛ وهو الذي قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[5] [البقرة: ٢١٠].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِن السماوات، ويأتي الربُّ جلَّ وعزَّ في الثمانية الذين يَحملون العرشَ لفصل القضاء، على ما يَجوز أن يُحملَ عليه إتيانُه؛ لا على ما تُحمل عليه صفاتُ المخلوقين من الحركة والانتقال[6]. وقال ابن عباس: تتشقق سماء الدنيا، فيَنزل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٧١٧)، قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٣٧: رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٨: وسنده حسن.

(٢) قراءة عاصم وحمزة والكسائي وأبي عمرو في السبعة ص٤٦٤، والتيسير ص١٦٣، وقراءة الأعمش، في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٧. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٧.

(٣) في قوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ الآية ٤٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٦، وبنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٨٩، وأخرجه الطبري في تفسير ١٧/ ٤٣٧، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٢ (١٥٠٨٨) عن مجاهد.

(٦) صفة الإتيان ثابتة لله عز وجل على الوجه الذي يليق به، من غير تشبيه ولا تأويل ولا تحريف.

أهلُها وهم أكثرُ ممن في الأرض من الجنّ والإنس، ثم تنشق السماء الثانية، فينزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعةُ، ثم ينزل الكَروبيُّون وحملةُ العرش[١]؛ وهو معنى قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي: من السماء إلى الأرض لحسابِ الثّقَلين.

وقيل: إن السماء تَنشقُّ بالغمام الذي بينها وبين الناس؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماءُ[٢]؛ فإذا انشقت السماءُ انتَقَض تركيبُها وطُويت، ونزلت الملائكةُ إلى مكانٍ سواها.

وقرأ ابنُ كثير: «وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ» بالنصب من الإنزال. الباقون: «وَنُزِّلَ المَلَائِكَةُ» بالرفع[٣]. دليلهُ: «تَنْزِيلاً». ولو كان على الأول لقال: إنزالاً. وقد قيل: إن نَزَّل وأنزل بمعنى، فجاء «تَنْزِيلًا» على «نَزَّل». وقد قرَأ عبدُ الوهَّاب عن أبي عمرو: «وَنُزِلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلًا»[٤]. وقرَأ ابنُ مسعود: «وَأَنْزَلَ الْمَلاَئِكَةَ». وأبيّ بن كعب: «وَنُزِّلَتِ الْمَلاَئِكَةُ». وعنه: «وتَنَزَّلت الْمَلاَئِكَةُ»[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ «المُلْكُ» مبتدأ، و«الْحَقُّ» صفة له و«لِلرَّحْمَنِ» الخبر[٦]؛ لأن المُلك الذي يَزول ويَنقطع ليس بمُلْكٍ، فبطَلت يومئذٍ أملاكُ المالكين وانقطَعت دعاويهم، وزال كلُّ مَلِك ومُلكه، وبقي المُلْكُ الحقُّ للهِ

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٠-٤٥١، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٨، وابن أبي حاتم ٨/ ٣٦٨٢ (١٥٠٨٩)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٦٩، بنحوه. قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: مداره على علي بن زيد بن جُدعان وفيه ضعف، وفي سياقه غالباً نكارة شديدة.

(٢) في (د) و(ف): فيتشقق الغمام بتشقق السماء.

(٣) السبعة ص٤٦٤، والتيسير ص١٦٤.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٧. قال ابن جني: هذا غير معروف؛ لأن «نَزَلَ» لا يتعدى إلى مفعول به. انتهى كلامه، والقراءة المشهورة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٠٤.

(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢٠٤.

وحدَه[١]. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: لِما يَنالهم من الأهوال ويَلحقُهم من الخِزي[٢] والهوان، وهو على المؤمنين أخفُّ من صلاةٍ مكتوبة[٣]؛ على ما تقدَّم في الحديث. وهذه الآية دالَّةٌ عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيراً؛ فهو على المؤمنين يسيٌر. يقال: عَسِر يَعْسَر، وعَسُر يَعسُر[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الماضي: عَضِضت. وحكى الكِسائيُّ: عَضَضت بفتح الضَّادِ الأُولى.

وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهم ابنُ عباس وسعيد بنُ المسيب أنَّ الظالم ها هنا يراد به عقبة بنُ أبي مُعَيط، وأنَّ خليلَه أمية بنُ خلف؛ فعقبةُ قتله عليُّ بن أبي طالب ﷺ[٥]؛ وذلك أنه كان في الأُسارى يومَ بدر، فأمر النبيُّ ﷺ بقتله، فقال: أأُقتل دونَهم؟ فقال: نعم، بكفرك وعتوِّك. فقال: مَن للصِّبْية؟ فقال: النار. فقام عليٌّ ﷺ فقتله[٦]. وأميةُ قتله النبيُّ ﷺ[٧]، فكان هذا من دلائل نبوَّةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنه خبَّر عنهما بهذا، فقُتلا على الكفر. ولم يسمَّيا في الآية؛ لأنه أبلغ في الفائدة، ليُعلَمَ أنَّ هذا

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٩.

(٢) في (د): الحزن.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ٣٣٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨، وقد سلف الكلام على قتل عقبة ١٠/ ٢٣ و٧٦ و١١/ ٢٩٣.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٩٣٩٤) و(٩٧٢٨).

(٧) في مغازي الواقدي ١/ ١٥١ أن الذي قتل أميةَ خبيبُ بنُ يساف وبلالٌ، وبمعناه في سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٢. وفي السيرة أيضاً ٢/ ٨٤ أن النبي ﷺ قتل أُبيَّ بن خلف؛ طعنه في عنقه يوم أحد طعنةً، تدحرج منها عن فرسه، ومات منها بسَرِف وهم قافلون به إلى مكة.

سبيلُ كلِّ ظالمٍ قَبِلَ[١] مِن غيره في معصية الله عزَّ وجلَّ.

قال ابن عباس وقتادةُ وغيرهما: وكان عقبة قد همَّ بالإسلام، فمنعه منه أُبيُّ بن خلف وكانا خِدْنَين، وأنَّ النبي ﷺ قتلهما جميعاً، قُتل عقبةُ يومَ بدرٍ صبراً، وأبيُّ بن خلف في المبارزة يومَ أُحد[٢]؛ ذكره القشيريُّ والثعلبيّ، والأول ذكره النحَّاس.

وقال السُّهيلي[٣]: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ» هوعقبة بنُ أبي مُعَيط، وكان صديقاً لأمية بنِ خلفٍ الجُمَحيّ ـ ويروى لأُبي بن خلف أخي أمية ـ وكان قد صنع وليمةً، فدعا إليها قريشاً، ودعا رسولَ الله ﷺ، فأبى أنْ يأتيَه إلاَّ أنْ يُسلِم. وكَرِه عقبةُ أن يتأخَّرَ عن طعامه مِن أشراف قريشٍ أحدٌ، فأسلم ونطق بالشهادتين[٤]، فأتاه رسولُ الله ﷺ، وأكل من طعامه، فعاتبه خليلُه أمية بنُ خلف ـ أو أبيُّ بن خلف ـ وكان غائباً. فقال عقبة: رأيتُ عظيماً ألَّا يَحضُرَ طعامي رجلٌ من أشراف قريش. فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجعَ وتبصُقَ في وجهه وتطأ عنقَه[٥] وتقول كيت وكيت. ففعل عدو الله ما أمره به خليلُه؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[٦].

قال الضحَّاك[٧]: لمَّا بصق عقبةُ في وجه رسولِ الله ﷺ، رجع بصاقُه في وجهه وشوى وجهَه وشفتيه، حتى أثَّر في وجهه، وأحرق خدَّيه، فلم يزل أثرُ ذلك في وجهه

(١) في (د) و(ظ): قتل، وهي غير منقوطة في (ز)، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨ ، والكلام منه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣١) عن مقسم مولى ابن عباس مطولاً، ومن طريقه أخرجه الطبري ١٧/ ٤٤٠ ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٧-٣٤٨ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٢٣ .

(٤) قوله: ونطق بالشهادتين، ليس في التعريف والإعلام.

(٥) قوله: وتطأ عنقه ، ليس في التعريف والإعلام.

(٦) كذا أخرجه أبو نعيم في الدلائل (٤٠١) من طريق ابن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا إسناد ضعيف جداً، والصحيح ما أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣١)، ومن طريقه الطبري ١٧/ ٤٤٠ - ٤٤١ أن الله لم يسلطه على ذلك.

(٧) ذكر قوله بنحوه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٨ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٦٧ .

حتى قُتل. وعضُّه يديه فِعلُ النادمِ الحزين لأجل طاعته خليلَه.

﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ في الدنيا، يعني طريقاً إلى الجنة. ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ﴾: دعاءٌ بالويل والثُّبور على محالفة[1] الكافرِ ومتابعته.

﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني أمية، وكنى عنه ولم يصرِّح باسمه، لئلَّا يكون هذا الوعدُ مخصوصاً به ولا مقصوراً، بل يتناول جميعَ من فعل مثلَ فعلِهما[2]. وقال مجاهدٌ وأبو رجاء: الظالم عامٌّ في كل ظالم، وفلان: الشَّيطان[3]. واحتُجَّ لصاحب هذا القول بأنَّ بعده: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا».

وقرأ الحسن: «يَا ويْلَتي»[4]. وقد مضى في «هود» بيانُه[5]. والخليل: الصاحبُ والصديق. وقد مضى في «النساء» بيانه[6].

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: يقول هذا النادم: لقد أضلَّني مَن اتخذتُه في الدنيا خليلاً عن القرآن والإيمانِ به. وقيل: «عَنِ الذِّكْرِ» أي: عن الرسول. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ قيل: هذا من قول اللهِ لا من قول الظالم. وتمامُ الكلام على هذا عند قولِه: «بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي». والخذل: الترك من الإعانة[7]، ومنه خِذْلانُ إبليسَ للمشركين لمَّا ظهر لهم في صورة سراقة بنِ مالك، فلمَّا رأى الملائكة تبرَّأ منهم[8]. وكلُّ مَن صدَّ عن سبيل الله وأُطيع في معصية اللهِ فهو شيطانٌ للإنسان، «خَذُولًا» عند

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): مخالَّة.

(٢) التعريف والإعلام ص١٢٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦، وأخرج منه قوله: «فلان: الشيطان»؛ الطبري ١٧/ ٤٤٢ عن مجاهد، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٦ (١٥١٠٩) و(١٥١١٠) عن مجاهد وأبي رجاء.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٠٤.

(٥) ١١/ ١٦٨.

(٦) ٧/ ١٥٥-١٥٦.

(٧) في (د) و(ظ): الإغاثة.

(٨) سلف ١٠/ ٤٢.

نزول العذابِ والبلاء. ولقد أحسنَ مَن قال:

تَجَنَّبْ قرينَ السُّوءِ واصرِمْ حبالَهُ ... فإنْ لم تجدْ عنه مَحِيصاً فدارِهِ
وأحببْ حبيبَ الصدقِ واحذر مِراءهُ ... تَنَلْ منه صَفْوَ الوُدِّ ما لم تمارِهِ
وفي الشيب ما يَنهى الحليمَ عن الصِّبا ... إذا اشتعلتْ نيرانُه في عِذارِهِ[(١)]

آخر:

إصحَبْ خيارَ الناس حيثُ لَقِيتهم ... خيرُ الصحابة مَن يكون عفيفا
والناسُ مِثْلُ دراهمٍ ميَّزتَها ... فوجدتَ منها فِضَّةً وزُيوفا[(٢)]

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصالح والجليسِ السُّوء كحامل المِسْك ونافخِ الكِيْر. فحاملُ المسك إمَّا أنْ يُحذِيَك وإما أن تبتاعَ منه، وإما أنْ تجد ريحاً طيِّبة، ونافخ الكير إما أن يُحرِقَ ثيابَك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة» لفظُ مسلم[(٣)]. وأخرجه أبو داود من حديثِ أنس[(٤)].

وذكر أبو بكر البزَّارُ عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله، أيُّ جلسائنا خير؟ قال: «مَن ذكَّركم بالله رؤيتُه، وزاد في علمكم مَنْطِقه، وذكَّركُم بالآخرة عملُه»[(٥)].

وقال مالك بنُ دِينار: إنك إن تنقل الأحجارَ مع الأبرار خيرٌ لك من أنْ تأكلَ الخبيصَ مع الفجَّار[(٦)]. وأنشد:

---

(١) البيت الأول في غرر الخصائص الواضحة ص٤٦٧، والبيتان الأولان في فيض القدير ٣/ ٤ دون نسبة.

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص١٠٢.

(٣) صحيح البخاري (٥٥٣٤) وصحيح مسلم (٢٦٢٨). وهو في مسند أحمد (١٩٦٢٤). وقوله: ونافخ الكير، الكير: مِنْفَخ الحداد من زِقٍّ أو جلد غليظ ذو حافات. الصحاح (كير). وقوله: يحذيك، أي: يعطيك. إكمال المعلم ٨/ ١٠٨.

(٤) سنن أبي داود (٤٨٢٩).

(٥) لم نقف عليه عند البزار، وهو عند أبي يعلى (٢٤٣٧)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٢٤، والبيهقي في الشعب (٩٤٤٦) و(٩٤٤٧). قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٢٦: فيه مبارك بن حسان، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٦) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص١٠٠.

وصاحبْ خيارَ الناس تَنْجُ مُسَلَّماً   وصاحب شرارَ الناس يوماً فتندما

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ يريد محمداً ﷺ، يشكوهم إلى الله تعالى[١]. ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي: قالوا فيه غيرَ الحقِّ مِن أنه سحرٌ وشعر؛ عن مجاهدٍ والنَّخَعيّ[٢]. وقيل: معنى «مَهْجُوراً» أي: متروكاً[٣]؛ فعزَّاه اللهُ تبارك وتعالى وسلَّاه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما جعلنا لك يا محمد عدوًّا من مشركي قومِك ـ وهو أبو جهل في قول ابنِ عباس ـ فكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا من مشركي قومه[٤]، فاصبر لأمري كما صبروا، فإني هادِيك وناصرُك[٥] على كل من ناوأك.

وقد قيل: إنَّ قول الرسول: «يَا رَبِّ» إنما يقوله يومَ القيامة، أي: هجروا القرآنَ وهجروني وكذَّبوني[٦]. وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «من تعلَّم القرآن[٧] وعلَّق مصحفاً[٨] لم يتعاهده ولم ينظر فيه، جاء يومَ القيامة متعلِّقاً به يقول: يا ربَّ العالمين! إنَّ عبدَك هذا اتَّخذني مهجوراً، فاقضِ بيني وبينه». ذكره الثعلبي[٩].

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣٩.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨، وأخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٤٤٣.
(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٤٤ عن ابن زيد.
(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣٩، وقول ابن عباس أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٧٠.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨.
(٦) ينظر زاد المسير ٦/ ٨٧.
(٧) في (د) و(ز) و(ظ) زيادة: وعلمه.
(٨) في (م): مصحفه.
(٩) أخرجه الثعلبي من طريق أبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس، وأبو هدبة كذاب. الفتح السماوي ٢/ ٨٨١.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ نصب على الحال، أو التمييز، أي: يهديك وينصرك، فلا تبالِ بمَن عاداك[١]. وقال ابن عباس: عدوُّ النبيِّ ﷺ أبو جهلٍ لعنه الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ اختُلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما: أنهم كفَّارُ قريش، قاله ابنُ عباس. والثاني: أنهمُ اليهودُ حين رأوا نزولَ القرآن مفرَّقاً قالوا: هلَّا أُنزل عليه جملةً واحدة، كما أنزلت التوراةُ على موسى[٢]، والإنجيلُ على عيسى، والزَّبور على داود. فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: فعلنا﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ﴾ نقوِّي به قلبَك فتعيه وتحمله[٣]، لأن الكتب المتقدِّمة أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، والقرآن أُنزل على نبيٍّ أُمِّيٍّ؛ ولأنَّ مِن القرآن الناسخ والمنسوخ؛ ومنه ما هو جوابٌ لمن سأل عن أمور، ففرَّقناه ليكون أوعى للنبيِّ ﷺ، وأيسرَ على العامل به؛ فكان كلَّما نزل وحيٌ جديد زاده قوَّةَ قلب[٤].

قلت[٥]: فإن قيل: هلَّا أُنزل القرآنُ دُفعةً واحدة وحَفِظه إذا كان ذلك في قدرته؟

قيل: في قدرة الله أنْ يعلِّمَه الكتابةَ[٦] والقرآنَ في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل، ولا معترِضَ عليه في حكمه، وقد بيَّنَّا وجهَ الحكمةِ في ذلك.

وقد قيل: إنَّ قوله: «كَذَٰلِكَ» مِن كلام المشركين، أي: لولا نُزِّل عليه القرآنُ

---

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٧ (على هامش مراح لبيد).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٤٣-١٤٤، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨.

(٣) في (د) و(ز): وتحتمله، وفي تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨ (والكلام منه): وتحفظه.

(٤) الوجيز ٢/ ٩٧ (على هامش مراح بن لبيد).

(٥) ليست في (د) و(ز) و(ظ).

(٦) في (د) و(م): الكتاب.

جملةً واحدة كذلك، أي: كالتوراة والإنجيل، فَيتِمُّ الوقف على «كَذَلِكَ»، ثم يبتدئ: «لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» على معنى: أنزلناه عليك متفرِّقاً لنثبِّت به فؤادَك[١]. ويجوز أنْ يكونَ الوقفُ على قوله: «جُمْلَةً وَاحِدَةً»، ثم يبتدئ: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»[٢] على معنى: أنزلناه عليك كذلك متفرِّقاً لنثبتَ به فؤادك.

قال ابنُ الأنباري: والوجهُ الأوَّل أجودُ وأحسن، والقول الثاني قد جاء به التفسير؛ حدَّثنا محمد بنُ عثمان الشيبي قال: حدَّثنا منجاب قال: حدَّثنا بِشْر بن عُمَارة، عن أبي رَوْق، عن الضحَّاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] قال: أُنزل القرآنُ جملةً واحدة من عند اللهِ عزَّ وجلَّ في اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكِرام الكاتبين في السماء، فنجَّمه السفرةُ الكِرام على جبريلَ عشرين ليلة، ونجَّمهُ جبريلُ عليه السلام على محمد ﷺ عشرين سنة. قال: فهو قولهُ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني نجومَ القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧]. قال: فلمَّا لم ينزل على النبيِّ ﷺ جملةً واحدة، قال الذين كفروا: لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة؛ فقال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ يا محمد[٣].

«وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتيلاً» يقول: ورسَّلناه ترسيلاً؛ يقول: شيئاً بعد شيء[٤].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآنَ جملةً واحدة ثم سألوك، لم يكن عندك ما تُجيبُ به، ولكنْ نُمسك عليك، فإذا سألوك أجبت.

---

(١) قوله: على معنى، إلى هذا الموضع، ليس في (د) و(م).

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٤/ ٧٩ . وسيأتي القول فيه من كلام النحاس.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٠ (١٥١٣٠) من هذا الطريق مختصراً جداً. وأخرجه مطولاً من طريق آخر بنحوه (١٥١٢٧).

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٤٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال النحاس[١]: وكان ذلك من علامات النبوّة؛ لأنهم لا يَسألون عن شيء إلّا أُجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلّا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم، ويدلُّ على هذا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. ولو نَزَلَ جملةً بما فيه من الفرائض لَثَقُل عليهم، وعَلِم اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ الصَّلاحَ في إنزاله متفرِّقاً، لأنهم يُنبَّهون به مرةً بعد مرة، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه. وفيهِ ناسخٌ ومنسوخ، فكانوا يُتعبَّدون بالشيء إلى وقتٍ بعينه قد علم اللهُ عزَّ وجلَّ فيه الصلاح، ثم ينزل النسخُ بعد ذلك؛ فمحالٌ أن ينزلَ جملة واحدة: إفعلوا كذا ولا تفعلوا كذا[٢]. قال النحاس: والأَولى أن يكون التمامُ «جُمْلَةً وَاحِدَةً» لأنه إذا وُقف على «كَذَلِكَ» صار المعنى: كالتوراة والإنجيل والزبور؛ ولم يتقدَّم لها ذِكْر.

قال الضحَّاك: «وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا» أي: تفصيلًا[٣]. والمعنى: أحسن مِن مَثَلهم تفصيلًا؛ فحذف لِعِلم السامع.

وقيل: كان المشركون يستمدُّون من أهل الكتاب، وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريفُ والتبديل، فكان ما يأتي به النبيُّ ﷺ أحسنَ تفسيراً ممَّا عندهم؛ لأنهم كانوا يَخلِطون الحقَّ بالباطل، والحقُّ المَحْض أحسن من حقٍّ مختلِطٍ بباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢].

وقيل: «لاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ» كقولهم في صفة عيسى: إنه خُلقَ من غير أب «إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ» أي: بما فيه نقضُ حُجَّتِهم كآدم إذ خُلِق من غير أبٍ وأمّ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ تقدَّم في «سبحان»[٤].

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٩-١٦٠.
(٢) قوله كذا من (ظ).
(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٤٨.
(٤) ١٣/ ١٧٨ - ١٧٩.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنهم في جهنم. وقال مقاتل: قال الكفَّار لأصحاب محمد ﷺ: هو شرُّ الخلق؛ فنزلت الآية. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: دينًا وطريقًا[1]. ونظمُ الآية: ولا يأتونك بَمَثل إلَّا جئناك بالحقّ، وأنت منصورٌ عليهم بالحُجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد التوراة. ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ تقدَّم في «طه»[2]. ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ الخطابُ لهما. وقيل[3]: إنما أُمر موسى ﷺ بالذَّهاب وحدَه في المعنى. وهذا بمنزلة قولهِ: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وقولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما.

قال النحاس[4]: وهذا مما لا ينبغي أن يُجترأ به على كتاب اللهِ تعالى، وقد قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ . قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ . قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ . فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٤-٤٧]. ونظيرُ هذا: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٥] قال القشيريّ: وقولُه في موضع آخرَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] لا ينافي هذا؛ لأنهما إذا كانا مأمورَين، فكلٌّ واحدٍ مأمور. ويجوز أن يقال: أُمر موسى أوّلاً، ثم لمَّا قال: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي»، قال: «اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ»[5].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٠.

(٢) ١٤/ ٥٣.

(٣) قائله الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٦٨.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٠، وكلام الفراء منه.

(٥) سلف الكلام ١٤/ ٦٣.

﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يريد فرعونَ وهامانَ والقِبْط. ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ في الكلام إضمار، أي: فكذَّبوهما ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ في نصب «قوم» أربعةُ أقوال:

العطف على الهاء والميم في «دَمَّرْنَاهُمْ».

الثاني: بمعنى: اذكر.

الثالث: بإضمار فعلٍ يفسِّره ما بعدَه، والتقدير: وأغرقنا قومَ نوحٍ أغرقناهم.

الرابع: أنه منصوب بـ«أَغْرَقْنَاهُمْ»قاله الفرَّاء[2]. وردَّه النحاس[3]، قال: لأنَّ «أغرقنا» ليس مما يتعدَّى إلى مفعولين فيعملَ في المضمَر وفي «قَوْمَ نُوحٍ».

﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ ذَكَر الجِنسَ والمرادُ نوحٌ وحده؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقتِ رسولٌ إليهم إلَّا نوحٌ وحده، فنوحٌ إنما بُعث بلا إله إلا الله، وبالإيمان بما يُنزل الله، فلمَّا كذَّبوه، كان في ذلك تكذيبٌ لكل من بُعث بعده بهذه الكلمة[4]. وقيل: إنَّ مَن كذَّب رسولاً فقد كذَّب جميعَ الرسل؛ لأنهم لا يفرِّق بينهم في الإيمان، ولأنه ما من نبيٍّ إلاَّ يُصدِّق سائرَ أنبياء اللهِ تعالى، فَمن كذَّب منهم نبيًّا، فقد كذَّب كلَّ مَن صدَّقه من النبيِّين.

﴿أَغْرَقْنَـٰهُمْ﴾ أي: بالطُّوفان، على ما تقدَّم في «هود»[5]. ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩.

(٢) في معانيه ٢/ ٢٦٨.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٦١. وما قبله منه.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٧-٦٨.

(٥) ١١/ ١١٨ فما بعد.

﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً ظاهرةً على قدرتنا. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: للمشركين مِنْ قومِ نوحٍ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: في الآخرة. وقيل: أي: هذه سبيلي في كل ظالم.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ كلُّه معطوفٌ على «قَوْمَ نُوحٍ» إذا كان «قَوْمَ نُوحٍ» منصوباً على العطف، أو بمعنى: اذكر. ويجوز أن يكون كلُّه منصوباً على أنه معطوفٌ على المضمَر في «دَمَّرْنَاهُمْ»، أو على المضمر في «جَعَلْنَاهُمْ»، وهو اختيارُ النحَّاس[١]؛ لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكونَ منصوباً بإضمار فعل، أي: اذكر عاداً الذين كذَّبوا هوداً؛ فأهلكهم الله بالريح العقيم، و ثَمودَ كذَّبوا صالحاً؛ فأُهلكوا بالرَّجفة.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ والرَّسُّ في كلام العربِ: البئرُ التي تكون غيرَ مَطْويةٍ[٢]، والجمعُ: رِسَاس. قال:

تَنابِلةٌ يحفِرون الرِّسَاسا[٣]

يعني آبارَ المعادن[٤].

قال ابن عباس: سألت كعباً عن أصحاب الرَّسّ، قال: صاحب «يس» الذي قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] قتله قومُه ورَسُّوه في بئر لهم يقال لها: الرَّسّ، طرحوه فيها، وكذا قال مقاتل. السُّدِّيّ: هم أصحاب قصةِ «يس» أهلُ أنطاكية، والرَّسُّ بئرٌ بأنطاكية؛ قتلوا فيها حبيباً النجَّار مؤمنَ آل «يس»، فنُسبوا إليها[٥].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٦١. وما قبله منه.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٢، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٨٢ عن أبي عبيدة. وفي أكثر كتب اللغة أن الرس: البئر المطوية. قال في الصحاح: هو من الأضداد. وسيأتي.

(٣) عجز بيت للنابغة الجعدي، و هو في ديوانه ص٨٢. وصدره: سبقتُ إلى فَرَطٍ ناهلٍ. والفرط: الماء المتقدم لغيره من الأمواه، وتنابلة: جمع تِنْبال وتِنْبالة، وهو القصير. القاموس (فرط) (نبل).

(٤) تفسير غريب القرآن ص ٣١٣.

(٥) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ٣٤٠، و ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٠.

وقال عليٌّ ﷺ[١]: هم قومٌ كانوا يعبدون شجرة صَنَوبر، فدعا عليهم نبيُّهم؛ وكان مِن ولد يهوذا، فيبست الشجرة، فقتلوه ورَسُّوه في بئر، فأظلَّتهم سحابةٌ سوداء فأحرقتهم.

وقال ابن عباس: هم قومٌ بأذربيجان[٢]؛ قتلوا أنبياء[٣]، فجفَّت أشجارُهم وزروعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً.

وقال وهب بنُ منبِّه: كانوا أهلَ بئرٍ يقعدون عليها وأصحابَ مواشي، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً، فكذَّبوه وآذَوه، وتمادَوا على كفرهم وطغيانهم، فبينما هم حول البئر في منازلهم، انهارت بهم وبديارهم؛ فخسف اللهُ بهم، فهلكوا جميعاً[٤].

وقال قتادة: أصحاب الرَّسِّ وأصحابُ الأيكة أُمَّتان أرسل الله إليهما شعيباً فكذَّبوه، فعذَّبهما اللهُ بعذابين.قال قتادة: والرّسُّ قريةٌ بفَلْج اليمامة[٥].

وقال عكرمة: هم قومٌ رَسُّوا نبيَّهم في بئر حيًّا[٦]. دليلُه ما روى محمد بن كعب القُرظيُّ عمَّن حدَّثه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوَّلُ الناس يدخل الجنةَ يوم القيامة عبدٌ أسود، وذلك أنَّ الله تعالى بعث نبيًّا إلى قومه، فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود، فحفر أهل القرية بئراً وألقَوا فيها نبيَّهم حيًّا، وأطبقوا عليه حجراً ضخماً، وكان العبد الأسودُ يحتطب على ظهره ويبيعه، ويأتيه بطعامه وشرابه، فيعينه اللهُ على رفع تلك الصخرةِ حتى يُدْلِيَه إليه، فبينما هو يحتطب إذ نام، فضرب اللهُ على أُذنه سبع سنين

---

(١) ذكر قوله ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١١، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٩٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٥ (١٥١٧٣).

(٣) في (د) و (ز): نبياً. وينظر عرائس المجالس ص١٥٢.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٤١، وزاد المسير ٦/ ٩٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٠. وقول قتادة الثاني أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢ دون قوله: حياً.

نائماً، ثم هبَّ من نومه فتمطَّى واتَّكأ على شِقِّه الآخرَ، فضرب الله على أذنه سبع سنين، ثم هبَّ، فاحتمل حُزمةَ الحطب فباعها، وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر، فلم يجده، وكان قومُه قد أراهم اللهُ تعالى آيةً، فاستخرَجوه وآمَنوا به وصدَّقوه، ومات ذلك النبيّ». قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ ذلك العبدَ الأسود لأوَّلُ مَن يدخل الجنة»[1]. ذكر هذا الخبَر المهدويُّ والثعلبيّ، واللفظُ للثعلبي، وقال: هؤلاء آمنوا بنبيِّهم فلا يجوز أن يكونوا أصحابَ الرَّسّ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرسِّ أنه دمرهم، إلَّا أنْ يدمَّروا بأحداثٍ أحدثوها بعد نبيِّهم.

وقال الكلبي: أصحاب الرَّسِّ قومٌ أَرسل اللهُ إليهم نبيًّا فأكلوه. وهم أوَّلُ من عمل نساؤهم السَّحق[2]؛ ذكره الماوردي.

وقيل: هم أصحابُ الأُخدود الذين حفروا الأخاديد وحرَّقوا فيها المؤمنين[3]، وسيأتي[4].

وقيل: هم بقايا من قومِ ثمود، وأنَّ الرَّسَّ البئرُ المذكورة في «الحج» في قوله: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾[5] [الآية: ٤٥] على ما تقدَّم[6].

وفي الصحاح: والرَّسُّ اسمُ بئرٍ كانت لبقيَّة من ثمود.

وقال جعفر بنُ محمد عن أبيه: أصحابُ الرَّسِّ قومٌ كانوا يستحسنون لنسائهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٤-٤٥٥ . وكلام الثعلبي الآتي فيه. قال ابن كثير في تفسيره ٦/ ١١٢: فيه غرابة ونكارة ، ولعل فيه إدراجاً، والله أعلم .

(٢) في (ز)، والنكت والعيون ٤/ ١٤٦ ، وزاد المسير ٦/ ٩٠ : السحر، والمثبت من (د) و(ظ) و(م)، وينظر عرائس المجالس ص١٥١ فما بعد، فقد ذكر قصة أصحاب الرس نقلاً عن الكلبي وغيره، ولم يعرّج على ذكر السحر. والله أعلم .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩ .

(٤) عند تفسير قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج: ٤].

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً .

(٦) ١٤/ ٤١٧ .

السَّحْق، وكان نساؤهم كلُّهم سحَّاقات[١]. وروي من حديث أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِن أشراط الساعةِ أنْ يكتفيَ الرجالُ بالرجال والنساءُ بالنساء، وَذلك السَّحْق»[٢].

وقيل: الرَّسُّ ماءٌ ونخل لبني أسد. وقيل: الثلجُ المتراكم في الجبال؛ ذكره القُشَيري. وما ذكرناه أوَّلاً هو المعروف، وهو[٣] كلُّ حفر احتُفِر، كالقبر والمعدن والبئر. قال أبو عبيدة: الرَّسُّ كلُّ رَكيَّةٍ لم تُطْوَ؛ وجمعُها رِساس. قال الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم فيا ليتهم يَحفِرون الرِّساسا[٤]

والرَّسُّ اسمُ وادٍ في قول زهير:

بَكَرْنَ بُكوراً واستَحَرْن بسُحْرةٍ فهنَّ لوادي الرَّسِّ كاليد للفمِ[٥]

ورسستُ رسَّاً: حفرتُ بئراً. ورُسَّ الميتُ، أي: قُبر. والرَّس: الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضاً، وقد رسست بينهم؛ فهو من الأضداد[٦].

وقد قيل في أصحاب الرَّسِّ غيرُ ما ذكرنا، ذكره الثعلبي وغيره.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: أُمماً لا يعلمهم إلَّا اللهُ بين قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّسّ.

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٩/١٠٧.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (١٠٩٠) وأخرجه البيهقي في الشعب (٥٤٦٧) - (٥٤٦٩) وضعف إسناده ثم قال: غير أنه إذا ضم بعضه إلى بعض أخذ قوة، والله أعلم.

وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه الطبراني في الكبير(١٠٥٥٦) مطولاً. قال الهيثمي في المجمع ٧/٣٢٣: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه سيف بن مسكين، وهو ضعيف.

(٣) في (ظ): وقيل هو..

(٤) لم نقف عليه.

(٥) ديوان زهير ص١٠، وقوله: كاليد للفم، هو بمعنى المثل العربي: أقرب من يد إلى فم. ينظر المستقصى للزمخشري ١/٢٧٩.

(٦) الصحاح (رسس).

وعن الربيع بن خُثَيم اشتكى، فقيل له: ألَا تتداوى، فإنَّ رسول الله ﷺ قد أمر به؟ قال: لقد هممت بذلك، ثم فكرتُ فيما بيني وبين نفسي، فإذا «عاداً وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقروناً بين ذلك كثيراً» كانوا أكثرَ وأشدَّ حرصاً على جمع المال، فكان فيهم أطِبَّاء، فلا الناعتُ منهم بقي ولا المنعوت. فأبى أن يتداوى[1]، فما مكث إلَّا خمسةَ أيام حتى مات، رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ قال الزجَّاج: أي: وأنذرنا كلًّا ضربنا له الأمثالَ[2]، وبيَّنَّا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثالَ الباطلةَ كما يفعلُه هؤلاء الكَفَرة. وقيل: انتصب على تقدير: ذكَّرنا كلًّا، ونحوه؛ لأن ضربَ الأمثال تذكيرٌ ووعظ؛ ذكره المهدويّ. والمعنى واحد.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا بالعذاب. وتبَّرتُ الشيء كسرتُه[3]. وقال المؤرِّج والأخفش: دمَّرناهم تدميراً. تُبدل التاءُ والباء من الدال والميم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني مشركي مكَّة. والقرية قريةُ قومِ لوط. و﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾: الحجارة التي أُمطروا بها. ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾ أي: في أسفارهم ليعتبروا[4]. قال ابن عباس: كانت قريشٌ في تجارتها إلى الشام تَمرُّ بمدائن قومِ لوط، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧]، وقال:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٠٦ بنحوه.

(٢) معاني القرآن ٤/ ٦٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الكلام بنحوه في الوجيز ٢/ ٩٨ (على هامش مراح لبيد)، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٤١ .

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]. و قد تقدَّم(١).

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: لايصدِّقون بالبعث. ويجوز أنْ يكون معنى «يَرْجُونَ»: يخافون. ويجوز أن يكونَ على بابه، ويكون معناه: بل كانوا لايرجون ثوابَ الآخرة(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ جواب «إِذَا» «إِنْ يَتَّخذُونَكَ»؛ لأن معناه: يتخذونك. وقيل: الجوابُ محذوف، وهو: قالوا، أو: يقولون: «أَهَذَا الَّذي»(٣)؛ وقولُه: «إِنْ يَتَّخذُونَكَ إِلا هُزُواً» كلامٌ معترِض. ونزلت في أبي جهل؛ كان يقول للنبي ﷺ مستهزِئاً: «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ الله رَسُولًا»(٤). والعائد محذوف، أي: بعثه الله(٥). «رَسُولًا» نصب على الحال، والتقدير: أهذا الذي بعثه الله مُرسَلًا. «أَهَذَا» رفعٌ بالابتداء، و«الذي» خبره، «رَسُولًا» نصب على الحال، و«بَعَثَ» في صلة «الَّذي»، واسمُ الله عزَّ وجلَّ رفع بـ «بَعَثَ». ويجوز أن يكون مصدراً؛ لأن معنى «بَعَثَ» أرسل، ويكون معنى «رَسُولًا» رسالةً على هذا(٦). والألف للاستفهام، على معنى التقريرِ والاحتقار.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي: قالوا: قد كاد أنْ يَصرِفنا. ﴿عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا

(١) ١٢/ ٢٣٧.

(٢) وهذا الوجه هو الذي ارتضاه الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٦٩، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠.

(٥) مجمع البيان ١٩/ ١١٠.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢.

عَلَيْهَاۚ﴾ أي: حبسنا أنفسَنا على عبادتها. قال الله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يريد: مَن أضلُّ دِيناً؛ أهم أم محمد؟ وقد رأوه في يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ عجَّب نبيَّه ﷺ من إضمارهم على الشِّرك وإصرارِهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقُهم ورازقهم، ثم يعمدُ إلى حجر يعبده من غير حجَّة. قال الكلبيُّ وغيره: كانت العرب إذا هَويَ الرجلُ منهم شيئاً؛ عبده مِن دون الله، فإذا رأى أحسنَ منه؛ ترك الأوَّلَ وعَبَد الأحسن[1]. فعلى هذا يعني: أرأيت من اتخذ إلهه بهواه؛ فحذف الجارّ.

وقال ابن عباس: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله[2]، ثم تلا هذه الآية.

قال الشاعر:

لَعَمرُ أبيها لو تبدَّت لناسكٍ ... قد اعتزلَ الدنيا بإحدى المناسكِ

لَصلَّى لها قبل الصلاة لربِّه ... ولَارْتَدَّ في الدنيا بأعمال فاتكِ[3]

وقيل: «اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» أي: أطاع هواه. وعن الحسن: لايَهوى شيئاً إلا اتَّبعه[4]، والمعنى واحد.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظاً وكفيلًا حتى تردَّه إلى الإيمان وتُخْرِجَه من هذا الفساد. أي: ليست الهدايةُ والضلالة موكولتَين إلى مشيئتك، وإنما عليك التبليغ. وهذا ردٌّ على القَدَرية. ثم قيل: إنها منسوخةٌ بآية القتال[5]. وقيل: لم تُنسخ[6]؛ لأنَّ الآية تسليةٌ للنبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٩ (١٥١٩٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠ (١٥٢٠٠) بنحوه.

(٣) لم نقف عليهما.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠ (١٥٢٠١).

(٥) قاله الكلبي كما في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤١.

(٦) المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٤٢.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل: أنهم؛ لأن منهم مَن قد عَلم أنه يؤمن. وذمَّهم جلَّ وعزَّ بهذا. «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ» سماعَ قَبول، أو يفكِّرون فيما تقول فيعقلونه، أي: هم بمنزلة مَن لا يَعْقِل ولا يسمع. وقيل: المعنى: أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون؛ فكأنهم لم يسمعوا[١]؛ والمراد أهلُ مكة[٢]. وقيل: «أَمْ» بمعنى بل في مثل هذا الموضع[٣].

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: في الأكل والشُّرب لا يفكِّرون في الآخرة[٤]. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ إذ لا حسابَ ولا عقاب على الأنعام. وقال مقاتل[٥]: البهائم تَعرف ربَّها، وتهتدي إلى مراعيها، وتنقاد لأربابها التي تَعقِلها[٦]، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربَّهم الذي خلقهم ورزقهم. وقيل: لأن البهائم إن لم تعقل صِحَّة التوحيد والنبوَّةِ، لم تعتقد بطلانَ ذلك أيضاً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يجوز أن تكونَ هذه الرؤيةُ من رؤية العين، ويجوز أن تكونَ من العلم[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .
(٢) زاد المسير ٦/ ٩٢ .
(٣) الكشاف ٣/ ٩٣ .
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٦٢ .
(٥) ذكر قوله أبو الليث بنحوه .
(٦) في (ز) و (ظ): تعلفها .
(٧) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ٨٧ .
(٨) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٠ .

قال الحسن وقتادة[١] وغيرهما: مدَّ الظلَّ من طلوع الفجرِ إلى طلوع الشمس. وقيل: هو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها. والأوَّلُ أصحّ؛ والدليلُ على ذلك أنه ليس مِن ساعةٍ أطيبَ من تلك الساعة، فإنَّ فيها يجد المريضُ راحةً، والمسافرُ وكلُّ ذي عِلَّة، وفيها تُرَدُّ نفوسُ الأمواتِ والأرواحُ منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوسُ الأحياء فيها. وهذه الصفة مفقودةٌ بعد المغرب. وقال أبو العالية: نهار الجنةِ هكذا، وأشار إلى ساعة المصلِّين صلاةَ الفجر.

أبو عبيدة: الظلُّ بالغَداة والفيءُ بالعَشِيّ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس؛ سُمِّيَ فيئاً لأنه فاءَ من المشرق إلى جانب المغرب[٢]. قال الشاعر، وهو حميد بنُ ثور، يصف سَرْحة، وكنى بها عن امرأة:

فلا الظِّلُّ مِن بَرْد الضُّحا تستطيعُه ... ولا الفيءُ من برد العشيِّ تذوقُ[٣]

وقال ابن السِّكِّيت: الظلُّ ما نسخته الشمس، والفيءُ ما نَسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال: كلُّ ما كانت عليه الشمسُ فزالت عنه، فهو فيءٌ وظِلّ، وما لم تكن عليه الشمسُ فهو ظِلّ[٤].

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً مستقِرًّا لا تنسخُه الشمس[٥]. ابنُ عباس: يريد إلى يوم القيامة[٦]، وقيل: المعنى: لو شاء لَمنعَ الشمسَ الطُّلوعَ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: جعلنا الشمس بنسخها الظلَّ عند مجيئها دالَّةً على أنَّ الظل شيءٌ ومعنًى؛ لأن الأشياء تُعرف بأضدادها؛ لولا الشمسُ ما عُرف

---

(١) أخرجه عنهما عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٠، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٠-٤٦١ عن ابن عباس وغيره.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠.

(٣) الصحاح(فيأ)، والبيت في الديوان ص٤٠، والسرحة: شجرة عظيمة طويلة. الصحاح (سرح).

(٤) الصحاح (فيأ).

(٥) تفسير غريب القرآن ص٣١٣.

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٢ بنحوه.

الظلّ، ولولا النورُ ما عُرفت الظُّلمة[١]. فالدليل: فعيلٌ بمعنى الفاعل، وقيل: بمعنى المفعول، كالقتيل والدَّهين والخَضيب. أي: دللنا الشمس على الظلِّ حتى ذهبت به، أي: أَتبعناها إياه. فالشمس دليل، أي: حُجَّةٌ وبرهان، وهو الذي يَكشِف المشكلَ ويوضحه. ولم يؤنث الدليل وهو صفةُ الشمس؛ لأنه في معنى الاسم؛ كما يقال: الشمسُ برهان، والشمس حق.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ﴾ يريد ذلك الظلَّ الممدود[٢]. ﴿إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ أي: يسيرًا[٣] قبضُه علينا. وكلُّ أمرِ ربِّنا عليه يسير. فالظلُّ مُكْثُه في هذا الجو بمقدار طلوعِ الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظلُّ مقبوضًا، وخَلَفَه في هذا الجوِّ شعاعُ الشمس، فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظلّ، إنما ذلك بقيةُ نورِ النهار. وقال قوم: قَبَضه بغروب الشمس؛ لأنها ما لم تَغرُب؛ فالظلُّ فيه بقية، وإنما يَتِمُّ زوالُه بمجيء الليل ودخولِ الظُّلمةِ عليه. وقيل: إنَّ هذا القبضَ وقع بالشمس؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً؛ قاله أبو مالكٍ وإبراهيم التيمي. وقيل: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ» أي: قبضنا ضياءَ الشمس بالفيء «قَبْضاً يَسِيرًا». وقيل: «يَسِيرًا» أي: سريعًا[٤]، قاله الضحَّاك. قتادةُ[٥]: خفيًّا؛ أي: إذا غابت الشمس قُبض الظلُّ قبضاً خفيًّا؛ كلما قُبض جُزءٌ منه جُعل مكانَه جزءٌ من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة. فهذا معنى قولِ قتادة؛ وهو قول مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٤٧ عن أبي مالك بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في (د): قال الضحاك وقتادة. والأثر أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٥ عن مجاهد وابن جريج.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ يعني ستراً للخلق يقوم مَقامَ اللِّباسِ في سَتر البدن. قال الطبري[1]: وصف الليلَ باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياءَ ويغشاها.

الثانية: قال ابن العربي: ظنَّ بعضُ الغَفَلَة أنَّ مَن صلى عُرياناً في الظلام أنه يُجزئه؛ لأنَّ الليل لباس. وهذا يوجب أن يصلِّيَ في بيته عرياناً إذا أغلق عليه بابَه. والسَّترُ في الصلاة[2] عبادةٌ تختصُّ بها، ليست لأجل نظرِ الناس. ولا حاجةَ إلى الإطناب في هذا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ أي: راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال. وأصلُ السُّبَات من التمدُّد[3]. يقال: سبتت المرأةُ شعرها، أي: نقضته وأرسلته. ورجل مسبوت، أي: ممدودُ الخِلْقة. وقيل للنوم: سبات؛ لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت: القطع[4]؛ فالنوم انقطاعٌ عن الاشتغال، ومنه: سبتُ اليهود؛ لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل: السبت: الإقامة في المكان؛ فكأن السُّباتَ سكونٌ مّا وثبوتٌ عليه[5]؛ فالنوم سُبَاتٌ على معنى أنه سكونٌ عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل[6]: السُّبات نومٌ ثقيل، أي: جعلنا نومَكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ من الانتشار للمعاش، أي: النهار سبب الإحياءِ للانتشار. شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة[7]. وكان عليه الصلاة

---

(١) في تفسيره ١٧/ ٤٦٥-٦٦٦، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢.

(٢) في النسخ: الظلام، والمثبت من أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣، والكلام منه.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٣١٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢.

(٦) في العين ٧/ ٢٣٨.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢.

والسلام إذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ تقدَّم في «الأعراف» مستوفىً[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

فيه خمسة عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ يُتطهَّر به؛ كما يقال: وَضوءٌ؛ للماء الذي يُتوضأ به. وكلُّ طَهورٍ طاهرٌ، و ليس كلُّ طاهر طَهورًا[(٣)]. فالطَّهور بفتح الطاء: الاسم، وكذلك الوَضوءُ والوَقود، وبالضم: المصدر، وهذا هو المعروفُ في اللغة؛ قاله ابنُ الأنباريّ، فبيَّن أن الماء المنزل من السماء طاهرٌ في نفسه مطهِّر لغيره، فإن الطَّهور بناءُ مبالغةٍ في طاهر، وهذه المبالغةُ اقتضت أن يكونَ طاهراً مُطَهِّراً. وإلى هذا ذهب الجمهور.

وقيل: إنَّ «طَهُوراً» بمعنى طاهر، وهو قول أبي حنيفة، وتعلَّق بقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] يعني طاهراً. ويقول[(٤)] الشاعر:

خليليَّ هل في[(٥)] نظرةٍ بعد توبة ... أداوي بها قلبي عليَّ فُجُورُ

(١) روي عن حذيفة و أبي ذر والبراء ﷺ؛ فحديث حذيفة أخرجه أحمد (٢٣٣٩١)، والبخاري (٦٣١٢)، وحديث أبي ذر أخرجه أحمد (٢١٣٦٦)، والبخاري (٦٣٢٥)، وحديث البراء أخرجه أحمد (١٨٦٠٣)، ومسلم (٢٧١١).

(٢) ٩/ ٢٥٢.

(٣) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٩.

(٤) في (د) و(ف) و(م): وبقول، وهي مهملة في (ز)، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٤ (والكلام منه): وقال. والمثبت من (ظ).

(٥) في (ظ): من.

إلى رُجُحِ الأكفالِ غِيدٍ من الظِّبا[١] عِـذابِ الـثَّـنـايـا رِيـقُـهـنَّ طَـهُـورُ[٢]

فَوَصَف الرِّيقَ بأنه طَهور، وليس بمطهِّر. وتقول العرب: رجلٌ نَؤوم، وليس ذلك بمعنى أنه مُنِيمٌ لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعلِ نفسِهِ.

ولقد أجاب علماؤنا عن هذا، فقالوا: وَصْف شراب الجنةِ بأنه طَهورٌ يفيد التطهيرَ عن أوضار الذنوبِ[٣] وعن خسائس الصفات، كالغِلِّ والحَسَد، فإذا شربوا هذا الشراب، يطهِّرهم اللهُ مِن رَحْض الذنوبِ وأوضارِ الاعتقاداتِ الذميمة، فجاؤوا اللهَ بقلب سليم، ودخلوا الجنةَ بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. ولما كانَ حكمه في الدنيا بزوال حكم الحَدَثِ بجريان الماءِ على الأعضاء، كانت تلك حكمتَه ورحمته[٤] في الآخرة. وأما قول الشاعر:

... رِيــقُــهُــنَّ طَــهُــورُ

فإنه قصد بذلك المبالغةَ في وصف الرِّيقِ بالطُّهورية، لعذوبته وتعلُّقِه بالقلوب، وطِيبهِ في النفوس، وسكونِ غليل المحبِّ برَشْفه حتى كأنه الماءُ الطَّهور. وبالجملة فإنَّ الأحكام الشرعيةَ لا تثبت بالمجازات الشِّعرية؛ فإنَّ الشعراء يتجاوزون في الاستغراق حدَّ الصِّدقِ إلى الكذب، ويسترسلون في القول حتى يُخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية، وربَّما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون. ألا ترى إلى قول

(١) في المصادر: هيفٍ خصورُها. وقوله: رُجُح، هو جمع: رَجَاح وراجح، وهي ثقيلة العجيزة من النسوة. والأكفال: جمع كَفَل، وهو العجز. والظبي الأغيد: الذي مالت عنقه ولانت أعطافه. اللسان (رجح) (كفل) (غيد).

(٢) ذكر أبو علي القالي في الأمالي ١/١٨٣: البيتين ضمن قصيدة، ونقل عن ابن الأنباري أنها لجميل بن معمر العُذري ثم قال أبو علي: وليست هذه الأبيات في شعر جميل. اهـ. والبيت الثاني في اللسان (رجح) دون نسبة.

(٣) أوضار، جمع وَضَر، وهو الوسخ من الدسم أو غيره.

(٤) قوله: ورحمته، ليس في (م).

بعضِهم:

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رِجلَها لما كنتُ أدري علَّةً للتيمُّمِ

وهذا كفر صُراح، نعوذ بالله منه.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربي[(١)]: هذا منتهى لُبابِ كلامِ العلماء، وهو بالغٌ في فنِّه؛ إلا أنِّي تأملتُ من طريق العربية، فوجدت فيه مَطلعاً مشرِّفاً[(٢)]، وهو أنَّ بناء فَعولٍ للمبالغة، إلَّا أنَّ المبالغةَ قد تكون في الفعل المتعدِّي كما قال الشاعر[(٣)]:

ضَروبٌ بنصل السيفِ سُوقَ سِمَانِها

وقد تكون في الفعل القاصر، كما قال الشاعر:

نَؤُوم الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ[(٤)]

وإنما تؤخذ طهوريةُ الماء لغيره من الحسن نظافةً، ومن الشرع طهارةً؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقبل اللهُ صلاةً بغير طُهور»[(٥)]. وأجمعت الأمة لغةً وشريعةً على أنَّ وصف «طَهور» يختصُّ بالماء، ولا يتعدَّى إلى سائر المائعات، وهي طاهرة؛ فكان اقتصارُهم بذلك على الماء أدلَّ دليلٍ على أنَّ الطَّهورَ هو المطهِّر. وقد يأتي فَعولٌ لوجه آخرَ ليس من هذا كلِّه، وهو العبارةُ به عن الآلة للفعل، لا عن الفعل، كقولنا: وَقُود وسَحُور، بفتح الفاء[(٦)]، فإنها عبارةٌ عن الحطب والطعامِ[(٧)] المتسحَّر

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٤-١٤٠٦، وما قبله منه.

(٢) في (د) و (م): مشرقاً، وفي أحكام القرآن: شريفاً.

(٣) هو أبو طالب، وسلف البيت بتمامه ٥/ ١١٩.

(٤) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٧، وجاء أيضاً في ديوان كُثير عزة، وسلف ص٣٦٢ من هذا الجزء.

(٥) سلف ٧/ ٣٦٦.

(٦) يعني فاء «فَعول»، ووقع في (ظ): بفتح الواو والسين بدل قوله: بفتح الفاء.

(٧) في (د): المطعم، وفي (ظ) و (م): الطعم، وفي (ف): المطمع. والمثبت من (ز)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن، وما سيرد بين حاصرتين منه.

بِهِ؛ فوَصفُ الماءِ بأنه طَهور ـ بفتح الطاء ـ أيضاً يكون خبراً عن الآلة التي يُتطهَّر بها. فإذا ضُمَّت الفاء في الوَقود والسَّحور والطَّهور؛ عاد إلى الفعل وكان خبراً عنه. فثبت بهذا أنَّ اسم الفَعول ـ بفتح الفاء ـ يكون بناءً للمبالغة، ويكون خبراً عن الآلة، وهو الذي خطر ببال الحنفيَّة، ولكن قَصُرت أشداقُها عن لَوْكِه، وبعد هذا يقف البيانُ [به] عن المبالغة، وعن الآلة على الدليل، فقوله[1] تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[2] يحتمل المبالغةَ، ويحتمل العبارةَ به عن الآلة؛ فلا حُجَّةَ فيه لعلمائنا، لكن يبقى قولُه: «لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ» نصّاً في أنَّ فعله يتعدَّى إلى غيره.

الثانية: المياهُ المنزلة من السماء والمودعةُ في الأرض طاهرةٌ مطهِّرة، على اختلاف ألوانِها وطُعومها وأرياحها، حتى يخالطَها غيرُها. والمخالطُ للماء على ثلاثة أضرب:

ضرب يوافقه في صفتَيه جميعاً [وهي: الطهارةُ، والتطهير]، فإذا خالطه فغيَّره لم يسلبه وصفاً منهما، لموافقته لهما، وهو التراب.

والضربُ الثاني يوافقه في إحدى صفتيه، وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيَّره؛ سلبَه ما خالفه فيه، وهو التطهير، كماء الوردِ وسائرِ الطاهرات.

والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعاً، فإذا خالطه فغيَّره؛ سلبه الصفتين جميعاً؛ لمخالفته له[3] فيهما، وهو النَّجس.

الثالثة: ذهب المِصريُّون من أصحاب مالكٍ إلى أنَّ قليل الماء يفسده قليلُ النجاسة، وأنَّ الكثير لا يفسده إلَّا ما غيَّر لونَه أو طعمه أو ريحه من المحرَّمات. ولم

---

(١) في (م): بقوله.

(٢) سلف ٢/ ٢٨٣ .

(٣) في النسخ الخطية: لهما، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

يَحدُّوا بين القليل والكثير حدّاً يوقفُ عنده، إلَّا أنَّ ابنَ القاسم روى عن مالك في الجُنُب يغتسل في حوض من الحياض التي تُسقى فيها الدوابّ، ولم يكن غَسَلَ ما به من الأذى، أنه قد أفسد الماء، وهو مذهب ابنِ القاسم وأشهبَ وابنِ عبد الحكم ومَن اتَّبعهم من المِصريين، إلا ابنَ وهب؛ فإنه يقول في الماء بقول المدنيِّين مِن أصحاب مالك. وقولُهم ما حكاه أبو مصعبٍ عنهم وعنه[1]: أنَّ الماء لا تُفسده النجاسةُ الحالَّة فيه قليلاً كان أو كثيراً، إلَّا أنْ تظهرَ فيه النجاسةُ[2] وتغيِّرَ منه طعماً أو ريحاً أو لوناً. وذكر أحمد بنُ المعذَّل أنَّ هذا قولُ مالك بنِ أنس في الماء. وإلى هذا ذهب إسماعيل ابنُ إسحاق ومحمد بنُ بُكير وأبو الفَرَج والأبهريُّ[3] وسائر المنتحلين لمذهب مالكٍ من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعيِّ والليث بنِ سعد والحسن بنِ صالح وداود بنِ عليّ. وهو مذهب أهلِ البصرة، وهو الصحيحُ في النظر وجيِّدِ الأثر.

وقال أبو حنيفة: إذا وقعت نجاسةٌ في الماء، أفسدته كثيراً كان أو قليلاً، إذا تحقَّقت عمومُ النجاسة فيه. ووجه تحقُّقِها عنده أن تقع مثلاً نقطةُ بولٍ في بِركة، فإن كانت البركةُ يتحرك طرفاها بتحرُّك أحدهما، فالكلُّ نجس، وإن كانت حركة أحدِ الطرفين لا تحرِّك الآخرَ لم ينجس. وفي «المجموعة» نحوُ مذهبِ أبي حنيفة.

وقال الشافعيُّ بحديث القُلَّتين، وهو حديثٌ مطعون فيه؛ اختُلف في إسناده ومتنه؛ أخرجه أبو داود والترمذيُّ وخاصَّةً الدَّارَقُطْني، فإنه صدَّر به كتابَه وجمع طرقه[4].

قال ابن العربي[5]: وقد رام الدَّارَقُطْنيُّ على إمامته أنْ يصحِّحَ حديثَ القلَّتين فلم يقدر.

---

(١) في التمهيد ١/ ٣٢٧ (والكلام منه): وعن أهل المدينة.

(٢) في (م) زيادة: الحالة فيه.

(٣) في النسخ: أبو الفَرَج الأبهري، وهو خطأ.

(٤) سنن أبي داود (٦٣) و(٦٤) و(٦٥)، والترمذي (٦٧)، والدارقطني (١) - (٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو عند أحمد (٤٦٠٥)، والنسائي ١/ ٤٦، وابن ماجه (٥١٧).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٨، وما قبله منه.

وقال أبو عمر بنُ عبد البر[1]: وأمَّا ما ذهب إليه الشافعيُّ من حديث القلتين، فمذهبٌ ضعيف من جهة النظر، غيرُ ثابتٍ في الأثر؛ لأنه قد تكلَّم فيه جماعةٌ من أهل العلم بالنقل، ولأنَّ القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغِهما في أثرٍ ثابت ولا إجماع، فلو كان ذلك حدّاً لازماً. لوجب على العلماء البحثُ عنه؛ ليقفوا على حدِّ ما حدَّه النبيُّ ﷺ؛ لأنه من أصل دينِهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيَّعوه، فلقد بحثوا عما هو أدونُ من ذلك وألطف.

قلت: وفيما ذكر ابنُ المنذر[2] في القلتين من الخلاف يدُلُّ على عدم التوقيفِ فيهما والتحديد.

وفي سنن الدَّارَقُطْنيِّ[3]: عن حماد بن زيد، عن عاصم بن المنذر قال: القِلالُ: الخوابي العِظَام. وعاصمٌ هذا هو أَحدُ رواةِ حديثِ القلَّتين. ويظهر من قول الدَّارَقُطْنيِّ أنها مثلُ قِلال هَجَر؛ لسياقه حديثَ الإسراءِ عن أنس بنِ مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لمَّا رُفعتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة، نَبِقُها مثلُ قِلال هَجَر، وورقُها مثلُ آذانِ الفِيَلَة»[4] وذكر الحديث.

قال ابن العربي[5]: وتعلَّق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدريِّ في بئر بُضاعة، رواه النَّسائيُّ والترمذيُّ وأبو داود وغيرُهم[6]. وهو أيضاً حديثٌ ضعيف لا قَدَمَ له في الصِّحَّة، فلا تعويلَ عليه.

---

(١) في التمهيد ١/ ٣٣٥.

(٢) في الأوسط ١/ ٢٦١-٢٦٣.

(٣) برقم (٣١).

(٤) سنن الدارقطني (٣٣). وهو عند أحمد (١٢٦٧٣). والنَّبِق بفتح النون وكسر الباء، وقد تسكن: ثمر السِّدْر. النهاية (نبق).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٨.

(٦) سنن النسائي ١/ ١٧٤، والترمذي (٦٦)، وأبي داود (٦٦) و (٦٧). وهو عند أحمد (١١١١٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن. وبُضاعة: هي بئر معروفة بالمدينة، والمحفوظ ضم الباء، وأجاز بعضهم كسرها. النهاية (بضع).

وقد فاوضت الطوسيَّ الأكبر[١] في هذه المسألةِ فقال: إنَّ أخلص المذاهبِ في هذه المسألةِ مذهبُ مالك؛ فإنَّ الماء طَهورٌ ما لم يتغيَّر أحدُ أوصافه؛ إذ لا حديث في الباب يُعوَّل عليه، وإنما المعوَّلُ على ظاهر القرآن، وهو قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وهو ماءٌ[٢] بصفاته، فإذا تغيَّر عن شيء منها؛ خرج عن الاسم؛ لخروجه عن الصفة، ولذلك لمَّا لم يجد البخاريُّ إمامُ الحديث والفقه في الباب خبراً يعوَّل عليه، قال: باب إذا تغيَّر وصفُ الماء، وأدخل الحديثَ الصحيح: «ما مِن أحدٍ يُكلَم في سبيلِ اللهِ ـ واللهُ أعلمُ بمن يُكلمَ في سبيلهِ ـ إلَّا جاء يومَ القيامة وجرحُه يَثْعَب دماً، اللونُ لون الدم، والرِّيحُ ريح المِسك»[٣]. فأخبر ﷺ أنَّ الدمَ بحاله وعليه رائحةُ المسك، ولم تُخرجه الرائحةُ عن صفة الدَّمَويَّة. ولذلك قال علماؤنا: إذا تغيَّر الماءُ بريح جيفةٍ على طرفه وساحله، لم يمنع ذلك الوضوءَ منه. ولو تغير بها وقد وُضعت[٤] فيه، لَكان ذلك تنجيساً له للمخالطة، والأول[٥] مجاوَرةٌ [لا تعويل عليها].

قلت: وقد استُدلَّ به أيضاً على نقيض ذلك، وهو أنَّ تغير الرائحةِ يُخرجه عن أصله. ووجهُ هذا الاستدلالِ أنَّ الدمَ لمَّا استحالت رائحتُه إلى رائحة المسك، خرج عن كونه مستخبَثاً نجِساً، وأنه صار مِسْكاً، وإنَّ المسك بعضُ دمِ الغزال[٦]. فكذلك الماءُ إذا تغيَّرت رائحته. وإلى هذا التأويل ذهب الجمهورُ في الماء. وإلى الأول ذهب عبدُ الملك.

---

(١) هو الإمام الغزالي، وينظر الإحياء ١/ ١٢٩ .

(٢) في (م): ما دام. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) صحيح البخاري (٢٣٧) وهو من حديث أبي هريرة ﷺ (باب ما يقع من النجاسات في السمن والماء). وليس فيه لفظ الباب الذي ذكره المصنف، ولعله في نسخ المغاربة. وأخرجه أحمد (٧٣٠٢)، ومسلم (١٨٧٦) : (١٠٥). وقوله: يثعب، أي: ينفجر. التمهيد ١٩/ ١٤ .

(٤) في أحكام القرآن: وقعت.

(٥) في أحكام القرآن: والأولى. وما بين حاصرتين منه.

(٦) ينظر إكمال المعلم ٦/ ٢٩٤ . وقوله: وإن المسك بعض دم الغزال، هو تضمين لبيت المتنبي، وصدره: فإنْ تَفُق الأنامَ وأنت منهم، وهو في ديوانه ٣/ ١٥١ .

قال أبو عمر[١]: جعلوا الحكمَ للرائحة دون اللون، فكان الحكمُ لها، فاستدلُّوا عليها في زعمهم بهذا الحديث. وهذا لا يُفهم منه معنىً تَسكُن إليه النفس، ولا في الدم معنى الماءِ فيقاسَ عليه، ولا يَشتغل بمثل هذا الفقهاءُ، وليس من شأن أهلِ العلم اللَّغزُ[٢] به وإشكاله؛ وإنما شأنُهم إيضاحُه وبيانه، ولذلك أخذ الميثاقَ عليهم ليبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه، والماءُ لا يخلو تغيُّره بنجاسة أو بغير نجاسة، فإن كان بنجاسة وتغيَّر، فقد أجمع العلماءُ على أنه غيرُ طاهرٍ ولا مطهِّر، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغيَّر بغير نجاسة أنه طاهرٌ على أصله. وقال الجمهور: إنه غيرُ مطهِّر إلَّا أنْ يكونَ تغيُّره مِن تُربةٍ وحمأة. وما أجمعوا عليه فهو الحقُّ الذي لا إشكال فيه، ولا التباسَ معه.

الرابعة: الماء المتغيِّرُ بقُرارة[٣]، كزِرْنيخ أو جِيْرٍ يجري عليه، أو تغيَّرَ بطُحلُب أو ورقِ شجرٍ يَنْبت عليه لا يمكن الاحترازُ منه؛ فاتفق العلماءُ أنَّ ذلك لا يمنع الوضوء به؛ لعدم الاحترازِ منه والانفكاكِ عنه، وقد روى ابنُ وهبٍ عن مالك أنَّ غيرَه أولى منه[٤].

الخامسة: قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: ويكره سؤرُ النصرانيِّ وسائرِ الكفار والمدمنِ خمراً، وما أكل الجِيَف؛ كالكلاب وغيرِها. ومن توضأ بسؤرهم[٥] فلا شيءَ عليه حتى يَستيقنَ النجاسة.

قال البخاريّ[٦]: وتوضأ عمرُ ﷺ مِن بيتِ نصرانية.

ذكر سفيان ابنُ عيينة قال: حدَّثونا عن زيد بنِ أسلم، عن أبيه قال: لمَّا كنا بالشام أتيت عمر بن الخطاب بماء، فتوضأ منه فقال: مِن أين جئتَ بهذا الماء؟ ما رأيت ماءً

---

(١) في التمهيد ١٩/ ١٥-١٦ .

(٢) في (ز) والتمهيد: اللغو.

(٣) القُرارة (بالضم) هي في الأصل: ما يلزقُ بأسفل القِدْر من شيء. ينظر القاموس (قرر).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٩ .

(٥) في الكافي ١/ ١٥٧ (والكلام منه): بسؤرها.

(٦) في صحيحه قبل الحديث (١٩٣). وسلف الأثر ٧/ ٣١٩ .

عذباً؛ ولا ماءَ سماءٍ أطيبَ منه. قال: قلت: جئتُ به من بيت هذه العجوزِ النصرانية؛ فلما توضَّأ أتاها فقال: أيتها العجوز! أسلِمي تَسلَمي، بعث اللهُ محمداً ﷺ بالحقّ. قال: فكشفتْ عن رأسها؛ فإذا مِثْلُ الثَّغامة، فقالت: عجوزٌ كبيرة، وإنما أموت الآن! فقال عمر ﵁: اللهم اشهَد. خرَّجه الدَّارَقُطْنيّ[1]: حدَّثنا الحسين بنُ إسماعيل قال: حدّثنا أحمد بنُ إبراهيم البُوشَنْجِيُّ قال: حدَّثنا سفيان، فذكره. ورواه أيضاً عن الحسين بن إسماعيل قال: حدَّثنا خلاد بنُ أسلم، حدَّثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أنَّ عمر بنَ الخطاب ﵁ توضأ من بيتِ نصرانية أتاها، فقال: أيتها العجوزُ أسلمي . . وذكر الحديثَ[2] بمثل ما تقدَّم.

السادسة: فأمَّا الكلبُ إذا ولغ في الماء، فقال مالك: يُغسل الإناءُ سبعاً ولا يتوضأ منه، وهو طاهر. وقال الثوريّ: يتوضأ بذلك الماءِ ويُتيمم معه. وهو قولُ عبدِ الملك بن عبد العزيز ومحمد بنِ مسلمة. وقال أبو حنيفة: الكلبُ نَجِس، ويغسل الإناءُ منه لأنه نجس. وبه قال الشافعيُّ وأحمدُ وإسحاق[3].

وقد كان مالكٌ يفرِّق بين ما يجوز اتِّخاذُه من الكلاب وبين ما لا يجوز اتخاذُهُ منها في غسل الإناءِ من وُلوغه. وتحصيلُ مذهبه أنه طاهرٌ عنده، لا ينجِّس ولوغُهُ شيئاً ولغ فيه، طعاماً ولا غيرَه، إلّا أنه استحبَّ هِرَاقةَ ما ولغ فيه من الماء ليَسَارَة[4] مؤنتِه. وكلبُ البادية والحاضرةِ سواء. ويُغسل الإناءُ منه على كل حالٍ سبعاً تعبُّداً. هذا ما استقرَّ عليه مذهبُه عند المناظرين مِن أصحابه[5].

ذكر ابنُ وهب قال: حدَّثنا عبد الرحمن بنُ زيد بنِ أسلم، عن أبيه، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: سئل رسولُ الله ﷺ عن الحِياض التي تكون فيما بين مكةَ

---

(١) في سننه (٦٣). والثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر، يشبه به الشيب. وقيل: هي شجرة تبيضُّ كأنها الثلج. النهاية (ثغم).

(٢) سنن الدارقطني (٦٤).

(٣) ينظر الأوسط ١/٣٠٦-٣٠٧، والتمهيد ١٨/٢٦٩-٢٧١.

(٤) في (ظ): إلا لعسارة.

(٥) الكافي ١/١٥٨.

والمدينة، فقيل له: إنَّ الكلاب والسِّباع تَرِدُ عليها. فقال: «لها ما أخذت في بطونها، ولنا ما بقي شرابٌ وطَهور» أخرجه الدَّارَقُطْنيّ[١]. وهذا نصٌّ في طهارة الكلابِ وطهارةِ ما تَلِغ فيه.

وفي البخاريِّ[٢] عن ابن عمر: أنَّ الكلاب كانت تُقْبِل وتدبر في مسجد رسولِ الله ﷺ، ولا يرشُّون شيئاً من ذلك.

وقال عمر بحضرة الصحابةِ لصاحب الحوضِ الذي سأله عمرو بنُ العاص: هل تَرِد حوضَك السِّباع؟ فقال عمر: يا صاحبَ الحوض، لا تُخْبِرنا، فإنَّا نَرِدُ على السباع وترد علينا. أخرجه مالكٌ والدَّارَقُطْنيّ[٣]. ولم يفرِّق بين السِّباع، والكلبُ مِن جملتها، ولا حُجَّةَ للمخالف في الأمر بإراقة ما ولغ فيه[٤] وأنَّ ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقته لأنَّ النفسَ تعافة، لا لنجاسته؛ لأنَّ التنزُّهَ من الأقذار مندوبٌ إليه، أو تغليظاً عليهم؛ لأنهم نُهوا عن اقتنائها[٥]، كما قاله ابنُ عمر[٦] والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلَّظ عليهم في الماء، لِقلَّته عندهم في البادية، حتى يشتدَّ عليهم فيمتنعوا من اقتنائها.

وأما الأمرُ بغَسل الإناء فعبادةٌ؛ لا لنجاسته كما ذكرناه، بدليلين: أحدهما: أنَّ الغسل قد دخله العدد. الثاني: أنه جُعل للتراب فيه مدخل؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «وعفِّروه الثامنةَ بالتراب». ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه

(١) في سننه (٥٦). ورواه أيضاً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بالإسناد نفسه، وجعله من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، كما هو عند ابن ماجه (٥١٩)، والبيهقي ١/ ٢٥٨ . قال البيهقي: وعبد الرحمن بن زيد ضعيف، لا يحتج بأمثاله.

(٢) برقم (١٧٤) تعليقاً. ووصله أحمد (٥٣٨٩)، وأبو داود (٣٨٢).

(٣) الموطأ ١/ ٢٣-٢٤ ، وسنن الدارقطني (٦٢).

(٤) يشير إلى حديث أبي هريرة ﷺ فيما أخرجه مسلم (٢٧٩): (٨٩) ولفظه: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه، ثم ليغسله سبع مرار».

(٥) سلف ٧/ ٣١٢ .

(٦) ينظر الاستذكار ٢٧/ ١٩٣ .

مدخل، كالبول[(١)]. وقد جعل ﷺ الهِرَّ وما ولغ فيه طاهراً[(٢)]، والهرُّ سبعٌ لا خلاف في ذلك؛ لأنه يفترس ويأكل المَيْته؛ فكذلك الكلبُ وما كان مِثلُه من السِّباع؛ لأنه إذا جاء نَصٌّ في أحدهما كان نصّاً في الآخر. وهذا مِن أقوى أنواعِ القياس. هذا لو لم يكن هناك دليل؛ وقد ذكرنا النصَّ على طهارته، فسقط قولُ المخالِف. والحمدُ لله.

السابعة: ما مات في الماء ممَّا لا دمَ له، فلا يضرُّ الماءَ إن لم يغيِّر ريحَه؛ فإنْ أنتنَ لم يُتوضأ به. وكذلك ما كان له دمٌ سائل من دوابِّ الماءِ، كالحوت والضِّفدِع، لم يُفسِد ذلك الماءَ موتُه فيه؛ إلَّا أن تتغيَّر رَائحتُه، فإن تغيَّرت رائحتُه وأنتن، لم يجز التطهرُ به ولا الوضوءُ منه، وليس بنجِس عند مالك. وأما مالَه نَفْسٌ سائلة فمات في الماء ونُزح مكانه، ولم يغيِّر لونَه ولا طعمه ولا ريحه، فهو طاهرٌ مطهِّر، سواءٌ كان الماء قليلاً أو كثيراً عند المدنيين. واستحبَّ بعضُهم أن يُنزحَ من ذلك الماءِ دِلاءٌ لتطيبَ النفسُ به، ولا يحدُّون في ذلك حدًّا لا يتعدَّى. ويكرهون استعمالَ ذلك الماءِ قبل نزحِ الدِّلاء، فإن استعمله أحدٌ في غسلٍ أو وضوء، جاز إذا كانت حالُه ما وصفنا. وقد كان بعضُ أصحاب مالكٍ يرى لمن توضَّأ بهذا الماءِ وإن لم يتغيَّر أن يتيمم، فيجمعَ بين الطهارتين احتياطاً، فإن لم يفعل وصلَّى بذلك الماءِ أجزأه[(٣)].

وروى الدارقطني عن محمد بن سِيرين أنَّ زِنجيّاً وقع في زمزم - يعني فمات - فأمر به ابنُ عباس ﷺ فأُخرج، فأمر بها أن تُنزَح. قال: فغلبتْهم عينٌ جاءتهم من الرُّكن، فأَمر بها فدُسِمت بالقباطِيِّ والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها انفجرت عليهم[(٤)]. وأخرجه[(٥)] عن أبي الطُّفيل أنَّ غلاماً وقع في بئر زمزم فنُزحت. وهذا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٠-١٤١١ . والحديث أخرجه أحمد (١٦٧٩٢)، ومسلم (٢٨٠) من حديث عبد الله بن مغفَّل ﷺ.

(٢) سيأتي في المسألة الثامنة.

(٣) الكافي ١/١٥٦-١٥٨ .

(٤) سنن الدارقطني (٦٥)، وأخرجه البيهقي ١/ ٢٦٦ وقال: هذا بلاغ؛ فإن محمد بن سيرين لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما ولم يسمع منه. اهـ. وقوله: دُسمت، أي: سُدت. والقباطي: جمع قُبطية: وهو الثوب من ثياب مصر، رقيقة بيضاء. والمطارف: جمع مطرف: وهو الثوب الذي في طرفيه علمان. النهاية (قبط) (طرف).

(٥) سنن الدارقطني (٦٦)، وفيه جابر الجعفي، قال البيهقي في السنن ١/ ٢٦٦ : لا يحتج به.

يَحتمل أن يكونَ الماءُ تغيَّر، والله أعلم.

وروى شعبة عن مغيرة، عن إبراهيم أنه كان يقول: كلُّ نَفْسٍ سائلة لا يُتوضأ منها، ولكن رخص في الخُنْفَساء والعقرب والجراد والجُدْجُد إذا وقَعنَ في الرِّكاء فلا بأس به. قال شعبة: وأظنُّه قد ذكر الوَزَغة. أخرجه الدار قطني[1]: حدَّثنا الحسين بنُ إسماعيل قال: حدَّثنا محمد بنُ الوليد قال: حدَّثنا محمد بنُ جعفر: قال: حدَّثنا شعبة، فذَكَره.

الثامنة: ذهب الجمهورُ من الصحابة وفقهاءِ الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أنَّ ما ولغ فيه الهِرُّ من الماء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبي قتادة، أخرجه مالكٌ وغيره[2]. وقد روي عن أبي هريرة فيه خلاف. وروي عن عطاء بنِ أبي رباح وسعيد بنِ المسيّب ومحمد بنِ سيرين أنهم أمروا بإراقة ماءٍ ولغ فيه الهرُّ وغسل الإناءِ منه. واختُلف في ذلك عن الحسن. ويحتمل أن يكونَ الحسنُ رأى في فمه نجاسةً، ليصحَّ مخرجُ الروايتين عنه[3].

قال الترمذيُّ لمَّا ذَكر حديثَ مالك: وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة، هذا حديثٌ حسن صحيح، وهو قول أكثرِ أهلِ العلم من أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعين ومَن بعدَهم؛ مثل الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق، لم يرَوا بسؤر الهرةِ بأساً. وهذا أحسنُ شيءٍ في الباب، وقد جوَّد مالكٌ هذا الحديثَ عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، ولم يأتِ به أحدٌ أتمَّ من مالك.

قال الحافظ أبو عمر[4]: الحجَّةُ عند التنازع والاختلافِ سُنَّةُ رسول الله ﷺ، وقد صحَّ من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناءَ حتى شربت. الحديث. وعليه اعتمادُ

---

(١) برقم (٦٧). والجُدجُد: حيوان كالجراد يصوِّت في الليل. النهاية (جدد).

(٢) الموطأ ١/ ٢٢-٢٣، وهو عند أحمد (٢٢٥٨٠)، وأبي داود (٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي ١/ ٥٥، وابن ماجه (٣٦٧).

(٣) التمهيد ١/ ٣٢٣ و ٣٢٤.

(٤) في التمهيد ١/ ٣٢٤ - ٣٢٦.

الفقهاءِ في كل مصر، إلَّا أبا حنيفة ومَن قال بقوله؛ فإنه كان يكره سؤرَه. وقال: إنْ توضأ به أحدٌ أجزأه، ولا أعلم حُجَّةً لمن كره الوضوءَ بسؤر الهرة أحسنَ من أنه لم يبلغه حديثُ أبي قتادة، وبلغه حديثُ أبي هريرة[1] في الكلب، فقاس الهرَّ عليه، وقد فرَّقت السُّنةُ بينهما في باب التعبُّدِ في غَسل الإناء، ومَن حَجَّتْه السُّنةُ خاصمته، وما خالفها مُطَّرَح. وبالله التوفيق.

ومِن حُجَّتهم أيضاً ما رواه قُرَّة بنُ خالد، عن محمد بنِ سيرين، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «طهُور الإناءِ إذا ولغ فيه الهِرُّ أن يُغسلَ مرَّةً أو مرتين» شكَّ قرة. وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بنُ خالد، وقرة ثقةٌ ثبت.

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني[2]، ومتنُه: «طهورُ الإناء إذا ولغ فيه الكلبُ أن يغسلَ سبعَ مرات، الأُولى بالتراب، والهرُّ مرةً أو مرتين». قرةُ شكَّ. قال أبو بكر[3]: كذا رواه أبو عاصمٍ مرفوعاً، ورواه غيرُه عن قرة: ولوغ الكلب؛ مرفوعاً، وولوغ الهر؛ موقوفاً.

وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُغسل الإناءُ من الهر كما يغسلُ من الكلب» قال الدار قطني[4]: لا يثبت هذا مرفوعاً، والمحفوظ من قول أبي هريرة، واختُلف عنه.

وذكر مَعْمَرٌ وابنُ جُرَيج عن ابن طاوس، عن أبيه أنه كان يجعل الهرَّ مثلَ الكلب. وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور؛ قال: اِغسلْه سبعَ مرات. قاله الدارقطني[5].

---

(١) سلف في المسألة السادسة.

(٢) برقم (٢٠٥).

(٣) هو النيسابوري شيخ الدارقطني.

(٤) عقب الحديث (٢٠٨).

(٥) بسنده عنهما: (٢١٢) (٢١٣).

التاسعة: الماء المستعمل طاهرٌ إذا كانت أعضاءُ المتوضئ به طاهرةً؛ إلَّا أنَّ مالكاً وجماعةً من الفقهاء الجِلَّةِ كانوا يكرهون الوضوءَ به. وقال مالك: لا خيرَ فيه، ولا أُحِبُّ لأحد أن يتوضأ به، فإنْ فعل وصلَّى لم أرَ عليه إعادةَ الصلاة، ولْيتوضأ لِمَا يستقبل[1].

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ وأصحابهما: لا يجوز استعمالُه في رفع الحدث، ومَن توضأ به أعاد؛ لأنه ليس بماء مطلق، وتيمَّم واجدُه؛ لأنه ليس بواجد ماءً. وقال بقولهم في ذلك أَصبغ بنُ الفَرَج، وهو قولُ الأوزاعيّ. واحتجُّوا بحديث الصُّنابِحيِّ، خرَّجه مالكٌ[2]؛ وحديثِ عمرو بنِ عَبَسة[3]، أخرجه مسلم، وغيرِ ذلك من الآثار. وقالوا: الماء إذا تُوضئ به خرجت الخطايا معه؛ فوجب التنزهُ عنه؛ لأنه ماءُ الذنوب.

قال أبو عمر[4]: وهذا عندي لا وجه له؛ لأن الذنوب لا تنجِّس الماء، لأنها لا أشخاص لها، ولا أجسامَ تمازج الماءَ فتفسده، وإنما معنى قولِه: «خرجت الخطايا مع الماء» إعلامٌ منه بأنَّ الوضوء للصلاة عملٌ يكفِّر اللهُ به السيئاتِ عن عباده المؤمنين؛ رحمةً منه بهم وتفضُّلاً عليهم.

وقال أبو ثور وداودُ مثلَ قولِ مالك، وأنَّ الوضوء بالماء المستعمل جائز؛ لأنه ماءٌ طاهر لا ينضاف إليه شيء، وهو ماءٌ مطلق. واحتجُّوا بإجماع الأمةِ على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضئ نجاسة. وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المَرْوَزِيُّ محمد ابنُ نصر. وروي عن عليٍّ بن أبي طالب وابنِ عمر وأبي أُمامة وعطاء بنِ أبي رَبَاحِ والحسنِ البصريِّ والنَّخَعيِّ ومكحولٍ والزُّهريِّ أنهم قالوا فيمن نسي مسحَ رأسه؛

(١) الكافي ١/ ١٥٨ .

(٢) في الموطأ ١/ ٣١ ، وقد سلف ٧/ ٣٤٢ تخريجه والكلام عليه.

(٣) في (د) و (ز) و (م): عنبسة، وهو خطأ. وحديثه عند أحمد (١٧٠١٩)، ومسلم (٨٣٢)، وقد سلف ٧/ ٣٧٠ .

(٤) في الاستذكار ٢/ ١٩٧ ، وما قبله منه.

فوجد في لحيته بَلَلاً: إنه يجزئه أنْ يمسحَ بذلك البللِ رأسَه؛ فهؤلاء كلُّهم أجازوا الوضوءَ بالماء المستعمل(١).

وروى عبد السلام بنُ صالح: حدَّثنا إسحاق بنُ سُويد، عن العلاء بنِ زياد، عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ مَرْضيٍّ: أنَّ رسول الله ﷺ خرج عليهم ذات يوم وقد اغتسل، وقد بقيت لُمعةٌ من جسده لم يُصبها الماء، فقلنا: يا رسولَ الله، هذه لُمعةٌ لم يصبها الماء؛ فكان له شعرٌ وارد، فقال بشعره هكذا على المكان، فَبلَّه. أخرجه الدارقطني(٢)، وقال: عبد السلام بنُ صالح هذا بصريٌّ، وليس بقويّ، وغيرُه من الثقات يرويه عن إسحاق، عن العلاء مرسَلاً، وهو الصواب.

قلت: الرواي الثقةُ عن إسحاق بن سُويد العدويّ، عن العلاء بن زياد العدوي: أنَّ رسول الله ﷺ اغتسل... الحديث؛ فيما ذَكر هو(٣) هُشيم.

قال ابن العربي(٤): مسألة الماءِ المستعمل إنما تَنبني على أصل آخرَ، وهو أنَّ الآلة إذا أُدِّي بها فرضٌ؛ هل يؤدَّى بها فرضٌ آخرُ أم لا؟ فمنع ذلك المخالفُ قياساً على الرقبة إذا أُدِّي بها فرضُ عتقٍ؛ لم يصلُح أن يتكرر(٥) في أداء فرضٍ آخر؛ وهذا باطلٌ من القول، فإنَّ العتق إذا أَتى على الرِّقِّ أتلفه، فلا يبقى محلٌّ لأداء الفرضِ بعتقٍ آخر. ونظيرُه من الماء ما تلف على الأعضاء، فإنه لا يصحُّ أنْ يؤدَّى به فرضٌ آخر؛ لِتلف عينِه حِسّاً، كما تلف الرقُّ في الرقبة بالعتق حكماً، وهذا نفيسٌ فتأمَّلوه.

العاشرة: لم يفرِّق مالكٌ وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسةُ وبين النجاسة يَرِد

---

(١) التمهيد ٤/ ٤٣.

(٢) في سننه (٣٨٦) والشعر الوارد: الطويل المسترسل. القاموس (ورد).

(٣) لفظة: هو، ليست في (د) و(ز)، وفي (م): ذكره، والمثبت من (ف) و (ظ). وهو خبر لقوله: الرواي الثقة..، ورواية هُشيم المرسلة هي عند الدارقطني (٣٨٧).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٦-١٤٠٧.

(٥) في (د): يكون، وفي (ظ) و(ف): تكون، وفي (ز): يكون.

عليها الماء، راكداً كان الماءُ أو غيرَ راكد؛ لقول رسولِ الله ﷺ: «الماء لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما غلب عليه، فغيَّر طعمَه أو لونه أو ريحه»(١).

وفرَّقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسةُ على الماء تنجَّس؛ واختاره ابنُ العربي، وقال(٢): مِن أصول الشريعة في أحكام المياهِ أنَّ ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماءِ على النجاسة؛ لقول النبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح(٣): «إذا استيقظ أحدُكم من نومه، فلا يَغْمسْ يده في الإناء حتى يَغْسِلَها ثلاثاً؛ فإنَّ أحدَكم لا يدري أين باتت يدُه». فمنع من ورود اليد على الماء، وأمر بإيراد الماءِ عليها، وهذا أصلٌ بديع في الباب، ولولا ورودُه على النجاسة ـ قليلاً كان أو كثيراً ـ لَمَا طهرت. وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال في بول الأعرابيِّ في المسجد(٤): «صُبُّوا عليه ذَنُوباً من ماء».

قال شيخنا أبو العباس(٥): واستدلُّوا أيضاً بحديث القُلَّتين(٦)، فقالوا: إذا كان الماءُ دون القلتين فحلَّته نجاسة، تنجَّسَ وإن لم تغيِّره، وإن ورد ذلك القدرُ فأَقَلُّ على النجاسة فأذهب عينَها، بقي الماءُ على طهارته وأزال النجاسة. وهذه مناقضة، إذ المخالطةُ قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماءِ على النجاسة وورودِها عليه فرقٌ صوريٌّ، ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب بابَ التعبُّدات، بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامِها. ثم هذا كلُّه منهم يردُّه قولُه عليه

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٢، وينظر المفهم ١/ ٥٤٤.

(٣) قوله: في الحديث الصحيح ليس في (د) و (ز) و (م). والحديث أخرجه أحمد (٧٢٨٢)، والبخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٨٢)، والبخاري (٢٢١)، ومسلم (٢٨٤) و(٢٨٥) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٢٥٥)، والبخاري (٢٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) في المفهم ١/ ٥٤٤.

(٦) سلف في المسألة الثالثة.

الصلاة والسلام: «الماءُ طَهورٌ لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما غيَّر لونَه أو طعمه أو ريحه».

قلت: هذا الحديثُ أخرجه الدارقطني عن رِشدِين بن سعدٍ أبي الحجَّاج، عن معاوية بنِ صالح، عن راشد بن سعد، عن أبي أُمامة الباهلي؛ وعن ثوبان، عن النبيِّ ﷺ، وليس فيه ذِكْرُ اللون[1]. وقال: لم يرفعه غيرُ رشدين بنِ سعد، عن معاوية ابن صالح، وليس بالقوي[2].

وأحسنُ منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير، عن محمد بن كعب، عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خَدِيج، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بُضاعة؟ وهي بئرٌ يلقى فيها الحِيَض ولحومُ الكلاب والنَّتْن؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الماء طَهورٌ لا ينجِّسه شيء». أخرجه أبو داود والترمذيُّ والدارقطني، كلُّهم بهذا الإسناد[3].

وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن، وقد جوَّد أبو أسامة هذا الحديثَ، ولم يَروِ أحدٌ حديثَ أبي سعيد في بئر بُضاعة أحسنَ مما روى أبو أسامة. فهذا الحديث نصٌّ في ورود النجاسة على الماء، وقد حكم ﷺ بطهارته وطهوره.

قال أبو داود[4]: سمعت قتيبة بنَ سعيد قال: سألت قيِّمَ بئرِ بضاعةَ عن عمقها؛ قلت: [ما] أكثرُ ما يكون الماءُ فيها؟ قال: إلى العانة. قلت: فإذا نقص؟ قال: دون العورة. قال أبو داود: وقدَّرت بئر بُضاعة بردائي مددته عليها ثم ذرعته، فإذا عرضُها ستةُ أذرع، وسألت الذي فتح لي بابَ البستان فأدخلني إليه: هل غُيِّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال: لا. ورأيت فيها ماءً متغيرَ اللون.

---

(١) سنن الدارقطني (٤٥)، (٤٧). وأخرجه ابن ماجه (٥٢١) من حديث أبي أمامة ﷺ، وفيه ذكر اللون. قال البوصيري في الزوائد ١/ ١٣١ : فيه رشدين، وهو ضعيف، واختلف عليه مع ضعفه.

(٢) وقال الدارقطني بعده: والصواب من قول راشد، وقد أخرجه عنه برقم (٤٦).

(٣) سنن أبي داود (٦٦)، والترمذي (٦٦)، والدارقطني (٥٤). وسلف في المسألة الثالثة.

(٤) إثر الحديث (٦٧). ونقله المصنف عنه بواسطة أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١١-١٤١٢ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

فكان هذا دليلاً لنا على ما ذكرناه، غير أنَّ ابن العربيِّ قال: إنها في وسط السَّبَخة[١]، فماؤها يكون متغيراً من قرارها، والله أعلم.

الحادية عشرة: الماء الطاهر المطهِّرُ الذي يجوز به الوضوءُ وغَسلُ النجاسات هو الماء القَرَاحُ الصافي، من ماء السماء والأنهارِ والبحار والعيون والآبار، وما عرَفه الناسُ ماءً مطْلقاً غيرَ مضافٍ إلى شيء خالطه؛ كما خلقه اللهُ عزَّ وجلَّ صافياً، ولا يضرُّه لونُ أرضه[٢]، على ما بيَّنّاه.

وخالف في هذه الجملةِ أبو حنيفة وعبد الله بنُ عمرو وعبد الله بنُ عمر، فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوءَ بالنبيذ في السفر[٣]، وجوَّز إزالةَ النجاسة بكل مائعٍ طاهر. فأمَّا بالدُّهن والمَرَق، فعنه روايةٌ أنه لا يجوز إزالتُها به. إلَّا أنَّ أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسةُ به جاز. وكذلك عنده النارُ والشمس؛ حتى إنَّ جلد الميتة إذا جفَّ في الشمس طَهُر من غير دباغ. وكذلك النجاسةُ على الأرض إذا جفَّت بالشمس، فإنه يطهر ذلك الموضع، بحيث تجوز الصلاةُ عليه، ولكن لا يجوز التيممُ بذلك التراب[٤].

قال ابن العربي[٥]: لمَّا وصف اللهُ سبحانه الماءَ بأنه طَهور، وامتنَّ بإنزاله من السماء ليطهِّرَنا به، دلَّ على اختصاصه بذلك؛ وكذلك قال عليه الصلاة والسلام

---

(١) السبخة: الأرض ذات النزِّ والملح. القاموس (سبخ).

(٢) الكافي ١/ ١٥٥ .

(٣) وقد رُويَ عنه أنه قد رجع عن ذلك. وعند محمد لابد من الجمع بينه وبين التيمم، وقال أبو يوسف: يتيمم ولا يتوضأ به، وهو المفتى به. ينظر الجامع الصغير ص٥٥ ، والمبسوط ١/ ٨٨ ، ومجمع الأنهر ١/ ٢٤ ، وحاشية ابن عابدين ١/ ١٨١ . وفي بدائع الصنائع ١/ ١٦٨ : ذكر في الجامع الصغير أن المسافر إذا لم يجد الماء ووجد نبيذ التمر توضأ به ولم يتيمم. اهـ. ولم نقف على تقييده بالسفر عند غيره.

(٤) ينظر البناية شرح الهداية ١/ ٧٠٩-٧١٠ ، ٧٣٢ ، ٧٢٨ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٩ ، ١٤١٠ .

لأسماء بنتِ الصِّدِّيق حين سألته عن دم الحيضِ يصيب الثوب[١]: «حُتِّيه ثم اقرُصيه، ثم اغسليه بالماء». فلذلك لم يُلحِق غيرَ الماء بالماء؛ لِمَا في ذلك من إبطال الامتنان، وليست النجاسة معنىً[٢] محسوساً حتى يقال: كلُّ ما أزالها فقد قام به الفرض، وإنما النجاسةُ حكمٌ شرعيٌّ عيَّن له صاحبُ الشرع الماءَ؛ فلا يَلحَق به غيرُه؛ إذ ليس في معناه، ولأنه لو لحق به لأسقطه، والفرع إذا عاد إلحاقُه بالأصل في إسقاطه[٣] سقط في نفسه. وقد كان تاجُ السُّنة ذو العِزِّ ابنُ المرتضى[٤] الدبوسي يسمِّيه فرخَ زنى.

قلت: وأما ما استُدِلَّ به على استعمال النبيذ، فأحاديثُ واهيةٌ ضِعَاف، لا يقوم شيءٌ منها على ساق؛ ذكرها الدارقطني وضعَّفها ونصَّ عليها[٥]. وكذلك ضعَّف ما رَوَى عن ابن عباس موقوفاً: «النبيذ وضوءُ من[٦] لم يجد الماء». في طريقه ابنُ محرَّر[٧]، متروكُ الحديث. وكذلك ما رَوَى عن عليٍّ أنه قال: لا بأس بالوضوء بالنبيذ. الحجَّاج وأبو ليلى ضعيفان[٨]. وضعَّف حديثَ ابنِ مسعود[٩]، وقال: تفرَّد به ابنُ لهيعة، وهو ضعيفُ الحديث. وذكر عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أَشَهِدَ رسولَ الله ﷺ أحدٌ منكم ليلةَ أتاه داعي الجِنّ؟ فقال: لا. قال

(١) أخرجه الشافعي في المسند (٤٦) عن سفيان بن عيينة، عن هشام، عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (٢٦٩٢٠)، والبخاري (٢٢٧)، ومسلم (٢٩١) من طرق عن هشام، عن فاطمة، عن أسماء قال: أتت النبيَّ ﷺ امرأةٌ فقالت... قال ابن حجر في الفتح ١/ ٣٣١ : رواية الشافعي صحيحة الإسناد، ولا بعد في أن يبهم الراوي اسم نفسه.

(٢) في النسخ الخطية: عيناً، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) في (ف): في الإسقاط، وفي أحكام القرآن: بالإسقاط.

(٤) في النسخ الخطية: ذو العزيز المرتضى.

(٥) في السنن ١/ ١٢٦ فما بعد.

(٦) في (م): لمن.

(٧) في النسخ: محرز، وهو خطأ. والمثبت من سنن الدارقطني.

(٨) سنن الدارقطني (٢٤١) و(٢٥٤) و(٢٥٥).

(٩) سنن الدارقطني (٢٤٤)، وأخرجه أحمد (٣٧٨٢)، وابن ماجه (٣٨٥).

الشيخ[١]: هذا إسنادٌ صحيح لا يُختلف في عدالة رُواته.

وأخرج الترمذيُّ[٢] حديثَ ابن مسعود؛ قال: سألني النبيُّ ﷺ: «ما في إداوتك» فقلت: نبيذ. فقال: «تمرةٌ طيِّبةٌ وماءٌ طَهور» قال: فتوضأ منه.

قال أبو عيسى: وإنما رُويَ هذا الحديثُ عن أبي زيد، عن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ، وأبو زيد رجلٌ مجهول عند أهل الحديث، لا تُعرف له روايةٌ غير هذا الحديث، وقد رأى بعضُ أهل العلم الوضوءَ بالنبيذ؛ منهم سفيانُ وغيره، وقال بعض أهل العلم: لا يُتوضأ بالنبيذ، وهو قول الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق، وقال إسحاق: إن ابتُلي رجلٌ بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيَمَّم أحبُّ إلي. قال أبو عيسى: وقولُ مَن يقول: لا يتوضأ بالنبيذ؛ أقربُ إلى الكتاب والسنة وأشبهُ[٣]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦].

وهذه المسألة مطوَّلةٌ في كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسُّكُ بلفظ الماء، حَسبما تقدم في «المائدة» بيانُه، والله أعلم.

الثانية عشرة: لـمَّا قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وقال: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، توقَّف جماعةٌ في ماء البحر؛ لأنه ليس بمنزل من السماء؛ حتى رووا عن عبد الله بن عمر وابن عمرٍو معاً أنه لا يتوضأ به[٤]؛ لأنه نار، ولأنه طبق جهنم. ولكنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن حكمَه حين قال لمن سأله: «هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ ميتته»[٥] أخرجه مالك[٦].

---

(١) في (م): قلت، بدل: قال الشيخ. وهو خطأ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في سنن الدار قطني (٢٤٥). والحديث أخرجه أيضاً أحمد (٤١٤٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٢) برقم (٨٨)، وهو في مسند أحمد (٣٨١٠).

(٣) قوله: والسنة، ليس في (ظ)، وقوله: وأشبه، ليس في (د) و (ز) و (ف).

(٤) سيأتي قريباً.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٣ .

(٦) في الموطأ ١/ ٢٢ . وسلف ٨/ ٢١٢ .

وقال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن صحيح. وهو قول أكثرِ الفقهاء من أصحاب النبيِّ ﷺ، منهم أبو بكر وعمرُ وابن عباس، لم يروا بأساً بماء البحر، وقد كره بعضُ أصحاب النبيِّ ﷺ الوضوءَ بماء البحر؛ منهم ابنُ عمر وعبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بنُ عمرو: هو نار[(١)].

قال أبو عمر[(٢)]: وقد سأل[(٣)] أبو عيسى الترمذيُّ [محمدَ بنَ إسماعيل البخاريَّ] عن حديث مالك هذا، عن صفوان بن سُلَيم، فقال: هو عندي حديثٌ صحيح. قال أبو عيسى: فقلت للبخاري: هُشيم يقول فيه: ابن أبي بَرْزة. فقال: وَهم فيه، إنما هو المغيرة بنُ أبي بُرْدة.

قال أبو عمر: لا أدري ما هذا من البخاريِّ رحمه الله، ولو كان [عنده] صحيحاً، لَأخرجه في مصنَّفه الصحيحِ عنده، ولم يفعل؛ لأنه لا يعوِّل في الصحيح إلَّا على الإسناد. وهذا الحديثُ لا يحتجُّ أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندي صحيح؛ لأن العلماءَ تلقَّوه بالقَبول له والعملِ به، ولا يخالف في جملته أحدٌ من الفقهاء، وإنما الخلافُ بينهم في بعض معانيه. وقد أجمع جمهورُ[(٤)] العلماء وجماعةُ أئمَّةِ الفتوى بالأمصار من الفقهاء أنَّ البحر طهورٌ ماؤه، وأنَّ الوضوء به جائز؛ إلَّا ما روي عن عبد الله بنِ عمر بنِ الخطاب وعبد الله بن عمرو بنِ العاص أنهما كرها الوضوءَ بماء البحر، ولم يتابعهما أحدٌ من فقهاء الأمصار على ذلك، ولا عرَّج عليه، ولا التفت إليه؛ لحديث هذا الباب[(٥)]. وهذا يدلُّك على اشتهار الحديثِ عندهم، وعملِهم به وقبولهم له، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهرِ الصحة لمعنىً تردُّه

---

(١) سنن الترمذي إثر الحديث (٦٩). قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في التعليق عليه: هذا رأي لعبد الله ابن عمرو إن صح إسناده إليه. اهـ. وأثر ابن عمر وابن عمرو أخرجه ابن أبي شيبة ١/ ١٣١ .

(٢) في التمهيد ١٦/ ٢١٨ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (م): سئل، وهو خطأ.

(٤) في (م): زيادة: من، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في التمهيد ١٦/ ٢٢١ .

(٥) جاء في حاشية (ظ) ما نصه: لعل إنما كره رضي الله تعالى عنهما الوضوء بماء البحر لأن ماء البحر يضر بالاستعمال للعين وسائر البدن. . . والله أعلم.

الأصول. وبالله التوفيق.

قال أبو عمر[1]: صفوان بن سُلَيم مولى حميد بنِ عبد الرحمن بنِ عوف الزُّهري، من عُبَّاد أهلِ المدينة وأتقاهم لله، ناسكاً، كثيرَ الصدقة بما وجد من قليلٍ وكثير، كثيرَ العمل، خائفاً لله، يُكنى أبا عبد الله، سكن المدينةَ لم ينتقل عنها، ومات بها سنة اثنتينِ وثلاثين ومئة.

ذكر عبد الله بنُ أحمد بنِ حنبل قال: سمعت أبي يُسأل عن صفوان بنِ سُلَيم، فقال: ثقةٌ من خيار عبادِ الله وفضلاء المسلمين[2].

وأما سعيد بنُ سلمة فلم يروِ عنه فيما علمتُ إلَّا صفوان، والله أعلم. ومَن كانت هذه حالَه، فهو مجهولٌ لا تقوم به حجَّةٌ عند جميعهم.

وأما المغيرة بنُ أبي بُرْدة فقيل عنه: إنه غيرُ معروفٍ في حَمَلة العلم كسعيد بن سلمة. وقيل: ليس بمجهول.

قال أبو عمر[3]: المغيرة بن أبي بُردة وجدت ذِكْره في مغازي موسى بنِ نصير بالمغرب، وكان موسى يستعمله على الخيل، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحاتٍ في البَرِّ والبحر.

وروى الدارقطني من غير طريق مالكٍ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن لم يطهِّره ماءُ البحر فلا طهَّره الله». قال: إسنادٌ حسن[4].

الثالثة عشرة: قال ابن العربي: توهَّمَ قومٌ أنَّ الماء إذا فَضَلت للجُنب منه فضلةٌ لا يُتوضأ به، وهو مذهبٌ باطل؛ فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت: أَجنبتُ أنا ورسولُ الله ﷺ،

---

(١) في التمهيد ١٦/٢٠٩، ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) بنحوه في العلل ومعرفة الرجال لأحمد ٢/ ٤٩٥.

(٣) في التمهيد ١٦/٢١٨.

(٤) سنن الدارقطني (٧٨).

واغتسلت من جَفْنة وفضَلت فضلة، فجاء رسول الله ﷺ ليغتسل منها[١]، فقلت: إني قد اغتسلت منه. فقال: «إنَّ الماء ليس عليه نجاسة، أو[٢]: إن الماء لا يُجْنِب»[٣].

قال أبو عمر[٤]: وردت آثارٌ في هذا الباب مرفوعةٌ في النهي عن أن يتوضأ الرجلُ بفضل المرأة. وزاد بعضهم في بعضها: ولكن ليغترفا جميعاً[٥]. فقالت طائفة: لا يجوز أن يغترفَ الرجلُ مع المرأة في إناءٍ واحد؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما متوضِّئٌ [حينئذٍ] بفضل صاحبه. وقال آخرون: إنما كُره من ذلك أن تنفردَ المرأةُ بالإناء، ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها. وكلٌّ واحد منهم روى بما ذهب إليه أثراً. والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعةُ فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة؛ وتتوضأ المرأةُ من فضله، انفردت المرأةُ بالإناء أو لم تنفرد. وفي مثل هذا آثارٌ كثيرةٌ صِحَاح. والذي نذهب إليه أنَّ الماء لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما ظهر فيه من النجاسات، أو غلب عليه منها؛ فلا وجهَ للاشتغال بما لا يصحُّ من الآثار والأقوال. واللهُ المستعان.

روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: حدَّثتني ميمونة قالت: كنت أغتسل أنا ورسولُ الله ﷺ من إناءٍ واحد من الجنابة. قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[٦].

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا والنبيُّ ﷺ من إناءٍ واحد يقال له: الفَرَق[٧].

---

(١) في (م): منه.

(٢) في النسخ الخطية: و.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١٤١٠ . والحديث أخرجه أحمد (٢٦٨٠٢) ولفظه: ..فقال: «إن الماء ليس عليه جنابة. أو: لا ينجسه شيء» فاغتسل منه. وستأتي شواهده.

(٤) في التمهيد ١٤/ ١٦٤-١٦٥ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) سيأتي تخريج الراوية بنحو هذا اللفظ .

(٦) سنن الترمذي (٦٢). وأخرجه أحمد (٢٦٧٩٧)، ومسلم (٣٢٢) دون قولها: من الجنابة. وهو عند البخاري (٢٥٣) إلا أنه قال: عن ابن عباس أن النبي ﷺ وميمونة...

(٧) صحيح البخاري (٢٥٠)، وأخرجه أحمد (٢٤٠١٤) (٢٥٦٣٤)، ومسلم (٣١٩): (٤١). والفَرَق =

وفي صحيح مسلمٍ(١) عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ كان يغتسل بفضل ميمونة.

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: اِغتسلَ بعضُ أزواج النبيِّ ﷺ في جَفْنة، فأراد رسولُ الله ﷺ أن يتوضأ منه فقالت: يا رسول الله، إني كنت جنباً. فقال: «إنَّ الماء لا يُجْنِب». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوريِّ ومالكٍ والشافعي(٢).

وروى الدارقطني عن عَمْرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أتوضأ أنا والنبيُّ ﷺ من إناء واحد وقد أصابت الهِرَّةُ منه قبل ذلك. قال: هذا حديثٌ صحيح(٣).

وروى أيضاً عن رجل من بني غِفَار قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن فضل طهورِ المرأة(٤).

وفي الباب عن عبد الله بن سَرْجِس، وكره بعضُ الفقهاء فضلَ طهورِ المرأة، وهو قول أحمدَ وإسحاق(٥).

الرابعة عشرة: روى الدارقطني عن زيد بنِ أسلم، [عن أسلم] مولى عمر بنِ الخطاب: أنَّ عمر بنَ الخطاب كان يسخَّن له ماءٌ في قُمْقُمَة ويغتسل به. قال:

= بالتحريك: مكيال يسع ستة عشر رطلاً، النهاية (فرق).

(١) برقم (٣٢٣)، وأخرجه أحمد (٣٤٦٥).

(٢) سنن الترمذي ١/ ٩٤ حديث (٦٥). وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٠٢)، وأبو داود (٦٨)، والنسائي ١/ ١٧٣، وابن ماجه (٣٧٠). وسلف من حديث ميمونة رضي الله عنها أول هذه المسألة.

(٣) في (د) و(ز) و(م): حسن صحيح، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في سنن الدارقطني (٢١٤). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٦٨). قال البوصيري في الزوائد ١/ ١٠٥ : هذا إسناد ضعيف.

(٤) سنن الدارقطني (١٤٢). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٦٥٥)، وأبو داود (٨٢)، والترمذي (٦٣) و(٦٤)، والنسائي ١/ ١٧٩ ، وابن ماجه (٣٧٣). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٥) قاله الترمذي إثر الحديث (٦٣). وحديث عبد الله بن سرجس أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٤ ، والدارقطني (٤١٧)، ولفظه: نهى رسول الله ﷺ أن يغتسل الرجل بفضل المرأة، والمرأة بفضل الرجل، ولكن يشرعان جميعاً. وأخرجه بنحوه الدارقطني (٤١٨) موقوفاً، وقال: هو أولى بالصواب.

وهذا إسنادٌ صحيح[١].

ورَوَى عن عائشة قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وقد سخَّنتُ ماءً في الشمس. فقال: «لا تفعلي يا حُميراء؛ فإنه يورث البَرَص». رواه خالد بنُ إسماعيل المخزوميُّ عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، وهو متروك. ورواه عمرو بنُ محمد الأعسمُ[٢] عن فُليح، عن الزُّهريِّ، عن عروة، عن عائشة. وهو منكر الحديث، ولم يروِه غيرُه عن فليح، ولا يصحُّ عن الزهري؛ قاله الدارقطني[٣].

الخامسة عشرة: كلُّ إناءٍ طاهر فجائزٌ الوضوءُ منه، إلَّا إناءَ الذهب والفضة؛ لِنهي رسولِ الله ﷺ عن اتِّخاذهما. وذلك ـ والله أعلم ـ للتشبُّه بالأعاجم والجبابرة، لا لنجاسةٍ فيهما. ومَن توضأ فيهما أجزأه وضوؤه، وكان عاصياً باستعمالها. وقد قيل: لا يُجزئ الوضوءُ في أحدهما. والأوَّلُ أكثر؛ قاله أبو عمر[٤]. وكلُّ جلدٍ ذُكِّيَ فجائزٌ استعمالُه للوضوء وغيرِ ذلك. وكان مالكٌ يكره الوضوءَ في إناء جلدِ الميتة بعد الدِّباغ؛ على اختلافٍ من قوله. وقد تقدَّم في «النحل»[٥].

قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر .﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بالجدوبة والمَحْل وعدم النبات. قال كعب: المطرُ روح الأرض يحييها الله به[٦]. وقال: «ميتاً» ولم يقل ميتةً؛ لأنَّ معنى البلدة والبلد واحد؛ قاله الزجاج. وقيل: أرادَ بالبلد المكان[٧].

(١) سنن الدارقطني (٨٥) ومن طريقه البيهقي ١/ ٦ ، وما بين حاصرتين منهما. والقمقمة: ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره . النهاية (قمقم).

(٢) في (ف) و(م): الأعشم . وهو خطأ.

(٣) سنن الدارقطني برقم (٨٦) و(٨٧).

(٤) في الكافي ١/ ١٦٢-١٦٣ ، وما بعده منه. وحديث النهي عن آنية الذهب والفضة أخرجه أحمد (٢٣٢٦٩)، والبخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة ﵁. ورُوي عن غيره أيضاً.

(٥) ١٢/ ٣٩٩ .

(٦) لفظة: به. من(م)، وقول كعب أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٣٤) دون قوله: يحيها الله به.

(٧) زاد المسير ٦/ ٩٤ ، وكلام الزجاج السالف فيه، وهو في معاني القرآن له ٤/ ٧١ .

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ قراءةُ العامَّة بضمِّ النون. وقرأ عمرُ بن الخطاب، وعاصمٌ والأعمش فيما روى المفضَّل عنهما: «نَسْقِيَهُ»؛ بفتح النون(١).

﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: بَشَراً كثيراً، وأناسيُّ واحدُه إنسيّ ـ نحو جمع الْقُرْقُور(٢): قَرَاقير وقَرَاقِر ـ في قول الأخفش(٣) والمبرِّد وأحد قولي الفراء(٤)، وله قولٌ آخر، وهو أنْ يكونَ واحده إنساناً، ثم يُبدل من النون ياءً؛ فيقول: أناسيّ، والأصل: أناسين، مثل: سِرحان وسراحين، وبستان وبساتين؛ فجعلوا الياءَ عوضاً من النون، وعلى هذا يَجوزُ: سَراحيّ وبَساتيّ، لا فرق بينهما(٥).

قال الفراء: ويجوز «أَنَاسِي» بتخفيف الياء(٦)؛ كأنهم أسقطوا الياء(٧) التي فيما بين لام الفعل وعينه؛ مثل قَرَاقِير وقَرَاقِر.

وقال: «كَثِيراً» ولـم يقل: كثيرين؛ لأن فعيلاً قد يراد به الكثرة؛ نحو ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: القرآن(٨)، وقد جرى ذكره في أوّل السورة: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الآية: ١]. وقوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ

(١) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٣، والبحر ٦/ ٥٠٥. وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٢) القرقور: ضربٌ من السفن، وقيل: هي السفينة العظيمة أو الطويلة. اللسان (قرر).

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٣.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٩، وما بعده فيه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧١.

(٦) معاني القرآن للفراء٢/ ٢٧٠، وهي قراءة شاذة عن يحيى بن الحارث الذماري. القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر المحيط ٦/ ٥٠٥.

(٧) قوله: كأنهم أسقطوا الياء. من (ظ).

(٨) في (د) و(ز): ليذكروا القرآن.

ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الآية: ٢٩]. وقوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الآية: ٣٠].

﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي: جُحوداً له وتكذيباً به. وقيل: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ»؛ هو المطر. رُوي عن ابن عباس وابن مسعود: وأنَّه ليس عامٌ بأكثرَ مطراً من عام، ولكنَّ الله يُصرِّفه حيث يشاء، فما زِيد لبعضٍ نَقَص من غيرهم[(١)]. فهذا معنى التصريف. وقيل: «صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ» وابلاً وطَشًّا وطَلًّا ورِهاماً ورَذَاذاً[(٢)]. وقيل: تصريفُه تنويعُ الانتفاع به في الشُّرب والسَّقي والزِّراعات به، والطَّهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه[(٣)].

﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قال عكرمة: هو قولُهم في الأنواء: مُطِرْنَا بنوءِ كذا[(٤)].

قال النَّحَّاس[(٥)]: ولا نَعلمُ بين أهل التفسير اختلافاً أنَّ الكفرَ هاهنا قولُهم: مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا؛ وأنَّ نظيرَه: فَعَلَ النَّجمُ كذا[(٦)]، وأنَّ كلَّ من نَسَب إليه فعلاً فهو كافر.

وروى الربيع بن صَبيح[(٧)] قال: مُطِر النّاس على عهد رسول الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فلمَّا أصبحَ قال النبيُّ ﷺ: «أصبحَ النَّاسُ فيها رجلين شاكرٌ وكافر؛ فأمَّا الشاكر فيحمدُ

---

(١) أخرجهما الطبري ١٧/ ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) ذكره الواحدي في الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ١٠٠، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٧٢، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٦. دون نسبة. ووقع في (د) و(ز) و(م) قبل قوله: ورذاذاً، ما نصه: الجوهري: الرهام الأمطار اللينة، وزاد بعدها في (د): الوابلة، وزاد في (ز): الواحدة: رهمة، بالكسر، ويجمع أيضاً: رِهَماً. ووقعت هذه الزيادة في (ف) بعد قوله: وشبهه؛ نهاية الكلام.

(٣) تفسيرالرازي ٢٤/ ٩٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٩. دون قوله: مطرنا بنوء كذا.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٣-١٦٤.

(٦) جاءت العبارة في إعراب القرآن للنحاس: وأن نظيره قول المنجم: فعل النجم كذا وكذا.

(٧) البصري العابد، كان من عباد أهل البصرة وزُهَّادهم، إلا أن الحديث لم يكن من صناعته، فكان يهم كثيراً. توفي بالسند سنة ستين ومئة. سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٨٧-٢٨٩.

الله تعالى على سُقياه وغياثه، وأمَّا الكافرُ فيقول: مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا»[١]. متفقٌ على صحَّته بمعناه[٢]، وسيأتي في الواقعة إنْ شاء الله[٣].

ورُوي من حديث ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما من سَنَةٍ بأمطرَ من أخرى، ولكنْ إذا عَمِل قومٌ بالمعاصي، صَرف الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عَصَوا جميعاً صَرَف الله ذلك إلى الفيافي والبحار»[٤]. وقيل: التَّصريف راجعٌ إلى الريح[٥]، وقد مضى في «البقرة» بيانه[٦].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «لِيَذْكُرُوا»[٧] مخففةَ الذَّال؛ من الذِّكر. الباقون مُثَقَّلاً من التذَكُّر، أي: ليذْكُروا نِعمَ الله، ويعلَموا أنَّ من أنْعَمَ بها لا يجوز الإشراكُ به؛ فالتذكُّر قريبٌ من الذِّكر، غير أنَّ التذكُّر يُطلَقُ فيما بَعُدَ عن القلب، فيحتاج إلى تكلُّفٍ في التذكُّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ أي: رسولاً يُنْذِرهم، كما قَسَمْنَا المطرَ؛ ليخفَّ عليكَ أعباءُ النبوّة، ولكنَّا لم نفعلْ، بل جعلناك نذيراً للكلِّ؛ لترتفعَ[٨] درجتُك، فاشكر نعمةَ الله عليك[٩].

---

(١) لم نقف عليه من طريق الربيع بن صبيح، وأخرجه بنحو هذا اللفظ الطبراني في المعجم الكبير (١٢٨٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه بمعناه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجُهني ﷺ. وهو عند أحمد (١٧٠٦١).

(٣) عند تفسير الآية (٧٥) منها.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٣٧٢ ، وسلف بنحوه موقوفاً على ابن عباس وابن مسعود.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٢ .

(٦) ٢/ ٤٩٨ .

(٧) السبعة ص٤٦٥ ، والتيسير ص١٦٤ .

(٨) في (د) و(ز): لرفع.

(٩) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٩٦ ، وتفسير الرازي ٢٤/ ٩٩ .

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فيما يدعونَك إليه من اتِّباع آلهتهم. ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ قال ابن عباس: بالقرآن. ابن زيد: بالإسلام[1]. وقيل: بالسيف؛ وهذا فيه بعدٌ؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، ونزلَتْ قبلَ الأمر بالقتال[2]. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لا يخالطُه فُتور.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ عاد الكلامُ إلى ذِكْر النِّعم. و«مَرَجَ»: خلَّى وخلَط وأرسلَ. قال مجاهد: أرسلهما وأفاضَ أحدَهما في الآخر[3].

قال ابن عرفة: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» أي: خلطهما فهما يلتقيان؛ يقال: مَرَجْتُه إذا خلطته.

ومَرِجَ الدِّينُ والأمرُ: اختلطَ واضطرب[4]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بنِ عمرو بن العاصي: «إذا رأيتَ الناس مَرِجت عهودُهم، وخفَّت أماناتُهم، وكانوا هكذا وهكذا» وشبَّك بين أصابعه، فقلتُ له: كيفَ أصنعُ عند ذلك؟ جعلني الله فداك. قال: «الزمْ بيتَك، واملِكْ عليكَ لسانكَ، وخُذْ ما[5] تعرِف، ودعْ ما تُنكِر، وعليك بخاصَّةِ أمر نفسِك، ودعْ عنكَ أمرَ العامَّة». خرَّجَه النسائي وأبو داود وغيرهما[6].

وقال الأزهريّ[7]: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ»: خلَّى بينهما؛ يقال: مَرَجْتُ الدابَّة: إذا خَلَّيتَها ترعى.

---

(١) أخرج القولين الطبري ١٧/ ٤٧٠ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ١٠٠ .

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٤ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٧٢ ، وفيه: وأفاض أحدهما على الآخر.

(٤) الصحاح (مرج).

(٥) في (م): بما.

(٦) السنن الكبرى للنسائي (٩٩٦٢)، وسنن أبي داود (٤٣٤٣). وهو عند أحمد (٦٩٨٧).

(٧) لم نقف على كلامه، وقاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٧٢ ، وينظر الصحاح (مرج).

وقال ثعلب: المرجُ: الإجراء، فقوله: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» أي: أجراهما(١). وقال الأخفش: ويقولُ قومٌ: أمرجَ البحرين، مثل: مَرَجَ، فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنًى(٢).

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: حلوٌ شديدُ العُذُوبة. ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: فيه ملوحةٌ ومرارة. ورُوِيَ عن طلحة أنّه قرأ: «وَهَذَا مَلِحٌ»؛ بفتح الميم وكسر اللام(٣).

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزاً من قدرته لا يَغْلِب أحدُهما على صاحبه؛ كما قال في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الآية:١٩-٢٠].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ستراً مستوراً يمنعُ أحدَهما من الاختلاط بالآخر. فالبَرْزَخ: الحاجز، والحِجْر: المانع. وقال الحسن: يعني بحر فارس وبحر الروم(٤). وقال ابن عباس وابن جبير: يعني بحر السماء وبحر الأرض(٥). قال ابن عباس: يلتقيان في كلِّ عامٍ وبينهما برزخٌ؛ قضاءٌ من قضائه(٦). «وَحِجْراً مَحْجُوراً»: حراماً مُحرَّماً أنْ يَعْذُبَ هذا المالحُ بالعذب، أو يملُح هذا العذبُ بالمالح.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي: خَلَق من النُّطفة إنساناً. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ أي: جَعلَ الإنسانَ «نَسَباً وصِهْراً». وقيل: «مِنَ الْمَاءِ» إشارةً إلى أصل الخلقة في أنَّ كلَّ حيٍّ مخلوقٌ من الماء. وفي هذه الآية تعديدُ النعمة على النَّاس في

---

(١) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١١/ ٧٣ عن ثعلب عن ابن الأعرابي.

(٢) الصحاح (مرج).

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥ ، والمحتسب ٢/ ١٢٤ . والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٨ (١٥٢٥٩).

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٥٠ ، ونسب القول الأخير لمجاهد وابن جبير.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بنحوه ٨/ ٢٧٠٩ (١٥٢٦٩)

إيجادهم بعد العدم، والتنبيهُ على العبرة في ذلك[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ النسب والصهر معنيان يعمَّان كلَّ قربى تكونُ بين آدميِّين[٢]. قال ابن العربي[٣]: النسبُ عبارةٌ عن خلطِ الماء بين[٤] الذكر والأنثى على وجه الشرع؛ فإنْ كان بمعصيةٍ كان خلقاً مطلقاً، ولم يكنْ نسباً محقَّقاً، ولذلك لم يدخل تحت قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] بنتُه من الزنى؛ لأنَّها ليست ببنتٍ له في أصحِّ القولين[٥] لعلمائنا، وأصحُّ القولين في الدين؛ وإذا لم يكن نسبٌ شرعاً فلا صِهْر شرعاً فلا يُحرِّم الزنى بنتَ أمٍّ ولا أمَّ بنتٍ[٦]، وما يُحرِّم مِن الحلال لا يُحَرِّم من الحرام؛ لأنَّ الله امتنَّ بالنَّسب والصِّهْر على عباده، ورفع قدرَهُما، وعلَّقَ الأحكامَ في الحِلِّ والحُرْمَة عليهما، فلا يلحقُ الباطلُ بهما ولا يساويهما.

قلت: اختلفَ الفقهاءُ في نكاحِ الرجل ابنتَه من زنى، أو أختِه أو بنتِ ابنه من زنى؛ فحرَّم[٧] ذلك قومٌ منهم: ابنُ القاسم، وهو قول أبي حنيفةَ وأصحابه، وأجازَ ذلك آخرون منهم: عبدُ الملك بن الماجشون، وهو قولُ الشافعيّ [على كراهة]، وقد مضى هذا في «النساء» مجوّداً[٨].

قال الفراء[٩]: النسبُ: الذي لا يَحِلُّ نكاحه، والصِّهر: الذي يحلُّ نكاحه[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤ .
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤ .
(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٤ .
(٤) في النسخ الخطية: المائين.
(٥) في (ظ): وبنته من الزنى ليست ببنتٍ له في أصح القولين، واضطربت العبارة في (د) و (ز) والمثبت من (م) وأحكام القرآن لابن العربي.
(٦) العبارة في أحكام القرآن لابن العربي: فلا يحرم الزنى ببنتٍ أماً، ولا بأمٍ بنتاً.
(٧) في (ظ): فمنع.
(٨) ٦/ ١٩٠-١٩١ ، والكلام السالف في التمهيد ٨/ ١٩١ ، وما بين حاصرتين منه.
(٩) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٠ .
(١٠) قوله: والصهر الذي يحل نكاحه. من (م).

وقاله الزَّجَّاج، وهو قول علي بن أبي طالب ﷺ[١]. واشتقاقُ الصِّهر من صَهرْتُ الشيءَ: إذا خلطتَه؛ فكلٌّ واحدٍ من الصِّهرين قد خالطَ صاحبَه، فسُمِّيت المناكِحُ صِهْراً؛ لاختلاط النَّاس بها[٢].

وقيل: الصهرُ: قرابةُ النِّكاح؛ فقرابةُ الزوجةِ هم الأَخْتَان، وقرابةُ الزوجِ هم الأَحْماء. والأصهارُ يقع عامًّا لذلك كلِّه؛ قاله الأصمعيّ.

وقال ابن الأعرابي: الأَخْتَان: أبو المرأة وأخوها وعمُّها، كما قال الأصمعيّ، والصهرُ: زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمُّه.

وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجُوزَجَانيِّ: أَخْتَانُ الرجل: أزواجُ بناته وأخواتِه وعماتِه وخالاتِه، وكلُّ ذاتِ مَحْرمٍ منه، وأصهارُه: كلُّ ذي رَحِمٍ مَحْرَمٍ من زوجته.

قال النَّحَّاس[٣]: الأَوْلَى في هذا أنْ يكونَ القولُ في الأصهار ما قال الأصمعي، وأنْ يكونَ من قِبَلِهما جميعاً؛ يقال: صَهَرْتُ الشيءَ، أي: خلطتُه؛ فكلٌّ واحدٍ منهما قد خَلَط صاحبه. والأَوْلَى في الأَخْتَان ما قاله محمدُ بن الحسن لجهتين:

إحداهُما: الحديثُ المرفوع؛ رَوى محمدُ بنُ إسحاق عن يزيدِ بن عبد الله بن قُسَيط، عن محمدِ بن أسامة بن زيد[٤] عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَّا أنتَ يا علي فَخَتَنِي وأبو ولدي، وأنت منِّي وأنا منك»[٥]. فهذا على أنَّ زوجَ البنت خَتَنٌ.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٢، ونسبه لعلي بن أبي طالب ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٥١.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣٩. وأقوال الأصمعي وابن الأعرابي ومحمد بن الحسن السالفة منه.

(٤) في (د) و (ز) عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أسامة بن زيد...، وفي (ظ) عن أبي أسامة بن زيد.. والمثبت من (م) ومعاني القرآن ومصادر التخريج.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٧٧٧)، والنسائي في الكبرى (٨٤٧١) مطولاً. ومحمد بن اسحاق. صدوق يدلِّس. تقريب التهذيب. وقد عنعن في هذا الحديث. أما قوله ﷺ لعلي ﷺ: «أنت منِّي وأنا منك» فصحيح أخرجه البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

والجهةُ الأخرى: أنَّ اشتقاقَ الخَتَنِ من ختَنَه: إذا قطعه؛ وكأنَّ الزوجَ قد انقطعَ عن أهله، وقطعَ زوجتَهُ عن أهلها.

وقال الضحاك: الصِّهرُ قرابةُ الرَّضَاع. قال ابنُ عطية[(١)]: وذلك عندي وَهَمٌ أوجَبه أنَّ ابنَ عباسٍ قال: حُرِّم من النسب سبعٌ، ومن الصهر خمس. وفي روايةٍ أخرى[(٢)] من الصِّهر سبعٌ، يريدُ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾. فهذا هو النسب. ثم يريد بالصهر قولَه تعالى: ﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]. ثمَّ ذكرَ المحصَنات. ومحمل هذا أنَّ ابنَ عباس أراد: حُرِّم من الصهر ما ذُكِر معه[(٣)]، فقد أشار بما ذكر إلى عُظمه وهو الصِّهر، لا أنَّ الرَّضاع صهرٌ، وإنَّما الرَّضاع عديلُ النسب؛ يَحرُم منه ما يَحرُم من النسب بحكم الحديث[(٤)] المأثور فيه. ومن رَوى: وحُرِّم من الصهر خمسٌ، أسقطَ من الآيتين الجمعَ بين الأختين والمحصَنات؛ وهنَّ[(٥)] ذواتُ الأزواج.

قلت: فابن عطيَّة جعلَ الرَّضاع مع ما تقدَّم نسباً، وهو قول الزجَّاج. قال أبو إسحاق[(٦)]: النسبُ الذي ليسَ بصهر؛ من قوله جلَّ ثناؤه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] والصهرُ من يَحِلُّ[(٧)] له التزويج.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ . وقول الضحاك السالف منه.

(٢) قول ابن عباس: حرِّم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، سلف ٦/ ١٧٤ ، ولم نقف على لفظ: خمس، عن ابن عباس، وقد أخرجه الطبري ١٧/ ٤٧٦ عن الضحاك .

(٣) في المحرر الوجيز: مع ما ذكر معه.

(٤) سلف ٦/ ١٧٩ .

(٥) في (د) و (ز): ومن ، وفي (ظ): من. والمثبت من(م) والمحرر الوجيز.

(٦) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن له ٤/ ٧٢ .

(٧) لفظة: يحل. من (ظ).

قال ابن عطية[١]: وحكى الزهراوي قولاً أنَّ النسبَ من جهة البنين، والصهرَ من جهة البنات.

قلت: وذكرَ هذا القول النَّحَّاس[٢]، وقال: لأنَّ المصاهرةَ من جهتين تكون.

وقال ابن سيرين: نزلَتْ هذه الآية في النبيِّ ﷺ وعليٍّ ﷺ؛ لأنَّه جَمعَه معه نسبٌ وصهر. قال ابن عطية[٣]: فاجتماعُهما وُكادةُ حرمةٍ إلى يوم القيامة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ على ما خلق ما يريده.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْۗ﴾ لما عَدَّد النعم وبيَّن كمال قدرته، عَجِبَ من المشركين في إشراكهم به من لا يقدِرُ على نفعٍ ولا ضَرّ، أي: إنَّ الله هو الذي خَلَق ما ذكره، ثمَّ هؤلاء بجهلهم[٤] يعبدون من دونه أمواتاً جمادات لا تَنفعُ ولا تَضرّ.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ رُويَ عن ابن عباس: «الكَافِرُ» هنا أبو جهلٍ لعنه الله[٥]؛ وشرحه أنَّه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه[٦]. وقال عكرمة: «الْكَافِرُ» إبليس، ظهر على عداوة ربِّه. وقال مَطر[٧]: «الْكَافِرُ» هنا الشيطان.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٤ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ ، وما قبله منه.

(٤) في (م): لجهلهم.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ١٧/ ٤٧٨ . دون قوله: لعنه الله، وهي من (م).

(٦) جاءت العبارة في إعراب القرآن للنحاس: أبو جهل وشيعته لأنه يستظهر بعبدة الأوثان على أولياء ربه.

(٧) في (م): مطرف. والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٤ ورواية ابن عباس وعكرمة ومطر منه.

وقال الحسن: «ظَهِيراً» أي: مُعِيناً للشيطان على المعاصي[١]. وقيل: المعنى؛ وكان الكافرُ على ربه هيِّناً ذليلاً، لا قَدْر له ولا وزن عنده؛ من قول العرب: ظهرتَ به، أي: جعلتَه خلف ظهرك، ولم تلتفت إليه[٢]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ [هود: ٦٢] أي: هيِّناً ومنه قول الفرزدق:

تميمَ بنَ بَدْرٍ[٣] لا تكونَنَّ حاجتي بِظَهْرٍ فلا يعيا عليَّ جوابُها[٤]

هذا معنى قول أبي عبيدة: وظهير بمعنى مظهور[٥]، أي: كفرُ الكافر هينٌ على الله تعالى، والله مستهينٌ به؛ لأنَّ كفره لا يضره.

وقيل: وكان الكافرُ على ربِّه الذي يعبدُه؛ وهو الصنم قويًّا غالباً يعملُ به ما يشاء؛ لأنَّ الجمادَ لا قدرةَ له على دفعٍ[٦] ونفع.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ يريد بالجنة مبشراً ونذيراً من النَّار؛ وما أرسلناك وكيلاً ولا مسيطراً.

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ يريدُ على ما جئتكم به من القرآن والوحي. و«مِن» للتأكيد.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾: لكن من شاء؛ فهو استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن من شاء ﴿أَن

(١) أخرجه الطبري ١٧/٤٧٨.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/٣٧٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/٩٧.

(٣) في (م): قيس.

(٤) النكت والعيون ٤/١٥٢، والبيت في ديوان الفرزدق ١/٨٦، وجاءت رواية البيت فيه:

تميمَ بن زيدٍ لا تهونَنَّ حاجتي لديك ولا يعيا عليَّ جوابها

(٥) مجاز القرآن ٢/٧٧. وقاله أيضاً الطبري ١٧/٤٧٩. ورجحه.

(٦) بعدها في (م): ضر.

﴿يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله؛ فلْيُنْفِق. ويجوز أنْ يكونَ متصلاً ويقدَّر حذفُ المضاف؛ التقدير: إلَّا أجْرَ ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ باتباع ديني حتى ينالَ كرامةَ الدُّنيا والآخرة(١).

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ تقدَّم معنى التوكُّل في «آل عمران» وهذه السورة(٢) وأنَّه اعتمادُ القلب على الله تعالى في كُلِّ الأمور، وأنَّ الأسبابَ وسائطُ أمرَ بها من غير اعتمادٍ عليها.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: نزِّه اللهَ تعالى عمَّا يُضيفُه هؤلاء الكفارُ إليه(٣) من الشركاء. والتسبيحُ: التنزيه، وقد تقدَّم(٤). وقيل: «وَسَبِّحْ» أي: وصلِّ له؛ وتُسمَّى الصلاةُ تسبيحاً. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: عليماً، فيجازيهم بها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم في الأعراف(٥). و«الذي» في موضع خفضٍ نعتاً للحيّ. وقال: «بَيْنَهُمَا» ولم يقل: بينهنّ؛ لأنَّه أرادَ الصنفين والنوعين والشيئين؛ كقول القُطاميّ(٦):

ألم يَحْزُنْكِ أنَّ حبالَ قيسٍ وتغلِبَ قد تباينتا انقطاعا

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥.

(٢) ٥/ ٢٩٠-٢٩٢، وص٣٨٦-٣٨٧ من هذا الجزء.

(٣) في (د) و (م) يصفه، بدل: يضيفه، وفي (م): به، بدل: إليه.

(٤) ١/ ٤١٢.

(٥) ٩/ ٢٣٧.

(٦) في ديوانه ص٣٢.

أراد: وحبالَ تغلب؛ فثنَّى، والحبالُ جمع؛ لأنَّه أرادَ الشيئين والنوعين[(١)].

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ قال الزَّجَّاج[(٢)]: المعنى: فاسأل عنه. وقد حكى هذا جماعةٌ من أهل اللغة أنَّ الباء تكون بمعنى «عن»؛ كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] وقال الشاعر:

هَلَّا سألتِ الخيل يا ابنةَ مالكٍ إنْ كُنتِ جاهلةً بما لم تعلمي[(٣)]

وقال امرؤ القيس[(٤)]:

فإنْ تسألوني بالنساء فإنَّني خبيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ

أي: عن النساء، وعما لم تعلمي.

وأنكره عليُّ بن سليمان وقال: أهلُ النظر ينكِرون أنْ تكونَ الباءُ بمعنى «عن»؛ لأنَّ في هذا إفسادَ المعاني[(٥)]، [قال: ولكنَّ هذا مثلُ] قول العرب: لو لقيتَ فلاناً للقيَكَ به الأسد، أي: للقيَك بلقائك إيَّاه الأسد؛ المعنى: فاسأل بسؤالك إيَّاه خبيراً[(٦)]. وكذلك قال ابنُ جبير: الخبيرُ هو الله تعالى: فـ«خَبِيراً» نصب على المفعول به بالسؤال[(٧)].

قلت: قول الزجَّاج يُخرَّج على وجهٍ حسن، وهو أنْ يكون الخبيرُ غيرَ الله، أي: فاسأل عنه خبيراً، أي: عالماً به، أي: بصفَاته وأسمائه.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٠، والبيت السالف فيه.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٧٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢، والبيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٢٥.

(٤) كذا في النسخ. والبيت لعلقمة بن عَبَدَة كما في تأويل مشكل القرآن ص٤٢٧، وأدب الكاتب ص٥٠٨.

(٥) بعدها في (ظ) منه، وجاءت العبارة في (م): لأن في هذا إفساداً لمعاني.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٦، وقول ابن جبير أخرجه الطبري ١٧/ ٤٨١.

وقيل: المعنى: فاسأل له خبيراً، فهو نصب على الحال من الهاء المضمرة. قال المهدويّ: ولا يحسنُ حالاً إذ لا يخلو أنْ تكون الحال من السائل أو المسؤول. ولا يصحُّ كونُها حالاً من الفاعل؛ لأنَّ الخبير لا يَحتاج أنْ يَسألَ غيره. ولا يكون من المفعول؛ لأنَّ المسؤول عنه ـ وهو الرحمن ـ خبيرٌ أبداً، والحالُ في أغلب الأمر [لِما] يتغيرُ وينتقل؛ إلَّا أنْ يُحمل على أنَّها حالٌ مؤكِّدة؛ مثل: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]، فيجوز[١].

وأمَّا «الرَّحْمَنُ» ففي رفعه ثلاثةُ أوجه: يكون بدلاً من المضمر الذي في «اسْتَوَى». ويجوز أنْ يكونَ مرفوعاً بمعنى: هو الرحمن. ويجوز أنْ يكون مرفوعاً بالابتداء، وخبرُه: «فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً». ويجوزُ الخفض، بمعنى: وتوكَّل على الحيِّ الذي لا يموتُ الرَّحمنِ؛ يكون نعتاً. ويجوز النصبُ على المدح[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ أي: لله تعالى. ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ على جهةِ الإنْكَار والتعجُّب، أي: ما نعرف الرحمن إلَّا رحمانُ اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب[٣].

وزعم القاضي أبو بكر ابن العربيّ أنَّهم إنَّما جَهلوا الصفَةَ لا الموصوف، واستدلَّ على ذلك بقوله: «وَمَا الرَّحمَنُ»، ولم يقولوا: ومن الرَّحمن. قال ابن الحصَّار: وكأنَّه ـ رحمهُ الله ـ لم يقرأ الآيةَ الأخرى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾[٤] [الرعد: ٣٠].

---

(١) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٣-٥٢٤ . وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٥ ، وينظر مشكل إعراب القرآن.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٤ .

(٤) قولا ابن العربي وابن الحصار سلفا ١/ ١٦٠ .

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هذه قراءةُ المدنيِّين والبصريين[١]، أي: لِمَا تأمُرنا أنت يا محمد. واختاره أبو عبيدٍ وأبو حاتم.

وقرأ الأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: «يَأْمُرُنَا» بالياء. يعنونَ الرحمن؛ كذا تأوَّله أبو عبيد، قال: ولو أقرُّوا بأنَّ الرحمن أمرَهم ما كانوا كفاراً.

فقال النحاس[٢]: وليس يجب أنْ يتأوَّل عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد، ولكنَّ الأولى أنْ يكون التأويل لهم: أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنا النبيُّ ﷺ؛ فتصحُّ القراءةُ على هذا، وإنْ كانت الأُولى أبينَ وأقربَ مُتناولاً[٣].

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادَهم قولُ القائل لهم: اسجدوا للرحمن؛ نفوراً عن الدِّين. وكان سفيانُ الثوريّ يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: منازل؛ وقد تقدَّم ذكرها[٤].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ قال ابن عباس: يعني الشمس[٥]؛ نظيره: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. وقراءة العامة: «سِرَاجاً» بالتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي: «سُرُجاً»[٦]، يريدون النجوم العِظَام الوَقَّادة. والقراءةُ الأُولى عند أبي عبيدٍ أولى؛ لأنَّه

---

(١) قرأ: تأمرنا؛ بالتاء، من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم. السبعة ص٤٦٦، والتيسير ص١٦٤.

(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ١٦٥. وما قبله منه.

(٣) في (م): تناولاً. وقال الطبري رحمه الله في تفسيره ١٧/ ٤٨٢ بعد ذكر القراءتين: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماءُ من القرأةِ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

(٤) ١٢/ ١٨٦.

(٥) ذكره عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٦٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٤ عن قتادة.

(٦) السبعة ص ٤٦٦، والتيسير ص ١٦٤.

تأوّل أنَّ السُّرُج: النجومُ وأنَّ البروج النجوم، [وليس يجبُ أنْ يُتأوَّل لهم هذا] فيجيء المعنى: نجوماً ونجوماً.

النحَّاس[١]: ولكنَّ التأويلَ لهم أنَّ أبانَ بن تغلب قال: السُّرُج: النجومُ الدراري. الثعلبي: كالزُّهَرَة والمشترِي وزُحَل والسمَاكَين[٢] ونحوها.

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ ينير الأرض إذا طلع. ورَوى عِصْمَةُ عن الأعمش: «وَقُمْراً» بضمِّ القاف وإسكان الميم؛ وهذه قراءةٌ شاذة، ولو لم يكنْ فيها إلا أنَّ أحمدَ بن حنبل ـ وهو إمامُ المسلمين في وقته ـ قال: لا تكتبوا ما يحكيه عِصمة الذي يروي القراءات، وقد أُولِع أبو حاتم السِّجِسْتاني بذكرِ ما يرويه عِصمةُ هذا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿خِلْفَةً﴾ قال أبو عبيدة: الخِلفَةُ: كلُّ شيء بعد شيء، وكلُّ واحدٍ من الليل والنَّهار يَخْلُفُ صاحبَه[٤]، ويقال للمبْطُون: أصابَه خِلفةٌ، أي: قيامٌ وقعودٌ يَخلفُ هذا ذاك. ومنه خِلْفَةُ النبات؛ وهو ورقٌ يخرج بعد الورق الأوَّل في الصيف[٥]. ومن هذا المعنى قولُ زهير بن أبي سُلْمى:

بها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفةً وأطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ من كُلِّ مَجْثَمِ[٦]

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٦، و ما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) السماك: نجم معروف، وهما سماكان: رامح وأعزل. اللسان (سمك).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٦، وذكر هذه القراءة أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧.

(٤) ذكر قول أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٤٥، والطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٢٣.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٣٩٩ - ٤٠٠، ولسان العرب (خلف).

(٦) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٥. قال شارحه ثعلب: العِين: البقر، الواحدة عَيْناء والطَّلا: ولد البقرة وولد الظبية الصغير. اهـ. والمجثم: مكان الجثوم. معجم متن اللغة (جثم).

الرِّئم: ولدُ الظبي، وجمعُه آرام؛ يقول: إذا ذهب فوجٌ جاء فوج[(١)].

ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دَأْباً[(٢)]:

ولــهــا بــالــمــاطِــرُونِ[(٣)] إذا أَكَـلَ الـنـمـلُ الـذي جَـمـعَـا

خِـلْـفَـةٌ حـتـى اذا ارْتـبـعَـتْ سَـكَـنـتْ مِـن جِـلَّـقٍ بِـيَـعَـا[(٤)]

فـي بـيـوت[(٥)] وَسْـطَ دَسْـكَـرةٍ[(٦)] حـولَـهـا الـزيـتـونُ قـد يَـنَـعَـا

قال مجاهد: «خِلْفَةً» من الخِلاف؛ هذا أبيضُ؛ وهذا أسود، والأوَّل أقوى[(٧)]. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظَّلام، والزيادة والنقصان[(٨)]. وقيل: هو من باب حذف المضاف، أي: جعلَ الليلَ والنهار ذَوَي خِلفة، أي: اختلاف[(٩)].

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكر، فيعلم أنَّ الله لم يجعلْهُ كذلك عبثاً، فيعتبر في مصنوعات الله، ويشكر الله تعالى على نِعَمه عليه في العقل والفكر والفهم.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٨٢.

(٢) اختلف في قائل هذه الأبيات. قال المبرد في الكامل ٢/ ٤٩٨: قال أبو عبيدة: هذا الشعر يُخْتَلف فيه. فبعضهم ينسبه إلى الأحوص، وبعضهم ينسبه إلى يزيد بن معاوية قال أبو الحسن [علي بن سليمان الأخفش]: الصحيح أنه ليزيد. اهـ. ونسبها الجاحظ في الحيوان ٤/ ١٠ لأبي دهبل.

(٣) الماطرون: موضع بالشام قرب دمشق. معجم البلدان ٥/ ٤٢-٤٣.

(٤) وقع في المصدرين السالفين: خرفةٌ، بدل: خلفة. والأبيات برواية المصنف في تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٧ وعنه نقل المصنف. قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ٢٧٩ (طبعة دار صادر): ارتبعت: دخلت في الربيع، وجِلَّق: مدينة بالشام.

(٥) في المصادر: في قباب.

(٦) في المصادر عدا الحيوان للجاحظ: حول دسكرة، والدسكرة: يشبه قصراً حوله بيوت - وجمعها دساكر - تكون للملوك. خزانة الأدب ٣/ ٢٧٩-٢٨٠.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٥٥، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٥.

(٩) الكشاف ٣/ ٩٩.

وقال عمرُ بن الخطاب وابن عباس والحسن: معناه: من فاته شيءٌ من الخير بالليل أدركَه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركَه بالليل[١].

وفي الصحيح: «ما من امرئٍ تكونُ له صلاةٌ بالليل، فغلَبه عليها نومٌ، فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر؛ إلَّا كَتَبَ الله له أجرَ صلاته وكان نومُه عليه صدقةً»[٢].

وروى مسلمٌ[٣] عن عمرَ بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من نامَ عن حزبه، أو عن شيءٍ منه فقرأه فيما[٤] بين صلاة الفجر وصلاة الظهر؛ كُتِبَ[٥] له كأنما قرأه من الليل».

الثانية: قال ابن العربي[٦]: سمعتُ ذا الشهيد الأكبر يقول: إن الله تعالى خَلَق العبدَ حيًّا عالماً، وبذلك كمالُه، وسلَّط عليه آفةَ النَّوم، وضرورةَ الحَدَث، ونقصان الخِلقَة، إذ الكمالُ للأوَّل الخالق، فمتى[٧] أمكنَ الرجلُ من دفعِ النوم بقلَّة الأكل، والسهرِ في طاعة الله؛ فليفعل. ومِن الغَبْن العظيم أنْ يعيشَ الرجلُ ستين سنةً، ينامُ ليلَها، فيذهبُ النصفُ من عمره لغواً، وينامُ سُدس النَّهار راحةً، فيذهبُ ثلثاه، ويبقى له من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسَّفاهة أن يُتْلِفَ الرجلُ ثلثي عُمرِه في لذةٍ فانية، ولا يُتلِفَ عمرَه بسهرٍ في لذةٍ باقية عند الغنيِّ الوفيّ، الذي ليس بعديم[٨] ولا ظلوم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧-٢١٨ ، وقول عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن أخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٤١) ، وأبو داود (١٣١٤) ، والنسائي٣/ ٢٥٧ عن عائشة. دون قوله: فيصلي مابين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر. وهو بلفظ المصنف في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٦.

(٣) في صحيحه (٧٤٧).

(٤) في (ظ): ما. وليست في (د) و (ز).والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح مسلم.

(٥) في (د) و(ز): كتب الله.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٦.

(٧) في (م) وأحكام القرآن لابن العربي: فما.

(٨) في النسخ الخطية: بعدوم، والمثبت من (م)، وأحكام القرآن.

الثالثة: الأشياءُ لا تتفاضلُ بأنفسها؛ فإن الجواهرَ والأعراضَ من حيث الوجودُ متماثلة، وإنما يقع[١] التفاضل بالصفات. وقد اختُلِف أيُّ الوقتين أفضل، الليل أو النهار. وفي الصوم غنيةٌ في الدِّلالة، والله أعلم؛ قاله ابن العربي[٢].

قلت: والليل عظيمٌ قدْره؛ أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ [المزمل: ٢] على ما يأتي بيانه. وَمَدَح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «والصدقة تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئ الماء النَّار، وصلاةُ الرَّجل في جوف الليل»[٣] وفيه ساعةٌ يُستجاب فيها الدُّعاء، وفيه يَنْزِل الربُّ تبارك وتعالى[٤] حسبما يأتي بيانُه إنْ شاء الله تعالى.

الرابعة: قرأ حمزة وحدَه: «يَذْكُرَ» بسكون الذَّال وضمِّ الكاف[٥] وهي قراءة ابن وثَّاب وطلحة والنَّخعي[٦]. وفي مصحف أُبيّ: «يَتَذَكَّرَ» بزيادة تاء[٧]. وقرأ الباقون: «يَذَّكَّرَ» بتشديد الكاف[٨].

ويَذْكُرَ ويَذَّكَّر بمعنًى واحد[٩]. وقيل: معنى «يَذْكُرَ» بالتخفيف، أي: يذكر ما نسيَه

(١) في النسخ الخطية: معنى. والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٧.

(٣) هو قطعة من حديث معاذ بن جبل ﷺ. أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٤) يشير إلى حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم (٧٥٨): أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا. حين يبقى ثلث الليل الآخِر. فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له، و من يسألني فأعطيَه، ومن يستغفرني فأغفرَ له».

(٥) السبعة ص ٤٦٦، والتيسير ص ١٦٤.

(٦) ينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٢.

(٧) قراءة أبي بن كعب ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٧١، و الزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٩.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨. والكلام من أول المسألة منه.

(٩) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٩.

في أحد الوقتين في الوقت الثاني، أو ليذكر[١] تنزيهَ الله وتسبيحه فيها.

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال: شكر يشكر شُكراً وشُكوراً؛ مثل: كَفر يكفُر كُفراً وكُفوراً. وهذا الشُّكر[٢] على أنَّهما[٣] جعلَهما قَواماً لمعاشهم، وكأنَّهم لمَّا قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال[٤]: هو الذي يَقْدِر على هذه الأشياء[٥].

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾. لمَّا ذكر جهالاتِ المشركين، وطعنَهم في القرآن والنبوَّة؛ ذَكَر عبادَه المؤمنين أيضاً، وذَكَر صفاتِهم، وأضافَهم إلى عبوديَّته تشريفاً لهم، كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] وقد تقدَّم. فمن أطاعَ الله وعبدَه، وشغل سمعَه وبصَرَه ولسانَه وقلبَه بما أمرَه؛ فهو الذي يستحقُّ اسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شملَه قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] يعني في عدم الاعتبار؛ كما تقدَّم في «الأعراف»[٦].

وكأنَّه قال: وعبادُ الرَّحمن هم الذين يمشون على الأرض هوناً[٧]، فحذف «هم»؛ كقولك: زيدٌ الأمير، أي: زيدٌ هو الأمير. فـ«الَّذِينَ» خبرُ مبتدأ محذوف؛ قاله الأخفش[٨].

---

(١) في (ظ): ليذكروا.

(٢) في (م): الشكور.

(٣) في (ظ): أنه.

(٤) في النسخ عدا (ظ): قالوا. والمثبت من (ظ)

(٥) ينظر تفسير الرازي ٢٤/١٠٧.

(٦) ٩/ ٣٩٠.

(٧) لفظة: هوناً، من (ظ).

(٨) كلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٢ - ٦٤٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٦: أن قوله: ﴿وعباد الرحمن..﴾ مبتدأ ليس له خبر إلا في المعنى.

وقيل: الخبرُ قوله في آخر السورة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الآية: ٧٥] وما بين المبتدأ والخبر أوصافٌ لهم، وما تعلَّق بها؛ قاله الزَّجَّاج[1]. قال: ويجوز أنْ يكون الخبر: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

و«يَمْشُونَ» عبارةٌ عن عيشهم، ومدَّةِ حياتهم، وتصرفاتِهم، فذكر من ذلك العُظم؛ لاسيما وفي[2] الانتقال في الأرض وهي[3] معاشرة الناس وخلطتهم.

قوله تعالى: ﴿هَوْنًا﴾ الهَوْنُ مصدر الهيِّن، وهو من السَّكينة والوَقَار. وفي التفسير: يمشون على الأرض حُلماء[4] متواضعين، يمشون في اقتصاد.

والقَصدُ والتُّؤَدَةُ وحُسْنُ السَّمْت من أخلاق النبوة[5]. وقال ﷺ: «أيُّها النَّاس، عليكم بالسَّكينة، فإنَّ البِرَّ ليس في الإيضاع»[6].

ورُوِيَ في صفته ﷺ أنَّه إذا زال؛ زال تَقلُّعاً، ويخطو تَكَفُّؤاً، ويمشي هَوْناً، ذرِيعَ المِشية إذا مشى، كأنَّما ينحطُّ من صَبَب[7].

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٦٧.

(٢) بعدها في (م) ذلك.

(٣) في (م): وهو. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤/ ٢١٨ والكلام منه، وينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٢.

(٤) في النسخ الخطية: حكماء. والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٥. والقول فيه منسوب للحسن وعطاء والضحاك ومقاتل.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٧.

(٦) أخرجه أحمد (٢٠٩٩)، والبخاري (١٦٧١) عن ابن عباس. واللفظ الذي ذكره المصنف هو لفظ البخاري. وقال الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ إثر الحديث: أوضعوا: أسرعوا.

(٧) هو قطعة من حديث هند بن أبي هالة؛ أخرجه الترمذي في الشمائل (٧)، والطبراني في الكبير ٢٢/ (١٥٥) - (١٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٠)، وأخرجه القاضي عياض في الشفا ١/ ٣٣٤ (شرح الشفا للملا علي القاري)؛ بإسنادين أحدهما من طريق الترمذي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٧٧ : رواه الطبراني وفيه من لم يسم، وقال المناوي في فيض القدير ٥/ ٩٠: رمز المصنف[السيوطي] إلى حسنه، ولعله لاعتضاده عنده اهـ. ينظر تنزيه الشريعة المرفوعة ١/ ٤٦، وينظر كلام الملا علي القاري حول إسنادي القاضي عياض في شرح االشفا ١/ ٣٣٤ - ٣٣٦.

التقلُّع: رفعُ الرِّجْل بقوَّة، والتَكفُّؤ: الميلُ إلى سَنَن الممشى[(١)] وقَصْده، والهَون: الرِّفقُ والوَقار، والذَّريعُ: الواسعُ الخَطو[(٢)]، أي: إنَّ مشيَه كان يرفعُ فيه رجليه[(٣)] بسرعة، ويمدُّ خَطْوَه؛ خلافَ مِشية المختال، ويَقصِد سَمْتَه[(٤)]؛ وكلُّ ذلك برفقٍ وتثبتٍ دونَ عَجَلة. كما قال: كأنَّما ينحطُّ من صَبَب[(٥)]؛ قاله القاضي عياض[(٦)].

وكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يُسْرِعُ جِبلَّةً؛ لا تكلُّفاً[(٧)].

قال الزُّهري: سرعة المشي تَذْهب ببهاء الوجه. قال ابن عطية[(٨)]: يريد الإسراعَ الحثيث لأنَّهُ يُخِلُّ بالوقار، والخيرُ في التوسط. وقال زيدُ بن أسلم: كنتُ أسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فما وجدتُ من ذلك شفاءً، فرأيتُ في المنام من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أنْ يُفسدوا في الأرض[(٩)].

قال القُشيري: وقيل: لا يمشون لإفسادٍ ومعصية، بل في طاعة الله والأمورِ المباحة من غير هَوَك[(١٠)]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]. وقال ابن عباس: بالطَّاعة والمعروف والتَّواضع[(١١)].

---

(١) في (م): المشي، والمثبت من النسخ الخطية. وهو الموافق للمطبوع من الشفا. وفي شرح الشفا للملا علي القاري ١/٣٥٦ : سنن المشي. قال: وفي نسخة: الممشى؛ على أنه مصدر ميمي أو اسم مكان. اهـ وسنن الطريق: نهجه وجهته. القاموس (سنن).

(٢) في (م): الخطا.

(٣) في (م): رجله.

(٤) أي: مقصده في طريقه بدون ميل عن وسطه ؛ لقوله سبحانه: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان:١٩]. شرح الشفا للملا علي القاري ١/٣٥٦ .

(٥) أي: منحدر. شرح الشفا ١/٣٥٧ .

(٦) في الشفا ١/٣٠٧، ٣١٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤١٧ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/٢١٨، وكلام الزهري السالف منه.

(٩) أخرجه الطبري ١٧/٤٩١ .

(١٠) في (د): هول، وفي (ظ): هزل، والمثبت من (ز) و(م)، والهَوَك: الحمق. القاموس المحيط (هوك).

(١١) أخرجه الطبري ١٧/٤٩١. وفيه: والعفاف. بدل: والمعروف.

الحسن: حلماء؛ إنْ جُهِل عليهم لم يَجهلوا[١]. وقيل: لا يتكبَّرون على الناس[٢]. قلت: وهذه كلُّها معانٍ متقاربة، ويجمعُها العلمُ بالله، والخوفُ منه، والمعرفةُ بأحكامه، والخشيةُ من عذابه وعقابه؛ جَعَلَنا اللهُ منهم بفضله ومنِّه.

وذهبت فرقةٌ إلى أنَّ «هَوْناً» مرتبطٌ بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾، إي[٣]: إنَّ المشيَ هو هون[٤].

قال ابنُ عطية[٥]: ويُشبه أنْ يُتَأول هذا على أنْ تكون أخلاقُ ذلك الماشي هَوْناً مناسبةً لمشيه، فيرجعُ القول إلى نحو ما بيَّنَّاه. وأمَّا أنْ يكون المرادُ صفةَ المشي وحدَه فباطل؛ لأنَّه رُبَّ ماشٍ هَوْناً رويداً وهو ذئبٌ أطلس[٦]. وقد كان رسول الله ﷺ يَتَكفَّأُ في مشيه كأنَّما يمشي[٧] في صبب. وهو عليه الصلاة والسلام الصدرُ في هذه الأمَّة. وقولُه عليه الصلاة والسلام: «من مشى منكم في طمعٍ فليمش رويداً»[٨] إنما أراد في عَقْد نفسه، ولم يُرد المشيَ وحده، ألا ترى أنَّ المبطلين المتحلِّين بالدِّين تَمسَّكوا بصورة المشي فقط؛ حتى قال فيهم الشاعر ذمًّا لهم:

كلُّهم يمشي رُوَيْد كلُّهم يَطْلُبُ صَيْد[٩]

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٣٨، والطبري ١٧/ ٤٩٢. ووقع في (ظ) بدل لفظ حلماء: حكماء، وفي (ز) والمحرر الوجيز: حلماً، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق للمصادر.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٢ عن ابن زيد.

(٣) لفظة: أي. من (ظ).

(٤) في (ظ): الهون.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨. وما قبله منه.

(٦) الأطلس: الذئب الأمعط الذي تساقط شعره، وهو أخبثها. معجم متن اللغة (طلس).

(٧) في (م) ينحط، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز.

(٨) قطعة من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٩٩)، وفيه إبراهيم بن زياد العجلي؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٣٢: قال الأزدي: متروك الحديث .اهـ. وذكر ابن الجوزي طرفه في الموضوعات (٨٧٢).

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢١، والبيت لأبي جعفر المنصور كما في عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٠٩، =

قلت: وفي عكسه أنشدَ ابن العربيّ[١] لنفسه.

تواضعتُ في العلياء والأصلُ كابر ... وحزتُ قِصابَ السَّبقِ بالهَوْن في الأمرِ
سكونٌ فلا خبثُ السريرة أصلُه ... وجُلُّ سكونِ النَّاس من عِظَم الكبرِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ قال النَّحَّاس[٢]: ليس «سَلَاماً» من التسليم؛ إنَّما هو من التسلُّم؛ تقول العرب: سلاماً، أي: تَسلُّماً[٣] منك، أي: براءةً منك. منصوبٌ على أحد أمرين: يجوز أنْ يكون منصوباً بـ«قَالُوا»، ويجوزُ أنْ يكون مصدراً؛ وهذا قولُ سيبويه[٤].

قال ابن عطية[٥]: والذي أقوله: إنَّ «قَالُوا» هو العاملُ في «سَلَاماً» لأنَّ المعنى: قالوا هذا اللفظ. وقال مجاهد: معنى «سَلَاماً»: سَدَاداً[٦]. أي: يقولُ للجاهل كلاماً يدفعُه به برفقٍ ولين. فـ«قَالُوا» على هذا التأويل عاملٌ فِي قوله: «سَلَاماً» على طريقة النحْويين؛ وذلك أنَّه بمعنى قولاً.

وقالت فرقةٌ: ينبغي للمخاطب أنْ يقولَ للجاهل: سلاماً؛ بهذا اللفظ. أي: سلَّمنا سلاماً أو تسليماً، ونحو هذا، فيكون العاملُ فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين.

مسألة: هذه الآيةُ كانت قبل آية السيف، نُسِخ منها ما يخصُّ الكفرة وبقي أدبُها في المسلمين إلى يوم القيامة. وذَكر سيبويه النسخَ في هذه الآية في كتابه[٧]، وما تكلَّم

= والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣/ ١٦٥ . وفيهما: كلكم. بدل: كلهم. وخاتل. بدل: يطلب. وهو في مدح عمرو بن عبيد وبعده: غير عمرو بن عبيد.

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٧ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٨ .

(٣) في النسخ الخطية: تسليماً. والمثبت من (م) وهو الموافق للمصادر.

(٤) في الكتاب ١/ ٣٢٤ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨ .

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٤ .

(٧) ١/ ٣٢٥ .

فيه على نسخٍ سواه؛ ورجَّح به أنَّ المرادَ السلامةُ لا التسليم؛ لأنَّ المؤمنين لم يؤمروا قَطُّ بالسَّلام على الكفرة. والآيةُ مكيَّةٌ، فنسخَتها آيةُ السَّيف[١].

قال النَّحَّاس[٢]: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى النَّاسخ والمنسوخ إلَّا في هذه الآية.

قال سيبويه[٣]: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أنْ يُسَلِّموا على المشركين، لكنَّه على معنى قوله: تَسلُّماً[٤] منكم، ولا خير ولا شرَّ بيننا وبينكم.

المبرِّد: كان ينبغي أنْ يُقال: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ بحربهم ثُمَّ أمروا بحربهم.

محمد بن يزيد[٥]: أخطأ سيبويه في هذا وأساءَ العبارة.

ابن العربي[٦]: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أنْ يُسلِّموا على المشركين، ولا نُهوا عن ذلك، بل أُمِروا بالصَّفح والهجر الجميل، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقفُ على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم، ولا يداهنهم. وقد اتَّفق النَّاسُ على أنَّ السفيهَ من المؤمنين إذا جفاك يجوزُ أنْ تقول له: سلامٌ عليك.

قلت: هذا القول أشبهُ بدلائل السنَّة. وقد بيَّنَّا في سورة مريم[٧] اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار، فلا حاجةَ إلى دعوى النَّسخ؛ والله أعلم.

وقد ذكر النضرُ بن شُميل قال: حدثني الخليلُ قال: أتيتُ أبا ربيعةَ الأعرابيّ، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلَّمنا، فردَّ[٨] علينا السلام، وقال لنا: استووا. وبقينا متحيرين ولم ندرِ ما قال. فقال لنا أعرابيٌّ إلى جنبه: أَمَرَكم أنْ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨.

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠. وكلام سيبويه والمبرِّد الآتيان منه.

(٣) في الكتاب ١/ ٣٢٥.

(٤) في (د) و(ظ) تسليماً. والمثبت من (ز) و(م)، وهو الموافق للكتاب.

(٥) هو المبرِّد.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٨.

(٧) عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ [الآية: ٤٧].

(٨) في (د) و(ز): فلما سلمنا فرد، وفي (م): فلما سلمنا رد، والمثبت من (ظ) والتمهيد.

ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]. فصَعِدنا إليه فقال: هل لكم في خبزٍ فطير، ولبنٍ هجير، وماءٍ نَمير؟ فقلنا: الساعةَ فارقناه. فقال: سلاماً. فلم ندر ما قال. قال: فقال الأعرابيّ: إنَّه سالمكُم[١]؛ مُتاركةٌ[٢] لا خيرَ فيها ولا شرّ. فقال الخليل: هو من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾.

قال ابن عطية: ورأيتُ في بعض التواريخ أنَّ إبراهيم بن المهديّ[٣] ـ وكان من المائلين على عليّ بن أبي طالب ﷺ ـ قال يوماً بحضرة المأمون وعنده جماعة: كنتُ أرى عليّ بن أبي طالب في النوم، فكنتُ أقولُ له: من أنت؟ فكان يقول: عليُّ بن أبي طالب. فكنتُ أجيء معه إلى قنطرةٍ، فيذهبُ، فيتقدمني في عبورها، فكنتُ أقول: إنَّما تدَّعي هذا الأمر بامرأةٍ، ونحن أحقُّ به منك، فما رأيتُ له في الجواب بلاغةً كما يُذْكر عنه. قال المأمون: وبماذا جاوبك؟ قال: فكان يقولُ لي: سلاماً سلاماً[٤]. قال الراوي: وكأنَّ إبراهيمَ بن المهديّ لا يحفظ الآية. أو ذَهَبَتْ عنه في ذلك الوقت. فنبَّه المأمونُ على الآية من حَضَرَه وقال: هو والله يا عم عليُّ بن أبي طالب، وقد جاوبَك بأبلغ جواب، فَخَزِي[٥] إبراهيمُ واستحيا. وكانت رؤيا لا محالة صحيحة[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ قال الزجاج[٧]: بَاتَ الرجل

---

(١) في (د) و(م): سألكم. والمثبت من (ز)و (ظ) وهو الموافق للتمهيد ٧/ ١٣٢ والكلام منه.

(٢) في (د) و(ز): منازلة.

(٣) هو الأمير أبو إسحاق. الملقب بالمبارك. كان، فصيحاً، بليغاً، عالماً، أديباً، شاعراً، رأساً في فن الموسيقا. بويع بالخلافة زمن المأمون، ثم هُزم جمع إبراهيم، واختفى إبراهيم زماناً إلى أن ظفر به المأمون، فعفا عنه. توفي سنة أربع وعشرين ومئتين. ينظر سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٥٧ - ٥٦١.

(٤) لفظة: سلاماً (الثانية) من (ز) و(ظ) والمصادر.

(٥) في المحرر الوجيز: فحزن.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٩. وذكر هذه القصة الأصفهاني في الأغاني ١٠/ ١٢٦ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥ .

يَبِيتُ: إذا أدركَهُ اللَّيل، نَامَ أو لم ينم. قال امرؤ القيس[١]:

فبتنا قياماً عند رأس جوادِنا ... يزاولُنا عن نفسه ونزاولُه[٢]

وأنشدوا في صفة الأولياء:

امنع جفونَك أنْ تذوقَ مناماً ... واذْرِ الدموعَ على الخدود سِجاما[٣]

واعلم بأنَّك ميتٌ ومُحَاسَبٌ ... يا من على سَخَط الجليل أقاما

لله قومٌ أخلصوا في حبِّه ... فرضِي بهم واختصَّهُم خُدَّاما

قومٌ إذا جَنَّ الظلامُ عليهم ... باتوا هنالك سُجَّداً وقِياما

خُمْصَ البطونِ من التعفُّف ضُمَّراً[٤] ... لا يعرفونَ سوى الحلال طعاما[٥]

وقال ابنُ عباس: من صلَّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء، فقد باتَ لله ساجداً وقائماً[٦]. وقال الكلبيُّ: من أقام ركعتين بعد المغرب، وأربعاً بعد العشاء، فقد باتَ ساجداً وقائماً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وَجِلُون من عذاب الله. ابن عباس: يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم.

---

(١) كذا في النسخ، والبيت لزهير، وهو في ديوانه ص١٣٢ .

(٢) في ديوان زهير: فبتنا عراةً. قال شارحه ثعلب: عُراةٌ: مؤتزرون تجردوا للفرس من صعوبته. يزاولنا عن نفسه ونزاوله: يعالجنا ونعالجه، ويجذبنا ونجذبه.

(٣) سجمَ الدمع: سال. مختار الصحاح (سجم).

(٤) في (د) و(ز): من الحرام تعففاً.

(٥) لم نقف عليها.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٤٥ من طريق الكلبي عن ابن عباس .

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازماً دائماً غيرَ مفارق، ومنه سُمِّي الغريمُ؛ لملازمته. ويقال: فلانٌ مُغْرَمٌ بكذا، أي: لازمٌ له مُولعٌ به. وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابيّ وابنُ عرفة وغيرهما. وقال الأعشى[١]:

إنْ يُعاقِب يكنْ غراماً وإنْ يعـ ـطِ جزيلاً فإنَّه لا يبالي

وقال الحسن: قد علموا أنَّ كلَّ غريمٍ يُفارِق غريمَه إلَّا غريمَ جهنم[٢].

وقال الزَّجّاج[٣]: الغرامُ أشدُّ العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشرّ[٤]. وقال أبو عبيدة[٥]: الهلاك. والمعنى واحد. وقال محمد بن كعب: طالبَهم الله تعالى بثمن النَّعيم في الدُّنيا، فلما لم[٦] يأتوا به؛ غَرَّمهم[٧] ثمنها بإدخالهم النار.

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بئس المُستقرُّ وبئسَ المُقام، أي: إنَّهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علمٍ كانوا أعرفَ بِعِظَم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقربَ إلى النُّجح.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ اختلفَ المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النَّحّاس[٨]: ومن أحسن ما قيل في معناه أنَّ من أنفق في غير طاعةِ الله فهو

(١) في ديوانه ص٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٧/٤٩٦ .

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٧/٤٩٦ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٨٠ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): فلم يأتوا. والمثبت من (ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨، وقول محمد بن كعب فيه، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٦ .

(٧) في (م) فأغرمهم.

(٨) في إعراب القرآن له ٣/ ١٦٧ - ١٦٨ . والقول فيه بإسناده عن أبي عبد الرحمن الحبلي.

الإسراف، ومن أمسكَ عن طاعة الله عزَّ وجلَّ فهو الإقتار، ومن أنفقَ في طاعة الله تعالى فهو القَوام. وقال ابن عباس: من أنفق مئة ألفٍ في حقٍّ فليس بسَرَف، ومن أنفق درهماً في غير حقِّه فهو سَرَف، ومن منع من حقٍّ عليه فقد قتر[١]. وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما[٢]. وقال عون بن عبد الله: الإسرافُ أنْ تُنفقَ مالَ غيرك[٣].

قال ابن عطية[٤]: وهذا ونحوه غيُر مرتبطٍ بالآية، والوجهُ أنْ يُقال: إنَّ النفقة في معصيةٍ أمرٌ قد حَظرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدِّي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون مُنزَّهون عن ذلك، وإنَّما التأديبُ في هذه الآية هو في نفقة الطاعات، وفي[٥] المباحات، فأدَبُ الشرع فيها ألَّا يُفرِّط الإنسانُ حتى يُضيع حقًّا آخر، أو عيالاً ونحو هذا، وألَّا يضيِّق أيضاً ويُقتِّر حتى يُجيع العيال ويُفرِط في الشحّ، والحسن في ذلك هو القَوام، أي: العدل، والقَوام في كلٍّ واحدٍ بحسب عياله وحاله، وخِفَّة ظهره وصبره وجَلَده على الكسب، أو ضدِّ هذه الخصال، وخيرُ الأمور أوساطُها، ولهذا تَرك رسول الله ﷺ أبا بكرٍ أن يتصدَّق بجميع ماله[٦]، لأنَّ ذلك وسطٌ بنسبة جَلَده وصبره في الدِّين، ومنعَ غيره من ذلك. ونِعْم ما قال إبراهيمُ النَّخَعيّ: هو الذي لا يُجيع ولا يُعري، ولا يُنفقُ نفقةً يقول الناسُ: قد أسرف[٧]. وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسونَ الثيابَ لجمال، ولا يأكلون طعاماً للذَّة[٨].

وقال يزيد أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحابُ محمدٍ ﷺ؛ كانوا لا يأكلون طعاماً

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس ١٧/ ٤٩٧- ٤٩٨ بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ ، وأخرج قوليهما الطبري ١٧/ ٤٩٨ .

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ . وما قبله منه .

(٥) في النسخ: في، بدون واو، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٦) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥).

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ .

للتنعُّم واللَّذَّة، ولا يلبسون ثوباً[(١)] للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يَسُدُّ عنهم الجوعَ، ويُقوِّيهم على عبادة ربِّهم، ومن اللِّباس ما يَستُر عوراتِهم، ويُكِنُّهم من الحرِّ والبرد[(٢)].

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوَّجه ابنتَه فاطمة: ما نفقتُك؟ فقال له عمر: الحسنةُ بين سيئتين، ثم تلا الآية. وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سَرَفاً ألَّا يشتهيَ شيئاً إلَّا اشتراه فأكله[(٣)].

وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من السَّرَف أنْ تأكل كُلَّ ما اشتهيت»[(٤)].

وقال أبو عبيدة: لَم يزيدوا على المعروف ولم يَبخلوا. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال الشاعر:

ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقْتَصِد ... كِلَا طَرَفَيْ قصدِ الأمورِ ذميمُ[(٥)]

وقال آخر:

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ... ولم يَنْهها تاقت إلى كلِّ باطلِ

وساقتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي ... دعتْهُ إليه من حلاوةِ عاجلِ[(٦)]

وقال عمرُ لابنه عاصم: يا بنيّ، كُلْ في نصف بطنك؛ ولا تطرحْ ثوباً حتى

---

(١) في (م): ثياباً.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٠٠. دون قوله: أولئك أصحاب محمد ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٢٥ (١٥٣٧٧) مختصراً.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧١.

(٤) سنن ابن ماجه (٣٣٥٢). وينظر تنزيه الشريعة المرفوعة ٢/ ٢٥٦، وفيض القدير ٢/ ٥٢٧. وسلف ٩/ ٢٠٢.

(٥) البيت لأبي سليمان الخطابي كما نسبه له الثعالبي في يتيمة الدهر ٤/ ٣٨٥، وينظر خزانة الأدب ٢/ ١٢٣ وسلف ٧/ ٢٢٩.

(٦) البيتان لحسين بن محمد الملقب بالبارع البغدادي، كما في معجم الأدباء ١٠/ ١٥٣.

تستَخْلِقَه، ولا تكنْ من قومٍ يجعلون ما رزقَهُم الله في بطونهم وعلى ظهورهم. ولحاتم طيّ[(١)]:

إذا أنتَ قد أعطيتَ بطنكَ سؤلَه وفرجَك نالا منتهى الذَّمِّ أجمعَا

﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثَّاب ـ على اختلاف عنهما ـ «يَقْتُرُوا» بفتح الياء وضمِّ التاء، وهي قراءةٌ حسنة؛ من قَتَر يَقْتُر. وهذا القياس في اللَّازم، مثل: قَعَد يَقْعُد. وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابنُ كثير بفتح الياء وكسر التاء؛ وهي لغةٌ معروفةٌ حسنة. وقرأ أهلُ المدينة وابنُ عامر وأبو بكر عن عاصم بضمِّ الياء وكسر التاء[(٢)]. قال الثعلبي: كلُّها لغات صحيحة.

النَّحَّاس[(٣)]: و تَعجَّب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه؛ لأنَّ أهلَ المدينة عندَه لا يقعُ في قراءتهم الشاذّ، وإنَّما يقال: أَقْتَر يُقْتِر: إذا افتقر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦]، وتأوَّل أبو حاتم لهم أنَّ المسرفَ يفتقرُ سريعاً. وهذا تأويلٌ بعيد، ولكنَّ التأويلَ لهم أنَّ أبا عُمَر الجَرْميّ حَكى عن الأصمعيّ أنه يُقال للإنسان إذا ضيَّق: قَتَر يَقْتُر ويَقْتِر [وقتَّرَ يُقَتِّرُ]، وأَقْتَر يُقْتِر[(٤)]. فعلى هذا تصحُّ القراءة. وإنْ كان فتحُ الياء أصحَّ وأقربَ متناولاً، وأشهرَ وأعرف.

وقرأ أبو عمرو والناس: «قَوَاماً» بفتح القاف؛ يعني: عدلاً. وقرأ حسَّان بن عبد الرحمن: «قِوَاماً» بكسر القاف، أي: مبلغاً وسِدَاداً ومِلاك حال[(٥)]. والقِوام

(١) في ديوانه ص٦٨، وسلف ٩/ ١٩٨ .

(٢) السبعة ص٤٦٦ ، والتيسير ص١٦٤ ، ورواية أبي بكر (وهو شعبة) عن عاصم بضم الياء وكسر التاء؛ ذكرها ابن مجاهد في السبعة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٧ .

(٤) وقعت العبارة في النسخ الخطية: قتر يقتر، وقتر يقتر، وفي (م): قتر يقتر ويقتر، وأقتر يُقتر. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ ، و«قَواما» بفتح القاف هي قراءة العشرة، وقراءة حسان بن عبد الرحمن في القراءات الشاذة ص١٠٥ ، والمحتسب٢/ ١٢٥ . وحسان بن عبد الرحمن قال عنه ابن جني في المحتسب: صاحب عائشة. ولم نقف له على ترجمة.

بالكسر[١]: ما يدومُ عليه الأمر ويستقرّ. وقيل: هما لغتان بمعنًى.

و«قَوَاماً» خبُر كان، واسمها مقدَّرٌ فيها، أي: كان الإنفاقُ بين الإسراف والقَتْر قَواماً[٢]؛ قاله الفراء[٣]. وله قولٌ آخر يجعل «بَيْنَ» اسم كان وينصبها؛ لأن هذه الألفاظ كَثُر[٤] استعمالُها، فتُرِكت على حالها في موضع الرفع. قال النَّحَّاس[٥]: ما أدري ما وجهُ هذا؛ لأنَّ «بيناً» إذا كانت في موضع رفعٍ رُفعت؛ كما يقال: بَيْنُ عينيه أحمرُ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾. إخراجٌ لعباده المؤمنين من صفات الكَفَرة في عبادتهم الأوثان، وقَتْلِهم النَّفْسَ بوأْد البنات، وغير ذلك من الظُّلم والاغتيال والغارات، ومن الزنى الذي كان عندهم مباحاً[٦].

وقال مَن صَرفَ هذه الآيةَ عن ظاهرها من أهل المعاني: لا يليقُ بمن أضافهمُ الرحمن إليه إضافةَ الاختصاص، وذكرهم ووصفهم[٧] من صفات المعرفة والتشريف وقوعُ هذه الأمور القبيحة منهم حتى يُمدَحوا بنفيها عنهم؛ لأنَّهم أعلى وأشرف، فقال: معناها لا يدعونَ الهوى إلهاً، ولا يُذلُّون أنفسهم بالمعاصي فيكون قتلاً لها.

---

(١) في (د) و(م): والقوام بكسر القاف. والمثبت موافق لمعاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٠ والكلام منه.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٥.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٤) في (د) و(ز): كثيراً، وفي (م): كثير. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لمشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٥ و الكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن له ٣/ ١٦٨.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠.

(٧) في (ظ): وذكر وصفهم، وفي المفهم: ووصفهم بما ذكرهم.

ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلاَّ بسِكِّين الصبر، وسيف المجاهدة، فلا يَنظرون إلى دنيا[1] ليست لهم بمحرَمٍ بشهوةٍ فيكون سفاحاً؛ بل بالضرورة، فيكون كالنكاح.

قال شيخنا أبو العباس[2]: وهذا كلامٌ رائق، غير أنَّه عند السَّبر مائق[3]، وهي نبعةٌ باطنيَّة، ونزعةٌ باطليَّة، وإنَّما يَصحُّ[4] تشريفُ عباد الرحمن باختصاصِ الإضافة بعد أن تحلَّوا بتلك الصفات الحميدة، وتخلَّوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة، فبدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحلِّي تشريفاً لهم، ثم أعقَبها بصفات التخلِّي تقعيداً لها، والله أعلم.

قلت: ومما يدلُّ على بطلان ما ادعاه هذا القائل من أنَّ تلك الأمور ليست على ظاهرها ما رَوى مسلمٌ من حديث عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر عند الله ؟ قال: «أنْ تَدْعوَ لله ندًّا وهو خلقك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أنْ تَقتلُ ولدَك مخافةَ أنْ يطعم معك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أنْ تُزَانيَ حليلةَ جارك». فأنزلَ الله تعالى تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[5].

والأثامُ في كلام العرب العِقاب، وبه فسَّر[6] ابنُ زيدٍ وقتادةُ هذه الآية.

ومنه قول الشاعر:

جَزى اللهُ ابنَ عُروة حيث أمسى عُقوقاً والعُقوقُ له أثامُ[7]

(١) في (د) و(ز) و(م) ومطبوع المفهم: نساء، والمثبت من (ظ) وكذلك جاءت العبارة في نسخ المفهم كما ذكر محققوه، وينظر لطائف الإشارات ٢/ ٦٥٠ - ٦٥١.

(٢) في المفهم ٧/ ٣٨٣.

(٣) المائق: الهالك حمقاً وغباوة. اللسان (موق).

(٤) في (ظ) و(م): صح.

(٥) أخرجه مسلم برقم (٨٦): (١٤١) دون ذكر الآية، وبرقم (٨٦): (١٤٢): مع ذكر الآية وفيه روى ابن مسعود أن السائل رجل. وأخرجه أحمد (٤١٣٤) والبخاري (٦٠٠١) بالسياق الذي ذكره المصنف.

(٦) في (د) و(ز) و(م): قرأ، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ والكلام منه.

(٧) البيت لبَلْعَاء بن قيس الكناني كما في مجاز القرآن ٢/ ٨١، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٠٥. وهو في =

أي: جزاءٌ وعقوبة. وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد: إنَّ «أثاما» وادٍ في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة[1]. قال الشاعر:

لـقـيـتَ الـمـهـالِـك فـي حـربـنَـا وبـعـدَ الـمـهـالـك تَـلْـقـى أثـامـا[2]

وقال السُّدِّي: جبلٌ فيها[3]. قال:

وإنَّ مُـقـامَـنـا نـدعـو عـلـيـكـم بـأبـطَـحَ ذي الـمـجَـاز لـه أثـامُ[4]

وفي صحيح مسلم[5] أيضاً عن ابن عباس: أنّ ناساً من أهل الشرك قَتلُوا فأكثروا، وزَنَوا فأكثروا؛ فأتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لحسن، ولو تُخبرنا أنَّ[6] لِمَا عملْنا كفارة، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. ونـــزل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الزمر: ٥٣].

وقد قيل: إنَّ هذه الآية: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ نزلَتْ في وحشِيّ قاتل حمزة؛ قاله سعيدُ بن جبير وابنُ عباس، وسيأتي في «الزُّمر» بيانه[7].

= لسان العرب (أثم) منسوبٌ لشافع الليثي.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠، وقول عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد أخرجه الطبري ١٧/ ٥١٣ - ٥١٤.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٥٨.

(٣) كذا في النسخ، وقول السدي كما ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٥٨ والكلام منه: الجزاء وهو المتوافق مع الشاهد الآتي.

(٤) لفظ الشطر الأول في (م): وكان مقامنا ندعوا عليهم. وهو كذلك في اللسان (أثم) وفي (د) و(ز) و(ظ): وإن مقاماً يدعوا عليكم. والمثبت من ديوان بشر بن أبي خازم ص٢١١، والأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى. اللسان (بطح). وذو المجاز: موضع سوق بعرفة، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان ٥/ ٥٥.

(٥) برقم (١٢٢): (١٩٣)، وأخرجه البخاري (٤٨١٠).

(٦) في (د) و(ز) و(م): وهو يخبرنا بأن. والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر.

(٧) عند تفسير الآية (٥٣) منها. وخبر ابن عباس سيأتي ثمّة مطولاً. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٩.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما يحقُّ أنْ تُقْتَلَ به النفوس؛ من كفرٍ بعد إيمان، أو زِنًى بعد إحصان؛ على ما تقدَّم بيانُه في «الأنعام»[1].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ فيستحلُّون الفروجَ بغير نكاح ولا مِلك يمين. ودلَّت هذه الآية على أنَّه ليسَ بعد الكفر أعظمَ من قتل النفس بغير الحق، ثم الزِّنى؛ ولهذا ثبتَ في حد الزِّنا القتل لمن كان محصَناً، أو أقْصى الجلدِ لمن كان غيرَ مُحْصَن.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي: «يُضَاعَفْ. وَيَخْلُدْ» جزماً، وقرأ ابنُ كثير: «يُضَعَّفْ» بشدِّ العين وطرح الألف؛ وبالجزم في «يُضَعَّفْ. وَيَخْلُدْ»[2]. وقرأ طلحةُ بن سليمان: «نُضَعِّفْ» بضمِّ النون وكسرِ العين المشدَّدة، «الْعَذَابَ» نصب، «وَيَخْلُدْ» جزم، وهي قراءةُ أبي جعفر وشيبة. وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر: «يُضَاعَفُ. وَيَخْلُدُ» بالرفع فيهما على العطف والاستئناف. وقرأ طلحةُ بن سليمان: «وَتَخْلُدْ» بالتَّاء على معنى مخاطبة الكافر[3]. ورويَ عن أبي عمرو: «وَيُخْلَدْ» بضمِّ الياء من تحت وفتح اللام[4]. قال أبو علي[5]: وهي غلطٌ من جهة الرواية.

و«يُضَاعَفْ» بالجزم بدلٌ من «يَلْقَ» الذي هو جزاءُ الشرط. قال سيبويه: مضاعفةُ العذاب لُقيُّ الأثام[6]. قال الشاعر:

---

(١) ٩/ ١٠٩ .

(٢) السبعة ص٤٦٧ ، والتيسير ص١٦٤ ، وفيهما قراءة ابن عامر: يُضَعَّفُ، ويَخْلُدُ، ووافق حمزةَ ونافعاً والكسائيَّ من السبعة في قراءتهم لهذين الحرفين: عاصم في رواية حفص، وأبو عمرو. وأما ما ذكره المصنف من قراءة ابن عامر، فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ (والكلام منه): وكذلك ذكر عنه أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٣١٤ أنه جَزَمَ هذين الحرفين، غير أنه قال: يُضَعَّفْ، بحذف الألف وتشديد العين، كقراءة ابن كثير.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ - ٢٢١ . وقد قرأ أبو جعفر: يُضَعَّفْ ويَخْلُدْ، كقراءة ابن كثير، وقراءة طلحة ابن سليمان: تخلُد؛ بالتاء، في المحتسب ٢/ ١٢٥ ، وينظر النشر ٢/ ٢٢٨ و ٣٣٤ .

(٤) ذكر هذه الرواية ابن مجاهد في السبعة ص٤٦٧ وقال: وهي غلط.

(٥) في الحجة في القراءات السبع ٥/ ٣٥٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ - ٢٢١ .

مَتَى تأتنا تُلْمِمْ بنا في ديارنا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تأجَّجا[١]

وقال آخر:

إنّ عليَّ اللّه أنْ تُبايِعَا تُؤخَذَ كَرْهاً أو تَجِيءَ طائعَا[٢]

وأمّا الرفعُ ففيه قولان: أحدُهما: أنْ يقطَعه[٣] مما قبلَه. والآخرُ: أن يكونَ محمولاً على المعنى؛ كأنَّ قائلاً قال: ما لُقيُّ الأثام؟ فقيل له: يُضاعفْ له العذاب[٤]. و﴿مُهَانًا﴾ معناه: ذليلاً خاسئاً مُبعَداً مطروداً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لا خلافَ بين العلماء أنَّ الاستثناء عاملٌ في الكافر والزاني. واختلفوا في القاتل من المسلمين[٥] على ما تقدَّم بيانه في «النساء»[٦].

ومضى في «المائدة»[٧] القولُ في جواز التَّراخي في الاستثناء في اليمين، وهو مذهبُ ابن عباس مستدلًّا بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قال النحاس[٨]: من أحسن

---

(١) البيت في الكتاب ١/ ٨٦، ونسبه البغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٩٠ لعبيد الله بن الحر. وقال في الخزانة ٩/ ٩٦ - ٩٧ : فإنَّ تُلمِمْ فيه بدلٌ من تأتنا... والحطب الجزل، بفتح الجيم: الغليظ منه، يريد أنهم يوقدون الجزل من الحطب لتقوى نارهم فينظر إليها الضيوف عن بعد ويقصدونها.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ١٥٦، وخزانة الأدب ٥/ ٢٠٣ . يحلف الشاعر على مخاطَبِه بالله، أنه لابد أن يبايع. وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها. الخزانة ٥/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٣) في (م) تقطعه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢١ .

(٦) ٧/ ٣٩ وما بعدها.

(٧) ٨/ ١٣٥ وما بعدها.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٩ .

ما قيل فيه: إنَّه يكتب موضع كافرٍ: مؤمن، وموضع عاصٍ: مطيع.

وقال مجاهد والضحاك[١]: أن يبدلهم الله من الشرك الإيمانَ؛ ورُوي نحوه عن الحسن. قال الحسن: قومٌ يقولون: التبديل في الآخرة، وليس كذلك، إنَّما التبديلُ في الدُّنيا؛ يُبدلهم الله إيماناً من الشرك، وإخلاصاً من الشكّ، وإحصاناً من الفجور[٢]. وقال الزجاج[٣]: ليس يجعل[٤] مكان السيئة الحسنة، ولكن يَجعل مكانَ السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة.

وروى أبو ذرّ عن النبيّ ﷺ: أنَّ السيئاتِ تبدَّل بحسنات[٥]. ورُوي معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما[٦].

قال أبو هريرة: ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناتُه على سيئاته، فيبدلُ الله السيئات حسنات[٧]. وفي الخبر: «لَيتمنَّينَّ أقوامٌ أنَّهم أكثروا من السيئات» فقيل: ومن هم؟ قال: «الذين يُبدِّل الله سيئاتِهم حسنات». رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ[٨]؛ ذكره الثعلبي والقُشيري. وقيل: التبديلُ عبارةٌ عن الغفران، أي: يغفرُ الله لهم تلك السيئات لا أنْ يبدِّلها حسنات.

قلتُ: فلا يَبْعُد في كرم الله تعالى إذا صحَّتْ توبة العبد أنْ يضعَ مكان كلِّ سيئةٍ حسنة؛ وقد قال ﷺ لمعاذ: «أتْبِعِ السيِّئة الحسنةَ تمحُها، وخالِقِ النَّاس بِخُلقٍ

---

(١) قول مجاهد أخرجه الفريابي وعبد بن حميد كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٧٩ ، وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٧/ ٥١٧ - ٥١٨ مطولاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٤ (١٥٤٣٣).

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٧٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٣ .

(٤) في (م): بجعل. في الموضعين.

(٥) حديث أبي ذر سيرد مطولاً.

(٦) أخرجه عنهما ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٣ - ٢٧٣٤ (١٥٤٣٣) و (١٥٤٣٩).

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٥٨ .

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٣ (١٥٤٢٩) عن أبي هريرة موقوفاً.

حسن»[١]. وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأعلم آخِرَ أهل الجنَّة دخولاً الجنَّة، وآخرَ أهل النَّار خروجاً منها؛ رجلٌ يؤتى به يومَ القيامة، فيقال: اعرِضُوا عليه صِغَار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارَها. فتُعرضُ عليه صغارُ ذنوبه. فيقالُ: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعم. لا يستطيعُ أنْ يُنْكِر، وهو مشفِقٌ من كبار ذنوبه أنْ تُعْرض عليه. فيقال له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سيِّئَةٍ حسنةً. فيقول: يا رب، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا». فلقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضَحكَ حتى بَدَتْ نَواجذُه.

وقال أبو طَويل[٣]: يا رسول الله، أرأيتَ رجلاً عملَ الذُّنوب كلَّها ولم يَتْرك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يَتْرك حاجَّةً ولا داجَّةً إلا اقتطَعها، فهل له من توبةٍ؟ قال: «هل أسلمتَ» قال: أنا أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّك عبدُ الله ورسولُه. قال «نعم. تفعلُ الخيراتِ، وتتركُ السيئات، يجعلُهنَّ الله كلَّهُنَّ خيرات». قال: وغَدَراتي وفَجَراتي يا نبيّ الله؟ قال: «نعم». قال: الله أكبر! فما زالَ يُكَرِّرُها حتى توارى[٤]. ذكره الثعلبي. قال مُبَشِّر بن عُبيد[٥] ـ وكان عالماً بالنحو والعربية[٦] ـ: الحاجَّةَ: الذي يَقطعُ[٧] على الحاجِّ إذا توجهوا. والداجَّة: الذي يَقطعُ عليهم إذا قَفَلوا. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨)، وسلف ١٢/ ٥٩.

(٢) برقم (١٩٠): (٣١٤)، وهو عند أحمد (٢١٣٩٣)، (٢١٤٩٢).

(٣) هو شطب الممدود الكندي، نزل الشام وسكن بها. الإصابة ٥/٧٨ - ٧٩، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٥/ ٨٤ - ٨٦.

(٤) أخرجه البزار (٣٢٤٤) ـ كشف الأستار، والطبراني في الكبير (٧٢٣٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣١: رواه الطبراني والبزار بنحوه. ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة. وقال ابن حجر في الإصابة ٥/٧٩: هو على شرط الصحيح. وأخرجه ابن حجر أيضاً في الأمالي المطلقة ص١٤٤-١٤٥ ثم قال بعده: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) هو القرشي، أبو حفص الحمصي، كوفي الأصل. قال أحمد: كان يضع الحديث، وقال البخاري: روى عنه بقية، منكر الحديث. تهذيب الكمال ٢٧/ ١٩٤، وميزان الاعتدال ٣/ ٤٣٣.

(٦) ميزان الاعتدال ٣/ ٤٣٣.

(٧) في (د) و(م): التي تقطع، (في الموضعين)، وينظر الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٥/ ٨٦، والأمالي المطلقة ص١٤٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لا يقال: من قام فإنَّه يقوم؛ فكيف قال: من تابَ فإنَّه يَتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكَّة وهاجر، ولم يكن قَتل وزَنى، بل عَملَ صالحاً، وأدّى الفرائض؛ فإنَّه يتوبُ إلى الله متاباً، أي: فإنِّي قَدَّمتُهم وفضَّلْتُهم على من قَاتل النبيَّ ﷺ، واستحلَّ المحارم[١].

وقال القَفّال: يَحتملُ أنْ تكون الآيةُ الأولى فيمن تَابَ من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، ثمَّ عَطف عليه من تاب من المسلمين، وأَتْبَع توبتَه عملاً صالحاً، فله حُكم التائبين أيضاً.

وقيل: أي: من تابَ بلسانه ولم يحقِّق ذلك بفعله، فليست تلك التوبةُ نافعة، بل من تَابَ وعمل صالحاً، فحقَّق توبَته بالأعمال الصالحة؛ فهو الذي تابَ إلى الله مَتاباً، أي: تاب حقَّ التوبة، وهي النَّصوح، ولذلك أكَّد بالمصدر. فـ «متاباً» مصدرٌ معناه التأكيد[٢]، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] أي: فإنَّه يتوبُ إلى الله حقًّا فيقبل الله توبَتَه حقًّا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الكذبَ والباطل ولا يشاهدونه. والزُّور: كلُّ باطلٍ زُوِّر وزُخرِف، وأَعْظَمُه الشركُ وتعظيم الأنداد، وبه فسر الضَّحَّاكُ وابنُ زيدٍ وابن عباس[٤]. وفي روايةٍ عن ابن عباس أنَّه أعيادُ المشركين. عِكرمة: لعبٌ كان في الجاهلية يسمَّى بالزُّور[٥]. مجاهد: الغناء؛

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٩ .

(٣) لفظة: حقاً. ليست في (د) و (ز).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ . وأخرج قولي الضحاك وابن زيد الطبريُّ ١٧/ ٥٢٢ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٨ (١٥٤٥٨).

وقاله محمدُ ابن الحنفيَّة أيضاً. ابن جُريج: الكذب[١]؛ ورُويَ عن مجاهد[٢]. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ ومحمد بن عليّ: المعنى: لا يشهدون بالزُّور، من الشهادة لا من المشاهدة[٣].

قال ابن العربي[٤]: أمَّا القولُ بأنَّه الكذبُ فصحيح؛ لأنَّ كلَّ ذلك إلى الكذب يرجع، وأمَّا من قال: إنَّه لعِبٌ كان في الجاهلية؛ فإنَّه يَحرُم ذلك إذا كان فيه قمارٌ أو جهالة، أو أمرٌ يعود إلى الكفر، وأمَّا القول بأنَّه الغناء فليس ينتهي إلى هذا الحدّ.

قلت: من الغناء ما ينتهي سماعُه إلى التحريم، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمرُ وغير ذلك مما يُحرِّك الطِّباع ويُخرِجها عن الاعتدال، أو يثير كامناً من حبِّ اللهو؛ مثل قول بعضهم:

ذهبيُّ اللَّون تَحسِب من ... وجنتيه النَّار تُقتدَحُ
خوّفوني من فضيحته ... ليتَه وافى وأفتضحُ

لاسيَّما إذا اقترنَ بذلك شبَّابَاتٌ وطاراتٌ مثل ما يُفْعَل اليومَ في هذه الأزمان، على ما بيَّنَّاه في غير هذا الموضع.

وأما من قال: إنه شهادة الزور؛ وهي:

الثانية: فكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يَجلدُ شاهدَ الزُّور أربعين جلدة، ويُسَخِّم وجهَه، ويَحلِقُ رأسَه، ويَطوفُ به في السوق[٥]. وقال أكثرُ أهل العلم: ولا تُقْبل له

---

(١) قولا مجاهد وابن جريج أخرجهما الطبري ١٧/ ٥٢٢ ، وقول محمد ابن الحنفية أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧ (١٥٤٥٠).

(٢) لم نقف عليه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٠ .

(٥) أخرج خبر ضرب عمر شاهدَ الزور البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٤١ - ١٤٢ وليس فيه أنه حلق شعره. وأخرج عبد الرزاق في مصنفه (١٥٣٩٢)، وابن أبي شيبة (٨٦٩٢)، والبيهقي ١٠/ ١٤٢ أن عمر ابن الخطاب كتب إلى عماله في كور الشام في شاهد الزور أن يجلد أربعين ويحلق رأسه، ويسخم وجهه ويطاف به ويطال حبسه. اهـ . هذا لفظ البيهقي. وقال في هذه الرواية والتي قبلها. هاتان الروايتان ضعيفتان ومنقطعتان.

شهادةٌ أبداً، وإنْ تاب وحَسُنت حالُه فأمره إلى الله. وقد قيل: إنَّه إذا كان غير مبرَّز فحسُنت حالُه قُبِلت شهادتُه حسبما تقدَّم بيانه في سورة الحج، فتأمَّله هناك(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قد تقدَّم الكلام في اللَّغو(٢)، وهو كلُّ سَقَطٍ من قولٍ أو فعل؛ فيدخلُ فيه الغناءُ واللهو وغير ذلك ممَّا قَاربه، ويَدخلُ فيه: سَفَهُ المشركين وأذاهم للمؤمنين، وذكر النساء، وغير ذلك من المنكر(٣). وقال مجاهد: إذا أُوذوا صَفَحوا. ورُوي عنه: إذا ذُكِر النِّكاحُ كَنَوا عنه. وقال الحسن: اللَّغو المعاصي كلُّها(٤). وهذا جامع. و«كِراماً» معناه مُعرِضين مُنكرين لا يرضَونه، ولا يُمالِئون عليه، ولا يُجَالسون أهلَه. أي: مروا مرَّ الكرامِ الذين لا يدخلون في الباطل. يقال: تكرَّم فلان عما يشينه، أي: تنزّه وأكرم نفسه عنه(٥). وروي أن عبد الله بن مسعود(٦) سمع غناءً فأسرع وذهب، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «لقد أصبح ابن أمّ عبدٍ كريماً»(٧). وقيل: من المرور باللغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إذا قرئ عليهم

---

(١) ١٢/ ٥٥.

(٢) ٤/ ١٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٤) أخرج الأقوال المذكورة الطبري ١٧/ ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٨.

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): عمر، بدل: مسعود.

(٧) في (د) و(ظ): ابن آدم عبداً كريماً، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢، وروى الغزالي هذا الخبر في الإحياء ٣/ ١٧٧ بنحوه، ونسبه العراقي في تخريجه لابن المبارك في البر والصلة.

القرآنُ ذكروا آخرتَهم ومعادهم، ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة مَن لا يسمع[(١)].

وقال: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ﴾ وليس ثَمَّ خُرور؛ كما يقال: قعد يبكي، وإن كان غيرَ قاعد؛ قاله الطبريُّ واختاره[(٢)]؛ قال ابن عطية[(٣)]: وهو أن يخِرُّوا صُمًّا وعُمياناً هي صفة الكفار، وهي عبارةٌ عن إعراضهم؛ وقرن ذلك بقولك: قعد فلانٌ يشتِمني، وقام فلان يبكي، وأنت لم تقصد الإخبارَ بقعود ولا قيام، وإنما هي توطئاتٌ في الكلام والعبارة.

قال ابن عطية[(٤)]: فكأنَّ المستمع للذِّكر قائمُ القناة قويمُ الأمر، فإذا أعرض وضلَّ كان ذلك خُروراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب؛ وإن كان قد شُبِّه به الذي يَخرُّ ساجداً، لكن أصله على غير ترتيب. وقيل: أي: إذا تُليت عليهم آياتُ الله، وَجِلت قلوبهم فخرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا، ولم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً[(٥)].

وقال الفرَّاء[(٦)]: أي: لم يقعدوا على حالهم الأولِ كأنْ لم يسمعوا.

الثانية: قال بعضهم: إنَّ مَن سمع رجلاً يقرأ سجدة، يسجد معه؛ لأنه قد سمع آياتِ الله تتلى عليه. قال ابن العربيّ[(٧)]: وهذا لا يلزم إلَّا القارئَ وحده، وأما غيرُه فلا يلزمه ذلك إلا في مسألة واحدة[(٨)]؛ وهو أنَّ الرجل إذا تلا القرآنَ وقرأ السجدة، فإن كان الذي جلس معه جلس لِيَسمَعه، فليسجد معه، وإن لم يلتزم السماعَ معه فلا سجود عليه. وقد مضى هذا في «الأعراف»[(٩)].

---

(١) تفسير غريب القرآن ص٣١٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٢) في تفسيره ١٧/ ٥٢٨ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٤) الموضع السابق.

(٥) في المحرر الوجيز بنحوه.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٤ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢١ . وما قبله منه.

(٨) في أحكام القرآن زيادة: ذكرها مالك.

(٩) ٩/ ٤٤٠ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال الضَّحَّاك: أي: مطيعين لك[١]. وفيه جوازُ الدعاء بالولد، وقد تقدَّم[٢].

والذُّرِّيَّة تكون واحداً وجمعاً. فكونُها للواحد قولُه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران:٣٨] ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥]. وكونُها للجمع: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾[٣] [النساء:٩]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُها مستوفًى[٤].

وقرأ نافعٌ وابن كثير وابن عامر والحسن: «وَذُرِّيَّاتِنَا». وقرأ أبو عمرٍو وحمزة والكسائيُّ وطلحة وعيسى: «وذريتِنا» بالإفراد[٥].

«قُرَّةَ أَعْيُنٍ» نصب على المفعول، أي: قرَّة أعينٍ لنا. وهذا نحوُ قولِه عليه الصلاة والسلام لأنس: «اللهم أكثِر مالَه وولَدَه، وبارك له فيه» وقد تقدَّم بيانُه في «آل عمران» و«مريم»[٦]. وذلك أنَّ الإنسان إذا بورك له في ماله وولده، قرَّت عينُه بأهله وعياله، حتى إذا كانت عنده زوجةٌ اجتمعت له فيها أمانيه، من جمال وعِفَّةٍ ونظر وحَوطة، أو كانت عنده ذرِّيةٌ محافظون على الطاعة، معاونون له على وظائف الدِّين والدنيا، لم

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٥ . وقد أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٠ عن ابن عباس وغيره.

(٢) ٥/ ١١٠ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/٣٤٨ .

(٤) ٢/٣٦٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ . وقرأ عاصم في رواية حفص بالجمع، وفي رواية أبي بكر بالإفراد. السبعة ص٤٦٧ ، والتيسير ص١٦٤ .

(٦) ٥/ ١١٠ - ١١١ ، ١٣/ ٤١٣ . وتقدم الحديث في الموضع الأول.

يلتفت إلى زوجِ أحدٍ ولا إلى ولده، فتسكن عينُه عن الملاحظة، ولا تمتدُّ عينه إلى ما ترى؛ فذلك حِينُ قرَّةِ العين، وسكونِ النفس[١].

ووحَّد «قُرّة» لأنه مصدر؛ تقول: قرَّت عينُك قُرّة[٢]. وقُرّة العين يحتمل أن تكونَ من القَرار، ويحتمل أن تكون من القُرّ، وهو الأشهر[٣]. والقُرُّ: البرد؛ لأن العرب تتأذّى بالحرّ وتستريح إلى البرد[٤]. وأيضاً فإنَّ دمع السرور بارد، ودمعَ الحزن سُخْن، فمن هذا يقال: أقرَّ اللهُ عينك، وأسخن اللهُ عينَ العدو[٥]. وقال الشاعر[٦]:

فكم سَخُنَتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ وقَرَّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: قدوةً يُقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلّا أن يكونَ الداعي متَّقياً قدوة؛ وهذا هو قصدُ الداعي[٧].

وفي الموطأ: «إنكم أيها الرَّهط أئمَّةٌ يُقْتَدَى بكم»[٨]. وكان ابنُ عمر يقول في دعائه: اللهم اجعلنا من أئمة المتقين[٩].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢١ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٦) هو ابن عبد ربه، والبيت في ديوانه ص٢٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٨) الحديث بتمامه: أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى على طلحة بن عبيد الله ثوباً مصبوغاً وهو مُحْرِم. فقال عمر: ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة؟ فقال طلحة: يا أمير المؤمنين، إنما هو مَدَر. فقال عمر: إنكم أيها الرهط أئمة يقتدي بكم الناس، فلو أن رجلاً جاهلاً رأى هذا الثوب لقال: إن طلحة بن عبيد الله كان يلبس الثياب المصبغة في الإحرام. فلا تلبسوا أيها الرهط شيئاً من هذه الثياب المصبغة. الموطأ ١/ ٣٢٦ . قال ابن حجر في المطالب العالية ٦/ ٣٧٣ (دار العاصمة): هذا إسناد صحيح موقوف، وهو أصل في سد الذرائع.

(٩) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٢ . وأثر ابن عمر رضي الله عنهما في الموطأ ١/ ٢١٩ بلاغاً، ووصله ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٣٨-٤٣٩ ، والبيهقي ٥/ ٩٤ مطولاً.

وقال: «إمَاماً» ولم يقل: أئمة على الجمع؛ لأن الإمام مصدر. يقال: أمَّ فلانٌ فلاناً[1] إماماً؛ مثل الصيام والقيام. وقال بعضهم: أراد: أئمة، كما يقول القائل: أميرنا هؤلاء، يعني أمراءنا. وقال الشاعر:

يا عاذلاتي لا تُرِدْنَ[2] مَلامَتي إنَّ العواذل لَسْنَ لي بأميرِ[3]

أي: أمراء[4].

وكان القشيريُّ أبو القاسم شيخُ الصوفية يقول: الإمامة بالدعاء لا بالدَّعوى، يعني: بتوفيق الله وتيسيره ومِنَّته، لا بما يدَّعيه كلُّ أحدٍ لنفسه[5]. وقال إبراهيم النَّخَعيّ: لم يطلبوا الرِّياسة، بل بأن يكونوا قدوةً في الدِّين[6]. وقال ابن عباس[7]: اجعلنا أئمةَ هدى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال مكحول: اجعلنا أئمةً في التقوى؛ يقتدي بنا المتقون[8]. وقيل: هذا من المقلوب؛ مجازُه: واجعل المتقين لنا إماماً؛ وقاله مجاهد[9]. والقول الأوّل أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليلٌ على أنَّ طلب الرياسة في الدين ندب[10].

---

(١) في (د) و(ز): أم القوم فلاناً، وفي (م): أم القوم فلان، والمثبت من (ظ) و(ف). وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٣٣.

(٢) في (ظ) و(ف) و(م): تزدن.

(٣) الكلام بنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٣ . والبيت في الخصائص ٣/ ١٧٤ ، ومغني اللبيب ص٢٧٩ ، قال البغدادي في شرح شواهده ٤/ ٢٨٤ : البيت مشهور بتداول العلماء إياه في مصنفاتهم، ولم أقف على قائله، والله أعلم . وقد سلف البيت ١٤/ ٣٢٢ بنحوه .

(٤) الصحاح (ظهر).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٢ . وكلام الإمام القشيري في لطائف الإشارات ٢/ ٦٥٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٢ .

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٣ (١٥٤٨٩).

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٢ - ٥٣٣ بنحوه.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ١٦١ .

وإمامٌ واحد يدلُّ على جمع؛ لأنه مصدرٌ كالقيام. قال الأخفش(١): الإمام جمع آمّ؛ من: أمَّ يؤمُّ، جمع على فِعال، نحو: صاحب وصِحاب، وقائم وقِيام.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ «أُولَٰئِكَ» خبر «وعِبَادُ الرَّحْمَنِ»، في قول الزجَّاج على ما تقدَّم(٢)، وهو أحسنُ ما قيل فيه. وما تخلَّل بين المبتدأ وخبرِهِ أوصافُهم من التحلِّي والتخلِّي؛ وهي إحدى عشرة: التواضع، والحِلم، والتهجُّد، والخوف، وترك الإسراف والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّرك والزنى والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّب الكذب، والعفوُ عن المسيء، وقَبول المواعظ، والابتهال إلى الله تعالى.

و«الغُرْفَةَ»: الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازلِ الجنة وأفضلُها، كما أنَّ الغرفة أعلى مساكنِ الدنيا. حكاه ابنُ شجرة. وقال الضحَّاك: الغرفة: الجنة(٣).

«بِمَا صَبَرُوا» أي: بصبرهم على أمر ربِّهم، وطاعةِ نبيِّهم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقال محمد بن عليِّ بن الحسين: «بِمَا صَبَرُوا» على الفقر والفاقةِ في الدنيا. وقال الضحَّاك: «بِمَا صَبَرُوا» عن الشهوات(٤).

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ قرأ أبو بكر والمفضَّلُ والأعمش ويحيى وحمزة والكِسائيُّ وخلف: «وَيَلْقَوْنَ» مخفَّفة(٥)، واختاره الفرَّاء(٦)؛ قال: لأن العرب تقول: فلان يُتلقَّى بالسلام وبالتحيةِ وبالخير، بالباء(٧)، وقلَّما يقولون: فلان يُلقَّى السَّلامةَ.

---

(١) كلامه في تفسير الرازي ٢٤/ ١١٥ مختصر.

(٢) ص٤٦٦ من هذا الجزء، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦١ .

(٤) كلام محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٤ (١٥٤٩٧). وكلام الضحاك في النكت والعيون ٤/ ١٦١ .

(٥) السبعة ص٤٦٨ ، والتيسير ص١٦٥ ، والنشر ٢/ ٣٣٥ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٥ .

(٧) في (م): بالتاء . وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٩ .

وقرأ الباقون: «وَيُلَقَّوْنَ»، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

قال أبو جعفر النحّاس[١]: وما ذهب إليه الفرَّاءُ واختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت «يُلَقَّوْنَ»، كانت في العربية: بتحية وسلام، وقال: كما يقال: فلان يُتلقَّى بالسلام وبالخير؛ فمن عجيبِ ما في هذا البابِ[٢] أنه قال: يتلقَّى، والآية «يُلَقَّوْنَ»، والفرق بينهما بيِّن؛ لأنه يقال: فلان يُتلقَّى بالخير، ولا يجوز حذف الباء، فكيف يُشبه هذا ذاك؟ وأعجبُ مِن هذا أنَّ في القرآن: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ولا يجوز أن يُقرأ بغيره. وهذا يبيِّن أنَّ الأولى خلافُ ما قال.

والتحية من الله، والسلام من الملائكة. وقيل: التحية: البقاءُ الدائم[٣] والملك العظيم؛ والأظهر أنهما بمعنًى واحد، وأنهما من قِبَل الله تعالى؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وسيأتي.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ نصب على الحال[٤] ﴿فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ هذه آيةٌ مشكلة، تعلَّقت بها الملحدة. يقال: ما عبأتُ بفلان، أي: ما باليتُ به، أي: ما كان له عندي وزن ولا قَدْر[٥].

وأصل يعبأ من العِبْء، وهو الثِّقْل. وقول الشاعر:

كأنَّ بصدره وبجانبيهِ عَبِيراً باتَ يَعْبَؤُهُ عَروسُ

---

(١) في إعراب القرآن ٣/١٦٩ - ١٧٠.

(٢) لفظة: الباب ليست في (ف) والمصدر، وفي (د) و(ز): الكتاب.

(٣) النكت والعيون ٤/١٦١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٠.

(٥) أمالي ابن الشجري ١/٧٧.

أي: يجعل بعضَه على بعض[١]. فالعِبْء: الحِمْل الثقيل، والجمع: أعباء. والعِبْء المصدر. و«ما» استفهامية؛ ظهر في أثناء كلام الزجَّاج، وصرَّح به الفرَّاء[٢]. وليس يَبعُد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفيٌ خرج مَخرجَ الاستفهام؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال ابن الشَّجَري[٣]: وحقيقة القول عندي أنَّ موضع «ما» نصب، والتقدير: أيَّ عِبءٍ يعبأ بكم، أي: أيَّ مبالاة يبالي ربِّي بكم لولا دعاؤكم، أي: لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذي هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله؛ وهو اختيارُ الفرَّاء[٤]. وفاعله محذوف، وجوابُ لولا محذوف، كما حُذف في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]. تقديره: لم يعبأ بكم. ودليل هذا القولِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالخطاب لجميع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم: أي ما يبالي اللهُ بكم لولا عبادتُكم إياه أن[٥] لو كانت؛ وذلك الذي يُعبأ بالبشر من أجله. ويؤيِّد هذا قراءةُ ابن الزبير[٦] وغيرِه: «فَقَدْ كَذَّبَ الكَافِرُونَ»؛ فالخطاب بما يعبأ لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذَّبتم ولم تعبدوه، فسوف يكون التكذيبُ هو سببَ العذاب لِزاماً.

وقال النقَّاش وغيره: المعنى: لولا استغاثتُكم إليه في الشدائد ونحوِ ذلك[٧]. بيانُه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ونحوُ هذا.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٦. والبيت لأبي زبيد الطائي يصف أسداً، وهو في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٠٢، والمعاني الكبير ١/ ٢٤٥، والصحاح (عبا). قال ابن قتيبة: العبير عند العرب: الزعفران.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٥.

(٣) في أماليه ١/ ٨٠ - ٨١ وما قبله منه.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٥، ونقله المصنف عن أمالي ابن الشجري.

(٥) في (ظ): إذ.

(٦) ستأتي قريباً.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٣.

وقيل: «مَا يَعْبَأُ بِكُمْ» أي: بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم «لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» معه الآلهةَ والشُّركاء. بيانُه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[1] [النساء: ١٤٧] قاله الضحَّاك[2].

وقال الوليد بن أبي الوليد[3]: بلغني فيها: أي: ما خلقتكم ولي حاجةٌ إليكم، إلا [أن] تسألوني فأغفرَ لكم وأُعطِيَكم. وروى وَهْبُ بن مُنبِّه أنه كان في التوراة: «يا ابنَ آدم، وعزَّتي ما خلقتك لأربحَ عليك، إنما خلقتك لتربحَ عليّ، فاتخذني بدلاً من كل شيء، فأنا خيرٌ لك من كل شيء».

قال ابن جِنِّي: قرأ ابن الزُّبير وابنُ عباس: «فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ»[4]. قال الزهراويُّ والنحاس[5]: وهي قراءة ابنِ مسعود، وهي على التفسير للتاء والميم في «كَذَّبْتُمْ».

وذهب القُتَبيُّ[6] والفارسيُّ إلى أنَّ الدعاء مضاف إلى الفاعل، والمفعولُ محذوف، الأصل: لولا دعاؤكم آلهةً مِن دونهِ؛ وجواب «لَوْلَا» محذوف، تقديره في هذا الوجه: لَمْ يعذبْكم. ونظير قولِه: لولا دعاؤكم آلهةً قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: كذَّبتم بما دُعِيتم إليه؛ هذا على القول الأوَّل؛ وكذبتم

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ .

(٢) قوله: وقاله الضحاك ليس في (ظ).

(٣) أبو عثمان المدني، مولى ابن عمر، وقيل: مولى عثمان. ذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما خالف على قلة روايته. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٢٧ ، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٥ (١٥٥٠٨)، وما بين حاصرتين منه.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢٦ ، وذكرها ابن خالويه ص١٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجها الطبري ١٧/ ٥٣٧ - ٥٣٨ عنهما.

(٥) كلام الزهراوي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٣ ، وكلام النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٧٠ .

(٦) في تأويل مشكل القرآن ص٣٣٩ ، ونقل المصنف كلامه وكلام الفارسي من أمالي ابن الشجري ١/ ٨١ .

بتوحيد الله تعالى؛ على الثاني. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكون تكذيبكم ملازماً لكم. والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب، كما قال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] أي: جزاءَ ما عملوا، وقولِه: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠، الأنفال: ٣٥] أي: جزاءَ ما كنتم تكفرون. وحَسُن إضمارُ التكذيب لِتقدُّم ذِكْرِ فعلِهِ؛ لأنك إذا ذكرت الفعلَ، دلَّ بلفظه على مصدره، كما قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: لكان الإيمان، وقولِه: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أي: يرضى الشُّكر[(١)]. ومثلُه كثير.

وجمهورُ المفسرين على أنَّ المراد باللِّزام هنا ما نزل بهم يومَ بَدْر، وهو قول عبدالله بنِ مسعود وأُبيِّ بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم[(٢)].

وفي صحيح مسلم[(٣)] عن عبد الله: وقد مضت البطشةُ والدخان واللزام. وسيأتي مبيَّناً في سورة الدخانِ إن شاء الله تعالى[(٤)].

وقالت فرقة: هو توعُّدٌ بعذاب الآخرة[(٥)].

وعن ابن مسعود أيضاً: اللِّزام: التكذيبُ نفسُه، أي: لا يعطَون التوبةَ منه؛ ذكره الزهراوي[(٦)]؛ فدخل في هذا يومُ بَدْر وغيرُه من العذاب الذي يُلزَمونه[(٧)].

وقال أبو عبيدة: لِزاماً: فيصلاً[(٨)]، أي: فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٨١ - ٨٢ .

(٢) أخرجه عن ابن مسعود وأُبي ومجاهد الطبري ١٧/ ٥٣٨-٥٣٩ ، وأخرجه عن أبي مالك ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٦ (١٥٥١٢).

(٣) برقم (٢٧٩٨) .

(٤) عند تفسير الآية (١٠) منها.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٦ (١٥٥١٣) عن الحسن.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٣ .

(٧) أمالي ابن الشجري ١/ ٨٢ .

(٨) مجاز القرآن ٢/ ٨٢ .

المؤمنين. والجمهور من القرَّاء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فإمَّا يَنْجُوَا من خَسْفِ أرضٍ ... فقد لَقِيا حُتُوفَهما لِزاما[1]

ولِزاماً وملازمةً واحد.

وقال الطبري: «لِزَاماً» يعني: عذاباً دائماً لازماً، وهلاكاً مُفْنياً يُلحِق بعضَكم ببعض؛ كقول أبي ذؤيب:

ففاجأه بعادية لِزامٍ ... كما يَتَفَجَّرُ الحوضُ اللَّقِيفُ

يعني باللزام: الذي يَتْبع بعضُه بعضاً، وباللقيف: المتساقطَ الحجارةِ المتهدِّمَ[2].

النحَّاس[3]: وحكى أبو حاتم عن أبي زيد، قال: سمعت قَعْنَباً أبا السَّمَّال يقرأ: «لَزَاماً» بفتح اللام[4]. قال أبو جعفر: يكون مصدرَ لَزِم، والكسر أولى، يكون مثل: قِتال ومقاتلة، كما أجمعوا على الكسر في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩].

قال غيره: اللِّزام بالكسر: مصدر لازَمَ لِزاماً، مثل: خاصم خِصاماً، واللَّزام بالفتح: مصدر لَزِم لَزاماً، مثل: سَلِم سَلاماً، أي: سلامة؛ فاللَّزام بالفتح: اللُّزوم، واللِّزام: الملازمة، والمصدر في القراءتين وقع موقعَ اسم الفاعل، فاللِّزام وقع موقع ملازِم، واللَّزام وقع موقع لازِم. كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾

(١) المصدر السابق. وصخر هو ابن عبد الله الخيثمي من بني هذيل. ولقب بصخر الغي لخلاعته، وشدة بأسه، وكثرة شره. الأغاني ٢٢/ ٣٤٥. والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٦٥. ورسالة الصاهل والشاحج ص١٣٨، وهو في وصف حمارَين.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٣٧. وبيت أبي ذؤيب في ديوان الهذليين ١/ ١٠٢، وروايته فيه: فلم يرَ غير عادية لزاماً، كما يتهدم الحوض اللقيف. والعادية: القوم يعدون على أرجلهم، أي: فحَملتهم لزام، كأنهم لزموه لا يفارقون ما هم فيه. اللسان (لزم) والبيت فيه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٠.

(٤) كذا في إعراب القرآن، وفي القراءات الشاذة ص١٠٥ أنه قرأ: «لَزام» بفتح اللام ولا ألف. وذكر في الدر المصون ٨/ ٥٠٧ عنه القراءتين. ولَزامِ بكسر الميم على وزن: حَزامِ. وينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٨.

[الملك: ٣٠] أي: غائراً[١].

قال النحاس[٢]: وللفرَّاء قولٌ في اسم يكون؛ قال: يكون مجهولاً[٣]. وهذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبرُه إلَّا جملة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وكما حكى النحويُّون: كان زيدٌ منطلقٌ، يكون في كان مجهول، ويكون المبتدأُ وخبره خبرَ المجهول، والتقدير: كان الحديث؛ فأمَّا أنْ يقال: كان منطلقاً، ويكون في كان مجهول، فلا يجوز عند أحدٍ عَلِمناه.

وبالله التوفيق، وهو المستعان، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي

ويليه الجزء السادس عشر، ويبدأ بسورة الشعراء

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٨٢.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٧١.

(٣) في إعراب القرآن: يكون فيها مجهول. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٥.

تفسير سورة الفرقان

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) ﴾.

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ [أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا] (١) ﴾ [الكهف : ١ ــ ٣]، وقال هاهنا: ﴿ تَبَارَكَ ﴾، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزَّل: فَعَّل، من التكرر، والتكثر، كما قال: ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل (٢) مُنَجَّماً مُفَرَّقاً مُفَصَّلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سُوَر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [الفرقان : ٣٢، ٣٣]. ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغى والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله: ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ : هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها فى أشرف أحواله، وهى ليلة الإسراء، فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : ١]، وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩]، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ .

وقوله: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ أى: إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذى: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢]، الذى جعله فرقاناً عظيما ــ إنما خصّه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: « بعثت إلى الأحمر والأسود » (٣). وقال: « أعطيت خمساً لم

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى أ: « ينزل ».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) هو والذى يليه من حديث جابر، رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » ، فذكر منهن : أنه « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة» ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ] (١) يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] أى : الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض، الذى يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال هاهنا: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾، فَنَزّه نفسه عن الولد ، وعن الشريك.

ثم أخبر أنه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أى : كل شىء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شىء تحت قهره [وتسخيره] (٢) ، وتدبيره وتقديره(٣).

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣) ﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، الخالق لكل شىء ، المالك لأزمّة الأمور ، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ومع هذا عَبَدُوا معه من الأصنام مالا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ أى : ليس لهم من ذلك شىء ، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عز وجل ، الذى هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ، ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨]، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات :١٣ ، ١٤]، ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات : ١٩] ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] . فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، ولا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما يشأ لم يكن . وهو الذى لا ولد له ولاوالد ، ولا عديل ولا نديد ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار ، فى قولهم عن القرآن : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ : أى : كذب ، ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبى (٤) ﷺ ، ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أى : واستعان على جمعه بقوم آخرين . قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أى : فقد افتروا هم قولا باطلا، هم

(١) زيادة من أ وهو الصواب .
(٢) زيادة من ف ، أ.
(٣) فى ف ، أ : « قهره وتقديره وتسخيره وتدبيره » .
(٤) فى ف ، أ : « محمدا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون (١) .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ يعنون : كتب الأوائل استنسخها ، ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : تُقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أى : فى أول النهار وآخره .

وهذا الكلام ـ لسخافته وكذبه وبهْته منهم ـ كُلّ أحد يعلم (٢) بطلانه ، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة : أن محمداً رسول اللّه لم يكن يعانى شيئًا من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه اللّه نحوا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه فى صغره إلى أن بعث (٣) إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه اللّه بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورَمَوْه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون، وتاره يقولون: كذاب ،قال اللّه تعالى :﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٤٨] .

وقال تعالى فى جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا :﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع فى الخارج ، ماضياً ومستقبلا ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أى : اللّه الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾: دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠] . قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة [سبحانه وتعالى] (٤) .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن

(١) فى ف ، أ : « زعموه » .
(٢) فى ف ، أ : « بهته كل أحد منهم يعلم » .
(٣) فى أ : « بعثه » .
(٤) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ ،يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ، ﴿وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ أى : يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ، ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يقولون [١] : هلا أنزل إليه ملك من عند اللّه ، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه! وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ [٢] مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم ؛ ولهذا قال : ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أى : علم كنز [يكون][٣] ينفق منه ، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى : تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على اللّه ، ولكن له الحكمة فى ترك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ أى : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم « ساحر ، مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر » ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿فَضَلُّوا﴾ أى : عن طريق الهدى، ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه ؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد ، يُصَدِّق بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن ، فقال [تعالى] [٤] : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ .

قال مجاهد : يعنى : فى الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً ، سواء كان كبيرا أو صغيرا [٥] .

وقال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن خَيْثَمَة ؛ قيل للنبى ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبى قبلك ، ولا يُعطى أحد من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند اللّه ؟ فقال : اجمعوا لى فى الآخرة ، فأنزل اللّه عز وجل فى ذلك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن

(١) فى أ : « يقول » . (٢) فى ف : « أسورة » . (٣، ٤) زيادة من أ .
(٥) فى ف ، أ : « صغيراً أو كبيراً » .

www.besturdubooks.wordpress.com

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ (١) .

وقوله :﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ** ﴾ أي : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، ﴿**وَأَعْتَدْنَا**﴾ أي :وأرصدنا ﴿**لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً**﴾ أي : عـذابـاً أليمـا حـاراً لا يطاق فى نار جهنم .

وقال الثورى ، عن سلمة بن كُهَيْل ، عن سعيد بن جبير : «السَّعير»: واد من قيح جهنم .

وقوله :﴿ **إِذَا رَأَتْهُم** ﴾ أى: جهنم ﴿ **مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ يعنى : فى مقام المحشر . قال السدى : من مسيرة مائة عام ﴿ **سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً** ﴾أى :حنقا (٢) عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ . تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ** ﴾ [الملك: ٧، ٨] أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض ؛ من شدة غيظها على من كفر بالله .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخيف (٣) الواسطى : أنه سمع محمد بن الحسن الواسطى ، عن أصبغ بن زيد ، عن خالد بن كثير ، عن خالد بن دُرَيْك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من يقل عَلَيَّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ [مقعده من النار » . وفى رواية : « فليتبوأ] (٤) بين عينى جهنم مقعدا » . قيل : يارسول الله ، وهل لها من عينين ؟ قال : « أما سمعتم الله يقول : ﴿ **إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ » الآية .

ورواه ابن جرير ، عن محمد (٥) بن خِدَاش ، عن محمد بن يزيد (٦) الواسطى ، به (٧) .

وقال أيضًا : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عيسى ابن سليم ، عن أبى وائل قال : خرجنا مع عبد الله ـ يعنى : ابن مسعود ـ ومعنا الربيع بن خَيْثَم فمروا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة فى النار ، ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل ليسقط، فمر عبد الله على أتّون على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية :﴿ **إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً** ﴾ فصعق ـ يعنى : الربيع بن خيثم ـ فحملوه إلى أهل بيته (٨) ، ورابطه عبد الله إلى الظُّهر فلم يفق ، رضى الله عنه .

وحدثنا أبى : حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار ، فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨/ ١٤٠) من طريق سفيان به مرسلاً .

(٢) فى أ : « خنقًا » . (٣) فى ف ، أ : « الأحنف » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى ف : « محمود » . (٦) فى أ : « زيد » .

(٧) تفسير الطبرى (١٨/ ١٤٠) .

(٨) فى أ : « إلى أهله » .

www.besturdubooks.wordpress.com

هكذا رواه ابن أبى حاتم مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى ، حدثنا عُبَيْد الله بن موسى ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى يحيى، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير منى . فيقول : أرسلوا [١] عبدى . وإن الرجل لَيُجَرّ إلى النار ، فيقول : يارب ، ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تَسَعنى رحمتك . فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل لَيُجَرّ إلى النار ، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وهذا إسناد صحيح .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عُبَيد بن عُمَيْر فى قوله : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ قال : إن جهنم تزفر زفرة ، لا يبقى ملك ولا نبى إلا خَرّ تَرْعَد فرائصه ، حتى إن إبراهيم ، عليه السلام ، ليجثو على ركبتيه ويقول : رب ، لا أسألك اليوم إلا نفسى [٢] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾: قال قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله [٣] بن عمرو قال: مثل الزُج فى الرمح [٤] ، أى : من ضيقه .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى نافع بن يزيد ، عن يحيى بن أبى أسيد ـ يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال : « والذى نفسى بيده ، إنهم ليُستكرهون فى النار ، كما يستكره الوتد فى الحائط » [٥] .

وقوله : ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾: قال أبو صالح : يعنى مُكتفين : ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى : بالويل والحسرة والخيبة، ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد [٦] ، عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أول من يُكسَى حُلَّةً من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها منْ خَلْفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادى : ياثبوراه . وينادون : ياثبورهم . حتى يقفوا على النار ، فيقول : يا ثبوراه . ويقولون : ياثبورهم . فيقال لهم : لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً » .

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبى حاتم ، عن أحمد بن سِنَان ، عن عفان ، به : ورواه ابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة به[٧] .

---

(١) فى أ : « أن تنقلوا » .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/٥٦) .

(٣) فى ف ، أ : « عبيد الله » . (٤) فى ف : « رمحه » .

(٥) رواه ابن أبى حاتم ، كما فى الدر المنثور (٦/ ٢٤٠) .

(٦) فى هـ ، ف ، أ « على بن يزيد » والصواب ما أثبتناه من المسند (٣ / ٢٥٢) .

(٧) المسند (٣/ ١٥٢) وتفسير الطبرى (١٨/ ١٤١) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ أى : لا تدعوا اليوم ويلا واحداً ، وادعوا ويلا [١] كثيرا .

وقال الضحاك : الثبور : الهلاك .

والأظهر: أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أى : هالكا . وقال عبد الله بن الزبعْرى :

إذْ أجَارى الشَّيطانَ فى سَنَن الغـَ ـىِّ ، وَمنْ مَالَ مَيْلَهُ [٢] مَثْبُورُ [٣]

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد ، هذا [٤] الذى وصفناه من حال أولئك الأشقياء [٥] ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ [٦] وزفير ، ويُلقَون فى أماكنها الضيقة مقرَّنين ، لا يستطيعون حراكا ، ولا انتصاراً ولا فكاكا مما هم فيه ـ : أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه فى الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ [أى][٧]: من الملاذ : من مآكل ومشارب ، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر ، وغير ذلك ، مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطَر على قلب أحد [٨] . وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما [٩] سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ،لا يبغون عنها حولًا . وهذا من وَعْد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم . ولهذا قال : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ أى لابد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير ، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ أى: وعدا واجبا .

وقال ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾: يقول : سلوا الذى واعدتكم ـ أو قال : واعدناكم ـ نُنجزْ .

وقال محمد بن كعب القُرَظى فى قوله :﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ : إن الملائكة تسأل لهم ذلك : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم ﴾ [غافر : ٨] .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فأنجز لنا ما وعدتنا . فذلك قوله : ﴿ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾.

وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى

---

(١) فى ف ، أ : « بلاءً » . (٢) فى أ : « مثله » .
(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٩) .
(٤) فى أ : « أهذا » . (٥) فى أ : « من هؤلاء الأشقية » . (٦) فى أ : « وتغيظ » .
(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بشر » . (٩) فى ف : « دائماً أبدًا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة « الصافات » حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والحبور ، ثم قال : ﴿ **أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ** ﴾ [الصافات : ٦٢ ـ ٧٠] .

﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يَقَع يوم القيامة من تقريع الكفار فى عبادتهم مَن عبدوا من دون اللّه ، من الملائكة وغيرهم ، فقال : ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ**[1] **وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ ، قال مجاهد : عيسى ، والعُزَير ، والملائكة . ﴿ **فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ** ﴾ أى : فيقول الرب تبارك وتعالى [للمعبودين][2] أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال اللّه تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ**[3] ﴾ ، إلى آخر الآية [المائدة : ١١٦، ١١٧] ؛ ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة : ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ** ﴾ قرأ الأكثرون بفتح « النون » من قوله : ﴿ **نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ** ﴾ أى : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولاهم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم قالوا[4] ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم**[5] **مُّؤْمِنُونَ** ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١]. وقرأ آخرون : «مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نُّتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء » أى : ما ينبغى لأحد أن يعبدنا ، فإنا عبيد لك، فقراء إليك . وهى قريبة المعنى من الأولى .

﴿ **وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ** ﴾ أى : طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر ، أى : نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك .

---

(١) فى ف : « يحشرهم » . (٢) زيادة من أ .
(٣) بعدها فى ف ، أ : ﴿ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ .
(٤) فى أ : « فعلوا » . (٥) فى هـ : « به » والمثبت من أ ، وهو الصواب .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ : قال ابن عباس : أى هلكى . وقال الحسن البصرى ، ومالك عن الزهرى : أى لا خير فيهم . وقال ابن الزِّبَعْرى حين أسلم :

يا رَسُولَ المَلِيك إنّ لسَانِى رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أجَارِى الشَّيطَانَ فى سَنَن الغَـ ـيّ ، وَمَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

قال اللّه تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُون ﴾ أى : فقد كذبكم الذين عَبَدْتُم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم (١) إليه زلفى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِين ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿ فَمَا (٢) تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا ﴾ أى : لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ، ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُم ﴾ أى : يشرك باللّه ، ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن جميع مَن بعثه من الرسل المتقدمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذى به ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ أى : للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ؛ فإن اللّه جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة [القاهرة] (٣)، ما يستدل به كل ذى لب سليم ، وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاؤوا به من اللّه عز وجل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِين ﴾ [الأنبياء : ٨] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُون ﴾ أى: اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم مَن يُطيع ممن يعصى ؛ ولهذا قال : ﴿ أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أى : بمن يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، ومن يستحق أن يهديه اللّه لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ قال : يقول اللّه : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكنّى قد أردتُ أن أبتلى العباد بهم ،

---

(١) فى أ : « يقربو بكم » . (٢) فى أ : « فلا » وهو خطأ . (٣) زيادة من أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وأبتليهم (١) بهم .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إنى مُبْتَليك ومُبْتَلٍ بك » (٢) . وفى المسند عن رسول الله ﷺ : « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » ، وفى الصحيح أنه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ خُيِّر بين أن يكون نبياً ملكا أو عبداً رسولا ، فاختار أن يكون عبداً رسولا .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تَعَنُّت الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم :﴿ **لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا** (٣) **الْمَلائِكَةُ** ﴾ أى : بالرسالة كما نُزِّل (٤) على الأنبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا: ﴿ **لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ** ﴾ فنراهم عيانا ، فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم (٥) :﴿ **أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٩٢] . وقد تقدم تفسيرها فى سورة « سبحان » ؛ ولهذا قال(٦): ﴿ **أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا** ﴾ ؛ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا** ﴾ . وقد قال [الله] (٧) تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقوله : ﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ أى : هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم (٨) ، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، وغضب الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سَموم وحَميم ، وظلٍّ من يحموم . فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن (٩) ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى :﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٥٠] . وقال :﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ** ﴾ أى : بالضرب ، ﴿ **أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [الأنعام : ٩٣] ؛ ولهذا قال فى هذه الآية

---

(١) فى أ : « وابتليكم » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(٣) فى أ : « عليه » وهو خطأ .

(٤) فى أ : « تنزل » . (٥) فى ف ، أ : « وكقولهم » . (٦) فى ف ، أ : « قالوا » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « للمجرمين » . (٩) فى أ : « الجسد » .

www.besturdubooks.wordpress.com

الكريمة : ﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ ، وهذا بخلاف حال المؤمنين فى وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢] .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : « اخرجى أيتها النفس الطيبة[١] فى الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . وقد تقدم الحديث فى سورة « إبراهيم » [٢] . عند قوله تعالى : ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وقال آخرون : بل المراد بقوله :﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ** ﴾ يعنى : يوم القيامة . قاله مجاهد ، والضحاك ؛ وغيرهما .

ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

﴿ **وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ أى : وتقول الملائكة للكافرين حَرَام محرم عليكم الفلاح اليوم .

وأصل « الحجر » : المنع ، ومنه يقال : حَجَرَ القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسفَه ، أو فَلَس ، أو صغر ، أو نحو ذلك . ومنه سمى « الحجْر » عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطُّواف أن يطوفوا فيه [٣] ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال للعقل « حجر » [٤] ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق .

والغرض أن الضمير فى قوله : ﴿ **وَيَقُولُونَ** ﴾ عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطية العَوفى ، وعطاء الخراسانى ، وخُصَيف ، وغير واحد . واختاره ابن جرير [٥] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا موسى ــ يعنى ابن قيس ــ عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى :﴿ **وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ قال : حراما مُحَرّما أن يُبَشَّر بما يبشر به المتقون .

وقد حكى ابن جرير ،عن ابن جُرَيْج أنه قال: ذلك من كلام المشركين :﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ** ﴾ ، [أى : يتعوذون من الملائكة ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة] [٦] يقولون : ﴿ **حِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾.

(١) فى ف ، أ : « المطمئنة » .
(٢) عند الآية : ٢٧ .
(٣) فى ف : « به » .
(٤) فى أ : « حجراً » .
(٥) تفسير الطبرى (٢/١٩) .
(٦) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهذا القول ـ وإن كان له مأخذ ووجه ـ ولكنه بالنسبة إلى السياق فى الآية بعيد ، ولاسيما قد نص الجمهور على خلافه . ولكن قد روى ابنُ أبى نَجِيح ، عن مجاهد ؛ أنه قال فى قوله : ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى : عوذاً معاذاً . فيحتمل (١) أنه أراد ما ذكره ابن جريَج . ولكن فى رواية ابن أبى حاتم، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد أنه قال : ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [أى] (٢): عوذاً معاذاً ، الملائكة تقُوله . فالله(٣) أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ : وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأخبر أنه لا يتحصّل لهؤلاء المشركين من الأعمال ـ التى ظنوا أنها منجاة لهم ـ شىء ؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حينئذ ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

قال مجاهد ، والثورى : ﴿وَقَدِمْنَا﴾ أى : عمدنا .

وقال السدى : (قدمنا) : عَمَدنا . وبعضهم يقول : أتينا عليه .

وقوله : ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ : قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على، رضى الله عنه ، فى قوله : ﴿[فَجَعَلْنَاهُ] (٤) هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ ، قال : شعاع الشمس إذا دخل فى الكُوَّة . وكذا روى من غير هذا الوجه عن على . ورُوى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جُبَير ، والسُّدِّى ، والضحاك، وغيرهم . وكذا قال الحسن البصرى : هو الشعاع فى كوة أحدهم (٥) ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال : هو الماء المهراق .

وقال أبو الأحوص ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال : الهباء رَهْج (٦) الدواب ورُوى مثله عن ابن عباس أيضا ، والضحاك ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة فى قوله : ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال : أما رأيت يَبِيس الشجر إذا ذرته (٧) الريح ؟ فهو ذلك الورق .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عاصم بن حكيم ، عن أبى سريع الطائى ، عن يعلى بن عبيد (٨) قال : وإن الهباء الرماد .

وحاصل هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شىء ، فلما عرضت على الملك الحكيم (٩) العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لاشىء بالكلية . وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير المتفرق ، الذى لا يقدر منه صاحبه على شىء بالكلية ، كما قال

(١) فى ف ، أ: « فيحمل » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « والله » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ف ، أ : « أحدكم » . (٦) فى ف ، أ : « وهج » . (٧) فى أ : « أذرته » .
(٨) فى أ : « عبيد بن يعلى » . (٩) فى ف : « الحكم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

الله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] . وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وذلك لأن (١) أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، والغرفات الآمنات ، فهم فى مقام أمين ، حسن المنظر ، طيب المقام ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان : ٧٦] ، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] أى: بئس المنزل منظرا وبئس (٢) المقيل مقاما ؛ ولهذا قال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى : بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه (٣) ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فَنَبَّه ـ تعالى ـ بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية ، فقال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إنما هى ضحوة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويَقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وقال عكرمة : إنى لأعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار :هى الساعة التى تكون فى الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل [الجنة فينطلق بهم إلى] (٤) الجنة ، فكانت قيلولتهم [فى الجنة] (٥) وأطعموا كبد حوت ، فأشبعهم [ذلك] (٦) كلهم ،وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وقال سفيان ، عن مَيسَرة ، عن المنْهَال ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات :٦٨] .

---

(١) فى أ : « أن » . (٢) فى ف : « أو » . (٣) فى ف : « وصاروا إلى ما إليه صاروا » .
(٤ ، ٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال العَوْفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا** ﴾ قال : قالوا فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن (١) عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا** ﴾ [الانشقاق : ٧ ـ ٩] .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا** ﴾ أى : مأوى ومنزلا ـ قال قتادة : وحَدّث صفوان بن مُحْرِز أنه قال: يجاء يوم القيامة برجلين ، أحدهما كان ملكا (٢) فى الدنيا ـ إلى الحمرة والبياض فيحاسب ، فإذا عبدٌ ، لم يعمل خيرا فيؤمر به إلى النار . والآخر كان صاحب كساء فى الدنيا ، فيحاسب فيقول : يارب ، ما أعطيتنى من شىء فتحاسبنى به . فيقول : صدق عبدى، فأرسلوه . فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يتركان ما شاء اللّه . ثم يدعى صاحب (٣) النار ، فإذا هو مثل الحُمَمة (٤) السوداء ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : شر مقَيل . فيقال (٥) له : عد(٦) . ثم يُدعَى بصاحب الجنة ، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : رب ، خير مَقيل . فيقال له : عد . رواها ابن أبى حاتم كلها .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، أن سعيدا (٧) الصوَّاف حدثه ، أنه بلغه : أن يوم القيامة يَقصُر على المؤمن (٨) حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من الناس ، وذلك (٩) قوله تعالى :﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا** ﴾ (١٠) .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى عن هَوَل يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق (١١) السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظُلَل (١٢) النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر . ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى :﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

---

(١) فى أ : « إذ » . (٢) فى أ : « ملك » . (٣) فى أ : « بصاحب » . (٤) فى ف ، أ : « الفحمة » .
(٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف ، أ : « عده » . (٧) فى أ : « سعيد » . (٨) فى أ : « المؤمنين » .
(٩) فى ف ، أ : « فذلك » .
(١٠) تفسير الطبرى (١٩/٥) .
(١١) فى أ : « اشتقاق » . (١٢) فى أ : « ظل » .

www.besturdubooks.wordpress.com

قال بن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الحارث ، حدثنا مُؤَمَّل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على ابن زيد ، عن يوسف بن مهْرَان ، عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية :﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلا**﴾ قال ابن عباس : يجمع اللّه الخلق يوم القيامة (١) فى صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها ـ وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق (٢) ـ فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق . ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ، ومن جميع الخلق [فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق (٣)] (٤) ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، وبالجن والإنس وبجميع الخلق . ثم كذلك كل سماء ، حتى تنشق السماء السابعة، فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق، فيحيطون (٥) بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات ، وبالجن والإنس وجميع الخلق، وينزل ربنا عز وجل فى ظلل من الغمام ، وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع الإنس (٦) والجن وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا ، وهم تحت العرش ، لهم زَجَل بالتسبيح والتهليل (٧) والتقديس للّه عز وجل، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كعبه إلى ركبته (٨) مسيرة خمسمائة عام ، وما بين ركبته إلى حُجْزَته (٩) مسيرة خمسمائة عام وما بين حُجْزَته (١٠) إلى تَرقُوته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ترقوته إلى موضع القُرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام ، وجهنم مجنبته (١١) ، هكذا رواه ابن أبى حاتم بهذا السياق .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنى الحجاج ، عن مبارك بن فضالة ، عن على بن زيد بن جُدْعَان ، عن يوسف بن مِهْرَان ، أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس ، وهو يوم التلاق ، يوم يلتقى أهل السماء وأهل الأرض ، فيقول أهل الأرض : جاء ربنا ؟ فيقولون : لم يجئ ، وهو آت . ثم تنشق السماء الثانية ، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة . فينزل منها من الملائكة أكثر من [جميع من] (١٢) نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال : فتنزل (١٣) الملائكة الكَرُوبيُون ، ثم يأتى ربنا فى حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة . قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول : سبحان الملك القدوس . وعلى رؤوسهم شىء مبسوط كأنه القَبَاء (١٤) ، والعرش فوق ذلك .

---

(١) فى ف ، أ : « يجمع الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة » .
(٢) فى ف ، أ : « الخلق » .
(٣) فى ف ، أ : « الخلائق » .
(٤) زيادة من ف ، أ ، والدر المنثور ٥ / ٦٨ .
(٥) فى أ : « فيحطون » .
(٦) فى ف ، أ : « والإنس » .
(٧) فى ف ، أ : « بالتهليل والتسبيح » .
(٨) فى أ : « ركبتيه » .
(٩ ، ١٠) فى ف ، أ : « أرنبته » .
(١١) فى هـ ، ف غير منقوطة ، وفى أ : « مجنبته » .
(١٢) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(١٣) فى ف ، أ : « فينزل » .
(١٤) فى أ : « القفاء » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم وقف ، فمداره على عليٍّ بن زيد بن جُدْعان ، وفيه ضعف ، وفى سياقاته غالبا نكارة شديدة. وقد ورد فى حديث الصور المشهور (١) قريب من هذا ، والله أعلم .

وقد قال [الله] (٢) تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة ١٥ ـ ١٧] ،قال شهر بن حَوْشَب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، رواه ابن جرير عنه.

وقال أبو بكر بن عبد اللّه : إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم ، شخصت إليه أبصارهم ، ورَجَفَت كُلاَهم فى أجوافهم،وطارت قلوبهم من مَقَرّها من صدورهم إلى حناجرهم.

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن عبدالجليل، عن أبى حازم ، عن عبد اللّه بن عمرو قال : يهبط اللّه حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب ، منها النور والظلمة ، فيُصَوّت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع منه (٣) القلوب .

وهذا موقوف على (٤) عبد اللّه بن عمرو من كلامه ، ولعله من الزاملتين ، واللّه أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] .وفى الصحيح:« إن اللّه يطوى السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون » (٥) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أى : شديداً صعباً ؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل ، كما قال تعالى :﴿ [فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ](٦) ﴾، ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ ـ ١٠] ، فهذا حال الكافرين فى ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن (٧) بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا دَرَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال :قيل : يا رسول اللّه:﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾:ما (٨) أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .
(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف . أ : « له » . (٤) فى ف ، أ : « عن » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، وليس فيه : « أنا الديان » .
(٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : « حسين » . (٨) فى ف ، أ : « وما » .

www.besturdubooks.wordpress.com

أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » (١) .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند اللّه من الحق المبين ، الذى لا مرْية فيه ، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة نَدمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفا .

وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى مُعَيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة فى كل ظالم ، كما قال تعالى :﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ ـ ٦٨] فكل (٢) ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويَعَض على يـديه قائلا : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴾ يعنى : مَن(٣) صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة [من دعاة الضلالة] (٤) ، وسواء فى ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبى بن خلف ، أو غيرهما .

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ [وهو القرآن] (٥) ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أى : بعد بلوغه إلى ، قال اللّه تعالى: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله فى الباطل،ويدعوه إليه .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد (٦) ـ صلوات الله وسلامه (٧) عليه دائما إلى يوم الدين ـ أنه قال : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه (٨) ، كما قال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره ، حتى لا يسمعوه . فهذا من هجرانه ، وترك [علمه وحفظه أيضا من هجرانه ، وترك] (٩) الإيمان به وتصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدولُ عنه إلى غيره ـ من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ـ مَن هجرانه ، فنسأل اللّه الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء ، أن يخلّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار ، على الوجه الذى

(١) المسند (٣/ ٧٥) وفى إسناده دراج عن أبى الهيثم ضعيف .
(٢) فى ف ، أ : « وكل » . (٣) فى ف ، أ : « لمن » . (٤ ، ٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى أ : « محمدًا » .
(٧) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٨) فى أ : « يستمعونه » . (٩) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: كما حصل لك ـ يا محمد ـ فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ؛ لأن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام : ١١٢ ، ١١٣] ؛ ولهذا قال هاهنا :﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أى : لمن اتبع رسوله ، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ؛ فلهذا قال : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيهم ، حيث قالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت (١) قلوب المؤمنين به كما قال : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء : ١٠٦] ؛ ولهذا قال : ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾: قال قتادة : وبيناه تبيينا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيرا .

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أى : بحجة وشبهة ﴿إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أى : ولا يقولون قولا يعارضون به الحق ، إلا أجبناهم (٢) بما هو الحق فى نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصحُ من مقالتهم.

قال (٣) سعيد بن جبير، عن ابن عباس : ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أى : بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أى: إلا نزل جبريل منَ الله بجوابهم .

ثم فى هذا اعتناء كبير ؛ لشرف الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه (٤) ، حيث كان يأتيه الوحى من الله بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى (٥) وأجل ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ، صلوات

---

(١) فى أ : « ليثبت » . (٢) فى أ : « جئناهم » . (٣) فى ف : « ثنا » .
(٤) فى ف : « عليه وسلامه » . (٥) فى أ : « لعلى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

الله وسلامه عليه ، أعظم نبى أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا (١) ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

قال أبو عبد الرحمن النسائى : أخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، قال : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ (٢) [الإسراء : ١٠٦].

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، فى أسوأ الحالات وأقبح الصفات : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾. وفى الصحيح ، عن أنس : أن رجلا قال : يارسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذى أمشاه على رجليه قادر أن يُمشيَه على وجهه يوم القيامة » (٣) . وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من المفسرين ، [والله أعلم] (٤).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾.

يقول تعالى متوعداً من كذّب رسولَه محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، من مشركى قومه ومن خالفه (٥) ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى ، عليه السلام ، وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أى : نبيًا مُوَازرا ومؤيداً وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ، فـ ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠] . وكذلك فعلَ بقوم نوح حين كذّبوا رسوله نوحاً ، عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم نقَمه ، فما آمن معه إلا قليل . ولهذا أغرقهم الله

---

(١) فى أ : « من السماء الدنيا » .
(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٢) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .
(٤) زيادة من ف . (٥) فى ف ، أ : « خالفهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

جميعاً ، ولم يَبق منهم أحد ، ولم يبق على وجه الأرض من بنى آدم سوى أصحاب السفينة فقط .

﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً**﴾ أي : عبرة يعتبرون بها ، كما قال تعالى : ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] . أى : وأبقينا لكم من السفن ما تركبون فى لُجَج البحار ، لتذكروا نعمة اللّه عليكم فى إنجائكم من الغرق ، وجَعْلكم من ذرّية مَن آمن به وصَدّق أمره .

وقوله : ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ**﴾ قد (١) تقدم الكلام على قصتيهما فى غير ما سورة ، منها فى سورة «الأعراف» بما أغنى عن الإعادة (٢) .

وأما أصحاب الرس فقال ابن جُرَيْج ، عن (٣) ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود .

وقال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرَسّ بفَلَج وهم أصحاب يس .

وقال قتادة : فَلَج من قرى اليمامة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم [النبيل] (٤) ، حدثنا الضحاك بن مَخْلَد أبو عاصم ، حدثنا شبيب بن بشر (٥) ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وَأَصْحَابَ الرَّسِّ**﴾ قال : بئر بأذربيجان .

وقال سفيان الثورى عن أبى بُكَيْر (٦) ، عن عكرمة : الرس بئر رَسوا فيها نبيهم . أى دفنوه بها(٧) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن كعب [القرظى] (٨) قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود ، وذلك أن اللّه ـ تعالى وتبارك ـ بعث نبياً (٩) إلى أهل قرية ، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدَوَا على النبى ، فحفروا له بئرا فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم (١٠) » قال : « فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ، ويشترى به طعاماً وشراباً ، ثم يأتى به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعينه اللّه عليها ، فيدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت » . قال : « فكان كذلك ما شاء اللّه أن يكون ، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحَزم وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة ، فاضطجع فنام . فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم إنه هَبّ فتمطى ، فتحول لشقه الآخر فاضطجع ، فضرب اللّه على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حُزْمَته ولا يحسبُ إلا أنه نام ساعة من نهار (١١) ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم ذهب (١٢) إلى الحفيرة فى موضعها الذى كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده . وكان قد بدا لقومه فيه بَداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه » . قال :

---

(١) فى ف : « وقد » . (٢) فى ف ، أ : « إعادته » . (٣) فى أ : « قال » . (٤) زيادة من ف .
(٥) فى أ : « بشير » . (٦) فى ف ، أ : « بكر » . (٧) فى ف : « فيها » . (٨) زيادة من ف ، والطبرى .
(٩) فى ف : « بعث نبيا من الأنبياء » . (١٠) فى ف : « أصم » .
(١١) فى أ : « النهار » . (١٢) فى ف ، أ : « ثم إنه ذهب » .

www.besturdubooks.wordpress.com

« فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود : ما فعل ؟ فيقولون له : ما ندرى . حتى قبض اللّه النبى ، وأهبّ الأسودَ من نومته بعد ذلك » . فقال رسول اللّه ﷺ : « إن ذلك الأسودَ لأولُ من يدخل الجنة » .

هكذا رواه ابن جرير [١] ، عن ابن حميد ، عن سلمة عن ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب مرسلا . وفيه غرابة ونكارةٌ ، ولعل فيه إدْرَاجاً ، واللّه أعلم . وأما ابن جرير فقال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس الذين ذكروا فى القرآن ؛ لأن اللّه أخبر عنهم أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم ، اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث ، آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم ، واللّه أعلم .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج، فاللّه أعلم .

وقوله :﴿ **وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً** ﴾ أى : وأمما بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكناهم كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ** ﴾ أى : بينا لهم الحجج ، ووضَّحنا لهم الأدلة ـ كما قال قتادة : أزحنا [٢] عنهم الأعذار ـ ﴿ **وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** ﴾ أى : أهلكنا إهلاكاً ، كقوله :﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** ﴾ [الإسراء : ١٧] .

والقرن : هو الأمة من الناس ، كقوله : ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾ [المؤمنون : ٣١]. وحده بعضهم [٣] بمائة وعشرين سنة . وقيل : بمائة سنة . وقيل : بثمانين سنة . وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك . والأظهر : أن القرن هم الأمة المتعاصرون فى الزمن الواحد ؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت فى الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » الحديث .

وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** ﴾ يعنى : قرية قوم لوط ، وهى سدوم ومعاملتها التى أهلكها اللّه بالقلب ، وبالمطر الحجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ [الشعراء : ١٧٣] وقال :﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] وقال تعالى :﴿ **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ** ﴾ [الحجر : ٧٦] . وقال:﴿ **وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الحجر : ٧٩]؛ ولهذا قال :﴿ **أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا** ﴾ أى : فيعتبروا بما حَلّ بأهلها من العذاب والنّكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر اللّه .

وقوله : ﴿ **بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً** ﴾ يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً ، أى : معاداً يوم القيامة .

﴿ **وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ**

(١) تفسير الطبرى : ١٩ / ١٠ .

(٢) فى أ : « وأزحنا » .   (٣) فى ف ، أ : « بعض المفسرين » .

www.besturdubooks.wordpress.com

آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾.

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، إذا رأوه ، كما قال: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] يعنونه بالعيب والنقص ، وقال هاهنا : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ ؟ أي : على سبيل التنقص (١) والازدراء ـ قبَّحهم الله ـ كما قال : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] .

وقولهم (٢) : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يعنون : أنه كاد يثنيهم عن عبادة أصنامهم ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها . قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهددا : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

ثم قال تعالى لنبيه ، منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أي : مهما استحسن من شيء ورآه حسناً فى هوى نفسه ، كان دينَه ومذهبَه ، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ . قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول .

ثم قال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أى : أسوأ حالا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تعقل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له ، وهم يعبدون غيره ويشركون به ، مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) ﴾.

من هاهنا شرع تعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ؟ قال ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو

(١) فى ف ، أ : « التنقيص » .
(٢) فى أ : « وقوله » .

www.besturdubooks.wordpress.com

العالية ، وأبو مالك ، ومسروق ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النَّخَعي ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أى : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى :﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ،﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص : ٧١ ، ٧٢] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أى : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فإن (١) الضد لا يعرف إلا بضده .

وقال قتادة ، والسّدى : دليلا يتلوه ويتبعه حتى يأتى عليه كله .

وقوله : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى : الظل . وقيل : الشمس .﴿ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا . قال ابن عباس : سريعاً . وقال مجاهد : خفياً . وقال السّدى ؛ قبضاً خفَياً ، حتى لا يبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه .

وقال أيوب بن موسى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى : قليلا قليلا .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أى : يلبس الوجود ويُغَشّيه (٢) ،كما قال : [﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل : ١] وقال](٣) : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾[الشمس : ٤] .

﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أى : قَطْعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعايش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معاً .

﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أى : ينتشر الناسُ فيه (٤) لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣] .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجىء السحاب بعدها ، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرض ،ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أى : آلة يتطهر بها ، كالسَّحُور والوقود (٥) وما جرى مجراه . فهذا أصح ما يقال فى ذلك .وأما من قال : إنه فعول

(١) فى ف: « وإن » . (٢) فى ف : « ويغشاه » . (٣) زيادة من أ .
(٤) فى ف : « فيه الناس » . (٥) فى أ : « والوجود » .

www.besturdubooks.wordpress.com

بمعنى فاعل ، أو : إنه مبنى للمبالغة أو التعدى ، فعلى كل منهما (١) إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس (٢) هذا موضع بسطها ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، عن أبى جعفر الرازى، حدثنى حُميد الطويل ، عن ثابت البنانى قال : دخلت مع أبي العالية فى يوم مطير ، وطرق البصرة قذرة ، فصلى ، فقلت له ، فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ، قال : طهره ماء السماء.

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا وُهَيب (٣) ، عن داود ، عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [قال : أنزله الله ماءً طاهرًا] (٤) لا ينجسه شىء .

وعن أبى سعيد قال : قيل : يارسول الله ، أنتوضأ من بئر بضاعة ؟ ـ وهى بئر يُلقَى فيها النَّتن ولحوم الكلاب ـ فقال : « إن الماء طهور لا ينجسه شىء » . رواه الشافعى ، وأحمد وصححه ، وأبوداود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا معتمر ، سمعت أبى يحدث عن سَيَّار ، عن خالد بن يزيد ، قال : كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء ، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فَيُعْذِبه الرعد والبرق . فأما ما كان من البحر ، فلا يكون له نبات ، فأما النبات فمما كان من السماء .

وروى عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها فى الأرض عشبة أو فى البحر لؤلؤة . وقال غيره : فى البر بُر ، وفى البحر دُرّ .

وقوله : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أى : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهى هامدة لا نبات فيها ولا شىء . فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أى : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسى محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى إنه(٦) كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : ٥٠] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أى : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى ، [فأمطرتها وكفتها فجعلتها عذقا ، والتى وراءها] (٧) لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة .

---

(١) فى أ : « منها » . (٢) فى ف ، أ : « وليس » . (٣) فى أ : « وهب » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) الأم للشافعى (١/ ٩) والمسند (٣/ ١٥) وسنن أبى داود برقم (٦٦) وسنن الترمذى برقم (٦٦) وسنن النسائى (١/ ١٧٤) .
(٦) فى ف ، أ : « وهو على » وهو الصواب . (٧) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

قال ابن مسعود وابن عباس : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾.

أى : ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات (١) والعظام الرفات . أو : ليذكر من منع القَطْر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه .

وقال عُمَر مولى غُفْرَة (٢) : كان جبريل ، عليه السلام ، فى موضع الجنائز ، فقال له النبى ﷺ: « يا جبريل ، إنى أحب أن أعلم أمرَ السحاب ؟ » قال : فقال جبريل : يا نبى الله ، هذا ملك السحاب فسله . فقال : تأتينا صكَاك مُختَّمة : اسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة . رواه ابن حاتم، وهو حديث مرسل .

وقوله : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ : قال عكرمة : يعنى : الذين (٣) يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وهذا الذى قاله عكرمة كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً ، على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى ، مؤمن بالكوكب »(٤) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً (٥١) فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) ﴾.

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ : يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكنا خصصناك ـ يا محمد ـ بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن ، ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩]، ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] وفى الصحيحين : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . وفيهما : « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ يعنى : بالقرآن ، قاله ابن عباس ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣ ،

---

(١) فى ف ، أ : « الموتى » . (٢) فى ف ، أ : « عقبة » . (٣) فى أ : « الذى » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهنى .

www.besturdubooks.wordpress.com

التحريم : ٩] .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أى : خلق الماءين : الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال . قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير ، وهذا الذى لاشك فيه ، فإنه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات . واللّه سبحانه إنما أخبر بالواقع (١) لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيوناً فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أى : مالح مُرّ زعَاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر ، وما شاكلها وشابهها (٢) من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تتموج وتضطرب وتغتلم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجَزْر، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض (٣) ، فإذا شرع الشهر فى النقصان جَزَرت ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة (٤) ثم تشرع فى النقص ، فأجرى اللّه سبحانه وتعالى ـ وله القدرة التامة ـ العادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها اللّه سبحانه وتعالى مالحة الماء ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان . ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة؛ ولهذا قال رسول اللّه ﷺ وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . رواه الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد(٥) .

وقوله : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أى : بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾ أى : حاجزاً ، وهو اليَبَس من الأرض ، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى : مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال :﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ١٩ ـ ٢١] ، وقال تعالى:﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل : ٦١] .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أى : خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعَدّله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكراً أو أنثى ، كما يشاء ، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات . وكل ذلك من ماء مهين ؛ ولهذا قال : ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا

(١) فى أ : « عن الواقع » . (٢) فى أ : « وأشبهها » . (٣) فى أ : « وقيض » . (٤) فى أ : « عشر » .
(٥) سبق تخريجه عند تفسير الآية : ٣ من سورة المائدة .

www.besturdubooks.wordpress.com

أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠)﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير اللّه من الأصنام ، التى لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم (١) ويقاتلون فى سبيلهم ، ويعادون اللّه ورسوله [والمؤمنون] (٢) فيهم ؛ ولهذا قال:﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ أى: عوناً فى سبيل الشيطان على حزب اللّه ، وحزب اللّه هم الغالبون ، كما قال تعالى :﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ . لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ، ٧٥] أى : آلهتهم التى اتخذوها من دون اللّه لا تملك (٣) لهم نصرا ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويَذُبُّون عن حَوْزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة للّه ولرسوله فى الدنيا والآخرة .

قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : يظاهر الشيطان على معصية اللّه ، يعينه .

وقال سعيد بن جُبَير :﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : موالياً .

ثم قال تعالى لرسوله ، صلوات اللّه وسلامه عليه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشرا بالجنة لمن أطاع اللّه ، ونذيراً بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر اللّه .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى : على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه اللّه ، ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير : ٢٨] ، ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أى : طريقاً ومسلكا ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به .

ثم قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ أى: فى أمورك كلها كُن متوكلا على اللّه الحى الذى لا يموت أبدا ، الذى هو﴿ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣]، الدائم الباقى السرمدى الأبدى ، الحى القيوم ربّ كل شىء ومليكه ، اجعله ذُخْرك وملجأك ، وهو الذى يُتَوكل عليه ويفزع إليه ، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك ، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا

(١) فى أ : « والتشهى فيهم يوالون لهم » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « لا يملكون » .

www.besturdubooks.wordpress.com

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا عبد اللّه بن محمد بن على بن نُفَيْل قال : قرأت على مَعْقِل ـ يعنى ابن عبيد اللّه ـ عن عبد اللّه بن أبى حسين ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لقى سلمانُ رسولَ اللّه ﷺ فى بعض فجاج (١) المدينة ، فسجد له ، فقال : « لا تسجد لى يا سلمان ، واسجد للحى الذى لا يموت » . وهذا مرسل حسن (٢) .

[وقوله تعالى : ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ** ﴾ ، أى : اقرن بين حمده وتسبيحه] (٣) ؛ ولهذا كان رسول اللّه ﷺ يقول : « سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك » أى : أخلص له العبادة والتوكل ، كما قال تعالى : ﴿ **رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً** ﴾ [المزمل : ٩] .

وقال : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود : ١٢٣] ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ [الملك : ٢٩] .

وقوله : ﴿ **وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً** ﴾ أى : لعلمه (٤) التام الذى لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

وقوله : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ أى : هو الحى الذى لا يموت ، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه، الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع فى ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها، ﴿ **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ [الرَّحْمَنُ]**(٥) ﴾ ، أى: يدبر الأمر ، ويقضى الحق ، وهو خير الفاصلين .

وقوله : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً** ﴾ أى : استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد عُلم أنه لا أحد أعلم باللّه ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ، صلوات اللّه وسلامه ، على (٦) سيد ولد آدم على الإطلاق ، فى الدنيا والآخرة ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ـ فما قاله فهو حق ، وما أخبر به فهو صدق ، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب ردّ نزاعهم إليه ، فما يوافق أقواله ، وأفعاله فهو الحق ، وما يخالفها (٧) فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا من كان ، قال اللّه تعالى : ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال : ﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً** ﴾ [الأنعام : ١١٥] أى : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى ؛

---

(١) فى أ : « مخارج » .

(٢) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١٠٣/٢) من طريق محمد بن أحمد بن سيار عن هشام عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين به .

(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « بعلمه » . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ف ، أ : « عليه » . (٧) فى أ : « وما خالفها » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ولهذا قال : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال : ما أخبرتك (١) من شىء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جُرَيج .

وقال شمْر بن عطية فى قوله : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير اللّه من الأصنام والأنداد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ أى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يُسَمّى اللّه باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ للكاتب : « اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ؛ ولهذا أنزل اللّه : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] أى : هو اللّه وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية (٢) : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ أى : لا نعرفه ولا نُقر به ؟ ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أى :لمجرد قولك ؟. ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾، أما (٣) المؤمنون فإنهم يعبدون اللّه الذى هو الرحمن الرحيم ، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماء ـ رحمهم اللّه ـ على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجودُ عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر فى موضعه ، واللّه أعلم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٤) (٦٢) ﴾.

يقول تعالى ممجدا نفسه ، ومعظما على جميل ما خلق فى السماء من البروج ـ وهى الكواكب العظام ـ فى قول مجاهد ، وسعيد بن جُبير ، وأبى صالح ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : هى قصور فى السماء للحرس ، يروى هذا عن على ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وإبراهيم النخعى ، وسليمان بن مهْران الأعمش . وهو رواية عن أبى صالح أيضا ، والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس ، فيجتمع القولان ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وهى الشمس المنيرة ، التى هى كالسراج فى الوجود، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٣] .

﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ أى : مضيئا مشرقا بنور آخر ونوع وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥] ، وقال مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٥ ، ١٦] .

---

(١) فى أ : « ما أخبرك » .
(٢) فى ف ، أ : « الآية الكريمة » .
(٣) فى ف ، أ : « فأما » .
(٤) فى أ : « نشورا » وهو خطأ .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أى : يخلف كل واحد منهما الآخر ، يتعاقبان لا يفتران . إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك (١) ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، وقال :﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقال :﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

وقوله :﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أى : جعلهما يتعاقبان ، توقيتا لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن اللّه تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل» (٢) .

قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبو حُرَّة (٣) ، عن الحسن : أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقى على من وردى شىء ، فأحببت أن أتمه ـ أو قال : أقضيه ـ وتلا هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً [لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا] (٤) ﴾ (٥).

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس [قوله :﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾(٦)] يقول: من فاته شىء من الليل أن يعمله ، أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير . والحسن .

وقال مجاهد ، وقتادة :﴿ خِلْفَةً ﴾ أى : مختلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾.

هذه صفات عباد اللّه المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾أى : بسكينة ووقار من غير جَبَرية ولا استكبار ، كما قال:﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء : ٣٧] . فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ،

(١) فى أ : « هذا » .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « أبو حمزة » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا منقطع ، فالحسن لم يسمع من عمر .

(٦) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبَب ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى، عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رُويداً ، فقال : ما بالك ؟ أأنت مريض ؟ قال : لا ، ياأمير المؤمنين. فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما [١] المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول اللّه ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » [٢] .

وقال عبد اللّه بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن يحيى [٣] بن المختار ، عن الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ قال : إن المؤمنين قوم ذُلُل ، ذلت منهم ـ واللّه ـ الأسماعُ والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد للّه الذى أذهب عنا الحزن . أما واللّه ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاظم فى نفوسهم شىء طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء اللّه تَقَطَّعُ نفسُه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير للّه نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ، فقد قل علمه [٤] وحَضَرَ عذابهُ .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ أى : إذا سَفه عليهم الجهال بالسّيىء ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول اللّه ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبى خالد الوالبى ، عن النعمان بن مُقَرّن المُزَنى قال : قال رسول اللّه ﷺ [وسبّ رجلٌ رجلا عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام . قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « أما] [٥] إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل عليك ، وأنت أحق به » . إسناد حسن ، ولم يخرجوه [٦] .

وقال مجاهد : ﴿ قَالُوا سَلامًا ﴾ يعنى : قالوا : سداداً .

وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفاً من القول .

وقال الحسن البصرى : ﴿ قَالُوا [سَلامًا ﴾ ، قال : حلماء لا يجهلون] [٧] ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عباد اللّه نهارهم بما تسمعون [٨] . ثم ذكر أن ليلهم خير ليل .

---

(١) فى ف ، أ : « وأما » .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٦٠٣) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه .
(٣) فى ف ، أ : « عمر » . (٤) فى أ : « عمله » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٦) المسند (٥/ ٤٤٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٥) : « رجاله رجال الصحيح ، غير أبى خالد الوالبى وهو ثقة » .
(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بما يسمعون » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ أى : فى عبادته وطاعته ، كما قال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] ، وقال : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] وقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ الآية [الزمر : ٩] ، ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى : ملازماً دائماً ، كما قال الشاعر(١):

إنْ يُعَذِّب يكُنْ غَرَاماً ، وإن يُعْـ ـط جزيلا ، فإنه لا يُبَالى

ولهذا قال الحسن فى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ : كل شىء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض . وكذا قال سليمان التيمى .

وقال محمد بن كعب [القرظى] (٢): ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ يعنى : ما نعموا فى الدنيا ؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار .

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى : بئس المنزل منظرا ، وبئس المقيل مقاماً .

[و] (٣) قال ابن أبى حاتم عند قوله : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾: حدثنا أبى ، حدثنا الحسن ابن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث قال : إذا طُرح الرجل فى النار هوى فيها ، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانك حتى تتحف ، قال : فيسقى كأسا من سُمِّ الأساود والعقارب ، قال: فيميز الجلد على حدة ، والشعر على حدة ، والعصب على حدة ، والعروق على حدة .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمير قال : إن فى النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت ، وعقارب أمثال البغال الدُّلْم (٤) ، فإذا قذف بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم ، فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سلام ـ يعنى ابن مسكين ـ عن أبى ظلال، عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : « إن عبداً فى جهنم لينادى ألف سنة : يا حنان ، يامنان . فيقول الله لجبريل : اذهب فأتنى بعبدى هذا . فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُنكبين(٥) يبكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : آتنى به فإنه فى مكان كذا وكذا . فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له : ياعبدى ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان ، شر مقيل . فيقول : ردوا عبدى . فيقول : يارب ، ما كنت أرجو إذ أخرجتنى منها أن تردنى فيها ! فيقول : دعوا عبدى (٦) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أى : ليسوا بمبذرين فى

(١) هو الأعشى ـ ميمون بن قيس ـ والبيت فى تفسير الطبرى (١٩/ ٢٣) .
(٢ ، ٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « الدهم » . (٥) فى أ : « مكبين » .
(٦) المسند (٣/ ٢٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨٤) : « رجاله رجال الصحيح غير أبى ظلال وضعفه الجمهور ، ووثقه ابن حبان ».

www.besturdubooks.wordpress.com

إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون فى حقهم فلا يكفونهم ، بل عَدْلا خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا ، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾، كما قال : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عصام (١) بن خالد ، حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى، عن ضَمْرَة ، عن أبى الدرداء ، عن النبى ﷺ قال : « من فقه الرجل رفقه فى معيشته » . ولم يخرجوه (٢) .

وقال [الإمام] (٣) أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا سُكَين (٤) بن عبد العزيز العَبْدى، حدثنا إبراهيم الهَجَرى عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد » . ولم يخرجوه (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون (٦) ، حدثنا سعيد (٧) بن حكيم ، عن مسلم بن حبيب ، عن بلال ـ يعنى العبسى ـ عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وأحسن القصد فى الفقر ، وأحسن القصد فى العبادة » . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه (٨) .

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف .

وقال غيره : السرف النفقة فى معصية الله .

وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف [والله أعلم] (٩) .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾.

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شَقيق ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : سُئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعَم معك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى

(١) فى أ : « عاصم » .
(٢) المسند (٥/ ١٩٤) .
(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « مسكين » .
(٥) المسند (١/ ٤٤٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٢) : « فى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف » .
(٦) فى ف ، أ : « إبراهيم بن محمد بن محمد بن ميمون » . (٧) فى ، أ : « سعد » .
(٨) مسند البزار برقم (٣٦٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٢) : « رواه البزار عن سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب ، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان فى ترجمة سعيد الراوى عنه ، وبقية رجاله ثقات » .
(٩) زيادة من أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

حليلة جارك » . قال عبد اللّه : وأنزل اللّه تصديق ذلك : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾.

وهكذا رواه النسائى عن هَنَّاد بن السرى ، عن أبى معاوية ، به (١) .

وقد أخرجه البخارى ومسلم ، من حديث الأعمش ومنصور ـ زاد البخارى : وواصل ـ ثلاثتهم عن أبى وائل ، شقيق بن سلمة ، عن أبى مَيْسَرة عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود ، به (٢) ، فاللّه أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت: يارسول اللّه ، أى الذنب أعظم ؟ الحديث .

طريق غريب : وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى ، حدثنا عامر بن مُدْرِك ، حدثنا السرى ـ يعنى ابن اسماعيل ـ حدثنا الشعبى ، عن مسروق قال : قال عبد اللّه : خرج رسول اللّه ﷺ ذات يوم فاتبعته ، فجلس على نَشَز من الأرض ، وقعدت أسفل منه ، ووجهى حيال ركبتيه، واغتنمت (٣) خلوته وقلت (٤) : بأبى أنت وأمى يارسول اللّه ، أى الذنوب (٥) أكبر ؟ قال : « أن تدعو للّه نداً وهو خلقك » . قلت : ثم مه ؟ (٦) قال : « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » . قلت : ثم مه ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » . ثـم قـرأ : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾. [إلى آخر] (٧) الآية (٨).

وقال النسائى : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن هلال بن يَسَاف ، عن سلمة بن قيس قال : قال رسول اللّه ﷺ فى حجة الوداع : « ألا إنما هى أربع ـ فما أنا بأشح عليهن منى منذ سمعتهن من رسول اللّه ﷺ ـ : لا تشركوا باللّه شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم اللّه إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » (٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن المدينى ،رحمه الله ،حدثنا محمد بن فضيل بن غَزْوان ، حدثنا محمد بن سعد (١٠) الأنصارى ، سمعت أبا طيبة الكَلاَعى ،سمعت المقداد بن الأسود ، رضى اللّه عنه ،يقول : قال رسول اللّه ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا » ؟ قالوا : حَرّمه اللّه ورسوله ،فهو حَرَام إلى يوم القيامة ، فقال رسول اللّه ﷺ لأصحابه : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » . قال :« ما تقولون فى السرقة » ؟ قالوا : حرمها اللّه ورسوله، فهى حرام . قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»(١١) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عمار بن نصر ، حدثنا بَقِيّة ، عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ : قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند اللّه من نُطفة وضعها رجل فى رَحِم لا يحل له » (١٢) .

---

(١) المسند (١/ ٣٨٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٦٨) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .
(٣) فى ف : « فاغتنمت » . (٤) فى أ : « فقلت » . (٥) فى أ : « الذنب » . (٦) فى أ : « أى » .
(٧) زيادة من أ .
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .
(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٣) (١٠) فى ف ، أ : « سعيد » .
(١١) المسند (٨/٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٦٨) : « رجاله ثقات » .
(١٢) الورع لابن أبى الدنيا برقم (١٣٧) : « وهو مرسل ، وفى إسناده بقية وهو مدلس وابن أبى مريم ضعيف » أ . هـ مستفاداً من كلام المحقق الفاضل محمد الحمود

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال ابن جُرَيج : أخبرنى يعلى ، عن سعيد بن جبير أنه سمعه يحدث (١) عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنَوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا (٢) كفارة ، فنزلت : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾، ونزلت : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا [إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ]**(٣) ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبى فَاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتلَ ولدك وتغذو كلبك ، وينهاك أن تزنى بحليلة جارك » . قال سفيان : وهو قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾: روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ﴿ **أَثَامًا** ﴾: واد فى جهنم .

وقال عكرمة : ﴿ **يَلْقَ أَثَامًا** ﴾: أودية فى جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا رُوى عن سعيد بن جبير، ومجاهد .

وقال قتادة : ﴿ **يَلْقَ أَثَامًا** ﴾: نكالا ، كنا نحدث أنه واد فى جنهم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بنى ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

وقد ورد فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره ، عن أبى أمامة الباهلى ـ موقوفا ومرفوعا ـ : أن « غيا » و« أثاما » بئران فى قعر جهنم (٥) . أجارنا الله منها بمنه وكرمه .

وقال السدى : ﴿ **يَلْقَ أَثَامًا** ﴾: جزاء .

وهذا أشبه بظاهر الآية ؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلا منه ، وهو قوله : ﴿ **يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى : يكرر عليه ويغلظ ، ﴿ **وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا** ﴾ أى : حقيرا ذليلا .

وقوله : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ [عَمَلاً]** (٦) **صَالِحًا** ﴾ أى : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ** ﴾ فى الدنيا إلى الله (٧) من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه .

وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض (٨) بين هذه وبين آية النساء : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٣] فإن هذه

---

(١) فى أ : « يحدثه » . (٢) فى أ : « أن لنا إن عملنا » . (٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٧٧) وعزاه لابن أبى حاتم . ووقع فيه : « عن أبى قتادة » ، فإن كان كذلك فهو موصول ، وإن كان كما هو مثبت هنا فهو مرسل ، ولم يتبين لى الصواب منهما ، والله أعلم .

(٥) تفسير الطبرى (١٩/٢٩) .

(٦)زيادة من ف ، وهو الصواب .

(٧) فى ف : « إلى الله فى الدنيا » . (٨) فى أ : « ولا معارض » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال [الله](١) تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] .

وقد ثبتت السنة الصحيحة ، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب ، وقبل منه ، وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ : فى معنى قوله : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَرِيفا (٢) وَبَعْدَ طُول النَّفَس الوَجِيفَا (٣)

يعنى : تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها .

وقال عطاء بن أبى رباح : هذا فى الدنيا (٤) ، يكون الرجل على هيئة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيراً .

وقال سعيد بن جبير : أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله ، وأبدلهم (٥) بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر إسلاما .

وهذا قول أبى العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين .

والقول الثانى : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف ، رحمهم الله تعالى ـ وهذا سياق الحديث ـ قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سُوَيْد ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة : يؤتى برجل فيقول : نَحّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم ـ لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا ـ

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « صريفاً » .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٩/ ٣٠) .

(٤) فى أ : « هذا يكون فى الدنيا » . (٥) فى ف : « وبدلهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة . فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها هاهنا » . قال : فضحك رسول اللّه ﷺ حتى بدت نواجذه . وانفرد به مسلم (١) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن يزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنى أبى ، حدثنى ضَمْضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيْح بن عبيد (٢) ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطنى صحيفتك . فيعطيه إياها ، فما وجد فى صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أن ينام أحدكم فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة » (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا : حدثنا ثابت ـ يعنى : ابن يزيد أبو زيد ـ حدثنا عاصم ، عن أبى عثمان ، عن سلمان قال : يعطى رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها ، فإذا سيئاته (٤) ، فإذا كاد (٥) يسوء ظنه نظر (٦) فى أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر فى أعلاها فإذا هى قد بدلت حسنات .

وقال أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سليمان بن موسى الزهرى أبو داود ، حدثنا أبو العَنْبَس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : ليأتين اللّه عز وجل بأناس (٧) يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : من هم ياأبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل اللّه سيئاتهم حسنات .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا عبد اللّه بن أبى زياد ، حدثنا سَيَّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو حمزة ، عن أبى الضيف ـ وكان من أصحاب معاذ بن جبل ـ قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف : المتقين ، ثم الشاكرين ، ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين . قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال : لأنهم عملوا الحسنات (٨) والسيئات ، فأعطوا كتبهم بأيمانهم ، فقرؤوا سيئاتهم حرفا حرفا ـ قالوا : يا ربنا ، هذه سيئاتنا ، فأين حسناتنا ؟ . فعند ذلك محا اللّه السيئات وجعلها حسنات، فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرؤوا كتابيه)، فهم أكثر أهل الجنة .

وقال على بن الحسين زين العابدين : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : فى الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات : [رواهما ابن أبى حاتم ، وروى ابن جرير ، عن سعيد بن المسيب مثله] (٩) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ،

---

(١) المسند (٥/ ١٧٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠) .

(٢) فى ف ، أ : « عبدة » .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (٣/ ٢٩٦) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٢١) : « فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف » ، ولم يثبت سماعه عن أبيه أيضا .

(٤) فى أ : « إساءته » . (٥) فى أ : « كان » . (٦) فى أ : « ينظر » . (٧) فى أ : « أناس » .

(٨) فى أ : « بالحسنات » . (٩) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

حدثنا أبو [(١)] جابر ، أنه سمع مكحولا يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط [(٢)] حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله ،رجل غدر وفجر ، لم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة ؟ فقال له رسول الله [(٣)] ﷺ : «أسلمتَ؟» قال [(٤)] : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن [(٥)] محمداً عبده ورسوله. فقال النبى ﷺ : « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ، ومبدل[(٦)] سيئاتك حسنات » . فقال: يارسول الله، وغَدَرَاتى وفَجَراتى؟ فقال : « وغَدراَتك وفَجَراتك » . فوَلّى الرجل يهلل ويكبر[(٧)]. [(٨)].

وروى الطبرانى من حديث أبى المغيرة ، عن صفوان بن عَمْرو [(٩)] ، عن عبد الرحمن بن جبير،عن أبى فَرْوَةَ ـ شَطْب ـ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمتَ ؟ » فقال : نعم ، قال : « فافعل الخيرات ، واترك السيئات ، فيجعلها [(١٠)] الله لك خيرات كلها » . قال : وغَدراتى وفَجَراتى ؟ قال: « نعم» . قال فما زال يكبّر حتى توارى [(١١)] .

ورواه الطبرانى من طريق أبى فَروة الرهاوى ، عن ياسين الزيات ، عن أبى سلمة الحِمْصى ، عن يحيى بن جابر ، عن سلمة بن نفيل مرفوعاً [(١٢)] .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان ، عن فُلَيْح الشماس ، عن عبيد بن أبى عبيد [(١٣)] عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : جاءتنى امرأة فقالت : هل لى من توبة ؟ إنى زنيت وولدت وقتلته . فقلت [(١٤)]: لا ، ولا نَعمت العين ولا كرامة. فقامت وهى تدعو بالحسرة . ثم صليت مع النبى ﷺ الصبح ، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها ، فقال رسول الله ﷺ : « بئسما قلت ! أما كنت تقرأ هذه الآية : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ إلى قوله : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ فقرأتها عليها . فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى رجاله من لا يُعرف والله أعلم . وقد رواه ابن جرير من

---

(١) فى أ : « ابن » . (٢) فى أ : « أسقطت » . (٣) فى أ : « النبى » . (٤) فى أ : « فقال » .
(٥) فى أ : « وأشهد أن » . (٦) فى أ : « ويبدل » . (٧) فى ف ، أ : « يكبر ويهلل » .
(٨) وقد وصله الإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٤) من طريق نوح بن قيس عن أشعث بن جابر الحدانى عن مكحول عن عمرو بن عبسة به مرفوعاً باختصار فى أوله وآخره ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٣٢) : « رجاله موثقون إلا أنه من رواية مكحول عن عمرو بن عبسة ، فلا أدرى أسمع منه أم لا » .
(٩) فى أ : « عمر » . (١٠) فى ف ، أ : « فيجعلهم » .
(١١) المعجم الكبير للطبرانى (٧/ ٣١٤) ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٣/ ٣٥٢) من طريق أبى القاسم البغوى عن محمد بن هارون الحربى عن أبى المغيرة به . وقال أبو القاسم البغوى : « روى هذا الحديث غير محمد بن هارون عن أبى المغيرة عن صفوان عن عبد الرحمن ابن جبير : أن رجلاً أتى النبى ﷺ طويلاً شطب الممدود ، وأحسب أن محمداً بن هارون صحف فيه ، والصواب ما قال غيره » .
(١٢) المعجم الكبير للطبرانى (٧/ ٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٣١) : « فى إسناده ياسين الزيات يروى الموضوعات » .
(١٣) فى هـ ، ف ، أ : « عن فليح بن عبيد بن أبى عبيد الشماس عن أبيه » والمثبت من الطبرى .
(١٤) فى أ : « فقال » .

www.besturdubooks.wordpress.com

حديث إبراهيم بن المنذر الحزَامى بسنده بنحوه ، وعنده : فخرجت تدعو بالحسرة وتقول : ياحسرتا ! أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ ، تَطَلَّبها [١] فى جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته ، فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً وتوبة مما عملت . وأعتقت جارية كانت معها وابنتها، وتابت إلى الله عزوجل [٢] .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده [٣] ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال : ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾ أى: فإن الله يقبل [٤] توبته ، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء : ١١٠] ، وقال : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أى: لمن تاب إليه .

﴿ **وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)** ﴾ .

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن ، أنهم : ﴿ **لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ** ﴾ . قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب ، والفسق ، واللغو ، والباطل .

وقال محمد بن الحنفية : [هو] [٥] اللهو والغناء .

وقال أبو العالية ، وطاوس ، ومحمد بن سيرين ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : هى أعياد المشركين [٦] .

وقال عمرو بن قيس : هى مجالس السوء والخنا .

وقال مالك ، عن الزهرى : [شرب الخمر] [٧] لا يحضرونه ولا يرغبون فيه ، كما جاء فى الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » [٨] .

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ **لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ** ﴾ أى: شهادة الزور ، وهى الكذب متعمدا على غيره ،

---

(١) فى ف : « فطلبها » .

(٢) تفسير الطبرى (١٩/ ٢٧) ورواه ابن مردويه كما فى الدر المنثور (٦/ ٢٧٩) وقال السيوطى : « إسناده ضعيف » .

(٣) فى أ : « لعباده » . (٤) فى أ : « يتقبل » . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ف : « للمشركين » . (٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٠١) من طريق ليث بن أبى سليم عن طاوس عن جابر به مرفوعاً ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاوس عن جابر إلا من هذا الوجه » ثم نقل كلام العلماء فى تضعيف ليث بن أبى سليم .

www.besturdubooks.wordpress.com

كما [ثبت][(١)] فى الصحيحين عن أبى بكْرَة قال: قال [(٢)] رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكْبر الكبائر » ثلاثا ، قلنا: بلى ، يارسول الله ، قال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين » . وكان متكئاً فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور [ألا وقول الزور وشهادة الزور] [(٣)] » . فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت [(٤)] .

والأظهر من السياق أن المراد : لا يشهدون الزور ، أى : لا يحضرونه ؛ ولهذا قال : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أى :لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشىء [(٥)] ؛ ولهذا قال : ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو الحسين العجلى ، عن محمد بن مسلم، أخبرنى إبراهيم بن مَيْسَرة ، أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً [(٦)] ، فقال النبى ﷺ :« لقد أصبح ابن مسعود ، وأمسى كريماً » .

وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوى ، حدثنا حبان ، أنا عبد الله ، أنا محمد بن مسلم ، أخبرنى ابن ميسرة قال : بلغنى أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً فلم يقف ، فقال رسول الله ﷺ[(٧)]: « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » [(٨)] ، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [(٩)] .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [و] [(١٠)] هذه من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : ٢] ، بخلاف الكافر ، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصر عما كان عليه ، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

فقوله : ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أى : بخلاف الكافر الذى ذكر بآيات ربه ، فاستمر على حاله ، كأن لم يسمعها أصم أعمى .

قال مجاهد : قوله : ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: لم يسمعوا ولم يبصروا ، ولم يفقهوا شيئاً.

وقال الحسن البصرى : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « عن » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧) .
(٥) فى أ : « فيه شىء » . (٦) فى أ : « فلم يقف » . (٧) فى أ : « النبى » .
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) ورواه ابن عساكر كما فى المختصر لابن منظور (١٤/ ٥٥) من طريق إبراهيم بن ميسرة به .
(١٠) زيادة من أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال قتادة : قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، يقول: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم ـ والله ـ قوم عقلوا عن الله (١) وانتفعوا بما (٢) سمعوا من كتابه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن حُمْران ، حدثنا ابن عَوْن قال : سألت الشعبى قلت : الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يعنى : أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة (٣) ،فلا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بيِّن .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: يعنى : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقرُّ به أعينهم فى الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصرى ـ وسئل عن هذه الآية ـ فقال : أن يُرى الله العبدَ المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شىء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

وقال ابن جُرَيْج فى قوله : ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال : يعبدونك ويحسنون (٤) عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يَعْمَر (٥) بن بشر (٦) ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجبُ ، ما قال إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَراً غَيَّبه الله عنه ، لا يدرى لو شهده كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوام أكبَّهم الله على مناخرهم فى جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد (٧) كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبى ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء فى فترة من جاهلية ، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفُرقان فَرَقَ به بين الحق والباطل ، وفَرقَ بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل

---

(١) فى أ : « الحق » . (٢) فى أ : « مما » . (٣) فى ف ، أ : « أمر السجدة » .
(٤) فى أ : « فيحسنون » . (٥) فى هـ ، ف ، أ : « معمر » والمثبت من المسند . (٦) فى أ : « بشير » .
(٧) فى ف ، أ : « وقد » .

www.besturdubooks.wordpress.com

النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وإنها التى قال اللّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ . وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه [١] .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾: قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين [٢] [ودعاة] [٣] إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم [٤] ، وأن يكون هداهم متعدياً [٥] إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر [٦] ثواباً ، وأحسن مآباً ؛ ولهذا ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية » [٧] .

﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾.

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من [هذه] [٨] الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال [٩] الجليلة [١٠] ـ قال بعد ذلك كله : ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾أى : المتصفون بهذه ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ الْغُرْفَةَ ﴾ وهى الجنة .

قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسُّدِّىّ : سميت بذلك لارتفاعها .

﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على القيام بذلك ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ أى : فى الجنة ﴿ تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾ أى : يُبْتَدرُون [١١] فيها بالتحية والإكرام. ويلقون [فيها] [١٢] التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

وقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : مقيمين ، لا يظعنون ولا يَحُولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨] .

وقوله ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى : حسنت منظرا وطابت مَقيلا ومنزلا .

---

(١) المسند (٦/ ٢) .
(٢) فى أ : « مهديين » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « ذراريهم » .
(٥) فى أ : « متعد »
(٦) فى أ : « أكبر » .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) فى ف ، أ : « الأقوال والأفعال » .
(١٠) فى أ : « الجميلة » .
(١١) فى أ : « يبتدون » .
(١٢) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال (١) تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ أى : لا يبالى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا .

وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربى .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر اللّه الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه (٢) إلى المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُم ﴾ أى : أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى : فسوف يكون تكذيبكم (٣) لزاماً لكم ، يعنى : مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد اللّه بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومحمد بن كعب القرظى ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الحسن البصرى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعنى : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما . واللّه أعلم.

(١) فى أ : « وقال » . (٢) فى ف : « حبب » . (٣) فى أ : « تكذيبهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٥ ـ سورة الفرقان

(مكية وهي سبع وسبعون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٢٥ الفرقان

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ٢٥ الفرقان

(سورة الفرقان مكية إلا الآيات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ فمدنية وآياتها ٧٧)

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (تبارك الذي نزل الفرقان) البركة النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية وكثرة الخير ودوامه أيضاً ونسبتها إلى الله عز وجل على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله التي من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شأنه تعالى وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذكر فإن مالا يتصور نسبته إليه سبحانه حقيقة من الصيغ كالتكبر ونحوه لا تنسب إليه تعالى إلا باعتبار غايتها وعلى المعنى الثاني باعتبار كثرة مايفيض منه على مخلوقاته لاسيما على الإنسان من فنون الخيرات التي من جملتها تنزيل القرآن المنطوي على جميع الخيرات الدينية والدنيوية والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وتزايدها شيئاً فشيئاً وآنا فآنا بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها ولا ستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وتحققها بالفعل والإشعار بالتعجب المناسب للإنشاء والإنباء عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها في حق غيره تعالى ولا استعمال غيرها من الصيغ في حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين أي فصل بينهما سمي به القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل بأحكامه أو بين المحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصولا بعضه من بعض في نفسه أو في إنزاله (على عبده) محمد ﷺ وإيراده ﷺ بذلك العنوان لتشريفه والإيذان بكونه ﷺ في أقصى مراتب العبودية والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل رداً على النصارى (ليكون) غاية للتنزيل أي نزله عليه ليكون هو ﷺ أو الفرقان (للعالمين) من الثقلين (نذيراً) أي منذراً أو إنذاراً مبالغة أو ليكون تنزيله إنذاراً وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة وتقديم اللام على عاملها لمراعاة الفواصل وإبراز تنزيل الفرقان في معرض الصلة التي حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع إنكار الكفرة له لإجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيهاً على كمال قوة دلائله وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى
٢ لا ريب فيه (الذي له ملك السموات والأرض) أي له خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ٢٥ الفرقان

السلطان القاهر والاستيلاء الباهر عليهما المستلزمان للقدرة التامة والتصرف الكلى فيهما وفيما فيهما إيجاداً وإعداما وإحياء وإماتة وأمراً ونهياً حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أو على أنه نعت الموصول الأول أو بيان له أو بدل منه وما بينهما ليس بأجنبي لأنه من تمام صلته ومعلومية مضمونه للكفرة مما لا ريب فيه لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ونظائره أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصر (ولم يتخذ ولداً) كما يزعم الذين يقولون فى حق المسيح والملائكة مايقولون فسبحان الله عما يصفون وهو معطوف على ماقبله من الجملة الظرفية ونظمه فى سلك الصلة الإيذان بأن مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل لاسيما بعد تقرير ماقبله (ولم يكن له شريك فى الملك) أى ملك السموات والأرض وهو أيضاً عطف على الصلة وإفراده بالذكر مع أن ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعاً للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والدرء فى نحورهم وتوسيط نفى اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للأول (وخلق كل شىء) أى أحدث كل موجود من الموجودات إحداثاً جارياً على سنن التقدير حسبما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة بأن خلق كلا منها من مواد مخصوصة على صور معينة ورتب فيه قوى وخواص مختلفة الآثار والأحكام (فقدره) أى هيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به (تقديراً) بديعاً لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبر فى أمور المعاش والمعاد واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة وهكذا أحوال سائر الأنواع وقيل أريد بالخلق مطلق الإيجاد والإحداث مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير وإن لم يخل عنه فى نفس الأمر فالمعنى أوجد كل شىء فقدره فى ذلك الإيجاد تقديراً وأما ماقيل من أنه سمى إحداثه تعالى خلقاً لأنه تعالى لا يحدث شيئاً إلا على وجه التقدير من غير تفاوت ففيه أن ارتكاب المجاز بحمل الخلق على مطلق الإحداث لتجريده عن معنى التقدير فاعتباره فيه بوجه من الوجوه مخل بالمرام قطعاً وقيل المراد بالتقدير الثانى هو التقدير للبقاء إلى الأجل المسمى وأياً ما كان فالجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها من الجمل المنتظمة مثلها فى سلك الصلة فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضى استقلاله تعالى باتصافه بصفات الألوهية يقتضى انتظام كل ماسواه كائناً ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يشذ عنها شىء من ذلك قطعاً وما كان كذلك كيف يتوهم كونه ولداً

٣ له سبحانه أو شريكا فى ملكه (واتخذوا من دونه آلهة) بعدما بين حقيقة الحق فى مطلع السورة الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسوله ﷺ ووصفه تعالى بصفات الكمال وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل عقب ذلك بحكاية أباطيل المشركين فى حق المنزل سبحانه والمنزل والمنزل عليه على الترتيب وإظهار بطلانها

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ٢٥ الفرقان

والإضمار من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة ماقبله من نفى الشريك عليهم أى اتخذوا لأنفسهم متجاوزين الله تعالى الذى ذكر بعض شئونه الجليلة من اختصاص ملك السموات والأرض به تعالى وانتفاء الولد والشريك عنه وخلق جميع الأشياء وتقديرها أبدع تقدير آلهة (لا يخلقون شيئاً) أى لا يقدرون على خلق شىء من الأشياء أصلا (وهم يخلقون) كسائر المخلوقات وقيل لا يقدرون على أن يختلقوا شيئاً وهم يختلقون حيث تختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير وقوله تعالى (ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً) لبيان مالم يدل عليه ماقبله من مراتب عجزهم وضعفهم فإن بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر وجلب النفع فى الجملة كالحيوان وهؤلاء لا يقدرون على التصرف فى ضر ماليدفعوه عن أنفسهم ولا فى نفع ما حتى يجلبوه إليهم فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم وتقديم ذكر الضر لأن دفعه مع كونه أهم فى نفسه أول مراتب النفع وأقدمها والتنصيص على قوله تعالى (ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) أى لا يقدرون على التصرف فى شىء منها بإماتة الأحياء وإحياء الموتى وبعثهم بعد بيان عجزهم عما هو أهون من هذه الأمور من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك وفيه إيذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم
٤ كأنهم غير عارفين بانتفاء مانفى عن آلهتهم من الأمور المذكورة مفتقرون إلى التصريح بذلك (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك) شروع فى حكاية أباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معاً وإبطالها والموصول إما عبارة عن غلاتهم فى الكفر والطغيان وهم النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم وروى عن الكلبى ومقاتل أن القائل هو مضر بن الحرث والجمع لمشايعة الباقين له فى ذلك وأما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة والإيذان بأن ما تفوهوا به كفر عظيم وفى كلمة هذا حط لرتبة المشار إليه أى ماهذا إلا كذب مصروف عن وجهه (افتراه) يريدون أنه اختلقه رسول الله ﷺ (وأعانه عليه) أى على اختلاقه (قوم آخرون) يعنون اليهود بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارجة وهو يعبر عنها بعبارته وقيل هما جبر ويسار كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل وقيل هو عابس وقد مر تفصيله فى سورة النحل (فقد جاءوا ظلماً) منصوب بجاءوا فإن جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته أو بنزع الخافض أى بظلم قاله الزجاج والتنوين للتفخيم أى جاءوا بما قالوا ظلماً هائلا عظيما لا يقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكا مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والأحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والأمور الغيبية بحيث لا ينال عقول البشر ولا يفى بفهمه القوى والقدر

وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ ٢٥ الفرقان

قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ ٢٥ الفرقان

وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ٢٥ الفرقان

(وزوراً) أى كذباً كبيراً لا يبلغ غايته حيث نسبوا إليه ﷺ ماهو برىء منه والفاء لترتيب مابعدها *
على ما قبلها لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه بل
على أن الثانى هو عين الأول حقيقة وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد لتحقيق ذلك المعنى فإن
ما جاءوه من الظلم والزور هو عين ماحكى عنهم لكنه لما كان مغايراً له فى المفهوم وأظهر منه بطلاناً رتب
عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لأمره (وقالوا أساطير الأولين) بعد ما جعلوا الحق الذى ٥
لا محيد عنه إفكا مختلقاً بإعانة البشر بينوا على زعمهم الفاسد كيفية الإعانة والأساطير جمع أسطار أو أسطورة
كأحدوثة وهى ما سطره المتقدمون من الخرافات (اكتتبها) أى كتبها لنفسه على الإسناد المجازى أو *
استكتبها وقرىء على البناء للمفعول لأنه ﷺ أمى وأصله اكتتبها له كاتب لحذف اللام وأفضى الفعل
إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمى بخصوصه وبنى الفعل
للضمير المنفصل فاستتر فيه (فهى تملى عليه) أى تلقى عليه تلك الأساطير بعد اكتتابها ليحفظها من أفواه *
من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة أو تملى على الكاتب على
أن معنى اكتتبها أراد اكتتابها أو استكتابها ورجع الضمير المجرور إليه ﷺ لإسناد الكتابة فى ضمن
الاكتتاب إليه ﷺ (بكرة وأصلا) أى دائماً أو خفية قبل انتشار الناس وحين يأوون إلى مساكنهم *
انظر إلى هذه الرتبة من الجراءة العظيمة قاتلهم الله أنى يؤفكون (قل) لهم رداً عليهم وتحقيقاً للحق (أنزله ٦
الذى يعلم السر فى السموات والأرض) وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الجلية والخفية للإيذان
بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية
التى هى من جملة معلوماته تعالى أى ليس ذلك كما يفترى ويفتعل بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث
الملفقة وأساطير الأولين بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لا يعزب عن علمه شىء من الأشياء
وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته
وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لا يهتدى إليها ولا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم
الخبير وقد جعلتموه إفكا مفترى من قبيل الأساطير واستوجبتم بذلك أن يصب عليكم سوط
العذاب صبا فقوله تعالى (إنه كان غفوراً رحيما) تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة أى أنه *
تعالى أزلا وأبداً مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعين للتأخير فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون
فى حقه مع كمال استيجابه إياها وغاية قدرته تعالى عليها (وقالوا مال هذا الرسول) شروع فى حكاية ٧

أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٢٥ الفرقان

ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ٢٥ الفرقان

جنايتهم المتعلقة بخصوصية المنزل عليه وما استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء خبرها مابعدها من الجار والمجرور وفى هذا تصغير لشأنه ﷺ وتسميته ﷺ رسولا بطريق الاستهزاء به ﷺ كما قال فرعون إن رسولكم الذى أرسل إليكم وقوله تعالى (يأكل الطعام) حال من الرسول والعامل فيها ماعمل فى الجار من معنى الاستقرار أى أى شىء وأى سبب حصل لهذا الذى يدعى الرسالة حال كونه يأكل الطعام كما نأكل (ويمشى فى الأسواق) لابتغاء الأرزاق كما نفعله على توجيه الإنكار والنفى إلى السبب فقط مع تحقق المسبب الذى هو مضمون الجملة الحالية كما فى قوله تعالى فما لهم لايؤمنون وقوله مالكم لا ترجون لله وقاراً فكما أن كلا من عدم الإيمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكروا استبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب نقيضه كذلك كل من الأكل والمشى أمر محقق قداستبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب عدمه خلا أن استبعاد المسبب وإنكار السبب ونفيه فى عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق وفى الأكل والمشى بطريق التهكم والاستهزاء فإنهم لا يستبعدونهما ولا ينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما وإنما الذى يستبعدونه الرسالة المنافية لهما على زعمهم يعنون أنه إن صح مايدعيه فما باله لم يخالف حاله حالنا وهل هو إلا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور أنظارهم على المحسوسات فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأمور نفسانية كما أشير إليه بقوله تعالى قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد (لولا أنزل إليه ملك) أى على صورته وهيئته (فيكون معه نذيراً) تنزل منهم من اقتراح أن يكون ملكا مستغنياً عن الأكل والشرب إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويكون ردءاً له فى الإنذار وهو يعبر عنه ويفسر مايقوله للعامة وقوله
٨ تعالى (أو يلقى إليه كنز) تنزل من تلك المرتبة إلى اقتراح أن يلقى إليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج إلى طلب المعاش ويكون دليلا على صدقه وقوله تعالى (أو تكون له جنة يأكل منها) تنزل من ذلك إلى اقتراح ماهو أيسر منه وأقرب من الوقوع وقرىء نأكل بنون الحكاية وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم (وقال الظالمون) هم القائلون الأولون وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه لكونه إضلالا خارجا عن حد الضلال مع مافيه من نسبته ﷺ إلى المسحورية أى قالوا للمؤمنين (إن تتبعون) أى ماتتبعون (إلا رجلا مسحوراً) قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر وهى الرئة أى
٩ بشراً لا ملكا على أن الوصف لزيادة التقرير والأول هو الأنسب بحالهم (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) استعظام للأباطيل التى اجترءوا على التفوه بها وتعجيب منها أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة البعيدة من الوقوع (فضلوا) أى عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشىء يمكن صدوره

تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ٢٥ الفرقان

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ٢٥ الفرقان

عمن له أدنى عقل وتمييز فبقوا متحيرين (فلا يستطيعون سبيلا) إلى القدح فى نبوتك بأن يجدوا قولا * يستقرون عليه وإن كان باطلا فى نفسه أو فضلوا عن الحق ضلالا مبيناً فلا يجدون طريقاً موصلا إليه
١٠ فإن من اعتاد استعمال أمثال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدى إلى استعمال المقدمات الحقة (تبارك الذى) أى تكاثر وتزايد خير الذى (إن شاء جعل لك) فى الدنيا عاجلا شيئاً (خيراً) لك (من ذلك) الذى اقترحوه من أن يكون لك جنة تأكل منها بأن يعجل لك مثل ماوعدك فى الآخرة وقوله تعالى (جنات تجرى من تحتها الأنهار) بدل من خيراً ومحقق لخيريته مما قالوا لأن ذلك كان مطلقاً عن قيد التعدد وجريان الأنهار (ويجعل لك قصوراً) عطف على محل الجزاء الذى هو جعل وقرىء بالرفع عطفاً على نفسه لأن الشرط * إذا كان ماضياً جاز فى جزائه الرفع والجزم كما فى قول القائل [وإن أتاه خليل يوم مسئلة * يقول لا غائب مالى ولا حرم] ويجوز أن يكون استئنافاً بوعد ما يكون له فى الآخرة وقرىء بالنصب على أنه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأن عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحكم والمصالح وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وإنما الذى له وجه فى الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف
١١ للحكمة بالكلية فإن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوتوا فى الدنيا مع النبوة ملكا عظيما (بل كذبوا بالساعة) إضراب عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جناياتهم الأخرى للتخلص إلى بيان ما لهم فى الآخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى (وأعتدنا لمن كذب * بالساعة سعيراً) الخ أى أعتدنا لهم ناراً عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على مايشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم أو لكل من كذب بها كائناً من كان وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أولياً ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع ومدار إعتاد السعير لهم وإن لم يكن مجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تكذيبهم بسائر ماجاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هى العلة القريبة لدخولهم السعير أشير إلى سببية تكذيبها لدخولها وقيل هو عطف على وقالوا ما لهذا الخ على معنى بل أتوا بأعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيراً فإن جراءتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق وقيل هو متصل بما قبله من الجواب المبنى على التحقيق المنبىء عن الوعد بالجنات فى الآخرة مسوق لبيان أن ذلك لا يجدى نفعاً ولا يحلى بطائل على طريقة قول من قال [عوجوا لنعم فحيوا دمنة الدار * ماذا تحيون من نؤى وأحجار] والمعنى أنهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ٢٥ الفرقان

وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ٢٥ الفرقان

لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ٢٥ الفرقان

مثل ماوعدك فى الآخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن
١٢ الكرامة ليست إلا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة إلى تكذيبك وقوله تعالى (إذا رأتهم) الخ صفة للسعير أى
إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد كقوله ﷺ لا تتراءى ناراهما أى لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما
بمرأى من الأخرى على المجاز كأن بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ
والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم حقيقة أو تمثيلا ومن فى قوله تعالى (من مكان بعيد)
إشعار بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة
وفيه مزيد تهويل لأمرها قال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة (سمعوا لها تغيظاً
وزفيراً) أى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه
هذا وإن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر
١٣ وقيل إن ذلك لزبانيتها فنسب إليها على حذف المضاف (وإذا ألقوا منها مكاناً) نصب على الظرفية ومنها
حال منه لأنه فى الأصل صفة له (ضيقاً) صفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فإن الكرب مع الضيق كما أن
الروح مع السعة وهو السر فى وصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض وعن ابن عباس وابن عمر
رضى الله تعالى عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبى ﷺ عن ذلك فقال والذى
نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى الأسفلون يرفعهم اللهب
والأعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرىء ضيقاً بسكون الياء (مقرنين) حال من مفعول ألقوا
أى إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين
مع الشياطين فى السلاسل كل كافر مع شيطان وفى أرجلهم الأصفاد (دعوا هنالك) أى فى ذلك المكان
١٤ الهائل والحالة الفظيعة (ثبوراً) أى يتمنون هلاكا وينادونه ياثبوراه تعال فهذا حينك وأوانك (لا تدعوا
اليوم ثبوراً واحداً) على تقدير قول إما منصوب على أنه حال من فاعل دعوا أى دعوه مقولا لهم ذلك
حقيقة بأن يخاطبهم الملائكة به لتنبيههم على خلود عذابهم وأنهم لا يجابون إلى مايدعونه ولا ينالون
مايتمنونه من الهلاك المنجى أو تمثيلا وتصويراً لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول
ولا خطاب أى دعوه حال كونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وإما مستأنف وقع جوابا عن سؤال ينسحب
عليه الكلام كأنه قيل فماذا يكون عند دعائهم المذكور فقيل يقال لهم ذلك إقناطاً مما علقوا به أطماعهم من
الهلاك وتنبيهاً على أن عذابهم الملجىء لهم إلى استدعاء الهلاك بالمرة أبدى لا خلاص لهم منه أى

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ٢٥ الفرقان

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ ٢٥ الفرقان

* لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد (وادعوا ثبوراً كثيراً) أي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته
في نفسه فإن مايدعونه ثبور واحد في حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الأدعية الكثيرة صار كأنه
ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحداً وادعوه أدعية كثيرة فإن ما أنتم فيه
من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء في كل آن وهذا أدل على فظاعة العذاب
وهوله من جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أو لتعدده بتجدد الجلود كما لا يخفى
وأما ما قيل من أن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع
وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم
فلا يلائم المقام كيف لا وهم إنما يدعون هلاكاً ينهي عذابهم وينجيهم منه فلا بد أن يكون الجواب إقناطاً
لهم من ذلك ببيان استحالته ودوام مايوجب استدعاءه من العذاب الشديد وتقييد النهي والأمر باليوم
لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة (قل) تقريعاً لهم وتهكماً بهم وتحسيراً ١٥
على مافاتهم (أذلك) إشارة إلى ماذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الأحوال الهائلة ومافيه
من معنى البعد للإشعار بكونها في الغاية القاصية من الهول والفظاعة أي قل لهم أذلك الذي ذكر من السعير
التي أعتدت لمن كذب بالساعة وشأنها كيت وكيت وشأن أهلها ذيت وذيت (خير أم جنة الخلد التي وعد
المتقون) أي وعدها المتقون وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح وقيل للتمييز عن جنات الدنيا والمراد بالمتقين
المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية ولا الثالثة منها فقط (كانت) تلك الجنة (لهم) في علم الله تعالى
أو في اللوح المحفوظ أو لأن ماوعده الله تعالى فهو كائن لا محالة فحكى تحققه ووقوعه (جزاء) على أعمالهم
حسبما مر من الوعد الكريم (ومصيراً) ينقلبون إليه (لهم فيها مايشاءون) أي مايشاءونه من فنون الملاذ ١٦
والمشتهيات وأنواع النعيم كما في قوله تعالى ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولعل كل فريق منهم يقتنع بما أتيح
له من درجات النعيم ولا تمتد أعناق هممهم إلى مافوق ذلك من المراتب العالية فلا يلزم الحرمان ولا
تساوي مراتب أهل الجنان (خالدين) حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ
وقيل من فاعل يشاءون (كان) أي مايشاءونه وقيل الوعد المدلول عليه بقوله تعالى وعد المتقون (على ربك
وعداً مسئولا) أي موعوداً حقيقاً بأن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون أو مسئولا يسأله
الناس في دعائهم بقولهم ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي
وعدتهم وما في على من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالى ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز
فإن تعلق الإرادة بالموعود متقدم على الوعد الموجب للإنجاز وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة
إلى ضميره ﷺ من تشريفه والإشعار بأنه ﷺ هو الفائز آثر ذي أثير بمغانم الوعد الكريم مالا يخفى .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ٢٥ الفرقان

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ ٢٥ الفرقان

١٧ (ويوم يحشرهم) نصب على أنه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى قل أذلك الخ أى واذكر لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عزوجل وتعليق التذكير باليوم مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث الهائلة قدمر وجهه غير مرة أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة مافيه والإيذان بقصور العبارة عن بيانه أى يوم يحشرهم يكون من الأحوال والأهوال مالا يفى ببيانه المقال وقرىء بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم وبكسر الشين أيضاً (وما يعبدون من دون الله) أريد به مايعم العقلاء وغيرهم إما لأن كلمة ما موضوعة للكل كما ينبىء عنه أنك إذا رأيت شبحاً من بعيد تقول ماهو أو لأنه أريد به الوصف لا الذات كأنه قيل ومعبوديهم أولتغليب الأصنام على غيرها تنبيهاً على أنهم مثلها فى السقوط عن رتبة المعبودية أو اعتباراً لغلبة عبدتها أو أريد به الملائكة والمسيح وعزير بقرينة السؤال والجواب أو الأصنام ينطقها الله تعالى أو تكلم بلسان الحال كما قيل فى شهادة الأيدى والأرجل (فيقول) أى الله عزوجل للمعبودين إثر حشر الكل تقريعاً للعبدة وتبكيتاً لهم وقرىء بالنون كماعطف عليه وقرىء هذا بالياء والأول بالنون على طريق الالتفات إلى الغيبة (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) بأن دعوتموهم إلى عبادتكم كما فى قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله (أم هم ضلوا السبيل) أى عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد فحذف الجار وأوصل الفعل إلى المفعول كقوله تعالى وهو يهدى السبيل والأصل إلى السبيل أو للسبيل

١٨ وتقديم الضميرين على الفعلين لأن المقصود بالسؤال هو المتصدى للفعل لا نفسه (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا (سبحانك) تعجباً مما قيل لهم لأنهم إما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شىء أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم إضلال عباده أو تنزيهاً له تعالى عن الأنداد (ما كان ينبغى لنا) أى ماصح وما استقام لنا (أن نتخذ من دونك) أى متجاوزين إياك (من أولياء) نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك فضلا أن يتخذنا ولياً أو أن نتخذ من دونك أولياء أى أتباعا فإن الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع كالمولى يطلق على الأعلى والأسفل ومنه أولياء الشيطان أى أتباعه وقرىء على البناء للمفعول من المتعدى إلى المفعولين كما فى قوله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا ومفعوله الثانى من أولياء على أن من للتبعيض أى أن نتخذ بعض أولياء وهى على الأول مزيدة وتنكير أولياء من حيث إنهم أولياء مخصوصون

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ٢٥ الفرقان

وهم الجن والأصنام (ولـكن متعتهم وآباءهم) استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزههم * عن إضلالهم وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة أى ما أضللناهم ولـكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فيها (حتى نسوا الذكر) أى غفلوا عن ذكرك أو عن التذكر فى آلائك والتدبر فى آياتك فجعلوا أسباب * الهداية بسوء اختيارهم ذريعة إلى الغواية (وكانوا) أى فى قضائك المبنى على علمك الأزلى المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم من الأعمال السيئة (قوما بوراً) أى هالكين على أن بوراً مصدر * وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعوذ فى جمع عائذ والجملة اعتراض

١٩ تذييلى مقرر لمضمون ماقبله وقوله تعالى (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهه إلى العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أى فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون أيها الكفرة (بما تقولون) * أى فى قولكم إنهم آلهة وقيل فى قولكم هؤلاء أضلونا وبأباه أن تكذيبهم فى هذا القول لا تعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلا وإنما الذى يستتبعه تكذيبهم فى زعمهم أنهم آلهتهم وناصروهم وأياً ما كان فالباء بمعنى فى أو هى صلة للتكذيب على أن الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب وقرىء بالياء أى كذبوكم بقولهم سبحانك الآية (فما تستطيعون) أى ماتملكون (صرفا) أى * دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أى لا بالذات ولا بالواسطة وقيل حيلة من قولهم إنه ليتصرف فى أموره أى يحتال فيها وقيل توبة (ولا نصراً) أى فرداً من أفراد النصر لا من جهة * أنفسكم ولا من جهة غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ماقبلها من التكذيب لـكن لا على معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم وقرىء يستطيعون على صيغة الغيبة أى مايستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو يحتالوا لـكم ولا ينصروكم وترتب مابعد الفاء على ماقبلها كما مر بيانه (ومن يظلم منكم) أيها المكلفون كدأب هؤلاء * حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ماهم عليه من الفساد وتجاوزوا فى اللجاج كل حد معتاد (نذقه) فى الآخرة (عذاباً كبيراً) لا يقادر قدره وهو عذاب النار وقرىء يذقه على أن الضمير * لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطاً وتعميم الظلم لا يستلزم اشتراك الفاسق للكافر فى إذاقة العذاب الكبير فإن الشرط فى اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعا وبالعفو عندنا .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ٢٥ الفرقان

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ٢٥ الفرقان

٢٠ (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) جواب عن قولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق والجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه وأقيمت هى مقامه كما فى قوله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم والمعنى ما أرسلنا أحداً قبلك من المرسلين إلا آكلين وماشين وقيل هى حال والتقدير إلا وإنهم ليأكلون الخ وقرىء يمشون على البناء للمفعول أى يمشيهم حوائجهم أو الناس (وجعلنا بعضكم) تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام بطريق التغليب والمراد بهذا البعض كفار الأمم فإن اختصاصهم بالرسل وتبعيتهم لهم مصحح لأن يعدوا بعضاً منهم وبما فى قوله تعالى (لبعض) رسلهم لكن لا على معنى جعلنا مجموع البعض الأول (فتنة) أى ابتلاء ومحنة لمجموع البعض الثانى ولا على معنى جعلنا كل فرد من أفراد البعض الأول فتنة لكل فرد من أفراد البعض الثانى ولا على معنى جعلنا بعضاً مبهماً من الأولين فتنة لبعض مبهم من الآخرين ضرورة أن مجموع الرسل من حيث هو مجموع غير مفتون بمجموع الأمم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الأمم ولا بعض مبهم من الأولين ببعض مبهم من الآخرين على بل معنى جعلنا كل بعض معين من الأمم فتنة لبعض معين من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الأمم الكافرة فتنة لرسولها المعين المبعوث إليها وإنما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال هذا وأما تعميم الخطاب لجميع المكلفين وإبقاء البعضين على العموم والإبهام على معنى وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة لبعض آخر منكم فيأباه قوله تعالى (أتصبرون) فإنه غاية للجعل المذكور ومن البين أن ليس ابتلاء كل أحد من آحاد الناس مغياً بالصبر بل بما يناسب حاله على أن الاقتصار على ذكره من غير تعرض لما دل له بما يدل على أن اللائق بحال المفتونين والمتوقع صدوره عنهم هو الصبر لا غير فلا بد أن يكون المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته ﷺ فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم وبمناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم وأقاويلهم الخارجة عن حدود الإنصاف لنعلم صبركم وقوله تعالى (وكان ربك بصيراً) وعد كريم للرسول ﷺ بالأجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له ﷺ بالالتفات إلى اسم الرب مضافا إلى ضميره ﷺ

٢١ (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) شروع فى حكاية بعض آخر من أقاويلهم الباطلة وبيان بطلانها إثر إبطال أباطيلهم السابقة والجملة معطوفة على قوله تعالى وقالوا مالهذا الرسول الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر عمن يعتقد المصير إلى الله

يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ٢٥ الفرقان

عز وجل ولقاء الشيء عبارة عن مصادفته من غير أن يمنع مانع من إدراكه بوجه من الوجوه والمراد بلقائه تعالى إما الرجوع إليه تعالى بالبعث والحشر أو لقاء حسابه تعالى كما فى قوله تعالى إنى ظننت أنى ملاق حسابيه وبعدم رجائهم إياه عدم توقعهم له أصلا لإنكارهم البعث والحساب بالكلية لاعدم أملهم حسن اللقاء ولاعدم خوفهم سوء اللقاء لأن عدمهما غير مستلزم لما هم عليه من العتو والاستكبار وإنكار البعث والحساب رأساً أى وقال الذين لا يتوقعون الرجوع إلينا أو حسابنا المؤدى إلى سوء العذاب الذى تستوجبه مقالتهم (لولا أنزل علينا الملائكة) أى هلا أنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد ﷺ وقيل هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة وهو الأنسب لقولهم (أو نرى ربنا) من حيث أن كلا القولين ناشىء عن غاية غلوهم فى المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لقد استكبروا فى أنفسهم) أى فى شأنها حتى اجترءوا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء (وعتوا) أى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان (عتواً كبيراً) بالغاً أقصى غاياته حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا لولا يكلمنا الله ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات القاهرة التى تخر لها صم الجبال فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب حتى منتهم أنفسهم الخبيثة أمانى لا تكاد ترنوا إليها أحداق الأمم ولا تمتد إليها أعناق الهمم ولا ينالها إلا أولو العزائم الماضية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى والله لقد استكبروا

٢٢ الآية وفيه من الدلالة على غاية قبح ماهم عليه والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم مالا يخفى (يوم يرون الملائكة) استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية ما يكون من الشناعة وإنما قيل يوم يرون دون أن يقال يوم ينزل الملائكة إيذاناً من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه بل على وجه آخر غير معهود ويوم منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى (لا بشرى يومئذ للمجرمين) فإنه فى معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول إلى نفى الجنس للمبالغة فى نفى البشرى وما قيل من أنه بمعنى يمنعون البشرى أو يعدمونها تهوين للخطب فى مقام التهويل فإن منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفقدونها وأين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن إثبات ضدها كما أن نفى المحبة فى مثل قوله تعالى والله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والمقت دل على ثبوت النذر لهم على أبلغ وجه وآكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكده بشرى على أن لا غير نافية للجنس وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه أى اذكر يوم رؤيتهم الملائكة ويومئذ على كل حال تكرير للتأكيد والتهويل مع ما فيه من الإيذان بأن تقديم الظرف للاهتمام لا لقصر نفى البشرى على ذلك الوقت فقط فإن ذلك مخل بتفظيع حالهم وللمجرمين تبيين على أنه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالإجرام مع ماهم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق المؤمنين ثم الالتجاء فى إخراجهم عن الحرمان الكلى إلى أن نفى البشرى حينئذ لا يستلزم نفيه فى جميع الأوقات فيجوز أن يبشروا بالعفو والشفاعة فى وقت آخر بمعزل عن الحق بعيد

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ٢٥ الفرقان

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ٢٥ الفرقان

* (ويقولون) عطف على ماذكر من الفعل المنفي المنبيء عن كمال فظاعة مايحيق بهم من الشر وغاية هول
* مطلعه ببيان أنهم يقولون عند مشاهدتهم له (حجراً محجوراً) وهى كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم فكان المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً وكسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما فى قعدك وعمرك وقد قرىء حجراً بالضم والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام ويقترحونه وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديداً وقالوا ماكانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس شديد فظيع ومحجوراً صفة لحجراً وارادة للتأكيد كما قالوا ذيل ذائل وليل أليل وقيل يقولها الملائكة إقناطاً للكفرة بمعنى حراما محرما عليكم الغفران أو الجنة أو
٢٣ البشرى أى جعل الله تعالى ذلك حراماً عليكم وليس بواضح (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) بيان لحال ماكانوا يعملونه فى الدنيا من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التى لوكانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها بتمثيل حالهم وحال أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد ما تحت أيديهم فأنحى عليها بالإفساد والتحريق ومزقها كل تمزيق بحيث لم يدع لها عيناً ولا أثراً أى عمدنا إليها وأبطلناها أى أظهرنا بطلانها بالكلية من غير أن يكون هناك قدوم ولا شيء يقصد تشبيهه به والهباء شبه غبار يرى فى شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة وهى الغبار ومنثوراً صفته شبه به أعمالهم المحبطة فى الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور منه فى الانتشار بحيث لا يمكن نظمه أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر
٢٤ كما فى قوله تعالى كونوا قردة خاسئين (أصحاب الجنة) هم المؤمنون المشار إليهم فى قوله تعالى قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون الخ (يومئذ) أى يوم إذ يكون ماذكر من عدم التبشير وقولهم حجراً محجوراً وجعل أعمالهم هباء منثوراً (خير مستقراً) المستقر المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الأوقات
* للتجالس والتحادث (وأحسن مقيلا) المقيل المكان الذى يؤوى إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتع بمغازلتهن سمى بذلك لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً وقيل لأنه يفرغ من الحساب فى منتصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وفى وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه على المستقر رمز إلى أنه مزين بفنون الزين والزخارف والتفضيل المعتبر فيهما إما لإرادة الزيادة على الإطلاق أى هم فى أقصى مايكون من خيرية المستقر وحسن المقيل وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين فى الدنيا أو إلى مالهم فى الآخرة بطريق التهكم بهم كما مر فى قوله تعالى قل أذلك خير الآية هذا وقد جوز أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارة إلى أن مكانهم وزمانهم أطيب مايتخيل من الأمكنة والأزمنة

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٢٥ الفرقان

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ٢٥ الفرقان

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ٢٥ الفرقان

٢٥ (ويوم تشقق السماء) أى تتفتح وأصله تتشقق فحذفت إحدى التاءين كما فى تلظى وقرىء بإدغام التاء فى الشين (بالغمام) بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذى ذكر فى قوله تعالى هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة قيل هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبنى إسرائيل (ونزل الملائكة تنزيلا) أى تنزيلا عجيباً غير معهود وقيل تنشق سماء سماء وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد وقرىء ونزلت الملائكة وننزل وننزل على صيغة المتكلم من الإنزال والتنزيل ونزل الملائكة وأنزل الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من تنزل

٢٦ (الملك يومئذ الحق للرحمن) أى السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى العام الثابت صورة ومعنى ظاهراً وباطناً بحيث لا زوال له أصلا ثابت للرحمن يومئذ فالملك مبتدأ والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ وفائدة التقييد أن ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عداه من أيام الدنيا فيكون لغيره أيضاً تصرف صورى فى الجملة وقيل الملك مبتدأ والحق خبره وللرحمن متعلق بالحق أو بمحذوف على التبيين أو بمحذوف هو صفة للحق ويومئذ معمول للملك وقيل الخبر يومئذ والحق نعت للملك وللرحمن على ما ذكر وأياً ما كان فالجملة بمعناها عاملة فى الظرف أى ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقق وقيل الظرف منصوب بما ذكر فالجملة حينئذ استئناف مسوق لبيان أحواله وأهواله وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأن اتصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما فى قوله تعالى يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم والمعنى أن الملك الحقيقى يومئذ للرحمن (وكان) ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ فى الرحمة لعباده (يوما على الكافرين عسيراً) شديداً لهم وتقديم الجار والمجرور لمراعاة الفواصل وأما للمؤمنين فيكون يسيراً بفضل الله تعالى وقد جاء فى الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله

٢٧ (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين والأنامل وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما والمراد بالظالم إما عقبة بن أبى معيط على ما قيل من أنه كان يكثر مجالسة النبى ﷺ فدعاه ﷺ يوماً إلى ضيافته فأبى ﷺ أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه فقال صبأت فقال لا ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال إنى لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه فوجده ساجداً فى دار الندوة ففعل ذلك فقال ﷺ لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم بدر فأمر

يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ٢٥ الفرقان

لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ٢٥ الفرقان

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ٢٥ الفرقان

علياً رضى الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت الأنصارى وطعن ﷺ أبياً يوم أحد فى المبارزة فرجع
إلى مكة ومات وإما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا أولياً وقوله تعالى (يقول) الخ حال من فاعل يعض
وقوله تعالى (ياليتنى) الخ محكى به ويا إما لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه أو المنادى محذوف
أى ياهؤلاء ليتنى (اتخذت مع الرسول سبيلا) أى طريقاً واحداً منجياً من هذه الورطات وهو طريق
الحق ولم تتشعب بى طرق الضلالة أو حصلت فى صحبته ﷺ طريقاً ولم أكن ضالا لا طريق لى قط
٢٨ (ياويلتا) بقلب ياء المتكلم ألفاً كما فى صحارى ومدارى وقرىء على الأصل ياويلتى أى هلكتى تعالى
واحضرى فهذا أوانك (ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا) يريد من أضله فى الدنيا فإن فلاناً كناية عن الأعلام
كما أن الهن كناية عن الأجناس وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم إناثهم وفل كناية
عن نكرة من يعقل من الذكور وفلة عمن يعقل من الإناث والفلان والفلانة من غير العاقل ويخص
فل بالنداء إلا فى ضرورة كما فى قوله [فى لجة أمسك فلانا عن فل] وقوله [خذا حدثانى عن فل وفلان]
وليس فل مرخماً من فلان خلافاً للفراء واختلفوا فى لام فل وفلان فقيل واو وقيل ياء هذا فإن أريد
بالظالم عقبة ففلان كناية عن أبى وإن أريد به الجنس فهو كناية عن علم كل من يضله كائناً من كان من
شياطين الإنس والجن وهذا التمنى منه وإن كان مسوقاً لإبراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل
٢٩ واعتذار بتوريك جنايته إلى الغير وقوله تعالى (لقد أضلنى عن الذكر) تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح
لتعلله وتصديره باللام القسمية للمبالغة فى بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته أى والله لقد أضلنى عن ذكر
الله تعالى أو عن القرآن أو عن موعظة الرسول ﷺ أو كلمة الشهادة (بعد إذ جاءنى) وتمكنت منه وقوله
تعالى (وكان الشيطان للإنسان خذولا) أى مبالغاً فى الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم
يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ماقبله إما من جهته تعالى أو من تمام كلام الظالم على أنه سمى خليله
شيطاناً بعد وصفه بالإضلال الذى هو أخص الأوصاف الشيطانية أو على أنه أراد بالشيطان إبليس
لأنه الذى حمله على مخالة المضلين ومخالفة الرسول الهادى ﷺ بوسوسته وإغوائه لكن وصفه بالخذلان
٣٠ يشعر بأنه كان يعده فى الدنيا ويمنيه بأنه ينفعه فى الآخرة وهو أوفق بحال إبليس (وقال الرسول) عطف
على قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ماقالوه وبيان مايحيق
بهم فى الآخرة من الأهوال والخطوب وإيراده ﷺ بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم
حيث كان ماحكى عنهم قدحا فى رسالته ﷺ أى قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ماشاهد منهم غاية

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ٢٥ الفرقان

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ٢٥ الفرقان

العتو ونهاية الطغيان بطريق البث إلى ربه عز وجل (يارب إن قومى) يعنى الذين حكى عنهم ماحكى من الشنائع (اتخذوا هذا القرآن) الذى من جملته هذه الآيات الناطقة بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينبىء عنه كلمة الإشارة (مهجوراً) أى متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يعرفوا إليه رأساً ولم يتأثروا بوعيده وفيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فإنه روى عنه ﷺ أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفاً لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجوراً اقض بينى وبينه وقيل هو من هجر إذا هذى أى جعلوه مهجوراً فيه إما على زعمهم الباطل وإما بأن هجروا فيه إذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد جوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجراً وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف مالا يخفى فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى

٣١ قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين) تسلية لرسول الله ﷺ وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون مايقولون ويفعلون مايفعلون من الأباطيل جعلنا لكل نبى من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدواً من مجرمى قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى (وكفى بربك هادياً ونصيراً) وعد كريم له ﷺ بالهداية إلى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أى كفاك مالك أمرك ومبلغك إلى الكمال هادياً لك إلى ما وصلك إلى غاية الغايات التى من جملتها تبليغ الكتاب أجله وإجراء أحكامه فى أكناف

٣٢ الدنيا إلى يوم القيامة ونصيراً لك على جميع من يعاديك (وقال الذين كفروا) حكاية لاقتراحهم الخاص بالقرآن الكريم بعد حكاية اقتراحهم فى حقه ﷺ والقائلون هم القائلون أولا وإيرادهم بعنوان الكفر لذمهم به والإشعار بعلة الحكم (لولا نزل عليه القرآن) التنزيل ههنا مجرد عن معنى التدريج كما فى قوله تعالى يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ويجوز أن يراد به الدلالة على كثرة المنزل فى نفسه أى هلا أنزل كله (جملة واحدة) كالكتب الثلاثة وبطلان هذه الكلمة الحمقاء مما لا يكاد يخفى على أحد فإن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى إعجازها وأما القرآن الكريم فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقى على مر الدهور المتحقق فى كل جزء من أجزائه المقدرة بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدى ولا ريب فى أن مايدور عليه فلك الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال ومن ضرورة تغيرها وتجددها تغير مايطابقها حتما على أن فيه فوائد جمة قد أشير إلى بعض منها بقوله تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك) فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٢٥ الفرقان

وبيان الحكمة فى التنزيل التدريجى ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده وذلك إشارة إلى مايفهم من كلامهم أى مثل ذلك التنزيل المفرق الذى قدحوا فيه واقترحوا خلافه ونزلناه لا تنزيلا مغايراً له لنقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك فإن فيه تيسير الحفظ النظم وفهم المعانى وضبط الأحكام والوقوف على تفاصيل ما روعى فيها من الحكم والمصالح المبنية على المناسبة على أنها منوطة بأسبابها الداعية إلى شرعها ابتداء أو تبديلا بالنسخ من أحوال المكلفين وكذلك عامة ماورد فى القرآن المجيد من الأخبار وغيرها متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والأفاعيل ومن قضية تجددها تجدد مايتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية إلى حكايتها وإبطالها وبيان مايؤول إليه حالهم فى الآخرة على أنهم فى هذا الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه حيث أمروا بالإتيان بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فكيف لو تحدوا بكلمة وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعاً لا يقادر قدره ومعنى ترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعى والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناه بيانا فيه ترتيل وتثبيت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلنا بعضه فى إثر بعض وقيل هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيئاً فشيئاً
٣٣ فى عشرين أو فى ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل (ولا يأتونك بمثل) من الأمثال التى من جملتها ماحكى من اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الأمثال أى لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان يريدون به القدح فى حقك وحق القرآن (إلا جئناك) فى مقابلته (بالحق) أى بالجواب الحق الثابت الذى ينحى عليه بالإبطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الأجوبة الحقة القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية وقوله تعالى (وأحسن تفسيراً) عطف على الحق أى جئناك بأحسن تفسيراً أو على محل بالحق أى أتيناك بالحق وأحسن تفسيراً أى بيانا وتفصيلا على معنى أنه فى غاية ما يكون من الحسن فى حد ذاته لا أن ما يأتون به له حسن فى الجملة وهذا أحسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب على الحالية أى لا يأتونك بمثل إلا حال إيتائنا إياك الحق الذى لا محيد عنه وفيه من الدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به وتثبيت فؤاده ﷺ مالا يخفى وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الأسئلة وبصحة جميع الأجوبة وبإشارته منبىء عن بطلان السؤال الأخير وصحة جوابه إذ لولا أن تنزيل القرآن على التدريج لما أمكن إبطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده ﷺ من تلك الحيثية هذا وقد جوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التى كانوا يقترحون كونه ﷺ عليها من مقارنة الملك والاستغناء عن الأكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لا يأتونك بحال عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة إلا أعطيناك نحن من الأحوال الممكنة ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذى أنت عليه فى الذات

ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ٢٥ الفرقان

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ٢٥ الفرقان

فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ٢٥ الفرقان

والصفات ويأباه الاستثناء المذكور فإن المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحق مترتباً على ما أتوا به من الأباطيل دامغاً لها ولا ريب فى أن ما آتاه الله تعالى من الملكات السنية اللائقة بالرسالة قد أتاه من
٣٤ أول الأمر لا بمقابلة ما حكى عنهم من الاقتراحات لأجل دمغها وإبطالها (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم) أى يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها ويجرون إلى جهنم وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وأرجلهم إلى فوق. روى عنه ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا وأما ما قيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم إليها فبعيد لأن هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلق بالسفليات أو توجه إليها فى الجملة ومحل الموصول إما النصب أو الرفع على الذم أو الرفع على الابتداء وقوله تعالى (أولئك) بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (شر مكاناً وأضل سبيلا) خبر له أو اسم الإشارة مبتدأ ثان وشر خبره والجملة خبر للموصول ووصف السبيل بالضلال من باب الإسناد المجازى للمبالغة والمفضل عليه الرسول ﷺ على مهاج قوله تعالى قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه كأنه قيل إن حاملهم على هذه الاقتراحات تحقير مكانه ﷺ بتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكاناً وأضل
٣٥ سبيلا وقيل هو متصل بقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا (ولقد آتينا موسى) جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر فى قوله تعالى وكفى بربك هادياً ونصيراً بحكاية ما جرى بين من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبين قومهم حكاية إجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب لقسم محذوف أى وبالله لقد آتينا موسى التوراة أى أنزلناها عليه بالآخرة (وجعلنا معه) الظرف متعلق بجعلنا وقوله تعالى (أخاه) مفعول أول له وقوله تعالى (هرون) بدل من أخاه أو عطف بيان له على عكس ما وقع فى سورة طه وقوله تعالى (وزيراً) مفعول ثان له وقد مر ثمة
٣٦ معنى الوزير أى جعلناه فى أول الأمر وزيراً له (فقلنا) لهما حينئذ (اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) هم فرعون وقومه والآيات هى المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدى موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أى فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيباً مستمراً (فدمرناهم) إثر ذلك التكذيب المستمر (تدميراً) عجيباً هائلا لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقتصر على حاشيتى القصة اكتفاء

وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ٢٥ الفرقان

وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ٢٥ الفرقان

بما هو المقصود وحمل قوله تعالى فدمرناهم على معنى فحكمنا بتدميرهم مع كونه تعسفاً ظاهراً مما لا وجه
له إذ لا فائدة يعتد بها فى حكاية الحكم بتدمير قد وقع وانقضى والتعرض فى مطلع القصة لإيتاء الكتاب
مع أنه كان بعد مهلك القوم ولم يكن له مدخل فى هلاكهم كسائر الآيات للإيذان من أول الأمر ببلوغه
عليه غاية الكمال ونيله نهاية الآمال التى هى إنجاء بنى إسرائيل من ملكة فرعون وإرشادهم إلى طريق الحق
بما فى التوراة من الأحكام إذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذى مر بيانه وقرىء فدمرتهم
٣٧ وفدمرا بهم وفدمرانهم على التأكيد بالنون الثقيلة (وقوم نوح) منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى
فدمرناهم أى ودمرنا قوم نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ماقبله
ترتب تدمير هؤلاء عليه لاسيما وقد بين سببه بقوله تعالى (لما كذبوا الرسل) أى نوحا ومن قبله من الرسل
أو نوحا وحده لأن تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والإسلام وقيل هو منصوب بمضمر
يفسره قوله تعالى (أغرقناهم) وإنما يتسنى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان وأما على تقدير كونها
حرف وجود لوجود فلا لأنه حينئذ جواب لها وجواب لما لا يفسر ماقبله مع أنه مخل بعطف المنصوبات
الآتية على قوم نوح لما أن إهلاكهم ليس بالإغراق فالوجه ما تقدم وقوله تعالى أغرقناهم استئناف مبين
لكيفية تدميرهم (وجعلناهم) أى جعلنا إغراقهم أو قصتهم (للناس آية) أى آية عظيمة يعتبر بها كل من
شاهدها أو سمعها وهى مفعول ثان لجعلنا وللناس ظرف لغو له أو متعلق بمحذوف وقع حالا من آية إذ
لو تأخر عنها لكان صفة لها (وأعتدنا للظالمين) أى لهم والإظهار فى موقع الإضمار للإيذان بتجاوزهم
الحد فى الكفر والتكذيب (عذاباً أليما) هو عذاب الآخرة إذ لا فائدة فى الإخبار بإعتاد العذاب الذى
قد أخبر بوقوعه من قبل أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل فى
٣٨ زمرتهم قريش دخولا أولياً ويحتمل العذاب الدنيوى والأخروى (وعاداً) عطف على قوم نوح وقيل
على المفعول الأول لجعلناهم وقيل على محل الظالمين إذ هو فى معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيد (وثمود)
الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرىء وثمودا على تأويل الحى أو على أنه اسم الأب الأقصى (وأصحاب
الرس) هم قوم يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس
وهى البئر التى لم تطو بعد إذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود
فبعث إليهم نبى فقتلوه فهلكوا وقيل هو الأخدود وقيل بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار وقيل هم
أصحاب حنظلة بن صفوان النبى عليه ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاء لطول
عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ أو دمخ فتنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد

وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ٢٥ الفرقان

وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ٢٥ الفرقان

ولذلك سميت مغرباً فدعا عليها حنظلة عليه السلام فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوه عليه السلام فأهلكوا وقيل قوم كذبوا رسولهم فرسوه أى دسوه فى بئر (وقروناً) أى أهل قرون قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة وعشرون (بين ذلك) أى بين ذلك المذكور من الطوائف والأمم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على ذلك المذكور وذلك المحسوب (كثيراً) لا يعلم مقدارها إلا العليم الخبير ولعل الاكتفاء فى شئون تلك القرون بهذا البيان الإجمالى لما أن كل قرن منها لم يكن فى الشهرة وغرابة القصة بمثابة الأمم المذكورة (وكلا) ٣٩
منصوب بمضمر يدل عليه مابعده فإن ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير والمحذوف الذى عوض عنه التنوين عبارة إما عن الأمم التى لم يذكر أسباب إهلاكهم وإما عن الكل فإن ماحكى عن قوم نوح وقوم فرعون تكذيبهم للآيات والرسل لا عدم التأثر من الأمثال المضروبة أى ذكرنا وأنذرنا كل واحد من المذكورين (ضربنا له الأمثال) أى بينا له القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصى بواسطة الرسل (وكلا) أى كل واحد منهم لا بعضهم دون بعض (تبرنا تتبيراً) عجيباً هائلا لما أنهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له رأساً وتمادوا على ماهم عليه من الكفر والعدوان وأصل التتبير التفتيت قال الزجاج كل شىء كسرته وفتتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة (ولقد أتوا) جملة مستأنفة مسوقة ٤٠
لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبرة وعدم اتعاظهم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها أى وبالله لقد أتى قريش فى متاجرهم إلى الشام (على القرية التى أمطرت) أى أهلكت بالحجارة وهى قرى قوم لوط وكانت خمس قرى مانجت منها إلا واحدة كان أهلها لا يعملون العمل الخبيث وأما البواقى فأهلكها الله تعالى بالحجارة وهى المرادة بقوله تعالى (مطر السوء) وانتصابه إما على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل فى أنبته الله تعالى نباتاً حسناً أى أمطار السوء أو على أنه مفعول ثان إذ المعنى أعطيت أو أوليت مطر السوء (أفلم يكونوا يرونها) توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة مايوجبه والهمزة لإنكار نفى استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار مايوجبها من إتيانهم عليها لا لإنكار استمرار نفى رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها فى الجملة والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها أو أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها فى مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر فى الأول ترك النظر وعدم الرؤية معاً وفى الثانى عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى (بل كانوا لا يرجون نشوراً) إما إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ماجرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب إنكارهم لكون ذلك عقوبة

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ٢٥ الفرقان

إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ٢٥ الفرقان

أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ٢٥ الفرقان

لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا أنه اكتفى عن التصريح بإنكارهم ذلك بذكر مايستلزمه من إنكارهم للجزاء الأخروى الذى هو الغاية من خلق العالم وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور أى عدم توقعه كأنه قيل بل كانوا ينكرون النشور المستتبع للجزاء الأخروى ولا يرون لنفس من النفوس نشوراً أصلا مع تحققه حتما وشموله للناس عموماً واطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصى حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وإنما يحملونه على الاتفاق وإما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر إلى التوبيخ بما هو
٤١ أعظم منه من عدم توقع النشور (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً) أى مايتخذونك إلا مهزوءاً به على معنى قصر معاملتهم معه ﷺ على اتخاذهم إياه ﷺ هزؤاً لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزؤاً كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل مايفعلون بك إلا اتخاذك هزؤاً وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى
* إن أتبع إلا مايوحى إلى من سورة الأنعام وقوله تعالى (أهذا الذى بعث الله رسولا) محكى بعد قول مضمر هو حال من فاعل يتخذونك أى يستهزءون بك قائلين أهذا الذى الخ والإشارة للاستحقار وإبراز بعث الله رسولا فى معرض التسليم بجعله صلة للموصول الذى هو صفته ﷺ مع كونهم فى غاية النكير لبعثه ﷺ بطريق التهكم والاستهزاء وإلا لقالوا أبعث الله هذا رسولا أو أهذا الذى يزعم أنه بعثه الله
٤٢ رسولا (إن كاد) إن مخففة من إن وضمير الشأن محذوف أى إنه كاد (ليضلنا عن آلهتنا) أى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كلياً بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادعاء أن
* عبادتها طريق سوى (لولا أن صبرنا عليها) ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا فى أمثال هذا الكلام تجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما أشير إليه فى قوله تعالى ولقد همت به الخ وهذا اعتراف منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة إلى الحق وإظهار المعجزات وإقامة الحجج والبينات إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم. يروى أنه من قول أبى
* جهل (وسوف يعلمون) جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم ورد لما ينبىء عنه من نسبته ﷺ إلى الضلال فى ضمن الإضلال أى سوف يعلمون البتة وإن تراخى (حين يرون العذاب) الذى يستوجبه كفرهم
* وعنادهم (من أضل سبيلا) وفيه مالا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى لايهملهم وإن أمهلهم
٤٣ (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) تعجيب لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الأقوال

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ٢٥ الفرقان

والأفعال وبيان مالهم من المصير والمآل وتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه
وإلهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الأول للاعتناء به لأنه الذى يدور عليه أمر التعجيب ومن توهم أنهما
على الترتيب بناء على تساويهما فى التعريف فقد زل منه أن المفعول الثانى فى هذا الباب هو المتلبس بالحالة
الحادثة أى أرأيت من جعل هواه إلهاً لنفسه من غير أن يلاحظه وبنى عليه أمر دينه معرضاً عن استماع
الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية على معنى انظر إليه وتعجب منه وقوله تعالى (أفأنت تكون عليه *
وكيلا) إنكار واستبعاد لكونه ﷺ حفيظاً عليه يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده إلى الحق طوعا
أوكرهاً والفاء لترتيب الإنكار على ماقبله من الحالة الموجبة له كأنه قيل أبعد ماشاهدت غلوه فى طاعة
٤٤ الهوى وعتوه عن اتباع الهدى تقسره على الإيمان شاء أو أبى وقوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون
أو يعقلون) إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانه ﷺ لهم ممن يسمع أو يعقل حسبما
ينبىء عنه جده ﷺ فى الدعوة واهتمامه بالإرشاد والتذكير لكن لا على أنه لايقع كالأول بل على أنه
لاينبغى أن يقع أى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ماتتلو عليهم من الآيات حق السماع أو يعقلون
مافى تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن فتعتنى بشأنهم وتطمع فى إيمانهم
وضمير أكثرهم لمن وجمعه باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الضمائر الأول باعتبار لفظها وضمير الفعلين
لأكثر لا لما أضيف هو إليه وقوله تعالى (إن هم إلا كالأنعام) الخ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النكير *
وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة أى ماهم فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء
التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات إلا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة (بل هم *
أضل) منها (سبيلا) لما أنها تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها *
وتطلب ما ينفعها وتجتنب مايضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وتأوى إلى معاطنها وهؤلاء لاينقادون
لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو أعدى عدوهم ولا
يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون
للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى ولأنها إن لم تعتقد حقاً مستتبعاً لاكتساب الخير
لم تعتقد باطلا مستوجباً لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام
الشرور ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلى
ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولأنها غير معطلة
لقوة من القوى المودعة بل صارفة لها إلى ماخلقت هى له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال وأما هؤلاء
فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الأصلية التى فطر الناس عليها مستحقون بذلك أعظم
العقاب وأشد النكال .

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ٢٥ الفرقان

٤٥ (ألم تر إلى ربك) بيان لبعض دلائل التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم والخطاب لرسول الله ﷺ والهمزة للتقرير والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه ﷺ وللإيذان بأن مايعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى أى ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى (كيف مد الظل) أى كيف أنشأ ظل أى مظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتداً لا أنه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار إلى غروبها فإن ذلك مع خلوه عن التصريح بكون نفسه بانشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم وأما ماقيل من أن المراد بالظل مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس وأنه أطيب الأوقات فإن الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف به الجنة فى قوله تعالى وظل ممدود فغير سديد إذ لاريب فى أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلابد أن يراد بالظل مايتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر وإن كان فى الحقيقة ظلا للأفق الشرقى لكنهم لايعدونه ظلا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ولعل توجيه الرؤية إليه سبحانه وتعالى مع أن المراد تقرير رؤيته ﷺ لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره ﷺ غير مقصور على مايطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره معرفة شئون الصانع المجيد وقوله تعالى (ولو شاء لجعله ساكناً) جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من أول الأمر على أنه لامدخل فيما ذكر من المد للأسباب العادية وإنما المؤثر فيه المشيئة والقدرة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء أى ولو شاء سكونه لجعله ساكناً أى ثابتاً على حاله من الطول والامتداد وإنما عبر عن ذلك بالسكون لما أن مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الأوضاع بين المظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة وانتقالا وحاصله أنه لايعتريه اختلاف حال بأن لا تنسخه الشمس وأما التعليل بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فمداره الغفول عما سيق له النظم الكريم ونطق به صريحاً من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه تعالى بالذات وإسقاط الأسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لا بذكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كإقامة الشمس فى مقام واحد على أنها أعظم من إبقاء الظل على حاله فى الدلالة على ماذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه من فروعها ومستتبعاتها فهى أولى وأحق بالإيراد فى معرض البيان وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) عطف على مد داخل فى حكمه أى جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعاً حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات إلى نون العظمة لما فى الجعل المذكور العارى عن التأثير مع مايشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر فى إيراد كلمة التراخى وقوله تعالى :

ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ٢٥ الفرقان

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ٢٥ الفرقان

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ٢٥ الفرقان

(ثم قبضناه) عطف على مد داخل فى حكمه وثم للتراخى الزمانى لما أن فى بيان كون القبض والمد مرتبين ٤٦
دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز أن تكون للتراخى الرتبى
أى أزلناه بعد ما أنشأناه ممتداً ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه من غير
أن يكون له تأثير فى ذلك أصلا وإنما عبر عنه بالقبض المنبىء عن جمع المنبسط وطيه لما أنه قد عبر عن
إحداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالى (إلينا) للتنصيص على كون مرجعه إليه تعالى كما أن *
حدوثه منه عز وجل (قبضاً يسيراً) أى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة *
مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها وقيل إن الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الأرض
تحتها ألقت القبة ظلها على الأرض لعدم النير وذلك مده تعالى إياه ولو شاء لجعله ساكناً مستقراً على تلك
الحالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أى سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل فى
الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص ثم نسخه بها فقبضه قبضاً سهلا يسيراً غير عسير أو قبضاً سهلا
عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما
ذكر إنشاؤه بإنشائها ووصفه باليسر على طريقة قوله تعالى ذلك حشر علينا يسير وصيغة الماضى للدلالة
على تحقق الوقوع (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً) بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته ٤٧
وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه واللام متعلقة
بجعل وتقديمها على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما يعقبه من منافعهم وفى تعقيب بيان أحوال الظل ببيان
أحكام الليل الذى هو ظل الأرض من لطف المسلك مالا مزيد عليه أى هو الذى جعل لكم الليل كاللباس
يستركم بظلامه كما يستركم اللباس (والنوم سباتاً) أى وجعل النوم الذى يقع فى الليل غالباً قطعاً عن *
الأفاعيل المختصة بحال اليقظة عبر عنه بالسبات الذى هو الموت لما بينها من المشابهة التامة فى انقطاع
أحكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى
لم تمت فى منامها (وجعل النهار نشوراً) أى زمان بعث من ذلك السبات كبعث الموتى على حذف المضاف *
وإقامة المضاف إليه مقامه أو نفس البعث على طريق المبالغة وفيه إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج
للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يا بنى كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتنشر (وهو الذى أرسل الرياح) ٤٨
وقرىء بالتوحيد على أن المراد هو الجنس (بشراً) تخفيف بشر جمع بشور أى مبشرين وقرىء بشرى *
وقرىء نشراً بالنون جمع نشور أى ناشرات للسحاب وقرىء بالتخفيف وبفتح النون أيضاً على أنه مصدر

لِنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ٢٥ الفرقان

وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ٢٥ الفرقان

* وصف به مبالغة وقوله تعالى (بين يدى رحمته) استعارة بديعة أى قدام المطر والالتفات إلى نون العظمة
* فى قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) لإبراز كمال العناية بالإنزال لأنه نتيجة ماذكر من إرسال الرياح أى أنزلنا بعظمتنا بما رتبنا من إرسال الرياح من جهة الفوق ماء بليغاً فى الطهارة وما قيل إنه مايكون طاهراً فى نفسه ومطهراً لغيره فهو شرح لبلاغته فى الطهارة كما ينبىء عنه قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فإن الطهور فى العربية إما صفة كما تقول ماء طهور أو اسم كما فى قوله ﷺ التراب طهور المؤمن وقد جاء بمعنى الطهارة كما فى قولك تطهرت طهوراً حسناً كقولك وضوءاً حسناً ومنه قوله ﷺ لا صلاة إلا بطهور ووصف الماء به إشعار بتمام النعمة فيه وتتميم للنعمة فيما بعده فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه مايزيل طهوريته وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها
٤٩ فبواطنهم أحق بذلك وأولى (لنحيى به) أى بما أنزلنا من الماء الطهور (بلدة ميتاً) بإنبات النبات والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد والمراد به القطعة من الأرض عامرة كانت أو غامرة (ونسقيه) أى ذلك الماء الطهور عند جريانه فى الأودية أو اجتماعه
* فى الحياض والمنافع أو الآبار (مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً) أى أهل البوادى الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسى وتخصيصهم بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون بقرب الأنهار والمنابع فبهم وبما لهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالباً مع أن مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد أنواع النعمة والأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها وقرىء نسقيه وأسقى وسقى لغتان وقيل أسقاه جعل له سقيا وأناسى جمع أنسى أو أنسان كظرابى فى ظربان على أن أصله أناسين فقلبت نونه ياء وقرىء أناسى
٥٠ بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل كأناعم فى أناعيم (ولقد صرفناه) أى وبالله لقد كررنا هذا القول الذى هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر لما مر من الغايات الجليلة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية
* (بينهم) أى بين الناس من المتقدمين والمتأخرين (ليذكروا) ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته فى ذلك ويقوموا بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم إنزاله فى بعض البلاد دون غيرها أو فى بعض الأوقات دون بعض أو جعله تارة وابلا وأخرى طلا وحينا
* ديمة ووقتاً رحمة والأول هو الأظهر (فأبى أكثر الناس) ممن سلف وخلف (إلا كفوراً) أى لم يفعل إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها أو إلا جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكر وصنع الله تعالى ورحمته ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل بخلق الله تعالى

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ٢٥ الفرقان

فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ٢٥ الفرقان

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ٢٥ الفرقان

٥١ والأنواء أمارات لجعله تعالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) نبياً ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة
لكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى ليكون للعالمين نذيراً إجلالا
٥٢ لك وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) أى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى
الدعوة وإظهار الحق والتشدد معهم كأنه نهى لرسول الله ﷺ عن المداراة معهم والتلطف فى الدعوة لما
أنه ﷺ كان يود أن يدخلوا فى الإسلام ويجتهد فى ذلك بتأليف قلوبهم أشد الاجتهاد (وجاهدهم به) أى
بالقرآن بتلاوة ما فى تضاعيفه من القوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة (جهاداً
كبيراً) فإن دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفاً وقيل الضمير المجرور
لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة وأنت خبير بأن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلا وليس
فيه شائبة الجهاد فضلا عن الجهاد الكبير اللهم إلا أن تجعل الباء للملابسة ليكون المعنى وجاهدهم بما ذكر
من أحكام القرآن الكريم ملابساً بترك طاعتهم كأنه قيل فجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاءمة والمداراة
كما فى قوله تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم. وقد جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى
ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً من كونه ﷺ نذير كافة القرى لأنه لو بعث فى كل قرية نذير لوجب على كل
نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ذلك جهاده وعظم
فقيل له ﷺ وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة وأنت خبير بأن بيان
سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فإنه بين بنفسه وإنما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها
٥٣ وعظمها فى الكيفية (وهو الذى مرج البحرين) أى خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج
دابته إذا خلاها (هذا عذب فرات) قامع للعطش لغاية عذوبته (وهذا ملح أجاج) بليغ الملوحة وقرىء
ملح فلعله تخفيف مالح كبرد فى بارد (وجعل بينهما برزخا) حاجزاً غير مرئى من قدرته كما فى قوله تعالى
بغير عمد ترونها (وحجراً محجوراً) وتنافراً مفرطاً كأن كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة وقيل
حداً محدوداً وذلك كدجلة تدخل البحر وتشقه وتجرى فى خلاله فراسخ لا يتغير طعمها وقيل المراد
بالبحر العذب النهر العظيم وبالمالح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الأرض فيكون أثر القدرة فى
الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة كل عنصر التضام والتلاصق والتشابه فى الكيفية .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ٢٥ الفرقان

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ٢٥ الفرقان

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ٢٥ الفرقان

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ٢٥ الفرقان

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٢٥ الفرقان

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ
خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ٢٥ الفرقان

---

٥٤ (وهو الذى خلق من الماء بشراً) هو الماء الذى خمر به طينة آدم عليه السلام أو جعله جزءاً من مادة
البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الأشكال والهيئات بسهولة أو هو النطفة (فجعله نسباً وصهراً)
أى قسمه قسمين ذوى نسب أى ذكوراً ينتسب إليهم وذوات صهر أى إناثاً يصاهر بهن كقوله تعالى
* فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (وكان ربك قديراً) مبالغاً فى القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة
واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين
٥٥ ذكراً وأنثى (ويعبدون من دون الله) الذى شأنه ماذكر (مالا ينفعهم ولا يضرهم) أى ماليس من شأنه
النفع والضر أصلا وهو الأصنام أو كل مايعبد من دونه تعالى إذ مامن مخلوق يستقل بالنفع والضر
* (وكان الكافر على ربه) الذى ذكرت آثار ربوبيته (ظهيراً) يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد
بالكافر الجنس أو أبو جهل وقيل هينا مهيناً لا اعتداد به عنده تعالى من قولهم ظهرت به إذا نبذته خلف
٥٦ ظهرك فيكون كقوله تعالى ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم (وما أرسلناك إلا مبشراً) للمؤمنين (ونذيراً)
٥٧ للكافرين (قل) لهم (ما أسألكم عليه) أى على تبليغ الرسالة الذى ينبىء عنه الإرسال (من أجر) من
جهتكم (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) أى إلا فعل من يريد أن يتقرب إليه تعالى ويطلب الزلفى عنده
بالإيمان والطاعة حسبما أدعوهم إليهما فصور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الإتيان به واستثنى
منه قلعاً كلياً لشائبة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائداً إليهم عائداً
٥٨ إليه ﷺ وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل (وتوكل على الحى الذى
لا يموت) فى الاستكفاء عن شرورهم والإغناء عن أجورهم فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء
الذين من شأنهم الموت فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم (وسبح بحمده) ونزهه عن صفات النقصان
مثنياً عليه بنعوت الكمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه (وكفى به بذنوب عباده) ماظهر منها
٥٩ ومابطن (خبيراً) أى مطلعاً عليها بحيث لا يخفى عليه شىء منها فيجزيهم جزاء وافياً (الذى خلق السموات

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ٢٥ الفرقان

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ٢٥ الفرقان

والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد سلف تفسيره ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالأبدية التى هى من الصفات الذاتية والإشارة إلى اتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتأكيده فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى أوقات معينة مع كمال قدرته على إبداعها دفعة لحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر إليه (الرحمن) مرفوع على المدح أى هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما قرىء بالجر مفيد لزيادة تأكيد ماذكر من وجوب التوكل عليه تعالى وإن لم يتبعه فى الإعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الإعراب وبذلك سميا قطعاً لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ماقبله وتنبيهاً على شدة الاتصال بينهما وقد مر تمام التحقيق فى تفسير قوله عز وجل الذين يؤمنون بالغيب الآية وقيل الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن فى استوى (فاسأل به) أى بتفاصيل ماذكر إجمالا من الخلق والاستواء لا بنفسهما فقط إذ بعد بيانهما لا يبقى إلى السؤال حاجة ولا فى تعديته بالباء فائدة فإنها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسئول أمراً خطيراً مهتما بشأنه غير حاصل للسائل وظاهر أن نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك وماقيل من أن التقدير إن شككت فيه فاسأل به خبيراً على أن الخطاب له ﷺ والمراد غيره بمعزل من السداد بل التقدير إن شئت تحقيق ماذكر أو تفصيل ماذكر فاسأل معنياً به (خبيراً) عظيم الشأن محيطاً بظواهر الأمور وبواطنها وهو الله سبحانه يطلعك على جلية الأمر وقيل فاسأل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه فلاحاجة حينئذ إلى ماذكرنا وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء مايرادفه فى كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وما بعده خبراً وقرىء فسل

٦٠ (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) قالوه لما أنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى ولذلك قالوا (أنسجد لما تأمرنا) أى للذى تأمرنا بسجوده أو لأمرك إيانا من غير أن نعرف أن المسجود له ماذا وقيل لأنه كان معرباً لم يسمعوه وقرىء يأمرنا بياء الغيبة على أنه قول بعضهم لبعض (وزادهم) أى الأمر بسجود الرحمن (نفوراً) عن الإيمان

٦١ (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) هى البروج الاثنا عشر سميت به وهى القصور العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من التبرج لظهوره (وجعل فيها سراجا) هى الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرىء سرجا وهى

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ٢٥ الفرقان

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ٢٥ الفرقان

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ٢٥ الفرقان

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ٢٥ الفرقان

---

* الشمس والكواكب الكبار (وقمراً منيراً) مضيئاً بالليل وقرىء قمراً أى ذا قمر وهى جمع قمراء ولما أن الليالى بالقمر تكون قمراء أضيف إليها ثم حذف وأجرى حكمه على المضاف إليه القائم مقامه كما فى قول حسان رضى الله عنه [بردى يصفق بالرحيق السلسل] أى ماء بردى ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد

٦٢ والرشد والعرب والعرب (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) أى ذوى خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه أو بأن يعتقبا كقوله تعالى واختلاف الليل والنهار وهى اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس (لمن أراد أن يذكر) أى يتذكر آلاء الله عز وجل

* ويتفكر فى بدائع صنعه فيعلم أنه لابد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم للعباد (أو أراد شكوراً) أى أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم أو ليكونا وقتين للذاكرين من فاته ورده فى أحدهما تداركه

٦٣ فى الآخر وقرىء أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر (وعباد الرحمن) كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته والسجود له والإضافة للتشريف وهو مبتدأ خبره ما بعده من الموصول وما عطف عليه وقيل هو ما فى آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة الإشارة وقرىء عباد الرحمن أى عباده المقبولون (الذين يمشون على الأرض هوناً) أى بسكينة وتواضع وهوناً مصدر وصف به ونصبه إما على أنه حال من فاعل يمشون أو على أنه نعت لمصدره أى يمشون هينين لينى الجانب من غير فظاظة أو مشياً هيناً وقوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون) أى السفهاء كما فى قول من قال [ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل

* الجاهلينا] (قالوا سلاماً) بيان لحالهم فى المعاملة مع غيرهم إثر بيان حالهم فى أنفسهم أى إذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسليماً منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر وقيل سداداً من القول يسلمون به من الأذية والإثم وليس فيه تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسختها آية القتال كما نقل عن أبى العالية وقوله

٦٤ تعالى (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما) بيان لحالهم فى معاملتهم مع ربهم أى يكونون ساجدين لربهم وقائمين أى يحيون الليل كلا أو بعضاً بالصلاة وقيل من قرأ شيئاً من القرآن فى صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية

٦٥ الفواصل (والذين يقولون) أى فى أعقاب صلواتهم أو فى عامة أوقاتهم (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ٢٥ الفرقان

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ٢٥ الفرقان

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ٢٥ الفرقان

إن عذابها كان غراما) أى شراً دائماً وهلاكا لازما وفيه مزيد مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع
الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون إلى الله تعالى فى صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم
كقوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) ٦٦
تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها فى نفسها إثر تعليله بسوء حال عذابها وقد جوز أن يكون تعليلا
للأولى وليس بذاك وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقراً والمخصوص بالذم محذوف
معناه ساءت مستقراً ومقاماً هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها قيل ويجوز
أن يكون ساءت بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقراً حال أو تمييز وهو بعيد خال عما فى الأول
من المبالغة فى بيان سوء حالها وكذا جعل التعليلين من جهته تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا ٦٧
حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضييق الشحيح وقيل الإسراف هو الإنفاق فى المعاصى والقتر
منع الواجبات والقرب وقرىء بكسر التاء مع فتح الياء وبكسرها مخففة ومشددة مع ضم الياء (وكان بين
ذلك) أى بين ماذكر من الإسراف والقتر (قواماً) وسطاً وعدلا سمى به لاستقامة الطرفين كما سمى *
به سواء لاستوائهما وقرىء بالكسر وهو مايقام به الحاجة لايفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان أو
حال مؤكدة أو هو الخبر وبين ذلك لغو وقد جوز أن يكون اسم كان على أنه مبنى لإضافته إلى غير
متمكن ولا يخفى ضعفه فإنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بشىء عن نفسه (والذين لايدعون مع الله ٦٨
إلهاً آخر) شروع فى بيان اجتنابهم عن المعاصى بعد بيان إتيانهم بالطاعات وذكر نفى الإسراف والقتر
لتحقيق معنى الاقتصاد والتصريح بوصفهم بنفى الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد
والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش
وغيرهم أى لايعبدون معه تعالى إلهاً آخر (ولا يقتلون النفس التى حرم الله) أى حرمها بمعنى حرم قتلها *
لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة فى التحريم (إلا بالحق) أى لايقتلونها بسبب من الأسباب
إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها أو لا يقتلون قتلا ما إلا قتلا ملتبساً بالحق أو لا يقتلونها فى حال
من الأحوال إلا حال كونهم ملتبسين بالحق (ولا يزنون) أى الذين لا يفعلون شيئا من هذه العظائم القبيحة
التى جمعهن الكفرة حيث كانوا مع إشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرمة التى من جملتها
الموءودة مكبين على الزنا لا يرعون عنه أصلا (ومن يفعل ذلك) أى ماذكر كما هو دأب الكفرة

يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ٢٥ الفرقان

إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ٢٥ الفرقان

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ٢٥ الفرقان

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ٢٥ الفرقان

* المذكورين (يلق) فى الآخرة وقرىء يلاق وقرىء يلق بالتشديد مجزوما (أثاما) وهو جزاء الإثم كالوبال والنكال وزنا ومعنى وقيل هو الإثم أى يلق جزاء الإثم والتنوين على التقديرين للتفخيم وقرىء أياما أى شدائد
٦٩ يقال يوم ذو أيام لليوم الصعب (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من يلق لاتحادهما فى المعنى كقوله [متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا * تجد حطبا جزلا ونارا تأججا] وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على الحالية وكذا ماعطف عليه وقرىء يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب (ويخلد فيه) أى فى ذلك العذاب
* المضاعف (مهانا) ذليلا مستحقرا جامعا للعذاب الجسمانى والروحانى وقرىء يخلد ويخلد مبنيا للمفعول من الإخلاد والتخليد وقرىء تخلد بالتاء على الالتفات المنبىء عن شدة الغضب ومضاعفة العذاب لانضمام
٧٠ المعاصى إلى الكفر كما يفصح عنه قوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) وذكر الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة (فأولئك) إشارة إلى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن الإفراد فى الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه أى أولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح (يبدل الله سيئاتهم حسنات) بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم أو يبدل بملكة المعصية ودواعيها فى النفس ملكة الطاعة بأن يزيل الأولى ويأتى بالثانية وقيل بأن يوفقه لأضداد ماسلف منه أو أن يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وقيل
* يبدلهم بالشرك إيمانا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصانا (وكان الله غفورا رحيما) اعتراض
٧١ تذييلى مقرر لما قبله من المحو والإثبات (ومن تاب) أى عن المعاصى بتركها بالكلية والندم عليها (وعمل صالحا) يتلافى به مافرط منه أو خرج عن المعاصى ودخل فى الطاعات (فإنه) بما فعل (يتوب إلى الله) أى يرجع إليه تعالى (متابا) أى متابا عظيم الشأن مرضيا عنده تعالى ماحيا للعقاب محصلا للثواب أو يتوب متابا إلى الله تعالى الذى يحب التوابين ويحسن إليهم أو فإنه يرجع إليه تعالى أو إلى ثوابه مرجعا
٧٢ حسنا وهذا تعميم بعد تخصيص (والذين لا يشهدون الزور) لا يقيمون الشهادة الكاذبة أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه (وإذا مروا) على طريق الاتفاق (باللغو) أى مايجب أن يلغى ويطرح مما لاخير فيه (مروا كراما) معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به

وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ٢٥ الفرقان

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ٢٥ الفرقان

أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ٢٥ الفرقان

(والذين إذا ذكروا بآيات ربهم) المنطوية على المواعظ والأحكام (لم يخروا عليها صما وعميانا) أى أكبوا ٧٣
عليها سامعين بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية وإنما عبر عن ذلك بنفى الضد تعريضا بما يفعله الكفرة
والمنافقون وقيل الضمير للمعاصى المدلول عليها باللغو (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ٧٤
قرة أعين) بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فإن المؤمن إذا ساعده أهله فى طاعة الله عز وجل وشاركوه
فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له فى مناهج الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة
حسبما وعد بقوله تعالى ألحقنا بهم ذريتهم ومن ابتدائية أو بيانية وقرىء وذريتنا وتنكير الأعين لإرادة
تنكير القرة تعظيما وتقليلها لأن المراد أعين المتقين ولا ريب فى قلتها نظرا إلى غيرها (واجعلنا للمتقين *
إماما) أى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة
على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو لأن المراد واجعل كل واحد منا إماما أو
لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وأنت خبير بأن مدار الكل صدور هذا
الدعاء إما عن الكل بطريق المعية وأنه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد فما ظنك باجتماعهم فى مجلس
واحد واتفاقهم على كلمة واحدة وإما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره فى استدعاء الإمامة وأنه
ليس بثابت جزما بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلنى
للمتقين إماما خلا أنه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد إلى الإيجاز على طريقة قوله تعالى
يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وأبقى إماما على حاله وقيل الإمام جمع آم بمعنى قاصد كصيام
جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم وإعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات
بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات
المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شىء من
ذلك تتمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى
كما فى قوله [إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتائب فى المزدحم] (أولئك) إشارة إلى المتصفين ٧٥
بما فصل فى حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز
منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل وهو
مبتدأ خبره قوله تعالى (يجزون الغرفة) والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبينة لما لهم فى الآخرة
من السعادة الأبدية إثر بيان مالهم فى الدنيا من الأعمال السنية والغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء

خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ٢٥ الفرقان

قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ٢٥ الفرقان

مرتفع عال أى يثابون أعلى منازل الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقيل هى اسم من أسماء الجنة (بما صبروا) أى بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها) من جهة الملائكة (تحية وسلاما) أى يحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحيي بعضهم بعضاً
٧٦ ويسلم عليه وقرىء يلقون من لقى (خالدين فيها) لا يموتون ولا يخرجون (حسنت مستقراً ومقاما)
٧٧ الكلام فيه كالذى مر فى مقابله (قل) أمر رسول الله ﷺ بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا أى قل لهم كافة
* مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر (ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) أى أى عبء يعبأ بكم وأى اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فإن ماخلق له الإنسان معرفته تعالى وطاعته وإلا فهو وسائر البهائم سواء وقال الزجاج معناه أى وزن يكون لكم عنده وقيل معناه مايصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وقيل مايصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ويجوز أن تكون مانافية وقوله
* تعالى (فقد كذبتم) بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما أن ماقبله بيان لحال المؤمنين منهم أى فقد كذبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيها الكفرة ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين وقيل فقد قصرتم فى العبادة من قولهم كذب القتال إذا لم يبالغ فيه وقرىء فقد كذب الكافرون أى الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين وفائدته الإيذان بأن مناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسى المصحح للاشتراك
* فى الفوز ليس إلا اختلافهما فى الأعمال (فسوف يكون لزاماً) أى يكون جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيق بكم لامحالة حتى يكبكم فى النار كما تعرب عنه الفاء الدالة على لزوم مابعدها لما قبلها وإنما أضمر من غير ذكر للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مما لا يكتنهه البيان وقيل يكون العذاب لزاماً وعن مجاهد رحمه الله هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى وقرىء لزاماً بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الفرقان لقى الله تعالى وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب.

سورة الفرقان

ترتيبها ٢٥ — آياتها ٧٧

أطلق الجمهور القول بمكيتها، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [الفرقان: ٦٨ـ ٧٠]، وقال الضحاك: هي مدنية إلا أولها إلى قوله تعالى ﴿ولا نشوراً﴾ [الفرقان: ٣] فهو مكي، وعدد آياتها سبع وسبعون آية بلا خلاف كما ذكره الطبرسي والداني في كتاب العدد، ولما ذكر جل وعلا في آخر السورة السابقة وجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ ومدح المتابعين وحذر المخالفين افتتح سبحانه هذه السورة بما يدل على تعاليه جل شأنه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله أو على كثرة خيره تعالى ودوامه وأنه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً اطماعاً في خيره وتحذيراً من عقابه جل شأنه وفي هذه السورة أيضاً من تأكيد ما في السابقة من مدح الرسول ﷺ ما فيها فقال تبارك وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا
يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا
﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾
وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ
ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ
وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ
لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ
سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟

هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ
ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ
رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى
هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن
مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا
تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ
فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

﴿تبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلى عَبْده ليَكُونَ للعَالمينَ نَذيرا﴾ أي تعالى حل شأنه في ذاته وصفاته وأفاله على أتم وجه وأبلغه كما يشعر به إسناد صيغة التفاعل إليه وهذا الفعل لا يسند في الأغلب إلى غيره تعالى ومثله ـ تعالى ـ ولا يتصرف فلا يجيء منه مضارع ولا أمر ولا ولا في الأغلب أيضاً وإلا فقد قرأ أُبي كما سيأتي إن شاء الله تعالى تباركت الأرض ومن حولها، وجاء كما في الكشف تباركت النخلة أي تعالت، وحكى الأصمعي أن أعرابياً صعد رابية فقال لأصحابه: تباركت عليكم، وقال الشاعر:

إلى الجذع جذع النخلة المتبارك

وقال الخليل: معنى تبارك تمجد، وقال الضحاك: تعظم وهو قريب من قريب، وعن الحسن والنخعي أن المعنى تزايد خيره وعطاؤه وتكاثر وهي إحدى روايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثانيتهما أن المعنى لم يزل، ولا يزال وتحقيق ذلك أن تبارك من البركة وهي في الأصل مأخوذة من برك البعير وهو صدره ومنه برك البعير إذا ألقى بركه على الأرض واعتبر فيه معنى اللزوم فقيل براكاء الحرب وبركاؤها للمكان الذي يلزمه الابطال وسمي محبس الماء بركة كسدرة ثم أطلقت على ثبوت الخير الإلهي في الشيء ثبوت الماء في البركة، وقيل: لما فيه ذلك الخير مبارك ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهده فيه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة فمن اعتبر معنى اللزوم كابن عباس بناء على الرواية الثانية عنه قال: المعنى لم يزل ولا يزال أو نحو ذلك، ومن اعتبر معنى التزايد انقسم إلى طائفتين فطائفة جعلوه باعتبار كمال الذات في نفسها ونقصان ما سواها ففسروا ذلك بالتعالي ونحوه وطائفة جعلوه باعتبار كمال الفعل ففسروه بتزايد الخير وتكاثره ولا اعتبار للتغير المبني على اعتبار معنى اللزوم لقلة فائدة الكلام عليه وعدم مناسبة ذلك المعنى لما بعد، ومن هنا ردد الجمهور المعنى بين ما ذكرناه أولاً وما روي عن الحسن ومن معه؛ وترتيب وصفه تعالى بقوله سبحانه: **﴿تبارك﴾** بالمعنى الأول على إنزاله جل شأنه الفرقان لما أنه ناطق بعلو شأنه سبحانه وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وترتيب ذلك بالمعنى الثاني عليه لما فيه من الخير الكثير لأنه هداية ورحمة للعالمين، وفيه ما ينتظم به أمر المعاش والمعاد وكلا المعنيين مناسب للمقام ورجح الأول بأنه أنسب به لمكان قوله تعالى: **﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾** فقد قال الطيبي في اختصاص النذير دون البشير سلوك طريقة براعة الاستهلال

والإيذان بأن هذه السورة مشتملة على ذكر المعاندين المتخذني لله تعالى ولداً وشريكاً الطاعنين ﴿في كتبه ورسله واليوم الآخر﴾ [النساء: ١٣٦]، وهذا المعنى يؤيد تأويل تبارك بتزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله جل وعلا لإفادته صفة الجلال والهيبة وإيذانه من أول الأمر بتعاليه سبحانه عما يقول الظالمون علواً كبيراً وهو من الحسن بمكان، و ﴿الفرقان﴾ مصدر فرق الشيء وعنه إذا فصله، ويقال أيضاً كما ذكره الراغب فرقت بين الشيئين إذا فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصيرة، والتفريق بمعناه إلا أنه يدل على التكثير دونه، وقيل إن الفرق في المعاني والتفريق في الأجسام والمراد به القرآن وإطلاقه عليه لفصله بين الحق والباطل بما فيه من البيان أو بين المحق والمبطل لما فيه من الإعجاز أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في نفسه أو في الإنزال حيث لم ينزل دفعة كسائر الكتب، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يقوله الصوفية في ذلك فهو مصدر بمعنى الفاعل أو بمعنى المفعول، ويجوز أن يكون ذلك من باب هي إقبال وإدبار فلا تغفل.

والمراد بعبده نبينا محمد ﷺ وإيراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه والإيذان بكونه صلوات الله تعالى وسلامه عليه في أقصى مراتب العبودية والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل رداً على النصارى، وقيل: المراد بالفرقان جميع الكتب السماوية لأنها كلها فرقت بين الحق والباطل وبعبده الجنس الشامل لجميع من نزلت عليهم، وأيد بقراءة ابن الزبير «على عباده»، ولا يخفى ما في ذلك من البعد، والمراد بالعباد في قراءة ابن الزبير الرسول عليه الصلاة والسلام وأمته، والإنزال كما يضاف إلى الرسول ﷺ يضاف إلى أمته كما في قوله تعالى ﴿لقد أنزلنا إليكم﴾ [الأنبياء: ١٠، النور: ٣٤] لأنه واصل إليهم ونزوله لأجلهم فكأنه منزل عليهم وإن كان إنزاله حقيقة عليه الصلاة والسلام، وقيل المراد بالجمع هو ﷺ وعبر عنه به تعظيماً، وضمير يكون عائد على عبده، وقيل على ﴿الفرقان﴾ وإسناد الإنذار إليه مجاز، وقيل على الموصول الذي هو عبارة عنه تعالى، ورجح بأنه العمدة المسند إليه الفعل والإنذار من صفاته عز وجل كما في قوله تعالى: ﴿إنا كنا منذرين﴾ [الدخان: ٣] وقيل على التنزيل المفهوم من ﴿نَزَّلَ﴾ والمتبادر إلى الفهم هو الأول وهو الذي يقتضيه ما بعد، والنذير صفة مشبهة بمعنى منذر.

وجوز أن يكون مصدراً بمعنى إنذار كالنكير بمعنى إنكار وحكم الأخبار بالمصدر شهير، والإنذار إخبار فيه تخويف ويقابله التبشير ولم يتعرض له لما مر آنفاً، والمراد بالعالمين عند جمع من العالمين الإنس والجن ممن عاصره ﷺ إلى يوم القيامة. ويؤيده قراءة ابن الزبير للعالمين للجن والإنس وإرساله ﷺ إليهم معلوم من الدين بالضرورة فيكفر منكره، وكذا الملائكة عليهم السلام كما رجحه جمع محققون كالسبكي ومن تبعه ورد على من خالف ذلك، وادعى بعضهم دلالة الآية عليه لأن العالم ما سوى الله تعالى وصفاته العلي فيشمل الملائكة عليهم السلام. وصيغة جميع العقلاء للتغليب أو جمع بعد تخصيصه بالعقلاء.

ومن قال كالبارزي: إنه عليه الصلاة والسلام أرسل حتى إلى الجمادات بعد جعلها مدركة لظاهر خبر مسلم وأرسلت إلى الخلق كافة لم يخصص، واكتفى بالتغليب وفائدة الإرسال للمعصوم وغير المكلف طلب إذعانهما لشرفه عليه الصلاة والسلام ودخولهما تحت دعوته واتباعه تشريفاً على سائر المرسلين عليهم السلام.

وتقديم الجار والمجرور على متعلقه للتشويق ومراعاة الفواصل وللحصر أيضاً على القول الأول في العالمين، وإبراز تنزيل الفرقان في معرض الصلة التي حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع إنكار الكفرة له لإجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيهاً على قوة دلائله وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ [البقرة: ٢، وغيرها] وكذا يقال في نظائره من الصلات التي ينكرها الكفرة: وقال بعضهم: لا حاجة لما ذكر إذ يكفي

في الصلة أن تكون معلومة للسامع المخاطب بها ولا يلزم أن تكون معلومة لكل سامع، والمخاطب بها هنا هو رسولا لله ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام عالم بثبوتها للموصول، وفي شرح التسهيل أنه لا يلزم فيها، أن تكون معلومة وإن تعريف الموصول كتعريف أل يكون للعهد والجنس وأنه قد تكون صلته مبهمة للتعظيم كما في قوله:

فإن استطع أغلب وأن يغلب الهوى   فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه

وما ذكر أولاً من تنزيلها منزلة المعلوم أبلغ لكونه كناية عما ذكر مناسبة للرد على من أنكر النبوة وتوحيد الله تعالى ﴿الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّماوات وَالأرض﴾ أي له سبحانه خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً السلطان القاهر والاستيلاء الباهر عليهما المستلزم للقدرة التامة والتصرف الكلي فيما وفيما فيما إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة وأمراً ونهياً حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، ومحل الموصول الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أو على أنه نعت للموصول الأول أو بيان له أو بدل منه، وما بينهما ليس بأجنبي لأنه من تمام الصلة ومتعلق بها فلا يضر الفصل به بين التابع والمتبوع كما في البحر أو محله الرفع أو النصب على المدح بتقدير هو أو أمدح.

واختار الطيبي أن محله الرفع على الإبدال وعلله بقوله لأن من حق الصلة أن تكون معلومة عند المخاطب وتك الصلة لم تكن معلومة عند المعاندين فأبدل ﴿الذي له﴾ إلخ بياناً وتفسيراً وهو بعيد من مثله وسبحانه من لا يعاب عليه شيء ﴿وَلَمْ يَتَّخذ وَلَداً﴾ أي لم ينزل أحد منزلة الولد، وقيل أي لم يكن له ولد كما يزعم الذين يقولون في حق المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام ما يقولون فسبحان الله عما يصفون، والجملة معطوفة على ما قبلها من الجملة الظرفية وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلْك﴾ أي ملك السماوات والأرض، وأفرد بالذكر مع أن ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعاً للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والرد في نحورهم وتسيط نفي اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للأول ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْء﴾ أي أحدثه إحداثاً جارياً على سنن التقدير والتسوية حسبما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة كخلقة الإنسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي هيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك فلا تكرار في الآية لما ظهر من أن التقدير الدال عليه الخلق بمعنى التسوية والمعبر عنه بلفظه بمعنى التهيئة وهما غيران والخلق على هذا على حقيقته، ويجوز أن يكون الخلق مجازاً بل منقولاً عرفياً في معنى الإحداث والإيجاد غير ملاحظ فيه التقدير وإن لم يخل عنه ولهذا صح التجوز ويكون التصريح بالتقدير دلالة على أن كل واحد مقصود بالذات فكأنه قيل وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجده متفاوتاً بل أوجده متناصفاً متناسباً، وقيل التقدير الثاني هو التقدير للبقاء إلى الأجل المسمى فكأنه قيل وأوجد كل شيء على سنن التقدير فأدامه إلى الأجل المسمى والقول الأول مختار الزجاج وهو كما في الكشف أظهر والفاء عليه للتعقيب مع الترتيب.

وزعم بعضهم أن في الكلام قلباً وهو على ما فيه لا يدفع لزوم التكرار بدون أحد الأوجه المذكورة كما لا يخفى، وجملة ﴿خلق﴾ إلخ عطف على ما تقدم وفيها رد على الثنوية القائلين بأن خالق الشر غير خالق الخير ولا يضر كونه معلوماً مما تقدم لأنها تفيد فائدة جديدة لما فيها من الزيادة، وقيل: هي رد على ما يعتقد اعتقاد المعتزلة في أفعال الحيوانات الاختيارية. وفي إرشاد العقل السليم أنها جارية مجرى العليل لما قبلها من الجمل المنتظمة في سلك الصلة فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على النمط البديع كما يقتضي استقلاله تعالى باتصافه بصفات الألوهية

يقتضي انتظام كل ما سواه كائناً ما كان تحت ملكوته القاهر بحيث لا يشذ من ذلك شيء ومن كان كذلك كيف يتوهم كونه ولداً له سبحانه أو شريكاً في ملكه عز وجل، وذكر الطيبي أن قوله تعالى: **﴿له ملك السموات والأرض﴾** توطئة وتمهيد لقوله سبحانه: **﴿لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾** وأردف بقوله تعالى: **﴿وخلق كل شيء﴾** لما أن كونه سبحانه بديع السموات والأرض وفاطرهما ومالكهما مناف لاتخاذ الولد والشريك قال تعالى: ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد﴾ [الأنعام: ١٠١] الآية، وقد يقال: إن هذه الجملة تصريح بما علم قبل ليكون التشنيع على المشركين بقوله سبحانه: **﴿وَاتَّخذُوا منْ دُونه آلهَةً لاَّ يَخْلُقونَ شيئاً وهو يخلقون﴾** أظهر، وضمير **﴿اتخذوا﴾** للمشركين المفهوم من قوله تعالى: **﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾** أو من المقام، وقوله سبحانه: **﴿نذيرا﴾**، وقال الكرماني: للكفار وهم مندرجون في قوله تعالى: **﴿للعالمين﴾** والمراد حكاية أباطيلهم في أمر التوحيد والنبوة وإظهار بطلانها بعد أن بين سبحانه حقيقة الحق في مطلع السورة الكريمة أي اتخذوا لأنفسهم متجاوزين الله تعالى الذي ذكر بعض شؤونه العظيمة آلهة لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء وهم مخلوقون لله تعالى أو هم يختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير، ورجح المعنى الأول بأن الكلام عليه أشمل ولا يختص بالأصنام بخلافه على الثاني ويكون التعبير بالمضارع عليه في **﴿يخلقون﴾** المبني للمفعول لمشاكلة **﴿يخلقون﴾** المبني للفاعل مع استحضار الحال الماضية، ورجح المعنى الثاني بأنه أنسب بالمقام لأن الذين أنذرهم نبينا ﷺ شفاهاً عبدة الأصنام وأن الأحكام الآتية أوفق بها، نعم فيه تفسير الخلق بالافتعال كما في قوله تعالى: **﴿وتخلقون إفكا﴾** لأنه الذي يصح نسبته لغيره عز وجل وكذا الخلق بمعنى التقدير كما في قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض ... القوم يخلق ثم لا يفري

والمتبادر منه إيجاد الشيء مقدراً بمقدار كما هو المراد من سابقه، وتفسيره بذلك أيضاً كما فعل الزمخشري بعيد كذا قيل: وتعقب أنه يجوز أن يراد منه هذا المتبادر والأصنام بذواتها وصورها وأشكالها مخلوقة لله تعالى عند أهل الحق لأن أفعال العباد وما يترتب عليها وينشأ منها من الآثار مخلوقة له عز وجل عندهم كما حقق بل لو قيل بتعين هذه الإرادة على ذلك الوجه لم يبعد، وقوله تعالى: **﴿وَلاَ يَمْلُكونَ لأَنْفُسهمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً﴾** لبيان حالهم بعد خلقهم ووجودهم، والمراد لا يقدرون على التصرف في ضر ما ليدفعوه عن أنفسهم ولا في نفع مّا حتى يجلبوه إليهم، ولما كان دفع الضر أهم أفيد أولاً عجزهم عنه؛ وقيل: **﴿لأنفسهم﴾** ليدل على غاية عجزهم لأن من لا يقدر على ذلك في حق نفسه لأن لا يقدر عليه في حق غيره من باب أولى. ومن خص الأحكام في الأصنام قال: إن هذا لبيان ما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم وضعفهم فإن بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وقد يقال: التصرف في الضر والنفع بالدفع والجلب على الإطلاق ليس على الحقيقة إلا لله عز وجل كما ينبىء عنه قوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقوله تعالى: **﴿ولاَ يَملكُونَ موتاً ولاَ حياه ولا نُشُوراً﴾** أي لا يقدرون على التصرف في شيء منها بإماتة الأحياء وإحياء الموتى في الدنيا وبعثهم في الأخرى للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك، وتقديم الموت لمناسبة الضر المقدم **﴿وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ إفْكٌ﴾** القائلون ـ كما أخرجه جمع عن قتادة ـ هم مشركو العرب لا جميع الكفار بقرينة ادعاء إعانة بعض أهل الكتاب له صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سمي منهم في بعض الروايات النضر بن الحارث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد، ويجوز أن يراد غلاتهم كهؤلاء ومن ضامهم، وروي عن ابن عباس ما يؤيده، وروي عن الكلبي ومقاتل أن

القائل هو الانضر والجمع لمشايعة الباقين له في ذلك، ومن خص ضمير ﴿اتخذوا﴾ بمشركي العرب وجعل الموصول هنا عبارة عنهم كلهم جعل وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة والإيذان بأن ما تفوهوا به كفر عظيم، وفي كلمة ﴿هذا﴾ حط لرتبة المشار إليه أي قالوا ما هذا إلا كذب مصروف عن وجهه ﴿افْتَرَاهُ﴾ يريدون أنه اخترعه رسولا لله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينزل عليه الصلاة والسلام ﴿وأعانه عليه﴾ أي على افترائه واختراعه ﴿افترائه﴾ أو على الإفك ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعنون اليهود بأن يلقوا إليه صلى الله عالى عليه وسلم أخبار الأمم الدارجة وهو عليه الصلاة والسلام يعبر عنها بعبارته، وقيل: هم عداس، وقيل: عائش مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر وكانوا كتابيين يقرؤون التوراة أسلموا وكان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يتعهدهم فقيل ما قيل، وقال المبرد: عنوا بقوم آخرين المؤمنين لأن آخر لا يكون إلا من جنس الأول، وفيه أن الاشتراك في الوصف غير لازم ألا ترى قوله تعالى: ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾ [آل عمران: ١٣] ﴿فَقَدْ جَاؤُوا﴾ أي الذين كفروا كما هو الظاهر ﴿ظُلْماً﴾ منصوب بجاؤوا فإن جاء وأتى يستعملان في معنى فعل فيتعديان تعديته كما قال الكسائي، واختار هذا الوجه الطبرسي وأنشد قول طرفة:

نشدت فلم أغفل حمولة معبد ... على غير ذنب جئته غير أنني

وقال الزجاج: منصوب بنزع الخافض فهو من باب الحذف والإيصال، وجوز أبو البقاء كونه حالاً أي ظالمين، والأول أولى، والتنوين فيه للتفخيم أي جاؤوا بما قالوا ظلماً هائلاً عظيماً لا يقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكاً مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرازه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والأحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والأمور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر ولا تحيط بفهمه القوى والقدر، وكذا التنوين في ﴿وَزُوراً﴾ أي وكذباً عظيماً لا يبلغ غايته حيث قالوا ما لا احتمال فيه للصدق أصلاً، وسمي الكذب زوراً لازوراره أي ميله عن جهة الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه بل على أن الثاني عين الأول حقيقة وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري، وقد لتحقيق ذلك المعنى فإن ما جاءه من الظلم والزور هو عين ما حكي عنهم لكنه لما كان مغايراً له في المفهوم وأظهر منه بطلاناً رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلاً لأمره كما قاله شيخ الاسلام، وقيل: ضمير ﴿جاؤوا﴾ عائد على قوم آخرين، والجملة من مقول الكفار وأرادوا أن أولئك المعينين جاؤوا ظلماً بإعانتهم وزوراً بما أعانوا به وهو كما ترى.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ بعد ما جعلوا الحق الذي لا محيد عنه إفكاً مختلقاً بإعانة البشر بينوا على زعمهم الفاسد كيفية الإعانة، وتقدم الكلام في أساطير وهي خبر مبتدأ محذوف أي هذه أو هو أو هي أساطير، وقوله تعالى: ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ خبر ثان، وقيل: حال بتقدير قد. وتعقب بأن عامل الحال إذا كان معنوياً لا يجوز حذفه كما في المغني، وفيه أنه غير مسلم كما في شرحه، وجوز أن يكون ﴿أساطير﴾ مبتدأ وجملة ﴿اكتبها﴾ الخبر ومرادهم كتبها لنفسه والاسناد مجازي كما في بنى الأمير المدينة، والمراد أمر بكتابتها أو يقال حقيقة أكتبت أمر بالكتابة فقد شاع افتعل بهذا المعنى كاحتجم وافتصد إذا أمر بالحجامة والفصد، وقيل قالوا ذلك لظنهم أنه يكتب حقيقة أو لمحض الافتراء عليه عليه الصلاة والسلام بناء على علمهم أنه لم يكن يكتب ﷺ، وقيل: مرادهم جمعها من كتب الشيء جمعه والجمهور على الأول.

وقرأ طلحة «اكتتبها» مبنياً للمفعول والأصل اكتتبها له كاتب فحذف اللام وأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمي بخصوصه فبنى الفعل للمفعول وأسند للضمير فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان منصوباً بارزاً، وهذا مبني على جواز إقامة المفعول الغير الصريح مقام الفاعل مع وجود الصريح وهو هنا ضمير الأساطير وهو الذي ارتضاه الرضي وغيره، وجمهور البصريين على عدم الجواز وتعين المفعول الصريح للإقامة فيقال عندهم: اكتتبته، وعليه قول الفرزدق:

ومنا الذي اختير الرجال سماحة ... وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

بنصب الرجال وعلى الأول كان حق التركيب اختيره الرجال بالرفع فإن الأصل اختاره من الرجال مختار وظاهر أنه إذا عمل فيه ما تقدم يصير إلى ما ذكر ﴿فهيَ تُملَى عَلَيهِ﴾ أي تلقى تلك الأساطير عليه بعد اكتتابها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة فالإملاء الإلقاء للحفظ بعد الكتابة استعارة لا الإلقاء للكتابة كما هو المعروف حتى يقال: إن الظاهر العكس بأن يقال: أمليت عليه فهو يكتتبها أو المعنى أراد اكتتابها أو طلب كتابتها فأمليت عليه أي عليه نفسه أو على كاتبه فالإملاء حينئذ باق على ظاهره. وقرأ طلحة وعيسى تتلى بالتاء بدل الميم ﴿بُكرَةً وَأَصيلاً﴾ أي دائماً أو قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم وعنوا بذلك أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال، وهذه جراءة عظيمة منهم قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون، وعن الحسن أن ﴿اكتتبها﴾ إلخ من قول الله عزّ وجلّ يكذبهم به، وإنما يستقيم أن لو افتتحت الهمزة في ﴿اكتتبها﴾ للاستفهام الذي هو في معنى الإنكار، ووجهه أن يكون نحو قول حضرمي بن عامر وقد خرج يتحدث في مجلس قوم وهو في حلتين له فقال جزء بن سنان بن مؤلة: والله إن حضرمياً لجذل بموت أخيه إن ورثه:

أفرح أن أرزأ الكرام وأن ... أورث زوداً[1] شصايصاً نبلاً

من أبيات، وحق للحسن على ما في الكشاف أن يقف على الأولين ﴿قُلْ﴾ لهم رداً عليهم وتحقيقاً للحق ﴿أَنزَلَهُ الَّذي يَعلَمُ السِّرَّ في السَّمَاواتِ وَالأَرضِ﴾ وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولى للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى أي ليس ذلك كما تزعمون بل هو أمر سماوي أنزله الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا تحوم حوله الافهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لا يهتدي إليها ولا يوقف إلا بتوفيق الله تعالى العليم الخبير عليها، وإذا أرادوا ببكرة وأصيلاً خفية عن الناس ازداد موقع السر حسناً، وأما التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ فهو للتنبيه على أنهم استوجبوا العذاب على ما هم عليه من الجنايات المحكية لكن أخر عنهم لما أنه سبحانه أزلاً وأبداً مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير فكأنه قيل إنه جل وعلا متصف بالمغفرة والرحمة على الاستمرار فلذلك لا يعجل عقوبتكم على ما أنتم عليه مع كمال استيجابه إياها وغاية قدرته سبحانه عليها ولولا ذلك لصب عليكم العذاب صباً، وذكر الطيبي أن فيه على هذا الوجه معنى التعجب كما في قوله تعالى: ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ [الفرقان: ٢١].

وجوز أن يكون الكلام كناية عن الاقتدار العظيم على عقوبتهم لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على

---

(١) الشصائص جمع شصوص وهي القليلة اللبن والنبلا جمع نبيل ككرم في كريم الصغار وتطلق على الكبار ا هـ منه.

العقوبة، وفي إيثارها تعيير لهم ونعي على فعلهم يعني أنكم فيما أنتم عليه بحيث يتصدى لعذابكم من صفته المغفرة والرحمة وليس بذاك، وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يقال: ذكر المغفرة والرحمة بعد ذلك لأجل أن يعرفوا أن هذه الذنوب العظيمة المتجاوزة عن الحد مغفورة إن تابوا وأن رحمته واصلة إليهم بعدها وأن لا ييأسوا من رحمته تعالى بما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من المعاداة والمخاصمة الشديدة وهو كما ترى.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ إلخ نزلت في جماعة من كفار قريش أخرج ابن أبي إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البحتري والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاصي بن وائل ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ﷺ وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم عليه الصلاة والسلام فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك فقال رسول الله ﷺ: ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله عزّ وجلّ بيني وبينكم قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك فما لنفسك سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً فأنزل الله تعالى في قولهم ذلك ﴿وقالوا مال هذا الرسول﴾ إلخ.

وقد سيق هنا لحكاية جنايتهم المتعلقة بخصوص المنزل عليه الفرقان بعد حكاية جنايتهم التي تتعلق بالمنزل، وما استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه في محل رفع على الابتداء والجار والمجرور بعدها متعلق بمحذوف خبر لها، وقد وقعت اللام مفصولة عن هذا المجرور بها في خط الامام وهي سنة متبعة وعنوا بالإشارة والتعبير بالرسول الاستهانة والتهكم، وجملة ﴿يأكل الطعام﴾ حال من ﴿الرسول﴾ والعامل فيها ما عمل في الجار من معنى الاستقرار؛ وجوز أن يكون الجار والمجرور أي أي شيء وأي سبب حصل لهذا الزاعم أنه رسول حال كونه يأكل الطعام كما نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لابتغاء الأرزاق كما نفعله على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب الذي هو مضمون الجملة الحالية. ومن الناس من جوز جعل الجملة استئنافية والأولى ما ذكرنا، ومرادهم استبعاد الرسالة المنافية لأكل الطعام وطلب المعاش على زعمهم فكأنهم قالوا: إن صح ما يدعيه فما باله لم تألف حاله حالنا وليس هذا إلا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور أبصارهم على المحسوسات فإن تميز الرسل عليهم السلام عما عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأمور نفسانية أعني ما جبلهم الله تعالى عليه من الكمال كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما الهكم إله واحد﴾ [الكهف: ١١٠] واستدل بالآية على إباحة دخول الأسواق للعلماء وأهل الدين والصلاح خلافاً لمن كرهه لهم.

﴿لَوْلَاۤ أُنْزِلَ إِلَيهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيهِ كَنزٌ أَو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ تنزل عما تقدم

كأنهم قالوا: إن لم توجد المخالفة بيننا وبينه في الأكل والتعيش فهلا يكون معه من يخالف فيهما يكون ردءاً له في الإنذار فإن لم توجد فهلا يخالفنا في أحدهما وهو طلب المعاش بأن يلقى إليه من السماء كنز يستظهر به ويرتفع احتياجه إلى التعيش بالكلية فإن لم يوجد فلا أقل من رفع الاحتياج في الجملة بإتيان بستان يتعيش بريعه كما للدهاقين والمياسير من الناس. والزمخشري ذكر أنهم عنوا بقولهم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ أنه كان يجب أن يكون ملكاً ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك له يعينه ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفوداً بكنز ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل منه ويرتزق، قيل الجملة الأخيرة فقط تنزل منهم وما قبل استئناف جواباً عما يقال كيف يخالف حاله ﷺ حالكم وبأي شيء يحصل ذلك ويتميز عنكم؟ ولا يخفى ما فيه ونصب ﴿يكون﴾ على جواب التحضيض، وقرىء «فيكون» بالرفع حكاه أبو معاذ، وخرج على أن يكون معطوف على ﴿أنزل﴾ لأنه لو وقع موقعه المضارع لكان مرفوعاً لأنك تقول ابتداء لولا ينزل بالرفع وقد عطف عليه ﴿يلقى﴾ و ﴿تكون﴾ وهما مرفوعان أو هو جواب التحضيض على إضمار هو أي فهو يكون، ولا يجوز في مثل هذا التركيب نصب ﴿يلقى﴾ وتكون بالعطف على يكون المنصوب لأنهما في حكم المطلوب بالتحضيض لا في حكم الجواب.

ولعل التعبير أولاً بالماضي مع أن الأصل في أولاً التي للتحضيض أو العرض دخولها على المضارع لأن إنزال الملك مع قطع النظر عن أن يكون معه عليه الصلاة والسلام نذيراً أمر متحقق لم يزل مدعياً له ﷺ فما أخرجوا الكلام حسبما يدعيه عليه الصلاة والسلام وإن لم يكن مسلماً عندهم، وفيه نوع تهكم منهم قاتلهم الله تعالى بخلاف الإلقاء وحصول الجنة، ولعل في التعبير بالمضارع فيهما وإن كان هو الأصل إشارة إلى الاستمرار التجددي كأنهم طلبوا شيئاً لا ينفد. وذكر ابن هشام في المغني عن الهروي أنه قال بمجيء لولا للاستفهام ومثل له بمثالين أحدهما قوله تعالى: ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾، وتعقب ذلك بأنه معنى لم يذكره أكثر النحويين، والظاهر أنها في المثال المذكور مثلها في قوله تعالى: ﴿لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء﴾ [النور: ١٣]، وذكر أنها في ذلك للتوبيخ والتنديم وهي حينئذٍ تختص بالماضي، ولا يخفى أنه إن عنى بقوله تعالى: ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ ما وقع هنا فأمر كونها فيه للتوبيخ والتنديم في غاية الخفاء فتدبر، وقرأ قتادة والأعمش «أو يكون» بالياء آخر الحروف، وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي وابن وثاب وطلحة والأعمش «نأكل» بالنون إسناداً للفعل إلى ضمير الكفر القائلين ما ذكر ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ هم القائلون الأولون وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه لكونه إضلالاً خارجاً عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته ﷺ إلى ما يشهد العقل والنقل ببراءته منه أو إلى ما لا يصلح أن يكون متمسكاً لما يزعمون من نفي الرسالة، وقيل: يحتمل أن يكون المراد، وقال الكاملون في الظلم منهم وأياً ما كان فالمراد أنهم قالوا للمؤمنين ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون ﴿إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ سحر فغلب على عقله فالمراد بالسحر ما به اختلال العقل، وقيل: أصيب سحره أي رئته فاختل حاله كما يقال مرؤوس أي أصيب رأسه، وقيل: يسحر بالطعام وبالشراب أي يغذى أو ذا سحر أي رئة على أن مفعول للنسب وأرادوا أنه عليه الصلاة والسلام، بشر مثلهم، وقيل أي ذا سحر بكسر السين وعنوا ـ قاتلهم الله تعالى ـ ساحراً، والأظهر على ما في البحر التفسير الأول، وذكر أن هو الأنسب بحالهم ﴿انظُر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترؤوا على التفوه بها وتعجيب منها أي انظر كيف قالوا في حقك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة البعيدة من الوقوع ﴿فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجدون في القدح في نبوتك قولاً يستقرون عليه وإن كان باطلاً في نفسه فالفاء الأولى سببية ومتعلق «ضلوا» غير منوي والفاء الثانية تفسيرية أو فضلوا عن طريق

الحق فلا يجدون طريقاً موصلاً إليه فإن من اعتاد استعمال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدي إلى استعمال المقدمات الحقة فالفاء في الموضعين سببية ومتعلق «ضلوا» منوي ولعل الأول أولى، والمراد نفي أن يكون ما أتوا به قادحاً في نبوته ﷺ ونفى أن يكون عندهم ما يصلح للقدح قطعاً على أبلغ وجه فإن القدح فيها إنما يكون في القدح بالمعجزات الدالة عليها وما أتوا به لا يفيد ذلك أصلاً وأنى لهم بما يفيده.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ أي تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا شيئاً خيراً لك مما اقترحوه وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور كذا في الكشاف، وعن مجاهد إن شاء جعل لك جنات الآخرة وقصوراً في الدنيا ولا يخفى ما فيه، وقيل: المراد إن شاء جعل ذلك في الآخرة، ودخلت ﴿إن﴾ على فعل المشيئة تنبيهاً على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته تعالى وأنه معلق على محض مشيئته سبحانه وليس لأحد من العباد والعباد على الله عز وجل حق لا في الدنيا ولا في الآخرة، والأول أبلغ في تبكيت الكفار والرد عليهم، ولا يرد كما زعم ابن عطية قوله تعالى: ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ [الفرقان: ١١] كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، والظاهر أن الإشارة إلى ما اقترحوه من الكنز والجنة وخيرية ما ذكر من الجنة لما فيه من تعدد الجنة وجريان الأنهار والمساكن الرفيعة في تلك الجنان بأن يكون في كل منها مسكن أو في كل مساكن ومن الكنز لما أنه مطلوب لذاته بالنسبة إليه وهو إنما يطلب لتحصيل مثل ذلك وهو أيضاً أظهر في الأبهة وأملأ لعيون الناس من الكنز، وعدم التعرض لجواب الاقتراح الأول لظهور منافاته للحكمة التشريعية وربما يعلم من كثير من الآيات كذا قيل.

وفي إرشاد العقل السليم أن الإشارة إلى ما اقترحوه من أن يكون له ﷺ جنة يأكل منها و ﴿جنات﴾ بدل من ﴿خيراً﴾ محقق لخيريته مما قالوا لأن ذلك كان مطلقاً عن قيد التعدد وجريان الأنهار، وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأن عدم الجعل لعدم المشيئة المبنية على الحكم والمصالح، وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف للحكمة بالكلية فإن بعض الأنبياء عليهم السلام قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً انتهى، وهذا الذي ذكره في الإشارة جعله الإمام الرازي قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وما ذكر أولاً استظهره أبو حيان وحكاه عن مجاهد، وحكي عن ابن عباس أنها إشارة إلى ما عيروا به من أكل الطعام والمشي في الأسواق وقال: إنه بعيد، وحكاه الإمام عن عكرمة وكأني بك تختار ما اختاره صاحب الإرشاد، والظاهر أن ﴿يجعل﴾ مجزوم فيكون معطوفاً على محل الجزاء الذي هو جعل هو جزاء أيضاً وقد جيء به جملة استقبالية على الأصل في الجزاء، فقد ذكر أهل المعاني أن الأصل في جملتي إن الشرطية أن تكونا فعليتين استقباليتين لفظاً كما أنهما مستقبلتان معنى، والعدول عن ذلك في اللفظ لا يكون إلا لنكتة. وكأن التعبير على هذا بالجملتين الماضويتين لفظاً في ﴿إن شاء جعل﴾ إلخ لزيادة تبكيت الكفار فيما اقترحوا من جنسه، ولما لم يقترحوا ما هو من جنس جعل القصور لم يسلك فيه ذلك المسلك فتدبر، وقيل: كان الظاهر نعد التعبير أولاً في الجزاء بالماضي أن يعبر به هنا أيضاً لكنه عدل إلى المضارع لأن جعل القصور في الجنان مستقبل بالنسبة إلى جعل الجنان، ثم إن هذا العطف يقتضي عدم دخول القصور في الخير المبدل منه قوله سبحانه: ﴿جنات﴾ وكان ما تقدم عن الكشاف بيان لحاصل المعنى بمعونة السياق، وجوز أن يكون مرفوعاً أدغمت لامه في لام ﴿لك﴾ لكن إدغام المثلين إذا تحرك أولهما إنما هو مذهب أبي عمرو، والذي قرأ بالتسكين من السبعة هو وحمزة والكسائي ونافع وفي رواية محبوب عنه أنه قرأ بالرفع بلا

إدغام وهي قراءة ابن عامر وابن كثير ومجاهد وحميد وأبي بكر، والعطف على هذه القراءة واحتمال الإدغام عند ابن عطية على المعنى في ﴿جعل﴾ لأن جواب الشرط موضع استئناف ألا يرى أن الجملة من المبتدأ والخبر قد تقع موقع جواب الشرط. وقال الزمخشري: هو معطوف على ﴿جعل﴾ لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع كقول زهير في مدح هرم بن سنان:

وإن أتاه خليل[1] يوم مسغبة — يقول لا غائب مالي ولا حرم

ومذهب سيبويه أن الجواب في مثل ذلك محذوف وأن المضارع المرفوع على نية التقديم، وذهب الكوفيون، والمبرد إلى أنه هو الجواب وأنه على حذف الفاء والتركيب عند الجمهور فصيح سائغ في النثر كالشعر، وحكى أبو حيان عن بعض أصحابه أنه لا يجوز إلا في الضرورة إذ لم يجيء إلا في الشعر، وتمام الكلام في تحقيق المذاهب في محله، وقال الحوفي وأبو البقاء: الرفع على الاستئناف قيل وهو استئناف نحوي، والكلام وعد له ﷺ بجعل تلك القصور في الآخرة ولذا عدل عن الماضي إلى المضارع الدال على الاستقبال، وقيل: هو استئناف بياني كان قائلاً يقول: كيف الحال في الآخرة؟ فقيل: يجعل لك فيها قصوراً، وجعل بعضهم على الاستئناف هذا الجعل في الدنيا أيضاً على معنى إن شاء جعل لك في الدنيا جنات ويجعل لك في تلك الجنات قصوراً إن تحققت الشرطية وهو كما ترى، وقيل: الرفع بالعطف على ﴿تجري﴾ صفة بتقدير ويجعل فيها أي الجنات، وليس بشيء، وقرأ عبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان «ويجعل» بالنصب على إضمار أن، ووجهه على ما نقل عن السيرافي أن الشرط لما كان غير مجزوم أشبه الاستفهام، وقيل: لما كان غير واقع حال المشارطة أشبه النفي، وقد ذكر النصب بعده سيبويه، وقال إنه ضعيف، وقيل: الفعل مرفوع وفتح لامه اتباعاً للام ﴿لك﴾ نظير ما قيل في قوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت — حمامة في غصون ذات أوقال

من أنه فتح راء غير اتباعاً لهمزة أن وهو أحد وجهين في البيت، ونظير الآية في هذه القراءات قول النابغة:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك — ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ بعده بذناب عيش — أجبِّ الظهر ليس له سنام

فإنه يروى في نأخذ الجزم والرفع والنصب ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ انتقال إلى حكاية نوع آخر من أباطيلهم متعلق بأمر المعاد وما قبل كان متعلقاً بأمر التوحيد وأمر النبوة ولا يضر في ذلك العود إلى ما يتعلق بالكلام السابق، واختلاف أساليب الحكاية لاختلاف المحكي، وما ألطف تصدير حكاية ما يتعلق بالآخرة ببل الانتقالية. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ إلخ لبيان ما لهم في الآخرة بسببه أي هيأنا لهم ناراً عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضمير هم أو لكل من كذب بها كائناً من كان وهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً، ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع، وهذا الاعتداد وإن كان ليس بسبب تكذيبهم بها خاصة بل يشاركه في السببية له ارتكابهم الأباطيل في أمر التوحيد وأمر النبوة إلا أنه لما كانت الساعة نفسها هي العلة القريبة لدخولهم السعير أشير بما ذكر إلى سببية التكذيب بها لدخولها ولم يتعرض للإشارة إلى سببية شيء آخر؛ وقيل إن من كذب بالساعة صار كالاسم لأولئك المشركين والمكذبين برسول الله ﷺ والمكذبين بالساعة أي الجامعين للأوصاف الثلاثة لأن التكذيب بها أخص صفاتهم القبيحة وأكثر دوراناً على ألسنتهم

---

(١) من الخلة بالفتح وهو الفقر اهـ منه.

إذ من الكفار من يشرك ويكذب برسول الله عليه الصلاة والسلام ولا يكذب بالساعة، فالمراد من يكذب بالساعة أولئك الصنف من الكفرة وهو كما ترى.

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿**بل كذبوا بالساعة**﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿**قالوا ما لهذا الرسول**﴾ إلخ وإضراب عنه إلى ما هو أعجب منه على معنى أن ذلك تكذيب للرسول ﷺ وهذا تكذيب لله سبحانه ـ وتعالى ـ ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ـ إلى قوله تعالى ـ: فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان» وظاهره أن أعجبية التكذيب بالساعة لأنه تكذيب لله عز وجل، وقال بعضهم: إن الأعجبية لأنهم أنكروا قدرة الله تعالى على الإعادة مع ما شاهدوه في الأنفس والآفاق وما ارتكز في أوهامهم من أن الإعادة أهون من الإبداء وليس ذلك لأنه تكذيب الله عز وجل فإنهم لم يسمعوا أمر الساعة إلا من النبي ﷺ فهو تكذيب له عليه الصلاة والسلام فيه، وأنت تعلم أن في الحديث إشارة إلى ما ارتضاه.

وقيل: إضراب عن ذاك على معنى أتوا بأعجب منه حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد اعتدنا لمن كذب بها سعيراً فإن جراءتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق. وتعقب بأنه لا نسلم كون الجراءة على التكذيب بالساعة أعجب من الجراءة على القول السابق بعد ظهور المعجزة ولا نسلم أن انضمام عدم الخوف مما يترتب عليه إذا كان ذلك الترتب في الساعة المكذب بها يفيد شيئاً وفيه تأمل، وقيل: هو إضراب عن ذاك على معنى أتوا بأعجب منه حيث كذبوا بالساعة التي أخبر بها جميع الأنبياء عليهم السلام فالجراءة على التكذيب بها جراءة على التكذيب بهم والجراءة على التكذيب بهم أعجب من الجراءة على القول السابق. وتعقب بأن مرادهم من القول السابق نفي نبوته عليه الصلاة والسلام وتكذيبه وحاشاه ثم حاشاه من الكذب في دعواه إياها لعدم مخالفة حاله ﷺ حالهم واتصافه بما زعموا منافاته للرسالة وذلك موجود ومتحقق في جميع الأنبياء عليهم السلام، فتكذيبه ﷺ لذلك تكذيب لهم أيضاً فلا يكون التكذيب بالساعة على ما ذكر أعجب من تكذيب النبي ﷺ لاشتراك التكذيبين في كونهما في حكم تكذيب الكل، وقيل: هو متصل بقوله تعالى: ﴿**تبارك الذي إن شاء**﴾ إلخ الواقع جواباً لهم والمنبىء عن الوعد بالجنات والقصور في الآخرة مسوق لبيان أن ذلك لا يجدي نفعاً على طريقة قول من قال:

عوجوا لنعم فحيوا دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤي وأحجار

والمعنى أنهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة، وقيل: إضراب عن الجواب إلى بيان العلة الداعية لهم إلى التكذيب، والمعنى بل كذبوا بالساعة فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن الكرامة ليست إلا بالمال وجعلوا خلو يدك عنه ذريعة إلى تكذيبك، وقوله تعالى: ﴿**إِذَا رَأَتْهُم**﴾ إلى آخره صفة للسعير والتأنيث باعتبار النار، وقيل لأنه علم لجهنم كما روي عن الحسن، وفيه أنه لو كان كذلك لامتنع دخول أل عليه ولمنع من الصرف للتأنيث والعلمية.

وأجيب بأن دخول أل للمح الصفة وهي تدخل الإعلام لذلك كالحسن والعباس وبأنه صرف للتناسب ورعاية الفاصلة. أو لتأويله بالمكان وتأنيثه هنا للتفنن، وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ما هو الظاهر وكذا نسبة التغيظ والزفير فيما بعد إذ لا امتناع في أن يخلق الله تعالى النار حية مغتاظة زافرة على الكفار فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكاً كهذه الآية، وقوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ [ق: ٣٠] وقوله ﷺ كما في صحيح البخاري «شكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين نفس في الشاء ونفس

في الصيف» إلى غير ذلك، وإذا صح ما أخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من بين عيني جهنم قالوا: يا رسول الله هل لجهنم من عين؟ قال: نعم أما سمعتم الله تعالى يقول: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ فهل تراهم إلا بعينين» كان ما قلناه هو الصحيح. وإسنادها إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم ﴿مّن مكَان بَعيد﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه، وروي أنه هنا مسيرة خمسمائة عام. وأخرج آدم بن أبي إياس في تفسيره عن ابن عباس أنه مسيرة مائة عام وحكي[1] ذلك عن السدي والكلبي، وروي أيضاً عن كعب، وقيل: مسيرة سنة وحكاه الطبرسي عن الإمام أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه، ونسبه في إرشاد العقل السليم إلى السدي. والكبي ﴿سُمعُوا لَهَا تَغَيُّظاً﴾ أي صوت تغيظ ليصح تعلق السماع به. وفي مفردات الراغب الغيظ أشد الغضب والتغيظ هو إظهار الغيظ وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما في هذه الآية، وقيل: أريد بالسماع مطلق الإدراك كأنه قيل: أدركوا لها تغظياً ﴿وَزَفيراً﴾ هو إخراج النفس بعد مدة على ما في القاموس، وقال الراغب: هو ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه وشاع استعماله في نفس صوت ذلك النفس، ولا شبهة في أنه مما يتعلق به السماع ولذا استشكلوا تعلق السماع بالتغيظ دون الزفير فأولوا لذلك بما سمعت، وقال بعضهم: إن ما ذكر من قبيل قوله:

ورأيـــت زوجـــك قـــد غـــدا ... مـــتـــقـــلـــدا ســيـــفـــاً ورمـــحـــا

وهو بتقدير سمعوا لها وأدركوا تغيظاً وزفيراً ويعاد كل إلى ما يناسبه. ومن الناس من قال: الكلام خارج مخرج المبالغة بجعل التغيظ مع أنه ليس من المسموعات مسموعاً، والتنوين فيه وفي ﴿زفيراً﴾ للتفخيم.

وقد جاء في الآثار ما يدل على شدة زفيرها أعاذنا الله تعالى منها، ففي خبر أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس أنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. وأخرج ابن المنذر وابن جرير وغيرهما عن عبيد بن عمير أنه قال في قوله تعالى: ﴿سمعوا لها﴾ الخ: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ترعد فرائصه حتى أن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي. وأخرج أبو نعيم عن كعب قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد فنزلت الملائكة صفوفاً فيقول الله تعالى لجبريل عليه السلام: ائت بجهنم فيأتي بها ثم تقاد بسبعين ألف زمام حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق ثم زفرت ثانية فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه ثم تزفر الثالثة فتبلغ القلوب الحناجر وتذهل العقول فيفزع كل امرىء إلى عمله حتى أن إبراهيم عليه السلام يقول: بخلتي لا أسألك إلا نفسي ويقول موسى عليه السلام: بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي ويقول عيسى عليه السلام: بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني ومحمد ﷺ يقول: أمتي أمتي لا أسألك اليوم نفسي فيجيبه الجليل جلّ جلاله إن أوليائي من أمتك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فوعزتي لأقرن عينك ثم تقف الملائكة عليهم السلام بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمرون. وهذه الأخبار ظاهرة في أن النار هي التي تزفر وأن الزفير على حقيقته.

وزعم بعضهم أن زفيرها صوت لهيبها واشتعالها، وقيل: إن كلاً من الرؤية والتغيظ والزفير لزبانيتها ونسبته إليها على حذف المضاف ونقل ذلك عن الجبائي، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿رأتهم﴾ من قوله ﷺ إن المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما وقولهم: دورهم تتراءى وتتناظر كان بعضها يرى بعضاً على سبيل الاستعارة بالكناية والمجاز المرسل،

---

(١) حكاه الطبرسي في مجمع البيان ا هـ منه.

وجوز أن يكون من باب التمثيل، وأياً ما كان فالمراد إذا كانت بمرأى منهم، وقوله سبحانه: ﴿سمعوا لها تغيظا﴾ على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وفيه استعارة تصريحية أو مكنية وجوز أن تكون تمثيلية، وقد ذكر هذا التأويل الزمخشري مقدماً له؛ وذكر بعض الأئمة أن هذا مذهب المعتزلة لأنهم جعلوا البنية شرطاً في الحياة.

وفي الكشف الأشبه أن ذلك ليس لأن البنية شرط ومن أين العلم بأن بنية نار الآخرة بحيث لا تستعد للحياة بل لأنه لا بد من ارتكاب خلاف الظاهر من جعل الشيء المعروف جماديته حياً ناطقاً فكان خبراً على خلاف المعتاد أو الحمل على المجاز التمثيلي الشائع في كلامهم لا سيما في كلام الله تعالى ورسله عليهم السلام وإذ لاح الوجه فكن الحاكم في ترك الظاهر إلى هذا أو ذاك، وفتح هذا الباب لا يجر إلى مذهب الفلاسفة كما توهم صاحب الانتصاف ولا يخالف تعبدنا بالظواهر فإن ما يدعونه أيضاً ليس بظاهر انتهى، وأنت تعلم بعد الإغماض عن المناقشة فيما ذكر أن الحمل على الحقيقة هنا أبلغ في التهويل ولعله يهون أمر الخبر على خلاف المعتاد؛ وهذا إن لم يصح الخبر السابق أما إذا صح فلا ينبغي العدول عما يقتضيه وليس لأحد قول مع قوله ﷺ فإنه الأعلم بظاهر الكتاب وخافيه ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا﴾ أي في مكان فهو منصوب على الظرفية و ﴿منها﴾ حال منه لأنه في الأصل صفة، وجوز تعلقه بألقوا.

وقوله تعالى: ﴿ضَيِّقًا﴾ صفة لمكاناً مقيدة لزيادة شدة الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة وهو السر في وصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وإذا ألقوا﴾ الخ فقال: والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها تضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح.

وقرأ الكلبي: الأسفلون يرفعهم اللهب والأعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون، وقرأ ابن كثير «ضيْقاً» بسكون الياء.

﴿مُقَرَّنِينَ﴾ حال من ضمير ﴿القوا﴾ أي إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع، وقيل: مقرنين مع الشياطين في السلاسل كل كافر مع شيطانه وفي أرجلهم الأصفاد، وحكي عن الجبائي، وقرأ أبو شيبة صاحب معاذ بن جبل «مقرنون» بالرفع ونسبها ابن خالويه إلى معاذ، ووجهها على ما في البحر كونه بدلاً من ضمير ﴿ألقوا﴾ بدل نكرة من معرفة ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المكان الهائل ﴿ثُبُوراً﴾ أي هلاكاً كما قال الضحاك وقتادة وهو مفعول ﴿دعوا﴾ أي نادوا ذلك فقالوا: يا ثبوراه على معنى احضر فهذا وقتك، وجعل غير واحد النداء بمعنى التمني فيتمنون الهلاك ليسلموا مما هو أشد منه كما قيل أشد من الموت ما يتمنى معه الموت.

وجوز أبو البقاء نصب ﴿ثبوراً﴾ على المصدرية لدعوا على معنى دعوا دعاء، وقيل: على المصدرية لفعل محذوف ومفعول ﴿دعوا﴾ مقدر أي دعوا من لا يجيبهم قائلين ثبرنا ثبوراً وكلا القولين كما ترى، ولا اختصاص لدعاء الثبور بكفرة الإنس فإنه يكون للشيطان أيضاً. أخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن أنس قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم حتى يقف على النار: فيقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم» الحديث، وفي بعض الروايات أن أول من يقول ذلك إبليس ثم يتبعه أتباعه، وظاهره شمول الأتباع كفرة الإنس والجن، ولا يتوهم اختصاص ذلك ببعض كفرة الإنس بناء على ما قيل: إن الآية نزلت في أبي جهل وأصحابه لما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿لاَّ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً﴾ على تقدير قول إما منصوب على أنه حال من فاعل ﴿دعوا﴾ أي دعوا مقولاً لهم ذلك حقيقة كما هو الظاهر بأن تخاطبهم

الملائكة لتنبيههم على خلود عذابهم وأنهم لا يجابون إلى ما يدعونه أو لا ينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجي أو تمثيلاً لهم وتصويراً لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول وخطاب كما قيل أي دعوه حال كونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك، وإما لا محل له من الإعراب على أنه معطوف على ما قبله أي إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً دعوا «ثبوراً» فيقال لهم: لا تدعوا الخ، أو على أنه مستأنف وقع جواباً عن سؤال مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل: فماذا يكون عند دعائهم المذكور؟ فقيل: يقال لهم ذلك، والمراد به إقناطهم عما علقوا به أطماعهم من الهلاك وتنبيههم على أن عذابهم الملجىء لهم إلى ذلك أبدي لا خلاص لهم منه على أبلغ وجه حيث أشار إلى أن المخلص مما هم فيه من العذاب عادة غير مخلص وما يخلص غير ممكن فكأنه قيل: لا تدعوا اليوم هلاكاً واحداً فإنه لا يخلصكم ﴿وَادْعُوا ثُبُوراً﴾ وهلاكاً ﴿كَثِيراً﴾ لا غاية لكثرته لتخلصوا به وأنى بالهلاك الكثير.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

وهذا معنى دقيق لم أعلم أن أحداً ذكره، وقيل: وصف الثبور بالكثرة باعتبار كثرة الألفاظ المشعرة به فكأنه قيل: لا تقولوا يا ثبوراه فقط وقولوا يا ثبوراه يا هلاكاه يا ويلاه يا لهفاه إلى غير ذلك وهو كما ترى.

وقال شيخ الإسلام: وصفه بذلك بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته في نفسه فإن ما يدعونه ثبور واحد في حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الأدعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر، وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحداً وادعوه أدعية كثيرة فإن ما أنتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء في كل آن، ثم قال: وهذا أدل على فظاعة العذاب وهو له من جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أو لتعدده بتجدد الجلود كما لا يخفى، وأما ما قيل من أن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها فلا غاية لهلاكهم فلا يلائم المقام كيف وهم إنما يدعون هلاكاً ينهي عذابهم وينجيهم منه فلا بد أن يكون الجواب إقناطاً لهم عن ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد انتهى، وتعقب القول بأن وصف الثبور بالكثرة بحسب كثرة الدعاء بأنه لا يناسب النظم وكذا كونه بحسب كثرة الألفاظ المشعرة بالثبور لأنه كان الظاهر أن يقال دعاء كثيراً، وأما قوله: وأما ما قيل الخ فهو لا يخلو عن بحث فتأمل.

وحكى علي بن عيسى ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما صرفك عنه، وجوز أن يكون الثبور في الآية من ذلك كأنهم ندموا على ما فعلوا فقالوا: واصرفاه عن طاعة الله تعالى كما يقال: واندماه فأجيبوا بما أجيبوا، وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة التي يخلص من عذابها ثبور واحد، ويجوز أن يكون ذلك لتذكيرهم بالساعة التي أصابهم ما أصابهم بسبب التكذيب بها ففيه زيادة إيلام لهم، وقرأ عمر بن محمد «ثَبوراً» بفتح الثاء في ثلاثتها وفعول بفتح الفاء في المصادر قليل نحو القفول.

﴿قُلْ﴾ تقريعاً لهم وتهكماً بهم وتحسيراً على ما فاتهم ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الأحوال الهائلة فإنها التي كثيراً ما تقابل بالجنة، وما فيه من معنى البعد للإشعار بكونها في الغاية القاصية من الهول والفظاعة، وقيل: إشارة إلى ما ذكر من الجنة والكنز في قولهم: أو يلقى إليه كنز الخ.

وقيل: إلى الجنة والقصور المجعولة في الدنيا على تقدير المشيئة وكلا القولين لا يعول عليهما لا سيما الأخير أي ذلك الذي ذكر من السعير التي اعتدت لمن كذب بالساعة وشأنها كيت وكيت وشأن أهلها ذيت ذيت ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي وعدها المتقون لأن وعد تتعدى لمفعولين وهذا المحذوف هو العائد على

الموصول؛ وإضافة الجنة إلى الخلد إن كانت نسبة الإضافة معلومة للمدح فإن المدح يكون بما هو معلوم، وإن لم تكن معلومة فلإفادة خلود الجنة، ولا يخدشه قوله تعالى: ﴿خالدين﴾ بعد لأنه للدلالة على خلود أهلها لا خلودها في نفسها وإن تلازما أو أن ذلك للتمييز عن جنات الدنيا، وقيل: إن جنة الخلد علم كجنة عدن، والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط، ويدل عليه مقابلتهم بالكافرين في النظم الكريم، وقيل: يجوز أن يراد الكاملون في التقوى ووعدها إياهم وعد دخولها ابتداء دون سبق عذاب وهو مختص بهم وليس بذاك، والترديد و التفضيل في ﴿خير﴾ مع أنه لا شك في أنه لا خيرية في السعير للتهكم والتقريع كما أشرنا إليه.

وقال ابن عطية: حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيء لفظة التفضيل بين الجنة والسعير في الخير لأن الموقف جائز له أن يوقف محاوره على ما شاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ، وإنما منع سيبويه وغيره من التفضيل إذا كان الكلام خبراً لأن فيه مخالفة الواقع، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ، وقال أبو حيان: إن ﴿خير﴾ هنا ليس للدلالة على الأفضلية بل هو على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابله كقول حسان: «فشركما لخيركما الفدا». وقولهم: الشقاء أحب إليك أم السعادة والعسل أحلى من الخل، وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿السجن أحب إليّ﴾ [يوسف: ٣٣] ولا اختصاص لذلك في استفهام أو خبر.

وما ذكر من أمثلة الخبر يرد على ابن عطية إلا أن يقيد الخير الذي ادعى منع سيبويه فيه بما لم يكن الحكم فيه واضحاً أما إذا كان الحكم فيه واضحاً للسامع بحيث لا يختلج في ذهنه ولا يتردد في الأفضل فإن التفضيل يجوز فيه، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا المقام وما أشرنا إليه هنا أولى بالاعتبار مما أشار ابن عطية وأبو حيان إليه.

﴿كَانَتْ﴾ تلك الجنة ﴿لَهُمْ﴾ أي في علم الله تعالى أو في اللوح أو المراد تكون على أنه وعد من أكرم الأكرمين عبر عنه بالماضي على طريق الاستعارة لتحقق وقوعه فإنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وجوز أن يكون هذا باعتبار تقدم وعده تعالى في كتبه وعلى لسان رسله عليهم الصلاة والسلام إياهم بها ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم بمقتضى الوعد لا بالإيجاب ﴿وَمَصِيراً﴾ ينقلبون إليه، ولم يكتف بقوله تعالى: ﴿كانت لهم جزاء﴾ لعدم استلزامه ذلك فقد يثيب الملك في الدنيا إنساناً ببستان مثلاً ولا يراه فضلاً عن أن يسكن فيه، وجملة ﴿كانت لهم﴾ الخ على ما ذكره الطبرسي في موضع الحال من الضمير المحذوف العائد على الموصول في ﴿وعد المتقون﴾ بتقدير قد أو بدونه، وجوز أن تكون بدلاً من ﴿وعد المتقون﴾ وتفسيراً له، وأن تكون استئنافاً في موضع التعليل.

وذكر الزمخشري ما يشعر بأن هذه الجملة تذييل لتذكير النعمة بما خولهم الله تعالى وطيب عيشهم في ذلك المكان الرافع على وجه يتضمن ضد ذلك لأضدادهم فكأنه قيل: كانت لهم جزاء موفوراً لا يدخل تحت الوصف ومصيراً أي مصيراً لا يقادر قدره وليس كمصير الكفرة المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً﴾ ويعلم منه فائدة ذكر المصير مع ذكر الجزاء فتأمل، وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا ما يَشَاؤُونَ﴾ قيل استئناف وقع جواباً لسؤال نشأ مما قبله حيث أفاد أن الجنة مسكن لهم والساكن في دار يحتاج إلى أشياء كثيرة لتطيب نفسه بسكناها فكأن سائلاً يقول: ما لهم إذا صاروا إليها وسكنوا فيها؟ فقيل لهم فيها ما يشاؤون، وقال الطبرسي: الجملة في موضع الحال من قوله تعالى: ﴿المتقون﴾ وما موصولة مبتدأ أو العائد محذوف و ﴿لهم﴾ خبره و ﴿فيها﴾ متعلق بما تعلق به أي كائن لهم فيها الذي يشاؤونه من فنون الملاذ والمشتهيات وأنواع النعيم الروحاني والجسماني، ولعل كل فريق منهم يقتنع بما أبيح له من درجات النعيم ويرى ما هو فيه ألذ الأشياء ولا تمتد أعناق هممهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية ولا يخطر بباله ما يخطر طلبه ولا يتأتى له فلا يشاء آحاد المؤمنين رتبة الأنبياء عليهم السلام ولا يتعرضون

للشفاعة لمن كتب عليه الخلود في النار مثلاً فلا يلزم الحرمان ولا تساوي مراتب أهل الجنان، وعلى ضد هؤلاء فيما ذكر أهل النار فقد قال سبحانه فيهم: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿خَالدينَ﴾ حال من أحد ضمائرهم على ما قيل وظاهره عدم الترجيح، وقال بعض الأفاضل: جعله حالاً من الأول يقتضي كونها حالاً مقدرة ومن الثالث يوهم تقييد المشيئة بها فخير الأمور أوسطها، ورجح بعضهم الثالث لقربه والتقييد غير مخل بل مهم، وجوز كونها حالاً من المتقين ولا يخفى حاله، ولبعض الأجلة ههنا كلام فيه بحث ذكره الحمصي في حواشي التصريح فليراجع ﴿كَانَ﴾ أي الوعد بما ذكر أو الموعود المفهوم من الكلام فيشمل الوعد بالجنة وبحصول ما يشاؤون لهم فيها وبالخلود على الأول والجنة وحصول المرادات والخلود الموعود بها على الثاني، وقال بعضهم: الضمير للخلود، وآخر لحصول ما يشاؤون لهم فيها أوله ولكون الجنة جزاء ومصيراً، والإفراد باعتبار ما ذكر ويغني عنه ما سمعت، والأكثرون على أنه لما يشاؤون وهو اسم كان وقوله تعالى: ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ متعلق بها أو بمحذوف وقع حالاً من قوله سبحانه: ﴿وَعْداً﴾ وهو خبرها، ولم يجوز تعلق الجار به سواء كان باقياً على مصدريته أو مؤولاً باسم المفعول أي موعوداً لما علمت من الخلاف في مرجع الضمير بناء على منع تقديم معمول المصدر عليه وإن كان مؤولاً بغيره أو كان المقدم ظرفاً وفيه خلاف، وجوز أن يكون ﴿على ربك﴾ متعلقاً بمحذوف هو الخبر و ﴿وعداً﴾ مصدراً مؤكداً، والأظهر أن يجعل هو الخبر أي كان ذلك وعداً أو موعوداً ﴿مَسْؤولاً﴾ أي حقيقياً أن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون أو سبباً لحصول ذلك فمسؤوليته كناية عن كونه أمراً عظيماً ويجوز أن يراد كون الموعود مسؤولاً حقيقة بمعنى يسأله الناس في دعائهم بقولهم: ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وقال سعيد بن أبي هلال: سمعت أبا حازم رضي الله تعالى عنه يقول: إذا كان يوم القيامة يقول المؤمنون: ربنا عملنا لك بما أمرتنا فانجز لنا ما وعدتنا فذلك قوله تعالى: ﴿وعداً مسؤولاً﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد هذا عن محمد بن كعب القرظي أنه قال في الآية: إن الملائكة عليهم السلام لتسأل ذلك في قولهم: ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ [غافر: ٨] والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه ﷺ والإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام هو الفائز بمغانم الوعد الكريم. واستشكلت الآية على مذهب الأشارة لأنها تدل على الوجوب على الله تعالى لمكان «على» وعندهم لا يجب عليه سبحانه شيء لاستلزام ذلك سلب الاختيار وعدم استحقاق الحمد، وأجيب بأن الوجوب الذي تدل عليه الآية وجوب بمقتضى الوعد والممتنع إيجاب الإلجاء والقسر من خارج لأنه السالب للاختيار الموجب للمفسدة دون إيجابه تعالى على نفسه شيئاً بمقتضى وعده وكرمه فإنه مسبوق بالإرادة والوجوب الناشيء من الإرادة لا ينافي الاختيار، وهذا ظاهر إذا كان الوعد حادثاً وأما إذا كان قديماً فالسابقية والمسبوقية بحسب الذات وذلك لا يستلزم الحدوث، أو يقال: الحادث بالإرادة تعلقه بالموعود به فافهم ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نصب على أنه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى: ﴿قل أذلك﴾ الخ أي قيل لهم ذلك واذكر لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل، والمراد تذكيرهم بما فيه من الحوادث الهائلة على ما سمعت في نظائره أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة ما فيه والإيذان بأن العبارة لا تحيط ببيانه أي ويوم يحشرهم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي ببيانه المقال.

وقرأ الحسن وطلحة وابن عامر وكثير من السبعة «نحشرهم» بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم. وقرأ الأعرج «يَحْشِرَهُمْ» بكسر الشين، قال صاحب اللوامح: في كل القرآن وهو القياس في الأفعال المتعدية الثلاثية لأن

يفعل بضم العين قد يكون من اللازم الذي هو فعل بضمها في الماضي، وقال ابن عطية: وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس لأن يفعل بكسر العين في المتعدي أقيس من يفعل بضم العين، وفيه كلام ذكره أبو حيان في البحر ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ عطف على مفعول ﴿يحشرهم﴾ وليست الواو للمعية وجوز ذلك أبو البقاء، والمراد بالموصول عند الضحاك وعكرمة والكلبي الأصنام بناء أن السياق فيها وينطقها الله تعالى الذي لا يعجزه شيء، وقيل: تتكلم بلسان الحال وليس بذاك.

وأخرج جماعة عن مجاهد أن المراد به الملائكة وعيسى وعزير وأضرابهم من العقلاء الذين عبدوا من دون الله سبحانه وتعالى وهو قول الجمهور على ما في البحر لأن السؤال والجواب يقتضيانه لاختصاصهما بالعقلاء عادة وإن كان الجماد ينطق يومئذ، وجاء فيما يشبه الاستفهام الآتي النص عليهم نحو قوله تعالى: ﴿ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ [سبأ: ٤٠] وقوله سبحانه: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦] والظاهر أن المراد ـ بما ـ على هذا القول العقلاء المعبودون الذين ليس منهم إضلال كالملائكة والأنبياء عليهم السلام لا ما يشملهم ولشياطين مثلاً فإن الجواب يأبى ذلك بظاهره كما ر يخفى وأطلقت ﴿ما﴾ على العقلاء إما على أنها تطلق عليهم حقيقة أو مجازاً أو باعتبار الوصف كأنه قيل: أو معبوديهم، وقال بعض الأجلة: المراد ما يعم العقلاء وغيرهم إما لأن كلمة ما موضوعة للكل كما ينبيء عنه أنك إذا رأيت شبحاً من بعيد تقول: ما هو؟ أو لأنه أريد بها الوصف فلا تختص حينئذ بغير العقلاء كما إذا أريد بها الذات أو لتغليب الأصنام على غيرها تنبيهاً على بعدهم عن استحقاق العبادة وتنزيلهم في ذلك منزلة من لا علم له ولا قدرة أو اعتباراً لغلبة عبدتها وكثرتهم ﴿فَيَقُولُ﴾ أي الله عز وجل للمعبودين من دونه أثر حشر الكل تقريعاً للعبدة وتبكيتاً لهم.

وقرأ الحسن وطلحة وابن عامر «فنقول» بنون العظمة أيضاً، ومن قرأ ممن عداهم هناك بالنون وهنا بالياء كان على قراءته هنا التفاتاً من التكلم إلى الغيبة، وفي نون العظمة هناك إشارة إلى أن الحشر أمر عظيم.

﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ بأن دعوتموهم إلى عبادتكم وإضافة ﴿عبادي﴾ قيل للترحم أو لتعظيم جرمهم لعبادة غير خالقهم أو لتعظيم أمر إضلالهم بدعوتهم إلى عبادتهم مع كونهم عباداً لله عز وجل و ﴿هؤلاء﴾ بدل منه، وجوز أن يكون نعتاً له ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد من كتاب أو رسول فحذف الجار وأوصل الفعل إلى المفعول كقوله تعالى: ﴿وهو يهدي السبيل﴾ [الأحزاب: ٤] والأصل إلى السبيل أو للسبيل.

وذكر بعض الأجلة أنه لم يقل عن السبيل للمبالغة فإن ضله بمعنى فقده وضل عنه بمعنى خرج عنه. والأول أبلغ لأنه يوم أنه لا وجود له رأساً، وتقديم الضميرين على الفعلين لما أن المراد بالسؤال التقريعي هو المتصدي للفعل لا نفسه ﴿قَالُوا﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وكان الظاهر أن يعبر بالمضارع لكان ﴿يقول﴾ أولاً، وكأن العدول إلى الماضي للدلالة على تحقق التنزيه والتبرئة وأنه حالهم في الدنيا، وقيل: للتنبيه على أن إجابتهم بهذا القول هو محل الاهتمام فإن بها التبكيت والإلزام فدل بالصيغة على تحقق وقوعها،وسبحان إما للتعجب مما قيل لهم إما لأنهم جمادات لا قدرة لها على شيء أو لأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون أو أولياء عن مثل ذلك محفوظون وإنَّما هو كناية عن كونهم موسومين بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم إضلال عباده وإنَّما هو على ظاهره من التنزيه والمراد تنزيهه تعالى عن الأضداد، وهو

على سائر الأوجه جواب إجمالي إلا أن في كونه كذلك على الأخير نوع خفاء بالنسبة إلى الأولين، وقوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا**﴾ الخ كالتأكيد لذلك والتفصيل له.

وجعل الطيبي قولهم: ﴿**سبحانك**﴾ توطئة وتمهيداً للجواب لقولهم: ﴿**ما كان**﴾ الخ أي ما صح وما استقام لنا ﴿**أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ**﴾ أي أولياء على أن ﴿**من**﴾ مزيدة لتأكيد النفي. ويحسن زيادتها بعد النفي والمنفي وإن كان ﴿**كان**﴾ لكن هذا معمول معمولها فينسحب النفي عليه. والمراد نفي أن يكونوا هم مضليهم على أبلغ وجه كأنهم قالوا: ما صح وما استقام لنا أن نتخذ متجاوزين إياك أولياء نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك فضلاً أن يتخذونا ولياً، وجوز أن يكون المعنى ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أتباعاً فإن الولي كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع ومنه أولياء الشيطان أي أتباعه وقرأ أبو عيسى الأسود القارىء «يُنْبَغَى» بالبناء للمفعول. وقال ابن خالويه: زعم سيبويه أن ذلك لغة.

وقرأ أبو الدرداء وزيد بن ثابت وأبو رجاء ونصر بن علقمة وزيد بن علي وأخوه الباقر رضي الله تعالى عنهما ومكحول والحسن وأبو جعفر وحفص بن عبيد والنخعي والسلمي وشيبة وأبو بشر والزعفراني «يُتَّخَذُ» مبنياً للمفعول. وخرج ذلك الزمخشري على أنه من اتخذ المتعدي إلى مفعولين والمفعول الأول ضمير المتكلم القائم مقام الفاعل والثاني ﴿**من أولياء**﴾ ومن تبعيضية لا زائدة أي أن يتخذونا بعض الأولياء، ولم يجوز زيادتها بناء على ما ذهب إليه الزجاج من أنها لا تزاد في المفعول الثاني، وعلله في الكشف بأنه محمول على الأول يشيع بشيوعه ويخص كذلك، ومراده أنه إذا كان محمولاً لا يراد صدقه على غيره فيشيع ويخص كذلك في الإرادة فلا يرد زيد حيوان فإن المحمول باق على عمومه مع خصوص الموضوع، وقيل: مراده أن الاختلاف لا يناسب مع إمكان الاتحاد والمثال ليس كذلك. والزمخشري لما بنى كلامه على ذلك المذهب والتزم التبعيض جاء الإشكال في تنكير ﴿**أولياء**﴾ فأجاب بأنه للدلالة على الخصوص وامتيازهم بما امتازوا وهو للتنويع على الحقيقة.

وقال السجاوندي: المعنى ما ينبغي لنا أن نحسب من بعض ما يقع عليه اسم الولاية فضلاً عن الكل فإن الولي قد يكون معبوداً ومالكاً وناصراً ومخدوماً. والزجاج خفي عليه أمر هذه القراءة على مذهبه فقال: هذه القراءة خطأ لأنك تقول: ما اتخذت من أحد ولياً ولا يجوز ما اتخذت أحداً من ولي لأن من إنما دخلت لأنها تنفي واحداً في معنى جميع ويقال: ما من أحد قائماً وما من رجل محباً لما يضره ولا يقال: ما قائم من أحد وما رجل من محب لما يضره ولا وجه عندنا لهذا البتة ولو جاز هذا لجاز في ﴿**فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٧] ما منكم أحد عنه من حاجزين. وأجاز الفراء هذه القراءة عن ضعف وزعم أن ﴿**من أولياء**﴾ هو اسم وما في ﴿**يتخذ**﴾ هو الخبر كأنه يجعله على القلب انتهى.

ونقل صاحب المطلع عن صاحب النظم أنه قال: الذي يوجب سقوط هذا القراءة أن من لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه نحو قوله تعالى: ﴿**ما كان لله أن يتخذ من ولد**﴾ [مريم: ٣٥] فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخولها كما في الآية على هذه القراءة. ولا يخفى عليك أن في الإقدام على القول بأنها خطأ أو ساقطة مع روايتها عمن سمعت من الأجلة خطراً عظيماً ومنشأ ذلك الجهل ومفاسده لا تحصى. وذهب ابن جني إلى جواز زيادة من في المفعول الثاني فيقال: ما اتخذت زيداً من وكيل على معنى ما اتخذته وكيلاً أي وكيل كان من أصناف الوكلاء. ومعنى الآية على هذا المنوال ما ينبغي لنا أن يتخذونا من دونك أولياء أي أولياء أي ما يقع عليه اسم الولاية. وجوز أن يكون «نتخذ» على هذه القراءة مما له مفعول واحد ﴿**ومن دونك**﴾ صلة و ﴿**من أولياء**﴾ حال و ﴿**من**﴾

زائدة وعزا هذا في البحر إلى ابن جني. وجوز بعضهم كون «نتخذ» في القراءة المشهورة من اتخذ المتعدي لمفعولين، وجعل أبو البقاء على هذا «من أولياء» المفعول الأول بزيادة من ﴿من دونك﴾ المفعول الثاني وعلى كونه من المتعدي لواحد يكون هذا حالاً.

وقرأ الحجاج «أن نتخذ من دونك أولياء» فبلغ عاصماً فقال: مقت المخدج أو ما علم أن فيها من. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ إلخ استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزههم عن إضلالهم على أبلغ وجه كما سمعت، وقد نعي عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة أي ما أضللناهم ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا في الشهوات وانهمكوا فيها ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي غفلوا عن ذكرك والإيمان بك أو عن توحيدك أو عن التذكر لنعمك وآيات ألوهيتك ووحدتك.

وفي البحر الذكر ما ذكر به الناس على ألسنة الأنبياء عليهم السلام أو الكتب المنزلة أو القرآن، ولا يخفى ما في الأخير إذا قيل: بعموم الكفار والمخبر عنهم في الآية وشمولهم كفار هذه الأمة وغيرهم ﴿وَكَانُوا﴾ أي في علمك الأزلي المتعلق بالأشياء على ما هي عليه في أنفسها أو بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم وسوء استعدادهم من الأعمال السيئة ﴿قَوْماً بُوراً﴾ هالكين على أن ﴿بوراً﴾ مصدر وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، وأنشدوا:

فلا تكفروا ما قد صنعنا إليكم ... وكافوا به فالكفر بور لصانعه

وقول ابن الزبعرى:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور

أو جمع بائر كعوذ في عائذ[1] وتفسيره بهالكين رواه ابن جرير وغيره عن مجاهد، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن ذلك فقال: هلكى بلغة عمان وهم من اليمن، وقيل: بوراً فاسدين في لغة الأزد ويقولون: أمر بائر أي فاسد وبارت البضاعة إذا فسدت. وقال الحسن: بوراً لا خير فيهم من قولهم: أرض بور أي متعطلة لا نبات فيها، وقيل: بوراً عمياً عن الحق، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله على ما قال أبو السعود.

وقال الخفاجي: هي حال بتقدير قد أو معطوفة على مقدر أي كفروا وكانوا أو على ما قبلها، وقد شنع الزمخشري بما ذكر من السؤال والجواب على أهل السنة فقال: فيه كسر بين لقول من يزعم أن الله تعالى يضل عباده على الحقيقة حيث يقول سبحانه للمعبودين من دونه: أأنتم أضللتم أم هم ضلوا بأنفسهم فيتبرؤون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ويقولون: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان الذكر وكان ذلك سبب هلاكهم فإذا برأت الملائكة والرسل عليهم السلام أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه فهم لربهم الغني العدل أشد تبرئة وتنزيهاً منه. ولقد نزهوه تعالى حين أضافوا إليه سبحانه التفضل بالنعمة والتمتيع بها وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله تعالى إلى ذاته في قوله سبحانه:

---

(١) وهي الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل ا هـ منه.

﴿يضل من يشاء﴾ ولو كان سبحانه هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم انتهى. وأجاب صاحب الفرائد عن قوله: فيتبرؤون من إضلالهم إلخ بأنهم انما تبرؤوا لأنهم يستحقون العذاب بإضلالهم ولم يكن منهم فوجب عليهم أن يقولوا ذلك ليندفع عنهم ما يستحقون به من العذاب وذلك أنهم مسؤولون عما يفعلون والله عز وجل لا يسأل عما يفعل فيلحق بهم النقصان إن ثبت عليهم ولا يمكن لحوقه به تعالى لأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وعن قوله: ولقد نزهوه حيث أضافوا إلخ بأن قولهم ولكن متعتهم إلخ لا ينافي نسبة الإضلال إليه سبحانه على الحقيقة وأيضاً ما يؤدي إلى الضلال إذا كان منه تعالى وكان معلوماً له عز وجل إنهم يضلون به كان فيه ما في الإضلال بالحقيقة بوجب على مذهبه أنه لا يجوز عليه سبحانه مع أنهم نسبوه إليه سبحانه، وعن قوله: ولو كان تعالى هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أنت أضللتهم بأن هذا غير مستقيم لأنه تعالى ما سألهم إلا عن أحد الأمرين وما ذكر لا يصلح جواباً له بل هو جواب لمن قال: من أضلهم انتهى، وذكر في الكشف جواباً عن الأخير أنه ليس السؤال عن تعيين من أضل لأنه تعالى عالم به وإنما هو سؤال تقريع على نحو ﴿أأنت قلت للناس﴾ [المائدة: ١١٦] فلو قالوا: أنت أضللتهم لم يطابق وإنما الجواب ما أجابوا به كما أجاب عيسى عليه السلام بقوله: ﴿سبحانك ما يكون لي﴾ إلخ وقد اقتدى بالإمام في ذلك، وذكر أيضاً قبل هذا الجواب أنه لو قيل: إن في ﴿متعتهم وآباءهم﴾ ما يدل على أنه تعالى الفاعل الحقيقي للإضلال وأنه لا ينسب إليه سبحانه أدباً لكان وجهاً ولا ينبغي أن يكون ذلك بعد التسليم المقصود من الجواب بمتعتهم إلخ بأن يكون المراد الجواب بأنت أضللتهم لكن عدل عنه إلى ما في النظم الجليل أدباً لأن الجواب بذلك مما لا يقتضيه السياق كما لا يخفى.

وقال ابن المنير: إن جواب المسؤولين بما ذكر يدل على معتقدهم الموافق لما عليه أهل الحق لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى وإن خلق الضلال إلا أن للعباد اختياراً فيه وعندهم أن كل فعل اختياري له نسبتان إن نظر إلى كونه مخلوقاً فهو منسوب إلى الله تعالى وإن نظر إلى كونه مختاراً للعبد فهو منسوب للعبد وهؤلاء المجيبون نسبوا النسيان أي الانهماك في الشهوات الذي ينشأ عنه النسيان إلى الكفرة لأنهم اختاروه لأنفسهم فصدقت نسبته إليهم ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم وانهماكهم في الشهوات إلى الله تعالى وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم وصبها صباً فلا تنافي بين معتقد أهل الحق ومضمون ما قالوا في الجواب بل هما متواطئان على أمر واحد انتهى.

ولا يخفى ما في بيان التوافق من النظر، وقد يقال: حيث كان المراد من الاستفهام تقريع المشركين وعلم المستفهمين بذلك مما لا ينبغي أن ينكر لا سيما إذا كانوا الملائكة والأنبياء عليهم السلام جيء بالجواب متضمناً ذلك على أتم وجه مشتملاً على تحقق الأمر في منشأ ضلالهم كل ذلك للاعتناء بمراده تعالى من تقريعهم وتبكيتهم ولذا لم يكتفوا في الجواب ـ بهم ضلوا ـ بل افتتحوا بالتسبيح ثم نفوا عن أنفسهم الإضلال على وجه من المبالغة ليس وراءه وراء ثم أفادوا أنهم ضلوا بعد تحقق ما ينبغي أن يكون ذريعة لهم إلى الاهتداء من تمتيعهم بأنواع النعم وذلك من أقبح الضلال ونبهوا على زيادة قبحه فوق ما ذكر بالتعبير عنه بنسيان الذكر ثم ذكروا منشأ ضلالهم والأصل الأصيل فيه بقولهم: ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أما على معنى كانوا في نفس الأمر قوماً فاسدين وإن شئت قلت هالكين ونحوه مما تقدم فظهروا على حسب ما كانوا لأن ما في نفس الأمر لا يتغير أو على معنى كانوا في العلم التابع للمعلوم في نفسه كذلك فظهروا على حسب ذلك لئلا يلزم الانقلاب المحال، وحاصله أن منشأ ضلالهم فساد استعدادهم في نفسه من غير مدخلية للغير في التأثير فيه وهذا شأن جميع ماهيات الأشياء في أنفسها فإن مدخلية الغير إنما هي في نحو وجودها الخارجي لا غير، وإلى هذا ذهب جمع من الفلاسفة والصوفية وشيد أركانه الشيخ ابراهيم الكوراني عليه

الرحمة في أكثر كتبه فإن كان مقبولاً فلا بأس في تخريج الآية الكريمة عليه فتدبر، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجهه إلى العبدة مبالغة في تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أي فقال الله تعالى عند ذلك: قد كذبكم المعبودون أيها الكفرة، وقال بعض الأجلة الفاء فصيحة مثلها في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

والتقدير هنا قلنا أو قال تعالى إن قلتم إنهم آلهة فقد كذبوكم ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي في قولكم على أن الباء بمعنى في وما مصدرية والجار والمجرور متعلق بالفعل والقول بمعنى المقول، ويجوز أن تكون ما موصولة والعائد محذوف أي في الذي تقولونه، وجوز أن تكون الباء صلة والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب في كذبوكم، والمراد بمقولهم أنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا، وتعقب بأن تكذيبهم في هذا القول لا تعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلاً وإنما الذي يستتبعه تكذيبهم في زعمهم أنهم آلهتهم وناصروهم وفيه نظر كما سنشير إليه قريباً إن شاء الله تعالى، وقيل: الخطاب للمعبودين أي فقد كذبكم العابدون أيها المعبودون في قولكم سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء حيث زعموا أنكم آلهة، والمراد الحكم على أولئك المكذبين بالكفر على وجه فيه استزادة غيظ المعبودين عليهم وجعله مفرعاً عليه ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

والفاء أيضاً فصيحة، والجملة جزاء باعتبار الأخبار، وقيل: هو خطاب للمؤمنين في الدنيا فقد كذبكم أيها المؤمنون الكفرة في الدنيا فيما تقولونه من التوحيد وجيء بالكلام ليفرع عليه ما بعد وكلا القولين كما ترى والثاني أبعدهما، وقرأ أبو حيوة «يقولون» بالياء آخر الحروف وهي رواية عن ابن كثير وقنبل الخطاب في ﴿كذبوكم﴾ للعابدين وضمير الجمع فيه وفي «يقولون» للمعبودين أي فقد كذبكم أيها العبدة المعبودون بزعمكم بقولهم سبحانك إلخ والباء للملابسة أو الاستعانة، وفيه أيضاً القولان السابقان أي فقد كذبكم أيها المعبودون العبدة بقولهم إنكم آلهة أو فقد كذبكم أيها المؤمنون الكفار في التوحيد بقولهم: إن هؤلاء المحكي عنهم آلهة ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي فما تملكون أيها العبدة ﴿صَرْفًا﴾ أي دفعاً للعذاب عن أنفسكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أي لا بالذات ولا بالواسطة، وقيل: حيلة من قولهم: إنه ليصرف في أموره أي يحتال فيها، وقيل: توبة، وقيل: فدية والأول أظهر فإن أصل الصرف رد الشيء من حالة إلى أخرى وإطلاقه على الحيلة أو التوبة أو الفدية مجاز، والمراد فما تملكون دفعاً للعذاب قبل حلوله ﴿وَلاَ نَصْراً﴾ أي فرداً من أفراد النصر أي العون لا من جهة أنفسكم ومن جهة غيركم بعد حلوله، وقيل: نصراً جمع ناصر كصحب جمع صاحب وليس بشيء، والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب لكن لا على معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل في زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم، والمراد من التكذيب المرتب عليه ما ذكر تكذيبهم بقولهم إنهم آلهة، ويجوز أن يراد به تكذيبهم بقولهم: هؤلاء أضلونا وهو متضمن نفي كونهم آلهة وبذلك يتم أمر الترتيب.

وقرأ عليّ كرم الله تعالى وجهه وأكثر السبعة «يستطيعون» بالياء التحتية أي فما يستطيع آلهتكم دفعاً للعذاب عنكم، وقيل حيلة لدفعه، وقيل فدية عنكم ولا نصراً لكم، وقيل في معنى الآية على تقدير كون الخطاب السابق للمؤمنين إنه سبحانه أراد أن هؤلاء الكفرة شديدو الشكيمة في التكذيب الموجب للتعذيب فما تستطيعون أنتم صرفهم عنه ولا نصراً لكم فيما يصيبهم مما يستوجبه من العذاب هذا على قراءة حفص «تستطيعون» بالتاء الفوقية؛ وأما على قراءة الجماعة «يستطيعون» بالياء فالمعنى ما يستطيعون صرفاً لأنفسهم عما هم عليه ولا نصراً لها فيما استوجبوه

بتكذيبهم من العذاب أو فما يستطيعون صرفكم عن الحق الذي أنتم عليه ولا نصراً لأنفسهم من العذاب انتهى وهو كما ترى ﴿وَمَن يَظْلِم﴾ أي يكفر ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المكلفون ويعبد من دون الله تعالى إلهاً آخر كهؤلاء الكفرة ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَاباً كَبِيراً﴾ لا يقادر قدره وهو عذاب النار، وقرىء «يذقه» على أن الضمير لله عز وجل، وقيل: لمصدر يظلم أي يذقه الظلم والإسناد مجازي، وتفسير الظلم بالكفر هو المروي عن ابن عباس، والحسن وابن جريج وأيد بأن المقام يقتضيه فإن الكلام في الكفر ووعيده من مفتتح السورة، وجوز أن يراد به ما يعم الشرك وسائر المعاصي والوعيد بالعذاب لا ينافي العفو بالنسبة إلى غير المشرك لما حقق في موضعه. واختار الطيبي التفسير الأول وجعل الخطاب للكفار أيضاً لأن الكلام فيهم من أول وقد سبق ﴿فقد كذبوكم﴾ وهذه الآية لما يجري عليهم من الأهوال والنكال من لدن قوله تعالى: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ [الفرقان: ١٢] ومعنى ﴿ومن يظلم﴾ حينئذ ومن يدم على الظلم، وفي الكشف الوجه أن الخطاب عام والظلم الكفر ﴿ومن يظلم﴾ مظهر أقيم مقام المضمر تنبيهاً على توغلهم في الكفر وتجاوزهم حد الإنصاف والعدل إلى محض الاعتساف والجدل فيما رموا به رسول الله ﷺ وكان الأصل فلا يستطيعون صرفاً ولا نصراً ونذيقهم عذاباً كبيراً أو نذيقكم على اختلاف القراءتين والحمل على من يدم على الظلم منكم ليختص الخطاب بالكفار صحيح أيضاً ولكن تفوته النكتة التي ذكرناها انتهى. ولا يخفى أن كونه من إقامة المظهر مقام المضمر خلاف الظاهر فتأمل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ قيل هو تسلية له ﷺ عن قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق بأن لك في سائر الرسل عليهم السلام أسوة حسنة فإنهم كانوا كذلك، وقال الزجاج: احتجاج عليهم في قولهم ذلك كأنه قيل كذلك كان من خلا من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فكيف يكون محمد ﷺ بدعا من الرسل عليهم السلام. ورده الطيبي بأنه لا يساعد عليه النظم الجليل لأنه قد أجيب عن تعنتهم بقوله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ [الإسراء: ٤٨، الفرقان: ٩] وتعقبه في الكشف بقوله: ولقائل أن يقول هذا جواب آخر كما أجيب هنالك من أوجه على ما نقل عن الإمام وجعل قوله تعالى: ﴿بل كذبوا﴾ جواباً ثالثاً وعقبه بقوله تعالى: ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة﴾ لمكان المناسبة وتم الوعيد ثم أجابهم سبحانه جواباً آخر يتضمن التسلية أيضاً وهذا يساعد عليه النظم الجليل، والجملة التي بعد إلا قيل صفة ثانية لموصوف مقدر قبل ﴿من المرسلين﴾ والمعنى ما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين. وتعقب بأن فيه الفصل بين الموصوف والصفة بإلا وقد رده أكثر النحاة كما في المغني، ومن هنا جعلها بعضهم صفة لموصوف مقدر بعد إلا وذلك بدل مما حذف قبل وأقيمت صفته مقامه، والمعنى ما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا رجالاً أو رسلاً أنهم إلخ، وفيه الفصل بين البدل والمبدل منه وهو جائز عندهم. وقدر الفراء بعد إلا من وهي تحتمل أن تكون موصولة وأن تكون نكرة موصوفة، وجعل بعضهم الجملة في محل نصب بقول محذوف وجملة القول صفة أي إلا رجالاً أو رسلاً قيل إنهم إلخ وهوكما ترى، وقال ابن الأنباري: الجملة حالية والاستثناء من أعم الأحوال والتقدير إلا وأنهم. قال أبو حيان: وهو المختار، وقدر الواو بناء على أن الاكتفاء في مثل هذه الجملة الحالية بالضمير غير فصيح، وربما يختار عدم التقدير ويمنع دعوى عدم الفصاحة أو يحمل ذلك على غير المقترن بإلا لأنه في الحقيقة بدل، ووجه كسر إن وقوعها في الابتداء ووقوع اللام بعدها أيضاً. وقرىء «أنهم» بالفتح على زيادة اللام بعدها وتقدير جار قبلها أي لأنهم يأكلون إلخ. والمراد ما جعلناهم رسلاً إلى الناس إلا لكونهم مثلهم، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود وعبد الرحمن بن عبد الله «يمشّون» بتشديد الشين المفتوحة مع ضم الياء مبنياً للمفعول أي يمشيهم حوائجهم أو الناس والتضعيف للتكثير كما في قول الهذلي:

يمشي بيننا حانوت خمر

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي كما في البحر «يُمَشُّونَ» بضم الياء والشين مع التشديد مبنياً للفاعل وهو مبالغة يمشي المخفف فهي مطابقة للقراءة المشهورة ولا يحتاج إلى تقدير يمشيهم حوائجهم ونحوه. وأنشدوا قوله:

ومشى بأغصان المباءة وابتغى ... قلائص منها صعبة وذلول

وقوله(١):

فقد تركت خزينة كل وغد ... يمشي بين خاتام وطاق

وفي بعض نسخ الكشاف ما يدل على أنه لم يظفر بهذه القراءة، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قيل تسلية له ﷺ أيضاً لكن عن قولهم: ﴿أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة﴾ [الفرقان: ٨] أي وجعلنا أغنياءكم أيها الناس ابتلاء لفقرائكم لننظر هل يصبرون ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي عالماً بالصواب فيما يبتلى به وغيره فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم، وقيل: تصبير له عليه الصلاة والسلام على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد الاحتجاج عليهم بسائر الرسل، والكلام من تلوين الخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم السلام بطريق التغليب على ما اختاره بعضهم، والمراد بالبعض الأول كفار الأمم واختصاصهم بالرسل مصحح لأن يعدوا بعضاً منهم وبالبعض الثاني رسلهم على معنى جعلنا كل بعض معين من الأمم فتنة لبعض معين من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الأمم الكافرة فتنة لرسولها المعين. وإنما لم يصرح بذلك تعويلاً على شهادة الحال، وحاصله جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم وبمناصبتهم لهم العداوة وإطلاق ألسنتهم فيهم بالأقاويل الخارجة عن حد الإنصاف وسلوكهم في أذاهم كل مسلك لنعلم صبرهم أو هو خطاب الناس كافة على ما قيل وهو الظاهر، والبعض الأول أعم من الكفار والأغنياء والأصحاء وغيرهم ممن يصلح أن يكون فتنة والبعض الثاني أعم من الرسل والقراء والمرضى وغيرهم ممن يصلح أن يفتن. والكلام عليه مفيد لتصبره ﷺ على ما قالوه وزيادة، وقيل: المراد بالبعض الأول من لا مال له من المرسلين وبالبعض الثاني أممهم ويدخل في ذلك نبينا ﷺ وأمته دخولاً أولياً فكأنه قيل جعلناك فتنة لأمتك لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا وإنما بعثناك لا مال لك ليكون طاعة من يطيعك منهم خالصة لوجه الله تعالى من غير طمع دنيوي وكذا حال سائر من لا مال له من المرسلين مع أممهم والأظهر عموم الخطاب والبعضين وهو الذي تقتضيه الآثار وإليه ذهب ابن عطية فقال: ذلك عام للمؤمن والكافر فالصحيح فتنة للمريض والغني فتنة للفقير والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لاشراف الناس الكفار في عصره وكذلك العلماء وحكام العدل، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأى أشهب انتهى. واختار ذلك أبو حيان. ولا يضر فيه خصوص سبب النزول فقد روي عن الكلبي أنها نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم قالوا: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة. والاستفهام إما في حيز التعليل للجعل ومعادله محذوف كما حذف فيما لا يحصى من الأمثلة والتقدير لنعلم أتصبرون أم لا أي ليظهر ما في علمنا. وقرينة تقدير العلم تضمن الفتنة إياه. وإما أن لا يكون في حيز التعليل وليس هناك معادل محذوف بأن يكون للترغيب والتحريض والمراد اصبروا فإني ابتليت بعضكم

---

(١) أنشده الأزهري قال أبو عمرو والعرب تسمي معدن الذهب خزينة وأراد بالخاتام الخاتم وبالطاق الطيلسان ا هـ منه.

ببعض. ويجوز أن لا يقدر معادل على تقدير اعتبار التعليل أيضاً بأن يكون الخطاب للرسل عليهم السلام على ما سمعت. وجعل ابن عطية الخطاب فيما سبق عاماً وفي ﴿أتصبرون﴾ خاصاً بالمؤمنين الذين جعل إمهال الكفار فتنة لهم في ضمن العموم السابق وقدر معادلاً فقال: كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين ثم وقفهم أتصبرون أم لا. وجعل قوله تعالى: ﴿وكان ربك بصيراً﴾ وعداً للصابرين ووعيداً للعاصين. وجعله بعضهم وعداً للرسول ﷺ بالأجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له عليه الصلاة والسلام بالالتفات إلى اسم الرب مضافاً إلى ضميره ﷺ. وجوز أن يكون وعيداً لأولئك المعاندين له عليه الصلاة والسلام جيء به إتماماً للتسلية أو التصبر وليس بذاك واستدل بالآية على القضاء والقدر فإنها أفادت أن أفعال العباد كعداوة الكفار وإيذائهم بجعل الله تعالى وإرادته والفتنة بمعنى الابتلاء وإن لم تكن من أفعال العباد إلا أنها مفضية ومستلزمة لما هو منها. وفيه من الخفاء ما فيه. وقوله تعالى.

تم والحمد لله الجزء الثامن عشر من تفسير روح المعاني ويليه إن شاء الله تعالى. الجزء التاسع عشر وأوله ﴿وقال الذين لا يرجون﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ
عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا
عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾
وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾
وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ
ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ
كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا
﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾

﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا**﴾ إلخ شروع في حكاية بعض آخر من أقاويلهم الباطلة وبيان بطلانها إثر حكاية إبطال أباطيلهم السابقة وذكر ما يتعلق بذلك، والجملة المعطوفة على قوله تعالى: ﴿وقالوا مال هذا الرسول﴾ [الفرقان: ٧] إلى آخره، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يصدر عمن يرجو لقاء الله عز وجل، والرجاء في المشهور الأمل وقد فسر أحدهما بالآخر أكثر

اللغويين، وفي فروق ابن هلال الأمل رجاء يستمر ولذا قيل للنظر في الشيء إذا استمر وطال تأمل، وقيل: الأمل يكون في الممكن والمستحيل والرجاء يخص الممكن. وفي المصباح الأمل ضد اليأس وأكثر ما يستعمل فيما يبعد حصوله والطمع يكون فيما قرب حصوله والرجاء بين الأمل والطمع فإن الراجي يخاف أن لا يحصل مأموله ولذا استعمل بمعنى الطمع انتهى، وفسره أبو عبيدة وقوم بالخوف، وقال الفراء: هذه الكلمة تهامية وهي أيضاً من لغة هذيل إذا كان مع الرجاء جحد ذهبوا به إلى معنى الخوف فيقولون: فلان لا يرجو ربه سبحانه يريدون لا يخاف ربه سبحانه، ومن ذلك ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ [نوح: ١٣] أي لا تخافون لله تعالى عظمة وإذا قالوا: فلان يرجو ربه فهذا على معنى الرجاء لا على معنى الخوف، وقال الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وحالفها في بيت نوب عواسل

وقال آخر:

لا يرتجي حين يلاقي الذائدا ... أسبعة لاقت له أو واحدا

انتهى، وذكر أن استعمال الرجاء في معنى الخوف مجاز لأن الراجي لأمر يخاف فواته، وأصل اللقاء مقابلة الشيء ومصادفته وهو مراد من قال: الوصول إلى الشيء لا المماسة ويطلق على الرؤية لأنها وصول إلى المرئي، ولقاؤه تعالى هنا كناية عن لقاء جزائه يوم القيامة أو المراد ذلك بتقدير مضاف؛ والمعنى على التفسير المشهور للرجاء وقال الذين لا يأملون لقاء جزائنا بالخير والثواب على الطاعة لتكذيبهم بالبعث، وعلى التفسير الآخر وقال الذين لا يخافون لقاء جزائنا بالشر والعقاب على المعصية لتكذيبهم بالبعث كذا قيل. وقيل: المراد به رؤيته تعالى في الآخرة والرجاء عليه بمعنى الأمل دون الخوف إذ لا معنى لكون الرؤية مخوفة وهو خلاف الظاهر وإن لم يأبه ما بعد إذ يكون المعنى عليه إن الذين لا يرجون رؤيتنا في الآخرة التي هي مظنة الرؤية لكثير من الناس اقترحوا رؤيتنا في الدنيا التي ليست مظنة لذلك، وقد يقال: نفي رجاء لقائه تعالى كناية عن إنكار البعث والحشر ولعله أولى مما تقدم أي وقال الذين ينكرون البعث والحشر ﴿**لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ**﴾ أي هلا أنزلوا علينا فيخبرونا بصدق محمد ﷺ ﴿**أَوْ نَرَى رَبَّنَا**﴾ فيخبرنا بذلك كما روي عن ابن جريج وغيره وفي طلب إنزال ملائكة للتصديق دون إنزال ملك إشارة إلى أنهم بلغوا في التكذيب مبلغاً لا ينفع معه تصديق ملك واحد وإذا اعتبرت أل في الملائكة للاستغراق الحقيقي كانت الإشارة إلى قوة تكذيبهم أقوى، وتزداد القوة إذا اعتبر في ﴿**علينا**﴾ معنى كل واحد منا ولم يعتبر توزيع، ويشير أيضاً إلى قوة ذلك تعبيرهم بالمضارع الدال على الاستمرار التجددي في﴿ **أو نرى ربنا** ﴾ كأنهم لم يكتفوا برؤيته تعالى وإخباره سبحانه بصدق رسوله ﷺ حتى يروه سبحانه ويخبرهم مراراً بذلك، ولا يأبى قصد الاستمرار من المضارع كون الأصل في «لو لا» التي للتحضيض أو العرض أن تدخل على المضارع وما لم يكن مضارعاً يؤول به، ولعل عدولهم إلى الماضي في جانب إنزال الملائكة المعطوف عليه وإن كان في تأويل المضارع على نحو ما قدمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ [الفرقان: ٧] فتذكر فما في العهد من قدم.

وقيل: المعنى لولا أنزل علينا الملائكة فيبلغون أمر الله تعالى ونهيه بدل محمد ﷺ أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك من غير توسيط أحد ورجح الأول بأن السياق لتكذيبه ﷺ وحاشاه ثم حاشاه من الكذب والتعنت في طلب مصدق له عليه الصلاة والسلام لا لطلب من يفيدهم الأمر والنهي سواه ﷺ، ولا نسلم أن ﴿**لولا أنزل علينا الملائكة**﴾ يتكرر عليه مع ﴿**لولا أنزل إليه ملك**﴾ السابق لظهور الفرق بين المطلوبين فيهما ولو فرض لزوم التكرار بينرهما فهو لا يضر كما لا يخفى. وانتصر للأخير بأن المقام ليس إلا لذكر المكذبين وحكاية أباطيلهم الناشئة عن تكذيبهم. وقد عد فيما

سبق بعضاً منها متضمناً تعنتهم في طلب مصدق له ﷺ فالأولى أن يكون ماهنا حكاية نوع آخر منها ليكون أبعد عن التكرار وأدل على العناد والاستكبار. ولعل قوله تعالى: ﴿**لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً**﴾ أنسب بما ذكر. ومعنى ﴿**استكبروا في أنفسهم**﴾ أوقعوا الاستكبار في شأنها وعدوها كبيرة الشأن، وفيه تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم كما في قوله:

يجرح في عراقيبها نصلي

والعتو تجاوز الحد في الظلم وهو المصدر الشائع لعتا، واللام واقعة في جواب القسم أي والله لقد استكبروا في شأن أنفسهم وتجاوزا الحد في الظلم والطغيان تجاوزاً كبيراً بالغاً أقصى غايته حيث كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولم ينقادوا لبشر مثلهم يوحى إليه في أمرهم ونهيهم ولم يكترثوا بمعجزاته القاهرة وآياته الباهرة فطلبوا ما لا يكاد ترنو إليه أحداق الأمم وراموا ما لا يحظى به إلا بعض أولي العزم من الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم. وقد فسر ﴿**استكبروا في أنفسهم**﴾ بأضمروا الاستكبار وهو الكفر والعناد في قلوبهم وهو أظهر مما تقدم وما تقدم أبلغ وأوفق لما انتصر له. وكذا فسر العتو بالنبو عن الطاعة وما تقدم أبلغ وأوفق بذلك أيضاً. وفي تعقب حكاية باطل أولئك الكفرة بالجملة القسمية إيذان بغاية قبح ما هم عليه وإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم وهو من الفحوى في الحقيقة ومثل ذلك شائع في الكلام تقول لمن جنى جناية: فعلت كذا وكذا استعظاماً وتعجباً منه؛ ويستعمل في سائر الألسنة وجعل الزمخشري من ذلك قول مهلهل:

وجارة جساس أبأنا بنابها ... كليباً غلت ناب[1] كليب بواؤها

والطيبي قوله تعالى: ﴿كبرت كلمة﴾ [الكهف: ٥]، وتعقب بأن ذلك ليس من هذا القبيل لأن الثلاثي المحول إلى فعل لفظاً أو تقديراً موضوع للتعجب كما صرح به النحاة؛ وذكر الإمام مختار القول الأول في تفسير ﴿**لولا أنزل**﴾ إلخ أن هذه الجملة جواب لقولهم: «لولا أنزل» إلخ من عدة أوجه، أحدها أن القرآن لما ظهر كونه معجزاً فقد ثبتت نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم فبعد ذلك لا يكون اقتراح هذه الآيات إلا محض استكبار. وثانيها أن نزول الملائكة عليهم السلام لو حصل لكان أيضاً من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه نزول الملك بل لعموم كونه معجزاً فيكون قبول ذلك ورد الآخر ترجيحاً لأحد المثلين من غير مرجح. وثالثها أنهم بتقدير رؤية الرب سبحانه وتصديقه لرسوله ﷺ لا يستفيدون علماً أزيد من تصديق المعجز إذ لا فرق بين أن يقول النبي: اللهم إن كنت صادقاً فأحي هذا الميت فيحييه عز وجل وبين أن يقول: إن كنت صادقاً فصدقني فيصدقه فتعيين أحد الطريقين محض العناد، ورابعها أن العبد ليس له أن يعترض على مولاه إما بحكم المالكية عند الأشعري أو بحكم المصلحة عند المعتزلي، وخامسها أن السائل الملح المعاند الذي لا يرضى بما ينعم عليه مذموم وإظهار المعجز من جملة الأيادي الجسيمة فرد إحداهما واقتراح الأخرى ليس من الأدب في شيء. وسادسها لعل المراد أني لو علمت أنهم ليسوا مستكبرين وعاتين لأعطيتهم مطلوبهم لكني علمت أنهم إنما سألوا لأجل المكابرة والعناد فلا جرم لا أعطيهم، وسابعها لعلهم عرفوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يرى في الدنيا وأنه لا ينزل الملائكة عليهم السلام على عوام الخلق ثم إنهم علقوا إيمانهم على ذلك فهم مستكبرون ساخرون انتهى وفيه ما لا يخلو عن بحث.

واستدلت الأشاعرة بقوله تعالى: «لا يرجون لقاءنا» على أن رؤية الله تعالى ممكنة واستدلت المعتزلة بقوله

---

(١) الناب الناقة المسنة ا هـ منه.

سبحانه: ﴿لقد استكبروا﴾ و ﴿عتواً﴾ على أنها ممتنعة ولا يخفى ضعف الاستدلالين ﴿يَوْم يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدة الملائكة عليهم السلام بعد استعظام طلبهم إنزالهم عليهم وبيان كونه في غاية الشناعة. وإنما قيل: يوم يرون دون أن يقال يوم تنزل الملائكة إيذاناً من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما طلبوه بل على وجه آخر لم يمر ببالهم «ويوم» منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا بُشْرَى يَوْمئذ للْمُجْرمينَ﴾ فإنه في معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرى فكأنه قيل لا يبشرون يوم يرون الملائكة، وقدر بعضهم يمنعون البشرى أو يفقدونها والأول أبعد من احتمال توهم تهوين الخطب، وقدر بعضهم لا بشرى قبل يوم وجعله ظرفاً لذلك، وجوز أبو البقاء تعلقه بيعذبون مقدراً لدلالة ﴿لا بشرى﴾ إلخ عليه وكونه معمولاً لا ذكر مقدراً قال: أبو حيان وهو أقرب.

وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يكون منصوباً بينزل مضمراً لقولهم: لولا أنزل علينا الملائكة كأنه قيل ينزل الملائكة يوم يرونهم، ولا يقال: كيف يكون وقت الرؤية وقتاً للإنزال لأنا نقول: الظرف يحتمل ذلك لسعته واستحسنه الطيبي فقال هو قول لا مزيد عليه لأنه إذا انتصب بينزل يلتئم الكلامان لأن قوله تعالى: ﴿يوم يرون﴾ إلخ نشر لقوله تعالى: ﴿لولا أنزل﴾ إلخ، وقوله سبحانه: ﴿وقدمنا﴾ نشر لقوله عز وجل ﴿أو نرى ربنا﴾ولم يجوز الأكثرون تعلقه ببشرى المذكور لكونه مصدراً وهو لا يعمل متأخراً وكونه منفياً بلا ولا يعمل ما بعدها فيما قبلها و ﴿يومئذ﴾ تأكيد للأول أو بدل منه أو خبر و ﴿للمجرمين﴾ تبيين متعلق بمحذوف كما في سقياً له أو خبر ثان أو هو ظرف لما يتعلق به اللام أو لبشرى إن قدرت منونة غير مبنية مع لا فإنها لا تعمل إذ لو عمل اسم لا طال وأشبه المضاف فينتصب.

وفي البحر احتمل بشرى أن يكون مبنياً مع لا واحتمل أن يكون في نية التنوين منصوب اللفظ ومنع من الصرف للتأنيث اللازم فإن كان مبنياً مع لا احتمل أن يكون الخبر ﴿يومئذ﴾ وللمجرمين خبر بعد خبر أو نعت لبشرى أو متعلق بما تعلق به الخبر، وأن يكون ﴿يومئذ﴾ صفة لبشرى والخبر ﴿للمجرمين﴾ ويجيء خلاف سيبويه والأخفش هل الخبر لنفس لا أو للمبتدأ الذي هو مجموع لا وما بني معها. وإن كان في نية التنوين وهو معرب جاز أن يكون ﴿يومئذ﴾ معمولاً لبشرى وأن يكون صفة والخبر «للمجرمين»، وجاز أن يكون ﴿يومئذ﴾ خبراً و ﴿للمجرمين﴾ صفة، وجاز أن يكون ﴿يومئذ﴾ خبراً و ﴿للمجرمين﴾ خبراً بعد خبر والخبر إذا كان الاسم ليس مبنياً للإنفسها بالإجماع.

وقال الزمخشري: يومئذ تكرير ولا يجوز ذلك سواء أريد بالتكرير التوكيد اللفظي أم أريد به البدل لأن «يوم» منصوب بما تقدم ذكره من اذكر أو من يفقدون وما بعد لا العاملة في الاسم لا يعمل فيه ما قبلها وعلى تقديره يكون العامل فيه ما قبلها انتهى. ولا يخفى عليك ما في الاحتمالات التي ذكرها. وأما ما اعترض به على الزمخشري فتعقب بأن الجملة المنفية معمولة لقول مضمر وقع حالاً من الملائكة التي هي معمول ليرون و ﴿يرون﴾ معمول ليوم فلا وما في حيزها من تتمة الظرف الأول من حيث إنه معمولاً لبعض ما في حيزه ومثله لا يعد محذوراً مع أن كون لا لها الصدر مطلقاً أو إذا بني معها اسمها ليس بمسلم عند جميع النحاة لأنها لكثرة دورها خرجت عن الصدارة فتأمل، هذا ما وقفنا عليه للمتقدمين في إعراب الآية وما فيه من الجرح والتعديل.

وقال بعض العصريين: يجوز تعلق ﴿يوم﴾ بكبير أو تقييد كبره بذلك اليوم ليس لنفي كبره في نفسه بل لظهور موجبه في ذلك اليوم ونظيره لزيد علم عظيم يوم يباحث الخصوم وتكون جملة ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾

استئنافاً لبيان ذلك وهو كما ترى، وأياً ما كان فالمراد بذلك اليوم على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يوم الموت، وقال أبو حيان: الظاهر أنه يوم القيامة لقوله تعالى بعد ﴿وقدمنا إلى ما عملوا﴾ إلخ وفيه نظر.

ونفي البشرى كناية عن إثبات ضدها كما أن نفي المحبة في مثل قوله تعالى: ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ [آل عمران: ٣٢] كناية عن البغض والمقت فيدل على ثبوت النذرى لهم على أبلغ وجه، والمراد بالمجرمين أولئك الذين لا يرجون لقاءه تعالى، ووضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر والعناد وإيذاناً بعلة الحكم، ومن اعتبر المفهوم في مثله ادعى إفادة الآية عدم تحقق الحكم في غيرهم، وقد دل قوله تعالى في حق المؤمنين ﴿تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا﴾ [فصلت: ٣٠] إلخ على حصول البشرى لهم، وقيل: المراد بهم ما يعم العصاة والكفار الذين لا يرجون لقاءه تعالى، ويفيد الكلام سلب البشرى عن الكفار على أتم وجه لدلالته على أن المانع من حصول البشرى هو الإجرام ولا إجرام أعظم من إجرام الذين لا يرجون لقاءه عز وجل ويقولون ما يقولون فهم أولى به. و يتم استدلال المعتزلة بالآية عليه في نفي العفو والشفاعة للعصاة لأنها لا تفيد النفي في جميع الأوقات فيجوز أن يبشر االعصاة بما ذكر في وقت آخر.

وتعقب بأن الجملة قبل النفي لكونها اسمية تفيد الاستمرار فبعد دخول النفي إرادة نفي استمرار البشرى للمجرمين بمعنى أن البشرى تكون لهم لكن لا تستمر مما لا يظن أن أحداً يذهب إليه فيتعين إرادة استمرار النفي كما في قوله تعالى في حق أضدادهم ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [يونس: ٦٢] فحينئذ لا يتسنى قوله: إنها لا تفيد النفي في جميع الأوقات، فالأولى أن يراد بالمجرمين من سمعت حديثهم ﴿ويقُولُونَ﴾ عطف على لا يبشرون أو يمنعون البشرى أو نحوه المقدر قبل ﴿يوم﴾.

وجوز أن يكون عطفاً على ما قبله باعتبار ما يفهم منه كأنه قيل: يشاهدون أهوال القيامة ويقولون، وأن يكون عطفاً على ﴿يرون﴾ وجملة ﴿لا بشرى﴾ حال بتقدير القول فلا يضر الفصل به، وضمير الجمع على ما استظهره أبو حيان لأنهم المحدث عنهم وحكاه الطبرسي عن مجاهد وابن جريج للذين لا يرجون أي ويقول أولئك الكفرة ﴿حِجراً محجوراً﴾ وهي كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو موتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم فكأن المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً.

وقال الخليل: كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم فيقول: حجراً محجوراً أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر فلا يبدؤه بشرّ، وقال أبو عبيدة: هي عوذة للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة، وقال أبو علي الفارسي: مما كانت العرب تستعمله ثم ترك قولهم حجراً محجوراً، وهذا كان عندهم لمعنيين، أحدهما أن يقال عند الحرمان إذا سئل الإنسان فقال ذلك علم السائل أنه يريد أن يحرمه، ومنه قول المتلمس:

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس(١)

والمعنى الآخر الاستعاذة كان الإنسان إذا سافر فرأى ما يخاف قال: حجراً محجوراً أي حرام عليك التعرض لي انتهى. وذكر سيبويه «حجراً» من المصادر المنصوبة غير المتصرفة وأنه واجب إضمار ناصبها، وقال: ويقول الرجل

(١) أي الدواهي ا هـ منه.

للرجل أتفعل كذا فيقول: حجراً وهي من حجره إذا منعه لأن المستعيذ طالب من الله تعالى أن يمنع المكروه من أن يلحقه والأصل فيه فتح الحاء، وقرىء به كما قال أبو البقاء لكن لما خصوا استعماله بالاستعاذة أو الحرمان صار كالمنقول فلما تغير معناه تغير لفظه عما هو أصله وهو الفتح إلى الكسر وقد جاء فيه الضم أيضاً وهي قراءة أبي رجاء والحسن والضحاك ويقال فيه حجرى بألف التأنيث أيضاً؛ ومثله في التغيير عن أصله قعدك الله تعالى بسكون العين وفتح القاف، وحكى كسرها عن المازني وأنكره الأزهري وقعيدك وهو منصوب على المصدرية، والمراد رقيبك وحفيظك الله تعالى ثم نقل إلى القسم قعدك أو قعيدك الله تعالى لا تفعل، وأصله بإقعاد الله تعالى أي إدامته سبحانه لك وكذا عمرك الله بفتح الراء وفتح العين وضمها وهو منصوب على المصدرية ثم اختص بالقسم، وأصله بتعميرك الله تعالى أي بإقرارك له بالبقاء، وما ذكر من أنه لازم النصب على المصدرية بفعل واجب الإضمار اعترض عليه في الدر المصون بما أنشده الزمخشري:

قالت وفيها حيدة وذعر ... عوذ بربي منكم وحجر

فإنه وقع فيه مرفوعاً، ووصفه بمحجوراً للتأكيد كشعر شاعر وموت مايت وليل أليل، وذكر أن مفعولاً هنا للنسب أي ذو حجر وهو كفاعل يأتي لذلك، وقيل: إنه على الإسناد المجازي وليس بذاك، والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام وهم إذ رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعاً شديداً، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس فظيع، وقيل: ضمير يقولون للملائكة وروى ذلك عن أبي سعيد الخدري والضحاك وقتادة وعطية ومجاهد على ما في الدر المنثور قالوا: إن الملائكة يقولون للكفار حجراً محجوراً أي حراماً محرماً عليكم البشرى أي جعلها الله تعالى حراماً عليكم.

وفي بعض الروايات أنهم يطلبون البشرى من الملائكة عليهم السلام فيقولون ذلك لهم؛ وقال بعضهم: يعنون حراماً محرماً عليكم الجنة وحكاه في مجمع البيان عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقيل: الغفران، وفي جعل ﴿**حجراً**﴾ نصباً على المفعولية لجعل مقدراً كما أشير إليه بحث، والظاهر على ما ذكر أن إيراد هذه الكلمة للحرمان وهو المعنى الأول من المعنيين اللذين ذكرهما الفارسي ﴿**ويقولون**﴾ على هذا القول قيل معطوف على ما عطف عليه على القول بأن ضميره للكفرة، وقيل: معطوف على جملة يقولون المقدرة قبل ﴿**لا بشرى**﴾ الواقعة حالاً.

وقال الطيبي: هو حال من ﴿**الملائكة**﴾ بتقدير وهم يقولون نظير قولهم: قمت وأصك وجهه وعلى الأول هو عطف على ﴿**يرون**﴾ ﴿**وقدمنا**﴾ أي عمدنا وقصدنا كما روي عن ابن عباس وأخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿**إلى ما عملوا**﴾ في الدنيا ﴿**من عمل**﴾ فخيم كصلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضعيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها، والجار والمجرور بيان لما وصحة البيان باعتبار التنكير كصحة الاستثناء في ﴿**إن نظن إلاّ ظناً**﴾ [الجاثية: ٣٢] لكن التنكير هاهنا للتفخيم كما أشرنا إليه.

وجوز أن يكون للتعميم ودفع ما يتوهم من العهد في الموصول أي عمدنا إلى كل عمل عملوه خال عن الإيمان، ولعل الأول أنسب بقوله تعالى: ﴿**فجعلناه هباء**﴾ مثل هباء في الحقارة وعدم الجدوى، وهو على ما أخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي حاتم عن علي كرّم الله تعالى وجهه وهج الغبار يسطع ثم يذهب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه الشرر الذي يطير من النار إذا اضطرمت، وفي رواية أخرى عنه أنه الماء المهراق. وعن يعلى بن عبيد أنه الرماد.

وأخرج جماعة عن مجاهد والحسن وعكرمة وأبي مالك وعامر أنه شعاع الشمس في الكوة وكأنهم أرادوا ما يرى فيه من الغبار كما هو المشهور عند اللغويين، قال الراغب: الهباء دقاق التراب وما انبثَّ في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة ويقال: هبا الغبار يهبو إذا ثار وسطع، ووصف بقوله تعالى: ﴿مَنثُوراً﴾ مبالغة في إلغاء أعمالهم فإن الهباء تراه منتظماً مع الضوء فإذا حركته الريح تناثر وذهب كل مذهب فلم يكف أن شبه أعمالهم بالهباء حتى جعل متناثراً لا يمكن جمعه والانتفاع به أصلاً، ومثل هذا الإرداف يسمى في البديع بالتتميم والإيغال، ومنه قول الخنساء:

أغر أبلج تأتمُّ الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

حيث لم يكفها أن جعلته علماً في الهداية حتى جعلته في رأسه نار، وقيل: وصف بالمنثور أي المتفرق لما أن أغراضهم في أعمالهم متفرقة فيكون جعل أعمالهم هباء متفرقاً جزاء من جنس العمل، وجوز أن يكون مفعولاً بعد مفعول لجعل وهو مراد من قال: مفعولاً ثالثاً لها على معنى جعلناه جامعاً لحقارة الهباء والتناثر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ [البقرة: ٦٥، الأعراف: ١٦٦] أي جامعين للمسخ والخسء، وفيه خلاف ابن درستويه حيث لم يجوز أن يكون لكان خبر إن وقياس قوله: أن يمنع أن يكون لجعل مفعول ثالث، ومع هذا الظاهر الوصفية، وفي الكلام استعارة تمثيلية حيث مثلت حال هؤلاء الكفرة وحال أعمالهم التي عملوها في كفرهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها وجعلها شذر مذر ولم يترك لها من عين ولا أثر، واللفظ المستعار وقع فيه استعمال ـ قدم ـ بمعنى عمد وقصد لاشتهاره فيه وإن كان مجازاً كما يشير إليه كلام الأساس ، ويسمى القصد الموصل إلى المقصد قدوماً لأنه مقدمته، وتضمن التمثيل تشبيه أعمالهم المحبطة بالهباء المنثور بدون استعارة، فلا إشكال على ما قيل، والكلام في ذلك طويل فليطلب من محله. وجعل بعضهم القدوم في حقه عز وجل عبارة عن حكمه، وقيل: الكلام على حذف مضاف أي قدم ملائكتنا، وأسند ذلك إليه عز وجل لأنه عن أمره سبحانه، ونقل عن بعض السلف أنه لا يؤول في قوله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ [البقرة: ٢١٠] على ما هو عادتهم في الصفات المتشابهة، وقياس ذلك عدم التأويل في الآية، ولعله من هنا قيل: إن تأويل الزمخشري لها بناء على معتقده من إنكار الصفات، والقلب إلى التأويل فيها أميل.

وأنت إن لم تؤول القدوم فلا بد لك أن تؤول جعلها هباء منثوراً بإظهار بطلانها بالكلية وإلغائها عن درجة الاعتبار بوجه من الوجوه، ولا يأبى ذلك السلف ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾ [الفرقان: ١٥] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر من القدوم إلى أعمالهم وجعلها هباء منثوراً، أو من هذا وعدم التبشير، وقولهم: حجراً محجوراً ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً﴾ المستقر المكان الذي يستقر فيه في أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ المقيل المكان الذي يؤوي إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتع بمغازلتهن، سمي بذلك لأن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً، وقيل: هو في الأصل مكان القيلولة ـ وهي النوم نصف النهار ـ ونقل من ذلك إلى مكان التمتع بالأزواج لأنه يشبهه في كون كل منهما محل خلوة واستراحة فهو استعارة، وقيل: أريد به مكان الاسترواح مطلقاً استعمالاً للمقيد في المطلق فهو مجاز مرسل، وإنما لم يبق على الأصل لما أنه لا نوم في الجنة أصلاً.

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً**﴾ وقرأ «إن مقيلهم لإلى الجحيم» وأخذ منه بعضهم أن المراد بالمستقر موضع الحساب، وبالمقيل محل الاستراحة بعد الفراغ منه، ومعنى يقيل هؤلاء يعني أصحاب الجنة ينقلون إليها وقت القيلولة، وقيل: المستقر والمقيل في المحشر قبل دخول الجنة، أو المستقر فيها والمقيل فيه.

فقد أخرج ابن جرير عن سعيد الصواف قال: بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليقيلون في رياض حتى يفرغ الناس من الحساب، وذلك قوله تعالى: ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً**﴾ وفي وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه على المستقر رمز إلى أن لهم ما يتزين به من حسن الصور وغيره من التحاسين. فإن حسن المنزل إن لم يكن باعتبار ما يرجع لصاحبه لم تتم المسرة به، والتفضيل المعتبر فيهما المسرة إما لإرادة الزيادة على الإطلاق، أي هم في أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل، وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين في الدنيا أو إلى ما لهم في الآخرة بطريق التهكم بهم، هذا وتفسير المستقر والمقيل بالمكانين حسبما سمعت هو المشهور وهو أحد احتمالات تسعة. وذلك أنهم جوزوا أن يكون كلاهما اسم مكان أو اسم زمان أو مصدراً وأن يكون الأول اسم مكان والثاني اسم زمان أو مصدراً وأن يكون الأول اسم زمان والثاني اسم مكان أو مصدراً وأن يكون الأول مصدراً والثاني اسم مكان أو اسم زمان، وما شئت تخيل في خيرية زمان أصحاب الجنة وأحسنيته وكذا في خيرية استقرارهم وأحسنية استراحتهم يومئذ ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ**﴾ العامل في ﴿**يوم**﴾ إما اذكر أو ينفرد الله تعالى بالملك الدال عليه قوله تعالى: ﴿**الملك يومئذ الحق للرحمن**﴾ وقيل: العامل ذاك بمعناه المذكور. وقيل: إنه معطوف على ﴿**يومئذ**﴾ أو ﴿**يوم يرون**﴾ و ﴿**تشقق**﴾ تتفتح والتعبير به دونه للتهويل، وأصله تتشقق فحذفت إحدى التاءين كما في ﴿**تلظى**﴾ [الليل: ١٤] وقرأ الحرميان وابن عامر بإدغام التاء في الشين لما بينهما من المقاربة؛ والظاهر أن المراد بالسماء المظلة لنا وبالغمام السحاب المعروف والباء الداخلة عليه باء السبب. أي تشقق السماء بسبب طلوع الغمام منها. ولا مانع من أن تشقق به كما يشق السنام بالشفرة والله تعالى على كل شيء قدير، وحديث امتناع الخرق على السماء حديث خرافة.

وقيل: باء الحال وهي باء الملابسة. واستظهره بعضهم أي تشقق متغيمة، وقيل: بمعنى عن وإليه ذهب الفراء، والفرق بين قولك انشقت الأرض بالنبات وانشقت عنه أن معنى الأول أن الله تعالى شقها بطلوعه فانشقت به. ومعنى الثاني أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه، وقيل: المراد بالغمام غمام أبيض رفيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنه الغمام الذي يأتي الله تعالى فيه يوم القيامة المذكور في قوله سبحانه: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام**﴾ قال ابن جريج: وهو غمام زعموا أنه في الجنة، وعن مقاتل أن المراد بالسماء ما يعم السماوات كلها وتشقق سماء سماء، وروي ذلك عن ابن عباس، فقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الأهوال وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه قرأ هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿**وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً**﴾ أي تنزيلاً عجيباً غير معهود فقال: يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس وجميع الخلق فيحيطون بجميعهم فتقول أهل الأرض: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس وجميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن

والإنس وجميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والدنيا وجميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق، ثم ينزل أهل السماء الرابعة وهم أكثر من أهل الثالثة والثانية والأولى وأهل الأرض، ثم ينزل أهل السماء الخامسة وهم أكثر ممن تقدم، ثم أهل السماء السادسة كذلك. ثم أهل السماء السابعة وهم أكثر من أهل السماوات وأهل الأرض، ثم ينزل ربنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السماوات السبع والإنس والجن وجميع الخلق لهم قرون ككعوب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى ما بين أخمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام، ومن ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام وما فوق ذلك خمسمائة عام، ونزول الرب جل وعلا من المتشابه، وكذا قوله: «وحوله الكروبيون» وأهل التأويل يقولون: المراد بذلك نزول الحكم والقضاء، فكأنه قيل: ثم ينزل حكم الرب وحوله الكروبيون أي معه، وأما نزول الملائكة مع كثرتهم وعظم أجسامهم فلا يمنع عنه ما يشاهد من صغر الأرض لأن الأرض يومئذ تمتد بحيث تسع أهلها وأهل السماوات أجمعين، وسبحان من لا يعجزه شيء، ثم الخبر ظاهر في أن الملائكة عليهم السلام لا ينزلون في الغمام، وذكر بعضهم في الآية أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف الأعمال، وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء «وَنَزَّل» ماضياً مبنياً للفاعل مشدداً، وعنه أيضاً «وأَنْزَلَ» مبنياً للفاعل وجاء مصدره تنزيلاً وقياسه إنزالاً إلا أنه لما كان معنى أنزل ونزل واحداً جاء مصدر أحدهما للآخر كما قال الشاعر:

حتى تطويت انطواء الخصب

كأنه قال: حتى انطويت، وقرأ الأعمش وعبدالله في نقل ابن عطية «وأنزل» ماضياً رباعياً مبنياً للمفعول، وقرأ جناح بن حبيش والخفاف عن أبي عمرو «ونَزَلَ» ثلاثياً مخففاً مبنياً للفاعل، وقرأ أبو معاذ وخارجة عن أبي عمرو «ونزل» بضم النون وشد الزاي وكسرها ونصب «الملائكةَ» وخرجها ابن جني بعد أن نسبها إلى ابن كثير وأهل مكة على أن الأصل «نُنَزِلُ» كما وجد في بعض المصاحف فحذفت النون التي هي فاء الفعل تخفيفاً لالتقاء النونين، وقرأ أبي «وَنُزِّلَتْ» ماضياً مشدداً مبنياً للمفعول بتاء التأنيث، وقال صاحب اللوامح عن الخفاف عن أبي عمرو «ونُزِّلَ» مخففاً مبنياً للمفعول و «الملائكةُ» بالرفع فإن صحت القراءة فإنه حذف منها المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، والتقدير ونزل نزول الملائكة فحذف النزول ونقل إعرابه إلى الملائكة بمعنى نزل نازل الملائكة لأن المصدر يكون بمعنى الاسم ا هـ، وقال الطيبي: قال ابن جني: نزل بالبناء للمفعول غير معروف لأن نزل لا يتعدى إلى مفعول به ولا يقاس بجن حيث إنه مما لا يتعدى إلى المفعول فلا يقال جنه الله تعالى بل أجنه الله تعالى، وقد بني للمفعول لأنه شاذ والقياس عليه مرود فإما أن يكون ذلك لغة نادرة وإما أن يكون من حذف المضاف أي نزل نزول الملائكة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه قال العجاج:

حتى إذا اصطفوا له حذارا

فحذاراً منصوب مصدراً لا مفعولاً به يريد اصطفوا له اصطفافاً حذاراً ونزل نزول الملائكة على حد قولك: هذا نزول منزول وصعود مصعود وضرب مضروب وقريب منه، وقد قيل قول وقد خيف منه خوف فاعرف ذلك فإنه أمثل ما يحتج به لهذه القراءة ا هـ. وهو أحسن من كلام صاحب اللوامح. وعن أبي عمرو أيضاً أنه قرأ «وتنزلت الملائكة» فهذه مع قراءة الجمهور وما في بعض المصاحف عشرة قراءات وما كان منها بصيغة المضارع وجهه ظاهر، وأما ما كان بصيغة الماضي فوجهه على ما قيل الإشارة إلى سرعة الفعل.

﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ أي السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلي العام الثابت صورة ومعنى ظاهراً وباطناً بحيث لا زوال له ثابت للرحمن يوم إذ تشقق السماء وتنزل للملائكة، فالملك مبتدأ و ﴿الحق﴾ صفته و ﴿للرحمن﴾ خبره و ﴿يومئذ﴾ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ، وفائدة التقييد أن ثبوت الملك له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عداه من أيام الدنيا فيكون لغيره عز وجل أيضاً تصرف صوري في الجملة واختار هذا بعض المحققين، ولعل أمر الفصل بين الصفة والموصوف بالظرف المذكور سهل، وقيل: ﴿الملك﴾ مبتدأ و ﴿يومئذ﴾ متعلق به وهو بمعنى المالكية و ﴿الحق﴾ خبره و ﴿للرحمن﴾ متعلق بالحق. وتعقب بأنه لا يظهر حينئذ نكتة إيراد المسند معرفاً فإن الظاهر عليه أن يقال: الملك يومئذ حق للرحمن، وأجيب بأن في تعلقه بما ذكر تأكيداً لما يفيد تعريف الطرفين، وقيل: هو متعلق بمحذوف على التبيين كما في سقياً لك والمبين من له الملك، وقيل: متعلق بمحذوف وقع صفة للحق وهو كما ترى، وقيل ﴿يومئذ﴾ هو الخبر و ﴿الحق﴾ نعت للملك و ﴿للرحمن﴾ متعلق به، وفيه الفصل بين الصفة والموصوف بالخبر فلا تغفل.

ومنعوا تعلق ﴿يومئذ﴾ فيما إذا لم يكن خبراً بالحق وعللوا ذلك بأنه مصدر والمصدر لا تتقدم عليه صلته ولو ظرفاً وفيه بحث، والجملة على أكثر الاحتمالات السابقة في عامل يوم استئناف مسوق لبيان أحوال ذلك اليوم وأهواله، وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأن اتصافه عز وجل بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي وكان ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ في الرحمة بعباده شديداً على الكافرين، والمراد شدة ما فيه من الأهوال، وفسر الراغب العسير بما لا يتيسر فيه أمر؛ والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله، وفيها إشارة إلى كون ذلك اليوم يسيراً للمؤمنين وفي الحديث: «إنه يهون على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا».

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ قال الطبرسي: العامل في ﴿يوم﴾ اذكر محذوفاً؛ ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله، والظاهر أن أل في الظالم للجنس فيعم كل ظالم وحكي ذلك أبو حيان عن مجاهد وأبي رجاء، وذكر أن المراد بفلان فيما بعد الشيطان، وقيل: لتعريف العهد، والمراد بالظالم عقبة بن أبي معيط لعنه الله تعالى وبفلان أبي بن خلف، فقد روي أنه كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا عليه أهل مكة كلهم وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ ويعجبه حديثه وغلب عليه الشقاء فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً ثم دعا رسول الله ﷺ إلى طعامه فقال: ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقال: اطعم يا ابن أخي فقال ﷺ: ما أنا بالذي أفعل حتى تقول فشهد بذلك وطعم عليه الصلاة والسلام من طعامه فبلغ ذلك أبي بن خلف فأتاه فقال: أصبوت يا عقبة وكان خليله فقال: والله ما صبوت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له فطعم فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتيه فتفعل كذا وذكر فعلاً لا يليق إلا بوجه القائل اللعين ففعل عقبة[1] فقال له رسول الله ﷺ: لا ألقاك خارجاً عن مكة إلا علوت رأسك بالسيف، وفي رواية إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج فقال له أصحابه: اخرج معنا قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي

---

(١) قال الضحاك لما بزق عقبة رجع بزاقه على وجهه لعنه الله تعالى ولم يصل حيث أراد فأحرق خديه وبقي أثر ذلك فيهما حتى ذهب إلى النار ا هـ منه.

صبراً فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك فلو كانت الهزيمة طرت عليه فخرج معهم فلما هزم الله تعالى المشركين رحل به جمله في جدد من الأرض فأخذ أسيراً في سبعين من قريش وقدم إلى رسول الله ﷺ فأمر علياً كرّم الله تعالى وجهه.

وفي رواية ثابت بن أبي الأفلح بأن يضرب عنقه فقال أتقتلني من بين هؤلاء؟ قال: نعم قال: بم؟ قال: بكفرك وفجورك وعتوك على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وفي رواية أنه ﷺ صرح له بما فعل معه ثم ضربت عنقه. وأما أبي بن خلف فمع فعله ذلك قال: والله لأقتلن محمداً ﷺ فبلغ ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: بل أقتله إن شاء الله تعالى فأفزعه ذلك وقال لمن أخبره: أنشدك بالله تعالى أسمعته يقول ذلك؟ قال نعم فوقعت في نفسه لما علموا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما قال قولاً إلا كان حقاً فلما كان يوم أحد خرج مع المشركين فجعل يلتمس غفلة النبي عليه الصلاة والسلام ليحمل عليه فيحول رجل من المسلمين بين النبي عليه الصلاة والسلام وبينه فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال لأصحابه: خلوا عنه فأخذ الحربة فرماه بها فوقعت في ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم في جوفه فخر يخور كما يخور الثور فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور فقالوا: ما هذا فوالله ما بك إلا خدش فقال: والله لو لم يصبني إلا بريقه لقتلني أليس قد قال: أنا أقتله، والله لو أن الذي بي بأهل ذي المجاز لقتلهم فما لبث إلا يوماً أو نحو ذلك حتى ذهب إلى النار فأنزل الله تعالى هذه الآية، وروي هذا القول عن ابن عباس وجماعة، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن الظالم أبي بن خلف وفلان عقبة، وعض اليدين إما على ظاهره، وروي ذلك عن الضحاك. وجماعة قالوا: يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت ولا يزال كذلك كلما أكلها نبتت وإما كناية عن فرط الحسرة والندامة، وكذا عض الأنامل والسقوط في اليد وحرق الأسنان والأدم ونحوها لأنها لازمة لذلك في العادة والعرف، وفي المثل يأكل يديه ندماً ويسيل دمعه دماً، وقال الشاعر:

أبى الضيم والنعمان يحرق نابه ... عليه فأفضى والسيوف معاقله

والفعل عض على وزن فعل مكسور العين، وحكى الكسائي عضضت بفتح العين.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ الجملة مع موضع الحال من الظالم أو جملة مستأنفة أو مبينة لما قبلها و ﴿يا ليتني﴾ إلخ مقول القول، ويا إما لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه أو المنادى محذوف يا قومي ليتني، وأل في ﴿الرسول﴾ إما للجنس فيعم كل رسول وإما للعهد فالمراد به رسول هذه الأمة محمد ﷺ والأول إذا كانت أل في الظالم للجنس والثاني إذا كانت للعهد، وتنكير ﴿سبيلاً﴾ إما للشيوع أو للوحدة وعدم تعريفه لادعاء تعينه أي يا ليتني اتخذت طريقاً إلى النجاة أي طريق كان أو طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم تتشعب بي طرق الضلالة.

﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ بقلب ياء المتكلم ألفاً كما في صحارى، وقرأ الحسن وابن قطيب يا ويلتي بكسر التاء والياء على الأصل، وقرأت فرقة بالإمالة، قال أبو علي: وترك الأمالة أحسن لأن الأصل في هذه اللفظة الياء فأبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فراراً من الياء فمن أمال رجع إلى الذي عنه فر أولاً، وأياً ما كان فالمعنى يا هلكتي تعالي واحضري فهذا أوانك ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ أراد بفلان الشيطان أو من أضله في الدنيا كائناً من كان أو أبياً إن كان الظالم عقبة أو عقبة إن كان الظالم أبياً، وهو كناية عن علم مذكر وفلانة عن علم مؤنث، واشترط ابن الحاجب في فلان أن يكون محكياً بالقول كما هنا، ورده في شرح التسهيل بأنه سمع خلافه كثيراً كقوله:

وإذا فلان مات عن أكرومة ... دفعوا معاوز فقره بفلان

وتقدير القول فيه غير ظاهر، والفلان والفلانة كناية عن غير العاقل من الحيوانات كما قال الراغب، وفل وفلة كناية عن نكرة من يعقل فالأول بمعنى رجل والثاني بمعنى امرأة، ووهم ابن عصفور وابن مالك وصاحب البسيط كما في البحر في قولهم: فل كناية عن العلم كفلان ويختص بالنداء إلا ضرورة كما في قوله:

في لجة أمسك فلان عن فل

وليس مرخم فلان خلافاً للفراء، واختلفوا في لام فل وفلان فقيل واو، قيل: ياء، وكنوا بهن بفتح الهاء وتخفيف النون عن أسماء الأجناس كثيراً، وقد كنى به عن الأعلام كما في قوله:

والله أعطاك فضلاً عن عطيته ... على هن وهن فيما مضى وهن

فإنه على ما قال الخفاجي أراد عبدالله وإبراهيم وحسناً والخليل من الخلة بضم الخاء بمعنى المودة أطلق عليها ذلك إما لأنها تتخلل النفس أي تتوسطها، وأنشد:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سُمِّيَ الخليل خليلا

وإما لأنها تخلها فتؤثر فيها تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها، وهذا التمني وإن كان مسوقاً لإبراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته إلى الغير، وقوله تعالى ﴿**لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ**﴾ تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله، وتصديره باللام القسمية للمبالغة في بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته أي والله لقد أضلني فلان عن ذكر الله تعالى أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو عن كلمة الشهادة أو عن القرآن ﴿**بَعْدَ إِذْ جَاءَني**﴾ أي وصل إليّ وعلمته أو تمكنت منه فلا دلالة في الآية على إيمان من أنزلت فيه ثم ارتداده ﴿**وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإِنْسَان خَذُولاً**﴾ مبالغاً في الخذلان وهو ترك المعاونة والنصرة وقت الحاجة ممن يظن فيه ذلك، والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله إما من جهته تعالى أو من تمام كلام الظالم على أنه سمى خليله شيطاناً بعد وصفه بالإضلال الذي هو أخص الأوصاف الشيطانية أو على أنه أراد بالشيطان إبليس لأنه الذي حمله على مجالسة المضلين ومخالفة الرسول الهادي عليه الصلاة والسلام بوسوسته وإغوائه فإن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده في الدنيا ويمنيه بأن ينفعه في الآخرة وهو أوفق لحال إبليس عليه اللعنة.

﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ**﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ [الفرقان: ٢١] إلخ وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه وبيان ما يحيق بهم من الأهوال والخطوب، والمراد بالرسول نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم وكرم، وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ما حكي عنهم قدحاً في رسالته ﷺ أي قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث إلى ربه عز وجل والشكوى عليهم ﴿**يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمي**﴾ الذين حكى عنهم ما حكى من الشنائع ﴿**اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ**﴾ الجليل الشأن المشتمل على ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ﴿**مَهْجُوراً**﴾ أي متروكاً بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رأساً ولم يتأثروا بِوَعِيده ووعده، فمهجوراً من الهجر بفتح الهام بمعنى الترك وهو الظاهر، وروي ذلك عن مجاهد والنخعي وغيرهما واستدل ابن الفرس بالآية على كراهة هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه، وكان ذلك لئلا يندرج من لم يتعاهد القراءة فيه تحت ظاهر النظم الكريم فإن ظاهره ذم الهجر مطلقاً وإن كان المراد به عدم القبول لا عدم الاشتغال مع القبول ولا ما يعمهما فإن كان مثل هذا يكفي في الاستدلال فذاك وإلا فليطلب دليل آخر للكراهة. وأورد بعضهم في ذلك خبراً وهو «من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه

جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه» وقد تعقب هذا الخبر العراقي بأنه روي عن أبي هدبة وهو كذاب، والحق أنه متى كان ذلك مخلاً باحترام القرآن والاعتناء به كره بل حرم وإلا فلا.

وقيل: مهجوراً من الهجر بالضم على المشهور أي الهذيان وفحش القول والكلام على الحذف والإيصال أي جعلوه مهجوراً فيه إما على زعمهم الباطل نحو ما قالوا: إنه أساطير الأولين اكتتبها وإما بأن هجروا فيه ورفعوا أصواتهم بالهذيان لما قرىء لئلا يسمع كما قالوا: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: ٢٦] وجوز أن يكون مصدراً من الهجر بالضم كالمعقول بمعنى العقل والمجلود بمعنى الجلادة أي اتخذوه نفس الهجر والهذيان، ومجيء مفعول مصدراً مما أثبته الكوفيون لكن على قلة، وفي هذه الشكوى من التخويف والتحذير ما لا يخفى فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا.

وقيل: إن ﴿قال﴾ إلخ عطف على ﴿يعض الظالم﴾، والمراد ويقول الرسول إلا أنه عدل إلى الماضي لتحقق الوقوع مع عدم قصد الاستمرار التجددي المراد بمعونة المقام في بعض وإن كان إخباراً عما في الآخرة.

وحال عطفه على ﴿وكان الشيطان﴾ إلخ على أنه من كلامه تعالى لا يخفى حاله، وقول الرسول ذلك يوم القيامة وهو كالشهادة على أولئك الكفرة وليس بتخويف وإلى ذلك ذهبت فرقة منهم أبو مسلم، والأول أنسب بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه تسلية لرسول الله ﷺ وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء عليهم السلام، والبلية إذا عمت هانت، والعدو يحتمل أن يكون واحداً وجمعاً أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدواً من مرتكبي الجرائم والآثام ويدخل في ذلك آدم عليه السلام لدخول الشياطين وقابيل في المجرمين ويكتفي بدخول قابيل إن أريد بالمجرمين مجرمو الإنس أو مجرمو أمة النبي؛ وقيل: الكلية بمعنى الكثرة، والمراد بجعل الأعداء جعل عداوتهم وخلقها وما ينشأ منها فيهم لا جعل ذواتهم، ففي ذلك رد على المعتزلة في زعمهم إن خالق الشر غيره تعالى شأنه، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أي كفاك مالك أمرك ومبلغك إلى الكمال هادياً لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التي من جملتها تبليغ ما أنزل إليك وإجراء أحكامه في أكناف الدنيا إلى أن يبلغ الكتاب أجله وناصراً لك عليهم على أبلغ وجه.

وقدر بعضهم متعلق ﴿هادياً﴾ إلى طريق قهرهم، وقيل: المعنى هادياً لمن آمن منهم ونصيراً لك على غيره، وقيل: هادياً للأنبياء إلى التحرز عن عداوة المجرمين بالاعتصام بحبله ونصيراً لهم عليهم وهو كما ترى. ونصب الوصفين على الحال أو التمييز ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حكاية لنوع آخر من أباطيلهم، والمراد بهم المشركون كما صح عن ابن عباس وهم القائلون أولاً، والتعبير عنهم بعنوان الكفر لذمهم به والإشعار بعلة الحكم، وقيل: المراد بهم طائفة من اليهود ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أي أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر فلا قصد فيه إلى التدريج المكان ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ فإنه لو قصد ذلك لتدافعاً إذ يكون المعنى لولا فرق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافي الجملية، وقيل: عبر بذلك للدلالة على كثرة المنزل في نفسه، ونصب ﴿جملة﴾ على الحال و ﴿واحدة﴾ على أنه صفة مؤكدة له أي هلا أنزل القرآن عليه عليه الصلاة والسلام دفعة غير مفرق كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور على ما تدل عليه الأحاديث والآثار حتى كاد يكون إجماعاً كما قال السيوطي ورد على من أنكر ذلك من فضلاء عصره، فقول ابن

الكمال إن التوراة أنزلت منجمة في ثماني عشرة سنة ويدل عليه نصوص التوراة ولا قاطع بخلافه من الكتاب والسنة ناشيء من نقصان الإطلاع.

وهذا الاعتراض مما لا طائل تحته لأن الإعجاز مما لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن للتفريق فوائد، منها ما ذكره الله تعالى بعد، وقيل: إن شاهد صحة القرآن إعجازه وذلك ببلاغته وهي بمطابقته لمقتضى الحال في كل جملة منه ولا يتيسر ذلك في نزوله دفعة واحدة فلا يقاس بسائر الكتب فإن شاهد صحتها ليس الإعجاز. وفيه أن قوله: ولا يتيسر إلخ ممنوع فإنه يجوز أن ينزل دفعة واحدة مع رعاية المطابقة المذكورة في كل جملة لما يتجدد من الحوادث الموافقة لها الدالة على أحكامها. وقد صح أنه نزل كذلك إلى السماء الدنيا فلو لم يكن هذا لزم كونه غير معجز فيها ولا قائل به بل قد يقال إن هذا أقوى في إعجازه والبليغ يفهم من سياق الكلام ما يقتضيه المقام فافهم ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة وبيان بعض الحكم في تنزيله تدريجاً، ومحل الكاف نصب على أنها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده، وجوز نصبها على الحالية، «وذلك» إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أي تنزيلاً مثل ذلك التنزيل الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه لا تنزيلاً مغايراً له أو نزلناه مماثلاً لذلك التنزيل لنقوي به فؤادك فإن في تنزيله مفرقاً تيسيراً لحفظ النظم وفهم المعاني وضبط الكلام والوقوف على تفاصيل ما روعي فيه من الحكم والمصالح وتعدد نزول جبريل عليه السلام وتجدد إعجاز الطاعنين فيه في كل جملة مقدار أقصر سورة تنزل منه، ولذلك فوائد غير ما ذكر أيضاً، منها معرفة الناسخ المتأخر نزوله من المنسوخ المتقدم نزوله المخالف لحكمه ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية فإنه يعين على معرفة البلاغة لأنه بالنظر إلى الحال يتنبه السامع لما يطابقها ويوافقها إلى غير ذلك، وقيل: قوله تعالى ﴿كذلك﴾ من تمام كلام الكفرة والكاف نصب على الحال من القرآن أو الصفة لمصدر نزل المذكور أو لجملة، والإشارة إلى تنزيل الكتب المتقدمة، ولام ﴿لنثبت﴾ لام التعليل والمعلل محذوف نحو ما سمعت أولاً أي نزلناه مفرقاً لنثبت إلخ، وقال أبو حاتم: هي لام القسم، والتقدير والله لنثبتن فحذف النون وكسرت اللام وقد حكى ذلك عنه أبو حيان والظاهر أنها عنده كذلك على القولين في ﴿كذلك﴾. وتعقبه بأنه قول في غاية الضعف وكأنه ينحو إلى مذهب الأخفش إن جواب القسم يتلقى بلام كي وجعل منه «ولتصغي إليه أفئدة» إلخ وهو مذهب مرجوح، وقرأ عبدالله «ليثبت» بالياء أي ليثبت الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ عطف على الفعل المحذوف المعلل بما ذكر، وتنكير «ترتيلاً» للتفخيم أي كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلاً بديعاً لا يقادر قدره، وترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعي والحسن وقتادة.

وقال ابن عباس: بيّناه بياناً فيه ترسل، وقال السدي: فصلناه تفصيلاً، وقال مجاهد: جعلنا بعضه إثر بعض؛ وقيل: هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ [المزمل: ٤] وقيل: قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيئاً فشيئاً في عشرين أو في ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل وهو مأخوذ من قولهم: ثغر مرتل أي مفلج الأسنان غير متلاصقها ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ من الأمثال التي من جملتها اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الأمثال أي لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل في البطلان يريدون به القدح في نبوتك ويظهرونه لك ﴿إِلاَّ جِئْنَاكَ﴾ في مقابلته ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالجواب الحق الثابت الذي ينحي عليه بالإبطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الأجوبة الحقة القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ عطف على «الحق» أي جئناك بأحسن تفسيراً أي بما هو أحسن أو على محل ﴿بالحق﴾ أي استحضرنا لك وأنزلنا عليك الحق وأحسن تفسيراً أي كشفاً وبياناً على معنى أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته لا أن ما يأتون به

له حسن في الجملة وهذا أحسن منه، وهذا نظير قولهم: الله تعالى أكبر أي له غاية الكبرياء في حد ذاته وبعضهم قدر مفضلاً عليه فقال: أي وأحسن تفسيراً من مثلهم وحسنه على زعمهم أو هو تهكم، وتعقب الأول بأنه يفوت عليه معنى التسلية لأن المراد لا يهلك ما اقترحوه من قولهم: ﴿لولا أنزل عليه القرآن جملة﴾ فإن تنزيله مفرقاً أحسن مما اقترحوه لفوائد شتى وفيه منع ظاهر، وقيل: المراد بالتفسير المعنى، والمراد وأحسن معنى لأنه يقال: تفسير كذا كذا أي معناه فهو مصدر بمعنى المفعول لأن المعنى مفسر كدرهم ضرب الأمير، ورد بأن المفسر اسم مفعول هو الكلام لا المعنى لأنه يقال فسرت الكلام لا معناه.

وقال الطيبي: وضع التفسير موضع المعنى من وضع السبب موضع المسبب لأن التفسير سبب لظهور المعنى وكشفه، وقيل عليه: إنه فرق بين المعنى وظهوره فلا يتم التقريب وقد يكتفى بسببيته له في الجملة.

وأياً ما كان فهو نصب على التمييز والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال فالجملة في محل النصب على الحالية أي لا يأتونك بمثل في حال من الأحوال أي إلا حال إنزالنا عليك واستحضارنا لك الحق وأحسن تفسيراً، وجعل ذلك مقارناً لإتيانهم وإن كان بعده للدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به تثبيتاً لفؤاده ﷺ، وجوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من الاستغناء عن الأكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لا يأتوك بحالة عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة إلا أعطيناك نحن من الأحوال الممكنة ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن، وتعقب بأنه يأباه الاستثناء المذكور فإن المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحق مترتباً على ما أتوا به من الأباطيل دامغاً لها ولا ريب في أن ما أتاه الله تعالى من الملكات السنية الطائفة بالرسالة قد أتاه من أول الأمر لا بمقابلة ما حكي عنهم من الاقتراحات لأجل دمغها، وإبطالها.

وأجيب بأن معنى ﴿إلا جئناك﴾ إلخ على ذلك إلا أظهرنا فيك ما يكشف عن بطلان ما أتوا به وهو كما ترى فالحق التعويل على الأول. والمشهور أن الإتيان والمجيء بمعنى لكن عبر أولاً بالإتيان، وثانياً بالمجيء للتفنن وكراهة أن يتحد ما ينسب إليه عز وجل وما ينسب إليهم لفظاً مع كون ما أتوا به في غاية القبح والبطلان وما جاء به سبحانه في غاية الحقية والحسن، وفرق الراغب بينهما فقال المجيء كالإتيان لكن المجيء أعم لأن الإتيان مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتي وأتاوى، والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول والمجيء يقال اعتباراً بالحصول، ولعل في التعبير بالإتيان أولاً والمجيء ثانياً على هذا إشارة إلى أن ما يأتون به من الأمثال في نفسه من الأمور التي تتخيل بسهولة ولا تحتاج إلى إعمال فكر بخلاف ما يكون في مقابلته فإنه في نفسه من الأمور العقلية التي صقلها الفكر فلا يجد أحد سبيلاً إلى ردها والطعن فيها أو إلى أن فعلهم لخروجه عن حيز القبول منزل منزلة العدم حتى كأنهم لم يتحقق منهم القصد دون الحصول بخلاف ما كان من قبله عز وجل فتأمل والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي يحشرون ماشين على وجوههم. فقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف، صنفاً مشاة وصنفاً ركباناً وصنفاً على وجوههم قيل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم إما أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك» وهذا يحتمل أن يكون بمس وجوههم وسائر ما في جهتها من صدورهم

وبطونهم ونحوها الأرض وأن يكون بنكسهم على رؤوسهم، وجعل وجوههم إلى ما يلي الأرض وارتفاع أقدامهم وسائر أبدانهم، ولعل الحديث أظهر في الأول، وقيل: إن الملائكة عليهم السلام تسحبهم وتجرهم على وجوههم إلى جهنم والأمر عليه ظاهر لا غرابة فيه، وقيل: الحشر على الوجه مجاز عن الذلة المفرطة والخزي والهوان، وقيل: هو من قول العرب مر فلان على وجهه إذا لم يدر أين ذهب، وقيل: الكلام كناية أو استعارة تمثيلية والمراد أنهم يحشرون متعلقة قلوبهم بالسفليات من الدنيا وزخارفها متوجهة وجوههم إليها، ولعل كون هذه الحال في الحشر باعتبار بقاء آثارها وإلا فهم هناك في شغل شاغل عن التوجه إلى الدنيا وزخارفها وتعلق قلوبهم بها، ومحل الموصول قيل إما النصب بتقدير أذم أو أعني أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو على أنه مبتدأ، وقوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ﴾** بدل منه أو بيان له، وقوله تعالى: **﴿شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾** خبر له أو اسم الإشارة مبتدأ ثان **﴿وشر﴾** خبره، والجملة خبر الموصول، وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يكون الموصول بدلاً من الضمير في يأتونك و **﴿أولئك شر مكاناً﴾** كلام مستأنف، ولعل الأقرب كون الموصول مبتدأ وما بعده خبره قال الطيبي. وذلك من باب كلام المنصف وإرخاء العنان وفصل **﴿الذين يحشرون﴾** عما قبله استئنافاً لأن التسلية السابقة حركت منه ﷺ بأن يسأل فإذا بماذا أجيبهم وما يكون قولي لهم؟ فقيل قل لهم الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم إلخ يعني مقصودكم من هذا التعنت تحقير مكاني وتضليل سبيلي وما أقول لكم أنتم كذلك بل أقول الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم شر مكاناً وأضل سبيلاً فانظروا بعين الإنصاف وتفكروا من الذي هو أولى بهذا الوصف منا ومنكم لتعلموا أن مكانكم شر من مكاننا وسبيلكم أضل من سبيلنا. وعليه قوله تعالى: ﴿انا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: ٢٤] فالمكان الشرف والمنزلة. ويجوز أن يراد به الدار والمسكن. و **﴿شر﴾** و **﴿أضل﴾** محمولان على التفضيل على طريقة قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه﴾ [المائدة: ٦٠] وجعل صاحب الفرائد ذلك لإثبات كل الشر لمكانهم وكل الضلال لسبيلهم. ووصف السبيل بالضلال من باب الإسناد المجازي للمبالغة والآية على ما سمعت متصلة بما قبلها من قوله تعالى: **﴿ولا يأتونك﴾** إلخ وقال الكرماني هي متصلة بقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ الآية **﴿قيل﴾** ويجوز أن تكون متصلة بقوله سبحانه: **﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾** انتهى. وما ذكر أولاً أبعد مغزى، وقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾** إلخ جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر في قوله تعالى: **﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾** على ما قدمناه بحكاية ما جرى بين من ذكر من الأنبياء عليهم السلام وبين قومهم حكاية إجمالية كافية فيما هو المقصود. واللام واقعة في جواب القسم أي والله تعالى لقد آتينا موسى التوراة أي أنزلناها عليه بالآخرة، وقيل: المراد بالكتاب الحكم والنبوة ولا يخفى بعده **﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ﴾** الظرف متعلق بجعلنا، وقوله تعالى: **﴿أَخَاهُ﴾** مفعول أول له وقوله سبحانه: **﴿هَارُونَ﴾** بدل من **﴿أخاه﴾** أو عطف بيان له وقوله عز وجل **﴿وَزِيراً﴾** مفعول ثان له وتقدم معنى الوزير ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ [مريم: ٥٣] لأنه وإن كان نبياً فالشريعة لموسى عليه السلام وهو تابع له فيها كما أن الوزير متبع لسلطانه.

فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ

أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن
يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن
صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ
أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ
هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ
نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ
بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ
ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم
بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا
وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾
قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ
وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هم فرعون وقومه والظاهر تعلق بآياتنا بـ **﴿كذبوا﴾**. والمراد بها دلائل التوحيد المودعة في الأنفس والآفاق أو الآيات التي جاءت بها الرسل الماضية عليهم السلام أو التسع المعلومة. والتعبير عن التكذيب بصيغة الماضي على الاحتمالين الأولين ظاهر وعلى الأخير قيل لتنزيل المستقبل لتحققه منزلة الماضي وتعقب بأنه لا يناسب المقام، وقال العلامة أبو السعود: لم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات التسع عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير وبحث فيه بما فيه تأمل، وجوز أن يكون الظرف متعلقاً باذهبا فمعنى **﴿كذبوا﴾** فعلوا التكذيب **﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾** عجيباً هائلاً لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه والمراد به أشد الهلاك. وأصله كسر الشيء على وجه لا يمكن إصلاحه والفاء فصيحة والأصل فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ودعواهم إلى الإيمان فكذبوهما واستمروا على ذلك فدمرناهم فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود. وقيل: معنى فدمرناهم فحكمنا بتدميرهم فالتعقيب باعتبار الحكم وليس في الإخبار بذلك كثير فائدة. وقيل: الفاء لمجرد الترتيب وهو كما ترى.

وعطف ﴿قلنا﴾ على ﴿جعلنا﴾ المعطوف على ﴿آتينا﴾ بالواو التي لا تقتضي ترتيباً على الصحيح فيجوز تقدمه مع ما يعقبه على إيتاء الكتاب فلا يرد أن إيتاء الكتاب وهو التوراة بعد هلاك فرعون وقومه فلا يصح الترتيب والتعرض لذلك في مطلع القصة مع أنه لا مدخل له في إهلاك القوم لما أنه بعد للإيذان من أول الأمر ببلوغه عليه السلام غاية الكمال التي هي إنجاء بني إسرائيل من ملكة فرعون وإرشادهم إلى طريق الحق بما في التوراة من الأحكام إذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذي ذكر سابقاً.

وقرأ علي كرّم الله تعالى وجهه والحسن ومسلمة بن محارب فدمراهم على الأمر لموسى وهارون عليهما السلام وعن علي كرّم الله تعالى وجهه أيضاً كذلك إلا أنه مؤكد بالنون الشديدة، وعنه كرّم الله تعالى وجهه «فدمرا» أمراً لهما بهم بباء الجر وكأن ذلك من قبيل:

تجرح في عراقيبها نصلي

وحكي في الكشاف عنه أيضاً كرّم الله تعالى وجهه «فدمرتهم» بتاء الضمير ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى: ﴿فدمرناهم﴾ أي ودمرنا قوم نوح، وجوز الحوفي وأبو حيان كونه معطوفاً على مفعول فدمرناهم ورد بأن تدمير قوم نوح ليس مترتباً على تكذيب فرعون وقومه فلا يصح عطفه عليه.

وأجيب بأنه ليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ما قبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لا سيما وقد بين سببه بقوله تعالى: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ أي نوحاً ومن قبله من الرسل عليهم السلام أو نوحاً وحده فإن تكذيبه عليه السلام تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد أو أنكروا جواز بعثة الرسل مطلقاً، وتعريف الرسل على الأول عهدي، ويحتمل أن يكون للاستغراق إذ لم يوجد وقت تكذيبهم غيرهم، وعلى الثاني استغراقي لكن على طريق المشابهة والادعاء، وعلى الثالث للجنس أو للاستغراق الحقيقي، وكأن المجيب أراد أن اعتبار العطف قبل الترتيب فيكون المرتب مجموع المتعاطفين ويكفي فيه ترتب البعض. وقيل: المقصود من العطف التسوية والتنظير كأنه قيل: دمرناهم كقوم نوح فتكون الضمائر لهم. والرسل نوح وموسى وهارون عليهم السلام ولا يخفى ما فيه. واختار جمع كونه منصوباً باذكر محذوفاً، وقيل: هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ ويرجحه على الرفع تقدم الجمل الفعلية. ولا يخفى أنه إنما يتسنى ذلك على مذهب الفارسي من كون ـ لما ـ ظرف زمان وأما إذا كانت حرف وجود لوجود فلا لأن ﴿أغرقناهم﴾ حينئذ يكون جواباً لها فلا يفسر ناصباً. ولعل أولى الأوجه الأول، و ﴿أغرقناهم﴾ استئناف مبين لكيفية تدميرهم كأنه قيل: كيف كان تدميرهم؟ فقيل: أغرقناهم بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي جعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي آية عظيمة يعتبر بها من شاهدها أو سمعها وهو مفعول ثان لجعلنا و ﴿للناس﴾ متعلق به أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿آية﴾ إذ لو تأخر عنها لكان صفة لها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي جعلناه معداً لهم في الآخرة أو في البرزخ أو فيهما. والمراد بالظالمين القوم المذكورون، والإظهار في موقع الإضمار للإيذان بتجاوزهم الحد في الكفر والتكذيب أو جميع الظالمين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل في زمرتهم قريش دخولاً أوليا ويحتمل العذاب الدنيوي وغيره.

﴿وَعَاداً﴾ عطف على ﴿قوم نوح﴾ أي ودمرنا عاداً أو واذكر عاداً على ما قيل، ولا يصح أن يكون عطفاً إذا نصب على الاشتغال لأنهم لم يغرقوا. وقال أبو إسحاق هو معطوف على ـ هم ـ من ﴿جعلناهم للناس آية﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على محل ﴿الظالمين﴾ فإن الكلام بتأويل وعدنا الظالمين ا هـ ولا يخفى بعد الوجهين ﴿وَثَمُوداً﴾ الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله.

وقرأ عبدالله وعمرو بن ميمون والحسن وعيسى وثمود غير مصروف على تأويل القبيلة، وروي ذلك عن حمزة وعاصم والجمهور بالصرف، ورواه عبد بن حميد عن عاصم على اعتبار الحي أو أنهم سموا بالأب الأكبر ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ عن ابن عباس هم قوم ثمود ويبعده العطف لأنه يقتضي التغاير، وقال قتادة: هم أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفلج قيل قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود. وقوم صالح، وقال كعب. ومقاتل والسدي: أهل بئر يقال له الرس بإنطاكية الشام قتلوا فيها صاحب يس وهو حبيب النجار.

وقيل: هم قوم قتلوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيه، وقال وهب والكلبي: أصحاب الرس وأصحاب الأيكة قومان أرسل إليهما شعيب، وكان أصحاب الرس قوماً من عبدة الأصنام وأصحاب آبار ومواش فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه عليه السلام فبينما هم حول الرس وهي البئر غير المطوية كما روي عن أبي عبيدة انهارت بهم وبدارهم، وقال علي كرّم الله تعالى وجهه. فيما نقله الثعلبي: هم قول عبدوا شجرة يقال لها: شاة درخت رسّوا نبيهم في بئر حفروه له في حديث طويل، وقيل: هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير وكان فيها من كل لون وسميت عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد ولإتيانها بهذا الأمر الغريب سميت مغرباً، وقيل: لأنها اختطفت عروساً، وقيل: لغروبها أي غيبتها، وقيل: لأن وكرها كان عند مغرب الشمس، ويقال فيها عنقاء مغرب بالتوصيف والإضافة مع ضم الميم وفتحها فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة فهلكت ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا. وقيل: هم قوم أرسل إليهم نبي فأكلوه، وقيل: قوم نساؤهم سواحق وقيل: قوم بعث إليهم أنبياء فقتلوهم ورسوا عظامهم في بئر، وقيل: هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود. وفي رواية عن ابن عباس أنه بئر أذربيجان: وقيل: الرس ما بين نجران إلى اليمن إلى حضرموت. وقيل: هو ماء ونخل لبني أسد. وقيل: نهر من بلاد المشرق بعث الله تعالى إلى أصحابه نبياً من أولاد يهوذا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زماناً فشكا إلى الله تعالى منهم فحفروا له بئراً وأرسلوه فيه وقالوا: نرجو أن ترضى عنا آلهتنا فكانوا عليه يومهم يسمعون أنين نبيهم فدعا بتعجيل قبض روحه فمات وأظلتهم سحابة سوداء أذابتهم كما يذوب الرصاص. وروى عكرمة ومحمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ أن أصحاب الرس أخذوا نبيهم فرسوه في بئر وأطبقوا عليه صخرة فكان عبد أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى البئر فيعينه الله تعالى على تلك الصخرة فيرفعها فيعطيه ما يغذيه به ثم يرد الصخرة على فم البئر إلى أن ضرب الله تعالى على إذن ذلك الأسود فنام أربع عشرة سنة. وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به في حديث طويل ذكر فيه أن ذلك الأسود أول منم يدخل الجنة. وهذا إذا صح كان القول الذي لا يمكن خلافه لكن يشكل عليه إيرادهم هنا. وأجاب عنه الطبري بأنه يمكن أنهم كفروا بعد ذلك فأهلكوا فذكرهم الله تعالى مع من ذكر من المهلكين ، وملخص الأقوال إنهم قوم أهلكهم الله تعالى بتكذيب من أرسل إليهم ﴿وَقُرُوناً﴾ أي أهل قرون وتقدم الكلام في القرن ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الأمم، وللتعدد حسن بين من غير عطف ﴿كَثِيراً﴾ يطول الكلام جداً بذكرها، ولا يبعد أن يكون قد غلم رسول الله ﷺ مقدارها، وقوله تعالى: ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ [غافر: ٧٨] ليس نصاً في نفي العلم بالمقدار كما لا يخفى. وفي إرشاد العقل السليم لعل الاكتفاء في شؤون تلك القرون بهذا البيان الإجمالي لما أن كل قرن منها لم يكن في الشهرة وغرابة القصة بمثابة الأمم المذكورة.

﴿وَكُلاً﴾ منصوب بمضمر يدل عليه ما بعده فإن ضرب المثل في معنى التذكير والتحذير. والمحذوف الذي عوض عنه التنوين عبارة إما عن الأمم التي لم تذكر أسباب إهلاكهم وإما عن الكل فإن ما حكي عن فرعون وقومه وعن

قوم نوح عليه السلام تكذيبهم للآيات والرسل لا عدم التأثر من الأمثال المضروبة أي ذكرنا وأنذرنا كل واحد من المذكورين ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ أي بينا لكل القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصي بواسطة الرسل عليهم السلام، وقيل: ضمير له للرسول عليه الصلاة والسلام، والمعنى وكل الأمثال ضربناه للرسول فيكون ﴿كلاً﴾ منصوباً بضربنا و ﴿الأمثال﴾ بدلاً منه على ما في البحر، وفيه أنه أبعد من ذهب إلى ذلك، وعندي أنه مما لا ينبغي أن يفسر به كلام الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ﴾ مفعول مقدم لقوله سبحانه: ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ وتقديمه للفاصلة، وقيل: لإفادة القصر على أن المعنى كلاً لا بعضاً، وتعقب بأن لفظ ـ كل ـ يفيد ذلك ويمكن توجيه ذلك بالعناية، وأصل التتبير التفتيت، قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة. والمراد به التمزيق والإهلاك أي أهلكنا كل واحد منهم إهلاكاً عجيباً هائلاً لما أنهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له رأساً وتمادوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهدة كفار قريش لآثار هلاك بعض الأمم المتبرة وعدم اتعاظهم بها. وتصديرها بالقسم لتقرير مضمونها اعتناء به. وأتى مضمن معنى مر لتعديه بعلى، والمعنى بالله لقد مر قريش في متاجرهم إلى الشام.

﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ وهي سذوم وهي أعظم قرى قوم لوط سميت باسم قاضيها سذوم بالذال المعجمة على ما صححه الأزهري واعتمده في الكشف، وفي المثل أجور من سذوم أهلكها الله تعالى بالحجارة وهو المراد بمطر السوء وكذا أهلك سائر قراهم وكانت خمساً إلا قرية واحدة وهي زغر لم يهلكها لأن أهلها لم يعملوا العمل الخبيث كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وأفراد القرية بالذكر لما أشرنا إليه وانتصب ﴿مطر﴾ على أنه مفعول ثان لأمطرت على معنى أعطيت أو أوليت أو على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد أي إمطار السوء كما قيل في ﴿أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ [نوح: ١٧]، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لمحذوف أي إمطاراً مثل مطر السوء وليس بشيء.

وقرأ زيد بن علي مطرت ثلاثياً مبنياً للمفعول؛ ومطر مما يتعدى بنفسه. وقرأ أبو السمال «مطر السُوء» بضم السين ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ توبيخ على تركهم التذكر عند مشاهدة ما يوجبه. والهمزة لإنكار نفي استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من إتيانهم عليها لا لإنكار استمرار نفي رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها، والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أي ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها أو كانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب.

والمنكر في الأول النظر وعدم الرؤية معاً وفي الثاني عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها عادة كذا في إرشاد العقل السليم. ولم يقل: أفلم يرونها مع أنه أخصر وأظهر قصداً لإفادة التكرار مع الاستمرار ولم يصرح في أول الآية بنحو ذلك بأن يقال: ولقد كانوا يأتون بدل ولقد أتوا للإشارة إلى أن المرور ولو مرة كاف في العبرة فتأمل. وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ إما إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب إنكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارهم خلا أنه اكتفى عن التصريح بإنكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه من إنكار الجزاء الأخروي وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور، والمراد بالرجاء التوقع مجازاً كأنه قيل: بل كانوا لا يتوقعون النشور المستتبع للجزاء الأخروي وينكرونه ولا يرون لنفس من

النفوس نشوراً أصلاً مع تحققه حتماً وشموله للناس عموماً وإطراده وقوعاً فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوي في حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصي حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وإنما يحملونه على الاتفاق، وإما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر إلى التوبيخ بما هو أعظم منه من عدم رجاء النشور، وحمل الرجاء على التوقع وعموم النشور أوفق بالمقام. وقيل: هو على حقيقته أعني انتظار الخير والمراد بالنشور نشور فيه خير كنشور المسلمين.

وجوز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف على لغة تهامة، والمراد بالنشور نشورهم والكل كما ترى. ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ**﴾ أي ما يتخذونك ﴿**إِلاَّ هُزُواً**﴾ على معنى ما يفعلون به إلا اتخاذك هزواً أي موضع هزو أو مهزواً به فهزوا إما مصدر بمعنى المفعول مبالغة أو هو بتقدير مضاف وجملة ﴿**إن يتخذونك**﴾ جواب إذا، وهي كما قال أبو حيان وغيره تنفرد بوقوع جوابها المنفي بأن ولا وما بدون فاء بخلاف غيرها من أدوات الشرط. وقوله تعالى: ﴿**أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً**﴾ مقول قول مضمر أي يقول أهذا إلخ. والجملة في موضع الحال من فاعل يتخذونك أو مستأنفة في جواب ماذا يقولون؟.

وجوز أن تكون الجواب. وجملة ﴿**إن يتخذونك**﴾ معترضة، وقائل ذلك أبو جهل ومن معه، وروي أن الآية نزلت فيه، والإشارة للاستحقار كما في يا عجباً لابن عمرو هذا، وعائد الموصول محذوف أي بعثه و ﴿**رسولاً**﴾ حال منه وهو بمعنى مرسل. وجوز أبو البقاء أن يكون مصدراً حذف منه المضاف أي ذا رسول أي رسالة وهو تكلف مستغنى عنه، وإخراج بعث الله تعالى إياه ﷺ رسولاً بجعله صلة وهم على غاية الإنكار تهكم واستهزاء وإلا لقالوا: أبعث الله هذا رسولاً. وقيل: إن ذلك بتقدير أهذا الذي بعث الله رسولاً في زعمه، وما تقدم أوفق بحال أولئك الكفرة مع سلامته من التقدير ﴿**إِنْ كَادَ**﴾ إن مخففة من إن واسمها عند بعض ضمير الشأن محذوف أي إنه كاد ﴿**لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا**﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط، والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوي.

﴿**لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا**﴾ ثبتنا عليها واستمكنّا بعبادتها، و ﴿**لولا**﴾ في أمثال هذا الكلام يجري مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ، وهذا اعتراف منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة إلى التوحيد وإظهار المعجزات وإقامة الحجج والبينات ما شارفوا به أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم، ولا ينافي هذا استحقارهم واستهزائهم السابق لأن هذا من وجه وذاك من وجه آخر زعموه سبباً لذلك قاتلهم الله تعالى. وقيل: إن كلامهم قد تناقض لاضطرابهم وتحيرهم فإن الاستفهام السابق دال على الاستحقار وهذا دال على قوة حجته وكمال عقله ﷺ ففيما حكاه سبحانه عنهم تحميق لهم وتجهيل لاستهزائهم بما استعظموه.

وقيل عليه: إنه ليس بصريح في اعترافهم بما ذكر بل الظاهر أنه أخرج في معرض التسليم تهكماً كما في قولهم بعث الله رسولاً وفيه منع ظاهر والتناقض مندفع كما لا يخفى.

﴿**وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ**﴾ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿**مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ أي يعلمون جواب هذا على أن ﴿**من**﴾ استفهامية مبتدأ و ﴿**أضل**﴾ خبرها والجملة في موضع مفعولي ﴿**يعلمون**﴾ إن كانت تعدت إلى مفعولين أو في موضع مفعول واحد إن كانت متعدية إلى واحد أو يعلمون الذي هو أضل على أن من موصولة مفعول ﴿**يعلمون**﴾ وأضل خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة الموصول، وحذف صدر الصلة وهو العائد

لطولها بالتمييز، وكان أولئك الكفرة لما جعلوا دعوته ﷺ إلى التوحيد إضلالاً حيث قالوا: ﴿**إن كاد ليضلنا عن آلهتنا**﴾ إلخ والمضل لغيره لا بد أن يكون ضالاً في نفسه جيء بهذه الجملة رداً عليهم ببيان أنه عليه الصلاة والسلام هاد لا مضل على أبلغ وجه فإنها تدل على نفي الضلال عنه ﷺ لأن المراد أنهم يعلمون أنهم في غاية الضلال لا هو ونفي اللازم يقتضي نفي ملزومه فيلزمه أن يكون عليه الصلاة والسلام هادياً لا مضلاً، وفي تقييد العلم بوقت رؤية العذاب وعيد لهم وتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وإن أمهلهم ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال والتنبيه على ما لهم من المصير والمآل وتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه، والظاهر أن ـ رأى ـ بصرية و ﴿**من**﴾ مفعولها وهي اسم موصول والجملة بعدها صلة، و ﴿**اتخذ**﴾ متعدية لمفعولين أولهما ﴿**هواه**﴾ وثانيهما ﴿**إلهه**﴾ وقدم على الأول للاعتناء به من حيث أنه الذي يدور عليه أمر التعجيب لا من حيث إن الإله يستحق التعظيم والتقديم كما قيل أي أرأيت الذي جعل هواه إلهاً لنفسه بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه معرضاً عن استماع الحجة الباهرة وملاحظة البرهان النير بالكلية على معنى انظر إليه وتعجب منه، وقال ابن المنير في تقديم المفعول الثاني هنا نكتة حسنة وهي إفادة الحصر فإن الكلام قبل دخول ﴿**أرأيت**﴾ و ﴿**اتخذ**﴾ الأصل فيه هواه إلهه على أن هواه مبتدأ خبره إلهه فإذا قيل إلهه هواه كان من تقديم الخبر على المبتدأ وهو يفيد الحصر فيكون معنى الآية حينئذ أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه وذلك أبلغ في ذمه وتوبيخه.

وقال صاحب الفرائد: تقديم المفعول الثاني يمكن حيث يمكن تقديم الخبر على المبتدأ والمعرفتان إذا وقعتا مبتدأ وخبراً فالمقدم هو المبتدأ فمن جعل ما هنا نظير قولك: علمت منطلقاً زيداً فقد غفل عن هذا، ويمكن أن يقال: المتقدم هاهنا يشعر بالثبات بخلاف المتأخر فتقدم ﴿**إلهه**﴾ يشعر بأنه لا بد من إله فهو كقولك اتخذ ابنه غلامه فإنه يشعر بأن له ابناً ولا يشعر بأن له غلاماً فهذا فائدة تقديم إلهه على هواه. وتعقب ذلك الطيبي فقال: لا يشك في أن مرتبة المبتدأ التقديم وأن المعرفتين أيهما قدم كان المبتدأ لكن صاحب المعاني لا يقطع نظره عن أصل المعنى فإذا قيل: زيد الأسد فالأسد هو المشبه به أصالة ومرتبته التأخير عن المشبه بلا نزاع فإذا جعلته مبتدأ في قولك: الأسد زيد فقد أزلته عن مقره الأصلي للمبالغة، وما نعني بالمقدم إلا المزال عن مكانه لا القار فيه فالمشبه به هاهنا إلا له والمشبه الهوى لأنهم نزلوا أهواءهم في المتابعة منزلة الإله فقدم المشبه به الأصلي وأوقع مشبهاً ليؤذن بأن الهوى في باب استحقاق العبادة عندهم أقوى من الإله عز وجل كقوله تعالى: ﴿قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ [البقرة: ٢٧٥] ولمح صاحب المفتاح إلى هذا المعنى في كتابه.

وأما المثال الذي أورده صاحب الفرائد فمعنى قوله: اتخذ ابنه غلامه جعل ابنه كالغلام يخدمه في مهنة أهله وقوله: اتخذ غلامه ابنه جعل غلامه كابنه مكرماً مدللاً اهـ، وأنت تعلم ما في قوله: إن المعرفتين أيهما قدم كان المبتدأ فإن الحق أن الأمر دائر مع القرينة والقرينة هنا قائمة على أن ﴿**إلهه**﴾ الخبر وهي عقلية لأن المعنى على ذلك فلا حاجة إلى جعل ذلك من التقديم المعنوي، وقال شيخ الإسلام: من توهم أنهما على الترتيب بناء على تساويهما في التعريف فقد زل عنه أن المفعول الثاني في هذا الباب هو الملتبس بالحالة الحادثة؛ وفي ذلك رد على أبي حيان حيث أوجب كونهما على الترتيب.

ونقل عن بعض المدنيين أنه قرأ «آلهة» منونة على الجمع وجعل ذلك على التقديم والتأخير، والمعنى جعل كل جنس من هواه إلهاً، وذكر أيضاً أن ابن هرمز قرأ «إلهة» على وزن فعالة وهو أيضاً من التقديم والتأخير أي جعل هواه إلهة

بمعنى مألوهة أي معبودة والهاء للمبالغة فلذلك صرفت، وقيل: بل الإلاهة الشمس ويقال ألاهة بضم الهمزة وهي غير مصروفة للعلمية والتأنيث لكنها لما كانت مما يدخلها لام التعريف في بعض اللغات صارت بمنزلة ما كان فيه اللام ثم نزعت فلذلك صرفت وصارت كالمنكر بعد التعريف قاله صاحب اللوامح وهو كما ترى. والآية نزلت على ما قيل في الحارث بن قيس السهمي كان كلما هوى حجراً عبده، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية فإذا وجد أحسن منه رمى به وعبد الآخر فأنزل الله تعالى ﴿**أرأيت**﴾ إلخ. وزعم بعضهم لهذا ونحوه أن هواه بمعنى مهويه وليس بلازم كما لا يخفى.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية كلما هوى شيئاً ركبه وكلما اشتهى شيئاً أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى فالآية شاملة لمن عبد غير الله تعالى حسب هواه ولمن أطاع الهوى في سائر المعاصي وهو الذي يقتضيه كلام الحسن، فقد أخرج عنه عبد بن حميد أنه قيل له: أفي أهل القبلة شرك؟ فقال: نعم المنافق مشرك إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله تعالى وإن المنافق عبد هواه ثم تلا هذه الآية، والمنافق عند الحسن مرتكب المعاصي كما ذكره غير واحد من الأجلة.

وقد أخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله تعالى أعظم عند الله عز وجل من هوى يتبع» ولا يكاد يسلم على هذا من عموم الآية إلا من اتبع ما اختاره الله تعالى لعباده وشرعه سبحانه لهم في كل ما يأتي ويذر، وعليه يدخل الكافر فيما ذكر دخولاً أولياً ﴿**أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً**﴾ استئناف مسوق لاستبعاد كونه ﷺ حفيظاً على هذا المتخذ يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده إلى الحق طوعاً أو كرهاً وإنكار له، والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله من الحالة الموجبة له كأنه قيل: أبعد ما شاهدت غلوه في طاعة الهوى تعسره على الانقياد إلى الهدى شاء أو أبى، وجوز أن تكون رأى علمية وهذه الجملة في موضع المفعول الثاني وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ**﴾ إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانه صلى الله تعالى عليه وسلم إياهم ممن يسمع أو يعقل حسبما ينبىء عنه جده عليه الصلاة والسلام في الدعوة واهتمامه بالإرشاد والتذكير على معنى أنه لا ينبغي أن يقع أي بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما تتلو عليهم من الآيات القرآنية أو يعقلون ما أظهر لهم من الآيات الآفاقية والأنفسية فتعتني في شأنهم وتطمع في إيمانهم، ولما كان الدليل السمعي أهم نظراً للمقام من الدليل العقلي قيل: يسمعون أو يعقلون، وقيل: المعنى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما تتلو عليهم من الآيات أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن فتجتهد في دعوتهم وتهتم بإرشادهم وتذكيرهم ولعل ما قلناه أولى فتدبر.

وأياً ما كان فضمير ﴿**أكثرهم**﴾ لمن باعتبار معناه وضمير ﴿**عليه**﴾ له أيضاً باعتبار لفظه واختير الجمع هنا لمناسبة إضافة الأكثر لهم وأفرد فيما قبله لجعلهم في اتفاقهم على الهوى كشيء واحد، وقيل: ضمير ﴿**أكثرهم**﴾ للكفار لا لمن لأن قوله تعالى عليه يأباه وليس بشيء، وضمير الفعلين للأكثر لا لما أضيف إليه، وتخصيص الأكثر لأن منهم من سبقت له العناية الأزلية بالإيمان بعد الاتخاذ المذكور، ومنهم من سمع أو عقل لكنه كابر استكباراً وخوفاً على الرياسة، وقوله تعالى: ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ**﴾ إلخ جملة مستأنفة لتكرير النكير وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة والضمير للأكثر أو لمن، واكتفى عن ذكر الأكثر بما قبله أي ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات

وانتفاء التدبر بما يشاهدونه من الدلائل البينات إلا كالبهائم التي هي مثل في الغفلة وعلم في الضلالة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها ﴿سَبِيلاً﴾ لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يتعهدها وتعرف من يحسن إليها ومن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وتأوي إلى معاطنها ومرابضها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم سبحانه وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه تعالى إليهم من إساءة الشيطان المزين لهم اتباع الشهوات الذي هو عدو مبين ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والمورد العذب الروي، ولأنها إن لم تعتقد حقاً مستتبعاً لاكتساب الخير لم تعتقد باطلاً مستوجباً لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولأنها غير معطلة لقوة من القوى المودعة فيها بل صارفة لها إلى ما خلقت له فلا تقصير من قبلها في طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها. واستدل بالآية على أن البهائم لا تعلم ربها عز وجل، ومن ذهب إلى أنها تعلمه سبحانه وتسبحه كما هو مذهب الصوفية. وجماعة من الناس قال: إن هذا خارج مخرج الظاهر، وقيل: المراد إن هم إلا كالأنعام في عدم الانتفاع بالآيات القرآنية والدلائل الأنفسية والآفاقية فإن الأنعام كذ لك والعلم بالله تعالى الحاصل لها ليس استدلالياً بل هو فطري، وكونهم أضل سبيلاً من الأنعام من حيث إنها رزقت علماً بربها تعالى فهي تسبحه عز وجل به وهؤلاء لم يرزقوا ذلك فهم في غاية الضلال.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ إلخ بيان لبعض دلائل التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم، والخطاب لرسول الله ﷺ والهمزة للتقرير والرؤية بصرية لأنها التي تتعدى بإلى، وفي الكلام مضاف مقدر حذف وأقيم المضاف إليه مقامه أي ألم تنظر إلى صنع ربك لأنه ليس المقصود رؤية ذات الله عز وجل، وكون ـ إلى ـ اسماً واحد الآلاء وهي النعم بعيد جداً، وجوز أن تكون علمية وليس هناك مضاف مقدر وتعديتها بإلى لتضمين معنى الانتهاء أي ألم ينته علمك إلى أن ربك كيف مد الظل والأول أولى.

وذكر بعض الأجلة أنه يحتمل أن يكون حق التعبير ألم تر إلى الظل كيف مده ربك فعدل عنه إلى ما في النظم الجليل إشعاراً بأن المعقول المفهوم من هذا الكلام لوضوح برهانه وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس منه، وقال الفاضل الطيبي: لو قيل ألم تر إلى الظل كيف مده ربك كان الانتقال من الأثر إلى المؤثر والذي عليه التلاوة كان عكسه والمقام يقتضيه لأن الكلام في تقريع القوم وتجهيلهم في اتخاذهم الهوى إلهاً مع وضوح هذه الدلائل ولذلك جعل ما يدل على ذاته تعالى مقدماً على أفعاله في سائر آياته ﴿وهو الذي جعل لكم الليل﴾ [يونس: ٦٧، الفرقان: ٤٧] و ﴿هو الذي أرسل الرياح﴾ [الفرقان: ٤٨، فاطر: ٩] و ﴿لو شئنا لبعثنا﴾ [الفرقان: ٥١] وروى السلمي في الحقائق عن بعضهم مخاطبة العام ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ [الغاشية: ١٧] ومخاطبة الخاص ﴿ألم تر إلى ربك﴾ انتهى، وفي الإرشاد لعل توجيه الرؤية إليه سبحانه مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ما يطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره ﷺ معرفة شؤون الصانع المجيد جل جلاله ولعل هذا هو سر ما روي عن السلمي، وقيل: إن التعبير المذكور للإشعار بأن المقصود العلم بالرب علماً يشبه الرؤية، ونقل الطبرسي عن الزجاج أنه فسر الرؤية بالعلم. وذكر أن الكلام من باب القلب،

والتقدير ألم تر إلى الظل كيف مده ربك ولا حاجة إلى ذلك، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه ﷺ وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته تعالى ورحمته جل وعلا و ﴿كيف﴾ منصوب بمد على الحالية وهي معلقة لتر أن لم تكن الجملة مستأنفة، وفي البحر أن الجملة الاستفهامية التي يتعلق عنها فعل القلب ليس باقية على حقيقة الاستفهام وفيه بحث، وذكر بعض الأفاضل أن كيف للاستفهام وقد تجرد عن الاستفهام وتكون بمعنى الحال نحو انظر إلى كيف تصنع، وقد جوزه الدماميني في هذه الآية على أنه بدل اشتمال من المجرور وهو بعيد انتهى، ولا يخفى أنه يستغني على ذلك عن اعتبار المضاف لكنه لا يعادل البعد. والمراد بالظل على ما رواه جماعة عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن وأيوب بن موسى وإبراهيم التيمي والضحاك وأبي مالك الغفاري وأبي العالية وسعيد بن جبير ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وذلك أطيب الأوقات فإن الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وتسد النظر وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر، ومن هنا كان ظل الجنة مدوداً كما قال سبحانه: ﴿وظل ممدود﴾ [الواقعة: ٣٠].

وقيل: المراد به ما يكون من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس عند ابتداء طلوعها، ومد الظل من باب ضيق فم القربة، فالمعنى ألم تنظر إلى صنع ربك كيف أنشأ ظلاً أي مظلاً كان عند ابتداء طلوع الشمس ممتداً إلى ما شاء الله عز وجل واختاره شيخ الإسلام. وتعقب ما تقدم بقوله: غير سديد إذ لا ريب في أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته سبحانه فيما يشاهدونه فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها في موضع يحول بينه وبين الشمس جسم مخالفة لما في جوانبه من مواقع ضح الشمس، وما ذكر وإن كان في الحقيقة ظلاً للأفق الشرقي لكنهم لا يعدونه ظلاً ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ا هـ وفيه منع ظاهر، وهو أظهر على ما ذكره أبو حيان في الاعتراض على ذلك من أنه لا يسمى ظلاً فقد قال الراغب وكفى به حجة في اللغة الظل ضد الضح وهو أعم من الفيء فإنه يقال: ظل الليل وظل الجنة ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس انتهى، وظاهر قوله تعالى: ﴿وظل ممدود﴾ في وصف الجنة يقتضي أنهم يعدون مثل ما ذكر ظلاً. وقيل: هو ما كان من غروب الشمس إلى طلوعها وحكي ذلك عن الجبائي والبلخي وقيل: هو ما كان يوم خلق الله تعالى السماء وجعلها كالقبة ودحا الأرض من تحتها فألقت ظلها عليها وليس بشيء، وإن فسر ﴿ألم تر﴾ بألم تعلم لما في تطبيق ما يأتي من تتمة الآية عليه من التكلف وارتكاب خلاف الظاهر، وربما يفوت عليه المقصود الذي سيق له النظم الكريم، وربما يختلج في بعض الأذهان جواز أن يراد به ما يشمل جميع ما يصدق عليه أنه ظل فيشمل ظل الليل وما بين الفجر وطلوع الشمس وظل الأشياء الكثيفة المقابلة للشمس كالجبال وغيرها فإذا شرع في تطبيق الآية على ذلك عدل عنه كما لا يخفى، وللصوفية في ذلك كلام طويل سنذكر إن شاء الله تعالى شيئاً منه، وجمهور المفسرين على الأول، والقول الثاني أسلم من القال والقيل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ جملة اعتراضية بين المتعاطفين للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخل للأسباب العادية من قرب الشمس إلى الأفق الشرقي على الأول أو قيام الشاخص الكثيف على الثاني، وإنما المؤثر فيه حقيقة المشيئة والقدرة، ومفعول المشيئة محذوف وهو مضمون الجزاء كما هو القاعدة المستمرة في أمثال هذا التركيب أي ولو شاء جعله ساكناً لجعله ساكناً أي ثابتاً على حاله ظلاً أبداً كما فعل عز وجل في ظل الجنة أو لجعله ثابتاً على حاله من الطول والامتداد وذلك بأن لا يجعل سبحانه للشمس على نسخه سبيلاً بأن يطلعها ولا يدعها تنسخه أو بأن لا يدعها تغيره باختلاف أوضاعها بعد طلوعها، وقيل: بأن يجعلها بعد الطلوع مقيمة على وضع واحد وليس

بذاك، وإنما عبر عن ذلك بالسكون قيل: لما أن مقابله الذي هو زواله لما كان تدريجياً كان أشبه شيء بالحركة، وقيل: لما أن مقابله الذي هو تغير حاله حسب تغير الأوضاع بين الظل وبين الشمس يرى رأي العين حركة وانتقالاً.

وأفاد الزمخشري أنه قوبل مد الظل الذي هو انبساطه وامتداده بقوله تعالى: ﴿ساكناً﴾ والسكون إنما يقابل الحركة فيكون قد أطلق ﴿مد الظل﴾ على الحركة مجازاً من باب تسمية الشيء باسم ملابسة أو سببه كما قرره الطيبي وذكر أنه عدل عن حرك إلى مد مع أنه أظهر من مد في تناوله الانبساط والامتداد ليدمج فيه معنى الانتفاع المقصود بالذات وهو معرفة أوقات الصلوات فإن اعتبار الظل فيها بالامتداد دون الانبساط وتمم معنى الإدماج بقوله تعالى: ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أي بالتدرج والمهل لمعرفة الساعات والأوقات وفيه لمحة من معنى قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ [البقرة: ١٨٩] اهـ. ولا يبعد أن يقال: إن التعبير بمد لما أن الظل المذكور ظل الأفق الشرقي، وقد اعتبر المشرق والمغرب طرفي جهتي الأرض طولاً والشمال والجنوب طرفي جهتيها عرضاً أو لأن ظهوره في الأرض وطول المعمور منها الذي يسكنه من يشاهد الظل أكثر من عرض المعمور منها إذ الأول كما هو المشهور نصف دور أعني مائة وثمانين درجة، والثاني دون ذلك على جميع الأقوال فيه فيكون الظل بالنظر إلى الرائين في المعمور من الأرض ممتداً ما بين جهتي شرقيه وغربيه أكثر مما بين جهتي شماليه وجنوبيه، وربما يقال: إن ذلك لما أن مبدأ الظل الفجر الأول وضوؤه يرى مستطيلاً ممتداً كذنب السرحان ويلتزم القول بأنه لا يذهب بالكلية وإن ضعف بل يبقى حتى يمده ضوء الفجر الثاني فيرى منبسطاً والله تعالى أعلم، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ عطف على ﴿مد﴾ داخل في حكمه أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهوره للحس فإن الناظر إلى الجسم الملون حال قيام الظل عليه لا يظهر له شيء سوى الجسم ولونه ثم إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم ظهر له أن الظل كيفية زائدة على الجسم ولونه.

والضد يظهر حاله الضد. قاله الرازي والطبري وغيرهما، وقيل: أي ثم جعلناها دليلاً على وجوده أي علة له لأن وجوده بحركة الشمس إلى الأفق وقربها منه عادة ولا يخفى ما فيه أو ثم جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعاً حسبما نطق به الشرطية المعترضة، ومن الغريب الذي لا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى المجيد أن على بمعنى مع أي ثم جعلنا الشمس مع الظل دليلاً على وحدانيتنا على معنى جعلنا الظل دليلاً وجعلنا الشمس دليلاً على وحدانيتنا.

والالتفات إلى نون العظمة للإيذان بعظم قدر هذا الجعل لما يستتبعه من المصالح التي لا تحصى أو لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الظل والشمس من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد الدلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة، وثم إما للتراخي الرتبي ويعلم وجهه مما ذكر، وإما للتراخي الزماني كما هو حقيقة معناها بناء على طول الزمان بين ابتداء الفجر وطلوع الشمس، وقوله سبحانه ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ عطف على ﴿مد﴾ داخل في حكمه أيضاً أي ثم أزلناه بعد ما أنشأناه ممتداً عند إيقاع شعاع الشمس موقعه أو بإيقاعه كذلك ومحوناه على مهل قليلاً قليلاً حسب سير الشمس، وهذا ظاهر على القول بأن المراد بالظل ظل الشاخص من جبل ونحوه، وأما على القول بأن المراد به ما بين الطلوعين فلأنه إذا عم لا يزول دفعة واحدة بطلوع الشمس في أفق لكروية الأرض واختلاف الآفاق فقد تطلع في أفق ويزول ما عند أهله من الظل وهي غير طالعة في أفق آخر وأهله في طرف من ذلك الظل ومتى ارتفعت عن الأفق الأول حتى بانت من أفقهم زال ما عندهم من الظل فزوال الظل بعد عمومه تدريجي كذا قيل.

وقيل لا حاجة إلى ذلك فإن زواله تدريجي نظراً إلى أفق واحد أيضاً بناء على أنه يبقى منه بعد طلوع الشمس ما لم يقع على موقعه شعاعها لمانع جبل ونحوه ويزول ذلك تدريجاً حسب حركة الشمس ووقوع شعاعها على ما لم يقع عليه ابتداء طلوعها، وكأن التعبير عن تلك الإزالة بالقبض وهو كما قال الطبرسي: جمع الأجزاء المنبسطة لما أنه قد عبر عن الأحداث بالمد.

وقوله سبحانه: ﴿إلينا﴾ للتنصيص على كون مرجع الظل إليه عز وجل لا يشاركه حقيقة أحد في إزالته كما أن حدوثه منه سبحانه لا يشاركه حقيقة فيه أحد، وثم يحتمل أن تكون للتراخي الزماني وأن تكون للتراخي الرتبي نحو ما مر، ومن فسر الظل بما كان يوم خلق الله تعالى السماء كالقبة ودحا الأرض من تحتها فألقت ظلها عليها جعل معنى ﴿ثم جعلنا﴾ إلخ ثم خلقنا الشمس وجعلناها مسلطة على ذلك الظل وجعلناها دليلاً متبوعاً له كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد وينقص ويمتد ويقلص ثم قبضناه قبضاً سهلاً لا عسر فيه.

ويحتمل أن يكون قبضه عند قيام الساعة بقرينة إلينا وكذا ﴿يسيراً﴾ وذلك بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تلقي الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه، والتعبير بالماضي لتحققه ولمناسبة ما ذكر معه، وثم للتراخي الزماني وفيه ما فيه كما أشرنا إليه ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته عز وجل وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق، وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه، واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما بعد من منافعهم، وفي تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذي هو ظل الأرض من لطف المسلك ما لا مزيد عليه أي وهو الذي جعل لنفعكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿وَ﴾ جعل ﴿النَّوْمَ﴾ الذي يقع فيه غالباً بسبب استيلاء الأبخرة على القوى عادة، وقيل: بشم نسيم يهب من تحت العرش ولا يكاد يصح.

﴿سُبَاتاً﴾ راحة للأبدان بقطع الأفاعيل التي تكون حال اليقظة، وأصل السبت القطع، وقيل: يوم السبت لما جرت العادة من الاستراحة فيه على ما قيل، وقيل: لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئاً، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة: مسبوت، وإلى هذا ذهب أبو مسلم.

وقال أبو حيان: السبات ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضاً فشبه النوم به، والسبت الإقامة في المكان فكان النوم سكوناً ما ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ أي ذا نشور ينتشر فيه الناس لطلب المعاش فهو كقوله تعالى: ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ [النبأ: ١١] وفي جعله نفس النشور مبالغة، وقيل: نشوراً بمعنى ناشراً على الإسناد المجازي، وجوز أن يراد بالسبات الموت لما فيه من قطع الإحساس أو الحياة، وعبر عن النوم به لما بينهما من المشابهة التامة في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: ٦٠] وقوله سبحانه: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ [الزمر: ٤٢] وبالنشور البعث أي وجعل النهار زمان بعث من ذلك الثبات أو نفس البعث على سبيل المبالغة. وأبى الزمخشري الراحة في تفسير السبات وقال: إنه يأباه النشور في مقابلته إباء العيوف الورد وهو مرنق، وكأن ذلك لأن النشور في القرآن لا يكاد يوجد بمعنى الانتشار والحركة لطلب المعاش، وعلل في الكشف إباء الزمخشري بذلك وبأن الآيات السابقة واللاحقة مع ما فيها من التذكير بالنعمة والقدرة أدمج فيها الدلالة على الإعادة فكذلك ينبغي أن لا يفرق بين هذه وبين أترابها.

وكأنه جعل جعْل الليل لباساً والنوم فيه سباتاً بمجموعة مقابل جعل النهار نشوراً ولهذا كرر جعل فيه لما في

النشور من معنى الظهور والحركة الناصبة أو معنى الظهور والبعث ولم يسلك في آية سورة النبأ هذا المسلك لما لا يخفى ﴿وَهُوَ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ وقرأ ابن كثير بالتوحيد على إرادة الجنس بأل أوالاستغراق فهو في معنى الجمع موافقة لقراءة الجمهور، وقال ابن عطية: قراءة الجمع أوجه لأن الريح متى وردت في القرآن مفردة فهي للعذاب ومتى كانت للمطر والرحمة جاءت مجموعة لأن ريح المطر تتشعب وتتذأب وتتفرق وتأتي لينة من هاهنا وهاهنا وشيئاً إثر شيء وريح العذاب تأتي جسداً واحداً لا تتذأب ألا ترى أنها تحطم ما تجد وتهدمه.

وقال الرماني: جمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة لواقح الجنوب والصبا والدبور وأفردت ريح العذاب لأنها واحدة لا تلقح وهي الدبور، وفي قوله ﷺ إذا هبت الريح: اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً إشارة إلى ما ذكر، وأنت تعلم أن في كلام ابن عطية غفولاً عن التأويل الذي تتوافق به القراءتان، وقد ذكر في البحر أنه لا يسوغ أن يقال في تلك القراءة أنها أوجه من القراءة الأخرى مع أن كلاً منهما متواتر، وأل في الريح للجنس فتعم، وما ذكر في التفرقة بين المفرد والمجموع أكثري أو عند عدم القرينة أو في المنكر كما جاء في الحديث، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة الروم ما يتعلق بهذا المبحث.

﴿بُشْراً ﴾ تخفيف بشراً بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر أي أرسل الرياح مبشرات. وقرىء «نشراً» بالنون والتخفيف جمع نشور كرسول ورسل، و «نُشُراً» بضم النون والشين وهو جمع لذلك أيضاً أي أرسلها ناشرات للسحاب من النشر بمعنى البعث لأنها تجمعه كأنها تحييه لا من النشر بمعنى التفريق لأنه غير مناسب إلا أن يراد به السوق مجازاً، و «نَشْراً» بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به مبالغة، وجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لأرسل لأنه بمعنى نشر والكل متواتر.

وروي عن ابن السميقع أنه قرأ «بشرى» بألف التأنيث ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته ﴾ أي قدام المطر وقد استعيرت الرحمة له ورشحت الاستعارة أحسن ترشيح، وجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية و ﴿بشراً ﴾ من تتمة الاستعارة داخل في جملتها، والالتفات إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا منَ السَّمَاء ﴾ لإبراز كمال العناية بالإنزال لأنه نتيجة ما ذكر من إرسال الرياح أي أنزلناه بعظمتنا بما رتبنا من إرسال الرياح من جهة العلو التي ليست مظنة الماء أو من السحاب أو من الجرم المعلوم، وقد تقدم تفصيل الكلام في ذلك ﴿مَاءً طَهُوراً ﴾ الظاهر أنه نعت لماء، وعليه قيل معناه بليغ الطهارة زائدها، ووجه في البحر المبالغة بأنها راجعة إلى الكيفية باعتبار أنه لم يشبه شيء آخر مما في مقره أو ممره أو ما يطرح فيه كمياه الأرض، وفسره ثعلب: بما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره. وتعقبه الزمخشري بأنه إن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الظهارة كان سديداً وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء، وقال غيره: إن أخذ التطهير فيه يأباه لزوم الطهارة والمبالغة في اللازم لا توجب التعدي.

وأجاب صاحب الكشف بأنه لما لم تكن الطهارة في نفسها قابلة للزيادة رجعت المبالغة فيها إلى انضمام معنى التطهير إليها لا أن اللازم صار متعدياً، وتعقبه المولى الدواني بأن فيه تأملاً من حيث أن انضمام معنى التطهير لما كان مستفاداً من المبالغة بمعونة عدم قبول الزيادة كانت المبالغة في الجملة سبباً للتعدي، ثم قال: ويمكن التفصي بأن المعنى اللازم باق بحاله، والمبالغة أوجبت انضمام المتعدي إليه لا تعدية ذلك اللازم وبينهما فرقان، وذكر بعض الأجلة أن إفادة المبالغة تعلق الفعل بالغير مما لا يساعده لغة ولا عرف وأين هذا التعلق في قول جرير:

إلى رجح الأكفال غيد من الظبا عذاب الثنايا ريقهن طهور

ومثله قوله تعالى: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ [الإنسان: ٢١] ومن هذا وأمثاله اختار بعضهم كون المبالغة راجعة إلى الكيفية على ما سمعت عن البحر، وقال بعض المحققين: إن ﴿طهوراً﴾ هنا اسم لما يتطهر به كما في قوله ﷺ: «التراب طهور المؤمن» وفعول كما قال الأزهري في كتاب الزاهر يكون اسم آلة لما يفعل به الشيء كغسول ووضوء وفطور وسحور إلى غير ذلك كما يكون صفة بمعنى فاعل كأكول أو مفعول كصبوب بمعنى مصبوب واسم جنس كذنوب ومصدراً وهو نادر كقبول فيفيد التطهير للغير وضعاً، ويمكن حمل ما روي عن ثعلب على هذا، واعتبار كونه طاهراً في نفسه لأن كونه مطهراً للغير فرع ذلك ، وجعل على هذا بدلاً من ماء أو عطف بيان له لا نعتاً فيكون التركيب نحو أرسلت إليك ماء وضوءاً.

وأنت تعلم أن المتبادر فيما نحن فيه كونه نعتاً فإن أمكن ذلك على هذا الوجه بنوع تأويل كان أبعد عن القيل والقال، وحكى سيبويه أن طهوراً جاء مصدر التطهر في قولهم: تطهرت طهوراً حسناً، وذكر أن منه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة إلا بطهور» وحمل ما في الآية على ذلك مما لا ينبغي. وأياً ما كان ففي توصيف الماء به إعظام المنة كما لا يخفى ﴿لِنُحْيِي به﴾ أي بما أنزلنا من الماء الطهور ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ ليس فيها نبات وذلك بإنبات النبات به؛ والمراد بالبلدة الأرض كما في قوله:

أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة قليل بها الأصوات إلا بغامها

وجوز أن يراد بها معناها المعروف وتنكيرها للتنويع، وتذكير صفتها لأنها بمعنى البلد أو لأن ﴿ميتاً﴾ من أمثلة المبالغة التي لا تشبه المضارع في الحركات والسكنات وهو يدل على الثبوت فأجري مجرى الجوامد، ولام ﴿لنحيي﴾ متعلق بأنزلنا وتعلقه بطهوراً ليس بشيء. وقرأ عيسى وأبو جعفر «مَيِّتاً» بالتشديد، قال أبو حيان: ورجح الجمهور التخفيف لأنه يماثل فعلاً من المصادر فكما وصف المذكر والمؤنث بالمصدر فكذلك بما أشبهه بخلاف المشدد فإنه يماثل فاعلاً من حيث قبوله للتاء إلا فيما خص المؤنث نحو طامث.

﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ أي ذلك الماء الطهور وعند جريانه في الأودية أو اجتماعه في الحياض والمناقع والآبار ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ أي أصل البوادي الذين يعيشون بالحياء، ولذلك نكر الأنعام والأناسي فالتنكير للتنويع.

وتخصيص هذا النوع بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون بقرب الأنهار والمنابع فبهم وبما لهم من الأنعام غنية عن سقي السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالباً، ومساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة كذلك هو لتعداد أنواع النعمة فالأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها فالتقديم من قبيل تقديم الأسباب على المسببات، وجوز أن يكون تقديم ما ذكر على سقي الأناسي لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقي أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم، وحاصله أنه من باب تقديم ما هو الأهم والأصل في باب الامتنان، وذكر سقي الأناسي على هذا إرداف وتتميم للاستيعاب، ومن تبعيضية أو بيانية و ﴿كثيراً﴾ صفة للمتعاطفين لا على البدل.

وقرأ عبدالله وأبو حيوة وابن أبي عبلة والأعمش وعاصم وأبو عمرو في رواية عنهما «وَنَسْقِيهِ» بفتح النون ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأسقي وسقي لغتان، وقيل: أسقاه بمعنى جعل السقيا له وهيأها، و ﴿أناسي﴾ جمع إنسان عند سيبويه وأصله أناسين فقلبت نونه ياء وأدغمت فيما قبلها.

وذهب الفراء والمبرد والزجاج إلى أنه جمع إنسي، قال في البحر: والقياس أناسية كما قالوا في مهلبي مهالبة.

وفي الدر المصون أن فعالى إنما يكون جمعاً لما فيه ياء مشددة إذا لم يكن للنسب ككرسي وكراسي وما فيه ياء النسب يجمع على أفاعلة كأزرقي وأزارقة وكون ياء إنسي ليست للنسب بعيد فحقه أن يجمع على أناسية، وقال في التسهيل: إنه أكثري، وعليه لا يرد ما ذكر ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ الضمير للماء المنزل من السماء كالضميرين السابقين، وتصريفه تحويل أحواله وأوقاته وإنزاله على أنحاء مختلفة أي وبالله تعالى لقد صرفنا المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الناس في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة والصفات المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما ﴿لِيذَّكَّرُوا﴾ أي ليعتبروا بذلك ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ أي لم يفعل إلا كفران النعمة وإنكارها رأساً بإضافتها لغيره عز وجل بأن يقول: مطرنا بنوء كذا معتقداً أن النجوم فاعلة لذلك ومؤثرة بذواتها فيه، وهذا الاعتقاد والعياذ بالله تعالى كفر، وفي الكشاف وغيره أن من اعتقد أن الله عز وجل خالق الأمطار وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها وأراد بقوله مطرنا بنوء كذا مطرنا في وقت سقوط النجم الفلاني في المغرب مع الفجر لا يكفر، وظاهره أنه لا يأثم أيضاً، وقال الإمام: من جعل الأفلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الأشياء فلا شك في كفره وأما من قال: إنه سبحانه جبلها على خواص وصفات تقتضي هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطؤه إلى حد الكفر. وسيأتي إن شاء الله تعالى منا في هذه المسألة كلام أرجو من الله تعالى أن تستحسنه ذوو الأفهام ويتقوى به كلام الإمام، ورجوع ضمير أنزلناه إلى الماء المنزل مروي عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة.

وأخرج جماعة عن الأول وصححه الحاكم أنه قال: ما من عام بأقل مطراً من عام ولكن الله تعالى يصرفه حيث يشاء ثم قرأ هذه الآية. وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن الثاني مثله، ويفهم من ذلك حمل التصريف على التقسيم، وقال بعضهم: هو راجع إلى القول المفهوم من السياق وهو ما ذكر فيه إنشاء السحاب وإنزال القطر لما ذكر من الغايات الجليلة وتصريفه تكريره وذكره على وجوه ولغات مختلفة، والمعنى ولقد كررنا هذا القول وذكرناه على أنحاء مختلفة في القرآن وغيره من الكتب السماوية بين الناس من المتقدمين والمتأخرين ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته عز وجل في ذلك فأبى أكثرهم ممن سلف وخلف إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث بها أو إنكارها رأساً بإضافتها لغيره تعالى شأنه، واختار هذا القول الزمخشري، وقال أبو السعود: هو الأظهر، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني أنه عائد على القرآن ألا ترى قوله تعالى بعد: ﴿وجاهدهم به﴾ وحكاه في البحر عن ابن عباس أيضاً والمشهور عنه ما تقدم، ولعل المراد ما ذكر فيه من الأدلة على كمال قدرته تعالى وواسع رحمته عز وجل أو نحو ذلك فتأمل، وأما ما قيل إنه عائد على الريح فليس بشيء.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ نبياً ينذر أهلها فتخف عليك أعباء النبوة لكن لم نشأ ذلك وقصرنا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه وهو تهييج له ﷺ وللمؤمنين.

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن كما أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وذلك بتلاوة ما فيه من البراهين والقوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ فإن دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كماً وكيفاً، وترتيب ما ذكر على ما قبله حسبما تقتضيه الفاء باعتبار أن قصر الرسالة عليه عليه الصلاة والسلام نعمة جليلة ينبغي شكرها وما ذكر نوع من الشكر فكأنه قيل: بعثناك نذيراً لجميع القرى وفضلناك وعظمناك ولم نبعث في كل قرية نذيراً فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق، وفي الكشف لبيان النظم الكريم أنه لما ذكر ما يدل على حرصه ﷺ على طلب هداهم وتمارضهم في ذلك في قوله سبحانه: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣] وذنب بدلائل القدرة والنعمة

والرحمة دلالة على أنهم لا ينفع فيهم الاحتشاد وأنهم يغمطون مثل هذه النعم ويغفلون عن عظمة موجدها سبحانه وجعلوا كالأنعام وأضل وختم بأنه ليس لهم مراد إلا كفور نعمته تعالى، قيل: ﴿ولو شئنا﴾ على معنى أنا عظمناك بهذا الأمر لتستقل بأعبائه وتحوز ما ادخر لك من جنس جزائه فعليك بالمجاهدة والمصابرة ولا عليك من تلقيهم الدعوة بالإباء والمشاجرة وبولغ فيه فجعل حرصه ﷺ على إيمان هؤلاء المطبوع على قلوبهم طاعة لهم، وقيل: فلا تطعهم، ومدار السورة على ما ذكره الطيبي على كونه صلى الله تعالى عليه وسلم مبعوثاً على الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١] والآية على ما سمعت متعلقة بقوله تعالى: ﴿أفرأيت﴾ إلى آخر الآيات، وفيها من التنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما فيها وليست مسوقة للتأديب كما وهم. وقيل: هي متعلقة بما عند على معنى ولو شئنا لقسمنا النذير بينهم، كما قسمنا المطر بينهم ولكنا نفعل ما هو إلا نفع لهم في دينهم ودنياهم فبعثناك إليهم كافة فلا تطع إلخ، وفيه من الدلالة على قصور النظر ما فيه.

هذا وجوز أن يكون ضمير ﴿به﴾ عائداً على ترك طاعتهم المفهوم من النهي ولعل الباء حينئذ للملابسة والمعنى وجاهدهم بما ذكر من أحكام القرآن الكريم ملابساً ترك طاعتهم كأنه قيل: وجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاءمة والمداراة كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] وإلا ورد عليه أن مجرد ترك الطاعة بتحقق بلا دعوة أصلاً وليس فيه شائبة الجهاد فضلاً عن الجهاد الكبير، وجوز أيضاً أن يكون لما دل عليه قوله عز وجل ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ من كونه صلى الله تعالى عليه وسلم نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ذلك جهاده وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام: وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة. وتعقب بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فإنه بين بنفسه وإنما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها في الكيفية، وجوز أبو حيان أن يكون الضمير للسيف.

وأنت تعلم أن السورة مكية ولم يشرع في مكة الجهاد بالسيف، ومع هذا لا يخفى ما فيه، ويستدل بالآية على الوجه المأثور على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين بما يوردون عليهم من الأدلة وأوفرهم حظاً المجاهدون بالقرآن منهم ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسلهما في مجاريهما كما يرسل الخيل في المرج كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ويقال في هذا أمرج أيضاً على ما قيل إلا أن مرج لغة الحجاز وأمرج لغة نجد.

وأصل المرج كما قال الراغب: الخلط، ويقال: مرج أمرهم أي اختلط، وسمي المرعى مرجاً لاختلاط النبات فيه، والمراد بالبحرين الماء الكثير العذب والماء الكثير الملح من غير تخصيص ببحرين معينين، وهذا رجوع إلى ما تقدم من ذكر الأدلة، وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ إلخ أي شديد العذوبة ووزنه فعال من فرته وهو مقلوب من رفته إذا كسره لأنه يكسر سورة العطش ويقمعها، وقيل: هو البارد كما في مجمع البيان إما استئناف أو حال بتقدير القول أي يقال فيهما هذا عذب فرات ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وقيل: هي حال من غير تقدير قول على معنى مرج البحرين مختلفين عذوبة شديدة وملوحة كذلك، واسم الإشارة يغني غناء الضمير، والأجاج شديد الملوحة كما أشرنا إليه أطلق عليه لأن شربه يزيد أجيج العطش، وقال الراغب: هو شديد الملوحة والحرارة من أجيج النار انتهى، وقيل: هو المر وحكاه الطبرسي عن قتادة، وقيل: الحار فهو يقابل الفرات عند من فسره بالبارد.

وقرأ طلحة بن مصرف وقتيبة عن الكسائي «مَلِحٌ» بفتح الميم وكسر اللام هنا وكذا في فاطر، قال أبو حاتم: وهذا منكر في القراءة، وقال أبو الفتح: أراد مالحاً فخفف بحذف الألف كما قيل برد في بارد في قوله:

أصـبـح قـلـبـي صـردا ... لا يـشـتـهـي أن يـردا

إلا عـــــراداً عـــــردا ... وصـلـيـانـاً بـــردا

وعـكـنـاً مـلـتـبـدا

وقيل: مخفف مليح لأنه ورد بمعنى مالح، وقال أبو الفضل الرازي في كتاب اللوامح: هي لغة شاذة قليلة فليس مخففاً من شيء، نعم هو كملح في قراءة الجمهور بمعنى مالح، والأفصح أن يقال في وصف الماء: ماء ملح دون ماء مالح وإن كان صحيحاً كما نقل الأزهري ذلك عن الكسائي، وقد اعترف أيضاً بصحته ثعلب، وقال الخفاجي: الصحيح أنه مسموع من العرب كما أثبته أهل اللغة وأنشدوا لإثباته شواهد كثيرة وعليه فمن خطأ الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه بقوله: ماء مالح فقد أخطأ جاهلاً بقدر هذا الإمام ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي حاجزاً وهو لفظ عربي، وقيل: أصله برزه فعرب، والمراد بهذا الحاجز كما أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن ما يحول بينهما من الأرض كالأرض الحائلة بين دجلة ويقال لها بحر لعظمها ولشيوع إطلاق البحر على النهر العظيم صار حقيقة فيه أيضاً فلا إشكال في التثنية، وإن أبيت صيرورته حقيقة فاعتبار التغليب يرفع الإشكال وبين البحر الكبير، والمراد حيلولتها في مجاريها وإلا فهي تنتهي إلى البحر وكذا سائر الأنهار العظام، ودلالة هذا الجعل على كمال قدرته عز وجل كونه على خلاف مقتضى الطبيعة فإن مقتضى طبيعة الماء أن يكون متضام الأجزاء مجتمعاً غامراً للأرض محيطاً بها من جميع جهاتها إحاطة الهواء به ومقتضى طبيعة الأرض أن تكون متضامة الأجزاء أيضاً لا غور فيها ولا نجد مغمورة بالماء واقعة في جوفه كمركز الدائرة كما قرر ذلك الفلاسفة وذكروا في سبب انكشاف ما انكشف من الأرض ووقوع الأغوار والأنجاد فيها ما لا يخلو عن قيل وقال، و ﴿بينهما﴾ ظرف لجعل، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿برزخاً﴾، والظاهر أن تنوين ﴿برزخاً﴾ للتعظيم أي وجعل بينهما برزخاً عظيماً حيث إنه على كثرة مرور الدهور لا يتخلله ماء أحد البحرين حتى يصل إلى الآخر فيغير طعمه ﴿وحجراً مَحْجُوراً﴾ أي وتنافراً مفرطاً كان كلاً منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة، والمراد لزوم كل منهما لصفته من العذوبة والملوحة فلا ينقلب البحر العذب ملحاً في مكانه ولا البحر الملح عذباً في مكانه وذلك من كمال قدرته تعالى وبالغ حكمته عز وجل فإن العذوبة والملوحة ليستا بسبب طبيعة الأرض ولا بسبب طبيعة الماء وإلا لكان الكل عذباً أو الكل ملحاً، وذكر في حكمة جعل البحر الكبير ملحاً أن لا ينتن بطول المكث وتقادم الدهور؛ قيل: وهو السر في جعل دمع العين ملحاً، وفيه حكم أخرى الله تعالى أعلم بها.

والظاهر إن ﴿حجراً﴾ عطف على ﴿برزخاً﴾ أي وجعل بينهما هذه الكلمة، والمراد بذلك ما سمعت آنفاً وهو من أبلغ الكلام وأعذبه، وقيل: هو منصوب بقول مقدر أي ويقولان حجراً محجور، وعن الحسن أن المراد من الحجر ما حجر بينهما من الأرض وتقدم تفسيره البرزخ بنحو ذلك، وكان الجمع بينهما حينئذ لزيادة المبالغة في أمر الحاجز وما قدمنا أولى وأبعد مغزى، وقيل: المراد بالبرزخ حاجز من قدرته عز وجل غير مرئي وبقوله سبحانه: ﴿حجراً محجوراً﴾ التميز التام وعدم الاختلاط، وأصله كلام يقوله المستعيذ لما يخافه كما تقدم تفصيله، وحاصل معنى الآية أنه تعالى هو الذي جعل البحرين مختلطين في مرأى العين ومنفصلين في التحقيق بقدرته عز وجل أكمل انفصال بحيث لا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب ولا يتغير طعم كل منهما بالآخر أصلاً.

وحكي هذا عن الأكثرين وفيه أنه خلاف المحسوس فإن الأنهار العظيمة كدجلة وما ينضم إليها والنيل وغيرهما مما يشاهده الناس إذا اتصلت في البحر تغير طعم غير قليل منها في جهة المتصل وكذا يتغير طعم غير قليل من البحر في جهة المتصل أيضاً ويختلف التغير قلة وكثرة باختلاف الورود لاختلاف أسبابه من الهواء وغيره قوة وضعفاً كما أخبر به مبلغ التواتر ولم يخبر أحد أنه شاهد في الأرض بحرين أحدهما عذب والآخر ملح، وقد اتصل أحدهما بالآخر من غير تغير لطعم شيء منهما أصلاً، ولا مساغ عند من له أدنى ذوق لجعل الآية في بحرين في الأرض كذلك لكنهما لم يشاهدهما أحد كما لا يخفى، ولا أرى وجهاً لتفسير الآية بما ذكر والتزام هذا ونحوه من التكلفات الباردة مع ظهور الوجه الذي لا كدورة فيه عند المنصف إلا تسبب طعن الكفرة في القرآن العظيم وسوء الظن بالمسلمين؛ وقيل: المراد بالبرزخ الواسطة أي وجعل بين البحر العذب الشديد العذوبة والبحر الملح الشديد الملوحة ماء متوسطاً ليس بالشديد العذوبة ولا بالشديد الملوحة وهو قطعة من العذب الفرات عند موضع التلاقي مازجها شيء من الملح الأجاج فكسر سورة عذوبتها وقطعة من الملح الأجاج عند موضع التلاقي أيضاً مازجها شيء من العذب الفرات فكسر سورة ملوحتها ويكون التنافر البليغ بينهما المفهوم من قوله سبحانه: ﴿**وحجراً محجوراً**﴾ فيما عدا ذلك وهو ما لم يتأثر بصاحبه منهما بل يبقى على صفته من العذوبة الشديدة والملوحة الشديدة وهو كما ترى، وحكي في البحر أن المراد بالبحرين بحران معينان هما بحر الروم وبحر فارس.

وذكره في الدر المنثور عن الحسن برواية ابن أبي حاتم وهو من العجب العجاب لأن كلا هذين البحرين ملح أجاج فكيف يصح إرادتهما هنا مع قوله تعالى: ﴿**هذا عذب فرات * وهذا ملح أجاج**﴾ نعم قد يصح فيما سيأتي إن شاء الله تعالى من آية سورة [الرحمن: ١٩، ٢٠] أعني قوله سبحانه: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ لعدم ذكر ما يمنعه هناك، وما روي عن الحسن إن صح فلعله في تلك الآية، ووهم السيوطي في روايته في الكلام على هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أن البحرين هما بحر السماء وبحر الأرض وذكر مثله في البحر عن ابن عباس وأنهما يلتقيان كل عام، وهذا شيء أنا لا أقول به في الآية ولا أعتقد صحة روايته عمن سمعت وإن كان مناسبة الآية عليه لما تقدم من قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من السماء ماء طهوراً**﴾ على القول بأن المطر من بحر في السماء أتم ودلالتها على كمال قدرته تعالى أظهر؛ وأما أنت فبالخيار والله تعالى ولي التوفيق.

﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً**﴾ هو الماء الذي خمر به طينة آدم عليه السلام وجعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع وتسلس وتستعد لقبول الأشكال والهيئات، فالمراد بالماء الماء المعروف وتعريفه للجنس والمراد بالبشر آدم عليه السلام وتنوينه للتعظيم أو جنس البشر الصادق عليه عليه السلام وعلى ذريته، ومن ابتدائية، ويجوز أن يراد بالماء النطفة وحينئذ يتعين حمل البشر على أولاد آدم عليه السلام.

﴿**فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهراً**﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن فهو كقوله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ [القيامة: ٣٩] فالواو للتقسيم والكلام على تقدير مضاف حذف ليدل على المبالغة ظاهراً وعدل عن ذكر وأنثى ليؤذن بالانشعاب نصاً، وهذا الجعل والتقسيم مما لا خفاء فيه على تقدير أن يراد بالبشر الجنس، وأما على تقدير أن يراد به آدم عليه السلام فقيل: هو باعتبار الجنس وفي الكلام ما هو من قبيل الاستخدام نظير ما في قولك: عندي درهم ونصفه، وقيل: لا حاجة إلى اعتبار ذلك والكلام من باب الحذف والإيصال، أي جعل منه وقد جيء به على الأصل في نظير هذه الآية وهو ما سمعته آنفاً، وقيل: معنى جعل آدم نسباً وصهراً خلق حواء منه وإبقاؤه على ما كان عليه من الذكورة.

وتعقيب جعل الجنس قسمين خلق آدم أو الجنس باعتبار خلقه أو جعل قسمين من آدم خلقه عليه السلام كما تؤذن به الفاء ظاهر، وربما يتوهم أن الضمير المنصوب في جعله عائد على الماء والفاء مثلها في قوله تعالى: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب﴾ [هود: ٤٥] إلخ وقوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ [الأعراف: ٤] وليس بشيء.

وعن علي كرّم الله تعالى وجهه أن النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه، وفي رواية أخرى عنه رضي الله تعالى عنه النسب ما لا يحل نكاحه والصهر قرابة الرضاع، وتفسير الصهر بذلك مروي عن الضحاك أيضاً.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ مبالغاً في القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة، وجعله قسمين متقابلين ﴿وكان﴾ في مثل هذا الموضع للاستمرار. وإذا قلنا بأن الجملة الاسمية نفسها تفيد ذلك أيضاً أفاد الكلام استمراراً على استمرار. وربما أشعر ذلك بأن القدرة البالغة من مقتضيات ذاته جل وعلا، ومن العجب ما زعمه بعض(١) من يدعي التفرد بالتحقيق ممن صحبناه من علماء العصر رحمة الله تعالى عليه إن ﴿كان﴾ في مثله للاستمرار فيما لم يزل والجملة الاسمية للاستمرار فيما لا يزال فيفيد جمعهما استمرار ثبوت الخبر للمبتدأ أزلاً وأبداً، ويعلم منه مبلغ الرجل في العلم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الذي شأنه تعالى شأنه ما ذكر ﴿مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَلاَ يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوه، والمراد بذلك الأصنام أو كل ما عبد من دون الله عز وجل وما من مخلوق يستقل بالنفع والضر ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ﴾ الذي ذكرت آثار ربوبيته جل وعلا ﴿ظَهِيراً﴾ أي مظاهراً كما قال الحسن ومجاهد وابن زيد وفعيل بمعنى مفاعل كثير ومنه نديم وجليس، والمظاهرة المعاونة أي يعاون الشيطان على ربه سبحانه بالعداوة والشرك، والمراد بالكافر الجنس فهو إظهار في مقام الإضمار لنعي كفرهم عليهم. وقيل: هو أبو جهل والآية نزلت فيه، وقال عكرمة: هو إبليس عليه اللعنة، والمراد يعاون المشركين على ربه عز وجل بأن يغريهم على معصيته والشرك به عز وجل، وقيل: المراد يعاون على أولياء الله تعالى.

وجوز أن يكون هذا مراداً على سائر الاحتمالات في الكافر. وقيل: المراد بظهيراً مهيناً من قولهم: ظهرت به إذا نبذته خلف ظهرك أي كان من يعبد من دون الله تعالى ما لا ينفعه ولا يضره مهيناً على ربه عز وجل لا خلاق له عنده سبحانه قاله الطبري، ففعيل بمعنى مفعول، والمعروف أن ﴿ظهيراً﴾ بمعنى معين لا بمعنى مظهور به ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ في حال من الأحوال ﴿إِلاَّ﴾ حال كونك ﴿مُبَشِّراً﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيراً﴾ أي ومنذراً مبالغاً في الإنذار للكافرين، ولتخصيص الإنذار بهم وكون الكلام فيهم والإشعار بغاية إصرارهم على ما هم فيه من الضلال اقتصر على صيغة المبالغة فيه، وقيل: المبالغة باعتبار كثرة المنذرين فإن الكفرة في كل وقت أكثر من المؤمنين.

وبعضهم اعتبر كثرتهم بإدخال العصاة من المؤمنين فيهم أي ونذيراً للعاصين مؤمنين كانوا أو كافرين والمقام يقتضي التخصيص بالكافرين كما لا يخفى، والمراد ما أرسلناك إلا مبشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم ﴿قُلْ﴾ لهم دافعاً عن نفسك تهمة الانتفاع بإيمانهم ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغ الرسالة الذي ينبيء عنه الإرسال أو على المذكور من التبشير والإنذار، وقيل: على القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أجر ما من جهتكم ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ أي إلى رحمته ورضوانه ﴿سَبِيلاً﴾ أي طريقاً، والاستثناء عند الجمهور منقطع أي لكن

---

(١) هو المرحوم محمد الأمين السويدي ا هـ منه.

ما شاء أن يتخذ إلى ربه سبحانه سبيلاً أي بالإنفاق القائم مقام الأجر كالصدقة والنفقة في سبيل الله تعالى ليناسب الاستدراك فليفعل، وذهب البعض إلى أنه متصل، وفي الكلام مضاف مقدر أي إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بالإيمان والطاعة حسبما ادعو إليهما، وهو مبني على الادعاء وتصوير ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الإتيان به، وهذا كالاستثناء في قوله:

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم ... يعاب بنسيان الأحبة والوطن

وفي ذلك قلع كلي لشائبة الطمع وإظهار لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائداً إليهم عائداً إليه ﷺ، وقيل: المعنى ما أسألكم عليه أجراً إلا أجر من آمن أي إلا الأجر الحاصل لي من إيمانه فإن الدال على الخير كفاعله وحينئذ لا يحتاج إلى الادعاء والتصوير السابق، والأولى ما فيه قلع شائبة الطمع بالكلية.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ في الإغناء عن أجورهم والاستكفاء عن شرورهم، وكأن العدول عن وتوكل على الله إلى ما في النظم الجليل ليفيد بفحواه أو بترتب الحكم فيه على وصف مناسب عدم صحة التوكل على غير المنصف بما ذكر من الحياة والبقاء، أما عدم صحة التوكل على من لم يتصف بالحياة كالأصنام فظاهر وأما عدم صحته على من لم يتصف بالبقاء بأن كان ممن يموت فلأنه عاجز ضعيف فالمتوكل عليه أشبه شيء بضعيف عاد بقرملة، وقيل: لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه.

وأخرج ابن أبي الدنيا في التوكل. والبيهقي في شعب الإيمان عن عقبة بن أبي ثبيت قال: مكتوب في التوراة لا توكل على ابن آدم فإن ابن آدم ليس له قوام، ولكن توكل على الحي الذي لا يموت. وقرأ بعض السلف هذه الآية فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي ونزهه سبحانه ملتبساً بالثناء عليه تعالى بصفات الكمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابقه عز وجل فالباء للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال، وقدم التنزيه لأنه تخلية وهي أهم من التحلية، وفي الحديث: «من قال سبحان الله وبحمده غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ ما ظهر منها وما بطن كما يؤذن به الجمع المضاف فإنه من صيغ العموم أو قوله تعالى: ﴿خَبِيراً﴾ لأن الخبرة معرفة بواطن الأمور كما ذكره الراغب ومن علم البواطن علم الظواهر بالطريق الأولى فيدل على ذلك مطابقة والتزاماً.

والظاهر أن ﴿بِذُنُوبِ﴾ متعلق بخبيراً وهو حال أو تمييز. وباء ﴿بِهِ﴾ زائدة في فاعل ﴿كَفَىٰ﴾، وجوز أن يكون ﴿بِذُنُوبِ﴾ صلة كفى. والجملة مسوقة لتسليته ﷺ ووعيد الكفار أي إنه عز وجل مطلع على ذنوب عباده بحيث لا يخفى عليه شيء منها فيجازيهم عليها ولا عليك إن آمنوا أو كفروا.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد سلف تفسيره. ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحي، ووصف سبحانه بالصفة الفعلية بعد وصفه جل وعلا بالأبدية التي هي من الصفات الذاتية والإشارة إلى اتصافه تعالى بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه جل جلاله وتأكيده فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين في أوقات معينة مع كمال قدرته سبحانه على إبداعها دفعة بحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر إليه.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ مرفوع على المدح أي هو الرحمن وهو في الحقيقة وصف آخر للحي كما في قراءة

زيد بن عبد الرحمن بالجر مفيد لزيادة تأكيد ما ذكر من وجوب التوكل عليه جل شأنه وإن لم يتبعه في الإعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحاً وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه في الإعراب وبذلك سميا قطعاً لكنهما تابعان له حقيقة، ألا ترى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ روماً لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيهاً على شدة الاتصال بينهما وإنما قطعوا للافتنان الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجد في الإصغاء.

وجوز أن يكون الموصول في محل نصب على الاختصاص وأن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف صفة له أو مبتدأ و ﴿الرحمن﴾ خبره، وجوز أن يكون ﴿الرحمن﴾ بدلاً من المستكن في «استوى» ويجوز على مذهب الأخفش أن يكون «الرحمن» مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿فَاسألْ به خَبيراً﴾ خبره على حد تخريجه قول الشاعر:

وقـائـلـة خـولان فـانـكـح فـتـاتـهـم

وهو بعيد، والظاهر أن هذه جملة منقطعة عما قبلها إعراباً، والفاء فصيحة والجار والمجرور صلة اسأل والسؤال كما يعدى بعن لتضمنه معنى التفتيش يعدى بالباء لتضمنه معنى الاعتناء. وعليه قول علقمة بن عبدة:

فـإن تـسـألـونـي بـالـنـسـاء فـإنـنـي ... خـبـيـر بـأدواء الـنـسـاء طـبـيـب

فلا حاجة إلى جعلها بمعنى عن كما فعل الأخفش والزجاج والضمير راجع إلى ما ذكر إجمالاً من الخلق والاستواء. والمعنى إن شئت تحقيق ما ذكر أو تفصيل ما ذكر فاسأل معتنياً به خبيراً عظيم الشأن محيطاً بظواهر الأمور وبواطنها وهو الله عز وجل يطلعك على جلية الأمر. والمسؤول في الحقيقة تفاصيل ما ذكر لا نفسه إذ بعد بيانه لا يبقى إلى السؤال حاجة ولا في تعديته بالباء المبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعي لكون المسؤول أمراً خطيراً مهتماً بشأنه غير حاصل للسائل فائدة فإن نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك كما لا يخفى. وكون التقدير إن شككت فيه فاسأل به خبيراً على أن الخطاب له ﷺ والمراد غيره عليه الصلاة والسلام بمعزل عن السداد، وقيل: ﴿به﴾ صلة ﴿خبيراً﴾ قدم لرؤوس الآي.

وجوز أن يكون الكلام من باب التجريد نحو رأيت به أسداً أي رأيت برؤيته أسداً فكأنه قيل هنا فاسأل بسؤاله خبيراً، والمعنى إن سألته وجدته خبيراً، والباء عليه ليست صلة فإنها باء التجريد وهي على ما ذهب إليه الزمخشري سببية والخبير عليه هو الله تعالى أيضاً. وقد ذكر هذا الوجه السجاوندي. واختاره صاحب الكشف قال: وهو أوجه ليكون كالتتميم لقوله تعالى: ﴿الذي خلق﴾ إلخ فإنه لإثبات القدرة مدمجاً فيه العلم، وكون ضمير به راجعاً إلى ما ذكر من الخلق والاستواء، والخبير في الآية هو الله تعالى مروي عن الكلبي. وروى تفسير الخبير ﴿به﴾ تعالى عن ابن جريج أيضاً.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الخبير هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو من وجد ذلك في الكتب القديمة المنزلة من عنده تعالى أي فاسأل بما ذكر من الخلق والاستواء من علم به من أهل الكتب ليصدقك، وقيل: إذا أريد بالخبير من ذكر فضمير ﴿به﴾ للرحمن، والمعنى إن أنكروا إطلاق الرحمن عليه تعالى فاسأل به من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم. وفيه أنه لا يناسب ما قبله ولأن فيه عود الضمير للفظ ﴿الرحمن﴾ دون معناه وهو خلاف الظاهر ولأنه كان الظاهر حينئذ أن يؤخر عن قوله تعالى: ﴿ما الرحمن﴾.

وقيل: الخبير محمد ﷺ وضمير ﴿به﴾ للرحمن؛ والمراد فاسأل بصفاته والخطاب لغيره ﷺ ممن لم يعلم ذلك وليس بشيء كما لا يخفى، وقيل؛ ضمير ﴿به﴾ للرحمن، والمراد فاسأل برحمته وتفاصيلها عارفاً يخبرك بها أو المراد فاسأل برحمته حال كونه عالماً بكل شيء على أن ﴿خبيراً﴾ حال من الهاء لا مفعول اسأل كما في الأوجه السابقة.

وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿خبيراً﴾ حالاً من ﴿الرحمن﴾ إذا رفع باستوى. وقال: يضعف أن يكون حالاً من فاعل اسأل لأن الخبير لا يسأل إلا على جهة التوكيد مثل ﴿وهو الحق مصدقاً﴾ [البقرة: ٩١] والوجه الأقرب الأولى في الآية من بين الأوجه المذكورة لا يخفى، وقرىء «فسل».

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى
ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن
يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ
قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ
جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ
يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ
فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا
يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟
عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ
يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ القائل رسول الله ﷺ أو الله عز وجل على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام. ولا يخفى موقع هذا الاسم الشريف هنا، وفيه كما قال الخفاجي: معنى أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التجاهل والوقاحة ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ كما قال فرعون وما رب العالمين حين قال له موسى عليه السلام ﴿إني رسول من رب العالمين﴾ [الأعراف: ١٠٤] وهو عالم به عز وجل كما يؤذن بذلك قول موسى عليه السلام له: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ [الإسراء: ١٠٢] والسؤال يحتمل

أن يكون عن المسمى ووقع بما دون من لأنه مجهول بزعمهم فهو كما يقال للشبح المرئي ما هو فإذا عرف أنه من ذوي العلم قيل من هو، ويحتمل أن يكون عن معنى الاسم ووقوعه بما حينئذ ظاهر. وقيل: سألوا عن ذلك لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى كما يطلقون الرحيم والرحوم والراحم عليه تعالى أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره عز وجل فقد شاع فيما بينهم تسمية مسيلمة برحمن اليمامة فظنوا أنه المراد بحمل التعريف على العهد. وقيل: لأنه كان عبرانياً وأصله رخمان بالخاء المعجمة فعرب ولم يسمعوه. والأظهر عندي أن ذلك عن تجاهل وأن السؤال عن المسمى ولذا قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي للذي تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه. فما موصولة والعائد محذوف. وأصل الجملة المشتملة عليه ما أشرنا إليه. ثم صار تأمرنا بسجوده ثم تأمرنا سجوده كأمرتك الخير ثم تأمرناه بحذف المضاف ثم تأمرنا. واعتبار الحذف تدريجاً مذهب أبي الحسن ومذهب سيبويه أنه حذف كل ذلك من غير تدريج. ويحتمل أن تكون ما نكرة موصوفة وأمر العائد على ما سمعت. ويجوز أن تكون مصدرية واللام تعليلية والمسجود له محذوف أو متروك أي أنسجد له لأجل أمرك إيانا أو أنسجد لأجل أمرك إيانا.

وقرأ ابن مسعود والأسود بن زيد وحمزة والكسائي «يأمرنا» بالياء من تحت على أن الضمير للنبي ﷺ وهذا القول قول بعضهم لبعض ﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي الأمر بالسجود للرحمن والإسناد مجازي، والجملة معطوفة على ﴿قالوا﴾ أي قالوا ذلك وزادهم ﴿نُفُوراً﴾ عن الإيمان وفي اللباب أن فاعل ﴿زادهم﴾ ضمير السجود لما روي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم سجدوا فتباعدوا عنهم مستهزئين، وعليه فليست معطوفة على جواب إذا بل على مجموع الشرط والجواب كما قيل: وفي ـ لا يستقدمون ـ من قوله تعالى: ﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [يونس: ٤٩] والأول أولى وأظهر ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ الظاهر أنها البروج الإثنا عشر المعروفة. وأخرج ذلك الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهي في الأصل القصور العالية وأطلقت عليها على طريق التشبيه لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها ثم شاع فصار حقيقة فيها، وعن الزجاج أن البرج كل مرتفع فلا حاجة إلى التشبيه أو النقل. واشتقاقه من التبرج بمعنى الظهور، والذي يقتضيه مشرب أهل الحديث أنها في السماء الدنيا ولا مانع منه عقلاً لا سيما إذا قلنا بعظم ثخنها بحيث يسع الكواكب وما تقتضيه على ما ذكره أهل الهيئة وهي عندهم أقسام الفلك الأعظم المسمى على ما قيل بالعرش ولم يرد فيما أعلم إطلاق السماء عليه وإن كان صحيحاً لغة سميت بأسماء صور من الثوابت في الفلك الثامن وقعت في محاذاتها وقت اعتبار القسمة وتلك الصور متحركة بالحركة البطيئة كسائر الثواب، وقد قارب في هذه الأزمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولاً وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعي وهي نقطة معينة من معدل النهار لا تتحرك بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطة أخرى من منطقة البروج تتحرك بحركته وإذا لم يتحرك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرك ما عداها، وقد جعل الله تعالى ثلاثة منها ربيعية وهي الحمل والثور والجوزاء وتسمى التوأمين أيضاً، وثلاثة صيفية وهي السرطان والأسد والسنبلة وتسمى العذراء أيضاً وهذه الستة شمالية وثلاثة خريفية وهي الميزان والعقرب والقوس ويسمى الرامي أيضاً، وثلاثة شتوية وهي الجدي والدلو ويسمى الدالي وساكب الماء أيضاً. والحوت وتسمى السمكتين وهذه الستة جنوبية، ولحلول الشمس في كل من الاثني عشر يختلف الزمان حرارة وبرودة والليل والنهار طولاً وقصراً وبذلك يظهر بحكم جري العادة في عالم الكون والفساد آثار جليلة من نضج الثمار وإدراك الزروع ونحو ذلك مما لا يخفى، ولعل ذلك هو وجه البركة في جعلها.

وأما ما يزعمه أهل الأحكام من الآثار إذا كان شيء منها طالعاً وقت الولادة أو شروع في عمل من الأعمال أو

وقت حلول الشمس نقطة الحمل الذي هو مبدأ السنة الشمسية في المشهور فهو محض ظن ورجم بالغيب وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك مفصلاً، ولهم في تقسيمها إلى مذكر ومؤنث[1] وليلي ونهاري وحار وبارد وسعد ونحس إلى غير ذلك كلام طويل ولعلنا نذكر شيئاً منه بعد أن شاء الله تعالى، ومن أراده مستوفى فليرجع إلى كتبهم، ثم الظاهر أن البروج المجعولة مما لا دخل للاعتبار فيها، والمذكور في كلام أهل الهيئة أنها حاصلة من اعتبار فرض ست دوائر معلومة قاطعة للعالم فيكون للاعتبار دخل فيها وإن لم تكن في ذلك كأنياب الأغوال لوجود مبدأ الانتزاع فيها فإن كان الأمر على هذا الطرز عند أهل الشرع بأن يعتر تقسيم ما هي فيه إلى اثنتي عشرة قطعة وتسمى كل قطعة برجاً فالظاهر أن المراد بجعله تعالى إياها جعل ما يتم به ذلك الاعتبار ويتحقق به أمر التفاوت والاختلاف بين تلك البروج، وفيه من الخير الكثير ما فيه، وقيل: إن في الآية إيماء إلى أن اعتبار التقسيم كان عن وحي، والمشهور أن من اعتبر ذلك أولاً هرمس وهو على ما قيل إدريس عليه السلام فتأمل.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أن البروج قصور على أبواب السماء فيها الحرس، وقيل: هي القصور في الجنة، قال الأعمش: وكان أصحاب عبدالله يقرؤون في السماء قصوراً، وتعقب بأنه يأباه السياق لأن الآية قد سيقت للتنبيه على ما يقوم به الحجة على الكفرة الذين لا يسجدون للرحمن جل شأنه وبيان أنه المستحق للسجود ببيان آثار قدرته سبحانه وكماله جل جلاله، والظاهر أن يكون ذلك بذكر أمور مدركة معلومة لهم وتلك القصور ليست كذلك، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد أنها النجوم، وروي ذلك عن قتادة أيضاً، وعن أبي صالح تقييدها بالكبار وأطلق عليها ذلك لعظمها وظهورها لا سيما التي من أول المراتب الثلاثة للقدر الأول من الأقدار الستة.

وأنت تعلم أنه لم يعهد إطلاق البروج على النجوم فالأولى أن يراد بها المعنى الأول المروي عن ابن عباس الذي هو أظهر من الشمس ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في السماء، وقيل: في البروج ﴿سِرَاجاً﴾ هي الشمس كقوله تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾ [نوح: ١٦] وقرأ عبدالله وعلقمة والأعمش والأخوان «سُرُجاً» بالجمع مضموم الراء، وقرأ الأعمش أيضاً والنخعي وابن وثاب كذلك إلا أنهم سكنوا الراء وهو على ما قيل من قبيل ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ [النحل: ١٢٠] لأن الشمس لعظمها وكمال إضاءتها لأنها سرج كثيرة أو الجمع باعتبار الأيام والمطالع، وقد جمعت لهذين الأمرين في قول الشاعر:

لمعان برق أو شعاع شموس

وعلى هذا القول تتحد القراءتان، وقال بعض الأجلة: الجمع على ظاهره، والمراد به الشمس والكواكب الكبار، ومنهم من فسره بالكواكب الكبار، واعترض على الأول بأنه يلزم تخصيص القمر بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَقَمَراً مُنِيراً﴾ بعد دخوله في السرج، والمناسب تخصيص الشمس لكمال مزيتها على ما سواها. ورد بأنه بعد تسليم دخوله في السرج خص بالذكر لأن سنيهم قمرية ولذا يقدم الليل على النهار وتعتبر الليلة لليوم الذي بعدها فهم أكثر عناية به مع أنه على ما ذكره يلزمه ترك ذكر الشمس وهي أحق بالذكر من غيرها والاعتذار عنه بأنها لشهرتها كأنها مذكورة ولذا لم تنظم مع غيرها في قرن لا يجدي. والقمر معروف ويطلق عليه بعد الليلة الثالثة إلى آخر الشهر، قيل: وسمي بذلك لأنه يقمر ضوء الكواكب، وفي الصحاح لبياضه وفي وصفه ما يشعر بالاعتناء به، وعلى الفرق المشهور بين الضوء والنور يكون في وصفه بمنيراً دون مضيئاً إشارة إلى أن ما يشاهد فيه مستفاد من غيره وهو الشمس بل قال غير

---

(١) وزعم بعضهم أن أول الجدي وأول العقرب خنثى ا هـ منه.

واحد: إن نور جميع الكواكب مستفاد منها وإن لم يظهر اختلاف تشكلاته بالقرب والبعد منها كما في نور القمر.

وقرأ الحسن والأعمش والنخعي وعصمة عن عاصم «وقُمْراً» بضم القاف وسكون الميم، واستظهر أبو حيان أنها لغة في القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب، وقيل: هو جمع قمراء وهي الليلة المنيرة بالقمر والكلام على حذف مضاف أي وذا قمر أي صاحب ليال قمر، والمراد بهذا الصاحب القمر نفسه ويكون قوله سبحانه: ﴿منيراً﴾ صفة لذلك المضاف المحذوف لأن المحذوف قد يعتبر بعد حذفه كما في قول حسان رضي الله تعالى عنه:

بردى يصفق بالرحيق السلسل

فإنه يريد ماء بردى ولذا قال يصفق بالياء من تحت ولو لم يراع المضاف لقال تصفق بالتاء ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه، وروي هذا عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير، وقيل: بأن يعقبه ويجيء بعده وهو اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس. ونصبه على أنه مفعول ثان لجعل أو حال إن كان بمعنى خلق، وجعله بعضهم بمعنى اختلافاً والمراد الاختلاف في الزيادة والنقصان كما قيل أو في السواد والبياض كما روي عن مجاهد أو فيما يعم ذلك وغيره كما هو محتمل؛ وفي البحر يقال: بفلان خلفة واختلاف إذا اختلف كثيراً إلى متبرزه. ومن هذا المعنى قول زهير:

بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وقول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأباً:

ولها بالماطرون إذا أكل النمل الذي جمعا
خلفة حتى إذا ارتفعت سكنت من جلق بيعا
في بيوت وسط دسكرة حولها الزيتون قد نبعا

انتهى. وجوز عليه أن يكون المراد يذهب كل منهما ويجيء كثيراً. واعتبار المضاف المقدر على حاله وكذا فيما قبله. وفي القاموس الخلف والخلفة بالكسر المختلف. وعليه لا حاجة إلى تقدير المضاف، والمعنى جعلهما مختلفين والإفراد لكونه مصدراً في الأصل ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أي ليكونا وقتين للمتذكر من فاته ورده من العبادة في أحدهما تداركه في الآخر، وروي هذا عن جماعة من السلف، وروى الطيالسي وابن أبي حاتم أن عمر رضي الله تعالى عنه أطال صلاة الضحى فقيل له: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه قال: إنه بقي علي من وردي شيء فأحببت أن أتمه أو قال: أقضيه وتلا هذه الآية وكأن التذكر مجاز عن أداء ما فات وهو «مما يتوقف الأداء عليه»، وفي الكلام تقدير كما أشير إليه ويجوز أن يكون تقدير معنى لا إعراب ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ أن يشكر الله تعالى بأداء نوع من العبادة لم يكن وردا له. وفي مجمع البيان المعنى لمن أراد النافلة بعد أداء الفريضة، ويجوز أن يكون المعنى لمن أراد أن يتذكر ويتفكر في بدائع صنع الله تعالى فيعلم أنه لا بد لما ذكر من صانع حكيم واجب الذات ذي رحمة على العباد أو أراد أن يشكر الله سبحانه على ما فيهما من النعم وهو وجه حسن يكاد لا يلتفت لغيره لو لم يكن مأثوراً، والظاهر أن اللام على هذا صلة ﴿جعل﴾ ولما كان ظهور فائدة ذلك لمن أراد التذكر أو أراد الشكر اقتصر عليه، وجوز أن تكون للتعليل و ﴿أو﴾ للتنويع على معنى الاشتمال على هذين المعنيين أو للتخيير على معنى الاستقلال بكل ولا منع من الاجتماع. وفائدة هذا الأسلوب إفادة الاستقلال ولو ذكر الواو بدلها لتوهم المعية، ولعل في التعبير أولاً بأن والفعل دون المصدر الصريح كما في الشق الثاني مع أنه أخصر إيماء إلى الاعتناء بأمر التذكر فتذكر.

وقرأ أبي بن كعب «أن يتذكر» وهو أصل ليذكر فأبدل التاء ذالاً وأدغم وقرأ النخعي وابن وثاب وزيد بن علي وطلحة وحمزة «أن يذكر» مضارع ذكر الثلاثي بمعنى تذكر ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَن﴾ كلام مستأنف لبيان أوصاف خلص عباد الله تعالى وأحوالهم الدنيوية والآخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته سبحانه والسجود له عز وجل وإضافتهم إلى الرحمن ذوي غيره من أسمائه تعالى وضمائره عز وجل لتخصيصهم برحمته أو لتفضيلهم على من عداهم لكونهم مرحومين منعماً عليهم كما يفهم من فحوى الإضافة إلى مشتق. وفي ذلك أيضاً تعريض بمن قالوا: وما الرحمن؟. والأكثرون أن عباداً هنا جمع عبد، وقال ابن بحر: جمع عابد كصاحب وصحاب وراجل ورجال ويوافقه قراءة اليماني «وعُبّاد» بضم العين وتشديد الباء فإنه جمع عابد بالإجماع وهو على هذا من العبادة وهي أن يفعل ما يرضاه الرب وعلى الأول من العبودية وهي أن يرضى ما يفعله الرب، وقال الراغب: العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل. وفرق بعضهم بينهما بأن العبادة فعل المأمورات وترك المنهيات رجاء الثواب والنجاة من العقاب بذلك والعبودية فعل المأمورات وترك المنهيات لا لما ذكر بل لمجرد إحسان الله تعالى عليه. قيل: وفوق ذلك العبودة وهو فعل وترك ما ذكر لمجرد أمره سبحانه ونهيه عز وجل واستحقاقه سبحانه الذاتي لأن يعظم ويطاع، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فصل لربك﴾ [الكوثر: ٢] وقرأ الحسن «وعُبُد» بضم العين والباء. وهو كما قال الأخفش جمع عبد كسقف وسقف. وأنشد:

انسب العبد إلى آبائه أسود الجلدة من قوم عبد

وهو على كل حال مبتدأ وفي خبره قولان: الأول أنه ما في آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الإشارة، والثاني وهو الأقرب أنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ والهون مصدر بمعنى اللين والرفق، ونصبه إما على أنه نعت لمصدر محذوف أي مشياً هوناً أو على أنه حال من ضمير ﴿يمشون﴾ والمراد يمشون هينين في تؤدة وسكينة ووقار وحسن سمت لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً، وروي نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والفضيل بن عياض وغيرهم، وعن الإمام أبي عبدالله رضي الله تعالى عنه أن الهون مشي الرجل بسجيته التي جبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر.

وأخرج الآمدي في شرح ديوان الأعشى بسنده عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه رأى غلاماً يتبختر في مشيته فقال له: إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله تعالى. وقد مدح الله تعالى أقواماً بقوله سبحانه: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ فاقصد في مشيتك. وقيل: المشي الهون مقابل السريع وهو مذموم فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وابن النجار عن ابن عباس قالا: «قال رسول الله ﷺ سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران إن ﴿هوناً﴾ بمعنى حلماء بالسريانية فيكون حالاً لا غير، والظاهر أنه عربي بمعنى اللين والرفق. وفسره الراغب بتذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة وهو الممدوح. ومنه الحديث «المؤمن هين لين» والظاهر بقاء المشي على حقيقته وأن المراد مدحهم بالسكينة والوقار فيه من غير تعميم. نعم يلزم من كونهم يمشون كذلك أنهم هينون لينون في سائر أمورهم بحكم العادة على ما قيل.

واختار ابن عطية أن المراد مدحهم بعدم الخشونة والفظاظة في سائر أمورهم وتصرفاتهم. والمراد أنهم يعيشون بين الناس هينين في كل أمورهم. وذكر المشي لما أنه انتقال في الأرض وهو يستدعي معاشرة الناس ومخالطتهم واللين مطلوب فيها غاية الطلب. ثم قال: وأما أن يكون المراد مدحهم بالمشي وحده هوناً فباطل فكم ماش هوناً رويداً وهو

ذئب أطلس، وقد كان ﷺ يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صبب وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الآية. وفيه بحث من وجهين فلا تغفل. وقرأ اليماني والسلمي «يُمَشُّونَ» مبنياً للمفعول مشدداً ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي السفهاء وقليلو الأدب كما في قوله:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

﴿قَالُوا سَلاماً﴾ بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم إثر بيان حالهم في أنفسهم أو بيان لحسن معاملتهم. وتحقيق للينهم عند تحقق ما يقتضي خلاف ذلك إذا خلى الإنسان وطبعه أي إذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسلماً منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر. فسلاماً مصدر أقيم مقام التسليم وهو مصدر مؤكد لفعله المضمر، والتقدير نتسلم تسلماً منكم، والجملة مقول القول. وإلى هذا ذهب سيبويه في الكتاب ومنع أن يراد السلام المعروف بأن الآية مكية والسلام في النساء وهي مدنية ولم يؤمر المسلمون بمكة أن يسلموا على المشركين.

وقال الأصم: هو سلام توديع لا تحية كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿سلام عليك﴾ [مريم: ٤٧] ولا يخفى أنه راجع إلى المتاركة وهو كثير في كلام العرب. وقال مجاهد: المراد قالوا قولاً سديداً.

وتعقب بأن هذا تفسير غير سديد لأن المراد هاهنا يقولون هذه اللفظة لا أنهم يقولون قولاً ذا سداد بدليل قوله تعالى: ﴿سلام عليكم﴾ [الأنعام: ٥٤، الأعراف: ٤٦، الرعد: ٢٤، القصص: ٥٥، الزمر: ٧٣] لا نبتغي الجاهلين. ورده صاحب الكشف بأن تلك الآية لا تخالف هذا التفسير فإن قولهم. سلام عليكم من سداد القول أيضاً كيف والظاهر أن خصوص اللفظ غير مقصود بل هو أو ما يؤدي مؤداه أيضاً من كل قول يدل على المتاركة مع الخلو عن الإثم واللغو وهو حسن لا غبار عليه.

وفي بعض التواريخ كما في البحر أن إبراهيم بن المهدي كان منحرفاً عن علي كرّم الله تعالى وجهه فرآه في النوم قد تقدم إلى عبور قنطرة فقال له: إنما تدعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك فحكي ذلك على المأمون ثم قال: ما رأيت له بلاغة في الجواب كما يذكر عنه فقال له المأمون: فما أجابك به قال: كان يقول لي: سلاماً سلاماً فقال المأمون: يا عم قد أجابك بأبلغ جواب ونبهه على هذه الآية فخزي إبراهيم واستحيى عليه من الله تعالى ما يستحق، والظاهر أن المراد مدحهم بالإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام ولا تعرض في الآية لمعاملتهم مع الكفرة فلا تنافي آية القتال ليدعي نسخها بها لأنها مكية وتلك مدنية. ونقل عن أبي العالية واختاره ابن عطية أنها نسخت بالنظر إلى الكفرة بآية القتال.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سجداً وَقِيَاماً﴾ بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم. وكان الحسن إذا قرأ ما تقدم يقول: هذا وصف نهارهم وإذا قرأ هذه قال: هذا وصف ليلهم. والبيتوتة أن يدركك الليل نمت أو لم تنم و ﴿لربهم﴾ متعلق بما بعده. وقدم للفاصلة والتخصيص والقيام جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه أي يبيتون ساجدين وقائمين لربهم سبحانه أي يحيون الليل كلاً أو بعضاً بالصلاة، وقيل: من قرأ شيئاً من القرآن بالليل في صلاة فقد بات ساجداً وقائماً، وقيل: أريد بذلك فعل الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء، وقيل: من شفع وأوتر بعد أن صلى العشاء فقد دخل في عموم الآية. وبالجملة في الآية حض على قيام الليل في الصلاة. وقدم السجود على القيام ولم يعكس وإن كان متأخراً في الفعل لأجل الفواصل ولأنه أقرب ما يكون العبد فيه من ربه سبحانه وإباء المستكبرين عنه في قوله تعالى: ﴿وإذا قيل﴾ الآية.

وقرأ أبو البرهسم «سجوداً» على وزن قعوداً وهو أوفق بقياماً ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلواتهم أو في عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ أي لازماً كما أخرجه الطستي عن ابن عباس وأنشد رضي الله تعالى عنه في ذلك قول بشر بن أبي حاتم:

ويوم النسار ويوم الجفار ... كانا عذاباً وكانا غراما

ومثله قول الأعشى:

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعـ ... ـط جزيلاً فإنه لا يبالي

وهذا اللزوم إما للكفار أو المراد به الامتداد كما في لزوم الغريم وفي رواية أخرى عنه تفسيره بالفظيع الشديد. وفسره بعضهم بالمهلك، وفي حكاية قولهم هذا مزيد مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون إلى ربهم عز وجل في صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كقوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون: ٦٠] وفي ذلك تحقيق إيمانهم بالبعث والجزاء، والظاهر أن قوله تعالى: ﴿إن عذابها﴾ إلخ من كلام الداعين وهو تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حال عذابها. وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً﴾ وهو تعليل لذلك بسوء حالها في نفسها. وترك العطف للإشارة إلى أن كلاً منهما مستقل بالعلية، وقيل: تعليل لما علل به أولاً وضعفه ابن هشام في التذكرة بأنه لا مناسبة بين كون الشيء غراماً وكونه ساء مستقراً.

وأجيب بأنه بملاحظة اللزوم والمقام فإن المقام من شأنه اللزوم، وقيل: كلتا الجملتين من كلامه تعالى ابتداء علل بهما القول على نحو ما تقدم أو علل ذلك بأولاهما وعللت الأولى بالثانية، وجوز كون إحداهما مقولة والأخرى ابتدائية والكل كما ترى. و ﴿ساءت﴾ في حكم بئست والمخصوص بالذم محذوف تقديره هي وهو الرابط لهذه الجملة بما هي خبر عنه إن لم يكن ضمير القصة. و ﴿مستقراً﴾ تمييز وفيها ضمير مبهم عائد على ﴿مستقراً﴾ مفسر به وأنث لتأويل المستقر بجهنم أو مطابقة للمخصوص. ألا ترى إلى ذي الرمة كيف أنث الزورق على تأويل السفينة حيث كان المخصوص مؤنثاً في قوله:

أو حرة عيطل ثبجاء مجفرة ... دعائم الزور نعمت زورق البلد

قيل: ويجوز أن تكون ﴿ساءت﴾ بمعنى أحزنت فهي فعل متصرف متعد وفاعله ضمير جهنم ومفعوله محذوف أي أحزنت أهلها وأصحابها و ﴿مستقراً﴾ تمييز أو حال وهو مصدر بمعنى الفاعل أو اسم مكان وليس بذاك.

والظاهر أن ﴿مستقراً﴾ ومقاماً كقوله:

وألفى قولها كذباً ومينا

وحسنه كون المقام يستدعي التطويل أو كونه فاصلة، وقيل: المستقر للعصاة والمقام للكفرة وإن في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر. وقرأت فرقة «ومَقاماً» بفتح الميم أي مكان قيام ﴿والَّذين إذا أنفقوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ أي لم يتجاوزوا حد الكرم ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي ولم يضيقوا تضييق الشحيح، وقال أبو عبد الرحمن الجبلي: الإسراف هو الإنفاق في المعاصي والقتر الإمساك عن طاعة، وروي نحو ذلك عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد، وقال عون بن عبدالله بن عتبة: الإسراف أن تنفق مال غيرك.

وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وعاصم «يَقْتُرُوا» بفتح الياء وضم التاء ومجاهد وابن كثير وأبو

عمرو بفتح الياء وكسر التاء ونافع وابن عامر بضم الياء وكسر التاء وقرأ العلاء ابن سبابة[1] واليزيدي بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة وكلها لغات في التضييق وأنكر أبو حاتم لغة أقتر رباعياً هنا وقال: إنما يقال أقتر إذا افتقر ومنه ﴿وعلى المقتر قدره﴾ [البقرة: ٢٣٦] وغاب عنه ما حكاه الأصمعي، وغيره من أقتر بمعنى ضيق ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلكَ﴾ المذكور من الإسراف والقتر ﴿قَوَاماً﴾ وسطاً وعدلاً سمي به لاستقامة الطرفين وتعادلهما كأن كلاً منهما يقاوم الآخر كما سمي سواء لاستوائهما وقرأ حسان «قِواماً» بكسر القاف، فقيل: هما لغتان بمعنى واحد وقيل: هو بالكسر ما يقام به الشيء، والمراد به هنا ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص، وهو خبر ثان..لكان مؤكد للأول وهو ﴿بين ذلك﴾ أو هو الخبر و ﴿بين ذلك﴾ إما معمول لكان على مذهب من يرى أن كان الناقصة تعمل في الظرف وإما حال من ﴿قواماً﴾ لأنه لو تأخر لكان صفة، وجوز أن يكون ظرفه لغواً متعلقاً به أو ﴿بين ذلك﴾ هو الخبر و ﴿قواماً﴾ حال مؤكدة، وأجاز الفراء أن يكون ﴿بين ذلك﴾ اسم كان وبني لإضافته إلى مبني كقوله تعالى: ﴿ومن خزي يومئذ﴾ [هود: ٦٦] في قراءة من فتح الميم، ومنه قول الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت ... حمامة في غصون ذات أوقال

وتعقبه الزمخشري بأنه من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوي لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة. وحاصله أن الكلام عليه من باب كان الذاهب جاريته صاحبها وهو غير مفيد. ولا يخفى أنه غير وارد على قراءة ﴿قواماً﴾ بالكسر على القول الثاني فيه وعلى غير ذلك متجه. وما قيل من أنه من باب شعري شعري والمعنى كان قواماً معتبراً مقبولاً غير مقبول لأنه مع بعده إنما ورد فيما اتحد لفظه وما نحن فيه ليس كذلك. وكذا ما قيل: إن ﴿بين ذلك﴾ أعم من القوام بمعنى العدل الذي يكون نسبة كل واحد من طرفيه إليه على السواء فإن ما بين الإقتار والإسراف لا يلزم أن يكون قواماً بهذا المعنى إذ يجوز أن يكون دون الإسراف بقليل وفوق الإقتار بقليل فإنه تكلف أيضاً إذ ما بينهما شامل لحاق الوسط وما عداه كالوسط من غير فرق ومثله لا يستعمل في المخاطبات لألغازه، وقيل: لأنه بعد تسليم جواز الأخبار عن الأعم بالأخص يبعد أن يكون مدحهم بمراعاة حاق الوسط مع ما فيه من الحرج الذي نفى عن الإسلام. وفيه أنه لا شك في جواز الأخبار عن الأعم بالأخص نحو الذي جاءني زيد والقائل لم يرد إلحاق الحقيقي بل التقريبي كما يدل عليه قوله بقليل ولا حرج في مثله فتأمل.

ولعل الأخبار عن إنفاقهم بما ذكر بعد قوله تعالى: ﴿إذ أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ المستلزم لكون إنفاقهم كذلك للتنصيص على أن فعلهم من خير الأمور فقد شاع خير الأمور أوساطها، والظاهر أن المراد بالإنفاق ما يعم إنفاقهم على أنفسهم وإنفاقهم على غيرها والقوام في كل ذلك خير، وقد أخرج أحمد والطبراني عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «من فقه الرجل رفقه في معيشته».

وأخرج ابن ماجة في سننه عن أنس قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت» وحكي عن عبد الملك بن مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز عليه الرحمة حين زوجه ابنته فاطمة ما نفقتك فقال له عمر: الحسنة بين السيئتين ثم تلا الآية. وقد مدح الشعراء التوسط في الأمور والاقتصاد في المعيشة قديماً وحديثاً، ومن ذلك قوله:

---

(١) قوله سبابة كذا بخطه وانظره ا هـ.

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقول حاتم:

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول الآخر:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ... ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي ... دعته إليه من حلاوة عاجل

إلى غير ذلك ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ أي لا يشركون به غيره سبحانه.

﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي حرمها الله تعالى بمعنى حرم قتلها لأن التحريم إنما يتعلق بالأفعال دون الذوات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة في التحريم ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ متعلق بلا يقتلون والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب أي لا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها كالزنا بعد الإحصان والكفر بعد الإيمان، وجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي لا يقتلونها نوعاً من القتل إلا قتلاً ملتبساً بالحق وأن يكون حالاً أي لا يقتلونها في حال من الأحوال إلا حال كونهم ملتبسين بالحق.

وقيل: يجوز أن يكون متعلقاً بالقتل المحذوف والاستثناء أيضاً من أعم الأسباب أي لا يقتلون النفس التي حرم الله تعالى قتلها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق. ويكون الاستثناء مفرغاً في الإثبات لاستقامة المعنى بإرادة العموم أو لكون حرم نفياً معنى. ولا يخفى ما فيه من التكلف ﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾ ولا يطؤون فرجاً محرماً عليهم، والمراد من نفي هذه القبائح العظيمة التعريض بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم وإلا فلا حاجة إليه بعد وصفهم بالصفات السابقة من حسن المعاملة وإحياء الليل بالصلاة ومزيد خوفهم من الله تعالى لظهور استدعائها نفي ما ذكر عنهم. ومنه يعلم حل ما قيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التخلية على التحلية فكأنه قيل. والذين طهرهم الله تعالى وبرأهم سبحانه مما أنتم عليه من الإشراك وقتل النفس المحرمة كالموؤدة والزنا.

وقيل: إن التصريح بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا أو لإظهار كمال الاعتناء والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلكه، وقد صح من رواية البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله تعالى نداً وهو خلقك قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني خليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديق ذلك ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر**﴾ الآية.

وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر**﴾ الآية ونزلت ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر: ٥٣] الآية.

وقد ذكر الإمام الرازي أن ذكر هذا بعد ما تقدم لأن الموصوف بتلك الصفات قد يرتكب هذه الأمور تديناً فبين سبحانه أن المكلف لا يصير بتلك الخلال وحدها من عباد الرحمن حتى ينضاف إلى ذلك كونه مجانباً لهذه الكبائر وهو كما ترى، وجوز أن يقال في وجه تقديم التحلية على التخلية كون الأوصاف المذكورة في التحلية أوفق بالعبودية التي جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية ومزيد الانقياد والخوف والاقتصاد في التصرف بما أذن

المولى بالتصرف فيه. ولا يأبى هذا قصد التعريض بما ذكر في التخلية. ويؤيد هذا القصد التعقيب بقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ أي ومن يفعل ما ذكر يلق في الآخرة عقاباً لا يقادر قدره. وتفسير الأثام بالعقاب مروي عن قتادة وابن زيد ونقله أبو حيان عن أهل اللغة وأنشد قوله:

جزى الله ابن عروة حيث أمسى ... عقوقاً والعقوق له جزاء

أخرج ابن الأنباري عن ابن عباس أنه فسره لنافع بن الأزرق بالجزاء وأنشد قول عامر بن الطفيل:

وروينا الأسنة من صداه ... ولاقت حمير منا أثاما

والفرق يسير: وقال أبو مسلم الأثام الإثم والكلام عليه على تقدير مضاف أي جزاء أثام أو هو مجاز من ذكر السبب وإرادة المسبب، وقال الحسن: هو اسم من أسماء جهنم، وقيل: اسم بئر فيها، وقيل: اسم جبل.

وروى جماعة عن عبدالله بن عمر ومجاهد أنه واد في جهنم، وقال مجاهد: فيه قيح ودم.

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن شفى الأصبحي أن فيه حيات وعقارب في فقار إحداهن مقدار سبعين قلة من سم والعقرب منهن مثل البغلة الموكفة ، وعن عكرمة اسم لأودية في جهنم فيها الزناة. وقرىء «يلق» بضم الياء وفتح اللام والقاف مشددة، وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء «يلقى» بألف كأنه نوى حذف الضمة المقدرة على الألف فأقرت الألف وقرأ أبو مسعود أيضاً «أياماً» جمع يوم يعني شدائد، واستعمال الأيام بهذا المعنى شائع ومنه يوم ذو أيام وأيام العرب لوقائعهم ومقاتلتهم ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بدل من «يلق» بدل كل من كل أو بدل اشتمال. وجاء الإبدال من المجزوم بالشرط في قوله:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا ... تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا

﴿وَيَخْلُدْ فيه﴾ أي في ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَاناً﴾ ذليلاً مستحقراً فيجتمع له العذاب الجسماني والروحاني وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن كثير «يُضَعَّفْ» بالياء والبناء للمفعول وطرح الألف والتضعيف.

وقرأ شيبة وطلحة بن سليمان وأبو جعفر أيضاً «نُضَعِّفْ» بالنون مضمومة وكسر العين مضعفة و «العذابَ» بالنصب، وطلحة بن مصرف «يُضَاعِفُ» مبنياً للفاعل و «العذابَ» بالنصب وقرأ طلحة بن سليمان «وتُخلد» بتاء الخطاب على الالتفات المنبي عن شدة الغضب مرفوعاً وقرأ أبو حيوة «وتُخَلَّد» مبنياً للمفعول مشدد اللام مجزوماً. ورويت عن أبي عمرو وعنه كذلك مخففاً وقرأ أبو بكر عن عاصم «يضاعفُ» و «يخلدُ» بالرفع فيهما، وكذا ابن عامر، والمفضل عن عاصم «يُضاعفُ». و «يُخْلَدُ» مبنياً للمفعول مرفوعاً مخففاً. والأعمش بضم الياء مبنياً للمفعول مشدداً مرفوعاً وقد عرفت وجه الجزم، وأما الرفع فوجهه الاستئناف، ويجوز جعل الجملة حالاً من فاعل ﴿يلق﴾، والمعنى يلق أثاماً مضاعفاً له العذاب، ومضاعفته مع قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله سبحانه: ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ [الأنعام: ١٦٠] قيل لانضمام المعصية إلى الكفر، ويدل عليه قوله تعالى ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾ فإن استثناء المؤمن يدل على اعتبار الكفر في المستثنى منه. وأورد عليه أن تكرر لا النافية يفيد نفي كل من تلك الأفعال بمعنى لا يوقعون شيئاً منها فيكون ﴿ومن يفعل ذلك﴾ بمعنى ومن يفعل شيئاً من ذلك ليتحد مورد الإثبات والنفي فلا دلالة على الانضمام، والمستثنى من جمع بين ما ذكر من الإيمان والتوبة والعمل الصالح فيكون المستثنى منه غير جامع لها، فلعل الجواب أن المضاعفة بالنسبة إلى عذاب ما دون المذكورات.

وتعقب بأن الجواب المذكور لا بعد فيه وإن لم يذكر ما دونها إلا أن الإيراد ليس بشيء لأن الكلام تعريض للكفرة ومن يفعل شيئاً من ذلك منهم فقد ضم معصيته إلى كفره ولو لم يلاحظ ذلك على ما اختاره لزم أن من ارتكب كبيرة يكون مخلداً ولا يخفى فساده عندنا، وما ذكر من اتحاد مورد الإثبات والنفي ليس بلازم.

ثم إن في الكلام قرينة على أن المستثنى منه من جمع بين أضدادها كما علمت ولذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح مع أن العمل مشروط بالإيمان فذكره للإشارة إلى انتفائه عن المستثنى منه ولذا قدم التوبة عليه، ويحتمل أن تقديمها لأنها تخلية، وقال بعضهم: ليس المراد بالمضاعفة المذكورة ضم قدرين متساويين من العذاب كل منهما بقدر ما تقتضيه المعصية بل المراد لازم ذلك وهو الشدة فكأنه قيل: ومن يفعل ذلك يعذب عذاباً شديداً ويكون ذلك العذاب الشديد جزاء كل من تلك الأفعال ومماثلاً له، والقرينة على المجاز قوله تعالى: ﴿**ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها**﴾ ونحوه، ويراد من الخلود المكث الطويل الصادق بالخلود الأبدي وغيره، ويكون لمن أشرك باعتبار فرده الأول، ولمن ارتكب إحدى الكبيرتين الأخيرتين باعتبار فرده الآخر وهو كما ترى، ومثله ما قيل من أن المضاعفة لحفظ ما تقتضيه المعصية فإن الأمر الشديد إذا دام هان.

هذا والظاهر أن الاستثناء متصل على ما هو الأصل فيه، وقال أبو حيان: الأولى عندي أن يكون منقطعاً أي لكن من تاب إلخ لأن المستثنى منه على تقدير الاتصال محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب فيصير التقدير إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلا يضاعف له العذاب، ولا يلزم من انتفاء التضعيف لقاء العذاب غير المضعف، وفيه إن قوله تعالى الآتي ﴿**فأولئك**﴾ إلخ احتراس لدفع توهم ثبوت أصل العذاب بإفادة أنهم لا يلقونه أصلاً على أكمل وجه، وقيل أيضاً في ترجيح الانقطاع: إن الاتصال مع قطع النظر عن إيهامه ثبوت أصل العذاب بل وعن إيهامه الخلود غير مهان يوهم أن مضاعفة العمل الصالح شرط لنفي الخلود مع أنه ليس كذلك.

ثم أية ضرورة تدعو إلى أن يرتكب ما فيه إيهام ثم يتشبث بأذيال الاحتراس، على أن الظاهر أن يجعل من مبتدأ والجملة المقرونة بالفاء خبره وقرنت بذلك لوقوعها خبراً عن الموصول كما في قولك: الذي يأتيني فله درهم، وأنا أميل لما مال إليه أبو حيان لمجموع ما ذكر، وذكر الموصوف في قوله سبحانه: ﴿**وعمل عملاً صالحاً**﴾ مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة.

﴿**فَأُولَئِكَ**﴾ إشارة إلى الموصول، والجمع باعتبار معناه كما أن الإفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه أي فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

﴿**يُبَدِّلُ اللَّهُ**﴾ في الدنيا ﴿**سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم كما يشير إلى ذلك كلام كثير من السلف، وقيل: المراد بالسيئات والحسنات ملكتهما لأنفسهما أي يبدل عز وجل بملكة السيئات ودواعيها في النفس ملكة الحسنات بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية، وقيل: هذا التبديل في الآخرة، والمراد بالسيئات والحسنات العقاب والثواب مجازاً من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب، والمعنى يعفو جل وعلا عن عقابهم ويتفضل سبحانه عليهم بدله بالثواب، وإلى هذا ذهب القفال. والقاضي، وعن سعيد بن المسيب وعمرو بن ميمون ومكحول أن ذلك بأن تمحي السيئات نفسها يوم القيامة من صحيفة أعمالهم ويكتب بدلها الحسنات، واحتجوا بالحديث الذي رواه مسلم في الصحيح عن أبي ذر قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وينحى عن كبارها فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا

وكذا وهو يقر لا ينكر وهو مشفق من الكبائر فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة فيقول: إن لي ذنوباً لم أرها هنا قال: ولقد رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه»، ونحو هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ليأتين ناس يوم القيامة ودوا أنهم استكثروا من السيئات قيل: من هم؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم الذين يبدل الله تعالى سيئاتهم حسنات» ويسمى هذا التبديل كرم العفو، وكأنه لذلك قال أبو نواس:

تعض ندامة كفيك مما ... تركت مخافة الذنب السرورا

ولعل المراد أنه تغفر سيئاته ويعطى بدل كل سيئة ما يصلح أن يكون ثواب حسنة تفضلاً منه عز وجل وتكرماً لا أنه يكتب له أفعال حسنات لم يفعلها ويثاب عليها. وفي كلام أبي العالية ما هو ظاهر في إنكار تمني الاستكثار من السيئات، فقد أخرج عبد بن حميد عنه أنه قيل له: إن أناساً يزعمون أنهم يتمنون أن يستكثروا من الذنوب فقال: ولم ذلك؟ فقيل: يتأولون هذه الآية ﴿**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾ وكان أبو العالية إذا أخبر بما لا يعلم قال: آمنت بما أنزل الله تعالى من كتابه فقال ذلك ثم تلا هذه الآية ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ [آل عمران: ٣٠] وكأنه ظن أن ما تلاه مناف لما زعموه من التمني، ويمكن أن يقال: إن ما دلت عليه تلك الآية يكون قبل الوقوف على التبديل والله تعالى أعلم.

﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً**﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله ﴿**وَمَنْ تَابَ**﴾ أي عن المعاصي التي فعلها بتركها بالكلية والندم عليها ﴿**وَعَمِلَ صَالِحاً**﴾ يتلافى به ما فرط منه أو ومن خرج عن جنس المعاصي وإن لم يفعله ودخل في الطاعات ﴿**فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ**﴾ أي يرجع إليه سبحانه بذلك ﴿**مَتَاباً**﴾ أي رجوعاً عظيم الشأن مرضياً عنده تعالى ماحياً للعقاب محصلاً للثواب أو فإنه يتوب إلى الله تعالى ذي اللطف الواسع الذي يحب التائبين ويصطنع إليهم أو فإنه يرجع إلى الله تعالى أو إلى ثوابه سبحانه مرجعاً حسناً، وأياً ما كان فالشرط والجزاء متغايران، وهذا لبيان حال من تاب من جميع المعاصي وما تقدم لبيان من تاب من أمهاتها فهو تعميم بعد تخصيص ﴿**وَالَّذِين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾ أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة كما روي عن علي كرّم الله تعالى وجهه. والباقر رضي الله تعالى عنه فهو من الشهادة، و ﴿**الزور**﴾ منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أي شهادة الزور أو بالزور؛ ويفهم من كلام قتادة أن الشهادة هنا بمعنى يعم ما هو المعروف منها، أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أنه قال: أي لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ولا يؤملونهم فيه.

وأخرج جماعة عن مجاهد أن المراد بالزور الغناء، وروي نحوه عن محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنه، وضم الحسن إليه النياحة، وعن قتادة أنه الكذب، وعن عكرمة أنه لعب كان في الجاهلية، وعن ابن عباس أنه صنم[1] كانوا يلعبون حوله سبعة أيام، وفي رواية أخرى عنه أنه عيد المشركين وروي ذلك عن الضحاك، وعن هذا أنه الشرك فيشهدون على هذه الأقوال من الشهود بمعنى الحضور، و ﴿**الزور**﴾ مفعول به بتقدير مضاف أي محال الزور؛ وجوز أن يراد بالزور ما يعم كل شيء باطل مائل عن جهة الحق من الشرك والكذب والغناء والنياحة ونحوها فكأنه قيل: لا يشهدون مجالس الباطل لما في ذلك من الإشعار بالرضا به، وأيضاً من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ﴿**وَإِذَا**

---

(١) قال الراغب وسمي الصنم زوراً في قوله: جاؤوا بزوريهم وجئنا بالأصم لكون ذلك كذباً وميلاً عن الحق وظاهره أنه مطلق الصنم فتأمل ا هـ منه.

مَرُّوا ﴾ على طريق الاتفاق ﴿بِاللَّغْوِ ﴾ بما ينبغي أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه ﴿مَرُّوا كِرَاماً ﴾ أي مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه معرضين عنه.

وفسر الحسن اللغو كما أخرج عنه ابن أبي حاتم بالمعاصي، وأخرج هو وابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرَّ بلهو معرضاً ولم يقف فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً ثم تلا إبراهيم ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾.

وقيل: المراد باللغو الكلام الباطل المؤذي لهم أو ما يعمه والفعل المؤذي وبالكرم العفو والصفح عمن آذاهم، وإليه يشير ما أخرجه جماعة عن مجاهد أنه قال في الآية: إذا أوذوا صفحوا وجعل الكلام على هذا بتقدير مضاف أي إذا مروا بأهل اللغو أعرضوا عنهم كما قيل:

ولقد أمر على اللئيم يسبني ... فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

ولا يخفى أنه ليس بلازم، وقيل: اللغو القول المستهجن، والمراد بمرورهم عليه إتيانهم على ذكره وبكرمهم الكف عنه والعدول إلى الكناية، وإليه يومىء ما أخرجه جماعة عن مجاهد أيضاً أنه قال: فيها كانوا إذا أتوا على ذكر النكاح كنوا عنه، وعمم بعضهم وجعل ما ذكر من باب التمثيل، وجوز أن يراد باللغو الزور بالمعنى العام أعني الأمر الباطل عبر عنه تارة بالزور لميله عن جهة الحق وتارة باللغو لأنه من شأنه أن يلغى ويطرح، ففي الكلام وضع المظهر موضع المضمر، والمعنى والذين لا يحضرون الباطل وإذا مروا به على طريق الاتفاق أعرضوا عنه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ القرآنية المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً ﴾ أي أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية فالنفي متوجه إلى القيد على ما هو الأكثر في لسان العرب، وفي التعبير بما ذكر دون أكبوا عليها سامعين مبصرين ونحوه تعريض لما عليه الكفرة والمنافقون إذا ذكروا بآيات ربهم، والخرور السقوط على غير نظام وترتيب، وفي التعبير به مبالغة في تأثير التذكير بهم، وقيل: ضمير عليها للمعاصي المدلول عليها باللغو، والمعنى إذا ذكروا بآيات ربهم المتضمنة للنهي عن المعاصي والتخويف لمرتكبها لم يفعلوها ولم يكونوا كمن لا يسمع ولا يبصر وهو كما ترى.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا من أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بتوفيقهم للطاعة كما روي عن ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد فإن المؤمن الصادق إذا رأى أهله قد شاركوه في الطاعة قرت بهم عينه وسر قلبه وتوقع نفعهم له في الدنيا حياً وميتاً ولحوقهم به في الأخرى، وذكر أنه كان في أول الإسلام يهتدي الأب والابن كافر والزوج والزوجة كافرة فلا يطيب عيش ذلك المهتدي فكان يدعو بما ذكر، وعن ابن عباس قرة عين الوالد بولده أن يراه يكتب الفقه، ومن ابتدائية متعلقة بهب أي هب لنا من جهتهم.

وجوز أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله سبحانه: ﴿من أزواجنا وذرياتنا﴾ وهذا مبني على مجيء من للبيان وجواز تقدم المبين على المبين، وقرة العين كناية عن السرور والفرح وهو مأخوذ من القر وهو البرد لأن دمعة السرور باردة ولذا يقال في ضده: أسخن الله تعالى عينه، وعليه قول أبي تمام:

فأما عيون العاشقين فأسخنت ... وأما عيون الشامتين فقرت

وقيل: هو مأخوذ من القرار لأن ما يسر يقر النظر به ولا ينظر إلى غيره، وقيل: في الضد أسخن الله تعالى عينه على معنى جعله خائفاً مترقباً ما يحزنه ينظر يميناً وشمالاً وأماماً ووراء لا يدري من أين يأتيه ذلك بحيث تسخن عينه لمزيد الحركة التي تورث السخونة، وفيه تكلف، وقيل: ﴿أعين ﴾ بالتنكير مع أن المراد بها أعين القائلين وهي معينة

لقصد تنكير المضاف للتعظيم وهو لا يكون بدون تنكير المضاف إليه، وجمع القلة على ما قال الزمخشري لأن أعين المتقين قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم.

وتعقبه أبو حيان وابن المنير بأن المتقين وإن كانوا قليلاً بالإضافة إلى غيرهم إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلاً في نفسه لا بالإضافة إلى غيره، وأجيب بأن المراد أنه استعمل الجمع المذكور في معنى القلة مجرداً عن العدد بقرينة كثرة القائلين وعيونهم، واستظهر ابن المنير أن ذلك لأن المحكي كلام كل واحد من المتقين فكأنه قيل: يقول كل واحد منهم هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين فتدبر وتأمل في وجه اختيار هذا الجمع في غير هذا الموضع مما لا يتأتى فيه ما ذكروه هاهنا.

وأنا أظن أنه اختير الأعين جمعاً للعين الباصرة والعيون جمعاً للعين الجارية في جميع القرآن الكريم ويخطر لي في وجه ذلك شيء لا أظنه وجيهاً ولعلك تفوز بما يغنيك عن ذكره والله تعالى ولي التوفيق وقرأ طلحة وأبو عمرو وأهل الكوفة غير حفص «وذريتنا» على الأفراد.

وقرأ عبدالله وأبو الدرداء وأبو هريرة «قرأت» على الجمع ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ أي اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل، وإمام يستعمل مفرداً وجمعاً كهجان والمراد به هنا الجمع ليطابق المفعول الأول لجعل، واختير على أئمة لأنه أوفق بالفواصل السابقة واللاحقة، وقيل: هو مفرد وأفرد مع لزوم المطابقة لأنه اسم جنس فيجوز إطلاقه على معنى الجمع مجازاً بتجريده من قيد الوحدة أو لأنه في الأصل مصدر وهو لكونه موضوعاً للماهية شامل للقليل والكثير وضعاً فإذا نقل لغيره قد يراعي أصله أو لأن المراد واجعل كل واحد منا أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم.

وفي إرشاد العقل السليم بعد نقل ما ذكر أن مدار التوجيه على أن هذا الدعاء صدر عن الكل على طريق المعية وهو غير واقع أو عن كل واحد وهو غير ثابت، فالظاهر أنه صدر عن كل واحد قول واجعلني للمتقين إماماً فعبر عنهم للإيجاز بصيغة الجمع وأبقى ﴿إماماً﴾ على حاله.

وتعقب بأن فيه تكلفاً وتعسفاً مع مخالفته للعربية وأنه ليس مداره على ذلك بل إنهم شركوا في الحكاية في لفظ واحد لاتحاد ما صدر عنهم مع أنه يجوز اختيار الثاني لأن التشريك في الدعاء أدعى للإجابة فاعرف ولا تغفل.

وروي عن مجاهد أن إماماً جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم، والمعنى اجعلنا قاصدين للمتقين مقتدين بهم، وما ذكر أولاً أقرب كما لا يخفى وليس في ذلك كما قال النخعي: طلب للرياسة بل مجرد كونهم قدوة في الدين وعلماء عاملين، وقيل: في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين مما ينبغي أن يطلب، وإعادة الموصول في المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء من ذلك تتمة لغيره، وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي كما عرفته فيما سبق غير مرة ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بما فصل في حيز الصلات من حيث اتصافهم به؛ وفيه دلالة على أنهم متميزون منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ خبره جملة قوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ والجملة على الأقرب استئناف لا محل لها من الإعراب مبينة لما لهم في الآخرة من السعادة الأبدية إثر بيان ما لهم من الدنيا من الأعمال السنية، و ﴿الغرفة﴾ الدرجة العالية من

المنازل وكل بناء مرتفع عال، وقد فسرت هنا على ما روي عن ابن عباس ببيوت من زبرجد ودر وياقوت.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه: «قال فيها بيوت من ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء أو درة بيضاء ليس فيها فصم ولا وصم»، وقيل: أعلى منازل الجنة، ولا يأباه الخبر لجواز أن تكون الغرف الموصوفة فيه هناك، وروي عن الضحاك أنها الجنة، وقيل: السماء السابعة، وعلى تفسيرها بجمع، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ [سبأ: ٣٧] وقرىء فيه في الغرفة يكون المراد بها الجنس وهو يطلق على الجمع كما سمعت آنفاً، وإيثار الجمع هنالك على ما قال الطيبي لأنها رتبت على الإيمان والعمل الصالح ولا خفاء في تفاوت الناس فيهما وعلى ذلك تتفاوت الأجزية، وهاهنا رتب على مجموع الأوصاف الكاملة فلذا جيء بالواحد دلالة على أن الغرف لا تتفاوت ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على أن الباء للسببية وما مصدرية، وقيل: هي للبدل كما في قوله:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرساناً وركبانا

أي بدل صبرهم ولم يذكر متعلق الصبر ليعم ما سلف من عبادتهم فعلاً وتركاً وغيره من أنواع العبادة والكل مدمج فيه فإنه إما عن المعاصي وإما على الطاعات وإما على الله تبارك وتعالى وهو أعلى منهما ويعلم من ذلك وجه إيثار ﴿صبروا﴾ على فعلوا ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾ أي تحييهم الملائكة عليهم السلام ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة عن الآفات أو يحيي بعضهم بعضاً ويدعو له بذلك، والمراد من الدعاء به التكريم وإلقاء السرور والمؤانسة وإلا فهو متحقق لهم ويعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة فليس هناك دعاء أصلاً.

وقرأ طلحة ومحمد اليماني وأهل الكوفة غير حفص «يَلْقَون» بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون، وهو حال من ضمير ﴿يجزون﴾ أو من ضمير ﴿يلقون﴾.

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً﴾ مقابل «ساءت مستقراً» معنى ومثله إعراباً فتذكر ولا تغفل ﴿قُلْ﴾ أمر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلاً أي قل للناس مشافهاً لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ أي أي عبء يعبأ بكم وأي اعتداد يعتد بكم ﴿لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾ أي عبادتكم له عز وجل حسبما مر تفصيله، فإن ما خلق له الإنسان معرفة الله تعالى وطاعته جل وعلا وإلا فهو والبهائم سواء فما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر، وأصل العبء الثقل وحقيقة قولهم: ما عبأت به ما اعتددت له من فوادح همي ومما يكون عبئاً عليّ كما تقول: ما اكترثت له أي ما أعددت له من كوارثي ومما يهمني.

وقال الزجاج: معناه أي وزن يكون لكم عنده تعالى لولا عبادتكم، ويجوز أن تكون ما نافية أي ليس يعبأ، وأياً ما كان فجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه أي لولا دعاؤكم لما اعتد بكم، وهذا بيان لحال المؤمنين من المخاطبين.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بيان لحال الكفرة منهم، والمعنى إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم حكمي ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين، فالفاء مثلها في قوله: فقد جئنا خراسانا والتكذيب مستعار للمخالفة، وقيل: المراد فقد قصرتم في العبادة على أنه من قولهم: كذب القتال إذا لم يبالغ فيه، والأول أولى وإن قيل: إن المراد من التقصير في العبادة تركها. وقرأ عبدالله وابن عباس وابن الزبير «فقد كذب الكافرون» وهو على

معنى كذب الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين على ما أشرنا إليه وهو الذي اختاره الزمخشري واستحسنه صاحب الكشف، واختار غير واحد أنه خطاب لكفرة قريش، والمعنى عليه عند بعض ما يعبأ بكم لولا عبادتكم له سبحانه أي لولا إرادته تعالى التشريعية لعبادتكم له تعالى لما عبأ بكم ولا خلقكم، وفيه معنى من قوله تعالى: ﴿ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] وقيل: المعنى ما يعبأ بكم لولا دعاؤه سبحانه إياكم إلى التوحيد على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أي لولا إرادة ذلك.

وقيل: المعنى ما يبالي سبحانه بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهة أو ما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال تعالى: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ [النساء: ١٤٧]، وقيل: المعنى ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إياه تعالى وتضرعكم إليه في الشدائد كما قال تعالى: ﴿وإذا ركبوا في الفلك دعوا الله﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾ [الأنعام: ٤٢]، وقيل: المعنى ما خلقكم سبحانه وله إليكم حاجة إلا أن تسألوه فيعطيكم وتستغفروه فيغفر لكم، وروي هذا عن الوليد بن الوليد رضي الله تعالى عنه.

وأنت تعلم أن ما آثره الزمخشري لا ينافي كون الخطاب لقريش من حيث المعنى فقد خصص بهم في قوله تعالى: **﴿فقد كذبتم﴾** **﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لزَاماً﴾** أي جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيق بكم حتى يكبكم في النار كما يعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها فضمير «يكون» لمصدر الفعل المتقدم بتقدير مضاف أو على التجوز، وإنما لم يصرح بذلك للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مما لا يكتنهه البيان.

وقيل: الضمير للعذاب، وقد صرح به من قرأ «يكون العذاب لزاماً»، وصح عن ابن مسعود أن اللزام قتل يوم بدر، وروي عن أبي ومجاهد وقتادة وأبي مالك ولعل إطلاقه على ذلك لأنه لوزم فيه بين القتلى **﴿لِزاماً﴾**.

وقرأ ابن جريج تكون بتاء التأنيث على معنى تكون العاقبة، وقرأ المنهال، وأبان بن ثعلب وأبو السمال «لَزاماً» بفتح اللام مصدر لزم يقال: لزم لزوماً ولزاماً كثبت ثبوتاً وثباتاً، ونقل ابن خالويه عن أبي السمال أنه قرأ «لزام» على وزن حذام جعله مصدراً معدولاً عن اللزمة كفجار المعدول عن الفجرة والله تعالى أعلم هذا.

﴿ومن باب الإشارة﴾ قيل في قوله تعالى: **﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾** إشارة قصور حال المنكرين على أولياء الله تعالى حيث شاركوهم في لوازم البشرية من الأكل والشرب ونحوهما وقالوا في قوله تعالى: **﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾** إن وجه فتنته النظر إليه نفسه والغفلة فيه عن ربه سبحانه، ويشعر هذا بأن كل ما سوى الله تعالى فتنة من هذه الحيثية.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: **﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾** أطلعناهم على أعمالهم فطالعوها بعين الرضا فسقطوا من أعيننا بذلك وجعلنا أعمالهم هباء منثوراً، وهذه الآية وإن كانت في وصف الكفار لكن في الحديث أن في المؤمنين من يجعل عمله هباء كما تضمنته، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية والخطيب في المتفق والمفترق عن سالم مولى أبي حذيفة قال: «قال رسول الله ﷺ: ليجاءن يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثل جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار، قال سالم: بأبي وأمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم قال: كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنئة من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فادحض الله تعالى أعمالهم» وذكر في قوله تعالى: **﴿ويوم يعض الظالم﴾** الآية أن حكمه عام في كل متحابين على معصية الله تعالى.

وعن مالك بن دينار نقل الأحجار مع الأبرار خير من أكل الخبيص مع الفجار، وفي قوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين**﴾ أنه يلزم من هذا مع قولهم كل ولي على قدم نبي أن يكون لكل ولي عدو يتظاهر بعداوته، وفيه إشارة إلى سوء حال من يفعل ذلك مع أولياء الله تعالى. ولذا قيل: إن عداوتهم علامة سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى، وفي قوله تعالى: ﴿**الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم**﴾ إشارة إلى أنهم كانوا متوجهين إلى جهة الطبيعة ولذا حشروا منكوسين، وفي قوله تعالى: ﴿**أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً**﴾ إنه عام في كل من مال إلى هوى نفسه واتبعه فيما توجه إليه، ومن هنا دقق العارفون النظر في مقاصد أنفسهم حتى إنهم إذا أمرتهم بمعروف لم يسارعوا إليه وتأملوا ماذا أرادت بذلك فقد حكي عن بعضهم أن نفسه لم تزل تحسه على الجهاد في سبيل الله تعالى فاستغرب ذلك منها لعلمه أن النفس أمارة بالسوء فأمعن النظر فإذا هي قد ضجرت من العبادة فأرادت الجهاد رجاء أن تقتل فتستريح مما هي فيه من النصب ولم تقصد بذلك الطاعة بل قصدت الفرار منها، وقيل في قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى ربك كيف مد الظل**﴾ الآية أي ألم تر كيف مد ظل عالم الأجسام ﴿**ولو شاء لجعله ساكناً**﴾ في كتم العدم ثم جعلنا شمس عالم الأرواح على وجود ذلك الظل دليلاً بأن كانت محركة لها إلى غايتها المخلوقة هي لأجلها فعرف من ذلك أنه لولا الأرواح لم تخلق الأجساد، وفي قوله تعالى: ﴿**ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً**﴾ إشارة إلى أن كل مركب فإنه سينحل إلى بسائطه إذا حصل على كماله الأخير؛ وبوجه آخر الظل ما سوى نور الأنوار يستدل به على صانعه الذي هو شمس عالم الوجود. وهذا شأن الذاهبين من غيره سبحانه إليه عز وجل، وفي قوله تعالى: ﴿**ثم جعلنا**﴾ إشارة إلى مرتبة أعلى من ذلك وهي الاستدلال به تعالى على غيره سبحانه كقوله تعالى: ﴿**أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾ وهذه مرتبة الصديقين.

وقوله سبحانه: ﴿**ثم قبضناه**﴾ كقوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨] و ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ [الشورى: ٥٣] وبوجه آخر الظل حجاب الذهول والغفلة والشمس شمس تجلي المعرفة من أفق العناية عند صباح الهداية ولو شاء سبحانه لجعله دائماً لا يزول، وإنما يستدل على الذهول بالعرفان، وفي قوله تعالى: ﴿**ثم قبضناه**﴾ إشارة إلى أن الكشف التام يحصل بالتدريج عند انقضاء مدة التكليف ﴿**وهو الذي جعل لكم الليل لباساً**﴾ تستترون به عن رؤية الأجانب لكم وإطلاعهم على حالكم من التواجد وسكب العبرات ﴿**والنوم سباتاً**﴾ راحة لأبدانكم من نصب المجاهدات ﴿**وجعل النهار نشوراً**﴾ تنتشرون فيه لطلب ضرورياتكم ﴿**وهو الذي أرسل الرياح**﴾ أي رياح الاشتياق على قلوب الأحباب ﴿**بشراً بين يدي رحمته**﴾ من التجليات والكشوف ﴿**وأنزلنا**﴾ من سماء الكرم ماء حياة العرفان ﴿**لنحيي به بلدة ميتاً**﴾ أي قلوباً ميتة ﴿**ونسقيه مما خلقنا أنعاماً**﴾ وهم الذين غلبت عليهم الصفات الحيوانية يسقيهم سبحانه ليردهم إلى القيام بالعبادات ﴿**وأناسي كثيراً**﴾ وهم الذين سكنوا إلى رياض الإنس يسقيهم سبحانه من ذلك ليفطمهم عن مراضع الإنسانية إلى المشارب الروحانية ﴿**ولقد صرفناه**﴾ أي القرآن الذي هو ماء حياة القلوب بينهم ﴿**ليذكروا**﴾ به موطنهم الأصلي ﴿**فأبى أكثر الناس إلا كفوراً**﴾ بنعمة القرآن وما عرفوا قدرها ﴿**وهو الذي مرج البحرين**﴾ بحر الروح وبحر النفس ﴿**هذا**﴾ وهو بحر الروح ﴿**عذب فرات**﴾ من الصفات الحميدة الربانية، و ﴿**هذا**﴾ وهو بحر النفس ﴿**ملح أجاج**﴾ من الصفات الذميمة الحيوانية ﴿**وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً**﴾ فحرام على الروح أن يكون منشأ الصفات الذميمة وعلى النفس أن تكون معدن الصفات الحميدة.

وذكر أن البرزخ هو القلب، وقال ابن عطاء: تلاطمت صفتان فتلاقيتا في قلوب الخلق فقلوب أهل المعرفة

منورة بأنوار الهداية مضيئة بضياء الإقبال وقلوب أهل النكرة مظلمة بظلمات المخالفة معرضة عن سنن التوفيق وبينهما قلوب العامة ليس لها علم بما يرد عليها وما يصدر منها ليس معها خطاب ولا لها جواب، وقيل: البحر العذب إشارة إلى بحر الشريعة وعذوبته لما أن الشريعة سهلة لا حرج فيها ولا دقة في معانيها ولذلك صارت مورد الخواص والعوام، والبحر الملح إشارة إلى بحر الحقيقة وملوحته لما أن الحقيقة صعبة المسالك لا يكاد يدرك ما فيها عقل السالك، والبرزخ إشارة إلى الطريقة فإنها ليست بسهلة كالشريعة ولا صعبة كالحقيقة بل بين بين **﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾** قيل: هو إشارة إلى أنه سبحانه جعل في سماء القلوب بروج المنازل والمقامات وهي اثنا عشر التوبة والزهد والخوف والرجاء والتوكل والصبر والشكر واليقين. والإخلاص والتسليم والتفويض والرضا وهي منازل الأحوال السيارة شمس التجلي وقمر المشاهدة وزهرة الشوق ومشتري المحبة وعطارد الكشوف ومريخ الفناء وزحل البقاء «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً» بغير فخر ولا خيلاء لما شاهدوا من كبرياء الله تعالى وجلاله جل شأنه.

وذكر بعضهم أن هؤلاء العباد يعاملون الأرض معاملة الحيوان لا الجماد ولذا يمشون عليها هوناً **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾** وهم أبناء الدنيا **﴿قالوا سلاماً﴾** أي سلامة من الله تعالى من شركم أو إذا خاطبهم كل ما سوى الله تعالى من الدنيا والآخرة وما فيهما من اللذة والنعيم وتعرض لهم ليشغلهم عما هم فيه **﴿قالوا سلاماً﴾** سلام متاركة وتوديع **﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾** لما علموا أن الصلاة معراج المؤمن والليل وقت اجتماع المحب بالحبيب:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا ... لي الليل هزتني إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليل جامع

﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً﴾ إشارة إلى مزيد خوفهم من القطيعة والبعد عن محبوبهم وذلك ما عنوه بعذاب جهنم لا العذاب المعروف فإن المحب الصادق يستعذبه مع الوصال ألا تسمع ما قيل:

فليت سليمى في المنام ضجيعتي ... في جنة الفردوس أو في جهنم

﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ إشارة إلى أن فيوضاتهم حسب قابلية المفاض عليه لا يسرفون فيها بأن يفيضوا فوق الحاجة ولا يقترون بأن يفيضوا دون الحاجة أو إلى أنهم إذا أنفقوا وجودهم في ذات الله تعالى وصفاته جل شأنه لم يبالغوا في الرياضة إلى حد تلف البدن ولم يقتروا في بذل الوجود بالركون إلى الشهوات **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾** برفع حوائجهم إلى الأغيار **﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾** قتلها **﴿إلا بالحق﴾** أي إلا بسطوة تجلياته تعالى **﴿ولا يزنون﴾** بالتصرف في عجوز الدنيا ولا ينالون منها شيئاً إلا بإذنه تعالى **﴿والذين لا يشهدون الزور﴾** لا يحضرون مجالس الباطل من الأقوال والأفعال **﴿وإذا مروا باللغو﴾** وهو ما لا يقربهم إلى محبوبهم **﴿مروا كراماً﴾** معرضين عنه **﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾** بل أقبلوا عليها بالسمع والطاعة مشاهدين بعيون قلوبهم أنوار ما ذكروا به من كلام ربهم **﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾** من ازدوج معنا وصحبنا وذرياتنا الذين أخذوا عنا **﴿قرة أعين﴾** بأن يوفقوا للعمل الصالح **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾** وهم الفائزون بالفناء والبقاء الأتمين **﴿أولئك يجزون الغرفة﴾** وهو مقام العندية **﴿بما صبروا﴾** في البداية على تكاليف الشريعة، وفي الوسط على التأدب بآداب الطريقة، وفي النهاية على ما تقتضيه الحقيقة **﴿ويلقون فيها تحية﴾**

هي أنس الأسرار بالحي القيوم ﴿**وسلاماً**﴾ وهو سلامة القلوب من خطور القطيعة ﴿**خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً**﴾ لأنها مشهد الحق ومحل رضا المحبوب المطلق، نسأل الله تعالى أن يمن علينا برضائه ويمنحنا بسوابغ نعمائه وآلائه بحرمة سيد أنبيائه وأحب أحبائه ﷺ وشرف قدره وعظم.

(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سَبْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَتَانِ

مكية إلا أربع آيات فانها مدنية وهى (والشعراء يتبعهم الغاوون) إلى آخرها
وهى مايتان أو ست أو سبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ، لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ .

الطاء إشارة إلى طرب قلوب العارفين ، والسين سرور المحبين ، والميم مناجاة المريدين ، و فيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ قتادة (باخع نفسك) على الإضافة ، وقرىء (فظلت أعناقهم لها خاضعة) .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ البخع أن يبلغ بالذبح البخاع ، وهو الخرم النافذ فى ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذابح ، ولعل للاشفاق .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ قوله (طسم تلك آيات الكتاب المبين) معناه : آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين ، وتمام تقريره مامر فى قوله تعالى (ذلك الكتاب) ولا شبهة فى أن المراد بالكتاب هو القرآن والمبين ، وإن كان فى الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف إلى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه ، فإن قيل القوم لما كانوا كفاراً فكيف تكون آيات القرآن مبينة لهم ما يلزمهم ، وإنما يتبين بذلك الأحكام ؟ قلنا ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله ، فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الإعجاز ، ويعلم به بعد ذلك أنه إذا كان من عند الله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

تعالى فهو دلالة الأحكام أجمع ، وإذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية فى كل الأصول والفروع أجمع ، ولما ذكر الله تعالى أنه بين الأمور قال بعده (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) منبهاً بذلك على أن الكتاب ، وإن بلغ فى البيان كل غاية فغير مدخل لهم فى الايمان لما أنه سبق حكم الله بخلافه ، فلا تبالغ فى الحزن والأسف على ذلك لأنك إن بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلا فصبره وعزاه وعرفه أن غمه وحزنه لا نفع فيه كما أن وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه ، ثم بين تعالى أنه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون ، فان قيل كيف صح مجىء (خاضعين) خبراً عن الأعناق ؟ قلنا أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين ، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، ثم ترك الكلام على أصله ، ولما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء ، قيل (خاضعين) كقوله (لى ساجدين) ، وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال هم الرءوس والصدور ، وقيل هم جماعات الناس ، يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ نظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الكهف (فلعلك باخع نفسك) وقوله (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) .

قوله تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ، فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قوله (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) من تمام قوله (إن نشأ ننزل عليهم) فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالإلجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن ، وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد فى الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، ثم عند ذلك زجر وتوعد لأن المرء إذا استمر على كفره فليس ينفع فيه إلا الزجر الشديد . فلذلك قال (فقد كذبوا) أى بلغوا النهاية

www.besturdubooks.wordpress.com

فى رد آيات الله تعالى (فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) وذلك إما عند نزول العذاب عليهم فى الدنيا أو عند المعاينة أو فى الآخرة ، فهو كقوله تعالى (ولتعلمن نبأه بعد حين) وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له سترى حالك من بعد على وجه الوعيد ، ثم إنه تعالى بين أنه مع إنزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال (أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) والزوج هو الصنف والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد فى بابه ، يقال وجه كريم إذا كان مرضياً فى حسنه وجماله . وكتاب كريم إذا كان مرضياً فى فوائده ومعانيه ، والنبات الكريم هو المرضى فيما يتعلق به من المنافع ، وفى وصف الزوج بالكريم وجهان (أحدهما) أن النبات على نوعين نافع وضار ، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت فى الأرض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار (والثانى) أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعاً بالكرم ، ونبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة وإن غفل عنها الغافلون .

أما قوله (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) فهو كقوله (هدى للمتقين) والمعنى أن فى ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أى مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم ، فأما قوله (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) فإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم ، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ، ومع ذلك فانه رحيم بعباده ، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً . والمراد أنهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات ، ثم من إعطاء الصحة والعقل والهداية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى وصف الكفار بالإعراض أولا وبالتكذيب ثانياً وبالاستهزاء ثالثا وهذه درجات من أخذ يترقى فى الشقاوة ، فإنه يعرض أولا ثم يصرح بالتكذيب والانكار إلى حيث يستهزىء به ثالثاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فان قلت مامعنى الجمع بين كم وكل ، ولم لم يقل كم أنبتنا فيها من زوج كريم ؟ قلت قد دل كل على الاحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، فهذا معنى الجمع رتبه على كمال قدرته ، فان قلت فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتى الكثرة والاحاطة وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب فكيف قال (إن فى ذلك لآية) وهلا قال لآيات ؟ قلت فيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا ، فكأنه قال إن فى ذلك الإنبات لآية أى آية (والثانى) أن يراد أن فى كل واحد من تلك الأزواج لآية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) فقالوا الذكر هو القرآن لقوله تعالى (وهذا ذكر مبارك) وبين فى هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين أن القرآن محدث ، وهذا الاستدلال بقوله تعالى (الله نزل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

أحسن الحديث كتابا) وبقوله (فبأى حديث بعده يؤمنون) وإذا ثبت أنه محدث فله خالق فيكون مخلوقا لا محالة (والجواب) أن كل ذلك يرجع إلى هذه الألفاظ ونحن نسلم حدوثها . إنما ندعى قدم أمر آخر وراء هذه الحروف ، وليس فى الآية دلالة على ذلك .

قوله تعالى :﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ﴾ .

اختلف أهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى ، هل هو كلامه القديم أو هو ضرب من الأصوات ، فقال أبو الحسن الأشعرى : المسموع هو الكلام القديم ، وكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الأشياء ، مع أن الدليل دل على أنها معلومة ومرئية . فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والأصوات مع أنه مسموع ، وقال أبو منصور الماتريدى : الذى سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والأصوات ، وذلك لأن الدليل لما دل على أنا رأينا الجوهر والعرض ، ولا بد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤيه ، ولا علة إلا الوجود ، حكمنا بأن كل موجود يصح أن يرى ، ولم يثبت عندنا أنا نسمع الأصوات والأجسام حتى يحكم بأنه لابد من مشترك بين الجسم والصوت ، فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعاً فظهر الفرق ، أما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان إلا حروفاً وأصواتاً ، فعند هذا قالوا إن ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى ، فصار معجزاً علم به أن الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك إلى واسطة ، وكفى فى الوقت أن يحمله الرسالة التى هى (أن ائت القوم الظالمين) لأن فى بدء البعثة يجب أن يأمره بالدعاء إلى التوحيد ، ثم بعده يأمره بالأحكام ، ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك إلا وقد عرفه أنه ستظهر عليه المعجزات إذا طولب بذلك .

أما قوله تعالى (أن ائت القوم الظالمين) فالمعنى أنه تعالى سجل عليهم بالظلم ، وقد استحقوا هذا الإسم من وجهين من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم ، ومن وجه ظلمهم لبنى إسرائيل .

أما قوله (قوم فرعون) فقد عطف قوم فرعون (على القوم الظالمين) عطف بيان ، كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد .

وأما قوله (ألا يتقون) فقرئ ألا يتقون بكسر النون ، بمعنى ألا يتقوننى ، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة ، وقوله (ألا يتقون) كلام مستأنف اتبعه تعالى إرساله إليهم للانذار والتسجيل عليهم بالظلم ، تعجيباً لموسى عليه السلام من حالهم فى الظلم والعسف ، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم ، ويحتمل أن يكون (ألا يتقون) حالا من الضمير فى (الظالمين)

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾

أى يظلمون غير متقين الله وعقابه ، فأدخلت همزة الإنكار على الحال ، ووجه ثالث وهو أن يكون المعنى ألا ياناس اتقون ، كقوله (ألا يسجدوا) . وأما من قرأ ألا تتقون على الخطاب ، فعلى طريقة الإلتفات إليهم وصرف وجوههم بالإنكار والغضب عليهم ، كما يرى من يشكو ممن ركب جناية والجانى حاضر ، فاذا اندفع فى الشكاية وحمى غضبه ، قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجانى يوبخه ويعنفه به ، ويقول له ألا تتق الله ألا تستحى من الناس ، فان قلت فما الفائدة فى هذا الإلتفات والخطاب مع موسى عليه السلام فى وقت المناجاة ، والملتفت إليهم غائبون لايشعرون ؟ قلت إجراء ذلك فى تكليم المرسل إليهم فى معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم ، لأنه مبلغهم ومنهيه إليهم ، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى ، وكم من آية نزلت فى شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بمواردها .

قوله تعالى :﴿ قال رب إنى أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هرون ، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم ان الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى قوم فرعون ، طلب موسى عليه السلام أن يبعث معه هرون إليهم ، ثم ذكر الأمور الداعية له إلى ذلك السؤال وحاصلها أنه لو لم يكن هرون ، لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام ، وذلك من وجهين (الأول) أن فرعون ربما كذبه ، والتكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون فى لسانه حبسة ، لأن عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية إلى باطن القلب ، وإذا انقبضا إلى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة فى اللسان ، فالتأذى من التكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب للحبسة . فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ، ثم ثنى بضيق الصدر ، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان . وأما هرون فهو أفصح لساناً منى وليس فى حقه هذا المعنى ، فكان إرساله لائقاً (الثانى) أن لهم عندى ذنباً فأخاف أن يبادروا إلى قتلى ، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة . وأما هرون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ يضيق وينطلق بالرفع ، لأنهما معطوفان على خبر أن ، وبالنصب لعطفهما على صلة أن ، والمعنى : أخاف أن يكذبون ، وأخاف أن يضيق صدرى ، وأخاف أن لا ينطلق لسانى ، والفرق أن الرفع يفيد ثلاث علل فى طلب إرسال هرون ، والنصب يفيد علة

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

واحدة ، وهى الخوف من هذه الأمور الثلاثة ، فان قلت : الخوف غم يحصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلا ، فكيف جاز تعلق الخوف به ؟ قلت قد بينا أن التكذيب الذى سيقع يوجب ضيق القلب ، وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس ، فتلك الزيادة ما كانت حاصلة فى الحال بل كانت متوقعة ، فجاز تعليق الخوف عليها .

أما قوله تعالى (فأرسل إلى هرون) فليس فى الظاهر ذكر من الذى يرسل إليه ، وفى الخبر أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام إليه ، قال السدى : إن موسى عليه السلام سار بأهله إلى مصر والتقى بهرون وهو لا يعرفه ، فقال أنا موسى ، فتعارفا وأمره أن ينطلق معه إلى فرعون لأداء الرسالة ، فصاحت أمهما لخوفها عليهما فذهبا إليه ، ويحتمل أن يكون المراد أرسل إليه جبريل ، لأن رسول الله إلى الأنبياء جبريل عليه السلام ، فلما كان هو متعيناً لهذا الأمر حذف ذكره لكونه معلوماً ، وأيضاً ليس فى الظاهر أنه يرسل لماذا ، لكن فحوى الكلام يدل على أنه طلبه للمعونة فيما سأل ، كما يقال إذا نابتك نائبة ، فأرسل إلى فلان أى ليعينك فيها وليس فى الظاهر أنه التمس كون هرون نبياً معه ، لكن قوله (فقولا إنا رسول رب العالمين) يدل عليه .

أما قوله (ولهم على ذنب) فأراد بالذنب قتله القبطى ، وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة فى سورة القصص .

واعلم أنه ليس فى التماس موسى عليه السلام ، أن يضم إليه هرون ما يدل على أنه استعفى من الذهاب إلى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه فى الوصول إلى المراد ، واختلفوا فقال بعضهم إنه وإن كان نبياً فهو غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدى الرسالة لأنه إنما أمر بذلك بشرط التمكين ، وهذا قول الكعبى وغيره من البغداديين لأنهم يجوزون دخول الشرط فى تكليف الله تعالى العبد ، والذى ذهب إليه الأكثرون أن ذلك لا يجوز لأنه تعالى إذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور وبأوقات تمكنه ، فاذا علم أنه غير متمكن منه فانه لا يأمره به ، وإذا صح ذلك فالأقرب فى الأنبياء أنهم يعلمون إذا حملهم الله تعالى الرسالة أنه تعالى يمكنهم من أدائها وأنهم سيبقون إلى ذلك الوقت ، ومثل ذلك لا يكون إغراء فى فى الأنبياء وإن جاز أن يكون إغراء فى غيرهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لقائل أن يقول قول موسى عليه السلام (ولهم على ذنب) هل يدل على صدور الذنب منه ؟ (جوابه) لا والمراد لهم على ذنب فى زعمهم .

قوله تعالى :﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ، فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ
فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل ﴾

اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين (الأول) أن يدفع عنه شرهم (والثانى) أن يرسل معه هرون فأجابه الله تعالى إلى الأول بقوله (كلا) ومعناه ارتدع يا موسى عما تظن وأجابه إلى الثانى بقوله (فاذهبا) أى اذهب أنت والذى طلبته وهو هرون فان قيل علام عطف قوله (فاذهبا) قلنا على الفعل الذى يدل عليه كلا كأنه قال ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهرون .

وأما قوله (إنا معكم مستمعون) فمن مجاز الكلام يريد أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا أحضر وأستمع ما يجرى بينكما فأظهركما عليه وأعليكما وأكسر شوكته عنكما ، وإنما جعلنا الاستماع مجازاً لأن الاستماع عبارة عن الإصغاء وذلك على الله تعالى محال .

وأما قوله (إنا رسول رب العالمين) ففيه سؤال وهو أنه هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله (إنا رسولا ربك) جوابه من وجوه (أحدها) أن الرسول اسم للماهية من غير بيان أن تلك الماهية واحدة أو كثيرة والألف واللام لا يفيدان إلا الوحدة لا الإستغراق ، بدليل أنك تقول الإنسان هو الضحاك ولا تقول كل إنسان هو الضحاك ولا أيضاً هذا الإنسان هو الضحاك ، وإذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد إلا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله (إنا رسول رب العالمين) (وثانيها) أن الرسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ... بسر ولا أرسلتهم برسول

فيكون المعنى إنا ذو رسالة رب العالمين (وثالثها) أنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة كأنهما رسول واحد (ورابعها) المراد كل واحد منا رسول (وخامسها) ما قاله بعضهم أنه إنما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله (إنا) فكما فى قوله تعالى (إنا أنزلناه) وهو ضعيف .

وأما قوله (أن أرسل معنا بنى إسرائيل) فالمراد من هذا الإرسال التخلية والإطلاق كقولك أرسل البازى ، يريد خلهم يذهبوا معنا .

قوله تعالى : ﴿ قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

اعلم أن فى الكلام حذفاً وهو أنهما أتياه وقالا ماأمرالله به فعند ذلك قال فرعون ما قال ، يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب : إن ههنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال ائذن له لعلنا نضحك منه ، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه أولا ، ثم إساءة موسى إليه ثانياً ، أما النعم فهى قوله (ألم نربك فينا وليداً) والوليد والصبى لقرب عهده من الولادة (ولبثت فينا من عمرك) وعن أبى عمرو بسكون الميم (سنين) قيل لبث عندهم ثلاثين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنى عشرة سنة وفر منهم والله أعلم بصحيح ذلك ، وعن الشعبى (فعلتك) بالكسر وهى قتله القبطى لأنه قتله بالوكز وهو ضرب من القتل ، وأما الفعلة فلأنها وكزة واحدة عدد عليه نعمه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك بقوله (وفعلت فعلتك التى فعلت) .

وأما قوله (وأنت من الكافرين) ففيه وجوه (أحدها) يجوز أن يكون حالا أى قتلته وأنت بذاك من الكافرين بنعمتى (وثانيها) وأنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لأنه كان يعاشرهم بالتقية فإن الكفر غير جائز على الأنبياء قبل النبوة (وثالثها) وأنت من الكافرين معناه وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولى نعمته (ورابعها) وأنت من الكافرين بفرعون وإلهيته أو من الذين يكفرون فى دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها ، يشهد بذلك قوله تعالى (ويذرك وآلهتك) .

قوله تعالى : ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل ﴾ .

اعلم أن فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة ، لا جرم أن موسى عليه السلام ما أنكرها ، ولم يشتغل بالجواب عنها ، لأنه تقرر فى العقول أن الرسول إلى الغير إذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بأن يكون المرسل إليه أنعم عليه أو لم يفعل ذلك ، فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر البتة ، ومثل هذا الكلام الإعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شىء أبلغ منه فى الجواب وهو قوله (فعلتها إذاً وأنا من الضالين) والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤول إليه من القتل لأنه فعل الوكزة على وجه التأديب ، ومثل ذلك ربما

www.besturdubooks.wordpress.com

حسن وإن أدى إلى القتل فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافراً أو كافراً لنعمه ، فأما قوله (ففررت منكم لما خفتكم) فالمراد أنى فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكا وكان منى فى حكم السهو ، فلم أستحق التخويف الذى يوجب الفرار ومع ذلك فررت منكم عند قولكم (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) فبين بذلك أنه لا نعمة له عليه فى باب تلك الفعلة ، بل بأن يكون مسيئاً فيه أقرب من حيث خوف تخويفا أوجب الفرار ، ثم بين نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار ، فكأنه قال أسأتم وأحسن الله إلى بأن وهب لى حكما وجعلنى من المرسلين ، واختلفوا فى الحكم والأقرب أنه غير النبوة لأن المعطوف غير المعطوف عليه ، والنبوة مفهومة من قوله (وجعلنى من المرسلين) فالمراد بالحكم العلم ويدخل فى العلم العقل والرأى والعلم بالدين الذى هو التوحيد ، وهذا أقرب لأنه لا يجوز أن يبعثه تعالى إلا مع كماله فى العقل والرأى والعلم بالتوحيد وقوله (فوهب لى ربى حكما) كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى ، وقالت المعتزلة المراد منه الألطاف وهو ضعيف جداً لأن الألطاف مفعولة فى حق الكل من غير بخس ولا تقصير ، فالتخصيص لابد فيه من فائدة ، فأما قوله (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل فهو جواب قوله (أو لم نربك فينا وليداً) يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً ، فان قيل كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلق بين الأمرين ؟ قلنا بيان التعلق من وجوه (أحدها) أنه إنما وقع فى يده وفى تربيته لأنه قصد تعبيد بنى اسرائيل وذبح أبنائهم ، فكأنه عليه السلام قال له كنت مستغنياً عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى أسلافنا (وثانيها) أن هذا الإنعام المتأخر صار معارضاً بذلك الظلم العظيم على أسلافنا وإذا تعارضا تساقطا (وثالثها) ماقاله الحسن : إنك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت على فلا نعمة لك بالتربية (ورابعها) المراد أن الذى تولى تربيتى هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك على لأن التربية كانت من قبل أمى وسائر من هو من قومى ليس لك إلا أنك ما قتلتنى ، ومثل هذا لا يعد إنعاما (وخامسها) أنك كنت تدعى أن بنى اسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد فى أن يطعمه ويعطيه مايحتاج إليه

واعلم أن فى الآية دلالة على أن كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن إليه ولا يبطل منته لأن موسى عليه السلام إنما أبطل ذلك بوجه آخر على مابينا ، واختلف العلماء فقال بعضهم إذا كان كافراً لا يستحق الشكر على نعمه على الناس إنما يستحق الاهانة بكفره ، فلو استحق الشكر بانعامه والشكر لا يوجد إلا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقاً للاهانة وللتعظيم معاً ، واستحقاق الجمع بين الضدين محال ، وقال آخرون لا يبطل الشكر بالكفر وإنما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذى يستحقه على الإيمان ، والآية تدل على هذا القول الثانى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف إنما جمع الضمير فى (منكم) و(خفتكم) مع أفراده فى تمنها وعبدت لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملائه المؤتمرين بقتله ، بدليل

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ
ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا
غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ
فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

قوله (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد ، فإن قلت (تلك) إشارة إلى ماذا و(أن عبدت) ما محلها من الإعراب ؟ قلت تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هى إلا بتفسيرها ، وهى أن عبدت فان (أن عبدت) عطف بيان ونظيره قوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) والمعنى تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على ، وقال الزجاج : ويجوز أن يكون أن فى موضع نصب ، والمعنى إنما صارت نعمة على ، لأن عبدت بنى إسرائيل أى لو لم تفعل ذلك لكفانى أهلى .

قوله تعالى : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ، قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ، قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ، قال أولو جئتك بشىء مبين ، قال فأت به إن كنت من الصادقين ﴾

اعلم أن فرعون لم يقل لموسى وما رب العالمين ، إلا وقد دعاه موسى إلى طاعة رب العالمين ، يبين ذلك ما تقدم من قوله (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) فلا بد عند دخولهما عليه أنهما قالا ذلك ، فعند ذلك قال فرعون (وما رب العالمين) ثم ههنا بحثان :

﴿ الأول ﴾ أن فرعون يحتمل أن يقال إنه كان عارفاً بالله ، ولكنه قال ما قال طلباً للملك والرياسة ، وقد ذكر الله تعالى فى كتابه ما يدل على أنه كان عارفاً بالله ، وهو قوله (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض) فاذا قرئ بفتح التاء من (علمت) فالمراد أن فرعون علم ذلك ، وذلك يدل على أنه كان عارفاً بالله ، لكنه كان يستأكل قومه بما يظهره من

www.besturdubooks.wordpress.com

إلهيته ، والقراءة الأخرى برفع التاء من (علمت) فهى تقتضى أن موسى عليه السلام هو الذى عرف ذلك ، وأيضاً فإن فرعون إن لم يكن عاقلا لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول إليه ، وإن كان عاقلا فهو يعلم بالضرورة أنه ماكان موجوداً ولا حياً ولا عاقلا ثم صار كذلك ، وبالضرورة يعلم أن كل ما كان كذلك فلا بد له من مؤثر ، فلا بد وأن يتولد له من هذين العلمين علم ثالث بافتقاره فى تركيبه وفى حياته وعقله إلى مؤثر موجد ، ويحتمل أن يقال إنه كان على مذهب الدهرية من أن الأفلاك واجبة الوجود فى ذواتها ومتحركة لذواتها ، وأن حركاتها أسباب لحصول الحوادث فى هذا العالم ، أو يقال إنه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار ، ثم اعتقد أنه بمنزلة الإله لأهل إقليمه من حيث استعبدهم وملك ذماتهم وزمام أمرهم ، ويحتمل أن يقال إنه كان على مذهب الحلولية ، القائلين بأن ذات الإله يتدرع بجسد إنسان معين ، حتى يكون الإله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل إنسان بالنسبة إلى جسده ، وبهذه التقديرات كان يسمى نفسه إلهاً .

﴿ البحث الثانى ﴾ وهو أنه قال لموسى عليه السلام (وما رب العالمين) ؟ واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشىء ، وتعريف حقيقة الشىء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشىء من أجزائها أو بأمر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ، لأن المعرف معلوم قبل المعرف ، فلو عرف الشىء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً وهو محال . وأما تعريفها بالأمور الداخلة فيها فههنا فى حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمور الدخلة لايمكن إلا إذا كان المعرف مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ، لأن كل مركب فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه فهو غيره ، فكل مركب محتاج إلى غيره ، وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته ، وكل مركب فهو ممكن ، فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركباً ، فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه ، ولما بطل هذان القسمان ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره ، ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية ، ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية ، وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والأرض وما بينهما فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون وما رب العالمين إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما ، فأما قوله (إن كنتم موقنين) فمعناه : إن كنتم موقنين باسناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود فاعرفوا أنه لايمكن تعريفه إلا بما ذكرته لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، ثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره ، وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره ، وأبعدها عن الخفاء وما ذاك إلا السموات

www.besturdubooks.wordpress.com

والأرض وما بينهما ، فان أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لاجواب عن ذلك السؤال إلا هذا الجواب ، ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق (قال فرعون لمن حوله ألا تستمعون) وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعنى أنا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبنى بالفاعلية والمؤثرية ، وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأنا إذا قلنا فى الشيء إنه الذى يلزمه اللازم الفلانى ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معروفاً لمجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التى عرضت لها هذه الملزومية ، والأول محال لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معروفاً لنفسه وهو محال ، والثانى محال لأن العلم بأنه أمر مايلزمه اللازم الفلانى لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة ، لانه لايمتنع فى العقل اشتراك الماهيات المختلفة فى لوازم متساوية . فثبت أن التعريف بالوصف الخارجى لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله (وما رب العالمين) فأجاب موسى عليه السلام (بأن قال ربكم ورب آبائكم الأولين) وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا ، وذلك لأنه لايمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها فهى غنية عن الخالق والمؤثر ، ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل فى نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم ، لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود ، وماكان كذلك استحال أن يكون واجباً لذاته ، وما لم يكن واجباً لذاته استحال وجوده إلا لمؤثر ، فكان التعريف بهذا الأثر أظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول إليه . فقال فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) يعنى المقصود من سؤال ماطلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه ، فقال موسى عليه السلام (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثانى ، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار ، والأمر ظاهر فى أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه السلام مع نمروذ ، فانه استدل أولا بالإحياء والإماتة وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله (ربكم ورب آبائكم الأولين) فأجابه نمروذ بقوله (أنا أحيي وأميت) فقال (إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر) وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله (رب المشرق والمغرب) .

وأما قوله (إن كنتم تعقلون) فكأنه عليه السلام قال إن كنت من العقلاء عرفت أنه لاجواب عن سؤالك إلا ما ذكرت لأنك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته ، وقد ثبت

www.besturdubooks.wordpress.com

أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته ، فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته ، وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته . وقد ثبت أن كل من كان عاقلا يقطع بأنه لاجواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته .

واعلم أنا قد بينا فى سورة الأنعام فى تفسير قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هى هى غير معقولة للبشر ، وإذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة ، إلا أن عدم العلم بتلك الخصوصية لا يقدح فى صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على إثبات أن للعالمين رباً وإلهاً ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة ، فكأن موسى عليه السلام يقيم الدلالة على إثبات القدر المحتاج إليه فى صحة دعوى الرسالة ، وفرعون يطالبه ببيان الماهية ، وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بأنه لا تعلق لذلك السؤال نفياً ولا إثباتا فى هذا المطلوب ، فهذا تمام القول فى هذا البحث والله أعلم ، ثم إن موسى عليه السلام لما خشن فى آخر الكلام بقوله (إن كنتم تعقلون) فعند ذلك قال فرعون (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) فإنه لما عجز عن الحجاج عدل إلى التخويف ، فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال (أولو جئتك بشيء مبين) ؟ أى هل تستجيز أن تسجننى مع اقتدارى على أن آتيك بأمر بين فى باب الدلالة على وجود الله تعالى ، وعلى أنى رسوله ؟ فعند ذلك قال (فأت به إن كنت من الصادقين) وههنا فروع : (الفرع الأول) الآية تدل على أنه تعالى ليس بجسم لأنه لو كان جسما وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازماً له لعدوله عن الجواب الحق (الثانى) الواجب على من يدعو غيره إلى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة لأن موسى عليه السلام لما قال له فرعون إنه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه (الثالث) أنه يجوز للمسئول أن يعدل فى حجته من مثال إلى مثال لإيضاح الكلام ولا يدل ذلك على الإنقطاع (الرابع) إن قيل كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالأول وهو قوله (أو لو جئتك بشيء مبين) والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم ؟ قلنا بل يدل ما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده ، وعلى أنه صادق فى الرسالة فالذى ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع (الخامس) فإن قيل كيف قال (رب السموات والأرض وما بينهما) على التثنية والمرجوع إليه مجموع ؟ جوابه أريد ما بين الجهتين ، فإن قيل ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم ، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب ؟ (جوابه) قد عمم أولا ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لأن أقرب الأشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته من حالة إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

حالة أخرى ، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم فى فصول السنة من أظهر الدلائل (السادس) فإن قيل لم قال (لأجعلنك من المسجونين) ولم يقل لأسجننك مع أنه أخصر؟ (جوابه) لأنه لو قال لأسجننك لا يفيد إلا صيرورته مسجوناً .

أما قوله (لأجعلنك من المسجونين) فمعناه أنى أجعلك واحداً ممن عرفت حالهم فى سجونى ، وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه فى بئر عميقة فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل (السابع) الواو فى قوله (أو لو جئتك) واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشىء مبين أى جائياً بالمعجزة .

قوله تعالى : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ الأعمش (بكل ساحر عليم) .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ اعلم أن قوله (أو لو جئتك بشىء مبين) يدل على أن الله تعالى قبل أن ألقى العصا عرفه بأنه يصيرها ثعباناً ، ولولا ذلك لما قال ماقال : فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعبانا مبيناً ، والمراد أنه تبين للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات ، روى أنه لما انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ، ويقول فرعون ياموسى أسألك بالذى أرسلك إلا أخذتها فعادت عصا فان قيل كيف قال ههنا (ثعبان مبين) وفى آية أخرى (فاذا هى حية تسعى) وفى آية ثالثة (كأنها جان) والجان مائل إلى الصغر والثعبان مائل إلى الكبر ؟ (جوابه) أما الحية فهى اسم الجنس ثم إنها لكبرها صارت ثعبانا ، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان ، ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) ويحتمل أنها كانت أولا صغيرة كالجان ثم عظمت

www.besturdubooks.wordpress.com

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

فصارت ثعباناً ، ثم إن موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها ؟ قال نعم فأراه يده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فاذا هى بيضاء يضىء الوادى من شده بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس ، فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أموراً ثلاثة (أحدها) قوله (إن هذا لساحر عليم) وذلك لأن الزمان كان زمان السحرة وكان عند كثير منهم أن الساحر قد يجوز أن ينتهى بسحره إلى هذا الحد فلهذا روج عليهم هذا القول (وثانيها) قوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) وهذا يجرى مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله ، والمعنى يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ، ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور فنفرهم عنه بذلك ، وهذا نهاية ما يفعله المبطل فى التنفير عن المحق (وثالثها) قوله لهم (فماذا تأمرون) أى فما رأيكم فيه وما الذى أعمله ، يظهر من نفسه ؛ أنى متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ، ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله (أرجه) قرىء أرجئه وأرجه بالهمز والتخفيف . وهما لغتان : يقال أرجأته وأرجيته إذا أخرته ، والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة ، وقيل احبسه وذلك محتمل ، لأنك إذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته . روى أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل إليه ، فقالوا له لا تفعل ، فانك إن قتلته أدخلت على الناس فى أمره شبهة ، ولكن أرجئه وأخاه إلى أن تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة ، ثم أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون السحرة . ظناً منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله (إن هذا لساحر عليم) بقولهم (بكل سحار عليم) فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه ، قال صاحب الكشاف فان قلت قوله تعالى (قال للملأ حوله) ما العامل فى حوله ؟ قلت هو منصوب نصبين نصب فى اللفظ ونصب فى المحل والعامل فى النصب اللفظى ما يقدر فى الظرف ، والعامل فى النصب المحلى هو النصب على الحال .

قوله تعالى : ﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾ وفيه مسألتان :

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ اليوم المعلوم يوم الزينة وميقاته وقت الضحى ، لأنه الوقت الذى وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة فى قوله (موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) والميقات ما وقت به أى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الإحرام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن القوم لما أشاروا بتأخير أمره وبأن يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قول موسى عليه السلام ، رضى فرعون بما قالوه وعمى عما شاهده وحب الشىء يعمى ويصم . فجمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضاً من لطف الله تعالى فى ظهور أمر موسى عليه السلام .

أما قوله (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) فالمراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين .

وأما قوله (لعلنا نتبع السحرة) فالمراد إنا نرجو أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدأوا بطلب الجزاء ، وهو إما المال وإما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله (وإنكم إذاً لمن المقربين) لأن نهاية مطلوبهم منه البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الأمرين .

قوله تعالى : ﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ، فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون ﴾

اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لابد من أن يبدأ موسى أو يبدأوا ثم إنهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم ، وقالوا (إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) فلما تواضعوا له تواضع هو أيضاً لهم فقدمهم على نفسه ، وقال (ألقوا ما أنتم ملقون) فان قيل كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصى وذلك سحر وتلبيس وكفر والأمر بمثله لايجوز (الجواب) لاشبهة فى أن ذلك ليس بأمر لأن مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولايقدموا على مايجرى

www.besturdubooks.wordpress.com

مجرى المغالبة ، وإذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الأمر وفيه وجوه (أحدها) ذلك الأمر كان مشروطاً والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين كما فى قوله (فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين) (وثانيها) لما تعين ذلك طريقاً إلى كشف الشبهة صار جائزاً (وثالثها) أن هذا ليس بأمر بل هو تهديد ، أى إن فعلتم ذلك أتينا بما تبطله ، كقول القائل لئن رميتنى لأفعلن ولأصنعن ثم يفوق له السهم فيقول له ارم فيكون ذلك منه تهديداً (ورابعها) ماذكرنا أنهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سبباً لقبول الحق. ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب ، وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم فى كل الأحوال التواضع ، لأن مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة ، فبأن يفعل الواحد منا أولى .

أما قوله تعالى (فألقوا حبالهم وعصيهم) فروى عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض فهاب موسى عليه السلام ذلك ، فقيل له ألق مافى يمينك (فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه ، فاذا هى كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون كنا نساحر الناس فاذا غلبناهم بقيت الحبال والعصى ، وكذلك إن غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين .

واعلم أن فى الآثار اختلافاً فمنهم من كثر الحبال والعصى ، ومنهم من توسط والله أعلم بعدد ذلك ، والذى يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد ، ولأن الأمر بلغ عند فرعون وقومه فى العظم مبلغاً يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة .

وأما قوله (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) فالمراد أنهم أظهروا ما يجرى مجرى القطع على أنهم يغلبون ، وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لأمر موسى عليه السلام .

أما قوله (فألقى موسى عصاه ، فإذا هى تلقف ما يأفكون) فالمراد من قوله (ما يأفكون) مايقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم فيخيلون فى حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى ، وسمى تلك الأشياء إفكا مبالغة .

أما قوله (فألقى السحرة ساجدين) فالمراد خروا سجداً لأنهم كانوا فى الطبقة العالية من علم السحر ، فلا جرم كانوا عالمين بمنتهى السحر ، فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجاً عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر ، وما كان ذلك إلا ببركة تحقيقهم فى علم السحر ، ثم إنهم عند ذلك لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً ، فإن قيل فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به ؟ (جوابه) هو الله تعالى بما حصل فى قلوبهم من الدواعى الجازمة الخالية عن المعارضات

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا
ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

ولكن الأولى أن لا نقدر فاعلا لأن ألقى بمعنى خر وسقط .

أما قوله (رب موسى وهرون) فهو عطف بيان لرب العالمين لأن فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا عزله ومعنى إضافته إليهما فى ذلك المقام أنه الذى دعا موسى وهرون عليهما السلام إليه .

قوله تعالى : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ، قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾

اعلم أنهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس إن هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا إلا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فلبس على القوم وبالغ فى التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه (أولها) قوله (آمنتم له قبل أن آذن لكم) وهذا فيه إيهام أن مسارعتكم إلى الإيمان به دالة على أنكم كنتم مائلين إليه ، وذلك يطرق التهمة إليهم فلعلهم قصروا فى السحر حياله (وثانيها) قوله (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهذا تصريح بما رمز به أولا ، وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا فى السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام ، وإلا فى قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام ، وهذه شبهة قوية فى تنفير من يقبل قوله (وثالثها) قوله (فلسوف تعلمون) وهو وعيد مطلق وتهديد شديد (ورابعها) قوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين) وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم ، وليس فى الإهلاك أقوى من ذلك وليس فى الآية أنه فعل ذلك أو لم يفعل ، ثم إنهم أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين (الأول) قولهم (لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون) الضر والضير واحد ، وليس المراد أن ذلك إن وقع لم يضر وإنما عنوا بالإضافة إلى ما عرفوه من دار الجزاء .

(واعلم) أن قولهم (إنا إلى ربنا منقلبون) فيه نكتة شريفة وهى أنهم قد بلغوا فى حب الله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ
قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

تعالى أنهم ما أرادوا شيئاً سوى الوصول إلى حضرته ، وأنهم ما آمنوا رغبة فى ثواب أورهبة من عقاب ، وإنما مقصودهم محض الوصول إلى مرضاته والاستغراق فى أنوار معرفته ، وهذا أعلى درجات الصديقين (الجواب الثانى) قولهم (إنانطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) فهو إشارة منهم إلى الكفر والسحر وغيرهما ، والطمع فى هذا الموضع يحتمل اليقين كقول إبراهيم (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ويحتمل الظن لأن المرء لا يعلم ما سيجىء من بعد .

أما قوله (أن كنا أول المؤمنين) فالمراد لأن كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف ، أو يكون المراد من السحرة خاصة ، أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم ، وقرىء إن كنا بالكسر ، وهو من الشرط الذى يجىء به المدل ، ونظيره قول القائل لمن يؤخر جعله : إن كنت عملت لك فوفنى حقى .

قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ، فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ .

قرىء (أسر) بقطع الهمزة ووصلها وسر لما ظهر أمر موسى عليه السلام بما شاهدوه من الآية ، أمره الله تعالى بأن يخرج ببنى إسرائيل لما كان فى المعلوم من تدبير الله تعالى فى موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم ، ولم يأمن وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون ببنى إسرائيل ما يؤدى إلى الاستئصال ، فلذلك أمره الله تعالى أن يسرى ببنى إسرائيل ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى ، ولا شبهة أن فى الكلام حذفاً وهو أنه أسرى بهم كما أمره الله تعالى ، ثم إن قوم موسى عليه السلام قالوا لقوم فرعون إن لنا فى هذه الليلة عيداً ، ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب ، ثم خرجوا بتلك الأموال فى الليل إلى جانب البحر ، فلما سمع ذلك فرعون أرسل فى المدائن حاشرين ، ثم إنه قوى نفسه ونفس أصحابه بأن وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم ، ووصف قوم نفسه بصفة المدح . أما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم .

﴿ فالصفة الأولى ﴾ قوله (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) والشرذمة الطائفة القليلة ، ومنه قولهم ثوب شراذم للذى بلى ، وتقطع قطعاً ذكرهم بالإسم الدال على القلة ، ثم جعلهم قليلا بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة ، ويجوز أن يريد بالقلة الذلة لا قلة العدد ، والمعنى أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ، ثم اختلف المفسرون فى عدد تلك الشرذمة ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : كانوا ستمائة ألف مقاتل لاشاب فيهم دون عشرين سنة ، ولا شيخ يوفى على الستين سوى الحشم ، وفرعون يقللهم لكثرة من معه ، وهذا الوصف قد يستعمل فى الكثير عند الإضافة إلى ما هو أكثر منه ، فروى أن فرعون خرج على فرس أدهم حصان وفى عسكره على لون فرسه ثلثمائة ألف .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله (وإنهم لنا لغائظون) يعنى يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ، واختلفوا فى تلك الأفعال على وجوه (أحدها) ما تقدم من أمر الحلى وغيره (وثانيها) خروج بنى إسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بأنفسهم (وثالثها) مخالفتهم لهم فى الدين وخروجهم عليهم (ورابعها) ليس إلا أنهم لم يتخذوا فرعون إلهاً . أما الذى وصف فرعون به قومه فهو قوله (وإنا لجميع حذرون) وفيه ثلاث قراءات حذرون وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة .

واعلم أن الصفة إذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث ، وإذا لم تكن كذلك وهى المشبهة أفادت الثبوت ، فمن قرأ (حذرون) ذهب إلى إنا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم ، ومن قرأ (حاذرون) فكأنه ذهب إلى معنى إنا قوم ما عهدنا أن نحذر إلا عصرنا هذا . وأما من قرأ (حادرون) بالدال غير المعجمة فكأنه ذهب إلى نفى الحذر أصلا ، لأن الحادر هو المشمر ، فأراد إنا قوم أقوياء أشداء ، أو أراد إنا مدججون فى السلاح ، والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن أنه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم .

أما قوله تعالى (فأخرجناهم) فالمراد إنا جعلنا فى قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل ، فكان الفعل مضافاً إلى الله تعالى لا محالة .

وأما قوله (من جنات وعيون وكنوز) فقال مجاهد : سماها كنوزاً ، لأنهم لم ينفقوا منها فى

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

طاعة الله تعالى، والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية، والمعنى إنا أخرجناهم من بساتينهم التى فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة، والمواضع التى كانوا يتنعمون فيها لنسلمها إلى بنى إسرائيل. أما قوله كذلك فيحتمل ثلاثة أوجه: النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذى وصفناه، والجر على أنه وصف لمقام كريم، أى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم، والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى الأمر كذلك.

أما قوله (فأتبعوهم) أى فلحقوهم، وقرئ فأتبعوهم مشرقين داخلين فى وقت الشروق من أشرقت الشمس شروقاً إذا طلعت.

أما قوله (فلما تراءى الجمعان) أى رأى بعضهم بعضاً، قال أصحاب موسى (إنا لمدركون) أى لملحقون (وقالوا ياموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) كانوا يذبحون أبناءنا، من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا، أى فى الساعة فيقتلوننا، وقرئ (فلما تراءت الفئتان) (إنا لمدركون) بتشديد الدال وكسر الراء من ادرك الشئ إذا تتابع ففنى، ومنه قوله تعالى (بل ادارك علمهم فى الآخرة) قال الحسن: جهلوا علم الآخرة، والمعنى إنا لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد، فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كالمنع مما توهموه، ثم قوى نفوسهم بأمرين (أحدهما) (إن معى ربى) وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة (والثانى) قوله (سيهدين) والهدى هو طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه، فقد بلغ النهاية فى النصرة.

قوله تعالى: ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله (إن معى ربى سيهدين) بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه، وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا، فقال (فأوحينا

www.besturdubooks.wordpress.com

إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) ولا شبهة فى أن المراد فضرب فانفلق لأنه كالمعلوم من الكلام إذ لايجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لأنه كالعبث ولأنه تعالى جعله من معجزاته التى ظهرت بالعصا ولأن انفلاقه بضربه أعظم فى النعمة عليه ، وأقوى لعلمهم أن ذلك إنما حصل لمكان موسى عليه السلام ، واختلفوا فى البحر ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر مع بنى إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا إلا يوشع بن نون فانه ضرب دابته وخاض فى البحر حتى عبر ثم رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر انفرق لى فقال ماأمرت بذلك ولا يعبرعلى العصاة ، فقال موسى يارب قد أبى البحر أن ينفرق ، فقيل له اضرب بعصاك البحر فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أى كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يابسة ، وعن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ، ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم ، وروى أن موسى عليه السلام قال عند ذلك «يامن كان قبل كل شىء والمكون لكل شىء والكائن بعد كل شىء» .

فأما قوله (فكان كل فرق كالطود العظيم) فالفرق الجزء المنفرق منه ، وقرىء كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أى المرتفع فى السماء وهو معجز من وجوه : (أحدها) أن تفرق ذلك الماء معجز (وثانيها) أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضاً لأنه كان لايمتنع فى الماء الذى أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكداً لهذا الإعجاز (وثالثها) أنه إن ثبت ما روى فى الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذى يتكامل معه عبور بنى إسرائيل فهو معجز ثالث (ورابعها) أن جعل الله فى تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع (وخامسها) أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس .

أما قوله تعالى (وأزلفنا ثم الآخرين) ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدى (وأزلفنا) أى وقربنا ثم أى حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة أوجه : (أحدها) قربناهم من بنى اسرائيل (وثانيها) قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد (وثالثها) قدمناهم إلى البحر ومن الناس من قال (وأزلفنا) أى حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى ، وقرىء (وأزلقنا) بالقاف أى أزللنا أقدامهم

www.besturdubooks.wordpress.com

والمعنى أذهبنا عزهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم فى البحر على خلاف ما جعله لبنى اسرائيل يبساً وأزلقهم .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه تعالى أضاف ذلك الإزلاف إلى نفسه مع أن اجتماعهم هنالك فى طلب موسى كفر (أجاب) الجبائى عنه من وجهين . (الأول) أن قوم فرعون تبعوا بنى إسرائيل وبنو إسرائيل إنما فعلوا ذلك بأمر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه إلى نفسه توسعاً وهذا كما يتعب أحدنا فى طلب غلام له فيجوز أن يقول أتعبنى الغلام لما حدث ذلك فعله (الثانى) قيل (وأزلفنا ثم الآخرين) أى أزلفناهم إلى الموت لأجل أنهم فى ذلك الوقت قربوا من أجلهم وأنشد :

وكل يوم مضى أوليـــلة سلفت فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

وأجاب الكعبى عنه من وجهين : (الأول) أنه تعالى لما حلم عنهم ، وترك البحر لهم يبساً وطمعوا فى عبوره جازت الإضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مراراً فيحلم عنه ، فاذا تمادى فى غيه وأراه قدرته عليه قال له أنا أحوجتك إلى هذا وصيرتك إليه بحلمى ، لايريد بذلك أنه أراد ما فعل (الثانى) يحتمل أنه أزلفهم أى جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولكى لايصـــلوا إلى موسى وقومه (والجواب) عن الأول أن الذى فعله بنو إسرائيل هل له أثر فى استجلاب داعية قوم فرعون إلى الذهاب خلفهم أوليس له أثرفيه . فان كان الأول فقد حصل المقصود لأن لفعل الله تعالى أثراً فى حصول الداعية المستلزمة لذلك الإزلاف ، وإن لم يكن له فيه أثر البتة فقد زال التعلق فوجب أن لاتحسن الإضافة ، وأما إذا تعب أحدنا فى طلب غلام له ، فانما يجوز أن يقول أتعبنى ذلك الغلام لما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر فى حصول ذلك التعب لأنه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر أنه يصير معلوما للسيد ، ومتى علمه صار علمه داعياً له إلى ذلك التعب ومؤثراً فيه فصحت الإضافة . وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه الفعل إلا بالداعى فالداعى مؤثر فى صيرورة القادر مؤثراً فى ذلك الفعل فلا جرم حسنت الاضافة (والجواب) عن الثانى وهو أنه أزلفهم ليغرقهم فهو أنه تعالى ما أزلفهم بل هم بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده ، فكيف يجوز إضافة هذا الازلاف الى الله تعالى ؟ أما على قولنا فانه جائز لأنه تعالى هو الذى خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف (والجواب) عن الثالث وهو أن حلمه تعالى عنهم وحملهم على ذلك ، فنقول ذلك الحلم هل له أثر فى استجلاب هذه الداعية أم لا ؟ وباقى التقرير كما تقدم (والجواب) عن الرابع هو بعينه الجواب عن الثانى والله أعلم .

أما قوله تعالى (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين) فالمعنى أنه تعالى جعل البحر يبساً فى حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لأنه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا فى ذلك الماء .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾
أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا
رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾

أما قوله تعالى (إن فى ذلك لآية) فالمعنى أن الذى حدث فى البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته لأن أحداً من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة فى الدين والدنيا ، وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له ، وعلى اعتبار المعتبرين به أبداً فيصير تحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ، ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فانه قال عقيب ذلك (وما كان أكثرهم مؤمنين) وفى ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على أن له أسوة بموسى وغيره ، فإن الذى ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التى تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه فى البحر وغيره . فكذلك أنت يا محمد لاتعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على إيذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون فى هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم .

وأما قوله (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) فتعلقه بما قبله أن القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا ، ثم إنه تعالى كان عزيزاً قادراً على أن يهلكهم ، ثم إنه تعالى ما أهلكهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله .

﴿ القصة الثانية ـ قصة ابراهيم عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ .

اعلم أنه تعالى ذكر فى أول السورة شدة حزن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم إنه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى : ثم ذكر عقبها قصة ابراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضاً أن حزن إبراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه ، لأن من عظيم المحنة على إبراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه فى النار وهو لايتمكن من إنقاذهم إلا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم (ماتعبدون) وكان ابراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن مايعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شىء كما تقول لتاجر الرقيق ما مالك ؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق ، ثم تقول : الرقيق جمال وليس بمال. فأجابوا إبراهيم عليه السلام بقولهم (نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) والعكوف : الإقامة على الشىء ، وإنما قالوا (نظل) لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ، واعلم أنه كان يكفيهم فى الجواب أن يقولوا نعبد أصناماً ، ولكنهم ضموا إليه زيادة على الجواب وهى قولهم (فنظل لها عاكفين) وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهاراً لما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام فقال إبراهيم عليه السلام منبهاً على فساد مذهبهم (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) قال صاحب الكشاف : لا بد فى يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة (هل يسمعونكم) أى هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم . وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه الحجة التى ذكرها إبراهيم عليه السلام أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجىء إليه فى المسألة ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له فى بذل منفعة أو دفع مضرة ، فقال لهم فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ، ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه ؟ فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه مايدفعون به هذه الحجة فعدلوا إلى أن قالوا (وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال ، إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحاً لطريقة الكفار التى ذمها الله تعالى وذماً لطريقة إبراهيم عليه السلام التى مدحها الله تعالى فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون) أراد به أن الباطل لايتغير بأن يكون قديماً أو حديثاً ، ولا بأن يكون فى فاعليه كثرة أو قلة .

أما قوله (فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) ففيه أسئلة :

﴿السؤال الأول﴾ كيف يكون الصنم عدواً مع أنه جماد ؟ جوابه من وجوه (أحدها) أنه تعالى قال فى سورة مريم فى صفة الأوثان (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) فقيل فى تفسيره إن الله يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم ، فعلى هذا الوجه أن الأوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار فى الآخرة فأطلق إبراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل (وثانيها) أن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها فى طلب

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الأحياء العقلاء فى اعتقاد الكفار ، ثم إنها صارت أسباباً لانقطاع الإنسان عن السعادة ووصوله إلى الشقاوة ، فلما نزلت هذه الأصنام منزلة الأحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرة لاجرم جرت مجرى الأعداء ، فلا جرم أطلق ابراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو (وثالثها) المراد من قوله (فإنهم عدو لى) عداوة من يعبدها ، فان قيل فلم لم يقل إن من يعبد الأصنام عدولى ليكون الكلام حقيقة ؟ (جوابه) لأن الذى تقدم ذكره ما عبدوه دون العابدين .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال (فإنهم عدو لى) ولم يقل فإنها عدو لكم ؟ (جوابه) أنه عليه السلام صور المسألة فى نفسه على معنى إنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها، وأراهم أنها نصيحة نصح بها نفسه ، فاذا تفكروا قالوا ما نصحنا ابراهيم إلا بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك أدعى للقبول .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم لم يقل فانهم أعدائى ؟ جوابه العدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجماعة ، قال : وقوم على ذوى مرة أراهم عدواً وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى (وهم لكم عدو) وتحقيق القول فيه ماتقدم فى قوله (إنا رسول رب العالمين)

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما هذا الاستثناء ؟ جوابه أنه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو شفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عنه أنه استثنى رب العالمين ، حكى عنه أيضاً ما وصفه به مما يستحق لعبادة لأجله ، ثم حكى عنه ما سأله عنه ، أما الأوصاف فأربعة (أولها) قوله (الذى خلقنى فهو يهدين) .

واعلم أنه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الأمرين فى قوله (الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى) واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه ، فلنتكلم فى الإنسان فنقول إنه مخلوق ، فمنهم من قال هو من عالم الخلق والجسمانيات ، ومن قال هو من عالم الأمر والروحانيات ، وتركيب البدن الذى هو من عالم الخلق مقدم على إعطاء القلب الذى هو من عالم

www.besturdubooks.wordpress.com

الأمر على ما أخبر عنه سبحانه فى قوله (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) فالتسوية إشارة إلى تعديل المزاج وتركيب الامشاج ، ونفخ الروح إشارة إلى اللطيفة الربانية النورانية التى هى من عالم الأمر ، وأيضاً قال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) ولما تم مراتب تغيرات الأجسام قال (ثم أنشأناه خلقاً آخر) وذلك إشارة إلى الروح الذى هو من عالم الملائكة ، ولا شك أن الهداية إنما تحصل من الروح ، فقد ظهر بهذه الآيات أن الخلق مقدم على الهداية .

أما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية ، فهو أن بدن الإنسان إنما يتولد عند امتزاج المنى بدم الطمث ، وهما إنما يتولدان من الأغذية المتولدة من تركب العناصر الأربعة وتفاعلها ، فإذا امتزج المنى بالدم فلا يزال ما فيها من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلا ، وما فى كل واحد منهما من القوى كاسراً سورة كيفية الآخر ، فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس إلى البارد وتستبرد بالقياس إلى الحار ، وكذا القول فى الرطب واليابس ، وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهى التى تجذب الغذاء ، ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ، ثم تقيم تلك الأجزاء بدل ما تحلل منها ، ثم تزيد فى جوهر الأعضاء طولا وعرضاً ، ثم يفصل عن تلك المواد فضلة يمكن أن يتولد عنها مثل ذلك ، ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر ، وبعضها فاعلة : إما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى المركوزة فى العضلات ، ومنها قوى إنسانية وهى إما مدركة أو عاملة ، والقوى المدركة هى القوى القوية على إدراك حقائق الأشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية ، ثم إنك إذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسمانى ، ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها وأشياء تنافرها وتفسد حالها ، ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دفاعة للمنافى ، فقد ظهر أن صلاح الحال فى هذه الأشياء لا يتم إلا بالخلق والهداية . أما الخلق فبتصييره موجوداً بعد أن كان معدوماً ، وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار فثبت أن قوله (خلقنى فهو يهدين) كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع فى الدنيا والدين ، ثم ههنا دقيقة وهو أنه قال (خلقنى) فذكره بلفظ الماضى وقال (يهدين) ذكره بلفظ المستقبل ، والسبب فى ذلك أن خلق الذات لا يتجدد فى الدنيا ، بل لما وقع بقى إلى الأمد المعلوم . أما هدايته تعالى فهى مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية فى المنافع الدنيوية ، وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو فى المنافع الدينية ، وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر ، فبين بذلك أنه سبحانه هو الذى خلقه بسائر ما تكامل به خلقه فى الماضى دفعة واحدة ، وأنه يهديه إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات فى كل لحظة ولمحة (وثانيها) قوله (والذى هو يطعمنى ويسقين) وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق ، وذلك لأنه سبحانه إذا خلق له الطعام وملكه ، فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة

www.besturdubooks.wordpress.com

والتمييز لم تكمل هذه النعمة ، وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما (وثالثها) قوله (وإذا مرضت فهو يشفين) وفيه سؤال ، وهو أنه لم قال (مرضت) دون أمرضنى ؟ وجوابه من وجوه (الأول) أن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ، ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى ماسبب آجالكم ؟ لقالوا التخم (الثانى) أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض ، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعى . أما الصحة فهى إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها ، إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع ، وعودها إلى الصحة إنما يكون أيضاً بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطباعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع ، فلهذا السبب أضاف الشفاء إليه سبحانه وتعالى ، وما أضاف المرض إليه (وثالثها) وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم ، والمرض مكروه وليس من النعم ، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم ، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى ، فإن نقضته بالإماتة (فجوابه) أن الموت ليس بضرر ، لأن شرط كونه ضرراً وقوع الإحساس به ، وحال حصول الموت لا يقع الإحساس به ، إنما الضرر فى مقدماته وذلك هو عين المرض ، وأيضاً فلأنك قد عرفت أن الأرواح إذا كملت فى العلوم والأخلاق كان بقاؤها فى هذه الأجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (ورابعها) قوله (والذى يميتنى ثم يحيين) والمراد منه الإماتة فى الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها ، والمراد من الإحياء المجازاة (وخامسها) قوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) فهو إشارة إلى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام جمع فى هذه الألفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق إلى آخر الأبد فى الدار الآخرة ، ثم ههنا أسئلة :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال (والذى أطمع) والطمع عبارة عن الظن والرجاء ، وإنه عليه السلام كان قاطعاً بذلك ؟ (جوابه) أن هذا الكلام لا يستقيم إلا على مذهبنا ، حيث قلنا إنه لا يجب على الله لأحد شيء ، وأنه يحسن منه كل شيء ولا اعتراض لأحد عليه فى فعله ، وأجاب الجبائى عنه من وجهين (الأول) أن قوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى) أراد به سائر المؤمنين لأنهم الذين يطمعون ولا يقطعون به (الثانى) المراد من الطمع اليقين ، وهو مروى عن الحسن (وأجاب) صاحب الكشاف : بأنه إنما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لأمته كيفية الدعاء .

واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة ، أما (الأول) فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولا والدعاء ثانياً ومن أول المدح إلى آخر الدعاء كلام إبراهيم عليه السلام فجعل الشيء الواحد وهو قوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) كلام غيره مما يبطل نظم الكلام ويفسده ، وأما (الثانى) وهو أن الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة ، وأما (الثالث) وهو أن الغرض منه تعليم

www.besturdubooks.wordpress.com

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ

الأمة فباطل أيضاً لأن حاصله يرجع إلى أنه كذب على نفسه لغرض تعليم الأمة ، وهو باطل قطعاً .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم أسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء منزهون عن الخطايا قطعاً ؟ ، وفي جوابه ثلاثة وجوه : (أحدها) أنه محمول على كذب ابراهيم عليه السلام في قوله (فعله كبيرهم) وقوله (إني سقيم) وقوله لسارة (إنها أختي) وهو ضعيف لأن نسبة الكذب إليه غير جائزة (وثانيها) أنه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لأنه إن كان صادقاً في هذا التواضع فقد لزم الإشكال ، وإن كان كاذبا فحينئذ يرجع حاصل الجواب إلى إلحاق المعصية به لأجل تنزيهه عن المعصية (وثالثها) وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الأولى ، وقد يسمى ذلك خطأ فإن من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار ، قيل إنه أخطأ ، وترك الأولى على الأنبياء جائز .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، وإنما تغفر في الدنيا؟ (جوابه) لأن أثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفي لا يعلم .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما فائدة لي في قوله (يغفر خطيئتي) ؟ و(جوابه) من وجوه : (أحدها) أن الأب إذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك في أكثر الأمر إنما يكون طلباً للثواب وهرباً عن العقاب أو طلباً لحسن الثناء والمحمدة أو دفعاً للألم الحاصل من الرقة الجنسية وإذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه ، إما لتحصيل ما ينبغي أو لدفع ما لا ينبغي ، أما الإله سبحانه فإنه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان ، وإذا كان كذلك لم يكن عفوه إلا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله (والذي أطمع أن يغفر لي) يعني هو الذي إذا غفر كان غفرانه لي ولأجلي لا لأجل أمر عائد إليه البتة (وثانيها) كأنه قال خلقتني لا لي فانك حين خلقتني ما كنت موجوداً وإذا لم أكن موجوداً استحال تحصيل شيء لأجلي ثم مع هذا فأنت خلقتني ، أما لو عفوت كان ذلك العفو لأجلي ، فلما خلقتني أولا مع أني كنت محتاجا إلى ذلك الخلق فلأن تغفر لي وتعفو عني حال ما أكون في أشد الحاجة إلى العفو والمغفرة كان أولى (وثالثها) أن إبراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات إلى الوسائط ، ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام « ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا » فههنا قال (أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) أي لمجرد عبوديتي لك واحتياجي اليك تغفر لي خطيئتي لا أن تغفرها لي بواسطة شفاعة شافع .

قوله تعالى : ﴿ رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في الآخرين ،

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾

واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبي إنه كان من الضالين ، ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

اعلم أن الله تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الأرواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب إلى عالم الروحانيات أشد كانت مشاكلتها للملائكة أتم ، فكانت أقوى على التصرف في أجسام هذا العالم ، وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها في ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشاكلتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزاً وضعفاً وأقل تأثيراً في هذا العالم ، فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى أنه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقاً في معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة إلهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشيء الذي هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » فإن قال قائل لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء ، لا سيما ويروى عنه أيضا أنه قال (حسبي من سؤالي علمه بحالي) ؟ (فالجواب) أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك حين كان مشتغلا بدعوة الخلق إلى الحق ألا ترى أنه قال (فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) ثم ذكر الثناء ، ثم ذكر الدعاء لأن الشارع لابد له من تعليم الشرع ، فأما حين ما خلا بنفسه ، ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله (حسبي من سؤالي علمه بحالي) .

﴿ البحث الثاني ﴾ في الأمور التي طلبها في الدعاء وهي مطاليب :

﴿ المطلوب الأول ﴾ قوله (رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين) ، ولقد أجابه الله تعالى حيث قال (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) وفيه مطالب : (أحدها) أنه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لأن النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة ، أما عين النبوة الحاصلة أو غيرها ، والأول محال لأن تحصيل الحاصل محال ، والثاني محال لأنه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبياً مرتين ، بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية ، وذلك بإدراك الحق ومن قوله

www.besturdubooks.wordpress.com

(وألحقنى بالصالحين) كمال القوة العملية ، وذلك بأن يكون عاملا بالخير فان كمال الانسان أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، وإنما قدم قوله (رب هب لى حكما) على قوله (وألحقنى بالصالحين) لما أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف و بالذات ، وأيضاً فانه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعلم بالخير وعكسه غير ممكن ، ولأن العلم صفة الروح و العمل صفة البدن ، ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل ، وإنما فسرنا معرفة الأشياء بالحكم وذلك لأن الإنسان لا يعرف حقائق الأشياء إلا إذا استحضر فى ذهنه صور الماهيات ، ثم نسب بعضها إلى بعض بالنفى أو بالاثبات ، وتلك النسبة وهى الحكم ، ثم إن كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية ، فمثل هذا الادراك يسمى حكمة وحكما ، وهو المراد من قوله عليه السلام « أرنا الأشياء كما هى » وأما الصلاح فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتى الافراط والتفريط ، وذلك لأن الافراط فى أحد الجانبين تفريط فى الجانب الآخر و بالعكس فالصلاح لا يحصل إلا بالاعتدال ، ولما كان الاعتدال الحقيقى شيئا واحداً لا يقبل القسمة البتة والأفكار البشرية فى هذا العالم قاصرة عن إدراك أمثال هذه الأشياء ، لا جرم لا ينفك البشر عن الخروج عن ذلك الحد وإن قل ، إلا أن خروج المقربين عنه يكون فى القلة بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشاً جداً فقد ظهر من هذا تحقيق ما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وظهر احتياج ابراهيم عليه السلام إلى أن يقول (وألحقنى بالصالحين) .

﴿ المطلب الثانى ﴾ لما ثبت أن المراد من الحكم العلم ، ثبت أنه عليه السلام طلب من الله أن يعطيه العلم بالله تعالى و بصفاته ، وهذا يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل فى قلب العبد إلا بخلق الله تعالى ، وقوله (وألحقنى بالصالحين) يدل على أن كون العبد صالحاً ليس إلا بخلق الله تعالى وحمل هذه الأشياء على الألطاف بعيد ، لأن عند الخصم كل ما فى قدرة الله تعالى من الألطاف فقد فعله فلو صرفنا الدعاء إليه لكان ذلك طلباً لتحصيل الحاصل وهو فاسد .

﴿ المطلب الثالث ﴾ أن الحكم المطلوب فى الدعاء إما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثانى باطل ، لأن الانسان حال كونه مستحضراً للعلم بشىء لا يمكنه أن يكون مستحضراً للعلم بشىء آخر فلو كان المطلوب بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى ، والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق فى العلم بالله كان هذا السؤال طلباً لما يشغله عن الاستغراق فى العلم بالله تعالى ، وذلك غير جائز لأنه لا كمال فوق ذلك الاستغراق . فإذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله ، ثم إن ذلك العلم إما أن يكون هو العلم بالله تعالى الذى هو شرط صحة الإيمان أو غيره ، والأول باطل لأنه لما وجب أن يكون حاصلا لكل المؤمنين فكيف لا يكون حاصلا عند ابراهيم عليه السلام ، وإذا كان حاصلا عنده امتنع طلب تحصيله . فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء درجات فى معرفة الله تعالى أزيد من العلم

www.besturdubooks.wordpress.com

بوجوده وبأنه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز وبأنه عالم قادر حى ، وما ذاك إلا الوقوف على صفات الجلال أو الوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور تلك المعرفة فى القلب . ثم هناك أحوال لايعبر عنها المقال ولا يشرحها الخيال ، ومن أراد أن يصل إليها فليكن من الواصلين إلى العين ، دون السامعين للأثر .

﴿ المطلوب الثانى ﴾ قوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) وفيه ثلاث تأويلات .

﴿ التأويل الأول ﴾ أنه عليه السلام ابتدأ بطلب ماهو الكمال الذاتى للانسان فى الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم الذى هو العلم ، ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة . فأما كمالات الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية ، أما الداخلية فهى الخلق الظاهر والخلق الباطن والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية ، فترك إبراهيم عليه السلام الأمر الجسمانى وهو الخلق الظاهر وطلب الأمر الروحانى وهو الخلق الباطن ، وهو المراد بقوله (وألحقنى بالصالحين) وأما الخارجية فهى المال والجاه ، والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الأمر الجسمانى وهو المال وطلب الأمر الروحانى وهو الجاه والذكر الجميل الباقى على وجه الدهر ، وهو المراد بقوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد أعطاه الله ذلك بقوله (وتركنا عليه فى الآخرين) فان قيل وأى غرض له فى أن يثنى عليه ويمدح؟ جوابه من وجهين (الأول) وهو على لسان الحكمة أن الارواح البشرية قد بينا أنها مؤثرة فى الجملة إلا أن بعضها قد يكون ضعيفاً فيعجز عن التأثير فاذا اجتمعت طائفة منها فربما قوى بمجموعها على ما عجزت الآحاد عنه ، وهذا المعنى مشاهد فى المؤثرات الجسمانية ، إذا ثبت هذا فالانسان الواحد إذا كان بحيث يثنى عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه ، فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع إليه سبباً لحصول زيادة كمال له (الثانى) وهو على لسان الكمال أن من صار ممدوحاً فيما بين الناس بسبب ماعنده من الفضائل ، فإنه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعياً لغيره إلى اكتساب مثل تلك الفضائل .

﴿ التأويل الثانى ﴾ أنه سأل ربه أن يجعل من ذريته فى آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى ، وذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من قوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ التأويل الثالث ﴾ قال بعضهم المراد اتفاق أهل الأديان على حبه ، ثم إن الله تعالى أعطاه ذلك لأنك لاترى أهل دين إلا ويتوالون ابراهيم عليه السلام ، وقدح بعضهم فيه بأنه لاتقوى الرغبة فى مدح الكافر و(جوابه) أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر ، بل المقصود أن يكون ممدوح كل إنسان ومحبوب كل قلب .

﴿ المطلوب الثالث ﴾ قوله (واجعلنى من ورثة جنة النعيم) اعلم أنه لما طلب سعادة الدنيا

www.besturdubooks.wordpress.com

طلب بعدها سعادة الآخرة وهى جنة النعيم ، وشبهها بما يورث لأنه الذى يغتنم فى الدنيا ، فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا .

﴿ المطلوب الرابع ﴾ قوله (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) واعلم أنه لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأشد الناس التصاقاً به وهو أبوه فقال (واغفر لأبى) ثم فيه وجوه (الأول) أن المغفرة مشروطة بالاسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله (واغفر لأبى) يرجع حاصله إلى أنه دعاء لأبيه بالإسلام (الثانى) أن أباه وعده الاسلام كما قال تعالى (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) فدعا له لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط (فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه) وهذا ضعيف لأن الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطاً لما منعه الله عنه (الثالث) أن أباه قال له إنه على دينه باطناً وعلى دين نمروذ ظاهراً تقية وخوفاً ، فدعا له لاعتقاده أن الأمر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ، ولذلك قال فى دعائه (إنه كان من الضالين) فلولا اعتقاده فيه أنه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك .

﴿ المطلوب الخامس ﴾ قوله (ولا تخزنى يوم يبعثون) قال صاحب الكشاف : الإخزاء من الخزى وهو الهوان ، أو من الخزاية وهى الحياء وههنا أبحاث :

﴿ أحدها ﴾ أن قوله (ولا تخزنى) يدل على أنه لا يجب على الله تعالى شىء على ما بيناه فى قوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) .

﴿ وثانيها ﴾ أن لقائل أن يقول لما قال أولا (واجعلنى من ورثة جنة النعيم) ومتى حصلت الجنة ، امتنع حصول الخزى ، فكيف قال بعده (ولا تخزنى يوم يبعثون) وأيضاً فقد قال تعالى (إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم ؟ (جوابه) كما أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فكذا درجات الأبرار دركات المقربين وخزى كل واحد بما يليق به .

﴿ وثالثها ﴾ قال صاحب الكشاف : فى يبعثون ضمير العباد لأنه معلوم أو ضمير الضالين .

أما قوله (إلا من أتى الله بقلب سليم) فاعلم أنه تعالى أكرمه بهذا الوصف حيث قال (وإن من شيعته لإبراهيم ، إذجاء ربه بقلب سليم) .

ثم فى هذا الإستثناء وجوه (أحدها) أنه إذا قيل لك : هل لزيد مال وبنون ؟ فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه ، تريد نفى المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك ، فكذا فى هذه الآية (وثانيها) أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين فى معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل فى دينه بسلامة قلبه كما أن غناه فى دنياه بماله وبنيه (وثالثها) أن نجعل من مفعولا لينفع أى لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه فى طاعة الله تعالى ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين ، ويجوز على هذا إلا من أتى الله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا
كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ
وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾
تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

بقلب سليم من فتنة المال والبنين ، أما السليم ففيه ثلاثة أوجه (الأول) وهو الأصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والأخلاق الرذيلة ، وذلك لأنه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب والإتصال ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الأمور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ماينبغي له وهو العلم والخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله (إلا من أتى الله بقلب سليم) أن يكون خالياً عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها فإن قيل فظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجياً وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد (جوابه) أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لا محالة ، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب (التأويل الثانى) أن السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى (التأويل الثالث) أن السليم هو الذى سلم وأسلم وسالم واستسلم والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ، من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ، فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ، ولاصديق حميم ، فلوأن لنا كرة فنكون من المؤمنين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن إبراهيم عليه السلام ذكر فى وصف هذا اليوم أموراً (أحدها) قوله (وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين) والمعنى أن الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويفرحون بأنهم المحشورون إليها والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها قال الله تعالى فى صفة أهل الثواب (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) وقال فى صفة أهل العقاب (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) وإنما يفعل الله تعالى ذلك ليكون سروراً معجلا للمؤمنين وغماً عظيما للكافرين (ثانيها) قوله (وقيل لهم أين ما كنتم) إلى قوله (وجنود إبليس أجمعون) والمعنى أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله (فكبكبوا فيها هم والغاوون) أى الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم ، والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها (وجنود إبليس) متبعوه من عصاة الإنس والجن (وثالثها) قوله (قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين) .

واعلم أن ظاهر ذلك أن من عبد خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام ، فليس يخلو حال الأصنام من وجهين إما أن يخلقها الله تعالى فى الآخرة جماداً يعذب بها أهل النار فحينئذ لا يصح أن تخاطب ويجب حمل قولهم (إذ نسويكم برب العالمين) على أنه ليس بخطاب لهم أو يقال إنه تعالى يحييها فى النار ، وذلك أيضاً غير جائز لأنه لا ذنب لها بأن عبدها غيرها . فالأقرب أنهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة ، والذى يحمل على أنه خطاب فى الحقيقة قولهم (وما أضلنا إلا المجرمون) وأرادوا بذلك من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس وهو كقولهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) فأما قولهم (فما لنا من شافعين) كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين (ولا صديق) كما نرى لهم أصدقاء لأنه لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون ، وأما أهل النار فبينهم التعادى والتباغض قال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) أو (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس ، أو أرادوا أنهم إن وقعوا فى مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم ، فقصدوا بنفيهم نفى ما تعلق بهم من النفع لأن ما لا ينفع فحكمه حكم المعدوم ، والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذى يهمه ما يهمك ، أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص ، وإنما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق ، فإن الرجل الممتحن بإرهاق ظالم قد ينهض جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له ، وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك ، فأعز من بيض الأنوق ، ويجوز أن

www.besturdubooks.wordpress.com

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ
وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ

يريد الصديق الجمع ثم حكى تعالى عنهم قولهم (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) وأنهم تمنوا الرجعة إلى الدنيا ، ولو فى مثل هذا الوضع فى معنى التمنى كأنه قيل فليت لنا كرة ، وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقى فى التقدير ، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت . قال الجبائى : إن قولهم فنكون من المؤمنين ليس بخبر عن إيمانهم لكنه خبر عن عزمهم لأنه لو كان خبراً عن إيمانهم لوجب أن يكون صدقاً . لأن الكذب لا يقع من أهل الآخرة ، وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك فى قوله (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وقد تقدم فى سورة الأنعام بيان فساد هذا الكلام. ثم بين سبحانه أن فيما ذكره من قصة إبراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال (وما كان أكثرهم مؤمنين) والأكثرون من المفسرين حملوه على قوم ابراهيم ثم بين تعالى أن مع كل هذه الدلائل فأكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما يجده من تكذيب قومه .

فأما قوله (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالإمهال لكى يؤمنوا .

﴿ القصة الثالثة ـــ قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ، قال وما علمى بما كانوا يعملون ، إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين ، قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

المرجومين ، قال رب إن قومى كذبون ، فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين ، فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قص على محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضاً نبأ نوح عليه السلام ، فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره ، لأنه كان يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك كذبه قومه فقال (كذبت قوم نوح) وإنما قال كذبت لأن القوم مؤنث وتصغيرها قويمة ، وإنما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين : (أحدهما) أنهم وإن كذبوا نوحاً لكن تكذيبه فى المعنى يتضمن تكذيب غيره ، لأن طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين (وثانيهما) أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى ، إما لأنهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة .

وأما قوله (أخوهم) فلأنه كان منهم ، من قول العرب ياأخا بنى تميم يريدون ياواحداً منهم ، ثم إنه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام أنه أولا خوفهم ، وثانياً أنه وصف نفسه ، أما التخويف فهو قوله (ألا تتقون) .

واعلم أن القوم إنما قبلوا تلك الأديان للتقليد والمقلد إذا خوف خاف ، ومالم يحصل الخوف فى قلبه لا يشتغل بالاستدلال ، فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله (ألا تتقون) . وأما وصفه نفسه فذاك بأمرين (أحدهما) قوله (إنى لكم رسول أمين) وذلك لأنه كان فيهم مشهوراً بالأمانة كمحمد ﷺ فى قريش فكأنه قال كنت أميناً من قبل ، فكيف تتهمونى اليوم ؟ (وثانيهما) قوله (وما أسألكم عليه من أجر) أى على ما أنا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة ، فإن قيل : ولماذا كرر الأمر بالتقوى ؟ (جوابه) لأنه فى الأول أراد (ألا تتقون) مخالفتى وأنا رسول الله ، وفى الثانى (ألا تتقون) مخالفتى ولست آخذ منكم أجراً فهو فى المعنى مختلف ولا تكرار فيه ، وقد يقول الرجل لغيره : ألا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيراً ! ألا تتقى الله فى

www.besturdubooks.wordpress.com

عقوقى وقد علمتك كبيراً ، وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته ، لأن تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول ، ثم إن نوحا عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) .

﴿ قال صاحب الكشاف ﴾ وقرىء وأتباعك الأرذلون جمع تابع كشاهد وأشهاد أوجمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحقها أن يضمر بعدها قد فى واتبعك ، وقد جمع أرذال على الصحة وعلى التكسير فى قولهم (الذين هم أراذلنا) والرذالة الخسة ، وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا ، وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة .

واعلم أن هذه الشبهة فى نهاية الركاكة ، لأن نوحاً عليه السلام بعث إلى الخلق كافة ، فلا يختلف الحال فى ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها ، فأجابهم نوح عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله (وما علمى بما كانوا يعملون) وهذا الكلام يدل على أنهم نسبوهم مع ذلك إلى أنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ، وإنما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم فى قوله (الذين هم أراذلنا بادى الرأى) ثم قال (إن حسابهم إلا على ربى) معناه لا نعتبر إلا الظاهر من أمرهم دون ما يخفى ، ولما قال (إن حسابهم إلا على ربى) وكانوا لا يصدقون بذلك أردفه بقوله (لو تشعرون) ثم قال (وما أنا بطارد المؤمنين) وذلك كالدلالة على أن القوم سألوه إبعادهم لكى يتبعوه أو ليكونوا أقرب إلى ذلك ، فبين أن الذى يمنعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بين أن غرضه بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله (إن أنا إلا نذير مبين) والمراد إنى أخوف من كذبنى ولم يقبل منى ، فمن قبل فهو القريب ، ومن رد فهو البعيد ، ثم إن نوحاً عليه السلام لما تم هذا الجواب لم يكن منهم إلا التهديد ، فقالوا (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين) والمعنى أنهم خوفوه بأن يقتل بالحجارة ، فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم ، وقال (رب إن قومى كذبونى ، فافتح بينى وبينهم فتحاً) وليس الغرض منه إخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ، ولكنه أراد إنى لا أدعوك عليهم لما آذونى ، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبونى فى وحيك ورسالتك (فافتح بينى وبينهم) أى فاحكم بينى وبينهم والفتاحة الحكومة ، والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق ، والمراد من هذا الحكم إنزال العقوبة عليهم لأنه قال عقبه (ونجنى) ولولا أن المراد إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى ، وقد تقدم القول فى قصته مشروحاً فى سورة الأعراف وسورة هود .

ثم قال تعالى (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) قال صاحب الكشاف : الفلك السفينة وجمعه فلك قال تعالى (وترى الفلك فيه مواخر) فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد والمشحون المملوء يقال شحنها عليهم خيلا ورجلا ، فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة ، وأن

www.besturdubooks.wordpress.com

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ
عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم. وبين تعالى أنه بعد أن أنجاهم أغرق الباقين وأن إغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم.

﴿ القصة الرابعة ـ قصة هود عليه السلام ﴾

قوله تعالى: ﴿ كذبت عاد المرسلين، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين، أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين، إن هذا إلا خلق الأولين، وما نحن بمعذبين، فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة فى إعادة التفسير ثم إنه تعالى ذكر الأمور التى تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهى ثلاثة (فأولها) قوله (أتبنون بكل ريع آية تعبثون) قرىء بكل ريع بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع، ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها، والآية العلم. ثم فيه وجوه (أحدها) عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علماً يعبثون فيه بمن يمر فى الطريق إلى هود عليه السلام (والثانى) أنهم كانوا يبنون فى الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخراً فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث (والثالث) أنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فاتخذوا فى طريقهم أعلاماً طوالا فكان ذلك عبثاً لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم (الرابع) بنوا بكل ريع بروج الحمام (وثانيها) قوله (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) المصانع مآخذ الماء، وقيل القصور المشيدة والحصون (لعلكم تخلدون) ترجون الخلد فى الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد، وفى مصحف أبى: كأنكم، وقرىء تخلدون بضم التاء مخففاً، ومشدداً. واعلم أن الأول إنما صار مذموماً لدلالته إما على السرف. أو على الخيلاء، والثانى: إنما صار مذموماً لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لادار مقر (وثالثها) قوله (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) بين أنهم مع ذلك السرف والحرص فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، وقد بينا فى غير هذا الموضع أن هذا الوصف فى العباد ذم وإن كان فى وصف الله تعالى مدحا فكأن من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بأن بطشه بطش جبار، وحاصل الأمر فى هذه الأمور الثلاثة أن اتخاذ الأبنية العالية، يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، فيرجع الحاصل إلى أنهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو. وهذه صفات الإلهية، وهى ممتنعة الحصول للعبد. فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية، ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الأشياء قال (فاتقوا الله وأطيعون) زيادة فى دعائهم إلى الآخرة وزجراً لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر، ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالإجمال أولا ثم التفصيل ثانياً فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال (أمدكم بما تعلمون) ثم فصلها من بعد بقوله (أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) فبلغ فى دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده فإن قيل لو قال (أوعظت) أم لم تعظ. كان أخصر والمعنى واحد (جوابه) ليس المعنى بواحد لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشرته، فهو أبلغ فى

www.besturdubooks.wordpress.com

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ

قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ ، ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم (إن هذا إلا خاق الأولين) فمن قرأ خاق الأولين بالفتح ، فمعناه أن ماجئت به اختلاق الأولين ، وتخرصهم كما قالوا (أساطير الأولين) أو ماخلقنا هذا إلا خاق القرون الخالية نحيا كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب ، ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة ، فمعناه ما هذا الذى نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين ، وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت إلا اعادة لم يزل عليها الناس فى قديم الدهر ، أو ماهذا الذى جئت به من الكذب إلا اعادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه ، ثم قالوا (وما نحن بمعذبين) أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكار المعاد ، فعند هذا بين الله تعالى أنه أهلكهم ، وقد سبق شرح كيفية الهلاك فى سائر السور . والله أعلم ،

﴿ القصة الخامسة ـ قصة صالح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتتركون فيما ههنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ،

www.besturdubooks.wordpress.com

شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ، فعقروها فأصبحوا نادمين ، فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

اعلم أن صالحاً عليه السلام خاطب قومه بأمور (أحدها) قوله (أتتركون فيما ههنا آمنين) أى أتظنون أنكم تتركون فى دياركم آمنين وتطمعون فى ذلك وأن لا دار للمجازاة .

وقوله (فيما ههنا آمنين) فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم ، ثم فسره بقوله (فى جنات وعيون) وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل ، فإن قيل لم قال ونخل بعد قوله (فى جنات) والجنة تتناول النخل (جوابه) من وجهين (الأول) أنه خص النخل بإفراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيهاً على فضله على سائر الأشجار (والثانى) أن يراد بالجنات غيرها من الشجر ، لأن اللفظ يصلح لذلك ، ثم يعطف عليها النخل ، والطلع هو الذى يطلع من النخلة كنصل السيف فى جوفه شماريخ ، والهضيم اللطيف أيضاً من قولهم : كشح هضيم ، وقيل الهضيم اللين النضيج كأنه قال : ونخل قد أرطب ثمره (وثانيها) قوله تعالى (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين) قرأ الحسن وتنحتون بفتح الحاء ، وقرئ فرهين وفارهين والفراهة الكيس والنشاط ، فقوله (فارهين) حال من الناحتين .

(واعلم) أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الخالية ، وهى طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر ، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية ، وهى طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة (وثالثها) قوله تعالى (ولا تطيعوا أمر المسرفين) وهذا إشارة إلى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ، ولا يجوز التوسع فى طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها ، فإن قيل ما فائدة قوله (ولا يصلحون) (جوابه) فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شىء من الصلاح ، كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح ، ثم إن القوم أجابوه من وجهين (أحدهما) قولهم (إنما أنت من المسحرين) وفيه وجوه (أحدها) المسحر هو الذى سحر كثيراً حتى غلب على عقله (وثانيها) من المسحرين ، أى من له

www.besturdubooks.wordpress.com

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُم
رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ

سحر ، وكل دابة تأكل فهى مسحرة ، والسحر أعلى البطن . وعن الفراء المسحر من له جوف ، أراد أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب (وثالثها) عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة (وثانيها) قولهم (ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين) وهذا يحتمل أمرين : (الأول) أنك بشر مثلنا فكيف تكون نبياً ؟ وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون فى الأنبياء أنهم لو كانوا صادقين ، لكانوا من جنس الملائكة (الثانى) أن يكون مرادهم إنك بشر مثلنا ، فلا بد لنا فى إثبات نبوتك من الدليل ، فقال صالح عليه السلام (هذه ناقة لها شرب) وقرئ بالضم ، روى أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقباً ، فقعد صالح يتفكر ، فقال له جبريل عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك الناقة ، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها فى العظم ، ووصاهم صالح عليه السلام بأمرين : (الأول) قوله (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) قال قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، وشربهم فى اليوم الذى لا تشرب هى (والثانى) قوله (ولا تمسوها بسوء) أى بضرب أو عقر أو غيرهما (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) عظم اليوم لحلول العذاب فيه ، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد ، ثم إن الله تعالى حكى عنهم أنهم عقروها . روى أن مصدعاً ألجأها إلى مضيق فرماها بسهم فسقطت ، ثم ضربها قدار ، فإن قيل لم أخذهم العذاب وقد ندموا (جوابه) من وجهين (الأول) أنه لم يكن ندمهم ندم التائبين ، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل (الثانى) أن الندم وإن كان ندم التائبين ، ولكن كان ذلك فى غير وقت التوبة ، بل عند معاينة العذاب ، وقال تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) الآية . واللام فى العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم .

﴿ القصة السادسة — قصة لوط عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتأتون

www.besturdubooks.wordpress.com

مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ
﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ
﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين ، قال إنى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزاً فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾

أما قوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) فيحتمل عوده إلى الآتى : أى أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة ، وهى إتيان الذكران ، ويحتمل عوده إلى المأتى ، أى أنتم اخترتم الذكران من العالمين . لا الإناث منهم .

وأما قوله تعالى (من أزواجكم) فيصلح أن يكون تبييناً لما خلق وأن يكون للتبعيض ، ويراد بما خلق العضو المباح منهن ، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم . والعادى هو المعتدى فى ظلمه ، ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها (بل أنتم قوم عادون) فى جميع المعاصى . فهذا من جملة ذاك ، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة . فقالوا له عليه السلام (لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) أى لتكونن من جملة من أخرجناه من من بلدنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوإ الأحوال ، فقال لهم لوط عليه السلام (إنى لعملكم من القالين) القلى البغض الشديد ، كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد ، وقوله (من القالين) أبلغ من أن يقول إنى لعملكم قال ، كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم ، ويجوز أن يراد من الكاملين فى قلاكم . ثم قال تعالى (فنجيناه وأهله) والمراد : فنجيناه وأهله من عقوبة عملهم (إلا عجوزاً فى الغابرين) فإن قيل فى الغابرين صفة لها كأنه قيل إلا عجوزاً غابرة ، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم (جوابه) معناه إلا عجوزاً مقدراً غبورها . قيل إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة . قال القاضى عبد الجبار فى تفسيره فى قوله

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

تعالى (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) دلالة على بطلان الجبر من جهات (أحدها) أنه لا يقال تذرون إلا مع القدرة على خلافه ، ولذلك لا يقال للمرء لم تذر الصعود إلى السماء ، كما يقال له لم تذر الدخول والخروج (وثانيها) أنه قال (ما خلق لكم) ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذى خلق لهم ما خلقه فيهم وأوجبه لا ما لم يفعلوه (وثالثها) قوله تعالى (بل أنتم قوم عادون) فإن كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون ، فكيف ينسبون إلى أنهم تعدوا ، وهل يقال للأسود إنك متعد فى لونك ؟ فنقول حاصل هذه الوجوه يرجع إلى أن العبد لو لم يكن موجداً الأفعال نفسه لما توجه المدح والذم والأمر والنهى عليه ، ولهذه الآية فى هذا المعنى خاصية أزيد مما ورد من الأمر والنهى والمدح والذم فى قصة موسى عليه السلام وإبراهيم ونوح وسائر القصص ، فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص ، وإذا ثبت بطلان هذه الوجوه بقى ذلك الوجه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين (الأول) أن الله تعالى لما علم وقوع هذه الأشياء فعدمها محال لأن عدمها يستلزم انقلاب العلم جهلا وهو محال والمفضى إلى المحال محال ، وإذا كان عدمها محالا كان التكليف بالترك تكليفاً بالمحال (الثانى) أن القادر لما كان قادراً على الضدين امتنع أن يترجح أحد المقدورين على الآخر إلا لمرجح وهو الداعى أو الإرادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر إن كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وإن كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك ، فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله والله أعلم

﴿ القصة السابعة — قصة شعيب عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ
رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

تعثوا فى الأرض مفسدين ، واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين. قالوا إنما أنت من المسحرين. وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ، فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ، قال ربى أعلم بما تعملون ، فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾

قرئ أصحاب الأيكة بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الإضافة وهو والوجه ، ومن قرأ بالنصب وزعم أن أيكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة ص بغير ألف لكن قد كتبت فى سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن أيكة اسم لا يعرف ، روى أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هى التى حملها المقل ، فإن قيل هلا قال أخوهم شعيب كما فى سائر المواضع (جوابه) أن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة ، وفى الحديث «إن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة » ثم إن شعيباً عليه السلام أمرهم بأشياء (أحدها) قوله (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) وذلك لأن الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذى هو الإيفاء بقوله (أوفوا الكيل) ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف بقوله (ولا تكونوا من المخسرين) ولم يذكر الزائد لأنه بحيث إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا إثم عليه ، ثم إنه لما أمر بالإيفاء بين أنه كيف يفعل فقال(وزنوا بالقسطاس المستقيم)قرئ بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان ، وقيل القرسطون (وثانيها) قوله تعالى (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) يقال بخسه حقه إذا نقصه إياه وهذا عام فى كل حق يثبت لأحد أن لا يهضم وفى كل ملك أن لا يغصب مالكه ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً (وثالثها) قوله تعالى (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) يقال عثا فى الأرض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزرع .وكانوا يفعلون ذلك مع

www.besturdubooks.wordpress.com

توليتهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك (ورابعها) قوله تعالى (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين) وقرئ الجبلة بوزن الأبلة وقرئ الجبلة بوزن الخلقة ومعناهن واحد أى ذوى الجبلة ، والمراد أنه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين ، فلم يكن للقوم جواب إلا ما لو تركوه لكان أولى بهم وهو من وجهين (الأول) قولهم (إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا) فإن قيل: هل اختلاف المعنى بادخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود ؟ (جوابه) إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم السحر والبشرية وإذا تركت الواو فلم يقصدوا إلا معنى واحداً وهو كونه مسحراً ثم قرره بكونه بشراً مثلهم (الثانى) قولهم (وإن نظنك لمن الكاذبين) ومعناه ظاهر ، ثم إن شعيباً عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب إن استمروا على التكذيب فقالوا (فأسقط علينا كسفاً من السماء) قرئ كسفا بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهى القطعة والسماء السحاب أو الظلة ، وهم إنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه فعنده قال شعيب عليه السلام (ربى أعلم بما تعملون) فلم يدع عليهم بل فوض الأمر فيه إلى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على ما اقترحوا من عذاب يوم الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب ، وإن أرادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى أنه حبس عنهم الريح سبعاً وسلط عليهم الرمل فأخذ بأنفاسهم ، لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ، وروى أن شعيباً بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة ، وههنا آخر الكلام فى هذه القصص السبع التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما ناله من الغم الشديد ، بقى ههنا سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ لم لا يجوز أن يقال : إن العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم ، بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم ؟ وإذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص ، لأن الاعتبار إنما يحصل أن لو علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم .

﴿الثانى﴾ أن الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ما قال (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) ولأنه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم فى مواضع كثيرة وإذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين (والجواب) أن الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد ﷺ تسلية وإزالة للحزن عن قلبه . فلما أخبر الله تعالى محمداً أنه هو الذى أنزل العذاب عليهم ، وأنه إنما أنزله عليهم جزاء على كفرهم ، علم محمد ﷺ أن الامر كذلك ، فحينئذ يحصل به التسلى والفرح له عليه السلام ، واحتج بعض الناس على القدح فى علم الأحكام

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾

بأن قال المؤثر فى هذه الأشياء ، إما الكواكب أو البروج أو كون الكوكب فى البرج المعين ، والأول باطل ، وإلا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب والثانى أيضاً باطل ، وإلا لزم دوام الأثر بدوام البرج والثالث أيضاً باطل ، لأن الفلك على قولهم بسيط لامركب فيكون طبع كل برج مساوياً لطبع البرج الآخر فى تمام الماهية ، فيكون حال الكوكب وهو فى برجه كحاله وهو فى برج آخر ، فيلزم أن يدوم ذلك الأثر بدوام الكوكب ، وللقوم أن يقولوا لم لايجوز أن يكون صدور الأثر عن الكوكب المعين موقوفاً على كونه مسامتاً مسامتة مخصوصة لكوكب آخر ، فاذا فقدت تلك المسامتة فقد شرط التأثير فلا يحصل التأثير ؟ ولهم أن يقولوا هذه الدلالة ، إنما تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها ، ولكنها لاتدل على أنها ليست مؤثرة بحسب جرى العادة ، فإذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تأثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وأدوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بأن الله تعالى إنما خلقها لأجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها تكريراً لتلك العادات والله أعلم .

﴿ القول فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ، وإنه لفى زبر الأولين ﴾ .

اعلم أن الله تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الأنبياء ذكر بعد ذلك مايدل على نبوته ﷺ وهو من وجهين : (الأول) قوله (وإنه لتنزيل رب العالمين) وذلك لأنه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين ، أو لأنه إخبار عن القصص الماضية من غير تعليم البتة ، فلا يكون ذلك إلا بوحى من الله تعالى ، وقوله بعده (وإنه لفى زبر الأولين) كأنه مؤكد لهذا الاحتمال ، وذلك لأنه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ماهى موجودة فى زبر الأولين من غير تفاوت أصلا مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد ، دل ذلك على أنه ليس إلا من عند الله تعالى ، فهذا هو المقصود من الآية .

فأما قوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) فالمراد بالتنزيل المنزل . ثم قد كان يجوز فى القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلا من الله تعالى إلى محمد ﷺ بلا واسطة فقال (نزل به الروح الأمين) والباء فى قوله (نزل به الروح) و (نزل به الروح) على القراءتين للتعدية ، ومعنى (نزل به الروح) جعل الله الروح نازلا به على قلبك أى فهمك إياه وأثبته فى قلبك إثبات مالا ينسى كقوله تعالى (سنقرئك

www.besturdubooks.wordpress.com

فلا تنسى) والروح الأمين جبريل عليه السلام وسماه روحاً من حيث خلق من الروح ، وقيل لأنه نجاة الخلق فى باب الدين فهو كالروح الذى تثبت معه الحياة . وقيل لأنه روح كله لا كالناس الذين فى أبدانهم روح وسماه أميناً لأنه مؤتمن على مايؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام ، وإلى غيرهم.

وأما قوله (على قلبك) ففيه قولان : (الأول) أنه إنما قال (على قلبك) وإن كان إنما أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن فى قلبه لا يجوز عليه التغيير فيوثق بالإنذار الواقع منه الذى بين الله تعالى أنه هو المقصود . ولذلك قال (لتكون من المنذرين) (الثانى) أن القلب هو المخاطب فى الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار ، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول ، أما القرآن فآيات إحداها قوله تعالى فى سورة البقرة (فإنه نزله على قلبك) وقال ههنا (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقال (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ، (وثانيها) أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما فى القلب من المساعى فقال (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وقال (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) والتقوى فى القلب لأنه تعالى قال (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) وقال تعالى (وحصل فى الصدور) . (وثالثها) قوله حكاية عن أهل النار (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) ومعلوم أن العقل فى القلب والسمع منفذ اليه . وقال (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب ، فكان السؤال عنهما فى الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) ، ولم تخن الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها (ورابعها) قوله (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) فخص هذه الثلاثة بالزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها . وقد قلنا لا طائل فى السمع والأبصار إلا بما يؤديان إلى القلب ليكون القلب هو القاضى فيه والمتحكم عليه ، وقال تعالى (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته ، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضى فيما يؤدى إليه السمع والبصر (وخامسها) قوله تعالى(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) فجعل العذاب لازماً على هذه الثلاثة وقال (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) وجه الدلالة أنه قصد إلى نفى العلم عنهم رأساً ، فلو ثبت العلم فى غير القلب كثباته فى القلب لم يتم الغرض .فهذه الآيات ومشاكلها ناطقة بأجمعها أن القلب هو المقصود بإلزام الحجة ، وقد بينا أن ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لأنهما آلتان للقلب فى تأدية صور المحسوسات والمسموعات .

وأما الحديث فما روى النعمان بن بشير قال سمعته عليه السلام يقول « ألا وإن فى الجسد مضغة

www.besturdubooks.wordpress.com

إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » وأما المعقول فوجوه (أحدها) أن القلب إذا غشى عليه فلو قطع سائر الأعضاء لم يحصل الشعور به وإذا أفاق القلب فانه يشعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الأعضاء تبع للقلب ولذلك فان القلب إذا فرح أو حزن فانه يتغير حال الأعضاء عند ذلك ، وكذا القول فى سائر الأعراض النفسانية (وثانيها) أن القلب منبع المشاق الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء وإذا كانت المشاق مبادى للأفعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب (وثالثها) أن معدن العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب .

﴿ أما المقدمة الأولى ﴾ ففيها النزاع فان طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو الدماغ والذى يدل على قولنا وجوه : (الأول) قوله تعالى (أو لم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقوله (لهم قلوب لا يفقهون بها) وقوله (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) أى عقل ، أطلق عليه اسم القلب لما أنه معدنه (الثانى) أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب ، وقال (فى قلوبهم مرض) ، (ختم الله على قلوبهم) وقولهم (قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) ، (يحذر المنافقين أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) ، (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) ، (كلا بل ران على قلوبهم) . (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ، (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب . فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضاً هو القلب (الثالث) وهو أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة فى ناحية القلب ، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن فى الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقاً وضجراً حتى كأنه يتألم بذلك ، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب ، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم (الرابع) وهو أن القلب أول الأعضاء تكوناً ، وآخرها موتاً ، وقد ثبت ذلك بالتشريح ولأنه متمكن فى الصدر الذى هو أوسط الجسد ، ومن شأن الملوك المحتاجين إلى الخدم أن يكونوا فى وسط المملكة لتكتنفهم الحواشى من الجوانب فيكونوا أبعد من الآفات ، واحتج من قال : العقل فى الدماغ بأمور (أحدها) أن الحواس التى هى الآلات للادراك نافذة إلى الدماغ دون القلب (وثانيها) أن الأعصاب التى هى الآلات فى الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب (وثالثها) أن الآفة إذا حلت فى الدماغ اختل العقل (ورابعها) أن فى العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل إنه خفيف الدماغ خفيف الرأس (وخامسها) أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف ، والأعلى هو الأشرف وذلك هو الدماغ لا القلب : فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ (والجواب عن الأول) لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدى آثارها إلى الدماغ ، ثم إن الدماغ يؤدى تلك الآثار إلى القلب ، فالدماغ آلة قريبة للقلب

www.besturdubooks.wordpress.com

للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ ، ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه أنا ندرك من أنفسنا أنا إذا عقلنا أن الأمر الفلانى يجب فعله أو يجب تركه ، فان الأعضاء تتحرك عند ذلك . ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ (وعن الثانى) أنه لايبعد أن يتأدى الأثر من القلب إلى الدماغ ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه ، (وعن الثالث) لايبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطاً لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء ، (وعن الرابع) ان ذلك العرف إنما كان لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته ، فاذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضاً ، إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل (وعن الخامس) أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم .

﴿ فرع ﴾ اعلم أن المعانى التى بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف إلى الصدر تارة وإلى الفؤاد أخرى ، أما الصدر فلقوله تعالى (وحصل ما فى الصدور) وقوله (وليبتلى الله ما فى صدوركم) وقوله تعالى (إنه عليم بذات الصدور) ، (وإن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه) وأما الفؤاد فقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد ، فقال : القلب هو العلقة السوداء فى جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم والشحم ، ومجموع ذلك هو الفؤاد . ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان ، وكيف كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمى قلباً وفؤاداً موضعاً هو الموضع فى الحقيقة للعقل والاختيار ، وأن معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع ، كما أن سائر الأعضاء مسخرة للقلب ، فإن العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعانى المنسوبة إليه أعنى العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان فى تلك المعانى ، فيشبه أن يكون اسم القلب اسما الأجزاء التى تحل فيها هذه المعانى بالحقيقة ، واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو ، فهذا هو الكلام فى هذا الباب والله الموفق للصواب .

وأما قوله تعالى (لتكون من المنذرين) فيدخل تحت الإنذار الدعاء إلى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح لأن فى الوجهين جميعاً يدخل الخوف من العقاب .

وأما قوله تعالى (بلسان عربى مبين) فالباء إما أن تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان . وهم خمسة هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم السلام ، وإما أن تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربى لينذر به لأنه لو نزله باللسان الأعجمى لقالوا له مانصنع بما لانفهمه فيتعذر الإنذار به ، وفى هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه ويفهمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلا على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لاتفهم معانيها .

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾

وأما قوله تعالى (وإنه لفي زبر الأولين) فيحتمل هذه الأخبار خاصة ، ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن ، ويحتمل صفة محمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف ، لأن ذكر هذه الأشياء بأسرها قد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ، ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ، كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾

اعلم أن قوله تعالى (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه ، وتقريره أن جماعة من علماء بنى اسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع فى التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته ، وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر ، وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لأن تطابق الكتب الإلهية على نعته ووصفه يدل قطعاً على نبوته . واعلم أنه قرىء (يكن) بالتذكير ، وآية النصب على أنها خبره وأن يعلمه هو الإسم ، وقرىء (تكن) بالتأنيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبراً ، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبراً ، ويجوز مع نصب الآية تأنيث يكن كقوله (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا) .

وأما قوله (ولو نزلناه على بعض الأعجمين) فاعلم أنه تعالى لما بين بالدليلين المذكورين نبوة محمد ﷺ وصدق لهجته بين بعد ذلك أن هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين ، فقال (ولو نزلناه على بعض الأعجمين) يعنى إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين ، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته ، وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله ، وانضم إلى ذلك بشارة كتب الله السالفة به ، فلم يؤمنوا به وجحدوه ، وسموه شعراً تارة وسحراً أخرى ، فلو نزلناه على بعض الأعجمين الذى لا يحسن العربية لكفروا به أيضاً ولتمحلوا لجحودهم عذراً ، ثم قال (كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين) أى مثل هذا السلك سلكناه فى قلوبهم ، وهكذا مكناه وقررناه فيها

www.besturdubooks.wordpress.com

فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

وكيفما فعل بهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الجحود والإنكار ، وهذا أيضاً مما يفيد تسلية الرسول ﷺ لأنه إذا عرف رسول الله إصرارهم على الكفر ، وأنه قد جرى القضاء الأزلى بذلك حصل اليأس ، وفى المثل : اليأس إحدى الراحتين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين) يدل على أن الكل بقضاء الله وخلقه ، قال صاحب الكشاف : أراد به أنه صار ذلك التكذيب متمكناً فى قلوبهم أشد التمكن فصار ذلك كالشيء الجبلى (والجواب) أنه إما أن يكون قد فعل الله فيهم ما يقتضى رجحان التكذيب على التصديق أو ما فعل ذلك فيهم ، فإن كان الأول فقد دللنا فى سورة الأنعام على أن الترجيح لايتحقق ما لم ينته إلى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود ، فإن لم يفعل فيهم مايقتضى الترجيح البتة ، امتنع قوله (كذلك سلكناه) كما أن طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم ، امتنع إسناد الكفر إلى ذلك الطيران .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما موقع لا يؤمنون به من قوله (سلكناه فى قلوب المجرمين) ؟ قلت موقعه منه موقع الموضح والمبين ، لأنه مسوق لبيانه مؤكد للجحود فى قلوبهم ، فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لايزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد.

قوله تعالى : ﴿ فيقولوا هل نحن منظرون ، أفبعذابنا يستعجلون ، أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ماكانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ماكانوا يمتعون ، وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ، ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، وأنه يأتيهم العذاب بغتة أتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة فقال (فيقولوا هل نحن منظرون) كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص ، لأنهم يعلمون فى الآخرة أن لاملجأ ، لكنهم يذكرون ذلك استرواحاً.

فأما قوله تعالى (أفبعذابنا يستعجلون) فالمراد أنه تعالى بين أنهم كانوا فى الدنيا يستعجلون العذاب ، مع أن حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به ، ثم بين

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

تعالى أن استعجال العذاب على وجه التكذيب إنما يقع منهم ليتمتعوا فى الدنيا ، إلا أن ذلك جهل، وذلك لأن مدة التمتع فى الدنيا متناهية قليلة . ومدة العذاب الذى يحصل بعد ذلك غير متناهية ، وليس فى العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية ، وعن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن فى الطواف ، فقال له عظنى ، فلم يزد على تلاوة هذه الآية ، فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت ، وقرىء (يمتعون) بالتخفيف ، ثم بين أنه لم يهلك قرية إلا وهناك نذير يقيم عليهم الحجة .

أما قوله تعالى (ذكرى) فقال صاحب الكشاف : ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة ، إما لأن أنذر وذكر متقاربان ، فكأنه قيل مذكرون تذكرة ، وإما لأنها حال من الضمير فى منذرون ، أى ينذرونهم ذوى تذكرة ، وإما لأنها مفعول له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة ، أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى ، والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى ، وجعلوا ذكرى لإمعانهم فى التذكرة وإطنابهم فيها ، ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له ، والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية قوم ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بارسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ، (وما كنا ظالمين) فنهلك قوماً غير ظالمين ، وهذا الوجه عليه المعول ، فان قلت كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا ، ولم تعزل عنها فى قوله (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) ؟ قلت : الأصل عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية ، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف .

قوله تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون ، فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما احتج على صدق محمد ﷺ بكون القرآن تنزيل رب العالمين ، وإنما يعرف ذلك لوقوعه من الفصاحة فى النهاية القصوى ، ولأنه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت ، مع أنه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة ، فكان الكفار يقولون لم لا يجوز أن يكون هذا من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة ؟ ، فأجاب الله تعالى عنه بان ذلك لا يتسهل للشياطين لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء ، ولقائل أن يقول العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يحصل إلا بواسطة خبر النبى الصادق ، فاذا أثبتنا كون

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى
ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

محمد ﷺ صادقاً بفصاحة القرآن وإخباره عن الغيب ، ولا يمكن إثبات كون الفصاحة والإخبار عن الغيب معجزاً إلا إذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن ذلك ، لزم الدور وهو باطل (وجوابه) لا نسلم أن العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد إلا من قول النبي . وذلك لأنا نعلم بالضرورة أن الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدو ، ونعلم بالضرورة أن محمداً ﷺ كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم ، فلو كان هذا الغيب إنما حصل من إلقاء الشياطين ، لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم ، فكان يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى ، فلما لم يكن كذلك علمنا أن الشياطين ممنوعون عن ذلك ، وأنهم معزولون عن تعرف الغيوب ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول ﷺ فقال (فلا تدع مع الله إلهاً آخر) وذلك فى الحقيقة خطاب لغيره ، لأن من شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه إلى الرؤساء فى الظاهر ، وإن كان المقصود بذلك هم الأتباع ، ولأنه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك ، فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة .

قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم ، الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين ، إنه هو العزيز العليم ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بالغ فى تسلية رسوله أولا ، ثم أقام الحجة على نبوته ، ثانياً ثم أورد سؤال المنكرين ، وأجاب عنه ثالثاً ، أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو ههنا أمور ثلاثة (الأول) قوله (وأنذر عشيرتك الأقربين) وذلك لأنه تعالى بدأ بالرسول فتوعده إن دعا مع الله إلهاً آخر ، ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب ، وذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولا ، ثم بالأقرب فالأقرب ثانياً ، لم يكن لأحد فيه طعن البتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع ، وروى « أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الأقرب فالأقرب وقال : يابنى عبد المطلب ، يابنى هاشم ، يابنى عبد مناف ، ياعباس عم محمد ، ياصفية عمة محمد ؛ إنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من المال

www.besturdubooks.wordpress.com

ما شئتم » وروى « أنه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا على رجل شاة وقعب من لبن، وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس ، فأكلوا وشربوا ، ثم قال يا بنى عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم فقال : إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

(الثانى) قوله (واخفض جناحك) واعلم أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب ، فإن قيل المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال (لمن اتبعك من المؤمنين) ؟ (جوابه) لا نسلم أن المتبعين للرسول هم المؤمنون فإن كثيراً منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين .

فأما قوله (فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون) فمعناه ظاهر ، قال الجبائى هذا يدل على أنه عليه السلام كان بريئاً من معاصيهم ، وذلك يوجب أن الله تعالى أيضاً برىء من عملهم كالرسول وإلا كان مخالفاً لله ، كما لو رضى عمن سخط الله عليه لكان كذلك ، وإذا كان تعالى بريئاً من عملهم فكيف يكون فاعلا له ومريداً له ؟ (الجواب) أنه تعالى برىء من المعاصى بمعنى أنه ما أمر بها بل نهى عنها ، فأما بمعنى أنه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه أنه علم وقوعها ، وعلم أن ما هو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع وإلا لانقلب علمه جهلا وهو محال والمفضى إلى المحال محال ، وعلم أن ماهو واجب الوقوع فانه لا يراد عدم وقوعه فثبت ما قلناه (والثالث) قوله (وتوكل) والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره ، وقوله (على العزيز الرحيم) أى على الذى يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم أتبع كونه رحيما على رسوله ما هو كالسبب لتلك الرحمة ، وهو قيامه وتقلبه فى الساجدين وفيه وجوه (أحدها) المراد ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المجتهدين ليطلع على أسرارهم ، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من الطاعات ، فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم ، بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين (وثانيها) المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذ كان إماماً لهم (وثالثها) أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين فى كفاية أمور الدين (ورابعها) المراد تقلب بصره فيمن يصلى خلفه من قوله ﷺ « أتموا الركوع والسجود فوالله إنى لأراكم من خلفى » ثم قال (إنه هو السميع) أى لما تقوله (العليم) أى بما تنويه وتعمله ، وهذا يدل على أن كونه سميعاً أمر مغاير لعلمه بالمسموعات وإلا لكان لفظ العليم مفيداً فائدته . واعلم أنه قرىء (ونقلبك) .

واعلم أن الرافضة ذهبوا إلى أن آباء النبى ﷺ كانوا مؤمنين وتمسكوا فى ذلك بهذه الآية

www.besturdubooks.wordpress.com

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾
يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

وبالخبر ، أما هذه الآية فقالوا قوله تعالى (وتقلبك فى الساجدين) يحتمل الوجوه التى ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد كما نقوله نحن ، وإذا احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة أنه لا منافاة ولا رجحان ، وأما الخبر فقوله عليه السلام «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» وكل من كان كافراً فهو نجس لقوله تعالى (إنما المشركون نجس) قالوا : فإن تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) قلنا (الجواب) عنه أن لفظ الأب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له (نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق) فسموا إسماعيل أباً له مع أنه كان عماً له ، وقال عليه السلام «ردوا على أبى» يعنى العباس ، ويحتمل أيضاً أن يكون متخذ الأصنام أب أمه فإن هذا قد يقال له الأب قال تعالى (ومن ذريته داود وسليمان) إلى قوله (وعيسى) فجعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أن إبراهيم كان جده من قبل الأم .

واعلم أنا نتمسك بقوله تعالى (لأبيه آزر) وما ذكروه صرف للفظ عن ظاهره ، وأما حمل قوله (وتقلبك فى الساجدين) على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز ، وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن .

قوله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾

اعلم أن الله تعالى أعاد الشبهة المتقدمة وأجاب عنها من وجهين (الأول) قوله (تنزل على كل أفاك أثيم) وذلك هو الذى قررناه فيما تقدم أن الكفار يدعون إلى طاعة الشيطان ، ومحمداً عليه السلام كان يدعو إلى لعن الشيطان والبراءة عنه (والثانى) قوله (يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) والمراد أنهم كانوا يقيسون حال النبى ﷺ على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم إن كان الأمر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول ﷺ كذلك أيضاً ، فلما لم يظهر فى إخبار الرسول ﷺ عن المغيبات إلا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة ، ثم إن المفسرين ذكروا فى الآية وجوهاً (أحدها) أنهم الشياطين روى أنهم كانوا قبل أن حجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الاعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحى به إليهم ، لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا (وثانيها) يلقون إلى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة (وثالثها) الأفاكون

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

يلقون السمع إلى الشياطين فيلقون وحيهم اليهم (ورابعها) يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس ، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم ، فإن قلت يلقون مامحله ؟ قلت يجوز أن يكون فى محل النصب على الحال أى تنزل ملقين السمع ، وفى محل الجر صفة لكل أفاك لأنه فى معنى الجمع ، وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلا قال : لم تنزل على الأفاكين ؟ فقيل يفعلون كيت وكيت ، فان قلت كيف قال (وأكثرهم كاذبون) بعد ماقضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك ؟ قلت : الأفاكون هم الذين يكثرون الكذب ، لا أنهم الذين لا ينطقون إلا بالكذب ، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن وأكثرهم يفترى عليهم .

قوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ .

اعلم أن الكفار لما قالوا : لم لا يجوز أن يقال إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ؟ ثم إنه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهنة ، فذكر ههنا مايدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء ، وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون ، أى الضالون ، ثم بين تلك الغواية بأمرين : (الأول) (أنهم فى كل واد يهيمون) والمراد منه الطرق المختلفة كقولك أنا فى واد وأنت فى واد ، وذلك لأنهم قد يمدحون الشىء بعد أن ذموه وبالعكس ، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس ، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد ﷺ ، فإنه من أول أمره إلى آخره بقى على طريق واحد وهو الدعوة إلى الله تعالى والترغيب فى الآخرة والإعراض عن الدنيا (الثانى) (أنهم يقولون ما لا يفعلون) وذلك أيضاً من علامات الغواة ، فانهم يرغبون فى الجود ويرغبون عنه ، وينفرون عن البخل ويصرون عليه ، ويقدحون فى الناس بأدنى شىء صدر عن واحد من أسلافهم ، ثم إنهم لا يرتكبون إلا الفواحش ، وذلك يدل على الغواية والضلالة .

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فانه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له (فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) ثم بالأقرب فالأقرب حيث قال الله تعالى له (وأنذر عشيرتك الأقربين) وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء ، فقد ظهر بهذا الذى بيناه أن حال محمد ﷺ ما كان يشبه حال الشعراء ، ثم إن الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بياناً لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة (أحدها) الإيمان وهو قوله (إلا الذين آمنوا) ، (وثانيها) العمل الصالح وهو قوله (وعملوا الصالحات) ، (وثالثها) أن يكون شعرهم فى التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق ، وهو قوله (وذكروا الله كثيراً) ، (ورابعها) أن لا يذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ، وهو قوله (وانتصروا من بعد ماظلموا) قال الله تعالى (لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) ثم إن الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وقيل المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان ابن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير لأنهم كانوا يهجون قريشاً ، وعن كعب بن مالك «أن رسول الله ﷺ قال له : اهجهم ، فو الذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل» وكان يقول لحسان بن ثابت « قل وروح القدس معك » .

فأما قوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) فالذى عندى فيه والله أعلم أنه تعالى لما ذكر فى هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من الدلائل العقلية ، ومن أخبار الأنبياء المتقدمين ، ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ، ثم ذكر سؤال المشركين فى تسميتهم محمداً صلى الله عليه وسلم تارة بالكاهن ، وتارة بالشاعر ، ثم إنه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن (أولا) ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر (ثانياً) ختم السورة بهذا التهديد العظيم ، يعنى إن الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات ، والتأمل فى هذه البينات فانهم (سيعلمون) بعد ذلك (أى منقلب ينقلبون) وقال الجمهور المراد منه الزجر عن الطريقة التى وصف الله بها هؤلاء الشعراء ، والأول أقرب إلى نظم السورة من أولها إلى آخرها والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين .

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة الشعراء

هي مكيةٌ في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدنِيٌّ؛ الآية التي يُذكَرُ فيها الشعراء، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]. وقال ابن عباس وقتادة: مكيةٌ إلَّا أربع آياتٍ منها نزلت بالمدينة، من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها[2]. وهي مئتان وسبعٌ وعشرون آية[3]. وفي رواية: سِتٌّ وعشرون[4]. وعن ابن عباسٍ: قال النبيُّ ﷺ: «أُعطيتُ السورةَ التي تُذكَرُ فيها البقرة من الذِّكْرِ الأوَّلِ، وأُعطيتُ طه وطسم من ألواح موسى، وأُعطيتُ فواتحَ القُرآنِ وخواتيمَ سورةِ البقرة من تحت العرش، وأُعطيتُ المُفصَّلَ نافلةً[5]». وعن البراء بن عازب، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى أعطاني السَّبعَ الطِّوالَ مكانَ التوارةِ، وأعطاني المِئِين[6] مكانَ الإنجيل، وأعطاني الطَّواسين مكان الزبور، وفضَّلني بالحواميم والمُفصَّلِ ما قرأهُنَّ نبيٌّ قبلي[7]».

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٦٣ ، وزاد المسير ٦/ ١١٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ .

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١١٩ .

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٨ إلى ابن مردويه. وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ (٥٢٥) من حديث معقل بن يسار ﷺ، وفيه: «الطور» بدل «طسم». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٠ : فيه عبيد الله بن أبي حميد، أجمعوا على ضعفه.

(٦) في (م): المبين .

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ إلى ابن نصر وابن مردويه من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (١٦٩٨٢) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ. وقال السندي في حاشيته على المسند: المئون: ما كان من سور القرآن عدد آيه مئة آية أو تزيد عليها شيئاً أو تنقص منها شيئاً يسيراً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ الأعمشُ ويحيى وأبو بكرٍ والمُفضَّلُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: بإمالة الطَّاءِ مُشبعاً في هذه السورة وفي أُختيها[١]. وقرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ وشيبةُ والزُّهريُّ: بين اللفظين، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم[٢]. وقرأ الباقون بالفتح مُشبَعاً. قال الثَّعلبي: وهي كلُّها لغاتٌ فصيحة. وقد مضى في «طه»[٣] قولُ النَّحاسِ في هذا. قال النَّحَّاس[٤]: وقرأ المدنيون[٥] وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «طسم» بإدغام النون في الميم، والقُرَّاء يقولون[٦] بإخفاء النون[٧]. وقرأ الأعمش وحمزة:

(١) السبعة ص٤٧٠، والتيسير ص١٦٥ عن حمزة والكسائي، والنشر ٢/ ٧٠ عنهما وعن خلف، والبغوي ٦/ ١١٤ عن المفضل.

(٢) نقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٤ عن أبي حاتم أنه اختار فتح الطاء.

(٣) ١٤/ ١٢-١٣.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٣.

(٥) هي قراءة نافع، أما قراءة أبي جعفر فهي بإظهار النون مثل قراءة حمزة الآتية. النشر ٢/ ١٩.

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٣، والكلام منه، ووقع في غير (ظ): والفراء يقول.

(٧) يعني الإخفاء بمعناه اللغوي، وليس المراد الإخفاء الاصطلاحي. قال أبو البقاء العكبري في اللباب في علل البناء والإعراب ٢/ ٤٦٩: أصل الإدغام في اللغة الإخفاء والإحكام.

«طسين ميم» بإظهار النون[١]. قال النَّحَّاس: للنون الساكنة والتنوين أربعةُ أقسامٍ عند سيبويه: يُبيَّنانِ عند حروف الحلق، ويُدْغَمانِ عند الرَّاءِ واللَّامِ والميمِ والواوِ والياء، ويُقلَبان ميماً عند الباءِ ويكونانِ من الخياشيم؛ أي: لا يُبيَّنان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصَّها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنَّه ليس هاهنا حرفٌ من حروف الحلق فتُبيَّنُ النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْهٌ: وهو أنَّ حروفَ المعجم حكمُها أنْ يُوقَفَ عليها، فإذا وُقِفَ عليها تبيَّنتِ النُّون. قال الثعلبيُّ: الإدغامُ اختيار أبي عبيدٍ وأبي حاتمٍ قياساً على كلِّ القرآن، وإنَّما أظهرها أولئك للتَّبيين والتَّمكين، وأدغمَها هؤلاء لمجاورتِها حروفَ الفم. قال النَّحَّاس[٢]: وحكى أبو إسحاق في كتابه «فيما يُجرى وفيما لا يُجرى» أنَّه يجوز أنْ يُقال: «طسينَ ميمُ» بفتح النون وضمِّ الميم، كما يُقال: هذا مَعْدي كربُ.

وقال أبو حاتم: قرأ خالد: «طسينَ ميمُ».

ابن عباس: «طسم» قَسَمٌ، وهو اسمٌ من أسماء الله تعالى[٣]، والمُقَسمُ عليه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾. وقال قتادة: اسمٌ من أسماء القرآن أقسمَ اللهُ به. مجاهد: هو اسمُ السورة[٤]. الحسن[٥]: افتتاح السورة[٦]. الربيع: حساب مُدَّة قوم. وقيل: قارعةٌ تَحُلُّ بقوم. «طسم» و«طس» واحد. قال:

وَفاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمُهْ بأن تُسْعِدا والدَّمعُ أَشْفاهُ ساجِمُهْ[٧]

---

(١) قراءة حمزة في السبعة ص٤٧٠، والتيسير ص١٦٥.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٣-١٧٤، وينظر الكتاب ٤/ ٤٤٥ فما بعده.

(٣) أسماء الله عز وجل توقيفية، يتوقف في إثباتها على ما صح من النصوص، ولم يثبت في ذلك نص.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٦٣، والوسيط ٣/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٩. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٣، والطبري ١٧/ ٥٤٢.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ويحسن.

(٦) النكت والعيون ٤/ ١٦٣.

(٧) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ص٢٥٦. قال البرقوقي في شرحه ٤/ ٤٣: أشجاه: أشده شجواً، من =

وقال القُرظيُّ: أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه[١]. وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل: الطَّاءُ طورُ سيناء، والسِّينُ إسكندرية، والميم مكة[٢]. وقال جعفر بن محمد بن عليّ: الطَّاءُ شجرةُ طوبى، والسِّينُ سِدرةُ المنتهى، والميمُ محمدٌ ﷺ[٣]. وقيل: الطَّاء من الطَّاهر، والسِّينُ من القُدُّوس ـ وقيل: من السَّميع، وقيل: من السَّلام ـ والميمُ من المجيد. وقيل: من الرَّحيم. وقيل: من المَلِك[٤]. وقد مضى هذا المعنى في أول سورة «البقرة[٥]». والطَّوَاسيمُ والطَّواسينُ سُوَرٌ في القرآن جُمِعَتْ على غير قياس. وأنشد أبو عُبيدة:

وبالطَّواسِيمِ التي قد ثُلِّثتْ وبالحوامِيمِ التي قد سُبِّعتْ

قال الجوهري: والصوابُ أن تُجمَعَ بذواتِ وتُضافَ إلى واحد، فيُقال: ذوات طسم، وذواتُ حم[٦].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ رفعٌ على إضمار مبتدإٍ، أي: هذه «تِلْكَ آياتُ الكتابِ الْمُبين» التي كنتُم وعِدتُم بها؛ لأنَّهم قد وُعِدوا في التوراة والإنجيل

= قولك: شجاني هذا الأمر، أي: أحزنني. والطاسم: الطامس الدارس. بأن تسعدا: أي: تساعدا وتعاونا. وسجم الدمع: سال وهطل. يخاطب خليليه اللذين عاهداه على أن يساعداه على البكاء عند ربع الأحبة يقول لهما: إن وفاءكما بأن تساعداني على البكاء كهذا الربع، فإن الربع كلما تقادم عهده كان أشجى لزائره وأشد لحزنه؛ لأنه لا يتسلَّى به المحب، وكذلك وفاؤكما كلما ضعف وقلَّ إسعادكما لي على البكاء اشتدَّ حزني، إذ لا أجد من أتسلَّى به. ثم قال: والدمع أشفاه ساجمه، كأنه يقول: إن لي العذر في البكاء، أما أنتما فخليَّان، إذ لو كنتما محزونين مثلي لاستشفيتما بالدمع كما هو شأن المحزون مثلي.

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٩، وزاد المسير ٦/ ١١٥.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١١٥ عن علي مرفوعاً.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ١٣٧، وزاد المسير ٦/ ١١٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٦٤.

(٥) ١/ ٢٣٥.

(٦) الصحاح (حمم) و(طسم).

بإنزال القرآن[١]. وقيل: «تِلْكَ» بمعنى هذه[٢].

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتلٌ نفسَك ومُهلِكُها. وقد مضى في «الكهف[٣]» بيانُه. ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لتركهم الإيمان. قال الفرَّاء[٤]: «أنْ» في موضع نصب؛ لأنَّها جزاء. قال النَّحَّاس[٥]: وإنَّما يُقال: «إنْ» مكسورةً؛ لأنَّها جزاء، كذا المُتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: «أنْ» في موضعِ نصبِ مفعولٍ من أجله، والمعنى: لعلَّكَ قاتِلٌ نفسَك لتركِهِمُ الإيمان.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي: معجزةً ظاهرةً وقدرةً باهرةً، فتصير معارفُهم ضروريةً، ولكِنْ سبقَ القضاءُ بأن تكون المعارفُ نظرية. وقال أبو حمزة الثُّماليُّ في هذه الآية: بلغني أنَّ هذه الآية صوتٌ[٦] يُسمَعُ من السماء في النِّصفِ من شهر رمضان، تخرجُ به العواتق من البيوت وتضِجُّ له الأرض[٧]. وهذا فيه بعدٌ؛ لأنَّ المُرادَ قريشٌ لا غيرَهم.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ أي: فتظَلُّ أعناقُهم[٨] ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ قال مجاهد: أعناقهم: كبراؤهم[٩]. وقال النَّحَّاس: ومعروفٌ في اللغة؛ يُقال: جاءني عُنُقٌ من النَّاس أي: رؤساءُ منهم. أبو زيد والأخفش: «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم؛ يقال: جاءني عُنُقٌ من الناس

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦١ .

(٣) ١٠/ ٣٤٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٥ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٦) في (م): بلغني أن لهذه الآية صوتاً. والمثبت من (ظ).

(٧) مجمع البيان ١٩/ ١٣٨ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٨١ .

أي: جماعة[١]. وقيل: إنَّما أرادَ أصحابَ الأعناق، فحذفَ المضافَ وأقام المضاف إليه مقامَه[٢]. وقال قتادة: المعنى: لو شاءَ لأنزلَ آيةً يذِلُّون بها، فلا يلوي أحدٌ منهم عُنُقَه إلى معصية[٣]. ابن عباس: نزلَتْ فينا وفي بني أمية، ستكون لنا عليهم الدَّوْلَةُ فتَذِلُّ لنا أعناقُهم بعد معاوية. ذكره الثَّعلبي والغزنوي[٤]، والله أعلم. وخاضعينَ وخاضعةً هنا سواء. قاله عيسى بن عمر واختاره المُبرِّد[٥]. والمعنى: إنَّهم إذا ذَلَّتْ رقابُهم ذَلُّوا؛ فالإخبارُ عن الرقاب إخبارٌ عن أصحابها، ويسوغُ في كلام العرب أن تتركَ الخبرَ عن الأولِ وتُخبِرَ عن الثاني؛ قال الراجز:

طولُ اللَّيالي أسرعتْ في نَقْضي ... طَوَيْنَ طُولي وطَوَيْنَ عَرْضي[٦]

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير[٧]:

أرَى مَرَّ السنينَ أَخَذْنَ مِنِّي ... كما أَخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما جاز ذلك؛ لأنَّه لو أسقط مرَّ وطُولَ من الكلام لم يفسُدْ معناه، فكذلك ردَّ الفعلَ إلى الكناية في قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ لأنَّه لو أسقطَ الأعناقَ لَما فسدَ الكلام، ولأدَّى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فظلُّوا لها خاضعين. وعلى هذا اعتمد الفرَّاء وأبو عبيدة[٨]. والكسائيُّ يذهبُ إلى أنَّ المعنى: خاضِعيها هم، وهذا خطأٌ عند البصريِّين والفرَّاء. ومثل هذا الحذف لا يَقعُ في شيءٍ من الكلام. قاله النَّحَّاس[٩].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٢-٦٣.
(٢) النكت والعيون ٤/ ١٦٥.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٠. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٣، والطبري ١٧/ ٥٤٤-٥٤٥.
(٤) وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٣٨.
(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٣. واختيار المبرد في الكامل ٢/ ٦٦٨.
(٦) قائله الأغلب العجلي، وهو في خزانة الأدب ٤/ ٢٢٦.
(٧) في ديوانه ٢/ ٥٤٦، وقد سلف ٩/ ٣٠٤.
(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٣.
(٩) في معاني القرآن له ٥/ ٦٢ و٦٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ تقدَّم في «الأنبياء[١]». ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: أعرضوا، ومَنْ أعرضَ عن شيءٍ ولم يقبَلْه فهو تكذيبٌ له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعيدٌ لهم، أي: فسوف يأتيهم عاقبةُ ما كذَّبوا والذي استهزؤوا به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبَّهَ على عظمتِه وقدرتِه وأنَّهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لَعلِموا أنَّه الذي يستحِقُّ أن يُعبَدَ؛ إذ هو القادرُ على كلِّ شيء. والزوج: هو اللون. قاله الفرَّاء[٢]. و«كَرِيم»: حسنٌ شريف، وأصل الكرم في اللغة: الشرف والفضل، فنخلةٌ كريمةٌ أي: فاضلةٌ كثيرةُ الثمر، ورجلٌ كريمٌ: شريفٌ فاضلٌ صفوح[٣]. ونبتتِ الأرضُ وأنبتَتْ بمعنًى. وقد تقدَّم في سورة «البقرة[٤]»، والله سبحانه هو المُخرِجُ للنبات[٥] والمُنبِتُ له. ورُوي عن الشَّعبيِّ أنه قال: الناسُ من نباتِ الأرض، فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم[٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: فيما ذُكِرَ من الإنبات في الأرض؛ لدِلالتِه على أنَّ الله قادرٌ، ولا يُعجِزُه شيء[٧]. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مُصَدِّقين لِما سبقَ من علمي فيهم. و«كَانَ» هنا صلة في قول سيبويه[٨]؛ تقديره: وما أكثرُهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يُريد: المنيعُ المنتقمُ من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه[٩].

---

(١) ١٤/ ١٧١-١٧٢.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٨.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤.

(٤) بل في سورة النحل ١٢/ ٢٩٢.

(٥) كلمة «للنبات» ليست في (م).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٦.

(٧) الوسيط ٣/ ٣٥١.

(٨) الكتاب ١/ ٧٣.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ «إذْ» في موضع نصب؛ والمعنى: واتْلُ عليهم ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ويدلُّ على هذا أنَّ بعده: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ذكره النَّحّاس[١]. وقيل: المعنى: واذكُرْ إذ نادى، كما صرَّح به في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف:٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم:١٦]. وقيل: المعنى: «وإِذْ نادى رَبُّكَ موسى» كان كذا وكذا. والنداء: الدعاء بيافلان، أي: قال ربُّكَ: يا موسى ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثُمَّ أخبرَ مَنْ هم، فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فـ «قومَ» بدل[٢]، ومعنى «ألا يَتَّقُونَ»: ألا يخافون عقابَ الله؟ وقيل: هذا من الإيماء إلى الشيء؛ لأنَّه أمرَه أنْ يأتيَ القومَ الظالمين، ودلَّ قولُه: «يَتَّقونَ» على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى: قُلْ لهم: «ألا تَتَّقونَ» وجاء بالياء؛ لأنَّهم غُيَّبٌ وقتَ الخطاب، ولو جاء بالتاء لجاز. ومثله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران:١٢] بالتاء والياء[٣]. وقد قرأ عبيد بن عُمير وأبو حازم: «أَلَا تَتَّقُونَ» بتاءين[٤]، أي: قُلْ لهم: «أَلَا تَتَّقُونَ». ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي: قال موسى[٥]: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي: في الرسالة والنبوة.

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٥ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ورويت هذه القراءة عن عبد الله بن مسلم وحماد بن سلمة وأبي قلابة كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٦ ، والمحتسب ٢/ ١٢٧ ، والشاذة ص١٠٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ .

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ لتكذيبهم إيَّاي(١). وقراءة العامَّة «وَيَضيقُ» «وَلَا يَنْطَلِقَ» بالرفع على الاستئناف(٢). وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة: «ويَضِيقَ» «وَلَا يَنْطَلِقَ» بالنصب فيهما ردًّا على قوله: «أَنْ يُكَذِّبُونِ»(٣). قال الكسائي: القراءةُ بالرفع؛ يعني في ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ من وجهين: أحدهما الابتداء، والآخر بمعنى: وإنِّي يضيقُ صدري ولا ينطلق لساني، يعني: نسَقاً على «إنِّي أخافُ»(٤). قال الفرَّاء: ويُقرأُ بالنَّصب(٥). حُكيَ ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر، وكلاهما له وجه. قال النَّحَّاس: الوجه الرفع؛ لأنَّ النَّصبَ عطفٌ على «يُكَذِّبُونِ» وهذا بعيدٌ يدلُّ على ذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨] فهذا يدل على أن هذا(٦) كذا(٧). ومعنى، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ في المُحاجَّةِ على ما أُحِبُّ؛ وكان في لسانه عُقْدةٌ على ما تقدَّم في «طه(٨)». ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ أرسِلْ إليه جبريلَ بالوحي، واجعَلْه رسولاً معي ليؤازِرَني ويُظاهِرَني ويُعاونني(٩). ولم يذكُرْ هنا لِيُعينني؛ لأنَّ المعنى كان معلوماً، وقد صرَّح به في سورة «طه» [الآية: ٢٩]: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ وفي القصص [الآية: ٣٤]: ﴿أرسله مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾، وكأنَّ موسى أذِنَ له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استِعْفاءً من الرسالة، بل طلبَ مَنْ يُعِينُه. ففي هذا دليلٌ على أنَّ من لا يستقِلُّ بأمرٍ، ويخافُ من نفسه تقصيراً، أن يأخذَ مَنْ يستعين به عليه، ولا

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٢، وزاد المسير ٦/ ١١٨.
(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٧١.
(٣) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٥.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥.
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٨ ورجح وجه الرفع.
(٦) في (م): هذه.
(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥.
(٨) ١٤/ ٥١ - ٥٢.
(٩) الوسيط ٣/ ٣٥١ بنحوه.

يَلْحَقُه في ذلك لَوْم.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ الذنبُ هنا قتلُ القِبطي[(١)]، واسمه فاثور على ما يأتي في «القصص» بيانه[(٢)]، وقد مضى في «طه» ذِكْرُه[(٣)]. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودلَّ على أنَّ الخوفَ قد يصحَبُ الأنبياءَ والفُضَلاءَ والأولياءَ مع معرفتهم باللهِ، وأنْ لا فَاعِلَ إلا هو؛ إذ قد يُسلِّطُ من شاءَ على من شاء.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: كلَّا لن يقتلوك. فهو رَدْعٌ وزَجْرٌ عن هذا الظن[(٤)]، وأمْرٌ بالثِّقةِ بالله تعالى؛ أي: ثِقْ بالله، وانزجِرْ عن خوفِكَ منهم؛ فإنَّهم لا يقدرون على قَتْلِك، ولا يَقْوَون عليه. ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي: أنتَ وأخوكَ، فقد جعلتُه رسولاً معك. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي: مع آياتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يريدُ نفسَه سبحانه وتعالى. ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: سامِعون ما يقولون وما يُجاوبون[(٥)]. وإنَّما أرادَ بذلك تقويةَ قلبَيْهما وأنه يُعينُهما ويحفظُهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يُوصَفُ الباري سبحانه بذلك[(٦)]. وقد وصفَ سبحانَه نفسَه بأنَّه السَّميعُ البصير. وقال في «طه» [الآية: ٤٦]: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وقال: «مَعَكُمْ» فأجراهما مَجرى الجمع؛ لأنَّ الاثنين جماعة[(٧)]. ويجوزُ أن يكونَ لهما ولِمَنْ أُرسِلا إليه. ويجوزُ أن يكون لجميع بني إسرائيل[(٨)].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

(٢) ١٣/ ٢٥٩ وما بعده.

(٣) ١٤/ ٦٠ وما بعده.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥١.

(٦) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٤.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة[1]، والتقديرُ على هذا: إنَّا ذَوو رسالةِ ربِّ العالمين. قال الهُذليُّ:

أَلِكْني إليها وخيرُ الرَّسو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بنواحي الخَبَرْ[2]

أَلِكْني إليها معناه: أرسِلْني. وقال آخرُ:

لقد كَذَبَ الواشونَ ما بُحْتُ عندهمْ ... بِسِرٍّ ولا أرسلتُهمْ برسولِ[3]

آخر:

أَلَا أَبْلِغْ بني عَمرٍو رسولاً ... بأنِّي عن فُتَاحَتِكُمْ غنيُّ[4]

وقال العباس بن مِرْداس:

أَلَا مَنْ مُبلِغٌ عنِّي خُفَافاً ... رسولاً بَيتُ أهلِكَ مُنْتَهاها[5]

يعني رسالةً؛ فلذلك أنَّثها. قال أبو عبيدة[6]: ويجوز أن يكون الرَّسولُ في معنى

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٨٤ .

(٢) الهذلي: هو أبو ذُؤيب، والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤٦ . قوله: أعلمهم بنواحي الخبر، أي: يعرف شواكل الأمور.

(٣) قائله كثير عزة، وهو في ديوانه ص٢٧٨ ، وفيه «ليلى» بدل «بسرٍّ» و«رسيل» بدل «رسول». قال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٢٧٧ : يروى بالوجهين.

(٤) قائله الأسعر الجعفي، وهو في اللسان (فتح) وفيه: «بني بكر بن عبد» بدل «بني عمرٍو رسولاً»، وفي تاج العروس (فتح) وفيه: «ألا مَنْ مُبلِغٌ» بدل «ألا أبلغ بني»، ووقع في النسخ الخطية: «أبا» بدل «بني».

(٥) هو الحماسة البصرية ١/ ١٣ ، وخزانة الأدب ٤/ ٣٦٧ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): أبو عبيد .

الاثنين والجمع؛ تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقيل: معناه: إنَّ كلَّ واحدٍ منَّا رسولُ ربِّ العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلِقْهم وخَلِّ سبيلَهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبِدْهم، وكان فرعونُ استعبدهم أربعَ مئةِ سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستَّ مئةِ ألفٍ وثلاثينَ ألفاً. فانطلقا إلى فرعون فلم يؤذَنْ لهما سنةً في الدخول عليه، فدخلَ البوَّابُ على فرعون فقال: هاهنا إنسانٌ يزعمُ أنَّه رسولُ ربِّ العالمين. فقال فرعون: ايذن له لعلَّنا نضحَكُ منه. فدخلا عليه وأدَّيا الرسالة[١]. وروى وَهْبٌ وغيرُه: أنَّهما لمَّا دخلا على فرعون وجَداه وقد أخرج سباعاً من أُسْدٍ ونُمورٍ وفُهودٍ يتفرَّج عليها، فخافَ سُوَّاسُها أن تبطِشَ بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرعَتِ السِّباعُ إلى موسى وهارون، فأقبلَتْ تلحَسُ أقدامَهما، وتُبَصبِصُ إليهما بأذنابِها، وتُلْصِقُ خدودَها بفَخِذَيهما، فعجِبَ فرعونُ من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: «إنَّا رَسولُ رَبِّ العالمين» فعرفَ موسى؛ لأنَّه نشأ في بيته.

فـ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ على جهة المَنِّ عليه والاحتقار، أي: ربَّيناكَ صغيراً ولم نقتُلْكَ في جُملةِ مَنْ قَتَلْنا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدَّعيه؟ ثم قرَّره بقَتْلِ القِبْطيِّ بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفَعْلَةُ بفتح الفاء: المرَّةُ من الفِعْل[٢]. وقرأ الشَّعبيُّ: «فِعْلَتكَ» بكسر الفاء[٣]، والفتح أولى؛ لأنَّها للمرَّةِ الواحدة، والكسرُ بمعنى الهيئة والحال، أي: فِعْلَتكَ التي تُعرَفُ، فكيف تَدَّعي مع عِلْمنا أحوالَكَ بأنَّ اللهَ أرسلَكَ؟ وقال الشاعر:

كأنَّ مِشيتَها مِنْ بيتِ جارتِها مَرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[٤]

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧.

(٣) المحتسب ٢/ ١٢٧، والشاذة ص١٠٦.

(٤) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص٦.

ويقال: كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة[١]. ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الضحَّاك: أي: في قتلِكَ القِبطي؛ إذ هو نفسٌ لا يحِلُّ قَتْلُه. وقيل: أي: بنعمتي التي كانت لنا عليكَ من التربية والإحسان إليك. قاله ابنُ زيد[٢]. الحسن: «مِنَ الكافرينَ» في أنِّي إلهُك. السُّدِّي: «مِنَ الكافرينَ» باللهِ؛ لأنَّكَ كنتَ معنا على ديننا هذا الذي تَعيبُه[٣].

وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتلَ القِبطيَّ وبين رجوعِه نبيًّا أحدَ عشرَ عاماً غيرَ أشهر[٤]. فـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: فعلتُ تِلْكَ الفَعْلةَ يُريدُ قتلَ القِبطي ﴿وَأَنَا۠﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: من الجاهلين[٥]، فنفى عن نفسِه الكفر، وأخبر أنَّه فعلَ ذلك على الجهل[٦]. وكذا قال مجاهد؛ «مِنَ الضَّالِّينَ»: من الجاهلين[٧]. ابن زيد: من الجاهلين بأنَّ الوَكْزةَ تبلُغُ القتل[٨]. وفي مصحف عبد الله: «مِن الجاهِلِين»، ويُقال لمِن جَهِلَ شيئاً: ضلَّ عنه[٩]. وقيل: «وأنا مِنَ الضَّالِّينَ»: من النَّاسين. قاله أبو عبيدة[١٠]. وقيل: «وأنا مِنَ الضَّالِّينَ» عن النبوّةِ[١١] ولم يأتِني عن اللهِ فيه شيء[١٢]، فليس عليَّ فيما فعلْتُه في تلك الحالة توبيخٌ. وبيَّنَ بهذا أنَّ التربيةَ فيهم لا تُنافي النبوّةَ والحِلْمَ على

(١) من قوله: وقرأ الشعبي... إلى هذا الموضع في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ بنحوه .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣ . وأخرج الطبري ١٧/ ٥٥٦ قول السدي.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ .

(٥) زاد المسير ٦/ ١١٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٦ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٥٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨ .

(٩) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٧ - ٥٥٨ .

(١٠) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٧١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١١٩ .

(١١) النكت والعيون ٤/ ١٦٧ .

(١٢) الوسيط ٣/ ٣٥٢ .

الناس، وأنَّ القتلَ خطأٌ، أو في وقتٍ لم يكن فيه شرعٌ لا يُنافي النبوَّةَ.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: خرجتُ من بينكم إلى مَدْين[١] كما في سورة «القصص» [الآية: ٢١]: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وذلك حين القتل. ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ يعني النبوَّة. عن السُّدِّيِّ وغيرهِ[٢]. الزَّجَّاج: تعليمه[٣] التوراة التي فيها حكم الله[٤]. وقيل: علماً وفهماً[٥]. ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اختلف الناسُ في معنى هذا الكلام، فقال السُّدِّي والطَّبريُّ والفرَّاء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهةِ الإقرار بالنعمة، كأنَّه يقول: نعم، وتربيتُكَ نعمةٌ عليَّ من حيث عبَّدتَ غيري وتركتني، ولكن لا يدفعُ ذلكَ رسالتي[٦]. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار، أي: أتمنُّ عليَّ بأن ربيّتَني وليداً وأنتَ قدِ استعبدْتَ بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي: ليست بنعمة؛ لأنَّ الواجبَ كان ألَّا تقتُلَهم ولا تستعبِدَهم فإنَّهم قومي، فكيف تذكُرُ إحسانَكَ إليَّ على الخصوص؟! قال معناه قتادة وغيره[٧]. وقيل: فيه تقديرُ استفهام، أي: أوَ تِلكَ نعمةٌ؟ قاله الأخفش والفرَّاء أيضاً[٨]، وأنكره النَّحَّاس وغيره. قال النَّحَّاس[٩]: وهذا لا يجوز، لأنَّ ألِفَ الاستفهامِ تُحدِثُ معنى، وحَذْفُها مُحالٌ،

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٥٩ عن السدي، وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٧٢ وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٠ عن ابن السائب الكلبي.

(٣) في (م): تعليم.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٦.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٢، وأبو الليث ٢/ ٤٧٢، والبغوي ٣/ ٣٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٠ عن مقاتل.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨. وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٩، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٩.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٦١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨.

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٥ - ٦٤٦، وقول الفراء نقله عنه النحاس كما سيأتي قريباً.

(٩) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٦ - ١٧٧.

إلَّا أن يكون في الكلام أم، كما قال الشاعر:

تَـرُوحُ مِـنَ الـحَـيِّ أن تَـبْـتَـكِـرْ[١]

ولا أعلَمُ بين النَّحْويِّين اختلافاً في هذا، إلَّا شيئاً قاله الفرَّاء؛ قال: يجوزُ حَذْفُ ألفِ الاستفهامِ في أفعالِ الشَّكِّ، وحُكي: تُرَى زيداً مُنطلِقاً؟ بمعنى: أتُرى. وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنَّما أخَذَه من ألفاظ العامَّة.

قال الثعلبيُّ: قال الفرَّاء: ومن قالَ: إنَّها إنكارٌ قال: معناه: أوَ تِلْكَ نعمةٌ؟ على طريق الاستفهام، كقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. قال الشاعر:

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيلِدُ لا تُرَعْ   فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ[٢]

وأنشدَ الغَزنويُّ شاهداً على ترك الألف قولَهم:

لم أنسَ يوم الرَّحيلِ وِقْفتَها   وجَفْنُها من دموعِها شَرِقُ

وقولَها والرِّكابُ واقفةٌ   تَركتَني هكذا وتَنطَلِقُ

قلتُ: ففي هذا حذفُ ألفِ الاستفهام مع عدمِ أم خلافَ قولِ النَّحَّاس. وقال الضحَّاك: إنَّ الكلام خرجَ مخرَجَ التبكيتِ، والتبكيتُ يكونُ باستفهامٍ وبغير استفهام[٣]، والمعنى: لو لم تَقتُلْ بني إسرائيلَ لرَبَّاني أبَواي، فأيُّ نعمةٍ لكَ عليَّ؟! فأنت تمُنُّ عليَّ بما لا يجِبُ أن تمُنَّ به. وقيل: معناه: كيف تمنُّ عليَّ[٤] بالتربية وقد أهنتَ قومي؟ ومن أُهينَ قومُه ذَلَّ[٥]. و«أَنْ عَبَّدْتَ» في موضعِ رفعٍ على البدل من «نِعْمة». ويجوزُ أن تكونَ في موضع نصبٍ بمعنى: لِأَنْ عَبَّدْتَ بني إسرائيل[٦]، أي:

(١) هذا صدر بين عجزه: «وماذا يضيرُك لو تُنتظَرْ»، وقائله امرؤ القيس، وقد سلف ١/ ٢٨٣ .
(٢) قائله أبو خراش الهذلي ، وقد سلف ٦/ ٤٦٩ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٧٧ .
(٤) كلمة «عليَّ» ليست في (م).
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٤ .
(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٧ .

اتَّخذْتَهم عبيداً[١]. يُقال: عبَّدته وأعبدْته بمعنى. قاله الفرَّاء[٢]، وأنشد:

عَلَامَ يُعبِدُني قومي وقد كَثُرَتْ … فيهم أباعِرُ ما شاؤوا وعِبْدانُ[٣]

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لمَّا غلبَ موسى فرعونَ بالحُجَّةِ ولم

(١) مجاز القرآن ٢/ ٨٥.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٩.

(٣) قائله الفرزدق، وهو في اللسان (عبد).

يجدِ اللعينُ من تقريرِهِ على التربية وغيرِ ذلكَ حُجَّةً رجع إلى معارضة موسى في قوله: «رسولُ ربِّ العالمين» فاستفهمه استفهاماً عن مجهولٍ من الأشياء. قال مكيٌّ وغيرُه: كما يُستفهَمُ عن الأجناس؛ فلذلك استفهمَ بـ «ما». قال مكي: وقد وردَ له استفهامٌ بـ «من» في موضعٍ آخر، ويُشبِهُ أنَّها مواطن، فأتى موسى بالصِّفاتِ الدالَّة على الله من مخلوقاته التي لا يُشارِكُه فيها مخلوق، وقد سأل فرعونُ عن الجنسِ ولا جِنْسَ للهِ تعالى؛ لأنَّ الأجناسَ مُحدَثة، فَعَلِمَ موسى جهلَه، فأضربَ عن سؤاله، وأعلَمَه بعظيم قدرة الله التي تُبيِّنُ للسامعِ أنَّه لا مشاركةَ لفرعونَ فيها. فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراءِ والتَّعجُّبِ من سفَهِ المقالةِ إذْ كانت عقيدةُ القومِ أنَّ فرعونَ ربُّهم ومعبودُهم، والفراعنةُ قبلَه كذلك. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] فجاء بدليلٍ يفهمونه عنه؛ لأنَّهم يعلمون أنه قد كان لهم آباءُ، وأنَّهم قد فَنَوا، وأنَّه لابُدَّ لهم من مُغَيِّر، وأنَّهم قد كانوا بعدَ أن لم يكونوا، وأنَّهم لابُدَّ لهم من مُكَوِّن[2]. فقال فرعون حينئذٍ على جهةِ الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[3] أي: ليس يجيبني عمَّا أسأل، فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأنْ قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي[4]: ليس ملكُه كمُلكِكَ؛ لأنَّكَ إنَّما تملِكُ بلداً واحداً لا يجوز أمرُكَ في غيره، ويموت من لا تُحِبُّ أن يموت، والذي أرسلني يملِكُ المشرقَ والمغرب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]. وقيل: عَلِمَ موسى عليه السلام أنَّ قصْدَه في السؤال معرفةُ مَنْ سألَ عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الربِّ اليوم.

ثم لمَّا انقطعَ فرعونُ ـ لعنَه الله ـ في باب الحُجَّةِ رجعَ إلى الاستعلاءِ والتغلُّبِ، فتوعَّدَ موسى بالسَّجْنِ، ولم يقُلْ: ما دليلُكَ على أنَّ هذا الإلهَ أرسلَكَ؛ لأنَّ فيه

(١) المحرر الوجيز ٤/٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) إعراب القرآن ٣/١٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٢٢٩.

(٤) في (م): إن.

(٥) إعراب القرآن ٣/١٧٨.

الاعترافَ بأنَّ ثَمَّ إلهاً غيرُه. وفي تَوعُّدِه بالسَّجْنِ ضَعْفٌ . وكان فيما يُروى أنه يفزَعُ منه فزعاً شديداً حتى كان اللَّعينُ لا يُمسِكُ بولَه. ورُويَ أنَّ سَجْنَه كان أشدَّ من القتل. وكان إذا سجَنَ أحداً لم يُخرِجْه من سجنِهِ حتى يموت، فكان مَخُوفاً. ثم لمَّا كان عند موسى عليه السلام من أمرِ الله تعالى ما لا يُرعْهُ تَوَعُّدُ فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهةِ اللُّطفِ به والطَّمعِ في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فيتَّضِحُ لكَ به صدقي. فلمَّا سمعَ فرعون ذلك طمِعَ في أن يجِدَ أثناءه موضِعَ معارضة ﴿فَقَالَ﴾ له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[١]. ولم يَحتَجِ الشَّرطُ إلى جوابٍ عند سيبويه؛ لأنَّ ما تقدَّم يكفي منه[٢]. ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ من يدِه فكان ما أخبرَ الله من قصَّتِه. وقد تقدَّم بيانُ ذلك وشرحُه في «الأعراف[٣]» إلى آخر القصة. وقال السَّحَرةُ لمَّا توعَّدهم فرعونُ بقَطْعِ الأيدي والأرجُلِ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرَرَ علينا فيما يَلْحَقُنا من عذاب الدنيا[٤]، أي: إنَّما عذابُكَ ساعةٌ فنصبرُ لها وقد لقينا اللهَ مؤمنين. وهذا يدُلُّ على شِدَّةِ استبصارِهم وقُوَّةِ إيمانهم.

قال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعونَ أربعين سنةً إلى الإسلام، وأنَّ السَّحَرةَ آمنوا به في يومٍ واحد[٥]. يُقال: لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارُورةَ بمعنًى واحد. قاله الهَرَوي[٦]. وأنشدَ أبو عبيدة:

فـإنَّـكَ لا يَـضُـورُكَ بـعـدَ حَـوْلٍ أظـبـيٌ كـانَ أُمُّـكَ أم حِـمـارُ[٧]

وقال الجوهري[٨]: ضَارَه يَضُورُه ويَضيرُه ضَيْراً وضَوْراً، أي: ضَرَّه . قال

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٩ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٨ .

(٣) ٩/ ٢٩٢-٢٩٩ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٣ .

(٦) وقاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٩١ دون قوله: ولا ضارورة.

(٧) قائله خداش بن زهير، وهو في خزانة الأدب ٩/ ٢٨٩ .

(٨) في الصحاح (ضور).

الكسائي: سمعتُ بعضهم يقول: لا ينفعني ذلكَ ولا يَضُورني. والتَّضوُّرُ: الصِّياحُ والتَّلَوِّي عند الضرب أو الجوع. والضُّورَة بالضمِّ: الرَّجلُ الحقيرُ، الصغيرُ الشأن.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يُريدُ: نتقلبُ إلى ربٍّ كريمٍ رحيمٍ.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ، أي: لأنْ كُنَّا. وأجاز الفرَّاءُ كسْرَها على أن تكون مُجازاةً[1]. ومعنى: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفرَّاء[2]: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزَّجَّاج[3] وقال: قد رُويَ أنه آمنَ معه ستُّ مئة ألفٍ وسبعون ألفاً، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. رُويَ ذلك عن ابن مسعودٍ وغيره[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ لمَّا كان من سُنَّتهِ تعالى في عباده إنجاءُ المؤمنين المُصدِّقين من أوليائه، المعترفينَ برسالة رسلهِ وأنبيائه،

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٠، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٨٠.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٩١.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٧٣ عن ابن مسعود وأبي عبيدة.

وإهلاكَ الكافرين المُكذِّبين لهم من أعدائه، أمرَ موسى أن يخرُجَ ببني إسرائيل ليلاً وسمَّاهم عبادَه؛ لأنَّهم آمنوا بموسى. ومعنى: «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» أي: يتَّبعكم فرعونُ وقومُه لِيَرُدُّوكم[١]. وفي ضمنِ هذا الكلام تعريفُهم أنَّ اللهَ يُنجيهم منهم، فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً، فتركَ الطريقَ إلى الشام على يسارِه، وتوجَّه نحو البحر، فكان الرجلُ من بني إسرائيلَ يقول له في ترك الطريق، فيقول: هكذا أُمِرْتُ. فلمَّا أصبحَ فرعونُ وعَلِمَ بِسُرَى موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعثَ إلى مدائن مصر لِتلحَقَه العساكر، فرُوِيَ أنَّه لحِقَه ومعه مئةُ ألفِ[٢] أدْهَمٍ من الخيل حاشى[٣] سائر الألوان. ورُوِيَ أنَّ بني إسرائيل كانوا ستَّ مئةِ ألفٍ وسبعينَ ألفاً. والله أعلمُ بصِحَّته، وإنَّما اللازمُ من الآيةِ الذي يُقطَعُ به أنَّ موسى عليه السلام خرجَ بجمعٍ عظيمٍ من بني إسرائيل، وأنَّ فرعونَ تَبِعَه بأضعافِ ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعونَ ألفُ جبَّارٍ كلُّهم عليه تاجٌ، وكلُّهم أميرُ خيل. والشِّرْذِمَةُ: الجمعُ القليلُ المحتقَرُ، والجمعُ الشَّراذِمُ[٤]. قال الجوهري: الشِّرذمة: الطائفةُ من الناس، والقِطعةُ من الشيء. وثوبٌ شراذمُ أي: قِطَع[٥]. وأنشدَ الثعلبيُّ قولَ الراجز:

جاءَ الشِّتاءُ وثِيابي أخْلاقْ ... شَراذِمٌ يَضحَكُ منها النَّوَّاقْ

النَّوَّاقُ من الرجال: الذي يَروضُ الأمور ويُصلِحُها. قالَه في الصحاح[٦]. واللام في قوله: «لَشِرْذِمةٌ» لامُ توكيدٍ، وكثيراً ما تدخلُ في خبرِ إنَّ، إلَّا أن الكوفيين لا يُجيزونَ: إنَّ زيداً لَسوفَ يقوم. والدليل على أنه جائزٌ قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٦.

(٢) في المحرر الوجيز: ست مئة ألف.

(٣) في (د) و(ز) و(م): سوى، وكلاهما بمعنى.

(٤) من قوله: فخرج موسى... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٣١-٢٣٢.

(٥) الصحاح (شرذم).

(٦) (نوق)، ويروى بالتاء (التَّوَّاق) على أنه اسم ابنه. اللسان (توق).

وهذه لامُ التوكيد بعينِها وقد دخلت على سوف. قاله النَّحَّاس[١].

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: أعداءٌ لنا لمخالفتهم دينِنا وذهابِهم بأموالنِا التي استعاروها على ما تقدم. وماتت أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في «الأعراف» و«طه[٢]» مستوفًى. يُقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيظُ: الغضبُ، ومنه التغيُّظ والاغتياظ. أي: غاظونا بخروجهم من غير إذن[٣]. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: مُجتمِعٌ مُستعِدٌّ أخَذْنا حِذْرَنا وأسلِحَتنا. وقُرِئَ: «حاذِرُونَ» ومعناه معنى «حَذِرُونَ[٤]» أي: فَرِقونَ خائفون. قاله الجوهري[٥]: وقُرِئَ: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ» و «حَذِرُونَ» و«حَذُرونَ» بضمِّ الذَّالِ. حكاه الأخفش، ومعنى «حَاذِرُونَ»: مُتأهِّبون، ومعنى «حَذِرُونَ»: خائفون. قال النَّحَّاس: «حَذِرُونَ» قراءةُ المدنيين وأبي عَمرو، وقراءةُ أهلِ الكوفة: «حَاذِرُونَ»[٦] وهي معروفةٌ عن عبد الله بن مسعود وابن عباس، و«حَادِرُونَ» بالدَّالِ غيرِ المُعجَمةِ قراءةُ أبي عباد[٧]، وحكاها المهدَويُّ عن ابن أبي عمار، والماورديُّ والثعلبيُّ عن سُمَيْط بن عجلان[٨]. قال النَّحَّاس: أبو عُبيدةَ يذهبُ إلى أنَّ معنى «حَذِرُونَ» و«حَاذِرُونَ» واحد. وهو قول سيبويه، وأجاز: هو حَذِرٌ زيداً، كما يُقال: حاذرٌ زيداً، وأنشد:

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ .

(٢) ١٤/١٠٨-١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٧ دون قوله: ومنه التغيظ والاغتياظ . قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٩٢ : من قال: أغاظني، فقد لحن .

(٤) وهو قول أبي عبيدة كما سيأتي .

(٥) في الصحاح (حذر).

(٦) السبعة ص٤٧١ ، والتيسير ص١٦٥ ، والنشر ٢/ ٣٣٥ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ ، لكن الذي في مطبوعه: عن ابن أبي عمار بدل أبي عباد .

(٨) هذه القراءة في المحتسب ٢/ ١٢٨ عن ابن أبي عمار، وفي الشاذة ص١٠٦ عن ابن أبي عمار ومحمد ابن السميفع، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ عن ابن أبي عمار وسميط بن عجلان. وذكرها الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٤٠٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

حَــذِرٌ أُمــوراً لا تَــضِــيــرُ وآمِــنٌ ... مــا لَــيــسَ مُــنْــجِــيَــهُ مِــن الأقْــدارِ[١]

وزعم أبو عمر الجَرْميُّ أنه يجوز: هو حَذِرٌ زيداً على حَذْفِ مِنْ. فأمَّا أكثرُ النَّحْويِّينَ فيُفرِّقونَ بين حَذِرٍ وحاذِرٍ، منهم الكسائي والفرَّاء ومحمد بن يزيد، فيذهبون إلى أنَّ معنى حَذِرٍ: في خِلْقَتِه الحذرُ، أي: مُتيقِّظٌ مُتنبِّهٌ، فإذا كان هكذا لم يَتَعدَّ، ومعنى حاذِرٍ مُستَعِدٌّ، وبهذا جاء التفسير عن المُتقدِّمين. قال عبد الله بن مسعود في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ قال: مُؤْدون في السلاحِ والكُراع مُقْوون، فهذا ذاك بعينِه. وقوله: مُؤْدون: معهم أداة. وقد قيل: إنَّ المعنى: معنا سلاحٌ وليس معهم سلاحٌ؛ يُحرِّضهم على القتال، فأمَّا «حادِرونَ» بالدَّال المهملة فمُشْتَقٌّ من قولِهم: عينٌ حَدْرَةٌ أي: ممتلِئَةٌ، أي: نحن ممتلئون غيظاً عليهم[٢]، ومنه قول الشاعر:

وعَــيْــنٌ لــهــا حَــدْرَةٌ بَــدْرَةٌ ... شُــقَّــتْ مــآقِــيــهِــمَــا مِــنْ أُخُــرْ[٣]

وحكى أهل اللغة أنَّه يُقال: رجلٌ حادِرٌ إذا كان مُمتلِئَ اللحم[٤]، فيجوز أن يكون المعنى: الامتلاءُ من السلاح. المَهْدَويُّ: الحادر: القويُّ الشديد.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: من أرض مصر[٥]. وعن عبد الله ابن عَمرٍو قال: كانت الجنَّاتُ بحافتي النيل في الشِّقتين جميعاً من أسوانَ إلى رشيد، وبين الجنات زروعٌ. والنيل سبعةُ خِلجان: خليجُ الاسكندرية، وخليجُ سَخَا، وخليجُ دِمْياط، وخليجُ سَرْدُوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَى، متصلةٌ لا ينقطِعُ منها شيءٌ عن شيء، والزُّروعُ ما بين الخِلْجان كلِّها. وكانت أرضُ مصرَ كلُّها

---

(١) سلف ١٠/ ٢٨٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٨١ .

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٦ . قال شارحه: بدرة: تبدُر بالنظر. شُقَّت مآقيهما: تفتحت، فكأنها انشقت. من أُخُر: من مآخير العين.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٤٠٧ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٤ .

تُروى من ستةَ عشرَ ذراعاً بما دبَّروا وقدَّروا من قناطِرها وجسورِها وخلجانها[١]؛ ولذلك سُمِّي النيلُ ـ إذا غلق ستةَ عشرَ ذراعاً ـ نيلَ السلطان، ويُخلَع على ابنِ أبي الردَّاد، وهذه الحال مستمِرَّةٌ إلى الآن. وإنما قيل: نيلُ السلطان؛ لأنَّه حينئذٍ يجب الخَراجُ على الناس. وكانت أرضُ مصرَ جميعُها تُروى من إصبعٍ واحدةٍ من سبعةَ عشرَ ذراعاً، وكانت إذا غلق النيلُ سبعةَ عشرَ ذراعاً ونُوديَ عليه إصبعٌ واحدٌ من ثمانيةَ عشرَ ذراعاً، ازدادَ في خَراجِها ألفُ ألفِ دينار. فإذا خرجَ عن ذلِكَ ونُوديَ عليه إصبعاً واحداً من تسعةَ عشرَ ذراعاً نقَصَ خَراجُها ألفُ ألفِ دينار. وسببُ هذا ما كان ينصرفُ في المصالح والخِلْجان والجسور والاهتمام بعمارتها. فأمَّا الآن فإنَّ أكثرَها لا يُروى حتى يُنادى إصبعٌ من تسعةَ عشرَ ذراعاً بمقياس مصر. وأمَّا أعمالُ الصعيد الأعلى، فإنَّ بها ما لا يتكاملُ رِيُّهُ إلَّا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى[٢].

قلتُ: أمَّا أرضُ مصرَ فلا تُروى جيمعُها الآن إلَّا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لِعلُوِّ الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جُسورِها، وهو من عجائب الدنيا، وذلك أنَّه يزيد إذا انصبَّتِ المياهُ في جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلادُ كالأعلامِ لا يُوصَلُ إليها إلا بالمراكبِ والقياسات.

ورويَ عن عبد الله بن عَمرو بن العاص أنَّه قال: نِيلُ مصرَ سيدُ الأنهار، سخَّر اللهُ له كلَّ نهرٍ بين المشرق والمغرب، وذلَّلَ اللهُ له الأنهار، فإذا أرادَ اللهُ أن يُجريَ نيلَ مصرَ أمرَ كلَّ نهرٍ أن يَمُدَّه، فأمدَّتْهُ الأنهارُ بمائها، وفجَّرَ الله له عيوناً، فإذا انتهى إلى ما أراد اللهُ عزَّ وجلَّ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كلِّ ماءٍ أن يرجع إلى عنصره.

وقال قيس بن الحجاج [عمَّن حدَّثه][٣]: لمَّا افتتحَتْ مصرُ أتى أهلُها إلى عَمرو

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨١.

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨١، وأخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣.

(٣) ما بين حاصرتين من المصادر.

ابن العاص حين دخل بؤونةُ من أشْهُرِ العجم[١] فقالوا له: أيها الأميرُ، إنَّ لِنيلِنا هذا سُنَّةً لا يجري إلَّا بها. فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا: إذا كان لاثنتي عشرةَ ليلةً تخلو من هذا الشهر عَمَدْنا إلى جاريةٍ بِكْرٍ بين أبويها، فأرضَيْنا أبويها، وحَمَلْنا عليها من الحُليِّ والثيابِ أفضلَ ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عَمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإنَّ الإسلامَ يهدُمُ ما قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب[٢] ومسرى لا يجري قليلٌ ولا كثير، وهمُّوا بالجَلاء، فلما رأى ذلك عَمرو بنُ العاص كتبَ إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فأعلَمه بالقِصَّة، فكتبَ إليه عُمر بن الخطاب: إنَّكَ قد أصبتَ بالذي فعلتَ، وإنَّ الإسلامَ يهدُمُ ما قبلَه، ولا يكونُ هذا. وبعثَ إليه ببطاقةٍ في داخلِ كتابه، وكتبَ إلى عَمرو: إني بعثتُ إليكَ ببطاقةٍ داخل كتابي، فألْقِها في النيل إذا أتاك كتابي. فلمَّا قَدِمَ كتابُ عُمر إلى عَمرو بن العاص أخذَ البطاقةَ ففتحَها فإذا فيها: من عبد الله أميرِ المؤمنين عمر إلى نيلِ مصر، أمَّا بعد: فإنْ كنتَ إنما تجري من قِبَلِكَ فلا تَجْرِ، وإنْ كان اللهُ الواحدُ القهَّارُ هو الذي يُجريكَ، فنسألُ اللهَ الواحدَ القهَّارَ أن يُجرِيَكَ. قال: فألقى البطاقة في النِّيل قبل الصليب بيوم واحد[٣]، وقد تهيَّأَ أهلُ مصر للجَلاء والخروجِ منها؛ لأنَّه لا تقومُ مصلحتُهم فيها إلَّا بالنِّيل. فلما ألقى البطاقةَ في النِّيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى في ليلةٍ واحدةٍ ستةَ عشر ذراعاً، وقطعَ اللهُ تلك السُّنَّةَ السُّوءَ[٤] عن أهل مصر من تِلكَ السَّنة[٥].

---

(١) في النسخ: القبط. والمثبت من المصادر.

(٢) في (د) و(م): فأقاموا أبيب.

(٣) كلمة «واحد» من (ظ).

(٤) المثبت من المصادر، وكلمة «السوء» ليست في النسخ، وفي (ظ): «السيرة» بدل: «السنة».

(٥) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٤ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٤١)، واللالكائي في كرامات الأولياء (٦٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٣٧ من طريق ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، به. ابن لهيعة سيئ الحفظ. تهذيب التهذيب ٢/ ٤١١-٤١٣ . وفي إسناده إبهام الراوي الذي روى عنه قيس بن الحجاج.

قال كعب الأحبار: أربعةُ أنهارٍ من الجنة وضعَها اللهُ تعالى في الدنيا: سَيْحان وجَيحانُ والنيل والفرات، فسَيْحانُ نهرُ الماءِ في الجنة، وجَيْحانُ نهرُ اللَّبنِ في الجنة، والنِّيلُ نهرُ العسلِ في الجنة، والفراتُ نهر الخمرِ في الجنة(١). وقال ابن لَهيعَة: الدِّجلةُ نهرُ اللَّبنِ في الجنة.

قلت: الذي في الصحيح من هذا حديثُ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ وجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة» لفظ مسلم(٢). وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة رجلٍ من قومه قال: وحدَّث نبيُّ اللهِ ﷺ «أنَّه رأى أربعةَ أنهارٍ يخرجُ من أصلِها نهرانِ ظاهرانِ ونهرانِ باطنانِ، فقلتُ: يا جبريلُ ما هذه الأنهار؟ قال: أما النَّهرانِ الباطنانِ فنهرانِ في الجنة، وأمَّا الظَّاهرانِ فالنيلُ والفرات» لفظ مسلم(٣). وقال البخاريُّ من طريق شَريك عن أنس: «فإذا هو في السماءِ الدُّنيا بنهرينِ يَطَّرِدان، فقال: ما هذانِ النَّهرانِ يا جبريل؟ قال: هذا النِّيلُ والفراتُ عنصرُهما، ثم مضى في السماء فإذا هو بنهرٍ آخرَ عليه قصرٌ من اللؤلؤِ والزَّبرجَدِ، فضرب بيده فإذا هو مِسْكٌ أذْفَرٌ، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا هو الكوثر الذي خَبأَ لكَ ربُّك». وذكر الحديث(٤). والجمهورُ على أنَّ المُرادَ بالعيون عيونُ الماء. وقال سعيد بن جُبير: المرادُ عيون الذهب. وفي الدخان [٢٥-٢٦]: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾. قيل: إنَّهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوَّلِ مصرَ إلى آخرها(٥). وليس في الدخان «وكنوز». «وكنوز» جمع كنز، وقد مضى هذا في سورة «براءة»(٦). والمُرادُ بها هاهنا الخزائن. وقيل: الدفائن. وقال الضحَّاك:

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣، والحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١٠٤٢).

(٢) في صحيحه (٢٨٣٩). وأخرجه أحمد (٩٦٧٤).

(٣) في صحيحه (١٦٤): (٢٦٥). وأخرجه أحمد (١٧٨٣٣).

(٤) صحيح البخاري (٧٥١٧). قوله: «يطَّرِدان» أي: يجريان. النهاية (طرد).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥١.

(٦) ١٠/ ١٨١.

الأنهار. وفيه نظر؛ لأنَّ العيونَ تشملها. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد: المقام الكريم: المنابر. وكانت ألفَ مِنْبرٍ لألفِ جبَّارٍ يُعظِّمون عليها فرعونَ ومُلْكَه. وقيل: مجالس الرؤساء والأمراء. حكاه ابن عيسى، وهو قريبٌ من الأول. وقال سعيد بن جُبير: المساكن الحِسان[١]. وقال ابنُ لَهيعة: سمعتُ أنَّ المقام الكريم الفَيُّوم[٢]. وقيل: كان يوسفُ عليه السلام قد كتبَ على مجلسٍ من مجالسه: «لا إلهَ إلَّا اللهُ، إبراهيمُ خليلُ اللهِ» فسمَّاها اللهُ كريمةً بهذا. وقيل: مَرابِطُ الخيل، لتفرُّدِ الزُّعماء بارتباطها عُدَّةً وزينةً، فصار مقامُها أكرمَ منزلٍ بهذا. ذكره الماوردي[٣]. والأظهرُ أنَّها المساكنُ الحِسانُ كانت تُكرَمُ عليهم. والمَقامُ في اللغةِ يكون الموضعَ ويكون مصدراً. قال النَّحَّاس: المَقامُ في اللُّغةِ: الموضع؛ من قولك: قامَ يقومُ، وكذا المَقاماتُ واحِدُها مَقامة، كما قال:

وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ[٤]

والمقامُ أيضاً المصدَرُ من قامَ يقومُ. والمُقام بالضَّمِّ: الموضِعُ، مِنْ أقامَ. والمصدرُ أيضاً مِنْ أقامَ يُقيمُ[٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يريدُ أنَّ جميعَ ما ذكره اللهُ تعالى من الجنَّاتِ والعُيونِ والكنوزِ والمقامِ الكريمِ أورثَه اللهُ بني إسرائيل. قال الحسنُ وغيره: رجعَ بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاكِ فرعونَ وقومِه. وقيل: أرادَ بالوراثة هنا ما استعاروه من حُليِّ آلِ فرعونَ بأمر الله تعالى. قلتُ: وكلا الأمرين حصلَ لهم. والحمد لله.

(١) النكت والعيون ٤/ ١٧٢ و٥/ ٢٥١، وفيه: الحسن بدل ابن عمر.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٧٢.

(٤) قائله زهير بن أبي سلمى، وسلف ٢/ ٣٧٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٢.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: فتَبِعَ فرعونُ وقومُه بني إسرائيل. قال السُّدِّيُّ: حين أشرقتِ الشَّمسُ بالشُّعاع. وقال قتادة: حين أشرقتِ الأرضُ بالضياء. قال الزَّجَّاج[1]: يقال: شَرَقَتِ الشمسُ إذا طلعَتْ، وأشرقَتْ إذا أضاءت.

واختُلِفَ في تأخُّرِ فرعونَ وقومِه عن موسى وبني إسرائيل على قولين: أحدهما ـ لاشتغالِهم بدَفْنِ أبكارِهم في تلك الليلة؛ لأنَّ الوباءَ في تلك الليلة وقعَ فيهم، فقوله: «مُشْرِقِينَ» حالٌ لقوم فرعون. الثاني ـ إنَّ سحابةً أظلَّتْهم وظُلْمة، فقالوا: نحنُ بَعْدُ في الليل، فما تقشَّعَتْ عنهم حتى أصبحوا. وقال أبو عبيدة: معنى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾: ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعَمرو بن ميمون: «فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ» بالتشديد وألف الوصل[2]؛ أي: نحو المشرق؛ مأخوذٌ من قولهم: شرَّقَ وغرَّبَ إذا سارَ نحوَ المشرقِ والمغربِ[3]. ومعنى الكلام: قدَّرْنا أن يرثَها بنو إسرائيل فاتَّبعَ قومُ فرعونَ بني إسرائيل مُشَرِّقين فهلكوا، وورثَ بنو إسرائيلَ بلادَهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا[4]، بحيث يرى كلُّ فريقٍ صاحِبَه، وهو تفاعلٌ من الرؤية.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: قَرُبَ مِنَّا العدوُّ ولا طاقةَ لنا به[5]. وقراءةُ الجماعة: «لَمُدْرَكُونَ» بالتخفيف من أدرك. ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]. وقرأ عُبيد بن عمير والأعرج والزُّهري: «لَمُدَّرَكُونَ» بتشديد الدال من ادَّرك[6]. قال الفرَّاء[7]: حفَرَ واحتفَرَ بمعنًى واحد، وكذلك «لَمُدْرَكُونَ» و«لَمُدَّرَكُونَ»

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٩٢.

(٢) الشاذة ص١٠٧ عن الحسن والذماري، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ عن الحسن وأيوب السختياني.

(٣) من قوله: قال السدي... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٧٣.

(٤) بعدها في النسخ: الجمعان.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٧.

(٦) المحتسب ٢/ ١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ عن عبيد بن عمير والأعرج، وهي قراءة شاذة.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٠.

بمعنًى واحد. النَّحَّاس[١]: وليس كذلك يقولُ النَّحْويُّون الحُذَّاق، إنما يقولون: مُدْرَكون: مُلْحَقون، ومُدَّرَكون: مُجتَهدٌ في لَحاقهم، كما يُقال: كسبتُ بمعنى أصبْتُ وظَفِرْتُ، واكتسبْتُ بمعنى اجتهدْتُ وطلبْتُ، وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لمَّا لحِقَ فرعونُ بجمعه جَمْعَ موسى وقَرُبَ منهم، ورأتْ بنو إسرائيلَ العدوَّ القويَّ والبحرَ أمامَهم ساءت ظُنونُهم، وقالوا لموسى على جهةِ التَّوبيخِ والجَفاء: «إِنَّا لَمُدْرَكُونَ»، فردَّ عليهم قولَهم وزَجَرهم وذكَّرهم وعْدَ اللهِ سبحانه له بالهداية والظَّفر[٢]. ﴿كَلَّآ﴾ أي: لم يُدْرِكوكم[٣] ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ أي: بالنصر على العدوِّ[٤]. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيدُلُّني على طريق النجاة[٥]، فلمَّا عَظُمَ البلاءُ على بني إسرائيل، ورأَوا من الجيوشِ ما لا طاقةَ لهم بها، أمرَ اللهُ تعالى موسى أنْ يضرِبَ البحرَ بعصاه، وذلك أنَّه عزَّ وجلَّ أرادَ أن تكون الآيةُ متصلةً بموسى ومُتعلِّقةً بفعلٍ يفعله، وإلَّا فضَرْبُ العصا ليس بفارقٍ للبحر، ولا معينَ على ذلك بذاتِه إلَّا بما اقترنَ به من قدرةِ الله تعالى واختراعه[٦]. وقد مضى في «البقرة»[٧] قصةُ هذا البحر. ولمَّا انفلقَ صار فيه اثنا عشرَ طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقفَ الماءُ بينها كالطَّودِ العظيم، أي: الجبل العظيم[٨]. والطَّوْدُ: الجبل، ومنه قول امرئ القيس[٩]:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٢ .
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ - ٢٣٣ .
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ .
(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٥٥ .
(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ .
(٧) ٢/ ٨٩ - ٩٠ .
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ .
(٩) في ديوانه ص٣١٠ .

فبينا المرءُ في الأحياءِ طَوْدٌ رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فمالا[١]

وقال الأسود بن يَعْفُر:

حَلُّوا بأنْقرةٍ يَسيلُ عليهمُ ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أَطْوَادِ

جمع طود أي: جبل[٢]. فصارَ لموسى وأصحابِه طريقاً في البحر يَبَساً، فلمَّا خرجَ أصحابُ موسى وتكاملَ آخِرُ أصحاب فرعون على ما تقدَّم في «يونس»[٣] انصَبَّ عليهم وغَرِقَ فرعونُ، فقال بعضُ أصحاب موسى: ما غَرِقَ فرعونُ؛ فنبذَ على ساحلِ البحرِ حتى نظروا إليه.

وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرجَ مع موسى عليه السلام رَجُلانِ من التُّجارِ إلى البحر، فلمَّا أتَوا إليه قالا له: بِمَ أمرَكَ الله؟ قال: أُمِرتُ أن أضرِبَ البحرَ بعصايَ هذه فيَجِفَّ[٤]. فقالا له: افعَلْ ما أمرك الله فلن يُخلِفَكَ. ثم ألْقَيا أنفُسَهما في البحر تصديقاً له، فما زالَ كذلك البحرُ حتى دخلَ فرعونُ ومَنْ معه، ثم ارتدَّ كما كان[٥]. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»[٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: قرَّبناهم إلى البحر؛ يعني فرعونَ وقومه. قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكلُّ يومٍ مَضى أو ليلةٍ سلَفَتْ فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ[٧]

أبو عبيدة[٨]: «أَزْلَفْنَا»: جمعنا، ومنه قيل لليلة المزدلفة: ليلة جَمْع.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٧٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٥ ، والبيت ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٨٦ من غير نسبة.

(٣) ١١/ ٤٥ .

(٤) المثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي، وفي (د) و(ز): فينغرق، وفي (م): فينغلق .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٣ .

(٦) ٢/ ٩٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٧٥ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٨٧ .

وقرأ عبد الله بن الحارثِ وأُبيٌّ بن كعب وابن عباس: «وَأَزْلَقْنَا» بالقاف[١] على معنى أهلكناهم، من قوله: أزلقَتِ الناقةُ وأزلقَتِ الفرسُ فهي مُزْلِقٌ إذا أزلقَتْ ولدَها[٢].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه[٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ أي: علامةً على قدرة الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنَّه لم يؤمن من قوم فرعونَ إلَّا مؤمن آل فرعون واسمه حِزْقيل[٤]، وابنتُه آسية امرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى[٥] العجوز التي دلَّت على قبر يوسف الصِّدِّيق عليه السلام[٦]. وذلك أنَّ موسى عليه السلام لمَّا خرجَ ببني إسرائيل من مصر أظلمَ عليهم القمرُ فقالَ لقومه: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسفَ عليه السلام لمَّا حضره الموتُ أخذَ علينا موثقاً من الله ألَّا نَخرُجَ من مصر حتى نَنقُلَ عظامَه معنا. قال موسى: فأيُّكم يدري أين[٧] قبرُه؟ قال: ما يعلَمُه إلَّا عجوزٌ لبني إسرائيل. فأرسلَ إليها، فقال: دُلِّيني على قبر يوسف. قالت: لا واللهِ لا أفعَلُ حتى تُعطيني حُكمي. قال: وما حُكمها؟ قالت: حُكمي أنْ أكونَ معكَ في الجنة. فثَقُلَ عليه، فقيل له: أعطِها حُكمَها. فدلَّتهُمْ عليه، فاحتفَروه واستخرَجوا عظامَه، فلمَّا أقلُّوها، فإذا الطريقُ مثلُ ضوءِ النهار[٨]. في روايةٍ: فأوحى الله إليه أنْ أعْطِها، ففعل، فأتَتْ بهم إلى بُحيرة، فقالت لهم: أنْضِبوا

---

(١) في المحتسب ٢/ ١٢٩ عن عبد الله بن الحارث، والشاذة ص١٠٧ عن أُبي وابن عباس رضي الله عنهما. وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٧ عن ابن مسعود وأبي رجاء والضحاك وابن يعمر.

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١ بنحوه.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٥.

(٤) في الوسيط: خربيل.

(٥) في الوسيط: موشا، وفي تفسير البغوي: مأمويا.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٥٥، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٨.

(٧) كلمة «أين» من (ظ).

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٧٤.

هذا الماء . فأنْضَبوه، واستخرجوا عظامَ يوسف عليه السلام، فتبيَّنت لهم الطريقُ مثلَ ضوءِ النهار[١]. وقد مضى في «يوسف»[٢].

وروى أبو بُردةَ عن أبي موسى، أنَّ رسول الله ﷺ نزلَ بأعرابيٍّ فأكرمَه، فقال رسول الله ﷺ: «حاجَتُكَ؟» قال: ناقةٌ أرحَلُها، وأعنُزاً أحْلُبُها. فقال رسول الله ﷺ: «فَلِمَ عَجَزْتَ أن تكونَ مثلَ عجوزِ بني إسرائيل؟» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حالَ هذه العجوز التي احتكمَتْ على موسى أن تكون معه في الجنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نبَّه المشركين على فَرْطِ جهلِهم إذْ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينِه وهو أبوهم. والنبأُ الخبر[٤]؛ أي: اقصُصْ عليهم يا محمدُ خبرَه وحديثَه وعَيْبَه على قومه ما يعبدون[٥]. وإنما قال ذلك مُلزِماً لهم الحُجَّة. والجمهورُ من القُرَّاء على تخفيف الهمزة الثانية، وهو أحسن الوجوه؛ لأنَّهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمةٍ واحدةٍ نحو آدم. وإن شئتَ حقَّقتَهما فقلتَ: «نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ». وإن شئتَ خفَّفتَهما فقلتَ: «نبا ابراهيم». وإن شئتَ خفَّفتَ الأولى. وثَمّ

(١) أخرجها أبو يعلى (٧٢٥٤)، وابن حبان (٧٢٣)، والحاكم ٢/ ٥٧١-٥٧٢ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف.

(٢) ١١/ ٤٦٢ .

(٣) هو تتمة حديث أبي موسى السالف.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٥ .

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٩ بنحوه .

خامسٌ إلا أنَّه بعيدٌ في العربية، وهو أن تُدْغَمَ الهمزةُ في الهمزة كما يُقال: رأَّاس للذي يبيع الرؤوس، وإنما بَعُدَ لأنك تجمَعُ بين همزتين كأنَّهما في كلمةٍ واحدة، وحَسُنَ في فَعَّال؛ لأنه لا يأتي إلا مُدغماً[1].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ تعبدون؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وكانت أصنامُهم من ذهبٍ وفضةٍ ونحاسٍ وحديدٍ وخشب. ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي: فنقيمُ على عبادتها. وليس المرادُ وقتاً معيَّناً، بل هو إخبارٌ عمَّا هم فيه. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب. فيُقال: ظلَّ يفعل كذا، إذا فعلَه نهاراً، وبات يفعل كذا، إذا فعله ليلاً[2].

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ قال الأخفش: فيه حذف، والمعنى: هل يسمعون منكم؟ أو: هل يسمعون دعاءكم؟ قال الشاعر:

القائدُ الخيلَ مَنْكُوباً دَوابِرُها قد أُحْكِمتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقا[3]

قال: والأَبَق الكَتَّان فحذف. والمعنى: وأُحكِمتْ حكماتِ الأَبَق[4]. وفي الصحاح: والأَبَق بالتحريك: القِنَّب[5]. ورُوي عن قتادة أنه قرأ: «هَلْ يُسْمِعُونَكُمْ» بضمِّ الياء، أي: هل يسمعونكم أصواتهم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾[6]؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي: هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيراً أو ضرًّا إن

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ببعضه.

(٣) قائله زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٤٩ . قال شارح الديوان: أي: قادها في الغزو فأبعد بها حتى نكبت دوابرها، والدوابر: مآخير الحوافر، أي: أكلت الأرضُ دوابرها. قد أُحكمت: أي: قد جُعل لها القِدُّ حَكَمات، والحَكَمة: التي تكون على الأنف.

(٤) نقله النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٨٢-١٨٣ عن الأخفش. وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٦ .

(٥) الصحاح (أبق).

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٨٣ ، وقراءة قتادة هذه في المحتسب ٢/ ١٢٩ ، والشاذة ص١٠٧ ، وفيه عن ابن يعمر أيضاً.

عصيتُم[١]؟! وهذا استفهامٌ لتقرير الحُجَّة، فإذا لم ينفعوكم ولم يضرُّوا فما معنى عبادتكم لها؟!

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فزعوا[٢] إلى التقليد من غير حُجَّةٍ ولا دليل. وقد مضى هذا القولُ فيه[٣].

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾من هذه الأصنام[٤] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأوَّلون[٥] ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ واحدٌ يؤدِّي عن جماعة، وكذلك يُقال للمرأة: هي عدوُّ الله وعدوَّةُ الله. حكاهما الفرَّاء. قال علي بن سليمان: من قال: عدوَّة الله وأثبتَ الهاء قال: هي بمعنى معادية، ومن قال: عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب[٦]. ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوٌّ لي إن عبَدْتُهم يوم القيامة، كما قال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. وقال الفرَّاء: هو من المقلوب، مجازُه: فإنِّي عدوٌّ لهم؛ لأنَّ مَنْ عاديتَه عاداك[٧].

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الكلبيُّ: أي: إلَّا مَنْ عَبَدَ ربَّ العالمين، أي: إلا عابِدَ ربَّ العالمين، فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزَّجَّاج: قال النَّحويُّون: هو استثناءٌ ليس من الأوَّل، وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأوَّل على أنهم كانوا يعبدون اللهَ عزَّ وجلَّ، ويعبدون معه الأصنام، فأعلَمَهم أنه تبرَّأ مما يعبدون إلا الله. وتأوَّله الفرَّاء على الأصنام وحدَها، والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتُهم عدوٌّ لي يوم

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٠ بنحوه.
(٢) في (م): فنزعوا.
(٣) ١٤/ ٢١٦.
(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٥٩.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩.
(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٨٣.
(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩.

القيامة، على ما ذكرنا[١]. وقال الجُرْجاني: تقديرُه: أفرأيتُم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، إلَّا ربَّ العالمين، فإنهم عدوٌّ لي. وإلا بمعنى دون وسوى، كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦] أي: دون الموتة الأولى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى الدين[٢]. ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي: يرزقني[٣]. ودخول «هو» تنبيهٌ على أنَّ غيرَه لا يُطعِمُ ولا يسقي، كما تقول: زيدٌ هو الذي فعل كذا، أي: لم يفعَلْه غيرُه.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: «مَرِضْتُ» رعايةً للأدب، وإلا فالمرضُ والشِّفاءُ من الله عزَّ وجلَّ جميعاً. ونظير هذا[٤] قولُ فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[٥] [الكهف: ٦٣]. ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد البعثَ، وكانوا ينسِبون الموتَ إلى الأسباب، فبيَّن أنَّ الله هو الذي يميت ويُحيي.

وكلُّه بغير ياء: «يهدين» «يشفين»؛ لأنَّ الحذفَ في رؤوس الآيِ حسنٌ؛ لتتَّفِقَ كلُّها. وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحلِّه من العربية هذه كلَّها بالياء؛ لأنَّ الياءَ

---

(١) من قوله قال أبو إسحاق... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ١٨٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٩٣، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨١.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٥٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٥.

(٤) في (م): ونظيره.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩، وذكر الآية (٧٩) من الكهف ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، والآية (٨٢) ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ بدلاً من تلك الآية.

اسمٌ، وإنما دخلتِ النونُ لِعلَّة[١]. فإن قيل: فهذه صفةٌ لجميع الخلق، فكيف جعلَها إبراهيمُ دليلاً على هدايته ولم يهتدِ بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأنَّ من أنعَمَ وجبَ أن يُطاعَ ولا يُعصى ليلتزمَ غيرُه من الطاعة ما قد التزمَها، وهذا إلزامٌ صحيح. قلت: وتجوَّز بعضُ أهل الإشارات في غوامض المعاني، فعدلَ عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بداهة[٢] العقول من أنه ليس المرادُ من إبراهيم. فقال: ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي: يُطعمني لذَّةَ الإيمان ويسقيني حلاوةَ القبول. ولهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وجهان: أحدهما ـ إذا مرضتُ بمخالفتِه شَفاني برحمته. الثاني ـ إذا مرضتُ بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحقِّ[٣]. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضتُ بالذنوب شفاني بالتوبة[٤]. وتأوَّلوا قوله: ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ على ثلاثة أوجه: فالذي يُميتني بالمعاصي يُحييني بالطاعات. الثاني: يُميتني بالخوف يُحييني بالرجاء. الثالث: يُميتني بالطمع ويُحييني بالقناعة[٥]. وقول رابع: يُميتني بالعدل ويُحييني بالفضل. وقول خامس: يُميتني بالفراق ويُحييني بالتَّلاق. وقول سادس: يُميتني بالجهل ويُحييني بالعقل، إلى غير ذلك مما ليس بشيءٍ منه مرادٌ من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذَقَ وعرفَ الحقَّ، وأما من كان في عمًى عن الحقِّ ولا يعرف الحقَّ، فكيف تُرمَزُ له الأمورُ الباطنة، وتُترَكُ الأمورُ الظاهرة؟ هذا محالٌ، والله أعلم.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٤ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): بداية. وفي (م): بدائه. والمثبت من النكت والعيون.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٧٥-١٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٧٦ .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ «أَطْمَعُ» أي: أرجو[١]. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقِّه، وبمعنى الرجاء في حقِّ المؤمنين سواه. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: «خَطَايَايَ» وقال: ليست خطيئةً واحدة. قال النَّحَّاس: خطيئةٌ بمعنى خطايا معروفٌ في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: ١١] ومعناه: بذنوبهم. وكذا: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] معناه الصلوات، وكذا «خَطِيئَتي» إن كانت خطايا. والله أعلم[٢]. قال مجاهد: يعني بخطيئتِه قولَه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقولَه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقولَه: إنَّ سارة أختُه[٣]. زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[٤] وقد مضى بيان هذا مستوفًى[٥]. وقال الزَّجَّاج: الأنبياء بشرٌ، فيجوز أن تقعَ منهم الخطيئة، نعم لا تجوز عليهم الكبائر؛ لأنَّهم معصومون عنها[٦].

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء حيث يُجازى العبادُ بأعمالهم. وهذا من إبراهيم إظهارٌ للعبودية، وإن كان يعلم أنه مغفورٌ له. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة، قلتُ: يا رسول الله، ابنُ جَدْعانَ كان في الجاهلية يصِلُ الرَّحم، ويُطعِمُ المسكين، فهل ذلك نافِعُه؟ قال: «لا ينفعُه، إنه لم يقُلْ يوماً: رَبِّ اغْفِرْ لي خطِيئتي يومَ الدِّين»[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٨٤، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٧-٨٨. وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٩٢-٥٩٣، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٦٢ - ٤٦٣. وقد سلف مرفوعاً ١٤/ ٢٢٢ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠.

(٥) ٨/ ٤٣٨.

(٦) معاني القرآن ٢/ ٩٤. قال الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٤٦: الجواب الصحيح أن يُحمل ذلك على ترك الأولى، وقد يُسمَّى ذلك خطأً، فإن من ملك جوهرةً وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار قيل: إنه أخطأ. وتركُ الأولى على الأنبياء جائز.

(٧) صحيح مسلم (٢١٤). وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢٤٦٢١)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٩٢) بنحوه.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ «حُكْماً» معرفةً بِكَ وبحدودِكَ وأحكامِكَ. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: فهماً وعلماً؛ وهو راجعٌ إلى الأول. وقال الكلبي: نبوَّةً ورسالةً إلى الخلق. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: بالنبيين من قبلي في الدرجة[1]. وقال ابن عباس: بأهل الجنة، وهو تأكيدُ قولِه: ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه. وقال مجاهد: هو الثناء الحسن[2]. قال ابن عطية: هو الثناءُ وخُلْدُ المكانةِ بإجماع المفسرين، وكذلك أجابَ اللهُ دعوتَه، وكلُّ أمةٍ تتمسَّكُ به وتُعظِّمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمدٌ ﷺ. قال مكي: وقيل: معناه: سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقول الحق، فأُجيبتِ الدعوةُ في محمدٍ ﷺ. قال ابن عطية: وهذا معنًى حسنٌ، إلَّا أنَّ لفظ الآية لا يُعطيه إلا بتحكُّمٍ على اللفظ[3]. وقال القُشيري: أرادَ الدعاءَ الحسنَ إلى قيام الساعة، فإنَّ زيادةَ الثوابِ مطلوبةٌ في حقِّ كلِّ أحد.

قلتُ: وقد فعلَ اللهُ ذلك؛ إذ ليس أحدٌ يُصلِّي على النبيِّ ﷺ إلا وهو يُصلِّي على إبراهيم، وخاصَّةً في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات، والصلاة دعاءٌ بالرحمة. والمراد باللسان القول، وأصلُه جارحةُ الكلام.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠ بنحوه، وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٦ قول ابن عباس ومقاتل، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٣٠ قول مقاتل.

(٢) قول مجاهد في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥ .

قال القُتبيُّ: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تُكنِّي العربُ بها عن الكلمة؛ قال الأعشى[١]:

إنِّـي أتَـتْـنـي لـسـانٌ لا أُسَـرُّ بِـهـا   مِن عَلْوُ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ[٢]

قال الجوهري: يُروى مِن علوُ، بضمِّ الواو وفتحها وكسرها، أي: أتاني خبر من أعلى ـ والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر[٣]. وروى أشهب عن مالكٍ قال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ لا بأس أن يُحِبَّ الرجلُ أن يُثنى عليه صالحاً ويُرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجهَ الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾[٤] [طه:٣٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] أي: حبًّا في قلوب عباده وثناءً حسناً، فنبَّه تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ على استحباب اكتساب ما يُورِثُ الذِّكرَ الجميل[٥]. الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قد ماتَ قومٌ وهُمْ في النَّاسِ أحْياءُ[٦]

قال ابن العربي[٧]: قال المحقِّقون من شيوخ الزهد: في هذا دليلٌ على الترغيب في العمل الصالح الذي يُكسب الثناء الحسن؛ قال النبيُّ ﷺ: «إذا مات ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلا من ثلاث» الحديث[٨]. وفي روايةٍ: إنه كذلك في الغرس والزرع، وكذلك

---

(١) وهو أعشى باهلة كما في إصلاح المنطق ص٣٠، والكامل ٣/ ١٤٣١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص١١١.

(٣) الصحاح (سخر) من قوله: والتأنيث للكلمة... إلى هذا الموضع.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٤.

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٣٣.

(٦) هذا عجز بيتٍ صدره: «موت التقيِّ حياةٌ لا انقطاع لها»، وقائله سابق بن عبد الله البربري، وهو في زهر الأكم في الأمثال والحكم ١/ ١٧٤-١٧٥.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٤.

(٨) كلمة الحديث من (م)، والحديث سلف ١/ ٨.

فيمن ماتَ مرابطاً يُكتَبُ له عملُه إلى يوم القيامة. وقد بينّاه في آخر «آل عمران»[١] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ دعاءٌ بالجنة وبمن يرثها، وهو يردُّ قولَ بعضهم: لا أسألُ جنةً ولا ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ كان أبوه وعدَه في الظاهر أن يؤمن به، فاستغفرَ له لهذا، فلمَّا بانَ أنه لا يفي بما قال تبرَّأَ منه. وقد تقدَّم هذا المعنى[٢]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: المشركين[٣]. و«كان» زائدة.

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، ولا تعذبني يوم القيامة[٤]. وفي البخاري عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ إبراهيمَ يرى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرةُ والقَتَرةُ» والغبَرة هي القتَرة. وعنه عن النبيِّ ﷺ قال: «يَلقى إبراهيمُ أباه فيقول: يا ربِّ، إنَّكَ وعدتَني ألَّا تُخزِني يومَ يُبعثون، فيقول الله تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين» انفرد بهما البخاري رحمه الله[٥].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «يومَ» الأوَّل. أي: يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ أحداً[٦]. والمراد بقوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ الأعوانَ؛ لأنَّ الابنَ إذا لم ينفَعْ فغيرهُ متى ينفع؟! وقيل: ذكَرَ البنينَ؛ لأنَّه جرى ذِكْرُ والدِ إبراهيم، أي: لم ينفعه إبراهيم.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ هو استثناءٌ من الكافرين، أي: لا ينفعه مالُه ولا بنوه.

---

(١) ٥/ ٤٨٩ .

(٢) ١٠/ ٤٠٠-٤٠١ .

(٣) الوسيط ٣/ ٤٥٦ .

(٤) سلف هذا المعنى ٥/ ٤٧٧ .

(٥) في صحيحه (٤٧٦٨-٤٧٦٩) .

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن للعكبري على هامش الفتوحات الإلهية ٤/ ١١٦ .

وقيل: هو استثناءٌ من غير الجنس، أي: لكن «مَنْ أتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ» ينفعه لسلامة قلبه[١]. وخصَّ القلبَ بالذكر؛ لأنه الذي إذا سَلِمَ سلِمَتِ الجوارح، وإذا فسدَ فسدَتْ سائرُ الجوارح. وقد تقدَّم في أوَّل «البقرة»[٢]. واختُلِفَ في القلب السليم فقيل: من الشكِّ والشرك، فأما الذنوبُ فليس يسلَمُ منها أحد. قاله قتادة وابن زيد وأكثرُ المفسرين. وقال سعيد بن المسيِّب: القلبُ السليم: الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأنَّ قلبَ الكافرِ والمنافقِ مريضٌ؛ قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ٧]. وقال أبو عثمان النَّيسابوري[٣]: هو القلبُ الخالي عن البدعة، المطمئن إلى السُّنَّة. وقال الحسين[٤]: سليمٌ من آفة المال والبنين[٥]. وقال الجُنيد: السليم في اللغة: اللديغ؛ فمعناه: أنه قلبٌ كاللديغ من خوف الله[٦]. وقال الضَّحَّاك: السليم: الخالص[٧].

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة، والله أعلم. وقد رُويَ عن عروة أنه قال: يا بَنيَّ لا تكونوا لعَّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٨]. وقال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور[٩]. وفي «صحيح مسلم» من حديث

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٨ .

(٢) ١/ ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) في (د) و(ز): الساري، وفي (ظ) و(م): السيَّاري، والصواب: أبو عثمان النيسابوري: واسمه سعيد بن أبي سعيد، المعروف بالعيَّار، وهو عالم زاهد، توفي سنة ٤٥٧هـ. السير ١٨/ ٨٦-٨٩ .

(٤) وهو ابن الفضل، وقد سلف مراراً. ووقع في (م): الحسن .

(٥) من قوله: واختلف في القلب السليم... إلى هذا الموضع في تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠ . وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٦ قول ابن المسيب.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥-٢٣٦ ، وزاد المسير ٦/ ١٣١ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٧٧ .

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٥ .

(٩) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٩٠ .

أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئِدتُهم مثلُ أفئدةِ الطير»(١) يريد ـ والله أعلم ـ أنها مثلُها في أنَّها خاليةٌ من كلِّ ذنب، سليمةٌ من كلِّ عيب، لا خبرة لهم بأمور الدنيا، كما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ قال: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ» وهو حديث صحيح(٢). أي: البُلْه عن معاصي الله. قال الأزهري(٣): الأبلَهُ هنا: هو الذي طُبِعَ على الخير، وهو غافلٌ عن الشَّرِّ لا يعرفه. وقال القُتبيُّ(٤): البُلْهُ: هم الذين غلبَتْ عليهم سلامةُ الصُّدورِ وحسنُ الظَّنِّ بالناس.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِّبت وأُدنِيتْ ليدخلوها(٥). وقال

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٤٠). وأخرجه أحمد (٨٣٨٢).

(٢) بل هو ضعيف، فقد أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٩٨٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٨٢)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٦٠، والقضاعي في مسند الشهاب (٩٩٠)، والبيهقي في الشعب (١٣٦٧) من طريق سلامة بن روح، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس مرفوعاً. سلامة بن روح قال فيه أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي محله عندي محل الغفلة، وقد عدَّ هذا من منكراته، ثم هو لم يسمع من جد أبيه عقيل بن خالد، إنما أخذ من كتبه.

وأخرجه القضاعي (٩٨٩) من طريق عبد السلام بن محمد الأموي، عن سعيد بن كثير بن عفير، عن يحيى بن أيوب، عن عقيل، به. عبد السلام بن محمد قال فيه الدارقطني: ضعيف جداً. وقال الخطيب: صاحب مناكير.

(٣) في تهذيب اللغة ٦/ ٣١٢.

(٤) في غريب الحديث ١/ ١٠٩.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٧.

الزَّجَّاج: قرب دخولهم إياها ونظرهم إليها .﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي: أُظْهِرت[١] ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي: للكافرين الذين ضلُّوا عن الهدى. أي: تظهر جهنَّم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الرَّوعَ والحُزن، كما يستشعر أهلُ الجنة الفرحَ؛ لعِلْمِهم أنَّهم يدخلون الجنة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد[٢] ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم[٣]. وهذا كلُّه توبيخ[٤]. ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ أي: قُلبوا على رؤوسهم. وقيل: دُهْوِروا وأُلقيَ بعضُهم على بعض. وقيل: جُمعوا. مأخوذٌ من الكَبْكَبَة وهي الجماعة. قاله الهرويّ. وقال النحَّاس: هو مُشتقٌّ من كَوْكَبِ الشيءِ أي: مُعظمه. والجماعة من الخيل كَوْكَبٌ وكَبْكَبة[٥]. وقال ابن عباس: جُمِعوا فطُرِحوا في النار. وقال مجاهد: دُهْوِروا. وقال مقاتل: قُذِفوا[٦]. والمعنى واحد. تقول: دهورتَ الشيءَ إذا جمعته ثم قذفتَه في مَهْوَاةٍ. يُقال: هو يُدَهْوِرُ اللُّقَمَ إذا كبَّرها[٧]. ويقال في الدعاء: كَبَّ اللهُ عدوَّ المسلمين، ولا يُقال: أكَبَّه. وكَبْكَبَه. أي: كبَّه وقلَبَه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾[٨] والأصل: كُبِّبوا، فأُبدِلَ من الباء الوسطى كافٌ استثقالاً لاجتماع الباءات[٩]. قال السُّدِّي: الضمير في «كُبْكِبُوا» لمشركي العرب ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الآلهة ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذُرِّيته[١٠]. وقيل: كلُّ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٤ ، وعبارة: «ونظرهم إليها» منه، وفي نسخة (ظ): «ونظرهم إياها».
(٢) مجمع البيان ١٩/ ١٦١ .
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ .
(٤) زاد المسير ٦/ ١٣١ .
(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٩ .
(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ ، وقول ابن عباس ومجاهد أخرجهما الطبري ١٧/ ٥٩٧-٥٩٨ .
(٧) المحكم لابن سيده (دهر).
(٨) الصحاح (كبب) و(كبكب) و(قلب).
(٩) غريب القرآن لابن قتيبة ص٣١٨ .
(١٠) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٩ .

مَنْ دعاه إلى عبادة الأصنام فاتَّبعه[١]. وقال قَتادة والكلبي ومقاتل: «الْغَاوُونَ»: هم الشياطين[٢]. وقيل: إنَّما تُلقى الأصنامُ في النار وهي حديدٌ ونحاسٌ لِيُعذَّبَ بها غيرُهم.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذٍ. ﴿تَٱللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خسارٍ وتَبارٍ وحَيْرةٍ عن الحقِّ بيِّنةٍ إذِ[٣] اتَّخذنا مع الله آلهةً فعبدناها كما يُعبَدُ، وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: في العبادة، وأنتم لا تستطيعون الآنَ نصْرَنا ولا نَصْرَ أنفسكم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادةَ الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلَّدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: «الْمُجْرِمُونَ» إبليس وابن آدم القاتل هما أوّل من سنَّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي. ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ أي: شفعاءَ يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين[٤]. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: صديقٍ مُشفقٍ[٥]. وكان عليٌّ ﷺ يقول: عليكم بالإخوان، فإنَّهم عُدَّةُ الدنيا وعُدَّةُ الآخرة، ألا تسمَعُ إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. الزَّمخشري: وجَمَعَ الشافعَ؛ لكثرةِ الشافعين، ووحَّدَ الصديق؛ لقِلَّته، ألا ترى أنَّ الرجلَ إذا امتُحِنَ بإرهاق ظالمٍ مضَتْ جماعةٌ وافرةٌ من أهل بلده لشفاعته؛ رحمةً له وحسبةً، وإن لم تسبِقْ له بأكثرهم معرفة، وأما الصَّديق فهو الصادق في وِدادِكَ، الذي يُهِمُّه ما يُهِمُّك فأعَزُّ من بيض الأَنُوق[٦]؛ وعن بعض الحكماء أنه سُئِلَ عن الصَّديق فقال: اسمٌ لا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٤، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٩٨ بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١. وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩١، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٧٨ عن قتادة. وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٩٨.

(٣) في (د) و(ز) و(م): إذا.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ ونسب القول الأول لمقاتل والقول الثاني للكلبي. وقول عكرمة أخرجه الطبري ١٧/ ٥٩٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٠٠ عن مجاهد بلفظ: شفيق.

(٦) قال الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٤٤: الأنوق: الرَّخَمة، وعزَّ بيضُها لأنه لا يُظفر به؛ لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة.

معنى له . ويجوز أن يُريد بالصديق الجمع[١]. والحميم: القريبُ والخاصُّ، ومنه حامَّةُ الرجل، أي: أقرباؤه، وأصل هذا من الحميم: وهو الماء الحار، ومنه الحَمَّام والحُمَّى، فحامَّةُ الرَّجُلِ الذين يحرِقُهم ما أحرقَه؛ يقال: وهو حُزانَتُه، أي: يُحزِنُهم ما يُحزِنُه[٢]. ويقال: حُمَّ الشيء وأَحَمَّ إذا قَرُبَ، ومنه الحُمَّى؛ لأنها تُقَرِّبُ من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سُمِّيَ القريبُ حميماً؛ لأنَّه يَحْمَى لغضبِ صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحَمِيَّة. وقال قتادة: يُذهِبُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ مودَّةَ الصَّديق ورِقَّةَ الحميم[٣]. ويجوز: «ولا صَديقٌ حَميمٌ» بالرفع على موضع «مِن شافعينَ»؛ لأنَّ «مِن شافعينَ» في موضع رفع، وجَمْعُ صديقٍ أصدِقاءُ وصُدَقاءُ وصِداق، ولا يُقال: صُدُقٌ؛ للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيُّون أنه يُقال في جمعه: صُدْقان. النَّحَّاس: وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ هذا جمعُ ما ليس بنعتٍ، نحو: رغِيفٍ ورُغْفانٍ. وحكوا أيضاً: صديقٌ وأَصادِقُ. وأَفاعِلُ إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتاً نحو: أشجَعُ وأَشاجِعُ. ويُقال: صديقٌ للواحد والجماعة وللمرأة[٤]؛ قال الشاعر:

نَصَبْنَ الهوى ثم ارتمينَ قلوبَنَا ... بأَعْيُنِ أعداءٍ وهُنَّ صَديقُ[٥]

ويُقال: فلانٌ صُدَيِّقي، أي: أَخَصُّ أصدقائي، وإنما يُصَغَّرُ على جهة المدح، كقول حُباب بن المنذر: (أنا جُذَيْلُها المُحكَّك، وعُذَيْقُها المرَجَّب) ذكره الجوهري[٦]. النَّحَّاس: وجَمْعُ حميم أحِمَّاء وأَحِمَّة، وكرهوا أَفِعْلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ

(١) الكشاف ٣/ ١١٩ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٧٨-١٧٩ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٨٥ .

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٧٢ ، وفيه: «بِأَسْهُمِ» بدل: «بأعيُنٍ». والمعنى كما يقول شارحه: استَمِلْنَ أهواءنا فمالَتْ إليهن .

(٦) في الصحاح (صدق). الجِذْل واحد الأجذال: وهي أصول الحطب العِظام، والجِذْل المحكك: الذي يُنصب في المعاطِن لتُحكَّ به الإبل الجربى، أراد أنه يشفى برأيه وتدبيره. الصحاح (جذل) و(حكك). والعُذيق تصغير عَذْق: وهي النخلة. والترجيب هنا: إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط . المحكم لابن سيده (رجب).

﴿أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ «أنَّ» في موضع رفع، المعنى: ولو وقع لنا رجوعٌ إلى الدنيا لآمنَّا حتى يكون لنا شفعاء[١]. تمنَّوا حين لا ينفعُهم التمنِّي. وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون؛ قال جابر بن عبد الله: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليقول في الجنة: ما فَعَلَ فلانٌ وصديقُه في الجحيم[٢]، فلا يزالُ يشفَعُ له حتى يُشَفِّعَه اللهُ فيه، فإذا نجا قال المشركون: ﴿فما لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[٣]. وقال الحسن: ما اجتمعَ ملأٌ على ذِكْرِ الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنة، إلَّا شفَّعَهُ اللهُ فيهم، وإنَّ أهلَ الإيمان لَيشفَعُ بعضُهم في بعضٍ وهم عند الله شافعونَ مُشَفَّعون. وقال كعب: إنَّ الرَّجُلينِ كانا صديقينِ في الدنيا، فيَمُرُّ أحدُهما بصاحبه وهو يُجَرُّ إلى النار، فيقول له أخوه: واللهِ ما بقي لي إلا حسنةٌ واحدةٌ أنجو بها، خُذْها أنتَ يا أخي فتنجو بها مما أرى، وأبقى أنا وإيَّاكَ من أصحاب الأعراف. قال: فيأمرُ اللهُ بهما جميعاً فيدخلان الجنة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدَّم والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: «كَذَّبَتْ» والقومُ مُذكَّر؛ لأنَّ المعنى:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٥.

(٢) في (م): الجحيم، وكلاهما بمعنى.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٥٧، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩١.

كذَّبت جماعةُ قومِ نوح، وقال: «المُرْسَلين» لأنَّ مَنْ كذَّبَ رسولاً فقد كذَّب الرسل؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يأمرُ بتصديقِ جميعِ الرسل. وقيل: كذَّبوا نوحاً في النبوَّة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكَرَ الجنس والمُرادُ نوحٌ عليه السلام[١]. وقد مضى هذا في «الفرقان»[٢].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي: ابنُ أبيهم وهي أُخوَّةُ نسبٍ لا أُخوَّةَ دين[٣]. وقيل: هي أُخوَّةُ المجانسة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد مضى هذا في «الأعراف»[٤]. وقيل: هو من قولِ العرب: يا أخا بني تميم. يُريدون: يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيتُ الحماسة:

لا يَسْألونَ أخاهم حِينَ يَنْدُبُهمْ في النَّائباتِ على ما قال بُرْهانا[٥]

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تتَّقون اللهَ في عبادة الأصنام.

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: صادقٌ فيما أُبلِّغُكم عن الله تعالى. وقيل: «أَمِينٌ» فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانتَه وصِدْقَه من قبل؛ كمحمدٍ ﷺ في قريش.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فاستَتِروا بطاعة الله تعالى من عقابه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُرُكم به من الإيمان.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لا طمَعَ لي في مالكم. ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي: ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّر تأكيداً.

قوله تعالى: **﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فيه مسألتان:**

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٢) ١٥/ ٤١٠.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٥٧.

(٤) ٩/ ٢٦٢.

(٥) الكشاف ٣/ ١٢٠، والبيت في الحماسة البصرية ١/ ٢٩، وقائله قُريط بن أُنيف كما في خزانة الأدب ٧/ ٤٤١.

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾ أي: نُصدِّقُ قولَك[١]؟ ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ الواو للحال، وفيه إضمارُ قد، أي: وقدِ اتَّبعَك[٢]. «الأرْذَلونَ» جمع الأرذَل، المُكَسَّر الأراذل، والأنثى الرُّذْلَى، والجمع الرُّذَّل. قال النحَّاس: ولا يجوز حذفُ الألفِ واللامِ في شيءٍ من هذا عند أحدٍ من النَّحْويين عَلِمْناه[٣]. وقرأ ابنُ مسعود والضحَّاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم: «وَأَتْباعُكَ الأَرْذَلُون»[٤]. النحَّاس: وهي قراءةٌ حسنةٌ، وهذه الواو أكثر ما[٥] تتبعها الأسماء، والأفعال بعد. وأتباع جمع تَبَع، وتَبَع[٦] يكون للواحد والجمع؛ قال الشاعر:

لـه تَـبَـعٌ قـد يـعـلـمُ الـنـاسُ أنَّـهُ   عـلـى مـن يُـدانـي صَـيِّـفٌ ورَبِـيـعُ[٧]

وارتفاعُ «أتْباعُكَ» يجوز أن يكون بالابتداء، و«الأرْذَلُونَ» الخبر، التقدير: أنؤمِنُ لكَ وإنما أتباعك الأرذلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾ والتقدير: أنؤمِنُ لكَ نحن وأتباعُكَ الأرذلون فنُعَدُّ منهم؛ وحَسُنَ ذلكَ الفصلُ بقوله: «لَكَ»[٨] وقد مضى القول في الأراذل في سورة «هود»[٩] مستوفًى. ونزيده هنا بياناً وهي:

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٨٦.

(٤) المحتسب ٢/ ١٣١، وذكر هذه القراءة أيضاً عن طلحة وابن السميفع وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري، وهي قراءة شاذة.

(٥) في (د) و(ز) و(م): أكثرها.

(٦) في (م): وتبيع.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٠ - ٩١، والبيت نُسب في المفضليات ص٢٧٢ إلى متمِّم بن نويرة.

(٨) المحتسب ٢/ ١٣١، ومجمع البيان ١٩/ ٦٤.

(٩) ١١/ ٩٨ - ١٠٠.

الثانية: فقيل: إنَّ الذين آمنوا به بَنوه ونساؤه وكَنَّاته وبنو أبيه[١]، واختُلِفَ هل كان معهم غيرهم أم لا؟ وعلى أن الوجهين كان فالكلُّ صالحون، وقد قال نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والذين معه هم الذين اتَّبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شَيْنٌ ولا ذَمٌّ، بل الأرذلون هم المكذِّبون لهم. قال السُّهيلي: وقد أُغريَ كثيرٌ من العوام بمقالةٍ رُوِيَتْ في تفسير هذه الآية: هم الحاكَة والحجَّامون، ولو كانوا حاكةً كما زعموا لكان إيمانُهم بنبيِّ الله واتِّباعُهم له مشرِّفاً لهم[٢] كما تشرَّف بلالٌ وسَلْمانُ بسبقِهما للإسلام، فهما من وجوهِ أصحابِ النبيِّ ﷺ ومن أكابرهم، فلا ذريةُ نوحٍ كانوا حاكةً ولا حجَّامين، ولا قولُ الكَفرةِ في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتِنا ذمًّا ولا نقصاً؛ لأنَّ هذه حكايةٌ عن قولِ الكفَرةِ إلَّا أن تُجعلَ الكفرةُ حجةً ومقالتُهم أصلاً، وهذا جهلٌ عظيم[٣]. وقد أعلم الله تعالى أنَّ الصناعات ليست بضائرةٍ في الدين[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «كان» زائدة، والمعنى: وما علمي بما يعملون، أي: لم أُكلَّفِ العلمَ بأعمالهم، إنما كُلِّفتُ أن أدعوَهم إلى الإيمان[٥]، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصَّنائع، وكأنَّهم قالوا: إنما اتَّبعك هؤلاء الضعفاءُ طمعاً في العِزَّةِ والمال، فقال: إني لم أقِفْ على باطن أمرهم، وإنما إليَّ ظاهِرُهم. وقيل: المعنى: إني لم أعلَمْ أنَّ اللهَ يهديهم ويُضِلُّكم، ويُرشِدُهم ويُغويكم، ويُوفِّقُهم ويخذلُكم[٦]. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب «لو» محذوف، أي: لو شعرتُم أنَّ حسابَهم على ربِّهم لَما عِبْتُموهم

(١) في (د) و(ز) و(م): ابنه.

(٢) كلمة «لهم» ليست في (د) و(ز) و(م).

(٣) التعريف والإعلام ص١٢٤-١٢٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٧، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٣.

بصنائعهم[(١)]. وقراءة العامَّة: «تَشْعُرُونَ» بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر. وقرأ ابن أبي عَبْلَة ومحمد بن السَّمَيْفَع: «لو يَشعرون» بالياء[(٢)]، كأنَّه خبرٌ عن الكفارِ وتركِ الخطاب لهم، نحو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]. ورُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ سفيان عن امرأةٍ زنَتْ وقتلَتْ ولدَها وهي مسلمة هل يُقطَعُ لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّىۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكأنهم طلبوا منه طردَ الضُّعفاءِ كما طلبَتْه قريش.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ يعني: إنَّ الله ما أرسلني أَخُصُّ ذَوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسولٌ أُبلِّغُكم ما أُرسِلْتُ به، فمن أطاعني فذلك السعيدُ عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ أي: عن سبِّ آلهتنا وعَيْبِ ديننا[(٣)] ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ أي: بالحجارة. قاله قتادة. وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين[(٤)]. قال الثُّماليُّ: كلُّ رَجْمٍ[(٥)] في القرآن فهو القتل، إلا في مريم [الآية: ٤٦]: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ أي: لأسبَّنَّك. وقيل: «مِنَ المَرْجُومِينَ»: من المشتومين. قاله السُّدِّي. ومنه قول أبي داود[(٦)].

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِى كَذَّبُونِ . فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِى وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال ذلك

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ ، وزاد المسير ٦/ ١٣٥ .

(٢) وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٧ عن الأعرج وأبي زرعة.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٣ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ ، وزاد المسير ٦/ ١٣٥ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): مرجومين .

(٦) في (م): أبي دؤاد . وهذا الكلام في النكت والعيون ٤/ ١٧٩ ، وقول أبي داود هو:

صدَّت غُواةُ معدٍّ أن تُراجِمني كما يصدون عن لب كجفانِ

لمَّا يئِسَ من إيمانهم. والفتح الحكم وقد تقدم[١].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ يريدُ السفينة، وقد مضى ذِكْرُها[٢]. والمشحون: المملوء[٣]، والشحن: ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم[٤]. ولم يؤنِّثِ الفُلكَ هاهنا؛ لأنَّ الفُلْكَ هاهنا واحدٌ لا جمع.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: بعد إنجائنا نوحاً ومَنْ آمن[٥].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ
أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة[٦]. وتكذيبُهم المرسلين كما تقدَّم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بَيِّنُ المعنى، وقد تقدَّم.

(١) ٢/ ٢١٤.

(٢) ٢/ ٤٩٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ١٦٩.

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ الرِّيعُ: ما ارتفع من الأرض في قول ابن عباسٍ وغيره، جمع رِيعة. وكم رِيعُ أرضِكَ؟ أي: كم ارتفاعُها[١]. وقال قتادة: الرِّيع: الطريق. وهو قول الضحَّاك والكلبي ومقاتل والسُّدِّي. وقاله ابن عباسٍ أيضاً[٢]. ومنه قول المُسيَّب بن عَلَس:

فـي الآلِ يَـخْـفِـضُـهـا ويَـرفَـعُـهـا رِيـعٌ يَـلُـوحُ كـأنَّـهُ سَـحْـلُ[٣]

شبَّه الطريقَ بثوبٍ أبيض[٤]. النَّحَّاس: ومعروفٌ في اللغة[٥] أن يُقال لِما ارتفعَ من الأرض: رِيعٌ، وللطريق: رِيعٌ؛ قال الشاعر:

طِراقُ الـخَـوَافـي مـشـرقٌ فَـوْقَ رِيـعَـةٍ نَـدَى لـيـلِـهِ فـي ريـشِـه يَـتَـرقْـرَقُ[٦]

وقال عمارة: الرِّيع: الجبل، الواحد رِيعة، والجمع رِياع[٧]. وقال مجاهد: هو الفَجُّ بين الجبلين. وعنه: الثنية الصغيرة. وعنه: المنظرة[٨]. وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة. وعن مجاهد: الرِّيع: بنيان الحَمَام؛ دليله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: تلعبون[٩]؛ أي: تبنون بكلِّ مكانٍ مُرتفعٍ آيةً علَماً تلعبون بها على معنى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٢ ، والنكت والعيون ٤/ ١٨٠ ، والوسيط ٣/ ٣٥٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ . وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٠٨ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الصحاح (ريع) و(سحل).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٨٠ .

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٩٢ .

(٦) قائله ذو الرمَّة، وهو في ديوانه ١/ ٤٨٨ ، وفيه: «واقعٌ» بدل «مشرقٌ»، وقد قاله وهو يصف بازياً. قال شارحه: طِراق: بعضه على بعض. الخوافي: ما دون القوادم من جناح الطائر. يترقرق: يجيء ويذهب.

(٧) الصحاح (ريع).

(٨) أخرج تلك الأقوال الطبري ١٧/ ٦٠٨-٦٠٩ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ . وأخرج قول مجاهد الطبري ١٧/ ٦١٠ .

أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبثون بمن يمرُّ في الطريق؛ أي: تبنون بكلِّ موضعٍ مُرتفعٍ لتشرفوا على السَّابلةِ فتسخروا منهم[١]. وقال الكلبي: إنَّه عبثُ العشَّارين بأموال من يَمرُّ بهم. ذكره الماوردي[٢]. وقال ابن الأعرابي: الرِّيع: الصَّومعة، والرِّيع: البرج من الحمام يكون في الصحراء. والرِّيع: التلُّ العالي. وفي الرِّيع لغتان: كسر الراء وفتحها، وجمعها أرياع. ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: منازل. قاله الكلبي. وقيل: حُصُوناً مُشَيَّدة. قاله ابن عباس ومجاهد[٣]. ومنه قول الشاعر:

تَـرَكْـنـا ديـارَهُـم مِـنـهـم قِـفَـاراً وهَـدَّمْـنـا الـمـصـانـعَ وَالـبُـرُوجـا

وقيل: قصوراً مُشيَّدة. وقاله مجاهد أيضاً. وعنه: بروج الحمام. وقاله السُّدِّي[٤].

قلت: وفيه بُعدٌ عن مجاهد؛ لأنَّه تقدَّم عنه في الرِّيع أنه بنيان الحمام، فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجِلُ للماء تحت الأرض[٥]. وكذا قال الزَّجَّاج[٦]: إنها مصانع الماء، واحدتها مَصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ. ومنه قول لَبيد[٧]:

بَلِينا وما تَبْلَى النجومُ الطوالِعُ وتَبقَى الجبالُ بَعْدَنا والمصانِعُ

الجوهري: المَصنَعةُ: كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعَة بضَمِّ النون، والمصانع: الحصون[٨]. وقال أبو عبيدة: يُقال لكل بناء: مصنعة[٩]. حكاه

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٦.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ١٨١.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١١ عن مجاهد.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٨١.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وزاد المسير ٦/ ١٣٦. وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٤، والطبري ١٧/ ٦١١.

(٦) في معاني القرآن له ٤/ ٩٦.

(٧) في ديوانه ص١٦٨.

(٨) الصحاح (صنع).

(٩) مجاز القرآن ٢/ ٨٨.

المَهْدَوي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن: القصور العادية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كي تخلدوا. وقيل: لعلَّ استفهامٌ بمعنى التوبيخ[١]، أي: فهل تَخْلُدونَ؟ كقولك: لعلَّكَ تشتمني، أي: هل تشتمني. رُوي معناه عن ابن زيد. وقال الفرَّاء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت[٢]. وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها[٣]. وفي بعض القراءات «كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُون» ذكره النحاس[٤]. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات «كأنكم خالِدون»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطشُ: السَّطوةُ والأخذ بالعنف، وقد بَطَش به يبطُشُ ويبطِشُ بَطْشاً، وباطشَه مُباطشةً[٦]. وقال ابن عباس ومجاهد: البَطْشُ: العَسْفُ قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط[٧]. ومعنى ذلك: فعلتُم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضربٌ بالسياط[٨]. ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي[٩]. وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق. حكاه يحيى بن سَلَّام. وقال الكلبي والحسن: هو القتل على الغضب من غير تَثبُّتٍ. وكلُّه يرجع إلى قول ابن عباس. وقيل: إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفوٍ ولا إبقاء[١٠]. قال ابن العربي[١١]: ويؤيِّد ما قال مالك قولُ الله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨١ دون عبارة: لا تتفكرون بالموت، وهي في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١٢ عنهما بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٩٣، ونسبها في المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨ إلى أُبيّ، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وهي قراءة شاذة أيضاً.

(٦) الصحاح (بطش).

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٤ عن مجاهد.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٨٢.

(٩) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٥.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ١٨٢، وقول الكلبي ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨١.

(١١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٥.

بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] وذلك أنَّ موسى عليه السلام لم يَسُلَّ عليه سيفاً ولا طعنَه بِرُمح، وإنما وَكَزه وكانت منيَّتُه في وَكْزَتِه. والبطش يكون باليد، وأقلُّه الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكلُّ مذمومٌ إلا بحقٍّ.

والآية نزلت خبراً عمَّن تقدَّم من الأمم، ووعظاً من الله عزَّ وجلَّ لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمَّهم به وأنكره عليهم.

قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثيرٍ من هذه الأمة، لا سيَّما بالديار المصرية منذ وَلِيَتْها البحرية[(١)]، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون، كما في «صحيح مسلم»[(٢)] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنفانِ من أهل النار لم أرَهُما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهُنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائلة، لا يدخُلْنَ الجنةَ ولا يَجِدْنَ ريحَها، وإنَّ ريحَها ليُوجَدُ من مسيرةِ كذا وكذا». وخرَّج أبو داود[(٣)] من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتُمْ بالعِينةِ، وأخذتُمْ أذناب البقر، ورضيتُم بالزرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّطَ اللهُ عليكم ذلًّا لا ينزِعُه حتى ترجعوا إلى دينكم».

«جَبَّارِينَ»: قتَّالين. والجبَّار: القتَّال في غير حقٍّ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قاله الهروي. وقيل: الجبَّار: المتسلِّط العاتي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: بمسلَّط. قال الشاعر:

سَلَبْنَا من الجَبَّارِ بالسَّيفِ مُلْكَهُ ... عَشِيًّا وأطرافُ الرِّمَاحِ شَوَارِعُ

---

(١) هم جماعة من الأتراك المماليك اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجعلهم بطانته، وأمَّر بعضهم، وسبب تسميتهم البحرية أن التجار جلبوهم في البحر من بلاد القفجاق. السير ٢٣/ ١٩١-١٩٢.

(٢) (٢١٢٨)، وقد سلف ١٥/ ٣٤١.

(٣) في سننه (٣٤٦٢)، وقد سلف ٢/ ٢٩٦.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تقدَّم. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من الخيرات، ثم فسَّرها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: سخَّر ذلك لكم وتفضَّل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يُعبدَ ويُشكَر ولا يُكفرَ.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن كفرتُم به وأصررتُم على ذلك.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ كلُّ ذلك عندنا سواءٌ، لا نسمع منك، ولا نلوي على ما تقولُه. وروى العباس عن أبي عمرو وبِشْر عن الكسائي: «أوَعَظتَّ» مدغمةَ الظَّاء في التاء[1]، وهو بعيد؛ لأنَّ الظَّاء حرفُ إطباق، إنما يُدغَمُ فيما قَرُبَ منه جدًّا وكان مثلَه ومخرجَه.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: دينُهم. عن ابن عباس وغيره[2]. وقال الفرَّاء[3]: عادةُ الأوّلين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «خَلْقُ الأوّلينَ»، الباقون: «خُلُقُ»[4]. قال الهروي: وقولُه عز وجل: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: اختلافهم وكذبهم، ومن قرأ: «خُلُقُ الأوّلِينَ» فمعناه عادتهم، والعرب تقول: حدَّثنا فلانٌ بأحاديثِ الخَلْق، أي: بالخرافات والأحاديث المفتعلة[5]. وقال ابن الأعرابي: الخلقُ: الدين، والخلقُ: الطبع، والخلقُ: المروءة. قال النَّحَّاس[6]: «خُلُقُ الأوَّلِينَ» عند الفرَّاء يعني: عادةُ الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: «خُلُقُ الأوَّلِينَ»: مذهبُهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان،

---

(١) وذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٣٣ ، وذكر أنها رُويت عن عاصم وقرأ بها ابن محيصن وهي قراءة شاذة.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١٤ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٨١ .

(٤) السبعة ص٤٧٢ ، والتيسير ص١٦٦ .

(٥) وقاله الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨١ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٦-١٨٧ .

ومنه الحديث عن النبيِّ ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلُقاً»[١] أي: أحسنُهم مذهباً وعادةً وما يجري عليه الأمرُ في طاعة الله عزَّ وجلَّ، ولا يجوز أن يكون مَنْ كان حسنَ الخُلُقِ فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكملَ إيماناً من السَّيِّيء الخُلُقِ الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: وحُكيَ لنا عن محمد بن يزيد أنَّ معنى «خُلُقُ الأَوَّلِينَ»: تكذيبُهم وتخرُّصُهم، غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأنَّ فيها مدحَ آبائهم، وأكثرُ ما جاء القرآن في صفتهم مدحُهم لآبائهم، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وعن أبي قِلابةَ أنه قرأ: «خُلْق» بضمِّ الخاء وإسكان اللام تخفيف «خُلُقُ». ورواها ابن جُبير عن أصحاب نافع عن نافع[٢]. وقد قيل: إن معنى «خُلُقُ الأَوَّلِينَ»: دين الأوّلين[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] أي: دين الله. و«خُلُقُ الأَوَّلِينَ» عادة الأولين، حياةٌ ثم موتٌ ولا بعث[٤]. وقيل: ما هذا الذي أنكرتَ علينا من البنيان والبطش إلا عادةُ من قبلنا، فنحن نقتدي بهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نفعل.

وقيل: المعنى: خَلْقُ أجسام الأوّلين، أي: ما خَلْقُنا إلا كخَلْقِ الأوّلين الذين خُلِقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيءٌ مما تُحذِّرنا به من العذاب[٥].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: بريحِ صرصرٍ عاتيةٍ على ما يأتي في «الحاقة»[٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال بعضُهم: أسلمَ معه ثلاث مئة ألفِ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٠٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٤٢٠٤)، والترمذي (٢٦١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٩ ، وهي قراءة شاذة، والمشهور عن نافع مثل قراءة الجمهور: ﴿خُلُقُ الأوّلين﴾.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٨٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٧ بنحوه.

(٦) عند تفسير الآية (٦).

ومئون، وهلك باقيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ
﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ
ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ذكر قصة صالحٍ وقومِه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحِجْر كما تقدَّم في «الحجر»[1] وهي ذواتُ نخلٍ وزروعٍ ومياه.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ﴾ يعني: في الدنيا ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الموت والعذاب[2]. قال ابن عباس: كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم، ودلَّ على قوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] فقرَّعهم صالحٌ ووبَّخهم وقال: أتظنُّون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾؟!

الزمخشري: فإن قلتَ: لِمَ قال: «ونَخْلٍ» بعد قوله: «في[3] جَنَّاتٍ» والجنةُ[4] تتناولُ النخلَ أوَّلَ شيءٍ كما يتناول النَّعمُ الإبلَ كذلك من بين الأزواج، حتى إنهم

(١) ١٢/٢٣٨.

(٢) زاد المسير ٦/١٣٨، ومجمع البيان ١٩/١٧٣.

(٣) في النسخ: «و» بدل «في».

(٤) في (د) و(ز) و(م): والجنات.

لَيذكرون الجنةَ ولا يقصدون إلا النَّخلَ، كما يذكرون النَّعم ولا يُريدون إلا الإبل؛ قال زهير:

كَـأَنَّ عَـيْـنَـيَّ فـي غَـرْبَـي مُـقَـتَّـلَـةٍ من النَّـواضِحِ تَسْقي جَنَّةً سُحُقا[١]

يعني النخل؛ والنخلة السَّحُوق: البعيدة الطول[٢].

قلت[٣]: فيه وجهان: أحدهما: أن يَخُصَّ النخلُ بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عنها. والثاني: أن يريد بالجنَّاتِ غيرَها من الشجر؛ لأنَّ اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النَّخل. والطَّلْعَة: هي التي تطلع من النَّخلة كنصل السيف، في جوفه شماريخُ القِنوِ، والقِنو: اسمٌ للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشَماريخه[٤]. و«هَضِيمٌ» قال ابن عباس: لطيفٌ ما دام في كُفُرَّاه. والهضيمُ: اللطيف الدقيق، ومنه قولُ امرئ القيس:

عَليَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[٥]

الجوهري: ويُقال للطَّلع: هَضيم، ما لم يخرج من كُفُرَّاه؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيمُ من النساء: اللطيفةُ الكَشْحين[٦]. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المُنضَمُّ في وعائه قبل أن يظهر، ومنه رجلٌ هضيمُ الجنبين أي: مُنضَمُّهما؛ هذا قول أهل اللغة.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٣، والبيت في ديوان زهير ص٣٧، قال شارحه: المقتَّلة: المذلَّلة يعني الناقة. يقول: كأنَّ عينيَّ من كثرة دموعهما في غربَي ناقةٍ يُنضح عليها، قد قُتِّلت بالعمل حتى ذلَّت.

(٢) ينظر الصحاح (سحق).

(٣) يعني الزمخشري.

(٤) الكشاف ٣/ ١٢٣.

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٥، وصدر البيت: «إذا قلتُ هاتي نوِّليني تمايَلَتْ». قال شارحه: نوِّليني من النوال: وهو العطية. تمايلت: عطفت. ريَّا: أي: ممتلئةٌ لحماً وشحماً في موضع الخلخال من ساقيها، أي: ليست بناتئة العظام.

(٦) الصحاح (هضم).

وحكى الماورديُّ وغيره في ذلك اثني عشر قولاً: أحدهما: أنه الرُّطَبُ اللَّيِّن. قاله عكرمة. الثاني: هو المُذَنَّبُ من الرُّطَبِ. قاله سعيد بن جُبَير. قال النَّحَّاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد ـ هو ابن أبي زياد كوفيٌّ ويزيد بن أبي مريم شاميٌّ ـ «ونَخْلٌ طَلْعُها هَضيمٌ» قال: منه ما قد أَرْطَبَ ومنه مُذَنَّب. الثالث: أنه الذي ليس فيه نوى. قاله الحسن. الرابع: أنه المُتَهشِّمُ المُتفَتِّتُ إذا مُسَّ تَفتَّتَ. قاله مجاهد. وقال أبو العالية: يتهشَّمُ في الفم. الخامس: هو الذي قد ضمَرَ بركوب بعضِه بعضاً. قاله الضحَّاك ومقاتل. السادس: أنَّه المتلاصقُ بعضُه ببعض. قاله أبو صخر. السابع: أنه الطَّلْعُ حين يتفرَّقُ ويخضَرُّ. قاله الضحاك أيضاً. الثامن: أنَّه اليانِعُ النَّضيج. قاله ابن عباس. التاسع: أنَّه المُكتنِزُ قبل أن ينشَقَّ عنه القِشْرُ. حكاه ابن شجرة؛ قال:

كأنَّ حَمولةً تُجْلَى عليهِ هَضِيمٌ ما يُحَسُّ له شُقوقُ

العاشر: أنه الرِّخو. قاله الحسن. الحادي عشر: أنه الرَّخْصُ اللطيف أوَّل ما يخرج، وهو الطَّلعُ النَّضِيدُ. قاله الهروي. الثاني عشر: أنه البَرْنِيُّ[1]. قاله ابن الأعرابي؛ فعيل بمعنى فاعل، أي: هنيءٌ مريءٌ من انهضام الطعام[2]. والطَّلع: اسمٌ مشتَقٌّ من الطُّلوع وهو الظهور، ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات[3].

قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ النَّحتُ: النَّجْرُ والبَرْي؛ نحتَه يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نَحْتاً أي[4]: بَراه، والنُّحَاتةُ: البُرايَة. والمِنْحَتُ: ما يُنحَتُ به[5].

(١) وهو ضرب من التمر، أصفر مدوَّر، وهو أجود التمر. اللسان (برن).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٨٢-١٨٣ دون القول الخامس والحادي عشر والثاني عشر. وذكر النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٨٧ القول الحادي عشر. وذكر البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٥ القول الأول والرابع والخامس والعاشر. وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٣٨ الأقوال الخمسة الأولى والقول الثامن والتاسع. وأخرج الطبري القول الأول والرابع والسادس والثامن. وقال النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩٦ : هاضم مريء ولطيف.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٨٣ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): إذا.

(٥) الصحاح (نحت).

وفي «وَالصَّافَّاتِ» [٩٥] قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾. وكانوا ينحِتونها من الجبال لمَّا طالَتْ أعمارُهم وتهدَّم بناؤهم من المَدَرِ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع[١]: «فَرِهِينَ» بغير ألف، الباقون: «فَارِهِينَ» بألف[٢]، وهما بمعنًى واحدٍ في قول أبي عبيدة وغيره، مثل: «عِظَاماً نَخِرَةً» و «نَاخِرَة». وحكاه قطرب، وحكى: فَرُهَ يفرُهُ فهو فارِهٌ، وفَرِهَ يَفْرَهُ فهو فَرِهٌ وفارِهٌ إذا كان نشيطاً. وهو نصبٌ على الحال[٣]. وفرَّقَ بينهما قومٌ فقالوا: «فَارِهِينَ»: حاذقين بنَحْتِها. قاله أبو عبيدة[٤] ورُوِيَ عن ابن عباس وأبي صالح وغيرهما[٥]. وقال عبد الله بن شدَّاد: «فَارِهِينَ»: مُتجبِّرين[٦]. ورُوِيَ عن ابن عباس أيضاً أن معنى: «فَرِهِينَ» بغير ألف: أشِرِينَ بَطِرين. وقاله مجاهد[٧]. ورُوِيَ عنه: شرهين[٨]. الضحاك: كيِّسين[٩]. قتادة: مُعْجَبين. قاله الكلبي[١٠]. وعنه: ناعمين[١١]. وعنه أيضاً: آمنين. وهو قول الحسن. وقيل: مُتخيِّرين. قاله الكلبي والسُّدِّي. ومنه قول الشاعر:

إلى فَرِهٍ يُماجِدُ كلَّ أمرٍ قصدتُ له لأختبِرَ الطِّباعا

وقيل: مُتَعجِّبين. قاله خُصيف[١٢]. وقال ابن زيد: أقوياء[١٣]. وقيل: فَرِهين

(١) قوله: «ونافع» من (م).
(٢) السبعة ص٤٧٢، والتيسير ص١٦٦.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٨٨. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٨٩.
(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٨٨.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٨٧، والنكت والعيون ٤/ ١٨٣: وأخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٢١.
(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٢.
(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٨٧ ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ عن مجاهد، والنكت والعيون ٤/ ١٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦ عن ابن عباس ﵁.
(٨) النكت والعيون ٤/ ١٨٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦.
(٩) النكت والعيون ٤/ ١٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٢.
(١٠) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ عن قتادة. وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٦٢٣.
(١١) ذكره البغوي ٣/ ٣٩٦ عن عكرمة.
(١٢) من قوله: وعنه أيضاً... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٨٣.
(١٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٣.

فَرِحين. قاله الأخفش. والعرب تُعاقِبُ بين الهاء والحاء؛ تقول: مَدَهْتُه ومَدَحْتُه[١]، فالفَرِهُ: الأشِرُ الفَرِحُ، ثم الفرح بمعنى المَرح مذمومٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦].

قوله تعالى[٢]: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المُرادُ الذين عقَروا الناقة. وقيل: التسعةُ رهطٍ[٣] الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون[٤]. قال السُّدِّيُّ وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح: إنَّ قومَكَ سيَعْقِرون ناقتَك. فقال لهم ذلك، فقالوا: ما كُنَّا لِنَفْعل. فقال لهم صالح: إنَّه سيولَدُ في شهركم هذا غلامٌ يَعقِرُها ويكون هلاكُكم على يديه. فقالوا: لا يولَدُ في هذا الشهر ذَكَرٌ إلا قتلناه. فوُلِدَ لتسعةٍ منهم في ذلك الشهر، فذبحوا أبناءهم، ثم وُلِدَ للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولَدْ له قبل ذلك. وكان ابنُ العاشرِ أزرقَ أحمرَ، فنبتَ نباتاً سريعاً، وكان إذا مَرَّ بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياءً لكانوا مثل هذا. وغضبَ التسعة على صالح؛ لأنَّه كان سببَ قتْلِهم أبناءَهم، فتعصَّبوا وتقاسموا بالله لنُبيِّتَنَّه وأهلَه. قالوا: نخرجُ إلى سفرٍ فيرى الناسُ سفرَنا فنكونُ في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالحٌ إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا: ما شَهِدْنا مَهلِكَ أهلِه وإنَّا لَصادقون، فيُصدِّقوننا ويعلمون أنَّا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالحٌ لا ينام معهم في القرية، وكان يأوي إلى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظَهم، فلمَّا دخلوا الغارَ أرادوا أن يخرجوا، فسقطَ عليهم الغارُ فقتلَهم، فرأى ذلك ناسٌ ممَّن كان قدِ اطَّلَعَ على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عبادَ الله، أما رضيَ صالحٌ أن أمرَ بقتل أولادِهم حتى قتلَهم. فأجمعَ أهلُ القرية على قتل الناقة. وقال ابن إسحاق: إنما اجتمعَ التِّسعةُ على سبِّ صالحٍ بعد

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٦.

(٢) هذه العبارة من (ظ).

(٣) في (م): الرهط.

(٤) هما قول واحد، وقد ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ عن مقاتل.

عَقْرِهُم الناقةَ وإنذارِهم بالعذاب[١] على ما يأتي بيانُه في سورة النمل[٢] إن شاء الله تعالى.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ هو من السِّحرِ في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي[٣]. أي: أُصِبتَ بالسِّحرِ فبَطَلَ عقلُكَ[٤]؛ لأنَّكَ بشرٌ مثلُنا فَلِمَ تدَّعي الرسالةَ دوننا؟ وقيل: من المعلَّلين بالطعام والشراب. قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي[٥]. وهو على هذا القول من السَّحْرِ وهو الرئة[٦]، أي: بشَرٌ، لك سَحْرٌ أي: رئة، تأكل وتشرب مثلنا، كما قال لبيد[٧]:

فإنْ تسألينا فِيمَ نحنُ فإنَّنا ... عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

قال امرؤ القيس[٨]:

ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ[٩]

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولك.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس: إن كنتَ صادقاً فادْعُ اللهَ يُخرِجْ لنا من هذا الجبل ناقةً حمراءَ عُشَراءَ[١٠]، فتضعُ ونحن ننظر، وترِدُ

---

(١) عرائس المجالس ص٧٠-٧١ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٨) وما بعدها.

(٣) وذكر هذا القول عنهما البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ ، وذكره عن مجاهد النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩٧ .

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٧٣ .

(٥) وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ): امرؤ القيس ، والمثبت من (م).

(٨) في (د) و(ز) و(ظ): أيضاً، والمثبت من (م).

(٩) سلف وما قبله ٢/ ٢٧٢ .

(١٠) وهي التي بلغت في حملها عشرة أشهر. تهذيب اللغة ١/ ٤١٠ .

هذا الماء فتشرَبُ وتغدو علينا بمثله لبناً[١]. فدعا الله وفعل الله ذلك فـ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ أي: حظٌّ من الماء[٢]، أي: لكم شِرْبُ يومٍ ولها شِرْبُ يوم، فكانت إذا كان يوم شِرْبِها شربت ماءَهم كلَّه أوّلَ النهار، وتسقيهم اللَّبنَ آخِرَ النهار، وإذا كان يومُ شِرْبِهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم[٣]، ليس لهم في يوم وُرودِها أن يشربوا من شِرْبها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً. قال الفرَّاء: الشِّرب: الحظُّ من الماء[٤]. قال النَّحَّاس: فأمَّا المصدرُ فيقال فيه: شَرِبَ شَرْباً وشُرْباً وشِرْباً وأكثرها المضمومة؛ لأنَّ المكسورةَ والمفتوحةَ يشتركان مع شيءٍ آخر، فيكون الشِّرْبُ الحظَّ من الماء، ويكون الشَّرْبُ جمعَ شاربٍ، كما قال:

فقلتُ للشَّرْبِ في دُرْنَى وقد ثَمِلُوا[٥]

إلَّا أنَّ أبا عَمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرْبَ بالفتح في المصدر، ويحتجَّان برواية بعض العلماء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّها أيامُ أكلٍ وشَرْبٍ»[٦]. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا؛ لأنَّهما حرفان مُتحرِّكان من جنسٍ واحد. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذفُ الفاءِ منه، والجزم كما جاء في الأمر إلَّا شيئاً رُويَ عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ أي: على عَقْرِها لمَّا أيقَنوا بالعذاب، وذلك أنَّه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامةُ في كلِّ يوم، وندموا ولم ينفَعْهُم النَّدمُ عند مُعاينةِ العذاب. وقيل: لم ينَفْعُهم النَّدمُ؛ لأنهم لم

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٠.

(٢) قوله: «من الماء» من (م).

(٣) الوسيط ٣/ ٣٦٠ عن مقاتل.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٨.

(٥) هذا صدر بيت قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٧، وعجزه: «شيموا وكيف يشيب الشاربُ الثَّمِلُ».

قال الأصمعي: كانت دُرنى باباً من أبواب فارس دون الحيرة. وقال غيره: باليمامة. معجم ما استعجم ٢/ ٥٥٠.

(٦) سلف ٤/ ٤٦.

يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لمّا أيقنوا بالعذاب[١]. وقيل: كانت ندامتُهم على تَرْكِ الولدِ إذْ لم يقتُلوه معها. وهو بعيد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى آخرها. تقدَّم. ويُقال: إنه ما آمنَ به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانُ مئةِ رجلٍ وامرأة. وقيل: كانوا أربعةَ آلاف. وقال كعب: كان قومُ صالحٍ اثنَي عشَرَ ألفَ قبيلٍ، كلُّ قبيلٍ نحُو اثني عشَرَ ألفاً من سوى النساء والذُّرِّية، ولقد كان قومُ عادٍ مثلَهم ستَّ مرات.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ مضى معناه وقصته في «الأعراف»[٢] و«هود»[٣] مستوفًى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم، وكانوا يفعلون ذلك بالغُرباء على ما تقدَّم في «الأعراف». ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني فروجَ النساء، فإنَّ الله خلقَها للنكاح[٤]. قال إبراهيم بن مُهاجر: قال لي مجاهد: كيف يقرأ عبد الله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾؟ قلتُ:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٨.

(٢) ٨/ ٢٧٣ - ٢٨٠.

(٣) ١١/ ١٧٣ - ١٩٠.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٦١.

«وتذرونَ ما أصلحَ لكم ربُّكم من أزواجِكم» قال: الفرج، كما قال: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[1] [البقرة: ٢٢٢]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: متجاوزون لحدود الله.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن قولك هذا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: من بلدنا وقريتنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعني اللواط ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي: المُبغِضين[2]، والقِلى البغض؛ قلَيتُه أقليه قِلًى وقَلاءً[3]. قال:

فلستُ بمقليِّ الخِلالِ ولا قَالي[4]

وقال آخر:

عليكِ السلامُ لا مُلِلْتِ قريبةً ومَالَكِ عندي إنْ نأيتِ قَلَاءُ[5]

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عذابِ عملهم[6]. دعا اللهَ لمَّا أَيِسَ من إيمانهم ألَّا يُصيبَه من عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدَّم في «هود»[7].

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرَتْ في عذاب الله عزَّ وجلَّ. أي: بَقيَتْ. وأبو عبيدة يذهب إلى أنَّ المعنى: من الباقين في الهَرَمِ، أي: بَقِيَتْ حتى هَرِمَتْ[8]. قال النَّحَّاس[9]: يُقال للذاهب: غابر، والباقي: غابر، كما قال:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغْبارِها إنَّكَ لا تَدْري مَنِ النَّاتِجُ[10]

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٨، وهذه القراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٣) الصحاح (قلا).

(٤) قائله امرؤ القيس، وقد سلف ١٢/ ١٤٣.

(٥) قائله نُصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٥٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٦١، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٧) ١١/ ١٧٧.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٩. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٨٩.

(٩) في معاني القرآن له ٥/ ٩٩.

(١٠) قائله الحارث بن حلزة، وقد سلف ١٢/ ٢٢٥.

وكما قال:

فما وَنَى محمدٌ مُذْ أنْ غَفَرْ   له الإلهُ ما مَضَى وما غَبَرْ[١]

أي: ما بقي. والأغبار: بقيَّات الألبان.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم بالخَسْفِ والحَصْبِ[٢]؛ قال مقاتل: خسف اللهُ بقوم لوطٍ، وأرسل الحجارةَ على مَنْ كان خارجاً من القرية.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني الحجارة[٣] ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. وقيل: إنَّ جبريلَ خسَفَ بقريتهم وجعلَ عاليها سافلها، ثم أتبعَها اللهُ بالحجارة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمنٌ إلا بيت لوطٍ وابنتاه.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكُ: الشجرُ المُلتَفُّ الكثيرُ، الواحدة أيكة. ومن قرأ: «أصحابُ الأيكةِ» فهي الغَيضة. ومن قرأ: «لَيْكَةِ» فهو اسم

---

(١) الرجز للعجاج بن رؤبة، وقد سلف ٩/ ٢٧٩.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦١، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٣) زاد المسير ٦/ ١٤٠.

القرية . ويُقال: هما مثلُ بَكَّةَ ومكَّة. قاله الجوهري[١]. وقال النَّحَّاس[٢]: وقرأ أبو جعفر ونافع: «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ» وكذا قرأا[٣] في «ص»[٤]. وأجمعَ القُرَّاءُ على الخفضِ في التي في سورة «الحِجرِ»[٥] والتي في سورة «ق»[٦]، فيجب أن يُرَدَّ ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذْ كان المعنى واحداً. فأمَّا ما حكاه أبو عبيد من أنَّ «لَيْكَةَ» هي اسمُ القرية التي كانوا فيها، وأنَّ «الأيكة» اسمُ البلد فشيءٌ لا يثبتُ ولا يُعرَفُ من قالَه فيثبُتُ علمُه، ولو عُرِفَ مَنْ قالَه لكان فيه نظر؛ لأنَّ أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافِه.

وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قَتادة قال: أُرسِلَ شعيبٌ عليه السلام إلى أُمَّتين: إلى قومِه من أهل مَدْيَن، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكةُ: غَيضَةٌ من شجرٍ مُلْتَفّ. وروى سعيد عن قَتادة قال: كان أصحابُ الأيكةِ أهلَ غَيضَةٍ وشَجَرٍ، وكانت عامَّةُ شجرِهم الدَّومَ، وهو شجَرُ المُقْل. وروى جُوَيبر[٧] عن الضَّحَّاك قال: خرجَ أصحابُ الأيكةِ ـ يعني حين أصابهم الحرُّ ـ فانضَمُّوا إلى الغَيضَةِ والشَّجر، فأرسلَ اللهُ عليهم سحابةً فاستَظَلُّوا تحتَها، فلمَّا تتامُّوا[٨] تحتَها أُحرقوا. ولو لم يكن هذا إلا ما رُويَ عن ابن عباس قال: والأيكةُ: الشَّجَرُ. ولا نعلمُ بين أهل اللغة اختلافاً أنَّ الأيكةَ الشَّجرُ المُلتفُّ، فأمَّا احتجاجُ بعضِ منِ احتَجَّ بقراءةِ مَنْ قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنَّه في الشواذِّ[٩] «ليكة» فلا حُجَّةَ له؛ والقول فيه: إنَّ

(١) في الصحاح (أيك).
(٢) في إعراب القرآن ٣/١٨٩-١٩٠ .
(٣) في (د) و(ز) و(م): قرأ .
(٤) الآية (١٣) ، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر أيضاً. السبعة ص٤٧٣ ، والتيسير ص١٦٦ ، والنشر ٢/٣٣٦ .
(٥) الآية (٧٨).
(٦) الآية (١٤).
(٧) في جميع النسخ: ابن جبير، والصواب ما أُثبت من إعراب القرآن .
(٨) في (د) و(ز) و(م): تكاملوا . وكلاهما بمعنى .
(٩) في (د) و(ز) و(م): السواد .

أصلَه «الأيكة» ثمَّ خُفِّفَتِ الهمزةُ فأُلقيَتْ حركتُها على اللام فسقطَتْ، واستغنيتَ[١] عن ألفِ الوصل؛ لأنَّ اللامَ قد تحرَّكتْ، فلا يجوز على هذا إلَّا الخفض، كما تقول: بالأحمر تُحقِّقُ الهمزةَ، ثم تُخفِّفُها: بِلَحْمرِ، فإن شئتَ كتبتَ في الخَطِّ على ما كتبتَه أوَّلاً، وإن شئتَ كتبتَه بالحذف، ولم يَجُزْ إلا الخفضُ. قال سيبويه[٢]: واعلم أنَّ ما لا ينصرفُ إذا دخلَتْ عليه الألفُ واللامُ أو أُضيفَ انصرفَ. ولا نعلمُ أحداً خالفَ سيبويه في هذا.

وقال الخليل[٣]: الأيكةُ: غَيْضَةٌ تُنبِتُ السِّدرَ والأراكَ ونحوَهما من ناعم الشجر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقُلْ أخوهم شعيب؛ لأنَّه لم يكن أخاً لأصحابِ الأيكة في النَّسب، فلمَّا ذكر مَدْيَنَ قال: «أخاهُمْ شُعَيْباً»؛ لأنَّه كان منهم[٤]. وقد مضى في «الأعراف»[٥] القولُ في نسبه. قال ابنُ زيد: أرسلَ اللهُ شُعيباً رسولاً إلى قومِه أهلِ مدين، وإلى أهلِ البادية وهم أصحابُ الأيكة[٦]. وقاله قتادة، وقد ذكرناه[٧].

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الآية. وإنَّما كان جوابُ هؤلاءِ الرُّسُلِ واحداً على صيغةٍ واحدة؛ لأنَّهم مُتَّفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع عن أخذ الأجر على تبليغ الرسالة[٨].

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين للكيلِ والوزن[٩]. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

(١) في النسخ: واستغنت. والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) في الكتاب ٣/ ٢٢١.

(٣) في العين ٥/ ٤٢٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٧، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٤١ عن مقاتل.

(٥) ٩/ ٢٨١.

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٣.

(٧) ٩/ ٢٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٧، ومجمع البيان ١٩/ ١٧٩ بنحوه.

(٩) الوسيط ٣/ ٣٦٢، وزاد المسير ٦/ ١٤٢.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: أعطوا الحقَّ. وقد مضى في «سبحان»[١] وغيرها.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم في «هود»[٢] وغيرها. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: الجِبِلَّة: هي الخَليقة. وجُبِلَ فلانٌ على كذا، أي: خُلِقَ؛ فالخُلُقُ جِبِلَّةٌ وجُبُلَّةٌ وجِبْلَةٌ وجُبْلَةٌ وجَبْلَةٌ. ذكره النَّحَّاس في «معاني القرآن»[٣]. «والجِبِلَّة» عطفٌ على الكاف والميم[٤]. قال الهروي: الجِبِلَّةُ والجُبْلَةُ والجِبِلُّ والجُبُلُّ والجَبْلُ لغات، وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]. قال النَّحَّاس في كتاب «إعراب القرآن» له[٥]: ويُقال: جُبُلَّةٌ والجمعُ فيهما جَبَّالٌ، وتُحذَفُ الضَّمَّةُ والكسرةُ من الباء، وكذلك التشديدُ من اللام، فيُقال: جُبْلَةٌ وجُبَلٌ، ويُقال: جِبْلَةٌ وجِبَالٌ، وتُحذَفُ الهاءُ من هذا كلِّه.

وقرأ الحسن باختلافٍ عنه: «والجُبُلَّةَ الأوَّلينَ» بضمِّ الجيم والباء؛ ورُوي عن شيبةَ والأعرج[٦]. الباقون بالكسر. قال:

والموتُ أعظمُ حادثٍ ... فيما يَمرُّ على الجِبِلَّه[٧]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين يأكلون الطعامَ والشرابَ على ما تقدَّم. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي: ما نظنُّك إلَّا من الكاذبين في أنَّكَ رسولُ الله تعالى. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جانباً من السماء وقطعةً منه، فننظر إليه، كما

---

(١) ١٣/ ٧٦.

(٢) ١١/ ١٩٢.

(٣) ٥/ ١٠٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٣٩١.

(٥) ٣/ ٣٩١.

(٦) المحتسب ٢/ ١٣٢ والشاذة ص١٠٧ عن الحسن وأبي حصين، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٢ عن الحسن وابن محيصن، وزاد المسير ٦/ ١٤٢ عن الحسن وأبي مجلز وأبي رجاء وابن يعمر وابن أبي عبلة.

(٧) قائله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو في ديوانه ص٧٣.

قال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[١] [الطور: ٤٤]. وقيل: أرادوا: أنزِلْ علينا العذاب. وهو مبالغةٌ في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكِسْفُ: جمع كِسْفةٍ مثل سِدْرٍ وسِدْرةٍ[٢]. وقرأ السُّلَميُّ وحفص: «كِسَفاً» جمع كِسْفَة أيضاً: وهي القطعة والجانب، تقديره كِسْرة وكِسَر. قال الجوهري: الكِسْفة: القِطعة من الشيء؛ يُقال: أعطني كِسْفةً من ثوبك، والجمع كِسْفٌ وكِسَفٌ. ويُقال: الكِسْفُ والكِسْفَةُ واحد. وقال الأخفش: من قرأ «كِسْفاً» جعله واحداً، ومن قرأ: «كِسَفاً» جعله جمعاً. وقد مضى هذا في سورة «سبحان»[٣]. وقال الهروي: ومن قرأ: «كِسْفاً» على التوحيد فَجمعُه أكساف وكسوف، كأنه قال: أو تُسقِطه علينا طبقاً واحداً، وهو من كسفتَ الشيء كَسْفاً إذا غطَّيته[٤]. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ . قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد؛ أي: إنَّما عليَّ التبليغُ وليس العذابُ الذي سألتُم إليَّ، وهو يُجازيكم[٥]. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ قال ابن عباس: أصابهم حرٌّ شديد، فأرسلَ اللهُ سبحانه سحابةً فهربوا إليه ليستَظِلُّوا بها، فلمَّا صاروا تحتَها صِيحَ بهم فهلَكوا[٦]. وقيل: أقامَها اللهُ فوقَ رؤوسهم، وألهبَها حرًّا حتى ماتوا من الوَمَدِ[٧]. وكان من أعظم يومٍ في الدنيا عذاباً. وقيل: بعثَ اللهُ عليهم سَموماً، فخرجوا إلى الأيكة يستظِلُّون بها، فأضرمَها اللهُ عليهم ناراً فاحترقوا.

وعن ابن عباسٍ أيضاً وغيرِه: إنَّ الله تعالى فتحَ عليهم باباً من أبواب جهنَّم،

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٦٣٦، وأخرج عن ابن عباس ﷺ أنه قال: ﴿كِسَفًا﴾: قطعاً. وأخرج أيضاً عن الضحاك أنه قال: جانباً من السماء.

(٢) مجاز القرآن ٢/٩١.

(٣) عند تفسير الآية (٩٢).

(٤) المحرر الوجيز ٣/٤٨٥. وقد سلف أيضاً في سورة الإسراء.

(٥) الوسيط ٣/٣٦٢، وتفسير البغوي ٣/٣٩٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/١٠٣.

(٧) في النسخ: الرمد. والوَمَدُ: الحر الشديد مع سكون الريح. تاج العروس (ومد).

وأرسلَ عليهم هَدَّة[١] وحرًّا شديداً فأخذَ بأنفاسِهم، فدخلوا بيوتَهم، فلم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ، فأنضجهمُ الحرُّ، فخرجوا هرباً إلى البريَّة، فبعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ سحابةً فأظَلَّتْهم، فوجدوا لها برداً ورُوحاً ورِيحاً طيبةً، فنادى بعضُهم بعضاً، فلمَّا اجتمعوا تحتَ السحابة ألهبَها اللهُ تعالى عليهم ناراً، ورجفَتْ بهمُ الأرض، فاحترقوا كما يحترقُ الجرادُ في المقلى، فصاروا رَماداً، فذلك قولُه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وقولُه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقيل: إنَّ الله تعالى حبسَ عنهمُ الريحَ سبعةَ أيام، وسلَّط عليهم الحرَّ حتى أخذَ بأنفاسِهم، ولم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ، فكانوا يدخلون الأسرابَ ليتبرَّدوا فيها فيجدوها أشدَّ حرًّا من الظاهر، فهربوا إلى البريَّة، فأظلَّتهم سحابةٌ وهي الظُّلَّة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرَتْ عليهم ناراً فاحترقوا. وقال يزيد الجُرَيْريُّ: سلَّط اللهُ عليهم الحرَّ سبعةَ أيامٍ ولياليهنَّ، ثم رُفِعَ لهم جبلٌ من بعيد، فأتاه رجلٌ، فإذا تحتَه أنهارٌ وعيونٌ وشجرٌ وماءٌ بارد، فاجتمعوا كلُّهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظُّلَّة. وقال قتادة: بعثَ اللهُ شُعيباً إلى أُمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلكَ اللهُ أصحابَ الأيكة بالظُّلَّة، وأمَّا أصحاب مدين فصاح بهم جبريلُ صيحةً فهلكوا أجمعين[٢]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: آمنَ بشعيبٍ من الفئتين تِسعُ مئة نفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عادَ إلى ما تقدَّم بيانه[٣] في أوّل السُّورةِ من إعراض المشركين عن القرآن. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ «نَزَلَ» مخفَّفاً قرأ نافع

---

(١) الهَدَّة: صوتٌ ما يقع من السماء. تاج العروس (هدد).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ١٨٢.

(٣) كلمة «بيانه» من (م).

وابن كثير وأبو عمرو. الباقون: «نَزَّلَ» مشدَّداً «بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ» نصباً[(١)]، وهو اختيارُ أبي حاتم وأبي عبيد؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ﴾ وهو مصدر نزَّلَ. والحُجَّةُ لمن قرأ بالتخفيفِ أنْ يقول: ليس هذا بمصدر[(٢)]؛ لأنَّ المعنى: وإنَّ القرآنَ لَتنزيلُ ربِّ العالمين، نزَلَ به جبريلُ إليك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[(٣)] [البقرة: ٩٧] أي: يتلوه عليكَ، فيعيه قلبُك. وقيل: ليثبُتَ قلبُكَ[(٤)]. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: لئلَّا يقولوا: لَسْنا نفهمُ ما تقول. ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: وإنَّ ذِكْرَ نُزولِهِ لَفي كُتُبِ الأوَّلين، يعني الأنبياء[(٥)]. وقيل: أي: إنَّ ذِكْرَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام في كُتُبِ الأوَّلين، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والزُّبُر: الكُتُب، الواحد زَبُور، كرسول ورُسُل[(٦)]، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مجاهد: يعني عبد الله بن سَلام وسلمان وغيرهما ممَّن أسلم[(٧)]. وقال ابن عباس: بَعثَ أهلُ مكة

---

(١) وقرأ عاصم في رواية حفص عنه «نزل» بالتخفيف و«الروح» بالرفع. السبعة ص٤٧٣، والحجة للقراء السبعة ٥/ ٣٦٩.

(٢) في (م): بمقدر.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩١.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٣.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٣ - ٦٤٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٤.

(٧) أخرجه الطبري ٧/ ٦٤٤ - ٦٤٥ بنحوه، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٦٦.

إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فقالوا: إنَّ هذا لَزمانُه، وإنَّا لَنجِدُ في التوراة نعتَه وصفتَه[١]. فيرجِعُ لفظُ العلماء إلى كلِّ من كان له عِلْمٌ بكتُبِهم أسلمَ أو لم يُسلِمْ على هذا القول. وإنما صارت شَهادة أهلِ الكتاب حُجَّةً على المشركين؛ لأنَّهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنَّهم مظنونٌ بهم علمٌ.

وقرأ ابن عامر: «أَوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ». الباقون: «أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً»[٢] بالنصب على الخبر، واسم يكن «أَنْ يَعْلَمَهُ» والتقدير: أَوَ لَمْ يكُنْ لهم عِلمُ علماءِ بني إسرائيل الذين أسلموا آيةً واضحةً؟ وعلى القراءة الأولى اسم كان «آيةٌ» والخبر «أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ إسرائيل»[٣]. وقرأ عاصم الجَحْدَريُّ: «أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَماءُ بني إسرائيل»[٤].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أي: على رجلٍ ليس بعربيِّ اللسان ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ بغيرِ لُغةِ العرب لَمَا آمنوا ولَقالوا: لا نفقَه، نظيرُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ الآية [فصلت: ٤٤]. وقيل: معناه: ولو نَزَّلناه على رجلٍ ليس من العرب لَما آمنوا به أَنَفَةً وكِبراً[٥]. يُقال: رجلٌ أعجمٌ وأعجميٌّ إذا كان غيرَ فصيحٍ وإن كان عربيًّا، ورجلٌ عجميٌّ وإن كان فصيحاً يُنسَبُ إلى أصله؛ إلا أنَّ الفرَّاءَ أجازَ أن يُقال: رجلٌ عجميٌّ بمعنى أعجميٍّ[٦].

وقرأ الحسن: «على بعضِ الأعْجَمِيِّينَ» مشدَّدةً بياءينِ جعلَه نِسْبةً. ومن قرأ: «الأعْجَمِينَ» فقيل: إنه جمع أعجم. وفيه بُعد؛ لأنَّ ما كانَ من الصفات الذي مؤنَّثُه فعلاء لا يُجمَعُ بالواو والنون، ولا مؤنَّثُه[٧] بالألف والتاء؛ لا يُقال: أحمرون ولا

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٨، وزاد المسير ٦/ ١٤٥.

(٢) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠١.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٩٢، والشاذة ص١٠٧، وزاد المسير ٦/ ١٤٥ وذكر هذه القراءة أيضاً عن الشعبي والضحاك.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٩٢. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٣.

(٧) كلمة «مؤنَّثه» من النسخ الخطية، وهي ليست في (م).

حَمْراوات. وقيل: إنَّ أصلَه الأعجميِّين[١] ـ كقراءة الحسن[٢] ـ ثم حُذِفَتْ ياءُ النَّسَب، وجُعِلَ جَمْعُه بالياءِ والنونِ دليلاً عليها. قاله أبو الفتح عثمان بن جِنِّي[٣]. وهو مذهب سيبويه[٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ يعني القرآن، أي: الكفر به ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾. وقيل: سلَكْنا التكذيبَ في قلوبهم، فذلك الذي منعَهم من الإيمان. قاله يحيى بن سلَّام. وقال عكرمة: القسوة[٥]. والمعنى متقارب، وقد مضى في «الحجر»[٦]. وأجاز الفرَّاء الجزمَ في «لا يُؤمنُونَ»؛ لأنَّ فيه معنى الشرط والمجازاة. وزعمَ أنَّ من شأن العرب إذا وضعتْ لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جَزَمَتْ ما بعدها وربما رفعَتْ؛ فتقول: ربطتُ الفرسَ لا ينفلِت بالرفع والجزم؛ لأنَّ معناه: إنْ لم أربِطْه ينفلِتْ، والرفعُ بمعنى: كيلا ينفلِتُ[٧]. وأنشدَ لبعضِ بني عُقَيل:

وحتى رأينا أحسنَ الفِعْلِ بينَنا ... مُسَاكَنَةً لا يقرِفُ الشرَّ قارِفُ[٨]

بالرفعِ لمَّا حذَفَ كي. ومن الجزم قول الآخر:

لَطالَما حَلَّأْتُماها[٩] لا تَرِدْ ... فخلِّياها والسِّجالَ[١٠] تَبْتَرِدْ[١١]

---

(١) في (د) و(ز) و(م): الأعجمين. بياءٍ واحدة.

(٢) في النسخ: الجحدري، والصواب: الحسن، كما يقتضيه السياق.

(٣) في المحتسب ٢/ ١٣٢ دون قوله: (ومن قرأ: «الأعجمين» فقيل: إنه جمع أعجم) وقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٣.

(٤) الكتاب ٣/ ٦٤٥.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨٨.

(٦) ١٢/ ١٨٣.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.

(٨) في (د) و(ز) و(ظ): «يقرب» و«قارب» بدل «يقرف» و«قارف»، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٠٥.

(٩) حلَّأتَ الإبل عن الماء: إذا حبستها عن الورود. تهذيب اللغة ٥/ ٢٣٧.

(١٠) جمع سَجْل: وهي الدلو الضخمة المملوءة ماءً. اللسان (سجل).

(١١) أي: تشرب الماء لتبرد به كبدها. اللسان (برد).

قال النَّحَّاس[١]: وهذا كلُّه في «يُؤْمِنُونَ» خطأٌ عند البصريِّين، ولا يجوزُ الجزمُ بلا جازم، ولا يكونُ شيءٌ يعملُ عملاً فإذا حُذِفَ عَمِلَ عملاً أقوى من عملِه وهو موجود، فهذا احتجاجٌ بيِّنٌ.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي العذاب[٢]. وقرأ الحسن: «فَتَأْتِيَهُمْ» بالتاء، والمعنى: فتأتيهم الساعةُ بغتةً، فأُضمِرَتْ لدلالة العذابِ الواقعِ فيها، ولكثرةِ ما في القرآن من ذِكْرِها[٣]. وقال رجلٌ للحسن وقد قرأ: «فَتَأْتِيَهُمْ»: يا أبا سعيد، إنَّما يأتيهم العذاب بغتة. فانتهرَه وقال: إنَّما هي الساعةُ تأتيهم بغتةً أي: فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها. ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: مؤَخَّرون ومُمْهلون[٤]. يطلبون الرجعة هنالك فلا يُجابونَ إليها. قال القُشيري: وقوله: ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ ليس عطفاً على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ بل هو جوابُ قولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلمَّا كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك قوله: ﴿فَيَقُولُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبيِّ ﷺ: يا محمد، إلى متى تَعِدُنا بالعذاب ولا تأتي به؟ فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[٥].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ يعني في الدنيا[٦]. والمرادُ أهلَ مكةَ في قول

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٣) المحتسب ٢/ ١٣٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩، وزاد المسير ٦/ ١٤٦.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

الضَّحَّاك وغيره. ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والهلاك ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ «ما» الأولى استفهامٌ معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ «أغنى»، و«ما» الثانية في موضع رفع، ويجوزُ أن تكون الثانيةُ نفياً لا موضِعَ لها[١]. وقيل: «ما» الأولى حرفُ نفيٍ، و«ما» الثانية في موضع رفعٍ بـ «أغنى»[٢] والهاء العائدة محذوفة. والتقدير: ما أغنى عنهم الزمانُ الذي كانوا يُمَتَّعونَه[٣]. وعن الزُّهري: إن عُمرَ بنَ عبد العزيزِ كانَ إذا أصبحَ أمسكَ بلحيتِه ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... ولَيلُكَ نومٌ والرَّدَى لكَ لازمُ
فلا أنتَ في الأيقاظِ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنتَ في النُّوَّامِ ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بما يَفْنَى وتفرحُ بالمنى ... كما سُرَّ باللَّذاتِ في النومِ حالمُ
وتَسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ[٤]

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ «مِن» صلة، المعنى: وَمَا أَهْلَكْنَا قرية[٥]. ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: رسل[٦]. ﴿ذِكْرَىٰ﴾. قال الكِسائي: «ذِكْرَى» في موضعِ نصبٍ على الحال[٧]. النَّحَّاس: وهذا لا يُحَصِّل، والقول فيه قول الفرَّاء وأبي إسحاق أنها في موضع نصبٍ على المصدر؛ قال الفرَّاء: أي: يَذَّكَّرون ذِكْرَى؛ وهذا قولٌ صحيح؛ لأنَّ معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: إلَّا لها مُذَكِّرون. «وذِكْرَى» لا يتبيَّنُ فيه الإعراب؛ لأنَّ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ .
(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢١٧ .
(٣) الوسيط ٣/ ٣٦٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .
(٤) أخرج هذه الأبيات أبو نعيم في الحلية ٥/ ٣١٩ - ٣٢٠ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٤٣ .
(٥) مجمع البيان ١٩/ ١٨٥ .
(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .
(٧) وقع في مطبوع إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ : في موضع نصبٍ على القطع، والصواب ما أثبتناه كما في مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤ .

فيها ألفاً مقصورة. ويجوز «ذِكْرًى» بالتنوين، ويجوز أن يكون «ذِكرى» في موضعِ رفعٍ على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي: إنذارُنا ذكرى. وقال الفرَّاء: أي: ذلِكَ ذكرى، وتلِكَ ذكرى[(١)]. وقال ابن الأنباري[(٢)]: قال بعض المفسِّرين: ليس في «الشعراء» وقفٌ تامٌّ إلَّا قولُه: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾وهذا عندنا وقفٌ حسن، ثم تبتدئ «ذِكْرَى» على معنى: هي ذكرى، أو[(٣)]: يُذَكِّرهم ذكرى، والوقف على «ذِكْرَى» أجود.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيثُ قدَّمنا الحُجَّة عليهم وأعذَرْنا إليهم[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ يعني القرآن، بل ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي: برمي الشُّهُبِ كما مضى في سورة «الحِجرِ» بيانه[(٥)]. وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وما تنزَّلَتْ بهِ الشَّياطُون»[(٦)] قال المهدَوي: وهو غيرُ جائزٍ في العربية ومخالفٌ للخطِّ. وقال النَّحَّاس[(٧)]: وهذا غلطٌ عند جميع النَّحْويِّين، وسمعتُ علي بن سليمان يقول: سمعتُ محمد بن يزيد يقول: هذا غلطٌ عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لمَّا رأى الحسنُ في آخره ياءً ونوناً وهو في موضعِ رفعٍ اشتبه عليه بالجمع المُسَلَّمِ فغَلِطَ، وفي

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ -١٩٤ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٤ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٢-١٠٣ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٤ .

(٣) في (د) و(م): أي.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .

(٥) ١٢/ ١٨٧-١٩٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥ ، وهي في إعراب القرآن ٣/ ١٩٤ ، والمحتسب ٢/ ١٣٣ عن الحسن، وفي الشاذة ص١٠٨ عن الحسن والأعمش.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ١٩٤ .

الحديث: «احذروا زلَّة العالم»[١] وقد قرأ هو مع الناس: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، ولو كان هذا بالواو في موضعِ رفعٍ لَوَجبَ حذفُ النُّونِ للإضافة.

وقال الثعلبي: قال الفرَّاء: غلِطَ الشيخُ ـ يعني الحسن ـ فقيل ذلك للنَّضرِ بن شُمَيل، فقال: إنْ جازَ أنْ يُحتَجَّ بقولِ رؤبة والعجَّاج وذويهما، جاز أن يُحتَجَّ بقول الحسن وصاحبه، مع أنَّا نعلَمُ أنَّهما لم يقرأا بذلك إلَّا وقد سمِعا في ذلك شيئاً[٢].

وقال المؤرِّج: إنْ كان الشيطانُ من شاطَ يشيطُ كان لقراءتِهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعتُ أعرابيًّا يقول: دخَلْنا بساتينَ من ورائها بَساتون، فقلتُ: ما أشبهَ هذا بقراءة الحسن[٣]!

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: المعنى: قُلْ لِمَنْ كفر هذا. وقيل: هو مخاطبةٌ له عليه الصلاة والسلام وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنَّه معصومٌ مختارٌ، ولكنَّه خُوطِبَ بهذا والمقصودُ غيره. ودلَّ على هذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: لئلَّا[٤] يتَّكِلوا[٥] على نسبِهم فيَدَعوا[٦] ما يجِبُ عليهم[٧].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٨١، والبيهقي ١٠/ ٢١١ من حديث عمرو بن عوف ﷺ، بلفظ: «اتقوا زلَّة العالم»، وفي إسناده كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، وهو متروك، واتهمه الشافعي وأبو داود بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٠٦-٤٠٧.

وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٠٢) من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن معاذ مرفوعاً بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاث: جدال منافق، وزلة عالم، ودينار تقطع أعناقكم». ثم قال: قال الدارقطني: وقد وقفه شعبة عن عمرو بن مرة، والموقوف هو الصحيح.

(٢) وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٣١.

(٣) قول يونس بن حبيب أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥.

(٤) في النسخ: لا، والمثبت من إعراب القرآن.

(٥) في (م): يتكلون.

(٦) في (م): فيدعون.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خَصَّ عشيرتَه الأقربين بالإنذار؛ لِتنحَسِمَ أطماعُ سائرِ عشيرتِه وأطماعُ الأجانبِ في مُفارقته إيَّاهم على الشِّرك[1]. وعشيرتُه الأقربون قريش. وقيل: بنو عبد مناف. ووقع في «صحيح مسلم»: «وأنذِر عشِيرتَكَ الأقربِينَ، ورَهطَكَ مِنهم المُخلَصِين»[2]. وظاهرُ هذا أنَّه كان قرآناً يُتلى وأنه نُسِخَ؛ إذ لم يثبُتْ نقلُه في المصحفِ ولا تواتر، ويَلزَمُ على ثبوتِه إشكالٌ، وهو أنَّه كان يَلزَمُ عليه ألَّا يُنذِرَ إلَّا مَنْ آمنَ من عشيرتِه؛ فإنَّ المؤمنينَ هم الذين يُوصَفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حبِّ النبيِّ ﷺ لا المشركون؛ لأنَّهم ليسوا على شيءٍ من ذلك، والنبيُّ ﷺ دعا عشيرتَه كلَّهم مؤمِنَهم وكافِرَهم، وأنذَرَ جميعَهم ومَنْ معهم ومَنْ يأتي بعدَهم ﷺ، فلم يثبُتْ ذلك نقلاً ولا معنًى[3]. وروى مسلمٌ من حديث أبي هريرةَ قال: لمَّا نزلَتْ هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعبِ بن لؤيٍّ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني مُرَّةَ بن كعب، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبدِ شمسٍ، أنقِذوا أنفُسْكم من النَّار، يا بني عبد مَنافٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني هاشمٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبدِ المُطَّلبِ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا فاطمةُ أنقذي نفسَكِ من النَّار، فإنِّي لا أملِكُ لكم من الله شيئاً غيرَ أنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبَلالها»[4].

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٨٧ بنحوه.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨) من حديث عبد الله بن عباس ﷺ. وأخرجه البخاري أيضاً (٤٩٧٢).

(٣) المفهم ٧/ ٣٨٥ .

(٤) صحيح مسلم (٢٠٤). وأخرجه أحمد (٨٧٢٦). قال السندي في حاشيته على المسند: قوله: «بِبِلَالها» =

الثانية: في هذا الحديث والآية دليلٌ على أنَّ القُرْبَ في الأنساب لا ينفَعُ مع البُعدِ في الأسباب، ودليلٌ على جواز صِلَةِ المؤمنِ الكافرَ وإرشادِه ونصيحتِه؛ لقوله: «إنَّ لكم رَحِماً سأَبُلُّها بِبلالها»[(١)]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية [الممتحنة:٨]، على ما يأتي بيانُه هناكَ إن شاء الله[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم في سورة «الحِجرِ»[(٣)] و«سبحان»[(٤)] يُقال: خفضَ جناحَه إذا لانَ. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي: خالفوا أمرَكَ. ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بريءٌ من معصيتِكم إيَّايَ؛ لأنَّ عصيانَهم إيَّاه عصيانٌ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلَّا بما يرضاه، ومَنْ تبرَّأَ منه فقد تبرَّأَ اللهُ منه[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: فَوِّضْ أمركَ إليه، فإنَّه العزيزُ الذي لا يُغالَبُ، الرَّحيمُ الذي لا يخذُلُ أولياءه[(٦)].

وقرأ العامَّة: «وتوكَّلْ» بالواو، وكذلك هو في مصاحفهم. وقرأ نافع وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ» بالفاء، وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام[(٧)]. ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقومُ إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين: ابن عباس وغيره. وقال مجاهد:

= قيل: بكسر الباء، جمع بَلَل: وهو كلُّ ما بلَّ الحلقَ من ماءٍ أو لبنٍ أو غيره. ويُروى بفتحها على المصدر، أي: أصِلُكم في الدنيا. قيل: شبَّه القطيعة بالحرارة تُطفأُ بالماء.

(١) المفهم ٧/ ٣٨٤ .

(٢) قوله: «إن شاء الله» من (م).

(٣) ١٢/ ٢٥٤-٢٥٥ .

(٤) ١٣/ ٥٩ - ٦٠ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥ .

(٦) مجمع البيان ١٩/ ١٨٩ .

(٧) السبعة ص٤٧٣ ، والتيسير ص١٦٧ .

يعني: حينَ تقومُ حيثُما كُنْتَ[١].

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: في المُصلِّين[٢]. وقال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ حتى أخرجَه نبيًّا[٣]. وقال عكرمة: يراك قائماً وراكعاً وساجداً. وقاله ابنُ عباسٍ أيضاً[٤]. وقيل: المعنى: إنَّكَ ترى بقلبِكَ في صلاتِكَ مَنْ خلفَكَ كما ترى بعينِكَ مَنْ قُدَّامَكَ. ورُويَ عن مجاهد؛ ذكره الماورديُّ[٥] والثعلبيُّ. وكان عليه الصلاة والسلام يَرى مَنْ خلفَه كما يَرى مَنْ بين يديه، وذلك ثابتٌ في الصحيح[٦]، وفي تأويل الآية بعيد. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إنَّما قال: «تَنَزَّلُ» لأنها أكثرُ ما تكون في الهواء، وأنها تمرُّ في الريح[٧].

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ تقدَّم في «الحجر»[٨]. فـ «يُلْقُونَ السَّمْعَ» صفةُ الشياطين «وَأَكْثَرُهُمْ» يرجعُ إلى الكهنة[٩]. وقيل: إلى الشياطين[١٠].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٥. وأخرج الطبري ١٧/ ٦٦٦ قول مجاهد.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٧، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٦٧-٦٦٨ عن مجاهد.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٧.

(٤) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٦٦-٦٦٧.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ١٨٩، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٦٧.

(٦) صحيح البخاري (٧١٨)، وصحيح مسلم (٤٣٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه أحمد (١٢٠١١).

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

(٨) ١٢/ ١٨٧-١٨٨.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ **فيه ستُّ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ جمع شاعر، مثل جاهل وجُهَلاء. قال ابن عباس: هم الكفار يَتَّبِعُهُم ضُلَّالُ الجِنِّ والإنس[١]. وقيل ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: الزائِلونَ عن الحقِّ، ودَلَّ بهذا أنَّ الشعراءَ أيضاً غاوون؛ لأنَّهم لو لم يكونوا غاوينَ ما كان أتباعُهم كذلك[٢]. وقد قدَّمنا في سورة «النور»[٣] أنَّ من الشِّعر ما يجوزُ إنشادُهُ، ويُكرَهُ، ويَحرُمُ. روى مسلمٌ من حديث عَمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: رَدِفتُ رسولَ اللهِ ﷺ يوماً[٤] فقال: «هل معَك من شعرِ أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟» قلتُ: نعم. قال: «هِيه» فأنشدتُه بيتاً. فقال: «هِيه» ثم أنشدتُه بيتاً، فقال: «هِيه» حتى أنشدتُه مئةَ بيت[٥]. هكذا صوابُ هذا السندِ وصحيحُ روايَتِه. وقد وقعَ لبعضِ رُواةِ كتابِ مُسلم: عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريدِ أبيه، وهو وَهَمٌ؛ لأنَّ الشَّريدَ هو الذي أردفَه رسولُ الله ﷺ، واسمُ أبي الشَّريدِ سُوَيْد. وفي هذا دليلٌ على حفظِ الأشعارِ والاعتناءِ بها إذا تضمَّنَتِ الحِكَمَ والمعاني المُستحسنةَ شرعاً وطبعاً، وإنَّما استكثَر النبيُّ ﷺ من شعر أمية؛ لأنَّه كان حكيماً؛ ألا ترى قولَه عليه الصلاة والسلام: «وكاد أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ أنْ يُسْلِمَ[٦]»

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٣، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٥.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٣) ١٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٤) كلمة «يوماً» من صحيح مسلم.

(٥) صحيح مسلم (٢٢٥٥). وأخرجه أحمد (١٩٤٧٦).

(٦) أخرجه البخاري (٦١٤٧)، ومسلم (٢٢٥٦) (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن قوله: هكذا صواب هذا السند... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/ ٥٢٦-٥٢٧. وقال مؤلفه: قوله: «هِيه» بكسر الهاء الأولى، وسكون الثانية للوقف. وهي «إيه» التي للاستزادة، وأبدل من الهمزة هاءً، =

فأما ما تضمَّنَ ذِكْرَ اللهِ وحمدَه والثناءَ عليه فذلك مندوبٌ إليه، كقول القائل:

الحمدُ للهِ العليِّ المنان ... صارَ الثريدُ في رؤوس العيدان

أو ذِكْرَ رسولِ الله ﷺ أو مَدْحَه كقول العباس:

مِن قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي ... مُسْتودَعٍ حيثُ يُخصَفُ الورَقُ

ثمَّ هبطتَ البلادَ لا بشرٌ ... أنتَ ولا مُضغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفةٌ تركَبُ السَّفِينَ وقَدْ ... أَلْجَمَ نَسْراً وأهلَه الغَرَقُ

تُنقَلُ مِن صَالبٍ إلى رَحِمٍ ... إذا مَضَى عالَمٌ بَدا طَبَقُ

فقال له النبيُّ ﷺ: «لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ»(١).

أو الذبَّ عنه، كقول حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ

وهي أبياتٌ ذكَرها مسلمٌ في «صحيحه»(٢) وهي في السير أتَمُّ.

أو الصلاةَ عليه، كما روى زيدُ بن أسلم: خرجَ عمرُ ليلةً يحرُسُ، فرأى مِصباحاً في بيتٍ، وإذا عجوزٌ تَنفِشُ صوفاً وتقول:

على محمدٍ صلاةُ الأبرارْ ... صلَّى عليه الطيِّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوَّاماً بُكاً بالأسحارْ ... يا ليتَ شِعْري والمنايا أطوارْ

هل يَجمَعنِّي وحبيبيَ الدارْ

يعني النبيَّ ﷺ؛ فجلس عمرُ يبكي(٣).

= وهي اسمٌ لفعل الأمر الذي هو: زِدْ. وهي مبنيةٌ على الكسر؛ لوقوعها موقع المبني الذي هو الأمر. وفي الصحاح: إذا قلت: إيهِ يا رجل، فإنما تأمره بأن يزيدك من حديثه المعهود. وإن قلت: إيهٍ بالتنوين، كأنك قلت: هاتِ حديثاً؛ لأن التنوين تنكير.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٧ - ١٤٢٨ . وأخرجه الطبراني في الكبير (٤١٦٧)، والحاكم ٣/ ٣٢٨ وقال: هذا حديث تفرد به رواتُه الأعراب عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون.

(٢) برقم (٢٤٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٢٤).

وكذلك ذِكْرَ أصحابِه ومَدْحَهم ﷺ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيثُ قال:

إنِّي رضيتُ عليًّا للهُدَى عَلَماً   كما رضيتُ عَتيقاً صاحبَ الغارِ
وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَهُ   وما رضيتُ بقتلِ الشيخِ في الدارِ
كلُّ الصحابةِ عندي قُدوةٌ عَلَمٌ   فهل عليَّ بهذا القولِ من عارِ
إنْ كُنتَ تعلمُ أنِّي لا أحِبُّهمُ   إلَّا مِنَ اجلِكَ فاعْتِقْني من النارِ[١]

وقال آخرُ فأحسَنَ:

حُبُّ النبيِّ رسولِ الله مُفْتَرَضٌ   وحُبُّ أصحابِه نورٌ بِبُرهانِ
من كان يعلَمُ أنَّ اللهَ خالِقُهُ   لا يَرمِيَنَّ أبا بكرٍ بِبُهتانِ
ولا أبا حفصٍ الفاروقَ صاحِبَهُ   ولا الخليفةَ عثمانَ بنَ عفَّانِ
أمَّا عليٌّ فمشهورٌ فضائِلُهُ   والبيت لا يَستوِي إلا بأركانِ

قال ابن العربي[٢]: أمَّا الاستعاراتُ في التشبيهاتِ فمأذونٌ فيها وإنِ استغرَقَتِ الحدَّ وتجاوزتِ المُعتادَ؛ فبِذلِكَ يضرِبُ المْلَكُ المُوكَّلُ بالرؤيا المثَلَ، وقد أنشد كعب بن زهير النبيَّ ﷺ:

بانَتْ سعادُ فقلبي اليومَ مَتبُولُ   مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذ رَحلُوا   إلا أغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ
تَجلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ   كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعاراتِ والتشبيهاتِ بكلِّ بديع، والنبيُّ ﷺ يسمع ولا يُنكِرُ في تشبيهه رِيقَها بالرَّاح.

وأنشد أبو بكر ﷺ:

فَقَدْنا الوحيَ إذْ وَلَّيتَ عنَّا   ووَدَّعَنا مِنَ اللهِ الكلامُ

(١) الأبيات دون البيت الثالث في تاريخ ابن عساكر ٤٢/ ٥٣٣ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٤ .

سوى ما قد تركتَ لنا رهيناً تَوارثُهُ القَراطيسُ الكرامُ
فقد أورَثْتَنا ميراثَ صِدْقٍ عليكَ به التَّحيةُ والسَّلامُ

فإذا كان رسولُ الله ﷺ يسمَعُه وأبو بكر يُنشِدُه، فهل للتقليدِ والاقتداءِ موضعٌ أرفَعُ من هذا؟! قال أبو عمر: ولا يُنكِرُ الحسَنَ من الشِّعرِ أحدٌ من أهل العلم ولا من أولي النُّهى، وليس أحدٌ من كبار الصَّحابةِ وأهلِ العلم وموضعِ القُدوةِ إلَّا وقد قال الشعر، أو تمثَّلَ به، أو سمِعَه فَرَضِيَه، ما كان حكمةً أو مباحاً، ولم يكن فيه فُحْشٌ ولا خنا ولا لمسلمٍ أذى، فإذا كان كذلِكَ فهو والمنثورُ من القول سواءٌ لا يحِلُّ سماعُه ولا قولُه. وروى أبو هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدقُ كَلِمةٍ ـ أو أَشْعَرُ كلمةٍ ـ قالَتْها العربُ قولُ لَبِيد:

أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ

أخرجه مسلم، وزاد: «وكادَ أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ أنْ يُسلِمَ»[(١)]. ورُوي عن ابن سيرينَ أنه أنشدَ شعراً فقال له بعضُ جُلسائه: مثلُكَ يُنشِدُ الشِّعرَ يا أبا بكر؟! فقال: ويلَكَ يا لُكَع، وهلِ الشِّعرُ إلَّا كلامٌ لا يُخالِفُ سائرَ الكلامِ إلَّا في القوافي، فحَسَنُه حسنٌ وقبيحُه قبيح؟! قال: وقد كانوا يتذاكرون الشِّعر. قال: وسمعتُ ابنَ عُمرَ يُنشِدُ:

يُحِبُّ الخمرَ من مالِ النَّدامَى ويَكرهُ أنْ يُفارِقَهُ الغُلُوسُ[(٢)]

وكان عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود ـ أحدُ فُقهاءِ المدينةِ العشرة ثم المشيخةِ السبعة ـ شاعراً مجيداً مُقدَّماً فيه[(٣)]. وللزُّبير بن بكَّار القاضي في أشعاره كتاب، وكانتْ له زوجةٌ حسنةٌ تُسمَّى عَثْمة، فعتِبَ عليها في بعض الأمر فطلقَّها، وله فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله:

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٥٦) (٣). وأخرجه أيضاً البخاري (٦١٤٧) بتلك الزيادة، وقد سلفت قريباً.

(٢) التمهيد ٢٢/ ١٩٤-١٩٥ . والغَلوس تصغير الغَلَس: وهو ظلمة آخر الليل. الصحاح (غلس). وأثر ابن سيرين أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٧١).

(٣) التمهيد ٩/ ٧ .

تغلغلَ حبُّ عَثْمةَ في فؤادي فباديهِ مع الخافي يَسيرُ
تغلغلَ حيثُ لم يبلُغْ شَرابٌ ولا حُزنٌ ولم يبلُغْ سُرورُ
أكادُ إذا ذكرتُ العهدَ منها أطيرُ لَوَ انَّ إنساناً يَطيرُ[١]

وقال ابن شهاب: قلتُ له: تقول الشِّعَر في نُسكِكَ وفضلِكَ؟! فقال: إنَّ المصدورَ إذا نَفَثَ بَرَأ.

الثانية: وأمَّا الشِّعرُ المذمومُ الذي لا يَحِلُّ سماعُه وصاحبُه مَلومٌ، فهو المُتكلِّمُ بالباطل حتى يُفضِّلوا أجبنَ الناس على عنترة، وأشحَّهم على حاتم، وأن يَبهتوا البريء ويُفسِّقوا التَّقيَّ، وأن يُفرِّطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبةً في تسلية النَّفْسِ وتحسينِ القول[٢]، كما رُويَ عن الفَرَزدقِ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملك سمِعَ قولَه:

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعاتٍ وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الخِتامِ

فقال: قد وجبَ عليك الحَدُّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد درأَ اللهُ عني الحَدَّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[٣]. وروي أنَّ النعمانَ بنَ عديِّ بنِ نَضْلةَ كان عاملاً لعمر بن الخطاب ﷺ فقال:

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أنَّ حليلَها بمَيْسَانَ[٤] يُسقَى في زُجاجٍ وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنَّتْني دَهاقينُ[٥] قريةٍ ورقَّاصةٌ تَجْذو[٦] على كلِّ مَنْسِمِ[٧]

---

(١) الأبيات سلفت ٢/٢٥٦ .

(٢) من قوله: أن يفرطوا... إلى هذا الموضع في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٢٩ .

(٣) الأغاني ٢١/٣٧٣ .

(٤) اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط . معجم البلدان ٥/٢٤٢ .

(٥) كلمة فارسية معرَّبة، جمع دهقان: وهو التاجر. اللسان (دهقن).

(٦) من الجُذو: وهو القيام على رؤوس الأصابع . اللسان (جذا).

(٧) أي: مِفْصل. اللسان (نسم).

فإن كنتَ نَدْماني فبِالأكْبَرِ اسْقِني ولا تَسْقِني بالأصغرِ المُتثَلِّمِ(١)
لعَلَّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه تَنادُمُنا بالجَوْسَقِ(٢) المُتهدِّمِ

فبلغَ ذلِكَ عُمرَ، فأرسلَ إليه بالقُدوم عليه. وقال: إي واللهِ إني ليَسوءُني ذلك. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما فعلتُ شيئاً مما قلتُ، وإنَّما كانَتْ فضلةً من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له عمر: أمَّا عُذرُكَ فقد درأ عنكَ الحَدَّ، ولكِنْ لا تعمَلْ لي عملاً أبداً وقَدْ قُلتَ ما قُلتَ(٣). وذكر الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ قال: حدَّثني مصعب بن عثمان أنَّ عُمرَ ابنَ عبد العزيز لمَّا وَلِيَ الخلافةَ لم يكن له هَمٌّ إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص، فكتبَ إلى عامله على المدينة: إنِّي قد عرفتُ عُمرَ والأحوصَ بالشَّرِّ والخُبثِ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاشدُدْ عليهما واحمِلْهما إليَّ. فلمَّا أتاه الكتابُ حملَهما إليه، فأقبل على عمر فقال: هِيه!

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظرٍ ولا كَليالي الحجِّ أفْلَتْنَ ذا هَوى
وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غيرِه إذا راحَ نحوَ الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أمَّا واللهِ لِو اهتممتَ بحجِّكَ لم تنظُرْ إلى شيءٍ غيرِك، فإذا لم يفلَتِ الناسُ منكَ في هذه الأيام فمتى يفلَتون؟! ثم أمر بنَفْيِه، فقال: يا أمير المؤمنين، أوَ خَيرٌ من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أُعاهِدُ اللهَ أنِّي لا أعودُ إلى مثل هذا الشِّعر، ولا أذكرُ النِّساءَ في شعرٍ أبداً، وأُجَدِّدُ توبةً، فقال: أوَ تفعَلُ؟ قال: نعم. فعاهدَ اللهَ على توبتِه وخلَّاه، ثم دعا بالأحوص، فقال: هِيه!

اللهُ بيني وبينَ قَيِّمِها يَفِرُّ منِّي بها وأتَّبِعُ

بَلِ اللهُ بين قَيِّمِها وبينَك. ثم أمرَ بنَفْيِه، فكلَّمه فيه رجالٌ من الأنصار فأبى، وقال:

---

(١) من ثَلِمَ الإناء إذا كُسِرَ حرفُه. اللسان (ثلم).

(٢) وهو القصر. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩-١٤٣٠ .

واللهِ لا أردُّه ما كان لي سلطان، فإنَّه فاسقٌ مُجاهِرٌ[١]. فهذا حُكم الشِّعرِ المَذْمومِ وحُكمُ صاحبِه، فلا يحِلُّ سماعُه ولا إنشادُه في مسجدٍ ولا غيرِه، كمنثورِ الكلامِ القبيحِ ونحوِه. وروى إسماعيل بن عَيَّاش، عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «حَسَنُ الشِّعرِ كَحسَنِ الكلامِ، وقبيحُه كقَبيحِ الكلام[٢]» رواه إسماعيل عن عبد الله الشَّامي، وحديثُه عن أهل الشَّام صحيحٌ فيما قال يحيى بنُ مَعينٍ وغيرُه[٣]. وروى عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الشِّعرُ بمنزلةِ الكلامِ، حَسَنُه كحَسَنِ الكلام، وقبيحُه كَقبيحِ الكلام»[٤].

الثالثة: روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يمتلئَ جَوفُ أحدِكُمْ قَيْحاً يَرِيهِ[٥] خيرٌ مِنْ أنْ يمتلِئَ شِعْراً»[٦]، وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ قال: بينا نحنُ نسيرُ مع رسولِ الله ﷺ إذْ[٧] عرَضَ شاعِرٌ يُنشِدُ، فقال رسول الله ﷺ: «خُذوا الشَّيطانَ - أو: أمْسِكوا الشَّيطان - لَأَنْ يمتلِئَ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ له مِنْ أنْ يمتلِئَ شِعراً»[٨]. قال عُلماؤنا: وإنما فعلَ النبيُّ ﷺ هذا مع هذا الشاعرِ لِما عَلِمَ من حاله، فلعلَّ هذا الشاعرَ كان مِمَّنْ قد عُرِفَ من حاله أنَّه قدِ اتَّخذَ الشِّعرَ طريقاً للتكسُّبِ، فُيفرِطُ في المدحِ إذا أُعطي، وفي الهَجْوِ والذَّمِّ إذا مُنِعَ، فيؤذي

(١) الأغاني ٩/ ٦٤-٦٥.

(٢) أخرجه الدارقطني (٤٣٠٩). وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو يعلى (٤٧٦٠)، والدارقطني (٤٣٠٦) و(٤٣٠٧).

(٣) تهذيب التهذيب ١/ ١٦٣.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٥)، والطبراني في الأوسط (٧٦٩٢)، والدارقطني (٤٣٠٨).

(٥) قبلها في (د) و(م): حتى.

(٦) صحيح مسلم (٢٢٥٧). وأخرجه أحمد (٧٨٧٤)، والبخاري (٦١٥٥).

(٧) في (م): إذا.

(٨) صحيح مسلم (٢٢٥٩). وأخرجه أحمد (١١٠٥٧).

الناسَ في أموالِهم وأعراضِهم، ولا خلافَ في أنَّ مَنْ كان على مِثْلِ هذه الحالة فكلُّ ما يكتسِبُه بالشِّعرِ حرام، وكلُّ ما يقولُه من ذلك حرامٌ عليه، ولا يحِلُّ الإصغاءُ إليه، بل يجبُ الإنكارُ عليه، فإنْ لم يمكِنْ ذلِكَ لمن خافَ من لسانه قطعاً تعيَّنَ عليه أن يُداريَه بما استطاع، ويُدافِعَه بما أمكن، ولا يحِلُّ أن[1] يُعطى شيئاً ابتداءً؛ لأنَّ ذلك عونٌ على المعصية، فإنْ لم يجِدْ من ذلك بُدًّا أعطاه بِنيَّةِ وقاية العِرض، فما وَقَى به المرءُ عِرْضَه كُتِبَ له به صدقة. وقوله[2]: «لَأَنْ يمتلِئَ جوفُ أحدِكم قيحاً يَرِيهِ[3]» القيح: المِدَّة يُخالِطُها دم. يُقال منه: قاحَ الجُرْحُ يَقِيحُ وتَقيَّحَ وقَيَّحَ. و«يَرِيه» قال الأصمعي: هو من الوَرْيِ على مثال الرَّمْيِ، وهو أن يَدْوَى جوفُه، يُقال منه: رجلٌ مَوْرِيٌّ، مُشدَّدٌ غيرُ مهموز. وفي الصِّحاح: ورى القيحُ جوفَه يَرِيهِ وَرْياً إذا أكله[4]. وأنشد اليَزيديُّ:

قالتْ له وَرْياً إذا تَنحنحَا[5]

وهذا الحديث أحسنُ ما قيلَ في تأويله: إنَّه الذي قد غلَبَ عليه الشِّعرُ، وامتلأ صدرُه منه دونَ عِلْمٍ سواه ولا شيءٍ من الذِّكْرِ مِمَّن يخوضُ به في الباطل، ويسلكُ به مسالكَ لا تُحمَدُ له، كالمُكثرِ من اللَّغَطِ والهَذَرِ والغِيبةِ وقَبيحِ القول[6]. ومَنْ كان الغالبُ عليه الشِّعرُ لَزِمَتْه هذه الأوصافُ المذمومةُ الدَّنِيَّةُ، لحكم العادة الأدبيَّة. وهذا المعنى هو الذي أشارَ إليه البخاريُّ في «صحيحه» لمَّا بوَّبَ على هذا الحديث «باب ما يُكرَهُ أن يكون الغالِبُ على الإنسانِ الشِّعرُ». وقد قيل في تأويله: إنَّ المُرادَ بذلك

---

(١) قبلها في (م): له.

(٢) قبلها في (م): قلت.

(٣) قبلها في النسخ: حتى. وهي ليست في لفظ الحديث كما سلف.

(٤) الصحاح (ورى).

(٥) من قوله: قال علماؤنا... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/٥٢٨-٥٢٩ .

(٦) التمهيد ٢٢/١٩٦ .

الشِّعرُ الذي هُجيَ به النبيُّ ﷺ أو غيرُه. وهذا ليس بشيء؛ لأنَّ القليلَ من هَجْوِ النبيِّ ﷺ وكثيرَه سواءٌ في أنَّه كفرٌ ومذموم، وكذلك هَجْوُ غيرِ النبيِّ ﷺ من المسلمين مُحرَّمٌ قليلُه وكثيرُه، وحينئذٍ لا يكون لتخصيص الذَّمِّ بالكثيرِ معنًى[١].

الرابعة: قال الشافعي: الشِّعرُ نوعٌ من الكلام، حَسَنُه كحسَنِ الكلام، وقبيحُه كقبيحِ الكلام، يعني أنَّ الشِّعرَ ليس يُكرَهُ لذاتِه، وإنَّما يُكرَهُ لمُضمَّناتِه، وقد كان عند العرب عظيمَ الموقع؛ قال الأوَّلُ منهم:

وجُرحُ اللِّسانِ كجُرْحِ اليدِ[٢]

وقال النبيُّ ﷺ في الشِّعر الذي يَرُدُّ به حسَّان على المشركين: «إنَّه لأسرَعُ فيهم من رَشْقِ بالنَّبْل» أخرجه مسلم[٣]. وروى التِّرمِذيُّ[٤] وصحَّحه عن أنس[٥] أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ مكَّةَ في عُمرة القضاء وعبدُ اللهِ بنُ رَوَاحةَ يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بني الكفَّارِ عن سبيلِهِ ... اليومَ نَضرِبْكُمْ على تنزيلِهِ
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ ... ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فقال عمر: يا ابن رَوَاحة، في حرَمِ اللهِ، وبينَ يدَيْ رسول الله ﷺ؟! فقال رسول الله ﷺ: «خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرَعُ فيهم من نَضْحِ النَّبْل»[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ لم يختلفِ القُرَّاءُ في رفع «وَالشُّعَرَاءُ» فيما علمتُ. ويجوز النصب على إضمار فعلٍ يُفسِّره «يَتَّبِعُهُمْ»[٧]، وبه قرأ

---

(١) المفهم ٥/ ٥٣٠ .

(٢) عجز لبيت، صدره: ولو عن نثا غيره جاءني. قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٨٥ . والنَّثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن وسيئ. اللسان (نثا).

(٣) في صحيحه (٢٤٩٠).

(٤) في سننه (٢٨٤٧).

(٥) تحرف في النسخ إلى: ابن عباس.

(٦) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

عيسى بن عمر؛ قال أبو عبيد: كان الغالبَ عليه حبُّ النصب؛ قرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة:٣٨] و﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٤] و﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور:١]. وقرأ نافعٌ وشيبةُ والحسن والسُّلَميّ: «يَتْبَعُهُمْ»[١] مُخففاً. الباقون «يَتَّبِعُهُم»[٢]. وقال الضَّحَّاك: تهاجى رَجُلانِ أحدُهما أنصاريٌّ والآخرُ مهاجريٌّ على عهد رسول الله ﷺ، مع كلِّ واحدٍ غُواةُ قومِه وهم السفهاء، فنزلت. وقاله ابن عباس[٣]. وعنه: هم الرُّواةُ للشِّعر[٤]. وروى عنه عليُّ بن أبي طلحة أنَّهم هم الكفار يَتْبعُهم ضُلَّالُ الجِنِّ والإنس. وقد ذكرناه. وروى غُضَيْف عن النبيِّ ﷺ: «من أحدثَ هجاءً في الإسلام فاقطعوا لسانه»[٥]. وعن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا افتتحَ مكةَ رنَّ إبليسُ رنَّةً وجمع إليه ذُرِّيَتَه، فقال: «ايئسوا أن تُريدوا أمةَ محمدٍ على الشِّركِ بعدَ يومِكم هذا، ولكِنْ أفْشوا فيهما ـ يعني مكة والمدينة ـ الشِّعْرَ[٦]».

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كلِّ لغوٍ يخوضون[٧]، ولا يتَّبعون سَنَنَ الحقِّ؛ لأنَّ مَنِ اتَّبعَ الحقَّ وَعلِمَ أنَّه يُكتَبُ عليه ما يقولُه تَثَبَّتَ، ولم يكن هائماً يذهبُ على وجهه لا يُبالي ما قال[٨]. نزلت في عبد الله ابن الزِّبَعْرى ومُسافِعِ بن عبد مناف وأميَّة بن أبي الصلت[٩].

(١) الشاذة ص١٠٨، والكشاف ٣/ ١٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٦. وقراءة نافع في السبعة ص٤٧٤، والتيسير ص١١٥.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٧٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٣.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨/ (٦٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٢٣: فيه إسحاق بن أبي فروة، وهو متروك.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٣١٨)، وفيه: «النَّوح» بدل «الشِّعر». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣: رجاله موثقون.

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٦ عن ابن عباس ﷺ. ونقله الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٩٠ عن قطرب.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٦.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون، أي: يدلُّون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عَزَّةَ الجُمَحيِّ حيث قال:

ألا أبلغا عنِّي النبيَّ محمداً ... بأنَّكَ حَقٌّ والمليكُ حَميدُ
ولكنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْراً وأهلَهُ ... تَأَوَّهَ مِنِّي أعْظُمٌ وجُلودُ[١]

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم[٢] ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وإنما يكون الانتصار بالحقِّ، وبما حدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، فإن تجاوزَ ذلكَ فقدِ انتصرَ بالباطل[٣].

وقال أبو الحسن البرَّاد[٤] لمَّا نزلَتْ: «والشُّعراءُ»: جاءَ حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا نبيَّ الله، أنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلمُ أنَّا شُعراءُ؟ فقال: «اقرؤوا ما بعدها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ - الآية - أنتم ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أنتم»[٥] أي: بالردِّ على المشركين.

قال النبيُّ ﷺ: «انْتَصِروا ولا تقولوا إلَّا حقًّا، ولا تذكروا الآباءَ والأُمَّهات» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوتَ محمداً فأجَبْتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ
وإنَّ أبي ووالدتي وعِرْضي ... لعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتشتُمُهُ ولستَ له بِكُفءٍ ... فشَرُّكما لخيرِكما الفِداءُ

---

(١) البيتان في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥٣-٢٥٤، وجمهرة الأمثال ٢/ ٣٨٧.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٧.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٤) واسمه سالم مولى تميم الداري كما وقعت تسميته في رواية الطبري، وقد ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٣٥٦. وتحرف في النسخ إلى: المبرد.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٥١٨، والطبري ١٧/ ٦٨٢.

لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ وبحري لا تُكدِّرهُ الدِّلاءُ[(١)]

وقال كعب: يا رسول الله، إنَّ الله قد أنزل في الشعر ما قَدْ علمتَ، فكيف ترى فيه؟ فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُجاهِدُ بنفْسِه وسيفهِ ولسانهِ، والذي نفسي بيدهِ لَكأنَّ ما ترمونَهم به نَضْحُ النَّبْل»[(٢)].

وقال كعب:

جاءت سَخِينةُ كي تُغالِبَ ربَّها وَلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

فقال النبيُّ ﷺ: «لقد مدحَكَ اللهُ يا كعبُ في قولِكَ هذا»[(٣)].

وروى الضَّحَّاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾: منسوخٌ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[(٤)]. قال المَهْدَويُّ: والصحيح[(٥)] عن ابن عباس أنَّه استثناء.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديدٌ لمنِ انتصرَ بظلم[(٦)]. قال شُرَيح[(٧)]: سيعلَمُ الظالمون كيفَ يَخْلُصون من بين يَدي اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النُّصرةَ. وقرأ ابن عباس: «أيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ» بالفاء والتاء[(٨)]، ومعناهما واحد. ذكره الثعلبي[(٩)].

---

(١) الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٧٤) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم ٣/ ٤٨٩ من حديث البراء بن عازب ﷺ بنحوه. والسَّخينة: طعام حار يصنع من دقيق وسمن، أغلظُ من الحساء، وأرقُّ من العصيدة. اللسان (سخن).

(٤) ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٢ . وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٧١)، وأبو داود (٥٠١٦) من طريق عكرمة، عن ابن عباس ﷺ.

(٥) في (م): وفي الصحيح.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

(٧) قوله: «قال شريح» من (م).

(٨) زاد المسير ٦/ ١٥٢ .

(٩) الشاذة ص١٠٨ . وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٥٢ عن ابن عباس وأبي بن كعب وأبي =

ومعنى: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: أيَّ مصيرٍ يصيرون، وأيَّ مَرْجِعٍ يرجعون؛ لأنَّ مصيرَهم إلى النَّار، وهو أقبَحُ مصير، ومرجِعُهم إلى العقاب[1] وهو شرُّ مَرْجِع. والفرق بين المُنقلَبِ والمَرجِعِ أنَّ المُنقلبَ الانتقالُ إلى ضِدِّ ما هو فيه، والمرجعُ العَوْدُ من حالٍ هو فيها إلى حالٍ هو فيها إلى حالٍ كان عليها، فصار كلُّ مرجعٍ مُنقلَباً، وليس كلُّ مُنقلَبٍ مرجِعاً، والله أعلم، ذكره الماوردي[2]. و«أَيَّ» منصوبٌ بـ «يَنْقَلِبُونَ» وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ «سَيَعْلَمُ» لأنَّ أيًّا وسائرَ أسماءِ الاستفهامِ لا يعمَلُ فيها ما قبلَها فيما ذكَر النَّحْويُّون؛ قال النَّحَّاس: وحقيقةُ القولِ في ذلك أنَّ الاستفهام معنًى وما قبله معنًى آخر، فلو عمِلَ فيه ما قبلَه لَدخَلَ بعضُ المعاني في بعض[3].

= العالية، وأبي مجلز، وأبي عمران الجوني، وعاصم الجحدري.

(١) في (م): العقاب.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ١٩١ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

تفسير سورة الشعراء

وهى مكية . ووَقَع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتُها : سورة الجامعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فقد تكلمنا عليه فى أول تفسير سورة البقرة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : هذه آيات القرآن المبين ، أى : البين الواضح ، الذى يفصل بين الحق والباطل ، والغى والرشاد .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ أى : مهلك ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ أى : مما تحرص [عليهم] (١) وتحزن عليهم ﴿ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذه تسلية من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] .

قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وعطية ، والضحاك : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أى : قاتل نفسك . قال الشاعر (٢) :

ألاَ أيّهذاَ البَاخعُ الحُزنُ نفسَه ... لشىء(٣) نَحتْهُ عَنْ يَدَيه المَقَادرُ

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أى : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكنّا لا نفعل ذلك ؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩]، وقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨، ١١٩] ، فنفَذ قدَرُه ، ومضت (٤) حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) هو ذو الرمة ، والبيت فى تفسير الطبرى (١٩ / ٣٧) .

(٣) فى ف : « بشىء » .

(٤) فى ف ، أ : « وقضت » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أى : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وقال : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] ، وقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

ثم نبه تعالى على عظمته فى سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذى خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان .

قال سفيان الثورى ، عن رجل ، عن الشعبى : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أى : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره (١) وارتكبوا زواجره .

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى : الذى عزّ كلَّ شىء وقهره وغلبه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه، فلا يعجل على من عصاه ، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

قال أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، و [محمد (٢)] بن إسحاق : العزيز فى نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره .

وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ .

(١) فى أ : « أوامره » .
(٢) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ، صلوات الله وسلامه عليه،حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون** ﴾:هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال في سورة طه : ﴿ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ** ﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٦] .

وقوله : ﴿ **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون** ﴾ أي : بسبب ماكان [من] (١) قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر.﴿ **قَالَ كَلا** ﴾ أي : قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك كما قال: ﴿ **قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا** ﴾ أي : برهانا ﴿ **فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** ﴾[القصص : ٣٥] .

﴿ **فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُون** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى** ﴾[طه:٤٦] أي: إننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى .

﴿ **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين** ﴾ ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ **إِنَّا رَسُولا رَبِّك** ﴾[طه : ٤٧] أي : كل منا رسول الله إليك ، ﴿ **أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ أي : أطلقهم من إسَارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك فى العذاب المهين . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . [وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِين]**(٢) ﴾ [أي : أما أنت الذى ربيناه فينا (٣)] ، وفي بيتنا وعلى فراشنا [وغذيناه (٤)] ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِين** ﴾ أي :الجاحدين . قاله ابن عباس،وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

﴿ **قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا** ﴾ أي : في تلك الحال ، ﴿ **وَأَنَا مِنَ الضَّالِّين** ﴾ أي :قبل أن يوحَى إليّ وينعم الله على بالرسالة والنبوة (٥) .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿ **وَأَنَا مِنَ الضَّالِّين** ﴾ أي : الجاهلين .

قال ابن جُرَيْج :وهى كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

﴿ **فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِين** ﴾ أي : الحال الأول انفصل

(١ـ٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « بالنبوة والرسالة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنى الله إليك ، فإن أطعته سَلمت ، وإن خالفته عَطبت .

ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وما أحسنت إلى وربَّيْتنى مقابل ما أسأتَ إلى (١) بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخدماً ، تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك ، أفَيَفى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم ؟ أى : ليس ما ذكرتَه شيئاً بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ، وتمرده وطغيانه وجحوده ، فى قوله :﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ (٢) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وكانوا يجحدون الصانع ـ تعالى ـ ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦] ، قال له : ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن (٣) رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[طه : ٤٩ ، ٥٠] .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم ؛ أن هذا سؤال عن الماهية ، فقد غلط ؛ فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية (٤) ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر ، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى : خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه وإلهه ، لاشريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع (٥) عبيد له خاضعون ذليلون .

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة . فعند ذلك التفت فرعون إلى مَن حوله من مَلَئه ورؤساء دولته قائلا لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أى : ألا تعجبون مما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلها غيرى ؟ فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ أى : خالقكم وخالق آبائكم الأولين (٦) ، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه . ﴿ قَالَ ﴾ أى : فرعون لقومه : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى: ليس

---

(١) فى ف ، أ : « على » .
(٢) فى أ : « واستخف » .
(٣) فى ف ، أ : « ومن » وهو خطأ .
(٤) فى أ : « ماهيته » .
(٥) فى ف : « والجميع » .
(٦) فى أ : « الأوائل » .

www.besturdubooks.wordpress.com

له عقل فى دعواه أن ثمّ ربا غيرى .﴿ قَالَ ﴾ أى : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى : هو الذى جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه[1] الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سَخّرها فيه وقدّرها ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً ، كما أخبر تعالى عن ﴿ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨] ؛ ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى ، عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ .

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال[2] ، فقال : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ . فعند ذلك قال موسى: ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ أى : ببرهان قاطع واضح ،﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ،﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى : من جيبه ، ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أى : تتلألأ كقطعة من القمر . فبادر فرعون ــ بشقائه ــ إلى التكذيب والعناد ، فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : فاضل بارع فى السحر . فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته ، والكفر به . فقال :﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ؟ أى : أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ[3] عَلِيمٍ ﴾ [أى :أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم][4] يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد . فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى

---

(١) فى ف ، أ : « منه » .

(٢) فى هـ : « مقام » والمثبت من ف ، أ .

(٣) فى أ : « ساحر ».

(٤) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

لهم فى ذلك ؛ ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ .

ذكر [الله] [١] تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط فى « سورة الأعراف » وفى « سورة طه»، وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى [٢] الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، **﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾** [الأنبياء : ١٨] ، **﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾** [الإسراء : ٨١] ،ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا فى ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ، وجماً غفيراً ، قيل : كانوا اثنى عشر ألفاً .وقيل : خمسة عشر ألفاً . وقيل : سبعة عشر ألفاً وقيل : تسعة عشر ألفا . وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً . وقيل : ثمانين ألفاً . وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم .

قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم : وهم : ساتور وعازور [٣] وحطحط[٤] ويصقى .

واجتهد [٥] الناس فى الاجتماع ذلك اليوم ،وقال قائلهم :**﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ. [قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ] [٦] ﴾** ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم . **﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾** أى : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً ، وجمع حشمه وخدمه [وأمراءه] [٧] ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدى فرعون [٨] ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أى هذا الذى جمعتنا من أجله، فقالوا : **﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾** أى:وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندى وجلسائى . فعادوا إلى مقام المناظرة **﴿ قَالُوا[٩] يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾** [طه : ٦٥ ، ٦٦] ،وقد اختصر هذا ههنا.فقال لهم موسى: **﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ . فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾** ، وهذا كما يقوله

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « فيأبى » . (٣) فى ف ، أ : « وعادون » .
(٤) فى أ . « وحطحة » . (٥) فى أ : « وحشر » . (٦) زيادة من ف .
(٧) زيادة من أ . (٨) فى ف ، أ : « بين يديه » . (٩) فى أ : « فقالوا » وهو خطأ

www.besturdubooks.wordpress.com

الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله فى « سورة الأعراف » : أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] ،وقال فى « سورة طه »: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٦ ـ ٦٩] . وقال ههنا : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى: تختطفه [١] وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا ، قال تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٨ـ١٢٢] وكان هذا أمرا عظيما جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فَغُلب فرعون غَلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعدهم ، ويقول: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ .

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليما . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ ؟ أى : كان ينبغى أن تستأذنونى فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علىَّ فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؛ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لا ضَيْرَ ﴾ أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أى : المرجع [٢] إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا [٣] : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أى : ما قارفناه [٤] من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بسبب أنا بادرنا قومنًا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم [٥] كلهم .

(١) فى ف ، أ : « تخطفه » . (٢) فى ف ، أ : « الرجوع » . (٣) فى ف ، أ : « قال » .
(٤) فى أ : « ما فرقناه » . (٥) فى ف ، أ : « قبلهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

لما طال مقُام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حُجَج الله [١]وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العـذاب والنـكال ، فأمر اللّه موسى ، عليه السلام، أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤُمرَ ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم ، فيما ذكر غير واحد من المفسرين ، وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد ، رحمه اللّه ، أنه كُسف القمر تلك الليلة ، فاللّه أعلم ، وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذى حمله بنفسه ، عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه [٢] معهم ، وقد ورد فى ذلك حديث رواه ابن أبى حاتم ، رحمه الله ، فقال :

حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عمر [٣] بن أبان بن صالح ، حدثنا ابن فضيل [٤] ، عن عبد الله[٥] بن أبى إسحاق، عن ابن أبى بردة ، عن أبيه ، عن أبى موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه ، فقال له رسول الله ﷺ : تعاهدنا . فأتاه الأعرابى فقال له رسول الله ﷺ : «ما حاجتك ؟ » قال [٦]: ناقة برحلها وأعنز [٧] يحتلبها أهلى ، فقال : « أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ » . فقال له أصحابه : وما عجوز بنى إسرائيل يا رسول اللّه ؟ قال : « إن موسى لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق ، فقال لبنى إسرائيل : ما هذا ؟ فقال له علماء بنى إسرائيل : نحن نحدثك أن يوسف، عليه السلام ، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : فأيكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا : ما يعلمه إلا عجوز لبنى إسرائيل . فأرسل إليها فقال [٨] لها : دلينى على قبر يوسف . فقالت : واللّه لا أفعل حتى تعطينى حكمى . قال لها : وما حكمك ؟ قالت [٩] : حكمى أن أكون معك فى الجنة . فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقيل له : أعطها حكمها. قال : فانطلقت معهم إلى بحيرة ـ مستنقع ماء ـ فقالت لهم : انضبوا هذا الماء . فلما أنضبوه قالت : احتفروا [١٠] ، فلما احتفروا استخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار [١١] » .

(١) فى ف : « وأقام حجج الله بها » . (٢) فى أ : « يحتملوه » . (٣) فى هـ : « عبد الله بن عمر بن محمد بن أبان » .
(٤) فى هـ : « فضل » والمثبت من أ . (٥) فى أ : « يونس » . (٦) فى ف ، أ : « فقال » .
(٧) فى أ : « وأعنق » . (٨) فى أ : « وقال ». (٩) فى أ : « قال » .
(١٠) فى أ : « احفروا » .
(١١) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٣/ ٢٣٦) وابن حبان فى صحيحه برقم (٢٤٣٥) « موارد » ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٧١) من طريق محمد بن فضيل ، عن يونس بن أبى إسحاق ، عن أبى بردة عن أبى موسى به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٧٠): « رجال أبى يعلى رجال الصحيح » .

www.besturdubooks.wordpress.com

هذا حديث غريب جداً ، والأقرب أنه موقوف ، والله أعلم .

فلما أصبحوا وليس فى ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل؛ لما يريد اللّه به من الدمار ، فأرسل سريعاً فى بلاده حاشرين ، أى : من يحشر الجندَ ويجمعه ، كالنّقبَاءَ والحُجَّاب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ ﴾ ـ يعنى : بنى إسرائيل ـ ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أى : لطائفة قليلة ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أى :كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ،﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أى : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم ، وأبيد خَضْراءهم . فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ،﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف :١٣٧]، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج فى جحفل عظيم وجمع كبير (١) ، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية فى زمانه ،أولى الحل والعقد والدول ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات ، من أنه خرج فى ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دُهْم ، وقال كعب الأحبار : فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم ــ ففى ذلك نظر. والظاهر أنه من مجازفات بنى إسرائيل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم . والذى أخبر به هو النافع ، ولم يعين عدتهم ؛ إذ لا فائدة تحته ، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى : رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم

(١) فى أ : « كثير » .

www.besturdubooks.wordpress.com

شيء مما تحذرون ، فإن اللّه ، سبحانه ، هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد .

وكان هارون ، عليه السلام ، فى المقدمة ، ومعه يوشع بن نون ، [ومؤمن آل فرعون وموسى ، عليه السلام ، فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ، وجعل يوشع بن نون] [١] ، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى ، عليه السلام : يا نبى الله ، ههنا أمرك اللّه أن تسير ؟ فيقول : نعم ، واقترب فرعون وجنوده ، ولم يبق إلا القليل . فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه ، وقال : انفلق بإذن الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد ، حدثنا [٢] محمد بن حمزة [بن محمد] [٣] بن يوسف بن عبد اللّه بن سلام : أن موسى ، عليه السلام ، لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء ، والكائن قبل كل شيء ، اجعل لنا مخرجاً . فأوحى الله إليه : ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ .

وقال قتادة : أوحى اللّه تلك الليلة إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع ، فبات البحر تلك الليلة ، وله اضطراب [٤] ، ولا يدرى من أىّ جانب يضربه موسى ، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون : يا نبى اللّه ، أين أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر . قال: فاضربه .

وقال محمد بن إسحاق : أوحى الله ـ فيما ذكر لى ـ إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له. قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فرقا من الله تعالى ، وانتظاراً لما أمره اللّه ، وأوحى الله إلى موسى : ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ ، فضربه بها ، وفيها [٥]سلطان اللّه الذى أعطاه ، فانفلق .

وذكر غير واحد أنه كناه فقال : انفلق علىّ أبا خالد بحول اللّه [٦] .

قال الله تعالى : ﴿ **فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ أى : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عطاء الخراسانى : هو الفَجّ بين الجبلين .

وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقاً ، لكل سبط طريق ـ وزاد السدى : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث اللّه الريح على قعر البحر فلفحته ، فسار يَبَساً [٧] كوجه الأرض ، قال اللّه تعالى : ﴿ **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى** ﴾ [طه : ٧٧] ، وقال فى هذه القصة : ﴿ **وَأَزْلَفْنَا** ﴾ أى : هنالك [٨] ﴿ **الآخَرِينَ** ﴾ .

قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى : ﴿ **وَأَزْلَفْنَا** ﴾ أى : قربنا فرعون وجنوده

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « عن » .
(٣) زيادة من الجرح والتعديل (٣/٢/٢٣٦) والدر المنثور (٨٦/٥) .
(٤) فى أ : « اتكل » . (٥) فى أ : « ففيها » . (٦) فى ف ، أ : « بإذن الله » .
(٧) فى أ : « يابساً » . (٨) فى ف : « هناك » .

www.besturdubooks.wordpress.com

من البحر وأدنيناهم إليه .

﴿ **وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ** ﴾ أى : أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك [١] منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل [٢] إلا هلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا شبابة ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ أن موسى ، عليه السلام ، حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون ذلك ، فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال: لا ، والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلىّ ستمائة ألف من القبط . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ، فقال له : انفرق . فقال البحر : لقد استكبرت يا موسى ، وهل انفرقت [٣] لأحد من ولد [٤] آدم فأنفرق [٥] لك ؟ قال : ومع موسى رجل على حصان له ،فقال له ذلك الرجل : أين أمرتَ يا نبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه [يعنى : البحر ، فأقحم فرسه ، فسبح به فخرج ، فقال : أين أمرت يانبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه] [٦] . قال : والله ما كَذَبت ولا كُذبت. ثم اقتحم الثانية فسبح ، ثم خرج فقال : أين أمرت يا نبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ؟ قال : والله ما كَذَبت [٧] ولا كُذبت . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه موسى بعصاه ، فانفلق ، فكان فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يتراؤون ، فلما خرج أصحاب موسى وتَتَامّ أصحابُ فرعون ، التقى البحر عليهم فأغرقهم .

وفى رواية إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال : فلما خَرَج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، اضطم عليهم البحر ، فما رُئِىَ سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله .

ثم قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة** ﴾ أى : فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ؛ لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ، ﴿ **وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى[٨] عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء،أمر الله رسوله محمدا، صلوات الله وسلامه عليه ، أن يتلوه على أمته ، ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبرى من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره،فإنه من وقت نَشَأ وشَب،أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله، عز وجل، فقال:

---

(١) فى أ : « نهلك » . (٢) فى ف : « رجل منهم » . (٣) فى ف ، أ : « فرقت » .
(٤) فى أ : « بنى » . (٥) فى أ : « فأفرق » . (٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) فى أ : « ما كذب » . (٨) فى أ : « عز وجل » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أي : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أي : مقيمين على عبادتها ودعائها ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : اعترفوا بأن(١) أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فَلْتَخْلُص إلى بالمساءة ، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ، عليه السلام : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] ، وقال هود ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٦] . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ـ ٢٨] يعني: لا إله إلا الله.

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ .

يعني : لا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ، ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى : هو الخالق الذى قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه ، فكل يجرى على [ما] (٢) قدّر ، وهو الذى يهدى من يشاء ويُضل من يشاء . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : هو خالقى ورازقى ، بما سخر ويَسَّر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المُزْنَ ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذباً زلالا لـ ﴿ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا(٣) أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٩] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا ، كما قال تعالى آمراً للمصلى أن يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] فأسند الإنعام إلى الله ، سبحانه وتعالى ، والغضب حُذف فاعله أدباً ، وأسند الضلال إلى العبيد ، كما قالت الجن: ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ؛ ولهذا(٤) قال

---

(١) فى ف ، أ : « أن » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى م : « ليسقيه مما خلق » وهو خطأ .
(٤) فى ف ، أ : « وهكذا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أي : إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره ، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ، ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أي : هو الذي يحيي ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي : هو الذي لا يقدر على غَفْرْ الذنوب في الدنيا والآخرة ، إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ .

وهذا سؤال من إبراهيم ، عليه السلام ،أن يؤتيه ربه حُكْما .

قال ابن عباس : وهو العلم . وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدى : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أي : اجعلنى مع [1] الصالحين فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى ﷺ عند الاحتضار :« [اللهم الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً [2] . وفى الحديث فى الدعاء] [3] :« اللهم أحينا مسلمين ،وأمتنا مسلمين ،وألحقنا بالصالحين،غيرخزايا ولا مبدلين»[4] .

وقوله : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ أي : واجعل لى ذكراً جميلاً بعدى أذكرَ به ، ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨ ـ ١١٠] .

قال مجاهد ، وقتادة: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ يعنى : الثناء الحسن . قال مجاهد: وهو كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٧]، وكقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] .

قال ليث بن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه . وكذا قال عكرمة .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي : أنعم عَلَيَّ فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم .

وقوله : ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [إبراهيم : ٤١]، وهذا مما رجعَ عنه إبراهيم ، عليه السلام ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن

---

(١) فى أ : « من » .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٩١) من حديث عائشة ، رضى الله عنها ، وليس عندهما أنه قالها ثلاثاً ، وإنما فيهما ما يفيد أنها مرتين ، والله أعلم .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٣ / ٤٢٤) من حديث الزرقى ، وعنده : « غير خزايا ولا مفتونين » .

www.besturdubooks.wordpress.com

مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقد قطع [الله] (١) تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقوله : ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** ﴾ أى : أجرنى من الخزى يوم القيامة و [يوم] (٢) يبعث الخلائق أولهم وآخرهم .

قال البخارى فى قوله : ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** ﴾ : وقال إبراهيم بن طهمان ، عن ابن أبى ذئب، عن سعيد بن أبى سعيد المقبُرىّ ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ » (٣) .

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى ، عن ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتنى أنك لا تخزينى (٤) يوم يبعثون. فيقول اللّه : إنى حرمت الجنة على الكافرين » .

هكذا رواه عند هذه الآية (٥) . وفى أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لاتعصنى (٦) ؟ فيقول أبوه (٧) : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول اللّه تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يُقال : يا إبراهيم ، ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار (٨) .

وقال أبو عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه الكبير قوله : ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** ﴾: أخبرنا أحمد بن حفص (٩) بن عبد اللّه ، حدثنى أبى ، حدثنى إبراهيم بن طَهْمَان ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن أبى سعيد المقْبَرِى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَة والقتَرَة ، وقال (١٠) له : قد نهيتك عن هذا فعصيتنى . قال : لكنى اليوم لا أعصيك واحدة . قال : يا رب ، وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون ، فإن (١١) أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال :يا إبراهيم ، إنى (١٢) حرمتها على الكافرين . فأخذ منه ، قال: يا إبراهيم ، أين أبوك ؟ قال : أنت أخذته منى . قال : انظر أسفل منك . فنظر (١٣) فإذا ذيخ يتمرغ (١٤) فى نتنه ، فأخذ بقوائمه فألقى فى النار (١٥) » .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٨) .
(٤) فى ف ، أ : « أن لا تخزنى » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٩) ولفظه : « وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون » .
(٦) فى ف : « لا تعصينى » . (٧) فى ف : « أباه » وهو خطأ .
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥٠) .
(٩) فى ف : « جعفر » . (١٠) فى ف : « فقال » . (١١) فى أ : « فأى » .
(١٢) فى أ : « فإنى» . (١٣) فى ف ، أ : « فينظر » . (١٤) فى ف : « متمرغ » .
(١٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٥) .

www.besturdubooks.wordpress.com

هذا إسناد [١] غريب ، وفيه نكارة .

والذيخ [٢] : هو الذكر من الضباع ، كأنه حول آذر إلى صورة ذيخ متلطخ بَعذرته[٣] ، فيلقى فى النار كذلك .

وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ،عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ ، وفيه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة ، عن جعفر بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ ، بنحوه .

وقوله : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ** ﴾ أى :لا يقى المرء [٤] من عذاب اللّه ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ،﴿**وَلا بَنُون**﴾ ولو افتدى بمن فى الأرض جميعا ، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ باللّه ، وإخلاص الدين له ، والتبرى من الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ أى : سالم من الدنس والشرك .

قال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن اللّه حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن اللّه يبعث من فى القبور .

وقال ابن عباس : ﴿ **إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ حَيِى [٥] يشهد أن لا إله إلا اللّه .

وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : ﴿ **بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ يعنى : من الشرك .

وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب [الكافر و][٦] المنافق مريض ، قال اللّه : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ [البقرة : ١٠] .

وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .

﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ** ﴾ أى :قربت الجنة وأدنيت [٧] من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة [٨] لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها ، وعملوا لها [عملها] [٩] فى الدنيا .﴿ **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِين** ﴾ أى:

---

(١) فى ف : « سياق » .
(٢) فى أ : « والذابح » .
(٣) فى أ : « بقذرته » .
(٤) أ : « المؤمن » .
(٥) فى ف ، أ : « يعنى » .
(٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) فى ف : « أدنيت وقربت » .
(٨) فى ف ، أ : « مزينة مزخرفة » .
(٩) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

أظهرت وكُشف [١] عنها ، وبدت منها عُنقٌ ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب [إلى] [٢] الحناجر ، وقيل لأهلها تقريعا وتوبيخا : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُون [٣]. مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾؟ أى: ليست الآلهة التى عبدتموها من دون اللّه ، من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جَهَنم أنتم لها واردون .

وقوله : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : فَدُهْوِرُوا [٤] فيها .

وقال غيره : كببوا فيها . والكاف مكررة ، كما يقال : صرصر . والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ، ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُون ﴾ أى: ألقوا فيها عن آخرهم . ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُون. تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِين . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِين ﴾ أى : يقول الضعفاء الذين استكبروا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّار ﴾ [غافر : ٤٧] . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ، ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُون ﴾ أى : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ، ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِين ﴾ قال بعضهم : يعنى من الملائكة، كما يقولون: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَل ﴾ [الأعراف: ٥٣]. وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِين. وَلا صَدِيقٍ حَمِيم ﴾ أى : قريب .

قال قتادة : يعلمون ـ واللّه ـ أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحا شفع .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون [٥] إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم ـ فيما يزعمون ـ وهو ، سبحانه وتعالى ، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى [٦] عن تخاصم [٧] أهل النار فى سورة « ص » ، ثم قال: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص : ٦٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج [٨] عليهم فى التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِين . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ﴾ .

هذا إخبار من اللّه ، عز وجل ،[٩] عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، وهو أول رسول بُعث

---

(١) فى ف ، أ : « وكشفت » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ف ، أ : « تشركون » .
(٤) فى أ : « صوروا » . (٥) فى ف : « أن يردون » ، وفى أ : « أن يردوا » . (٦) فى أ : « الله » وهو خطأ .
(٧) فى أ : « بتخاصم » . (٨) فى ف : « الحجة » . (٩) فى ف ، أ : « تعالى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

إلى الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، بعثه اللّه ناهياً عن ذلك ، ومحذراً من وَبيل عقابه ، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم ، ويتنزل [1] تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ** ﴾ أى: ألا [2] تخافون اللّه فى عبادتكم غيره ؟ ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ أى : أنى رسول من اللّه إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالة اللّه لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ [إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ]** [3]﴾ أى : لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم ، بل أدخر ثواب ذلك عند اللّه ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقى ونصحى وأمانتى فيما بعثنى به وائتمننى عليه .

﴿ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١١٥)** ﴾ .

يقولون : أنؤمن لك ونتبعك ، ونتساوى فى ذلك بهؤلاء الأراذل [4] الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا [5] ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ؟ أى : وأى شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التنقيب عنه والبحث والفحص ، إنما علىَّ أن أقبل منهم تصديقهم [6] إياى ، وأكل سرائرهم إلى اللّه ، عز وجل، ﴿ **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه [7] ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ **مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وكنت منه ، سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً .

﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)** ﴾ .

لما طال مقام نبى اللّه بين أظهرهم يدعوهم إلى اللّه ليلاً ونهاراً ، وجهراً وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا فى الآخر : ﴿ **لَئِن لَّمْ تَنتَهِ** ﴾ أى: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ **لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** ﴾ أى : لنرجمنك [8] . فعند ذلك دعا

---

(١) فى أ : « وتنزل » . (٢) فى أ : « لا » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى أ : « الأرذال » . (٥) فى أ : « أرذالنا » (٦) فى أ : « صدقهم » .
(٧) فى ف : « ليتابعون » ، وفى أ : « ليبايعوه » . (٨) فى أ : « لنرجمك » .

www.besturdubooks.wordpress.com

عليهم دعوة استجاب اللّه منه ، فقال : ﴿ **رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، كما قال فى الآية الآخرى : ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ** ﴾ [القمر : ١٠ ـ ١٤] ، وقال ههنا : ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ** ﴾ . والمشحون : هو المملوء بالأمتعة والأزواج التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : نجيناه [1] ومن معه [2] كلهم ، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)** ﴾ .

وهذا إخبار من [اللّه تعالى عن] [3] عبده ورسوله هود ، عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف ، وهى : جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت متاخمة [4] لبلاد اليمن، وكانوا زمانهم بعد قوم نوح ، [كما قال فى « سورة الأعراف » : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**] [5] **وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً** ﴾ [الأعراف:٦٩] ، وذلك أنهم كانوا فى غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة ، والأموال والجنات [6] والعيون، والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير اللّه معه ، فبعث اللّه إليهم رجلا منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى اللّه وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه فى مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال : ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** ﴾ ، اختلف المفسرون فى الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة . تبنون هنالك بناء محكما باهراً هائلاً ؛ ولهذا قال: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً** ﴾ أى : معلما بناء مشهوراً ، تعبثون ، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم ، عليه السلام ، ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان فى غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم قال : ﴿ **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴾ ، قال مجاهد المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد . وفى رواية عنه : بروج الحمام .

---

(١) فى أ : « نجينا نوحاً » . (٢) فى أ : « اتبعه » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف : « متخمة » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى أ : « والجنان » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال قتادة : هى مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء [١] : «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون » .

وفى القراءة المشهورة : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون** ﴾ أى: لكى تقيموا فيها أبداً ، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم ، كما زال عمن كان قبلكم .

وقال ابن أبى حاتم ، رحمه اللّه : حدثنا أبى ، حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن عَجْلان ، حدثنى عَوْن بن عبد اللّه بن عتبة ، أن أبا الدرداء ، رضى اللّه عنه ، لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغُوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال :ألا تستحيون ! ألا تستحيون ! تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه كانت قبلكم [٢] قرون ، يجمعون فيرعُون ،ويبنون فيوثقون [٣] ، ويأملون فيطيلون،فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم [٤] قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؟

وقوله : ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِين**﴾ :وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ، ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون**﴾ أى: اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم .

ثم شرع يذكرهم نعم اللّه عليهم فقال : ﴿ **وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُون. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم** ﴾ أى : إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى اللّه بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

﴿ **قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له ، بعدما حذرهم وأنذرهم ، وَرَغَّبَهُم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه : ﴿ **قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِين** ﴾ أى : لا نرجع عما نحن فيه، ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِين** ﴾ [هود : ٥٣] . وهكذا الأمر ؛ فإن اللّه تعالى قال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُون** ﴾ [البقرة : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُون. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] .

وقولهم : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ** ﴾ : قرأ بعضهم : « إن هذا إلا خَلْق » بفتح الخاء وتسكين

---

(١) فى ف : « الكوفيين » .
(٢) فى ف : « قد كانت قبلكم » ، وفى أ : « قد كانت لكم » .
(٣) فى أ : « فيوبقون » .
(٤) فى ف : « منازلهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

اللام .

قال ابن مسعود ، والعوفى عن عبد الله بن عباس ، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين [اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْه بُكْرَةً وأَصيلا ﴾ [الفرقان : ٥] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذينَ كفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ إفْكٌ افْتَرَاهُ وأَعَانَهُ عَلَيْه قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطيرُ الأَوَّلِين ﴾ [الفرقان: ٤ ، ٥] ، وقال : ﴿ وإِذَا قِيلَ لَهُم [١] مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴾] [٢] [النحل : ٢٤] .

وقرأ آخرون : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِين ﴾ ـ بضم الخاء واللام ـ يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِين ﴾ يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير [٣] .

قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُم ﴾ أى : فاستمروا على تكذيب نبى الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إياهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أى : ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شىء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ [ذَاتِ الْعِمَاد] [٤] ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧]، وهم عاد الأولى ، كما قال : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى ﴾ [النجم : ٥٠] ، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح . ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أى : الذين كانوا يسكنون العَمَد . ومن زعم أن « إرم » مدينة ، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب ، وليس لذلك أصل أصيل . ولهذا قال: ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاد ﴾ [الفجر : ٨] ، أى: لم يخلق مثل هذه القبيلة فى قوتهم وشدتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال : التى لم يبن مثلها فى البلاد، وقال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُون ﴾ [فصلت : ١٥] .

وقد قَدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة ، فأذن[٥] الله لها فى ذلك ، وسلكت وحصبت بلادهم ، فحصبت كل شىء لهم ، كما قال تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ [٦] إِلا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ الآية [الأحقاف : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٦ ، ٧] ، أى : كاملة، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]، أى: بقوا أبداناً بلا رؤوس؛

---

(١) فى ف ، أ : « وقيل للذين كفروا » وهو خطأ . (٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) تفسير الطبرى (١٩/ ٦٠) .
(٤) زيادة من ف ، أ. (٥) فى أ : « بإذن » . (٦) فى ف ، أ : « لا ترى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وذلك أن الريح كانت تأتى الرجل منهم فتقتلعه وترفعه فى الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا فى الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم فى الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك [١] من أمر الله شيئاً ، ﴿ **إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ** ﴾ [نوح : ٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)** ﴾ .

وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله صالح ، عليه السلام: أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحِجْر ، التى بين وادى القُرَى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة . وقد قدمنا فى « سورة الأعراف » [٢] الأحاديث المروية فى مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غَزْوَ الشام ، فوصل [٣] إلى تَبُوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل ، عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه . فأخبرهم أنه لا يبتغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ، عز وجل ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

﴿ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢)** ﴾ .

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نقم [٤] الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة ، وجعلهم فى أمن من المحذورات . وأنبت لهم من الجنات [٥] . وأنبع لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ ولهذا قال: ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾ . قال العوفى ، عن ابن عباس : أينع وبَلَغ ، فهو هضيم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾ يقول : مُعشبة .

[و] [٦] قال إسماعيل بن أبى خالد ، عن عمرو بن أبى عمرو ـ وقد أدرك الصحابة ـ عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾ قال : إذا رطُب واسترخى . رواه ابن أبى حاتم ، قال : ورُوى عن أبى صالح نحو هذا .

---

(١) فى ف ، أ : « لم يغن ذلك عنهم » .
(٢) عند الآيات : ٧٣ ـ ٧٨ .
(٣) فى أ : « فدخل » .
(٤) فى ف ، أ : « نقمة » .
(٥) فى أ : « الحبات » .
(٦) زيادة من أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال أبو إسحاق ، عن أبى العلاء : ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيم** ﴾ قال : هو المذنب من الرطب .

وقال مجاهد : هو الذى إذا كُبس [١] تهشم وتفتت وتناثر .

وقال ابن جريج : سمعت عبد الكريم أبا أمية ، سمعت مجاهد يقول : ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيم** ﴾ قال : حين يطلعُ تقبض عليه فتهضَمه ، فهو من الرطب الهضيم ، ومن اليابس الهشيم ، تقبض عليه فتهشمه .

وقال عكرمة ، وقتادة : الهضيم : الرطب اللين .

وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة [٢] ، وركب بعضه بعضاً ، فهو هضيم .

وقال مرة : هو الطَّلْعُ حين يتفرق ويخضر .

وقال الحسن البصرى : هو الذى لا نوى له .

وقال أبو صخر : ما [٣] رأيت الطلعَ حين يُشق[٤] عنه الكمّ ، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم ، وقوله : ﴿ **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ** ﴾ قال ابن عباس ، وغير واحد : يعنى : حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين [٥] . وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين [٦] متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ؛ولهذا قال : ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ أى : أقبلوا على عَمَل ما يعود نفعُه عليكم [٧] فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ،﴿ **وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُون** ﴾ يعنى :رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفة الحق .

﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن ثمودَ فى جوابهم لنبيهم صالح ، عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة ربهم ﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِين** ﴾ . قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين .

وروى [٨] أبو صالح ، عن ابن عباس : ﴿ **مِنَ الْمُسَحَّرِين** [٩] ﴾ : يعنى من المخلوقين ، واستشهد بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر [١٠] .

---

(١) فى ف ، أ : « مس » . (٢) فى ف ، أ : « حمل النخلة المثمرة » . (٣) فى ف ، أ : « أما » .
(٤) فى ف ، أ : « يتشقق » . (٥) فى ف : « أشرين شرهين » . (٦) فى أ : « صادقين » .
(٧) فى ف ، أ : « عليكم نفعه » . (٨) فى ف : « وقال » . (٩) فى ف ، أ : « المسحورين » .
(١٠) هو لبيد بن ربيعة ، والبيت فى ديوانه ص (٥٦) أ . هـ ، مستفاداً من ط . الشعب .

www.besturdubooks.wordpress.com

يعنى الذين لهم سُحور ، والسَّحر : هو الرئة .

والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك.

ثم قالوا : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعني : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ أَؤُلْقِيَ[1] الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ. سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥ ، ٢٦] .

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما[2] جاءهم به من ربهم فطلبوا منه ـ وقد اجتمع ملؤهم ـ أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة عندهم ـ ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم نبى الله صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنَنّ به ، [وليصدقنه][3] ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك . فقام نبى الله صالح ، عليه السلام، فصلى، ثم دعا الله ، عز وجل ، أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء ، على الصفة التى وصفوها . فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوما ، ويوماً تردونه أنتم ، ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى . وينتفعون بلبنها ، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم ، تمالؤوا على قتلها وعقرها ، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو أن أرضهم زُلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم ، وكانوا يسكنون « سدوم » وأعمالها التى أهلكها الله بها ،وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ،وهى مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت[4] المقدس ، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك . فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكْران دون الإناث ؛ ولهذا قال تعالى :

(١) فى ف ، أ : « وأنزل » وهو خطأ .
(٢) فى أ : « فيما » .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف ، أ : « بيت ».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾ .

لما نهاهم نبى الله عن إتيانهم الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتى خلقهن الله لهم ـ ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ ﴾ يعنون: عما جئتنا [١] به، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى: ننفيك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا [٢] كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم [٣] مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، فلما رأى أنَّهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم ، تبرأ منهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ أى : المُبغضين ، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فأنا برىء منكم . ثم دعا الله عليهم قال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : كلهم ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ ، وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت[٤] مع من بقى من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم فى « سورة الأعراف » و « هود » ، وكذا فى « الحجْر » حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذى عمّ جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ .

هؤلاء ـ أعنى أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبى الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغَيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » ، وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ،فقطع نسبة الأخوة بينهم ؛ للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير

(١) فى ف : « يعنى مما جئتنا » .
(٢) فى ف ، أ : « فما » وهو خطأ .
(٣) فى جميع النسخ : « أخرجوا آل لوط » والصواب ما أثبتناه .
(٤) فى ف ، أ : « مهلكة ».

www.besturdubooks.wordpress.com

أهل مدين ، فزعم أن شعيباً ، عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .

وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلى ـ وهو ضعيف ـ حدثنى ابن السدى ، عن أبيه ـ وزكريا بن عمر (١) ، عن خَصِيف ، عن عكْرِمة قالا : ما بعث اللّه نبياً مرتين إلا شعيباً ، مرة إلى مدين فأخذهم اللّه بالصيحة ، ومرة إلى أصحابَ الأيكة فأخذهم اللّه بعذاب يوم الظُّلَّة .

وروى أبو القاسم البغوى ، عن هُدْبَة ، عن هَمَّام ، عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَصْحَابُ الرَّس** ﴾. [ق : ١٢] قوم شعيب ، وقوله : ﴿ **وَأَصْحَابُ الأَيْكَة** ﴾ . [ق : ١٤] قوم شعيب .

قال إسحاق بن بشر : وقال غير جُوَيْبر : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد . واللّه أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة « شعيب » ، من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث (٢) اللّه إليهما شعيباً النبى ، عليه السلام » (٣) .

وهذا غريب ، وفى رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفا . والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا فى كل مقام بشىء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء (٤) ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة (٥) .

﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤)** ﴾ .

يأمرهم تعالى(٦) بإيفاء المكيال (٧) والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : ﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ** ﴾ أى : إذا دفعتم إلى الناس فكملوا (٨) الكيل لهم ، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا ،وتأخذوه ـ إذا كان لكم ـ تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، واعطوا كما تأخذون.

﴿ **وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ** ﴾ : والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : القَبَّانُ . قال بعضهم : هو معرب من الرومية .

وقال مجاهد : القسطاس المستقيم : العدل ـ بالرومية . وقال قتادة : القسطاس : العدل .

وقوله : ﴿ **وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ** ﴾ أى : تَنْقُصوهم أموالهم ، ﴿ **وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ**

---

(١) فى ف، أ « عمرو » .
(٢) فى ف ، أ : « فبعث » .
(٣) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠/٣٠٩) .
(٤) فى أ : « سواء » .
(٥) فى أ : « فدل ذلك على أنهما واحدة » .
(٦) فى ف ، أ : « عليه السلام » .
(٧) فى ف ، أ : « الكيل » .
(٨) فى أ : « فكلوا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

مُفْسِدِينَ ﴾ يعنى : قطع الطريق ، كما فى الآية الأخرى : ﴿ **وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ]** (١) ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

وقوله : ﴿ **وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ** ﴾ :يخوفهم بأس اللّه الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى ، عليه السلام : ﴿ **رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [الصافات :١٢٦] .قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسُّدِّى ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ**﴾ يقول : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : ﴿ **وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا** ﴾ [يس : ٦٢] .

﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)** ﴾ .

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها (٢) ـ تشابهت قلوبهم ـ حيث قالوا: ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** ﴾ يعنون : من المسحورين ، كما تقدم . ﴿ **وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ أى : تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، ﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾:قال الضحاك :جانبا من السماء . وقال قتادة : قطعا من السماء . وقال السدى: عذابًا من السماء . وهذا شبيه بما قالت قُرَيش فيما أخبر اللّه عنهم فى قوله تعالى :﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا** ﴾ ،إلى أن قالوا : ﴿ **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا** ﴾ [الإسراء : ٩٠ـ ٩٢] . وقوله : ﴿ **وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾.

﴿ **قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ يقول : اللّه أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم ، وكذلك وقع بهم كما سألوا ، جزاءً وفاقًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله، سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم (٣) أن أصابهم حر شديد جدا مدة سبعة أيام لا يكُنّهم منه شىء ، ثم

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف ، أ : « لرسلها » .
(٣) فى أ : « عقوبته » .

www.besturdubooks.wordpress.com

أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا [كلهم][١] تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورَجَفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن [٢] ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا : ﴿ **لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** ﴾ [الأعراف : ٨٨] ، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفي سورة هود قال : ﴿ **وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ** ﴾ [هود : ٩٤] ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم : ﴿ **أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود : ٨٧] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿ **وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ** ﴾ [٣]. وههنا قالوا : ﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه : ﴿ **فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر [٤] ، رضي الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم واستظل [٥] بها ، فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعاً ، فاستظلوا تحتها ، فأجَّجَتْ عليهم ناراً .

وهكذا روى عن عِكْرِمَة ، وسعيد بن جُبَير ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المَقْلَى.

وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، فَفَرِقُوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلاً [٦] أطيب ولا أبرد من هذا . هلموا أيها الناس . فدخلوا جميعاً تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعاً . ثم تلا محمد بن كعب : ﴿ **فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثني الحسن ، حدثني سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثني حاتم بن أبي صغيرة [٧] ، حدثني يزيد الباهلي : سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿ **فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ قال : بعث الله عليهم وَمَدَةً [٨] وحرا شديدا ، فأخذ

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) في أ : « مواضع » .
(٣) في ف : « فأخذتهم الصيحة » .
(٤) في ف ، أ : « عمرو » .
(٥) في ف ، أ : « فاستظل » .
(٦) في ف : « ما رأيت ظلا كاليوم » .
(٧) في أ : « ضفيرة » .
(٨) في ف ، أ : « رعدة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

بأنفاسهم [فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم] (١) ، فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية ، فبعث اللّه سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها (٢) اللّه عليهم ناراً . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم (٣) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ (٤) مُحْدَثٍ ﴾ [الآية] (٥) . ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أنزله اللّه عليك وأوحاه إليك ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ وهو جبريل ، عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه .

قال الزهرى : وهذه كقوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة: ٩٧] .

وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين لا تأكله (٦) الأرض .

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [أى : نزل به ملك كريم أمين ، ذو مكانة عند اللّه ، مطاع فى الملأ الأعلى ، ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾](٧) أى :لتنذر به بأس اللّه ونقمته على من خالفه وكذبه ،وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك [أنزلناه] (٨) بلسانك العربى الفصيح الكامل الشامل ،ليكون بيِّناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعذر ،مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد اللّه بن أبى بكر العَتَكىّ ، حدثنا عباد بن عباد المُهَلَّبى، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : بينما رسول اللّه ﷺ مع أصحابه فى يوم دَجن إذ قال لهم : « كيف ترون بواسقها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها . قال : «فكيف ترون قواعدها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : « فكيف ترون جَوْنَها (٩) ؟ » . قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : « فكيف ترون رحاها استدارت (١٠) ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد

---

(١) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(٢) فى ف ، أ : « أرسل » .
(٣) تفسير الطبرى (١٩/٦٧) .
(٤) فى ف ، أ : « ربهم » وهو خطأ .
(٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) فى ف : « لا يأكله » .
(٧، ٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) فى ف ، أ : « حرنا » .
(١٠) فى ف : « رحلها استدار » .

www.besturdubooks.wordpress.com

استدارتها . قال : « فكيف ترون برقها ، أوميَض أم خَفْو (١) أم يَشُق شَقّا (٢) ؟ » . قالوا : بل يشق شقاً. قال : « الحياء الحياء إن شاء الله » . قال :فقال رجل :يا رسول الله، بأبى وأمى ماأفصحك، ما رأيت الذى هو أعربُ منك . قال : فقال : « حق لى ، وإنما أنزل (٣) القرآن بلسانى،والله يقول : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ » (٤) .

وقال سفيان الثورى : لم ينزل وحى إلا بالعربية ، ثم تَرْجم كل نبى لقومه ، واللسان يوم القيامة بالسريانية ، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيباً فى ملئه بالبشارة بأحمد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زَبُور (٥) ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٥٢] أى : مكتوب عليهم فى صحف الملائكة .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها ؟ والمراد : العدول منهم ، الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم. وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن ؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم، ممن لا يدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ،كما أخبر عنهم في الآية الآخرى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤، ١٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١]،وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] .

---

(١) فى أ : « خفق » . (٢) فى أ : « شقاقا » . (٣) فى ف : « نزل » .

(٤) ورواه الرامهرمزى فى أمثال الحديث ص (١٥٥) من طريق عبد الله بن محمد الأموى ، عن عباد بن عباد المهلبى به .

(٥) فى ف ، أ : « زبرة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾ .

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد ، أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين، ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : بالحق ، ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أى : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى : عذاب اللّه بغتة ، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ ؟ أى : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا [من فزعهم][(١)] بطاعة اللّه، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا [فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ][(٢)] ﴾ [يونس : ٨٨، ٨٩] ، فأثرت هذه الدعوة فى فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ الآية [غافر : ٨٤، ٨٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ : إنكار عليهم ، وتهديد لهم ؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيات [العنكبوت : ٥٣] .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر اللّه ، أى شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعم ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [الليل : ١١] ؛ ولهذا قال: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : « يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة [(٣)] ، ثم يقال له : هل رأيت

(١، ٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف : « فيغمس غمسة فى النار » .

www.besturdubooks.wordpress.com

خيراً قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا [والله يا رب] (١) . ويؤتى بأشد الناس بؤسًا كان فى الدنيا، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا والله يا رب » أى : ما كأن شيئاً كان(٢). ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

كأنَّك لَمْ تُوتِر من الدّهْر لَيْلَةً إذا أنْتَ أدْرَكْتَ الذى كنتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أنَّه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم ، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنذِرُونَ. ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِين** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا** ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا [وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ]**(٣) **وَأَهْلُهَا ظَالِمُون** ﴾ [القصص : ٥٩] .

﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد : أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ، ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِين** ﴾ . ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه ما (٤) ينبغى لهم ، أى : ليس هو من بُغْيَتهم ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَنبَغِي لَهُم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَمَا يَسْتَطِيعُون** ﴾ أى : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّه** ﴾ [الحشر : ٢١] .

ثم بين أنه لو انبغى (٥) لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشُهبا فى مُدّة إنزال القرآن على رسوله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لئلا يشتبه الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُون** ﴾ ،كما قال تعالى مخبراً عن الجن : ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾ [الجن :٨ ـ ١٠] .

﴿ **فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)**

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/٢٠٣) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .
(٣) زيادة من ف ، أ . وفى هـ: « إلى قوله » . (٤) فى ف : « لا » . (٥) فى ف : « ابتغى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾ .

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أنّ من أشرك به عذبه .

ثم قال تعالى آمراً لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه [١] أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الأدنين إليه ، وأنه لا يُخلِّص أحداً منهم إلا إيمانهُ بربه ، عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ . وهذه النّذارة الخاصة لا تنافى العامة ، بل هى فرد من أجزائها ، كما قال : ﴿ **لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [يس:٦] ،وقال:﴿ **لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الشورى:٧] ، وقال : ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ [الأنعام :٥١] ،وقال: ﴿**لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا** ﴾ [مريم : ٩٧] ، وقال : ﴿ **لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام:١٩]، كما قال : ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ [هود : ١٧] .

وفى صحيح مسلم : «والذى نفسى بيده،لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة،يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

الحديث الأول :

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا عبد الله ، بن نُمَيْر ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ ، أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : « يا صباحاه » . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى ؟ » . قالوا: نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ [سورة المسد] .

ورواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى ، من طرق ، عن الأعمش ، به [٢] .

الحديث الثانى :

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ ، قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ،لا أملك لكم من الله شيئا ،سلونى من مالى ما شئتم » .انفرد بإخراجه مسلم [٣] .

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله عليه وسلامه » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٧١٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦٣).

(٣) المسند (٦/ ١٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥) .

www.besturdubooks.wordpress.com

الحديث الثالث :

قال أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الملك بن عُمَير ، عن موسى بن طلحة ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ ، دعا رسول اللّه ﷺ [قريشا] (١) ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بنى كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بنى عبد المطلب ،أنقذوا أنفسكم من النار. [يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار] (٢) ، فإنى ـ والله ـ ما أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رَحماً سأبُلها ببِلالها » .

ورواه مسلم والترمذى ، من حديث عبد الملك بن عمير ، به (٣) . وقال الترمذى : غريب من هذا الوجه . ورواه النسائى من حديث موسى بن طلحة مرسلا ، لم يذكر فيه أبا هريرة (٤) . والموصول هو الصحيح . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة (٥) .

وقال الإمام أحمد :حدثنا يزيد ، حدثنا محمد ـ يعنى ابن إسحاق ـ عن أبى الزنَاد ، عن الأعرج، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، اشتروا أنفسكم من اللّه . يا صفية عمة رسول اللّه ، ويا فاطمة بنت رسول اللّه ، اشتريا أنفسكما من اللّه ، لا أُغنى عنكما من اللّه شيئاً ، سلانى من مالى ماشئتما » .

تفرد به من هذا الوجه (٦) ، وتفرد به أيضاً ، عن معاوية ، عن زائدة ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحوه (٧) . ورواه أيضاً عن حسن ، ثنا ابن لِهَيعة ، عن (٨) الأعرج : سمعت أبا هريرة مرفوعا (٩) .

وقال أبو يعلى : حدثنا سُوَيد بن سَعيد ، حدثنا (١٠) ضِمَام بن إسماعيل ، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يا بنى قصى ، يا بَنى هَاشم ، يا بنى عبد مناف . أنا النذير والموت المغير . والساعة الموعد » (١١) .

الحديث الرابع :

قال أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا التيمى ، عن أبى عثمان ، عن قَبِيصة بن مُخَارق

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٣) المسند (٢/ ٣٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٥) .

(٤) سنن النسائى (٦/ ٢٤٨) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦) .

(٦) المسند (٢/ ٤٤٨) .

(٧) المسند (٢/ ٣٩٨) .

(٨) فى ف : « ثنا » .

(٩) المسند (٢/ ٣٥٠) .

(١٠) فى ف : « عن » .

(١١) مسند أبى يعلى (١١/ ١٠) وسويد بن سعيد متكلم فيه .

www.besturdubooks.wordpress.com

وزُهَير بن عمرو قالا : لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، صَعد رسول الله ﷺ رَضْمَةً من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : « يا بنى عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو ، فذهب يربأ أهله ، يخشى أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه » .

ورواه مسلم والنسائى ، من حديث سليمان بن طرْخان التيمى ، عن أبى عثمان عبد الرحمن بن مُل النَّهْدىّ ، عن قَبيصة وزُهَير بن عَمْرو الهلالى ، به(١) .

الحديث الخامس :

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شَرِيك عن الأعمش ، عن المنْهَال ، عن عباد بن عبد الله الأسدى ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، جمع النبى ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « من يَضْمَنُ عَنى دينى ومواعيدى ، ويكون معى فى الجنة ، ويكون خليفتى فى أهلى ؟ » . فقال رجل ـ لم يسمه شريك ـ : يا رسول الله ، أنت كنت بحراً(٢) ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال عَلىٌّ : أنا(٣) .

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق : قال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن عثمان بن المغيرة ، عن أبى صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : جمع رسول الله ﷺ ـ أو دعا رسول الله ﷺ ـ بنى عبد المطلب ، وهم رَهْطٌ ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرَق ـ قال : وصنع(٤) لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا ـ قال : وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغُمَرٍ(٥) فشربوا حتى رووا ، وبقى الشراب كأنه لم يمس ـ أو لم يشرب ـ وقال : « يا بنى عبدالمطلب ، إنى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ » . قال : فلم يقم إليه أحد . قال : فقمتُ إليه ـ وكنت أصغر القوم ـ قال : فقال : « اجلس » . ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقومُ إليه فيقول لى : «اجلس» . حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى(٦) .

طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر : قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى «دلائل النبوة » : أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يُونُس بن بُكَيْر ، عن محمد بن إسحاق قال : فحدثنى من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل ـ واستكتمنى اسمه ـ عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « عرفت أنّى إن بادأتُ بها قومى ، رأيت منهم ما أكره ،

---

(١) المسند (٥/ ٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٠٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٩).

(٢) فى أ : « تجرى » .

(٣) المسند (١/ ١١١) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٣٠٢) : « رجال أحمد رجال الصحيح ، غير شريك وهو ثقة » .

(٤) فى ف ، أ : « فصنع » . (٥) فى ف ، أ : « بعس » .

(٦) المسند (١/ ١٥٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٣٠٢) : « رجاله ثقات » .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَصَمَتُّ . فجاءنى جبريل ، عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك » . قال على ، رضى اللّه عنه : فدعانى فقال : « يا على ، إن اللّه قد أمرنى [أن] (١) أنذر عشيرتى الأقربين ، فعرفت أنى إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره ، فَصَمت عن ذلك ، ثم جاءنى جبريل فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك . فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام ، وأعدّ لنا عُسَّ لبن ، ثم اجمع لى (٢) بنى عبد المطلب » . ففعلتُ فاجتمعوا له ، وهم يومئذ أربعون رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً . فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث . فقدّمت إليهم تلك الجَفْنَةَ ، فأخذ رسول الله ﷺ منها حذْيَة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها ، وقال : « كلوا بسم اللّه » . فأكل القومُ حتى نَهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم : واللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول اللّه ﷺ : « اسقهم يا على » . فجئت بذلك القَعب فشربوا منه حتى نَهلُوا جميعاً ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يكلمهم ، بَدَره أبو لهب إلى الكلام فقال : لَهَدّ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلّمهم رسول اللّه ﷺ . فلما كان الغدُ قال رسول اللّه ﷺ : « يا على ، عُدْ لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجلّ قد بَدَرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول اللّه ﷺ كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نَهلُوا عنه ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول اللّه ﷺ : « اسقهم يا على ». فجئت بذلك القَعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً . وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يكلمهم بَدَره أبو لهب بالكلام فقال : لَهَدَّ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول اللّه . فلما كان الغد قال رسول اللّه ﷺ : « يا على ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعتَ لنا بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجل قد بَدَرنى إلى ما سمعتَ قبل أن أكلم القوم». ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول اللّه ﷺ [كما صنع] (٣) بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها، ثم قال رسول اللّه ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، إنى ـ واللّه ـ ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة » .

قال أحمد بن عبد الجبار : بلغنى أن ابن إسحاق إنما (٤) سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبى مريم، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد اللّه بن الحارث (٥) .

وقد رواه أبو جعفر بن جرير ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الغفار ابن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد اللّه بن الحارث ، عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب ، فذكر مثله ، وزاد بعد قوله : « إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة » . « وقد أمرنى اللّه أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى (٦) على هذا الأمر على أن يكون أخى ، وكذا وكذا » ؟ قال : فأحجم

---

(١) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .
(٢) فى ف : « لنا » .
(٣) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .
(٤) فى ف : « لما » .
(٥) دلائل النبوة (٢/١٧٨) .
(٦) فى ف : « وازرنى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

القوم عنها جميعاً ، وقلت ـ وإنى لأحدثهم سناً ، وأرمصُهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشهم ساقا. أنا يا نبى اللّه ، أكون وزيرك عليه ، فأخذ يَرْقُبنى ثم قال : « إن هذا أخى ، وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا » . قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع [١] .

تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، وهو متروك كذاب شيعى ، اتهمه على ابن المدينى وغيره بوضع الحديث ، وضعفه الأئمة رحمهم اللّه .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الحسين بن عيسى بن مَيْسَرة الحارثى ، حدثنا عبد اللّه بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد اللّه بن الحارث قال: قال على ، رضى اللّه عنه : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ ، قال لى رسول اللّه ﷺ : « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا » . قال : ففعلت ، ثم قال :« ادع بنى هاشم » . قال : فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل ـ أو : أربعون ورجل ـ قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذَعَة بإدامها . قال : فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول اللّه ﷺ من ذروَتها ثم قال : « كلوا » ، فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها [٢] لم يرزؤوا منها إلا يسيراً ، قال : ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رَوُوا . قال : وفَضَلَ فَضْلٌ ، فلما فرغوا أراد رسول اللّه ﷺ أن يتكلم ، فبدرُوه الكلام، فقالوا : ما رأينا كاليوم فى السحر . فسكت رسول اللّه ﷺ ، ثم قال : « اصنع [لى][٣] رجل شاة بصاع من طعام » .فصنعت ، قال : فدعاهم ، فلما أكلوا وشربوا ، قال : فبدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى ، فسكت رسول اللّه ﷺ ثم قال لى : « اصنع [لى] [٤] رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بَدَرهم رسول اللّه ﷺ الكلام فقال : « أيكم يقضى عنى دَينى [٥] ويكون خليفتى فى أهلى ؟ » . قال: فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكتُّ أنا لسنّ العباس . ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يا رسول اللّه . [فقالَ : « أنت »][٦] قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ، ضخم البطن ، حَمْش الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على ، رضى اللّه عنه. ومعنى سؤاله ، عليه الصلاة والسلام[٧] ، لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه فى أهله، يعنى إن قتل فى سبيل اللّه، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، ولما أنزل اللّه عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾[المائدة : ٦٧] ، فعند ذلك أَمِن . وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ .ولم يكن فى بنى هاشم إذ ذاك أشدّ إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول اللّه ﷺ من على ، رضى اللّه عنه ؛ ولهذا [٨] بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسولُ اللّه ﷺ ، ثم كان بعد هذا ـ واللّه أعلم ـ دعاؤه الناس جَهرةً على الصفا، وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا ، حتى سَمّى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير ، واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) تفسير الطبرى (١٩/ ٤٠) .
(٢) فى ف : « وهى كهيئتها » .
(٣، ٤) زيادة من ف.
(٥) فى ف : « دينى عنى » .
(٦) زيادة من ف .
(٧) فى ف : « ﷺ » .
(٨) فى ف : « فلهذا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد الدمشقى ـ غير منسوب ـ من طريق عمرو بن سَمُرَةَ ، عن محمد بن سُوقَةَ ، عن عبدالواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء ، رضى الله عنه، يحدث الناس ويفتيهم ، وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقيل له: ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم ، وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:« أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء ، وأشدهم عليهم الأقربون » . وذلك فيما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، ثم قال : « إن أزهد الناس فى العالم أهله حتى يفارقهم». ولهذا قال [الله تعالى] [1] : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : فى جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتك .

وقوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى :هو معتن بك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ [3] لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨].

قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعنى : إلى الصلاة .

وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده .

وقال الحسن : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ : إذا صليت وحدك .

وقال الضحاك : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : من فراشك أو مجلسك .

وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ :قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ :قال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجَمْع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى .

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ؛ ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : « سوّوا صفوفكم ؛ فإنى أراكم من وراء ظهرى » [4] .

وروى البزار وابن أبى حاتم ، من طريقين ، عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : يعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى ، حتى أخرجه نبيا .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ

(١) زيادة من أ .

(٢) تاريخ دمشق (١٠/٥٨٧ المخطوط) .

(٣) فى جميع النسخ : « فاصبر » والصواب ما أثبتناه .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٣) .

www.besturdubooks.wordpress.com

تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية [يونس : ٦١] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقا ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رئىّ من الجن ، فنزه اللّه ، سبحانه ، جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو [الحق] [١] من عند اللّه ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قَبيل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون [٢] على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال اللّه : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى : أخبركم ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفاك الأثيم ، أى [٣] : الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة .

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه ، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى ، من حديث الزهرى : أخبرنى يحيى بن عُروَةَ بن الزبير ، أنه سمع عُرْوَةَ بن الزبير يقول : قالت عائشة ، رضى اللّه عنها : سأل ناس النبىّ ﷺ عن الكهان ، فقال : « إنهم ليسوا بشىء » . قالوا : يا رسول اللّه ، فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا ؟ فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها [٤] الجنى ، فَيُقَرْقِرها فى أذن وليه كقَرْقَرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » [٥] .

وقال البخارى أيضا : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن نبى اللّه ﷺ قال : « إذا قضى اللّه الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله ، كأنها [٦] سلسلة على صَفْوان ، حتى إذا فُزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا بعضهم فوق بعض » . ووصف سفيان بيده فَحَرفها ، وبَدّد بين أصابعه « فيسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخرُ إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر ـ أو الكاهن ـ فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمع [٧] من السماء » . انفرد به البخارى [٨] .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « يتنزلون » . (٣) فى ف : « وهو » .
(٤) فى ف ، أ : « يحفظها » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٧٥٦١) .
(٦) فى ف : « كأنه » . (٧) فى هـ ، ف ، أ : « سمعت » والصواب ما أثبتناه من البخارى .
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وروى مسلم من حديث الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس ، عن رجال من الأنصار قريباً من هذا . وسيأتى عند قوله تعالى فى سبأ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية [سبأ : ٢٣] ، [إن شاء الله تعالى] (١) .

وقال البخارى : وقال الليث : حدثنى خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : أن أبا الأسود أخبره ، عن عروة ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تَحَدّث فى العَنَان ــ والعَنَان: الغَمَام ــ بالأمر [يكون] (٢) فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرّها فى أذن الكاهن كما تُقَرّ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » (٣) .

وقال البخارى فى موضع آخر من كتاب « بدء الخلق » عن سعيد بن أبى مريم ، عن الليث ، عن عبد الله بن أبى جعفر ،عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ،عن عروة ، عن عائشة ،بنحوه (٤) .

وقوله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد ، رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما .

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس ،ولهذا فئَامٌ من الناس ، فأنزل الله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قُتَيبَةُ ، حدثنا لَيث ، عن ابن الهاد ، عن يُحَنّس (٥) ــ مولى مصعب ابن الزبير ــ عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْج ، إذ عَرَض شاعر يُنشد ، فقال النبى ﷺ : « خذوا الشيطان ـ أو امسكوا الشيطان ـ لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً » (٦) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فى كل لغو يخوضون .

وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره .

وقال الحسن البصرى : قد ـ والله ـ رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها ، مرة فى شتمة (٧) فلان ، ومرة فى مدحة (٨) فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله ، أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا ، فكان (٩) مع كل

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٨٨) وقد وصله أبونعيم فى المستخرج من طريق أبى حاتم الرازى عن أبى صالح كاتب الليث عنه ، كما فى الفتح (٦/ ٤٣٢) .

(٤) صحيح البخارى رقم (٣٢١٠) .

(٥) فى ف : « محنش » .

(٦) المسند (٣ /٨) .

(٧) فى ف : « شتيمة ». (٨) فى ف : « مديحة » . (٩) فى ف : « وكان ».

www.besturdubooks.wordpress.com

واحد منهما غَوّاة من قومه ـ وهم (١) السفهاء ـ فقال الله تعالى : ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُون** ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه .

وهذا الذى قاله ابن عباس ، رضى الله عنه ، هو الواقع فى نفس الأمر ؛ فإن الشعراء يتَبَجَّحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ؛ ولهذا اختلف العلماء ، رحمهم الله ، فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حَدًّا : هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، ومحمد بن سعد فى الطبقات ، والزبير بن بكّار فى كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، استعمل النعمان بن عدى بن نَضْلَة على « ميسان» ـ من أرض البصرة ـ وكان يقول الشعر ، فقال :

ألاَ هـَل أتَى الحَسْنَاءَ أنّ حَليلَها ... بمَيْسَانَ ، يُسقَى فى زُجاج وَحَنْتَم
إذَا شـِئتُ غَنـَّتْنى دَهاقينُ قـَرْيَة ... ورَقَّاصَةٌ تَجذُو على كل مَنْسم(٢)
فإنْ كُنتَ نَدْمانى فَبالأكْبرَ اسْقنى ... ولاَ تَسـْقنى بالأصـْغَر المُتَثَلم(٣)
لـَعـَل أمـيرَ الـمؤمنـينَ يَسـُوؤه ... تَنادُمُنا بـالجـَوْسـَق المُتـَهـَدَم

فلما بلغ [ذلك] (٤) أمير المؤمنين قال : إى والله ، إنه ليسوؤنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [غافر : ١ ـ ٣] ، أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أمير المُؤمنينَ يَسُوؤُه ... تَنَادُمُنَا بالجَوْسق (٥) المُتَهَدّم

وايم الله ، إنه ليسوؤنى وقد عزلتك . فلما قدم على عمر بكّته بهذا الشعر ، فقال : والله ـ ياأمير المؤمنين ـ ما شربتها قَطّ ، وما ذاك الشعر إلا شىء طَفَح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لى على عمل أبداً ، وقد قُلتَ ما قلتَ (٦) .

فلم يُذكر أنه حَدّه على الشراب ، وقد ضمنه شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه (٧) ذمه عمر ، رضى الله عنه ، ولامه على ذلك وعزله به . ولهذا جاء فى الحديث : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، يَرِيه خير له من أن يمتلئ شعراً » (٨) .

والمراد من هذا : أن (٩) الرسول ﷺ (١٠) الذى أنزل عليه (١١) القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛

---

(١) فى ف : « فهم » .
(٢) فى ف ، أ : « مبسم » .
(٣) فى ف : « المتلثم » .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ف ، أ : « فى الجوسق » .
(٦) الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٦٦) والطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ١٤٠) .
(٧) فى ف : « ولكن » .
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٩) فى ف ، أ : « أن هذا الرسول » .
(١٠) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .
(١١) فى ف ،أ : «عليه هذا القرآن » .

www.besturdubooks.wordpress.com

لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِين ﴾ [يس : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين ﴾ [الحاقة : ٤٠ ـ ٤٣] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِين ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُون ﴾ إلى أن قال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُون ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ﴾ : قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد [١] بن عبدالله ابن قُسَيْط ، عن أبى الحسن سالم البرّاد ـ مولى تميم الدارى ـ قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون ﴾ ،جاء حسان بن ثابت ،وعبد الله بن رَوَاحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبى ﷺ : ﴿ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرا ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قال : « أنتم » .

رواه ابن أبى حاتم . وابن جرير ، من رواية ابن إسحاق [٢] .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا ، عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن الوليد بن كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبى الحسن مولى بنى نوفل ؛ أن حسان بن ثابت ،وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ يبكيان ، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يقرؤها عليهما : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ﴾ ، قال: « أنتم » [٣] .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة [٤] ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُون ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله : ﴿ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ﴾ إلى قوله : ﴿ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

وهكذا قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية [فى] [٥] شعراء الأنصار ؟ فى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها ، والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً فى

---

(١) فى ف : « زيد » .

(٢) تفسير الطبرى (١٩/ ٧٩) .

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٨٨) من طريق أبى أسامة به .

(٤) فى ف ، أ : « أبو مسلم » .

(٥) زيادة من ف .

www.besturdubooks.wordpress.com

مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الإسلام وأهله فى مقابلة ما كذب [1] بذمه ، كما قال عبد الله بن الزبَعْرَى حين أسلم :

يَا رَسُولَ المَلِيك ، إنّ لسَانِى ... رَاتقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أجَارى الشَّيْطَانَ فى سَنَن الغَـ ... ـيِّ ، وَمَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ ، وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وهكذا روى مسلم فى صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطنيهن قال : «نعم». قال : معاوية تجعله كاتبا بين يديك . قال : « نعم » . قال : وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين . قال :« نعم » . وذكر الثلاثة [2] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **إلا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَات وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثيراً** ﴾ قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً فى كلامهم . وقيل : فى شعرهم ، وكلاهما صحيح مكَفّر لما سبق .

وقوله : ﴿ **وَانتَصَرُوا منْ بَعْد مَا ظُلمُوا** ﴾ : قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهجهم ـ أو قال : هاجهم ـ وجبريل معك » [3] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبى ﷺ : إن الله ، عز وجل ، قد أنزل فى الشعْر ما أنزل ، فقال : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده ، لكأن ما ترمونهم به نَضْح النبْل » [4] .

وقوله : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلبُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالمينَ مَعْذرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار** ﴾[غافر : ٥٢] وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » [5] .

وقال قتادة بن دِعَامَة فى قوله : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلبُونَ** ﴾ يعنى: من الشعراء وغيرهم .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا إياس بن أبى تميمة ، قال : حضرت الحسن وَمُرَّ عليه بجنازة نصرانى، فقال الحسن : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلبُونَ** ﴾ .

وقال عبد الله بن رَبَاح ، عن صفوان بن مُحْرز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية ـ بكى حتى أقول : قد اندق قَضِيب زَوره ـ : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلبُونَ** ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « ما كان » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٠١) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦١٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .

(٤) المسند (٣٨٧/٦) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) من حديث جابر ، رضى الله عنه ، ولفظه : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال ابن وهب : أخبرنى (١) ابن سُرَيج الإسكندرانى ، عن بعض المشيخة : أنهم كانوا بأرض الروم ، فبينما هم ليلة على نار يشتون (٢) عليها ـ أو : يصطلون ـ إذا بركاب(٣) قد أقبلوا ، فقاموا إليهم ، فإذا فضالة بن عبيد فيهم ، فأنزلوه فجلس معهم ـ قال : وصاحب لنا قائم يصلى ـ قال : حتى مرّ بهذه الآية : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت .

وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم ، كما قال ابن أبى حاتم : ذُكر عن زكريا بن يحيى الواسطى : حدثنى الهيثم بن محفوظ أبو سعد (٤) النهدى ،حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المجير (٥) ، حدثنا هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كتب أبى وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قُحَافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهى الفاجر ، ويَصدُق الكاذب : إنى استخلفت عليكم عُمَر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنى به ، ورجائى فيه، وإن يَجُر ويبدل فلا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « الشعراء » والحمد لله رب العالمين

---

(١) فى ف ، أ : « حدثنا » .
(٢) فى أ : « يشوون » .
(٣) فى ف ، أ : « بركبان » .
(٤) فى ف ، أ : « أبو سعيد » .
(٥) فى أ : « الحبر » .

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٦ ــ سورة الشعراء

﴿ مكية وهى مائتان وسبع وعشرون آية ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ ٢٦ الشعراء

تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ ٢٦ الشعراء

لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ٢٦ الشعراء

إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ٢٦ الشعراء

﴿ سورة الشعراء مكية إلا الآيات ١٩٧ ومن آية ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية وآياتها ٢٢٧ ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (طسم) بتفخيم الألف وبإمالتها وإظهار النون وبإدغامها فى الميم وهو
إما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة البقرة فلا محل له من
الإعراب وإما اسم للسورة كما عليه الإطباق الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وهو أظهر
من الرفع على الابتداء وقد مر وجهه فى مطلع سورة يونس عليه السلام أو النصب بتقدير فعل لائق
٢ بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وتلك فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب المبين) إشارة إلى السورة سواء كان
طسم مسروداً على نمط التعديد أو اسماً للسورة حسبما مر تحقيقه هناك وما فى اسم الإشارة من معنى البعد
للتنبيه على بعد منزلة المشار إليه فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده وعلى تقدير كون طسم
مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الأول والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر إعجازه على أنه من أبان
بمعنى بان أو المبين للأحكام الشرعية وما يتعلق بها أو الفاصل بين الحق والباطل والمعنى هى آيات مخصوصة
٣ منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضاً منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الفاضلة (لعلك
باخع نفسك) أى قاتل وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى
حد الذبح وقرىء باخع نفسك على الإضافة ولعل للإشفاق أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على
* ما فاتك من إسلام قومك (أن لا يكونوا مؤمنين) أى لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين أو خيفة أن
٤ لا يؤمنوا به وقوله تعالى (إن نشأ) الخ استئناف مسوق لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر
المذكور ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته
* ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أعنى قوله تعالى (ننزل عليهم من السماء آية) أى ملجئة
لهم إلى الإيمان قاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ ٢٦ الشعراء

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ ٢٦ الشعراء

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ٢٦ الشعراء

* والتشويق إلى المؤخر (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أي منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم في الصيغة أيضاً كما في قوله تعالى رأيتهم لي ساجدين وقيل أريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس أي فوج منهم وقرىء خاضعة وقوله تعالى فظلت عطف على
٥ ننزل باعتبار محله وقوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) بيان لشدة شكيمتهم وعدم إرعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ماذكر من الآية الملجئة لصرف رسول الله ﷺ عن الحرص على إسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأياما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة مافعلوا به والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح أي مايأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية أو من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إلا جددوا إعراضاً عنه على وجه التكذيب والاستهزاء وإصراراً على ما كانوا عليه من الكفر والضلال والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أي مايأتيهم من ذكر في حال من الأحوال إلا حال كونهم
٦ معرضين عنه (فقد كذبوا) أي كذبوا بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً صريحاً مقارناً للاستهزاء به ولم يكتفوا بالإعراض عنه حيث جعلوه تارة سحراً وأخرى أساطير وأخرى شعراً والفاء في قوله تعالى (فسيأتيهم) لترتيب مابعدها على ماقبلها والسين لتأكيد مضمون الجملة وتقريره أي فسيأتيهم البتة من
* غير تخلف أصلا (أنباء ما كانوا به يستهزءون) عدل عما يقتضيه سائر ماسلف من الإعراض والتكذيب للإيذان بأنهما كانا مقارنين للاستهزاء كما أشير إليه حسبما وقع في قوله تعالى وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون وأنباؤه ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة عبر عنها بذلك إما لكونها مما نبأ بها القرآن الكريم وإما لأنهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء وفيه تهويل له لأن النبأ لا يطلق إلا على خبر خطير له وقع عظيم أي فسيأتيهم لامحالة مصداق ما كانوا
٧ يستهزءون به قبل من غير أن يتدبروا في أحواله ويقفوا عليها (أو لم يروا) الهمزة للإنكار التوبيخي

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ ٢٦ الشعراء

والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى افعلوا مافعلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا (إلى الأرض) أى إلى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه وإلى الإيمان به وقوله تعالى (كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) استئناف مبين لما فى الأرض * من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية إلى الإيمان وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لإفادة الإحاطة والكثرة معاً ومن كل زوج أى صنف تمييز والكريم من كل شىء مرضيه ومحموده أى كثيراً من كل صنف مرضى كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص إنباته بالذكر دون ماعداه من الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معاً ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على أنه تعالى ماأنبت شيئاً إلا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلا إلا وفيه حكمة بالغة وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفة كنهها العاقلون (إن فى ذلك) إشارة إلى مصدر أنبتنا أو إلى كل واحد من ٨
تلك الأزواج وأياً ما كان فما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الفضل (لآية) أى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للإيمان وازعة عن الكفر (وما كان أكثرهم) أى أكثر قومه ﷺ (مؤمنين) قيل أى فى علم الله تعالى وقضائه حيث علم أزلا أنهم * سيصرفون فيما لا يزال اختيارهم الذى عليه يدور أمر التكليف إلى جانب الشر ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين وهو الأنسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع تعاضد موجبات الإيمان من جهته تعالى وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر لأن ماأشير إليه من التحقيق مما خفى على مهرة العلماء المتقنين كأنه قيل إن فى ذلك لآية باهرة موجبة للإيمان وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم فى الكفر والضلالة وانهماكهم فى الغى والجهالة ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم لأن منهم من سيؤمن (وإن ربك ٩
لهو العزيز) الغالب على كل مايريده من الأمور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترءوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات وفى التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة مالا يخفى (وإذ نادى ربك موسى) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من إعراضهم عن كل ما يأتيهم من ١٠
الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها إثر بيان إعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية وإذ منصوب

قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ٢٦ الشعراء

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ٢٦ الشعراء

على المفعولية بمضمر خوطب به النبي ﷺ أى واذكر لأولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه زجراً لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيراً من أن يحيق بهم مثل ماحاق بأضرابهم المكذبين الظالمين حتى يتضح لك أنهم لايؤمنون بما يأتيهم من الآيات لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال أولئك فقط بل بمشاهدة إصرارهم على ماهم عليه بعد سماع الوحى الناطق بقصتهم وعدم اتعاظهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله تعالى إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين عقيب كل قصة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تذكير

* ماوقع فيه من الحوادث قد مر سره مراراً (أن ائت) بمعنى أى ائت على أن أن مفسرة أو بأن ائت

* على أنها مصدرية حذف منها الجار (القوم الظالمين) أى بالكفر والمعاصى واستعباد بنى إسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ماورد فى حيز النداء وإنما هو مافصل فى سورة طه من قوله تعالى إنى أنا ربك إلى قوله لنريك من آياتنا الكبرى وإيراد ماجرى فى قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب

١١ مختلفة قد مر تحقيقه فى أوائل سورة الأعراف عند قوله تعالى قال أنظرنى (قوم فرعون) بدل من الأول أو عطف بيان له جىء به للإيذان بأنهم علم فى الظلم كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون

* والاقتصار على ذكر قومه للإيذان بشهرة أن نفسه أول داخل فى الحكم (ألا يتقون) استئناف جىء به إثر إرساله عليه الصلاة والسلام إليهم للإنذار تعجيباً من غلوهم فى الظلم وإفراطهم فى العدوان وقرىء بتاء الخطاب على طريقة الالتفات المنبىء عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك وهم وإن كانوا حينئذ غيباً لكنهم قد أجروا مجرى الحاضرين فى كلام المرسل إليهم من حيث إنه مبلغه إليهم وإسماعه مبتدأ إسماعهم مع مافيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبر وتأمل وقرىء بكسر

١٢ النون اكتفاء به عن ياء المتكلم وقد جوز أن يكون بمعنى ألا ياناس اتقون نحو أن لايسجدوا (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مامضى كأنه قيل فماذا قال موسى عليه السلام فقيل قال متضرعا

١٣ إلى الله عزوجل (رب إنى أخاف أن يكذبون) من أول الأمر (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) معطوفان على أخاف (فأرسل) أى جبريل عليه السلام (إلى هرون) ليكون معى وأتعاضد به فى تبليغ الرسالة رتب عليه الصلاة والسلام استدعاءه ذلك على الأمور الثلاثة خوف التكذيب وضيق الصدر وازديادما كان فيه عليه الصلاة والسلام من حبسة اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لاينطلق لأنها إذا اجتمعت تمس الحاجة إلى معين يقوى قلبه وينوب منابه إذا اعتراه حبسة حتى

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ٢٦ الشعراء

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ٢٦ الشعراء

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ٢٦ الشعراء

لاتختل دعوته ولا تنقطع حجته وليس هذا من التعلل والتوقف فى تلقى الأمر فى شىء وإنما هو استدعاء لمايعينه على الامتثال به وتمهيد عذر فيه وقرىء ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفاً على يكذبون فيكونان
١٤ من جملة مايخاف منه (ولهم على ذنب) أى تبعة ذنب لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أوسمى باسمه والمراد به قتل القبطى وتسميته ذنباً بحسب زعمهم كما ينبىء عنه قوله لهم وهذا إشارة إلى قصة مبسوطة فى غير موضع (فأخاف) أى إن أتيتهم وحدى (أن يقتلون) بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغى وليس
١٥ هذا أيضاً تعللا وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها وقوله تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا) حكاية لإجابته تعالى إلى الطلبتين الدفع المفهوم من الردع عن الخوف وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب إليهما بطريق التغليب فإنه معطوف على مضمر ينبىء عنه الردع كأنه قيل ارتدع ياموسى عما تظن فاذهب أنت ومن استدعيته وفى قوله بآياتنا رمز إلى أنها تدفع مايخافه وقوله تعالى (إنا معكم مستمعون) تعليل ٥
للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى إننى معكما أسمع وأرى وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر ههنا فى المعية وقيل أجريا مجرى الجماعة ويأباه ماقبله ومابعده من ضمير التثنية أى سامعون مايجرى بينكما وبينه فنظهركما عليه مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة فى الوعد بالإعانة أو استعير الاستماع الذى هو بمعنى الإصغاء للسمع الذى هو العلم بالحروف والأصوات وهو خبر ثان أو خبر
١٦ وحده ومعكم ظرف لغو والفاء فى قوله تعالى (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) لترتيب مابعدها على ماقبلها من الوعد الكريم وليس هذا مجرد تأكيد الأمر بالذهاب لأن معناه الوصول إلى المأتى لامجرد التوجه إليه كالذهاب وإفراد الرسول إما باعتبار رسالة كل منهما أو لاتحاد مطلبهما أو لأنه
١٧ مصدر وصف به وأن فى قوله تعالى (أن أرسل معنا بنى إسرائيل) مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم
١٨ من الرسول معنى القول ومعنى إرسالهم تخليتهم وشأنهم ليذهبوا معهما إلى الشأم (قال) أى فرعون لموسى عليه السلام بعد ماأتياه وقالا له ماأمرا به يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهم سنة حتى قال البواب إن ههنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك فأديا إليه الرسالة فعرف

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ٢٦ الشعراء

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ٢٦ الشعراء

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ٢٦ الشعراء

موسى عليه السلام فقال عند ذلك (ألم نربك فينا) فى حجرنا ومنازلنا (وليداً) أى طفلا عبرعنه بذلك
لقرب عهده بالولادة (ولبثت فينا من عمرك سنين) قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين وأقام
بها عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله عزوجل ثلاثين سنة ثم بقى بعد الغرق خمسين سنة وقيل وكز
١٩ القبطى وهو ابن اثنتى عشرة سنة وفرمنهم على إثر ذلك والله أعلم (وفعلت فعلتك التى فعلت) يعنى قتل
القبطى بعد ماعدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال وبخه بما جرى عليه من قتل خبازه وعظم
ذلك وفظعه وقرىء فعلتك بكسر الفاء لأنها كانت نوعا من القتل (وأنت من الكافرين) أى بنعمتى حيث
عمدت إلى قتل رجل من خواصى أو أنت حينئذ ممن تكفرهم الآن وقد افترى عليه عليه الصلاة والسلام
أو جهل أمره عليه الصلاة والسلام حيث كان يعايشهم بالتقية وإلا فأين هو عليه الصلاة والسلام من
مشاركتهم فى الدين فالجملة حينئذ حال من إحدى التاءين ويجوز أن يكون حكما مبتدأ عليه بأنه من الكافرين
بالهيته أو ممن يكفرون فى دينهم حيث كانت لهم آلهة يعبدونها أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها
٢٠ ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه الجناية بدعا منه (قال) مجيباً له مصدقا له فى القتل ومكذباً فيما نسبه
إليه من الكفر (فعلتها إذاً وأنا من الضالين) أى من الجاهلين وقد قرىء كذلك لامن الكافرين كما
زعمت افتراء أى من الفاعلين فعل الجهلة والسفهاء أو من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله بل أراد تأديبه أو
الذاهبين عما يؤدى إليه الوكز أو الناسين كقوله تعالى أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى
٢١ (ففررت منكم) إلى ربى (لما خفتكم) أن تصيبونى بمضرة وتؤاخذونى بما لا أستحقه بجنايتى من العقاب
(فوهب لى ربى حكما) أى حكمة أو نبوة (وجعلنى من المرسلين) ردأولا بذلك ماوبخه به قدحا فى نبوته
ثم كر على ماعده عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح فى دعواه بل نبه على أن ذلك
٢٢ كان فى الحقيقة نقمة فقال (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) أى تلك التربية نعمة تمن بها على
ظاهراً وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى إسرائيل وقصدك إياهم بذبح أبنائهم فإنه السبب فى وقوعى عندك
وحصولى فى تربيتك وقيل إنه مقدر بهمزة الإنكار أى أو تلك نعمة تمنها على وهى أن عبدت بنى إسرائيل
ومحل أن عبدت الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من نعمة أو الجر بإضمار الباء أو النصب بحذفها
وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة وأن عبدت عطف بيان لها والمعنى تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها
على وتوحيد الخطاب فى تمنها وجمعه فيما قبله لأن المنة منه خاصة والخوف والفرار منه ومن ملئه

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ٢٦ الشعراء

---

٢٣ (قال فرعون) لما سمع منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه فى أمره وعدم تأثره
بما قدمه من الإبراق والإرعاد شرع فى الاعتراض على دعواه عليه الصلاة والسلام فبدأ بالاستفسار
عن المرسل فقال (ومارب العالمين) حكاية لما وقع فى عباراته عليه الصلاة والسلام أى أى شىء رب *
العالمين الذى ادعيت أنك رسوله منكراً لأن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله أنا ربكم
٢٤ الأعلى وقوله ماعلمت لكم من إله غيرى وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه الصلاة والسلام (قال)
موسى عليه السلام مجيباً له (رب السموات والأرض وما بينهما) بتعيين ماأراد بالعالمين وتفصيله لزيادة
التحقيق والتقرير وحسم مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل العالمين على ماتحت مملكته (إن كنتم موقنين)
أى إن كنتم موقنين بالأشياء محققين لها علمتم ذلك أو إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان
٢٥ لظهوره وإنارة دليله (قال) أى فرعون عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفاً من تأثيره فى قلوب
قومه وإذعانهم له (لمن حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا خمسمائة عليهم
الأساور وكانت للملوك خاصة (ألا تستمعون) مرائياً لهم أن ماسمعوه من جوابه عليه الصلاة والسلام مع
كونه مما لا يليق بأن يعتد به أمر حقيق بأن يتعجب منه كأنه قال ألا تستمعون مايقوله فاستمعوه وتعجبوا
٢٦ منه حيث يدعى خلاف أمر محقق لا اشتباه فيه يريد به ربوبية نفسه (قال) عليه الصلاة والسلام تصريحاً
بما كان مندرجاً تحت جوابيه السابقين (ربكم ورب آبائكم الأولين) وحطاً له من ادعاء الربوبية إلى مرتبة
٢٧ المربوبية (قال) أى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غاظه ذلك وخاف من تأثر قومه منه
فأراهم أن ماقاله عليه الصلاة والسلام مما لا يصدر عن العقلاء صداً لهم عن قبوله فقال مؤكداً لمقالته الشنعاء
بحرفى التأكيد (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق وسماه
٢٨ رسولا بطريق الاستهزاء وأضافه إلى مخاطبيه ترفعاً من أن يكون مرسلا إلى نفسه (قال) عليه الصلاة
والسلام (رب المشرق والمغرب وما بينهما) قاله عليه الصلاة والسلام تكميلا لجوابه الأول وتفسيراً له

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ٢٦ الشعراء

وتنبيهاً على جهلهم وعدم فهمهم لمعنى مقالته فإن بيان ربوبيته تعالى للسموات والأرض ومابينهما وإن كان متضمناً لبيان ربوبيته تعالى للخافقين وما بينهما لكن لما لم يكن فيه تصريح باستناد حركات السموات وما فيها وتغيرات أحوالها وأوضاعها وكون الأرض تارة مظلمة وأخرى منورة إلى الله تعالى أرشدهم إلى طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر فإن ذكر المشرق والمغرب منبىء عن شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السموات وما فيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الأوضاع الرصينة وكل ذلك أمور حادثة مفتقرة إلى محدث قادر عليم حكيم لا كذوات السموات والأرض التى ربما يتوهم جهلة المتوهمين باستمرارها استغناءها عن الموجد المتصرف (إن كنتم تعقلون) أى إن كنتم تعقلون شيئاً من الأشياء أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على من له عقل فى الجملة وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل وأنهم المتصفون بما رموه عليه الصلاة والسلام به
٢٩ من الجنون (قال) لما سمع اللعين منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تمشية أمره وأنه ممن لا يجارى فى حلبة المحاورة ضرب صفحاً عن المقاولة بالإنصاف ونأى بجانبه إلى عدوة الجور والاعتساف فقال مظهراً لما كان يضمره عند السؤال والجواب (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) لم يقتنع منه عليه الصلاة والسلام بترك دعوى الرسالة وعدم التعرض له حتى كلفه عليه الصلاة والسلام أن يتخذه إلهاً لغاية عتوه وغلوه فيما فيه من دعوى الألوهية وهذا صريح فى أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الأول ونسبته عليه الصلاة والسلام إلى الجنون فى الجواب الثانى كان لنسبته عليه الصلاة والسلام الربوبية إلى غيره وأما ماقيل من أن سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه بذكر أحواله فلا يساعده النظم الكريم ولا حال فرعون ولا مقاله واللام فى المسجونين للعهد أى لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم
٣٠ فى سجونى حيث كان يطرحهم فى هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك لم يقل لأسجننك (قال أولو جئتك بشىء مبين) أى أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشىء مبين أى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بالشىء للتهويل قالوا الواو فى أولو جئتك للحال دخلت عليها همزة الاستفهام أى جائياً بشىء مبين وقد سلف منا مراراً أنها للعطف وأن كلمة لو ليست لانتفاء الشىء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ٢٦ الشعراء

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ٢٦ الشعراء

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ٢٦ الشعراء

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ٢٦ الشعراء

بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشيء متى تحقق
مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه
بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها ليظهر ماذكر
من تحقق الحكم على جميع الأحوال فإنك إذا قلت فلان جواد يعطى ولوكان فقيراً تريد بيان تحقق الإعطاء
منه على كل حال من أحواله المفروضة فتعلق الحكم بأبعدها منه ليظهر بتحققه معه تحققه مع ماعداه من
الأحوال التى لا منافاة بينها وبين الحكم بطريق الأولوية المصححة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها
كأنك قلت فلان جواد يعطى لولم يكن فقيراً ولوكان فقيراً أى يعطى حال كونه غنياً وحال كونه فقيراً
فالحال فى الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفين لا المذكورة على أن الواو للحال وتصدير المجىء بما ذكر من كلمة
لو دون إن ليس لبيان استبعاده فى نفسه بل بالنسبة إلى فرعون والمعنى أتفعل بى ذلك حال عدم مجيئى بشيء
٣١ مبين وحال مجيئى به (قال فأت به إن كنت من الصادقين) أى فيما يدل عليه كلامك من أنك تأتى بشيء مبين
٣٢ موضح لصدق دعواك أو فى دعوى الرسالة وجواب الشرط المحذوف لدلالة ماقبله عليه (فألقى عصاه
فإذا هى ثعبان مبين) أى ظاهر ثعبانيته لا أنه شيء يشبهه واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب أى فجرته
٣٣ فانفجر وقد مر بيان كيفية الحال فى سورة الأعراف وسورة طه (ونزع يده) من جيبه (فإذا هى بيضاء
للناظرين) قيل لما رأى فرعون الآية الأولى وقال هل لك غيرها فأخرج يده فقال ماهذه قال فرعون يدك
٣٤ فما فيها فأدخلها فى إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق (قال للملأ حوله) أى
٣٥ مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال (إن هذا الساحر عليم) فائق فى فن السحر (يريد أن يخرجكم)
قسراً (من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) بهره سلطان المعجزة وحيرة حتى حطه عن ذروة ادعاء
الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه والامتثال بأمرهم أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد
ماكان مستقلا فى الرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الإخراج
والأرض إليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام .

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ٢٦ الشعراء

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ٢٦ الشعراء

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ٢٦ الشعراء

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ٢٦ الشعراء

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ٢٦ الشعراء

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ٢٦ الشعراء

فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ٢٦ الشعراء

---

٣٦ (قالوا أرجه وأخاه) أخر أمرهما وقيل احبسهما (وابعث فى المدائن حاشرين) أى شرطاً يحشرون
٣٧، ٣٨ السحرة (يأتوك) أى الحاشرون (بكل سحار عليم) فائق فى فن السحر وقرىء بكل ساحر (فجمع
السحرة لميقات يوم معلوم) هو ماعينه موسى عليه السلام بقوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس
٣٩ ضحى (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) قيل لهم ذلك استبطاء لهم فى الاجتماع وحثاً لهم على المبادرة إليه
٤٠ (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) أى نتبعهم فى دينهم إن كانوا هم الغالبين لا موسى عليه السلام
وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة وإنما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا
٤١ كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا
٤٢ لأجراً) أى أجراً عظيما (إن كنا نحن الغالبين) لا موسى عليه السلام (قال نعم) لكم ذلك (وإنكم) مع
ذلك (إذاً لمن المقربين) عندى قيل قال لهم تكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج عنى وقرىء
٤٣ نعم بكسر العين وهما لغتان (قال لهم موسى) أى بعد ماقال له السحرة إما أن تلقى وإما أن نكون أول من
ألقى (ألقوا ماأنتم ملقون) ولم يرد به الأمر بالسحر والتمويه بل الإذن فى تقديم ماهم فاعلوه البتة توسلا
٤٤ به إلى إظهار الحق وإبطال الباطل (فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا) أى وقد قالوا عند الإلقاء (بعزة
فرعون إنا لنحن الغالبون) قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم وإتيانهم بأقصى مايمكن أن يؤتى
به من السحر .

فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ٢٦ الشعراء

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ ٢٦ الشعراء

رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ٢٦ الشعراء

٤٥ (فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف) أي تبتلع بسرعة وقرىء تلقف بحذف إحدى التاءين من تتلقف
(ما يأفكون) أي مايقلبونه من وجهه وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات
٤٦ تسعى أو إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة (فألقى السحرة ساجدين) أي إثر ماشاهدوا ذلك من غير تلعثم
وتردد غير متمالكين كأن ملقيا ألقاهم لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر وأنه أمر إلهي قد ظهر
على يده عليه الصلاة والسلام لتصديقه وفيه دليل على أن قصارى ماينتهي إليه همم السحرة هو التمويه
٤٧ والتزوير وتخييل شيء لاحقيقة له (قالوا آمنا برب العالمين) بدل اشتمال من ألقى أو حال بإضمار قد وقوله
٤٨ تعالى (رب موسى وهرون) بدل من رب العالمين للتوضيح ودفع توهم إرادة فرعون حيث كان قومه
الجهلة يسمونه بذلك وللإشعار بأن الموجب لإيمانهم به تعالى ما أجراه على أيديهما من المعجزة القاهرة
٤٩ (قال) أي فرعون للسحرة (آمنتم له قبل أن آذن لكم) أي بغير أن آذان لكم كما في قوله تعالى لنفد البحر قبل
أن تنفد كلمات ربي لا أن الإذن منه ممكن أو متوقع (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) فتواطأتم على مافعلتم
أو علمكم شيئاً دون شيء فلذلك غلبكم أراد بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور
حق وقرىء أآمنتم بهمزتين (فلسوف تعلمون) أي وبال مافعلتم وقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من
٥٠ خلاف ولأصلبنكم أجمعين) بيان لما أوعدهم به (قالوا) أي السحرة (لاضير) لاضرر فيه علينا وقوله
تعالى (إنا إلى ربنا منقلبون) تعليل لعدم الضير أي لاضير في ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا في
الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم أو لاضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه
٥١ لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت والقتل أهونها وأرجاها وقوله تعالى (إنا نطمع
أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا) أي لأن كنا (أول المؤمنين) أي من أتباع فرعون أو من أهل المشهد تعليل

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ٢٦ الشعراء

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ٢٦ الشعراء

فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ ٢٦ الشعراء

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ٢٦ الشعراء

ثان لنفى الضير أى لاضير علينا فى قتلك إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا أول المؤمنين وقرىء
إن كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة أو على طريقة قول المدل بأمره كقول العامل لمستأجر
٥٢ أخر أجرته إن كنت عملت لك فوفنى حق (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى) وذلك بعد بضع سنين
أقام بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوا وعناداً حسبما فصل فى سورة
الأعراف بقوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين الآيات وقرىء بكسر النون ووصل الألف من
سرى وقرىء أن سر من السير (إنكم متبعون) تعليل للأمر بالإسراء أى يتبعكم فرعون وجنوده
مصبحين فأسر بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر فيدخلوا مداخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم
٥٣، ٥٤ (فأرسل فرعون) حين أخبر بمسيرهم (فى المدائن حاشرين) جامعين للعساكر ليتبعوهم (إن هؤلاء)
يريد بنى إسرائيل (لشرذمة قليلون) استقلهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً بالنسبة إلى جنوده إذ روى
أنه أرسل فى أثرهم ألف ألف وخمسمائة ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون فى جمع عظيم وكانت
مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما خرج
٥٥، ٥٦ فرعون فى ألف ألف حصان سوى الإناث (وإنهم لنا لغائظون) أى فاعلون ما يغيظنا (وإنا لجميع
حاذرون) يريد أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق
صدورنا ونحن قوم عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى
إطفاء نائرة فساده وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه وقرىء
حذرون فالأول دال على التجدد والثانى على الثبات وقيل الحاذر المؤدى فى السلاح وقرىء حادرون
٥٧ بالدال المهملة أى أقوياء وأشداء وقيل مدججون فى السلاح قد كسبهم ذلك حدارة فى أجسامهم (فأخرجناهم)
٥٨ بأن خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه (من جنات وعيون) (وكنوز ومقام كريم)

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ٢٦ الشعراء

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ٢٦ الشعراء

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ٢٦ الشعراء

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ٢٦ الشعراء

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ٢٦ الشعراء

وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ٢٦ الشعراء

---

٥٩ كانت لهم جملة ذلك (كذلك) إما مصدر تشبيهى لأخرجنا أى مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم
أو صفة لمقام كريم أى من مقام كريم كائن كذلك أو خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر كذلك (وأورثناها
بنى إسرائيل) أى ملكناها إياهم على طريقة تمليك مال المورث للوارث كأنهم ملكوها من حين خروج
٦٠ أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسلموها (فأتبعوهم) أى فلحقوهم وقرىء فاتبعوهم (مشرقين) داخلين
٦١ فى وقت شروق الشمس أى طلوعها (فلما تراءى الجمعان) تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر وقرىء
تراءت الفئتان (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) جاءوا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفى التأكيد للدلالة على
تحقق الإدراك واللحاق وتنجزهما وقرىء لمدركون بتشديد الدال من أدرك الشىء إذا تتابع ففنى أى
٦٢ لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم (قال كلا) ارتدعوا عن ذلك فإنهم لا يدركونكم (إن معى ربى) بالنصرة
والهداية (سيهدين) البتة إلى طريق النجاة منهم بالكلية روى أن يوشع عليه السلام قال يا كليم الله أين
أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا قال عليه السلام ههنا فخاض يوشع عليه السلام الماء وضرب موسى
عليه السلام بعصاه البحر فكان ما كان وروى أن مؤمناً من آل فرعون كان بين يدى موسى عليه السلام
فقال أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال عليه السلام أمرت بالبحر ولعلى أومر
٦٣ بما أصنع فأمر بما أمر به وذلك قوله تعالى (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر) القلزم أو النيل
(فانفلق) الفاء فصيحة أى فضرب فانفلق فصار اثنى عشر فرقا بعدد الأسباط بينهن مسالك (فكان كل
فرق) حاصل بالانفلاق (كالطود العظيم) كالجبل المنيف الثابت فى مقره فدخلوا فى شعابها كل سبط فى
٦٤، ٦٥ شعب منها (وأزلفنا) أى قربنا (ثم الآخرين) أى فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم (وأنجينا
موسى ومن معه أجمعين) بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البر .

ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ٢٦ الشعراء

٦٦،٦٧ (ثم أغرقنا الآخرين) بإطباقه عليهم (إن فى ذلك) أى فى جميع مافصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال ومافعل بهم من العذاب والنكال وما فى اسم الإشارة من معنى البعد لتهويل أمر المشار إليه وتفظيعه كتنكير الآية فى قوله تعالى (لآية) أى آية آية أو آية عظيمة لاتكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبى ﷺ بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا تعاطى ماكانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصى ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا رسوله كيلا يحل بهم مثل ماحل بأولئك أو إن فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام إياها على ماهى عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحى الصادق موجبة للإيمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام (وماكان أكثرهم) أى أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) لا بأن يقيسوا شأنه بشأن موسى عليهما السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا فى حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدى إلى الإيمان قطعاً ومعنى ماكان أكثرهم مؤمنين وما أكثرهم مؤمنين على أن كان زائدة كما هو رأى سيبويه فيكون كقوله تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهو إخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ماسمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقريراً لما مر من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا الخ وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان واستمرارهم عليه ويجوز أن يجعل كان بمعنى صار كما فعل ذلك فى قوله تعالى وكان من الكافرين فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ماسمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين فيكون الإخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى أتى أمر الله الآية (وإن ربك لهو العزيز) الغالب على كل مايريده من الأمور التى
٦٨
من جملتها الانتقام من المكذبين (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم إيمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحى مع كمال استحقاقهم لذلك هذا هو الذى يقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة إلى آخر القصص السبع بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا لاريب فيه وأما ماقيل من أن ضمير أكثرهم لأهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وماكان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التى

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ٢٦ الشعراء

إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ ٢٦ الشعراء

دلت على تابوت يوسف عليه السلام وبنو إسرائيل بعد مانجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة فى السورة الكريمة سوى قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله عليهم الصلاة والسلام كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بأيديهم من الآيات العظام مايوجب عليهم الإيمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ماهم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم لاسيما بعد الإخبار بإهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أولا وإخراجهم منها آخراً مع عدم مشاركتهم لهم فى شىء مما حكى عنهم من الجنايات أصلا مما يوجب تنزيه التنزيل عن أمثاله فتدبر

٦٩ (واتل عليهم) عطف على المضمر المقدر عاملا لإذ نادى الخ أى واتل على المشركين (نبأ إبراهيم) أى خبره العظيم الشأن حسبما أوحى إليك لتقف على ماذكر من عدم إيمانهم بما يأتيهم من الآيات بأحد الطريقين

٧٠ (إذ قال) منصوب إما على الظرفية للنبأ أى نبأه وقت قوله (لأبيه وقومه) أو على المفعولية لاتل على أنه بدل من نبأ أى واتل عليهم وقت قوله لهم (ماتعبدون) على أن المتلو ماقاله لهم فى ذلك الوقت سألهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك ليبنى على جوابهم أن مايعبدونه بمعزل من استحقاق العبادة بالكلية

٧١ (قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) لم يقتصروا على الجواب الكافى بأن يقولوا أصناماً كما فى قوله تعالى ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ماذا أنزل ربكم قالوا الحق ونظائرهما بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصداً إلى إبراز ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك والمراد بالظلول الدوام وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وصلة العكوف كلمة على وإيراد اللام لإفادة معنى زائد كأنهم قالوا فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها وهذا أيضاً من جملة إطنابهم

٧٢ (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم (هل يسمعونكم) أى هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف أو يسمعونكم تدعون كقولك سمعت زيداً يقول كيت وكيت فحذف لدلالة قوله تعالى (إذ تدعون) عليه وقرىء هل يسمعونكم من الإسماع أى هل يسمعونكم شيئاً من الأشياء أو الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وصيغة المضارع مع إذ على حكاية الحال

أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ ٢٦ الشعراء

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ٢٦ الشعراء

فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٢٦ الشعراء

ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ٢٦ الشعراء

الماضية لاستحضار صورتها كأنه قيل لهم استحضروا الأحوال الماضية التى كنتم تدعونها فيها وأجيبوا
٧٣ هل سمعوا أو سمعوا قط (أو ينفعونكم) بسبب عبادتكم لها (أو يضرون) أى يضرونكم بترككم لعبادتها
٧٤ إذ لابد للعبادة لاسيما عند كونها على ماوصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو دفع ضر (قالوا بل وجدنا
آباءنا كذلك يفعلون) اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا إلى
إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد أى ماعلمنا أو مارأينا منهم ماذكر من الأمور بل وجدنا آباءنا كذلك
٧٥ يفعلون أى مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم (قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون) أى أنظرتم فأبصرتم أو
٧٦،٧٧ أتأملتم فعلمتم ماكنتم تعبدونه (أنتم وآباؤكم الأقدمون) حق الإبصار أو حق العلم وقوله (فإنهم عدو
لى) بيان لحال مايعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك أى فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم
كحب الله تعالى لما أنهم يتضررون من جهتهم فوق مايتضرر الرجل من جهة عدوه أو لأن من يغريهم
على عبادتهم ويحملهم عليها هو الشيطان الذى هو أعدى عدو الإنسان لكنه عليه الصلاة والسلام صور
الأمر فى نفسه تعريضاً بهم فإنه أنفع فى النصيحة من التصريح وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون
أدعى إلى القبول والعدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجمع ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو شبها
بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل (إلا رب العالمين) استثناء منقطع أى لكن رب
العالمين ليس كذلك بل هو وليى فى الدنيا والآخرة لايزال يتفضل على بمنافعهما حسبما يعرب عنه ماوصفه
تعالى به من أحكام الولاية وقيل متصل وهو قول الزجاج على أن الضمير لكل معبود وكان من آبائهم
٧٨ من عبد الله تعالى وقوله تعالى (الذى خلقنى) صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ وما بعده خبراً غير
حقيق بجزالة التنزيل وإنما وصفه تعالى بذلك وبما عطفه عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين
تصريحاً بالنعم الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتفصيلا لها لكونها أدخل فى اقتضاء تخصيص العبادة
به تعالى وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى (فهو

وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ٢٦ الشعراء

وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ٢٦ الشعراء

وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ٢٦ الشعراء

يهدين) أى هو يهدينى وحده إلى كل مايهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا هداية متصلة بحين الخلق
ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبىء عنه الفاء وصيغة المضارع فإنه تعالى يهدى كل ماخلقه لما
خلق له من أمور المعاش والمعاد هداية متدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه
ودفع مضاره إما طبعاً وإما اختياراً مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين لا متصاص دم الطمث
٧٩ ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم (والذى هو يطعمنى ويسقين) عطف على الصفة
الأولى وتكرير الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ما وقع فى حيز الصلة من الجمل الست
على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى
٨٠ استيجاب الحكم حقيقة بأن تجرى عليه تعالى بحيالها ولا تجعل من روادف غيرها (وإذا مرضت فهو
يشفين) عطف على يطعمنى ويسقين نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من
متفرعات الأكل والشرب غالباً ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى مع أنهما منه تعالى لمراعاة
حسن الأدب كما قال الخضر عليه السلام فأردت أن أعيبها وقال فأراد ربك أن يبلغا أشدهما وأما الإماتة
فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء بدءاً وإعادة وقد نيطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها
٨١ من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى (والذى يميتنى ثم يحيين) على أن الموت لكونه ذريعة
إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية بمعزل من أن يكون غير مطبوع عنده عليه الصلاة والسلام
٨٢ (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعليما للأمة
أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه الصلاة
والسلام من الصغائر وتنبيهاً لأبيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى
درجة لا يقادر قدرها فإن حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه فى طاعة الله تعالى وعبادته فى الغاية القاصية
حيث كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر وفنون المعاصى والخطايا وحمل
الخطيئة على كلماته الثلاث إنى سقيم بل فعله كبيرهم وقوله لسارة هى أختى مما لا سبيل إليه لأنها مع
كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار إنما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد
هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام إلى

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ٢٦ الشعراء

وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ٢٦ الشعراء

وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ٢٦ الشعراء

وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ٢٦ الشعراء

وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ٢٦ الشعراء

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ٢٦ الشعراء

الشأم وأما الأوليان فلأنهما وقعتا مكتنفتين بكسر الأصنام ومن البين أن جريان هذه المقالات فيما
بينهم كان فى مبادىء الأمر وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنها إنما تغفر فى الدنيا لأن أثرها يومئذ
٨٣ يتبين ولأن فى ذلك تهويلا له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر (رب هب لى حكما) بعدماذكر
عليه الصلاة والسلام لهم فنون الألطاف الفائضة عليه من الله عزوجل من مبدأ خلقه إلى يوم بعثه
حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحكمة التى هى الكمال فى العلم
والعمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق (وألحقنى بالصالحين) ووفقنى من العلوم
والأعمال والملكات لما يرشحنى للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر
الذنوب وصغائرها أو اجمع بينى وبينهم فى الجنة ولقد أجابه تعالى حيث قال وإنه فى الآخرة لمن الصالحين
٨٤ (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى جاها وحسن صيت فى الدنيا بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين
ولذلك لا ترى أمة من الأمم إلا وهى محبة له ومثنية عليه أو صادقا من ذريتى يجدد أصل دينى ويدعو
الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد وهو النبى ﷺ ولذلك قال ﷺ أنا دعوة أبى إبراهيم
٨٥،٨٦ (واجعلنى) فى الآخرة (من ورثة جنة النعيم) وقد مر معنى الوراثة فى سورة مريم (واغفر لأبى)
بالهداية والتوفيق للإيمان كما يلوح به تعليله بقوله (إنه كان من الضالين) أى طريق الحق وقد مر تحقيق
٨٧ المقام فى تفسير سورة التوبة وسورة مريم بما لا مزيد عليه (ولا تخزنى) بمعاتبتى على ما فرطت أو بنقص
رتبتى عن بعض الوراث أو بتعذيبى لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا كل ذلك مبنى على هضم النفس
منه عليه الصلاة والسلام أو بتعذيب ولدى أو ببعثه فى عداد الضالين بعدم توفيقه للإيمان وهو من الخزى
بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء (يوم يبعثون) أى الناس كافة والإضمار قبل الذكر لما فى عموم
٨٨ البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه وتخصيصه بالضالين مما يخل بتهويل اليوم (يوم لا ينفع مال ولا بنون)
بدل من يوم يبعثون جىء به تأكيداً للتهويل وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء وهو من أعم المفاعيل أى

إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ٢٦ الشعراء

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ٢٦ الشعراء

وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ٢٦ الشعراء

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ ٢٦ الشعراء

مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ٢٦ الشعراء

فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ٢٦ الشعراء

لا ينفع مال وإن كان مصروفا فى الدنيا إلى وجوه البر والخيرات ولا بنون وإن كانوا صلحاء مستأهلين
٨٩ للشفاعة أحداً (إلا من أتى الله بقلب سليم) أى عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل
منهما بالإيمان وفيه تأييد لكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه طلباً لهدايته إلى الإيمان لاستحالة
طلب مغفرته بعد موته كافراً مع علمه عليه الصلاة والسلام بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعة وقيل هو
استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف أى إلا مال من أو بنو من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف
ليس من جنس المستثنى منه حقيقة بل بضرب من الاعتبار كما فى قوله [تحية بينهم ضرب وجيع] أى إلا
حال من أتى الله بقلب سليم على أنها عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل إلا سلامة قلب من أتى الله الآية
وقيل المضاف المحذوف مادل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لا ينفع غنى إلا غنى
من أتى الله الآية لأن غنى المرء فى دينه بسلامة قلبه وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه
٩٠ تنفعه (وأزلفت الجنة للمتقين) عطف على لا ينفع وصيغة الماضى فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه
فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع فى المعطوف علية الدلالة على
استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفظيع أى قربت الجنة للمتقين عن الكفر
والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على مافيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشورون
٩١ إليها (وبرزت الجحيم للغاوين) الضالين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى أى جعلت بارزة لهم
بحيث يرونها مع مافيها من أنواع الأحوال الهائلة ويوقنون بأنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا
٩٢، ٩٣ (وقيل لهم أينما كنتم) فى الدنيا (ماتعبدون) (من دون الله) أى أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون فى الدنيا
أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم وهذا
٩٤ سؤال تقريع وتبكيت لا يتوقع له جواب ولذلك قيل (فكبكبوا فيها) أى ألقوا فى الجحيم على وجوههم
مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا فى قعرها (هم) أى آلهتهم (والغاوون) الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير

وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ ٢٦ الشعراء

تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ٢٦ الشعراء

إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ٢٦ الشعراء

ذكرهم عن ذكر آلهتكم رمز إلى أنهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا غماً إلى
٩٥ غمهم (وجنود إبليس) أى شياطينه الذين كانوا يغرونهم ويوسوسون إليهم ويسولون لهم ماهم عليه
من عبادة الأصنام وسائر فنون الكفر والمعاصى ليجتمعوا فى العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه
وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والأول هو الوجه (أجمعين) تأكيد للضمير وما عطف عليه وقوله
٩٦ تعالى (قالوا) الخ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل
بهم مافعل فقيل قال العبدة (وهم فيها يختصمون) أى قالوا معترفين بخطئهم فى انهماكهم فى الضلالة
متحسرين معيرين لأنفسهم والحال أنهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين
مخاطبين لمعبوديهم على أن الله تعالى يجعل الأصنام صالحة للاختصام بأن يعطيها القدرة على الفهم والنطق
٩٧ (تالله إن كنا لفى ضلال مبين) إن مخففة من الثقيلة قد حذف اسمها الذى هو ضمير الشأن واللام فارقة
بينها وبين النافية أى إن الشأن كنا فى ضلال واضح لاخفاء فيه ووصفهم له بالوضوح للإشباع فى إظهار
ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق كما ينبىء عنه تصدير قسمهم بحرف التاء
٩٨ المشعرة بالتعجب وقوله تعالى (إذ نسويكم برب العالمين) ظرف لكونهم فى ضلال مبين وقيل لما دل
عليه الكلام أى ضللنا وقيل للضلال المذكور وإن كان فيه ضعف صناعى من حيث إن المصدر الموصوف
لا يعمل بعد الوصف وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أى تالله لقد كنا فى
غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام فى استحقاق العبادة برب العالمين الذى أنتم أدنى
٩٩ مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم وقولهم (وما أضلنا إلا المجرمون) بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره
عنهم لكن لا على معنى قصر الإضلال على المجرمين دون من عداهم بل على معنى قصر ضلالهم على كونه
بسبب إضلالهم من غير أن يستقلوا فى تحققه أو يكون بسبب إضلال الغير كأنه قيل وما صدر عنا ذلك
الضلال الفاحش إلا بسبب إضلالهم والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما فى قوله
تعالى ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا وعن السدى رحمه الله الأولون الذين اقتدوا بهم
وأياً ما كان ففيه أوفر نصيب من التعريض للذين قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وعن ابن جريج

فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ٢٦ الشعراء

وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ٢٦ الشعراء

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ٢٦ الشعراء

---

١٠٠ إبليس وابن آدم القاتل لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصى (فما لنا من شافعين) كما للمؤمنين من
١٠١ الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام (ولا صديق حميم) كما نرى لهم أصدقاء أو فما لنا من شافعين ولا
صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء على أن عدمهما كناية عن عداوتهما كما أن عدم المحبة فى
مثل قوله تعالى والله لا يحب الفساد كناية عن البغض حسبما ينبىء عنه قوله تعالى الأخلاء يومئذ بعضهم
لبعض عدو إلا المتقين أو وقعنا فى مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على أن المراد بعدمهما عدم
أثرهما وجمع الشافع لكثرة الشفعاء عادة كما أن إفراد الصديق لقلته أو لصحة إطلاقه على الجمع كالعدو
١٠٢ تشبيهاً لهما بالمصادر كالحنين والقبول وكلمة لو فى قوله تعالى (فلو أن لنا كرة) للتمنى كليت لما أن بين معنييهما
تلاقياً فى معنى الفرض والتقدير كأنه قيل فليت لنا كرة أى رجعة إلى الدنيا وقيل هى على أصلها من الشرط
٭ وجوابه محذوف كأنه قيل فلو أن لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت وكيت ويأباه قوله تعالى (فنكون من
المؤمنين) لتحتم كونه جواباً للتمنى مفيداً لترتب إيمانهم على وقوع الكرة البتة بلا تخلف كما هو مقتضى
حالهم وعطفه على كرة على طريقة للبس عباءة وتقر عينى كما يستدعيه كون لو على أصلها إنما يفيد تحقق
مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وإيمانهم معاً من غير دلالة على استلزام الكرة للإيمان أصلا
١٠٣ مع أنه المقصود حتما (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم عليه السلام المشتمل على بيان بطلان ما كان
عليه أهل مكة من عبادة الأصنام وتفصيل مايؤول إليه أمر عبدتها يوم القيامة من اعترافهم بخطئهم
الفاحش وندمهم وتحسرهم على مافاتهم من الإيمان وتمنيهم الرجعة إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين عند
مشاهدتهم لما أزلفت لهم جنات النعيم وبرزت لأنفسهم الجحيم وغشيهم ماغشيهم من ألوان العذاب
٭ وأنواع العقاب (لآية) أى آية عظيمة لا يقادر قدرها موجبة على عبدة الأصنام كافة لا سيما على أهل مكة
الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يجتنبوا كل الاجتناب ماكانوا عليه من عبادتها
خوفا أن يحيق بهم مثل ماحاق بأولئك من العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه أو أن فى ذكر نبئه وتلاوته
عليهم على ماهو عليه من غير أن تسمعه من أحد لآية عظيمة دالة على أن ماتتلوه عليهم وحى صادق نازل
٭ من جهة الله تعالى موجبة للإيمان به قطعاً (وماكان أكثرهم مؤمنين) أى أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم
النبأ مؤمنين بل هم مصرون على ماكانوا عليه من الكفر والضلال وأما أن ضمير أكثرهم لقوم إبراهيم
عليه السلام كما توهموا فمما لا سبيل إليه أصلا لظهور أنهم ماازدادوا بما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ٢٦ الشعراء

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ٢٦ الشعراء

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ٢٦ الشعراء

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ ٢٦ الشعراء

فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ٢٦ الشعراء

فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ٢٦ الشعراء

إلا طغياناً وكفراً حتى اجترءوا على تلك العظيمة التي فعلوها به عليه الصلاة والسلام فكيف يعبر عنهم
بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمن له لوط فنجاهما الله عز وجل إلى الشأم وقد مر بقية الكلام في آخر قصة
١٠٤ موسى عليه السلام (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أي هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكنه
١٠٥ يمهلهم بحكم رحمته الواسعة ليؤمن بعض منهم أو من ذرياتهم (كذبت قوم نوح المرسلين) القوم مؤنث
ولذلك يصغر على قويمة وقيل القوم بمعنى الأمة وتكذيبهم للمرسلين إما باعتبار إجماع الكل على التوحيد
وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار وإما لأن المراد بالجمع الواحد كما يقال
١٠٦ فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة وبردة وإذ في قوله تعالى (إذ قال لهم) ظرف للتكذيب
على أنه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ماوقع من الجانبين إلى تمام الأمر كما أن تكذيبهم عبارة عما صدر
عنهم من حين ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام إلى انتهائها (أخوهم) أي نسيبهم (نوح ألا تتقون)
١٠٧، ١٠٨ الله حين تعبدون غيره (إني لكم رسول) من جهته تعالى (أمين) مشهور بالأمانة فيما بينكم (فاتقوا
١٠٩ الله وأطيعون) فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى (وما أسألكم عليه) أي على ما أنا متصد له من
الدعاء والنصح (من أجر) أصلا (إن أجرى) فيما أتولاه (إلا على رب العالمين) والفاء في قوله تعالى
١١٠ (فاتقوا الله وأطيعون) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الطمع كما أن
نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقل في
١١١ إيجاب التقوى والطاعة فكيف إذا اجتمعا وقرىء إن أجرى بسكون الياء (قالوا أنؤمن لك واتبعك
الأرذلون) أي الأقلون جاها ومالا جمع الأرذل على الصحة فإنه بالغلبة صار جارياً مجرى الاسم

قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ ٢٦ الشعراء

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ٢٦ الشعراء

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ ٢٦ الشعراء

فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ٢٦ الشعراء

كالأكبر والأكابر وقيل جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب وقرىء وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال يعنون أنه لاعبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانة عقل ولا إصابة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادىء الرأى كما ذكر فى موضع آخر وهذا من كمال سخافة عقولهم وقصرهم أنظارهم على حطام الدنيا وكون الأشراف عندهم من هو أكثر منها حظاً والأرذل من حرمها وجهلهم بأنها لاتزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم هو نعيم الآخرة والأشرف من فاز به والأرذل من حرمه
(قال وما علمى بما كانوا يعملون) جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر و بصيرة أى ١١٢
وما وظيفتى إلا اعتبار الظواهر وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشق عن قلوبهم (إن ١١٣
حسابهم) أى ما محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفياتها البارزة والكامنة (إلا على ربى) فإنه المطلع على السرائر والضمائر (لو تشعرون) أى بشىء من الأشياء أو لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم
لستم كذلك فتقولون ما تقولون (وما أنا بطارد المؤمنين) جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم ١١٤
وتعليق إيمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعاً عنه وقوله (إن أنا إلا نذير مبين) كالعلة أى ما أنا إلا ١١٥
رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الأعزاء أو الأذلاء فكيف يتسنى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء أو ما على إلا إنذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما على
استرضاء بعضكم بطرد الآخرين (قالوا لئن لم تنته يانوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) من ١١٦
المشتومين أو المرميين بالحجارة قالوه قاتلهم الله تعالى فى أواخر الأمر ومعنى قوله تعالى (قال رب إن قومى ١١٧
كذبون) تموا على تكذيبى وأصروا على ذلك بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى إلا
فراراً كما يعرب عنه دعاؤه بقوله (فافتح بينى وبينهم فتحاً) أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه ١١٨
حكاية إجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح عليه (ونجنى ومن معى من المؤمنين) أى من قصدهم أو من

فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ٢٦ الشعراء

ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ٢٦ الشعراء

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ٢٦ الشعراء

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ٢٦ الشعراء

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ٢٦ الشعراء

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ٢٦ الشعراء

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ٢٦ الشعراء

---

١١٩ شؤم أعمالهم (فأنجيناه ومن معه) حسب دعائه (فى الفلك المشحون) أى المملوء بهم وبما لابدلهم

١٢٠،١٢١ منه (ثم أغرقنا بعد) أى بعد إنجائهم (الباقين) أى من قومه (إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم

١٢٢ مؤمنين) (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) الكلام فيه كالذى مرخلا أن حمل أكثرهم على أكثرقوم نوح

١٢٣،١٢٤ أبعد من السداد وأبعد (كذبت عاد المرسلين) أنث عاد باعتبار القبيلة وهواسم أبيهم الأقصى (إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) الكلام فى أن المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه من الزمان ماذا كما مر فى

١٢٥ صدر قصة نوح عليه السلام أى ألا تتقون الله تعالى فتفعلون ماتفعلون (إنى لكم رسول أمين)

١٢٦،١٢٧ (فاتقوا الله وأطيعون) (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) الكلام فيه كالذى مر وتصدير القصص به للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجمعون على ذلك وإن اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار وأنهم متنزهون عن المطامع الدنية

١٢٨ والأغراض الدنيوية بالكلية (أتبنون بكل ريع) أى مكان مرتفع ومنه ريع الأرض لارتفاعها (آية) علماً للمارة (تعبثون) أى ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فلا يحتاجون إليها أو بروج الحمام

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ٢٦ الشعراء

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ٢٦ الشعراء

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ٢٦ الشعراء

أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ ٢٦ الشعراء

وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ٢٦ الشعراء

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ٢٦ الشعراء

إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ ٢٦ الشعراء

أو بنيانا يجتمعون إليه ليعبثوا بمن مر عليهم أو قصورا عالية يفتخرون بها (وتتخذون مصانع) أى مآخذ ١٢٩
الماء وقيل قصورا مشيدة وحصونا (لعلكم تخلدون) أى راجين أن تخلدوا فى الدنيا أى عاملين عمل من
يرجو ذلك فلذلك تحكمون بنيانها (وإذا بطشتم) بسوط أو سيف (بطشتم جبارين) متسلطين غاشمين ١٣٠
بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العاقبة (فاتقوا الله) واتركوا هذه الأفعال (وأطيعون) فيما ١٣١
أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) من أنواع النعماء وأصناف الآلاء أجملها أولا ١٣٢
ثم فصلها بقوله (أمدكم بأنعام وبنين) بإعادة الفعل لزيادة التقرير فإن التفصيل بعد الإجمال والتفسير ١٣٣
إثر الإبهام أدخل فى ذلك (وجنات وعيون) (إنى أخاف عليكم) إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ١٣٤، ١٣٥
(عذاب يوم عظيم) فى الدنيا والآخرة فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها
قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من ١٣٦
الواعظين) فإنا لن نرعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابله للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه
كأنهم قالوا أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشريه أصلا (إن هذا) ماهذا الذى جئتنا به (إلا خلق الأولين) ١٣٧
أى عادتهم كانوا يلفقون مثله ويسطرونه أو ماهذا الذى نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم
ونحن بهم مقتدون أو ماهذا الذى نحن عليه من الموت والحياة إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها وقرىء
خلق الأولين بفتح الخاء أى اختلاق الأولين كما قالوا أساطير الأولين أو ماخلقنا هذا إلا خلقهم نحيا

وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ٢٦ الشعراء

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ٢٦ الشعراء

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ٢٦ الشعراء

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ٢٦ الشعراء

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ ٢٦ الشعراء

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٢٦ الشعراء

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ٢٦ الشعراء

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ٢٦ الشعراء

وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ٢٦ الشعراء

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ٢٦ الشعراء

---

١٣٨ كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب (وما نحن بمعذبين) على ما نحن عليه من الأعمال
١٣٩ (فكذبوه) أى أصروا على ذلك (فأهلكناهم) بسببه بريح صرصر (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم
١٤٠، ١٤١، ١٤٢ مؤمنين) (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) (كذبت ثمود المرسلين) (إذ قال لهم أخوهم صالح
١٤٣، ١٤٤، ١٤٥ ألا تتقون) الله تعالى (إنى لكم رسول أمين) (فاتقوا الله وأطيعون) (وما أسألكم عليه
١٤٦ من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) (أتتركون فيما ههنا آمنين) إنكار ونفى لأن يتركوا فيما هم فيه
١٤٧ من النعمة أو تذكير للنعمة فى تخليته تعالى إياهم وأسباب تنعمهم آمنين وقوله تعالى (فى جنات وعيون)
١٤٨ (وزروع ونخل طلعها هضيم) تفسير لما قبله من المبهم والهضيم اللطيف اللين للطف الثمر أو لأن النخل أنثى
وطلع الإناث ألطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو أو متدل متكسر من
١٤٩ كثرة الحمل وإفراد النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار (وتنحتون

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ ٢٦ الشعراء

وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٢٦ الشعراء

الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ٢٦ الشعراء

مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ٢٦ الشعراء

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ٢٦ الشعراء

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ٢٦ الشعراء

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ٢٦ الشعراء

من الجبال بيوتاً فارهين) بطرين أو حازقين من الفراهة وهى النشاط فإن الحاذق يعمل بنشاط
١٥٠، ١٥١ وطلب قلب وقرىء فرهين وهو أبلغ (فاتقوا الله وأطيعون) (ولا تطيعوا أمر المسرفين)
استعير الطاعة التى هى انقياد الأمر لامتثال الأمر وارتسامه أو نسب حكم الأمر إلى أمره مجازاً
١٥٢ (الذين يفسدون فى الأرض) وصف موضح لإسرافهم ولذلك عطف (ولا يصلحون) على يفسدون
١٥٣ لبيان خلوص إفسادهم عن مخالطة الإصلاح (قالوا إنما أنت من المسحرين) أى الذين سحروا حتى غلب
١٥٤ على عقولهم أو من ذوى السحر أى الرئة أى من الإنس فيكون قوله تعالى (ما أنت إلا بشر مثلنا) تأكيداً
١٥٥ له (فأت بآية إن كانت من الصادقين) أى فى دعواك (قال هذه ناقة) أى بعد ما أخرجها الله تعالى من
الصخرة بدعائه عليه الصلاة والسلام حسبما مر تفصيله فى سورة الأعراف وسورة هود (لها شرب)
أى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى والقوت وقرىء بالضم (ولكم شرب يوم معلوم)
١٥٦ فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم)
١٥٧ وصف اليوم بالعظم لعظم مايحل فيه وهو أبلغ من تعظيم العذاب (فعقروها) أسند العقر إلى كلهم لما أن
عاقرها عقرها برأيهم ولذلك عمهم العذاب (فأصبحوا نادمين) خوفا من حلول العذاب لا توبة أو عند
١٥٨ معاينتهم لمباديه ولذلك لم ينفعهم الندم وإن كان بطريق التوبة (فأخذهم العذاب) أى العذاب الموعود
(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ٢٦ الشعراء

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ٢٦ الشعراء

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ٢٦ الشعراء

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ ٢٦ الشعراء

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ٢٦ الشعراء

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ٢٦ الشعراء

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ٢٦ الشعراء

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ٢٦ الشعراء

---

١٥٩ (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قيل فى نفى الإيمان عن أكثرهم فى هذا المعرض إيماء إلى أنه لو آمن
أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وإن قريشاً إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وأنت
١٦٠، ١٦١ خبير بأن قريشاً هم المشهورون بعدم إيمان أكثرهم (كذبت قوم لوط المرسلين) (إذ قال لهم
١٦٢، ١٦٣، ١٦٤ أخوهم لوط ألا تتقون) (إنى لكم رسول أمين) (فاتقوا الله وأطيعون) (وما أسألكم
١٦٥ عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) (أتأتون الذكران من العالمين) أى أتأتون من بين من
عداكم من العالمين الذكران لا يشاركم فيه غيركم أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة
النساء فيهم مع كونهن أليق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الأول ماينكح من الحيوان وعلى الثانى
١٦٦ الناس (وتذرون ما خلق لكم ربكم) لأجل استمتاعكم وكلمة من فى قوله تعالى (من أزواجكم) للبيان إن
أريد بما جنس الإناث وهو الظاهر وللتبعيض إن أريد بها العضو المباح منهن تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون
ذلك بنسائهم أيضاً (بل أنتم قوم عادون) متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها وقيل
١٦٧ متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات (قالوا لئن لم تنته يالوط) أى عن
تقبيح أمرنا أو نهيناعنه أوعن دعوى النبوة التى من جملة أحكامها التعرض لنا (لتكونن من المخرجين)
١٦٨ أى من المنفيين من قريتنا وكأنهم كانوا يخرجون من أخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال (قال إنى

رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ٢٦ الشعراء

فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ ٢٦ الشعراء

إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ٢٦ الشعراء

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ٢٦ الشعراء

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ٢٦ الشعراء

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ٢٦ الشعراء

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ٢٦ الشعراء

لعملكم من القالين) أى من المبغضين غاية البغض كأنه يقلى الفؤاد والكبد لشدته وهو أبلغ من أن يقال
إنى لعملكم قال لدلالته على أنه عليه الصلاة والسلام من زمرة الراسخين فى بغضه المشهورين فى قلاه
ولعله عليه الصلاة والسلام أراد إظهار الكراهة فى مساكنتهم والرغبة فى الخلاص من سوء جوارهم
ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله تعالى قائلا (رب نجنى وأهلى مما يعملون) أى من شؤم عملهم ١٦٩
وغائلته (فنجيناه وأهله أجمعين) أى أهل بيته ومن اتبعه فى الدين بإخراجهم من بينهم عند مشارفة حلول ١٧٠
العذاب بهم (إلا عجوزاً) هى امرأة لوط استثنيت من أهله فلا يضره كونها كافرة لأن لها شركة فى الأهلية ١٧١
بحق الزواج (فى الغابرين) أى مقدراً كونها من الباقين فى العذاب لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم
وقد أصابها الحجر فى الطريق فأهلكها كما مر فى سورة الحجر وسورة هود وقيل كانت فيمن بقى فى القرية
ولم تخرج مع لوط عليه السلام (ثم دمرنا الآخرين) أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه (وأمطرنا ١٧٢، ١٧٣
عليهم مطراً) أى مطراً غير معهود قيل أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة فأهلكتهم (فساء مطر
المنذرين) اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف إليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم
(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) (كذب أصحاب ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦
الأيكة المرسلين) الأيكة الغيضة التى تنبت ناعم الشجر وهى غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن
بعث إليهم شعيب عليه السلام وكان أجنبياً منهم ولذلك قيل (إذ قال لهم شعيب ألا تتقون) ولم يقل ١٧٧

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ ٢٦ الشعراء

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ٢٦ الشعراء

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ٢٦ الشعراء

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ٢٦ الشعراء

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ٢٦ الشعراء

وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ٢٦ الشعراء

قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ٢٦ الشعراء

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ٢٦ الشعراء

أخوهم وقيل الأيكة الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل وقرىء بحذف الهمزة وإلقاء حركتها
على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهى اسم بلدهم وإنما كتبت ههنا وفى ص بغير ألف اتباعا
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، للفظ اللافظ (إنى لكم رسول أمين) (فاتقوا الله وأطيعون) (وما أسألكم عليه من
١٨١ أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) (أوفوا الكيل) أى أتموه (ولا تكونوا من المخسرين) أى حقوق
١٨٢ الناس بالتطفيف (وزنوا) أى الموزونات (بالقسطاس المستقيم) بالميزان السوى وهو إن كان عربياً
١٨٣ فإن كان من القسط ففعلاس بتكرير العين وإلا ففعلال وقرىء بضم القاف (ولا تبخسوا الناس أشياءهم)
أى لا تنقصوا شيئاً من حقوقهم أى حق كان وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم
١٨٤ فيها (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) بالقتل والغارة وقطع الطريق (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين)
أى ذوى الجبلة الأولين وهم من تقدمهم من الخلائق وقرىء بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء
١٨٥ ، ١٨٦ ، كالخلقة (قالوا إنما أنت من المسحرين) (وما أنت إلا بشر مثلنا) إدخال الواو بين الجملتين للدلالة
على أن كلا من التسحير والبشرية مناف الرسالة مبالغة فى التكذيب (وإن نظنك لمن الكاذبين) أى فيما
١٨٧ تدعيه من النبوة (فأسقط علينا كسفاً من السماء) أى قطعاً وقرىء بسكون السين وهو أيضاً جمع كسفة
وقيل الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء إما السحاب أو المظلة ولعله جواب

قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ٢٦ الشعراء

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ٢٦ الشعراء

لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد (إن كنت من الصادقين) فى دعواك ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم
على الجحود والتكذيب وإلا لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه (قال ربى أعلم بما تعملون) من الكفر ١٨٨
والمعاصى وبما تستحقون بسببه من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لامحالة (فكذبوه) أى فتموا ١٨٩
على تكذيبه وأصروا عليه (فأخذهم عذاب يوم الظلة) حسبما اقترحوا أما إن أرادوا بالسماء السحاب
فظاهر وأما إن أرادوا المظلة فلأن نزول العذاب من جهتها وفى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها إيذان بأن
لهم يومئذ عذاباً آخر غير عذاب الظلة وذلك بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليها فأخذ بأنفاسهم
لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيما
فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً . روى أن شعيباً عليه السلام بعث إلى أمتين أصحاب مدين
وأصحاب الأيكة فأهلكت مدين بالصيحة والرجفة وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة (إنه كان عذاب يوم
عظيم) أى فى الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم ١٩٠
مؤمنين) (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) هذا آخر القصص السبع التى أوحيت إلى رسول الله ﷺ لصرفه ١٩١
ﷺ عن الحرص على إسلام قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على فواته تحقيقاً لمضمون مامر فى مطلع
السورة الكريمة من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا
بالحق الآية فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته تعالى بموجب
رحمته الواسعة وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة لا بأن يتدبروا فيها
ويعتبروا بما فى كل واحدة منها من الدواعى إلى الإيمان والزواجر عن الكفر والطغيان ولا بأن يتأملوا
فى شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ماهى عليه مع علمهم بأنه ﷺ لم يسمع شيئاً منها من أحد
أصلا واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيئاً يزجرهم عن ذلك قطعاً كما حقق
فى خاتمة قصة موسى عليه السلام (وإنه) أى ماذكر من الآيات الكريمة الناطقة بالقصص المحكية أو القرآن ١٩٢
الذى هى من جملته (لتنزيل رب العالمين) أى منزل من جهته تعالى سمى به مبالغة ووصفه تعالى بربوبية
العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل كقوله تعالى وما أرسلناك إلا رحمة

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ٢٦ الشعراء

عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ٢٦ الشعراء

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ٢٦ الشعراء

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ٢٦ الشعراء

أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ٢٦ الشعراء

---

١٩٣ العالمين (نزل به) أى أنزله (الروح الأمين) أى جبريل عليه السلام فإنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى
أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وقرىء بتشديد الزاى ونصب الروح والأمين أى جعل الله تعالى الروح
١٩٤ الأمين نازلا به (على قلبك) أى روحك وإن أريد به العضو فتخصيصه به لأن المعانى الروحانية تنزل
أولا على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تتصعد إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة
(لتكون من المنذرين) متعلق بنزل به أى أنزله لتنذرهم بما فى تضاعيفه من العقوبات الهائلة وإيثار
ما عليه النظم الكريم للدلالة على انتظامه ﷺ فى سلك أولئك المنذرين المشهورين فى حقية الرسالة وتقرر
١٩٥ وقوع العذاب المنذر (بلسان عربى مبين) واضح المعنى ظاهر المدلول لئلا يبقى لهم عذر ما وهو أيضاً
متعلق بنزل به وتأخيره للاعتناء بأمر الإنذار وللإيماء إلى أن مدار كونه من جملة المنذرين المذكورين
عليهم السلام مجرد إنزاله عليه ﷺ لا إنزاله باللسان العربى وجعله متعلقاً بالمنذرين كما جوزه الجمهور
يؤدى إلى أن غاية الإنزال كونه ﷺ من جملة المنذرين باللغة العربية فقط من هود وصالح وشعيب عليهم
السلام ولا يخفى فساده كيف لا والطامة الكبرى فى باب الإنذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام
وأشد الزواجر تأثيراً فى قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام لانتمائهم وادعائهم أنهم على ملته
١٩٦ عليه الصلاة والسلام (وإنه لفى زبر الأولين) أى وإن ذكره أو معناه لفى الكتب المتقدمة فإن أحكامه
التى لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدل الأعصار من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات
مسطورة فيها وكذا ما فى تضاعيفه من المواعظ والقصص وقيل الضمير لرسول الله ﷺ وليس بواضح
١٩٧ (أو لم يكن لهم آية) الهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل أغفلوا عن
ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين وأنه فى زبر الأولين على أن لهم متعلق بالكون قدم
على اسمه وخبره للاهتمام به أو بمحذوف هو حال من آية قدمت عليها لكونها نكرة وآية خبر للكون
قدم على اسمه الذى هو قوله تعالى (أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) لما مر مراراً من الاعتناء والتشويق إلى
المؤخر أى أن يعرفوه بنعوته المذكورة فى كتبهم ويعرفوا من أنزل عليه وقرىء تكن بالتأنيث وجعلت
آية اسماً وأن يعلمه خبراً وفيه ضعف حيث وقع النكرة اسماً والمعرفة خبراً وقد قيل فى تكن ضمير القصة

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ٢٦ الشعراء

فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ٢٦ الشعراء

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ ٢٦ الشعراء

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ٢٦ الشعراء

فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ٢٦ الشعراء

فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ٢٦ الشعراء

وآية أن يعلمه جملة واقعة موقع الخبر ويجوز أن يكون لهم آية هي جملة الشأن وأن يعلمه بدلا من آية ويجوز مع
١٩٨ نصب آية تأنيث تكن كما فى قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا وقرىء تعلمه بالتاء (ولو نزلناه) كما هو بنظمه
الرائق المعجز (على بعض الأعجمين) الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية وهو جمع أعجمى على التخفيف
ولذلك جمع جمع السلامة وقرىء الأعجميين وفى لفظ البعض إشارة إلى كون ذلك واحداً من عرض تلك
١٩٩ الطائفة كائناً من كان (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة خارقة للعادات (ماكانوا به مؤمنين) مع انضمام إعجاز
القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى المكابرة وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الأعجمين
بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذاك فإنه بمعزل
٢٠٠ من المناسبة لمقام بيان تماديهم فى المكابرة والعناد (كذلك سلكناه) أى مثل ذلك السلك البديع المذكور
سلكناه أى أدخلنا القرآن (فى قلوب المجرمين) ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية
من حيث النظم المعجز ومن حيث الإخبار عن الغيب وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على
٢٠١ تضمنها للبشارة إنزاله وبعثة من أنزل عليه بأوصافه فقوله تعالى (لا يؤمنون به) جملة مستأنفة مسوقة لبيان
أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به بل يستمرون على ماهم عليه (حتى يروا العذاب
٢٠٢ الأليم) الملجىء إلى الإيمان به حين لا ينفعهم الإيمان (فيأتيهم بغتة) أى فجأة فى الدنيا والآخرة (وهم
٢٠٣ لا يشعرون) بإتيانه (فيقولوا هل نحن منظرون) تحسراً على مافات من الإيمان وتمنياً الإمهال لتلافى
مافرطوه وقيل معنى كذلك سلكناه مثل تلك الحال وتلك الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فى
قلوبهم وقوله تعالى لا يؤمنون به فى موقع الإيضاح والتلخيص له أو فى موقع الحال أى سلكناه فيها غير
مؤمن به والأول هو الأنسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الإيمان وتآخذ مبادى
الهداية والإرشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله
تعالى ما كانوا به مؤمنين ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله تعالى أدخلنا

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ٢٦ الشعراء

أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ٢٦ الشعراء

ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ٢٦ الشعراء

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ٢٦ الشعراء

ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ٢٦ الشعراء

---

٢٠٤ الشرك والتكذيب فى قلوب المجرمين (أفبعذابنا يستعجلون) بقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقولهم فأتنا بما تعدنا ونحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الإنذار فالفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الأليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافى مالا يخفى على أحد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وإنما قدم الجار والمجرور للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى مع ما فيه
٢٠٥ من رعاية الفواصل (أفرأيت) لما كانت الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشىء وأشهرها شاع استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى والخطاب لكل من يصلح له كائناً من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظرون وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهى متقدمة فى المعنى على الهمزة وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة كما هو رأى الجمهور أى فاخبرنى (إن متعناهم سنين) متطاولة بطول
٢٠٦، ٢٠٧ الأعمار وطيب المعاش (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب (ماأغنى عنهم) أى شىء أو أى إغناء أغنى عنهم (ما كانوا يمتعون) أى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن ما مصدرية أو ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها وأياً ما كان فالاستفهام للإنكار والنفى وقيل ما نافية أى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب وتخفيفه والأول هو الأولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الإغناء على أبلغ وجه وآكده كأن كل من من شأنه الخطاب قد كلف أن يخبر بأن تمتيعهم ماذا أفادهم وأى شىء أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يخبر بشىء من ذلك أصلا وقرىء
٢٠٨ يمتعون من الامتاع (وما أهلكنا من قرية) من القرى المهلكة (إلا لها منذرون) قد أنذروا أهلها
٢٠٩ إلزاماً للحجة (ذكرى) أى تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لأنها فى معنى الإنذار كأنه قيل مذكرون ذكرى أو على أنه مصدر مؤكد لفعل هو صفة لمنذرون أى إلا لها منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرفع على أنها صفة منذرون بإضمار ذوو أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم فى التذكرة أو خبر مبتدأ محذوف

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ ٢٦ الشعراء

وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ٢٦ الشعراء

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ٢٦ الشعراء

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ٢٦ الشعراء

وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ٢٦ الشعراء

والجملة اعتراضية وضمير لها للقرى المدلول عليها بمفردها الواقع فى حيز النفى على أن معنى أن للكل منذرين
أعم من أن يكون لكل قرية منها منذر واحد أو أكثر (وما كنا ظالمين) فنهلك غير الظالمين وقيل الإنذار
والتعبير عن ذلك بنفى الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم أصلا على ماتقرر من قاعدة أهل
السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر
فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد (وما تنزلت به الشياطين) رد لمازعمه الكفرة ٢١٠
فى حق القرآن الكريم من أنه من قبيل مايلقيه الشيطان على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح
الأمين (وما ينبغى لهم) أى ومايصح ومايستقيم لهم ذلك (وما يستطيعون) ذلك أصلا (إنهم عن ٢١١،٢١٢
السمع) لكلام الملائكة (لمعزولون) لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة فى صفاء الذوات والاستعداد لقبول
فيضان أنوار الحق والانتقاش بصور العلوم الربانية والمعارف النورانية كيف لا ونفوسهم خبيثة ظلمانية
شريرة بالذات غير مستعدة إلا لقبول مالا خير فيه أصلا من فنون الشرور فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن
الكريم المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية التى لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة عليهم الصلاة والسلام (فلا تدع ٢١٣
مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين) خوطب به النبى ﷺ مع ظهور استحالة صدور المنهى عنه عنه ﷺ
تهييجا وحثاً على ازدياد الإخلاص ولطفاً لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى
عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه (وأنذر) العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى (عشيرتك ٢١٤
الأقربين) الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم. روى أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذا
فخذا حتى اجتمعوا إليه فقال لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم قال فإنى نذير
لكم بين يدى عذاب شديد وروى أنه قال يابنى عبد المطلب يابنى هاشم يابنى عبد مناف افتدوا أنفسكم
من النار فإنى لا أغنى عنكم شيئاً ثم قال ياعائشة بنت أبى بكر ويا حفصة بنت عمر ويافاطمة بنت محمد وياصفية
عمة محمد اشترين أنفسكن من النار فإنى لا أغنى عنكن شيئاً (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) ٢١٥

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ٢٦ الشعراء

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٢٦ الشعراء

ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ٢٦ الشعراء

وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ٢٦ الشعراء

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ٢٦ الشعراء

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ٢٦ الشعراء

تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ٢٦ الشعراء

يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ٢٦ الشعراء

أى لين جانبك لهم مستعار من حال الطائر فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه ومن للتبيين لأن من اتبع
أعم ممن اتبع لدين أو غيره أو للتبعيض على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان
٢١٦ فحسب (فإن عصوك) ولم يتبعوك (فقل إنى برىء مما تعملون) أى مما تعملون أو من أعمالكم
٢١٧ (وتوكل على العزيز الرحيم) الذى يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن
٢١٨ غيرهم وقرىء فتوكل على أنه بدل من جواب الشرط (الذى يراك حين تقوم) أى إلى التهجد
٢١٩ (وتقلبك فى الساجدين) وترددك فى تصفح أحوال المتهجدين كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف
ﷺ تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع
منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود
إذا أممتهم وإنما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله ﷺ التى بها يستأهل ولايته بعد أن عبر عنه بما ينبىء عن
٢٢٠ قهر أعدائه ونصر أوليائه من وصفى العزيز الرحيم تحقيقاً للتوكل وتوطيناً لقلبه عليه (إنه هو السميع)
٢٢١ لما تقوله (العليم) بما تنويه وتعمله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) أى تتنزل بحذف إحدى التاءين
وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن
ودخول حرف الجر على من الاستفهامية لما أنها ليست موضوعة للاستفهام بل الأصل أمن لحذف
٢٢٢ حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل والأصل أهل وقوله تعالى (تنزل على
كل أفاك أثيم) قصر لتنزلهم على كل من اتصف بالإفك الكثير والإثم الكبير من الكهنة والمتنبئة
وتخصيص له بهم بحيث لا يتخطاهم إلى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ منزهة عن أن يحوم
٢٢٣ حولها شائبة شىء من تلك الأوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه ﷺ (يلقون) أى الأفاكون (السمع)

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ٢٦ الشعراء

إلى الشياطين فيتلقون منهم أوهاما وأمارات لنقصان علمهم فيضمون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع وذلك قوله تعالى (وأكثرهم كاذبون) أى فيما قالوه من الأقاويل وقد ورد فى الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة أو يلقون السمع أى المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا إليهم والأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى وأما فى أكثره فهم كاذبون وما آله وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقين على الإطلاق وليس معنى الأفاك من لا ينطق إلا بالإفك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الإفك فلا ينافيه أن يصدق نادراً فى بعض الأحايين وقيل الضمير للشياطين أى يلقون السمع أى المسموع من الملأ الأعلى قبل أن رجموا من بعض المغيبات إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ لا يسمعونهم على نحو ماتكلمت به الملائكة لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم ولا سبيل إلى حمل إلقاء السمع على تسمعهم وإنصاتهم إلى الملأ الأعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور لما أن يلقون كما صرحوا به إما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للإلقاء أو استئناف مبين للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولا ريب فى أن إلقاء السمع إلى الملأ الأعلى بمعزل من احتمال أن يقارن التنزل أو يكون غرضاً منه لتقدمه عليه قطعاً وإنما المحتمل لهما الإلقاء بالمعنى الأول فالمعنى على تقدير كونه حالا تنزل الشياطين على الأفاكين ملقين إليهم ما سمعوه من الملأ الأعلى وعلى تقدير كونه جواباً عن سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون إليهم ماسمعوه وحمله على استئناف الأخبار كما فعله بعضهم غير سديد لأن ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل وأما على تقدير كون ضمير يلقون للأفاكين فهو صفة لكل أفاك لأنه فى معنى الجمع سواء أريد بإلقاء السمع الإصغاء إلى الشياطين أو إلقاء المسموع إلى الناس ويجوز أن يكون استئناف إخبار بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من الشياطين وإلقائهم إلى الناس يكون بعد التنزيل وأن يكون استئنافا مبنياً على السؤال على التقدير الأول فقط كأنه قيل مايفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم وقوله تعالى وأكثرهم كاذبون على التقدير الأول استئناف فقط وعلى الثانى يحتمل الحالية من ضمير يلقون أى يلقون ماسمعوه من الشياطين إلى الناس والحال أنهم فى أكثر أقوالهم كاذبون فتدبر (والشعراء ٢٢٤
يتبعهم الغاوون) استئناف مسوق لإبطال ماقالوا فى حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر وأن رسول الله ﷺ من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله ﷺ بعد إبطال ماقالوا إنه من قبيل مايلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل بما مر من بيان أحوالهم المضادة لأحواله ﷺ والمعنى أن الشعراء يتبعهم أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لا يستمرون على وتيرة واحدة فى الأفعال والأقوال والأحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين إلى

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ٢٦ الشعراء

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ٢٦ الشعراء

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ٢٦ الشعراء

٢٢٥ طريق الحق الثابتين عليه وقوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للقصد إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص برؤية راء دون راء أى ألم تر أن الشعراء فى كل واد من أودية القيل والقال وفى كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفى كل مسلك من مسالك الغى والضلال يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل بل يتحيرون فى فياف الغواية والسفاهة ويتيهون فى تيه المجون والوقاحة دينهم تمزيق الأعراض المحمية والقدح فى الأنساب الطاهرة السنية والتسيب بالحرام والغزل والابتهار والتردد بين
٢٢٦ طرفى الإفراط والتفريط فى المدح والهجاء (وأنهم يقولون مالا يفعلون) من الأفاعيل غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشىء من الأمور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات الأنسية مستقراً على المنهاج القويم مستمراً على الصراط المستقيم ناطقاً بكل أمر رشيد داعياً إلى صراط العزيز الحميد مؤيداً بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق أعجز كل منطيق ماهر وبكت كل مفلق ساحر هذا وقد قيل فى تنزيهه ﷺ عن أن يكون من الشعراء أن أتباع الشعراء الغاوون وأتباع محمد ﷺ ليسوا كذلك ولا ريب فى أن تعليل عدم كونه ﷺ منهم بكون أتباعه ﷺ غير غاوين مما لا يليق بشأنه العالى وقيل الغاوون الراوون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحى ومن ثقيف أمية بن أبى الصلت قالوا نحن نقول مثل قول محمد ﷺ وقرىء والشعراء بالنصب على إضمار
٢٢٧ فعل يفسره الظاهر وقرىء يتبعهم على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيهاً لبعه بعضد (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ويكون أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد فى الدنيا والترغيب عن الركون إليها والزجر عن الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها الفانية ولو وقع منهم فى بعض الأوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن أبى

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

ترتيبها ٢٦ — آياتها ٢٢٧

وفي تفسير الإمام مالك تسميتها بسورة الجامعة، وقد جاء في رواية ابن مردويه عن ابن عباس وعبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهم إطلاق القول بمكيتها، وأخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ [الشعراء: ٢٢٤] إلى آخرها، وروي ذلك عن عطاء وقتادة، وقال مقاتل: ﴿ألم يكن لهم آية﴾ [الشعراء: ١٩٧] الآية مدنية أيضاً، قال الطبرسي: وعدة آياتها مائتان وسبع وعشرون آية في الكوفي والشامي والمدني الأول ومائتان وست وعشرون في الباقي.

ووجه اتصالها بما قبلها اشتمالها على بسط وتفصيل لبعض ما ذكر فيما قبل، وفيها أيضاً من تسليته صلى الله تعالى عليه وسلم ما فيها، وقد افتتحت كلتا السورتين بما يفيد مدح القرآن الكريم وختمتا بإيعاد المكذبين به كما لا يخفى.

بسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟
فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى
فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ
﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠
مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ
عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

طسم تقدم الكلام في أمثاله إعراباً وغيره والكلام هنا كالكلام هناك بيد أنه أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنه قال في هذا الطاء من ذي الطول والسين من القدوس والميم من الرحمن، وأمال فتحة الطاء حمزة والكسائي وأبو بكر وقرأ نافع كما روي عنه أبو علي الفارسي في الحجة بين بين ولم يمل صرفاً لأن الألف منقلبة عن ياء فلو أميلت إليها انتقض غرض القلب وهو التخفيف.

وروى بعض عنه أنه قرأ كباقي السبعة من غير إمالة أصلاً نظراً إلى أن الطاء حرف استعلاء يمنع من الإمالة، وقرأ حمزة بإظهار نون سين لأنه في الأصل لكونه أحد أسماء الحروف المقطعة منفصل عما بعده وأدغمها الباقون لما رأوها متصلة في حكم كلمة واحدة خصوصاً على القول بالعلمية، وقرأ عيسى بكسر الميم من «طسم» هنا وفي القصص، وجاء كذلك عن نافع، وفي مصحف عبدالله ط س م من غير اتصال وهي قراءة أبي جعفر ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ إشارة إلى السورة، وما في ذلك من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار إليه في الفخامة؛ والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر إعجازه على أنه من أبان بمعنى بانَ والكلام على تقدير مضاف أو على أن الإسناد فيه مجازي، وجوز أن يكون المبين من أبان المتعدي ومفعوله محذوف أي الأحكام الشرعية أو الحق، والأول أنسب بالمقام ، والمعنى هذه آيات مخصوصة من القرآن مترجمة باسم مستقل ، والمراد ببيان كونها بعضاً منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الجليلة، وقيل: الإشارة إى القرآن والتأنيث لرعاية الخبر، والمراد بالكتاب السورة، والمعنى آيات هذا القرآن المؤلف من الحروف المبسوطة كآيات هذه السورة المتحدي بها فأنتم عجزتم عن الإتيان بمثل هذه السورة فحكم تلك الآيات كذلك وهو كما ترى. ومن الناس من فسر ﴿**الكتاب المبين**﴾ باللوح المحفوظ ووصفه بالمبين لإظهاره أحوال الأشياء للملائكة عليهم السلام والأولى ما سمعته أولاً ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ**﴾ أي قاتل إياها من شدة الوجد كما قال الليث وأنشد قول الفرزدق:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه ... لشيء نحته عن يديه المقادر

وقال الأخفش والفراء يقال بخع يبخع بخعاً وبخوعاً أي أهلك من شدة الوجد وأصله الجهد، ومنه قول عائشة في عمر رضي الله تعالى عنهما: بخع الأرض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك، وقال الكسائي: بخع الأرض بالزراعة جعلها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة؛ وقال الزمخشري وتبعه المطرزي: أصل البخع أن تبلغ بالذبح البخاع بكسر الباء وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح، ولم يطلع على ذلك ابن الأثير مع مزيد بحثه ولا ضير في ذلك.

وقرأ زيد بن علي وقتادة رحمهم الله تعالى «باخع نفسك» بالإضافة على خلاف الأصل فإن الأصل في اسم الفاعل إذا استوفى شروط العمل أن يعمل على ما أشار إليه سيبويه في الكتاب، وقال السكائي: العمل والإضافة سواء، وذهب أبو حيان إلى أن الإضافة أحسن من العمل، ولعل في مثل هذا الموضع لإشفاق المتكلم، ولما استحال في حقه سبحانه جعلوه متوجهاً إلى المخاطب، ولما كان غير واقع منه أيضاً قالوا. المراد الأمر به لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه فكأنه قيل: أشفق على نفسك أن تقتلها وجداً وحسرة على ما فاتك من إسلام قومك، وقال العسكري: هي في مثل هذا الموضع موضوعة موضع النهي، والمعنى لا تبخع نفسك، وقيل: وضعت موضع الاستفهام والتقدير هل أنت باخع، وحكي مثله عن ابن عطية إلا أنه قال: المراد الإنكار أي لا تكن باخعاً نفسك ﴿**أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ تعليل للبخع. ولما لم يصح كون عدم كونهم في المستقبل مؤمنين كما يفيده ظاهر الكلام علة لذلك لعدم المقارنة والعلة ينبغي أن تقارن المعلول قدروا ـ خيفة ـ فقالوا: خيفة أن لا يؤمنوا بذلك الكتاب المبين، ومن الأجلة من

لم يقدر ذلك بناء على أن المراد لاستمرارهم على عدم قبول الإيمان بذلك الكتاب لأن كلمة كان للاستمرار وصيغة الاستقبال لتأكيده وأريد استمرار النفي؛ وجوز أن يكون الكون بمعنى الصحة والمعنى لامتناع إيمانهم والقول بأن فعل الكون أتى به لأجل الفاصلة ليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَشأ﴾ إلخ استئناف لتعليل الأمر بإشفاقه على نفسه ﷺ أو النهي عن البخع، ومفعول المشيئة محذوف وهو على المشهور ما دل عليه مضمون الجزاء، وجوز أن يكون مدلولاً عليه بما قبل أي إن نشأ إيمانهم ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ ملجئة لهم إلى الإيمان قاسرة عليه كما نتق الجبل فوق بني إسرائيل وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر.

وقرأ أبو عمرو في رواية هارون عنه «إن يشأ ينزل» على الغيبة والضمير له تعالى، وفي بعض المصاحف لو شئنا لأنزلنا ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي منقادين وهو خبر عن الأعناق وقد اكتسبت التذكير وصفة العقلاء من المضاف إليه فأخبر عنها لذلك بجمع من يعقل كما نقله أبو حيان عن بعض أجلة علماء العربية.

واختصاص جواز مثل ذلك الشعر كما حكاه السيرافي عن النحويين مما لم يرتضه المحققون ومنهم أبو العباس وهو ممن خرج الآية على ذلك، وجوز أن يكون ذلك لما أنها وصفت بفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع كما في قوله تعالى: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤] وأن يكون الكلام على حذف مضاف وقد روعي بعد حذفه أي أصحاب أعناقهم، ولا يخفى أن هذا التقدير ركيك مع الإضافة إلى ضميرهم، وقال الزمخشري: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع لأنه يتراءى قبل التأمل لظهور الخضوع في العنق بنحو الانحناء أنه هو الخاضع دون صاحبه وترك الجمع بعد الإقحام على ما كان عليه قبل، وقال الكسائي: إن خاضعين حال للضمير المجرور لا للأعناق.

وتعقبه أبو البقاء فقال: هو بعيد في التحقيق لأن ﴿خاضعين﴾ يكون جارياً على غير فاعل ﴿ظلت﴾ فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل فكان يجب أن يكون خاضعين هم فافهم، وقال ابن عباس ومجاهد، وابن زيد والأخفش: الأعناق الجماعات يقال: جاء في عنق من الناس أي جماعة، والمعنى ظلت جماعاتهم أي جملتهم.

وقيل: المراد بها الرؤساء والمقدمون مجازاً كما يقال لهم: رؤوس وصدور فيثبت الحكم لغيرهم بالطريق الأولى، وظاهر كلامهم أن إطلاق العنق على الجماعة مطلقاً رؤساء أم لا حقيقة وذكر الطيبي عن الأساس أن من المجاز أتاني عنق من الناس للجماعة المتقدمة وجاؤوا رسلاً رسلاً وعنقاً عنقاً والكلام يأخذ بعضه بأعناق بعض ثم قال: يفهم من تقابل رسلاً رسلاً لقوله: عنقاً عنقاً أن في إطلاق الأعناق على الجماعات اعتبار الهيئة المجتمعة فيكون المعنى فظلوا خاضعين مجتمعين على الخضوع متفقين عليه لا يخرج أحد منهم عنه.

وقرأ عيسى وابن أبي عبلة «خاضعة» وهي ظاهرة على جميع الأقوال في الأعناق بيد أنه إذا أريد بها ما هو جمع العنق بمعنى الجارحة كان الإسناد إليها مجازياً و ﴿لها﴾ في القراءتين صلة ظلت أو الوصف والتقديم للفاصلة أو نحو ذلك لا للحصر، وظلت عطف على ننزل ولا بد من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر لأنه وإن صح عطف الماضي على المضارع إلا أنه هنا غير مناسب فإنه لا يترتب الماضي على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية ولا يعقل ذلك والمعقول عكسه، وبتأويل أحد الفعلين يدفع ذلك لكن اختار بعضهم تأويل ظلت بتظل وكأن العدول عنه ليؤذن الماضي بسرعة الانفعال وأن نزول الآية لقوة سلطانه وسرعة ترتب ما ذكر عليه كأنه كان واقعاً قبله، وبعضهم تأويل

ننزل بأنزلنا، ولعل وضعه موضعه لاستحضار صورة إنزال تلك الآية العظيمة الملجئة إلى الإيمان وحصول خضوع رقابهم عند ذلك في ذهن السامع ليتعجب منه فتأمل.

وقرأ طلحة «فتظلل» بفك الإدغام، والجزم وضعف الحريري في درة الغواص الفك في مثل ذلك، ورجح صاحب الكشف القراءة بأنها أبلغ لإفادة الماضي ما سمعته آنفاً، هذا والظاهر أنه لم تحقق إنزال هذه الآية لأن سنة الله تعالى تكليف الناس بالإيمان من دون إلجاء، نعم إذا قيل: المراد آية مذلة لهم كما روي عن قتادة جاز أن يقال بتحقق ذلك، ولعل ما روي عن ابن عباس كما في البحر والكشاف من قوله نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة ناظر إلى هذا، وعن أبي حمزة الثمالي أن الآية صوت يسمع من السماء في نصف شهر رمضان وتخرج له العواتق من البيوت، وهذا قول بتحقق الإنزال بعد وكأن ذلك زمان المهدي رضي الله تعالى عنه، ومن صحة ما ذكر من الأخبار في القلب شيء والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عنه مُعْرِضِينَ**﴾ بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذكر من الآية الملجئة تأكيداً لصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم. ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم، وجوز أن تكون تبعيضية، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو صفة لمقدر كما نشير إليه إن شاء الله تعالى، والثانية لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر، وأياً ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة ما فعلوا به.

والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه جل وعلا على الإطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح أي ما يأتيهم تذكير وموعظة أو طائفة من القرآن من قبله عز وجل بمقتضى رحمته الواسعة يجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إلا جددوا إعراضاً عنه واستمروا على ما كانوا عليه، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على الحالية من مفعول ﴿**يأتيهم**﴾ بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أي ما يأتيهم من ذكر في حال من الأحوال إلا حال كونهم معرضين عنه ﴿**فَقَدْ كَذَّبُوا**﴾ أي بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً صريحاً مقارناً للاستهزاء به ولم يكتفوا بالإعراض عنه حيث جعلوه تارة سحراً وتارة أساطير الأولين وأخرى شعراً.

وقال بعض الفضلاء: أي فقد تموا على التكذيب وكان تكذيبهم مع ورود ما يوجب الإقلاع من تكرير إتيان الذكر كتكذيبهم أول مرة، وللتنبيه على ذلك عبر عنه بما يعبر عن الحادث ويشعر باعتبار مقارنة الاستهزاء حسبما أشير إليه قوله تعالى: ﴿**فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ لاقتضائه تقدم الاستهزاء، وقيل: إن ذاك لدلالة الإعراض والتكذيب على الاستهزاء، والمراد بأنباء ذلك ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة وكل آت قريب، وقيل: من عذاب يوم بدر أو يوم القيامة والأول أولى، وعبر عن ذلك بالأنباء لكونه مما أنبأ به القرآن العظيم أو لأنهم بمشاهدته يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء. وفيه تهويل له لأن النبأ يطلق على الخبر الخطير الذي له وقع عظيم أي فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزؤون به قبل من غير أن يتدبروا في أحواله ويقفوا عليها.

وقوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ**﴾ بيان لإعراضهم عن الآيات التكوينية بعد بيان إعراضهم عن الآيات التنزيلية، والهمزة للإنكار التوبيخي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أأصروا على ما هم عليه من الكفر بالله

تعالى وتكذيب ما يدعوهم إلى الإيمان به عز وجل ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة لهم عن ذلك والداعية إلى الإيمان به تعالى، وقال أبو السعود بعد جعل الهمزة للإنكار والعطف على مقدر يقتضيه المقام: أي أَفعلوا ما فعلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عما فعلوا والداعية إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه انتهى.

وهو ظاهر في أن الآية مرتبطة بما قبلها من قوله تعالى: ﴿**وما يأتيهم**﴾ إلخ وهو قريب بحسب اللفظ إلا أن فيه أن النظر إلى عجائب الأرض لا يظهر كونه زاجراً عن التكذيب بكون القرآن منزلاً من الله عز وجل وداعياً إلى الإقبال إليه، وقال ابن كمال: التقدير ألم يتأملوا في عجائب قدرته تعالى ولم ينظروا انتهى.

والظاهر أن الآية عليه ابتداء كلام فافهم، وقيل: هو بيان لتكذيبهم بالمعاد إثر بيان تكذيبهم بالمبدأ وكفرهم به عز وجل والعطف على مقدر أيضاً، والتقدير أكذبوا بالبعث ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عن التكذيب بذلك والأول أولى وأظهر، وأياً ما كان فالكلام على حذف مضاف كما أشير إليه، وجوز أن يراد من الأرض عجائبها مجازاً؛ وقوله تعالى: ﴿**كَمْ أَنبَتْنَا فيهَا منْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ استئناف مبين لما في الأرض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية إلى الإيمان.

وكم خبرية في موضع نصب على المفعولية بما بعدها وهي مفيدة للكثرة وجيء بكل معها لإفادة الإحاطة والشمول فيفيد أن كثرة أفراد كل صنف صنف فيكون المعنى أنبتنا فيها شيئاً كثيراً من كل صنف على أن من تبعيضية أو كثرة الأصناف فيكون المعنى أنبتنا فيها شيئاً كثيراً هو كل صنف على أن من بيانية، وأياً ما كان فلا تكرار بينهما، وقد يقال: المعنى أو لم ينظروا إلى نفس الأرض التي هي طبيعة واحدة كيف جعلناها منبتاً لنباتات كثيرة مختلفة الطبائع وحينئذ ليس هناك حذف مضاف ولا مجاز ويكون قوله تعالى: ﴿**كم أنبتنا فيها**﴾ إلخ يدل اشتمال بحسب المعنى وهو وجه حسن فافهمه لئلا تظن رجوعه إلى ما تقدم واحتياجه إلى ما احتاج إليه من الحذف أو التجوز، والزوج الصنف كما أشرنا إليه. وذكر الراغب أن كل ما في العالم زوج من حيث إن له ضداً ما أو مثلاً ما أو تركيباً ما بل لا ينفك بوجه من تركيب، والكريم من كل شيء مرضيه ومحموده، ومنه قوله:

حتى يشق الصفوف من كرمه

فإنه أراد من كونه مرضياً في شجاعته وهو صفة لزوج أي من كل زوج كثير المنافع وهي تحتمل التخصيص والتوضيح، ووجه الأول دلالته على ما يدل عليه غيره في شأن الواجب تعالى وزيادة حيث يدل على النعمة الزاجرة لهم عما هم عليه أيضاً، ووجه الثاني التنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**﴾ [البقرة: ٢٩] وأياً ما كان فالظاهر عدم دخول الحيوان في عموم المنبت، وذهب بعض إلى دخوله بناء على أن خلقه من الأرض إنبات له كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**﴾ [نوح: ١٧] وعن الشعبي التصريح بدخول الإنسان فيه، فقد روي عنه أنه قال الناس: من نبات الأرض فمن صار إلى الجنة فهو كريم ومن صار إلى النار فبضد ذلك.

﴿**إِنَّ في ذَلكَ**﴾ أي الإنبات أو المنبت ﴿**لآيَةً**﴾ عظيمة دالة على ما يجب عليهم الإيمان به من شؤونه عز وجل، وما ألطف ما قيل في صف النرجس:

تأمل في رياض الورد وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات على أهدابها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: أي وما كان في علم الله تعالى ذلك. واعترض بناء على أنه يفهم من السياق العلية بأن علمه تعالى ليس علة لعدم إيمانهم لأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس. ورد بأن معنى كون علمه تعالى تابعاً للمعلوم أن علمه سبحانه في الأزل بمعلوم معين حادث تابع لماهيته بمعنى أن خصوصية العلم وامتيازه عن سائر العلوم إنما هو باعتبار أنه علم بهذه الماهية وأما وجود الماهية فيما لا يزال فتابع لعلمه تعالى الأزلي التابع لماهيته بمعنى أنه تعالى لما علمها في الأزل على هذه الخصوصية لزم أن تتحقق وتوجد فيما لا يزال كذلك فنفس موتهم على الكفر وعدم إيمانهم متبوع لعلمه الأزلي ووقوعه تابع له، ونقل عن سيبويه إن ﴿كان﴾ صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين فالمراد الإخبار عن حالهم في الواقع لا في علم الله تعالى الأزلي وارتضاه شيخ الإسلام، وقال: هو الأنسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم في المكابرة والعناد مع تعاقد موجبات الإيمان من جهته عز وجل وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر ويحتاج حينئذ إلى تحقيق عدم العذر بما يخفى على العلماء المتقنين، والمعنى على الزيادة وما أكثرهم مؤمنين مع عظم الآية الموجبة للإيمان لغاية تماديهم في الكفر والضلالة وانهماكهم في الغي والجهالة. ويجوز على قياس ما مر عن بعض الأجلة في قوله تعالى: ﴿أن لا يكونوا مؤمنين﴾ أن يقال: إن ﴿كان﴾ للاستمرار واعتبر بعد النفي فالمراد استمرار نفي إيمان أكثرهم مع عظم الآية الموجبة لإيمانهم، وفيه من تقبيح حالهم ما فيه.

وهذا المعنى وإن تأتي على تقدير إسقاط ﴿كان﴾ بأن يعتبر الاستمرار الذي تفيده الجملة الإسمية بعد النفي أيضاً إلا أنه فرق بين الاستمرارين بعد اعتبار كان قوة وضعفاً فتدبر، ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم لأن منهم من لم يكن كذلك ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب على كل ما يريده من الأمور التي من جملتها الانتقام من هؤلاء الكفرة ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي البالغ في الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات أو العزيز في انتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن أو العزيز في انتقامه من الكفرة الرحيم لك بأن يقدر من يؤمن بك إن لم يؤمن هؤلاء، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام والعدة الخفية له صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا يخفى، وتقديم العزيز لأن ما قبله أظهر في بيان القدرة أو لأنه أدل على دفع المضار الذي هو أهم من جلب المصالح.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ كلام مستأنف مقرر لسوء حالهم ومسل له ﷺ أيضاً لكن بنوع آخر من أنواع التسلية على ما قيل: و ﴿إذ﴾ منصوب على المفعولية بمقدر خوطب به النبي ﷺ معطوف على ما قبله عطف القصة على القصة، والتقدير عند بعض واذكر في نفسك وقت ندائه تعالى أخاك موسى عليه السلام وما جرى له مع قومه من التكذيب مع ظهور الآيات وسطوع المعجزات لتعلم أن تكذيب الأمم لأنبيائهم ليس بأول قارورة كسرت ولا بأول صحيفة نشرت فيهون عليك الحال وتستريح نفسك مما أنت فيه من البلبال.

وعند شيخ الإسلام واذكر لقومك وقت ندائه تعالى موسى عليه السلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام زاجراً لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيراً من أن يحيق بهم مثل ما حاق بهم حتى يتضح لديك أنهم في غاية العناد والإصرار لا يردعهم أخذ أضرابهم من المكذبين الأشرار ولا يؤثر فيهم الوعظ والإنذار، وهذا التقدير يناسب صدر القصة الآتية أعني قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ [الشعراء: ٦٩] والأول يناسب القصص المصدرة بكذبت على ما قيل.

والأظهر عندي تقدير واذكر لقومك لوضوح اقتضاء ﴿واتل عليهم﴾ له. ولا نسلم اقتضاء تلك القصص المصدرة بكذبت تقدير اذكر في نفسك وأمر المناسبة مشترك وإن سلم اختصاصها به فهي لا تقاوم الاقتضاء المذكور. نعم الأظهر أن يكون وجه التسلي بما ذكر كونه عليه الصلاة والسلام ليس بدعا من الرسل ولا قومه بدعا من الأقوام في التكذيب مع ظهور الآيات وسطوع المعجزات وقد تضمن الأمر بذكر ذلك لهم الأمر بالتسلي به على أتم وجه فتدبر. وأياً ما كان فوجه توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه قد مر مراراً. وقيل: إن ذلك المقدر معطوف على مقدر آخر أي خذ الآيات أو ترقب إتيان الأنباء واذكر وهو تكلف لا حاجة إليه. وقيل: ﴿إذ﴾ ظرف لقال بعد وليس بذاك، ومعنى نادى دعا. وقيل: أمر ﴿أن ائت﴾ أي بأن ائت على أن إن مصدرية حذف عنها حرف الجر أو أي ائت على أنها مفسرة.

﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي. واستعباد بني إسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ما ورد في حيز النداء وإنما هو ما فصل في سورة [طه: ١٢ ـ ١٣] من قوله تعالى: ﴿إني أنا ربك﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ وسنة القرآن الكريم إيراد ما جرى في قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب مختلفة لاقتضاء المقام ما يكون فيه من العبارات كما حقق في موضعه.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ عطف بيان للقوم الظالمين جيء به للإيذان بأنهم علم في الظلم كان معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون، وقال أبو البقاء: بدل منه، ورجح أبو حيان الأول بأنه أقضى لحق البلاغة لإيذانه بما سمعت، ولعل الاقتصار على القوم للعلم بأن فرعون أولى بما ذكر وقد خص في بعض المواضع للدلالة على ذلك، وجوز أن يقال قوم فرعون شامل له شمول بني آدم آدم عليه السلام ﴿أَلاَ يَتَّقُون﴾ حال بتقدير القول أي ائتهم قائلاً لهم ألا يتقون.

وقرأ عبدالله بن مسلم بن يسار وشقيق بن سلمة وحماد بن سلمة وأبو قلابة بتاء الخطاب، ويجوز في مثل ذلك الخطاب والغيبة فيقال قل لزيد تعطي عمراً كذا ويعطي عمراً كذا وقرىء بكسر النون مع الخطاب والغيبة والأصل يتقونني فحذفت إحدى النونين لاجتماع المثلين وحذفت ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة. وقول موسى عليه السلام ذلك بطريق النيابة عنه عز وجل نظير ما في قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ [البقرة: ١٨٦] فكأنه قيل: ائتهم قائلاً قولي لهم ألا تتقونني، وقال الزمخشري هو كلام مستأنف اتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيباً لموسى عليه السلام من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله عز وجل، وقراءة الخطاب على طريقة الالتفات إليهم وجبههم وضرب وجوههم بالإنكار والغضب عليهم، وإجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه في مسامعهم لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس فلا يضر كونهم غيباً حقيقة في وقت المناجاة، وفيه مزيد حث على التقوى لمن تدبر وتأمل انتهى، والاستئناف عليه قيل: بياني بتقدير لم هذا الأمر؟، وقيل: هو نحوي إذ لا حاجة إلى هذا السؤال بعد ذكرهم بعنوان الظلم ودفع بالعناية، ولعل ما ذكرناه أسرع تبادراً إلى الفهم.

وقال أيضاً: يحتمل أن يكون ﴿لا يتقون﴾ حالاً من الضمير في ﴿الظالمين﴾ أي يظلمون غير متقين الله تعالى وعقابه عز وجل فأدخلت همزة الإنكار على الحال دلالة على إنكار عدم التقوى والتوبيخ عليه ليفيد إنكار الظلم من طريق الأولى فإن فائدة الإتيان بهذه الحال الإشعار بأن عدم التقوى هو الذي جرأهم على الظالم.

وتعقبه أبو حيان بأنه خطأ فاحش لأن فيه مع الفصل بين العامل والمعمول بالأجنبي لزوم أعمال ما قبل: الهمزة فيما بعدها. وأجيب بمنع كون الفاصل أجنبياً وأنه يتوسع في الهمزة وهو كما ترى، وجوز أيضاً في ﴿ألا يتقون﴾ بالياء التحتية وكسر النون أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون نحو قوله تعالى: ﴿ألا يسجدوا﴾ [النمل: ٢٥] فتكون ﴿ألا﴾ كلمة واحدة للعرض ويا ندائية سقطت ألفها لالتقاء الساكنين وحذف المنادى وما بعده فعل أمر ويكون إسقاط الألفين مخالفاً للقياس، ولا يخفى أنه تخريج بعيد وأن الظاهر أن ألا للعرض المضمن الحض على التقوى في جميع القراءات.

﴿قَالَ﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام؟ فقيل: قال متضرعاً إلى الله عز وجل.

﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ من أول الأمر ﴿وَيَضيقُ صَدْري وَلاَ يَنْطَلقُ لسَاني﴾ معطوفان على خبر إن فيفيد أن فيه عليه السلام ثلاث علل. خوف التكذيب وضيق الصدر وامتناع انطلاق اللسان والظاهر ثبوت الأمرين الأخيرين في أنفسهما غير متفرعين على التكذيب ليدخلا تحت الخوف لكن قرأ الأعرج وطلحة وعيسى وزيد بن علي وأبو حيوة وزائدة عن الأعمش ويعقوب بنصب الفعلين عطفاً على ﴿يكذبون﴾ فيفيد دخولهما تحت الخوف ولأن الأصل توافق القراءتين قيل إنهما متفرعان على ذلك كأنه قيل: رب إني أخاف تكذيبهم إياي ويضيق صدري انفعالاً منه ولا ينطلق لساني من سجن اللكنة وقيد العي بانقباض الروح الحيواني الذي تتحرك به العضلات الحاصل عند ضيق الصدر واغتمام القلب، والمراد حدوث تلجلج اللسان له عليه السلام بسبب ذلك كما يشاهد في كثير من الفصحاء إذا اشتد غمهم وضاقت صدورهم فإن ألسنتهم تتلجلج حتى لا تكاد تبين عن مقصود، هذا إن قلنا: إن هذا الكلام كان بعد دعائه عليه السلام بحل العقدة واستجابة الله تعالى له بإزالتها بالكلية أو المراد ازدياد ما كان فيه عليه السلام إن قلنا: إنه كان قبل الدعاء أو بعده لكن لم تزل العقدة بالكلية وإنما انحل منها ما كان يمنع من أن يفقه قوله عليه السلام فصار يفقه قوله مع بقاء يسير لكنة، وقال بعضهم: لا حاجة إلى حديث التفرع بل هما داخلان تحت الخوف بالعطف على ﴿يكذبون﴾ كما في قراءة النصب وذلك بناء على ما جوزه البقاعي من كون ﴿أخاف﴾ بمعنى اعلم أو أظن فتكون أن مخففة من الثقيلة لوقوعها بعد ما يفيد علماً أو ظناً، ويلتزم على هذا كون ﴿أخاف﴾ في قراءة النصب على ظاهره لئلا تأبى ذلك ويدعي اتحاد المآل، وحكى أبو عمرو الداني عن الأعرج أنه قرأ بنصب «يضيقَ» ورفع ﴿ينطلق﴾، والكلام في ذلك يعلم مما ذكر، وأياً ما كان فالمراد من ضيق الصدر ضيق القلب وعبر عنه بما ذكر مبالغة ويراد منه الغم، ثم هذا الكلام منه عليه السلام ليس تشبثاً بأذيال العلل والاستعفاء عن امتثال أمره عز وجل وتلقيه بالسمع والطاعة بل هو تمهيد عذر في استدعاء عون له على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه فإن ما ذكره ربما يوجب اختلال الدعوة وانتباذ الحجة وقد تضمن هذا الاستدعاء قوله تعالى: ﴿فَأَرْسلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ كأنه قال أرسل جبريل عليه السلام إلى هارون واجعله نبياً وآزرني به واشدد به عضدي لأن في الإرسال إليه عليه السلام حصول هذه الأغراض كلها لكن بسط في سورة القصص واكتفى هاهنا بالأصل عما في ضمنه.

ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع ﴿فأرسل﴾ معترضاً بين الأوائل والرابعة أعني ﴿ولهم﴾ إلخ فأذن بتعلقه بها ولو كان تعللاً لآخر وليس أمره بالإتيان مستلزماً لما استدعاه عليه السلام، وتقدير مفعول ﴿أرسل﴾ ما أشرنا إليه قد ذهب إليه غير واحد، وبعضهم قدر ملكاً إذ لا جزم في أنه عليه السلام كان يعلم إذ ذاك أن جبريل عليه السلام رسول الله عز وجل إلى من يستنبئه سبحانه من البشر، وفي الخبر أن الله تعالى أرسل موسى إلى هارون وكان هارون بمصر حين بعث الله تعالى موسى نبياً بالشام، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: أقبل موسى عليه السلام إلى

أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم في ليلة كانوا يأكلون الطفيشل[١] فنزلت في جانب الدار فجاء هارون عليه السلام فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه فأكل معه فلما قعدا تحدثا فسأله هارون من أنت؟ قال: أنا موسى فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه فلما أن تعارفا قال له موسى: يا هارون انطلق معي إلى فرعون فإن الله تعالى قد أرسلنا إليه قال هارون: سمعاً وطاعة فقامت أمهم فصاحت وقالت: أنشدكما بالله تعالى أن لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما فأبيا فانطلقا إليه ليلاً الخبر والله تعالى أعلم بصحته ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أي تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أو سمى باسمه مجازاً بعلاقة السببية، والمراد به قتل القبطي خباز فرعون بالوكزة التي وكزها وقصته مبسوطة في غير موضع، وتسميته ذنباً بحسب زعمهم بما ينبىء عنه قوله تعالى لهم: ﴿فَأَخَافُ﴾ إن آتيتهم وحدي ﴿أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بسبب ذلك، ومراده عليه السلام بهذا استدفاع البلية خوف فوات مصلحة الرسالة وانتشار أمرها كما هو اللائق بمقام أولي العزم من الرسل عليهم السلام فإنهم يتوقون لذلك كما كان يفعل ﷺ حتى نزل عليه ﴿والله يعصمك من الناس﴾، ولعل الحق أن قصد حفظ النفس معه لا ينافي مقامهم.

وفي الكشاف أنه عليه السلام فرق أن يقتل قبل أداء الرسالة، وظاهره أنه وإن كان نبياً غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدي الرسالة وإليه ذهب بعضهم لاحتمال أنه إنما أمر بذلك بشرط التمكين مع أن له تعالى نسخ ذلك قبله.

وقال الطيبي: الأقرب أن الأنبياء عليهم السلام يعلمون إذا حملهم الله تعالى على أداء الرسالة أنه سبحانه يمكنهم وأنهم سيبقون إلى ذلك الوقت وفيه منع ظاهر، وفي الكشف أنه على القولين يصح قول الزمخشري فرق إلخ لأن ذلك كان قبل الاستنباء فإن النداء كان مقدمته ولا أظنك تقول به، وقوله تعالى:

﴿قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ إجابة له عليه السلام إلى الطلبتين حيث وعده عز وجل دفع بلية الأعداء بردعه عن الخوف وضم إليه أخاه بقوله: ﴿اذهبا﴾ فكأنه قال له عز وجل: ارتدع عن خوف القتل فإنك بأعيننا فاذهب أنت وأخوك هارون الذي طلبته، وجاء النشر على عكس اللف لاختصاص ما قدم بموسى عليه السلام وظاهر السياق يقتضي عدم حضور هارون ففي الخطاب المذكور تغليب والفعل معطوف على الفعل الذي يدل عليه ﴿كلا﴾ كما أشرنا إليه، وقيل: الفاء فصيحة، والمراد بالآيات ما بعثهما الله تعالى به من المعجزات وفيها رمز إلى أنها تدفع ما يخافه، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦] والخطاب لموسى وهارون ومن يتبعهما من بني إسرائيل فيتضمن الكلام البشارة بالإشارة إلى علو أمرهما واتباع القوم لهما، وذهب سيبويه إلى أنه لهما عليهما السلام ولشرفهما وعظمتهما عند الله تعالى عوملا في الخطاب معاملة الجمع، واعترض بأنه يأباه ما بعده وما قبله من ضمير التثنية، وقيل: هو لهما عليهما السلام ولفرعون واعتبر لكون الموعود بمحضر منه وإن شئت ضم إلى ذ لك قوم فرعون أيضاً، واعترض بأن المعية العامة ـ أعني المعية العلمية ـ لا تختص بأحد لقوله تعالى: ﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم﴾ [المجادلة: ٧] والمعية الخاصة وهي معية الرأفة والنصرة لا تليق بالكافر ولو بطريق التغليب، وأجيب بأن خصوص المعية لا يلزم أن يكون بما ذكر بل بوجه آخر وهو تخليص أحد المتخاصمين من الآخر بنصرة المحق والانتقام من المبطل، وأياً ما كان فالظرف في موضع الخبر لأن و ﴿مستمعون﴾ خبر ثان أو الخبر ﴿مستمعون﴾

---

(١) كسميذع نوع من المرق ا قاموس.

والظرف متعلق به أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من ضميره وتقديمه للاهتمام أو الفاصلة أو الاختصاص بناء على أن يراد بالمعية الاستماع في حقه عز وجل وهو مجاز عن السمع اختير للمبالغة لأن فيه تسلماً للإدراك وهو مما ينزه الله تعالى عنه سواء كان بحاسة أم لا فسقط ما قيل من أن السمع في الحقيقة إدراك بحاسة فإن أريد به مطلق الإدراك فالاستماع مثله فلا حاجة إلى التجوز فيه، وإلى التجوز هنا ذهب غير واحد، وقال بعضهم: ﴿**إنا معكم مستمعون**﴾ جملة استعارة تمثيلية مثَّل سبحانه حاله عز وجل بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجري بينهما ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة في الوعد بالإعانة وحينئذ لا تجوز في شيء من مفرداته ولا يكون ﴿**مستمعون**﴾ مطلقاً عليه تعالى فلا يحتاج إلى جعله بمعنى سامعين إلا أن يقال: إنه في المستعار منه كذلك لأن المقصود السمع دون الاستماع الذي قد لا يوصل إليه لكنه كما ترى.

وجوز أن يكون ﴿**إنا معكم**﴾ فقط تمثيلاً لحاله عز وجل في نصره وإمداده بحال من ذكر ويكون الاستماع مجازاً عن السمع وهو بحسب ظاهره لكونه لم يطلق عليه سبحانه كالسمع كالقرينة وإن كان مجازاً والقرينة في الحقيقة عقلية وهي استحالة حضوره تعالى شأنه في مكان، ولا بد على هذا من أن يقال: إن الاستماع المذكور في تقرير التمثيل ليس هو الواقع في النظم الكريم بل هو من لوازم حضور الحكم للخصومة وفيه بعد. ثم إن ما ذكروه وإن كان مبنياً على جعل الخطاب لموسى وهارون وفرعون يمكن إجراؤه على جعله لهما عليهما السلام ولم يتبعهما أولهما فقط أيضاً بأدنى عناية فافهم ولا تغفل.

وزعم بعضهم إن المعية والاستماع على حقيقتهما ولا تمثيل، والمراد أن ملائكتنا معكم مستمعون وهو مما لا ينبغي أن يستمع، ولا بد في الكلام على هذا التقدير من إرادة الإعانة والنصرة وإلا فبمجرد معية الملائكة عليهم السلام واستماعهم لا يطيب قلب موسى عليه السلام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد الكريم، وليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب لأن معناه الوصول إلى المأتي لا مجرد التوجه إلى المأتي كالذهاب.

وأفرد الرسول هنا لأنه مصدر بحسب الأصل وصف به كما يوصف بغيره من المصادر للمبالغة كرجل عدل فيجري فيه كما يجري فيه من الأوجه، ولا يخفى الأوجه منها، وعلى المصدرية ظاهر قول كثير عزة:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ... بسر ولا أرسلتهم برسول

وأظهر منه قول العباس بن مرداس:

ألا من مبلغ عني خفافاً ... رسولاً بيت أهلك منتهاها(١)

أو لاتحادهما للإخوة أو لوحدة المرسل أو المرسل به أو لأن قوله تعالى: ﴿**إنا**﴾ بمعنى إن كلامنا فصح إفراد الخبر كما يصح في ذلك، وفائدته الإشارة إلى أن كلاً منهما مأمور بتبليغ ذلك ولو منفرداً، وفي التعبير برب العالمين رد على اللعين نقض لما كان أبرمه من ادعاء الألوهية وحمل لطيف له على امتثال الأمر، و ﴿**أن**﴾ في قوله تعالى: ﴿**أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول، وجوز أبو حيان كونها مصدرية على معنى أنا رسوله عز وجل بالأمر بالإرسال وهو بمعنى الإطلاق والتسريح كما في قولك: أرسلت الحجر من

(١) حيث أنث الضمير باعتبار الرسالة اهـ منه.

يدي وأرسل الصقر، والمراد خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما عليهما السلام، وكان بنو إسرائيل قد استعبدوا أربعمائة سنة وكانت عدتهم حين أرسل موسى عليه السلام ستمائة وثلاثين ألفاً على ما ذكره البغوي.

﴿قَالَ﴾ أي فرعون لموسى عليه السلام بعد ما أتياه وقالا له ما أمرا به، ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب: إن هاهنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه فأذن له فدخلا فأدّيا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فقال عند ذلك ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ وفي خبر آخر أنهما أتيا ليلاً فقرع الباب ففزع فرعون وقال: من هذا الذي يضرب بابي هذه الساعة؟ فأشرف عليهما البواب فكلمهما فقال له موسى: أنا رسول رب العالمين فأتى فرعون وقال: إن هاهنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين فقال: أدخله فدخل فقال ما قص الله تعالى، وأراد اللعين من قوله: ﴿ألم نربك﴾ إلخ الامتنان، و ﴿فينا﴾ على تقدير المضاف أي منازلنا، والوليد فعيل بمعنى مفعول يقال لمن قرب عهده بالولادة، وإن كان على ما قال الراغب: يصح في الأصل لمن قرب عهده أو بعد كما يقال لما قرب عهده بالاجتناء جنيّ فإذا كبر سقط عنه هذا الاسم، وقال بعضهم: كان دلالته على قرب العهد من صيغة المبالغة، وكون الولادة لا تفاوت فيها نفسها ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين وأقام به عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين سنة ثم بقي بعد الغرق خمسين، وقيل: لبث فيهم اثنتي عشرة سنة ففر بعد أن وكز القبطي إلى مدين فأقام به عشر سنين يرعى غنم شعيب عليه السلام ثم ثماني عشرة سنة بعد بنائه على امرأته بنت شعيب فكمل له أربعون سنة فبعثه الله تعالى وعاد إليهم يدعوهم إليه عز وجل والله تعالى أعلم.

وقرأ أبو عمرو في رواية «من عُمْرِكَ» بإسكان الميم، والجار والمجرور في موضع الحال من ﴿سنين﴾ كما هو المعروف في نعت النكرة إذا قدم ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني قتل القبطي. وبخه به بعد ما امتن وعظمه عليه بالإبهام الذي في الموصول، وأراد في ذلك القدح في نبوته عليه السلام. وقرأ الشعبي «فِعْلَتَكَ» بكسر الفاء يريد الهيئة وكانت قتلة بالوكز، والفتح في قراءة الجمهور لإرادة المرة ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي بنعمتي حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصي كما روي عن ابن زيد أو وأنت حينئذ من جملة القوم الذين تدعي كفرهم الآن كما حكي عن السدي، وهذا الحكم منه بناء على ما عرفه من ظاهر حاله عليه السلام إذ ذاك لاختلاطه بهم والتقية معهم بعدم الإنكار عليهم وإلا فالأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكفر قبل النبوة وبعدها، وقيل: كان ذلك افتراء منه عليه السلام، واستبعد بأنه لو علم بإيمانه أولاً لسجنه أو قتله، والجملة على الاحتمالين في موضع الحال من إحدى التائين في الفعلين السابقين.

وجوز أن يكون ذلك حكماً مبتدأ عليه عليه السلام بأنه من الكافرين بإلهيته كما روي عن الحسن أو ممن يكفرون في دينهم حيث كانت لهم آلهة يعبدونهم أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه الجناية بدعا منه، فالجملة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها، والأولى عندي ما تقدم من جعل الجملة حالاً لتكون مع نظيرتها في الجواب على طرز واحد لتعين الحالية هناك ولما يتضمن كلام اللعين أمرين تصدى عليه السلام لردهما على سبيل اللف والنشر المشوش فرد أولاً ما وبخه به قدحاً في نبوته أعني قوله: ﴿وفعلت فعلتك﴾ إلخ اعتناء بذلك واهتماماً به وذلك بما حكاه سبحانه عنه بقوله جل وعلا: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا﴾ أي تلك الفعلة ﴿إِذاً﴾ أي إذ ذاك على ما آثره بعض المحققين سقي الله تعالى ثراه من أن ﴿إذاً﴾ ظرف مقطوع عن الإضافة مؤثراً فيه الفتحة على الكسرة لخفتها وكثرة الدور، وأقر عليه السلام بالقتل لثقته بحفظ الله تعالى له، وقيد الفعل بما يدفع كونه قادحاً في النبوة وهو

جملة ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين وقد جاء كذلك في قراءة ابن عباس وابن مسعود كما نقله أبو حيان في البحر لكنه قال: ويظهر أن ذاك تفسير للضالين لا قراءة مروية عن الرسول ﷺ، وأراد عليه السلام بذلك على ما روي عن قتادة أنه فعل ذلك جاهلاً به غير متعمد إياه فإنه عليه السلام إنما تعمد الوكز للتأديب فأدى إلى ما أدى، وفي معنى ما ذكر ما روي عن ابن زيد من أن المعنى وأنا من الجاهلين بأن وكزتي تأتي على نفسه وقيل: المعنى فعلتها مقدماً عليها من غير مبالاة بالعواقب على أن الجهل بمعنى الإقدام من غير مبالاة كما فسر بذلك في قوله:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهذا مما يحسن على بعض الأوجه في تقرير الجواب المذكور، قيل: إن الضلال هاهنا المحبة كما فسر بذلك في قوله تعالى: ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ [يوسف: ٩٥] وعني عليه السلام أنه قتل القبطي غيرة لله تعالى حيث كان عليه السلام من المحبين له عز وجل وهو كما ترى، ومثله ما قيل أراد من الجاهلين بالشرائع، وفسر الضلال بذلك في قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ [الضحى: ٧]، وقال أبو عبيدة: من الناسين، وفسرالضلال بالنسيان في قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ [البقرة: ٢٨٢] وعليه قيل المراد فعلتها ناسياً حرمتها، وقيل: ناسياً أن وكزي ذلك مما يفضي إلى القتل عادة؛ والذي أميل إليه من بين هذه الأقوال ما روي عن قتادة، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة القصص ما يتعلق بهذا المقام.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن جريج عن ابن مسعود أنه قرأ «فعلتها إذاناً من الضالين» ﴿فَفَرَرْتُ﴾ أي خرجت هارباً ﴿منكم لَمَّا خفتُكُمْ﴾ أي حين توقعت مكروهاً منكم وذلك حين قيل له: «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك» ومن هنا يعلم وجه جمع ضمير الخطاب، وقرأ حمزة في رواية لما بكسر اللام وتخفيف الميم على أن اللام حرف جر وما مصدرية أي لخوفي إياكم ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ أي نبوة أو علماً وفهماً للأشياء على ما هي عليه والأول مروي عن السدي، وتأول بعضهم ذلك بأنه أراد علماً هو من خواص النبوة فيكون الحكم بهذا المعنى أخص منه بالمعنى الثاني، وقرأ عيسى «حُكُماً» بضم الكاف ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إشارة على ظاهر الأول من تفسيري الحكم إلى تفضله تعالى عليه برتبة هي فوق رتبة النبوة أعني رتبة الرسالة ولم يقل فوهب لي رب حكماً ورسالة أو وجعلني رسولاً إعظاماً لأمر الرسالة وتنبيهاً لفرعون على أن رسالته عليه السلام ليس أمراً مبتدعاً بل هو مما جرت به سنة الله تعالى شأنه، وحاصل الرد أن ما ذكرت من نسبة القتل إلى مسلم لكنه ليس مما أوبخ به ويقدح في نبوتي لأنه كان قبل النبوة من غير تعمد حيث كان الوكز للتأديب وترتب عليه ذلك، ورد ثانياً امتنانه الذي تضمنه قوله: ﴿ألم نربّك فينا وليداً﴾ إلخ فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي التربية المفهومة من قوله: ﴿ألم نربّكَ﴾ إلخ ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا﴾ أي تنعم بها ﴿عَلَيّ﴾ فهو من باب الحذف والإيصال، وتمن من المنة بمعنى الأنعام والمضارع لاستحضار الصورة، وجوز أن يكون من المن والمعنى تلك نعمة تعدها عليّ فليس هناك حذف وإيصال، والمضارع قيل على ظاهره من الاستقبال وفيه منع ظاهر ﴿أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ذللتهم واتخذتهم عبيداً يقال: عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً. قال الشاعر:

علام يعبدني قومي وقد كثرت ... فيهم أباعر ما شاؤوا وعبدان؟

وأن وما بعدها في تأويل مصدر مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة حالية أو مفسرة أو على أنه بدل من ﴿تلك﴾ أو نعمة أو عطف أو منصوب على أنه بدل من الهاء في ﴿تمنها﴾ أو مجرور بتقدير الباء السببية أو اللام على أحد القولين في محل أن وما بعدها بعد حذف الجار، والقول الآخر إن محله النصب، وحاصل الرد إن ما ذكرت نعمة ظاهراً وهي في الحقيقة نقمة حيث كانت بسبب إذلال قومي وقصدك إياهم بذبح أبنائهم ولولا ذلك لم أحصل بين

يديك ولم أكن في مهد تربيتك، وقيل: ﴿**تلك**﴾ إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها و ﴿**أن عبدت**﴾ عطف بيان لها، والمعنى تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها عليّ، وحاصل الرد إنكار ما أمتن به أيضاً. ويريد حمل الكلام على رد كون ذلك نعمة في الحقيقة قراءة الضحاك «وتلك نعمة ما لك أن تمنها عليّ»، وإلى ذلك ذهب قتادة وكذا الأخفش والفراء إلا أنهما قالا بتقدير همزة الاستفهام للإنكار بعد الواو، والأصل وأتاك نعمة إلخ، وأبى بعض النحاة حذف حرف الاستفهام في مثل هذا الموضع. وقال أبو حيان: الظاهر أن هذا الكلام إقرار منه عليه السلام بنعمة فرعون كأنه يقول: وترتبيتك إياي نعمة عليّ من حيث إنك عبدت غيري وتركتني واتخذتني ولداً لكن لا يدفع ذلك رسالتي. وإلى هذا التأويل ذهب السدي والطبري وليس بذاك.

وأياً ما كان فالآية ظاهرة في أن كفر الكافر لا يبطل نعمته، وذهب بعضهم أن الكفر يبطل النعمة لئلا يجتمع استحقاق المدح واستحقاق الذم، وفيه أنه لا ضير في ذلك لاختلاف جهتي الاستحقاقين. هذا وذهب الزمخشري إلى أن ﴿**إذاً**﴾ في قوله تعالى: ﴿**فعلتها إذاً**﴾ جواب وجزاء وبين وجه كون الكلام جزاء بقوله: قول «وفعلت فعلتك» فيه معنى إنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال له موسى عليه السلام: نعم فعلتها مجازياً لك تسليماً لقوله كان نعمته عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء.

واعترض بأن هذا لا يلائم قوله: ﴿**وأنا من الضالين**﴾ لأنه يدل على أنه اعترف بأنه فعل ذلك جاهلاً أو ناسياً. وفي الكشف تحقيق ما ذكره الزمخشري أن الترتيب الذي هو معنى الشرط والجزاء حاصل ولما كانا ماضيين كان ذلك تقديرياً كأنه قال: إن كان ذلك كفراناً بنعمتك فقد فعلته جزاء، ولكن الوصف أي كونه كفراناً غير مسلم. وأمده بقوله: ﴿**وتلك نعمة تمنها**﴾ وفيه القول بالموجب أيضاً. وقوله: ﴿**وأنا من الضالين**﴾ على هذا كأنه اعتذار ثان أي كنت تستحق ذلك عندي وأيضاً كنت من الحائدين عن منهج الصواب لا في اعتقاد استحقاق مكافأة صنيعك بمثل تلك ولكن في الإقدام قبل الإذن من الملك العلام، والحاصل أنه نسبه إلى مقابلة الإحسان بالإساءة وقررها بكونه كافراً، فأجاب عليه السلام بأن المقابلة حاصلة ولكن أين الإحسان وما كنت كافراً بك فإنه عين الهدى بل ضالاً في الإقدام على الفعل وما كنت كافراً لنعمة منعم أصلاً ولكن كنت فاعلاً لذلك خطأ، ومنه ظهر أن قوله: ﴿**وأنا من الضالين**﴾ لا ينافي تقرير الزمخشري بل يؤيده ا هـ.

ولا يخفى أن الأوفق بحديث الجزاء أن يكون المراد بقوله: فعلتها وأنا من الضالين فعلتها مقدماً عليها من غير مبالاة على أن الضلال بمعنى الجهل المفسر بالإقدام من غير مبالاة لكن التزام كون ﴿**إذاً**﴾ هنا للجواب والجزاء التزام ما لايلزم فإن الصحيح الذي قال به الأكثرون أنها قد تتمحض للجواب، وفي البحر أنهم حملوا ما في هذه الآية على ذلك، وتوجيه كونها للجزاء فيها بما ذكر لا يخلو عن تكلف، والأظهر عندي معنى ما آثره بعض أفاضل المحققين من أنها ظرف مقطوع عن الإضافة ولا أرى فيه ما يقال سوى أنه معنى لم يذكره أكثر علماء العربية وهم لم يحيطوا بكل شيء علماً، وإن أبيت هذا فهي للجواب فقط، ومن العجيب قول ابن عطية: إنها هنا صلة في الكلام ثم قوله: وكأنها بمعنى حينئذ ولو اكتفى به على أنه تفسير معنى لكان له وجه فتأمل، والله تعالى أعلم.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ
حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾
يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم
مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن
كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ
وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ
وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ
فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾
وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾
قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستفهماً عن المرسل سبحانه **﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** وتحقيق ذلك على ما قال العلامة الطيبي. إنه عز وجل لما أمرهما بقوله سبحانه: **﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾** فلا بد أن يكونا ممتثلين مؤديين لتلك الرسالة بعينها عند اللعين فلما أديت عنده اعترض أولاً بقوله: **﴿ألم نربك فينا وليداً﴾** إلى آخره وثانياً بقوله: **﴿وما رب العالمين﴾** ولذلك جيء بالواو العاطفة وكرر قال للطول فكأنه قال: أأنت الرسول وما رب العالمين؟ وقال الزمخشري: إن اللعين لما قال له بوابه: إن هاهنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله: وما رب العالمين؟ واعترض بأنه نظم مختل لسبق المقاولة بينهم كما أشار إليه هو في سابق كلامه. وانتصر له صاحب الكشف فقال: أراد أنه تعالى ذكر مرة فقولا إنّا رسولا ربك أن أرسل وأخرى **﴿فقولا**

إنا رسول رب العالمين ﴾ والقصة واحدة والمجلس واحد فحمله على أن الثاني ما أداه البواب من لسانه عليه السلام والأول ما خاطبه به موسى عليه السلام مشافهة وأن اللعين أخذ أولاً في الطعن فيه وإن مثله ممن قرف برذائل الأخلاق لا يرشح لمنصب عال فضلاً عما ادعاه؛ وثانياً في السؤال عن شأن من ادعى الرسالة عنه استهزاء، ومن هذا تبين أن سبق المقاولة لا يدل على اختلال النظم الذي أشار إليه انتهى.

وجوز بعضهم وقوع الأمر مرتين وأن فرعون سأل أولاً بقوله: ﴿**فمن ربكما يا موسى**﴾ وسأل ثانياً بقوله: ﴿**وما رب العالمين**﴾ وقد قص الله تعالى الأول فيما أنزل جل وعلا أولاً وهو سورة طه والثاني فيما أنزله سبحانه ثانياً وهو سورة الشعراء، فقد روي عن ابن عباس أن سورة طه نزلت ثم الواقعة ثم طسم الشعراء، وقال آخر: يحتمل أنهما إنما قالا: ﴿**إنا رسول رب العالمين**﴾ والاقتصار في سورة طه على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود، وعلى القول بوقوع الأمر مرتين قيل: إن فرعون سأل في المرة الأولى بقوله: ﴿**من ربكما**﴾ طلباً للوصف المشخص كما يقتضيه ظاهر الجواب خلافاً للسكاكي في دعواه أنه سؤال عن الجنس كأنه قال: أبشر هو أم ملك أم جني؟ والجواب من الأسلوب الحكيم وأخرى بما رب العالمين طلباً للماهية والحقيقة انتقالاً لما هو أصعب ليتوصل بذلك إلى بعض أغراضه الفاسدة حسبما قص الله تعالى بعد، و ﴿**ما**﴾ يُسأل بها عن الحقيقة مطلقاً سواء كان المسؤول عن حقيقته من أولي العلم أو لا فلا يتوهم أن حق الكلام حينئذ أن يقال مَن رب العالمين؟ حتى يوجه بأنه لإنكار اللعين له عز وجل عبر بما، ولما كان السؤال عن الحقيقة مما لا يليق بجنابه جل وعلا.

﴿**قَالَ**﴾ عليه السلام عادلاً عن جوابه إلى ذكر صفاته عز وجل على نهج الأسلوب الحكيم إشارة إلى تعذر بيان الحقيقة ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ والكلام في امتناع معرفة الحقيقة وعدمه قد مر عليك فتذكر، ورفع ﴿**رب**﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السماوات والأرض وما بينهما من العناصر والعنصريات ﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ**﴾ أي إن كنتم موقنين بالأشياء محققين لها علمتم ذلك أو إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله فإن هذه الأجرام المحسوسة ممكنة لتركبها وتعددها وتغير أحوالها فلها مبدأ واجب لذاته ثم ذلك المبدأ لا بد أن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محال، وجواب أن محذوف كما أشرنا إليه.

﴿**قَالَ**﴾ فرعون عند سماع جوابه عليه السلام خوفاً من أن يعلق منه في قلوب قومه شيء ﴿**لِمَنْ حَوْلَهُ**﴾ من أشراف قومه، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة ﴿**أَلَا تَسْتَمِعُونَ**﴾ جوابه يريد التعجيب منه والإزراء بقائله وكان ذلك لعدم مطابقته للسؤال حيث لم يبين فيه الحقيقة المسؤول عنها وكونه في زعمه نظراً لما عليه قومه من الجهالة غير واضح في نفسه لخفاء العلم بإمكان ما ذكر أو حدوثه الذي هو علة الحاجة إلى المبدأ الواجب لذاته عليهم وقد بالغ اللعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكور حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده وعدم قبوله، وكان موسى عليه السلام لما استشعر ذلك من اللعين ﴿**قَالَ**﴾ عدولاً إلى ما هو أوضح وأقرب إعطاء لمنصب الإرشاد حقه حسب الإمكان لتعذر الوقوف على الحقيقة كما سمعت ﴿**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ فإن الحدوث والافتقار إلى واجب مصور حكيم في المخاطبين وآبائهم الذين ذهبوا وعدموا أظهر والنظر في الأنفس أقرب وأوضح من النظر في الآفاق؛ ولما رأى اللعين ذلك وقوي عنده خوف فتنة قومه ﴿**قَالَ**﴾ مبالغاً في الرد والإشارة إلى عدم الاعتداد بذلك مصرحاً بما ينفر قلوبهم عن قائله وقبول ما يجيء به.

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث يُسأل عن شيء ويجيب عن شيء آخر وينبه على ما في جوابه ولا ينتبه، وسماه رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعاً من أن يكون مرسلاً إلى نفسه وأكد ذلك بالوصف، وفيه إثارة لغضبهم واستدعاء لإنكارهم رسالته بعد سماع الخبر ترفعاً بأنفسهم عن أن يكونوا أهلاً لأن يرسل إليهم مجنون.

وقرأ مجاهد وحميد والأعرج «أَرْسَلَ» على بناء الفاعل أي الذي أرسله ربه إليكم، وكأنه عليه السلام لما رأى خشونة في رد اللعين وإيماء منه إلا أنه عليه السلام لم يتنبه لما في جوابه الأول من الخفاء عند قومه بل كان عدوله عنه إلى الجواب الثاني لما رماه به عليه اللعنة ﴿قَالَ﴾ عليه السلام تفسيراً لجوابه الأول وإزالة لخفائه ليعلم أن العدول ليس إلا لظهور ما عدل إليه ووضوحه وقربه إلى الناظر لا لما رمي به وحاشاه مع الإشارة إلى تعذر بيان الحقيقة أيضاً بالإصرار على الجواب بالصفات ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وذلك لأنه لم يكن في الجواب الأول تصريح باستناد حركات السماوات وما فيهما وتغيرات أحوالها وأوضاعها وكون الأرض تارة مظلمة وأخرى منورة إلى الله تعالى، وفي هذا إرشاد إلى ذلك فإن ذكر المشرق والمغرب منبيء عن شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السماوات وما فيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الأوضاع الرصينة وكل ذلك أمور حادثة لا شك في افتقارها إلى محدث قادر عليم حكيم، وارتكب عليه السلام الخشونة كما ارتكب معه بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم تعقلون شيئاً من الأشياء أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته وأشرت إليه فإن فيه تلويحاً إلى أنهم بمعزل من دائرة العقل وأنهم الأحقاء بما رموه به عليه السلام من الجنون.

وقرأ عبدالله وأصحابه والأعمش «رب المشارق والمغارب» على الجمع فيهما، ولما سمع اللعين منه عليه السلام تلك المقالات المبينة على أساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تمشية أمره وأنه ممن لا يجارى في حلبة المحاورة ﴿قَالَ﴾ ضارباً صفحاً عن المقاولة إلى التهديد كما هو ديدن المحجوج العنيد: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ وفيه مبالغة في رده عن دعوى الرسالة حيث أراد منه ما أراد ولم يقنع منه عليه السلام بترك دعواها وعدم التعرض له، وفيه أيضاً عتو آخر حيث أوهم أن موسى عليه السلام متخذ له إلهاً في ذلك الوقت وإن اتخاذه غيره إلهاً بعد مشكوك، وبالغ في الأبعاد على تقدير وقوع ذلك حيث أكد الفعل بما أكد وعدل عن لأسجننك الأخصر لذلك أيضاً فإن أل في المسجونين للعهد فكأنه قال: لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني، وكان عليه اللعنة يطرحهم في هوة عميقة قيل: عمقها خمسمائة ذراع وفيها حيات وعقارب حتى يموتوا.

هذا وقال بعضهم: السؤال هنا وفي سورة طه عن الوصف والقصة واحدة والمجلس واحد واختلاف العبارات فيها لاقتضاء كل مقام ما عبر به فيه ويلتزم القول بأن الواقع هو القدر المشترك بين جميع تلك العبارات، وبهذا ينحل إشكال اختلاف العبارات مع دعوى اتحاد القصة والمجلس لكن تعيين القدر المشترك الذي يصح أن يعبر عنه بكل من تلك العبارات يحتاج إلى نظر دقيق مع مزيد لطف وتوفيق، ثم إن العلماء اختلفوا في أن اللعين هل كان يعلم أن للعالم رباً هو الله عز وجل أولاً، فقال بعضهم: كان يعلم ذلك بدليل ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض﴾ [الإسراء: ١٠٢] ومنهم من استدل بطلبه شرح الماهية زعماً منه أن فيه الاعتراف بأصل الوجود وذكروا أن ادعاءه الألوهية وقوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] إنما كان إرهاباً لقومه الذين استخفهم ولم يكن ذلك عن اعتقاد وكيف يعتقد أنه رب العالم وهو يعلم بالضرورة أنه وجد بعد أن لم يكن ومضى على العالم ألوف من السنين وهو ليس فيه ولم يكن له إلا ملك مصر ولذا قال شعيب لموسى عليهما السلام: لما جاءه في مدين ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ [القصص: ٢٥].

وقال بعضهم: إنه كان جاهلاً بالله تعالى ومع ذلك لا يعتقد في نفسه أنه خالق السماوات والأرض وما فيهما بل كان دهرياً نافياً للصانع سبحانه معتقداً وجوب الوجود بالذات للأفلاك وإن حركاتها أسباب لحصول الحوادث ويعتقد أن من ملك قطراً وتولى أمره لقوة طالعه استحق العبادة من أهله وكان رباً لهم ولهذا خصص ألوهيته وربوبيته ولم يعمهما حيث قال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨] و ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، وجوز أن يكون من الحلولية القائلين بحلول الرب سبحانه وتعالى في بعض الذوات ويكون معتقداً حلوله عز وجل فيه ولذلك سمى نفسه إلهاً، وقيل: كان يدعي الألوهية لنفسه ولغيره وهو ما كان يعبده من دون الله عز وجل كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿ويذرك وآلهتك﴾ [الأعراف: ١٢٧] وهو وكذا ما قبله بعيد، والذي يغلب على الظن ويقتضيه أكثر الظواهر أن اللعين كان يعرف الله عز وجل وأنه سبحانه هو خالق العالم إلا أنه غلبت عليه شقوته وغرته دولته فأظهر لقومه خلاف علمه فأذعن منهم له من كثر جهله ونزر عقله، ولا يبعد أن يكون في الناس من يذعن بمثل هذه الخرافات ولا يعرف أنها مخالفة للبديهيات، وقد نقل لي من أثق به أن رجلين من أهل نجد قبل ظهور أمر الوهابي فيما بينهم بينما هما في مزرعة لهما إذ مر بهما طائر طويل الرجلين لم يعهدا مثله في تلك الأرض فنزل بالقرب منهما فقال أحدهما للآخر: ما هذا؟ فقال له: لا ترفع صوتك هذا ربنا فقال له معتقداً صدق ذلك الهذيان: سبحانه ما أطول كراعيه وأعظم جناحيه، وأما من له عقل منهم ولا يخفى عليه بطلان مثل ذلك فيحتمل أن يكون قد وافق ظاهراً لمزيد خوفه من فرعون أو مزيد رغبته بما عنده من الدنيا كما نشاهد كثيراً من العقلاء وفسقة العلماء وافقوا جبابرة الملوك في أباطيلهم العلمية والعملية حباً للدنيا الدنية أو خوفاً مما يتوهمونه من البلية، ويحتمل أن يكون قد اعتقد ذلك حقيقة بضرب من التوجيه وإن كان فاسداً كزعم الحلول ونحوه، والمنكر على القائل أنا الحق والقائل ما في الجبة إلا الله يزعم أن معتقدي صدقهما كمعتقدي صدق فرعون في قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] وسؤال اللعين لموسى عليه السلام حكاية لما وقع في عبارته بقوله: **﴿ما رب العالمين﴾** كان لإنكاره لظاهر أن يكون للعالمين رب سواه، وجواب موسى عليه السلام له لم يكن إلا لإبطال ما يدعيه ظاهراً وإرشاد قومه إلى ما هو الحق الحقيق بالقبول ولذا لم يقصر الخطاب في الأجوبة عليه، والتعجيب المفهوم من قوله: **﴿ألا تستمعون﴾** لزعمه ظاهراً أنه عليه السلام ادعى خلاف أمر محقق وهي ربوبية نفسه، ولما داخله من خوف إذعان قومه لما قاله موسى عليه السلام ما داخله بالغ في صرفهم عن قبول الحق بقوله: **﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾** ولما رأى أن ذلك لم يفد في دفع موسى عليه السلام عن إظهار الحق وإبطال ما كان يظهره من الباطل ذب عن دعواه الباطلة بالتهديد وتشديد الوعيد فقال: **﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾** ولعل أجوبته عليه السلام مشيرة إلى إبطال اعتقاد نحو الحلول بأن فيه الترجيح بلا مرجح وبأنه يستلزم المربوبية لما فيه من التغير، وبعد هذا القول عندي قول بعضهم: إنه عليه اللعنة كان دهرياً إلى آخر ما سمعته آنفاً، والتعجيب لزعمه حقيقة أنه عليه السلام ادعى خلاف أمر محقق وهو ربوبية نفسه عليه اللعنة والله تعالى أعلم، ولما رأى عليه السلام فظاظة فرعون **﴿قَالَ﴾** على جهة التلطف به والطمع في إيمانه **﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾** أي تفعل ذلك ولو جئتك بشيء مبين أي موضح لصدق دعواي يريد به المعجزة فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده، والتعبير عنها بشيء للتهويل، والواو للعطف على جملة مقابلة للجملة المذكورة، ومجموع الجملتين المتعاطفتين في موضع الحال، و **﴿لو﴾** للبيان تحقيق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر تحققه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية أي أتفعل في ذلك حال عدم مجيئي بشيء مبين وحال مجيئي به، وتصدير المجيء بلو دون إن ليس لبيان استبعاده في نفسه بل بالنسبة إلى فرعون، وجعل بعضهم

الواو للحال على معنى أن الجملة التي بعدها حال أي أتفعل في ذلك جائياً بشيء مبين وهو ظاهر كلام الكشاف هنا، وظاهر كلام الكشف أن الاستفهام للإنكار على معنى لا تقدر على فعل ذلك مع أني نبي بالمعجزة، والظاهر تعلق هذا الكلام بالوعيد الصادر من اللعين فذلك في تفسيره إشارة إلى جعله عليه السلام من المسجونين فكأنه قال: أتجعلني من المسجونين إن اتخذت إلهاً غيرك ولو جئتك بشيء مبين؟.

وعلى ذلك حمل الطيبي كلام الكشاف ثم قال: يمكن أن يقال إن الواو عاطفة وهي تستدعي معطوفاً عليه وهو ما سبق في أول المكالمة بين نبي الله تعالى وعدوه، والهمزة مقحمة بين المعطوف والمعطوف عليه للتقرير، والمعنى أتقر بالوحدانية وبرسالتي إن جئتك بعد الاحتجاج بالبراهين القاهرة والمعجزات الباهرة الظاهرة.

و ﴿لو﴾ بمعنى أن عزيز، ويؤيد هذا التأويل ما في [الأعراف: ١٠٥] ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ انتهى.

وهو كما ترى. وفيه جعل ﴿مبين﴾ من أبان اللازم بمعنى بان، وجعله من أبان المتعدي وحذف المفعول كما أشرنا إليه أنسب للمقام، ولما سمع فرعون هذا الكلام من موسى عليه السلام ﴿قَالَ﴾ حيث طمع أن يجد موضع معارضة ﴿فأت به﴾ أي بشيء مبين ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فيما يدل عليه كلامك من أنك تأتي بشيء موضح لصدق دعواك أو من الصادقين في دعوى الرسالة من رب العالمين، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي إن كنت من الصادقين فأت به، وقدره الزمخشري أتيت به، والمشهور تقديره من جنس الدليل.

وقال الحوفي: يجوز أن يكون ما تقدم هو الجواب وجاز تقديم الجواب لأن حذف الشرط لم يعمل في اللفظ شيئاً، وقد بهت الزمخشري عامله الله تعالى بعدله أهل السنة بما هم منه براء كما بينه صاحب الكشف وغيره فارجع إليه إن أردته ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى بعد أن قال له فرعون ذلك ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته أي ليس بتمويه وتخييل كما يفعله السحرة، والثعبان أعظم ما يكون من الحيات واشتقاقه من ثعب الماء بمعنى جرى جرياً متسعاً، وسمي به لجريه بسرعة من غير رجل كأنه ماء سائل، والظاهر أن نفس العصا انقلبت ثعباناً وليس ذلك بمحال إذا كان بسلب الوصف الذي صارت به عصا وخلقه وصف الذي يصير ثعباناً بناء على رأي بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات إنما المحال انقلابها ثعباناً مع كونها عصا لامتناع كون الشيء الواحد في الزمن الواحد عصا وثعباناً، وقيل: إن ذلك بخلق الثعبان بدلها وظواهر الآيات تبعد ذلك، وقد جاء في الأخبار ما يدل على مزيد عظم هذا الثعبان ولا يعجز الله تعالى شيء، وقد مر بيان كيفية الحال.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي بياضها يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضاً نورانياً. روي أنه لما أبصر أمر العصا قال: هل لك غيرها؟ فأخرج عليه السلام يده فقال: ما هذه قال: يدي فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ﴾ أشراف قومه ﴿حَوْلَهُ﴾ منصوب لفظاً على الظرفية وهو ظرف مستقر وقع حالاً أي مستقرين حوله

وجوز أن يكون في موضع الصفة للملأ على حد:

ولـقـد أمـر عـلـى الـلـئـيـم يـسـبني

والأول أسهل وأنسب.

ومن العجيب ما نقله أبو حيان عن الكوفيين أنهم يجعلون الملأ اسم موصول و ﴿حوله﴾ متعلق بمحذوف وقع

صلة له كأنه قيل: قال للذين استقروا حوله ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ﴾ قسراً ﴿مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ التي نشأتم فيها وتوطنتموها ﴿بسحره﴾ وفي هذا غاية التنفير عنه عليه السلام وابتغاء الغوائل له إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن لا سيما إذا كان ذلك قسراً وهو السر في نسبة الإخراج والأرض إليهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي أمر تأمرون فمحل ﴿ماذا﴾ النصب على المصدرية و ﴿تأمرون﴾ من الأمر ضد النهي ومفعوله محذوف أي تأمروني، وفي جعله عبيده بزعمه آمرين له مع ما كان يظهره لهم من دعوى الألوهية والربوبية ما يدل على أن سلطان المعجزة بهره وحيره حتى لا يدري أي طرفيه أطول فزل عند ذكر دعوى الألوهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وانحط عن ذروة الفرعنة إلى حضيض المسكنة ولهذا أظهر استشعار الخوف من استيلائه عليه السلام على ملكه.

وجوز أن يكون ﴿ماذا﴾ في محل النصب على المفعولية وأن يكون «تأمرون» من المؤامرة بمعنى المشاورة لأمر كل بما يقتضيه رأيه ولعل ما تقدم أولى.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخّر أمرهما إلى أن تأتيك السحرة من أرجأته إذا أخرته، ومنه المرجئة وهم الذين يؤخرون العمل لا يأتونه ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وقرأ أهل المدينة والكسائي وخلف «أرجِهِ» بكسر الهاء، وعاصم وحمزة «أرجه» بغير همز وسكون الهاء، والباقون «أرجئه» بالهمز وضم الهاء، وقال أبو علي: لا بد من ضم الهاء مع الهمزة ولا يجوز غيره، والأحسن أن لا يبلغ بالضم إلى الواو، ومن قرأ بكسر الهاء فأرجه عنده من أرجيته بالياء دون الهمزة والهمز على ما نقل الطيبي أفصح، وقد توصل الهاء المذكورة بياء فيقال: أرجهي كما يقال مررت بهي، وذكر الزجاج أن بعض الحذاق بالنحو لا يجوز إسكان نحوها، ﴿أرجه﴾ أعني هاء الإضمار، وزعم بعض النحويين جواز ذلك واستشهد عليه ببيت مجهول ذكره الطبرسي: وقال هو شعر لا يعرف قائله والشاعر يجوز أن يخطىء.

وقال بعض الأجلة: الإسكان ضعيف لأن هذه الهاء إنما تسكن في الوقف لكنه أجرى الوصل مجرى الوقف، وقيل: المعنى احبسه، ولعلهم قالوا ذلك لفرط الدهشة أو تجلداً ومداهنة لفرعون وإلا فكيف يمكنه أن يحبسه مع شاهد منه من الآيات ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ شرطاء يحشرون السحرة ويجمعونهم عندك ﴿يَأْتُوكَ﴾ مجزوم في جواب الأمر أي إن تبعثهم يأتوك ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ كثير العمل بالسحر ﴿عَلِيمٍ﴾ فائق في علمه، ولكون المهم هنا هو العمل أتوا بما يدل على التفضيل فيه، وقرأ الأعمش وعاصم في رواية «بكل ساحر عليم» ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ﴾ أي المعهودون على أن التعريف كما في المفتاح عهدي، وقال الفاضل المحقق: إن المعهود قد يكون عاماً مستغرقاً كما هنا ولا منافاة بينهما كما يتوهم وفيه بحث فتأمل.

﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة على أن الميقات من صفات الزمان، وفي الكشاف هو ما وقت به أي حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ استبطاء لهم في الاجتماع وحثاً على التبادر إليه ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ في ذلك الميقات فالاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال كما في قول تأبط شراً:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا ... أو عبد رب أخا عون بن مخراق(١)

---

(١) دينار اسم رجل وعبد رب منصوب بالعطف على محله وهو اسم رجل أيضاً وأخا عون منادى لا نعت، ويجوز أن يكون عطف بيان لعبد رب ا هـ منه.

فإنه يريد ابعث أحدهما إلينا سريعاً ولا تبطىء به ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ أي في دينهم ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ لا موسى عليه السلام، وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى عليه السلام في دينه لكن ساقوا كلامهم مساق الكناية حملاً للسحرة على الاهتمام والجد في المغالبة، وجوز أن يكون مرادهم اتباع السحرة أي الثبات على ما كانوا عليه من الدين ويدعي أنهم كانوا على ما يريد فرعون من الدين.

والظاهر أن فرعون غير داخل في القائلين، وعلى تقدير دخوله لم يجوز بعضهم إرادة المعنى الحقيقي لهذا الكلام لامتناع اتباع مدعي الإلهية السحرة، وجوزه آخرون لاحتمال أن يكون قال ذلك لما استولى عليه من الدهشة من أمر موسى عليه السلام كما طلب الأمر ممن حوله لذلك، ولعل إتيانهم بأن للإلهاب وإلا فالأوفق بمقامهم أن يقولوا إذا كانوا هم الغالبين ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً﴾ أي لأجراً عظيماً ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لا موسى عليه السلام ولعلهم أخرجوا الشرط على أسلوب ما وقع في كلام القائلين موافقة لهم وإلا فلا يناسب حالهم إظهار الشك في غلبتهم.

﴿قَالَ﴾ فرعون لهم ﴿نَعَمْ﴾ لكم ذلك ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي، قيل: قال لهم: تكونون أول من يدخل عليَّ وآخر من يخرج عني. و ﴿إذن﴾ عند جمع على ما تقتضيه في المشهور من الجواب والجزاء، ونقل الزركشي في البرهان عن بعض المتأخرين أنها هنا مركبة من ﴿إذا﴾ التي هي ظرف زمان ماض والتنوين الذي هو عوض عن جملة محذوفة بعدها وليست هي الناصبة للمضارع. وقد ذهب إلى ذلك في نظير لآية الكافيجي والقاضي تقي الدين بن رزين وأنا ممن يقول بإثبات هذا المعنى لها. والمعنى عليه وإنكم إذا غلبتم أو إذا كنتم الغالبين لمن المقربين. وقرىء «نَعِمَ» بفتح النون وكسر العين وذلك لغة في ﴿نعم﴾.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ﴾ أي بعد ما قال له السحرة: ﴿إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى﴾ [طه: ٦٥] ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ لم يرد عليه السلام الأمر بالسحر والتمويه حقيقة فإن السحر حرام وقد يكون كفراً فلا يليق بالمعصوم الأمر به بل الإذن بتقديم ما علم بإلهام أو فراسة صادقة أو قرائن الحال أنهم فاعلوه البتة ولذا قال: ﴿ما أنتم ملقون﴾ ليتوصل بذلك إلى إبطاله.

وهذا كما يؤمر الزنديق بتقرير حجته لترد وليس في ذلك الرضا الممتنع فإنه الرضا على طريق الاستحسان وليس في الإذن المذكور ومطلق الرضا غير ممتنع، ومما اشتهر من قولهم: الرضا بالكفر كفر ليس على إطلاقه كما عليه المحققون من الفقهاء والأصوليين ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا﴾ أي وقد قالوا عند الإلقاء ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ أي بقوته التي يمتنع بها من الضيم من قولهم. أرض عزاز أي صلبة ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ لا موسى عليه السلام، والظاهر أن هذا قسم منهم بعزته عليه اللعنة على الغلبة وخصوها بالقسم هنا لمناسبتها للغلبة وقسمهم على ذلك لفرط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر. وفي ذلك إرهاب لموسى عليه السلام بزعمهم، وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة في قولهم: ﴿بعزة فرعون﴾ تعظيماً له، وهذا القسم من نوع أقسام الجاهلية، وقد سلك كثير من المسلمين في الإيمان ما هو أشنع من إيمانهم لا يرضون بالقسم بالله تعالى وصفاته عز وجل ولا يعتدون بذلك حتى يحلف أحدهم بنعمة السلطان أو برأسه أو برأس المحلف أو بلحيته أو بتراب قبر أبيه فحينئذ يستوثق منه، ولهم أشياء يعظمونها ويحلفون بها غير ذلك، ولا يبعد أن يكون الحلف بالله تعالى كذباً أقل إثماً من الحلف بها صدقاً وهذا مما عمت به البلوى ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم، وقال ابن عطية بعد أن ذكر أنه قسم: والأحرى أن

يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذا كانوا يعبدونه كما تقول إذا ابتدأت بشيء بسم الله تعالى وعلى بركة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحو ذلك.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي تبتلع بسرعة، وأصل التلقف الأخذ بسرعة وقرأ أكثر السبعة «تَلَقَّفُ» بفتح اللام والتشديد والأصل تتلقف فحذفت إحدى التاءين. والتعبير بالمضارع لاستحضار السورة والدلالة على الاستمرار ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي الذي يقلبونه من حاله الأول وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى. فما موصولة حذف عائدها للفاصلة، وجوز أن تكون مصدرية أي تلقف إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي خروا ساجدين إثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر وأنه أمر إلهي قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه، وعبر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذكر مع الإلقاءات فسلك به طريق المشاكلة وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً فهناك استعارة تبعية زادت حسنها المشاكلة، وبحث في ذلك بعضهم بأن الله تعالى خالق خرورهم عند أهل الحق وخلقه هو الإلقاء فلا حاجة إلى التجوز.

وأنت تعلم أن إيجاد خرورهم وخلقه فيهم لا يسمى إلقاء حقيقة ولغة ثم ظاهر كلامهم أن فاعل الإلقاء لو صرح به هو الله عز وجل بما خولهم من التوفيق، وجوز الزمخشري أن يكون إيمانهم أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة ثم قال: ولك أن لا تقدر فاعلاً لأن ﴿أُلْقِيَ﴾ بمعنى خروا وسقطوا. وتعقب هذا أبو حيان بأنه ليس بشيء إذ لا يمكن أن يبني الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله إلا وقد حذف الفاعل فناب ذلك عنه أما أنه لا يقدر فاعل فقول ذاهب عن الصواب، ووجه ذلك صاحب الكشف بأنه أراد أنه لا يحتاج إلى تقدير فاعل آخر غير من أسند إليه المجهول لأنه فاعل الإلقاء ألا ترى أنك لو فسرت سقط بألقى نفسه لصح. والطيبي بأنه أراد أنه لا يحتاج إلى تعيين فاعل لأن المقصود الملقى لا تعيين من ألقاه كما تقول قتل الخارجي.

وأنت تعلم أن التعليل الذي ذكره الزمخشري إلى ما اختاره صاحب الكشف أقرب. وبالجملة لا بد من تأويل كلام صاحب الكشاف فإنه أجل من أن يريد ظاهره الذي يرد عليه ما أورده أبو حيان، وفي سجود السحرة وتسليمهم دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لا حقيقة له لأن السحر أقوى ما كان في زمن موسى عليه السلام ومن أتى به فرعون أعلم أهل عصره به وقد بذلوا جهدهم وأظهروا أعظم ما عندهم منه ولم يأتوا إلا بتمويه وتزويق كذا قيل. والتحقيق أن ذلك هو الغالب في السحر لا أن كل سحر كذلك.

وقول القزويني: إن دعوى أن في السحر تبديل صورة حقيقة من خرافات العوام وأسمار النسوة فإن ذلك مما لا يمكن في سحر أبداً لا يخلو عن مجازفة، واستدل بذلك أيضاً على أن التبحر في كل علم نافع فإن أولئك السحرة لتبحرهم في علم السحر علموا حقية ما أتى به موسى عليه السلام وأنه معجزة فانتفعوا بزيادة علمهم لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان لفرقهم بين المعجزة والسحر.

وتعقب بأن هذا إنما يثبت حكماً جزئياً كما لا يخفى، وذكر بعض الأجلة أنهم إنما عرفوا حقية ذلك بعد أن أخذ موسى عليه السلام العصا فعادت كما كانت وذلك أنهم لم يروا لحبالهم وعصيهم بعد أثراً، وقالوا: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا؛ ولعلها على هذا صارت أجزاء هبائية وتفرقت أو عدمت لانقطاع تعلق الإرادة بوجودها. وقال الشيخ الأكبر قدس سره في الباب السادس عشر والباب الأربعين من الفتوحات: إن العصا لم تلقف إلا صور الحيات

من الحبال والعصي وأما هي فقد بقيت ولـم تعدم كما توهمه بعض المفسرين ويدل عليه قوله تعالى: ﴿تلقف ما صنعوا﴾ [طه: ٦٩] وهم لم يصنعوا إلا الصور ولولا ذلك لوقعت الشبهة للسحرة في عصا موسى عليه السلام فلم يؤمنوا انتهى ملخصاً فتأمل ﴿قَالُوا آمَنَّا برَبِّ الْعَالَـمِينَ﴾ بدل اشتمال من ﴿ألقي﴾ لما بين الإلقاء المذكور وهذا القول من الملابسة أو حال بإضمار قد أو بدونه، ويحتمل أن يكون استئنافاً بيانياً كأنه قيل: فما قالوا؟ فقيل: ﴿قالوا آمنا برب العالـمين﴾ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ عطف بيان لرب العالمين أو بدل منه جيء به لدفع توهم إرادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك وللإشعار بأن الموجب لإيمانهم به تعالى ما أجراه سبحانه على أيديهما من المعجزة القاهرة. ومعنى كونه تعالى ربهما أنه جل وعلا خالقهما ومالك أمرهما.

وجوز أن يكون إضافة الرب إليهما باعتبار وصفهما له سبحانه بما تقدم من قول موسى عليه السلام: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ [الشعراء: ٢٤] وقوله: ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ [الشعراء: ٢٦] وقوله: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾ [الشعراء: ٢٨] فكأنهم قالوا: آمنا برب العالمين الذي وصفه موسى وهارون، ولا يخفى ما فيه وإن سلم سماعهم للوصف المذكور بعد أن حشروا من المدائن ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي بغير أن آذن لكم بالإيمان له كما في قوله تعالى: ﴿قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ [الكهف: ١٠٩] إلا أن الإذن منه ممكن أو متوقع ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم فيكون كقوله: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه﴾ [الأعراف: ١٢٣] إلخ أو علمكم شيئاً دون شيء فلذلك غلبكم كما قيل، ولا يرد عليه أنه لا يتوافق الكلامان حينئذ إذ يجوز أن يكون فرعون قال كلاً منهما وإن لم يذكرا معاً هنا، وأراد اللعين بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق.

وقرأ الكسائي وحمزة وأبو بكر وروح «أآمنتم» بهمزتين ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَـمُونَ﴾ وبال ما فعلتم. واللام قيل للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف أي فلأنتم سوف تعلمون. وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة. وجمعها مع سوف للدلالة على أن العلم كائن لا محالة وإن تأخر لداع، وقيل: هي للقسم وقاعدة التلازم بينها وبين النون فيما عدا صورة الفصل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس وصورة الفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى: ﴿لإلى الله تحشرون﴾ [آل عمران: ١٥٨] وقال أبو علي: هي اللام التي في لأقومن ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد فكأنه قيل: فلتعلمن، وقوله تعالى حكاية عنه: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خلافَ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أجْمَعِينَ﴾ بيان لمفعول ﴿تعلمون﴾ المحذوف الذي أشرنا إليه وتفصيل لما أجمل ولذا فصل وعطف بالفاء في محل آخر، وقد مر معنى ﴿من خلاف﴾ ﴿قَالُوا﴾ أي السحرة ﴿لاَ ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا فيما ذكرت من قطع الأيدي وما معه، والضير مصدر ضار وجاء مصدره أيضاً ضوراً، وهو اسم لا وخبرها محذوف وحذفه في مثل ذلك كثير، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَـىٰ رَبِّنَا﴾ أي الذي آمنا به ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ تعليل لنفي الضير أي لا ضير في ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا من الصبر عليه لوجه الله تعالى من الثواب العظيم أو لا ضير علينا فيما تفعل لأنه لا بد من الموت بسبب من الأسباب والانقلاب إلى الله عز وجل.

ومن لـم يمت بـالـسيـف مـات بـغـيـره ... تـعـددت الأسـبـاب والـمـوت واحـد

وحاصله نفي المبالاة بالقتل معللاً بأنه لا بد من الموت، ونظير ذلك قول علي كرّم الله تعالى وجهه: لا أبالي أوقعت على الموت أم وقع الموت عليّ، أو لا ضير علينا في ذلك لأن مصيرنا ومصيرك إلى رب يحكم بيننا فينتقم لنا منك، وفي معنى ذلك قوله:

إلـى ديـان يـوم الـديـن نمضـي ... وعـنـد الله تـجـتـمـع الـخـصـوم

ولم يرتضه بعضهم لأن فيه تفكيك الضمائر لكونها للسحرة فيما قبل وبعد ومنع بدخولهم في ضمير الجمع فتأمل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا﴾ أي لأن كنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل ثان لنفي الضير ولم يعطف إيذاناً بأنه مما يستقل بالعلية، وقيل إن عدم العطف لتعلق التعليل بالمعلل الأول مع تعليله وجوز أن يكون تعليلاً للعلة والأول أظهر أي لا ضير علينا في ذلك إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا أول المؤمنين، والطمع إما على بابه كما استظهره أبو حيان لعدم الوجوب على الله عز وجل، وإما بمعنى التيقن كما قيل به في قول إبراهيم عليه السلام ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء: ٨٢] وقولهم: ﴿أول المؤمنين﴾ يحتمل أنهم أرادوا به أول المؤمنين من أتباع فرعون أو أول المؤمنين من أهل المشهد أو أول المؤمنين من أهل زمانهم، ولعل الإخبار بكونهم كذلك لعدم علمهم بمؤمن سبقهم بالإيمان فهو إخبار مبني على غالب الظن ولا محذور فيه كذا قيل، وقيل: أرادوا أول من أظهر الإيمان بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوة وظهور الآية فلا يرد مؤمن آل فرعون. وآسية، وكذا لا يرد بنو إسرائيل لأنهم ـ كما في البحر ـ كانوا مؤمنين قبلهم إما لعدم علم السحرة بذلك أو لأن كلاً من المذكورين لم يظهر الإيمان بالله تعالى ورسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوة وظهور الآية فتأمل.

وقرأ أبان بن تغلب وأبو معاذ «إن كنا» بكسر همزة «إن» وخرج على أن إن شرطية والجواب محذوف يدل عليه ما قبله أي إن كنا أول المؤمنين فإنا نطمع، وجعل صاحب اللوامح الجواب ﴿إنا نطمع﴾ المتقدم وقال: جاز حذف الفاء منه لتقدمه وهو مبني على مذهب الكوفيين وأبي زيد والمبرد حيث يجوزون تقديم جواب الشرط، وعلى هذا فالظاهر أنهم لم يكونوا متحققين بأنهم أول المؤمنين، وقيل: كانوا متحققين ذلك لكنهم أبرزوه في صورة الشك لتنزيل الأمر المعتمد منزلة غيره تمليحاً وتضرعاً لله تعالى، وفي ذلك هضم النفس والمبالغة في تحري الصدق والمشاكلة مع ﴿نطمع﴾ على ما هو الظاهر فيه، وجوز أبو حيان أن تكون إن هي المخففة من الثقيلة ولا يحتاج إلى اللام الفارقة لدلالة الكلام على أنهم مؤمنون فلا احتمال للنفي، وقد ورد مثل ذلك في الفصيح ففي الحديث: «إن كان رسول الله ﷺ يحب العسل»، وقال الشاعر:

ونـحـن أبـاة الـضـيـم مـن آل مـالـك ... وإن مـالـك كـانـت كـرام الـمـعـادن

وعلى هذا الوجه يكونون جازمين بأنهم أول المؤمنين أتم جزم. واختلف في أن فرعون هل فعل بهم ما أقسم عليه أولاً والأكثرون على أنه لم يفعل لظاهر قوله تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٥] وبعض هؤلاء زعم أنهم لما سجدوا رأوا الجنات والنيران وملكوت السماوات والأرض وقبضت أرواحهم وهم ساجدون، وظواهر الآيات تكذب أمر الموت في السجود، وأما رؤية أمر ما ذكر فلا جزم عندي بصدقه والله تعالى أعلم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وذلك بعد سنين أقام بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتواً وعناداً حسبما فصل في سورة [الأعراف: ١٣٠] بقوله تعالى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ الآيات. وقرىء «أن أسر» بكسر النون ووصل الألف من سرى. وقرأ اليماني «أن سر» أمراً من سار يسير ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ تعليل للأمر بالإسراء أي يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين فأسر ليلاً بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مداخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ الفاء فصيحة أي فأسرى بهم وأخبر فرعون بذلك فأرسل ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أي مدائن مصر ﴿حَاشِرِينَ﴾ جامعين للعساكر ليتبعوهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يريد بني إسرائيل والكلام على إرادة القول، والظاهر أنه حال أي قائلاً إن

هؤلاء ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي طائفة من الناس، وقيل: هي السفلة منهم، وقيل: بقية كل شيء خسيس، ومنه ثوب شرذام وشرذامة أي خلِق مقطع، قال الراجز:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق ... شراذم يضحك منه التواق

وقرىء «لشرذمةٍ» بإضافة شر مقابل خير إلى ذمة، قال أبو حاتم: وهي قراءة من لا يؤخذ منه ولم يروها أحد عن رسول الله ﷺ ﴿قَلِيلُونَ﴾ صفة شرذمة، وكان الظاهر قليلة إلا أنه جمع باعتبار أن الشرذمة مشتملة على أسباط كل سبط منهم قليل، وقد بالغ اللعين في قلتهم حيث ذكرهم أولاً باسم دال على القلة وهو شرذمة ثم وصفهم بالقلة ثم جمع القليل للإشارة إلى قلة كل حزب منهم وأتى بجمع السلامة وقد ذكر أنه دال على القلة؛ واستقلهم بالنسبة إلى جنوده.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن موسى عليه السلام خرج في ستمائة ألف وعشرين ألفاً لا يعد فيهم ابن عشرين لصغره ولا ابن ستين لكبره وتبعهم فرعون على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان، وقيل: أرسل فرعون في أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج هو في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة، وهم كانوا على ما روي عن ابن عباس ستمائة ألف وسبعين ألفاً، وأنا أقول: إنهم كانوا أقل من عساكر فرعون ولا أجزم بعدد في كلا الجمعين، والأخبار في ذلك لا تكاد تصح وفيها مبالغات خارجة عن العادة. والمشهور عند اليهود أن بني إسرائيل كانوا حين خرجوا من مصر ستمائة ألف رجل خلا الأطفال وهو صريح ما في التوراة التي بأيديهم.

وجوز أن يراد بالقلة الذلة لا قلة العدد بل هي مستفادة من شرذمة يعني أنهم لقلتهم أذلاء لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم، وقيل: الذلة مفهومة من شرذمة بناء على أن المراد منها بقية كل شيء خسيس أو السفلة من الناس، و ﴿قليلون﴾ إما صفة لها أو خبر بعد خبر لأن، والظاهر ما تقدم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ لفاعلون ما يغيظنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذننا مع ما عندهم من أموالنا المستعارة، فقد روي أن الله تعالى أمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط فاستعاروه وخرجوا به، وتقديم ﴿لنا﴾ للحصر والفاصلة واللام للتقوية أو تنزيل المتعدي منزلة اللازم ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي إنا لجمع من عاداتنا الحذر والاحتراز واستعمال الحزم في الأمور، أشار أولاً إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ثم إلى تحقيق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثاً عليه أو اعتذاراً بذلك إلى أهل المدائن كيلا يظن به عليه اللعنة ما يكسر سلطانه.

وقرأ جمع من السبعة. وغيرهم «حذرون» بغير ألف، وفرق بين حاذر بالألف وحذر بدونها بأن الأول اسم فاعل يفيد التجدد والحدوث والثاني صفة مشبهة تفيد الثبات، وقريب منه ما روي عن الفراء والكسائي أن الحذر من كان الحذر في خلقته فهو متيقظ منتبه، وقال أبو عبيدة: هما بمعنى واحد، وذهب سيبويه إلى أن حذراً يكون للمبالغة وأنه يعمل كما يعمل حاذر فينصب المفعول به، وأنشد:

حذر أموراً لا تضير وآمن ... ما ليس منجيه من الأقدار

وقد نوزع في ذلك بما هو مذكور في كتب النحو. وعن ابن عباس وابن جبير والضحاك وغيرهم أن الحاذر التام السلاح. وفسروا ما في الآية بذلك، وكأنه بمعنى صاحب حذر وهي آلة الحرب سميت بذلك مجازاً، وحمل على ذلك

قوله تعالى: ﴿خذوا حذركم﴾ [النساء: ٧١]، وقرأ سميط بن عجلان وابن أبي عمار وابن السميقع «حادرون» بالألف والدال المهملة من قولهم: عين حدرة أي عظيمة وفلان حادر أي متورم. قال ابن عطية: والمعنى ممتلئون غيظاً وأنفة. وقال ابن خالويه: الحادر السمين القوي الشديد والمعنى أقوياء أشداء. ومنه قول الشاعر:

أحب الصبي السوء من أجل أمه ... وأبغضه من بغضها وهو حادر

وقيل: المعنى تام والسلاح على هذه القراءة أيضاً أخذاً من الحدارة بمعنى الجسامة والقوة فإن تام السلاح يتقوى به كما يتقوى بأعضائه، و ﴿جميع﴾ على جميع القراءات والمعاني بمعنى الجمع وليست التي يؤكد بها كما أشرنا إليه ولو كانت هذه المؤكدة لنصبت ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ أي فرعون وجنوده أي خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب الذي تضمنته الآيات الثلاث فحملتهم عليه أو خلقنا خروجهم ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ كانت لهم بحافتي النيل كما روي عن ابن عمر. وغيره ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي أموال كنزوها وخزنوها تحت الأرض. وخصت بالذكر لأن الأموال الظاهرة أمور لازمة لهم لأنها من ضروريات معاشهم فإخراجهم عنها معلوم بالضرورة. وقيل: لأن أموالهم الظاهرة قد انطمست بالتدمير.

وتعقب بأن الإخراج قبل الانطماس إذ من جملة الأموال الظاهرة الجنات والإخبار عنهم بأنهم أخرجوا منها بعنوان كونها جنات والأصل فيه الحقيقة. وعلى تقدير تسليم أنه بعد يرد أن المدمر ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وهو مفسر بالقصور والعمارات والجنان فيبقى ما سوى ذلك غير محكوم عليه بالتدمير من الأموال الظاهرة مع أنهم أخرجوا منه أيضاً فيحتاج توجيه عدم التعرض له بغير ما ذكر.

وقيل: المراد بالكنوز أموالهم الباطنة والظاهرة وأطلق عليها ذلك لأنها لم ينفق منها في طاعة الله تعالى، ونقل ذلك عن مجاهد والأول أوفق باللغة. وأكثر جهلة أهل مصر يزعمون أن هذه الكنوز في المقطم من أرض مصر وأنها موجودة إلى الآن وقد بذلوا على إخراجها أموالاً كثيرة لشياطين المغاربة وغيرهم فلم يظفروا إلا بالتراب أو حجر الكذان، وقال ابن جبير: المراد بالعيون عيون الذهب وهو خلاف المتبادر، ومثله ما قاله الضحاك من أن المراد بالكنوز الأنهار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هي المساكن الحسان كما قال النقاش، وعن ابن لهيعة أنها كانت بالفيوم من أرض مصر، وقيل: مجالس الأمراء والأشراف والحكام التي تحفها الأتباع، وقيل: الأسرة في الكال، وحكى الماوردي أنها مرابط الخيل، وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك أنها المنابر للخطباء. وقرأ قتادة والأعرج «ومُقَام» بضم الميم من أقام ﴿كَذَلِكَ﴾ إما في موضع نصب على أن يكون صفة لمصدر مقدر أي إخراجاً مثل ذلك الإخراج أخرجنا، والإشارة إلى مصدر الفعل أو في موضع جر على أن يكون صفة لمقام أي مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم، وعلى الوجهين لا يرد أنه يلزم تشبيه الشيء بنفسه كما زعم أبو حيان لما مر تحقيقه أو في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك، والمراد تقرير الأمر وتحقيقه. واختار هذا الطيبي فقال: هو أقوى الوجوه ليكون قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ملكناها لهم تمليك الإرث عطفاً عليه، والجملتان معترضتان بين المعطوف عليه وهو ﴿فأخرجناهم﴾ والمعطوف وهو قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾ لأن الاتباع عقب الإخراج لا الإيراث.

قال الواحدي: إن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه فأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن، وعلى غير هذا الوجه يكون ﴿أورثنا﴾ عطفاً على ﴿أخرجنا﴾ ولا بد من تقدير نحو فأردنا إخراجهم وإيراث بني إسرائيل ديارهم فخرجوا وأتبعوهم انتهى، ويفهم من كلام بعضهم أن جملة

﴿أورثناها﴾ إلخ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه في جميع الأوجه، وما ذكر عن الواحدي من أن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه ظاهره وقوع ذلك بعد الغرق من غير تطاول مدة.

وأظهر منه في هذا ما روي عن الحسن قال: كما عبروا البحر ورجعوا وورثوا ديارهم وأموالهم؛ ورأيت في بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى عليه السلام وبقوا معه في مصر عشر سنين، وقيل: إنه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون وهم الذين أورثوا أموال القبط وذهب الباقون مع موسى عليه السلام إلى أرض الشام.

وقيل: إنهم بعد أن جاوزوا البحر ذهبوا إلى الشام ولم يدخلوا مصر في حياة موسى عليه السلام وملكوها زمن سليمان عليه السلام، والمذكور في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم صريح في أنهم بعد أن جاوزوا البحر توجهوا إلى أرض الشام وقد فصلت قصة ذهابهم إليها وأكثر التورايخ على هذا وظواهر كثير من الآيات تقتضي ما ذكره الواحدي والله تعالى أعلم، ومعنى ﴿أتبعوهم﴾ لحقوهم يقال: تبعت القوم فأتبعهم أي تلوتهم فلحقتهم كأن المعنى فجعلتهم تابعين لي بعد ما كنت تابعاً لهم مبالغة في اللحوق، وضمير الفاعل لقوم فرعون والمفعول لبني إسرائيل. وقرأ الحسن «فَٱتَّبِعُوهُمْ» بوصل الهمزة وشد التاء ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها من أشرق زيد دخل في وقت الشروق كأصبح دخل في وقت الصباح وأمسى دخل في وقت المساء، وقال أبو عبيدة: هو من أشرق توجه نحو الشرق كأنجد توجه نحو نجد وأعرق توجه نحو العراق أي فاتبعوهم متوجهين نحو الشرق. والجمهور على الأول، وعن السدي أن الله تعالى ألقى على القبط الموت ليلة خرج موسى عليه السلام بقومه فمات كل بكر رجل منهم فشغلوا عن طلبهم بدفنهم حتى طلعت الشمس ومثل ذلك في التوراة بزيادة موت أبكار بهائمهم أيضاً، والوصف حال من الفاعل، وقيل: هو حال من المفعول.

ومعنى ﴿مشرقين﴾ في ضياء بناء على ما روي أن بني إسرائيل كانوا في ضياء، وكان فرعون وقومه في ضباب وظلمة تحيروا فيها حتى جاوز بنو إسرائيل البحر ولا يكاد يصح ذلك لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر، نعم ذكر في التوراة ما حاصله أن بني إسرائيل لما خرجوا كان أمامهم نهاراً عمود من غمام وليلاً عمود من نار ليدلهم ذلك على الطريق فلما طلبهم فرعون ورأوا جنوده خافوا جداً ولاموا موسى عليه السلام في الخروج وقالوا له: أمن عدم القبور بمصر أخرجتنا لنموت في البر أما قلنا لك: دعنا نخدم المصريين فهو خير من موتنا في البر فقال لهم موسى: لا تخافوا وانظروا إغاثة الله تعالى لكم ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فتحول عمود الغمام إلى ورائهم وصار بينهم وبين فرعون وجنوده ودخل الليل ولم يتقدم أحد من جنود فرعون طول الليل وشق البحر ثم دخل بنو إسرائيل وليس في هذا ما يصحح أمر الحالية المذكورة فتأمل.

وقرأ الأعمش وابن وثاب «ترا» بغير همز على مذهب التخفيف بين بين ولا يصح تحقيقها بالقلب للزوم ثلاث ألفات متسقة وذلك مما لا يكون أبداً قاله أبو الفضل الرازي، وقال ابن عطية وقرأ حمزة «تريئي» بكسر الراء وبمد ثم بهمز، وروي مثله عن عاصم وروي عنه أيضاً «تراءى» بالفتح والمد، وقال أبو جعفر أحمد بن علي الأنصاري في كتابه الإقناع ﴿تراءى الجمعان﴾ في الشعراء إذا وقف عليها حمزة والكسائي أمالا الألف المنقلبة عن لام الفعل، وحمزة يميل ألف تفاعل وصلاً ووقفاً كإمالةِ الألف المنقلبة.

وقرىء «فلما تراءت» الفئتان ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي لملحقون جاؤوا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفي التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق وتنجيزهما، وأرادوا بذلك التحزن وإظهار الشكوى طلباً

للتدبير. وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير «لَمُدَّرِكُونَ» بفتح الدال مشددة وكسر الراء من الإدراك بمعنى الفناء والاضمحلال يقال: أدرك الشيء إذا فني تتابعاً وأصله التتابع وهو ذهاب أحد على أثر آخر ثم صار في عرف اللغة بمعنى الهلاك وأن يفني شيئاً فشيئاً حتى يذهب جميعه، وقد جاء التتابع بهذا المعنى في قول الحماسي:

أبعد بني أمي الذين تتابعوا ... أرجي حياة أم من الموت أجزع

والمعنى إنا لهالكون على أيديهم شيئاً فشيئاً ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ردعاً لهم عن ذلك وإرشاداً إلى أن تدبير الله عز وجل يغني عن تدبيره: ﴿كَلاَّ﴾ لن يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والنصرة ﴿سَيَهدِين﴾ قريباً إلى ما فيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم، ولم يشركهم عليه السلام في المعية والهداية إخراجاً للكلام على حسب ما أشاروا إليه في قولهم: ﴿إنا لمدركون﴾ من طلب التدبير منه عليه السلام، وقيل: لما كان عليه السلام هو الأصل وغيره تبع له محفوظون منصورون بواسطته وشرفه وكرامته قال: ﴿معي﴾ دون معنا وكذا قال: ﴿سيهدين﴾ دون سيهدينا، وقيل: قال ذلك جزاء لهم على غفلتهم عن قوله تعالى له عليه السلام ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٥] حتى خافوا فقالوا ما قالوا فإن الظاهر أنهم سمعوا ذلك من موسى عليه السلام في مدة بقائهم معه في مصر أو غفلتهم عن عناية الله تعالى بهم حين كانوا مع القبط في مصر حيث لم يصبهم ما أصابهم من الدم ونحوه من الآيات المقتضية بواسطة حسن الظن إنجاءهم منهم حين أمروا بالخروج فلحقوهم وكان تأديبه لهم على ذلك بمجرد عدم إشراكهم فيما ذكر لا أنه نفاه عنهم كما يتوهم من تقديم الخبر فإن تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدار النجاة المطلوبة، وقيل: للحصر لكن بالنسبة إلى فرعون وجمعه، وقيل: على القول الثاني في توجيه عدم إشراكهم: إنه للحصر بالنسبة إليهم أيضاً على معنى إن معي أولاً وبالذات ربي لا معكم كذلك، وقيل: قدم المعية هنا وأخرت في قوله تعالى: ﴿إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠] لأن المخاطب هنا بنو إسرائيل وهم أغبياء يعرفون الله عز وجل بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام والمخاطب هناك الصديق رضي الله تعالى عنه وهو ممن يرى الله تعالى قبل كل شيء، ولاختلاف المقام نظم نبينا ﷺ صاحبه معه في المعية ولم يقدم له ردعاً وزجراً وخاطبه على نحو مخاطبة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام عند تسليته بما صورته النهي عن الحزن، وأتى بالاسم الجامع وهو لفظ الله دون اسم مشعر بصفة واحدة مثلاً ولم يكن كلام موسى عليه السلام ومخاطبته لقومه على هذا الطرز وسبحان من فضل بعض العالمين على بعض.

وزعم بعضهم أن في الكلام حذفاً والتقدير إن معي وعد ربي ولذلك قال: ﴿معي﴾ دون معنا وفيه ما فيه. ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ هو القلزم على الصحيح، وقيل: بحر من وراء مصر يقال له أساف، وقيل: النيل، والظاهر أن هذا الإيحاء كان بعد القول المذكور ولم يكن مأموراً بالضرب يوم الأمر بالإسراء، فقد أخرج ابن عبد الحكم عن مجاهد أنه لما انتهى موسى عليه السلام وبنو إسرائيل إلى البحر قال مؤمن آل فرعون: يا نبي الله أين أمرت فإن البحر أمامك وقد غشينا آل فرعون فقال: أمرت بالبحر فاقتحم مؤمن آل فرعون فرسه فرده التيار فجعل موسى عليه السلام لا يدري كيف يصنع وكان الله تعالى قد أوحى إلى البحر أن أطع موسى وآية ذلك إذا ضربك بعصاه فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر.

وأخرج أيضاً من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن موسى لما انتهى إلى البحر أقبل يوشع بن نون على فرسه فمشى على الماء واقتحم غيره خيولهم فرسوا في الماء، وقال أصحاب موسى: ﴿إنا لمدركون﴾ فدعا موسى ربه فغشيتهم ضبابة حالت بينهم وبينه؛ وقيل: له اضرب بعصاك البحر؛ وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن

عباس أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر وأوحى إلى البحر أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك فبات البحر له أفكل أي رعدة لا يدري من أي جوانبه يضربه، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبدالله ابن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجاً فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر.

وروي أنه عليه السلام قال: اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وإليك المستغاث وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وفي الدر المنثور من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً ما يدل على أنه عليه السلام قال ذلك حين الانفلاق ﴿فَانفَلَقَ﴾ أي فضربه فانفلق فالفاء فصيحة، وزعم ابن عصفور في مثل هذا التركيب أن المحذوف هو ضرب، وفاء انفلق والفاء الموجودة هي فاء ضرب وهذا أشبه شيء بلغي العصافير وكأنه كان سكران حين قاله، وفي هذا الحذف إشارة إلى سرعة امتثاله عليه السلام، وإنما أمر عليه السلام بالضرب فضرب وترتب الانفلاق عليه إعظاماً لموسى عليه السلام بجعل هذه الآية العظيمة مترتبة على فعله ولو شاء عز وجل لفلقه بدون ضربه بالعصا، ويروى أنه لم ينفلق حتى كناه بأبي خالد فقال انفلق أبا خالد: وكان بأمر الله تعالى إياه بذلك، وعن قيس بن عباد أنه عليه السلام حين جاءه قال له: انفلق أبا خالد فقال: لن أنفلق لك يا موسى أنا أقدم منك وأشد خلقاً فنودي عند ذلك اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق، وفي رواية عن ابن مسعود أنه عليه السلام حين انتهى إليه قال: أنفرق فقال له: لقد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق، وفي حديث أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق عن أبي الدرداء مرفوعاً أنه عليه السلام ضربه فتأطط كما يتأطط العرش ثم ضربه الثانية فمثل ذلك ثم ضربه الثالثة فانصدع وهذا صريح في أن الضرب كان ثلاثاً، وقيل: ضربه مرة واحدة فانفلق، وقيل: ضربه اثنتي عشرة مرة فانفلق في كل مرة عن مسلك لسبط.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أنه قال: كان البحر ساكناً لا يتحرك فلما كان ليلة ضربه موسى بالعصا صار يمد ويجزر ولا أظن لهذا صحة، والظاهر أن المد والجزر كانا قبل أن يخلق الله تعالى موسى عليه السلام ولا ينبغي لعاقل اعتقاد غيره، ومثل هذا عندي كثير من الأخبار السابقة، والأسلم الاقتصار على ما قص الله تعالى من أنه أوحى سبحانه إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي كالجبل المنيف الثابت في مقره ، وظاهر الآية أن الطود مطلق الجبل، وقال في الصحاح: الطود الجبل العظيم.

والمراد بالفرق قطعة من الماء ارتفعت فصار ما تحتها كالسرداب على ما ذكره بعض الأجلة، وحينئذ لا إشكال في قول من قال: إن الفروق اثنا عشرة والمسالك كذلك بعدة أسباط بني إسرائيل وقد سلك كل سبط منهم في مسلك منها، والمشهور أن الفرق قطعة انفصلت من الماء عما يقابلها وحينئذ لا يتأتى ذلك القول بل لا بد عليه على ما قيل من كون الفروق ثلاثة عشر حتى يحصل في خلالها اثنا عشر مسلكاً بعدد الأسباط، وقيل: إذا كانت الفروق اثني عشر فلا بد أن تكون المسالك ثلاثة عشر لأن الفرق الأول والثاني عشر لا بد أن يكونا منفصلين عما يحاذيهما من البحر فيكون بين كل منهما وبين ما يحاذيه من البحر مسلك وإن لم يكن كسائر المسالك بين فرقين إذ لو اتصلا لم يميزا عنه ولم يتحقق حينئذ اثنا عشر فرقاً بل أقل، ولا بعد في أن يختار كون الفروق اثني عشر والمسالك ثلاثة عشر يجعل الفرق الأول والثاني عشر منفصلين عما يحاذيهم من البحر بين كل منهما وبينه مسلك، ويقال: إن كل سبط من الأسباط الاثني عشر سلك في مسلك وسلك في الثالث عشر من آمن بموسى عليه السلام من القبط انتهى.

وأورد عليه أنه لم يذكر في الآثار أن المسالك ثلاثة عشر وإنما المذكور فيها أنها اثنا عشر ومن ادعى ذلك فعليه البيان، والأبعد عن القيل والقال ما تقدم عن بعض الأجلة وأثر قدرة الله تعالى عليه أعظم، وخلق الداعية إلى سلوك ذلك في قلوب الداخلين لا سيما قوم فرعون أغرب وكذا الاحتياج إلى الكوى أظهر.

فقد روي أن بني إسرائيل قالوا: نخاف أن يغرق بعضنا ولا نشعر فجعل الله تعالى بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً، نعم قيل عليه: إن في بعض الآثار ما يأباه، فقد أخرج أبو العباس محمد بن إسحاق السراج في تاريخه. وابن عبد البر في التمهيد من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن صاحب الردم كتب إلى معاوية يسأله عن أشياء منها مكان طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ولا بعد فيه فلم يعلم معاوية جواب ذلك فكتب يسأل ابن عباس فأجاب عن كل إلى أن قال: وأما المكان الذي طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ولا بعد فيه فالمكان الذي انفلق من البحر لبني إسرائيل فإن كون الفرق مقبباً كالسرداب مانع من طلوع الشمس وشروقها على الأرض من غير واسطة كما هو الظاهر من السؤال.

وأجيب بأنه بعد تسليم صحة الخبر لا إباء لجواز شروق الشمس على أرض الفرق المقبب من غير واسطة من جهة المدخل والمخرج أو شروقها على أرض البحر قبل التقبيب ولم يتعرض المفسرون هنا فيما وقفت عليه لكيفية الانطلاق، وقد رأيت فيما ينسب إلى كليات أبي البقاء أنه قد ورد أن بني إسرائيل لما دخلوا البحر خرجوا من الجانب الذي دخلوا منه وحينئذ لا يتأتى ذلك على كون الانفلاق خطياً وإنما يتأتى على كونه قوسياً ثم إنه ذكر في عدة الفروق والمسالك كلاماً ظاهره الاختلال، وقد تصدى بعض الفضلاء لشرحه وتوجيهه بما لا يخلو عن تعسف، وحاصل ما ذكره ذلك البعض مع زيادة ما أنه يحتمل إذا كان انفلاق البحر إلى اثني عشر فرقاً أن يكون الفرق الأول والثاني عشر متصلين بالبر الشطي بأن يكون الماء الواقع حذاء كل منهما من جهة البر مرتفعاً ومنضماً إلى كل ومعدود من أجزائه بحيث يصير الماء المرتفع المنضم والفرق الأصلي المنضم إليه فرقاً واحداً متصلاً طرفه بالبر من غير فصل بينه وبينه بشيء. وأورد عليه أنه يلزم عليه أن تكون المسالك أحد عشر فيحتاج إلى سلوك سبطين معاً أو متعاقباً في مسلك واحد أوسع من سائر المسالك أو مساوٍ له ولا خفاء في أنه خلاف الظاهر والمأثور، وأيضاً يلزم أن يكون كل من الفرقين الأول والثاني عشر أعظم غلظاً من كل من البواقي لما سمعت من الانضمام والظاهر تساويها فيه، وأيضاً يلزم خروج الماء الملاصق للبر عما الأصل فيه من غير داع إليه، ويحتمل أن يكون الماء الواقع حذاء كل من الأول والثاني عشر من جهة البر مرتفعاً بمعنى ذاهباً ويكون الفرقان المذكوران متصلين بالبر باعتبار أنهما متصلان بالمسلكين الظاهرين من تحت الماء الذاهب المتصلين بالبر. ويرد عليه بعض ما ورد على سابقه وبقاء سبط من بني إسرائيل أو سبطين بلا حاجب لهم عن فرعون وجنوده من الماء.

ويحتمل أن يكونا منفصلين عن البر بأن يبقى الماء المتصل به على حاله بحراً من غير ارتفاع وحينئذ يحتمل أن تكون المسالك ثلاثة عشر باعتبار انكشاف الأرض بين الفرق الأول والبحر الباقي على حاله المتصل بالبر فيكون هذا المسلك خارج الطود الأول وانكشافها بين الفرق الثاني عشر والبحر الباقي على حالة المتصل بالبر من الجانب الآخر فيكون هذا المسلك خارج الفرق الثاني عشر، وعلى هذا الاحتمال يلزم تعطل أحد المسالك أو التزام سلوك من آمن من القبط فقط فيه، ويحتمل أن تكون المسالك اثني عشر كالفروق بأن يكون الانكشاف بين الفرق الأول والبحر الباقي على حالة المتصل بالبر من جهة فرعون وجنوده فقط أو يكون الانكشاف بين الفرق الثاني عشر والبحر الباقي على حاله من الجانب الآخر فقط، وهذا بعيد لعظم هذا القوس المنكشف جداً وطول زمان قطعه، فالظاهر وقوع

احتمال كون الانكشاف بين الفرق الأول والبحر الباقي على حاله من جهة فرعون، وبالجملة احتمال انفصال الفرقين الأول والأخير وكون الانكشاف بين الأول والبحر مما يلي فرعون دون الأخير والبحر مما يلي الجانب الآخر واتحاد المسالك والفروق في كون كل اثني عشر هو الأقرب للوقوع ا هـ.

ولا يخفى أنه يلزم عليه أن لا يكون جميع المسالك في خلال الفروق فإن لم يتعين القول بكون جميعها فيه إذ ليس في الآثار أكثر من كون المسالك اثني عشر مسلكاً فلا بأس به، وإن استحسنت ما تقدم عن بعض الأجلّة في المراد بالفرق فاعتبره على تقدير كون الانفلاق قوسياً أيضاً، ثم إن ما ذكر من كون الخروج من جهة الدخول لم أره في غير ما ينسب إلى كليات أبي البقاء وهو أوفق بالقول برجوع موسى عليه السلام وقومه إلى مصر بعد الخروج من البحر وإغراق فرعون وجنوده فيه وتوقف ذلك على كون الانفلاق قوسياً لأنه لو كان خطياً يلزم أن يكون الرجوع في طريق الدخول وهو ظاهر البطلان لأن الأعداء في أثرهم، واحتمال أن تكون المسالك الخطية ثلاثة عشر وأن بني إسرائيل سلكوا اثني عشر منها واتبعهم فيها فرعون وجنوده وخرجوا قبل أن يصلوا إليهم ودخلوا جميعاً في المسلك الثالث عشر من الجانب المخالف لجانب دخولهم متوجهين فيه إلى جانب دخولهم فلم يخرجوا حتى صار جميع أعدائهم في تلك المسالك الإثني عشر التي اتبعوهم فيها فخرجوا وغشي أعداءهم من اليم ما غشيهم لا يخفى ما فيه، والقول بالعود إلى مصر مع القول بأن الانفلاق كان خطياً يتوقف على هذا أو على الانفلاق مرة أخرى أو على العبور بالسفن أو سلوك طريق إلى مصر غير الطريق الذي سلكوه خارجين منها إلى البحر.

والظاهر أنه لم يكن شيء من ذلك، ولا بأس على ما قيل بالقول بكون الانفلاق قوسياً سواء قلنا بالرجوع إلى مصر أم لا، وما يقال عليه من أنه يلزم حينئذ أن تكون مداخل تلك المسالك ومخارجها في جانب فرعون وجنوده وذلك مما يوجب خوف بني إسرائيل من الدخول لاحتمال أن يدخل عليهم أعداؤهم من الطرف الآخر الذي هو محل الخروج فيلاقوهم في الطريق على طرف الثمام كما لا يخفى على ذوي الأفهام.

وجوز على القول بأن الانفلاق كان قوسياً أن يكون دخول موسى عليه السلام وقومه من أحد طرفي القوس ودخول فرعون وجنوده من الطرف الآخر ليلاقوا موسى عليه السلام وقومه حتى إذا كمل الجمعان دخولاً رجع موسى عليه السلام وقومه القهقرى حتى إذا خرجوا جميعاً أغرق الله تعالى فرعون وجنوده أو حتى إذا كمل جمع موسى عليه السلام دخولاً وبان لهم أول الداخلين لملاقاتهم رجعوا القهقرى حتى إذا خرجوا جميعاً وقد كمل جمع فرعون دخولاً أهلك الله تعالى عدوهم فغشيه من اليم ما غشيه وهو كما ترى.

والذي ذهب إليه أهل الكتاب أن الانفلاق كان خطياً وأن المسالك اثني عشر مسلكاً لكل سبط مسلك ولا تقبيب هناك وأنه قد فتحت لهم كوى ليرى القريب قريبه ويرى الرجل من سبط زوجته من سبط آخر وأنهم خرجوا من الجهة المقابلة لجهة دخولهم وتوجهوا إلى أرض الشام، وليس في كتابنا ما هو نص في تكذيبه بل في الأخبار ما يشهد بصحة بعضه، واتحاد الفروق والمسالك في العدد يحتاج إلى نقل صحيح يثبته، والآية هنا لا تدل على أكثر من تعدد الفروق والله تعالى أعلم، وحكى يعقوب عن بعض القراء أنه قرأ «كل فلق» باللام بدل الراء، قال الراغب: الفرق يقارب الفلق لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق والفرق يقال اعتباراً بالانفصال. ومنه الفرقة للجماعة المنفردة من الناس ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ عطف على ﴿أوحينا﴾، وقيل: على محذوف يقتضيه السياق والتقدير فأدخلنا بني إسرائيل فيما انفلق من البحر وأزلفنا ﴿ثَمَّ﴾ أي هنالك ﴿الآخَرِينَ﴾ أي فرعون وجنوده أي قربناهم من قوم موسى عليه السلام حتى دخلوا

على أثرهم مداخلهم، وجوز أن يراد قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم لئلا ينجو منهم أحد.

أخرج ابن عبد الحكم عن مجاهد قال: كان جبريل عليه السلام بين الناس بين بني إسرائيل وبين آل فرعون فجعل يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل آل فرعون فيقول: رويدكم ليلحقكم آخركم فقالت بنو إسرائيل: ما رأينا سائقاً أحسن سياقاً من هذا وقال آل فرعون: ما رأينا وازعاً أحسن زعة من هذا، وقرأ الحسن وأبو حيوة «وزلفنا» بدون همزة، وقرأ أبي وابن عباس وعبدالله بن الحارث «وأزلقنا» بالقاف عوض الفاء أي أزلقنا أقدامهم، والمعنى أذهبنا عزهم كقوله:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها ... وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

ويحتمل أن يجعل الله تعالى طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبساً فيزلقهم فيه. هذا وقال صاحب اللوامح: قيل من قرأ بالقاف أراد بالآخرين فرعون وقومه ومن قرأ بالفاء أراد بهم موسى عليه السلام وأصحابه أي جمعنا شملهم وقربناهم بالنجاة. ولا يخفى أنه يبعد إرادة موسى عليه السلام وأصحابه من الآخرين قوله سبحانه: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي وأنجيناهم من الهلاك في أيدي أعدائهم ومن الغرق في البحر بحفظه على تلك الهيئة إلى أن خرجوا إلى البر، وقيل: ﴿ومن معه﴾ للإشارة إلى أن إنجاءهم كان ببركة مصاحبة موسى عليه السلام ومتابعته، وقيل: لينتظم من آمن به عليه السلام من القبط إذ لو قيل وقومه لتبادر منه بنو إسرائيل وفيه بحث ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ فرعون وجنوده بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى عليه السلام ومن معه وكان له وجبة. روي عن ابن عباس أن بني إسرائيل لما خرجوا سمعوا وجبة البحر فقالوا: ما هذا؟ فقال موسى عليه السلام: غرق فرعون وأصحابه فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر على الساحل: والتعبير عن فرعون وجنوده بالآخرين للتحقير، والظاهر أن ﴿ثم﴾ للتراخي الزماني، ولعل الأولى حملها على التراخي المعنوي لما بين المعطوفين من المباعدة المعنوية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من القصة، وما فيه من معنى البعد لتعظيم شأن المشار إليه؛ وقيل: لبعد المسافة بالنظر إلى مبدأ القصة ﴿لَآيَةً﴾ أي لآية عظيمة توجب الإيمان بموسى عليه السلام وتصديقه بما جاء به، وأريد بها على ما قيل انقلاب العصا ثعباناً وخروج يده عليه السلام بيضاء للناظرين وانفلاق البحر وأفردت لاتحاد المدلول.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي أكثر قوم فرعون الذين أمر موسى عليه السلام أن يأتيهم وهم القبط على ما استظهره أبو حيان حيث لم يؤمن منهم سوى مؤمن آل فرعون. وآسية امرأة فرعون، وبعض السحرة على القول بأن بعضهم من القبط لا كلهم كما عليه أهل الكتاب وهو الذي يقتضيه ظاهر كلام بعض منا. والعجوز التي دلت موسى على قبر يوسف عليهما السلام ليلة الخروج من مصر ليحمل عظامه معه، وقيل: المراد بالآية ما كان في البحر من إنجاء موسى عليه السلام ومن معه وإغراق الآخرين، وضمير ﴿أكثرهم﴾ للناس الموجودين بعد الإغراق والإنجاء من قوم فرعون الذين لم يخرجوا معه لعذر ومن بني إسرائيل، والمراد بالإيمان المنفي عنهم التصديق اليقيني الجازم الذي لا يقبل الزوال أصلاً أي وما كان أكثر الناس الموجودين بعد تحقق هذه الآية العظيمة وظهورها مصدقين تصديقاً يقينياً جازماً لا يقبل الزوال فإن الباقين في مصر من القبط لم يؤمن أحد منهم مطلقاً وأكثر بني إسرائيل كانوا غير متيقنين ولذا سألوا بقرة يعبدونها وعبدوا العجل فلا يقال لهم مؤمنون بالمعنى المذكور، ويكفي في إيمان البعض الذي يدل عليه المفهوم كون البعض المؤمن من بني إسرائيل وحيث كان المراد وما كان أكثرهم بعد تحقق آيتي الإغراق والإنجاء وظهورهما مؤمنين لا يصح جعل الضمير للقبط إلا ببيان الأقل المؤمن والأكثر الكافر منهم بعد تحقق الآيتين، وما ذكر في بيان الأقل المؤمن منهم ليس كذلك إذ إيمان من ذكر كان في ابتداء الرسالة على أن العجوز من بني إسرائيل كما

جاء في حديث أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي موسى مرفوعاً بل أخرج ابن عبد الحكم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما(١) أنها شارح ابنة أشير بن يعقوب عليه السلام فهي بنت أخي يوسف عليه السلام فتكون أقرب من موسى عليه السلام إلى إسرائيل.

وأجيب بأن من يرجع الضمير على القبط لا يلزمه أن يفسر الآية بالإغراق والإنجاء بل يقول: المراد بها المعجزات من العصا واليد وانفلاق البحر ويقول: إن إيمان الأقل بعد تحقق بعضها كاف لاتحاد مدلولها في تحقق المفهوم، وأما إرجاع الضمير على الناس الموجودين بعد الإغراق والإنجاء من بني إسرائيل وقوم فرعون الذين لم يخرجوا معه فخلاف الظاهر وكذا حمل الإيمان على ما ذكر وجعل أكثر بني إسرائيل المخصوصين بالإنجاء غير مؤمنين وإن حصل منهم عند وقوع بعض الآيات ما لا ينبغي صدوره من المؤمنين فإنهم لم يستمروا عليه. فقد أخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن أبي الدرداء جعل النبي ﷺ يصفق بيديه ويعجب من بني إسرائيل وتعنتهم لما حضروا البحر وحضر عدوهم جاؤوا موسى عليه السلام فقالوا: قد حضرنا العدو فماذا أمرت قال: إن أنزل هاهنا فإما أن يفتح لي ربي ويهزمهم وإما أن يفرق لي هذا البحر فانطلق نفر منهم حتى وقعوا في البحر فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فتأطط كما يتأطط العرش ثم ضربه الثانية فمثل ذلك ثم ضربه الثالثة فانصدع فقالوا هذا عن غير سلطان موسى فجازوا البحر فلم يسمع بقوم أعظم ذنباً ولا أسرع توبة منهم.

ومتى حمل الإيمان على ما ذكر وصح نفي الإيمان عمن صدر منه ما يدل على عدم رسوخه جاز إرجاع الضمير على بني إسرائيل خاصة فإن أكثرهم لم يكونوا راسخين فيه. وظاهر عبارة بعضهم يوهم إرجاعه إليهم وليس ذاك بشيء، وقد سلك شيخ الإسلام في تفسير الآية مسلكاً تفرد في سلوكه فيما أظن فقال: إن في ذلك أي في جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال وما فعل بهم من العذاب والنكال لآية أي آية وآية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبي ﷺ بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا تعاطي ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا رسوله ﷺ كيلا يحل بهم ما حل بأولئك أو إن فيما فصل في القصة من حيث حكايته عليه السلام إياها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحي الصادق موجبة للإيمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله ﷺ وما كان أكثرهم أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام مؤمنين لا بأن يقيسوا شأنه ﷺ بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدي إلى الإيمان قطعاً، ومعنى ﴿**ما كان أكثرهم مؤمنين**﴾ ما أكثرهم مؤمنين على أن ﴿**كان**﴾ زائدة كما هو رأي سيبويه فيكون كقوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: ١٠٣] وهو إخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد سماع الآيات الناطقة بالقصة تقريراً لما مر من قوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا﴾ [الشعراء: ٥] إلخ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان واستمرارهم عليه.

ويجوز أن تجعل ﴿**كان**﴾ بمعنى صار كما في قوله تعالى: ﴿وكان من الكافرين﴾ [البقرة: ٣٤، ص: ٧٤]

---

(١) وذكر بعضهم أن اسم هذه العجوز مريم بنت ياموشا ا هـ منه.

فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة للإيمان بما ذكر من الطريقين فيكون الإخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل: ١] وادعى إن هذا التفسير هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة إلى آخر القصص السبع بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاء بيناً. ثم قال: وأما ما قيل من أن ضمير ﴿أكثرهم﴾ لأهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلا آسية ومؤمن آل فرعون والعجوز التي دلت على قبر يوسف عليه السلام وبنو إسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة: ٥٥] فبمعزل عن التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدا ما بأيديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الإيمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ما هم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم لا سيما بعد الإخبار بهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أولاً وإخراجهم منها آخراً مع عدم مشاركتهم لهم في شيء مما حكى عنهم من الجنايات أصلاً مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله. ورجوع ضمير ﴿أكثرهم﴾ في قصة إبراهيم عليه السلام إلى قومه مما لا سبيل إليه أيضاً أصلاً لظهور أنهم ما ازدادوا بما سمعوه منه إلا طغياناً وكفراً حتى اجترؤوا على تلك العظيمة التي فعلوها به فكيف يعبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمن له لوط فنجاهما الله تعالى إلى الشام فتدبر ا هـ.

وتعقب بأن فيها محذوراً من عدة أوجه. أما أولاً فلأن حمل كان على الصلة مع ظهور الوجه الصحيح غير صحيح وقد لزم هنا بعد هذا حمل الجملة الاسمية باعتبار الاستمرار على أنهم لا يكونون بعد نزول هذه الآية مؤمنين. وإن جعل بمعنى صار يلزم جعله مضارعاً لكن عدل عنه للدلالة على كمال التحقق. وهذا أيضاً مع إمكان المعنى العاري عن الاحتياج لذلك غير مناسب، وأما ثانياً فلأن إرجاع ضمير ﴿أكثرهم﴾ إلى قوم نبينا ﷺ صرف عن مرجعه المتقدم المذكور لفظاً سيما في القصص الآتية المصدرة بكذبت، وأما ثالثاً فلأن قوله: لا بأن يقيسوا شأنه عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام إلخ لا يخلو عن صعوبة إذ الأمر المشترك بينهما عليهما الصلاة والسلام ليس إلا أن كلاً منهما نبي مؤيد بالمعجزات مطلقاً وأما إن نظر إلى خصوصيات المعجزات فلا يخفى أنه لا مشاركة بينهما. وكذا قياس حالهم على حال فرعون وقومه لا يخلو عنها على هذا القياس وأما رابعاً فلأن قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية﴾ إلخ قد ذكر على هذا النسق في سبعة مواضع ولا بد من تنسيق تفسيره على نظام واحد فيها مهما أمكن. ومن جملة ذلك ما في قصة نبي الله تعالى لوط عليه السلام وقد ذكر فيها من حال قومه فعلهم الشنيع المعهود ثم إهلاك جميعهم. وما في قصة نبي الله تعالى شعيب عليه السلام وقد ذكر فيها من حال أصحاب الأيكة عملهم المتعلق بالكيل والوزن ثم إهلاك جميعهم من غير تصريح بحيثية كفر كل قوم فلا يناسب فيهما أن يقال: إن في ذلك لآية موجبة لإيمان قريش بأن يقيسوا حال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا تعاطي ما كانوا يتعاطون من المعاصي هذا على الطريق الأول وأما الطريق الثاني ففيه أيضاً عدة محذورات.

أما أولاً وثانياً فلما ذكر أولاً وثانياً، وأما ثالثاً فلأن كلاً من كلتا القصتين ذكر هنا على وجه الإجمال وذكر مفصلاً في سورة أخرى وكل منهما ذكر محدث بحسب نزوله فلا وجاهة في أن يقال: وما أكثرهم مؤمنين بك بأن يتدبروا في حكايتك لقصتهم من غير أن تسمعها من أحد بناء على أنهم قد سمعوها منه عليه الصلاة والسلام مفصلة

قبل نزول هذه الآية مع أن كون حكايته صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك من غير أن يسمعه من أحد مما يؤدي إلى إيمانهم قطعاً محل تردد، وأما رابعاً فلأن آخر هذه القصة قوله تعالى: ﴿وأنجينا﴾. ﴿ثم أغرقنا﴾ وكذا آخر قصة لوط عليه السلام قوله تعالى: ﴿فنجيناه﴾ [الشعراء: ١٧٠] ﴿ثم دمرنا﴾ [الشعراء: ١٧٢] و ﴿أمطرنا﴾ [الشعراء: ١٧٣] فالمتبادر أن تكون الإشارة إلى نفس المحكي المشتمل على الأفعال العجيبة الإلهية لا إلى حكايتها. وأما ما قاله في تزييف ما قيل فليس بشيء أيضاً لأن نسبة التكذيب إلى كل قوم من الأقوام الذين نسب إليهم إنما هي باعتبار الأكثر كما يرشد إليه قوله تعالى في قصة قوم نوح عليه السلام حكاية عنهم بعد أن قال سبحانه: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [الشعراء: ١٠٥] ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ [الشعراء: ١١١] وقوله عز وجل بعد ذلك حكاية عن نوح عليه السلام ما قال في جوابهم ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ [الشعراء: ١١٤] فيكون ضمير ﴿أكثرهم﴾ راجعاً إلى القوم غير ملاحظ فيهم ذلك. ومثله كثير في الكلام؛ ويراد بالأكثر في المواضع السبعة جمع موصوفون بزيادة الكثرة سواء كان البعض المؤمن واحداً أو أكثر فلا يرد أنه كيف يعبر عن قوم إبراهيم عليه السلام بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمن له لوط عليه السلام فتأمل انتهى، ولا يخفى ما فيه من الغث والسمين.

وأنا أختار كما اختار شيخ الإسلام رجوع الضمير إلى قوم نبينا عليه الصلاة والسلام وأول السورة الكريمة وآخرها في الحديث عنهم وتسليته ﷺ عما قالوه في شأن كتابه الأكرم ونهيه صريحاً وإشارة عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات وكل ذلك يقتضي اقتضاء لا ريب فيه رجوع الضمير إلى قومه عليه الصلاة والسلام ويهون أمر عدم رجوعه إلى الأقرب لفظاً ويكون الارتباط على هذا بين الآيات أقوى.

وأختار أن الإشارة إلى ما تضمنته القصة وأن المعنى أن فيما تضمنته هذه القصة لآية عظيمة دالة على ما يجب على قومك الإيمان به من شؤونه عز وجل وما كان أكثرهم مؤمنين بذلك وكذا يقال في جميع ما يأتي إن شاء الله تعالى وكل ذلك على نمط ما تقدم. وكذا الكلام في ﴿كان﴾ وما يتعلق بالجملة.

والكلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ كالكلام فيما تقدم أيضاً، ولعل تخريج ما ذكر على هذا الوجه أحسن من تخريج شيخ الإسلام فتأمل والله تعالى أعلم بحقائق ما أنزل من الكلام.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على المضمر العامل في ﴿إذ نادى﴾ إلخ أي اذكر ذلك لقومك واتل عليهم ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي خبره العظيم الشأن حسبما أوحى إليك ليتأكد عندك لعدم تأثرهم بما فيه العلم بشدة عنادهم. وتغيير الأسلوب لمزيد الاعتناء بأمر هذه القصة لأن عدم الإيمان بعد وقوفهم على ما تضمنته أقوى دليل على شدة شكيمتهم لما أن إبراهيم عليه السلام جدهم الذي يفتخرون بالانتساب إليه والتأسي به عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ﴾ منصوب على الظرفية لنبأ على ما ذهب إليه أبو البقاء أي نبأه وقت قوله ﴿لأبيه وَقَوْمِه﴾ أو على المفعولية لأتل على أنه بدل من نبأ على ما يقتضيه كلام الحوفي أي اتل عليهم وقت قوله لهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ على أن المتلو ما قاله عليه السلام لهم في ذلك الوقت. وضمير ﴿قومه﴾ عائد على إبراهيم، وقيل: عائد على أبيه ليوافق قوله تعالى: ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ [الأنعام: ٧٤] ويلزم عليه التفكيك.

وسألهم عليه السلام عما يعبدون ليبني على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزل عن استحقاق العبادة بالكلية لا للاستعلام إذ ذلك معلوم مشاهد له عليه السلام ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناماً كما في قوله تعالى: ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ [النحل: ٣٠] و ﴿يسألونك ماذا ينفقون

قل العفو ﴾ [البقرة: ٢١٩] إلى غير ذلك بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم مع أنه لم يسأل عنه قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك. وهو على ما في الكشف من الأسلوب الأحمق، والمراد بالظلول الدوام كما في قولهم: لو ظل الظلم هلك الناس. وتكون ظل على هذا تامة. وقد قال بمجيئها كذلك ابن مالك وأنكره بعض النحاة، وقيل: فعل الشيء نهاراً فقد كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل فتكون ظل على هذا ناقصة دالة على ثبوت خبرها لاسمها في النهار.

واختار بعض الأجلة الأول لتبادر الدوام وكونه أبلغ مناسباً لمقام الابتهاج والافتخار، واختار الزمخشري الثاني لأنه أصل المعنى وهو مناسب للمقام أيضاً لأنه يدل على إعلانهم الفعل لافتخارهم به. و ﴿عاكفين ﴾ على الأول حال وعلى الثاني خبر والجار متعلق به. وإيراد اللام دون على لإفادة معنى زائد كأنهم قالوا: نظل لأجلها مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها. وهذا أيضاً على ما قيل من جملة إطنابهم ﴿قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ دخل فعل السماع على غير مسموع، ومذهب الفارسي أنه حينئذ يتعدى إلى اثنين ولا بد أن يكون الثاني مما يدل على صوت فالكاف هنا عنده مفعول أول والمفعول الثاني محذوف والتقدير هل يسمعونكم تدعون وحذف لدلالة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُونَ ﴾ عليه. ومذهب غيره أنه حينئذ متعد إلى واحد، وإذا وقعت بعده جملة ملفوظة أو مقدرة فهي في موضع الحال منه إن كان معرفة وفي موضع الصفة له إن كان نكرة.

وجوز فيها البدلية أيضاً. وإذا دخل على مسموع تعدى إلى واحد اتفاقاً، ويجوز أن يكون ما هنا داخلاً على ذلك على أن التقدير هل يسمعون دعاءكم فحذف المضاف لدلالة ﴿إذ تدعون ﴾ أيضاً عليه، وقيل: السماع هنا بمعنى الإجابة كما في قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يسمع» ومنه قوله عز وجل: ﴿إنك سميع الدعاء ﴾ [آل عمران: ٣٨] أي هل يجيبونكم وحينئذ لا نزاع في أنه متعد لواحد ولا يحتاج إلى تقدير مضاف. والأولى إبقاؤه على ظاهر معناه فإنه أنسب بالمقام، نعم ربما يقال: إن ما قيل أوفق بقراءة قتادة ويحيى بن يعمر «يُسْمِعُونَكُمْ» بضم الياء وكسر الميم من أسمع والمفعول الثاني محذوف تقديره الجواب. و ﴿إذ ﴾ ظرف لما مضى وجيء بالمضارع لاستحضار الحال الماضية وحكايتها. وأما كون هل تخلص المضارع للاستقبال فلا يضر هنا لأن المعتبر زمان الحكم لا زمان التكلم وهو هنا كذلك لأن السماع بعد الدعاء، وقال أبو حيان: لا بد من التجوز في ﴿إذ ﴾ بأن تجعل بمعنى إذا أو التجوز في المضارع بأن يجعل بمعنى الماضي. واعتبار الاستحضار أبلغ في التبكيت وقرىء بإدغام ذال ﴿إذ ﴾ في تاء ﴿تدعون ﴾ وذلك بقلبها تاء وإدغامها في التاء.

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ ﴾ بسبب عبادتكم لهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أي يضرونكم بترككم لعبادتهم إذ لا بد للعبادة لا سيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو دفع ضر. وترك المفعول للفاصلة. ويدل عليه ما قبله، وقيل: المراد أو يضرون من أعرض عن عبادتهم كائناً من كان وهو خلاف الظاهر الذي يقتضيه العطف.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضر اعترافاً بما لا سبيل لهم إلى إنكاره واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد فكأنهم قالوا لا يسمعون ولا ينفعوننا ولا يضرون وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم. وتقديم المفعول المطلق للفاصلة.

قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾
ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى

يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا
وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾
وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن
دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا
يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ
﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا
وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿**قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ**﴾ أي أنظرتم فأبصرتم أو تأملتم فعلمتم أي شيء استدمتم على عبادته أو أي شيء تعبدونه ﴿**أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ**﴾ والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها وأن عبادتها ضلال قديم لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين. وقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي**﴾ قيل: تعليل لما يفهم من ذلك من إني لا أعبدهم أو لا تصح عبادتهم؛ وقيل: خبر لما كنتم إذا المعنى أفأخبركم وأعلمكم بمضمون هذا. واختار بعض الأجلة أنه بيان وتفسير لحال ما يعبدونه التي لو أحاطوا بها علماً لما عبدوه أي فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما أنهم يتضررون من جهتهم تضرر الرجل من جهة عدوه فإطلاق العدو عليهم من باب التشبيه البليغ.

وجوز أن يكون من باب المجاز العقلي بإطلاق وصف السبب على المسبب من حيث إن المغري والحامل على عبادتهم هو الشيطان الذي هو عدو مبين للإنسان والأول أظهر. والداعي للتأويل أن الأصنام لكونها جمادات لا تصلح للعداوة. وما قيل: إن الكلام على القلب والأصل فإني عدو لهم ليس بشيء.

وقال النسفي: العدو اسم للمعادي والمعادي جميعاً فلا يحتاج إلى تأويل ويكون كقوله: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ [الأنبياء: ٥٧] وصور الأمر في نفسه تعريضاً لهم كما في قوله تعالى: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني

وإليه ترجعون ﴾ [يس: ٢٢] ليكون أبلغ في النصح وأدعى للقبول. ومن هنا استعمل الأكابر التعريض في النصح. ومنه ما يحكى عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أن رجلاً واجهه بشيء فقال: لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب. وسمع رجل ناساً يتحدثون في الحجر فقال: ما هو بيتي ولا بيتكم. وضمير ﴿إنهم﴾ عائد على ﴿ما﴾ وجمع مراعاة لمعناها وإفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع إما لأنه مصدر في الأصل فيطلق على الواحد المذكر وغيره أو لاتحاد الكل في معنى العداوة أو لأن الكلام بتقدير فإن كلاً منهم أو لأنه بمعنى النسب أي ذو كذا فيستوي فيه الواحد وغيره كما قيل.

وقوله سبحانه: ﴿إلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع من ضمير «إنهم» عند جماعة منهم الفراء واختاره الزمخشري أي لكن رب العالمين ليس كذلك فإنه جل وعلا ولي من عبده في الدنيا والآخرة لا يزال يتفضل عليه بالمنافع.

وقال الزجاج: هو استثناء متصل من ذلك الضمير العائد على ﴿ما تعبدون﴾ ويعتبر شموله لله عز وجل وفي آبائهم الأقدمين من عبدالله جل وعلا من غير شك أو يقال: إن المخاطبين كانوا مشركين وهم يعبدون الله تعالى والأصنام. وتخصيص الأصنام هنا بالذكر للرد لا لأن عبادتهم مقصورة عليها ولو سلم أنه لذلك فهو باعتبار دوام العكوف وذلك لا ينافي عبادتهم إياه عز وجل أحياناً، وقال الجرجاني: إن الاستثناء من ﴿ما كنتم تعبدون﴾ و ﴿إلا﴾ بمعنى دون وسوى وفي الآية تقديم وتأخير والأصل أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وأباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين أي دون رب العالمين فإنهم عدو لي ولا يخفى ما فيه ﴿الَّذي خَلَقَني﴾ صفة لرب العالمين. ووصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين زيادة في الإيضاح في مقام الإرشاد، وقيل: تصريحاً بالنعم الخاصة به عليه السلام وتفصيلاً لها لكونها أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء في جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى.

﴿فَهُوَ يَهْدِين﴾ عطف على الصلة أي فهو يهديني وحده جل شأنه إلى كل ما يهمني ويصلحني من أمور المعاش والمعاد هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبيء عنه الفاء وصيغة المضارع فإنه تعالى يهدي كل ما خلقه لما خلق له هداية متدرجة من مبتدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره إما طبعاً وإما اختياراً مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث في المشهور ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم، وجوز الحوفي وغيره كون الموصول مبتدأ وجملة ﴿هو يهديني﴾ خبره ودخلت الفاء في خبره لتضمنه معنى الشرط نحو الذي يأتيني فله درهم.

وتعقبه أبو حيان بأن الفاء إنما يؤتى بها في خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط إذا كان عاماً وهنا لا يتخيل فيه العموم فليس ما نحن فيه نظير المثال. وأيضاً الفعل الذي هو خلق مما لا يمكن فيه تجدد بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام فلعل ذلك على مذهب الأخفش من جواز زيادة الفاء في الخبر مطلقاً نحو زيد فاضربه، وأجيب بأن اشتراط العموم غير مسلم كما فصله الرضي وإنما هو أغلبي. وبأن مطلق الخلق مما يمكن فيه التجدد وهو ممكن الإرادة وإن ظهر في صورة المخصوص وتسبب الخلق للهداية بمقتضى الحكمة، وقيل: إنه سبب للإخبار بها لتحققها وليس بشيء ويلزم على الإعراب المذكور أن يكون الموصول في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقين﴾ مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده. ولا يخفى ما في ذلك لفظاً ومعنى فاللائق بجزالة التنزيل الإعراب

الأول وعليه يكون الموصول عطفاً على الموصول الأول، وإنما كرر الموصول في المواضع الثلاثة مع كفاية عطف ما في حيز الصلة من الجمل الست على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل في استيجاب الحكم حقيق بأن تجري عليه عز وجل بحيالها ولا تجعل من روادف غيرها، والظاهر أن المراد إطعام الطعام المعروف وسقي الشراب المعهود وجيء بهو هنا دون الخلق لشيوع إسناد الإطعام والسقي إلى غيره عز وجل بخلاف الخلق وعلى هذا القياس فيما جيء فيه بهو وما ترك مما يأتي إن شاء الله تعالى.

وعن أبي بكر الوراق أن المعنى يطعمني بلا طعام ويسقيني بلا شراب كما جاء «إني أبيت يطعمني ربي ويسقين» وهو مشرب صوفي. وأتى بهذين الصفتين بعد ما تقدم لما أن دوام الحياة وبقاء نظام خلق الإنسان بالغذاء والشراب ما سلك فيهما مسلك العدل وهو أشد احتياجاً إليهما منه إلى غيرهما ألا ترى أن أهل النار وهم في النار لم يشغلهم ما هم فيه من العذاب عن طلبهما فقالوا: «أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله».

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطف على «يطعمني ويسقين» نظم معهما في سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب غالباً:

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

وقالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا: التخم ونسبة المرض الذي هو نقمة إلى نفسه والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب كما قال الخضر عليه السلام: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ [الكهف: ٧٩] وقال: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ [الكهف: ٨٢] ولا يرد إسناده الإماتة وهي أشد من المرض إليه عز وجل في قوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين﴾ لإمكان الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله عز وجل على سائر البشر وحكم عام لا يخص ولا كذلك المرض فكم من معافى منه إلى أن يبغته الموت فالتأسي بعموم الموت يسقط أثر كونه نقمة فيسوغ الأدب نسبته إليه تعالى. وأما المرض فلما كان يخص به بعض البشر دون بعض كان نقمة محققة فاقتضى العلو في الأدب أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار السبب الذي لا يخلو منه.

ويؤيد ذلك أن كل ما ذكر مع غير المرض أخبر عن وقوعه بتاً وجزماً لأنه أمر لا بد منه وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا أورده مقروناً بشرط إذا فقال: ﴿وإذا مرضت﴾ وكان يمكنه أن يقول: والذي أمرض فيشفيني كما قال في غيره فما عدل عن المطابقة والمجانسة المأثورة إلا لذلك كذا قاله ابن المنير.

وقال الزمخشري : إنما قال : مرضت دون أمرضني لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك وكأنه إنما عدل في التعليل عن حسن الأدب لما رأى أنه عليه السلام أضاف الإماتة إليه عز وجل وهي أشد من المرض ولم يخطر له الفرق بما مر أو نحوه وغفل عن أن المعنى الذي أبداه في المرض ينكسر بالموت أيضاً فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في المطعم وغيره كذلك الموت الناشىء عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان وقد أضاف عليه السلام الإماتة مطلقاً إليه عز شأنه.

وقال بعض الأجلة بعد التعليل بحسن الأدب في وجه إسناد الإماتة إليه تعالى: إنها حيث كانت معظم خصائصه عز وجل كالإحياء بدءاً وإعادة وقد نيطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله: ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ على أن الموت لكونه ذريعة إلى نيله عليه السلام للحياة الأبدية بمعزل من أن يكون غير مطبوع عنده عليه السلام انتهى، وأولى من هذه العلاوة ما قيل: إن الموت لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب

الأبدية التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية. وفيه تخليص العاصي من اكتساب المعاصي، ثم إن حمل المرض والشفاء على ما هو الظاهر منهما هو الذي ذهب إليه المفسرون. وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أن المعنى وإذا مرضت بالذنوب فهو يشفيني بالتوبة ولعله لا يصح وإن صح فهو من باب الإشارة لا العبارة، و ﴿ثم﴾ في قوله: ﴿ثم يحيين﴾ للتراخي الزماني لأن المراد بالإحياء الإحياء للبعث وهو متراخ عن الإماتة في الزمان في نفس الأمر وإن كان كل آت قريب، وأثبت ابن أبي إسحاق ياء المتكلم في ﴿يهديني﴾ وما بعده وهي رواية عن نافع ﴿وَالَّذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطِيئَتي يَوْمَ الدِّين﴾ استعظم عليه السلام ما عسى يندر منه من فعل خلاف الأولى حتى سماه خطيئة. وقيل: أراد بها قوله: ﴿إني سقيم﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله لسارة هي أختي، ويدل على أنه عليه السلام عدها من الخطايا ما ورد في حديث الشفاعة من امتناعه عليه السلام من أن يشفع حياء من الله عز وجل لصدور ذلك عنه. وفيه أنه وإن صح عدها من الخطايا بالنظر إليه عليه السلام لما قالوا: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين إلا أنه لا يصح إرادتها هنا لما أنها إنما صدرت عنه عليه السلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه، أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام إلى الشام؛ وأما الأوليان فلأنهما وقعتا مكتنفتين بكسر الأصنام، ومن البين أن جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادىء الأمر، وهذا أولى مما قيل: إنها من المعاريض وهي لكونها في صورة الكذب يمتنع لها من تصدر عنه من الشفاعة ولكونها ليست كذباً حقيقة لا تفتقر إلى الاستغفار فلا يصح إرادتها هنا لأن ذلك الامتناع ليس إلا لعده إياها من الخطايا ومتى عدت منها افتقرت إلى الاستغفار، وقيل: أراد بها ما صدر عنه عند رؤية الكوكب والقمر والشمس من قوله: ﴿هذا ربي﴾ [الأنعام: ٧٦] وكان ذلك قبل هذه المقاولة كما لا يخفى، وقد تقدم أن ذلك ليس من الخطيئة في شيء، وقيل: أراد بها ما عسى يندر منه من الصغائر وهو قريب مما تقدم، وقيل: أراد بها خطيئة من يؤمن به عليه السلام كما قيل نحوه في قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢]، وهو كما ترى والطمع على ظاهره ولم يجزم عليه السلام لعلمه أن لا وجوب على الله عز وجل. وعن الحسن أن المراد به اليقين وليس بذاك. والظرفان متعلقان بيغفر.

والإتيان بالأول للإشارة إلى أن نفع مغفرته تعالى إنما يعود إليه عليه السلام. وتعليق المغفرة بيوم الدين مع أن الخطيئة إنما تغفر في الدنيا لأن أثرها يتبين يومئذ ولأن في ذلك تهويلاً لذلك اليوم. وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر. وفي هذه الجملة من التلطف بأبيه وقومه في الدعوة إلى الإيمان ما فيها. وقرأ الحسن «خطاياي» على الجمع ﴿رَبِّ هَبْ لي حُكْماً﴾ لما ذكر لهم من صفاته عز وجل مما يدل على كمال لطفه تعالى به ما ذكر حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد. والمراد بالحكم على ما اختاره الإمام الحكمة التي هي كمال القوة العلمية بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به. وقيل: الأولى أن يفسر بكمال العلم المتعلق بالذات والصفات وسائر شؤونه عز وجل وأحكامه التي يتعبد بها. وقيل : هي النبوة ورد بأنها كانت حاصلة له عليه السلام. فالمطلوب إما عين الحاصل وهو محال ضرورة امتناع تحصيل الحاصل أو غيره وهو محال أيضاً لأن الشخص الواحد لا يكون نبياً مرتين. وأجيب بمنع كونها حاصلة وقت الدعاء سلمنا ذلك إلا أنه لا محذور لجواز أن يكون المراد طلب كمالها ويكون بمزيد القرب والوقوف على الأسرار الإلهية والأنبياء عليهم السلام متفاوتون في ذلك. وجوز أن يكون المراد طلب الثبات ولا يجب على الله تعالى شيء. والمراد بقوله: ﴿وَأَلْحِقْني بالصَّالِحينَ﴾ طلب كمال القوة العملية بأن يكون موفقاً لأعمال ترشحه للانتظام في زمرة الكاملين الراسخين في الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها. وقدم الدعاء الأول على الثاني لأن القوة العلمية مقدمة على القوة العملية لأنه يمكن أن يعلم الحق وإن لم يعمل به وعكسه غير

ممكن، ولأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن فكما أن الروح أشرف من البدن كذلك العلم أشرف من العمل، وقيل: المراد بالحكم الحكمة التي هي الكمال في العلم والعمل. والمراد بقوله: ﴿وألحقني﴾ إلخ طلب الكمال في العمل، وذكره بعد ذلك تخصيص بعد تعميم اعتناء بالعمل من حيث إنه النتيجة والثمرة للعلم. وقيل: المراد بالأول ما يتعلق بالمعاش وبالثاني ما يتعلق بالمعاد. وقيل: المراد بالحكم رياسة الخلق وبالإلحاق بالصالحين التوفيق للعدل فيما بينهم مع القيام بحقوقه تعالى. وقيل: المراد بهذا الجمع بينه عليه السلام وبين الصالحين في الجنة، وأنت تعلم أنه لا يحسن بعد هذا الدعاء طلبه أن يكون من ورثة جنة النعيم والأولى عندي أن يفسر الحكم بالحكمة بمعنى الكمال في االعلم والعمل والإلحاق بالصالحين بجعل منزلته كمنزلتهم عنده عز وجل والمراد بطلب ذلك أن يكون علمه وعمله مقبولين إذ ما لم يقبلا لا يلحق صاحبهما بالصالحين ولا تجعل منزلته كمنزلتهم. وكأنه لذلك عدل عن قول: رب هب لي حكماً وصلاحاً أو رب هب لي حكماً واجعلني من الصالحين إلى ما في النظم الكريم فتأمل ولا تغفل ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرِينَ﴾ أي اجعل لنفعي ذكراً صادقاً في جميع الأمر إلى يوم القيامة، وحاصله خلد صيتي وذكري الجميل في الدنيا وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة والسنن المرضية لديه تعالى المستحسنة التي يقتدي بها الآخرون ويذكرونه بسببها بالخير وهم صادقون. فاللسان مجاز عن الذكر بعلاقة السببية واللام للنفع ومنه يستفاد الوصف بالجميل، وتعريف ﴿الآخرين﴾ للاستغراق والكلام مستلزم لطلب التوفيق للآثار الحسنة التي أشرنا إليها وكأنه المقصود بالطلب على أبلغ وجه ولا بأس بأن يريد تخليد ذكره بالجميل ومدحه بما كان عليه عليه السلام في زمانه ولكون الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى ورضائه كما ورد في الحديث يحسن طلبه من الأكابر من هذه الجهة والقصد كل القصد هو الرضا.

ويحتمل أن يراد بالآخرين آخر أمة يبعث فيها نبي وأنه عليه السلام طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم ببعثة نبي فيهم يجدد أصل دينه ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد معلماً لهم أن ذلك ملة إبراهيم عليه السلام فكأنه طلب بعثة نبي كذلك في آخر الزمان لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة وليس ذلك إلا نبينا محمداً ﷺ وقد طلب بعثته عليهما الصلاة والسلام بما هو أصرح مما ذكر أعني قوله: ﴿وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك﴾ [البقرة: ١٢٩] إلخ، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا دعوة إبراهيم عليه السلام».

وقيل إذا أريد ذلك فلا بد من تقدير مضاف في كلامه عليه السلام أي اجعل لي صاحب لسان صدق في الآخرين أو جعل اللسان مجازاً عن الداعي بإطلاق الجزء على الكل لأن الدعوة باللسان فكأنه قال: اجعل لي داعياً إلى الحق صادقاً في الآخرين، ولا يخفى أن فيما ذكرناه غني عن ذلك كله، وفي تعليقات شيخ مشايخنا العلامة صبغة الله الحيدري طاب ثراه على تفسير البيضاوي في هذه الآية كلام ناشىء من قلة إمعان النظر فلا تغتر به.

واستدل الإمام مالك بهذه الآية على أنه لا بأس أن يحب الرجل أن يثني عليه صالحاً، وفائدة ذلك بعد الموت على ما قال بعض الأجلة انصراف الهمم إلى ما به يحصل له عند الله تعالى زلفى وأنه قد يصير سبباً لاكتساب المثنى أو غيره نحو ما أثنى به فيثاب فيشاركه فيه المثنى عليه كما هو مقتضى «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» ولا يخفى عليك أن الأمور بمقاصدها ﴿وَاجْعَلْني﴾ في الآخرة ﴿مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ قد مر معنى وراثة الجنة فتذكر. واستدل بدعائه عليه السلام بهذا بعد ما تقدم من الأدعية على أن العمل الصالح لا يوجب دخول الجنة وكذا كون العبد ذا منزلة عند الله عز وجل وإلا لاستغنى عليه السلام بطلب الكمال في العلم والعمل وكذا بطلب الإلحاق بالصالحين ذوي الزلفى عنده تعالى عن طلب ذلك، وأنت تعلم أنه تحسن الإطالة في مقام

الابتهال ولا يستغني بملزوم عن لازم في المقال فالأولى الاستدلال على ذلك بغير ما ذكر وهو كثير مشتهر، هذا وفي بعض الآثار ما يدل على مزيد فضل هذه الأدعية.

أخرج ابن أبي الدنيا في الذكر وابن مردويه من طريق الحسن عن سمرة بن جندب قال: «قال رسول الله ﷺ إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فأسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج بسم الله الذي خلقني فهو يهدين هداه الله تعالى للصواب ـ ولفظ ابن مردويه ـ لصواب الأعمال والذي هو يطعمني ويسقين أطعمه الله تعالى من طعام الجنة وسقاه من شراب الجنة وإذا مرضت فهو يشفين شفاه الله تعالى وجعل مرضه كفارة لذنوبه والذي يميتني ثم يحيين أحياه الله تعالى حياة السعداء وأماته ميتة الشهداء والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين غفر الله تعالى له خطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين وهب الله تعالى له حكماً وألحقه بصالح من مضى وصالح من بقي واجعل لي لسان صدق في الآخرين كتب في ورقة بيضاء أن فلان بن فلان من الصادقين ثم يوفقه الله تعالى بعد ذلك للصدق واجعلني من ورثة جنة النعيم جعل الله تعالى له القصور والمنازل في الجنة» وكان الحسن رضي الله تعالى عنه يزيد فيه واغفر لوالدي كما ربياني صغيراً وكأنه أخذ من قوله: ﴿وَاغْفِرْ لأبي﴾ قال ابن عباس كما أخرج عنه ابن أبي حاتم أي امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك، وحاصله وفقه للإيمان كما يلوح به تعليله بقوله: ﴿أَنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وهذا ظاهر إذا كان هذا الدعاء قبل موته وإن كان بعد الموت فالدعاء بالمغفرة على ظاهره وجاز الدعاء بها لمشرك والله تعالى لا يغفر أن يشرك به لأنه لم يوح إليه عليه السلام بذلك إذ ذاك والعقل لا يحكم بالامتناع، وفي شرح مسلم للنووي[1] أن كونه عز وجل لا يغفر الشرك مخصوص بهذه الأمة وكان قبلهم قد يغفر وفيه بحث، وقيل: لأنه كان يخفي الإيمان تقية من نمروذ ولذلك وعده بالاستغفار فلما تبين عداوته للإيمان في الدنيا بالوحي أو في الآخرة تبرأ منه.

وقوله على هذا: ﴿من الضالين﴾ بناءً على ما ظهر لغيره من حاله أو معناه من الضالين في كتم إيمانه وعدم اعترافه بلسانه تقية من نمروذ، والكلام في هذا المقام طويل وقد تقدم شيء منه فتذكر ﴿وَلاَ تُخزني﴾ بتعذيب أبي أو ببعثه في عداد الضالين بعدم ترفيقه للإيمان أو بمعاتبتي على ما فرطت أو بنقص رتبتي عن بعض الوراث أو بتعذيبي. وحيث كانت العاقبة مجهولة وتعذيب من لا ذنب له جائز عقلاً صح هذا الطلب منه عليه السلام، وقيل: يجوز أن يكون ذلك تعليماً لغيره وهو من الخزي بمعنى الهوان أو من الخزاية بفتح الخاء بمعنى الحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي الناس كافة، والإضمار وإن لم يسبق ذكرهم لما في عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه، وقيل: الضمير للضالين والكلام من تتمة الدعاء لأبيه كأنه قال: لا تخزني يوم يبعث الضالون وأبي فيهم، ولا يخفى أنه يجوز على الأول أن يكون من تتمة الدعاء لأبيه أيضاً، واستظهر ذلك لأن الفصل بالدعاء لأبيه بين الدعوات لنفسه خلاف الظاهر، وعلى ما ذكر يكون قد دعا لأشد الناس التصاقاً به بعد أن فرغ من الدعاء لنفسه.

﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ بدل من ﴿يوم يبعثون﴾ جيء به تأكيداً لتهويل ذلك اليوم وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء وهو إلى قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية﴾ إلخ من كلام إبراهيم عليه السلام، وابن عطية بعد أن أعرب الظرف بدلاً من الظرف الأول قال: إن هذه الآيات عندي منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام وهي أخبار من الله عز وجل تتعلق بصفة ذلك اليوم الذي طلب إبراهيم أن لا يخزيه الله تعالى فيه، ولا يخفى عدم صحة ذلك مع البدلية،

---

(١) نقله الشهاب ا هـ منه.

والمراد بالنون معناه المتبادر، وقيل: المراد بهم جميع الأعوان، وقيل: المعنى يوم لا ينفع شيء من محاسن الدنيا وزينتها، واقتصر على ذكر المال والبنين لأنهما معظم المحاسن والزينة، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْب سَلِيم﴾ استثناء من أعم المفاعيل، و ﴿من﴾ محل نصب أي يوم لا ينفع مال وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البر والخيرات ولا بنون وإن كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحداً إلا من أتى الله بقلب سليم عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان، وفي هذا تأييد لكون استغفاره عليه السلام لأبيه طلباً لهدايته إلى الإيمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافراً مع علمه عليه السلام بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعة، وقيل: هو استثناء من فاعل ﴿ينفع﴾ ومن في محل رفع بدل منه والكلام على تقدير مضاف إلى من أي لا ينفع مال ولا بنون إلا مال وبنون من أتى الله بقلب سليم حيث أنفق ماله في سبيل البر وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباداً لله تعالى مطيعين شفعاء له يوم القيامة، وقيل: هو استثناء مما دل عليه المال والبنون دلالة الخاص على العام أعني مطلق الغنى والكلام بتقدير مضاف أيضاً كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم وغناه سلامة قلبه وهو من الغنى الديني وقد أشير إليه في بعض الأخبار.

أخرج أحمد والترمذي: وابن ماجة عن ثوبان قال: لما نزلت ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ [التوبة: ٣٤] الآية قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: لو علمنا أي المال خير اتخذناه فقال رسول الله ﷺ: «أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه» وقيل: هو استثناء منقطع من ﴿مال﴾ والكلام أيضاً على تقدير مضاف أي لا ينفع مال ولا بنون إلا حال من أتى الله بقلب سليم، والمراد بحاله سلامة قلبه، قال الزمخشري: ولا بد من تقدير المضاف ولو لم يقدر لم يحصل للاستثناء معنى، ومنع ذلك أبو حيان بأنه لو قدر مثلاً لكن من أتى الله بقلب سليم يسلم أو ينتفع يستقيم المعنى. وأجاب عنه في الكشف بأن المراد أنه على طريق الاستثناء من مال لا يتحصل المعنى بدون تقدير المضاف، وما ذكره المانع استدراك من مجموع الجملة إلى جملة أخرى وليس من المبحث في شيء، ولما لم يكن هذا مناسباً للمقام جعله الزمخشري مفروغاً عنه فلم يلم عليه بوجه، وقد جوز اتصال الاستثناء بتقدير الحال على جعل الكلام من باب:

تـحـيـة بـيـنهـم ضـرب وجـيـع

ومثاله أن يقال: هل لزيد مال وبنون فقال ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب بدلاً عن ذلك، هذا وكون المراد من القلب السليم القلب السليم عن مرض الكفر والنفاق هو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن سيرين وغيرهم، وقال الإمام: هو الخالي عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها ويتبع ذلك الأعمال الصالحات إذ من علامة سلامة القلب تأثيرها في الجوارح.

وقال سفيان: هو الذي ليس فيه غير الله عز وجل، وقال الجنيد قدس سره: هو اللديغ من خشية الله تعالى القلق المنزعج من مخافة القطيعة وشاع إطلاق السليم في لسان العرب على اللديغ، وقيل: هو الذي سلم من الشرك المعاصي وسلم نفسه لحكم الله تعالى وسالم أولياءه وحارب أعداءه وأسلم حيث نظر فعرف واستسلم وانقاد لله تعالى وأدعن لعبادته سبحانه، والأنسب بالمقام المعنى المأثور وما ذكر من تأويلات الصوفية، وقال في الكشاف فيما نقل عن الجنيد قدس سره وما بعده: إنه من بدع التفاسير وصدقه أبو حيان بذلك في شأن الأول.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على ﴿لا ينفع﴾ وصيغة الماضي فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه

في سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على الاستمرار وهو متوجه إلى النفع فيدل الكلام على استمرار انتفاء النفع واستمراره حسبما يقتضيه مقام التهويل أي قربت الجنة للمتقين عن الكفر، وقيل: عنه وعن سائر المعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشرون إليها.

﴿**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ**﴾ الضالين عن طريق الحق وهو التقوى والإيمان أي جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها، وفي اختلاف الفعلين على ما ذكره بعض المحققين ترجيح لجانب الوعد لأن التعبير بالإزلاف وهو غاية التقريب يشير إلى قرب الدخول وتحققه ولذا قدم لسبق رحمته تعالى بخلاف الإبراز وهو الإراءة ولو من بعد فإنه مطمع في النجاة كما قيل من العمود إلى العمود فرج، وقال ابن كمال: في اختلاف الفعلين دلالة على أن أرض الحشر قريبة من الجحيم، وحاصله أن الجنة بعيدة من أرض المحشر بعداً مكانياً والنار قريبة منها قرباً مكانياً فلذا سند الإزلاف أي التقريب إلى الجنة دون الجحيم، قيل: ولعله مبني على أن الجنة في السماء وأن النار تحت الأرض وأن تبديل الأرض يوم القيامة بمدها وإذهاب كريتها إذ حينئذ يظهر أمر البعد والقرب لكن لا يخفى أن كون الجنة في السماء مما يعتقده أهل السنة وليس في ذلك خلاف بينهم يعتد به وأما كون النار تحت الأرض ففيه توقف، قال الجلال السيوطي في إتمام الدراية: نعتقد أن الجنة في السماء ونقف عن النار ونقول: محلها حيث لا يعلمه إلا الله تعالى فلم يثبت عندي حديث أعتمده في ذلك، وقيل تحت الأرض انتهى، وكون تبديل الأرض بمدها وإذهاب كريتها قول لبعضهم، واختار الإمام القرطبي بعد أن نقل في التذكرة أحاديث كثيرة أن تبديل الأرض بمعنى أن الله سبحانه يخلق أرضاً أخرى بيضاء من فضة لم يسفك عليها دم حرام ولا جرى فيها ظلم قط، والأولى أن يقال في بعد الجنة وقرب النار من أرض المحشر: إن الوصول إلى الجنة بالعبور على الصراط وهو منصوب على متن جهنم كما نطقت به الأخبار فالوصول إلى جهنم أولاً وإلى الجنة آخراً بواسطة العبور وهو ظاهر في القرب والبعد، ثم إن ظاهر الآية يقتضي أن الجنة تنقل عن مكانها اليوم يوم القيامة إذ التقريب يستدعي النقل وليس في الأحاديث على ما نعلم ما يدل على ذلك نعم جاء فيها ما يدل على نقل النار.

ففي التذكرة أخرج مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك»، والظاهر أن معنى يؤتى بها يجاء بها من المحل الذي خلقها الله تعالى فيه وقد صرح بذلك في التذكرة، وقال أبو بكر الرازي في أسئلته فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿**وأزلفت الجنة للمتقين**﴾ أي قربت والجنة لا تنتقل عن مكانها ولا تحول قلنا: معناه وأزلفت المتقون إلى الجنة وهذا كما يقال الحاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا، وقيل: معناه أنها كانت محجوبة عنهم فلما رفعت الحجب بينها وبينهم كان ذلك تقريباً انتهى، ويرد على الأخير أنه يمكن أن يقال مثله في الجحيم وحينئذ يسأل عن وجه اختلاف الفعلين. ويرد على القول بأن الجنة لا تنتقل عن مكانها أنه خلاف ظاهر الآية ولا يلزم لصحة القول به نقل حديث يدل على نقلها يومئذ فلا مانع من القول به وتفويض الكيفية إلى علم من لا يعجزه شيء وهو بكل شيء عليم وإذا أريد التأويل فليكن ذلك بحمل التقريب على التقريب بحسب الرؤية وإن لم يكن هناك نقل فقد يرى الشيء قريباً وإن كان في نفس الأمر في غاية البعد كما يشاهد ذلك في النجوم، وقد يقرب البعيد في الرؤية بواسطة المناظر والآلات الموضوعة لذلك وقد ينعكس الحال بواسطتها أيضاً فيرى القريب بعيداً ومتى جاز وقوع ذلك بواسطة الآلات في هذه النشأة جاز أن يقع في النشأة الأخرى بما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير فتأمل والله تعالى أعلم.

وقرأ الأعمش «فبرزت» بالفاء، وقرأ مالك بن دينار «وبرزت» بالفتح والتخفيف «والجحيمُ» بالرفع على الفاعلية ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ﴾ تستمرون على عبادته ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع ما تشاهدون من الجحيم وما فيها من العذاب ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ بدفع ذلك عن أنفسهم، وهذا سؤال تقريع لا يتوقع له جواب ولذلك قيل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي ألقوا في الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا في قعرها فالكبكبة تكرير الكب وهو مما ضوعف فيهْ الفاء كما قال الزجاج وجمهور البصريين، وذهب الكوفيون إلى أن الثالث بدل من مثل الثاني فأصل كبكب عندهم كبب فأبدل من الباء الثانية كاف وضمير الجمع لما يعبدون من دون الله وهم الأصنام وأكد بالضمير المنفصل أعني ﴿هُمْ﴾ وكلا الضميرين للعقلاء واستعملا في الأصنام تهكماً أو بناء على إعطائها الفهم والنطق أي كبكب فيها الأصنام ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ الذين عدوها.

والتعبير عنهم بهذا العنوان دون العابدون للتسجيل عليهم بوصف الغواية، وفي تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون في الكبكبة عنها ليشاهدوا سوء حالها فينقطع رجاؤهم قبل دخول الجحيم.

وعن السدي أن ضمير ﴿كبكبوا﴾ ومؤكده لمشركي العرب والغاوون سائر المشركين وقيل: الضمير للمشركين مطلقاً ويراد بهم التبعة والغاوون هم القادة المتبعون، وقيل: الضمير لمشركي الإنس مطلقاً و ﴿الغاوون﴾ الشياطين والكل كما ترى ويبعد الأخير. قوله تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ فإن الظاهر أن المراد منه الشياطين وإنه عطف على ما قبله والعطف يقتضي المغايرة بالذات في الأغلب ولا حاجة إلى تخريجه على الأقل وجعله من باب:

إلـى الـمـلـك الـنـدب وابـن الـهـمـام

وقيل: المراد بجنود إبليس متبعوه من عصاة الثقلين، واختار بعض الأجلة الأول وادعى أنه الوجه لأن السياق والسباق في بيان سوء حال المشركين في الجحيم وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام لقومه المشركين فلا وجاهة لذكر حال قوم آخرين في هذا الحال بل لا وجود لهم في القصة وذكر الشياطين مع المشركين لكونهم المسولين لهم عبادة الأصنام، ولا يخفى أن للتعميم وجهاً أيضاً من حيث إنّ فيه مزيد تهويل لذلك اليوم، وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للضمير وما عطف عليه.

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا﴾ إلخ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ عما قبله كأنه لما قيل كبكب الآلهة والغاوون عبدتها والشياطين الداعون إليها قيل: فما وقع؟ فقيل: قالوا أي العبدة الغاوون ﴿وَهُمْ﴾ أي الغاوون ﴿فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين، والجملة في موضع الحال، والمراد قالوا معترفين بخطئهم وانهماكهم في الضلالة متحسرين معيرين لأنفسهم والحال أنهم بصدد مخاصمة من معهم مخاطبين لآلهتهم حيث يجعلها الله تعالى أهلاً للخطاب ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إن﴾ مخففة من المثقلة واسمها على ما قيل ضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية كما ذهب إليه البصريون أي إنه أي الشأن كنا في ضلال مبين، وذهب الكوفيون إلى أن نافية واللام بمعنى إلا أي ما كنا إلا في ضلال واضح لا خفاء فيه، ووصفهم له بالوضوح للمبالغة في إظهار ندمهم وتحسرهم وبيان خطئهم في رأيهم مع وضوح الحق كما ينبىء عنه تصديرهم قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب على ما قيل.

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ظرف لكونهم في ضلال مبين، وقيل: لمحذوف دل عليه الكلام أي ضللنا، وقيل: للضلال المذكور وإن كان فيه ضعف صناعي من حيث إن المصدر الموصوف لا يعمل بعد

الوصف، ويهون أمر ذلك كون المعمول ظرفاً، وقيل: ظرف لمبين، وجوز أن تكون ﴿إذ﴾ تعليلية كما قيل به في قوله تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ [الزخرف: ٣٩] وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أي تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أو لأنا سويناكم أيها الأصنام في استحقاق العبادة برب العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ الظاهر بناء على ما تقدم من أن الاختصام مع الأصنام والشياطين أن يكون المراد بالمجرمين الشياطين ليكون ذلك من الاختصام معهم وإن لم يورد على وجه الخطاب كما أن ما تقدم من الاختصام مع الأصنام، وكون المراد بهم ذلك مروي عن مقاتل، وفي إرشاد العقل السليم أنه بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم، والمراد بالمجرمين رؤساؤهم وكبراؤهم، وفي قوله تعالى: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. وعن السدي هم الأولون الذين اقتدوا بهم، وقيل: من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس. وعن ابن جريج أنهم إبليس وابن آدم القاتل لأنه أول من سن القتل والمعاصي، والقصر قيل بالنسبة إلى الأصنام، ولعلهم أرادوا بنفي الإضلال عنها إهانتها بأنها لا قدرة لها؛ وفيه تأكيد لكونهم في ضلال مبين، ولعل الأولى كونه قصراً حقيقياً بادعاء أنهم الأوحديون في سببية الإضلال حتى إن سببية غيرهم له كلا سببية، وهذا واضح في الشياطين لأن إضلال غيرهم من الكبراء ونحوهم بواسطة إضلالهم لأنهم الذين يزينون الباطل المتبوع والتابع، ويمكن أن يعتبر في غيرهم بضرب من التأويل وذلك إذا أريد بالمجرمين غيرهم، ثم إن المشركين لا يزالون في حيرة يوم القيامة لا يدرون بم يتشبثون فلا يضر إسنادهم الإضلال تارة إلى شيء وأخرى إلى غيره على أن الإسناد إلى كل باعتبار هذا.

وجوز أن يكون الاختصام بين العبدة بعضهم مع بعض، والخطاب في ﴿نسويكم﴾ للأصنام من غير التزام القول بجعلهم أهلاً له بل هو كخطاب المضطر للحجر والشجر، وفيه مبالغة في التحسر والندامة، والمعنى أن العبدة مع تخاصم بعضهم مع بعض بأن يقول أحدهم للآخر: أنت مبدأ ضلالي ولولا أنت لكنت مؤمناً إعترفوا بجرمهم وتعجبوا وبينوا سببه، وجوز أيضاً أن يكون من الأصنام ينطقهم الله تعالى فيخاصمون العبدة فضمير ﴿هم﴾ عائد عليهم، والمعنى قال العبدة معترفين بضلالهم متعجبين منه مبينين سببه: إن كنا إلخ والحال إن الأصنام يخاصمونهم قائلين: نحن جمادات متبرئون عن جميع المعاصي وأنتم اتخذتمونا إلهة فألقيتمونا في هذه الورطة. وهذا كله على تقدير كون جملة ﴿قالوا﴾ مستأنفة كما هو الظاهر، وجوز أن يكون ﴿جنود إبليس﴾ مبتدأ وجملة ﴿قالوا﴾ إلخ خبره وضمير ﴿قالوا﴾ وكذا ما بعده عائد عليه.

وأنت تعلم أنه مع كونه خلاف الظاهر لا يتسنى على تقدير أن يراد بجنود إبليس الشياطين لما أن المقول المذكور لا يصح أن يكون منهم وإذا أريد بهم متبوعه من عصاة الثقلين عبادة الأصنام وغيرهم يرد أن المقول المذكور قول فرقة منهم وهي العبدة فإسناده إلى الجميع خلاف الظاهر؛ ويبعد كل البعد بل لو قيل بفساده لم يبعد احتمال كون كل شخص سواء كان من عبدة الأصنام أو غيره يخاصم مع كل من يصادفه من غير صلاحية الآخر للاختصام ويقول ما ذكر للأصنام لغاية الحيرة والضجرة، نعم لو أريد بجنود إبليس على تقدير كونه مبتدأ ورجوع الضمائر إليه الغاوون بعينهم وتكون الإضافة للعهد، والتعبير عنهم بهذا العنوان بعد التعبير عنهم بالعنوان السابق لتذليلهم لم يبعد جداً. ومن الناس من جوز الابتدائية والخبرية المذكورتين وفسر الجنود بالعصاة مطلقاً. وجعل ضمير ﴿قالوا﴾ للغاوون وضمير ﴿هم﴾ و ﴿يختصمون﴾ للجنود أو للأصنام وفيه مع خروج الآية عليه عن حسن الانتظام ما لا يخفى على ذوي الأفهام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ مرتب على ما اعترفوا به من عظم الجناية وظهور الضلالة. والمراد التلهف والتأسف على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه أو صديق شفيق يهمه ذلك وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم في التأسف حيث نفوا أولاً أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته ونفوا ثانياً أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم وأتى بالشافع في سياق النفي جمعاً وإن كان حكم هذا الجمع في الاستغراق لمكان من الزائدة حكم المفرد بلا خلاف إنما الخلاف فيما إذا لم تزد من بعد النفي داخلة على الجمع رعاية لما كانوا يأتون به في الإثبات من الجمع.

وقال في الكشاف: جمع الشافع لكثرة الشفعاء ووحد الصديق لقلته ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلدة رحمة له وحسبة إن لم تسبق له بأكثرهم معرفة وأما الصديق الصادق في ودادك الذي يهمه ما يهمك فهو أعز من بيض الأنوق، ويجوز أن يريد بالصديق الجمع أي فإنه يطلق عليه لما أنه على زنة المصدر بخلاف الشافع. وذكر البيضاوي في توحيد الصديق وجهاً آخر أيضاً، وهو أن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء، وحاصله أن الواحد في معنى الجمع بحسب العادة فلذا اكتفي به لما فيه من المطابقة المعنوية كما قيل:

الناس ألف منهمو كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

وقال بعض الكملة: إن إيراد الشافعين بصيغة الجمع لمجرد مصلحة الفاصلة، وأما إيراد الصديق مفرداً فلأن المقام مقام المفرد ومصلحة الفاصلة حصلت قبله وهو كما ترى، وقال سعد أفندي: لا يبعد أن يكون جمع الأول وإفراد الثاني إشارة إلى أنه لا فرق بين الاستغراقين، وفيه أن إيثار صيغة لإفادة مسألة عربية ليس من دأب القرآن المجد، والذي أميل إليه أن الإفراد على الأصل والجمع وإن أدى مؤداه على سنن ما كانوا يقولونه ويزعمونه في الدنيا من تعدد الشفعاء ولا يضر في ذلك كون المنفي هنا أعم من المثبت هناك من حيث شموله للأصنام والكبراء والملائكة والأنبياء عليهم السلام كما هو المتبادر إلى الفهم، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة عن ابن جريج أن المعنى فما لنا من شافعين من أهل السماء ولا صديق حميم من أهل الأرض.

وزعم بعضهم أنهم عنوا بالشافعين هنا ما عنوا بالمجرمين من كبرائهم وساداتهم وفرعوا النفي على قولهم ﴿ما أضلنا إلا المجرمون﴾ فكأنهم قالوا: سادتنا وكبراؤنا الذين أضلونا مجرمون معذبون مثلنا فلم يقدروا على السعي في نفعنا والشفاعة لنا، وفي الكشاف فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما نرى لهم أصدقاء فإنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون قال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ [الزخرف: ٦٧] أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع لأن ما لا ينفع حكمه حكم المعدوم انتهى.

والظاهر على هذا الأخير أن الكلام كناية عن شدة الأمر بحيث لا ينفع فيه أحد ولو أدنى نفع وهو وجه وجيه، والوجه الأول لا يكاد يتسنى على مذهب المعتزلة الذين لا يجوزون الشفاعة في الخلاص من النار بعد دخولها أو قبله لأن الظاهر من قولهم فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين فما لنا من شافعين

يخلصونا من النار كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين يخلصونهم منها فارتضاء الزمخشري لهذا الوجه غريب اللهم إلا أن يقال: المراد التشبيه باعتبار مطلق الشفاعة والمعتزلة يجوزون بعض أصنافها كالشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لكن لا يخلو عن بعد والله تعالى أعلم، و ﴿لو﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ مستعملة في التمني بدليل نصب قوله سبحانه: ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في جوابها وأصلها لو الامتناعية وحيث إن التمني يكون لما يمتنع أريد بها ذلك مجازاً مرسلاً أو استعارة تبعية ثم شاع حتى صارت كالحقيقة في ذلك، وقيل: هي حقيقة فيما ذكر؛ وقيل: أصلها المصدرية وليس بشيء.

والمعنى فليت لنا رجعة إلى الدنيا فإن نكون من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبعثنا مثل ما نحن فيه من العذاب الذي لا ينفع فيه أحد، وجوز كون لو شرطية وجوابها محذوف والتقدير لفعلنا من الخيرات كيت وكيت أو لخلصنا من العذاب أو لكان لنا شفعاء وأصدقاء أو ما أضلنا المجرمون، والتقدير الأول أجزل، ويقدر المحذوف بعد ﴿فنكون﴾ إلخ لأن المصدر المتحصل منه معطوف على ﴿كرة﴾ أي فلو أن لنا كرة فنكونا من المؤمنين لفعلنا إلخ.

وتعقب شيخ الإسلام ذلك بأنه إنما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وإيمانهم معاً من غير دلالة على استلزام الكرة للإيمان أصلاً مع أنه المقصود حتماً، وفي قوله: من غير دلالة إلخ بحث على ما قيل حيث يمكن أن يقال: حاصل الآية إن تيسر لنا الرجعة والإيمان المتعقب إياها لفعلنا من عبادات أهل الإيمان ما يقصر عنه العبارة، والتزام ثمرات الإيمان التزام للإيمان أولاً، ومقصودهم بيان استلزام الرجعة لفعل الخيرات كلها، وأما نفس الإيمان بعد هذه المشاهدة فلا يحتاج إلى البيان.

وقال بعض الناس: إن قولهم ﴿فنكون من المؤمنين﴾ بمعنى فنكون من المقبول إيمانهم وقبول الله تعالى إيمانهم لا يترتب على رجعتهم البتة بل يجوز أن يتخلف فلا بد أن يكون مرادهم إن تيسر لنا الرجعة وإن قبل إيماننا لفعلنا إلخ فليس المقصود الدلالة على استلزام الكرة للإيمان كما زعم شيخ الإسلام، ونوقش فيه بأن تيسر الرجعة إنما يكون لرحمة الله تعالى وعفوه وهي تستلزم قبول إيمانهم، والحق أنه لا ينبغي الالتفات إلى احتمال شرطية لو والتكلف له مع جزالة المعنى الظاهر المتبادر، والكلام في قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قد تقدم آنفاً فلا حاجة إلى إعادته وقد علمت مختارنا في ذلك فتذكر فما في العهد من قدم، ولشيخ الإسلام كلام في هذه الآية لا يخفى ما فيه على المتأمل فتأمل ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ القوم كما في المصباح يذكر ويؤنث وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر ولذا يصغر على قويمة، وقيل: هو مذكر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة والجماعة منه وتكذيبهم المرسلين باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والإعصار، وجوز أن يراد بالمرسلين نوح عليه السلام بجعل اللام للجنس فهو نظير قولك: فلان يركب الدواب ويلبس البرود وما له إلا دابة واحدة وبرد واحد، و ﴿إذ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ ظرف للتكذيب على أنه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر كما أن تكذيبهم عبارة عما صدر منهم من حين ابتداء دعوته عليه السلام إلى انتهائها، وزعم بعضهم أن ﴿إذ﴾ للتعليل أي كذبت لأجل أن قال لهم: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي نسيبهم كما يقال: يا أخا العرب ويا أخا تميم، وعلى ذلك قوله:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

والضمير لقوم نوح، وقيل: هو للمرسلين والأخوة المجانسة وهو خلاف الظاهر ﴿أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ الله عز وجل حيث تعبدون غيره ﴿إِنّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله تعالى أرسلني لمصلحتكم ﴿أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم، وقيل: أمين على أداء رسالته جل شأنه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى، وقدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بالطاعة لأن تقوى الله تعالى سبب لطاعته عليه السلام ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه﴾ أي على ما أنا متصد له من الدعا والنصح ﴿مِنْ أَجْر﴾ أي ما أطلب منكم على ذلك أجراً أصلاً لا مالاً ولا غيره ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ فيما أتولاه ﴿إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَـمِينَ﴾ فهو سبحانه الذي يؤجرني في ذلك تفضلاً منه لا غيره، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه السلام من الطمع كما أن نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على كونه رسولاً من الله تعالى بما فيه نفع الدارين مع أمانته، والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلاً منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة فكيف إذا اجتمعا، وقرىء «إن أجريْ» بسكون الياء وهو والفتح لغتان مشهورتان في مثل ذلك اختلف النحاة في أيتهما الأصل.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ أي وقد اتبعك على أن الجملة في موضع الحال وقد لازمة فيها إذا كان فعلها ماضياً وكثير من الأجلة لا يوجب ذلك، وقرأ عبدالله وابن عباس والأعمش وأبو حيوة والضحاك وابن السميقع وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري وطلحة ويعقوب «وأتباعك» جمع تابع كصاحب وأصحاب، وقيل: جمع تبيع كشريف وأشراف، وقيل: جمع تبع كبطل وأبطال، وهو مرفوع على الابتداء و ﴿الأرذلون﴾ خبره، والجملة في موضع الحال أيضاً، وقيل: معطوف على الضمير المستتر في ﴿نؤمن﴾ وحسن ذلك للفصل بلك و ﴿الأرذلون﴾ صفته، ولا يخفى أنه ركيك معنى، وعن اليماني «وأتباعك» بالجر عطفاً على الضمير في ﴿لك﴾ وهو قليل وقاسه الكوفيون و ﴿الأرذلون﴾ رفع بإضمارهم، وهو جمع الأرذل على الصحة والرذالة الخسة والدناءة، والظاهر أنهم إنما استرذلوا المؤمنين به عليه السلام لسوء أعمالهم يدل عليه قوله في الجواب[1]:

﴿قَالَ وَمَا عِلْـمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر وبناء الأحكام عليها دون التجسس والتفتيش عن البواطن، وما استفهامية، وقال الحوفي والطبرسي: نافية، وعليه يكون في الكلام حذف أي وما علمي بما كانوا يعملون ثابت ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ما محاسبتهم على ما يعملون ﴿إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي﴾ فاعتبار البواطن من شؤونه عز وجل وهو المطلع عليها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي بشيء من الأشياء أو لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك لكنكم لستم كذلك فلذا قلتم ما قلتم، وأل على هذا الوجه للجنس، وقال جمع: إن استرذالهم إياهم لقلة نصيبهم من الدنيا، وقيل: لكونهم من أهل الصناعات الدنيئة، وقد كانوا كما روي عن عكرمة حاكة وأساكفة، وقيل: لاتضاع نسبهم، ومنشأ ذلك على الجميع سخافة عقولهم وقصور أنظارهم لأن الفقر ليس من الرذالة في شي:

قد يدرك المجد الفتى ورداؤه ... خلق وجيب قميصه مرقوع

وكذا خسة الصناعة لا تزري بالشرف الأخروي ولا تلحق التقي نقيصة عند الله عز وجل، وقد أنشد أبو العتاهية:

وليس على عبد تقي نقيصة ... إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

---

(١) في الأصل قوله في الجواب «وما علمي» والتلاوة قال وما علمي فصححناه.

ومثلها صفة النسب فقد قيل:

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه إذا افـتـخـروا بـقـيـس أو تمـيـم

وما ذكره الفقهاء في باب الكفاءة مبني على عرف العامة لانتظام أمر المعاش ونحوه على أنه روي عن الإمام مالك عدم اعتبار شيء من ذلك أصلاً وأن المسلمين كيفما كانوا أكفاء بعضهم لبعض، وأل على هذه الأقوال للعهد.

والجواب بما ذكر عما أشاروا إليه بقولهم ذلك من أن إيمانهم لم يكن عن نظر وبصيرة وإنما كان لحظ نفساني كحصول شوكة بالاجتماع ينتظمون بها في سلك ذوي الشرف ويعدون بها في عدادهم، وحاصله وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر دون الشق عن القلوب والتفتيش عما في السرائر فما يضرني عدم إخلاصهم في إيمانهم كما تزعمون؛ وجوز أن يقال: إنهم لما قالوا: ﴿**واتبعك الأرذلون**﴾ وعنوا الذين لا نصيب لهم من الدنيا أو الذين اتضعت أنسابهم أو كانوا من أهل الصنائع الدنيئة تغابى عليه السلام عن مرادهم وخيل لهم أنهم عنوا بالأرذلين من لا إخلاص له في العمل ولم يؤمن عن نظر وبصيرة فأجابهم بما ذكر كأنه ما عرف من الأرذلين إلا ذلك، ولو جعل هذا نوعاً من الأسلوب الحكيم لم يبعد عندي، وفيه من لطف الرد عليهم وتقبيح ما هم عليه ما لا يخفى، وزعم بعضهم أنهم عنوا بالأرذلين نساءه عليه السلام وبنيه وكناته وبني بنيه واسترذالهم لعضة النسب لا يتصور في جميعهم حقيقة كما لا يخفى فلا بد عليه من اعتبار التغليب ونحوه، وقرأ الأعرج وأبو زرعة وعيسى بن عمر الهمداني «يشعرون» بياء الغيبة وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك حيث جعلوا أتباعهم مانعاً عنه ، وقد نزلوا لذلك منزلة من يدعي أنه عليه السلام ممن يطرد المؤمنين وأنه ممن يشترك معه فيه فقدم المسند إليه وأولى حرف النفي لإفادة أن ذلك ليس شأنه بل شأن المخاطبين.

وجوز أن يكون التقديم للتقوى وهو أقل مؤنة كما لا يخفى، وقيل: إنهم طلبوا منه عليه السلام طردهم فأجابهم بذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ طرد من آمن به من الضعفاء فنزلت ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿**إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عما لا يرضيه سبحانه وتعالى سواء كانوا من الأشرفين أو الأرذلين فكيف يتسنى لي طرد من زعمتم أنهم أرذلون.

وحاصله أنا مقصور على إنذار المكلفين لا أتعداه إلى طرد الأرذلين منهم أو ما عليّ إلا إنذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما عليّ استرضاء بعضكم بطرد الآخرين، وحاصله أنا مقصور على إنذاركم لا أتعداه إلى استرضائكم.

وقيل: إن مجموع الجملتين جواب وإن إيلاء الضمير حرف النفي يدل على أنهم زعموا أنه عليه السلام موصوف بصفتين، إحداهما اتباع أهوائهم بطرد المؤمنين لأجل أن يؤمنوا، وثانيتهما أنه نذير مبين فقصر الحكم على الثاني دون الأول ولا يخلو عن بحث ﴿**قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ**﴾ عما أنت عليه ﴿**لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ**﴾ أي المرميين بالحجارة كما روي عن قتادة، وهو توعد بالقتل كما روي عن الحسن، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن المعنى من المشتومين على أن الرجم مستعار للشتم كالطعن، وفي إرشاد العقل السليم أنهم قاتلهم الله تعالى قالوا ذلك في أواخر الأمر، ومعنى قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ**﴾ استمروا على تكذيبي وأصروا عليه بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائي إلا فراراً. وهذا ليس بإخبار بالاستمرار على التكذيب لعلمه عليه السلام أن

عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد إظهار ما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له واستخفافهم به في قولهم: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ تلطفاً في فتح باب الإجابة، وقيل: لدفع توهم الخلق فيه المتجاوز أو الحدة، وقيل: إنه خبر لم يقصد منه الإعلام أصلاً وإنما أورد لغرض التحزن والتفجع كما في قوله:

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فلئن رميت يصيبني سهمي

ويبعد ذلك في الجملة تفريع الدعاء عليهم بقوله تعالى: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ على ذلك أي أحكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا من الفتاحة بمعنى الحكومة، و ﴿فتحاً﴾ مصدر، وجوز أن يكون مفعولاً به على أنه بمعنى مفتوحاً وهذه حكاية إجمالية لدعائه عليه السلام المفصل في سورة نوح ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من قصدهم أو شؤم أعمالهم، وفيه إشعار بحلول العذاب بهم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ على حسب دعائه عليه السلام ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء بهم وبما يحتاجون إليه حالاً كالطعام أو مالاً كالحيوان.

والفلك يستعمل واحداً وجمعاً، وحيث أتى في القرآن الكريم فاصلة استعمل مفرداً أو غير فاصلة استعمل جمعاً كما في البحر ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائهم، و ﴿ثم﴾ للتفاوت الرتبي، ولذا قال سبحانه بعد ﴿الْبَاقِينَ﴾ أي من قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الكلام فيه نظير الكلام فيما تقدم، وكذا الكلام في قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ بيد أن تأنيث الفعل هنا باعتبار أن المراد بعاد القبيلة وهو اسم أبيهم الأقصى، وكثيراً ما يعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة بالأب وقد يعبر عنها ببني أو بآل مضافاً إليه فيقال: بنو فلان أو آل فلان، وكذا الكلام في قوله سبحانه:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُون * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وحكاية الأمر بالتقوى والإطاعة ونفي سؤال الأجر في القصص الخمس وتصديرها بذلك للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والإعصار وأنهم عليهم السلام منزهون عن المطامع الدنيوية بالكلية.

ولعله لم يسلك هذا المسلك في قصتي موسى وإبراهيم عليهما السلام تفنناً مع ذكر ما يشعر بذلك، وقيل: إن ما ذكر ثمة أهم وكانت منازل عاد بين عمان وحضرموت وكانت أخصب البلاد وأعمرها فجعلها الله تعالى مفاوز ورمالاً، ويشير إلى عمارتها قوله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ ريع﴾ أي طريق كما روي عن ابن عباس وقتادة.

وأخرج ابن جرير وجماعة عن مجاهد أن الريع الفج بين الجبلين وعن أبي صخر أنه الجبل والمكان المرتفع عن الأرض وعن عطاء أنه عين الماء والأكثرون على أنه المكان المرتفع وهو رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ومنه ريع النبات وهو ارتفاعه بالزيادة والنماء.

وقرأ ابن أبي عبلة «رَيع» بفتح الراء ﴿آيَةً﴾ أي علماً كما روى عن الحبر رضي الله تعالى عنه، وقيل: قصراً عالياً مشيداً كأنه علم وإليه ذهب النقاش وغيره واستظهره ابن المنير؛ ويمكن حمل ما روي عن الحبر عليه وحينئذ فقوله تعالى: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ على معنى تعبثون ببنائها لما أنهم لم يكونوا محتاجين إليها وإنما بنوها للفخر بها. والعبث ما لا فائدة فيه حقيقية أو حكماً، وقد ذم رفع البناء لغير غرض شرعي في شريعتنا أيضاً، وقيل: إن عبثهم في ذلك من حيث إنهم

بنوها ليهتدوا بها في أسفارهم والنجوم تغني عنها. واعترض بأن الحاجة تدعو لذلك لغيم مطبق أو ما يجري مجراه. وأجيب بأن الغيم نادر لا سيما في ديار العرب مع أنه لو احتيج إليها لم يحتج إلى أن تجعل في كل ريع فيكون بناؤها كذلك عبثاً.

وقال الفاضل اليمني: إن أماكنها المرتفعة تغني عنها فهي عبث، وقيل: كانوا يبنون ذلك ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم: وروي ذلك عن الكلبي والضحاك، وعن مجاهد وابن جبير أن الآية برج الحمام كانوا يبنون البروج في كل ريع ليلعبوا بالحمام ويلهوا به، وقيل: بيت العشار يبنونه بكل رأس طريق فيجلسون فيه ليعشروا مال من يمر بهم. وله نظير في بلادنا اليوم، ولا مستعان إلا بالله العلي العظيم.

والجملة في موضع الحال وهي حال مقدرة على بعض الأقوال ﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ أي تعملون ﴿مَصَانِعَ﴾ أي مآخذ للماء ومجاري تحت الأرض كما روي عن قتادة، وفي رواية أخرى عنه أنها برك الماء. وعن مجاهد أنها القصور المشيدة، وقيل: الحصون المحكمة. وأنشدوا قول لبيد:

وتبقى جبال بعدنا ومصانع

وليس بنص في المدعي ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا أو عاملين عمل من يرجو الخلود فيها فلعل على بابها من الرجاء، وقيل: هي للتعليل وفي قراءة عبدالله ﴿كي تخلدون﴾.

وقال ابن زيد: هي للاستفهام على سبيل التوبيخ والهزء بهم أي هل أنتم تخلدون، وكون لعل للاستفهام مذهب كوفي، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: المعنى كأنكم خالدون وقرىء بذلك كما روي عن قتادة، وفي حرف أبي «كأنكم تخلدون» وظاهر ما ذكر أن لعل هنا للتشبيه، وحكي ذلك صريحاً الواقدي عن البغوي.

وفي البرهان هو معنى غريب لم يذكره النحاة. ووقع في صحيح البخاري أن لعل في الآية للتشبيه انتهى.

وقرأ قتادة «تُخْلَدُونَ» مبنياً للمفعول مخففاً ويقال: خلد الشيء وأخلده غيره، وقرأ أبي وعلقمة «تُخُلَّدُونَ» مبنياً للمفعول مشدداً كما قال الشاعر:

وهل يعمن إلا سعيد مخلد ... قليل هموم ما يبيت بأوجال

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ أي أردتم البطش بسوط أو سيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ مسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر في العاقبة. وأول الشرط بما ذكر ليصح التسبب وتقييد الجزاء بالحال لا يصححه لأن المطلق ليس سبباً للمقيد، وقيل: لا يضر الاتحاد لقصد المبالغة، وقيل: الجزائية باعتبار الإعلام والأخبار وهو كما ترى. ونظير الآية قوله:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

ودل توبيخه عليه السلام إياهم بما ذكر على استيلاء حب الدنيا والكبر على قلوبهم حتى أخرجهم ذلك عن حد العبودية ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ واتركوا هذه الأفعال ﴿وَأَطِيعُون﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي بالذي تعرفونه من النعم فما موصولة والعائد محذوف والعلم بمعنى المعرفة، وقوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ منزل منزلة بدل البعض كما ذكره غير واحد من أهل المعاني، ووجهه عندهم أن المراد التنبيه على نعم الله تعالى والمقام يقتضي اعتناء بشأنه لكونه مطلوباً في نفسه أو ذريعة إلى غيره من الشكر بالتقوى، وقوله سبحانه:

﴿أمدكم بأنعام﴾ إلخ أو في بتأدية ذلك المراد لدلالته على النعم بالتفصيل من غير إحالة على علم المخاطبين المعاندين فوزانه وزان ـ وجهه ـ في أعجبني زيد وجهه لدخول الثاني في الأول لأن ﴿ما تعلمون﴾ يشمل الأنعام وما بعدها من المعطوفات، ولا يخفى ما في التفصيل بعد الإجمال من المبالغة، وفي البحر إن قوله تعالى: ﴿بأنعام﴾ على مذهب بعض النحويين بدل من قوله سبحانه: ﴿بما تعلمون﴾ وأعيد العامل كقوله تعالى: ﴿اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾ [يس: ٢٠، ٢١] والأكثرون لا يجعلون مثل هذا أبدالاً وإنما هو عندهم من تكرار الجمل وإن كان المعنى واحداً ويسمى التتبيع، وإنما يجوز أن يعاد العامل عندهم إذا كان حرف جر دون ما يتعلق به نحو مررت بزيد بأخيك انتهى.

ونقل نحوه عن السفاقسي، وقال أبو حيان: الجملة مفسرة لما قبلها ولا موضع لها، وبدأ بذكر الأنعام لأنها تحصل بها الرياسة والقوة على العدو والغنى الذي لا تكمل اللذة بالبنين وغيرهم في الأغلب إلا به وهي أحب الأموال إلى العرب ثم بالبنين لأنهم معينوهم على الحفظ والقيام عليها ومن ذلك يعلم وجه قرنهما، ووجه قرن الجنات والعيون في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ظاهر وكذا وجه قرنهما مع الأنعام، وقوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إلخ في موضع التعليل أي إني أخاف عليكم إن لم تتقوا وتقوموا بشكر هذه النعم: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم: ٧] وعلل بما ذكر دون استلزام التقوى للزيادة لأن زوال النعمة يحزن فوق ما تسر زيادتها ودرء المضار مقدم على جلب المنافع:

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فإنا لا نرعوي عما نحن عليه قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به عليه السلام، وعدلوا عن أم لم تعظ الذي يقتضيه الظاهر للمبالغة في بيان قلة اعتدادهم بوعظه عليه السلام لما في كلامهم على ما في النظم الجليل من استواء وعظه والعدم الصرف البليغ وهو عدم كونه من عداد الواعظين وجنسهم، وقيل: في وجه المبالغة إفادة كان الاستمرار و ﴿الواعظين﴾ الكمال واعتبارهما بقرينة المقام بعد النفي أي سواء علينا أوعظت أم استمر انتفاء كونك من زمرة من يعظ انتفاء كاملاً بحيث لا يرجى منك نقيضه، وقال في البحر: إن المقابلة بما ذكر لأجل الفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ [الأعراف: ١٩٣] وكثيراً ما يحسن مع الفواصل ما لا يحسن دونه وليس بشيء كما لا يخفى. وروي عن أبي عمرو والكسائي إدغام الظاء في التاء في «وعظت» وبالإدغام قرأ ابن محيصن. والأعمش إلا أن الأعمش زاد ضمير المفعول فقرأ «أوعظتنا» وينبغي أن يكون إخفاء لأن الظاء مجهورة مطبقة والتاء مهموسة منفتحة فالظاء أقوى منها والإدغام إنما يحسن في المتماثلين أو في المتقاربين إذا كان الأول أنقص من الثاني.

وأما إدغام الأقوى في الأضعف فلا يحسن، وإذا جاء شيء من ذلك في القرآن بنقل الثقات وجب قبوله وإن كان غيره أفصح وأقيس. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ تعليل لما ادعوه من المساواة أي ما هذا الذي جئتنا به الإعادة الأولين يلفقون مثله ويدعون إليه أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا عادة الأولين الذين تقدمونا من الآباء وغيرهم ونحن بهم مقتدون، وقرأ أبو قلابة والأصمعي عن نافع «خُلْقُ» بضم الخاء وسكون اللام، والمعنى عليه كما تقدم.

وقرأ عبدالله وعلقمة والحسن وأبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير والكسائي «خَلْقُ» بفتح الخاء وسكون اللام أي ما

هذا إلا اختلاق الأولين وكذبهم، ويؤيد هذا المعنى ما روى علقمة عن عبدالله أنه قرأ «إلا اختلاق الأولين» ويكون هذا كقول سائر الكفرة ﴿أساطير الأولين﴾ [الأنعام: ٢٥ وغيرها] أو ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيي كما حيوا ونموت كما ماتوا، ومرادهم إنكار البعث والحساب المفهوم من تهديدهم بالعذاب، ولعل قولهم: **﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾** أي على ما نحن عليه من الأعمال أصرح في ذلك **﴿فَكَذَّبُوهُ﴾** أي أصروا على تكذيبه عليه السلام **﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾** بسببه بريح صرصر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو اسم عجمي عند بعض والأكثرون على أنه عربي وترك صرفه لأنه اسم قبيلة، وهو فعول من الثمد وهو الماء القليل الذي لا مادة له ومنه قيل فلان مثمود ثمدته النساء أي قطعن مادة مائه لكثرة غشيانه لهن ومثمود إذا كثر عليه السؤال حتى نفد مادة ماله أو ما يبقى في الجلد أو ما يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف. وفي القاموس ثمود قبيلة ويصرف وتضم الثاء وقرىء به أيضاً. وفي سبائك الذهب أنه في الأصل اسم لأبي القبيلة ثم نقل وجعل اسماً لها، ووجه تأنيث الفعل هنا نظير ما تقدم في قوله تعالى: «كذبت عاد» وكذا الكلام في قوله سبحانه:

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا
تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا
أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ
الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ
لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ

لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى
لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾
ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾
۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ
وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾
وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى
زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ
عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا
يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخوهُمْ هود أَلاَ تَتَّقونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه مِنْ أَجْر إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كالكلام فيما تقدم وقوله تعالى: **﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمنينَ﴾** إنكار لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة آمنين عن عذاب يوم عظيم فالاستفهام مثله في قوله تعالى السابق: **﴿أتبنون﴾** وقوله تعالى اللاحق: **﴿أتأتون﴾** وكأن القوم اعتقدوا ذلك فأنكره عليه السلام عليهم، وجوز أن يكون الاستفهام للتقرير تذكيراً للنعمة في تخليته تعالى إياهم وأسباب نفعهم آمنين من العدو ونحوه واستدعاء لشكر ذلك بالإيمان.

وفي الكشف أن هذا أوفق في هذا المقام، وما موصولة و **﴿هاهنا﴾** إشارة إلى المكان الحاضر القريب أي أتتركون في الذي استقر في مكانكم هذا من النعمة، وقوله تعالى: **﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُون * وَزُرُوع وَنَخْل طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾** بدل من - ما هاهنا - بإعادة الجار كما قال أبو البقاء وغيره، وفي الكلام إجمال وتفصيل نحو ما تقدم في قصة عاد.

وجوز أن يكون ظرفاً لآمنين الواقع حالاً وليس بذاك، والهضيم الداخل بعضه في بعض كأنه هضم أي شدخ. وسأل عنه نافع بن الأزرق بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال له: المنضم بعضه إلى بعض فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول امرىء القيس:

دار لبيضاء العوارض طفلة ... مهضومة الكشحين ريا المعصم

وقال الزهري: هو اللطيف أول ما يخرج، وقال الزجاج: هو الذي رطبه بغير نوى وروي عن الحسن. وقيل: هو المتدلي لكثرة ثمره، وقيل: هو النضيج من الرطب وروي عن عكرمة، وقيل: الرطب المذنب وروى عن يزيد بن أبي زياد، فوصف الطلع بالهضيم إما حقيقة أو مجاز وهو حقيقة وصف لثمره، وجعل بعضهم على بعض الأقوال الطلع مجازاً عن الثمر لأوله إليه، والنخل اسم جنس جمعي يذكر كما في قوله تعالى: ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ [القمر: ٢٠] ويؤنث كما هنا، وليس ذلك لأن المراد به الإناث فإنه معلوم بقرينة المقام ولو ذكر الضمير.

وإفراده بالذكر مع دخوله في الجنات لفضله على سائر أشجارها أو لأن المراد بها غيره من الأشجار.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ أي أشرين بطرين كما روي عن ابن عباس ومحمد بن العلاء، وجاء في رواية أخرى عن ابن عباس تفسيره بنشطين مهتمين، وقال أبو صالح: أي حاذقين وبذلك فسره الراغب.

وقال ابن زيد: أي أقوياء، وأنت تعلم أن هذه الجملة داخلة في حيز الاستفهام السابق والأوفق به على القول الأول وعلى القول الثاني كل من الأقوال الباقية وكلها سواء في ذلك إلا أنه يفهم من كلام بعضهم أن الفراهة حقيقة في النشاط مجاز في غيره وعليه يترجح تفسيره بنشطين إذا أريد التذكير.

وقرأ أبو حيوة وعيسى والحسن «تَنْحَتُونَ» بفتح الحاء. وقرىء «تنحاتون» بألف بعد الحاء إشباعاً، وعن عبد الرحمن بن محمد عن أبيه أنه قرأ «ينحتون» بالياء آخر الحروف وكسر الحاء، وعن أبي حيوة والحسن أيضاً أنهما قرآ بالياء التحتية وفتح الحاء وقرأ عبدالله وابن عباس وزيد بن علي والكوفيون وابن عامر «فارهين» بألف بعد الفاء، وقراءة الجمهور أبلغ لما ذكروا في حاذر وحذر وقرأ مجاهد «متفرهين» ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون * وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ كأنه عنى بالخطاب جمهور قومه بالمسرفين كبراءهم وأعلامهم في الكفر والإضلال وكانوا تسعة رهط ونسبة الإطاعة إلى الأمر مجاز وهي للآمر حقيقة وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفى وكونه لا يناسب المقام فيه بحث. ويجوز أن تكون الإطاعة مستعارة للامتثال لما بينهما من الشبه في الإفضاء إلى فعل ما أمر به أو مجازاً مرسلاً عنه للزومه له. ويحتمل أن يكون هناك استعارة مكنية وتخييلية، وجوز عليه أن يكون الأمر واحد الأمور وفيه من البعد ما فيه والإسراف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر ، والمراد به هنا زيادة الفساد وقد أوضح ذلك على ما قيل بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ ولعل المراد ذمهم بالضلال في أنفسهم بالكفر والمعاصي وإضلالهم غيرهم بالدعوة لذلك، وللإيماء إلى عدم اختصاص شؤم فعلهم بهم حثاً على امتثال النهي قيل ﴿في الأرض﴾ والمراد بها أرض ثمود، وقيل: الأرض كلها ولما كان ﴿يفسدون﴾ لا ينافي إصلاحهم أحياناً أردف بقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ لبيان كمال إفسادهم وأنه لم يخالطه إصلاح أصلاً ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقولهم، وقيل: أي من ذوي السحر أي الرئة فهو كناية عن كونه من الأناسي فقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ على هذا تأكيد له وعلى الأول هو مستأنف للتعليل أي أنت مسحور لأنك بشر مثلنا لا تميز لك علينا فدعواك إنما هي لخلل في عقلك ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ أي بعلامة على صحة دعواك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيها ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ أي بعد ما أخرجها الله تعالى بدعائه.

روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عشراء تخرج من صخرة عينوها ثم تلد سقباً فقعد عليه السلام يتذكر فقال له: جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقباً مثلها في العظم فعند ذلك قال لهم: هذه ناقة ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ أي نصيب مشروب من الماء كالسقي والقيت للنصيب من السقي والقوت وكان هذا الشرب من عين عندهم.

وفي مجمع البيان عن علي كرّم الله تعالى وجهه أن تلك العين أول عين نبعت في الأرض وقد فجرها الله عز وجل لصالح عليه السلام ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها.

وقرأ ابن أبي عبلة «شُرْبٌ» بضم الشين فيهما، واستدل بالآية على جواز قسمة ماء نحو الآبار على هذا الوجه ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ كضرب وعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من عظم العذاب وهذا من المجاز في النسبة، وجعل ﴿عظيم﴾ صفة ﴿عذاب﴾ والجر للمجاورة نحو هذا جحر ضب خرب ليس بشيء ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نسب العقر إليهم كلهم مع أن عاقرها واحد منهم وهو قدار بن سالف وكان نساجاً على ما ذكره غير واحد، وجاء في رواية أن مسطعاً ألجأها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار لما روي أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقول: أترضين؟ فتقول: نعم وكذلك الصبيان فرضوا جميعاً، وقيل: لأن العقر كان بأمرهم ومعاونتهم جميعاً كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ [القمر: ٢٩] وفيه بحث ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ خوفاً من حلول العذاب كما قال جمع، وتعقب بأنه مردود بقوله تعالى: ﴿وقالوا﴾ أي بعد ما عقروها: ﴿يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾، وأجيب بأن قوله بعد ما عقروها في حيز المنع إذ الواو لا تدل على الترتيب فيجوز أن يريدوا بما تعدنا من المعجزة أو الواو حالية أي والحال أنهم طلبوها من صالح ووعدوه الإيمان بها عند ظهورها مع أنه يجوز ندم بعض وقول بعض آخر ذلك بإسناد ما صدر من البعض إلى الكل لعدم نهيهم عنه أو نحو ذلك أو ندموا كلهم أولاً خوفاً ثم قست قلوبهم وزال خوفهم أو على العكس، وجوز أن يقال: إنهم ندموا على عقرها ندم توبة لكنه كان عند معاينة العذاب وعند ذلك لا ينفع الندم، وقيل: لم ينفعهم ذلك لأنهم لم يتلافوا ما فعلوا بالإيمان المطلوب منهم.

وقيل: ندموا على ترك سقبها ولا يخفى بعده، ومثله ما قيل: إنهم ندموا على عقرها لما فاتهم به من لبنها، فقد روي أنه إذا كان يومها أصدرتهم لبناً ما شاؤوا ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعود وكان صيحة خمدت لها أبدانهم وانشقت قلوبهم وماتوا عن آخرهم وصب عليهم حجارة خلال ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وكانوا من أصهاره عليه السلام ﴿أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إنكار وتوبيخ والإتيان كناية عن الوطء. و ﴿الذكران﴾ جمع ذكر مقابل الأنثى، والظاهر أن ﴿من العالمين﴾ متصل به أي أتأتون الذكران من أولاد بني آدم على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكرانهم كأن الإناث قد أعوزتكم فالمراد بالعالمين الناس لأن المأتي الذكور منهم خاصة والقرينة إيقاع الفعل والجمع بالواو والنون من غير نظر إلى تغليب. وأما خروج الملك والجن فمن الضرورة العقلية. ويجوز أن يكون متصلاً بتأتون أي أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم فالمراد بالعالمين كل من يتأتى منه الإتيان. والعالم على هذا ما يعلم به الخالق سبحانه

والجمع للتغليب وخروج غيره لما مر. ولا يضر كون الحمار والخنزير يأتيان الذكور في أمر الاختصاص للندرة أو لإسقاطهما عن حيز الاعتبار، وجوز أن يراد بالعالمين على الوجه الثاني الناس أيضاً، وإذا قيل بشمولهم لمن تقدم من العالمين تفيد الآية أنهم أول من سن هذه السنة السيئة كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ [الأعراف: ٨٠، العنكبوت: ٢٨].

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ لأجل استمتاعكم، وكلمة ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ للبيان إن أريد بما جنس الإناث، ولعل في الكلام حينئذ مضافين محذوفين أي وتذرون إتيان فروج ما خلق لكم أو للتبعيض إن أريد بما العضو المباح من الأزواج. ويؤيده قراءة ابن مسعود «ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم» وحينئذ يكتفي بتقدير مضاف واحد أي وتذرون إتيان ما خلق ويكون في الكلام على ما قيل تعريض بأنهم كانوا يأتون نساءهم أيضاً في محاشهن ولم يصرح بإنكاره كما صرح بإنكار إتيان الذكران لأنه دونه في الإثم.

وهو على المشهور عند أهل السنة حرام بل كبيرة، وقيل: هو مباح، وقد تقدم الكلام[1] في ذلك مبسوطاً عند الكلام في قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقيل: ليس في الكلام مضاف محذوف أصلاً، والمراد ذمهم بترك ما خلق لهم وعدم الالتفات إليه بوجه من الوجوه فضلاً عن الإتيان، وأنت تعلم أن المعنى ظاهر على التقدير، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ إضراب انتقالي والعادي المتعدي في ظلمه المتجاوز فيه الحد ومتعلقه مقدر وهو إما عام أو خاص أي بل أنتم قوم متعدون متجاوزون الحد في جميع المعاصي وهذا من جملتها أو متجاوزون عن حد الشهوة حيث زدتم على سائر الناس بل أكثر الحيوانات.

وقيل: متجاوزون الحد في الظلم حيث ظلمتم بإتيان ما لم يخلق للإتيان وترك إتيان ما خلق له، وفي البحر أن تصدير الجملة بضمير الخطاب تعظيماً لفعلهم وتنبيهاً على أنهم مختصون بذلك كأنه قيل: بل أنتم قوم عادون لا غيركم ﴿قَالُوا لَئِن لَمْ تَنْتَه يَا لُوطُ﴾ عن توبيخنا وتقبيح أمرنا أو عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوتنا إلى الإيمان وإنكار ما أنكرته من أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي من المنفيين من قريتنا المعهودين، وكأنهم كانوا يخرجون من غضبوا عليه بسبب من الأسباب، وقيل: بسبب إنكار تلك الفاحشة من بينهم على عنف وسوء حال، ولهذا هددوه عليه السلام بذلك، وعدلوا عن لنخرجنك الأخصر إلى ما ذكر؛ ولا يخفى ما في الكلام من التأكيد.

﴿قَالَ إِنّـي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي من المبغضين غاية البغض، قال الراغب: يقال قلاه ويقليه فمن جعله من الواو فهو من القلو أي الرمي من قولهم: قلت الناقة براكبها قلواً وقلوت بالقلة إذا رميتها فكأن المقلو بقذفه القلب من بغضه فلا يقبله. ومن جعله من الياء فهو من قليت السويق على المقلاة فكأن شدة البغض تقلي الفؤاد والكبد

---

(١) بيد أني وقفت عند كتابتي في هذا الموضع على كلام العز بن عبد السلام في أماليه في هذا المبحث حاصله أن حرمة إتيان الزوجة في المحل المكروه ليست إجماعية إلا أن معظم أهل الإسلام على تحريمه كما قال الطرسوسي والخلاف فيه يسير جداً كالذي لا عبرة به. ويذكر أن ابن عبد الحكم نقل حله عن الشافعي وأن الربيع قال: كذب والله ابن عبد الحكم. وقد نص الإمام على تحريمه في ست كتب ولم يحفظ عن مالك شيء في إباحته البتة ونقله من كتاب السر غير صحيح بل في كتاب البيان والتحصيل لابن رشد الأندلسي النص على خلاف ذلك. ورواية الطحاوي عن أبي الفرج عن ابن القاسم حله لا يعول عليها ولا تصح. وأما إباحة زيد ابن أسلم ونافع لذلك فلا يؤخذ بها فنافع إمام في القراءات وليس معدوداً في الفقهاء أهل الحل والعقد، وأما زيد فصاحب تفسير لا يعتد لخلافه فليحفظ ا هـ منه.

وتشويهما، فقول أبي حيان: إن قلى بمعنى أبغض يائي، والذي بمعنى طبخ وشوى واوي ناش من قلة الاطلاع، والعدول عن قالي إلى ما في النظم الجليل لأنه أبلغ فإنه إذا قيل: قالي لم يفد أكثر من تلبسه بالفعل بخلاف قوله: ﴿من القالين﴾ إذ يفيد أنه مع تلبسه من قوم عرفوا واشتهروا به فيكون راسخ القدم عريق العرف فيه، وقد صرح بذلك ابن جني وغيره، واللام في «لعملكم» قيل للتبيين كما في سقياً لك فهو متعلق بمحذوف أعني ـ أعني ـ، وقيل: هي للتقوية ومتعلقها عند من يرى تعلق حرف التقوية محذوف أي إني من القالين لعملكم من القالين. وقيل: هي متعلقة بالقالين المذكور ويتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها فتقدم حيث لا يقدم غيرها، والمراد بعملهم إما ما أنكره عليه السلام عليهم من إتيان الذكران وترك ما خلق ربهم سبحانه لهم وإما ما يشمل ذلك وسائر ما نهاهم عنه وأمرهم بضده من الأعمال القلبية والقالبية، وقابل عليه السلام تهديدهم ذلك بما ذكر تنبيهاً على عدم الاكتراث به وأنه راغب في الخلاص من سوء جوارهم لشدة بغضه لعملهم ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤم عملهم أو الذي يعملونه وعذابه الدنيوي. وقيل: يحتمل أن يكون دعاء بالنجاة من التلبس بمثل عملهم وهو بالنسبة إلى الأهل دونه عليه السلام إذ لا يخشى تلبسه بذلك لمكان العصمة. واعترض بأن العذاب كذلك إذ لا يعذب من لم يجن وفيه منع ظاهر. كيف وقد قال سبحانه: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقيل: قد يدعو المعصوم بالحفظ عن الوقوع فيما عصم عنه كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وهو مسلم إلا أن الظاهر أن المراد النجاة مما ينالهم بسبب عملهم من العذاب الدنيوي. ويؤيده ظاهر قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ ﴾.

والظاهر أن المراد بأهله أهل بيته. وجوز أن يكون المراد بهم من تبع دينه مجازاً فيشمل أهل بيته المؤمنين وسائر من آمن به. وقيل: لا حاجة إلى هذا التعميم إذ لم يؤمن به عليه السلام إلا أهل بيته. والمراد بهذه العجوز امرأته عليه السلام وكانت كافرة مائلة إلى القوم راضية بفعلهم. والتعبير عنها بالعجوز للإيماء إلى أنه مما لا يشق أمر هلاكها على لوط عليه السلام وسائر أهله بمقتضى الطبيعة البشرية. وقيل: للإيماء إلى أنها قد عسيت في الكفر ودامت فيه إلى أن صارت عجوزاً، والغابر الباقي بعد مضي من معه. وأنشد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في ذلك قول عبيد بن الأبرص:

ذهبوا وخلفني المخلف فيهم ... فكأنني في الغابرين غريب

والمراد فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلاً عند مشارفة حلوله بهم إلا عجوزاً مقدرة في الباقين في العذاب بعد سلامة من خرج. وإنما اعتبر البقاء في العذاب دون البقاء في الدار لما روي أنها خرجت مع لوط عليه السلام فأصابها حجر في الطريق فهلكت، وقيل: المراد من الباقين في الدار بناء على أنها لهلاكها كأنها ممن بقي فيها أو أنها خرجت ثم رجعت فهلكت كما في بعض الروايات أو أنها لم تخرج مع لوط عليه السلام أصلاً كما في البعض الآخر منها. وقيل: الغابر طويل العمر وكأنه إنما أطلق عليه ذلك لبقائه مع مضي من كان معه. والمراد وصف العجوز بأنها طاعنة في السن وقرأ عبدالله كما روى عنه مجاهد «وواعدنا أن نؤتيه أهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين» ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾ أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه وكان ذلك الائتفاك. والظاهر العطف على ﴿نجينا ﴾ والتدمير متراخ عن التنجية من مطلق العذاب فلا حاجة إلى القول بأن المراد أردنا تنجيته أو حكمنا بها أو معنى ﴿فنجيناه ﴾ فاستجبنا دعاءه في تنجيته وكل ذلك خلاف الظاهر.

وجوز الطيبي كون ﴿ثم﴾ للتراخي في الرتبة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ أي نوعاً من المطر غير معهود فقد كان حجارة من سجيل كما صرح به في قوله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ [هود: ٨٢].

وجمع الأمران لهم زيادة في إهانتهم. وقيل: كان الائتفاك لطائفة والأمطار لأخرى منهم. وكانت هذه على ما روى عن مقاتل للذين كانوا خارجين من القرية لبعض حوائجهم ولعله مراد قتادة بالشذاذ فيما روي عنه ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف إليه فاعل ساء بناء على أنها بمعنى بئس. والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم وإذا لم تكن ساء كذلك جاز كونها للعهد.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكة الغيضة التي تنبت ناعم الشجر وهي غيضة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام وكان أجنبياً منهم ولذلك قيل. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم، وقيل: ﴿الأيكة﴾ الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل، وعلى القولين ﴿أصحاب الأيكة﴾ غير أهل مدين، ومن غريب النقل عن ابن عباس أنهم هم أصحاب مدين.

وقرأ الحرميان وابن عامر «ليكة» بلام مفتوحة بعدها ياء بغير ألف ممنوع الصرف هنا، وفي ص؛ قال أبو عبيدة: وجدنا في بعض كتب التفسير أن «ليكة» اسم للقرية و ﴿الأيكة﴾ البلاد كلها كمكة وبكة، ورأيتها في الإمام مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه في [الحجر: ٧٨] و [ق: ١٤] ﴿الأيكة﴾ وفي [الشعراء: ١٧٦، وص: ١٣] ﴿ليكة﴾ واجتمعت مصاحف الأمصار كلها بعد ذلك ولم تختلف، وفي الكشاف من قرأ بالنصب، وزعم أن ﴿ليكة﴾ بوزن ليلة اسم بلد فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة هنا وفي «ص» بغير ألف، وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف الخط المصطلح عليه وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ كما يكتب أصحاب النحو الآن لأن والأولى لولى لبيان لفظ المخفف. وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن «ليكة» اسم لا يعرف انتهى، وتعقب بأنه دعوى من غير ثبت وكفى ثبتا للمخالف ثبوت القراءة في السبعة وهي متواترة كيف وقد انضم إليه ما سمعت عن بعض كتب التفسير. وإن لم تعول عليه فما روى البخاري في صحيحه ﴿الأيكة﴾ وليكة الغيضة، هذا وإن الأسماء المرتجلة لا منع منها، وفي البحر أن كون مادة ل ي ك مفقودة في لسان العرب كما تشبث به من أنكر هذه القراءة المتواترة إن صح لا يضر وتكون الكلمة عجمية ومواد كلام العجم مخالفة في أكثير مواد كلام العرب فيكون قد اجتمع على منع صرفها العلمية والعجمة والتأنيث، وبالجملة إنكار الزمخشري صحة هذه القراءة يقرب من الردة والعياذ بالله تعالى. وقد سبقه في ذلك المبرد وابن قتيبة والزجاج والفارسي والنحاس، وقرىء «ليكة» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام والجر بالكسرة وتكتب على حكم لفظ اللافظ بدون همزة وعلى الأصل بالهمزة وكذا نظائرها.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي أتموه ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي حقوق الناس بالتطفيف ولعل المبالغة المستفادة من التركيب متوجهة إلى النهي أو أنه لا يعتبر المفهوم لنحو ما قيل في قوله تعالى: ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ [آل عمران: ١٣٠] وأياً ما كان ففي النهي المذكور تأكيد للأمر السابق عليه ﴿وَزِنُوا﴾ الموزونات.

﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي بالميزان السوي، وقيل: القسطاس القبان وروي ذلك عن الحسن، وهو عند بعض معرب رومي الأصل ومعناه العدل وروي ذلك عن مجاهد وعند آخرين عربي فقيل: هو من القسط ووزنه فعلاع بتكرير العين شذوذاً إذ هي لا تكرر وحدها مع الفصل باللام، وقيل: من قسطس وهو رباعي ووزنه فعلال، والمراد الأمر بوفاء الوزن وإتمامه والنهي عن النقص دون النهي عن الزيادة، والظاهر أنه لم ينه عنها ولم يؤمر بها في الكيل والوزن، وكأن ذلك دليل على أن من فعلها فقد أحسن ومن لم يفعلها فلا عليه.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى ﴿وزنوا﴾ إلخ وعدلوا أموركم كلها بميزان العدل الذي جعله الله تعالى لعباده، والظاهر إذ عادل سبحانه به ﴿أوفوا الكيل﴾ [الأنعام: ١٥٢] ما تقدم.

وقرأ أكثر السبعة «بالقُسطاس» بضم القاف ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم أي حق كان فإضافة أشياء جنسية ويجوز أن تكون للاستغراق، والمراد مقابلة الجمع بالجمع فيكون المعنى لا تبخسوا أحداً شيئاً، وجوز أن يكون الجمع للإشارة إلى الأنواع فإنهم كانوا يبخسون كل شيء جليلاً كان أو حقيراً، وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المراد بالذكر لغاية انهماكهم فيه، وقيل: المراد بأشيائهم الدراهم والدنانير وبخسها بالقطع من أطرافها ولولاه لم يجمع. وبخس مما يتعدى إلى اثنين فالمنصوبان مفعولاه، وقيل هو متعد لواحد فالثاني بدل اشتمال ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق ونحو ذلك، والعثو الفساد أو أشده و «مفسدين» حال مؤكدة، وجوز أن يكون المراد مفسدين آخرتكم فتكون حالاً مؤسسة ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ أي وذوي الجبلة أي الخلقة والطبيعة أو والمجبولين على أحوالهم التي بنوا عليها وسبلهم التي قيضوا لسلوكها المتقدمين عليكم من الأمم، وجاء في رواية عن ابن عباس أن الجبلة الجماعة إذا كانت عشرة آلاف كأنها شبهت على ما قيل بالقطعة العظيمة من الجبل، وقيل: هي الجماعة الكثيرة مطلقاً كأنها شبهت بما ذكر أيضاً.

وقرأ أبو حصين والأعمش والحسن بخلاف عنه «الجُبُلَّةُ» بضم الجيم والباء وشد اللام وقرأ السلمي «الجِبْلَة» بكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة، وفي نسخة عنه بفتح الجيم وسكون الباء قيل وتشديد اللام في القراءتين للمبالغة ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ الكلام فيه نظير ما تقدم في قصة ثمود بيد أنه أدخل الواو بين الجملتين هنا للدلالة على أن كلاً من التسحير والبشرية مناف للرسالة فكيف إذا اجتمعا وأرادوا بذلك المبالغة في التكذيب، ولم تدخل هناك حيث لم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشراً مثلهم كذا في الكشاف، وفي الكشف أن فيه ما يلوح إلى اختصاص كل بموضعه وإن الكلام هنالك في كونه مثلهم غير ممتاز بما يوجب الفضيلة ولهذا عقبوه بقولهم: ﴿فأت بآية﴾ [الشعراء: ١٥٤] فدل على أنهم لم يجعلوا البشرية منافية للنبوة وإنما جعلوا الوصف تمهيداً للاشتراك وأنه أبدع في دعواه، وهاهنا ساقوا ذلك مساق ما ينافي النبوة فجعلوا كل واحد صفة مستقلة في المنافاة ليكون أبلغ. وجعلوا إنكار النبوة أمراً مفروغاً ولذا عقبوه بقولهم: ﴿وإن نظنك﴾ إلخ، وقال النيسابوري في وجه الاختصاص: إن صالحاً عليه السلام قلل في الخطاب فقللوا في الجواب وأكثر شعيب عليه السلام في الخطاب ولهذا قيل له: خطيب الأنبياء فأكثروا في الجواب، ولعله أراد أن شعيباً عليه السلام بالغ في زجرهم فبالغوا في تكذيبه ولا كذلك صالح عليه السلام مع قومه فتأمل، و ﴿إن﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام في ﴿لمن﴾ هي الفارقة، وقال الكوفيون: إن نافية واللام بمعنى إلا وهو خلاف مشهور أي وإن الشأن نظنك من الكاذبين في الدعوى أو ما نظنك إلا من الكاذبين فيها، ومرادهم أنه عليه السلام وحاشاه راسخ القدم في الكذب في دعواه الرسالة أو فيها وفي دعوى نزول العذاب الذي يشعر به الأمر بالتقوى من التهديد.

وظاهر حالهم أنهم عنوا بالظن الإدراك الجازم، وقوله عز وجل: ﴿فَأَسْقِطْ علينَا كسفاً مِنَ السَّمَاء إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادقينَ﴾ من الاقتراح الذي تحته كل الإنكار على نحو ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: ٣٢] ولعلهم قابلوا به ما أشعر به الأمر بالتقوى مما ذكرنا، و ﴿كسفاً﴾ أي قطعاً كما روي عن ابن عباس وقتادة جمع كسفة كقطعة.

وقرأ الأكثرون «كِسْفاً» بكسر الكاف وسكون السين وهو أيضاً جمع كسفة مثل سدرة وسدر، وقيل: الكسف والكسفة كالريع والريعة وهي القطعة، والمراد بالسماء إما المظلة وهو الظاهر وإما السحاب، والظاهر أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لما قبله وتعلقه بأسقط في غاية السقوط، وجوز عليه أن يراد بالسماء جهة العلو، وجواب أن محذوف دل عليه فأسقط، ومن جوز تقدم الجواب جعله الجواب.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي هو تعالى أعلم بأعمالكم من الكفر والمعاصي وبما تستوجبون عليها من العذاب فسينزله عليكم حسبما تستوجبون في وقته المقدر له لا محالة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فاستمروا على تكذيبه وكذبوه تكذيباً بعد تكذيب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة﴾ وذلك على ما أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس أن الله تعالى بعث عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم فخرجوا منها هراباً إلى البرية فبعث الله تعالى عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس وهي الظلة فوجدوا لها برداً ولذة فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عز وجل عليهم ناراً فأكلتهم جميعاً. وجاء في كثير من الروايات أن الله عز وجل سلط عليهم الحر سبعة أيام ولياليهن ثم كان ما كان من الخروج إلى البرية وما بعده وكان ذلك على نحو ما اقترحوه لا سيما على القول بأنهم عنوا بالسماء السحاب، وفي إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها إيذان بأن لهم عذاباً آخر غير عذاب الظلة وفي ترك بيانه تعظيم لأمره.

وقد أخرج ابن جرير والحاكم وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: من حدثك من العلماء ما عذاب يوم الظلة فكذبه، وكأنه أراد بذلك مجموع عذاب الظلة الذي ذكر في الخبر السابق والعذاب الآخر الذي آذنت به الإضافة إلى اليوم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي في الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هذا آخر القصص السبع التي سيقت لما علمته سابقاً، ولعل الاقتصار على هذا العدد على ما قيل لأنه عدد تام وأنا أفوض العلم بسر ذلك وكذا العلم بسر ترتيب القصص على هذا الوجه لحضرة علام الغيوب جل شأنه، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمينَ﴾ إلخ عود لما في مطلع السورة الكريمة من التنويه بشأن القرآن، العظيم، ورد ما قال المشركون فيه فالضمير راجع إلى القرآن، وقيل: هو تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ فإن الأخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل، فالضمير لما ذكر من الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص المحكية، وجوز أن يكون للقرآن الذي هي من جملته والإخبار عن ذلك بتنزيل للمبالغة والمراد أنه لمنزل من الله تعالى ووصفه سبحانه بربوبية العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام تربيته عز وجل ورأفته بالكل ﴿نَزَلَ به﴾ أي أنزله على أن الباء للتعدية.

وقال أبو حيان وابن عطية: هي للمصاحبة والجار والمجرور في موضع الحال كما في قوله تعالى: ﴿وقد دخلوا بالكفر﴾ [المائدة: ٦١] أي نزل مصاحباً له ﴿الرُّوحُ الأمينُ﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، وعبر عنه بالروح

لأنه يحيي به الخلق في باب الدين أو لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح، ووصف عليه السلام بالأمين لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده جل شأنه من غير تغيير وتحريف أصلاً. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وابن عامر ﴿نزل به الروح الأمين﴾ بتشديد الزاي ونصب ﴿الروح﴾ و ﴿الأمين﴾ أي جعل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ متعلق بنزل لا بالأمين. والمراد بالقلب إما الروح وهو أحد إطلاقاته كما قال الراغب: وكون الإنزال عليه على ما قال غير واحد لأنه المدرك والمكلف دون الجسد. وقد يقال: لما كان له ﷺ جهتان جهة ملكية يستفيض بها وجهة بشرية يفيض بها جعل الإنزال على روحه ﷺ لأنها المتصفة بالصفات الملكية التي يستفيض بها من الروح الأمين.

وللإشارة إلى ذلك قيل ﴿على قلبك﴾ دون عليك الأخصر. وقيل: إن هذا لأن القرآن لم ينزل في الصحف كغيره من الكتب، وأما العضو المخصوص وهو الإطلاق المشهور. وتخصيصه بالإنزال عليه قيل للإشارة إلى كمال تعقله ﷺ وفهمه ذلك المنزل حيث لم تعتبر واسطة في وصوله إلى القلب الذي هو محل العقل كما يقتضيه ظاهر كثير من الآيات والأحاديث ويشهد له العقل على ما لا يخفى على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وقد أطال في الانتصار لذلك الإمام في تفسيره.

ورد على من ذهب إلى أن الدماغ محل العقل، وقيل: للإشارة إلى صلاح قلبه عليه الصلاة والسلام وتقدسه حيث كان منزلاً لكلامه تعالى ليعلم منه حال سائر أجزائه ﷺ فإن القلب رئيس جميع الأعضاء وملكها ومتى صلح الملك صلحت الرعية وفي الحديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»، وقد يقال: يجوز أن يكون التخصيص لأن الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعاً مخصوصاً يسمع به ما ينزل عليه من القرآن تمييزاً لشأنه على سائر ما يسمعه ويعيه على حد ما قيل وذكره النووي في شرح صحيح مسلم في قوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١] من أن الله عز وجل جعل لفؤاده عليه الصلاة والسلام بصراً فرآه به سبحانه ليلة المعراج. وهذا كله على القول بأن جبرائيل عليه السلام ينزل بالألفاظ القرآنية المحفوظة له بعد أن نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة أو التي يحفظها من اللوح عند الأمر بالإنزال أو التي يوحى بها إليه أو التي يسمعها منه سبحانه على ما قاله بعض أجلة السلف عنده فيلقيها إلى النبي ﷺ على ما هي عليه من غير تغيير أصلاً. وكذا على القول بأن جبرائيل عليه السلام ألقى عليه المعاني القرآنية وأنه عبر عنها بهذه الألفاظ العربية ثم نزل بها كذلك فألقاها إلى النبي ﷺ. وأما على القول بأنه عليه السلام إنما نزل بالمعاني خاصة إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأنه عليه الصلاة والسلام علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب فقيل: إن القلب بمعنى العضو المخصوص لا غير وتخصيصه لأن المعاني إنما تدرك بالقوة المودعة فيه ، وقيل : يجوز أن يراد به الروح وروحه عليه الصلاة والسلام لغاية تقدسها وكمالها في نفسها تدرك المعاني من غير توسط آلة. ومن الناس من ذهب إلى هذا القول وجعل الآية دليلاً له وهو قول مرجوح. ومثله القول بأن جبرائيل عليه السلام ألقى عليه المعاني فعبر عنها بألفاظ فنزل بما عبر هو به. والقول الراجح أن الألفاظ منه عز وجل كالمعاني لا مدخل لجبرائيل عليه السلام فيها أصلاً. وكان النبي ﷺ يسمعها ويعيها بقوى إلهية قدسية لا كسماع البشر إياها منه عليه الصلاة والسلام وتنفعل عند ذلك قواه البشرية، ولهذا يظهر على جسده الشريف ﷺ ما يظهر ويقال لذلك: برجاء الوحي حتى يظن في بعض الأحايين أنه أغمي عليه عليه الصلاة والسلام. وقد يظن أنه ﷺ أغفى.

وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم عن أنس قال: «بينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرنا إذ أغفى

إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: أنزل عليّ آنفاً سورة فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ١ - ٣] ولا يحتاج من قال: إن الأشبه أن القرآن كله نزل في اليقظة إلى تأويل هذا الخبر بأنه عليه الصلاة والسلام خطر له في تلك الإغفاءة سورة الكوثر التي نزلت قبلها في اليقظة أو عرض عليه الكوثر الذي أنزلت فيه السورة فقرأها عليهم، ثم إنه على ما قيل من أن بعض القرآن نزل عليه عليه الصلاة والسلام وهو نائم استدلالاً بهذا الخبر يبقى ما قلناه من سماعه عليه الصلاة والسلام ما ينزل إليه ﷺ ووعيه إياه بقوى إلهية قدسية ونومه عليه الصلاة والسلام لا يمنع من ذلك كيف وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «تنام عيني ولا ينام قلبي».

وقد ذكر بعض المتصدرين في محافل الحكمة من المتأخرين في بيان كيفية نزول الكلام وهبوط الوحي من عند الله تعالى بواسطة الملك على قلب النبي ﷺ أن الروح الإنساني إذا تجرد عن البدن، وخرج عن وثاقة من بيت قالبه وموطن طبعه مهاجراً إلى ربه سبحانه لمشاهدة آياته الكبرى وتطهر عن درن المعاصي واللذات والشهوات والوساوس العادية والمتعلقات لاح له نور المعرفة والإيمان بالله تعالى وملكوته الأعلى وهذا النور إذا تأكد وتجوهر كان جوهراً قدسياً يسمى في لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعال وفي لسان الشريعة النبوية بالروح القدسي وبهذا النور الشديد العقلي يتلألأ فيه أسرار ما في الأرض والسماء ويتراءى منه حقائق الأشياء كما يتراءى بالنور الحسي البصري الاشباح المثالية في قوة البصر إذا لم يمنع حجاب، والحجاب هاهنا هو آثار الطبيعة وشواغل هذه الأولى فإذا عريت النفس عن دواعي الطبيعة والاشتغال بما تحتها من الشهوة والغضب والحس والتخيل وتوجهت بوجهها شطر الحق وتلقاء عالم الملكوت الأعلى اتصلت بالسعادة القصوى فلاح لها سر الملكوت وانعكس عليها قدس اللاهوت ورأت عجائب آيات الله تعالى الكبرى، ثم إن هذه الروح إذا كانت قدسية شديدة القوى قوية الآثار لقوة اتصالها بما فوقها فلا يشغلها شأن عن شأن ولا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها فتضبط الطرفين وتسع قوتها الجانبين لشدة تمكنها في الحد المشترك بين الملك والملكوت كالأرواح الضعيفة التي إذا مالت إلى جانب غاب عنها الجانب الآخر وإذا ركنت إلى مشعر من المشاعر ذهلت عن المشعر الآخر وإذا توجهت هذه الروح القدسية التي لا يشغلها شأن عن شأن ولا تصرفها نشأة عن نشأة وتلقت المعارف الإلهية بلا تعلم بشري بل من الله تعالى يتعدى تأثيرها إلى قواها ويتمثل لروحه البشري صورة ما شاهده بروحه القدسي وتبرز منها إلى ظاهر الكون فتتمثل للحواس الظاهرة سيما السمع والبصر لكونهما أشرف الحواس الظاهرة فيرى ببصره شخصاً محسوساً في غاية الحسن والصباحة ويسمع بسمعه كلاماً منظوماً في غاية الجودة والفصاحة، فالشخص هو الملك النازل بإذن الله تعالى الحامل للوحي الإلهي، والكلام هو كلام الله تعالى وبيده لوح فيه كتاب هو كتاب الله تعالى، وهذا الأمر المتمثل بما معه أو فيه ليس مجرد صورة خيالية لا وجود لها في خارج الذهن والتخيل كما يقوله من لاحظ له من علم الباطن ولا قدم له في أسرار الوحي والكتاب كبعض أتباع المشائين معاذ الله تعالى عن هذه العقيدة الناشئة عن الجهل بكيفية الإنزال والتنزيل ثم قال: إنارة قلبية وإشارة عقلية عليك أن تعلم أن للملائكة ذوات حقيقية وذوات إضافية مضافة إلى ما دونها إضافة النفس إلى البدن الكائن في النشأة الآخرة فأما ذواتها الحقيقية فإنما هي أمرية قضائية قولية وأما ذواتها الإضافية فإنما هي خلقية قدرية تنشأ منها الملائكة اللوحية وأعظمهم إسرافيل عليه السلام وهؤلاء الملائكة اللوحية يأخذون الكلام الإلهي والعلوم اللدنية من الملائكة القلمية ويثبتونها في صحائف ألواحهم القدرية الكتابية، وإنما كان يلاقي النبي ﷺ في معراجه الصنف الأول من الملائكة ويشاهد روح القدس في اليقظة فإذا اتصلت الروح النبوية بعالمهم عالم الوحي الرباني يسمع كلام الله تعالى

وهو إعلام الحقائق بالمكالمة الحقيقية وهي الإفاضة والاستفاضة في مقام قاب قوسين أو أدنى وهو مقام القرب ومقعد الصدق ومعدن الوحي والإلهام، وكذا إذا عاشر النبي الملائكة الأعلين يسمع صريف أقلامهم وإلقاء كلامهم وهو كلام الله تعالى النازل في محل معرفتهم وهي ذواتهم وعقولهم لكونهم في مقام القرب، ثم إذا نزل عليه الصلاة والسلام إلى ساحة الملكوت السماوي يتمثل له صورة ما عقله وشاهده في لوح نفسه الواقعة في عالم الأرواح القدرية السماوية ثم يتعدى منه الأثر إلى الظاهر، وحينئذ يقع للحواس شبه دهش ونوم لما أن الروح القدسية لضبطها الجانبين تستعمل المشاعر الحسية لكن لا في الأغراض الحيوانية بل في سبيل السلوك إلى الرب سبحانه فهي تشائع الروح في سبيل معرفته تعالى وطاعته فلا جرم إذا خاطبه الله تعالى خطاباً من غير حجاب خارجي سواء كان الخطاب بلا واسطة أو بواسطة الملك واطلع على الغيب فانطبع في فص نفسه النبوية نقش الملكوت وصورة الجبروت تنجذب قوة الحس الظاهر إلى فوق ويتمثل لها صورة غير منفكة عن معناها وروحها الحقيقي لا كصورة الأحلام والخيالات العاطلة عن المعنى فيتمثل لها حقيقة الملك بصورته المحسوسة بحسب ما يحتملها فيرى ملكاً على غير صورته التي كانت له في عالم الأمر لأن الأمر إذا نزل صار خلقاً مقدراً فيرى صورته الخلقية القدرية ويسمع كلاماً مسموعاً بعد ما كان وحياً معقولاً أو يرى لوحاً بيده مكتوباً فالموحى إليه يتصل بالملك أولاً بروحه العقلي ويتلقى منه المعارف الإلهية ويشاهد ببصره العقلي آيات ربه الكبرى ويسمع بسمعه العقلي كلام رب العالمين من الروح الأعظم. ثم إذا نزل عن هذا المقام الشامخ الإلهي يتمثل له الملك بصورة محسوسة بحسبه ثم ينحدر إلى حسه الظاهر ثم إلى الهواء وهكذا الكلام في كلامه فيسمع أصواتاً وحروفاً منظومة مسموعة يختص هو بسماعها دون غيره فيكون كل من الملك وكلامه وكتابه قد تأدى من غيبه إلى شهادته ومن باطن سره إلى مشاعره ، وهذه التأدية ليست من قبيل الانتقال والحركة للملك الموحي من موطنه ومقامه إذ كل له مقام معلوم لا يتعداه ولا ينتقل عنه بل مرجع ذلك إلى انبعاث نفسي النبي عليه الصلاة والسلام من نشأة الغيب إلى نشأة الظهور، ولهذا كان يعرض له شبه الدهش والغشي ثم يرى ويسمع ثم يقع منه الإنباء والإخبار فهذا معنى تنزيل الكتاب وإنزال الكلام من رب العالمين انتهى. وفيه ما تأباه الأصول الإسلامية مما لا يخفى عليك وقد صرح غير واحد من المحدثين والمفسرين وغيرهم بانتقال الملك وهو جسم عندهم ولم يؤول أحد منهم نزوله فيما نعلم، نعم أولوا نزول القرآن وإنزاله.

قال الأصفهاني في أوائل تفسيره: اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله تعالى منزل واختلفوا في معنى الإنزال، فمنهم من قال: إظهار القراءة، ومنهم من قال: إن الله تعالى الهم كلامه جبريل عليه السلام وهو في السماء وعلمه قراءته ثم جبريل أداه في الأرض وهو يهبط في المكان وفي ذلك طريقتان، إحداهما أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل عليه السلام، وثانيتهما أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منه، والأولى أصعب الحالين انتهى؛ وقال الطيبي: لعل نزول القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتلقفه الملك تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه.

وقال القطب في حواشي الكشاف الإنزال في اللغة الإيواء وبمعنى تحريك الشيء من علو إلى سفل وكلاهما لا يتحققان في الكلام فهو مستعمل بمعنى مجازي فمن قال: القرآن معنى قائم بذات الله تعالى فإنزاله أن توجد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى ويثبتها في اللوح المحفوظ. ومن قال: القرآن هو الألفاظ الدالة على المعنى القائم بذاته تعالى فإنزاله مجرد إثباته في اللوح المحفوظ، وهذا المعنى مناسب لكونه مجازاً عن أول المعنيين اللغويين.

ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته في السماء الدنيا بعد الإثبات في اللوح المحفوظ وهذا مناسب للمعنى

الثاني، والمراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم انتهى وفيه بحث لا يخفى، وعندي أن إنزاله إظهاره في عالم الشهادة بعد أن كان في عالم الغيب، ثم إن ظاهر الآية يقتضي أن جميع القرآن نزل به الروح الأمين على قلبه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا ينافي ما قيل: إن آخر سورة البقرة كلمه الله تعالى بها ليلة المعراج حيث لا واسطة احتجاجاً بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود «لما أسري برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى إلى سدرة المنتهى» الحديث وفيه: «فأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك من أمته بالله تعالى شيئاً المقحمات»، وأجيب بعد تسليم أن يكون ما ذكر دليلاً لذلك يجوز أن يكون قد نزل جبريل عليه السلام بما ذكر أيضاً تأكيداً وتقريراً أو نحو ذلك، وقد ثبت نزوله عليه السلام بالآية الواحدة مرتين لما ذكر، وجوز أن تكون الآية باعتبار الأغلب، واعتبر بعضهم كونها كذلك لأمر آخر وهو أن من القرآن ما نزل به إسرافيل عليه السلام وهو ما كان في أول النبوة وفيه أن ذلك لم يثبت أصلاً.

وفي الإتقان أخرج الإمام أحمد في تاريخه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي قال: أنزل على النبي ﷺ النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه فنزل عليه القرآن على لسانه عشر سنين انتهى، وهو صريح في خلاف ذلك وإن كان فيه ما يخالف الصحيح المشهور من أن جبريل عليه السلام هو الذي نزل عليه عليه الصلاة والسلام بالوحي من أول الأمر إلا أنه نزل عليه ﷺ غيره عليه السلام من الملائكة أيضاً ببعض الأمور، وكثيراً ما ينزلون لتشييع الآيات القرآنية مع جبريل عليه وعليهم السلام.

ومن الناس من اعتبر كونها باعتبار الأغلب لأن إنزال جبريل عليه السلام قد لا يكون على القلب بناءً على ما ذكره الشيخ محيي الدين قدس سره في الباب الرابع عشر من الفتوحات من قوله: اعلم أن الملك يأتي النبي عليه الصلاة والسلام بالوحي على حالين تارة ينزل بالوحي على قلبه وتارة يأتيه في صورة جسدية من خارج فيلقى ما جاء به إلى ذلك النبي على أذنه فيسمعه أو يلقيه على بصره فيبصره فيحصل له من النظر ما يحصل من السمع سواء.

وتعقب بأنه لا حاجة إلى ما ذكر، وما نقل عن محيي الدين قدس سره لا يدل على أن نزول الوحي إلى كل نبي يكون على هذين الحالين فيجوز أن يكون نزول الوحي إلى نبينا ﷺ على الحال الأولى فقط سلمنا دلالته على العموم وأن نزول الوحي إلى نبينا عليه الصلاة والسلام قد يكون بتمثل الملك بناءً على بعض الأخبار الصحيحة في ذلك لكن لا نسلم أنه يدل على أن نزول الوحي إذا كان الموحى قرآناً يكون على الحال الثانية سلمنا دلالته على ذلك لكن لا نسلم صحة جعله مبنى لتأويل الآية، وكي يؤول كلام الله تعالى لكلام مناف لظاهره صدر من غير معصوم، ويكفي محيي الدين قدس سره من علماء الشريعة أن يؤولوا كلامه ليوافق كلام الله عز وجل فيسلم من الطعن، ولعل من يؤول في مثل ذلك يحسن الظن بمحيي الدين قدس سره ويقول: إنه لم يقل ذلك إلا لدليل شرعي فقد قال قدس سره في الكلام على الإذن من الفتوحات: اعلم أني لم أقرر بحمد الله تعالى في كتابي هذا ولا غيره قط أمراً غير مشروع وما خرجت عن الكتاب والسة في شيء من تصانيفي، وقال في الباب السادس والستين وثلاثمائة من الكتاب المذكور جميع ما أتكلم به في مجالسي وتأليفي إنما هو من حضرة القرآن العظيم فإني أعطيت مفاتيح العلم فيه فلا أستمد قط في علم من العلوم إلا منه كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى في مناجاته بكلامه أو بما تضمنه كلامه سبحانه إلى غير ذلك فالداعي للتأويل في الحقيقة ذلك الدليل لا نفس كلامه قدس سره العزيز وهو اللائق بالمسلمين الكاملين.

وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ متعلق بنزل أي نزل به لتنذرهم بما في تضاعيفه من العقوبات الهائلة. وإيثار ما في النظم الكريم للدلالة على انتظامه ﷺ في سلك أولئك المنذرين المشهورين في حقية الرسالة وتقرر العذاب المنذر به، وكذا قوله سبحانه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ متعلق بنزل عند جمع من الأجلة ويكون حينئذ على ما قال الشهاب بدلاً من ﴿به﴾ بإعادة العامل، وتقديم ﴿لتكون﴾ إلخ للاعتناء بأمر الإنذار ولئلا يتوهم أن كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين المذكورين متوقف على كون الإنزال بلسان عربي مبين، واستحسن كون الباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير ﴿به﴾ أي نزل به ملتبساً بلغة عربية واضحة المعنى ظاهرة المدلول لئلا يبقى لهم عذر، وقيل: بلغة مبينة لهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم على أن ﴿مبين﴾ من أبان المتعدي، والأول أظهر.

وجوز أن تعلق الجار والمجرور بالمنذرين أي لتكون من الذين أنذروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد ﷺ، وزاد بعضهم خالد بن سنان وصفوان بن حنظلة عليهما السلام. وتعقب بأنه يؤدي إلى أن غاية الإنذار كونه عليه السلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط من هود وصالح وشعيب عليهم السلام، ولا يخفى فساده كيف لا، والطامة الكبرى في باب الإنذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام، وأشد الزواجر تأثيراً في قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام لانتمائهم إليه وادعائهم أنهم على ملته عليه السلام، وذكر بعضهم أن المراد على هذا الوجه أنك أنذرتهم كما أنذر آباؤهم الأولون وأنك لست بمبتدع بهذا فكيف كذبوك، والحق أن الوجه المذكور دون الوجه السابق، وأما أنه فاسد معنى كما يقتضيه كلام المتعقب فلا.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإنّ ذكر القرآن لفي الكتب المتقدمة على أن الضمير للقرآن والكلام على حذف مضاف وهذا كما يقال: إن فلاناً في دفتر الأمير. وقيل: المراد وإن معناه لفي الكتب المتقدمة وهو باعتبار الأغلب فإن التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات وكثيراً من المواعظ والقصص مسطور في الكتب السابقة فلا يضران منه ما ليس في ذلك بحسب الظن الغالب كقصة الإفك وما كان في نكاح امرأة زيد وما تضمنه صدر سورة التحريم وغير ذلك. واشتهر عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أنه جوز قراءة القرآن بالفارسية والتركية والهندية وغير ذلك من اللغات مطلقاً استدلالاً بهذه الآية. وفي رواية تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية لخبر لسان أهل الجنة العربي والفارسي الدري. وفي رواية أخرى أنها إنما تجوز بالفارسية إذا كان ثناء كسورة الإخلاص أما إذا كان غيره فلا تجوز، وفي أخرى أنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة إذا كان المصلي عاجزاً عن العربية وكان المقروء ذكراً وتنزيهاً أما القراءة بها في غير الصلاة أو في الصلاة وكان القارىء يحسن العربية أو في الصلاة وكان القارىء عاجزاً عن العربية لكن كان المقروء من القصص والأوامر والنواهي فإنها لا تجوز، وذكر أن هذا قول صاحبيه. وكان رضي الله تعالى عنه قد ذهب إلى خلافه ثم رجع عنه إليه. وقد صحح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمع من الثقات المحققين. وللعلامة حسن الشرنبلالي رسالة في تحقيق هذه المسألة سماها النفحة القدسية في أحكام قراءة القرآن وكتابته بالفارسية فمن أراد التحقيق فليرجع إليها. وكان رجوع الإمام عليه الرحمة عما اشتهر عنه لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى على المتأمل.

وفي الكشف أن القرآن كان هو المنزل للإعجاز إلى آخر ما يذكر في معناه فلا شك أن الترجمة ليست بقرآن وإن كان هو المعنى القائم بصاحبه فلا شك أنه غير ممكن القراءة، فإن قيل: هو المعنى المعبر عنه بأي لغة كان قلنا لا شك في اختلاف الأسامي باختلاف اللغات وكما لا يسمى القرآن بالتوراة لا يسمى التوراة بالقرآن فالأسماء لخصوص

العبارات فيها مدخل لا أنها لمجرد المعنى المشترك ا هـ، وفيه بحث فإن قوله تعالى: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً﴾ [فصلت: ٤٤] يستلزم تسميته قرآناً أيضاً لو كان أعجمياً فليس لخصوص العبارة العربية مدخل في تسميته قرآناً، والحق أن قرآناً المنكر لم يعهد فيه نقل عن المعنى اللغوي فيتناول كل مقروء، أما القرآن باللام فالمفهوم منه العربي في عرف الشرع فلخصوص العبارة مدخل في التسمية نظراً إليه، وقد جاء كذلك في الآية الدالة على وجوب القراءة أعني قوله سبحانه: ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ [المزمل: ٢٠] وبذلك تم المقصود، وجعل من فيه للتبعيض وإرادة المعنى من هذا البعض لا يخفى ما فيه، وقيل: ضمير ﴿إنه﴾ عائد على رسول الله ﷺ وليس بواضح، وقرأ الأعمش «زبر» بسكون الباء.

﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ الهمزة للتقرير أو للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل: أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين وإنه لفي زبر الأولين على أن ﴿لهم﴾ متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام أو بمحذوف هو حال من ﴿آية﴾ قدمت عليها لكونها نكرة و ﴿آية﴾ خبر للكون قدم على اسمه الذي هو قوله تعالى: ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ علَماء بَني إسْرَائيلَ﴾ لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، والعلم بمعنى المعرفة والضمير للقرآن أي ألم يكن لهم آية معرفة علماء بني إسرائيل القرآن بنعوته المذكورة في كتبهم، وعن قتادة أن الضمير للنبي ﷺ، وقيل: العلم على معناه المشهور والضمير للحكم السابق في قوله تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ إلخ وفيه بعد كما لا يخفى، وذكر الثعلبي عن ابن عباس أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي فقالوا: هذا زمانه وذكروا نعته وخلطوا في أمر محمد ﷺ فنزلت الآية في ذلك، وهو ظاهر في أن الضمير له عليه الصلاة والسلام ويؤيده كون الآية مكية. وقال مقاتل: هي مدنية، وعلماء بني إسرائيل عبدالله بن سلام ونحوه كما روي عن ابن عباس ومجاهد، وذلك أن جماعة منهم أسلموا ونصوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول ﷺ، وقيل: علماؤهم من أسلم منهم ومن لم يسلم، وقيل أنبياؤهم فإنهم نبهوا على ذلك وهو خلاف الظاهر، ولعل أظهر الأقوال كون المراد به معاصريه صلى الله تعالى عليه وسلم من علماء أهل الكتابين المسلمين وغيرهم.

وقرأ ابن عامر والجحدري «تكن» بالتأنيث و «آيةٌ» بالرفع وجعلت اسم تكن و ﴿أن يعلمه﴾ خبرها. وضعف بأن فيه الإخبار عن النكرة بالمعرفة، ولا يدفعه كون النكرة ذات حال بناء على أحد الاحتمالين في ﴿لهم﴾، وجوز أن يكون ﴿آية﴾ الاسم و ﴿لهم﴾ متعلقاً بمحذوف هو الخبر و «أن يعلمه» بدلاً من الاسم أو خبر مبتدأ محذوف، وأن يكون الاسم ضمير القصة و ﴿لهم آية﴾ مبتدأ وخبر والجملة خبر تكن ﴿وأن يعلمه﴾ بدلاً أو خبر مبتدأ محذوف وأن يكون الاسم ضمير القصة و ﴿آية﴾ خبر ﴿أن يعلمه﴾ والجملة خبر تكن وأن تكون تكن تامة. و ﴿آية﴾ فاعلاً و ﴿أن يعلمه﴾ بدلاً أو خبراً لمحذوف و ﴿لهم﴾ إما حالاً أو متعلقاً بتكن وقرأ ابن عباس «تكن» بالتأنيث و ﴿آية﴾ بالنصب كقراءة من قرأ «ثم لم تكن» بالتأنيث فتنتهم بالنصب «إلا أن قالوا» وكقول لبيد يصف العير والأتان:

فمضى وقدمها وكانت عادة ... منه إذا هي عردت إقدامها

وذلك إما على تأنيث الاسم لتأنيث الخبر، وإما لتأويل «أن يعلمه» بالمعرفة وتأويل أن قالوا بالمقالة وتأويل الأقدام بالمتقدمة، ودعوى اكتساب التأنيث فيه من المضاف إليه ليس بشيء لفقد شرطه المشهور.

وقرأ الجحدري تعلمه بالتأنيث على أن المراد جماعة علماء بني إسرائيل وكتب في المصحف «علمؤا» بواو

بين الميم والألف ووجه ذلك بأنه على لغة من يميل ألف علماء إلى الواو كما كتبوا الصلوات والزكات والربو بالواو على تلك اللغة ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ أي القرآن كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية، وهو جمع أعجمي كما في التحرير وغيره إلا أنه حذف ياء النسب منه تخفيفاً. ومثله الأشعرين جمع أشعري في قول الكميت:

ولو جهزت قافية شرودا ... لقد دخلت بيوت الأشعرينا

وقد قرأه الحسن وابن مقسم بياء النسب على الأصل، وقال ابن عطية: هو جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وإن كان عربي النسب والعجمي هو الذي نسبته في العجم خلاف العرب وإن كان أفصح الناس انتهى.

واعترض بأن أعجم مؤنثة عجماء وفعل فعلاء لا يجمع جمع سلامة، وأجيب بأن الأعجم في الأصل البهيمة العجماء لعدم نطقها ثم نقل أو تجوز به عما ذكر وهو بذلك المعنى ليس له مؤنث على فعلاء فلذلك جمع جمع السلامة، وتعقب بأنه قد صرح العلامة محمد بن أبي بكر الرازي في كتابه غرائب القرآن بأن الأعجم هو الذي لا يفصح والأنثى العجماء ولو سلم أنه ليس له بذلك المعنى مؤنث فالأصل مراعاة أصله. وفيه أن كون ارتفاع المانع لعارض مجوزاً مما صرح به النحاة. ثم إن كون أفعل فعلاء لا يجمع جمع سلامة مذهب البصريين والفراء وغيره من الكوفيين يجوزونه فلعل من قال: إنه جمع أعجم قاله بناء على ذلك. وظاهر الجمع المذكور يقتضي أن يكون المراد به العقلاء، وعن بعضهم أنه جمع أعجم مراداً به ما لا يعقل من الدواب العجم وجمع جمع العقلاء لأنه وصف بالتنزيل عليه وبالقراءة في قوله تعالى: ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ فإن الظاهر رجوع ضمير الفاعل إلى بعض الأعجمين وهما من صفات العقلاء، والمراد بيان فرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة كأنه قيل: ولو نزلناه بهذا النظم الرائق المعجز على من لا يقدر على التكلم بالعربية أو على ما ليس من شأنه التكلم أصلاً من الحيوانات العجم ﴿فقرأه عليهم﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادة ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، وقيل: المراد بالأعجمين جمع أعجم أعم من أن يكون عاقلاً أو غيره، ونقل ذلك الطبرسي عن عبدالله بن مطيع، وذكر أنه روي عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية وهو على بعير فأشار إليه وقال: هذا من الأعجمين. والطبري على ما في البحر يروي نحو هذا عن ابن مطيع، والمراد أيضاً بيان فرط عنادهم، وقيل: هو جمع أعجم مراداً به ما لا يعقل وضمير الفاعل في ﴿قرأه﴾ للنبي ﷺ وضمير ﴿عليهم﴾ لبعض الأعجمين وكذا ضمير ﴿كانوا﴾ والمعنى لو نزلنا هذا القرآن على بعض البهائم فقرأه محمد ﷺ على أولئك البهائم ما كانوا أي أولئك البهائم مؤمنين به فكذلك هؤلاء لأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، ولا يخفى ما فيه، وقيل: المراد ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم ما فيه، وأخرج ذلك عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة وهو بعيد عما يقتضيه مقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد. واستند بعضهم بالآية عليه في منع أخذ العربية في مفهوم القرآن إذ لا يتصور على تقدير أخذها فيه تنزيله بلغة العجم إذ يستلزم ذلك كون الشيء الواحد عربياً وعجمياً وهو محال.

وأجيب بأن ضمير نزلناه ليس راجعاً إلى القرآن المخصوص المأخوذ في مفهومه العربية بل إلى مطلق القرآن ويراد منه ما يقرأ أعم من أن يكون عربياً أو غيره، وهذا نحو رجوع الضمير للعام في ضمن الخاص في قوله تعالى: ﴿ما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ [فاطر: ١١] الآية فإن ضمير عمره راجع إلى شخص بدون وصفه بمعمر إذ لا يتصور نقص عمر المعمر كما لا يخفى.

وقال بعضهم في الجواب: إن الكلام على حذف مضاف، والمراد ﴿ولو نزلنا﴾ معناه بلغة العجم على بعض الأعجمين فتدبر؛ وفي لفظ ﴿بعض﴾ على كل الأقوال إشارة إلى كون ذلك المفروض تنزيله عليه واحداً من عرض تلك الطائفة كائناً من كان و ﴿به﴾ متعلق بمؤمنين، ولعل تقديمه عليه للاهتمام وتوافق رؤوس الآي.

والضمير في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ على ما يقتضيه انتظام الضمائر السابقة واللاحقة في سلك واحد للقرآن وإليه ذهب الرماني وغيره، والمعنى على ما قيل مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه أي أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية وقد انضم إليه علم أهل الكتابين بشأنه وبشارة الكتب المنزلة بإنزاله فقوله تعالى: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ به﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به بل يستمرون على ما هم عليه ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ الملجىء إلى الإيمان به وحينئذ لا ينفعهم ذلك.

والمراد بالمجرمين المشركون الذين عادت عليهم الضمائر من ﴿لهم﴾ و ﴿عليهم﴾ و ﴿كانوا﴾ وعدل عن ضميرهم إلى ما ذكر تأكيداً لذمهم، وقال الزمخشري في معنى ذلك: أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها فكيف ما فعل بهم وصنع، وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره كما قال سبحانه: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحراً مبين﴾ [الأنعام: ٧] وموقع قوله تعالى ﴿لا يؤمنون به﴾ إلخ مما قبله موقع الموضح والملخص لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً أي سلكناه فيها غير مؤمن به ا هـ.

وتعقب بأن الأول هو الأنسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الإيمان وتناجد مبادىء الهداية والإرشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية، وقد يقال: إن هذا التفسير أوفق بتسليته ﷺ التي هي كالمبنى لهذه السورة الكريمة وبها صدرت حيث قال سبحانه: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء: ٣] كأنه جل وعلا بعد أن ذكر فرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة وهو تفسير واضح في نفسه فهو عندي أولى مما تقدم.

وفي المطلع أن الضمير للتكذيب والكفر المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ وبه قال يحيى بن سلام، وروى عن ابن عباس والحسن، والمعنى وكذلك سلكنا التكذيب بالقرآن والكفر به في قلوب مشركي مكة ومكناه فيها، وقوله تعالى: ﴿لا يؤمنون﴾ إلخ واقع موقع الإيضاح لذلك ولا يظهر على هذا الوجه كونه حالاً ولا أرى لهذا المعنى كثرة بعد عن قول من قال أي على مثل هذا السلك سلكنا القرآن وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه في قلوبهم، وحاصل الأول كذلك سلكنا التكذيب بالقرآن في قلوبهم.

وحاصل هذا وكذلك سلكنا القرآن بصفة التكذيب به في قلوبهم فتأمل، وجوز جعل الضمير للبرهان الدال عليه قوله تعالى: ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ وهو بعيد لفظاً ومعنى، هذا وذهب بعضهم إلى أن المراد بالمجرمين غير الكفرة المتقدمين الذين عادت عليهم الضمائر وهم مشركو مكة من المعاصرين لهم ومن يأتي بعدهم وذلك إشارة إلى السلك في قلوب أولئك المشركين أي مثل ذلك السلك في قلوب مشركي مكة سلكناه في قلوب المجرمين غيرهم لاشتراكهم في الوصف، وقوله سبحانه: ﴿لا يؤمنون به﴾ إلخ بيان لحال المشركين

المتقدمين الذين اعتبروا في جانب المشبه به أو إيضاح لحال المجرمين وبيان لما يقتضيه التشبيه وهو كما ترى؛ ونقل في البحر عن ابن عطية أنه أريد مجرمي كل أمة أي إن سنة الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب فلا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم، وهذا على جهة المثال لقريش أي هؤلاء كذلك، وكشف الغيب بما تضمنته الآية يوم بدر انتهى، وكأنه جعل ضمير ﴿سلكناه﴾ لمطلق الكفر لا للكفر بالقرآن، وضمير ﴿به﴾ لله تعالى أو لما أمروا بالإيمان به للقرآن وإلا فلا يكاد يتسنى ذلك، وعلى كل حال لا ينبغي أن يعول عليه.

﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ أي العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي بإتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ أي تحسراً على ما فات من الإيمان وتمنياً للإمهال لتلافي ما فرطوه ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي مؤخرون، والفاء في الموضعين عاطفة وهي كما يدل عليه كلام الكشاف للتعقيب الرتبي دون الوجودي كأنه قيل: حتى يكون رؤيتهم للعذاب الأليم فما هو أشد منها وهو مفاجأته فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة نظير ما في قولك إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله تعالى، فلا يرد أن البغت من غير شعور لا يصح تعقبه للرؤية في الوجود، وقال سري الدين المصري عليه الرحمة في توجيه ما تدل عليه الفاء من التعقيب: إن رؤية العذاب تكون تارة بعد تقدم أماراته وظهور مقدماته ومشاهدة علاماته وأخرى بغتة لا يتقدمها شيء من ذلك فكانت رؤيتهم العذاب محتاجة إلى التفسير فعطف عليها بالفاء التفسيرية قوله تعالى: ﴿يأتيهم بغتة﴾ وصح بينهما معنى التعقيب لأن مرتبة المفسر في الذكر أن يقع بعد المفسر كما فعل في التفصيل بالقياس إلى الإجمال كما يستفاد من تحقيقات الشريف في شرح المفتاح. ويمكن أن تكون الآية من باب القلب كما هو أحد الوجوه في قوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ [الأعراف: ٤] للمبالغة في مفاجأة رؤيتهم العذاب حتى كأنهم رأوه قبل المفاجأة. والمعنى حتى يأتيهم العذاب الأليم بغتة فيروه انتهى. وجعلها بعضهم للتفصيل، واعترض على ما قال صاحب الكشاف بأن العذاب الأليم منطو على شدة البغت فلا يصح الترتيب والتعقيب الرتبي وهو وهم كما لا يخفى.

والظاهر أن جملة وهم لا يشعرون حال مؤكدة لما يفيده ﴿بغتة﴾ فإنها كما قال الراغب مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب.

ثم إن هذه الرؤية وما بعدها إن كانت في الدنيا كما قيل فإتيان العذاب الأليم فيها بغتة مما لا خفاء فيه لأنه قد يفاجئهم فيها ما لم يكن يمر بخاطرهم على حين غفلة. وإن كانت في الآخرة فوجه إتيانه فيها بغتة على ما زعمه بعضهم أن المراد به أن يأتيهم من غير استعداد له وانتظار فافهم، واختار بعضهم أن ذلك أعم من أن يكون في الدنيا أو في الآخرة.

وقرأ الحسن وعيسى «تأتيهم» بتاء التأنيث، وخرج ذلك الزمخشري على أن الضمير للساعة، وأبو حيان عن أنه للعذاب بتأويل العقوبة، وقال أبو الفضل الرازي: للعذاب وأنث لاشتماله على الساعة فاكتسى منها التأنيث وذلك لأنهم كانوا يسألون عذاب القيامة تكذيباً بها انتهى وهو في غاية الغرابة وكأنه اعتبر إضافة العذاب إلى الساعة معنى بناء على أن المراد بزعمه حتى يروا عذاب الساعة الأليم، وقال: باكتسائه التأنيث منها بسبب إضافته إليها لأن الإضافة إلى المؤنث قد تكسى المضاف المذكر التأنيث كما في قوله:

كما شرقت صدر القناة من الدم

ولم أر أحداً سبقه إلى ذلك. وقرأ الحسن «بغتة» بالتحريك، وفي حرف أبي رضي الله تعالى عنه «ويروه بغتة»

﴿**أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ**﴾ أي يطلبونه قبل أوانه وذلك قولهم: أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وقولهم: فائتنا بما تعدنا ونحوهما ﴿**أَفَرَأَيْتَ**﴾ أي فاخبر ﴿**إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ**﴾ أي مدة من الزمان بطول الأعمال وطيب المعاش أو عمر الدنيا على ما روي عن عكرمة. وعبر عن ذلك بما ذكر إشارة إلى قلته ﴿**ثُمَّ جَاءَهُمْ مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾ أي الذين كانوا يوعدونه من العذاب ﴿**مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ**﴾ أي أي شيء أو أي غناء أغنى عنهم ﴿**مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾ أي كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن ما مصدرية كما هو الأولى أو الذي كانوا يمتعون من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها. وأياً ما كان فالاستفهام للنفي والإنكار.

وقيل: ما نافية أي لم يغن عنهم ذلك في دفع العذاب أو تخفيفه، والأول أولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الإغناء على أبلغ وجه وآكده وفي ربط النظم الكريم ثلاثة أوجه كما في الكشاف، الأول أن قوله سبحانه: ﴿**أفرأيت**﴾ إلخ متصل بقوله تعالى: ﴿**هل نحن منظرون**﴾ وقوله جل وعلا: ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ معترض للتبكيت وإنكار أن يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها، والمعنى على هذا كما في الكشف أنه لما ذكر أنهم لا يؤمنون دون مشاهدة العذاب قال سبحانه: إن هذا العذاب الموعود وإن تأخر أياماً قلائل فهو لاحق بهم لا محالة وهنالك لا ينفعهم ما كانوا فيه من الاغترار المثمر لعدم الإيمان، وأصل النظم الكريم لا يؤمنون حتى يروا العذاب وكيت وكيت فإن متعناهم سنين ثم جاءهم هذا العذاب الموعود فأي شيء أو فأي غناء يغني عنهم تمتيعهم تلك الأيام القلائل فجيء بفعل الرؤية والاستفهام ليكون في معنى أخبر إفادة لمعنى التعجب والإنكار وأن من حق هذه القصة أن يخبر بها كل أحد حتى يتعجب.

ووسط ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ للتبكيت والهمزة فيه للإنكار، وجيء بالفاء دلالة على ترتبه على السابق كأنه لما وصف العذاب قيل: أيستعجل هذا العذاب عاقل. وفي الإرشاد اختيار أن قوله تعالى: ﴿**أفرأيت**﴾ متصل بقوله سبحانه: ﴿**هل نحن منظرون**﴾ وجعل الفاء لترتيب الاستخبار على ذلك القول وهي متقدمة على الهمزة معنى وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة وإن ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ معترض للتوبيخ والتبكيت وجعل الفاء فيه للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الأليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافي ما لا يخفى على أحد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون إلخ، وصاحب الكشف بعد أن قرر كما ذكرنا قال: إن العطف على مقدر في هذا الوجه لا وجه له، ولعل المنصف يقول: لكل وجهة.

والثاني أن قوله تعالى: ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ كلام يوبخون به يوم القيامة عند قولهم فيه ﴿**هل نحن منظرون**﴾ حكى لنا لطفاً و ﴿**يستعجلون**﴾ عليه في معنى استعجلتم إذ كذلك يقال لهم ذلك اليوم، وكأن أمر الترتيب أو العطف على مقدر، وارتباط ﴿**أفرأيت**﴾ إلخ بقولهم: ﴿**هل نحن منظرون**﴾ على نحو ما تقدم في الوجه السابق.

والثالث أن قوله تعالى: ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ متصل بما بعده غير مترتب على ما قبله وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة. وأمن فقال عز وجل: ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ أشراً وبطراً واستهزاء واتكالاً على الأمل الطويل ثم قال سبحانه: هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم.

وعلى هذا يكون ﴿**فبعذابنا**﴾ إلخ عطفاً على مقدر بلا خلاف نحو أيستهزئون ﴿**فبعذابنا يستعجلون**﴾.

وقوله تعالى: ﴿أفرأيت﴾ إلخ تعجباً من حالهم مترتباً على الاستهزاء والاستعجال، والكلام نظير ما تقول لمخاطبك: هل تغتر بكثرة العشائر والأموال فاحسب أنها بلغت فوق ما تؤمل أليس بعده الموت وتركهما على حسرة.

وهذا الوجه أظهر من الوجه الذي قبله، وأياً ما كان فقوله سبحانه: ﴿بعذابنا﴾ متعلق بيستعجلون قدم عليه للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه جل جلاله مع ما فيه على ما قيل من رعاية الفواصل. وقرىء «يمتعون» من الامتاع وفي الآية موعظة عظيمة لمن له قلب. روي عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له: عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى المهلكة ﴿إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُون﴾ قد أنذروا أهلها إلزاماً للحجة، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً مقدماً و ﴿منذرون﴾ مبتدأ، والجملة في موضع الحال من ﴿قرية﴾ قاله أبو حيان ثم قال: الأعرب أن يكون ﴿لها﴾ في موضع الحال وارتفع ﴿منذرون﴾ بالجار والمجرور أي إلا كائناً لها منذرون فيكون من مجيء الحال مفرداً لا جملة، ومجيء الحال من المنفي كقولك ما مررت بأحد إلا قائماً فصبح انتهى، وفي الوجهين مجيء الحال من النكرة. وحسن ذلك على ما قيل عمومها لوقوعها في حيز النفي مع زيادة من قبلها، وكأن هذا القائل جعل العموم مسوغاً لمجيء الحال قياساً على جعلهم إياه مسوغاً للابتداء بالنكرة لاشتراك العلة. وذهب الزمخشري إلى أن «لها منذرون» جملة في موضع الصفة لقرية ولم يجوز أبو حيان كون الجملة الواقعة بعد إلا صفة ثم قال: مذهب الجمهور إنه لا تجيء الصفة بعد إلا معتمدة على أداة الاستثناء نحو ما جاءني أحد إلا راكب وإذا سمع خرج على البدل أي إلا رجل راكب. ويدل على صحة هذا المذهب أن العرب تقول: ما مررت بأحد إلا قائماً ولا يحفظ من كلامها ما مررت بأحد إلا قائم فلو كانت الجملة في موضع الصفة للنكرة لورد المفرد بعد إلا صفة لها فإن كانت الصفة غير معتمدة على الأداة جاءت الصفة بعد إلا نحو ما جاءني أحد إلا زيد خير من عمرو فإن التقدير ما جاءني أحد خير من عمرو إلا زيد انتهى فتذكر. وإياً ما كان فضمير «لها» للقرية التي هي لما سمعت في معنى الجمع فكأنه قيل وما أهلكنا القرى إلا لها منذرون على معنى أن للكل منذرين أعم من أن يكون لكل قرية منها منذر واحد أو أكثر.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ منصوب على الحال من الضمير في ﴿منذرون﴾ عند الكسائي وعلى المصدر عند الزجاج فعلى الحال إما أن يقدر ذوي ذكرى أو يقدر مذكرين أو يبقى على ظاهره اعتباراً للمبالغة. وعلى المصدر فالعامل ﴿منذرون﴾ لأنه في معنى مذكرون فكأنه قيل: مذكرون ذكرى أي تذكرة. وأجاز الزمخشري أن يكون مفعولاً له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة. وأن يكون مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى، والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى أو مذكرين أو جعلوا نفس الذكرى مبالغة لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها، وجوز أيضاً أن يكون متعلقاً بأهلكنا على أنه مفعول له. والمعنى ما أهلكنا من قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ثم قال: وهذا هو الوجه المعول عليه. وبين ذلك في الكشف بقوله: لأنه وعيد للمستهزئين وبأنهم يستحقون أن يجعلوا نكالاً وعبرة لغيرهم كالأمم السوالف حيث فعلوا مثل فعلهم من الاستهزاء والتكذيب فجوزوا بما جوزوا وحينئذ يتلاءم الكلام انتهى، وتعقب بأن مذهب الجمهور أن ما قبل إلا لا يعمل فيما بعدها إلا أن يكون مستثنى أو مستثنى منه أو تابعاً له غير معتمد على الأداة والمفعول له ليس واحداً من هذه الثلاثة فلا يجوز أن يتعلق بأهلكنا. ويتخرج جواز ذلك على مذهب الكسائي والأخفش وإن كانا لم ينصبا على المفعول له هنا وكان ذلك لما في نصبه عليه من التكلف وأمر الالتئام سهل كما لا يخفى ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ليس شأننا أن يصدر عنا بمقتضى الحكمة ما هو في صورة الظلم لو صدر من

غيرنا بأن نهلك أحداً قبل إنذاره أو بأن نعاقب من لم يظلم. ولإرادة نفي أن يكون ذلك من شأنه عز شأنه قال: ﴿وما كنا﴾ دون وما نظلم ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ به الشَّيَاطِينُ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ إلخ وهو رد لقول مشركي قريش إن لمحمد ﷺ تابعاً من الجن يخبره كما تخبر الكهنة وأن القرآن مما ألقاه إليه عليه الصلاة والسلام. والتعبير بالتفعيل لأن النزول لو وقع لكان بالاستراق التدريجي، وقرأ الحسن وابن السميقع «الشياطون» فقال أبو حاتم: هو غلط من الحسن أو عليه، وقال النحاس: هو غلط عند جميع النحويين. وقال المهدوي: هو غير جائز في العربية، وقال الفراء: غلط الشيخ ظن أنها النون التي على هجائين، وقال النضر بن شميل: إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه مع أنا نعلم أنهما لم يقرءا به إلا وقد سمعا فيه، وقال يونس بن حبيب. سمعت أعرابياً يقول دخلت بساتين من ورائها بساتون فقلت: ما أشبه هذا بقراءة الحسن انتهى. ووجهت هذه القراءة بأنه لما كان آخره كآخر يبرين وفلسطين وقد قيل فيهما يبرون وفلسطون أجرى فيه نحو ما أجرى فيهما فقيل الشياطون.

وحقه على هذا على ما في الكشاف أن يشتق من الشيطوطة وهي الهلاك، وفي البحر نقلاً عن بعضهم إن كان اشتقاقه من شاط أي احترق يشيط شوطة كان لقراءتهما وجه. قيل: ووجهها أن بناء المبالغة منه شياط وجمعه الشياطون فخففا الياء وقد روى عنهما التشديد وقرأ به غيرهما، وقال بعض: إنه جمع شياط مصدر شاط كخاط خياطاً كأنهما ردا الوصف إلى المصدر بمعناه مبالغة ثم جمعا والكل كما ترى، وقال صاحب الكشف. لا وجه لتصحيح هذه القراءة البتة. وقد أطنب ابن جني في تصحيحها ثم قال: وعلى كل حال فالشياطون غلط وأبو حيان لا يرضى بكونه غلطاً ويقول: قرأ به الحسن. وابن السميقع والأعمش ولا يمكن أن يقال. غلطوا لأنهم من العلم ونقل القرآن بمكان والله تعالى أعلم. والذي أراه أنه متى صح رفع هذه القراءة إلى هؤلاء الأجلة لزم توجيهها فإنهم لايقرؤون إلا عن رواية كغيرهم من القراء في جميع ما يقرؤنه عندنا، وزعم المعتزلة أن بعض القراءات بالرأي.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ أي وما يصح وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يقدرون على ذلك أصلاً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿عَنِ السَّمْعِ﴾ لما يتكلم به الملائكة عليهم السلام في السماء ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ أي ممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ [الجن: ٨، ٩] والمراد تعليل ما تقدم على أبلغ وجه لأنهم إذا كانوا ممنوعين عن سماع ما تتكلم به الملائكة في السماء كانوا ممنوعين من أخذ القرآن المجيد من اللوح المحفوظ أو من بيت العزة أو من سماعه إذ يظهره الله عز وجل لمن شاء في سمائه من باب أولى، وقيل: المعنى إنهم لمعزولون عن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام لأنه مشروط بالمشاركة في صفات الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل ذلك والقرآن الكريم مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة عليهم السلام، وتعقب بأنه إن أراد أن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام مطلقاً مشروط بصفات هم متصفون بنقائضها فهو غير مسلم كيف وقد ثبت أن الشياطين كانوا يسترقون السمع وظاهر الآيات أنهم إلى اليوم يسترقونه ويخطفون الخطفة فيتبعهم شهاب ثاقب وأيضاً لو كان ما ذكر شرطاً للسمع وهو منتف فيهم فأي فائدة للحرس ومنعهم عن السمع بالرجوم.

وأيضاً لو صح ما ذكر لم يتأت لهم سماع القرآن العظيم من الملائكة عليهم السلام سواء كان مشتملاً على

الحقائق والمغيبات أم لا فما فائدة في قوله: والقرآن مشتمل إلخ إلى غير ذلك. وإن أراد أن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام إذا كان وحياً منزلاً على الأنبياء عليهم السلام مشروط بما ذكر فهو مع كونه خلاف ظاهر الكلام غير مسلم أيضاً كيف وقد ثبت أن جبريل عليه السلام حين ينزل بالقرآن ينزل معه رصد حفظاً للوحي من الشيطان وقد قال عز وجل: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨] وأيضاً ظاهر العزل عن السمع يقتضي أنهم كانوا ممكنين منه قبل ثم منعوا عنه فيلزم على ما ذكر أنهم كانوا يسمعون الوحي من قبل مع أن نفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات فيبطل كون المشاركة المذكورة شرطاً للسمع، فإن ادعى أن الشرط كان موجوداً إذ ذاك ثم فقد والتزم القول بجواز تغير ما بالذات فهو مما لم يقم عليه دليل وقياس جميع الشياطين على إبليس عليه اللعنة مما لا يخفى حاله فتدبر.

وبالجملة الذي أميل إليه في معنى الآية ما ذكرته أولاً. وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذلك، وجوز كون ضمير ﴿إنهم﴾ للمشركين. والمراد أنهم لا يصغون للحق لعنادهم، وفي الآية شمة من قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ [البقرة: ٢٥٧] وهو بعيد جداً.

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿**فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**﴾ خوطب به النبي ﷺ مع استحالة صدور المنهي عنه عليه الصلاة والسلام تهييجاً وحثاً لازدياد الإخلاص فهو كناية عن أخلص في التوحيد حتى لا ترى معه عز وجل سواه. وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهي عنه من لم يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه. وكأن الفاء فصيحة أي إذا علمت ما ذكر فلا تدع مع الله إلهاً آخر ﴿**وَأَنْذِرْ**﴾ العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿**عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ أي ذوي القرابة القريبة أو الذين هم أكثر قرباً إليك من غيرهم.

والعشيرة على ما قال الجوهري: رهط الرجل الأدنون. وقال الراغب هم أهل الرجل الذين يتكثر بهم أي يصيرون له بمنزلة العدد الكامل وهو العشرة. واشتهر أن طبقات الأنساب ست، الأولى الشعب بفتح الشين وهو النسب الأبعد كعدنان، الثانية القبيلة وهي ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر الثالثة العمارة بكسر العين وهي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة الرابعة البطن وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم الخامسة الفخذ وهو ما انقسم فيه أنساب البطن كبني هاشم وبني أمية السادسة الفصيلة وهي ما انقسم فيه أنساب الفخذ كبني العباس وبني عبد المطلب وليس دون الفصيلة إلا الرجل وولده.

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه تقديم الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم الفخذ فأقام الفصيلة

مقام العمارة في ذكرها بعد القبيلة والعمارة مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ ولم يحك ما يخالفه ولم يذكر في الترتيبين العشيرة، وفي البحر أنها تحت الفخذ فوق الفصيلة، والظاهر أن ذلك على الترتيب الأول.

وحكى بعضهم بعد أن نقل الترتيب المذكور عن النووي عليه الرحمة أنه قال في تحرير التنبيه: وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة، ويفهم من كلام البعض أن العشيرة إذا وصفت بالأقرب اتخدت مع الفصيلة التي هي سادسة الطبقات، وأنت تعلم أن الأقربية إذا كانت مأخوذة في مفهومها كما يفهم من كلام الجوهري تستغني دعوى الاتحاد عن الوصف المذكور.

وفي كليات أبي البقاء كل جماعة كثيرة من الناس يرجعون إلى أب مشهور بأمر زائد فهو شعب كعدنان ودونه القبيلة وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب كربيعة ومضر، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها أنساب القبيلة كقريش وكنانة، ثم البطن وهي ما انقسمت فيها أنساب العمارة كبني عبد مناف. وبني مخزوم، ثم الفخذ وهي ما انقسمت فيها أنساب البطن كبني هاشم وبني أمية ثم العشيرة وهي ما انقسمت فيها أنساب الفخذ كبني العباس وبني أبي طالب والحي يصدق على الكل لأنه للجماعة المتنازلين بمربع منهم انتهى. ولم يذكر فيه الفصيلة وكأنه يذهب إلى اتحادها بالعشيرة، ووجه تخصيص عشيرته صلى الله تعالى عليه وسلم الأقربين بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام دفع توهم المحاباة وأن الاهتمام بشأنهم أهم وأن البداءة تكون بمن يلي ثم من بعده كما قال سبحانه: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [التوبة: ١٢٣] وفي كيفية الإنذار أخبار كثيرة، منها ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «لما نزلت ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ [المسد: ١، ٢]» ومنها ما أخرجه أحمد وجماعة عن أبي هريرة قال: «لما نزلت ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً وعم وخص فقال: يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً ألا إن لكم رحماً وسأبلها ببلالها».

وجاء في بعض الروايات أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما نزلت الآية جمع عليه الصلاة والسلام بني هاشم فأجلسهم على الباب وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت ثم أطلع عليهم فأنذرهم، وجاء في بعض آخر منها أنه عليه الصلاة والسلام أمر علياً كرّم الله تعالى وجهه أن يصنع طعاماً ويجمع له بني عبد المطلب ففعل وجمعهم وهم يومئذ أربعون رجلاً فبعد أن أكلوا أراد ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لقد سحركم صاحبكم فتفرقوا ثم دعاهم من الغد إلى مثل ذلك ثم بدرهم بالكلام فقال: يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله تعالى والبشير قد جئتكم بما لم يجىء به أحد جئتكم بالدنيا والآخرة، فأسلموا تسلموا وأطيعوا تهتدوا إلى غير ذلك من الأخبار والروايات وإذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار.

ومن الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعونه في أمر الخلافة وهو مؤول أو ضعيف أو موضوع **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** ورهطك منهم المخلصين **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** أمر له صلى الله تعالى عليه وسلم بالتواضع على سبيل الاستعارة أو التمثيلية أو المجاز المرسل وعلاقته اللزوم، ويستعمل في التكبر رفع الجناح وعلى ذلك جاء قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح ... فلا تك في رفعه أجدلا

و **﴿من﴾** قيل: بيانية لأن من اتبع في أصل معناه أعم ممن اتبع لدين أو غيره ففيه إبهام وبذكر المؤمنين المراد بهم المتبعون للدين زال ذلك، وقيل: للتبعيض بناء على شيوع من اتبع فيمن اتبع للدين وحمل المؤمنين على من صدق باللسان ولو نفاقاً ولا شك أن المتبعين للدين بعض المؤمنين بهذا المعنى، وجوز أن يحمل على من شارف وإن لم يؤمن ولا شك أيضاً أن المتبعين المذكورين بعضهم وفي الآية على القولين أمر بالتواضع لمن اتبع للدين.

وقال بعضهم: على تقدير كونها بيانية أن المؤمنين يراد بهم الذين لم يؤمنوا بعد وشارفوا لأن يؤمنوا كالمؤلفة مجار باعتبار الأول وكان ـ من اتبعك ـ شائعاً في من آمن حقيقة. ومن آمن مجازاً فبين بقوله تعالى: **﴿من المؤمنين﴾** إن المراد بهم المشارفون أي تواضع للمشارفين استمالة وتأليفاً، وعلى تقدير كونها تبعيضية يراد بالمؤمنين الذين قالوا آمنا وهم صنفان: صنف صدق واتبع وصنف ما وجد منهم إلا التصديق فقيل: من المؤمنين وأريد بعض الذين صدقوا واتبعوا أي تواضع لبعض المؤمنين وهم الذين اتبعوك محبة ومودة. وعلى هذا يكون الذين أمر ﷺ بالتواضع لهم على تقدير البيان غير الذي أمر عليه الصلاة والسلام بالتواضع لهم على تقدير التبعيض. وقال بعض الأجلة الاتباع والإيمان توأمان إذ المتبادر من اتباعه عليه الصلاة والسلام اتباعه الديني وكذا المتبادر من الإيمان الإيمان الحقيقي، وذكر **﴿من المؤمنين﴾** لإفادة التعميم كذكر **﴿يطير بجناحيه﴾** [الأنعام: ٣٨] بعد طائر في قوله تعالى: **﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾** وتفيد الآية الأمر بالتواضع لكل من آمن من عشيرته ﷺ وغيرهم.

وقال الطيبي: الإجراء على أفانين البلاغة أن يحمل الكلام على أسلوب وضع المظهر موضع المضمر وإن الأصل وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك منهم فعدل إلى المؤمنين ليعم ويؤذن أن صفة الإيمان هي التي يستحق أن يكرم صاحبها ويتواضع لأجلها من اتصف بها سواء كان من عشيرتك أو غيرهم وليس هذا بالبعيد لكنني أختار كون من بيانية وإن عموم من اتبعك باعتبار أصل معناه. وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال: لما نزلت **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** بدأ ﷺ بأهل بيته وفصيلته فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى: «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين».

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الظاهر أن الضمير المرفوع في **﴿عصوك﴾** عائد على من أنذر ﷺ بإنذارهم وهم العشيرة أي فإن عصوك ولم يتبعوك بعد إنذارهم فقل: إني بريء من عملكم أو الذي تعملونه من دعائكم مع الله تعالى إلهاً آخر، وجوز أن يكون عائداً على الكفار المفهوم من السياق، وقيل: هو عائد على من اتبع من المؤمنين أي فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإسلام بعد تصديقك والإيمان بك وتواضعك لهم فقل: إني بريء مما تعملون من المعاصي أي أظهر عدم رضاك بذلك وإنكاره عليهم. وذكر على هذا أنه ﷺ لو أمر بالبراءة منهم ما بقي شفيعاً للعصاة يوم القيامة، والآية على غير هذا القول منسوخة.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال: أمره سبحانه بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم، وفي البحر هذه موادعة

نسختها آية السيف ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ فهو سبحانه يقهر من يعصيك منهم ومن غيرهم بعزته وينصرك برحمته، وتقديم وصف العزة قيل لأنه أوفق بمقام التسلي عن المشاق اللاحقة من القوم إليه ﷺ، وجوز أن يكون ذلك لأن العزة كالعلة المصححة للتوكل والرحمة كالعلة الداعية إليه، وفسره غير واحد بتفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على أن ينفعه ويضره. وقالوا: المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله تعالى، وذكر بعضهم أن هذا من أحط مراتب التوكل وأدناها، ونقل عن بعض العارفين أنه فيما بين الناس على ثلاث درجات. الأولى التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب على نية شغل النفس ونفع الخلق وترك الدعوى، والثانية التوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن السبب اجتهاداً في تصحيح التوكل وقمع تشرف النفس تفرغاً إلى حفظ الواجبات والثالثة التوكل مع معرفة التوكل النازعة إلى الخلاص من علة التوكل. وذلك أن يعلم أن الله تعالى لم يترك أمراً مهملاً بل فرغ من الأشياء كلها وقدرها وشأنه سبحانه سوق المقادير إلى المواقيت، فالمتوكل من أراح نفسه من كد النظر ومطالعة السبب سكوناً إلى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين وهو أن يعلم أن الطلب لا ينفع والتوكل لا يمنع ومتى طلع بتوكله عوضاً كان توكله مدخولاً وقصده معلولاً وإذا خلص من رق الأسباب ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله تعالى كفاه الله تعالى كل مهم. وبين العلامة الطيبي إن في قوله تعالى: «وتوكل» إلخ إشارة إلى المراتب الثلاث بما فيه خفاء.

وفي مصاحف أهل المدينة والشام «فتوكل» بالفاء وبه قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وشيبة وخرج على الإبدال من جواب الشرط. وجعل في الكشاف الفاء للعطف وما بعده معطوفاً على ﴿نقل﴾ أو ﴿فلا تدع﴾ وما ذكر أولاً أظهر ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي إلى الصلاة ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أي ويرى سبحانه تغيرك من حال كالجلوس والسجود إلى آخر كالقيام ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي فيما بين المصلين إذا أممتهم، وعبر عنهم بالساجدين لأن السجود حالة مزيد قرب العبد من ربه عز وجل وهو أفضل الأركان على ما نص عليه جمع من الأئمة، وتفسير هذه الجملة بما ذكر مروي عن ابن عباس وجماعة من المفسرين إلا أن منهم من قال: المراد حين تقوم إلى الصلاة بالناس جماعة، وقيل: المعنى يراك حين تقوم للتهجد ويرى تقلبك أي ذهابك ومجيئك فيما بين المتهجدين لتتصفح أحوالهم وتطلع عليهم من حيث لا يشعرون وتستبطن سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم فوجدها كبيوت النحل لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة. وعن مجاهد أن المراد بقوله سبحانه: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ تقلب بصره عليه الصلاة والسلام فيمن يصلي خلفه فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرى من خلفه، ففي صحيح البخاري عن أنس قال: «أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بوجهه فقال: أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري».

وفي رواية أبي داود عن أبي هريرة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول: «استووا استووا والذي نفسي بيده إني لأراكم من خلفي كما أراكم من بين يدي» ولا يخفى بعد حمل ما في الآية على ما ذكر.

وقيل: المراد بالساجدين المؤمنون، والمعنى يراك حين تقوم لأداء الرسالة ويرى تقلبك وترددك فيما بين المؤمنين أو معهم فيما فيه إعلان أمر الله تعالى وإعلاء كلمته سبحانه، وتفسير الساجدين بالمؤمنين مروي عن ابن عباس وقتادة إلا أن كون المعنى ما ذكر لا يخلو عن خفاء.

وعن ابن جبير أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام، والمعنى ويرى تقلبك كما يتقلب غيرك من الأنبياء عليهم السلام في تبليغ ما أمروا بتبليغه وهو كما ترى، وتفسير الساجدين بالأنبياء رواه جماعة منهم الطبراني والبزار وأبو نعيم عن ابن عباس أيضاً إلا أنه رضي الله تعالى عنه فسر التقلب فيهم بالتنقل في أصلابهم حتى ولدته أمه عليه الصلاة والسلام، وجوز على حمل التقلب على التنقل في الأصلاب أن يراد بالساجدين المؤمنون، واستدل بالآية على إيمان أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم كما ذهب إليه كثير من أجلة أهل السنة، وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما رضي الله تعالى عنهما على رغم أنف على القارىء وأضرابه بضد ذلك إلا أني لا أقول بحجية الآية على هذا المطلب، ورؤية الله تعالى انكشاف لائق بشأنه عز شأنه غير الانكشاف العلمي ويتعلق بالموجود والمعدوم الخارجي عند العارفين، وقالوا: إن رؤية الله تعالى للمعدوم نظير رؤية الشخص القيامة ونحوها في المنام وكثير من المتكلمين أنكروا تعلقها بالمعدوم، ومنهم من أرجعها إلى صفة العلم وتحقيق ذلك في محله، وفي وصفه تعالى برؤيته حاله ﷺ التي بها يستأهل ولايته بعد وصفه بما تقدم تحقيق للتوكل وتوطين لقلبه الشريف عليه الصلاة والسلام عليه.

وقرأ جناح بن حبيش «ويُقَلِّبُكَ» مضارع قلب مشدداً وخرج ذلك أبو حيان على العطف على يراك وجوز العطف على ﴿تقوم﴾. وفي الكلام على هذه القراءة إشارة إلى وقوع تقلبه ﷺ في الساجدين على وجه الكمال وكمال التقلب في الصلاة كونه بخشوع يغفل معه عما سوى الله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ بكل ما يصح تعلق السمع به ويندرج فيه ما يقوله ﷺ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل ما يصح تعلق العلم به ويندرج فيه ما يعمله أو ينويه عليه الصلاة والسلام، وفي الجملة الاسمية إشارة إلى أنه سبحانه متصف بما ذكر أزلاً وأبداً ولا توقف لذلك على وجود المسموعات والمعلومات في الخارج، والحصر فيها حقيقي أي هو تعالى كذلك لا غيره سبحانه وتعالى.

وكأن الجملة متعلقة بالجملتين الواقعتين في حيز الجزاء جيء بها للتح ريض على القول السابق والتوكل، وجوز أن تكون متعلقة بما في حيز الصلة والمراد منها التحريض على إيقاع الأقوال والأفعال التي في الصلاة على أكمل وجه فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ إلخ مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن، وهذه الجملة وقوله تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ إلخ وقوله سبحانه: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ إلخ أخوات وفرق بينهن بآيات ليست في معناهن ليرجع إلى المجيء بهن وتطرية ذكر ما فيهن كرة بعد كرة فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت عناية الله تعالى بها، ومثاله أن يحدث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه، والاستفهام للتقرير و ﴿على من﴾ متعلق بتنزل قدم عليه لصدارة المجرور وتقديم الجار لا يضر كما بين في النحو، وقال الزمخشري في ذلك: إن من متضمنة معنى الاستفهام وليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معاً معنى الاسم ومعنى الحرف وإنما معناه أن الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل والأصل أهل كما قال:

سائل فوارس يربوع بشدتنا ... أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

فإذا أدخلت حرف الجر على من فقدر الهمزة قبل حرف الجر في ضميرك كأنك تقول: أعلى من تنزل الشياطين كقولك: أعلى زيد مررت ا هـ. وتعقبه صاحب الفرائد بقوله: يشكل ما ذكر بقولهم: من أين أنت ومن أين جئت وقوله تعالى: ﴿من أي شيء خلقه﴾ [عبس: ١٨] وقوله فيم: وبم ومم وحتام ونحوها. وأجاب صاحب

الكشف بأنه لا إشكال في نحو من أين أنت؟ لأن التقدير أمن البصرة أم من الكوفة مثلاً ولا يخفى أنه لا يحتاج على ما حققه النحاة إلى جميع ذلك، وجملة ﴿**على من تنزل**﴾ إلخ في موضع نصب بأنبئكم لأنه معلق بالاستفهام وهي إما سادة مسد المفعول الثاني إن قدرت الفعل متعدياً لاثنين ومسد مفعولين إن قدرته متعدياً لثلاثة، والمراد هل أعلمكم جواب هذا الاستفهام ـ أعني على من تنزل الشياطين ـ وأصل تنزل تتنزل فحذف إحدى التاءين. والكلام على معنى القول عند أبي حيان كأنه قيل: قل يا محمد هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴿**تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ**﴾ أي كثير الإفك وهو الكذب ﴿**أَثِيمٍ**﴾ كثير الإثم، و ﴿**كل**﴾ للتكثير وجوز أن تكون للإحاطة ولا بعد في تنزلها على كل كامل في الإفك والإثم كالكهنة نحو شق بن رهم بن نذير وسطيح بن ربيعة بن عدي، والمراد بواسطة التخصيص في معرض البيان أو السياق أو مفهوم المخالفة عند القائل به قصر تنزلهم على كل من اتصف بما ذكر من الصفات وتخصيص له بهم لا يتخطاهم إلى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شيء من تلك الأوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام ﴿**يُلْقُونَ**﴾ أي الأفاكون ﴿**السَّمْعَ**﴾ أي سمعهم إلى الشياطين، وإلقاء السمع مجاز عن شدة الإصغاء للتلقي فكأنه قيل: يصغون أشد إصغاء إلى الشياطين فيتلقون منهم ما يتلقون ﴿**وَأَكْثَرُهُمْ**﴾ أي الأفاكين ﴿**كَاذِبُونَ**﴾ فيما يقولونه من الأقاويل، والأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون في أقوالهم وإنما هم في أكثرها كاذبون ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقين على الإطلاق ويلتزم لذلك كون الأكثر بمعنى الكل.

وليس معنى الأفاك من لا ينطق إلا بالإفك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الإفك فلا ينافيه أن يصدق نادراً في بعض الأحايين، وجوز أن يكون السمع بمعنى المسموع وإلقاؤه مجاز عن ذكره أن يلقى الأفاكون إلى الناس المسموع من الشياطين وأكثرهم كاذبون فيما يحكون عن الشياطين ولم يرتضه بعضهم لبعده أو لقلة جدواه على ما قيل. واختلف في سبب كون أكثر أقوالهم كاذبة فقيل: هو بعد البعثة كونهم يتلقون منهم ظنوناً وأمارات إذ ليس لهم من علم الغيب نصيب وهم محجوبون عن خبر السماء ولعدم صفاء نفوسهم قلما تصدق ظنونهم مع ذلك يضم الأفاكون إليها لعدم وفائها بمرادهم على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها الواقع، وقبل البعثة إذ كانوا غير محجوبين عن خبر السماء وكانوا يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه من الأخبار الغيبية يحتمل أن يكون كثرة غلط الأفاكين في الفهم لقصور فهمهم عنهم، ويحتمل أن يكون ضمهم إلى ما يفهمونه من الحق أشياء من عند أنفسهم لا يطابق أكثرها الواقع، ويحتمل أن يكون كثرة غلط الشياطين الذين يوجون إليهم في الفهم عن الملائكة عليهم السلام لقصور فهمهم عنهم، ويحتمل أن يكون ضم الشياطين إلى ما يفهمونه من الحق من الملائكة عليهم السلام أشياء من عند أنفسهم لا يطابق أكثرها الواقع، ويحتمل أن يكون مجموع ما ذكر. وقيل: هو قبل البعثة يحتمل أن يكون أحد هذه الأمور وأما بعد البعثة فهو كثرة خلطهم الكذب فيما تخطفه الشياطين عند استراقهم السمع من الملائكة ويلقونه إليهم.

فقد أخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: إنهم ليسوا بشيء فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً قال: تلك الكلمة من الحق[1] يحفظها الجني فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة، وقيل: هو قبل البعثة وبعدها كثرة

---

(١) ورواية من الجن بجيم ونون بدله رواية صحيحة ا هـ منه بزيادة.

خلط الأفاكين الكذب فيما يتلقونه من الشياطين، أما كثرته قبل البعثة فلظاهر الخبر المذكور، وأما كثرته بعد البعثة فلما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في هذه الآية: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتستمع ثم تنزل إلى الكهنة فتخبرهم فتحدث الكهنة بما أنزلت به الشياطين من السمع وتخلط به الكهنة كذباً كثيراً فيحدثون به الناس فأما ما كان من سمع السماء فيكون حقاً وأما ما خلطوه به من الكذب فيكون كذباً، ولا يخفى أن القول بأن الشياطين بعد البعثة يلقون ما يسترقونه من السمع إلى الكهنة غير مجمع عليه، ومن القائلين به من يجوز أن يكون ضمير ﴿يلقون﴾ في الآية راجعاً إلى الشياطين، والمعنى يلقي الشياطين المسموع من الملأ الأعلى قبل أن يرجموا من بعض المغيبات إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم، إذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملائكة عليهم السلام لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم، وقيل: المعنى عليه ينصت الشياطين ويستمعون إلى الملأ الأعلى قبل الرجم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إلى أوليائهم بعد لشرارتهم أو لأنهم لا يسمعون في أنفسهم أو لا يسمعون أولياءهم بعد ذلك السمع كلام الملائكة عليهم السلام على وجهه، وجملة ﴿يلقون﴾ على تقدير كون الضمير للأفاكين صفة ﴿لكل أفاك﴾ لأنه في معنى الجمع سواء أريد بإلقاء السمع الإصغاء إلى الشياطين أو إلقاء المسموع إلى الناس، وجوز أن تكون استئنافاً إخباراً لحالهم على كلا التقديرين لما أن كلاً من تلقيهم من الشياطين وإلقائهم إلى الناس يكون بعد التنزل، واستظهر تقدير المبتدأ على هذا، وأن تكون استئنافاً مبنياً على السؤال كأنه قيل: ما يفعلون عند تنزل الشياطين أو ما يفعلون بعد تنزلهم؟ فقيل: يلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم أو يلقون ما يسمعونه منهم إلى الناس، وجوز أن تكون حالاً منتظرة على التقديرين أيضاً.

وهي على تقدير كون الضمير للشياطين، والمعنى ما سمعت أولاً قيل: تحتمل أن تكون استئنافاً مبيناً للغرض من التنزل مبنياً على السؤال عنه كأنه قيل لم تنزل عليهم؟ فقيل: يلقون إليهم ما سمعوه، وأن تكون حالاً منتظرة من ضمير الشياطين أي تنزل على كل أفاك أثيم ملقين ما يسمعونه من الملأ الأعلى إليهم؛ وعلى ذلك التقدير والمعنى ما سمعت ثانياً قيل: لا يجوز أن تكون استئنافاً نظير ما ذكر آنفاً ولا أن تكون حالاً أيضاً لأن الفاء السمع بمعنى الإنصات مقدم على التنزل المذكور فكيف يكون غرضاً منه أو حالاً مقارنة أو منتظرة ويتعين كونها استئنافاً للإخبار بحالهم.

وتعقب بأنه غير سديد لأن ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل، ومن هنا قيل: إن جعل الضمير للشياطين وحمل إلقاء السمع على إنصاتهم وتسمعهم إلى الملأ الأعلى مما لا سبيل إليه وفيه نظر، وجملة ﴿هم كاذبون﴾ استئنافية أو تحتمل الاستئنافية والحالية، هذا واعلم أن هاهنا إشكالاً وارداً على بعض الاحتمالات في الآية لأنها عليه تفيد أن الشياطين يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه ويلقونه إلى الأفاكين. وقد تقدم ما يدل على منعهم عن السمع أعني قوله تعالى: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ [الشعراء: ٢١٢].

وأجيب بأن المراد بالسمع فيما تقدم السمع المعتد به وفيما هاهنا السمع في الجملة ويراد به الخطفة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ [الصافات: ١٠] والكلمة المذكورة في خبر الصحيحين وابن مردويه السابق آنفاً، واعترض بأن من خطف لا يبقى حياً إلى أن يوصل ما خطفه إلى وليه لظاهر قوله تعالى: ﴿إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب﴾ فإن ظاهره أنه يهلك بالشهاب الذي لحقه.

وأجيب بأن نفي بقائه حياً غير مسلم، ولا نسلم أن الآية ظاهرة فيما ذكر إذ ليس فيها أكثر من اتباع الشهاب

الثاقب إياه وهو يحتمل الزجر كما يحتمل الإهلاك فليرد اتباعه للزجر مع بقائه حياً فإن الخبر المذكور يقتضي بقاءه كذلك. وجاء عن ابن عباس أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السماوات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقون إلى الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب وهو الشعلة من النار فلا يخطىء أبداً فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه ومنهم من يخبله فيصير غولاً يضل الناس في البراري، وقيل: إن المراد بالسمع فيما تقدم سمع الوحي وفيما هنا سمع المغيبات غيره وهم غير ممنوعين عنه قبل البعثة وبعدها، وهذا مأخوذ من كلام عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه التي لم ينسج على منوالها وإن كان للطعن فيها مجال قال: إن الآيات إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك، بل ربما يقال: إن في كلامه بعد إشعاراً ما بأن المنع إنما كان بين يدي النبوة فقط. لا قبل ذلك ولا بعده.

ولا يخفى أن الظواهر تشهد بمنعهم مطلقاً إلى يوم القيامة، بل قد يدعي أن في الآيات ما يدل على أن حفظ السماء بالكواكب لم يحدث وإن خلقها لذلك وهو ظاهر في أنهم كانوا ممنوعين أيضاً قبل ولادته صلى الله تعالى عليه وسلم من خبر السماء، ويشكل هذا على ظاهر العزل إلا أن يدعي أن المنع قبل لم يكن بمثابة المنع بعد فالعزل عما كان يجعل المنع شديداً بالنسبة إليه. وفي اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر لمولانا عبد الوهاب الشعراني عليه الرحمة الصحيح أن الشياطين ممنوعون من السمع منذ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى يوم القيامة وبتقدير استراقهم فلا يتوصلون إلى الإنس ليخبروهم بما استرقوه بل تحرقهم الشهب وتفنيهم انتهى.

قيل ويلزم القائلين بهذا حمل ما في خبر الصحيحين على كهان كانوا قبل البعثة وقد أدركهم السائلون وهو الذي يقتضيه كلام القاضي أيضاً. فقد نقل النووي عنه في شرحه صحيح مسلم أنه قال: كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب، أحدها أن يكون للإنسان ولي من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء وهذا القسم بطل من حين بعث نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم إلى آخر ما قال. وهو ظاهر كلام البوصيري حيث يقول:

بعث الله عند مبعثه الشهـ ... ـب حراساً وضاق عنها الفضاء

تطرد الجن عن مقاعد للسمـ ... ـع كما يطرد الذئب الرعاء

فمحت آية الكهانة آيا ... ت من الوحي ما لهن امحاء

وقد قيل في الجواب عن الإشكال نحو هذا وهو أن تنزل الشياطين وإلقاءهم ما يسمعونه من السماء إلى أوليائهم حسبما تفيده الآية المذكورة في أحد محاملها إنما كان قبل البعثة حيث لم يكن حينئذ منع أو كان لكنه لم يكن شديداً. والمنع من السمع الذي يفيده قوله تعالى: ﴿**إنهم عن السمع لمعزولون**﴾ إنما كان بعد البعثة وكان على أتم وجه، وهذا مشكل عندي بابن الصياد وما كان منه فإنهم عدوه من الكهان، وقد صح أنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام حين سأله عن أمره: يأتيني صادق وكاذب وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم امتحنه فأضمر له آية الدخان وهي قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ [الدخان: ١٠] وقال ﷺ: خبأت لك خبأ فقال ابن الصياد: هو الدخ أي الدخان وهي لغة فيه كما ذهب إليه الجمهور فقال له النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

وقد قال القاضي كما نقل النووي عنه أيضاً: أصح الأقوال إنه لم يهتد من الآية التي أضمرها النبي عليه الصلاة

والسلام إلا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان إذا ألقى الشيطان إليهم بقدر ما يخطف قبل أن يدركه الشهاب ويدل عليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «اخسأ فلن تعدو قدرك» أي القدر الذي يدركه الكهان من الاهتداء إلى بعض الشيء وما لا يبين منه حقيقته ولا يصل به إلى بيان وتحقيق أمور الغيب، وقد يقال في دفع هذا الإشكال: إن ابن الصياد كان من الضرب الثاني من الكهان وهم الذين تخبرهم الشياطين بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خفي عنهم مما قرب أو بعد، والصحيح جواز وجودهم بعد البعثة خلافاً للمعتزلة وبعض المتكلمين حيث قالوا باستحالة وجود هذا الضرب ، وكذا الضرب السابق آنفاً، وأنه يحتمل أن يكون النبي ﷺ قد أسر إلى بعض أصحابه الذين كانوا معه ما أضمره أو كانت سورة الدخان مكتوبة في يده ﷺ أو كتب الآية وحدها في يده عليه الصلاة والسلام، وكلا القولين الأخيرين حكاهما الداودي عن بعض العلماء كما في شرح صحيح مسلم.

وأياً ما كان يكون ابن الصياد قد أخبر بأمر طارىء تطلع عليه الشياطين بدون استراق السمع من السماء وليس ذلك من الإطلاع على ما في القلب في شيء، ومع ذلك لم يخبر به تاماً بل أخبر به على نحو إخبار الكهان السابقين على زمن البعثة الذين هم من الضرب الأول في النقص.

ولعل مراد القاضي بقوله: إنه لم يهتد من الآية التي أضمرها ﷺ إلا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان إذا ألقى الشيطان إليهم بقدر ما يخطف إلخ تشبيه حاله مع أنه من الضرب الثاني بحال من تقدمه من الكهان الذين هم من الضرب الأول وإلا لأشكل كلامه هذا مع ما نقلناه عنه أولاً كما لا يخفى، وكأنه يقول برجم المسترقين للسمع قبل البعثة أيضاً إلا أنه لم يكن بمثابة ما كان بعد البعثة، وقد ذهب إلى هذا جمع من المحدثين.

ومن الناس من قال: إن الشيطان إذا خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب ألقى ما يخطفه إلى من تحته قبل أن يدركه الشهاب ثم إن من تحته يوصل ذلك إلى الكاهن ولا يكاد يصح ذلك، وقيل: إن ما يلقيه الشياطين إلى الكهنة بعد البعثة هو ما يسمعونه من الملائكة عليهم السلام في العنان وهو المراد بقوله تعالى: ﴿**يلقون السمع**﴾ وما هم ممنوعون عنه هو السمع من الملائكة عليهم السلام في السماء وهو المراد بقوله تعالى: ﴿**إنهم عن السمع لمعزولون**﴾ واستدل لذلك بما أخرجه البخاري وابن المنذر عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: «الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر في الأرض فيسمع الشيطان الكلمة فيقرها في أذن الكاهن كما يقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة، ولا يخفى أنه ليس في الخبر تعرض للسمع من الملائكة عليهم السلام في السماء بالمعنى المعروف لا نفياً ولا إثباتاً، وقد يختار القول بأن الشياطين إنما منعوا بعد البعثة عن سمع ما يعتد به من علم الغيب من ملائكة السماء أو العنان ومن خطف خطفة يعتد بها من ذلك اتبعه الشهاب وأهلكه ولم يدعه يوصلها بوجه من الوجوه إلى الكهنة، وأما سمع ما لا يعتد به فقد يقع لهم ويوصلونه إلى الكهنة فيخلطون به من الكذب ما يخلطون، فحيث حكم عليهم بالعزل عن السمع أريد بالسمع السمع الكامل المعتد به وحيث حكم عليهم بإلقاء السمع أريد بالسمع السمع في الجملة وأدنى ما يصدق عليه أنه سمع، والظاهر أن ما حصل لابن الصياد كان من هذا السمع ولا يكاد يعدل عن ذلك، ويقال: إنه كان من الضرب الثاني للكهانة إلا إن ثبت أحد الشقوق الثلاثة وفي ثبوت ذلك كلام، نعم قوله ﷺ: «خبأت» ظاهر في أن هناك ما يخبأ في كف أو كم أو نحوهما والآية ما لم تكتب لا تكون كذلك، ولهذا احتاج القائلون بأنه ﷺ إنما أضمر له الآية في قلبه إلى تأويل خبأت بأضمرت. ويمكن أن يقال على بعد: إن الشياطين قد منعوا بعد البعثة عن السمع مطلقاً بالشهب المحرقة لهم، وإرجاع ضمير ﴿**يلقون**﴾ إلى الشياطين ضعيف لأن المقام في بيان من يتنزلون عليه لا بيان حالهم أو إلقاء سمعهم بمعنى إصغائهم إلى الملأ الأعلى و ﴿**أكثرهم**﴾

بمعنى كلهم والتعبير به للإشارة إلى أن الأكثرية المذكورة كافية في المقصود. والمراد يصغون ليسمعوا فلا يسمعون إلا أنه أقيم وأكثرهم كاذبون مقام لا يسمعون أو إلقاء السمع بمعنى إلقاء ما يسمعه الناس من الأفاكين إليهم ولا يلزم من ذلك أن يكونوا سمعوه من الملائكة عليهم السلام إذ يجوز أن يكونوا اخترعوه من عند أنفسهم ظناً وتخميناً وألقوه إلى أوليائهم ولا يبعد صدقهم في بعضه. والأمر في تسميته مسموعاً هين. وما ورد في حديث الصحيحين وابن مردويه محمول على ما كان قبل البعثة، ويقال: إنهم كانوا يسمعون في الجملة وقد يحمل ما في الآية على ذلك وإليه ذهب بعضهم، وحمل خطف الكلمة فيه على حدسها بواسطة بعض الأوضاع الفلكية ونحو ذلك ليجوز اعتبار كونه بعد البعثة مما لا أظن أحداً يرتضيه، وليس في قصة ابن الصياد ما هو نص في أن ما قاله كان عن سمع من الملائكة عليهم السلام ألقاه الشيطان إليه. وكأني بك تستبعد تحدث الملائكة عليهم السلام في السماء بما أضمره صلى الله تعالى عليه وسلم وصعود الشياطين حين السؤال من غير ريث واستراقهم ونزولهم في أسرع وقت بما أجاب به ابن الصياد وما هو إلا ضرب من ضروب الكهانة.

وتحقيق أمرها على ما ذكره الفاضل عبد الرحمن بن خلدون أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ عن البشرية إلى الروحانية التي فوقها. ويحصل من ذلك لمحة للبشر من صنف الأتقياء بما فطروا عليه من ذلك ولا يحتاجون فيه إلى اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور ويعطي التقسيم العقلي إن هاهنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة هذا الصنف نقصان الضد عن ضده الكامل وهو صنف من البشر مفطور على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عند ما يتبعها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه فيتشبث لأعمال الحيلة بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوان وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان ويديم ذلك الإحساس والتخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيع له وهذه القوة التي هي مبدأ في هذا الصنف لذلك الإدراك هي الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها الجزئيات أكثر من إدراكها الكليات وتكون مشتغلة بها غافلة عن الكليات ولذلك كثيراً ما تكون المتخيلة فيهم في غاية القوة وتكون الجزئيات عندها حاضرة عتيدة وهي لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن نقصانه فطري ووحيه شيطاني، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوي في الجملة على ذلك الانسلاخ الناقص فيهجس في قلبه من تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الأجنبي ما يقذف على لسانه وربما صدق ووافق الحق وربما كذب لأنه يتمم أمر نقصه بأجنبي عن ذات المدارك ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ويكون غير موثوق به وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويهاً على السائلين، ولما كان انسلاخ النبي عليه الصلاة والسلام عن البشرية واتصاله بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي كان صادقاً في جميع ما يأتي به وكان الصدق من خواص النبوة، ولهذا قال ﷺ لابن الصياد حين سأله كاشفاً عن حاله بقوله عليه الصلاة والسلام: «كيف يأتيك هذا الأمر؟ فقال: يأتيني صادق وكاذب: خلط عليك الأمر» يريد عليه الصلاة والسلام نفي النبوة عنه بالإشارة إلى أنها مما لا يعتبر فيه الكذب بحال، وإنما قيل: أرفع أحوال هذا الصنف السجع لأن معين السجع أخف من سائر المعينات من المرئيات والمسموعات وتدل خفة المعين على قرب ذلك الانسلاخ والاتصال والبعد فيه عن العجز في الجملة، ولا انحصار لعلوم الكهان فيما يكون من الشياطين بل كما تكون من الشياطين تكون من أنفسهم بانسلاخها انسلاخاً غير تام واتصالها في الجملة بواسطة بعض الأسباب بعالم لا تحجب عنه الحوادث

المستقبلة وغيرها فانقطاع خبر السماء بعد البعثة عن الشياطين بالرجم إن سلم لا يدل على انقطاع الكهانة.

ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ولا يصدهم عن الإيمان ويدعوهم إلى العناد إلا وساوس المطامع بحصول النبوة لهم كما وقع لامية ابن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يكون نبياً وكذا وقع لابن الصياد ومسيلمة وغيرهما، وربما تنقطع تلك الأماني فيؤمنون أحسن إيمان كما وقع لطليحة الأسدي. وقارب بن الأسود وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار ما يشهد بحسن الإيمان، وذكر في بيان استعداد بعض الأشخاص أعم من أن يكونوا كهاناً أو غيرهم للإخبار بالأمور الغيبية قبل ظهورها كلاماً طويلاً، حاصلة أن النفس الإنسانية ذات روحانية ولها بذاتها الإدراك من غير واسطة لكنها محجوبة عنه بالإنغماس في البدن والحواس وشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه من الإدراك الجسماني وربما تنغمس عن الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصة التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصة الموجودة في بعض الأشخاص كالكهنة أهل السجع وأهل الطرق بالحصى والنوى والناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا والمياه وقلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وقد يلحق بهم المجانين أو بالرياضة الدينية مثل أهل الكشف من الصوفية أو السحرية مثل أهل الكشف من الجوكية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود وتلك الذوات إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما قرر في محله فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علماً، وربما وقعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفها في القوالب المتعادة ثم تراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به انتهى، ولا يخفى أن فيه ذهاباً إلى ما يقوله الفلاسفة في الملأ الأعلى وكثيراً ما يسمونه عالم المجردات وقد يسمونه عالم العقول وهي محصورة في المشهور عنهم في عشرة ولا دليل لهم على هذا الحصر ولذا قال بعض متأخريهم بأنها لا تكاد تحصى، وللمتكلمين والمحققين من السلف في ذلك كلام لا يتسع هذا الموضع لذكره، وأنا أقول ولا ينكره إلا جهول: لله عز وجل خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص ولا يبعد بعد انقطاع خبر السماء عن الشياطين بالرجم أن يجعل لبعض النفوس الإنسانية خاصية التكلم بما يصدق كلاً أو بعضاً مع اطلاع وكشف يفيد العلم بما أخبر به أو بدون ذلك بأن ينطقه سبحانه بشيء فيتكلم به من غير علم بالمخبر به ويوافق الواقع.

وقد اتفق لي ذلك وعمري نحو خمس سنين وذلك أني رجعت من الكتاب إلى البيت وشرعت ألعب فيه على عادة الأطفال فنهتني والدتي رحمها الله تعالى عن ذلك وأمرتني بالنوم لأستيقظ صباحاً فأذهب إلى الكتاب فقلت لها: غداً يقتل الوزير ولا أذهب إلى الكتاب وهو مما لا يكاد يمر بفكر فلم تلتفت إلى ذلك وأنامتني فلما أصبحت تأهبت للذهاب فجاء ابن أخت لها وأسر إليها كلاماً لم أسمعه فتغير حالها ومنعتني عن الذهاب ولا أدري لم ذلك فأردت الخروج إلى الدرب لألعب مع أمثالي فمنعتني أيضاً فقعدت وهي مضطربة البال تطلب أحداً يخبرها عن حال والدي عليه الرحمة حيث ذهب قبيل طلوع الشمس إلى المدرسة فخرجت إلى الدرب على حين غفلة منها فوجدت الناس بين راكض ومسرع يتحدثون بأن الوزير قتله بعض خدمه وهو في صلاة الفجر فرجعت إليها مسرعاً مسروراً بصدق كلامي وكنت قد أنسيته ولم يخطر ببالي حتى سمعت الناس يتحدثون بذلك. وفي اليواقيت والجواهر للشعراني عليه الرحمة في بحث الفرق بين المعجزة والكهانة أن الكهانة كلمات تجري على لسان الكاهن ربما توافق وربما تخالف وفيه شمة مما ذكرنا هذا والله تعالى أعلم.

والظاهر على ما قيل أن قوله تعالى: ﴿هل أنبئكم﴾ إلخ كلام مسوق منه تعالى لبيان تنزيه النبي ﷺ عن أن

يكون وحاشاه ممن تنزل عليه الشياطين وإبطال لقولهم في القرآن إنه من قبيل ما يلقى إلى الكهنة، وفي البحر ما هو ظاهر في أنه على معنى القول أي قل يا محمد هل أنبئكم إلخ وهو مسوق للتنزيه والإبطال المذكورين، وقوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ مسوق لتنزيهه عليه الصلاة والسلام أيضاً عن أن يكون وحاشاه من الشعراء وإبطال زعم الكفرة أن القرآن من قبيل الشعر. والمتبادر منه الكلام المنظوم المقفى ولذلك قال كثير من المفسرين: إنهم رموه عليه الصلاة والسلام بكونه آتياً بشعر منظوم مقفى حتى تأولوا عليه ما جاء في القرآن مما يكون موزوناً بأدنى تصرف كقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله﴾ [الإسراء: ٣٣] ويكون بهذا الاعتبار شطراً من الطويل وكقوله سبحانه: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ [القصص: ٧٦] ويكون من[1] المديد، وكقوله عز وجل: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ [الأحقاف: ٢٥] ويكون من البسيط، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ [هود: ٦٠] ويكون من الوافر، وقوله جل وعلا: ﴿صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] ويكون من الكامل إلى غير ذلك مما استخرجوه منه من سائر البحور، وقد استخرجوا منهما يشبه البيت التام كقوله تعالى: ﴿ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ [التوبة: ١٤].

وتعقب ذلك بأنهم لم يقصدوا هذا المقصد فيما رموه به ﷺ إذ لا يخفى على الأغبياء من العجم فضلاً عن بلغاء العرب إن القرآن الذي جاء به ﷺ ليس على أساليب الشعر وهم ما قالوا فيه عليه الصلاة والسلام شاعر إلا لما جاءهم بالقرآن واستخراج ما ذكر ونحوه منه ليس إلا لمزيد فصاحته وسلاسته ولم يؤت به لقصد النظم. ولو اعتبر في كون الكلام شعراً إمكان استخراج كلام منظوم منه لكان كثير من الأطفال شعراً. فإن كثيراً من كلامهم يمكن فيه ذلك، والظاهر أنهم إنما قصدوا رميه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه وحاشاه ثم حاشاه يأتي بكلام مخيل لا حقيقة له، ولما كان ذلك غالباً في الشعراء الذين يأتون بالمنظوم من الكلام عبروا عنه عليه الصلاة والسلام بشاعر وعما جاء به بالشعر، ومعنى الآية والشعراء يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون ولا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال والأحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحق الثابتين عليه، والحصر مستفاد من بناء ﴿يتبعهم﴾ إلخ على الشعراء عند الزمخشري كما قرره في تفسير قوله تعالى: ﴿الله يستهزىء بهم﴾ [البقرة: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ [المزمل: ٢٠] ومن لا يرى الحصر في مثل هذا التركيب يأخذه من الوصف المناسب أعني أن الغواية جعلت علة للاتباع فإذا انتفت انتفى وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له. والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للإشارة إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا يختص برؤيته راء دون راء. وضمير الجمع للشعراء أي ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل بل يتحيرون في سباسب الغواية والسفاهة ويتيهون في تيه الصلف والوقاحة ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية والقدح في الأنساب الطاهرة السنية والنسيب بالحرم والغزل والابتهار والتردد بين طرفي الإفراط والتفريط في المدح والهجاء ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ من الأفاعيل غير مكترثين بما يستتبعه من اللوم فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك ويلحق بهم وينتظم في سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة

---

(١) قوله من المديد كذا بخطه وهو من الخفيف كما لا يخفى ا هـ.

واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات السنية الأنسية مستقراً على أقوم منهاج مستمراً على صراط مستقيم لا يرى له العقل السليم من هاج ناطقاً بكل أمر رشيد داعياً إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد مؤيداً بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الباهرة مستقلة بنظم رائق وأسلوب فائق أعجز كل منطيق ماهر وبكت كل مفلق ساحر، هذا وقد قيل في تنزيهه صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يكون من الشعراء: إن اتباع الشعراء الغاوون واتباعه عليه الصلاة والسلام ليسوا كذلك. وتعقب بأنه لا ريب في أن تعليل عدم كونه صلى الله تعالى عليه وسلم منهم بكون اتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين مما لا يليق بشأنه العالي، وقيل: ضمير الجمع للغاوين، وتعقب بأن المحدث عنهم الشعراء، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الغاوين هم الرواة الذين يحفظون شعر الشعراء ويروونه عنهم مبتهجين به. وفي رواية أخرى عنه أنهم الذين يستحسنون أشعارهم وإن لم يحفظوها، وعن مجاهد وقتادة أنهم الشياطين.

وروي عن ابن عباس أيضاً أن الآية نزلت في شعراء المشركين عبدالله بن الزبعري وهبيرة بن وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي وأمية بن أبي الصلت قالوا: نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم وهم الغاوون الذين يتبعونهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً أنه قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله تعالى ﴿والشعراء﴾ الآيات وفي القلب من صحة الخبر شيء، والظاهر من السياق أنها نزلت للرد على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما قالوا.

وقرأ عيسى بن عمرو «الشعراء» بالنصب على الاشتغال. وقرأ السلمي والحسن بخلاف عنه «يَتْبَعُهُم» مخففاً. وقرأ الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو «يَتَّبِعْهُم» بالتشديد وتسكين العين تخفيفاً وقد قالوا: عضد بسكون الضاد فغيروا الضمة واقعة بعد الفتحة فلأن يغيروها واقعة بعد الكسرة أولى، وروى هارون فتح العين عن بعضهم، واستشكله أبو حيان، وقيل: إنه للتخفيف أيضاً، واختياره على السكون لحصول الغرض به مع أن فيه مراعاة الأصل في الجملة لما بين الحركتين من المشاركة الجنسية ولا كذلك ما بين الضم والسكون وهو غريب كما لا يخفى.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله سبحانه وتعالى والحث على الطاعة والحكمة والموعظة والزهد في الدنيا والترهيب عن الركون إليها والاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها الفانية والترغيب فيما عند الله تعالى ونشر محاسن رسوله ﷺ ومدحه وذكر معجزاته ليتغلغل حبه في سويداء قلوب السامعين وتزداد رغباتهم في اتباعه ونشر مدائح آله وأصحابه وصلحاء أمته لنحو ذلك ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجو وقع بطريق الانتصار ممن هجاهم من غير اعتداء ولا زيادة كما يشير إليه قراءة بعضهم «وانتصروا بمثل ما ظلموا»، وقيل: المراد بالمستثنين شعراء المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ويكافحون هجاة المشركين، واستدل لذلك بما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة إن هذه الآية نزلت في رهط من الأنصار هاجوا عن رسول الله ﷺ، منهم كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت وعن السدي نحوه، وبما أخرج جماعة عن أبي حسن سالم البراد أنه قال: لما نزلت ﴿والشعراء﴾ الآية جاء عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت

وكعب بن مالك وهم يبكون فقالوا: يا رسول الله لقد أنزل الله تعالى هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء هلكنا فأنزل الله تعالى: ﴿**إلا الذين آمنوا**﴾ إلخ فدعاهم رسول الله ﷺ فتلاها عليهم.

وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قرأ قوله تعالى: ﴿**إلا الذين آمنوا**﴾ إلى آخر الصفات فقال: هم أبو بكر وعمر وعلي وعبدالله بن رواحة ولعله من باب الاقتصار على بعض ما يدل عليه اللفظ فقد جاء عنه في بعض الروايات ما يشعر بالعموم، هذا واستدل بالآية على ذم الشعر والمبالغة في المدح والهجو وغيرهما من فنونه وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم انتصاراً كذا قيل. واعلم أن الشعر باب من الكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح، وفي الحديث: «إن من الشعر لحكمة» وقد سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الشعر وأجاز عليه وقال عليه الصلاة والسلام لحسان رضي الله تعالى عنه: ـ اهجهم ـ يعني المشركين فإن روح القدس سيعينك، وفي رواية «اهجهم وجبريل معك».

وأخرج ابن سعد عن ابن بريدة أن جبريل عليه السلام أعان حساناً على مدحته النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسبعين بيتاً، وأخرج أحمد والبخاري في التاريخ وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك أنه قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم إن الله تعالى أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل، وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين «قال: رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة وهم في سفر أين حسان بن ثابت فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: خذ فجعل ينشده ويصغي إليه حتى فرغ من نشيده فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لَهذا أشد عليهم من وقع النبل»، ويروى عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بني لحسان بن ثابت منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر. وأخرج الديلمي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً الشعراء الذين يموتون في الإسلام يأمرهم الله تعالى أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثبور في النار، وقد أنشد كل من الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين الشعر ، وكذا كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فمن شعر أبي بكر رضي الله تعالى عنه :

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث ... أرقت وأمر في العشيرة حادث
ترى من لؤي فرقة لا يصدها ... عن الكفر تذكير ولا بعث باعث
رسول أتاهم صادق فتكذبوا ... عليه وقالوا لست فينا بماكث
ولما دعوناهم إلى الحق أدبروا ... وهروا هرير المجحرات اللواهث
فكم قد مثلنا فيهم بقرابة ... وترك التقى شيء لهم غير كارث
فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم ... فما طيبات الحل مثل الخبائث
وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم ... فليس عذاب الله عنهم بلابث
ونحن أناس من ذؤابة غالب ... لنا العز منها في الفروع الأثائث
فأولى برب الراقصات عشية ... حراجيج تخدي في السريح الرثائث
كأدم ظباء حول مكة عكف ... يردن حياض البئر ذات النبائث
لئن لم يفيقوا عاجلاً من ضلالهم ... ولست إذا آليت يوماً بحانث
لتبتدرنهم غارة ذات مصدق ... تحرم أطهار النساء الطوامث

تغادر قتلى يعصب الطير حولهم ... ولا ترأف الكفار رأف ابن حارث
فأبلغ بني سهم لديك رسالة ... وكل كفور يبتغي الشر باحث
فإن تشعثوا عرضي على سوء رأيكم ... فإني من أعراضكم غير شاعث

ومن شعر عمر رضي الله تعالى عنه وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة:

توعدني كعب ثلاثاً يعدها ... ولا شك أن القول ما قاله كعب
وما بي خوف الموت إني لميت ... ولكن خوف الذنب يتبعه الذنب

وقوله ويروى للأعور الثني:

هون عليك فإن الأمور ... بكف الإله مقاديرها
فليس بآتيك منهيها ... ولا قاصر عنك مأمورها

ومنه وقد لبس برداً جديداً فنظر الناس إليه، ويروى لورقة بن نوفل من أبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد حاوله عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها ترد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوماً كما وردوا

ومن شعر عثمان رضي الله تعالى عنه:

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها ... وإن عضها حتى يضر بها الفقر

ومن شعر علي كرّم الله تعالى وجهه وكان مجوداً حتى قيل: إنه أشعر الخلفاء رضي الله تعالى عنهم يذكر همدان ونصرهم إياه في صفين:

ولما رأيت الخيل تزحم بالقنا ... نواصيها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند في الكلاع وحمير ... وكندة في لخم وحي جذام
تيممت همدان الذين هم هم ... إذا ناب دهر جنتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقد جمعوا ما نسب إليه رضي الله تعالى عنه من الشعر في ديوان كبير ولا يصح منه إلا اليسير، ومن شعر ابنه الحسن رضي الله تعالى عنهما، وقد خرج على أصحابه مختضباً:

نسود أعلاها وتأبى أصولها ... فليت الذي يسود منها هو الأصل

ومن شعر الحسين رضي الله تعالى عنه وقد عاتبه أخوه الحسن رضي الله تعالى عنه في امرأته:

لعمرك إنني لأحب داراً ... تحل بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جل مالي ... وليس للائمي عندي عتاب

ومن شعر فاطمة رضي الله تعالى عنها قالته يوم وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام:

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو أنها ... صبت على الأيام صرن لياليا

ومن شعر العباس رضي الله تعالى عنه يوم حنين يفتخر بثبوته مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم:

ألا هل أتى عرسي مكري وموقفي ... بوادي حنين والأسنة تشرع
وقولي إذا ما النفس جاشت لها قرى ... وهام تدهدى والسواعد تقطع
وكيف رددت الخيل وهي مغيرة ... بزوراء تعطي باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة ... وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا

ومن شعر ابنه عبدالله رضي الله تعالى عنهما:

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى ... وأعمل فكر الليل والليل عاكر
وباكرني في حاجة لم يجد لها ... سواي ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بمالي همه من مقامه ... وزايله هم طروق مسامر
وكان له فضل عليّ بظنه ... بي الخير أني للذي ظن شاكر

وهلم جرا إلى حيث شئت، وليس من بني عبد المطلب كما قيل رجالاً ولا نساء من لم يقل الشعر حاشا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليكون ذلك أبلغ في أمره عليه الصلاة والسلام، ولأجلة التابعين ومن بعدهم من أئمة الدين وفقهاء المسلمين شعر كثير أيضاً، ومن ذلك قول الشافعي رضي الله تعالى عنه:

ومتعب العيس مرتاح إلى بلد ... والموت يطلبه في ذلك البلد
وضاحك والمنايا فوق هامته ... لو كان يعلم غيباً مات من كمد
من كان لم يؤت علماً في بقاء غد ... فما(١) يفكر في رزق لبعد غد

والاستقصاء في هذا الباب يحتاج إلى إفراده بكتاب وفيما ذكر كفاية، وقد مدحه أيضاً غير واحد من الأجلة فعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب، وعن علي كرّم الله تعالى وجهه الشعر ميزان العقول.

وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول: إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب، وما أخرجه أحمد وابن أبي شيبة عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلىء شعراً» حمله الشافعي عليه الرحمة على الشعر المشتمل على الفحش، وروي نحوه عن عائشة رضي الله تعالى عنها، فقد أخرج الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن عائشة أنه بلغها أن أبا هريرة يروي عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً» من الشعر الذي هجيت به يعني نفسه الشريفة عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك المرشدي في فتاواه نقلاً عن كتاب بستان

---

(١) في نسخة ماذا يفكر اهـ منه.

الزاهدين، ولا يخفى أنه يعد الحمل المذكور للتعبير بيمتلىء فإن الكثير والقليل مما فيه فحش أو هجو لسيد الخلق صلى الله تعالى عليه وسلم سواء، وما أحسن قول الماوردي: الشعر في كلام العرب مستحب ومباح ومحظور فالمستحب ما حذر من الدنيا ورغب في الآخرة وحث على مكارم الأخلاق والمباح ما سلم من فحش أو كذب والمحظور نوعان كذب وفحش وهما جرح في قائله وأما منشده فإن حكاه اضطراراً لم يكن جرحاً أو اختياراً جرح، وتبعه على ذلك الروياني وجعل الروياني ما فيه الهجو لمسلم سواء كان بصدق أو كذب من المحظور أيضاً، ووافقه جماعة إلا أن إثم الصادق أخف من إثم الكاذب كما قال القمولي. وإثم الحاكي على ما قال الرافعي دون إثم المنشد، وقال الأذرعي: ليس هذا على إطلاقه بل إذا استوى الحاكي والمنشد أما إذا أنشده ولم يذعه فأذاعه الحاكي فإثمه أشد بلا شك، واحترز بقيد المسلم عما فيه الهجو لكافر فإن فيه تفصيلاً.

وفصل بعضهم ما فيه الهجو لمسلم أيضاً وذلك أن كثيراً من العلماء أطلقوا جواز هجو الكافر استدلالاً بأمره صلى الله تعالى عليه وسلم حساناً ونحوه بهجو المشركين، وقال بعضهم: محل ذلك الكفار على العموم وكذا المعين الحربي ميتاً كان أو حياً حيث لم يكن له قريب معصوم يتأذى به، وأما الذمي أو المعاهد أو الحربي الذي له قريب ذمي أو مسلم يتأذى به فلا يجوز هجوه كما قاله الأذرعي وابن العماد وغيرهما؛ وقالوا: إن هجو حسان وإن كان في معين لكنه في حربي، وعلى التنزل فهو ذب عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون من القرب فضلاً عن المباحات، وألحق الغزالي وتبعه جمع المبتدع بالحربي فيجوز هجوه ببدعته لكن لمقصد شرعي كالتحذير من جهته، وجوز ابن العماد هجو المرتد دون تارك الصلاة والزاني المحصن. وما قاله في المرتد واضح لأنه كالحربي بل أقبح وفي الأخيرين محله حيث لم يتجاهر أما المتجاهر بفسقه فيجوز هجوه بما تجاهر به فقط لجواز غيبته بذلك فقط.

وقال البلقيني: الأرجح تحريم هجو المتجاهر المذكور لا لقصد زجره لأنه قد يتوب وتبقى وصمة الشعر السائر عليه ولا كذلك الكافر إذا أسلم. ورد بأن مجاهرته بالمعصية وعدم مبالاته بالناس وكلامهم فيه صيراه غير مجترم ولا مراعى فهو المهدر لحرمة نفسه بالنسبة لما تجاهر به فلم يبال ببقاء تلك الوصمة عليه.

نعم لو قيل بحرمة إنشاده بعد التوبة إذا كان يتأذى به هو أو قريبه المسلم أو الذي أو بعد موته إذا كان يتأذى به من ذكر لم يبعد، وذكر جماعة أن من جملة المحظور أيضاً ما فيه تشبيب بغلام ولو غير معين مع ذكر أنه يعشقه أو بامرأة أجنبية معينة وإن لم يذكرها بفحش أو بامرأة مبهمة مع ذكرها بالفحش ولم يفرقوا بين إنشاء ذلك وإنشاده، واعتبر بعضهم التعيين في الغلام كالمرأة فلا يحرم التشبيب بمبهم.

قال الأذرعي وهو الأقرب والأول ضعيف جداً، وقال أيضاً: يجب القطع بأنه إذا شبب بحليلته ولم يذكر سوى المحبة والشوق أو ذكر شيئاً من التشبيهات الظاهرة أنه لا يضر وكذا إذا ذكر امرأة مجهولة ولم يذكر سوءاً.

وفي الإحياء في حرمة التشبيب بنحو وصف الخدود والأصداغ وسائر أوصاف النساء نظر، والصحيح أنه لا يحرم نظمه ولا إنشاده بصوت وغير صوت. وعلى المستمع أن[1] ينزله على امرأة معينة فإن نزله على حليلته جاز أو على غيرها فهو العاصي بالتنزيل ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع، وذكر بعض الفضلاء أن ما يحرم إنشاؤه قد لا تحرم روايته فإن المغازي روي فيها قصائد الكفار الذين هاجوا فيها الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولم ينكر ذلك

---

(١) قوله أن ينزله إلخ كذا بخطه ولعل المناسب أن لا ينزله بحرف النفي ا هـ.

أحد، وقد روى أنه ﷺ أذن في الشعر الذي تقاولت به الشعراء في يومي بدر، وأحد وغيرهما إلا قصيدة ابن أبي الصلت الحائية انتهى، قال الأذرعي: ولا شك في هذا إذا لم يكن فيه فحش ولا أذى لحي ولا ميت من المسلمين ولم تدع حاجة إليه، وقد ذم العلماء جريراً، والفرزدق في تهاجيهما ولم يذموا من استشهد بذلك على إعراب وغيره من علم اللسان، ويجب حمل كلام الأئمة على غير ذلك مما هو عادة أهل اللعب والبطالة وعلى إنشاد شعر شعراء العصر إذا كان إنشاؤه حراماً إذ ليس فيه إلا أذى أو وقيعة في الإحياء أو إساءة الأحياء في أمواتهم أو ذكر مساوىء الأموات وغير ذلك وليس مما يحتج به في اللغة ولا غيرها فلم يبق إلا اللعب بالأعراض، وزاد بعض حرمة شعر فيه تعريض وجعل التعريض في الهجو كالتصريح وله وجه وجيه.

وقال آخر: إن ما فيه فخر مذموم وقليله ككثيره، والحق إن ذ لك أن تضمن غرضاً شرعياً فلا بأس به، وللسلف شعر كثير من ذلك وقد تقدم لك بعض منه، وحمل الأكثرون الخبر السابق على ما إذا غلب عليه الشعر وملك نفسه حتى اشتغل به عن القرآن والفقه ونحوهما ولذلك ذكر الامتلاء، والحاصل أن المذموم امتلاء القلب من الشعر بحيث لا يتسع لغيره ولا يلتفت إليه. وليس في الخبر ذم إنشائه ولا إنشاده لحاجة شرعية وإلا لوقع التعارض بينه وبين الأخبار الصحيحة الدالة على حل ذلك وهي أكثر من أن تحصى وأبعد من أن تقبل التأويل كما لا يخفى.

وما روي عن الإمام الشافعي من قوله:

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

محمول على نحو ما حمل الأكثرون الخبر عليه وإلا فما قاله شعر، وفي معناه قول شيخنا علاء الدين علي أفندي تغمده الله تعالى برحمته مخاطباً خاتمة الوزراء في الزوراء داود باشا من أبيات:

ولو لداعيه يرضى الشعر منقبة ... لقمت ما بين منشيه ومنشده

هذا وسيأتي إن شاء الله تعالى كلام يتعلق بهذا البحث أيضاً عند الكلام في قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ [يس: ٦٩] ومن اللطائف أن سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق:

فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

فقال له قد وجب عليك الحد فقال يا أمير المؤمنين: قد درأ الله تعالى عني الحد بقوله سبحانه: **﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾** **﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلِبُونَ﴾** تهديد شديد ووعيد أكيد لما في **﴿سيعلم﴾** من تهويل متعلقه وفي **﴿الذين ظلموا﴾** من الإطلاق والتعميم، وقد كان السلف الصالح يتواعظون بها، وختم بها أبو بكر رضي الله تعالى عنه وصيته حين عهد لعمر رضي الله تعالى عنه وذلك أنه أمر عثمان رضي الله تعالى عنه أن يكتب في مرض موته حينئذ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر ويصدق فيها الكاذب إني قد استخلفت عليكم عمر ابن الخطاب فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وأن يجر ويبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب **﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾**، وتفسير الظلم بالكفر وإن كان شائعاً في عدة مواضع من القرآن الكريم إلا أن الأنسب على ما قيل هنا الإطلاق لمكان قوله تعالى: **﴿من بعد ما ظلموا﴾** وقال الطيبي: سياق الآية بعد ذكر المشركين الذين آذوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وما لقي منهم من الشدائد كما مر من أول السورة يؤيد تفسير الظلم بالكفر.

وروى محيي السنة الذين ظلموا أشركوا وهجوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقرأ ابن عباس وابن أرقم عن الحسن «أي منفلت ينفلتون» بالفاء والتاء الفوقية من الانفلات بمعنى النجاة، والمعنى إن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات ﴿**وسيعلم**﴾ هنا معلقة وأي استفهام مضاف إلى ﴿**منقلب**﴾ والناصب له ﴿**ينقلبون**﴾، والجملة سادة مسد المفعولين كذا في البحر.

وقال أبو البقاء: أي منقلب مصدر نعت لمصدر محذوف والعامل ﴿**ينقلبون**﴾ أي ينقلبون انقلاباً أي منقلب ولا يعمل فيه يعلم لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله: وتعقب بأنه تخليط لأن أياً إذا وصف بها لم تكن استفهاماً. وقد صرحوا بأن الموصوف بها قسيم الاستفهامية، وتحقيق انقسام ـ أي ـ يطلب من كتب النحو والله تعالى أعلم.

﴿ومما قيل في بعض الآيات من باب الإشارة﴾ ﴿**طسم**﴾ قال الجنيد: الطاء طرب التائبين في ميدان الرحمة. والسين سرور العارفين في ميدان الوصلة والميم مقام المحبين في ميدان القربة، وقيل: الطاء طهارة القدم من الحدثان والسين سناء صفاته تعالى التي تكشف في مرايا البرهان والميم مجده سبحانه الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان. وقيل: الطاء طهارة قلب نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن تعلقات الكونين والسين سيادته صلى الله تعالى عليه وسلم على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. والميم مشاهدته عليه الصلاة والسلام جمال رب العالمين، وقيل: الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل غير ذلك ﴿**لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين**﴾ إلخ فيه إشارة إلى كمال شفقته ﷺ على أمته وإن الحرص على إيمان الكافر لا يمنع سوابق الحكم ﴿**وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون**﴾ إلى آخر القصة فيه إشارة إلى حسن التعاضد في المصالح الدينية والتلطف بالضال في إلزامه بالحجج القطعية وأنه لا ينبغي عدم الاحتفال بمن ربيته صغيراً ثم رأيته وقد منحه الله تعالى ما منحه من فضله كبيراً، وقال بعضهم: إن فيه إشارة إلى ما في الأنفس وجعل موسى إشارة إلى موسى القلب وفرعون إشارة إلى فرعون النفس وقومه إشارة إلى الصفات النفسانية وبني إسرائيل إشارة إلى الصفات الروحانية والفعلة إشارة إلى قتل قبطي الشهوة والعصا إشارة إلى عصا الذكر أعني لا إله إلا الله واليد إشارة إلى يد القدرة وكونها بيضاء إشارة إلى كونها مؤيدة بالتأييد الإلهي والناظرين إشارة إلى أرباب الكشف الذين ينظرون بنور الله تعالى والسحرة إشارة إلى الأوصاف البشرية والأخلاق الردية والناس إشارة إلى الصفات الناسوتية والأجر إشارة إلى الحظوظ الحيوانية والحبال إشارة إلى حبال الحيل والعصي إشارة إلى عصي التمويهات والمخيلات والمدائن إشارة إلى أطوار النفس وهكذا.

وعلى هذا الطريق سلكوا في الإشارة في سائر القصص. فجعلوا إبراهيم إشارة إلى القلب وأباه وقومه إشارة إلى الروح وما يتولد منها والأصنام إشارة إلى ما يلائم الطباع من العلويات والسفليات وهكذا مما لا يخفى على من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وللشيخ الأكبر قدس سره في هذه القصص كلام عجيب من أراده فليطلبه في كتبه وهو قدس سره ممن ذهب إلى أن خطيئة إبراهيم عليه السلام التي أرادها بقوله: ﴿**والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾ كانت إضافة المرض إلى نفسه في قوله: ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ وقد ذكر قدس سره إنه اجتمع مع إبراهيم عليه السلام فسأله عن مراده بها فأجابه بما ذكر. وقال في باب أسرار الزكاة من الفتوحات إن قول الرسول ﴿**إن أجري إلا على رب العالمين**﴾ لا يقدح في كمال عبوديته فإن قوله: ذلك لأن يعلم أن كل عمل خالص يطلب الأجر بذاته وذلك لا يخرج العبد عن أوصاف العبودية فإن العبد في صورة الأجير وليس بأجير حقيقة إذ لا يستأجر السيد عبده بل يستأجر الأجنبي وإنما العمل نفسه يقتضي الأجرة وهو لا يأخذها العامل وهو العبد فهو قابض الأجرة من الله تعالى فأشبه الأجير في قبض الأجرة وخالفه بالاستئجار ا هـ.

وحقق أيضاً ذلك في الباب السادس عشر والثلاثمائة من الفتوحات، وذكر في الباب السابع عشر والأربعمائة منها أن أجر كل نبي يكون على قدر ما ناله من المشقة الحاصلة له من المخالفين ﴿**وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون**﴾ فيه إشارة إلى أنه ليس للشيطان قوة حمل القرآن لأنه خلق من نار وليس لها قوة حمل النور ألا ترى أن نار الجحيم كيف تستغيث عند مرور المؤمن عليها وتقول: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي ولنحو ذلك ليس له قوة على سمعه، وهذا بالنسبة إلى أول مراتب ظهوره فلا يرد أنه يلزم على ما ذكر أن الشياطين لا يسمعون آيات القرآن إذا تلوناها ولا يحفظونها وليس كذلك.

نعم ذكر أنهم لا يقدرون أن يسمعوا آية الكرسي. وآخر البقرة وذلك لخاصية فيهما ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ فيه إشارة إلى أن النسب إذا لم ينضم إليه الإيمان لا ينفع شيئاً، ولما كان حجاب القرابة كثيفاً أمر ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين ﴿**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾ هم أهل النسب المعنوي الذي هو أقرب من النسب الصوري كما أشار إليه ابن الفارض قدس سره بقوله:

نسب أقرب في شرع الهوى ... بيننا من نسب من أبوي

وأنا أحمد الله تعالى كما هو أهله على أن جعلني من الفائزين بالنسبين حيث وهب لي الإيمان وجعلني من ذرية سيد الكونين صلى الله تعالى عليه وسلم فها أنا من جهة أم أبي من ذرية الحسن ومن جهة أبي من ولد الحسين رضي الله تعالى عنهما:

نسب كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن فلق الصباح عمودا

والله عز وجل هو ولي الإحسان المتفضل بصنوف النعم على نوع الإنسان والصلاة والسلام على سيد العالمين وآله وصحبه أجمعين.

(٢٧) سورة النمل مكية
وآياتها ثلاث وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ، هدى وبشرى للمؤمنين ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ .

اعلم أن قوله (تلك) إشارة إلى آيات السورة (والكتاب المبين) هو اللوح المحفوظ وإبانته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن ، فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات ، وإنما نكر الكتاب المبين ليصير مبهماً بالتنكير فيكون أفخم له كقوله (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وقرأ ابن أبى عبلة (وكتاب مبين) بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فان قلت ما الفرق بين هذا وبين قوله (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) ؟ قلت لافرق لأن واو العطف لا تقتضى الترتيب .

أما قوله (هدى وبشرى للمؤمنين) فهو فى محل النصب أو الرفع فالنصب على الحال أى هادية ومبشرة ، والعامل فيها ما فى تلك من معنى الإشارة ، والرفع على ثلاثة أوجه على معنى هى هدى وبشرى ، وعلى البدل من الآيات ، وعلى أن يكون خبراً بعد خبر ، أى جمعت آياتها آيات الكتاب وأنها هدى وبشرى ، واختلفوا فى وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين (الأول) المراد أنه يهديهم الى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى (فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً) فلهذا اختص به المؤمنون (الثانى) المراد بالهدى الدلالة ثم ذكروا فى تخصيصه بالمؤمنين وجوهاً (أحدها) أنه إنما خصه بالمؤمنين لأنه ذكر مع الهدى البشرى ، والبشرى

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾

أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

إنما تكون للمؤمنين (وثانيها) أن وجه الاختصاص أنهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله (إنما أنت منذر من يخشاها) ، (وثالثها) المراد من كونها (هدى للمؤمنين) أنها زائدة فى هداهم ، قال تعالى (ويزيد الله الذين هتدوا هدى) .

أما قوله (الذين يقيمون الصلاة) فالأقرب أنها الصلوات الخمس لأن التعريف بالألف واللام يقتضى ذلك ، وإقامة الصلاة أن يؤتى بها بشرائطها ، وكذا القول فى الزكاة فإنها هى الواجبة ، وإقامتها وضعها فى حقها .

أما قوله (وهم بالآخرة هم يوقنون) ففيه سؤال وهو : أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لابد وأن يكونوا متيقنين بالآخرة ، فما الوجه فى ذكره مرة أخرى ؟ (جوابه) من وجهين (الأول) أن يكون من جملة صلة الموصول ، ثم فيه وجهان : الأول . أن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، وأما عرفان الحق فأقسام كثيرة لكن الذى يستفاد منه طريق النجاة معرفة المبدأ ، ومعرفة المعاد . وأما الخير الذى يعمل به فأقسام كثيرة وأشرفها قسمان : الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله (للمؤمنين) إشارة إلى معرفة المبدأ ، وقوله (يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) إشارة إلى الطاعة بالنفس والمال ، وقوله (وهم بالآخرة هم يوقنون) إشارة إلى علم المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدأ طرفاً أولا ، ومعرفة المعاد طرفاً أخيراً وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطاً بينهما (الثانى) أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، منهم من هو جازم بالحشر والنشر ، ومنهم من يكون شاكا فيه إلا أنه يأتى بهذه الطاعات للاحتياط ، فيقول إن كنت مصيباً فيها فقد فزت بالسعادة ، وإن كنت مخطئاً فيها لم يفتنى إلا خيرات قليلة فى هذه المدة اليسيرة ، فمن يأتى بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن فى الحقيقة مهتدياً بالقرآن ، أما من كان جازماً بالآخرة كان مهتدياً به ، فلهذا السبب ذكر هذا القيد (الثانى) أن يجعل قوله (وهم بالآخرة هم يوقنون) جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ، وهذا هو الأقرب ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذى هو (هم) حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ، أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أنه تعالى لما بين ما للمؤمنين من البشرى أتبعه بما على الكفار من سوء العذاب، فقال (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم)، واختلف الناس فى أنه كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته مع أنه أسنده إلى الشيطان فى قوله (فزين لهم الشيطان أعمالهم)؟ فأما أصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها وذلك لأن الإنسان لا يفعل شيئاً البتة إلا إذا دعاه الداعى إلى الفعل والمعقول من الداعى هو العلم والإعتقاد والظن بكون الفعل مشتملا على منفعة، وهذا الداعى لابد وأن يكون من فعل الله تعالى لوجهين (الأول) أنه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه إلى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال (الثانى) وهو أن العلم إما أن يكون ضرورياً أو كسبياً، فان كان ضرورياً فلابد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسباً لأن المكتسب إن كان شاعراً به فهو متصور له، وتحصيل الحاصل محال وإن لم يكن شاعراً به كان غافلا عنه والغافل عن الشىء يمتنع أن يكون طالباً له، فان قلت هو مشعور به من وجه دون وجه، قلت فالمشعور به غير ما هو غير مشعور به. فيعود التقسيم المتقدم فى كل واحد من هذين الوجهين، وإذا ثبت أن التصور غير مكتسب البتة والعلم الضرورى هو الذى يكون حضور كل واحد من تصوريه كافياً فى حصول التصديق، فالتصورات غير كسبية وهى مستلزمة للتصديقات، فإذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لا محالة، ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق البتة، فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب، ثم إن التصديقات البديهية إن كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية، لأن لازم الضرورى ضرورى، وإن لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الأشياء التى فرضناها علوماً نظرية كذلك بل هى اعتقادات تقليدية، لأنه لا معنى لاعتقاد المقلد إلا اعتقاد تحسينى يفعله ابتداء من غير أن يكون له موجب. فثبت بهذا أن العلوم بأسرها ضرورية، وثبت أن مبادىء الأفعال هى العلوم فأفعال العباد بأسرها ضرورية. والإنسان مضطر فى صورة مختار، فثبت أن الله تعالى هو الذى زين لكل عامل عمله. والمراد من التزيين هو أنه يخلق فى قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق فى قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات، فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب إجراء هذه الآية على ظاهرها، أما المعتزلة فانهم ذكروا فى تأويلها وجوهاً (أحدها) أن المراد بينا لهم أمر الدين وما يلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بأن بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب. لأن التزيين من الله تعالى للعمل ليس إلا وصفه بأنه حسن وواجب وحميد العاقبة، وهو المراد من قوله (حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) ومعنى (فهم يعمهون) يدل على ذلك لأن المراد فهم يعدلون وينحرفون عما زينا من أعمالهم (وثانيها) أنه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا إنعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وعدم الإنقياد لما يلزمهم من التكاليف، فكأنه تعالى زين بذلك أعمالهم. وإليه إشارة الملائكة عليهم السلام فى قولهم (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر) (وثالثها) أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

للتزيين فأسند إليه (والجواب) عن الأول أن قوله تعالى (أعمالهم) صيغة عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسناً كان العمل أو قبيحاً ومعنى التزيين قد قدمناه ، وعن الثانى أن الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الأمور أثر فى ترجيح فاعلية المعصية على تركها أوليس لها فيه أثر، فان كان الأول فقد دللنا على أن الترجيح متى حصل فلابد وأن ينتهى إلى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وإن لم يكن فيه أثر صارت هذه الأشياء بالنسبة إلى أعمالهم كصرير الباب ونعيق الغراب ، وذلك يمنع من إسناد فعلهم إليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذى ذكروه والله أعلم .

أما قوله تعالى (فهم يعمهون) فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق .

أما قوله (أولئك الذين لهم سوء العذاب) ففيه وجهان (الأول) أنه القتل والأسر يوم بدر (والثانى) مطلق العذاب سواء كان فى الدنيا أو فى الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه .

وأما قوله (هم الأخسرون) ففيه وجهان (الأول) أنه لاخسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بأن يسلب عنه الصحة والسلامة فى الدنيا ويسلم فى الآخرة إلى العذاب العظيم (الثانى) المراد أنهم خسروا منازلهم فى الجنة لو أطاعوا ، فانه لا مكلف إلا وعين له منزل فى الجنة لو أطاع فاذا عصى عدل به إلى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل .

قوله تعالى : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، إذ قال موسى لأهله إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾

أما قوله (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) فمعناه لتؤتاه وتلقاه من عند أى حكيم وأى عليم . وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص ، وإذ منصوب بمضمر وهو اذكر . كأنه قال على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ، ويجوز أن ينتصب بعليم ، فان قيل الحكمة إما أن تكون نفس العلم ، والعلم إما أن يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

داخلا فيها ، فلما ذكر الحكمة فلم ذكر العلم ؟(جوابه) الحكمة هي العلم بالأمور العملية فقط والعلم أعم منه ، لأن العلم قد يكون عملياً وقد يكون نظرياً والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية ، فذكر الحكمة المشتملة على العلوم العملية ، ثم ذكر العليم وهو البالغ فى كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصوناً عن كل التغيرات ، وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة إلا فى علمه سبحانه وتعالى .

واعلم أن الله تعالى ذكر فى هذه السورة أنواعاً من القصص .

﴿ القصة الأولى ـــ قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴾

أما قوله (إذ قال موسى لأهله) فيدل على أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ابنة شعيب عليه السلام ، وقد كنى الله تعالى عنها بالأهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله (تصطلون)

أما قوله (إنى آنست ناراً) فالمعنى أنهما كانا يسيران ليلا ، وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفى مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة فى أمر الطريق ، ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء . فلذلك بشرها فقال (إنى آنست ناراً) وقد اختلفوا فقال بعضهم المراد أبصرت ورأيت ، وقال آخرون بل المراد صادفت ووجدت فآنست به ، والأول أقرب ، لأنهم لا يفرقون بين قول القائل آنست ببصرى ورأيت ببصرى .

أما قوله (سآتيكم منها بخبر) فالخبر مايخبر به عن حال الطريق لأنه كان قد ضل ، ثم فى الكلام حذف وهو أنه لما أبصر النار توجه إليها وقال (سآتيكم منها بخبر) يعرف به الطريق .

أما قوله (أو آتيكم بشهاب قبس) فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة . وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبساً وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلا أو صفة لما فيه من معنى القبس ثم ههنا أسئلة :

﴿ السؤال الأول ﴾ (سآتيكم منها بخبر) و (لعلى آتيكم منها بخبر[٢]) كالمتدافعين لأن أحدهما ترج والآخر تيقن ؟ نقول (جوابه) قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف جاء بسين التسويف ؟ (جوابه) عدة منه لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لماذا أدخل أو بين الأمرين وهلا جمع بينهما لحاجته إليهما معاً ؟ (جوابه) بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بهذين المقصودين ظفر بأحدهما ، إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ثقة بعادة الله تعالى لأنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده .

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما قوله تعالى (لعلكم تصطلون) فالمعنى لكى تصطلون وذلك يدل على حاجة بهم إلى الإصطلاء وحينئذ لا يكون كذلك إلا فى حال برد .

أما قوله تعالى (نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) ففيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ (أن) أن هى المفسرة لأن النداء فيه معنى القول ، والمعنى قيل له (بورك)

﴿ البحث الثانى ﴾ اختلفوا فيمن فى النار على وجوه : (أحدها) (أن بورك) بمعنى تبارك (والنار) بمعنى النور والمعنى تبارك من فى النور ، وذلك هو الله سبحانه (ومن حولها) يعنى الملائكة وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وإن كنا نقطع بأن هذه الرواية موضوعة مختلفة (وثانيها) (من فى النار) هو نور الله ، ومن حولها الملائكة ، وهو مروى عن قتادة والزجاج (وثالثها) أن الله تعالى ناداه بكلام سمعه من الشجرة فى البقعة المباركة فكانت الشجرة محلا للكلام ، والله هو المكلم له بأن فعله فيه دون الشجرة . ثم إن الشجرة كانت فى النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال (بورك من فى النار ومن حولها) وهو قول الجبائى (ورابعها) من فى النار هو موسى عليه السلام لقربه منها ومن حولها يعنى الملائكة ، وهذا أقرب لأن القريب من الشىء قد يقال إنه فيه (وخامسها) قول صاحب الكشاف (بورك من فى النار) أى من فى مكان النار ومن حول مكانها هى البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة ، فى قوله تعالى (من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة) ويدل عليه قراءة أبى تباركت الأرض ومن حولها وعنه أيضاً بوركت النار

﴿ البحث الثالث ﴾ السبب الذى لأجله بوركت البقعة ، وبورك من فيها وحواليها : حدوث هذا الأمر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولا وإظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات فى قوله (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) وحقت أن تكون كذلك فهى مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحى وكفاتهم أحياء وأمواتاً .

﴿ البحث الرابع ﴾ أنه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله (بورك من فى النار ومن حولها) يدل على أنه قد قضى أمر عظيم تنتشر البركة منه فى أرض الشام كلها . وقوله (وسبحان الله رب العالمين) فيه فائدتان : (إحداهما) أنه سبحانه نزه نفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ليكون ذلك مقدمة فى صحة رسالة موسى عليه السلام (الثانية) أن يكون ذلك إيذاناً بأن ذلك الأمر مريده ومكونه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الوقائع.

أما قوله (إنه أنا الله العزيز الحكيم) فقال صاحب الكشاف الهاء فى إنه يجوز أن يكون ضمير الشأن (وأنا الله) مبتدأ وخبر ، و(العزيز الحكيم) صفتان للخبر ، وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله يعنى أن مكلمك (أنا) والله بيان لأنا و(العزيز الحكيم) صفتان للتعيين وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوى القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية ، الفاعل ما أفعله بحكمة وتدبير . فإن قيل هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى ، فكيف علم موسى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

عليه السلام أنه من الله ؟ (جوابه) لأهل السنة فيه طريقان (الأول) أنه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحروف والأصوات فعلم بالضرورة أنه صفة الله تعالى (الثانى) قول أئمة ما وراء النهر وهو أنه عليه السلام سمع الصوت من الشجرة فنقول إنما عرف أن ذلك من الله تعالى لأمور (أحدها) أن النداء إذا حصل فى النار أو الشجرة علم أنه من قبل الله تعالى لأن أحداً منا لا يقدر عليه وهو ضعف لاحتمال أن يقال الشيطان دخل فى النار والشجرة ثم نادى (وثانيها) يجوز فى نفس النداء أن يكون قد بلغ فى العظم مبلغاً لا يكون إلا معجزاً ، وهو أيضاً ضعيف لأنا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلاقدر إلا ويجوز صدوره منهم (وثالثها) أنه قد اقترن به معجز دل على ذلك ، فقيل إن النار كانت مشتعلة فى شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز ، وهذا هو الأصح والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإنى غفور رحيم ، وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

اعلم أن أكثر ما فى هذا الآيات قد مر شرحه ، ولنذكر ما هو من خواص هـذا الموضع يقال علام عطف قوله (وألق عصاك) ؟ (جوابه) على بورك ، لأن المعنى نودى أن بورك من فى النار ، وأن ألق عصاك ، كلاهما تفسير لنودى .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ

أما قوله (كأنها جان) فالجان الحية الصغيرة سميت جاناً ، لأنها تستتر عن الناس ، وقرأ الحسن جأن على لغة من يهرب من التقاء الساكنين ، فيقول شابة ودابة .

أما قوله (ولم يعقب) معناه لم يرجع ، يقال عقب المقاتل إذا مر بعد الفرار ، وإنما خاف لظنه أن ذلك لأمر أريد به ، ويدل عليه (إنى لا يخاف لدى المرسلون) وقال بعضهم : المراد إنى إذا أمرتهم بإظهار معجز فينبغى أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة.

أما قوله تعالى (إلا من ظلم) معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل أو الصغيرة ، ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات اللطيفة . قال الحسن رحمه الله : كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطى ثم بدل ، فانه عليه السلام (قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) وقرئ ألا من ظلم بحرف التنبيه .

أما قوله تعالى (ثم بدل حسناً بعد سوء) فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب ، وعن أبى بكر فى رواية عاصم حسناً . أما قوله (فى تسع آيات) فهو كلام مستأنف ، وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف ، والمعنى اذهب فى تسع آيات إلى فرعون ، ولقائل أن يقول : كانت الآيات إحدى عشرة ، اثنتان منها اليد والعصا ، والتسع : الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم .

أما قوله (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) فقد جعل الإبصار لها ، وهو فى الحقيقة لمتأملها ، وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها ، أو جعلت كأنها لظهورها تبصر فتهتدى ، وقرأ على بن الحسين وقتادة (مبصرة) وهو نحو مجبنة ومبخلة ، أى مكاناً يكثر فيه التبصر .

أما قوله (واستيقنتها أنفسهم) فالواو فيها واو الحال ، وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم وضمائرهم ، والإستيقان أبلغ من الإيقان .

أما قوله (ظلماً وعلواً) فأى ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى ، ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً . وأما العلو فهو التكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله (فاستكبروا وكانوا قوماً عالين) وقرئ عليا وعلياً بالضم والكسر ، كما قرئ عتياً والله أعلم .

﴿ القصة الثانية — قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ

جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ

قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ

عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

لهو الفضل المبين، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾.

أما قوله تعالى (علماً) فالمراد طائفة من العلم أو علماً سنياً عزيزاً، فإن قيل أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك أعطيته فشكر؟ (جوابه) أن الشكر باللسان إنما يحسن موقعه إذا كان مسبوقاً بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية، وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات. ولما كان الشكر باللسان يجب كونه مسبوقاً بهما فلا جرم صار كأنه قال: ولقد آتيناهما علماً، فعملا به قلباً وقالباً، وقالا باللسان الحمد لله الذى فعل كذا وكذا.

وأما قوله تعالى (الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) ففيها أبحاث:

(أحدها) أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علماً أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير (وثانيها) فى الآية دليل على علو مرتبة العلم لأنهما أوتيا من الملك مالم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم (وثالثها) أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع (ورابعها) أن الظاهر يقتضى أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سبباً لفضيلتهم على المؤمنين فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جلياً بحيث يصير المرء مستغرقاً

www.besturdubooks.wordpress.com

فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه فى حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات .

أما قوله تعالى (وورث سليمان داود) فقد اختلفوا فيه ، فقال الحسن المال لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث ، وقال غيره بل النبوة ، وقال آخرون بل الملك والسياسة ، ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضاً عطية مبتدأة من الله تعالى ، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمناً ولا يرث إذا كان كافراً أو قاتلا ، لكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط ، وليس كذلك النبوة لأن الموت لا يكون سبباً لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان ، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته ، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه أنه تعالى لو فصل فقال وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله (وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير) معنى ، وإذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك لأن تعليم منطق الطير يكون داخلا فى جملة ما ورثه ، وكذلك قوله تعالى (وأوتينا من كل شيء) لأن وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله (إن هذا لهو الفضل المبين) لا يليق أيضاً إلا بما ذكرنا دون المال الذى قد يحصل للكامل والناقص ، وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق إلا بما ذكرناه ، فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال ، فأما إذا قيل ورث المال والملك معا فهذا لا يبطل بالوجوه التى ذكرناها ، بل بظاهر قوله عليه السلام « نحن معاشر الأنبياء لا نورث »

فأما قوله (يا أيها الناس) فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التى هى علم منطق الطير ، قال صاحب الكشاف المنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وقد ترجم يعقوب كتابه بإصلاح المنطق وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم ، وقالت العرب نطقت الحمامة فالذى علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه .

أما قوله تعالى (وأوتينا من كل شيء) فالمراد كثرة ما أوتى وذلك لأن الكل والبعض الكثير يشتركان فى صفة الكثرة ، والمشاركة سبب لجواز الإستعارة فلاجرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله (وأوتيت من كل شيء) .

أما قوله (إن هذا لهو الفضل المبين) فهو تقرير لقوله (الحمد لله الذى فضلنا) والمقصود منه الشكر والمحمدة كما قال عليه السلام « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » فان قيل كيف قال (علمنا وأوتينا) وهو من كلام المتكبرين ؟ جوابه من وجهين (الأول) أن يريد نفسه وأباه (والثانى) أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا ، وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح فيصير ذلك التعظيم واجباً.

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما قوله (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير) فالحشر هو الإحضار والجمع من الأماكن المختلفة ، والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده ، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذى يصح معه التكليف ، أو يكون بمنزلة المراهق الذى قد قارب حد التكليف . فلذلك قلنا إن الله تعالى جعل الطير فى أيامه مما له عقل ، وليس كذلك حال الطيور فى أيامنا وإن كان فيها ماقد ألهمه الله تعالى الدقائق التى خصت بالحاجة إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره .

وأما قوله تعالى (فهم يوزعون) معناه يحبسون وهذا لا يكون إلا إذا كان فى كل قبيل منها وازع ، ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه ، فالظاهر يشهد بهذا القدر والذى جاء فى الخبر من أنهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع .

أما قوله تعالى (حتى إذا أتوا على وادى النمل) فقيل هو واد بالشام كثير النمل ، ويقال لم عدى أتوا بعلى ؟ فجوابه من وجهين (الأول) أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء (والثانى) أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشىء إذا بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادى ، وقرىء (نملة يا أيها النمل) بضم الميم وبضم النون والميم وكان الأصل النمل بوزن الرجل والنمل الذى عليه الاستعمال تخفيف عنه .

أما قوله تعالى (قالت نملة) فالمعنى أنها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد ، فان الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق . وعن قتادة : أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضراً وهو غلام حدث فقال سلوه عن نملة سليمان أ كانت ذكراً أم أنثى ؟ فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة رضى الله عنه كانت أنثى فقيل له من أين عرفت ؟ فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله (قالت نملة) ولو كان ذكراً لقال قال نملة ، وذلك لأن النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى

أما قوله تعالى (ادخلوا مساكنكم) فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل ، لا جرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى (ادخلوا مساكنكم) فان قلت لا يحطمنكم ما هو ؟ قلت يحتمل أن يكون جواباً للأمر وأن يكون نهياً بدلا من الأمر ، والمعنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة : لا أرينك ههنا . وفى هذه الآية تنبيه على أمور (أحدها) أن من يسير فى الطريق لا يلزمه التحرز ، وإنما يلزم من فى الطريق التحرز (وثانيها) أن النملة قالت (وهم لا يشعرون) كأنها عرفت أن النبى معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات إلا على سبيل السهو ، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء عليهم السلام (وثالثها) ما رأيت فى بعض الكتب أن تلك النملة إنما أمرت غيرها بالدخول لأنها خافت على قومها أنها إذا رأت سليمان فى جلالته ، فربما وقعت فى كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله (لا يحطمنكم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾

سليمان) فأمرتها بالدخول فى مساكنها لئلا ترى تلك النعم فلا تقع فى كفران نعمة الله تعالى ، وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة (ورابعها) قرىء مسكنكم ولا يحطمنكم بتخفيف النون ، وقرىء لايحطمنكم بفتح الطاء وكسرها وأصلها يحطمنكم .

أما قوله تعالى (فتبسم ضاحكا من قولها) يعنى تبسم شارعا فى الضحك ، بمعنى أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك ، وإنما ضحك لأمرين (أحدهما) إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وعلى شهرة حاله وحالهم فى باب التقوى ، وذلك قولها (وهم لايشعرون) والثانى) سروره بما آتاه الله بما لم يؤت أحداً من سماعه لكلام النملة وإحاطته بمعناه .

أما قوله تعالى (رب أوزعنى) فقال صاحب الكشاف : حقيقة أوزعنى . اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأكفه عن أن ينقلب عنى ، حتى أكون شاكراً لك أبداً ، وهذا يدل على مذهبنا . فان عند المعتزلة كل ما أمكن فعله من الألطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث .

وأما قوله تعالى (وعلى والدى) فذلك لأنه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه . ومعنى قوله (وأن أعمل صالحاً ترضاه) طلب الإعانة فى الشكر وفى العمل الصالح . ثم قال (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) فلما طلب فى الدنيا الإعانة على الخيرات طلب أن يجعل فى الآخرة من الصالحين ، وقوله (برحمتك) يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد (واعلم) أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة إلى ثواب الآخرة أولا ثم طلب ثواب الآخرة ثانياً ، أما وسيلة الثواب فهى أمران (أحدهما) شكر النعمة السالفة (والثانى) الاشتغال بسائر أنواع الخدمة ، أما الاشتغال بشكر النعمة السالفة ، فهى قوله تعالى (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على) ولما كان الإنعام على الآباء إنعاماً على الأبناء لأن انتساب الإبن إلى أب شريف نعمة من الله تعالى على الإبن ، لاجرم اشتغل بشكر نعم الله على الآباء بقوله (وعلى والدى) وأما الاشتغال بسائر أنواع الخدمة ، فقوله (وأن أعمل صالحاً ترضاه) وأما طلب ثواب الآخرة فقوله (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) فان قيل درجات الأنبياء أعظم من درجات الأولياء والصالحين ، فما السبب فى أن الأنبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف (توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) وقال سليمان (أدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) ؟ (جوابه) الصالح الكامل هو الذى لا يعصى الله تعالى ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذاباً

www.besturdubooks.wordpress.com

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ
ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾

اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير أوهم ذلك أنه إنما تفقده لأمر يختص به ذلك الطير ، واختلفوا فيما لأجله تفقده على وجوه (أحدها) قول وهب أنه أخل بالنوبة التي كان ينوبها فلذلك تفقده (وثانيها) أنه تفقده لأن مقاييس الماء كانت إليه ، وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده ، فلحاجة سليمان إلى ذلك طلبه وتفقده (وثالثها) أنه كان يظله من الشمس ، فلما فقد ذلك تفقده .

أما قوله (فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) فأم هي المنقطعة نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال ما لي لا أراه ، على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ، ومثله قولهم : إنها لإبل أم شاء .

أما قوله (لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين) فهذا لا يجوز أن يقوله إلا فيمن هو مكلف أو فيمن قارب العقل فيصلح لأن يؤدب ، ثم اختلفوا في قوله (لأعذبنه) فقال ابن عباس إنه نتف الريش والإلقاء في الشمس ، وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس ، وقيل أن يلقى للنمل فتأكله ، وقيل إيداعه القفص ، وقيل التفريق بينه وبين إلفه ، وقيل لألزمنه صحبة الأضداد ، وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد ، وقيل لألزمنه خدمة أقرانه .

أما قوله (فمكث) فقد قرىء بفتح الكاف وضمها (غير بعيد) كقولك عن قريب ،

www.besturdubooks.wordpress.com

ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخراً له .

أما قوله (أحطت بما لم تحط به) ففيه تنبيه لسليمان على أن فى أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به ، فيكون ذلك لطفاً فى ترك الإعجاب والإحاطة بالشىء علماً أن يعلم من جميع جهاته .

أما قوله (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) فاعلم أن سبأ قرىء بالصرف ومنعه ، وقد روى بسكون الباء ، وعن ابن كثير فى رواية سبا بالألف كقولهم ذهبوا أيدى سبا وهو سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان ، فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ، ومن جعله اسما للحى أو للأب الأكبر صرف ، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، والنبأ الخبر الذى له شأن.

وقوله (من سبأ بنبأ) من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ وشرط حسنه صحة المعنى ، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن لفظا ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحاً ، ولكن لفظاً النبأ أولى لما فيه من الزيادة التى يطابقها وصف الحال .

أما قوله (إنى وجدت امرأة تملكهم) فالمرأة بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها ملك أرض اليمن وكانت هى وقومها مجوساً يعبدون الشمس ، والضمير فى تملكهم راجع إلى سبأ ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر ، وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها .

وأما قوله (وأوتيت من كل شىء) ففيه سؤال وهو أنه كيف قال (وأوتيت من كل شىء) مع قول سليمان (وأوتينا من كل شىء) فكأن الهدهد سوى بينهما (جوابه) أن قول سليمان عليه السلام يرجع إلى ما أوتى من النبوة والحكمة ، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا ، وأما قول الهدهد فلم يكن إلا إلى مايتعلق بالدنيا .

وأما قوله (ولها عرش عظيم) ففيه سؤال ، وهو أنه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان ؟ وأيضاً فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى فى الوصف بالعظيم ؟ (والجواب) عن (الأول) يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش ، ويجوز أن لا يكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الأمراء شىء لا يكون مثله عند السلطان ، وعن (الثانى) أن صف عرشها بالعظم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض ، واعلم أن ههنا بحثين :

﴿ البحث الأول ﴾ أن الملاحدة طعنت فى هذه القصة من وجوه : (أحدها) أن هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بكلام لا يصدر ذلك الكلام إلا من العقلاء وذلك يجر إلى السفسطة ، فإنا لو جوزنا ذلك لما أمنا فى النملة التى نشاهدها فى زماننا هذا ، أن تكون أعلم بالهندسة من إقليدس ، وبالنحو من سيبويه ، وكذا القول فى القملة والصئبان ، ويجوز أن يكون فيهم

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ
كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

الأنبياء والتكاليف والمعجزات ، ومعلوم أن من جوز ذلك كان إلى الجنون أقرب (وثانيها) أن سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد فى تلك اللحظة اللطيفة من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه ؟ (وثالثها) كيف خفى على سليمان عليه السلام حال مثل تلك المملكة العظيمة مع ما يقال إن الجن والإنس كانوا فى طاعة سليمان ، وإنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ، ومع أنه يقال إنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام (ورابعها) من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟ (والجواب) عن (الأول) أن ذلك الاحتمال قائم فى أول العقل ، وإنما يدفع ذلك بالإجماع ، وعن البواقى أن الإيمان بافتقار العالم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك .

﴿ البحث الثانى ﴾ قالت المعتزلة قوله (يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم) يدل على أن فعل العبد من جهته لأنه تعالى أضاف ذلك إلى الشيطان بعد إضافته إليهم ولأنه أورده مورد الذم ولأنه بين أنهم لا يهتدون (والجواب) من وجوه : (أحدها) أن هذا قول الهدهد فلا يكون حجة (وثانيها) أنه متروك الظاهر ، فإنه قال (فصدهم عن السبيل) وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل إذ لو كان مصدوداً ممنوعا لسقط عنه التكليف ، فلم يبق ههنا إلا التمسك بفصل المدح والذم (والجواب) قد تقدم عنه مراراً فلا فائدة فى الإعادة والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون **﴾** . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن فى قوله تعالى (ألا يسجدوا) قراءات أحدها قراءة من قرأ بالتخفيف ألا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف ، كما حذفه من قال :

ألا يا اسلمى يا دار مى على البلى [ولا زال منهلا بجرعائك القطر]

www.besturdubooks.wordpress.com

(وثانيها) بالتشديد أراد فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا ، فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ، ويكون المعنى فهم لا يهتدون إلا أن يسجدوا (وثالثها) وهى حرف عبد الله وقراءة الأعمش هلا بقلب الهمزة هاء ، وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب (ورابعها) قراءة أبى (ألا يسجدون لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم سركم وما تعلنون).

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أهل التحقيق قوله (ألا يسجدوا) يجب أن يكون بمعنى الأمر لانه لو كان بمعنى المنع من السجدة لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون السجود له وهو كونه قادراً على إخراج الخبء عالماً بالأسرار معنى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم ، أما القدرة فقوله (يخرج الخبء فى السموات والأرض) وسمى المخبوء بالمصدر ، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأموال وإخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات . وأما العلم فقوله (ويعلم ماتخفون وماتعلنون)

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا : الإله يجب أن يكون قادراً على إخراج الخبء وعالماً بالخفيات ، والشمس ليست كذلك فهى لاتكون إلهاً وإذا لم تكن إلهاً لم يجز السجود لها ، أما أنه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادراً عالماً على الوجه المذكور ، فلما أنه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض ، وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه ، وكل ما كان متناهياً فى الذات كان متناهياً فى الصفات ، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على إخراج الخبء عالمة بالخفيات ، فاذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار ، فرجع حاصل الدلالة إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام فى قوله (لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وفى قوله (الله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض) وجه آخر وهو أن هذا إشارة إلى ما استدل به ابراهيم عليه السلام فى قوله (ربى الذى يحيي ويميت) وفى قوله (إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وذلك لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يخرج الشمس من المشرق بعد أفولها فى المغرب فهذا هو إخراج الخبء فى السموات وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام (لا أحب الآفلين) ومن قوله (فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) ومن قول موسى عليه السلام (رب المشرق والمغرب) وحاصله يرجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها أولى ، وأما إخراج الخبء من الأرض فهو يتناول إخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه ، فان قيل إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلالة الأنفس على دلالة الآفاق فان إبراهيم قال (ربى الذى يحيي ويميت) ثم قال (فان الله يأتى بالشمس من المشرق) وموسى عليه السلام قال (ربكم ورب آبائكم

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا

الأولين) ثم قال(رب المشرق والمغرب)فلم كان الأمر ههنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الأرض؟(جوابه) أن إبراهيم وموسى عليهما السلام ناظراً مع من ادعى إلهية البشر ، فلا جرم ابتدأ بإبطال إلهية البشر ثم انتقلا إلى إبطال إلهية السموات ، وههنا المناظرة مع من ادعى إلهية الشمس لقوله (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) فلا جرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالأرضيات .

أما قوله (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) فالمراد منه أنه سبحانه لما بين افتقار السموات والأرض وما بينهما إلى المدبر ذكر بعد ذلك أن ما هو أعظم الأجسام فهى مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على أنه سبحانه هو المنتهى فى القدرة والربوبية إلى ما لا مزيد عليه والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قيل من (أحطت) إلى (العظيم) كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الحق أن سجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعاً وهو قول الشافعى وأبى حنيفة رحمة الله عليهما لأنهم أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة ، وهذا واحد منها ولأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك فثبت أن الذى ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت إليه .

﴿ المسألة السادسة ﴾ يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين ؟(جوابه) نعم إذا خفف وقف على (فهم لا يهتدون) ثم ابتدأ (بألا يسجدوا) وإن شاء وقف على (ألا يا) ثم ابتدأ (اسجدوا) وإذا شدد لم يقف إلا على (العرش العظيم) .

أما قوله (سننظر) فمن النظر الذى هو التأمل ، وأراد صدقت أم كذبت إلا أن (أم كنت من الكاذبين) أبلغ ، لأنه إذا كان معروفاً بالكذب كان متهماً بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به ، وإنما قال (فألقه إليهم) على لفظ الجمع لأنه قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس) فقال (فألقه إليهم) أى إلى الذين هذا دينهم .

أما قوله (ثم تول عنهم) أى تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون مايقولونه بمسمع منك ويرجعون من قوله تعالى (يرجع بعضهم إلى بعض القول) ويقال دخل عليها من كوة وألقى إليها الكتاب وتوارى فى الكوة .

قوله تعالى : ﴿ قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾

الرحيم ، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ، قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾

اعلم أن قوله (قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم) بمعنى أن يقال إن الهدهد ألقى إليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت ، روى أنها كانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية ، وقيل نقرها فانتبهت فزعة .

أما قوله (كتاب كريم) ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) حسن مضمونه وما فيه (وثانيها) وصفه بالكريم لأنه من عند ملك كريم (وثالثها) أن الكتاب كان مختوماً وقال عليه السلام « كرم الكتاب ختمه »وكان عليه السلام «يكتب إلى العجم ، فقيل له إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتماً» .

أما قوله (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ أنه استئناف وتبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت إنى ألقى كتاب كريم قيل لها ممن هو وماهو فقالت إنه من سليمان وإنه كيت وكيت ، وقرأ عبد الله (إنه من سليمان وإنه بسم الله) عطفاً على (إنى) وقرىء (أنه من سليمان وأنه) بالفتح وفيه وجهان(أحدهما) أنه بدل من كتاب كأنه قيل ألقى إلى أنه من سليمان (وثانيهما) أن يريد أنه من سليمان ولانه بسم الله كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله وقرأ أبى إن من سليمان وإن بسم الله على أن المفسرة ، وإن فى أن لا تعلوا مفسرة أيضاً ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك ، وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهى مجاوزة الحد .

﴿ البحث الثانى ﴾ يقال لم قدم سليمان اسمه على قوله (بسم الله الرحمن الرحيم) ؟ (جوابه) حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو ببسم الله الرحمن الرحيم ، وإنما ذكرت بلقيس أن هذا الكتاب من سليمان ثم حكت مافى الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع فى الحكاية .

﴿ البحث الثالث ﴾ أن الأنبياء عليهم السلام لا يطيلون بل يقتصرون على المقصود ، وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود ، وذلك لأن المطلوب من الخلق ، إما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله (بسم الله الرحمن الرحيم) مشتمل على إثبات الصانع سبحانه وتعالى وإثبات كونه عالماً قادراً حياً مريداً حكيماً رحيماً .

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً
وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

وأما قوله (ألا تعلوا على) فهو نهى عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر .

وأما قوله (وأتونى مسلمين) فالمراد من المسلم إما المنقاد أو المؤمن ، فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوى كل ما لابد منه فى الدين والدنيا ، فان قيل النهى عن الاستعلاء والأمر بالإنقياد قبل إقامة الدلالة على كونه رسولا حقاً يدل على الإكتفاء بالتقليد (جوابه) معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لأن رسول سليمان إلى بلقيس كان الهدهد ورسالة الهدهد معجز ، والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعى فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر فى الكتاب دليلا آخر .

أما قوله (يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى) فالفتوى هى الجواب فى الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى فى السن أى أجيبونى فى الأمر الفتى ، وقصدت بالإنقطاع إليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ما كنت قاطعة أمراً أى لا أبت أمراً إلا بمحضركم .

أما قوله (قالوا نحن أولو قوة) فالمراد قوة الأجسام وقوة الآلات والمراد بالبأس النجدة والثبات فى الحرب ، وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين (أحدهما) إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد ، والآخر قولهم (والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) وفى ذلك إظهار الطاعة لها إن أرادت السلم ، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ، فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ

اعلم أنها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم أظهرت رأيها ، وهو أن الملوك إذا دخلوا قرية بالقهر أفسدوها ، أى خربوها وأذلوا أعزتها ، فذكرت لهم عاقبة الحرب .

وأما قوله (وكذلك يفعلون) فقد اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها والأقرب أنه من كلامها ، وأنها ذكرته تأكيداً لما وصفته من حال الملوك . فأما الكلام فى صفة الهدية فالناس أكثروا فيها . لكن لا ذكر لها فى الكتاب وقولها (فناظرة بم يرجع المرسلون) فيه دلالة على أنها لم تثق بالقبول وجوزت الرد ، وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان ، ولما وصلت الهدايا إلى سليمان عليه السلام ذكر أمرين (الأول) قوله (أتمدونن بمال) فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال .

أما قوله (بل أنتم بهديتكم تفرحون) ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن الهدية اسم للمهدى ، كما أن العطية اسم للمعطى ، فتضاف إلى المهدى وإلى المهدى له ، والمضاف إليه ههنا هو المهدى إليه ، والمعنى أن الله تعالى آتانى الدين الذى هو السعادة القصوى ، وآتانى من الدنيا ما لا مزيد عليه ، فكيف يستمال مثلى بمثل هذه الهدية ، بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم ، لكن حالى خلاف حالكم (وثانيها) بل أنتم بهديتكم هذه التى أهديتموها تفرحون من حيث إنكم قدرتم على إهداء مثلها (وثالثها) كأنه قال : بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها (الثانى) قوله (ارجع إليهم) فقيل ارجع خطاب للرسول ، وقيل للهدهد محملا كتاباً آخر .

أما قوله تعالى (لا قبل) أى لا طاقه ، وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة ، أى لا يقدرون أن يقابلوهم . وقرأ ابن مسعود : لا قبل لهم بهم ، والضمير فى منها لسبأ ، والذل أن يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك ، والصغار أن يقعوا فى أسر واستعباد ، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكا .

قوله تعالى : ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب

www.besturdubooks.wordpress.com

فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾

اعلم أن فى قوله تعالى (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها) دلالة على أنها عزمت على اللحوق بسليمان ، ودلالة على أن أمر ذلك العرش كان مشهوراً ، فأحب أن يحصل عنده قبل حضورها ، واختلفوا فى غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرش على وجوه (أحدها) أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام ، حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التى سلفت (وثانيها) أراد أن يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر ، ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره . والمقصود اختبار عقلها ، وقوله تعالى (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى) كالدلالة على ذلك (وثالثها) قال قتادة : أراد أن يأخذه قبل إسلامها ، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها (ورابعها) أن العرش سرير المملكة ، فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه .

أما قوله (قال عفريت من الجن) فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذى يعفر أقرانه ، ومن الشياطين الخبيث المارد .

أما قوله (قبل أن تقوم من مقامك) فالمعنى من مجلسك ، ولا بد فيه من عادة معلومة حتى يصح أن يؤقت ، فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس ، وقيل الوقت الذى يخطب فيه الناس، وقيل إلى انتصاف النهار .

وأما قوله (لقوى) أى على حمله أمين آتى به كما هو لا أختزل منه شيئاً .

أما قوله (قال الذى عنده علم من الكتاب) ففيه بحثان :

﴿الاول﴾ اختلفوا فى ذلك الشخص على قولين : قيل كان من الملائكة ، وقيل كان من الإنس، فمن قال بالأول اختلفوا ، قيل هو جبريل عليه السلام ، وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ، ومن قال بالثانى اختلفوا على وجوه (أحدها) قول ابن مسعود : إنه الخضر عليه السلام (وثانيها) وهو المشهور من قول ابن عباس : إنه آصف بن برخيا وزير سليمان ، وكان صديقاً يعلم الإسم الأعظم إذا دعا به أجيب (وثالثها) قول قتادة : رجل من الإنس كان يعلم إسم الله الأعظم (ورابعها) قول ابن زيد : كان رجلا صالحاً فى جزيرة فى البحر ، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان (وخامسها) بل هو سليمان نفسه . والمخاطب هو العفريت الذى كلمه ، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة فتحداهم أولا ، ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت ، وهذا القول أقرب لوجوه (أحدها) أن لفظة الذى موضوعة فى

www.besturdubooks.wordpress.com

اللغة للاشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام ، فوجب انصرافه إليه ، أقصى ما فى الباب أن يقال ،كان آصف كذلك أيضاً لكنا نقول إن سليمان عليه السلام ،كان أعرف بالكتاب منه لأنه هو النبى ، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان عليه السلام أولى (الثانى) أن إحضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ، فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام ، وأنه غير جائز (الثالث) أن سليمان عليه السلام ، لو افتقر فى ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان فى أعين الخلق (الرابع) أن سليمان قال (هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) وظاهره يقتضى أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان .

﴿ البحث الثانى ﴾ اختلفوا فى الكتاب . فقيل اللوح المحفوظ ، والذى عنده علم منه جبريل عليه السلام . وقيل كتاب سليمان ، أو كتاب بعض الأنبياء ، ومعلوم فى الجملة أن ذلك مدح ، وأن لهذا الوصف تأثيراً فى نقل ذلك العرش ، فلذلك قالوا إنه الإسم الأعظم وإن عنده وقعت الإجابة من الله تعالى فى أسرع الأوقات .

أما قوله تعالى (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) ففيه بحثان :

﴿ الأول ﴾ آتيك فى الموضعين ، يجوز أن يكون فعلا وإسم فاعل .

﴿ الثانى ﴾ اختلفوا فى قوله (قبل أن يرتد إليك طرفك) على وجهين (الأول) أنه أراد المبالغة فى السرعة ، كما تقول لصاحبك افعل ذلك فى لحظة . وهذا قول مجاهد (الثانى) أن نجريه على ظاهره ، والطرف تحريك الأجفان عند النظر ، فاذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد إلى المرئى ، وإذا أغمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد إلى العين ، فهذا هو المراد من ارتداد الطرف (وههنا سؤال) وهو أنه كيف يجوز والمسافة بعيدة أن ينقل العرش فى هذا القدر من الزمان ، وهذا يقتضى إما القول بالطفرة أو حصول الجسم الواحد دفعة واحدة فى مكانين (جوابه) أن المهندسين قالوا كرة الشمس مثل كرة الأرض مائة وأربعة وستين مرة ، ثم إن زمان طلوعها زمان قصير . فاذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذى بين الشام واليمن كانت اللمحة كثيرة فلما ثبت عقلا إمكان وجود هذه الحركة السريعة ، وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال ، ثم إنه عليه السلام (لما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) والكلام فى تفسير الابتلاء قد مر غير مرة ، ثم إنه عليه السلام بين أن نفع الشكر عائد إلى الشاكر لا إلى الله تعالى ، أما أنه عائد إلى الشاكر فلوجوه (أحدها) أنه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر (وثانيها) أنه يستمد به المزيد على ماقال (لئن شكرتم لأزيدنكم) ، (وثالثها) أن المشتغل بالشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق مابينهما كفرق مابين المنعم والنعمة فى الشرف ، ثم قال (ومن كفر فان

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

ربي غني كريم) غني عن شكره لايضره كفرانه ، كريم لايقطع عنه نعمه بسبب إعراضه عن الشكر .

قوله تعالى : ﴿ قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنامسلمين ، وصدها ماكانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ .

اعلم أن قوله (نكروا) معناه اجعلوا العرش منكراً مغيراً عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه ، وذلك لأنه لو ترك على ما كان لعرفته لامحالة ، وكان لاتدل معرفتها به على ثبات عقلها وإذا غير دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل ، ولا يمتنع صحة ما قيل إن سليمان عليه السلام ألقى إليه أن فيها نقصان عقل لكى لا يتزوجها أو لاتحظى عنده على وجه الحسد ، فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها .

أما قوله (ننظر) فقرىء بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف ، واختلفوا فى (أتهتدى) على وجهين (أحدهما) أتعرف أنه عرشها أم لا ؟ كما قدمنا (الثانى) أتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال (أم تكون من الذين لا يهتدون) وذلك كالذم ولا يليق إلا بطريقة الدلالة ، فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار متنقلا من المكان البعيد إلى هنالك ، وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام ، ويعرف بذلك أيضاً فضل عقلها لأغراض كانت له ، فعند ذلك سألها .

أما قوله (أهكذا عرشك) فاعلم أن هكذا ثلاث كلمات ، حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة ، ولم يقل أهذا عرشك ، ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقيناً فقالت (كأنه هو) ولم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت فى محل التوقف .

أما قوله (وأوتينا العلم من قبلها) ففيه سؤالان ، وهو أن هذا الكلام كلام من ؟ وأيضاً فعلى أى شىء عطف هذا الكلام؟ وعنه جوابان (الأول) أنه كلام سليمان وقومه ، وذلك لأن بلقيس

www.besturdubooks.wordpress.com

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

لما سئلت عن عرشها ، ثم إنها أجابت بقولها (كأنه هو) فالظاهر أن سليمان وقومه قالوا إنها قد أصابت فى جوابها وهى عاقله لبيبة وقد رزقت الإسلام ، ثم عطفوا على ذلك قولهم (وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته قبل علمها ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى فى أن خصهم بمزية التقدم فى الإسلام (الثانى) أنه من كلام بلقيس موصولا بقولها (كأنه هو) والمعنى : وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة ، ثم إن قوله (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) إلى آخر الآية يكون من كلام رب العزة .

أما قوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) ففيه وجهان (الأول) المراد : وصدها عبادتها لغير الله عن الإيمان (الثانى) وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل ، وقرىء أنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صداً وبمعنى لأنها ، واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا لو كان تعالى خلق الكفر فيها لم يكن الصاد لها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة الكفار ، بل كان يكون الصاد لها عن الايمان تجدد خلق الله الكفر فيها (والجواب) أما على التأويل الثانى فلا شك فى سقوط الاستدلال ، وأما على الأول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار صار سبباً لحصول الداعية المستلزمة للكفر ، وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقاً لقولنا والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى إقامتها على الكفر مع كل ماتقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الأمر ماصار داعياً لها إلى الإسلام وهو قوله قيل لها ادخلى الصرح ، والصرح القصر كقوله (ياهامان ابن لى صرحاً) وقيل صحن الدار ، وقرأ ابن كثير عن سأقيها بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقاً فأجرى عليه الواحد ، والممرد المماس ، روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضاً ، ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الانس والجن والطير ، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره وتحققاً لنبوته ، وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ

إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية ، وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد، فقالوا إن في عقلها نقصاناً وإنها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش ، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ، ومعلوم من حال الزجاج الصافي أنه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماءاً راكداً فكشفت عن ساقيها لتخوضه ، فاذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً ، وهذا على طريقة من يقول تزوجها ، وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه . وحصل كشف الساق على سبيل التبع ، فلما قيل لها هو صرح ممرد من قوارير استترت ، وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة ، فقالت (رب إني ظلمت نفسي) فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة . فقالت ظلمت نفسي بسوء ظني سليمان ، واختلفوا في أنه هل تزوجها أم لا ، وأنه تزوجها في هذه الحال أو قبل أن كشفت عن ساقيها ، والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها ، وليس لذلك ذكر في الكتاب ، ولا في خبر مقطوع بصحته ، ويروى عن ابن عباس أنها لما أسلمت قال لها اختاري من قومك من أزوجك منه فقالت مثلي لاينكح الرجال مع سلطاني ، فقال النكاح من الاسلام ، فقالت إن كان كذلك فزوجني ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردهما إلى اليمن ، ولم يزل بها ملكا والله أعلم .

﴿ القصة الثالثة — قصة صالح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون ، قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ، قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ، وكان في المدينه تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ،

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ .

ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

قرئ (أن اعبدوا الله) بالضم على إتباع النون الباء (١) .

أما قوله (فإذاهم فريقان) ففيه قولان : (أحدهما) المراد فريق مؤمن وفريق كافر (الثانى) المراد قوم صالح قبل أن يؤمن منهم أحد ،

أما قوله (يختصمون) فالمعنى أن الذين آمنوا إنما آمنوا لأنهم نظروا فى حجته فعرفوا صحتها ، وإذا كان كذلك فلا بد وأن يكون خصما لمن لم يقبلها ، وإذا كان هذا الاختصام فى باب الدين دل ذلك على أن الجدال فى باب الدين حق وفيه إبطال التقليد .

أما قوله (ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) ففيه بحثان : ﴿ الأول ﴾ فى تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان : (أحدهما) أن الذين كذبوا صالحاً عليه السلام لما لم ينفعهم الحجاج توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) على وجه الاستهزاء ، فعنده قال صالح (لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل إلى رحمة الله تعالى وثوابه ، فلماذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه (وثانيهما) أنهم كانوا يقولون لجهلهم إن العقوبة التى يعدها صالح إن وقعت على زعمه أتينا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا ، فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم ، وقال هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فان استعجال الخير أولى من استعجال الشر .

﴿ البحث الثانى ﴾ أن المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب ، فأما وصف العذاب بأنه سيئة فهو مجاز وسبب هذا التجويز ، إما لأن العقاب من لوازمه أو لأنه يشبهه فى كونه مكروهاً ، وأما وصف الرحمة بأنها حسنة فمنهم من قال إنه حقيقة ومنهم من قال إنه مجاز والأول أقرب ، ثم إن صالحاً عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد ، وهو قولهم (اطيرنا بك) أى

---

(١) الاتباع هنا ليس للباء التى فى أعبدوا لوجود الفاصل وهو العين والهمزة ، والصواب أن يقال على إتباع النون للألف من أعبدوا لأن الأمر من عبد أعبد مضموم الألف .

www.besturdubooks.wordpress.com

تشاءمنا بك لأن الذى يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك و بشؤم من معك .
قال صاحب الكشاف كان الرجل يخرج مسافراً فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحاً تيمن و إن مر بارحاً تشاءم فلما نسبوا الخير و الشر إلى الطائر استعير لما كان للخير و الشر وهو قدر الله و قسمته ، فأجاب صالح عليه السلام بقوله (طائركم عند الله) أى السبب الذى منه يجىء خيركم و شركم عند الله وهو قضاؤه وقدره إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . وقيل بل المراد إن جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب ، والأقرب الوجه الأول لأن القوم أشاروا إلى الأمر الحاصل فيجب فى جوابه أن يكون فيه لا فى غيره ، ثم بين أن هذا جهل منهم بقوله (بل أنتم قوم تفتنون) فيحتمل أن غيرهم دعاهم الى هذا القول ، ويحتمل أن يكون المراد أن الشيطان يفتنكم بوسوسته ، ثم إنه سبحانه قال (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض) والأقرب أن يكون المراد تسعة جمع إذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفتهم وأحوالهم لا لاختلاف السبب ، فبين تعالى أنهم يفسدون فى الأرض ولا يمزجون ذلك الفساد بشىء من الصلاح ، فلهذا قال (يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) ثم بين تعالى أن من جملة ذلك ما هموا به من أمر صالح عليه السلام .
أما قوله (تقاسموا بالله) فيحتمل أن يكون أمراً أو خبراً فى محل الحال بإضمار قد ، أى قالوا متقاسمين ، والبيات متابعة العدو ليلا .
أما قوله (ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله) يعنى لو اتهمنا قومه حلفنا لهم أنا لم نحضر . وقرىء مهلك بفتح الميم واللام وكسر اللام ، من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ، ويحتمل المصدر والمكان والزمان ، ثم إنه سبحانه قال (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) وقد اختلفوا فى مكر الله تعالى على وجوه ؛ (أحدها) أن مكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون ، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة ، روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه ، فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ، ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة (وثانيها) جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة ، يرون الأحجار ولا يرون رامياً (وثالثها) أن الله تعالى أخبر صالحاً بمكرهم فتحرز عنهم فذاك مكر الله تعالى فى حقهم .
أما قوله (أنا دمرناهم) استئناف ، ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هى تدمرهم أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر كان أى كان عاقبة مكرهم الدمار .
أما قوله (خاوية) فهو حال عمل فيها ما دل عليه تلك ، وقرأ عيسى بن عمر خاوية بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف والله أعلم (١).

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

﴿ القصة الرابعة ـ قصة لوط عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ، أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾

قال صاحب الكشاف ، واذكر لوطاً أو أرسلنا لوطاً بدلالة ولقد أرسلنا عليه ، وإذ بدل على الأول ظرف على الثانى .

أما قوله (أتأتون الفاحشة) فهو على وجه التنكير وإن كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ .

أما قوله (وأنتم تبصرون) ففيه وجوه (أحدها) أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لأجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر فى توبيخه لهم ماله عظم ذلك الفعل (وثانيها) أن المراد بصر القلب أى تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وأن الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهى مضادة لله فى حكمته (وثالثها) تبصرون آثار العصاة قبلكم ومانزل بهم ، فان قلت فسرت تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء وجهلاء ؟ قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها ،ثم إنه تعالى بين جهلهم بأن حكى عنهم أنهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جواباً له فقال (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) فجعلوا الذى لأجله يخرجون أنهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا يوجب تنعيمهم وتعظيمهم أولى لكن فى المفسرين من قال (إنما قالوا) ذلك على

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

وجه الهزء ، ثم بين تعالى أنه نجاه وأهله إلا امرأته وأهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحاً والله أعلم ، وههنا آخر القصص فى هذه السورة والله أعلم .

﴿ القول فى خطاب الله عز وجل مع محمد ﷺ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قل الحمد الله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ﴾ فى هذه الآية قولان (الأول) أنه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على إهلاكهم وسلام على عباده الذين أصطفى بأن أرسلهم ونجاهم (الثانى) أنه مبتدأ فانه تعالى لما ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام وكان محمد ﷺ كالمخالف لمن قبله فى أمر العذاب لأن عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه ، أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم ، وبأن يسلم على الأنبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة .

فأما قوله (آلله خير أما يشركون) فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم ، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شىء إلا لزيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم هذا الكلام تنبيهاً على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرىء (يشركون) بالياء والتاء ، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها قال « بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم » .

ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك فى عدة فصول :

﴿ الفصل الأول ﴾ فى الرد على عبدة الأوثان ، ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها ، فكيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه البتة ، ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر أنواعاً :

﴿ النوع الأول ـ ما يتعلق بالسموات ﴾

قوله تعالى : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قال صاحب الكشاف : الفرق بين أم وأم فى (أما يشركون) و(أمن خلق) أن الأولى متصلة لأن المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل ، والحديقة البستان عليه سور من الإحداق وهو الإحاطة ، وقيل (ذات) لأن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة ، كما يقال النساء ذهبت

www.besturdubooks.wordpress.com

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

والبهجة الحسن، لأن الناظر يبتهج به (أإله مع الله) أغيره يقرن به ويجعل شريكاله وقرئ (أإلهاً مع الله) بمعنى تدعون أو تشركون.

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى بين أنه الذى اختص بأن خلق السموات والأرض، وجعل السماء مكاناً للماء، والأرض للنبات، وذكر أعظم النعم وهى الحدائق ذات البهجة، ونبه تعالى على أن هذا الإنبات فى الحدائق لا يقدر عليه إلا الله تعالى، لأن أحدنا لو قدر عليه لما احتاج إلى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن يخص بالعبادة، ثم قال (بل هم قوم يعدلون) وقد اختلفوا فيه فقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل، يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية أول سورة الإنعام.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يقال ما حكمة الإلتفات فى قوله (فأنبتنا)؟(جوابه) أنه لاشبهة للعاقل فى أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى، وربما عرضت الشبهة فى أن منبت الشجرة هو الإنسان، فان الإنسان يقول أنا الذى ألقى البذر فى الأرض الحرة وأسقيها الماء وأسعى فى تشميسها، وفاعل السبب فاعل للمسبب، فإذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائماً، لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله (فأنبتنا) وقال (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) لأن الإنسان قد يأتى بالبذر والسقى والكرب(١) والتشميس ثم لا يأتى على وفق مراده والذى يقع على وفق مراده فانه يكون جاهلا بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلا لها، فلهذه النكته حسن الالتفات ههنا.

﴿ النوع الثانى ـ ما يتعلق بالأرض ﴾

قوله تعالى : ﴿ أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ءاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

قال صاحب الكشاف ﴿أمن جعل﴾ وما بعده بدل من (أمن خلق) فكان حكمها حكمه.

واعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض أموراً أربعة.

﴿ المنفعة الأولى ﴾ كونها قراراً وذلك لوجوه (الأول) أنه دحاها وسواها للاستقرار (الثانى) أنه تعالى جعلها متوسطة فى الصلابة والرخاوة فليست فى الصلابة كالحجر الذى يتألم الانسان بالاضطجاع عليه وليست فى الرخاوة كالماء الذى يغوص فيه (الثالث) أنه تعالى جعلها كثيفة

(١) الكرب هنا معناه إثارة الأرض الزرع بحراثتها.

www.besturdubooks.wordpress.com

غبراء ليستقر عليها النور ، ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ، ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت الحيوانات (الرابع) أنه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس ، ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ، ولما حصلت المنافع (الخامس) أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فإنها لو كانت متحركة لكانت إما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة ، وعلى التقديرين لايحصل الانتفاع بالسكنى على الأرض (السادس) أنه سبحانه جعلها كفاتاً للأحياء والأموات وأنه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح .

﴿ المنفعة الثانية الأرض ﴾ قوله (وجعل خلالها أنهاراً) فاعلم أن أقسام المياه المنبعثة عن الارض أربعة (الأول) ماء العيون السيالة وهى تنبعث من أبخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الأرض بقوة ، ثم لايزال يستتبع جزء منها جزءاً (الثانى) ماء العيون الراكدة وهى تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها (الثالث) مياه القنى والأنهار وهى متولدة من أبخرة ناقصة القوة عن أن تشق الأرض ، فاذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة (الرابع) مياه الآبار وهى نبعية كمياه الأنهار إلا أنه لم يجعل له سيل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون السيالة إلى العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة فى باطنها إذ لولا اجتماعها فى باطنها لما حدثت هذه العيون فى ظاهرها .

﴿ المنفعة الثالثة للأرض ﴾ قوله (وجعل لها رواسى) والمراد منها الجبال ، فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما تكون فى الجبال أو فيما يقرب منها ؛ أما العيون فلأن الارض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به ، فاذن هذه الأبخرة لاتجتمع إلا فى الأرض الصلبة والجبال أصلب الارض ، فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع مايصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوءاً ماء ، ويكون الجبل فى حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعد للتقطير لايدع شيئاً من البخار يتحلل ونفس الأرض التى تحته كالقرعة والعيون كالأذناب والبخار كالقوابل ، ولذلك فان أكثر العيون إنما تنفجر من الجبال وأقلها فى البرارى ، وذلك الأقل لايكون إلا إذا كانت الأرض صلبة . وأما أن أكثر السحب تكون فى الجبال فلوجوه ثلاثة (أحدها) أن فى باطن الجبال من النداوات مالا يكون فى باطن الأرضين الرخوة (وثانيها) أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الأنداء ومن الثلوج مالا يبقى على ظهر سائر الأرضين (وثالثها) أن الأبخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل ، وإذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب فى الجبال أكثر لأن المادة فيها ظاهراً وباطناً أكثر ، والاحتقان أشد والسبب المحلل وهو الحر أقل ، ولذلك كانت السحب فى الجبال أكثر . وأما المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة يكون اختلاطها بالأرضية أكثر

www.besturdubooks.wordpress.com

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

وإلى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شيء لها فى هذا المعنى كالجبال .

﴿ المنفعة الرابعة للأرض ﴾ قوله (وجعل بين البحرين حاجزاً) فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط ، وأيضاً فلينتفع بذلك الحاجز ، وأيضا المؤمن فى قلبه بحران بحر الايمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزاً لكى لا يفسد أحدهما بالآخر ، وقال بعض الحكماء فى قوله (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان) قال عند عدم البغى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) فعند عدم البغى فى القلب يخرج الدين والإيمان بالشكر ، فإن قيل ولم جعل البحر ملحاً ؟ قلنا لولا ملوحته لأجن[1] وانتشر فساد أجونته فى الأرض وأحدث الوباء العام ، واعلم أن اختصاص البحر بجانب من الأرض دون جانب أمر غير واجب بل الحق أن البحر ينتقل فى مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن إلى قرن لأن استمداد البحر . فى الأكثر من الأنهار ، والأنهار تستمد فى الأكثر من العيون ، وأما مياه السماء فان حدوثها فى فصل بعينه دون فصل ، ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب أن تتشابه أحوالها فى بقاع واحدة بأعيانها تشابهاً مستمراً فان كثيراً من العيون يغور ، وكثيراً ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من نضوب الأودية والأنهار فيعرض بسبب ذلك نضوب البحار ، وإذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الأنهار هناك لحصلت البحار من ذلك الجانب ، ثم أنه سبحانه لما بين أنه هو المختص بالقدرة على خلق الارض التى فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالإلهية ، ونبه بقوله تعالى (بل أكثرهم لا يعقلون) على عظيم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر

﴿ النوع الثالث ـ ما يتعلق باحتياج الخلق إليه سبحانه ﴾

قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض .إله مع الله قليلا ما تذكرون ﴾

اعلم أنه سبحانه نبه فى هذه الآية على أمرين (أحدهما) قوله (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) قال صاحب الكشاف : الضرورة الحالة المحوجة إلى الالتجاء والاضطرار افتعال منها : يقال اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر ، واعلم أن المضطر هو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى ، وعن السدى : الذى لا حول له ولا قوة ، وقيل المذنب إذا استغفر ، فان قيل قد عم المضطرين بقوله (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) وكم من مضطر يدعو فلا يجاب ؟ (جوابه) قد بينا فى أصول الفقه أن المفرد المعرف لا يفيد

(١) أجن الماء : صار آجناً أى تغير لونه أو طعمه أو ريحه وفسد .

www.besturdubooks.wordpress.com

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

العموم وإنما يفيد الماهية فقط ، والحكم المثبت للماهية يكفى فى صدقه ثبوته فى فرد واحد من أفراد الماهية ، وأيضاً فانه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب فى الحال . وتمام القول فى شرائط الدعاء والاجابة مذكور فى قوله تعالى (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) فأما قوله تعالى (ويكشف السوء) فهو كالتفسير للاستجابة ، فانه لايقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة وضيق إلى سعة إلا القادر الذى لايعجز والقاهر الذى لاينازع (وثانيهما) قوله (ويجعلكم خلفاء الأرض) فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط ، وقرىء (يذكرون) بالياء مع الادغام وبالتاء مع الإدغام وبالحذف وما مزيدة أى يذكرون تذكراً قليلا ، والمعنى نفى التذكر والقلة تستعمل فى معنى النفى .

﴿ النوع الرابع ـ مايتعلق أيضاً باحتياج الخلق ولكنه حاجة خاصة فى وقت خاص ﴾

قوله تعالى : ﴿ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

اعلم أنه تعالى نبه فى هذه الآية على أمرين (الأول) قوله (أمن يهديكم) والمراد يهديكم بالنجوم فى السماء والعلامات فى الأرض إذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر (الثانى) قوله (ومن يرسل الرياح) فانه سبحانه هو الذى يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه إلى حيث حيث يشاء ، فان قيل لا نسلم أنه تعالى هو الذى يحرك الرياح ، فان الفلاسفة : قالت الرياح إنما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الأسود المرتفع مما احترق بالنار ، بل كل جسم أرضى يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان قالوا وتولد الرياح من الأدخنة على وجهين أحدهما أكثرى ، والآخر أقلى ، أما الأكثرى فهو أنه إذا صعدت أدخنة كثيرة إلى فوق فعند وصولها إلى الطبقة الباردة إما أن ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء أو لاينكسر فان انكسر فلا محالة يثقل وينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح ، وإن لم ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء فلا بد وأن يتصاعد إلى أن يصل إلى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لا يتمكن من الصعود بسبب حركة النار فترجع تلك الأدخنة وتصير ريحاً ، لايقال لو كان اندفاع هذه الأدخنة بسبب حركة الهواء العالى لما كانت حركتها إلى أسفل بل إلى جهة حركة الهواء العالى لأنا نقول الجواب من وجهين (أحدهما) أنه ربما أوجبت هيئة صعود تلك الأدخنة وهيئة لحوق المادة بها أن يتحرك إلى خلاف جهة المتحرك

www.besturdubooks.wordpress.com

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

المانع، كالسهم يصيب جسماً متحركا فيعطفه تارة إلى جهته إن كان الحابس كما يقدر على صرف المتحرك عن متوجهه يقدر أيضاً على صرفه إلى جهة حركة نفسه وتارة إلى خلاف تلك الجهة إذا كان المفارق يقدر على الحبس ولا يقدر على الصرف (الثانى) أنه ربما كان صعود بعض الأدخنة من تحت مانعاً للأدخنة النازلة من فوق إلى أن يتسفل ذلك فلأجل هذا السبب يتحرك إلى سائر الجوانب، واعلم أن لأهل الإسلام ههنا مقامين (الأول) أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين (الأول) أن الأجزاء الدخانية أرضية فهى أثقل من الأجزاء البخارية المائية، ثم إن البخار لما يبرد ينزل على الخط المستقيم مطراً فالدخان لما برد فلماذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة؟ (الثانى) أن حركة تلك الأجزاء إلى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية، وإذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة، ثم إن الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الأشجار ورمى الجدار بل الجبال، فتلك الأجزاء الدخانية عند ما تحركت حركتها الطبيعية التى لها وهى الحركة إلى السفل وجب أن تهدم السقف، ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلا عن أن يهدمه فثبت فساد ما ذكروه (المقام الثانى) هب أن الأمر كما ذكروه ولكن الأسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى، فانه لولا الشمس وتأثيرها فى تصعيد الأبخرة والأدخنة ولولا طبقات الهواء، لما حدثت هذه الأمور، ومعلوم أن من وضع أسباباً فأدته إلى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذى فعل تلك المنافع، فعلى جميع الأحوال لابد من شهادة هذه الأمور على مدبر حكيم واجب لذاته، قطعاً لسلسلة الحاجات.

﴿ النوع الخامس ـ مايتعلق بالحشر والنشر ﴾

قوله تعالى: ﴿ أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾

اعلم أنه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) لأن نعم الآخرة بالثواب لاتتم إلا بالإعادة بعد الإبتداء والإبلاغ إلى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم، ومعلوم أنها لاتتم إلا بالأرزاق فلذلك قال (ومن يرزقكم من السماء والأرض) ثم قال (أإله مع الله) منكراً لما هم عليه، ثم بيّن بقوله (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أن لا برهان لكم فاذن هم مبطلون، وهذا يدل على أنه لابد فى الدعوى من

www.besturdubooks.wordpress.com

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

وعلى فساد التقليد ، فإن قيل كيف قيل لهم (أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده) وهم منكرون للاعادة ؟ (جوابه) كانوا معترفين بالابتداء ، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية ، فلما كان الكلام مقروناً بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الإنكار ، وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ، بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أنه المختص بالقدرة فكذلك بين أنه هو المختص بعلم الغيب ، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه هو الإله المعبود ، لأن الإله هو الذى يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على على جه لايلتبس بأهل العقاب ، فإن قيل الاستثناء حكمه إخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية ههنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عمن فى السموات والأرض فوجب كونه ممن فى السموات والأرض وذلك يوجب كونه تعالى فى المكان (والجواب) هذه الآية متروكة الظاهر لأن من قال إنه تعالى فى المكان زعم أنه فوق السموات ، ومن قال إنه ليس فى مكان فقد نزهه عن كل الأمكنة ، فثبت بالإجماع أنه تعالى ليس فى السموات والأرض . فإذن وجب تأويله فنقول إنه تعالى ممن فى السموات والأرض كما يقول المتكلمون : الله تعالى فى كل مكان على معنى أن علمه فى الأماكن كلها ، لايقال إن كونه فى السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازاً غير جائزة ، لأنا نقول كونهم فى السموات والأرض ، كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم فى الأحياز فكذلك حاصل مجازاً ، وهو كونهم عالمين بتلك الأمكنة فاذا حملنا هذه الغيبة على المعنى المجازى وهو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء .

أما قوله (وما يشعرون) فهو صفة لأهل السموات والأرض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر فى جملة الغيب متى البعث بقوله (أيان يبعثون) فأيان بمعنى متى وهى كلمة مركبة من أى والآن وهو الوقت وقرىء (إيان) بكسر الهمزة .

أما قوله (بل ادارك علمهم فى الآخرة) فاعلم أن كلام صاحب الكشاف فيه مرتب على ثلاثة أبحاث :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ البحث الأول ﴾ فيه اثنتا عشرة قراءة بل أدرك بل ادرك بل ادارك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام بلى أدرك بلى أأدرك أم تدارك أم أدرك .

﴿ البحث الثاني ﴾ ادارك أصله تدارك فأدغمت التاء فى الدال وأدرك افتعل .

﴿ البحث الثالث ﴾ معنى أدرك علمهم انتهى وتكامل وأدرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه : (أحدها) أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها وهم شاكون جاهلون ، وذلك قوله (بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) يريد المشركين ممن فى السموات والأرض لأنهم لما كانوا من جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع كما يقال بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم . فإن قيل الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وإن العباد لا علم لهم بشيء منه وإن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به . فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة ؟ (والجواب) كأنه سبحانه قال كيف يعلمون الغيب مع أنهم شكوا فى ثبوت الآخرة التى دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشيء الظاهر كيف يعلم الغيب الذى هو أخفى الأشياء (الوجه الثانى) أن وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا فى إثبات ما الطريق إليه واضح ظاهر (الوجه الثالث) أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التى عندها تعدم وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا فى الهلاك ، أما وجه قراءة من قرأ بل أأدرك على الإستفهام فهو أنه استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم تدارك لأنها أم هى التى بمعنى بل والهمزة وأما من قرأ بلى أدرك فانه لما جاء ببلى بعد قوله (وما يشعرون) كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله أدرك علمهم فى الآخرة على سبيل التهكم الذى معناه المبالغة فى نفى العلم ، فكأنه قال شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها فيرجع إلى نفى الشعور على أبلغ ما يكون ، وأما من قرأ بلى أأدرك على الإستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها وإذ أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها . فان قلت هذه الإضرابات الثلاث ما معناها ؟ قلت ماهى إلا بيان درجاتهم وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية . ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وفيه نكتة وهى أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن . لأن الفكر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ
وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا
تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا
تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا
فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ، ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون ، وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ، وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين ﴾ .

اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى حال المبدأ تكلم بعده فى حال المعاد ، وذلك لأن الشك فى المعاد لا ينشأ إلا من الشك فى كمال القدرة ، أو فى كمال العلم . فإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، وعالماً بكل المعلومات ، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره ، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها . وإذا ثبت إمكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر . فلما بين الله تعالى هذين الأصلين فيما قبل هذه الآية ، لاجرم لم يحكه فى هذه الآية ، فحكى عنهم أنهم تعجبوا من إخراجهم أحياء وقد صاروا تراباً وطعنوا فيه من وجهين : (الأول) قولهم (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا) أى هذا كلام كما قيل لنا فقد قيل لمن

www.besturdubooks.wordpress.com

قبلنا ، ولم يظهر له أثر فهو إذن من أساطير الأولين يريدون مالا يصح من الأخبار . فان قيل ذكر ههنا (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا) وفى آية أخرى (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) فما الفرق ؟ قلنا التقديم دليل على أن المقدم هو المقصود الأصلى وأن الكلام سيق لأجله ، ثم إنه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الأصلين . ومن الظاهر أن كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت أنهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها ، وكان سبب ذلك الإعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير ، لاجرم اقتصر على بيان أن الدنيا فانية زائلة فقال (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) وفيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يقل (كيف كانت عاقبة المجرمين) ؟ (جوابه) لأن تأنيثها غير حقيقى ولأن المعنى كيف كان آخر أمرهم .

﴿السؤال الثانى﴾ لم لم يقل عاقبة الكافرين ؟ (جوابه) الغرض أن يحصل التخويف لكل العصاة ثم إنه تعالى صبر رسوله على مايناله من هؤلاء الكفار فقال (ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) فجمع بين إزالة الغم عنه بكفرهم وبين إزالة الخوف من جانبهم ، وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم وقوله (ولا تكن فى ضيق) أى فى حرج قلب يقال ضاق الشيء ضيقاً وضيقاً بالفتح والكسر والضيق تخفيف الضيق ، ويجوز أن يراد فى أمر ضيق من مكرهم (الوجه الثانى) للكفار قولهم (متى هذا الوعد) وقوله (إن كنتم صادقين) دل على أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية فأجاب الله تعالى بقوله (عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) وهو عذاب يوم بدر ، فزيدت اللام للتأكيد كالباء فى (ولا تلقوا بأيديكم) أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ، ومعناه تبعكم ولحقكم ، وقرأ الأعرج (ردف لكم) بوزن ذهب وهما لغتان ، والكسر أفصح ، وههنا بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أن عسى ولعل فى وعد الملوك ، ووعيدهم يدلان على صدق الأمر ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالإنتقام لوثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده .

﴿ الثانى ﴾ أنه قد ثبت بالدلائل العقلية أن عذاب الحجاب أشد من عذاب النار ، ولذلك قال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم) فقدم الحجاب على الجحيم ، ثم إنهم كانوا محجوبين فى الحال ، فكان سبب العذاب بكماله حاصلا ، إلا أن الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن إدراك ذلك الألم ، كما أن العضو الخدر إذا مسته النار ، فان سبب الألم حاصل فى الحال . لكنه لا يحصل الشعور بذلك الألم لقيام العائق ، فإذا زال العائق عظم البلاء ، فكذا ههنا إذا زال البدن عظم عذاب الحجاب ، فقوله سبحانه (عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) يعنى المقتضى له والمؤثر فيه حاصل ، وتمامه إنما يحصل بعد الموت ، ثم إنه سبحانه بين

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾
وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا
تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

السبب فى ترك تعجيل العذاب فقال (وإن ربك لذو فضل على الناس) والفضل الإفضال ومعناه أنه متفضل عليهم بتأخير العقوبة ، وأكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها ، وهذه الآية تبطل قول من قال إنه لا نعمة لله على الكفار . ثم بين سبحانه أنه مطلع على ما فى قلوبهم فقال (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) وههنا بحث عقلى ، وهو أنه قدم ما تكنه صدورهم على مايعلنون من العلم . والسبب أن ما تكنه صدورهم هو الدواعى والقصود ، وهى أسباب لما يعلنون ، وهى أفعال الجوارح ، والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول ، فهذا هو السبب فى ذلك التقديم ، قرئ تكن يقال كننت الشئ وأكننته إذا سترته وأخفيته ، يعنى أنه تعالى يعلم مايخفون وما يعلنون من عدواة الرسول ومكايدهم .

أما قوله (وما من غائبة) فقال صاحب الكشاف : سمى الشئ الذى يغيب ويخفى غائبة وخافية، فكانت التاء فيها بمنزلتها فى العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية فى أنها أسماء غير صفات ، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالرواية فى قولهم : ويل للشاعر من راوية السوء ، كأنه تعالى قال : وما من شئ شديد الغيبوبة والخفاء ، إلا وقد علمه الله تعالى وأحاط به ، وأثبته فى اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذىهم فيه يختلفون ، وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ، إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ، فتوكل على الله إنك على الحق المبين ، إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما تم الكلام فى إثبات المبدإ والمعاد ، ذكر بعد ذلك مايتعلق بالنبوة ، ولما كانت العمدة الكبرى فى إثبات نبوة محمد ﷺ هو القرآن ، لا جرم بين الله تعالى أولا كونه

www.besturdubooks.wordpress.com

معجزة من وجوه (أحدها) أن الأقاصيص المذكورة فى القرآن موافقة لما كانت مذكورة فى التوراة والإنجيل مع العلم بأنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً ، وأنه لم يخالط أحداً من العلماء ولم يشتغل قط بالإستفادة والتعلم ، فاذن لا يكون ذلك إلا من قبل الله تعالى ، واختلفوا فقال بعضهم أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا ، وقال آخرون أراد به ما حرفه بعضهم ، وقال بعضهم بل أراد به أخبار الأنبياء ، والأول أقرب (وثانيها) قوله (وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) وذلك لأن بعض الناس قال إنا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة ، وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله ما لم نجده فى شيء من الكتب ، ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها ، ووجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت ، فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة عن جمع كتاب على هذا الوجه ، فعلمنا أنه ليس إلا من عند الله تعالى ، فكان القرآن معجزاً من هذه الجهة (وثالثها) أنه هدى ورحمة للمؤمنين ، لبلوغه فى الفصاحة إلى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز ، ثم إنه تعالى لما بين كونه معجزاً دالا على الرسالة ذكر بعده أمرين : (الأول) قوله (إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم) والمراد أن القرآن وإن كان يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ، لكن لا تكن أنت فى قيدهم ، فإن ربك هو الذى يقضى بينهم ، أى بين المصيب والمخطىء منهم ، وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال (وهو العزيز) أى القادر الذى لا يمنع العليم بما يحكم فلا يكون إلا الحق ، فان قيل القضاء والحكم شيء واحد فقوله (يقضى بحكمه) كقوله يقضى بقضائه ويحكم بحكمه (والجواب) معنى قوله (بحكمه) أى بما يحكم به وهو عدله ، لأنه لا يقضى إلا بالعدل ، أو أراد بحكمه ، ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (الثانى) أنه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بأن يتوكل على الله ، ولا يلتفت إلى أعداء الله ، ويشرع فى تمشية مهمات الرسالة بقلب قوى ، فقال فتوكل على الله ، ثم علل ذلك بأمرين (أحدهما) قوله (إنك على الحق المبين) وفيه بيان أن المحق حقيق بنصرة الله تعالى وأنه لا يخذل (وثانيهما) قوله (إنك لا تسمع الموتى) وإنما حسن جعله سبباً للأمر بالتوكل ، وذلك لأن الإنسان ما دام يطمع فى أحد أن يأخذ منه شيئاً فانه لا يقوى قلبه على إظهار مخالفته ، فاذا قطع طمعه عنه قوى قلبه على إظهار مخالفته ، فالله سبحانه وتعالى قطع محمداً ﷺ عنهم بأن بين له أنهم كالموتى وكالصم وكالعمى فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل ، وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على إظهار الدين كما ينبغى ، فان قيل ما معنى قوله (إذا ولوا مدبرين) (جوابه) هو تأكيد لحال الأصم ، لأنه إذا تباعد عن الداعى بأن تولى عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته .

أما قوله تعالى (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا) فالمعنى ما يجدى إسماعك إلا الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته ، أى يصدقون بها فهم مسلمون ، أى مخلصون من قوله (بلى من أسلم وجهه لله)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ
كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

يعنى جعله سالماً لله تعالى خالصاً له ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى إذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً أماذا كنتم تعملون ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ، ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾

اعلم أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم ، ثم فرع عليهما القول بإمكان الحشر ، ثم بين الوجه فى كون القرآن معجزاً ، ثم فرع عليه نبوة محمد ﷺ ، ثم تكلم الآن فى مقدمات قيام القيامة ، وإنما أخر تعالى الكلام فى هذا الباب عن إثبات النبوة ، لما أن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبى الصادق وهذا هو النهاية فى جودة الترتيب . واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة ، وتارة الأمور التى تقع عند قيام القيامة ، فذكر أولا من علامات القيامة دابة الأرض ، والناس تكلموا فيها من وجوه (أحدها) فى مقدار جسمها ، وفى الحديث أن طولها ستون ذراعاً . وروى أيضا أن رأسها تبلغ السحاب . وعن أبى هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب (وثانيها) فى كيفية خلقتها،فروى أن لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان. وعن ابن جريج فى وصفها : رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقرة وذنب كبش وخف بعير (وثالثها) فى كيفية خروجها عن على عليه السلام أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها . وعن الحسن : لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام (ورابعها) فى موضع خروجها «سئل النبى ﷺ من أين تخرج الدابة ؟ فقال من أعظم المساجد

www.besturdubooks.wordpress.com

حرمة على الله تعالى المسجد الحرام» وقيل تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية (وخامسها) فى عدد خروجها . فروى أنها تخرج ثلاث مرات ، تخرج بأقصى اليمن ، ثم تكمن ، ثم تخرج بالبادية ، ثم تكمن دهراً طويلا ، فبينا الناس فى أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ، فقوم يهربون وقوم يقفون .

(واعلم) أنه لا دلالة فى الكتاب على شىء من هذه الأمور ، فإن صح الخبر فيه عن الرسول ﷺ قبل وإلا لم يلتفت إليه .

أما قوله تعالى (وإذا وقع القول عليهم) فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله ، والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها ، أما دابة الأرض فقد عرفتها .

وأما قوله (تكلمهم) فقرئ تكلمهم من الكلم وهو الجرح ، روى أن الدابة تخرج من الصفا ومعها عصا موسى عليه السلام وخاتم سليمان . فتضرب المؤمن بين عينيه بعصا موسى عليه السلام فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضىء لها وجهه ، وتنكت الكافر فى أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه . واعلم أنه يجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضاً على معنى التكثير يقال فلان مكلم ، أى مجرح . وقرأ أبى تنبئهم ، وقرأ ابن مسعود تكلمهم بأن الناس ، والقراءة بأن مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك ، أو هى حكاية لقول الله تعالى بين به أنه أخرج الدابة لهذه العلة . فإن قيل إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول بآياتنا؟ (جوابه) أن قولها حكاية لقول الله تعالى ، أو على معنى بآيات ربنا ، أو لاختصاصها بالله تعالى أضافت آيات الله إلى نفسها ، كما يقول بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا ، وإنما هى خيل مولاه وبلاده ، ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار ، أى تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

وأما قوله (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا) فاعلم أن هذا من الأمور الواقعة بعد قيام القيامة ، فالفرق بين من الأولى والثانية ، أن الأولى للتبعيض ، والثانية للتبيين كقوله (من الأوثان) .

أما قوله (فهم يوزعون) معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا فى النار ، وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه ، كما وصفت جنود سليمان بذلك وقوله (حتى إذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى) فهذا وإن احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم ، فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله أجمع أو بشىء منها .

أما قوله (ولم تحيطوا بها علماً) فالواو للحال كأنه قال أكذبتم بها ، بادى الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها .

أما قوله (أماذا كنتم تعملون) فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم ، فأى شىء كنتم تعملونه بعد ذلك ؟! كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل ، ثم قال (ووقع القول عليهم) يريد أن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾

العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والإعتذار كقوله (هذا يوم لا ينطقون) ثم إنه سبحانه بعد أن خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة فى الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر فقال (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً) أما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر فى العقول أن التقليب من النور إلى الظلمة، ومن الظلمة إلى النور، لا يحصل إلا بقدرة قاهرة عالية. وأما وجه دلالته على الحشر فلأنه لما ثبتت قدرته تعالى فى هذه الصورة على القلب من النور إلى الظلمة وبالعكس، فأى امتناع فى ثبوت قدرته على القلب من الحياة إلى الموت مرة، ومن الموت إلى الحياة أخرى. وأما وجه دلالته على النبوة فلأنه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين، وفى بعثة الأنبياء والرسل إلى الخلق منافع عظيمة، فما المانع من بعثتهم إلى الخلق لأجل تحصيل تلك المنافع؟ فقد ثبت أن هذه الكلمة الواحدة كافية فى إقامة الدلالة على تصحيح الأصول الثلاثة التى منها منشؤ كفرهم واستحقاقهم العذاب، ثم فى الآية سؤالان:

﴿السؤال الأول﴾ ما السبب فى أن جعل الإبصار للنهار وهو لأهله؟ (جوابه) تنبيهاً على كمال هذه الصفة فيه.

﴿السؤال الثانى﴾ لما قال (جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) فلم لم يقل والنهار لتبصروا فيه؟ (جوابه) لأن السكون فى الليل هو المقصود من الليل، وأما الإبصار فى النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية.

وأما قوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) خص المؤمنين بالذكر، وإن كانت أدلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ما تقدم فى نظائره.

قوله تعالى : ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل آتوه داخرين﴾.

اعلم أن هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة.

أما قوله (ويوم ينفخ فى الصور) ففيه وجوه: (أحدها) أنه شىء شبيه بالقرن، وأن إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه باذن الله تعالى، فاذا سمع الناس ذلك الصوت وهو فى الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون. وهو كقوله تعالى (فاذا نقر فى الناقور) وهذا قول الأكثرين (وثانيها) يجوز أن يكون تمثيلا لدعاء الموتى فإن خروجهم من قبورهم كخروج الجيش

www.besturdubooks.wordpress.com

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ

عند سماع صوت الآلة (وثالثها) أن الصور جمع الصور وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والأول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه .

أما قوله (ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) فاعلم أنه إنما قال ففزع ولم يقل فيفزع للاشعار بتحقيق الفزع وثبوته ، وأنه كائن لامحالة لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى .

أما قوله (إلا من شاء الله) فالمراد إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وملك الموت ، وقيل الشهداء ، وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش ، وعن جابر موسى منهم لأنه صعق مرة ومثله قوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) وليس فيه خبر مقطوع ، والكتاب إنما يدل على الجملة .

أما قوله (وكل أتوه داخرين) فقرىء أتوه وأتاه ودخرين وداخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر ، وقيل معنى الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ، ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمر الله وانقيادهم له .

قوله تعالى : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

اعلم أن هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهى تسيير الجبال ، والوجه فى حسبانهم أنها جامدة فلأن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد فى السمت والكيفية ظن الناظر اليها أنها واقفة مع أنها تمر مراً حثيثاً .

أما قوله (صنع الله) فهو من المصادر المؤكدة كقوله (وعد الله) و(صبغة الله) إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ ، والمعنى أنه لما قدم ذكر هذه الأمور التى لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الأشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب قال القاضى عبد الجبار فيه دلالة على أن القبائح ليست من خلقه وإلا وجب وصفها بأنها متقنة ولكن الإجماع مانع منه (والجواب) أن الإتقان لا يحصل إلا فى المركبات فيمتنع وصف الأعراض بها والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكبت

www.besturdubooks.wordpress.com

بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما تكلم فى علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف إما أن يكون مطيعاً أو عاصياً ، أما المطيع فهو الذى جاء بالحسنة وله أمران (أحدهما) أن له ما هو خير منها وذلك هو الثواب ، فان قيل الحسنة التى جاء العبد بها يدخل فيها معرفة الله تعالى والإخلاص فى الطاعات والثواب . إنما هو الأكل والشرب فكيف يجوز أن يقال الأكل والشرب خير من معرفة الله (جوابه) من وجوه : (أحدها) أن ثواب المعرفة النظرية الحاصلة فى الدنيا هى المعرفة الضرورية الحاصلة فى الآخرة ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى . وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هى هذه اللذة ، ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الأكل والشرب خيراً من معرفة الله تعالى وأنه باطل (وثانيها) أن الثواب خير من العمل من حيث إن الثواب دائم والعمل منقضى ولأن العمل فعل العبد ، والثواب فعل الله تعالى (وثالثها) فله خير منها) أى له خير حاصل من جهتها وهو الجنة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ الحسنة لفظة مفردة معرفة ، وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفى فى تحققها حصول فرد ، وإذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأناً وأعلاها درجة وهو الإيمان ، فلهذا قال ابن عباس من أفراد الحسنة كلمة الشهادة ، وهذا يوجب القطع بأن لا يعاقب أهل الإيمان (وجوابه) ذلك الخير هو أن لا يكون عقابه مخلداً (الأمر الثانى) للمطيع هو أنهم آمنون من كل فزع ، لا كما قال بعضهم إن أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر ، فإن قيل أليس أنه تعالى قال فى أول الآية (ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) فكيف نفى الفزع ههنا ؟(جوابه) أن الفزع الأول هو مالا يخلو منه أحد عند الإحساس لشدة تقع وهو يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه كما قيل ، يدخل الرجل بصدر هياب وقلب وجاب ، وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة ، وأما الثانى فالخوف من العذاب . أما قراءة من قرأ من فزع بالتنوين فهى تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب ، وأما ما يلحق الإنسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك منه أحد ، وفى الأخبار ما يدل عليه ، ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف ، وهو خوف النار وأمن يعدى بالجار وبنفسه كقوله تعالى (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله) فهذا شرح حال المطيعين ، أما شرح حال العصاة فهو قوله (ومن جاء بالسيئة) قيل السيئة الإشراك وقوله (فكبت وجوههم فى النار) فاعلم أنه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل فكبوا فى النار كقوله (فكبكبوا) ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذاناً بأنهم يلقون على وجوههم فيها مكبوبين .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

أما قوله (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) فيجوز فيه الالتفات ، وحكاية ما يقال لهم عند الكب باضمار القول .

قوله تعالى : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب ، وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال : قل يامحمد إنى أمرت بأشياء (الأول) أنى أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكا ، وأن الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمداً بأن يقول لهم هذه الدلائل التى ذكرتها لكم إن لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد أفادت لى ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها ، فإنى مصر عليها غير مرتاب فيها . ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين (أحدهما) أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وإنما اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه .

أما قوله (الذى حرمها) فقرىء التى حرمها ، وإنما وصفها بالتحريم لوجوه (أحدها) أنه حرم فيها أشياء على من يحج (وثانيها) أن اللاجىء إليها آمن (وثالثها) لاينتهك حرمتها إلا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وإنما ذكر ذلك لأن العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا أن تلك الفضيلة ليست من الأصنام بل من الله تعالى ، فكأنه قال لما علمت وعلمتم أنه سبحانه هو المتولى لهذه النعم وجب على أن أخصه بالعبادة (وثانيها) وصف الله تعالى بقوله (وله كل شىء) وهذا إشارة إلى ماتقدم من الدلائل المذكورة فى هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقاً لجميع النعم فأجمل ههنا تلك المفصلات ، وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول إن كل العالم له وكل الناس فى طاعته (الثانى) أمر بأن يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

من المسلمين (الثالث) أمر بأن يتلو القرآن عليهم ، ولقد قام بكل ذلك صلوت الله عليه أتم قيام فمن اهتدى فى هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهى التوحيد والحشر والنبوة (فانما يهتدى لنفسه) أى منفعة اهتدائه راجعة إليه (ومن ضل) فلا على وما أنا إلا رسول منذر ، ثم إنه سبحانه ختم هذه [السورة] بخاتمة فى نهاية الحسن وهى قوله (وقل الحمد لله) على ما أعطانى من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقنى من القيام بأداء الرسالة وبالإنذار (سيريكم آياته) القاهرة (فتعرفونها) لكن حين لا ينفعكم الإيمان (وما ربك بغافل عما تعملون) لأنه من وراء جزاء العاملين ، والله أعلم

تم تفسير السورة والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد النبى الأمى
وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين .
والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة النمل

مكيةٌ كلُّها في قول الجميع، وهي ثلاثٌ وتسعون آية. وقيل: أربعٌ وتسعون آية[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مضى الكلام في الحروف المُقطَّعة في «البقرة»[2] وغيرها. و«تِلْكَ» بمعنى هذه، أي: هذه السورةُ آياتُ القرآن وآياتُ كتابٍ مبين[3]. وذَكَرَ القرآنَ بلفظ المعرفة، وقال: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بلفظ النَّكِرة، وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول: فلانٌ رجلٌ عاقل، وفلانٌ الرجلُ العاقلُ.

والكتاب: هو القرآن، فجمَعَ له بين الصِّفتين: بأنَّه قرآنٌ وأنَّه كتاب؛ لأنَّه ما يظهر بالكتابة، ويظهر بالقراءة[4]. وقد مضى اشتقاقُهما في «البقرة»[5]. وقال في سورة الحجر [1-2]: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأخرجَ الكتابَ بلفظ المعرفة والقرآنَ بلفظِ النَّكِرة؛ وذلك لأنَّ القرآنَ والكتابَ اسمانِ يصلُحُ لكلِّ واحدٍ منهما أن يُجعَلَ معرفةً، وأن يُجعَلَ صفةً.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٤ .

(٢) ١/ ٢٣٧-٢٤٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١١٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٩٢ .

(٥) ١/ ١٦١-١٦٢ و ٢٤٥ .

ووصفَه بالمبين لأنَّه بَيَّنَ فيه أمرَه ونهيَه وحلالَه وحرامَه ووعدَه ووعيدَه[١]، وقد تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «هُدًى» في موضع نصبٍ على الحال من الكتاب، أي: تلكَ آياتُ الكتابِ هاديةً ومُبَشِّرة[٣]. ويجوزُ فيه الرفعُ على الابتداء، أي: هو هدى[٤]. وإن شئتَ على حذفِ حرف الصِّفة، أي: فيه هدى. ويجوزُ أن يكون الخبرُ «لِلْمُؤْمِنِينَ».

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وقد مضى في أوّل «البقرة»[٥] بيانُ هذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بالبعث. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ قيل: أعمالَهم السيئةَ حتى رأوها حسنة[٦]. وقيل: زيَّنَّا لهم أعمالَهم الحسنةَ فلم يعملوها. وقال الزَّجّاج[٧]: جعلنا جزاءَهم على كفرهم أنْ زيَّنَّا لهم ما لهم فيه. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتردَّدون في أعمالهم الخبيثة، وفي ضلالتهم. عن ابن عباس. أبو العالية: يتمادَون. قتادة: يلعبون. الحسن: يتحيَّرون؛ قال الراجز:

وَمَهْمَهٍ أطرافُهُ في مَهْمَهِ ... أَعْمَى الهُدى بالحائرينَ العُمَّهِ[٨]

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو جهنم. ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ

(١) النكت والعيون ٤/ ١٩٢ .

(٢) ١١/ ٢٤١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠٧ .

(٤) يعني: في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمر كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٨ .

(٥) ١/ ٢٥١ - ٢٧٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٦٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ١٠٨ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٩٣ . والرجز قائله رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه في مجموع أشعار العرب ص١٦٦ .

﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. «فِي الآخِرَةِ» تبيينٌ وليس بمتعلِّقٍ بالأخسرين، فإنَّ من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم، فهم أخسَرُ كلِّ خاسِرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: يُلقى عليك فتلَقَّاه وتعلَمُه وتأخذُه[1]. ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ «لَدُنْ» بمعنى عند، إلَّا أنَّها مبنِيَّةٌ غيرُ مُعرَبة؛ لأنَّها لا تتمكَّن[2]، وفيها لغاتٌ ذُكِرَتْ في «الكهف»[3]. وهذه الآية بساطٌ وتمهيدٌ لِما يُريد أن يسوق من الأقاصيص[4]، وما في ذلك من لطائفِ حكمتِه، ودقائقِ علمِه.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ﴾ «إِذْ» منصوبٌ بِمُضمَرٍ وهو اذْكُرْ؛ كأنَّه قال على أثر قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾: خُذْ يا محمدُ من آثار حكمتِه وعلمِه قصةَ موسى إذ قال لأهله[5]: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي: أبصرتُها من بعد. قال الحارث بن حِلِّزَة:

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٢ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٩٨ .

(٣) عند تفسير الآية (٦٥).

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٠ .

(٥) الكشاف ٣/ ١٣٧ .

آنَسَتْ نَبْأَةً وَأَفْزَعَها القُنّـ ـاصُ عَصْراً وقَدْ دَنا الإمْساءُ[١]

﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» بتنوين «شِهابٍ». والباقون بغير تنوين على الإضافة[٢]، أي: بشعلة نار[٣]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وزعمَ الفرَّاءُ في ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم: ولَدارُ الآخرة، ومسجد الجامع، وصلاة الأولى، يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماؤه. قال النحَّاس: إضافةُ الشيء إلى نفسِه مُحالٌ عند البصريين؛ لأنَّ معنى الإضافة في اللغة: ضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ، فمُحالٌ أن يُضَمَّ الشيءُ إلى نفسه، وإنَّما يُضافُ الشيءُ ليتبيَّنَ به معنى الملك أو النوع، فمُحالٌ أن يتبيَّنَ أنه مالِكٌ نفسَه أو من نوعها. و«شِهابِ قبسٍ» إضافةُ النوع إلى الجنس[٤]، كما تقول: هذا ثوبُ خَزٍّ، وخاتمُ حديدٍ، وشبهه. والشهابُ: كلُّ ذي نُور، نحو: الكوكبُ والعُود الموقَدُ. والقَبسُ: اسمٌ لما يُقتَبس من جمرٍ وما أشبهه؛ فالمعنى: بشهاب من قبس. يقال: قبست[٥] قبساً؛ والاسم قبس. كما تقول: قبضت قبضاً. والاسم القبض. ومن قرأ: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» جعله بدلاً منه[٦]. المهدوي: أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسماً غير صفة، ويجوز أن يكون صفة؛ فأما كونه غير[٧] صفة فلأنهم قالوا: قبسته أقبسه قبساً والقبس المقبوس؛ وإذا كان صفةً فالأحسن أن يكون نعتاً. والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن. وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه. ولو قرئ

---

(١) سلف ١٥/ ١٨٩ .

(٢) السبعة ص٤٧٨ ، والتيسير ١٦٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٣٧ .

(٤) في النسخ: والجنس. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) في (د): اقتبست. وفي (ظ) و(م): أقبست. والمثبت من إعراب القرآن.

(٦) من قوله: وزعم الفراء... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ١٩٨-١٩٩ . وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٦ .

(٧) كلمة «غير» يقتضيها السياق، وهي من (م)، وليست في بقية النسخ.

بنصب قبس على البيان أو الحال لجاز[١]. النَّحَّاس[٢]: ويجوز في غير القرآن بشهابٍ قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال. «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أصل الطاء تاءٌ فأبدلَ منها هنا طاءً؛ لأنَّ الطاءَ مُطبَقةٌ والصادَ مُطبَقةٌ فكان الجمعُ بينهما حسناً.

ومعناه: يستدفئون من البرد[٣]. يقال: اصطلى يصطلي إذا استدفأ. قال الشاعر:

النَّارُ فاكهةُ الشِّتاءِ فمن يُرِدْ أكلَ الفواكهِ شاتياً فليصْطَلِ

الزَّجَّاج[٤]: كل أبيض ذي نُور فهو شهاب. أبو عبيدة[٥]: الشهاب النار. قال أبو النَّجم:

كأنَّما كان شهاباً واقِدا أضاءَ ضوءاً ثمَّ صارَ خامِدا

أحمد بن يحيى: أصلُ الشهاب: عُودٌ في أحدِ طَرفيه جمرةٌ والآخرُ لا نارَ فيه، وقولُ النحَّاسِ فيه حسن. والشهابُ: الشُّعاعُ المُضيء، ومنه الكوكب الذي يمدُّ ضوءَه في السماء. وقال الشاعر:

في كفِّهِ صَعْدَةٌ مُثقَّفةٌ فيها سِنانٌ كشُعلةِ القَبَسِ[٦]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: فلمَّا جاءَ موسى الذي ظنَّ أنَّه نارٌ وهي نور؛ قال[٧] وهب بن مُنبِّه: فلمَّا رأى موسى النَّارَ وقفَ قريباً منها، فرآها تخرجُ من فرع شجرةٍ خضراءَ شديدةِ الخُضْرةِ يُقال لها: العُلَّيق، لا تزدادُ النَّارُ إلَّا عِظَماً وتضرُّماً،

(١) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: كان. وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣١.
(٢) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: أحسن. والكلام الآتي في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٩.
(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٩.
(٤) في معاني القرآن له ٤/ ١٠٨.
(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٩٢.
(٦) قائله أبو زبيد الطائي كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦١٠، ولفظه فيه:

فجالَ في كفِّه مُثقَّفةٌ تلمعُ فيها كشعلةِ القبسِ

(٧) في النسخ: قاله. والمثبت من النكت والعيون.

ولا تزدادُ الشَّجرةُ إلا خُضرةً وحُسناً، فعجب منها وأهوى إليها بضِغْثٍ في يده ليقتبِسَ منها، فمالَتْ إليه، فخافَها، فتأخَّرَ عنها، ثم لم تزَلْ تُطْمِعهُ ويطمَعُ فيها إلى أن وضَحَ أمرُها على أنَّها مأمورةٌ لا يُدرى مَنْ أمَرَها، إلى أن ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1]. وقد مضى هذا المعنى في «طه»[2]. ﴿نُودِىَ﴾ أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ قال الزَّجَّاج: «أَنْ» في موضعِ نصب، أي: بأنه. قال: ويجوزُ أن تكون في موضعِ رَفْعٍ جعلها اسمَ ما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ. وحكى أبو حاتم أنَّ في قراءة أُبيٍّ وابنِ عبَّاسٍ ومجاهد: «أن بُورِكَتِ النَّارُ ومَنْ حولها»[3]. قال النحَّاس: ومِثْلُ هذا لا يوجَدُ بإسنادٍ صحيح، ولو صَحَّ لكان على التفسير، فتكونُ البركةُ راجعةً إلى النَّارِ ومَنْ حولَها الملائكة وموسى. وحكى الكسائيُّ عن العرب: باركَكَ اللهُ، وباركَ فيك[4]. الثعلبي: العربُ تقول: باركَكَ الله، وبارَكَ فيك، وبارَكَ عليك، وبارَكَ لكَ، أربع لغات[5]. قال الشاعر:

فَبُورِكْتَ مولوداً وبُورِكْتَ ناشِئاً   وبُورِكْتَ عند الشَّيْبِ إذْ أنتَ أشْيَبُ[6]

الطبري: قال: «بُورِكَ مَنْ في النَّارِ» ولم يقُلْ: بُورِكَ في مَنْ في النار[7]، على لغةِ من يقول: باركَكَ الله[8]. ويُقال: بارَكَه اللهُ، وبارَكَ له، وبارَكَ عليه، وبارَكَ فيه

---

(١) من قوله: والشهاب الشعاع... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٩٤-١٩٥ .

(٢) ١٤/ ١٨-١٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ عن أُبيٍّ وحده، وهي قراءة شاذة.

(٤) من قوله: أن بورك... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٩ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٩.

(٥) وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٦ ثلاث لغات، يعني: لم يذكر الأخيرة.

(٦) قائله الكميت، وهو في ديوانه ٢/ ١٨٧ (طبعة عالم الكتب).

(٧) في النسخ: بورك على النار. والمثبت من تفسير الطبري.

(٨) تفسير الطبري ١٨/ ١٢ .

بمعنًى، أي: بُورِكَ على مَنْ في النَّار وهو موسى، أو على مَنْ في قُرْبِ النَّار، لا أنَّه كان في وسطها ـ وقال السُّدِّي: كان في النار ملائكة ـ فالتبريكُ عائدٌ إلى موسى والملائكة، أي: بُورِكَ فيكَ يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولها. وهذا تحيةٌ من الله تعالى لموسى وَتكْرِمَةٌ له، كما حيَّا إبراهيمَ على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[(١)] [هود:٧٣]. وقولٌ ثالثٌ قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جُبَير: قُدِّس مَنْ في النار، وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسَه تقدَّس وتعالى[(٢)]. قال ابن عباس ومحمد بن كعب: النَّارُ نورُ الله عزَّ وجلَّ[(٣)]، نادى الله موسى وهو في النور[(٤)]، وتأويل هذا: أنَّ موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنَّه ناراً[(٥)]؛ وهذا لأنَّ الله تعالى ظهرَ لموسى بآياتِه وكلامِه من النَّار لا أنَّه يتحيَّزُ في جهة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]. لا أنَّه يتحيَّزُ فيهما، ولكن يظهر في كلِّ فعلٍ فيعلَمُ به وجودَ الفاعل. وقيل على هذا: أي: بُورِكَ مَنْ في النار سلطانُه وقدرتُه[(٦)]. وقيل: أي: بُورِكَ ما في النَّارِ من أمرِ الله تعالى الذي جعلَه علامةً.

قلتُ: ومما يدلُّ على صِحَّة قولِ ابن عباس ما خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه»، وابن ماجه في «سننه» واللفظ له عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفَعُه، حجابُه النُّور، لو كشفَها لأحرقَتْ سُبحاتُ وجهِه كلَّ شيءٍ أدركَهُ بصَرُه» ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا

(١) الوسيط ٣/٣٦٨، وتفسير البغوي ٣/٤٠٦ بنحوه. وقول السدي في النكت والعيون ٤/١٩٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/٤٠٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٢٦) و(١٦١٢٧) عن ابن عباس، و(١٦١٣٤) عن محمد بن كعب.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٣١) عن سعيد بن جبير.

(٥) الوسيط ٣/٣٦٩.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/١٩٩.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أخرجه البيهقي أيضاً. ولفظُ مسلم عن أبي موسى قال: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ بخمسِ كلمات، فقال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القِسْطَ ويرفعُه، يُرفَعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ عملِ النَّهار، وعملُ النهار قبلَ عملِ الليل، حجابُه النور ـ وفي رواية أبي بكر[١]: النار ـ لو كشفَه لأحرقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بصرُه مِنْ خَلْقِه»[٢] قال أبو عبيد[٣]: يقال: السُّبُحات إنَّها جلالُ وَجْهِه، ومنها قيل: «سُبحانَ اللهِ» إنَّما هو تعظيمٌ له وتنزيه. وقوله: «لو كشفَها» يعني: لو رفعَ الحجابَ عن أعينهم ولم يُثَبِّتْهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لها[٤].

قال ابن جُرَيج: النارُ حِجابٌ من الحُجُب وهي سبعة حُجُب: حِجابُ العِزَّة، وحِجابُ المُلْك، وحِجابُ السلطان، وحِجاب النَّار، وحِجابُ النُّور، وحِجابُ الغمام، وحِجابُ الماء. وبالحقيقة فالمخلوق المحجوب، واللهُ لا يَحجُبه شيء[٥]، فكانتِ النارُ نوراً، وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأنَّ موسى حسِبَه ناراً، والعربُ تضَعُ أحدَهما موضِعَ الآخر.

وقال سعيد بن جُبَير: كانتِ النَّارُ بعينِها، فأسمعَه تعالى كلامَه من ناحيتِها، وأظهرَ له ربوبيتَه من جهتِها. وهو كما رُويَ أنَّه مكتوبٌ في التوراة: «جاء اللهُ من سيناء، وأشرفَ من ساعير، واستعلى من جبال فاران». فمجيئه من سيناء بِعثةُ موسى منها، وإشرافُه من ساعير بِعثةُ المسيحِ منها، واستعلاؤه من فاران بِعثةُ محمدٍ ﷺ، وفاران مكة[٦]. وسيأتي في «القصص» بإسماعه سبحانَه كلامَه من الشجرة زيادةُ بيانٍ

---

(١) يعني ابن أبي شيبة، وهي رواية عند مسلم.

(٢) صحيح مسلم (١٧٩): (٢٩٣)، وسنن ابن ماجه (١٩٦)، والأسماء والصفات للبيهقي (٣٩١) و(٣٩٢). وأخرجه أحمد (١٩٦٣٢) بلفظ مسلم، و(١٩٥٨٧) بلفظ ابن ماجه.

(٣) في غريب الحديث ٣/ ١٧٣.

(٤) إكمال المعلم ١/ ٥٣٧ بنحوه.

(٥) واضح في النص أعلاه إثبات الحجاب لله، وأنه النور أو النار وقد تكلم ابن أبي زمنين في هذه المسألة في كتابه: أصول السنة ص ١٠٦. فليراجع.

إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيهاً وتقديساً للهِ ربِّ العالمين. وقد تقدَّم في غير موضع، والمعنى: أي: ويقول مَنْ حولها: «وسُبْحانَ اللهِ» فحذف. وقيل: إنَّ موسى عليه السلام قاله حين فرغَ من سماع النداء؛ استعانةً بالله تعالى وتنزيهاً له. قاله السُّدِّي. وقيل: هو من قول الله تعالى. ومعناه: وبُورِكَ فيمَنْ سبَّحَ اللهَ تعالى ربَّ العالمين. حكاه ابن شجرة[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الهاء عمادٌ وليست بكنايةٍ في قول الكوفيين[٢]. والصحيح أنَّها كنايةٌ عن الأمرِ والشأن[٣] «أنا اللهُ العزيزُ» الغالبُ الذي ليس كمثله شيء «الحَكِيمُ» في أمرِه وفِعْلِهِ[٤]. وقيل: قال موسى: يا ربِّ، مَنِ الذي نادى؟ فقال له: «إنَّهُ» أي: إنِّي أنا المُنادي لك، أنا اللهُ[٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال وهب بن مُنبِّه: ظَنَّ موسى أنَّ الله أمرَه أنْ يرفُضَها فرفَضَها[٦]. وقيل: إنَّما قال له ذلك؛ ليعلم موسى أنَّ المُكَلِّمَ له هو الله، وأنَّ موسى رسوله؛ وكلُّ نبيٍّ لابُدَّ له من آيةٍ في نفسه يعلم بها نبوَّتَه.

وفي الآية حذف: أي: وألْقِ عصاكَ، فألقاها من يدِه فصارت حَيَّةً[٧] تهتز كأنَّها جانٌّ: وهي الحيَّةُ الخفيفةُ الصغيرةُ الجسم[٨]. وقال الكلبي: لا صغيرةً ولا كبيرة[٩].

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٩٥ .

(٢) وهو قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ . ونقل الطبري ١٨/ ١٤ عن بعض نحويِّي الكوفة أنهم يسمُّونها الهاء المجهولة.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٩٩ بنحوه .

(٥) زاد المسير ٦/ ١٥٦ عن السدي .

(٦) النكت والعيون ٤/ ١٩٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٥٦ .

(٨) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٤ .

(٩) وقاله الفراء في معاني القراء ٢/ ١٨٧ .

وقيل: إنَّها قُلِبَتْ له أوّلاً حيَّةً صغيرةً، فلمَّا أنسَ منها قُلِبَتْ حيَّةً كبيرةً[١]. وقيل: انقلبت مرَّةً حيَّةً صغيرة، ومرَّةً حيَّةً تسعى وهي الأنثى، ومرَّةً ثعباناً وهو الذَّكرُ الكبيرُ من الحيَّات. وقيل: المعنى: انقلبَتْ ثعباناً تهتزُّ كأنَّها جانٌّ، لها عِظَمُ الثُّعبان وخِفَّةُ الجانِّ واهتزازُه وهي حيَّةٌ تسعى[٢]. وجمع الجانِّ جِنَّان[٣]؛ ومنه الحديث: نهى عن قتل الجِنَّانِ التي في البيوت[٤]. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ خائفاً على عادة البشر ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجِعْ. قاله مجاهد[٥]. وقال قتادة: لم يلتفِتْ[٦]. ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي: من الحية وضررها. ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وتمَّ الكلامُ ثم استثنى استثناءً منقطعاً فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾. وقيل: إنه استثناءٌ من محذوف، والمعنى: إنِّي لا يخافُ لديَّ المرسلون، وإنَّما يخاف غيرُهم مِمَّن ظَلم ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنَّه لا يخاف. قاله الفرَّاء.

قال النَّحَّاس: استثناءٌ من محذوفٍ مُحال؛ لأنَّه استثناءٌ من شيءٍ لم يُذكَرْ، ولو جازَ هذا لجازَ: إنِّي لأَضرِبُ القومَ إلَّا زيداً، بمعنى: إنِّي لا أضرِبُ القومَ، وإنَّما أضرِبُ غيرَهم إلَّا زيداً، وهذا ضِدُّ البيان، والمجيءُ بما لا يُعرَفُ معناه. وزعمَ الفرَّاء أيضاً أنَّ بعضَ النَّحْويِّين يجعل إلَّا بمعنى الواو، أي: ولا مَنْ ظلم؛ قال:

وكلُّ أخٍ مفارِقُه أخوهُ لَعَمْرُ أبيكَ إلَّا الفَرْقَدانِ[٧]

قال النَّحَّاس: وكَوْنُ «إلَّا» بمعنى الواو لا وجهَ له، ولا يجوز في شيءٍ من الكلام، ومعنى «إلَّا» خلافُ الواو؛ لأنَّكَ إذا قلتَ: جاءني إخوتُكَ إلَّا زيداً ممَّا دخلَ

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٦ .

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٠٠ .

(٣) الصحاح (جنن).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٥٤٧)، والبخاري (٣٣١٢)، ومسلم (٢٢٣٣) من حديث أبي لبابة ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٥ ، وهو في تفسيره ٢/ ٤٦٩ .

(٦) أخرجه عبد الرازق في تفسيره ٢/ ٧٩ ، والطبري ١٨/ ١٥ .

(٧) سلف ١١/ ٥٤ .

فيه الإخوةُ، فلا نِسبةَ بينهما ولا تقارُبَ(١). وفي الآية قولٌ آخر: وهو أن يكون الاستثناءُ متصلاً، والمعنى: إلَّا مَنْ ظلَمَ من المرسلين بإتيان الصغائرِ التي لا يَسلَمُ منها أحد، سوى ما رُويَ عن يحيى بن زكريا عليهما السلام، وما ذكره الله تعالى في نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ذكره المَهدَويُّ واختاره النحَّاس، وقال: عَلِمَ اللهُ من عصى منهم يُسِرُّ الخيفةَ(٢)، فاستثناه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنه يخافُ وإنْ كنتَ قد غفرتَ له(٣). الضَّحَّاك: يعني آدمَ وداودَ عليهما السلام. الزَّمخشري(٤): كالذي فَرَطَ من آدمَ ويونسَ وداودَ وسليمانَ وإخوةِ يوسف، ومن موسى عليه السلام بِوَكزِه القِبطي.

فإن قال قائلٌ: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيلُ العلماءِ بالله عزَّ وجلَّ أن يكونوا خائفين من معاصيهم وَجِلين، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشراط التوبة شيءٌ لم يأتوا به، فهم يخافون من المُطالبةِ به(٥). وقال الحسن وابن جُريج: قال الله لموسى: إني أخَفتُكَ لقتلِكَ النفس. قال الحسن: وكانتِ الأنبياءُ تُذنِبُ فتُعاقَبُ(٦). قال الثعلبي والقشيري والماوردي(٧) وغيرهم: فالاستثناء على هذا صحيح، أي: إلَّا مَنْ ظلَمَ نفسَه من النبيِّين والمرسلين فيما فعَلَ من صغيرةٍ قبل النبوة. وكان موسى خافَ من قتل القِبطيِّ وتابَ منه. وقد قيل: إنَّهم

(١) من قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾... إلى هذا الموضع دون ذكر البيت من إعراب القرآن ٣/ ١٩٩-٢٠٠. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٧.

(٢) قوله: «يُسِرُّ الخيفة» من إعراب القرآن وهو ليس في النسخ.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٤) في الكشاف ٣/ ١٣٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٦) هذا بتمامه من قول الحسن وحده كما أخرجه الطبري ١٨/ ١٦، أما قول ابن جريج فلفظه: لا يُخيف الله الأنبياء إلا بذنبٍ يصيبُه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ١٩٧ بنحو ما سيرد.

بعد النبوة معصومونَ من الصغائر والكبائر. وقد مضى هذا في «البقرة»[1].

قلتُ: والأوّلُ أصَحُّ لِتنصُّلِهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة، فإذا أحدثَ المُقرّبُ حدَثاً فهو وإنْ غُفِرَ له ذلك الحدَثُ فأثرُ ذلك الحدثِ باقٍ، وما دام الأثرُ والتُّهمَةُ قائمةً فالخوف كائنٌ، لا خَوْفَ العقوبةِ ولكِنْ خَوْفَ العَظمةِ، والمُتَّهمُ عند السلطان يجِدُ لِلتُّهمَةِ حزازةً تؤدّيه إلى أن يُكَدِّر عليه صفاءُ الثقة. وموسى عليه السلام قد كان منه الحدَثُ في ذلك الفِرعوني، ثم استغفر وأقرَّ بالظلم على نفسه، ثم غفَرَ له، ثم قال بعد المغفرة: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] ثم ابتُلِيَ من الغدِ بالفرعونيِّ الآخَرِ وأراد أن يبطِشَ به، فصار حدَثاً آخر بهذه الإرادة. وإنَّما ابتُليَ من الغدِ؛ لقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وتلك كلمةُ اقتدارٍ من قولِهِ: لن أفعل، فعُوقِبَ بالإرادة حينَ أرادَ أن يبطِشَ ولم يفعل، فسُلِّطَ عليه الإسرائيليُّ حتى أفشى سرَّه؛ لأنَّ الإسرائيليَّ لمَّا رآه تشمَّرَ للبطش ظنَّ أنه يُريدُه، فأفشى عليه فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] فهربَ الفِرعونيُّ وأخبر فرعونَ بما أفشى الإسرائيليُّ على موسى، وكان القتيلُ بالأمس مكتوماً أمْرُه لا يُدْرَى مَنْ قتَلَه، فلمَّا عَلِمَ فرعونُ بذلك، وجَّه في طلب موسى يقتُلَه، واشتدَّ الطَّلَبُ، وأخذوا مَجامِعَ الطُّرُق؛ جاءَ رجلٌ يسعى فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآية [القصص: ٢٠]، فخرج كما أخبر الله. فَخوفُ موسى إنَّما كان من أجل هذا الحدَثِ، فهو وإن قَرَّبه ربُّه وأكرَمَه واصطفاه بالكلام فالتُّهمَةُ الباقيةُ ولَّتْ به ولم يُعقِّبْ.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ تقدَّم في «طه»[2] القولُ فيه. ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ قال النَّحّاس[3]: أحسَنُ ما قيل فيه أنَّ المعنى: هذه الآيةُ داخلةٌ

(١) ١/٤٥٨ - ٤٦٠.

(٢) ١٤/٤٩ - ٥٠.

(٣) في إعراب القرآن ٣/٢٠١.

في تسع آيات. المهدَويُّ: المعنى: «أَلْقِ عَصاكَ» «وأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ»، فهما آيتانِ من تسع آيات[١]. وقال القُشَيريُّ: معناه: كما تقول: خرجتُ في عشرة نَفَرٍ وأنتَ أحَدُهم. أي: خرجتُ عاشِرَ عشرة.

ف «في» بمعنى «من» لِقُرْبها منها، كما تقول: خُذْ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي: منها. وقال الأصمعيُّ في قول امرئ القيس:

وهل يَنْعَمَنْ مَنْ كان آخِرُ عهدِهِ ثلاثينَ شهراً في ثلاثةِ أحوالِ[٢]

في بمعنى من. وقيل: في بمعنى مع[٣]، فالآيات عشرةٌ منها اليد، والتسع: الفَلْقُ والعصا والجرادُ والقُمَّلُ والطُّوفانُ والدَّمُ والضفادعُ والسِّنينَ والطَّمْسُ. وقد تقدَّم بيانُ جميعِه[٤]. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاء: في الكلام إضمارٌ لدِلالةِ الكلامِ عليه، أي: إنك مبعوثٌ أو مُرسلٌ إلى فرعونَ وقومه[٥]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحةً بيِّنة[٦]. قال الأخفش[٧]: ويجوزُ مَبْصَرة وهو مصدر، كما يُقال: الولدُ مَجْبَنة. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ جَرَوا على عادتهم في التكذيب؛ فلهذا قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: تيقَّنوا أنَّها من عند الله وأنَّها ليست سحراً، ولكنَّهم كفروا بها وتكبَّروا أن يؤمنوا بموسى[٨]. وهذا يدلُّ على أنهم كانوا مُعانِدين. و«ظُلْماً» و«عُلُوًّا» منصوبان على نعتِ

(١) وقاله النحاس في معاني القرآن ٥/ ١١٨ .
(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٧ ، وفيه: وهل يَعِمَنْ من كان أحدثَ عهدِهِ .
(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١١٨ .
(٤) عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الإسراء .
(٥) معاني القرآن للفراء ٤/ ٢٨٨ بنحوه .
(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٠٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٥٨ .
(٧) فيما نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٠١ .
(٨) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١١ بنحوه .

مصدرٍ محذوف، أي: وجَحدوا بها جُحوداً ظلماً وعُلُوًّا. والباء زائدة، أي: وجحدوها. قاله أبو عبيدة[(١)]. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخِرُ أمرِ الكافرين الطاغين، انظر ذلك بِعَينِ قلبِكَ وتدَبَّرْ فيه. الخطابُ له والمُرادُ غيرُه[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ أي فهماً. قاله قتادة. وقيل: علماً بالدين والحكم وغيرهما كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقيل: صنعة الكيمياء. وهو شاذ[(٣)]. وإنَّما الذي آتاهما اللهُ النبوَّةُ والخلافةُ في الأرض والزَّبورُ. ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الآية دليلٌ على شرف العلم وإنافةِ مَحلِّه وتَقدُّمِ حَمَلتِهِ وأهلِهِ، وأنَّ نعمةَ العلم من أجَلِّ النِّعَمِ وأجْزَلِ القِسَمِ، وأنَّ مَنْ أُوتِيَه فقد أُوتيَ فضلاً على كثيرٍ من عباد الله المؤمنين؛ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١]. وقد تقدَّم هذا في غيرِ موضع.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ قال الكلبي: كان لداودَ ﷺ تسعةَ عشرَ ولداً، فوَرِثَ سليمانُ من بينهم نُبوَّته ومُلْكَه، ولو كان وراثةَ مال لَكانَ جميعُ أولادِهِ فيه سواء[(٤)]. وقاله ابنُ العربي[(٥)]؛ قال: فلو كانت وراثةَ مالٍ لانقسمَتْ على العدد، فَخصَّ اللهُ سليمانَ بما كان لداودَ

(١) فيما نقله عنه الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٠٢.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٤ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٩٧ - ١٩٨. وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٧٩).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٩٨.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٦.

من الحكمة والنبوَّة، وزادَه من فضله ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده. قال ابن عطية[١]: داودُ من بني إسرائيل، وكان ملِكاً، وورِثَ سليمانُ مُلكَه ومنزِلَته من النبوَّة، بمعنى: صار إليه ذلكَ بعد موتِ أبيه، فسُمِّي ميراثاً تجوُّزاً، وهذا نحوُ قوله: «العلماءُ ورَثَةُ الأنبياء»[٢]. ويَحتمِلُ قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّا معشَرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»[٣] أنْ يُريدَ أنَّ ذلِكَ مِنْ فِعْلِ الأنبياءِ وسيرتِهم، وإن كان فيهم مَنْ وُرِثَ مالُه كزكرياء على أشهرِ الأقوال فيه، وهذا كما تقول: إنَّا معشرَ المسلمين إنَّما شغَلَتْنا العبادةُ، والمُرادُ أنَّ ذلِكَ فِعْلُ الأكثر. ومنه ما حكى سيبويه: إنَّا معشرَ العربِ أقرى النَّاسِ لِلضَّيف.

قلتُ: قد تقدَّم هذا المعنى في «مريم»[٤] وأنَّ الصحيحَ القولُ الأوَّلُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّا معشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ» فهو عامٌّ، ولا يخرجُ منه شيءٌ إلَّا بدليل.

قال مقاتل: كان سليمانُ أعظمَ مُلكاً من داودَ وأقضى منه، وكان داودُ أشدَّ تعبُّداً من سليمان[٥]. قال غيرُه: ولم يبلُغْ أحدٌ من الأنبياء ما بلَغَ ملكُه؛ فإنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى سخَّر له الإنسَ والجِنَّ والطيرَ والوحشَ، وآتاه ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمين، ووَرِثَ أباه في المُلْكِ والنبوَّة، وقام بعدَه بشريعتِه، وكلُّ نبيٍّ جاء بعد موسى مِمَّنْ بُعِثَ أو لم يُبعَثْ فإنَّما كان بشريعة موسى، إلى أن بُعِثَ المسيحُ عليه السلام فنسخَها. وبينَه وبينَ الهجرة نحوٌ من ألفٍ وثمانِ مئة سنة. واليهودُ تقول: ألفٌ وثلاثُ مئةٍ واثنتانِ وسِتُّون سنة. وقيل: إنَّ بين موتِه وبينَ مولدِ النبيِّ ﷺ نحواً من ألفٍ وسبعِ مئة، واليهودُ تُنقِصُ منها ثلاثَ مئةِ سنة، وعاش نَيِّفاً وخمسين سنة.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٢) سلف ٥/ ٦٤.

(٣) سلف ١١/ ٧٨.

(٤) عند تفسير الآية (٦).

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩١، وعرائس المجالس ص٢٩٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: قال سليمانُ لبني إسرائيل على جهةِ الشُّكرِ لنِعَمِ الله: «عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» أي: تفضَّلَ اللهُ علينا على ما ورَّثنا من داود من العلمِ والنبوَّةِ والخلافةِ في الأرض في أنْ فهَّمَنا من أصواتِ الطيرِ المعاني التي في نفوسنا.

قال مقاتلٌ في الآية: كان سليمانُ جالساً ذاتَ يومٍ إذْ مرَّ به طائرٌ يطوف، فقال لجُلسائه: أتدرونَ ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلامُ عليكَ أيُّها الملِكُ المُسَلَّطُ والنبيُّ لبني إسرائيل، أعطاكَ اللهُ الكرامةَ، وأظهركَ على عدوِّكَ، إني منطلِقٌ إلى أفراخي ثم أمُرُّ بكَ الثانية ـ وإنه سيرجعُ إلينا الثانية ـ ثمَّ رجعَ فقال: إنَّه يقول: السلامُ عليكَ أيُّها الملِكُ المُسَلَّطُ، إنْ شئتَ أن تأذَنَ لي كيما أكتسِبَ على أفراخي حتى يشِبُّوا، ثم آتيكَ فافعَلْ بي ما شئتَ. فأخبرَهم سليمانُ بما قال، وأذِنَ له فانطلَقَ. وقال فَرْقَد السَّبَخِيُّ: مرَّ سليمانُ على بلبلٍ فوقَ شجرةٍ يُحرِّكُ رأسَه ويُميلُ ذَنَبَه، فقال لأصحابه: أتدرونَ ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا نبيَّ الله. قال: إنَّه يقول: أكلتُ نِصْفَ تمرةٍ فعلى الدنيا العَفَاء[1].

ومرَّ بهُدهدٍ فوق شجرة وقد نصبَ له صبيٌّ فخًّا، فقال له سليمان: احذَرْ يا هُدْهُدُ. فقال: يا نبيَّ الله، هذا صبيٌّ لا عقْلَ له فأنا أسخَرُ به. ثم رجعَ سليمانُ فوجدَه قد وقَعَ في حِبالةِ الصبيِّ وهو في يده، فقال: هُدْهُدُ ما هذا؟ قال: ما رأيتُها حتى وقعتُ فيها يا نبيَّ الله. قال: ويحك! فأنتَ ترى الماء تحتَ الأرض أما ترى الفَخَّ؟! قال: يا نبيَّ الله، إذا نزلَ القضاءُ عميَ البصرُ[2].

وقال كعب: صاحَ وَرَشان[3] عند سليمانَ بنِ داود، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لِدُوا للموتِ وابْنوا للخراب. وصاحَتْ فاختة[4]، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: ليتَ هذا الخَلْقَ لم يُخلَقوا، وليتَهم إذْ خُلِقوا عَلِموا

---

(١) عرائس المجالس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/٤٠٩.

(٢) سيرد نحوه عند تفسير الآية (٢٠).

(٣) الوَرَشان: طائر يشبه الحمامة. اللسان (ورش).

(٤) جمعها فواخت: وهي ضربٌ من الحمام المُطوَّق. اللسان (فخت).

لماذا خُلِقوا.وصاح عنده طاوس، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّه يقول: كما تَدينُ تُدان. وصاح عنده هُدهد، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنَّه يقول: من لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ. وصاحَ صُرَدٌ عنده، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: استغفِروا اللهَ يا مذنبين، فمِنْ ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله ـ وقيل: إن الصُّرَدَ هو الذي دلَّ آدمَ على مكان البيت، وهو أوَّلُ من صام؛ ولذلك يُقال للصُّردِ: الصوَّام. رُويَ عن أبي هريرة ـ وصاحت عنده طِيطَوى[1]، فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: كلُّ حيٍّ ميِّتٌ، وكلُّ جديدٍ بالٍ. وصاحت خُطَّافةٌ عنده، فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: قدِّموا خيراً تجدوه. فمِنْ ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها ـ وقيل: إنَّ آدمَ خرجَ من الجنة فاشتكى إلى اللهِ الوَحشة، فآنَسه اللهُ تعالى بالخُطَّافِ وألزمَها البيوت، فهي لا تُفارقُ بني آدمَ أُنْساً لهم. قال: ومعها أربعُ آياتٍ من كتاب اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ [الحشر: ٢١] إلى آخرِها وتمدُّ صوتَها بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ـ وهدرَتْ حمامةٌ عند سليمانَ فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: سُبحانَ ربيَ الأعلى عدد ما في سماواتِه وأرضِه. وصاح قُمْريٌّ عند سليمان، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّه يقول: سُبحان ربيَ العظيم المهيمن[2]. وقال كعب: وحدَّثَهم سليمانُ فقال: الغرابُ يقول: اللهمَّ الْعَنِ العَشَّار. والحِدأةُ تقول: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ. والقَطاةُ تقول: مَنْ سكتَ سَلِمَ. والببغاءُ تقول: ويلٌ لمن الدُّنيا هَمُّه. والضفدع يقول: سُبحانَ ربِّيَ القُدُّوس. والبازي يقول: سُبحانَ ربِّي وبحمدِه. والسرطان[3] يقول: سُبحانَ المذكورِ بكلِّ لسانٍ في كلِّ مكان[4].

وقال مكحول: صاحَ دُرَّاجٌ[5] عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا.

(١) الطيطوى: طائر من طيور الماء لا يفارق الآجام وكثرة الماء. معجم متن اللغة ٣/٦٤٨ .

(٢) في عرائس المجالس: «سبحان الحي الذي لا يموت أبداً» وفي تفسير البغوي: «سبحان ربي الأعلى».

(٣) في عرائس المجالس: والعصفور. وفي تفسير البغوي: والضفدعة.

(٤) عرائس المجالس ص٢٩٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ . وما بين اعتراض ليس فيهما.

(٥) الدُّرَّاج: طائرٌ ظاهرُ جناحه أغبر، وباطنه أسود، وهو شبيهٌ بالحجل. معجم متن اللغة (درج).

قال: إنه يقول: الرَّحمنُ على العرشِ استوى[(١)]. وقال الحسن: قال النبي ﷺ: «الديك إذا صاح قال: اذكروا الله يا غافلين[(٢)]». وقال الحُسين[(٣)] بن علي بن أبي طالب: قال النبيُّ ﷺ: «النَّسرُ إذا صاحَ قال: يا ابنَ آدمَ، عِشْ ما شئتَ فآخِرُكَ الموتُ. وإذا صاحَ العُقَابُ قال: في البُعْدِ من النَّاسِ الرَّاحة. وإذا صاحَ القُنْبرُ قال: إلهي الْعَنْ مُبغِضي آلِ محمدٍ. وإذا صاحَ الخُطَّاف قرأ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخرها، فيقول: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ويمدُّ بها صوتَه كما يمدُّ القارئ»[(٤)].

قال قَتادة والشَّعبي: إنَّما هذا الأمرُ في الطير خاصَّةً؛ لقوله: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ والنَّملةُ طائرٌ إذ قد يُوجَدُ له أجنحة. قال الشَّعبي: وكذلِكَ كانت هذه النَّملةُ ذاتَ جناحين. وقالت فرقةٌ: بل كان في جميع الحيوان، وإنَّما ذكر الطير؛ لأنَّه كان جُنداً من جند سليمان يحتاجه في التَّظليلِ عن الشمس وفي البعث في الأمور، فخُصَّ بالذِّكْرِ لكثرة مداخَلتِه، ولأنَّ أمْرَ سائرِ الحيوان نادرٌ وغيرُ مُتردِّدٍ تَرداد أمرِ الطير[(٥)].

وقال أبو جعفر النَّحَّاس[(٦)]: والمنطِقُ قد يقَعُ لِما يُفهِمُ بغير كلام، واللهُ جلَّ وعزَّ أعلَمُ بما أراد. قال ابن العربي[(٧)]: من قال: إنه لا يعلم إلَّا منطقَ الطير فنُقصانٌ عظيم، وقدِ اتَّفقَ الناسُ على أنَّه كان يفهمُ كلامَ مَنْ لا يتكلَّمُ ويُخلَقُ له فيه القولُ من النبات، فكان كلُّ نبتٍ يقول له: أنا شجَرُ كذا، أنفَعُ من كذا، وأضُرُّ من كذا، فما ظنُّكَ بالحيوان؟!

---

(١) عرائس المجالس ص٢٩٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ .

(٢) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٩٧ من طريق صالح بن بشير المري، عن الحسن ـ وهو البصري ـ مرفوعاً. إسناده منقطع، وصالح المري ضعيف. تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٩-١٩٠ . وذكره الديلمي في الفردوس (٣١٢٩) موقوفاً، وقال: عن الحسن، وربما هو ابن علي.

(٣) في النسخ: الحسن. والمثبت من المصادر.

(٤) هو في عرائس ص٢٩٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ موقوف على الحسين ﷺ.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠١ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٩ .

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ﴾ «حُشِرَ» جُمِعَ[1]، والحَشْرُ: الجَمْعُ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. واختلفَ الناسُ في مقدارِ جُنْدِ سليمانَ عليه السلام، فيُقال: كان معسكرُه مئةَ فرسَخٍ في مئة: خمسةٌ وعشرون للجنِّ، وخمسةٌ وعشرون للإنس، وخمسةٌ وعشرون للطير، وخمسةٌ وعشرون للوحش، وكان له ألفُ بيتٍ من قواريرَ على الخشب، فيها ثلاثُ مئةِ منكوحةٍ وسبعُ مئة سُرِّيَّة[2]. ابن عطية: واختُلِفَ في مُعسكرِه ومقدارِ جُنْدِهِ اختلافاً شديداً، غيرَ أنَّ الصحيحَ أنَّ مُلْكَه كان عظيماً مِلأَ الأرض، وانقادت له المعمورةُ كلُّها. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناهُ: يُرَدُّ أوَّلُهم إلى آخرهم ويُكَفُّون. قال قتادة: كان لكلِّ صنفٍ وَزَعةٌ في رتبتهم ومواضعهم من الكرسيِّ ومن الأرض إذا مَشَوا فيها[3]. يقال: وزِعْتُه أوزِعُه وزَعاً أي: كفَفْتُه. والوازِعُ في الحرب: المُوكَلُ بالصفوف يزَعُ مَنْ تَقدَّمَ منهم[4]. روى محمد بن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكرٍ قالت: لمَّا وقفَ رسولُ الله ﷺ بذي طُوى - تعني يوم الفتح - قال أبو قُحافة - وقد كُفَّ بصرُه يومئذٍ - لابنتِه: اظْهَري بي على أبي قُبَيْس. قالت: فأشَرفْتُ به عليه، فقال: ما تَرَيْنَ؟ قالت: أرى سواداً مُجتمِعاً. قال: تلكَ الخَيلُ. قالت: وأرى رجلاً من السَّواد مُقبِلاً ومُدبِراً. قال: ذلِكَ الوازِعُ يمنعُها أن تنتشِرَ. وذكر تمام الخبر[5]. ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «ما رُؤِيَ الشيطانُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٠، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٧٢، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤١٠ عن محمد بن كعب القرظي.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٩٩.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٧-١١٨. وأخرجه أحمد (٢٦٩٥٦).

يوماً هو فيه أصغَرَ ولا أدْحَرَ ولا أحقَرَ ولا أغْيَظَ منه في يوم عرفةَ، وما ذاكَ إلَّا لِما رأى من تَنزُّلِ الرحمةِ وتَجاوُزِ اللهِ عن الذنوبِ العِظامِ، إلَّا ما رأى يومَ بدر» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «أما أنَّه رأى جبريلَ يَزَعُ الملائكة» خرَّجه الموطأ[١].

ومن هذا المعنى قولُ النَّابغة[٢]:

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبا وقلتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

آخر:

ولمَّا تلاقَينا جَرَتْ من جُفونِنا دموعٌ وَزَعْنا غَرْبَها بالأصابعِ[٣]

آخر:

ولا يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجوجَ عن الهوى من النَّاسِ إلَّا وافِرُ العقلِ كامِلُهْ

وقيل: هو من التوزيع، بمعنى التفريق. والقوم أوزاع، أي: طوائف.

وفي القصة: إنَّ الشياطين نسجَتْ له بساطاً فرسخاً في فرسخٍ ذهباً في إبريسَمَ، وكان يُوضَعُ له كرسيٌّ من ذهبٍ وحولَه ثلاثةُ آلافِ كُرسيٍّ من ذهبٍ وفضَّةٍ، فيقعدُ الأنبياءُ على كراسيِّ الذَّهب، والعلماءُ على كراسيِّ الفِضَّة[٤].

الثانية: في الآية دليلٌ على اتِّخاذِ الإمامِ والحُكَّام وَزَعةً يكُفُّون الناسَ ويمنعونَهم من تطاولِ بعضِهم على بعض؛ إذ لا يُمكِنُ الحكام ذلك بأنفسهم.

وقال ابن عون: سمعتُ الحسنَ يقول وهو في مجلس قضائه لمَّا رأى ما يصنعُ الناسُ قال: واللهِ ما يُصلِحُ هؤلاء الناسَ إلا وَزَعةٌ[٥]. وقال الحسنُ أيضاً: لا بُدَّ

(١) ١/ ٤٢٢، وقد سلف ٣/ ٣٣٩.

(٢) وهو الذبياني، وقد سلف ٨/ ٣٠٨.

(٣) قائله المعلوط السعدي كما في التمهيد ١/ ١١٧. وذكر البيت الذي يليه من غير نسبة.

(٤) عرائس المجالس ص٢٩٦.

(٥) التمهيد ١/ ١١٨.

للناس من وازع، أي: من سلطانٍ يَكُفُّهم[١]. وذكرَ ابنُ القاسم قال: حدَّثنا مالكٌ أنَّ عثمانَ بن عفان كان يقول: ما يَزَعُ الإمامُ أكثرُ ممَّا يَزعُ القرآن، أي: من الناس. قال ابن القاسم: قلتُ لمالك: ما يَزَعُ؟ قال: يَكُفُّ[٢]. قال القاضي أبو بكر ابن العربي[٣]: وقد جهِلَ قومٌ المُرادَ بهذا الكلام، فظنُّوا أنَّ المعنى فيه[٤] أنَّ قُدرة السلطانِ تردَعُ الناسَ أكثرَ ممَّا تردَعُهم حدودُ القرآن، وهذا جهلٌ باللهِ وحكمتِه. قال: فإنَّ اللهَ ما وضعَ الحدودَ إلَّا مصلحةً عامَّةً كافَّةً قائمةً لِقوامِ الخلق، لا زيادةَ عليها، ولا نقصانَ معها، ولا يصلُحُ سواها، ولكنَّ الظَّلَمةَ خاسوا بها، وقَصَّروا عنها، وأَتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصِدوا وجهَ الله في القضاء بها، فلم يرتدِعِ الخلقُ بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامَتِ الأمور، وصلَحَ الجمهور.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّه وادٍ بأرض الشام. وقال كعب: هو بالطائف. ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ قال الشَّعبي: كان للنملةِ جناحانِ فصارت من الطير؛ فلذلِكَ عَلِمَ منطِقَها، ولولا ذلك لَما عَلِمَه[٥]. وقد مضى هذا ويأتي. وقرأ سليمان التَّيمي بمكة: «نَمُلَةٌ» و«النَّمُلُ» بفتح النون وضمِّ الميم.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩١.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٨.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٨-١٤٣٩.

(٤) كلمة «فيه» من (م) ومن أحكام القرآن.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٩٩.

وعنه أيضاً ضَمُّهما جميعاً[١]. وسُمِّيتِ النَّملةُ نملةً لتنمُّلِها وهو كثرةُ حركتِها وقِلَّةِ قرارِها[٢]. قال كعب: مرَّ سليمانُ عليه السلام بوادي السَّدير من أوديةِ الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملةٌ تمشي وهي عرجاءُ تتكاوس[٣]، [وكانت[٤]] مثلَ الذِّئب في العِظَم، فنادت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ الآية[٥]. الزمخشري: سمعَ سليمانُ كلامَها من ثلاثةِ أميال، وكانت تمشي وهي عرجاءُ تتكاوس. وقيل: كان اسمُها طاخية[٦].وقال السُّهيلي[٧]: ذكروا اسمَ النَّملةِ المُكلِّمةِ لسليمانَ عليه السلام، وقالوا: اسمها حرميا، ولا أدري كيف يُتَصَوَّرُ للنملة اسمُ عَلمٍ، والنمل لا يُسمِّي بعضُهم بعضاً، ولا الآدميُّون يمكنهم تسمية واحدةٍ منهم باسم عَلَم؛ لأنَّه لا يتميَّز للآدميين بعضُهم من بعض، ولا هم أيضاً واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإنَّ العلَميةَ فيما كان كذلك موجودةٌ عند العرب. فإن قلتَ: إنَّ العلميةَ موجودةٌ في الأجناس كثُعَالة وأُسَامة وجَعَارِ وقَثَامِ في الضَّبع ونحو هذا كثير، فليس اسمُ النملةِ من هذا؛ لأنَّهم زعموا أنه اسمُ عَلَمٍ لنملةٍ واحدةٍ معينةٍ من بين سائر النمل، وثُعالةُ ونحوُه لا يختَصُّ بواحدٍ من الجنس، بل كلُّ واحدٍ رأيتَه من ذلك الجنس فهو ثُعالة، وكذلك أُسامة وابن آوى وابن عرس وما أشبه ذلك. فإنْ صَحَّ ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملةُ الناطقةُ قد سُمِّيتْ بهذا الاسم في التوراة أو

(١) المحتسب ٢/ ١٣٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ ، وهما قراءتان شاذتان. والقراءة الأولى ذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٨ عن طلحة بن مصرف والمعتمر بن سليمان، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ عن طلحة وأبي مجلز وأبي رجاء وعاصم الجحدري.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠٠ .

(٣) من الكَوْس: وهو المشي على رجلٍ واحدة، ومن ذوات الأربع على ثلاث قوائم. اللسان (كوس).

(٤) كلمة «وكانت» من عرائس المجالس.

(٥) عرائس المجالس ص٢٩٨-٢٩٩ .

(٦) الكشاف ٣/ ١٤١ . وهكذا وردت تسمية النملة في عرائس المجالس ص٢٩٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤١١ عن الضحاك.

(٧) في التعريف والإعلام ص١٢٦-١٢٧ .

في الزَّبور أو في بعض الصُّحُف سمَّاها اللهُ تعالى بهذا الاسم، وعرَفَها به الأنبياءُ قبل سليمانَ أو بعضُهم. وخُصَّتْ بالتسمية لنطقها وإيمانِها، فهذا وجه. ومعنى قولنا: بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ التفاتةُ مؤمن.أي: مِنْ عدل سليمانَ وفضلِه وفضلِ جنوده لا يحطمون نملةً فما فوقها إلا بألَّا يشعروا. وقد قيل: إن تبسُّمَ سليمانَ سرورٌ بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكَّدَ التبُّسمَ بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ إذ قد يكون التبسُّمُ من غيرِ ضحكٍ ولا رضا، ألا تراهم يقولون: تبسَّمَ تبسُّمَ الغضبان، وتبسَّمَ تبسُّمَ المستهزئين. وتبسُّمُ الضحكِ إنَّما هو عن سرور، ولا يُسَرُّ نبيٌّ بأمر دنيا، وإنما سُرَّ بما كان من أمر الآخرة والدِّين. وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّين والعدل والرأفة. ونظيرُ قولِ النَّملةِ في جندِ سليمانَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولُ اللهِ تعالى في جند محمدٍ ﷺ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥] التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هَدْرَ مؤمن. إلَّا أنَّ المُثني على جندِ سليمانَ هي النملة بإذن الله تعالى، والمُثني على جندِ محمدٍ ﷺ هو اللهُ عزَّ وجلَّ بنفسِه؛ لِما لجنودِ محمدٍ ﷺ من الفضل على جندِ غيرِه من الأنبياء، كما لمحمدٍ ﷺ فضلٌ على جميع النبيِّين صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وقرأ شهر بن حَوْشب: «مَسْكَنَكُمْ» بسكون السين على الإفراد. وفي مصحف أُبيٍّ: «مَسَاكِنَكُنَّ لا يَحْطِمَنْكُمْ»[(١)]. وقرأ سليمان التَّيمي: «مَسَاكِنَكُنَّ[(٢)] لَا يَحْطِمَنْكُنَّ» ذكره النَّحَّاس[(٣)]. أي: لا يكسِرُنَّكم بوَطْئِهم عليكم وهم لا يعلمون بكم[(٤)].

قال المهدوي: وأفهمَ اللهُ تعالى النملةَ هذا لتكون معجزةً لسليمان. وقال وهب:

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، وقراءة شهر في الشاذة ص١٠٨، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ عن أبي بن كعب وأبي المتوكل وعاصم الجحدري.

(٢) في النسخ: مساكنكم. والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ١٢١.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٨.

أمر اللهُ تعالى الريحَ ألَّا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده. وقد قيل: إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد. قاله الكلبيّ. وقال نَوْف الشامي وشَقيق بن سَلَمة: كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئاب في العظم[(١)]. وقال بُرَيْدَة الأسلمي: كهيئة النعاج[(٢)]. قال محمد بن علي التِّرمذي: فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنة، وذلك منطقهم، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قلت: وقوله «لَا يَحْطِمَنَّكُمْ» يدلُّ على صحة قول الكلبي؛ إذ لو كانت لهيئة الذئاب والنعاج لما حطمت بالوطء؛ والله أعلم. وقال: «ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ» فجاءَ على خطاب الآدميِّين؛ لأنَّ النملَ هاهنا أُجْرِيَ مجرى الآدميِّين حين نَطَقَ كما ينطِقُ الآدميُّون. قال أبو إسحاق الثعلبي: ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ سليمانَ قال لها: لِمَ حذَّرتِ النَّملَ؟ أخِفْتِ ظلمي؟ أما علِمْتِ أني نبيٌّ عدل؟ فَلِمَ قلتِ: ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾؟ فقالتِ النَّملةُ: أما سمعتَ قولي: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مع أني لم أُرِدْ حَطْمَ النفوس، وإنَّما أردتُ حَطْمَ القلوبِ خشيةَ أن يتمنَّينَّ مثلَ ما أُعطيتَ، أو يُفتتَنَ بالدنيا، ويشتغِلَنَّ بالنظر إلى مُلكِكَ عن التسبيح والذِّكر. فقال لها سليمان: عِظيني. فقالتِ النَّملة: أما علمتَ لِمَ سُمِّي أبوكَ داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحةَ فؤاده؛ هل علمتَ لِمَ سُمِّيتَ سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليمُ الناحية على ما أوتيتَه بسلامةِ صدرك، وحُقَّ[(٣)] لكَ أن تلحق بأبيك داود[(٤)]. ثم قالت: أتدري لِمَ سخَّرَ اللهُ

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٨ عن نوف.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ من غير نسبة.

(٣) في النسخ: وإن. والمثبت من عرائس المجالس.

(٤) كلمة داود من عرائس المجالس.

لكَ الريح؟ قال: لا. قالت: أخبركَ أنَّ الدُّنيا كلَّها ريح. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ مُتعجِّباً[١]. ثم مضت مُسرعةً إلى قومها، فقالت: هل عندكم من شيءٍ نُهديه إلى نبيِّ الله؟ قالوا: وما قَدْرُ ما نُهدي له؟ واللهِ ما عندنا إلَّا نَبقةٌ واحدة! قالت: حسنة، ايتوني بها. فأتَوها بها، فحملَتْها بفيها، فانطلقَتْ تجرُّها، فأمر اللهُ الرِّيحَ فحملَتْها، وأقبلت تشُقُّ الإنس والجِنَّ والعلماء والأنبياءُ على البساط، حتى وقعت بين يديه، ثم وضعتْ تلك النَّبقةَ من فيها في كفِّه، وأنشأت تقول:

ألم تَرنا نُهدِي إلى اللهِ مَالَهُ ... وإن كان عنه ذا غنًى فهو قابِلُهْ
ولو كان يُهدَى للجليلِ بقَدْرِهِ ... لَقصَّرَ عنه البحرُ يوماً وساحِلُهْ
ولكنَّنا نُهدي إلى مَنْ نُحبُّهُ ... فيَرضى به عنَّا ويشكرُ فاعِلُهْ
وما ذاكَ إلا من كريمٍ فِعالُهُ ... وإلَّا فما في مُلْكِنا ما يُشاكِلُهْ

فقال لها: باركَ اللهُ فيكم. فهم بتلك الدعوة أشكرُ خلْقِ الله وأكثرُ خلْقِ الله.
وقال ابن عباس: نهى النبيُّ ﷺ عن قتلِ أربعٍ من الدواب: الهدهد، والصُّرَد، والنَّملة، والنحلة. خرَّجه أبو داود[٢]، وصحَّحه أبو محمد عبد الحق[٣]. ورُويَ من حديث أبي هريرة، وقد مضى في «الأعراف»[٤]. فالنملة أثنتْ على سليمانَ وأخبرت بأحسنَ ما تقدِرُ عليه بأنهم لا يشعرون إنْ حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمدٍ منهم، فنفَتْ عنهم الجور؛ ولذلك نهى عن قتلِها، و عن قتل الهدهد؛ لأنَّه كان دليلَ سليمانَ على الماء ورسولَه إلى بِلقيس. وقال عكرمة: إنما صرف اللهُ شرَّ سليمان عن الهدهد؛ لأنه كان بارًّا بوالديه.

والصُّرَد يقال له: الصوَّام. ورُويَ عن أبي هريرة قال: أوَّلُ من صامَ الصُّرَد، ولمَّا

(١) كلام الثعلبي من أوله إلى هذا الموضع من عرائس المجالس ص٢٩٩، وما بعده لم نجده فيه.
(٢) في سننه (٥٢٦٧).
(٣) في الأحكام الوسطى ٤/ ٢٤٩، والأحكام الصغرى ٢/ ٨٤٨.
(٤) ٩/ ٣١٣.

خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السَّكِينةُ معه والصُّرد، فكان الصُّرد دليلَه على الموضع، والسَّكِينةُ مقدارَه، فلمَّا صار إلى البقعة وقعت السَّكِينةُ على موضع البيت ونادت وقالت: ابْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلِّي[(١)].

وقد تقدَّم في «الأعراف»[(٢)] سببُ النهيِ عن قتل الضفدع، وفي «النحل»[(٣)] النهيُ عن قتل النحل. والحمد لله.

الثانية: قرأ الحسن: «لا يَحَطِّمَنَّكُمْ»، وعنه أيضاً: «لا يَحِطِّمَنَّكُمْ»، وعنه أيضاً وعن أبي رجاء: «لا يُحَطِّمَنَّكُمْ»[(٤)] والحَطْمُ: الكسر[(٥)]. حطَمتُه حَطْماً أي: كَسَرْتُه وتَحطَّم، والتَّحطيمُ: التكسير[(٦)].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يجوز أن يكون حالاً من سليمانَ وجنودِه، والعاملُ في الحال «يَحْطِمَنَّكُمْ». أو حالاً من النَّملة، والعامل «قَالَتْ»، أي: قالت ذلكَ في حال غفلةِ الجنود، كقولك: قمتُ والناسُ غافلون. أو حالاً من النمل أيضاً، والعامل «قَالَتْ» على أنَّ المعنى: والنَّملُ لا يشعرون أنَّ سليمانَ يفهَمُ مقالَتها. وفيه بُعْدٌ، وسيأتي.

الثالثة: روى مسلمٌ من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «أنَّ نملةً قرصَتْ نبيًّا من الأنبياء فأمر بقريةِ النَّملِ فأُحرِقَتْ، فأوحى الله تعالى إليه: أفي أنْ قرصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبِّحُ؟![(٧)]» وفي طريقٍ آخر: «فهَلَّا نملةً واحدةً»[(٨)]. قال

---

(١) نوادر الأصول ص١٣٢.

(٢) ٩/ ٣١٣.

(٣) ١٢/ ٣٦٥.

(٤) هذه القراءات الثلاث كلها شاذة، والأولى في المحتسب ٢/ ١٣٧، والشاذة ص١٠٨. والثانية في المحتسب ٢/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٢ نسبتها إلى أبي المتوكل وأبي مجلز. والقراءة الثالثة في الشاذة ص١٠٨ عن الحسن وحده، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ عن الحسن وأبي رجاء.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤١١، وزاد المسير ٦/ ١٦٢.

(٦) الصحاح (حطم).

(٧) صحيح مسلم (٢٢٤١): (١٤٨). وأخرجه أحمد (٩٢٢٩)، والبخاري (٣٠١٩).

(٨) صحيح مسلم (٢٢٤١): (١٤٩) و(١٥٠). وأخرجه أحمد (٨١٣٠)، والبخاري (٣٣١٩).

علماؤنا: يقال: إنَّ هذا النبيَّ هو موسى عليه السلام، وإنه قال: يا ربِّ، تُعذِّبُ أهلَ قريةٍ بمعاصيهم وفيهم الطائع. فكأنَّه أحبَّ أن يُريَهُ ذلك من عنده، فسلَّط عليه الحرَّ حتى التجأ إلى شجرةٍ مُستَرْوِحاً إلى ظِلِّها، وعندها قرية النمل، فغلبَه النوم، فلمَّا وجدَ لذَّةَ النَّومِ لدَغَتْه النَّملةُ فأضجَرتْه، فدلكهُنَّ بقدمِه فأهلكهُنَّ، وأحرق تلك الشجرةَ التي عندها مساكنهم، فأراه الله العبرة في ذلك آيةً: لمَّا لدَغَتْكَ نملةٌ فكيفَ أصبتَ الباقين بعقوبتها؟! يريد أن يُنبِّهه أنَّ العقوبةَ من الله تعالى تعُمُّ فتصيرُ رحمةً على المطيع وطهارةً وبركةً، وشرًّا ونِقمةً على العاصي. وعلى هذا فليس في الحديث ما يدلُّ على كراهةٍ ولا حَظْرٍ في قتل النمل؛ فإنَّ مَنْ آذاك حَلَّ لك دفعه عن نفسك، ولا أحدَ مِنْ خَلْقِه أعظَمُ حرمةً من المؤمن، وقد أُبيحَ لك دَفْعُه عنكَ بقتلٍ وضربٍ على المقدار، فكيف بالهوامِّ والدوابِّ التي قد سُخِّرَتْ لكَ وسُلِّطْتَ عليها، فإذا آذاك أُبيحَ لك قَتْلُه. ورُويَ عن إبراهيم: ما آذاك من النمل فاقتُلْه. وقولُه: «ألا نملةً واحدة» دليلٌ على أنَّ الذي يُؤذي يُؤذَى ويُقتَلُ، وكلَّما كان القتلُ لنفعٍ أو دفعِ ضررٍ فلا بأس به عند العلماء. وأطلق له نملةً ولم يَخُصَّ تلكَ النملةَ التي لدغت من غيرِها؛ لأنَّه ليس المرادُ القصاصَ؛ لأنَّه لو أرادَه لَقالَ: ألا نملتَكَ التي لدغَتْكَ؟ ولكن قال: ألا نملةً مكانَ نملةٍ؟ فعَمَّ البريءَ والجاني بذلك؛ ليعلم أنَّه أرادَ أن يُنبِّهه لمسألته ربَّه في عذاب أهل قريةٍ وفيهم المطيع والعاصي. وقد قيل: إنَّ هذا النبيَّ كانت العقوبةُ للحيوانِ بالتحريقِ جائزةٌ في شرعه؛ فلذلك إنَّما عاتبَهُ اللهُ تعالى في إحراق الكثيرِ من النَّملِ لا في أصل الإحراق. ألا ترى قولَه: «فهلَّا نملةً واحدةً» أي: هلَّا حرقْتَ نملةً واحدة. وهذا بخلافِ شرعِنا، فإنَّ النبيَّ ﷺ قد نهى عن التعذيب بالنار، وقال: «لا يُعذِّبُ بالنَّارِ إلا الله»[1]. وكذلك أيضاً كان قتلُ النملِ مُباحاً في شريعة ذلك النبيِّ؛ فإنَّ اللهَ لم يُعْتِبْه على أصلِ قتلِ النَّمل. وأمَّا شرعُنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبي هريرة النهيُ عن ذلك. وقد كرِهَ مالكٌ قتلَ النَّملِ إلَّا أن يضُرَّ ولا يقدِرَ على دفعِه إلَّا بالقتل. وقد

(١) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، والبخاري (٣٠١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قيل: إنَّ هذا النبيَّ إنَّما عاتبَه اللهُ حيثُ انتقمَ لنفسِه بإهلاك جَمْعٍ آذاهُ واحدٌ [منه[١]]، وكان الأَوْلى الصبرُ والصَّفحُ، لكن وقع للنبيِّ أنَّ هذا النوعَ مُؤْذٍ لبني آدم، وحرمةُ بني آدمَ أعظمُ من حُرمةِ غيرِهِ من الحيوان غيرِ الناطق، فلو انفردَ له هذا النَّظرُ ولم ينضمَّ إليه التشَفِّي الطبيعي[٢] لم يُعاتَب. والله أعلم. لكن لمَّا انضافَ إليه التشَفِّي الذي دلَّ عليه سياقُ الحديثِ عُوتِبَ عليه.

الرابعة: قوله: «أفي أن قرصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأممِ تُسبِّحُ» مقتضى هذا أنَّه تسبيحٌ بمقالٍ ونُطْقٍ، كما أخبر اللهُ عن النَّملِ أنَّ لها منطقاً، وفَهِمَه سليمانُ عليه السلام ـ وهذا معجزةٌ له ـ وتبسَّمَ من قولِها. وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ للنَّملِ نُطقاً وقولاً، لكن لا يسمَعُه كلُّ أحد، بل مَنْ شاء الله تعالى مِمَّن خرقَ له العادةَ من نبيٍّ أو وليٍّ. ولا يُنكَرُ[٣] هذا مِنْ حيثُ أنَّا لا نسمع ذلك؛ فإنَّه لا يلزَمُ مِنْ عَدَمِ الإدراكِ عَدَمُ المُدرَكِ في نفسه. ثم إنَّ الإنسانَ يجِدُ في نفسِه قولاً وكلاماً ولا يُسمَعُ منه إلَّا إذا نطَقَ بلسانِه. وقد خرقَ اللهُ العادةَ لنبيِّنا محمدٍ ﷺ فأسمعَه كلامَ النَّفْسِ من قومٍ تحدَّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم، كما قد نقلَ منه الكثيرَ أئِمَّتُنا[٤] في كتب معجزاتِ النبيِّ ﷺ، وكذلك قد[٥] وقع لكثيرٍ ممَّنْ أكرَمه اللهُ تعالى من الأولياء مثلُ ذلِكَ في غير ما قضية. وإيَّاه عنى النبيُّ ﷺ بقوله: «إنَّ في أمتي مُحدَّثين وإنَّ عمرَ منهم»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في تسبيح[٧] الجمادِ في «سبحان»[٨] وأنَّه تسبيحُ لسانٍ ومقالٍ لا

(١) ما بين حاصرتين من المفهم.

(٢) في (م): الطبعي.

(٣) في (م): ننكر.

(٤) قبلها في (د) و(ز) و(م): من.

(٥) كلمة «قد» من (ظ) والمفهم.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٢٨٥)، ومسلم (٢٣٩٨) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. ومن قوله: وقد قيل: إن هذا النبي كانت العقوبة... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/ ٥٤٢ - ٥٤٣ .

(٧) كلمة «تسبيح» من (م).

(٨) ١٣/ ٩٢ .

تسبيح دلالةِ حال. والحمد لله.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وقرأ ابن السَّمَيفَع: «ضحكاً» بغير ألف[(١)]، وهو منصوبٌ على المصدر بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه تبسَّم، كأنَّه قال: ضَحِكَ ضحكاً، هذا مذهب سيبويه. وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس «تَبَسَّمَ»؛ لأنَّه في معنى ضحك. ومن قرأ: «ضَاحِكاً» فهو منصوبٌ على الحال من الضمير في «تَبَسَّمَ»[(٢)]. والمعنى: تبسَّم مقدارَ الضَّحِك؛ لأنَّ الضَّحِكَ يستغرِقُ التبسُّمَ، والتبسُّمُ دون الضَّحك، وهو أوَّله. يقال: بَسَمَ (بالفتح) يَبْسِمُ بَسْماً فهو باسمٌ وابتسمَ وتبسَّم، والمَبْسِمُ: الثَّغْرُ، مثل المجلس من جلَسَ يجلِسُ، ورجلٌ مِبسامٌ وبسَّامٌ كثيرُ التبسُّمِ[(٣)]، فالتبسُّم ابتداءُ الضَّحِك، والضَّحِكُ عبارةٌ عن الابتداء والانتهاء، إلَّا أنَّ الضَّحِكَ يقتضي مزيداً على التبسُّم، فإذا زاد ولم يضبِطِ الإنسانُ نفسَه قيل: قَهْقَهَ.

والتبسُّم ضَحِكُ الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم[(٤)]. وفي الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له: أكنتَ تُجالِسُ النبيَّ ﷺ؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقومُ من مُصلَّاه الذي يصلِّي فيه الصبحَ ـ أو الغداةَ ـ حتى تطلعَ الشَّمسُ، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدَّثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّمُ[(٥)]. وفيه عن سعد قال: كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين[(٦)]، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارمِ فِداكَ أبي وأمِّي» قال: فنزعتُ له بسهمٍ ليس فيه نَصْلٌ فأصبتُ جنبَه، فسقط فانكشفَتْ عورَتُه، فضحِكَ رسولُ الله ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذِه[(٧)]. فكان عليه الصلاة والسلام في أكثر

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٩ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ بنحوه.

(٣) الصحاح (بسم) ببعضه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ .

(٥) صحيح مسلم (٦٧٠) و(٢٣٢٢). وأخرجه أحمد (٢٠٨٤٤).

(٦) أي: أثخن فيهم، وعمل فيهم ما تفعله النار. وقد يكون معناه: أغاظهم. إكمال المعلم ٧/ ٤٢٣ .

(٧) صحيح مسلم (٢٤١٢).

أحواله يتبسم، وكان أيضاً يضحك في أحوالٍ أُخَرَ ضحِكاً أعلى من التبسُّم وأقلَّ من الاستغراق الذي تبدو فيه اللَّهَوات، وكان في النادر عند إفراطِ تعجُّبِه رُبما ضحِكَ حتى بدَتْ نواجِذُه. وقد كرِهَ العلماءُ منه الكثرة، كما قال لقمان لابنه: يا بنيَّ، إياكَ وكثرةَ الضَّحكِ فإنَّه يُميتُ القلبَ. وقد رُوِيَ مرفوعاً من حديث أبي ذرٍّ وغيره[١]. وضَحِكُ النَّبيِّ ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه حين رمى سعدٌ[٢] الرجلَ فأصابه، إنما كان سروراً بإصابتِه لا بانكشافِ عورَتِه؛ فإنَّه المُنَزَّهُ عن ذلك ﷺ.

السادسة: لا اختلافَ عند العلماء أنَّ الحيواناتِ كلَّها لها أفهامٌ وعقول. وقد قال الشافعيُّ: الحمامُ أعقَلُ الطير[٣]. قال ابن عطية[٤]: والنَّملُ حيوانٌ فَطِنٌ قويٌّ شمَّامٌ جِدًّا، يدَّخِرُ ويتَّخِذُ القِرى، ويشقُّ الحبَّ بقطعتين لئلاَّ ينبُتَ، ويشقُّ الكُزْبُرَةَ بأربع قطع؛ لأنَّها تَنبتُ إذا قُسِمتْ شِقَّتين، ويأكل في عامه نصفَ ما جمع ويستبقي سائِرَه عُدَّةً. قال ابن العربي[٥]: وهذه غوامض[٦] العلومِ عندنا، وقد أدركَتْها النَّملُ بِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ لها؛ قال الأستاذ أبو المظفَّر شاهنور الإسفراييني: ولا يَبعُدُ أن تُدرِكَ البهائمُ حدوثَ العالَمِ، وحدوثَ المخلوقات، ووحدانيةَ الإله، ولكنَّنا لا نفهَمُ عنها ولا تفهَمُ عنَّا، أمَّا أنَّا نطلبُها وهي تفِرُّ مِنَّا فبِحُكمِ الجنسية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فـ«أن» مصدرية. و«أوزِعْني» أي: ألهِمْني ذلك. وأصلُه من وزَعَ، فكأنَّه قال: كُفَّني عما يُسخِط[٧].

(١) أخرجه أحمد (٨٠٩٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (م): سعداً.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٣٧ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٧ .

(٦) في النسخ: خواص، والمثبت من أحكام القرآن.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٢-١١٣ بنحوه.

وقال محمد بن إسحاق: يزعُمُ أهلُ الكتاب أنَّ أمَّ سليمانَ هي امرأة أوريا التي امتحنَ اللهُ بها داود، أو أنَّه بعد موت زوجها تزوَّجها داودُ فولَدَتْ له سليمانَ عليه السلام. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة «صَ»[١] إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مع عبادك. عن ابن زيد[٢]. وقيل: المعنى: في جملة عبادك الصالحين[٣].

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثمانية عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ ذكر شيئاً آخر مما جرى له في مسيرِهِ الذي كان فيه من النَّمل ما تقدَّم. والتفقُّدُ: تطلُّبُ ما غابَ عنكَ من شيء. والطير: اسمٌ جامعٌ، والواحد طائر، والمرادُ بالطَّيرِ هنا جِنسُ الطَّيرِ وجماعتُها. وكانت تصحبُه في سفره وتُظِلُّهُ بأجنحتها[٤]. واختلفَ الناسُ في معنى تفقُّدِه للطَّير، فقالت فرقةٌ: ذلك

(١) عند تفسير الآية (٢١) منها.

(٢) مجمع البيان ١٩/٢٠٨ . وأخرجه الطبري ١٨/٢٩ .

(٣) الوسيط ٣/ ٣٧٣ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٧٣ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٣ .

بحسبِ ما تقتضيه العنايةُ بأمور الملك، والتَّهمُّمِ بكل جزءٍ منها، وهذا ظاهر الآية. وقالت فرقةٌ: بل تفقَّدَ الطيرَ لأنَّ الشمسَ دخلتْ من موضع الهُدهُدِ حين غاب، فكان ذلك سببَ تفقُّدِ الطير؛ ليتبيَّنَ من أين دخلتِ الشمس. وقال عبد الله بن سَلَام: إنَّما طلبَ الهُدْهُدَ لأنه احتاجَ إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض؛ لأنَّه كان نزل في مفازةٍ عُدِمَ فيها الماء، وأنَّ الهُدهُدَ كان يرى باطِنَ الأرضِ وظاهِرَها؛ فكان يُخبرُ سليمانَ بموضع الماء، ثم كانتِ الجِنُّ تُخرِجُه في ساعةٍ يسيرة، تَسلَخُ عنه وجهَ الأرض كما تُسلَخُ الشاة. قاله ابن عباس فيما روى عن ابن سَلَام[١]. قال أبو مِجْلَز: قال ابن عباس لعبد الله بن سَلَام: أُريدُ أنْ أسألَكَ عن ثلاثِ مسائل. قال: أتسألُني وأنتَ تقرأ القرآن؟ قال: نعم. ثلاث مرات. قال: لِمَ تَفَقَّدَ سليمانُ الهدهدَ دون سائرِ الطير؟ قال: احتاج إلى الماء ولم يعرِفْ عُمقَه ـ أو قال: مسافته ـ وكان الهدهدُ يعرِفُ ذلك دونَ سائرِ الطير فتفقَّدَه[٢]. وقال في كتاب النَّقَّاش: كان الهُدهُد مهندساً. ورُوِيَ أنَّ نافع بن الأزرق سمعَ ابنَ عباسٍ يذكر شأنَ الهُدهُدِ فقال له: قِفْ يا وقَّاف، كيف يرى الهُدهُدُ باطِنَ الأرض وهو لا يرى الفَخَّ حين يقع؟! فقال له ابن عباس: إذا جاء القَدَر عَمِيَ البصر[٣]. وقال مجاهد: قيل لابن عباس: كيف تفقَّدَ الهُدْهُدَ من الطير؟ فقال: نزل منزلاً ولم يَدْرِ ما بُعْدُ الماء، وكان الهُدهُدُ مهتدياً إليه، فأراد أن يسأله. قال مجاهد: فقلت: كيفَ يهتدي والصبيُّ يضَعُ له الحِبَالةَ فيصيدُه؟! فقال: إذا جاء القَدَرُ عَمِيَ البصر[٤]. قال ابن العربي[٥]: ولا يقدِرُ على هذا الجواب إلَّا عالمُ القرآن.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٢-١٢٣ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٦٦-٥٦٧ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٣٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ . وأثر ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٣٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢١٣).

(٤) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢١١).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٣ .

قلت: هذا الجوابُ قد قاله الهُدْهُدُ لسليمانَ كما تقدَّم. وأنشدوا:

إذا أرادَ اللهُ أمراً بامرئٍ وكانَ ذا عقلٍ ورأيٍ ونَظَرْ
وحيلةٍ يعملُها في دَفْعِ ما يأتي بِهِ مكروهُ أسبابِ القَدَرْ
غَطَّى عليه سمعَهُ وعقلَهُ وسَلَّهُ من ذهنِه سلَّ الشَّعَرْ
حتى إذا أنفَذَ فيه حُكمَهُ ردَّ عليه عقلَهُ لِيعتبِرْ

قال الكلبي: لم يكن في مسيره إلَّا هُدْهدٌ واحد. والله أعلم.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على تفقُّدِ الإمامِ أحوالَ رعيَّتِهِ، والمحافظةِ عليهم. فانظر إلى الهدهد مع صِغَرِه كيف لم يَخْفَ على سليمانَ حالُه، فكيف بعظام المُلْك. ويرحَمُ اللهُ عمرَ فإنه كان على سيرته؛ قال: لو أنَّ سخلةً على شاطئ الفرات أخذَها الذئبُ لَيُسأَلُ عنها عمر[١]. فما ظنُّك بوالٍ تذهَبُ على يديه البلدان، وتضيع الرَّعيةُ ويضيع الرُّعيان[٢]. وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ خرجَ إلى الشام، حتى إذا كان بِسَرْغٍ[٣] لقيَه أمراءُ الأجناد: أبو عبيدة وأصحابُه، فأخبروه أنَّ الوباءَ قد وقع بالشام. الحديث[٤]. قال علماؤنا: كان هذا الخروجُ من عمر بعد ما فتحَ بيتَ المقدس سنة سبعَ عشْرَةَ على ما ذكره خليفة بن خياط، وكان يتفقَّدُ أحوالَ رعِيَّته وأحوالَ أمرائِه بنفسه[٥]. فقد دلَّ القرآنُ والسُّنَّةُ وبيَّنا ما يجب على الإمام مِنْ تفقُّدِ أحوالِ رعِيَّته، ومباشرةِ ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال. ورحِمَ اللهُ ابنَ المبارك حيث يقول:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ١٣٧، والبيهقي في الشعب (٧٤١٥) عن الأوزاعي قال: بلغني أن عمر ابن الخطاب قال ... فذكره بنحوه. إسناده فيه انقطاع.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٢.

(٣) سَرْغ: قرية بوادي تبوك. وقيل: هي آخر عمل الحجاز الأول. وقيل: مدينة بالشام. إكمال المعلم ٦/ ١٣٦.

(٤) صحيح البخاري (٥٧٢٩)، وصحيح مسلم (٢٢١٩) (٩٨). وأخرجه أحمد (١٦٨٣).

(٥) المفهم ٥/ ٦١٥.

وهـل أفـسـدَ الـديـنَ إلَّا الـمـلـوكُ وأحـبـارُ سـوءٍ ورهـبـانُـهـا[١]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أي: ما لِلهُدهُدِ لا أراه، فهو من القَلْبِ الذي لا يُعرَفُ معناه، وهو كقولك: ما لي أراكَ كئيباً؟ أي: ما لَكَ؟ والهُدهدُ: طيرٌ معروف[٢]، وهَدْهَدَتُه صوتُه. قال ابن عطية[٣]: إنَّما مقصِدُ الكلامِ: الهُدهدُ غابَ لكنَّه أخذَ اللازمَ عن مَغيبِه وهو أن لَّا يراه، فاستفهمَ على جهة التوقيفِ على اللَّازمِ، وهذا ضَرْبٌ من الإيجاز، والاستفهام الذي في قوله: ﴿مَا لِيَ﴾ نابَ مَنابَ الألفِ التي تحتاجُها أَمْ. وقيل: إنما قال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ لأنَّه اعتبرَ حالَ نفسِه، إذْ عَلِمَ أنَّه أُوتيَ المُلكَ العظيم، وسُخِّرَ له الخلق، فقد لزِمَه حقُّ الشكر بإقامة الطاعة وإدامةِ العمل[٤]، فلما فقَد نِعمةَ الهُدْهُدِ توقَّعَ أن يكون قَصَّرَ في حقِّ الشكر، فلأجله سُلِبَها فجعل يتفقَّد نفسه، فقال: ﴿مَا لِيَ﴾. قال ابن العربي[٥]: وهذا يفعله شيوخُ الصوفية إذا فقدوا ما لهم[٦]، تفقَّدوا أعمالَهم، هذا في الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نُقصِّر في الفرائض؟!

وقرأ ابنُ كثير وابن مُحَيصِن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب: «مَا لِيَ» بفتح الياء، وكذلك في «يس» [الآية: ٢٢]: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. وأسكنَها حمزة ويعقوب. وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو بفتح التي في «يس»، وإسكان هذه[٧]. قال أبو عمرو: لأن هذه التي في «النمل» استفهام، والأخرى انتفاء. واختار أبو حاتم

(١) سلف ١٠/ ١٧٧ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٢ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٣ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٤) في (د) و(ز): للعدل، وفي (ظ) و(م): العدل. والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٢ .

(٦) في أحكام القرآن: آمالهم.

(٧) السبعة ص٤٧٩ ، والتيسير ص٦٨ ، والنشر ٢/ ١٧٤-١٧٥ .

وأبو عبيد الإسكان «فقالَ مَا ليْ». وقال أبو جعفر النَّحاس[١]: زعمَ قومٌ أنَّهم أرادوا أن يُفرِّقوا بين ما كان مبتدأً، وبين ما كان معطوفاً على ما قبله، وهذا ليس بشيء، وإنَّما هي ياءُ النَّفْس، من العربِ من يفتَحُها ومنهم من يُسكِنُها، فقرؤوا باللغتين، واللغة الفصيحة في ياء النَّفْس أن تكون مفتوحةً؛ لأنَّها اسمٌ وهي على حرفٍ واحد، وكان الاختيار ألا تُسكنَ فيُجْحَفَ بالاسم[٢]. ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ بمعنى: أَبَلْ[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ دليلٌ على أنَّ الحدَّ على قَدْرِ الذَّنْبِ لا على قَدْرِ الجسد، أما إنه يُرفَقُ بالمحدود في الزمان والصفة[٤].

رُويَ عن ابن عباس ومجاهد وابن جُريج أنَّ تعذيبَه للطير كان بأن ينتُفَ ريشَه. قال ابن جُريج: ريشه أجمع. وقال يزيد بن رومان: جناحاه. فعلَ سليمانَ هذا بالهدهدِ إغلاظاً على العاصين، وعقاباً على إخلالِهِ بنَوْبته ورتبته[٥]. وكأنَّ اللهَ أباحَ له ذلك، كما أباحَ ذبح البهائم والطير للأكلِ وغيرِهِ من المنافع[٦]. والله أعلم. وفي «نوادر الأصول» قال: حدَّثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال: حدَّثنا عون بن عُمارة، عن الحسين الجُعْفيِّ، عن الزُّبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، قال: إنَّما صرفَ اللهُ شرَّ سليمانَ عن الهدهدِ لأنَّه كان بارًّا بوالديه. وسيأتي.

وقيل: تعذيبُه أن يُجعَلَ مع أضدادِهِ. وعن بعضهم: أَضيَقُ السجونِ معاشرةُ الأضداد. وقيل: لَأُلزِمَنَّه خِدمةَ أقرانِه. وقيل: إيداعُه القفص[٧]. وقيل: بأن يجعلَه

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٢.

(٢) في (م): الاسم.

(٣) في (د) و(م): بل.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٣.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥. والقول الأول أخرجه الطبري ١٨/ ٣٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٢٤) عن ابن عباس ﷺ. وقول يزيد بن رومان أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤، وابن أبي حاتم (١٦٢٢٩).

(٦) الكشاف ٣/ ١٤٣.

(٧) الكشاف ٣/ ١٤٣، وتفسير الرازي ٢٤/ ١٨٩، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٤ القول الأخير عن الثعلبي.

للشمس بعد نتفِه[١]. وقيل: بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدِّبون بالهجرانِ الجسدَ بتفريقِ إلْفِه[٢].

وهو مؤكَّدٌ بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة. قال أبو حاتم: ولو قُرئَتْ: «لأعَذِّبَنْهُ عَذاباً شَديداً أَوْ لأَذْبَحَنْهُ» جاز[٣]. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجةٍ بيِّنة[٤]. وليست اللامُ في «لَيَأْتيَنِّي» لامَ القسم؛ لأنَّه لا يُقسِمُ سليمانُ على فعل الهدهد، ولكن لمَّا جاء في أثر قوله: «لَأُعَذِّبَنَّهُ» وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه. وقرأ ابن كثير وحدَه «لَيَأْتيَنَّني» بنونين[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي الهدهد[٦]. والجمهور من القُرَّاء على ضمِّ الكاف، وقرأ عاصم وحدَه بفتحها[٧]. ومعناه في القراءتين أقام[٨]. قال سيبويه: مَكَث يمكُث مُكُوثاً كما قالوا: قعد يقعد قعوداً. قال: ومَكُث مثل ظَرُف[٩]. قال غيره: والفتحُ أحسنُ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ [الكهف:٣] إذ هو من مَكَث؛ يقال: مَكَثَ يَمكُثُ فهو ماكثٌ، ومَكُثَ يمكُث مثل عَظُمَ يعظُمُ فهو مكِيثٌ؛ مثل عظيم. ومَكُث يَمكُثُ فهو ماكثٌ، مثل حَمُضَ يَحمُضُ فهو حامِض.

والضمير في «مَكَثَ» يَحْتَمِلُ أن يكون لسليمان[١٠]، والمعنى: بقي سليمانُ بعد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٤ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٤ عن عبد الله بن شداد.

(٢) ذكر هذا المعنى البغوي ٣/ ٤١٢ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٤٣ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٤ .

(٥) السبعة ص٤٧٩ ، والتيسير ص١٦٧ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٠٢ .

(٧) السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٧ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٩) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣ .

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

التفقُّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ، أي: غيرَ وقتٍ طويل(١). ويَحتَمِلُ أن يكون للهدهد(٢) وهو الأكثر. فجاء: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وهي:

السادسة: أي: علمتُ ما لم تعلَمْه من الأمر(٣)، فكان في هذا ردٌّ على مَنْ قال: إنَّ الأنبياءَ تعلَمُ الغيب. وحكى الفرَّاء «أَحَطُّ» يُدغِمُ التَّاءَ في الطَّاء. وحكى «أَحَتُّ» بقلب الطاء تاءً وتُدغَمُ(٤).

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أعلَمَ سليمانَ ما لم يكُنْ يعلَمُه، ودفعَ عن نفسِه ما توعَّدَه من العذاب والذبح. وقرأ الجمهور: «سبإٍ» بالصَّرف، وابن كثير وأبو عمرو: «سَبَأَ» بفتح الهمزة وتَرْكِ الصَّرف(٥)، فالأوَّلُ على أنَّه اسمُ رجلٍ نُسِبَ إليه قوم، وعليه قول الشاعر:

الـــواردونَ وتَـــيْـــمٌ فـــي ذُرَا ســـبـــإٍ قد عَضَّ أعناقَهُمْ جِلْدُ الجواميسِ(٦)

وأنكر الزَّجَّاجُ أن يكونَ اسمَ رجلٍ، وقال: «سبأ»: اسمُ مدينةٍ تُعرَفُ بمأربِ باليمن، بينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاثةِ أيام.

قلتُ: وقع في عيون المعاني للغزنوي: ثلاثة أميال. قتادة والسدي: بعثَ إليه اثنا عشر نبيًّا(٧). وأنشدَ للنابغة الجَعْدي(٨):

مِـــن سَـبَـأَ الـحـاضِـريـنَ مَـأرِبَ إذْ يَـبْـنُـونَ مِـن دونِ سَـيْـلِـهِ الـعَـرِمَـا

قال: فمن لم يصرِفْ قال: إنَّه اسمُ مدينة، ومن صَرَفَ وهو الأكثر فلأنَّه اسمُ

(١) مجمع البيان ١٩/ ٢١٣.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٩.
(٥) السبعة ص ٤٨٠، والتيسير ص١٦٧.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥، والبيت قائله جرير، وسلف ١٢/ ٣٣٤.
(٧) من قوله: وقع في... إلى هنا من (م).
(٨) في ديوانه ص١٣٤، ويُنسب البيت أيضاً إلى امرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٩٠.

البلد، فيكون مُذَكَّراً سُمِّي به مُذَكَّر[١]. وقيل: اسم امرأة سُمِّيتْ بها المدينة[٢]. والصحيح أنَّه اسمُ رجل[٣]، كذلك في كتاب الترمذي من حديث فَرْوَةَ بنِ مُسَيْكٍ المرادي عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي إن شاء الله تعالى[٤]. قال ابن عطية: وخَفيَ هذا الحديث على الزَّجَّاجِ فخبطَ عشواء[٥]. وزعمَ الفرَّاءُ أنَّ الرُّؤاسيَّ سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبإ فقال: ما أدري ما هو. قال النَّحَّاس: وتأوَّلَ الفرَّاءُ على أبي عمرو أنَّه منعَه من الصرف لأنَّه مجهول، وأنَّه إذا لم يعرفِ الشيء لم ينصرف. وقال النَّحَّاس: وأبو عمرو أجَلُّ من أن يقول مثلَ هذا، وليس في حكاية الرُّؤاسي عنه دليلٌ أنَّه إنَّما منعَه من الصَّرفِ لأنَّه لم يعرِفْه، وإنَّما قال: لا أعرِفُه، ولو سُئِلَ نَحْويٌّ عن اسمٍ فقال: لا أعرِفُه، لم يكن في هذا دليلٌ على أنه يمنعُه من الصرف، بلِ الحقُّ على غير هذا، والواجب إذا لم يعرِفْه أن يصرِفَه؛ لأنَّ أصلَ الأسماء الصَّرفُ، وإنَّما يُمنعُ الشيءُ من الصَّرفِ لِعلَّةٍ داخلةٍ عليه، فالأصل ثابتٌ بيقينٍ فلا يزولُ بما لا يُعرَفُ. وذكر كلاماً كثيراً عن النُّحاةِ وقال في آخره: والقولُ في «سبإ» ما جاء التوقيفُ فيه أنَّه في الأصلِ اسمُ رجل، فإن صرَفْتَه فلأنَّه قد صار اسماً للحيِّ، وإن لم تصرِفْه جعلْتَه اسماً للقبيلة مثل ثمود، إلَّا أنَّ الاختيارَ عند سيبويه الصرفُ، وحُجَّته في ذلك قاطعةٌ؛ لأنَّ هذا الاسمَ لمَّا كان يقع له التَّذكيرُ والتأنيثُ كان التذكيرُ أولى؛ لأنَّه الأصلُ والأخَفُّ[٦].

الثامنة: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الصغيرَ يقول للكبيرِ والمتعلِّمَ للعالمِ: عندي ما ليسَ عندك، إذا تحقَّق ذلك وتيَقَّنه[٧]. هذا عمر بن الخطاب مع جلالتِه ـ ﷺ ـ وعلمِه

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠٣ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٤ .

(٤) عند تفسير الآية (١٥) من سورة سبأ، والحديث في سنن الترمذي (٣٢٤٢).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣-٢٠٤ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٤ .

لم يكن عندَه علمٌ بالاستئذان. وكان عِلْمُ التيمم عند عمَّارٍ وغيره، وغابَ عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمَّم الجُنب. وكان حكم الإذنِ في أن تنفِرَ الحائضُ عند ابن عباس، ولم يعلَمْه عمرُ ولا زيدُ بن ثابت. وكان غَسْلُ رأسِ المُحرِمِ معلوماً عند ابن عباس وخَفيَ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة. ومثلُه كثيرٌ فلا يُطوَّلُ به.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ لمَّا قال الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ قال سليمان: وما ذلِكَ الخبر؟ قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل تملِكُ أهل سبأ[١]. ويُقال: كيفَ خَفِيَ على سليمان مكانَها وكانت المسافةُ بين مَحطِّهِ وبين بلدها قريبة، وهي من مسيرة ثلاثٍ بين صنعاء ومأرب؟ والجواب: أنَّ اللهَ تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوبَ مكان يوسف[٢]. ويُروى أنَّ أحدَ أبوَيها كان من الجنِّ[٣]. قال ابن العربي[٤]: وهذا أمرٌ تُنكِره المُلْحِدة، ويقولون: الجِنُّ لا يأكلون ولا يَلِدون، كذَبوا لعنهم الله أجمعين، ذلك صحيحٌ، ونكاحُهُم جائزٌ عقلاً، فإن صَحَّ نقلاً فَبِها ونِعْمَتْ.

قلتُ: خرَّج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنَّه قال: قَدِمَ وفدٌ من الجِنِّ على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، انْهَ أُمَّتَكَ أن يستنجوا بعَظْمٍ أو رَوْثةٍ أو حُمَمَةٍ[٥]، فإنَّ الله تعالى جاعِلٌ لنا فيها رزقاً[٦]. «وفي صحيح مسلم»: فقال «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه يقع في أيديكم أوفَرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بَعْرةٍ علَفٌ

---

(١) المصدر السابق، والنكت والعيون ٤/ ٢٠٣ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٤٩) عن قتادة، وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٠٣ أن أمها جنيَّة، واسمها فارعة، وأنها بنت أربعين ملِكاً.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٤ .

(٥) في النسخ: جمجمة، والمثبت من سنن أبي داود. والحُمَمُ: الفحم وما أُحرِقَ من الخشب والعظام ونحوهما. معالم السنن ١/ ٢٧ .

(٦) سنن أبي داود (٣٩).

لِدوابِّكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستَنْجوا بهما، فإنَّهما طعامُ إخوانكم الجن»[(١)] وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: فقلتُ: ما بالُ العَظْمِ والرَّوثةِ؟ فقال: «هما من طعام الجنِّ، وإنَّه أتاني وفدُ جِنِّ نَصِيبين ـ ونِعْمَ الجِنُّ ـ فسألوني الزَّادَ، فدعوتُ اللهَ تعالى ألَّا يمرُّوا بعظمٍ ولا رَوْثةٍ إلَّا وجدوا عليها طعاماً»[(٢)]. وهذا كلُّه نَصٌّ في أنهم يَطعمون، وأما نكاحهم فقد تقدَّمتِ الإشارةُ إليه في «سبحان» عند قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الآية: ٦٤]. وروى وُهَيب بن جَرير بن حازم، عن الخليل بن أحمد، عن عثمان بن حاضر قال: كانت أمُّ بلقيس من الجِنِّ يُقال لها بلقمة[(٣)] بنت شيصان[(٤)]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

العاشرة: روى البخاريُّ من حديث أبي بَكْرة[(٥)] أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا بلَغه أنَّ أهلَ فارس قد ملَّكوا بنتَ كسرى قال: «لن يُفلِحَ قومٌ وَلَّوا أمرَهم امرأة»[(٦)] قال القاضي أبو بكر بن العربي[(٧)]: هذا نصٌّ في أنَّ المرأةَ لا تكون خليفةً، ولا خِلافَ فيه، ونُقِلَ عن محمد بن جرير الطبري أنَّه يُجَوِّزُ أن تكون المرأةُ قاضيةً، ولم يصِحَّ ذلك عنه، ولعلَّه نُقِلَ عنه كما نُقِلَ عن أبي حنيفة أنها إنَّما تقضي فيما تشهدُ فيه وليس بأن تكون قاضيةً على الإطلاق، ولا بأن يُكتَبَ لها مسطورٌ[(٨)] بأنَّ فلانةَ مُقدَّمةٌ على الحُكم، وإنَّما سبيلُ ذلك التحكيمُ[(٩)] والاستنابةُ في القضية الواحدة، وهذا هو الظَّنُّ بأبي حنيفة

(١) صحيح مسلم (٤٥٠). وأخرجه أحمد (٤١٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٦٠).

(٣) في (د): تلعمة، وفي (م): بلعمة. والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الدر المنثور.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠٥ إلى الحكيم الترمذي وابن مردويه.

(٥) تحرف في النسخ إلى: ابن عباس. والتصويب من صحيح البخاري.

(٦) صحيح البخاري (٤٤٢٥)، وسلف ٢/ ٤٢ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٥-١٤٤٦ .

(٨) في أحكام القرآن: منشور.

(٩) في (ظ) وأحكام القرآن: ذلك كسبيل التحكيم.

وابن جرير. وقد رُوِيَ عن عمر أنه قدَّم امرأةً على حِسبة السوق، ولم يصِحَّ فلا تلتفتوا إليه، فإنَّما هو من دسائس[١] المبتدعة في الأحاديث. وقد تناظرَ في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليلُ على أنَّ المرأة يجوزُ أن تحكُمَ أنَّ الغرضَ من الأحكام تنفيذُ القاضي لها، وسماعُ البيِّنةِ عليها، والفصلُ بين الخصوم فيها، وذلك ممكنٌ من المرأة كإمكانه من الرجل. فاعترض عليه القاضي أبو بكر، ونقضَ كلامه بالإمامة الكبرى؛ فإنَّ الغرضَ منه حِفْظُ الثُّغور، وتدبيرُ الأمور، وحمايةُ البَيْضة، وقبضُ الخَراج وردُّه على مستحِقِّه، وذلك لا يتأتَّى من المرأة كتأتِّيه من الرجل. قال ابن العربي: وليس كلامُ الشيخين في هذه المسألة بشيء؛ فإنَّ المرأةَ لا يتأتَّى منها أن تبرُزَ إلى المجلس، ولا تُخالِطَ الرجال، ولا تفاوضَهم مفاوضةَ النَّظير للنظير؛ لأنَّها إن كانت فتاةً حَرُمَ النَّظرُ إليها وكلامُها، وإن كانت بَرْزَةً[٢] لم يجمَعْها والرجالَ مجلسٌ واحدٌ تزدحِمُ فيه معهم، وتكون مناظرةً لهم، ولن يُفلِحَ قَطُّ مَنْ تصوَّرَ هذا ولا مَنِ اعتقدَه.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة، أي: ممَّا تحتاجه المملكة[٣]. وقيل: المعنى: أُوتيت من كلِّ شيءٍ في زمانها شيئاً فُحذِفَ المفعول؛ لأنَّ الكلام دلَّ عليه.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير[٤]، ووصفه بالعِظَمِ في الهيئة ورُتبةِ السلطان[٥]. قيل: كان من ذهبٍ تجلس عليه[٦]. وقيل: العرش هنا: المُلك[٧]، والأوَّل أصحُّ؛

(١) في (د) و(ز) و(ظ): وساوس. والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) أي: إذا كانت كهلةً لا تحتجب احتجاب الشوابِّ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم. اللسان (برز).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ عن قتادة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٦) زاد المسير ٦/ ١٦٥ عن قتادة.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ عن ابن بحر، ومجمع البيان ١٩/ ٢١٤ عن أبي مسلم.

لقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾. الزمخشري: فإن قلتَ: كيفَ سوَّى الهُدهدُ بين عرشِ بِلْقيس وعرشِ الله في الوصف بالعظيم؟ قلتَ: بين الوصفين بَوْنٌ عظيم؛ لأنَّ وَصْفَ عرشِها بالعظيم تعظيمٌ له بالإضافة إلى عروش أبناء جِنْسِها من الملوك، ووَصْفَ عرشِ الله بالعظيم تعظيمٌ له بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض[1]. قال ابن عباس: كان طولُ عرشِها ثمانينَ ذراعاً، وعرضُه أربعينَ ذراعاً، وارتفاعُه في السماء ثلاثينَ ذراعاً، مُكلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ الأحمر، والزَّبَرْجَدِ الأخضر[2]. قتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستَّراً بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق[3]. مقاتل: كان ثمانينَ ذراعاً، في ثمانينَ ذراعاً[4]، وارتفاعُه من الأرض ثمانونَ ذراعاً، وهو مُكلَّلٌ بالجواهر[5]. ابن إسحاق: وكان يخدِمُها النساء، وكان معها لخدمتها ستُّ مئة امرأة[6]. قال ابن عطية[7]: واللازمُ من الآية أنَّها امرأةٌ مُلِّكَتْ على مدائن اليمن، ذاتُ مُلكٍ عظيم، وسريرٍ عظيم، وكانت كافرةً من قومٍ كُفَّار.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيل: كانت هذه الأمَّةُ ممَّن يعبد الشمس؛ لأنَّهم كانوا زنادقةً فيما يُروى. وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار. ورُويَ عن نافعٍ أنَّ الوقْفَ على «عرش»[8]. قال المَهْدَوي: فعظيمٌ على هذا متعلِّقٌ بما بعده، وكان ينبغي على هذا أن يكون: عظيمٌ أن وَجْدتُها،

---

(١) هذا كلام الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٩٠، وأما كلام الزمخشري فهو في الكشاف ٣/ ١٤٤ بغير هذا السياق.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥، ومجمع البيان ١٩/ ٢١٤.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤.

(٤) قوله: «في ثمانين ذراعاً» من (م).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦.

(٨) المصدر السابق.

أي: عظيمٌ[1] وجودي إيَّاها كافرة. وقال ابن الأنباري[2]: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وقفٌ حسن، ولا يجوز أن يقِفَ على «عرش» ويبتدئ «عَظِيمٌ وَجَدْتُها» إلَّا على من فتح؛ لأنَّ عظيماً نعتٌ للعرش[3] فلو كان متعلِّقاً بوَجَدْتُها لقُلتَ: عظيمةً وجدتُها، وهذا مُحالٌ من كلِّ وجه. وقد حدَّثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شَهْرَيار، قال: حدَّثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجليُّ، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على «عرش» والابتداء «عظيم» على معنى: عظيمٌ عبادَتُهم الشمسَ والقمر. قال: وقد سمعت مَنْ يُؤيِّدُ هذا المذهب، ويَحتَجُّ بأنَّ عرشَها أحقَرُ وأدَقُّ شأناً من أن يصِفَه الله بالعظيم. قال ابن الأنباري: والاختيارُ عندي ما ذكَرْتُه أوّلاً؛ لأنَّه ليس على إضمارِ عبادةِ الشمسِ والقمرِ دليلٌ. وغيرُ مُنكَرٍ أن يصِفَ الهدهدُ عرشَها بالعظيم إذ رآه مُتناهي الطولِ والعرض؛ وجَرْيُه على إعراب «عرش» دليلٌ على أنَّه نَعْتُه.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ما لهم فيه من الكفر. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق التوحيد. وبيَّن بهذا أنَّ ما ليسَ بسبيل التوحيد فليسَ بسبيلٍ ينتفع به على التحقيق. ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الله وتوحيده.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ» بتشديد «أَلَّا»[4]؛ قال ابن الأنباري[5]: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ غيرُ تامٍّ لمن شدَّد «أَلَّا»؛ لأنَّ المعنى: وزيَّنَ لهم الشيطانُ أَلَّا يسجدوا. قال النَّحَّاس: هي «أن» دخلَتْ عليها «لا» و«أن» في موضع نصب؛ قال الأخفش: بـ «زين» أي: وزيَّنَ لهم لِئلَّا يسجدوا لله. وقال الكسائي: بـ «فَصدَّهم» أي: فصَدَّهم أَلَّا يسجدوا.

(١) كلمة «عظيم» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٥-٨١٦ .

(٣) في (م): لعرش. والمثبت من باقي النسخ.

(٤) السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٨ .

(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٦ .

وهو في الوجهين مفعولٌ له. وقال اليزيدي وعلي بن سليمان: «أن» بدل من «أعمالهم» في موضع نصب. وقال أبو عمرو: و«أن» في موضع خَفْضٍ على البدل من السبيل[(١)].

وقيل: العامل فيها «لا يَهْتَدُونَ» أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، أي: لا يعلمون أنَّ ذلك واجبٌ عليهم. وعلى هذا القول «لا» زائدة[(٢)]، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] أي: ما منعكَ أنْ تسجُدَ. وعلى هذه القراءة فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصدّ، أو بمنع الاهتداء[(٣)].

وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما: «أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ»[(٤)] بمعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا؛ لأن «يا» ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيبويه:

يا لعنةُ اللهِ والأقوامِ كلِّهِمِ والصَّالحين على سِمْعَانَ من جَارِ

قال سيبويه: «يا» لغير اللعنة؛ لأنَّه لو كان للَّعنةِ لنَصَبَها؛ لأنَّه كان يصير مُنادًى مُضافاً، ولكن تقديره: يا هؤلاء، لعنةُ اللهِ والأقوامِ على سِمْعان[(٥)]. وحكى بعضُهم سماعاً عن العرب: ألا يا ارحموا ألا يا اصدقُوا. يريدون: ألا يا قومُ ارحموا اصدُقوا، فعلى هذه القراءة «اسْجُدُوا» في موضع جزمٍ بالأمر، والوقف على «أَلَا يَا»،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ بنحوه دون قوله: «وهو في الوجهين مفعول له» وهو في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ . وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٩ .

(٢) البيان ٢/ ٢٢١ ، والكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٣) هذا معنى قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٠ .

(٤) قراءة الكسائي في السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٧ . وذكر النحاس هذه القراءة في معاني القرآن ٥/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ عن الكسائي والزهري وابن عباس وأبي جعفر وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن وحميد الأعرج وطلحة. وزاد عليه ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٦ : عن قتادة وأبي العالية والأعمش وابن أبي عبلة.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ ، وتأويل مشكل القرآن ص١٧٢ . وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٢١٩-٢٢٠ .

ثم تبتدئ فتقول: «اسْجُدُوا»[١]. قال الكسائي [عن عيسى الهَمْداني قال:[٢]]: ما كنتُ أسمَعُ الأشياخ يقرؤونها إلَّا بالتخفيف على نيَّة الأمر. وفي قراءة عبد الله: «هلَّا[٣] تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» بالتاء والنون. وفي قراءة أبيٍّ: «أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» فهاتان القراءتان حُجَّةٌ لمن خفَّف[٤]. الزَّجَّاج: وقراءةُ التخفيف تقتضي وجوبَ السجود دون التشديد[٥]. واختار أبو حاتم وأبو عبيد[٦] قراءة التَّشديد. وقال: التخفيف وجهٌ حسنٌ إلَّا أنَّ فيه انقطاعَ الخبر من أمر سبأ، ثم رجع بَعْدُ إلى ذِكْرِهم، والقراءةُ بالتشديد خبرٌ يتبعُ بعضُه بعضاً لا انقطاعَ في وسطه[٧]. ونحوه قال النحاس؛ قال: قراءةُ التَّخفيفِ بعيدة؛ لأنَّ الكلامَ يكون معترِضاً، وقراءةُ التشديدِ يكون الكلامُ بها مُتَّسقاً، وأيضاً فإنَّ السَّواد على غير هذه القراءة؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها ألِفان، وإنَّما يُختصَرُ مثلُ هذا بحَذْفِ ألفٍ واحدةٍ نحو: يا عيسى بن مريم[٨]. ابن الأنباري: وسقطت ألِفُ «اسجدوا» كما تسقطُ مع هؤلاءِ إذا ظهر، ولمَّا سقطت ألفُ «يا» واتَّصلت بها ألفُ «اسْجُدُوا» سقطت، فَعُدَّ سقوطُها دِلالةً على الاختصارِ وإيثاراً لِما يَخِفُّ وتَقِلُّ ألفاظُه. وقال الجوهري في آخر كتابه[٩]: قال بعضهم: إن «يا» في هذا الموضع إنَّما هو للتنبيهِ، كأنَّه قال: ألا اسجدوا للهِ، فلمَّا أَدخَلَ عليه «يا» للتنبيه سقطتِ الألفُ التي

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ بنحوه.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ، وأثبتَ من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ .

(٣) في (ظ): «هل»، وفي (م): «ألا هل»، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ ، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٧٤ ، والكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٤) من قوله: قال الكسائي... إلى هذا الموضع من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ . قلنا: وكلا القراءتين شاذَّتان لا حُجَّة فيهما.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٥ .

(٦) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: أبو عبيدة.

(٧) نقله عنه ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٧٣-١٧٤ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٠٧ .

(٩) الصحاح (يا).

في «اسْجُدُوا»؛ لأنَّها أَلِفُ وَصْلٍ، وذهبتِ الألفُ التي في «يا» لاجتماع الساكنين؛ لأنَّها والسين ساكنتان. قال ذو الرُّمَّة[١]:

أَلَا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيٍّ على البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلًّا بَجَرعَائِكِ القَطْرُ

وقال الجُرجانيُّ: هو كلامٌ معترِضٌ من الهُدهُدِ أو سليمانَ أو من الله[٢]. أي: لا ليسجدوا، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قيل: إنه أمرٌ، أي: ليغفِروا. وتنتظم على هذا كتابةُ المصحف، أي: ليس هاهنا نداء. قال ابن عطية[٣]: قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله: «العظِيم» وهو قول ابن زيد وابن إسحاق، ويُعترَضُ بأنَّه غيرُ مخاطَبٍ فكيف يتكلم في معنى شرع؟! ويَحتمِلُ أن يكون من قول سليمان لمَّا أخبره الهدهد عن القوم. ويَحتمِلُ أن يكون من قول[٤] الله تعالى، فهو اعتراضٌ بين الكلامين، وهو الثابتُ مع التأمُّلِ، وقراءةُ التشديد في «أَلَّا» تُعطي أنَّ الكلامَ للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، والتخفيفُ يقتضي الأمرَ بالسجودِ لله عزَّ وجلَّ للأمرِ على ما بيَّنَّاه. وقال الزَّمخشري[٥]: فإن قلتَ: أَسَجدةُ التلاوةِ واجبةٌ في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلتُ: هي واجبةٌ فيهما جميعاً؛ لأنَّ مواضِعَ السجدة إمَّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدى القراءتين أمرٌ بالسجود والأخرى ذَمٌّ للتارك.

قلتُ: وقد أخبرَ اللهُ عن الكفَّار بأنهم لا يسجدون كما في «الانشقاق»، وسجدَ النبيُّ ﷺ فيها، كما ثبت في البخاريِّ وغيره[٦]، فكذلك «النمل». والله أعلم. الزمخشري[٧]: وما ذكَرهُ الزَّجَّاجُ من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغيرُ

---

(١) في ديوانه ١/ ٥٥٩.

(٢) وذكر هذا الكلام الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢١٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦.

(٤) كلمة «قول» من (م) والمحرر الوجيز.

(٥) في الكشاف ٣/ ١٤٥.

(٦) صحيح البخاري (٧٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧١٤٠)، ومسلم (٥٧٨).

(٧) في الكشاف ٣/ ١٤٥.

مَرجوعٍ إليه.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ خَبْءُ السماء: قَطْرُها، وخَبْءُ الأرض: كنوزُها ونباتها. وقال قتادة: الخَبْءُ: السِّرُّ. النحَّاس: وهذا أولى. أي: ما غاب في السماوات والأرض، ويدلُّ عليه ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1]. وقرأ عكرمة ومالك بن دينار: «الخَبَ» بفتح الباء من غير همز[2]. قال المهدوي: وهو التخفيف القياسي، وذُكِرَ مَنْ يترُكُ الهمزَ في الوقف. وقال النَّحَّاس[3]: وحكى أبو حاتم أنَّ عكرمةَ قرأ: «الَّذي يُخْرِجُ الخَبَا» بألف غير مهموزة[4]، وزعمَ أنَّ هذا لا يجوز في العربية، واعتلَّ بأنَّه إن خفَّفَ الهمزةَ ألقى حركتَها على الباء وحذفها[5] فقال: «الْخَبَ في السَّماواتِ والأرْضِ» وأنَّه إنْ حوَّلَ الهمزةَ قال: الْخَبْيَ بإسكان الباء وبعدها ياء. قال النَّحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: كان أبو حاتم دونَ أصحابِه في النَّحْوِ ولم يلحَقْ بهم، إلَّا أنَّه إذا خرجَ من بلدِهِ لم يُلْقَ أعلمَ منه. وحكى سيبويه عن العرب أنها تُبدِلُ من الهمزة أَلِفاً إذا كان قبلَها ساكنٌ وكانت مفتوحة، وتُبدِلُ منها واواً إذا كان قبلَها ساكنٌ وكانت مضمومة، وتُبدِلُ منها ياءً إذا كان قبلها ساكنٌ وكانت مكسورة، فتقول: هذا الْوَثْوُ[6]، وعجبتُ من الوَثْيِ، ورأيتُ الْوَثا، وهذا من وَثِئَتْ يدُه، وكذلك هذا الْخَبْوُ، وعجبتُ من الْخَبْي، ورأيت الخَبَا؛ وإنَّما فُعِلَ هذا لأنَّ الهمزةَ خفيفةٌ، فأُبدِلَ منها هذه الحروف. وحكى سيبويه عن قومٍ من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون: هذا الخبؤُ، يضمُّون الساكنَ إذا كانت الهمزةُ مضمومةً،

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٧ .

(٢) الشاذة ص١٠٩ عن عيسى: وهو ابن عمر الهمداني، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ عن أبي بن كعب.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٧-٢٠٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ ، وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٩ عن مالك بن دينار، وسترد قريباً من قراءة ابن مسعود.

(٥) كلمة «وحذفها» ليست في (م).

(٦) والوثءُ: الضرب حتى يَرْهَصَ الجلدُ اللحمُ ويصل الضربُ إلى العظم من غير أن ينكسر. اللسان (وثأ).

ويُثبِتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزةُ مكسورةً، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزةُ مفتوحةً. وحكى سيبويه أيضاً أنهم يكسرون وإن كانت الهمزةُ مضمومةً، إلَّا أنَّ هذا عن بني تميم، فيقولون: الرِّدِيءُ، وزعمَ أنَّهم لم يضُمُّوا الدَّالَ لأنَّهم كرِهوا ضمةً ما قبلها كسرة؛ لأنَّه ليس في الكلام فِعُلٌ. وهذه كلُّها لغاتٌ داخلةٌ على اللغة التي قرأ بها الجماعة.

وفي قراءة عبد الله «الَّذي يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّماواتِ» و «من» و «في» يتعاقبان؛ تقول العرب: لأستخرجنَّ العِلمَ فيكم يريدُ منكم. قاله الفرَّاء[١]. ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قراءة العامة فيهما بياء الغائب[٢]، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيَةَ من كلام الهدهد[٣]، وأنَّ الله تعالى خصَّه من المعرفة بتوحيدِه ووجوبِ السجود له، وإنكارِ سجودهم للشمس، وإضافتِه للشيطان، وتزيينِه لهم، ما خَصَّ به غيره من الطيور وسائر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقولُ الراجحةُ تهتدي لها. وقرأ الجَحْدرِيُّ وعيسى بن عمر وحفص والكسائي: «تُخْفُونَ» و«تُعْلِنُونَ» بالتاء على الخطاب، وهذه القراءة[٤] تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ[٥]. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قرأ ابن مُحَيصِن: «العظِيمُ» رفعاً[٦] نعتاً لله. الباقون: بالخفض نعتاً للعرش. وخُصَّ بالذِّكرِ لأنه أعظمُ المخلوقات، وما عداه في ضمنِه وقبضتِه[٧].

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩١ . وقراءة عبد الله بن مسعود في الشاذة ص١٠٩ ، وذكرها المصنف قريباً عن عكرمة.

(٢) كلمة «الغائب» من (م).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٤) قراءة حفص والكسائي في السبعة ص٤٨١ ، وفي التيسير ص١٦٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٦) الشاذة ص١٠٩ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٦ ونسبها أيضاً إلى الضحاك.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأمُّلُ والتصفُّح[١]. ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتِك[٢]. و«كنت» بمعنى أنت. وقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يقل: سننظر في أمرك؛ لأنَّ الهدهدَ لمَّا صرَّحَ بفخر العلم في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ صرَّحَ له سليمان بقوله: ﴿سننظر أصدقت أم كذبت﴾ فكان ذلك كُفؤاً[٣] لما قالَه.

الخامسة عشرة: في قوله: «أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» دليلٌ على أنَّ الإمام يجب عليه أن يقبلَ عذرَ رعيَّته، ويدرأ العقوبةَ عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم[٤]؛ لأنَّ سليمان لم يُعاقبِ الهُدهدَ حين اعتذر إليه، وإنَّما صارَ صدقُ الهدهدِ عذراً؛ لأنَّه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حُبِّبَ إليه الجهاد. وفي الصحيح: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزلَ الكتابَ وأرسلَ الرُّسلَ[٥]». وقد قبِلَ عمرُ عذرَ النُّعمان بنَ عديٍّ ولم يُعاقِبْه[٦]. ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلَّق به حكمٌ من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان؛ فإنه لمَّا قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ لم يستفِزَّه الطمع، ولا استجَرَّه حُبُّ الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فغاظَه حينئذٍ ما سمع، وطلبَ الانتهاءَ إلى ما أخبر، وتحصيلَ علمِ ما غابَ عنه من ذلك، فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٧]، ونحوٌ منه ما رواه الصحيح عن المِسْور بن مَخْرَمة، حين استشارَ عمرُ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٤ .

(٣) في (م): كفاء. وفي بقية النسخ: حقاً. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧ .

(٥) صحيح البخاري (٧٤١٦)، وصحيح مسلم (٤١٩٩) بنحوه من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ. وهو في مسند أحمد (١٨١٦٨).

(٦) وقد سلفت قصته ١٦/ ٩٠ - ٩١ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٦ .

الناسَ في إملاصِ المرأة ـ وهي التي يُضرَبُ بطنُها فتلقي جنينَها ـ فقال المغيرةُ بنُ شعبة: شهدتُ النبيَّ ﷺ قضى فيه بغرَّةٍ عبدٍ أو أمة. قال: فقال عمر: ايتني بمَنْ يشهدُ معك. قال: فشهِدَ له محمد بن مسلمة[١]. وفي روايةٍ فقال: لا تبرَحْ حتى تأتيَ بالمخرَجِ من ذلك. فخرجتُ فوجدتُ محمد بن مسلمة، فجئتُ به فشَهِدَ[٢]. ونحوه حديثُ أبي موسى في الاستئذان[٣]، وغيرُه.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزَّجَّاج: فيها خمسةُ أوجه: «فَأَلْقِهِي إِلَيْهِمْ» بإثبات الياء في اللفظ. وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالَّةً عليها «فَأَلْقِهِ إِلَيْهِم». وبضَمِّ الهاء وإثبات الواو على الأصل «فَأَلْقِهُو إِلَيْهِمْ». وبحذف الواو وإثبات الضمَّة «فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ». واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء «فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ». قال النَّحَّاس: وهذا عند النَّحْويِّين لا يجوزُ إلَّا على حيلةٍ بعيدةٍ تكون: يُقدِّر الوقف. وسمعتُ علي بن سليمان يقول: لا تلتفِتْ إلى هذه اللغة[٤]، ولو جازَ أن يصِلَ وهو ينوي الوقف لجاز أن يحذِفَ الإعرابَ من الأسماء[٥]. وقال: «إليهِم» على لفظ الجمع، ولم يقُلْ: إليها؛ لأنَّه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ فكأنه قال: فألقِه إلى الذين هذا دينهم؛ اهتماماً منه بأمر الدِّين، واشتغالاً به عن غيره، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك[٦].

---

(١) صحيح مسلم (١٦٨٣). وأخرجه أحمد (١٨٢١٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٣١٧).

(٣) سلف ١٥/ ١٩٠ .

(٤) في (م): العلة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٢٠٨-٢٠٩ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١١٦ . والقراءة الأولى والثانية والخامسة من القراءات السبعة المشهورة، فالقراءة الأولى قرأ بها ابن كثير والكسائي وابن عامر في رواية هشام عنه، ونافع في رواية ورش عنه. والقراءة الثانية قرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان عنه، ونافع في رواية قالون عنه. والقراءة الخامسة قرأ بها حمزة وعاصم وأبو عمرو. وأما القراءتان الثالثة والرابعة فهما شاذتان، وذكر ابن خالويه القراءة الثالثة في الشاذة ص١٠٩ عن مسلم بن جندب.

(٦) الكشاف ٣/ ١٤٦ .

ورُوِيَ في قصص هذه الآية أنَّ الهدهدَ وصل فألفى دون هذه الملكة حُجب جدران فعمدَ إلى كُوَّةٍ كانت بِلْقيسُ صنَعْتها لتدخل منها الشمسُ عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاها، فدخَلَ منها ورمى الكتاب على بِلْقيسَ وهي ـ فيما يُروى ـ نائمة، فلمَّا انتبهَتْ وجَدَتْه فراعَها، وظنَّتْ أنَّه قد دخل عليها أحد، ثم قامَتْ فوجدَتْ حالها كما عهِدَتْ، فنظرَتْ إلى الكُوَّةِ تَهمُّماً بأمر الشمس، فرأتِ الهدهدَ فعلِمَتْ[1]. وقال وهب وابن زيد: كانت لها كُوَّةٌ مستقبلةَ مطلع الشمس، فإذا طلعت سجدت، فسدَّها الهدهدُ بجناحه، فارتفعتِ الشمسُ ولم تعلم، فلما استبطأتِ الشمسَ قامتْ تنظرُ، فرمى الصحيفةَ إليها، فلما رأتِ الخاتمَ ارتعدَتْ وخضعَتْ؛ لأنَّ مُلك سليمان عليه السلام كان في خاتمه، فقرأتْه، فجمعتِ الملأ من قومها فخاطَبتْهم بما يأتي بعد[2]. وقال مقاتل: حملَ الهدهدُ الكتابَ بمنقارِه، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولَها الجنود والعساكر، فرفرف ساعةً والناس ينظرون إليه، فرفعتِ المرأةُ رأسَها فألقى الكتاب في حجرها[3].

السابعة عشرة: في هذه الآية دليلٌ على إرسالِ الكتبِ إلى المشركين وتبليغِهم الدعوة، ودعائِهم إلى الإسلام. وقد كتبَ النبيُّ ﷺ إلى كسرى وقيصرَ وإلى كلِّ جبَّار كما تقدَّم في «آل عمران»[4]:

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمْرُه بالتولِّي حُسْنُ أدبٍ ليتنحَّى حسْبَ ما يتأدَّبُ به مع الملوك. بمعنى: وكُنْ قريباً حتى ترى مراجعتَهم. قاله وهب بن منبِّه. وقال ابن زيد: أمْرُه بالتولِّي بمعنى الرجوع إليه، أي: ألقِهِ وارجِعْ. قال: وقوله ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ واتِّساقُ رتبةِ الكلامِ

(١) المحرر الوجيز ٤/٢٥٧ - ٢٥٨ عن وهب بن منبه.

(٢) تفسير البغوي ٣/٤١٦ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/٤٩٤ ، وزاد المسير ٦/١٦٧ - ١٦٨ .

(٤) ٥/١٦١ .

أظهر؛ أي: ألقِهِ ثم تولَّ، وفي خلالِ ذلك فانظر[(١)] أي: انتظر. وقيل: فاعلم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] أي: اعلم ماذا يرجعون، أي: يُجيبون وماذا يردُّون من القول. وقيل: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يتراجعون بينهم من الكلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ في الكلام حَذْفٌ، والمعنى: فذهبَ فألقاه إليهم، فسمعها وهي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾[(٢)]. ثم وصفتِ الكتابَ بالكريم إمَّا لأنَّه من عند عظيمٍ في نفسِها ونفوسِهم، فعظَّمته إجلالاً لسليمان عليه السلام. وهذا قول ابن زيد. وإمَّا أنها أشارت إلى أنَّه مطبوعٌ عليه بالخاتم، فكرامةُ الكتابِ خَتْمُه، ورُوِيَ ذلك عن رسول الله ﷺ[(٣)]. وقيل: لأنَّه بدأ فيه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد قال ﷺ: «كلُّ كلامٍ لا يُبدَأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجْذَم»[(٤)]. وقيل: لأنَّه بدأ فيه بنفسِه، ولا يفعلُ ذلكَ إلا الجُلَّة. وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك ابن مروان يبايعه: مِنْ عبد الله لعبد الملك بن مروان أميرِ المؤمنين، إنِّي أُقِرُّ لكَ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٨ .

(٣) سيرد لفظه قريباً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ . والحديث أخرجه أحمد (٨٧١٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وابن حبان (١) وغيرهم من طريق قرة بن عبد الرحمن، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «بحمد الله»، وفي رواية أبي داود: «أجذم»، ورواية أحمد: «أبتر» أو «أقطع»، ورواية الباقين: «أقطع». وقرة بن عبد الرحمن ضعيف.

وأخرجه النسائي (٤٩٥) و(٤٩٦) و(٤٩٧) من طرق عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً، بلفظ: «بذكر الله». ورجَّح الدارقطني في سننه ١/ ٤٢٧ وفي العلل ٨/ ٣٠ هذه الرواية المرسلة على الموصولة. قلنا: ومراسيل الزهري غير معتبرة عند جمهور أهل العلم.

وللحديث طرق أخرى معلولة تنظر في مسند أحمد.

بالسمع والطاعة ما استطعتُ، وإن بَنيَّ قد أقرُّوا لكَ بذلك[١]. وقيل: توهَّمَتْ أنَّه كتابٌ جاء من السماء؛ إذ كان الموصِّل طيراً. وقيل: «كَرِيمٌ»: حسن، كقوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٨] أي: مجلسٍ حسن.وقيل: وصَفَتْه بذلك؛ لِما تضمَّنَ من لينِ القول والموعظةِ في الدعاء إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، وحُسنِ الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سَبّاً ولا لَعْناً، ولا ما يُغيِّرُ النفس، ومن غير كلامٍ نازلٍ ولا مُستغْلَق؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ألا ترى إلى قولِ الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥] وقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]. وكلُّها وجوه حسان وهذا أحسَنُها.

وقد روي أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحدٌ قبل سليمان[٢]. وفي قراءة عبد الله: «وَإِنَّهُ مِنْ سُليمان» بزيادة واو[٣].

الثانية: الوصف بالكريم في الكتب غاية الوصف؛ ألا ترى قولَه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وأهلُ الزَّمانِ يصفون الكتابَ بالخطير وبالأثير وبالمبرور؛ فإن كان لملِكٍ قالوا: العزيز، وأسقطوا الكريم غفلةً، وهو أفضلُها خَصلةً. فأمَّا الوصْفُ بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤١-٤٢] فهذه عِزَّتُه وليست لأحدٍ إلا له، فاجتنبوها في كتبكم، واجعلوا بدلَها العالي؛ توفيةً لحَقِّ الولاية، وحياطةً للديانة. قاله القاضي أبو بكر بن العربي[٤].

الثالثة: كان رسمُ المتقدِّمين إذا كتبوا أن يبدؤوا بأنفسهم: من فلانٍ إلى فلان،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٤٧ - ١٤٤٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٢٥٨ ، والكشاف ٣/١٤٦ ، وهي قراءة شاذة. ووقع في (د) و(ز) و(ظ): وفي قراءة أبي: «وإنه» بزيادة واو. والمثبت من (م).

(٤) في أحكام القرآن ٣/١٤٤٨ .

وبذلك جاءت الآثار. وروى الربيع عن أنس قال: ما كانَ أحدٌ أعظمَ حُرمةً من النبيِّ ﷺ، وكان أصحابُه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم[١]. وقال ابن سيرين: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهلَ فارس إذا كتبوا بدؤوا بعُظَمائهم فلا يبدأِ الرجلُ إلَّا بنفسِه»[٢]. قال أبو الليث في كتاب «البستان» له: ولو بدأ بالمكتوبِ إليه جاز[٣]؛ لأنَّ الأمةَ قد اجتمعَتْ عليه وفعلوه لمصلحةٍ رأوا في ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسنُ في زمانِنا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأنَّ البدايةَ بنفسِه تُعَدُّ منه استخفافاً بالمكتوب إليه، وتكبُّراً عليه، إلَّا أنْ يكتبَ إلى عبدٍ من عبيدِه، أو غُلامٍ من غِلْمانِه.

الرابعة: وإذا وردَ على إنسانٍ كتابٌ بالتحية أو نحوِها ينبغي أن يرُدَّ الجواب؛ لأنَّ الكتابَ من الغائبِ كالسلامِ من الحاضر. ورُويَ عن ابن عباسٍ أنَّه كان يرى رَدَّ الكتابِ واجباً كما يرى رَدَّ السلام. والله أعلم.

الخامسة: اتَّفقوا على كَتْبِ «بسم الله الرحمن الرحيم» في أوَّل الكتب والرسائل، وعلى ختْمِها؛ لأنَّه أبعَدُ من الرِّيبة، وعلى هذا جرى الرَّسمُ، وبه جاء الأثرُ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّما كتابٍ لم يكن مختوماً فهو أغلَفُ. وفي الحديث: «كَرمُ الكتابِ خَتْمُه»[٤]. وقال بعض الأدباء هو ابن المُقَفَّع: مَنْ كتبَ إلى أخيه كتاباً فقدِ استخَفَّ به[٥]؛ لأنَّ الختمَ حَتْمٌ[٦]. وقال أنس: لمَّا أرادَ النبيُّ ﷺ أن

---

(١) وأخرجه الطبراني في الكبير (٦١٠٨) من حديث سلمان ﷺ.

(٢) إسناده منقطع؛ محمد بن سيرين تابعي، وقد رواه عن النبي ﷺ دون ذكر الصحابي.

(٣) في (م): لجاز.

(٤) من بداية المسألة الثالثة إلى هذا الموضع من بستان العارفين ص٦٣ -٦٤ . والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٨٤) عن ابن عباس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٩/٨: فيه محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٩) وفيه السدي، وفيه الكلبي وهو متروك أيضاً.

(٥) الكشاف ١٤٦/٣ .

(٦) في (م): ختم.

يكتُبَ إلى العجم فقيل له: إنَّهم لا يقبلون إلَّا كتاباً عليه ختم. فاصطنعَ خاتماً، ونقشَ على فَصِّه: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأنِّي أنظرُ إلى وَبِيصِه[1] وبياضِه في كَفِّه[2].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ «وَإِنَّهُ» بالكسر فيهما، أي: وإنَّ الكلام، أو: إن مُبتدأ الكلامِ «بسم الله الرحمن الرحيم». وأجازَ الفرَّاءُ «أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ» بفَتحِهما جميعاً على أن يكونا في موضع رفع بدلٍ من الكتاب بمعنى: ألقى إليَّ أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا في موضع نصبٍ على حذف الخافض[3]، أي: لأنَّه من سليمان ولأنَّه؛ كأنَّها علَّلتْ كَرمَه بكونه من سليمان وتصديرِه بسم الله. وقرأ الأشهب العُقَيليُّ ومحمد بن السَّمَيْفع: «أَلَّا تَغْلُوا» بالغين المعجمة. ورُويَ عن وهب بن مُنبِّه[4]؛ من غلا يغلو إذا تجاوزَ وتكبَّر[5]. وهي راجعةٌ إلى معنى قراءة الجماعة ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أي: مُنقادين طائعين مؤمنين[6].

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ الملأُ: أشرافُ

---

(١) الوبيص: البريق. اللسان (وبص).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٧٣٨)، والبخاري (٥٨٧٢)، ومسلم (٢٠٩٢). وفي الحديث أن النقش كان: محمد رسول الله.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٩، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ عن الأشهب العقيلي، والمحتسب ٢/ ١٣٩، والشاذة عن وهب بن منبه، وذكرا أنها قراءة ابن عباس.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٩.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٥، وتفسير البغوي ٣/ ١١٦، وزاد المسير ٦/ ١٦٨، والكشاف ٣/ ١٤٦.

القوم[١]. وقد مضى في سورة «البقرة»[٢] القولُ فيه. قال ابن عباس: كان معها ألفُ قَيْل. وقيل: اثنا عشرَ ألفِ قَيْل مع كل قَيْلٍ مئة ألف[٣]. والقَيْلُ: الملِكُ دون الملِكِ الأعظم[٤]. فأخذت في حُسنِ الأدبِ مع قومها، ومشاورتِهم في أمرها، وأعلَمتْهم أنَّ ذلك مُطَّرِدٌ عندها في كلِّ أمرٍ يَعرِضُ، بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فكيفَ في هذه النازلة الكبرى. فراجَعَها الملأُ بما يُقِرُّ عينَها، من إعلامهم إيَّاها بالقوَّة والبأس، ثم سلَّموا الأمرَ إلى نظَرِها؛ وهذه محاورةٌ حسنةٌ من الجميع[٥]. قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّه كان لها ثلاثُ مئة وثلاثةَ عشَر رجلاً هم أهلُ مشورَتِها، كلُّ رجلٍ منهم على عشرة آلاف[٦].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صِحَّةِ المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ في «آل عمران» [الآية:١٥٩] إمَّا استعانةً بالآراء، وإمَّا مُداراةً للأولياء. وقد مدحَ اللهُ تعالى الفُضَلاءَ بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٧] [الشورى:٣٨]. والمشاورةُ من الأمر القديم وخاصَّةً في الحرب، فهذه بلقيس امرأةٌ جاهليةٌ كانت تعبد الشمس ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ لتختبِرَ عَزْمَهم على مقاومة عدوِّهم، وحَزْمَهم فيما يُقيمُ أمرَهم، وإمضاءَهم على الطاعةِ لها، بعلمها بأنَّهم إن لم يبذُلوا أنفُسَهم وأموالَهم ودماءَهم دونها لم يكن لها طاقةٌ بمقاومة عدوِّها، وإن لم يجتمع أمرُهم وحزمُهم وجِدُّهم كان ذلك عوناً لعدوِّهم عليهم، وإن لم تختبِرْ

(١) الوسيط ٣/ ٣٧٧، وزاد المسير ٦/ ١٦٨.

(٢) ٤/ ٢٢٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦. وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٥١. والقول الثاني أخرجه الطبري ١٨/ ٥٠ - ٥١، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٢٠) عن مجاهد. قال الألوسي في روح المعاني ١٩/ ١٩٨: ولعمري إن أرض اليمن لتكاد تضيق عن العدد الذي تضمَّنه الخبر.

(٤) الصحاح (قول).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٨.

ما عندهم، وتعلَمْ قَدْرَ عزمِهم لم تكن على بصيرةٍ من أمرِهم، وربما كان في استبدادِها برأيها وَهْنٌ في طاعتها، ودخيلةٌ في تقديرِ أمرِهم، وكان في مشاورتهم وأخْذِ رأيهم عونٌ على ما تريده من قوَّةِ شوكَتِهم، وشِدَّةِ مُدافعتِهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا۟ قُوَّةٍ وَأُوْلُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. قال ابن عباس: كان من قُوَّةِ أحدِهم أنه يَركُضُ فرسَه حتى إذا احتدَّ ضَمَّ فَخِذَيه فحبسه بِقُوَّته.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ سلَّموا الأمرَ إلى نظرِها ـ مع ما أظهروا لها من القوَّةِ والبأسِ والشِّدَّة ـ فلمَّا فعلوا ذلك أخبرَتْ عند ذلِكَ بفِعْلِ الملوكِ بالقُرى التي يتغلَّبون عليها. وفي هذا الكلام خَوفٌ على قومِها، وحيطةٌ لهم[١]، واستعظامٌ لأمر سليمان عليه السلام. ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قيل: هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادَتْه. وقال ابن عباس: هو من قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ مُعَرِّفاً لمحمدٍ ﷺ وأمَّتِه بذلِكَ ومُخبِراً به[٢]. وقال وهب: لمَّا قرأَتْ عليهم الكتابَ لم تعرفِ اسمَ الله، فقالت: ما هذا؟! فقال بعضُ القوم: ما نظُنُّ هذا إلَّا عفريتاً عظيماً من الجِنِّ يقتدِرُ به هذا الملِكُ على ما يُريده. فسكَّتوه. وقال آخر[٣]: أراهُمْ ثلاثةً من العفاريت. فسكَّتوه، فقال شابٌّ قد عَلِمَ: يا سيِّدةَ الملوك، إنَّ سليمانَ مَلِكٌ قد أعطاه مَلِكُ السماء مُلْكاً عظيماً، فهو لا يتكلَّم بكلمةٍ إلَّا بدأ فيها بتسمية إلهه، واللهُ اسمُ مَليكِ السماء، والرَّحمنُ الرحيمُ نعوتُه. فعندها قالت: ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ فقالوا: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في القتال ﴿وَأُوْلُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[٤] في الحربِ واللقاء ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ ردُّوا أمرَهم إليها لمَّا جرَّبوا على رأيها من البركة ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فـ ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أهانوا شُرفاءَها لتستقيمَ لهم الأمور،

---

(١) كلمة «لهم» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٥٨.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: الآخر.

(٤) قبلها في (م) كلمة: قوة.

فصدقَ اللهُ قولَها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وقال ابن الأنباري(١): ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ هذا وقفٌ تامٌّ. فقال الله عزَّ وجلَّ تحقيقاً لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وشبيهٌ به في سورة «الأعراف» [١٠٩-١١٠]: «قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» تمَّ الكلام، فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. وقال ابن شجرة(٢): هو قول بلقيس، فالوقف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: وكذلك يفعل سليمانُ إذا دخلَ بلادَنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا من حُسنِ نظَرِها وتدبيرِها، أي: إنِّي أُجرِّبُ هذا الرجل بهدية، وأُعطيه فيها نفائسَ الأموال(٣)، وأُغرِبُ عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكاً دُنياويًّا أرضاه المالُ وعمِلْنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًّا لم يُرضِهِ المالُ ولازَمَنا في أمر الدِّين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتَّبِعَه على دينه، فبعثَتْ إليه بهديةٍ عظيمةٍ أكثرَ الناسُ في تفصيلها(٤)، فقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: أرسلَتْ إليه بلَبِنةٍ من ذهب، فرأتِ الرسلُ الحيطان من ذهبٍ فصَغُر عندهم ما جاؤوا به(٥). وقال مجاهد: أرسلَتْ إليه بمئتي غلامٍ ومئتي جارية(٦). ورُوي عن ابن عباس: باثنتي عشرةَ وصيفةً مُذَكَّرين قد ألبسَتْهُم زيَّ الغِلمان، واثني عشر غلاماً مُؤَنَّثين قد ألبسَتْهُم زيَّ النِّساء، وعلى يد الوصائف أطباقُ مِسْكٍ وعنبر، وباثنتي عشرةَ

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٧.

(٢) فيما نقل عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٠٦.

(٣) قبلها في (م): من.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٠.

(٦) عرائس المجالس ص ٣١٧، والوسيط ٣/ ٣٧٧.

نَجيبةٍ تحمِلُ لَبِنَ الذَّهب، وبخرزتين إحداهما غيرُ مثقوبة، والأخرى مثقوبةٌ ثَقْباً مِعْوَجًّا، وبقدحٍ لا شيء فيه، وبعصًا كان يتوارثها ملوكُ حِمْيَر، وأنفذَتِ الهديةَ مع جماعةٍ من قومها. وقيل: كان الرسولُ واحداً، ولكن كان في صحبتِه أتباعٌ وخدم. وقيل: أرسلت رجُلاً من أشرافِ قومِها يُقال له: المنذر بن عمرو، وضمَّتْ إليه رجالاً ذَوي رأيٍ وعقل، والهدية مئةُ وصيفٍ ومئةُ وصيفة، قد خُولِفَ بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلَّمَكم سليمانُ فكلِّموه بكلامٍ فيه تأنيثٌ يُشبِهُ كلامَ النساء، وقالت للجواري: كلِّمْنَه بكلامٍ فيه غِلَظٌ يشبه كلام الرجال، فيُقال: إنَّ الهُدهدَ جاء وأخبر سليمان بذلك كلِّه. وقيل: إنَّ اللهَ أخبرَ سليمانَ بذلك، فأمرَ سليمانُ عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بِلَبِنات الذهب والفضة، ثم قال: أيَّ الدوابِّ رأيتُم أحسنُ في البرِّ والبحر؟ قالوا: يا نبيَّ الله، رأينا في بحرِ كذا دوابَّ مُنقَّطةً مختلفةً ألوانُها، لها أجنحةٌ وأعرافٌ ونواصي. فأمَرَ بها فجاءت فشُدَّت على يمين الميدان وعلى يساره، وعلى لبِنات الذهب والفضة، وألقَوا لها علوفاتها، ثم قال للجنِّ: عليَّ بأولادكم. فأقامهم ـ أحسنَ ما يكون من الشباب ـ عن يمين الميدان ويساره. ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيِّه في مجلسه، ووضعَ له أربعةَ آلاف كرسيٍّ من ذهبٍ عن يمينه ومثلَها عن يساره، وأجلَسَ عليها الأنبياءَ والعلماء، وأمرَ الشياطينَ والجِنَّ والإنسَ أن يَصطَفُّوا صفوفاً فراسِخَ، وأمرَ السِّباعَ والوحوشَ والهوامَّ والطيرَ فاصطَفُّوا فراسخَ عن يمينه وشماله، فلما دنا القومُ من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدوابَّ التي لم ترَ أعينُهم أحسنَ منها تَروثُ على لَبِناتِ الذهبِ والفضة، تقاصرت إليهم أنفسُهم، ورَموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات: إنَّ سليمانَ لما أمرهم بفرش الميدان بلَبِناتِ الذهبِ والفضة أمرَهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قَدْرِ موضعِ بساطٍ من الأرض غيرَ مفروش، فلمَّا مَرُّوا به خافوا أن يُتَّهموا، بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلمَّا رأوا الشياطينَ رأوا منظراً هائلاً فظيعاً ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين: جُوزُوا لا بأسَ عليكم. فكانوا

يمرُّون على كُرْدُوسٍ كُرْدُوسٍ من الجِنِّ والإنسِ والبهائمِ والطيرِ والسِّباعِ والوحوشِ حتى وقفوا بين يدَي سليمان، فنظر إليهم سليمانُ نظراً حسناً بوجهٍ طَلْقٍ ـ وقد[1] كانت قالت لرسولها: إنْ نظرَ إليك نظَرَ مُغْضَبٍ فاعلَمْ أنَّه مَلِكٌ فلا يهولنَّك منظرُه فأنا أعَزُّ منه، وإنْ رأيتَ الرجلَ بَشّاً لطيفاً فاعلم أنه نبيٌّ مرسلٌ، فتفهَّمْ قولَه ورُدَّ الجواب ـ فأخبر الهدهدُ سليمانَ بذلك على ما تقدَّم. وكانت عمدت إلى حُقَّةٍ من ذهبٍ فجعلت فيها دُرَّةً يتيمةً غيرَ مثقوبة، وخرزةً مُعْوَجَّة الثَّقْبِ، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه: إنْ كنتَ نبيّاً فميِّزْ بين الوُصفاءِ والوصائف، وأخبِرْ بما في الحُقَّة، وعَرِّفني رأسَ العصا من أسفلها، وأثقُبِ الدُّرَّةَ ثَقْباً مستوياً، وأدخِلْ خيطَ الخرزة، واملأِ القدحَ ماءً من ندًى ليس من الأرض ولا من السماء، فلمَّا وصلَ الرسولُ ووقف بين يدَي سليمانَ أعطاهُ كتابَ الملِكة فنظر فيه، وقال: أين الحُقَّة؟ فأتى بها فحرَّكها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان، فقال له الرسول: صدقْتَ، فاثقُبِ الدُّرَّة، وأدخلِ الخيطَ في الخَرَزة. فسأل سليمانُ الجِنَّ والإنسَ عن ثَقْبها فعجزوا، فقال للشياطين: ما الرأيُ فيها؟ فقالوا: تُرسلُ إلى الأَرَضة، فجاءتِ الأَرضةُ فأخذت شعرةً في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتُكِ؟ قالت: تصيرُ رزقي في الشجرة. فقال لها: لكِ ذلك. ثم قال سليمان: مَنْ لهذه الخَرَزة يسلُكها الخيط؟ فقالت دودةٌ بيضاء: أنا لها يا نبيَّ الله. فأخذتِ الدودةُ الخيطَ في فيها ودخلتِ الثَّقْبَ حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتُكِ؟ قالت: تجعل رزقي في الفواكه. قال: ذلكَ لكِ. ثم ميَّز بين الغلمان والجواري[2]. قال السُّدِّيُّ: أمرَهم بالوضوء، فجعلَ الرجلُ يَحدُرُ الماءَ على اليدِ والرجل حَدْراً، وجعل الجواري يَصبُبْنَ من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى، فميَّزَ بينهم بهذا. وقيل: كانتِ الجاريةُ تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثم تحمِلُه على الأخرى، ثم

(١) كلمة «قد» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) كلمة «والجواري» من (م) ومن المصادر.

تضرِبُ به على الوجه، والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه، والجاريةُ تصُبُّ على بطن ساعدها، والغلامُ على ظهر الساعد، والجاريةُ تصُبُّ الماءَ صبًّا، والغلام يحدُرُ على يديه؛ فميَّزَ بينهم بهذا[1]. وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جُبير قال: أرسلت بلقيس بمئتي وصيفةٍ ووصيفٍ، وقالت: إنْ كان نبيًّا فسيعلم الذكورُ من الإناث.فأمرهم فتوضَّؤوا، فمَنْ توضَّأ منهم فبدأ بمِرْفَقِه قبل كفِّه قال: هو من الإناث، ومَنْ بدأ بكفِّه قبل مِرْفَقِه قال: هو من الذُّكور[2]. ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أيُّ الرأسين سبقَ إلى الأرض فهو أصلُها، وأمر بالخيل فأُجْرِيتْ حتى عَرِقتْ ومُلِأَ القدحُ من عَرَقِها[3]، ثم ردَّ سليمان الهدية[4]، فرُوِيَ أنَّه لمَّا صرف الهدية إليها وأخبرها رسولُها بما شهد؛ قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانية: كان النبيُّ ﷺ يقبل الهديةَ ويُثيب[5] عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائرُ الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنَّما جَعلَتْ بِلقيسُ قبولَ الهدية أو ردَّها علامةً على ما في نفسها، على ما ذكرناه من كونِ سليمانَ مِلِكاً أو نبيًّا؛ لأنه قال لها في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهذا لا تُقبلُ فيه فدية، ولا يُؤخذُ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تَقرَّر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنَّما هي رِشوةٌ وبيعُ الحقِّ بالباطل، وهي الرِّشوة التي لا تحِلُّ. وأما الهديةُ المُطلَقةُ للتحبُّبِ والتواصل فإنَّها جائزةٌ من كلِّ أحدٍ وعلى كلِّ حال، وهذا ما لم يكن من مشرك.

---

(١) عرائس المجالس ص٣١٨ - ٣١٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٧ - ٤١٩ .قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية ولا اعتنى به، بل أعرض عنه.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٠ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٢ .

(٤) عرائس المجالس ص٣١٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٩ .

(٥) في (م): ويثبت.

الثالثة: فإن كانت من مشركٍ ففي الحديث: «نُهِيتُ عن زَبْدِ المشركين» يعني رِفدَهم وعطاياهم[(١)]. ورُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قبِلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيليّ[(٢)] وغيره[(٣)]، فقال جماعةٌ من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخٌ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هديةً من يطمع بالظهورِ عليه وأخْذِ بلده ودخولِه في الإسلام[(٤)]. وبهذه الصفة كانت حالةُ سليمان عليه السلام، فعَنْ مثل هذا نهى أن تُقبَلَ هديَّته حملاً على الكفِّ عنه، وهذا أحسنُ تأويلٍ للعلماء في هذا؛ فإنَّه جمعَ بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة: الهدية مندوبٌ إليها، وهي مما تُورِثُ المودةَ وتُذهِبُ العداوة؛ روى مالكٌ عن عطاء بن عبد الله الخُراساني قال: قال رسول الله ﷺ: «تَصافحوا يَذهبِ الغِلُّ، وتَهادوا تحابُّوا وتذهَبِ الشَّحناء»[(٥)]. وروى معاوية بن الحكم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تَهادوا فإنَّه يُضعِّفُ الوُدَّ، ويَذهَبُ بغوائلِ الصَّدر». وقال

---

(١) من بداية المسألة الثانية إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٩ . والحديث بهذا اللفظ أخرجه أبو داود (٣٠٥٧)، والترمذي (١٥٧٧) من حديث عياض بن حمار ﵁. وقال: حديث حسن صحيح. وهو في مسند أحمد (١٧٤٨٢) بلفظ: «إنا لا نقبل زبد المشركين».

(٢) موطأ مالك ٢/ ٤٥٩ عن ثور بن زيد الديلي، عن أبي الغيث سالم مولى ابن مطيع، عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر... فأهدى رفاعة بن زيد لرسول الله صلى لله عليه وسلم غلاماً أسود يقال له: مِدْعَم... الحديث. وقد أخرجه بنحوه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم(١١٥). وينظر الاستذكار ١٤/ ٢٠١ .

(٣) أخرج أحمد (١٣١٤٨)، والبخاري (٢٦١٥ - ٢٦١٦)، ومسلم (٢٤٦٩) من حديث أنس بن مالك ﵁، أن أكيدر دومة الجندل أهدى للنبي ﷺ جُبَّةً من سندس.

(٤) التمهيد ٢/ ١٢ ، والاستذكار ١٤/ ٢٠٢ .

(٥) الموطأ ٢/ ٩٠٨ .وإسناده مرسل، ولكن قوله: «تهادوا تحابُّوا» له شاهد من حديث أبي هريرة ﵁ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨). وقوله: «وتذهب الشحناء» له شاهد من حديث أبي هريرة ـ أيضاً ـ أخرجه أحمد (٩٢٥٠)، والترمذي (٢١٣٠) بلفظ: «تهادوا فإن الهدية تذهب وغرَ ـ أو: وَحْرَ ـ الصدر».

الدَّارَقُطْنيُّ: تفرَّدَ به ابن بَحير[١] عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرَّضيِّ، ولا يصِحُّ عن مالكٍ ولا عن الزُّهري. وعن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «تَهادوا بينكم فإنَّ الهديةَ تُذهِبُ السَّخِيمة». قال ابن وَهْب: سألتُ يونس عن السَّخيمة ما هي؟ فقال: الغِلُّ. وهذا الحديثُ وصلَه الوقَّاصي عثمان عن الزُّهري وهو ضعيف. وعلى الجملة: فقد ثبتَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقبل الهدية، وفيه الأُسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع اتباع السُّنَّةِ أنَّها تزيلُ حزازاتِ النفوس، وتُكسِبُ المُهدي والمُهدَى إليه رنَّةً[٢] في اللقاء والجلوس. ولقد أحسَنَ مَنْ قال:

هدايا الناسِ بعضِهمُ لبعضٍ ... تُوَلِّدُ في قلوبهمُ الوِصالا
وتزرعُ في الضميرِ هَوًى ووُدّاً ... وتُكسِبُهمْ إذا حضروا جَمالا[٣]

آخر:

إنَّ الهدايا لها حَظٌّ إذا وَرَدتْ ... أحظى من الابن عند الوالدِ الحَدِبِ[٤]

الخامسة: رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «جُلساؤكم شُركاؤكم في الهدية» واختُلِفَ في معناه، فقيل: هو محمولٌ على ظاهره. وقيل: يُشاركهم على وجه الكرم والمروءة، فإن لم يفعل فلا يُجبَرُ عليه[٥]. وقال أبو يوسف: ذلك في الفواكه ونحوها. وقال بعضهم: هم شركاؤه في السرور لا في الهدية. والخبر محمولٌ في أمثال أصحاب الصُّفَّة والخوانق والرِّباطات؛ أمَّا إذا كان فقيهاً من الفقهاء اختصَّ بها فلا شركةَ فيها لأصحابه، فإنْ أشرَكَهم فذلك كرمٌ وجودٌ منه.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي: منتظرة[٦] ﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ قال قتادة:

---

(١) في (م): بجير.

(٢) هكذا في النسخ، ولم يتضح لنا معناها، ولعلها: رغبة.

(٣) قائلهما دعبل الخزاعي، وهما في ديوانه ص١٢٠ .

(٤) المسألة كلها في التمهيد ٢١/ ١٧ - ١٩ سوى قوله: ومن فضل الهدية.... في اللقاء والجلوس.

(٥) من بداية المسألة إلى هنا من التمهيد ٢١/ ١٢٤ ، وقال ابن عبد البر عن الحديث: إسناده فيه لين.

(٦) معجم البيان ١٩/ ٢٢٠ .

يَرحمُها الله أن كانت لَعاقلةً في إسلامها وشركها؛ قد علمت أنَّ الهديةَ تقع مَوقعاً من الناس[١]. وسقطتِ الألفُ في «بِم» للفرق بين «ما» الخبرية. وقد يجوز إثباتُها[٢]؛ قال:

على ما قامَ يشتمني لئيمٌ كخنزيرٍ تمرَّغ في رَمادِ[٣]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: جاء الرسولُ سليمانَ بالهدية[٤]. قال: «أَتُمِدُّونَني بِمالٍ». قرأ حمزة ويعقوب والأعمش: بنونٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ وياءٍ ثابتةٍ بعدها[٥]. الباقون بنونين، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لأنَّها في كلِّ المصاحف بنونين[٦]. وقد روى إسحاق عن نافع أنه كان يقرأ: «أَتُمِدُّونِ» بنونٍ واحدةٍ مُخفَّفةٍ بعدها ياءٌ في اللفظ[٧]. قال ابن الأنباري: فهذه القراءة يجب فيها إثباتُ الياء عند

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٠٩ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٠ - ٢١١ . ومذهب جواز إثباتها مذهب الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٢ .

(٣) قائله حسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص١٩٩ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٣ .

(٥) قراءة حمزة في السبعة ص٢٨٤ ، والتيسير ص١٧٠ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٤٠ .

(٦) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٦٧ .

(٧) الشاذة ص١٠٩ ، وزاد المسير ٦/ ١٧٢ .

الوقف؛ ليصِحَّ لها موافقةُ هجاء المصحف. والأصل في النون التشديد، فُخفِّفَ التشديدُ من ذا الموضع كما خُفِّفَ من: أشهدُ أنْكَ عالِمٌ، وأصله: أنَّكَ عالم. وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ: «يُشَاقُّونِ فِيهِم»[١]، «أَتُحَاجُّونِ فِي اللهِ»[٢]. وقد قالتِ العرب: الرجالُ يضربونِ ويقصدونِ، وأصله: يضربونِّي ويقصدونِّي؛ لأنَّه إدغامُ يضربونني ويقصدونني؛ قال الشاعر:

تَرْهَبِينِ والجِيدُ مِنكِ لِلَيْلَى والحَشَا والبُغَامُ[٣] والعينانِ

والأصلُ ترهبينني فخُفِّفَ. ومعنى «أَتُمِدُّونَنِي»: أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوَّة خيرٌ مما أعطاكم، فلا أفرَحُ بالمال[٤]. و«آتانِ» وقعت في كلِّ المصاحف بغير ياء. وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص: «آتانِيَ اللهُ» بياءٍ مفتوحة، فإذا وقفوا حذفوا. وأما يعقوب فإنه يُثبِتُها في الوقف ويحذِفُ في الوصل لالتقاء الساكنين. الباقون بغير ياء في الحالين[٥]. ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم أهلُ مفاخرةٍ ومُكاثرةٍ في الدنيا[٦].

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ارجع إليهم بهديتهم[٧]. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لامُ قسَمٍ، والنونُ لها لازمة. قال النَّحَّاس[٨]: وسمعتُ أبا الحسن بن كيسان يقول: هي لامُ توكيد، وكذا كان عنده أنَّ

---

(١) سلف ١٢/ ٣١٥.

(٢) سلف ٨/ ٤٤٣.

(٣) هو صوت الناقة. اللسان (بغم).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩.

(٥) السبعة ص٤٨٢، والتيسير ص٧٠ وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٤٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩.

(٧) المصدر السابق.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢١١.

اللاماتِ كلَّها ثلاثٌ لا غير؛ لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض، وهذا قول الحُذَّاقِ من النَّحْويِّين؛ لأنهم يردُّون الشيء إلى أصله، وهذا لا يتهيَّأ إلا لمن درب في العربية.

ومعنى ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم عليها. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من أرضهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ وقيل: «مِنْهَا» أي: من قرية سبأ[١].

وقد سبق ذكر القرية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. ﴿أَذِلَّةً﴾ قد سُلِبوا مُلكَهم وعِزَّهم. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مُهانون أذلَّاءُ ـ من الصَّغَرِ: وهو الذلُّ ـ إن لم يُسلِموا، فرجعَ إليها رسولُها فأخبرها، فقالت: قد عرفتُ أنَّه ليس بملِكٍ ولا طاقةَ لنا بقتال نبيٍّ من أنبياء الله. ثم أمرَتْ بعرشِها فُجعِلَ في سبعة أبياتٍ بعضُها في جوف بعض، في آخر قصرٍ من سبعة قصور، وغلَّقتِ الأبواب، وجعلتِ الحرسَ عليه، وتوجَّهت إليه في اثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن، تحت كل قَيْلٍ مئة ألف.

قال ابن عباس: وكان سليمانُ مَهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فنظر ذات يومٍ رَهَجاً[٢] قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بِلقيسُ يا نبيَّ الله[٣]. فقال سليمان لجنوده ـ وقال وهب وغيره: للجِنِّ ـ ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الله بن شداد: كانت بِلقيسُ على فرسَخٍ من سليمان لمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾[٤] وكانت خلَّفَتْ عرشَها بسبأ، ووكَّلت به حَفَظة. وقيل: إنَّها لمَّا بعثت بالهدية بعثت رسُلَها في جندها لِتُغافِصَ[٥] سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهَّبَ سليمانُ لها إن كان طالِبَ مُلْكٍ، فلمَّا علم ذلك قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾. قال ابن عباس: كان أمرُه بالإتيان بالعرش قبل أن يكتُبَ الكتابَ إليها، ولم يكتُبْ إليها حتى جاءه العرش.

---

(١) تفسير البغوي ٤/٣١٩.

(٢) الرهج: الغبار. اللسان (رهج).

(٣) تفسير البغوي ٣/٤١٩، ومجمع البيان ١٩/٢٢٥ بنحوه.

(٤) تفسير مجاهد ٢/٤٧٠.

(٥) أي: أخذه على غرة. اللسان (غفص).

وقال ابن عطية: وظاهر الآيات أنَّ هذه المقالةَ من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديَّتها وردِّه إيَّاها، وبَعْثِه الهدهدَ بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأوِّلين. واختلفوا في فائدة استدعاء عرشها، فقال قتادة: ذُكِرَ له بعِظَمٍ وجَوْدة، فأراد أخْذَه قبل أن يعصِمَها وقومَها الإسلامُ ويحميَ أموالَهم؛ والإسلامُ على هذا: الدِّين. وهو قول ابن جُريج. وقال ابن زيد: استدعاه ليُرِيَها القدرةَ التي هي من عند الله، ويجعلَه دليلاً على نبوَّتِه؛ لأخذه من بيوتها[1] دون جيشٍ ولا حرب، و«مسلِمينَ» على هذا التأويل بمعنى مستسلمين. وهو قول ابن عباس[2]. وقال ابن زيد أيضاً: أراد أن يختبر عقلَها؛ ولهذا قال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾[3]. وقيل: خافتِ الجنُّ أن يتزوَّجَ بها سليمانُ عليه السلام فيولَدُ له منها ولد[4]، فلا يزالون في السُّخرة والخِدمة لنسلِ سليمان، فقالت لسليمان: في عقلِها خلل. فأراد أن يمتحِنَها بعرشها[5]. وقيل: أراد أن يختبر صِدْقَ الهدهدِ في قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. قاله الطبري[6]. وعن قتادة: أحبَّ أن يراه لمَّا وصفَه الهدهد. والقول الأوَّلُ عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، ولأنَّها لو أسلمت لحظَرَ عليه مالُها فلا يُؤتى به إلَّا بإذنها[7]. رُوِيَ أنه كان من فضةٍ وذهبٍ مُرصَّعاً بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان في جوف سبعة أبياتٍ عليه سبعة أغلاق[8].

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ كذا قرأ الجمهور، وقرأ أبو رجاء وعيسى

---

(١) في (ظ): ثقافها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ .

(٤) كلمة «ولد» من (م).

(٥) الوسيط ٣/٣٧٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ .

(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ - ٦٤ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

الثقفي: «عِفْرِيَةٌ» ورُوِيَتْ عن أبي بكر الصديق ﷺ[١]. وفي الحديث: «إنَّ الله يُبغِضُ العِفرِيَةَ النِّفرِيةَ»[٢]. النِّفرية إتباعٌ لعفرية[٣]. قال قتادة: هي الداهية. قال النَّحَّاس: يُقال للشديد إذا كان معه خُبْثٌ ودهاءٌ: عِفْرٌ وعِفْرِيَةٌ وعِفرِيتٌ وعُفَارِيَةٌ. وقيل: «عفريت» أي: رئيس[٤]. وقرأت فِرقة: «قال عِفْرٌ» بكسر العين. حكاه ابن عطية[٥]؛ قال النَّحَّاس: من قال: عِفْرِيَةٌ جمَعَه على عِفارٍ، ومن قال: عِفريتٌ كان له في الجمع ثلاثةُ أوجه؛ إن شاء قال: عفاريت، وإن شاء قال: عَفارٍ؛ لأنَّ التَّاءَ زائدة، كما يُقال: طواغٍ في جمع طاغوت، وإن شاء عوَّضَ من التاء ياءً فقال: عَفارِي[٦]. والعفريت من الشياطين: القويُّ المارد، والتاء زائدة. وقد قالوا: تَعَفْرَتَ الرجلُ. إذا تخلَّقَ بخُلُقِ الأذاية[٧]. وقال وهب بن منبّه: اسم هذا العفريت كودن. ذكره النحَّاس[٨]. وقيل: ذكوان. ذكره السُّهيلي[٩]. وقال شعيب الجُبَّائي: اسمه دعوان[١٠]. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه صخر الجِنِّي. ومن هذا الاسم قولُ ذي الرُّمَّة:

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهذه القراءة في المحتسب عن أبي رجاء وعيسى الثقفي، وفي الشاذة ص١٠٩ عن أبي رجاء وأبي السمال.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الأمثال (١٣٨) من طريق عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، مرفوعاً.

وأخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٢٤٨)، والبيهقي في الشعب (٩٩١٠) من طريق عاصم الأحول، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٨) في معاني القرآن ٥/ ١٣٣ .

(٩) في التعريف والإعلام ص١٢٨ .

(١٠) أخرج الطبري ١٨/ ٦٦ - ٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٦٧) عن شعيب الجبائي أن اسم العفريت: كوزن.

كـأنَّـه كـوكـبٌ فـي إِثْـرِ عِـفْـرِيَـةٍ مُصَوَّبٌ في سوادِ الليل مُنْقَضِبُ(١)

وأنشد الكسائيُّ:

إذ قـالَ شـيـطـانُـهُـمُ الـعِـفْـريـتُ لـيـسَ لـكـمْ مُـلـكٌ ولا تـثـبِـيـتُ(٢)

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عِفريتاً من الجِنِّ جعل يَفْتِكُ(٣) عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ الصلاةَ، وإنَّ اللهَ أمكنني منه فَذَعَتُّه»(٤) وذكر الحديث، وفي البخاري: «تفَلَّت عليَّ البارحةَ» مكان «جعَل يَفْتِكُ»(٥). وفي «الموطأ» عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسرِيَ برسول الله ﷺ، فرأى عِفريتاً من الجِنِّ يطلبه بشعلةٍ من نار، كُلَّما التفتَ رسولُ الله ﷺ رآه، فقال جبريل: أفلا أُعلِّمكَ كلماتٍ تقولُهنَّ إذا قُلتَهنَّ طُفِئتْ شُعلَتُه وخَرَّ لِفيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فقال: أعوذُ باللهِ الكريمِ وبكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ التي لا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ من شرِّ ما ينزل من السماء، وشرِّ ما يَعرُجُ فيها، وشرِّ ما ذرأ في الأرض، وشرِّ ما يخرجُ منها، ومن فتَنِ الليل والنهار، ومن طوارقِ الليلِ والنهارِ، إلَّا طارقاً يَطرُقُ بخيرٍ يا رحمن(٦).

قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ يعني: في مجلسه الذي يحكم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، والبيت في ديوان ذي الرمة ١/ ١١١ ، وفيه «مسوَّم» بدل «مصوَّب». قال شارحه: «مسوم» يريد: الكوكبُ مُعلَّم، ويكون بمعنى: مُخلًّى عنه و«منقضب»: مُنقضٌّ.

(٢) قائله رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه في مجموع أشعار العرب ص٢٦ .

(٣) من الفتك، وأصله: القتل على غفلةٍ وغرَّة. إكمال المعلم ٢/ ١٥٠ .

(٤) أي: خنقتُه، والذَّعتُ والدَّعتُ بالذال والدال: الدفع العنيف، والذعتُ أيضاً: المعك في التراب. النهاية (ذعتَ).

(٥) صحيح البخاري (١٢١٠)، وصحيح مسلم (٥٤١). وهو في مسند أحمد (٧٩٦٩). بلفظ البخاري.

(٦) الموطأ ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١ . وإسناده معضل. وقد رُوي موصولاً فيما أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٣) عن أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن الأوزاعي، عن إبراهيم بن طريف، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً. قلنا: أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة له مناكير فيما قاله الذهبي في الميزان ١/ ١٥١ .

وللحديث شاهد ضعيف أخرجه أحمد (١٥٤٦٠) من حديث عبد الرحمن بن خنبش ﷺ.

فيه[١]. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ أي: قويٌّ على حمله، أمينٌ على ما فيه[٢]. ابن عباس: أمينٌ على فرج المرأة. ذكره المَهدوي[٣]. فقال سليمان: أُريدُ أسرعَ من ذلك. فـ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أكثرُ المفسِّرين على أنَّ الذي عنده علمٌ من الكتاب آصف بن بَرْخيا وهو من بني إسرائيل، وكان صِدِّيقاً يحفظُ اسمَ الله الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أَعْطى، وإذا دُعيَ به أجاب[٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «إنَّ اسمَ اللهِ الأعظَمَ الذي دعا به آصف بن بَرْخيا: يا حيُّ يا قيُّوم»[٥] قيل: وهو بلسانهم: أهيا شراهيا. وقال الزُّهري: دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم: يا إلهنا وإله كلِّ شيءٍ إلهاً واحداً لا إله إلا أنتَ، ايتني بعرشها. فمثُلَ بين يديه. وقال مجاهد: دعا فقال: يا إلهنا وإله كلِّ شيء، يا ذا الجلال والإكرام[٦]. قال السُّهَيليُّ[٧]: الذي عنده علمٌ من الكتاب هو آصف بن بَرْخيا ابن خالة سليمان، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى. وقيل: هو سليمانُ نفسُه. ولا يصِحُّ في سياق الكلام مثلُ هذا التأويل. قال ابن عطية[٨]: وقالت فرقة: هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لمَّا قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ كأنَّ سليمانَ استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ واستَدَلَّ قائلو هذه المقالة بقول سليمان: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ عن مجاهد وقتادة وابن منبِّه، وأخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٦٧ - ٦٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢١٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٣) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٨ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٢٠ ، وهذا القول في تفسير الرازي ٢٤/ ١٩٧ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ عن ابن عباس ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩٠) من كلام ابن إسحاق.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (١٢٦١١) بسياق آخر من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ ، وقول الزهري ومجاهد أخرجهما الطبري ١٨/ ٦٩ - ٧٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٢) و(١٦٣٨٣).

(٧) في التعريف والإعلام ص١٢٨ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

قلتُ: ما ذكره ابنُ عطية قاله النحَّاسُ في «معاني القرآن»[١] له، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. قال ابن[٢] بحر: هو مَلَك[٣] بيده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت. قال السُّهيليُّ[٤]: وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّة بن أُدّ، وهذا لا يصِحُّ البتَّة؛ لأنَّ ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخة، واسمه عمرو بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعَدّ، ومَعدٌّ كان في مدة بَخْتَنَصَّر، وذلك بعد عهد سليمان بدهرٍ طويل، فإذا لم يكن مَعَدٌّ في عهد سليمان، فكيف ضَبَّةُ بن أُدّ وهو بعده بخمسة آباء؟! وهذا بَيِّنٌ لمن تأمَّله.

ابن لَهِيعة: هو الخَضِر عليه السلام[٥]. وقال ابن زيد: الذي عنده علم من الكتاب رجلٌ صالحٌ كان في جزيرةٍ من جزائر البحر، خرجَ ذلك اليوم ينظرُ مَنْ ساكِنُ الأرض، وهل يعبدُ اللهَ أم لا؟ فوجد سليمان، فدعا باسمٍ من أسماء الله تعالى فجيء بالعرش[٦]. وقول سابع: إنَّه رجلٌ من بني إسرائيل اسمه يمليخا كان يعلم اسمَ الله الأعظم. ذكره القُشيري[٧]. وقال ابنُ أبي بَزَّةَ: الرجل الذي كان عنده علمٌ من الكتاب اسمه أسطوم، وكان عابداً في بني إسرائيل. ذكره الغَزنوي[٨]. وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان عليه السلام؛ أما إنَّ الناسَ يرَونَ أنَّه كان معه اسمٌ وليس ذلك كذلك، إنَّما كان رجلٌ من بني إسرائيل عالمٌ آتاه الله عِلْماً وفِقْهاً قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾ قال: هات. قال: أنت نبيُّ الله ابن نبيِّ الله، فإن دعوتَ

---

(١) ٥/ ١٣٤.

(٢) كلمة «ابن» ليست في (ز) و(م).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٤.

(٤) في التعريف والإعلام ص١٢٨ - ١٢٩.

(٥) كرامات الأولياء للالكائي ص٧٢، والنكت والعيون ٤/ ٢١٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦١.

(٦) عرائس المجالس ص٣٢١، وزاد المسير ٦/ ١٧٥.

(٧) وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٢٦ عن مجاهد.

(٨) وأخرجه اللاكائي في كرامات الأولياء (٢٤). وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٢١.

اللهَ جاءك به، فدعا اللهَ سليمانُ فجاءه اللهُ بالعرش[١]. وقول ثامن: إنه جبريلُ عليه السلام. قاله النَّخَعي ورُويَ عن ابن عباس[٢]. وعِلْمُ الكتاب على هذا: عِلْمُه بكتب اللهِ المُنزَّلة، أو بما في اللوح المحفوظ. وقيل: علم كتاب سليمان إلى بلقيس[٣]. قال ابن عطية: والذي عليه الجمهور من الناس أنَّه رجلٌ صالحٌ من بني إسرائيل اسمه آصف بن بَرْخيا؛ روي أنه صلَّى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبيَّ الله، امدُدْ بصرَكَ. فمدَّ بصرَه نحو اليمن، فإذا بالعرش، فما ردَّ سليمانُ بصرَه إلَّا وهو عنده[٤]. قال مجاهد: هو إدامةَ النَّظرِ حتى يرتدَّ طَرْفُه خاسئاً حسيراً[٥]. وقيل: أرادَ مقدار ما يفتح عينَه ثم يطرف، وهو كما تقول: افعل كذا في لحظة عين. وهذا أشبه[٦]؛ لأنَّه إن كان الفعلُ من سليمان فهو معجزة، وإنْ كان من آصف أو من غيرِه من أولياء الله فهي كرامة، وكرامةُ الوليِّ معجزةُ النبيِّ. قال القشيريُّ: وقد أنكرَ كراماتِ الأولياء مَنْ قال: إنَّ الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾. وعند هؤلاء ما فعل العفريتُ فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإنَّ الجنَّ يقدرون على مثل هذا. ولا يقطعُ جوهرٌ في حالٍ واحدةٍ مكانين، بل يُتصوَّرُ ذلك بأنْ يَعدِمَ اللهُ الجوهرَ في أقصى الشرق ثم يُعيده في الحالة الثانية، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب. أو يعدِمُ الأماكنَ المتوسطة ثم يعيدُها. قال القشيري: ورواه ابن[٧] وهب عن مالك. وقد قيل: بل جيء به في الهواء.

---

(١) عرائس المجالس ص٣٢١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ١٧٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦١.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦١.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ١٧٥. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩٤).

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢١.

(٧) كلمة «بن» من (ز) و(ظ).

قاله مجاهد. وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة(١). وقال مالك: كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام(٢). وفي التفاسير: انخرقَ بعرشِ بلقيس مكانُه الذي هو فيه، ثم نبعَ بين يدَي سليمان(٣)؛ قال عبد الله بن شدَّاد: وظهر العرشُ من نفقٍ تحت الأرض(٤). فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ثابتاً عنده. ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي(٥). ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ قال الأخفش: المعنى: لينظر ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾. وقال غيره: معنى «لِيَبْلُوَني» ليتعبَّدني، وهو مَجاز(٦). والأصل في الابتلاء: الاختبار، أي: ليختبرني أأشكرُ نعمتَه أم أكفرُها ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لا يرجع نَفْعُ ذلك إلَّا إلى نفسه، حيث استوجبَ بشُكرِهِ تمامَ النعمةِ ودوامَها والمزيدَ منها. والشكرُ قيدُ النعمةِ الموجودة، وبه تُنالُ النعمةُ المفقودة(٧). ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ أي: عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ في التفضُّل(٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيِّروه. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢١٤. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٦) و(١٦٤٠٣).

(٣) الوسيط ٣/ ٣٧٨ عن ابن إسحاق. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٩).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٦. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩١).

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢. وكلام الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٠.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٠.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢١٤.

أعلاه. وقيل: غُيِّر بزيادةٍ أو نقصان[١]. قال الفرَّاء وغيره: إنَّما أمر بتنكيره لأنَّ الشياطين قالوا له: إنَّ في عقلِها شيئاً فأراد أن يمتحنها[٢]. وقيل: خافتِ الجِنُّ أن يتزوَّج بها سليمان فيولَد له منها ولدٌ، فيبقون مسخَّرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنَّها ضعيفةُ العقل، ورِجلُها كرجل الحمار. فقال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ لنعرف عقلها[٣]. وكان لسليمان ناصحٌ من الجِنِّ، فقال: كيف لي أن أرى قدمَيها من غير أن أسألَها كشفَها؟ فقال: أنا أجعلُ في هذا القصر ماءً، وأجعلُ فوق الماء زجاجاً، تظنُّ أنه ماءٌ فترفع ثوبها فترى قدميها، فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ يريد بلقيس، ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ شبَّهته به لأنها خلَّفته تحت الأغلاق، فلم تُقِرَّ بذلك ولم تُنكِرْ، فعَلِمَ سليمانُ كمالَ عقلها. قال عكرمة: كانت حكيمةً فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾. وقال مقاتل: عرَفَتْه ولكن شَبَّهَتْ عليهم كما شَبَّهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم هو[٤]. وقاله الحسين[٥] بن الفضل أيضاً[٦]. وقيل: أراد سليمان أن يُظهرَ لها أنَّ الجنَّ مُسَخَّرون له، وكذلك الشياطين لتعرفَ أنها نبوَّةٌ وتؤمن به. وقد قيل: هذا في مقابلة تعميتِها الأمرَ في باب الغلمان والجواري.

﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ قيل: هو من قول بلقيس، أي: أوتينا العلمَ بصحة نبوَّة سليمانَ من قبل هذه الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ مُنقادينَ لأمره. وقيل: هو من قول

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٦ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٤ .

(٣) عرائس المجالس ص٣٢١ عن وهب بن منبه ومحمد بن كعب.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٢١ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: الحسن.

(٦) عرائس المجالس ص٣٢٢ .

سليمان، أي: أوتينا العلم بقدرة اللهِ على ما يشاء من قَبْلِ هذه المرأة[١]. وقيل: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعةً من قَبْلِ مجيئها[٢]. وقيل: هو من كلام قومِ سليمان[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الوقف على «مِنْ دُونِ اللهِ» حسنٌ، والمعنى: منعَها من أن تعبُدَ اللهَ ما كانت تعبدُ من الشمس والقمر، فـ«ما» في موضع رفع[٤]. النحَّاس[٥]: المعنى: أي: صدَّها عبادتُها من دون الله وعبادتُها إيَّاها عن أن تعلَمَ ما عَلِمناه عن أن تُسلم[٦]. ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصب، ويكون التقدير: وصدَّها سليمانُ عمَّا كانت تعبد من دون الله، أي: حالَ بينها وبينَه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدَّها الله، أي: منعَها اللهُ عن عبادتها غيرَه، فحُذِفَتْ «عن» وتعدَّى الفعل. نظيره ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه. وأنشد سيبويه:

ونُبِّئْتُ عبدَ الله بالجوِّ أصبحتْ ... كِراماً مواليها لئيماً صَميمُها[٧]

وزعم أنَّ المعنى عنده نُبِّئْتُ عن عبد الله. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ قرأ سعيد بن جبير: «أنها» بفتح الهمزة[٨]، وهي في موضع نصبٍ بمعنى: لأنَّها. ويجوز أن يكون بدلاً من «ما» فيكون في موضع رفعٍ إن كانت «ما» فاعلةَ الصَّدِّ. والكسرُ على الاستئناف.

---

(١) في (م): المرة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢١، وزاد المسير ٦/ ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٥.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ - ٢١٣.

(٦) عبارة: «عن أن تسلم» من (م) وإعراب القرآن.

(٧) الكتاب ١/ ٣٩ ونسبه للفرزدق. وصميم الشيء: خالصه. الصحاح (صمم).

(٨) وهي في الشاذة ص١١٠.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ التقدير عند سيبويه: ادخلي إلى الصَّرح، فحذَفَ إلى وعدَّى الفعل. وأبو العباس يُغلِّطه في هذا؛ قال: لأنَّ دخلَ يدلُّ على مدخول[١]. وكان الصَّرحُ صحناً من زجاجٍ تحتَه ماءٌ وفيه الحيتان[٢]، عمله لِيُرِيَها مُلكاً أعظمَ من مُلكِها. قاله مجاهد[٣]. وقال قتادة: كان من قوارير خلفه ماء ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ماء[٤]. وقيل: الصرح القصر. عن أبي عبيدة[٥]. كما قال:

تَحسِبُ أعلامَهنَّ الصُّروحا[٦]

وقيل: الصَّرْح: الصَّحْن، كما يُقال: هذه صَرحةُ الدَّارِ وقاعتُها، بمعنًى. وحكى أبو عبيد[٧] في الغريب المُصنَّف أنَّ الصَّرحَ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ من الأرض، وأنَّ الممرَّدَ: الطويلُ. النحَّاس: أصلُ هذا أنَّه يُقال لكلِّ بناءٍ عُمِلَ عملاً واحداً: صرح؛ من قولهم: لبنٌ صريح إذا لم يَشُبه ماء، ومن قولهم: صَرَّحَ بالأمر، ومنه: عربيٌّ صريح[٨]. وقيل: عَمِلَه ليختبرَ قولَ الجِنِّ فيها: إنَّ أمَّه من الجن، ورِجلَها رِجلُ حمار. قاله وهب بن مُنبِّه[٩]. فلمَّا رأتِ اللُّجَّةَ فزِعَتْ وظنَّتْ أنَّه قصدَ بها الغرق، وتعجَّبتْ من

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٢.

(٣) ذكره ابن الجوزي ٦/ ١٧٨ عن وهب بن منبه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٢، والطبري ١٨/ ٨٣.

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٩٥.

(٦) عجز لبيت، صدره: على طُرُقٍ كنحورِ الظِّباء. وقائله أبو ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٣٦.

(٧) في(م): أبو عبيدة.

(٨) من قوله: وقال قتادة... إلى هذا الموضع من معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٨ - ١٣٩.

(٩) عرائس المجالس ص٣٢١.

كونِ كرسيِّه على الماء، ورأتْ ما هالَها، ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأمر. ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾ فإذا هي أحسنُ الناسِ ساقاً، سليمةٌ ممَّا قالتِ الجِنُّ، غيرَ أنَّها كانت كثيرةَ الشَّعر، فلمَّا بلغت هذا الحدَّ، قال لها سليمان بعد أن صرفَ بصرَه عنها: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ والممرد: المحكوكُ المملَّس، ومنه الأمرد[1]. وتمرَّدَ الرجلُ إذا أبطأَ خروجُ لحيتِه بعد إدراكه. قاله الفراء. ومنه الشجرة المرداءُ التي لا ورقَ عليها. ورملةٌ مرداءُ إذا كانت لا تُنبِتُ. والممرد أيضاً: المُطوَّل، ومنه قيل للحصن: مارد[2]. أبو صالح: طويلٌ على هيئة النخلة[3]. ابن شجرة: واسعٌ في طوله وعرضه. قال:

غـدَوتُ صـبـاحـاً بـاكـراً فـوجـدتُـهـمْ قُبيلَ الضُّحى في السَّابريِّ[4] المُمرَّدِ[5]

أي: الدروع الواسعة. وعند ذلك استسلمتْ بِلْقيسُ وأذعنت وأسلمت وأقرَّتْ على نفسها بالظلم، على ما يأتي.

ولمَّا رأى سليمانُ عليه السلام قدمَيها قال لِناصحِه من الشياطين: كيفَ لي أن أقلَع هذا الشَّعرَ من غير مضرَّةٍ بالجسد؟ فدلَّه على عمل النُّورَة، فكانتِ النُّورَةُ والحمَّاماتُ من يومئذٍ[6]. فيُروى أنَّ سليمان تزوَّجها عند ذلك وأسكنَها الشام. قاله الضحاك. وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقَّاش: تزوَّجها وردَّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كلَّ شهرٍ مرة؛ فولدت له غلاماً سمَّاه داود ماتَ في زمانه[7]. وفي بعض الأخبار أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كانت بِلْقيسُ من أحسنِ نساء العالمين ساقين، وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة» فقالت عائشة: هي أحسَنُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٢ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٩ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٤٤٤) بلفظ: الممرد الطويل.

(٤) أي: الرقيق من الثياب. اللسان (سبر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢١٧ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٢ .

ساقينِ منِّي؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أنتِ أحسَنُ ساقينِ منها في الجنة» ذكره القُشيري[١]. وذكر الثعلبي[٢] عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أوَّلُ منِ اتَّخذَ الحمَّاماتِ سليمانُ بن داود، فلمَّا ألصقَ ظهرَه إلى الجدارِ فمسَّه حرُّها قال: أوَّاهٌ من عذاب الله»[٣]. ثم أحبَّها حباً شديداً وأقرَّها على مُلكِها باليمن، وأمرَ الجِنَّ فبَنوا لها ثلاثةَ حصونٍ لم يرَ الناسُ مثلَها ارتفاعاً: سَلْحون وبَيْنون وغُمْدان، ثم كان سليمانُ يزورها في كلِّ شهرٍ مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام.

وحكى الشعبيُّ أنَّ ناساً من حِمْير حفروا مقبرة الملوك، فوجدوا فيها قبراً معقوداً، فيه امرأةٌ عليها حُلَلٌ منسوجةٌ بالذَّهب، وعند رأسها لوحُ رخامٍ فيه مكتوب:

يا أيُّها الأقوامُ عُوجُوا معا ... وأَرْبِعوا في مَقْبَري العِيسا
لتعلموا أنِّيَ تلكَ التي ... قد كنتُ أُدعَى الدهرَ بِلْقِيسا
شَيَّدْتُ قصرَ المُلْكِ في حِمْيرٍ ... قَوْمِي وقِدْماً كان مأنوسا
وكنتُ في مُلْكي وتدبيرِهِ ... أُرْغِمُ في اللهِ المَعَاطِيسا
بَعْلي سليمانُ النبيُّ الذي ... قد كان للتوراةِ دِرِّيسا
وسُخِّرَ الريحُ له مركباً ... تَهُبُّ أحياناً رَوامِيسا
مع ابنِ داودَ النبيِّ الذي ... قَدَّسهُ الرحمنُ تَقْديسا[٤]

وقال محمد بن إسحاق ووهب بن مُنبِّه: لم يتزوَّجْها سليمانُ، وإنَّما قال لها:

---

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٩٨ من غير إسناد.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٢٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١٤٠، والعقيلي في الضعفاء ١/ ٦٨ و٨٤، والطبراني في الأوسط (٤٦٤)، وابن عدي في الكامل ١/ ٢٨٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٥٦٦) من طريق إبراهيم بن مهدي، عن عمر بن عبد الرحمن، عن إسماعيل بن عبد الرحمن الأودي، عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه مرفوعاً. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإسماعيل أحاديثه منكرة، وإبراهيم بن مهدي ضعيف.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢١٧ - ٢١٨.

اختاري زوجاً. فقالت: مثلي لا يُنكَحُ وقد كان لي من الملك ما كان. فقال: لابُدَّ في الإسلام من ذلك. فاختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدَان، فزوَّجه إيَّاه وردَّها إلى اليمن، وأمر زَوبعةَ أميرَ جِنِّ اليمن أن يُطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزَلْ أميراً حتى مات سليمان عليه السلام[(١)]. وقال قومٌ: لم يَرِدْ فيه خبرٌ صحيحٌ لا في أنه تزوَّجها ولا في أنَّه زوَّجها. وهي بِلْقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد بن حدر بن السرح بن الحارث[(٢)] بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ[(٣)] بن سام بن نوح. وكان جدُّها الهداهد ملكاً عظيمَ الشأن قد وُلِدَ له أربعون ولداً كلُّهم ملوك، وكان مِلِكَ أرضِ اليمن كلِّها، وكان أبوها السَّرح يقول لملوك الأطراف: ليس أحدٌ منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوَّج منهم، فزوَّجوه امرأةً من الجِنِّ يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بِلْقَمة وهي بِلْقيس، ولم يكن له ولدٌ غيرها. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «كان أحدُ أبَوي بِلْقيسَ جِنِّياً»[(٤)] فمات أبوها، واختلف عليها قومُها فرقتين، وملَّكوا أمرَهم رجلاً فساءت سيرتُه، حتى فجَرَ بنساء رعيته، فأدركت بلقيسَ الغَيْرةُ، فعرضت عليه نفسَها فتزوَّجها، فسَقَتْه الخمر حتى حزَّتْ رأسَه، ونصبَتْه على باب دارها، فملَّكوها. وقال أبو بَكرة: ذُكِرَتْ بِلقيسُ عند النبيِّ ﷺ فقال: «لا يُفلِحُ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأةً»[(٥)]. ويُقال: إنَّ سببَ تزوُّجِ أبيها من الجِنِّ أنه كان وزيراً لملكٍ عاتٍ يغتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوَّج، فصحِبَ مرَّةً في الطريق رجلاً لا يعرفه، فقال: هل لكَ من زوجة؟ فقال: لا أتزوَّجُ أبداً، فإنَّ مَلِكَ بلدِنا يغتصب النساءَ من أزواجهنَّ. فقال: لئِنْ تزوجتَ ابنتي لا

(١) عرائس المجالس ص٣٢٣.

(٢) في (م): الحرس.

(٣) في (م): أرفخشذ.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٨٣ ، وابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٠٩ ، وأبو الشيخ في العظمة (١١١٣). وفي إسناده سعيد بن بشير، وهو ضعيف. التقريب.

(٥) عرائس المجالس ص٣١٥ ، والحديث سلف ٢/ ٤٢ .

يغتصِبُها أبداً. قال: بل يغتصِبُها. قال: إنَّا قومٌ من الجنِّ لا يقدِرُ علينا. فتزوَّجَ ابنتَه، فولدت له بِلْقيس، ثم ماتتِ الأمُّ وابتنَتْ بِلْقيسُ قصراً في الصحراء، فتحدَّثَ أبوها بحديثها غلطاً، فنُميَ للملك خبرُها، فقال له: يا فلان، تكون عندكَ هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها، وأنت تعلم حُبِّي للنساء؟! ثم أمر بحبسه، فأرسلت بِلْقيسُ إليه أني بين يديك. فتجهَّز للمسير إلى قصرها، فلما همَّ بالدخول بمَنْ معه أخرجت إليه الجواري من بنات الجنِّ مثلَ صورة الشمس، وقُلْنَ له: ألا تستحي؟! تقول لكَ سيدتُنا: أتَدخلُ بهؤلاء الرجال معكَ على أهلك؟! فأذِنَ لهم بالانصراف ودخل وحده، وأغلقت عليه الباب وقتَلتْه بالنِّعال، وقطعت رأسه، ورمت به إلى عسكره، فَأَمَّرُوها عليهم، فلم تزَلْ كذلك إلى أن بلَّغ الهدهدُ خبرَها سليمانَ عليه السلام. وذلك أنَّ سليمان لمَّا نزل في بعض منازله قال الهدهد: إنَّ سليمان قد اشتغل بالنزول، فأرتَفِعُ نحوَ السماء فَأُبصِر طولَ الدنيا وعرضَها. فأبصرَ الدنيا يمناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد، وكان اسمُ ذلك الهدهد عُفير، وكان اسمُ هدهد سليمان يعفور[١]، فقال عُفير اليمن ليعفورِ سليمان: مِنْ أين أقبلتَ؟ وأين تريد؟ قال: أقبلتُ من الشَّام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام. قال: ومَن سليمان؟ قال: مَلِكُ الجِنِّ والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكلِّ ما بين السماء والأرض. فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد؛ ملكها امرأةٌ يُقال لها: بِلْقيس، تحتَ يدِها اثنا عشر ألف قَيْل، تحتَ يدِ كلِّ قَيْلٍ مئةُ ألفِ مقاتلٍ من سوى النساء والذَّراري، فانطلقَ معه ونظر إلى بِلْقيس ومُلكِها، ورجع إلى سليمانَ وقت العصر، وكان سليمانُ قد فقده وقتَ الصلاةِ فلم يجِدْه، وكانوا على غير ماء. قال ابن عباس في رواية: وقعت عليه نفحةٌ من الشمس. فقال لوزير الطير: هذا موضع مَنْ؟ قال: يا نبيَّ الله، هذا موضع الهدهد. قال: وأينَ ذهب؟ قال: لا أدري أصلحَ اللهُ الملك. فغضب سليمان وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية. ثم دعا بالعُقَاب سيدِ الطير وأصرَمِها وأشدِّها بأساً

---

(١) عبارة: «وكان اسم هدهد سليمان يعفور» من (ظ).

فقال: ما تريدُ يا نبيَّ الله؟ فقال: عليَّ بالهدهد الساعة. فرفع العقابُ نفسَه دون السماء حتى لزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدَي أحدكم، فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو[1] اليمن، فانقضَّ نحوَه، وأنشَبَ فيه مِخْلَبه. فقال له الهدهد: أسألُكَ بالله الذي أقدرَكَ وقوَّاكَ عليَّ إلَّا رحِمْتني. فقال له: الويلُ لك، وثكِلَتْك أمُّك! إنَّ نبيَّ الله سليمانَ حلَفَ أن يُعذِّبكَ أو يذبحَكَ. ثم أتى به فاستقبلَتْه النُّسورُ وسائرُ عساكر الطير. وقالوا: الويل لك، لقد توعَّدكَ نبيُّ الله. فقال: وما قدري وما أنا؟ أما استثنى؟ قالوا: بلى، إنه قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ثم دخل على سليمانَ فرفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعاً لسليمان عليه السلام، فقال له سليمان: أين كنتَ عن خدمتِكَ ومكانِكَ؟ لأُعذِّبنَّكَ عذاباً شديداً أو لأذبحنَّكَ. فقال له الهدهد: يا نبيَّ الله، اذكُرْ وقوفكَ بين يدَيِ الله بمنزلة وقوفي بين يديك. فاقشعَرَّ جِلدُ سليمانَ وارتعدَ، وعفا عنه. وقال عكرمة: إنَّما صرف اللهُ سليمانَ عن ذبح الهدهد أنه كان بارًّا بوالديه، ينقل الطعام إليهما فيزقُّهما. ثم قال له سليمان: ما الذي أبطأ بِكَ؟ فقال الهدهد ما أخبرَ اللهُ عن بِلْقيسَ وعرشِها وقومِها[2] حسبما تقدَّم بيانه. قال الماوردي[3]: والقولُ بأنَّ أمَّ بِلْقيسَ جِنِّيةٌ مُستنكَرٌ من العقول؛ لِتَبايُنِ الجنسين، واختلافِ الطَّبْعين، وتفاوت الجِسْمين[4]؛ لأنَّ الآدميَّ جسمانيٌّ والجِنَّ روحانيٌّ، وخلقَ اللهُ الآدميَّ من صلصالٍ كالفخَّار، وخلقَ الجانَّ من مارجٍ من نار، ويمتنع[5] الامتزاجُ مع هذا التبايُن، ويستحيل التناسلُ مع هذا الاختلاف.

قلتُ: قد مضى القول في هذا، والعقلُ لا يُحيله مع ما جاء من الخبر في ذلك،

---

(١) في(م): نحن.

(٢) من قوله: وذلك أن سليمان لما نزل... إلى هذا الموضع من عرائس المجالس ص٣١٣ - ٣١٤ .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢١٦ .

(٤) المثبت من النكت والعيون. وفي (د): وتعارف الجسمين. وفي (ز): وتفارق الجسمين. وفي (ظ): وتفارق الجنسين. وفي (م): وتفارق الحِسَّين.

(٥) المثبت من النكت والعيون و(ظ). وفي بقية النسخ: ويمنع.

وإذا نظر في أصل الخلق فأصلُه الماء على ما تقدَّم بيانه، ولا بُعْدَ في ذلك، والله أعلم. وفي التنزيل: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤] وقد تقدَّم. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ على ما يأتي في «الرحمن» [الآية: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بالشرك الذي كانت عليه. قاله ابن شجرة. وقال سفيان: أي: بالظنِّ الذي توهَّمَتْه في سليمان؛ لأنَّها لمَّا أمرت بدخول الصرح حسِبَتْه لُجَّةً، وأنَّ سليمان يريد تغريقها فيه. فلمَّا بانَ لها أنه صرحٌ مُمرَّدٌ من قواريرَ علمت أنَّها ظلمت نفسَها بذلك الظن(١). وكُسِرتْ «إنَّ» مُبتدَأةٌ بعد القول. ومن العرب مَنْ يفتحُها فيُعمِلُ فيها القول. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إذا سكَّنتَ «مع» فهي حرفٌ جاء لمعنى بِلا اختلاف بين النَّحْويين، وإذا فتَحْتَها ففيها قولان: أحدهما: أنه بمعنى الظرف اسمٌ. والآخَر: أنه حرفٌ خافضٌ مبنيٌّ على الفتح. قاله النحَّاس(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تقدَّم معناه(٣). ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: أي: مؤمن وكافر. قال: والخصومةُ ما قصَّهُ اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿كَـٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. وقيل: تخاصُمُهم أنَّ كلَّ فرقةٍ قالت: نحن على الحقِّ دونكم(٤).

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢١٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٣ .

(٣) ٩/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٩-١٤٠ ، والنكت والعيون ٤/ ٢١٨ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٨٦ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة[١]؛ المعنى: لِمَ تؤخِّرون الإيمانَ الذي يجلب إليكم الثواب، وتُقدِّمون الكفرَ الذي يُوجبُ العقاب، فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ايتنا بالعذاب. وقيل: أي: لِمَ تفعلون ما تستحِقُّون به العقاب، لا أنَّهم التمسوا تعجيل العذاب.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: هلَّا تتوبون إلى الله من الشرك[٢]. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي تُرحموا. وقد تقدم[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءمنا[٤]. والشُّؤم النَّحس. ولا شيءَ أضَرُّ بالرأي ولا أفسدَ للتدبير من اعتقاد الطِّيَرة، ومن ظنَّ أنَّ خُوارَ بقرةٍ أو نَعيقَ غرابٍ يردُّ قضاءً، أو يدفعُ مقدوراً، فقد جهل. وقال الشاعر:

طِيرةُ الدَّهرِ[٥] لا تَرُدُّ قضاءً ... فاعْذِرِ الدَّهرَ لا تَشُبْهُ بلَومِ
أيُّ يومٍ تَخُصُّهُ بسعودٍ ... والمنايا ينزِلْنَ في كلِّ يومِ
ليس يومٌ إلَّا وفيه سعودٌ ... ونحوسٌ تجري لقومٍ فقومِ

وقد كانتِ العربُ أكثرَ الناس طِيرةً، وكانت إذا[٦] أرادت سفراً نفرت طائراً، فإذا طار يَمنةً سارت وتيمَّنتْ، وإن طارَ شمالاً رجعت وتشاءمت، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك وقال: «أَقِرُّوا الطيرَ على وُكُناتِها»[٧] على ما تقدَّم بيانُه في «المائدة»[٨].

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٨٠، وزاد المسير ٦/ ١٨٠.

(٣) ١/ ٣٤٢ و٥/ ٣١٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٠ عن مجاهد

(٥) في أدب الدنيا والدين: الناس.

(٦) في أدب الدنيا والدين: وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة، وكانت العرب إذا.

(٧) أدب الدنيا والدين ص٢٨٧ – ٢٨٨. والحديث سلف ٩/ ٣٠٦ بلفظ: «أقروا الطير على وكناتها». والوَكْنُ: مأوى الطير في غير عش. اللسان (وكن).

(٨) ٧/ ٢٩٠ -٢٩١.

﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصائبكم[١]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُمتحنون. وقيل: تُعذَّبون بذنوبكم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: في مدينة صالحٍ وهي الحِجر[٣] ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة رجالٍ من أبناء أشرافهم[٤]. قال الضحَّاك: كان هؤلاء التسعةُ عظماءَ أهل المدينة، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد، فجلسوا عند صخرةٍ عظيمةٍ فقلَبَها اللهُ تعالى عليهم[٥]. وقال عطاء بن أبي رباح: بلغني أنَّهم كانوا يُقرِضون الدنانير والدراهم[٦]. وذلك من الفساد في الأرض. وقاله سعيد بن المسيِّب. وقيل: فسادُهم أنَّهم يتبعون عوراتِ الناس ولا يسترون عليهم[٧]. وقيل غيرُ هذا. واللازمُ من الآية ما قاله الضحَّاك وغيره أنهم كانوا من أوجَهِ القوم وأقناهم وأغناهم، وكانوا أهلَ كفرٍ ومعاصٍ جمَّةٍ، وجملةُ أمرِهم أنهم يفسدون ولا يصلحون.

والرَّهطُ اسمٌ للجماعة، فكأنَّهم كانوا رؤساءَ يتبَعُ كلَّ واحدٍ منهم رهطٌ. والجمع أَرْهُط وأراهِط. قال:

يا بؤسَ للحربِ التي ... وضعتْ أراهِطَ فاستراحوا[٨]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢١٨. وأخرجه الطبري ١٨/ ٨٨ عن ابن عباس ﷺ.
(٢) الكشاف ٣/ ١٥١.
(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٩.
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٣.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٤.
(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٢٠.
(٨) تهذيب اللغة ٦/ ١٧٦. والبيت قائله سعد بن مالك بن ضبيعة، وهو في معجم الشعراء ص١٤، وشرح ديوان الحماسة ٢/ ٥٠٠.

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدار عاقرِ الناقة. ذكره ابن عطية(١).

قلتُ: واختُلِفَ في أسمائهم، فقال الغزنوي: وأسماؤهم: قُدَار بن سالف ومِصْدَع وأسلم ودهمى ودهيم ودعمى ودعيم وقتال وصداق. ابن إسحاق: رأسهم قُدار بن سالف ومِصْدَع بن مِهْرَع، فاتبعهم سبعة، هم: بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تُعرَفْ أسماؤهم. وذكر الزمخشري(٢) أسماءَهم عن وهب ابن منبِّه: الهذيل بن عبد رب، غنم بن غنم، رياب بن مهرج، مصدع بن مهرج، عمير ابن كردبة، عاصم بن مخرمة، سبيط بن صدقة، سمعان بن صفي، قُدار بن سالف، وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عُتاةَ قومِ صالح وكانوا من أبناء أشرافهم. السُّهيلي(٣): ذكر النقَّاش التسعةَ الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسمَّاهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، غيرَ أني أذكُره على وجه الاجتهاد والتخمين، ولكِنْ نذكرُه على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مِصْدَع بن دهر ـ ويقال: دهم ـ وقُدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعمى وهرمى ورعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردي(٤) أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعمى ودعيم وهرمى وهريم وداب وصواب ورياب ومِسْطَح وقُدار، وكانوا بأرض الحجر وهي أرض الشام.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ يجوز أن يكون «تَقَاسَمُوا» فِعلاً مستقبِلاً وهو أمر، أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا. ويجوز أن يكون ماضياً في معنى الحال، كأنَّه قال: قالوا متقاسمين بالله، ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: «يُفْسِدُون في الأرضِ ولا يُصْلِحون. تَقاسَموا باللهِ» وليس فيها «قالوا»(٥). ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣.
(٢) في الكشاف ٣/ ١٥١ - ١٥٢.
(٣) في التعريف والإعلام ص١٢٩.
(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢١٩.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ نقله عن الطبري، وهو في تفسيره ١٨/ ٩٠ -٩١ بنحوه. وقراءة عبد الله =

﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ قراءة العامَّة بالنون فيهما، واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء فيهما، وضمِّ التَّاءِ واللَّام على الخطاب[١] أي: أنهم تخاطبوا بذلك. واختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحُميد بالياءِ فيهما، وضمِّ الياءِ واللَّامِ على الخبر[٢]. والبَيَاتُ: مُباغتةُ العدوِّ ليلاً[٣]. ومعنى ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لرهط صالح الذي له ولاية الدم. ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما حضرنا، ولا ندري مَنْ قتلَه وقتَلَ أهله. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في إنكارنا لقتله[٤]. والمُهْلَك بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع[٥]. وقرأ عاصم[٦] والسُّلميُّ بفتح الميم واللام، أي: الهلاك؛ يُقال: ضربَ يضرِبُ مَضْرَباً أي: ضرباً. وقرأ المُفضَّل وحفص[٧] بفتح الميم وجَرِّ اللام، فيكونُ اسمَ المكان[٨]، كالمجلس لموضع الجلوس، ويجوز أن يكون مصدراً، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرُهم ما رُوي أنَّ هؤلاءِ

= هذه شاذة.

(١) السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٦٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ١٨١ - ١٨٢ ونقلها أيضاً عن أبي رجاء، وهي قراءة شاذة.

(٣) الكشاف ٣/ ١٥٢.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٥.

(٦) في رواية أبي بكرٍ عنه كما في السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٤٤. ووقع في النسخ: وقرأ حفص. وهو خطأ؛ لأنَّ حفصاً يقرأ بفتح الميم وكسر اللام كما سيأتي.

(٧) في النسخ: وأبو بكر. والتصويب من السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٤٤.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٨٠ - ٣٨١، وزاد المسير ٦/ ١٨٢.

التِّسعةَ لمَّا كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالحٌ بمجيء العذاب، اتَّفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دارَ صالحٍ ليلاً ويقتلوه وأهلَه المختَصِّين به؛ قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقَعْنا به ما يستحِقُّ، وإن كان صادقاً كنَّا عجِلْناه قبلنا، وشَفَينا نفوسَنا. قاله مجاهد وغيره[1]. قال ابن عباس: أرسلَ اللهُ تعالى الملائكةَ تلك الليلة، فامتلأت بهم دارُ صالح، فأتى التسعةُ دارَ صالحٍ شاهرينَ سيوفَهم، فقتَلَتْهم الملائكةُ رَضْخاً بالحجارة، فيَرَونَ الحجارةَ ولا يَرَونَ مَنْ يرميها[2]. وقال قتادة: خرجوا مُسرِعين إلى صالح، فسلَّطَ عليهم ملَكٌ بيده صخرةٌ فقتلَهم[3]. وقال السُّدِّي: نزلوا على جرفٍ من الأرض، فانهار بهم فأهلكهم اللهُ تحتَه. وقيل: اختفَوا في غارٍ قريبٍ من دار صالح، فانحدرت عليهم صخرةٌ شدَخَتْهم جميعاً، فهذا ما كان من مكرهم[4]. ومكرُ اللهِ مجازاتُهم على ذلك.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بالصيحة التي أهلكَتْهم[5]. وقد قيل: إنَّ هلاكَ الكلِّ كان بصيحة جبريل[6]. والأظهر أن التسعةَ هلكوا بعذابٍ مُفرَد، ثم هلكَ الباقون بالصيحة والدمدمة. وكان الأعمشُ والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون: «أَنَّا» بالفتح. وقال ابن الأنباري[7]: فعلى هذا المذهب لا يحسُنُ الوقفُ على «عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ» لأنَّ «أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» خبرُ كان. ويجوز أن تجعلَها في موضع رفعٍ على الإتباع للعاقبة. ويجوز أن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ من غير نسبة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٣ ، والطبري ١٨/ ٩٤ بنحوه

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٨١ .

(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨١٨ - ٨١٩ ، وما قبله منه دون نسبة القراءة إلى الحسن. وقد نُسِبت إليه وإلى البقية دون نسبتها إلى الأعمش في إعراب القرآن ٣/ ٢١٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ . وقراءة عاصم وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٦٨.

تجعلَها في موضع نصبٍ من قول الفرَّاء، وخفضٍ من قول الكسائي على معنى: بأنَّا دمَّرْناهم. ويجوز أن تجعلَها في موضع نصبٍ على الإتباع لموضع «كَيْفَ» فمِنْ هذه المذاهب لا يحسُنُ الوقفُ عل «مَكْرِهِمْ». وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» بكسر الألف على الاستئناف[١]، فعلى هذا المذهب يحسُنُ الوقفُ على «مَكْرِهِمْ».

قال النحَّاس[٢]: ويجوز أن تنصِبَ «عَاقِبَةُ» على خبر «كان» ويكون «إِنَّا» في موضع رفعٍ عل أنَّها اسمُ «كان». ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ على إضمارِ مبتدإٍ تبييناً للعاقبة، والتقدير: هي إنَّا دمَّرْناهم؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَيٍّ: «أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ» تصديقاً لفتحها[٣].

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ قراءةُ العامَّةِ بالنَّصبِ على الحال عند الفرَّاء والنحَّاس[٤]، أي: خاليةً عن أهلها خراباً ليس بها ساكن[٥]. وقال الكسائي وأبو عبيدة: «خَاوِيَةً» نصبٌ على القطع، مجازه: فتلكَ بيوتُهم الخاوية، فلما قُطِعَ منها الألف واللام نُصِبَ على الحال، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل: ٥٢].

وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجَحدري: بالرفع[٦] على أنَّها خبرٌ عن «تِلْكَ» و«بُيُوتُهُمْ» بدلٌ من «تِلْكَ»، ويجوز أن تكون «بُيُوتُهُمْ» عطفَ بيان و«خَاوِيَةٌ» خبراً عن «تِلْكَ»، ويجوز أن يكون رفعُ «خَاوِيَةٌ» على أنها خبرُ ابتداءٍ محذوف، أي: هي خاوية، أو بدلٌ من «بُيُوتُهُمْ»؛ لأنَّ النَّكِرةَ تُبدَلُ من المعرفة[٧]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) السبعة ص٤٨٤، والتيسير ص١٦٨.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٦.

(٣) قراءة أُبي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤، وهي قراءة شاذة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٦.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٣/ ١٥٣ عن عيسى بن عمر، وهي قراءة شاذة.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢١٦، والبيان ٢/ ٢٢٥.

﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بـصـالـح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الـلـه ويخافون عذابه. قيل: آمنَ بصالحٍ قَدْرُ أربعةِ آلاف رجل[١]، والباقون خرجَ بأبدانهم ـ في قول مقاتلٍ وغيره ـ خُرَاجٌ مثلُ الحِمِّص، وكان في اليوم الأوَّل أحمرَ، ثم صار من الغدِ أصفرَ، ثم صار في الثالث أسودَ، وكان عَقْرُ الناقةِ يومَ الأربعاء، وهلاكُهم يومَ الأحد[٢]. قال مقاتل: فقعت تلك الخراجات، وصاح جبريلُ بهم خلال ذلك صيحةً فخمدوا، وكان ذلك ضَحوةً. وخرجَ صالحٌ بمن آمن معه إلى حَضْرَمَوت، فلمَّا دخلَها مات صالحٌ؛ فسُمِّيتْ حَضْرَمَوت[٣]. قال الضحَّاك: ثم بنى الأربعةُ الآلاف مدينةً يقال لها: حاضورا، على ما تقدَّم بيانُه في قصة أصحاب الرسِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا امْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: وأرسلنا لوطاً، أو: اذكُرْ لوطاً[٤]. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوم. وقال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفِعْلةَ القبيحةَ الشنيعة[٥]. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظمُ لذنوبكم. وقيل: يأتي بعضُكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه[٦]. وكانوا لا يستترون عُتوًّا منهم وتمرُّداً[٧].

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٥ .

(٢) عرائس المجالس ص٧٢ بنحوه.

(٣) من قوله: وخرج صالح... إلى هذا الموضع من مجمع البيان ١٩/ ٢٣٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أعادَ ذِكْرَها لفرط قُبحِها وشنعتِها .﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إمَّا أمر التحريم أو العقوبة.

واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من «أَئِنَّكُمْ»فأمَّا الخطُّ فالسبيل فيه أن يُكتبَ بألِفَين على الوجوه كلِّها ؛ لأنَّها همزةٌ مُبتدَأةٌ دخلت عليها ألفُ الاستفهام(١).

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: عن أدبار الرجال. يقولون ذلك استهزاءً منهم. قاله مجاهد. وقال قتادة: عابوهم واللهِ بغير عيبٍ بأنَّهم يتطهَّرون من أعمال السوء(٢).

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقرأ عاصم(٣): «قَدَرْنا» مخففاً، والمعنى واحد(٤). يقال: قد قَدَرتُ الشيءَ قَدْراً وقَدَراً وقدَّرتُه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: من أُنذِرَ فلم يقبل الإنذار. وقد مضى بيان هذا في «الأعراف»(٥) و«هود»(٦).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال الفرَّاء: قال أهل

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ .

(٣) في رواية أبي بكر عنه كما في السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٤) زاد المسير ٦/ ١٨٣.

(٥) ٩/ ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٦) ١١/ ١٨٥ - ١٩٠ .

المعاني: قيل للوط: «قُلِ الْحَمْدُ للهِ» على هلاكهم. وخالف جماعةٌ من العلماء الفرَّاءَ في هذا وقالوا: هو مخاطبةٌ لنبينا محمدٍ ﷺ، أي: قُلْ: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية. قال النحَّاس: وهذا أولى؛ لأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ على النبي ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطبٌ به عليه الصلاة والسلام إلَّا ما لم يصِحَّ معناه إلَّا لغيره[1]. وقيل: المعنى: أي: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ يعني أمته عليه السلام؛ قال الكلبي: اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته[2]. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ[3]. وقيل: أمرَ رسولَ الله ﷺ أنْ يتلوَ هذه الآياتِ الناطقةَ بالبراهين على وحدانيَّته وقدرتِه على كلِّ شيء وحكمتِه، وأن يستفتحَ بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطَفَين من عباده. وفيه تعليمٌ حسن، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل، وبعثٌ على التيمُّنِ بالذِّكرين والتبرُّكِ بهما، والاستظهارُ بمكانهما على قبول ما يُلقى إلى السامعين، وإصغائِهم إليه، وإنزالِه من قلوبهم المنزلةَ التي يبغيها المستمع. ولقد توارثَ العلماءُ والخطباءُ والوُعَّاظُ كابراً عن كابرٍ هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ أمامَ كلِّ علمٍ مُفاد، وقبل كلِّ عِظَةٍ، وفي مُفتَتَحِ كلِّ خطبة، وتبِعَهم المترسِّلون فأجْرَوا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغيرِ ذلك من الحوادث التي لها شأن[4].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار، أي: لرسالته[5]، وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[6] [الصافات: ١٨١].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧. وقول الفراء في معاني الفرآن له ٢/ ٢٩٧.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٨٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ عن سفيان والسدي. وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ عن ابن عباس. وزاد المسير ٦/ ١٨٥ عن ابن عباس والسدي.

(٤) الكشاف ٣/ ١٥٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

﴿آللَّهُ خَيْرٌ﴾ وأجازَ أبو حاتم «أَأَللهُ خَيْرٌ» بهمزتين. النحَّاس: ولا نعلم أحداً تابعَه على ذلك؛ لأنَّ هذه المَدَّةَ إنَّما جيء بها فرقاً بين الاستفهام والخبر، وهذه ألفُ التوقيف، و«خَيْرٌ» هاهنا ليس بمعنى: أفضل منك، وإنَّما هو مِثْلُ قولِ الشاعر:

أتـهـجـوهُ ولـسـتَ لـه بِـكُـفءٍ فَـشَـرُّكـمـا لـخـيـرِكـمـا الـفِـداءُ[1]

فالمعنى: فالذي فيه الشرُّ منكما للذي فيه الخير الفداءُ. ولا يجوز أن يكون بمعنى من؛ لأنَّكَ إذا قلت: فلانٌ شرٌّ من فلان، ففي كلٍّ واحدٍ منهما شرٌّ[2]. وقيل: المعنى: آلخيرِ في هذا أم في هذا الذي تشركونه في العبادة؟! وحكى سيبويه: السعادةُ أحبُّ إليك أم الشقاء؛ وهو يعلم أنَّ السعادةَ أحبُّ إليه. وقيل: هو على بابه من التفضيل، والمعنى: آللهُ خيرٌ أم ما تشركون، أي: أثَوابُه خيرٌ أم عقابُ ما تشركون[3]. وقيل: قال لهم ذلك؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ في عبادة الأصنام خيراً، فخاطبهم الله عزَّ وجلَّ على اعتقادهم[4]. وقيل: اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر[5]. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: «يُشْرِكُونَ» بياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب[6]، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. فكان النبيُّ ﷺ إذ قرأ هذه الآية يقول: «بلِ اللهُ خيرٌ وأبقى وأجلُّ وأكرَمُ»[7].

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال أبو حاتم: تقديره: آلهتكم خيرٌ أم

---

(١) قائله حسان بن ثابت، وقد سلف ١/ ٣٤٩ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ - ١٤٤ بنحوه.

(٤) مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣٨ بنحوه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١ .

(٦) السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٦٨ ، والنشر ٢/ ٣٣٨ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١ ، والكشاف ٣/ ١٥٤ . وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٨٢) من طريق جابر ابن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر ـ وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عن أبيه علي ابن الحسين مرفوعاً. إسناده منقطع. وفيه جابر الجعفي، وهو ضعيف عند الأكثرين، وقد اتهمه بعضهم بالكذب. ميزان الاعتدال ١/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

من خلقَ السماوات والأرض. وقد تقدَّم. ومعناه: قَدَرَ على خلقِهنَّ. وقيل: المعنى: أعبادةُ ما تعبدون من أوثانكم خيرٌ أم عبادةُ مَنْ خلَقَ السماوات والأرض؟[١] فهو مردودٌ على ما قبله من المعنى، وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عزَّ وجلَّ وعَجْزِ آلهتهم. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ الحديقةُ: البستان الذي عليه حائط. والبهجةُ: المنظر الحسن[٢]. قال الفَرَّاء[٣]: الحديقةُ: البستان المحظر عليه حائط، وإن لم يكن عليه حائطٌ فهو البستان وليس بحديقة. وقال قتادة وعكرمة: الحدائق: النخل ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ والبهجةُ: الزِّينةُ والحُسن؛ يبهج به من رآه[٤]. ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ «ما» للنفي[٥]، ومعناه الحظرُ والمنعُ من فِعْلِ هذا، أي: ما كان للبشر، ولا يتهيَّأُ لهم، ولا يقعُ تحت قدرتهم أن ينبتوا شجرها؛ إذ هم عَجَزةٌ عن مثلها؛ لأنَّ ذلكَ إخراجُ الشيء من العدم إلى الوجود[٦]. قلت: وقد يُستَدَلُّ من هذا على منع تصوير شيء، سواءٌ كان له روح أم لم يكن. وهو قول مجاهد[٧]. ويعضِدُه قوله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: ومَنْ أظلمُ ممَّن ذهبَ يخلُقُ خلقاً كَخلقي، فليخلقوا ذَرَّةً، أو ليخلقوا حبَّةً، أو ليخلقوا شعيرةً» رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول: «قال الله عزَّ وجلَّ...» فذكره[٨]. فعَمَّ بالذمِّ والتهديد والتقبيح كلَّ مَنْ تعاطى تصوير شيءٍ ممَّا خلقه اللهُ وضاهاه في التشبيه في خلقه فيما انفردَ به سبحانه من الخلق والاختراع، وهذا

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٠٠ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٩٧ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ .

(٧) المفهم ٥/ ٤٣٢ .

(٨) صحيح مسلم (٢١١١). وأخرجه أحمد (٧١٦٦)، والبخاري (٧٥٥٩).

واضح. وذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ تصويرَ ما ليس فيه روحٌ يجوز هو والاكتساب به[(١)].
وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: إنْ كنتَ لابُدَّ فاعلاً فاصنَعِ الشجرَ وما لا نفسَ له. خرَّجه مسلم أيضاً[(٢)]. والمنعُ أولى ـ والله أعلم ـ لِما ذكرنا. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «سبأ»[(٣)] إن شاء الله تعالى.

ثم قال على جهة التوبيخ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: هل معبودٌ مع الله يُعينُه على ذلك؟[(٤)] ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بالله غيره[(٥)]. وقيل: «يَعْدِلُونَ» عن الحقِّ والقصد، أي: يكفرون[(٦)]. وقيل: «إِلَهٌ» مرفوعٌ بـ «مع» تقديره: أمَعَ اللهِ ـ وَيلَكم ـ إلهٌ؟ والوقف على «مَعَ اللهِ» حسن[(٧)].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مُستقرًّا. ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: وسطها، مثل: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ يعني جبالاً ثوابتَ تُمسكها وتمنعها من الحركة. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ مانعاً من قدرته؛ لئلَّا يختلطَ الأُجاجُ بالعذب[(٨)]. وقال ابن عباس: سلطاناً من قدرته، فلا هذا يُغيِّرُ ذاكَ ولا ذاكَ يُغيِّرُ هذا. والحَجْزُ: المنع. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا ثبتَ أنه لا يقدِرُ على هذا غيرُه فلِمَ يعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: كأنهم يجهلون اللهَ فلا يعلمون ما يجِبُ له من الواحدانية.

---

(١) المفهم ٥/ ٤٣٢.
(٢) في صحيحه (٢١١٠).
(٣) عند تفسير الآية (١٣).
(٤) الوسيط ٣/ ٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤.
(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣.
(٧) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٩.
(٨) الوسيط ٣/ ٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥، وزاد المسير ٦/ ١٨٦.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال ابن عباس: هو ذو الضرورة المجهود. وقال السُّدِّيّ: الذي لا حولَ له ولا قوَّة. وقال ذو النون: هو الذي قطعَ العلائق عمَّا دون الله. وقال أبو جعفر وأبو عثمان النَّيسابوري: هو المفلس. وقال سهل بن عبد الله: هو الذي إذا رفعَ يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلةٌ من طاعةٍ قدَّمها. وجاء رجلٌ إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألُكَ بالله أن تدعوَ لي فأنا مضطر. قال: إذاً فاسأله فإنَّه يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه؛ قال الشاعر:

وإنِّـي لأدعُـو الـلـهَ والأمـرُ ضَـيِّـقٌ ... عـلـيَّ فـمـا يـنـفَـكُّ أن يَـتـفـرَّجـا
ورُبَّ أخٍ سُــدَّت عــلــيــه وُجــوهُــهُ ... أصـابَ لـهـا لـمَّـا دعـا الـلـهَ مَـخْـرَجـا

الثانية: وفي «مسند أبي داود الطيالسي» عن أبي بَكرةَ قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «اللهمَّ رحمتَكَ أرجو فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عينٍ وأصلِحْ لي شأني كلَّه لا إله إلَّا أنت»(١).

الثالثة: ضَمِنَ اللهُ تعالى إجابة المضطرِّ إذا دعاه، وأخبرَ بذلك عن نفسه؛ والسببُ في ذلك أنَّ الضرورة إليه باللَّجاء ينشأ عن الإخلاصِ، وقطعِ القلب عمَّا سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقِعٌ وذِمَّة، وُجِدَ من مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ

(١) مسند الطيالسي (٨٦٩). وأخرجه أحمد (٢٠٤٣٠).

عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فيجيبُ المضطرَّ لموضع اضطرارِه وإخلاصِه. وفي الحديث: «ثلاثُ دعواتٍ مُستجاباتٍ لا شَكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ الوالدِ على ولده» ذكره صاحب «الشهاب»، وهو حديث صحيح[١]. وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ أنه قال لمعاذ لمَّا وجَّهَه إلى أرض اليمن: «واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فليس بينها وبينَ اللهِ حجاب»[٢] وفي كتاب «الشهاب»: «اتَّقوا دعوةَ المظلومِ فإنَّها تُحمَلُ على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى: وعِزَّتي وجلالي لأنصُرَنَّكِ ولو بعد حين» وهو صحيحٌ أيضاً[٣]. وخرَّجَ الآجُرِّي من حديث أبي ذَرٍّ عن النبيِّ ﷺ: «فَإِنِّي لا أرُدُّها ولو كانت من فَمِ كافر»[٤] فيُجيبُ المظلومَ لموضع إخلاصِه بضرورتِه بمقتضى كرمه، وإجابةً لإخلاصه وإن كان كافراً، وكذلك إن كان فاجراً في دينه؛ ففجورُ الفاجر وكفرُ الكافر لا يعودُ منه نقصٌ ولا وهنٌ على مملكة سيِّده، فلا يمنعه ما قضى للمضطرِّ من إجابته. وفُسِّرَ إجابةُ دعوة المظلوم بالنُّصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهرٍ له، أو اقتصاصٍ منه، أو تسليطِ ظالمٍ أخرَ عليه يقهره كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ

(١) مسند الشهاب (٣١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٥١٠).

(٢) صحيح مسلم (١٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٠٧١)، والبخاري (١٤٩٦).

(٣) مسند الشهاب (٧٣٣) من حديث خزيمة بن ثابت ﷺ. وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٨٠٤٣).

(٤) لم نقف عليه عند الآجري في الشريعة، وأخرجه ابن حبان (٣٦١)، وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، كذبه أبو حاتم كما في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢ ، وكذبه أبو زرعة كما في الميزان ١/ ٧٣.

وله شاهد ضعيف لا يفرح به عن أنس بن مالك ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٢٥٤٩).

ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ [الأنعام:١٢٩] وأكَّدَ سرعةَ إجابتها بقوله: «تُحمل على الغمام» ومعناه والله أعلم: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُوكِّلُ ملائكتَه بتلقِّي دعوةِ المظلوم وبحملِها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء ـ والسماء قبلةُ الدعاء ـ ليراها الملائكةُ كلُّهم، فيظهر منه معاونةُ المظلوم، وشفاعةٌ منهم له في إجابة دعوته، رحمةً له. وفي هذا تحذيرٌ من الظُّلمِ جملةً؛ لِما فيه من سخطِ الله ومعصيتِه ومخالفةِ أمره؛ حيث قال على لسان نبيه في «صحيح مسلم» وغيره: «يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تظالموا» الحديث[١]. فالمظلوم مضطرٌّ، ويقرب منه المسافر؛ لأنَّه مُنقطعٌ عن الأهل والوطن، مُنفرِدٌ عن الصديق والحميم، لا يسكنُ قلبه إلى مُسعِدٍ ولا مُعينٍ لِغُربته، فتصدُقُ ضرورتُه إلى المولى، فيُخلِصُ إليه في اللَّجاء، وهو المجيبُ للمضطرِّ إذا دعاه، وكذلك دعوةُ الوالِدِ على ولده، لا تصدرُ منه مع ما يعلم من حنَّته عليه وشفقته، إلَّا عند تكاملِ عَجْزِه عنه، وصدقِ ضرورتِه، وإياسِه عن بِرِّ ولده، مع وجود أذيَّتِه، فيُسرِعُ الحقُّ إلى إجابته.

قوله تعالى: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الضُّرَّ. وقال الكلبي: الجَور[٢]. ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: سُكَّانَها يُهلِكُ قوماً ويُنشئ آخرين[٣]. وفي كتاب النقَّاش: أي: ويجعل أولادَكم خلَفاً منكم. وقال الكلبي: خلَفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم[٤]. ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ على جهة التوبيخ، كأنه قال: أمَعَ الله ـ ويلَكم ـ إلهٌ؟ فـ «إلهٌ» مرفوعٌ بـ «مع»، ويجوز أن يكونَ مرفوعاً بإضمار أإلهٌ مع الله يفعل ذلك فتعبدوه. والوقف على «مَعَ اللهِ» حسن[٥]. ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ. وأخرجه أحمد (٢١٣٦٧).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٣.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٩.

ويعقوب: «يَذَّكَّرُونَ» بالياء على الخبر، كقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأخبرَ فيما قبلها وبعدها، واختاره أبو حاتم. الباقون بالتاء خطاباً لقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يرشدكم الطريق ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجَّهون إليها بالليل والنهار. وقيل: وجعل مفاوز البر التي لا أعلامَ لها، ولُججَ البحار كأنَّها ظلمات؛ لأنه ليس لها عَلمٌ يُهتدى به. ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: قُدَّام المطر باتفاق أهل التأويل[2]. ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ويُعينه عليه ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من دونه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كانوا يُقِرُّون أنه الخالق الرازق، فألزمهم الإعادة، أي: إذا قدِرَ على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه. ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حُجَّتكم أنَّ لي شريكاً، أو: حُجَّتكم في أنَّه صنعَ أحدٌ شيئاً من هذه الأشياء غير الله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبَه على الخلق، ولم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ، لئلَّا يأمنَ أحدٌ من عبيده مكرَه. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا النبيَّ ﷺ عن قيام الساعة[4]. و«مَنْ» في موضع رفع،

(١) السبعة ص٤٨٤، والتيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٣.

(٤) الكشاف ٣/ ١٥٦.

والمعنى: قُلْ: لا يعلَمُ أحدٌ الغيبَ إلَّا الله، فإنه بدَلٌ من «مَن». قاله الزجَّاج[١]. الفرَّاء[٢]: وإنما رفَعَ ما بعد «إلا» لأنَّ ما قبلها جحدٌ، كقوله: ما ذهبَ أحدٌ إلَّا أبوك. والمعنى واحد. قال الزجَّاج[٣]: ومَنْ نصبَ نصبَ على الاستثناء؛ يعني: في الكلام. قال النحَّاس[٤]: وسمعتُه يحتجُّ بهذه الآية على مَنْ صدَّق منجِّماً، وقال: أخافُ أن يكفر بهذه الآية.

قلت: وقد مضى هذا في «الأنعام»[٥] مستوفى. وقالت عائشة: مَنْ زعمَ أنَّ محمداً يعلم ما في غدٍ فقد أعظَمَ على الله الفِرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ خرَّجه مسلم[٦]. ورُويَ أنه دخل على الحجَّاجِ منجِّمٌ فاعتقله الحجَّاج، ثم أخذ حَصياتٍ فعدَّهُنَّ، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسبَ المنجِّم ثم قال: كذا؛ فأصاب، ثم اعتقلَه فأخذ حَصياتٍ لم يَعدَّهُنَّ فقال: كم في يدي؟ فحسبَ فأخطأ، ثم حسبَ فأخطأ، ثم قال: أيها الأمير، أظنُّك لاتعرِفُ عددَها؟ قال: لا. قال: فإني لا أُصيب. قال: فما الفرق؟ قال: إنَّ ذلك أحصيتَه فخرج عن حدِّ الغيب، وهذا لم تُحصِه فهو غيبٌ، و﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقد مضى هذا في «آل عمران»[٧] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وحمزة والكسائي[٨]. وقرأ أبو جعفر وابن

---

(١) فيما نقل عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢١٨، وهو في معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢٧ بنحوه.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ١٢٧.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٨.

(٥) ٨/ ٤٠٠ - ٤٠٧.

(٦) في صحيحه (١٧٧)، وقد سلف ٨/ ٤٠١.

(٧) ٥/ ٢٧.

(٨) قراءة عاصم ونافع وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٨٥، والتيسير ص١٦٨.

كثير وأبو عمرو وحميد: «بَلْ أَدْرَكَ» من الإدراك[(١)]. وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش: «بَلَ ادَّرَكَ» غير مهموزٍ مشدَّداً[(٢)]. وقرأ ابن مُحيصن: «بَلْ آدْرَكَ»[(٣)] على الاستفهام. وقرأ ابن عباس: «بَلَى» بإثبات الياء «أَدَّارَكَ» بهمزة قطع والدال مشدَّدة وألف بعدها؛ قال النحَّاس: وإسناده إسنادٌ صحيح، هو من حديث شُعبة يرفعه إلى ابن عباس. وزعم هارون القارئ أنَّ قراءة أبيٍّ «بَلْ تَدارَكَ عِلْمُهُمْ»[(٤)]. وحكى الثعلبيُّ أنها في حرف أبيٍّ: «أم تدارك» والعرب تضعُ (بَلْ) موضع (أم) و(أم) موضع (بل) إذا كان في أوّل الكلام استفهامٌ، كقول الشاعر:

فواللهِ لا أدري أسلمى تغوَّلَتْ[(٥)] ... أمِ القولُ أم كلٌّ إليَّ حبيبُ

أي: بل كلٌّ[(٦)]. قال النحَّاس[(٧)]: القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد؛ لأنَّ أصل «ادَّارَكَ» تدارك؛ أُدغمتِ الدالُ في التاء، وجيء بألف الوصل؛ وفي معناه قولان: أحدهماأنَّ المعنى: بل تكامَلَ علمهم في الآخرة؛ لأنَّهم رأَوا كلَّ ما وُعِدوا به معاينةً، فتكاملَ عِلمُهم به. والقول الآخر: أنَّ المعنى: بل تتابعَ عِلمُهم اليومَ في الآخرة، فقالوا: تكون، وقالوا: لا تكون. القراءة الثانية فيها أيضاً قولان: أحدهما

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٤٨٥ ، والتيسير ص١٦٨ . وقراءة أبي جعفر - وهو من العشرة - في النشر ٢/ ٣٣٩ . قلنا: وما سوى هذه القراءة والتي قبلها فهو من القراءات الشاذة.

(٢) بل بغير تشديدٍ هنا؛ لأن قراءة التشديد سيذكرها المصنف قريباً، وهي - بالتخفيف والتشديد - في المحتسب ٢/ ١٤٢ عن سليمان بن يسار وعطاء بن السائب.

(٣) وقع في (م): «أآدَّرَكَ»، والمثبت من المصادر. وهي في الشاذة ص١١٠ ، والمحتسب ٢/ ١٤٢ وزاد في نسبتها إلى أبي رجاء والحسن وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨ وزاد في نسبتها إلى ابن عباس والحسن.

(٤) وهي في المحتسب ٢/ ١٤٢ ، والشاذة ص١١٠ .

(٥) في (م): تقولت، والتصويب من معاني القرآن للفراء ١/ ٧٢ و٢/ ٢٩٩ ، وتفسير الطبري ٢/ ٤١٣ و١٨/ ١١١ . تغولت المرأة: تلونت. اللسان (غول).

(٦) وحكاه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٩ . وقراءة أُبي في الشاذة ص١١٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨ .

(٧) من قوله: وحكى الثعلبي:... إلى هذا الموضع من (م).

أنَّ معناه: كمل في الآخرة، وهو مثل الأوّل؛ قال مجاهد: معناه: يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين. والقول الآخر أنه على معنى الإنكار، وهو مذهب أبي إسحاق؛ واستدلَّ على صحة هذا القول بأنَّ بعده ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[1] أي: لم يُدرِكْ علمُهم علمَ الآخرة. وقيل: بل ضلَّ وغابَ علمُهم في الآخرة فليس لهم فيها علم. والقراءة الثالثة: «بَلِ ادَّرَكَ» فهي بمعنى «بَلِ ادَّارَكَ» وقد يجيء افتعل وتفاعل بمعنى[2]؛ ولذلك صُحِّح ازدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا. القراءة الرابعة: ليس فيها إلَّا قولٌ واحدٌ يكون فيه معنى الإنكار، كما تقول: أ أنا قاتلتُكَ؟! فيكون المعنى: لم يدرك، وعليه ترجع قراءةُ ابن عباس؛ قال ابن عباس: «بَلَى أَدَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الْآخرَةِ» أي: لم يُدرِكْ. قال الفرَّاء: وهو قولٌ حسنٌ، كأنَّه وجَّهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث، كقولك لرجلٍ تُكذِّبه: بَلَى لعمري قد أدركتَ السَّلَفَ فأنت تَروي ما لا أروي! وأنت تُكذِّبه[3]. وقراءةٌ سابعة: «بَلَ ادَّرَكَ» بفتح اللام؛ عدل إلى الفتحة لخِفَّتِها. وقد حُكي نحوُ ذلك عن قطرب في ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ فإنه عدل إلى الفتح. وكذلك و(بعَ الثوبَ) ونحوه[4]. وذكر الزمخشري في الكتاب[5]: وقُرئ «بَلْ أَأَدَّرَكَ» بهمزتين «بَلْ آ أَدَّرَكَ» بألف بينهما «بَلَى أَ أَدَّرَكَ» «أَمْ تَدَارَكَ» «أَمْ أَدَّرَكَ» فهذه ثنتا عشرة قراءة، ثم أخذ يُعلِّلُ وجوهَ القراءات وقال: فإنْ قلتَ: فما وجهُ قراءة «بَلْ أَ أَدَّرَكَ» على الاستفهام؟ قلتَ: هو استفهامٌ على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ: «أَمْ أَدَّرَكَ» و«أَمْ تَدَارَكَ» لأنها أم التي

---

(١) من بداية تفسير الآية إلى هذا الموضع ـ سوى ما حكاه الثعلبي وقول مجاهد ـ من إعراب القرآن ٣/٢١٨ - ٢١٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٦٨. وذُكرتْ هذه القراءة في السبعة ص٤٨٥ عن الأعشى عن أبي بكر عن عاصم. وهي في الشاذة ص١١٠ عن الحسن والأعرج.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٢٩٩.

(٤) المحتسب ٢/١٤٣.

(٥) الكشاف ٣/١٥٦ - ١٥٧.

بمعنى بل والهمزة، وأما من قرأ: «بَلَى أَ أَدْرَكَ» على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر عِلْمَهم بكونها، وإذا أنكر عِلْمَهم بكونها لم يتحصَّلْ لهم شعورٌ وقتَ كونها؛ لأنَّ العلمَ بوقت الكائن تابعٌ للعلم بكون الكائن. «في الْآخرَةِ» في شأن الآخرة ومعناها.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: في الدنيا. ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: بقلوبهم، واحدهم عمو. وقيل: عَمٍ[١]، وأصله عميون؛ حُذِفَتِ الياءُ لالتقاء الساكنين، ولم يَجُزْ تحريكُها لِثِقَلِ الحركةِ فيها[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة[٣]. ﴿إذا كُنَّا تُراباً وآباؤُنا أَيِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة: «العنكبوت»[٤]. وقرأ أبو عمرو باستفهامين، إلا أنَّه خفَّف الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة أيضاً باستفهامين إلَّا أنهما حقَّقا الهمزتين، وكلُّ ما ذكرناه في السورتين جميعاً واحد. وقرأ الكسائي وابن عامر ورُويس ويعقوب: «أَئِذَا» بهمزتين «إِنَّنَا» بنونين على الخبر في هذه السورة، وفي سورة «العنكبوت» باستفهامين[٥]؛ قال أبو جعفر النحَّاس[٦]: القراءةُ «إذاَ كُنَّا تُراباً وآباؤُنا آيِنَّا لَمُخْرَجُونَ» موافقةٌ للخطِّ حسنةٌ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال: وهذا معنى كلامه: «إِذَا» ليس باستفهام و«آيِنَّا» استفهام، وفيه «إنَّ» فكيف يجوز أن يعمل ما في

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٦.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٩.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٤) الآية (٢٩).

(٥) السبعة ص٤٨٥ و٤٩٩، والتيسير ص١٦٩ و١٧٣، والنشر ١/ ٣٧٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠، وما قبله منه.

حيِّزِ الاستفهام فيما قبله؟! فإذا كان فيه استفهامٌ كان أبعد، وهذا إذا سُئِلَ عنه كان مُشكلاً لِما ذكره. وقال أبو جعفر: وسمعت محمد بن الوليد يقول: سألنا أبا العباس عن آيةٍ من القرآن صعبةٍ مُشكِلةٍ، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٨] فقال: إن عمل في «إذَا» «ينبئكم» كان مُحالاً؛ لأنه لا يُنبِّئهم ذلك الوقت، وإن عمل فيه ما بعد «إنَّ» كان المعنى صحيحاً وكان خطأً في العربية أن يعمل ما قبل «إنَّ» فيما بعدها؛ وهذا سؤالٌ بيِّنٌ رأيتُ أن يُذكَرَ في السورة التي هو فيها، فأما أبو عبيد فمالَ إلى قراءة نافع وردَّ على مَنْ جمع بين استفهامين، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وبقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وهذا الردُّ على أبي عمرو وعاصم وحمزة وطلحة والأعرج لا يلزَمُ منه شيء، ولا يُشبه ما جاء به من الآيةِ شيئاً، والفرق بينهما أنَّ الشرطَ وجوابَه بمنزلة شيءٍ واحد، ومعنى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾: أفإن مِتَّ خلدوا. ونظير هذا: أَزَيْدٌ مُنطلِقٌ، ولا يُقال: أزَيدٌ أمنطلقٌ؛ لأنها بمنزلة شيءٍ واحدٍ وليس كذلك الآية؛ لأنَّ الثاني جملةٌ قائمةٌ بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأوَّلُ كلامٌ يصلح فيه الاستفهام، فأمَّا مَنْ حذَفَ الاستفهامَ من الثاني وأثبته في الأول فقرأ: «أئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا إِنَّنا» فحذفَه من الثاني؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه بمعنى الإنكار.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقدَّم في سورة «المؤمنون»[1]. وكانت الأنبياء يُقرِّبون أمر البعث مبالغةً في التحذير، وكلُّ ما هو آتٍ فقريب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: «قُلْ» لهؤلاءِ الكفار «سِيرُوا» في بلاد

(١) ١٥/ ٧٨.

الشام والحجاز واليمن. ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ أي: بقلوبكم وبصائركم ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المكذِّبين لرسلهم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ في حرج[١] ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عِقاب مكة[٢]، وقد تقدَّم ذِكْرُهم[٣]. وقرئ: «فِي ضِيقٍ» بالكسر، وقد مضى في آخر «النحل»[٤]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: اقترب لكم ودنا منكم ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: من العذاب. قاله ابن عباس[٥]. وهو من رَدِفَه إذا تبعه وجاء في أثره، وتكون اللام أُدخِلَتْ لأنَّ المعنى: اقترب لكم ودنا لكم. أو تكون متعلقةً بالمصدر[٦]. وقيل: معناه: معكم. وقال ابن شجرة: تبعكم، ومنه رِدْفُ المرأة؛ لأنه تَبَعٌ لها من خلفها، ومنه قول أبي ذُؤيب:

عادَ السوادُ بياضاً في مَفارِقِهِ ... لا مَرْحباً ببياضِ الشَّيْبِ إذْ رَدِفا[٧]

قال الجوهري[٨]: وَأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ في رَدِفَه، مثل تَبِعَه وأتبَعَه بمعنى؛ قال خُزيمة

(١) الكشاف ٣/ ١٥٨.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.
(٣) ١٢/ ٢٦١ - ٢٦٢.
(٤) ١٢/ ٤٦٤.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.
(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٧.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.
(٨) في الصحاح (ردف).

ابن مالك بن نَهد:

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّريَّا ظَننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا[١]

يعني فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحدِ القارِظَيْن.

وقال الفرَّاء[٢]: «رَدِفَ لَكُم»: دنا لكم؛ ولهذا قال: «لَكُمْ». وقيل: رَدِفه ورَدِف له بمعنًى فتُزاد اللامُ للتوكيد. عن الفرَّاء أيضاً[٣]. كما تقول: نقَدْتُه ونقَدْتُ له، وكِلْتُه ووَزَنْتُه، وكِلْتُ له ووزَنْتُ له، ونحو ذلك. ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مِن العذابِ، فكان ذلك يوم بدر. وقيل: عذاب القبر[٤]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَه ونِعَمَه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: تخفي صدورهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يُظهِرون من الأمور. وقرأ ابن مُحيصن وحميد: «مَا تَكُنُّ» من كننتُ الشيء إذا سترتُه، هنا وفي «القصص»[٥] تقديرُه: ما تَكُنُّ صدورُهم عليه، وكأنَّ الضميرَ الذي في الصدور كالجسم الساتر. ومن قرأ: «تُكِنُّ» فهو المعروف؛ يقال: أكننتَ الشيء إذا أخفيتَه في نفسك[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال الحسن: الغائبة: هنا: القيامة. وقيل: ما غابَ عنهم من عذاب السماء والأرض. حكاه النقَّاش. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا: ما أخفى الله تعالى عن خلقِه وغيَّبه عنهم،

(١) البيت في الأمثال لأبي عبيد ص٣٤٥ ، وجمهرة الأمثال ١/ ١٢٣ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٩ .

(٣) نقله عنه البغوي في تفسيره ٣/ ٤٢٧ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥ .

(٥) عند الآية (٦٩).

(٦) المحتسب ٢/ ١٤٤ بنحوه، وقد نسب القراءة إلى ابن محيصن وابن السميفع اليماني، وكذلك في الشاذة ص١١٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٩ .

وهذا عام[١]. وإنَّما دخلتِ الهاءُ في «غَائِبَةٍ» إشارة إلى الجمع، أي: ما من خَصْلةٍ غائبةٍ عن الخلق إلَّا واللهُ عالِمٌ بها قد أثبتها في أمِّ الكتاب عنده، فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّ هؤلاء وما يُعلِنونه. وقيل: أي: كلُّ شيءٍ هو مُثبَتٌ في أمِّ الكتاب يُخرجه للأجل المؤجَّلِ له، فالذي يستعجلونه من العذاب له أجلٌ مضروبٌ لا يتأخَّر عنه ولا يتقدَّم عليه. والكتاب: اللوح المحفوظ، أثبتَ اللهُ فيه ما أراد؛ لِيُعلِمَ بذلك من يشاء من ملائكته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك أنَّهم اختلفوا في كثيرٍ من الأشياء حتى لعن بعضُهم بعضاً، فنزلت. والمعنى: إنَّ هذا القرآن يُبيِّن لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به[٢]، وذلك ما حرَّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن[٣] ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّ المؤمنين لأنهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة، فيُجازي المُحِقَّ والمُبطل[٤]. وقيل: يقضي بينهم في الدنيا فيُظهِرُ ما حرَّفوه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الغالب الذي لا يُرَدُّ أمره ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٠.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٧.

شيء[١].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوِّضْ إليه أمرَك واعتمِدْ عليه؛ فإنَّه ناصِرُك[٢]. ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الظاهر[٣]. وقيل: المُظهِرُ لمن تدبَّرَ وجه الصواب. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني الكفار؛ لتركهم التَّدبُّر، فهم كالموتى لا حِسَّ لهم ولا عقل. وقيل: هذا فيمن علم أنه لا يؤمن. ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يعني الكفار الذين هم بمنزلة الصُّمِّ عن قبول المواعظ، فإذا دُعوا إلى الخير أعرضوا وولَّوا كأنهم لا يسمعون، نظيره: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ كما تقدَّم[٤].

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق وعباس عن أبي عمرو: «وَلا يَسْمَعُ» بفتح الياء والميم «الصُّمُّ» رفعاً على الفاعل[٥]. الباقون: «تُسْمِعُ» مضارعُ أسمعتَ «الصُّمَّ» نصباً.

مسألة: وقد احتجَّت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أنَّ النبيَّ ﷺ أسمعَ موتى بدرٍ بهذه الآية، فنظرتْ في الأمر بقياسٍ عقليٍّ ووقفت مع هذه الآية. وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما أنتم بِأَسْمَعَ مِنْهم»[٦] قال ابن عطية: فيُشبه أنَّ قصةَ بدرٍ خرقُ عادةٍ لمحمدٍ ﷺ في أنْ رَدَّ الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقالَه، ولولا إخبارُ رسول الله ﷺ بسماعهم لَحملنا نداءه إيَّاهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفَرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١١٦.

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٤٩.

(٤) ١/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٥) قراءة ابن كثير ورواية عباس عن أبي عمرو في السبعة ص٤٨٦، وعن ابن كثير وحده في التيسير ص١٦٩.

(٦) سلف ٩/ ٢٧٣.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠.

قلت: روى البخاري ﷺ: حدَّثني عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال: حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قَتادةَ قال: ذَكَر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أنَّ نبيَّ الله ﷺ أمرَ يوم بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذِفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدرٍ خَبيثٍ مُخْبِث، وكان إذا ظهرَ على قومٍ أقام بالعَرْصَةِ ثلاثَ ليال، فلمَّا كان ببدرٍ اليومَ الثالثَ أمرَ براحلتِه فشُدَّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه، قالوا: ما نُرَى ينطلق إلَّا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الرَّكِيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلانَ بنَ فُلانٍ، ويا فُلانَ بن فلانٍ، أيَسُرُّكم أنَّكم أطعتُم اللهَ ورسوله؛ فإنَّا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتُم ما وَعَد ربُّكم حقًّا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها! فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأسمَعَ لِما أقولُ منهم» قال قتادة: أحياهم اللهُ حتى أسمعهم قولَه توبيخاً وتصغيراً ونِعمةً وحسرةً وندماً. خرَّجه مسلم أيضاً[١]. قال البخاري: حدَّثنا عثمان قال: حدَّثنا عَبْدة، عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر قال: وقفَ النبيُّ ﷺ على قَلِيب بدر فقال: «هل وجدتُم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟» ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول» فذُكر ذلك لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: «إنَّهم الآن لَيعلمونَ أنَّ الذي كنتُ أقولُ لهم هو الحقُّ» ثم قرأتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية[٢]. وقد عُورِضَتْ هذه الآية بقصة بدرٍ وبالسلام على القبور، وبما رُويَ في ذلك من أنَّ الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات، وبأنَّ الميت يسمع قَرْعَ النِّعال إذا انصرفوا عنه، إلى غير ذلك، فلو لم يسمَعِ الميتُ لم يُسلَّمْ عليه[٣]. وهذا واضحٌ وقد

(١) صحيح البخاري (٣٩٧٦)، وصحيح مسلم (٢٨٧٥). وأخرجه أحمد (١٦٣٥٩).

قال السندي في حاشيته على المسند: «في طَوِيٍّ»: في بئرٍ طَوِيٍّ بالحجارة أو غيرها. «مُخْبِث»: اسم فاعل من أخبث: إذا صاحب الخُبَثاء، أي: كان خبيثاً في ذاته، ثم صار أصحابه خبثاء أيضاً. «الرَّكي»: البئر. «أسرَّكم» أي: أظهَرَ لكم أنكم لو أطعتم كان خيراً. «ما تُكلِّمُ» أي: أيُّ كلامٍ تكلم وما فائدته.

(٢) صحيح البخاري (٣٩٨٠ - ٣٩٨١). وأخرجه أحمد (٤٩٥٨)، ومسلم (٩٣٢): (٢٦). ورواية أحمد ليس فيها قراءة الآية.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ .

بيَّناه في كتاب «التذكرة»[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: كفرهم، أي: ليس في وُسعِكَ خلق الإيمان في قلوبهم.

وقرأ حمزة: «وما أنْتَ تَهْدي الْعُمْيَ عَنْ ضَلالَتِهِمْ» كقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [يونس: ٤٣]. الباقون: «بِهَادِي الْعُمْيِ» وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم وفي «الروم»[٢] مثله[٣]. وكلُّهم وقفَ على «بِهَادِي» بالياء في هذه السورة وبغير ياء في «الروم» اتباعاً للمصحف، إلَّا يعقوب فإنه وقفَ فيهما جميعاً بالياء[٤]. وأجاز الفرَّاء وأبو حاتم: «وما أنْتَ بهَادٍ الْعُمْيَ» وهي الأصل. وفي حرف عبد الله: «وَما أنْ تَهْدِي الْعُمْيَ». ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تسمع[٥]. ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال ابن عباس: أي: إلَّا من خلقتَه للسعادة فهم مخلصون في التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ اختُلِفَ في معنى وقع القول وفي الدابة، فقيل: معنى «وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ»: وجَبَ الغضبُ عليهم. قاله قتادة. وقال مجاهد: أي: حَقَّ القولُ عليهم بأنهم لا يؤمنون. وقال ابن عمر وأبو

(١) ١/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) عند الآية (٥٣).

(٣) السبعة ص٤٨٦ ، والتيسير ص١٦٩ .

(٤) النشر ٢/ ١٣٨ و١٣٩ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٠ - ٢٢١ .

سعيد الخدريّ رضي الله عنهما: إذا لم يأمُروا بالمعروف ويَنْهَوا عن المنكر وجَبَ السَّخطُ عليهم(١). وقال عبد الله بن مسعود: وَقْعُ القولِ يكون بموت العلماء، وذهابِ العلم، ورفعِ القرآن. قال عبدالله: أكثروا تلاوةَ القرآن قبل أن يُرفَعَ. قالوا: هذه المصاحف تُرفَعُ فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يُسرَى عليه ليلاً فيصبحون منه قَفْراً، وينسون لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم، وذلك حين يقع القولُ عليهم.

قلتُ: أسنده أبو بكر البزَّار قال: حدَّثنا عبد الله بن يوسف الثَّقَفي قال: حدَّثنا عبد المجيد بن عبد العزيز، عن موسى بن عُبيدة، عن صفوان بن سليم، عن [ناجية ابن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ﷺ](٢) أنه قال: أكْثِروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع ويَنسى الناسُ مكانَه، وأكْثِروا تلاوةَ القرآن من قبل أن يُرفَع. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه المصاحفُ تُرفَعُ فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: فيُصبحون فيقولون: كنَّا نتكلَّم بكلامٍ ونقول قولاً، فيرجعون إلى شعرِ الجاهلية وأحاديثِ الجاهلية، وذلك حين يقَعُ القولُ عليهم(٣).

وقيل: القولُ: هو قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة:١٣] فوقوعُ القولِ وجوبُ العقاب على هؤلاء، فإذا صاروا إلى حَدٍّ لا تُقبَلُ توبتُهم ولا يولَدُ لهم ولدٌ مؤمنٌ فحينئذٍ تقوم القيامة. ذكره القُشيري.

وقول سادس: قالت حفصة بنت سيرين: سألتُ أبا العالية عن قول الله تعالى:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ . وقول ابن عمر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٥ ، والطبري ١٨/ ١٢٠ و١٢١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٨٥).

(٢) في جميع النسخ: «ابنٍ لعبد الله بن مسعود عنه عن أبيه» والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٣٤١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٨٦) من طريق موسى بن عبيدة، به.
وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٢٦) من طريق موسى بن سعد، عن ناجية، به.
وأخرجه عبد الرزاق (٥٩٨١)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤ ، والطبراني في الكبير (٨٦٩٨ و٨٦٩٩ و٨٧٠٠)، والحاكم ٤/ ٥٠٤ من طريق شداد بن معقل، عن ابن مسعود بنحوه. وصححه الذهبي في التلخيص.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ فقال: أوحى الله إلى نوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وكأنَّما كان على وجهي غطاءٌ فكُشِفَ. قال النحَّاس: وهذا من حُسن الجواب؛ لأنَّ الناس مُمتَحَنون ومُؤخَّرون؛ لأنَّ فيهم مؤمنين وصالحين، ومَنْ قد عَلِمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنه سيؤمن ويتوب؛ فلهذا أُمهِلوا وأُمِرْنا بِأخْذِ الجزية، فإذا زالَ هذا وجبَ القولُ عليهم، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[1].

قلت: وجميعُ الأقوال عند التأمُّلِ ترجع إلى معنًى واحد. والدليلُ عليه آخِرُ الآية: «إِنَّ النَّاسَ كانُوا بآياتِنا لا يُوقِنُونَ». وقُرِئ: «أَنَّ» بفتح الهمزة، وسيأتي. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خَرَجْنَ لا ينفَعُ نفساً إيمانُها [لم تكُنْ آمنَتْ من قبلُ أو كسبَتْ في إيمانها خيراً][2]: طلوعُ الشمس من مغربها، والدجال، ودابَّةُ الأرض» وقد مضى[3]. واختُلِفَ في تعيين هذه الدابة وصِفَتِها ومِنْ أين تخرجُ اختلافاً كثيراً، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[4]، ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفًى. فأوّل الأقوال أنَّه فَصِيلُ ناقة صالح وهو أصحُّها ـ والله أعلم ـ لِما ذكره أبو داود الطيالسي في «مسنده» عن حذيفة قال: ذكرَ رسولُ الله ﷺ الدابَّة فقال: «لها ثلاث خَرَجاتٍ من الدهر: فتخرجُ في أقصى البادية، ولا يدخلُ ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمنُ زماناً طويلاً، ثم تخرجُ خرجةً أخرى دون ذلك فيفشو ذِكْرُها في البادية، ويدخل ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ» قال رسول الله ﷺ: «ثمَّ بينما الناسُ في أعظم المساجد على الله حُرمةً خيرِها وأكرمِها على الله المسجدِ الحرامِ، لم يَرُعْهُم إلَّا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفُضُ عن رأسِها التراب،

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ وقول حفصة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٣، والطبري ١٨/ ١٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩١).

(٢) ما بين حاصرتين من صحيح مسلم، وهو ليس في النسخ.

(٣) صحيح مسلم (١٥٨)، وقد سلف ٩/ ١٢٨.

(٤) ٢/ ٦٩٦ - ٧٠٢.

فارفَضَّ[١] الناسُ معها[٢] شتَّى ومعاً، وتثبتُ عصابةٌ من المؤمنين، وعرفوا أنهم لن يُعجزوا اللهَ، فبدأتْ بهم فجَلَّتْ وُجوهَهم حتى جعلَتْها كأنَّها الكوكبُ الدُّرِّيُّ، وولَّتْ في الأرض لا يُدرِكُها طالبٌ، ولا ينجو منها هارب، حتى إنَّ الرَّجلَ لَيَتعوَّذُ منها بالصلاة فتأتيه مِنْ خلِفه فتقول: يا فلان، الآن تُصلِّي؟ فتُقبِلُ عليه فتَسِمُه في وجهه، ثم تنطلِقُ، ويشترك الناسُ في الأموال، ويصطحبون[٣] في الأمصار، يُعرَفُ المؤمنُ من الكافر، حتى إنَّ المؤمن يقول: «يا كافر اقْضِ حَقِّي»[٤] وموضعُ الدليلِ من هذا الحديث أنَّه الفصيل قولُه: «وهي ترغو» والرُّغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أنَّ الفصيلَ لمَّا قتلت الناقة هرب، فانفتح له حجرٌ فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عزَّ وجلَّ. ورُويَ أنَّها دابةٌ مزغبةٌ شعراء، ذاتُ قوائم[٥]، طولُها ستون ذراعاً[٦]، ويقال: إنها الجساسة. وهو قول عبد الله بن عمر[٧]. ورُوي عن ابن عمر

---

(١) أي: تفرق. النهاية (رفض).

(٢) في النسخ: منها. والمثبت من مسند الطيالسي والمصادر.

(٣) في النسخ: ويصطلحون. والمثبت من مسند الطيالسي والمصادر.

(٤) مسند الطيالسي (١٠٦٩). بإسنادين: الأول: عن جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن رجل من آل مسعود، عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً. في إسناده إبهام الراوي عن حذيفة. والثاني: عن طلحة بن عمرو، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبي الطفيل، عن حذيفة مرفوعاً. طلحة بن عمرو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٠ - ٣٤٢ .وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٣) من طريق الطيالسي، بالإسنادين معاً.

وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢٣٤٥)، والطبراني في الكبير (٣٠٣٥)، والحاكم ٤/ ٤٨٤ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٢٨ من طريق طلحة بن عمرو، به.

وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٤ والطبري ١٨/ ١٢٢ - ١٢٣ من طريق واصل مولى ابن عيينة، كلاهما عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد موقوفاً، والفاكهي (٢٣٤٤)، والحاكم ٤/ ٤٨٤ من طريق قيس بن سعد، والطبري ١٨/ ١٢٢ - ١٢٣ وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ عن ابن عباس ﷺ، وزاد المسير ٦/ ١٩١ عن مقاتل.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٠ عن حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعاً.

(٧) الكشاف ٣/ ١٥٩ .

أنها على خِلقة الآدميين، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض. ورُوِيَ أنها جُمِعتْ من خلقِ كلِّ حيوان[١].

وذكر الماوردي[٢] والثعلبي: رأسُها رأسُ ثور، وعينُها عينُ خنزير، وأذنُها أذنُ فيل، وقرنُها قرنُ أيل، وعنقُها عنقُ نعامة، وصدرُها صدرُأسد، ولونُها لونُ نمر، وخاصرتها خاصرةُ هِرّ، وذنبُها ذنبُ كبش، وقوائمُها قوائمُ بعير، بين كلِّ مَفْصلٍ اثنا عشر ذراعاً ـ الزمخشري[٣]: بذراع آدم عليه السلام ـ ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فتنكتُ في وجه المسلم بعصا موسى نكتةً بيضاء فيبيَضُّ وجهُه، وتنكتُ في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسوَدُّ وجهُه. قاله أبو الزبير[٤].

وفي كتاب النقَّاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الدابةَ الثعبانُ المشرفُ على جدار الكعبة التي اقتلعَتْها العُقاب حين أرادت قريشٌ بناءَ الكعبة[٥].

وحكى الماورديُّ[٦] عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سُئِلَ عن الدابةِ فقال: أما واللهِ ما لها ذنَبٌ وإنَّ لها لَلِحية. قال الماوردي: وفي هذا القول منه إشارةٌ إلى أنَّها من الإنس وإن لم يُصرِّحْ به.

قلت: ولهذا ـ والله أعلم ـ قال بعض المتأخرين من المفسرين: إنَّ الأقربَ أن تكون هذه الدابةُ إنساناً متكلِّماً يُناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلِكَ من هَلَكَ عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة. قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ .

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٩٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٧).

(٣) في الكشاف ٣/ ١٦٠ .

(٤) وهو محمد بن مسلم بن تدرس، وقد وقع في النسخ: ابن الزبير، والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم وزاد المسير.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧١ .

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٦).

القرطبي في كتاب «المفهم»[١] له: وإنَّما كان عند هذا القائلِ الأقربُ لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آيةٌ خاصةٌ خارقةٌ للعادة، ولا يكون من العشر الآياتِ المذكورة في الحديث؛ لأنَّ وجودَ المُناظرين والمُحتَجِّين على أهل البدع كثيرٌ، فلا آيَةَ خاصةٌ بها، فلا ينبغي أن تُذكَرَ مع العشر، وترتفعُ خصوصيةُ وجودِها إذا وقعَ القولُ، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظرِ الفاضلِ العالمِ الذي على أهل الأرض أن يُسمُّوه باسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يُسمَّى بدابَّة، وهذا خروجٌ عن عادة الفُصحاء، وعن تعظيم العُلماء، وليس ذلك دأبُ العقلاء، فالأولى ما قاله أهل التفسير، والله أعلم بحقائق الأمور.

قلتُ: قد رفعَ الإشكالَ في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليُعتمَدْ عليه. واختُلِفَ من أيِّ موضع تخرج، فقال عبد الله بن عمر: تخرج من جبلِ الصفا بمكة؛ يتصدَّعُ فتخرج منه[٢]. قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال: لو شئتُ أن أضعَ قدمي على موضع خروجِها لفعلتُ[٣]. وروى في خبرٍ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الأرضَ تنشَقُّ عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى، وأنَّها تخرج من الصفا فتَسِمُ بين عينَي المؤمن هو مؤمن سِمةً كأنها كوكب دُرِّيٌّ، وتَسِمُ بين عينَي الكافر نكتةً سوداء كافر» وذكر في الخبر أنها ذاتُ وبرٍ وريش. ذكره المهدوي[٤]. وعن ابن عباس أنَّها تخرج من شعْبٍ فتَمسُّ رأسَها السحابُ ورجلاها في الأرض لم تخرجا[٥]، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام[٦].

---

(١) ٧/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، وما قبله منه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ ، وزاد المسير ٦/ ١٩١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٤ .

(٤) وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٤ - ١٢٥ من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧)، وابن ماجه (٤٠٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن عبد الله بن عمرو ﷺ موقوفاً.

وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن عبدالله بن عمرو ﷺ موقوفاً.

وعن حذيفة: تخرجُ ثلاث خرجات: خرجةٌ في بعض البوادي ثم تَكمُن، وخرجةٌ في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجةٌ من أعظم المساجد وأكرمِها وأشرفِها وأفضلِها[١]. الزمخشري: تخرج من بين الركن حِذاءَ دارِ بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد؛ فقومٌ يهربون، وقومٌ يقفون نَظَّارة[٢]. ورُويَ عن قتادة أنَّها تخرج في تهامة. ورُويَ أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فارَ تنُّور نوحٍ عليه السلام[٣]. وقيل: من أرض الطائف؛ قال أبو قَبيل: ضرب عبد الله بن عمرو أرضَ الطائف برجله وقال: مِنْ هنا تخرجُ الدابَّةُ التي تُكلِّم الناس. وقيل: من بعض أودية تهامة. قاله ابن عباس. وقيل: من صخرة من شِعْب أجياد. قاله عبد الله بن عمرو. وقيل: من بحر سَدُوم. قاله وهب بن مُنبِّه. ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة الماوردي في كتابه[٤]. وذكر البغويُّ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدَّثنا عليُّ بن الجَعْد، عن فُضيل بن مرزوق الرَّقاشيِّ الأغرِّ ـ وسُئِلَ عنه يحيى بن مَعين فقال: ثقة ـ عن عطية العوفي، عن ابن عمر قال: تخرجُ الدابَّةُ من صدعٍ في الكعبة كجَرْيِ الفرس ثلاثةَ أيامٍ لا يخرجُ ثلُثها[٥].

قلت: فهذه أقوالُ الصحابة والتابعين في خروج الدابَّةِ وصفتِها، وهي تردُّ قولَ مَنْ قال من المفسرين: إنَّ الدابَّةَ إنما هي إنسانٌ متكلِّمٌ يناظرُ أهلَ البدع والكفر. وقد روى أبو أُمامةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تخرجُ الدابَّةُ فتَسِمُ الناسَ على خراطيمهم» ذكره الماوردي[٦]. «تُكَلِّمُهُم» بضمِّ التاء وشدِّ اللام المكسورة ـ من الكلام ـ قراءةُ العامَّةُ،

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٣ وغيره، وقد سلف تخريجه قريباً.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٧ .

(٥) أخرجه علي بن الجعد في مسنده (٢٠٩١)، والطبري ١٨/ ١٢١ - ١٢٢ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٠١)، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٣٠ . وفي إسناده عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٧٩ - ٨٠ .

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٧ . وأخرجه أحمد (٢٢٣٠٨).

يدلُّ عليه قراءة أُبيٍّ: «تُنَبِّئُهُمْ»[١] وقال السُّدِّي: تُكلِّمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام[٢]. وقيل: تُكلِّمهم بما يسوءهم[٣]. وقيل: تُكلِّمهم بلسانٍ ذَلِقٍ فتقول بصوتٍ يسمعه مَنْ قَرُبَ وبَعُد: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بخروجي؛ لأنَّ خروجَها من الآيات. وتقول: ألا لعنةُ الله عل الظالمين[٤].

وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء: «تَكْلِمُهُمْ» بفتح التاء[٥] من الكَلْمِ وهو الجرح؛ قال عكرمة: أي: تَسِمُهم. وقال أبو الجوزاء: سألتُ ابن عباس عن هذه الآية «تُكَلِّمُهُمْ» أو «تَكْلِمُهُمْ»؟ فقال: هي واللهِ تُكَلِّمُهُمْ وتَكْلِمُهُم؛ تُكلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أي: تجرحه. وقال أبو حاتم. «تُكَلِّمُهُمْ» كما تقول: تُجَرِّحهم؛ يذهب إلى أنه تكثيرٌ من «تَكْلمُهُم». ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبي إسحاق ويحيى: «أن» بالفتح[٦]. وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة: «إن» بكسر الهمزة[٧]. قال النحَّاس[٨]: في المفتوحة قولان وكذا المكسورة؛ قال الأخفش[٩]: المعنى بأنَّ. وكذا قرأ ابن مسعود «بأنَّ»[١٠]. وقال أبو عبيد[١١]:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤٥، وهي قراءة شاذة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٨، وزاد المسير ٦/ ١٩٣.

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥١.

(٤) الكشاف ٣/ ١٦٠.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ - ٢٢٢ عن أبي زرعة وابن عباس وعاصم الجحدري وعكرمة وطلحة. وفي المحتسب ٢/ ١٤٤ عن أبي زرعة وابن عباس وعاصم الجحدري ومجاهد وسعيد بن جبير. وفي الشاذة ص١١٠ عن أبي زرعة وابن عباس ومجاهد. وفي تفسير البغوي عن أبي رجاء ومجاهد وسعيد بن جبير.

(٦) قراءة الكوفيين ـ وهم عاصم وحمزة والكسائي ـ في السبعة ص٤٨٧، والتيسير ص١٦٩.

(٧) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو البصري، وهي في السبعة ص٤٨٧، والتيسير ص١٦٩.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢، وما قبله منه.

(٩) في معاني القرآن له ٢/ ٦٥١.

(١٠) المحتسب ٢/ ١٤٥، والشاذة ص١١٠، وزاد المسير ٦/ ١٩٣ ونسبها أيضاً إلى أبي عمران الجوني.

(١١) في (د) و(م): أبو عبيدة. والمثبت من (ز) و(ظ) وإعراب القرآن.

موضعها نصبٌ بوقوع الفعل عليها، أي: تُخبرهم أنَّ الناس. وقرأ الكسائي والفَّراء: «إنَّ النَّاسَ» بالكسر على الاستئناف. وقال الأخفش: هي بمعنى تقول: إن الناس؛ يعني الكفار.

﴿بِئَايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: بالقرآن وبمحمدٍ ﷺ، وذلك حين لا يقبل اللهُ من كافرٍ إيماناً ولم يبقَ إلا مؤمنون وكافرون في علم الله قبل خروجها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: زمرةً وجماعةً[١]. ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِئَايَٰتِنَا﴾ يعني: بالقرآن وبأعلامنا الدالَّةِ على الحق.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُدفَعون ويُساقون إلى موضع الحساب؛ قال الشَّماخ:

وكَم وَزَعْنَا من خَميسٍ جَحْفَلٍ وكَمْ حَبَوْنَا من رئيسٍ مِسْحَلِ[٢]

وقال قتادة: «يُوزَعُون» أي: يُردُّ أولُهم على آخرهم[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾ أي: قال الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِئَايَٰتِى﴾ التي أنزلتُها على رسلي، وبالآيات التي أقمتُها دلالةً على توحيدي. ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: ببطلانها حتى تعرضوا عنها، بل كذَّبتم جاهلين غير مُستَدِلِّين. ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ، أي: ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكَّروا ما فيها؟

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾أي: وجبَ العذابُ عليهم بظلمهم. أي: بشركهم ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: ليس لهم عذرٌ ولا حجةٌ. وقيل: يختم على أفواههم فلا ينطقون. قاله أكثر المفسرين[٤].

---

(١) زاد المسير ٦/ ١٩٤.

(٢) ملحق ديوان الشماخ ص٤٥٣. الخميس الجحفل: الجيش الكثير. والمِسْحَل: الشجاع. اللسان (خمس) و(جحفل) و(سحل).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٢٨، وما قبله منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٣١ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: يستقِرُّون فينامون. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: يُبصَر فيه لسعي الرزق[١]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ باللهِ، ذَكَرَ الدّلالةَ على إلهيته وقدرته، أي: ألم يعلموا كمالَ قُدرتِنا فيؤمنوا؟.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾أي: واذكُرْ يومَ، أو: ذَكِّرهمْ يومَ ينفخ في الصور. ومذهبُ الفرَّاء أنَّ المعنى: وذلكم يومَ ينفخ في الصور، وأجاز فيه الحذف[٢]. والصحيح في الصور أنه قرنٌ من نورٍ ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: كهيئة البوق. وقيل: هو البوق بلغة أهل اليمن[٣]. وقد مضى في «الأنعام»[٤] بيانُه وما لِلعلماء في ذلك. ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لمَّا فرغَ من خلق السماوات خلقَ الصُّورَ فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضِعُه على فيه، شاخصٌ ببصرِه إلى العرش، ينتظر متى يؤمَرُ بالنفخة» قلتُ: يا رسولَ الله، ما الصُّور؟ قال: «قَرْنٌ واللهِ عظيمٌ، والذي بعثني بالحقِّ إنَّ عِظَمَ دارةٍ فيهِ كعرض السماء والأرض، فينفخُ فيه ثلاثَ نفخات: النفخةُ الأولى نفخةُ الفزع، والثانيةُ نفخةُ الصَّعْق، والثالثةُ نفخةُ البعثِ والقيامِ لربِّ العالمين» وذكر الحديث. ذكره

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٨٦، وزاد المسير ٦/ ١٩٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٠٧، وزاد المسير ٣/ ٦٨.

(٤) ٨/ ٤٣١ - ٤٣٢.

علي بن معبد(١) والطبري والثعلبي وغيرهم(٢)، وصحَّحه ابن العربي! وقد ذكرتُه في كتاب «التذكرة»(٣) وتكلَّمنا عليه هناك، وأنَّ الصحيح في النفخ في الصُّور أنَّهما نفختان لا ثلاث، وأنَّ نفخة الفزع إنما تكون راجعةً إلى نفخة الصَّعق؛ لأنَّ الأمرين لازمان لهما، أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه، أو: إلى نفخة البعث. وهو اختيار القشيري وغيره؛ فإنَّه قال في كلامه على هذه الآية: والمراد النفخة الثانية، أي: يحيون فَزِعين يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس:٥٢] ويعاينون من الأمر ما يهولُهم ويُفزعهم، وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء. قاله قتادة(٤). وقال الماورديّ(٥): ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: هو يوم النشور من القبور؛ قال: وفي هذا الفزع قولان: أحدُهما أنَّه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم: فزِعتُ إليك في كذا إذا أسرعتُ إلى ندائك في معونتك. والقول الثاني: إنَّ الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن؛ لأنَّهم أُزعِجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا. وهذا أشبه القولين.

قلتُ: والسُّنةُ الثابتةُ من حديثِ أبي هريرة وحديثِ عبد الله بن عَمرو تدلُّ على

---

(١) هو علي بن معبد بن نوح البغدادي ثم المصري، إمام حافظ، توفي سنة ٢٥٩ هـ. السير ١٠/ ٦٣٢ - ٦٣٤.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٤ من طريق إسماعيل بن رافع المدني، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ضعيف الحفظ كما قال الحافظ في التقريب. قلنا: وقد اختلف عليه في إسناده اختلافاً كبيراً؛ قال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨ : مدار إسناده على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، فرواه عن محمد بن كعب القرظي تارةً بلا واسطة، وتارةً بواسطة رجل مبهم ومحمد عن أبي هريرة، وتارةً بلا واسطة، وتارةً بواسطة رجل من الأنصار مبهم أيضاً. وينظر مصادر تخريجه في تفسير الطبري ٣/ ٦١٣ .

(٣) ١/ ١٧٣ .

(٤) عبارة: «قاله قتادة» من (م)، وهي ليست في باقي النسخ.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٩ .

أنهما نفختان لا ثلاث: خرَّجهما مسلم[١]، وقد ذكرناهما في كتاب «التذكرة»[٢] وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان؛ قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨] فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع، فدلَّ على أنهما واحدة. وقد روى المبارك[٣] عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بينَ النفختين أربعون سنةً؛ الأولى يُميت اللهُ بها كلَّ حيٍّ، والأُخرى يُحيي اللهُ بها كلَّ ميت»[٤] فإن قيل: فإن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [النازعات:٦-١٣] وهذا يقتضي بظاهره أنَّها ثلاث. قيل له: ليس كذلك، وإنَّما المرادُ بالزَّجرة النفخةُ الثانيةُ التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم. كذلك قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن زيد وغيرهم.

قال مجاهد: هما صيحتان؛ أمَّا الأولى فتُميتُ كلَّ شيءٍ بإذن الله، وأمَّا الأُخرى فتُحيي كلَّ شيءٍ بإذن الله. وقال عطاء: «الرَّاجِفَةُ»: القيامة، و«الرادِفَةُ»: البعث[٥]. وقال ابن زيد: «الراجفة»: الموت، و«الرادفة»: الساعة. والله أعلم[٦].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم اختُلِفَ في هذا المُستثنى مَنْ هم؛ ففي حديث أبي هريرة أنَّهم الشهداءُ عند ربهم يرزقون، إنَّما يصل الفزعُ إلى الأحياء. وهو قول سعيد بن

---

(١) في صحيحه (٢٣٧٣) و(٢٩٤٠)، وهما في مسند أحمد (٩٨٢١) و(٩٥٥٥).

(٢) ص١٦٥-١٦٧.

(٣) في جميع النسخ: ابن المبارك، وهو خطأ قديم في النسخ. والتصويب من السنن الواردة في الفتن.

(٤) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٧٢١) من طريق المبارك ـ وهو ابن فضالة ـ عن الحسن البصري، به. وإسناده مرسل. لكن أخرج البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ. «ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل».

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ و٤٤٣.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١.

جُبير أنَّهم الشهداء مُتقلِّدون السيوف حول العرش[١]. وقال القشيري: الأنبياء داخلون في جملتهم؛ لأنَّ لهم الشهادةَ مع النبوَّة. وقيل: الملائكة. قال الحسن: استثنى طوائفَ من الملائكة يموتون بين النفختين. قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت[٢]. وقيل: الحور العين[٣]. وقيل: هم المؤمنون؛ لأنَّ الله تعالى قال عُقيب هذا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾. وقال بعض علمائنا: والصحيحُ أنَّه لم يَرِدْ في تعيينهم خبرٌ صحيحٌ والكلُّ مُحتَمِلٌ.

قلت: خفيَ عليه حديثُ أبي هريرة وقد صحَّحه القاضي أبو بكر بن العربي فليُعَوَّلْ عليه؛ لأنَّه نصٌّ في التعيين، وغيرُه اجتهاد. والله أعلم. وقيلَ غيرُ هذا على ما يأتي في «الزُّمَر»[٤].

وقوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ماضٍ، و«يُنْفَخُ» مستقبلٌ، فيُقال: كيف عطفَ ماضٍ على مستقبل؟ فزعمَ الفرَّاء أنَّ هذا محمولٌ على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إذا نفخ في الصور ففزع. «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ» نصبٌ على الاستثناء. ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وابن عامر وابن كثير: «آتُوهُ» جعلوه فعلاً مستقبلاً. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ» مقصوراً على الفعل الماضي[٥]، وكذلك قراءة ابن مسعود[٦]. وعن قتادة: «وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ»[٧]. قال النحَّاس[٨]: وفي كتابي عن أبي إسحاق في القراءات: [من قرأ][٩]: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ»

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣١.

(٢) قول مقاتل في الوسيط٣/٣٨٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣١، وزاد المسير ٦/ ١٩٥.

(٣) زاد المسير ٦/ ١٩٥.

(٤) عند تفسير الآية (٦٨).

(٥) السبعة ص ٤٨٧، والتيسير ص١٦٩ دون قراءة الأعمش ويحيى.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٢.

(٧) المحتسب ٢/ ١٤٥، والشاذة ص١١١.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣، وما قبله منه سوى قراءة ابن مسعود وقتادة.

(٩) ما بين حاصرتين من إعراب القرآن، وهو ليس في النسخ.

وحَّده على لفظ «كُلّ»، ومن قرأ: «آتُوهُ» جمع على معناها، وهذا القول غلطٌ قبيح؛ لأنَّه إذا قال: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ» فلم يوحِّدْ وإنَّما جمع، ولو وحَّد لقال: «أَتَاهُ» ولكن من قال: «أَتَوْهُ» جمعَ على المعنى وجاء به ماضياً، لأنَّه رَدَّه إلى «فَفَزِعَ»، ومن قرأ: «وَكُلٌّ آتَوْهُ» حملَه على المعنى أيضاً وقال: «آتُوهُ» لأنها جملةٌ منقطعةٌ من الأول.

قال ابن نصر: قد حكى عن أبي إسحاق رحمه الله ما لم يَقُلْه، ونصُّ أبي إسحاق: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» ويقرأ: «آتُوهُ» فمن وحَّد فللفظ «كُلّ» ومن جمع فلمعناه؛ يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر «كلّ» فعلى اللفظ، أو جمعَ فعلى المعنى؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» فهو فعلٌ من الإتيان وحمل على معنى «كل» دون لفظها، ومن قرأ: «وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخرِينَ» فهو اسم الفاعل من أتى، يدلُّكَ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]. ومن قرأ: «وَكُلٌّ أَتَاهُ» حملَه على لفظ «كلّ» دون معناها وحمل «دَاخِرِينَ» على المعنى، ومعناه: صاغرين. عن ابن عباس وقتادة. وقد مضى في «النحل»[١].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قال ابن عباس: أي: قائمةً وهي تسير سيراً حثيثاً[٢]. قال القُتبي[٣]: وذلك أنَّ الجبال تُجمَع وتُسيَّر، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير، وكذلك كلُّ شيءٍ عظيمٍ وجَمْعٍ كثيرٍ يَقصُرُ عنه النظر؛ لكثرته وبُعدِ ما بين أطرافه، وهو في حُسبان النَّاظرِ كالواقف وهو يسير. قال النابغة في وصف جيش:

بِأَرْعَنَ مثلِ الطَّودِ تَحسِبُ أنَّهمْ وُقوفٌ بِحَاجٍ والرِّكابُ تُهملِجُ[٤]

---

(١) ١٢/ ٣٣٤.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٦.

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص٤ - ٥.

(٤) ديوان النابغة الجعدي ص١٨٧. الجيش الأرعن: المضطرب لكثرته. وتهملج من الهملجة: وهو حسن سير الدابة في سرعة. اللسان (رعن) و(هملج).

قال القُشيريّ: وهذا يوم القيامة، أي: هي لكثرتها كأنَّها جامدة، أي: واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفُسِها تسير سير السحاب، والسحابُ المتراكمُ يظنُّ أنها واقفةٌ وهي تسير، أي: تمرُّ مَرَّ السحاب حتى لا يبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. ويُقال: إنَّ الله تعالى وصف الجبال بصفاتٍ مختلفةٍ ترجع كلُّها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعِهن المنفوش، وذلك إذا صارتِ السماءُ كالمُهْل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ . وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨-٩]. والحالة الثالثة أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطَّع بعد أن كانت كالعهن. والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدِّمة قارَّةٌ في مواضعها والأرض تحتها غيرُ بارزةٍ فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها. والحالة الخامسة أنَّ الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بُعْدٍ حسِبَها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي بالحقيقة مارَّةٌ إلاَّ أنَّ مرورَها من وراء الرياح كأنها مُندكَّةٌ مُتفتِّتة. والحالة السادسة أن تكون سراباً، فمن نظر إلى مواضعها لم يجِدْ فيها شيئاً منها كالسراب. قال مقاتل: تقعُ على الأرض فتُسوَّى بها. ثم قيل: هذا مَثَلٌ. قال الماوردي(١): وفيما(٢) ضُرِبَ له ثلاثةُ أقوال: أحدُها أنه مَثَلٌ ضربَه اللهُ تعالى للدنيا، يظنُّ الناظرُ إليها أنها واقفةٌ كالجبال، وهي آخذةٌ بحظِّها من الزوال كالحساب. قاله سهل بن عبد الله. الثاني: أنه مثلٌ ضربَه اللهُ للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعملُه صاعدٌ إلى السماء. الثالث: أنه مثلٌ ضربَه اللهُ للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: هذا من فِعْلِ الله، و[ما](٣) هو فعل منه فهو

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٠ .

(٢) في (م): وفيهما.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيه الكلام.

متقَن[١]. و«تَرَى» من رؤية العين، ولو كانت من رؤية القلب لتعدَّت إلى مفعولين. والأصلُ تَرْأى، فأُلقيَتْ حركةُ الهمزة على الراء فتحرَّكتِ الرَّاءُ وحُذفَتِ الهمزة، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن، إلَّا أن التخفيف لازمٌ لِتَرى. وأهل الكوفة يقرؤون: «تَحْسَبُها» بفتح السين وهو القياس؛ لأنَّه من حَسِبَ يَحسَبُ إلَّا أنه قد رُويَ عن النبيِّ ﷺ خلافُها أنه قرأ بالكسر في المستقبل، فتكون على فَعِلَ يفعِلُ مثل نَعِمَ يَنعِمُ وبَئِسَ يبئِسُ، وحُكي: يَئِسَ يَيئِسُ من السالم، لا يُعرَفُ في كلام العرب غيرُ هذه الأحرف. «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» تقديرُه: مَرّاً مِثْلَ مَرِّ السحاب، فأُقيمتِ الصفةُ مقامَ الموصوف، والمضافُ مقامَ المضاف إليه؛ فالجبال تُزالُ من أماكنها من على وجه الأرض، وتُجمع وتُسيَّر كما تُسيَّر السحاب، ثم تُكسَّر فتعود إلى الأرض كما قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ عند الخليل وسيبويه منصوبٌ على أنه مصدر؛ لأنَّه لمَّا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ دلَّ على أنه قد صنعَ ذلكَ صنعاً. ويجوز النصبُ على الإغراء، أي: انظروا صُنْعَ الله[٢] فيوقف على هذا «السَّحَابِ» ولا يوقف عليه على التقدير الأوّل. ويجوز رفعُه على تقدير: ذلكَ صنعُ الله[٣]. ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحكمه، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «رحمَ اللهُ من عمِلَ عملاً فأتقَنه»[٤]. وقال قتادة: معناه: أحسن كلَّ شيء[٥]. والإتقان: الإحكام؛ يُقال: رجلٌ تِقْنٌ أي: حاذِقٌ بالأشياء. وقال الأزهري[٦]: أصلُه من ابن تِقْن، وهو رجلٌ من

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ دون قوله: فالجبال تزال... إلى قوله: «وبسَّتِ الجبال بسّاً».

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٠ .

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بلفظ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٩٨: فيه مصعب بن ثابت، وثَّقه ابن حيان، وضعَّفه جماعة.

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ .

(٦) تحرف في النسخ إلى: الزهري، وكلام الأزهري الآتي في تهذيب اللغة ٩/ ٦٠ - ٦١ ، وما قبله منه أيضاً.

عاد لم يكُنْ يسقط له سهمٌ فضُرِبَ به المثل؛ يُقال: أَرْمَى من ابن تِقْن، ثم يُقال لكلِّ حاذقٍ بالأشياء: تِقْنٌ.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1] بالتاء على الخطاب قراءةُ الجمهور، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء[2].

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: الحسنةُ: لا إله إلا الله[3]. وقال أبو معشر: كان إبراهيم يحلِفُ بالله الذي لا إله إلا هو ولا يستثني أنَّ الحسنةَ لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله[4]. وقال علي بن الحسين بن علي ﷺ: غزا رجلٌ، فكان إذا خلا بمكانٍ قال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، فبينما هو في أرض الروم في أرضٍ جلفاءَ وبَرْدى رفع صوتَه فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فخرجَ عليه رجلٌ على فرس عليه ثيابٌ بِيضٌ، فقال له: والذي نفسي بيده إنها الكلمةُ التي قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[5]. وروى أبو ذرٍّ قال: قلتُ: يا رسول الله أوصني. قال: «اتَّقِ اللهَ، وإذا عَمِلتَ سيئةً فأتبِعْها حسنةً تَمْحُها» قال: قلتُ: يا رسول الله، أمِنَ الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «من أفضل الحسنات» وفي رواية: قال: «نعم، هي أحسَنُ الحسنات» ذكره البيهقي[6]. وقال قتادة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: بالإخلاص والتوحيد[7]. وقيل: أداء الفرائض كلها[8].

---

(١) بعدها في (م) زيادة عبارة: والباقون تفعلون.

(٢) السبعة ص٤٨٧، والتيسير ص١٦٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤٠ عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٤٤) عن ابن مسعود.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤١، وذكره البغوي ٣/ ٤٣٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤١ - ١٤٢.

(٦) في الأسماء والصفات (٢٠٢). وأخرجه أحمد (٢١٤٨٧).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٣١.

قلت: إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها ـ على ما تقدَّم بيانُه في سورة إبراهيم[١] ـ فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن عباس: أي: وصل إليه الخير منها[٢]. وقاله مجاهد. وقيل: فله الجزاء الجميل وهو الجنة. وليس «خير» للتفضيل[٣]. قال عكرمة وابن جُريج: أمَّا أن يكونَ له خيرٌ منها يعني من الإيمان فلا؛ فإنَّه ليس شيءٌ خيراً ممن قال: لا إله إلا الله، ولكن له منها خير. وقيل: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ للتفضيل، أي: ثواب الله خيرٌ من عملِ العبد وقولِه وذِكْرِه، وكذلك رضوان الله خيرٌ للعبد من فعل العبد. قاله ابن عباس. وقيل: يرجع هذا إلى الإضعاف، فإنَّ الله تعالى يُعطيه بالواحدة عشراً، وبالإيمان في مدَّة يسيرةٍ الثوابَ الأبديّ. قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد[٤]. ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قرأ عاصم والكسائي «من فزعٍ يومَئذٍ» بالتنوين وفَتْحِ الميم. نافعٌ بفتح الميم من غير تنوين. الباقون: «من[٥] فَزَعِ يَوْمَئِذٍ» بالإضافة[٦] قال أبو عبيد: وهذا أعجبُ إليَّ؛ لأنَّه أعَمُّ التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال: «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» صار كأنَّه فَزَعٌ دون فَزَعٍ دون فَزَعٍ. قال القشيري: وقُرئ: «مِنْ فَزَعٍ» بالتنوين، ثم قيل: يعني به فزعاً واحداً، كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣]. وقيل: عن الكثرةَ؛ لأنه مصدرٌ، والمصدر صالحٌ للكثرة.

قلت: فَعَلى هذا تكون القراءتان بمعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» بالتنوين انتصبَ «يَوْمَئِذٍ» بالمصدر الذي هو «فَزَعٍ»[٧]. ويجوز أن يكون صفةً

---

(١) ١٢/ ١٣٢.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٢.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٦.

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ بنحوه.

(٥) ما بعد قوله: والكسائي... إلى هذا الموضع من (ظ)، وهو ليس في بقية النسخ.

(٦) السبعة ص٤٨٧، والتيسير ص١٧٠.

(٧) وقاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٢٢٨.

لفزع ويكون متعلقاً بمحذوف؛ لأنَّ المصادرَ يُخبَرُ عنها بأسماء الزمان وتُوصَفُ بها، ويجوز أن يتعلَّقَ باسم الفاعل الذي هو «آمِنُونَ». والإضافة على الاتساع في الظروف. ومَنْ حذفَ التنوينَ وفتحَ الميمَ بناه؛ لأنَّه ظرفُ زمان، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكناً، فلمَّا أُضيفَ إلى غير متمكِّنٍ ولا مُعرَبٍ بنى. وأنشد سيبويه[1]:

على حينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمورِهِمْ فَنَدلاً زُرَيْقُ المالِ نَدْلَ الثَّعَالِبِ[2]

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك. قاله ابن عباس والنَّخعيّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماعٌ من أهل التأويل في أنَّ الحسنةَ لا إله إلا الله، وأن السيئةَ الشرك في هذه الآية[3]. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ قال ابن عباس: أُلقيت. وقال الضحَّاك: طُرِحت؛ يقال: كببتُ الإناءَ أي: قلبتُه على وجهه، واللازمُ منه أَكَبَّ، وقلَّما يأتي هذا في كلام العرب. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي: يُقال لهم: هل تُجزَون. ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة. ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا جزاءَ أعمالِكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ يعني مكة التي عظَّمَ اللهُ حرمتَها، أي: جعلها حرماً آمناً، لا يُسفَكُ فيها دم، ولا يُظلَمُ فيها أحد، ولا يُصادُ فيها صيد، ولا يُعضَدُ فيها شجر[4]، على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع. وقرأ

(١) في الكتاب ١/ ١١٦.

(٢) من قوله: ويجوز أن يتعلق... إلى هذا الموضع في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥ بنحوه. والبيت قائله أعشى همدان كما في الكامل ١/ ٢٣٩. والمراد بالندل السرعة، وزريق اسم قبيلة. اللسان (ندل).

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٤٠ - ١٤٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٣٥.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣.

ابن عباس: «الَّتي حَرَّمَهَا» نعتاً للبلدة[١]. وقراءةُ الجماعة: «الَّذي» وهو في موضع نصبِ نعتٍ لـ «رب»، ولو كان بالألفِ واللامِ لقُلتَ: المحرِّمَها؛ فإنْ كانت نعتاً للبلدة قُلتَ: المحرِّمِها هو؛ لابُدَّ من إظهار المُضمَرِ مع الألف واللام؛ لأنَّ الفعلَ جرى على غيرِ مَنْ هو له، فإن قُلتَ: الذي حرَّمها لم تحتَجْ أن تقول: هو[٢]. ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً ومُلكاً[٣]. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المنقادين لأمره، الموحِّدين له.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: وأُمِرتُ أن أتلوَ القرآن، أي: أقرأه. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فله ثواب هدايته. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فليس عليَّ إلا البلاغ؛ نسخَتْها آيةُ القتال[٤]. قال النحَّاس[٥]. «وَأَنْ أَتْلُوَ» نصب بأن. قال الفرَّاء: وفي إحدى القراءتين «وَأَنِ اتْلُ»[٦] وزعمَ أنَّه في موضع جزمٍ بالأمر، فلذلك حذفَ منه الواو، قال النحَّاس: ولا نعرفُ أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفةٌ لجميع المصاحف.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه وعلى ما هدانا. ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: في أنفسكم وفي غيركم كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٧] [فصلت: ٥٣]. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السماوات وفي الأرض؛ نظيره قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٤ عن ابن عباس وابن مسعود، وفي الشاذة ص١١١ عن ابن مسعود، وفي زاد المسير ٦/ ١٩٨ عن ابن مسعود وأبي عمران الجوني.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥.

(٦) وهي في الشاذة ص١١١ عن ابن مسعود وأُبي

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

عن عاصم بالتاء على الخطاب[١]؛ لقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ فيكون الكلامُ على نسقٍ واحد. الباقون بالياء على أن يُرَدَّ إلى ما قبله ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فأخبر عن تلك الآية[٢].

كملت السورة والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) السبعة ص٤٨٨، والتيسير ص١٢٦ .

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٢٦ .

تفسير سورة النمل

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾.

قد تقد الكلام فى « سورة البقرة » على الحروف المتقطعة[1] فى أوائل السُّوَر.

وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أى: هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أى: بين واضح، ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن[2] بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى: يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى: حَسَّنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم فى غيَهم فهم يَتيهون فى ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أى: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى: ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد ـ قال قتادة: ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ أى: لتأخذ ـ ﴿ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى: من عند حكيم عليم، أى: حكيم فى أوامره ونواهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا [لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ][3] ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

(١) فى ف: « المقطعة ». (٢) فى ف: « وأيقن ». (٣) زيادة من ف، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ (١) ، مذكراً له ما كان من أمر موسى ، كيف اصطفاه اللّه وكلمه ، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فأضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فآنس من جانب الطور ناراً ، أى : رأى ناراً تأجج (٢) وتضطرم ، فقال ﴿لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أى : عن الطريق ، ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى : تتدفؤون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى : فلما أتاها رأى (٣) منظراً هائلا عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعَنان السماء .

قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً (٤) يتَوَهَّج .

وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى ، فنودى أن بورك من فى النار . قال ابن عباس : [أى] (٥) قُدّس .

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ـ [و] (٦) هو الطيالسى ـ حدثنا شعبة والمسعودى ، عن عمرو بن مرَّة ، سمع أبا عُبيْدة يحدث ، عن أبى موسى ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل (٧) ». زاد المسعودى : « وحجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفها لأحْرَقَتْ سُبُحات وجهه كل شىء أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيْدة : ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ

---

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٢) فى ف ، أ : « تتأجج » . (٣) فى ف : « ورأى » .
(٤) فى ف : « وإنما نور » . (٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف : « عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (١) . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم ، من حديث عمرو بنُ مُرَّة ، به(٢).

وقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئا من مخلوقاته ، ولا يحيط به شىء من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات .

وقوله : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾: أعلمه (٣) أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه اللّه العزيز ، الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ؛ليظهر له دليلا واضحاً على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل شىء . فلما ألقى موسى تلك العصا (٤) من يده انقلبت فى الحال حَيَّةَ عظيمة هائلة فى غاية الكبر ، وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجان : ضرب من الحيات ، أسرعه حركة ، وأكثره اضطرابا ـ وفى الحديث نَهْىٌ عن قتل جِنَّان (٥) البيوت (٦) ـ فلما عاين موسى ذلك ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى :لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإنى أريد أن أصطفيك رسولا ، وأجعلك نبياً وجيهاً .

وقوله : ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على [عمل] (٧) شىء ثم أقلع عنه ، ورجع وأناب ، فإن اللّه يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١١٠] والآيات فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة اللّه الفاعل المختار ، وصدْق من جعل له معجزة ، وذلك أن اللّه ـ تعالى ـ أمره أن يُدخل يده فى جيب درْعِه ، فإذا أدخلها وأخرجها خَرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمعان يتلألأ (٨) كالبرق الخاطف .

وقوله : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أى : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

وهذه هى الآيات التسع التى قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء : ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أى : بينة واضحة ظاهرة ،

(١) ورواه أحمد فى مسنده (٤٠١/٤) من طريق وكيع عن المسعودى بنحوه .
(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٩) .
(٣) فى ف : « اعلم » . (٤) فى ف ، أ : « العصاة » . (٥) فى ف ، أ : « حيات » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٩٨) من حديث ابن عمر ،رضى الله عنهما .
(٧) زيادة من أ . (٨) فى ف : « تتلألأ » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ **قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا [هنالك] (١) وانقلبوا صاغرين ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا** ﴾ أى : فى ظاهر أمرهم ، ﴿ **وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ** ﴾ أى : علموا فى أنفسهم أنها حق (٢) من عند اللّه، ولكن جَحَدُوها وعاندوها وكابروها ، ﴿ **ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ أى : ظلما من أنفسهم ، سَجيَّة ملعونة ، ﴿ **وَعُلُوًّا** ﴾ أى: استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ أى : انظر يا محمد كيف كان عاقبة كُفرهم (٣) ، فى إهلاك اللّه إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة.

وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ؛ فإن محمداً ، صلوات اللّه وسلامه عليه (٤) ، أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه اللّه من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ المواثيق له ، عليه (٥) من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)** ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان ، عليهما من اللّه السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام فى الدنيا ، والنبوة والرسالة فى الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام (٦) : أخبرنى أبى ، عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن اللّه لم ينعم على عَبد نعمة فحمد اللّه عليها ، إلا كان حَمْدُهُ أفضل من نعمته (٧) ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب اللّه المنزل ؛ قال اللّه تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾، وأى نعمة أفضل مما أوتى داود

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « صدق » . (٣) فى ف ، أ : « أمرهم » . (٤) فى ف : « ﷺ » .
(٥) فى ف : « عليهم » . (٦) فى ف : « هشام » . (٧) فى ف : « نعمه » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وسليمان ، عليهما السلام .

وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أى : فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثةَ المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائةُ امرأة . ولكن المراد بذلك وراثةُ الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ [فى قوله][1]: « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة [2] » [3] .

وقوله [4]: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ[5] ﴾، أى: أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سَخَّر له الإنس والجن والطير . وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شىء لم يُعطَه أحد من البشر ـ فيما علمناه ـ مما أخبر الله به ورسوله . ومن زعم من الجهلة والرّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود ـ كما يتفوه به كثير من الناس ـ فهو قولٌ بلا علم . ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل [6] البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خُلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ، كان قد أفهم سليمان ، عليه السلام ، ما يتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق [7] به الحيوانات على اختلاف أصنافها ؛ولهذا قال : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى : مما يحتاج إليه الملك ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أى: الظاهر البين لله علينا .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود ، عليه السلام ، فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع » . قال : «فخرج ذات يوم وأغلقت [8] الأبواب ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود ، فجاء داود، عليه السلام ، فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ قال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذاً ملك الموت . مرحباً بأمر الله ، فتزمل داود ، عليه السلام ، مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس ، فقال سليمان ، عليه السلام ، للطير : أظلى على داود ، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض ،

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « ماتركناه فهو صدقة » .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٧٢٧) من حديث عائشة بلفظ : « لا نورث ما تركناه صدقة » . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/١٢) : وأما ما اشتهر فى كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فقد أنكره جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ : « نحن » ، وانظر بقية كلامه وحمله لمعنى الحديث فى الفتح .

(٤) فى ف : « وقال » . (٥) بعدها فى ف ، أ : « إن هذا لهو الفضل المبين » . (٦) فى ف : « بل نزل » .

(٧) فى ف : « وما ينطق » . (٨) فى ف : « وغلقت » .

www.besturdubooks.wordpress.com

فقال لها سليمان : اقبضى جناحا جناحا » قال أبو هريرة : يارسول اللّه ، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول اللّه ﷺ يده ، وغلبت عليه يومئذ المضرَحية (١) (٢) .

قال أبو الفرج بن الجَوْزىّ : المَضْرَحيّة (٣) : النسور الحُمر .

وقوله تعالى : ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعنى : ركب فيهم فى أبهة وعظمة (٤) كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم [يكونون] (٥) فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿**فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم ؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له .

قال مجاهد : جعل على كل صنف وَزَعة ، يردون أولاها على أخراها ، لئلا يتقدموا فى المسير ، كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ**﴾ أى : حتى إذا مر سليمان ، عليه السلام ، بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ، ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ .

أورد (٦) ابن عساكر ، من طريق إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن : أن اسم هذه النملة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم : بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذّيب (٧) .

أى : خافت على النمل أن تحطمها (٨) الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها (٩) ، ففهم ذلك سليمان ، عليه السلام ، منها (١٠) ﴿ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ** ﴾ أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على ، من تعليمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالإسلام لك ، والإيمان بك ، ﴿**وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ، ﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك .

ومن قال من المفسرين : إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها .

---

(١) فى ف : « المصرحية » .

(٢) المسند (٢/٤١٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٠٦) : « فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٣) فى هـ ، ف ، أ : « المصرحية » والمثبت من لسان العرب ، مادة « ضرح » .
(٤) فى ف : « عظيمة » .

(٥) زيادة من ف .
(٦) فى ف ، أ : « فأورد » .
(٧) فى ف : « الذئب » .

(٨) فى ف : « يحطمها » .
(٩) فى ف : « مساكنهم » .
(١٠) فى ف : « عنها » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وعن نَوْف البَكَالى أنه قال : كان نمل سليمان أمثال الذئاب . هكذا رأيته مضبوطا بالياء المثناه من تحت . وإنما هو بالباء الموحدة ، وذلك تصحيف ، واللّه أعلم .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، فهم قولها ، وتبسم ضاحكاً من ذلك (١) ، وهذا أمر عظيم جدًا .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا مِسْعَر، عن زيد العَمّى ، عن أبى الصديق الناجى قال : خرج سليمان (٢) ، عليه(٣) السلام ، يستسقى، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم ، إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقياك ، وإلا تسقنا تهلكنا . فقال سليمان ، عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وقد ثبت فى الصحيح ـ عند مسلم ـ من طريق عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام ، عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ [قال] (٤) : « قَرَصَت نبيا من الأنبياء نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى اللّه إليه ، أفى (٥) أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسَبِّح ؟ فهلا نملة واحدة ! » (٦) .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما ، عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا ، يدل سليمان ، عليه السلام ، على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشىء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ، عليه السلام ، الجان فحفروا له ذلك المكان ، حتى يستنبط (٧) الماء من قراره ، فنزل سليمان ، عليه السلام [يوما] (٨)، بفَلاَة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ، **﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾** .

حدث يوما عبد اللّه بن عباس بنحو هذا ، وفى القوم رجل من الخوارج ، يقال له :« نافع بن الأزرق » ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف يا ابن عباس ، غُلبت اليوم ! قال: ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض ، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ، ويحثو على الفخ تراباً ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ ، فيصيده الصبى . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس ، لما أجبته . فقال (٩) له : ويحك ! إنه إذا نزل القَدَر عَمى البصر ، وذهب الحَذَر . فقال له نافع : واللّه لا أجادلك فى شىء من القرآن

---

(١) فى ف : « من قولها » . (٢) فى ف ، أ : « سليمان بن داود » . (٣) فى ف : « عليهما » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف ، أ : « أى » .
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤١) .
(٧) فى ف : « يستنبطوا » . (٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف ، أ : « ثم قال » .

www.besturdubooks.wordpress.com

أبداً (١) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد اللّه البَرْزِىّ ـ من أهل « بَرْزَةَ » من غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم [يوم] (٢) الإثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين ـ فروى ابن عساكر بسنده إلى أبى سليمان بن زيد : أنه سأله عن سبب عَوَره ، فامتنع عليه ، فألح عليه شهوراً ، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة فى قرية برزة ، وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً ، حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يَعْزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما ، فلا يلتفتان إلى شىء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع ، وعيناها توقدان مثل الدينار . فاستبشـرا بها عظيما ، وقالا : الحمد اللّه الذى لم يُخَيب سفرنا من سنة، وكسرا المجامر ، وأخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلانى ، فأبيا ، فألححت عليهما وقلت : لابد من ذلك ، وتوعدتهما بالدولة ، فكحلا عينى الواحدة اليمنى ، فحين وقع فى عينى نظرت إلى الأرض تحتى مثل المرآة ، أنظر ما تحتها كما تُرِى المرآة ، ثم قالا لى : سر معنا قليلا ، فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى إذا بعدت عن القرية ، أخذانى فكتفانى ، وأدخل أحدهما يده فى عينى ففقأها ، ورمى بها ومضيا . فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً ، حتى مر بى نفر ففَكَ وثَاقى. فهذا ما كان من خبر عينى (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى ، حدثنا عَبّاد بن مَيْسَرة المِنْقَرِىّ ، عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان ، عليه السلام : عنبر.

وقال محمد بن إسحاق : كان سليمان ، عليه السلام ، إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه: تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نُوَبٌ من كل صنف من الطير ، كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلّها من حَضَره إلا الهدهد ، **﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾** أخطأه بصرى من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟

وقوله : **﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾**: قال الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعنى نتف ريشه .

وقال عبد اللّه بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه، وتركه مُلْقىً يأكله الذر والنمل .

وقوله : **﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾** يعنى : قتله ، **﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾** أى : بعذر واضح بين .

وقال سفيان بن عيينة ، وعبد اللّه بن شداد : لما قدم الهدهد قال له الطير : ما خلفك ، فقد نذر سليمان دمك ! فقال : هل استثنى ؟ فقالوا : نعم ، قال : **﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي**

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٠٥) من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير بنحوه .

(٢) زيادة من ف .

(٣) تاريخ دمشق (١٩/ ١٣٠ « المخطوط ») .

www.besturdubooks.wordpress.com

بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فقال : نجوت إذاً .

قال مجاهد : إنما دفع [الله] (١) عنه ببره بأمه (٢) .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدهد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أى : بخبر صدق حق يقين .

وسبأ هم : حِمْير ، وهم ملوك اليمن .

ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، قال الحسن البصرى : وهى بلقيس بنت شَرَاحيل ملكة سبأ .

وقال قتادة : كانت أمها جنية ، وكان مُؤخَّر قدميها مثل حافر الدابة ، من بيت مملكة .

وقال زهير بن محمد : هى بلقيس بنت شَرَاحيل بن مالك بن الريان ، وأمها فارعة الجنية .

وقال ابن جُرَيْج : بلقيس بنت ذى شرخ ، وأمها يلتقة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا سفيان ـ يعنى ابن عيينة ـ عن عطاء بن السائب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان مع صاحبة (٣) سليمان ألف قَيْل ، تحت كل قيل مائة ألف [مقاتل] (٤) .

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان تحت يدى ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل ، تحت كل قَيْل : مائة ألف مقاتل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا (٥) مَعْمَر ، عن قتادة فى قوله : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ : كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلا ، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل . وكانت بأرض يقال لها مأرب ، على ثلاثة أميال من صنعاء .

وهذا القول هو أقرب ، على أنه كثير على مملكة اليمن ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : من متاع الدنيا ما (٦) يحتاج إليه الملك المتمكن ، ﴿ وَلَهَا

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « أمه » . (٣) فى ف : « كان لصاحبة » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « عن » . (٦) فى ف : « مما » .

www.besturdubooks.wordpress.com

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعنى : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلىء .

قال زهير بن محمد : كان من ذهب صفحتاه ، مرمول بالياقوت والزبرجد . [طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً .

وقال محمد بن إسحاق : كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد] [١] واللؤلؤ ، وكان إنما يخدمها النساء ، لها ستمائة امرأة تلى الخدمة [٢] .

قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه [٣] ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها ،فيسجدون لها صباحاً ومساًء ؛ولهذا قال : ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ أى: عن طريق الحق، ﴿ **فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾.

وقوله : ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ** ﴾ [معناه : ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ** ﴾] [٤] أى : لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود للّه وحده دون ما خلق من شىء من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٧] .

وقرأ بعض القراء : « ألا يا اسجدوا للّه » ، جعلها « ألا » الاستفتاحية ، و« يا » للنداء ، وحذف المنادى ، تقديره عنده :« ألا يا قوم ، اسجدوا للّه ».

وقوله: ﴿ **الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾: قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: يعلم كل خبيئة فى السماء والأرض . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة، وغير واحد .

وقال سعيد بن المسيب : الخَبْء : الماء . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خبء السموات والأرض : ما جعل فيها من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض .

وهذا مناسب من كلام الهدهد ، الذى جعل اللّه فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره ، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** ﴾ أى : يعلم ما يخفيه العباد ، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وهذا كقوله تعالى: ﴿ **سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ** ﴾ [الرعد : ١٠] .

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف : « امرأة تليها » .
(٣) فى ف : « من شرقية ومثلها من غربية » .
(٤) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : هو المدعو اللّه ، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه .

ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير ، وعبادة اللّه وحده والسجود له ، نهى عن قتله ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصُّرَدَ . وإسناده صحيح (١) .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾ .

يخبر تعالى عن قيل سليمان ، عليه السلام ، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : أصدقت (٢) فى إخبارك هذا ،﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقالتك ،فتتخلص (٣) من الوعيد الذى أوعدتك؟﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها . وأعطاه لذلك الهدهد فحمله ، قيل: فى جناحه كما هو عادة الطير ، وقيل : بمنقاره . وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس ، إلى الخلوة التى كانت تختلى فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كُوّة هنالك (٤) بين يديها ، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة ،فتحيرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته ، فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ، ثم قالت لهم:﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعنى بكرمه : ما رأته من عجيب أمره ، كون طائر أتى به (٥) فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم ، ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . فعرفوا أنه من نبى اللّه سليمان ، وأنه لا قِبَل لهم به . وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حَصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها ، قال العلماء : ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان ، عليه السلام .

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً فى تفسيره ، حيث قال : حدثنا أبى ،حدثنا هارون بن الفضل (٦) أبو يعلى الحناط (٧) ، حدثنا أبو يوسف ، عن سلمة بن صالح ، [عن عبد الكريم] (٨) أبى أمية ، عن ابن بُرَيدة ، عن أبيه قال : كنت أمشى مع رسول اللّه ﷺ فقال : « إنى أعلم آية لم

---

(١) لم أجده من حديث أبى هريرة إلا عند ابن ماجة فى السنن برقم (٣٢٢٣) بلفظ : « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد ». وهو بهذا اللفظ من حديث ابن عباس فى مسند الإمام أحمد (١/ ٣٣٢) وسنن أبى داود برقم (٥٢٦٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٢٢٤) .

(٢) فى ف : « صدقت » . (٣) فى ف : « لتتخلص » . (٤) فى ف ، أ: « هناك » .

(٥) فى ف ، أ : « جاء به » . (٦) فى أ : « المفضل » . (٧) فى ف ، أ : « الخياط » . (٨) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

تنزل على نبى قبلى بعد سليمان بن داود » . قال : قلت : يارسول اللّه ، أى آية ؟ قال : «سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد» . قال : فانتهى إلى الباب ، فأخرج إحدى قدميه ، فقلت : نسى ، ثم التفت إلى وقال : ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾(١) .

هذا حديث غريب ، وإسناده ضعيف .

وقال ميمون بن مهْرَان : كان رسول اللّه ﷺ يكتب : باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾.

وقوله : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾: يقول (٢) قتادة : لا تجبروا على ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا تمتنعوا ولا تتكبروا على .

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: قال ابن عباس : موحدين . وقال غيره : مخلصين . وقال سفيان بن عُيَيْنَة: طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾.

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها ، وما قد نزل بها ؛ ولهذا قالت :﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أى :حتى تحضرون وتشيرون . ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أى : مَنوْا إليها بعَدَدهم وعددهم وقوتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أى : نحن ليس لنا عاقة [ولا بنا بأس ، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه ، فما لنا عاقة] (٣) عنه . وبعد هذا فالأمر (٤) إليك ، مرى فينا برأيك (٥) نمتثله ونطيعه .

قال الحسن البصرى ، رحمه اللّه : فوضوا أمرهم إلى علْجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه (٦) لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سُخّر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهَدَت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعا ، فقالت لهم : إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلىّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت :﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾.

---

(١) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٢/ ١٨٧) من طريق الحسين بن حفص عن أبى يوسف به .

(٢) فى ف : « قال » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « وبعدها فالأمر » .

(٥) فى ف : « رأيك » . (٦) فى ف : « وأنها » .

www.besturdubooks.wordpress.com

قال ابن عباس : أى إذا دخلوا بلداً (١) عُنْوَة أفسدوه ، أى : خرّبوه ، ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أى : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر .

قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (٢) ﴾ ، قال الرب ،عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة ، فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى : سأبعث إليه بهدية تليق به (٣) وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا ، أو يضرب علينا خَرَاجا نحمله إليه فى كل عام ، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة : رحمها اللّه ورضى عنها، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس .

وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين ، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت إليه بلَبِنَة من ذهب . والصحيح أنها أرسلت [إليه] (٤) بآنية من ذهب .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما : وأرسلت جوارى فى زى الغلمان ، وغلمان فى زى الجوارى ، وقالت : إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبى . قالوا : فأمرهم [سليمان] (٥) ، عليه السلام ، أن يتوضؤوا ، فجعلت الجارية تُفرغ على يدها من الماء ، وجعل الغلام يغترف ، فميزهم بذلك .

وقيل : بل جعلت الجارية تغسل باطن (٦) يدها قبل ظاهرها ، والغلام بالعكس .

وقيل : بل جعلت الجوارى يغتسلن (٧) من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى أكفهم . ولا منافاة بين ذلك كله ، واللّه أعلم .

وذكر بعضهم : أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء ، لا من السماء ولا من الأرض ، فأجرى الخيل حتى عرقت ، ثم ملأه من ذلك . وبخرزة وسلك ليجعله فيها ، ففعل ذلك . واللّه أعلم أكان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات . والظاهر أن سليمان ، عليه السلام ، لم ينظر إلى ما

---

(١) فى أ : « بلدة » . (٢) فى ف ، أ : « أذلة وكذلك يفعلون » . (٣) فى ف : « بمثله » .
(٤ ، ٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « بطن » . (٧) فى ف : « يغسلن » .

www.besturdubooks.wordpress.com

جاؤوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أى: أتصانعوننى بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟! ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ أى : الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أى : أنتم الذين (١) تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

قال الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة . فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا . وفى هذا دلالة على جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد .

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أى : بهديتهم ، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أى : لا طاقة لهم بقتالهم ، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ أى : من بلدهم ، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى : مهانون مدحورون.

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها ، وبما قال سليمان ، سمعت وأطاعت هى وقومها ، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، ناوية متابعته فى الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام ، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح(٢) بذلك وسَرّه .

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ .

قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومَان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد ـ والله ـ عرفتُ ، ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكاثرته (٣) شيئاً . وبعثت إليه: إنى قادمة عليك بملوك قومى ، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه ـ وكان من ذهب مفُصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ـ فجعل فى سبعة أبيات ، بعضها فى بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خَلَفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك ، وسرير ملكى ، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يَرَيَنَّه أحد حتى آتيك . ثم شَخَصَت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن ، تحت يدى كل قَيْل منهم ألوف كثيرة . فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دَنت جمع من عنده من الجن والإنس ، ممن تحت يديه ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، وكان من ذهب ،

(١) فى أ : « الذى » . (٢) فى ف : « ففرح » .
(٣) فى هـ : « بمكابرته »، والمثبت من ف ، أ ، والطبرى (١٩/ ١٠٠) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستراً بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق [١] ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبى اللّه أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ .

وهكذا قال عطاء الخراسانى ، والسُّدِّى ، وزُهير بن محمد : ﴿ **قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ فتحرم على أموالهم بإسلامهم .

﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ** ﴾ : قال مجاهد : أى مارد من الجن .

قال شُعَيب الجبائى : وكان اسمه كوزن . وكذا قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان . وكذا قال أيضا وهب بن منبه .

قال أبو صالح : وكان كأنه جبل .

﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدى ، وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام [٢] من أول النهار إلى أن تَزول الشمس .

﴿ **وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** ﴾ : قال ابن عباس : أى قوى على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر .

فقال سليمان ، عليه السلام : أريد أعجل من ذلك . ومن ههنا يظهر أن النبى سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه اللّه له من الملك ، وسَخَّر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يَقْدموا عليه . هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ، ﴿ **قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ ـ قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان . وكذا رَوَى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : أنه آصف بن برخياء ، وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم .

وقال قتادة : كان مؤمناً من الإنس ، واسمه آصف . وكذا قال أبو صالح ، والضحاك ، وقتادة : إنه كان من الإنس ـ زاد قتادة : من بنى إسرائيل .

وقال مجاهد : كان اسمه أسطوم .

وقال قتادة ـ فى رواية عنه ـ : كان اسمه بليخا .

وقال زهير بن محمد : هو رجل من الأندلس [٣] يقال له : ذو النور .

وزعم عبد اللّه بن لَهِيعة : أنه الخضر . وهو غريب جداً .

وقوله : ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ أى : ارفع بصرك وانظر مُدّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك .

---

(١) فى ف : « معاليق » . (٢) فى ف ، أ : « والطعام » . (٣) فى أ : « الإنس » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال وهب بن منبه : امدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به .

فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ، ودعا اللّه عز وجل .

قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والإكرام . وقال الزهرى : قال : يا إلهنا وإله كل شىء ، إلهاً واحداً ، لا إله إلا أنت ، ائتنى بعرشها . قال : فتمثل له بين يديه .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن إسحاق ، وزهير بن محمد ، وغيرهم : لما دعا اللّه، عز وجل ، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ـ وكان فى اليمن ، وسليمان ، عليه السلام ، ببيت المقدس ـ غاب السرير ، وغاص فى الأرض ، ثم نبع من بين يدى سليمان ، عليه السلام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه . قال : وكان هذا الذى جاء به من عُبَّاد البحر ، فلما عاين سليمان وملَؤه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ، ﴿ **قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي** ﴾ أى : هذا من نعم اللّه على ، ﴿ **لِيَبْلُوَنِي** ﴾ أى : ليختبرنى، ﴿ **أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** ﴾، كقوله : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وكقوله : ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** ﴾ [الروم : ٤٤].

وقوله : ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ أى : هو غنى عن العباد وعبادتهم ، ﴿ **كَرِيمٌ** ﴾ أى : كريم فى نفسه ، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة [١] إلى أحد ، وهذا كما قال موسى: ﴿ **إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ [إبراهيم : ٨] .

وفى صحيح مسلم : « يقول اللّه تعالى : يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم [ثم أوفيكم إياها] [٢] فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » [٣] .

﴿ **قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ** ﴾

---

(١) فى أ : « تفتقر » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه.

www.besturdubooks.wordpress.com

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ .

لما جيء سليمان ، عليه السلام ، بعرش بلقيس قبل قدومها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به ، فقال : ﴿ **نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ** ﴾ .

قال ابن عباس : نزع عنه فصوصه ومرافقه .

وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر : وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله .

وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا .

[وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا] (١) .

﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ** ﴾ أى : عرض عليها عرشها ، وقد غير ونُكِّر ، وزيد فيه ونقص منه ، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره ، لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غير وبدل ونكر ، فقالت : ﴿ **كَأَنَّهُ هُوَ** ﴾ أى : يشبهه ويقاربه . وهذا غاية فى الذكاء والحزم .

وقوله : ﴿ **وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ** ﴾ : قال مجاهد : سليمان يقوله .

وقوله : ﴿ **وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ** ﴾ : هذا من تمام كلام سليمان، عليه السلام ـ فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ، رحمهما اللّه ـ أى : قال سليمان : ﴿ **وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ** ﴾ ، وهى كانت قد صدها ، أى : منعها من عبادة اللّه وحده. ﴿ **مَا(٢) كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ** ﴾ . وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ (٣) ، وقاله ابن جرير أيضا .

ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون فى قوله : ﴿ **وَصَدَّهَا** ﴾ ضمير يعود إلى سليمان ، أو إلى اللّه ،عز وجل ،تقديره : ومنعها ،﴿ **مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أى :صدها عن عبادة غير اللّه ﴿ **إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ** ﴾ .

قلت : ويؤيد قول مجاهد : أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى .

وقوله : ﴿ **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا** ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ،أمر الشياطين فبنوا له قصراً عظيما من قوارير، أى : من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه . واختلفوا فى السبب الذى دعا

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « بل » وهو خطأ . (٣) فى أ : « سعيد بن جبير أيضا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

سليمان ، عليه السلام ، إلى[1] اتخاذه ، فقيل : إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها ، ولكن فى ساقيها هُلْبٌ[2] عظيم ، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فساءه ذلك ، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟ ـ هذا قول محمد بن كعب القُرَظى ، وغيره ـ فلما دخلت وكشفت عن ساقيها ، رأى أحسن الناس وأحسنه قدماً ، ولكن رأى على رجليها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل [3] ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : الموسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ، وقال [4] للجن : اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النُورَةَ . وكان أول من اتخذت له النّورَة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والسدى ، وابن جُرَيْج ، وغيرهم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان : ثم قال لها : ادخلى الصرح ، ليريها مُلْكاً هو أعزّ من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، فقيل لها : إنه صرح مُمَرّد من قوارير . فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة اللّه وعاتبها فى عبادتها الشمس [5] من دون اللّه .

وقال الحسن البصرى : لما رأت العلْجَةُ الصرح عرفت ـ واللّه ـ أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها.

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج ، كأنه الماء بياضا . ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال : ادخلى الصرح ، ليريها ملكا هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، ﴿**فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا**﴾ ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : ﴿**إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِير**﴾ ، فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة اللّه،عز وجل ، وعاتبها فى عبادتها الشمس من دون اللّه . فقالت بقول الزنادقة ، فوقع سليمان ساجداً إعظاما لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط فى يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع ، فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ! ماذا قلت ؟ ـ قال : [6] وأنسيت ما قالت [7] ـ فقالت : ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين**﴾ ، فأسلمت وحسن إسلامها .

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبى شيبة فى هذا أثراً غريبا عن ابن عباس ، قال : [8] حدثنا الحسين ابن على ، عن زائدة ، حدثنى عطاء بن السائب ، حدثنا مجاهد ـ ونحن فى الأزد ـ قال : حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان ، عليه السلام ، يجلس على سريره ، ثم تُوضَعُ كراسى حوله ، فيجلس عليها الإنس ، ثم يجلس [9] الجن ، ثم الشياطين ، ثم تأتى الريح فترفعهم ، ثم تظلهم الطير، ثم

(١) فى ف : « فى » . (٢) فى أ : « هلف » (٣) فى ف ، أ : « زوج » .
(٤) فى ف : « وقال سليمان » . (٥) فى ف ، أ : « الشيطان » . (٦) فى ف : « قالت » .
(٧) فى ف : « ما قلت ». (٨) فى ف : « فقال » . (٩) فى ف : « تجلس » .

www.besturdubooks.wordpress.com

يغدون قدر ما يشتهى الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً ، قال : فبينما هو ذات يوم في مسير له ، إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال (١) : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾، قال : فكان عذابه إياه أن ينتفه ، ثم يلقيه فى الأرض ، فلا يمتنع من نملة ولا من شىء من هوام الأرض .

قال عطاء : وذكر سعيد بن جُبَير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ـ فقرأ حتى انتهى إلى قوله ـ : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا ﴾ وكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، إلى بلقيس : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ، فلما ألقى الهدهد بالكتاب (٢) إليها ، ألقى فى رُوعها: إنه كتاب كريم ، وإنه من سليمان ، وأن لا تعلوا على وائتونى مسلمين . قالوا : نحن أولو قوة . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وإنى مرسلة إليهم بهدية . فلما جاءت الهدية سليمان قال : أتمدوننى بمال ، ارجع إليهم . فلما نظر إلى الغبار ـ أخبرنا ابن عباس قال: وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء: ومجاهد حينئذ فى الأزد ـ قال سليمان : أيكم يأتينى بعرشها ؟ قال : وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ـ قال : وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس ، كما يجلس الأمراء ثم يقوم ـ قال (٣) : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ، قال سليمان : أريد أعجل من ذلك . فقال الذى عنده علم من الكتاب : أنا أنظر فى كتاب ربى ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . قال : [فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره] (٤) ، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان ، من تحت كرسى كان سليمان يضع عليه رجله ، ثم يصعد إلى السرير . قال : فلما رأى سليمان عرشها [مستقرًا عنده] (٥) قال: ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ ، ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾، فلما جاءت قيل لها : أهكذا عرشك ؟ قالت: كأنه هو . قال: فسألته عن أمرين، قالت لسليمان : أريد ماء [من زبد رواء] (٦) ليس من أرض ولا من سماء ـ وكان سليمان إذا سئل عن شىء ،سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين . [قال] (٧) فقالت الشياطين: هذا هين، أجْرِ الخيلَ ثم خذ عرقها ، ثم املأ منه الآنية . قال : فأمر بالخيل (٨) : فأجريت، ثم أخذ عرقها فملأ منه الآنية . قال : وسألت عن لون اللّه ، عز وجل . قال : فوثب سليمان عن سريره، فخر ساجداً ، فقال : يارب ، لقد سألَتْنى عن أمر إنه يتكايد (٩) ، أى : يتعاظم فى قلبى أن أذكره لك. قال : ارجع فقد كفيتكهم ، قال : فرجع إلى سريره فقال : ما سألت عنه ؟ قالت: ما سألتك إلا عن الماء . فقال لجنوده : ما سألت عنه ؟ فقالوا : ما سألتك إلا عن الماء . قال: ونَسوه كلّهم . قال : وقالت الشياطين لسُلَيمان : تُريدُ أن تتخذها لنفسك (١٠) ، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد، لم ننفك من عبوديته . قال : فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير ، فيه السمك . قال : فقيل لها :

(١) فى ف : « قال وتفقد الهدهد قال » . (٢) فى ف ، أ : « هذا الكتاب » . (٣) فى ف ، أ : « فقال » .
(٤ ،٥) زيادة من ف ،أ . (٦ ، ٧) زيادة من ف . (٨) فى ف : « أمر الخيل » . (٩) فى ف ، أ : « ليتكابر » .
(١٠) فى ف ، أ : « يريد أن يتخذها لنفسه » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ادخلى الصرح. فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، فإذا هى شَعْرَاء . فقال سليمان : هذا قبيح ، ما يذهبه ؟ فقالوا : تذهبه (١) المواسى . فقال : أثر الموسى (٢) قبيح ! قال : فجعلت الشياطين النورَة. قال : فهو أول من جُعلت له النورة .

ثم قال أبو بكر بن أبى شيبة : ما أحسنه من حديث .

قلت : بل هو منكر غريب جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم. والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما يوجد فى صحفهم ، كروايات كعب ووهب ـ سامحهما الله تعالى ـ فيما نقلا إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد(٣) والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله ، سبحانه، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

أصل الصرح فى كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله ، سبحانه وتعالى ، إخباراً عن فرعون ـ لعنه الله ـ أنه قال لوزيره هامان : ﴿ **ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ** ﴾ الآية [غافر : ٣٦ ، ٣٧] . والصرح: قصر فى اليمن عالى البناء ، والممرد أى : المبنى بناء محكما أملس﴿ **مِّن قَوَارِيرَ** ﴾ أى: زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة ؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره انقادت لأمر الله (٤) وعرَفت أنه نبى كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** ﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس (٥) من دون الله، ﴿ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى : متابعة لدين سليمان فى عبادته لله (٦) وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ **فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ ـ قال مجاهد: مؤمن وكافر ـ كقوله تعالى: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٧٥ ، ٧٦].

---

(١) فى ف ، أ: « يذهبه » . (٢) فى أ : « المواسى » . (٣) فى أ : « النوادر » .
(٤) فى أ : « لأوامر الله » . (٥) فى ف : « للشمس » .
(٦) فى ف : « فى عبادة الله » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ ،أي : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : ﴿ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أي : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرًا . وذلك أنهم ـ لشقائهم ـ كان لا يصيب أحداً منهم سوءٌ إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه .

قال مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] أي : بقضاء الله وقدره [(١)] . وقال مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس: ١٨ ، ١٩] . وقال هؤلاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أي : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾.

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم ، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضاً ، بأن يبيتوه فى أهله ليلا فيقتلوه غيْلَة ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه : إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به ، من أنهم لم يشاهدوا ذلك ،فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أي : مدينة ثمود، ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي : تسعة نفر ،﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم.

قال العَوْفى ، عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى : الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم ـ قبحهم الله ولعنهم ـ وقد فعل ذلك .

وقال السُّدِّى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دعمى ، ودعيم ،

---

(١) فى ف ، أ : « بقدر الله وقضائه » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهرما ، وهريم ، وداب ، وصواب ، ورياب ، ومسطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة ، أى : الذى باشر ذلك بيده . قال الله تعالى : ﴿ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ** ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ **إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾ [الشمس : ١٢] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعانى ، سمعت عطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ يقول : ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم[1] ، يعنى : أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً ، كما كان العرب يتعاملون .

وقال الإمام مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : قَطْع الذهب والورق من الفساد فى الأرض [2] .

وفى الحديث ـ الذى رواه أبو داود وغيره ـ : أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس [3] .

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة ، كان من صفاتهم الإفساد فى الأرض بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ** ﴾ أى : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبى الله صالح ، عليه السلام ، من لقيه ليلا غيلة. فكادهم الله ، وجعل الدائرة عليهم .

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا [4] على هلاكه ، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

وقال قتادة : توافقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينما هم مَعَانيق إلى صالح ليفتكوا به ، إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم .

وقال العوفى ،عن ابن عباس :هم الذين عقروا الناقة،قالوا حين عقروها : نُبَيِّت صالحا [وأهله][5] وقومه فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم . فدمرهم الله أجمعين .

وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة : هَلُم فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ! فأتوه ليلا ليبيِّتوه فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطؤوا على أصحابهم ، أتوا مَنْزل صالح ، فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون . فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧٠) .

(٢) الموطأ (٢/ ٦٣٥) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٤٤٩) .

(٤) فى ف : « تحالفوا » .

(٥) زيادة من أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : لما عقروا الناقة وقال لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥]، قالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث . وكان لصالح مسجد فى الحِجْر عند شعب هناك يصلى فيه ، فخرجوا إلى كهف، أى : غار هناك ليلا ، فقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه[1]، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ، ففرغنا منهم . فبعث الله صخرة من الهضَب حيالهم ، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا [2] فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار ، فلا يدرى قومهم أين هم . ولا يدرون ما فعل بقومهم . فعذب الله هؤلاء ههنا ، وهؤلاء ههنا ، وأنجى الله صالحاً ومن معه ، ثم قرأ :﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ أى : فارغة ليس فيها أحد ﴿ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) ﴾.

يخبر تعالى عن عبده لوط ، عليه السلام ، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم ، فى فعلهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة ، استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ـ قال[3] : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أى : يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون فى ناديكم المنكر ؟ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أى : لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً ، كما قال فى الآية الأخرى :﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥، ١٦٦] . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أى : يتحرجون [4] من فعل ما تفعلونه ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم فى بلادكم . فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، قال الله تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى : من الهالكين مع قومها ؛ لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم فى رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت [5] تدل قومها على ضيفان لوط ، ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش [6] تكرمة لنبى الله ﷺ [7] لا كرامة لها [8] .

---

(١) فى ف ، أ : « فقلناه » . (٢) فى ف ، أ : « فبادروا » . (٣) فى ف : « فقال » . (٤) فى أ : « يخرجون » .
(٥) فى ف : « وكانت » . (٦) فى أ : « الفاحشة » . (٧) فى ف : « صلوات الله عليه وسلامه » .
(٨) فى أ : « بها » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي : الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على نعَمه على عباده ، من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العُلى والأسماء الحسنى ، وأن يُسَلِّم على عباد اللّه الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، عليهم من اللّه الصلاة والسلام ، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى : هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] .

وقال الثوري ، والسدي : هم أصحاب محمد ﷺ ورضي [الله] (١) عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس .

ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد اللّه الذين اصطفى ، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى ، والقصد أن اللّه تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم (٢) ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع (٣) أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

وقد قال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عمارة بن صَبِيح ، حدثنا طَلْق بن غنام ، حدثنا الحكم ابن ظُهَيْر ، عن السدي ـ إن شاء اللّه ـ عن أبي مالك ، عن ابن عباس : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، اصطفاهم اللّه لنبيه،رضي اللّه عنهم (٤) .

وقوله : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع اللّه آلهة أخرى ، ثم شرع تعالى يبين (٥) أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة ، والأرض باستفالها وكثافتها ، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول ، والفيافي والقفار ، والأشجار والزروع ، والثمار والبحور (٦) ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) في ف : « بعد ذكره لهم » . (٣) في ف : « جميل » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٢٤٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٧) : « وفيه الحكم بن ظهير ، وهو متروك » .

(٥) في ف : « شرع يبين تعالى » . (٦) في ف : « والبحار » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي: جعله رزقاً للعباد، ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ أي: بساتين ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي: منظر حسن وشكل بهي، ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف [١] به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أي: أإله مع الله يعبد. وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون [٢] به أيضاً أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول: معنى قوله: ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [أى: أإله مع الله] [٣] فعل هذا. وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثَمَّ أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به. فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير؟ كما قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧].

وقوله ههنا: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾: ﴿ أَمَّن ﴾ فى هذه الآيات [كلها] [٤] تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن فى قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال: ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي: يجعلون الله عدلا ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩] أي: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿ أَفَمَنْ [٥] هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها.

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾.

---

(١) فى ف: « كما يعرف ». (٢) فى ف، أ: « يعترفون ». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى جميع النسخ: « أمن »، والصواب ما أثبتناه.

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول : ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولاتتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم[1] أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أى : جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة [2] حاجزاً ، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس . والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار : من كل جانب ، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً ، لئلا يفسد الهواء بريحها ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان : ٥٣] ؛ ولهذا قال : ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على [3] القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى : فى عبادتهم غيره .

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾.

ينبه تعالى أنه هو المدعُوّ عند الشدائد ، المرجُوّ عند النوازل ، كما قال :﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل : ٥٣] . وهكذا قال ههنا : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا وُهَيْب ، حدثنا خالد الحَذّاء ، عن أبى تميمة الهُجَيْمى ، عن رجل من بلهجيم قال : قلت : يارسول اللّه ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى اللّه وحده ، الذى إن مَسّك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضْلَلْت بأرض قَفْر فدعوتَه ردّ عليك ، والذى إن أصابتك سَنَة فدعوتَه أنبتَ لك » .قال : قلت : أوصنى . قال : « لاتَسُبَّنَّ أحداً ، ولا تَزْهَدَنّ فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تُفرِغَ من دَلْوك فى إناء المستقى ،

(١) فى أ : « إليهم » . (٢) فى ف ، أ : « والملحة » . (٣) فى ف ، أ : « أو بعد هذا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة، [وإن اللّه ـ تبارك وتعالى ـ لا يحب المخيلة] (١) » (٢) .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابى فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ،حدثنا يونس ـ هو ابن عبيد ـ حدثنا عبيدة الهُجَيمى (٣) ، عن أبى تَميمَةَ الهُجَيمى ، عن جابر ابن سُلَيم الهُجَيمى قال : أتيت رسول اللّه ﷺ وهو مُحتَبِ بشَمْلَة ، وقد وقع هُدْبها على قدميه ، فقلت : أيكم محمد ـ أو : رسول اللّه ؟ ـ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يارسول اللّه ، أنا من أهل البادية ، وفىَّ جفاؤهم ، فأوصنى . فقال : « لا تحقرَنّ من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مُنْبَسِط ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، وإن امرؤ شَتَمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره وعليه وزْرَه . وإياك وإسبال الإزار ،فإن إسبال الإزار من المَخيلَة ، وإن اللّه لا يحب المخيلة ، ولا تَسُبَّنَّ أحداً » . قال : فما سببت بعده أحداً ، ولاشاة ولا بعيراً (٤) .

وقد روى أبو داود والنسائى لهذا الحديث طرقا ، وعندهما طرف صالح منه (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم (٦) ، حدثنا عبدَةَ بن نوح ، عن عمر بن الحجاج ، عن عبيد اللّه بن أبى صالح قال : دخل علىَّ طاوس يعودنى ، فقلت (٧) له : ادع اللّه لى يا أبا عبد الرحمن .فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال وهب بن منبه : قرأت فى الكتاب الأول : إن اللّه يقول : بعزتى إنه من اعتصم بى فإن كادته السموات ومن (٨) فيهن ، والأرض بمن فيها ، فإنى (٩) أجعل له من بين ذلك مخرجاً . ومن لم يعتصم بى فإنى (١٠) أخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ، فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل ـ حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدِّينَوَرى ، المعروف بالدّقّىِّ الصوفى ـ قال هذا الرجل (١١) : كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزّبَدَانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق ، على طريق غير مسلوكة ، فقال لى : خذ فى هذه، فإنها أقرب . فقلت : لا خبرَة لى فيها ، فقال : بل هى أقرب . فسلكناها فانتهينا إلى مكان وَعْر وواد عميق ، وفيه قتلى كثير ، فقال لى : أمسك رأس البغل حتى أنزل . فنزل وتشمر ، وجمع عليه ثيابه، وسل سكينا معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه وتبعنى ، فناشدته اللّه وقلت : خذ البغل بما عليه . فقال : هو لى ، وإنما أريد قتلك . فخوفته اللّه والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه وقلت : إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين ؟ فقال : [صل] (١٢) وعجل. فقمت أصلى فَأرْتِج

(١) زيادة من ف ، أ ،والمسند .
(٢) المسند (٥/٦٤) .
(٣) فى هـ ، ف ، أ : « الهجيمى عن أبيه » .
(٤) المسند (٥/٦٣) .
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٠٨٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٤٩ ــ ١٠٥٢) .
(٦) فى أ : « هشام » . (٧) فى ف ، أ : « قال » . (٨) فى ف : « بمن » . (٩) فى ف : « أن » ، وفى أ : « أى » .
(١٠) فى ف : « فإنه » . (١١) فى ف : « بالرجل » . (١٢) زيادة من ف .

www.besturdubooks.wordpress.com

عليَّ القرآن فلم يَحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول : هيه. افرُغ . فأجرى الله على لسانى قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى ، وبيده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعًا ، فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول [الله] (١) الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء. قال : فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما .

وذكر فى ترجمة « فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية » ، قالت : هزم الكفار يوما المسلمين فى غزاة ، فوقف جَوَاد جيّد بصاحبه ، وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء ، فقال للجواد : مالك ؟ ويلك . إنما كنت أعدّك لمثل هذا اليوم . فقال له الجواد : ومالى لا أقصّر وأنت تَكلُ علوفتى إلى السّواس فيظلموننى ولا يطعموننى (٢) إلا القليل ؟ فقال : لك علىَّ عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حِجْرى . فجرى الجواد عند ذلك ، ونجّى صاحبه ، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حِجره . واشتهر أمره بين الناس ، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك ، وبلغ ملك الروم أمرُه ، فقال : ما تُضَام (٣) بلدة يكون هذا الرجل فيها . واحتال ليحصّله فى بلده ، فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده ، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نيته فى الإسلام وقومه ، حتى استوثق ، ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل ، وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره، فلما اكتنفاه ليأخذاه رَفَع طرفه إلى السماء وقال : اللهم ، إنه إنما خدَعنى بك فاكفنيهما بما شئت، قال : فخرج سبعان إليهما فأخذاهما ، ورجع الرجل سالما (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ أى : يُخْلِفُ قَرنا لقرن قبلهم وخَلَفاً لسلف ،كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠]، أى قوماً يخلف بعضهم بعضا كما قدمنا تقريره . وهكذا هذه الآية : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ أى : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم . ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم (٥) كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضَهم من ذرية بعض (٦) ، ولكن لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض (٧) ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذرأهم فى الأرض ، ويجعلهم قرونا بعد قرون ، وأمما بعد أمم ، حتى ينقضى الأجل وتفرغ البَرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعَدّهم عَدًا ، ثم يقيم (٨) القيامة ، ويُوفى كلّ عامل عمله إذا بلغ الكتاب

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف ، أ : « فيظلمونى ولا يطعمونى »
(٣) فى ف ، أ : « ما نظام » .
(٤) تاريخ دمشق (١٩/ ٤٨٩ « المخطوط ») .
(٥) فى أ : « لجعلهم » .
(٦) فى ف ،أ : « من ذرية بعضهم بعضا » .
(٧) فى ف : « تضيق الأرض عليهم » .
(٨) فى ف : « يوم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يُعْبَد ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿ قَلِيلاً مَّا يَذَّكَّرُونَ(١) ﴾ أي : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ .

يقول : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦]،وقال تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ الآية [الأنعام : ٩٧] .

﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : بين يدى السحاب الذى فيه مطر ، يغيث به عباده الْمُجْدِبِيْنَ الأزلين القنطين ، ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ .

أي : هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ (٢) الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى:﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٢ ، ١٣] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : بما ينزل من مطر السماء ،وينبت من بركات الأرض،كما قال :﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق : ١١ ، ١٢] ، وقال :﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [الحديد : ٤] ،فهو ،تبارك وتعالى، ينزل من السماء مباركاً فيسكنه في الأرض ، ثم يخرج به [منها] (٣) أنواع الزروع والثمار والأزاهير ، وغير ذلك من ألوان شتى ، ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴾ [طه : ٥٤] ؛ ولهذا قال:﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أي: فعل هذا . وعلى القول الآخر : يعبد ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه (٤) من عبادة آلهة أخرى ، ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال [الله] (٥) : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ

---

(١) فى ف ، أ : « ماتذكرون » . (٢) فى ف ، أ : « بدأ » . (٣) زيادة من ف .
(٤) فى أ : « من يدعونه » . (٥) زيادة من أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لايَعْلَم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿**إِلاَّ اللَّهُ**﴾ استثناء منقطع ،أى: لا يعلم أحد ذلك إلا اللّه ، عز وجل ،فإنه المنفرد بذلك وحده ،لا شريك لـه ،كما قـال: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]،وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان : ٣٤] ، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله : ﴿**وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾ أى : وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال : ﴿**ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً** ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ،حدثنا على بن الجَعْد ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : من زعم أنه يعلم ـ يعنى لنبى ﷺ ـ ما يكون فى غد فقد أعظم على اللّه الفرْية ؛ لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ **لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [(١)] .

وقال قتادة : إنما جعل اللّه هذه النجوم لثلاث خصلات [(٢)] : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً [للشياطين][(٣)] ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . وإن ناساً جَهَلَة بأمر اللّه ، قد [(٤)] أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعْرَس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم ، وما علْمُ هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشىء من الغيب! وقضى اللّه: أنه لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا اللّه ، وما يشعرون أيان يبعثون .

رواه ابن أبى حاتم عنه بحروفه ، وهو كلام جليل متين صحيح ، وقوله : ﴿ **بَلِ ادَّارَكَ**[(٥)] **عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا**﴾ أى : انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها .

وقرأ آخرون : « بل أدرك [(٦)] علمهم » أى: تساوى علمهم فى ذلك ،كما فى الصحيح لمسلم: أن رسول اللّه ﷺ قال لجبريل ـ وقد سأله عن وقت الساعة ـ: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل [(٧)] ، أى: تساوى فى العجز عن دَرْك ذلك علم المسؤول والسائل .

---

(١) أصله فى الصحيحين لكن فيهما الشاهد قوله تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ بدل هذه الآية : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ ﴾ .
(٢) فى ف ، أ : « خصال » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « فقد » .
(٥) فى أ : « أدرك » . (٦) فى أ : « ادارك » .
(٧) صحيح مسلم برقم (٨) .

www.besturdubooks.wordpress.com

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ أى : غاب .

وقال قتادة : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ (١) عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ يعنى : يُجهِّلُهم(٢) ربهم ، يقول : لم ينفذ (٣) لهم إلى الآخرة علم ، هذا قول .

وقال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : « بل أدرك علمهم فى الآخرة » ، حين لم ينفع العلم ، وبه قال عطاء الخراسانى ، والسدّى : أن علمهم إنما يُدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم : ٣٨] .

وقال سفيان ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن أنه كان يقرأ : « بل أدرك علمهم » ، قال : اضمحل علمهم فى الدنيا ، حين عاينوا الآخرة .

وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨] أى : الكافرون منكم (٤) . وهكذا قال ههنا : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أى : شاكون فى وجودها ووقوعها ، ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أى: فى عمَاية وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً .

وقولهم: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ : يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، ﴿ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أى : أخذه (٥) قوم عمن قبلهم ، مَنْ قبلهم (٦) يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة . قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد : ﴿ قُلْ ﴾ ـ يامحمد ـ لهؤلاء : ﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : المكذبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقمُ الله وعذابه ونكاله ، ونجى الله من بينهم رسلَه الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ، ﴿ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى :

(١) فى أ : « ادرك » . (٢) فى أ : « بجهلهم » . (٣) فى ف : « يتقدم » . (٤) فى ف ، أ : « منهم » .
(٥) فى ف : « يأخذه » ، وفى أ : « أخذ » . (٦) فى أ : « كتبهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

فى كيدك وردّ ما جئت به ، فإن اللّه مؤيدك وناصرك ، ومظهرٌ دينَك على من خالفه وعانده فى المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ،فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ قال اللّه مجيباً لهم : ﴿ **قُلْ** ﴾ يامحمد ﴿ **عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ** ﴾. [قال ابن عباس أن يكون قرب ـ أو : أن يقرب ـ لكم بعض الذى تستعجلون][1]. وهكذا [2] قال مجاهد ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ،والسدى .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا** ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٥٤] .

وإنما دخلت « اللام » فى قوله : ﴿ **رَدِفَ لَكُم** ﴾ ؛ لأنه ضُمن معنى « عَجِل لكم » ، كما قال مجاهد فى رواية عنه : ﴿ **عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم** ﴾: عجل لكم .

ثم قال اللّه تعالى : ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ** ﴾ أى : فى إسباغه نعمَه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ، ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ، ﴿ **سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ** ﴾ [الرعد: ١٠] ، ﴿ **يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ **أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ [هود : ٥] .

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ـ وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه ـ فقال: ﴿ **وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾ قال ابن عباس: يعنى: وما من شىء، ﴿ **فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف : « وعنده » .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان (١) : أنه يقص على بنى إسرائيل ـ وهم حملة التوارة والإنجيل ـ ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غَلَوا ، فجاء [إليهم] (٢) القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد اللّه وأنبيائه ورسله الكرام ،عليه [أفضل] (٣) الصلاة والسلام ،كما قال تعالى :﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : ٣٤] .

وقوله :﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : هدى لقلوب المؤمنين ، ورحمة لهم فى العمليات .

ثم قال :﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أى :يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه ،﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى أمورك ، وبَلِّغ رسالة ربك ، ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ، ممن كتبت (٤) عليه الشقاوة وحَقَّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أى : لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وَقْر الكفر ؛ ولهذا قال : ﴿ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [أى] (٥) :إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل ،عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾.

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتَرْكِهم أوامر اللّه وتبديلهم الدين الحق ، يخرج اللّه لهم دابة من الأرض ـ قيل : من مكة . وقيل : من غيرها . كما سيأتى تفصيله ـ فَتُكَلِّم الناس على ذلك .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ـ ورُوِى عن على ، رضى اللّه عنه ـ : تكلمهم كلاما أى: تخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فنقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ويروى هذا عن على ، واختاره ابن جرير . وفى هذا [القول] (٦) نظر لا يخفى ، واللّه أعلم .

---

(١) فى ف : « والبيان » . (٢ ، ٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « كتب » . (٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال ابن عباس ـ فى رواية ـ : تجرحهم . وعنه رواية ، قال : كلاً [١] تفعل يعنى هذا وهذا، وهو قولٌ حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، فلنذكر ما تيسر منها ، والله المستعان :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن فُرَات ، عن أبى الطفيل ، عن حُذَيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تَرَوا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قَعر عدن تسوق ـ أو : تحشر ـ الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » [٢] .

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، من طرق ، عن فُرَات القزاز ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، عن حُذَيفة موقوفا [٣] . وقال الترمذى : حسن صحيح [٤] . ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز ابن رُفَيْع ، عن أبى الطفيل ، عنه مرفوعاً [٥] [٦] . والله أعلم .

طريق أخرى : قال أبو داود الطيالسى ، عن طلحة بن عمرو ، وجرير بن حازم ، فأما طلحة فقال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن عمَير الليثى : أن أبا الطفيل حدثه ، عن حذَيفة بن أسيد الغفارى أبى سَرِيحَةَ ، وأما جرير فقال : عـن عبد الله بن عبُيد ، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود ـ وحديث طلحة أتم وأحسن ـ قال : ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الدابة فقال : «لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خَرجة من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعنى : مكة ـ ثم تكمن زماناً طويلا ، ثم تخرج خَرْجة أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها فى أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية» يعنى : مكة . قال رسول الله ﷺ : « ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يَرُعْهم إلا وهى تَرْغو [٧] بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب . فارفض الناس عنها شتَّى ومعاً ، وبقيت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجلَت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّى ، وولت فى الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان ، الآن تصلى ؟

---

(١) فى ف : « كل » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٤/٦) ولكن باختلاف فى الألفاظ ، وهذا اللفظ هو سياق حديث ابن مهدى عن سفيان وهو فى المسند (٤/٧) .

(٣) فى ف ، أ : « به مرفوعا » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) وسنن أبو داود برقم (٤٣١١) وسنن الترمذى برقم (٢١٨٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٠٤١) .

(٥) فى ف ، أ : «موقوفا » .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) .

(٧) فى أ : « تربو » .

www.besturdubooks.wordpress.com

فيقبل عليها فَتَسِمُه (١) فى وجهه ، ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ، ويصطحبون فى الأمصار ، يعرف المؤمن مَن الكافر ، حتى إن المؤمن ليقول : يا كافر ، اقضنى حقى . وحتى إن الكافر ليقول : يا مؤمن ، اقضنى حقى» (٢) .

ورواه ابن جرير من طريقين ، عن حذيفة بن أُسَيْد موقوفاً (٣) . فاللّه أعلم . ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وأن ذلك فى زمان عيسى ابن مريم ، وهو يطوف بالبيت ، ولكن إسناده لا يصح (٤) .

حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا محمد بن بشر ، عن أبى حَيَّان ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن عبد اللّه بن عمرو قال : حَفظْتُ من رسول اللّه ﷺ حديثاً لم أنسه(٥) بعد : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضُحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى (٦) على أثرها قريباً»(٧) .

حديث آخر : روى مسلم فى صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب ـ مولى الحُرَقَة ـ عـن أبيه : عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستا (٨) : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة » (٩) . وله من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن زياد بن رباح ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال :« بادروا بالأعمال ستا : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخُويصة أحدكم » (١٠) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا حَرْمَلَة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عَمْرُو بن الحارث وابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سِنَان بن سعد ، عن أنس بن مالك ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ،وخُوَيصَّة أحدكم ، وأمر العامة » . تفرد به (١١) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسى أيضاً : حدثنا حماد بن سلمة ،عن على بن زيد ،عن أوس(١٢) بن خالد ،عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول ﷺ : « تخرج دابة الأرض ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، عليهما السلام ، فتخطم أنف الكافر بالعصا ، وتُجلى وجه المؤمن

(١) فى أ : « فتشمه » .
(٢) مسند الطيالسى برقم (١٠٦٩) .
(٣) تفسير الطبرى (٢٠/ ١٠) .
(٤) تفسير الطبرى (٢٠/ ١١) .
(٥) فى ف : « لم أنساه » . (٦) فى ف : « والأخرى » .
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٤١) .
(٨) فى ف ، أ : « ستة » .
(٩، ١٠) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٧) .
(١١) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٥٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٥٦) :« هذا إسناد حسن ،سنان بن سعد مختلف فيه وفى اسمه » .
(١٢) فى هـ ، ف ، أ : « أويس » والمثبت من المسند .

www.besturdubooks.wordpress.com

بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » .

ورواه الإمام أحمد ، عن بَهْز وعفان ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة ، به (١) . وقال : « فتخطم أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا ، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ،ويقول هذا : يا كافر » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يونس بن محمد المؤدب ، عن حماد بن سلمة، به (٢) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ، حدثنا أبو تُمَيْلَة ، حدثنا خالد ابن عُبَيْد ، حدثنا عبد اللّه بن بُرَيدة ، عن أبيه قال : ذهب بى رسول اللّه ﷺ إلى موضع بالبادية ، قريب من مكة ، فإذا أرض يابسة حولها رمل ، فقال رسول اللّه ﷺ : « تخرج الدابة من هذا الموضع. فإذا فِتْر فى شبر » .

قال ابن بُرَيدة : فحججت بعد ذلك بسنين ، فأرانا عصاً له ، فإذا هو بعَصاى هذه (٣) ، كذا وكذا(٤) .

وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن قتادة ؛ أن ابن عباس قال : هى دابةٌ ذات زَغَب ، لها أربع قوائم ، تخرج من بعض أودية تهامة (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد اللّه بن رَجَاء ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية قال : قال عبد اللّه : تخرج الدابة من صدِعْ من الصفا كجَرْى الفرس ثلاثة أيام ، لم يخرج ثلثها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن أبَان بن صالح قال : سئل عبد اللّه بن عمرو عن الدابة ، فقال : الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد ، واللّه لو كنت معهم ـ أو لو شئت بعصاى الصخرة التى تخرج الدابة من تحتها . قيل : فتصنعُ ماذا يا عبد اللّه بن عمرو ؟ قال : تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفُذُه، ثم تستقبل الشام فتصرخ (٦) صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تروح من مكة فتصبح (٧) بعسفان . قيل : ثم ماذا ؟ قال : لا أعلم .

وعن عبد اللّه بن عمر ، أنه قال : تخرج الدابة ليلة جَمْع (٨) . ورواه ابن أبى حاتم . وفى

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٥٦٤) والمسند (٢/ ٢٩٥) من حديث عفان ويزيد ، و(٢/ ٢٩١) من حديث بهز .
(٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٦٦) .
(٣) فى ف ، أ : « هذا » .
(٤) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٦٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٥٩) : « هذا إسناد ضعيف » .
(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧١) .
(٦) فى أ : « ثم تصرخ » . (٧) فى أ : « فتضع » .
(٨) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٥/ ١٨٠) من طريق عبد الملك بن المغيرة ،عن ابن البيلمان ، عن ابن عمر قال : « تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى فتحملهم بين عجزها وذنبها فلا يبقى منافق إلا خطمته ، قال : وتمسح المؤمن ، قال : فيصبحون وهم أشر من الدجال ».

www.besturdubooks.wordpress.com

إسناده ابن البيلمان (١) .

وعن وهب بن منبه : أنه حكى من كلام عُزَير ، عليه السلام ، أنه قال : وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها ، وتضع الحبالى قبل التمام ، ويعود الماء العذب أجاجاً ، ويتعادى الأخلاء ، وتُحرَقُ الحكمة ، ويُرفَعُ العلم ، وتكلم الأرض التى تليها . وفى ذلك الزمان يرجو الناس مالا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون . رواه ابن أبى حاتم، عنه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنى معاوية بن صالح ، عن أبى مريم : أنه سمع أبا هريرة ، رضى الله عنه ، يقول : إن الدابة فيها من كل لون ، ما بين قرنيها فرسخ (٢) للراكب .

وقال ابن عباس : هى مثل الحربة الضخمة .

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر ، وما لها ذنب ، ولها لحية ، وإنها لتخرج حُضْر الفرس الجواد ثلاثا ، وما خرج ثلثها (٣) . ورواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جُرَيْج ، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيَّل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نَمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا [عشر] (٤) ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ،وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت فى وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتفشو تلك النكتة حتى يبيضّ لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتَت فى وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان ، فتفشوا تلك النكتة حتى يسود لها وجهه ، حتى إن الناس يتبايعون فى الأسواق : بكم ذا يا مؤمن ، بكم ذا يا كافر ؟ وحتى إنّ أهل البيت يجلسون على مائدتهم ، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة : يافلان ، أبشر ، أنت من أهل الجنة ؟ ويافلان ، أنت من أهل النار . فذلك قول الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُون** ﴾(٥) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾.

---

(١) فى ف : « البيلمانى » . (٢) فى أ : « فرح » . (٣) فى ف ، أ : « ثلثاها » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا من الإسرائيليات مما لا فائدة من ذكره ، وأوصاف الدابة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول تعالى مخبرًا عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين (١) بآيات الله ورسله إلى بين يدى الله، عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال : ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا** ﴾ أى : من كل قوم وقرن (٢) فوجاً ، أى : جماعة ، ﴿ **مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا** ﴾، كما قال تعالى : ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** ﴾ [الصافات : ٢٢] ،وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾ [التكوير : ٧] .

وقوله : ﴿ **فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾: قال ابن عباس، رضى الله عنهما : يدفعون . وقال قتادة : وَزَعَةٌ ترد(٣) أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا** ﴾ أى : أوقفوا بين يدى الله ،عز وجل، فى مقام المساءلة ، ﴿ **قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ ؟ أى : ويسألون (٤) عن اعتقادهم ، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة ،وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ **فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ [القيامة: ٣١ ، ٣٢] ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى: ﴿ **هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ . وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [المرسلات : ٣٥ ـ ٣٧] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ **وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ** ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى (٥) عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهًا على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذى لا مَحيد عنه ، فقال : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ أى : فيه ظلام تسكن (٦) بسببه حركاتهم ، وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحون من نَصَب التعب فى نهارهم. ﴿ **وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ أى : منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾.

﴿ **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)** ﴾.

---

(١) فى ف ، أ : « الظالمين مع المكذبين » . (٢) فى ف : « قرن وقوم » . (٣) فى ف ، أ : « يرد » .
(٤) فى ف : « فيسألون » . (٥) فى ف : « لا يخفى » . (٦) فى ف : « يسكن » .

www.besturdubooks.wordpress.com

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفَزَع فى الصُّور ، وهو كما جاء فى الحديث : « قرن ينفخ فيه ». وفى حديث (الصُّور) أن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها، وذلك فى آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض﴿ إلاَّ مَن شَاءَ اللَّه ﴾، وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عبُيد الله (١) بن مُعاذ العنبرى ، حدثنا أبى ، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم : سمعت يعقوب بن عاصم بن عُرْوَه بن مسعود الثقفى ، سمعت عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنه ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تَحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ـ أو : لا إله إلا الله ـ أو كلمة نحوهما ـ لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين ـ [لا أدرى أربعين] (٢) يوماً ، أو أربعين شهرًا ، أو أربعين عاماً ـ فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل فى كَبَد جبل لدخَلَتْه (٣) عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك (٤) دار رزقهم ، حسنٌ عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً [ورفع ليتا] (٥) » . قال : « وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله » . قال : « فَيَصْعَقُ ويَصعقُ الناس ، ثم يرسل الله ـ أو قال : ينزل الله مطرًا كأنه الطَّل ـ أو قال : الظل ـ نعمان الشاك ـ فتنبت (٦) منه أجساد الناس ، ثم ينفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . قال : « فذلك (٧) يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق» (٨) .

وقوله(٩) : « ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا » ، الليت (١٠) : هو صفحة العنق ، أى : أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً .

فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت . ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ؛ ولهذا قال :﴿ وَكُلٌّ آتَوْهُ دَاخِرِين ﴾ ـ قُرِئ بالمد ، وبغيره (١١) على الفعل ، وكلٌ بمعنى واحد ـ و﴿ دَاخِرِين ﴾ أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد

(١) فى أ : « عبد الله » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم . (٣) فى ف ، أ : « لدخلت » .
(٤) فى أ : « وهى فى تلك » . (٥) زيادة من ف ، وصحيح مسلم . وفى أ : « أصغى ليثا ورفع ليثا » .
(٦) فى ف : « فينبت » . (٧) فى أ : « فكذلك » .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٠) .
(٩) فى ف ، أ : « فقوله » . (١٠) فى أ : « إلا أصغى ليثا ورفع ليثا الليث » .
(١١) فى ف : « وغيره » .

www.besturdubooks.wordpress.com

عن أمره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال : ﴿ ثم إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فتوضع فى ثقب (١) فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت (٢) الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظُلمة ، فيقول الله ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح (٣) إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها ، فتدب فيها كما يَدب السم فى اللديغ ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ ـ ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أتقن كلَّ ما خلق ، وأودع فيه (٤) من الحكمة ما أودع ، ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ـ قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا الله ـ وقد بين فى المكان (٥) الآخر (٦) أن له عَشْر أمثالها . ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ، وقال : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وقال: ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] .

وقوله: ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى : من لقى الله مسيئاً لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه (٧) ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، رضى الله عنهم ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النَّخَعى ، وأبو وائل ، وأبو صالح ، ومحمد بن كعب ، وزيد ابن أسلم، والزهرى ، والسُّدِّى ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، فى قوله: ﴿ وَمَن جَاءَ

---

(١) فى أ : « نقب » . (٢) فى أ : « ما نبتت » . (٣) فى ف : « كل ريح » .

(٤) فى ف : « به » . (٥) فى أ : « الموضع » .

(٦) يشير ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى الآية : ١٦٠ من سورة الأنعام ، وهى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ .

(٧) فى أ : « الحسنة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ[(١)] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤] .

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣ ، ٤] .

وقوله : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أى : الذى إنما صارت حراماً قدرًا وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لُقَطَتُه إلا لمن عرفها ، ولا يختلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع [(٢)] ، كما هو مبين فى موضعه من[(٣)] كتاب الأحكام ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ : من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شىء ومليكه ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له .

وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ٥٨] ، وكقوله: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص: ٣] أى : أنا مبلغ ومنذر، ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى : لى سوية الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلَصُوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على الله ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] ، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أى : لله الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة

---

(١) فى هـ : « قال » والمثبت من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) وسنن أبى داود برقم (٢٠١٨) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٠) وسنن النسائى (٥/٢٠٣) والمسند (١/٢٥٩) .

(٣) فى ف : « فى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بل هو شهيد على كل شىء .

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر : حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى، حدثنا سعيد بن أبى سعيد ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول اللّه ﷺ : « يأيها الناس ، لايَغْتَرَّنَّ أحدكم باللّه ؛ فإن اللّه لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة » (١) .

[قال أيضا] (٢) : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا نصر بن على ، قال أبى : أخبرنى خالد بن قيس ، عن مطر ، عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان اللّه مغفلا شيئاً لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد ، رحمه اللّه ، أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره :

إذَا مَا خَلَوتَ الدهرَ يَوماً فَلا تَقُل ... خَلَوتُ وَلكن قُل عَلَيّ رَقيب
وَلا تَحْسَبَن اللّه يَغْفَل سَاعَة ... وَلا أن مَا يَخْفى عَلَيْه يَغيب

(١) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨١٦٧) من طريق أبى أمية بن يعلى به .
(٢) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٧ ــ سورة النمل

(مكية وهى ثلاث وتسعون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ٢٧ النمل

سلمى والذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ويكافحون هجاة قريش وعن كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال له اهجهم فو الذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) تهديد شديد ووعيد أكيد لما في سيعلم من تهويل متعلقه وفى الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم وفى أى منقلب ينقلبون من الإبهام والتهويل وقد قاله أبو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد إليه وقرىء أى منفلت ينفلتون من الانفلات بمعنى النجاة والمعنى أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات . عن النبي ﷺ من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد ﷺ .

﴿ سورة النمل مكية وهى ثلاث أو أربع وتسعون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (طس) بالتفخيم وقرىء بالإمالة والكلام فيه كالذى مر فى نظائره من الفواتح الشريفة ومحله على تقدير كونه اسما للسورة وهو الأظهر الأشهر الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا طس أى مسمى به والإشارة إليه قبل ذكره قد مر وجهها فى فاتحة سورة يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على أن ما بعده خبره ضعيف لما ذكر هناك (تلك) إشارة إلى نفس السورة لأنها التى نوهت بذكر اسمها لا إلى آياتها لعدم ذكرها صريحاً لأن إضافتها إليها تأبى إضافتها إلى القرآن كما سيأتى وما فى اسم الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره (آيات القرآن) والجملة مستأنفة مقررة لما أفاده التسمية من نباهة شأن المسمى والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل عند نزول السورة حسبما ذكر فى فاتحة فاتحة الكتاب أى تلك السورة آيات القرآن المعروف بعلو الشأن أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص (وكتاب) أى كتاب عظيم الشأن (مبين) مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام أو ظاهر الإعجاز على أنه من أبان بمعنى بان ولقد فخم شأنه الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعاً فى بابه ممتازاً عن غيره بالنظم المعجز كما يعرب عنه قوله تعالى قرآناً عربياً غير ذى عوج ووصف الكتابية المعربة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الإلهية فكأنه كلها وقدم الوصف الأول ههنا نظراً إلى تقدم حال القرآنية على

هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٢٧ النمل

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ٢٧ النمل

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ٢٧ النمل

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ٢٧ النمل

حال الكتابية وعكس فى سورة الحجر نظراً إلى ماذكر هناك من الوجه وما قيل من أن الكتاب هو
اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ماهو كائن فهو يبينه للناظرين فيه لا يساعده إضافة الآيات إليه إذ
لاعهد باشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة إذ هما باعتبار إبانته فلابد من اعتبارها بالنسبة
إلى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا إلى الناظرين فيه وقرىء وكتاب بالرفع على حذف المضاف وإقامة
٢ المضاف إليه مقامه أى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) فى حيز النصب على الحالية من
الآيات على أنهما مصدران أقيما مقام الفاعل للمبالغة كأنهما نفس الهدى والبشارة والعامل معنى
الإشارة أى هادية ومبشرة أو الرفع على أنهما بدلان من الآيات أو خبران آخران لتلك أو لمبتدأ
محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنها تزيدهم هدى قال تعالى فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم
يستبشرون وأما معنى تبشيرها إياهم فظاهر لأنها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم
٣ مقيم وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) صفة مادحة لهم وتخصيصهما بالذكر لأنهما
قرينتا الإيمان وقطر العبادات البدنية والمالية مستتبعان لسائر الأعمال الصالحة وقوله تعالى (وهم بالآخرة
هم يوقنون) جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة
حق الإيقان لا من عداهم لأن تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب أو هو من تتمة
الصلة والواو حالية أو عاطفة له على الصلة الأولى وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم
٤ أوحديون فيه (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة) بيان لأحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين أى
لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القرآن
(زينا لهم أعمالهم) القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبىء عنه قوله ﷺ حفت النار
بالشهوات أو الأعمال الحسنة ببيان حسنها فى أنفسها حالا واستتباعها لفنون المنافع مآلا وإضافتها إليهم
باعتبار أمرهم بها وإيجابها عليهم (فهم يعمهون) يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار فى
الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر أو فى الضلال والإعراض عنها
والفاء على الأول لترتيب المسبب على السبب وعلى الثانى لترتيب ضد المسبب على السبب كما فى قولك
٥ وعظته فلم يتعظ وفيه إيذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم فى الأمور (أولئك) إشارة إلى
المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده أى أولئك الموصوفون بالكفر والعمه (الذين لهم سوء

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ٢٧ النمل

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ٢٧ النمل

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ٢٧ النمل

العذاب) أى فى الدنيا كالقتل والأسر يوم بدر (وهم فى الآخرة هم الأخسرون) أى أشد الناس
٦ خسراناً لفوات الثواب واستحقاق العقاب (وإنك لتلقى القرآن) كلام مستأنف قدسيق بعد بيان بعض
شئون القرآن الكريم تمهيداً لما يعقبه من الأقاصيص وتصديره بحرفى التأكيد لإبراز كمال العناية بمضمونه
أى لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين (من لدن حكيم عليم) أى أى حكيم وأى عليم وفى تفخيمهما تفخيم
لشأن القرآن وتنصيص على علو طبقته ﷺ فى معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فإن
من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علماً فى رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما
مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن مافى القرآن من
العلوم منها ماهو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ماليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية وقوله تعالى
٧ (إذ قال موسى لأهله) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى ﷺ وأمر بتلاوة بعض من القرآن
الذى يلقاه ﷺ من لدنه عزوجل تقريراً لما قبله وتحقيقاً له أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام
لأهله فى وادى طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فأصلد زنده فبداله من جانب الطور نار (إنى آنست *
ناراً سآتيكم منها بخبر) أى عن حال الطريق وقد كانوا ضلوه والسين الدلالة على نوع بعد فى المسافة
وتأكيد الوعد والجمع إن صح أنه لم يكن معه عليه الصلاة والسلام إلا امرأته لما كنى عنها بالأهل أو
للتعظيم مبالغة فى التسلية (أو آتيكم بشهاب قبس) بتنوينهما على أن الثانى بدل من الأول أو صفة له *
لأنه بمعنى مقبوس أى بشعلة نار مقبوسة أى مأخوذة من أصلها وقرىء بالإضافة وعلى التقديرين
فالمراد تعيين المقصود الذى هو القبس الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء لأن من النار ماليس بقبس كالجمر
وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك مافى سورة طه من صيغة الترجى
والترديد للإيذان بأنه إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله تعالى فإنه تعالى
٨ لا يكاد يجمع على عبده حرمانين (لعلكم تصطلون) رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة (فلما
جاءها نودى) من جانب الطور (أن بورك) معناه أى بورك على أن أن مفسرة لما فى النداء من معنى
القول أو بأن بورك على أنها مصدرية حذف عنها الجار جرياً على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة
ولاضير فى فقدان التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لما أن الدعاء يخالف غيره فى كثير من الأحكام
(من فى النار ومن حولها) أى من فى مكان النار وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله سبحانه نودى من

يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ٢٧ النمل

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ٢٧ النمل

شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة ومن حول مكانها وقرىء تباركت الأرض ومن حولها والظاهر عمومه لكل من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشأم الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكفاتهم أحياء وأمواتاً ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله تعالى فيها موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم دينى تنتشر بركاته فى أقطار الشأم وهو تكليمه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام واستنباؤه له وإظهار المعجزات على
٨ يده عليه الصلاة والسلام (وسبحان الله رب العالمين) تعجيب لموسى عليه الصلاة والسلام من ذلك وإيذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشئون ومن أحكام
٩ تربيته تعالى للعالمين (ياموسى إنه أنا الله) استئناف مسوق لبيان آثار البركة المذكورة والضمير إما للشأن وأنا الله جملة مفسرة له وإما راجع إلى المتكلم وأنا خبره والله بيان له وقوله تعالى (العزيز الحكيم) صفتان لله تعالى ممهدتان لما أريد إظهاره على يده من المعجزات أى أنا القوى القادر على مالا تناله الأوهام من
١٠ الأمور العظام التى من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رصين (وألق) عطف على بورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى أن بورك وأن ألق (عصاك) حسبما نطق به قوله تعالى وأن ألق عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول كتبت إليه أن حج وأن اعتمر وإن شئت أن حج واعتمر والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما فى قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه بعد قوله تعالى اخرج عليهن كأنه قيل فألقاها فانقلبت حية تسعى فأبصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب قوله تعالى (كأنها جان) أى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية إما من مفعول رأى مثل تهتز كما أشير إليه أو من ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرىء جأن على لغة من جد فى الهرب من التقاء الساكنين (ولى مدبراً) من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل إذا كر بعد الفر وإنما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به كما ينبىء عنه قوله تعالى (يا موسى لا تخف) أى من غيرى ثقة بى أو مطلقاً لقوله تعالى (إنى لا يخاف لدى المرسلون) فإنه يدل على نفى الخوف عنهم مطلقاً لكن لا فى جميع الأوقات بل حين يوحى إليهم كوقت الخطاب فإنهم حينئذ مستغرقون فى مطالعة شئون الله عز وجل لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلا وأما فى سائر الأحيان فهم أخوف الناس منه سبحانه أولا يكون لهم عندى سوء عاقبة ليخافوا منه .

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ٢٧ النمل

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ٢٧ النمل

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ٢٧ النمل

وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ٢٧ النمل

(إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم) استثناء منقطع استدرك به ماعسى يختلج في الخلد ١١
من نفي الخوف عن كلهم مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام فإنهم وإن صدر عنهم شيء من ذلك فقد فعلوا عقيبه مايبطله ويستحقون به من الله تعالى مغفرة
ورحمة وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام من وكزه القبطي والاستغفار
وتسميته ظلماً لقوله ﷺ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له (وأدخل يدك في جيبك) لأنه كان ١٢
مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لأنه يجاب أي يقطع (تخرج بيضاء من غير سوء) أي آفة
كبرص ونحوه (في تسع آيات) في جملتها أو معها على أن التسع هي الفلق والطوفان والجراد والقمل
والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع
أن يعد الأخيرين واحداً ولا يعد الفلق منها لأنه لم يبعث به إلى فرعون أو اذهب في تسع آيات على أنه
استئناف بالإرسال فيتعلق به (إلى فرعون وقومه) وعلى الأولين يتعلق بنحو مبعوثاً أو مرسلا (إنهم
كانوا قوما فاسقين) تعليل للإرسال أي خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان (فلما جاءتهم آياتنا) ١٣
وظهرت على يد موسى (مبصرة) بينة اسم فاعل أطلق على المفعول إشعاراً بأنها لفرط وضوحها وإنارتها
كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو ذات تبصر من حيث إنها تهدي والعمى لاتهتدي فضلا عن الهداية
أو مبصرة كل من ينظر إليها ويتأمل فيها وقرىء مبصرة أي مكاناً يكثر فيه التبصر (قالوا هذا سحر مبين)
واضح سحريته (وجحدوا بها) أي كذبوا بها (واستيقنتها أنفسهم) الواو للحال أي وقد استيقنتها أي ١٤
علمتها أنفسهم علماً يقينياً (ظلماً) أي للآيات كقوله تعالى بما كانوا بآياتنا يظلمون ولقد ظلموا بها
أي ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحراً وقيل ظلماً لأنفسهم وليس بذاك (وعلوا) أي
استكباراً عن الإيمان بها كقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما إما على العلة
من جحدوا بها أو على الحالية من فاعله أي جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها (فانظر كيف كان
عاقبة المفسدين) من الإغراق على الوجه الهائل الذي هو عبرة للعالمين وإنما لم يذكر تنبيهاً على أنه
عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل بادو حاضر .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ٢٧ النمل

وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُودَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ٢٧ النمل

١٥ (ولقد آتينا داود وسليمان علماً) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماسبق من أنه ﷺ يلقى القرآن من لدن
حكيم عليم فإن قصتهما عليهما الصلاة والسلام من جملة القرآن الكريم لقيه ﷺ من لدنه تعالى كقصة
موسى عليه الصلاة والسلام وتصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه أى آتينا كل واحد
منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والأحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة لبوس
ومنطق الطير أو علما سنيا عزيزاً (وقالا) أى قال كل واحد منهما شكراً لما أوتيه من العلم (الحمد لله الذى
فضلنا) بما آتاناه من العلم (على كثير من عباده المؤمنين) على أن عبارة كل منهما فضلنى إلا أنه عبر عنهما
عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير إيجازاً فإن حكاية الأقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم
أو عن غيره بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز ومن الأول قوله تعالى يأيها الرسل كلوا من الطيبات
واعملوا صالحاً وقد مر فى سورة قد أفلح المؤمنون وبهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو إذ المتبادر
من العطف بالفاء ترتب حمد كل منهما على إيتاء ما أوتى كل منهما لا على إيتاء ما أوتى نفسه فقط وقيل فى
العطف بالواو إشعار بأن ماقالاه بعض ماأحدث فيهما إيتاء العلم وشىء من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف
عليه التحميد كأنه قيل ولقد آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الآية فتأمل
والكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما وقيل من لم يؤت علماً ويأباه تبيين الكثير بالمؤمنين فإن
خلوهم من العلم بالمرة مما لا يمكن وفى تخصيصهما الأكثر بالذكر رمز إلى أن البعض مفضلون عليهما وفيه
أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه
ماأوتيا من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله
ويتواضعوا ويعتقدوا أنهم وإن فضلوا على كثير فقد فضل عليهم كثير وفوق كل ذى علم عليم ونعما قال أمير
١٦ المؤمنين عمر رضى الله عنه كل الناس أفقه من عمر (وورث سليمان داود) أى النبوة والعلم أو الملك بأن
قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر (وقال) تشهيراً لنعمة الله تعالى وتنويهاً بها ودعاء
للناس إلى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التى أوتيها (يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل
شىء) المنطق فى المتعارف كل لفظ يعبر به عما فى الضمير مفرداً كان أو مركباً وقد يطلق على كل مايصوت
به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال نطقت الحمامة وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم أصواته
والذى علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير هو مايفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه ويحكى
أنه مر على بلبل فى شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون مايقول قالوا الله ونبيه أعلم قال

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ٢٧ النمل

يقول إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يامذنبين وصاح طيطوى فقال يقول كل حى ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيراً تجدوه وصاح قمرى فأخبر أنه يقول سبحان ربى الأعلى وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه وقال الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والديك يقول اذكروا الله ياغافلين والنسر يقول ياابن آدم عش ماشئت آخرك الموت والعقاب تقول فى البعد عن الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربى القدوس وأراد عليه الصلاة والسلام بقوله علمنا وأوتينا بالنون التى يقال لها نون الواحد المطاع بيان حاله وصفته من كونه ملكا مطاعا لكن لا تجبراً وتكبراً بل تمهيداً لما أراد منهم من حسن الطاعة والانقياد له فى أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير وبقوله من كل شيء كثرة ماأوتيه كما يقال فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء ويراد به كثرة قصاده وغزارة علمه ومثله قوله تعالى وأوتيت من كل شيء وقال ابن عباس رضى الله عنهما كل مايهمه من أمر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والإنس والشياطين والريح (إن هذا) إشارة إلى ماذكر من التعليم والإيتاء (لهو الفضل) والإحسان من الله تعالى (المبين) الواضح الذى لايخفى على أحد أو إن هذا الفضل الذى أوتيه لهو الفضل المبين على أنه عليه الصلاة والسلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله ﷺ أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى أقول هذا القول شكراً لا فخراً ولعله عليه الصلاة والسلام رتب على كلامه ذلك دعوة الناس إلى الغزو فإن اخبارهم بإيتاء كل شيء من الأشياء التى من جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو مما ينبيء عن ذلك فمعنى قوله تعالى (وحشر لسليمان جنوده) جمع له عساكره (من ١٧
الجن والإنس والطير) بمباشرة مخاطبيه فإنهم كانوا رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم بتعميم الناس للكل تغليباً وتقديم الجن على الإنس فى البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الأمر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير (فهم يوزعون) أى يحبس أوائلهم على أواخرهم أى يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لايتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر وفيه إشعار بكمال مسارعتهم إلى السير وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضاً لما أن أواخرهم غير قادرين على مايقدر عليه أوائلهم من السير السريع وهذا إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو روى أن معسكره عليه الصلاة والسلام كان مائة فرسخ فى مائة خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له عليه الصلاة والسلام ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ٢٧ النمل

فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض إني قد زدت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال لقد أوتي آل داود ملكا عظيما فألقته الريح في أذنه فنزل ومشى إلى الحراث وقال إنما مشيت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه

١٨ ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود (حتى إذا أتوا على وادي النمل) حتى هي التي يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هي غاية لما قبلها كالتي في قوله تعالى حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل الآية وهي ههنا غاية لما ينبيء عنه قوله تعالى فهم يوزعون من السير كأنه قيل فساروا حتى إذا أتوا الخ ووادي النمل واد بالشأم كثير النمل على ماقاله مقاتل رضي الله عنه وبالطائف على ماقاله كعب رضي الله عنه وقيل هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وتعدية الفعل إليه بكلمة على إما لأن إتيانهم كان من فوق وإما لأن المراد بالإتيان عليه قطعه من قولهم أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره ولعلهم أرادوا أن ينزلوا عند منتهى الوادي إذ حينئذ يخافهم مافي الأرض لا عند سيرهم في الهواء وقوله تعالى (قالت نملة) جواب إذا كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت منهم فصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها فتبعها في الفرار فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فأجروا مجراهم حيث جعلت هي قائلة وما عداها من النمل مقولا لهم حيث قيل (يأيها النمل ادخلوا مساكنكم) مع أنه لا يمتنع أن يخلق الله تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم وقرىء نملة يأيها النمل بضم الميم وهو الأصل كالرجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع في السبع وقرىء بضم النون والميم قيل كانت نملة عرجاء تمشي وهي تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية وقرىء مسكنكم وقوله تعالى (لا يحطمنكم سليمان وجنوده) نهي في الحقيقة للنمل عن التأخر في دخول مساكنهم وإن كان بحسب الظاهر نهيا له عليه الصلاة والسلام ولجنوده عن الحطم كقولهم لا أرينك ههنا فهو استئناف أو بدل من الأمر كقول من قال [فقلت له ارحل لا تقيمن عندنا] لا جواب له فإن النون لا تدخله في السعة وقرىء لا يحطمنكم بالنون الخفيفة وقرىء لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها وأصله لا يحتطمنكم وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) حال من فاعل يحطمنكم مفيدة لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم بمكانهم حتى لو شعروا بذلك لم يحطموا وأرادت بذلك الإيذان بأنها عارفة بشئون سليمان وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من عصمتهم عن الظلم والإيذاء وقيل هو استئناف أي فهم سليمان ماقالته والقوم

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ٢٧ النمل

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ٢٧ النمل

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ٢٧ النمل

---

١٩ لا يشعرون بذلك (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجباً من حذرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح
بنى نوعها وسروراً بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة فيما بين أصناف المخلوقات التى هى
أبعدها من إدراك أمثال هذه الأمور وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها روى
أنها أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم فى الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن
حتى دخلن مساكنهن (وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) أى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى •
وأكفه وأرتبطه بحيث لا ينفلت عنى حتى لا أنفك عن شكرك أصلا وقرىء بفتح ياء أوزعنى (التى
أنعمت على وعلى والدى) أدرج فيه ذكرهما تكثيراً للنعمة فإن الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجب
للشكر (وأن أعمل صالحاً ترضاه) إتماماً للشكر واستدامة للنعمة (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) •
٢٠ فى جملتهم الجنة التى هى دار الصالحين (وتفقد الطير) أى تعرف أحوال الطير فلم ير الهدهد فيما بينها (فقال
مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) كأنه قال أولا مالى لا أراه لساتر ستره أو لسبب آخر ثم بدا له
٢١ أنه غائب فأضرب عنه فأخذ يقول أهو غائب (لأعذبنه عذاباً شديداً) قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه
وتشميسه وقيل بجعله مع ضده فى قفص وقيل بالتفريق بينه وبين إلفه (أو لأذبحنه) ليعتبر به أبناء جنسه
(أو ليأتينى بسلطان مبين) بحجة تبين عذره والحلف فى الحقيقة على أحد الأولين على تقدير عدم الثالث •
وقرىء ليأتينى بنونين أولاهما مفتوحة مشددة قيل إنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس
تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ماشاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة
آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء
وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها فنزل ليتغذى ويصلى فلم يجد الماء وكان
الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة فيجىء الشياطين فيسلخونها كما
يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى
هدهداً واقعاً فانحط إليه فوصف له ملك سليمان عليه السلام وماسخر له من كل شىء وذكر له صاحبه ملك
بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا
بعد العصر وذلك قوله تعالى .

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ٢٧ النمل

٢٢ (فمكث غير بعيد) أى زماناً غير مديد وقرىء بضم الكاف وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان عليه السلام فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب على به فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال بحق الله الذى قواك وأقدرك على إلا رحمتنى فتركته وقالت ثكلتك أمك إن نبى الله قد حلف ليعذبنك قال وما استثنى قالت بلى قال أو ليأتينى بعذر مبين فلما قرب من سليمان عليه السلام أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً له فلما دنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمده إليه فقال يانبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى فارتعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم سأله (فقال أحطت بما لم تحط به) أى علماً ومعرفة وحفظته من جميع جهاته وقرىء أحطت بادغام الطاء فى التاء بإطباق وبغير إطباق ولا خفاء فى أنه لم يرد بما ادعى الإحاطة به ماهو من حقائق العلوم ودقائق المعارف التى تكون معرفتها والإحاطة بها من وظائف أرباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين حتى يكون إثباتها لنفسه بين يدى نبى الله سليمان عليه السلام تعدياً عن طوره وتجاوزاً عن دائرة قدره ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام جناية على جنابه فيحتاج إلى الاعتذار عنه بأن ذلك كان منه بطريق الإلهام فكافحه عليه الصلاة والسلام بذلك مع ما أوتى عليه الصلاة والسلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له عليه الصلاة والسلام فى علمه وتنبيهاً على أن فى أدنى خلقه تعالى وأضعفهم من أحاط علماً بما لم يحط به لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ويكون لطفاً له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء بل أراد به ماهو من الأمور المحسوسة التى لا تعد الإحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف إدراكها إلا على مجرد إحساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشاهده ولم يسمع خبره من غيره قطعاً فعبر عنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه الصلاة والسلام وترغيبه فى الإصغاء إلى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فإن النفس للاعتذار المنبىء عن أمر بديع أقبل وإلى تلقى ما لا تعلمه أميل ثم أيده بقوله (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) حيث فسر إبهامه نوع تفسير وأراد عليه الصلاة والسلام أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ الذى هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه وإلا فما إذا صدر عنه عليه الصلاة والسلام مع ما حكى عنه من الحمد والشكر واستدعاء الإيزاع حتى يليق بالحكمة الإلهية تنبيهه عليه الصلاة والسلام على تركه وسبأ منصرف على أنه اسم لحى سموا باسم أبيهم الأكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه أول من سبى وقرىء بفتح الهمزة غير منصرف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث وعلى هذه القراءة يجوز أن يراد به القبيلة والمدينة وأما على القراءة الأولى فالمراد هو الحى لا غير وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل إنباء الهدهد ليس بأمر بديع لا بد له من حكمة داعية إليه البتة وإن استحال خلو أفعاله تعالى من الحكم والمصالح لما أن المسافة بين محطه عليه الصلاة

إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ٢٧ النمل

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ٢٧ النمل

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٢٧ النمل

والسلام وبين مأرب وإن كانت قصيرة لكن مدة ما بين نزوله عليه الصلاة والسلام هناك وبين مجيء الهدهد بالخبر أيضاً قصيرة نعم اختصاص الهدهد بذلك مع كون الجن أقوى منه مبنى على حكم بالغة يستأثر
٢٣ بها علام الغيوب وقوله تعالى (إنى وجدت امرأة تملكهم) استئناف لبيان ما جاء به من النبأ وتفصيل له إثر الإجمال وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ورث الملك من أربعين أبا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الأمة وكانت هى وقومها مجوساً يعبدون الشمس وإيثار وجدت على رأيت لما أشير إليه من الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه الصلاة والسلام بإبراز نفسه فى معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبأ على أنه اسم لحى أو لأهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنه
* اسم لها (وأوتيت من كل شيء) أى من الأشياء التى يحتاج إليها الملوك (ولها عرش عظيم) قيل كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضاً وسمكا وقيل ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك وقد جوز أن يكون لسليمان عليه السلام مثله وأياً ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه الصلاة والسلام لما مر من ترغيبه عليه الصلاة والسلام فى الإصغاء إلى حديثه وتوجيه عزيمته عليه الصلاة والسلام نحو
٢٤ تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التى هى عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصى (فصدهم) بسبب ذلك (عن السبيل) أى سبيل الحق والصواب فإن تزيين أعمالهم لا يتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم ومن ضرورته نسبة طريق
٢٥ الحق إلى العوج (فهم) بسبب ذلك (لا يهتدون) إليه وقوله تعالى (أن لا يسجدوا لله) مفعول له إما للصد أو للتزيين على حذف اللام منه أى فصدهم لئلا يسجدوا له تعالى أو زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا أو بدل على حاله من أعمالهم وما بينهما اعتراض أى زين لهم أن لا يسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدون بإسقاط الخافض ولا مزيدة كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والمعنى فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا له تعالى وقرىء ألا يا اسجدوا على التنبيه والنداء والمنادى محذوف أى ألا يا قوم اسجدوا كما

اَللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ٢٧ النمل

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٢٧ النمل

ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ٢٧ النمل

فى قوله [ألا ياأسلمى يا دارمى على البلى] ونظائره وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام ويوقف على لايهتدون ويكون أمراً بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذماً على تركه وأياماكان فالسجود واجب وقرىء هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرىء هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب (الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض) أى يظهر ماهو مخبوء ومخفى فيهما كائناً ماكان وتخصيص هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرده تعالى باستحقاق السجود له من بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لما أنه أرسخ فى معرفته والإحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التى من جملتها ماأودعه الله تعالى فى نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض وأشار بعطف قوله (ويعلم ماتخفون وما تعلنون) على يخرج إلى أنه تعالى يخرج مافى العالم الإنسانى من الخفايا كما يخرج مافى العالم الكبير من الخبايا لما أن المراد يظهر ماتخفونه من الأحوال فيجازيكم بها وذكر ماتعلنون لتوسيع دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهى وقرىء مايخفون وما يعلنون على صيغة الغيبة بلا التفات وإخراج الخبء يعم إشراق الكواكب وإظهارها من آفاقها بعد استتارها وراءها وإنزال الأمطار وإنبات النبات بل الإنشاء الذى هو إخراج ما فى الشىء بالقوة إلى الفعل والإبداع الذى هو إخراج مافى الإمكان والعدم إلى الوجود وغير ذلك من غيوبه عز وجل وقرىء الخب بتخفيف الهمزة بالحذف وقرىء الخبا بتخفيفها بالقلب وقرىء ألا تسجدون لله الذى يخرج الخبء من السماء والأرض

٢٦ ويعلم سركم وماتعلنون (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) الذى هو أول الأجرام وأعظمها وقرىء العظيم بالرفع على أنه صفة الرب واعلم أن ماحكى من الهدهد من قوله الذى يخرج الخبء إلى هنا ليس داخلا تحت قوله أحطت بمالم تحط به وإنما هو من العلوم والمعارف التى اقتبسها من سليمان عليه السلام أورده بياناً لما هو عليه وإظهاراً لتصلبه فى الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه الصلاة والسلام نحو قبول

٢٧ كلامه وصرف عنان عزيمته عليه السلام إلى غزوها وتسخير ولايتها (قال) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد كأنه قيل فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك فقيل قال (سننظر) أى فيماذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد أى سنتعرف بالتجربة البتة (أصدقت أم كنت من الكاذبين) كان مقتضى الظاهر أم كذبت وإيثار ماعليه النظم الكريم للإيذان بأن كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة على ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلا لاسيما بين يدى نبى عظيم

٢٨ الشأن لايكاد يصدر إلا عمن له قدم راسخ فى الكذب والإفك وقوله تعالى (اذهب بكتابى هذا فألقه

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ — ٢٧ النمل

إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ — ٢٧ النمل

أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ — ٢٧ النمل

إليهم) استئناف مبين لكيفية النظر الذى وعده عليه الصلاة والسلام وقد قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما كتب كتابه فى ذلك المجلس أو بعده وتخصيصه عليه الصلاة والسلام إياه بالرسالة دون سائر ماتحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة ولئلا يبقى له عذر أصلا (ثم تول عنهم) أى تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه (فانظر) أى تأمل وتعرف (ماذا يرجعون) أى ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول وجمع الضمائر لما أن مضمون الكتاب الكريم
٢٩ دعوة الكل إلى الإسلام (قالت) أى بعد ماذهب الهدهد بالكتاب فألقاه إليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به وإنما طوى ذكره إيذاناً بكمال مسارعته إلى إقامة ما أمر به من الخدمة وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره . روى أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد فوجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمارب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب على حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع الحيرى كما مر فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فعند ذلك قالت لأشراف قومها (يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم) وصفته بالكرم لكرم مضمونه أو لكونه من
٣٠ عند ملك كريم أو لكونه مختوماً أو لغرابة شأنه ووصوله إليها على منهاج غير معتاد (إنه من سليمان) استئناف وقع جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه فقالت إنه من سليمان (وإنه) أى
* مضمونه أو المكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) وفيه إشارة إلى سبب وصفها إياه بالكرم وقرىء أنه وأنه بالفتح على حذف اللام كأنها علات كرمه بكونه من سليمان وبكونه مصدراً باسم الله تعالى وقيل
٣١ على أنه بدل من كتاب وقرىء أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم على أن أن المفسرة (أن لا تعلوا على) أن مفسرة ولا ناهية أى لا تتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك وقيل مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية محلها الرفع على أنها من كتاب أو خبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام أى مضمونه أن لا تعلوا أو النصب بإسقاط الخافض أى بأن لا تعلوا على وقرىء أن لا تغلوا بالغين المعجمة أى لا تجاوزوا حدكم (وأتونى مسلمين) أى مؤمنين وقيل منقادين والأول هو الأليق بشأن النبى ﷺ على أن الإيمان مستتبع للانقياد حتما . روى أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وأتونى مسلمين وليس الأمر فيه بالإسلام قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يتوهم كونه استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على رسالة مرسلها دلالة بينة .

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ٢٧ النمل

قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ٢٧ النمل

قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ٢٧ النمل

وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ٢٧ النمل

٣٢ (قالت) كررت حكاية قولها للإيذان بغاية اعتنائها بما فى حيزه من قولها (يأيها الملأ أفتونى فى أمرى) أى
أجيبونى فى أمرى الذى حزبنى وذكرت لكم خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى
الحوادث المشكلة غالباً تهويلا للأمر ورفعاً لمحلهم بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة وقولها
(ما كنت قاطعة أمراً) أى من الأمور المتعلقة بالملك (حتى تشهدون) أى إلا بمحضركم وبموجب آرائكم
٣٣ استعطاف لهم واستمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى والتدبير (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ
من حكاية قولها كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا (نحن أولو قوة) فى الأجساد والآلات والعدد
(وأولو بأس شديد) أى نجدة وشجاعة مفرطة وبلاء فى الحرب (والأمر إليك) أى هو موكول إليك
(فانظرى ماذا تأمرين) ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نمتثل به ونتبع رأيك وأرادوا نحن من أبناء
الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة وإليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما أحست
منهم الميل إلى الحراب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبنية على الغفلة عن شأن
٣٤ سليمان عليه السلام وذلك قوله تعالى (قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية) من القرى على منهاج المقاتلة والحراب
(أفسدوها) بتخريب عماراتها وإتلاف ما فيها من الأموال (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) بالقتل والأسر
والإجلاء وغير ذلك من فنون الإهانة والإذلال (وكذلك يفعلون) تأكيداً لما وصفت من حالهم بطريق
الاعتراض التذييلى وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله
٣٥ تعالى ولو جئنا بمثله مدداً إثر قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى (وإنى مرسلة إليهم بهدية) تقرير لرأيها
بعد ما زيفت آراءهم وأتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للإيذان بأنها مزمعة على
رأيها لا يلويها عنه صارف ولا يثنيها عاطف أى وإنى مرسلة إليهم رسلا بهدية عظيمة (فناظرة بم يرجع
المرسلون) حتى أعمل بما يقتضيه الحال . روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن
الأساور والأطواق والقرطة راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع
بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر
والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلا من أشراف
قومها المنذر بن عمرو وآخر ذا رأى وعقل وقالت إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة
ثقباً مستوياً وسلك فى الخرزة خيطاً ثم قالت للمنذر إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٢٧ النمل

ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ٢٧ النمل

وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبي فأقبل الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفاته من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ والإنس صفوفاً فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال ماوراءكم وقال أين الحق وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه فقال لهم إن فيه كذا وكذا ثم أمر بالأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة فجعل رزقها في الشجرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت في الجزعة فجعل رزقها في الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله تعالى
٣٦ (فلما جاء سليمان) أي الرسول (قال) أي مخاطباً للرسول والمرسل تغليباً للحاضر على الغائب وقيل للرسول ومن معه ويؤيده أنه قرىء فلما جاءوا والأول أولى لما فيه من تشديد الإنكار والتوبيخ وتعميمهما لبلقيس وقومها ويؤيده الإفراد في قوله تعالى ارجع إليهم (أتمدونني بمال) وهو إنكار لإمدادهم إياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شأنه وسعة سلطانه وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتحقير وقوله تعالى (فما آتاني الله) أي مما رأيتم آثاره من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه (خير مما آتاكم) أي من المال الذي من جملته ما جئتم به فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وقع لها عندي تعليل للإنكار ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قال لهم هذه المقالة إلى آخرها بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكي من قصة الحق وغيرها كما أشير إليه لا أنه عليه الصلاة والسلام خاطبهم بها أول ما جاءوه كما يفهم من ظاهر قوله تعالى فلما جاء الخ وقرىء أتمدوني بالإدغام وبنون واحدة وبنونين وحذف الياء وقوله تعالى (بل أنتم بهديتكم تفرحون) إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أهدوها إليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها كما ينبىء عنه ما ذكر من حديث الحق والجزعة وتغيير زي الغلمان والجواري وغير ذلك وفائدة الإضراب التنبيه على أن إمداده عليه الصلاة والسلام بالمال منكر قبيح وعد ذلك مع أنه لا قدر له عنده عليه الصلاة والسلام مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح والتوبيخ به أدخل وقيل المضاف إليه المهدى إليه والمعنى بل أنتم بما يهدى إليكم تفرحون حباً لزيادة المال لما أنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا (ارجع)
٣٧ أفرد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الإمداد ونحوه

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ٢٧ النمل

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ٢٧ النمل

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا
عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٢٧ النمل

للكل أى ارجع أيها الرسول (إليهم) أى إلى بلقيس وقومها فلنأتينهم أى فوالله لنأتينهم (بجنود لا قبل
لهم بها) أى لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرىء بهم (ولنخرجنهم) عطف على جواب
القسم (منها) من سبأ (أذلة) أى حال كونهم أذلة بعدما كانوا فيه من العز والتمكين وفى جمع القلة تأكيد
لذلتهم وقوله تعالى (وهم صاغرون) أى أسارى مهانون حال أخرى مفيدة لكون إخراجهم بطريق
الأسر لا بطريق الإجلاء وعدم وقوع جواب القسم لأنه كان معلقاً بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة
٣٨ الحال عليه كأنه قيل ارجع إليهم فليأتوا مسلمين وإلا فلنأتينهم الخ (قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها)
قاله عليه الصلاة والسلام لما دنا مجيء بلقيس إليه عليه الصلاة والسلام يروى أنه لما رجعت رسلها إليها
بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قالت قد علمت والله ما هذا بملك ولا لنا به من طاقة وبعثت إلى
سليمان عليه السلام إنى قادمة إليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ثم آذنت
بالرحيل إلى سليمان عليه السلام فشخصت إليه فى إثنى عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف ويروى أنها
أمرت فجعل عرشها فى آخر سبعة أبيات بعضها فى بعض فى آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الأبواب
ووكلت به حرساً يحفظونه ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يريها بعض
ما خصه الله عز سلطانه به من إجراء التعاجيب على يده مع إطلاعها على عظيم قدرته تعالى وصحة نبوته عليه
الصلاة والسلام ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم لا وتقييد الإتيان به بقوله تعالى (قبل
أن يأتونى مسلمين) لما أن ذلك أبدع وأغرب وأبعد من الوقوع عادة وأدل على عظيم قدرة الله تعالى
وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام وليكون اختبارها وإطلاعها على بدائع المعجزات فى أول مجيئها وقيل
٣٩ لأنها إذا أتت مسلمة لم يحل له أخذ مالها بغير رضاها (قال عفريت) أى مارد خبيث (من الجن) بيان له
إذ يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر لأقرانه وكان اسمه ذكوان أو صخراً (أنا آتيك به) أى بعرشها
(قبل أن تقوم من مقامك) أى من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار وآتيك إما صيغة
المضارع أو الفاعل وهو الأنسب لمقام ادعاء الإتيان به لا محالة وأوفق لما عطف عليه من الجملة الاسمية أى أنا
آت به فى تلك المدة البتة (وإنى عليه) أى على الإتيان به (لقوى) لا يثقل على حمله (أمين) لا أختزل منه
٤٠ شيئاً ولا أبدله (قال الذى عنده علم من الكتاب) فصل عما قبله للإيذان بما بين القائلين ومقاليهما

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ٢٧ النمل

وكيفيتى قدرتهما على الإتيان به من كمال التباين أو لإسقاط الأول عن درجة الاعتبار قيل هو آصف بن
برخيا وزير سليمان عليه السلام وقيل رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أجاب وقيل
الخضر أو جبريل أو ملك أيده الله عز وجل به عليهم السلام وقيل هو سليمان نفسه عليه السلام وفيه بعد
لا يخفى والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح وتنكير علم للتفخيم والرمز إلى أنه
علم غير معهود ومن ابتدائية (أن آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) الطرف تحريك الأجفان وفتحها *
للنظر إلى شىء وارتداده انضمامها ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد ولما
لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة ما كما فى وعد العفريت استغنى عن التأكيد وطوى عند الحكاية ذكر
الإتيان به للإيذان بأنه أمر متحقق غنى عن الإخبار به وجىء بالفاء الفصيحة لا داخلة على جملة معطوفة
على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط كما فى قوله عز وجل فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ونظائره بل داخلة
على الشرطية حيث قيل (فلما رآه مستقراً عنده) أى رأى العرش حاضراً لديه كما فى قوله عز وجل فلما رأينه *
أكبرنه للدلالة على كمال ظهور ما ذكر من تحققه واستغنائه عن الإخبار به ببيان ظهور ما يترتب عليه
من رؤية سليمان عليه السلام إياه واستغنائه أيضاً عن التصريح به إذ التقدير فأتاه به فرآه فلما رآه الخ
لحذف ما حذف لما ذكر وللإيذان بكمال سرعة الإتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة
والسلام إياه شىء ما أصلا وفى تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيد لهذا المعنى
لإيهامه أنه لم يتوسط بينهما ابتداء الإتيان أيضاً كأنه لم يزل موجوداً عنده مع ما فيه من الدلالة على
دوام قراره عنده منتظما فى سلك ملكه (قال) أى سليمان عليه السلام تلقيا للنعمة بالشكر جرياً على *
سنن أبناء جنسه من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وخلص عباده (هذا) أى حضور العرش بين
يديه فى هذه المدة القصيرة أو التمكن من إحضاره بالواسطة أو بالذات كما قيل (من فضل ربى) أى تفضله
على من غير استحقاق له من قبلى (ليبلونى أأشكر) بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتى ولا
قوة وأقوم بحقه (أم أكفر) بأن أجد لنفسى مدخلا فى البين أو أقصر فى إقامة مواجبه كما هو شأن سائر
النعم الفائضة على العباد (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) لأنه يرتبط به عتيدها ويستجلب به مزيدها
ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران (ومن كفر) أى لم يشكر (فإن ربى غنى)
٤١ عن شكره (كريم) بترك تعجيل العقوبة والإنعام مع عدم الشكر أيضاً (قال) أى سليمان عليه السلام
كررت الحكاية مع كون المحكى سابقاً ولاحقاً من كلامه عليه الصلاة والسلام تنبيهاً على ما بين السابق
واللاحق من المخالفة لما أن الأول من باب الشكر لله تعالى والثانى أمر لخدمه (نكروا لها عرشها) أى
غيروا هيئته بوجه من الوجوه (ننظر) بالجزم على أنه جواب الأمر وقرىء بالرفع على الاستئناف
(أتهتدى) إلى معرفته أو إلى الجواب اللائق بالمقام وقيل إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها لتقدم
عرشها من مسافة طويلة فى مدة قليلة وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليه الحراس والحجاب

فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ٢٧ النمل

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ٢٧ النمل

ويأباه تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير فإن ذلك مما لا دخل فيه للتنكير (أم تكون) أى بالنسبة
إلى علمنا (من الذين لا يهتدون) أى إلى ماذكر من معرفة عرشها أو الجواب الصواب فإن كونها فى
نفس الأمر منهم وإن كان أمراً مستمراً لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث
٤٢ يظهر بالاختبار (فلما جاءت) شروع فى حكاية التجربة التى قصدها سليمان عليه السلام أى فلما جاءت
بلقيس سليمان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه (قيل) أى من جهة سليمان عليه السلام بالذات
أو بالواسطة (أهكذا عرشك) لم يقل أهذا عرشك لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ماهو المقصود من
الأمر بالتنكير من إبراز العرش فى معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه
الصلاة والسلام بسخافة العقل (قالت كأنه هو) فأنبأت عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تقل هو هو مع
علمها بحقيقة الحال تلويحاً بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة فى الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن
الأدب فى محاورته عليه الصلاة والسلام (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) من تتمة كلامها كأنها
ظنت أنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت أوتينا العلم بكمال قدرة
الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التى شاهدناها بما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على
ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها مالا يخفى وقوله
٤٣ تعالى (وصدها ماكانت تعبد من دون الله) بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من
الإسلام إلى الآن أى صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس وقوله تعالى (إنها كانت من قوم كافرين)
تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أى إنها كانت من قوم راسخين فى الكفر ولذلك لم تكن قادرة
على إظهار إسلامها وهى بين ظهرانيهم إلى أن دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرىء أنها بالفتح
على البدلية من فاعل صد أو على التعليل بحذف اللام هذا وأما ماقيل من أن قوله تعالى وأوتينا العلم إلى
قوله تعالى من قوم كافرين من كلام سليمان عليه السلام وملئه كأنهم لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا
لإسلامها فقالوا استحساناً لشأنها أصابت فى الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت من
المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه الآية الباهرة من أمر عرشها ورزقت الإسلام فعطفوا
على ذلك قولهم وأوتينا العلم الخ أى وأوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ماجاء من عنده قبل علمها
ولم نزل على دين الإسلام شكراً لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها
وصدها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرانى الكفرة فمما لا يخفى مافيه من
البعد والتعسف .

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ٢٧ النمل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ٢٧ النمل

قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ٢٧ النمل

(قيل لها ادخلى الصرح) الصرح القصر وقيل صحن الدار . روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها ٤٤
فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره
ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً
لأمره وتحققاً لنبوته وثباتاً على الدين وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم لأنها
كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان
عليه السلام إلى ملك هو أشد وأفظع فقالوا إن فى عقلها شيئاً وهى شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر
عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها (فلما رأته) وهو حاضر بين يديها كما يعرب *
عنه الأمر بدخولها وأحاطت بتفاصيل أحواله خبراً (حسبته لجة وكشفت عن ساقيها) وتشمرت لئلا *
تبتل أذيالها فإذا هى أحسن الناس ساقاً وقدماً خلا أنها شعراء . قيل هى السبب فى اتخاذ النورة أمر بها الشياطين
فاتخذوها واستنكحها عليه الصلاة والسلام وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها فى الشهر
مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام وقيل بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زوبعة أمير جن
اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع وقرىء سأقيها حملا للمفرد على الجمع فى سؤق وأسؤق (قال) عليه الصلاة *
والسلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب (إنه) أى ما توهمته ماء (صرح ممرد) أى مملس (من
قوارير) من الزجاج (قالت) حين عاينت تلك المعجزة أيضاً (رب إنى ظلمت نفسى) بما كنت عليه إلى
الآن من عبادة الشمس وقيل بظنى بسليمان حيث ظنت أنه يريد إغراقها فى اللجة وهو بعيد (وأسلمت
مع سليمان) تابعة له مقتدية به وما فى قوله تعالى (لله رب العالمين) من الالتفات إلى الاسم الجليل *
ووصفه بربوبية العالمين لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع
الموجودات التى من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس (ولقد أرسلنا) عطف على قوله تعالى ٤٥
ولقد آتينا داود وسليمان علماً مسوق لما سيق هو له من تقرير أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من
لدن حكيم عليم فإن هذه القصة أيضاً من جملة القرآن الكريم الذى لقيه عليه الصلاة والسلام واللام
جواب قسم محذوف أى وبالله لقد أرسلنا (إلى ثمود أخاهم صالحاً) وأن فى قوله تعالى (أن اعبدوا الله)
مفسرة لما فى الإرسال من معنى القول أو مصدرية حذف عنها الباء وقرىء بضم النون إتباعاً لها للباء (فإذا هم
فريقان يختصمون) ففاجئوا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو لمجموع الفريقين (قال) عليه ٤٦

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ٢٧ النمل

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ٢٧ النمل

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ ٢٧ النمل

الصلاة والسلام للفريق الكافر منهم بعد ماشاهد منهم ماشاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من
المكابرة إلى أن قالوا له عليه الصلاة والسلام ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (ياقوم
لم تستعجلون بالسيئة) أي بالعقوبة السيئة (قبل الحسنة) أي التوبة فتؤخرونها إلى حين نزولها حيث
كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون إن وقع إيعاده تبنا حينئذ وإلا فنحن على ما كنا عليه (لولا تستغفرون
٤٧ الله) هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها (لعلكم ترحمون) بقبولها إذ لا إمكان للقبول عند النزول (قالوا
اطيرنا) أصله تطيرنا والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر
يزجرونه فإن مر سانحا تيمنوا وإن مر بارحا تشاءموا فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان
* سبباً لهما من قدر الله تعالى وقسمته أو من عمل العبد أى تشاءمنا (بك وبمن معك) فى دينك حيث تتابعت
علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا أو لم نزل فى اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم (قال طائركم) أى سببكم
* الذى منه ينالكم ماينالكم من الشر (عند الله) وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده وقوله تعالى (بل
أنتم قوم تفتنون) أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم
٤٨ الطيرة إضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ مايحيق بهم إلى ذكر ماهو الداعى إليه (وكان فى المدينة)
وهى الحجر (تسعة رهط) أى أشخاص وبهذا الاعتبار وقع تمييزاً للتسعة لا باعتبار لفظه والفرق بينه
وبين النفر أنه من الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم حسبما نقل عن
وهب : الهذيل بن عبد رب وغنم بن غنم ورئاب بن مهرج ومصدع بن مهرج وعمير بن كردبة وعاصم بن
مخرمة وسبيط بن صدقة وشمعان بن صفى وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم
صالح وكانوا من أبناء أشرافهم (يفسدون فى الأرض) لا فى المدينة فقط إفساداً بحتاً لا يخالطه شىء
مامن الإصلاح كما ينطق به قوله تعالى (ولا يصلحون) أى لا يفعلون شيئاً من الإصلاح أو لا يصلحون
٤٩ شيئاً من الأشياء (قالوا) استئناف ببيان بعض مافعلوا من الفساد أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة
فى أمر صالح عليه الصلاة والسلام وكان ذلك غب ماأنذرهم بالعذاب وقوله تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام الخ
(تقاسموا بالله) إما أمر مقول لقالوا أو ماض وقع بدلا منه أو حالا من فاعله بإضمار قد وقوله تعالى
(لنبيتنه وأهله) أى لنباغتن صالحا وأهله ليلا ونقتلنهم وقرىء بالتاء على خطاب بعضهم لبعض وقرىء
بياء الغيبة وضم التاء على أن تقاسموا فعل ماض (ثم لنقولن لوليه) أى لولى صالح وقرىء بالتاء والياء كما
قبله (ماشهدنا مهلك أهله) أى ماحضرنا هلاكهم أو وقت هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلا أن نتولى
إهلاكهم وقرىء مهلك بفتح اللام فيكون مصدراً (وإنا لصادقون) من تمام القول أو حال أى نقول

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ٢٧ النمل

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ٢٧ النمل

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ٢٧ النمل

وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ٢٧ النمل

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ٢٧ النمل

مانقول والحال إنا لصادقون فى ذلك لأن الشاهد للشىء غير المباشر له عرفا أو لأنا ماشاهدنا مهلكهم
٥٠ وحده بل مهلكه ومهلكهم جميعاً كقولك مارأيت ثمة رجلا بل رجلين (ومكروا مكراً) بهذه المواضعة
(ومكرنا مكراً) أى أهلكناهم إهلاكا غير معهود (وهم لا يشعرون) أوجازيناهم مكرهم من حيث لايحتسبون
٥١ (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) شروع فى بيان ماترتب على ماباشروه من المكر وكيف معلقة لفعل النظر
ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى فتفكر فى أنه كيف كان عاقبة مكرهم وقوله تعالى (أنادمرناهم) إما
بدل من عاقبة مكرهم على أنه فاعل كان وهى تامة وكيف حال أى فانظر كيف حصل أى على أى وجه
حدث تدميرنا إياهم وإما خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة لما فى عاقبة مكرهم من الإبهام أى هى تدميرنا
إياهم (وقومهم) الذين لم يكونوا معهم فى مباشرة التبييت (أجمعين) بحيث لم يشذ منهم شاذ وإما تعليل لما *
ينبىء عنه الأمر بالنظر فى كيفية عاقبة مكرهم من غاية الهول والفظاعة بحذف الجار أى لأنا دمرناهم الخ
وقيل كان ناقصة اسمها عاقبة مكرهم وخبرها كيف كان فالأوجه حينئذ ان يكون قوله تعالى أنادمرناهم الخ
تعليلا لما ذكر وقرىء إنادمرناهم الخ بالكسر على الاستئناف. روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى
الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث
فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من
الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا مافعل بقومهم
وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحاً ومن معه وقيل جاءوا بالليل شاهرى سيوفهم وقد ارسل
٥٢ الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون رامياً (فتلك بيوتهم) جملة
مقررة لماقبلها وقوله تعالى (خاوية) أى خالية او ساقطة متهدمة (بما ظلموا) أى بسبب ظلمهم المذكور
حال من بيوتهم والعامل معنى الإشارة وقرىء خاوية بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف (إن فى ذلك) أى
فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم (لآية) لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) أى ما من شأنه أن يعلم شيئاً من
٥٣ الأشياء أو لقوم يتصفون بالعلم (وأنجينا الذين آمنوا) صالحاً ومن معه من المؤمنين (وكانوا يتقون)
٥٤ أى الكفر والمعاصى اتقاء مستمراً فلذلك خصوا بالنجاة (ولوطاً) منصوب بمضمر معطوف على أرسلنا

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ٢٧ النمل

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ٢٧ النمل

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ٢٧ النمل

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ٢٧ النمل

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ٢٧ النمل

* فى صدر قصة صالح داخل معه فى حيز القسم أى وأرسلنا لوطاً وقوله تعالى (إذ قال لقومه) ظرف
للإرسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من الأقوال والأحوال
وقيل انتصاب لوطاً بإضمار اذكر وإذ بدل منه وقيل بالعطف على الذين آمنوا أى وأنجينا لوطاً وهو
* بعيد (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح والسماجة وقوله تعالى (وأنتم تبصرون) جملة حالية
من فاعل تأتون مفيدة لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ فإن تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع
وتبصرون من بصر القلب أى أتفعلونها والحال أنكم تعلمون علماً يقيناً بكونها كذلك وقيل يبصرها
٥٥ بعضكم من بعض لما كانوا يعلنون بها (أئنكم لتأتون الرجال شهوة) تثنية للإنكار وتكرير للتوبيخ وبيان
لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح وتحلية الجملة بحرفى التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق
وقوعه أحد لكمال بعده من العقول وإيراد المفعول بعنوان الرجولية لتربية التقبيح وتحقيق المباينة بينها
وبين الشهوة التى علل بها الإتيان (من دون النساء) متجاوزين النساء اللاتى هن محال الشهوة (بل أنتم
قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين بقبحه أو تجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أى بل أنتم
٥٦ قوم سفهاء ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة لقوم لكونهم فى حيز الخطاب (فما كان جواب قومه إلا
أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) يتنزهون عن أفعالنا أو عن الأقذار ويعدون
فعلنا قذراً وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه استهزاء وقد مر فى سورة الأعراف أن هذا الجواب
هو الذى صدر عنهم فى المرة الأخيرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالأمر والنهى لا أنه لم يصدر
٥٧ عنهم كلام آخر غيره (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها) أى قدرنا أنها (من الغابرين) أى الباقين فى
٥٨ العذاب (وأمطرنا عليهم مطراً) غير معهود (فساء مطر المنذرين) قد مر بيان كيفية ماجرى عليهم من
٥٩ العذاب غير مرة (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) إثر ماقص الله تعالى على رسوله ﷺ
قصص الأنبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه وبما
خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم وبين على
ألسنتهم حقية الإسلام والتوحيد وبطلان الكفر والإشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن
أعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى الردى وشرح صدره عليه الصلاة والسلام بما فى تضاعيف تلك

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ
لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ٢٧ النمل

القصص من فنون المعارف الربانية ونور قلبه بأنوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك فحوى مانطق به قوله عز وجل وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم أمره عليه الصلاة والسلام بأن يحمده تعالى على ما أفاض عليه من تلك النعم التى لا مطمع وراءها لطامع ولا مطمح من دونها لطامح ويسلم على كافة الأنبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليه أخبارهم التى هى من جملة المعارف التى أوحيت إليه عليه الصلاة والسلام أداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين وقيل هو أمر للوط عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك ولا يخفى بعده (آلله خير أما يشركون) أى آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير أم مايشركونه به تعالى من الأصنام ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم إذ من البين أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير ماحتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره ولا إله غيره وقرىء تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكفرة وهو الأليق بما بعده من سياق النظم الكريم المبنى على خطابهم وجعله من جملة القول المأمور به يأباه قوله تعالى فأنبتنا الخ فإنه صريح فى أن التبكيت من قبله عز وجل بالذات وحمله على أنه حكاية منه عليه الصلاة والسلام للمأمور به بعبارته كما فى قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم تعسف ظاهر من غير داع إليه وأم
٦٠ فى قوله تعالى (أم من خلق السموات والأرض) منقطعة وما فيها من كلمة بل على القراءة الأولى للإضراب والانتقال من التبكيت تعريضاً إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكرير الإلزام كنظائرها الآتية والهمزة لتقريرهم أى حملهم على الإقرار بالحق على وجه الاضطرار فإنه لا يتمالك أحد ممن له أدنى تمييز ولا يقدر على أن لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات وأفاض على كل منها مايليق به من منافعه من أخس تلك المخلوقات وأدناها بل بأن لا خيرية فيه بوجه من الوجوه قطعاً ومن مبتدأ خبره محذوف مع أم المعادلة للهمزة تعويلا على ماسبق فى الاستفهام الأول خلا أن تشركون ههنا بتاء الخطاب على القراءتين معاً وهكذا فى المواضع الأربعة الآتية والمعنى بل أمن خلق قطرى العالم الجسمانى ومبدأى منافع مابينهما (وأنزل لكم) التفات إلى خطاب الكفرة على القراءة الأولى لتشديد التبكيت والإلزام أى أنزل لأجلكم ومنفعتكم (من السماء ماء) أى نوعا منه هو المطر (فأنبتنا به حدائق) أى بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط (ذات بهجة) أى ذات حسن ورونق يبتهج به النظار (ما كان لكم) أى ماصح وماأمكن لكم (أن تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير أم ماتشركون وقرىء أمن بالتخفيف على أنه بدل من الله وتقديم صلتى الإنزال على مفعوله لما مر مراراً من التشويق إلى المؤخر والالتفات إلى التكلم ف

أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى فأنبتنا لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والإيذان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع مالها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد مما لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده حسبما ينبىء عنه تقييدها بقوله تعالى ما كان لكم الخ سواء كانت صفة لها أو حالا وتوحيد وصفها الأول أعنى ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة على نهج قولهم النساء ذهبت وكذا الحال فى ضمير شجرها (أإله مع الله) أى أإله آخر كائن مع الله الذى ذكر بعض أفعاله التى لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة وهذا تبكيت لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى فى ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فإن أحداً ممن له تمييز فى الجملة كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأساً لا سيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه تعالى وهكذا الحال فى المواقع الأربعة الآتية وقيل المراد نفى أن يكون معه تعالى إله آخر فيما ذكر من الخلق وما عطف عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفى فقط كيف لا وهم لا ينكرونه حسبما ينطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله بل بإشراكهم به تعالى فى العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الألوهية كأنه قيل أإله آخر مع الله فى خواص الألوهية حتى يجعل شريكا له تعالى فى العبادة وقيل المعنى أغيره يقرن به ويجعل له شريكا فى العبادة مع تفرده تعالى بالخلق والتكوين فالإنكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقيق المنكر دون النفى كما فى الوجهين السابقين والأول هو الأظهر الموافق لقوله تعالى وما كان معه من إله والأوفى بحق المقام لافادته نفى وجود إله آخر معه تعالى رأساً لا نفى معيته فى الخلق وفروعه فقط وقرىء آإله بتوسيط مدة بين الهمزتين وبإخراج الثانية بين بين وقرىء أإلها بإضمار فعل يناسب المقام مثل أتدعون أو أتشركون (بل هم قوم يعدلون) إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم أى بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذى هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذى

٦١ هو الإشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد خال عن الإفادة (أم من جعل الأرض قراراً) قيل هو بدل من أم من خلق السموات الخ وكذا ما بعده من الجمل الثلاث وحكم الكل واحد والأظهر أن كل واحدة منها إضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخر أدخل فى الإلزام بجهة من الجهات أى جعلها بحيث يستقر عليها الإنسان والدواب بإبداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم (وجعل خلالها) أوساطها (أنهاراً) جارية ينتفعون بها

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ٢٧ النمل

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ
تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ٢٧ النمل

(وجعل لها رواسى) أى جبالا ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها المعادن وينبع فى حضيضها
الينابيع ويتعلق بها من المصالح مالا يحصى (وجعل بين البحرين) أى العذب والمالح أو خليجى فارس
والروم (حاجزاً) برزخا مانعاً من الممازجة وقد مر فى سورة الفرقان والجعل فى المواقع الثلاثة الأخيرة
إبداعى وتأخير مفعوله عن الظرف لما مر مراراً من التشويق (أإله مع الله) فى الوجود أو فى إبداع هذه
البدائع على ما مر (بل أكثرهم لا يعلمون) أى شيئاً من الأشياء ولذلك لا يفهمون بطلان ماهم عليه من *
الشرك مع كمال ظهوره (أم من يجيب المضطر إذا دعاه) وهو الذى أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى ٦٢
اللجأ والضراعة إلى الله عز وجل اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة وعن ابن
عباس رضى الله تعالى عنهما هو المجهود وعن السدى رحمه الله تعالى من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب
إذا استغفر واللام للجنس لا للاستغراق حتى يلزم إجابة كل مضطر (ويكشف السوء) وهو الذى يعترى *
الإنسان مما يسوؤه (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى خلفاء فيها بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن
قبلكم من الأمم وقيل المراد بالخلافة الملك والتسلط (أإله مع الله) الذى يفيض على كافة الأنام هذه النعم
الجسام (قليلا ما تذكرون) أى تذكرا قليلا أو زماناً قليلا تتذكرون وما مزيدة لتأكيد معنى القلة التى *
أريد بها العدم أو ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى وفى تذييل الكلام بنفى التذكر عنهم إيذان بأن
مضمونه مركوز فى ذهن كل ذكى وغبى وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره
وقرىء تتذكرون على الأصل وتذكرون ويذكرون بالتاء والياء مع الإدغام (أم من يهديكم فى ظلمات ٦٣
البر والبحر) أى فى ظلمات الليالى فيهما على أن الإضافة للملابسة أو فى مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء
وعمياء للتى لا منار بها (ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) وهى المطر ولئن صح أن السبب *
الأكثرى فى تكون الريح معاودة الأدخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لانكسار حرها وتموجها للهواء
فلا ريب فى أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك كله من خلق الله عز وجل والفاعل للسبب فاعل
للسبب قطعاً (أإله مع الله) نفى لأن يكون معه إله آخر وقوله تعالى (تعالى الله عما يشركون) تقرير *
وتحقيق له وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار للإشعار بعلة الحكم أى تعالى وتنزه بذاته المنفردة
بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال المقتضية لكون كل المخلوقات مقهوراً
تحت قدرته عما يشركون أى عن وجود ما يشركونه به تعالى لا مطلقاً فإن وجوده مما لا مرد له بل عن

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ٢٧ النمل

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ٢٧ النمل

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ٢٧ النمل

٦٤ وجوده بعنوان كونه إلهاً وشريكاً له تعالى أو عن إشراكهم (أم من يبدأ الخلق ثم يعيده) أى بل أمن
يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث (ومن يرزقكم من السماء والأرض) أى بأسباب سماوية وأرضية
قدرتها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التى عليها بنى أمر التكوين خير أم ماتشركونه به فى العبادة
من جماد لا يتوهم قدرته على شىء ما أصلا (أإله) آخر موجود (مع الله) حتى يجعل شريكاً له فى العبادة
* وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم) أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت أى هاتوا برهاناً عقلياً
أو نقلياً يدل على أن معه تعالى إلهاً لا على أن غيره تعالى يقدر على شىء مما ذكر من أفعاله تعالى كما قيل
فإنهم لا يدعونه صريحاً ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها فى الحقيقة فطالبتهم بالبرهان
عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له وفى إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم
٦٥ برهاناً وأنى لهم ذلك (إن كنتم صادقين) أى فى تلك الدعوى (قل لا يعلم من فى السموات والأرض
الغيب إلا الله) بعدما حقق تفرده تعالى بالألوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة والرحمة الشاملة
العامة عقبه بذكر ماهو من لوازمه وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله وتمهيداً لما بعده من أمر
البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على استحالة علم الغيب من أهل السموات
والأرض بتعليقه بكونه سبحانه وتعالى منهم كأنه قيل إن كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم من يعلم الغيب
أو متصل على أن المراد بمن فى السموات والأرض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع الحاضر
* فيهما فإن ذلك معنى مجازى عام له تعالى ولأولى العلم من خلقه ومن موصولة أو موصوفة (وما يشعرون
أيان يبعثون) أى متى ينشرون من القبور مع كونه مما لا بد لهم منه ومن أهم الأمور عندهم وأيان مركبة
من أى وآن وقرىء بكسر الهمزة والضمير للكفرة وإن كان عدم الشعور بما ذكر عاماً لئلا يلزم التفكيك
بينه وبين ماسيأتى من الضمائر الخاصة بهم قطعاً وقيل الكل لمن وإسناد خواص الكفرة إلى الجميع من
٦٦ قبيل قولهم بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم (بل ادارك علمهم فى الآخرة) لما نفى عنهم علم
الغيب وأكد ذلك بنفى شعورهم بوقت ماهو مصيرهم لا محالة بوالغ فى تأكيده وتقريره بأن أضرب عنه
وبين أنهم فى جهل أفحش من جهلهم بوقت بعثهم حيث لا يعلمون أحوال الآخرة مطلقاً مع تعاضد
أسباب معرفتها على أن معنى ادارك علمهم فى الآخرة تدارك وتتابع علمهم فى شأن الآخرة التى ماذكر
من البعث حال من أحوالها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعاً لكن لا على معنى أنه

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ٢٧ النمل

كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى شيئاً فشيئاً بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلة نفسه وإجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابعها إلى الانقطاع ثم أضرب وانتقل عن بيان عدم علمهم بها إلى بيان ماهو أسوأ منه وهو حيرتهم في ذلك حيث قيل (بل هم فى شك منها) أى فى شك مريب من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير فى أمر لايجد عليه دليلا فضلا عن الأمور التى ستقع فيها ثم أضرب عن ذلك إلى بيان أن ماهم فيه أشد وأفظع من الشك حيث قيل (بل هم منها عمون) بحيث لايكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالكلية وقرىء بل أدرك علمهم بمعنى انتهى وفنى وقد فسره الحسن البصرى باضمحل علمهم وقيل كلتا الصيغتين على معناهما الظاهر أى تكامل واستحكم أو تم أسباب علمهم بأن القيامة كائنة لامحالة من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون فى ذلك وقوله تعالى بل هم فى شك منها إضراب وانتقال من وصفهم بمطلق الجهل إلى وصفهم بالشك وقوله تعالى بل هم منها عمون إضراب من وصفهم بالشك إلى وصفهم بما هو أشد منه وأفظع من العمى وأنت خبير بأن تنزيل أسباب العلم منزلة العلم سنن مسلوك لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة وقيل المراد وصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكم بهم فيكون وصفاً لهم بالجهل مبالغة والإضرابان على ماذكر وأصل ادارك تدارك وبه قرأ أبى فأبدلت التاء دالا وسكنت فتعذر الابتداء فاجتلبت همزة الوصل فصار اداركوقرىء بل ادرك وأصله افتعل وبل أأدرك بهمزتين وبل آأدرك بألف بينهما وبل ادرك بالتخفيف والنقل وبل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل ادرك على الاستفهام وبلى ادرك وبلى أأدرك وأم تدارك وأم أدرك فهذه ثنتا عشرة قراءة فما فيه استفهام صريح أو مضمن من ذلك فهو إنكار ونفى وما فيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإدراك على وجه التهكم الذى هو أبلغ وجوه النفى والإنكار وما بعده إضراب عن التفسير مبالغة فى النفى ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عمون أورد وإنكار
٦٧ لشعورهم (وقال الذين كفروا) بيان لجهلهم بالآخرة وعمههم منها بحكاية إنكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز صلته والإشعار بعلة حكمهم الباطل فى قولهم (أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون) أى أنخرج من القبور إذا كنا تراباً كما ينبىء عنه مخرجون ولا مساغ لأن يكون هو العامل فى إذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقييد الإخراج بوقت كونهم تراباً ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذ فقط فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقا وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج فى حالة منافية له وقوله تعالى وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل مع الخبر مقام الفصل بالتأكيد وتكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى الإنكار وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور

لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ٢٧ النمل

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٢٧ النمل

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ٢٧ النمل

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ ٢٧ النمل

قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ٢٧ النمل

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ٢٧ النمل

---

٦٨ وقرىء إذا كنا بهمزة واحدة مكسورة وقرىء إنا لمخرجون على الخبر (لقد وعدنا هذا) أى الإخراج
(نحن وآباؤنا من قبل) أى من قبل وعده عليه الصلاة والسلام وتقديم الموعود على نحن لأنه المقصود
بالذكر وحيث أخر قصد به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الإنكار وتصديرها بالقسم لمزيد
٦٩ التأكيد وقوله تعالى (إن هذا إلا أساطير الأولين) تقرير إثر تقرير (قل سيروا فى الأرض فانظروا
كيف كان عاقبة المجرمين) بسبب تكذيبهم الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله
عز وجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فإن فى مشاهدة عاقبتهم مافيه كفاية لأولى الأبصار وفى
٧٠ التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم (ولا تحزن عليهم) لإصرارهم على الكفر
والتكذيب (ولا تكن ضيق) فى حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم فإن الله تعالى يعصمك من الناس
وقرىء بكسر الضاد وهو أيضاً مصدر ويجوز أن يكون المفتوح مخففاً من ضيق وقد قرىء كذلك أى
٧١ لاتكن فى أمر ضيق (ويقولون متى هذا الوعد) أى العذاب العاجل الموعود (إن كنتم صادقين) فى
٧٢ إخباركم بإتيانه والجمع باعتبار شركة المؤمنين فى الإخبار بذلك (قل عسى أن يكون ردف لكم) أى تبعكم
ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد كالباء فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة أو الفعل مضمن معنى
فعل يعدى باللام وقرىء بفتح الدال وهى لغة فيه (بعض الذى تستعجلون) وهو عذاب يوم بدر
وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار وإشعاراً بأن الرمز
من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك يجرى وعد الله تعالى ووعيده وإيثار ماعليه النظم الكريم على
٧٣ أن يقال عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقق الوعد (وإن ربك لذو فضل على الناس) أى لذو
أفضال وإنعام على كافة الناس ومن جملة إنعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على مايرتكبونه من المعاصى التى
من جملتها استعجال العذاب (ولكن أكثرهم لايشكرون) لا يعرفون حق النعمة فيه فلايشكرونه بل
يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ٢٧ النمل

وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ٢٧ النمل

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ٢٧ النمل

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ٢٧ النمل

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ٢٧ النمل

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ٢٧ النمل

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ٢٧ النمل

(وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم) أى ماتخفيه وقرىء بفتح التاء من كننت الشىء إذا سترته (وما يعلنون) ٧٤
من الأفعال والأقوال التى من جملتها ماحكى عنهم من استعجال العذاب وفيه إيذان بأن لهم قبائح غير
مايظهرونه وأنه تعالى يجازيهم على الكل وتقديم السر على العلن قدمر سره فى سورة البقرة عند قوله تعالى
أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون (وما من غائبة فى السماء والأرض) أى من خافية فيهما ٧٥
وهما من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كما فى الرواية أو اسمان لما يغيب ويخفى والتاء للنقل إلى الاسمية (إلا
فى كتاب مبين) أى بين أو مبين لما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل هو القضاء العدل بطاريق
الاستعارة (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) من جملته مااختلفوا فى ٧٦
شأن المسيح وتحزبوا فيه أحزاباً وركبوا متن العتو والغلو فى الإفراط والتفريط والتشبيه والتنزيه ووقع
بينهم التناكد فى أشياء حتى بلغ المشاقة إلى حيث لعن بعضهم بعضاً وقد نزل القرآن الكريم ببيان كنه الأمر
لوكانوا فى حيز الإنصاف (وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) على الإطلاق فيدخل فيهم من آمن من بنى إسرائيل ٧٧
دخولا أولياً (إن ربك يقضى بينهم) أى بين بنى إسرائيل (بحكمه) بما يحكم به وهو الحق أو بحكمته ٧٨
ويؤيده أنه قرىء بحكمه (وهو العزيز) فلا يرد حكمه وقضاؤه (العليم) بجميع الأشياء التى من جملتها
مايقضى به والفاء فى قوله تعالى (فتوكل على الله) لترتيب الأمر على ما ذكر من شئونه عز وجل فإنها ٧٩
موجبة للتوكل عليه وداعية إلى الأمر به أى فتوكل على الله الذى هذا شأنه فإنه موجب على كل أحد أن
يتوكل عليه ويفوض جميع أموره إليه وقوله تعالى (إنك على الحق المبين) تعليل صريح للتوكل عليه تعالى
بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق البين أو الفاصل بينه وبين الباطل أو بين المحق والمبطل فإن كونه
عليه الصلاة والسلام كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى ونصرته وتأييده لامحالة وقوله تعالى (إنك ٨٠

وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ٢٧ النمل

وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ٢٧ النمل

لا تسمع الموتى) الخ تعليل آخر للتوكل الذى هو عبارة عن التبتل إلى الله تعالى وتفويض الأمر إليه والإعراض عن التشبث بما سواه وقد علل أولا بما يوجبه من جهته تعالى أعنى قضاءه بالحق وعزته وعلمه تعالى وثانياً بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعنى كونه عليه الصلاة والسلام على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى إعانته تعالى وتأييده للمحق ثم علل ثالثاً بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التشبث بما سواه تعالى فإن كونهم كالموتى والصم والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأساً وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى وإنما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع وإطلاق الإسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشىء من المسموعات ولعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فإن القلب مشعر من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة ثم بين بطلان مشعرى الأذن والعين كما فى قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية (ولا تسمع الصم الدعاء) أى الدعوة إلى أمر من الأمور وتقييد النفى بقوله تعالى (إذا ولوا مدبرين) لتكميل التشبيه وتأكيد النفى فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ولا ريب فى أن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعى
٨١ بمقابلة صماخه قريباً منه فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه وقرىء ولا يسمع الصم الدعاء (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) هداية موصلة إلى المطلوب كما فى قوله تعالى إنك لا تهدى من أحببت فإن الاهتداء منوط بالبصر وعن متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه معنى الصرف وقيل بالعمى يقال عمى عن كذا وفيه بعد وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية وقرىء وما أنت تهدى العمى (إن تسمع) أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعاً (إلا من يؤمن بآياتنا) أى من من شأنهم الإيمان بها وإيراد الإسماع فى النفى والإثبات دون الهداية مع قربها بأن يقال إن تهدى إلا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية (فهم مسلمون) تعليل لإيمانهم بها كأنه قيل فإنهم منقادون للحق وقيل مخلصون لله
٨٢ تعالى من قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله (وإذا وقع القول عليهم) بيان لما أشير إليه بقوله تعالى بعض الذى تستعجلون من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجىء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التى كانوا يستعجلونها وبوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للإيذان بشدة وقعها وتأثيرها وإسناده إلى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث إنها مصداق للقول الناطق بمجيئها وقد أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما فى قوله تعالى أتى أمر الله أى إذا دنا وقوع مدلول القول

المذكور الذى لا يكادون يسمعونه ومصداقه (أخرجنا لهم دابة من الأرض) وهى الجساسة وفى التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمى من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان مالا يخفى وقد ورد فى الحديث أن طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى أن لها أربع قوائم ولها زغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير ومابين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه الرجل وباقى خلقها خلق الطير وروى عن على رضى الله عنه أنه قال ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير إلى أنه رجل والمشهور أنها دابة وروى لاتخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه فيها كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن رضى الله عنه لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام وعن على رضى الله عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج كل يوم إلا ثلثها وعن النبى ﷺ أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعنى المسجد الحرام وروى أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهراً طويلا فبينا الناس فى أعظم المساجد حرمة على الله تعالى وأكرمها فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة وقيل تخرج من الصفا وروى بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلى المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتضرب المؤمن فى مسجده بالعصا فتنكت نكتة بيضاء فتفشو حتى يضىء لها وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن وتنكت الكافر بالخاتم فى أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم أنت يافلان من أهل الجنة وأنت يافلان من أهل النار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يارسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتتكلم بالعربية بلسان ذلق وذلك قوله تعالى (تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) أى تكلمهم بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجىء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التى من جملتها تلك الآيات وقيل بآياته التى من جملتها خروجها بين يدى الساعة والأول هو الحق كما ستحيط به علماً وقرىء بأن الناس الآية وإضافة الآيات إلى نون العظمة لأنها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها وقيل لأنها حكاية منها لقول الله عزوجل وقيل لاختصاصها به تعالى وإثرتها عنده كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا وإنما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك مضاف محذوف أى بآيات ربنا ووصفهم بعدم الإيقان بها مع أنهم كانوا جاحدين بها للإيذان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحتها وقد اتصفوا بنقيضه وقرىء إن الناس بالكسر على إضمار القول أو إجراء الكلام مجراه والكلام فى الإضافة كالذى سبق وقيل هو استئناف مسوق من جهته تعالى لتعليل إخراجها أو تكليمها ويرده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ٢٧ النمل

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ٢٧ النمل

وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ٢٧ النمل

فإنه صريح فى كونه حكاية لعدم إيقانهم السابق فى الدنيا والمراد بالناس إما الكفرة على الإطلاق أو
مشركو مكة وقد روى عن وهب أنها تخبر كل من تراه أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون
وقرىء تكلمهم من الكلم الذى هو الجرح والمراد به مانقل من الوسم بالعصا والخاتم وقد جوز كون
٨٣ القراءة المشهورة أيضاً منه لمعنى التكثير ولا يخفى بعده (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) بيان إجمالى لحال
المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبى ﷺ والمراد
بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلى الشامل لكافة الخلق وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت
مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مراراً أى واذكر لهم وقت حشرنا أى
جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة فمن
تبعيضية لأن كل أمة منقسمة إلى مصدق ومكذب وقوله تعالى (ممن يكذب بآياتنا) بيان للفوج أى فوجا
مكذبين بها (فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ
والمناقشة وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم مالا يخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما
أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدى أهل مكة وهكذا يحشر قادة سائر الأمم
٨٤ بين أيديهم إلى النار (حتى إذا جاءوا) إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب (قال) أى الله
عز وجل موبخاً لهم على التكذيب والالتفات لتربية المهابة (أكذبتم بآياتى) الناطقة بلقاء يومكم هذا
وقوله تعالى (ولم تحيطوا بها علماً) جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للإنكار
والتوبيخ أى أكذبتم بها بادىء الرأى غير ناظرين فيها نظراً يؤدى إلى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق
حتما وهذا نص فى أن المراد بالآيات فيما سلف فى الموضعين هى الآيات القرآنية لأنها هى المنطوية على
دلائل الصحة وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علماً مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس
الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على كذبتم أى أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر بها (أم ماذا كنتم
تعملون) أى أم أى شىء كنتم تعملون بها أو أم أى شىء كنتم تعملون غير ذلك بمعنى أنه لم يكن لهم عمل
غير ذلك كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعاصى مع أنهم ماخلقوا إلا للإيمان والطاعة يخاطبون بذلك
٨٥ تبكيتاً ثم يكبون فى النار وذلك قوله تعالى (ووقع القول عليهم) أى حل بهم العذاب الذى هو مدلول
القول الناطق بحلوله ونزوله (بما ظلموا) بسبب ظلمهم الذى هو تكذيبهم بآيات الله (فهم لا ينطقون)
لانقطاعهم عن الجواب بالكلية وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم .

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ٢٧ النمل
وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ
أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾
٢٧ النمل

٨٦ (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) الرؤية قلبية لا بصرية لأن نفس الليل والنهار وإن كانا من المبصرات
لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات أى ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا
فيه بالنوم والقرار (والنهار مبصراً) أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب فى أمور المعاش فبولغ
فيه حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس حالا له ووصفاً من أوصافه التى جعل عليها بحيث لا ينفك
عنها ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى
الإبصار (إن فى ذلك) أى فى جعلهما كما وصفا وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإشعار ببعد درجته
فى الفضل (لآيات) أى عظيمة كثيرة (لقوم يؤمنون) دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة
واضحة كيف لا وأن من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائقة
تحار فى فهمها العقول ولا يحيط بها إلا الله عز وجل وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت
بضياء النهار المضاهى للحياة وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة
قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور قضاء متقنا وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا
أنموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهاناً عليه وسائر
٨٧ الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور) إما معطوف على يوم نحشر منصوب
بناصبه أو بمضمر معطوف عليه والصور هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام. عن أبى هريرة
رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه
إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش متى يؤمر قال قلت يارسول الله ما الصور قال
القرن قال قلت كيف هو قال عظيم والذى نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فيؤمر
بالنفخ فيه فينفخ نفخة لا يبقى عندها فى الحياة أحد غير من شاء الله تعالى وذلك قوله تعالى ونفخ فى الصور
فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا
بعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون والذى يستدعيه سياق النظم الكريم
وسياقه أن المراد بالنفخ ههنا هى النفخة الثانية وبالفزع فى قوله تعالى (ففزع من فى السموات ومن فى
الأرض) مايعترى الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات فى الأنفس
والآفاق من الرعب والتهيب الضرورى بين الجبليين وإيراد صيغة الماضى مع كون المعطوف عليه أعنى ينفخ
مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه إثر النفخ ولعل تأخير بيان الأحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان
مايقع بعدها من حشر المكذبين من كل أمة لتثنية التهويل بتكرير التذكير إيذاناً بأن كل واحد منهما

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ٢٧ النمل

طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعى الترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل داهية واحدة قد أمر بذكرها كما مر فى قصة البقرة (إلا من شاء الله) أى أن لا يفزع قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام وقيل الحور والخزنة وحملة العرش (وكل) أى كل واحد من المبعوثين عند النفخة (أتوه) حضروا الموقف بين يدى رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب وقرىء أتاه باعتبار لفظ الكل كما أن القراءة الأولى باعتبار معناه وقرىء آتوه أى
٨٨ حاضروه (داخرين) أى صاغرين وقرىء دخرين وقوله تعالى (وترى الجبال) عطف على ينفخ داخل فى حكم التذكير وقوله عز وجل (تحسبها جامدة) أى ثابتة فى أماكنها إما بدل منه أو حال من ضمير ترى أو من مفعوله وقوله تعالى (وهى تمر مر السحاب) حال من ضمير الجبال فى تحسبها أو فى جامدة أى تراها رأى العين ساكنة والحال أنها تمر مر السحاب التى تسيرها الرياح سيراً حثيثاً وذلك أن الأجرام العظام إذا تحركت نحو سمت لا تكاد تتبين حركتها وعليه قول من قال [بأرعن مثل الطود تحسب أنهم * وقوف لحاج والركاب تهملج] وقد أدمج فى هذا التشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما فى قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش وهذا أيضاً مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عز وجل الأرض غير الأرض ويغير هيآتها ويسير الجبال عن مقارها على ماذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهى وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعا صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً يومئذ يتبعون الداعى وقوله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فإن اتباع الداعى الذى هو إسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لا يكون إلا بعد النفخة الثانية وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم أن صيغة الماضى فى المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك هذا وقد قيل إن المراد هى النفخة الأولى والفزع هو الذى يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الآية فيختص أثرها بما كان حياً عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الأمم وجوز أن يراد بالإتيان داخرين رجوعهم إلى أمره تعالى وانقيادهم له ولا ريب فى أن ذلك مما ينبغى أن ينزه ساحة التنزيل عن أمثاله وأبعد من هذا ماقيل إن المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التى تكون قبل نفخة الصعق وهى التى أريدت بقوله تعالى ماينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق فيسير الله تعالى عندها الجبال فتمر مر السحاب فتكون سراباً وترج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الموثقة فى البحر أو كالقنديل المعلق ترجحه الأرواح

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ٢٧ النمل

وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ٢٧ النمل

فإنه مما لا ارتباط له بالمقام قطعاً والحق الذى لامحيد عنه ماقدمناه ومما هو نص فى الباب ماسيأتى من قوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون ماقبله أى صنع الله ذلك صنعاً على أنه عبارة عما ذكر من النفخ فى الصور وما ترتب عليه جميعاً قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل وتهويل أمرها والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يدعو إليها داعية أو يكون لها عاقبة بل هى من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجميلة التى لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادى الإبداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى (الذى أتقن كل شىء) أى أحكم خلقه وسواه على ماتقتضيه الحكمة وقوله تعالى (إنه خبير بما تفعلون) تعليل لكون ماذكر صنعاً محكماً له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يدعو إلى إظهارها وبيان كيفياتها على ماهى عليه من الحسن والسوء وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والأرض والجبال على وفق مانطق به التنزيل ليتحققوا بمشاهدة ذلك أن وعد

٨٩ حق لاريب فيه وقرىء خبير بما يفعلون وقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها أى من جاء منكم أو من أولئك الذين أتوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ماهو خير منها إما باعتبار أنه أضعافها وإما باعتبار دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة (وهم) أى الذين جاءوا بالحسنات (من فزع) أى عظيم هائل لا يقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيئات وهو الذى فى قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الأكبر وعن الحسن رحمه الله تعالى حين يؤمر بالعبد إلى النار وقال ابن جريج حين يذبح الموت وينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت (يومئذ) أى يوم إذ ينفخ فى الصور (آمنون) لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ولا يلحقهم ضرره أصلا وأما الفزع الذى يعترى كل من فى السموات ومن فى الأرض غير من استثناه الله تعالى فإنما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهى والأهوال ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وإن كان آمنا من لحوق الضرر والأمن يستعمل بالجار وبدونه كما فى قوله تعالى أفأمنوا مكر الله وقرىء من فزع يومئذ بالإضافة مع كسر الميم وفتحها أيضاً والمراد هو الفزع المذكور فى القراءة الأولى لاجميع الأفزاع الحاصلة يومئذ ومدار الإضافة كونه أعظم الأفزاع وأكبرها كأن ماعداه ليس

٩٠ بفزع بالنسبة إليه (ومن جاء بالسيئة) قيل هو الشرك (فكبت وجوههم فى النار) أى كبوا فيها على وجوههم منكوسين أو كبت فيها أنفسهم على طريقة ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) على الالتفات للتشديد أو على إضمار القول أى مقولا لهم ذلك .

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ٢٧ النمل

وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ٢٧ النمل

٩١ (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) أمر ﷺ أن يقول لهم ذلك بعد مابين لهم أحوال
المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبيهاً لهم على أنه قد أتم أمر الدعوة بما لامزيد عليه ولم يبق له ﷺ
بعدذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عز وجل والاستغراق فى مراقبته غير مبالبهم ضلوا أم رشدوا
صلحوا أو فسدوا ليحملهم ذلك على أن يهتموا بأمور أنفسهم ولا يتوهموا من شدة اعتنائه ﷺ بأمر
دعوتهم أنه ﷺ يظهر لهم مايلجئهم إلى الإيمان لامحالة ويشتغلوا بتداركأحوالهم ويتوجهوا نحو التدبر
فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والبلدة هى مكة المعظمة وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها
والتعرض لتحريمه تعالى إياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم إثر تعظيم مع مافيه من الإشعار بعلة
الأمر وموجب الامتثال به كما فى قوله تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من
خوف ومن الرمز إلى غاية شناعة مافعلوا فيها ألا يرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء
خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وإرادة الإلحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطى
أفجر أفراد الفجور وأشنع آحاد الإلحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على
عبادتها قاتلهم الله أنى يؤفكون وقرىء حرمها بالتخفيف وقوله تعالى (وله كل شىء) أى خلقاً وملكا
وتصرفاً من غير أن يشاركه شىء فى شىء من ذلك تحقيق للحق وتنبيه على أن إفراد مكة بالإضافة لما ذكر
من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى أثبت
على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة الإسلام والتوحيد أى الذين أسلموا وجوههم لله
٩٢ خالصة من قوله تعالى ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله (وأن أتلو القرآن) أى أواظب على تلاوته
لتنكشف لى حقائقه الرائعة المخزونة فى تضاعيفه شيئاً فشيئاً أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير
الدعوة وتثنية الإرشاد فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته فى الهداية والإرشاد من غير حاجة إلى إظهار
معجزة أخرى فمعنى قوله تعالى (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) حينئذ فمن اهتدى بالإيمان به والعمل
بمافيه من الشرائع والأحكام وعلى الأول فمن اهتدى باتباعه إياى فيما ذكر من العبادة والإسلام وتلاوة
القرآن فإنما منافع اهتدائه عائدة إليه لا إلى (ومن ضل) بالكفر به والإعراض عن العمل بما فيه أو
بمخالفتى فيما ذكر (فقل) فى حقه (إنما أنا من المنذرين) وقد خرجت عن عهدة الإنذار فليس على من
وبال ضلاله شىء وإنما هو عليه فقط .

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ٢٧ النمل

٩٣ (وقل الحمد لله) أى على ما أفاض على من نعمائه التى أجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين النيرة وقوله تعالى (سيريكم آياته) من جملة الكلام المأمور به أى سيريكم البتة فى الدنيا آياته الباهرة التى نطق بها القرآن كخروج الدابة وسائر الأشراط وقد عد منها وقعة بدر ويأباه قوله تعالى (فتعرفونها) أى فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لا تنفعكم المعرفة لأنهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيريكم فى الآخرة وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبىء عنه إضافة الرب إلى ضمير النبى ﷺ وتخصيص الخطاب أولا به ﷺ وتعميمه ثانياً للكفرة تغليباً أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة وقرىء عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض والمعنى وما ربك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجبة له والله تعالى أعلم . عن النبى ﷺ من قرأ سورة طس كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وهود وصالح وإبراهيم وشعيب عليهم الصلاة والسلام ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا الله .

﴿ تم بحمد الله الجزء السادس ويليه الجزء السابع وأوله سورة القصص ﴾

سورة النمل

ترتيبها ٢٧ — آياتها ٩٣

وتسمى أيضاً كما في الدر المنثور سورة سليمان، وهي مكية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم، وذهب بعضهم إلى مدنية بعض آياتها كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وعدد آياتها خمس وتسعون آية حجازي وأربع بصري وشامي وثلاث كوفي، ووجه اتصالها بما قبلها أنها كالتتمة لها حيث زاد سبحانه فيها ذكر داود وسليمان وبسط فيها قصة لوط عليه السلام أبسط مما هي قبل وقد وقع فيها ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً﴾ [النمل: ٧] إلخ وذلك كالتفصيل لقوله سبحانه فيما قبل: ﴿فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾ [الشعراء: ٢١] وقد اشتمل كل من السورتين على ذكر القرآن وكونه من الله تعالى وعلى تسليته ﷺ إلى غير ذلك، وروي عن ابن عباس وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم طس ثم القصص .

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم

طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ
﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾
إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِى تِسْعِ
ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾

﴿ **طس** ﴾ قرىء بالإمالة وعدمها، والكلام فيه كالكلام في نظائره من الفواتح.

﴿**تلك**﴾ إشارة إلى السورة المذكورة، وأداة البعد للإشارة إلى بعد المنزلة في الفضل والشرف أو إلى الآيات التي تتلى بعد نظير الإشارة في قوله تعالى: ﴿ألم ذلك الكتاب﴾ [البقرة: ١، ٢] أو إلى مطلق الآيات، ومحله الرفع

على الابتداء خبره قوله تعالى: ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ والجملة مستأنفة أو خبر لقوله تعالى: ﴿طس﴾ وإضافة ﴿آيات﴾ إلى ﴿القرآن﴾ لتعظيم شأنها فإن المراد به المنزل المبارك المصدق لما بين يديه الموصوف بالكمالات التي لا نهاية لها، ويطلق على كل المنزل عليه ﷺ للإعجاز وعلى بعض منه، وجوز هنا إرادة كل من المعنيين وإذا أريد الثاني فالمراد بالبعض جميع المنزل عند نزول السورة، وقوله تعالى: ﴿وَكِتَاب مُبِين﴾ عطف على ﴿القرآن﴾ والمراد به القرآن وعطفه عليه مع اتحاده معه في الصدق كعطف إحدى الصفتين على الأخرى كما في قولهم: هذا فعل السخي والجواد الكريم، وتنوينه للتفخيم، و «المبين» إما من أبان المتعدي أي مظهر ما في تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال القرون الأولى وأحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب أو سبيل الرشد والغيّ أو نحو ذلك، والمشهور في أمثال هذا الحذف أنه يفيد العموم. وأما من أبان اللازم بمعنى بأن أي ظاهر الإعجاز أو ظاهر الصحة للإعجاز وهو على الاحتمالين صفة مادحة لكتاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة.

ولما كان في التنكير نوع من الفخامة وفي التعريف نوع آخر وكان الغرض الجمع للاستيعاب الكامل عرف القرآن ونكر الكتاب وعكس في الحجر، وقدم المعرف في الموضعين لزيادة التنويه، ولما عقبه سبحانه بالحديث عن الخصوص هاهنا قدم كونه قرآناً لأنه أدل على خصوص المنزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم للإعجاز كذا في الكشف.

وقال بعض الأجلة: قدم الوصف الأول هاهنا نظراً إلى حال تقدم القرآنية على حال الكتابية وعكس هنالك لأن المراد تفخيمه من حيث اشتماله على كمال جنس الكتب الإلهية حتى كأنه كلها ومن حيث كونه ممتازاً عن غيره نسيج وحده بديعاً في بابه والإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل في المدح لئلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتماله على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة، وفي هذا حمل أل على الجنس في الكتاب.

والظاهر أنها في ﴿القرآن﴾ للعهد فيختلف معناها في الموضعين وإليه يشير ظاهر كلام الكشاف كما قيل، واعتذر له بأنه إذا رجع المعنيان إلى التفخيم فلا بأس بمثل هذا الاختلاف، وجوز أن تكون في الموضعين للعهد وأن تكون فيهما للجنس فتأمل، وقيل: إن اختصاص كل من الموضعين بما اختص به من تعيين الطريق.

وجوز أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو يبينه للناظرين فيه، وتأخيره هنا عن القرآن باعتبار تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر عليه باعتبار الوجود الخارجي فإن القرآن بمعنى المقروء لنا مؤخر عن اللوح المحفوظ ولا يخفى أن إرادة غير اللوح من الكتاب أظهر. وقال بعضهم: لا يساعد إرادة اللوح منه هاهنا إضافة الآيات إليه إذ لا عهد باشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة إذ هما باعتبار إبانته فلا بد من اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا إلى الناظرين فيه.

وقرأ ابن أبي عبلة «وكتابٌ مبينٌ» برفعهما، وخرج على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي وآيات كتاب، وقيل: يجوز عدم اعتبار الحذف والكتاب لكونه مصدراً في الأصل يجوز الإخبار به عن المؤنث، وقيل: رب شيء يجوز تبعاً ولا يجوز استقلالاً ألا ترى أنهم حظروا جاءتني زيد وأجازوا جاءتني هند وزيد، وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ في حيز النصب على الحالية من ﴿آيات﴾ على إقامة المصدر مقام الفاعل فيه للمبالغة كأنها نفس الهدى والبشارة، والعامل معنى الإشارة وهو الذي سمته النحاة عاملاً معنوياً.

وجوز أبو البقاء على قراءة الرفع في ﴿كتاب﴾ كون الحال منه ثم قال: ويضعف أن يكون من المجرور ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿مبين﴾ على القراءتين، وجوز أبو حيان كون النصب على المصدرية أي تهدي هدي وتبشر بشرى أو الرفع على البدلية من ﴿آيات﴾، واشتراط الكوفيين في إبدال النكرة من المعرفة شرطين اتحاد اللفظ وأن تكون النكرة موصوفة نحو قوله تعالى: ﴿لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة﴾ [العلق: ١٥، ١٦] غير صحيح كما في شرح التسهيل لشهادة السماع بخلافه أو على أنه خبر بعد خبر لتلك أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي هدىً وبشرى ﴿لِلْمُؤْمنينَ﴾ يحتمل أن يكون قيداً للهدى والبشرى معاً، ومعنى هداية الآيات لهم وهم مهتدون أنها تزيدهم هدى قال سبحانه: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ [التوبة: ١٢٤] وأما معنى تبشيرها إياهم فظاهر لأنها تبشرهم برحمة من الله تعالى ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم كذا قيل، وفي الحواشي الشهابية أن الهدى على هذا الاحتمال، إما بمعنى الاهتداء أو على ظاهره وتخصيص المؤمنين لأنهم المنتفعون به وإن كانت هدايتها عامة، وجعل المؤمنين بمعنى الصائرين للإيمان تكلف كحمل هداهم على زيادته، ويحتمل أن يكون قيداً للبشرى فقط ويبقى الهدى على العموم وهو بمعنى الدلالة والإرشاد أي هدى لجميع المكلفين وبشرى للمؤمنين ﴿الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاة﴾ صفة مادحة للمؤمنين، وكنى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن عمل الصالحات مطلقاً، وخصا لأنهما على ما قيل إما العبادة البدنية والمالية، والظاهر أنه حمل الزكاة على الزكاة المفروضة.

وتعقب بأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة، وقيل كان في مكة زكاة مفروضة إلا أنها لم تكن كالزكاة المفروضة بالمدينة فلتحمل في الآية عليها، وقيل: الزكاة هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق وهو خلاف المشهور في الزكاة المقرونة بالصلاة ويبعده تعليق الإيتاء بها، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالآخرَة هم يُوقنُونَ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على جملة الصلة، ويحتمل أن يكون في موضع الحال من ضمير الموصول، ويحتمل أن يكون استئنافاً جيء به للقصد إلى تأكيد ما وصف المؤمنون به من حيث إن الإيقان بالآخرة يستلزم الخوف المستلزم لتحمل مشاق التكليف فلا بد من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وقد أقيم الضمير فيه مقام اسم الإشارة المفيد لاكتساب الخلافة بالحكم باعتبار السوابق فكأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، وسمى الزمخشري هذا الاستئناف اعتراضاً وكونه لا يكون إلا بين شيئين يتعلق أحدهما بالآخر كالمبتدأ والخبر غير مسلم عنده.

واختار هذا الاحتمال فقال: إنه الوجه ويدل عليه أنه عقد الكلام جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو ﴿هم﴾ حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق انتهى. وأنكر ابن المنير إفادة نحو هذا التركيب الاختصاص وادعى أن تكرار الضمير للنظرية لمكان الفصل بين الضميرين بالجار والمجرور، والحق أنه يفيد ذلك كما صرحوا به في نحو هو عرف، وكذا يفيد التأكيد لما فيه من تكرار الضمير.

وزعم أبو حيان أن فيما ذكره الزمخشري دسيسة الاعتزال، ولا يخفى أنه ليس في كلامه أكثر من الإشارة إلى أن المؤمن العاصي لم يوقن بالآخرة حق الإيقان، ولعل جعل ذلك دسيسة مبني على أنه بنى ذلك على مذهبه في أصحاب الكبائر وقوله فيهم بالمنزلة بين المنزلتين. وأنت تعلم أن القول بما اختاره في الآية لا يتوقف على القول المذكور؛ وتغيير النظم الكريم على الوجهين الأولين لما لا يخفى، وتقديم ﴿بالآخرة﴾ في جميع الأوجه لرعاية الفاصلة، وجوز أن يكون للحصر الإضافي كما في الحواشي الشهابية ﴿إِنَّ الَّذينَ لاَ يُؤْمنُونَ بالآخرة﴾ بيان لأحوال

الكفرة بعد أحوال المؤمنين أي لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على الأعمال السيئة حسبما ينطق به القرآن ﴿**زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ**﴾ القبيحة بما ركبنا فيهم من الشهوات والأماني حتى رأوها حسنة ﴿**فَهُمْ يَعْمَهُونَ**﴾ يتحيرون ويترددون والاستمرار في الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها. والفاء لترتيب المسبب على السبب. ونسبة التزيين إليه عز وجل عند الجماعة حقيقة وكذا التزيين نفسه، وذهب الزمخشري إلى أن التزيين إما مستعار للتمتيع بطول العمر وسعة الرزق وإما حقيقة وإسناده إليه سبحانه وتعالى مجاز وهو حقيقة للشيطان كما في قوله تعالى: ﴿زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ [الأنفال: ٤٨].

والمصحح لهذا المجاز إمهاله تعالى الشيطان وتخليته حتى يزين لهم. والداعي له إلى أحد الأمرين إيجاب رعاية الأصلح عليه عز وجل. ونسب إلى الحسن أن المراد بالأعمال الأعمال الحسنة وتزيينها بيان حسنها في أنفسها حالاً واستتباعها لفنون المنافع مآلاً أي زينا لهم الأعمال الحسنة فهم يترددون في الضلال والإعراض عنها.

والفاء عليه لترتيب ضد المسبب على السبب كما في قولك: وعظته فلم يتعظ، وفيه إيذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم الأمور، وتعقب هذا القول بأن التزيين قد ورد غالباً في غير الخير نحو قوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ [آل عمران: ١٤] ﴿زين الذين كفروا الحياة الدنيا﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿زين لكثير من المشركين﴾ [الأنعام: ١٣٧] إلخ وروده في الخير قليل نحو قوله تعالى: ﴿حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ [الحجرات: ٧] ويبعد حمل الأعمال على الأعمال الحسنة إضافتها إلى ضميرهم وهم لم يعملوا حسنة أصلاً. وكون إضافتها إلى ذلك باعتبار أمرهم بها، وإيجابها عليهم لا يدفع البعد.

وذكر الطيبي أنه يؤيد ما ذكر أولاً أن وزان فاتحة هذه السورة إلى هاهنا وزان فاتحة البقرة فقوله تعالى: ﴿**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ كقوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا**﴾ وقوله سبحانه: ﴿**زينا لهم أعمالهم**﴾ كقوله جل وعلا: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة: ٧].

وقد سبق بيان وجه دلالة ذلك على مذهب الجماعة هناك وإن التركيب من باب تحقيق الخبر وإن المعنى استمرارهم على الكفر وإنهم بحيث لا يتوقع منهم الإيمان ساعة فساعة أمارة لرقم الشقاء عليهم في الأزل والختم على قلوبهم وأنه تعالى زين لهم سوء أعمالهم فهم لذلك في تيه الضلال يترددون وفي بيداء الكفر يعمهون، ودل على هذا التأويل إيقاع لفظ المضارع في صلة الموصول والماضي في خبره وترتيب قوله تعالى: ﴿**فهم يعمهون**﴾ بالفاء عليه، واختصاص الخطاب بما يدل على الكبرياء والجبروت من باب تحقيق الخبر نحو قول الشاعر:

إن التي ضربت بيتاً مهاجرة ... بكوفة الجند غالت ودها غول

وفي الأخبار الصحيحة ما ينصر هذا التأويل أيضاً ﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ إشارة إلى المذكورين الموصوفين بالكفر والعمه وهو مبتدأ خبره ﴿**الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾ يحتمل أن يكون المراد لهم ذلك في الدنيا بأن يقتلوا أو يؤسروا أو تشدد عليهم سكرات الموت لقوله تعالى: ﴿**وَهُمْ فِي الآخرةَ هُمُ الأَخْسَرُونَ**﴾ ويحتمل أن يكون المراد لهم ذلك في الدارين وهو الذي استظهره أبو حيان ويكون قوله تعالى: ﴿**وهم**﴾ إلخ لبيان أن ما في الآخرة أعظم العذابين بناءً على أن «الأخسرين» أفعل تفضيل، والتفضيل باعتبار حاليهم في الدارين أي هم في الآخرة أخسر منهم في الدنيا لا غيرهم كما يدل عليه تعريف الجزأين على معنى أن خسرانهم في الآخرة أعظم من خسرانهم في الدنيا من حيث إن عذابهم في الآخرة غير منقطع أصلاً وعذابهم في الدنيا منقطع ولا كذلك غيرهم من عصاة المؤمنين لأن خسرانهم في الآخرة

ليس أعظم من خسرانهم في الدنيا من هذه الحيثية فإن عذابهم في الآخرة ينقطع ويعقبه نعيم الأبد حتى يكادوا لا يخطر ببالهم أنهم عذبوا كذا قيل.

وقال بعضهم: إن التفضيل باعتبار ما في الآخرة أي هم في الآخرة أشد الناس خسراناً لا غيرهم لحرمانهم الثواب واستمرارهم في العقاب بخلاف عصاة المؤمنين، ويلزم من ذلك كون عذابهم في الآخرة أعظم من عذابهم في الدنيا ويكفي هذا في البيان، وقال الكرماني: إن أفعل هنا للمبالغة لا للشركة، قال أبو حيان: كأنه يقول: ليس للمؤمن خسران البتة حتى يشركه فيه الكافر ويزيد عليه ولم يتفطن لكون المراد أن خسران الكافر في الآخرة أشد من خسرانه في الدنيا فالاشتراك الذي يدل عليه أفعل إنما هو بين ما في الآخرة وما في الدنيا ا هـ كلامه. وكأنه يسلم أن ليس للمؤمن خسران البتة وفيه بحث لا يخفى، وتقديم ﴿في الآخرة﴾ إما للفاصلة أو للحصر، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ كلام مستأنف سيق بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم تمهيداً لما يعقبه من الأقاصيص، وتصديره بحرفي التأكيد لإبراز كمال العناية بمضمونه وبنى الفعل للمفعول وحذف الفاعل وهو جبريل عليه السلام للدلالة عليه في قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء: ١٤٣] ولقي المخفف يتعدى لواحد والمضاعف يتعدى لاثنين وهما هنا نائب الفاعل والقرآن، والمراد وإنك لتعطي القرآن تلقنه ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي أي حكيم وأي عليم، وفي تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام في معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، والحكمة كما قال الراغب من الله عز وجل معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات وجمع بينها وبين العلم مع أنه داخل في معناها لغة كما سمعت لعمومه إذ هو يتعلق بالمعدومات ويكون بلا عمل ودلالة الحكمة على أحكام العمل وإتقانه وللإشعار بأن ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالشرائع ومنها ما هو ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض من القرآن الذي تلقاه ﷺ من لدنه عز وجل تقريراً لما قبله وتحقيقاً له أي اذكر لهم وقت قول موسى عليه السلام لأهله، وجوز أن تكون ﴿إذ﴾ ظرفاً لعليم. وتعقبه في البحر بأن ذلك ليس بواضح إذ يصير الوصف مقيداً بالمعمول، وقال في الكشف: ما يتوهم من دخل التقييد بوقت معين مندفع إذ ليس مفهوماً معتبراً عند المعتبر ولأنه لما كان تمهيد القصة حسن أن يكون قيداً لها كأنه قيل: ما أعلمه حيث فعل بموسى عليه السلام ما فعل، ولما كان ذلك من دلائل العلم والحكمة على الإطلاق لم يضر التقييد بل نفع لرجوعه بالحقيقة إلى نوع من التعليل والتذكير ا هـ. ولا يخفى أن الظاهر مع هذا هو الوجه الأول ثم إن قول موسى عليه السلام ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ كان في أثناء سيره خارجاً من مدين عند وادي طوى وكان عليه السلام قد حاد عن الطريق في ليلة باردة مظلمة فقدح فاصلد زنده فبدا له من جانب الطور نار، والمراد بالخبر الذي يأتيهم به من جهة النار الخبر عن حال الطريق لأن من يذهب لضوء نار على الطريق يكون كذلك؛ ولم يجرد الفعل عن السين إما للدلالة على بعد مسافة النار في الجملة حتى لا يستوحشوا إن أبطأ عليه السلام عنهم أو لتأكيد الوعد بالإتيان فإنها كما ذكره الزمخشري تدخل في الوعد لتأكيده وبيان أنه كائن لا محالة وإن تأخر، وما قيل من أن السين للدلالة على تقريب المدة دفعاً للاستيحاش إنما ينفع على ما قيل في اختياره على سوف دون التجريد الذي يتبادر من الفعل معه الحال الذي هو أتم في دفع الاستيحاش.

ولعل الأولى اعتبار كونه للتأكيد، لا يقال: إنه عليه السلام لم يتكلم بالعربية وما ذكر من مباحثها لأنا نقول: ما

المانع من أن يكون في غير اللغة العربية ما يؤدي مؤداها بل حكاية القول عنه عليه السلام بهذه الألفاظ يقتضي أنه تكلم في لغته بما يؤدي ذلك ولا بد، وجمع الضمير إن صح أنه لم يكن معه عليه السلام غير امرأته للتعظيم وهو الوجه في تسمية الله تعالى شأنه امرأة موسى عليه السلام بالأهل مع أنه جماعة الأتباع ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها فقبس صفة شهاب أو بدل منه، وهذه قراءة الكوفيين ويعقوب، وقرأ باقي السبعة والحسن «بشهاب قبس» بالإضافة واختارها أبو الحسن وهي إضافة بيانية لما بينهما من العموم والخصوص كما في ثوب خز فإن الشهاب يكون قبساً وغير قبس، والعدتان على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في سورة طه فلا تدافع بين ما وقع هنا وما وقع هناك، والترديد للدلالة على أنه عليه السلام إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله عز وجل أنه لا يكاد يجمع حرمانين على عبد.

وقيل: يجوز أن يقال الترديد لأن احتياجه عليه السلام إلى أحدهما لا لهما لأنه كان في حال الترحال وقد ضل عن الطريق فمقصوده أن يجد أحداً يهدي إلى الطريق فيستمر في سفره فإن لم يجده يقتبس ناراً ويوقدها ويدفع ضرر البرد في الإقامة.

وتعقب بأنه قد ورد في القصة أنه عليه السلام كان قد ولد له عند الطور ابن في ليلة شاتية وظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته فرأى النار فقال لأهله ما قال وهو يدل على احتياجه لهما معاً لكنه تحرى عليه السلام الصدق فأتى بأو ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي رجاء أو لأجل أن تستدفئوا بها، والصلاة بكسر الصاد والمد ويفتح بالقصر الدنو من النار لتسخين البدن وهو الدفء ويطلق على النار نفسها أو هو بالكسر الدفء وبالفتح النار ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي النار التي قال فيها ﴿إني آنست ناراً﴾ وقيل: الضمير للشجرة وهو كما ترى، وما ظنه داعياً ليس بداع لما أشرنا إليه ﴿نُودِيَ﴾ أي موسى عليه السلام من جانب الطور ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ معناه أي بورك على أن أن مفسرة لما في النداء من معنى القول دون حروفه.

وجوز أن تكون أن المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، ومنعه بعضهم لعدم الفصل بينها وبين الفعل بقد أو السين أو سوف أو حرف النفي وهو مما لا بد منه إذا كانت مخففة لما في الحجة لأبي علي الفارسي أنها لما كانت لا يليها إلا الأسماء استقبحوا أن يليها الفعل من غير فاصل. وأجيب بأن ما ذكر ليس على إطلاقه. فقد صرحوا بعدم اشتراط الفصل في مواضع، منها ما يكون الفعل فيه دعاء فلعل من جوز كونها المخففة هاهنا جعل ﴿بورك﴾ دعاء على أنه يجوز أن يدعي أن الفصل بإحدى المذكورات في غير ما استثنى أغلبي لقوله:

علموا أن يؤملون فجادوا ... قبل أن يسألوا بأعظم سؤل

وجوز أن تكون المصدرية الناصبة للأفعال و ﴿بورك﴾ حينئذ إما خبر أو إنشاء للدعاء. وادعى الرضي أن بورك إذا جعل دعاء فإن مفسرة لا غير لأن المخففة لا يقع بعدها فعل إنشائي إجماعاً وكذا المصدرية وهو مخلف لما ذكره النحاة، ودعوى الإجماع ليست بصحيحة، والقول بأن يفوت معنى الطلب بعد التأويل بالمصدر قد تقدم ما فيه، وفي الكشف يمنع عن جعلها مصدرية عدم سداد المعنى لأن ﴿بورك﴾ إذ ذاك ليس يصلح بشارة وقد قالوا: إن تصدير الخطاب بذلك بشارة لموسى عليه السلام بأنه قد قضى له أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشأم كلها البركة وهذا بخلاف ما إذا كان ﴿بورك﴾ تفسيراً للشأن اهـ وفيه نظر، وعلى الوجهين الكلام على حذف حرف الجر أي نودي بأن إلخ، والجار والمجرور متعلق بما عنده وليس نائب الفاعل بل نائب الفاعل ضمير موسى عليه السلام، وقيل: هو نائب الفاعل ولا ضمير.

وقال بعضهم في الوجه الأول أيضاً إن الضمير القائم مقام الفاعل ليس لموسى عليه السلام بل هو لمصدر الفعل أي نودي هو أي النداء، وفسر النداء بما بعده، والأظهر في الضمير رجوعه لموسى وفي أن أنها مفسرة وفي ﴿**بورك**﴾ أنه خبر وهو من البركة وقد تقدم معناها، وقيل: هنا المعنى قدس وطهر وزيد خيراً ﴿**مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾ ذهب جماعة إلى أن في الكلام مضافاً مقدراً في موضعين أي من في مكان النار ومن حول مكانها قالوا: ومكانها البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة﴾ [القصص: ٣٠] وتدل على ذلك قراءة أبي «تباركت الأرض ومن حولها» واستظهر عموم من لكل ﴿**من**﴾ في ذلك الوادي وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء عليهم السلام وكفاتهم أحياء وأمواتاً ولا ولا سيما تلك البقعة التي كلم الله تعالى موسى عليه السلام فيها.

وقيل: من في النار موسى عليه السلام ومن حولها الملائكة الحاضرون عليهم السلام، وأيد بقراءة أبي فيما نقل أبو عمرو الداني وابن عباس ومجاهد وعكرمة «ومن حولها من الملائكة» وهي عند كثير تفسير لا قراءة لمخالفتها سواد المصحف المجمع عليه، وقيل: الأول الملائكة والثاني موسى عليهم السلام، واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجعل الظرفية مجازاً عن القرب التام، وذهب إلى القول الثاني في المراد بالموصولين، وأياً ما كان فالمراد بذلك بشارة موسى عليه السلام، والمراد بقوله تعالى على ما قيل: ﴿**وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ تعجيب له عليه السلام من ذلك وإيذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون، ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين أو خبر له عليه السلام بتنزيهه سبحانه لئلا يتوهم من سماع كلامه تعالى التشبيه بما للبشر أو طلب منه عليه السلام لذلك.

وجوز أن يكون تعجباً صادراً منه عليه السلام بتقدير القول أي وقال سبحان الله إلخ، وقال السدي: هو من كلام موسى عليه السلام قاله لما سمع النداء من الشجرة تنزيهاً لله تعالى عن سمات المحدثين، وكأنه على تقدير القول أيضاً، وجعل المقدر عطفاً على ﴿**نودي**﴾. وقال ابن شجرة: هو من كلام الله تعالى ومعناه وبورك من سبح الله تعالى رب العالمين، وهذا بعيد من دلالة اللفظ جداً، وقيل: هو خطاب لنبينا ﷺ مراد به التنزيه وجعل معترضاً بين ما تقدم وقوله تعالى: ﴿**يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ فإنه متصل معنى بذلك والضمير للشأن، وقوله سبحانه: ﴿**أنا الله**﴾ مبتدأ وخبر و ﴿**العزيز الحكيم**﴾ نعتان للاسم الجليل ممهران لما أريد إظهاره على يده من المعجزة أي أنا الله القوي القادر على ما لا تناله الأوهام من الأمور العظام التي من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رصين، والجملة خبر إن مفسرة لضمير الشأن.

وجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى ما دل عليه الكلام وهو المكلم المنادي و ﴿**أنا**﴾ خبر أي إن مكلمك المنادي لك أنا، والاسم الجليل عطف بيان لأنا، وتجوز البدلية عند من جوز إبدال الظاهر من ضمير المتكلم بدل كل، ويجوز أن يكون ﴿**أنا**﴾ توكيداً للضمير و ﴿**الله**﴾ الخبر. وتعقب أبو حيان إرجاع الضمير للمكلم المنادى بأنه إذا حذف الفاعل وبنى فعله للمفعول لا يجوز عود ضمير على ذلك المحذوف لأنه نقض للغرض من حذفه والعزم على أن لا يكون محدثاً عنه، وفيه أنه لم يقل أحد إنه عائد على الفاعل المحذوف بل على ما دل عليه الكلام ولو سلم فلا امتناع في ذلك إذا كان في جملة أخرى؛ وأيضاً قوله والعزم على أن لا يكون محدثاً عنه غير صحيح لأنه قد يكون محدثاً عنه ويحذف للعلم به وعدم الحاجة إلى ذكره، ثم إن الحمل مفيد من غير رؤية لأنه عليه السلام علمه سبحانه علم اليقين بما وقر في قلبه فكأنه رآه عز وجل، هذا وفي قوله تعالى: ﴿**أن بورك من في النار**﴾ إلخ أقوال أخر، الأول

أن المراد بمن في النار نور الله تعالى وبمن حولها الملائكة عليهم السلام وروي ذلك عن قتادة. والزجاج.

والثاني أن المراد بمن في النار الشجرة التي جعلها الله محلاً للكلام وبمن حولها الملائكة عليهم السلام أيضاً ونقل هذا عن الجبائي وفي ما ذكر إطلاق ﴿من﴾ على غير العالم.

والثالث ما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس. قال في قوله تعالى: **﴿أن بورك من في النار﴾** يعني تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها يعني الملائكة عليهم السلام، واشتهر عنه كون المراد بمن في النار نفسه تعالى وهو مروي أيضاً عن الحسن وابن جبير وغيرهما كما في البحر. وتعقب ذلك الإمام بأنا نقطع بأن هذه الرواية عن ابن عباس موضوعة مختلقة.

وقال أبو حيان: إذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومن ذكر أول على حذف أي بورك من قدرته وسلطانه في النار، وذهب الشيخ إبراهيم الكوراني في رسالته تنبيه العقول على تنزيه الصوفية عن اعتقاد التجسيم والعينية والاتحاد والحلول إلى صحة الخبر عن الحبر رضي الله تعالى عنه وعدم احتياجه إلى التأويل المذكور فإن الذي دعا المؤولين أو الحاكمين بالوضع إلى التأويل أو الحكم بالوضع ظن دلالته على الحلول المستحيل عليه تعالى وليس كذلك بل ما يدل عليه هو ظهوره سبحانه في النار وتجليه فيها وليس ذلك من الحلول في شيء فإن كون الشيء مجلى لشيء ليس كونه محلاً له فإن الظاهر في المرآة مثلاً خارج عن المرآة بذاته قطعاً بخلاف الحال في محل فإنه حاصل فيه ثم إن تجليه تعالى وظهوره في المظاهر يجامع التنزيه. ومعنى الآية عنده فلما جاءها نودي أن بورك أي قدس أو نحو ذلك من تجلى وظهر في صورة النار لما اقتضته الحكمة لكونها مطلوبة لموسى عليه السلام ومن حولها من الملائكة أو منهم ومن موسى عليهم السلام، وقوله تعالى: **﴿وسبحان الله﴾** دفع لما يتوهمه التجلي في مظهر النار من التشبيه أي وسبحان الله عن التقيد بالصورة والمكان والجهة وإن ظهر فيها بمقتضى الحكمة لكونه موصوفاً بصفة رب العالمين الواسع القدوس الغني عن العالمين ومن هو كذلك لا يتقيد بشيء من صفات المحدثات بل هو جل وعلا باق على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق في حال تجليه وظهوره فيما شاء من المظاهر.

ولهذا ورد في الحديث الصحيح «سبحانك حيث كنت» فأثبت له تعالى التجلي في الحيث ونزهه عن أن يتقيد بذلك «يا موسى» إنه أي المنادي المتجلي في النار **﴿أنا الله العزيز﴾** فلا أتقيد بمظهر للعزة الذاتية لكني الحكيم ومقتضى الحكمة الظهور في صورة مطلوبك. وذكر أن تقدير المضاف كما فعل بعض المفسرين عدول عن الظاهر لظن المحذور فيه. وقد تبين أن لا محذور فلا حاجة إلى العدول انتهى، وكأني بك تقول: هذا طور ما وراء طور العقول. ثم إنه لا مانع على أصول الصوفية أن يريدوا بمن حولها الله عز وجل أيضاً إذ ليس في الدار عندهم غيره سبحانه ديار، ولا بعد في أن تكون الآية عند ابن عباس إن صح عنه ما ذكر من المتشابه والمذاهب فيه معلومة عندك. والأوفق بالعامة التأويل بأن يقال: المراد أن بورك من ظهر نوره في النار.

ولعل في خبر الحبر السابق ما يشير إليه. وإضافة النور إليه تعالى لتشريف المضاف وهو نور خاص كان مظهراً لعظيم قدرته تعالى وعظمته، وسمعت من بعض أجلة المشايخ يقول: إن هذا النور لم يكن عيناً ولا غيراً على نحو قول الأشعري في صفاته عز وجل الذاتية وهو أيضاً منزع صوفي يرجع بالآخرة إلى حديث التجلي والظهور كما لا يخفى فتأمل.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على **﴿بورك﴾** منتظم معه في سلك تفسير النداء أي نودي أن بورك وأن ألق عصاك.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وأن ألق عصاك﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿أن يا موسى إني أنا الله﴾ بتكرير أن فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً وهذا ما اختاره الزمخشري. وأورد عليه أن تجديد النداء في قوله تعالى: ﴿يا موسى﴾ إلخ يأباه. ورد بأنه ليس بتجديد نداء لأنه من جملة تفسير النداء المذكور، وقيل: لا يأباه لأنه جملة معترضة وفيه بحث، واعترض أيضاً بأن ﴿بورك﴾ إخبار ﴿وألق﴾ إنشاء ولا يعطف الإنشاء على الإخبار، ومن هنا قيل: إن العطف على ذلك بتقدير وقيل له: ألق أو العطف على مقدر أي افعل ما آمرك وألق، وفيه إنه في مثل هذا يجوز عطف الإنشاء على الإخبار لكون النداء في معنى القول بل أجاز سيبويه جاء زيد ومن عمرو بالعطف.

ولا يرد هذا أصلاً على من يجعل «بورك» إنشاء، ويرد على من جعل العطف على أفعل محذوفاً أن الظاهر حينئذ فألق بالفاء، واختار أبو حيان كون العطف على جملة ﴿إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ ولم يبال باختلاف الجملتين اسمية وفعلية وإخبارية وإنشائية لما ذكر أن الصحيح عدم اشتراط تناسب الجملتين المتعاطفتين في ذلك لما سمعت آنفاً عن سيبويه، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقه بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حية فلما أبصرها تتحرك بشدة اضطرب، وجملة ﴿تهتز﴾ في موضع الحال من مفعول رأى فإنها بصرية كما أشرنا إليه لا علمية كما قيل.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ في موضع حال أخرى منه أو هو حال من ضمير ﴿تهتز﴾ على طريقة التداخل، والجان الحية الصغيرة السريعة الحركة شبهها سبحانه في شدة حركتها واضطرابها مع عظم جثتها بصغار الحيات السريعة الحركة فلا ينافي هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ [الأعراف: ١٠٧، الشعراء: ٣٢].

وقيل: يجوز أن يكون الإخبار عنها بصفات مختلفة باعتبار تنقلها فيها، وقرأ الحسن والزهري وعمرو بن عبيد: «جأن» بهمزة مفتوحة هرباً من التقاء الساكنين وإن كان على حده كما قيل: دأبة وشأبة.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِراً﴾ أي انهزم ﴿وَلَـمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يرجع على عقبه من عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار قال الشاعر:

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب ... ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا

وهذا مروي عن مجاهد، وقريب منه قول قتادة: أي لم يلتفت وهو الذي ذكره الراغب، وكان ذلك منه عليه السلام لخوف لحقه، قيل: لمقتضى البشرية فإن الإنسان إذا رأى أمراً هائلاً جداً يخاف طبعاً أو لما أنه ظن أن ذلك لأمر أريد وقوعه به، ويدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿يَا مُوسَىٰ لاَ تَـخَفْ﴾ أي من غيري أي مخلوق كان حية أو غيرها ثقة بي واعتماداً عليّ أو لا تخف مطلقاً على تنزيل الفعل منزلة اللازم، وهذا إما لمجرد الإيناس دون إرادة حقيقة النهي وإما للنهي عن منشأ الخوف وهو الظن الذي سمعته، وقوله تعالى:

﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ تعليل للنهي عن الخوف، وهو على ما قيل يؤيد أن الخوف كان للظن المذكور وأن المراد ﴿لا تـخف﴾ مطلقاً، والمراد من ﴿لدي﴾ في حضرة القرب مني وذلك حين الوحي.

والمعنى أن الشأن لا ينبغي للمرسلين أن يخافوا حين الوحي إليهم بل لا يخطر ببالهم الخوف وإن وجد ما يخاف منه لفرط استغراقهم إلى تلقي الأوامر وانجذاب أرواحهم إلى عالم الملكوت، والتقييد بلديَّ لأن المرسلين في سائر الأحيان أخوف الناس من الله عز وجل فقد قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عبادة العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] ولا أعلم منهم بالله تعالى شأنه، وقيل: المعنى لا تـخف من غيري أو لا تـخف مطلقاً فإن الذي ينبغي أن يخاف منه أمثالك

المرسلون إنما هو سوء العاقبة وأن الشأن لا يكون للمرسلين عندي سوء عاقبة ليخافوا منه.

والمراد بسوء العاقبة ما في الآخرة لا ما في الدنيا لئلا يرد قتل بعض المرسلين عليهم الصلاة والسلام، والمراد بلديّ على ما قال الخفاجي: عند لقائي وفي حكمي على ما قال ابن الشيخ، وأياً ما كان يلزم مما ذكر أن المرسلين عليهم السلام لا يخافون سوء العاقبة لأن الله تعالى آمنهم من ذلك فلو خافوا لزم أن لا يكونوا واثقين به عز وجل وهذا هو الصحيح كما في الحواشي الشهابية عند الأشعري، وظاهر الآثار يقتضي أنهم عليهم السلام كانوا يخافون ذلك، فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقالت له عائشة رضي الله تعالى عنها يوماً: يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: وما يؤمنني يا عائشة وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن إذا أراد يقلب قلب عبده» وظاهر بعض الآيات يقتضي ذلك أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٩] وكون الله تعالى آمنهم من ذلك إن أريد به ما جاء في ضمن تبشيرهم بالجنة فقد صرح أن المبشرين بالجنة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يخافون من سوء العاقبة مع علمهم ببشارته تعالى إياهم بالجنة، ويعلم منه أن الخوف يجتمع مع البشارة، ولا يلزم من ذلك عدم الوثوق به عز وجل لأنه لاحتمال أن يكون هناك شرط لم يظهره الله تعالى لهم للابتلاء ونحوه من الحكم الإلهية، وإن أريد به ما كان بصريح آمنتكم من سوء العاقبة كان هذا الاحتمال قائماً أيضاً فيه ويحصل الخوف من ذلك، وإن أريد به ما اقتضاه جعله تعالى إياهم معصومين من الكفر ونحوه ورد أن الملائكة عليهم السلام جعلهم الله تعالى معصومين من ذلك أيضاً وهم يخافون.

ففي الأثر لما مكر بإبليس بكى جبرائيل وميكائيل عليهما السلام فقال الله عز وجل لهما: ما يبكيكما؟ قالا: يا رب ما نأمن مكرك فقال تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكري، ولعل ذلك لأن العصمة عندنا على ما يقتضيه أصل استناد الأشياء كلها إلى الفاعل المختار ابتداء كما في المواقف وشرحه الشريف الشريفي أن لا يخلق الله تعالى في الشخص ذنباً، وعند الحكماء بناء على ما ذهبوا إليه من القول بالإيجاب واعتبار استعداد القوابل ملكة تمنع الفجور وتحصل ابتداء بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات وتتأكد بتتابع الوحي بالأوامر والنواهي وهي بكلا المعنيين لا تقتضي استحالة الذنب، أما عدم اقتضائها ذلك بالمعنى الأول فلأن عدم خلقه تعالى إياه ليس بواجب عليه سبحانه ليكون خلقه مستحيلاً عليه تعالى ومتى لم يكن الخلق مستحيلاً عليه تعالى فكيف يحصل الأمن من المكر، وأما عدم اقتضائها ذلك بالمعنى الثاني فلأن زوال تلك الملكة ممكن أيضاً واقتضاء العلم بالمثالب والمناقب إياها ابتداء وتأكدها بتتابع الوحي ليس من الضرورات العقلية ومتى كان الأمر كذلك لا يحصل الأمن بمجرد حصول الملكة، نعم قال قوم: العصمة تكون خاصية في نفس الشخص أو في بدنه يمتنع بسببها صدور الذنب عنه، وقد يستند إليه من يقول بالأمن، ولا يخفى أنه لو سلم تمام الاستدلال به على هذا المطلب فهو في حد ذاته غير صحيح.

ففي المواقف وشرحه أنه يكذب هذا القول أنه لو كان صدور الذنب ممتنعاً لما استحق النبي عليه الصلاة والسلام المدح بترك الذنب إذ لا مدح بترك ما هو ممتنع لأنه ليس بمقدور داخلاً تحت الاختيار، وأيضاً فالإجماع على أن الأنبياء عليهم السلام مكلفون بترك الذنوب مثابون به ولو كان صدور الذنب ممتنعاً عنهم لما كان الأمر كذلك، وأيضاً فقوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾ [الكهف: ١١٠] يدل على مماثلتهم عليهم السلام لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية والامتياز بالوحي فلا يمتنع صدور الذنب عنهم كما لا يمتنع صدوره عن سائر البشر اهـ، وذكر الخفاجي في شرح الشفاء عن ابن الهمام أنه قال في التحرير: العصمة عدم القدرة على المعصية وخلق مانع عنها

غير ملجيء، ثم قال: وهو مناسب لقول الماتريدي العصمة لا تزيل المحنة أي الابتلاء المقتضي لبقاء الاختيار، ومعناه كما في الهداية أنها لا تجبره على الطاعة ولا تعجزه عن المعصية بل هي لطف من الله تعالى تحمله على فعله وتزجره عن الشر مع بقاء الاختيار وتحقيق للابتلاء ا هـ، وهو ظاهر على عدم الاستحالة الذاتية لصدور الذنب، ولعل ما وقع في كلام بعض الأجلة من استحالة وقوع الذنب منهم عليهم السلام محمول على الاستحالة الشرعية كما يؤذن به كلام العلامة ابن حجر في شرح الهمزية، وبالجملة الذي تقتضيه الظواهر ويشهد له العقل أن الأنبياء عليهم يخافون ولا يأمنون مكر الله تعالى لأنه وإن استحال صدور الذنب عنهم شرعاً لكنه غير مستحيل عقلاً بل هو من الممكنات التي يصح تعلق قدرة الله تعالى بها ومع ملاحظة إمكانه الذاتي وأن الله تعالى لا يجب عليه شيء وقيام احتمال تقييد المطلق بما لم يصرح به لحكمة كالمشيئة لا يكاد يأمن معصوم من مكر الملك الحي القيوم فالأنبياء والملائكة كلهم خائفون ومن خشيته سبحانه عز وجل مشفقون، وليس لك أن تخص خوفهم بخوف الإجلال إذ الظاهر العموم ولا دليل على الخصوص يعول عليه عند فحول الرجال، نعم قد يقال بإمكان حصول الأمن من المكر وذلك بخلق الله تعالى علماً ضرورياً في العبد بعدم تحقق ما يخاف منه في وقت من الأوقات أصلاً لعلم الله تعالى عدم تحققه كذلك وإن كان ممكناً ذاتياً، ولعله يحصل لأهل الجنة لتتم لذتهم فيها فقد قيل:

فإن شئت أن تحيا حياة هنية ... فلا تتخذ شيئاً تخاف له فقدا

ولا يبعد حصوله لمن شاء الله تعالى من عباده يوم القيامة قبل دخولها أيضاً، ولم تقم أمارة عندي على حصوله في هذه النشأة لأحد والله تعالى أعلم فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك، وروى الإمام عن بعضهم أنه قال معنى الآية: إني إذا أمرت المرسلين بإظهار معجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة. وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ الاستثناء فيه منقطع عند كثير إلا أنه روي عن الفراء والزجاج وغيرهما أن المراد بمن ظلم من أذنب من غير الأنبياء عليهم السلام، قال صاحب المطلع: والمعنى عليه لكن من ظلم من سائر العباد ثم تاب فإني أغفر له، وقال جماعة: إن المراد به من فرطت منه صغيرة ما وصدر منه خلاف الأولى بالنسبة إلى شأنه من المرسلين عليهم السلام.

والمراد استدراك ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم وفيهم من صدر منه ذلك، والمعنى عليه لكن من صدر منهم ما هو في صورة الظلم ثم تاب فإني أغفر له فلا ينبغي أن يخاف أيضاً، وهو شامل على ما قيل لمن فعل منهم شيئاً من ذلك قبل رسالته، وخصه بعضهم بمن صدر منه شيء من ذلك قبل النبوة وقال: يؤيده لفظه ﴿**ثم**﴾ فإنها ظاهرة في التراخي الزماني، ولعل الظاهر كونه خاصاً بمن صدر منه بعد الرسالة لظهور المرسل في المتلبس بالرسالة لا فيمن يتلبس بها بعد أو الأعم، وكأن فيما ذكر على الوجهين الأولين تعريضاً بما وقع من موسى عليه السلام من وكزه القبطي واستغفاره، وتسميته ظلماً مشاكلة لقوله عليه السلام ظلمت نفسي، ولم يجعلوه على هذا متصلاً مع دخول المستثنى في المستثنى منه أعني المرسلين مطلقاً لأنه لو كان متصلاً لزم إثبات الخوف لمن فرطت منه صغيرة ما منهم لاستثنائه من الحكم وهو نفي الخوف عنهم ونفي النفي إثبات وذلك خلاف المراد فلا يكون متصلاً بل هو شروع في حكم آخر.

ورجح الطيبي ما قاله الجماعة بأن مقام تلقي الرسالة وابتداء المكالمة مع الكليم يقتضي إزالة الخوف بالكلية وهو ظاهر على ما قالوه، وروى عن الحسن ومقاتل وابن جريج والضحاك ما يقتضي أنه استثناء متصل والظاهر أنهم أرادوا بمن من أراده الجماعة؛ وفي اتصاله على ما سمعت خفاء. وربما يقال: إن من يطلق الاتصال عليه في رأي

الجماعة يكتفي في الاتصال بمجرد كون المستثني من جنس المستثنى منه فإن كفى فذاك وإلا يلتزم إثبات الخوف ويجعل «بدل» عطفاً على مستأنف محذوف كأنه قيل: إلا من فرطت منه صغيرة فإنه يخاف فمن فرط ثم تاب غفر له فلا يخاف. وحاصله إلا من ظلم فإنه يخاف أولاً ويزول عنه الخوف بالتوبة آخراً، وعن الفراء في رواية أخرى عنه أنه استثناء متصل من جملة محذوفة والتقدير وإنما يخاف غيرهم إلا من ظلم. ورده النحاس بأن الاستثناء من محذوف لا يجوز ولو جاز هذا الجاز أن يقال: لا تضرب القوم إلا زيداً على معنى وإنما اضرب غيرهم إلا زيداً وهذا ضد البيان والمجيء بما لا يعرف معناه انتهى وهو كما قال: ولا يجدي نفعاً القول باعتبار مفهوم المخافة. وقالت فرقة: إن إلا بمعنى الواو والتقدير ولا من ظلم إلخ.

وتعقبه في البحر بأنه ليس بشيء للمباينة التامة بين إلا والواو فلا تقع أحداهما موقع الأخرى. وحسن الظن يجوز أنهم لم يصرحوا بكون إلا بمعنى الواو وإنما فهم من نسبه إليهم من تقديرهم وهو يحتمل أن يكون تقدير معنى لا إعراب فلا تغفل، والظاهر انقطاع الاستثناء، ولعل الأوفق بشأن المرسلين أن يراد بمن ظلم من ارتكب ذنباً كبيراً أو صغيراً من غيرهم، و ﴿ثم﴾ يحتمل أن تكون للتراخي الزمان فتفيد الآية المغفرة لمن بدل على الفور من باب أولى، ويحتمل أن تكون للتراخي الرتبي وهو ظاهر بين الظلم والتبديل المذكور والتبديل قد يتعدى إلى مفعولين بنفسه نحو ﴿بدلناهم جلوداً غيرها﴾ [النساء: ٥٦] وقد يتعدى إلى أحدهما بنفسه وإلى الآخر بالباء أو بمن وهو المذهوب به والمبدل منه نحو بدله بخوفه أو من خوفه أمناً وقد يتعدى إلى واحد نحو بدلت الشيء أي غيرته. ﴿ومنه﴾ فمن بدل بعد ما سمعه والمعنى هنا على المتعدي إلى مفعولين. وقد تعدى إلى أحدهما. وهو المبدل منه بالباء أو بمن فكأنه قيل: ثم بدل بظلمه أو من ظلمه حسناً، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿بعد سوء﴾ وحاصله ثم ترك الظلم وأتى بحسن، والمراد به التوبة. فيكون المعنى في الآخرة إلا من ظلم ثم تاب وعدل عنه إلى ما في النظم الجليل لأنه أوفق بمقام الإيناس كذا قيل، والظاهر عليه أن إسناد التبديل إلى من ظلم حقيقي، وقيل: إن المعنى ثم رفع الظلم والسوء ومحاه من صحيفة أعماله ووضع مكانه الحسن بسبب توبته نظير ما في قوله تعالى: ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ [الفرقان: ٧٠]، وإسناد التبديل إلى من ظلم على هذا مجازي لأنه سبب لتبديل الله تعالى له بتوبته، وكأني بك تختار الأول، ومحل «من» على كل من تقديري انقطاع الاستثناء واتصاله ظاهر. والظاهر أنها موصولة في التقديرين. ولا يخفى أنها إذا اعتبرت منصوبة المحل على الاستثناء أو مرفوعته على البدل تكون جملة «فإني» إلخ مستأنفة. ومن قدر في الكلام محذوفاً عطف عليه ﴿بدل﴾، وقال: التقدير من ظلم ثم بدل جعل الجملة خبر من، وجوز بعضهم أن تكون شرطية وجملة ﴿فإني﴾ إلخ جوابها فتأمل ولا تغفل. وقرأ أبو جعفر وزيد بن أسلم «ألا من ظلم» بفتح الهمزة وتخفيف اللام على أن ﴿ألا﴾ حرف استفتاح. وجعل أبو حيان ﴿من﴾ على هذه القراءة شرطية ولا أراه واجباً وقرأ محمد بن عيسى الأصبهاني «حسنى» على وزن فعلى ممنوع الصرف. وقرأ ابن مقسم «حُسْناً» بضم الحاء والسين منوناً.

وقرأ مجاهد وأبو حيوة وابن أبي علي والأعمش وأبو عمرو في رواية الجعفي وعصمة وعبد الوارث وهارون وعياش «حَسَناً» بفتح الحاء والسين مع التنوين ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن لأنه مولد، ولم يقل سبحانه في كمك لأنه عليه السلام كان لابساً إذ ذاك مدرعة من صوف لا كم لها، وقيل: الجيب القميص نفسه لأنه يجاب أي يقطع فهو فعل بمعنى مفعول، وقال السدي: ﴿في جيبك﴾ أي تحت إبطك.

ولعل مراده أن المعنى أدخلها في جيبك وضعها تحت إبطك، وكانت مدرعته عليه السلام على ما روى عن

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا أزرار لها، وقد ورد في بعض الآثار أن نبينا ﷺ كان مطلق القميص في بعض الأوقات، ففي سنن أبي داود باب في حل الأزرار ثم أخرج فيه من طريق معاوية بن قرة قال: حدثني أبي قال: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مزينة فبايعناه وإن قميصه لمطلق، وفي رواية البغوي في معجم الصحابة لمطلق الأزرار قال: فبايعه ثم أدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم، قال عروة فما رأيت معاوية ولا أباه قط إلا مطلقي أزرارهما، ولا يزرانها أبداً وجاء أيضاً عليه الصلاة والسلام أمر بزر الأزرار.

فقد أخرج الطبراني عن زيد بن أبي أوفى «أن رسول الله ﷺ نظر إلى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فإذا أزراره محلولة فزرها رسول الله ﷺ بيده وقال: اجمع عطفَي ردائك على نحرك» وفي هذين الأثرين ما هو ظاهر في أن جيب القميص كان إذ ذاك على الصدر كما هو اليوم عند العرب. وهو يبطل القول بأنه خلاف السنة وأنه من شعائر اليهود، وأمره تعالى إياه عليه السلام بإدخال يده في جيبه مع أنه سبحانه قادر على أن يجعلها بيضاء من غير إدخال للامتحان وله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء، والظاهر أن قوله تعالى:

﴿تَخْرُجْ﴾ جواب الأمر لأن خروجها مترتب على إدخالها، وقيل: في الكلام حذف تقديره وأدخل يدك في جيبك تدخل وأخرجها تخرج فحذف من الأول ما أثبت مقابله في الثاني ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول فيكون في الكلام صنعة الاحتباك وهو تكلف لا حاجة إليه، وقوله تعالى: ﴿بَيْضَاءَ﴾ حال وكذا قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وهو احتراس وقد تقدم الكلام فيه. وكذا قوله سبحانه: ﴿في تسع آيات﴾ أي آية معدودة من جملة تسع آيات أو معجزة لك معها على أن التسع هي: الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة وهي جعل أسبابهم حجارة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الجدب والنقصان في المزارع واحداً ولا يعد الفلق منها لأنه عليه السلام لم يبعث به إلى فرعون وإن تقدمه بيسير، ومن عده يقول: يكفي معاينته له في البعث به أو هو بعث به لمن آمن من قومه ولم تخلف من القبط ولم يؤمن، وفي التقريب أن الطمسة والجدب والنقصان يرجع إلى شيء واحد فالتسع هذا الواحد. والعصا واليد وما بقي من المذكورات.

وذهب صاحب الفرائد إلى أن الجراد. والقمل واحد، والجدب. والنقصان واحد، وجوز أن يكون في تسع منقطعاً عما قبله متعلقاً بمحذوف أي اذهب في تسع آيات. ويدل على ذلك قوله تعالى بعد: ﴿فلما جاءتهم آياتنا﴾ وفي بمعنى مع، ونظير هذا الحذف ما في قوله:

أتوا ناري فقلت منون أنتم ... فقالوا الجن قلت عموا ظلاما
وقلت إلى الطعام فقال منهم ... فريق يحسد الإنس الطعاما

فإن التقدير هلموا إلى الطعام. ويتعلق بهذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ وعلى ما تقدم يتعلق بمحذوف وقع حالاً أي مبعوثاً أو مرسلاً إلى فرعون، وأياً ما كان فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ مستأنف استئنافاً بيانياً كأنه قيل لم أرسلت إليهم بما ذكر؟ فقيل: إنهم إلخ، والمراد بالفسق إما الخروج عما ألزمهم الشرع إياه إن قلنا بأنهم قد أرسل قبل موسى عليه السلام من يلزمهم اتباعه وهو يوسف عليه السلام، وإما الخروج عما ألزمه العقل واقتضاء الفطرة إن قلنا بأنه لم يرسل إليهم أحد قبله عليه السلام.

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ

عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ
وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ
أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى
ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا**﴾ أي ظهرت لهم على يد موسى عليه السلام، فالمجيء مجاز عن الظهور وإسناده إلى الآيات حقيقي، وقال بعض الأجلة: المجيء حقيقة وإسناده إلى الآيات مجازي وهو حقيقة لموسى عليه السلام ولما بينهما من الملابسة لكونها معجزة له عليه السلام ساغ ذلك.

ولعل النكتة في العدول عن ـ فلما جاءهم موسى بآياتنا ـ إلى ما في النظم الجليل الإشارة إلى أن تلك الآيات خارجة عن طوقه عليه السلام كسائر المعجزات وأنه لم يكن له عليه السلام تصرف في بعضها وكونه معجزة له لإخباره به ووقوعه بدعائه ونحوه، ولا ينافي هذا الإسناد إليه لكونها جارية على يديه للإعجاز في قوله سبحانه: ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا﴾ [القصص: ٣٦] في محل آخر، وقد بين بعضهم وجهاً لاختصاص كل منهما بمحله بأن ثمة ذكر مقاولته عليه السلام ومجادلتهم معه فناسب الإسناد إليه، وهنا لما لم يكن كذلك ناسب الإسناد إليها لأن المقصود بيان جحودهم بها، وإضافة الآيات للعهد، وفي إضافتها إلى ضمير العظمة ما لا يخفى من تعظيم شأنها ﴿**مُبْصِرَةً**﴾ حال من الآيات أي بينة واضحة، وجعل الإبصار لها وهو حقيقة لمتأمليها للملابسة بينها وبينهم لأنهم إنما يبصرون بسبب تأملهم فيها فالإسناد مجازي من باب الإسناد إلى السبب، ويجوز أن يراد مبصرة كل من نظر إليها من العقلاء أو من فرعون وقومه لقوله تعالى: ﴿**واستيقنتها أنفسهم**﴾ أي جاعلته بصيراً من أبصره المتعدي بهمزة النقل من بصر والإسناد أيضاً مجازي.

ويجوز أن تجعل الآيات كأنها تبصر فتهدي لأن العمي لا تقدر على الاهتداء فضلاً أن تهدي غيرها فيكون في الكلام استعارة مكنية تخييلية مرشحة، قال في الكشف: وهذا الوجه أبلغ، وقيل: إن فاعلاً أطلق للمفعول فالمجاز إما في الطرف أو في الإسناد فتأمل.

وقرأ قتادة وعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما ﴿**مبصرة**﴾ بفتح الميم والصاد على وزن مسبعة، وأصل هذه الصيغة أن تصاغ في الأكثر لمكان كثر فيه مبدأ الاشتقاق فلا يقال: مسبعة مثلاً إلا لمكان يكثر فيه السباع لا لما فيه سبع واحد ثم تجوز بها عما هو سبب لكثرة الشيء وغلبته كقولهم: الولد مجبنة ومبخلة أي سبب لكثرة جبن الوالد وكثرة بخله وهو المراد هنا أي سبباً لكثرة تبصر الناظرين فيها، وقال أبو حيان هو مصدر أقيم مقام الاسم وانتصب على الحال أيضاً ﴿**قَالُوا هَذَا**﴾ أي الذي نراه أو نحوه ﴿**سِحرٌ مُبينٌ**﴾ أي واضح سحريته على أن ﴿**مبين**﴾ من أبان اللازم ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا**﴾ أي وكذبوا بها ﴿**وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾ أي علمت علماً يقينياً أنها آيات من عند الله تعالى، والاستيقان أبلغ من الإيقان.

وفي البحر أن استفعل هنا بمعنى تفعل كاستكبر بمعنى تكبر، والأبلغ أن تكون الواو للحال والجملة بعدها حالية إما بتقدير قد أو بدونها ﴿ظُلْماً﴾ أي للآيات كقوله تعالى: ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ [الأعراف: ٩] وقد ظلموا بها أي ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحراً، وقيل: ظلماً لأنفسهم وليس بذاك ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي ترفعاً واستكباراً عن الإيمان بها كقوله تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ [الأعراف: ٣٦] وانتصابهما إما على العلية من ﴿جحدوا﴾ وهي على ما قيل باعتبار العاقبة والادعاء كما في قوله:

لـدوا لـلـمـوت وابـنـوا لـلـخـراب

وأما على الحال من فاعله أي جحدوا بها ظالمين عالين، ورجح الأول بأنه أبلغ وأنسب بقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي ما آل إليه فرعون وقومه من الإغراق على الوجه الهائل الذي هو عبرة للظالمين، وإنما لم يذكر تنبيهاً على أنه عرضة لكل ناظر مشهور لدى كل باد وحاضر. وأدخل بعضهم في العاقبة حالهم في الآخرة من الإحراق والعذاب الأليم. وفي إقامة الظاهر مقام الضمير ذم لهم وتحذير لأمثالهم.

وقرأ عبدالله وابن وثاب والأعمش وطلحة وأبان بن تغلب «وعلياً» بقلب الواو ياء وكسر العين واللام، وأصله فعول لكنهم كسروا العين اتباعاً، وروى ضمها عن ابن وثاب والأعمش وطلحة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أنه عليه السلام تلقى القرآن من لدن حكيم عليم كقصة موسى عليه السلام، وتصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والأحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة لبوس ومنطق الطير، وخصها مقاتل بعلم القضاء، وابن عطاء بالعلم بالله عز وجل، ولعل الأولى ما ذكر أو علماً سنياً غزيراً فالتنوين على الأول للتقليل وهو أوفق بكون القائل هو الله عز وجل فإن كل علم عنده سبحانه قليل وعلى الثاني للتعظيم والتكثير؛ وهو أوفق بامتنانه جل جلاله فإنه سبحانه الملك العظيم فاللائق بشأنه الامتنان بالعظيم الكثير فلكل وجهة، وربما يرجح الثاني، ومما ينبغي أن لا يلتفت إليه كون التنوين للنوعية أي نوعاً من العلم والمراد به علم الكيمياء ﴿وَقَالَا﴾ أي قال كل منهما شكراً لما أوتيه من العلم ﴿الْحَمْدُ لله الَّذي فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من العلم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن عبارة كل منهما فضلني إلا أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير إيجازاً، وحكاية الأقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم أو عن غيره بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ [المؤمنون: ٥١] قيل وبهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو دون الفاء إذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمل كل منهما على إيتاء ما أوتي كل منهما لا على إيتاء ما أوتي نفسه فقط.

وتعقب بأنه إذا سلم ما ذكر فالعطف بالواو أيضاً يتبادر معه كون حمد كل منهما على إيتاء ما أوتي كل منهما فما يمنع من ذلك مع الواو يمنع نحوه مع الفاء، وقال العلامة الزمخشري: عطف بالواو دون الفاء مع أن الظاهر العكس كما في قولك: أعطيته فشكر إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال سبحانه: ولقد آتيناهما علماً فعملا فيه وعلماه وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة، وقالا: الحمد لله الذي فضلنا، وحاصله أن إيتاء العلم من جلائل النعم وفواضل المنح يستدعي إحداث الشكر أكثر مما ذكر فجيء بالواو لأنها تستدعي إضماراً فيضمر ما يقتضيه موجب الشكر من قوله: فعملا به وعلماه فإنه شكر فعلي، وقوله: وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة فإنه شكر قلبي، وبقوله تعالى: ﴿وقالا﴾ إلخ تتم أنواع الشكر لأنه شكر لساني، وفي

الطي إيماء بأن المطوي جاوز حد الإحصاء، ويعلم مما ذكر أن هذا الوجه لاختيار العطف بالواو أولى مما ذهب إليه السكاكي من تفويض الترتب إلى العقل لأن المقام يستدعي الشكر البالغ وهو ما يستوعب الأنواع وعلى ما ذهب إليه يكون بنوع القولي منها وحده، وهو أولى مما قيل أيضاً: إنه لم يعطف بالفاء لأن الحمد على نعم عظيمة من جملتها العلم ولو عطف بالفاء لكان الحمد عليه فقط لأن السياق ظاهر في أن الحمد عليه لا على ما يدخل هو في جملته، وهل هناك على ما ذكره العلامة تقدير حقيقة أم لا قولان، وممن ذهب إلى الأول من يسمى هذه الواو الواو الفصيحة، والظاهر أن المراد من الكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما عليهما السلام، وقيل: ذاك ومن لم يؤت علماً أصلاً.

وتعقب بأنه يأباه تبيين الكثير بعبادة تعالى المؤمنين فإن خلوهم عن العلم بالمرة مما لا يمكن، وفي تخصيصهما الكثير بالذكر إشارة إلى أن البعض مفضلون عليهما كذا قيل، والمتبادر من البعض القليل، وفي الكشاف أن في قوله تعالى: ﴿على كثير﴾ أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير. وتعقب بأن فيه نظراً إذ يدل بالمفهوم على أنهما لم يفضلا على القليل فإما أن يفضل االقليل عليهما أو يساوياه فلا بل يحتمل الأمرين.

ورده صاحب الكشف بأن الكثير لا يقابله القليل في مثل هذا المقام بل يدل على أن حكم الأكثر بخلافه، ولما بعد تساوي الأكثر من حيث العادة لا سيما والأصل التفاوت حكم صاحب الكشاف بأنه يدل على أنه فضل عليهما أيضاً كثير على أن العرف طرح التساوي في مثله عن الاعتبار وجعل التقابل بين المفضل والمفضل عليه، ألا ترى أنهم إذا قالوا: لا أفضل من زيد فهم أنه أفضل من الكل انتهى.

وفي الآية أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه مما أوتياه من الملك العظيم وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى عل ما آتاهم من فضله وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن في عباد الله تعالى من يفضلهم في العلم، ونعم ما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين نهى على المنبر عن التغالي في المهور فاعترضت عليه عجوز بقوله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ [النساء: ٢٠] الآية: كل الناس أفقه من عمر، وفيه من جبر قلب العجوز وفتح باب الاجتهاد ما فيه، وجعل الشيعة له من المثالب من أعظم المثالب وأعجب العجائب. ولعل في الآية إشارة إلى جواز أن يقول العالم: أنا عالم. وقال قال ذلك جملة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم منهم أمير المؤمنين علي كرّم الله تعالى وجهه. وعبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وما شاع من حديث: «من قال أنا عالم فهو جاهل» إنما يعرف من كلام يحيى بن أبي كثير موقوفاً عليه على ضعف في إسناده، ويحيى هذا من صغار التابعين فإنه رأى أنس بن مالك وحده، وقد وهم بعض الرواة فرفعه إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وتحقيقه في أعذب المناهل للجلال السيوطي.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي قام مقامه في النبوة والملك وصار نبياً ملكاً بعد موت أبيه داود عليهما السلام فوراثته إياه مجاز عن قيامه مقامه فيما ذكر بعد موته، وقيل: المراد وراثة النبوة فقط، وقيل: وراثة الملك فقط، وعن الحسن ونسبه الطبرسي إلى أئمة أهل البيت أنها وراثة المال، وتعقب بأنه قد صح «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» وقد ذكره الصديق. والفاروق رضي الله تعالى عنهما بحضرة جمع من الصحابة وهم الذين لا يخافون في الله تعالى لومة لائم ولم ينكره أحد منهم عليهما.

وأخرج أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء قال: «سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: إن العلماء

ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» وروى محمد بن يعقوب الرازي في الكافي عن أبي البحتري عن أبي عبدالله جعفر الصادق أنه قال ذلك أيضاً، ومما يدل على أن هذه الوراثة ليست وراثة المال ما روى الكليني عن أبي عبدالله أن سليمان ورث داود وأن محمداً ورث سليمان صلى الله تعالى عليه وسلم، وأيضاً وراثة المال لا تختص بسليمان عليه السلام فإنه كان لداود عدة أولاد غيره كما رواه الكليني عنه أيضاً، وذكر غيره أنه عليه السلام توفي عن تسعة عشر ابناً فالأخبار بها عن سليمان ليس فيه كثير نفع وإن كان المراد الأخبار بما يلزمها من بقاء سليمان بعد داود عليهما السلام فما الداعي للعدول عما يفيده من غير خفاء مثل وقال سليمان بعد موت أبيه داود «يا أيها الناس» إلخ.

وأيضاً السياق والسباق يأبيان أن يكون المراد وراثة المال كما لا يخفى على منصف، والظاهر أن الرواية عن الحسن غير ثابتة وكذا الرواية عن أئمة أهل البيت رضي الله تعالى عنهم، فقد سمعت في رواية الكليني عن الصادق رضي الله تعالى عنه ما ينافي ثبوتها، ووراثة غير المال شائعة في الكتاب الكريم فقد قال عز من قائل: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ولا يضر تفاوت القرينة فافهم.

وكان عمره يوم توفي داود عليهما السلام اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة وكان داود قد أوصى له بالملك فلما توفي ملك وعمره ما ذكر، وقيل: إن داود عليه السلام ولاه على بني إسرائيل في حياته حكاه في البحر.

﴿وَقَالَ ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى وتعظيماً لقدرها ودعاء للناس إلى التصديق بنبوته بذكر المعجزات الباهرات التي أوتيها لا افتخاراً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الظاهر عمومه جميع الناس الذين يمكن عادة مخاطبتهم.

وقال بعض الأجلة : المراد به رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم ، والتعبير عنهم بما ذكر للتغليب، وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي أنه قال: الناس عندنا أهل العلم ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ أي نطقه وهو في المتعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً أو مركباً، وقد يطلق على كل ما يصوت به على سبيل الاستعارة المصرحة، ويجوز أن يعتبر تشبيه المصوت بالإنسان ويكون هناك استعارة بالكناية وإثبات النطق تخييلاً، وقيل يجوز أيضاً أن يراد بالنطق مطلق الصوت على أنه مجاز مرسل وليس بذاك.

ويحتمل الأوجه الثلاثة قوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت ... حمامة في غصون ذات أوقال

وقد يطلق على ذلك للمشاكلة كما في قولهم: الناطق والصامت للحيوان والجماد، والذي علمه عليه السلام من منطق الطير هو على ما قيل ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه، ويحكى أنه عليه السلام مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله تعالى ونبيه أعلم قال: يقول أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال: يقول استغفروا الله تعالى يا مذنبون، وصاح طيطوى فقال: يقول كل حي ميت وكل جديد بال، وصاح خطاف فقال: يقول قدّموا خيراً تجدوه، وصاحت رخمة فقال: يقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى، وقال الحدأ: يقول كل شيء هالك إلا الله تعالى، والقطاة تقول: من سكت سلم، والببغاء يقول: ويل لمن الدنيا همه؛ والديك يقول: اذكروا الله تعالى يا غافلون. والنسر يقول: يا ابن آدم

عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس والقنبرة تقول: اللهم العن مبغض محمد وآل محمد، والزرزور يقول: اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق والدراج يقول: الرحمن على العرش استوى انتهى. ونظم الضفدع في سلك المذكورات من الطير ليس في محله، ومع هذا الله تعالى أعلم بصحة هذه الحكاية. وقيل: كانت الطير تكلمه عليه السلام معجزة له نحو ما وقع من الهدهد في القصة الآتية. وقيل: علم عليه السلام ما تقصده الطير في أصواتها في سائر أحوالها فيفهم تسبيحها ووعظها وما تخاطبه به عليه السلام وما يخاطب به بعضها بعضاً. وبالجملة علم من منطقها ما علم الإنسان من منطق بني صنفه، ولا يستبعد أن يكون للطير نفوس ناطقة ولغات مخصوصة تؤدي بها مقاصدها كما في نوع الإنسان إلا أن النفوس الإنسانية أقوى وأكمل، ولا يبعد أن تكون متفاوتة تفاوت النفوس الإنسانية الذي قال به من قال.

ويجوز أن يعلم الله تعالى منطقها من شاء من عباده ولا يختص ذلك بالأنبياء عليهم السلام، ويجري ما ذكرناه في سائر الحيوانات وذهب بعض الناس إلى أن سليمان عليه السلام علم منطقها أيضاً إلا أنه نص على الطير لأنها كانت جنداً من جنوده يحتاج إليها في التظليل من الشمس وفي البعث في الأمور، ولا يخفى أن الآية لا تدل على ذلك فيحتاج القول به إلى نقل صحيح، وزعم بعضهم أنه عليه السلام علم أيضاً منطق النبات فكان يمر على الشجرة فتذكر له منافعها ومضارها، ولم أجد في ذلك خبراً صحيحاً. وكثير من الحكماء من يعرف خواص النبات بلونه وهيئته وطعمه وغير ذلك. ولا يحتاج في معرفتها إلى نطقه بلسان القال. والضمير في ﴿علمنا﴾ و ﴿أوتينا﴾ قيل: له ولأبيه عليهما السلام وهو خلاف الظاهر. والأولى كونه له عليه السلام، ولما كان ملكاً مطاعاً خاطب رعيته على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة من التمهيد لما يراد من الرعية من الطاعة والانقياد في الأوامر والنواهي ولم يكن ذلك تعاظماً وتكبراً منه عليه السلام، ومراعاة قواعد السياسة للتوصل بها إلى ما فيه رضا الله عز وجل من الأمور المهمة.

وقد أمر نبينا ﷺ العباس بحبس أبي سفيان حتى تمر عليه الكتائب يوم الفتح لذلك، و ﴿كل﴾ في الأصل للإحاطة وترد للتكثير كثيراً نحو قولك: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء وهي كناية في ذلك أو مجاز مشهور، وهذا المعنى هو المراد هنا إذا جعلت ﴿من﴾ صلة وهو المناسب لمقام التحدث بالنعم، وإن لم تجعل صلة فهي على أصلها فيما قيل. وأنت تعلم أنه لا يتسنى ذلك إلا إذا أريد الكل المجموعي وهو كما ترى.

وفي البحر أن قوله تعالى: ﴿علمنا منطق الطير﴾ إشارة إلى النبوة. وقوله سبحانه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى الملك، والجملتان كالشرح للميراث وعن مقاتل أنه أريد بما أوتيه النبوة والملك وتسخير الجن والإنس والشياطين والريح وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هو ما يهمه عليه السلام من أمر الدنيا والآخرة. وقد يقال: إنه ما يحتاجه الملك من آلات الحرب وغيرها ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذكر من التعليم والإيتاء ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿الْمُبِينُ﴾ الواضح الذي لا يخفى على أحد أو أن هذا الفضل الذي أوتيته لهو الفضل المبين. فيكون من كلامه عليه السلام قطعاً ذيل به ما تقدم منه ليدل على أنه إنما قال ما قال على سبيل الشكر كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» بالراء المهملة آخره كما في الرواية المشهورة أي أقول هذا القول شكراً لا فخراً. ويقرب من هذا المعنى ولا فخز بالزاي كما في الرواية الغير المشهورة.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ أي جمع له عساكره من الأماكن المختلفة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ بيان للجنود في البحر وغيره. ولا يلزم من ذلك أن يكون الجنود المحشورون له عليه السلام جميع الجن وجميع الإنس

وجميع الطير إذ يأبى ذلك مع قطع النظر عن العقل قصة بلقيس الآتية بعد، وكذا قصة الهدهد.

ونقل عن بعضهم أنه عليه السلام كان يأتيه من كل صنف من الطير واحد وهو نص في أن المحشور ليس جميع الطير. ولا يكاد يصح إرادة الجميع في الجميع على ما ذكره الإمام في الآية أيضاً وهو أن المعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده لأنه وإن لم يستدع الحضور والاجتماع في موضع واحد بل يكفي فيه مجرد الانقياد والدخول في حيطة تصرفه والاتباع له حيث كانوا لأباء قصة بلقيس أيضاً عنه فإن المناسب الإخبار بهذا الجعل بعد الإخبار بدخولها ومن معها في حيطة تصرفه.

والظاهر أن هذا الحشر ليس إلا جمع العساكر ليذهب بهم إلى محاربة من لم يدخل في ربقة طاعته عليه السلام. وكونه ليذهب بهم إلى مكة شكراً على ما وفق له من بناء بيت المقدس خلاف الظاهر. لكن إذا صح فيه خبر قبل، وأن المجموع من الأنواع المذكورة ما يليق بشأنه وأبهته وعظمته سواء جعلت ﴿من﴾ بيانية أو تبعيضية. وكونه عليه السلام أحد المؤمنين اللذين ملكا المعمورة بأسرها إذا سلمنا صحة الخبر الدال عليه وسلامته من المعارض وأنه نص في المطلوب لا يستدعي سوى دخول سكان المعمورة في عداد رعيته وحيطة ملكته وليس ذلك دفعياً بل هو إن صح كان بحسب التدريج. وقد ذكر بعض المؤرخين أن بلقيس إنما دخلت تحت طاعته في السنة الخامسة والعشرين من ملكه، وكانت مدة ملكه عليه السلام أربعين سنة وكذا كانت مدة ملك أبيه داود عليهما السلام.

والظاهر أن الحاشر لكل نوع من الأنواع الثلاثة أشخاص منهم فيكون من كل نوع أشخاص مأمورون بذلك معدون له. ولا تستبعد ذلك في الطير إذا كنت من المؤمنين بقصة الهدهد، ولا يلزمك التزام ما قاله الإمام من أن الله تعالى جعل للطير عقلاً في أيام سليمان عليه السلام ولم يجعل لها ذلك في أيامنا فما عليك بأس إذا قلت بأنها على حالة واحدة اليوم وذلك اليوم. ولا نعني بعقلها إلا ما تهتدي به لأغراضها، ووجود ذلك اليوم فيها وكذا في غيرها من سائر الحيوانات مما لا ينكره إلا مكابر، وما علينا أن نقول: إن عقولها من حيث هي كعقول الإنسان من حيث هي. ولعل فيها من يهتدي إلى ما لا يهتدي إليه الكثير من بني آدم كالنحل، ولعمري أنها لو كانت خالية من العقل كما يقال وفرض وجود العقل فيها لا أظن أنها تصنع بعد وجوده أحسن مما تصنعه اليوم. وهي خالية منه ولا يجب أن يكون كل عاقل مكلفاً فلتكن الطيور كسائر العقلاء الذين لم يبعث إليهم نبي يأمرهم وينهاهم، ويجوز أيضاً أن تكون عارفة بربها مؤمنة به جل وعلا من غير أن يبعث إليها نبي كمن ينشأ بشاهق جبل وحده ويكون مؤمناً بربه سبحانه بل كونها مؤمنة بالله تعالى مسبحة له وكذا سائر الحيوانات مما تشهد له ظواهر الآيات والأخبار، وقد قدمنا بعضاً من ذلك وليس عندنا ما يجب له التأويل، وبالغ بعضهم فزعم أنها مكلفة وفيها وكذا في غيرها من الحيوانات أنبياء لهم شرائع خاصة واستدل عليه بما استدل والمشهور إكفار من زعم ذلك. وقد نص على إكفاره جمع من الفقهاء، وتخصيص الأنواع الثلاثة بالذكر ظاهر في أنه عليه السلام لم يسخر له الوحش . وفي خبر أخرجه الحاكم عن محمد ابن كعب ما هو ظاهر في تسخيره له عليه السلام أيضاً، وسنذكره قريباً إن شاء الله تعالى لكنه لا يعول عليه، وتقديم الجن للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه عليه السلام وعزة سلطانه من أول الأمر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير. ولم يقدم الطير على الإنس مع أن تسخيرها أشق أيضاً وأدل على قوة الملك وعزة السلطان لئلا يفصل بين الجن والإنس المتقابلين والمشتركين في كثير من الأحكام.

وقيل في تقديم الجن: إن مقام التسخير لا يخلو من تحقير وهو مناسب لهم وليس بشيء لأن التسخير للأنبياء

عليهم السلام شرف لأنه في الحقيقة لله عز وجل الذي سخر كل شيء. وإذا اعتبر في نفسه فالتعليل بذلك غير مناسب للمقام ويكفي هذا في عدم قبوله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر والأول أولى وفيه مع الدلالة على الكثرة والإشعار بكمال مسارعتهم إلى السير الدلالة على أنهم كانوا مسوسين غير مهملين لا يتأذى أحد بهم. وأصل الوزع الكف والمنع، ومنه قول عثمان رضي الله تعالى عنه: ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن. وقول الحسن لا بد للقاضي من وزعة، وقول الشاعر:

ومن لم يزعه لبه وحياؤه فليس له من شيب فوديه وازع

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضاً لأن في ذلك شفقة على الطائفتين، أما الأوائل فمن جهة أن يستريحوا في الجملة بالوقوف عن السير، وأما الأواخر فمن جهة أن لا يجهدوا أنفسهم بسرعة السير، وقيل: إن ذلك لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع، وأخرج الطبراني، والطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه يحبس أولهم على آخرهم حتى تنام الطير والله تعالى أعلم بصحة الخبر. والظاهر أن هذا الوزع إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجو، والأخبار في قصته عليه السلام كثيرة.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ثلاثمائة ألف كرسي فيجلس مؤمني الإنس مما يليه ومؤمني الجن من ورائهم ثم يأمر الطير فتظله ثم يأمر الريح فتحمله فيمرون على السنبلة فلا يحركونها، وأخرج الحاكم عن محمد بن كعب قال: بلغنا أن سليمان عليه السلام كان معسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاطف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به. وأوحى الله عز وجل إليه وهو يسير بين السماء والأرض إني قد زدتك في ملكك إنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح إليك وألقته في سمعك. ويروى أن الجن نسجت له عليه السلام بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ ومنبره في وسطه من ذهب فيصعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة فتقعد الأنبياء عليهم السلام على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر.

وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر عن وهب بن منبه قال: مر سليمان عليه السلام وهو في ملكه وقد حملته الريح على رجل حراث من بني إسرائيل فلما رآه قال: سبحان الله لقد أوتي آل داود ملكاً فحملتها الريح فوضعتها في أذنه فقال: ائتوني بالرجل قال: ماذا قلت؟ فأخبره فقال سليمان: إني خشيت عليك الفتنة لثواب سبحان الله عند الله يوم القيامة أعظم مما رأيت. آل داود أوتوا فقال الحراث أذهب الله تعالى همك كما أذهبت همي. وفي بعض الروايات أنه عليه السلام نزل ومشى إلى الحراث وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود، وأكثر الأخبار في هذا الشأن لا يعول عليها فعليك بالإيمان بما نطق به القرآن ودلت عليه الأخبار الصحيحة وإياك من الانتصار لما لا صحة له مما يذكره كثير من القصاص والمؤرخين مما فيه مبالغات شنيعة بمجرد أنها أمور ممكنة يصح تعلق قدرته عز وجل بها فتفتح بذلك باب السخرية بالدين والعياذ بالله تعالى، ولا يبعد أن يكون أكثر ما تضمن مثل ذلك من وضع الزنادقة يريدون به التنفير عن دين

الإسلام ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ﴾ حتى هي التي يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هي غاية لما قبلها وهي هاهنا غاية لما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فهم يوزعون﴾ من السير كأنه قيل: فساروا حتى إذا أتوا إلخ، ووادي النمل واد بأرض الشام كثير النمل على ما روي عن قتادة ومقاتل، وقال كعب: هو وادي السدير من أرض الطائف، وقيل: واد بأقصى اليمن وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها، وقيل: هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وهذا عندي مما لا يلتفت إليه.

وتعدية الفعل إليه بكلمة على مع أنه يتعدى بنفسه أو بإلى إما لأن إتيانهم كان من جانب عال فعدي بها للدلالة على ذلك كما قال المتنبي:

ولشدما جاوزت قدرك صاعدا ... ولشدما قربت عليك الأنجم

لما كان قرب الأنجم وإن أراد بها أبيات شعره من فوق، وإما لأن المراد بالإتيان عليه قطعه وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره. ثم الإتيان عليه بمعنى قطعه مجاز عن إرادة ذلك وإلا لم يكن للتحذير من الحطم الآتي وجه إذ لا معنى له بعد قطع الوادي الذي فيه النمل ومجاوزته، والظاهر على الوجهين أنهم أتوا عليه مشاة، ويحتمل أنهم كانوا يسيرون في الهواء فأرادوا أن ينزلوا هناك فأحست النملة بنزولهم فأنذرت النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جواب إذا. والظاهر أنها صوتت بما فهم سليمان عليه السلام منه معنى ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا كما يفهم عليه السلام من أصوات الطير ما يفهم، ولا يقدح في ذلك أنه عليه السلام لم يعلم إلا منطق الطير إما لأنها كانت من الطير ذات جناحين كما أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي وهو وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة، وكم رأينا نملة لها جناحان تطير بهما، وكون ذلك لا يقتضي عدها من الطير محل نظر وإما لأن فهم ما ذكر وقع له عليه السلام هذه المرة فقط ولم يطرد كفهم أصوات الطير، وليس في الآية السابقة ولا في الأخبار ما ينفي فهم ما يقصده غير الطير من الحيوانات بدون اطراد، وقال ابن بحر: إنها نطقت بذلك معجزة لسليمان عليه السلام كما نطق الضب والذراع لرسول الله ﷺ، قال مقاتل: وقد سمع عليه السلام قولها من ثلاثة أميال، ويلزم على هذا أنها أحست بنزولهم من هذه المسافة والسمع من سليمان منها غير بعيد لأن الريح كما جاء في الآثار توصل الصوت إليه أو لأن الله تعالى وهبه إذ ذاك قوة قدسية سمع بها إلا أن إحساس النملة من تلك المسافة بعيد، والمشهور عند العرب بالإحساس من بعيد القراد حتى ضربوا به المثل. وأنت تعلم أنه لا ضرر في إنكار صحة هذا الخبر، وقيل: إنه عليه السلام لم يسمع صوتاً أصلاً وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى، وقال الكلبي: أخبره ملك بذلك وإلى أنه لم يسمع صوتاً يشير قول جرير:

لو كنت أوتيت كلام الحكل ... علم سليمان كلام النمل

فإنه أراد بالحكل ما لا يسمع صوته؛ وقال بعضهم: كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حطمهم فتبعها غيرها وصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل فتبعتها فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أجروا مجراهم حيث جعلت هي قائلة وما عداها من النمل مقولاً له فيكون الكلام خارج مخرج الاستعارة التمثيلية، ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية.

وأنت تعلم أنه لا ضرورة تدعو إلى ذلك. ومن تتبع أحوال النمل لا يستبعد أن تكون له نفس ناطقة فإنه يدخر في الصيف ما يقتات به في الشتاء ويشق ما يدخره من الحبوب نصفين مخافة أن يصيبه الندى فينبت إلا الكزبرة والعدس

فإنه يقطع الواحدة منهما أربع قطع ولا يكتفي بشقها نصفين لأنها تنبت كما تنبت إذا لم تشق. وهذا وأمثاله يحتاج إلى علم كلي استدلالي وهو يحتاج إلى نفس ناطقة، وقد برهن شيخ الأشراف على ثبوت النفس الناطقة لجميع الحيوانات. وظواهر الآيات والأخبار الصحيحة تقتضيه كما سمعت قديماً وحديثاً فلا حاجة بك إلى أن تقول: يجوز أن يكون الله تعالى قد خلق في النملة إذ ذاك النطق وفيما عداها من النمل العقل والفهم وأما اليوم فليس في النمل ذلك. ثم إنه ينبغي أن يعلم أن الظاهر أن علم النملة بأن الآتي هو سليمان عليه السلام وجنوده كان عن إلهام منه عز وجل وذلك كعلم الضب برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين تكلم معه وشهد برسالته عليه الصلاة والسلام، والظاهر أيضاً أنها كانت كسائر النمل في الجثة، وفيه اليوم ما يقرب من الذبابة ويسمى بالنمل الفارسي، وبالغ بعض القصاص في كبرها ولا يصح له مستند.

وفي بعض الآثار أنها كانت عرجاء واسمها طاخية، وقيل: جرمى، وفي البحر اختلف في اسمها العلم ما لفظه وليت شعري من الذي وضع لها لفظاً يخصها أبنو آدم أم النمل انتهى، والذي يذهب إلى أن للحيوانات نفوساً ناطقة لا يمنع أن تكون لها أسماء وضعها بعضها لبعض لكن لا بألفاظ كألفاظنا بل بأصوات تؤدى على نحو مخصوص من الأداء ولعله يشتمل على أمور مختلفة كل منها يقوم مقام حرف من الحروف المألوفة لنا إذا أراد أن يترجم عنها من عرفها من ذوي النفوس القدسية ترجمها بما نعرف، ويقرب هذا لك أن بعض كلام الإفرنج وأشباههم لا نسمع منه إلا كما نسمع من أصوات العصافير ونحوها وإذا ترجم لنا بما نعرفه ظهر مشتملاً على الحروف المألوفة، والظاهر أن تاء ﴿**نملة**﴾ للوحدة فتأنيث الفعل لمراعاة ظاهر التأنيث فلا دليل في ذلك على أن النملة كانت أنثى قاله بعضهم.

وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم ـ وكان أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه حاضراً وهو غلام حدث ـ فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكر أم أنثى؟ فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت؟ فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى: «قالت نملة» ولو كان ذكراً لقال سبحانه قال نملة، وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي كذا في الكشاف، وتعقبه ابن المنير فقال: لا أدري العجب منه أم من أبي حنيفة إن ثبت ذلك عنه، وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس فيقال: نملة ذكر ونملة أنثى كما يقولون: حمامة ذكر وحمامة أنثى وشاة ذكر وشاة أنثى فلفظها مؤنث ومعناها محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها وإن كانت واقعة على ذكر بل هذا هو الفصيح المستعمل، ألا ترى قوله ﷺ: «لا يضحى بعوراء ولا عمياء ولا عجفاء» كيف أخرج عليه الصلاة والسلام هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعني ﷺ الإناث من الأنعام خاصة فحينئذ قوله تعالى: قالت نملة روعي فيه تأنيث اللفظ وأما المعنى فيحتمل التذكير والتأنيث على حد سواء، وكيف يسأل أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه بهذا ويفحم به قتادة مع غزارة علمه، والأشبه أن ذلك لا يصح عنهما ا هـ.

وقال ابن الحاجب عليه الرحمة: التأنيث اللفظي هو أن لا يكون بإزائه ذكر في الحيوان كظلمة وعين، ولا فرق بين أن يكون حيواناً أو غيره كدجاجة وحمامة إذا قصد به مذكر فإنه مؤنث لفظي، ولذلك كان قول من زعم أن النملة في قوله تعالى: ﴿**قالت نملة**﴾ أنثى لورود تاء التأنيث في ﴿**قالت**﴾ وهما لجواز أن يكون مذكراً في الحقيقة، وورود تاء التأنيث كورودها في الفعل المؤنث اللفظي نحو جاءت الظلمة. وأجاب بعض فضلاء ما وراء النهر وقال: لعمري إنه قد تعسف هاهنا ابن الحاجب وترك الواجب حيث اعترض على إمام أهل الإسلام، واعتراضه بقوله: وورود تاء التأنيث كورودها إلخ ليس بشيء إذ لو كان جائزاً أن يؤتى بتاء التأنيث في الفعل لمجرد صورة التأنيث في الفاعل المذكر

الحقيقي لكان ينبغي جواز أن يقال: جاءتني طلحة مع أنه لا يجوز، وجوابه عن ذلك في شرحه بقوله: وليس ذلك كتأنيث أسماء الأعلام فإنها لا يعتبر فيها إلا المعنى دون اللفظ خلافاً للكوفيين. والسر فيه هو أنهم نقلوها عن معانيها إلى مدلول آخر فاعتبروا فيها المدلول الثاني، ولو اعتبروا تأنيثها لكان اعتباراً للمدلول الأول فيفسد المعنى فلذلك لا يقال: أعجبتني طلحة تناقض محض كأنه نسي ما أمضى في صدر كتابه من قوله فإن سمي به مذكر فشرطه الزيادة يعني فإن سمي بالمؤنث المعنوي فشرطه الزيادة على ثلاثة أحرف فلا يخفى على من له أدنى مسكة أن عقرب مع أن علامة التأنيث فيه مقدرة العلمية لا تمنعها عن اعتبار تأنيثها حتى تمنع من الصرف فكيف تمنع العلمية عن اعتبار التأنيث في طلحة مع أن علامة التأنيث فيه لفظية فإذن ليس طرح التاء عن الفعل إلا لأن التاء إنما يجاء بها علامة لتأنيث الفاعل، والفاعل هاهنا مذكر حقيقي فكذا النملة لو كان مذكراً لكان هو مع طلحة حذو القذة بالقذة.

وينصر قول أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ما نقل عن ابن السكيت هذا بطة ذكر وهذا حمامة ذكر وهذا شاة إذا عنيت كبشاً وهذا بقرة إذا عنيت ثوراً فإن عنيت به أنثى قلت: هذه بقرة ا هـ. وارتضاه الطيبي ثم قال فظهر أن القول ما قالت حذام والمذهب ما سلكه الإمام. وفي الكشف أن التاء في نملة للوحدة فهي في حكم المؤنث اللفظي جاز أن تعامل معاملته كتمر وتمرة على ما نص عليه في المفصل، ولا يشكل بنحو طلحة حيث لم يجز إلحاق فعله التاء لأن أسماء الأعلام يعتبر فيها المعنى دون اللفظ خلافاً للكوفيين إلى آخر ما ذكره ابن الحاجب، ولا نقض باعتبار التأنيث في عقرب أن سمي به مذكر ولا في طلحة نفسه باعتبار منع الصرف على ما ظنه بعض فضلاء ما وراء النهر.

وصوبه شيخنا الطيبي لأن اعتبار المعنى هو فيما يرجع إلى المعنى لا فيما يرجع إلى اللفظ، وإلحاق العلامة باعتبار الفاعل إما للتأنيث الحقيقي وإما لشبه التأنيث من الوحدة أو الجمعية ونحوها فإذا لم يبق المعنى أعني التأنيث وشبه التأنيث فلا وجه للإلحاق. وأما منع الصرف فلا نظر فيه إلى معنى التأنيث بل إلى هذه الزيادة لفظاً أو تقديراً وذلك غاير مختلف في المنقول والمنقول عنه، وكفاك دليلاً لاعتبار اللفظ وحده في هذا الحكم تفرقتهم في سقر بين تسمية المذكر به والمؤنث دون عقرب فلو تأمل المناقض لكان ما أورده عليه لا له هذا، وإن الإمام رضي الله تعالى عنه كوفي والقاعدة على أصله مهدومة انتهى. وهو كلام متين.

والحزم القول بعدم صحة هذه الحكاية فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه من عرفت وإن كان إذ ذاك غلاماً حدثاً. وقتادة بن دعامة السدوسي بإجماع العارفين بالرجال كان بصيراً بالعربية فيبعد كل البعد وقوع ما ذكر منهما والله تعالى أعلم.

والحطم الكسر والمراد به الإهلاك. والنهي في الظاهر لسليمان عليه السلام وجنوده وهو في الحقيقة نهي على طريق الكناية للنمل عن التوقف حتى تحطم لأن الحطم غير مقدور لها نحو قولك: لا أرينك هاهنا فإنه في الظاهر نهي للمتكلم عن رؤية المخاطب والمقصود نهي المخاطب عن الكون بحيث يراه المتكلم فالجملة استئناف أو بدل اشتمال من جملة ﴿**ادخلوا مساكنكم**﴾، وقول بعضهم: إذا كان المعنى النهي عن التوقف حتى تحطم يحصل الاتحاد بين الجملتين يقتضي أنه بدل كل من كل بناء على أن الأمر بالشيء عين النهي عن ضده وعلى ما ذكر لا حاجة إليه؛ وبالجملة اعتراض أبي حيان على وجه الإبدال باختلاف مدلولي الجملتين ليس في محله، وجوز الزمخشري كون لا يحطمنكم جواباً للأمر، أعني ـ ادخلوا ـ و ﴿**لا**﴾ حينئذ نافية وتعقب بأن دخول النون في جواب الشرط مخصوص بضرورة الشعر كقوله:

مـهـمـا تـشـأ مـنـه فـزارة تـعـطـه ومـهـمـا تـشـأ مـنـه فـزارة يمـنـعـا

وفي الكتاب وهو قليل في الشعر شبهوه بالنهي حيث كان مجزوماً غير واجب. وأرادت النملة على ما في الكشاف لا يحطمنكم جنود سليمان فجاءت بما هو أبلغ. ونحوه قوله:

عـجـبـت مـن نـفـسـي ومـن إشـفـاقـهـا

حيث أراد عجبت من إشفاق نفسي فجاء بما هو أبلغ للإجمال والتفصيل. وتعقب ذلك في البحر بأن فيه القول بزيادة الأسماء وهي لا تجوز بل الظاهر إسناد الحطم إليه عليه السلام وإلى جنوده والكلام على حذف مضاف أي خيل سليمان وجنوده أو نحو ذلك مما يصح تقديره وللبحث فيه مجال وجملة ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ حال من مجموع المتعاطفين والضمير لهما.

وجوز أن تكون حالاً من الجنود والضمير لهم، وأياً ما كان ففي تقييد الحطم بعدم الشعور بمكانهم المشعر بأنه لو شعروا بذلك لم يحطموا ما يشعر بغاية أدب النملة مع سليمان عليه السلام وجنوده، وليت من طعن في أصحاب النبي ﷺ ورضي الله تعالى عنهم تأسى بها فكف عن ذلك وأحسن الأدب، وروي أن سليمان عليه السلام لما سمع قول النملة: ﴿**يا أيها النمل**﴾ إلخ قال ائتوني بها فأتوا بها فقال لم حذرت النمل ظلمي؟ أما علمت أني نبي عدل فلم قلت: ﴿**لا يحطمنكم سليمان**﴾ وجنوده فقالت: أما سمعت قولي: ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ ومع ذلك إني لم أرد حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب خشيت أن يروا ما أنعم الله تعالى به عليك من الجاه والملك العظيم فيقعوا في كفران النعم فلا أقل من أن يشتغلوا بالنظر إليك عن التسبيح فقال لها سليمان عظيني فقالت أعلمت لم سمي أبوك داود؟ قال: لا قالت: لأنه داوى جراحة قلبه وهل تدري لم سميت سليمان؟ قال: لا قالت: لأنك سليم القلب والصدر. ثم قالت: أتدري لم سخر الله تعالى لك الريح؟ قال: لا قالت: أخبرك الله تعالى بذلك أن الدنيا كلها ريح فمن اعتمد عليها فكأنما اعتمد على الريح. وهذا ظاهر الوضع كما لا يخفى وفيه ما يشبه كلام الصوفية والله تعالى أعلم بصحة ما روى من أنها أهدت إليه نبقة وأنه عليه السلام دعا للنمل بالبركة.

وجوز أن تكون جملة ﴿**هم لا يشعرون**﴾ في موضع الحال من النملة والضمير للجنود كالضمائر السابقة في قوله تعالى: ﴿**فهم يوزعون**﴾ وقوله سبحانه: ﴿**حتى إذا أتوا**﴾ وهي من كلامه تعالى أي قالت ذلك في حال كون الجنود لا يشعرون به وليس بشيء وقد يقرب منه ما قيل إنه يجوز أن تكون الجملة معطوفة على مقدر وهي من كلامه عز وجل كأنه قيل: فهم سليمان ما قالت والجنود لا يشعرون بذلك. وقرأ الحسن وطلحة ومعتمر بن سليمان وأبو سليمان التيمي نملة بضم الميم كسمرة وكذلك النمل كالرجل والرجل لغتان، وعن أبي سليمان التيمي نملة ونمل بضم النون والميم. وقرأ شهر بن حوشب «مسكنكم» على الإفراد. وعن أبي «أدخلن مساكنكن لا يحطمنكن» مخففة النون التي قبل الكاف.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى بن عمر الهمداني الكوفي. ونوح القاضي بضم الياء وفتح الحاء وشد الطاء والنون مضارع حطم مشدداً. وعن الحسن بفتح الياء[1] وإسكان الحاء وشد الطاء وعنه كذلك مع كسر الحاء وأصله يحتطمنكم من الاحتطام. وقرأ ابن أبي إسحاق وطلحة ويعقوب وأبو عمرو في رواية عبيد كقراءة الجمهور إلا

---

(١) قوله وإسكان الحاء كذا بخطه ولعله سبق قلم ففي الكشاف وقرىء ﴿**لا يحطمنكم**﴾ بفتح الحاء وكسرها وأصله يحتطمنكم ا هـ.

أنهم سكنوا نون التأكيد، وقرأ الأعمش بحذف النون وجزم الميم. ولا خلاف على هذه القراءة في جواز أن يكون الفعل مجزوماً في جواب الأمر ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾ تفريع على ما تقدم فلا حاجة إلى تقدير معطوف عليه أي فسمعها فتبسم وجعل الفاء فصيحة كما قيل. ولعله عليه السلام إنما تبسم من ذلك سروراً بما ألهمت من حسن حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة وابتهاجاً بما خصه الله تعالى به من إدراك ما هو همس بالنسبة إلى البشر وفهم مرادها منه.

وجوز أن يكون ذلك تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها: والأول أظهر مناسبة لما بعد من الدعاء. وانتصب ﴿ضاحكاً﴾ على الحال أي شارعاً في الضحك أعني قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك أو مقدر الضحك بناء على أنه حال مقدرة كما نقله الطيبي عن بعضهم. وقال أبو البقاء هو حال مؤكدة وهو يقتضي كون التبسم والضحك بمعنى والمعروف الفرق بينهما قال ابن حجر التبسم مبادىء الضحك من غير صوت والضحك انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفي فإن كان فيه صوت يسمع من بعد فهو القهقهة، وكأن من ذهب إلى اتحاد التبسم والضحك خص ذلك بما كان من الأنبياء عليهم السلام فإن ضحكهم تبسم، وقد قال البوصيري في مدح نبينا ﷺ:

سيد ضحكه التبسم والمـ ... ـشي الهوينا ونومه الإغفاء

وروى البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : ما رأيته ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً أي مقبلاً على الضحك بكليته إنما كان يتبسم، والذي يدل عليه مجموع الأحاديث إن تبسمه عليه الصلاة والسلام أكثر من ضحكه وربما ضحك حتى بدت نواجذه. وكونه ضحك كذلك مذكور في حديث آخر أهل النار خروجاً منها وأهل الجنة دخولاً الجنة. وقد أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وكذا في حدب أخرجه البخاري في المواقع أهله في رمضان، وليس في حديث عائشة السابق أكثر من نفيها رؤيتها إياه ﷺ مستجمعاً ضاحكاً وهو لا ينافي وقوع الضحك منه في بعض الأوقات حيث لم تره.

وأول الزمخشري ما روى من أنه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه بأن الغرض منه المبالغة في وصف ما وجد منه عليه الصلاة والسلام من الضحك النبوي وليس هناك ظهور النواجذ وهي أواخر الأضراس حقيقة، ولعله إنما لم يقل سبحانه: فتبسم من قولها بل جاء جل وعلا بضاحكاً نصباً على الحال ليكون المقصود بالإفادة التجاوز إلى الضحك بناء على أن المقصود من الكلام الذي فيه قيد إفادة القيد نفياً أو إثباتاً، وفيه إشعار بقوة تأثير قولها فيه عليه السلام حيث أداه ما عراه منه إلى أن تجاوز حد التبسم آخذاً في الضحك ولم يكن حاله التبسم فقط.

وكأنه لما لم يكن قول فضحك من قولها في إفادة ما ذكرنا مثل ما في النظم الجليل لم يؤت به، وفي البحر أنه لما كان التبسم يكون للاستهزاء وللغضب كما يقولون: تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزىء وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح أتى سبحانه بقوله تعالى: ﴿ضاحكاً﴾ لبيان أن التبسم لم يكن استهزاء ولا غضباً انتهى.

ولا يخفى أن دعوى أن الضحك لا يكون إلا للسرور والفرح يكذبها قوله تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ [المطففين: ٢٩] فإن هذا الضحك كان من مشركي قريش استهزاء بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وغيرهم كما ذكره المفسرون ولم يكن للسرور والفرح. وكذا قوله تعالى: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ [المطففين: ٣٤] كما هو الظاهر. وإن هرعت إلى التأويل قلنا الواقع يكذبها فإن أنكرت ضحك

منك أولو الألباب، وفيه أيضاً غير ذلك فتأمل والله تعالى الهادي إلى صوب الصواب، وقرأ ابن السميقع «ضَحِكاً» على أنه مصدر في موضع الحال ، وجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول مطلق نحو شكراً في قولك حمد شكراً.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي اجعلني أزع شكر نعمتك أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني وهو مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه فكأنه قيل: رب اجعلني مداوماً على شكر نعمتك، وهمزة أوزع للتعدية، ولا حاجة إلى اعتبار التضمين. وكون التقدير رب يسر لي أن أشكر نعمتك وازعاً إياه وعن ابن عباس أن المعنى اجعلني أشكر. وقال ابن زيد: أي حرضني. وقال أبو عبيدة أي أولعني. وقال الزجاج فيما قيل أي ألهمني. وتأويله في اللغة كفني عن الأشياء التي تباعدني عنك. قال الطيبي فعلى هذا هو كناية تلويحية فإنه طلب أن يكفه عما يؤدي إلى كفران النعمة بأن يلهمه ما به تقيد النعمة من الشكر. وإضافة النعمة للاستغراق أي جميع نعمك. وقرىء «أَوْزِعْنِيَ» بفتح الياء ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ﴾ أي أنعمتها، وأصله أنعمت بها إلا أنه اعتبر الحذف والإيصال لفقد شرط حذف العائد المجرور وهو أن يكون مجروراً بمثل ما جر به الموصول لفظاً ومعنى ومتعلقاً، ومن لا يقول باطراد ذلك لا يعتبر ما ذكر ولا أرى فيه بأساً ﴿عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ أدرج ذكر والديه تكثيراً للنعمة فإن الأنعام عليهما أنعام عليه من وجه مستوجب للشكر أو تعميماً لها فإن النعمة عليه عليه السلام يرجع نفعها إليهما، والفرق بين الوجهين ظاهر، واقتصر على الثاني في الكشاف وهو أوفق بالشكر. وكون الدعاء المذكور بعد وفاة والديه عليهما السلام قطعاً، ورجح الأول بأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ [سبأ: ١٣] بعد قوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ [سبأ: ١٠] إلخ، وقوله تعالى: ﴿ولسليمان الريح﴾ [الأنبياء: ٨١، سبأ: ١٢] إلخ فتدبر فإنه دقيق ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً﴾ عطف على ﴿أن أشكر﴾ فيكون عليه السلام قد طلب جعله مداوماً على عمل العمل الصالح أيضاً. وكأنه عليه السلام أراد بالشكر الشكر باللسان المستلزم للشكر بالجنان وأردفه بما ذكر تتميماً له لأن عمل الصالح شكر بالأركان، وفي البحر أنه عليه السلام سأل أولاً شيئاً خاصاً وهو شكر النعمة وثانياً شيئاً عاماً وهو عمل الصالح، وقوله تعالى: ﴿تَرْضَاهُ﴾ قيل صفة مؤكدة أو مخصصة إن أريد به كمال الرضا، واختير كونه صفة مخصصة. والمراد بالرضا القبول وهو ليس من لوازم العمل الصالح أصلاً لا عقلاً ولا شرعاً ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي في جملتهم.

والكلام عن الزمخشري كناية عن جعله من أهل الجنة. وقدر بعضهم الجنة مفعولاً ثانياً لأدخلني، وعلى كونه كناية لا حاجة إلى التقدير، والداعي لأحد الأمرين على ما قيل دفع التكرار مع ما قبل لأنه إذا عمل عملاً صالحاً كان من الصالحين البتة إذ لا معنى للصالح إلا العامل عملاً صالحاً، وأردف طلب المداومة على عمل الصالح بطلب إدخاله الجنة لعدم استلزام العمل الصالح بنفسه إدخال الجنة، ففي الخبر «لن يدخل أحدكم الجنة عمله قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته» وكأن في ذكر ﴿برحمتك﴾ في هذا الدعاء إشارة إلى ذلك.

ولا يأبى ما ذكر قوله تعالى: ﴿تلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [الزخرف: ٧٢] لأن سببية العمل للإيراث برحمة الله تعالى.

وقال الخفاجي: لك أن تقول إنه عليه السلام عد نفسه غير صالح تواضعاً أي فلا يحتاج إلى التقدير ولا إلى نظم الكلام في سلك الكناية، ولا يخفى أن هذا لا يدفع السؤال بإغناء الدعاء بالمداومة على عمل الصالح عنه.

وقيل: المراد أن يجعله سبحانه في عداد الأنبياء عليهم السلام ويثبت اسمه مع أسمائهم ولا يعزله عن منصب النبوة الذي هو منحة إلهية لا تنال بالأعمال ولذا ذكر الرحمة في البين، ونقل الطبرسي عن ابن عباس ما يلوح بهذا المعنى.

وقيل: المراد أدخلني في عداد الصالحين واجعلني أذكر معهم إذا ذكروا، وحاصله طلب الذكر الجميل الذي لا يستلزمه عمل الصالح إذ قد يتحقق من شخص في نفس الأمر ولا يعده الناس في عداد الصالحين. وفي هذا الدعاء شمة من دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ [الشعراء: ٨٤] ومقاصد الأنبياء في مثل ذلك أخروية، وقيل: يحتمل أنه أراد بعمل الصالح القيام بحقوق الله عز وجل وأراد بالصلاح في قوله: ﴿**في عبادك الصالحين**﴾ القيام بحقوقه تعالى وحقوق عباده فيكون من قبيل التعميم بعد التخصيص. وتعيين ما هو الأولى من هذه الأقوال مفوض إلى فكرك والله تعالى الهادي ، وكان دعاؤه عليه السلام على ما في بعض الآثار بعد أن دخل النمل مساكنهن ، قال في الكشاف : روي أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة ﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ**﴾ أي أراد معرفة الموجود منها من غيره، وأصل التفقد معرفة الفقد، والظاهر أنه عليه السلام تفقد كل الطير وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والاهتمام بالرعايا لا سيما الضعفاء منها؛ قيل وكان يأتيه من كل صنف واحد فلم ير الهدهد، وقيل: كانت الطير تظله من الشمس وكان الهدهد يستر مكانه الأيمن فمسته الشمس فنظر إلى مكان الهدهد فلم يره، وعن عبدالله بن سلام أن سليمان عليه السلام نزل بمفازة لا ماء فيها وكان الهدهد يرى الماء في باطن الأرض فيخبر سليمان بذلك فيأمر الجن فتسلخ الأرض عنه في ساعة كما تسلخ الشاة فاحتاجوا إلى الماء فتفقد لذلك الطير فلم يرد الهدهد ﴿**فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ**﴾ وهو طائر معروف منتن يأكل الدم فيما قيل ويكنى بأبي الأخبار وأبي الربيع وأبي ثمامة وبغير ذلك مما ذكره الدميري، وتصغيره على القياس هديهد، وزعم بعضهم أنه يقال في تصغيره هداهد بقلب الياء ألفاً، وأنشدوا:

كهداهد كسر الرماة جناحه

ونظير ذلك دوابه وشوابه في دويبه وشويبه.

والظاهر أن قوله عليه السلام ذلك مبني على أنه ظن حضوره ومنع مانع له من رؤيته أي عدم رؤيتي إياه مع حضوره لأي سبب ألساتر أم لغيره ثم لاح له أنه غائب فاضرب عن ذلك وأخذ يقول: ﴿**أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ**﴾ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له، فأم هي المنقطعة كما في قولهم إنها لإبل أم شاء.

وقال ابن عطية: مقصد الكلام الهدهد غاب ولكنه أخذ اللازم من مغيبه وهو أن لا يراه فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم وهذا ضرب من الإيجاز، والاستفهام الذي في قوله: ﴿**ما لي**﴾ ناب مناب الهمزة التي تحتاجها أم انتهى.

وظاهره أن أم متصلة والهمزة قائمة مقام همزة الاستفهام فالمعنى عنده أغاب عني الآن فلم أره حال التفقد أم كان ممن غاب قبل ولم أشعر بغيبته والحق ما تقدم، وقيل في الكلام قلب والأصل ما للهدهد لا أراه، ولا يخفى أنه لا ضرورة إلى ادعاء ذلك، نعم قيل هو أوفق بكون التفقد للعناية، وذكر أن اسم هذا الهدهد يعفور، وكون الهدهد يرى الماء تحت الأرض رواه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وأخرج ابن أبي حاتم وسعيد بن منصور عن يوسف بن ماهك أن ابن عباس حين قال ذلك اعترض عليه نافع بن الأزرق كعادته بأنه كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ ويوضع فيه الحبة وتستر بالتراب فيصطاد فقال رضي الله تعالى عنه إن البصر ينفع ما لم يأت القدر فإذا جاء القدر حال دون البصر فقال ابن الأزرق: لا أجادلك

بعدها بشيء، ولا مانع من أن يقال: يجوز أن يرى الحبة أيضاً إلا أنه لا يعرف أن التقاطها من الفخ يوجب اصطياده، وكثير من الطيور وسائر الحيوانات يصطاد بما يراه بنوع حيلة.

ويجوز أيضاً أن يراها ويعرف المكيدة في وضعها إلا أن القدر يغلب عليه فيظن أنه ينجو إذا التقطها بأحد وجوه يتخيلها فيكون نظير من يخوض المهالك لظن النجاة مع مشاهدة هلاك الكثير ممن خاضها قبله وإذا أراد الله تعالى بقوم أمراً سلب من ذوي العقول عقولهم، نعم إن رؤيته الماء تحت الأرض وإن جاز على ما تقتضيه أصول الأشاعرة أمر يستبعده العقل جداً ولا جزم لي بصحة الخبر السابق، وتصحيح الحاكم محكوم عليه عند المحدثين بما تعلم، ومثله ما تقدم عن ابن سلام وكذا غيره من الأخبار التي وقفت عليها في هذا الشأن، وليس في الآية إشارة إلى ذلك بل الظاهر بناء على ما يقتضيه حال سليمان عليه السلام أن التفقد كان منه عليه السلام عناية بأمور ملكه واهتماماً بضعفاء جنده، وكأنه عليه السلام أخرج كلامه كما حكاه النظم الجليل لغلبة ظنه أنه لم يصبه ما أهلكه وليكون ذلك مع التفقد من باب الجمع بين صفتي الجمال والجلال وهو الأكمل في شأن الملوك، ولعل ما وقع من حديث النملة كان كالحالة المذكرة له عليه السلام للتفقد.

وعلى ما تقدم عن ابن سلام أن الحالة المذكرة بل الداعية هي النزول في المفازة التي لا ماء فيها، وكون الهدهد قنا قنه، ويحكون في ذلك أن سليمان عليه السلام حين تم له بناء بيت المقدس تجهز ليحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف بقرة وخمسة آلاف ناقة وعشرين ألف شاة وقال لأشراف من معه إن هذا مكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا يعطي النصر على من عداه وينصر بالرعب من مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء في الحق لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم قالوا: فبأي دين يدين يا نبي الله؟ فقال: بدين الحنيفية فطوبى لمن آمن به وأدركه فقالوا: كم بيننا وبين خروجه؟ قال: مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل عليهم السلام، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً يؤم سهيلاً فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً أعجبته خضرتها فنزل ليتغذى ويصلي فلم يجدوا الماء فكان ما كان.

وفي بعض الآثار ما يعارض حكاية الحج، فقد روي عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام سار من اصطخر يريد اليمن فمر على مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: هذه دار هجرة نبي يكون آخر الزمان طوبى لمن اتبعه، ولما وصل إلى مكة رأى حول البيت أصناماً تعبد فجاوزه فبكى البيت فأوحى الله تعالى إليه ما يبكيك؟ قال يا رب أبكاني أن هذا نبي من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك مروا عليّ ولم يهبطوا ولم يصلوا عندي والأصنام تعبد حولي من دونك فأوحى الله تعالى إليه لا تبك فإني سوف أبكيك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً وأبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي إليّ واجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني وأفرض عليهم فريضة يرفون إليك رفيف النسر إلى وكره ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان، ثم مضى سليمان حتى أتى على وادي النمل، ولا يظهر الجمع بين الخبرين، ولعل المقدار الذي يصح من الأخبار أنه عليه السلام لما تم له بناء بيت المقدس حج وأكثر من تقريب القرابين وبشر بالنبي ﷺ وقصد اليمن وتفقد الطير فلم ير الهدهد فتوعده بقوله: ﴿**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً**﴾ قيل بنتف ريشه وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج.

والظاهر أن المراد جميع ريشه، وقال يزيد بن رومان بنتف ريش جناحيه، وقال ابن وهب بنتف نصف ريشه.

وزاد بعضهم مع النتف إلقاءه للنمل وآخر تركه في الشمس ، وقيل : ذلك بطليه بالقطران وتشميسه وقيل بحبسه في القفص، وقيل بجمعه مع غير جنسه، وقيل بإبعاده من خدمة سليمان عليه السلام، وقيل بالتفريق بينه وبين إلفه، وقيل بإلزامه خدمة أقرانه. وفي البحر الأجود أن يجعل كل من الأقوال من باب التمثيل وهذا التعذيب للتأديب. ويجوز أن يبيح الله تعالى له ذلك لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة كما أباح سبحانه ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن يباح له ما يستصطلح به. وفي الإكليل للجلال السيوطي قد يستدل بالآية على جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي أو إسراعها أو نحو ذلك. وعلى جواز نتف ريش الحيوان لمصلحة بناء على أن المراد بالتعذيب المذكور نتف ريشه.

وذكر فيه أن ابن العربي استدل بها على أن العذاب على قدر الذنب لا على قدر الجسد. وعلى أن الطير كانوا مكلفين إذ لا يعاقب على ترك فعل إلا من كلف به ا هـ فلا تغفل ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ كالترقي من الشديد إلى الأشد فإن في الذبح تجريع كأس المنية. وقد قيل:

كـل شـيء دون الـمـنـيـة سـهـل

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة تبين عذره في غيبته. وما ألطف التعبير بالسلطان دون الحجة هنا لما أن ما أتى به من العذر انجر إلى الإتيان ببلقيس وهي سلطان. ثم إن هذا الشق وإن قرن بحرف القسم ليس مقسماً عليه في الحقيقة وإنما المقسم عليه حقيقة الأولان وأدخل هذا في سلكهما للتقابل. وهذا كما في الكشف نوع من التغليب لطيف المسلك، ومآل كلامه عليه السلام ليكونن أحد الأمور على معنى إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما فاو في الموضعين للترديد. وقيل: هي في الأول للتخيير بين التعذيب والذبح وفي الثاني للترديد بينهما وبين الإتيان بالسلطان وهو كما ترى.

وزعم بعضهم أنها في الأول للتخيير وفي الثاني بمعنى إلا وفيه غفلة عن لام القسم، وجوز أن تكون الأمور الثلاثة مقسماً عليها حقيقة ، وصح قسمه عليه السلام على الإتيان المذكور لعلمه بالوحي أنه سيكون أو غلبة ظنه بذلك لأمر قام عنده يفيدها وإلا فالقسم على فعل الغير في المستقبل من دون علم أو غلبة ظن به لا يكاد يسوغ في شريعة من الشرائع، وتعقب بأن قوله: ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ [النمل: ٢٧] ينافي حصول العلم وما حكاه له. ودفع المنافة بأنه يجوز أن يأتي بحجة لا يعلم سليمان عليه السلام ولا يظن صدقها وكذبها غير سديد إذ قوله: ﴿مبين﴾ يأباه. وبالجملة الوجه ما ذكر أو لا فتأمل. وقرأ عيسى بن عمر «ليأتينَّ» بنون مشددة مفتوحة بغير ياء، وكتب في الإمام «لا أذبحه» بزيادة ألف بين الذال والألف المتصلة باللام ولا يعلم وجهه كأكثر ما جاء فيه مما يخالف الرسم المعروف، وقيل: هو التنبيه على أن الذبح لم يقع.

وقال ابن خلدون في مقدمة تاريخه: إن الكتابة العربية كانت في غاية الإتقان والجودة في حمير ومنهم تعلمها مضر إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لبعدهم عن الحضارة وكان الخط العربي أول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإتقان والجودة وإلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وما وقع في رسم المصحف من الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الرسوم المخالفة لما اقتضته أقيسة رسوم الخط وصناعته عند أهلها كزيادة الألف في «لا أذبحنه» من قلة الإجادة لصنعة الخط واقتفاء السلف رسمهم ذلك من باب التبرك. وتوجيه بعض المغفلين تلك المخالفة بما وجهه بها ليس بصحيح والداعي له إلى ذلك تنزيه الصحابة عن النقص لما زعم أن الخط كمال ولم

يتفطن لأن الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية وذلك ليس بكمال في حقهم إذ الكمال في الصنائع إضافي وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ونحوه وإنما يعود على أسباب المعاش. وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام أمياً وكان ذلك كمالاً في حقه وبالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام. ومثل الأمية تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران ولا يعد ذلك كمالاً في حقنا إذ هو ﷺ منقطع إلى ربه عز وجل ونحن متعاونون على الحياة الدنيا ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» انتهى ملخصاً.

وأنت تعلم أن كون زيادة الألف في «لا أذبحنه» لقلة إجادتهم رضي الله تعالى عنهم صنعة الكتابة في غاية البعد، وتعليل ذلك بما تقدم من التنبيه على عدم وقوع الذبح كذلك وإلا لزادوها في ﴿لأعذبنه﴾ لأن التعذيب لم يقع أيضاً. وما أشار إليه من أن الإجادة في الخط ليس بكمال في حقهم أن أراد به أن تحسين الخط وإخراجه على صور متناسبة يستحسنها الناظر وتميل إليها النفوس كسائر النقوش المستحسنة ليس بكمال في حقهم ولا يضر بشأنهم فقده فمسلم لكن هذا شيء وما نحن فيه شيء، وإن أراد به أن الإتيان بالخط على وجهه المعروف عند أهله من وصل ما يصلونه وفصل ما يفصلونه ورسم ما يرسمونه وترك ما يتركونه ليس بكمال فهذا محل بحث ألا ترى أنه لا يعترض على العالم بقبح الخط وخروجه عن الصور الحسنة والهيئات المستحسنة ويعترض عليه بوصل ما يفصل وفصل ما يوصل ورسم ما لا يرسم وعدم رسم ما يرسم ونحو ذلك إن لم يكن ذلك لنكتة.

والظاهر أن الصحابة الذين كتبوا القرآن كانوا متقنين رسم الخط عارفين ما يقتضي أن يكتب وما يقتضي أن لا يكتب. وما يقتضي أن يوصل. وما يقتضي أن لا يوصل إلى غير ذلك لكن خالفوا القواعد في بعض المواضع لحكمة؛ ويستأنس لذلك بما أخرجه ابن الأنباري في كتابه التكملة عن عبدالله بن فروخ قال: قلت لابن عباس يا معشر قريش أخبروني عن هذا الكتاب العربي هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله تعالى محمداً ﷺ تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام والنون؟ قال: نعم قلت: وممن أخذتموه؟ قال: من حرب بن أمية قلت: وممن أخذه حرب؟ قال: من عبدالله بن جدعان قلت: وممن أخذه عبدالله بن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار قلت: وممن أخذه أهل الأنبار؟ قال: من طار طرأ عليهم من أهل اليمن قلت: وممن أخذ ذلك الطارىء؟ قال: من الخلجان بن القسم كاتب الوحي لهود النبي عليه السلام وهو الذي يقول:

فـي كـل عـام سـنـة تـحـدثـونـهـا ... ورأي عـلـى غـيـر الـطـريـق يـعـبـر
ولـلـمـوت خـيـر مـن حـيـاة تـسـبـنـا ... بـهـاجـرهـم فـيـمـن يـسـب وحـمـيـر

انتهى، وفي كتاب محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر أن أول من اشتهر بالكتابة في الإسلام من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهم، والظاهر أنهم لم يشتهروا في ذلك إلا لإصابتهم فيها. والقول بأن هؤلاء الأجلة وسائر الصحابة لم يعرفوا مخالفة رسم الألف هنا لما يقتضيه قوانين أهل الخط وكذا سائر ما وقع من المخالفة مما لا يقدم عليه من له أدنى أدب وإنصاف.

ومثل هذا القول بأنه يحتمل أنه عرف ذلك من عرف منهم إلا أنه ترك تغييره إلى الموافق للقوانين أو وافقه على الغلط للتبرك، ومن الناس من جوز أن يكون ما وقع من الصحابة من الرسم المخالف بسبب قلة مهارة من أخذوا عنه صنعة الخط فيكون هو الذي خالف في مثل ذلك ولم يعلموا أنه خالف فالقصور إن كان ممن أخذوا عنه وإما هم فلا قصور فيهم إذ لم يخلوا بالقواعد التي أخذوها وإخلالهم بقواعد لم تصل إليهم ولم يعلموا بها لا يعد قصوراً، وهذا

قريب مما تقدم إلا أنه ليس فيه ما فيه من البشاعة، ثم إن الإنصاف بعد كل كلام يقتضي الإقرار بقوة دعوى أن المخالفة لضعف صناعة الكتابة إذ ذاك إن صح أنها وقعت أيضاً في غير الإمام من المكاتبات وغيرها ولعله لم يصح وإلا لنقل فتأمل والله تعالى يتولى هداك.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ
ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩
﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ
فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ
ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ
ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ
صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿**فَمَكَثَ غَيْرَ بعيد**﴾ الظاهر أن الضمير للهدهد و ﴿**بعيد**﴾ صفة زمان والكلام بيان لمقدر كأنه قيل: ما مضى من غيبته بعد التهديد؟ فقيل: مكث غير بعيد أي مكث زماناً غير مديد، ووصف زمان مكثه بذلك للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان عليه السلام وليعلم كيف كان الطير مسخراً له، وقيل: الضمير لسليمان وهو كما ترى، وقيل: ﴿**بعيد**﴾ صفة مكان أي فمكث الهدهد في مكان غير بعيد من سليمان، وجعله صفة الزمان أولى، ويحكى أنه حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهداً واسمه فيما قيل عفير واقعاً فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس، وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر، وفي بعض الآثار أنه عليه السلام لما لم يره دعا عريف الطير وهو النسر فسأله فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: علي به فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله تعالى وقال: بحق الله الذي قواك وأقدرك عليّ ألا رحمتني فتركته وقالت: ثكلتك أمك إن نبي الله تعالى قد حلف ليعذبنك أو ليذبحنك قال: وما استثنى؟ قالت: بلى قال: ﴿**أو ليأتيني بسلطان مبين**﴾ فقال: نجوت إذاً فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً له فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه فقال: يا نبي الله تعالى اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل فارتعد سليمان وعفا عنه، وعن عكرمة أنه إنما عفا عنه لأنه كان باراً بأبويه يأتيهما بالطعام فيزقهما لكبرهما، ثم سأله:

﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِه﴾ أي علماً ومعرفة وحفظته من جميع جهاته، وابتداء كلامه بذلك لترويجه عنده عليه السلام وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فإن النفس للاعتذار المنبىء عن أمر بديع أقبل وإلى تلقي ما لا تعلمه أميل، وأيد ذلك بقوله: **﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾** حيث فسر إبهامه السابق نوع تفسير وأراه عليه السلام أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه، وقال الزمخشري: إن الله تعالى ألهم الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به ليتحاقر إليه نفسه ويصغر إليه علمه ويكون لطفاً به في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة انتهى، وتعقب بأن ما أحاط به من الأمور المحسوسة التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف إدراكها الأعلى مجرد إحساس يستوي فيه العقلاء وغيرهم وماذا صدر عنه عليه السلام مع ما حكى عنهما حكي من الحمد والشكر والدعاء حتى يليق بالحكمة الإلهية تنبيهه عليه السلام على تركه، واعترض بأن قوله: **﴿أحطت﴾** إلخ ظاهر في أنه كلام مدل بعلمه مصغر لما عند صاحبه وأن العلم بالأمور المحسوسة وإن لم يكن فضيلة إلا أن فقده بالنسبة إلى سليمان عليه السلام وملكه وإلقاء الريح الأخبار في سمعه يدل على ما يدل، وفي التنبيه المذكور تثبيت منه تعالى له عليه السلام على الحمد والشكر وهو مما يناسب دعاؤه السابق بقوله: **﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك﴾**، ولعل الأولى والأظهر مع هذا ما ذكر أولاً. و **﴿سبأ﴾** منصرف على أنه لحي من الناس سموا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وفي حديث فروة وغيره عن رسول الله ﷺ أن سبأ اسم رجل ولد عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة والستة[1] حمير وكندة والأزد وأشعر وخثعم، والأربعة لخم وجذام وعاملة وغسان؛ وقيل: سبأ لقب لأبي هذا الحي من قحطان واسمه عبد شمس، وقيل: عامر، ولقب بذلك لأنه أول من سبى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «من سبأ» بفتح الهمزة غير مصروف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت به مأرب سبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث، وجوز أن يراد به على الصرف الموضع المخصوص وعلى منع الصرف المدينة المخصوصة، وأنشدوا على صرفه قوله:

الواردون وتيم في ذرى سبأ ... قد عض أعناقهم جلد الجواميس

وقرأ قنبل من طريق النبال بإسكان الهمزة وخرج على إجراء الوصل مجرى الوقف، وقال مكي: الإسكان في الوصل بعيد غير مختار ولا قوي، وقرأ الأعمش «من سبإِ» بكسر الهمزة من غير تنوين حكاها عنه ابن خالويه وابن عطية، وخرجت على أن الجر بالكسرة لرعاية ما نقل عنه فإنه في الأصل اسم الرجل أو مكان مخصوص وحذف التنوين لرعاية ما نقل إليه فإنه جعل اسماً للقبيلة أو للمدينة وهو كما ترى، وقرأ ابن كثير في رواية «من سبّى» بتنوين الباء على وزن رحى جعله مقصوراً مصروفاً، وذكر أبو معاذ أنه قرأ «من سبأي» بسكون الباء وهمزة مفتوحة غير منونة على وزن فعلى فهو ممنوع من الصرف للتأنيث اللازم.

وروى ابن حبيب عن اليزيدي «من سبأ» بألف ساكنة كما في قولهم: تفرقوا أيدي سبأ وقرأت فرقة «بنبا» بالألف عوض الهمزة وكأنها قراءة من قرأ سبا بالألف لتتوازن الكلمتان كما توازنت في قراءة من قرأهما بالهمزة المكسورة

---

(١) قوله والستة حمير إلخ المذكور في عبارته خمسة ويؤخذ السادس من حديث آخر أورده في شرح القاموس وهو مذحج كمجلس.

والتنوين، وفي التحرير أن مثل «من سبا بنبا» يسمى تجنيس التصريف وهو أن تنفرد كل من الكلمتين بحرف كما في قوله تعالى: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ [غافر: ٧٥] وحديث: «الخيل معقود بنواصيها الخير».

وقال الزمخشري: إن قوله تعالى: «من سبأ بنبأ» من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعاً أو يصيغه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء هاهنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى ألا ترى لو وضع مكان ﴿بنبأ﴾ بخبر لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصح لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال ا هـ. وهذه الزيادة كون الخبر ذا شأن، وكون النبأ بمعنى الخبر الذي له شأن مما صرح به غير واحد من اللغويين. والظاهر أنه معنى وضعي له. وزعم بعضهم أنه ليس بوضعي وليس بشيء، وقول المحدثين: أنبأنا أحط درجة من أخبرنا غير وارد لأنه اصطلاح لهم. وقرأ الجمهور «فمكُث» بضم الكاف، والفتح قراءة عاصم وأبي عمرو في رواية الجعفي وسهل وروح وقرأ أبي «فمكث ثم قال». وعبدالله «فمكث فقال»، وكلتا القراءتين في الحقيقة على ما في البحر تفسير لا قراءة لمخالفتها سواد المصحف. وقرىء في السبعة ﴿أحطت﴾ بإدغام التاء في الطاء مع بقاء صفة الإطباق وليس بإدغام حقيقي.

وقرأ ابن محيصن بإدغام حقيقي. واعترض ابن الحاجب القراءة الأولى بأن الإطباق وهو رفع اللسان إلى ما يحاذيه من الحنك للتصويت بصوت الحرف المخرج لا يستقيم إلا بنفس الحرف وهو الطاء هنا والإدغام يقتضي إبدالها تاء وهو ينافي وجود ذلك لأنه يقتضي أن تكون موجودة وغير موجودة وهو تناقض فالتحقيق إن نحو أحطت بالإطباق ليس فيه إدغام ولكنه لما أمكن النطق بالثاني مع الأول من غير ثقل على اللسان كان كالنطق بالمثل بعد المثل فأطلق عليه الإدغام توسعاً قاله الطيبي. وفي النشر أن التاء تدغم في الطاء في قوله تعالى: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار﴾ [هود: ١١٤] وفي التسهيل أنه إذا أدغم المطبق يجوز إبقاء الإطباق وعدمه. وقال سيبويه: كل كلام عربي كذا الحواشي الشهابية فتأمل.

وفي قوله تعالى: ﴿أحطت﴾ إلخ دليل بإشارة النص والإدماج على بطلان قول الرافضة إن الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيء من الجزئيات، ولا يخفى أنهم إن عنوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمام عالماً على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعها وأن يكون مستحضراً الجواب الصحيح عن كل ما يسأل عنه فبطلان كلامهم في غاية الظهور، وقد سئل علي كرّم الله تعالى وجهه وهو على منبر الكوفة عن مسألة فقال: لا أدري فقال السائل: ليس مكانك هذا مكان من يقول: لا أدري فقال الإمام علي كرّم الله تعالى وجهه. بلى والله هذا مكان من يقول لا أدري وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له يعني به الله عز وجل وإن عنوا أنه يجب أن يكون عالماً بجميع القواعد الشرعية وبكثير من الفروع الجزئية لتلك القواعد بحيث لو حدثت حادثة ولا يعلم حكمها يكون متمكناً من استنباط الحكم فيها على الوجه الصحيح فذاك حق وهو في معنى قول الجماعة يجب أن يكون الإمام مجتهداً. وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد استئناف لبيان ما جاء به من النبأ. وتفصيل له إثر إجمال وعنى بهذه المرأة بلقيس[1] بنت شراحيل بن مالك ابن ريان من نسل يعرب بن قحطان، ويقال: من نسل تبع الحميري.

---

(١) بكسر الباء معرب وهو قبل التعريب بفتحها ا هـ منه.

وروى ابن عساكر عن الحسن أن اسم هذه المرأة ليلى وهو خلاف المشهور، وقيل: اسم أبيها السرج بن الهداهد.

ويحكى أنه كان أبوها ملك أرض اليمن كلها وورث الملك من أربعين أباً ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الأمة. وفي بعض الآثار أنه لما مات أبوها طمعت في الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون فملكوا عليهم رجلاً يقال: إنه ابن عمها وكان خبيثاً فأساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يفجر بنساء رعيته فأرادوا خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه فأجابها وقال: ما منعني أن ابتدئك بالخطبة إلا اليأس منك قالت: لا أرغب عنك لأنك كفؤ كريم فاجمع رجال أهلي وأخطبني فجمعهم وخطبها فقالوا: لا نراها تفعل فقال: بلى إنها رغبت في فذكروا لها ذلك فقالت: نعم فزوجوها منه فلما زفت إليه خرجت مع أناس كثير من حشمها وخدمها فلما خلت به سقته الخمر حتى سكر فقتلته وحزت رأسه وانصرفت إلى منزلها فلما أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرّعتهم، وقالت: أما كان فيكم من يأنف من الفجور بكرائم عشيرته ثم أرتهم إياه قتيلاً، وقالت: اختاروا رجلاً تملكوه عليكم فقالوا: لا نرضى غيرك فملكوها وعلموا أن ذلك النكاح كان مكراً وخديعة منها واشتهر أن أمها جنية.

وقد أخرج ذلك ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد والحكيم الترمذي وابن مردويه عن عثمان بن حاضر أن أمها امرأة من الجن يقال لها بلقمة بنت شيصا وابن أبي حاتم عن زهير بن محمد أن أمها فارعة الجنية وفي التفسير الخازني أن أباها شراحيل كان يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفؤاً لي وأبى أن يتزوج فيهم فخطب إلى الجن فزوجوه امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن وسبب وصوله إلى الجن حتى خطب إليهم على ما قيل إنه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن وهم على صور الظباء فيخلي عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقاً فخطب ابنته فزوجه إياها. وقيل: إنه خرج متصيداً فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فأفاقت فأطلقها فلما رجع إلى داره جلس وحده منفرداً فإذا هو معه شاب جميل فخاف منه فقال: لا تخف أنا الحية البيضاء الذي أحييتني والأسود الذي قتله هو عبد لنا تمرد علينا وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال: لا حاجة لي به ولكن إن كان لك بنت فزوجينها فزوجه ابنته فولدت له بلقيس انتهى، وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ أحد أبوي بلقيس كان جنياً» والذي ينبغي أن يعول عليه عدم صحة هذا الخبر، وفي البحر قد طولوا في قصصها يعني بلقيس بما لم يثبت في القرآن ولا الحديث الصحيح وأن ما ذكر من الحكايات أشبه شيء بالخرافات فإن الظاهر على تقدير وقوع التناكح بين الإنس والجن الذي قيل يصفع السائل عنه لحماقته وجهله أن لا يكون توالد بينهما، وقد ذكر عن الحسن فيما روى ابن عساكر أنه قيل بحضرته: إن ملكة سبأ أحد أبويها جني فقال: لا يتوالدون أي إن المرأة من الإنس لا تلد من الجن والمرأة من الجن لا تلد من الإنس. نعم روي عن مالك ما يقتضي صحة ذلك.

ففي الأشباه والنظائر لابن نجيم روى أبو عثمان سعيد بن داود الزبيدي قال: كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجن وقالوا: إن هاهنا رجلاً من الجن زعم أنه يريد الحلال فقال: ما أرى بأساً في الدين ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل لها: من زوجك؟ قالت: من الجن فيكثر الفساد في الإسلام بذلك انتهى، ولعله لم يثبت عن مالك لظهور ما يرد على تعليل الكراهة، ثم ليت شعري إذا حملت الجنية من الإنسي هل تبقى على لطافتها فلا ترى والحمل على كثافته فيرى أو يكون الحمل لطيفاً مثلها فلا يريان فإذا تم أمره تكثف وظهر كسائر بني آدم أو تكون

متشكلة بشكل نساء بني آدم ما دام الحمل في بطنها وهو فيه يتغذى وينمو بما يصل إليه من غذائها وكل من الشقوق لا يخلو عن استبعاد كما لا يخفى، وإيثار ﴿وجدت﴾ على رأيت لما أشير إليه فيما سبق من الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام بإبراز نفسه في معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام، وقيل: للإشعار بأن ما ظفر به أمر غير معلوم أولاً لأن الوجدان بعد الفقد وفيه رمز بغرابة الحال، وضمير ﴿تملكهم﴾ لسبأ على أنه اسم للحي أو لأهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنها اسم لها. وليس في الآية ما يدل على جواز أن تكون المرأة ملكة ولا حجة في عمل قوم كفرة على مثل هذا المطلب. وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» ونقل عن محمد بن جرير أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ولم يصح عنه. وفي الأشباه لا ينبغي أن تولى القضاء وإن صح منها بغير الحدود والقصاص، وذكر أبو حيان أنه نقل عن أبي حنيفة عليه الرحمة أنها تقضي فيما تشهد فيه لا على الإطلاق ولا أن يكتب لها منشور بأن فلانة مقدمة على الحكم وإنما ذلك على سبيل التحكيم لها ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من الأشياء التي تحتاج إليها الملوك بقرينة ﴿تملكهم﴾، وقد يقال: ليس الغرض إلا إفادة كثرة ما أوتيت.

والجملة تحتمل أن تكون عطفاً على جملة ﴿تملكهم﴾ وأن تكون حالاً من ضمير تملكهم المرفوع بتقدير قد أو بدونه ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ قال ابن عباس كما أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر أي سرير كريم من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالي الثمن، وروي عنه أيضاً أنه كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وكان طوله في السماء ثلاثين ذراعاً أيضاً، وقيل: كان طوله ثمانين في ثمانين وارتفاعه ثمانين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد أنه سرير من ذهب وصفحتاه مرصعتان بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً، وقيل: كان من ذهب مكللاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق، وقيل: غير ذلك والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، وبالجملة فالظاهر أن المراد بالعرش السرير، وقال أبو مسلم: المراد به الملك ولا داعي إليه. واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك، وجوز أن يكون ذلك لأنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثله وإن كان عظيم الملك فإنه قد يوجد لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون للملك الذي هم تحت طاعته. وأياً ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه السلام لما ذكر أولاً من ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه وفيه توجيه لعزيمته عليه السلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى. قال الحسن كانوا مجوساً يعبدون الأنوار، وقيل: كانوا زنادقة.

والظاهر أن هذه الجملة استئناف كلام وأن الوقف على ﴿عظيم﴾ قال صاحب المرشد ولا يوقف على عرش وقد زعم بعضهم جوازه وقال معناه عظيم عند الناس. وقد أنكر هذا الوقف أبو حاتم وغيره من المتقدمين ونسبوا القائل به إلى الجهل، وقول من قال معناه عظيم عبادتهم للشمس من دون الله تعالى قول ركيك لا يعتد به وليس في الكلام ما يدل عليه، وفي الكشاف من نوكى القصاص من وقف على ﴿عرش﴾ يريد عظيم إن وجدتها فر من استعظام الهدهد عرشها فوقع في عظيمة وهي نسخ كتاب الله تعالى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ التي هي عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي، والجملة تحتمل العطف على جملة ﴿يسجدون﴾ والحالية من الضمير على نحو ما مر

آنفاً ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ أي الشيطان، وجوز كون الضمير للتزيين المفهوم من الفعل أي فصدهم تزيين الشيطان ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لاَ يَهْتَدُونَ﴾ إليه وقوله تعالى ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لله﴾ أي لئلا يسجدوا واللام للتعليل وهو متعلق بصدهم أو بزين. والفاء في ﴿فصدهم﴾ لا يلزم أن تكون سببية لجواز كونها تفريعية أو تفصيلية أي فصدهم عن ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله عز وجل أو زين لهم ذلك لأجل أن لا يسجدوا له تعالى، وجوز أن تكون أن وما بعدها في تأويل مصدر وقع بدلاً من أعمالهم وما بينهما اعتراض كأنه قيل وزين لهم الشيطان عدم السجود لله تعالى، وتعقب بأنه ظاهر في عد عدم السجود من الأعمال وهو بعيد، وجوز أن يكون ذلك بدلاً من السبيل و ﴿لا﴾ زائدة مثلها في قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد: ٢٩] كأنه قيل فصدهم عن السجود لله تعالى، وجوز أن يكون بتقدير إلى و ﴿لا﴾ زائدة أيضاً والجار والمجرور متعلق بيهتدون كأنه قيل فهم لا يهتدون إلى السجود له عز وجل، وأنت تعلم أن زيادة ـ لا ـ وإن وقعت في الفصيح خلاف الظاهر، وجوز أن لا يكون هناك تقدير والمصدر خبر مبتدأ محذوف أي دأبهم عدم السجود، وقيل: التقدير هي أي أعمالهم عدم السجود وفيه ما مر آنفاً، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر والزهري والسلمي والحسن وحميد والكسائي «ألا» بالتخفيف على أنها للاستفتاح ويا حرف نداء والمنادى محذوف أي ألا يا قوم اسجدوا كما في قوله:

ألا يا اسلمي ذات الدمالج والعقد

ونظائره الكثيرة. وسقطت ألف يا وألف الوصل في ﴿اسجدوا﴾ وكتبت بالياء متصلة بالسين على خلاف القياس. ووقف الكسائي في هذه القراءة على ياء وابتدأ باسجدوا وهو وقف اختيار، وفي البحر الذي أذهب إليه أن مثل هذا التركيب الوارد عن العرب ليست يا فيه للنداء والمنادى محذوف لأن المنادى عندي لا يجوز حذفه لأنه قد حذف الفعل العامل في النداء وانحذف فاعله لحذفه فلو حذفنا المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء وحذف متعلقه وهو المنادى وإذا لم نحذفه كان دليلاً على العامل فيه وهو جملة النداء وليس حرف الندا حرف جواب كنعم وبلى ولا وأجل فيجوز حذف الجملة بعده كما يجوز حذفها بعدهن لدلالة ما سبق من السؤال على الجملة المحذوفة. فيا عندي في تلك التراكيب حرف تنبيه أكد به ﴿ألا﴾ التي للتنبيه وجاز ذلك لاختلاف الحرفين ولقصد المبالغة في التوكيد. وإذا كان قد وجد التأكيد في اجتماع الحرفين المختلفي اللفظ العاملين في قوله:

فأصبحن لا يسألنني عن بما به

والمتفقي اللفظ العاملين أيضاً في قوله:

فلا والله لا يلفى لما بي ... ولا للما بهم أبداً دواء

وجاز ذلك وإن عدّوه ضرورة أو قليلاً فاجتماع غير العاملين وهما مختلفا اللفظ يكون جائزاً. وليس ـ يا ـ في قوله:

يا لعنة الله والأقوام كلهم

حرف نداء عندي بل حرف تنبيه جاء بعده المبتدأ وليس مما حذف فيه المنادى لما ذكرناه انتهى، وللبحث فيه مجال. وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الكلام استئنافاً من كلام الهدهد إما خطاباً لقوم سليمان عليه السلام للحث على عبادة الله تعالى أو لقوم بلقيس لتنزيلهم منزلة المخاطبين. ويحتمل أن يكون استئنافاً من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام كما قيل وهو حينئذ بتقدير القول.

ولعل الأظهر احتمال كونه استئنافاً من جهته عز وجل خاطب سبحانه به هذه الأمة. والجملة معترضة ويوقف على هذه القراءة على ﴿يهتدون﴾ استحساناً ويوجب ذلك زيادة عدة آيات هذه السورة على ما قالوه فيها عند بعض، وقيل: لا يوجبها فإن الآيات توقيفية ليس مدارها على الوقف وعدمه فتأمل. والفرق بين القراءتين معنى أن في الآية على الأولى ذماً على ترك السجود وفيها على الثانية أمراً بالسجود. وأياً ما كان فالسجود واجب عند قراءة الآية، وزعم الزجاج وجوبه على القراءة الثانية وهو مخالف لما صرح به الفقهاء ولذا قال الزمخشري إنه غير مرجوع إليه. وقرأ الأعمش: «هلا يسجدون» على التحضيض وإسناد الفعل إلى ضمير الغائبين. وفي قراءة أبي «ألا تسجدون» على العرض وإسناد الفعل إلى ضمير المخاطبين، وفي حرف عبدالله «ألا هل تسجدون» بألا الاستفتاحية وهل الاستفهامية. وإسناد الفعل إلى ضمير المخاطبين قاله ابن عطية وفي الكشاف ما فيه مخالفة ما له والعالم بحقيقة الحال هو الله عز وجل.

﴿الَّذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السَّمَاوات وَالأرْض﴾ أي يظهر الشيء المخبوء فيهما كائناً ما كان فالخبء مصدر أريد به اسم المفعول. وفسره بعضهم هنا بالمطر والنبات، وروي ذلك عن ابن زيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أنه فسره بالماء والأولى التعميم كما روي ذلك جماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

و ﴿في السماوات﴾ متعلق بالخبء، وعن الفراء أن ﴿في﴾ بمعنى من فالجار والمجرور على هذا متعلق بيخرج والظاهر ما تقدم. واختيار هذا الوصف لما أنه أوفق بالقصة حيث تضمنت ما هو أشبه شيء بإخراج الخبء وهو إظهار أمر بلقيس وما يتعلق به. وعلى هذا القياس اختيار ما ذكر بعد من صفاته عز وجل، وقيل: إن تخصيص هذا الوصف بالذكر لما أن الهدهد أرسخ في معرفته والإحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التي من جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض. وأنت تعلم أن كون الهدهد أودع فيه القدرة على ما ذكر مما لم يجيء فيه خبر يعول عليه، وأيضاً التعليل المذكور لا يتسنى على قراءة ابن عباس والستة الذين معه ﴿ألا يسجدوا﴾ بالتخفيف إذا جعل الكلام استئنافاً من جهته عز وجل أو من جهة سليمان عليه السلام. وقرأ أبي وعيسى «الخب» بنقل حركة الهمزة إلى الباء وحذف الهمزة. وحكى ذلك سيبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد.

وقرأ عكرمة بألف بدل الهمزة فلزم فتح ما قبلها وهي قراءة عبدالله ومالك بن دينار وخرجت على لغة من يقول في الوقف هذا الخبو ومررت بالخبي ورأيت الخبا وأجرى الوصل مجرى الوقف. وأجاز الكوفيون أن يقال في المرأة والكمأة المراة والكماة بإبدال الهمزة ألفاً وفتح ما قبلها. وذكر أن هذا الإبدال لغة.

وجوز أن يكون ﴿الخبء﴾ من ذلك ومنعه الزمخشري مدعياً أن ذلك لغة ضعيفة مسترذلة. وعلل بأن الهمزة إذا سكن ما قبلها فطريق تخفيفها الحذف لا القلب كما يقال في الكمء كمه. وتعقبه في الكشف فقال: تخريجه على الوقف فيه ضعفان لأن الوقف على ذلك الوجه ليس من لغة الفصحاء وإجراء الوصل مجرى الوقف فيما لا يكثر استعماله كذلك. وأما تلك اللغة فعن الكوفيين أنها قياس انتهى. وزعم أبو حاتم أن الخبا بالألف لا يجوز أصلاً وهو من قصور العلم، قال المبرد: كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلدتهم لم يلق أعلم منه. وأشير بعطف قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ على ﴿يخرج﴾ إلى أنه تعالى يخرج ما في العالم الإنساني من الخفايا كما يخرج ما في العالم الكبير من الخبايا لما أن المراد يظهر ما تخفونه من الأحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي كذا قيل. ويشعر كلام بعضهم بأنه أشير بما تقدم إلى كمال قدرته تعالى وبهذا إلى كمال علمه عز وجل وأنه استوى فيه الباطن والظاهر. وقدم ﴿ما

تـخفون ﴾ لذلك مع مناسبته لما قبله من الخبء وقدم وصفه تعالى بإخراج الخبء من السماوات لأنه أشد ملاءمة للمقام، والخطاب على ما قيل إما للناس أو لقوم سليمان أو لقوم بلقيس. وفي الكلام التفات.

وقرأ الحرميان والجمهور «ما يخفون وما يعلنون» بياء الغيبة، وفي الكشاف عن أبي أنه قرأ «ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون».

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ في معنى التعليل لوصفه عز وجل بكمال القدرة وكمال العلم. و ﴿العظيم ﴾ بالجر صفة العرش وهو نهاية الأجرام فلا جرم فوقه، وفي الآثار من وصف عظمه ما يبهر العقول ويكفي في ذلك أن الكرسي الذي نطق الكتاب العزيز بأنه وسع السماوات والأرض بالنسبة إليه كحلقة في فلاة، وهو عند الفلاسفة محدد الجهات وذهبوا إلى أنه جسم كري خال عن الكواكب محيط بسائر الأفلاك محرك لها قسراً من المشرق إلى المغرب ولا يكاد يعلم مقدار ثخنه إلا الله تعالى، وفي الأخبار الصحيحة ما يأبى بظاهره بعض ذلك. وأياً ما كان فبين عظمه وعظم عرش بلقيس بون عظيم.

وقرأ ابن محيصن وجماعة «العظيمُ» بالرفع فاحتمل أن يكون صفة للعرش مقطوعة بتقدير هو فتستوي القراءتان معنى. واحتمل أن يكون صفة للرب ﴿قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا فعل سليمان عليه السلام عند قوله ذلك؟ فقيل قال: ﴿سَنَنْظُرُ ﴾ أي فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والتفكر، والسين للتأكيد أي سنتعرف بالتجربة البتة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ جملة معلق عنها الفعل للاستفهام. وكان مقتضى الظاهر أم كذبت وإيثار ما عليه النظم الكريم للإيذان بأن كذبه في هذه المادة يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة مع ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلاً لا سيما بين يدي نبي عظيم تخشى سطوته لا يكاد يصدر إلا عمن رسخت قدمه في الكذب والإفك وصار سجية له حتى لا يملك نفسه عنه في أي موطن كان، وزعم بعضهم أن ذاك لمراعاة الفاصلة وليس بشيء أصلاً، وفي الآية على ما في الإكليل قبول الوالي عذر رعيته ودرء العقوبة عنهم وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به، وقوله تعالى: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ استئناف مبين لكيفية النظر الذي وعده عليه السلام بعد ما كتب كتابه في ذلك المجلس أو بعده. فهذا إشارة إلى الحاضر وتخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة ولئلا يبقى له عذر أصلاً، وفي الآية دليل على جواز إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام لإبلاغ الدعوة والدعاء إلى الإسلام. وقد كتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك العرب، وقرىء في السبعة «فَأَلْقِهِ» بكسر الهاء وياء بعدها وباختلاس الكسرة وبسكون الهاء، وقرأ مسلم بن جندب بضم الهاء وواو بعدها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي تنح وحمل على ذلك لأن التولي بالكلية ينافي قوله: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلا أن يحمل على القلب كما زعم ابن زيد وأبو علي وهو غير مناسب. وأمره عليه السلام إياه بالتنحي من باب تعليم الأدب مع الملوك كما روي عن وهب.

والنظر بمعنى التأمل والتفكر و ﴿ماذا ﴾ إما كلمة استفهام في موضع المفعول ليرجعون ورجع تكون متعدية كما تكون لازمة أو مبتدأ وجملة ﴿يرجعون ﴾ خبره. وإما أن تكون ما استفهامية مبتدأ وذا اسم موصول بمعنى الذي خبره وجملة ﴿يرجعون ﴾ صلة الموصول والعائد محذوف. وأياً ما كان فالجملة معلق عنها فعل القلب فمحلها النصب على إسقاط الخافض، وقيل: النظر بمعنى الانتظار كما في قوله تعالى: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ [الحديد: ١٣] فلا

تعليق بل كلمة ﴿ماذا﴾ موصول في موضع المفعول كذا قيل، والظاهر أنه بمعنى التأمل وأن المراد فتأمل وتعرف ماذا يرد بعضهم على بعض من القول. وهذا ظاهر في أن الله تعالى أعطى الهدهد قوة يفهم بها ما يسمعه من كلامهم، والتعبير بالإلقاء لأن تبليغه لا يمكن بدونه. وجمع الضمير لأن المقصود تبليغ ما فيه لجميع القوم والكشف عن حالهم بعده.

﴿قَالَتْ﴾ أي بعد ما ذهب الهدهد بالكتاب فألقاه إليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به، وإنما طوى ذكره إيذاناً بكمال مسارعته إلى إقامة ما أمر به من الخدمة وإشعاراً بالاستغناء عن التصريح به لغاية ظهوره.

روي أنه عليه السلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد فذهب به فوجدها راقدة في قصرها بمأرب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وفي رواية بين ثدييها، وقيل: نقرها فانتبهت فزعة، وقيل: أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فقالت ما قالت، وقيل: كانت في البيت كوة تقع الشمس منها كل يوم فإذا نظرت إليها سجدت فجاء الهدهد فسدها بجناحيه فرأت ذلك وقامت إليه فألقى الكتاب إليها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل يعرب بن قحطان واشتهر أنها من نسل تبع الحميري وكان الخط العربي في غاية الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة وهو المسمى بالخط الحميري وكان بحمير كتابة تسمى المسند حروفها مفصلة وكانوا يمنعون من تعليمها إلا بإذنهم ومن حمير تعلم مضر، وقد تقدم بعض الكلام في ذلك.

واختار ابن خلدون القول بأنه تعلم الكتابة العربية من التبابعة وحمير أهل الحيرة وتعلمها منهم أهل الحجاز. وظاهر كون بلقيس من العرب وأنها قرأت الكتاب يقتضي أن الكتاب كان عربياً، ولعل سليمان عليه السلام كان يعرف العربي وإن لم يكن من العرب، ومن علم منطق الطير لا يبعد أن يعلم منطق العرب الذي هو أشرف منطق، ويحتمل أن يكون عنده من يعرف ذلك وكذا من يعرف غيره من اللغات كعادة الملوك يكون عندهم من يتكلم بعدة لغات ليترجم لهم ما يحتاجونه، ويجوز أن يكون الكتاب غير عربي بل بلغة سليمان عليه السلام وقلمه وكان قلمه كما نقل عن الإمام أحمد البوني كاهنياً وكان عند بلقيس من ترجمه لها وأعلمها بما فيه فجمعت أشراف قومها وأخبرتهم بذلك واستشارتهم كما حكى سبحانه عنها بقوله جل وعلا قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ إلخ، وأقدم سليمان عليه السلام على كتابة الكتاب إليها كذلك قول الهدهد: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ [النمل: ٢٣] والمترجم من الأشياء التي يحتاج إليها الملك وأن اللائق بشأنه وعظمته أن لا يترك لسانه ويتشبه بها في لسانها، ويحتمل أنها كانت بنفسها تعرف تلك الكتابة فقرأت الكتاب لذلك، ورجح احتمال أن يكون الكتاب غير عربي بأن الكتابة لها بالعربية تستدعي الوقوف على حالها وهو عليه السلام ما وقف عليه بعد.

وتعقب بأنه دله على كونها عربية قول الهدهد: ﴿جئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم﴾ [النمل: ٢٢، ٢٣] فإنه عليه السلام ممن لا يخفى عليه كون سبأ من العرب والظاهر كون ملكتهم منهم، ووصفت الكتاب بالكرم لكونه مختوماً ففي الحديث: «كرم الكتاب ختمه»، وفي شرح أدب الكاتب يقال أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته، وقال ابن المقنع: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به، وقد فسر ابن عباس وقتادة وزهير بن محمد «الكريم» هنا بالمختوم، وفيه كما قيل استحباب ختم الكتاب لكرم مضمونه وشرفه أو لكرم مرسله وعلو منزلته وعلمت ذلك بالسماع أو بكون كتابه مختوماً باسمه على عادة الملوك والعظماء أو بكون رسوله به الطير أو

لبداءته باسم الله عز وجل أو لغرابة شأنه ووصوله إليها على منهاج غير معتاد، وقيل: إن ذلك لظنها إياه بسبب أن الملقى له طير أنه كتاب سماوي وليس بشيء. وبناء ﴿أُلْقِيَ﴾ للمفعول لعدم الاهتمام بالفاعل، وقيل: لجهلها به أو لكونه حقيراً. وقال الشيخ الأكبر قدس سره في الفصوص: من حكمة بلقيس كونها لم تذكر من ألقى إليها الكتاب وما ذاك إلا لتعلم أصحابها أن لها اتصالاً إلى أمور لا يعلمون طريقها. وفي ذلك سياسة منها أورثت الحذر منها في أهل مملكتها وخواص مدبريها وبهذا استحقت التقديم عليهم انتهى، وتأكيد الجملة للاعتناء بشأن الحكم، وأما التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فلذاك أيضاً أو لوقوعه في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ممن هذا الكتاب وماذا مضمونه؟ فقيل: إنه من سليمان إلخ، ويحسن التأكيد بأن في جواب السؤال ولا أرى فرقاً في ذلك بين المحقق والمقدر، ويعلم مما ذكر أن ضمير ﴿إنه﴾ الأول للكتاب وضمير ﴿إنه﴾ الثاني للمضمون وإن لم يذكر، وليس في الآية ما يدل على أنه عليه السلام قدم اسمه على اسم الله عز وجل، وعلمها بأنه من سليمان يجوز أن يكون لكتابة اسمه بعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان أنه قال: كتب سليمان بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن داود إلى بلقيس ابنة ذي شرح وقومها ـ أن لا تعلوا ـ إلخ، وجوز أن يكون لكتابته في ظاهر الكتاب وكان باطن الكتاب ﴿بسم الله﴾ إلخ، وقيل: ضمير ﴿إنه﴾ الأول للعنوان وأنه عليه السلام عنوان الكتاب باسمه مقدماً له فكتب من سليمان ﴿بسم الله﴾ إلخ واستظهر هذا أبو حيان ثم قال: وقدم عليه السلام اسمه لاحتمال أن يبدر منها ما لا يليق إذ كانت كافرة فيكون اسمه وقاية لاسم الله عز وجل وهو كما ترى، وكتابة البسملة في أوائل الكتب مما جرت به سنة نبينا ﷺ بعد نزول هذه الآية بلا خلاف، وأما قبله فقد قيل إن كتبه عليه الصلاة والسلام لم تفتتح بها، فقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال: كان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم فكتب النبي ﷺ أول ما كتب باسمك اللهم حتى نزلت ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ [هود: ٤١] فكتب بسم الله ثم نزلت ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ [الإسراء: ١١٠] فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت آية النمل ﴿إنه من سليمان﴾ الآية فكتب بسم الله الرحمن الرحيم. وأخرج أبو داود في مراسيله عن أبي مالك قال: كان النبي ﷺ يكتب باسمك اللهم فلما نزلت ﴿إنه من سليمان﴾ الآية كتب بسم الله إلخ، وروي نحو ذلك عن ميمون بن مهران وقتادة، وهذا عندي مما لا يكاد يتسنى مع القول بنزول البسملة قبل نزول هذه الآية وهذا القول مما لا ينبغي أن يذهب إلى خلافه، فقد قال الجلال السيوطي في اتقانه اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال، أحدها وهو الصحيح ﴿اقرأ باسمك ربك﴾ [العلق: ١] واحتج له بعده أخبار منها خبر الشيخين في بدء الوحي وهو مشهور، وثانيها ﴿يا أيها المدثر﴾ [المدثر: ١] وثالثها سورة الفاتحة، ورابعها البسملة ثم قال وعندي أن هذا لا يعد قولاً برأسه فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها فهي أول آية نزلت على الإطلاق ا هـ.

وهو يقوي ما قلناه فإن البسملة إذا كانت أول آية نزلت كانت هي المفتتح لكتاب الله تعالى وإذا كانت كذلك كان اللائق بشأنه ﷺ أن يفتتح بها كتبه كما افتتح الله تعالى بها كتابه وجعلها أول المنزل منه.

والقول بأنها نزلت قبل إلا أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم مشروعيتها في أوائل الكتب والرسائل حتى نزلت هذه الآية المتضمنة لكتابة سليمان عليه السلام إياها في كتابه إلى أهل سبأ مما لا يقدم عليه إلا جاهل بقدره عليه الصلاة والسلام، وذكر بعض الأجلة أنها إذا كتبت في الكتب والرسائل فالأولى أن تكتب سطراً وحدها.

وفي أدب الكتاب للصولي أنهم يختارون أن يبدأ الكاتب بالبسملة من حاشية القرطاس ثم يكتب الدعاء مساوياً لها ويستقبحون أن يخرج الكلام عن البسملة فاضلاً بقليل ولا يكتبونها وسطاً ويكون الدعاء فاضلاً ا هـ.

وما ذكر من كتابة الدعاء بعدها لم يكن في الصدر الأول وإنما كان فيه كتابة من فلان إلى فلان.

وتقديم اسم الكاتب على اسم المكتوب له مشروع وإن كان الأول مفضولاً والثاني فاضلاً، ففي البحر عن أنس ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله ﷺ وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً بدؤوا بأنفسهم.

وقال أبو الليث في البستان له: ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز لأن الأمة قد أجمعت عليه وفعلوه انتهى.

وظاهر الآية أن البسملة ليست من الخصوصيات، وقال بعضهم: إنها منها لكن باللفظ العربي والترتيب المخصوص، وما في كتاب سليمان عليه السلام لم تكن باللفظ العربي وترجمت لنا به وليس ذلك ببعيد.

وقرأ عبدالله «وإنه من سليمان» بزيادة واو، وخرجه أبو حيان على أنها عاطفة للجملة بعدها على جملة ﴿**إني أُلْقِي**﴾، وقيل: هي واو الحال والجملة حالية، وقرأ عكرمة وابن أبي عبلة «أنه من سليمان وأنه» بفتح همزة أن في الموضعين، وخرج على الإبدال من ﴿**كتاب**﴾ أي ألقي إلي أنه إلخ أو على أن يكون التقدير لأنه إلخ كأنها عللت كرم الكتاب بكونه من سليمان وبكونه مصدراً باسم الله عز وجل، وقرأ أبي «أن من سليمان وأن بسم الله» بفتح الهمزة وسكون النون، وخرج على أن أن هي المفسرة لأنه قد تقدمت جملة فيها معنى القول أو على أنها المخففة من الثقيلة وحذفت الهاء. و ﴿**أن**﴾ في قوله تعالى: ﴿**أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ**﴾ يحتمل أن تكون مفسرة ولا ناهية. ويحتمل أن تكون مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية، وقيل: يجوز كونها ناهية أيضاً، ومحل المصدر الرفع على أنه بدل من ﴿**كتاب**﴾ أو خبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام أي مضمونه أن لا تعلوا عليّ أي أن لا تتكبروا عليّ كما يفعل جبابرة الملوك، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية وهب بن منبه والأشهب العقيلي «أن لا تغلوا» بالغين المعجمة من الغلو وهي مجاوزة الحد أي أن لا تتجاوزا حدكم ﴿**وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ عطف على ما قبله فإن كانت فيه لا ناهية فعطف الأمر عليه ظاهر وإن كانت نافية وأن مصدرية فعطفه عليه من عطف الإنشاء على الأخبار والكلام فيه مشهور، والأكثرون على جوازه في مثل هذا. والمراد بالإسلام الإيمان أي وأتوني مؤمنين، وقيل: المراد به الانقياد أي ائتوني منقادين مستسلمين. والدعوة على الأول دعوة النبوة وعلى الثاني دعوة الملك واللائق بشأنه عليه السلام هو الأول.

وفي بعض الآثار كما ستعلم إن شاء الله تعالى ما يؤيده. ولا يرد أنه يلزم عليه أن يكون الأمر بالإيمان قبل إقامة الحجة على رسالته فيكون استدعاء للتقليد لأن الدعوة المذكورة هي الدعوة الأولى التي لا تستدعي إظهار المعجزة وإقامة الحجة، وعادة الأنبياء عليهم السلام الدعوة إلى الإيمان أولاً فإذا عورضوا أقاموا الدليل وأظهروا المعجزة؛ وفيما نحن فيه لم يصدر معارضة، وقيل: إن الدعوة ما كانت إلا مقرونة بإقامة الحجة لأن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة التي ذكرت فيما مر أولاً معجزة باهرة دالة على رسالته عليه السلام دلالة بينة. وتعقب بأن كون الإلقاء المذكور معجزة غير واضح خصوصاً وهي لم تقارن التحدي؛ ورجح الثاني بأن قولها: ﴿**إن الملوك**﴾ إلخ صريح في دعوة الملك والسلطنة.

وأجيب بأن ذاك لعدم تيقنها رسالته عليه السلام حينئذ أو هو من باب الاحتيال لجلب القوم إلى الإجابة بإدخال الروع عليهم من حيثية كونه عليه السلام ملكاً وهذا كما ترى، والظاهر أنه لم يكن في الكتاب أكثر مما قص الله تعالى وهو إحدى الروايتين عن مجاهد، وثانيتهما أن فيه - السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين

وفي بعض الآثار أن نسخة الكتاب ـ من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ السلام على من اتبع الهدى ـ إلى آخر ما ذكر، ولعلها على ما هو الظاهر عرفت أنهم المعنيون بالخطاب من قرائن الأحوال، وقد تضمن ما قصه سبحانه البسملة التي هي هي في الدلالة على صفاته تعالى صريحاً والتزاماً والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل فيا له كتاب في غاية الإيجاز ونهاية الإعجاز، وعن قتادة كذلك كانت الأنبياء عليهم السلام تكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون.

هذا ولم أر في الآثار ما يشعر بأنه عليه السلام كتب ذلك على الكاغد أو الرق أو غيرهما، واشتهر على ألسنة الكتاب أن الكتاب كان من الكاغد المعروف وأن الهدهد أخذه من طرفه بمنقاره فابتل ذلك الطرف بريقه وذهب منه شيء وكان ذلك الزاوية اليمنى من جهة أسفل الكتاب، وزعموا أن قطعهم شيئاً مر القرطاس من تلك الزاوية تشبيهاً لما يكتبونه بكتاب سليمان عليه السلام وهذا مما لا يعول عليه ولسائر أرباب الصنائع والحرف حكايات من هذا القبيل وهي عند العقلاء أحاديث خرافة.

﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي**﴾ كررت حكاية قولها للإيذان بغاية اعتنائها بما في حيزها، والإفتاء على ما قال صاحب المطلع الإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير وهو إزالة ما حدث له من الإشكال كالإشكاء إزالة الشكوى، وفي المغرب اشتقاق الفتوى من الفتى لأنها جواب في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل، وأياً ما كان فالمعنى أشيروا عليّ بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرت لكم خلاصته، وقصدت بما ذكرت استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوها ويقوموا معها وأكدت ذلك بقولها: ﴿**مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُون**﴾ أي ما أقطع أمراً من الأمور المتعلقة بالملك إلا بمحضركم وبموجب آرائكم، والإتيان بكان للإيذان بأنها استمرت على ذلك أو لم يقع منها غيره في الزمن الماضي فكذا في هذا و ﴿**حتى تشهدون**﴾ غاية للقطع.

واستدل بالآية على استحباب المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمة، وفي قراءة عبدالله «ما كنت قاضية أمراً» ﴿**قَالُوا**﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية قولها كأنه قيل: فماذا قالوا في جوابها؟ فقيل قالوا: ﴿**نَحْنُ أُولُو قُوَّة**﴾ في الأجساد والعدد ﴿**وَأُولُو بَأْس شَدِيد**﴾ أي نجدة وشجاعة مفرطة وبلاء في الحرب قيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلاً كل واحد على عشرة آلاف، وروي ذلك عن قتادة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان لصاحبة سليمان اثنا عشر ألف قيل تحت يد كل قيل مائة ألف، وقيل: كان تحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة تحت يد كل ملك أربعمائة ألف مقاتل ولها ثلاثمائة وزير يدبرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد كل قائد تحت يده اثنا عشر ألف مقاتل، وهذه الأخبار إلى الكذب أقرب منها إلى الصدق، ولعمري إن أرض اليمن لتكاد تضيق عن العدد الذي تضمنه الخبران الأخيران، وليت شعري ما مقدار عدد رعيتها الباقين الذين تحتاج إلى هذا العسكر والقواد والوزراء لسياستهم وضبط أمورهم وتنظيم أحوالهم ﴿**وَالْأَمْرُ إِلَيْك**﴾ تسليم للأمر إليها بعد تقديم ما يدل على القوة والشجاعة حتى لا يتوهم أنه من العجز. والأمر بمعناه المعروف أو المعنى الشأن وهو مبتدأ و ﴿**إليك**﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً له ويقدر مؤخراً ليفيد الحصر المقصود لفهمه من السياق أي والأمر إليك موكول.

﴿**فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾ من الصلح والمقاتلة نطعك ونتبع رأيك، وقيل: أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من

أبناء الرأي والمشورة وإليك الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين نكن في الخدمة فلما أحست منهم الميل إلى الحرب والعدول عن السنن الصواب شرعت في تزييف مقالتهم المنبئة عن الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام حسبما تعتقده، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ من القرى على منهاج المقاتلة والحرب ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عماراتها وإتلاف ما فيها من الأموال.

﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ بالقتل والأسر والإجلاء وغير ذلك من فنون الإهانة والإذلال، ولم يقل وأذلوا أعزة أهلها مع أنه أخصر للمبالغة في التصيير والجعل ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تصديق لها من جهته عز وجل على ما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أو هو من كلامها جاءت به تأكيداً لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلي وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة فالضمير للملوك، وقيل: هو لسليمان ومن معه فيكون تأسيساً لا تأكيداً. وتعقب بأن التأكيد لازم على ذلك أيضاً للاندراج تحت الكلية وكأنها أرادت على ما قيل: إن سليمان ملك والملوك هذا شأنهم وغلبتنا عليه غير محققة ولا اعتماد على العدد والعدة والشجاعة والنجدة فربما يغلبنا فيكون ما يكون فالصلح خير، وقيل: إنها غلب على ظنها غلبته حيث رأت أنه سخر له الطير فجعل يرسله بأمر خاص إلى شخص خاص مغلق عليه الأبواب فأشارت لهم إلى أنه يغلب عليهم إذا قاتلوه فيفسد القرى ويذل الأعزة وأفسدت بذلك رأيهم وما أحسته منهم من الميل إلى مقاتلته عليه السلام وقررت رأيها بقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال، وهذا ظاهر في أنها لم تثق بقبوله عليه السلام هديتها.

وروي أنها قالت لقومها: إن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك وإن كان نبياً لم يرضه المال وينبغي أن نتبعه على دينه، والهدية اسم لما يهدى كالعطية اسم لما يعطى، والتنوين فيها للتعظيم؛ و ﴿ناظرة﴾ عطف على ﴿مرسلة﴾ و ﴿بم﴾ متعلق بيرجع. ووقع للحوفي أنه متعلق بناظرة وهو وهم فاحش كما في البحر، والنظر معلق والجملة في موضع المفعول به له والجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للإيذان بأنها مزمعة على رأيها لا يلويها عنه صارف ولا يثنيها عاطف.

واختلف في هديتها فعن ابن عباس أنها كانت مائة وصيف ومائة وصيفة، وقال وهب. وغيره: عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجواري لبس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجواري وجعلت في أيديهم أساور الذهب وفي أعناقهم أطواق الذهب وفي آذانهم أقرطة وشنوفاً مرصعة بأنواع الجواهر وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجوهر وعليه أغشية الديباج وبعثت إليه لبنات من ذهب ولبنات من فضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت وأرسلت بالمسك والعنبر والعود وعمدت إلى حق فجعلت فيه درة عذراء وخرزة جزع معوجة الثقب ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بني عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل وكتبت معه كتاباً تذكر فيه الهدية وقالت فيه: إن كنت نبياً ميز بين الغلمان والجواري وأخبر بما في الحق قبل أن تفتحه ثم قالت للرسول: فإن أخبر فقل له اثقب الدرة ثقباً مستوياً وأدخل في الخرزة خيطاً من غير علاج أنس ولا جن وقالت للغلمان: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنث يشبه كلام النساء وأمرت الجواري أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت فإن نظر إليك نظراً فيه غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي فتفهم منه قوله ورد الجواب فانطلق الرجل بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره الخبر فأمر عليه السلام الجن أن يضربوا لبناً من الذهب والفضة ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار

تسع فراسخ وأن يفرشوا فيه لبن الذهب والفضة وأن يخلوا قدر تلك اللبنات التي معهم وأن يعملوا حول الميدان حائطاً مشرفاً من الذهب والفضة ففعلوا ثم قال: أي دواب البر والبحر أحسن فقالوا: يا نبي الله ما رأينا أحسن من دواب في البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص قال عليّ بها الساعة فأتوه بها قال: شدوها عن يمين الميدان وشماله وقال للجن: عليّ بأولادكم فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان وعلى شماله وأمر الجن والإنس والشياطين والوحوش والسباع والطير ثم قعد في مجلسه على سريره ووضع أربعة آلاف كرسي على يمينه وعلى شماله وأمر جميع الإنس والجن والشياطين والوحوش والسباع والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان عليه السلام ورأوا الدواب التي لم يروا مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تصاغرت إليهم أنفسهم وخبؤوا ما كان معهم من الهدايا، وقيل: إنهم لما رأوا ذلك الموضع الخالي من اللبنات خالياً خافوا أن يتهموا بذلك فوضعوا ما معهم من اللبن فيه ولما نظروا إلى الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا فقالت لهم الشياطين: جوزوا لا بأس عليكم وكانوا يمرون على كراديس الجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدي سليمان فأقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم ملقى حسناً وسألهم عن حالهم فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا فيه وأعطاه الكتاب فنظر فيه وقال: أين الحق فأتي به فحركه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره بما فيه فقال لهم: إن فيه درة غير مثقوبة وجزعة معوجة الثقب قال الرسول: صدقت فأثقب الدرة وأدخل الخيط في الجزعة فقال سليمان عليه السلام من لي بثقبها وسأل الجن والإنس فلم يكن عندهم علم ذلك ثم سأل الشياطين فقالوا نرسل إلى الأرضة فلما جاءت أخذت شعرة بفيها ونفذت في الدرة حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها: ما حاجتك؟ قالت: تصير رزقي في الشجر فقال: لك ذلك ثم قال: من لهذه الخرزة؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبي الله فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال: ما حاجتك؟ قالت: يكون رزقي في الفواكه فقال: لك ذلك ثم ميز بين الغلمان والجواري أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب بها الأخرى وتغسل وجهها والغلام يأخذ الماء بيديه ويضرب به وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعديها والغلام على ظاهره ثم رد سليمان عليه السلام الهدية كما أخبر الله تعالى، وقيل: إنها أنفذت مع هداياها عصا كان يتوارثها ملوك حمير وقالت: أريد أن تعرفني رأسها من أسفلها وبقدح ماء وقالت: تملؤه ماء رواء ليس من الأرض ولا من السماء فأرسل عليه السلام العصا إلى الهواء وقال أي الطرفين سبق إلى الأرض فهو أصلها وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها وقال: هذا ليس من ماء الأرض ولا من ماء السماء ا هـ. وكل ذلك أخبار لا يدرى صحتها ولا كذبها، ولعل في بعضها ما يميل القلب إلى القول بكذبه والله تعالى أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ في الكلام حذف أي فأرسلت الهدية فلما جاء إلخ، وضمير ﴿جاء﴾ للرسول، وجوز أن يكون لما أهدت إليه والأول أولى، وقرأ عبدالله «فلما جاؤوا» أي المرسلون ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ خطاب للرسول والمرسل تغليباً للحاضر على الغائب وإطلاقاً للجمع على الاثنين، وجوز أن يكون للرسول ومن معه وهو أوفق بقراءة عبدالله، ورجح الأول لما فيه من تشديد الإنكار والتوبيخ المستفادين من الهمزة على ما قيل وتعميمهما لبلقيس وقومها، وأيد بمجيء قوله تعالى: ﴿ارجع إليهم﴾ بالإفراد؛ وتنكير ﴿مال﴾ للتحقير.

وقرأ جمهور السبعة «تمدونن» بنونين وأثبت بعض الياء. وقرأ حمزة بإدغام نون الرفع في نون الوقاية وإثبات ياء المتكلم. وقرأ المسيبي عن نافع بنون واحدة خفيفة والمحذوف نون الوقاية، وجوز أن يكون الأولى فرفعه بعلامة مقدرة كما قيل في قوله:

أبـيـت أسـري وتـبـيـتـي تـدلـكـي   وجـهـك بـالـعـنـبـر والـمـسـك الـذكـي

﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ أي من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتِيكُمْ﴾ أي من المال الذي من جملته ما جئتم به، وقيل: عنى بما آتاه المال لأنه المناسب للمفضل عليه والأول أولى لأنه أبلغ، والجملة تعليل للإنكار والكلام كناية عن عدم القبول لهديتهم، وليس المراد منه الافتخار بما أوتيه فكأنه قيل: أنكر إمدادكم إياي بمال لأن ما عندي خير منه فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وقع لها عندي، والظاهر أن الخطاب المذكور كان أول ما جاؤوه كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿فلما جاء سليمان﴾ إلخ. ولعل ذلك لمزيد حرصه على إرشادهم إلى الحق، وقيل: لعله عليه السلام قال لهم ما ذكر بعد أن جرى بينهم وبينه ما جرى مما في خبر وهب وغيره، واستدل بالآية على استحباب هدايا المشركين.

والظاهر أن الأمر كذلك إذا كان في الرد مصلحة دينية لا مطلقاً، وإنما لم يقل: وما آتاني الله خير مما آتاكم لتكون الجملة حالاً لما أن مثل هذه الحال وهي الحال المقررة للإشكال يجب أن تكون معلومة بخلاف العلة وهي هنا ليست كذلك، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال وتعليله إلى بيان ما حملهم عليه من قياس حاله عليه السلام على حالهم وهو قصور همتهم على الدنيا والزيادة فيها فالمعنى أنتم تفرحون بما يهدى إليكم لقصور همتكم على الدنيا وحبكم الزيادة فيها، ففي ذلك من الحط عليهم ما لا يخفى، والهدية مضافة إلى المهدي إليه وهي تضاف إلى ذلك كما تضاف إلى المهدي أو إضراب عن ذلك إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أهدوها إليه عليه السلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها، وفائدة الإضراب التنبيه على أن إمداده عليه السلام بالمال منكر قبيح، وعد ذلك مع أنه لا قدر له عنده عليه السلام مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح والتوبيخ به أدخل، قيل: وينبىء عن اعتدادهم بتلك الهدية التنكير في قول بلقيس: ﴿واني مرسلة إليهم بهدية﴾ بعد عدها إياه عليه السلام ملكاً عظيماً.

وكذا ما تقدم في خبر وهب وغيره من حديث الحق والجزعة وتغيير زي الغلمان والجواري وغير ذلك، وقيل: فرحهم بما أهدوه إليه عليه السلام من حيث توقعهم به ما هو أزيد منه فإن الهدايا للعظماء قد تفيد ما هو أزيد منها مالاً أو غيره كمنع تخريب ديارهم هنا، وقيل: الكلام كناية عن الرد، والمعنى أنتم من حقكم أن تفرحوا بأخذ الهدية لا أنا فخذوها وافرحوا وهو معنى لطيف إلا أن فيه خفاء ﴿ارْجِعْ﴾ أمر للرسول ولم يجمع الضمير كما جمعه فيما تقدم من قوله: ﴿أتمدونني﴾ إلخ لاختصاص الرجوع به بخلاف الإمداد نحوه، وقيل: هو أمر للهدهد محملاً كتاباً آخر وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن زهير بن زهير.

وتعقب بأنه ضعيف دراية ورواية وقرأ عبدالله «ارجعوا» على أنه أمر للمرسلين والفعل هنا لازم أي انقلب وانصرف ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ أي فوالله لنأتينهم ﴿بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وأصل القبل المقابلة فجعل مجازاً أو كناية عن الطاقة والقدرة عليها. وقرأ عبدالله «بهم» ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ﴾ عطف على جواب القسم ﴿مِنْهَا﴾ أي من سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ أي حال كونهم أذلة بعد ما كانوا فيه من العز والتمكين، وفي جمع القلة تأكيد لذلتهم، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ حال أخرى، والصغار وإن كان بمعنى الذل إلا أن المراد به هنا وقوعهم في أسر واستعباد فيفيد الكلام أن إخراجهم بطريق الأسر لا بطريق الإجلاء وعدم وقوع جواب القسم لأنه كان معلقاً بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل: ارجع إليهم فليأتوني مسلمين وإلا فلنأتينهم إلخ.

قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ
مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ
فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ
قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا
كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ
مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ
طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا
لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْـمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلمِينَ﴾ في الكلام حذف أي فرجع الرسول إليها وأخبرها بما أقسم عليه سليمان فتجهزت للمسير إليه إذ علمت أنه نبي ولا طاقة لها بقتاله، فروي أنها أمرت عند خروجها فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في جوف بعض في آخر قصر من قصورها وغلقت الأبواب ووكلت به حراساً يحفظونه وتوجهت إلى سليمان في أقيالها وأتباعهم وأرسلت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، قال عبدالله بن شداد: فلما كانت على فرسخ من سليمان قال: أيكم يأتيني بعرشها.

وعن ابن عباس كان سليمان مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فنظر ذات يوم رهجاً قريباً منه فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس فقال: أيكم إلخ، ومعنى مسلمين على ما روي عنه طائعين، وقال بعضهم: هو بمعنى مؤمنين، واختلفوا في مقصوده عليه السلام من استدعائه عرشها، فعن ابن عباس وابن زيد أنه عليه السلام استدعى ذلك

ليريها القدرة التي هي من عند الله تعالى وليغرب عليها. ومن هنا قال في الكشاف: لعله أوحى إليه عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى: من إجراء العجائب على يده مع إطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمان عليه السلام ويصدقها انتهى؛ وتقييد الإتيان بقوله: ﴿قبل﴾ إلخ لما أن ذلك أبدع وأغرب وأبعد من الوقوع عادة وأدل على عظيم قدرة الله عز وجل وصحة نبوته عليه السلام وليكون إطلاعها على بدائع المعجزات في أول مجيئها.

وقال الطبري: أراد عليه السلام أن يختبر صدق الهدهد في قوله: ﴿ولها عرش عظيم﴾ [النمل: ٢٣] واستبعد ذلك لعدم احتياجه عليه السلام إلى هذا الاختبار فإن أمارة الصدق في ذلك غاية الوضوح لديه عليه السلام لا سيما إذا صح ما روي عن وهب وغيره. وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختباراً لعقلها.

وقال قتادة وابن جريج: إنه عليه السلام أراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإيمان ويمنع أخذ أموالهم. قال في الكشف: فيه أن حل الغنائم مما اختص به نبينا ﷺ، وقال في التحقيق لا يناسب رد الهدية. وتعليله بقوله: ﴿فما آتاني الله خير مما آتاكم﴾. وأجيب بأن هذا ليس من باب أخذ الغنائم وإنما هو من باب أخذ مال الحربي. والتصريف بغير رضاه مع أن الظاهر أنه بوحي فيجوز أنه من خصوصياته لحكمة ولم يكن ذلك هدية لها حتى لا يناسب الرد السابق وفيه بحث، ولعل الألصق بالقلب أن ذاك لينكره فيمتحنها اختباراً لعقلها مع إراءتها بعض خوارقه الدالة على صحة نبوته وعظيم قدرة الله عز وجل. ثم الظاهر أن هذا القول بعد رد الهدية وهو الذي عليه الجمهور.

وفي رواية عن ابن عباس أنه عليه السلام قال ذلك حين ابتدأ النظر في صدق الهدهد من كذبه لما قال: ﴿ولها عرش عظيم﴾ ففي ترتيب القصص تقديم وتأخير وأظن أنه لا يصح هذا عن ابن عباس ﴿قَالَ عفْريتٌ﴾ أي خبيث مارد ﴿مِنَ الْجنّ﴾ بيان له إذ يقال للرجل الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه، وقرأ أبو حيوة «عَفْرِيت» بفتح العين وقرأ أبو رجاء وأبو السمال وعيسى ورويت عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه «عِفْرِيَة» بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة بعدها تاء التأنيث، وقال ذو الرمة:

كأنه كوكب في إثر عفرية ... مصوب في سواد الليل منقضب

وقرأت فرقة «عفر» بلا ياء ولا تاء ويقال في لغة طيىء وتميم: عفراة بألف بعدها تاء التأنيث، وفيه لغة سادسة عفارية؛ وتاء عفريت زائدة للمبالغة في المشهور. وفي النهاية الياء في عفرية وعفارية للإلحاق بشرذمة وعذافرة والهاء فيهما للمبالغة والتاء في عفريت للإلحاق بقنديل اهـ. واسم هذا العفريت على ما أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس صخر.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن شعيب الجبائي أن اسمه كوزن. وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد ابن رومان أن اسمه كوزي. وقيل: اسمه ذكوان ﴿أَنَا آتيكَ به﴾ أي بعرشها، وآتي يحتمل أن يكون مضارعاً وأن يكون اسم فاعل. قيل: وهو الأنسب بمقام ادعاء الإتيان به في المدة المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ منْ مَقَامكَ﴾ أي من مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة وكان عليه السلام يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم قاله قتادة ومجاهد ووهب وزهير بن محمد وقيل: أي قبل أن تستوي من جلوسك قائماً ﴿وَإنِّي عَلَيْه لَقَويٌّ﴾ لا ينتقل على حمله. والقوة صفة تصدر عنها الأفعال الشاقة ويطيق بها من قامت به لتحمل الأجرام العظيمة ولذا اختير قوي على قادر هنا، وظاهر كلام بعضهم أن في الكلام حذفاً فمنهم من قال: أي على حمله ومنهم قال: أي على الإتيان به، ورجح الثاني

بالتبادر نظراً إلى أول الكلام. والأول بأنه أنسب بقوله لقوي: ﴿أَمِينٌ﴾ لا أقتطع منه شيئاً ولا أبدله ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ فصله عما قبله للإيذان بما بين القائلين ومقالتيهما وكيفيتي قدرتيهما على الإتيان به من كمال التباين أو لإسقاط الأول عن درجة الاعتبار. واختلف في تعيين هذا القائل فالجمهور ومنهم ابن عباس ويزيد بن رومان والحسن على أنه آصف بن برخيا بن شمعيا بن منكيل، واسم أمه باطورا من بني إسرائيل كان وزير سليمان على المشهور، وفي مجمع البيان أنه وزيره وابن أخته وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم، وقيل كان كاتبه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنه رجل اسمه اسطوم، وقيل: أسطورس.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد أنه رجل يقال له ذو النور. وأخرج هو أيضاً عن ابن لهيعة أنه الخضر عليه السلام، وعن قتادة أن اسمه مليخا؛ وقيل: ملخ، وقيل: تمليخا، وقيل: هود، وقالت جماعة هو ضبة بن أد جد بني ضبة من العرب وكان فاضلاً يخدم سليمان كان على قطعة من خيله، وقال النخعي هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو ملك آخر أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام، وقال الجبائي: هو سليمان نفسه عليه السلام.

ووجه الفصل عليه واضح فإن الجملة حينئذ مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل: فما قال سليمان عليه السلام حين قال العفريت ذلك؟ فقيل: قال إلخ ويكون التعبير عنه بما في النظم الكريم للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه، ويكون الخطاب في قوله: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعفريت وإنما لم يأت به أولاً بل استفهم القوم بقوله: ﴿أيكم يأتيني بعرشها﴾ ثم قال ما قال وأتى به قصداً لأن يريهم أنه يتأتى له ما لا يتهيأ لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم. وتخصيص الخطاب بالعفريت لأنه الذي تصدى لدعوى القدرة على الإتيان به من بينهم، وجعله لكل أحد كما في قوله تعالى: ﴿ذلك أدنى أن لا تعولوا﴾ [النساء: ٣] غير ظاهر بالنسبة إلى ما ذكر.

وآثر هذا القول الإمام وقال إنه أقرب لوجوه. الأول أن الموصول موضوع في اللغة لشخص معين بمضمون الصلة المعلومة عند المخاطب والشخص المعلوم بأن عنده علم الكتاب هو سليمان وقد تقدم في هذه السورة ما يستأنس به لذلك فوجب إرادته وصرف اللفظ إليه وآصف وإن شاركه في مضمون الصلة لكن هو فيه أتم لأنه نبي وهو أعلم بالكتاب من أمته، الثاني إن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لأحد من أمته دونه لاقتضى تفضيل ذلك عليه عليه السلام وأنه غير جائز، الثالث أنه لو افتقر في إحضاره إلى أحد من أمته لاقتضى قصور حاله في أعين الناس.

الرابع أن ظاهر قوله عليه السلام فيما بعد ﴿هذا من فضل ربي﴾ إلخ يقتضي أن ذلك الخارق قد أظهره الله تعالى بدعائه عليه السلام ا هـ. وللمناقشة فيه مجال. واعترض على هذا القول بعضهم بأن الخطاب في ﴿آتيك﴾ يأباه فإن حق الكلام عليه أن يقال: أنا آتي به قبل أن يرتد إلى الشخص طرفه مثلاً، وقد علمت دفعه. وبأن المناسب أن يقال فيما بعد ـ فلما أتى به ـ دون ﴿فلما رآه﴾ إلخ. وأجيب عن هذا بأن قوله ذاك للإشارة إلى أنه لا حول ولا قوة له فيه، ولعل الأظهر أن القائل أحد أتباعه، ولا يلزم من ذلك أنه عليه السلام لم يكن قادراً على الإتيان به كذلك فإن عادة الملوك تكليف أتباعهم بمصالح لهم لا يعجزهم فعلها بأنفسهم فليكن ما نحن فيه جارياً على هذه العادة، ولا يضر في ذلك كون الغرض مما يتم بالقول وهو الدعاء ولا يحتاج إلى أعمال البدن وأتعابه كما لا يخفى.

وفي فصوص الحكم كان ذلك على يد بعض أصحاب سليمان عليه السلام ليكون أعظم لسليمان في نفوس الحاضرين، وقال القيصري: كان سليمان قطب وقته ومتصرفاً وخليفة على العالم وكان آصف وزيره وكان كاملاً

وخوارق العادات قلما تصدر من الأقطاب والخلفاء بل من ورّاثهم وخلفائهم لقيامهم بالعبودية التامة واتصافهم بالفقر الكلي فلا يتصرفون لأنفسهم في شيء، ومن منن الله تعالى عليهم أن يرزقهم صحبة العلماء الأمناء يحملون منهم أثقالهم وينفذون أحكامهم وأقوالهم ا هـ، وما في الفصوص أقرب لمشرب أمثالنا على أن ما ذكر لا يخلو عن بحث على مشرب القوم أيضاً.

وفي مجمع البيان روى العياشي بإسناده قال: التقي موسى بن محمد بن علي بن موسى ويحيى بن أكثم فسأله عن مسائل منها: هل كان سليمان محتاجاً إلى علم آصف؟ فلم يجب حتى سأل أخاه علي بن محمد فقال: اكتب له لم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف لكنه عليه السلام أحب أن يعرف أمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله تعالى ذلك لئلا يختلف في إمامته كما فهم سليمان في حياة داود لتعرف إمامته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق ا هـ وهو كما ترى. والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة؛ وقيل: اللوح المحفوظ، وكون المراد به ذلك على جميع الأقوال السابقة في الموصول بعيد جداً، وقيل: المراد به الذي أرسل إلى بلقيس، ومن ابتدائية وتنكير ﴿علم﴾ للتفخيم والرمز إلى أنه علم غير معهود، قيل: كان ذلك العلم باسم الله تعالى الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، وقد دعا ذلك العالم به فحصل غرضه، وهو يا حي يا قيوم، وقيل يا ذا الجلال والإكرام، وقيل الله الرحمن وقيل: هو بالعبرانية آهيا شراهيا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الزهري أنه دعا بقوله: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، والطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شيء ثم تجوز به عن النظر وارتداده انقطاعه بانضمام الأجفان ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد، فالمعنى آتيك به قبل أن ينضم جفن عينك بعد فتحه، وقيل: لا حاجة إلى اعتبار التجوز في الطرف إذ المراد قبل ارتداد تحريك الأجفان بطبقها بعد فتحها وفيه نظر، والكلام جار على حقيقته وليس من باب التمثيل للسرعة، فقد روي أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد طرفه فنظر نحو اليمن فقبل أن يرتد إليه حضر العرش عنده. وقيل: هو من باب التمثيل فيحتمل أن يكون قد أتى به في مدة طلوع درجة أو درجتين أو نحو ذلك.

وعن ابن جبير وقتادة أن الطرف بمعنى المطروف أي من يقع إليه النظر، وأن المعنى قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه في أبعد ما ترى إذا نظرت أمامك وهو كما ترى ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ أي فلما رأى سليمان عليه السلام العرش ساكناً عنده قارّاً على حاله التي كان عليها ﴿قَالَ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر جرياً على سنن إخوانه الأنبياء عليهم السلام وخلص عباد الله عز وجل ﴿هَٰذَا﴾ أي الإتيان بالعرش أو حضوره بين يدي في هذه المدة القصيرة، وقيل: أي التمكن من إحضاره بالواسطة أو بالذات ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي تفضله جل شأنه علي من غير استحقاق ذاتي لي له ولا عمل مني يوجبه عليه سبحانه وتعالى، وفي الكلام حذف أي فأتاه به فرآه فلما رآه إلخ وحذف ما حذف للدلالة على كمال ظهوره واستغنائه عن الإخبار به وللإيذان بكمال سرعة الإتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به ورؤيته عليه السلام إياه شيء ما أصلاً، وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده تأكيد لهذا المعنى لإيهامه أنه لم يتوسط بينهما ابتداء الإتيان أيضاً كأنه لم يزل موجوداً عنده. فمستقراً منتصب على الحال و ﴿عنده﴾ متعلق به. وهو على ما أشرنا إليه كون خاص ولذا ساغ ذكره. وظن بعضهم أنه كون عام فأشكل عليهم ذكره مع قول جمهور النحاة: إن متعلق الظرف إذا كان كوناً عاماً وجب حذفه فالتزم بعضهم لذلك كون الظرف متعلقاً برآه لا به. ومنهم من ذهب كابن مالك إلى أن حذف ذلك أغلبي وأنه قد يظهر كما في هذه الآية. وقوله:

لك العز إن مولاك عز وإن يهن فأنت لدي بحبوحة الهون كائن

وأنت تعلم أنه يمكن اعتبار ما في البيت كوناً خاصاً كالذي في الآية. وفي كيفية وصول العرش إليه عليه السلام حتى رآه مستقراً عنده خلاف. فأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن عساكر عن ابن عباس أنه قال لم يجر عرش صاحبة سبأ بين السماء والأرض ولكن انشقت به الأرض فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان وإلى هذا ذهب مجاهد وابن سابط وغيرهما وقيل نزل بين يدي سليمان عليه السلام من السماء وكان عليه السلام إذ ذاك في أرض الشام على ما قيل رجع إليها من صنعاء وبينها وبين مأرب محل العرش نحو من مسافة شهرين. وعلى القول بأنه كان في صنعاء فالمسافة بين محله ومحل العرش نحو ثلاثة أيام، وأياً ما كان فقطعه المسافة الطويلة في الزمن القصير أمر ممكن وقد أخبر بوقوعه الصادق فيجب قبوله، وقد اتفق البر والفاجر على وقوع ما هو أعظم من ذلك وهو قطع الشمس في طرفة عين آلافاً من الفراسخ مع أن نسبة عرش بلقيس إلى جرمها نسبة الذرة إلى الجبل، وقال الشيخ الأكبر قدس سره إن آصف تصرف في عين العرش فأعدمه في موضعه وأوجده عند سليمان من حيث لا يشعر أحد بذلك إلا من عرف الخلق الجديد الحاصل في كل آن وكان زمان وجوده عين زمان عدمه وكل منهما في آن وكان عين قول آصف عين الفعل في الزمان فإن القول من الكامل بمنزلة كن من الله تعالى.

ومسألة حصول العرش من أشكل المسائل إلا عند من عرف ما ذكرناه من الإيجاد والإعدام فما قطع العرش مسافة ولا زويت له أرض ولا خرقها ا هـ ملخصاً. وله تتمة ستأتي إن شاء الله تعالى، وما ذكره من أنه كان بالإعدام والإيجاد مما يجوز عندي وإن لم أقل بتجدد الجواهر تجدد الأعراض عند الأشعري إلا أنه خلاف ظاهر الآية. واستدل بها على ثبوت الكرامات.

وأنت تعلم أن الاحتمال يسقط الاستدلال. وعلل عليه السلام تفضله تعالى بذلك عليه بقوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي ليعاملني معاملة المبتلي أي المختبر ﴿أَأَشْكُرُ﴾ على ذلك بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتي ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد لنفسي مدخلاً في البين أو أقصر في إقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم الفائضة على العباد، وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن جريج أن المعنى ليبلوني أأشكر إذا أتيت بالعرش أم أكفر إذا رأيت من هو أدنى مني في الدنيا أعلم مني، ونقل مثله في البحر عن ابن عباس والظاهر عدم صحته، وأبعد منه عن الصحة ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال لما رآه مستقراً عنده جزع وقال: رجل غيري أقدر على ما عند الله عز وجل مني، ولعل الحق الجزم بكذب ذلك، وجملة ﴿أأشكر﴾ إلخ في موضع نصب على أنها مفعول ثان لفعل البلوى وهو معلق بالهمزة عنها إجراء له مجرى العلم وإن لم يكن مرادفاً له.

وقيل: محله النصب على البدل من الياء ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي لنفعها لأنه يربط به القيد ويستجلب المزيد ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة والأنعام مع عدم الشكر أيضاً، والظاهر أن من شرطية والجملة المقرونة بالفاء جواب الشرط، وجوز أن يكون الجواب محذوفاً دل عليه ما قبله من قسيمه والمذكور قائم مقامه أي ومن كفر فعلى نفسه أي فضرر كفرانه عليها. وتعقب بأنه لا يناسب قوله: ﴿كريم﴾ وجوز أيضاً أن تكون من موصولة ودخلت الفاء في الخبر لتضمنها معنى الشرط ﴿قَالَ﴾ أي سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكي سابقاً ولاحقاً من كلامه عليه السلام تنبيهاً على ما بين السابق واللاحق من المخالفة لما أن الأول من باب الشكر لله عز وجل والثاني أمر لخدمه ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي اجعلوه بحيث لا يعرف ولا يكون ذلك إلا بتغييره عما كان

عليه من الهيئة والشكل، ولعل المراد التغيير في الجملة. روي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك إنه كان بالزيادة فيه والنقص منه، وقيل: بنزع ما عليه من الجواهر، وقيل: بجعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، ولام ﴿لها﴾ للبيان كما في ﴿هيت لك﴾ [يوسف: ٢٣] فيدل على أنها المرادة خاصة بالتنكير ﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر.

وقرأ أبو حيوة بالرفع على الاستئناف ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفته أو إلى الجواب اللائق بالمقام. وقيل: إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه السلام إذا رأت تقدم عرشها وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليه الحراس والحجاب وحكاه الطبرسي عن الجبائي، وفيه أنه لا يظهر مدخلية التنكير في الإيمان ﴿أَمْ تَكُونُ﴾ أي بالنسبة إلى علمنا ﴿مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ أي إلى ما ذكر من معرفة عرشها أو الجواب اللائق بالمقام فإن كونها في نفس الأمر منهم وإن كان أمراً مستمراً لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ شروع في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام أي فلما جاءت بلقيس سليمان وقد كان العرش منكراً بين يديه ﴿قِيلَ﴾ أي من جهة سليمان بالذات أو بالواسطة ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي أمثل هذا العرش الذي ترينه عرشك الذي تركتيه ببلادك، ولم يقل: أهذا عرشك لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين لديه عليه السلام حالها وقد ذكرت عنده عليه السلام بسخافة العقل.

وفي بعض الآثار أن الجن خافوا من أن يتزوجها فيرزق منها ولداً يحوز فطنة الإنس وخفة الجن حيث كانت لها نسبة إليهم فيضبطهم ضبطاً قوياً فرموها عنده بالجنون وأن رجليها كحوافر البهائم فلذا اختبرها بهذا وبما يكون سبباً للكشف عن ساقيها، ومن لم يقل بنسبتها إلى الجن: يقول لعلها رماها حاسد بذلك فأراد عليه السلام اختبارها ليقف على حقيقة الحال، ومنهم من يقول: ليس ذاك إلا ليقابلها بمثل ما فعلت هي حيث نكرت الغلمان والجواري وامتحنته عليه السلام بالدرة العذراء والجزعة المعوجة الثقب وكون ذلك في عرشها الذي يبعد كل البعد إحضاره مع بعد المسافة وشدة محافظتها له أتم وأقوى ويتضمن أيضاً من إظهار المعجزة ما لا يخفى، وهذا عندي ألصق بالقلب من غيره ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أجابت بما أنبأ عن كمال عقلها حيث لم تجزم بأنه هو لاحتمال أن يكون مثله بل أتت بكأن الدالة كما قيل على غلبة الظن في اتحاده معه مع الشك في خلافه وليست كأن هنا للدلالة على التشبيه كما هو الغالب فيها.

وذكر ابن المنير في الانتصاف ما يدل على أنها تفيد قوة الشبه فقال: الحكمة في عدول بلقيس في الجواب عن هكذا هو المطابق للسؤال إلى ﴿كأنه هو﴾ إن ﴿كأنه هو﴾ عبارة من قوي عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين وكاد يقول هو هو وتلك حال بلقيس، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير فلا تطابق حالها فلذا عدلت عنها إلى ما في النظم الجليل.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من تتمة كلامها على ما اختاره جمع من المفسرين كأنها استشعرت مما شاهدته اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ولما كان الظاهر من السؤال هو الأول سارعت إلى الجواب بما أنبأ عن كمال رجاحة عقلها، ولما كان إظهار المعجزة دون ذلك في الظهور ذكرت ما يتعلق به آخراً وهو قولها: ﴿وأوتينا﴾ إلخ وفيه دلالة على كمال عقلها أيضاً، ومعناه وأوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة بما شاهدناه من أمر الهدهد وما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك وكنا مؤمنين من ذلك الوقت فلا حاجة إلى إظهار هذه المعجزة، ولك أن تجعله من تتمة ما يتعلق بالاختبار وحاصلة لا حاجة إلى الاختبار لأني آمنت قبل وهذا كاف في الدلالة على كمال عقلي.

وجوز أن يكون لبيان منشأ غلبة الظن بأنه عرشها والداعي إلى حسن الأدب في محاورته عليه السلام أي وأوتينا العلم بإتيانك بالعرش من قبل الرؤية أو من قبل هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار وكنا من ذلك الوقت مؤمنين، والتعبير بنون العظمة جار على سنن تعبيرات الملوك وفيه تعظيم لأمر إسلامها وليس ذاك لإرادة نفسها ومن معها من قومها إذ يبعده قوله تعالى: ﴿**وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ وهو بيان من جهته عز وجل لما كان يمنعها من إظهار ما ادعت من الإسلام إلى الآن أي صدها عن إظهار ذلك يوم أوتيت العلم الذي يقتضيه عبادتها القديمة للشمس، فما مصدرية والمصدر فاعل صد، وجوز كونها موصولة واقعة على الشمس وهي فاعل أيضاً والإسناد مجازي على الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾ تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر فلذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بين ظهرانيهم إلى أن حضرت بين يدي سليمان عليه السلام. وقرأ سعيد بن جبير وابن أبي عبلة «أنها» بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل أي لأنها أو جعل المصدر بدلاً من فاعل صد بدل اشتمال. وقيل: قوله تعالى: ﴿**وأوتينا**﴾ إلخ من كلام قوم سليمان عليه السلام كأنهم لما سمعوها أجابت السؤال بقولها: ﴿**كأنه هو**﴾ قالوا. قد أصابت في جوابها فطبقت المفصل وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله عز وجل وصحة النبوة بالآيات التي تقدمت وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها وعطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده سبحانه قبل علمها ولم نزل على دين الإسلام، وكان هذا منهم شكراً لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها، ويومىء إلى هذا المطوي جعل علمهم وإسلامهم قبلها، وقوله تعالى: ﴿**وصدها**﴾ إلخ على هذا يحتمل أن يكون من تتمة كلام القوم.

ويحتمل أن يكون ابتداء أخبار من جهته عز وجل. وعن مجاهد وزهير بن محمد أن ﴿**وأوتينا**﴾ من كلام سليمان عليه السلام، وفي ﴿**وصدها**﴾ إلخ عليه أيضاً احتمال، ولا يخفي ما في جعل ﴿**وأوتينا**﴾ إلخ من كلام القوم أو من كلام سليمان عليه السلام من البعد والتكلف وليس في ذلك جهة حسن سوى اتساق الضمائر المؤنثة. وقيل: إن ﴿**وأوتينا**﴾ إلخ من تتمة كلامها. وقوله تعالى: ﴿**وصدها**﴾ إلخ ابتداء أخبار من جهته تعالى لبيان حسن حالها وسلامة إسلامها عن شوب الشرك بجعل فاعل صدها ضميره عز وجل أو ضمير سليمان عليه السلام.

وما مصدرية أو موصولة قبلها حرف جر مقدر أي صدها الله تعالى أو سليمان عن عبادتها من دون الله أو عن الذي تعبده من دونه تعالى. ونقل ذلك أبو حيان عن الطبري وتعقبه بقوله: وهو ضعيف لا يجوز إلا في الشعر نحو قوله:

تمرون الديار ولم تعوجوا

وليس من مواضع حذف حرف الجر.

وأنت تعلم أن المعنى مع هذا مما لا ينشرح له الصدر، وأبعد بعضهم كل البعد فزعم أن قوله تعالى: ﴿**وصدها**﴾ إلخ متصل بقوله سبحانه: ﴿**أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون**﴾ والواو فيه للحال وقد مضمرة وفي البحر أنه قول مرغوب عنه لطول الفصل بينها ولأن التقديم والتأخير لا يذهب إليه إلا عند الضرورة. ولعمري من أنصف رأى أن ما ذكر مما لا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى المجيد، وأنا أقول بعد القيل والقال: إن وجه ربط هذه الجمل مما يحتاج إلى تدقيق النظر فليتأمل والله تعالى الموفق.

﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ**﴾ استئناف بياني كأنه قيل فماذا قيل لها بعد الامتحان المذكور؟ فقيل: ﴿**قيل لها**

ادخلي ﴾ إلخ ولم يعطف على قوله تعالى: ﴿**أهكذا عرشك** ﴾ لئلا يفوت هذا المعنى. وجيء بلها هنا دون ما مر لمكان أمرها، و ﴿**الصرح** ﴾ القصر وكل بناء عال. ومنه ﴿ابن لي صرحاً ﴾ [غافر: ٣٦] وهو من التصريح وهو الإعلان البالغ، وقال مجاهد ﴿**الصرح** ﴾ هنا البركة وقال ابن عيسى الصحن وصرحة الدار ساحتها وروي أن سليمان عليه السلام أمر الجن قبل قدومها فبنوا له على طريقها قصراً من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره. وفي رواية أنهم بنوا له صرحاً وجعلوا له طوابيق من قوارير كأنها الماء وجعلوا في باطن الطوابيق كل ما يكون من الدواب في البحر ثم أطبقوه، وهذا أوفق بظاهر الآية ـ ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس وفعل ذلك امتحاناً لها أيضاً على ما قيل، وقيل: ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوته وثباتاً على الدين، وقيل لأن الجن قالوا له عليه السلام إنها شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فأراد الكشف عن حقيقة الحال بذلك، وقال الشيخ الأكبر قدس سره ما حاصله إنه أراد أن ينبهها بالفعل على أنها صدقت في قولها في العرش «كأنه هو» حيث إنه انعدم في سبأ ووجد مثله بين يديه فجعل لها صرحاً في غاية اللطف والصفاء كأنه ماء صاف وليس به، وهذا غاية الإنصاف منه عليه السلام ولا أظن الأمر كما قال والله تعالى أعلم. واستدل بالآية على القول بأن أمرها بدخول الصرح ليتوصل به إلى كشف حقيقة الحال على إباحة النظر قبل الخطبة وفيه تفصيل مذكور في كتب الفقه.

﴿**فَلَمَّا رَأَتْهُ** ﴾ أي رأت صحنه بناء على أن الصرح بمعنى القصر ﴿**حَسِبَتْهُ لُجَّةً** ﴾ أي ظنته ماء كثيراً ﴿**وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا** ﴾ لئلا تبتل أذيالها كما هو عادة من يريد الخوض في الماء، وقرأ ابن كثير برواية قنبل «سأقيها» بهمز ألف ساق حملاً له على جمعه سؤق وأسؤق فإنه يطرد في الواو المضمومة هي أو ما قبلها قلبها همزة فانجر ذلك بالتبعية إلى المفرد الذي في ضمنه.

وفي البحر حكى أبو علي أن أبا حية النميري كان يهمز كل واو قبلها ضمة وأنشد:

أحب المؤقدين إلى مؤسى

وفي الكشف الظاهر أن الهمز لغة في ساق ويشهد له هذه القراءة الثابتة في السبعة. وتعقب بأنه يأباه الاشتقاق. وأياً ما كان فقول من قال: إن هذه القراءة لا تصح لا يصح ﴿**قَالَ** ﴾ أي سليمان عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب، وقيل: القائل هو الذي أمرها بدخول الصرح وهو خلاف الظاهر ﴿**إِنَّهُ** ﴾ أي ما حسبته لجة ﴿**صَرْحٌ مُمَرَّدٌ** ﴾ أي مملس ومنه الأمرد للشاب الذي لا شعر في وجهه وشجرة مرداء لا ورق عليها ورملة مرداء لا تنبت شيئاً والمراد المتعري من الخير ﴿**مِنْ قَوَارِيرَ** ﴾ من الزجاج وهو جمع قارورة.

﴿**قَالَتْ** ﴾ حين عاينت هذا الأمر العظيم ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** ﴾ أي بما كنت عليه من عبادة الشمس، وقيل: بظني السوء بسليمان عليه السلام حيث ظننت أنه يريد إغراقها في اللجة وهو بعيد. ومثله ما قيل أرادت ظلمت نفسي بامتحاني سليمان حتى امتحنني لذلك بما أوجب كشف ساقي بمرأى منه ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ** ﴾ تابعة له مقيدة به، وما في قوله تعالى: ﴿**لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ من الالتفات إلى الاسم الجليل لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التي من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس، وكأن هذا القول تجديد لإسلامها على أتم وجه وقد أخرجته مخرجاً لا أنانية فيه ولا كبر أصلاً كما لا يخفى. واختلف في أمرها بعد الإسلام فقيل إنه عليه السلام تزوجها وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له.

وأخرج ابن عساكر عن سلمة بن عبد الله بن ربعي أنه عليه السلام أمهرها بعلبك، وذكر غير واحد أنها حين كشفت عن ساقيها أبصر عليهما شعراً كثيراً فكره أن يتزوجها كذلك فدعا الإنس فقال: ما يذهب بهذا؟ فقالوا: يا رسول الله المواسي فقال: المواسي تقطع ساقي المرأة. وفي رواية أنه قيل لها ذلك فقالت لم يمسسني الحديد قط فكره سليمان المواسي وقال: إنها تقطع ساقيها ثم دعا الجن فقالوا مثل ذلك ثم دعا الشياطين فوضعوا له النورة، قال ابن عباس وكان ذلك اليوم أول يوم رؤيت فيه النورة، وعن عكرمة أن أول من وضع النورة شياطين الإنس وضعوها لبلقيس وهو خلاف المشهور، ويروى أن الحمام وضع يومئذ.

وفي تاريخ البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أول من صنعت له الحمامات سليمان» وأخرج الطبراني. وابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضاً قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أول من دخل الحمام سليمان فلما وجد حره قال أوه من عذاب الله تعالى» وروي عن وهب أنه قال: زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلاً من قومك أزوجكه فقالت: أمثلي يا نبي الله تنكح الرجال وقد كان في قومي من الملك والسلطان ما كان؟ قال: نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك وما ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله تعالى لك فقالت: زوجني إن كان لا بد من ذلك ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا زوبعة أمير جن اليمن فقال: اعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم يزل بها ملكاً يعمل له فيها حتى مات سليمان فلما أن حال الحول وتبين الجن موته عليه السلام أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام. وقال عون بن عبدالله: سأل رجل عبدالله بن عتبة هل تزوج سليمان بلقيس فقال انتهى أمرها إلى قولها: ﴿أسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ قيل: يعني لا علم لنا وراء ذلك.

والمشهور أنه عليه السلام تزوجها وإليه ذهب جماعة من أهل الأخبار وأخرج البيهقي في الزهد عن الأوزاعي قال: كسر برج من أبراج تدمر فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدمجة كأن أعطافها طي الطوامير عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً مكتوب على طرف العمامة بالذهب «بسم الله الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود عليهما السلام ملكت من الدنيا كافرة ومؤمنة ما لم يملكه أحد قبلي ولا يملكه أحد بعدي صار مصيري إلى الموت فاقصروا يا طالبي الدنيا» والله تعالى أعلم بصحة الخبر، وكم في هذه القصة من أخبار الله تعالى أعلم بالصحيح منها، والقصة ني نفسها عجيبة وقد اشتملت على أشياء خارقة للعادة بل يكاد العقل يحيلها في أول وهلة، ومما يستغرب والله تعالى فيه سر خفي خفاء أمر بلقيس على سليمان عدة سنين كما قاله غير واحد مع أن المسافة بينه وبينها لم تكن في غاية البعد وقد سخر الله تعالى له من الجن والشياطين والطير والريح ما سخر وهذا أغرب من خفاء أمر يوسف على يعقوب عليهما السلام بمراتب، وسبحان من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات وفي الأرض، وهذا وللصوفية في تطبيق ما في هذه القصة على ما في الأنفس كلام طويل، ولعل الأمر سهل على من له أدنى ذوق بعد الوقوف على بعض ما مر من تطبيقاتهم ما في بعض القصص على ذلك والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ مسوق لما سيق هو له، واللام واقعة في جواب قسم محذوف أي وبالله لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ وإنما أقسم على ذلك اعتناء بشأن الحكم، و ﴿صالحاً﴾ بدل من ﴿أخاهم﴾ أو عطف بياني، وأن في قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ مفسرة لما في الإرسال من معنى القول دون حروفه.

وجوز كونها مصدرية حذف منها حرف الجر أي بأن، وقيل لأن ووصلها بالأمر جائز لا ضير فيه كما مر.

وقرىء بضم النون اتباعاً لها للباء ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي فاجأ إرسالنا تفرقهم واختصامهم فآمن فريق وكفر فريق وكان ما حكى الله تعالى في محل آخر بقوله سبحانه: ﴿قال الملأ الذين استكبروا الذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾ [الأعراف: ٧٥] الآية. فإذا فجائية والعامل فيها مقدر لا ﴿يختصمون﴾ خلافاً لأبي البقاء لأنه صفة ﴿فريقان﴾ كما قال ومعمول الصفة لا يتقدم على الموصوف، وقيل: هذا حيث لا يكون المعمول ظرفاً، وضمير ﴿يختصمون﴾ لمجموع الفريقين ولم يقل يختصمان للفاصلة، ويوهم كلام بعضهم أن الجملة خبر ثان وهو كما ترى، و ﴿هم﴾ راجع إلى ثمود لأنه اسم للقبيلة، وقيل: إلى هؤلاء المذكورين ليشمل صالحاً عليه السلام والفريقان حينئذ أحدهما صالح وحده وثانيهما قومه.

والحامل على هذا كما ذكره ابن عادل العطف بالفاء فإنها تؤذن أنهم عقيب الإرسال بلا مهلة صاروا فريقين ولا يصير قومه عليه السلام فريقين إلا بعد زمان. وفيه أنه يأباه قوله تعالى: ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾ وتعقيب كل شيء بحسبه على أنه يجوز كون الفاء لمجرد الترتيب. ولعل فريق الكفرة أكثر ولذا ناداهم بقوله يا قوم كما حكي عنه في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لجعله في حكم الكل أي قال عليه السلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة إلى أن قالوا له عليه السلام يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين متلطفاً بهم يا قوم ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي بالعقوبة التي تسوءكم ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي التوبة فتؤخرونها إلى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون إن وقع إبعاده تبنا حينئذ وإلا فنحن على ما نحن عليه ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبولها إذ سنة الله تعالى عدم القبول عند النزول. وقد خاطبهم عليه السلام على حسب تخمينهم وجهلهم في ذلك بأن ما خمنوه من التوبة إذ ذاك فاسدة وأن استعجالهم ذلك خارج من المعقول. والتقابل بين السيئة والحسنة بالمعنى الذي سمعت حاصل من كون أحدهما حسناً والآخر سيئاً، وقيل: المراد بالسيئة تكذيبهم إياه عليه السلام وكفرهم به وبالحسنة تصديقهم وإيمانهم، والمراد من قوله: ﴿لم تستعجلون﴾ إلخ لومهم على المسارعة إلى تكذيبهم إياه وكفرهم به وحضهم على التوبة من ذلك بترك التكذيب والإيمان. وحاصله لومهم على إيقاع التكذيب عند الدعوة دون التصديق وحضهم على تلافي ذلك. وإيهام الكلام انتفاء اللوم على إيقاع التكذيب بعد التصديق مما لا يكاد يلتفت إليه. ولا يخفى بعد طي الكشح عن المناقشة فيما ذكر أن المناسب لما حكى الله تعالى عن القوم في سورة الأعراف ولما جاء في الآثار هو المعنى الأول. ومن هنا ضعف ما روي عن مجاهد من تفسير الحسنة برحمة الله تعالى لتقابل السيئة المفسرة بعقوبته عز وجل ويكون المراد من استعجالهم بالعقوبة قبل الرحمة طلبهم إياها دون الرحمة فتأمل ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ أصله تطيرنا وقرىء به فأدغمت التاء في الطاء وزيدت همزة الوصل ليتأتى الابتداء، والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فإن مر سانحاً بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسرة تيمنوا وإن مر بارحاً بأن مر من المياسر إل الميامن تشاءموا لأنه لا يمكن للمار به كذلك أن يرميه حتى ينحرف فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سبباً لهما من قدر الله تعالى وقسمته عز وجل أو من عمل العبد الذي هو سبب الرحمة والنعمة أي تشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ في دينك حيث تتابعت علينا الشدائد ـ وقد كانوا قحطوا ـ ولم نزل في اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم، وتشاؤمهم يحتمل أن يكون من المجموع وأن يكون من كل من المتعاطفين.

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ أي سببكم الذي منه ينالكم ما ينالكم من الشر ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو قدره سبحانه أو عملكم

المكتوب عنده عز وجل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ إضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه أي بل أنتم قوم تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة، وجاء ﴿تفتنون﴾ بتاء الخطاب على مراعاة ﴿أنتم﴾ وهو الكثير في لسان العرب، ويجوز في مثل هذا التركيب «يفتنون» بياء الغيبة على مراعاة لفظ ﴿قوم﴾ وهو قليل في لسانهم ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة ثمود وقريتهم وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ هو اسم جمع يطلق على العصابة دون العشرة كما قال الراغب؛ وفي الكشاف هو من الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة، وقيل: بل يقال إلى الأربعين وليس بمقبول، وأصله على ما نقل عن الكرماني من الترهيط وهو تعظيم اللقم وشدة الأكل، وقد أضيف العدد إليه. وقد اختلف في جواز إضافته إلى اسم الجمع فذهب الأخفش إلى أنه لا ينقاس وما ورد من الإضافة إليه فهو على سبيل الندور، وقد صرح سيبويه أنه لا يقال ثلاث غنم.

وذهب قوم إلى أنه يجوز ذلك وينقاس وهو مع ذلك قليل، وفصل قوم بين أن يكون اسم الجميع للقليل كرهط ونفر وذود فيجوز أن يضاف إليه إجراء له مجرى جمع القلة أو للكثير أو يستعمل لهما فلا يجوز إضافته إليه بل إذا أريد تمييزه به جيء به مقروناً بمن كخمسة من القوم، وقال تعالى: ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ [البقرة: ٢٦٠] وهو قول المازني. واختار غير واحد أن إضافة تسعة إلى رهط هاهنا باعتبار أن رهطاً لكونه اسم جمع للقليل في حكم أشخاص ونحوه من جموع القلة وهي يضاف إليها العدد كتسعة أشخاص وتسع أنفس وهذا معنى قولهم: إن وقوع رهط تمييزاً لتسعة باعتبار المعنى فكأنه قيل تسعة أشخاص، وقيل أي تسعة أنفس، وتأنيث العدد لأن المذكور في النظم الكريم ﴿رهط﴾ وهو مذكر فليس ذاك من غير الفصيح كقوله ثلاثة أنفس وثلاث ذود، نعم تقدير ما تقدم أسلم من المناقشة، وأما ما قيل أي تسعة رجال ففيه الغفلة عما أشرنا إليه، ثم إنه ليس المراد أن الرهط بمعنى الشخص أو بمعنى النفس بل إن التسعة من الأشخاص أو من الأنفس هي الرهط فليس المعدود بالتسعة ما دل عليه الرهط من الجماعة ليكون هناك تسع جماعات لا تسعة أفراد.

وقال الإمام: الأقرب أن يكون المراد تسعة جمع إذ الظاهر من الرهط الجماعة، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفاتهم وأحوالهم لا لاختلاف النسب ا هـ، وقيل: كان هؤلاء التسعة رؤساء مع كل واحد منهم رهط، ولذا قيل تسعة رهط وأسماؤهم عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم بن غنم ودباب ابن مهرج وعمير بن كردية وعاصم بن مخزمة وسبيط بن صدقة وسمعان بن صفي وقدار بن سالف وهم الذين سعوا في عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح ومن أبناء أشرافهم، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن أسماءهم دعمي ودعيم وهرمي وهريم ودواب وصواب ودياب ومسطح وقدار وهو الذي عقر الناقة ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط إفساداً بحتاً لا يخالطه شيء من الصلاح كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الإصلاح أو لا يصلحون شيئاً من الأشياء، والمراد أن عادتهم المستمرة ذلك الإفساد كما يؤذن به المضارع، والجملة في موضع الصفة لرهط أو لتسعة.

﴿قَالُوا﴾ استئناف ببيان بعض ما فعلوا من الفساد أي قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام. وكان ذلك على ما روي عن ابن عباس بعد أن عقروا الناقة أنذرهم بالعذاب، وقوله: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ [هود: ٦٥] إلخ ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أمر من التقاسم أي التحالف وقع مقول القول وهو قول الجمهور.

وجوز أن يكون فعلاً ماضياً بدلاً من ﴿قالوا﴾ أو حالاً من فاعله بتقدير قد أو بدونها أي قالوا متقاسمين ومقول

القول ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ إلخ، وجوز أبو حيان على هذا أن يكون بالله من جملة المقول. والبيات مباغتة العدو ومفاجأته بالإيقاع به ليلاً وهو غافل، وأرادوا قتله عليه السلام وأهله ليلاً وهم غافلون، وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال: ليس من آيين الملوك استراق الظفر.

وقرأ ابن أبي ليلى «تقسموا» بغير ألف وتشديد السين، والمعنى كما في قراءة الجمهور وقرأ الحسن وحمزة والكسائي «لتبيتنه» بالتاء على خطاب بعضهم لبعض. وقرأ مجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش «ليبيتنه» بياء الغيبة. و ﴿تقاسموا﴾ على هذه القراءة لا يصح إلا أن يكون خبراً بخلافه عن القراءتين الأوليين فإنه يصح أن يكون خبراً كما يصح أن يكون أمراً. وذلك لأن الأمر خطاب والمقسم عليه بعده لو نظر إلى الخطاب وجب تاء الخطاب ولو نظر إلى صيغة قولهم عند الحلف وجب النون فأما ياء الغائب فلا وجه له. وإما إذا جعل خبراً فهو على الغائب كما تقول حلف ليفعلن ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أي لولي صالح والمراد به طالب ثأره من ذوي قرابته إذا قتل. وقرأ «لتقولن» بالتاء من قرأ «لتبيتنه» كذلك. وقرأ «ليقولن» بياء الغيبة من قرأ بها فيما تقدم، وقرأ حميد بن قيس الأول بياء الغيبة وهذا بالنون، قيل: والمعنى على ذلك قالوا متقاسمين بالله ليبيتنه قوم منا ثم لنقولن جميعنا لوليه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي ما حضرنا هلاكهم على أن ﴿مهلك﴾ مصدر كمرجع أو مكان هلاكهم على أنه للمكان أو زمان هلاكهم على أنه للزمان. والمراد نفي شهود الهلاك الواقع فيه، واختاروا نفي شهود مهلك أهله على نفي قتلهم إياهم قصداً للمبالغة كأنهم قالوا ما شهدنا ذلك فضلاً عن أن نتولى إهلاكهم. ويعلم من ذلك نفي قتلهم صالحاً عليه السلام أيضاً لأن من لم يقتل اتباعه كيف يقتله، وقيل في الكلام حذف أي ما شهدنا مهلك أهله ومهلكه، واستظهره أبو حيان ثم قال وحذف مثل هذا المعطوف جائز في الفصيح كقوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد، وقال الشاعر:

فما كان بين الخير لو جاء سالماً ... أبو حجر إلا ليال قلائل

أي بين الخير وبيني ا هـ وفيه ما لا يخفى. وقيل: الضمير في ﴿أهله﴾ يعود على الولي. والمراد بأهل الولي صالح وأهله. واعترض بأنه لو أريد أهل الولي لقيل أهلك أو أهله. ومنع بأن ذلك غير لازم. فقد قرىء «قل للذين كفروا ستغلبون» بالخطاب والغيبة ووجه ذلك ظاهر. نعم رجوع الضمير إلى الولي خلاف الظاهر كما لا يخفى، وقرأ الجمهور «مُهْلَك» بضم الميم وفتح اللام من أهلك وفيه الاحتمالات الثلاث. وقرأ أبو بكر «مهلك» بفتحهما على أنه مصدر ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ عطف على ﴿ما شهدنا﴾ كما ذهب إليه الزجاج، والمعنى ونحلف وإنا لصادقون، وجوز أن تكون الواو للحال أي والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا واستشكل ادعاؤهم الصدق في ذلك وهم عقلاء ينفرون عن الكذب ما أمكن. وأجيب بأن حضور الأمر غير مباشرته في العرف لأنه لا يقال لمن قتل رجلاً أنه حضر قتله وإن كان الحضور لازماً للمباشرة فحلفوا على المعنى العرفي على العادة في الإيمان وأوهموا الخصم أنهم أرادوا معناه اللغوي فهم صادقون غير حانثين، وكونهم من أهل التعارف أيضاً لا يضر بل يفيد فائدة تامة، وقال الزمخشري. كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما. وتعقب بأن من فعل أمرين وجحد أحدهما لم يكن في كذبه شبهة وإنما تتم الحيلة لو فعلوا أمراً واحداً وادعى عليهم فعل أمرين فجحدوا المجموع. ولذا لم يختلف العلماء في أن من حلف لا أضرب زيداً فضرب زيداً وعمراً كان حانثاً بخلاف من حلف لا أضرب زيداً وعمراً ولا آكل رغيفين فأكل أحدهما فإنه محل خلاف للعلماء في الحنث وعدمه، والحق أن تبرئتهم من الكذب فيما ذكر غير لازمة حتى يتكلف لها وهم الذين كذبوا على الله تعالى ورسوله عليه السلام وارتكبوا ما هو أقبح من الكذب فيما ذكر، ومقصود الزمخشري تأييد

ما يزعمه هو وقومه من قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل بموافقة قوم صالح عليها ولا يكاد يتم له ذلك ﴿وَمَكَرُوا مَكراً﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً غير معهود أو جازينا مكرهم من حيث لا يحتسبون ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ شروع في بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر، والظاهر أن ﴿كيف﴾ خبر مقدم لكان و ﴿عاقبة﴾ الاسم أي كان عاقبة مكرهم واقعة على وجه عجيب يعتبر به، والجملة في محل نصب على أنها مفعول انظر وهي معلقة لمكان الاستفهام، والمراد تفكر في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ في تأويل مصدر وقع بدلاً من «عاقبة مكرهم» أو خبر مبتدأ محذوف هو ضمير العاقبة، والجملة مبينة لما في عاقبة مكرهم من الإبهام أي هو أوهى تدميرنا وإهلاكنا إياهم ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا منهم في مباشرة التبييت ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ أو هو على تقدير الجار أي لتدميرنا إياهم أو بتدميرنا إياهم ويكون ذلك تعليلاً لما ينبىء عنه الأمر بالنظر في كيفية عاقبة أمرهم من الهول والفظاعة. وجوز بعضهم كونه بدلاً من ﴿كيف﴾، وقال آخرون: لا يجوز ذلك لأن البدل عن الاستفهام يلزم فيه إعادة حرفه كقولك كيف زيد أصحيح أم مريض؟.

وجوز أن يكون هو الخبر لكان وتكون ﴿كيف﴾ حينئذ حالاً والعامل فيها كان أو ما يدل عليه الكلام من معنى الفعل، ويجوز أن تكون كان تامة و ﴿كيف﴾ عليه حال لا غير والاحتمالات الجائزة في ﴿أنا دمرناهم﴾ لا تخفى.

وقرأ الأكثر ﴿إنا﴾ بكسر الهمزة فكيف خبر كان و ﴿عاقبة﴾ اسمها وجملة ﴿إنا دمرناهم﴾ استئناف لتفسير العاقبة، وجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف. قال الخفاجي: الظاهر أنه الشأن أو ضميره لا شيء آخر مما يحتاج للعائد ليعترض عليه بعدم العائد. ولا يرد عليه أن ضمير الشأن المرفوع منع كثير من النحويين حذفه فإنه غير مسلم، ويجوز أن تكون ﴿كان﴾ تامة و ﴿كيف﴾ حال كما تقدم ولم يجوز الجمهور كونها ناقصة والخبر جملة ﴿أنا دمرناهم﴾ لعدم الرابط، وقيل: يجوز ويكفي للربط وجود ما يرجع إلى متعلق المبتدأ إذ رجوعه إليه نفسه غير لازم وهو تكلف وإنما يتمشى على مذهب الأخفش القائل إذا قام بعض الجملة مقام مضاف إلى العائد اكتفى به، وغيره من النحاة يأباه، وجوز أبو حيان على كلتا القراءتين أن تكون ﴿كان﴾ زائدة و ﴿عاقبة﴾ مبتدأ و ﴿كيف﴾ خبر مقدم له.

وقرأ أبي «أن دمرناهم» بأن التي من شأنها أن تنصب المضارع ويجري في المصدر الاحتمالات السابقة فيه على قراءة «أنا» بفتح الهمزة. هذا وفي كيفية التدمير خلاف، فروى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا بعد ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله تعالى كلاً منهم في مكانه ونجى صالحاً ومن معه، وقيل: جاؤوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله تعالى ملائكة ملء دار صالح عليه السلام فرموهم بالحجارة يرونها ولا يرون رامياً وهلك سائر القوم بالصيحة وقيل: إنهم عزموا على تبييته عليه السلام وأهله فأخبر الله تعالى بذلك صالحاً فخرج عنهم ثم أهلكهم بالصيحة وكان ذلك يوم الأحد ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ جملة مقررة لما قبلها. وقوله تعالى: ﴿خَاوِيَةً﴾ أي خالية أو ساقطة متهدمة أعاليها على أسافلها كما روي عن ابن عباس ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي بسبب ظلمهم المذكور حال من ﴿بيوتهم﴾ والعامل فيها معنى الإشارة. وقرأ عيسى بن عمر «خاويةٌ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي خاوية أو خبر بعد خبر لتلك أو خبر لها و ﴿بيوتهم﴾ بدل وبيوتهم هذه هي التي قال فيها

ﷺ لأصحابه عام تبوك «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين» الحديث. وهي بوادي القرى بين المدينة والشام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ما من شأنه أن يعلم من الأشياء أو لقوم يتصفون بالعلم، وقيل: لقوم يعلمون هذه القصة وليس بشيء، وفي هذه الآية على ما قيل دلالة على الظلم يكون سبباً لخراب الدور.

وروي عن ابن عباس أنه قال أجد في كتاب الله تعالى أن الظلم يخرب البيوت وتلا هذه الآية، وفي التوراة ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك، قيل وهو إشارة إلى هلاك الظالم إذ خراب بيته متعقب هلاكه، ولا يخفى أن كون الظلم بمعنى الجور والتعدي على عباد الله تعالى سبباً لخراب البيوت مما شوهد كثيراً في هذه الأعصار، وكونه بمعنى الكفر كذلك ليس كذلك. نعم لا يبعد أن يكون على الكفرة يوم تخرب فيه بيوتهم إن شاء الله تعالى ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ من الكفر والمعاصي اتقاء مستمراً فلذا خصوا بالنجاة، روي أن الذين آمنوا به عليه السلام كانوا أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت وحين دخلها مات ولذلك سميت بهذا الاسم وبنى المؤمنون بها مدينة يقال لها حاضورا، وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر ﴿وَلُوطاً﴾ منصوب بمضمر معطوف على «أرسلنا» في صدر قصة صالح عليه السلام داخل معه في حيز القسم أي وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ظرف للإرسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من الأحوال والأقوال. وجوز أن يكون منصوباً بإضمار اذكر معطوفاً على ما تقدم عطف قصة على قصة و ﴿إِذْ﴾ بدل منه بدل اشتمال وليس بذاك. وقيل: هو معطوف على ﴿صَالِحاً﴾. وتعقب بأنه غير مستقيم لأن صالحاً بدل أو عطف بيان لأخاهم وقد قيد بقيد مقدم عليه وهو «إلى ثمود» فلو عطف عليه تقيد به ولا يصح لأن لوطاً عليه السلام لم يرسل إلى ثمود وهو متعين إذا تقدم القيد بخلاف ما لو تأخر، وقيل إن تعينه غير مسلم إذ يجوز عطفه على مجموع القيد والمقيد لكنه خلاف المألوف في الخطابيات وارتكاب مثله تعسف لا يليق، وجوز أن يكون عطفاً على الذين آمنوا.

وتعقب بأنه لا يناسب أساليب سرد القصص من عطف إحدى القصتين على الأخرى لا على تتمة الأولى وذيلها كما لا يخفى ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي أتفعلون الفعلة المتناهية في القبح والسماجة، والاستفهام إنكاري.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿تأتون﴾ مفيدة لتأكيد الإنكار فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع، و ﴿تبصرون﴾ من بصر القلب أي أتفعلونها والحال أنتم تعلمون علماً يقينياً كونها كذلك.

ويجوز أن يكون من بصر العين أي وأنتم ترون وتشاهدون كونها فاحشة على تنزيل ذلك لظهوره منزلة المحسوس، وقيل: مفعول ﴿تبصرون﴾ من المحسوسات حقيقة أي وأنتم تبصرون آثار العصاة قبلكم أو وأنتم ينظر بعضكم بعضاً لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك لعدم اكتراثكم به، ووجه إفادة الجملة على الاحتمالين تأكيد الإنكار أيضاً ظاهر، وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تثنية للإنكار وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام، وتحلية الجملة بحرفي التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد لكمال شناعته، وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربيته التقبيح وبيان اختصاصه ببني آدم، وتعليل الإتيان بالشهوة تقبيح على تقبيح لما أنها ليست في محلها، وفيه إشارة إلى أنهم مخطئون في محلها فعلاً، وفي قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ

(١) تم الجزء التاسع عشر من تفسير روح المعاني ويليه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون وأوله فما كان جواب قومه

النِّسَاء ﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هن محال الشهوة إشارة إلى أنهم مخطؤن فيه تركاً، ويعلم مما ذكرنا أن ﴿**شهوة**﴾ مفعول له للإتيان، وجوز أن يكون حالاً.

﴿**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ أي تفعلون فعل الجاهلين بقبح ذلك أو يجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون كذا في الكشاف، وأياً ما كان فلا ينافي قوله تعالى: ﴿**وأنتم تبصرون**﴾ ولم يرتض ذلك الطيبي وزعم أن كلمة الإضراب تأباه: ووجه الآية بأنه تعالى لما أنكر عليهم فعلهم على الإجمال وسماه فاحشة وقيده بالحال المقررة لجهة الإشكال تتميماً للإنكار بقوله تعالى: ﴿**وأنتم تبصرون**﴾ أراد مزيد ذلك التوبيخ والإنكار فكشف عن حقيقة تلك الفاحشة وأشار سبحانه إلى ما أشار ثم أضرب عن الكل بقوله سبحانه: ﴿**بل أنتم**﴾ إلخ أي كيف يقال لمن يرتكب هذه الفحشاء وأنتم تعلمون فأولى حرف الإضراب ضمير ﴿**أنتم**﴾ وجعلهم قوماً جاهلين والتفت في ﴿**تجهلون**﴾ موبخاً معيراً ا هـ وفيه نظر. والقول بالالتفات هنا مما قاله غيره أيضاً وهو التفات من الغيبة التي في ﴿**قوم**﴾ إلى الخطاب في ﴿**تجهلون**﴾ وتعقبه الفاضل السالكوتي بأنه وهم إذ ليس المراد بقوم قوم لوط حتى يكون المعبر عنه في الأسلوبين واحداً كما هو شرط الالتفات بل معنى كلي حمل على قوم لوط عليه السلام.

وقال بعض الأجلة: إن الخطاب فيه مع أنه صفة لقوم ـ وهو اسم ظاهر ـ من قبيل الغائب لمراعاة المعنى لأنه متحد مع ﴿**أنتم**﴾ لحمله عليه، وجعله غير واحد مما غلب فيه الخطاب، وأورد عليه أن في التغليب تجوزاً ولا تجوز هنا. وأجيب بأن نحو ﴿**تجهلون**﴾ موضوع للخطاب مع جماعة لم يذكروا بلفظ غيبة وهنا ليس كذلك فكيف لا يكون فيه تجوز، وقيل قولهم إن في التغليب تجوزاً خارج مخرج الغالب، وقال الفاضل السالكوتي إن قوله تعالى: ﴿**بل أنتم**﴾ إلخ من المجاز باعتبار ما كان فإن المخاطب في ﴿**تجهلون**﴾ باعتبار كون القوم مخاطبين في التعبير بأنتم فلا يرد أن اللفظ لم يستعمل فيه في غير ما وضع له ولا الهيئة التركيبية ولم يسند الفعل إلى غير ما هو له فيكون هناك مجاز فافهم.

الجزء العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ
﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ
شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ
ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ
هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ
وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِه إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخرِجُوا آلَ لُوط**﴾ أي من اتبع دينه وإخراجه عليه السلام يعلم من باب أولى. وقال بعض المحققين: المراد بآل لوط هو عليه السلام ومن تبع دينه كما يراد من بني آدم آدم وبنوه، وأياً ما كان فلا تدخل امرأته عليه السلام فيهم، وقوله سبحانه: ﴿**إلا**﴾ إلخ استثناء مفرغ واقع في موقع اسم كان، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق «جوابُ» بالرفع فيكون ذاك واقعاً موقع الخبر، وقد مر تحقيق الكلام في مثل هذا التركيب، وفي قوله تعالى: ﴿**مِنْ قَرْيَتِكُمْ**﴾ بإضافة القرية إلى ـ كم ـ تهوين لأمر الإخراج، وقوله جل وعلا: ﴿**إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ تعليل للأمر على وجه يتضمن الاستهزاء أي إنهم أناس يزعمون التطهر والتنزه عن أفعالنا أو عن الأقذار ويعدون فعلنا قذراً وهم متكلفون بإظهار ما ليس فيهم، والظاهر أن هذا الجواب صدر عنهم في المرة الأخيرة من مراتب مواعظه عليه

السلام بالأمر والنهي لا أنه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي بعد إهلاك القوم فالفاء فصيحة ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا﴾ أي قدرنا كونها ﴿مِنَ الغَابِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب، وقدر المضاف لأن التقدير يتعلق بالفعل لا بالذات، وجاء في آية أخرى ما يقتضي ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ [الحجر: ٦٠].

وقرأ أبو بكر «قَدَرْنَاهَا» بتخفيف الدال ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ غير معهود ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الـمُنْذَرِينَ﴾ أي فبئس مطر المنذرين مطرهم، وقد مر مثل هذا فارجع إلى ما ذكرناه عنده.

﴿قُلِ الحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ إثر ما قص سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ قصص الأنبياء المذكورين وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه سبحانه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم، وقد بين على ألسنتهم صحة الإسلام والتوحيد وبطلان الكفر والإشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى في مهاوي الردى، وشرح صدره الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم بما في تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية، ونور قلبه بأنوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس، وقرر بذلك فحوى قوله تعالى: ﴿وإنك لتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ [النمل: ٦].

أمر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحمده بأتم وجه على تلك النعم ويسلم على كافة الأنبياء عليهم السلام الذين من جملتهم من قصت أخبارهم وشرحت آثارهم عرفاناً لفضلهم وأداءً لحق تقدمهم واجتهادهم في الدين، فالمراد بالعباد المصطفين الأنبياء عليهم السلام لدلالة المقام، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وسلام على المرسلين﴾ [الصافات: ١٨١]، وقيل: هذا أمر له صلى الله تعالى عليه وسلم بحمده تعالى على هلاك الهالكين من كفار الأمم، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الناجين صلى الله تعالى عليهم وسلم، والسلام على غير الأنبياء عليهم السلام إذا لم يكن استقلالاً مما لا خلاف في جوازه، ولعل المنصف لا يرتاب في جوازه على عباد الله تعالى المؤمنين مطلقاً، وقيل: أمر له عليه الصلاة والسلام بالحمد على ما خصه جل وعلا به من رفع عذاب الاستئصال عن أمته ومخالفتهم لمن قبلهم ممن ذكرت قصته من الأمم المستأصلة بالعذاب، وبالسلام على الأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة.

فالمراد بالمصطفين الأنبياء خاصة، وأخرج عبد بن حميد والبزار وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس أنه قال فيهم: هم أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اصطفاهم الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سفيان الثوري أنه قال في ﴿وسلام﴾ إلخ: نزلت في أصحاب محمد ﷺ خاصة. وهذا ظاهر في القول بجواز السلام على غير الأنبياء استقلالاً كما هو مذهب الحنابلة وغيرهم، والكلام على جميع هذه الأقوال متصل بما قبله، وجعله الزمخشري من باب الاقتضاب كأنه خطبة مبتدأة حيث قال: أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته تعالى وقدرته على كل شيء وحكمته أعني قوله سبحانه: ﴿الله﴾ إلخ ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع، ولقد توارثت العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب فحمدوا الله تعالى وصلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل موعظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المتراسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها

شأن انتهى، ولعل جعل ذلك تخلصاً من قصص الأنبياء عليهم السلام إلى ما جرى له صلى الله تعالى عليه وسلم مع المشركين أولى، وأبعد الأقوال باتصاله بما قبله، وجعل ذلك أمراً للوط عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفرة قومه، وأن يسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك لعدم ملاءمته لما بعده واحتياجه إلى تقدير وقلنا له، وعزا هذا القول ابن عطية للفراء، وقال: هذه عجمة من الفراء، والظاهر أن ﴿سلام﴾ مبتدأ وما بعده خبره، والجملة معطوفة على ﴿الحمد لله﴾ داخلة معه في حيز القول.

وقرأ أبو السمال «الحمد للّه» بفتح اللام ﴿آللَّهُ﴾ بالمد لقلب همزة الاستفهام ألفاً والأصل أألله. ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والظاهر أن ﴿ما﴾ موصولة والعائد محذوف أي ﴿آلله﴾ الذي ذكرت شؤونه العظيمة خير أم الذي يشركونه من الأصنام، و ﴿خير﴾ أفعل تفضيل ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته عز وجل وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم إذ من البين أن ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من هو خير محض، وقيل: ﴿خير﴾ ليست للتفضيل مثلها في قولك: الصلاة خير تعني خيراً من الخيور، والمختار الأول، واستظهره أبو حيان، وقال: كثيراً ما يجيء هذا النوع من أفعل التفضيل حيث يعلم ويتحقق أنه لا شركة هناك، وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على الخطأ ويقصد بالاستفهام في مثل ذلك إلزامه الإقرار بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر، واستظهر أيضاً كون المراد بالخيرية الخيرية في الذات، وقيل: الخيرية فيما يتعلق بها، وفي الكلام حذف في موضعين، والتقدير أعبادة الله تعالى خير أم عبادة ما يشركون، وقيل: ﴿ما﴾ مصدرية والحذف في موضع واحد، والتقدير أتوحيد الله خير أم إشراكهم ولا داعي لجميع ذلك، وأياً ما كان فضمير الغائب لقريش ونحوهم من المشركين، وقيل: لأولئك المهلكين وليس بشيء، وقرأ الأكثرون ـ تشركون ـ بالتاء الفوقانية على توجيه الخطاب لمن ذكرنا من الكفرة وهو الأليق بما بعده من سياق النظم الكريم، وجعل أبو البقاء هذه الجملة من جملة القول المأمور به، وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى: ﴿فأنبتنا﴾ إلخ فإنه صريح في أن التبكيت من قبله عز وجل بالذات، وحمله على أنه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما أمر به بعبادته كما في قوله سبحانه: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر: ٥٣]، تعسف ظاهر من غير داع إليه، وفي بعض الآثار أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم، و ﴿أم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ منقطعة لا متصلة كالسابقة، وبل المقدرة على القراءة الأولى وهي قراءة الحسن وقتادة وعاصم وأبي عمرو للإضراب والانتقال من التبكيت تعريضاً إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد، وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكرير الإلزام كنظائرها الآتية، والهمزة لحملهم على الإقرار بالحق الذي لا محيص لمن له أدنى تمييز عن الإقرار به، ومن مبتدأ خبره محذوف مع أم المعادلة للهمزة تعويلاً على ما سبق في الاستفهام الأول خلا ـ أن تشركون ـ المقدر هاهنا بتاء الخطاب على القراءتين معاً، وهكذا في المواضع الأربعة الآتية، والمعنى أم من خلق قطري العالم الجسماني ومبدأي منافع ما بينهما ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ التفات إلى خطاب الكفرة على القراءة الأول لتشديد التبكيت والإلزام، واللام تعليلية أي وأنزل لأجلكم ومنفعتكم ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي نوعاً منه وهو المطر ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ بمقتضى الحكمة لا أن الإنبات موقوف عليه عقلاً، وقيل: أي أنبتنا عنده ﴿حَدَائِقَ﴾ جمع حديقة وهي كما في البحر البستان سواء أحاط به جدار أم لا، وهو ظاهر إطلاق تفسير ابن عباس حيث فسر الحدائق لابن الأزرق بالبساتين ولم يقيد، وقال الزمخشري: هي البستان عليه حائط من الإحداق وهو الإحاطة، وهو مروي عن الضحاك، وقال الراغب: هي قطعة من الأرض ذات ماء سميت حديقة تشبيهاً بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها، ولعل الأظهر ما في

البحر وكأن وجه تسمية البستان عليه حديقة أن من شأنها أن تحدق بالحيطان أو تصرف نحوها الأحداق وتنظر إليها ﴿ذَاتَ بَهْجَة﴾ أي ذات حسن ورونق يبتهج به الناظر ويسر ﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي ما صح وما أمكن لكم ﴿أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ فضلاً عن خلق ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير أم ما تشركون، وتقدير الخبر هكذا هو ما اختاره الزمخشري وتبعه غيره.

وقال ابن عطية: يقدر الخبر يكفر بنعمته ويشرك به ونحو هذا في المعنى، وقال أبو الفضل الرازي في كتاب اللوامح له: ولا بد من إضمار معادل وذلك المضمر كالمنطوق لدلالة الفحوى عليه، والتقدير أم من خلق السماوات والأرض كمن لم يخلق، وكذلك يقدر في أخواتها، وقد أظهر في غير هذا الموضع ما أضمر هنا كقوله تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ [النحل: ١٧] انتهى، ولعل الأولى ما اختاره جار الله وكذا يقال فيما بعد.

وقرأ الأعمش «أَمَنْ» بالتخفيف على أن الهمزة للاستفهام، ومن بدل من الاسم الجليل وتقديم صلتي الإنزال على مفعوله لما مر مراراً من التشويق إلى المؤخر، والالتفات إلى التكلم بنون العظمة لتأكيد اختصاص الفعل بحكم المقابلة بذاته تعالى والإيذان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد أمر عظيم لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده عز وجل؛ ورشح ذلك بقوله تعالى: ﴿ما كان لكم﴾ إلخ سواء كان صفة لحدائق أو حالاً أو استئنافاً، وتوحيد وصفها السابق أعني ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة، وهذا شائع في جمع التكسير كقوله تعالى: ﴿أزواج مطهرة﴾ [البقرة: ٢٥، النساء: ٥٧، آل عمران: ١٥] وكذا الحال في ضمير شجرها.

وقرأ ابن أبي عبلة «ذوات» بالجمع «بَهَجَة» بفتح الهاء ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ أي أإله آخر كائن مع الله تعالى الذي ذكر بعض أفعاله التي لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة، وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عما يشركونه به عز وجل في ضمن النفي الكلي على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فإن أحداً ممن له أدنى تمييز كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأساً لا سيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه عز وجل، وكذا الحال في المواقع الأربعة الآتية، وقيل: المراد نفي أن يكون معه تعالى إله آخر في الخلق، وما عطف عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفي فقط فإنهم لا ينكرونه حسبما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨] بل بإشراكهم به تعالى ما يعترفون بعدم مشاركته له سبحانه فيما ذكر من لوازم الألوهية كأنه قيل: أإله آخر مع الله في خواص الألوهية حتى يجعل شريكاً له تعالى في العبادة، وقيل: المعنى أغيره يقرن به سبحانه ويجعل له شريكاً في العبادة مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين. فالإنكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفي كما في الوجهين السابقين، ورجح بأنه الأظهر الموافق لقوله تعالى: ﴿وما كان معه من إله﴾ [المؤمنون: ٩١] والأوفى بحق المقام لإفادته نفي وجود إله آخر معه تعالى رأساً لا نفي معيته في الخلق وفروعه فقط.

وقرأ هشام عن ابن عامر «آأله» بتوسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين، وقرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير «أإلهاً» بالنصب على إضمار فعل يناسب المقام مثل أتجعلون أو أتدعون أو أتشركون.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم و ﴿يعدلون﴾ من العدول بمعنى الانحراف أي بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن

الاستقامة في كل أمر من الأمور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذي هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذي هو الإشراك، وقيل: من العدل بمعنى المساواة أي يساوون به غيره تعالى من آلهتهم، وروي ذلك عن ابن زيد، والأول أنسب بما قبله، وقيل: الكلام عليه خال عن الفائدة.

﴿**أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً**﴾ أي جعلها بحيث يستقر عليها الإنسان والدواب بإبداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما يدور عليه منافعهم ـ فقراراً ـ بمعنى مستقراً لا بمعنى قارة غير مضطربة كما زعم الطبرسي فإن الفائدة على ذلك أتم، والجعل إن كان تصييرياً فالمنصوبان مفعولان وإلا فالثاني حال مقدرة، وجملة قوله تعالى: ﴿**أمن جعل**﴾ إلخ على ما قيل: بدل من قوله سبحانه: ﴿**أمن خلق السماوات**﴾ إلى آخر ما بعدها من الجمل الثلاث وحكم الكل واحد، وقال بعض الأجلة: الأظهر أن كل واحدة منها إضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخر داخل في الإلزام بجهة من الجهات، وإلى الإبدال ذهب صاحب الكشاف، وسننقل إن شاء الله تعالى عن صاحب الكشف ما فيه الكشف عن وجهه ﴿**وَجَعَلَ خِلالَهَا**﴾ أي أوساطها جمع خلل، وأصله الفرجة بين الشيئين فهو ظرف حل محل الحال من قوله تعالى: ﴿**أَنْهَاراً**﴾ وساغ ذلك مع كونه نكرة لتقدم الحال أو المفعول الثاني ـ لجعل ـ و ﴿**أنهاراً**﴾ هو المفعول الأول، والمراد بالأنهار ما يجري فيها لا المحل الذي هو الشق أي جعل خلالها أنهاراً جارية تنتفعون بها ﴿**وَجَعَلَ لَهَا**﴾ أي لصلاح أمرها ﴿**رَوَاسِيَ**﴾ أي جبالاً ثوابت فإن لها مدخلاً عادياً اقتضته الحكمة في انكشاف المسكون منها وانحفاظها عن الميد بأهلها؛ وتكون المياه الممدة للأنهار المفضية لنضارتها في حضيضها إلى غير ذلك، وذكر بعضهم في منفعة الجبال تكوّن المعادن فيها ونبع المنابع من حضيضها ولم يتعرض لمنفعة منعها الأرض عن الحركة والميلان، وعلل ترك التعرض بأنه لو كان المقصود ذلك لذكر عقب جعل الأرض قراراً، ومن أنصف رأى أن منع الجبال الأرض عن الحركة والميلان اللذين يخرجان الأرض عن حيز الانتفاع ويجعلان وجودها كعدمها من أهم ما يذكر هنا لأنه مما به صلاح أمرها ورفعة شأنها، وذكر ﴿**لها**﴾ دون فيها أو عليها ظاهر في أن المراد ما هو من هذا القبيل من المنافع فتأمل.

وإرجاع ضمير ﴿**لها**﴾ للأنهار ليكون المعنى وجعل لإمدادها رواسي ينبع من حضيضها الماء فيمدها لا يخفى ما فيه ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ أي العذب والملح ـ عن الضحاك ـ أو بحري فارس والروم ـ عن الحسن ـ أو بحري العراق والشام ـ عن السدي ـ أو بحري السماء والأرض ـ عن مجاهد ـ ﴿**حَاجِزاً**﴾ فاصلاً يمنع من الممازجة، وقد مر الكلام في تحقيق ذلك فتذكر ﴿**أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ**﴾ في الوجود أو في إبداع هذه البدائع على ما مر ﴿**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ أي شيئاً من الأشياء معتداً به ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ وهو الذي أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى اللجأ والضراعة إلى الله عز وجل، فهو اسم مفعول من الاضطرار الذي هو افتعال من الضرورة، ويرجع إلى هذا تفسير ابن عباس له بالمجهود، وتفسير السدي بالذي لا حول ولا قوة له، وقيل: المراد بذلك المذنب إذا استغفر، واللام فيه على ما قيل: للجنس لا للاستغراق حتى يلزم إجابة كل مضطر وكم من مضطر لا يجاب.

وجوز حمله على الاستغراق لكن الإجابة مقيدة بالمشيئة كما وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿**فيكشف ما تدعون إليه إن شاء**﴾ [الأنعام: ٤١]، ومع هذا كره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقول الشخص: اللهم اغفر لي إن شئت؛ وقال عليه الصلاة والسلام: «إنه سبحانه لا مكره له»، والمعتزلة يقيدونها بالعلم بالمصلحة لإيجابهم رعاية المصالح عليه جل وعلا، وقال صاحب الفرائد: ما من مضطر دعا إلا أجيب وأعيد نفع دعائه إليه إما في الدنيا وإما في

الآخرة، وذلك أن الدعاء طلب شيء. فإن لم يعط ذلك الشيء بعينه يعط ما هو أجل منه أو إن لم يعط هذا الوقت يعط بعده ا هـ.

وظاهره حمله على الاستغراق من دون تقييد للإجابة، ولا يخفى أنه إذا فسرت الإجابة بإعطاء السائل ما سأله حسبما سأل لا بقطع سؤاله سواء كان بالإعطاء المذكور أم بغيره لم يستقم ما ذكره، وقال العلامة الطيبي: التعريف للعهد لأن سياق الكلام في المشركين يدل عليه الخطاب بقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء﴾ والمراد التنبيه على أنهم عند اضطرارهم في نوازل الدهر وخطوب الزمان كانوا يلجأون إلى الله تعالى دون الشركاء والأصنام، ويدل على التنبيه قوله تعالى: ﴿أإله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ قال صاحب المفتاح: كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله تعالى دون أصنامهم، فالمعنى إذا حزبكم أمر أو قارعة من قوارع الدهر إلى أن تصيروا آيسين من الحياة من يجيبكم إلى كشفها ويجعلكم بعد ذلك تتصرفون في البلاد كالخلفاء ﴿أإله مع الله﴾ فلا يكون المضطر عاماً ولا الدعاء فإنه مخصوص بمثل قضية الفلك، وقد أجيبوا إليه في قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ [يونس: ٢٢] الآية ا هـ.

وأنت تعلم أنه بعيد غاية البعد، ولعل الأولى الحمل على الجنس والتقييد بالمشيئة وهو سبحانه لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة، والدعاء بشيء من قبيل أحد الأسباب العادية فافهم ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي يرفع عن الإنسان ما يعتريه من الأمر الذي يسوءه، وقيل: الكشف أعم من الدفع والرفع، وعطف هذه الجملة على ما قبلها من قبيل عطف العام على الخاص، وقيل: المعنى ويكشف سوءه أي المضطر، أو ويكشف عنه السوء والعطف من قبيل عطف التفسير فإن إجابة المضطر هي كشف السوء عنه الذي صار مضطراً بسببه وهو كما ترى.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأرْضِ﴾ أي خلفاء من قبلكم من الأمم في الأرض بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها بعدهم، وقيل: المراد بالخلافة الملك والتسلط، وقرأ الحسن ونجعلكم بنون العظمة ﴿ءَإِلَهٌ مَعَ الله﴾ الذي هذه شؤونه ونعمه تعالى ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تتذكرون ـ فقليلاً ـ نصب على المصدرية، أو على الظرفية لأنه صفة مصدر أو ظرف مقدر، و ـ ما ـ مزيدة على التقديرين لتأكيد معنى القلة التي أريد بها العدم، أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى، ومفعول ﴿تذكرون﴾ محذوف للفاصلة، فقيل: التقدير تذكرون نعمه، وقيل: تذكرون مضمون ما ذكر من الكلام، وقيل: تذكرون ما مر لكم من البلاء والسرور، ولعل الأولى نعمه المذكورة، وللإيذان بأن المتذكر في غاية الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه كان التذييل بنفي التذكر، وقرأ الحسن والأعمش وأبو عمرو ـ يذكرون ـ بياء الغيبة، وقرأ أبو حيوة ـ «تتذكرون» ـ بتاءين ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ أي يرشدكم في ظلمات الليالي في البر والبحر بالنجوم ونحوها من العلامات، وإضافة الظلمات إلى البر والبحر للملابسة وكونها فيهما، وجوز أن يراد بالظلمات الطرق المشبهات مجازاً فإنها كالظلمات في إيجاب الحيرة.

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه﴾ قد تقدم تفسير نظير هذه الجملة ﴿أإله مَعَ الله﴾ نفي لأن يكون معه سبحانه إله آخر، وقوله تعالى: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقرير وتحقيق له، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم أي تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، المقتضية لكون جميع المخلوقات مقهورة تحت قدرته ﴿عما يشركون﴾ أي عن وجود ما يشركونه به سبحانه بعنوان كونه إلهاً وشريكاً له تعالى، أو تعالى الله عن شركة أو مقارنة ما يشركونه به سبحانه، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية أي تعالى الله عن إشراكهم، وقرىء «عما تشركون» بتاء الخطاب.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي يوجده مبتدئاً له ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يكرر إيجاده ويرجعه كما كان، وذلك بعد إهلاكه ضرورة أن الإعادة لا تعقل إلا بعده، والظاهر أن المراد بهذا ما يكون من الإعادة بالبعث بعد الموت، فأل في الخلق ليست للاستغراق لأن منه ما لا يعاد بالإجماع، ومنه ما في إعادته خلاف بين المسلمين، وتفصيله في محله.

واستشكل الحمل على الإعادة بالبعث بأن الكلام مع المشركين وأكثرهم منكرون لذلك فكيف يحمل الكلام عليه ويخاطبون به خطاب المعترف؟ وأجيب بأن تلك الإعادة لوضوح براهينها جعلوا كأنهم معترفون بها لتمكنهم من معرفتها فلم يبق لهم عذر في الإنكار؛ وقيل: إن منهم من اعترف بها، والكلام بالنسبة إليه وليس بذاك، وأما تجويز كون أل للجنس وأن المراد بالبدء والإعادة ما يشاهد في عالم الكون والفساد من إنشاء بعض الأشياء وإهلاكها، ثم إنشاء أمثالها وذلك مما لا ينكره المشركون المنكرون للإعادة بعد الموت فليس بشيء أصلاً كما لا يخفى ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي بأسباب سماوية وأرضية قد رتبها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التي عليها بنى أمر التكوين ﴿أَإِلَهٌ﴾ آخر موجود ﴿مَعَ اللهِ﴾ حتى يجعل شريكاً له سبحانه في العبادة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت أي هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً يدل على أن معه عز وجل إلهاً، وقيل: أي هاتوا برهاناً على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله عز وجل، وتعقب بأن المشركين لا يدعون ذلك صريحاً ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها في الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له، وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً وأنى لهم ذلك، وقيل: إن الإضافة لزيادة التبكيت كأنه قيل: نحن نقنع منكم بما تعدونه أنتم أيها الخصوم برهاناً يدل على ذلك وإن لم نعده نحن ولا أحد من ذوي العقول كذلك، ومع هذا أنتم عاجزون عن الإتيان به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في تلك الدعوى، واستدل به على أن الدعوى لا تقبل ما لم تنور بالبرهان.

هذا وفي الكشف أن مبنى هذه الآيات الترقي لأن الكلام في إثبات أن لا خيرية في الأصنام مع أن كل خير منه تبارك وتعالى، فأجمل أولاً بذكر اسمه سبحانه الجامع في قوله تعالى: ﴿آللهُ﴾ ثم أخذ في المفصل فجعل خلق السماوات والأرض تمهيداً لإنزال الماء وإنبات الحدائق لا بل للأخير، يدل عليه الالتفات هنالك والتأكيد بقوله تعالى: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا﴾ كأنه يذكر سبحانه ما فيها من المنافع الكثيرة لوناً وطعماً ورائحة واسترواح ظل.

ولما أثبت أنه فعله الخاص أنكر أن يكون له شريك وجعلهم عادلين عن منهج الصواب أو عادلين به سبحانه من لا يستحق، والأول أظهر، ثم ترقى منه إلى ما هو أكثر لهم خيراً وأظهر في نفعهم من جعل الأرض قراراً وما عقبه، فذكر جل وعلا ما لا يتم الإنبات المذكور إلا به مع منافع يتصاغر لديها منفعة الإنبات، وعقبه بجهلهم المطلق المنتج للعدول المذكور، وأسوأ منه وأسوأ، ثم بالغ في الترقي فذكر ما هو لصيق بهم دون واسطة من دفع أو نفع فخص إجابتهم عندالاضطرار، وعم بكشف السوء والمضار، هذا فيما يرجع إلى دفع المحذور وإقامتهم خلفاء في الأرض ينتفعون بها وبما فيها كما أحبوا، وهذا أتم من الأولين وأعم وأجل موقعاً وأهم، ولهذا فصل بعدم التذكر وبولغ فيه تلك المبالغات، وأما ذكر الهداية في ظلمات البر والبحر وذكر إرسال الرياح المبشرة استطراداً لمناسبة حديث الرياح مع الهداية في البحر، فمن متممات الخلافة وإجابة المضطر وكشف السوء فافهم.

ونبه على هذا بأنه فصل بقوله تعالى: ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ ثم ختم ذلك كله بالإضراب عن هذا الأسلوب بتذكير نعمتي الإيجاد والإعادة، فكل نعمة دونهما لتوقف النعم الدنيوية والأخروية عليها، وعقبه بإجمال

يتضمن جميع ما عدده أولاً وزيادة أعني رزقهم من السماء والأرض، وأدمج في تأخيره أنه دون النعمتين، ولهذا بكتهم بطلب البرهان فيما ليس[1] وسجل بكذبهم دلالة على تعلقه بالكل وأن هذه الخاتمة ختام مسكي، والمعرض عن تشام نفحاته مسكي، وعن هذا التقرير ظهر وجه الإبدال مكشوف النقاب والحمد لله تعالى المنعم الوهاب ا هـ.

وفي غرة التنزيل للراغب ما يؤيده، وقد لخصه الطيبي في شرح الكشاف، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه. ﴿**قُل لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ بعد ما تحقق تفرده تعالى بالألوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة والرحمة الشاملة العاملة عقب بذكر ما لا ينفك عنه، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب تكميلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده من أمر البعث، وفي البحر قيل: سأل الكفار عن وقت القيامة ـ التي وعدوها ـ الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وألحوا عليه عليه الصلاة والسلام فنزل قوله : ﴿ قل لا يعلم ﴾ الآية ، فمناسبتها على هذا لما قبلها من قوله تعالى : ﴿ أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أتم مناسبة، والظاهر المتبادر إلى الذهن أن من فاعل يعلم وهو موصول أو موصوف، والغيب مفعوله، والاسم الجليل مرفوع على البدلية من ﴿**من**﴾ والاستثناء على ما قيل: منقطع تحقيقاً متصل تأويلاً على حدّ ما في قول الراجز:

وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس

بناءً على إدخال اليعافر في الأنيس بضرب من التأويل فيفيد المبالغة في نفي علم الغيب عمن في السماوات والأرض بتعليق علمهم إياه بما هو بين الاستحالة من كونه تعالى منهم كأنه قيل: إن كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم من يعلم الغيب يعني أن استحالة علمهم الغيب كاستحالة أن يكون الله تعالى منهم، ونظير هذا مما لا استثناء فيه قوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

وقيل: هو منقطع على حد الاستثناء في قوله:

عشية ما تغني الرماح مكانها ... ولا النبل إلا المشرفي المصمم

يعني أنه من اتباع أحد المتباينين الآخر نحو ما أتاني زيد إلا عمرو وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه، وقد ذكرهما سيبويه، وذكر ابن مالك أن الأصل فيهما: ما أتاني أحد إلا عمرو، وما أعانه أحد إلا إخوانه فجعل مكان أحد بعض مدلوله وهو زيد وإخوانكم، ولو لم يذكر الدخلاء فيمن نفي عنه الإتيان والإعانة، ولكن ذكرا توكيداً لقسطهما من النفي دفعاً لتوهم المخاطب أن المتكلم لم يخطر له هذا الذي أكد به، فذكر تأكيداً، وعليه يكون الأصل في الآية لا يعلم أحد الغيب إلا الله فحذف أحد وجعل مكانه بعض مدلوله وهو من في السماوات والأرض، والبعض الآخر من ليس فيهما، ويكفي في كونه مدلولاً له صدقه عليه ولا يجب في ذلك وجوده في الخارج، فقد صرحوا أن من الكلي ما يمتنع وجود بعض أفراده أو كلها في الخارج على أن من أجلة الإسلاميين من قال بوجود شيء غير الله عز وجل، وليس في السماوات ولا في الأرض وهو الروح الأمرية فإنها لا مكان لها عندهم على نحو العقول المجردة عند الفلاسفة ، وقال: إن شرط الاتباع في هذا النوع أن يستقيم حذف المستثنى منه والاستغناء عنه بالمستثنى فإن لم يوجد هذا الشرط تعين النصب عند التميمي. والحجازي كما في قوله تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ [هود: ٤٣]، فإن الاستغناء فيه بالمستثنى عما قبله ممتنع إلا بتكلف، وزعم المازني أن اتباع المنقطع من تغليب

---

(١) قوله: فيما ليس، وسجل إلخ هكذا في نسخة المؤلف ا هـ.

العاقل على غيره، ويلزم عليه أن يختص بأحد وشبهه وهو فاسد ـ كما قال ابن خروف ـ لأن ما يبدل منه في هذا الباب غير ما ذكر أكثر من أن يحصى ا هـ.

وكلام الزمخشري يوهم صدره أن الاستثناء هنا من قبيل الاستثناء في المثالين اللذين ذكرهما سيبويه، وفي البيت الذي ذكرناه قبيلهما، ويفهم عجزه أنه من قبيل الاستثناء في الرجز السابق، وأن الداعي إلى اختيار المذهب التميمي نكتة المبالغة التي سمعتها، وقد صرحوا أن إفادة تلك النكتة إنما تتأتى إذا جعل الاستثناء منقطعاً تحقيقاً متصلاً تأويلاً، ولعل الحق أنه إذا أريد الدلالة على قوة النفي تعين جعل الاستثناء نحو الاستثناء في قوله: «وبلدة» إلخ، وإذا أريد الدلالة على عموم النفي تعين جعله نحو الاستثناء في قولهم: ما أعانه إخوانكم إلا إخوانه فتدبر، وجوز كونه متصلاً كما هو الأصل في الاستثناء على أن المراد بمن في السماوات والأرض من اطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما مجازاً مرسلاً أو استعارة، وأياً ما كان فهو معنى مجازي عام له تعالى شأنه ولذوي العلم من خلقه وهو المخلص من لزوم ارتكاب الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلف في صحته كما فعله بعض القائلين بالاتصال، وقيل: يعلق الجار والمجرور على ذلك التقدير بنحو يذكر من الأفعال المنسوبة على الحقيقة إلى الله تعالى وإلى المخلوقين لا بنحو استقر مما لا يصح نسبته إليه سبحانه على الحقيقة أي لا يعلم من يذكر في السماوات والأرض الغيب إلا الله، ويجوز تعليقه باستقر أيضاً إلا أنه يجعل مسنداً إلى مضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه أي لا يعلم من استقر ذكره في السماوات والأرض الغيب إلا الله فحذف الفعل والمضاف واستتر الضمير لكونه مرفوعاً، وهذا وما قبله كما ترى، واعترض حديث الاتصال بأنه يلزم عليه التسوية بينه تعالى وبين غيره في إطلاق لفظ واحد وهو أمر مذموم، فقد أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند رسول الله ﷺ فقال: ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: «بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله»، وأجيب بأن ذلك مما يذم إذا صدر من البشر أما إذا صدر منه تعالى فلا يذم على أن كونه مما يذم إذا صدر من البشر مطلقاً ممنوع، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ: ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان من كان الله تعالى ورسوله أحب إليه مما سواهما» الحديث، ولعل مدار الذم والمدح تضمن ذلك نكتة لطيفة وعدم تضمنه إياها، وقد قيل في حديث أنس: النكتة في تثنية الضمير الإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، والنكتة في إفراده في حديث عدي الإشعار بأن كلاً من العصيانين مستقل باستلزام الغواية، وقد مر الكلام في هذا المبحث فتذكر، وجوز أن يعرب من مفعول ـ يعلم. والغيب ـ بدل اشتمال منه، والاسم الجليل فاعل ﴿يعلم﴾ ويكون استثناء مفرغاً أي لا يعلم غيب من في السماوات والأرض إلا الله ولا يخفى بعده.

والغيب في الأصل مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، واستعمل في الشيء الغائب الذي لم تنصب له قرينة وكون ذلك غيباً باعتباره بالناس ونحوهم لا بالله عز وجل فإنه سبحانه لا يغيب عنه تعالى شيء لكن لا يجوز أن يقال: إنه جل وعلا لا يعلم الغيب قصداً إلى أنه لا غيب بالنسبة إليه ليقال يعلمه، وقد شنع الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي المشهور بالإمام الرباني في مكتوباته ـ على من قال ذلك قاصداً ما ذكر ـ أتم تشنيع كما هو عادته جزاه الله تعالى خيراً فيمن لم يتأدب بآداب الشريعة الغراء، والظاهر عموم الغيب، وقيل: المراد به الساعة، وقيل: ما يضمره أهل السماوات والأرض في قلوبهم، وقيل: المراد جنس الغيب، ويلزم من نفي علم جنسه عن غيره عز وجل نفي علم كل فرد من أفراده عن ذلك الغير، ولا يضر في ذلك أن الآية لا تدل حينئذ على ثبوت علم كل غيب له عز وجل بل قصارى ما تدل عليه ثبوت علم جنس الغيب له سبحانه لأنه المنفي صريحاً عن المستثنى منه ولا يلزم من

ثبوت علم هذا الجنس ثبوت علم كل فرد من أفراده لأنها لم تسق للاستدلال بها على ذلك، وكم وكم من دليل عقلي ونقلي يدل عليه، وتعقب بأن الغيب من حيث إنه غيب لا يتفاوت فمتى ثبت العلم ببعض أفراده ثبت العلم بجميعها دفعاً للزوم الترجيح بلا مرجح فتأمل.

واختار بعضهم الاستغراق أي لا يعلم من في السماوات والأرض كل غيب إلا الله فإنه سبحانه يعلم كل غيب لأنه الأوفق بالمقام، واعترض بأنه يلزم أن يكون من أهل السماوات والأرض من يعلم بعض الغيوب، وظاهر كلام كثير من الأجلة يأبى ذلك، ويؤيده ما أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي وأحمد وجماعة من المحدثين من حديث مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: من زعم أن محمداً ﷺ يخبر الناس بما يكون في غد. وفي بعض الروايات. يعلم ما في غد فقد أعظم على الله تعالى الفرية والله تعالى يقول: ﴿**قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله**﴾، وجوز بعضهم أن يكون منهم من يعلم بعض الغيوب، ففي بيان قواطع الإسلام تأليف العلامة ابن حجر بعد الرد على من أكفر من قيل له: أتعلم الغيب؟ فقال: نعم لأن فيما قاله تكذيب النص وهو قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] ما نصه: وعلى كل فالخواص يجوز أن يعلموا الغيب في قضية أو قضايا كما وقع لكثير منهم واشتهر، والذي اختص به تعالى إنما هو علم الجميع وعلم مفاتح الغيب المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ [الجن: ٢٦] الآية، وينتج من هذا التقرير أن من ادعى علم الغيب في قضية أو قضايا لا يكفر وهو محمل ما في الروضة، ومن ادعى علمه في سائر القضايا يكفر وهو محمل ما في أصلها إلا أن عبارته لما كانت مطلقة تشمل هذا وغيره ساغ للنووي الاعتراض عليه فإن أطلق فلم يرد شيئاً، فالأوجه ما اقتضاه كلام النووي من عدم الكفر انتهى.

ولعل الحق أن يقال: إن علم الغيب المنفي عن غيره جل وعلا هو ما كان للشخص لذاته أي بلا واسطة في ثبوته له، وهذا مما لا يعقل لأحد من أهل السماوات والأرض لمكان الإمكان فيهم ذاتاً وصفة وهو يأبى ثبوت شيء لهم بلا واسطة، ولعل في التعبير عن المستثنى منه بمن في السماوات والأرض إشارة إلى علة الحكم، وما وقع للخواص ليس من هذا العلم المنفي في شيء ضرورة أنه من الواجب عز وجل أفاضه عليهم بوجه من وجوه الإفاضة فلا يقال: إنهم علموا الغيب بذلك المعنى ومن قاله كفر قطعاً، وإنما يقال: إنهم أظهروا أو اطلعوا. بالبناء للمفعول، على الغيب أو نحو ذلك مما يفهم الواسطة في ثبوت العلم لهم، ويؤيد ما ذكر أنه لم يجيء في القرآن الكريم نسبة علم الغيب إلى غيره تعالى أصلاً، وجاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى سبحانه من رسول لا يقال: يجوز على هذا أن يقال: أعلم فلان الغيب بالبناء للمفعول أيضاً على معنى أن الله تعالى أعلمه وعرفه ذلك بطريق من طرق الإعلام والتعريف، ومتى جاز هذا جاز أن يقال: علم فلان الغيب بقصد نسبة علمه الحاصل من إعلامه إليه لأنا نقول: لا كلام في جواز. أعلم. بالبناء للمفعول، وإنما الكلام في قولك: ومتى جاز هذا جاز أن يقال إلخ، فنقول: إن أريد بالجواز في تالي الشرطية الجواز معنى أي الصحة من حيث المعنى فمسلم لكن ليس كل ما جاز معنى بهذا المعنى جاز شرعاً استعماله، وإن أريد الجواز شرعاً بمعنى عدم المنع من استعماله فهو ممنوع لما فيه من الإيهام والمصادمة لظواهر الآيات كآية ﴿**قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله**﴾ وغيرها؛ وقد سمعت عن الإمام الرباني قدس سره النوراني أنه حط كل الحط على من قال الله سبحانه: «لا يعلم الغيب» متأولاً له بما تقدم لما فيه من المصادمة للنصوص القرآنية وغيرها، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه، وقد شنعوا أيضاً على من قال: أكره الحق وأحب الفتنة وأفر من الرحمة مريداً بالحق الموت، وبالفتنة المال أو الولد، وبالرحمة المطر لما في ظاهره من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى. نعم لا يكفر قائل

ذلك بذلك القصد ويلزمه التعزير كيلا يعود إلى قوله، ثم إن علم غير الغيب من المحسوسات والمعقولات وإن كان لا يثبت لشيء من الممكنات بلا واسطة في الثبوت أيضاً إلا أنه في نسبته لشيء منها لم يعتبر إلا اتصافه به غير مقيد بنفي تلك الواسطة لما أنه لم يرد حصر ذلك العلم به عز وجل ونفيه عمن سواه جل وعلا بل صرح في مواضع أكثر من أن تحصى بنسبته إلى غيره سبحانه ولو ورد فيه ما ورد في علم الغيب لالتزم فيه ما التزم فيه، وعلى ما تقرر لا يكون علم العقول بما لم يكن بعد من الحوادث على ما يزعمه الفلاسفة من علم الغيب بل هو لو سلم علم حصل لهم من الفياض المطلق جل شأنه بطريق من الطرق التي تقتضيها الحكمة فلا ينبغي أن يقال فيهم: إنهم عالمون بالغيب، وقائله إما كافر أو مسلم آثم، وكذا يقال في علم بعض المرتاضين من المسلمين الصوفية والكفرة الجوكية فإن كل ما يحصل لهم من ذلك فإنما هو بطريق الفيض ومراتبه وأحواله لا تحصى، والتأهل له قد يكون فطرياً، وقد يكون كسبياً، وطرق اكتسابه متشعبة لا تكاد تستقصى، وإفاضة ذلك على كفرة المرتاضين وإن أشبهت إفاضته على المؤمنين المتقين إلا أن بين الأمرين فرقاً عظيماً عند المحققين، وقد ذكر بعض المتصوفة أنه ما من حق إلا وقد جعل له باطل يشبهه لأن الدار دار فتنة وأكثر ما فيها محنة، ويلحق بعلم المرتاضين من الجوكية علم بعض المتصوفة المنسوبين إلى الإسلام المهملين أكثر أحكامه الواجبة عليهم المنهمكين في ارتكاب المحظورات في نهارهم وليلهم، فلا ينبغي اعتقاد أن ذلك كرامة بل هو نقمة مفضية إلى حسرة وندامة، وأما علم النجومي بالحوادث الكونية حسبما يزعمه فليس من هذا القبيل لأن تلك الحوادث التي يخبر بها ليست من الغيب بالمعنى الذي ذكرناه إذ هي وإن كانت غائبة عنا إلا أنها على زعمه مما نصب لها قرينة من الأوضاع الفلكية والنسب النجومية من الاقتران والتثليث والتسديس والمقابلة ونحو ذلك، وعلمه بدلالة القرائن التي يزعمها ناشىء من التجربة وما تقتضيه طبائع النجوم والبروج التي دل عليها بزعمه اختلاف الآثار في عالم الكون والفساد فلا أرى العلم بها إلا كعلم الطبيب الحاذق إذا رأى صفراوياً مثلاً علم رتبة مزاجه وحققها يأكل مقداراً معيناً من العسل أنه يعتريه بعد ساعة أو ساعتين كذا وكذا من الألم، وإطلاق علم الغيب على ذلك فيه ما فيه، وإن أبيت إلا تسمية ذلك غيباً فالعلم به لكونه بواسطة الأسباب لا يكون من علم الغيب المنفي عن غيره تعالى في شيء وكذا كل علم بخفي حصل بواسطة سبب من الأسباب كعلمنا بالله تعالى وصفاته العلية وعلمنا بالجنة والنار ونحو ذلك، على أنك إذا أنصفت تعلم أن ما عند النجومي ونحوه ليس علماً حقيقياً وإنما هو ظن وتخمين مبني على ما هو أوهن من بيت العنكبوت كما سنحقق ذلك بما لا مزيد عليه في محله اللائق به إن شاء الله تعالى.

وأقوى ما عنده معرفة زمني الكسوف والخسوف وأزمنة تحقق النسب المخصوصة بين الكواكب وهي ناشئة من معرفة مقادير الحركات للكواكب والأفلاك الكلية والجزئية وهي أمور محسوسة تدرك بالأرصاد والآلات المعمولة لذلك، وبالجملة علم الغيب بلا واسطة كلاً أو بعضاً مخصوص بالله جل وعلا لا يعلمه أحد من الخلق أصلاً، ومتى اعتبر فيه نفي الواسطة بالكلية تعين أن يكون من مقتضيات الذات فلا يتحقق فيه تفاوت بين غيب وغيب، فلا بأس بحمل أل في الغيب على الجنس، ومتى حملت على الاستغراق فاللائق أن لا يعتبر في الآية سلب العموم بل يعتبر عموم السلب، ويلتزم أن القاعدة أغلبية. وكذا يقال في السلب والعموم في جانب الفاعل فتأمل؛ فهذا ما عندي ولعل ما عندك خير منه؛ والله تعالى أعلم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي متى ينشرون من القبور مع كونه مما لا بد لهم منه، ومن أهم الأمور عندهم ـ فأيان ـ اسم استفهام عن الزمان، ولذا قيل: إن أصلها أي آن أي أيّ زمان، وإن كان المعروف خلافه وهي معمولة

ليبعثون، والجملة في موضع النصب. بيشعرون. وعلقت ﴿يشعرون﴾ لمكان الاستفهام، وضمير الجمع للكفرة وإن كان عدم الشعور بما ذكر عاماً لئلا يلزم التفكيك بينه وبين ما يذكر بعد من الضمائر الخاصة بهم قطعاً، وقيل: الكل لمن وإسناد خواص الكفرة إلى الجميع من قبيل بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم، وفيه بحث.

وقرأ السلمي. «إيان». بكسر الهمزة وهي لغة بني سليم ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ إضراب عما تقدم على وجه يفيد تأكيده وتقريره، وأصل ﴿ادّارك﴾ تدارك فأدغمت التاء في الدال فسكنت فاجتلبت همزة الوصل وهو من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك وهو مراد من فسر التدارك هنا بالاضمحلال والفناء، وإلا فأصل التدارك التتابع والتلاحق مطلقاً، ﴿وفي الآخرة﴾ متعلق بعلمهم. والعلم يتعدى بفي كما يتعدى بالباء، وهي حينئذ بمعنى الباء كما نص عليه الفراء وابن عطية وغيرهما، والمعنى بل تتابع علمهم في شأن الآخرة التي ما ذكر من البعث حال من أحوالها حتى انقطع وفني ولم يبق لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعاً مع توفر أسبابه فهو ترق عن وصفهم بجهل فاحش إلى وصفهم بجهل أفحش، وليس تدارك علمهم بذلك على معنى أنه كان لهم علم به على الحقيقة فانتفى شيئاً فشيئاً، بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلة نفسه، وإجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابعها إلى الانقطاع.

وجوز أن يكون الكلام على تقدير مضاف أي ادّارك أسباب علمهم، والتدارك مجاز عما ذكر من التساقط، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ إضراب وانتقال عن عدم علمهم بها إلى ما هو أفحش منه على نحو ما مر وهو حيرتهم في ذلك أي بل هم في شك عظيم من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلاً فضلاً عن الأمور التي ستقع فيها، وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ إضراب وانتقال عن وصفهم بكونهم شاكين إلى وصفهم بما هو أفظع منه وهو كونهم عمياً قد اختلت بصائرهم بالكلية بحيث لا يكادون يدركون طريق العلم بها وهو الدلائل الدالة على أنها كائنة لا محالة، فالمراد ﴿عمون﴾ عن دلائلها أو عمون عن كل ما يوصلهم إلى الحق ويدخل فيه دلائلها دخولاً أولياً، و ﴿منها﴾ متعلق بعمون، قدم عليه رعاية للفواصل، ولعل تعديته بمن دون عن لجعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه، والكفر بالعاقبة والجزاء يدع الشخص عاكفاً على تحصيل مصالح بطنه وفرجه لا يتدبر ولا يتبصر فيما عدا ذلك.

وجوز أن يكون ﴿ادّارك﴾ بمعنى استحكم وتكامل ووصفهم باستحكام علمهم بذلك وتكامله من باب التهكم بهم كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك على سبيل الهزء، ومآل التهكم المذكور نفي علمهم بذلك كما في الوجه السابق لكن على الوجه الأبلغ، والإضرابان من باب الترقي من الوصف بالفظيع إلى الوصف بالأفظع نحو ما تقدم وهو وجه حسن، ويشعر كلام بعض المحققين بترجيحه على ما ذكرنا أولاً.

وجوز أيضاً أن يكون المراد بالإدّراك الاستحكام لكن على معنى استحكم أسباب علمهم بأن القيامة كائنة لا محالة من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون في ذلك، وفيه أن دلالة النظم الكريم على إرادة وهم جاهلون ليست بواضحة.

وقال الكرماني: التدارك التتابع، والمراد بالعلم هنا الحكم والقول؛ والمعنى بل تتابع منهم القول والحكم في الآخرة وكثر منهم الخوض فيها، فنفاها بعضهم. وشك فيها بعضهم واستبعدها بعضهم وفيه ما فيه.

وقيل: إن في الآخرة متعلق. بادّارك. وإليه ذهب الزجاج والطبرسي، واقتضته بعض الآثار المروية عن ابن عباس

رضي الله تعالى عنهما، والمعنى على هذا عند بعضهم بل استحكم في الآخرة علمهم بما جهلوه في الدنيا حيث رأوا ذلك عياناً، وكان الظاهر يدّارك بصيغة الاستقبال إلا أنه عبر بصيغة الماضي لتحقق الوقوع.

وقيل: التدارك عليه من تداركت أمر فلان إذا تلافيته، ومفعوله هنا محذوف أي بل تدارك في الآخرة علمهم ما جهلوه في الدنيا أي تلافاه، وحاصل المعنى بل علموا ذلك في الآخرة حين لم ينفعهم العلم، والتعبير بصيغة الماضي على ما علمت، ولا يخفى أن في وجه ترتيب الإضرابات الثلاث حسب ما في النظم الكريم على هذين الوجهين خفاءً فتدبر.

وقرأ أبيّ أم «تدارك». على الأصل وجعل أم بدل ﴿بل ﴾، وقرأ سليمان بن يسار بل أدرك بنقل حركة الهمزة إلى اللام وشد الدال بناءً على وزنه افتعل، فأدغم الدال وهي فاء الكلمة في التاء بعد قلبها دالاً فصار فيه قلب الثاني للأول كما في قولهم: اثرد وأصله اثترد من الثرد، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام أدخلت على ألف الوصل فانحذفت ألف الوصل ثم انحذفت هي وألقيت حركتها على لام بل، وقرأ أبو رجاء والأعرج وشيبة وطلحة وتوبة العنبري كذلك إلا أنهم كسروا لام «بلِ»، وروى ذلك عن ابن عياش وعاصم والأعمش.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل مكة. «بل أدرك». على وزن أفعل بمعنى تفاعل، ورويت عن أبي بكر عن عاصم، وقرأ عبدالله في رواية وابن عباس في رواية أبي حيوة وغيره عنه والحسن وقتادة وابن محيصن. «بل آدّرك». بمدة بعد همزة الاستفهام، وأصله أأدرك فقلبت الثانية ألفاً تخفيفاً كراهة الجمع بين همزتين، وأنكر أبو بكر بن أبي العلاء هذه الرواية، وقال أبو حاتم: لا يجوز الاستفهام بعد «بل» لأن بل للإيجاب، والاستفهام في هذا الموضع إنكار بمعنى لم يكن كما في قوله تعالى: ﴿أشهدوا خلقهم ﴾ [الزخرف: ١٩]، أي لم يشهدوا خلقهم فلا يصح وقوعهما معاً للتنافي الذي بين الإيجاب والإنكار ا هـ.

وقد أجاز بعض المتأخرين، كما قال أبو حيان، الاستفهام بعد ﴿بل ﴾ وشبهه بقول القائل: أخبزاً أكلت، بل أماءً شربت على ترك الكلام الأول والأخذ في الثاني، وقرأ مجاهد «أم أدرك» جعل أم بدل ﴿بل ﴾ وأدرك على وزن أفعل، وقرأ ابن عباس في رواية أيضاً «بل أدارك» بهمزة داخلة على ﴿ادّارك ﴾ فتسقط همزة الوصل المجتلبة لأجل الإدغام والنطق بالساكن، وقرأ ابن مسعود أيضاً بل أأدرك بهمزتين همزة الاستفهام وهمزة أفعل، وقرأ الحسن أيضاً والأعرج. «بل أدرك». بهمزة، وادغام فاء الكلمة وهي الدال في فاء افتعل بعد صيرورة التاء دالاً، وقرأ ورش في رواية. «بل ادّرك». بحذف همزة أدرك، ونقل حركتها إلى اللام، وقرأ ابن عباس أيضاً. «بلى أدرك». بحرف الإيجاب الذي يوجب به المستفهم المنفي، وقرأ. «بل آأدّارك». بألف بين الهمزتين، فهذه عدة قراءات فما فيه منها استفهام صريح أو مضمن فهو إنكار ونفي، وما فيه بلى فقد قال فيه أبو حاتم: إن كان يلي جواباً لكلام تقدم جاز أن يستأنف بعده كأن قوماً أنكروا ما تقدم من القدرة فقيل لهم: بلى إيجاباً لما نفوا، ثم استؤنف بعده الاستفهام وعودل بقوله تعالى: ﴿**بل هم في شك منها** ﴾ بمعنى أم هم في شك منها لأن حروف العطف قد تتناوب، وكف عن الجملتين بقوله تعالى: ﴿**بل هم منها عمون** ﴾ ا هـ، يعني أن المعنى أأدرك علمهم بالآخرة أم شكوا؟ فبل بمعنى أم عودل بها الهمزة، وتعقبه في البحر بأن جعل بل بمعنى أم ومعادلتها لهمزة الاستفهام ضعيف جداً، وقال بعض المحققين: ما فيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإدراك على وجه التهكم الذي هو أبلغ وجوه النفي والإنكار وما بعده من قوله تعالى: ﴿**بل هم في شك** ﴾ إلخ إضراب عن التفسير مبالغة في النفي ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل إنهم منها عمون فهو على منوال:

تـحـيـة بـيـنـهـم ضـرب وجـيـع

أو رد وإنكار لشعورهم على أن الإضراب إبطالي فافهم، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ**﴾ كالبيان لجهلهم بالآخرة وعما هم منها ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز صلته والإشعار بعلة حكمهم الباطل الذي تضمنه مقول القول، وإذا. ظرف لمحذوف دل عليه مخرجون. أي أنخرج إذا كنا تراباً ولا مساغ لأن يكون ظرفاً ﴿**لمخرجون**﴾ لأن كلاً من الهمزة وإن واللام على ما قيل: مانعة من عمل ما بعدها فيما قبلها فكيف بها إذا اجتمعت، ولم يعتبر بعضهم اللام مانعة بناءً على ما قرر في النحو من جواز تقدم معمول خبر إن المقرون باللام عليه نحو إن زيداً طعامك لآكل، ويكفي حينئذ مانعان وأظن أن من قال: يتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها لا يقول باطراد الحكم في مثل هذا الموضع ومرادهم بالإخراج الإخراج من القبور، وجوز أن يكون الإخراج من حال الفناء إلى الحياة، والأول هو الظاهر، وتقييد الإخراج بوقت كونهم تراباً ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذ فقط فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقاً وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالة منافية له بزعمهم، وقوله سبحانه: ﴿**وآباؤنا**﴾ عطف على اسم كان واستغنى بالفصل بالخبر عن الفصل بالتأكيد، وتكرير الهمزة في. أئنا. للمبالغة والتشديد في الإنكار، وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم، فإن تقديم الهمزة لأصالتها في الصدارة، والضمير في. أئنا. لهم ولآبائهم لأن الكون تراباً قد تناولهم وآباءهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو. أئذا. وأئنا. بالجمع بين الاستفهامين، وقلب الثانية ياءً وفصل بينهما بألف أبو عمرو.

وقرأ نافع «إذا» بهمزة واحدة مكسورة فهمزة الاستفهام مقدرة مع الفعل المقدر لأن المعنى ليس على الخبر، وآينا، بهمزة الاستفهام وقلب الثانية ياءً وبينهما مدة، وقرأ آخرون أئذا. باستفهام ممدود أننا بنونين من غير استفهام ﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا**﴾ أي الإخراج المذكور ﴿**نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ**﴾ أي من قبل وعد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقديم الموعدعلى ﴿**نحن**﴾ هنا للدلالة على أنه هو الذي تعمد بالكلام وقصد به حتى كأن ما سواه مطرح وعلاوة له كما ينبىء عن ذلك ذكر ما صدر منهم أنفسهم مؤكداً مقرراً مكرراً؛ وتأخيره عنه في آية سورة المؤمنين لرعاية الأصل، ولا مقتضى للعدول إذ لم يذكر هناك سوى أتباعهم أسلافهم في الكفر وإنكار البعث من غير نعي ذلك عليهم، والجملة استئناف مسوق لتقرير الإنكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد، وقوله تعالى: ﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾ تقرير إثر تقرير.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى
بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ

وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ
كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

﴿قُلْ سيرُوا فـي الأرْض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الـمُجْرمينَ﴾ بسبب تكذيبهم الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذي تنكرونه فإن في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولي الأبصار، وفي التعبير عن المكذبين بالمجرمين الأعم منه بحسب المفهوم لطف بالمؤمنين في ترك الجرائم لما فيه من إرشادهم إلى أن الجرم مطلقاً مبغوض لله عز وجل ﴿وَلاَ تَـحْزَنْ عَلَـيْهِمْ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿وَلاَ تَكُ فـي ضَيْق﴾ أي في حرج صدر ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي من مكرهم فإن الله تعالى يعصمك من الناس.

وقرأ ابن كثير «ضِيقٍ» بكسر الضاد وهو مصدر أيضاً، وجوز أن يكون مفتوح الضاد مخففاً من ضيق، وقد قرىء كذلك أي لا تكن في أمر ضيق، وكره أبو علي كون ذلك مخففاً مما ذكر لأنه يقتضي حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، وليس من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطراد، وفيه بحث.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَـى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي العذاب العاجل الموعود، وكأنهم فهموا وعدهم بالعذاب من الأمر بالسير والنظر في عاقبة أمثالهم المكذبين، ويعلم منه وجه للتعبير ـ بيقولون ـ وعدم إجرائه على سنن ما قبله أعني وقال الذين كفروا وسؤالهم عن وقت إتيان هذا العذاب على سبيل الاستهزاء والإنكار، ولذا قالوا:

﴿إنْ كُنتُمْ صَادقينَ﴾ عانين إن كنتم صادقين في إخباركم بإتيانه فبينوا لنا وقته، والجمع باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك ﴿قل عسى أن يكون ردِف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ أصل معنى ﴿ردف﴾ تبع والمراد به هنا لحق، ووصل وهو مما يتعدى بنفسه وباللام كنصح.

وقيل: اللام مزيدة لتأكيد وصول الفعل إلى المفعول به كما زيدت الباء لذلك في قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقيل: إن اللام لتضمين ﴿ردف﴾ معنى دنا وهو يتعدى باللام كما يتعدى بمن وإلى كما في الأساس ولتضمينه ذلك عدي بمن في قوله:

فلما ردفنا من عمير وصحبه   تولوا سراعاً والمنية تعنق

وقيل: اللام داخلة على المفعول لأجله والمفعول به الذي يتعدى إليه الفعل بنفسه محذوف أي ﴿ردف﴾ الخلق لأجلكم ولا يخفى ضعفه، وقيل: إن الكلام تم عند ﴿ردف﴾ على أن فاعله ضمير يعود على الوعد، ثم استأنف بقوله تعالى: ﴿لكم بعض الذي تستعجلون﴾ على أن ﴿بعض﴾ مبتدأ، و ﴿لكم﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً له، ولا يخفى ما فيه من التفكيك للكلام والخروج عن الظاهر لغير داع لفظي ولا معنوي، والمعنى قل عسى أن يكون لحقكم ووصل إليكم بعض الذي تستعجلون حلوله وتطلبونه وقتاً فوقتاً، والمراد بهذا البعض عذاب يوم بدر، وقيل: عذاب القبر وليس بذاك، ونسبة استعجال ذلك إليهم بناءً على ما يقتضيه ما هم عليه من التكذيب والاستهزاء وإلا فلا استعجال منهم حقيقة، والترجي المفهوم من عسى قيل: راجع إلى العباد.

وقال الزمخشري: إن عسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده وما لا مجال

للشك بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم، فعلى ذلك جرى وعد الله تعالى ووعيده سبحانه انتهى.

وعليه ففي الكلام استعارة تمثيلية ولا يخفى حسن ذلك، وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسى أن يردفكم إلخ لكونه أدل على تحقق الوعد، وقرأ ابن هرمز «رَدَف» بفتح الدال وهو لغة فيه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لذو إفضال وإنعام كثير على كافة الناس، ومن جملة إفضاله عز وجل وإنعامه تعالى تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصي ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرونه جل وعلا على إفضاله سبحانه عليهم ومنهم هؤلاء، وقيل: لا يعرفون حق فضله تعالى عليهم تعبيراً عن انتفاء معرفتهم ذلك بانتفاء ما يترتب عليها من الشكر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفيه من الأسرار التي من جملتها عداوتك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وما يظهرونه من الأقوال والأفعال التي من جملتها ما حكي عنهم فليس تأخير عقوبتهم لخفاء حالهم عليه سبحانه، أو فيجازيهم على ذلك، وفعل القلب إذا كان مثل الحب والبغض والتصديق والتكذيب والعزم المصمم على طاعة أو معصية فهو مما يجازى عليه، وفي الآية إيذان بأن لهم قبائح غير ما حكي عنهم، وتقديم الاكتنان ليظهر المراد من استواء الخفي والظاهر في علمه جل وعلا، أو لأن مضمرات الصدور سبب لما يظهر على الجوارح، وإلى الرمز إلى فساد صدورهم التي هي المبدأ لسائر أفعالهم أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال: وإن ربك ليعلم ما يكنون وما يعلنون.

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن السميفع «تَكُنُّ» بفتح التاء وضم الكاف من كن الشيء ستره وأخفاه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي من شيء خفي ثابت الخفاء فيهما؛ على أن ﴿غَائِبَةٍ﴾ صفة غلبت في هذا المعنى فكثر عدم إجرائها على الموصوف ودلالتها على الثبوت وإن لم تنقل إلى الاسمية كمؤمن وكافر، فتاؤها ليست للتأنيث إذ لم يلاحظ لها موصوف تجري عليه كالراوية للرجل الكثير الرواية فهي تاء مبالغة، ويجوز أن تكون صفة منقولة إلى الاسمية سمي بها ما يغيب ويخفى، والتاء فيها للنقل كما في الفاتحة، والفرق بين المغلب والمنقول ـ على ما قال الخفاجي ـ ان الأول يجوز إجراؤه على موصوف مذكر بخلاف الثاني.

والظاهر عموم الغائبة أي ما من غائبة كائنة ما كانت ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي بين، أو مبين لما فيه لمن يطالعه وينظر فيه من الملائكة عليهم السلام وهو اللوح المحفوظ، واشتماله على ذلك إن كان متناهياً لا إشكال فيه وإن كان غير متناه ففيه إشكال ظاهر ضرورة قيام الدليل على تناهي الأبعاد واستحالة وجود ما لا يتناهى، ولعل وجود الأشياء الغير المتناهية في علم الله تعالى في اللوح المحفوظ على نحو ما يزعمونه من وجود الحوادث في الجفر الجامع وإن لم يكن ذلك حذو القذة بالقذة.

وقيل: المراد بالكتاب المبين علمه تعالى الأزلي الذي هو مبدأ لإظهار الأشياء بالإرادة والقدرة، وقيل: حكمه سبحانه الأزلي وإطلاق الكتاب على ما ذكر من باب الاستعارة ولا يخفى ما في ذلك.

وقيل: المراد به القرآن واشتماله على كل غائبة على نحو ما ذكرنا في اشتمال اللوح المحفوظ عليه، وقد ذكر أن بعض العارفين استخرج من الفاتحة أسماء السلاطين العثمانية ومدد سلطنتهم إلى آخر من يتسلطن منهم أدام الله تعالى ملكهم إلى يوم الدين ووفقهم لما فيه صلاح المسلمين.

وذكر بعضهم في هذا الوجه أنه مناسب لما بعد من وصف القرآن وفيه ما فيه، وقال الحسن: الغائبة هو يوم القيامة وأهوالها، وقال صاحب الغنيان: الحوادث والنوازل، وقيل: أعمال العباد، وقيل: ما غاب من عذاب السماء والأرض، والعموم أولى، وروي ذلك عن ابن عباس، فقد أخرج ابن جرير. وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية يقول سبحانه: ما من شيء في السماء والأرض سراً وعلانية إلا يعلمه سبحانه وتعالى، وأخذ منه بعضهم حمل الكتاب على العلم الأزلي، وفيه نظر لجواز أن يكون قد جعل كون ذلك في كتاب مبين كناية عن علمه تعالى به.

وذهب أبو حيان إلى أنه رضي الله تعالى عنه اعتبر في الآية حذف أحد المتقابلين اكتفاءً بالآخر وكلامه رضي الله تعالى عنه محتمل لذلك، ويحتمل أنه ذكر العلانية في بيان المعنى لأن من علم السر علم العلانية من باب أولى، ويحتمل أن ذلك لأنه ما من علانية إلا وهي غيب بالنسبة إلى بعض الأشخاص، فيكون قد أشار رضي الله تعالى عنه ببيان المعنى وذكر السر والعلانية فيه إلى أن المراد ـ بغائبة ـ في الآية ما يشملهما وهو ما اتصف بالغيبة أعم من أن تكون مطلقة أو إضافية كذا قيل فتدبر.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لما ذكر سبحانه ما يتعلق بالمبدأ والمعاد ذكر تعالى ما يتعلق بالنبوة فإن القرآن أعظم ما تثبت به نبوة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فذكر جل وعلا أنه يقص على بني إسرائيل، والمراد بهم ـ كما روي عن قتادة ـ اليهود والنصارى أكثر ما تجدد واستمر اختلافهم فيه على وجهه ويبين لهم حقيقة الأمر فيه وذلك مما يقتضي إسلامهم لو تأملوا وأنصفوا لكنهم لم يفعلوا وكابروا مثلكم أيها المشركون، ومما اختلفوا فيه أمر المسيح عليه السلام، فمن قائل: هو الله تعالى، ومن قائل: ابن الله سبحانه، ومن قائل: ثالث ثلاثة، ومن قائل: هو نبي كغيره من الأنبياء عليهم السلام، ومن قائل: هو ـ وحاشاه ـ كاذب في دعواه النبوة وينسب مريم فيه إلى ما هي منزهة عنه رضي الله تعالى عنها وهم اليهود الذين كذبوه، وأمر النبي المبشر به في التوراة، فمن قائل: هو يوشع عليه السلام، ومن قائل: هو عيسى عليه السلام، ومن قائل: إنه لم يأت إلى الآن وسيأتي آخر الزمان ومما اختلفوا فيه أمر الخنزير فقالت اليهود: بحرمة أكله ، وقالت النصارى: بحله إلى غير ذلك.

﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الإطلاق فيدخل فيهم من آمن من بني إسرائيل دخولاً أولياً، وتخصيص المؤمنين بهم كما فعل بعضهم خلاف الظاهر، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أنه رحمة للعالمين لأنهم المنتفعون به ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي بين بني إسرائيل الذين اختلفوا أو بين المؤمنين وبين الناس ﴿بِحُكْمِهِ﴾ قيل: أي بحكمته جل شأنه، ويدل عليه قراءة جناح بن حبيش بحكمه ـ بكسر الحاء وفتح الكاف ـ جمع حكمة مضاف إلى ضميره تعالى، وقيل: المراد بالحكم المحكوم به إطلاقاً للمصدر على اسم المفعول، والمراد بالمحكوم به الحق والعدل، وعلى الوجهين لم يبق على المعنى المصدري، والداعي لذلك أن ـ يقضي ـ بمعنى يحكم فلو بقي الحكم على المعنى المصدري لصار الكلام نحو قولك: زيد يضرب بضربه وهو لا يقال مثله في كلام عربي، وأورد عليه أنه يصح أن يقال ذلك على معنى يضرب بضربه المعروف بالشدة مثلاً، فالمعنى هنا يحكم بحكمه المعروف بملابسة الحق، أو يحكم بحكم نفسه تعالى لا بحكم غيره عز شأنه كالبشر، وقيل عليه: ليس المانع لصحة مثل هذا القول إضافة المصدر إلى ضمير الفاعل فإنه لا كلام في صحته كإضافته إلى ضمير المفعول في ـ سعى لها سعيها ـ إنما المانع دخول الباء على المصدر المؤكد، ثم إن المعنى الأول يوهم أن له سبحانه حكماً غير معروف بملابسة الحق، والثاني إنما يظهر لو قدم بحكمه، وفيه أنه على ما ذكر ليس بمصدر مؤكد، وعدم الجواز في المصدر النوعي لا سيما إذا كان من غير لفظه ليس بمسلم، وأيضاً الظاهر أن المانع بزعم المؤول لزوم اللغوية لو لم يؤول بما ذكر، والأولى إبقاؤه

على المصدرية، وجل الإضافة للعهد، وكون المعنى كما قال المورد: يحكم بحكمه المعروف بملابسة الحق وأمر التوهم على طرف الثمام؛ وأياً مّا كان فالضمير المجرور عائد على الرب سبحانه وعوده على القرآن على أن المعنى يحكم بالحكم الذي تضمنه القرآن واشتمل عليه من إثابة المحق وتعذيب المبطل وحينئذ لا يحتاج إلى كثرة القيل والقال لا يخفى ما فيه من القيل والقال على من له أدنى تمييز بأساليب المقال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرد حكمه سبحانه وقضاؤه جل جلاله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما يقضي به، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ لترتيب الأمر على ما ذكر من شؤونه عز وجل فإنها موجبة للتوكل عليه تعالى وداعية إلى الأمر به؛ وفي ذكره تعالى بالاسم الجامع تأييد لذلك أي فتوكل على الله الذي هذا شأنه فإنه يوجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره إليه جل وعلا، وقوله تعالى:

﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ تعليل صريح للتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق البين، أو الفاصل بينه وبين الباطل. أو بين المحق والمبطل فإن كونه صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى ونصرته وتأييده لا محالة، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ إلخ تعليل آخر للتوكل الذي هو عبارة عن التبتل إلى الله تعالى وتفويض الأمر إليه سبحانه والإعراض عن التشبث بما سواه؛ وقد علل أولاً بما يوجبه من جهته تعالى أعني قضاءه عز وجل بالحق وعزته وعلمه تبارك وتعالى، وثانياً بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعني كونه صلى الله تعالى عليه وسلم على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعني إعانته تعالى وتأييده تعالى للمحق، ثم علل ثالثاً بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التشبث بما سواه تعالى، فإن كونهم كالموتى والصم والعمي موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأساً، وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى، وهو المعني بالتوكل عليه جل شأنه، وجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع﴾ إلخ استئنافاً بيانياً وقع جواباً لسؤال نشأ مما قبله، أعني إنك على الحق المبين كأنه قيل: ما بالهم غير مؤمنين بمن هو على الحق المبين فقيل: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ إلخ.

وتعقب بأنه يأباه السياق، واعترض بالمنع وإنما شبهوا بالموتى على ما قيل لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع، وإطلاق الأسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشيء من المسموعات، وقيل: لعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فإن القلب مشعر من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة، ثم بين بطلان مشعري الأذن والعين كما في قوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمي مزيد مزية وكأنه لهذا قال في البحر: أي موتى القلوب، أو شبهوا بالموتى لأنهم لا ينتفعون بما يتلى عليهم فقدم احتمال نسبة الموت إلى قلوبهم.

وتعقب بأن ما ذكر تخيل بارد لأن القلب يوصف بالفقه والفهم لا السمع، وما ذكر أولاً من أنهم أنفسهم شبهوا بالموتى هو الظاهر، ووجهه أنه على طريق التسليم والنظر لأحوالهم كأنه قيل: كيف تسمعهم الإرشاد إلى طريق الحق وهم موتى وهذا بالنظر لأول الدعوة ولو أحييناهم لم يفد أيضاً لأنهم صم، وقد ولوا مدبرين وهذا بالنظر لحالهم بعد التبليغ البليغ ونفرتهم عنه، ثم إنا لو أسمعناهم أيضاً فهم عمي لا يهتدون إلى العمل بما يسمعون، وهذا خاتمة أمرهم، ويعلم من هذا ما في ذلك من مزيد المزية الخالية عن التكلف.

وجوز أن يكون التشبيه لطوائف على مراتبهم في الضلال، فمنهم من هو كالميت ومن هو كالأصم ومن هو كالأعمى، وهو وإن كان وجهاً خفيف المؤنة إلا أنه خلاف الظاهر أيضاً ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ أي الدعوة إلى

أمر من الأمور، وتقييد النفي بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ لتتميم وتأكيد النفي فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعي مولون على أدبارهم، ولا ريب في أن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه، ومثله في التتميم قول امرىء القيس:

حملت ردينياً كأن سنانه ... سنا لهب لم يتصل بدخان

وقرأ ابن كثير ـ لا يسمع الصم الدعاء ـ بالياء التحتانية وفتح الميم ورفع الضم ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾ أي وما أنت بصارف العمي عن ضلالتهم هادياً لهم هداية موصلة إلى المطلوب لفقد الشرط العادي للاهتداء وهو البصر، و ﴿عن﴾ متعلقة بالهداية باعتبار تضمنها معنى الصرف كما أشرنا إليه، وجوز أبو البقاء أن تعلق بالعمى ويكون المعنى أن العمى صدر عن ضلالتهم وفيه بعد، وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة في نفي الهداية.

وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيوة ـ «بهاد» ـ بالتنوين «العمىَ» بالنصب، وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثاب وابن يعمر وحمزة ـ «تَهْدي» ـ مضارع هدى «العُمْي» بالنصب، وقرأ ابن مسعود ـ وما أن تهتدي ـ بزيادة أن بعد ما كما في قول امرىء القيس:

حلفت لها بالله حلفة فاجر ... لناموا فما إن من حديث ولا صال

و ـ «تهتدي» ـ مضارع اهتدى، و «العُمي» بالرفع ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ أي ما تسمع إسماعاً يجدي السامع نفعاً.

﴿إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي من شأنهم الإيمان بها وهم الذين ليسوا موتى ولا صماً ولا عمياً.

وقال بعض الأجلة: أي إلا من هو في علم الله تعالى كذلك، واعترض بأن صيغة الاستقبال وإن صحت باعتبار تعلق العلم فيما لا يزال إلا أن المناسب صيغة المضي، واختار المعترض أن المعنى إلا الذين يصدقون أن القرآن كلام الله تعالى إذ حينئذ تثبت نبوته ﷺ فيقبل قوله ويجدي إسماعه نفعاً، وتعقب بأنه ينتقض الحصر بالمصدقين في الاستقبال إن كانت الصيغة للحال وبالمصدقين في الحال إن كانت للاستقبال، وإذا دفع لزوم الانتقاض بجعلها لهما لزم استعمال المشترك في معنييه معاً أو الجمع بين الحقيقة والمجاز، وأجيب بأن المراد الحال ويدخل غيره فيه بدلالة النص من غير تكليف.

وقال بعض المحققين: قد يراد بالمضارع الاستقبال الشامل لجميع الأزمنة فإن الاستقبال كما يكون بالنظر لزمان الحكم والتكلم على ما حقق في الأصول يجوز أن يكون بالنظر إلى علم القائل أيضاً فيشمل من يؤمن هنا من آمن حالاً كما يشمل من يؤمن استقبالاً فلا غبار في المعنى الذي اختاره ذلك المعترض من هذه الحيثية، نعم قيل: إن فيه شبه تحصيل الحاصل لأن التصديق بالقرآن هو استماعه النافع ، ولعل من عدل عنه إنما عدل لذلك ، ولم يعبأ بالمغايرة بين ذينك الأمرين الظاهرة بعد النظر الصحيح، والحق أن ما ذكر من شبه تحصيل الحاصل على طرف الثمام لظهور الفرق بين الاسماع المراد في الآية والتصديق بأن القرآن كلام الله تعالى كما لا يخفى، وجوز أن يزاد بالآيات المعجزات التي أظهرها الله تعالى على يده عليه الصلاة والسلام الشاملة للآيات التنزيلية والتكوينية وأن يراد بها الآيات التكوينية فقط، والإيمان بها التصديق بكونها آيات الله تعالى وليست من السحر وإذا أريد بالإسماع النافع على هذا إسماع الآيات التنزيلية ليؤتى بما تضمنته من الاعتقادات والأعمال كان الكلام أبعد وأبعد من أن يكون فيه شبه تحصيل الحاصل إلا أن ذلك لا يخلو عن شيء، وفي إرشاد العقل السليم أن إيراد الاسماع في النفي والإثبات دون الهداية مع قربها بأن يقال: إن تهدي إلا من يؤمن إلخ لما أن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية فافهم، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قيل: تعليل لإيمانهم بها كأنه قيل: فإنهم منقادون للحق في كل وقت.

وقيل: مخلصون لله تعالى من قوله تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ [البقرة: ١١٢]، وقيل: هو تعليل لما يدل عليه الكلام من أنهم يسمعون إسماعاً نافعاً لهم، وفي توحيد الضمير تارة. وجمعه أخرى رعاية للفظ من ومعناها.

واستدل بقوله سبحانه: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ على أن الميت لا يسمع كلام الناس مطلقاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام في ذلك في سورة الروم على أتم وجه ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ بيان لما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها، والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجيء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها وبوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للإيذان بشدة وقعها وتأثيرها، وإسناده إلى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث إنها مصداق للقول الناطق بمجيئها، وقد أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما في قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل: ١] ففيه مجاز المشارفة أي إذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذي لا يكادون يسمعونه ومصداقه.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ﴾ وذلك على ما أخرج ابن مردويه من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وهو. وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما موقوفاً «حين يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «أكثروا الطواف بالبيت من قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يرفع، قيل: وكيف يرفع ما في صدور الرجال؟ قال: يسرى عليهم ليلاً فيصبحون منه فقراء وينسون قول لا إله إلا الله ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم فذلك حين يقع القول عليهم»، وهذا ظاهر في أن خروج الدابة حين لا يبقى في الأرض خير، ويقتضي ذلك أن يكون بعد موت عيسى والمهدي وأتباعهما عليهم السلام، وسيأتي إن شاء الله تعالى من الأخبار ما هو ناطق بأنها تخرج وعيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون.

وأخرج نعيم بن حماد عن وهب بن منبه قال: أول الآيات الروم والثانية الدجال والثالثة يأجوج ومأجوج والرابعة عيسى والخامسة الدخان والسادسة الدابة، وصوب السفاريني أنها قبل الدخان، والحق أنها تخرج وفي الناس مؤمن وكافر، فالظاهر أن الخبر المذكور عن ابن مسعود غير صحيح، ويدل على ما ذكرنا من الحق ما أخرج أحمد والطيالسي ونعيم بن حماد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتجلو[1] وجه المؤمن بالخاتم وتحطم أنف الكافر بالعصا حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر» وقد اختلفت الروايات فيها اختلافاً كثيراً، فحكى أبو حيان في البحر والدميري في حياة الحيوان رواية أنه يخرج في كل بلد دابة مما هو مبثوث نوعها في الأرض فليست دابة واحدة؛ وعليه يراد بدابة الجنس الصادق بالمتعدد، وأكثر الروايات أنها دابة واحدة وهو الصحيح، فالتعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين الدال على التفخيم من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى، وعلى كونها واحدة اختلف فيها أيضاً فقيل: هي من الإنس واستؤنس له بما روى محمد بن كعب القرظي قال: سئل عليّ كرّم الله تعالى وجهه عن الدابة فقال: أما والله إنها ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية، وفي الميزان للذهبي عن جابر الجعفي ـ

---

(١) قوله: فتجلو إلخ قال الطيبي: أهل الحديث يروونه بالحاء المهملة وفتح اللام والهمز من حلأت الأديم إذا قشرته، وفي الكشاف، وكذا في المطلع بالجيم من جلوت السيف إذا صقلته ا هـ منه.

وهو كذاب ـ قال أبو حنيفة: ما لقيت أكذب منه أنه كان يقول: هي من الإنس وأنها عليّ نفسه كرّم الله تعالى وجهه؛ وعلى ذلك جمع من إخوانه الشيعة ولهم في ذلك روايات: منها ما رواه عليُّ بن إبراهيم في تفسيره عن أبي عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقظان آية في كتاب الله تعالى أفسدت قلبي، قال عمار: وأية آية هي؟! فقال: قوله تعالى: ﴿**وإذا وقع القول عليهم**﴾ الآية فأية دابة هذه؟ قال عمار: والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتى أريكها فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين علي كرّم الله تعالى وجهه وهو يأكل تمراً وزبداً فقال: يا أبا اليقظان هلم فجلس عمار يأكل معه فتعجب الرجل منه فلما قام عمار قال الرجل: سبحان الله حلفت أنك لا تجلس ولا تأكل ولا تشرب حتى ترينيها قال عمار: قد أريتكها إن كنت تعقل، وروى العياشي هذه القصة بعينها عن أبي ذر أيضاً وكل ما يروونه في ذلك كذب صريح، وفيه القول بالرجعة التي لا ينتهض لهم عليها دليل.

وفي بعض الآثار ما يعارض ما ذكر، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن النزال بن سبرة قال: قيل لعلي كرّم الله تعالى وجهه: إن ناساً يزعمون أنك دابة الأرض، فقال: والله إن لدابة الأرض لريشاً وزغباً وما لي ريش ولا زغب وإن لها لحافراً وما لي من حافر وإنها لتخرج من حفر الفرس الجواد ثلاثاً وما خرج ثلثها، والمشهور ـ وهو الحق ـ أنها دابة ليست من نوع الإنسان، فقيل: هي الثعبان الذي كان في جوف الكعبة واختطفته العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام فمنعهم وأن العقاب التي اختطفته ألقته بالحجون فالتقمته الأرض، وذكر ذلك الدميري عن ابن عباس، والأكثرون على أنها غيرها.

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن إيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً ـ زاد ابن جرير ـ بذراع آدم عليه السلام.

ونقل السفاريني عن كعب أنه قال: صوتها صوت حمار، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال: الدابة مؤلفة ذات زغب وريش فيها من ألوان الدواب كلها وفيها من كل أمة سيما وسيماها من هذه الأمة أنها تتكلم بلسان عربي مبين، وعن أبي هريرة أنه قال: فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن لها عنقاً مشرفاً يراها من بالمشرق كما يراها من بالمغرب ولها وجه كوجه الإنسان ومنقار كمنقار الطير ذات وبر وزغب، وعن وهب وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير، وصرح في بعض الروايات بأن لها جناحين، وذكر بعضهم أن طولها ستون ذراعاً، واختلف في محل خروجها فقيل: المسجد الحرام لما أخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال: «ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال حذيفة: يا رسول الله من أين تخرج؟ قال: من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض من تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسجد فتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب تسم الناس مؤمن وكافر: أما المؤمن فيرى وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء وتكتب كافر».

وأخرج ابن أبي شيبة والخطيب في تالي التلخيص عن ابن عمر قال: تخرج الدابة من جبل جياد في أيام التشريق والناس بمنى، وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابة الأرض من جياد فيبلغ صدرها الركن ولم يخرج ذنبها بعد وهي دابة ذات وبر وقوائم».

وأخرج البخاري في تاريخه وابن ماجة وابن مردويه عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: «ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الدابة من هذا الموضع فإذا شبر في شبر».

وجاء في بعض الروايات أنها تخرج من أقصى البادية، وفي بعض من مدينة قوم لوط، وفي بعض أن لها ثلاث خرجات في الدهر: تخرج في أول خرجة في أقصى اليمن منتشراً ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة، ثم تخرج خرجة أخرى فيعلو ذكرها في البادية ويدخل القرية، ثم بينما الناس في أعظم المساجد حرمة لم يرعهم إلا وهي في ناحية المسجد من الركن الأسود وباب بني مخزوم فيرفضّ الناس عنها شتى وتثبت عصابة من المسلمين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله تعالى فتنفض عن رأسها التراب فتجلو عن وجوههم حتى كأنهم الكواكب الدرية، واختلف أيضاً في أنها هل تخلق يوم تخرج أو هي مخلوقة الآن؟ فقيل: إنها تخلق يوم تخرج، وقيل: إنها مخلوقة الآن لكن لم تؤمر بالخروج.

واستدل بما روي عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم؛ وقال: إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه، وعليه من يقول: إنها الثعبان، ومن يقول: إنها الجساسة التي تتجسس الأخبار للدجال كما هو المروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وزعم بعضهم أنها مخلوقة في عهد الأنبياء المتقدمين عليهم السلام، فقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن «أن موسى عليه السلام سأل ربه سبحانه أن يريه الدابة فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن تذهب في السماء لا يرى واحد من طرفيها فرأى عليه السلام منظراً فظيعاً فقال: يا رب ردها فردها، وجاء في حديث أخرجه نعيم بن حماد في الفتن والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود أنها إذا خرجت تقتل إبليس عليه اللعنة ـ وهو ساجد ـ وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها وتحقق هلاكه عنده، والأخبار في هذه الدابة كثيرة.

وفي البحر أنهم اختلفوا ـ في ماهيتها وشكلها ومحل خروجها وعدد خروجها ومقدار ما يخرج منها وما تفعل بالناس وما الذي تخرج به ـ اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً فاطرحنا ذكره لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح وتضييع لزمان نقله ا هـ، وهو كلام حق وأنا إنما نقلت بعض ذلك دفعاً لشهوة من يحب الاطلاع على شيء من أخبارها صدقاً كان أو كذباً، وقد تصدى السفاريني في كتابه البحور الزاخرة للجمع بين بعض هذه الأخبار المتعارضة ولا أظنه أتى بشيء.

ثم إن الأخبار المذكورة أقربها للقبول الخبر الذي حسنه الترمذي، ومن الأخبار في هذا الباب ما صححه الحاكم وتصحيحه محكوم عليه بين المحدثين بعدم الاعتبار، وقصارى ما أقول في هذه الدابة أنها دابة عظيمة ذات قوائم ليست من نوع الإنسان أصلاً يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض، وفي تقييد إخراجها بقوله سبحانه: ﴿**من الأرض**﴾ نوع إشارة على ما قيل: إلى أن خلقها ليس بطريق التوالد بل هو بطريق التولد نحو خلق الحشرات.

وقيل: إنه للإشارة إلى تكونها في جوف الأرض فيكون في إخراجها من الأرض رمز إلى ما يكون في الساعة التي أخرجت هي بين يديها من تشقق الأرض وخروج الناس من جوفها أحياءً كاملة خلقتهم، وفي هذا وما قبله ذهاب إلى تعلق ﴿**من الأرض**﴾ بـ ﴿**أخرجنا**﴾ وهو الظاهر الذي ينبغي أن يعول عليه دون كونه متعلقاً بمحذوف وقع صفة لدابة أي دابة كائنة من الأرض.

﴿**تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ**﴾ أي تكلمهم بأنهم كانوا لا يتيقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات، وقيل: بآياته التي من جملتها خروجها بين يدي الساعة وليس بذاك، وإضافة الآيات إلى نون العظمة لأنها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها.

وقيل: لأنها حكاية منها لقول الله عز وجل؛ وقيل: لاختصاصها به تعالى وأثرتها عنده سبحانه كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا، وإنما الخيل والبلاد لمولاه، وقيل: هناك مضاف محذوف أي بآيات ربنا.

والظاهر أن ضمير الجمع في تكلمهم للكفرة المنكرين للبعث مطلقاً لا للكفرة المحدث عنهم فيما سبق بخصوصهم ضرورة أنهم ليسوا موجودين عند إخراج الدابة لتكلمهم، وتكليمها إياهم ـ وهم موتى ـ بعيد أو غير معقول، والرجعة التي يعتقدها الشيعة لا نعتقدها، والآية الآتية لا تدل كما يزعمون عليها. ويسهل أمر ذلك أنه ليس مدار الحديث عنهم سوى ما هم عليه من الشرك والكفر بالآيات وإنكار البعث وذلك موجود فيهم وفي الكفرة الموجودين عند إخراج الدابة، ومثله ضميرا ـ عليهم. ولهم ـ والمراد بالناس الكفرة الماضون مطلقاً لا مشركو أهل مكة فقط، والمراد بإخبارها إياهم بذلك التحسر على ما فاتهم من الإيقان بما قرب وقوعه وظهور بطلان ما اعتقدوه فيه ومؤاخذتهم على التكذيب به أشد مؤاخذة، وفي ذلك استدعاء لأمثالهم إلى ترك ما هم عليه مما شاركوهم به من التكذيب وإنكار البعث، وجوز أن يراد بالناس مشركو أهل مكة وأمر الإخبار على حاله.

وقيل: يجوز أن تكون الضمائر للناس لا للكفرة منهم خاصة، ويراد بالناس إما الكفرة المنكرون للبعث، والمراد بالإخبار التنفير عما كانوا عليه من الإنكار ليثبت المؤمن ويرتدع الكافر، وإما مشركو أهل مكة والمراد بالإخبار ذلك.

وقيل: المراد به التشنيع عليهم بين أحبائهم وأعدائهم وكان بلسان الدابة ليكون أبلغ لما فيه من ظهور خطئهم عند ما لا يظن إدراكه له فضلاً عن النطق به وإذاعته على سبيل التشنيع، وكان بين يدي الساعة ليردفه بلا كثير فصل ما يشبهه من شهادة الأعضاء عليهم وهي أبعد وقوعاً مع تشنيع الدابة، وفي وقوعها بعده ما يشبه الترقي من العظيم إلى الأعظم، وأيد كون الضمائر للناس على الإطلاق وأن المراد بالناس المذكور في النظم الكريم أهل مكة ما روي عن وهب أن الدابة تخبر كل من تراه أن أهل مكة كانوا بمحمد ﷺ والقرآن لا يوقنون وقيل: ضميرا ـ عليهم. ولهم ـ لمشركي أهل مكة المحدث عنهم فيما سبق، ومعنى ﴿لهم﴾ لذمهم أو نحوه، وضمير ﴿تكلمهم﴾ للناس الموجودين عند الإخراج أو للكفرة كذلك، والمراد بالناس المذكور في النظم الكريم أولئك المشركون، وقيل: غير ذلك، ولا يخفى عليك بأدنى تأمل ما هو الأولى والأظهر في الآية من الأقوال، وأياً ما كان فوصف الناس بعدم الإيقان بالآيات مع أنهم كانوا جاحدين لها للإيذان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحتها، وقد اتصفوا بنقيض ذلك وكون التكليم من الكلام هو الظاهر، ويؤيده قراءة أبي ـ تنبئهم ـ وقراءة يحيى بن سلام تحدثهم.

وقيل: هو من الكلم بمعنى الجرح والتفعيل للتكثير، ويؤيده قراءة ابن عباس ومجاهد وابن جبير وأبي زرعة والجحدري وأبي حيوة وابن أبي عبلة «تَكْلَمُهُم» بفتح التاء وسكون الكاف وتخفيف اللام وقراءة بعضهم ـ «تجرحهم» ـ مكان تكلمهم، وكأنه أريد بالجرح ما هو مقابل التعديل، ويرجع ذلك إلى معنى التشنيع ورجوع الضمائر عليه إلى الكفرة المحدث عنهم فيما سبق مما لا غبار عليه، وقوله تعالى: ﴿أن الناس﴾ إلخ بتقدير بأن الناس، والمعنى تشنع عليهم بهذا الكلام، ويراد بالناس فيه أولئك المشنع عليهم، وظاهر الآية وقوعه في كلامها بهذا اللفظ، ولعل فهم السامعين كون المراد به مشركي مكة وقت التشنيع بمعونة قرينة تدل على ذلك إذ ذاك، ويحتمل أن يكون الواقع فيه بدله مشركي مكة أو نحوه، لكن جاء في الحكاية بلفظ الناس، والنكتة فيه على ما قيل: الإيماء إلى كثرتهم.

وقيل: الرمز إلى مزيد قبح عدم الإيقان منهم، ويعلم مما ذكر وجه العدول عن ـ أنهم ـ إلى ﴿أن الناس﴾ وجوز أن يكون بتقدير حرف التعليل أي لأن الناس إلخ، وهو تعليل من جهته تعالى لجرحها إياهم، وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير الراجع كالضمائر السابقة إلى مشركي مكة، وجوز أن تقدر الباء على أنها سببية.

وجوز أيضاً أن يكون المراد بالكلم الجرح بمعنى الوسم، فقد روي أنها تسم جبهة الكافر، وفي رواية أخرى أنها تحطم أنفه بعصا موسى عليه السلام التي معها، واختار بعضهم كون المراد به ما ذكر لما في حديث أخرجه نعيم بن حماد وابن مردويه عن عمر رضي الله تعالى عنه مرفوعاً ليس ذلك بحديث ولا كلام ولكنه سمة تسم من أمرها الله تعالى، وسأل أبو الحوراء ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هل ما في الآية تكلمهم أو تكلمهم؟ فقال كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر تجرحه، والظاهر أن الضمائر على تقدير أن يراد بالكلم الجرح، والوسم راجعة إلى الكفرة على الإطلاق دون المحدث عنهم فيما سبق إذ لا معنى لوسمها إياهم، ويتعين أن يراد بالناس أولئك الكفرة الذين عادت عليهم الضمائر، ولعل المعنى تسمهم لأنهم كانوا في علمنا بآياتنا لا يوقنون، وقرأ ابن مسعود ـ بأن ـ وجعلت مؤيدة لكون التكليم من الكلام وهو مبني على الظاهر وإلا فالباء تحتمل أن تكون للسببية فتلائم كونه من الكلم بمعنى الجرح، وقرأ بعض السبعة ـ إن ـ بكسر الهمزة، وخرج على إضمار القول. أو إجراء التكليم من الكلام مجراه، أو على أن الكلام استئناف مسوق من جهته سبحانه للتعليل فتدبر.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ من كُلِّ أُمَّة فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآياتنا﴾ بيان إجمالي لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها، و ﴿يوم﴾ منصوب بفعل مضمر خوطب به نبينا ﷺ أي اذكر يوم، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مراراً، والمراد بهذا الحشر الحشر للتوبيخ والعذاب بعد الحشر الكلي الشامل لكافة الخلق وهو المذكور فيما بعد من قوله تعالى: ﴿ويوم ينفخ في الصور﴾ [النمل: ٨٧] إلى آخره، ولعل تقديم ما تضمن هذا على ما تضمن ذلك دون العكس مع أن الترتيب الوقوعي يقتضيه للإيذان بأن كلاً مما تضمنه هذا وذاك من الأحوال طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن الكل داهية واحدة قد أمر بذكرها كما مر في سورة البقرة مع أن الأنسب بذكر أن الكفرة لا يوقنون بالآيات المراد به أنهم يكذبون بها أن يذكر بعده ما تضمن التوبيخ منه عز وجل والتعذيب على ذلك التكذيب، ومن الثانية بيانية جيء بها لبيان ﴿فوجاً﴾، ومن الأولى تبعيضية لأن كل أمة منقسمة إلى مصدق ومكذب، أي ويوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة مكذبة بآياتنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة، وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم ما لا يخفى، وقيل: ﴿من﴾ الثانية تبعيضية كالأولى، والمراد بالفوج جماعة من الرؤساء المتبوعين للكفرة، وعن ابن عباس أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة وهكذا يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار؛ وهذه الآية من أشهر ما استدل بها الإمامية على الرجعة.

قال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان: واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الإمامية بأن قال: إن دخول ﴿من﴾ في الكلام يوجب التبعيض فدل بذلك على أنه يحشر قوم دون قوم وليس ذلك صفة يوم القيامة الذي يقول فيه سبحانه: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في أن الله تعالى سيعيد عند قيام المهدي قوماً ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقونه من العقاب بالقتل على أيدي شيعته أو الذل والخزي بما يشاهدون من علو كلمته.

ولا يشك عاقل أن هذا مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه وقد فعل الله تعالى ذلك في الأمم الخالية ونطق القرآن بذلك في عدة مواضع مثل قصة عزير وغيره عليه السلام، وصح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله:

«سيكون في أمتي كل ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه»، وتأول جماعة من الإمامية ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهي دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات، وأولوا الأخبار الواردة في ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافي التكليف وليس كذلك لأنه ليس فيها ما يلجىء إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح، والتكليف يصح معها كما يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا ثعباناً وما أشبه ذلك ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرق التأويل عليها، وإنما المعول عليه في ذلك إجماع الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده انتهى.

وأقول: أول من قال بالرجعة عبدالله بن سبأ ولكن خصها بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وتبعه جابر الجعفي في أول المائة الثانية فقال برجعة الأمير كرّم الله تعالى وجهه أيضاً لكن لم يوقتها بوقت، ولما أتى القرن الثالث قرر أهله من الإمامية رجعة الأئمة كلهم وأعدائهم وعينوا لذلك وقت ظهور المهدي، واستدلوا على ذلك بما رووه عن أئمة أهل البيت، والزيدية كافة منكرون لهذه الدعوى إنكاراً شديداً، وقد ردّوها في كتبهم على وجه مستوفى بروايات عن أئمة أهل البيت أيضاً تعارض روايات الإمامية، والآيات المذكورة هنا لا تدل على الرجعة حسبما يزعمون ولا أظن أن أحداً منهم يزعم دلالتها على ذلك، بل قصارى ما يقول: إنها تدل على رجعة المكذبين أو رؤسائهم فتكون دالة على أصل الرجعة وصحتها لا على الرجعة بالكيفية التي يذكرونها، وفي كلام الطبرسي ما يشير إلى هذا.

وأنت تعلم أنه لا يكاد يصح إرادة الرجعة إلى الدنيا من الآية لإفادتها أن الحشر المذكور لتوبيخ المكذبين وتقريعهم من جهته عز وجل بل ظاهر ما بعد يقتضي أنه تعالى بذاته يوبخهم ويقرعهم على تكذيبهم بآياته سبحانه، والمعروف من الآيات لمثل ذلك هو يوم القيامة مع أنها تفيد أيضاً وقوع العذاب عليهم واشتغالهم به عن الجواب ولم تفد موتهم ورجوعهم إلى ما هو أشد منه وأبقى وهو عذاب الآخرة الذي يقتضيه عظم جنايتهم، فالظاهر استمرار حياتهم وعذابهم بعد هذا الحشر، ولا يتسنى ذلك إلا إذا كان حشر يوم القيامة، وربما يقال أيضاً: ـ مما يأبى حمل الحشر المذكور على الرجعة ـ أن فيه راحة لهم في الجملة حيث يفوت به ما كانوا فيه من عذاب البرزخ الذي هو للمكذبين كيفما كان أشد من عذاب الدنيا، وفي ذلك إهمال لما يقتضيه عظم الجناية، وأيضاً كيف تصح إرادة الرجعة منها، وفي الآيات ما يأبى ذلك، منه قوله تعالى: ﴿قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] فإن آخر الآية ظاهر في عدم الرجعة مطلقاً وكون الإحياء بعد الإماتة والإرجاع إلى الدنيا من الأمور المقدورة له عز وجل مما لا ينتطح فيه كبشان إلا أن الكلام في وقوعه وأهل السنة ومن وافقهم لا يقولون به ويمنعون إرادته من الآية ويستندون في ذلك إلى آيات كثيرة، والأخبار التي روتها الإمامية في هذا الباب قد كفتنا الزيدية مؤنة ردها، على أن الطبرسي أشار إلى أنها ليست أدلة وأن التعويل ليس عليها، وإنما الدليل إجماع الإمامية والتعويل ليس إلا عليه، وأنت تعلم أن مدار حجية الإجماع على المختار عندهم حصول الجزم بموافقة المعصوم ولم يحصل للسني هذا الجزم من إجماعهم هذا فلا ينتهض ذلك حجة عليه مع أن له إجماعاً يخالفه وهو إجماع قومه على عدم الرجعة الكاشف عما عليه سيد المعصومين صلى الله تعالى عليه وسلم، وكل ما تقوله الإمامية في هذا الإجماع يقول السني مثله في إجماعهم، وما ذكر من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «سيكون في أمتي» الحديث لا نعلم صحته بهذا اللفظ بل الظاهر عدم صحته فإنه كان في بني إسرائيل ما لم يذكر أحد أنه يكون مثله في هذه الأمة كنتق الجبل عليهم حين امتنعوا عن أخذ ما آتاهم الله تعالى من الكتاب والبقاء في التيه أربعين سنة حين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤] ونزول المن والسلوى عليهم فيه إلى غير ذلك.

وبالجملة القول بالرجعة حسبما تزعم الإمامية مما لا ينتهض عليه دليل، وكم من آية في القرآن الكريم تأباه غير قابلة للتأويل، وكأن ظلمة بغضهم للصحابة رضي الله تعالى عنهم حالت بينهم وبين أن يحيطوا علماً بتلك الآيات فوقعوا فيما وقعوا فيه من الضلالات ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قَالَ﴾ أي الله عز وجل موبخاً لهم على التكذيب لا سائلاً سبحانه وتعالى سؤال استفسار لاستحالته منه عز وجل، وعدم وقوع الاستفسار عن الذنب يوم القيامة من غيره تعالى من الملائكة عليهم السلام وإن كان ممكناً على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ [الرحمن: ٣٩] على أحد التفسيرين، والالتفات لتربية المهابة ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا، وقوله تعالى: ﴿ولم تحيطوا بها علماً﴾ جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه، ومؤكدة للإنكار والتوبيخ أي أكذبتم بها بادىء الرأي غير ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتماً، وهذا على ما قيل: ظاهر في أن المراد بالآيات فيما تقدم الآيات التنزيلية لأنها المنطوية على دلائل الصحة وشواهدها التي لم يحيطوا بها علماً مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها.

وقال بعض الأجلة: إن التكذيب يأبى بظاهره أن يراد بالآيات الآيات التكوينية كالمعجزات ونحوها إذ ليس فيها نسبة يتعلق بها ذلك، وإرادة الأعم تستدعي اعتبار التغليب وكون التكذيب بمعنى نفي دلالتها على المراد منها كتصديق النبي ﷺ في المعجزات ونحوه في نحوها من آيات الأنفس والآفاق خلاف الظاهر، فالأولى إبقاؤه على الظاهر وحمل الآيات على الآيات التنزيلية، وقيل: هو معطوف على ـ كذبتم ـ والهمزة لإنكار الجمع والتوبيخ عليه كأنه قيل: أجمعتم بين التكذيب بآياتي وعدم التدبر فيها.

﴿أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أم ماذا كنتم تعملون بها على أن المراد التبكيت وأنهم لم يعملوا إلا التكذيب وهو أحد وجهين ذكرهما الزمخشري، وقرره في الكشف بأن ﴿أم﴾ متصلة، والأصل أكذبتم بآياتي أم صدقتم، والمعادلة بين الفعلين المتعلقين بالآيات لكن جيء بالأول مجيء معلوم محقق، وبالثاني لا على ذلك النهج تنبيهاً على انتفائه كأنه قيل: أهو ما عهد من التكذيب أم حدث حادث، ووجه الدلالة أنه جعل العديل مردداً فيه فلم يجعل التصديق مثل التكذيب في الاستفهام عن حاله بل إنما شك في وجود معادل التكذيب لأن قوله تعالى: ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ يشمل التكذيب المذكور أولاً وعديله الحقيقي، وهذه قرينة أنه لم يجأ بالاستفهام جهلاً بالحال بل إنما أريد التبكيت والإلزام على معنى قل لي ويحك إن حدث أمر آخر بتاً بالقول بأنه لم يحدث ما يضاد الأول وإشعاراً بأنه إذا سئل عن الذي عمله لم يجب إلا بما قدم أولاً، ثم قال: وهذا وجه لائح، وإنما جاز دخول ﴿أم﴾ على ﴿ما﴾ الاستفهامية لهذه النكتة فإنها خرجت عن حقيقة الاستفهام إلى البت بالحكم لا بالمعادل بل بالأول، وثانيهما أن المعنى ما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ من غير ذلك، وقرره في الكشف أيضاً بأن ﴿أم﴾ على اتصالها ولكن المعادلة بين التكذيب وكل عمل غيره تعلق بالآيات أولاً والإيراد على صيغة الاستفهام للنكتة السابقة فدل على أنه لم يكن لهم عمل إلا التكذيب والكفر كأنهم لم يخلقوا إلا لذلك فلأجله لم يعملوا غيره، وجعل سائر أعمالهم لاستمرار الكفر بهم نفس الكفر أو كلاً عمل، ثم قال: وهذا وجه وجيه بالغ، ومنه ظهر أن دخول ﴿أم﴾ على أسماء الاستفهام غير منكر إذا خرجت عن حقيقة الاستفهام وهو مقاس معنى وإن كانت مراعاة صورة الاستفهام أيضاً منقاسة من حيث اللفظ لكنهم يرجحون في نحوه جانب المعنى ولا يلتفتون لفت اللفظ اهـ.

واختار أبو حيان كون ﴿أم﴾ منقطعة فتقدر ببل وحدها وهي للانتقال من توبيخ إلى توبيخ وليس في ذلك

شائبة من دخول الاستفهام على الاستفهام، وما تقدم أبعد مغزى، و ﴿ماذا﴾ تحتمل أن تكون بجملتها استفهاماً منصوب المحل بخبر كان وهو ﴿تعملون﴾ أو مرفوعة على الابتداء والجملة بعده خبره والرابط محذوف أي تعملونه، وتحتمل أن تكون ﴿ما﴾ فيها استفهاماً، و ﴿ذا﴾ اسم موصول بمعنى الذي، وهما مبتدأ وخبر والجملة بعد صلة الموصول والعائد إليه محذوف.

وقرأ أبو حيوة ـ «أما ذا» ـ بتخفيف الميم وفيها دخول الاستفهام على الاستفهام؛ وقد سمعت وجهه.

وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن
شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ
شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ
بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ
هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَوَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حل بهم العذاب الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله وهو كبهم في النار ﴿بما ظَلَمُوا﴾ أي بسبب ظلمهم الذي هو تكذيبهم بآيات الله تعالى ﴿فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ﴾ بحجة لانتفائها عنهم بالكلية وابتلائهم بما حل بهم من العذاب الأليم، وقيل: يختم على أفواههم فلا يقدرون على النطق بشيء أصلاً.

وفي البحر أن انتفاء نطقهم يكون في موطن من مواطن القيامة أو من فريق من الناس لأن القرآن الكريم ناطق بأنهم ينطقون في بعض المواطن بأعذار وما يرجون به النجاة من النار.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فيه﴾ الرؤية قلبية لا بصرية لأن نفس الليل والنهار وإن كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات أي ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالقرار والنوم، قال بعض الرجاز:

النوم راحة القوى الحسية ... من حركات والقوى النفسية

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ أي ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب في أمور معاشهم فبولغ حيث جعل الابصار الذي هو حال الناس حالاً له ووصفاً من أوصافه التي جعل عليها بحيث لا ينفك عنها، ولم يسلك في الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار في الابصار، والمشهور أن في الآية صنعة الاحتباك والتقدير جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه والنهار مبصراً لينتشروا فيه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في جعلهما كما وصفا وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإشعار ببعد درجته في الفضل ﴿لآيَاتٍ﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه يدل على التوحيد وتجويز الحشر وبعث الرسل عليهم السلام لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين

بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهرة ليست لما أشركه المشركون، وأن من قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قادر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان، وأن من جعل الليل والنهار سببين لمنافعهم ومصالحهم لعله لا يخل بما هو مناط جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم وهو بعثة الرسل عليهم السلام.

وفي إرشاد العقل السليم لآيات عظيمة كثيرة لقوم يؤمنون دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وأن من تأمل في تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائقة تحار في فهمها العقول ولا يحيط بها إلا علم الله جل وعلا وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله تعالى يبعث من في القبور قضاءً متقناً وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجاً له ودليلاً يستدل به على تحققه، وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهاناً عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى ا هـ.

ولعل الأول أولى لا سيما إذا ضم إلى الاستدلال على جواز الحشر مشابهة النوم واليقظة للموت والحياة لما في هذا من خفاء الدلالة، وتخصيص المؤمنين بالذكر لما أنهم هم المنتفعون بالآيات، ووجه ربط هذه الآية بما قبلها أنها كالدليل على صحة ما تضمنته من الحشر ﴿**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ**﴾ إما معطوف على ﴿**يوم نحشر**﴾ منصوب بناصبه، أو منصوب بمضمر معطوف على ذلك الناصب، والصور ـ على ما في التذكرة ـ قرن من نور، وذكر البخاري عن مجاهد أنه كالبوق.

وأخرج الترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: «ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه»، والمشهور أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام.

وذكر القرطبي أن الأمم مجمعة على ذلك وهو مخلوق اليوم، فقد أخرج الترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ؟! فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام لهم: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل» وروي أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً «ما أطرق صاحب الصور مذ وكل به مستعداً بحذاء العرش مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتد طرفه كأن عينيه كوكبان دريان».

وجاء عن أبي هريرة من حديث مرفوع «إن عظم دائرة فيه كعرض السماوات والأرض» وهذا مما يؤمن به وتفوض كيفيته إلى علام الغيوب، وقيل: إن الصور بسكون الواو بمعنى الصور بضم الصاد وفتح الواو جمع صورة ـ وعليه أبو عبيدة ـ والكلام في الوجهين على حقيقته، وقيل: في الكلام استعارة تمثيلية شبه هيئة انبعاث الموتى من القبور إلى المحشر إذا نودوا بالقيام بهيئة قيام جيش نفخ لهم في المزمار المعروف وسيرهم إلى محل عين لهم، والأول قول الأكثرين ـ وعليه المعول ـ لأن قوله تعالى: ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾ [الزمر: ٦٨] ظاهر في أن الصور ليس جمع صورة وإلا لقال سبحانه: فيها بدل فيه، وارتكاب التأويل بجعل الكلام من باب التمثيل ظاهر في إنكار أن يكون هناك صور حقيقة، وهو خلاف ما نطقت به الأحاديث الصحاح، وقد قال أبو الهيثم على ما نقل عنه القرطبي في تفسيره: من أنكر أن يكون الصور قرناً فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان وطلب لها تأويلات، وهذا النفخ قيل: المراد به النفخة الثانية، وإليه ذهب صاحب الغنيان، واختاره العلامة أبو السعود وقال: الذي يستدعيه سياق النظم الكريم وسباقه ذلك، وأن المراد بالفزع في قوله تعالى:

﴿**فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ**﴾ ما يعتري الكل عند البعث والنشور من الرعب والتهيب الضروريين الجبليين بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق ، ثم قال: وقيل: المراد بالنفخ هي النفخة الأولى ، وبالفزع هو الذي يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما في قوله تعالى: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض**﴾ فيختص أثرها بمن كان حياً عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الأمم.

وقيل: إن المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق التي أريدت بقوله تعالى: ﴿ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ [ص: ١٥] وشنع على كلا القولين بما هو مذكور في تفسيره.

وقال العلامة الطيبي الحق أن المراد بقوله تعالى: ﴿**ونفخ في الصور ففزع**﴾ هو النفخة الأولى، وقوله تعالى الآتي: ﴿**وكل**﴾ إلخ إشارة إلى النفخة الثانية، واعلم أنهم اختلفوا في عدد النفخة فقيل: ثلاث: نفخة الصعق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾ [الزمر: ٦٨]، ونفخة البعث المذكورة في قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ [يس: ٥١]، ونفخة الفزع المذكورة في الآية المذكورة هاهنا، وهو اختيار ابن العربي.

وقيل: اثنتان، ونفخة الفزع هي نفخة الصعق لأن الأمرين: الفزع بمعنى الخوف. والصعق بمعنى الموت لا زمان لها، قال القرطبي: والسنة كحديث مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص وهو طويل منه مع حذف ثم ينفخ في الصور فأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ثم يصعق الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. تدل على أن النفخ مرتين لا ثلاثة وهو الصحيح، ونفخ الفزع هو نفخ الصعق بعينه لاتحاد الاستثناء في آيتيهما. وتعقب في الرسالة المسماة بشرح العشر في معشر الحشر المنسوبة لابن الكمال بأنه لا دلالة في الحديث على عدم النفخة الثالثة، غايته أنه وسائر الأحاديث الواردة على نسقه ساكت عنها، ولا يلزم من ذلك عدمها، وكذا لا دلالة في اتحاد الاستثناء في الآيتين أن يكون المذكور فيهما نفخة واحدة، وهذا ظاهر، ثم قال: والصحيح عندي ما في القول الأول، من أن نفخة الفزع غير نفخة الصعق. فإن حديث الصحيحين لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو جزي بصعقة الطور: صريح في أن الصعق يوم القيامة، وأن لا موت فيه فهو فزع بلا موت، فمن قال : هي ثلاث نفخات: نفخة الفزع ، ثم نفخة الصعق وهو الموت ، ثم نفخة البعث فقد أصاب في التفرقة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق، إلا أنه لم يصب في زعمه أن نفخة الفزع قبل نفخة الصعق. كيف وقد دل حديث الصحيحين المذكور على عموم حكم نفخة الفزع للأنبياء عليهم السلام الذين ماتوا قبل نفخة الصعق أي الموت، قال القاضي عياض: إن نفخة الفزع بعد النشر حين تنشق السماوات والأرض، فظهر أن النفخات ثلاث بل أربع: نفخة يميت الله تعالى جميع الخلق بها كما جاء في الحديث وعند ذلك ينادي سبحانه: لمن الملك اليوم. وينادي على ذلك قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨]. ونفخة البعث كما نطق به قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ [يس: ٥١] ونفخة الصعق وهي نفخة الفزع بعينها وقد سمعت آيتيهما، ونفخة للإفاقة كما قال تعالى بعد ذكر نفخة الصعق ﴿**ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾ وقد عرفت ما في زعم أن نفخة الصعق هي نفخة الفزع بعينها فتدبر انتهى، وتعقبه بعضهم بأنه يلزم حينئذ على القول بالمغايرة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق أن تكون النفخات خمساً ولم نسمع متنفساً يقول بذلك، وأيضاً فيه القول بأن نفخة الصعق بعد نفخة البعث، ويأباه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «أنا أول من تنشق عنه الأرض فأرفع رأسي فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش فما أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله

تعالى» فإن انشقاق الأرض عنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد نفخة البعث لا محالة فإذا عقبه رفع رأسه عليه الصلاة والسلام ومفاجأة كون موسى عليه السلام متعلقاً بقائمة من قوائم العرش فأين نفخة الصعق. ولا يخفى أن كون النفخات خمساً لم يسمع هو الغالب على الظن ويتوقف قبول ما ذكره ثانياً على صحة ما ذكره من الخبر، ولعل القائل بما تقدم من وراء المنع، وقيل: الأظهر أن النفخات ثلاث: الأولى نفخة الصعق بمعنى الموت كما هو أحد معنييه المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾ [الزمر: ٦٨]، والثانية نفخة البعث المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ [الزمر: ٦٨] وقوله سبحانه: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ [يس: ٥١] والثالثة نفخة الفزع المدلول عليها بما هنا وهي على ما سمعت عن القاضي عياض بعد النشر حين تنشق السماوات والأرض .

وأصله كما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الشخص من الشيء المخيف والمراد به الرعب الشديد، ولعل الصعق المذكور في حديث الصحيحين هو غشي يترتب عليه بلا واسطة وعلى النفخ بواسطته وقد نص في الأساس على هذا المعنى له قال يقال صعق الرجل إذا غشي عليه من هدة أو صوت شديد يسمعه ويدل على أنه بمعنى الغشي قوله عليه الصلاة والسلام «فأكون أول من يفيق» لأن الإفاقة إنما تكون من الغشي دون الموت ولم يعبر هنا بالصعق مراداً به الغشي المذكور في الحديث لئلا يتوهم إرادة معنى الموت منه لخلوه هنا عن القرينة التي في الحديث واقترانه بما يلائم ذلك. وقد يختار ما هو المشهور من أن النفخة اثنتان ويجاب عما يشعر بالزيادة فالنفخة الأولى نفخة الصعق بمعنى الموت بحال هائلة فيها يموت من في السماوات والأرض من الأحياء قبيل ذلك إلاّ من شاء الله تعالى، ويدل عليها آية ونفخ في الصور فصعق إلخ، والنفخة الثانية نفخة البعث المدلول عليها بآية ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ وبينهما في المشهور أربعون سنة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً «أربعون» بدون ذكر التمييز فقيل أربعون يوماً فقال أبو هريرة أبيت فقيل أربعون شهراً فقال أبيت فقيل أربعون سنة فقال أبيت، ونفخة الفزع بمعنى الرعب والخوف هي هذه النفخة بعينها ووجه ذلك أنه ينفخ في الصور للبعث فيبعث الخلق وينشرون فإذا تحققوا يوم القيامة وشاهدوا آثار عظمة الله تعالى فزعوا ورعبوا إلا من شاء الله تعالى وترتب الفزع على النفخ بالفاء للإشارة إلى قلة الزمان الفاصل لسرعة تحققهم ومشاهدتهم ما ذكر، والإضافة في قولنا نفخة البعث وقولنا نفخة الفزع من إضافة السبب إلى المسبب إلا أن سببية النفخ للبعث بلا واسطة وسببيته للفزع بواسطة، وحديث الصحيحين «لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة» إلخ ليس فيه سوى إثبات الصعق بمعنى الغشي كما يرشد إليه ذكر الإفاقة للناس يوم القيامة ولا تعرض له لنفخ يترتب عليه ذلك، نعم التعبير بالصعق على ما ذكروا في معناه يقتضي أن يكون هناك هدة أو صوت شديد يسمعه من يسمعه فيغشى عليه إلا أنه لا يعين النفخ لجواز أن يكون ذلك من صوت حادث من انشقاق السماوات الكائن بعد البعث والفزع من يوم القيامة وما شاهدوا من أهواله .

ومنع بعضهم اقتضاءه ذلك لجواز أن يراد به الغشي لحدوث أمر عظيم من أمور يوم القيامة غير النفخ، وقيل: هو من فروع النفخ للبعث وذلك أنه ينفخ فتبعث الخلائق فيتحققون ما يتحققون ويشاهدون ما يشاهدون فيفزعون فيغشى عليهم إلا ما شاء الله تعالى، وحديث الصحيحين مما لا يأبى ذلك واحتياج الإفاقة لنفخة أخرى في حيز المنع؛ وقيل: في بيان اتحاد نفخة البعث ونفخة الفزع أن المراد بالفزع الإجابة والإسراع للقيام لرب العالمين وقد صرحت الآيات بإسراع الناس عند البعث فقال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ وقال سبحانه: ﴿يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ [المعارج: ٤٣] ولا يخفى بعده واحتياج توجيه

الاستثناء بعد عليه إلى تكلف فالأولى أن يوجه الاتحاد بما سبق فتأمل، وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف أعني ينفخ مضارعاً للدلالة على تحقق الوقوع كما في قوله تعالى: ﴿فأوردهم النار﴾ [هود: ٩٨] بعد قوله تعالى: ﴿يقدم قومه﴾ [هود: ٩٨] ووجه تأخير بيان الأحوال الواقعة في ابتداء هذه النفخة عن بيان ما يقع بعد من حشر المكذبين قد تقدم الكلام فيه فتذكر فما في العهد من قدم ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ استثناء متصل كما هو الظاهر من من ومفعول المشيئة محذوف أي إلا من شاء الله تعالى أن لا يفزع، والمراد بذلك على ما قيل: من جاء بالحسنة لقوله تعالى فيهم: ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ وتعقب بأن الفزع في تلك الآية غير الفزع المراد من قوله سبحانه: ﴿ففزع﴾ إلخ وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى، واختلف الذين حملوا النفخ هنا على النفخة الأولى التي تكون للصعق ـ أي الموت ـ في تعيينهم فقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وروي ذلك عن مقاتل والسدي.

وقال الضحاك: هم الولدان والحور العين وخزنة الجنة وحملة العرش. وحكى بعضهم هذين القولين في المراد بالمستثنى على تقدير أن يراد بالنفخ النفخة الثانية وبالفزع الخوف والرعب وأورد عليهما أن حملة العرش ليسوا من سكان السماوات والأرض لأن السماوات في داخل الكرسي ونسبتها إليه نسبة حلقة في فلاة ونسبة الكرسي إلى العرش كهذه النسبة أيضاً فكيف يكون حملته في السماوات وكذا الولدان والحور وخزنة الجنة لأن هؤلاء كلهم في الجنة والجنان جميعها فوق السماوات ودون العرش على ما أفصح عنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «سقف الجنة عرش الرحمن» فما فيها من الولدان والحور والخزنة لا يصح استثناؤهم ممن في السماوات والأرض وأما جبرائيل ومن معه من الملائكة المقربين عليهم السلام فهم من الصافين المسبحين حول العرش وإذا كان العرش فوق السماوات لا يمكن أن يكون الاصطفاف حوله في السماوات، وأجيب بأنه يجوز أن يراد بالسماوات ما يعم العرش والكرسي وغيرهما من الأجرام العلوية فإنه الأليق بالمقام، وقد شاع استعمال من في السماوات والأرض عند إرادة الإحاطة والشمول.

وقيل: لا مانع من حمل السماوات على السماوات السبع والتزام كون الاستثناء على القولين المذكورين منقطعاً ولا يخفى ما فيه، وعد بعضهم ممن استثنى موسى عليه السلام، وأنت تعلم أنه لا يكاد يصح إلا إذا أريد بالفزع الصعق يوم القيامة بعد النفخة الثانية، أما إذا أريد به ما يكون في الدنيا عند النفخة الأولى فلا، على أن عده عليه السلام ممن لا يصعق يوم القيامة بعد قوله صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث الصحيحين السابق فلا أدري أفاق قبلي أو جزي بصعقة الطور يحتاج إلى خبر صحيح وارد بعد ذلك.

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون وصححه القاضي أبو بكر بن العربي كما قال القرطبي وبه رد على من زعم أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، وإلى ذلك ذهب ابن جبير ولفظه هم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش وكذا ذهب إليه الحليمي وقال: هو مروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ثم ضعف غيره من الأقوال. وقد ذكره غير واحد من المفسرين إلا أن بعضهم ذكره في تفسير من شاء الله في آية الصعق وبعض آخر ذكره في تفسيره في آية الفزع فتدبر.

﴿وكل﴾ أي كل واحد من الفازعين المبعوثين عند النفخة ﴿أتوه﴾ أي حضروا الموقف بين يدي رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب، وقيل: أي رجعوا إلى أمره تعالى وانقادوا. وضمير الجمع باعتبار معنى ﴿كل﴾ وقرأ قتادة أتاه فعلاً ماضياً مسنداً لضمير ﴿كل﴾ على لفظها.

وقرأ أكثر السبعة آتوه اسم فاعل ﴿داخِرِين﴾ أي أذلاء، وقرأ الحسن والأعمش دخرين بغير ألف وهو على

القراءتين نصب على الحال من ضمير ﴿**كل**﴾ وقوله سبحانه: ﴿**وَتَرَى الجِبَالَ**﴾ عطف على ينفخ داخل في حكم التذكير؛ وترى من رؤية العين، وقوله تعالى: ﴿**تحسبها جامدة**﴾ أي ثابتة في أماكنها لا تتحرك حال من فاعل ترى أو من مفعوله، وجوز أن يكون بدلاً من سابقه، وقوله عز وجل.

﴿**وهي تمر مر السحاب**﴾ حال من ضمير الجبال في تحسبها، وجوز أن يكون حالاً من ضميرها في جامدة ومنعه أبو البقاء لاستلزامه أن تكون جامدة ومارة في وقت واحد أي وترى الجبال رأي العين ساكنة والحال أنها تمر في الجو مر السحاب التي تسيرها الرياح سيراً حثيثاً، وذلك أن الأجرام المجتمعة المتكاثرة العدد على وجه الالتصاق إذا تحركت نحو سمت لا تكاد تبين حركتها، وعليه قول النابغة الجعدي في وصف جيش:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم ... وقوف لحاج والركاب تهملج

وقيل: شبه مرها بمر السحاب في كونها تسير سيراً وسطاً كما قال الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحائب لا ريث ولا عجل

والمشهور في وجه الشبه السرعة وإن منشأ الحسبان المذكور ما سمعت، وقيل: إن حسبان الرائي إياها جامدة مع مرورها لهول ذلك اليوم فليس له ثبوت ذهن في الفكر في ذلك حتى يتحقق كونها جامدة وليس بذاك وقد أدمج في التشبيه المذكور تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما في قوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ [القارعة: ٥] واختلف في وقت هذا، ففي إرشاد العقل السليم أنه مما يقع بعد النفخة الثانية كالفزع المذكور عند حشر الخلق يبدل الله تعالى شأنه الأرض غير الأرض ويغير هيئتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها أهل المحشر وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً يومئذ يتبعون الداعي﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٨]، وقوله سبحانه: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ [إبراهيم: ٤٨] فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل وبروز الخلق لله تعالى لا يكونان إلا بعد النفخة الثانية وقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم﴾ [الكهف: ٤٧] إن صيغة الماضي في المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلاً للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك ا هـ.

وقال بعضهم إنه مما يقع عند النفخة الأولى وذلك أنه ترجف الأرض والجبال ثم تنفصل الجبال عن الأرض وتسير في الجو ثم تسقط فتصير كثيباً مهيلاً ثم هباء منبثاً، ويرشد إلى أن هذه الصيرورة مما لا يترتب على الرجفة ولا تعقبها بلا مهلة العطف بالواو دون الفاء في قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ [المزمل: ١٤] والتعبير بالماضي في قوله تعالى: ﴿**وترى الأرض بارزة وحشرناهم**﴾ لتحقق الوقوع كما مر آنفاً واليوم في قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ [طه: ١٠٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض﴾ إلخ يجوز أن يجعل اسماً للحين الواسع الذي يقع فيه ما يكون عند النفخة الأولى من النسف والتبديل وما يكون عند النفخة الثانية من اتباع الداعي والبروز لله تعالى الواحد القهار، وقد حمل اليوم على ما يسع ما يكون عند النفختين في قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة﴾[الحاقة:١٣ ـ ١٥] ﴿يومئذ تعرضون﴾ [الحاقة: ١٨] وهذا كما تقول جئته عام كذا وإنما مجيئك في وقت من أوقاته وقد ذهب غير

واحد إلى أن تبديل الأرض كالبروز بعد النفخة الثانية لما في صحيح مسلم عن عائشة «قلت يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ فأين يكون الناس؟ قال على الصراط» وجاء في غير خبر ما يدل على أنه قبل النفخة الأولى، وجمع صاحب الإفصاح بين الاخبار بأن التبديل يقع مرتين مرة قبل النفخة الأولى وأخرى بعد النفخة الثانية، وحكى في البحر أن أول الصفات ارتجاجها ثم صيرورتها كالعهن المنفوش ثم كالهباء بأن تتقطع بعد أن كانت كالعهن ثم نسفها بإرسال الرياح عليها ثم تطييرها بالريح في الجو كأنها غبار ثم كونها سراباً، وهذا كله على ما يقتضيه كلام السفاريني قبل النفخة الثانية، ومن تتبع الأخبار وجدها ظاهرة في ذلك، والآية هنا تحتمل كون الرؤية المذكورة فيها قبل النفخة الثانية وكونها قبلها فتأمل ﴿صنع الله﴾ الظاهر أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة وهي جملة الحال والعامل فيه ما دلت عليه من كون ذلك من صنعه تعالى فكأنه قيل: صنع الله تعالى ذلك صنعاً وهذا نحو له عليَّ ألف عرفاً ويسمى في اصطلاحهم المؤكد لنفسه وإلى هذا ذهب الزجاج وأبو البقاء.

وقال بعض المحققين: مؤكد لمضمون ما قبله على أنه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور وما ترتب عليه جميعاً قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل وتهويل أمرها والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يكون فيه حكمة بل هي من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجميلة التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادىء الإبداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿الذي أتقن كل شيء﴾ أي أتقن خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمة ا هـ، وحسنه ظاهر. وقال الزمخشري هو من المصادر المؤكدة إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى ويوم ينفخ في الصور فكان كيت وكيت أثاب الله تعالى المحسنين وعاقب المجرمين ثم قال سبحانه: صنيع الله يريد عز وجل به الإثابة والمعاقبة إلى آخر ما قال، وهو يدل على أنه فرض اليوم ممتداً شاملاً لزمان النفختين وما بعدهما وجعل المصدر مؤكداً لهذا المحذوف المدلول عليه بالتفصيل في قوله تعالى الآتي: من جاء ومن جاء وباستدعاء يوم ينفخ ناصباً وفرع عليه ما فرع وتعقبه أبو حيان بأن المصدر المؤكد لمضمون الجملة لا يجوز حذف جملته لأنه منصوب بفعل من لفظه فيجتمع حذف الفعل الناصب وحذف الجملة التي أكد مضمونها بالمصدر وذلك حذف كثير مخل ومن تتبع مساق هذه المصادر التي تؤكد مضمون الجملة وجد الجمل مصرحاً بها لم يرد الحذف في شيء منها إذ الأصل أن لا يحذف المؤكد إذ الحذف ينافي التأكيد لأنه من حيث أكد معتنى به ومن حيث حذف غير معتنى به، وكأن الداعي له إلى العدول عن الظاهر على ما قيل إن الصنع المتقن لا يناسب تسيير الجبال ظاهراً وأنت تعلم أن هذا على طرف الثمام نعم الأحسن جعله مؤكداً لمضمون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده وجيء به للتنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل على ما سمعته عن بعض المحققين. وقيل هو منصوب على الإغراء بمعنى انظروا صنع الله وهو كما ترى. واستدل بالآية على جواز إطلاق الصانع على الله عز وجل وهو مبني على مذهب من يرى أن ورود الفعل كاف.

واستدل بعضهم على الجواز المذكور بالخبر الصحيح «إن الله صانع كل صانع وصنعته» وتعقب بأن الشرط أن لا يكون الوارد على جهة المقابلة نحو ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ [الواقعة: ٦٤] خلافاً للحليمي على ما يقتضيه قوله يستحب لمن ألقى بذراً في أرض أن يقول الله تعالى الزارع والمنبت والمبلغ، وما في هذا الحديث من هذا القبيل وأيضاً ما في الخبر بالإضافة فلا يدل على جواز الخالي عنها ألا ترى أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم يا صاحب كل نجوى أنت الصاحب في السفر لم يأخذوا منه أن الصاحب من غير قيد من أسمائه تعالى فكذا هو لا يؤخذ منه أن الصانع من غير قيد من أسمائه تعالى فتأمله، ونحو هذا الاستدلال بخبر مسلم «ليعزم في الدعاء فإن الله

تعالى صانع ما شاء لا مكره له» فإن ما فيه من قبيل المضاف أو المقيد والأولى الاستدلال بما صح في حديث الطبراني والحاكم «اتقوا الله تعالى فإن الله تعالى فاتح لكم وصانع» ولا فرق بين المعرف والمنكر عند الفقهاء لأن تعريف المنكر لا يغير معناه ولذا يجوزون في تكبيرة الإحرام: الله الأكبر.

واستدل القاضي عبد الجبار بعموم قوله سبحانه: ﴿أتقن كل شيء﴾ على أن قبائح العبد ليست من خلقه سبحانه وإلا وجب وصفها بأنها متقنة والإجماع مانع منه وأجيب بأن الآية مخصوصة بغير الأعراض لأن الإتقان بمعنى الإحكام وهو من أوصاف المركبات ولو سلم فوصف كل الأعراض به ممنوع فما من عام إلا وقد خص ولو سلم فالإجماع المذكور ممنوع بل هي متقنة أيضاً بمعنى أن الحكمة اقتضتها ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ جعله بعض المحققين تعليلاً لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعاً محكماً له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يستدعي إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب أخيريتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وتسيير الجبال حسبما نطق به التنزيل. وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ بياناً لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أخيريتها عليها. وقال العلامة الطيبي قوله تعالى إن الله إلخ استئناف وقع جواباً لقول من يسأل فماذا يكون بعد هذه القوارع فقيل إن الله خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصل ذلك بقوله سبحانه من جاء إلخ. والخطاب في ﴿تفعلون﴾ لجميع المكلفين وقرأ العربيان وابن كثير «يفعلون» بياء الغيبة. والمراد بالحسنة على ما روي عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن والنخعي وأبي صالح وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة شهادة أن لا إله إلا الله وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فسرها بذلك والمراد بهذه الشهادة التوحيد المقبول وقيل المراد بالحسنة ما يتحقق بما ذكر وغيره من الحسنات وهو الظاهر، نظراً إلى أن اللام حقيقة في الجنس. وقال بعضهم: الظاهر الأول، لأن الظاهر حمل المطلق على الكامل وأكمل جنس الحسنة التوحيد ولو أريد العموم لكان الظاهر الإتيان بالنكرة، ويكفي في ترجيح الأول ذهاب أكثر السلف إليه وإذا صح الحديث فيه لا يكاد يعدل عنه. وكان النخعي يحلف على ذلك ولا يستثني، والظاهر أن خيراً للتفضيل وفضل الجزاء على الحسنة كائنة ما كانت. قيل باعتبار الإضعاف أو باعتبار الدوام. وزعم بعضهم أن الكلام بتقدير مضاف أي خير من قدرها وهو كما ترى. وقال بعض الأجلة ثواب المعرفة النظرية والتوحيد الحاصل في الدنيا هي المعرفة الضرورية على أكمل الوجوه في الآخرة والنظر إلى وجهه الكريم جل جلاله وذلك أشرف السعادات. وقيل إن خيراً ليس للتفضيل ومن لابتداء الغاية أي فله خير من الخيور مبدؤه ومنشؤه منها أي من جهة الحسنة. وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد وابن جريج وعكرمة ﴿وَهُم﴾ أي الذين جاؤوا بالحسنة ﴿مِنْ فَزَعٍ﴾ أي فزع عظيم هائل لا يقادر قدره ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف منصوب بقوله تعالى: ﴿آمِنُون﴾ وبه أيضاً يتعلق ﴿من فزع﴾ والأمن يستعمل بالجار وبدونه كما في قوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ [الأعراف: ٩٩]، وجوز أن يكون الظرف منصوباً بفزع وأن يكون منصوباً بمحذوف وقع صفة له أي من فزع كائن في ذلك الوقت، وقرأ العربيان وابن كثير وإسماعيل بن جعفر، عن نافع فزع يومئذ بإضافة فزع إلى يوم، وكسر ميم يوم، وقرأ نافع في غير رواية إسماعيل كذلك إلا أنه فتح الميم فتح بناء لإضافة يوم إلى غير متمكن وتنوين إذ للتعويض عن جملة، والأولى على ما في البحر أن تكون الجملة المحذوفة المعوض هو عنها ما قرب من الظرف أي يوم إذ جاء بالحسنة، وجوز أن يكون التقدير يوم إذ ينفخ في الصور لا سيما إذا أريد بذلك النفخ النفخة الثانية، واقتصر عليه شيخ الإسلام، وفسر الفزع بالفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيئات

وهو الذي في قوله تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وحكي عن الحسن أن ذاك حين يؤمر بالعبد إلى النار، وعن ابن جريج أنه حين يذبح الموت وينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت وهو كذلك في قراءة التنوين وقراءة الإضافة ولا يراد به في القراءة الثانية جميع الأفزاع الحاصلة يومئذ، ومدار الإضافة كون ذلك أعظم الأفزاع وأكبرها كأن ما عداه ليس بفزع بالنسبة إليه وقال تبعاً لغيره إن الفزع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿ففزع﴾ إلخ ليس إلا التهيب والرعب الحاصل في ابتداء الإحساس بالشيء الهائل ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وإن كان آمناً من لحاق الضرر به.

وقال أبو علي: يجوز أن يراد بالفزع في القراءتين فزع واحد وأن يراد به الكثرة لأنه مصدر فإن أريد الكثرة شمل كل فزع يكون في القيامة وإن أريد الواحد فهو الذي أشير إليه بقوله تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تتمة للكلام في الآية ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهو الشرك وبه فسرها من فسر الحسنة بشهادة أن لا إله إلا الله وقد علمت من هم، وقيل: المراد بها ما يعم الشرك وغيره من السيئات: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي كبوا فيها على وجوههم منكوسين، فإسناد الكب إلى الوجوه مجازي لأنه يقال كبه وأكبه إذا نكسه، وقيل: يجوز أن يراد بالوجوه الأنفس كما أريدت بالأيدي في قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] أي فكبت أنفسهم في النار ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ على الالتفات للتشديد أو على إضمار القول أي مقولاً لهم ذلك فلا التفات فيه لأنه في كلام آخر ومن شروط الالتفات اتحاد الكلامين كما حقق في المعاني، واستدل بعض المرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة بقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾ إلخ على أن المؤمن العاصي لا يعذب يوم القيامة وإلا لم يكن آمناً من فزع مشاهدة العذاب يومئذ وهو خلاف ما دلت عليه الآية الكريمة، وأجيب بمنع دخول المؤمن العاصي في عموم الآية لأن المراد بالحسنة الحسنة الكاملة وهو الإيمان الذي لم تدنسه معصية، وذلك غير متحقق فيه أو لأن المتبادر المجيء بالحسنة غير مشوبة بسيئة وهو أيضاً غير متحقق فيه ومن تحقق فيه فهو آمن من ذلك الفزع بل لا يبعد أن يكون آمناً من كل فزع من أفزاع يوم القيامة وإن سلم الدخول قلنا المراد بالفزع الآمن منه من جاء بالحسنة ما يكون حين يذبح الموت وينادي المنادي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت كما سمعت عن ابن جريج أو حين تطبق جهنم على أهلها فيفزعون كما روي عن الكلبي وليس ذلك إلا بعد تكامل أهل الجنة دخولاً الجنة والعذاب الذي يكون لبعض عصاة المؤمنين إنما هو قبل ذلك والآية لا تدل على نفيه بوجه من الوجوه.

وأجاب بعضهم بأنه يجوز أن يكون المؤمن العاصي آمناً من فزع مشاهدة العذاب، وإن عذب لعلمه بأنه لا يخلد فيعد عذابه كالمشاق التي يتكلفها المحب في طريق وصال المحبوب وهذا في غاية السقوط كما لا يخفى.

واستدل بعض المعتزلة بقوله تعالى: ﴿من جاء بالسيئة﴾ إلخ على عدم الفرق بين عذاب الكافر وعذاب المؤمن العاصي لأن ﴿من جاء بالسيئة﴾ يعمهما وقد أثبت له الكب على الوجوه في النار فحيث كان ذلك بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود كان بالنسبة إلى المؤمن العاصي كذلك، وأجيب بأن المراد بالسيئة الإشراك كما روي تفسيرها به عن أكثر سلف الأمة فلا يدخل المؤمن العاصي فيمن جاء بالسيئة ولو سلم دخوله بناءً على القول بعموم السيئة فلا نسلم أن في الآية دلالة على خلوده في النار وكون الكب في النار بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود لا يقتضي أن يكون بالنسبة إليه كذلك فكثيراً ما يحكم على جماعة بأمر كلي ويكون الثابت لبعضهم نوعاً وللبعض الآخر نوعاً آخر منه وهذا مما لا ريب فيه، ثم إن الآية من باب الوعيد فيجرى فيها على تقدير دخول المؤمن العاصي في عموم من ما قاله الأشاعرة في آيات الوعيد فافهم وتأمل.

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدةِ الذي حرمها﴾ استئناف بتقدير قل قبله وهو أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهؤلاء الكفرة ذلك بعد ما بين لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة إثارة لهممهم بألطف وجه إلى أن يشتغلوا بتدارك أحوالهم وتحصيل ما ينفعهم والتوجه نحو التدبر فيما قرع أسماعهم من الآيات الباهرة الكافية في إرشادهم والشافية لعللهم والبلدة على ما روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما هي مكة المعظمة، وفي تاريخ مكة أنها منى قال حدثنا يحيى بن ميسرة عن خلاد بن يحيى عن سفيان أنه قال: البلدة منى والعرب تسميها بلدة إلى الآن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية تفسيرها بذلك أيضاً، وذكر بعض الأجلة أن أكثر المفسرين على الأول وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها والتعرض لتحريمه تعالى إياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم إثر تعظيم مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر وموجب الامتثال به كما في قوله تعالى: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ [قريش: ٣، ٤] ومن الرمز إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها ألا ترى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وإرادة الإلحاد فيها قد استمروا فيها على تعاطي أفظع أفراد الفجور وأشنع آحاد الإلحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون، ولا تعارض بين ما في الآية من نسبة تحريمها إليه عز وجل وما في قوله عليه الصلاة والسلام «إن إبراهيم عليه السلام حرم مكة وأنا حرمت المدينة» من نسبة تحريمها إلى إبراهيم عليه السلام لأن ما هنا باعتبار أنه هو المحرم في الحقيقة وما في الحديث باعتبار أن إبراهيم عليه السلام مظهر لحكمه عز شأنه .

وقرأ ابن عباس وابن مسعود التي صفة للبلدة وقراءة الجمهور أبلغ في التعظيم، ففي الكشف أن إجراء الوصف على الرب تعالى شأنه، تعظيم لشأن الوصف ولشأن ما يتعلق به الوصف وزيادة اختصاص له بمن أجرى عليه الوصف على سبيل الإدماج وجعل ذلك كالمسلم المبرهن ولا كذلك لو وصفت البلدة بوصف تخصيصاً أو مدحاً. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلّ شَيْءٍ﴾ أي خلقاً وملكاً وتصرفاً، من غير أن يشاركه سبحانه شيء في شيء من ذلك تحقيق للحق، وتنبيه على أن إفراد مكة بالإضافة لما مر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات، واستدل به بعض الناس لجواز ما يقوله جهلة المتصوفة شيء لله، لأنه في معنى كل شيء لله عز وجل، نحو تمرة خير من جرادة، وأنت تعلم أنهم لا يأتون به لإرادة ذلك بل يقولون: شيء لله يا فلان لبعض الأكابر من أهل القبور، إما على معنى أعطني شيئاً لوجه الله تعالى يا فلان، أو أنت شيء عظيم من آثار قدرة الله تعالى؛ وقد وجهه بذلك من لم يكفرهم به وهو الحق وإن كان في ظاهره على أول التوجيهين طلب شيء ممن لا قدرة له على شيء نعم الأولى صيانة اللسان عن أمثال هذه الكلمات.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أثبت على ما كنت عليه من كوني من جملة الثابتين على ملة الإسلام والتوحيد أو الذين أسلموا وجوههم لله تعالى خالصة من قوله تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ [النساء: ١٢٥] ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أي أواظب على قراءته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنيته الإرشاد لكفايته في الهداية إلى طريق الرشاد، وقيل أي أواظب على قراءته لينكشف لي حقائقه الرائقة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً فإن المواظبة على قراءته من أسباب فتح باب الفيوضات الإلهية والأسرار القدسية، وقد حكي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قام ليلة يصلي فقرأ قوله تعالى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ [المائدة: ١١٨] فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر حتى طلع الفجر، وقيل أتلو من تلاه إذا تبعه، أي وأن أتبع القرآن، وهو خلاف الظاهر، ويؤيد ما ذكرناه أولاً من المعنى ما في حرف أبي كما أخرجه أبو عبيد وابن المنذر عن هارون واتل عليهم القرآن وحكى عنه في البحر

أنه قرأ واتل هذا القرآن، ولا تأييد فيه لما ذكرنا. وقرأ عبدالله وأن اتل بغير واو أمراً من تلا فجاز أن تكون أن مصدرية وصلت بالأمر، وجاز أن تكون مفسرة على إضمار أمرت ﴿**فمن اهتدى**﴾ أي بالإيمان بالقرآن والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام، وقيل أي بالاتباع فيما ذكر من العبادة والإسلام، وتلاوة القرآن أو اتباعه ﴿**فَإِنَّما يَهْتَدي لنفسه**﴾ أي فإنما منافع اهتدائه تعود إليه ﴿**وَمَنْ ضَلَّ**﴾ بالكفر به والإعراض عنه، وقيل بالمخالفة فيما ذكر ﴿**فَقُلْ**﴾ أي له.

﴿**إِنَّما أنا مِنَ الـمُنْذرينَ**﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار فليس عليَّ من وبال ضلالك شيء وإنما هو عليك فقط ويعلم مما ذكرنا أن جواب الشرط جملة القول وما في حيزه والرابط المشترط في مثله محذوف وقدره بعضهم بعد المنذرين أي من المنذرين إياه، وجوز أبو حيان كون الجواب محذوفاً أي من ضل فوبال ضلاله مختص به وحذف ذلك لدلالة جواب مقابله عليه، وجوز بعضهم كون الجملة بعد هي الجواب ولكونها كناية تعريضية عما قدره أبو حيان لم تحتج إلى رابط ثم إن ظاهر التصريح بقل هنا يقتضي أن يكون فمن اهتدى إلخ من كلامه عز وجل عقب به أمره صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقول لهم ما قبله، ولا بعد في كونه من مقول القول المقدر قبل قوله تعالى: ﴿**إنما أمرت**﴾ كما سمعت ﴿**وقل الـحَمْدُ لله**﴾ أي على ما أفاض عليَّ من نعمائه التي من أجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقني لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها بالآيات البينة والبراهين النيرة، وقوله تعالى: ﴿**سَيُريكم آياته**﴾ من جملة الكلام المأمور به أي قل سيريكم آياته سبحانه: ﴿**فَتَعرِفُونَهَا**﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله تعالى حيث لا تنفعكم المعرفة، وقيل: أي سيريكم في الدنيا والمراد بالآيات الدخان وما حل بهم من نقمات الله تعالى وعد منها قتل يوم بدر واعتراف المقتولين بذلك بالفعل واعتراف غيرهم بالقوة، وقيل: هي خروج الدابة وسائر أشراط الساعة والخطاب لجنس الناس لا لمن في عهد النبوة.

وأخرج ابن أبي حاتم وجماعة عن مجاهد أن المراد بالآيات الآيات الأنفسية والآفاقية فالآية كقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [فصلت: ٥٣]، وقيل: المراد بها معجزات الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وإضافتها إلى ضميره تعالى لأنها فعله عز وجل أظهرها على يد رسوله عليه الصلاة والسلام للتصديق، والمراد بالمعرفة ما يجامع الجحود، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ كلام مسوق من جهته سبحانه بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبيء عنه إضافة الرب إلى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم وتخصيص الخطاب أولاً به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانياً للكفرة تغليباً أي وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازي كلاً منكم بعمله لا محالة، وقرأ الأكثر يعملون بياء الغيبة فهو وعيد محض والمعنى وما ربك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته سبحانه عن أعمالهم الموجبة له ومن تأمل في الآيات ظهر له أن هذه الخاتمة مما تدهش العقول وتحير الأفهام ولله تعالى در التنزيل وماذا عسى يقال في كلام الملك العلام.

﴿**ومن باب الإشارة في الآيات ما قيل**﴾ وأنزل من السماء أي سماء القلب ماء هو ماء نظر الرحمة فأنبتنا به حدائق ذات بهجة من العلوم والمعاني والأسرار والحكم البالغة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أي أصولها لما أن العلوم الإلهية غير اختيارية بل كل علم ليس باختياري في نفسه وإلا لزم تقدم الشيء على نفسه نعم هو اختياري باعتبار الأسباب ﴿**أم من جعل الأرض**﴾ أي أرض النفس قراراً في الجسد ﴿**وجعل خلالها أنهاراً**﴾ من دواعي البشرية ﴿**وجعل لها رواسي**﴾ من قوى البشرية والحواس ﴿**وجعل بين البحرين**﴾ بحر الروح وبحر النفس ﴿**حاجزاً**﴾ وهو القلب ﴿**أم من يجيب المضطر**﴾ وهو المستعد لشيء من الأشياء ﴿**إذا دعاه**﴾ بلسان الاستعداد وطلب منه تعالى ما

استعد له، وقال بعضهم: المضطر المستغرق في بحار شوقه تعالى: ﴿**وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة**﴾ وهي النفس الناطقة والروح الإنساني ﴿**من الأرض**﴾ أي أرض البشرية وعلى هذا النمط تكلموا في سائر الآيات وساق الشيخ الأكبر قدس سره قوله تعالى: ﴿**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**﴾ دليلاً على ما يدعيه من تجدد الجواهر كالأعراض عند الأشعري وعدم بقائها زمانين، ومبنى ذلك عنده القول بوحدة الوجود وأنه سبحانه كل يوم هو في شأن، والكلام في صحة هذا المبنى واستلزامه للمدعى لا يخفى على العارف، وأما الاستدلال بهذه الآية لهذا المطلب فمن أمهات العجائب وأغرب الغرائب والله تعالى أعلم.

(٢٨) سورة القصص مكية
وآياتها ثمان وثمانون

مكية كلها إلا قوله (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ـ إلى قوله ـ لانبتغى الجاهلين) وقيل إلا آية وهى (إن الذى فرض عليك القرآن) الآية وهى سبع أو ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾

اعلم أن قوله تعالى (طسم) كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها (وتلك) إشارة إلى آيات السورة (والكتاب المبين) هو إما اللوح وإما الكتاب الذى وعد الله إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم فبين أن آيات هذه السورة هى آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه مبين لأنه بين فيه الحلال والحرام ، أو لأنه بين بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد ، أو لأنه يبين صدق نبوة محمد ﷺ أو لأنه يبين خبر الأولين والآخرين ، أو لأنه يبين كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال.

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله تعالى (نتلو عليك) أى على لسان جبريل عليه السلام لأنه كان يتلو على محمد حتى يحفظه ، وقوله (من نبأ موسى وفرعون) فهو مفعول (نتلو عليك) أى نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محقين ، كقوله (تنبت بالدهن) وقوله (لقوم يؤمنون) فيه وجهان (أحدهما) أنه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضاً لكنه خص المؤمنين بالذكر لأنهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله (هدى للمتقين) ، (والثانى) يحتمل أنه تعالى علم أن الصلاح فى تلاوته هو إيمانهم وتكون إرادته لمن لا يؤمن كالتبع . قوله تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) قرىء فرعون بضم الفاء وكسرها ، والكسر أحسن وهو كالقسطاس والقسطاس (علا) استكبر وتجبر وتعظم وبغى ، والمراد به قوة الملك والعلو فى الأرض يعنى أرض مملكته ، ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله (وجعل أهلها شيعاً) أى فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم مخالفته أو يشيع بعضهم بعضاً فى استخدامه أو أصنافاً فى استخدامه أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطوع أو المراد ما فسره بقوله (يستضعف طائفة منهم) أى يستخدمهم (ويذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم) فهذا هو المراد بالشيع . قوله (يستضعف طائفة منهم) تلك الطائفة بنو إسرائيل ، وفى سبب ذبح الأبناء وجوه (أحدها) أن كاهناً قال له يولد مولود فى بنى اسرائيل فى ليلة كذا يذهب ملكك على يده ، فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاماً فقتلهم ، وعند أكثر المفسرين بقى هذا العذاب فى بنى اسرائيل سنين كثيرة ، قال وهب قتل القبط فى طلب موسى عليه السلام تسعين ألفاً من بنى اسرائيل . قال بعضهم فى هذا دليل على حمق فرعون ، فانه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وإن كذب فما وجه القتل ؟ وهذا السؤال قد يذكر فى تزييف علم الأحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكاليف إن كان زيد فى علم الله وفى قضائه من السعداء فلا حاجة إلى الطاعة ، وإن كان من الأشقياء فلا فائدة فى الطاعة ، وأيضاً فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته . وأيضاً فجواب المنجم أن النجوم دلت على أنه يولد ولد لو لم يقتل لصار كذا وكذا ، وعلى هذا التقدير لا يكون السعى فى قتله عبثاً .

واعلم أن هذا الوجه ضعيف لأن إسناد مثل هذا الخبر إلى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل ، ولو جوزناه لبطلت دلالة الإخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو بإجماع المسلمين باطل (وثانيها) وهو قول السدى أن فرعون رأى فى منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بنى إسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو اسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر ، فأمر بقتل الذكور (وثالثها) أن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بنى إسرائيل ، وهذا الوجه هو الأولى بالقبول ، قال صاحب الكشاف : (يستضعف) حال من الضمير فى وجعل ، أو صفة لشيعا ، أو كلام مستأنف . او (يذبح) بدل من (يستضعف)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

وقوله (إنه كان من المفسدين) يدل على أن ذلك القتل ماحصل منه إلا الفساد ، وأنه لا أثر له فى دفع قضاء الله تعالى .

أما قوله (ونريد أن نمن) فهو جملة معطوفة على قوله (إن فرعون علا فى الأرض) لأنها نظيرة تلك فى وقوعها تفسيراً لنبأ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصاً له ، واللفظ فى قوله (ونريد) للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالا من (يستضعف) أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم ، فان قيل كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله تعالى المن عليهم وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يتوقف إلى وقت آخر ؟ قلنا لما كان منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم .

أما قوله (ونجعلهم أئمة) أى متقدمين فى الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة إلى الخير وعن قتادة ولاة كقوله (وجعلكم ملوكا) ، (ونجعلهم الوارثين) يعنى لملك فرعون وأرضه وما فى يده .

أما قوله (ونمكن لهم فى الأرض) فاعلم أنه يقال مكن له إذا جعل له مكاناً يقعد عليه فوطأه ومهده ، ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم فى الأرض وهى أرض مصر والشام أن ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم وقوله (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) قرىء (ويرى فرعون وهامان وجنودهما) أى يرون منهم ماكانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بنى إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أنه تعالى لما قال (ونريد أن نمن على الذين) ابتدأ بذكر أوائل نعمه فى هذا الباب بقوله (وأوحينا إلى أم موسى) والكلام فى هذا الوحى ذكرناه فى سورة طه فى قوله (ولقد مننا عليك مرة أخرى، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى) وقوله (أن أرضعيه) كالدلالة على أنها أرضعته وليس فى القرآن حدذلك، فاذا خفت عليه أن يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء فألقيه فى اليم قال ابن جريج: إنه بعد أربعة أشهر صاح فألقى فى اليم والمراد باليم ههنا النيل (ولا تخافى ولا تحزنى) والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله فى المستقبل، والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل فى الماضى، فكأنه قيل ولا تخافى من هلاكه ولا تحزنى بسبب فراقه ف(إنا رادوه إليك) لتكونى أنت المرضعة له (وجاعلوه من المرسلين) إلى أهل مصر والشام وقصة الإلقاء فى اليم قد تقدمت فى سورة طه. وقال ابن عباس إن أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لأم موسى عليه السلام فلما أحست بالطلق أرسلت إليها وقالت لها قد نزل بى ما نزل ولينفعنى اليوم حبك إياى فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام إلى الأرض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها، ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت ياهذه ماجئتك إلا لقتل مولودك، ولكنى وجدت لابنك هذا حباً شديداً فاحتفظى بابنك، فانه أراه عدونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس فلفته ووضعته فى تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ماتصنع، فدخلوا فاذا التنورمسجور ورأوا أم موسى لم يتغيرلها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا لم دخلت القابلة عليك؟ قالت إنها حبيبة لى دخلت للزيارة. فخرجوا منعندها ورجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى أين الصبى؟ قالت لاأدرى فسمعت بكاء فى التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النارعليه برداً وسلاماً فأخذته، ثم إن أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله فى قلبها أن تتخذ له تابوتاً ثم تقذف التابوت فى النيل، فذهبت إلى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتاً فقال لها ما تصنعين به؟ فقالت ابن لى أخشى عليه كيد فرعون أخبؤه فيه وما عرفت أنه يفشى ذلك الخبر، فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده، فضربوه وطردوه فلما عاد إلى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد إلى موضعه رد الله نطقه، فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه، فجعل لله تعالى انه إن رد عليه بصره ولسانه فإنه لا يدلهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى وألقته فى النيل، وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الأطباء والسحرة فى أمرها، فقالوا أيها الملك لاتبرأ هذه إلا من قبل البحر يوجد منه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك فى يوم

www.besturdubooks.wordpress.com

كذا فى شهر كذا حين تشرق الشمس ، فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس كان له على شاطىء النيل ومعه آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على الشاطىء إذ أقبل النيل بتابوت تضربه الأمواج وتعلق بشجرة ، فقال فرعون ائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه ، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه ، فنظرت آسية فرأت نوراً فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته وفتحته ، فاذا هى بصبى صغير فى المهد وإذا نور بين عينيه فألقى الله محبته فى قلوب القوم ، وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون إنا نظن أن هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر فرقاً منك فهم فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله.

أما قوله (فالتقطه آل فرعون) فالالتقاط إصابة الشىء من غير طلب ، والمراد بآل فرعون جواريه .

أما قوله (ليكون لهم عدواً وحزناً) فالمشهور أن هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا وإلا نقض قوله (وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك) ونقض قوله (وألقيت عليك محبة منى) ونظير هذه اللام قوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم) وقول الشاعر : لدوا للموت وابنوا للخراب

واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن هذه اللام هى لام التعليل على على سبيل المجاز ، وذلك لأن مقصود الشىء وغرضه يؤول إليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشىء على سبيل التشبيه ، كاطلاق لفظ الأسد على الشجاع والبليد على الحمار ، قرأ حمزة والكسائى حزناً بضم الحاء وسكون الزاى والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السقم والسقم .

أما قوله (كانوا خاطئين) ففيه وجهان (أحدهما) قال الحسن معنى (كانوا خاطئين) ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون أنه الذى يذهب بملكهم ، وأما جمهور المفسرين فقالوا معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم ، فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، وقرىء (خاطين) تخفيف خاطئين أى خاطين الصواب إلى الخطأ وبين تعالى أنها التقطته ليكون قرة عين لها وله جميعاً ، قال ابن اسحق إن الله تعالى ألقى محبته فى قلبها لأنه كان فى وجهه ملاحة كل من رآه أحبه ، ولأنها حين فتحت التابوت رأت النور ، ولأنها لما فتحت التابوت رأته يمتص إصبعه ، ولأن ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال ما كان لها ولد فأحبته ، قال ابن عباس لما قالت (قرة عين لى ولك) فقال فرعون يكون لك وأما أنا فلا حاجة لى فيه ، فقال عليه السلام «والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها» قال صاحب الكشاف (قرة عين) خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدأ (ولا تقتلوه) خبراً ولو نصب لكان أقوى ، وقراءة ابن مسعود دليل على أنه خبر ، قرأ (لا تقتلوه قرة عين لى ولك) ، وذلك لتقديم لا تقتلوه ، ثم قالت المرأة (عسى أن ينفعنا) فنصيب

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

منه خيراً (أو نتخذه ولداً) لأنه أهل للتبني.

أما قوله (وهم لا يشعرون) فأكثر المفسرين على أنه ابتداء كلام من الله تعالى أى لا يشعرون أن هلاكهم بسببه وعلى يده، وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل، وقال ابن عباس يريد لا يشعرون إلى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام. وقال آخرون هذا من تمام كلام المرأة أى لا يشعر بنو اسرائيل وأهل مصر أنا التقطناه، وهذا قول الكلبي.

قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾.

ذكروا فى قوله (فؤاد أم موسى فارغا) وجوهاً (أحدها) قال الحسن فارغا من كل هم إلا من هم موسى عليه السلام (وثانيها) قال أبو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والاشفاق كقوله (وأفئدتهم هواء)، (وثالثها) قال صاحب الكشاف فارغا صفراً من العقل. والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف (ورابعها) قال الحسن ومحمد بن اسحق فارغا من الوحى الذى أوحينا إليها (أن ألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك) فجاءها الشيطان فقال لها كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت إهلاكه، ولما أتاها خبر موسى عليه السلام أنه وقع فى يد فرعون فأنساها عظمُ البلاء ما كان من عهد الله إليها، (وخامسها) قال أبو عبيدة : فارغاً من الحزن لعلمها بأنه لا يقتل اعتماداً على تكفل الله بمصلحته قال ابن قتيبة. وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغا من الحزن والله تعالى يقول (لولا أن ربطنا على قلبها) وهل يربط إلا على قلب الجازع المحزون، ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يمتنع أنها لشدة ثقتها بوعد الله لم تخف عند إظهار اسمه، وأيقنت أنها وإن أظهرت فإنه يسلم لأجل ذلك الوعد إلا أنه كان فى المعلوم أن الاظهار يضر فربط الله على قلبها، ويحتمل قوله (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) بالوحى فأمنت وزال عن قلبها الحزن، فعلى هذا الوجه يصح أن يتأول على أن قلبها سلم من الحزن على موسى أصلا، وفيه وجه ثالث : وهو أنها سمعت أن امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته (إن كادت لتبدى به) بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحا بما سمعت، لولا أن سكنا ما بها من شدة الفرح والابتهاج (لتكون من المؤمنين) الواثقين

www.besturdubooks.wordpress.com

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

بوعد الله تعالى لا يتبنى امرأة فرعون اللعين وبعطفها ، وقرىء فرغاً أى خالياً من قولهم أعوذ بالله من صفر الإناء وفرغ الفناء وفرغا من قولهم : دماؤهم بينهم فرغ

أى هدر يعنى بطل قلبها من شدة ماورد عليها .

أما قوله (إن كادت لتبدى به) فاعلم أن على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن ، قد ذكرنا تفسير قوله (إن كادت لتبدى) وأما على قول من فسر الفراغ بحصول الخوف فذكروا وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس كادت تخبر بأن الذى وجدتموه ابنى ، وقال فى رواية عكرمة كادت تقول وا إبناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع ، وقال الكلبى ذلك حين سمعت الناس يقولون إنه ابن فرعون ، وقال السدى لما أخذ ابنها كادت تقول هو ابنى فعصمها الله تعالى . ثم قال (لولا أن ربطنا على قلبها) بإلهام الصبر كما يربط على الشىء المتفلت ليستقر ويطمئن (لتكون من المؤمنين) من المصدقين بوعد الله وهو قوله (إنا رادوه إليك) .

أما قوله (وقالت لأخته قصيه) أى اتبعى أثره وانظرى إلى أين وقع وإلى من صار وكانت أخته لأبيه وأمه واسمها مريم (فبصرت به) قال ابن عباس رضى الله عنهما أبصرته . قال المبرد : أبصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله (عن جنب) أى عن بعد وقرىء عن جانب وعن جنب والجنب الجانب أى نظرت نظرة مزورة متجانبة (وهم لا يشعرون) بحالها وغرضها .

قوله تعالى : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

اعلم أن قوله (وحرمنا عليه المراضع من قبل) يقتضى تحريمها من قبله فاذا لم يصح بالتعبد والنهى لتعذر التمييز فلا بد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل أنه تعالى مع حاجته إلى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء ، فلذلك لم يرضع أو أحدث فى لبنهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع فى لبن أمه لذة فلما تعودها لاجرم كان يكره ابن غيرها ، وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها (والمراضع) جمع مرضع ، وهى المرأة التى ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أى الثدى أو الرضاع وقوله (من قبل) أى من قبل أن رددناه إلى أمه ومن قبل مجىء أخت موسى عليه السلام ، ومن قبل ولادته فى حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾
وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ
وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ

أخته (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) أي يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لايمنعونه ماينفعه فى تربيته وإغذائه ، ولايخونونكم فيه والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد ، وقال السدى إنها لمـا قالت (وهم له ناصحون) دل ظاهر ذلك على أن أهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفه ، ولـكنى إنمـا قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه ، وكل ما روى فى هذا الباب يدل على أن فرعون كان بمنزلة آسية فى شدة محبته لموسى عليه السلام ، لاعلى ما قال من زعم أنها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى (فرددناه إلى أمه) بهذا الضرب من اللطف (كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق) أى فيما كان وعدها من أنه يرده اليها ، ولقدكانت عالمة بذلك ، ولـكن ليس الخبر كالعيان . فتحققت بوجود الموعود (ولـكن أكثرهم لايعلمون) فيه وجوه أربعة : (أحدها) ولـكن أكثر الناس فى ذلك العهد وبعد لايعلمون لاعراضهم عن النظر فى آيات الله (وثانيها) قال الضحاك ومقاتل يعنى أهل مصر لا يعلمون أن الله وعدها برده إليها (وثالثها) هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغا (ورابعها) أن يكون المعنى إنا إنمـا رددناه اليها (لتعلم أن وعد الله حق) والمقصود الأصلى من ذلك الرد هذا الغرض الدينى ، ولـكن الأكثر لا يعلمون أن هذا هو الغرض الأصلى ، وأن ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع ، قال الضحاك لمـا قبل ثديها قال هامان إنك لأمه ، قالت لا قال فمـا بالك قبل ثديك من بين النسوة . قالت أيها الملك إنى إمرأة طيبة الريح حلوة اللبن ماشم ريحى صبى إلا أقبل على ثديى ، قالوا صدقت . فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى اليها وأتحفها بالذهب والجواهر .

قوله تعالى : ﴿ ولمـا بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

مضل مبين ، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ .

اعلم أن فى قوله (بلغ أشده واستوى) قولين : (أحدهما) أنهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية (والثانى) وهو الأصح أنهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) وهو الأقرب أن الأشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية ، والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية (وثانيها) الأشد عبارة عن كمال القوة ، والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة (وثالثها) الأشد عبارة عن البلوغ . والاستواء عبارة عن كمال الخلقة (ورابعها) قال ابن عباس الأشد ما بين الثمانية عشرة سنة إلى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة إلى الأربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان ، ومن الأربعين يأخذ فى النقصان ، وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما حق ، لأن الإنسان يكون فى أول العمر فى النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان ، ثم يأخذ فى الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر إلى العشرين ومن العشرين إلى الثلاثين يكون التزايد قليلا والقوة قوية جداً . ثم من الثلاثين إلى الأربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الأربعين إلى الستين يأخذ فى الانتقاص الخفى . ومن الستين إلى آخر العمر يأخذ فى الانتقاص البين الظاهر ، ويروى أنه لم يبعث نبى إلا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الإنسان منجذباً إليها فاذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمانية فى الانتقاص ، والقوة العقلية فى الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون . فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى واحد الأشد ، قال الفراء : الأشد واحدها شد فى القياس ولم يسمع لها بواحد . وقال أبو الهيثم : واحدة الأشد شدة ، كما أن واحدة الأنعم نعمة ، والشدة القوة والجلادة .

أما قوله (آتيناه حكماً وعلماً) ففيه وجهان (الأول) أنها النبوة وما يقرن بها من العلوم والأخلاق ، وعلى هذا التقدير ليس فى الآية دليل على أن هذه النبوة كانت قبل قتل القبطى أو بعده ، لأن الواو فى قوله (ودخل المدينة) لا تفيد الترتيب (الثانى) آتيناه الحكمة والعلم قال تعالى (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) وهذا القول أولى لوجوه (أحدها) أن النبوة أعلى الدرجات البشرية فلا بد وأن تكون مسبوقة بالكمال فى العلم والسيرة المرضية التى هى

www.besturdubooks.wordpress.com

أخلاق الكبراء والحكماء (وثانيها) أن قوله (وكذلك نجزى المحسنين) يدل على أنه إنما أعطاه الحكم والعلم مجازاة على إحسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل (وثالثها) أن المراد بالحكم والعلم لو كان هو النبوة ، لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله (وكذلك نجزى المحسنين) لأن قوله (وكذلك) إشارة إلى ما تقدم ذكره من الحكم والعلم ، ثم بين إنعامه عليه قبل قتل القبطى . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى المدينة فالجمهور على أنها هى المدينة التى كان يسكنها فرعون ، وهى قرية على رأس فرسخين من مصر ، وقال الضحاك : هى عين شمس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى معنى قوله (على حين غفلة من أهلها) على أقوال (فالقول الأول) أن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم فى دينه ودين آبائه ، علم أن فرعون وقومه على الباطل ، فتكلم بالحق وعاب دينهم ، واشتهر ذلك منه حتى آل الأمر إلى أن أخافوه وخافهم ، وكان له من بنى إسرائيل شيعة يقتدون به ويسمعون منه ، وبلغ فى الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً ، فدخلها يوماً على حين غفلة من أهلها ، ثم الأكثرون على أنه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون . وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والأول أولى ، لأنه تعالى أضاف الغفلة إلى أهلها ، وإذا دخل المرء متستراً لأجل خوف ، لا تضاف الغفلة إلى القوم (القول الثانى) قال السدى : إن موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون ، ويلبس مثل ما يلبس ، ويدعى موسى ابن فرعون ، فركب يوماً فى أثره فأدركه المقيل فى موضع ، فدخلها نصف النهار ، وقد خلت الطرق ، فهو قوله (على حين غفلة) (القول الثالث) قال ابن زيد : ليس المراد من قوله (على حين غفلة من أهلها) حصول الغفلة فى تلك الساعة ، بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره ، فإن موسى حين كان صغيراً ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته ، فأراد فرعون قتله ، فجىء بجمر فأخذه وطرحه فى فيه ، فمنه عقدة لسانه ، فقال فرعون : لا أقتله ، ولكن أخرجوه عن الدار والبلد ، فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر ، والقوم نسوا ذكره وذلك قوله (على حين غفلة) ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الروايات على بعض ، لأنه ليس فى القرآن ما يدل على شىء منها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه) قال الزجاج : قال : هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية ، أى وجد فيها رجلين يقتتلان ، إذا نظر الناظر إليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ، ثم اختلفوا . فقال مقاتل : الرجلان كانا كافرين ، إلا أن أحدهما من بنى إسرائيل ، والآخر من القبط ، واحتج عليه بأن موسى عليه السلام قال له فى اليوم الثانى (إنك لغوى مبين) والمشهور أن الذى من شيعته كان مسلماً ، لأنه لا يقال فيمن يخالف الرجل فى دينه وطريقه : إنه من شيعته ، وقيل إن القبطى الذى سخر الإسرائيلى كان

www.besturdubooks.wordpress.com

طباخ فرعون ، استسخره لحمل الحطب إلى مطبخه ، وقيل الرجلان المقتتلان : أحدهما السامرى وهو الذى من شيعته ، والآخر طباخ فرعون . والله أعلم بكيفية الحال . فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، أى سأله أن يخلصه منه واستنصره عليه . فوكزه موسى عليه السلام ، الوكز الدفع بأطراف الأصابع ، وقيل بجمع الكف . وقرأ ابن مسعود : فلكزه موسى ، وقال بعضهم : الوكز فى الصدر واللكز فى الظهر ، وكان عليه السلام شديد البطش ، وقال بعض المفسرين : فوكزه بعصاه ، قال المفضل هذا غلط ، لأنه لا يقال وكزه بالعصا (فقضى عليه) أى أماته وقتله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه (أحدها) أن ذلك القبطى إما أن يقال إنه كان مستحق القتل أو لم يكن كذلك ، فإن كان الأول فلم قال(هذا من عمل الشيطان)ولم قال (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له) ولم قال فى سورة أخرى (فعلتها إذاً وأنا من الضالين) ؟وإن كان الثانى وهوأن ذلك القبطى لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنباً (وثانيها) أن قوله (وهذا من عدوه) يدل على أنه كان كافراً حربياً فكان دمه مباحاً فلم استغفر عنه ، والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز ، لأنه يوهم فى المباح كونه حراماً ؟ (وثالثها) أن الوكز لا يقصد به القتل ظاهراً ، فكان ذلك القتل قتل خطأ ، فلم استغفر منه ؟ (والجواب) عن الأول لم لا يجوز أن يقال إنه كان لكفره مباح الدم .

أما قوله (هذا من عمل الشيطان) ففيه وجوه (أحدها) لعل الله تعالى وإن أباح قتل الكافر إلا أنه قال الأولى تأخير قتلهم إلى زمان آخر ، فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله (هذا من عمل الشيطان) معناه إقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان (وثانيها) أن قوله هذا إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه فقوله (هذا من عمل الشيطان) أى عمل هذا المقتول من عمل الشيطان ، المراد منه بيان كونه مخالفاً لله تعالى مستحقاً للقتل (وثالثها) أن يكون قوله هذا إشارة إلى المقتول ، يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه ، يقال فلان من عمل الشيطان ، أى من أحزابه .

أما قوله (رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى) فعلى نهج قول آدم عليه السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا) والمراد أحد وجهين ، إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه ، وإن لم يكن هناك ذنب قط ، أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب .

أما قوله (فاغفر لى) أى فاغفرلى ترك هذا المندوب ، وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون المراد (رب إنى ظلمت نفسى) حيث قتلت هذا الملعون ، فان فرعون لو عرف ذلك لقتلنى به (فاغفرلى) أى فاستره على ولا توصل خبره إلى فرعون (فغفر له) أى ستره عن الوصول إلى فرعون ، ويدل على هذا التأويل أنه على عقبه قال (رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين) ولو كانت إعانة المؤمن ههنا سبباً للمعصية لما قال ذلك .

وأما قوله (فعلتها إذا وأنا من الضالين) فلم يقل إنى صرت بذلك ضالا ، ولكن فرعون لما

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ

ادعى أنه كان كافراً فى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافراً فى ذلك الوقت ، واعترف بأنه كان ضالا أي متحيراً لايدرى مايجب عليه أن يفعله ومايدبر به فى ذلك . أما قوله إن كان كافراً حربياً فلم استغفر عن قتله ؟ قلنا كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراماً فى ذلك الوقت ، أو إن كان مباحا لكن الأولى تركه على ماقررنا . قوله ذلك القتل كان قتل خطأ ، قلنا لا نسلم فلعل الرجل كان ضعيفاً وموسى عليه السلام كان فى نهاية الشدة ، فوكزه كان قاتلا قطعاً . ثم إن سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الإسرائيلي من يده بدون ذلك الوكز الذى كان الأولى تركه ، فلهذا أقدم على الاستغفار . على أنا وإن سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لا دليل البتة على أنه كان رسولا فى ذلك الوقت فيكون ذلك صادراً منه قبل النبوة . وذلك لانزاع فيه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قالت المعتزلة الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصى إلى الله تعالى لأنه عليه السلام قال (هذا من عمل الشيطان) فنسب المعصية إلى الشيطان ، فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لا من الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) وقول صاحب موسى عليه السلام (وما أنسانيه إلا الشيطان) وقوله تعالى (لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) .

أما قوله (رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين) ففيه وجوه (أحدها) أن ظاهره يدل على أنه قال إنك لما أنعمت على بهذا الإنعام فإنى لا أكون معاوناً لأحد من المجرمين بل أكون معاوناً للمسلمين ، وهذا يدل على أن ما أقدم عليه من إعانة الإسرائيلي على القبطى كان طاعة لا معصية ، إذ لو كانت معصية لنزل الكلام منزلة ما إذا قيل إنك لما أنعمت على بقبول توبتى عن تلك المعصية فانى أكون مواظباً على مثل تلك المعصية (وثانيها) قال القفال : كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لايظاهر مجرماً ، والباء للقسم أى بنعمتك على (وثالثها) قال الكسائى والفراء إنه خبر ، ومعناه الدعاء كأنه قال فلا تجعلنى ظهيراً ، قال الفراء وفى حرف عبد الله (فلا تجعلنى ظهيراً ، واعلم أن فى الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة : وقال ابن عباس : لم يستثن ولم يقل فلن أكون ظهيراً إن شاء الله ، فابتلى به فى اليوم الثانى ، وهذا ضعيف لأنه فى اليوم الثانى ترك الإعانة ، وإنما خاف منه ذلك العدو فقال (إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض) لا أنه وقع منه .

قوله تعالى : ﴿ فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه **قال له**

www.besturdubooks.wordpress.com

لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

موسى إنك لغوى مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس أن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾

اعلم أن عند موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفاً من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب به ، وخرج على استتار (فاذا الذى استنصره) وهو الإسرائيلى (بالأمس يستصرخه) يطلب نصرته بصياح وصراخ ، قال له موسى (إنك لغوى مبين) قال أهل اللغة الغوى يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعل أى إنك لمغو لقومى فإنى وقعت بالأمس فيما وقعت فيه بسببك ، ويجوز أن يكون بمعنى الغاوى . واحتج به من قدح فى عصمة الأنبياء عليهم السلام ، فقال كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه (إنك لغوى مبين) ؟ (والجواب) من وجهين (الأول) أن قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظاً جفاة ألا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فالمراد بالغوى المبين ذلك (الثانى) أنه عليه السلام إنما سماه غوياً لأن من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد . واختلفوا فى قوله تعالى (قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت) أهو من كلام الإسرائيلى أو القبطى ؟ فقال بعضهم لما خاطب موسى الإسرائيلى بأنه غوى ورآه على غضب ظن لما هم بالبطش أنه يريده ، فقال هذا القول ، وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس للرجل إلا هو ، وصار ذلك سبباً لظهور القتل ومزيد الخوف ، وقال آخرون بل هو

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا

قول القبطي . وقد كان عرف القصة من الإسرائيلي ، والظاهر هذا الوجه لأنه تعالى قال (فلما أن أراد يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى) فهذا القول إذن منه لا من غيره وأيضاً فقوله (إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض) لا يليق إلا بأن يكون قولا للكافر .

واعلم أن الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر فى العواقب ولا يدفع بالتى هى أحسن وقيل المتعظم الذى لا يتواضع لأمر أحد ، ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث فى المدينة وانتهى إلى فرعون وهموا بقتله .

أما قوله (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) قال صاحب الكشاف يسعى يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل ، وانتصابه حالا عنه ، لأنه قد تخصص بقوله (من أقصى المدينة) والائتمار التشاور يقال الرجلان يأتمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر . والمعنى يتشاورون بسببك . وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون ، فعلى وجه الإشفاق أسرع إليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك .

أما قوله (فخرج منها خائفاً يترقب) أى خائفاً على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ ، ثم التجأ إلى الله تعالى لعلمه بأنه لاملجأ سواه فقال (رب نجنى من القوم الظالمين) وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطى لم يكن ذنباً ، وإلا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصاً .

قوله تعالى : ﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما يا أبت استأجره

www.besturdubooks.wordpress.com

سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

إن خير من استأجرت القوى الأمين ، قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ، قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على مانقول وكيل ﴾

اعلم أن الناس اختلفوا فى قوله (ولما توجه تلقاء مدين) فقال بعضهم إنه خرج وما قصدمدين ولكنه سلم نفسه إلى الله تعالى وأخذ يمشى من غير معرفة فأوصله الله تعالى إلى مدين ، وهذاقول ابن عباس ، وقال آخرون لما خرج قصد مدين لأنه وقع فى نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأنهم من ولد مدين بن ابراهيم عليه السلام ، وهو كان من بنى اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى ، ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام ، وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدى لما أخذ موسى عليه السلام فى المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح ، فقال لاتفعل واتبعنى . فاتبعه نحو مدين ، واحتج من قال إنه خرج وما قصد مدين بأمرين : (أحدهما) قوله (ولما توجه تلقاء مدين) ولو كان قاصداً للذهاب إلى مدين لقال ، ولما توجه إلى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال (توجه تلقاء مدين) علمنا أنه لم يتوجه إلا إلى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب إلى أين ينتهى (والثانى) قوله (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) وهذا كلام شاك لاعالم والأقرب أن يقال إنه قصد الذهاب إلى مدين وماكان عالماً بالطريق . ثم إنه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لأنه يبعد من موسى عليه السلام فى عقله وذكائه أن لا يسأل ، ثم قال ابن إسحاق خرج من مصر إلى مدين بغير زاد ولا ظهر ، وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاماً فى الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع إلا ماذكره ابراهيم عليه السلام ، وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين المطهرين (ولما ورد ماء مدين) وهو الماء الذى يسقون منه وكان بئراً فيما روى ووروده مجيئه والوصول اليه (وجد عليه) أى فوق شفيره ومستقاه (أمة) جماعة كثيرة العدد (من الناس) من أناس مختلفين (ووجد من دونهم) فى مكان أسفل من مكانهم (امرأتين تذودان) والذود الدفع والطرد فقوله تذودان أى تحبسان ثم فيه أقوال : (الأول) تحبسان أغنامهما واختلفوا فى علة ذلك الحبس على وجوه : (أحدها) قال الزجاج لأن على الماء من كان أقوى منهما فلا يتمكنان من السقى (وثانيها) كانتا تكرهان المزاحمة على الماء (وثالثها) لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم (ورابعها) لئلا تختلطا بالرجال (القول الثانى) كانتا تذودان عن وجوههما نظراً الناظر لبراهما (والقول الثالث) تذودان الناس عن غنمهما (القول الرابع) قال الفراء تحبسانها عن أن تتفرق وتتسرب (قال ما خطبكما) أى ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أى مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطباً كما يسمى المشئون شأناً فى قولك ما شأنك (فقالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) وذلك يدل على ضعفهما عن السقى من وجوه : (أحدها) أن العادة فى السقى للرجال ، والنساء يضعفن عن ذلك (وثانيها) ما ظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير (وثالثها) قولهما حتى يصدر الرعاء (ورابعها) انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء (وخامسها) قولهما (وأبونا شيخ كبير) ودلالة ذلك على أنه لو كان قوياً حضر ولو حضر لم يتأخر السقى ، فعند ذلك سقى لهما قبل صدر الرعاء ، وعادتا إلى أبيهما قبل الوقت المعتاد . قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال ، وقرأ الباقون بضم الياء ، وكسر الدال فالمعنى فى القراءة الأولى حتى ينصرفوا عن الماء ويرجعوا عن سقيهم وصدر ضد ورد ، ومن قرأ بضم الياء فالمعنى فى القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم .

أما قوله (فسقى لهما) أى سقى غنمهما لأجلهما ، وفى كيفية السقى أقوال (أحدها) أنه عليه السلام سأل القوم أن يسمحوا فسمحوا (وثانيهما) قال قوم عمد إلى بئر على رأسه صخرة لايقلها إلا عشرة ، وقيل أربعون ، وقيل مائة فنحاها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر (وثالثها) أن القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا إلقاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما . وليس بيان ذلك فى القرآن . والله أعلم بالصحيح منه . لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على أنها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته ، وقال تعالى (ثم تولى إلى الظل) وفيه دلالة على أنه سقى لهما فى شمس وحر ، وفيه دلالة أيضاً على كمال قوة موسى عليه السلام ، قال الكلبى : أتى موسى أهل الماء فسألهم دلواً من ماء ، فقالوا له إن

www.besturdubooks.wordpress.com

شئت ائت الدلو فاستق لهما قال نعم ، وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلا حتى يخرجوه من البئر فأخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب فى الحوض ودعا بالبركة ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما . فان قيل كيف ساغ لنبي الله الذى هو شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية ؟ قلنا ليس فى القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيباً والناس مختلفون فيه ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما إن أباهما هو بيرون ابن أخي شعيب وشعيب مات بعد ماعمى وهو اختيار أبى عبيد (وقال) الحسن إنه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب على أنا وإن سلمنا أنه كان شعيباً عليه السلام لكن لا مفسدة فيه لأن الدين لا يأباه . وأما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر ، لا سيما إذا كانت الحالة حالة الضرورة .

وأما قوله (قال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) فالمعنى إنى لأى شيء أنزلت إلى من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير ، وإنما عدى فقيراً باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب .

(واعلم) أن هذا الكلام يدل على الحاجة ، إما إلى الطعام أو إلى غيره ، إلا أن المفسرين حملوه على الطعام قال ابن عباس يريد طعاماً يأكله ، وقال الضحاك مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض ، وروى أن موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك ، فإن قيل إنه عليه السلام لما بقى معه من القوة ماقدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم ، فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام ، أليس أنه عليه السلام قال «لا تحل الصدقة لغني ولا لذى قوة سوى»؟ قلنا أما رفع الصوت بذلك لاسماع المرأتين وطلب الطعام فذاك لا يليق بموسى عليه السلام البتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك فى نفسه مع ربه تعالى ، وفى الآية وجه آخر كأنه قال رب إنى بسبب ما أنزلت إلى من خير الدين صرت فقيراً فى الدنيا لأنه كان عند فرعون فى ملك وثروة ، فقال ذلك رضى بهذا البدل وفرحا به وشكراً له ، وهذا التأويل أليق بحال موسى عليه السلام .

أما قوله تعالى (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء) فقوله على (استحياء) فى موضع الحال أى مستحيية ، قال عمر بن الخطاب قد استترت بكم قميصها ، وقيل ماشية على بعد مائلة عن الرجال وقال عبد العزيز بن أبى حازم على إجلال له ومنهم من يقف على قوله (تمشي) ثم يبتدىء فيقول (على استحياء) قالت (إن أبى يدعوك) يعنى أنها على الاستحياء قالت هذا القول لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي ، لاسيما المرأة وفى ذلك دلالة على أن شعيباً لم يكن له معين سواهما وروى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس ، قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحاً رحمنا فسقى لنا ، فقال لإحداهما اذهبى فادعيه لى ، أما الاختلاف فى أن ذلك الشيخ كان شعيباً عليه السلام أو غيره فقد تقدم ، والأكثرون على أنه شعيب . وقال محمد بن اسحاق فى البنتين اسم الكبرى صفورا ، والصغرى ليا ، وقال غيره صفرا وصفيرا ، وقال الضحاك صافورا والتى جاءت الى

www.besturdubooks.wordpress.com

موسى عليه السلام هى الكبرى على قول الأكثرين . وقال الكلبي هى الصغرى . وليس فى القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل .

أما قوله (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) ففيه إشكالات : (أحدها) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشى معها وهى أجنبية ، فإن ذلك يورث التهمة العظيمة ، وقال عليه السلام «اتقوا مواضع التهم» ؟ (وثانيها) أنه سقى أغنامهما تقرباً إلى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه فان ذلك غير جائز فى المروءة ، ولا فى الشريعة ؟ (وثالثها) أنه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وأنه عليه السلام كان فى نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعى . فكيف يليق بمروءة مثله طلب الأجرة على ذلك القدر من السقى من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة ؟ (ورابعها) كيف يليق بشعيب النبى عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة إلى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفاً أو فاسقاً ؟ (والجواب) عن الأول ، أن نقول : أما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حراً كان أو عبداً ذكراً كان أو أنثى فى الأخبار وماكانت إلا مخبرة عن أبيها ، وأما المشى مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع (والجواب) عن الثانى ، أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ماذهب اليهم طلباً للأجرة بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ ، وروى أنها لما قالت ليجزيك كره ذلك ، ولما قدم اليه الطعام امتنع ، وقال إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمناً ، حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا ، وأيضاً فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ماكان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار . وهذا هو (الجواب) عن الثالث فان الضرورات تبيح المحظورات (والجواب) عن الرابع لعله عليه السلام كان قد علم بالوحى طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها .

أما قوله (فلما جاءه) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقام يمشى والجارية أمامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام إنى من عنصر ابراهيم عليه السلام فكونى من خلفى حتى لا ترفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل لى ، فلما دخل على شعيب فاذا الطعام موضوع ، فقال شعيب تناول يافتى ، فقال موسى عليه السلام أعوذ بالله . قال شعيب ولم ؟ قال لأنا من أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب ولكن عادتى وعادة آبائى إطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل ، وإنما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ، ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) والفرق أن أخذ الأجرة على الصدقة لا يجوز ، أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه .

أما قوله (وقص عليه القصص) فالقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص ، قال الضحاك لما دخل عليه قال له من أنت ياعبد الله ، فقال أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف فى اليم ، وقتل

www.besturdubooks.wordpress.com

القبطي وانهم يطلبونه ليقتلوه ، فقال شعيب (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أى لا سلطان له بأرضنا فلسنا فى مملكته وليس فى الآية دلالة على أنه قال ذلك عن الوحى أو على ماتقتضيه العادة . فان قيل المفسرون قالوا إن فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب فى ألف ألف وستمائة ألف ، فالملك الذى هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون فى ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته ؟ قلنا هذا وإن كان نادراً إلا أنه ليس بمحال .

أما قوله (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقى وبالأمانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها إلى أبيها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما جعل (خير من استأجرت) اسما و (القوى الأمين) خبراً مع أن العكس أولى لأن العناية هى سبب التقديم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القوة والأمانة لا يكفيان فى حصول المقصود ما لم ينضم اليهما الفطنة والكياسة ، فلم أهمل أمر الكياسة ؟ ويمكن أن يقال إنها داخلة فى الأمانة ، عن ابن مسعود رضى الله « أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف وأبو بكر فى عمر » .

أما قوله (قال إنى أريد أنكحك إحدى ابنتى هاتين) فلا شبهة فى أن هذا اللفظ ، وإن كان على الترديد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة فى أن العقد وقع على أقل الأجلين ، فكانت الزيادة كالتبرع ، والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهراً كالمال وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ، ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا ، ويدل على أنه قد كان جائزاً فى تلك الشريعة أن يشرط للولى منفعة ، وعلى أنه كان جائزاً فى تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى أن عقد النكاح لا تفسده الشروط التى لا يوجبها العقد ، ثم قال (على أن تأجرنى ثمانى حجج) تأجرنى من أجرته إذا كنت له أجيراً (وثمانى حجج) ظرفه أو من أجرته كذا إذا أثبته إياه ومنه أجركم الله ورحمكم (وثمانى حجج) مفعول به ومعناه رعية (ثمانى حجج) ثم قال (وما أريد أن أشق عليك) وفيه وجهان :(الأول) لا أريد أن أشق عليك بالزام أتم الرجلين ،فإن قيل ما حقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الأمر؟ قلنا حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين ، تقول تارة أطيقه وتارة لا أطيقه (الثانى) لا أريد أن أشق عليك فى الرعى ولكنى أساهلك فيها وأسامحك بقدر الإمكان ولا أكلفك الاحتياط الشديد فى كيفية الرعى ، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح فى معاملات الناس ، ومنه الحديث « كان رسول الله ﷺ شريكى فكان خير شريك لا يدارى ولا يشارى ولا يمارى » ثم قال (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) وفيه وجهان (الأول) يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب (والثانى) يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة ، وإنما قال إن شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

فإن قيل فالعقد كيف ينعقد مع هذا الشرط ، فانك لو قلت امرأتي طالق إن شاء الله لاتطلق ؟ قلنا هذا مما يختلف بالشرائع .

أما قوله تعالى (قال ذلك بيني و بينك) فاعلم أن ذلك مبتدأ وبيني وبينك خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام ، يريد ذلك الذى قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك ، ثم قال (أيما الأجلين قضيت) من الأجلين أطولها الذى هو العشر أو أقصرهما الذى هو الثمانى (فلا عدوان علي) أى لا يعتدى علي فى طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعنى أن شاء هذا وإن شاء هذا ويكون اختيار الأجل الزائد موكولا إلى رأيه من غير أن يكون لأحد عليه إجبار ، ثم قال (والله على ما نقول وكيل) والوكيل هو الذى وكل إليه الأمر ولما استعمل الوكيل فى معنى الشاهد عدى بعلى لهذا السبب .

قوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ، اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك

www.besturdubooks.wordpress.com

برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾

اعلم أنه روى عن النبى ﷺ أنه قال « تزوج صغراهما وقضى أوفاهما » أى قضى أوفى الآجلين ، وقال مجاهد قضى الأجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس) يدل على أن ذلك الإيناس حصل عقيب بمجموع الأمرين ولا يدل على أنه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الأجل . فبطل ما قاله القاضى من أن ذلك يدل على أنه لم يزد عليه وقوله (وسار بأهله) ليس فيه دلالة على أنه خرج منفرداً معها وقوله (امكثوا) فيه دلالة على الجمع .

أما قوله (إنى آنست ناراً) فقد مر تفسيره فى سورة طه والنمل .

أما قوله (لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) ففيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قال صاحب الكشاف الجذوة باللغات الثلاث وقد قرىء بهن جميعاً وهو العود الغليظ كانت فى رأسه نار أو لم تكن ، قال الزجاج الجذوة القطعه الغليظة من الحطب .

﴿ الثانى ﴾ قد حكينا فى سورة طه أنه أظلم عليه الليل فى الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر فوجدوا برداً شديداً فعنده أبصر ناراً بعيدة فسار إليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله (آتيكم منها بخبر) أو آتيكم من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفى قوله (لعلى آتيكم منها بخبر) دلالة على إنه ضل وفى قوله (لعلكم تصطلون) دلالة على البرد .

أما قوله (فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين) فاعلم أن شاطىء الوادى جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطىء الوادى من قبل الشجرة وقوله (من الشجرة) بدل من قوله (من شاطىء الوادى) بدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء كقوله (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم) وإنما وصف البقعة بكونها مباركة لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى اياه وههنا مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ احتجت المعتزلة على قولهم إن الله تعالى متكلم بكلام يخلقه فى جسم بقوله (من الشجرة) فان هذا صريح فى أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزه أن يكون فى جسم فثبت أنه تعالى إنما يتكلم بخلق الكلام فى جسم (أجاب) القائلون بقدم الكلام فقالوا لنا مذهبان (الأول) قول أبى منصور الماتريدى وأئمة ما وراء النهر وهو أن الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع إنما المسموع هو الصوت والحرف وذلك كان مخلوقا فى الشجرة ومسموعاً منها ، وعلى هذا التقدير زال السؤال

www.besturdubooks.wordpress.com

(الثانى) قول أبى الحسن الأشعرى وهو أن الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعا ، كما أن الذات التى ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون مرئية . فعلى هذا القول لا يبعد أنه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الأمرين ، واحتج أهل السنة بأن محل قوله (إنى أنا الله رب العالمين) لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة إنى أنا الله . والمعتزلة أجابوا بأن هذا إنما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسألة . أجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل منى فانى مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله تعالى ، فان كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قد قال لا تأكل منى فانى مسموم ، وهذا باطل . وإن كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت إنى أنا الله. وكل ذلك باطل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يحتمل أن يقال إنه تعالى خلق فيه علماً ضرورياً بأن ذلك الكلام كلام الله ، والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا لأنه لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى لأنه يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى أنه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف . ويحتمل أن يقال إنه تعالى لما أسمعه الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت عرف أن مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل إن يقال إن ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى فى أنه يعلم أن مثل ذلك لا يكون إلا من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون المعجز هو أنه رأى النار فى الشجرة الرطبة فعلم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة إلا الله تعالى ، ويحتمل أن يصح ما يروى أن إبليس لما قال له كيف عرفت أنه نداء الله تعالى ؟ قال لأنى سمعته بجميع أجزائى ، فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء علم أن ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى ، وهذا إنما يصح على مذهبنا حيث قلنا البنية ليست شرطاً ،

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى سورة النمل (نودى أن بورك من فى النار ومن حولها) وقال ههنا نودى (إنى أنا الله رب العالمين) وقال فى طه (نودى إنى أنا ربك) ولا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر الكل إلا أنه حكى فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحسن إن موسى عليه السلام نودى نداء الوحى لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى (فاستمع لما يوحى) قال الجمهور إن الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) وسائر الآيات ، وأما الذى تمسك به الحسن فضعيف لأن قوله (فاستمع لما يوحى) لم يكن بالوحى لأنه لو كان ذلك أيضاً بالوحى لا نتهى آخر الأمر إلى كلام يسمعه المكلف لا بالوحى وإلا لزم التسلسل بل المراد من قوله (فاستمع لما يوحي) وصيته بأن يتشدد في الأمور التي تصل إليه فى مستقبل الزمان بالوحي .

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) فقد تقدم تفسير كل ذلك ، وقوله كأنها جان صريح فى أنه تعالى شبهها بالجان ولم يقل إنه فى نفسه جان ، فلا يكون هذا مناقضاً لكونه ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار ، وقد تقدم الكلام فى خوفه ، ومعنى (ولم يعقب) لم يرجع ، يقال عقب المقاتل إذا كر بعد الفر ، وقال وهب إنها لم تدع شجرة ولا صخرة إلا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير أسنانها وسمع قعقعة الصخر فى جوفها فحينئذ ولى ، واختلفوا فى العصا على وجوه (أحدها) قالوا إن شعيباً كانت عنده عصى الأنبياء عليهم السلام ، فقال لموسى بالليل إذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى ، فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الأنبياء تتوارثها حتى وقعت إلى شعيب عليه السلام فقال أرنى العصا فلمسها وكان مكفوفاً فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده إلا هى سبع مرات فعلم أن له معها شأناً (وروى) أيضاً أن شعيباً عليه السلام أمر ابنته أن تأتى بعصا لأجل موسى عليه السلام فدخلت البيت وأخذت العصا وأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلم يقع فى يدها غيرها ، فلما رآى الشيخ ذلك رضى به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه السلام فلما لقيه قال أعطنى العصا ، قال موسى هى عصاى فأبى أن يعطيه إياها فاختصما ، ثم توافقا على أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشى فقضى بينهما فقال ضعوها على الأرض فمن حملها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهوله ، فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين (وثانيها) روى ابن صالح عن ابن عباس قال كان فى دار بيرون ابن أخى شعيب بيت لا يدخله إلا بيرون وابنته التى زوجها من موسى عليه السلام ، وأنها كانت تكنسه وتنظفه ، وكان فى ذلك البيت ثلاث عشرة عصا ، وكان لبيرون أحد عشر ولداً من الذكور فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت وإخراج عصا من تلك العصى فرجع موسى ذات يوم إلى منزله ، فلم يجد أهله واحتاج إلى عصا لرعيه فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصى وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت إلى أبيها وأخبرته بذلك فسر بذلك بيرون وقال لها إن زوجك هذا لنبى ، وإن له مع هذه العصا لشأناً (وثالثها) فى بعض الأخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعى قال له شعيب عليه السلام اذهب بهذه الأغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلأ بها أكثر فإن بها تنيناً عظيما فأخشى عليك وعلى الأغنام منه ، فذهب موسى بالأغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرآى عشباً كثيراً ، ثم إن موسى عليه السلام نام والأغنام ترعى وإذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عليه السلام فقاتلته حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى وهى دامية فلما استيقظ موسى عليه السلام رآى العصا دامية والتنين

www.besturdubooks.wordpress.com

مقتولا فارتاح لذلك وعلم أن لله تعالى فى تلك العصا قدرة وآية . وعاد إلى شعيب عليه السلام وكان ضريراً فمس الأغنام فاذا هى أحسن حالا مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم أن لموسى عليه السلام وعصاه شأناً ، فأراد أن يجازى موسى عليه السلام على حسن رعيه إكراماً وصلة لابنته فقال إنى وهبت لك من السخال التى تضعها أغنامى فى هذه السنة كل أبلق وبلقاء ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك الماء الذى تسقى الغنم منه ففعل ثم سقى الأغنام منه فما أخطت واحدة منها إلا وضعت حملها مابين أبلق وبلقاء ، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى عليه السلام وامرأته فوفى له شرطه (ورابعها) قال بعضهم تلك العصا هى عصا آدم عليه السلام وإن جبريل عليه السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ربه ليلا (وخامسها) قال الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً أى أخذها من عرض الشجر يقال اعترض إذا لم يتخير ، وعن الكلبى : الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج . ومنها كانت عصاه ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض لأنه ليس فى القرآن مايدل عليها والأخبار متعارضة والله أعلم بها ،

أما قوله تعالى (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) فاعلم أن الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات (أحدها) هذه (وثانيها) قوله فى طه (واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء (وثالثها) قوله فى النمل (وأدخل يدك فى جيبك) قال العزيزى فى غريب القرآن (اسلك يدك فى جيبك) أدخلها فيه .

أما قوله (واضمم إليك جناحك من الرهب) فأحسن الناس كلاماً فيه . قال صاحب الكشاف : فيه معنيان (أحدهما) أن موسى عليه السلام لما قلب الله له العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء ، فقيل له إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء ، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى ، والمراد بالجناح اليد لأن يدى الإنسان بمنزلة جناحى الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه (الثانى) أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران ، ومعنى قوله(من الرهب) من أجل الرهب ، أى إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك وقوله (اسلك يدك فى جيبك) على أحد التفسيرين واحد ، ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين ، وذلك أن الغرض فى أحدهما خروج اليد بيضاء وفى الثانى إخفاء الرهب ، فإن قيل قد جعل الجناح وهو اليد فى أحد الموضعين

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

مضموماً وفى الآخر مضموماً إليه ، وذلك قوله (واضمم إليك جناحك) وقوله (واضمم يدك إلى جناحك) فما التوفيق بينهما ؟ قلنا المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى ، وبالمضموم إليه اليد اليسرى ، وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح ، هذا كله كلام صاحب الكشاف وهو فى نهاية الحسن .

أما قوله تعالى (فذانك) قرئ مخففاً ومشدداً ، فالمخفف مثنى ذا ، والمشدد مثنى ذان ، قوله (برهانان من ربك) حجتان نيرتان على صدقه فى النبوة وصحة مادعاهم إليه من التوحيد ، وظاهر الكلام يقتضى أنه تعالى أمره بذلك قبل لقاء فرعون حتى عرف ماالذى يظهره عنده من المعجزات ، لأنه تعالى حكى بعد ذلك عن موسى عليه السلام أنه قال (إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون) قال القاضى : وإذا كان كذلك فيجب أن يكون فى حال ظهور البرهانين هناك من دعاه إلى رسالته من أهله أو غيرهم ، إذ المعجزات إنما تظهر على الرسل فى حال الإرسال لا قبله ، وإنما تظهر لكى يستدل بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف ، لأنه ثبت أنه لابد فى إظهار المعجزة من حكمة ولا حكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعى ، وأما كونه لا حكمة ههنا فلا نسلم ، فلعل هناك أنواعاً من الحكم والمقاصد سوى ذلك ، لا سيما وهذه الآيات متطابقة على أنه لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد .

قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ، فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا

www.besturdubooks.wordpress.com

ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾.

اعلم أنه تعالى لما قال (فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه) تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه ، فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوى قلبه ويزيل خوفه ، فقال (رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصح منى لساناً) لأنه كان فى لسانه حبسة ، إما فى أصل الخلقة ، وإما لأجل أنه وضع الجمرة فى فيه عند ما نتف لحية فرعون .

أما قوله (فأرسله معى ردءاً يصدقنى) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ الردء اسم ما يستعان به فعل بمعنى مفعول به ، كما أن الدفء اسم لما يدفأ به ، يقال ردأت الحائط أردؤه إذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط .

﴿ البحث الثانى ﴾ قرأ نافع ردءاً بغير همز والباقون بالهمز ، وقرأ عاصم وحمزة يصدقنى برفع القاف ، ويروى ذلك أيضاً عن أبى عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبى عمرو ، فمن رفع فالتقدير ردءاً مصدقاً لى ، ومن جزم كان على معنى الجزاء ، يعنى ان أرسلته صدقنى . ونظيره قوله (فهب لى من لدنك ولياً يرثنى) بجزم الثاء من يرثنى . وروى السدىعن بعض شيوخه ردءاً كيما يصدقنى .

﴿ البحث الثالث ﴾ الجمهور على أن التصديق لهرون ، وقال مقاتل : المعنى كى يصدقنى فرعون والمعنى أرسل معى أخى حتى يعاضدنى على إظهار الحجة والبيان ، فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون .

﴿ البحث الرابع ﴾ ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ، ألا ترى إلى قوله (وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى) وفائدة الفصاحة إنما تظهر فيما ذكرناه لا فى مجرد قوله (صدقت)

﴿ البحث الخامس ﴾ قال الجبائى : إنما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هرون بأمر الله تعالى . وإن كان لا يدرى هل يصلح هرون للبعثة أم لا ؟ فلم يكن ليسأل ما لا يأمن أن يجاب أو لا يكون حكمة ، ويحتمل أيضاً أن يقال إنه سأله لا مطلقاً بل مشروطاً على معنى ، إن اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعى فى دعائه .

﴿ البحث السادس ﴾ قال السدى : إن نبيين وآيتين أقوى من نبى واحد وآية واحدة . قال القاضى والذى قاله من جهة العادة أقوى . فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبى ونبيين ، لأن المبعوث إليه إن نظر فى أيهما كان علم ، وإن لم ينظر فالحالة واحدة ، هذا إذا

www.besturdubooks.wordpress.com

كانت طريقة الدلالة فى المعجزتين واحدة ، فأما إذا اختلفت وأمكن فى إحداها إزالة الشبهة ما لا يمكن فى الأخرى ، فغير ممتنع أن يختلفا ويصلح عند ذلك أن يقال إنهما بمجموعهما أقوى من إحداها على ما قاله السدى ، لكن ذلك لا يتأتى فى موسى وهرون عليهما السلام ، لأن معجزتهما كانت واحدة لا متغايرة .

أما قوله (سنشد عضدك بأخيك) فاعلم أن العضد قوام اليد وبشدتها تشتد ، يقال فى دعاء الخير شد الله عضدك ، وفى ضده فت الله فى عضدك . ومعنى سنشد عضدك بأخيك سنقويك به ، فإما أن يكون ذلك لأن اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور ، وإما لأن الرجل شبه باليد فى اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة .

أما قوله (ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما) فالمقصود أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر فان قيل بين تعالى أن السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون إليهما لأجل الآيات أو ليس فرعون قد وصل إلى صلب السحرة وإن كانت هذه الآيات ظاهرة ، قلنا إن الآية التى هى قلب العصا حية كما أنها معجزة فهى أيضاً تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهرون عليهما السلام ، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الأمرين ، فأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صلبوا وليس فى القرآن مايدل عليه وإن سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال (فلا يصلون إليكما) فالمنصوص أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما وإيصال الضرر إلى غيرهما لا يقدح فيه ، ثم قال (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) والمراد إما الغلبة بالحجة والبرهان فى الحال ، أو الغلبة فى الدولة والمملكة فى ثانى الحال والأول أقرب إلى اللفظ .

أما قوله (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) فقد بينا فى سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد .

أما قوله (قالوا ما هذا إلا سحر مفترى) فقد اختلفوا فى مفترى ، فقال بعضهم المراد أنه إذا كان سحراً وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى ، وقال الجبائى المراد أنه منسوب إلى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا إليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم (وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) أى ما حدثنا بكونه فيهم ، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين فى ذلك وقد سمعوا مثله ، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله فى فظاعته . أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام وبمجيئه بما جاء به .

واعلم أن هذه الشبهة ساقطة لأن حاصلها يرجع إلى التقليد ولأن حال الأولين لا يخلو من وجهين ، إما أن لا يورد عليهم بمثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى
ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ
٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ
٣٩ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ
٤٠ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى
هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

لايجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة، فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد (ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) فإن من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضاً عليها وإنما لما وجد منه العناد صح أن يقول ربى أعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعاً ومن هو على الباطل ويضم إليه طريقة الوعيد والتخويف وهو قوله (ومن تكون له عاقبة الدار) من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى (أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن) وقوله (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت فان قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار. لأن الدنيا قد تكون خاتمتها بخير فى حق البعض وبشر فى حق البعض الآخر. فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلنا إنه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً إلى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ليبلغوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق، فمن عمل فيها خلاف ماوضعها الله له فقد حرف، فإذن عاقبتها الأصلية هى عاقبة الخير، وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار، ثم إنه عليه السلام أكد ذلك بقوله (إنه لا يفلح الظالمون) والمراد أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية فى زجرهم عن العناد الذى ظهر منهم.

قوله تعالى: ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ، ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾

اعلم أن فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق فى دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر ههنا شبهتين (الأولى) قوله (ماعلمت لكم من إله غيرى) وهذا فى الحقيقة يشتمل على كلامين (أحدهما) نفى إله غيره (والثانى) إثبات إلهية نفسه ، فأما الأول فقد كان اعتماده على أن ما لا دليل عليه لم يجز إثباته . أما أنه لا دليل عليه فلأن هذه الكواكب والأفلاك كافية فى اختلاف أحوال هذا العالم السفلى فلا حاجة إلى إثبات صانع ، وأما أن ما لا دليل عليه لم يجز إثباته فالأمر فيه ظاهر .

واعلم أن المقدمة الأولى كاذبة فانا لا نسلم أنه لادليل على وجود الصانع وذلك لأنا إذا عرفنا بالدليل حدوث الأجسام عرفنا حدوث الأفلاك والكواكب ، وعرفنا بالضرورة أن المحدث لابد له من محدث فحينئذ نعرف بالدليل أن هذا العالم له صانع ، والعجب أن جماعة اعتمدوا فى نفى كثير من الأشياء على أن قالوا لا دليل عليه فوجب نفيه ، قالوا وإنما قلنا إنه لا دليل لأنا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلا ، فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق إلى أن كل ما لا يعرف عليه دليل وجب نفيه ، وإن فرعون لم يقطع بالنفى بل قال لا دليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذباً فى دعواه ، ففرعون على نهاية جهله أحسن حالا من هذا المستدل . أما الثانى وهو إثباته إلهية نفسه . فاعلم أنه ليس المراد منه أنه كان يدعى كونه خالقاً للسموات والأرض والبحار والجبال وخالقاً لذوات الناس وصفاتهم ، فان العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضى زوال العقل ، بل الإله هو المعبود فالرجل كان ينفى الصانع ويقول لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره ، فهذا هو المراد من ادعائه الإلهية لاماظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقاً للسماء والأرض ، لا سيما وقد دللنا فى سورة طه فى تفسير قوله (فمن ربكما يا موسى) على أنه كان عارفاً بالله تعالى وأنه كان يقول ذلك ترويجاً على الأغمار من الناس (الشبهة الثانية) قوله (فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين) وههنا أبحاث :

﴿ الأول ﴾ تعلقت المشبهة بهذه الآية فى أن الله تعالى فى السماء قالوا لولا أن موسى عليه السلام دعاه إلى ذلك لما قال فرعون هذا القول (والجواب) أن موسى عليه السلام دل فرعون بقوله

www.besturdubooks.wordpress.com

(رب السموات والأرض) ولم يقل هو الذى فى السماء دون الأرض ، فأوهم فرعون أنه يقول إن إلهه فى السماء ، وذلك أيضاً من خبث فرعون ومكره ودهائه .

﴿ الثانى ﴾ اختلفوا فى أن فرعون هل بنى هذا الصرح ؟ فقال قوم إنه بناه قالوا إنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق ، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت فى البحر وقطعة فى المغرب ، ولم يبق أحد من عماله إلا وقد هلك ، ويروى فى هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت إليهم وهى ملطوخة بالدم ، فقال قد قتلت إله موسى . فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه . ومن الناس من قال إنه لم يبن ذلك الصرح لأنه يبعد من العقلاء أن يظنوا أنهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الأرض ، ومن شك فى ذلك خرج عن حد العقل ، وهكذا القول فيما يقال من رمى السهم إلى السماء ورجوعه متلطخاً بالدم ، فان كل من كان كامل العقل يعلم أنه لا يمكنه إيصال السهم إلى السماء ، وأن من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التى حكاها الله تعالى فى القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل ، فيصير ذلك مشرعاً قوياً لمن أحب الطعن فى القرآن ، فالأقرب أنه كان أوهم البناء ولم يبن أو كان هذا من تتمة قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) يعنى لاسبيل إلى إثباته بالدليل ، فان حركات الكواكب كافية فى تغير هذا العالم ولا سبيل إلى إثباته بالحس ، فان الاحساس به لا يمكن إلا بعد صعود السماء وذلك مما لاسبيل إليه ، ثم قال عند ذلك لهامان (ابن لى صرحاً أبلغ به أسباب السموات) وإنما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الأشياء قرر أنه لادليل على الصانع ، ثم إنه رتب النتيجة عليه فقال (وإنى لأظنه من الكاذبين) فهذا التأويل أولى مما عداه .

﴿ الثالث ﴾ إنما قال (أوقد لى ياهامان على الطين) ولم يقل اطبخ لى الآجر واتخذه لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة . ولأن هذه العبارة أليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان ، وهو وزيره بالإيقاد على الطين فنادى باسمه بيا فى وسط الكلام دليل على التعظم والتجبر ، والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد .

أما قوله (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق) فاعلم أن الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر فى الحقيقة أى المبالغ فى كبرياء الشأن ، قال عليه السلام فيما حكى عن ربه «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما ألقيته فى النار » وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائى الآية تدل على أنه تعالى ما أعطاه الملك .وإلا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب ، لا كما ادعى ملوك بنى أمية عند تغلبهم أن ملكهم من الله تعالى فان الله تعالى قد بين فى كل غاصب لحكم الله أنه أخذ ذلك بغير حق ، واعلم أن هذا ضعيف لأن وصول ذلك الملك إليه ، إما أن يكون منه أو من الله تعالى ، أولا منه ولا من الله تعالى ، فان كان منه فلم لم يقدر عليه غيره ، فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولى للأمر ؟ وإن كان من الله تعالى فقد صح الغرض ، وإن كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعى الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر؟ واعلم أن هذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل .

أما قوله (وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى إلا أنهم كانوا ينكرون البعث فلأجل ذلك تمردوا وطغوا .

أما قوله (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) فهو من الكلام المفحم الذى دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه ، شبههم استحقاراً لهم واستقلالا لعددهم ، وإن كانوا الكبير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ فى كفه فطرحهن فى البحر ونحو ذلك وقوله (وألقينا فيها رواسى شامخات وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) سبحانه وتعالى وليس الغرض منه إلا تصوير أن كل مقدور وإن عظم فهو حقير بالقياس إلى قدرته .

أما قوله (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) فقد تمسك به الأصحاب فى كونه تعالى خالقاً للخير والشر ، قال الجبائى المراد بقوله (وجعلناهم) أى بينا ذلك من حالهم وسميناهم به ، ومنه قوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) وتقول أهل اللغة فى تفسير فسقه وبخله جعله فاسقاً وبخيلا ، لا أنه خلقهم أئمة لأنهم حال خلقه لهم كانوا أطفالا ، وقال الكعبى : إنما قال (وجعلناهم أئمة) من حيث خلى بينهم وبين ما فعلوه ولم يعاجل بالعقوبة ، ومن حيث كفروا ولم يمنعهم بالقسر ، وذلك كقوله (زادتهم رجساً) لما زادوا عندها ونظير ذلك أن الرجل يسأل ما يثقل عليه ، وإن أمكنه فاذا بخل به قيل للسائل جعلت فلاناً بخيلا أى قد بخلته ، وقال أبو مسلم معنى الإمامة التقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين . واعلم أن الكلام فيه قد تقدم فى سورة مريم فى قوله (إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) ومعنى دعوتهم إلى النار دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصى فان أحداً لا يدعو إلى النار البتة ، وإنما جعلهم الله تعالى أئمة فى هذا الباب لأنهم بلغوا فى هذا الباب أقصى النهايات ، ومن كان كذلك استحق أن يكون إماماً يقتدى به فى ذلك الباب ، ثم بين تعالى أن ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه ، وهو معنى قوله (ويوم القيامة لا ينصرون) أو يكون معناه (ويوم القيامة لا ينصرون) كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن
رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ
أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

أما قوله (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) معناه لعنة الله والملائكة لهم وأمره تعالى بذلك فيها للمؤمنين ، وبين أنهم يوم القيامة من المقبوحين أى المبعدين الملعونين ، والقبح هو الإبعاد ، قال الليث يقال قبحه الله ، أى نحاه عن كل خير . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من المشئومين بسواد الوجه وزرقة العين ، وعلى الجملة فالأولون حملوا القبح على القبح الروحانى وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى ، والباقون حملوه على القبح فى الصور . وقيل فيه إنه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين ، ثم بين تعالى أن الذى يجب التمسك به ما جاء به موسى عليه السلام فقال (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) والكتاب هو التوراة ، ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس ، من حيث يستبصر به فى باب الدين ، وهدى من حيث يستدل به ، ومن حيث إن المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب ، ووصفه بأنه رحمة لأنه من نعم الله تعالى على من تعبد به . وروى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال « ما أهلك الله تعالى قرناً من القرون بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل التوراة ، غير أهل القرية التى مسخها قردة » .

أما قوله (لعلهم يتذكرون) فالمراد لكى يتذكروا ، قال القاضى : وذلك يدل على إرادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك أو لم يختره ، ففيه إبطال مذهب المجبرة الذين يقولون ما أراد التذكر إلا ممن يتذكر ، فأما من لا يتذكر فقد كره ذلك منه ، ونص القرآن دافع لهذا القول ، قلنا أليس أنكم حملتم قوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم) على العاقبة ، فلم لا يجوز حمله ههنا على العاقبة ، فإن عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير

www.besturdubooks.wordpress.com

فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

من قبلك لعلهم يتذكرون ، ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ اعلم أن فى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ الجانب موصوف ، والغربى صفة ، فكيف أضاف الموصوف إلى الصفة ؟ (الجواب) هذه مسألة خلافية بين النحويين ، فعند البصريين لا يجوز إضافة الموصوف إلى الصفة إلا بشرط خاص سنذكره ، وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقاً . حجة البصريين ، أن إضافة الموصوف إلى الصفة تقتضى إضافة الشيء إلى نفسه ، وهذا غير جائز فذاك أيضاً غير جائز ، بيان الملازمة أنك إذا قلت جاءنى زيد الظريف ، فلفظ الظريف يدل على شيء معين فى نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة ، فإذا نصصت على زيد عرفنا أن ذلك الشيء الذى حصلت له الظرافة هو زيد ، إذا ثبت هذا ، فلو أضفت زيداً إلى الظريف ، كنت قد أضفت زيداً إلى زيد ، وإضافة الشيء إلى نفسه غير جائزة ، فإضافة الموصوف إلى صفته وجب أن لا تجوز ، إلا أنه جاء على خلاف هذه القاعدة ألفاظ ، وهى قوله تعالى فى هذه الآية (وما كنت بجانب الغربى) وقوله (وذلك دين القيمة) وقوله (حق اليقين) (ولدار الآخرة) ويقال صلاة الأولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء ، فقالوا التأويل فيه جانب المكان الغربى ودين الملة القيمة وحق الشيء اليقين ودار الساعة الآخرة وصلاة الساعة الأولى ومسجد المكان الجامع وبقلة الحبة الحمقاء ، ثم قالوا فى هذه المواضع : المضاف إليه ليس هو النعت ، بل المنعوت ، إلا أنه حذف المنعوت وأقيم النعت مقامه فههنا ينظر إن كان ذلك النعت كالمتعين لذلك المنعوت ، حسن ذلك وإلا فلا ، ألا ترى أنه ليس لك أن تقول عندى جيد على معنى عندى درهم جيد ، ويجوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه ، لأن الفقيه يعلم أنه لا يكون إلا من الناس والجيد قد يكون درهما وقد يكون غيره ، وإذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربى ، لأن الشيء الموصوف بالغربى الذى يضاف إليه الجانب لا يكون إلا مكاناً أو ما يشبهه ، فلا جرم حسنت هذه الإضافة ، وكذا القول فى البواقى والله أعلم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ مامعنى قوله (إذ قضينا إلى موسى الأمر) ؟ (الجواب) الجانب الغربى هو المكان الواقع فى شق الغرب ، وهو المكان الذى وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور ، وكتب الله فى الألواح والأمر المقضى إلى موسى عليه السلام الوحى الذى أوحى إليه ، والخطاب للرسول ﷺ يقول : وما كنت حاضر المكان الذى أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ، ولا كنت من جملة الشاهدين للوحى إليه أو على الموحى إليه ، وهى لأن الشاهد لابد وأن يكون حاضراً وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ السؤال الثالث ﴾ لما قال وما كنت بجانب الغربى ثبت أنه لم يكن شاهداً ، لأن الشاهد لابد أن يكون حاضراً ، فما الفائدة فى إعادة قوله (وما كنت من الشاهدين) ؟ (الجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما . التقدير لم تحضر ذلك الموضع ، ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع ، فإنه يجوز أن يكون هناك ، ولا يشهد ولا يرى .

﴿ السؤال الرابع ﴾ كيف يتصل قوله (ولكنا أنشأنا قروناً) بهذا الكلام ومن أى وجه يكون استدراكا له ؟ (الجواب) معنى الآية ، ولكنا أنشأنا بعد عهد موسى عليه السلام إلى عهدك قروناً كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذى أنت فيه ، فاندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى ، فالحاصل كأنه قال وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ، ولكنا أوحيناه إليك فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفترة ودل به على المسبب ، فاذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده . واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال إن فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله ، دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) .

أما قوله (وما كنت ثاوياً فى أهل مدين) فالمعنى ما كنت مقيما فيه

وأما قوله (تتلو عليهم آياتنا) ففيه وجهان (الأول) قال مقاتل : يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم (ولكنا كنا مرسلين) أى أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار ، ولولا ذلك لما علمتها (الثانى) قال الضحاك : يقول إنك يامحمد لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم الكتاب وإنما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين فى كل زمان رسولا ، فأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء .

أما قوله(وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه (ولكن رحمة من ربك) أى علمناك رحمة ، وقرأ عيسى بن عمر بالرفع أى هى رحمة ، وذكر المفسرون فى قوله (إذ نادينا) وجوهاً أخر (أحدها) إذ نادينا أى قلنا لموسى (ورحمتى وسعت كل شىء) إلى قوله (أولئك هم المفلحون) . (وثانيها) قال ابن عباس إذ نادينا أمتك فى أصلاب آبائهم «ياأمة محمد أجبتكم قبل أن تدعونى ، وأعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى» قال وإنما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا لميقات ربه و(ثالثها) قال وهب « لما ذكر الله لموسى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال رب أرنيهم قال إنك لن تدركهم وإن شئت أسمعتك أصواتهم قال بلى يارب فقال سبحانه يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم فأسمعه الله تعالى أصواتهم ثم قال : أجبتكم قبل أن تدعونى » الحديث كما ذكره ابن عباس (ورابعها) روى سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) قال كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفى عام ثم وضعه على العرش ثم

www.besturdubooks.wordpress.com

نادى «ياأمة محمد إن رحمتى سبقت غضبى أعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى من لقينى منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أدخلته الجنة» .

أما قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) فالإنذار هو التخويف بالعقاب على المعصية (واعلم) أنه تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله (وما كنت بجانب الغربى . وما كنت ثاوياً فى أهل مدين ، وما كنت بجانب الطور) فجمع تعالى بين كل ذلك لأن هذه الأحوال الثلاثة هى الأحوال العظيمة التى اتفقت لموسى عليه السلام إذ المراد بقوله (إذ قضينا إلى موسى الأمر) إنزال التوراة حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله (وما كنت ثاوياً) أول أمره والمراد ناديناه وسط أمره وهو ليلة المناجاة ، ولما بين تعالى أنه عليه السلام لم يكن فى هذه الأحوال حاضراً بين تعالى أنه بعثه وعرفه هذه الأحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) واختلفوا فيه فقال بعضهم لم يبعث إليهم نذير منهم (وقال بعضهم) حجة الأنبياء كانت قائمة عليهم ولكنه ما بعث إليهم من يجد تلك الحجة عليهم ، وقال بعضهم لا يبعد وقوع الفترة فى التكاليف فبعثه الله تعالى تقريراً للتكاليف وإزالة لتلك الفترة ،

أما قوله (ولولا أن تصيبهم مصيبة) الآية فقال صاحب الكشاف : لولا الأولى امتناعية وجوابها محذوف ، والثانية تحضيضية ، والفاء فى قوله فيقولوا للعطف ، وفى قوله للعطف . وفى قوله (فنتبع) جواب لولا لكونها فى حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل ، والباعث والمحضض من واد واحد ، والمعنى ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى : هلا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم ، يعنى إنما أرسلنا الرسول إزالة لهذا العذر وهو كقوله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) واعلم أنه تعالى لم يقل ولولا أن يقولوا هذا العذر لما أرسلنا ، بل قال (ولولا أن تصيبهم مصيبة فيقولوا) هذا العدو لما أرسلنا وإنما قال ذلك لنكتة وهى أنهم لو لم يعاقبوا مثلا وقد عرفوا بطلان دينهم لما قالوا ذلك ، بل إنما يقولون ذلك إذا نالهم العقاب فيدل ذلك على أنهم لم يذكروا هذا العذر تأسفاً على كفرهم ، بل لأنهم ما أطاقوا وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج الجبائى على وجوب فعل اللطف قال لو لم يجب ذلك لم يكن لهم أن يقولوا : هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ، إذ من الجائز أن لا يبعث إليهم وإن كانوا لا يختارون الايمان إلا عنده على قول من خالف فى وجوب اللطف كما مر أن الجائز إذا كان فى المعلوم لو خلق له لم يمكن إلا أن يفعل ذلك .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ

﴿المسألة الثانية﴾ احتج الكعبي به على أن الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الأمر كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا أنه ليس المراد من قوله (لا يسأل عما يفعل) ما يظنه أهل السنة، وإذا ثبت أنه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى. وإلا لكان للكافر أعظم حجة على الله تعالى.

﴿المسألة الثالثة﴾ قال القاضي: فيه إبطال القول بالجبر من جهات (إحداها) أن اتباعهم وإيمانهم موقوف على أن يخلق الله ذلك فيهم سواء أرسل الرسول إليهم أم لا (وثانيتها) أنه إذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء أرسل الرسول أم لا (وثالثتها) إذا أراد ذلك وجب أرسل الرسول إليهم أم لا، فأي فائدة في قولهم هذا لو كانت أفعالهم خلقاً لله تعالى؟ فيقال للقاضي هب أنك نازعت في الخلق والارادة ولكنك وافقت في العلم فاذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا، فان لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وإن وجب لزمك ماأوردته علينا، واعلم أن الكلام وإن كان قوياً حسناً إلا أنه إذا توجه عليه النقض الذي لامحيص عنه، فكيف يرضى العاقل بأن يعول عليه؟

قوله تعالى: ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون، قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين، فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين، ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون. الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه

www.besturdubooks.wordpress.com

يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين ﴾

إعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ، بين أيضاً أنه بعد الإرسال إلى أهل مكة قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون بأخرى ، فظهر أنه لامقصود لهم سوى الزيغ والعناد.

أما قوله (فلما جاءهم الحق من عندنا) أى جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن أن الله كلمه وكتب له فى الألواح وغيرها من الآيات فجاؤا بالإقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما أشبه ذلك.

(واعلم) أن الذى اقترحوه غير لازم لأنه لا يجب فى معجزات الأنبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل إليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد إذ الصلاح قد يكون فى إنزاله مجموعا كالتوراة ومفرقاً كالقرآن ، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) واختلفوا فى أن الضمير فى قوله (أو لم يكفروا) إلى من يعود ، وذكروا وجوهاً (أحدها) أن اليهود أمروا قريشاً أن يسألوا محمداً أن يؤتى مثل ما أوتى موسى عليه السلام فقال تعالى (أو لم يكفروا بما أوتى موسى) يعنى أو لم تكفروا ياهؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة (وثانيها) أن الذين أوردوا هذا الاقتراح كفار مكة ، والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام إلا أنه تعالى جعلهم كالشىء الواحد لأنهم فى الكفر والتعنت كالشىء الواحد (وثالثها) قال الكلبى إن مشركى مكة بعثوا رهطاً إلى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشأنه فقالوا إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما

www.besturdubooks.wordpress.com

رجع الرهط إليهم وأخبروهم بقول اليهود قالوا إنه كان ساحراً كما أن محمداً ساحر، فقال تعالى (أو لم يكفروا بما أوتى موسى) (ورابعها) قال الحسن قد كان للعرب أصل فى أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أو لم يكفر آباؤهم بأن قالوا فى موسى وهرون ساحران (وخامسها) قال قتادة أولم يكفر اليهود فى عصر محمد بما أوتى موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا ساحران (وسادسها) وهو الأظهر عندى أن كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم إنهم لما طلبوا من الرسول ﷺ معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) بل بما أوتى جميع الأنبياء من قبل، فعلمنا أنه لاغرض لكم من هذا الاقتراح إلا التعنت، ثم إنه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتى موسى من وجهين (الأول) قولهم (ساحران تظاهرا) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأهل المدينة ساحران بالألف وقرأ أهل الكوفة بغير ألف وذكروا فى تفسير الساحرين وجوهاً (أحدها) المراد هرون وموسى عليهما السلام تظاهرا أى تعاوناً وقرىء اظاهرا على الإدغام وسحران بمعنى ذوى سحر وجعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله (سحران) بأن المراد هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالألف لأن المظاهرة بالناس وأفعالهم أشبه منها بالكتب (وجوابه) إنا بينا أن قوله (سحران) يمكن حمله على الرجلين وبتقدير أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوى الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز تعاونا كما تقول تظاهرت الأخبار وهذه التأويلات إنما تصح إذا حملنا قوله (أو لم يكفروا بما أوتى موسى) إما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام ولا شك أن ذلك أليق بمساق الآية (الثانى) قولهم (إنا بكل كافرون) أى بما أنزل على محمد وموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق إلا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة فى أنهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوه فما الذى يمنع من مثله فى محمد ﷺ وإن ظهرت حجته، ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد ﷺ فقال (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله، قال الزجاج أتبعه بالجزم على الشرط ومن قرأ أتبعه بالرفع فالتقدير أنا أتبعه، ثم قال (فان لم يستجيبوا لك) قال ابن عباس يريد فان لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج، وقال مقاتل فان لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب أفضل منهما وهذا أشبه بالآية فان قيل الإستجابة تقتضى دعاء فأين الدعاء ههنا؟ قلنا قوله (فأتوا بكتاب) أمر والأمر دعاء إلى الفعل ثم قال (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) يعنى قد صاروا ملزمين ولم يبق لهم شىء إلا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد وأنه لابد من الحجة والاستدلال (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) وهو عام يتناول الكافر لقوله (إن الشرك لظلم عظيم) واحتج الأصحاب به فى أن هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين.

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وقالت المعتزلة ﴾ الألطاف منها ما يحسن فعلها مطلقاً ومنها ما لا يحسن إلا بعد الإيمان والدليل عليه قوله (والذين اهتدوا زادهم هدى) فقوله (إن الله لايهدى القوم الظالمين) محمول على القسم الثانى ولا يجوز حمله على القسم الأول، لأنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أن عدم بعثة الرسول جارمجرى العذرلهم، فبأن يكون عدم الهداية عذراً لهم أولى، ولما بين تعالى نبوة محمد ﷺ بهذه الدلالة قال (ولقد وصلنا لهم القول) وتوصيل القول هو إتيان بيان بعد بيان، وهو من وصل البعض بالبعض، وهذا القول الموصل يحتمل أن يكون المراد منه إنا أنزلنا القرآن منجماً مفرقاً يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك أقرب إلى التذكير والتنبيه، فإنهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب إلى التذكر، وعلى هذا التقدير يكون هذا جواباً عن قولهم هلاأوتى محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتى موسى كتابه كذلك، ويحتمل أن يكون المراد وصلنا أخبار الأنبياء بعضها ببعض وأخبار الكفار فى كيفية هلاكهم تكثيراً لمواضع الاتعاظ والانزجار ويحتمل أن يكون المراد : بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزاً مرة بعدأخرى لعلهم يتذكرون.

ثم إنه تعالى لما أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أى من قبل القرآن أسلموا بمحمد فمن لا يعرف الكتب أولى بذلك، واختلفوا فى المراد بقوله (الذين آتيناهم الكتاب) وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال قتادة إنها نزلت فى أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمداً آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام (وثانيها) قال مقاتل نزلت فى أربعين رجلا من أهل الإنجيل وهم أصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر (وثالثها) قال رفاعة بن قرظة نزلت فى عشرة أنا أحدهم، وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من حصل فى حقه تلك الصفة كان داخلا فى الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد إيمانهم وهو قولهم (آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) فقوله (إنه الحق من ربنا) يدل على التعليل يعنى أن كونه حقاً من عند الله يوجب الإيمان به وقوله (إنا كنا من قبله مسلمين) بيان لقوله (آمنا به) لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم وذلك لما وجدوه فى كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه، ثم إنه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وذكروا فيه وجوها : (أحدها) أنهم يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بمحمد ﷺ قبل بعثته و بعد بعثته وهذا هو الأقرب لأنه تعالى لما بين أنهم آمنوا به بعد البعثة وبين أيضاً أنهم كانوا به قبل مؤمنين البعثة ثم أثبت الأجر مرتين وجب أن ينصرف إلى ذلك (وثانيها) يؤتون الأجر مرتين مرة بإيمانهم بالأنبياء الذين كانوا قبل محمد ﷺ ومرة أخرى بإيمانهم بمحمد ﷺ (وثالثها) قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا بمحمد ﷺ شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم أجران أجر على الصفح وأجر على الإيمان، يروى أنهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه، قال السدى اليهود

www.besturdubooks.wordpress.com

عابوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول سلام عليكم ثم قال (ويدرءون بالحسنة السيئة) والمعنى [يدفعون] بالطاعة المعصية المتقدمة ، ويحتمل أن يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الأذى ، ويحتمل أن يكون المراد من الحسنه امتناعهم من المعاصي لأن نفس الامتناع حسنة ويدفع به مالولاه لكان سيئة ، ويحتمل التوبة والإنابة والاستقرار عليها ، ثم قال (ومما رزقناهم ينفقون) .

واعلم أنه تعالى مدحهم أولا بالإيمان ثم بالطاعات البدنية فى قوله (ويدرءون بالحسنة السيئة) ثم بالطاعات المالية فى قوله (ومما رزقناهم ينفقون) قال القاضى دل هذا المدح على أن الحرام لا يكون رزقاً (جوابه) أن كلمة من للتبعيض فدل على أنهم استحقوا المدح بإنفاق بعض ما كان رزقاً ، وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله ، ثم لما بين كيفية اشتغالهم بالطاعات والأفعال الحسنة بين كيفية إعراضهم عن الجهال فقال (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) واللغو ماحقه أن يلغى ويترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه إعراضاً جميلا فلذلك قال تعالى (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) وما أحسن ما قال الحسن رحمه الله فى أن هذه الكلمة تحية بين المؤمنين ، وعلامة الاحتمال من الجاهلين ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ثم أكد تعالى ذلك بقوله حاكياً عنهم (لا نبتغى الجاهلين) والمراد لانجازيهم بالباطل على باطلهم ، قال قوم نسخ ذلك بالأمر بالقتال وهو بعيد لأن ترك المسافهة مندوب ، وإن كان القتال واجباً .

بحمد الله تم الجزء الرابع والعشرون ، ويليه الجزء الخامس والعشرون
وأوله تفسير قوله تعالى (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) من سورة القصص

www.besturdubooks.wordpress.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

اعلم أن فى قوله تعالى (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية لا دلالة فى ظاهرها على كفر أبى طالب ثم قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت فى أبى طالب وذلك أن أبا طالب قال عند موته يامعشر بنى عبد مناف أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال عليه السلام « ياعم تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك ! قال فما تريد ياابن أخى ؟ قال أريد منك كلمة واحدة ، فانك فى آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا إله إلا الله ، أشهد لك بها عند الله تعالى ، قال ياأخى قد علمت أنك صادق ولكنى أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة ومسبة بعدى لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك ، ولكنى سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف » .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى قال فى هذه الآية (إنك لا تهدى من أحببت) وقال فى آية أخرى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) ولا تنافى بينهما فان الذى أثبته وأضافه إليه الدعوة والبيان والذى نفى عنه هداية التوفيق ، وشرح الصدر وهو نور يقذف فى القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً) الآية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية فى مسألة الهدى والضلال ، فقالوا قوله (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) يقتضى أن تكون الهداية فى الموضعين بمعنى واحد لأنه لو كان المراد من الهداية فى قوله (إنك لا تهدى) شيئاً وفى قوله (ولكن الله يهدى من يشاء) شيئاً آخر لاختل النظم ، ثم إما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة أو الدعوة إلى الجنة أو تعريف

www.besturdubooks.wordpress.com

طريق الجنة أو خلق المعرفة فى القلوب على سبيل الإلجاء أو خلق المعرفة فى القلوب لا على سبيل الإلجاء لا جائز أن يكون المراد بيان الأدلة لأنه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهى غير الهداية التى نفى الله عمومها ، وكذا القول فى الهداية بمعنى الدعوة إلى الجنة ، وأما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهى أيضاً غير مرادة من الآية لأنه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لأنه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقاً على المشيئة فمن وجب عليه أداء عشرة دنانير ، لا يجوز أن يقول إنى أعطى عشرة دنانير إن شئت ، وأما الهداية بمعنى الإلجاء والقسر فغير جائز لأن ذلك عندهم قبيح من الله تعالى فى حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه فى المشيئة ، ولما بطلت الأقسام لم يبق إلا أن المراد أنه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ، ولا يسأل عما يفعل ، ومتى أوردت الكلام على هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضى عذراً عن ذلك .

أما قوله (وهو أعلم بالمهتدين) فالمعنى أنه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدى بعد ومن لا يهتدى ، ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر شبههم وأجاب عنها بالأجوبة الواضحة ، وبين أن وضوح الدلائل لا يكفى ما لم ينضم إليه هداية الله تعالى ، حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهى قولهم (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) قال المبرد : الخطف ، الانتزاع بسرعة ، روى أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله ﷺ: إنا لنعلم أن الذى تقوله حق، ولكن يمنعنا من ذلك تخطفنا من أرضنا ، أى يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من أرضنا . فأجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه (الأول) قوله (أو لم نمكن لهم حرماً آمنا) أى أعطيناكم مسكناً لا خوف لكم فيه ، إما لأن العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه ، فإنه يروى أن العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة ، وما كانوا يتعرضون البتة لسكان الحرم ، أو لقوله تعالى (ومن دخله كان آمناً) أما قوله (يجبى إليه ثمرات كل شىء) فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خالياً عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ، ومعنى (يجبى) يجمع من قولهم : جبيت الماء فى الحوض إذا جمعته ، قرأ أهل المدينة تجبى بالتاء ، وأهل الكوفة ، وأبو عمرو بالياء ، وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقى ، فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ، ومعنى الكلية الكثرة كقوله (وأوتيت من كل شىء) وحاصل (الجواب) أنه تعالى لما جعل الحرم آمناً وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان ، فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى ، قال القاضى : ولو أن الرسول قال لهم إن الذى ذكرتم من التخطف لو كان حقاً لم يكن عذراً لكم فى أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا ، أو قال لهم إن تخطفهم لكم بالقتل وغيره ، وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو

www.besturdubooks.wordpress.com

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا
رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضاً ، ولو قال لهم ماقدر مضرة التخطف فى جنب العقاب الدائم الذى أخوفكم منه إن بقيتم على كفركم لانقطعوا ، لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم فى أنهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة ، أن ذلك لايجرى إن آمنوا ، ومثل ذلك إذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا ، فلذلك قدمه الله تعالى ، والآية دالة على صحة الحجاج الذى يتوصل به إلى إزالة شبهة المبطلين ، بقي ههنا بحثان :

﴿ الأول ﴾ قال صاحب الكشاف فى انتصاب رزقاً إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله ، لأن معنى يجبى إليه ثمرات كل شيء ، ويرزق ثمرات كل شيء واحد ، وأن يكون مفعولا له ، وإن جعلته بمعنى مرزوق كان حالا من الثمرات لتخصيصها بالإضافة ، كما ينتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة .

﴿ الثانى ﴾ احتج الأصحاب بقوله (رزقاً من لدنا) فى أن فعل العبد خلق الله تعالى ، وبيانه أن تلك الأرزاق إنما كانت تصل إليهم ، لأن الناس كانوا يحملونها إليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقاً لله تعالى لما صحت تلك الإضافة ، فان قيل سبب تلك الإضافة أنه تعالى هو الذى ألقى تلك الدواعى فى قلوب من ذهب بتلك الأرزاق إليهم ، قلنا تلك الدواعى إن اقتضت الرجحان ، فقد بينا فى غير موضع أنه متى حصل الرجحان ، فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود ، وإن لم يحصل الرجحان انقطعت الإضافة بالكلية . واعلم أنه تعالى إنما بين أن تلك الأرزاق ماوصلت إليهم إلا من الله تعالى ، لأجل أنهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لايخافون أحداً سوى الله تعالى ولا يرجون أحداً غير الله تعالى ، فيبقى نظرهم منقطعاً عن الخلق متعلقاً بالخالق ، وذلك يوجب كمال الإيمان والإعراض بالكلية عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ

اعلم أن هذا هو (الجواب الثانى) عن تلك الشبهة ، وذلك لأنه تعالى لما بين لأهل مكة ماخصوا به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالأمم الماضية الذين كانوا فى نعم الدنيا ، فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم ، والمقصود أن الكفار لما قالوا إنا لا نؤمن خوفاً من زوال نعمة الدنيا ، فالله تعالى بين لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذى يزيل هذه النعم ، لا الإقدام على الإيمان ، قال صاحب الكشاف : البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه ، وانتصبت معيشتها إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله (واختار موسى قومه) أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها ، وإما تضمين بطرت معنى كفرت .

فأما قوله (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) ففى هذا الاستثناء وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة (وثانيها) يحتمل أن شؤم معاصى المهلكين بقى أثره فى ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلا وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها ، وإذا لم يبق للشىء مالك معين قيل إنه ميراث الله لأنه الباقى بعد فناء خلقه ، ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها، فكأن سائلا أورد السؤال من وجهين (الأول) لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد ﷺ مع أنهم كانوا مستغرقين فى الكفر والعناد؟ (الثانى) لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد ﷺ مع تمادى القوم فى الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد ﷺ ؟ فأجاب عن السؤال الأول بقوله (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) وحاصل الجواب أنه تعالى قدم بيان أن عدم البعثة يجرى مجرى العذر للقوم ، فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة ، ثم ذكر المفسرون وجهين (أحدهما) (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا) أى فى القرية التى هى أمها وأصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها رسولا لإلزام الحجة وقطع المعذرة (الثانى) وما كان ربك مهلك القرى التى فى الأرض حتى يبعث فى أم القرى يعنى مكة رسولا وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، ومعنى (يتلو عليهم آياتنا) يؤدى ويبلغ ، وأجاب عن السؤال الثانى بقوله (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمناً

قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ

تعقلون ، أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ .

اعلم أن هذا هو (الجواب الثالث) عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ماعند الله خير وأبقى ، أما أنه خير فلوجهين (أحدهما) أن المنافع هناك أعظم (وثانيهما) أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر ، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لانسبة لها إلى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال (أفلاتعقلون) يعني أن من لايرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجاً عن حد العقل ، ورحم الله الشافعي حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة . فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية ، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب فى أن نعم الآخرة راجحة عليها ، وهذا هو المراد بقوله (أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه) فهو يكون كمن أعطاه الله قدراً قليلاً من متاع الدنيا ثم يكون فى الآخرة من المحضرين للعذاب ، والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لولم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم ، وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى (لكنت من المحضرين ، فانهم لمحضرون) وفى لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام ، وذلك لايليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ، قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ، وقيل ادعوا

www.besturdubooks.wordpress.com

عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانو يهتدون . ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين . فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء (أحدها) قوله (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ماكانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا فى العبادة وتزعمون أنه يشفع ؟ أين هو لينصركم ويخلصكم من هذا الذى نزل بكم . ثم بين تعالى مايقوله من حق عليه القول ، والمراد من القول هو قوله (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ومعنى حق عليه القول أى حق عليه مقتضاه ، و اختلفوا فى أن الذين حق عليهم هذا القول من هم ؟ فقال بعضهم الرؤساء الدعاة إلى الضلال ، وقال بعضهم الشياطين قوله (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع إلى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غياً مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعنى أن إغواءنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد والأعمال ، وهذا معنى ماحكاه الله عن الشيطان أنه قال (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) وقال تعالى لإبليس (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فقوله (إلا من اتبعك) يدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لامن قبل إلجاء الشيطان إلى ذلك ، ثم قال تبرأنا إليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ماكانوا إيانا يعبدون . إنما كانوا يعبدون أهواءهم ، والحاصل أنهم يتبرءون منهم كما قال تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وأيضاً فلا يمتنع فى قوله تعالى (أين شركائى) أن يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزلة الشريك لله تعالى ، وإذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا إلهنا هؤلاء ماعبدونا إنما عبدوا أهواءهم الفاسدة

www.besturdubooks.wordpress.com

(وثانيها) قوله تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) والأقرب أن هذا على سبيل التقرير لأنهم يعلمون أنه لا فائدة فى دعائهم لهم ، فالمراد أنهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة فى النصرة وأن العذاب ثابت فيهم ، وكل ذلك على وجه التوبيخ ، وفى ذكره زدع وزجر فى دار الدنيا ، فأما قوله تعالى (لو أنهم كانوا يهتدون) فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ماأبصروه فى الآخرة (وثانيها) لو أنهم كانوا مهتدين فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا فى الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون إذا رأوا العذاب ويؤكدذلك قوله تعالى (لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) وعندى أن الجواب غير محذوف وفى تقريره وجوه (أحدها) أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله (ادعوا شركاءكم) فهنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شىء كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً فقال تعالى (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) شيئاً أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيئاً لاجرم مارأوا العذاب (وثانيها) أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهى الأصنام أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال فى حقهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلاجرم مارأت العذاب فان قيل قوله (ورأوا العذاب) ضمير لا يليق إلا بالعقلاء فكيف يصح عوده إلى الأصنام ؟ قلنا هذا كقوله (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) وإنما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أى والكفار علموا حقية هذا العذاب فى الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك النظم من الآية (الأمر الثالث) من الأمور التى يسأل الله الكفار عنها قوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الأنباء) أى فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعاً لا تهتدى اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس فى المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب ، وقرىء فعميت وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك يتعتعون فى الجواب عن مثل هذا السؤال ، ويفوضون الأمر إلى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فما ظنك بهؤلاء الضلال ، قال القاضى هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لأن فعلهم لو كان خلقاً من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والإرادة لما عميت عليهم الأنباء ولقالوا إنما أتينا فى تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك ، فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لأن الشيطان كان له أن يقول إنما أغويت بخلقك فى الغواية ، وإنما قبل من دعوته لمثل ذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

فتكون الحجة لهم فى ذلك قوية والعذر ظاهراً (والجواب) أن القاضى لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب إلا ويعيد استدلاله بها ، وكما أن وجه استدلاله فى الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الإيمان مع وقوع الإيمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الايمان إذا أمر بادخال الإيمان فى الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين ، والذى اعتمد القاضى عليه فى دفع هذا الحرف فى كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول إنه يمكن وخطأ قول من يقول إنه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب إلا السكوت ، فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهراً فثبت أن الإشكال مشترك والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ أتبعه بذكر من يتوب منهم فى الدنيا ترغيباً فى التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال (فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين) وفى عسى وجوه : (أحدها) أنه من الكرام تحقيق والله أكرم الأكرمين (وثانيها) أن يراد ترجي التائب وطمعه كأنه قال فليطمع فى الفلاح (وثالثها) عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا ، واعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة أخرى ويقولون (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفى ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله (وربك يخلق ما يشاء ويختار) والمراد أنه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لا اعتراض عليه البتة ، وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أنه كل ما فعله كان حكمة وصواباً فليس لأحد أن يعترض عليه وقوله (ما كان لهم الخيرة) والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر

www.besturdubooks.wordpress.com

والخيرة أيضاً اسم للمختار يقال محمد خيرة الله فى خلقه إذا عرفت هذا فنقول فى الآية وجهان : (الأول) وهو الأحسن أن يكون تمام الوقف على قوله (ويختار) ويكون ما نفياً ، والمعنى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل (والثانى) أن يكون ما بمعنى الذى فيكون الوقف عند قوله (وربك يخلق ما يشاء) ثم يقول (ويختار) ماكان لهم الخيرة ، قال أبو القاسم الإنصارى وهذا متعلق المعتزله فى ايجاب الصلاح والأصلح عليه ، وأى صلاح فى تكليف من علم أنه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله ، فان قيل لما كلفه استوجب على الله ماهو الأفضل لأن المستحق أفضل من المتفضل به قلنا إذا علم قطعاً إنه لا يحصل ذلك الأفضل فتوريطه فى العقاب الأبدى لا يكون رعاية للمصلحة ، ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لأن ذلك التفاوت إنما يحصل فى حق من يستنكف من تفضله ، أما الذى ماحصل الذات والصفات إلا بخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستنكف من تفضله ، ثم قال (سبحان الله وتعالى عما يشركون) والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والإذلال مفوض اليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله ﷺ وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره فى النبوة ، ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال (وهو الله لا إلا هو) وفيه تنبيه على كونه قادراً على كل الممكنات ، وعالماً بكل المعلومات ، منزهاً عن النقصائص والآفات يجازى المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين ، ويحتمل أيضاً أنه لما بين فساد طريق المشركين من قوله (يوم يناديهم) فيقول (أين شركائى) ختم الكلام فى ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان أن الحمد والثناء لا يليق إلا به .

أما قوله (له الحمد فى الأولى والآخرة) فهو ظاهر على قولنا لأن الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلا وإحساناً فله الحمد فى الأولى والآخرة ، ويؤكد ذلك قول أهل الجنة (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة ، وأما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم ، قال القاضى إنه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضاً بما فعله بهم فى الدنيا من التمكين والتيسير والالطاف وسائر النعم . لأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر ، وهذا فيه نظر . لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فاذا علموا بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة أن الإشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم فى استحقاق الثواب أفترى أن الانسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة ؟ كلا ، بل لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر ، ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب .

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

أما قوله (وله الحكم) فهو إما فى الدنيا أو فى الآخرة فأما فى الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه ، فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول ، فهو الحاكم فى الحقيقة ، وأما فى الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم ، لأنه الذى يتولى الحكم بين العباد فى الآخرة ، فينتصف المظلومين من الظالمين .

أما قوله (وإليه ترجعون) فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون ، فان كلمة إلى لانتهاء الغاية وهو تعالى منزه من المكان والجهة .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة) فنبه على أن الوجه فى كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء فى الدنيا وفى حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه ، فأما فى الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجه بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات ، فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك إلا الله تعالى ، وإنما قال (أفلا تسمعون)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(أفلا تبصرون) لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبي قوله (أفلا تسمعون) معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله (أفلا تبصرون) معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ، قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد ، فإن قيل هلا قال: بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل : بليل تسكنون فيه ؟ قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ، وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون ، لأن السمع يدرك مالا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ، ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا فى أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضله فى الآخر وهو النهار ولأداء الشكر على المنفعتين معاً .

واعلم أنه وإن كان السكون فى النهار ممكناً وابتغاء فضل الله بالليل ممكناً إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ، ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين ، أولا : ثم ذكر التوحيد ودلائله ، ثانياً : عاد إلى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم فى الآخرة فقال (ويوم يناديهم) أى القيامة فيقول (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) والمعنى أين الذين ادعيتم إلهيتهم لتخلصكم ، أو أين قولكم تقربنا إلى الله زلفى وقد علموا أن لا إله إلا الله فيكون ذلك زائداً فى غمهم إذا خوطبوا بهذا القول .

أما قوله (ونزعنا من كل أمة شهيداً) فالمراد ميزنا واحداً ليشهد عليهم ، ثم قال بعضهم هم الأنبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا فى إيضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائداً فى غمهم ، وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس فى كل زمان ويدخل فى جملتهم الأنبياء وهذا أقرب لأنه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الأحوال التى لم يوجد فيها النبى وهى أزمنة الفترات والأزمنة التى حصلت بعد

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

محمد ﷺ فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله (وضل عنهم) غاب عنهم غيبة الشيء الضائع (ما كانوا يفترون) من الباطل والكذب .

قوله تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾

اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام ، وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة ، قال الكلبي : إنه كان ابن عم موسى عليه السلام ، لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى ، وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن اسحق إنه كان عم موسى عليه السلام ، لأن موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون بن يصهر بن قاهث . وعن ابن عباس أنه كان ابن خالته ، ثم قيل إنه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة ، إلا أنه نافق كما نافق السامرى .

أما قوله (فبغى عليهم) ففيه وجوه (أحدها) أنه بغى بسبب ماله ، وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الإيمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله (والثانى) أنه من الظلم ، قيل ملكه فرعون على

www.besturdubooks.wordpress.com

بنى إسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال : بغى عليهم ، أى طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الرابع) قال الضحاك : طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوفقهم فى أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب : بغيه عليهم أنه زاد عليهم فى الثياب شبراً ، وهذا يعود إلى التكبر (السابع) قال الكلبى : بغيه عليهم أنه حسد هرون على الحبورة ، يروى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون ، فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح ، وكان لموسى الرسالة ، فوجد قارون من ذلك فى نفسه ، فقال ياموسى لك الرسالة ، ولهرون الحبورة ، ولست فى شىء ولا أصبر أنا على هذا ، فقال موسى عليه السلام : والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له ، فقال والله لا أصدقك أبداً حتى تأتينى بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهرون ، قال فأمر موسى عليه السلام رؤساء بنى إسرائيل أن يجىء كل رجل منهم بعصاه ، فجاءوا بها ، فألقاها موسى عليه السلام فى قبة له ، وكان ذلك بأمر الله تعالى ، فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك ، فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى ياقارون أما ترى ما صنع الله لهرون ! فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر ، فاعتزل قارون ومعه ناس كثير ، وولى هرون الحبورة والمذبح والقربان ، فكان بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هرون فيضعها فى المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها ، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بنى إسرائيل ، فما كان يأتى موسى عليه السلام ولا يجالسه ، وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ أنه قال « كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى » .

أما قوله (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) ففيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قال الكعبى : ألستم تقولون إن الله لا يعطى الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله (وآتيناه) ؟ وأجاب بأنه لا حجة فى أنه كان حراماً ، ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك ، وكان هذا الظفر طريق التملك ، أو وصل إليه بالإرث من جهات ، ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملا .

﴿ البحث الثانى ﴾ المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو مايفتح به ، وقيل هى الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم ، ويقال ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها ، فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى فى إخوة يوسف عليه السلام (ونحن عصبة) وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم .

إذا عرفت معنى الألفاظ فنقول : ههنا قولان (أحدهما) أن المراد بالمفاتح المفاتيح وهى التى يفتح بها الباب ، قالوا كانت مفاتيحه من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع ، وكان لكل خزانة مفتاح ، وكان إذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ، ومن الناس من طعن فى هذا القول

www.besturdubooks.wordpress.com

من وجهين (الأول) أن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ، ولو أنا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح ، فأى حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح (الثانى) أن الكنوز هى الأموال المدخرة فى الأرض ، فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح(والجواب)عن الأول أن المال إذا كان من جنس العروض ، لا من جنس النقد جاز أن يبلغ فى الكثرة إلى هذا الحد ، وأيضاً فهذا الذى يقال إن تلك المفاتيح بلغت ستين حملا ، ليس مذكوراً فى القرآن فلا تقبل هذه الرواية ، وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة ، وكان كل واحد منها معيناً لشىء آخر ، فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها ، وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد ، وعن الثانى أن ظاهر الكنز وإن كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع فى المواضع التى عليها أغلاق (القول الثانى) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد . قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء ، وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار أبى مسلم : أن المراد من المفاتح العلم والإحاطة كقوله (وعنده مفاتح الغيب) والمراد آتيناه من الكنوز ما إن حفظها والإطلاع عليها ليثقل على العصبة أولى القوة والهداية ، أى هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها . ثم إنه تعالى بين أنه كان فى قومه من وعظه بأمور (أحدها) قوله (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) والمراد أن لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلا ، وقال بعضهم : إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبى :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأحسن وأوجز منه ماقال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) قال ابن عباس : كان فرحه ذلك شركا ، لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) والظاهر أنه كان مقراً بالآخرة ، والمراد أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وفيه وجوه (أحدها) لعله كان مستغرق الهم فى طلب الدنيا فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام إنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الإنفاق فى طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذى يأكل ويشرب قال عليه السلام « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار » (ورابعها) قوله (وأحسن كما أحسن الله اليك) لما أمره

www.besturdubooks.wordpress.com

بالإحسان بالمـال أمره بالإحسان مطلقاً ويدخل فيه الإعانة بالمـال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر ، وإنمـا قال (كما أحسن الله إليك) تنبيهاً على قوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) وخامسها قوله (ولا تبغ الفساد فى الأرض) والمراد ماكان عليه من الظلم والبغى وقيل إن هذا القائل هو موسى عليه السلام ، وقال آخرون بل مؤمنو قومه ، وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد ، لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال إنمـا أوتيته على علم عندى وفيه وجوه : (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبي كان قارون أقرأ بنى اسرائيل للتوراة فقال إنمـا أوتيته لفضل على واستحقاق لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهباً (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) أن يكون قوله (إنمـا أوتيته على علم عندى) أى الله أعطانى ذلك مع كونه عالمـاً بى وبأحوالى فلو لم يكن ذلك مصلحة لمـا فعل وقوله (عندى) أى عندى أن الأمر كذلك ، كما يقول المفتى عندى أن الأمر كذلك أى مذهبى واعتقادى ذلك ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً)وفيه وجهان :(الأول) يجوز أن يكون هذا إثباتاً لعلمه بأن الله تعـالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه فى التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له :أولم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثانى) يجوز أن يكون نفياً لعلمه بذلك كأنه لمـا قال أوتيته على علم عندي فتصلف بالعلم وتعظم به ، قيل أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين ؟ .

أما قوله (وأكثر جمعاً) فالمعنى أكثر جمعاً للمـال أو أكثر جماعة وعدداً ، وحاصل الجواب أن اغتراره بمـاله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم ، وأنه تعالى إذا أراد إهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافاً .

فأما قوله (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها ، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال ، فان قيل كيف الجمع بينه وبين قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) ؟ قلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه ، وذكر أبو مسلم وجهاً آخر فقال : السؤال قد يكون للمحاسبة ، وقد يكون للتقرير والتبكيت ، وقد يكون للاستعتاب ، وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله (ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذون لهم فيعتذرون) .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

أما قوله (فخرج على قومه فى زينته) فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس فى القرآن إلا هذا القدر ، إلا أن الناس ذكروا وجوهاً مختلفة فى كيفية تلك الزينة ، قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب ، وقال بعضهم بل خرج فى تسعين ألفاً هكذا ، وقال آخرون بل على ثلثمائة . والأولى ترك هذه التقريرات لأنها متعارضة ، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب فى الدنيا (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) من هذه الأمور والأموال ، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم ، لأن الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة ، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث ، قال صاحب الكشاف : ويلك أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك مالا يرتضى .

أما قوله (ولا يلقاها إلا الصابرون) فقال المفسرون لا يوفق لها والضمير فى يلقاها إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان : (أحدهما) إلى ما دل عليه قوله (آمن وعمل صالحاً) يعنى هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون (والثانى) قال الزجاج يعنى ، ولا يلقى هذه الكلمة وهى قولهم ثواب الله خير إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات ، وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار .

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما قوله (فخسفنا به وبداره الأرض) ففيه وجهان : (أحدهما) أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره ، والفاء تدل على ذلك ، لأن الفاء تشعر بالعلية (وثانيها) قيل إن قارون كان يؤذى نبى الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بنى اسرائيل ، وقال إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت ، قال نبرطل فلانة البغى حتى تنسبه إلى نفسها فيرفضه بنو اسرائيل فجعل لها طستاً من ذهب مملوءاً ذهباً فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يا بنى اسرائيل من سرق قطعناه ، ومن زنى وهو [غير] محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه ، فقال قارون وإن كنت أنت ؟ قال وإن كنت أنا ، قال فان بنى إسرائيل يقولون إنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذى فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتدار كها الله تعالى ، فقالت كذبوا بل جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك بنفسى ، فخر موسى ساجداً يبكى ، وقال يارب إن كنت رسولك فاغضب لى ، فأوحى الله عز وجل إليه أن مر الأرض بما شئت فانها مطيعة لك ، فقال يابنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ، ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال خذيهم فانطبقت الأرض عليهم فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ماأفظك استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم ، أما وعزتى لو دعونى مرة واحدة لوجدونى قريباً مجيباً . فأصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ، ثم إن قارون يخسف به كل يوم مائة قامة ، قال القاضى إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الأرض إلى الأرض السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة فى الزجر ، وأما قولهم إنه تعالى قال لو استغاث بى لأغثته ، فان صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ماهو عليه مع أنه تعالى هو الذى حكم بذلك الخسف لأن موسى عليه السلام مافعله إلا عن أمره فبعيد ، وقولهم إنه يتجلجل فى الأرض أبداً . فبعيد لأنه لابد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات ، والذى عندى فى أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين ، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ، ثم إنها فى أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب .

أما قوله (وماكان من المنتصرين) فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر ، أى منعه منه فامتنع .

قوله تعالى : ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون فى زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعياً إلى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسله .

أما قوله (ويكأن الله) فاعلم أن وى كلمة مفصولة عن كأن وهى كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم ، فلما قالوا (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا وى ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ،ويضيق على من يشاء لالهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة (قال سيبويه) سألت الخليل عن هذا الحرف فقال إن وى مفصولة من كان وأن القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ما سلف منهم وى . وذكر الفراء وجهين (أحدهما) أن المعنى ويلك فحذف اللام وإنما جاز هذا الحذف لكثرتها فى الكلام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أن الله ، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس (الثانى) وى منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وى أما ترى مابين يديك فقال الله وى ثم استأنف كان الله يبسط فالله تعالى إنما ذكرها تعجيباً لخلقه ، قال الواحدى وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ماقالوه لكتبوها منفصلة ، وأجاب الأولون بأن خط المصحف لا يقاس عليه ، ثم قالوا (لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) وهذا تأكيد لما قبله .

أما قوله (تلك الدار الآخرة) فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما ، وعن على

www.besturdubooks.wordpress.com

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ
مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ
﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

عليه السلام : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها ، قال صاحب الكشاف : ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله (إن فرعون علا فى الأرض) والفساد لقارون لقوله (ولا تبغ الفساد فى الأرض) ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله (والعاقبة للمتقين) كما تدبره على بن أبى طالب عليه السلام

قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ، إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ، وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ، ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علواً فى الأرض ولا فساداً ، بل هى للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال (من جاء بالحسنة فله خير منها) وفيه وجوه (أحدها) المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شىء هو أفضل من تلك الحسنة ، ومعناه أنهم يزادون على ثوابهم وقد مر تفسيره فى آخر النمل ، وأما قوله (ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئآت إلا ما كانوا يعملون) فظاهره أن لايزادوا على ما يستحقون .

www.besturdubooks.wordpress.com

وإذا صح ذلك فى السيئات دل أن المراد فى الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل على الثواب ، قال صاحب الكشاف تقدير الآية : ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون ، لكنه كرر ذلك لأن فى إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ، وهذا من فضله العظيم أنه لايجزى بالسيئة إلا مثلها ، ويجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) كرر ذلك الإحسان واكتفى بذكر الإساءة بمرة واحدة ، وفى هذه الآية كرر ذكر الإساءة مرتين واكتفى فى ذكر الإحسان بمرة واحدة ، فما السبب ؟ (الجواب) لأن هذا المقام مقام الترغيب فى الدار الآخرة ، فكانت المبالغه فى الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب ، لأن المبالغة فى الزجر عن المعصية مبالغة فى الدعوة إلى الآخرة . وأما الآية الآخرى فهى شرح حالهم فكانت المبالغة فى ذكر محاسنهم أولى .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف قال : لا تجزى السيئة إلا بمثلها ؟ مع أن المتكلم بكلمة الكفر إذا مات فى الحال عذب أبد الآباد (والجواب) لأنه كان على عزم أنه لو عاش أبداً لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه . قال الجبائى : وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الأطفال عذاباً دائماً بغير جرم ، قلنا لا يجوز أن يفعله وليس فى الآية ما يدل عليه ، ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى فى ذلك ، شرح له ما يتصل بأحواله فقال (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) قال أبو على : الذى فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت إلى معاد ، وتنكير المعاد لتعظيمه ، كأنه قال إلى معاد وأى معاد ، أى ليس لغيرك من البشر مثله ، وقيل المراد به مكة ، ووجهه أن يراد برده إليها يوم الفتح ، ووجه تنكيره أنها كانت فى ذلك اليوم معاداً له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله ﷺ عليها وقهره لأهلها وإظهار عز الإسلام وإذلال حزب الكفر والسورة مكية ، فكأن الله تعالى وعده وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً . وقال مقاتل : إنه عليه السلام خرج من الغار وسار فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : تشتاق إلى بلدك ومولدك ، فقال عليه السلام : نعم ، فقال جبريل عليه السلام : فإن الله تعالى يقول (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يعنى إلى مكة ظاهراً عليهم وهذا أقرب ، لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود ، وذلك لا يليق إلا بمكة ، وإن كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب . قال أهل التحقيق : وهذا أحد مايدل على نبوته ، لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً ، ثم قال (قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) ووجه تعلقه بما قبله أن

www.besturdubooks.wordpress.com

الله تعالى لما وعد رسوله الرد إلى معاد ، قال(قل)للمشركين (ربى أعلم من جاء بالهدى) يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب فى المعاد والإعزاز بالإعادة إلى مكة (ومن هو فى ضلال مبين) يعنيهم وما يستحقون من العقاب فى معادهم ، ثم قال لرسوله (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ففى كلمة إلا وجهان (أحدهما) أنها للاستثناء ، ثم قال صاحب الكشاف : هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل (وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ويمكن أيضاً إجراؤه على ظاهره ، أى وما كنت ترجو إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك ، أى ما كنت ترجو إلا على هذا (والوجه الثانى) أن إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أى ولكن رحمة من ربك ألقى إليك ونظيره قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك) خصصك به ، ثم إنه كلفه بأمور (أحدها) كلفه بأن لا يكون مظاهراً للكفار فقال (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) (وثانيها) أن قال (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) الميل إلى المشركين ، قال الضحاك وذلك حين دعوه إلى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطراً من مالهم ، أى لا تلتفت إلى هؤلاء ولاتركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله (وادع إلى ربك) أى إلى دين ربك ، وأراد التشدد فى دعاء الكفار والمشركين ، فلذلك قال(ولا تكونن من المشركين) لأن من رضى بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم (ورابعها) قوله (ولا تدع مع الله إلهاً آخر) وهذا وإن كان واجباً على الكل إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصاً لأجل التعظيم ، فإن قيل الرسول كان معلوماً منه أن لا يفعل شيئاً من ذلك البتة فما فائدة هذا النهى ؟ قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلا فى أمورك ، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه فى التوحيد ، ثم بين أنه لا إله إلا هو ، أى لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع إلا هو ، كقوله(رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) فلا يجوز اتخاذ إله سواه ، ثم قال (كل شىء هالك إلا وجهه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى قوله ﴿ كل شىء هالك ﴾فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم ، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شىء سواه ، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به ، إما بالإماتة أوبتفريق الأجزاء ، وإن كانت أجزاؤه باقية ، فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه ، بل خروجه عن كونه منتفعاً به ، ومنهم من قال : معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك فى ذاته ، فان كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم فكان قابلا للهلاك ، فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً إلى هذا الوجه .

واعلم أن المتكلمين لما أرادوا إقامة الدلالة على أن كل شىء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا : ثبت أن العالم محدث ، وكل ما كان محدثاً فان حقيقته قابلة للعدم والوجود ، وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبداً ، لأن الإمكان من لوازم الماهيـــة ، ولازم الماهية

www.besturdubooks.wordpress.com

لا يزول قط ، إلا أنا لما نظرنا فى هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض ، لأنهم إنما أقاموا الدلالة على حدوث الأجسام والأعراض ، فلو قدروا على إقامة الدلالة على أن ماسوى الله تعالى إما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم ، إلا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ، فالدليل الذى يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ماسوى الله تعالى إلا بعدقيام الدلالة على نفى ذلك القسم الثالث ، ولهم فى نفى هذا القسم الثالث طريقان (أحدهما) قولهم لادليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها فى الكتب الكلامية (والثانى) قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى فى نفى المكان والزمان والإمكان ، ولو كان كذلك لصار مثلا لله تعالى وهو ضعيف ، لاحتمال أن يقال إنهما وإن اشتركا فى هذا السلب إلا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة ، وإذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلى لا يفى بإثبات أن كل شىء هالك إلا وجهه ، والذى يعتمد عليه فى هذا الباب أن نقول ثبت أن صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته ، وإلا لاشتركا فى الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته ، وما به المشاركة غير مابه الممايزة فيكون كل واحد منهما مركباً عما به المشاركة وعما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر إلى جزئه ، ثم إن الجزأين إن كانا واجبين كانا مشتركين فى الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضاً ويلزم التسلسل وهو محال ، وإن لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر إليهما أولى أن لا يكون واجباً ، فثبت أن واجب الوجود واحد وأن كل ماعداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح ، وافتقاره إلى المرجح ، إما حال عدمه أو حال وجوده ، فإن كان الأول ثبت أنه محدث ، وإن كان الثانى فافتقار الموجود إلى المؤثر ، إما حال حدوثه أو حال بقائه ، والثانى باطل لأنه يلزم إيجاد الموجود وهو محال . فثبت أن الافتقار لا يحصل إلا حال الحدوث ، وثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزاً أو قائماً بالمتحيز أو لا متحيزاً ولا قائماً بالمتحيز ، فان نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته ، فاعلم أن هناك فرقا قوياً وإذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت أن كل ما كان محدثاً كان قابلا للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شىء هالك إلا وجهه ، بمعنى كونه قابلا للهلاك والعدم ، ثم إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لأنه سبحانه حكم بكونها هالكة فى الحال ، وعلى ماقلناه فهى هالكة فى الحال ، وعلى ماقلتموه أنها ستهلك لا إنها هالكة فى الحال ، فكان قولنا أولى وأيضاً فالممكن إذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقا لا للوجود ولا للعدم من ذاته ، فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته ، وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالإنسان الفقير الذى استعار ثوباً من رجل غنى ، فان الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيراً كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هى هى ، وإنما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح أنها أبداً هالكة من حيث هى هى ، أما الذين حملوه على أنها

www.besturdubooks.wordpress.com

ستعدم فقد احتجوا بأن قالوا : الهلاك فى اللغة له معنيان (أحدهما) خروج الشيء عن أن يكون منتفعاً به (والثانى) الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الأول لأن هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال ، لأنها وإن تفرقت أجزاؤها فإنها منتفع بها لأن النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم ، وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة ، وسواء بقيت موجودة أوصارت معدومة . وإذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء . أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال : هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التى يكون الشيء مطلوباً لأجلها ، فاذا مات الإنسان قيل هلك لأن الصفة المطلوبة منه حياته وعقله ، وإذا تمزق الثوب قيل هلك ، لأن المقصود منه صلاحيته للبس ، فاذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التى لأجلها كانت منتفعاً بها انتفاعاً خاصاً ، فلا جرم صح إطلاق اسم الهالك عليها فأما صحة الإستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هى شمس والقمر من حيث هو قمر ، فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء أجزاء العالم بقوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وهذا صريح بأن تلك الأجزاء باقية إلا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما فى هذا الموضع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شىٔ ، قالوا لأنه استثنى من قوله (كل شيء) استثناء يخرج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت اللفظ ، فوجب كونه شيئاً يؤكده ماذكرناه فى سورة الأنعام ، وهو قوله (قل أى شىٔ أكبر شهادة قل الله) واحتجاجهم على أنه ليس بشىٔ بقوله (ليس كمثله شيء) والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شىٔ ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيئاً ، جوابه : أن الكاف صلة زائدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين (الأول) قالوا الآية صريحة فى إثبات الوجه وذلك يقتضى الجسمية (والثانى) قوله (وإليه ترجعون) وكلمة إلى لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل إلا فى الأجسام (والجواب) لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه إلا الوجه ، وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة . وهو بيان ابن سمعان وذلك لا يقول به عاقل ، ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الأمر كذا أى حقيقته ، ومنهم من قال الوجه صلة ، والمراد كل شيء هالك إلا هو ، وأما كلمة إلى فالمعنى وإلى موضع حكمه وقضائه ترجعون .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين ، قالوا لأن الآية تقتضى فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا ، وهذا يناقض قوله تعالى فى صفة الجنة (أكلها دائم) (والجواب) هذا معارض بقوله تعالى فى صفة الجنة (أعدت للمتقين) وفى صفة النار (وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ثم إما أن يحمل قوله (كل شىٔ هالك) على الأكثر ، كقوله

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة القصص

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا آيةً نزلت بين مكة والمدينة[١]. وقال ابن سلاَّم: بالجُحْفةِ في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهي قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢]. وهي ثمانٌ وثمانون آية[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ تقدَّم الكلام فيه[٤]. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ «تِلْكَ» في موضع رفعٍ بمعنى: هذه تلك، و«آياتُ» بدلٌ منها. ويجوزُ أن تكون «تلك»[٥] في

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٣.

(٤) في أول سورة الشعراء.

(٥) كلمة «تلك» من (ز) و(ظ) وإعراب القرآن.

موضع نصبٍ بـ «تَتْلو» و«آياتُ» بدلٌ منها أيضاً، وتنصبُها كما تقول: زيداً ضربتُ[١]. و«الْمُبِينِ» أي: المبينِ بركتَه وخيرَه، المبينِ الحقَّ من الباطل، والحلالَ من الحرام، وقصصَ الأنبياء، ونبوَّةَ محمدٍ ﷺ. ويقال: بانَ الشيءُ وأبانَ: اتَّضح[٢].

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذكرَ قصةَ موسى عليه السلام وفرعون وقارون، واحتجَّ على مشركي قريش، وبيَّنَ أنَّ قرابةَ قارون من موسى لم تنفَعْه مع كفره، وكذلك قرابةُ قريشٍ لمحمد، وبيَّنَ أنَّ فرعونَ علا في الأرض وتجبَّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنبِ العلوَّ في الأرض، وكذلك التعزُّزَ بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون.

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ﴾ أي: يقرأ عليكَ جبريلُ بأمرنا ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: من خبرِهما[٣]، و«من» للتبعيض و«مِنْ نَبَإِ» مفعول «نَتْلُو» أي: نَتْلو عليك بعضَ خبرهما، كقوله تعالى: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[٤] [المؤمنون: ٢٠]. ومعنى: «بِالْحَقِّ» أي: بالصدق الذي لا ريبَ فيه ولا كذب. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله، فأمَّا مَنْ لم يؤمن فلا يعتقِدُ أنه حقٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استكبر وتجبَّر. قاله ابن عباس والسُّدِّي[٥]. وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادَّعى الربوبية. وقيل: بملكه وسلطانه، فصارَ عالياً على مَنْ تحت يده. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً وأصنافاً في الخدمة[٦]. قال الأعشى[٧]:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٧.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٨ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ١٦٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٦ عن السدي، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ١٥٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣، وزاد المسير ٦/ ٢٠١.

(٧) في ديوانه ص١٥٣.

وبلدةٍ يَرْهَبُ الجوَّابُ[١] دُلْجَتها[٢] حتى تراه عليها يَبْتغي الشِّيعا

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل[٣]. ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم القولُ في هذا في «البقرة»[٤] عند قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية؛ وذلكَ لأنَّ الكهنةَ قالوا له: إنَّ مولوداً يولَدُ في بني إسرائيل يذهبُ مُلكُكَ على يديه[٥]، أو قال المنجِّمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعُبِّرت كذلك[٦]. قال الزجَّاج: العجَبُ من حُمقِه لم يَدْرِ أنَّ الكاهن إن صدَقَ فالقتلُ لا ينفع، وإن كذبَ فلا معنى للقتل[٧]. وقيل: جعلهم شيعاً فاستسخر كلَّ قومٍ من بين إسرائيل في شغل مفرد[٨]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبُّر[٩].

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نتفضَّل عليهم ونُنعِم[١٠]. وهذه حكايةٌ مضت. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال ابن عباس: قادةً في الخير. مجاهد: دُعاةً إلى الخير. قتادة: وُلاةً وملوكاً، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[١١] [المائدة: ٢٠].

---

(١) أي: الذي يقطع البلاد سيراً فيها. اللسان (جوب).

(٢) المثبت من الديوان، والدُّلجة: السير آخر الليل. اللسان (دلج). وفي (ظ): وُلجتها. وفي (د) و(ز): داجتها. وفي (م): دجلتها.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٠١ .

(٤) ٢/ ٨٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣٤ عن السدي.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٢ .

(٨) وقد سلف بيان ذلك ٢/ ٨٥ .

(٩) الوسيط ٣/ ٣٩٠ .

(١٠) زاد المسير ٦/ ٢٠١ .

(١١) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ ، والكشاف ٣/ ١٦٥ .

قلت: وهذا أعَمُّ، فإنَّ الملِكَ إمامٌ يؤتَمُّ به ويُقتدى به .﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لِمُلكِ فرعون؛ يرثون مُلكَه، ويسكنون مساكنَ القبط[١]. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف:١٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: نجعلَهم مُقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها؛ يعني أرض الشام ومصر[٢] .﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي: ونُريدُ أن نُرِيَ فرعون.

وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: «وَيَرى» بالياء على أنه فعلٌ ثلاثيٌّ من رأى «فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا» رفعاً؛ لأنه الفاعل. الباقون: «نُرِيَ» بضَمِّ النون وكسر الراء على أنه فعلٌ رباعيٌّ من أرى يُرِي، وهي على نسق الكلام؛ لأنَّ قبلَه «وَنُرِيدُ» وبعده «نُمَكِّنَ». «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» نصباً بوقوع الفعل[٣]. وأجازَ الفرَّاءُ «وَيُرِيَ فِرْعَوْن» بضَمِّ الياء وكسر الراء وفتح الياء، بمعنى: ويُرِيَ اللهُ فرعونَ[٤] ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وذلك أنهم أُخبِروا أنَّ هلاكَهم على يَدَي رجلٍ من بني إسرائيل، فكانوا على وَجَلٍ «مِنْهُمْ» فأراهم الله«ما كانُوا يَحْذَرونَ»[٥]. قال قتادة: كان حَازياً لفرعون ـ والحازي: المُنجِّم ـ قال: إنه سيولَدُ في هذه السنة مولودٌ يذهب بملكِكَ؛ فأمر فرعونُ بقتلِ الوِلْدانِ في تلك السنة[٦]. وقد تقدَّم[٧].

(١) الوسيط ٣/ ٣٩٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٥ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ بنحوه. وينظر السبعة ص٤٩٢ ،والتيسير ص١٧٠ ، والنشر ٢/ ٣٤١ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٨ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٢ ، إلا أنه قال: ولم أسمع أحداً قرأ به.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٧ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٧٣).

(٧) ٢/ ٨٨ .

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قد تقدَّم معنى الوحي ومحامله. واختُلِفَ في هذا الوحي إلى أم موسى؛ فقالت فرقة: كان قولاً في منامها. وقال قتادة: كان إلهاماً. وقالت فرقة: كان بمَلَكٍ تَمَثَّلَ لها[١]. قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك[٢]. فعلى هذا هو وحيُ إعلامٍ لا إلهام.

وأجمعَ الكلُّ على أنها لم تكن نبيَّة، وإنَّما إرسال المَلَكِ إليها على نحو تكليم المَلكِ للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور؛ خرَّجه البخاري ومسلم، وقد ذكرناه في سورة «براءة»[٣]. وغير ذلك ممَّا رُوِيَ من تكليم الملائكة للناس من غير نبوَّة[٤]، وقد سلَّمتْ على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيّاً. واسمُها أيارخا. وقيل: أيارخت فيما ذكر السهيلي[٥]. وقال الثعلبي: واسم أم موسى لوخا بنت هاند ابن لاوى بن يعقوب[٦]. «أَنْ أَرْضِعِيهِ» وقرأ عمر بن عبد العزيز: «أَنِ ارْضِعِيهِ» بكسر النون وألف وصل؛ حذفَ همزةَ «أرضع» تخفيفاً، ثم كسرَ النونَ لالتقاء الساكنين[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٦٤)، وصحيح مسلم (١٠١٧)، وقد سلف ١٠/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

(٥) في التعريف والإعلام ص١٣٠، ووقع في مطبوعه: إيمارخا. وقيل: أياذخت.

(٦) وقع اسمها في تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤: يوخانذ بنت لاوى بن يعقوب.

(٧) المحتسب ٢/ ١٤٧ إلا أنه ذكر أن حذف الهمزة اعتباطاً لا تخفيفاً. قلنا: وهي قراءة شاذة.

قال مجاهد: وكان الوحيُ بالرَّضاع قبل الولادة. وقال غيرُه: بعدَها[١]. قال السُّدِّي: لمَّا ولدَتْ أمُّ موسى أمرت أن تُرضِعَه عُقيبَ الولادة وتصنعَ به بما في الآية؛ لأنَّ الخوفَ كان عُقيبَ الولادة. وقال ابن جُريج: أُمِرَتْ بإرضاعِه أربعةَ أشهرٍ في بستان، فإذا خافت أن يصيح ـ لأنَّ لبنَها لا يكفيه ـ صنعَتْ به هذا. والأوَّل أظهرُ، إلَّا أنَّ الآخَرَ يعضِدُه قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و«إِذَا» لِما يُستقبَلُ من الزمان[٢]؛ فيُروى أنَّها اتخذَتْ له تابوتاً من بَرْدِيٍّ وقيَّرته بالقار من داخله، ووضعت فيه موسى وألقَتْه في نيل مصر[٣]. وقد مضى خبره في «طه»[٤]. قال ابن عباس: إنَّ بني إسرائيل لمَّا كثُروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، فسلَّط الله عليهم القِبطَ، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجَّاهم الله على يد موسى. قال وهب: بلغني أنَّ فرعونَ ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفاً. ويُروى أنها حين اقتربت وضرَبَها الطَّلقُ، وكانت بعضُ القوابلِ المُوكلاتِ بحبَالى بني إسرائيل مصافيةً لها، فقالت: لِينفعني حُبُّكِ اليوم. فعالجَتْها، فلمَّا وقع إلى الأرض هالَها نورٌ بين عينيه، وارتعشَ كلُّ مَفْصِلٍ منها، ودخل حبُّه قلبَها، ثم قالت: ماجئتُكِ إلَّا لأقتُلَ مولودَكِ وأُخبِرَ فرعون، ولكني وجدتُ لابنِكِ حُبّاً ما وجدتُ مثلَه قطّ، فاحفظيه. فلمَّا خرجت جاء عيونُ فرعون فَلَفَّتْه في خرقةٍ ووضعته في تُنُّورٍ مسجورٍ ناراً لم تعلمْ ما تصنعُ لمَّا طاشَ عقلُها، فطلبوا فلم يُلفوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعتْ بكاءَه من التَّنُّور، وقد جعلَ اللهُ عليه النارَ برداً وسلاماً[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ لا تخافي عليه الغرق. قاله ابن

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٣) عرائس المجالس ص١٧٠ عن مقاتل.

(٤) ١٤/ ٥٧.

(٥) عرائس المجالس ص١٧١ - ١٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ - ٤٣٥.

زيد. الثاني ـ لا تخافي عليه الضَّيعة. قاله يحيى بن سَلَّام. ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ فيه أيضاً وجهان: أحدهما ـ لا تحزني لفراقه. قاله ابن زيد. الثاني ـ لا تحزني أن يُقتل. قاله يحيى بن سَلَّام. فقيل: إنها جعلَتْه في تابوتٍ طولُه خمسةُ أشبار، وعرضُه خمسةُ أشبار، وجعلتِ المفتاحَ مع التابوت وطرحَتْه في اليمِّ بعد أن أرضعَتْه أربعة أشهر. وقال آخرون: ثلاثة أشهر. وقال آخرون: ثمانية أشهر؛ في حكاية الكلبي. وحُكِيَ أنَّه لمَّا فرغَ النجّارُ من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره، فبعثَ معه مَنْ يأخذه، فطمسَ اللهُ عينيه وقلبَه فلم يعرفِ الطريق، فأيقنَ أنه المولود الذي تخوَّفَ[1] منه فرعون، فآمن مِنْ ذلك الوقت، وهو مؤمن آل فرعون. ذكره الماوردي[2]. وقال ابن عباس: فلمَّا توارى عنها ندَّمَها الشيطانُ وقالت في نفسها: لو ذُبِحَ عندي فكفَّنْتُه وواريتُه لكان أحبَّ إليَّ من إلقائه في البحر، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: إلى أهل مصر. حكى الأصمعيُّ قال: سمعتُ جاريةً أعرابيةً تنشد وتقول:

أستغفرُ اللهَ لذنبي كلِّهِ قَبَّلتُ إنساناً بغيرِ حِلِّهِ
مثلَ الغزالِ ناعماً في دَلِّهِ فانتصفَ الليلُ ولم أُصَلِّهِ

فقلتُ: قاتَلَكِ اللهُ ما أفصحَكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ الآية؛ فجمعَ في آيةٍ واحدةٍ بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ لمَّا كان التقاطُهم إيَّاه يؤدِّي إلى كونه لهم عدوّاً وحزناً؛ فاللامُ في «ليكون» لامُ العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قُرَّةَ عين، فكان عاقبةُ ذلك أنْ كان لهم عدوّاً وحزناً[3]،

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي (د) و(ز): خوف، وفي (م): يخاف.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٦، وما بعده منه.

(٣) البيان ٢/ ٢٢٩.

فذكر الحال بالمآل، كما قال الشاعر:

وللمنايا تُربِّي كلُّ مُرْضِعةٍ ودُورُنا لخرابِ الدهرِ نَبْنِيها[١]

وقال آخر:

فللموتِ تَغْذُو الوالداتُ سِخَالَها كما لخرابِ الدَّهرِ تُبنَى المساكنُ[٢]

أي: فعاقبةُ البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به.

والالتقاط: وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة، والعربُ تقول لِما وجدَتْه من غير طلب ولا إرادة: التقطَه التقاطاً. ولقيتُ فلاناً التقاطاً. قال الراجز:

ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا[٣]

ومنه اللقطة. وقد مضى بيانُ ذلك من الأحكام في سورة «يوسف»[٤] بما فيه كفاية.

وقرأ الأعمش ويحيى والمُفضَّل وحمزة والكسائي وخلف: «وَحُزْنًا» بضَمِّ الحاء وسكون الزاي. الباقون بفتحهما، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: للتفخيم فيه[٥]. وهما لغتان، مثل: العَدَم والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد[٦]. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وكان وزيره من القِبط. ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: عاصين مشركين

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٧ ، لكن الصواب في هذا البيت كما في بهجة المجالس ٣/ ٣٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٥٦ : وللمنايا تربِّي كلُّ مرضعةٍ.... وللخراب يُجدُّ الناس عمرانا. أما عجز البيت الذي ذكره المصنف فقد سلف ٣/ ٥٠ ، وصدره: أموالنا لذوي الميراث نجمعها.

(٢) قائله سابق بن عبد الله البربري كما في العقد الفريد ٢/ ٦٩ .

(٣) الفائق ٣/ ٤٢٧ بنحوه. وتتمة الرجز: «لم ألقَ إذ وردتُه فراطا»، وهو لنقادة الأسدي كما في اللسان (لقط).

(٤) ١١/ ٢٦٦ - ٢٧١ .

(٥) قراءة حمزة والكسائي وخلف في السبعة ص٤٩٢ ، والتيسير ص١٧١ ، والنشر ٢/ ٣٤١ . وقراءة الأعمش ويحيى في المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٩١ .

آثمين[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يُروى أنَّ آسية امرأةَ فرعون رأتِ التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسَوقِه إليها وفَتْحِه، فرأت فيه صبيّاً صغيراً، فرحمَتْه وأحبَّته، فقالت لفرعون: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ»[٢] أي: هو قُرَّةُ عينٍ لي ولكَ، فـ «قُرَّةُ» خبرُ ابتداءٍ مُضمَرٍ. قاله الكسائي. وقال النحَّاس: وفيه وجهٌ آخرُ بعيدٌ ذكره أبو إسحاق؛ [قال][٣]: يكون رفعاً بالابتداء، والخبر «لا تَقْتُلوهُ» وإنما بَعُدَ؛ لأنَّه يصير المعنى أنه معروف بأنه قُرَّةُ عين. وجوازه أن يكون المعنى: إذا كان قرَّةُ عينٍ لي ولكَ فلا تقتلوه[٤]. وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «وَلَكَ»[٥]. ويجوز النَّصب بمعنى: لا تقتلوا قرةَ عينٍ لي ولك. وقالت: «لا تَقتلُوهُ» ولم تَقُل: لا تقتُلْه، فهي تخاطب فرعون كما يُخاطَبُ الجبَّارون، وكما يُخبرون عن أنفسهم[٦]. وقيل: قالت: «لا تَقْتُلوهُ» فإنَّ اللهَ أتى به من أرضٍ أخرى وليس من بني إسرائيل[٧]. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيبَ منه خيراً[٨] ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبَه لها، وكان فرعونُ لمَّا رأى الرؤيا وقصَّها على كهنته وعلمائه ـ على ما تقدَّم ـ قالوا له: إنَّ غلاماً من بني إسرائيل يُفسِدُ ملكَك. فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فوُلِدَ هارونُ عليه السلام في عام الاستحياء، ووُلِدَ موسى عليه السلام في عام الذبح[٩].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧.

(٣) ما بين حاصرتين يقتضيه السياق.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٩. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٣٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٩. قلنا: وقراءة ابن مسعود هذه شاذة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٩.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧.

(٨) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتداء كلامٍ من الله تعالى، أي: وهم لا يشعرون أنَّ هلاكَهم بسببه[١]. وقيل: هو من كلام المرأة، أي: وبنو إسرائيل لا يدرون أنَّا التقطناه، ولا يشعرون إلَّا أنه ولَدُنا[٢].

واختلف المتأوِّلون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ» فقالت فرقة: كان ذلكَ عند التقاطِ التابوت لمَّا أشعرَتْ فرعونَ به، ولما أعلمته سبق إلى وهمه[٣] أنه من بني إسرائيل، وأنَّ ذلك قصدَ به ليتخلَّص من الذبح فقال: عليَّ بالذبَّاحين. فقالت امرأتُه ما ذُكِرَ، فقال فرعون: أمَّا لي فلا. قال النبيُّ ﷺ: «لو قال فرعون: نعم، لآمنَ بموسى، ولكان قرَّةَ عينٍ له»[٤] وقال السُّدِّي: بل ربَّتْه حتى دَرَج، فرأى فرعونُ فيه شهامةً، وظنَّه من بي إسرائيل وأخذَه في يده، فمدَّ موسى يدَه ونتفَ لحية فرعون، فهمَّ حينئذٍ بذبحه، وحينئذٍ خاطبَتْه بهذا، وجرَّبَتْه له في الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانُه وعلق العقدة[٥]. على ما تقدَّم في «طه»[٦]. قال الفرَّاء: سمعتُ محمد بن مروان الذي يُقال له السُّدِّي يذكر عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ لَا» ثم قالت: «تَقْتُلُوهُ» قال الفرَّاء: وهو لحن[٧]؛ قال ابن الأنباري: وإنما حكم عليه باللَّحن؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأنَّ الفعل المستقبل مرفوعٌ حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع. قال الفرَّاء: ويُقوِّيك على ردِّه قراءةُ عبد الله بن

(١) الوسيط ٣/ ٣٩٢.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٣) في (م): فهمه.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ١٦٣ من طريق أبي معشر، عن محمد بن قيس المدني، عن النبي ﷺ. إسناده معضل. وأبو معشر: هو نَجيح بن عبد الرحمن المدني، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٤-٢١٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٦) ١٤/ ٥١ - ٥٢.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٢.

مسعود: «وقالَتِ امرأةُ فِرْعونَ لا تقتلوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ» بتقديم «لا تقتُلوهُ»[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجَوْني وأبو عبيدة: «فَارِغاً» أي: خالياً من ذكر كلِّ شيءٍ في الدنيا إلَّا من ذكر موسى[٢]. وقال الحسن أيضاً وابن إسحاق وابن زيد: «فَارِغاً» من الوحي إذْ أوحى إليها حين أُمرت أن تُلقيَه في البحر «لا تخافي ولا تحْزَني» والعهد الذي عَهِدَه إليها أن يردَّه ويجعلَه من المرسلين، فقال لها الشيطان: يا أمَّ موسى، كرهتِ أن يقتُلَ فرعونُ موسى فغرَّقتيه أنت! ثم بلَغَها أنَّ ولدها وقع في يد فرعون، فأنساها عِظَمُ البلاء ما كان من عهد اللهِ إليها[٣]. وقال أبو عبيدة: «فارِغاً» من الغَمِّ والحزن؛ لِعلمها أنَّه لم يغرق[٤]. قاله الأخفش أيضاً. وقال العلاء بن زياد: «فارِغاً»: نافراً[٥]. الكسائي: ناسياً ذاهلاً[٦]. وقيل: والهاً. رواه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٠ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٦٧ - ١٦٨ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٠٥) عن ابن مسعود، و(١٦٧٠٦) و(١٦٧٠٦) عن ابن عباس.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٦٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ١٩٨ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ . وقول العلاء بن زياد أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٧٠٩).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٠ .

سعيد بن جُبير[١]. ابن القاسم عن مالك: هو ذهابُ العقل[٢]. والمعنى: أنَّها حين سمعت بوقوعه في يدِ فرعون طارَ عقلُها من فرط الجزع والدهش، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] أي: جُوَفٌ لا عقولَ لها ـ كما تقدَّم في سورة «إبراهيم» ـ وذلكَ أنَّ القلوب مراكز العقول؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦] ويدلُّ عليه قراءةُ مَنْ قرأ: «فَزِعاً»[٣]. النحَّاس[٤]: أصحُّ هذه الأقوال الأول، والذين قالوه أعلَمُ بكتاب الله عزَّ وجلَّ؛ فإذا كان فارغاً من كلِّ شيءٍ إلَّا من ذكرِ موسى فهو فارغٌ من الوحي. وقول أبي عبيدة: «فارغاً من الغَمِّ» غلطٌ قبيحٌ؛ لأنَّ بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾. روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كادت تقولُ: واابناه!.

وقرأ فَضالة بن عُبيد الأنصاري ﷺ ومحمد بن السَّمَيْفَع وأبو العالية وابن مُحيْصِن: «فَزِعاً» بالفاء والعين المهملة من الفزع، أي: خائفةً عليه أن يُقتل[٥]. ابن عباس: «قَرِعاً» بالقاف والراء والعين المهملتين، وهي راجعةٌ إلى قراءة الجماعة «فَارِغاً»؛ ولذلكَ قيل للرأس الذي لا شعرَ عليه: أقرع؛ لفراغه من الشعر. وحكى قُطرب أنَّ بعض أصحاب النبيِّ ﷺ قرأ: «فِرْغاً» بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف، وهو كقولك: هدراً وباطلاً[٦]؛ يقال: دماؤهم بينهم فِرْغٌ أي: هدر، والمعنى: بطَلَ قلبُها وذهب، وبقيتْ لا قلبَ لها من شدَّة ما ورد عليها[٧].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٧ .

(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٥) في المحتسب ٢/ ١٤٧ عن فضالة والحسن وأبي الهذيل وابن قطيب، وفي الشاذة ص١١١ عن فضالة وابن قطيب وأبي زرعة، وفي زاد المسير ٦/ ٢٠٤ عن أبي العالية وأبي رزين والضحاك وقتادة وعاصم الجحدري.

(٦) المحتسب ٢/ ١٤٨ ، وهما قراءتان شاذتان.

(٧) الكشاف ٣/ ١٦٧ .

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وجهان: أحدهما ـ أنها ألقَتْه ليلاً، فأصبح فؤادها في النهار فارغاً. الثاني ـ أنها ألقَتْه نهاراً، ومعنى: «أَصْبَحَ» أي: صار، كما قال الشاعر:

مضى الخلفاءُ بالأمرِ الرشيدِ وأصبحتِ المدينةُ للوليدِ[1]

﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: إنَّها كادت، فلما حذفت الكناية سكنت النون. فهي «إِن» المخففة؛ ولذلك دخلت اللام في ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: لتظهر أمره؛ من بدا يبدو إذا ظهر[2]. قال ابن عباس: أي: تصيح عند إلقائه: واابناه. السُّدِّي: كادت تقول لما حُمِلَتْ لإرضاعه وحضانته: هو ابني. وقيل: إنه لما شَبَّ سمعتِ الناسَ يقولون: موسى بن فرعون، فشقَّ عليها وضاقَ صدرُها، وكادت تقول: هو ابني[3]. وقيل: الهاء في «به» عائدةٌ إلى الوحي، تقديره: إن كادت[4] لَتُبدي بالوحي الذي أوحيناه إليها أن نردَّه عليها[5]. والأوّل أظهر. قال ابن مسعود: كادَتْ تقول: أنا أمه[6]. وقال الفرَّاء[7]: إن كادت لَتُبدي باسمه لضيق صدرها.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ قال قتادة: بالإيمان. السُّدِّي: بالعصمة[8]. وقيل: بالصبر. والربطُ على القلب: إلهام الصبر[9]. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٧، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥. وقول ابن عباس في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢.

(٤) في (م): كانت، والمثبت من باقي النسخ.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٠٣.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٤.

المُصدِّقين بوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[١]. وقال: ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ ولم يقل: لِتبديه؛ لأنَّ حروفَ الصفات قد تُزادُ في الكلام؛ تقول: أخذتُ الحبلَ وبالحبل. وقيل: أي: لِتُبدي القولَ به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: قالت أمُّ موسى لأخت موسى: اتبعي أثرَه حتى تعلمي خبره[٢]. واسمها مريم بنت عمران؛ وافق اسمُها اسمَ مريمَ أمِّ عيسى عليه السلام. ذكره السُّهيلي[٣] والثعلبي. وذكر الماوردي[٤] عن الضحاك: أنَّ اسمها كلثمة. وقال السُّهيلي[٥]: كلثوم؛ جاء ذلك في حديثٍ رواه الزُّبير بن بكَّار أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لخديجة: «أشعَرْتِ أنَّ الله زوَّجني معك في الجنة مريمَ بنتَ عمران وكلثومَ أختَ موسى وآسيةَ امرأةَ فرعون؟» فقالت: اللهُ أخبركَ بهذا؟ فقال: «نعم» فقالت: بالرِّفاءِ والبنين[٦].

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: بُعدٍ، قاله مجاهد، ومنه الأجنبي؛ قال الشاعر:

فَلا تَحْرِمَنِّي نائِلاً عن جَنابةٍ فإنِّي امرؤٌ وسْطَ القِبابِ غَريبُ

وأصله عن مكان جنب. وقال ابن عباس: «عَنْ جُنُبٍ» أي: عن جانب[٧]. وقرأ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٣٠

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٣٠ .

(٦) أخرجه الطبراني ٢٢/ (١١٠٠) عن ابن أبي رواد. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢١٨ : رواه الطبراني منقطع الإسناد. قلنا: وفيه محمد بن الحسن بن زَبالة قال الحافظ في التقريب: كذَّبوه.
وأخرجه الطبراني (٨٠٠٦) دون قوله: «بالرفاء والبنين» من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي: فيه خالد ابن يوسف السمتي، وهو ضعيف. قلنا: وفيه عبد النور بن عبد الله المسمعي، وهو كذاب. وفيه يونس ابن شعيب، وهو منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٢/ ٦٧١ و٤/ ٤٨١ .
وأخرجه الطبراني (٥٤٨٥) مختصراً من حديث سعد بن جنادة ﷺ. قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٥ . والبيت قائله علقمة بن عبدة الفحل، وقد سلف ٦/ ٣٠٣ .

النعمان بن سالم: «عن جانِبٍ» أي: عن ناحية[(١)]. وقيل: عن شوق. وحكى أبو عَمرو ابن العلاء أنَّها لغةٌ لِجُذام؛ يقولون: جنبتُ إليكَ أي: اشتقتُ[(٢)]. وقيل: «عَنْ جُنُبٍ» أي: عن مُجانبةٍ لها منه، فلم يعرِفوا أنها أمُّه بسبيل[(٣)]. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه بناحيةٍ [كأنَّها] لا تريده[(٤)]، وكان يقرأ: «عَنْ جَنْبٍ» بفتح الجيم وإسكان النون[(٥)]. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أختُه، لأنَّها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: معناه من الارتضاع من قبل، أي: من قبل مجيء أمه وأخته[(٧)]. والْمَراضِعُ جمع مُرْضِع. ومن قال: مراضيع، فهو جمعُ مِرْضاع، ومِفعال يكون للتكثير، ولا تدخل الهاءُ فيه فرقاً بين المؤنث والمذكَّر؛ لأنه ليس بجارٍ على الفعل، ولكن من قال: مِرضاعة، جاء بالهاء للمبالغة؛ كما يُقال: مِطرابة[(٨)]. قال ابن عباس: لا يؤتى بمرضعٍ فيقبلها. وهذا تحريمُ منعٍ لا تحريمُ شرع؛ قال امرؤ القيس[(٩)]:

جَالَتْ لِتصرعَني فقلتُ لها اقْصِرِي ... إنِّي امرؤٌ صَرْعي عليكِ حَرامُ

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤٩ ، والشاذة ص١١٢ . ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٠٦ إلى ابن مسعود وأبي عمران الجوني.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٦ عن ابن إسحاق.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٨ ، والطبري ١٨/ ١٧٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٢٩) . وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٥) المحتسب ٢/ ١٤٩ عن قتادة والحسن والأعرج، والشاذة ص١١٢ عن قتادة وابن عباس والأعرج، وزاد المسير ٦/ ٢٠٦ عن قتادة وأبي العالية وعاصم الجحدري.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٧) المصدر السابق.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٩) في ديوانه ص١١٦ ، وقد سلف ٧/ ٤٠٢ .

أي: ممتنع. فلما رأتْ أختُه ذلك قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ الآية. فقالوا لها عند قولها: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ وما يُدريكِ؟ لعلكِ تعرفين أهلَه؟ فقالت: لا، ولكنهم يحرصون على مَسرَّة الملك، ويرغبون في ظِئْره[١]. وقال السُّدِّي وابن جُرَيج[٢]: قيلَ لها لمَّا قالت: «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ» قد عرفتِ أهلَ هذا الصبيِّ فدُلِّينا عليهم. فقالت: أردتُ: وهم للملك ناصحون. فدلَّتهم على أم موسى، فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها، والصبيُّ على يدِ فرعون يُعلِّله شفقةً عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعَه إليها، فلمَّا وجدَ الصبيُّ ريحَ أمِّه قَبِلَ ثديَها[٣]. وقال ابن زيد: استرابوها حين قالت ذلك، فقالت: وهم للملك ناصحون[٤]. وقيل: إنَّها لما قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ وكانوا يبالغون في طلب مرضعة يقبل ثديَها فقالوا: من هي؟ فقالت: أمي. فقيل: لها لبن؟ قالت: نعم، لبن هارون ـ وكان وُلِدَ في سنةٍ لا يُقتل فيها الصبيان ـ فقالوا: صدقتِ والله. «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ»[٥] أي: فيهم شفقةٌ ونصح[٦]، فرُوي أنَّه قيل لأمِّ موسى حين ارتضع منها: كيفَ ارتضعَ منكِ ولم يرتَضِعْ من غيرك؟ فقالت: إني امرأةٌ طيبةُ الريح، طيبةُ اللبن، لا أكادُ أوتى بصبيٍّ إلا ارتضع مني. قال أبو عِمران الجَوْني: وكان فرعون يُعطي أمَّ موسى كلَّ يومٍ ديناراً[٧]. قال الزمخشري[٨]: فإن قلتَ: كيف حَلَّ لها أن تأخذ الأجرَ على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذُه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مالُ حربيٍّ تأخذه على وجه

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨ .

(٣) الكشاف ١/ ١٦٨

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٦٣ عن السدي.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٠٦ بنحوه.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٢٧٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ ، وقول أبي عمران أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٣٩).

(٨) في الكشاف ٣/ ١٦٨ .

الاستباحة.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ أي: ردَدْناه وقد عَطَّفَ اللهُ قلبَ العدوِّ عليه، ووفينا لها بالوعد. ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: بولدها. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: بفراق ولدها. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لتعلَم وقوعَه، فإنها كانت عالمةً بأنَّ ردَّه إليها سيكون. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أكثر آل فرعون لا يعلمون، أي: كانوا في غفلةٍ عن التقدير وسِرِّ القضاء. وقيل: أي: أكثر الناس لا يعلمون أنَّ وعدَ الله في كلِّ ما وعدَ حَقٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قد مضى الكلام في الأشُدِّ في «الأنعام»(١). وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ [النساء:٦] فإن ذلك أوَّلُ الأشُدِّ، وأقصاه أربعٌ وثلاثون سنة، وهو قول سفيان الثوري(٢)، و«اسْتَوَى» قال ابن عباس: بلغَ أربعين سنة(٣). والحُكم: الحكمة قبل النبوّة. وقيل: الفقه في الدين. وقد مضى بيانُها في «البقرة»(٤) وغيرِها. والعلم: الفهم في قول السدي. وقيل: النبوَّة. وقال مجاهد: الفقه. محمد بن إسحاق: أي: العلم بما في دينه ودين آبائه؛ وكان له تسعةٌ من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، ويجتمعون إليه، وكان هذا قبل النبوَّة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزينا أمَّ موسى لمَّا استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدَّقت بوعد الله؛ فرددنا ولدَها إليها بالتُّحف والطُّرف وهي آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة، وكذلك نجزي كلَّ محسن.

---

(١) ٩/١١١ - ١١٤.

(٢) الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٢٤٠، وأخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره على التوالي (١٦٧٤١) و(١٦٧٤٢) و(١٦٧٤٣).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٤٠.

(٤) ٢/ ٤٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: لمَّا عرفَ موسى عليه السلام ما هو عليه من الحقِّ في دينه، عابَ ما عليه قومُ فرعون، وفشا ذلك منه، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً مستخفياً[١]. وقال السُّدِّي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يُدعى موسى ابن فرعون، فركب فرعونُ يوماً وسار إلى مدينةٍ من مدائن مصر يُقال لها: منف ـ قال مقاتل: على رأس فرسخين من مصر ـ ثم علم موسى بركوب فرعون، فركبَ بعده، ولحقَ بتلك القرية في وقت القائلة، وهو وقت الغفلة. قاله ابن عباس. وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَتَمة. وقال ابن إسحاق: بل المدينةُ مصرُ نفسُها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلافَ فرعون، وعابَ عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلةٍ من أهلها[٢]. قال سعيد بن جُبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام[٣]. وقال ابن زيد: كان فرعونُ قد نابذَ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناسُ على غفلةٍ بنسيانهم لأمره،

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ دون قول مقاتل، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٦.

وبُعْدِ عهدِهم به، وكان ذلك يومَ عيد[١]. وقال الضحَّاك: طلبَ أن يدخل المدينةَ وقتَ غفلةِ أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه مِنْ قَتْلِ الرجلِ من قبل أن يؤمَرَ بقتله، فاستغفر ربَّه فغفرَ له. ويُقال في الكلام: دخلتُ المدينةَ حين غَفِلَ أهلُها، ولا يُقال: على حينِ غَفِلَ أهلها؛ فدخلت «على» في هذه الآية؛ لأنَّ الغفلةَ هي المقصودة، فصار هذا كما تقول: جئتُ على غفلةٍ، وإن شئتَ قلتَ: جئتُ على حينِ غفلة، وكذا الآية. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ والمعنى: إذا نظرَ إليهما الناظرُ قال: هذا من شيعته، أي: من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: من قوم فرعون[٢]. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: طلبَ نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيث به على قبطيٍّ آخر، وإنما أغاثَه لأنَّ نصرَ المظلوم دينٌ في الملل كلِّها على الأمم، وفرضٌ في جميع الشرائع[٣]. قال قتادة: أراد القبطيُّ أن يُسخِّر الإسرائيليَّ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فاستغاث بموسى. قال سعيد بن جُبير: وكان خبازاً لفرعون. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال قتادة: بعصاه. وقال مجاهد: بكفِّه، أي: دفعه. والوكز واللَّكْز واللَّهْز واللَّهْد بمعنى واحد[٤]، وهو الضرب بجُمْع الكفِّ مجموعاً كعقد ثلاثةٍ وسبعين. وقرأ ابن مسعود: «فَلَكَزَهُ». وقيل: اللَّكْز في اللحى، والوكز على القلب. وحكى الثعلبيُّ أنَّ في مصحف عبد الله بن مسعود «فَنَكَزَهُ»بالنون والمعنى واحد[٥]. وقال الجوهري عن أبي عبيدة: اللَّكزُ: الضرب بالجُمْعِ على الصدر. وقال أبو زيد: في جميع الجسد، واللَّهز: الضرب بُجْمعِ اليد في الصدر مثل اللَّكْز. عن أبي عبيدة أيضاً. وقال أبو زيد: هو بالجُمْع في اللَّهازِم والرقبة، والرجل: مِلْهَز بكسر الميم. وقال الأصمعي: نَكَزه،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ .

أي: ضربَه ودفعَه. الكسائي: نَهزَه مثل نَكَزه ووكَزَه، أي: ضربه ودفعه. ولَهَده لَهْداً أي: دفعَه لذِلَّةٍ، فهو ملهود، وكذلك لَهَّده؛ قال طَرفَة يذمُّ رجلاً:

بطيءٍ عن الدَّاعي سريعٍ إلى الخنا ذَلُولٍ بأَجْماعِ الرجالِ مُلَهَّدِ[1]

أي: مُدفَّع، وإنما شدَّد للكثرة[2]. وقالت عائشة رضي الله عنها: فلهَدَني ـ تعني النبيَّ ﷺ ـ لَهْدةً أوجعني. خرَّجه مسلم[3]. ففعل موسى عليه السلام ذلكَ وهو لا يريد قتله، إنَّما قصد دفْعَه فكانت فيه نفسُه، وهو معنى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾[4]. وكلُّ شيءٍ أتيتَ عليه وفرغتَ منه فقد قضيتَ عليه[5]. قال:

قَدْ عَضَّهُ فَقَضى عليه الأَشْجَعُ[6]

﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ أي: من إغوائه. قال الحسن: لم يكن يحِلُّ قتلُ الكافر يومئذٍ في تلك الحال؛ لأنَّها كانت حالَ كفٍّ عن القتال[7]. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ خبر بعد خبر[8]. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾ نَدِمَ موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهابُ النفس، فحملَه ندَمُه على الخضوع لربِّه والاستغفار من ذنبه. قال قتادة: عرفَ واللهِ المخرجَ فاستغفر، ثم لم يزل ﷺ يُعدِّدُ ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غُفِرَ له، حتى إنه في القيامة يقول: إني قتلتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلِها[9]. وإنَّما عدَّه على نفسه ذنباً وقال: ﴿ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ من أجل

(١) ديوان طرفة ص٤٠، وفيه: الجُلَّى بدل الداعي.

(٢) الصحاح (لكز) و(لهز) و(نكز) و(لهد).

(٣) في صحيحه (٩٧٤): (١٠٣).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٩٣.

(٦) عجز لبيت قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩١٣، وصدره: «أيُفايِشون وقد رأوا حُفَّاثهم». قال شارحه: المفايشة: المفاخرة. الحُفَّاث: حية لا سُمَّ لها. والأشجع: يريد الشجاع من الحيات القاتل.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ - ٢٨١.

أنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يقتل حتى يؤمر[١]، وأيضاً فإنَّ الأنبياء يُشفقونَ مما لا يُشفِقُ منه غيرهم. قال النقَّاش: لم يقتُلْه عن عمدٍ مريداً للقتل، وإنما وكَزَه وكزةً يُريد بها دفع ظلمه. قال: وقد قيل: إنَّ هذا كان قبل النبوَّة. وقال كعب: كان إذ ذاك ابنَ اثنتي عشرة سنة، وكان قتلُه مع ذلك خطأً؛ فإنَّ الوكزةَ واللَّكزةَ في الغالب لا تقتل.

وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق، ما أسألَكم عن الصغيرة، وأركَبَكم للكبيرة! سمعتُ أبي عبدَ الله بن عمر يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الفتنةَ تجيء من هاهنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيثُ يطلعُ قرنا الشيطان، وأنتم بعضُكم يضرِبُ رقابَ بعضٍ، وإنما قتلَ موسى الذي قتل مِن آل فرعون خطأً، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠][٢]».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: من المعرفة والحكم والتوحيد ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: عوناً للكافرين. قال القشيري: ولم يقُلْ: بما أنعمتَ عليَّ من المغفرة؛ لأنَّ هذا قبل الوحي، وما كان عالماً بأنَّ الله غفرَ له ذلك القتل. وقال الماوردي[٣]: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ من المغفرة، وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي. قال المهدوي ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من المغفرة فلَمْ تُعاقِبْني. الوجه الثاني ـ من الهداية.

قلت: قوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ يدلُّ على المغفرة، والله أعلم. قال الزمخشري[٤]: قولُه تعالى: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يجوز أن يكون قَسَماً جوابُه محذوفٌ تقديره: أُقسِمُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣ .

(٢) صحيح مسلم (٢٩٠٥): (٥٠). وأخرجه أحمد (٤٩٨٠)، والبخاري (٣١٠٤) مختصراً.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢٤٢ .

(٤) في الكشاف ٣/ ١٦٩ .

بإنعامِكَ عليَّ بالمغفرة لأتوبنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. وأن يكون استعطافا كأنّه قال: ربِّ اعصمني بحقِّ ما أنعمتَ عليَّ من المغفرة، فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إمَّا صحبةَ فرعون وانتظامَه في جملته، وتكثيرَ سوادِه، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يُسمى ابن فرعون، وإمَّا بمظاهرة مَنْ أدَّت مظاهرتُه إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليِّ المؤدِّيةِ إلى القتل الذي لم يَحِلَّ له قتلُه.

وقيل: أراد: إني وإن أسأتُ في هذا القتل الذي لم أومَرْ به فلا أتركُ نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيليُّ مؤمناً، ونصرةُ المؤمن واجبةٌ في جميع الشرائع.

وقيل في بعض الروايات: إنَّ ذلك الإسرائيليَّ كان كافراً(١)، وإنما قيل له إنه من شيعته؛ لأنَّه كان إسرائيلياً ولم يُرِدِ الموافقةَ في الدين، فعلى هذا نَدِمَ؛ لأنَّه أعان كافراً على كافر، فقال: لا أكونُ بعدَها ظهيراً للكافرين.

وقيل: ليس هذا خبراً، بل هو دعاءٌ، أي: فلا أكونُ بعد هذا ظهيراً، أي: فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمين. وهذا قول الكسائي والفرَّاء. وقال الكسائي: وفي قراءة عبد الله: «فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمين»(٢). وقال الفرَّاء: المعنى: اللهمَّ فلَنْ أكونَ ظهيراً للمجرمين. وزعم أنَّ قولَه هذا هو قول ابن عباس. قال النحَّاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام، كما يُقال: لا أعصيكَ لأنكَ أنعمتَ عليَّ. وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفرَّاء؛ لأنَّ ابنَ عباس قال: لم يَستثْنِ فابتُلِيَ من ثاني يوم، والاستثناء لا يكون في الدعاء، لا يُقال: اللهمَّ اغْفِرْ لي إن شئت. وأعجبُ الأشياء أنَّ الفرَّاء روى عن ابن عباس هذا، ثم

---

(١) وهو قول مقاتل كما في الوسيط ٣/ ٣٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٩.

(٢) من قوله: وهذا قول الكسائي... إلى هذا الموضع من (ظ) وإعراب القرآن ٣/ ٢٣٢، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٧. وقراءة عبد الله في الشاذة ص١١٣ دون قوله: يا ربِّ.

حكى عنه قوله[١].

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخَّصاً مُبيَّناً في سورة «النمل»[٢] وأنه خبرٌ لا دعاء. وعن ابن عباس: لم يَستثْنِ فابتُلِيَ به مرةً أخرى؛ يعني: لم يقُلْ: فلن أكونَ إن شاء الله. وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[٣] [هود: ١١٣].

الثانية: قال سلمة بن نُبيط: بعثَ عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحَّاك بعطاء أهل بُخارى وقال: أعطِهم. فقال: أعفني. فلم يزَلْ يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له: ما عليكَ أن تُعطيَهم وأنتَ لا ترزؤهم شيئاً؟ وقال: لا أُحِبُّ أن أُعينَ الظَّلَمةَ على شيءٍ من أمرِهم[٤]. وقال عُبيد الله بن الوليد الوَصَّافي: قلتُ لعطاء بن أبي رَباح: إنَّ لي أخاً يأخذ بقلمه، وإنَّما يحسب ما يدخل ويخرج، وله عيالٌ، ولو تركَ ذلك لاحتاج وادَّانَ؟ فقال: مَنِ الرأس؟ قلتُ: خالد بن عبد الله القَسْري. قال: أما تقرأ ما قال العبدُ الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: فلم يَستثْنِ، فابتُلي به ثانيةً فأعانه الله، فلا يُعينهم أخوك فإنَّ اللهَ يُعينه. قال عطاء: فلا يحِلُّ لأحدٍ أن يُعينَ ظالماً ولا يكتبَ له ولا يصحبَه، وإنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صارَ مُعيناً للظالمين[٥]. وفي الحديث: «يُنادي مُنادٍ يومَ القيامة: أينَ الظَّلَمةُ وأشباهُ الظَّلَمةِ وأعوانُ الظَّلَمةِ؟ حتى مَنْ لاقَ لهم دَواةً أو بَرى لهم قلماً، فيُجمَعون في تابوتٍ من حديدٍ فيُرمى به في جهنم»[٦]. ويُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ مشى مع مظلومٍ لِيُعينَه على مَظلمتِه ثبَّت اللهُ قدمَيه على الصراط يومَ القيامة يومَ تَزِلُّ فيه الأقدام، ومَنْ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٤ .

(٢) عند تفسير الآية (١٠).

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٩ .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٢٣ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩ . وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ٥٥ بطرفه الأول، يعني إلى نهاية الآية.

(٦) ذكره الإمام أحمد في الورع ص٩٣ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ. والديلمي في مسند الفردوس (٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مشى مع ظالمٍ لِيُعينَه على ظلمِه أزَلَّ اللهُ قدمَيه على الصراط يوم تَدْحَضُ فيه الأقدام»[١]. وفي الحديث: «مَنْ مشى مع ظالمٍ فقد أجرم»[٢] فالمشيُ مع الظالم لا يكون جُرْماً إلَّا إذا مشى معه لِيُعينَه؛ لأنَّه ارتكبَ نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ قد تقدَّم في «طه»[٣] وغيرها أنَّ الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم يخافون؛ ردّاً على مَنْ قال غيرَ ذلك، وأنَّ الخوفَ لا يُنافي المعرفةَ بالله ولا التوكُّلَ عليه؛ فقيل: أصبحَ خائفاً من قتلِ النفس أن يُؤخَذَ بها. وقيل: خائفاً من قومه أن يُسلموه. وقيل: خائفاً من الله تعالى. ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قال سعيد بن جُبير: يتلفَّتُ من الخوف. وقيل: ينتظر الطلب، وينتظر ما يتحدَّث به الناس[٤]. وقال قتادة: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يترقَّبُ الطلب[٥]. وقيل: خرج يستخبر الخبر، ولم يكن أحدٌ عَلِمَ بقتل القبطيِّ غير الإسرائيلي. و«أَصْبَحَ» يَحتمِلُ أن يكون بمعنى صار، أي: لمَّا قتلَ صارَ خائفاً. ويَحتملُ أن يكون دخل في الصباح، أي: في صباح اليوم الذي يلي يومَه. و«خَائِفاً» منصوبٌ على أنه خبر «أصبح»، وإن شئتَ على الحال، ويكون الظرفُ في موضع الخبر[٦].

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: فإذا صاحِبُه الإسرائيليُّ الذي خلَّصه

---

(١) أخرجه ـ بطرفه الأول ـ أبو نعيم في الحلية ٦/٣٤٨ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وفي إسناده موسى بن محمد الموقري ـ وهو البلقاني ـ وهو كذاب. ميزان الاعتدال ٤/٢١٩.
وذكر الديلمي في مسند الفردوس (٥٧٠٥) طرفه الأول أيضاً، ولكن عن معاذ بن جبل ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني ٢٠/(١١٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٨٩) من حديث معاذ بن جبل ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٠: فيه عبد العزيز بن عبيد الله، وهو ضعيف.

(٣) ١٤/ ٦٧ - ٦٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٨.

(٦) البيان ٢/ ٢٣٠ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٢.

بالأمس يُقاتِلُ قبطياً آخر أراد أن يُسَخِّره[١]. والاستصراخُ: الاستغاثة، وهو من الصُّراخ؛ وذلك لأنَّ المستغيثَ يصرخ ويُصَوِّتُ في طلب الغَوْث؛ قال:

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فزِعٌ كانَ الصُّراخُ له قرعَ الظَّنابِيبِ[٢]

قيل: كان هذا الإسرائيليُّ المستنصرُ السامريُّ استسخره طبَّاخُ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ. ذكره القشيري[٣]. و«الَّذِي» رفعٌ بالابتداء، و«يَسْتَصْرِخُهُ» في موضع الخبر. ويجوز أن يكون في موضع نصبٍ على الحال. وأمس لليومِ الذي قبل يومك، وهو مبنيٌّ على الكسر لالتقاء الساكنين، فإذا دخلَه الألفُ واللامُ أو الإضافةُ تمكَّن فأُعرِبَ بالرَّفعِ والفتحِ عند أكثر النَّحْويين. ومنهم من يَبنيه وفيه الألف واللام. وحكى سيبويه وغيرُه أنَّ من العرب من يُجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضعِ الرَّفعِ خاصَّةً، ورُبما اضطرَّ الشاعرُ ففعل هذا في الخفض والنصب؛ قال الشاعر:

لقد رأيتُ عجباً مُذْ أمْسا[٤]

فخفضَ بِمُذْ ما مضى، واللغة الجيدة الرفع، فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة الثانية. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ والغويُّ: الخائب، أي: لأنك تُشادُّ مَنْ لا تُطيقه[٥]. وقيل: مُضِلٌّ بَيِّنُ الضلالة، قتلتُ بسببِكَ أمس رجلاً، وتدعوني اليوم لآخر[٦]، والغَويُّ فعيلٌ مِنْ أغوى يُغوي، وهو بمعنى مُغوٍ، وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجِع والمؤلم. وقيل: الغويُّ بمعنى الغاوي. أي: إنَّكَ لَغَويٌّ في قتال مَنْ لا تُطيقُ دَفْعَ شَرِّه عنك[٧]. وقال الحسن: إنما قال للقبطيِّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ في استسخار هذا الإسرائيليِّ، وهَمَّ أن يبطش به. يقال: بَطَش يَبطُش ويبطِشُ،

(١) زاد المسير ٦/ ٢٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨١ والبيت قائله سلامة بن جندل، وقد سلف ١٢/ ١٢٩.

(٣) وذكره الرازي في تفسيره ٢٤/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٤) في (ظ) و(م): أمس. والرجز سلف ١٤/ ١٤٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢-٢٣٣.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ٢٠٩ - ٢١٠.

والضمُّ أقْيَسُ؛ لأنَّه فِعْلٌ لا يتعدَّى(١).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ قال ابن جُبير: أرادَ موسى أن يبطش بالقبطيِّ، فتوهَّمَ الإسرائيليُّ أنه يريده؛ لأنه أغلظ له في القول، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ فسمع القبطيُّ الكلامَ فأفشاه. وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيليُّ بالقبطيِّ، فنهاه موسى، فخاف منه، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾(٢). ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي قتَّالا(٣). قال عكرمة والشَّعبي: لا يكونُ الإنسان جباراً حتى يقتل نَفْسَين بغير حق(٤). ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي: من الذين يصلحون بين الناس.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون. ذكره الثعلبيّ(٥). وقيل: طالوت. ذكره السُّهيليّ(٦). وقال المهدويُّ عن قتادة: شمعون مؤمن آل فرعون(٧). وقيل: شمعان؛

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٣.

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٢٧٧، وقول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٩٠)، وقول الشعبي أخرجه الطبري ١٨/ ١٩٧.

(٥) وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٤٤ عن الضحاك أنه مؤمن آل فرعون، وذكر عن الكلبي أنه ابن عم فرعون.

(٦) في التعريف والإعلام ص١٣١.

(٧) وذكره النحاس في معاني القرآن له ٥/ ١٦٩ دون تسميته شمعون، وقد وردت هذه التسمية عن شعيب الجبائي فيما أخرجه الطبري ١٨/ ٢٠٠.

قال الدَّارَقُطْنِيّ: لا يُعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون[١].

ورُوِيَ أنَّ فرعون أمر بقتل موسى، فسبقَ ذلك الرجل بالخبر[٢]، فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك بالقبطيِّ الذي قتلتَه بالأمس. وقيل: يأمر بعضُهم بعضاً. قال الأزهريّ[٣]: ائتمر القومُ وتآمروا أي: أمر بعضُهم بعضاً، نظيره قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٦]. وقال النَّمِر بن تَوْلَب:

أرى الناسَ قد أحدثوا شِيمةً وفي كلِّ حادثةٍ يُؤْتَمَرْ

﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب[٤]. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقيل: الجبَّار: الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن. وقيل: المُتعظِّم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ لمَّا خرجَ موسى عليه السلام فارّاً بنفسه منفرداً خائفاً، لا شيء معه من زادٍ ولا راحلةٍ ولا حذاءٍ نحو مدينَ للنَّسب الذي بينه وبينيهم ـ لأنَّ مدين من ولد إبراهيم، وموسى من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ ورأى حالَه وعدمَ معرفته بالطريق، وخُلوَّه من زادٍ وغيره، أسندَ أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه حالة المضطر[٦].

---

(١) التعريف والإعلام ص١٣١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٤٤ ونسب القول الأول إلى الكلبي.

(٣) في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٩٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٠.

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

قلت: رُوي أنه كان يتقوَّتُ ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفُّ قدميه[١]. قال أبو مالك: وكان فرعون وجَّه في طلبه وقال لهم: اطلبوه في ثنيات الطريق، فإنَّ موسى لا يعرف الطريق. فجاءه مَلَكٌ راكباً فرساً ومعه عَنَزة، فقال لموسى: اتبعني. فاتَّبعه فهداه إلى الطريق[٢]، فيُقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه. ويُروى أنَّ عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح. قال مقاتل والسُّدِّي: إنَّ الله بعث إليه جبريل، فالله أعلم. وبين مدين ومصر ثمانية أيام. قاله ابن جُبير والناس. وكان مُلْك مدين لغير فرعون[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى وردَ ماءَ مدين أي: بلغَها. وورودُه الماء معناه: بلغَه لا أنَّه دخلَ فيه. ولفظةُ الورود قد

(١) عرائس المجالس ص١٧٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٢ .

تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه[(١)]؛ ومنه قول زهير[(٢)]:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

وقد تقدَّمت هذه المعاني في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. ومدين لا تنصرف؛ إذ هي بلدةٌ معروفة[(٣)]. قال الشاعر:

رُهبانُ مدينَ لو رأوكِ تنزَّلوا ... والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ[(٤)]

وقيل: قبيلةٌ من ولد مدين بن إبراهيم، وقد مضى القول فيه في «الأعراف»[(٥)].

والأُمَّة: الجمع الكثير. و﴿يَسْقُونَ﴾ معناه: ماشيتهم. و﴿مِن دُونِهِمُ﴾ معناه: ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأُمّة، ووجدهما تذودان، ومعناه: تُمنعان وتُحبسان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «فَليُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي»، وفي بعض المصاحف: «امرأتين حابستين تذودان»[(٦)] يقال: ذادَ يذودُ إذا حُبِسَ. وذُدْتُ الشيءَ حبستُه[(٧)]؛ قال الشاعر:

أَبِيتُ على بابِ القَوافي كأنَّما ... أذودُ بها سِرْباً من الوحشِ نُزَّعَا[(٨)]

أي: أحبِسُ وأمنَع. وقيل: «تَذُودانِ»: تَطْرُدان؛ قال:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

(٢) في ديوانه ص١٣ - ١٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

(٤) قائله جرير، وقد سلف ٨/ ١١٢ ، ورُوي هناك: «شعف العقول» بدل «شعف الجبال».

(٥) ٩/ ٢٨٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ . والحديث أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٢ ووقع في النسخ: إذا ذهب. والتصويب من معاني القرآن.

(٨) قائله سويد بن كراع، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٠١ ، والشعر والشعراء ٢/ ٦٣٥ ، وفيه: «أصادي» بدل «أذود». قال شارحه: صاديت الرجل: أي: داجيتُه وداريتُه وساترتُه.

لقد سَلبتْ عصاكَ بنو تميمٍ فما تَدْري بأيِّ عصًا تَذُودُ[١]

أي: تَطردُ وتَكفُّ وتَمنعُ. ابن سلاَّم: تمنعان غنمَهما لئلَّا تختلط بغنم الناس[٢]، فحذفَ المفعول؛ إمَّا إيهاماً على المخاطب، وإمَّا استغناءً بعلمه[٣]. قال ابن عباس: تذودان غنمَهما عن الماء خوفاً من السُّقاة الأقوياء. قتادة: تذودان الناس عن غنمهما[٤]. قال النحَّاس: والأوَّلُ أوْلى؛ لأنَّ بعده ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناسَ لم تُخبِرا عن سبب تأخير سَقيِهما حتى يُصدر الرِّعاء[٥]. فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما[٦]؛ قال رؤبة:

يا عَجباً ما خَطْبُهُ وخَطبي[٧]

ابن عطية[٨]: وكان استعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شرٍّ، فأخبرتاه بخبرهما، وأنَّ أباهما شيخٌ كبير، فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يُباشر أمرَ غنمه، وأنهما لضعفهما وقلَّةِ طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأنَّ عادتَهما التأنِّي حتى يُصدِرَ الناسُ عن الماء ويخلى، وحينئذٍ تَرِدان.

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو: «يَصْدُرَ» من صَدَرَ، وهو ضدُّ وَرَدَ أي: يرجع الرِّعاء. والباقون «يُصْدِرَ» بضمِّ الياء من أصدر، أي: حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم.

---

(١) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٣.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٣.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

(٧) ديوان رؤبة في مجموع أشعار العرب ص١٦، وتتمة الرجز: وَأنا يُبدي للأمير قلبي.

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

والرِّعاء جمع راعٍ، مثل تاجر وتِجار، وصاحب وصِحاب[١]. قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زَحْمُ الناس يمنعهما، فلمَّا أراد موسى أن يسقي لهما زَحَمَ الناسَ وغلبَهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفَتْه إحداهما بالقوَّة. وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصَّهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقيةً كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقيةٌ عطشت غنمُهما، فَرَقَّ لهما موسى، فعمدَ إلى بئر كانت مغطَّاةً والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرُها لا يرفعه إلا سبعة ـ قاله ابن زيد. ابن جريج: عشرة. ابن عباس: ثلاثون. الزجَّاج: أربعون ـ فرفعه، وسقى للمرأتين، فعن رفع الصخرة وصفَتْه بالقوَّة. وقيل: إنَّ بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السُّقاة، إذ[٢] كانت عادةُ المرأتين شرب الفضلات[٣]. روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال: لمَّا استقى الرُّعاة غطَّوا على البئر صخرةً لا يقلعها إلا عشرةُ رجال، فجاء موسى فاقتلعَها واستقى ذَنُوباً واحداً لم تحتَجْ إلى غيره، فسقى لهما[٤].

الثانية: إن قيل: كيف ساغ لنبيِّ الله الذي هو شعيب ﷺ أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظورٍ والدينُ لا يأباه، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك، والعادة متباينةٌ فيه، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوالِ العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالةُ حالةَ ضرورة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ إلى ظلِّ سَمُرَة[٥]. قاله ابن مسعود. وتعرَّضَ لسؤال ما يُطعمه بقوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وكان لم يذُقْ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤١ . وينظر السبعة ص٤٩٢ ، والتيسير ص١٧١ .

(٢) في (م): إذا.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ سوى قوله: فإن وجدتا في الحوض... إلى قوله: فرقَّ لهما موسى، فهو في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤ .

(٥) وهي شجرة صغيرة الورق، قصيرة الشوك، لها برمة صفراء يأكلها الناس. اللسان (سمر).

طعاماً سبعةَ أيام، وقد لصق بطنُه بظهره، فعرَّضَ بالدعاء ولم يُصرِّحْ بسؤال، هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله[١]، فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، ويكون بمعنى القوّة كما قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان:٣٧]، ويكون بمعنى العبادة كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء:٩٠].

قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضرَّ لونُه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويُروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطنُ قدميه. وفي هذا مُعتبرٌ وإشعارٌ بهوان الدنيا على الله[٢]. وقال أبو بكر بن طاهر[٣] في قوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني لِما أنزلت[٤] من فضلك وغناك فقيرٌ إلى أن تغنيني بِكَ عمَّن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإنَّ الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في هذا الكلام اختصارٌ يدلُّ عليه هذا الظاهر؛ قدَّره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدَّثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه ـ وقيل: الصغرى ـ أن تدعوَه له، «فَجاءَتْ» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سَلْفَعاً من النساء[٥]، خَرَّاجةً وَلَّاجة. وقيل: جاءته

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو عبد الله بن طاهر بن حاتم الأبهري، توفي قريباً من سنة ٣٣٠هـ حلية الأولياء ١٠/ ٣٥١، وطبقات الصوفية ص٣٩١.

(٤) في (ظ): أبديت.

(٥) أي: سليطةً جريئةً. أو: بذيئةً فحاشةً قليلة الحياء. اللسان (سلفع).

ساترةً وجهها بِكُمِّ دِرعها. قاله عمر بن الخطاب[١]. ورُوِيَ أنَّ اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أخي شعيب، وأنَّ شعيباً كان قد مات[٢]. وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ كذا في سورة «الأعراف» [الآية: ٨٥] وفي سورة الشعراء [الآية: ١٧٦-١٧٧]: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال قتادة: بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلافُ في اسم أبيه. فرُوِيَ أنَّ موسى عليه السلام لمَّا جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبَّتْ ريحٌ فضمَّتْ قميصَها فوصفت عجيزتَها، فتحرَّج موسى من النظر إليها، فقال: ارجعي خلفي وأرشديني إلى الطريق بصوتك[٣]. وقيل: إنَّ موسى قال ابتداءً: كوني ورائي فإني رجلٌ عبرانيٌّ لا أنظر في أدبار النساء، ودُلِّيني على الطريق يميناً أو يساراً[٤]. فذلك سبب وصفها [له]. قاله ابن عباس. فوصل موسى إلى داعيةٍ فقصَّ عليه أمره من أوَّله إلى آخره فآنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكانت مدينُ خارجةً عن مملكة فرعون[٥]. وقرَّبَ إليه طعاماً فقال موسى: لا آكل؛ إنَّا أهل بيتٍ لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً. فقال شعيب: ليس هذا عِوَضَ السقي، ولكن عادتي وعادةُ آبائي قِرَى الضيف، وإطعامُ الطعام. فحينئذٍ أكل موسى[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإجارة

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٢) التعريف والإعلام ص١٣١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ ، وما بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس عائدٌ على القول الأول، لا على القول الذي ذكره ابن العربي.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٤ .

كانت عندهم مشروعةً معلومة، وكذلك كانت في كلِّ ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافاً للأصمِّ حيث كان عن سماعها أصمَّ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ الآية. فيه عرضُ الوليِّ بنتَه على الرجل، وهذه سُنَّةٌ قائمة؛ عرض صالحُ مدين ابنتَه على صالح بني إسرائيل، وعرضَ عمرُ بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكرٍ وعثمان، وعرضتِ الموهوبةُ نفسَها على النبيِّ ﷺ؛ فمن الحَسَنِ عَرْضُ الرجلِ وليَّته، والمرأةِ نفسَها على الرجل الصالح، اقتداءً بالسلف الصالح. قال ابن عمر: لمَّا تأيَّمتْ حفصةُ قال عمر لعثمان: إن شئتَ أُنكِحُكَ حفصة بنت عمر. الحديث. انفرد بإخراجه البخاري[١].

السابعة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ النكاح إلى الوليِّ لا حظَّ للمرأة فيه؛ لأنَّ صالحَ مدين تولَّاه، وبه قال فقهاء الأمصار. وخالفَ في ذلك أبو حنيفة. وقد مضى[٢].

الثامنة: هذه الآية تدلُّ على أنَّ للأب أن يُزوِّجَ ابنتَه البكرَ البالغَ من غير استئمار، وبه قال مالك واحتجَّ بهذه الآية، وهو ظاهرٌ قويٌّ في الباب، واحتجاجُه بها يدلُّ على أنه كان يُعوِّلُ على الإسرائيليات، كما تقدّم. وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعي وكثيرٌ من العلماء. وقال أبو حنيفة: إذا بلغتِ الصغيرةُ فلا يُزوِّجها أحدٌ إلا برضاها؛ لأنها بلغتْ حدَّ التكليف، فأما إذا كانت صغيرةً فإنه يُزوِّجها بغير رضاها؛ لأنه لا إذنَ لها ولا رضا بغير خلاف[٣].

التاسعة: استدلَّ أصحاب الشافعي بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ على أنَّ النكاح موقوفٌ على لفظ التزويج والإنكاح[٤]. وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود

---

(١) في صحيحه (٤٠٠٥)، وهو في مسند أحمد (٧٤). وأما حديث الموهوبة نفسها فأخرجه أحمد (٢٢٧٩٦)، والبخاري (٥١٢١)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد ﷺ. وهذه المسألة والتي قبلها من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ - ١٤٥٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٤ . وقد سلف الكلام على هذه المسألة ٣/ ٤٦٢ - ٤٦٦ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٥ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٤٥٦ .

ومالك على اختلافٍ عنه. وقال علماؤنا في المشهور: ينعقد النكاح بكلِّ لفظ. وقال أبو حنيفة: ينعقد بكلِّ لفظٍ يقتضي التمليك على التأبيد. أما الشافعية فلا حُجَّةَ لهم في الآية؛ لأنه شَرْعُ مَنْ قبلنا، وهم لا يرونه حُجَّةً في شيءٍ في المشهور عندهم. وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حَيّ فقالوا: ينعقد النكاحُ بلفظ الهبة وغيرِه إذا كان قد أشهَدَ عليه؛ لأنَّ الطلاق يقع بالصريح والكناية، قالوا: فكذلك النكاح. قالوا: والذي خُصَّ به النبيُّ ﷺ تَعرِّي البُضْعِ من العِوَض لا النكاحَ بلفظ الهبة. وتابعهم ابن القاسم فقال: إن وهبَ ابنتَه وهو يريد إنكاحَها فلا أحفَظُ عن مالك فيه شيئاً، وهو عندي جائزٌ كالبيع. قال أبو عمر: الصحيحُ أنه لا ينعقد نكاحٌ بلفظ الهبة، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبةُ شيءٍ من الأموال. وأيضاً فإن النكاح مفتقرٌ إلى التصريح لتقع الشهادةُ عليه، وهو ضِدُّ الطلاق، فكيف يُقاس عليه؟! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله: أَبَحْتُ لك وأحلَلْتُ لك. فكذلك الهبة. وقال ﷺ: «استحلَلْتُم فروجَهنَّ بكلمة الله» يعني القرآن، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة، وإنما فيه التزويج والنكاح، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطالُ بعضِ خصوصيةِ النبيِّ ﷺ[١].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ يدلُّ على أنه عرضٌ لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً لَعيَّنَ المعقودَ عليها له؛ لأنَّ العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بِعْتُكَ أحدَ عبديَّ هذين بثمنٍ كذا؛ فإنهم اتَّفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيارٌ وشيءٌ من الخيار لا يُلصَقُ بالنكاح[٢].

الحادية عشرة: قال مكيٌّ: في هذه الآية خصائص في النكاح؛ منها أنه لم يُعيِّنِ الزوجةَ ولا حدَّ أوَّلِ الأمد، وجعلَ المهرَ إجارةً، ودخلَ ولم يَنقُدْ شيئاً.

قلت: فهذه أربع مسائلَ تضمَّنَتْها المسألةُ الحاديةَ عشرة.

الأولى ـ من الأربع مسائل التعيين[٣]؛ قال علماؤنا: أما التعيين فيُشبه أنه كان في

---

(١) التمهيد ٢١/ ١١١ - ١١٢ . والحديث سلف ٦/ ١٧٠ .

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٧ .

(٣) كلمة «التعيين» من (م).

أثناء[(١)] حال المراوضة، وإنَّما عرضَ الأمرَ مجملاً، وعيَّن بعد ذلك. وقد قيل: إنه زوَّجه صفوريا وهي الصغرى[(٢)]. يُروى عن أبي ذَرٍّ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «إنْ سُئِلتَ: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرَهما وأوفاهما، وإن سُئِلْتَ: أيُّ المرأتين تزوَّج؟ فقل: الصغرى، وهي التي جاءت خلفه، وهي التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾»[(٣)]. قيل: إنَّ الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانتِ الكبرى أحوَجَ إلى الرجال أنَّه توقَّعَ أن يميل إليها؛ لأنه رآها في رسالته، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمِرُ غيرَه. وقيل غير هذا، والله أعلم[(٤)]. وفي بعض الأخبار أنه تزوَّج بالكبرى. حكاه القشيري[(٥)].

الثانية ـ وأمَّا ذِكْرُ أوّلِ المدَّة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطَه، بل هو مسكوتٌ عنه؛ فإمَّا رسماه، وإلَّا فهو من أوَّل وقت العقد.

الثالثة ـ وأمَّا النكاح بالإجارة فظاهرٌ من الآية، وهو أمرٌ قد قرَّره شرعُنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلَّا شيءٌ من القرآن[(٦)]. رواه الأئمة، وفي بعض طرقه: فقال له رسول الله ﷺ: «ما تحفَظُ من القرآن؟» فقال: سورةَ البقرة والتي تليها. قال: «فعَلِّمْها عشرين آيةً وهي امرأتُكَ»[(٧)]. واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة

---

(١) في النسخ: ثاني، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٨٤٦)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢٦). وله شاهد موقوف على ابن عباس ﷺ عند البخاري (٢٦٨٤). قال الحافظ في الفتح ٥/ ٢٩١: وهو في حكم المرفوع.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٨ .

(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ عن وهب.

(٦) من بداية المسألة الثانية إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ .

(٧) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ أبو داود (٢١١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده عِسْل بن سفيان، وهو ضعيف فيما قاله الحافظ في التقريب. وقد تفرد بزيادة: «فعلِّمها عشرين آية وهي امرأتك». قلنا: والحديث دون الزيادة أخرجه أحمد (٢٢٧٩٦)، والبخاري (٥١٢١)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل ابن سعد ﷺ.

أقوال: فكرهه مالك، ومنعه ابن القاسم، وأجازه ابن حبيب[١]، وهو قول الشافعي وأصحابه؛ قالوا: يجوز أن تكون منفعةُ الحرِّ صَداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن. وقال أبو حنيفة: لا يصِحُّ[٢]. وجوَّزَ أن يتزوَّجها بأن يَخدِمَها عبدُه سنة، أو يُسكِنَها دارَه سنة؛ لأنَّ العبدَ والدارَ مال، وليس خِدْمتُها بنفسه مالاً. وقال أبو الحسن الكرخي: إنَّ عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وقال أبو بكر الرازي: لا يصِحُّ؛ لأنَّ الإجارة عقدٌ مؤقت، وعقد النكاح مؤبَّد، فهما متنافيان[٣]. وقال ابن القاسم: ينفسخ قبل البناء ويَثْبُتْ بعده. وقال أصبغ: إن نَقَدَ معه شيئاً ففيه اختلاف، وإن لم يَنقِدْ فهو أشدّ، فإن ترك مضى على كلِّ حالٍ بدليل قصة شعيب. قاله مالك وابن الموَّاز وأشهب. وعوَّل على هذه الآية جماعةٌ من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة[٤]. قال ابن خوَيْزِ مَنْدَادِ: تضمَّنت هذه الآية النكاحَ على الإجارة والعقد صحيح، ويُكره أن تُجعلَ الإجارةُ مهراً، وينبغي أن يكون المهرُ مالاً كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ﴾ [النساء: ٢٤]. هذا قول أصحابنا جميعاً.

الرابعة ـ وأما قوله: «ودخل ولم يَنقُدْ» فقد اختلف الناسُ في هذا؛ هل دخل حين عقدَ أم حينَ سافر؟ فإن كان حين عقدَ فماذا نقد؟ وقد منعَ علماؤنا من الدخول حتى يَنقِدَ ولو رُبعَ دينار. قاله ابن القاسم. فإن دخل قبل أن يَنقِدَ مضى؛ لأنَّ المتأخِّرين من أصحابنا قالوا: تعجيلُ الصَّداقِ أو شيءٍ منه مُستحَبٌّ. على أنه إن كان الصَّداقُ رعيةَ الغنم فقد نَقَدَ الشروعَ في الخدمة، وإن كان دخل حين سافر فطُولُ الانتظار في النكاح جائزٌ، وإن كان مدى العمر بغير شرط. وأمَّا إن كان بشرط[٥] فلا يجوز إلَّا أن يكون

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٨ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٤١٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٧٣ و٢٦٨ . ووقع في (م): ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وفي بقية النسخ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾. والمثبت من الكشاف.

(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٩ .

(٥) عبارة: وأما إن كان بشرط من (م) وأحكام القرآن.

الغرضُ صحيحاً مثل التأهُّبِ للبناء أو انتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة. نصَّ عليه علماؤنا(١).

الثانية عشرة: في هذه الآية اجتماع إجارةٍ ونكاح، وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأوَّل ـ قال في ثمانية أبي زيد: يُكره ابتداءً، فإن وقع مضى. الثاني ـ قال مالك وابن القاسم في المشهور: لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده؛ لاختلافِ مقاصدِها كسائر العقود المتباينة. الثالث ـ أجازه أشهب وأصبغ. قال ابن العربي(٢): وهذا هو الصحيح، وعليه تدلُّ الآية، وقد قال مالك: النكاحُ أشبَهُ شيءٍ بالبيوع، فأيُّ فرقٍ بين إجارةٍ وبيعٍ، أو بين بيعٍ ونكاح؟!.

فرع ـ وإن أصدقَها تعليمَ شعرٍ مباحٍ صحَّ؛ قال المزني: وذلك مثلُ قولِ الشاعر:

يقولُ العبدُ فائدتي ومالي وتقوى اللهِ أفضلُ ما استفادا

وإن أصدقَها تعليمَ شعرٍ فيه هَجْوٌ أو فُحْشٌ كان كما لو أصدَقَها خمراً أو خِنزيراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ جرى ذِكْرُ الخدمة مطلقاً، وقال مالك: إنه جائزٌ، ويُحمَلُ على العُرف، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر قصة موسى، فإنه ذكر إجارةً مُطلقة. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز حتى يُسمَّى؛ لأنه مجهول(٣). وقد ترجم البخاريُّ. «باب مَن استأجر أجيراً فبيَّنَ له الأجلَ ولم يُبيِّنْ له العمل»؛ لقوله تعالى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾(٤). قال المُهلَّب: ليس كما ترجح؛ لأنَّ العملَ عندهم كان معلوماً من سقيٍ وحرثٍ ورعيٍ وما شاكل أعمالَ البادية في مهنة أهلها، فهذا مُتعارَفٌ وإن لم يُبيِّنْ له أشخاصَ الأعمال

(١) أحكام القرآن. ٣/١٤٦٦ - ١٤٦٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٤ ، وما قبله منه.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٤٦٠ .

(٤) صحيح البخاري قبل الحديث (٢٢٦٧).

ولا مقاديرَها؛ مثل أن يقول له: إنك تحرث كذا من السَّنة، وترعى كذا من السَّنة، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدَّةُ مجهولة، والعملُ مجهولٌ غيرُ معهود لا يجوز حتى يُعلَم. قال ابن العربي(١): وقد ذكر أهل التفسير أنه عيَّنَ له رعية الغنم، ولم يُرْوَ [ذلك] من طريقٍ صحيحةٍ، ولكن قالوا: إنَّ صالح مدين لم يكن له عملٌ إلا رعية الغنم، فكان ما عُلِمَ من حاله قائماً مقامَ التعيين للخدمة فيه.

الرابعة عشرة: أجمعَ العلماءُ على أنه جائزٌ أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة، بأجرةٍ معلومة، لرعايةِ غنم معدودة؛ فإن كانت معدودةً معينةً، ففيها تفصيلٌ لعلمائنا؛ قال ابن القاسم: لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت، وهي روايةٌ ضعيفةٌ جداً؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه، وقد رآها ولم يشترط خلفاً، وإن كانت مُطلقةً غيرَ مُسمَّاةٍ ولا مُعينةٍ جازت عند علمائنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تجوز؛ لجهالتها، وعوَّل علماؤنا على العُرفِ حسبما ذكرناه آنفاً، وأنه يُعطَى بقَدْرِ ما تَحتَمِلُ قُوَّتُه. وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجرُ قَدْرَ قُوَّتِه، وهو صحيحٌ؛ فإنَّ صالح مدين عَلِمَ قَدْرَ قوَّةِ موسى برفع الحجر(٢).

الخامسة عشرة: قال مالك: وليس على الراعي ضمانٌ، وهو مُصدَّقٌ فيما هَلَكَ أو سُرِقَ؛ لأنه أمينٌ كالوكيل. وقد ترجم البخاري: «باب إذا أبصر الراعي أو الوكيلُ شاةً تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفساد» وساقَ حديثَ كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت له(٣) غنمٌ ترعى بِسَلْعٍ(٤)، فأبصرَتْ جاريةٌ لنا بشاةٍ من غنمنا موتاً، فكسرَتْ حجراً فذبحَتْها به، فقال لهم: لا تأكلوا حتى أسألَ النبيَّ ـ أو أُرسِلَ إلى

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٠ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٠ - ١٤٦١ .

(٣) في (م): لهم. والمثبت من باقي النسخ، ومن صحيح البخاري.

(٤) وهو جبل أو موضع في المدينة. معجم البلدان ٣/ ٢٣٦ .

النبيِّ ﷺ مَنْ يسألُه ـ وأنه سألَ النبيَّ ﷺ ـ أو أرسلَ إليه ـ فأمرَه بأكلها. قال عبيد الله[١]: فيُعجبني أنها أَمَةٌ وأنها ذبحت[٢]. قال المُهلَّب: فيه من الفقه تصديقُ الراعي والوكيل فيما ائتُمنا عليه حتى يظهر عليهما دليلُ الخيانة والكذب. وهذا قول مالك وجماعة. وقال ابن القاسم: إذا خافَ الموتَ على شاةٍ فذبحها لم يضمَنْ، ويُصدَّقُ إذا جاء بها مذبوحة. وقال غيره: يضمَنُ حتى يُبيِّنَ ما قال.

السادسة عشرة: واختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت، فقال ابن القاسم: لا ضمانَ عليه؛ لأنَّ الإنزاءَ من إصلاح المال ونمائه. وقال أشهب: عليه الضمان. وقولُ ابن القاسم أشبَهُ بدليلِ حديث كعب، وأنه لا ضمانَ عليه فيما تلِفَ عليه باجتهاده، إن كان من أهل الصلاح، وممن يُعلَمُ إشفاقه على المال، وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأرادَ صاحبُ المال أن يُضمِّنَه فعل؛ لأنه لا يُصدَّقُ أنه رأى بالشاة موتاً؛ لِما عُرِفَ من فسقه.

السابعة عشرة: لم يُنقَلْ ما كانت أجرةُ موسى عليه السلام، ولكن روى يحيى بن سلّام أنَّ صالح مدين جعل لموسى كلَّ سخلةٍ توضَعُ خلافَ لونِ أمِّها، فأوحى الله إلى موسى أن ألْقِ عصاكَ بينهنَّ يَلِدْنَ خلافَ شبههنَّ كُلِّهنَّ[٣]. وقال غير يحيى: بل جعل له كل بلقاءَ تولد له، فولَدْنَ له كلَّهُنَّ بُلْقاً[٤]. وذكر القُشيري أنَّ شعيباً لمَّا استأجرَ موسى قال له: ادخُلْ بيتَ كذا، وخُذْ عصًا من العِصيِّ التي في البيت، فأخرجَ موسى عصًا، وكان أخرجها آدمُ من الجنة، وتوارثَها الأنبياءُ حتى صارت إلى شعيب، فأمره شعيبٌ أن يُلقِيَها في البيت ويأخُذَ عصًا أخرى، فدخل وأخرجَ تلك العصا؛ وكذلك سبعَ مراتٍ كلُّ ذلك لا تقع بيده غير تلك، فعلم شعيبٌ أنَّ له شأناً، فلمَّا أصبحَ قال

(١) في (د) و(ز) و(م): عبد الله. والمثبت من (ز) وصحيح البخاري.

(٢) صحيح البخاري (٢٣٠٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦١ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٩ .

له: سُقِ الأغنامَ إلى مفرق الطريق، فخُذْ عن يمينك وليس بها عشبٌ كثير، ولا تأخُذْ عن يسارك فإنَّ بها عشباً كثيراً وتِنِّيناً كبيراً لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذتْ نحو اليسار ولم يقدِرْ على ضبطها، فنام موسى وخرج التِّنِّين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً، وحاربت التِّنِّينَ حتى قتلَتْه، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلمَّا انتبه موسى رأى العصا مخضوبةً بالدم، والتِّنِّين مقتولاً، فعاد إلى شعيب عشاءً، وكان شعيبٌ ضريراً، فمسَّ الأغنام، فإذا أثَرُ الخِصب بادٍ عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيبٌ وقال: كلُّ ما تَلِدُ هذه المواشي هذه السَّنة قالِبُ لونٍ ـ أي: ذاتُ لونين ـ فهو لك، فجاءت جميعُ السِّخال تلكَ السَّنةِ ذاتَ لونين، فعَلِمَ شعيبٌ أنَّ لموسى عند الله مكانة.

وروى عُيَيْنةُ بن حِصن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أجَّرَ موسى نفسَه بِشبَعِ بطنهِ وعِفَّةِ فرجه» فقال له شعيبٌ: لكَ منها ـ يعني من نتاج غنمه ـ ما جاءت به قالِبُ لونٍ ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ[١]. قال الهروي: العزوز: البكيئة؛ مأخوذٌ من العَزَاز: وهي الأرض الصلبة، وقد تعزَّزت الشاة. والفَشُوشُ: التي يَنْفَشُ لبنُها من غير حلبٍ، وذلك لِسَعة الإحليل، ومثله الفَتُوح والثَّرُورُ. ومن أمثالهم: (لَأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أي: لأُخرِجَنَّ غضبَكَ وكِبْرَكَ من رأسك. ويُقال: فَشَّ السِّقاءَ إذا أخرجَ منه الريح. ومنه الحديث: «إنَّ الشيطانَ يَفُشُّ بين أَلْيَتِيْ أحدِكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث»[٢] أي: ينفخُ نفخاً ضعيفاً. والكَمُوشُ: الصغيرة الضرع، وهي الكميشةُ أيضاً؛ سُمِّيت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يُقال: رجلٌ كميشُ الإزار. والكَشُودُ مثل الكَموش. والضَّبُوبُ: الضيِّقةُ ثقب الإحليل. والضَّبُّ: الحَلْبُ بشِدَّة العصر. والثَّعُولُ: الشاة التي لها زيادةُ حُلمةٍ وهي الثَّعل. والثَّعلُ: زيادةُ السِّنِّ، وتلك الزيادة هي الرَّاؤُول[٣]. ورجل أثعل. والضَّبوب: ضيقةُ مخرج

(١) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٨١، وابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٣.

(٢) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٤٢٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) في النسخ: الثعل. والتصويب من تهذيب اللغة ٢/ ٣٢٩.

اللبن[١]. قال الهروي: وتفسيرُ قالِبُ لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

الثامنة عشرة: الإجارةُ بالعِوَضِ المجهول لا تجوز؛ فإنَّ ولادةَ الغنم غيرُ معلومة، إنَّ من البلاد الخصبة ما يعلم وِلادَ الغنم فيها قطعاً وِعدَّتَها وسلامةَ سِخالها كديار مصر وغيرها، بَيْدَ أنَّ ذلك لا يجوز في شرعنا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن الغَرَر[٢]، ونهى عن المضامين والملاقيح. والمضامين: ما في بطون الإناث، والملاقيح: ما في أصلاب الفحول، وعلى خلاف ذلك قال الشاعر:

مَـلْـقُـوحَـةً فـي بـطـنِ نـابٍ حـامِـلِ

وقد مضى في سورة «الحجر» بيانه[٣]. على أنَّ راشد بن معمَر أجاز الإجارةَ على الغنم بالثلث والربع. وقال ابن سيرين وعطاء: ينسج الثوبَ بنصيبٍ منه. وبه قال أحمد.[٤]

التاسعة عشرة: الكفاءة في النكاح معتبرة، واختلف العلماء هل في الدِّين والمال والحسب، أو في بعض ذلك. والصحيح جوازُ نكاح المَوالي للعربيات والقرشيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عُرياناً، فأنكحه ابنتَه لمَّا تحقق [من دينه] ورأى من حاله، وأعرض عما سوى ذلك[٥]. وقد تقدَّمت هذه المسألة مستوعبةً والحمد لله.

الموفية عشرين: قال بعضهم: هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذِكْراً لِصَداق

---

(١) في النسخ: والثعل مخرج اللبن. والتصويب من اللسان (ثعل).

(٢) سلف ٤/٤٤٦ .

(٣) ١٢/١٩٨ - ١٩٩ ، والرجز ينسب إلى مالك بن الريب، وتتمته: وعِدةِ العام وعامٍ قابلِ.

(٤) هذه المسألة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٢ - ١٤٦٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٦ ، وما بين حاصرتين منه.

المرأة، وإنما كان اشتراطاً لنفسه على ما يفعله الأعراب؛ فإنها تشترط صَداق بناتِها، وتقول: لي كذا في خاصَّةِ نفسي. وتركُ المهرِ مفوَّضاً، ونكاحُ التفويض جائز. قال ابن العربي: هذا الذي تفعله الأعراب هو حُلوانٌ وزيادةٌ على المهر، وهو حرامٌ لا يليق بالأنبياء، فأمَّا إذا اشترط الوليُّ شيئاً لنفسه، فقد اختلف العلماء فيما يُخرِجُه الزَّوجُ من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما ـ أنه جائز. والآخر ـ لا يجوز. والذي يصِحُّ عندي التقسيم؛ فإنَّ المرأة لا تخلو أن تكون بكراً أو ثيباً، فإن كانت ثيباً جاز؛ لأنَّ نكاحَها بيدِها، وإنما يكون للوليِّ مباشرة العقد، ولا يمتنع أخذُ العِوَضِ عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع. وإن كانت بكراً كان العقدُ بيده، وكأنَّه عِوَضٌ في النكاح لغير الزوج، وذلك باطل؛ فإن وقعَ فُسِخَ قبل البناء، وثبتَ بعده على مشهور الرواية. والحمد لله[1].

الحادية والعشرون: لمَّا ذكرَ الشرطَ وأعقبَه بالطَّوع في العشر خرج كلُّ واحدٍ منهما على حكمه، ولم يلحقِ الآخرُ بالأوّل، ولا اشترك الفرضُ والطَّوع؛ ولذلك يُكتب في العقود الشروطُ المتَّفقُ عليها، ثم يقال: وتطوَّع بكذا، فيجري الشرطُ على سبيله، والطَّوعُ على حُكمه، وانفصل الواجبُ من التطوُّع[2].وقيل: ومِنْ لفظِ شعيبٍ حَسُنَ في لفظ العقود في النكاح: أنكِحْه إيَّاها أولى من أنكِحْها إيَّاه ـ على ما يأتي بيانُه في «الأحزاب»[3]ـ وجعل شعيبٌ الثمانيةَ الأعوام شرطاً، ووكَلَ العاشرة إلى المروءة[4].

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ لمَّا فرغَ كلامُ شعيب قرَّره موسى عليه السلام وكرَّر معناه على جهة

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٦١ - ١٤٦٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٦٧ .

(٣) عند تفسير الآية (٤٩) .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ .

التوثُّقِ في أنَّ الشرطَ إنما وقع في ثمان حِجج[١].

و«أيَّمَا» استفهامٌ منصوبٌ بـ «قَضَيْتُ» و«الْأَجَلَيْنِ» مخفوضٌ بإضافةِ«أي» إليهما و«ما» صلةٌ للتأكيد، وفيه معنى الشرط، وجوابه «فَلَا عُدْوَانَ» وأنَّ «عدوانَ» منصوبٌ بـ «لا». وقال ابن كَيْسان: «ما» في موضع خَفْضٍ بإضافة «أيٍّ» إليها، وهي نكرة، و«الْأَجَلَيْنِ» بدلٌ منها. وكذلك في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: رحمةٍ بدلٌ من ما؛ قال مكي: وكان يتلطَّفُ في ألَّا يجعلَ شيئاً زائداً في القرآن، ويُخرِجَ له وجهاً يُخرِجُه من الزيادة[٢].

وقرأ الحسن: «أيْمَا» بسكون الياء. وقرأ ابن مسعود: «أيَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ». وقرأ الجمهور: «عُدْوَان» بضم العين. وأبو حَيْوة بكسرها، والمعنى: لا تَبِعةَ عليَّ ولا طلبَ في الزيادة عليه[٣]. والعدوانُ: التجاوزُ في غير الواجب. والحِجج السِّنون. قال الشاعر:

لِمَنِ الديارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ   أقْوَيْنَ مِن حِجَجٍ ومِنْ دَهْرِ[٤]

الواحدة حِجَّة بكسر الحاء.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قيل: هو من قول موسى. وقيل: هو من قول والد المرأة.

فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يُشْهِدا أحداً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥. وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ١٥٢، وذكرها في الشاذة ص١١٢ عن العباس بن الفضل عن أبي عمرو. وقراءة ابن مسعود وأبي حيوة في الشاذة ص١١٢. لكنه نسب الثانية إلى ابن قطيب.

(٤) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٨٦، وسلف ١٠/ ٣٨٠.

من الخلق، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح؛ وهي:

الثالثة والعشرون: على قولين: أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقال مالك: إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرقُ ما بين النكاح والسفاح الدُّفُّ[١]. وقد مضت هذه المسألة في «البقرة»[٢] مستوفاةً. وفي البخاري عن أبي هريرة: أنَّ رجلاً من بني إسرائيل سألَ بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألفَ دينار فقال: ايتِني بالشهداء أُشهِدُهم. فقال: كفى بالله شهيداً. فقال: ايتني بكفيل. فقال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه... وذكر الحديث[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قال سعيد بن جُبير: سألني رجلٌ من النصارى: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدُمَ على حَبْرِ العرب فأسألَه ـ يعني ابن عباس ـ فقدمتُ عليه فسألتُه، فقال: قضى أكملَهما وأوفاهما. فأعلمتُ النصرانيَّ، فقال: صدقَ واللهِ هذا العالم. ورُوِيَ عن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ سأل في ذلك جبريل، فأخبره أنه قضى عشر سنين. وحكى الطبري عن مجاهد أنه

---

(١) هذه المسألة وما قبلها في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٨ . وقوله: «وفرق ما بين النكاح والسفاح الدف» ورد معناه في حديث مرفوع عن محمد بن حاطب ﷺ بلفظ: «فصلٌ بين الحلال والحرام الدُّفُّ والصوت في النكاح»، وهو في مسند أحمد (١٥٤٥١).

(٢) ٣/ ٤٦٥ .

(٣) صحيح البخاري (٢٠٦٣)، وهو في مسند احمد (٨٥٨٧).

قضى عشراً وعشراً بعدها. قال[١] ابن عطية[٢]: وهذا ضعيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قيل: فيه دليلٌ على أنَّ الرجل يذهبُ بأهله حيث شاء؛ لما لَهُ من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلَّا أن يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم، وأحقُّ الشروط أن يوفى به ما استحللْتُم به الفروج[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ الآية. تقدَّم القولُ في ذلك في «طه»[٤]. والجِذوة بكسر الجيم قراءةُ العامَّة، وضمَّها حمزة ويحيى، وفتحها عاصم والسُّلَمي وزِرُّ بن حُبيش[٥]. قال الجوهري[٦]: الجِذْوة والْجُذْوَة وَالْجَذْوَةُ: الجمرة الملتهبة، والجمع جِذاً وجُذاً وجَذاً. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قطعة من الجمر؛ قال: وهي بِلُغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة[٧]: والجِذْوة مثل الجِذْمة: وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نارٌ أو لم يكن. قال ابن مُقبِل:

باتَتْ حَواطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَها جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ ولا دَعِرِ[٨]

وقال:

---

(١) قبلها في (م) عبارة: رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦، والمسألة منه، وقول ابن عباس وأثر مجاهد في تفسير الطبري ١٨/ ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٩ - ١٤٧٠.

(٤) ١٤/ ١٨.

(٥) قراءة العامة وحمزة وعاصم في السبعة ص٤٩٣، والتيسير ص١٧١.

(٦) في الصحاح (جذى).

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٢ - ١٠٣.

(٨) ديوان تميم بن مقبل ص٩١. قال شارحه: الحواطب: النساء اللواتي يجمعن الحطب. والجزل: الحطب الغليظ القوي. والجذا: أصول الشجر العظام التي بلي أعلاها وبقي أسفلها، واحدتها جَذاة. والخوَّار: الحطب الضعيف السريع الاستيقاد. والدَّعِر: الحطب البالي النخِر الذي إذا وضع على النار لم يستوقد ودَخِنَ كثيراً.

وألقى على قَيْسٍ مِنَ النَّار جِذْوَةً شديداً عليها حَمْيُها ولهيبُها

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني: الشجرة قدَّم ضميرَها عليها. ﴿نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ﴾ «مِن» الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداءُ من شاطئ الوادي من قِبَلِ الشجرة. و«مِنَ الشَّجَرةِ»بدلٌ من قوله: «مِنْ شَاطِئ الْوَادِ» بدل الاشتمال؛ لأنَّ الشجرةَ كانت نابتةً على الشاطئ[١]، وشاطئُ الوادي وشَطُّه: جانبُه، والجمع شُطَّان وشواطئ. ذكره القشيري. وقال الجوهري[٢]: ويُقال: شاطئ الأودية ولا يُجمع. وشاطأتُ الرجلَ إذا مشيتُ على شاطئٍ ومشى هو على شاطئٍ آخر. ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: عن يمين موسى[٣]. وقيل: عن يمين الجبل[٤]. ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ وقرأ الأشهب العُقيلي: «في الْبَقْعَةِ» بفتح الباء[٥]. وقولهم: بِقاع يدلُّ على بَقْعة، كما يقال: جَفْنة وجِفَان. ومن قال: بُقْعة قال: بُقَع، مثل غُرْفة وغُرَف[٦]. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: من ناحية الشجرة. قيل: كانت شجرة العلِّيق: وقيل: سَمُرة[٧]. وقيل: عَوْسَج. ومنها كانت عصا. ذكره الزمخشري[٨]. وقيل: عُنَّاب[٩]، والعَوْسج إذا عظُمَ يقال له:

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

(٢) في الصحاح (شطأ).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢١٨ .

(٤) ذكر أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٢٦ بأنه لم يكن للجبل يمين ولا شمال.

(٥) الشاذة ص١١٢ عن الأشهب ومسلمة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ . والقول الأول أخرجه الطبري ١٨/ ٢٤٣ عن وهب بن منبه، والثاني أخرجه عن ابن مسعود ﷺ.

(٨) في الكشاف ٣/ ١٧٤ عن الكلبي.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢١٨ عن ابن عباس ﷺ.

الغَرْقَد[١]. وفي الحديث: «إنَّه من شجر اليهود، فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدَّجَّال فلا يختفي أحدٌ منهم خلْفَ شجرةٍ إلَّا نطقَتْ وقالت: يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي تعالَ فاقتُلْه، إلَّا الغَرْقَد فإنَّه من شجر اليهود فلا ينطِقْ». خرَّجه مسلم[٢]. قال المهدوي: وكلَّمَ اللهُ تعالى موسى عليه السلام من فوقِ عرشِه، وأسمَعَه كلامَه من الشجرة على ما شاء. ولا يجوز أن يُوصَفَ الله تعالى بالانتقال والزوال وشبهِ ذلِكَ من صفات المخلوقين.[٣] قال أبو المعالي: وأهلُ المعاني وأهلُ الحقِّ يقولون: مَنْ كلَّمه اللهُ تعالى وخصَّه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيُدرِكُ كلامَه القديمَ المتقدِّسَ عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات، كما أنَّ مَنْ خصَّه اللهُ بمنازل الكرامات وأكملَ عليه نعمتَه، ورزقه رؤيتَه يرى الله سبحانه وتعالى منزَّهاً عن مماثلةِ الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مِثْلَ له سبحانه في ذاته وصفاته، وأجمعَتِ الأمةُ على أنَّ الربَّ تعالى خصَّصَ موسى عليه السلام وغيرَه من المصطَفَين من الملائكة بكلامه. قال الأستاذ أبو إسحاق: اتَّفق أهلُ الحقِّ على أنَّ الله تعالى خلقَ في موسى عليه السلام معنًى من المعاني أدركَ به كلامَه كان اختصاصُه في سماعه، وأنه قادرٌ على مثله في جميع خلقه. واختلفوا في نبيِّنا عليه الصلاة والسلام هل سمع ليلةَ الإسراء كلامَ الله، وهل سمعَ جبريلُ كلامَه على قولين؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود، واتَّفقوا على أن سماعَ الخلق له عند قراءةِ القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارةَ التي عرفوا بها معناه دون سماعِه له في عينه. وقال عبد الله بن سعد بن كلاب: إنَّ موسى عليه السلام فهِمَ كلامَ الله القديم من أصواتٍ مخلوقةٍ أثبتَها اللهُ تعالى في بعض الأجسام. قال أبو المعالي: وهذا مردود، بل يجب اختصاصُ موسى عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقاً للعادة، ولو لم

---

(١) إكمال المعلم ٨/ ٤٦٣ .

(٢) في صحيحه (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٣٩٨) بتمامه، والبخاري (٢٩٢٦) دون قوله: إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق.

(٣) يوصف الله بالإتيان والنزول والقرب ونحو ذلك مما ورد في النصوص الصحيحة بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل.

يُقَلْ ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاصٌ بتكليم اللهِ إيَّاه. والربُّ تعالى أسمعَه كلامَه العزيز، وخلق له علماً ضرورياً، حتى علِمَ أنَّ ما سمِعَه كلامُ الله، وأنَّ الذي كلَّمه وناداه هو الله ربُّ العالمين. وقد ورد في الأقاصيص أنَّ موسى عليه السلام قال: سمعتُ كلامَ ربي بجميع جوارحي، ولم أسمَعْه من جهةٍ واحدةٍ من جهاتي. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[١] مستوفى. ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ «أَنْ» في موضع نصبٍ بحذفِ الجرِّ، أي بـ «أَنْ يا مُوسى»[٢]. ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ نفيٌ لربوبية غيرِه سبحانه. وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عزَّ وجلَّ لا من رسله؛ لأنَّه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة، والأمرُ بها إنما كان بعد هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾ عطفٌ على «أَنْ يا مُوسى» وتقدَّم الكلامُ في هذا في «النمل»[٣] و«طه»[٤]. و﴿مُدْبِرًا﴾ نصبٌ على الحال، وكذلك موضع قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ نصبٌ على الحال أيضاً[٥]. ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ﴾ قال وهب: قيل له: ارجعْ إلى حيث كنت. فرجعَ فلَفَّ دُرَّاعتَه[٦] على يده، فقال له المَلِك: أرأيتَ إن أرادَ اللهُ أن يُصيبكَ بما تُحاذِرُ أينفعُكَ لَفُّكَ يدَك؟ قال: لا، ولكنِّي ضعيفٌ خُلِقْتُ من ضعف. وكشف يدَه فأدخلَها في فم الحية فعادت عصا. ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ أي: مما تُحاذر[٧].

(١) ٢/ ١١٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٧.

(٣) ١٦/ ١٠٧.

(٤) ١٤/ ٤٨.

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٤.

(٦) الدُّرَّاعة: ضربٌ من الثياب التي تلبس. وقيل: جبة مشقوقة المقدم. اللسان (درع).

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٧.

قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ الآية؛ تقدَّم القول فيه(١). ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ﴾ «من» متعلقة بـ «وَلَّى» أي: ولَّى مدبراً من الرَّهب(٢). وقرأ حفص والسُّلَميُّ وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «مِنَ الرَّهْبِ» بفتح الراء وإسكان الهاء. وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضمِّ الراء وجزم الهاء. الباقون بفتح الراء والهاء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾(٣) [الأنبياء: ٩٠] وكلُّها لغاتٌ، وهو بمعنى الخوف. والمعنى: إذا هَالَكَ أمرُ يَدِكَ وشُعاعُها فأدخِلْها في جيبك واردُدْها إليه تَعُدْ كما كانت. وقيل: أمرَه اللهُ أن يضُمَّ يدَه إلى صدره فيذهب عنه خوفُ الحيَّة. عن مجاهد وغيره، ورواه الضحَّاك عن ابن عباس؛ قال: فقال ابن عباس: ليس من أحدٍ يدخلُه رعبٌ بعد موسى عليه السلام ثم يُدخِلُ يدَه فيضعُها على صدره إلَّا ذهبَ عنه الرعب(٤). ويُحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أنَّ كاتباً كان يكتبُ بين يديه، فانفلتَتْ منه فلتةُ ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمِه الأرض. فقال له عمر: خُذْ قلمَكَ واضمُمْ إليك جناحَك، وليفْرَخْ(٥) رُوعُكَ فإني ما

---

(١) ١٤/٤٩ - ٥٠ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/٥٤٣ .

(٣) قراءة حفص وابن عامر والكوفيين حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه في السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ .

(٥) أي: لينكشف، وأصل الإفراخ الانكشاف. الصحاح (فرخ).

سمعتُها من أحدٍ أكثرَ ممَّا سمعتُها من نفسي[١]. وقيل: المعنى: اضمُمْ يدَكَ إلى صدرِكَ لِيُذهِبَ اللهُ ما في صدرك من الخوف[٢]. وكان موسى يرتعِدُ خوفاً إمَّا من آل فرعون وإمَّا من الثعبان. وضَمُّ الجناح هو السكون، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] يريد الرِّفق. وكذلك قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أي: ارفُقْ بهم. وقال الفرَّاء: أرادَ بالجناح عصاه. وقال بعض أهل المعاني: الرَّهب: الكُمُّ بِلُغةِ حِمْيَرٍ وبني حنيفة. قال مقاتل: سألتني أعرابيةٌ شيئاً وأنا آكل، فملأتُ الكفَّ وأومأتُ إليها فقالت: هاهنا في رهبي. تريد: في كُمِّي. وقال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول لآخر: أعطِني رَهْبَك. فسألتُه عن الرَّهب فقال: الكُمُّ. فعلى هذا يكون معناه: اضمُمْ إليك يدك وأخرجها من الكُم؛ لأنه تناول العصا ويدُه في كمِّه[٣]. وقوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ يدلُّ على أنها اليد اليمنى؛ لأنَّ الجيبَ على اليسار. ذكره القشيري.

قلت: وما فسَّروه من ضمِّ اليدِ إلى الصَّدرِ يدلُّ على أنَّ الجيبَ موضِعُه الصدر. وقد مضى في سورة «النور»[٤] بيانُه. الزمخشري: ومن بدع التفاسير أنَّ الرَّهبَ الكُمُّ بِلُغةِ حِمْير وأنَّهم يقولون: أعطني ممَّا في رَهْبِكَ، وليتَ شعري كيفَ صِحَّتُه في اللغة! وهل سمع من الأثباتِ الثقاتِ الذين تُرتَضى عربيَّتُهم، ثم ليتَ شعري كيفَ موقِعُه في الآية، وكيفَ تطبيقُه المُفصَّلُ كسائر كلمات التنزيل؛ على أنَّ موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلةَ المناجاة إلا زُرْمَانِقَةٌ[٥] من صوفٍ لا كُمَّينِ لها[٦]. قال القشيري: وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يريد اليدين إن قُلْنا: أراد الأمنَ من فزع الثعبان.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٢٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ دون قول مقاتل. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٦ .

(٤) ١٥/ ٢١٦ .

(٥) أي: جبة من صوف. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٧٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

وقيل: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: شَمِّرْ واستَعِدَّ لتحمِلَ أعباءَ الرسالة.

قلتُ: فعلى هذا قيل: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ أي: من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾. قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول. وقيل: إنما صار رسولاً بقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ والبرهانان: اليد والعصا[١].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «فذانِّكَ»[٢] بتشديد النون، وخففها الباقون[٣]. وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير، «فَذَانِّيكَ» بالتشديد والياء. وعن أبي عمرٍو أيضاً قال: لغةُ هذيل «فَذَانِيكَ» بالتخفيف والياء[٤]. ولغةُ قريش «فَذَانِكَ» كما قرأ أبو عمرو وابن كثير. وفي تعليله خمسةُ أقوال: قيل: شدَّدَ النونَ عِوَضاً من الألف الساقطة في ذانِكَ الذي هو تثنية ذا المرفوع، وهو رفعٌ بالابتداء، وألفُ ذا محذوفةٌ لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأنَّ أصلَه فذانك، فحذفَ الألفَ الأولى عوضاً من النون الشديدة. وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك. مكي: وقيل: إنْ مَنْ شدَّدَ إنَّما بناه على لغةِ مَنْ قال في الواحد ذلك، فلمَّا بنى أثبتَ اللامَ بعد نون التثنية، ثم أدغم اللامَ في النون على حُكم إدغام الثاني في الأوَّل، والأصلُ أن يُدغِمَ الأوَّلَ أبداً في الثاني، إلَّا أن يمنعَ من ذلِكَ علَّةٌ فيُدغِمَ الثاني في الأوَّل، والعِلَّةُ التي منعَتْ في هذا أن يُدغِمَ الأوَّلَ في الثاني أنَّه لو فعلَ ذلك لصار في موضع النون التي تدلُّ على التثنية لامٌ مُشدَّدة، فيتغيَّرُ لفظ التثنية، فأدغم الثاني في الأول لذلك، فصار نوناً مُشدَّدة. وقد قيل: إنه لما ثنى[٥] ذلِكَ أثبتَ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥.

(٢) قوله: وأبو عمرو: «فذانِّكَ» من (ظ)، وهو ليس في باقي النسخ.

(٣) السبعة ص٤٩٣، والتيسير ص١٧١.

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧: وقرأ شبل عن ابن كثير: «فذانَيك» بياء بعد النون المخففة، وقرأ ابن مسعود: «فذانِّيك» بالياء أيضاً مع شد النون، وهي لغة هذيل. قلنا: والقراءاتان في الشاذة ص١١٣ عن ابن كثير.

(٥) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: لما تنافى.

اللامَ قبلَ النون، ثم أدغمَ الأوَّلَ في الثاني على أصول الإدغام، فصار نوناً مُشدَّدة. وقيل: شُدِّدتْ فرقاً بينها وبين الظاهر التي تُسقِطُ الإضافةُ نونَه؛ لأنَّ ذانِ لا يُضاف. وقيل: للفرق بين الاسم المتمكِّنِ وبينها. وكذلك العِلَّةُ في تشديد النون في «اللذان» و«هذان»[(١)]. قال أبو عمرو: إنما اختصَّ أبو عمرو هذا الحرفَ بالتشديد دونَ كلِّ تثنيةٍ من جنسه؛ لقِلَّة حروفِه، فقرأه بالتثقيل. ومن قرأ: «ذَانِيكَ» بياءٍ مع تخفيف النون، فالأصل عنده «فَذَانِّكَ» بالتشديد، فأبدلَ من النون الثانية ياءً كراهيةَ التضعيف، كما قالوا: لا أملاه في لا أَمَلُّه، فأبدلوا اللامَ الثانية ألِفاً[(٢)]. ومن قرأ بياءٍ بعد النون الشديدة فوجَّهَه أنه أشبع كسرةَ النونِ فتولَّدت عنها الياء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ يعني: مُعيناً، مُشتقٌّ من أردَأْتُه أي: أعنْتُه[(٣)]. والرِّدْءُ: العون[(٤)]. قال الشاعر:

أَلـــم تـــرَ أنَّ أصْـــرَمَ كـــان رِدئـــي ... وخـــيـــرَ الـــنـــاسِ فـــي قُـــلٍّ ومـــالِ

النحَّاس[(٥)]: وقد أردأه ورداه أي: أعانه، وترك همزَه تخفيفاً. وبه قرأ نافع[(٦)]، وهو بمعنى المهموز. قال المهدوي: ويجوز أن يكون تركُ الهمزِ من قولِهم: أَردى على المئة، أي: زادَ عليها، وكأنَّ المعنى: أَرْسِلْهُ معي زيادةً في تصديقي. قاله مسلم ابن جُندب. وأنشدَ قولَ الشاعر:

وأســـمـــرَ خَـــطِّـــيّـــاً كـــأنَّ كُـــعـــوبَـــهُ ... نوى القَسْبِ قد أردى ذراعاً على العَشْرِ

كذا أنشد الماورديُّ[(٧)] هذا البيت: قد أردى. وأنشده الغزنويُّ والجوهريُّ في

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٢) الحجة في القراءات ٥/ ٤٢٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٨٠ .

(٦) السبعة ص٤٩٤ ، والتيسير ص١٧١ .

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٣ .

«الصحاح»[١]: قد أرمى؛ قال[٢]: والقَسْبُ: الصَّلْبُ، والقَسْبُ: تمرٌ يابسٌ يتفتَّتُ في الفم، صَلْبُ النَّواة. قال يصف رمحاً: وأسمرَ. البيت. قال الجوهري[٣]: رَدُؤ الشيء يردؤ رَداءةً، فهو رديءٌ أي: فاسد، وأردأْتُه: أفسدْتُه، وأردأته أيضاً بمعنى أعنتُه؛ تقول: أردأْتُه بنفسين أي: كنتُ له رِدءاً وهو العون؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾. قال النحّاس[٤]: وقد حُكيَ رَدَأْتُه رِدْءاً، وجمعُ رِدْءٍ أَرْدَاءٌ. وقرأ عاصم وحمزة: «يُصَدِّقُني» بالرفع. وجزم الباقون[٥]، وهو اختيارُ أبي حاتم على جواب الدعاء، واختارَ الرفعَ أبو عبيدٍ على الحال من الهاء في «أَرْسِلْهُ» أي: أرسِلْه ردءاً مُصدِّقاً حالةَ التصديق، كقوله: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ﴾ [المائدة: ١١٤] أي: كائنةً، حالٌ صُرِفَ إلى الاستقبال. ويجوز أن يكون صفةً؛ لقوله: «ردْءاً»[٦]. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ إذا لم يكن لي وزيرٌ ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني، فـ﴿قَالَ﴾ اللهُ جلَّ وعزَّ له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نُقوِّيكَ به، وهذا تمثيل؛ لأنَّ قوَّةَ اليدِ بالعَضُد[٧]. قال طَرَفة[٨]:

أَبَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بيدٍ ... إلَّا يداً ليسَتْ لها عَضُدُ

ويُقال في دعاء الخير: شَدَّ اللهُ عضُدَكَ. وفي ضِدِّه: فتَّ اللهُ في عضُدِكَ[٩]. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّةً وبرهاناً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى[١٠]

---

(١) (رمى)، ونسبه إلى حاتم طيئ.
(٢) في الصحاح (قسب).
(٣) في الصحاح (ردأ).
(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨ .
(٥) السبعة ص٤٩٤ ، والتيسير ص١٧١ .
(٦) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٥ .
(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨٠ .
(٨) في ديوانه ص٤٥ .
(٩) الكشاف ٣/ ١٧٦ .
(١٠) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ .

﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ أي: تمتنعان منهم «بِآيَاتِنا»[١] فيجوز أن يوقَفَ على «إِلَيْكُما» ويكون في الكلام تقديمٌ وتأخير[٢]. وقيل: التقدير: أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُما الْغَالِبُونَ بآياتنا. قاله الأخفش والطبري[٣]. قال المهدوي: وفي هذا تقديمُ الصِّلةِ على الموصول، إلَّا أن يُقدَّر: أنتُما غالبانِ بآياتِنا أنتُما ومَنِ اتَّبعكما الغالبون. وعنى بالآيات سائِرَ معجزاته.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ظاهراتٍ واضحاتٍ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ مكذوبٌ مختلق[٤] ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾. وقيل: إن هذه الآيات ما احتجَّ به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية. وقيل: هي معجزاته[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ قراءةُ العامَّة بالواو، وقرأ مجاهدٌ وابن كثير وابن

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٤ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ ، وزاد المسير ٦/ ٢٢٢ بنحوه.

(٣) في تفسير البغوي ١٨/ ٢٥٣ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ .

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٥ .

مُحَيصِن: «قالَ» بلا واو، وكذلك هو في مصحف أهل مكة[(١)] ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بالرشاد. ﴿مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «يكون» بالياء، والباقون بالتاء. وقد تقدَّم هذا[(٢)]. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: دارُ الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء ضميرُ الأمرِ والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قال ابن عباس: كان بينَها وبينَ قوله: «أنا رَبُّكُمُ الأعلى» أربعون سنة[(٣)]. وكذبَ عدوُّ اللهِ، بل عَلِمَ أنَّ له ثَمَّ رَبّاً هو خالِقُه وخالِقُ قومِه؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اطبُخْ لي الآجُرَّ. عن ابن عباسٍ ﷺ[(٤)]. وقال قتادة: هو أوَّلُ مَنْ صنعَ الآجُرَّ وبنى به[(٥)]. ولمَّا أمرَ فرعونُ وزيرَه هامانَ ببناء الصَّرحِ جمعَ هامانُ العمَّالَ ـ قيل: خمسينَ ألفَ بَنَّاءٍ سوى الأتباع والأُجَراء ـ وأمَرَ بطبخِ الآجُرِّ والجَصِّ، ونَشْرِ الخشب، وضَرْبِ المسامير، فبنَوا ورفعوا البناءَ وشَيَّدوه بحيث لم يبلُغْه بنيانٌ منذ خلقَ اللهُ السماوات والأرض، فكان الباني لا يقدِرُ أن يقومَ على رأسه، حتى أرادَ الله أن يفتِنَهم فيه[(٦)]. فحكى السُّدِّيُّ أنَّ فرعونَ صعدَ السَّطحَ ورمى بنُشَّابةٍ نحوَ السماء، فرجعت متلطِّخةً بدماء، فقال: قد قتلتُ إله موسى[(٧)]. فرُويَ أنَّ جبريلَ عليه السلام بعثَه اللهُ تعالى عند مقالته، فضرب الصَّرحَ بجناحِه فقطَّعَه ثلاثَ قِطَع؛ قطعةً على عسكر فرعون قتلَتْ منهم ألفَ ألف،

---

(١) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١ دون ذكر قراءة مجاهد وابن محيصن.

(٢) المصدران السابقان، وقد سلف هذا ٩/ ٣٦.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣، وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٥٥.

(٦) عرائس المجالس ص١٩١ وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦، وزاد المسير ٦/ ٢٢٣، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

وقطعةً في البحر، وقطعةً في المغرب[١]، وهلكَ كلُّ مَنْ عَمِلَ فيه شيئاً[٢]. والله أعلمُ بصِحَّة ذلك. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الظنُّ هنا شَكٌّ، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخِيلُ[٣] على ذي فطرة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تعظّم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي: عن الإيمان بموسى. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدوان، أي: لم تكن له حجةٌ تدفع ما جاء به موسى. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: توهَّموا أنه لا معاد ولا بعث.

وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي: «لَا يَرْجِعُونَ» بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمَّى الفاعل. الباقون: «يُرْجَعُونَ» على الفعل المجهول. وهو اختيار أبي عبيد، والأوَّلُ اختيار أبي حاتم[٥].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ وكانوا ألفَي ألفٍ وستَّ مئةِ ألف. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: طرحناهم في البحر المالح[٦]. قال قتادة: بحرٌ من وراء مصر يقال له: إِسَاف، أغرقهم الله فيه[٧]. وقال وهب والسُّدِّي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية القُلْزُم يقال له: بطن مُرَيْرَة، وهو إلى اليوم غضبان. وقال مقاتل. يعني نهر النيل. وهذا ضعيفٌ، والمشهور الأوّل[٨]. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: آخرُ أمرهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر[٩]، فيكون عليهم

---

(١) في النسخ: الغرب. والمثبت من المصادر.
(٢) عرائس المجالس ص١٩٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦، وزاد المسير ٦/ ٢٢٣، والكشاف ٣/ ١٧٨.
(٣) أي: لا يُشكل. اللسان (خيل).
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨.
(٥) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩ دون ذكر قراءة ابن محيصن وشيبة وحميد.
(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٠.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣.
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩ من غير نسبة.
(٩) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

وزرُهم ووِزرُ من اتَّبعهم حتى يكون عقابُهم أكثر. وقيل: جعل الله الملأ من قومه رؤساء السَّفَلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم. وقيل: أئمةً يأتَمُّ بهم ذَوو العِبر ويتَّعظ بهم أهل البصائر. ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى عمل أهل النار[١] ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أمرنا العبادَ بلعنِهم فمَنْ ذكرهم لعنَهم. وقيل: أي: ألزمناهم اللعنَ أي: البُعدَ عن الخير. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المُهلَكين الممقوتين. قاله ابن كَيْسان وأبو عبيدة[٢]. وقال ابن عباس: المشوَّهين الخِلْقة بسواد الوجوه وزُرقة العيون. وقيل: من المُبعدين[٣]. يقال: قَبَحه اللهُ أي: نحَّاه من كل خير، وقَبَحه وقَبَّحه إذا جعله قبيحاً. وقال أبو عمرو: قَبَحْتُ وجهَه بالتخفيف معناه: قَبَّحت[٤]؛ قال الشاعر:

أَلَا قَبَحَ اللهُ البراجِمَ كلَّها وقَبَّحَ يَرْبوعاً وقَبَّحَ دَارِما[٥]

وانتصبَ يوماً على الحمل على موضع ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ واستُغني عن حرف العطف في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ كما استُغني عنه في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]. ويجوز أن يكون العاملُ في «يوم» مُضمَراً يدلُّ عليه قوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ فيكون كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]. ويجوز أن يكون العامل في «يوم» قوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ وإن كان الظرفُ متقدِّماً. ويجوز أن يكون مفعولاً على السَّعة، كأنه قال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً يوم القيامة[٦].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٦ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٥١٨ من غير نسبة.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ . والقول الثاني في زاد المسير ٦/ ٢٢٤ ، والكشاف ٣/ ١٨١ .

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٧٥ ، ونسب القول الأول لأبي زيد.

(٥) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٣٠ ، وفيه: وعفَّر دارما. قال شارحه: البراجم ويربوع ودارم قبائل من تميم.

(٦) البيان ٢/ ٢٢٣ -٢٢٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٥ - ٥٤٦ بنحوه .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة. قاله قتادة. قال يحيى بن سلّام: هو أوّلُ كتابٍ ـ يعني التوراة ـ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام. وقيل: الكتابُ هنا ستٌّ من المثاني السَّبع التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ. قاله ابن عباس، ورواه مرفوعاً[١]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال أبو سعيد الخدري: قال النبيُّ ﷺ: «ما أهلكَ اللهُ قوماً ولا قرناً ولا أمَّةً ولا أهلَ قريةٍ بعذابٍ من السماء ولا من الأرض منذُ أنزل اللهُ التوراةَ على موسى غيرَ القريةِ التي مُسخَتْ قِردةً، ألم ترَ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢]» أي: من بعد قوم نوحٍ وعادٍ وثمود[٣]. وقيل: أي: من بعد ما أغرقنا فرعونَ وقومَه وخسفنا بقارون.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: آتيناه الكتاب بصائر. أي: ليتبصَّروا ﴿وَهُدًى﴾ أي: من الضلالة لمن عمل بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن بها[٤]. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ليذكَّروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا، ويَثِقوا بثوابهم في الآخرة[٥].

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٦٠٩)، وفي تفسيره ١/ ٣٥٠، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص١١٨، والطبري في تفسيره ١٤/ ١١٤ - ١١٥، والحاكم ٢/ ٢٥٧ وغيرهم موقوفاً على ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٢٢٤٨)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وأخرجه البزار (٢٢٤٧)، والطبري ١٨/ ٢٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٢٨) عن أبي سعيد الخدري موقوفاً.

ومن بداية الآية حتى هذا الموضع من النكت والعيون ٢/ ٢٥٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٧، وزاد المسير ٦/ ٢٢٤.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أي: ما كنتَ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: بجانب الجبل الغربيِّ[(١)]؛ قال الشاعر:

أعطاكَ مَنْ أعطى الهُدَى النبيَّا نوراً يَزينُ المِنبرَ الغربيَّا

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ إذ كلَّفناه أمرَنا ونهيَنا، وألزمناه عهدنا[(٢)]. وقيل: أي: إذ قضينا إلى موسى أمرَك وذكرناك بخير ذكرٍ. وقال ابن عباس: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أي: أخبرنا أنَّ أمةَ محمدٍ خيرُ الأمم. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: من الحاضرين[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذِكْرَ الله أي: عهدَه وأمرَه[(٤)]. نظيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وظاهر هذا يُوجِبُ أن يكون جرى لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام ذِكْرٌ في ذلك الوقت، وأنَّ الله سيبعثه، ولكن طالت المدَّة، وغلبت القسوة، فنسيَ القومُ ذلك. وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهدُ فكفروا، فأرسلنا محمداً مُجدِّداً للدين وداعياً الخلقَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: مقيماً كمقام موسى وشعيب بينهم[(٥)]. قال العَجَّاج[(٦)]:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٢) مجمع البيان ٩/ ٣٠٠ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٢٥.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٦) في ديوانه ص٣٠٣.

فبـاتَ حيث يدخلُ الثَّوِيُّ

أي: الضيف المقيم.

وقوله: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي: تُذكِّرهم بالوعد والوعيد. ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك في أهل مكة، وآتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار، ولولا ذلك لَما عَلِمتَها[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: كما لم تحضر جانبَ المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانبَ الطور إذ نادينا موسى لمَّا أتى الميقات مع السبعين. وروى أبو زُرعة بن عمرو بن جَرير[٢] يرفعه قال: «نُودِيَ: يا أمةَ محمدٍ، أجبتُكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن تسألوني» فذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾. وقال أبو هريرة ـ وفي رواية عن ابن عباس ـ إن الله قال: «يا أمةَ محمدٍ، قد أجبتُكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن تسألوني، وغفرتُ لكم قبل أن تستغفروني، ورحمتُكم قبل أن تسترحموني»[٣] قال وهب: وذلك أنَّ موسى لمَّا ذكرَ اللهُ له فضل محمدٍ وأمته قال: يا ربِّ أرِنيهم. فقال الله: «إنكَ لن

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٢) في النسخ: عمرو بن دينار، والتصويب من المصادر.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩١ من طريق سفيان الثوري، والطبري ٨/ ٢٦٢ من طريق يحيى بن عيسى، كلاهما عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة بن عمرو.
وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٣١٨)، والطبري ٨/ ٢٦٢ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٤٦)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ من طريق حمزة الزيات، عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة.
وذكره الدارقطني في العلل ٨/ ٢٩١ وقال: عن أبي زرعة قوله، وهو أصح.
قلنا: ورواية ابن عباس ذكرها الرازي في تفسيره ٢٤/ ٢٥٧ .

تُدرِكَهم، وإن شئتَ ناديتُهم فأسمعتُكَ صوتَهم» قال: بلى يا رب. فقال الله تعالى: «يا أمة محمد» فأجابوا من أصلاب آبائهم، فقال: «قد أجبتُكم قبل أن تدعوني»[١] ومعنى الآية على هذا: ما كنتَ بجانب الطور إذ كلَّمنا موسى فنادينا أمَّتَك وأخبرناه بما كتبناه لكَ ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا. ﴿وَلَٰكِن﴾ فعلنا ذلك ﴿رَّحْمَةً﴾ منَّا بكم.

قال الأخفش: «رَحْمَةً» نصبٌ على المصدر، أي: ولكن رحمناك رحمةً. وقال الزجَّاج: هو مفعولٌ من أجله، أي: فعل ذلك بك لأجل الرحمة[٢]. النحَّاس: أي: لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تُلِيتْ عليك، ولكنَّا بعثناكَ وأوحيناها إليك للرحمة[٣]. وقال الكسائي: على خبر كان، التقدير: ولكن كان رحمة. قال: ويجوز الرفع بمعنى: هي رحمة. الزجَّاج: الرفع بمعنى: ولكنْ فِعْلُ ذلك رحمة[٤].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني العرب، أي: لم تشاهد تلك الأخبار، ولكن أوحيناها إليك رحمةً بمن أُرسِلتَ إليهم؛ لتنذرهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ يريدُ قريشاً. وقيل: اليهود[٥]. ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ أي: عقوبةٌ ونقمةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي. وخصَّ الأيدي بالذكر؛ لأنَّ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٨ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ . وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٥٣ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٤٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨١ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٢٧ .

الغالب من الكسب إنما يقع بها. وجواب «لَوْلَا» محذوفٌ، أي: لولا أن يصيبهم عذابٌ بسبب معاصيهم المتقدّمة ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لمَّا بعثنا الرسل. وقيل: لعاجلناهم بالعقوبة[1]. وبَعْثُ الرسل إزاحةٌ لعذر الكفار كما تقدَّم في «سبحان»[2] وآخر «طه»[3]. ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ نصبٌ على جواب التحضيض. ﴿وَنَكُونَ﴾ عطفٌ عليه. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدِّقين. وقد احتجَّ بهذه الآية من قال: إن العقل يوجِبُ الإيمانَ والشكر؛ لأنه قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك موجبٌ للعقاب؛ إذ تقرَّر الوجوبُ قبل بعثة الرسل، وإنما يكون ذلك بالعقل. قال القشيري: والصحيح أنَّ المحذوفَ: لولا كذا لَما احتيجَ إلى تجديد الرسل. أي: هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذَّبناهم فقد يقول قائلٌ منهم: طال العهد بالرسل، ويظنُّ أنَّ ذلك عذرٌ ولا عذرَ لهم بعد أن بلغهم خبرُ الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم. وقد حكم اللهُ بأنه لا يُعاقِبُ عبداً إلَّا بعد إكمال البيان والحُجَّة وبعثة الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿قَالُواْ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ من العصا واليد البيضاء، وأنزل عليه القرآن جملةً واحدةً كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد، فقال الله تعالى: ﴿أو لَمْ يَكْفروا بما أُوتيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالوا ساحِرانِ تَظاهَرا﴾ أي: موسى ومحمد تعاونا على السحر. قال الكلبي: بعثَتْ قريشٌ إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمدٍ وشأنه فقالوا: إنَّا نجده في التوراة بنعتِه وصفتِه. فلمَّا رجع الجواب إليهم ﴿قالوا ساحِرانِ تَظاهَرا﴾[4]. وقال قومٌ: إنَّ اليهودَ علَّموا المشركين، وقالوا: قولوا

---

(١) تفسير البغوي ٣/٤٤٨ .

(٢) ١٣/٤٤ وما بعده.

(٣) ١٤/١٦٦ وما بعده.

(٤) تفسير البغوي ٣/٤٤٨ - ٤٤٩ .

لمحمدٍ: لولا أوتيتَ مثلَ ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراةَ دفعةً واحدة. فهذا الاحتجاج واردٌ على اليهود، أي: أو لم يكفُرْ هؤلاء اليهود بما أوتيَ موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وإنَّا كافرون بكلِّ واحدٍ منهما.

وقرأ الكوفيون: «سِحْرانِ» بغير ألف؛ أي: الإنجيل والقرآن. وقيل: التوراة والفرقان. قاله الفرَّاء[1]. وقيل: التوراة والإنجيل. قاله أبو رزين. الباقون: «ساحِرانِ» بألف. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدهما ـ موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا قول مشركي العرب. وبه قال ابن عباس والحسن. الثاني ـ موسى وهارون. وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة. وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد[2]. فيكون الكلام احتجاجاً عليهم. وهذا يدلُّ على أنَّ المحذوف في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ لما جدَّدنا بعثة الرسل؛ لأنَّ اليهود اعترفوا بالنبوَّات ولكنهم حرَّفوا وغيَّروا واستحقُّوا العقاب، فقال: قد أكملنا إزاحةَ عُذرِهم ببعثة محمدٍ ﷺ. الثالث ـ عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وهذا قول اليهود اليوم. وبه قال قتادة. وقيل: أو لم يكفُرْ جميعُ اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ أي: قلْ يا

(١) في معاني القرآن له ٢/٣٠٦.

(٢) النكت والعيون ٤/٢٥٦، والقول الثالث الذي سيأتي منه أيضاً.

وينظر السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧٢.

محمد إذ كفرتُم معاشرَ المشركين بهذين الكتابين ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهما سحران. أو: فأتوا بكتابٍ هو أهدى من كتابَي موسى ومحمدٍ عليهما السلام. وهذا يُقوّي قراءةَ الكوفيين «سِحْرَانِ».

«أَتَّبِعْهُ» قال الفرَّاء[1]: بالرفع؛ لأنَّه صفةٌ[2] للكتاب وكتابٌ نكرة. قال: وإذا جزمت ـ وهو الوجه ـ فعلى الشرط.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتابٍ من عند الله ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: آراءَ قلوبهم وما يستحسنونه ويُحبِّبُه لهم الشيطان، وأنَّه لا حُجَّةَ لهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أتبَعْنا بعضَه بعضاً، وبعثنا رسولاً بعد رسول[3]. وقرأ الحسن: «وَصَلْنَا» مخففاً[4]. وقال أبو عبيدة والأخفش: معنى «وصلنا»: أتممنا، كصِلَتِك الشيء[5]. وقال ابن عُيَيْنة والسُّدِّي: بيَّنَّا. وقاله ابن عباس[6]. وقال مجاهد: فصَّلنا. وكذلك كان يقرؤها[7]. وقال ابن زيد: وصَلْنا لهم خبرَ الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا[8]. وقال أهل المعاني: وَالَينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضِه بعضاً؛ وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائحَ ومواعظَ

(١) في معاني القرآن له ٢/٣٠٧، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/٢٣٩.
(٢) في معاني القرآن وإعراب القرآن: صلة.
(٣) النكت والعيون ٤/٢٥٦.
(٤) الشاذة ص١١٣، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/٢٢٨ نسبتها إلى أبي المتوكل وابن يعمر.
(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/١٠٨، ونقلها الماوردي في النكت والعيون ٤/٢٥٦ عن الأخفش.
(٦) النكت والعيون ٤/٢٥٦ عن السدي، وتفسير البغوي ٣/٤٤٩ عن ابن عباس.
(٧) المحرر الوجيز ٤/٢٩١، وهي قراءة شاذة.
(٨) تفسير البغوي ٤/٤٤٩.

إرادةَ أن يتذكَّروا فيُفلحوا[١]. وأصلُها من وصل الحبال بعضِها ببعض. قال الشاعر:

فقُلْ لبني مروانَ ما بالُ ذِمَّةٍ وحبلٍ ضعيفٍ ما يزالُ يُوَصَّلُ[٢]

وقال امرؤ القيس:

دريرٍ كخُذروفِ الوليدِ أَمَرَّهُ تَقَلُّبَ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ[٣]

والضمير في «لهم» لقريش. عن مجاهد. وقيل: هو لليهود[٤]. وقيل: هو لهم جميعاً. والآية ردٌّ على من قال: هلَّا أوتي محمدٌ القرآن جملةً واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتذكَّرون محمداً فيؤمنوا به. وقيل: يتذكَّرون فيخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم. قاله علي بن عيسى. وقيل: لعلَّهم يتَّعِظون بالقرآن عن عبادة الأصنام. حكاه النقَّاش[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخبر أنَّ قوماً ممَّن أوتوا الكتابَ من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن؛ كعبد الله بن سَلام وسلمان[٦]. ويدخل فيه مَنْ أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينةَ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانيةُ نفرٍ أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧٤ ، وقائل البيت الأخطل، وهو في ديوانه ص١٠ ، وفيه: فسائل بني مروان.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٢١ . قال شارحه: قوله: «درير» يعني: هو درير في عدوه، أي: سريع خفيف. والخذروف: الخرَّارة التي يلعب بها الصبيان، تسمع لها صوتاً، وهي سريعة المرِّ، وجعل خيط الخذروف موصَّلاً؛ لأنه قد لعب به كثيراً حتى خفَّ وأخلَقَ وتقطَّع خيطُه فوُصل، فذلك أسرع لدورانه.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٢٨ ونسب القول الثاني إلى رفاعة القرظي.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٧ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٨٥) عن قتادة بنحوه.

وإدريس ونافع. كذا سمَّاهم الماوردي[١]. وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها إلى قوله[٢]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ قاله قتادة. وعنه أيضاً: أنها نزلت في عبد الله بن سَلَام وتميم الداريّ والجارود العبديّ وسلمان الفارسيّ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية.

وعن رِفاعةَ القُرظي[٣]: نزلت في عشرة أنا أحدهم[٤]. وقال الزُّهري[٥]: نزلت في النجاشي وأصحابه، ووجَّه باثني عشر رجلاً فجلسوا مع النبيِّ ﷺ، وكان أبو جهلٍ وأصحابُه قريباً منهم، فآمنوا بالنبيِّ ﷺ، فلمَّا قاموا من عنده تبِعَهم أبو جهلٍ ومن معه، فقال لهم: خيَّبَكُم الله من ركب، وقبَّحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدَّقتموه، وما رأينا ركباً أحمقَ منكم ولا أجهل. فقالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لم نَأْلُ أنفسَنا رشداً ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾[٦] وقد تقدَّم هذا في «المائدة» عند قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ مستوفى[٧]. وقال أبو العالية: هؤلاء قومٌ آمنوا بمحمدٍ ﷺ قبل أن يُبعث وقد أدركه بعضُهم[٨]. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن. وقيل: من قبل محمدٍ عليه الصلاة والسلام[٩] ﴿هُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أو بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿يُؤْمِنُونَ﴾[١٠]. ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: إذا قُرئ عليهم القرآن قالوا: صدَّقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزوله، أو: قبل بعثة محمد عليه

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٨ .

(٢) عبارة: «إلى قوله» من (ظ) والنكت والعيون.

(٣) في النسخ: بن قرظة، والتصويب من المصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٧٣)، والطبراني (٥٤٦٣).

(٥) في (م): عروة بن الزبير، والمثبت من (د) و(ظ) وإعراب القرآن.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٧) سلف هذا ٨/ ١٠٨ - ١١٠ لكن عند تفسير الآية التي قبل الآية التي ذكرها المصنف.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٩ .

(١٠) زاد المسير ٦/ ٢٢٩ .

الصلاة والسلام ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُوحِّدين، أو: مؤمنين بأنه سيُبعَثُ محمدٌ وينزل عليه القرآن.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ ثبتَ في «صحيح مسلم» عن أبي موسى أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ يؤتَون أجرَهُم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيِّه وأدركَ النبيَّ ﷺ فآمنَ به واتَّبعه وصدَّقه فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ الله عزَّ وجلَّ وحقَّ سيِّدِه فله أجران، ورجلٌ كانت له أمَةٌ فغذَّاها فأحسنَ غذاءها ثم أدَّبَها ثم أعتقَها وتزوَّجها فله أجران» قال الشَّعبيُّ للخُراساني: خُذْ هذا الحديث بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة. وخرَّجه البخاريُّ أيضاً[1]. قال علماؤنا: لمَّا كان كلُّ واحدٍ من هؤلاء مخاطَباً بأمرين من جهتين استحقَّ كلُّ واحدٍ منهم أجرين، فالكتابيُّ كان مخاطَباً من جهةِ نبيِّه، ثم إنه خُوطِبَ من جهة نبيِّنا، فأجابه واتَّبعه، فله أجر المِلَّتين، وكذلك العبد هو مأمورٌ من جهة الله تعالى ومن جهة سيِّده، وربُّ الأمَةِ لمَّا قام بما خُوطِبَ به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياءَ التربية، ثم إنَّه لمَّا أعتقها وتزوَّجها أحياها إحياءَ الحرِّية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أُمِرَ فيها، فأُجِرَ كلُّ واحدٍ منهما أجرين. ثم إنَّ كلَّ واحدٍ من الأجرين مضاعفٌ في نفسه، الحسنةُ بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور. ولذلك قيل: إنَّ العبدَ الذي يقوم بحقِّ سيِّده وحقِّ الله تعالى أفضلُ من الحرِّ. وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البَرِّ وغيره. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبدِ المملوكِ المُصلحِ أجران» والذي نفسُ أبي هريرةَ بيدِه، لولا

(١) صحيح البخاري (٣٠١١)، وصحيح مسلم (١٥٤). وهو في مسند أحمد (١٩٦٠٢).

الجهادُ في سبيل الله والحجُّ وبِرُّ أمي لأحببتُ أن أموتَ وأنا مملوك. قال سعيد بن المسيِّب: وبَلغَنا أنَّ أبا هريرةَ لم يكن يَحُجُّ حتى ماتت أمُّه؛ لصحبتها[١]. وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعِمَّا للمملوكِ أن يُتوفَّى يُحسِنُ عبادةَ الله وصحابةَ سيِّده، نِعِمَّا له»[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عامٌّ في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون. درأتُ إذا دفعتُ، والدرءُ الدفع. وفي الحديث: «ادرؤوا الحدودَ بالشُّبهات»[٤]. قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى. وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب[٥]. وعلى الأوّل

---

(١) صحيح مسلم (١٦٦٥) بتمامه، وصحيح البخاري (٢٥٤٨) دون قول سعيد بن المسيب، وهو كذلك في مسند أحمد (٨٣٧٢).

(٢) صحيح مسلم (١٦٦٧)، وهو في مسند احمد (٨٢٣٣). وأخرجه البخاري (٢٥٤٩) بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ .

(٤) المثبت من (م)، وفي (د) بزيادة: ما استطعتم. وفي (ظ): ادرؤوا الحدود ما استطعتم.

وأخرجه الترمذي (١٤٢٤)، والحاكم ٤/ ٣٨٤ ، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ من طريق الفضل بن موسى ومحمد ابن ربيعة، عن يزيد بن زياد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرجٌ فخلُّوا سبيله، فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» قال الترمذي: يزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث. وقال الذهبي في تعقبه على الحاكم: قال النسائي: يزيد بن زياد شامي متروك.

وأخرجه الترمذي بعد حديث (١٤٢٤) من طريق محمد بن ربيعة، عن يزيد بن زياد... بمثل إسناده سابقه إلا أنه جعله موقوفاً على عائشة.

وأخرجه ابن ماجه (٢٥٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً» قال البوصيري في مصباح الزجاجة٢/ ٧٠: هذا إسناد ضعيف، فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي، ضعفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي والأزدي والدارقطني.

وأخرجه البيهقي ٨/ ٢٣٨ من حديث علي ﷺ مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود، ولا ينبغي للإمام أن يعطل الحدود» وفي إسناده المختار بن نافع؛ قال البيهقي: قال البخاري: المختار بن نافع منكر الحديث.

وقد روي موقوفاً بأسانيد وألفاظ مختلفة، قال البيهقي ٩/ ١٢٣ - ١٢٤ : وأصح الروايات فيه عن الصحابة رواية عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قوله. قلنا: وقد أخرج تلك الرواية ابن ابي شيبة ٩/ ٥٦٧ ، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ بلفظ: ادرؤوا الجلد والقتل عن المسلمين ما استطعتم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ دون ذكر الحديث.

فهو وصفٌ لمكارم الأخلاق، أي: مَنْ قال لهم سوءاً لا يَنْوِه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه. فهذه آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، وهي مما نسختها آيةُ السيف وبقي حُكمُها فيما دون الكفر يتعاطاه أمةُ محمدٍ ﷺ إلى يوم القيامة[١]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن»[٢] ومن الخُلقِ الحسنِ دفعُ المكروه والأذى، والصبرُ على الجفا بالإعراضِ عنه ولينِ الحديث.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع، وفي ذلك حَضٌّ على الصدقات[٣]. وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة. ثم مدحَهم أيضاً على إعراضهم عن اللغو، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] أي: إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا عنه، أي: لم يشتغِلوا به ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: متاركةً، مثل قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: لنا دينُنا ولكم دينُكم. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أَمْناً لكم منَّا، فإنَّا لا نُحاربكم، ولا نُسابُّكم، وليس من التحية في شيء[٤]. قال الزجَّاج: وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قال الزجَّاج[٦]: أجمعَ المفسِّرون[٧]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ .

(٢) سلف ١٢/ ٥٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٠ بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٤٩ .

(٦) في معاني القرآن ٤/ ١٤٩ .

(٧) في النسخ: المسلمون، والمثبت من معاني القرآن للزجاج.

على أنها نزلت في أبي طالب.

قلت: والصوابُ أن يُقال: أجمعَ جُلُّ المُفسِّرين على أنها نزلت في شأن أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ، وهو نصُّ حديثِ البخاري ومسلم[١]، وقد تقدَّم [الكلام في][٢] ذلك في «براءة»[٣]. وقال أبو رَوْق: قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارةٌ إلى العباس. وقاله قتادة .﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد: لمن قدَّر له أن يهتدي[٤]. وقيل: معنى «مَنْ أَحْبَبْتَ» أي: مَنْ أحببتَ أن يهتدي[٥]. وقال جُبير بن مُطْعِم: لم يسمَعْ أحدٌ الوحيَ يُلقى على النبيِّ ﷺ إلَّا أبا بكرٍ الصِّدِّيق؛ فإنه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ هذا قول مشركي مكة[٦]. قال ابن عباس: قائل ذلك من قريشٍ الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشيُّ قال للنبيِّ ﷺ: إنَّا لنعلم أنَّ قولَكَ حَقٌّ، ولكن يمنعُنا أن نتَّبعَ الهدى معك، ونؤمِنَ بك، مخافة أن يتخطَّفَنا العرب من أرضنا ـ يعني مكة ـ لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقةَ لنا بهم. وكان هذا من تعلُّلاتِهم، فأجاب الله تعالى عمَّا اعتلَّ به

(١) صحيح البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) ١٠/ ٣٩٨.

(٤) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٠، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٠٤)، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٨٦، وابن أبي حاتم (١٧٠٠٥).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨٨.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٢.

فقال[١]: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمن. وذلك أنَّ العربَ كانت في الجاهلية يُغير بعضُهم على بعض، ويقتلُ بعضُهم بعضاً، وأهلُ مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمَّنَهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوَّهم، فلا يخافون أن تستحِلَّ العربُ حُرمةً في قتالهم. والتخطُّف: الانتزاع بسرعة[٢]: وقد تقدَّم[٣]. قال يحيى بن سلَام يقول: كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي. ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي يُجمَع إليه ثمراتُ كل أرض وبلد. عن ابن عباس وغيره[٤]. يقال: جبى الماء في الحوض أي: جمعه. والجابية: الحوض العظيم[٥].

وقرأ نافع: «تُجْبَى» بالتاء؛ لأجل الثمرات. الباقون بالياء؛ لقوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ واختاره أبو عبيد؛ قال: لأنَّه حالَ بين الاسمِ المؤنثِ وبين فِعْلِه حائل[٦]، وأيضاً فإنَّ الثمرات جمع، وليس بتأنيثٍ حقيقي[٧]. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعقلون[٨]، أي: هم غافلون عن الاستدلال، وأنَّ مَنْ رزَقَهم وأمَّنَهم فيما مضى حالَ كفرهم يرزقُهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم.

و«رِزْقاً» نُصِبَ على المفعول من أجله. ويجوز نصبُه على المصدر بالمعنى؛ لأنَّ معنى «تُجْبَى»: تُرزَقُ. وقُرِئَ: «يُجْنَى» بالنون من الجنا، وتعديتُه بإلى كقولك: يجنى

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) ٩/ ٤٩٠ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

(٥) الصحاح (جبا).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ ، وينظر السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٧) الحجة في القراءات السبعة ٥/ ٤٢٤ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

إلى فيه ويُجنى إلى الخافَة[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ بيَّن لمن توهَّم أنه لو آمن لقاتلَتْه العربُ أن الخوف في ترك الإيمان أكثر، فكم من قومٍ كفروا ثم حَلَّ بهم البوار. والبطر: الطغيان بالنعمة. قاله الزجَّاج. «مَعِيشَتَها» أي: في معيشتها، فلمَّا حذَفَ «في» تعدَّى الفعل.قاله المازني. الزجَّاج[٢]: كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف:١٥٥]. الفرَّاء: هو منصوبٌ على التفسير. قال: كما تقول: أبطَرَكَ[٣] مالُكَ وبَطِرْتَهُ. ونظيره عنده: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وكذا عنده ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء:٤] ونَصْبُ المعارف على التفسير مُحالٌ عند البصريين؛ لأنَّ معنى التفسير والتميز أن يكون واحداً نكرةً يدلُّ على الجنس[٤]. وقيل: انتصب بـ«بَطِرَتْ» ومعنى: «بَطِرَتْ» جَهِلَتْ، فالمعنى: جَهِلَتْ شُكرَ معيشتها[٥]. ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لم تُسكَنْ بعد إهلاك أهلِها إلَّا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب[٦]. والاستثناء يرجع إلى المساكن، أي: بعضُها يُسكن. قاله الزجَّاج، واعتُرِضَ عليه، فقيل: لو كان الاستثناءُ يرجع إلى المساكن لقال: إلا قليل؛ لأنَّكَ تقول: القومُ لم تضرِبْ إلَّا قليلٌ؛ ترفَعُ إذا كان المضروبُ قليلاً، وإذا نصبت كان القليلُ صفةً للضرب، أي: لم تضرب إلَّا ضرباً قليلاً، فالمعنى إذاً: فتِلكَ مساكنُهم لم يسكُنْها إلَّا المسافرون ومَنْ مرَّ بالطريق يوماً أو بعضَ يوم، أي: لم تُسْكَنْ من بعدهم إلَّا سكوناً قليلاً. وكذا قال ابن عباس: لم يسكُنْها إلَّا المسافرُ أو

(١) الكشاف ٣/١٨٦، والقراءة شاذة، والخافَة: وعاء الحَبِّ؛ سُمِّيت بذلك لأنها وقاية له. النهاية (خوف).

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٠.

(٣) في (م): أبطرت. والمثبت من (د) و(ظ) وإعراب القرآن.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٠، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٨.

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٦.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٠.

مارُّ الطريقِ يوماً أو ساعة[١]. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: لِما خَلَّفوا بعد هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: القرى الكافرُ [أهلُها][٢]. ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ قُرئ بضمِّ الهمزة وكسرِها[٣] لإتباع الجر يعني مكة، و﴿رَسُولًا﴾ يعني محمداً ﷺ[٤]. وقيل: «فِي أُمِّهَا» يعني: في أعظمها «رَسُولاً» ينذرهم[٥]. وقال الحسن: في أوائلها[٦].

قلت: ومكةُ أعظمُ القرى لِحرمتها وأوَّلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] وخُصَّتْ بالأعظم لبعثة الرسول فيها؛ لأنَّ الرسلَ تُبعَثُ إلى الأشراف، وهم يسكنون المدائن وهي أمُّ ما حولها[٧]. وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «يوسف»[٨]. ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ «يَتْلُوا» في موضع الصفة، أي: تالياً، أي يخبرهم أنَّ العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ﴾ وسقطتِ

---

(١) من قوله: فالمعنى إذاً... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ ، في زاد المسير ٦/ ٢٣٣ .

(٢) المصدران السابقان، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) قرأ حمزة والكسائي من السبعة بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بضمِّها. السبعة ص٢٢٧ - ٢٢٨ ، والتيسير ص٩٤ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦١ . وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠١٨)

(٧) زاد المسير ٦/ ٢٣٤ .

(٨) ١١/ ٤٧٠ .

النونُ للإضافة، مثل: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [النحل:٢٨]. ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: لم أُهلِكْهم إلَّا وقدِ استحقُّوا الإهلاك؛ لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم. وفي هذا بيانٌ لعدلِه وتقدُّسِه عن الظلم؛ أخبر تعالى أنه لا يُهلكهم إلاَّ إذا استحقُّوا الإهلاكَ بظلمهم، ولا يُهلكهم مع كونهم ظالمين إلَّا بعد تأكيد الحُجَّة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل عِلْمَه بأحوالهم حُجَّةً عليهم، ونزَّه ذاتَه أن يُهلِكَهم وهم غير ظالمين، كما قال عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] فنصَّ في قوله: ﴿بِظُلۡمٍ﴾ على أنه لو أهلكَهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه، وأنَّ حالَه في غناه وحكمتِه منافيةٌ للظلم، دلَّ على ذلك بحرف النفي مع لامه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾(١) [البقرة:١٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ يا أهل مكة ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ أي: تتمتعون بها مدَّة حياتكم، أو مدَّةً في حياتكم، فإمَّا أن تزولوا عنها أو تزول عنكم. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾ أي: أفضلُ وأدْوَمُ، يريد الدارَ الآخرة وهي الجنة. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ الباقي أفضلُ من الفاني(٢). قرأ أبو عمرو: «يَعْقِلُونَ» بالياء. الباقون بالتاء على الخطاب، وهو الاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فأُعطيَ منها بعضَ ما أراد. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي: في النار. ونظيره قوله: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾(٤) [الصافات:٥٧] قال ابن عباس: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وفي أبي جهل بن

(١) من قوله: وفي هذا بيان لعدله... إلى هذا الموضع من الكشاف ٣/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٤ - ٤٠٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٤ .

(٣) الحجة في القراءات السبعة ٥/ ٤٢٤ . وينظر السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٧ .

هشام[١]. وقال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل[٢]. وقال محمد بن كعب: نزلت في حمزة وعليّ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد[٣]. وقيل: في عمار والوليد ابن المغيرة. قاله السُّدِّي. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. الثعلبي: وبالجملة فإنها نزلت في كلِّ كافرٍ مُتِّعَ في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كلِّ مؤمنٍ صبَرَ على بلاء الدنيا ثقةً بوعد الله، وله في الآخرة الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللهُ يومَ القيامة هؤلاء المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: حقَّتْ عليهم كلمة العذاب، وهم الرؤساء. قاله الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين[٤]. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الغيِّ. فقيل لهم: أغويتموهم؟ قالوا: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ يعنون: أأضللناهم كما كنَّا ضالِّين. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبرَّأ بعضُنا من بعض، والشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٥ ولكن عن مجاهد، وكذلك ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٤، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣٤.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ - ٤٥٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٣١١ وليس فيه عمارة بن الوليد.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٣٥ - ٢٣٦. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٢، والطبري ١٨/ ٢٩٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٤٠).

منهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[١] [الزخرف: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للكفار ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي: استغيثوا بآلهتكم التي عبدتُموها في الدنيا لتنصرَكم وتدفعَ عنكم. ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ أي: استغاثوا بهم. ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ أي: فلم يُجيبوهم ولم ينتفعوا بهم.

﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ قال الزجَّاج: جواب «لَوْ» محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى، ولَما صاروا إلى العذاب. وقيل: لو أنهم كانوا يهتدون ما دَعَوهم[٢]. وقيل: المعنى: ودُّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذابَ يوم القيامة.

قوله تعالى[٣]: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: يقول اللهُ لهم: ما كان جوابُكم لِمن أُرسِلَ إليكم من النبيين لمَّا بلغوكم رسالاتِي؟[٤] ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: خَفِيَتْ عليهم الحُجج. قاله مجاهد؛ لأنَّ الله قد أعذَرَ إليهم في الدنيا، فلا يكون لهم عذرٌ ولا حُجَّةٌ يوم القيامة[٥]. و«الْأَنْبَاءُ»: الأخبار؛ سَمَّى حُجَجَهم أنباءَ لأنها أخبارٌ يُخبرونها[٦]. ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن الحُجَج؛ لأنَّ الله تعالى أدحَضَ حُجَجهم. قاله الضحاك[٧]. وقال ابن عباس: «لا يتساءَلُونَ» أي: لا ينطقون بِحُجَّة. وقيل: «لا يتساءَلُونَ» في تلك الساعة، ولا يدرون ما يُجيبون به من هول تلك الساعة، ثم يُجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وقال مجاهد: لا يتساءلون بالأنساب. وقيل: لا يسألُ بعضُهم

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٢ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥١ .

(٣) عبارة: «قوله تعالى» من (ظ).

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٧ .

(٦) زاد المسير ٦/ ٢٣٦ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣١٣ .

بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً. حكاه ابن عيسى[١].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أي: من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: صدَّق ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدى الفرائضَ وأكثرَ من النوافل ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: من الفائزين بالسعادة. وعسى من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ﴾ هذا متَّصِلٌ بذِكر الشُّركاءِ الذين عبَدوهم واختاروهم للشفاعة، أي: الاختيار إلى الله تعالى في الشُّفعاء لا إلى المشركين. وقيل: هو جوابُ الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني نفسَه زعم، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف[٢]. وقيل: هو جوابُ اليهود إذ قالوا: لو كان الرسولُ إلى محمدٍ غيرَ جبريل لآمَنَّا به.

قال ابن عباس: والمعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء من خَلْقِه ويختارُ منهم مَنْ يشاء لطاعته. وقال يحيى بن سلَّام: المعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء مِنْ خلقِه ويختار مَنْ يشاء لنبوَّته. وحكى النقَّاش أنَّ المعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء مِنْ خلقِه يعني محمداً ﷺ، ويختارُ الأنصارَ لدينه[٣].

قلتُ: وفي كتاب البزَّار مرفوعاً صحيحاً عن جابر: «إنَّ اللهَ تعالى اختارَ

---

(١) قول مجاهد وابن عيسى في النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٤٥).

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٦ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٢ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ .

أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختارَ لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعلياً ـ فجعلهم أصحابي، وفي أصحابي كلِّهم خيرٌ، واختارَ أمَّتي على سائر الأمم، واختارَ لي من أمتي أربعةَ قرون»[١]. وذكر سفيان بن عُيَيْنة عن عَمرو بن دينار، عن وهب بن مُنبِّه، عن أبيه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال: من النَّعَمِ الضأن، ومن الطيرِ الحمام. والوقف التام «وَيَخْتَارُ»[٢]. وقال عليُّ بن سليمان: هذا وقفُ التمام، ولا يجوز أن تكون «ما» في موضع نصب بـ«يَخْتَارُ» لأنها لو كانت في موضع نصبٍ لم يَعُدْ عليها شيء. قال: وفي هذا رَدٌّ على القدرية[٣]. قال النحَّاس: التمام «وَيَخْتَارُ» أي: ويختار الرسل. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس يُرسِلُ مَن اختاروه هم[٤]. قال أبو إسحاق: «وَيَخْتَارُ» هذا الوقف التامُّ المختار، ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ«يختار» ويكون المعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخِيَرَة[٥]. قال القُشيري: الصحيح الأوَّل؛ لإطباقهم [على][٦] الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل

(١) مسند البزار «كشف الأستار» (٢٧٦٣) من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح، عن نافع بن يزيد، عن زهرة بن معبد، عن سعيد بن المسيب، عن جابر مرفوعاً.
وأخرجه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٣١٢ من طريق أبي صالح وسعيد بن أبي مريم، بالإسناد السابق.
قال الذهبي في السير ١٠/ ٤١٤ - ٤١٥: قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي وأبا زرعة يقولان: حديث «إن الله اختار أصحابي» موضوع، والحمل فيه على أبي صالح.
ثم قال الذهبي: لكن قد تابعه عليه سعيد بن أبي مريم، عن نافع... فتخلَّص أبو صالح.
ثم قال: وقال أبو زرعة وغيره: هو من وضع خالد بن نجيح المصري، وكان يضع في كتب الشيوخ.
قال الذهبي: لعله أدخله على نافع بن يزيد، مع أن نافعاً صدوقٌ احتجَّ به مسلم.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٣.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤١.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٤.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤١، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٢.
(٦) ما بين حاصرتين من (م).

السُّنَّة و«ما» من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفيٌ عامٌّ لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيءٌ سوى اكتسابِه بقدَرِ[1] اللهِ عزَّ وجلَّ. الزمخشري[2]: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنَّ معناه: يختارُ ما يشاء؛ ولهذا لم يدخلِ العاطفُ، والمعنى: إنَّ الخِيَرَةَ لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، أي: ليس لأحدٍ من خلقِهِ أن يختارَ عليه.

وأجاز الزجَّاج[3] وغيرُه أن تكون «ما» منصوبةً بـ «يَخْتارُ». وأنكر الطبريُّ[4] أن تكون «ما» نافية؛ لئلَّا يكون المعنى: إنهم لم تكُنْ لهم الخيَرةُ فيما مضى وهي لهم فيما يُستقبل، ولأنَّه لم يتقدَّم كلامٌ بنفي. قال المهدوي: ولا يلزم ذلك؛ لأنَّ «ما» تنفي الحالَ والاستقبالَ كَلَيسَ؛ ولذلك عمِلَتْ عملَها، ولأنَّ الآيَ كانت تنزل على النبيِّ ﷺ على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مُصِرُّون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص. وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخِيَرةَ من خلقه؛ لأنَّ المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ للهدايةِ من خلقِه مَنْ سبقت له السعادةُ في علمه، كما اختار المشركون خيارَ أموالهم لآلهتهم، فـ «ما» على هذا لمن يعقِلُ، وهي بمعنى الذي، و«الْخِيَرَةُ» رفعٌ بالابتداء، و«لَهُم» الخبر، والجملة خبر «كان». وشبهه بقولك: «كان زيدٌ أبوه منطلقٌ» وفيه ضعف؛ إذ ليس في الكلام عائدٌ يعود على اسم كان، إلَّا أن يُقَدَّرَ فيه حذفٌ فيجوز على بُعْدٍ. وقد رُويَ معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس[5]. قال الثعلبي: و«ما» نفي، أي: ليس لهم الاختيارُ على الله. وهذا أَصْوَبُ، كقوله تعالى:

(١) في (م): بقدرة. والمثبت من (د) و(ظ).

(٢) في الكشاف ٣/١٨٨ .

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٢ .

(٤) في تفسيره ١٨/ ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩ - ٣٠٠ .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. قال محمود الورَّاق:

توكَّلْ على الرحمنِ في كلِّ حاجةٍ ... أردتَ فإنَّ اللهَ يقضي ويَقْدِرُ
إذا ما يُرِدْ ذو العرشِ أمراً بعبدِهِ ... يُصِبْهُ وما للعبدِ ما يتخيَّرُ
وقد يهلِكُ الإنسانُ من وجهِ حِذْرِهِ ... وينجو بحمدِ الله من حيثُ يَحذرُ(١)

وقال آخر:

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ ... والدَّهرُ ذو دُوَلٍ والرِّزْقُ مقسومُ
والخيرُ أجمَعُ فيما اختارَ خالِقُنا ... وفي اختيار سواه اللُّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء: لا ينبغي لأحدٍ أن يقدُمَ على أمرٍ من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخِيرَةَ في ذلك؛ بأن يُصلِّيَ ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الآية، وفي الركعة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وكلٌّ حسن. ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاريُّ في «صحيحه» عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ يُعلِّمنا الاستخارَة في الأمورِ كلِّها، كما يُعلِّمنا السورةَ من القرآن؛ يقول: «إذا هَمَّ أحدُكم بالأمرِ فليركَعْ ركعتين غيرَ الفريضةِ، ثم ليقُلْ: اللهمَّ إني أستخيرُكَ بعلمِكَ وأستقدِرُكَ بقُدرتِكَ وأسألُكَ من فضلِكَ العظيم، فإنَّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ، وتعلَمُ ولا أعلَمُ، وأنت علَّامُ الغيوب، اللهمَّ إن كنتَ تعلَمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاقْدُره لي ويسِّره لي، ثم بارِكْ لي فيه، اللهمَّ وإن كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال:

(١) وقد نسبت هذه الأبيات إلى أبي العتاهية، وهي في ديوانه ص١٥٣.

في عاجل أمري وآجله - فاصرِفْه عني واصرفني عنه، واقدُرْ ليَ الخيرَ حيثُ كان، ثم رضِّني به» قال: ويُسمِّي حاجته[١]. وروَتْ عائشةُ عن أبي بكر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: «اللهمَّ خِرْ لي واخترْ لي»[٢]. وروى أنسٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أنس، إذا هممتَ بأمرٍ فاستخِرْ ربَّكَ فيه سبعَ مرات، ثم انظُرْ إلى ما يسبِقُ قلبَكَ فإنَّ الخيرَ فيه»[٣]. قال العلماء: وينبغي له أن يُفرِّغَ قلبَه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمرٍ من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإنَّ الخير فيه إن شاء الله. وإن عزم على سفرٍ فيتوخَّى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين اقتداءً برسول الله ﷺ[٤].

ثم نزَّه نفسَه سبحانه بقوله الحق، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيهاً. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تقدَّس وتمجَّد ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون.

وقرأ ابن مُحَيصِن وحميد: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف، وقد تقدَّم هذا في «النمل»[٥].

تمدَّح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) صحيح البخاري (١١٦٢). وهو في مسند أحمد (١٤٧٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥١٦) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زَنْفَل، وهو ضعيف عند أهل الحديث، وتفرد بهذا الحديث ولا يُتابع عليه.

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٨) من طريق عبيد الله بن الحميري، عن إبراهيم بن البراء، عن النضر بن مالك، عن أبيه - يعني أنس بن مالك بن أنس بن مالك -، عن أبيه - يعني مالكاً - عن أنس بن مالك مرفوعاً.

عبيد الله بن الحميري لم نقف له على ترجمة، وإبراهيم بن البراء ضعيف جداً يحدث عن الثقات البواطيل، لا يجوز الاحتجاج بحديثه. الميزان ١/ ٢١ - ٢٢ .

(٤) أخرج أحمد (٢٧١٧٥)، والبخاري (٢٩٥٠) من حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يحبُّ أن يخرج يوم الخميس. وفي رواية للبخاري (٢٩٤٩): لقلَّما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا خرج في سفر إلا يوم الخميس.

(٥) ص٢٠٣ من هذا الجزء، وهي قراءة شاذة.

هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تقدَّم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأنَّ جميعَ المحامد إنما تجب له، وأن لا حُكم إلا له وإليه المصير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً[١]؛ ومنه قول طرفة[٢]:

لعَمرُكَ ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ

بيَّنَ سبحانه أنه مَهَّدَ أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ أي: بنورٍ تطلبون فيه المعيشة[٣]. وقيل: بنهارٍ تُبصرون فيه معايشكم وتُصلَحُ فيه الثمرُ والنبات[٤]. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهمٍ وقبول. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستقِرُّون فيه من النَّصَب. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم فيه من الخطإ في عبادة غيره[٥]، فإذا أقررتم بأنه لا يقدِرُ على إيتاء الليل والنهارِ غيرُه، فلِمَ تُشركون به؟!

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٤ عن مجاهد، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٦٢)، وأخرجه (١٧٠٦١) عن ابن عباس ﷺ.

(٢) في ديوانه ص٤٠، وقد سلف ١١/ ٢٤.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٠٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٢.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٠٦، وزاد المسير ٦/ ٢٣٨.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: فيهما. وقيل: الضمير للزمان وهو الليل والنهار[١]. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتطلبوا من رزقه فيه، أي: في النهار، فحذف[٢]. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أعادَ هذا الضميرَ لاختلاف الحالَين، يُنادَون مرةً فيُقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيَدْعون الأصنام فلا يستجيبون، فتظهَرُ حَيْرَتُهم[٣]، ثم يُنادَون مرةً أخرى فيسكتون. وهو توبيخٌ وزيادةُ خزي. والمناداةُ هنا ليست من الله؛ لأنَّ الله تعالى لا يُكلِّم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤] لكنَّه تعالى يأمر مَنْ يُوبِّخهم ويُبكِّتُهم، ويُقيمُ الحُجَّةَ عليهم في مقام الحساب. وقيل: يَحتمل أن يكون من الله، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ حين يُقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقال: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: نبيّاً. عن مجاهد[٤]. وقيل: هم عدولُ الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا[٥]. والأوَّلُ أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وشهيدُ كلِّ أمةٍ رسولُها الذي يشهد عليها[٦]. والشهيد: الحاضر. أي: أحضرنا رسولَهم المبعوثَ إليهم.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٥ بنحوه.
(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٤.
(٣) في (ظ): فيظهر خزيهم.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٦، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٦٨).
(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٧.
(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٣ بنحوه.

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حُجَّتكم[١]. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: علموا صِدقَ ما جاءت به الأنبياء[٢]. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عنهم وبطل[٣]. ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أنَّ معه آلهةً تُعبَدُ[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لمَّا قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ بيَّن أنَّ قارونَ أوتيها واغترَّ بها ولم تعصِمْه من عذاب الله كما لم تعصِمْ فرعون، ولستُم أيها المشركون بأكثرَ عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفَعْ فرعونَ جنودُه وأموالُه، ولم ينفَعْ قارونَ قرابتُه من موسى ولا كنوزُه. قال النَّخعيُّ وقتادة وغيرهما: كان ابنُ عمِّ موسى لَحّاً[٥]؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث[٦]. وقال ابن إسحاق: كان عمَّ موسى لأبٍ وأمّ[٧]. وقيل: كان ابن خالته[٨]. ولم ينصرِفْ؛ للعُجمة

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/٣٠٨ عن مجاهد، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٠) عن أبي العالية.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/١٥٣ .

(٣) الوسيط ٣/٤٠٧ .

(٤) مجمع البيان ٢٠/٣١٧ بنحوه.

(٥) الوسيط ٣/٤٠٧ والمحرر الوجيز ٤/٢٩٨ ولَحّاً، أي: لاصق النسب. الصحاح (لحح).

(٦) الوسيط ٣/٤٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٩ .

(٨) زاد المسير ٦/٢٣٩ عن ابن عباس ﷺ.

والتعريف[١]. وما كان على وزن فاعول أعجمياً لا يحسُنُ فيه الألف واللام، لم ينصرِفْ في المعرفة، وانصرف في النكرة، فإن حسُنت فيه الألفُ واللامُ انصرف إن كان اسماً لمذكَّرٍ، نحو طاوس وراقود. قال الزجَّاج: ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف[٢]. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بغيُه أنه زاد في طول ثوبه شبراً. قاله شهر بن حوشب. وفي الحديث: «لا ينظرُ الله إلى مَنْ جرَّ إزاره بطَراً» وقيل: بغيُه كفرُه بالله عزَّ وجلَّ. قاله الضحَّاك. وقيل: بغيُه استخفافُه بهم بكثرة ماله وولده. قاله قتادة. وقيل: بغيُه نسبتُه ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته. قاله ابن بحر[٣]. وقيل: بغيُه قولُه: إذا كانتِ النبوَّةُ لموسى، والمَذبحُ والقُربان في هارون، فما لي؟ فرُوي أنه لمَّا جاوز بهم موسى البحر، وصارتِ الرسالةُ لموسى والحُبورة لهارون؛ يُقرِّب القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه، وجدَ قارونُ في نفسه وحسدَهما، فقال لموسى: الأمرُ لكما ولستُ على[٤] شيء إلى متى أصبر؟ قال موسى: هذا صنع الله. قال: واللهِ لا أصدِّقنَّكَ حتى تأتي بآية. فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلُّ واحدٍ منهم بعصاه، فحزمها وألقاها في القُبَّة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيَّهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتزُّ ولها ورقٌ أخضر ـ وكانت من شجر اللوز ـ فقال قارون: ما هو بأعجبَ ممَّا تصنع من السحر. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي: وهو الظلم[٥]. وقال يحيى بن سلَّام وابن المسيِّب: كان قارونُ غنيّاً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدَّى عليهم وظلمهم وكان منهم.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٠ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٣ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ – ٢٦٥ دون ذكر الحديث، وقد أخرجه أحمد (٩٠٠٤)، والبخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقول شهر بن حوشب أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٨)، وأخرج قول الضحاك (١٧٠٧٧) .

(٤) في (د) و(م): وليس لي. والمثبت من (ظ) والكشاف.

(٥) الكشاف ٣/ ١٩٠ .

وقول سابع: رُوي عن ابن عباس قال: لمَّا أمرَ اللهُ تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى امرأةٍ بغيٍّ وأعطاها مالاً، وحملها على أنِ ادَّعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها، فعَظُمَ على موسى ذلك، وأحلفَها بالله الذي فلقَ البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلَّا صدقت. فتداركها اللهُ فقالت: أشهدُ أنَّكَ بريء، وأنَّ قارون أعطاني مالاً، وحملني على أن قُلتُ ما قُلتُ، وأنت الصادق، وقارون الكاذب[١]. فجعل الله أمرَ قارون إلى موسى، وأمر الأرضَ أن تُطيعه، فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرضُ خُذيه، يا أرض خُذيه. وهي تأخذه شيئاً فشيئاً، وهو يستغيث: يا موسى! إلى أن ساخَ في الأرض هو ودارُه وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى: استغاثَ بكَ عبادي فلم ترحَمْهم، أما إنهم لو دعَوني لوجدوني قريباً مجيباً[٢]. ابن جُريج: بلغنا أنه يُخسَفُ بهم كلَّ يومٍ قامة، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة[٣]. وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج»: حدَّثني إبراهيم بن راشد قال: حدَّثني داود بن مِهْران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقي قارونُ يونسَ في ظلمات البحر، فنادى قارونُ يونس، فقال: يا يونس، تُبْ إلى الله، فإنك تجده عند أول قدمٍ ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعكَ من التوبة؟ فقال: إنَّ توبتي جُعلت إلى ابن عمي، فأبى أن يقبل مني[٤]. وفي الخبر: إذا وصلَ قارونُ إلى قرار الأرض السابعة نفخَ إسرافيلُ في الصور. والله أعلم. قال السُّدِّي: وكان اسم البغي سبرتا، وبذل لها قارون ألفَي

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٥٦)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ عن ابن عباس ﷺ بنحوه. وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٥٧) عن عبد الله بن الحارث بن نوفل. وأخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٠٢، وابن أبي حاتم (١٧١٦٣) عن عبد الله بن عوف القاري.

(٣) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٣٩ إلى ابن المنذر، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٦١) عن سمرة بن جندب ﷺ، و(١٧١٦٠) عن قتادة.

(٤) الفرج بعد الشدة (٣٥).

درهم[١]. قتادة: وكان قطع البحر مع بني إسرائيل[٢] وكان يُسمى: المنوَّر، من حسن صوته[٣] في التوراة، ولكن عدوَّ الله نافقَ كما نافقَ السامري[٤].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ قال عطاء: أصابَ كثيراً من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن زَرْوان[٥]: إنه كان يعمل الكيمياء[٦]. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ «إنَّ» واسمها وخبرها في صلة «ما» و«ما» مفعولة «آتَيْنَا». قال النحَّاس: وسمعتُ علي ابن سليمان يقول: ما أقبحَ ما يقول الكوفيون في الصِّلات! إنه لا يجوز أن تكون صلةُ الذي وأخواته «إن» وما عملت فيه، وفي القرآن ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾. وهو جمع مِفْتَح بالكسر: وهو ما يُفتَح به. ومن قال: مفتاح قال: مفاتيح. ومن قال: هي الخزائن، فواحدها مَفتح بالفتح. ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أحسنُ ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة، أي: تُميلهم بثِقَلها[٧]، فلمَّا انفتحتِ التاء دخلت الباء. كما قالوا: هو يذهب بالبؤس، ويُذهِب البؤس. فصار ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ فجعل العصبة تنوء أي: تنهض متثاقلة، كقولك: قُمْ بنا، أي: اجعلنا نقوم[٨]. يقال: ناءَ ينوءُ نوءاً إذا نهض بثقل[٩].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥ ، وفي مطبوعه اسم البغي: شجرتا.

(٢) في (د) و(م): موسى، والمثبت من (ظ) والمصادر.

(٣) في (م): صورته، والمثبت من (د) و(ظ) والمصادر.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ . وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٥).

(٥) في النسخ: مروان، والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم. وقد ترجم له الحافظ ابن حجر في تهذيبه ٤/ ٣١٦ ، فقال: الوليد بن زَوْران الرقي ـ بتقديم الزاي على الواو ـ وكذلك ترجم له في تقريبه لكنه قال: وقيل بتأخير الواو. روى له أبو داود في سننه حديثاً واحداً في الوضوء عن أنس بن مالك ﷺ، وقال أبو داود: لا ندري سمع من أنسٍ أو لا.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥ ، وقول عطاء أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٨١)، وقول الوليد أخرجه أيضاً (١٧٠٨٢). والكيمياء اسم لعلم التحليل والتركيب، أو علم تحويل المعادن من أدنى إلى أعلى. معجم متن اللغة ٥/ ١٢٩ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ .

(٨) نزهة القلوب ص١٦٨ .

(٩) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٢٢٠ .

قال الشاعر:

تـنـوءُ بـأُخـراهـا فَـلأْيـاً قِـيـامُـهـا وتَمشي الهُوَينى عن قريبٍ فَتُبْهَرُ[(١)]

وقال آخر:

أخذتُ فلم أملِكْ ونُؤْتُ فلم أقُمْ كـأنِّـيَ مـن طـولِ الـزمـانِ مُـقـيَّـدُ

وأناءني إذا أثقلني. عن أبي زيد. وقال أبو عبيدة: قوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ مقلوب، والمعنى: لتنوء بها العصبة، أي: تنهض بها. أبو زيد: نُؤْتَ بالحمل إذا نهضتَ[(٢)]. قال الشاعر:

إنَّـا وجـدنـا خَـلَـفـاً بـئـس الـخَـلَـفْ عـبـداً إذا مـا نـاءَ بـالـحـمـلِ وَقَـفْ[(٣)]

والأوّل معنى قول ابن عباس وأبي صالح والسُّدِّي. وهو قول الفرَّاء[(٤)]، واختاره النحَّاس[(٥)]. كما يُقال: ذهبتُ به وأذهبتُه، وجِئْتُ به وأجأتُه، ونُؤْتُ به وأَنَأْتُهُ، فأما قولهم: له عندي ما ساءه وناءه. فهو إتباعٌ، كان يجب أن يُقال: وأناءه. ومثله: هنأني الطعامُ ومرأني، وأخذه ما قدُمَ وما حدُثَ[(٦)]. وقيل: هو مأخوذٌ من النأي: وهو البُعد. ومنه قول الشاعر:

يَـنْـأَوْنَ عـنَّـا ومـا تَـنْـأَى مـودَّتُـهـمْ فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا[(٧)]

وقرأ بديل بن ميسرة: «لَيَنُوءُ» بالياء، أي: لينوءُ الواحدُ منها أو المذكور، فحُمِلَ على المعنى[(٨)]. وقال أبو عبيدة: قلتُ لرؤبة بن العجَّاج في قوله:

(١) قائله ذو الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٦٢٤ . قاله شارحه: فلأياً: أي: بعد بُطءٍ قيامها. وتُبهر: تعيا.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٩ . وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٠ .

(٣) في النكت والعيون وأساس البلاغة واللسان: «خضف» بدلاً من «وقف». وخضف أي: ضرط.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٠ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٩٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ .

(٨) المحتسب ٢/ ١٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩ ، وهي قراءة شاذة.

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ كَأنّه في الجِلدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

إن كنتَ أردتَ الخطوط فقُل: كأنَّها، وإن كنتَ أردتَ السَّوادَ والبَلَقَ فقل: كأنهما. فقال: أردتُ كلَّ ذلك[١].

واختُلِفَ في العصبة: وهي الجماعة التي يتعصَّبُ بعضُهم لبعض على أحد عشر قولاً: الأوّل ـ ثلاثةُ رجال. قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: من الثلاثة إلى العشرة[٢].

وقال مجاهد: العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر. وعنه أيضاً: ما بين العشرة إلى الخمسة عشر. وعنه أيضاً: من عشرة إلى خمسة. ذكر الأوَّل الثعلبي، والثاني القُشيري والماوردي[٣]، والثالث المهدوي. وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك: أربعون رجلاً[٤]. السُّدِّي: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقاله قتادة أيضاً[٥]. وقال عكرمة: منهم من يقول: أربعون، ومنهم من يقول: سبعون. وهو قول أبي صالح: إنَّ العُصبةَ سبعون رجلاً. ذكره الماوردي[٦]. والأوَّل ذكره عنه الثعلبي. وقيل: ستون رجلاً[٧]. وقال سعيد بن جُبير: ستٌّ أو سبع. وقال عبد الرحمن بن زيد: ما بين الثلاثة والتسعة، وهو النفر. وقال الكلبي: عشرة؛ لقول إخوة يوسف: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٨] وقاله مقاتل[٨]. وقال خيثمة: وجدتُ في الإنجيل أنَّ مفاتيح خزائن قارونَ وِقْرَ ستين بغلاً غرَّاء مُحجَّلة، وأنها لَتنوء بها من ثِقَلِها، ما يزيد مفتح

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٧ . والبيت في ديوان رؤبة في مجموعة أشعار العرب ص١٠٤ .

(٢) أخرجهما الطبري ١٨/ ٣١٦ ، والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٤٠ .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٦ ، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٥).

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٥ أبي صالح والضحاك، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٢) عن الحكم.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣١٥ عن قتادة، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٤) عن السدي.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٩١) .

(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٣١٥ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وقول سعيد أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٩٧)، وقول ابن زيد أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم (١٧٠٩٦).

منها على إصبع، لكلِّ مفتحٍ منها كنزُ مال، لو قُسِمَ ذلك الكنزُ على أهل البصرة لكفاهم. قال مجاهد: كانت المفاتيح من جلود الإبل. وقيل: من جلود البقر لتخِفَّ عليه، وكانت تُحمل معه إذا ركب على سبعين بغلاً فيما ذكره القشيري. وقيل: على أربعين بغلاً. وهو قول الضحَّاك. وعنه أيضاً: إنَّ مفاتِحَه أوعيتُه. وكذا قال أبو صالح: إنَّ المراد بالمفاتح الخزائن. فالله أعلم[1]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون من بني إسرائيل. قاله السُّدِّي. وقال يحيى بن سلَّام: القوم هنا موسى[2]. وقال الفرَّاء[3]. وهو جمعٌ أُريدَ به واحد، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وإنما هو نُعيم ابن مسعود على ما تقدَّم[4]. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تأشَرْ ولا تبطَرْ[5]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: البَطِرين. قاله مجاهد والسُّدِّي. قال الشاعر:

ولستُ بِمِفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّني ... ولا ضارعٌ في صرفِهِ المُتقلِّبِ[6]

وقال الزجَّاج[7]: المعنى: لا تفرَحْ بالمال فإنَّ الفَرِحَ بالمال لا يؤدِّي حقَّه. وقال مبشر[8] بن عبد الله: لا تفرَحْ: لا تُفسِدْ. قال الشاعر:

إذا أنتَ لم تبرَحْ تؤدِّي أمانةً ... وتحملُ أخرى أفرحَتْكَ الودائعُ[9]

أي: أفسدتك. وقال أبو عمرو: أفرَحه الدَّين أثقلَه. وأنشده: إذا أنت... البيت.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣١١، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٤) ٥/ ٤٢٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧، وقائل البيت هدبة بن خشرم، وهو في الكامل ٣/ ١٤٥٥، ومجاز القرآن ٢/ ١١١.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٥٥، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٨) في (د) و(ز): فهيد، وفي (ظ) غير واضحة، والمثبت من (م).

(٩) قائله بهيس العذري كما في تاج العروس (فرح).

وأفرحَه: سرَّه، فهو مشترك. قال الزجَّاج: والفَرِحين والفارحين سواء. وفرَّق بينهما الفرَّاء فقال: معنى الفرحين: الذين هم في حال فرح، والفارحين: الذين يفرحون في المستقبل. وزعم أنَّ مثله طَمِعٌ وطامِعٌ وميِّتٌ ومائت. ويدلُّ على خلاف ما قالَ قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ولم يقُلْ: مائت[١]. وقال مجاهد أيضاً: معنى «لا تَفْرَحْ»: لا تَبْغِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: الباغين. وقال ابن بحر: لا تبخَلْ إنَّ الله لا يُحِبُّ الباخلين[٢].

قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: اطلُبْ فيما أعطاك الله من الدنيا الدارَ الآخرةَ وهي الجنة[٣]، فإن من حَقِّ المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبُّر والبغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ اختُلِفَ فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تُضيِّعْ عمركَ في ألَّا تعملَ عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يُعمَلُ لها، فنصيب الإنسان عمرُه وعملُه الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شِدَّةٌ في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه: لا تُضيِّعْ حظَّكَ من دنياك في تمتُّعِكَ بالحلال وطلبِكَ إيَّاه، ونظرِكَ لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه. وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشيةَ النبوَّةِ من الشدَّة. قاله ابن عطية[٤].

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمرو[٥] في قوله: احرُثْ لدنياكَ كأنَّكَ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٥، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٥) في (د) و(ز): أبو عمرو، وفي (ظ) و(م): ابن عمر، والمثبت من المصادر.

تعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غداً[١]. وعن الحسن: قدِّم الفضل، وامسِكْ ما يبلُغ. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرَف. وقيل: أرادَ بنصيبه الكف، فهذا وعظٌ متصل، كأنهم قالوا: لا تنسَ أنك تتركُ جميع مالِكَ إلا نصيبَكَ هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نَصيبُكَ مما تجمع الدهرَ كلَّهُ ... رداءانِ تُلْوَى فيهما وحَنُوطُ[٢]

وقال آخر:

وهي القناعةُ لا تبغي بها بدَلاً ... فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدَنِ
انظُرْ لمن ملَكَ الدنيا بأجمَعِها ... هل راحَ منها بغيرِ القُطنِ والكفَنِ

قال ابن العربي[٣]: وأبدع ما فيه عندي قولُ قتادة: ولا تنسَ نصيبَكَ الحلال، فهو نصيبُكَ من الدنيا، ويا ما أحسن هذا!

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أطِعِ اللهَ واعبُدْه كما أنعَمَ عليك. ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراه»[٤] وقيل: هو أمرٌ بصلة المساكين[٥]. قال ابن العربي: فيه أقوالٌ كثيرةٌ جِماعُها استعمال نِعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو[٦] الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكاً أرادَ الرَّدَ على الغالين في العبادة والتقشف؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يحِبُّ الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشِّواء، ويشربُ الماءَ البارد[٧]. وقد مضى هذا المعنى في غير

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الباحث» (١٠٩٣)، وابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ٨١ و٢/ ١٢٢.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.
(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٠.
(٤) سلف ٢/ ١٣١.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.
(٦) كلمة هو ليست في (م)، وهي من باقي النسخ.
(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧١.

موضع[١]. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تعمَلْ بالمعاصي[٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ يعني علم التوراة[٣]. وكان فيما رُوِيَ من أقرأِ الناسِ لها، ومن أعلَمِهم بها. وكان أحدَ العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات. وقال ابن زيد: أي: إنما أوتيتُه لِعلْمِه بفضلي ورضاه عني. فقوله: «عِنْدي» معناه: إنَّ عندي أنَّ الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علمٍ منه باستحقاقي إيَّاها لفضلٍ فيَّ. وقيل: أوتيتُه على علمٍ من عندي بوجوه التجارة والمكاسب. قاله علي بن عيسى[٤]. ولم يعلم أنَّ الله لو لم يُسهِّلْ له اكتسابَها لَما اجتمعَتْ عنده. وقال ابن عباس: على علمٍ عندي بصنعة الذهب[٥]. وأشار إلى علم الكيمياء. وحكى النقَّاش: أنَّ موسى عليه السلام علَّمه الثلث من صنعة الكيمياء، ويوشع الثلث، وهارون الثلث، فخدعهما قارون ـ وكان على إيمانه ـ حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء، فكثُرتْ أموالُه[٦]. وقيل: إنَّ موسى علَّم الكيمياء ثلاثة؛ يوشع ابن نون، وكالب بن يوفنا[٧]، وقارون[٨]. واختار الزجَّاج القول الأول، وأنكر قولَ

(١) ٢/ ١٥٢.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.
(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٢٤).
(٥) زاد المسير ٦/ ٢٤٢.
(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨.
(٧) في النسخ الخطية: «وطالوت» بدل «وكالب بن يوفنا»، والمثبت من (م) والمصادر.
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٥، والكشاف ٣/ ١٩١.

من قال: إنه يعمل الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطِلٌ لا حقيقةَ له[١]. وقيل: إنَّ موسى علَّم أختَه علم الكيمياء، وكانت زوجة قارون، وعلَّمتْ أختُ موسى قارونَ. والله أعلم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: بالعذاب[٣]. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: الأمم الخالية الكافرة[٤]. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: للمال، ولو كان المال يدلُّ على فضلٍ لَما أهلكهم[٥]. وقيل: القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ﴾.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يُسألون سؤال استعتاب، كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥] ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[٦] [فصلت: ٢٤] وإنما يُسألون سؤال تقريعٍ وتوبيخٍ؛ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. قاله الحسن[٧]. وقال مجاهد: لا تسألُ الملائكةُ غداً عن المجرمين؛ فإنهم يُعرَفون بسيماهم، فإنهم يُحشرون سُودَ الوجوه زُرْقَ العيون[٨]. وقال قتادة: لا يُسألُ المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النارَ بلا حساب[٩]. وقيل: لا يُسألُ مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عُذِّبوا في الدنيا[١٠]. وقيل: أهلك من أهلك من

(١) نقله عن ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٢ . وهو في معاني القرآن له ٤/ ١٥٦ .
(٢) الكشاف ٣/ ١٩١ .
(٣) زاد المسير ٦/ ٢٤٣ .
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ .
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٢٦ .
(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩ عن ابن بحر.
(٧) الوسيط ٣/ ٤٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ .
(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧ ، وابن أبي حاتم (١٧١٣٠).
(٩) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧ ، وابن أبي حاتم (١٧١٢٦).
(١٠) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ عن مقاتل.

القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتَجْ إلى مسألتهم عن ذنوبهم[١].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: على بني إسرائيل فيما رآه زينةً من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمُّل في يوم عيد. قال الغزنوي: في يوم السبت. ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: مع زينته. قال الشاعر:

إذا ما قلوبُ القومِ طارَتْ مخافةً   من الموتِ أرسَوا بالنفوسِ المواجدِ[٢]

أي: مع النفوس. كان خرجَ في سبعين ألفاً مِن تَبَعه، عليهم المُعصفَرات، وكان أوَّل من صُبِغَ له الثيابُ المعصفَرة. قال السُّدِّي: مع ألف جوارٍ بيضٍ، على بغالٍ بيضٍ، بسروجٍ من ذهب، على قُطُفِ الأُرْجُوان[٣]. قال ابن عباس: خرج على البغال الشُّهب[٤]. مجاهد: على براذينَ بيضٍ، عليها سروجُ الأُرْجُوان، وعليهم المُعصفَرات، وكان ذلك أوَّلَ يومٍ رُؤيَ فيه المُعصفَر. قال قتادة: خرجَ على أربعة آلاف دابةٍ عليهم ثيابٌ حمر، منها ألفُ بغلٍ أبيضٍ عليها قُطُفٌ حمر[٥]. قال ابن جُريج: خرج على بغلةٍ شهباءَ عليها الأُرْجُوان، ومعه ثلاث مئة جارية على البغال الشُّهب عليهنَّ الثياب الحمر[٦]. وقال ابن زيد: خرج في سبعين ألفاً عليهم

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٤٣ بمعناه عن السدي.

(٢) نسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٢٠٠ إلى قيس بن ثعلبة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩ . وقول ابن زيد أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣٨)، وقول السدي أخرجه أيضاً (١٧١٣٤).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ ولكن عن مقاتل.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٣ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٩ ، وابن أبي حاتم (١٧١٣١).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٤١).

المُعصفَرات[١]. الكلبي: خرجَ في ثوبٍ أخضر كان اللهُ أنزله على موسى من الجنة، فسرقَه منه قارون. وقال جابر بن عبد الله ﷺ: كانت زينتُه القِرْمز[٢]. قلت: القِرْمِز: صِبغٌ أحمرُ مثلُ الأُرْجُوان، والأُرْجُوان في اللغة: صِبغٌ أحمر. ذكره القشيري.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيبٍ وافرٍ من الدنيا. ثم قيل: هذا من قول مؤمني ذلك الوقت[٣]، تمنَّوا مثلَ مالِه رغبةً في الدنيا[٤]. وقيل: هو من قول أقوامٍ لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها، وهم الكفار[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل، للذين تمنَّوا مكانَه ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني الجنة. ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: لا يؤتى الأعمال الصالحة، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله. وجاز ضميرُها؛ لأنها المعنيةُ بقوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال مقاتل: لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل: إنما أهلكه ليرث ماله؛ لأنه كان ابنَ عمه أخي أبيه،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٣٨).

(٢) أخرجه الطبري ١٨/٣٢٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٧.

(٤) النكت والعيون ٤/٢٦٩.

(٥) مجمع البيان ٢٠/٣٢٤.

(٦) الوسيط ٣/٤٠٩، وزاد المسير ٦/٢٤٣ - ٢٤٤.

فخسف الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام[١]، فأوحى الله إلى موسى: إني لا أُعيدُ طاعة الأرض إلى أحدٍ بعدكَ أبداً[٢]. يقال: خَسَفَ المكانُ يخسِفُ خُسوفاً ذهب في الأرض، وخَسَفَ اللهُ به الأرض خَسْفاً أي: غاب به فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وخَسَفَ هو في الأرض وخُسِفَ به. وخسوفُ القمر: كسوفُه. قال ثعلب: كَسَفَتِ الشمسُ وخَسفَ القمرُ؛ هذا أجود الكلام. والخَسْفُ: النقصان؛ يقال: رضي فلانٌ بالخسفِ أي: النقيصة[٣]. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جـمـاعـةٍ وعـصـابـةٍ. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ لنفسِه أي: الممتنعين فيما نزلَ به من الخسف[٤]. فيُروى أنَّ قارون يَسفُلُ كلَّ يومٍ بَقْدرِ قامة، حتى إذا بلغ قعرَ الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور. وقد تقدّم[٥]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: صاروا يتندَّمون على ذلك التمني[٦] و﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ [وي][٧] حرف تندّم. قال النحّاس[٨]: أحسنُ ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي: إن القومَ تَنبَّهوا أو نُبِّهوا، فقالوا: وَيْ، والمتندِّمُ من العرب يقول في خلال تندُّمه: وَيْ. قال الجوهري[٩]: «وَيْ» كلمةُ تعجُّب، ويقال: وَيْكَ ووَيْ لعبد الله. وقد تدخل «وَيْ» على كأنَّ المخففة والمشدّدة؛

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٠ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٠ عن أبي عمران الجوني.

(٣) الصحاح (خسف).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٧ .

(٥) عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٧) ما بين حاصرتين من (م).

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ .

(٩) في الصحاح (وي) و(يك).

تقول: ويكأنَّ الله. قال الخليل: هي مفصولة؛ تقول: «وَيْ» ثم تبتدئ فتقول: «كَأَنّ».

قال الثعلبي: وقال الفرَّاء: هي كلمة تقرير، كقولك: أما ترى إلى صُنعِ الله وإحسانه. وذكر أنَّ أعرابيةً قالت لزوجها: أين ابنُكَ وَيْك؟ فقال: وَيْ كأنَّه وراء البيت، أي: أما ترَيْنَه. وقال ابن عباس والحسن: ويكَ كلمة ابتداءٍ وتحقيقٍ تقديره: إنَّ الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيهٌ بمنزلة ألا[١] في قولك: أمَّا بعد. قال الشاعر:

سـألـتَـانـي الـطـلاقَ إذ رَأَتَـانـي قَـلَّ مـالـي قـد جِـئْـتُـمـانـي بِـنُـكْـرِ
وَيْ كَـأَنْ مَـنْ يَـكُـنْ لـه نَـشَـبٌ يُـحْـبَبْ ومَـنْ يَـفـتـقِـرْ يَـعِـشْ عـيـشَ ضُـرِّ[٢]

وقال قُطْرُب: إنما هو ويلك، وأُسقِطَت لامُه وضُمَّتِ الكافُ التي هي للخطاب إلى وَيْ. قال عَنترة:

ولـقـد شَـفَـى نـفـسـي وأبـرأَ سُـقْـمَـهـا قَـوْلُ الـفـوارسِ وَيْـكَ عَـنْـتَـرُ أَقْـدِمِ[٣]

وأنكره النحَّاس وغيره، وقالوا: إنَّ المعنى لا يصح عليه؛ لأنَّ القوم لم يُخاطِبوا أحداً فيقولوا له: ولك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر. وأيضاً فإنَّ حذف اللام من ويلك لا يجوز[٤]. وقال بعضهم: التقدير: ويلَكَ اعلم أنَّه؛ فأضمرَ اعلم[٥]. ابن الأعرابي: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: اعلم. وقيل: معناه: ألم ترَ أنَّ الله[٦]. وقال القُتبي[٧]: معناه: رحمةً لك بِلُغة حِمْير. وقال الكسائي: وَيْ فيه معنى التعجب.

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ . وكلام الفراء في معاني القرآن له٢/ ٣١٢ ، وقول ابن عباس ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٦ .

(٢) قائلهما زيد بن عمرو بن نفيل، وهما في الكتاب ٢/ ١٥٥ ، وخزانة الأدب ٦/ ٤١٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، والبيت في شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٥٢ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٤٩ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ ، والبيان ٢/ ٢٣٧ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٨ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢ ، ونسبة ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٦ إلى ابن عباس ﷺ.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص٤٠١ ، ونسب القول الذي قبله إلى الكسائي.

ويروى عنه أيضاً الوقفُ على وَيْ وقال: كلمة تفجُّع. ومن قال: ويك فوقف على الكاف فمعناه: أعجِبْ لأنَّ اللهَ يبسط الرزق، وأعجِبْ لأنه لا يفلح الكافرون. وينبغي أن تكون الكاف حرف خطابٍ لا اسماً؛ لأنَّ وَيْ ليست ممَّا يُضاف. وإنما كُتبت متصلةً؛ لأنها لمَّا كثُرَ استعمالُها جُعِلتْ مع ما بعدها كشيءٍ واحد.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[1].

وقرأ الأعمش: «لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنا»[2]. وقرأ حفص: «لَخَسفَ بِنَا» مسمَّى الفاعل. الباقون: على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[3]، وهو اختيار أبي عبيد. وفي حرف عبد الله: «لَانْخُسِفَ بِنَا» كما تقول: انطُلِقَ بنا. وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصرِّف[4]. واختار قراءةَ الجماعة أبو حاتم لوجهين: أحدهما قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾. والثاني قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فهو بأن يُضاف إلى الله تعالى لِقُربِ اسمِه منه أولى. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عند الله.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ يعني الجنة. وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها. يعني: تلكَ التي سمعت بذكرها، وبلغَكَ وصفُها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: رفعةً وتكبُّراً على الإيمان والمؤمنين[5] ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٨.

(٢) الشاذة ص١١٤، والمحرر الوجيز ٤/٣٠٢.

(٣) السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧٢.

(٤) المحتسب ٢/١٥٧، وفي معاني القرآن للفراء ٢/٣١٣، والشاذة ص١١٤ عن عبد الله، وفي المحرر الوجيز ٤/٣٠٢ عن الأعمش وطلحة.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٨.

بالمعاصي. قاله ابن جُريج ومقاتل[١]. وقال عِكْرِمة ومسلم البَطين: الفساد: أخذُ المال بغير حق[٢]. وقال الكلبي: الدعاء إلى غير عبادة الله[٣]. وقال يحيى بن سلَّام: هو قتل الأنبياء والمؤمنين[٤]. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال الضحَّاك: الجنة[٥]. وقال أبو معاوية: الذي لا يريد علوّاً هو من لم يجزَعْ من ذلِّها ولم ينافِسْ في عِزِّها، وأرفعهم عند الله أشدُّهم تواضعاً، وأعزُّهم غداً ألزَمُهم لذلِّ اليوم[٦]. وروى سفيان بن عُيَيْنة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مرَّ عليُّ بن الحسين وهو راكبٌ على مساكينَ يأكلون كِسَراً لهم، فسلَّم عليهم، فدعَوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ثم نزل وأكل معهم. ثم قال: قد أجبتُكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرَّجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدَّثني أبي، قال: حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَة . . . فذكره[٧] وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد: إنما ينتفع بتلك الدار من اتَّقى، ومن لم يتَّقِ فتِلكَ الدارُ عليه لا له؛ لأنَّها تضرُّه ولا تنفعه.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ تقدَّم في «النمل»[٨]. وقال عكرمة: ليس شيءٌ خيراً من لا إله إلا الله. وإنما المعنى: من جاء بلا إله إلا الله فله منها

---

(١) تفسير البغوي ٣/٤٥٨، ومجمع البيان ٢٠/٣٢٨.

(٢) الوسيط ٣/٤١٠، وهو في النكت والعيون ٤/٢٧١، وتفسير أبي الليث ٢/٥٢٨ عن مسلم البطين، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٤). وهو في تفسير البغوي ٣/٤٥٨ عن عكرمة.

(٣) الوسيط ٣/٤١٠، وتفسير البغوي ٣/٤٥٨، وزاد المسير ٦/٢٤٨.

(٤) النكت والعيون ٤/٢٧١.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/٣٤٤ عن قتادة.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٢٧١، وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٧٩).

(٧) مكارم الأخلاق للطبراني (١٧٣).

(٨) عند تفسير الآية (٨٩) منها.

خير[١]. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُعاقَبُ بما يليقُ بعمله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ختم السورة ببشارة نبيِّه محمدٍ ﷺ بردِّه إلى مكة قاهراً لأعدائه. وقيل: هو بشارةٌ له بالجنَّة. والأوّل أكثر، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم[٢]. قال القُتبي: مَعادُ الرجل بلده؛ لأنَّه ينصرف ثم يعود[٣]. وقال مقاتل: خرجَ النبيُّ ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافةَ الطلب، فلمَّا رجع إلى الطريق ونزل الجَحفةَ عرف الطريقَ إلى مكة فاشتاق إليها، فقال له جبريل: إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى مكة ظاهراً عليها[٤]. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالجَحْفة ليست مكية ولا مدنية[٥]. وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى الموت[٦]. وعن مجاهدٍ أيضاً وعكرمة والزُّهري والحسن: إن

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٣) عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ١٨/ ٣٥٠ - ٣٥١ عنه وعن مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٢٠٤) عن مجاهد.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣٢٩.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٤٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥ لكن نسبه إلى ابن سلام وغيره، وفي النكت والعيون ٤/ ٢٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٩، وزاد المسير ٤/ ٢٥٠ من غير نسبة.

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤٩، وابن أبي حاتم (١٧١٩٩).

المعنى: لَرادُّكَ إلى يوم القيامة[١]. وهو اختيار الزجَّاج[٢]. يُقال: بيني وبينك المعاد، أي: يوم القيامة؛ لأنَّ الناسَ يعودون فيه أحياء[٣]. و«فَرَضَ» معناه أنزل[٤]. وعن مجاهدٍ أيضاً وأبي صالح: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: إلى الجنة. وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضاً[٥]؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء. وقيل: لأنَّ أباه آدمَ خرجَ منها[٦]. ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ أي: قُلْ لكفار مكة إذا قالوا: إنَّكَ لفي ضلالٍ مبين: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنا أم أنتم[٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: ما علمتَ أنَّنا نُرسِلُكَ إلى الخلق ونُنزِلُ عليك القرآن[٨]. ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ قال الكسائي: هو استثناءٌ منقطع بمعنى لكن[٩]. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: عوناً لهم ومساعداً. وقد تقدَّم في هذه السورة[١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾ يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفِتْ نحوَهم وامْضِ لأمرك وشأنك. وقرأ يعقوب: «يَصُدُّنْكَ» مجزوم النون[١١]. وقرئ: «يُصِدُّنَّكَ» من أصدَّه، بمعنى: صدَّه، وهي لغةٌ في كلب؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عنهم الطبري ١٨/ ٣٤٦ - ٣٤٧، وابن أبي حاتم (١٧٢٠١) عن مجاهد.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٦٤.

(٥) أخرجه عنهم الطبري ١٨/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٣٥١.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٩.

(٨) الوسيط ٣/ ٤١١.

(٩) نقله البغوي في تفسيره ٣/ ٤٥٩ وغيره عن الفراء، وهو في معاني القرآن له ٢/ ٣١٣.

(١٠) عند الآية (١٧).

(١١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٣ - ٣٠٤. وهذه القراءة ليست مشهورة عن يعقوب، وإنما المشهور عنه مثل قراءة الجمهور.

أُنَاسٌ أصدُّوا النَّاسَ بالسيفِ عنهمُ ... صُدُودَ السَّوَاقي عن أنوفِ الحَوَائِمِ[(١)]

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي: إلى التوحيد[(٢)]. وهذا يتضمَّنُ المهادنةَ والموادعة. وهذا كلُّه منسوخٌ بآية السيف. وسبب هذه الآية ما كانت قريشٌ تدعو رسولَ الله ﷺ إلى تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطانُ في أمنيته أمر الغَرَانيق[(٣)] على ما تقدَّم[(٤)]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ أي: لا تعبُدْ معه غيرَه فإنه لا إلهَ إلا هو. نفيٌ لكل معبودٍ وإثباتٌ لعبادته .﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ قال مجاهد: معناه: إلَّا هو[(٥)]. وقال الصادق: دِينُه. وقال أبو العالية وسفيان: أي: إلَّا ما أُريدَ به وجهُه[(٦)]؛ أي: ما يُقصَدُ إليه بالقربة. قال:

أستغفِرُ اللهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَهُ ... ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ[(٧)]

وقال محمد بن يزيد: حدَّثني الثوري قال: سألتُ أبا عبيدة عن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ فقال: إلَّا جاهَه، كما تقول: لفلانٍ وجهٌ في الناس أي: جاه[(٨)]. ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في الأولى والآخرة ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. قال الزجَّاج: «وَجْهَهُ» منصوبٌ على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان إلَّا وجهُه بالرفع، بمعنى: كلُّ

(١) الكشاف ٣/ ١٩٤ ، والقراءة في الشاذة ص١١٤ . والبيت هكذا أنشده الجوهري في الصحاح (صدد) من غير نسبة. ونقله عنه صاحب اللسان ونسبه لذي الرمة، ونقل عن ابن بري أنه قال: صواب إنشاده: صدود السواقي عن رؤوس المخارِم. قلنا: وقد جاء على الصواب في ديوان ذي الرمة ٢/ ٧٧١ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٤ .

(٤) ١٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٥١ عن الضحاك وأبي عبيدة.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٧٣ عن سفيان الثوري، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٩ عن أبي العالية.

(٧) سلف ٢/ ٣٣١ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧ .

شيءٍ غيرُ وجهِه هالِكٌ كما قال:

وكـــلُّ أخٍ مُـــفـــارِقُـــهُ أخـــوهُ   لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ إلَّا الْـفَـرْقَـدانِ

والمعنى: كلُّ أخٍ غيرُ الفرقَدين مُفارِقُه أخوه. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بمعنى تُرجعون إليه[1].

تمَّتْ سورةُ القَصصِ والحمدُ لله

(١) إعراب القرآن ٣/٢٤٤ - ٢٤٥، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/١٥٨، والبيت سلف ١١/٥٤.

[بسم الله الرحمن الرحيم . رب يسر بفضلك] (١)

تفسير سورة القصص

[وهى مكية] (٢) .

قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا وَكيع ، عن أبيه ، عن أبى إسحاق ، عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسٓمٓ﴾ المائتين ، فقال : ما هى معى ، ولكن عليكم مَن أخذها من رسول الله ﷺ : خَبَّاب بن الأرَت . قال : فأتينا خَبّاب بن الأرت ، فقرأها علينا ، رضى الله عنه (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ أى : هذه ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى : الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

وقوله : ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]أى: نذكر لك الأمر على ما كان عليه،كأنك شاهد وكأنك حاضر .

ثم قال :﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تكبر وتجبر وطغى ،﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى : أصنافاً،قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته .

وقوله : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعنى : بنى إسرائيل . وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم.هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ،ويكُدُّهم ليلا ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إهانة لهم واحتقارا ، وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام ،

---

(١) زيادة من ت . (٢) زيادة من ف .

(٣) المسند (١ / ٤١٩) .

www.besturdubooks.wordpress.com

يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ، ومنعه منها [١] بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم ، عليه السلام ، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك مَلك مصر على يديه ، فكانت القبط تَتحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال : ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال: ﴿ **كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذى لا يخالف أمره القدرى ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك ، وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه ، وحتفك ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم ، العزيز القوى الشديد المحال ، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)** ﴾ .

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل [٢] ، فَيَلُون[٣] هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة . فقالوا لفرعون : إنه يوشك ـ إن استمر هذا الحال ـ أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هارون ، عليه السلام ، فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى ، عليه السلام ، فى السنة التى يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يَدُرْنَ على النساء ، فمن رأينها قد حملت

(١) فى ف ، أ : « ومنعها منه » .
(٢) فى ف : « أن تفنى بنو إسرائيل » ، وفى أ : « أن يفنى بنو إسرائيل » .
(٣) فى أ : « فيكون » .

www.besturdubooks.wordpress.com

أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط ، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذبَّاحون ، بأيديهم الشفار المرهفة ، فقتلوه ومضوا قَبَّحَهُم الله . فلما حملت أم موسى به ، عليه السلام ، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً ، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً ، وكان موسى ، عليه السلام ، لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال الله تعالى: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**﴾ [طه : ٣٩]. فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها ، وألقى في خلدها ،ونفث في روعها ، كما قال الله تعالى : ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ . وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً ، ومهدَت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته فى ذلك التابوت ، وسيرته (١) فى البحر ، وربطته (٢) بحبل عندها . فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه ، فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت ، وأرسلته فى البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله ، حتى مر به (٣) على دار فرعون ، فالتقطه الجوارى فاحتملنه ، فذهبن به إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتتّن عليها فى فتحه دونها . فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه ،فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا [وَحَزَنًا]** (٤) ﴾ .

قال محمد بن إسحاق وغيره : « اللام » هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك . ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى(٥) اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله ، تعالى ، قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾ .

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية ، فى تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة فى علمه السابق : وموسى فى علم الله السابق لفرعون عدو وحزن ، قال الله تعالى : ﴿**وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ ،وقلتم أنتم : لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً ونصيراً ، والله يقول : ﴿**لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا**﴾.

وقوله تعالى : ﴿**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ يعنى: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاجُّ عنه وتَذب دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت:﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ**﴾ فقال: أما لك فَنَعَم ، وأما لى فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه ، وقد تقدم فى حديث الفتون فى سورة « طه » هذه القصة بطولها ، من رواية ابن عباس مرفوعاً عن النسائى وغيره.

---

(١) فى ت : « وأرسلته » . (٢) فى أ : « وأوثقته » . (٣) فى أ : « حتى قربه » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) فى ت : « يعنى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله :﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾ ، وقد حصل لها ذلك ، وهداها الله به ، وأسكنها الجنة بسببه .
وقولها : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أى : أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه.

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أى : لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى ، حين ذهب ولدها فى البحر ، أنه أصبح فارغاً ، أى : من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو عبيدة ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لَتُظهر أنَّه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها ، لولا أن الله ثَبَّتها وصبَّرها ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أى : أمرت ابنتها ـ وكانت كبيرة تعى ما يقال لها ـ فقالت لها : ﴿قُصِّيهِ﴾ أى : اتبعى أثره ، وخذى خبره ، وتَطَلَّبى شأنه من نواحى البلد . فخرجت لذلك ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ ـ قال ابن عباس : عن جانب .

وقال مجاهد :﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾: عن بعيد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

وذلك أنه لما استقر موسى ، عليه السلام ، بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم ، فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك . فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم [١] يشعروا بها ، قال الله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أى : تحريماً قَدَريا ، وذلك لكرامة الله له صانه [٢] عن أن يرتضع غير ثدى أمه ؛ ولأن الله ـ سبحانه ـ جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه،لترضعه وهى آمنة،بعدما كانت خائفة.فلما رأتهم [أخته] [٣] حائرين فيمن يرضعه قالت :﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ [٤] لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ .

---

(١) فى ت ، ف : « فلم » .
(٢) فى ت : « صيانة » .
(٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت : «يرضعونه » .

www.besturdubooks.wordpress.com

قال ابن عباس : لما قالت ذلك أخذوها ، وشكوا فى أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى ظُؤُورة (١) الملك ورجاء منفعته . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به (٢) على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحًا شديداً . وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنت إليها ، وأعطتها عطاءً جزيلا ، وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها . ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولاداً ، ولا أقدر على المقام عندك . ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجْرَتْ عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل . فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمنا ، فى عز وجاه ورزق دَار . ولهذا جاء فى الحديث : « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير ، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها» ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل : يوم وليلة ، أو نحوه ، والله [سبحانه] (٣) أعلم، فسبحان من بيديه الأمر ! ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً ، وبعد كل ضيق (٤) مخرجاً . ولهذا قال تعالى :﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا** ﴾ أى : به ، ﴿ **وَلا تَحْزَنَ** ﴾ أى: عليه ، ﴿**وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**﴾ أى : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين. فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته فى تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً .

وقوله : ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ أى : حُكْمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة ، التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس ، وعاقبته محمودة فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] وقال تعالى : ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ١٩].

﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧)** ﴾ .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ، عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، آتاه الله حكماً وعلماً ـ قال مجاهد : يعنى النبوة ، ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ .

---

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « صهر » ، والمثبت من حديث الفتون . انظر : الجزء الخامس ، تفسير سورة طه .

(٢) فى ت : « بها » .　　(٣) زيادة من أ .　　(٤) فى ت : « ضيقة » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قَدّر له من النبوة والتكليم : قضية قتله ذلك القبطى، الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، فقال تعالى : ﴿ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ قال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء .

وقال ابن المُنْكَدر ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعكْرمة ، والسُّدِّى ، وقتادة .

﴿ **فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ** ﴾ أى : يتضاربان ويتنازعان ، ﴿ **هَذَا مِن شِيعَتِهِ** ﴾ أى : من بنى إسرائيل[(١)] ، ﴿ **وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ أى : قبطى ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلى بموسى ، عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبطى ﴿ **فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ** ﴾ .

قال مجاهد : وكزه ، أى : طعنه بجُمْع [(٢)] كفه .

وقال قتادة : وكزه بعصا كانت معه .

﴿ **فَقَضَىٰ عَلَيْهِ** ﴾ أى : كان فيها حتفه فمات ، ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى : ﴿ **هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** ﴾ أى: بما جعلت لى من الجاه والعزة والمنعة ﴿ **فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا** ﴾ أى : معينا ﴿ **لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ أى: الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن موسى ، عليه السلام [(٣)] ، لما قتل ذلك القبطى أنه أصبح ﴿ **فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا** ﴾ أى : من مَعَرّة ما فعل ، ﴿ **يَتَرَقَّبُ** ﴾ أى : يتلفت ويتوقع [(٤)] ما يكون من هذا الأمر ، فمر فى بعض الطرق ، فإذا ذاك [(٥)] الذى استنصره بالأمس على ذلك القبطى يقاتل آخر ، فلما مر موسى، استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : ﴿ **إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ أى : ظاهر الغواية كثير الشر. ثم عزم على البطش بذلك القبطى ، فاعتقد الإسرائيلى لخوَره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ **يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ** ﴾ وذلك لأنه لم

---

(١) فى ت : « أى إسرائيلى » .
(٢) فى ت : « بجميع » .
(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٤) فى هـ ،ت : « أى يتقلب أى يتوقع » والمثبت من ف ، أ .
(٥) فى ت ، ف : « ذلك » .

www.besturdubooks.wordpress.com

يعلم به إلا هو وموسى ، عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطى لقفَها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) ﴾ .

قال تعالى : ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ**﴾ ، وصفه بالرّجُولية لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له : ياموسى ، ﴿ **إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ** ﴾ أى : يتشاورون فيك ﴿**لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ** ﴾ أى : من البلد ، ﴿**إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته فى أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قلبه ، بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة ، ﴿ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾ أى : يتلفت ، ﴿**قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ أى :من فرعون وملئه . فذكروا أن الله ، سبحانه وتعالى ، بعث له ملكاً على فرس ، فأرشده إلى الطريق ، فالله أعلم .

﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ**﴾ أى : أخذ طريقاً سالكاً مهْيَعا فرح بذلك ، ﴿**قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ أى : إلى الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة ، فجعله هادياً مهدياً .

﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ**﴾ أى : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر تَرده رعاء الشاء ﴿**وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ**﴾ أي : جماعة ﴿ **يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ** ﴾ أى : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يُؤذَيا . فلما رآهما موسى ، عليه السلام ، رق لهما ورحمهما ، ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُمَا**﴾ أى : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ **قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ**﴾ أى: لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ، ﴿**وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾ أى : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى. قال الله تعالى : ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا** ﴾.

قال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا عبد الله ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عَمْرو (١)

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « عروة بن ميمون » والمثبت من مصنف ابن أبى شيبة .

www.besturdubooks.wordpress.com

ابن ميمون الأوْدى ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أن موسى ، عليه السلام ، لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ،ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم . إسناد صحيح (١) .

وقوله :﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ـ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل مَدْيَنَ حتى سقطت نعل قدمه . وجلس (٢) فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

وقوله : ﴿ إِلَى الظِّلِّ ﴾: قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدى : جلس تحت شجرة .

وقال ابن جرير : حدثنى الحسين بن عمرو العَنْقَزِىّ (٣) ، حدثنا أبى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال :حَثَثتُ (٤) على جمل ليلتين، حتى صَبَّحت مدين ، فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملى ـ وكان جائعا ـ فأخذها جملى فعالجها ساعة ، ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى ، عليه السلام ، ثم انصرفت (٥) .

وفى رواية عن ابن مسعود : أنه ذهب إلى الشجرة التى كلم الله منها لموسى ، كما سيأتى والله(٦) أعلم .

وقال السدى : كانت من شجر السَّمُر .

وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى:﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، أسمعَ المرأةَ.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ .

لما رجعت المرأتان سِراَعاً (٧) بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألهما عن

(١) المصنف لابن أبى شيبة (١١ / ٥٣٠) .
(٢) فى هـ ، أ : « ولما جلس » . (٣) فى ف : « عمير العنقزى » ، وفى أ : « عمير القفقرى » . (٤) فى ف ، أ : « أخببت » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٠ / ٣٧) .
(٦) فى ف : « فالله » . (٧) فى أ : « سريعا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى ، عليه السلام . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أى : مشى الحرائر ، كما روى عن أمير المؤمنين عمر، رضى الله عنه ، أنه قال : كانت مستتِرة بكم درعها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا [أبى ، حدثنا] (١) أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق، عن عمر بن ميمون قال : قال عمر ، رضى الله عنه : جاءت تمشى على استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع (٢) خرَّاجة ولاجة . هذا إسناد صحيح .

قال الجوهرى : السلفع من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة .

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ، وهذا تأدب فى العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة ، بل قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعنى : ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أى : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده ، ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول : طب نفسا وقَرّ عينا ، فقد خرجتَ من مملكتهم فلا حُكْم لهم فى بلادنا . ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبى ، عليه السلام (٣) ، الذى أرسل إلى أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد . ورواه ابن أبى حاتم .

حدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز الأويسى ، حدثنا مالك بن أنس ؛ أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص ، قال : ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد روى الطبرانى عن سلمة بن سعد العنزَى أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : « مرحبا بقوم شعيب وأخْتان موسى ، هُديت » (٤) .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ، عليه (٥) السلام ، بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٩٥] . وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل ، عليه السلام (٦) ، بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل ، عليهما السلام ، مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « تستلفع » .
(٣) فى ف : « صلى الله عليه وسلم » ، وفى أ : « صلى الله عليه » .
(٤) المعجم الكبير (٧/ ٥٥) من طريق حفص بن سلمة عن شيبان بن قيس عن سلمة بن سعد به ، وقال الهيثمى : « فيه من لم أعرفهم».
(٥) فى ت : « عليهما » . (٦) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ذكره غير واحد. وما قيل : إن شعيبا عاش مدة طويلة ، إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا . وما جاء فى(١) بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى (٢) ، لم يصح إسناده ، كما سنذكره قريبا إن شاء الله . ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: « ثبرون»، والله أعلم.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : وأثرون (٣) وهو ابن أخى شعيب ، عليه السلام .

وعن أبى حمزة (٤) ، عن ابن عباس : الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين . رواه ابن جرير ، ثم قال : الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ، ولا خبر تجب به الحجة فى ذلك .

وقوله : ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ أى : قالت إحدى ابنتى هذا الرجل . قيل : هى التى ذهبت وراء موسى ، عليه السلام ، قالت لأبيها : ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ**﴾ أى : لرعْية هذه (٥) الغنم .

قال عمر ، وابن عباس ، وشُريح القاضى ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لما قالت : ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت: إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جئت معه تقدمتُ أمامهُ ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت (٦) الطريق فاحذفى [لى (٧)] بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدّى(٨) إليه .

قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس فى عُمَر ، وصاحب يوسف حين قال :﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾ [يوسف :٢١] ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾.

قال : ﴿ **إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى عنه (٩) ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين .

قال شعيب الجبائى : وهما صفوراً ، وليّا .

وقال محمد بن إسحاق : صفوراً وشرقاً ، ويقال : ليا.وقد استدل أصحاب أبى حنيفة [رحمه الله تعالى] (١٠) بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : « بعتك أحد هذين العبدين بمائة . فقال : اشتريت » أنه يصح ، والله أعلم .

---

(١) فى ت : « من » .
(٢) فى أ : « لموسى » .
(٣) فى أ : « يثرون » .
(٤) فى ف ، أ : « أبى هريرة » .
(٥) فى أ : « رعية هذا » .
(٦) فى أ : « اختلفت » .
(٧) زيادة من أ .
(٨) فى أ : « لأهتدى » .
(٩) فى ت ، ف ، أ : « غنمه » .
(١٠) زيادة من ت ، ف .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله : ﴿**عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ**﴾ أى : على أن ترعى علىّ ثمانى سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك (١) ، وإلا ففى ثمان كفاية ، ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ أى : لا أشاقك ، ولا أؤاذيك ، ولا أماريك .

وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعى ، فيما إذا قال : « بعتك هذا بعشرة نقداً ، أو بعشرين نسيئة » أنه يصح ، ويختار المشترى بأيهما أخذه صح . وحُمل الحديث المروى فى سنن أبى داود : « من باع بيعتين فى بيعة ، فله أوكسهما أو الربا » (٢) على هذا المذهب . وفى الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ، ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم .

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم ، فى صحة (٣) استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، واستأنسوا فى ذلك بما وراه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى كتابه السنن، حيث قال : « باب استئجار الأجير على طعام بطنه » : حدثنا محمد بن المصفّى الحِمْصى ، حدثنا بَقِّية بن الوليد ، عن مسلمة (٤) بن على ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن على بن رَبَاح قال : سمعت (٥) عُتبةَ بن النُّدَّر (٦) يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ ﴿**طسٓمٓ**﴾ (٧) ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى أجَّرَ نفسه ثمانى سنين ـ أو : عشر (٨) سنين ـ على عفة فرجه وطعام بطنه (٩) .

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف (١٠) ؛ لأن مسلمة (١١) بن على وهو الخُشَنَى الدمشقى البلاطىّ ضعيف الرواية عند الأئمة ، ولكن قد رُوى من وجه آخر ، وفيه نظر أيضا .

وقال (١٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن رَبَاح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النّدر السلمى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه، وطعمة بطنه » (١٣) .

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ، عليه السلام : ﴿ **قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندى ، فأنا متى فعلت أقلهما [فقد] (١٤) برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ؛ ولهذا قال : ﴿**أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ**﴾ أى : فلا

(١) فى ت : « لك » .
(٢) سنن أبى داود برقم (٣٤٦١) .
(٣) فى أ : « حجة » . (٤) فى أ : « سلمة » .
(٥) فى ت : « ثم روى بإسناده عن » . (٦) فى هـ، ت : « المنذر » ، والمثبت من ف ، وسنن ابن ماجه .
(٧) فى ت : « طس » . (٨) فى ت : « أو عشرة » .
(٩) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٤٤) وضعفه البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢٦٠) لتدليس بقية بن الوليد .
(١٠) فى ت : « وهذا الحديث فيه ضعف من هذا الوجه » . (١١) فى أ : « سلمة » .
(١٢) فى أ : « فقال » .
(١٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٤٩٥) « كشف الأستار » من طريق يحيى بن بكير عن ابن لهيعة بأطول منه ، وفى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .
(١٤) زيادة من أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

حرج على مع أن الكامل ـ وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بدليل من خارج . كما قال [الله](١) تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمى ، رضى الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم فى السفر ـ فقال : « إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر» (٢) ، مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر .

هذا وقد دل الدليل على أن موسى ، عليه السلام ، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ؛ قال البخارى :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مَرْوان بن شُجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدَمَ على حَبْر العرب فأسألَه . فقدمت فسألت ابن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . هكذا رواه البخارى (٣) ، وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره ، عن سعيد بن جبير . ووقع فى « حديث الفُتُون » ، من رواية القاسم ابن أبى أيوب ، عن سعيد بن جبير ؛ أن الذى سأله رجل من أهل النصرانية . والأول أشبه ، والله أعلم ، وقد رُوى من (٤) حديث ابن عباس مرفوعا ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن محمد الطوسى ، حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إبراهيم بن يحيى ابن أبى يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «سألت جبريل : أىّ الأجلين قضى موسى قال : أكملهما وأتمهما » (٥) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن الحميدى ، عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ حدثنى إبراهيم ابن يحيى بن أبى يعقوب ـ وكان من أسنانى أو أصغر منى ـ فذكره .

قلت : وإبراهيم هذا ليس بمعروف .

ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، فذكره . ثم قال : لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه (٦) .

وقال (٧) ابن أبى الحاتم : قُرِئَ على يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، عن يحيى بن ميمون الحضرمى ، عن يوسف بن تيرح : أن رسول الله ﷺ سئل : أىّ

---

(١)زيادة من ف ، أ .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٩٣) والنسائى فى السنن (٤/ ١٨٥) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٤) .

(٤) فى ت : « روى طرق مرسلة من » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠/ ٤٤) .

(٦) قال الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (١/ ١٢٤) : « إبراهيم بن يحيى العدنى عن الحكم بن أبان وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكر والرجل نكرة ، وحديثه عن الحميدى ومتنه : سأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام أى الأجلين قضى موسى، انتهى . وهذا الرجل ذكره ابن حبان فى الثقات . وقال الأزدى : لا يتابع فى حديثه ، وأخرج الحاكم حديثه المذكور فى المستدرك » .

(٧) فى ف : « ثم قال » .

www.besturdubooks.wordpress.com

الأجلين قضى موسى؟قال:«لا علم لى».فسأل رسول الله ﷺ جبريل،فقال جبريل:لا علم لى،فسأل جبريل ملكا فوقه فقال:لا علم لى.فسأل (١) ذلك المَلَك ربه ـ عز وجل ـ عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد ﷺ فقال الرب سبحانه وتعالى:«قضى أبرهما وأبقاهما ـ أو قال: أزكاهما » (٢) .

وهذا مرسل ، وقد جاء مرسلا من وجه آخر ، وقال (٣) سُنَيد : حدثنا حجاج ، عن ابن جُرَيْج قال : قال مجاهد : إن النبى ﷺ سأل جبريل : « أىّ الأجلين قضى موسى ؟ » فقال : سوف أسأل إسرافيل . فسأله فقال : سوف أسأل الرب عز وجل . فسأله فقال : « أبرهما وأوفاهما » (٤).

طريق أخرى مرسلة أيضا : قال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن محمد بن كعب القُرظى قال : سُئِل رسول الله ﷺ : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : «أوفاهما وأتمهما » (٥) .

فهذه طرق متعاضدة ، ثم قد (٦) روى [هذا] (٧) مرفوعاً من رواية أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عَوبَد بن أبى عمران الجَوْنى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبى ذر : أن النبى ﷺ سُئِل : أىّ الأجلين قَضَى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما » ، قال : « وإن سئلتَ أىّ المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » .

ثم قال البزار : لا نعلم يروى عن أبى ذر إلا بهذا الإسناد (٨) .

وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث عَوبَد بن أبى عمران ـ وهو ضعيف ـ ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن الندر (٩) بزيادة غريبة جدا ، فقال أبو بكر البزار : حدثنا عمر بن الخطاب السجستانى ، حدثنا يحيى بن بُكَيْر ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النّدر(١٠) يقول : إن رسول الله ﷺ سُئِل : أىّ الأجلين قَضَى موسى؟ قال : « أبرهما وأوفاهما » . ثم قال النبى ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، لما أراد فراق شعيب، عليه السلام ، أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به . فأعطاها ما ولدت غنمه فى ذلك العام من قالِب لَون . قال : فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه ، فولدت قَوَالب ألوان كلها ، وولدت ثنتين وثلاثاً كل شاة ليس فيها فَشُوش ولا ضبُوب ، ولا كَميشة تُفَوّت الكف ، ولا ثَعُول » . وقال رسول الله ﷺ : « إذا (١١) افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها، وهى السامرية » (١٢).

---

(١) فى ف ، أ : « عز وجل » .
(٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٥) « كشف الأستار » .
(٣) فى ف ، أ : « فقال » .
(٤، ٥) تفسير الطبرى (٢٠/٤٤).
(٦) فى ف : « وقد » .
(٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) مسند البزار برقم (٢٢٤٤) « كشف الأستار » .
(٩ ، ١٠) فى ف ، أ : « المنذر » .
(١١) فى أ : « إنكم إذا » .
(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٦) « كشف الأستار» .

www.besturdubooks.wordpress.com

هكذا أورده البزار . وقد رواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا [١] ، فقال :

حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير ، حدثنى عبد الله بن لهيعة (ح)وحدثنا أبوزرعة، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النُّدّر [٢] السلمى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى ، عليه السلام [٣] ، آجر نفسه بعفة فرجه وطُعمة بطنه. فلما وفى الأجل ـ قيل : يارسول الله ، أىّ الأجلين ؟ قال ـ : أبرهما وأوفاهما . فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب [٤] لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء ، فانطلق موسى ، عليه السلام، إلى عصاه فَسَمَّاها من طرفها ، ثم وضعها فى أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال :« فأتأمت وأثلثت ، ووضعت كلها قوالب ألوان ، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ـ قال يحيى : ولا ضبون . وقال صفوان : ولا ضبُوب . قال أبو زرعة : الصواب ضَبُوب ـ ولا عَزُوز ولا ثَعُول ولا كميشة تُفَوّت الكف » . قال النبى ﷺ : « فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية » .

وحدثنا أبو زُرْعة ، حدثنا صفوان قال : سمعت الوليد قال : فسألت ابن لَهيعة : ماالفشوش ؟ قال : التى تَفُشّ بلبنها واسعة الشَّخب . قلت : فما الضبوب ؟ قال: الطويلة الضرع تجره . قلت : فما العَزُوز ؟ قال : ضيقة الشَّخب . قال فما الثَعُول ؟ قال : التى ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين . قلت : فما الكميشة ؟ قال : التى تُفَوّت الكف ، كميشة الضرع ، صغير لا يدركه الكف .

مدار هذا الحديث على عبد الله بن لَهيعة المصرى ـ وفى حفظه سوء ـ وأخشى أن يكون رفعه خطأ ، والله أعلم . وينبغى أن يُرْوَى ليس فيها فشوش ولا عزوز ، ولا ضبوب ولا ثَعول ولا كميشة، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة . وقد روى ابن جرير من [٥] كلام أنس بن مالك ـ موقوفا عليه ـ ما يقارب بعضه بإسناد جيد [٦] ، فقال : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبى ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لما دعى نبى الله موسى ، عليه السلام ، صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها لك . فعمد فرفع حبالاً على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة ، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن ذلك العام [٧].

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)

(١) فى ت : « بزيادة غريبة » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « المنذر » . (٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٤) فى ت : « قابله » . (٥) فى ت : « عن » .
(٦) فى ت : « ما يقارب هذا » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٠/ ٤٤) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ .

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى ، عليه السلام ، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله (١) : ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ** ﴾ أى : الأكمل منهما ، والله (٢) أعلم .

قال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرا أخر . وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والله (٣) أعلم .

وقوله : ﴿ **وَسَارَ بِأَهْلِهِ** ﴾ : قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زَنده لا يُضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك [إذ] (٤) ﴿ **آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا** ﴾ أى : رأى نارا تضىء له على بعد ، ﴿ **قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا** ﴾ أى : حتى أذهب إليها ، ﴿ **لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ** ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿ **أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ** ﴾ أى : قطعة منها (٥) ، ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ أى : تَتَدفؤون بها من البرد. قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ** ﴾ أى : من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى (٦) : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ** ﴾ ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى ، فوقف باهتاً فى أمرها ، فناداه ربه: ﴿ **مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ** ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى ، عليه السلام ، سمرة خضراء ترف . إسناده مقارب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض من لا يتهم ، عن وهب بن منبه قال : شجرة من العُلَّيق ، وبعض أهل الكتاب يقول : من العوسج .

وقال قتادة : هى من العوسج ، وعصاه من العوسج .

وقوله تعالى : ﴿ **أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى

(١) فى أ : « حيث قال » . (٢) فى ت : « فالله » . (٣) فى ف : « فالله » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت : « قطعة من النار » . (٦) فى ت : « قال الله تعالى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

ذاته وصفاته ، وأقواله وأفعاله سبحانه !

وقوله : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي : التي في يدك .كما قرره على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٧، ١٨]. والمعنى : أما هذه عصاك التي تعرفها ألقها ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ، فعرف وتحقق أن الذى يخاطبه ويكلمه هو الذى يقول للشيء : كن ، فيكون . كما تقدم بيان ذلك فى سورة « طه » .

وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ أى : تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أى : فى حركتها السريعة مع عظم خَلْق قوائمها (١) واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، فتنحدر فى فيها تتقعقع ، كأنها حادرة فى واد . فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى : ولم يكن يلتفت ؛لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله له : ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾، رجع فوقف فى مقامه الأول ، ثم قال الله له : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى : إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ ، كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى : من غير برص .

وقوله : ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ : قال مجاهد : من الفزع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية .

والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ، عليه السلام ، إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهى يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يَخف ، إن شاء الله، وبه الثقة .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح ، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب ، عن عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، قال (٣) : كان موسى ، عليه السلام ، قد مُلئ قلبه رعباً من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم ،إنى أدرأ بك فى نحره ، وأعوذ بك من شره، ففرّغ (٤) الله ما كان فى قلب موسى ، عليه السلام ، وجعله فى قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار .

وقوله : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعنى : إلقاءه العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ـ دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لدين الله ، [والله

---

(١) فى ت : « عظم خلقها » ، وفى ف : « عظم خلقتها » .

(٢) فى ت : « روى » .

(٣) فى ت : « بإسناده » .

(٤) فى ت ، ف ، أ : « فنزع » .

www.besturdubooks.wordpress.com

أعلم] (١).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) ﴾ .

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ، الذى إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعنى : ذلك القبطى ، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أى : إذا رأونى. ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ ، وذلك أن موسى ، عليه السلام ، كان فى لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدرّة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة فى التعبير ؛ ولهذا قال : ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه : ٢٧ ـ ٣٢] ، أى : يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا [يُصَدِّقُنِي] (٢)﴾ ، أى : وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خبر اثنين أنجع فى النفوس من خبر واحد ؛ ولهذا قال :﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم [عنى](٣) .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أى : سنقوى أمرك ، ونعز جانبك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً معك . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه : ٣٦] ، وقال تعالى:﴿ووَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم : ٥٣] . ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منَّةً على أخيه ، من موسى على هارون ، عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولا معه إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال [الله تعالى] (٤) فى حق موسى :﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أى : حجة قاهرة ،﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالى [لرسوله محمد ﷺ] (٥) : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ [وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ] (٦)وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب : ٣٩] ، أى : وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ، كما قال

---

(١) زيادة من ف . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من أ .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) زيادة من ت ، أ . (٦) زيادة من ت ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله » .

www.besturdubooks.wordpress.com

تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

ووجه ابن جرير على أن المعنى: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾، ثم يبتدئ فيقول: ﴿ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾، تقديره: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا [1].

ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) ﴾.

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة، على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره. فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أى: مفتعل مصنوع. وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما صعد معهم ذلك.

وقوله [2]: ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر [3] الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى. فقال موسى، عليه السلام، مجيباً لهم: ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ ﴾ يعنى: منى ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم. ولهذا قال: ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى: النصرة والظفر والتأييد، ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى: المشركون بالله.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾.

---

(١) تفسير الطبرى (٢٠/٤٨).

(٢) فى ت، ف: «وقولهم».

(٣) فى ف: «وما نرى».

www.besturdubooks.wordpress.com

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة ـ لعنه الله ـ كما قال تعالى : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ؛ ولهذا قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ، [و] (١) قال تعالى إخباراً عنه : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٣ ـ ٢٦] يعنى: أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مُصَرّحا لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين . ولهذا انتقم الله تعالى منه ، فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة ، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى ﴾ أى : أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، ليتخذ له آجُرّا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع ـ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، وذلك لأن (٢) فرعون بنى هذا الصرح الذى لم يُرَ فى الدنيا بناء أعلى منه ، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : فى قوله إن ثَمّ رباً غيرى ، لا أنه كذبه فى أن الله أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع ،فإنه قال:﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء : ٢٩] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير .

وقوله :﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾ أى : طغوا وتجبروا ، وأكثروا فى الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة (٣) ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٣ ، ١٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أى : أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى : لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم ، فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ أى : فاجتمع عليهم خزى الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد : ١٣] .

وقوله : ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ (٤) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى : وشرع الله لعنتهم ولعنة مَلكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله، وكما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم ، كذلك ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ .قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] .

---

(١) زيادة من ت ، ف .
(٢) فى ت : « أن » .
(٣) فى ت : « لا قيامة ولا معاد » .
(٤) فى ت : « فأتبعناهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه .

وقوله : ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى**﴾ يعنى : أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، كما قال : ﴿ **وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً**﴾ [الحاقة : ٩ ، ١٠] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا : حدثنا عوف ، عن أبى نَضْرَة ، عن أبى سعيد الخُدْرى قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير القرية التى مسخوا قردة ، ألم تر أن الله يقول : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى**﴾ (١) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث عوف بن أبى جَمِيلة (٢) الأعرابى ، بنحوه . وهكذا رواه أبو بكر البزار فى مسنده ، عن عمرو بن على الفلاس ، عن يحيى القَطَّان ، عن عوف ، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد موقوفاً (٣) . ثم رواه عن نصر بن على ، عن عبد الأعلى ، عن عوف ، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد ـ رفعه (٤) إلى النبى ﷺ ـ قال : « ما أهلكَ الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ، ثم قرأ :﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى**﴾(٥).

وقوله : ﴿ **بَصَائِرَ لِلنَّاسِ** ﴾ أى : من العمى والغى ، ﴿ **وَهُدًى** ﴾ إلى الحق ، ﴿**وَرَحْمَةً**﴾ أى : إرشادا إلى الأعمال الصالحة ،﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ أى : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

---

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٥٠) .

(٢) فى أ : « حبلة » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٧) « كشف الأستار » .

(٤) فى ت : « مرفوعا » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٤٨) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٨) : « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ورجالهما رجال الصحيح » .

www.besturdubooks.wordpress.com

رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالى :﴿ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، أى: ما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك .وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه .

ثم قال تعالى :﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [هود : ٤٩] وقال فى آخر السورة :﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ** (١) **الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ** ﴾ [هود: ١٠٠] ، وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٢] ، وقال فى سورة طه :﴿ **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** ﴾ [طه : ٩٩] ، وقال هاهنا ـ بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له ـ : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ** ﴾ يعنى : يامحمد ، ما كنت بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ، ﴿ **وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ، ونَسُوا حُجَجَ الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله : ﴿ **وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾ أى : وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، حين أخبرتَ عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ، ﴿ **وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** ﴾ أى : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا .

﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا** ﴾ ـ قال أبو عبد الرحمن النسائى ، فى التفسير من سننه : أخبرنا على بن حُجْر ، أخبرنا عيسى ـ وهو ابن يونس ـ عن حمزة الزيات ، عن الأعمش ، عن على ابن مُدْرِك ، عن أبى زُرْعَة ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا** ﴾، قال : نودوا : يا أمة محمد ، أعطيتكم قبل أن تسألونى، وأجبتكم قبل أن تدعونى .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث جماعة،عن حمزة ـ وهو ابن حبيب الزيات ـ عن الأعمش . ورواه ابن جرير من حديث وَكِيع ويحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن على بن مُدْرِك ، عن أبى زُرْعَة ـ وهو ابن عمرو بن جرير (٢) ـ أنه قال ذلك من كلامه ، والله أعلم.

وقال مُقاتِل بن حَيَّان :﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا** ﴾: أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا

---

(١) فى ت ، ف : « الغيب » وهو خطأ .

(٢) تفسير الطبرى (٥١/٢٠) والذى فيه من طريق سفيان ويحيى بن عيسى .

www.besturdubooks.wordpress.com

بك إذا بعثت .

وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا ـ والله أعلم ـ أشبه بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ ﴾.

ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء ، كما قال تعالى :﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقال :﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات : ١٦] ، وقال: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

وقوله :﴿ وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أى : ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به ، رحمة منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم ، ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل .

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أَن تَقُولُوا (١) إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾[الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧]، وقال:﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]،وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة :١٩]،والآيات فى هذا كثيرة [والله أعلم] (٢).

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول : أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٣) ، قالوا على

(١) فى ت ، ف : « يقولوا » .
(٢) زيادة من ف ،أ .
(٣) فى أ : « صلى الله عليه وسلم ».

www.besturdubooks.wordpress.com

وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿ **لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ** ﴾ ، يعنون ـ والله أعلم ـ : من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقص [١] الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله على يدى موسى ، عليه السلام ، حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، كما قالوا لهما : ﴿ **أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ **فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ** ﴾ [المؤمنون : ٤٨] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ** ﴾ أى : أو لم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة . ﴿ **قَالُوا سَاحْرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ ،أى تعاونا ، . ﴿ **وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ** ﴾ أى : بكل منهما كافرون . ولشدة التلازم والتصاحب والمقارنة بين موسى وهارون ، دل ذكر أحدهما على الآخر ، كما قال الشاعر :

فَمَا أدْرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً   أريدُ الخَيْرَ أيهُمَا يَلينْى

أى : فما أدرى أيلينى الخير أو الشر . قال مجاهد بن جبر : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك ، فقال الله : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ قال : يعنى : موسى وهارون ﷺ [٢] ﴿ **تَظَاهَرَا** ﴾ أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر . وبهذا قال سعيد ابن جبير وأبو رَزين فى قوله: ﴿ **سَاحْرَانِ** ﴾ يعنون: موسى وهارون. وهذا قول جيد قَوىّ ،والله أعلم .

وقال مسلم بن يَسَار ، عن ابن عباس ﴿ **قَالُوا سَاحْرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ يعنى : موسى ومحمداً ، صلوات الله وسلامه عليهما [٣] . وهذا رواية عن الحسن البصرى .

وقال الحسن وقتادة : يعنى : عيسى ومحمداً ، صلى الله عليهما وسلم ، وهذا فيه بعد ؛ لأن عيسى لم يجر له ذكر هاهنا ، والله أعلم .

وأما من قرأ ﴿ **سِحْرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ ، فقال على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس . يعنون: التوراة والقرآن . وكذا قال عاصم الجَنَدىّ ، والسُّدِّىُّ ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال السدى: يعنى صَدّق كل واحد منهما الآخر .

وقال عكرمة : يعنون : التوراة والإنجيل . وهو رواية عن أبى زُرْعَة ، واختاره ابن جرير [٤] .

وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . والله ، سبحانه ، أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة : ﴿ **سِحْرَانِ** ﴾ أنهم يعنون : التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ** ﴾ ، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما فى قوله تعالى ﴿ **قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ** ﴾ إلى أن قال: ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ** ﴾ [الأنعام: ٩١ ، ٩٢] ،

(١) فى ت ، ف ، أ : « تنقيص » .   (٢) فى ف ، أ : « عليهما السلام » .   (٣) فى ف : « عليهما وسلم » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٠/ ٥٣).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال في آخر السورة : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، وقالت الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ] (١) ﴾ [الأحقاف : ٣٠] وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل [الله] (٢) على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد، ﷺ (٣) ، وهو القرآن، وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران، عليه السلام ، وهو التوراة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، والإنجيل إنما نزل متمما للتوراة ومُحلا لبعض ما حُرِّم على بنى إسرائيل . ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل.

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أى : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ ، قال مجاهد : فصلنا لهم القول .

وقال السدى : بينا لهم القول .

وقال قتادة : يقول تعالى : أخبَرهم كيف صُنع بمن مضى وكيف هو صانع،﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

قال مجاهد وغيره : ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ يعنى : قريشا . وهذا هو الظاهر ، لكن قال حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار ، عن يحيى بن جَعْدَة ، عن رفاعة ـ رفاعة هذا هو ابن قَرَظَة القُرَظى ، وجعله ابن منده : رفاعة بن سموال ، خال صفية بنت حيى ، وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير (٤) ـ قال : نزلت : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه (٥) .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ .

---

(١) زيادة من أ . (٢) زيادة من ف .
(٣) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير (٢/ ٢٢٨) .
(٥) تفسير الطبرى (٢٠/ ٥٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٥٣) من طريق حماد بن سلمة به

www.besturdubooks.wordpress.com

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء [١] من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] .

قال سعيد بن جبير : نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى ، فلما قدموا على النبى ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ ، حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ يعنى : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أى : موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

قال الله : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى [يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثانى] [٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على اتباع الحق ؛ فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد فى الصحيحين من حديث عامر الشعبى ، عن أبى بُرْدَةَ ، عن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤْتَونَ أجْرهم مَرَّتَين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وَعبْد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورَجُل كانت له أمَة فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيْلَحِينى ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن سليمان [٤] بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، عن أبى أمامة قال : إنى لتحتَ رَاحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولا حسناً جميلا ، وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا ، [ومن أسلم من المشركين ، فله أجره ، وله ما لنا وعليه ما علينا] [٥] » [٦].

وقوله ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى : لا يقابلون السيئ [٧] بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أى : ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خَلْق الله فى النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات .

---

(١) فى ت ، ف : « الألباء » وفى أ : « الألباب » .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٣) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .
(٤) فى ، أ : « سليم » .
(٥) زيادة من ف ، أ ، ومسند أحمد .
(٦) المسند (٥/٢٥٩) .
(٧) فى ت ، ف ، أ : « يقابلون على السيئ » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : إذا سَفه عليهم سَفيه ، وكَلَّمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه ، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب . ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : لا نُريد طَريق الجاهلين ولا نُحبّها .

قال محمد بن إسحاق فى السيرة ، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين (١) بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه ـ ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ـ فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا (٢) لهم : خَيَّبَكُم الله من ركب .بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم (٣) بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؛ ما نعلم ركباً أحمق منكم . أو كما قالوا لهم .فقالوا [لهم](٤): سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نَألُ أنفسَنا خيرا(٥) .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم أىّ ذلك كان (٦) .

قال : ويقال ـ والله أعلم ـ إن فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

قال : وقد سألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن أُنْزِلْن (٧) ، قال : مازلتُ أسمع من علمائنا أنهن أنزلن (٨) فى النجاشى وأصحابه ، رضى الله عنهم ، والآيات التى (٩) فى سورة المائدة :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢، ٨٣] .

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ .

---

(١) فى أ : « حتى » .
(٢) فى أ : « فقال » .
(٣) فى ت : « فتأتونهم » .
(٤) زيادة من ت ، ف ،أ .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٢) .
(٦) فى أ : « كما » .
(٧) فى ت : « نزلت » ، وفى ف ، أ : « نزلن » .
(٨) فى أ : « نزلن » .
(٩) فى أ : «اللاتى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول تعالى لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه : إنك يامحمد ﴿ **لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى :﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة :٢٧٢] ، وقال : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وهذه الآية أخص من هذا كله ؛ فإنه قال: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغَوَاية، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عَمّ رسول الله ﷺ ، وقد كان يَحوطُه وينصره ، ويقوم فى صفه ويحبه حباً [شديداً] (١) طبعياً لا شرعياً ، فلما حضرته الوفاة وحان أجله ، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة (٢) التامة .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسَيَّب ، عن أبيه ـ وهو المسيب بن حَزْن المخزومى ، رضى الله عنه ـ قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة . فقال رسول الله ﷺ :« ياعم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى قال آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : « أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » .فأنزل الله عز وجل : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى** ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وأنزل فى أبى طالب : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ .

أخرجاه (٣) من حديث الزهرى (٤) . وهكذا رواه (٥) مسلم فى صحيحه ، والترمذى ، من حديث يزيد بن كَيْسَان ، عن أبى حازم ، عن أبى هُرَيْرَةَ قال : لما حَضَرَتْ وفاةُ أبى طالب أتاه رسولُ الله ﷺ فقال : « يا عمَّاه ، قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » . فقال : لولا أن تُعَيِّرنى (٦) بها قريش ، يقولون : ما حمله عليه إلا جَزَع الموت ، لأقررْتُ بها عينَك ، لا أقولها إلا لأُقرَّ بها عينك . فأنزل الله : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾. وقال الترمذى : حسن غريب (٧) ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان (٨) .

ورواه الإمام أحمد ، عن يحيى بن سعيد القَطَّان ، عن يزيد بن كيسان ، حدثنى أبو حازم ، عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه (٩).

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢) فى أ : « الحجة » .
(٣) فى ت : « البخارى ومسلم » .
(٤) صحيح البخارى برقم (١٣٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤) .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) فى ف : « يعيرنى » .
(٧) فى ت : « رواه الترمذى وقال :حسن صحيح » .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٨) .
(٩) المسند (٢/ ٤٣٤) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبى ، وقتادة : إنها نزلت فى أبى طالب حين عَرَضَ عليه رسولُ الله ﷺ أن يقول : « لا إله إلا الله » ، فأبى عليه ذلك ، وقال (١) : أىْ ابن أخى ، ملةَ الأشياخ . وكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب .

وقال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم (٣) ، عن سعيد بن أبى راشد قال : كان رسول قيصر جاء (٤) إلىَّ قال : كتب معى قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً ، فأتيته فدفعت الكتاب ، فوضعه فى حجره ، ثم قال : « ممن الرجل؟ » قلت : من تنوخ(٥) . قال : « هل لك فى دين أبيك إبراهيم الحنيفية ؟ » قلت : إنى رسول قوم ، وعلى دينهم حتى أرجع إليهم . فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال (٦) : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾(٧).

وقوله : ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ : [يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباع (٨) الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾](٩) ، أى : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيبا لهم : ﴿ **أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا** ﴾ يعنى : هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله جعلهم فى بلد أمين ، وحَرَم معظم آمن منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً فى حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

وقوله : ﴿ **يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أى : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ **رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ أى : من عندنا ، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ فلهذا قالوا ما قالوا .

وقد قال (١٠) النسائى : أنبأنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جُرَيْجٌ ، أخبرنى ابن أبى مُلَيْكة قال : قال عمرو بن شعيب ، عن ابن عباس - ولم يسمعه منه - : أن الحارث بن عامر بن نوفل الذى قال : ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ (١١) .

﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ** **

---

(١) فى أ : « وكان » . (٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .
(٤) فى أ : « جاراً » . (٥) فى هـ : « تيرح » والمثبت من ف ، أ .
(٦) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .
(٧) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٤١) من طريق حماد بن سلمة بنحوه .
(٨) فى أ : « اتباعهم » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) فى ت : « وقد روى » . (١١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٥) .

www.besturdubooks.wordpress.com

آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) ﴾ .

يقول تعالى مُعَرِّضاً بأهل مكة فى قوله : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا** ﴾ أى : طغت وأشرت وكفرت نعمة الله [١] ، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [النحل : ١١٢ ، ١١٣] ولهذا قال : ﴿ **فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ أى : دَثَرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم .

وقوله : ﴿ **وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾ أى : رجعت خراباً ليس فيها أحد .

وقد ذكر ابن أبى حاتم [هاهنا] [٢] عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لعمر : إن سليمان ، عليه السلام [٣] ، قال للهامة ـ يعنى البومة ـ : ما لك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم بسببه من الجنة . قال : فما لك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن الله أغرق قوم نوح به . قال : فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب ؟ قالت : لأنه ميراث الله عز وجل ، ثم تلا : ﴿ **وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾ .

ثم قال الله [٤] مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا** ﴾ وهى مكة ﴿ **رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾ . فيه دلالة على أن النبى الأمى ، وهو محمد ، صلوات الله وسلامه عليه [٥] ، المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى ، من عرب وأعجام ، كما قال تعالى : ﴿ **لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿ **لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ [هود : ١٧] . وتمام الدليل [قوله] [٦] : ﴿ **وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا** ﴾ [الإسراء : ٥٨] . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [الإسراء : ١٥] . فجعل تعالى بعثة النبى الأمى شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى [٧] أمها وأصلها التى ترجع إليها. وثبت فى الصحيحين عنه ، صلوات الله وسلامه عليه [٨] ، أنه قال: « بعثت إلى الأحمر والأسود » . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ **حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا** ﴾ أى : أصلها وعظيمتها ، كأمهات الرساتيق والأقاليم. حكاه الزمخشرى وابن الجوزىّ ، وغيرهما ، وليس ببعيد .

---

(١) فى ف : « بنعم الله » ، وفى أ : « نعم الله » .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٤) فى ت ، ف : « تعالى » .
(٥) فى ت ، ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .
(٦) زيادة من ت ، أ .
(٧) فى ت ، ف ، أ : « فى » .
(٨) فى ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا (١) ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال : **﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾** [النحل : ٩٦]، وقال : **﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾** [آل عمران : ١٩٨] ، وقال **﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾** [الرعد : ٢٦] ، وقال :**﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾** [الأعلى : ١٦، ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا فى الآخرة ، إلا كما يَغْمِس أحدكم إصبعه فى اليم ، فَلْينظُر ماذا يرجع إليه » (٢).

[وقوله] (٣) : **﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٤)﴾** أى : أفلا يعقل مَنْ يقدم الدنيا على الآخرة ؟

وقوله: **﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾** :يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده ، فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ، **﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾** قال مجاهد ، وقتادة : من المعذبين .

ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل . وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل، وكلاهما عن مجاهد . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات : **﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾** [الصافات : ٥٧] ، وقال تعالى : **﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾** [الصافات : ١٥٨] .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ(٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : **﴿أَيْنَ**

---

(١) فى ت : « عن الحياة الدنيا وحقارتها » .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « تعقلون » .

www.besturdubooks.wordpress.com

شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعنى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا ، من الأصنام والأنداد ، هل ينصروكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد ، كما قال : **﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾** [الأنعام : ٩٤] .

وقوله :**﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾** يعنى : من الشياطين والمَرَدَة والدعاة إلى الكفر ،**﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾** ، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : **﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾** [مريم : ٨١، ٨٢] ، وقال : **﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾** [الأحقاف : ٥ ،٦] ، وقال الخليل لقومه : **﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾** [العنكبوت : ٢٥] ، وقال الله (١) :**﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾** [البقرة : ١٦٦، ١٦٧] ؛ ولهذا قال : **﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾** [أى] (٢) : ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ، **﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾** أى : وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة .

وقوله :**﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾** أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا. وهذا كقوله تعالى:**﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا. وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾** [الكهف: ٥٢، ٥٣] .

وقوله : **﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾** : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يُسأل العبد فى قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك (٣) ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله (٤) ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه .. هاه .لا أدرى ؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى : **﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾** .

وقال مجاهد: فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب .

وقوله : **﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾** أى : فى الدنيا ، **﴿ فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾**

---

(١) فى ت ، ف : « تعالى » ، وفى أ : « الله تعالى » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى أ : « من نبيكم وما دينكم » .

(٤) فى ف ، أ : « عبده »

www.besturdubooks.wordpress.com

أى: يوم القيامة ، و « عسى » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنّه لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ .

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والأختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب فقال : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه.

وقوله : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفى على أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وقد اختار ابن جرير أن ﴿ مَا ﴾ هاهنا بمعنى « الذى » ، تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة. وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح . والصحيح أنها نافية ، كما نقله ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس وغيره أيضاً ، فإن المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، التى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى : يعلم ما تكن [1] الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ، ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] .

وقوله :﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ويختار سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى : الذى لا معقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ،﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى [2] كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ .

---

(١) فى هـ ، أ : « مكتمة » والمثبت من ت ، ف . (٢) فى ت ، ف : « فيجزى » .

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار ، اللذين لا قوَامَ لهم بدونهما . وبين أنه لو جعلَ الليلَ دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضرّ ذلك بهم ، ولسئمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى : ﴿ **مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ** ﴾ أي : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، ﴿ **أَفَلا تَسْمَعُونَ** ﴾ .

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال : ﴿ **مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ** ﴾ أي : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿ **أَفَلا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ** ﴾ أي : بكم ﴿ **جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ أي : خلق هذا وهذا ، ﴿ **لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ أي : في الليل ، ﴿ **وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ** ﴾ أي : في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر .

وقوله : ﴿ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ أي : تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾ [الفرقان : ٦٢] ، والآيات في هذا كثيرة (١) .

﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)** ﴾ .

وهذا أيضاً نداء [ثان] (٢) على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب ـ تبارك وتعالى ـ على رؤوس الأشهاد فيقول : ﴿ **أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ أي: في الدار الدنيا .

﴿ **وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا** ﴾ : قال مجاهد : يعني : رسولا . ﴿ **فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ** ﴾ أي : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، ﴿ **فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ** ﴾ أي : لا إله غيره ، أي : فلم ينطقوا ولم يحيروا (٣) جوابا ، ﴿ **وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ أي : ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)** ﴾ .

---

(١) بعدها في ت ، ف :

« **فصل** : فانظر إلى هذه الآيات وما تضمنته من العبرة والدلالة على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً ؟ يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس ، وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وثباتها ، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها . جاء فالق الإصباح سبحانه بالنهار ، فقدم حيثه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق ، وأزالها وكشفها عن العالم ، فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان ، وتصرف في معايشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها ، فيا له من ميعاد ! ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ومشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً ، منعها من الاعتبار والاستدلال به على النشأة الثانية ، وإحياء الخلق بعد موتهم، كما وردت السنة بذلك ، أنه يستجاب للعبد إذا قام من نومه يقول : الحمد لله الذى أحيانا بعد موتنا وإليه النشور » .

(٢) زيادة من أ . (٣) في ت : « فلم يجيبوا » .

www.besturdubooks.wordpress.com

قال الأعمش ، عن المنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى﴾ ، قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النَّخَعى ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، وابن جُرَيْج ، وغيرهم : أنه كان ابن عم موسى ، عليه السلام [1] .

قال ابن جُرَيْج : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث .

وزعم محمد بن إسحاق بن يَسَار : أن قارون كان عم موسى [2]، عليه السلام .

قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم .

وقال قتادة بن دِعَامة : كنا نُحدّث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنوّر لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى ، فأهلكه البغى لكثرة ماله.

وقال شَهْر بن حَوْشَب : زاد فى ثيابه شبراً طولا ، ترفعاً على قومه .

وقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أى : [من] [3] الأموال ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ أى : ليُثْقِلُ حملُها الفئامَ من الناس لكثرتها .

قال الأعمش ، عن خَيْثَمَةَ : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الأصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فإذا ركب حُملت على ستين بغلا أغر محجلا . وقيل : غير ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالح قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من الأموال[4] ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى : المرحين . وقال مجاهد : يعنى : الأشرين البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

وقوله :﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة . ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أى : مما أباح الله فيها [5] من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك

---

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٢) فى ف ، أ : « موسى بن عمران » .
(٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت ، ف ، أ : « المال » .
(٥) فى ت ، ف : « لك » .

www.besturdubooks.wordpress.com

حقاً ، ولزورك عليك حقا ، فآت كل ذي حق حقه .

﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ أي : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، ﴿ **وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض (١) ، وتسيء إلى خلق الله ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ .

﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ، ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ أي : أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ، ولمحبته لي فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا**(٢) **مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ [الزمر : ٤٩] . أي : على علم من الله بي ، وكقوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي** ﴾ [فصلت : ٥٠] أي : هذا أستحقه .

وقد رُوي عن بعضهم أنه أراد : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ أي : إنه كان يعاني علم الكيمياء : وهذا القول ضعيف ؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل ؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل ، قال الله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ** ﴾ [الحج : ٧٣] ، وفي الصحيح عن النبي (٣) ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » (٤) . وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زور ومحال ، وجهل وضلال . وإنما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة ، وهو كذب وزغل وتمويه ، وترويج أنه صحيح في نفس الأمر ، وليس كذلك قطعاً لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله تعالى (٥) من خَرْق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات ، واختياره وفعله ، كما روي عن حَيْوة بن شُرَيح المصري ، رحمه الله ، أنه سأله سائل ، فلم يكن عنده ما يعطيه ، ورأى ضرورته ، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها في كفه ، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر . والأحاديث والآثار [في هذا] (٦) كثيرة جداً يطول ذكرها .

(١) في أ : « في الأرض » . (٢) في ت ، أ : « وإذا » وهو خطأ .
(٣) في ف : « رسول الله » .
(٤) صحيح البخاري برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١) .
(٥) في ت ، ف : « سبحانه » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال بعضهم : إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم ، فدعا الله به ، فتموّل بسببه . والصحيح المعنى الأول ؛ ولهذا قال الله تعالى ـ راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ـ: ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** ﴾ أى : قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ أى : لكثرة ذنوبهم .

قال قتادة : ﴿ **عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ : على خير عندى .

وقال السدى : على علم أنى أهل لذلك .

وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال فى قوله : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ، ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال ، وقرأ : ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول : لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى] [(1)] .

﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قارون : إنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زُخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى ، قالوا : ﴿ **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ أى: ذو حظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ **وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون.

[كما فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾] [(2)] [السجدة : ١٧] » [(3)] .

وقوله : ﴿ **وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** ﴾ : قال السدى : وما يلقى الجنة [(4)] إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : وما يلقى [(5)] هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون فى الدار الآخرة . وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك .

(١ ، ٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) .

(٤) فى أ : « وما يلقاها أى الجنة » .

(٥) فى أ : « وما يلقاها » .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) ﴾ .

لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح ـ عند البخارى من حديث الزهرى ، عن سالم ـ : أن أباه حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به [١] ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » .

ثم رواه من حديث جرير بن زيد ، عن سالم عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، نحوه [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص ، حدثنا الأعمش ، عن عطية[٣]، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله [٤] ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج فى بُرْدَيْن أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . تفرد به أحمد [٥]، وإسناده حسن .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خَيْثَمَةَ ، حدثنا أبو معلى بن منصور [٦] ، أخبرنى محمد بن مسلم ، سمعت زياداً النميرى يحدث عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل فيمن [٧] كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » [٨] .

وقد ذكر [الحافظ] [٩] محمد بن المنذر ـ شكَّر ـ فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شاباً فى مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله ، فقال : ما لك تنظر إلى ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر ، فأخذه بعض قرابته فى كمه وذهب .

وقد ذُكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبى الله موسى ، عليه السلام [١٠] . واختلف فى سببه، فعن ابن عباس والسدى : أن قارون أعطى امرأة بَغياً مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى إسرائيل ، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله ، فتقول : ياموسى ، إنك فعلت بى كذا وكذا . فلما قالت فى الملأ ذلك [١١] لموسى ، عليه السلام ، أرْعدَ من الفَرَق ، وأقبل عليها [١٢] وصلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فَرَق البحر ، وأنجاكم منَ فرعون ، وفعل كذا و [فعل] [١٣] كذا،

---

(١) فى ت : « خسف الله به » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٧٩٠) .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٤) فى ت : « النبى » .
(٥) المسند (٣/ ٤٠) .
(٦) فى هـ : « أبو يعلى بن منصور » والصواب ما أثبتناه من مسند أبى يعلى .
(٧) فى ف ، أ : « ممن ».
(٨) مسند أبى يعلى (٧/ ٢٧٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٢٦) : « فيه زياد بن عبد الله النميرى وهو ضعيف ، وقد وثقه ابن حبان وقال : يخطئ » .
(٩) زيادة من ف ، أ .
(١٠) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(١١) فى أ : « بذلك » .
(١٢) فى أ : « بعد ما » .
(١٣) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

لما أخبرتني بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نَشَدْتَنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا ، على أن أقول لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فعند ذلك خَرّ موسى لله عز وجل ساجداً ، وسأل الله فى قارون . فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان (١) ذلك .

وقيل : إن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك ، وهو راكب على البغال الشّهب ، وعليه وعلى خدمه الثياب الأرجوان الصّبّغة (٢) ، فمر فى جَحْفَله ذلك على مجلس نبى الله موسى ، عليه السلام ، وهو يذكرهم بأيام الله . فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوه الناس حوله ، ينظرون إلى ما هو فيه . فدعاه موسى ، عليه السلام ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى ، أما لئن كنت فُضِّلتَ عَلَيَّ بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لنخرجن ، فلتدعون عليّ وأدعو عليك . فخرج وخرج قارون فى قومه ، فقال موسى (٣) : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : بل أنا أدعو . فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسى (٤) : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم ، مُر الأرض أن تطيعنى (٥) اليوم . فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض ، خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم . ثم قال : خذيهم . فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم .ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم . قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها . ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بنى لاوى (٦) فاستوت بهم الأرض .

وعن ابن عباس أنه قال : خُسف بهم إلى الأرض السابعة .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ،فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات [غريبة] (٧) أضربنا عنها صفحًا .

وقوله : ﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ أى : ما أغنى عنه مالُه وما جَمَعه ، ولا خدمه و [لا] (٨) حشمه . ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله [به] (٩) ، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له [لا] (١٠) من نفسه ،ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ** ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينته ﴿**قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ ، فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿**وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ**﴾ أى : ليس المال بدالّ على رضا الله عن صاحبه [وعن عباده] (١١) ؛ فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة . وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » (١٢) .

﴿**لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا**﴾ أى : لولا لُطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف

---

(١) فى ف ، أ : « وكان » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « المصبغة » .
(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم »، وفى ف ، أ : « عليه السلام » . (٤) فى ف ، أ : « قال : ياموسى » .
(٥) فى ت : « فلتطعنى » . (٦) فى أ : « اذهبوا به لا أرى » . (٧، ٨) زيادة من ت ، ف .
(٩ ـ ١١) زيادة من أ .
(١٢) المسند (١/ ٣٨٧) .

www.besturdubooks.wordpress.com

به ، لأنا وَددْنا أن نكون مثله .

﴿ **وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُون** ﴾ : يعنون : أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد اختلف النحاة فى معنى قوله تعالى [هاهنا] [١] : ﴿ **وَيْكَأَن** ﴾ ، فقال بعضهم: معناها: «ويلك اعلم أن » ، ولكن خُفِّفت فقيل : « ويك » ودل فتح « أن » على حذف « اعلم » . وهذا القول ضعَّفه ابن جرير [٢] ، والظاهر أنه قوى ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة «ويكأن » . والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى ، والله أعلم .

وقيل : معناها : ويكأن ، أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها : « وى كأن » ، ففصلها وجعل حرف « وى » [٣] للتعجب أو للتنبيه ، و « كأن » بمعنى « أظن وأحسب » . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة : إنها بمعنى : ألم تر أن ، واستشهد بقول الشاعر [٤] :

سَالَتَانى الطَّلاق أنْ رَأَتَانى ... قَلّ مَا لى ، قَدْ جِئْتُمَانى بنُكر
وَيْكأنْ مَنْ يكُن له نَشَب يُحْـ ... ـبَب، ومن يَفْتقرْ يَعش عَيْشَ ضُرّ

﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)** ﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمهَا المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يريدون علواً فى الأرض ، أى : ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ، ولا فساداً فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر .

وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى .

وقال سفيان بن سعيد الثورى ، عن منصور ، عن مسلم [٥] البطين : العلو فى الأرض : التكبر بغير حق . والفساد : أخذ المال بغير حق .

وقال ابن جُرَيْج : ﴿ **لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ** ﴾ تعظماً وتجبراً [٦] ، ﴿ **وَلا فَسَادًا** ﴾ : عملا بالمعاصى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، عن أشعث السمان [٧] ، عن أبى سلام الأعرج ، عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه ، فيدخل [٨] فى قوله : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢) تفسير الطبرى (٢٠/٧٧) .
(٣) فى أ : « أى » .
(٤) هو زيد بن عمرو بن نفيل ، والبيت فى تفسير الطبرى (٢٠/٧٧) .
(٥) فى أ : « سالم » .
(٦) فى ف : « ولا تجبرا » .
(٧) فى أ : « أشعب السماك » .
(٨) فى أ : « فدخل » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وهذا محمول على ما إذا أراد [بذلك] (١) الفخر [والتطاول] (٢) على غيره ؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت فى الصحيح ، عن النبى ﷺ [أنه قال] (٣) : « إنه أوحى إلى أن تَواضَعُوا ، حتى لا يفخَرَ أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » (٤) ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمّل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال : يارسول الله ، إنى أحب أن يكون ردائى حسناً ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحبّ الجمال » .

وقال (٥) :﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ** ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ **فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا** ﴾ أى : ثواب الله خير من حَسَنَة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة فهذا (٦) مقام الفضل .

ثم قال : ﴿ **وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى:﴿ **وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [النمل: ٩٠] وهذا مقام الفصل العدل .

﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)** ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسولَه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ؛ ولهذا قال: ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ أى : افترض عليك أداءه إلى الناس ، ﴿ **لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى :﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأعراف : ٦]، وقال : ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ** [**قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**] (٧) ﴾ [المائدة : ١٠٩] ، [وقال] (٨) : ﴿ **وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ** ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال السدى عن أبى صالح ، عن (٩) ابن عباس : ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾، يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . قال السدى : وقال أبو سعيد مثلها .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، [و] (١٠) عن ابن عباس ، رضى الله عنهما :﴿ **لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ قال : إلى يوم القيامة . ورواه مالك ، عن الزهرى .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢، ٣) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضى الله عنه .
(٥) فى ت ، ف : « وقوله » . (٦) فى ف : « وهذا » . (٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) زيادة من ت ، أ . (٩) فى ت : « وقال » . (١٠) زيادة من ت .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال الثورى ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس (١) : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى الموت .

ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة .

وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبى قَزَعَةَ ، وأبى مالك ، وأبى صالح .

وقال الحسن البصرى : أى واللّه ، إن له لمعاداً (٢) ، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة .

وقد رُوى عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه (٣) :

حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العُصْفُرِىّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى مكة .

وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى ـ وهو ابن عبيد الطَّنَافسىّ ـ به(٤) . وهكذا روى العَوْفِىّ ، عن ابن عباس : ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى مولدك بمكة .

قال ابن أبى حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

[وحدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر قال : قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة ، عن الضحاك] (٥) قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة ، فبلغ الجُحْفَة ، اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ إلى مكة .

وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكيا ، والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق : حدثنا مَعْمَر ، عن قتادة فى قوله :﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : هذه مما كان ابن عباس يكتمها، وقد رَوَى ابنُ أبى حاتم بسنده عن نعيم القارئ أنه قال فى قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : إلى بيت المقدس .

وهذا ـ والله أعلم ـ يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، والله الموفق للصواب .

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله ، صلوات الله وسلامه عليه (٦) ، كما فسره ابن عباس

---

(١) فى ت : « وعنه » . (٢) فى ت : « إنه لمعاد » .

(٣) فى ت : « كما روى البخارى بإسناده » .

(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٦) وتفسير الطبرى (٢٠/ ٨٠) .

(٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى أ : « أجل النبى صلى الله عليه وسلم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

بسورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحِ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أنه أَجَلُ رسول الله ﷺ نُعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله :﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح [١] خلق الله ، وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله :﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : قل ـ لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم ـ قل : ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم :﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أى : ما كنت تظن قبل إنزال الوحى [٢] إليك أن الوحى ينزل عليك ، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أى : إنما نزل [٣] الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ أى : معيناً ﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ، [أى][٤]: ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم .

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أى : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك [٥] لا تلوى على ذلك ولا تباله ؛ فإن الله مُعْلٍ كلمتك ، ومؤيدٌ دينك ، ومظهر ما أرسلت[٦] به على سائر الأديان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته .

وقوله :﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ : إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى:﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ، فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أى : إلا إياه .

وقد ثبت فى الصحيح ، من طريق أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أصدق كلمة قالها شاعر [كلمة] [٧] لَبِيد :

ألا كلُّ شىء مَاخَلاَ اللهَ بَاطِلُ » [٨] .

وقال مجاهد والثورى فى قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أى : إلا ما أريد به وجهه ،

---

(١) فى أ : « وأنصح » .
(٢) فى أ : « الذكر » .
(٣) فى ت ، أ : « أنزل » .
(٤) زيادة من أ .
(٥) فى أ : « طريقتك » .
(٦) فى أ : « ما أرسلك » .
(٧) زيادة من ف ، أ ، وصحيح البخارى .
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٤١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٥٦) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له .

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبّ العبَاد ، إلَيه الوَجْهُ والعَمَلُ

وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله [١] عز وجل من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية[٢] وهالكة وزائلة إلا ذاته [٣] تعالى ، فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء .

قال [٤] أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب « التفكر والاعتبار » : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال: كان [٥] ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتى الخربة فيقف على بابها ، فينادى بصوت حزين فيقول: أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **لَهُ الْحُكْمُ** ﴾ أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ، ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ أى : يوم معادكم ، فيجزيكم [٦] بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، [والله أعلم .

آخر تفسير سورة « القصص »] [٧]

---

(١) فى ف : « به وجه الله » ، وفى أ : « به وجهه » .

(٢) فى ت : « تفنى » .

(٣) فى ت : « وجهه » .

(٤) فى ت : « وروى » .

(٥) فى ت : « بسنده أن » .

(٦) فى ت : فيجازيكم » .

(٧) زيادة من ف ، أ .

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٨ — سورة القصص
(مكية وهى ثمان وثمانون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ ٢٨ القصص

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ٢٨ القصص

نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ٢٨ القصص

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ٢٨ القصص

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ٢٨ القصص

﴿ سورة القصص ﴾

مكية وقيل إلا قوله الذين آتيناهم الكتاب إلى قوله الجاهلين وهى ثمان وثمانون آية

٢،١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (طسم) (تلك آيات الكتاب المبين) قد مر ما يتعلق به من الكلام بالإجمال
٣ والتفصيل فى أشباهه (نتلوا عليك) أى نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام ويجوز أن تكون التلاوة مجازاً من التنزيل (من نبأ موسى وفرعون) مفعول نتلو أى نتلوا عليه بعض نبئهما (بالحق) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل نتلو أو من مفعوله أو صفة لمصدره أى بعض نبئهما ملتبسين أو متلبساً بالحق أو تلاوة ملتبسة بالحق (لقوم يؤمنون) متعلق بنتلو وتخصيصهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل لأنهم المنتفعون
٤ به (إن فرعون علا فى الأرض) استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أى إنه تجبر وطغا فى أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان (وجعل أهلها شيعاً) أى فرقاً يشيعونه فى كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضاً فى طاعته أو أصنافاً فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل ويسخره فيه من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم (يستضعف طائفة منهم) وهم بنو إسرائيل والجملة إما حال من فاعل جعل أو صفة لشيعاً أو استئناف وقوله تعالى (يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم) بدل منها وكان ذلك لما أن كاهناً قال له يولد فى بنى إسرائيل مولود يذهب ملكك على يده وما ذاك إلا لغاية حمقه إذ لو صدق فما فائدة القتل وإن كذب فما وجهه (إنه كان من المفسدين) أى الراسخين فى الإفساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ٢٨ القصص

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ٢٨ القصص

من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (ونريد أن نمن) أى نتفضل (على الذين
استضعفوا فى الأرض) على الوجه المذكور بإنجائهم من بأسه وصيغة المضارع فى نريد حكاية حال ماضية
وهو معطوف على إن فرعون علا الخ لتناسبهما فى الوقوع فى حيز التفسير للنبأ أو حال من يستضعف بتقدير
المبتدأ أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وليس من ضرورة مقارنة الإرادة للاستضعاف
مقارنة المراد لها لما أن تعلق الإرادة للدن تعلقا استقباليا على أن منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت فى شرف
الوقوع جاز إجراؤها مجرى الواقع المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لإبانة قدر النعمة فى المنة
بذكر حالتهم السابقة المباينة لها (ونجعلهم أئمة) يقتدى بهم فى أمور الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين
لآخرين (ونجعلهم الوارثين) لجميع ما كان منتظما فى سلك ملك فرعون وقومه وراثة معهودة فيما بينهم
كما ينبىء عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها عليه زمانا لانحطاط
٦ رتبتها عن الإمامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من روادفه أعنى قوله تعالى (ونمكن لهم فى الأرض)
الخ أى نسلطهم على مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاءون وأصل التمكين أن تجعل للشىء مكانا يتمكن
فيه (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم) أى من أولئك المستضعفين (ما كانوا يحذرون) ويجتهدون فى
٧ دفعه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم وقرىء يرى بالياء ورفع ما بعده على الفاعلية (وأوحينا
إلى أم موسى) بإلهام أو رؤيا (أن أرضعيه) ما أمكنك إخفاؤه (فإذا خفت عليه) بأن يحس به الجيران
عند بكائه وينموا عليه (فألقيه فى اليم) فى البحر وهو النيل (ولا تخافى) عليه ضيعة بالغرق ولا شدة
(ولا تحزنى إنا رادوه إليك) عن قريب بحيث تأمنين عليه (وجاعلوه من المرسلين) والجملة تعليل للنهى
عن الخوف والحزن وإيثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أى إنا
فاعلون لرده وجعله من المرسلين لامحالة روى أن بعض القوابل الموكلات من قبل فرعون بحبالى بنى
إسرائيل كانت مصافية لأم موسى عليه السلام فقالت لها لينفعنى حبك اليوم فعالجتها فلما وقع على الأرض
هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه فى قلبها ثم قالت ماجئتك إلا لأقبل مولودك
وأخبر فرعون ولكنى وجدت لابنك فى قلبى محبة ما وجدت مثلها لأحد فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون
فرعون فلفته فى خرقة فألقته فى تنور مسجور لم تعلم ماتصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئاً
فخرجوا وهى لا تدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه
برداً وسلاماً فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى الله تعالى إليها ما أوحى وقد روى أنها أرضعته
ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى بالقار من داخله والفاء فى قوله تعالى :

فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ٢٨ القصص

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ٢٨ القصص

٨ (فالتقطه آل فرعون) فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة مترتبة على ماقبلها من الأمر بالإلقاء قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وإيذاناً بكمال سرعة الامتثال أى فألقته فى اليم بعد ماجعلته فى التابوت حسبما أمرت به فالتقطه آل فرعون أى أخذوه أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس إليه وكان بها برص شديد عجزت الأطباء عن علاجه فقالوا لا تبرأ إلا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الإنس يوم كذا وساعة كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون فى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمته حكاه السهيلى وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطىء النيل فإذا بتابوت فى النيل تضربه الأمواج فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروا بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فأعياهم فنظرت آسية فرأت نوراً فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فإذا هى بصبى صغير فى مهده وإذا نور بين عينيه وهو يمص إبهامه لبناً فألقى الله تعالى محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعتها وقيل لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون إنا نظن أن هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر فرقاً منك فاقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتى واللام فى قوله تعالى (ليكون لهم عدواً وحزناً) لام العاقبة أبرز مدخولها فى معرض العلة لالتقاطهم تشبيهاً له فى الترتب عليه بالغرض الحامل عليه وقرىء حزناً وهما لغتان كالسقم والسقم جعل عليه الصلاة والسلام نفس الحزن إيذاناً بقوة سببيته لحزنهم (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) أى فى كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو فى أن قتلوا الأجلة ألوفاً ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون . روى أنه ذبح فى طلبه عليه الصلاة والسلام تسعون ألف وليد أو كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم فالجملة اعتراضية لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به وقرىء خاطين على أنه تخفيف خاطئين أو على أنه بمعنى متعدين الصواب إلى الخطأ

٩ (وقالت امرأة فرعون) أى لفرعون حين أخرجته من التابوت (قرة عين لى ولك) أى هو قرة عين لنا لما أنهما لما رأياه أحباه أو لما ذكر من برء ابنته من البرص بريقه وفى الحديث أنه قال لك لا لى ولو قال لى كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها (لا تقتلوه) خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده (عسى

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ٢٨ القصص

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ٢٨ القصص

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ٢٨ القصص

أن ينفعنا) فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النجابة وذلك لما رأت فيه من العلامات المذكورة (أو نتخذه ولداً) أى نتبناه فإنه خليق بذلك (وهم لا يشعرون) حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأته كيت وكيت وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا من الالتقاط ورجاء النفع منه والتبنى له وقوله تعالى إن فرعون الآية اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم وقيل حال من أحد ضميرى نتخذه على أن الضمير للناس أى وهم لا يعلمون أنه لغيرنا وقد تبنيناه (وأصبح
١٠ فؤاد أم موسى فارغا) صفراً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون لقوله تعالى وأفئدتهم هواء أى خلاء لا عقول فيها ويعضده أنه قرىء فرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أى هدر وقيل فارغا من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى أو لسماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه وقرىء مؤسى بالهمز إجراء للضمة فى جارة الواو مجرى ضمتها فهمزت كما فى وجوه (إن كادت لتبدى به) أى إنها كادت لتظهر بموسى أى بأمره وقصته من فرط الحيرة والدهشة أو الفرح بتبنيه (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر والثبات (لتكون من المؤمنين) أى المصدقين بوعد الله تعالى أو من الواثقين بحفظه لا بتبنى فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ماقبله عليه (وقالت لأخته) مريم
١١ والتعبير عنها بأخوته عليه الصلاة والسلام دون أن يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر (قصيه) أى اتبعى أثره وتتبعى خبره (فبصرت به) أى أبصرته (عن جنب) عن بعد وقرىء بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى (وهم لا يشعرون) أنها تقصه وتتعرف حاله أو أنها أخته
١٢ (وحرمنا عليه المراضع) أى منعناه أن يرتضع من المرضعات والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو مرضع وهو الرضاع أو موضعه أعنى الثدى (من قبل) أى من قبل قصها أثره (فقالت) عند رؤيتها لعدم قبوله الثدى واعتناء فرعون بأمره وطلبهم من يقبل ثديها (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) أى لأجلكم (وهم له ناصحون) لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته روى أن هامان لما سمعه منها قال إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فأمرها فرعون بأن تأتى بمن يكفله فأتت بأمه وموسى على يد فرعون يبكى وهو يعلله فدفعه إليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من انت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك فقالت إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى إلا قبلنى

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ٢٨ القصص

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ٢٨ القصص

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ٢٨ القصص

قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ٢٨ القصص

---

١٣ فقرره فى يدها وأجرى عليها فرجعت به إلى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى (فرددناه إلى أمه كى تقر
عينها) بوصول ولدها إليها (ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم أن وعد الله) أى جميع ما وعده من رده وجعله
من المرسلين (حق) لاخلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن
الأمر كذلك فيرتابون فيه أو أن الغرض الأصلى من الرد عليها بذلك وما سواه تبع وفيه تعريض بما
١٤ فرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون (ولما بلغ أشده) أى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشوه وذلك
من ثلاثين إلى أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ وروى أنه لم يبعث نبى إلا على رأس الأربعين
(واستوى) أى اعتدل قده أو عقله (آتيناه حكما) أى نبوة (وعلماً) بالدين أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم
قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه وهو أوفق لنظم القصة لأنه تعالى استنبأه بعد الهجرة
١٥ فى المراجعة (وكذلك) ومثل ذلك الذى فعلنا بموسى وأمه (نجزى المحسنين) على إحسانهم (ودخل
المدينة) أى مصر من قصر فرعون وقيل منف أو حابين أو عين شمس من نواحيها (على حين غفلة من
أهلها) فى وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين (فوجد فيها
رجلين يقتتلان هذا من شيعته) أى ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل (وهذا من عدوه) أى من مخالفيه
ديناً وهم القبط والإشارة على الحكاية (فاستغاثه الذى من شيعته) أى سأله أن يغيثه بالإعانة كما ينبىء عنه
تعديته بعلى وقرىء استعانه (على الذى من عدوه فوكزه موسى) أى ضرب القبطى بجمع كفه وقرىء
فلكزه أى فضرب بصدره (فقضى عليه) فقتله وأصله أنهى حياته من قوله تعالى وقضينا إليه ذلك الأمر
(قال هذا من عمل الشيطان) لأنه لم يكن مأموراً بقتل الكفار أو لأنه كان مأموناً فيما بينهم فلم يكن له
اغتيالهم ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ وإنما عده من عمل الشيطان وسماه ظلماً واستغفر منه
جرياً على سنن المقربين فى استعظام ما فرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر (إنه عدو مضل مبين)
١٦ ظاهر العداوة والإضلال (قال) توسيطه بين كلاميه ﷺ لإبانة ما بينهما من المخالفة من حيث إنه مناجاة

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ٢٨ القصص

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ
لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ٢٨ القصص

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ
إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ٢٨ القصص

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي
لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ٢٨ القصص

ودعاء بخلاف الأول (رب إني ظلمت نفسي) أي بقتله (فاغفر لي) ذنبي (فغفر له) ذلك (إنه هو الغفور
١٧ الرحيم) أي المبالغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم (قال رب بما أنعمت علي) إما قسم محذوف الجواب
أي أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأتوبن (فلن أكون) بعد هذا أبداً (ظهيراً للمجرمين) وما استعطاف
أي بحق إنعامك علي اعصمني فلن أكون معيناً لمن تؤدي معاونته إلى الجرم وعن ابن عباس رضي الله
عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فابتلي به مرة أخرى وهذا يؤيد الأول وقيل معناه بما أنعمت علي
١٨ من القوة أعين أولياءك فلن أستعملها في مظاهرة أعدائك (فأصبح في المدينة خائفاً يترقب) يترصد
الاستقادة أو الأجناد (فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه) أي يستغيثه برفع الصوت من الصراخ
١٩ (قال له موسى إنك لغوي مبين) أي بين الغواية تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما أن أراد) موسى
(أن يبطش بالذي هو عدو لهما) أي لموسى وللإسرائيلي إذ لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء
لبني إسرائيل على الإطلاق وقرىء يبطش بضم الطاء (قال) أي الإسرائيلي ظانا أنه عليه الصلاة والسلام
يبطش به حسبما يوهمه تسميته إياه غوياً (ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) قالوا لما سمع
القبطي قول الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك
وأمر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل قاله القبطي (إن تريد) أي ما تريد (إلا أن تكون جباراً
في الأرض) وهو الذي يفعل كل ما يريده من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب وقيل المتعظم الذي
٢٠ لايتواضع لأمر الله تعالى (وما تريد أن تكون من المصلحين) بين الناس بالقول والفعل (وجاء رجل
من أقصى المدينة) أي كائن من آخرها أو جاء من آخرها (يسعى) أي يسرع صفة لرجل أو حال منه على
أن الجار والمجرور صفة له لا متعلق بجاء فإن تخصصه يلحقه بالمعارف قيل هو مؤمن آل فرعون واسمه
حزقيل وقيل شمعون وقيل شمعان (قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) أي يتشاورون بسببك
فإن كلا من المتشاورين يأمر الآخرين ويأتمر (فاخرج) أي من المدينة (إني لك من الناصحين) اللام للبيان •

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ٢٨ القصص

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ٢٨ القصص

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ٢٨ القصص

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ٢٨ القصص

---

٢١ لما أن معمول الصلة لا يتقدمها (فخرج منها) أى من المدينة (خائفاً يترقب) لحوق الطالبين (قال رب نجنى
٢٢ من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم (ولما توجه تلقاء مدين) أى نحو مدين وهى قرية
شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن إبراهيم ولم تكن تحت سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر
مسيرة ثمانية أيام (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه وكان
لا يعرف الطرق فعن له ثلاث طرائق فأخذ فى الوسطى وجاء الطلاب فشرعوا فى الآخريين وقيل خرج
حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدميه وقيل جاء ملك على فرس وبيده عنزة
٢٣ فانطلق به إلى مدين (ولما ورد ماء مدين) أى وصل إليه وهو بئر كانوا يسقون منه (وجد عليه) أى فوق
شفيرها (أمة) جماعة كثيفة (من الناس يسقون) أى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى فى موضع
أسفل منهم (امرأتين تذودان) أى تمنعان ما معهما من الأغنام عن التقدم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم
مع عدم الفائدة فى التقدم (قال) عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه من التأخر والذود (ما خطبكما)
ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر والذود ولم لا تباشران السقى كدأب هؤلاء (قالتا لا نسقى حتى يصدر
الرعاء) أى عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزاً عن مساجلتهم وحذراً
عن مخالطة الرجال لا أنا لا نسقى اليوم إلى تلك الغاية وحذف مفعول السقى والذود والإصدار لما أن
الغرض هو بيان تلك الأفعال أنفسها إذ هى التى دعت موسى عليه السلام إلى ما صنع فى حقهما من
المعروف فإنه عليه الصلاة والسلام إنما رحمهما لكونهما على الذياد للعجز والعفة وكونهم على السقى
غير مبالين بهما وما رحمهما لكون مذودهما غنما ومسقيهم إبلا مثلا وقرىء لا نسقى من الإسقاء ويصدر
من الصدور والرعاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرخاء وأما الرعاء فجمع قياسى كصيام وقيام وقوله تعالى
(وأبونا شيخ كبير) إبراء منهم للعذر إليه عليه السلام فى توليهما للسقى بأنفسهما كأنهما قالتا إنا امرأتان
ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير
٢٤ السن قد أضعفه الكبر فلابد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء (فسقى لهما) رحمة
عليهما والكلام فى حذف مفعوله كما مر آنفاً روى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا
سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجراحة والجوع ولعله

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا
جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ٢٨ القصص

عليه الصلاة والسلام زاحمهم فى السقى لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عليه الصلاة والسلام عن
ذلك فإن الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام غب ما شاهد حالهما سارع إلى السقى لهما وقد روى أنه دفعهم عن
الماء إلى أن سقى لهما وقيل كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة وروى أنه عليه الصلاة والسلام
سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكان لا ينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض
ودعا بالبركة وروى غنمهما وأصدرهما (ثم تولى إلى الظل) الذى كان هناك (فقال رب إنى لما أنزلت إلى) *
أى أى شىء أنزلته إلى (من خير) جل أو قل وحمله الأكثرون على الطعام بمعونة المقام (فقير) أى محتاج *
ولتضمنه معنى السؤال والطلب جىء بلام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما أنزلت إلى من خير عظيم
هو خير الدارين صرت فقيراً فى الدنيا لأنه كان فى سعة من العيش عند فرعون قاله عليه الصلاة والسلام
إظهاراً للبجح والشكر على ذلك (فجاءته إحداهما) قيل هى كبراهما واسمها صفوراء أو صفراء وقيل ٢٥
صغراهما واسمها صفيراء أى جاءته عقيب ما رجعتا إلى أبيهما روى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس
وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحاً رحمنا فسقى لنا فقال لإحداهما اذهبى
فادعيه لى وقوله تعالى (تمشى) حال من فاعل جاءته وقوله تعالى (على استحياء) متعلق بمحذوف هو حال *
من ضمير تمشى أى جاءته تمشى كائنة على استحياء فمعناه أنها كانت على استحياء حالتى المشى والمجىء معاً
لا عند المجىء فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءته متخفرة أى شديدة الحياء وقيل قد استترت بكم
درعها (قالت) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجيئها إياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا *
قالت له عليه الصلاة والسلام فقيل قالت (إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أى جزاء سقيك
لنا أسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء
والعفة ما لا يخفى روى أنه عليه الصلاة والسلام أجابها فانطلقا وهى أمامه فألزقت الريح ثوبها بجسدها
فوصفته فقال لها امشى خلفى وانعتى لى الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليهما السلام (فلما جاءه *
وقص عليه القصص) أى ما جرى عليه من الخبر المقصوص فإنه مصدر سمى به المفعول كالعلل (قال *
لا تخف نجوت من القوم الظالمين) الذى يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام إنما أجاب
المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام ويستظهر برأيه لا ليأخذ بمعروفه أجراً حسبما
صرحت به ألا يرى إلى ما روى أن شعيباً لما قدم إليه طعاماً قال إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض
ذهباً ولا نأخذ على المعروف ثمناً ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا
فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ٢٨ القصص

قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ٢٨ القصص

قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ٢٨ القصص

من أولاد يعقوب عليه السلام ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم لاسيما فى دار نبى من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس بمستنكر منه عليه الصلاة والسلام أن يقبل الأجر لاضطرار الفقر والفاقة وقد روى عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بدعائه ليسمعها ولذلك قيل له ليجزيك
٢٦ الخ ولعله عليه السلام إنما فعله ليكون ذريعة إلى استدعائه لا إلى استيفاء الأجر (قالت إحداهما) وهى التى استدعته إلى أبيها وهى التى زوجها من موسى عليهما السلام (ياأبت استأجره) أى لرعى الغنم والقيام بأمرها (إن خير من استأجرت القوى الأمين) تعليل جار مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فى ذلك جعل خير اسماً لأن وذكر الفعل على صيغة الماضى للدلالة على أنه أمين مجرب روى أن شعيباً عليه السلام قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت ماشاهدت منه عليه السلام من إقلال الحجر
٢٧ ونزع الدلو وأنه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه (قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى) أى تكون أجيراً لى أو تثيبنى من أجرت كذا إذا أثبته إياه فقوله تعالى (ثمانى حجج) على الأول ظرف وعلى الثانى مفعول به على تقدير مضاف أى رعية ثمانى حجج ونقل عن المبرد أنه يقال أجرت دارى ومملوكى غير ممدود وآجرت ممدوداً والأول أكثر فعلى هذا يكون المفعول الثانى محذوفا والمعنى على أن تأجرنى نفسك وقوله تعالى ثمانى حجج ظرف كالوجه الأول (فإن أتممت عشراً) فى الخدمة والعمل (فمن عندك) أى فهو من عندك بطريق التفضل لا من عندى بطريق الإلزام عليك وهذا من شعيب عرض لرأيه على موسى عليهما السلام واستدعاء منه للعقد لا إنشاء وتحقيق له بالفعل (وما أريد أن أشق عليك) بإلزام إتمام العشر أو المناقشة فى مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال واشتقاق المشقة من الشق فإن مايصعب عليك يشق عليك اعتقادك فى إطاقته ويوزع رأيك فى مزاولته (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراده عليه الصلاة والسلام
٢٨ بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى لا لتعليق صلاحه بمشيئته تعالى (قال ذلك بينى وبينك) مبتدأ وخبر أى ذلك الذى قلته وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه قائم وثابت بيننا جميعاً لايخرج عنه واحد منا لا أنا عما شرطت على ولا أنت عما شرطت على نفسك وقوله تعالى (أيما الأجلين) أى أكثرهما أو أقصرهما (قضيت) أى وفيتكه بأداء الخدمة فيه (فلا عدوان على) تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيرة أى لا عدوان على بطلب الزيادة على ماقضيته من الأجلين وتعميم انتفاء العدوان لكلا الأجلين بصدد المشارطة مع عدم تحقق العدوان فى أكثرهما رأساً للقصد إلى التسوية بينهما فى الانتفاء

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ٢٨ القصص

أى كما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الأجلين قضيت فلا إثم على يعنى كما لا إثم على فى قضاء الأكثر لا إثم على فى قضاء الأقصر فقط وقرىء أى الأجلين ماقضيت فما مزيدة لتأكيد القضاء كما أنها فى القراءة الأولى مزيدة لتأكيد إبهام أى وشياعها وقرىء أيما بسكون الياء كقول من قال [تنظرت نصراً والسماكين أيهما * على من الغيث استهلت مواطره] (والله على مانقول) من الشروط الجارية بيننا (وكيل) شاهد وحفظ فلا سبيل لأحد منا إلى الخروج عنه أصلا وليس ماحكى عنهما عليهما الصلاة والسلام تمام ماجرى بينهما من الكلام فى إنشاء عقد النكاح وعقد الإجارة وإيقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على إيقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة إجمالا من غير تعرض لبيان مواجب العقدين فى تلك الشريعة تفصيلا روى أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى وكانت عنده عصى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فأخذ عصا هبط بها آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب عليه السلام فمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده إلا هى سبع مرات فعلم أن له شأناً وقيل أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا وقيل أودعها شعيباً ملك فى صورة رجل فأمر بنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فردها سبع مرات فلم يقع فى يدها غيرها فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام وعن الحسن رضى الله تعالى عنه ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً وعن الكلبى رحمه الله الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب صلوات الله وسلامه عليهما إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنيناً أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين فلم يقدر على كفها ومشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع إلى شعيب عليهما السلام مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بالشأن ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً وقال له إنى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودعاء فأوحى إليه فى المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء
٢٩ فوفى له بشرطه والفاء فى قوله تعالى (فلما قضى موسى الأجل) فصيحة أى فعقدا العقدين وباشر موسى
ماالتزمه فلما أتم الأجل (وسار بأهله) نحو مصر بإذن من شعيب عليهما السلام روى أنه عليه الصلاة والسلام قضى أبعد الأجلين ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود إلى مصر فاستأذنه فى

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ٢٨ القصص

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٢٨ القصص

ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ٢٨ القصص

ذلك فأذن له فخرج بأهله (آنس من جانب الطور) أى أبصر من الجهة التى تلى الطور (ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر) أى بخبر الطريق وقد كانوا ضلوه (أو جذوة) أى عود غليظ سواء كانت فى رأسه نار أولا قال قائلهم [باتت حواطب ليلى يلتمسن لها * جزل الجذى غير خوار ولا دعر] وقال [وألقى على قبس من النار جذوة * شديداً عليها حرها والتهابها] ولذلك بين بقوله تعالى (من
٣٠ النار) وقرىء بكسر الجيم وبضمها وكلها لغات (لعلكم تصطلون) أى تستدفئون (فلما أتاها) أى النار التى آنسها (نودى من شاطىء الوادى الأيمن) أى أتاه النداء من الشاطىء الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام (فى البقعة المباركة) متصل بالشاطىء أو صلة لنودى (من الشجرة) بدل اشتمال من شاطىء لأنها كانت نابتة على الشاطىء (أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين) وهذا وإن خالف لفظاً لما فى طه والنمل
٣١ لكنه موافق له فى المعنى المراد (وأن ألق عصاك) عطف على أن ياموسى وكلاهما مفسر لنودى والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها وإشعاراً بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أى فألقاها فصارت ثعباناً فاهتزت فلما رآها تهتز (كأنها جان) أى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها (ولى مدبراً) أى منهزما من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع (ياموسى) أى
٣٢ قيل ياموسى (أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) من المخاوف فإنه لا يخاف لدى المرسلون (اسلك يدك فى جيبك) أى أدخلها فيه (تخرج بيضاء من غير سوء) أى عيب (واضمم إليك جناحك) أى يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع بإدخال اليمنى تحت العضد الأيسر واليسرى تحت الأيمن أو بإدخالهما فى الجيب فيكون تكريراً لغرض آخر هو أن يكون ذلك فى وجه العدو إظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعباناً استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه (من الرهب) أى من أجل الرهب أى إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلداً وضبطاً لنفسك وقرىء بضم الراء وسكون الهاء وبضمهما والكل لغات (فذانك) إشارة إلى العصا واليد وقرىء بتشديد النون فالمخفف مثنى ذاك والمشدد مثنى ذلك (برهانان) حجتان نيرتان وبرهان فعلان لقولهم أبره الرجل إذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل إذا ابيض ويقال

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ٢٨ القصص

وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ٢٨ القصص

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾
٢٨ القصص

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
٢٨ القصص

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾
٢٨ القصص

للمرأة البيضاء برهاء وبرهرهة ونظيره تسمية الحجة سلطاناً من السليط وهو الزيت لإنارتها وقيل هو
فعلال لقولهم برهن ومن فى قوله تعالى (من ربك) متعلقة بمحذوف هو صفة لبرهانان أى كائنان
منه تعالى (إلى فرعون وملئه) واصلان ومنتهيان إليهم (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن حدود
الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين (قال رب إنى قتلت منهم
٣٣ نفساً فأخاف أن يقتلون) بمقابلتها (وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً) أى معينا
٣٤ وهو فى الأصل اسم مايعان به كالدفء وقرىء رداً بالتخفيف (يصدقنى) بتخليص الحق وتقرير الحجة
بتوضيحها وتزييف الشبهة (إنى أخاف أن يكذبون) ولسانى لا يطاوعنى عند المحاجة وقيل المراد تصديق
القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه إسناد الفعل إلى السبب وقرىء يصدقنى بالجزم على أنه جواب
الأمر (قال سنشد عضدك بأخيك) أى سنقويك به فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور
٣٥ ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد (ونجعل لكما سلطاناً) أى تسلطا وغلبة وقيل حجة وليس
بذاك (فلا يصلون إليكما) باستيلاء أو محاجة (بآياتنا) متعلق بمحذوف قد صرح به فى مواضع أخر
أى اذهبا بآياتنا أو بنجعل أى نسلطكما بآياتنا أو بمعنى لا يصلون أى تمتنعون منهم بها وقيل هو قسم
وجوابه لا يصلون وقيل هو بيان للغالبون فى قوله تعالى (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) بمعنى أنه صلة
لما يبينه أو صلة له على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) أى واضحات
٣٦ الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى والمراد بها العصا واليد إذ هما اللتان أظهرهما موسى
عليه السلام إذ ذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مر سره فى سورة طه (قالوا ما هذا إلا سحر مفترى)
أى سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله أو سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى أو سحر موصوف بالافتراء كسائر
أصناف السحر (وما سمعنا بهذا) أى السحر أو ادعاء النبوة (فى آبائنا الأولين) أى واقعا فى أيامهم (وقال
٣٧

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ٢٨ القصص

وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ٢٨ القصص

فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ٢٨ القصص

وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ٢٨ القصص

موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يريد به نفسه وقرىء قال بغير واو لأنه جواب عن مقالهم ووجه
العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد (ومن تكون له عاقبة
الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا وعاقبتها الأصلية هى الجنة لأنها خلقت مجازاً إلى الآخرة
ومزرعة لها والمقصود بالذات منها الثواب وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيئات الغواة وقرىء
٣٨ يكون بالياء التحتانية (إنه لا يفلح الظالمون) أى لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور (وقال
فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) قاله اللعين بعد ما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان
من أمرهم ما كان (فأوقد لى يا هامان على الطين) أى اصنع آجراً (فاجعل لى) منه (صرحا) أى قصراً
رفيعاً (لعلى اطلع إلى إله موسى) كأنه توهم أنه لو كان لكان جسما فى السماء يمكن الرقى إليه ثم قال (وإنى
لأظنه من الكاذبين) أو أراد أن يبنى له رصداً يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها مايدل على
بعثة رسول وتبدل دولته وقيل المراد بنفى العلم نفى المعلوم كما فى قوله تعالى قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى
السموات ولا فى الأرض فإن معناه بما ليس فيهن وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقق
معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ولا كذلك العلوم الانفعالية قيل أول من اتخذ الآجر فرعون
ولذلك أمر باتخاذه على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظم ولذلك نادى هامان باسمه بيافى وسط
٣٩ الكلام (واستكبر هو وجنوده فى الأرض) أرض مصر (بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا أنهم
إلينا لا يرجعون) بالبعث للجزاء وقرىء بفتح الياء وكسر الجيم من رجع رجوعا والأول من رجع
٤٠ رجعاً وهو الأنسب بالمقام (فأخذناه وجنوده) عقيب ما بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات
(فنبذناهم فى اليم) قدمر تفصيله وفيه من تفخيم شأن الأخذ وتهويله واستحقار المأخوذين المنبوذين ما لا
يخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم فى كف وطرحهم فى البحر ونظيره قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره
والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وبينها
٤١ للناس ليعتبروا بها (وجعلناهم) أى صيرناهم فى عهدهم (أئمة يدعون) الناس (إلى النار) إلى ما يؤدى إليها
من الكفر والمعاصى أى قدوة يقتدى بهم أهل الضلال لما صرفوا اختيارهم إلى تحصيل تلك الحالة وقيل

وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ٢٨ القصص

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ٢٨ القصص

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ٢٨ القصص

سميناهم أئمة دعاة إلى النار كما فى قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً فالأنسب حينئذ أن يكون الجعل بمدهم فيما بين الأمم وتكون الدعوة إلى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الألطاف الصارفة عن ذلك (ويوم القيامة لاينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (وأتبعناهم فى هذه الدنيا ٤٢
لعنة) طرداً وإبعاداً من الرحمة ولعنا من اللاعنين حيث لا يزال يلعنهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون خلفاً عن سلف (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين المبعدين وقيل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجه قاله ابن عباس رضى الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه إذا جعله قبيحاً وقال أبو عبيدة من المقبوحين من المهلكين ويوم القيامة إما متعلق بالمقبوحين على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى أو بمحذوف يفسره ذلك كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة نحو لعملكم من القالين (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) هم أقوام نوح وهود ٤٣
وصالح ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه تمهيداً لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ فإن إهلاك القرون الأولى من مواجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤديين إلى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة للاعتبار كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة إلى إيتائها (بصائر للناس) أى أنواراً لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عمياً عن الفهم والإدراك بالكلية فإن البصيرة نور القلب الذى به يستبصر كما أن البصر نور العين الذى به تبصر (وهدى) أى هداية إلى الشرائع والأحكام التى هى سبل الله تعالى (ورحمة) حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف أى ذا بصائر الخ وقيل على العلة أى آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة (لعلهم يتذكرون) ليكونوا على حال يرجى منه التذكر وقد مر تحقيق القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى) شروع فى بيان أن ٤٤
إنزال القرآن الكريم أيضاً واقع فى زمان شدة مساس الحاجة إليه واقتضاء الحكمة له البتة وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله عزوجل ببيان أن الوقوف على مافصل من الأحوال لا يتسنى

وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ٢٨ القصص

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ٢٨ القصص

إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحى من علام الغيوب لامحالة على طريقة قوله تعالى وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم الآية أى وما كنت بجانب الجبل الغربى أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه أو الجانب الغربى على إضافة الموصوف إلى الصفة كمسجد الجامع (إذ قضينا إلى موسى الأمر) أى عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وإيتاء التوراة (وما كنت من الشاهدين) أى من جملة الشاهدين للوحى وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ماجرى من أمر موسى فى ميقاته وكتبة التوراة له فى الألواح

٤٥ فتخبره للناس (ولكنا أنشأنا قروناً) أى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة (فتطاول عليهم العمر) وتمادى الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الأنباء لاسيما على آخرهم فاقتضى الحال التشريع الجديد فأوحينا إليك فحذف المستدرك اكتفاء بذكر مايوجبه ويدل عليه وقوله تعالى (وما كنت ثاوياً فى أهل مدين) نفى لاحتمال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصة بالسماع ممن شاهدها أى وما كنت مقيماً فى أهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى (تتلو عليهم) أى تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم (آياتنا) الناطقة بالقصة إما حال من المستكن فى ثاوياً أو خبر ثان لكنت

٤٦ (ولكنا كنا مرسلين) إياك وموحين إليك تلك الآيات ونظائرها (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) أى وقت ندائنا موسى إنى أنا الله رب العالمين واستنبائنا إياه وإرسالنا له إلى فرعون (ولكن رحمة من ربك) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس وقيل علمناك وقيل عرفناك ذلك وليس بذاك كما ستعرفه والالتفات إلى اسم الرب للإشعار بعلة الرحمة وتشريفه ﷺ بالإضافة وقد اكتفى عن ذكر المستدرك ههنا بذكر مايوجبه من جهته تعالى كما اكتفى عنه فى الأول بذكر مايوجبه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تنصيصاً على ماهو المقصود وإشعاراً بأنه المراد فيهما أيضاً ولله در شأن التنزيل وقوله تعالى (لتنذر قوماً) متعلق بالفعل المعلل بالرحمة فهو ماذكرنا من إرساله ﷺ بالقرآن حتما لما أنه المعلل بالإنذار لا تعليم ماذكر وقرىء رحمة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (ماأتاهم من نذير من قبلك) صفة لقوماً أى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة أو بينك وبين إسمعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى إسرائيل (لعلهم يتذكرون) أى يتعظون بإنذارك وتغيير الترتيب الوقوعى بين

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٢٨ القصص

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ٢٨ القصص

قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ٢٨ القصص

قضاء الأمر والثواء فى أهل مدين والنداء للتنبيه على أن كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته ﷺ
للقصة بطريق الوحى الإلهى ولو ذكر أولا نفى ثوائه ﷺ فى أهل مدين ثم نفى حضوره ﷺ عند النداء
ثم نفى حضوره عند قضاء الأمر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل دليل واحد على
٤٧ ماذكر كما مر فى سورة البقرة (ولولا أن تصيبهم مصيبة) أى عقوبة (بما قدمت أيديهم) أى بما اقترفوا
من الكفر والمعاصى (فيقولوا) عطف على تصيبهم داخل فى حيز لولا الامتناعية على أن مدار انتفاء
مايجاب به هو امتناعه لا امتناع المعطوف عليه وإنما ذكره فى حيزها للإيذان بأنه السبب الملجىء لهم إلى
قولهم (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) أى هلا أرسلت إلينا رسولا مؤيداً من عندك بالآيات (فنتبع
آياتك) الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية (ونكون من المؤمنين) بها وجواب لولا الأولى *
محذوف ثقة بدلالة الحال عليه والمعنى لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جناياتهم التى قدموها ماأرسلناك
٤٨ لكن لما كان قولهم ذلك محققاً لامحيد عنه أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم بالكلية (فلما جاءهم) أى أهل مكة
(الحق من عندنا) وهو القرآن المنزل عليه ﷺ (قالوا) تعنتاً واقتراحا (لولا أوتى) يعنونه ﷺ (مثل
ماأوتى موسى) من الكتاب المنزل جملة وأما اليد والعصا فلا تعلق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه الصلاة
والسلام وقوله تعالى (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) رد عليهم وإظهار لكون ماقالوه تعنتاً محضاً
لاطلباً لما يرشدهم إلى الحق أى ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتى موسى من الكتاب كما كفروا
بهذا الحق وقوله تعالى (قالوا) استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الإنكار السابق وبيان كيفيته
وقوله تعالى (سحران) خبر لمبتدأ محذوف أى هما يعنون ما أوتى محمد وما أوتى موسى عليهما السلام
سحران (تظاهرا) أى تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء
اليهود فى عيدلهم فسألوهم عن شأنه ﷺ فقالوا إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط وأخبروهم بما
قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى (وقالوا إنا بكل) أى بكل واحد من الكتابين (كافرون) تصريح بكفرهم *
بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحراً وذلك لغاية عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان وقرىء
ساحران تظاهران يعنون موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الجليل فتأمل
٤٩ ودع عنك ماقيل وقيل ألا ترى إلى قوله تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) مماأوتياه

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ٢٨ القصص

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٢٨ القصص

الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ٢٨ القصص

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ٢٨ القصص

أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ٢٨ القصص

من التوراة والقرآن وسميتموهما سحرين فإنه نص فيما ذكر وقوله تعالى (أتبعه) جواب للأمر أى إن
تأتوا به أتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته لأن الإتيان بما هو
أهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام (إن كنتم صادقين) أى
٥٠ فى أنهما سحران مختلقان وفى إيراد كلمة إن مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم (فإن لم يستجيبوا لك) أى
فإن لم يفعلوا ما كلفتهم من الإتيان بكتاب أهدى منهما كقوله تعالى فإن لم تفعلوا وإنما عبر عنه بالاستجابة
إيذاناً بأنه ﷺ على كمال أمن من أمره كأن أمره ﷺ لهم بالإتيان بما ذكر دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه
والاستجابة تتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعى باللام فيحذف الدعاء عند ذلك غالباً ولا يكاد يقال
استجاب الله له دعاءه (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) الزائغة من غير أن يكون لهم متمسك ما أصلا إذ لو
كان لهم ذلك لأتوا به (ومن أضل ممن اتبع هواه) استفهام إنكارى للنفى أى لا أضل ممن اتبع هواه (بغير
هدى من الله) أى هو أضل من كل ضال وإن كان ظاهر السبك لنفى الأضل لا لنفى المساوى كما مر فى
نظائره مراراً وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقريع والإشباع فى التشنيع والتضليل
وإلا فمقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك
٥١ فى اتباع الهوى والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين (ولقد وصلنا لهم القول) وقرىء بالتخفيف
أى أنزلنا القرآن عليهم متواصلا بعضه إثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة أو متتابعاً وعداً
٥٢ ووعيداً قصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون بما فيه (الذين آتيناهم الكتاب
من قبله) أى من قبل إيتاء القرآن (هم به يؤمنون) وهم مؤمنو أهل الكتاب وقيل أربعون من أهل
٥٣ الإنجيل اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام (وإذا يتلى) أى القرآن عليهم (قالوا
آمنا به إنه الحق من ربنا) أى الحق الذى كنا نعرف حقيته وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم وقوله
تعالى (إنا كنا من قبله) أى من قبل نزوله (مسلمين) بيان لكون إيمانهم به أمراً متقادم العهد لما شاهدوا ذكره
٥٤ فى الكتب المتقدمة وأنهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن (أولئك) الموصوفون بما ذكر من النعوت

وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ٢٨ القصص

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ٢٨ القصص

وَقَالُوٓا إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ
كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ٢٨ القصص

(يؤتون أجرهم مرتين) مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن (بما صبروا) بصبرهم وثباتهم
على الإيمانين أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم أهل دينهم ومن المشركين
(ويدرءون بالحسنة السيئة) أي يدفعون بالطاعة المعصية لقوله ﷺ وأتبع السيئة الحسنة تمحها (ومما
رزقناهم ينفقون) في سبيل الخير (وإذا سمعوا اللغو) من اللاغين (أعرضوا عنه) عن اللغو تكرماً ٥٥
كقوله تعالى وإذا مروا باللغو مروا كراما (وقالوا) لهم (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) بطريق
المتاركة والتوديع (لا نبتغي الجاهلين) لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم (إنك لا تهدي) هداية موصلة ٥٦
إلى البغية لا محالة (من أحببت) من الناس ولا تقدر على أن تدخله في الإسلام وإن بذلت فيه غاية المجهود
وجاوزت في السعي كل حد معهود (ولكن الله يهدي من يشاء) أن يهديه فيدخله في الإسلام (وهو
أعلم بالمهتدين) بالمستعدين لذلك والجمهور على أنها نزلت في أبي طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ
وقال له ياعم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها لك عند الله قال له يا ابن أخي قد علمت أنك لصادق ولكني
أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة بعدي لقلتها ولأقررت
بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد
المطلب وهاشم وعبد مناف (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) نزلت في الحرث بن عثمان ٥٧
ابن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبي ﷺ فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا
العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد عليهم بقوله تعالى (أو لم نمكن لهم حرما آمناً)
أي ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن لحرمة البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم
آمنون (يجبى إليه) وقرىء تجبى أي تجمع وتحمل إليه (ثمرات كل شيء) من كل أوب والجملة صفة أخرى
لحرماً دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة (رزقا من لدنا) فإذا كان حالهم ما ذكروهم عبدة
أصنام فكيف يخافون التخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد (ولكن أكثرهم لا يعلمون)
أي جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا أي قليل منهم
يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله تعالى إذ لو علموا لما خافوا غيره وانتصاب رزقا على أنه مصدر
مؤكد لمعنى يجبى أو حال من ثمرات على أنه بمعنى مرزوق لتخصصها بالإضافة ثم بين أن الأمر بالعكس

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ٢٨ القصص

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ٢٨ القصص

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ٢٨ القصص

٥٨ وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أى وكثير من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء فى الأمن وخفض العيش والدعة حتى أشروا فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم (فتلك مساكنهم) خاوية بما ظلموا (لم تسكن من بعدهم) من بعد تدميرهم (إلا قليلا) أى إلا زماناً قليلا إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم أو لم يبق من يسكنها إلا قليلا من شؤم معاصيهم (وكنا نحن الوارثين) منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ذات أيديهم وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو بجعلها ظرفا بنفسها كقولك زيد ظنى مقيم أو بإضمار زمان مضاف إليه أو بجعله مفعولا لبطرت بتضمين معنى كفرت

٥٩ (وما كان ربك مهلك القرى) بيان للعناية الربانية إثر بيان إهلاك القرى المذكورة أى وما صح وما استقام بل استحال فى سنته المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار بل كانت عادته أن لا يهلكها (حتى يبعث فى أمها) أى فى أصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها لكون أهلها أفطن وأنبل (رسولا يتلو عليهم آياتنا) الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب وذلك لإلزام الحجة وقطع المعذرة بأن يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك والالتفات إلى نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى (وما كنا مهلكى القرى) عطف على ما كان ربك وقوله تعالى (إلا وأهلها ظالمون) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد ما بعثنا فى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه فى حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الإهلاك بموجب السنة الإلهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الإهلاك عقيب البعث وقد مر تحقيقه فى سورة بنى إسرائيل

٦٠ (وما أوتيتم من شىء) من أمور الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) أى فهو شىء شأنه أن يتمتع ويتزين به أياماً قلائل (وما عند الله) وهو الثواب (خير) فى نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم وبهجة كاملة عارية عن سمة الهم (وأبقى) لأنه أبدى (أفلا تعقلون) ألا تتفكرون فلا تعقلون هذا الأمر الواضح فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وقرىء بالياء على الالتفات المبنى على اقتضاء سوء صنيعهم الإعراض عن مخاطبتهم .

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ٢٨ القصص

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ٢٨ القصص

قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ٢٨ القصص

٦١ (أفمن وعدناه وعداً حسناً) أى وعداً بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود (فهو لاقيه) أى مدركه لامحالة لاستحالة الخلف فى وعده تعالى ولذلك جىء بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة وعطفت بالفاء المنبئة عن معنى السببية (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذى هو مشوب بالآلام منغص بالأكدار مستتبع للتحسر على الانقطاع ومعنى الفاء الأولى ترتيب إنكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ماقبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ماعندالله تعالى أى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين وقوله تعالى (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) عطف على متعناه داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرر له كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو أحضرناه يوم القيامة النار أو العذاب وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتما وفى جعله من جملة المحضرين من التهويل مالا يخفى وثم للتراخى فى الزمان أو فى الرتبة وقرىء ثم هو بسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل

٦٢ (ويوم يناديهم) منصوب بالعطف على يوم القيامة لاختلافهما عنواناً وإن اتحدا ذاتاً أو بإضمار اذكر (فيقول) تفسير للنداء (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى الذين كنتم تزعمونهم شركائى فحذف المفعولان

٦٣ معاً ثقة بدلالة الكلام عليهما (قال) استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل فماذا صدر عنهم حينئذ فقيل قال (الذين حق عليهم القول) وهم شركاؤهم من الشياطين أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله تعالى بأن أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوا عنه ومعنى حق عليهم القول أنه ثبت مقتضاه وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وغيره من آيات الوعيد وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله للأتباع أيضاً لأصالتهم فى الكفر واستحقاق العذاب حسبما يشعر به قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة إما لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا وإما لأن العبدة قد قالوه اعتذاراً وهؤلاء إنما قالوا ماقالوا رداً لقولهم إلا أنه لم يحك قول العبدة إيجازاً لظهوره (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى هم الذين أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول ومرادهم بالإشارة بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده وقوله تعالى (أغويناهم كما غوينا) هو الجواب حقيقة وما قبله تمهيد له أى

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ٢٨ القصص

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ٢٨ القصص

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ٢٨ القصص

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ٢٨ القصص

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ٢٨ القصص

ماأكرهناهم على الغى وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والإلجاء فغووا باختيارهم
غياً مثل غينا باختيارنا ويجوز أن يكون الذين صفة لاسم الإشارة وأغويناهم الخبر (تبرأنا إليك) منهم
ومما اختاروه من الكفر والمعاصى هوى منهم وهو تقرير لما قبله ولذلك لم يعطف عليه وكذا قوله تعالى
(ماكانوا إيانا يعبدون) أى ماكانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وقيل مامصدرية متصلة بقوله
٦٤ تعالى تبرأنا أى تبرأنا من عبادتهم إيانا (وقيل ادعوا شركاءكم) إما تهكما بهم أو تبكيتاً لهم (فدعوهم) لفرط
الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة (ورأوا العذاب) قد غشيهم
(لوأنهم كانوا يهتدون) لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب أو إلى الحق لما لقوا مالقوا وقيل
٦٥ لوللتمنى أى تمنوا لوأنهم كانوا مهتدين (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) عطف على ماقبله
٦٦ سئلوا أولا عن إشراكهم وثانياً عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك (فعميت عليهم الأنباء يومئذ)
أى صارت كالعمى عنهم لاتهتدى إليهم وأصله فعموا عن الأنباء وقد عكس للمبالغة والتنبيه على أن
مايحضر الذهن يفيض عليه ويصل إليه من خارج فإذا أخطأ لم يكن له حيلة إلى استحضاره وتعدية الفعل
بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالأنباء إما ماطلب منهم مما أجابوا به الرسل أو جميع الأنباء
وهى داخلة فيه دخولا أولياً وإذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يفوضون العلم فى ذلك المقام الهائل
إلى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غاية المسئول فما ظنك بأولئك الضلال من الأمم (فهم لايتساءلون)
٦٧ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأن الكل سواء فى الجهل (فأما من تاب) من
الشرك (وآمن وعمل صالحاً) أى جمع بين الإيمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلحين) أى
الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام أو للترجى من قبل
٦٨ التائب بمعنى فليتوقع الإفلاح (وربك يخلق مايشاء) أن يخلقه (ويختار) مايشاء اختياره من غير إيجاب
عليه ولا منع له أصلا (ماكان لهم الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير والمراد نفى الاختيار المؤثر
عنهم وذلك مما لاريب فيه وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف
ويؤيده ماروى أنه نزل فى قول الوليد بن المغيرة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم والمعنى

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ٢٨ القصص

وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ٢٨ القصص

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ٢٨ القصص

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ٢٨ القصص

وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ٢٨ القصص

لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسل إليهم وقيل معناه ويختار الذى كان لهم فيه الخير والصلاح
(سبحان الله) أى تنزه بذاته تنزها خاصاً به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار (وتعالى عما
يشركون) عن إشراكهم أوعن مشاركة مايشركونه به (وربك يعلم ماتكن صدورهم) كعداوة رسول ٦٩
الله ﷺ وحقدهم عليه (وما يعلنون) كالطعن فيه (وهو الله) أى المستحق للعبادة (لا إله إلا هو) لا أحد ٧٠
يستحقها إلا هو (له الحمد فى الأولى والآخرة) لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها على الخلق كافة يحمده
المؤمنون فى الآخرة كما حمدوه فى الدنيا بقولهم الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده
ابتهاجا بفضله والتذاذاً بحمده (وله الحكم) أى القضاء النافذ فى كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره (وإليه
ترجعون) بالبعث لا إلى غيره (قل) تقريراً لما ذكر (أرأيتم) أى أخبرونى (إن جعل الله عليكم الليل ٧١
سرمداً) دائماً من السرد وهو المتابعة والاطراد والميم مزيدة كما فى دلامص من الدلاص يقال درع دلاص
أى ملساء لينة (إلى يوم القيامة) بإسكان الشمس تحت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر (من إله
غير الله) صفة لإله (يأتيكم بضياء) صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والإلزام كما فى قوله تعالى *
قل من يرزقكم من السماء والأرض وقوله تعالى فمن يأتيكم بماء معين ونظائرهما خلا أنه قصد بيان انتفاء
الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل إله الخ لإيراد التبكيت والإلزام على زعمهم وقرىء بضئاء بهمزتين
(أفلا تسمعون) هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا بموجبه (قل أرأيتم إن ٧٢
جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة) بإسكانها فى وسط السماء أو بتحريكها على مدار فوق الأفق
(من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من متاعب الأشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر
منافعه لكونه مقصوداً بذاته ظاهر الاستتباع لما نيط به من المنافع (أفلا تبصرون) هذه المنفعة الظاهرة
التى لا تخفى على من له بصر (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من ٧٣

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ٢٨ القصص

وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ٢٨ القصص

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ٢٨ القصص

فضله) فى النهار بأنواع المكاسب (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل مافعل أو لكى
٧٤ تعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها (ويوم يناديهم) منصوب باذكر (فيقول أين شركائى الذين كنتم
تزعمون) تقريع إثر تقريع للإشعار بأنه لاشىء أجلب لغضب الله عزوجل من الإشراك كما لاشىء أدخل
٧٥ فى مرضاته من توحيده سبحانه وقوله تعالى (ونزعنا) عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على
التحقق أو حال من فاعله بإضمار قد والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله
أى أخرجنا (من كل أمة) من الأمم (شهيداً) نبياً يشهد عليهم بما كانوا عليه كقوله تعالى فكيف إذا
جئنا من كل أمة بشهيد (فقلنا) لكل أمة من تلك الأمم (هاتوا برهانكم) على صحة ما كنتم تدينون به
(فعلموا) يومئذ (أن الحق لله) فى الإلهية لا يشاركه فيها أحد (وضل عنهم) أى غاب عنهم غيبة الضائع
٧٦ (ما كانوا يفترون) فى الدنيا من الباطل (إن قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه يصهر بن قاهث
ابن لاوى بن يعقوب عليه السلام وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث وقيل كان موسى عليه السلام
ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق
السامرى وقال إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فما لى وروى أنه لما جاوز بهم موسى عليه
السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهرون وجد قارون فى نفسه وحسدهما فقال لموسى
الأمر لكما ولست على شىء إلى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال لا أصدقك حتى
تأتى بآية فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجىء كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل
إليه فيها فكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا فإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر فقال قارون ماهو
* بأعجب مما تصنع من السحر وذلك قوله تعالى (فبغى عليهم) فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره
أو ظلمهم قيل وذلك حين ملكه فرعون على بنى إسرائيل وقيل حسدهم وذلك ماذكر منه فى حق موسى
* وهرون عليهما السلام (وآتيناه من الكنوز) أى الأموال المدخرة (ما إن مفاتحه) أى مفاتح صناديقه
وهو جمع مفتح بالكسر وهو مايفتح به وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح بالفتح (لتنوء بالعصبة أولى
القوة) خبر إن والجملة صلة ما وهو ثانى مفعولى آتى وناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله والعصبة والعصابة
الجماعة الكثيرة وقرىء لينوء بالياء على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه كما فى قوله تعالى إن رحمة الله

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ٢٨ القصص

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ٢٨ القصص

قريب من المحسنين (إذ قال له قومه) منصوب بتنوء وقيل ببغى ورد بأن البغى ليس مقيداً بذلك الوقت • وقيل بآتيناه ورد بأن الإيتاء أيضاً غير مقيد به وقيل بمضمر فقيل هو اذكر وقيل هو أظهر الفرح ويجوز أن يكون منصوباً بما بعده من قوله تعالى قال إنما أوتيته وتكون الجملة مقررة لبغيه (لا تفرح) أى لا تبطر • والفرح فى الدنيا مذموم مطلقاً لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح حتماً ولذلك قال تعالى ولا تفرحوا بما آتاكم وعلل النهى ههنا بكونه مانعاً من محبته عز وعلا فقيل (إن الله لا يحب الفرحين) أى بزخارف الدنيا (وابتغ) وقرىء واتبع (فيما آتاك الله)
٧٧ من الغنى (الدار الآخرة) أى ثواب الله تعالى فيها يصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه (ولا تنس) أى لا تترك ترك المنسى (نصيبك من الدنيا) وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك (وأحسن) أى إلى عباد الله تعالى (كما أحسن الله إليك) فيما أنعم به عليك وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله إليك بالإنعام (ولا تبغ الفساد فى الأرض) نهى عما كان عليه من الظلم والبغى (إن الله لا يحب المفسدين) لسوء أفعالهم (قال) مجيباً لناصحيه (إنما أوتيته على علم عندى) كأنه يريد به الرد على قولهم كما أحسن الله إليك لإنبائه
٧٨ عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر من غير سبب واستحقاق من قبله أى فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم فى موقع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها وقيل علم الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل علم فتح الكنوز والدفائن وعندى صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك جاز هذا عندى أو فى ظنى ورأيى (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من • القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءة فى التوراة وتلقياً من موسى عليه السلام وسماعاً من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتروا به أو رد لادعائه العلم وتعظمه به بنفى هذا العلم منه فالمعنى أعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال استعلام بل يعذبون بها بغتة كأن قارون لما هدد • بذكر إهلاك من قبله ممن كان أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأن بين أن ذلك لم يكن مما يخص أولئك المهلكين بل الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالة .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ٢٨ القصص

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ٢٨ القصص

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ٢٨ القصص

٧٩ (فخرج على قومه) عطف على قال وما بينهما اعتراض وقوله تعالى (فى زينته) إما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أى فخرج عليهم كائناً فى زينته قيل خرج على بغلة شهباء عليه الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج وقيل فى تسعين ألفاً عليهم المعصفرات وهو أول
* يوم رئى فيه المعصفر (قال الذين يريدون الحياة الدنيا) من المؤمنين جرياً على سنن الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) وعن قتادة أنهم تمنوه ليتقربوا به إلى الله تعالى وينفقوه
٨٠ فى سبيل الخير وقيل كان المتمنون قوما كفاراً (إنه لذو حظ عظيم) تعليل لتمنيهم وتأكيد له (وقال الذين أوتوا العلم) أى بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغى وإنما لم يوصفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيهاً على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضى الإعراض عن الأولى والإقبال على الثانية حتما وأن تمنى المتمنين ليس
* إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغى (ويلكم) دعاء بالهلاك شاع استعماله فى الزجر عما لا يرتضى (ثواب الله) فى الآخرة (خير) مما تتمنونه (لمن آمن وعمل صالحاً) فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى (ولا يلقاها) أى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء أو الثواب فإنه بمعنى المثوبة أو الجنة أو الإيمان والعمل
٨١ الصالح فإنهما فى معنى السيرة والطريقة (إلا الصابرون) أى على الطاعات وعن الشهوات (فخسفنا به وبداره الأرض) روى أنه كان يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره فعمد إلى أن يفضح موسى عليه السلام بين بنى إسرائيل فجعل لبغى من بغايا بنى إسرائيل ألف دينار وقيل طشتا من ذهب مملوءة ذهباً فلما كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيباً فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصناً رجمناه فقال قارون ولو كنت قال ولو كنت قال إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها عليه السلام أن تصدق فقالت جعل لى قارون جعلا على أن أرميك بنفسى فخر موسى ساجداً لربه يبكى ويقول يارب إن كنت رسولك فاغضب لى فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك فقال يابنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ٢٨ القصص
تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ٢٨ القصص
مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ٢٨ القصص

عنه فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وهم يناشدونه عليه الصلاة والسلام بالله تعالى وبالرحم وهو لا يلتفت إليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله (فما كان له من فئة) جماعة مشفقة (ينصرونه من دون الله) بدفع العذاب عنه (وما كان من المنتصرين) أى الممتنعين منه بوجه من الوجوه يقال نصره من عدوه فانتصر أى منعه فامتنع (وأصبح الذين تمنوا
٨٢ مكانه) منزلته (بالأمس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى يفعل كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يقتضى القبض وويكأن عند البصريين مركب من وى للتعجيب وكأن للتشبيه والمعنى ما أشبه الأمر أن الله يبسط الخ وعند الكوفيين من ويك بمعنى ويلك وأن وتقديره ويك أعلم أن الله وإنما يستعمل عند التنبه على الخطأ والتندم والمعنى أنهم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم وتندموا على ذلك (لولا أن من الله علينا) بعدم إعطائه إيانا ما تمنيناه وإعطائنا مثل ما أعطاه إياه وقرىء لولا من الله علينا (لخسف بنا) كما خسف به وقرىء لخسف بنا على البناء للمفعول وبنا هو القائم مقام الفاعل وقرىء لانخسف بنا كقولك انقطع به وقرىء لتخسف بنا (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله وبما وعدوا من ثواب
٨٣ الآخرة (تلك الدار الآخرة) إشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل تلك التى سمعت خبرها وبلغك وصفها (نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض) أى غلبة وتسلطاً (ولا فساداً) أى ظلماً وعدواناً على العباد كدأب فرعون وقارون وفى تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيد تحذير منهما وعن على رضى الله عنه إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها (والعاقبة)
٨٤ الحميدة (للمتقين) أى الذين يتقون مالا يرضاه الله تعالى من الأفعال والأقوال (من جاء بالحسنة فله) بمقابلتها (خير منها) ذاتاً ووصفاً وقدراً (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم (إلا ما كانوا يعملون) أى إلا مثل ما كانوا يعملون لحذف المثل وأقيم مقامه ما كانوا يعملون مبالغة فى المماثلة .

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ٢٨ القصص

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ٢٨ القصص

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ٢٨ القصص

وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ٢٨ القصص

---

٨٥ (إن الذى فرض عليك القرآن) أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به (لرادك إلى معاد) أى معاد
معاد تمتد إليه أعناق الهمم وترنو إليه أحداق الأمم وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه وقيل
هو مكة المعظمة على أنه تعالى قد وعده وهو بمكة فى أذية وشدة من أهلها أنه يهاجر به منها ثم يعيده إليها
بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد
آبائه وحرم إبراهيم عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فقال له أتشتاق إلى مكة قال نعم فأوحاها إليه
ه (قل ربى أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه أعلم أى
يعلم وقيل بأعلم على أنه بمعنى عالم (ومن هو فى ضلال مبين) وما استحقه من العذاب والإذلال يعنى
٨٦ بذلك نفسه والمشركين وهو تقرير للوعيد السابق وكذا قوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك
الكتاب) أى سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه (إلا رحمة من ربك) ولكن
ألقاه إليك رحمة منه ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قيل وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة
٨٧ أى لأجل الترحم (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبتهم (ولا
يصدنك) أى الكافرون (عن آيات الله) أى عن قراءتها والعمل بها (بعد إذ أنزلت إليك) وفرضت عليك
وقرىء يصدنك من أصد المنقول من صد اللازم (وادع) الناس (إلى ربك) إلى عبادته وتوحيده (ولا
٨٨ تكونن من المشركين) بمساعدتهم فى الأمور (ولا تدع مع الله إله آخر) هذا وما قبله للتهييج والإلهاب
وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام لهم وإظهار أن المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث
ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا (لا إله إلا هو) وحده (كل شىء هالك إلا وجهه) إلا ذاته فإن
ماعداه كائناً ما كان ممكن فى حد ذاته عرضة للهلاك والعدم (له الحكم) أى القضاء النافذ فى الخلق (وإليه
ترجعون) عند البعث للجزاء بالحق والعدل . عن النبى ﷺ من قرأ طسم القصص كان له من الأجر
بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا .

سورة القصص

ترتيبها ٢٨ — آياتها ٨٨

مكية كلها على ما روي عن الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة، وقال مقاتل: فيها من المدني قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥] فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا واقعة أحد.

وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه أن الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه عليه الصلاة والسلام للهجرة، وقيل: نزلت بين مكة والجحفة، وقال المدائني في كتاب العدد حدثني محمد ثنا عبدالله قال: حدثني أبي قال: حدثني علي بن الحسين عن أحمد بن موسى عن يحيى بن سلام قال بلغني أن النبي ﷺ حين هاجر نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي ولدت فيها؟ قال: نعم قال إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد الآية وهي ثمانٍ وثمانون آية بالاتفاق، ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمالها على شرح بعض ما أجمل فيه من أمر موسى عليه السلام.

قال الجلال السيوطي: إنه سبحانه لما حكى في الشعراء قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩] إلى قول موسى عليه السلام: ﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾ [الشعراء: ٢١]. ثم حكى سبحانه في طس قول موسى عليه السلام لأهله ﴿إني آنست ناراً﴾ [النمل: ٧] إلى آخره الذي هو في الوقوع بعد الفرار وكان الأمران على سبيل الإشارة والإجمال فبسط جل وعلا في هذه السورة ما أوجزه سبحانه في السورتين وفصل تعالى شأنه ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما فبدأ عز وجل بشرح تربية فرعون له مصدراً بسبب ذلك من علو فرعون وذبح أبناء بني إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عليه السلام عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح وبسط القصة في تربيته وما وقع فيها إلى كبره إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي إلى قتل القبطي وهي الفعلة التي فعل إلى النم عليه بذلك الموجب لفراره إلى مدين إلى ما وقع له مع شعيب عليه السلام وتزوجه بابنته إلى أن سار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه جل جلاله وبعثه تعالى إياه رسولاً وما استتبع ذلك إلى آخر القصة فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في السورتين معاً على الترتيب، وبذلك عرف وجه الحكمة من تقديم طس على هذه وتأخيرها عن الشعراء في الذكر في المصحف وكذا في النزول فقد روي عن ابن عباس وجابر ابن زيد أن الشعراء نزلت، ثم طس، ثم القصص، وأيضاً قد ذكر سبحانه في السورة السابقة من توبيخ الكفرة بالسؤال يوم القيامة ما ذكر، وذكر جل شأنه في هذه من ذلك ما هو أبسط وأكثر مما تقدم، وأيضاً ذكر عز وجل من أمر الليل والنهار هنا فوق ما ذكره سبحانه منه هناك، وقد يقال في وجه المناسبة أيضاً: إنه تعالى فصل في تلك السورة أحوال بعض المهلكين

من قوم صالح وقوم لوط وأجمل هنا في قوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قرية﴾ [القصص: ٥٨] الآيات، وأيضاً بسط في الجملة هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة وأوجز سبحانه هنا حيث قال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ [القصص: ٨٤] فلم يذكر عز وجل من حال الأولين أمنهم من الفزع ومن حال الآخرين كب وجوههم في النار إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمّل.

بسْم الله الرحْمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ
يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا
تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا
وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى
وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن
كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ
قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا
وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ
هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ
هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

﴿طسم * تلكَ آياتُ الكتاب المُبين﴾ قد مر ما يتعلق به من الكلام في أشباهه **﴿نتلو عَلَيْكَ﴾** أي نقرأ بواسطة جبرائيل عليه السلام فالإسناد مجازي كما في بنى الأمير المدينة والتلاوة في كلامهم على ما قال الراغب تختص باتباع كتب الله تعالى المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيه من أمر ونهي وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك وهو أخص من القراءة، ويجوز أن تكون التلاوة هنا مجازاً مرسلاً عن التنزيل بعلاقة أن التنزيل لازم لها أو سببها

في الجملة وأن تكون استعارة له لما بينهما من المشابهة فإن كلاً منهما طريق للتبليغ فالمعنى ننزل عليك ﴿مِنْ نَبَإِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ﴾ أي من خبرهما العجيب الشأن، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول نتلو المحذوف أي نتلو شيئاً كائناً من نبئهما.

والظاهر أن ﴿من﴾ تبعيضية، وجوز بعضهم كونها بيانية وكونها صلة على رأي الأخفش فنبأ مجرور، لفظاً[1] مرفوع محلاً مفعول نتلو ويوهم كلام بعضهم أن ﴿من﴾ هو المفعول كأنه قيل: نتلو بعض نبأ وفيه بحث، وأياً ما كان فلا تجوز في كون النبأ متلوّاً لما أنه نوع من اللفظ، وقوله تعالى: ﴿بالْحَقِّ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل نتلو أي نتلو ملتبسين ﴿بالحق﴾ أو مفعوله أي نتلو شيئاً من نبئهما ملتبساً بالحق أو وقع صفة لمصدر نتلو أي نتلو تلاوة ملتبسة بالحق؛ وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ متعلق بنتلو واللام للتعليل وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الدعوة والبيان لأنهم المنتفعون به، وقد تقدم الكلام في شمول ﴿يؤمنون﴾ للمؤمنين حالاً واستقبالاً في السورة السابقة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾ استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أي ﴿إن فرعون﴾ تجبر وطغى في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شيعاً﴾ أي فرقاً يشيعونه في كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه يستعمل كل صنف في عمل من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يعمل ضرب عليه الجزية فيخدمه بأدائها أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً منهُمْ﴾ أي يجعلهم ضعفاء مقهورين؛ والمراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل وعدهم من أهلها للتغليب أو لأنهم كانوا فيها زماناً طويلاً، والجملة إما استئناف نحوي أو بياني في جواب ماذا صنع بعد ذلك؛ وإما حال من فاعل جعل أو من مفعوله، وإما صفة لشيعاً والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية، وقوله تعالى:

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ بدل من الجملة قبلها بدل اشتمال أو تفسير أو حال من فاعل يستضعف أو صفة لطائفة أو حال منها لتخصصها بالوصف وكان ذلك منه لما أن كاهناً قال له: يولد في بني إسرائيل مولود يذهب ملكك على يده.

وقال السدي: إنه رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل فسأل علماء قومه فقالوا: يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده فأخذ يفعل ما يفعل ولا يخفى أنه من الحمق بمكان إذ لو صدق الكاهن أو الرؤيا فما فائدة القتل وإلا فما وجهه، وفي الآية دليل على أن قتل الأولاد لحفظ الملك شريعة فرعونية.

وقرأ أبو حيوة وابن محيصن «يَذْبَحُ» بفتح الياء وسكون الذال ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الراسخين في الإفساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل من لا جنحة له من ذراري الأنبياء عليهم السلام لتخيل فاسد ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي نتفضل ﴿عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ على الوجه المذكور بإنجائهم من بأسه، وصيغة المضارع في نريد لحكاية الحال الماضية وأما نمن فمستقبل بالنسبة للإرادة فلا حاجة لتأويله وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿إن فرعون علا﴾ إلخ لتناسبهما في الوقوع في حيز التفسير للنبإ وهذا هو الظاهر.

---

(١) قوله مرفوع محلاً مفعول إلخ هكذا بخط المؤلف ولعله سقط من قلمه رحمه الله، أو والأصل أو مفعول نتلو يعني ويكون منصوب المحل ا هـ مصححه.

وجوز أن تكون الجملة حالاً من مفعول يستضعف بتقدير مبتدأ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وقدر المبتدأ ليجوز التصدير بالواو، وجوز أن يكون حالاً من الفاعل بتقدير المبتدأ أيضاً وخلوها عن العائد عليه وما يقوم مقامه لا يضر لأن الجملة الحالية إذا كانت اسمية يكفي في ربطها الواو وضعف بأنه لا شبهة في استهجان ذلك مع حذف المبتدأ، وتعقب القول بصحة الحالية مطلقاً بأن الأصل في الحال المقارنة والمن بعد الاستضعاف بكثير، وأجيب بأن الحال ليس المن بل إرادته وهو مقارنة وتعلقها إنما هو بوقوع المن في الاستقبال فلا يلزم من مقارنتها مقارنته على أن منّ الله تعالى عليهم بالخلاص لما كان في شرف الوقوع جاز إجراؤه مجرى الواقع المقارن للاستضعاف وإذا جعلت الحال مقدرة يرتفع القيل والقال، وجوز بعضهم عطف ذلك على نتلو ونستضعف، وقال الزمخشري: هو غير سديد، ووجه ذلك في الكشف بقوله أما الأول فلما يلزم أن يكون خارجاً عن المنبأ به وهو أعظمه وأهمه، وأما الثاني فلأنه إما حال عن ضمير جعل أو عن مفعوله أو صفة لشيعاً أو كلام مستأنف وعلى الأولين ظاهر الامتناع وعلى الثالث أظهر إذ لا مدخل لذلك في الجواب عن السؤال الذي يعطيه قوله تعالى: ﴿**جعل أهلها شيعاً**﴾ والعطف يقتضي الاشتراك لكن للعطف على يستضعف مساغ على تقدير الوصف والمعنى جعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ونريد أن نمن عليهم منهم أي على الطائفة من الشيع فأقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى الطائفة وحذف الراجع إلى الشيع للعلم كأنه قيل: يستضعفهم ونريد أن نقويهم كما زعم الزمخشري في الوجه الذي جعله حالاً عن مفعول يستضعف والحاصل شيعاً موصوفين باستضعاف طائفة وإرادة المن على تلك الطائفة منهم بدفع الضعف.

﴿**فإن قلت**﴾ يدفعه أن العلم بالصفة الثانية لم يكن حاصلاً بخلاف الأولى قلنا كذلك لم يكن حاصلاً باستضعاف مقيد بحال الإرادة والحق أن الوجهين يضعفان لذلك وإنما أوردناه على الزمخشري لتجويزه الحال انتهى. وأورد عليه أن للعطف عليه على تقدير كونه حالاً مساغاً أيضاً بعين ما ذكره فلا وجه للتخصيص بالوصفية وأن عدم حصول العلم بالصفة الثانية بعد تسليم اشتراط العلم بالصفة مطلقاً غير مسلم فإن سبب العلم بالأولى وهو الوحي أو خبر أهل الكتاب، يجوز أن يكون سبباً للعلم بالثانية، وأيضاً يجوز أن يخصص جواز حالية ونريد إلخ باحتمال الاستئناف والحالية في يستضعف دون الوصف فلا يكون مشترك الإلزام، وفيه أن احتمال الحالية من المفعول لم يذكره الزمخشري فلذا لم يلتفت صاحب الكشف إلى أن للعطف عليه مساغاً وأن اشتراط العلم بالصفة مما صرح به في مواضع من الكشاف والكلام معه وأن العلم بصفة الاستضعاف لكونه مفسراً بالذبح والاستحياء وذلك معلوم بالمشاهدة وليس سبب العلم ما ذكر من الوحي أو خبر أهل الكتاب وفي هذا نظر، والإنصاف أن قوله تعالى: ﴿**إن فرعون**﴾ إلخ لا يظهر كونه بياناً لنبأ موسى عليه السلام وفرعون معاً على شيء من الاحتمالات ظهوره على احتمال العطف على إن فرعون وإدخاله في حيز البيان وإلا فالظاهر من إن فرعون إلخ بدون هذا المعطوف أنه بيان لنبإ فرعون فقط فتأمل ﴿**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً**﴾ مقتدى بهم في الدين والدنيا على ما في البحر، وقال مجاهد دعاة إلى الخير. وقال قتادة ولاة كقوله تعالى: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ [المائدة: ٢٠] وقال الضحاك أنبياء وأياً ما كان ففيه نسبة ما للبعض إلى الكل ﴿**وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ لجميع ما كان منتظماً في سلك ملك فرعون وقومه على أكمل وجه كما يومىء إليه التعريف وذلك بأن لا ينازعهم أحد فيه ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ أي في أرض مصر، وأصل التمكين أن يجعل الشيء مكاناً يتمكن فيه[1] ثم استعير للتسليط وإطلاق الأمر وشاع في ذلك حتى صار حقيقة لغوية فالمعنى نسلطهم

(١) قوله أن يجعل الشيء مكاناً يتمكن إلخ هكذا بخطه رحمه الله ا هـ.

على أرض مصر يتصرفون وينفذ أمرهم فيها كيفما يشاؤون، وظاهر كلام بعضهم أن المراد بالأرض ما يعم مصر والشام مع أن المعهود هو أرض مصر لا غير وكأن ذلك لما أن الشام مقر بني إسرائيل. وقرأ الأعمش ولنمكن بلام كي أي وأردنا ذلك لنمكن أو ولنمكن فعلنا ذلك.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ إضافة الجنود إلى ضميرهما إما للتغليب أو لأنه كان لهامان جند مخصوصون به وإن كان وزيراً أو لأن جند السلطان جند الوزير، ونري من الرؤية البصرية على ما هو المناسب للبلاغة، وجوز أن يكون من الرؤية القلبية التي هي بمعنى المعرفة، وعلى الوجهين هو ناصب لمفعولين لمكان الهمزة ففرعون وما عطف عليه مفعوله الأول، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من أولئك المستضعفين متعلق به، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي يتوقون من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم مفعوله الثاني، والرؤية على تقدير كونها بصرية لمقدمات ذلك وعلاماته في الحقيقة لكنها جعلت له مبالغة ومثله مستفيض بينهم حتى يقال رأى موته بعينه وشاهد هلاكه وعليه قول بعض المتأخرين:

أبكاني البين حتى ... رأيت غسلي بعيني

وقيل: المراد رؤية وقت ذلك، وليس بذاك، والأمر على تقدير كونها بمعنى المعرفة ظاهر. لأنهم قد عرفوا ذهاب ملكهم وهلاكهم، لما شاهدوه من ظهور أولئك المستضعفين عليهم، وطلوع طلائعه من طرق خذلانهم. وفسر بعضهم الموصول بظهور موسى عليه السلام، وهو خلاف الظاهر المؤيد بالآثار وكأن ذلك منه لخفاء وجه تعلق رؤية فرعون ومن معه بذهاب ملكهم وهلكهم عليه وقد علمت وجهه، وقرأ عبدالله وحمزة والكسائي ـ ويرى ـ بالياء مضارع رأى، وفرعون بالرفع على الفاعلية، وكذا ما عطف عليه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ قيل هي محيانة بنت يصهر بن لاوى، وقيل يوخابذ(١) وقيل يارخا وقيل يارخت، وقيل غير ذلك. والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك، ولا ينافي حكاية أبي حيان الإجماع على عدم نبوتها، لما أن الملائكة عليهم السلام قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم، وإلى هذا ذهب قطرب وجماعة وقال مقاتل منهم: إن الملك المرسل إليها هو جبريل عليه السلام. وعن ابن عباس وقتادة أنه كان إلهاماً، ولا يأباه قوله تعالى: ﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ نعم هو أوفق بالأول. وقال قوم: إنه كان رؤيا منام صادقة قص فيها أمره عليه السلام، وأوقع الله تعالى في قلبها اليقين. وحكي عن الجبائي أنها رأت في ذلك رؤيا، فقصتها على من تثق به من علماء بني إسرائيل فعبرها لها. وقيل كان بإخبار نبي في عصرها إياها، والظاهر أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة، وفي الأخبار ما يشهد له، فيكون في الكلام جملة محذوفة، وكأن التقدير والله تعالى أعلم: ووضعت موسى أمه في زمن الذبح فلم تدر ما تصنع في أمره وأوحينا إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وقيل: كان قبل الولادة، وأن تفسيرية أو مصدرية، والمراد أن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه. وقرأ عمر بن عبد الواحد وعمر بن عبد العزيز أن ارضعيه بكسر النون بعد حذف الهمزة على غير قياس لأن القياس فيه نقل حركتها وهي الفتحة إلى النون كما في قراءة ورش.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأبناء، أو من الجيران ونحوهم أن ينموا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي في البحر. والمراد به النيل، ويسمى مثله بحراً، وإن غلب في غير العذب ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ضيعة أو شدة من عدم رضاعه في سن الرضاع ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ من مفارقتك إياه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب

---

(١) قوله يوخابذ هو هكذا في نسخة المؤلف بالخاء المعجمة والباء وحرره ا هـ.

بحيث تأمنين عليه ويومىء إلى القرب السياق، وقيل التعبير باسم الفاعل لأنه حقيقة في الحال ويعتبر لذلك في قوله سبحانه: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولا يضر تفاوت القربين، والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن، وإيثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أي إنا فاعلون ردّه، وجعله من المرسلين لا محالة، واستفصح الأصمعي امرأة من العرب أنشدت شعراً فقالت: أبعد قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ الآية فصاحة وقد جمع بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحة والتقدير ففعلت ما أمرت به من إرضاعه وإلقائه في اليم لما خافت عليه، وحذف ما حذف تعويلاً على دلالة الحال وإيذاناً بكمال سرعة الامتثال.

روي أنها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بني إسرائيل فعالجتها، فلما وقع موسى عليه السلام على الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها بحيث منعها من السعاية فقالت لأمه: احفظيه، فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة وألقته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً فخرجوا وهي لا تدري مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فأخذته، فلما ألح فرعون في طلب الولدان واجتهد العيون في تفحصها أوحى الله تعالى إليها ما أوحى، وأرضعته ثلاثة أشهر، أو أربعة، أو ثمانية على اختلاف الروايات، فلما خافت عليه عمدت إلى بردي فصنعت منه تابوتاً أي صندوقاً فطلته بالقار من داخله. وعن السدي أنها دعت نجاراً، فصنع لها تابوتاً، وجعلت مفتاحه من داخل، ووضعت موسى عليه السلام فيه وألقته في النيل بين أحجار عند بيت فرعون، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه فأدخلنه إليها وظنن أن فيه مالاً، فلما فتحنه رأته آسية ووقعت عليه رحمتها فأحبته، وأراد فرعون قتله فلم تزل تكلمه حتى تركه لها. وروي عن ابن عباس وغيره أنه كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس إليه، وكان بها برص شديد أعيا الأطباء، وكان قد ذكر له أنها لا تبرأ إلا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الإنس يوم كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية وأقبلت بنته في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل فإذا بتابوت تضربه الأمواج فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتوني به فابتدروا بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فأعياهم فنظرت آسية فكشف لها عن نور في جوفه لم يره غيرها فعالجته ففتحته فإذا صبي صغير فيه وله نور بين عينيه وهو يمص إبهامه لبناً فألقى الله تعالى محبته عليه السلام في قلبها وقلوب القوم وعمدت بنت فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعتها.

وقيل: لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون إنا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه رمي في البحر خوفاً منك فاقتله فهمّ أن يقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتي إن شاء الله تعالى والأخبار في هذه القصة كثيرة، وقد قدمنا منها ما قدمنا، وآل فرعون أتباعه وقولهم: إن الآل لا يستعمل إلا فيما فيه شرف مبني على الغالب أو الشرف فيه أعم من الشرف الحقيقي والصوري ومعنى التقاطهم إياه عليه السلام أخذهم إياه عليه السلام أخذ اللقطة أي أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ فيه استعارة تهكمية ضرورة أنه لم يدعهم للالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً وإنما دعاهم شيء آخر كالتبني ونفعه إياهم إذا كبر.

وفي تحقيق ذلك أقوال الأول أن يشبه كونه عدوّاً وحزناً بالعلة الغائية كالتبني والنفع تشبيهاً مضمراً في النفس ولم يصرح بغير المشبه ويدل على ذلك بذكر ما يخص المشبه به وهو لام التعليل فيكون هناك استعارة مكنية أصلية

في المجرور واللام على حقيقتها، الثاني أن يشبه أولاً ترتب غير العلة الغائية بترتب العلة الغائية أي يعتبر التشبيه بين الترتبين الكليين ليسري في جزئياتهما فيتحقق تبعاً تشبيه ترتب كونه عدواً وحزناً أعني الترتب المخصوص على الالتقاط بترتب التبني ونحوه مما هو علة غائية ـ أعني الترتب المخصوص أيضاً عليه ـ ثم يستعمل في المشبه اللام الموضوعة للدلالة على ترتب العلة الغائية الذي هو المشبه به فتكون الاستعارة أولاً في العلية والغرضية وتبعاً في اللام فصار حكم اللام حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه العلة كما استعير الأسد لما يشبه الأسد بيد أن الاستعارة هاهنا مكنية تبعية، الثالث ما أفاده كلام الخطيب الدمشقي في التلخيص والإيضاح وهو أن يقدر التشبيه أولاً لكونه عدواً وحزناً بالعلة الغائية ثم يسري ذلك التشبيه إلى تشبيه ترتبه بترتب العلة الغائية فتستعار اللام الموضوعة لترتب العلة الغائية لترتب كونه عدواً وحزناً من غير استعارة في المجرور وهذا التشبيه كتشبيه الربيع بالقادر المختار ثم إسناد الإنبات إليه وهو مفاد كلام الكشاف، واختار ذلك العلامة عبد الحكيم، فقال: وهو الحق عندي لأن اللام لما كان معناها محتاجاً إلى ذكر المجرور كان اللائق أن تكون الاستعارة والتشبيه فيها تابعاً لتشبيه المجرور لا تابعاً لتشبيه معنى كلي بمعنى كلي معنى الحرف من جزئياته كما ذهب إليه السكاكي وتبعه العلامة التفتازاني انتهى فتأمل.

واستشكل أصل تعليل الالتقاط بأن الالتقاط الوجدان من غير قصد والتعليل يقتضي حقيقة القصد وهو توهم لأن الوجدان من غير قصد لا ينافي قصد أخذ ما وجد لغرض وقد علمت أن المعنى هنا فأخذه أخذ اللقطة أي أخذ اعتناء به آل فرعون ليكون إلخ، والتعليل فيه إنما هو للأخذ ولا إشكال فيه.

وقال بعضهم: يحتمل تعلق اللام بمقدر أي قدرنا الالتقاط ليكون إلخ، وعليه لا تجوز في الكلام إلا عند من يقول: إن أفعال الله تعالى لا تعلل وهو أمر غير ما نحن فيه، ولا يخفى أن كلام الله سبحانه أجل وأعلى من أن يعتبر فيه مثل هذا الاحتمال، وفي جعله عليه السلام نفس الحزن ما لا يخفى من المبالغة وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وابن سعدان ـ حزناً ـ بضم الحاء وسكون الزاي، وقراءة الجمهور بفتحتين لغة قريش ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون أو من شأنهم الخطأ فليس ببدع منهم ان قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون، روي أنه ذبح في طلبه عليه السلام تسعون ألف وليد. و ﴿خاطئين﴾ على هذا من الخطأ في الرأي، ويجوز أن يكون من خطىء بمعنى أذنب، وفي الأساس يقال: خطىء خطأ إذا تعمد الذنب، والمعنى وكانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربي عدوهم على أيديهم، والجملة على الأول اعتراض بين المتعاطفين لتأكيد خطئهم المفهوم من قوله تعالى: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ فإنه كما سمعت استعارة تهكمية على الثاني، اعتراض لتأكيد ذنبهم المفهوم من حاصل الكلام، وقيل: يتعين عليه أن تكون اعتراضاً لبيان الموجب لما ابتلوا به ويحتمل على هذا أن تكون استئنافاً بيانياً إن أريد بما ابتلوا به كونه عدواً وحزناً وهو لا ينافي الاعتراض عندهم، وقرىء خاطين بغير همز فاحتمل أن يكون أصله الهمز وحذفت وهو الظاهر، وقيل: هو من خطا يخطو أي خاطين الصواب إلى ضده فهو مجاز.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف الصديق عليه السلام وعلى هذا لم تكن من بني إسرائيل، وقيل: كانت منهم من سبط موسى عليه السلام، وحكى السهيلي أنها كانت عمته عليه السلام وهو قول غريب، والمشهور القول الأول. والجملة عطف على جملة فالتقطه آل فرعون أي وقالت امرأة فرعون له حين أخرجته من التابوت.

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ أي هو قرة عين كائنة لي ولك على أن قرة خبر مبتدأ محذوف، والظرف في موضع الصفة له ويبعد كما في البحر أن يكون مبتدأ خبره جملة قوله تعالى: ﴿لاَ تَقْتُلُوهُ﴾ وقالت ذلك لما ألقى الله تعالى من محبته في قلبها أو لما كشف لها فرأته من النور بين عينيه أو لما شاهدته من برء بنت فرعون من البرص بريقه أو بمجرد النظر إلى وجهه، ولتفخيم شأن القرة عدلت عن لنا إلى لي ولك وكأنها لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها وأن مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه قدمت نفسها عليه فيكون ذلك أبلغ في ترغيبه بترك قتله، فلا يقال إن الأظهر في الترغيب بذلك العكس وقد يستأنس لكون مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه ما أخرجه النسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها حين قالت له ذلك قال لك لا لي ولو قال لي كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها، وهذا أمر فرضي فلا ينافي ما ورد من أنه عليه اللعنة طبع كافراً، والخطاب في لا تقتلوه قيل: لفرعون وإسناد الفعل إليه مجازي لأنه الآمر والجمع للتعظيم، وكونه لا يوجد في كلام العرب الموثوق بهم إلا في ضمير المتكلم كفعلنا مما تفرد به الرضي وقلده فيه من قلده وهو لا أصل له رواية ودراية قال أبو علي الفارسي في فقه اللغة من سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع فيقال للرجل العظيم انظروا في أمري، وهكذا في سر الأدب وخصائص ابن جني وهو مجاز بليغ وفي القرآن الكريم منه ما التزام تأويله سفه، وقيل: هو لفرعون وأعوانه الحاضرين ورجح بما روي أن غواة قومه قالوا وقت إخراجه هذا هو الصبي الذي كنا نحذر منه فأذن لنا في قتله.

وقيل: هو له ولمن يخشى منه القتل وإن لم يحضر على التغليب، واختار بعضهم كونه للمأمورين بقتل الصبيان كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفه على موسى عليه السلام أمنت منه بادرة أمن جديد بقتله فالتفتت إلى خطاب المأمورين قبل فنهتهم عن قتله معللة ذلك بقوله تعالى المحكي عنها:

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وهو أوفق باختلاف الأسلوب حيث فصلت أولاً في قولها: لي ولك وأفردت ضمير خطاب فرعون ثم خاطبت وجمعت الضمير في لا تقتلوه ثم تركت التفصيل في ﴿عسى أن ينفعنا﴾ إلخ ولم تأت به على طرز قرة عين لي ولك بأن تقول: عسى أن ينفعني وينفعك مثلاً فتأمل. ورجاء نفعه لما رأت فيه من مخايل البركة ودلائل النجابة:

في المهد ينطق عن سعادة جده ... أثر النجابة ساطع البرهان

واتخاذه ولداً لأنه لائق لتبني الملوك لما فيه من الأبهة وعطف هذا على ما قبله من عطف الخاص على العام أو تعتبر بينهما المغايرة وهو الأنسب بأو ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون﴾ حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأته له كيت وكيت، وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا. وقال قتادة: لا يشعرون أنه الذي يفسد ملكهم على يده. وقال مجاهد: أنه عدو لهم. وقال محمد بن إسحاق: أني أفعل ما أريد لا ما يريدون والتقدير الأول أجمع، وجوز كونه حالاً من القائلة والمقول له معاً. والمراد بالجمع اثنان على احتمال كون الخطاب في لا تقتلوه لفرعون فقط وكونه حالاً من القائلة فقط أي قالت امرأة فرعون له ذلك والذين أشاروا بقتله لا يشعرون بمقالتها له واستعطاف قلبه عليه لئلا يغروه بقتله وعلى الاحتمالات الثلاثة هو من كلام الله تعالى، وجوز كونه حالاً من أحد ضميري نتخذه على أن الضمير للناس لا لذي الحال إذ يكفي الواو للربط أي نتخذه ولداً والناس لا يعلمون أنه لغيرنا وقد تبنيناه فيكون من كلام آسية رضي الله تعالى عنها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ أي صار خالياً من كل شيء غير ذكر موسى عليه السلام أخرجه الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس وروي ذلك أيضاً عن ابن مسعود والحسن ومجاهد، ونحوه عن عكرمة

وقالت فرقة: فارغاً من الصبر وقال ابن زيد: فارغاً من وعد الله تعالى ووحيه سبحانه إليها تناست ذلك من الهم. وقال أبو عبيدة: فارغاً من الهم إذ لم يغرق وسمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه كما يقال فلان فارغ البال وقال بعضهم: فارغاً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد عدوه فرعون كقوله تعالى: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي خلاء لا عقول فيها واعترض على القولين بأن الكلام عليهما لا يلائم ما بعده وفيه نظر، وقرأ أحمد بن موسى عن أبي عمرو ـ فواد ـ بالواو وقرأ ـ مؤسى ـ بهمزة بدل الواو، وقرأ فضالة بن عبيد والحسن ويزيد ابن قطيب وأبو زرعة بن عمرو بن جرير ـ فزعاً ـ بالزاي والعين المهملة من الفزع وهو الخوف والقلق، وابن عباس قرعاً بالقاف وكسر الراء وإسكانها من قرع رأسه إذا انحسر شعره كأنه خلا من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام، وقيل: قرعاً بالسكون مصدر أي قرع قرعاً من القارعة وهو الهم العظيم، وقرأ بعض الصحابة فزغاً[1] بفاء مكسورة وزاي ساكنة وغين معجمة ومعناه ذاهباً هدراً والمراد هالكاً من شدة الهم كأنه قتيل لا قود ولا دية فيه، ومنه قول طليحة الأسدي في أخيه حبال:

فإن يك قبلي قد أصيبت نفوسهم فلن يذهبوا فزغاً بقتل حبال

وقرأ الخليل بن أحمد ـ فرغا ـ بضم الفاء والراء ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدي به﴾ أي أنها كادت إلخ على أن إن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة أو ما كادت إلا تبدي به على أن إن نافية واللام بمعنى إلا وهو قول كوفي والإبداء إظهار الشيء وتعديته بالباء لتضمينه معنى التصريح، وقيل: المفعول محذوف والباء سببية أي تبدي حقيقة الحال بسببه أي بسبب ما عراها من فراقه، وقيل: هي صلة أي تبديه وكلا القولين كما ترى، والظاهر أن الضمير المجرور لموسى عليه السلام، والمعنى أنها كادت تصرح به عليه السلام وتقول وا ابناه من شدة الغم والوجد رواه الجماعة عن ابن عباس، وروي ذلك أيضاً عن قتادة والسدي وعن مقاتل أنها كادت تصيح وا ابناه عند رؤيتها تلاطم الأمواج به شفقة عليه من الغرق ، وقيل: المعنى أنها كادت تظهر أمره من شدة الفرح بنجاته وتبني فرعون إياه، وقيل: الضمير للوحي إنها كادت تظهر الوحي وهو الوحي الذي كان في شأنه عليه السلام المذكور في قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ الآية وهو خلاف الظاهر ولا تساعد عليه الروايات ﴿لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي بما أنزلنا عليه من السكينة والمراد لولا أن ثبتنا قلبها وصبرناها، فالربط على القلب مجاز عن ذلك، وجواب لولا محذوف دل عليه ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته، وقيل: لكادت تبدي به، وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ علة للربط على القلب، والإيمان بمعنى التصديق أي صبرناها وثبتنا قلبها لتكون راسخة في التصديق بوعدنا بأنا رادوه إليها وجاعلوه من المرسلين، ومن جعل الفراغ من الهم والحزن وكيدودة الإبداء من الفرح بتبنيه عليه السلام الذي هو فرح مذموم جعل الإيمان بمعنى الوثوق كما في قولهم على ما حكى أبو زيد ما آمنت أن أجد صحابة أي ما وثقت وحقيقته صرت ذا أمن أي ذا سكون وطمأنينة، وقال: المعنى لولا أن ربطنا على قلبها وسكنا قلقه الكائن من الابتهاج الفاسد لتكون من الواثقين بوعد الله تعالى المبتهجين بما يحق الابتهاج به ﴿وَقَالَتْ لأُخْته﴾ مريم وقيل: كلثمة وقيل: كلثوم. والتعبير عنها بأخوته دون أن يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر ﴿قُصِّيه﴾ أي اتبعي أثره وتتبعي خبره، والظاهر أن هذا القول وقع منها بعد أن أصبح فؤادها فارغاً فإن كانت لم تعرف مكانه إذ ذاك فظاهر وإن

---

(١) قوله فزغاً هنا وفي البيت وقوله وزاي ساكنة إلخ هكذا بخطه رحمه الله وفي الكشاف والشهاب فرغاً بالراء المهملة والغين المعجمة والبيت أورده في اللسان بالراء المهملة والغين أيضاً ومع هذا فمادة فزغ بالزاي والغين المعجمة ليست موجودة في كلامهم ا هـ.

كانت قد عرفته فتتبع الخبر ليعرف هل قتلوه أم لا ولينكشف ما هو عليه من الحال ﴿فَبَصُرَتْ به﴾ أي أبصرته والفاء فصيحة أي فقصت أثره فبصرت، وقرأ قتادة ـ فبصرت ـ بفتح الصاد وعيسى بكسرها ﴿عَنْ جُنُب﴾ أي عن بعد، وقيل: أي عن شوق إليه حكاه أبو عمرو بن العلاء وقال هي لغة جذام يقولون جنبت إليك أي اشتقت، وقال الكرماني جنب صفة لموصوف محذوف أي عن مكان جنب أي بعيد وكأنه من الأضداد فإنه يكون بمعنى القريب أيضاً كالجار الجنب، وقيل: أي عن جانب لأنها كانت تمشي على الشط، وقيل: النظر عن جنب أن تنظر إلى الشيء كأنك لا تريده.

وقرأ قتادة والحسن وزيد بن علي رضي الله تعالى عنه، والأعرج عن جنب بفتح الجيم وسكون النون وعن قتادة أنه قرأ بفتحهما أيضاً، وعن الحسن أنه قرىء بضم الجيم وإسكان النون، وقرأ النعمان بن سالم ـ عن جانب ـ والكل على ما قيل: بمعنى واحد، وفي البحر الجنب والجانب والجنابة والجناب بمعنى ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أنها تقصه وتتعرف حاله أو أنها أخته ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْه المَرَاضِعَ﴾ أي منعناه ذلك فالتحريم مجاز عن المنع فإن من حرم عليه شيء فقد منعه ولا يصح إرادة التحريم الشرعي لأن الصبي ليس من أهل التكليف ولا دليل على الخصوصية، والمراضع جمع مرضع بضم الميم وكسر الضاد وهي المرأة التي ترضع، وترك التاء إما لاختصاصه بالنساء أو لأنه بمعنى شخص مرضع؛ أو جمع مرضع بفتح الميم على أنه مصدر ميمي بمعنى الرضاع وجمع لتعدد مراته أو اسم مكان أي موضع الرضاع وهو الثدي ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل قصها أو إبصارها أو وروده على من هو عنده، أو من قبل ذلك أي من أول أمره وظاهر صنيع أبي حيان اختياره ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أي هل تريدون أن أدلكم ﴿عَلَى أَهْلِ بَيْت يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي يضمنونه ويقومون بتربيته لأجلكم، والفاء فصيحة أي فدخلت عليهم فقالت، وقولها: على أهل بيت دون امرأة إشارة إلى أن المراد امرأة من أهل الشرف تليق بخدمة الملوك ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ لا يقصرون في خدمته وتربيته، وروي أن هامان لما سمع هذا منها قال إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فخلصت بذلك من الشر الذي يجوز لمثله الكذب وأحسنت وليس ببدع لأنها من بيت النبوة فحقيق بها ذلك، واحتمال الضمير لأمرين مما لا تختص به اللغة العربية بل يكون في جميع اللغات على أن الفراعنة من بقايا العمالقة وكانوا يتكلمون بالعربية فلعلها كلمت بلسانهم ويسمى هذا الأسلوب من الكلام الموجه.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّه﴾ الفاء فصيحة أي فقبلوا ذلك منها ودلتهم على أمه وكلموها في إرضاعه فقبلت فرددناه إليها أو يقدر نحو ذلك، وروي أن أخته لما قالت ما قالت أمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله فأتت بأمه وموسى عليه السلام على يد فرعون يبكي وهو يعلله فدفعه إليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال: من أنت منه؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك فقالت إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فقرره في يدها فرجعت به إلى بيتها من يومها وأمر أن يجرى عليها النفقة وليس أخذها ذلك من أخذ الأجرة على إرضاعها إياه ولو سلم فلا نسلم أنه كان حراماً فيما تدين وكانت النفقة على ما في البحر ديناراً في كل يوم ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلاَ تَحْزَنَ﴾ لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله﴾ أي جميع ما وعده سبحانه من رده وجعله من المرسلين ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه وإلا فعلمها بحقية ذلك بالوحي حاصل قبل.

واستدل أبو حيان بالآية على ضعف قول من ذهب إلى أن الإيحاء كان إلهاماً أو مناماً لأن ذلك يبعد أن يقال فيه وعد، وفيه نظر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعرفون وعده تعالى ولا حقيته أو لا يجزمون بما وعدهم جل وعلا لتجويزهم تخلفه وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، وقيل: لا يعلمون أن الغرض الأصلي من الرد عليها علمها بذلك وما

سواه من قرة عينها وذهاب حزنها تبع، وفيه أن الذي يفيده الكلام إنما هو كون كل من قرة العين والعلم كالغرض أو غرضاً مستقلاً، وأما تبعية غير العلم له لا سيما مع تقدم الغير فلا، وكون المفيد لذلك حذف حرف العلة من الأول لا يخفى حاله، وفي قوله تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس﴾ [البقرة: ٢٤٣، وغيرها] إلخ قيل: تعريض بما فرط من أمه حين سمعت بوقوعه في يد فرعون من الخوف والحيرة وأنت تعلم أن ما عراها كان من مقتضيات الجبلة البشرية وهو يجامع العلم بعدم وقوع ما يخاف منه، ونفي العلم في مثل ذلك إنما يكون بضرب من التأويل كما لا يخفى. ثم إن الاستدراك على ما اختاره مما وقع بعد العلم، وجوز أن يكون من نفس العلم وذلك إذا كان المعنى لا يعلمون أن الغرض الأصلي من الرد عليها علمها بحقية وعد الله تعالى فتأمل.

﴿وَلَـمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي المبلغ الذي لا يزيد عليه نشوءه، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَى﴾ أي كمل وتم تأكيد وتفسير لما قبله كذا قيل: واختلف في زمان بلوغ الأشد والاستواء فأخرج ابن أبي الدنيا من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: الأشد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة، وهي رواية عن ابن عباس أيضاً وروي نحوه عن قتادة وقال الزجاج مرة بلوغ الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلى الأربعين وأخرى هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين واختاره بعضهم هنا وعلل بأن ذلك لموافقته لقوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾ [الأحقاف: ١٥] لأنه يشعر بأنه منته إلى الأربعين وهي سن الوقوف فينبغي أن يكون مبدؤه مبدأه ولا يخلو عن شيء والحق أن بلوغ الأشد في الأصل هو الانتهاء إلى حد القوة وذلك وقت انتهاء النمو وغايته وهذا مما يختلف باختلاف الأقاليم والإعصار والأحوال ولذا وقع له تفاسير في كتب اللغة والتفسير، ولعل الأولى على ما قيل: أن يقال إن بلوغ الأشد عبارة عن بلوغ القدر الذي يتقوى فيه بدنه وقواه الجسمانية وينتهي فيه نموه المعتد به والاستواء اعتدال عقله وكماله ولا ينبغي تعيين وقت لذلك في حق موسى عليه السلام إلا بخبر يعول عليه لما سمعت من أن ذاك مما يختلف باختلاف الأقاليم والإعصار والأحوال نعم اشتهر أن ذلك في الأغلب يكون في سن أربعين وعليه قول الشاعر:

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي مضى ... وإن جر أسباب الحياة له العمر

وفي قوله تعالى: ﴿**حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة**﴾ ما يستأنس به لذلك، وقد مر طرف من الكلام في الأشد في سورة يوسف فتذكر ولا تغفل. ثم إن حاصل المعنى على ما قيل أخيراً: ولما قوي جسمه، واعتدل عقله ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً﴾ أي نبوة على ما روي عن السدي أو علماً هو من خواص النبوة على ما تأول به بعضهم كلامه ﴿وَعِلْماً﴾ بالدين والشريعة. وفي الكشاف العلم التوراة والحكم السنة وحكمة الأنبياء عليهم السلام سنتهم. قال الله تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ [الأحزاب: ٣٤] وقيل آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث، فكان عليه السلام لا يفعل فعلاً يستجهل فيه ا هـ، ورجح ما قيل بأنه أوفق لنظم القصة مما تقدم، لأن استنباءه عليه السلام بعد وكز القبطي، والهجرة إلى مدين، ورجوعه منها، وإيتاؤه التوراة كان بعد إغراق فرعون، فهو بعد الوكز بكثير وبأن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الذي فعلناه بموسى وأمه عليهما السلام ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم يأبى حمل ما تقدم على النبوة لأنها لا تكون جزاء على العمل، ومن ذهب إلى الأول جعل هذا بياناً إجمالياً لإنجاز الوعد بجعله من المرسلين بعد رده لأمه، وما بعد تفصيل له، والعطف بالواو لا يقتضي

الترتيب، وكون ما فعل بموسى وأمه عليهما السلام جزاء على العمل باعتبار التغليب. وقد يقال: إن أصل النبوة وإن لم تكن جزاء على العمل إلا أن بعض مراتبها، وهو ما فيه مزيد قرب من الله تعالى يكون باعتبار مزيد القرب جزاء عليه ويرجع ذلك إلى أن مزيد القرب هو الجزاء وتفاوت الأنبياء عليهم السلام في القرب منه تعالى مما لا ينبغي أن يشك فيه، ورجح ما تقدم بكونه أوفق بقوله تعالى: ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ واستلزامه حصول النبوة لكل محسن ليس بشيء أصلاً، ومن ذهب إلى أن هذا الإيتاء كان قبل الهجرة قال: يجوز أن يكون المعنى آتيناه رياسة بين قومه بني إسرائيل بأن جعلناه ممتازاً فيما بينهم، يرجعون إليه في مهامهم، ويمتثلون إذا أمرهم بشيء أو نهاهم عنه، وعلماً ينتفع به وينفع به غيره، وذلك إما بمحض الإلهام، أو بتوفيقه لاستنباط دقائق وأسرار مما نقل إليه من كلمات آبائه الأنبياء عليهم السلام من بني إسرائيل ولا بدع في أن يكون عليه السلام عالماً بما كان عليه آباؤه الأنبياء منهم وبما كانوا يتدينون به من الشرائع بواسطة الإلهام أو بسماع ما يفيده العلم من الأخبار، ولعل هذا أولى مما نقله في الكشاف. وفي الكلام على أواخر سورة البقرة ما تنفعك مراجعته فليراجع.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ قال ابن عباس على ما في البحر: هي منف ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي في وقت لا يعتاد دخولها، أو لا يتوقعونه فيه، وكان على ما روي عن الحبر وقت القائلة، وفي رواية أخرى عنه بين العشاء والعتمة وذلك أن فرعون ركب يوماً وسار إلى تلك المدينة فعلم موسى عليه السلام بركوبه فلحق ودخل المدينة في ذلك الوقت. وقال ابن إسحاق: هي مصر، كان موسى عليه السلام قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون، فاختفى وغاب، فدخلها متنكراً. وقال ابن زيد: كان فرعون قد أخرجه منها فغاب سنين فنسي فجاء ودخلها وأهلها في غفلة بنسيانهم له، وبعد عهدهم به. وقيل: دخل في يوم عيد وهم مشغولون بلهوهم. وقيل: خرج من قصر فرعون ودخل مصر وقت القيلولة أو بين العشاءين، وقيل: المدينة عين شمس، وقيل: قرية على فرسخين من مصر يقال لها: حابين. وقيل: هي الإسكندرية، والأشهر أنها مصر، ولعله هو الأظهر والمتبادر أن ـ على حين ـ متعلق بدخل، وعليه فالظاهر أن على بمعنى في مثلها في قوله تعالى: ﴿واتبعو ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ [البقرة: ١٠٢] على قول.

وقال أبو البقاء: هو في موضع الحال من المدينة، ويجوز أن يكون في موضع الحال من الفاعل أي مختلساً ا هـ ولعل الذي دعاه إلى العدول عن المتبادر احتياجه إلى جعل على بمعنى في وخفاء نكتة التعبير بها دونها أو الاكتفاء بالظرف وحده عليه والأمر ظاهر لمن له أدنى تأمل؛ وقيل: إن الداعي إلى ذلك أن دخول المدينة في حين غفلة من أهلها ليس نصاً في دخولها غافلاً أهلها كما في وجه الحالية من المدينة ولا في دخولها مختلساً كما في وجه الحالية من الضمير فإن وقت الغفلة كوقت القائلة وما بين العشاءين قد لا يغفل فيه وفيه بحث .

و ﴿من أهلها﴾ في موضع الصفة لغفلة وما في النظم الكريم أبلغ من غفلة أهلها بالإضافة لما في التنوين من إفادة التفخيم، ولعله عدل عن ذلك إلى ما ذكر لهذا فتدبر، وقرأ أبو طالب القارىء ـ على حين ـ بفتح النون ووجه بأنه فتح لمجاورة الغين كما كسر في بعض القراءات الدال في الحمد لله لمجاورة اللام أو بأنه أجرى المصدر مجرى الفعل كأنه قيل: على حين غفل أهلها فبنى حين كما يبني إذا أضيف إلى الجملة المصدرة بفعل ماض نحو قوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا

وهو كما ترى ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتحاربان والجملة صفة لرجلين. وقال ابن عطية: في موضع الحال وهو مبني على مذهب سيبويه من جواز مجيء الحال من النكرة من غير شرط، وقرأ نعيم بن ميسرة يقتلان

بإدغام التاء في التاء ونقل فتحتها إلى القاف، وقوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ شيعته﴾ أي ممن شايعه وتابعه في أمره ونهيه أو في الدين على ما قاله جماعة وهم بنو إسرائيل قال في الإتقان: هو السامري ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّه﴾ من مخالفيه فيما يريد أو في الدين على ما قاله الجماعة وهم القبط واسمه كما في الإتقان أيضاً قانون صفة بعد صفة لرجلين والإشارة بهذا واقعة على طريق الحكاية لما وقع وقت الوجدان كأن الرائي لهما يقوله لا في المحكي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقال المبرد: العرب تشير بهذا إلى الغائب قال جرير:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليّ قطينا

وهذه الإشارة قائمة مقام الضمير في الربط والعطف سابق على الوصفية، واختلف في سبب تقاتل هذين الرجلين، فقيل: كان أمراً دينياً، وقيل: كان أمراً دنيوياً، روي أن القبطي كلف الإسرائيلي حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى فاقتتلا لذلك، وكان القبطي على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير خبازاً لفرعون ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شيعته﴾ أي فطلب غوثه ونصره إياه ﴿عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّه﴾ ولتضمين الفعل معنى النصر عدي بعلى ويؤيده قوله تعالى بعد: ﴿استنصره بالأمس﴾، ويجوز أن يكون تعديته بعلى لتضمينه معنى الإعانة ويؤيده أنه قرىء فاستعانه بالعين المهملة والنون بدل الثاء، وقد نقل هذه القراءة ابن خالويه، عن سيبويه وأبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة عن ابن مقسم والزعفراني، وقول ابن عطية إنه ذكرها الأخفش وهو تصحيف لا قراءة مما لا ثبت له فيه، وقد حذف من جملة الصلة صدرها أي الذي هو من شيعته والذي هو من عدوه ولو لم يعتبر حذف ذلك صح ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي ضرب القبطي بجمع كفه أي بكفه المضمومة أصابعها على ما أخرجه غير واحد عن مجاهد.

وقال أبو حيان: الوكز الضرب باليد مجموعة أصابعها كعقد ثلاثة وسبعين وعلى القولين يكون عليه السلام قد ضربه باليد؛ وأخرج ابن المنذر وجماعة عن قتادة أنه عليه السلام ضربه بعصاه فكأنه يفسر الوكز بالدفع أو الطعن وذلك من جملة معانيه كما في القاموس ولعله أراد بعصاه عصا كانت له فإن عصاه المشهورة أعطاه إياها شعيب عليه السلام بعد هذه الحادثة كما هو مشهور، وفي كتب التفاسير مسطور.

وقرأ عبدالله فلكزه باللام وعنه فنكزه بالنون واللكز على ما في القاموس الوكز والوجء في الصدر والحنك والنكز على ما فيه أيضاً الضرب والدفع، وقيل: الوكز والنكز واللكز الدفع بأطراف الأصابع، وقيل: الوكز على القلب واللكز على اللحى. روي أنه لما اشتد التناكر قال القبطي لموسى عليه السلام: لقد هممت أن أحمله يعني الحطب عليك فاشتد غضب موسى عليه السلام، وكان قد أوتي قوة فوكزه ﴿فَقَضَى عَلَيْه﴾ أي فقتله موسى وأصله أنهى حياته أي جعلها منتهية متقضية وهو بهذا المعنى يتعدى بعلى كما في الأساس فلا حاجة إلى تأويله بأوقع القضاء عليه، وقد يتعدى الفعل بإلى لتضمينه معنى الإيحاء كما في قوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ [الحجر: ٦٦] وعود ضمير الفاعل في قضى على موسى هو الظاهر، وقيل: هو عائد على الله تعالى أي فقضى الله سبحانه عليه بالموت فقضى بمعنى حكم، وقيل: يحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من وكزه أي فقضى الوكز عليه أي أنهى حياته ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيطان﴾ أي من تزيينه.

وقيل: من جنس عمله والأول أوفق بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضلٌّ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة على أن مبين صفة ثانية لعدو، وقيل: ظاهر العداوة والإضلال، ووجه بأنه صفة لعدو الملاحظ معه وصف الإضلال أو بأنه متنازع فيه لعدو

ومضل كل يطلبه صفة له وأياً ما كان فمبين من أبان اللازم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بوكز ترتب عليه القتل ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ ذنبي وإنما قال عليه السلام ما قال لأنه فعل ما لم يؤذن له به وليس من سنن آبائه الأنبياء عليهم السلام في مثل هذه الحادثة التي شاهدها وقد أفضى إلى قتل نفس لم يشرع في شريعة من الشرائع قتلها، ولا يشكل ذلك على القول بأن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكبائر بعد النبوة وقبلها لأن أصل الوكز من الصغائر، وما وقع من القتل كان خطأ كما قاله كعب وغيره، والخطأ وإن كان لا يخلو عن الإثم، ولذا شرعت فيه الكفارة إلا أنه صغيرة أيضاً بل قيل: لا يشكل أيضاً على القول بعصمتهم عن الكبائر والصغائر مطلقاً لجواز أن يكون عليه السلام قد رأى أن في الوكز دفع ظالم عن مظلوم ففعله غير قاصد به القتل، وإنما وقع مترتباً عليه لا عن قصد وكون الخطأ لا يخلو عن إثم في شرائع الأنبياء المتقدمين عليهم السلام كما في شريعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم غير معلوم وكذا مشروعية الكفارة فيه وكأنه عليه السلام بعد أن وقع منه ما وقع تأمل فظهر له إمكان الدفع بغير الوكز وأنه لم يتثبت في رأيه لما اعتراه من الغضب فعلم أنه فعل خلاف الأولى بالنسبة إلى أمثاله فقال ما قال على عادة المقربين في استعظامهم خلاف الأولى، ثم إن هذا الفعل وقع منه عليه السلام قبل النبوة كما هو ظاهر قوله تعالى حكاية عنه في سورة الشعراء: ﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾ [الشعراء: ٢١] وبذلك قال النقاش وغيره وروي عن كعب أنه عليه السلام كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ومن فسر الاستواء ببلوغ أربعين سنة وجعل ما ذكر بعد بلوغ الأشد والاستواء وإيتاء الحكم والعلم بالمعنى الذي لا يقتضي النبوة يلزمه أن يقول كان عليه السلام إذ ذاك ابن أربعين سنة أو ما فوقها بقليل.

وزعم بعضهم أنه عليه السلام أراد بقوله: ﴿ظلمت نفسي﴾ إني عرضتها للتلف بقتل هذا الكافر إذ لو عرف فرعون ذلك لقتلني به وأراد بقوله: ﴿فاغفر لي﴾ فاستر عليّ ذلك، وجعله من عمل الشيطان لما فيه من الوقوع في الوسوسة وترقب المحذور، ولا يخفى ما فيه، ويأبى عنه قوله تعالى:

﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرحيمُ﴾ وترتيب غفر على ما قبله بالفاء يشعر بأن المراد غفر له لاستغفاره وجملة ﴿إنه﴾ إلخ كالتعليل للعلية أي إنه تعالى هو المبالغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم، ولذا كان استغفاره سبباً للمغفرة له وتوسيط قال بين كلاميه عليه السلام لما بينهما من المخالفة من حيث إن الثاني مناجاة ودعاء بخلاف الأول، وأما توسيط قال في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فوجهه ظاهر، والباء في بما للقسم، وما مصدرية وجواب القسم محذوف أي أقسم بإنعامك عليّ لأمتنعن عن مثل هذا الفعل.

وقيل: لأتوبن، وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ عطف على الجواب، ولعل المراد بإنعامه تعالى عليه حفظه إياه من شر فرعون ورده إلى أمه وتمييزه على سائر بني إسرائيل ونحو ذلك.

وقيل المراد به مغفرته له وهو غير بعيد، ومعرفته عليه السلام أنه سبحانه غفر له إذا كان هذا القول قبل النبوة بإلهام أو رؤيا، والظهير المعين، والمجرمين جمع مجرم والمراد به من أوقع غيره في الجرم أو من أدت معاونته إلى جرم كالإسرائيلي الذي خاصمه القبطي فأدت معاونته إلى جرم في نظر موسى عليه السلام فيكون في المجرمين مجاز في النسبة للإسناد إلى السبب، وجوز أن يراد بذلك الكفار وعنى بهم من استغاثه ونحوه بناء على أنه لم يكن أسلم، وقيل: أراد بالمجرمين فرعون وقومه، والمعنى أقسم بإنعامك عليّ لأتوبن فلن أكون معيناً للكفار بأن أصحبهم وأكثر سوادهم، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد وكان يسمى ابن فرعون ولا يخفى أن ما تقدم

أنسب بالمقام، وجوز أن تكون الباء للقسم الاستعطافي على أنها متعلقة بفعل دعاء محذوف، وجملة فلن أكون إلخ متفرعة عليه، والفاء واقعة في جواب الدعاء أو الشرط المقدر أي بحق إنعامك عليّ اعصمني فلم أكون إلخ أو إن عصمتني فلن أكون إلخ والقسم الاستعطافي ما أكد به جملة طلبية نحو قولك بالله تعالى زرني وغير الاستعطافي ما أكد به جملة خبرية نحو والله تعالى لأقومن، وإلى هذا ذهب ابن الحاجب، وقيل: القسم الاستعطافي ما كان المقسم به مشعراً بعطف وحنو نحو بكرمك الشامل أنعم عليّ وهو صادق على ما هنا، وغير الاستعطافي ما كان المقسم به أعم من ذلك، وعلى القولين هما قسمان من مطلق القسم، وظاهر كلام الزمخشري أن المتبادر من القسم ما يؤكد به الكلام الخبري وينعقد منه يمين فما يكون المراد به الاستعطاف قسيم له وجعل بعضهم إطلاق القسم على الاستعطافي تجوزاً، ويبعد إرادة الاستعطاف هنا ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن موسى عليه السلام لم يستثن أي لم يقل إن شاء الله تعالى فابتلى به أي بالكون ظهيراً للمجرمين مرة أخرى وهو ما في قوله تعالى: **﴿فإذا الذي استنصره﴾** إلخ لأن الاستثناء لا يناسب الاستعطاف لكون النفي معلقاً بعصمة الله عز وجل، وجوز أن تكون الباء سببية متعلقة بفعل مقدر يعطف عليه لن أكون إلخ وما موصولة، والمعنى بسبب الذي أنعمته عليّ من القوة أشكرك فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك ولا أدع قبطياً يغلب إسرائيلياً وهو إلزام لنفسه بنصرة أوليائه عز وجل كالنذر وليس هناك قسم بوجه خلافاً لمن توهم ذلك ولا يخفى أن هذا وإن لم يبعده الأثر لا يخلو عن بعد نظر إلى السباق، و **﴿لن﴾** على جميع الأوجه المذكورة للنفي وفي البحر قيل: إنها للدعاء[1] وحكى ابن هشام رده بأن فعل الدعاء لا يسند إلى المتكلم بل إلى المخاطب أو الغائب نحو يا رب لا عذبت فلاناً، ويجوز لا عذب الله تعالى عمراً ثم قال ويرده قوله:

ثم لا زلت لكم خالداً خلود الجبال، ولا يخفى عليك أن كونها للدعاء على الوجه الأخير في الآية غير ظاهر وعلى الوجه الأول لا يخلو عن خفاء فلعل من جعلها للدعاء حمل بما أنعمت عليّ على الاستعطاف وعلق الجار والمجرور بنحو اعصمني وجعل الفاء تفسيرية ولن أكون إلخ تفسيراً لذلك المحذوف كما قيل: في قوله تعالى: ﴿استجبنا له فكشفنا﴾ [الأنبياء: ٨٤] فليتدبر، واحتج أهل العلم بهذه الآية على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم.

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن الوليد الرصافي أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن أخ له كاتب فقال له: إن أخي ليس له من أمور السلطان شيء إلا أنه يكتب له بقلم ما يدخل وما يخرج فإن ترك قلمه صار عليه دين واحتاج وإن أخذ به كان له فيه غنى قال: لمن يكتب؟ قال: لخالد بن عبدالله القسري قال: ألم تسمع إلى ما قال العبد الصالح **﴿رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾** فلا يهتم أخوك بشيء وليرم بقلمه فإن الله تعالى سيأتيه برزق، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حنظلة جابر بن حنظلة الضبي الكاتب قال: قال رجل لعامر يا أبا عمرو إني رجل كاتب أكتب ما يدخل وما يخرج آخذ رزقاً أستغني به أنا وعيالي قال: فلعلك تكتب في دم يسفك قال: لا. قال: فلعلك تكتب في مال يؤخذ قال: لا. قال: فلعلك تكتب في دار تهدم قال: لا. قال: أسمعت بما قال موسى عليه السلام **﴿رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾** قال: أبلغت إليّ يا أبا عمرو والله عز وجل لا أخط لهم بقلم أبداً قال والله تعالى لا يدعك الله سبحانه بغير رزق أبداً. وقد كان السلف يجتنبون كل الاجتناب عن خدمتهم، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سلمة بن نبيط قال بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك فقال:

---

(١) قوله إنها للدعاء مجيئها للدعاء مذهب جماعة منهم ابن عصفور ا هـ منه.

اذهب بعطاء أهل بخارى فأعطهم فقال اعفني فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه فقال له بعض أصحابه: ما عليك أن تذهب فتعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئاً فقال لا أحب أن أعين الظلمة في شيء من أمرهم وإذا صح حديث ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى بهم في جهنم فليبك من علم أنه من أعوانهم على نفسه وليقلع عما هو عليه قبل حلول رمسه، ومما يقصم الظهر ما روي عن بعض الأكابر أن خياطاً سأله فقال: أنا ممن يخيط للظلمة فهل أعد من أعوانهم؟ فقال: لا. أنت منهم والذي يبيعك الإبرة من أعوانهم فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم، ويا حسرتا على من باع دينه بدنياه واشترى رضا الظلمة بغضب مولاه. هذا وقد بلغ السيل الزبى وجرى الوادي فطم على القرى.

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾
فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ
إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ
رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾
وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى
يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ
أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا
ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ
بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

﴿فَأَصْبَحَ فِي المَدِينة خَائفاً﴾ وقوع المكروه به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يترصد ذلك أو الإخبار هل وقفوا على ما كان منه وكان عليه السلام فيما يروى قد دفن القبطي بعد أن مات في الرمل، وقيل: خائفاً وقوع المكروه من فرعون يترقب نصرة ربه عز وجل، وقيل: يترقب أن يسلمه قومه، وقيل: يترقب هداية قومه، وقيل: خائفاً من ربه عز وجل يترقب المغفرة، والكل كما ترى، والمتبادر على ما قيل: إن في المدينة متعلق بأصبح واسم أصبح ضمير موسى عليه السلام

وخائفاً خبرها وجملة يترقب خبر بعد خبر أو حال من الضمير في خائفاً وقال أبو البقاء: يترقب حال مبدلة من الحال الأولى أو تأكيد لها أو حال من الضمير في خائفاً ا هـ. وفيه احتمال كون أصبح تامة واحتمال كونها ناقصة، والخبر في المدينة ولا يخفى عليك ما هو الأولى من ذلك ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بالأَمْس﴾ وهو الإسرائيلي الذي قتل عليه السلام القبطي بسببه ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيثه من قبطي آخر برفع الصوت من الصراخ وهو في الأصل الصياح ثم تجوز به عن الاستغاثة لعدم خلوها منه غالباً وشاع حتى صار حقيقة عرفية، وقيل: معنى يستصرخه يطلب إزالة صراخه، وإذا للمفاجأة وما بعدها مبتدأ وجملة يستصرخه الخبر.

وجوز أبو البقاء كون الجملة حالاً والخبر إذا، والمراد بالأمس اليوم الذي قبل يوم الاستصراخ، وفي الحواشي الشهابية ان كان دخوله عليه السلام المدينة بين العشاءين فالأمس مجاز عن قرب الزمان وهو معرب لدخول أل عليه وذلك الشائع فيه عند دخولها، وقد بني معها على سبيل الندرة كما في قوله:

وإني حبست اليوم والأمس قبله ... إلى الشمس حتى كادت الشمس تغرب

﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿لَهُ مُوسَى﴾ أي للإسرائيلي الذي يستصرخه ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ﴾ ضال ﴿مُبِينٌ﴾ بين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر أو لأن عادتك الجدال، واختار هذا بعض الأجلة قال: إن الأول لا يناسب قوله تعالى: ﴿فلما أن أراد﴾ إلخ لأن تذكر تسببه لما ذكر باعث الاحجام لا الاقدام. ورد بأن التذكر أمر محقق لقوله تعالى: ﴿خائفاً يترقب﴾ والباعث له على ما ذكر شفقته على من ظلم من قومه وغيرته لنصرة الحق، وقيل: إن الضمير في له والخطاب في إنك للقبطي، ودل عليه قوله: ﴿يستصرخه﴾ وهو خلاف الظاهر، ويبعده الإظهار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بالَّذي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ فإن الظاهر على ذاك به بدل الذي؛ والبطش الأخذ بصولة وسطوة، والتنوين في عدو للتفخيم أي عدو عظيم العداوة ولإرادة ذلك لم يضفه، والمراد بالذي هو عدو لهما القبطي، وقد كان القبط أعظم الناس عداوة لبني إسرائيل وقيل: عداوته لهما لأنه لم يكن على دينهما، وقرأ الحسن وأبو جعفر «يَبْطُش» بضم الطاء.

﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأَمْس﴾ قاله الإسرائيلي الذي يستصرخه على ما روي عن ابن عباس وأكثر المفسرين وكأنه توهم إرادة البطش به دون القبطي من تسمية موسى عليه السلام إياه غوياً، وقال الحسن: قاله القبطي الذي هو عدو لهما كأنه توهم من قوله للإسرائيلي إنك لغوي أنه الذي قتل القبطي بالأمس له ولا بعد فيه لأن ما ذكر إما إجمال لكلام يفهم منه ذلك أو لأن قوله ذلك لمظلوم انتصر به خلاف الظاهر فلا بعد للانتقال منه لذلك، والذي في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم ما هو صريح في أن هذين الرجلين كانا من بني إسرائيل، وأما الرجلان اللذان رآهما بالأمس فأحدهما إسرائيلي والآخر مصري، ووجه أمر العداوة على ذلك بأن هذا الذي أراد عليه السلام أن يبطش به كان ظالماً لمن استصرخه فيكون عدواً له وعاصياً لله تعالى فيكون عدواً لموسى عليه السلام، ويحتمل أن تكون عداوته لهما لكونه مخالفاً لما هما عليه من الدين وإن كان إسرائيلياً وفيها أيضاً ما هو صريح في أن الظالم هو قائل ذلك.

وأنت تعلم أن هذه التوراة لا يلتفت إليها فيما يكذب القرآن أو السنة الصحيحة وهي فيما عدا ذلك كسائر أخبار بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب. نعم قد يستأنس بها لبعض الأمور ثم إن ما فيها من قصة موسى عليه السلام مخالف لما قصه الله تعالى منها هنا، وفي سائر المواضع زيادة ونقصاً وهو ظاهر لمن وقف عليها، ولا يخفى الحكم

في ذلك، وقد خلت هنا عن ذكر مجيء مؤمن آل فرعون ونصحه لموسى عليه السلام وكذا عن ذكر ما يدل على قوله: ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي ما تريد ﴿إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ وهو الذي يفعل كل ما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب، وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى وأصله على ما قيل: النخلة الطويلة فاستعير لما ذكر إما باعتبار تعاليه المعنوي أو تعظمه.

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي أنه قال: من قتل رجلين أي بغير حق فهو جبار، ثم تلا هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم نحوه عن عكرمة ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن، ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملئه فهموا بقتل موسى عليه السلام فخرج مؤمن من آل فرعون هو ابن عم فرعون ليخبره بذلك وينصحه كما قال عز وجل:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ الآية، واسمه قيل: شمعان، وقيل: شمعون بن إسحاق، وقيل: حزقيل، وقيل: غير ذلك وكون هذا الرجل الجائي مؤمن آل فرعون هو المشهور، وقيل: هو غيره، ويسعى بمعنى يسرع في المشي وإنما أسرع لبعد محله ومزيد اهتمامه بإخبار موسى عليه السلام ونصحه، وقيل: يسعى بمعنى يقصد وجه الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿وسعى لها سعيها﴾ [الإسراء: ١٩] وهو وإن كان مجازاً يجوز الحمل عليه لشهرته.

والظاهر أن ﴿من أقصى﴾ صلة ﴿جاء﴾ وجملة ﴿يسعى﴾ صفة ﴿رجل﴾، وجوز أن يكون ﴿من أقصى﴾ في موضع الصفة لرجل، وجملة يسعى صفة بعد صفة.

وجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من رجل، أما إذا جعل الجار والمجرور في موضع الصفة منه فظاهر لأنه وإن كان نكرة ملحق بالمعارف فيسوغ أن يكون ذا حال، وأما إذا كان متعلقاً بجاء فمنع ذلك الجمهور وأجازه سيبويه، وجوز أن يعلق الجار والمجرور بيسعى وهو كما ترى ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ﴾ وهم وجوه أهل دولة فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي يتشاورن بسببك وإنما سمي التشاور ائتماراً لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ من المدينة قبل أن يظفروا بك ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ اللام للبيان كما في سقياً لك فيتعلق بمحذوف أعني ـ أعني ـ ولم يجوز الجمهور تعلقه بالناصحين لأن أل فيه اسم موصول ومعمول الصلة لا يتقدم الموصول ولا بمحذوف مقدم يفسره المذكور لأن ما لا يعمل لا يفسر عاملاً وعند من جوز تقدم معمول الصلة إذا كان الموصول أل خاصة لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدم ظرفاً للتوسع فيه، أو قال إن أل هنا حرف تعريف لإرادة الثبوت يجوز أن يكون لك متعلقاً بالناصحين أو بمحذوف يفسره ذلك.

واستدل القرطبي وغيره بالآية على جواز النميمة لمصلحة دينية ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي من المدينة ممتثلاً.

﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ أي صرف وجهه ﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي ما يقابل جانبها، وتلقاء في الأصل مصدر انتصب على الظرفية. ومدين قرية شعيب سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام ولم يكن في سلطان فرعون ولذا توجه لقربته، وقيل توجه إليها لمعرفته به، وقيل لقرابته منه عليهما السلام، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان.

﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق المؤدّي إلى النجاة، وإنما قال عليه السلام ذلك توكلاً على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه عز وجل، وكان عليه السلام لا يعرف الطرق فعن ثلاث طرائق فأخذ في الوسطى وأخذ طالبوه في الأخريين وقالوا: المريب لا يأخذ في أعظم الطرق ولا يسلك إلا بنياتها فبقي ثماني ليال وهو

حاف لا يطعم إلا ورق الشجر وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام لم يصل حتى سقط خف قدميه، وروي أنه عليه السلام أخذ يمشي من غير معرفة فهداه جبريل عليه السلام إلى مدين، وعن السدي أنه عليه السلام أخذ في بنيات الطريق فجاءه ملك على فرس بيده عنزة فلما رآه موسى عليه السلام سجد له أي خضع من الفرق، فقال: لا تسجد لي ولكن اتبعني فتبعه وانطلق حتى انتهى به إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي وصل إليه وورد. الورود بمعنى الدخول وبمعنى الشرب وليس شيء منهما مراداً والمراد بماء مدين بئر كانوا يسقون منها، فهو مجاز من إطلاق الحال وإرادة المحل ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي جماعة كثيرة مختلفي الأصناف، ويشعر بالقيد الأول التنوين، وبالثاني من الناس لشموله للأصناف المختلفة وهي فائدة ذكره، وقيل فائدته تحقير أولئك الجماعة وأنهم لئام لا يعرفون بغير جنسهم أو محتاجون إلى بيان أنهم من البشر ﴿يَسْقُونَ﴾ الظاهر أنهم كانوا يسقون مواشي مختلفة الأنواع بمعنى أن منهم من كان يسقي إبلاً ومنهم من كان يسقي غنماً وهكذا، وتخصص سقيهم بنوع يحتاج إلى توقيف ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾ أي في مكان أسفل من مكانهم، وقيل من قربهم أو من سواهم أو مما يلي جهته إذا قدم عليهم وإلى هذا الأخير ذهب ابن عطية حيث قال: المعنى ووجد من الجهة التي وصل إليها قبل أن يصل إلى الأمة ﴿امْرَأَتَيْنِ﴾ اسم إحداهما قيل ليا وقيل عبرا وقيل شرفا، واسم الأخرى قيل صفوريا وقيل صفوراء وقيل صفيراء، وفي الكشاف صفيراء اسم الصغرى واسم الكبرى صفراء ﴿تَذُودَانِ﴾ كانتا تمنعان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء قاله ابن عباس وغيره، وقيل تمنعان غنمهما عن التقدم إلى البئر لئلا تختلط بغيرها. وحكي ذلك عن الزجاج، وقال قتادة: تمنعان الناس عن غنمهما، وقال الفراء: تحبسان غنمهما عن أن تتفرق، وفي جميع هذه الأقوال تصريح بأن المذود كان غنماً، والظاهر أن ذلك عن توقيف، وقيل تذودان عن وجوههما نظر الناظرين لتسترهما وهذا كما ترى ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما مخطوبكما ومطلوبكما مما أنتما عليه من التأخر والذود ولم لا تباشران السقي كغيركما؟. وأصل الخطب مصدر خطب بمعنى طلب ثم استعمل بمعنى المفعول. وفي سؤاله عليه السلام إياهما دليل على جواز مكالمة الأجنبية فيما يعني.

وقرأ شمر «ما خِطبكما» بكسر الخاء، قال في البحر: أي من زوجكما؟ ولم لا يسقي هو؟. وهذه قراءة شاذة نادرة ا هـ. ولا يخفى ما فيه وإباء الجواب عنه. وقال بعضهم: الخطب فيها بمعنى المخطوب والمطلوب كما في القراءة المتواترة، ونظيره الحب بكسر الحاء المهملة بمعنى المحبوب ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي عادتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزاً عن مساجلتهم لا أنا لا نسقي اليوم إلى تلك الغاية. وقرأ ابن مصرف «لا نُسْقِي» بضم النون من الاسقاء، وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والحسن وقتادة، والعربيان: ابن عامر، وأبو عمرو «يَصْدُرُ» بفتح الياء وضم الدال أي حتى يصدر الرعاة بأغنامهم. وسأل بعض الملوك عن الفرق بين القراءتين من حيث المعنى. فأجيب بأن قراءة يصدر بفتح الياء تدل على فرط حيائهما وتواريهما من الاختلاط بالأجانب، وقراءة يصدر بضم الياء تدل على إصدار الرعاة المواشي ولم يفهم منها صدورهم عن الماء. وقرىء بزاي خالصة وبحرف بين الصاد والزاي، وقرىء الرعاء بضم الراء والمعروف في صيغ الجمع فعال بكسر الفاء كما في قراءة الجمهور، وأما فعال بالضم فعلى خلاف القياس لأنه من أبنية المصادر والمفردات كنباح وصراخ، وإذا استعمل في معنى الجمع كما في القراءة الشاذة فقيل هو اسم جمع لا جمع وقيل إنه جمع أصلي وقيل إنه جمع ولكن الأصل فيه الكسر، والضم فيه بدل من الكسر كما أنه بدل من الفتح في نحو سكارى، والوارد منه في كلام العرب ألفاظ محصورة ذكرها الخفاجي في شرح درة الغواص والمشهور منها على ما قال ثمانية، وقد نظمها صدر الأفاضل لا الزمخشري على الأصح بقوله:

ما سمعنا كلما غير ثمان — هي جمع وهي في الوزن فعال(١)
فرباب وفرار وتؤام — وعرام وعراق ورخال وظؤار(٢)

جمع ظئر وبساط، جمع بسط هكذا فيما يقال.

وذهب أبو حيان إلى أن الرعاء في قراءة الجمهور ليس بقياس أيضاً قال: لأنه جمع راع وقياس فاعل الصفة التي للعاقل أن تكسر على فعلة كقاض وقضاة وما سوى جمعه هذا فليس بقياس، وقرأ عياش عن أبي عمرو الرعاء بفتح الراء وهو مصدر أقيم مقام الصفة فاستوى لفظ الواحد والجماعة فيه، وجوز أن يكون مما حذف منه المضاف أي أهل الرعاء ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ إبداء منهما للعذر له عليه السلام في توليهما للسقي بأنفسهما كأنهما قالتا: إنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء، وذكر بعضهم أنه عليه السلام أخرج السؤال على ما يقتضيه كرمه ورحمته بالضعفاء حيث سألهما عن مطلوبهما من التأخر والذود قصداً لأن يجاب بطلب المعونة إلا أنهما لجلالة قدرهما حملتا قوله على ما يجاب عنه بالسبب وفي ضمنه طلب المعونة لأن إظهارهما العجز ليس إلا لذلك، وقيل: ليس في الكلام ما يدل على ضعفهما بل فيه أمارات على حيائهما وسترهما ولو أرادتا إظهار العجز لقالتا لا نقدر على السقي ومعنى وأبونا شيخ كبير أنا مع حيائنا إنما تصدينا لهذا الأمر لكبره وضعفه وإلا كان عليه أن يتولاه، ولعل الأولى أن يقال: إنهما أرادتا إظهار العجز عن المساجلة للضعف ولما جبلا عليه من الحياء، والكلام وإن لم يكن فيه ما يدل على ضعفهما فيه ما يشير إليه لمن له قلب، ويفهم من بيان معنى جوابهما المار آنفاً أن جملة أبونا شيخ كبير عطف على مقدر، وجوز أن تكون حالاً أي نترك السقي حتى يصدر الرعاء والحال أبونا شيخ كبير وأبوهما عند أكثر المفسرين شعيب عليه السلام.

﴿فإن قيل﴾ كيف ساغ لنبي الله تعالى أن يرضى لابنتيه بسقي الغنم؟ فالجواب: أن الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحال حال ضرورة، وذهب جماعة إلى أنه ليس بشعيب عليه السلام فاخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة أنه قال كان صاحب موسى عليه السلام أثرون ابن أخي شعيب النبي عليه السلام، وحكى هذا القول عنه أبو حيان أيضاً إلا أنه ذكر هارون بدل أثرون وحكاه أيضاً عن الحسن إلا أنه ذكر بدله مروان، وحكى الطبرسي عن وهب وسعيد بن جبير نحو ما حكاه أبو حيان عن أبي عبيدة، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال بلغني أن أبا الامرأتين ابن أخي شعيب واسمه رعاويل وقد أخبرني من أصدق أن اسمه في الكتاب يثرون كاهن مدين والكاهن حبر، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال الذي استأجر موسى عليه السلام يثرب صاحب مدين، وجاء في رواية أخرى عنه أن اسمه يثرون وهو موافق لما نقل عن الكتاب من الاسم ولم يذكر في هاتين الروايتين نسبته إلى شعيب عليه السلام فيحتمل أن المسمى بما فيها ابن

---

(١) الرباب جمع ربي الشاة الحديثة العهد بالنتاج. والفرار جمع فرير ولد البقرة الوحشية، والتؤام جمع توأم المولود مع قرينه. والعرام بالعين والراء المهملتين بمعنى العراق وهو جمع عرق العظم الذي عليه بقية لحم. والرخال جمع رخلة بالكسر وبهاء، وككتف الأنثى من أولاد الضأن ا هـ منه.

(٢) والظؤار جمع ظئر المرضع، والبساط جمع بسط الناقة التي تخلى مع ولدها ا هـ منه.

أخيه ويحتمل أنه رجل أجنبي عنه فقد قيل: إن أباهما ليس ذا قرابة من شعيب عليه السلام وإنما هو رجل صالح، وحكى الطبرسي عن بعضهم أن يثرون اسم شعيب وقد أخبرني بعض أهل الكتاب بذلك أيضاً إلا أنه قال هو عندنا يثرو بدون نون في آخره والذي رأيته أنا في الفصل الثاني من السفر الثاني من توراتهم ما ترجمته ولما سمع فرعون بهذا الخبر أي خبر القتل طلب أن يقتل موسى فهرب موسى من بين يديه وصار إلى بلد مدين وجلس على بئر ماء وكان لإمام مدين سبع بنات فجاءت ودلت وملأت الأحواض لسقي غنم أبيهن فلما جاء الرعاة فطردوهن قام موسى فأغاثهن وسقى غنمهن فلما جئن إلى رعوايل أبيهن قال ما بالكن أسرعتن المجيء اليوم إلخ، وفي أول الفصل الثالث منه ما ترجمته وكان موسى يرعى غنم يثرو حمية أمام مدين إلخ فلا تغفل، وفي البحر عند الكلام في تفسير ﴿إن أبي يدعوك﴾ قيل: كان عمها صاحب الغنم وهو المزوج عبرت عنه بالأب إذ كان بمثابته والظاهر أن هذا القائل يقول: إنهما عنتا بالأب هنا العم، وأنت تعلم أن هذا وأمثاله مما تقدم مما لا يقال من قبل الرأي فالمدار في قبول شيء من ذلك خبر يعول عليه والأخبار التي وقفنا عليها في هذا المطلب مختلفة ولم يتميز عندنا ما هو الأرجح فيما بينها وكأني بك تعول على المشهور الذي عليه أكثر المفسرين وهو أن أباهما على الحقيقة شعيب عليه السلام إلى أن يظهر لك ما يوجب العدول عنه والظاهر من قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أنه عليه السلام سارع إلى السقي لهمارحمة عليهما ومنشأ الترحم كونهما على الذود وكون الأمة من الناس على السقي ولهذا ذهب الشيخ عبد القاهر وصاحب الكشاف إلى أن حذف المفعول في يسقون وتذودان للقصد إلى نفس الفعل وتنزيله منزلة اللازم أي يصدر منهم السقي ومنهما الذود وقال: إن كون المسقي والمذود إبلاً أو غنماً خارج عن المقصود بل يوهم خلافه إذ لو قيل: أو قدر يسقون إبلهم وتذودان غنمهما لتوهم أن الترحم عليهما ليس من جهة أنهما على الذود والناس على السقي بل من جهة أن مذودهما غنم ومسقيهم إبل بناء على أن محط الفائدة في الكلام البليغ هو القيد الأخير وخالفهما في ذلك السكاكي فذهب إلى أن حذف المفعول من يسقون وتذودان لمجرد الاختصار والمراد يسقون مواشيهم وتذودان غنمهما وكذا سائر الأفعال المذكورة في هذه الآية، واختاره العلامة الثاني فقال: إن هذا أقرب إلى التحقيق لأن الترحم لم يكن من جهة صدور الذود عنهما وصدور السقي من الناس بل من جهة ذودهما غنمهما وسقي الناس مواشيهم حتى لو كانتا تذودان غير غنمهما بل مواشيهم وكان الناس يسقون غير مواشيهم بل غنمهما مثلاً لم يصح الترحم ووافقه في ذلك السيد السند وقال في تحقيق المذهبين: إن الشيخين اعتبرا المفعول الذي نزل الفعلان بالنسبة إليه هو الإبل والغنم مثلاً أي النوعين من المواشي بدون الإضافة كما يدل عليه قولهما إن كون المسقي والمذود إبلاً أو غنماً إلخ وكل منهما مقابل للآخر في نفسه وجعلا ما يضاف إليه كل في القول أو التقدير المفروض خارجاً عن المفعول من حيث إنه مفعول غير ملحوظ معه فالمفعول عندهما ليس إلا مطلق الإبل والغنم فلو قدر المفعول لأدّى إلى فساد المعنى فإنهما لو كانتا تذودان إبلاً لهما على سبيل الفرض لكان الترحم باقياً بحاله لأنه إنما كان لعدم قدرتهما على السقي، والسكاكي نظر إلى أن المفعول هو الغنم المضافة إليهما والمواشي المضافة إليهم وكل واحد منهما يقابل الآخر من حيث إنه مضاف فلو لم يقدر المفعول يفسد المعنى وهذا أدق نظراً وأصح معنى انتهى، وتعقبه المولى عبد الحكيم السالكوني بقوله: وفيه بحث لأن عدم التقدير إن قصد به التعميم أي يسقون مواشيهم وغير مواشيهم وتذودان غنمهما وغير غنمهما يلزم الفساد أما إذا قصد به مجرد السقي والذود من غير ملاحظة التعلق بالمفعول كما في قوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩] فلا لأن كون طبيعة السقي والذود منشأ الترحم لا يقتضي أن يكون عند تعلقه بمفعول مخصوص كذلك حتى يلزم أن يكون سقي غير مواشيهم وذود غير غنمهم محلاً للترحم فتدبر، فإن منشأ ما ذكره السكاكي عدم الفرق بين الإطلاق والعموم انتهى، ولا يخفى أنه ينبغي أن يضم إلى طبيعة السقي والذود بعض

الحيثيات كحيثية تحقق طبيعة السقي من أقوياء متغلبين وتحقق طبيعة الذود من امرأتين ضعيفتين مستورتين في موضع هو مجتمع الناس للسقي وإلا فالظاهر أن مجرد طبيعة السقي والذود لا تصلح منشأ الترحم.

وقال بعض الأجلة: ترك المفعول في يسقون ويذودان لأن الغرض هو الفعل لا المفعول إذ هو يكفي في البعث على سؤال موسى عليه السلام وما زاد على المقصود لكنة وفضول، وأما البعث على المرحمة فليس هذا موضعه فإن له قولهما: ﴿**لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير**﴾ ومن لم يفرق بين البعثين قال ما قال ورد بأن منشأ السؤال هو المرحمة لحالهما كما صرحوا به فسؤاله عليه السلام للتوسل إلى إعانتهما وبرهما لتفرس ضعفهما وعجزهما ولولاه لم يكن للتكلم مع الأجنبية داع، وقولهما: ﴿**لا نسقي**﴾ إلخ باعث لمزيد المرحمة لقبولها للزيادة والنقص، وتعقب بأنه إنما يتم لو سلم أنه عليه السلام تفرس ضعفهما وعجزهما لأمور شاهدها، وإلا فالذود لا يدل على ذلك إذ يتحقق للضعف ولغيره، وقد نقل الخفاجي كلام جمع من الفضلاء في هذا المقام منه ما ذكرنا عن بعض الأجلة ورده واعترض بما اعترض، ثم قال: وأما ما اعترض به على المرحمة فخيال فاسد ومحط كلامه عليه الرحمة الانتصار لما ذهب إليه الشيخان وقد انتصر لهما، وقال بقولهما غير واحد.

واعترض بعضهم على تقدير المفعول مضافاً بأن الإضافة تشعر بالملك ولا ملك لأحد من الأمة والامرأتين فإن الظاهر في الأمة أنهم كانوا رعاء والأغلب أن الرعاء لا يملكون، والظاهر أن ما في يد الامرأتين كان ملكاً لأبيهما، ولا يخفى أن هذا الاعتراض على طرف الثمام، والله تعالى أعلم، هذا والظاهر أنه عليه السلام سقى لهما من البئر التي عليها الناس ويدل عليه ما روي أنه عليه السلام دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما وكذا ما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليها أمة من الناس يسقون فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين قال ما خطبكما فحدثتاه فأتى الصخرة فرفعها وحده ثم استسقى فلم يستسق إلا دلواً واحداً حتى رويت الغنم لكن هذا مخالف لما يقتضيه ظاهر الآية من أنه عليه السلام حين ورد ماء مدين وجد الأمة يسقون ووجد الامرأتين تذودان وهذا ظاهر في مقارنة وجدانهما لوجدانهم وذودهما لسقيهم ولا يكاد يفهم منه أن وجدانهما بعد فراغهم من السقي كما يقتضيه الخبر فلعل الخبر غير صحيح، وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار وكأن من يقول بصحته يمنع اقتضاء الآية كون وجدان الأمة يسقون ووجدان الامرأتين تذودان في أول وقت الورود فإنه يقال: لما ورد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة وجب الصيام ووجبت الزكاة مثلاً مع أن وجوب كل ليس في أول وقت الورود فيجوز أن يكون عليه السلام قد وجد أمة يسقون أول وقت وروده وبعد أن فرغوا من السقي ووضعوا الصخرة على البئر وجد امرأتين تذودان فخاطبهما بما خطبكما فكان ما كان ويحمل ذودهما على منع غنمهما عن التقدم إلى البئر لعلمهما أنها قد أطبق عليها صخرة لا يقدرون على رفعها ويتكلف في توجيه الجواب ما يتكلف أو يقول الآية على ظاهرها ويسلم اقتضاءه اتحاد الوجدانين والذود والسقي بالزمان ويمنع أن يكون في الخبر ما ينافي ذلك لجواز أن يكون المعنى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان فلما فرغوا أعادوا الصخرة فإذا بالامرأتين حاضرتان عنده بين يديه فسألهما فحدثتاه إلخ فما بعد الفراغ من السقي ليس وجدان الامرأتين تذودان وإنما هو حضورهما بين يديه والكل كما ترى وكأني بك تعتمد عدم صحة الخبر.

وقيل: إنه عليه السلام سقى لهما من بئر أخرى، فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في خبر طويل أنه عليه السلام لما سأل الامرأتين وأجابتا قال: فهل قربكما ماء؟ قالتا: لا إلا بئر عليها

صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر. قال: فانطلقا فأريانيها. فانطلقا معه فقال بالصخرة بيده فنحاها ثم استقى لهما سجلاً واحداً فسقى الغنم ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ الذي كان هناك وهو على ما روي عن ابن مسعود ظل شجرة قيل: كانت سمرة، وقيل: هو ظل جدار لا سقف له.

وقيل: إنه عليه السلام جعل ظهره يلي ما كان يلي وجهه من الشمس، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ثم تولى إلى الظل﴾ وهو كما ترى ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ﴾ أي لأي شيء تنزله من خزائن كرمك إليّ.

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ جل أو قل ﴿فَقِيرٌ﴾ أي محتاج وهو خبر إن وبه يتعلق لما، ولما أشرنا إليه من تضمنه معنى الاحتياج عدي باللام، وجوز أن يكون مضمناً معنى الطلب واللام للتقوية، وقيل: يجوز أن تكون للبيان فتتعلق بأعني محذوفاً، و ﴿ما﴾ على جميع الأوجه نكرة موصوفة، والجملة بعدها صفتها، والرابط محذوف، ومن خير بيان لها، والتنوين فيه للشيوع، والكلام تعريض لما يطعمه لما ناله من شدة الجوع؛ والتعبير بالماضي بدل المضارع في أنزلت للاستعطاف كالافتتاح بربِ، وتأكيد الجملة للاعتناء، ويدل على كون الكلام تعريضاً لذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما سقى موسى عليه السلام للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر».

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: «لقد قال موسى عليه السلام رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع» وفي رواية أخرى عنه «أنه عليه السلام سأل فلقاً من الخبز يشد بها صلبه من الجوع وكان عليه السلام قد ورد ماء مدين» وأنه كما روى أحمد في الزهد وغيره عن الحبر ليتراءى خضرة البقل من بطنه من الهزال وإلى كون الكلام تعريضاً لذلك ذهب مجاهد؛ وابن جبير، وأكثر المفسرين؛ وكان علي كرّم الله تعالى وجهه يقول: والله ما سأل إلا خبزاً يأكله، وجوز أن تكون اللام للتعليل وما موصولة ومن للبيان والتنكير في خير لإفادة النوع والتعظيم، وصلة فقير مقدرة أي إني فقير إلى الطعام أو من الدنيا لأجل الذي أنزلته إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين فقد كان عليه السلام عند فرعون في ملك وثروة وليس الغرض عليه التعريض لما يطعمه ولا التشكي والتضجر بل إظهار التبجح والشكر على ذلك، ووجه التعبير بالماضي عليه ظاهر.

وأنت تعلم أن هذا خلاف المأثور الذي عليه الجمهور، ومثله في ذلك ما روي عن الحسن أنه عليه السلام سأل الزيادة في العلم والحكمة ولا يخلو أيضاً عن بعد. وجاء عن ابن عباس أن الامرأتين سمعتا ما قال فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما فسألهما فأخبرتاه فقال لإحداهما: انطلقي فادعيه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ قيل هي الكبرى منهما وقيل الصغرى وكانتا على ما في بعض الروايات توأمتين ولدت إحداهما قبل الأخرى بنصف نهار. وقرأ ابن محيصن «حداهما» بحذف الهمزة تخفيفاً على غير قياس مثل ويلمه في ويل أمه ﴿تَمْشِي﴾ حال من فاعل جاءت. وقوله تعالى: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشي أي جاءته ماشية كائنة على استحياء فمعناه أنها كانت على استحياء حالتي المشي والمجيء معاً لا عند المجيء فقط، وتنكير استحياء للتفخيم. ومن هنا قيل جاءت متخفرة أي شديدة الحياء. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبدالله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال جاءت مستترة بكم درعها على وجهها وأخرجه ابن المنذر عن أبي الهذيل موقوفاً عليه وفي رفعه إلى عمر رواية أخرى صححها الحاكم بلفظ واضعة ثوبها على وجهها ﴿قَالَتْ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيئها إياه عليه السلام كأنه قيل: فماذا قالت له عليه السلام؟ فقيل قالت:

﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي جزاء سقيك على أن ما مصدرية ولا يجوز أن تكون موصولة لأن ما يستحق عليه الأجر فعله لا ما سقاه إذ هو الماء المباح وأسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة. وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى. روي أنه عليه السلام أجابها فقام معها فقال لها امشي خلفي وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك ففعلت. وفي رواية أنه قال لها كوني ورائي فإني رجل لا أنظر إلى أدبار النساء ودليني على الطريق يميناً أو يساراً، وروي عن ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم أنها مشت أولاً أمامه فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي ما جرى عليه من الخبر المقصوص، فإنه مصدر سمي به المفعول كالعلل **﴿قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** يريد فرعون وقومه، وقال ذلك لما أنه لا سلطان لفرعون بأرضه، ويحتمل أنه قاله عن إلهام أو نحوه، واختلف في الداعي له عليه السلام إلى الإجابة فقيل الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر برأيه لا طمعاً بما صرحت به من الأجر، ألا ترى إلى ما أخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال: لما دخل موسى على شعيب عليهما السلام إذا هو بالعشاء فقال له شعيب: كل. قال موسى. أعوذ بالله تعالى. قال: ولم ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وإنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً قال: لا والله، ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام فأكل، وقيل: الداعي له ما به من الحاجة وليس بمستنكر منه عليه السلام أن يقبل الأجر لإضرار الفقر والفاقة.

فقد أخرج الإمام أحمد عن مطرف بن الشخير قال أما والله لو كان عند نبي الله تعالى شيء ما تبع مذقتها ولكن حمله على ذلك الجهد، واستدل بعضهم على أن ذهابه عليه السلام رغبة بالجزاء بما روي عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بقوله: **﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾** ليسمعهما، ولذلك قيل له ليجزيك إلخ، وأجيب بأنه ليس بنص لاحتمال أنه إنما فعله ليكون ذريعة إلى استدعائه لا إلى استيفاء الأجر، ولا ضير فيما أرى أن يكون عليه السلام قد ذهب رغبة في سد جوعته وفي الاستظهار برأي الشيخ ومعرفته، ولا أقول إن الرغبة في سد الجوعة رغبة في استيفاء الأجر على عمل الآخرة أو مستلزمة لها، ودعوى أن الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أنه عليه السلام إنما أجاب للتبرك والاستظهار بالرأي لا تخلو عن خفاء، وعمله عليه السلام بقول امرأة لأنه من باب الرواية، ويعمل بقول الواحد حراً كان أو عبداً ذكراً كان أو أنثى إذا كان كذلك، ومماشاته امرأة أجنبية مما لا بأس به في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع **﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾** وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى عليهما السلام **﴿يَاأَبَتِ استأجرهُ﴾** أي لرعي الأغنام والقيام بأمرها، وأصل الاستئجار كما قال الراغب طلب الشيء بالأجرة ثم عبر به عن تناوله بها وهو المراد هنا. وكذا في قوله سبحانه: **﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾** وهو تعليل جار مجرى الدليل على أنه عليه السلام حقيق بالاستئجار المفهوم من طلب استئجاره، وبعضهم رتب من الآية قياساً من الشكل الأول هكذا هو قوي أمين وكل قوي أمين لائق بالاستئجار ينتج هو لائق بالاستئجار وهو المدعى المفهوم من الطلب، وتعقب بأن هذا ظاهر لو كان خير خبراً وليس هو كذلك، وأجيب بأن المعنى على ذلك إلا أنه جعل اسماً للاهتمام بأمر الخيرية لأنها أم الكمال المبني عليها غيرها. وفي الكشاف فإن قيل: كيف جعل خير من استأجرت اسماً لإن والقوي الأمين خبراً؟ قلت: هو مثل قوله:

ألا إن خير الناس حيّاً وهالكاً أسير ثقيف عندهم في السلاسل

في أن العناية هي سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق أن يكون خبراً اسماً وأراد بذلك على ما قيل: أحقية كون خير خبراً من حيث الصناعة، ووجه بأن خيراً مضاف إلى من وهي نكرة فكذا هو والإخبار عن النكرة بالمعرفة خلاف الظاهر، وإن جوزوه في اسمي التفضيل والاستفهام، ولو جعلت موصولة فإضافة أفعل التفضيل لفظية لا تفيد تعريفاً كما هو أحد قولين للنحاة فيها، وعلى القول بإفادتها التعريف يقال: المعرف باللام أعرف من الموصول وما أضيف إليه. وتعقب بأن تعريف القوي الأمين للجنس وما فيه تعريف الجنس قد ينزل منزلة النكرة، وأجيب بأن الموصول إذا أريد به الجنس كذلك وهنا تصح هذه الإرادة ليجيء التعدد الذي يقتضيه خير، وحيث كان المضاف إلى شيء دونه يكون القوي الأمين أحق بالاسمية وخير أحق بالخبرية. وإذ قلت بأن أحقية الخبرية لأن سوق التعليل يقتضيها إلا أنه عدل إلى الاسمية للاهتمام خلصت من كثير من المناقشات. وقال لي الشيخ خليل أفندي الآمدي يوم اجتمعت به وأنا شاب عند وروده إلى بغداد فجرى بحث في هذه الآية الكريمة: إن القياس المأخوذ منها من الشكل الثاني هكذا موسى القوي الأمين وخير من استأجرت القوي الأمين ينتج موسى خير من استأجرت. فقلت: أظهر ما يرد على هذا أن شرط إنتاج الشكل الثاني بحسب الكيفية اختلاف مقدمتيه بالإيجاب والسلب بأن تكون إحداهما موجبة والأخرى سالبة وهو منتفٍ فيما ذكرت فسكت وأعرض عن البحث حذراً من الفضيحة.

وأنت تعلم أن أدلة القرآن لا يلزم فيها الترتيب الذي وضعه المنطقيون فذلك صناعة أغنى الله تعالى العرب عنها، وما ذكر من أن جعل خير اسماً للاهتمام هو ما اختاره غير واحد، وجوز الطيبي أن يكون تقديمه وجعله اسماً من باب القلب للمبالغة، والظاهر أن أل في القوي الأمين للجنس فيندرج موسى عليه السلام وهو وجه الاستدلال. وذكر الاستئجار بلفظ الماضي مع أن الظاهر ذكره بلفظ المضارع للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف. وجوز الطيبي أن يكون المراد بالقوي الأمين موسى عليه السلام فكأنها قالت: إن خير من استأجرت موسى، والأول أولى. ثم إن كلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه لأنه إذا اجتمعت الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوته وأمانته، ولعمري إن مثل هذا المدح من المرأة للرجل أجمل من المدح الخاص وأبقى للحشمة وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها أن يزوجها منه، ومعرفتها قوته عليه السلام لما رأت من دفعه الناس عن الماء وحده حتى سقى لهما، ومعرفتها أمانته من عدم تعرضه لها بقبيح ما مع وحدتها وضعفها. وروي أنها لما قالت ما قالت قال لها أبوها: ما أعلمك بقوته؟ فذكرت له أنه عليه السلام أقل صخرة على البئر لا يقلها كذا وكذا وقد مر في حديث عمر رضي الله تعالى عنه أنه لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال؛ والنقل في عدد من يقلها مضطرب فأقل ما قالوا فيه سبعة وأكثره مائة، وقد مر ما يعلم منه حال الخبر في أصل الإقلال، وذكرت أنه نزع وحده بدلو لا ينزع بها إلا أربعون. وقال: ما أعلمك بأمانته؟ فذكرت ما كان من أمره إياها بالمشي وراءه وأنه صوب رأسه حتى بلغته الرسالة، وقدمت وصف القوة مع أن أمانة الأجير لحفظ المال أهم في نظر المستأجر لتقدم علمها بقوته عليه السلام على علمها بأمانته أو ليكون ذكر وصف الأمانة بعده من باب الترقي من المهم إلى الأهم، واستدل بقولها استأجره على مشروعية الإجارة عندهم وكذا كانت في كل ملة وهي من ضروريات الناس ومصلحة الخلطة خلافاً لابن علية والأصم حيث كانا لا يجيزانها وهذا مما انعقد عليه الإجماع وخلافهما خرق له فلا يلتفت إليه وهذا لعمري غريب منهما إن كانا لا يجيزان الإجارة مطلقاً، ورأيت في الإكليل أن في قوله تعالى: ﴿**أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني**﴾ إلخ رد على من منع الإجارة المتعلقة

بالحيوان عشر سنين لأنه يتغير غالباً فلعل الإجارة التي لا يجيزانها نحو هذه الإجارة والأمر في ذلك أهون من عدم إجازة الإجارة مطلقاً كما لا يخفى.

﴿قَالَ إني أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْن﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فما قال أبوها بعد أن سمع كلامها؟ فقيل: قال إني. وفي تأكيد الجملة إظهار لمزيد الرغبة فيما تضمنته الجملة، وفي قوله: ﴿هاتين﴾ إيماء إلى أنه كانت له بنات أخر غيرهما، وقد أخرج ابن المنذر عن مجاهد أن لهما أربع أخوات صغار، وقال البقاعي: إن له سبع بنات كما في التوراة وقد قدمنا نقل ذلك. وفي الكشاف فيه دليل على ذلك.

واعترض بأنه لا دلالة فيه على ما ذكر إذ يكفي في الحاجة إلى الإشارة عدم علم المخاطب بأنه ما كانت له غيرهما. وتعقب بأنه على هذا تكفي الإضافة العهدية ولا يحتاج إلى الإشارة فهذا يقتضي أن يكون للمخاطب علم بغيرهما معهود عنده أيضاً، وإنما الإشارة لدفع إرادة غيرهما من ابنتيه الأخريين المعلومتين له من بينهن؛ ونعم ما قال الخفاجي لا وجه للمشاحة في ذلك فإن مثله زهرة لا يحتمل الفرك.

وقرأ ورش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو «أنكحك احدى» بحذف الهمزة، وقوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَني﴾ في موضع الحال من مفعول ﴿أنكحك﴾ أي مشروطاً عليك أو واجباً أو نحو ذلك، ويجوز أن يكون حالاً من فاعله قاله أبو البقاء، وتأجرني من أجرته كنت له أجيراً كقولك أبوته كنت له أباً، وهو بهذا المعنى يتعدى إلى مفعول واحد، وقوله تعالى: ﴿ثَمانيَ حِجَج﴾ ظرف له، ويجوز أن يكون تأجرني بمعنى تثيبني من أجره الله تعالى على ما فعل أي أثابه فيتعدى إلى اثنين ثانيهما هنا ثماني حجج. والكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي تثيبني رعية ثماني حجج أي تجعلها ثوابي وأجري على الإنكاح ويعني بذلك المهر.

وجوز على هذا المعنى أن يكون ظرفاً لتأجرني أيضاً بحذف المفعول أي تعوضني خدمتك أو عملك في ثماني حجج، ونقل عن المبرد أنه يقال: أجرت داري ومملوكي غير ممدود وآجرت ممدوداً، والأول أكثر فعلى هذا يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الثاني محذوف، والمعنى على أن تأجرني نفسك، وقد يتعدى إلى واحد بنفسه، والثاني بمن فيقال: أجرت الدار من عمرو، وظاهر كلام الأكثرين أنه لا فرق بين آجر بالمد وأجر بدونه، وقال الراغب: يقال أجرت زيداً إذا اعتبر فعل أحدهما، ويقال: آجرته إذا اعتبر فعلاهما وكلاهما يرجعان إلى معنى، ويقال كما في القاموس أجرته أجراً وآجرته إيجاراً ومؤاجرة.

وفي تحفة المحتاج آجره بالمد إيجاراً وبالقصر يأجره بكسر الجيم وضمها أجراً، وفيها أن الإجارة بتثليث الهمزة والكسر أفصح لغة اسم للأجرة ثم اشتهرت في العقد، والحجج جمع حجة بالكسر السنة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً﴾ في الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي فهو من عندك من طريق التفضل لا من عندي بطريق الإلزام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمام العشر والمناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال، واشتقاق المشقة وهي ما يصعب تحمله من الشق بفتح الشين وهو فصل الشيء إلى شقين فإن ما يصعب عليك يشق عليك رأيك في أمره لتردده في تحمله وعدمه ﴿سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراد شعيب عليه السلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى لا تعليق صلاحه بمشيئته سبحانه بمعنى أنه إن شاء الله تعالى استعمل الصلاح وإن شاء عز وجل استعمل خلافه لأنه لا يناسب المقام.

وقيل: لأن صلاحه عليه السلام متحقق فلا معنى للتعليق، ونحوه قول الشافعي: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مبتدأ وخبر أي ذلك الذي قلت وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم وثابت بيننا جميعاً لا يخرج عنه واحد منا لا أنا عما شرطت عليّ ولا أنت عما شرطت على نفسك، وقوله سبحانه: ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ﴾ أي أطولهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أي وفيتك بأداء الخدمة فيه ﴿فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيار أي لا عدوان كائن عليّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين وتعميم انتفاء العدوان بكلا الأجلين بصدد المشارطة مع تحقق عدم العدوان في أطولهما رأساً للقصد إلى التسوية بينهما في الانتفاء أي كما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الأجلين قضيت فلا إثم كائن عليّ كما لا إثم عليّ في قضاء الأطول لا إثم عليّ في قضاء الأقصر فقط.

وقرأ عبدالله «أي الأجلين ما قضيت» فما مزيدة لتأكيد القضاء أي أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له كما أنها في القراءة الأولى مزيدة لتأكيد إبهام أي وشياعها، وجعلها نافية لا يخفى ما فيه؛ وقرأ الحسن، والعباس عن أبي عمرو «أَيْمَا» بتسكين الياء من غير تشديد كما في قول الفرزدق:

تنظرت نصراً والسماكين أيهما ... عليّ من الغيث استهلت مواطره

وأصلها المشددة وحذفت الياء تخفيفاً وهي مما عينه واو ولامه ياء، ونص ابن جني على أنها من باب أويت قياساً واشتقاقاً وقد نقل كلامه في بيان ذلك العلامة الطيبي في شرح الكشاف فليرجع إليه من شاء.

وقرأ أبو حيوة وابن قطيب «فلا عِدْوَانَ» بكسر العين ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ﴾ أي شهيد على ما روي عن ابن عباس، وقال قتادة: حفيظ، وفي البحر الوكيل الذي وكل إليه الأمر ولما ضمن معنى شاهد ونحوه عدي بعلى ومن هنا قيل: أي شاهد حفيظ، والمراد توثيق العهد وأنه لا سبيل لأحد منهما إلى الخروج عنه أصلاً، وهذا بيان لما عزما عليه واتفقا على إيقاعه إجمالاً من غير تعرض لبيان مواجب عقدي النكاح والإجارة في تلك الشريعة تفصيلاً، وقول شعيب عليه السلام: ﴿إني أريد أن أنكحك﴾ إلخ ظاهر في أنه عرض لرأيه على موسى عليه السلام واستدعاء منه للعقد لا إنشاء وتحقيق له بالفعل، ولم يجزم القائلون باتفاق الشريعتين في ذلك بكيفية ما وقع، فقيل لعل النكاح جرى على معينة بمهر غير الخدمة المذكورة وهي إنما ذكرت على طريق المعاهدة لا المعاقدة فكأنه قال: أريد أن أنكحك إحدى ابنتي بمهر معين إذا أجرتني ثماني حجج بأجرة معلومة فما تقول في ذلك فرضي فعقد له على معينة منهما، فلا يرد أن الإبهام في المرأة المزوجة غير صحيح، وعلى الخدمة ومنافع الحر عندنا أيضاً خصوصاً إذا قيل: إن مدتها غير معينة وهي أيضاً ليست للزوجة بل لأبيها فكيف صح كونها مهراً، وقيل: يجوز أن يكون جرى على معينة بمهر الخدمة المذكورة ولا فساد في جعل الرعية مهراً فإنه جائز عند الشافعي عليه الرحمة وكذا عند الحنفية كما يفهم من الهداية ونقل عن صاحب المدارك أنه قال: التزوج على رعي الغنم جائز بالإجماع لأنه قيام بأمر الزوجية لا خدمة صرفة، وفي دعوى الإجماع إن أريد به إجماع الأئمة مطلقاً بحث، ففي المحيط البرهاني لو تزوجها على أن يرعى غنمها سنة لم يجز على رواية الأصل، وروى ابن سماعة عن محمد أنه يجوز في الرعي، وفي الانتصاف مذهب مالك في ذلك على ثلاثة أقوال المنع والكراهة والجواز، ويقال على الجواز كانت الغنم للمزوجة لا لأبيها وليس في المدة إبهام إذ هي الحجج الثمان والزائدة قد وعد موسى عليه السلام الوفاء به إن تيسر له على أن الإبهام في المهر يجوز كما هو مبين في الفروع، وقال بعضهم: يجوز أن تكون الشرائع مختلفة في أمر الإنكاح فلعل إنكاح المبهمة جائز في شريعة شعيب عليه السلام ويكون التعيين للولي أو للزوج، وكذا جعل خدمة الولي صداقاً ونحو ذلك مما لا يجوز في شريعتنا.

ولا يرد أن ما قص من الشرائع السالفة من غير إنكار فهو شرع لنا لأنه على الإطلاق غير مسلم. وفي الإكليل عن مكي أنه قال: في الآية خصائص في النكاح. منها أنه لم يعين الزوجة، ولا حد أول المدة، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم ينفذ شيئاً. والذي يميل إليه القلب اختلاف الشرائع في مواجب النكاح وربما يستأنس له بما في الفصل التاسع والعشرين من السفر الأول من التوراة أن يعقوب عليه السلام مضى إلى بلد أهل الشرق فإذا بئر في الصحراء على فمها صخرة عظيمة وعندها ثلاثة قطعان من الغنم فقال لرعاتها: من أين أنتم يا إخوة؟ قالوا من حران. فقال لهم: أتعرفون لابان بن ناحور؟ فقالوا: نعم. فقال: أحي هو؟ قالوا: نعم وهذه راحيل ابنته مع الغنم. ثم قال: ليس هذا وقت انضمام الماشية فاسقوا الغنم وامضوا بها فارعوها. قالوا: لا نطيق ذلك إلى أن تجتمع الرعاة ويدحرجوا الصخرة عن فم البئر فبينما هو يخاطبهم جاءت راحيل مع غنم أبيها فلما رأى ذلك تقدم ودحرج الصخرة وسقى غنم خاله لابان ثم قبل راحيل وبكى وأخبرها أنه ابن عمتها ربقا فأخبرت أباها فخرج للقائه فعانقه وقبله وأدخله إلى منزله ثم قال لابان له: أما أنت فعظمي ولحمي ومكث عنده شهراً فقال له لابان: أنت وإن كنت ذا قرابة مني لا أستحسن أن تخدمني مجاناً فأخبرني بما تريد من الأجرة؟ وكان له ابنتان اسم الكبرى ليا واسم الصغرى راحيل وعينا ليا حسنتان وراحيل حسنة الحلية والمنظر فأحبها يعقوب فقال: أخدمك سبع سنين براحيل فقال: لابان: إعطائي إياها لك أصلح من إعطائي إياها لرجل آخر فأقم عندي فخدمه براحيل سبع سنين ثم قال: أعطني زوجتي فقد كملت أيامي فجمع لابان أهل الموضع وصنع لهم مجلساً فلما كان العشاء أخذ ليا بنته فزفها إليه ودخل عليها فأعطاها لابان أمته زلفا لتكون لها أمة فلما كانت الغداة فإذا هي ليا فقال للابان: ماذا صنعت بي أليس براحيل خدمتك؟ قال: نعم لكن لا تزوج الصغرى قبل الكبرى في بلدنا فأكمل أسبوع هذه وأعطيك أختها راحيل أيضاً بالخدمة التي تخدمها عندي سبع سنين أخر فكمل يعقوب أسبوع ليا ثم أعطاه ابنته راحيل زوجة وأعطاها أمته بلها لتكون لها أمة، فلما دخل عليها يعقوب أحبها أكثر من حبه ليا ثم خدمه سبع سنين أخر اهـ.

وأخبرني بعض أهل الكتاب أنه يجوز أن تكون خدمة الأب مهراً لابنته ويلزم الأب إرضاؤها بشيء إذا كانت كبيرة وأن ما التزم من الخدمة لا يجب فعله قبل الدخول ويكفي الالتزام والتعهد، وأن المهر عندهم كل شيء له قيمة أو ما في حكمها، وأن تسليم المرأة نفسها للزوج راضية بما يحصل لها منه من قضاء الوطر والانتفاع بدلاً عن المهر قد يقوم مقام المهر، وأن حل الجمع بين الأختين كان ليعقوب عليه السلام خاصة، وهذا الأخير مما ذكره علماء الإسلام والله تعالى أعلم بصحة غيره مما ذكر من الكلام، هذا وللعلماء في الآية استدلالات. قال في الإكليل: فيها استحباب عرض الرجل موليته على أهل الخير والفضل أن ينكحوها، واعتبار الولي في النكاح، وأن العمى لا يقدح في الولاية فإنه عليه السلام كان أعمى، واعتبار الإيجاب والقبول في النكاح وقال ابن الغرس: استدل مالك بهذه الآية على إنكاح الأب البكر البالغة بغير استئمار لأنه لم يذكر فيها استئمار. قال: واحتج بعضهم على جواز أن يكتب في الصداق أنكحه إياها خلافاً لمن اختار أنكحها إياه قائلاً لأنه إنما يملك النكاح عليها لا عليه. وقال ابن العربي: استدل بها أصحاب الشافعي على أن النكاح موقوف على لفظ الإنكاح والتزويج. قال: واستدل بها قوم على جواز الجمع بين نكاح وإجارة في صفقة واحدة فعدوه إلى كل صفقة تجمع عقدين وقالوا بصحتها. قال: واستدل بها علماؤنا على أن اليسار لا يعتبر في الكفاءة فإن موسى عليه السلام لم يكن حينئذ موسراً . قال: وفي قوله: **﴿والله على ما نقول وكيل﴾** اكتفاء بشهادة الله عز وجل إذ لم يشهد أحداً من الخلق فيدل على عدم اشتراط الإشهاد في النكاح اهـ. واستدل بها الأوزاعية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك بألف نقداً أو ألفين نسيئة اهـ ما في الإكليل مع حذف قليل.

ولا يخفى ما في هذه الاستدلالات من المقالات والمنازعات. ثم إن ما تقدم عن مكي من أنه عليه السلام دخل ولم ينفذ شيئاً مما قاله غيره أيضاً. وقد روي أيضاً من طريق الإمامية عن أبي عبدالله رضي الله تعالى عنه، وقيل: إنه عليه السلام لم يدخل حتى أتم الأجل، وجاء في بعض الآثار أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام: ادخل ذلك البيت فخذ عصاً من العصي التي فيه وكان عنده عصي الأنبياء عليهم السلام فدخل وأخذ العصا التي هبط بها آدم من الجنة ولم تزل الأنبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فقال له شعيب: خذ غير هذه فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له شأناً، وعن عكرمة أنه قال. خرج آدم عليه السلام بالعصا من الجنة فأخذها جبرائيل عليه السلام بعد موته وكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه. وفي مجمع البيان عن أبي عبدالله رضي الله تعالى عنه أنه قال: كانت عصا موسى قضيب آس من الجنة أتاه بها جبرائيل عليه السلام لما توجه تلقاء مدين. وقال السدي: كانت تلك العصا قد أودعها شعيباً ملك في صورة رجل فأمر ابنته أن تأتي بعصا فدخلت وأخذت العصا فأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فردها سبع مرات فلم يقع في يدها غيرها فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع: فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهي له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام. وعن الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً، وعن الكلبي الشجرة التي نودي منها شجرة العوسج ومنها كانت عصاه.

وروي أنه لما شرع عليه السلام بالخدمة والرعي قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنيناً أخشاه عليك وعلى الغنم، فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها ومشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك ولما رجع إلى شعيب وجد الغنم ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بما كان ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع أو درعاء فوفى له شعيب بما قال، وحكى يحيى بن سلام أنه جعل له كل سخلة تولد على خلاف شية أمها فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في المنام أن ألق عصاك في الماء الذي تسقي منه الغنم ففعل فولدت كلها على خلاف شيتها، وأخرج ابن ماجة والبزار وابن المنذر والطبراني وغيرهم من حديث عتبة السلمي مرفوعاً «أنه عليه السلام لما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى إلى عصاه فسماها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة فأتمت وانثنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش أي واسعة الشخب ولا ضبوب أي طويلة الضرع تجره ولا غزور أي ضيقة الشخب ولا ثعول أي لا ضرع لها إلا كهيئة حلمتين ولا كمشة تفوت الكف أي صغيرة الضرع لا يدرك الكف» وظاهر هذا الخبر أن الهبة كانت لزوجته عليه السلام وأنه كان ذلك لما أراد فراق شعيب عليهما السلام وهو خلاف ما يقتضيه ظاهر ما تقدم ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ أي أتم المدة المضروبة لما أراد شعيب منه والمراد به الأجل الآخر كما أخرجه ابن مردويه عن مقسم عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما. وأخرج البخاري وجماعة عن ابن عباس أنه سئل أي الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل، وأخرج ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن أبي هارون عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سأله أي الأجلين قضى موسى فقال: لا أدري حتى أسأل رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم فسأل رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: لا أدري حتى أسأل جبريل عليه السلام فسأل جبريل فقال: لا أدري حتى أسأل ميكائيل عليه السلام فسأل ميكائيل فقال: لا أدري حتى أسأل الرفيع فسأل الرفيع فقال: لا أدري حتى أسأل إسرافيل عليه السلام فسأل إسرافيل فقال: لا أدري حتى أسأل ذا العزة جل جلاله فنادى إسرافيل بصوته الأشد يا ذا العزة أي الأجلين قضى موسى قال: «أتم الأجلين وأطيبهما عشر سنين» قال علي بن عاصم: فكان أبو هارون إذا حدث بهذا الحديث يقول: حدثني أبو سعيد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن جبريل عن ميكائيل عن الرفيع عن إسرافيل عن ذي العزة تبارك وتعالى «أن موسى قضى أتم الأجلين وأطيبهما عشر سنين» والفاء قيل: فصيحة أي فعقد العقدين وباشر موسى ما أريد منه فلما أتم الأجل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِه﴾ قيل: نحو مصر بإذن من شعيب عليه السلام لزيارة والدته وأخيه وأخته وذوي قرابته وكأنه عليه السلام أقدمه على ذلك طول مدة الجناية وغلبة ظنه خفاء أمره، وقيل: سار نحو بيت المقدس وهذا أبعد عن القيل والقال.

﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي أبصر من الجهة التي تلي الطور لا من بعضه كما هو المتبادر، وأصل الإيناس على ما قيل الإحساس فيكون أعم من الإبصار، وقال الزمخشري: هو الإبصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه إنسان العين لأنه يبين به الشيء والإنس لظهورهم كما قيل: الجن لاستتارهم، وقيل: هو إبصار ما يؤنس به، ﴿نَاراً﴾ استظهر بعضهم أن المبصر كان نوراً حقيقة إلا أنه عبر عنه بالنار اعتباراً لاعتقاد موسى عليه السلام، وقال بعض العارفين: كان المبصر في صورة النار الحقيقية وأما حقيقته فوراء طور العقل إلا أن موسى عليه السلام ظنه النار المعروفة ﴿قَالَ لأَهْلِه امْكُثُوا﴾ أي أقيموا مكانكم وكان معه عليه السلام على قول امرأته وخادم ويخاطب الاثنان بصيغة الجمع، وعلى قول آخر كان معه ولدان له أيضاً اسم الأكبر جيرشوم واسم الأصغر اليعازر ولدا له زمان إقامته عند شعيب وهذا مما يتسنى على القول بأنه عليه السلام دخل على زوجته قبل الشروع فيما أريد منه، وأما على القول بأنه لم يدخل عليها حتى أتم الأجل فلا يتسنى إلا بالتزام أنه عليه السلام مكث بعد ذلك سنين، وقد قيل به، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قضى موسى عشر سنين ثم مكث بعد ذلك عشراً أخرى، وعن وهب أنه عليه السلام ولد له ولد في الطريق ليلة إيناس النار، وفي البحر أنه عليه السلام خرج بأهله وماله في فصل الشتاء وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً فسار في البرية لا يعرف طرقها فألجأه السير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد، وقيل: كان لغيرته على حرمه يصحب الرفقة ليلاً ويفارقهم نهاراً فأضل الطريق يوماً حتى أدركه الليل فأخذ امرأته الطلق فقدح زنده فأصلد فنظر فإذا نار تلوح من بعد فقال امكثوا ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي بخبر الطريق بأن أجد عندها من يخبرني به وقد كانوا كما سمعت ضلوا الطريق، والجملة استئناف في معنى التعليل للأمر ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي عود غليظ سواء كان في رأسه نار كما في قوله:

وألقى على قيس من النار جذوة ... شديداً عليها حرها والتهابها

أو لم تكن كما في قوله:

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها ... جزل الجذا غير خوار ولا دعر

ولذا بينت كما قال بعض المحققين بقوله تعالى: ﴿مِنَ النَّارِ﴾ وجعلها نفس النار للمبالغة كأنها لتشبث النار بها استحالت ناراً، وقال الراغب: الجذوة ما يبقى من الحطب بعد الالتهاب، وفي معناه قول أبي حيان: عود فيه نار بلا لهب، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: هي عود من حطب فيه النار.

وأخرج هو وجماعة عن قتادة أنها أصل شجرة في طرفها النار، قيل: فتكون من على هذا للابتداء، والمراد بالنار هي التي آنسها.

وقرأ الأكثر «جِذْوَة» بكسر الجيم والأعمش وطلحة وأبو حيوة وحمزة بضمها ﴿**لعلكم تصطلون**﴾ تستدفئون وتتسخنون بها، وفيه دليل على أنهم أصابهم برد.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ
وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ
(٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ
مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ
إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ
عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ
وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣٨) وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا
يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١)
وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
(٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا
قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن
نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ

عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا
وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ
لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

﴿**فلما أتاها**﴾ أي النار التي آنسها.

﴿**نودي من شاطىء الوادي الأيمن**﴾ أي أتاه النداء من الجانب الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام في مسيره فالأيمن صفة الشاطىء وهو ضد الأيسر، وجوز أن يكون الأيمن بمعنى المتصف باليمن والبركة ضد الأشأم، وعليه فيجوز كونه صفة للشاطىء أو الوادي، و ﴿**من**﴾ على ما اختاره جمع لابتداء الغاية متعلقة بما عندها، وجوز أن تتعلق بمحذوف وقع حالاً من ضمير موسى عليه السلام المستتر في نودي أي نودي قريباً من شاطىء الوادي، وجوز على الحالية أن تكون ـ من ـ بمعنى في كما في قوله تعالى: ﴿ماذا خلقوا من الأرض﴾ [الأحقاف: ٤] أي نودي كائناً في شاطىء الوادي، وقوله تعالى: ﴿**في البقعة المباركة**﴾ في موضع الحال من الشاطىء أو صلة لنودي، والبقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها وتفتح باؤها كما في القاموس، وبذلك قرأ الأشهب العقيلي. ومسلمة، ووصفت بالبركة لما خصت به من آيات الله عز وجل وأنواره.

وقيل: لما حوت من الأرزاق والثمار الطيبة وليس بذاك، وقوله سبحانه: ﴿**من الشجرة**﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿**من شاطىء**﴾ أو الشجرة فيه بدل من شاطىء وأعيد الجار لأن البدل على تكرار العامل وهو بدل اشتمال فإن الشاطىء كان مشتملاً على الشجرة إذ كانت نابتة فيه، و ﴿**من**﴾ هنا لا تحتمل أن تكون بمعنى في كما سمعت في من الأولى، نعم جوز فيها أن تكون للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ [نوح: ٢٥] متعلقة بالمباركة أي البقعة المباركة لأجل الشجرة، وقيل: يجوز تعلقها بالمباركة مع بقائها للابتداء على معنى أن ابتداء بركتها من الشجرة، وكانت هذه الشجرة على ما روي عن ابن عباس عناباً، وعلى ما روي عن ابن مسعود سمرة، وعلى ما روي عن ابن جريج والكلبي ووهب عوسجة. وعلى ما روي عن قتادة ومقاتل عليقة وهو المذكور في التوراة اليوم، وأن في قوله تعالى: ﴿**أَنْ يَا مُوسَى**﴾ تحتمل أن تكون تفسيرية وأن تكون مخففة من الثقيلة والأصل بأنه، والجار متعلق بنودي، والنداء قد يوصل بحرف الجر أنشد أبو علي:

نـاديـت بـاسـم ربـيـعـة بـن مـكـدم — أن الـمـنـوه بـاسـمـه الـمـوثـوق

والضمير للشأن وفسر الشأن بقوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ وقرأت فرقة «أني» بفتح الهمز،

واستشكل بأن أن إن كانت تفسيرية ينبغي كسر إن وهو ظاهر وإن كانت مصدرية واسمها ضمير الشأن، فكذلك إذ على الفتح تسبك مع ما بعدها بمفرد وهو لا يكون خبراً عن ضمير الشأن وخرجت على أن أن تفسيرية وأني إلخ في تأويل مصدر معمول لفعل محذوف، والتقدير أي يا موسى اعلم أني أنا الله إلخ، وجاء في سورة [طه: ١١] ﴿نودي يا موسى إني أنا ربك﴾ وفي سورة [النمل: ٨] ﴿نودي أن بورك من في النار﴾ وما هنا غير ذلك بل ما في كل غير ما في الآخر فاستشكل ذلك.

وأجيب بأن المغايرة إنما هي في اللفظ، وأما في المعنى المراد فلا مغايرة، وذهب الإمام إلى أنه تعالى حكى في كل من هذه السور بعض ما اشتمل عليه النداء لما أن المطابقة بين ما في المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلف ما والظاهر أن النداء منه عز وجل من غير توسيط ملك، وقد سمع موسى عليه السلام على ما تدل عليه الآثار كلاماً لفظياً قيل: خلقه الله تعالى في الشجرة بلا اتحاد وحلول، وقيل: خلقه في الهواء كذلك وسمعه موسى عليه السلام من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات، وأنا وإن كان كل أحد يشير به إلى نفسه فليس المعنى به محل لفظه.

وذهب الشيخ الأشعري، والإمام الغزالي إلى أنه عليه السلام سمع كلامه تعالى النفسي القديم بلا صوت ولا حرف، وهذا كما ترى ذاته عز وجل بلا كيف ولا كم، وذكر بعض العارفين أنه إنما سمع كلامه تعالى اللفظي بصوت وكان ذلك بعد ظهوره عز وجل بما شاء من المظاهر التي تقتضيها الحكمة وهو سبحانه مع ظهوره تعالى كذلك باق على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق ، وقد جاء في الصحيح أنه تعالى يتجلى لعباده يوم القيامة في صورة ، فيقول : أنا ربكم فينكرونه ثم يتجلى لهم بأخرى فيعرفونه، والله تعالى وصفاته من وراء حجب العزة والعظمة والجلال فلا يحدثن الفكر نفسه بأن يكون له وقوف على الحقيقة بحال من الأحوال.

مـرام شـط مـرمـى الـعـقـل فـيـه ... ودون مـداه بـيـد لا تـبـيـد

وذكر بعض السلفيين أنه عليه السلام إنما سمع كلامه تعالى اللفظي بصوت منكر الظهور في المظاهر عاداً القول به من أعظم المناكر، ولابن القيم كلام طويل في تحقيق ذلك، وقد قدمنا لك في المقدمات ما يتعلق بهذا المقام فتذكر والله تعالى ولي الافهام، وقال الحسن: إنه سبحانه نادى موسى عليه السلام نداء الوحي لا نداء الكلام ولم يرتض ذلك العلماء الأعلام لما فيه من مخالفة الظاهر وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء عليهم السلام، ووجه الاختصاص على القول بأنه سمع كلامه تعالى الأزلي بلا حرف ولا صوت ظاهر، وكذا على القول بأنه عليه السلام سمع صوتاً دالاً على كلامه تعالى بلا واسطة ملك أو كتاب سواء كان من جانب واحد لكن بصوت غير مكتسب للعباد على ما هو شأن سماعنا أو من جميع الجهات لما في كل من خرق العادة، وأما وجهه عند القائلين بأن السماع كان بعد التجلي في المظهر فكذلك أيضاً إن قالوا بأن هذا التجلي لم يقع لأحد من الأنبياء عليهم السلام سوى موسى، ثم إن علمه عليه السلام بأن الذي ناداه هو الله تعالى حصل له بالضرورة خلقاً منه سبحانه فيه؛ وقيل: بالمعجزة، وأوجب المعتزلة أن يكون حصوله بها فمنهم من عينها ومنهم من لم يعينها زعماً منهم أن حصول العلم الضروري ينافي التكليف، وفيه بحث.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على أن يا موسى والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحة مفصحة عن جمل حذفت تعويلاً على دلالة الحال عليها وإشعاراً بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أي فألقاها فصارت حية فاهتزت فلما رآها تهتز وتتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ هي حية كحلاء العين لا تؤذي كثيرة في الدور، والتشبيه بها باعتبار سرعة حركتها

وخفتها لا في هيئتها وجثتها. فلا يقال: إنه عليه السلام لما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فكيف يصح تشبيهها بالجان، وقال بعضهم: يجوز أن يكون المراد تشبيهها بها في الهيئة والجثة ولا ضير في ذلك لأن لها أحوالاً مختلفة تدق فيها وتغلظ، وقيل: الجان يطلق على ما عظم من الحيات فيراد عند تشبيهها بها في ذلك والأولى ما ذكر أولاً ﴿**وَلَّى مُدْبِراً**﴾ منهزماً من الخوف ﴿**وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾ أي ولم يرجع ﴿**يَا مُوسَى**﴾ أي نودي أو قيل: يا موسى ﴿**أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ**﴾ من المخاوف فإنه لا يخاف لديَّ المرسلون:

﴿**اسْلُكْ يَدَكَ**﴾ أي أدخلها ﴿**فِي جَيْبِكَ**﴾ هو فتح الجبة من حيث يخرج الرأس ﴿**تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾ أي عيب ﴿**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**﴾ أي من أجل المخافة، قال مجاهد وابن زيد أمره سبحانه بضم عضده وذراعه وهو الجناح إلى جنبه ليخف بذلك فزعه ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يقوى قلبه، وقال الثوري: خاف موسى عليه السلام أن يكون حدث به سوء فأمره سبحانه أن يعيد يده إلى جنبه لتعود إلى حالتها الأولى فيعلم أنه لم يكن ذلك سوءاً بل آية من الله عز وجل؛ وقريب منه ما قيل: المعنى إذا هالك أمر لما يغلب من شعاعها فاضممها إليك يسكن خوفك. وفي الكشاف فيه معنيان: أحدهما أن موسى عليه السلام لما قلب الله تعالى العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له: إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى، والمراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه، والثاني أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران. ومعنى من الرهب من أجل الرهب أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك، جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه، ومعنى ﴿**واضمم إليك جناحك**﴾ وقوله تعالى: ﴿**اسلك يدك في جيبك**﴾ على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرعب ا هـ، وضم الجناح على الثاني كناية عن التجلد والضبط نحو قوله:

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيك

وهو مأخوذ من فعل الطائر عند الأمن بعد الخوف، وهو في الأصل مستعار من فعل الطائر عند هذه الحالة ثم كثر استعماله في التجلد وضبط النفس حتى صار مثلاً فيه وكناية عنه، وعليه يكون تتميماً لمعنى ﴿**إنك من الآمنين**﴾ وهذا مأخوذ من كلام أبي علي الفارسي فإنه قال: هذا أمر منه سبحانه بالعزم على ما أراده منه وحض على الجد فيه لئلا يمنعه الجد الذي يغشاه في بعض الأحوال عما أمر بالمضي فيه. وليس المراد بالضم الضم المزيل للفرجة بين الشيئين وهو أبعد عن المناقشة مما ذكره الزمخشري. ومثله في البعد عن المناقشة ما قاله البقاعي: من أنه أريد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه عند خروج يده بيضاء حتى لا يحذر ولا يضطرب من الخوف. وأراد بأحد التفسيرين الوجه الأول لأن المعنى عليه أدخل يدك اليمنى تحت عضدك اليسرى، وقال بعضهم: إن المعنى اضمم يديك المبسوطتين بإدخال اليمنى تحت العضد الأيسر واليسرى تحت الأيمن أو بإدخالهما في الجيب. وظاهره أنه أريد بالجناح الجناحان، وقد صرح الطبرسي بذلك في نحو ما ذكر وقال: إنه قد جاء المفرد مراداً به التثنية كما في قوله:

يداك يد إحداهما الجود كله ... وراحتك اليسرى طعان تغامره

فإن المعنى يداك يدان بدلالة قوله إحداهما. وفي الكشاف أيضاً من بدع التفاسير أن الرهب الكم بلغة حمير وأنهم يقولون: أعطني ما في رهبك، وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات التي ترضى عربيتهم؟ ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة من صوف لا كمين لها ا هـ. وما أشار إليه من أن ذاك لا يطابق بلاغة التنزيل مما لا ريب فيه فإن الذاهبين إليه قالوا: المعنى عليه واضمم إليك يدك مخرجة من الكم لأن يده كانت في الكم؛ وهو معنى كما ترى ولفظه أقصر منه في الإفادة. وأما أمر سماعه عن الأثبات فقد تعقبه في البحر بأنه مروي عن الأصمعي وهو ثقة ثبت. وقال الطيبي: قال محيي السنة: قال الأصمعي: سمعت بعض الأعراب يقول: أعطني ما في رهبك أي ما في كمك، وزعم بعضهم أن استعمال الرهب في الكم لغة بني حنيفة أيضاً وهو عندهم وكذا عند حمير بفتح الراء والهاء والحزم عندي عدم الجزم بثبوت هذه اللغة. وعلى تقدير الثبوت لا ينبغي حمل ما في التنزيل الكريم عليها. والظاهر أن من الرهب متعلق باضمم وقال أبو البقاء: هو متعلق بولى، وقيل بمدبراً، وقيل بمحذوف: أي تسكن من الرهب، وقيل باضمم، ولا يخفى ما في تعلقه بسوى اضمم وإن أشار إلى تعلقه بولى أو مدبراً كلام ابن جريج على ما أخرجه عنه ابن المنذر حيث جعل الآية من التقديم والتأخير. والمراد ولى مدبراً من الرهب وقرأ الحرميان: «من الرَّهَبِ» بفتح الراء والهاء، وأكثر السبعة بضم الراء وإسكان الهاء وقرأ قتادة، والحسن، وعيسى، والجحدري بضمهما والكل لغات ﴿فَذَانكَ﴾ أي العصا واليد والتذكير لمراعاة الخبر وهو قوله تعالى: ﴿بُرْهَانَان﴾ وقيل: الإشارة إلى انقلاب العصا حية بعد إلقائها وخروج اليد بيضاء بعد إدخالها في الجيب فأمر التذكير ظاهر، والبرهان الحجة النيرة وهو فعلان لقولهم: أبره الرجل إذا جاء بالبرهان من بره الرجل إذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء: برهاء وبرهرهة.

وقال بعضهم : هو فعلان من البره بمعنى القطع فيفسر بالحجة القاطعة ، وقيل : هو فعلال لقولهم برهن ونقل عن الأكثر أن برهن مولد بنوه من لفظ البرهان، وقرأ أبو عمرو وابن كثير «فَذَانّك» بتشديد النون وهي لغة فيه، فقيل: إنه عوض من الألف المحذوفة من ذا حال التثنية لألفها نون وأدغمت، وقال المبرد: إنه بدل من لام ذلك كأنهم أدخلوها بعد نون التثنية، ثم قلبت اللام نوناً لقرب المخرج وأدغمت وكان القياس قلب الأولى لكنه حوفظ على علامة التثنية، وقرأ ابن مسعود وعيسى وأبو نوفل وابن هرمز وشبل. «فذانيك» بياء بعد النون المكسورة وهي لغة هذيل، وقيل: بل لغة تميم، ورواها شبل عن ابن كثير، وعنه أيضاً «فذانيك» بفتح النون قبل الياء على لغة من فتح نون التثنية نحو قوله:

على أحوذيين استقلت عشية ... فما هي إلا لمحة وتغيب

وعن ابن مسعود أنه قرأ بتشديد النون مكسورة بعدها ياء، قيل وهي لغة هذيل، وقال المهدوي: بل لغتهم تخفيفها و ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿منْ رَبِّكَ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لبرهانان أي كائنان من ربك و ﴿إلى﴾ في قوله سبحانه: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئه﴾ متعلق بمحذوف أيضاً هو على ما يقتضيه ظاهر كلام بعضهم صفة بعد صفة له أي واصلان إليهم، وعلى ما يقتضيه ظاهر كلام آخرين حال منه أي مرسلاً أنت بهما إليهم.

وفي البحر أنه متعلق بمحذوف دل عليه المعنى تقديره اذهب إلى فرعون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي فرعون وملأه ﴿كَانُوا قَوْماً فَاسقينَ﴾ أي خارجين عن حدود الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن نرسلك بهاتين المعجزتين الباهرتين إليهم، والكلام في كانوا يعلم مما تقدم في نظائره ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ منْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ﴾ لذلك ﴿أَنْ يَقْتُلُون﴾ بمقابلتها، والمراد بهذا الخبر طلب الحفظ والتأييد لإبلاغ الرسالة على أكمل وجه لا الاستعفاء من الإرسال، وزعمت اليهود أنه عليه السلام استعفى ربه سبحانه من ذلك. وفي التوراة التي بأيديهم اليوم أنه قال يا رب ابعث من أنت باعثه

وأكد طلب التأييد بقوله: ﴿وَأَخي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ منِّي لسَاناً فَأَرْسلْهُ مَعَي ردْءاً﴾ أي عوناً كما روي عن قتادة وإليه ذهب أبو عبيدة وقال: يقال ردأته على عدوه أعنته. وقال أبو حيان: الردء المعين الذي يشتد به الأمر فعل بمعنى مفعول فهو اسم لما يعان به كما أن الدفء اسم لما يتدفأ به قال سلامة بن جندل:

وردئـي كـل أبـيـض مـشـرفـي شـديـد الـحـد عـضـب ذي فـلـول

ويقال: ردأت الحائط أردؤه إذا دعمته بخشبة لئلا يسقط. وفي قوله: ﴿أفصح مني﴾ دلالة على أن فيه عليه السلام فصاحة ولكن فصاحة أخيه أزيد من فصاحته، وقرأ أبو جعفر ونافع والمدنيان رداً بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الدال، والمشهور عن أبي جعفر أنه قرأ بالنقل ولا همز ولا تنوين. ووجهه أنه أجرى الوصل مجرى الوقف. وجوز في رداً على قراءة التخفيف كونه منقوصاً بمعنى زيادة من رديت عليه إذا زدت ﴿يُصَدِّقُني﴾ أي يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار، فالتصديق مجاز عن التلخيص المذكور الجالب للتصديق لأنه كالشاهد لقوله، وإسناده إلى هارون حقيقة، ويرشد إلى ذلك وأخي هارون إلخ لأن فضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لمثل ما ذكر لا لقوله صدقت أو أخي موسى صادق فإن سحبان وباقلاً فيه سواء، أو يصل جناح كلامي بالبيان حتى يصدقني القوم الذين أخاف تكذيبهم فالتصديق على حقيقته وإنما أسند إلى هارون عليه السلام لأنه ببيانه جلب تصديق القوم، ويؤيد هذا قوله: ﴿إنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ لدلالته على أن التصديق على الحقيقة، وقيل: تصديق الغير بمعنى إظهار صدقه، وهو كما يكون بقول هو صادق يكون بتأييده بالحجج ونحوها كتصديق الله تعالى للأنبياء عليهم السلام بالمعجزات، والمراد به هنا ما يكون بالتأييد بالحجج، فالمعنى يظهر صدقي بتقرير الحجج وتزييف الشبه إني أخاف أن يكذبون ولساني لا يطاوعني عند المحاجة، وعليه لا حاجة إلى ادعاء التجوز في الطرف أو في الإسناد. وتعقب بأنه لا يخفى أن صدقه معناه إما قال: إنه صادق أو قال له: صدقت، فإطلاقه على غيره الظاهر أنه مجاز، وجملة يصدقني تحتمل أن تكون صفة لردءاً، وأن تكون حالاً، وأن تكون استئنافاً. وقرأ أكثر السبعة «يصدقني» بالجزم على أنه جواب الأمر.

وزعم بعضهم أن الجواب على قراءة الرفع محذوف، ويرد عليه أن الأمر لا يلزم أن يكون له جواب فلا حاجة إلى دعوى الحذف، وقرأ أبي، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهم «يصدقوني» بضمير الجمع وهو عائد على فرعون وملئه لا على هارون والجمع للتعظيم كما قيل، والفعل على ما نقل عن ابن خالويه مجزوم فقد جعل هذه القراءة شاهداً لمن جزم من السبعة يصدقني وقال لأنه لو كان رفعاً لقيل يصدقونني، وذكر أبو حيان بعد نقله أن الجزم على جواب الأمر والمعنى في يصدقون أرج تصديقهم إياي فتأمل ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأَخيكَ﴾ إجابة لمطلوبه وهو على ما قيل راجع لقوله ﴿أرسله معي﴾ إلخ والمعنى سنقويك به ونعينك على أن شد عضده كناية تلويحية عن تقويته لأن اليد تشتد بشدة العضد وهو ما بين المرفق إلى الكتف والجملة تشتد بشدة اليد ولا مانع من الحقيقة لعدم دخول بأخيك فيما جعل كناية أو على أن ذلك خارج مخرج الاستعارة التمثيلية شبه حال موسى عليه السلام في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بعضد شديد، وجوز أن يكون هناك مجاز مرسل من باب إطلاق السبب على المسبب بمرتبتين بأن يكون الأصل سنقويك به ثم سنؤيدك ثم سنشد عضدك به، وقرأ زيد بن علي، والحسن عضدك بضمتين، وعن الحسن أنه قرأ بضم العين وإسكان الضاد، وقرأ عيسى بفتحهما، وبعضهم بفتح العين وكسر الضاد، ويقال فيه عضد بفتح العين وسكون الضاد ولم أعلم أحداً قرأ بذلك، وقوله تعالى: ﴿وَنَـجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ أي تسلطاً عظيماً وغلبة راجع على ما قيل أيضاً لقوله: ﴿إنـي أخاف أن يكذبون﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَلاَ يَصلُونَ إلَـيْكُمَا﴾ تفريع على ما حصل من مراده أي لا يصلون إليكما باستيلاء أو محاجة ﴿بآيَاتنَا﴾ متعلق بمحذوف قد صرح به في مواضع أخر أي اذهبا بآياتنا أو

بنجعل أي نسلطكما بآياتنا أو بسلطاناً لما فيه من معنى التسلط والغلبة أو بمعنى لا يصلون أي تمتنعون منهم بها أو بحرف النفي على قول بعضهم بجواز تعلق الجار به، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون قسماً جوابه لا يصلون مقدماً عليه أو هو من القسم الذي يتوسط الكلام ويقحم فيه لمجرد التأكيد فلا يحتاج إلى جواب أصلاً، ويرد على الأول أن جواب القسم لا يتقدمه ولا يقترن بالفاء أيضاً فلعله أراد أن ذلك دال على الجواب وأما هو فمحذوف إلا أنه تساهل في التعبير، وجوز أن يكون صلة لمحذوف يفسره الغالبون في قوله سبحانه: ﴿**أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ**﴾ أو صلة له واللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي أو بمعناه على رأي من يجوز تقديم ما في حيز الصلة على الموصول إما مطلقاً أو إذا كان المقدم ظرفاً وتقديمه إما للفاصلة أو للحصر ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بآيَاتِنَا بَيِّنَات**﴾ أي واضحات الدلالة على صحة رسالته عليه السلام منه عز وجل، والظاهر أن المراد بالآيات العصا واليد إذ هما اللتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك وقد تقدم في سورة طه سر التعبير عنهما بصيغة الجمع ﴿**قَالُوا مَا هَذَا**﴾ الذي جئت به ﴿**إلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً**﴾ أي سحر تختلقه لم يفعل قبله مثله فالافتراء بمعنى الاختلاق لا بمعنى الكذب أو سحر تتعلمه من غيرك ثم تنسبه إلى الله تعالى كذباً فالافتراء بمعنى الكذب لا بمعنى الاختلاق والصفة على هذين الوجهين مخصصة، وقيل: المراد بالافتراء التمويه أي هو سحر مموه لا حقيقة له كسائر أنواع السحر. وعليه تكون الصفة مؤكدة والافتراء ليس على حقيقته كما في الوجه الأول. والحق أن من أنواع السحر ما له حقيقة فتكون الصفة مخصصة أيضاً ﴿**وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا**﴾ أي نوع السحر أو ما صدر من موسى عليه السلام على أن الكلام على تقدير مضاف أي بمثل هذا أو الإشارة إلى ادعاء النبوة ونفيهم السماع بذلك تعمد للكذب فقد جاءهم يوسف عليه السلام من قبل بالبينات وما بالعهد من قدم. ويحتمل أنهم أرادوا نفي سماع ادعاء النبوة على وجه الصدق عندهم وكانوا ينكرون أصل النبوات ولا يقولون بصحة شيء منها كالبراهمة وككثير من الإفرنج ومن لحس من فضلاتهم اليوم. والباء كما في مجمع البيان إما على أصلها أو زائدة أي ما سمعنا هذا ﴿**فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ**﴾ أي واقعاً في أيامهم، فالجار والمجرور في موضع الحال من هذا بتقدير مضاف والعامل فيه سمعنا.

وجوز أن يكون بهذا على تقدير بوقوع هذا، ويكون الجار متعلقاً بذلك المقدر، وأشاروا بوصف آبائهم بالأولين إلى انتفاء ذلك منذ زمان طويل ﴿**وَقَالَ مُوسىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِه**﴾ يريد عليه السلام بالموصول نفسه، وقرأ ابن كثير «قال» بغيروا ولأنه جواب لقولهم: إنه سحر والجواب لا يعطف بواو ولا غيرها، ووجه العطف في قراءة باقي السبعة أن المراد حكاية القولين ليوازن الناظر المحكي له بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد ﴿**وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ**﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار وهي الدنيا، وعاقبتها أن يختم للإنسان بها بما يفضي به إلى الجنة بفضل الله تعالى وكرمه؛ ووجه إرادة العاقبة المحمودة من مطلق العاقبة انها هي التي دعا الله تعالى إليها عباده، وركب فيهم عقولاً لا ترشدهم إليها ومكنهم منها وأزاح عللهم ووفر دواعيهم وحضهم عليها فكأنها لذلك هي المرادة من جميع العباد والغرض من خلقهم، وهذا ما اختاره ابن المنير موافقاً لما عليه الجماعة، وحكى أن بعضهم قال له: ما يمنعك أن تقول فهم عاقبة الخير من إضافة العاقبة إلى ذويها باللام كما في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ [الرعد: ٤٢]، وقوله سبحانه: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣] إذ عاقبة الخير هي التي تكون لهم، وأما عاقبة السوء فعليهم لا لهم فقال له: لقد كان لي في ذلك مقال لولا وروده مثل أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، ولم يقل وعليهم فاستعمال اللام مكان على دليل على إلغاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير، وقد يقال: إن اللام ظاهرة في النفع ويكفي ذلك في انفهام كون المراد بالعاقبة عاقبة الخير، ويلتزم في

نحو الآية التي أوردها ابن المنير كونها من باب التهكم، وهذا نظير ما قالوا: إن البشارة في الخير، وبشرهم بعذاب أليم من باب التهكم.

وقال الطيبي انتصاراً للبعض أيضاً: قلت: الآية غير مانعة عن ذلك فإن قرينة اللعنة والسوء مانعة عن إرادة الخير وإنما أتى بلهم ليؤذن بأنهما حقان ثابتان لهم لازمان إياهم، ويعضده التقديم المفيد للاختصاص فتدبر وقرأ حمزة، والكسائي. «يكون» بالياء التحتية ، لأن المرفوع مجازي التأنيث ومفصول عن رافعه .

﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور، وحاصل كلام موسى عليه السلام ربي أعلم منكم بحال من أهله سبحانه للفلاح الأعظم حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى، ولو كان كما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبيء الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ قاله اللعين بعد ما جمع السحرة وتصدى للمعارضة، والظاهر أنه أراد حقيقة ما يدل عليه كلامه وهو نفي علمه بإله غيره دون وجوده فإن عدم العلم بالشيء لا يدل على عدمه، ولم يجزم بالعدم بأن يقول: ليس لكم إله غيري مع أن كلاً من هذا وما قاله كذب، لأن ظاهر قول موسى عليه السلام له لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر يقتضي أنه كان عالماً بأن إلههم غيره، وما تركه أوفق ظاهراً بما قصده من تبعيد قومه عن اتباع موسى عليه السلام اختياراً لدسيسة شيطانية وهو إظهار أنه منصف في الجملة ليتوصل بذلك إلى قبولهم ما يقوله لهم بعد في أمر الإله وتسليمهم إياه له اعتماداً على ما رأوا من إنصافه فكأنه قال ما علمت في الأزمنة الماضية لكم إلهاً غيري كما يقول موسى، والأمر محتمل وسأحقق لكم ذلك.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي اصنع لي آجراً ﴿فَاجْعَلْ لِي﴾ منه ﴿صَرْحاً﴾ أي بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشيء إذا ظهر ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ﴾ أي أطلع وأصعد فافتعل بمعنى الفعل المجرد كما في البحر وغيره.

﴿إِلَى إِلهِ مُوسَى﴾ الذي ذكر أنه إلهه وإله العالمين، كأنه يوهم قومه أنه تعالى لو كان كما يقول موسى لكان جسماً في السماء كون الأجسام فيها يمكن الرقي إليه ثم قال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما يذكر تأكيداً لما أراد وإعلاماً بأن ترجيه الصعود إلى إله موسى عليه السلام ليس لأنه جازم بأنه هناك، والأمر بجعل الصرح وبنائه لا يدل على أنه بني، وقد اختلف في ذلك فقيل بناه وذكر من وصفه ما الله عز وجل أعلم به، وقيل لم يبن وعلى هذا يكون قوله ذلك وأمره للتلبيس على قومه وإيهامه إياهم أنه بصدد تحقيق الأمر، ويكون ما ذكر ذكراً لأحد طرق التحقيق فيتمكن من أن يقول بعده حققت الأمر بطريق آخر فعلمت أن ليس لكم إله غيري وأن موسى كاذب فيما يقول، وعلى الأول يحتمل أن يكون صعد الصرح وحده أو مع من يأمنه على سره وبقي ما بقي ثم نزل إليهم فقال لهم: صعدت إلى إله موسى وحققت أن ليس الأمر كما يقول وعلمت أن ليس لكم إله غيري. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: لما بني له الصرح ارتقى فوقه فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهي متلطخة دماً فقال قتلت إله موسى، وهذا إن صح من باب التهكم بالفعل ولا أظنه يصح، وأياً ما كان فالقوم كانوا في غاية الغباوة والجهل وإفراط العماية والبلادة وإلا لما نفق عليهم مثل هذا الهذيان. ولله تعالى خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص، ولا يبعد أن يقال كان فيهم من ذوي العقول من يعلم تمويهه وتلبيسه ويعتقد هذيانه فيما يقول إلا أنه نظم نفسه في سلك الجهال ولم يظهر خلافاً لما عليه اللعين بحال من الأحوال وذلك إما للرغبة فيما لديه أو للرهبة من سطوته واعتدائه عليه وكم رأينا عاقلاً وعالماً فاضلاً يوافق لذلك الظلمة الجبابرة ويصدقهم فيما يقولون وإن كان مستحيلاً أو كفراً بالآخرة.

وكان قول اللعين لموسى عليه السلام لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين بعد هذا القول المحكي هاهنا بأن يكون قاله وأردفه بإخبارهم على البت أن لا إله لهم غيره، ثم هدد موسى بالسجن إن بدا منه ما يشعر بخلافه، وهذا وجه في الآية لا يخلو عن لطف وإن كان فيه نوع خفاء وفيها أوجه أخر. الأول أنه أراد بقوله: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ نفي العلم دون الوجود كما في ذلك الوجه إلا أنه لم ينف الوجود لأنه لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بالعدم وأراد بقوله إني لأظنه من الكاذبين إني لأظنه كاذباً في دعوى الرسالة من الله تعالى، وأراد بقوله: يا هامان أوقد لي على الطين إلخ إعلام الناس بفساد دعواه تلك بناء على توهمه أنه تعالى إن كان كان في السماء بأنه لو كان رسولاً منه تعالى فهو ممن يصل إليه، وذلك بالصعود إليه وهو مما لا يقوى عليه الإنسان فيكون من نوع المحال بالنسبة إليه فما بنى عليه وهي الرسالة منه تعالى مثله ، فقوله: ﴿**فاجعل لي صرحاً**﴾ لإظهار عدم إمكان الصعود الموقوف عليه صحة دعوى الرسالة في زعمه ولعل للتهكم.

الثاني أنه أراد أيضاً نفي العلم بالوجود دون الوجود نفسه لكنه كان في نفي العلم ملبساً على قومه كاذباً فيه حيث كان يعلم أن لهم إلهاً غيره هو إله الخلق أجمعين، وهو الله عز وجل وأراد بقوله: ﴿**وإني**﴾ إلخ إني لأظنه كاذباً في دعوى الرسالة كما في سابقه، وأراد بقوله يا هامان إلخ طلب أن يجعل له ما يزيل به شكه في الرسالة، وذلك بأن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب الدالة على الحوادث الكونية بزعمه فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه.

وتعقب بأنه لا يناسب قوله: ﴿**فأطلع إلى إله موسى**﴾ إلا أن يراد فأطلع على حكم إله موسى بأوضاع الكواكب والنظر فيها هل أرسل موسى كما يقول أم لا؟ فيكون الكلام على تقدير مضاف و ﴿**إلى**﴾ فيه بمعنى على، وجوز على هذا الوجه أن يكون قد أراد بإله موسى الكواكب فكأنه قال لعلي أصعد إلى الكواكب التي هي إله موسى فأنظر هل فيها ما يدل على إرسالها إياه أو لعلي أطلع على حكم الكواكب التي هي إله موسى في أمر رسالته وهو كما ترى، وبالجملة هذا الوجه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه. الثالث أنه أراد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده وبظنه كاذباً ظنه كاذباً في إثباته إلهاً غيره ويفسر الظن باليقين كما في قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج　　　سراتهم في الفارسي المسرد

فإثبات الظن المذكور لا يدفع إرادة ذلك النفي، وجوز بعضهم إبقاءه على ظاهره، وقال في دفع المنافاة: يمكن أن يقال: الظاهر أن كلامه الأول كان تمويهاً وتلبيساً على القوم، والثاني كان مواضعة مع صاحب سره هامان فإثبات الظن في الثاني لا يدفع أن يكون العلم في الأول لنفي المعلوم، وفيه أنه يأبى ذلك سوق الآية، والفاء في فأوقد لي وطلبه بناء الصرح راجياً الصعود إلى إله موسى عليه السلام أراد به التهكم كأنه نسب إلى موسى عليه السلام القول بأن إلهه في السماء فقال: ﴿يا هامان ابن لي صرحاً﴾ [غافر: ٣٦] لأصعد إلى إله موسى متهكماً به، وهذا نظير ما إذا أخبرك شخص بحياة زيد وأنه في داره، وأنت تعلم خلاف ذلك فتقول لغلامك بعد أن تذكر علمك بما يخالف قوله متهكماً به يا غلام أسرج لي الدابة لعلي أذهب إلى فلان وأستأنس به بل ما قاله فرعون أظهر في التهكم مما ذكر فطلبه بناء الصرح بناء على هذا لا يكون منافياً لما ادعاه أولاً وآخراً من العلم واليقين.

وقال بعضهم في دفع ما قيل: من المنافاة: إنها إنما تكون لو لم يكن قوله: لعلي أطلع إلخ على طريق التسليم والتنزل، وقال آخر في ذلك: إن اللعين كان مشركاً يعتقد أن من ملك قطراً كان إلهه ومعبود أهله فما أثبته في قوله:

﴿لعلي أطلع﴾ إلخ الإله لغير مملكته وما نفاه إلهها كما يشير إليه قوله لكم ولا يخلو عن بحث.

وفي الكشاف القول بالمناقضة بين بناء الصرح وما ادعاه من العلم واليقين إلا أنه قال قد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم أو لم تخف عليهم ولكن كلاً كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه وإذا فتح هذا الباب جاز إبقاء الظن على ظاهره من غير حاجة إلى دفع التناقض، والأولى عندي السعي في دفع التناقض فإذا لم يمكن استند في ارتكاب المخذول إياه إلى جهله أو سفهه وعدم مبالاته بالقوم لغباوتهم أو خوفهم منه أو نحو ذلك، واعترض القول بأنه أراد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده فقال في التحقيق: وذكره غيره أيضاً إنه غير سديد فإن عدم العلم بالشيء لا يدل على عدمه لا سيما عدم علم شخص واحد. وقال القاضي البيضاوي: هذا في العلوم الفعلية صحيح لأنها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاؤها ولا كذلك العلوم الانفعالية ورد بأن غرض قائل ذلك أن عدم الوجود سبب لعدم العلم بالوجود في الجملة ولا شك أنه كذلك فأطلق المسبب وأريد السبب لا أن بينهما ملازمة كلية على أنه لما كان من أقوى أسباب عدم العلم لأنه المطرد جاز أن يطلق ويراد به الوجود إذ لا يشترط في فن البلاغة اللزوم العقلي بل العادي والعرفي كاف أيضاً وقد يقول أحد منا لا أعلم ذلك أي لو كان موجوداً لعلمته إذا قامت قرينة وهذا الاستعمال شائع في عرفي العرب والعجم عند العامة والخاصة ومنه قول المزكي: إذا سئل عن عدالة الشهود لا أعلم كيف، وكان المخذول يدعي الإلهية ، ثم الظاهر أن الكلام على تقدير إرادة نفي الوجود كناية لا مجاز ، وبالجملة ما ذكر وجه وجيه وتعيين الأوجه مفوض إلى ذهنك والله تعالى الموفق.

واستدل بعض من يقول: إن الله تعالى في السماء بالمعنى الذي أراده سبحانه في قوله عز وجل: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ [الملك: ١٦] حسبما يقول السلف بهذه الآية، ووجه ذلك بأن فرعون لو لم يسمع من موسى عليه السلام أن إلهه في السماء لما قال: فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى فقوله ذلك دليل السماع إلا أنه أخطأ في فهم المراد مما سمعه فزعم أن كونه تعالى في السماء بطريق المظروفية والتمكن ونحوهما مما يكون للأجسام، وأنت تعلم أن هذا الاستدلال في غاية الضعف وإثبات مذهب السلف لا يحتاج إلى أن يتمسك له بمثل ذلك وفي قول المخذول: أوقد لي على الطين والمراد به اللبن دون اصنع لي آجراً إشارة إلى أنه لم يكن لهامان علم بصنعة الآجر فأمره باتخاذه على وجه يتضمن التعليم، وفي الآثار ما يؤيد ذلك، فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: فرعون أول من أمر بصنعة الآجر وبنائه، وأخرج هو وجماعة عن قتادة قال بلغني أن فرعون أول من طبخ الآجر وصنع له الصرح. وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر قال ما علمت أن أحداً بنى بالآجر غير فرعون وفي أمره إياه وهو وزيره ورديفه بعمل السفلة من الإيقاد على الطين منادياً له باسمه دون تكنية وتلقيب بيا دون ما يدل على القرب في وسط الكلام دون أوله من الدلالة على تجبره وتعظمه ما لا يخفى.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ أي رأوا كل من سواهم حقيراً بالإضافة إليهم ولم يروا العظمة والكبرياء إلا لأنفسهم فنظروا إلى غيرهم نظر الملوك إلى العبيد ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الأكثرون على أن المراد في أرض مصر، وقيل: المراد بها الجرم المعروف المقابل للسماء، وفي التقييد بها تشنيع عليهم حيث استكبروا فيما هو أسفل الأجرام وكان اللائق بهم أن ينظروا إلى محلهم وتسفله فلا يستكبروا ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بغير الاستحقاق لما أن رؤيتهم تلك باطلة ولا تكون رؤية الكل حقيراً بالإضافة إلى الرائي ورؤية العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره حقاً إلا من الله عز وجل، ومن هنا قال الزمخشري: الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وكل مستكبر سواه عز وجل فاستكباره بغير الحق، وفي الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار» ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا

﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للجزاء، والظن قيل: إما على ظاهره أو عبر عن اعتقادهم به تحقيراً لهم وتمهيلاً، وقرأ حمزة والكسائي ونافع «لا يَرْجِعُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ في الْيَمِّ﴾ أي ألقيناهم وأغرقناهم فيه، وقد مر تفصيل ذلك، وفي التعبير بالنبذ وهو إلقاء الشيء الحقير وطرحه لقلة الاعتداد به ولذلك قال الشاعر:

نظرت إلى عنوانه فنبذته ... كنبذك نعلاً من نعالك باليا

استحقار لهم، وفي الكلام على ما قيل استعارة مكنية وتخييلية وذلك أنهم شبهوا في الحقارة بنعال بالية واستعير لهم اسم النعال ثم حذف المستعار وبقي المستعار له وجعل النبذ قرينة على أنه حقيقة والمجاز في التعلق على نحو ما قيل في أظفار المنية نشبت بفلان، وقال بعضهم: الأخذ وهو حقيقة في التناول مجاز عن خلق الداعية لهم إلى السير إلى البحر، والنبذ مجاز عن خلق الداعية لهم إلى دخوله، وفي البحر أنه كناية عن إدخالهم فيه والأولى أن يكون الكلام من باب التمثيل كأنه عز وجل فيما فعل بهم أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم، والظاهر أن الفاء الأولى سببية وليست لمجرد التعقيب وأما الثانية فللتعقيب إذا أبقى الأخذ على معنى التناول أو أريد به خلق الداعية إلى السير أو نحوه أما إذا أريد به الإهلاك فهي للتفسير كما في فاستجبنا له فنجيناه ونحوه ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وبينها للناس ليعتبروا بها ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي خلقناهم ﴿أَئِمَّةً﴾ قدوة للضلال بسبب حملهم لهم على الضلال كما يؤذن بذلك قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي إلى موجباتها من الكفر والمعاصي على أن النار مجاز عن ذلك أو على تقدير مضاف والمراد جعلهم ضالين مضلين والجعل هنا مثله في قوله تعالى: ﴿جعل الظلمات والنار﴾ [الأنعام: ١] والآية ظاهرة في مذهب أهل السنة من أن الخير والشر مخلوقان لله عز وجل وأولها المعتزلة تارة بأن الجعل فيها بمعنى التسمية مثله في قوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ [الزخرف: ١٩] أي وسميناهم فيما بين الأمم بعدهم دعاة إلى النار، وتارة بأن جعلهم كذلك بمعنى خذلانهم ومنعهم من اللطف والتوفيق للهداية والأول محكي عن الجبائي والثاني عن الكعبي، وعن أبي مسلم أن المراد صيرناهم بتعجيل العذاب لهم أئمة أي متقدمين لمن وراءهم من الكفرة إلى النار وهذا في غاية التعسف كما لا يخفى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ التي فتنتهم ﴿لَعْنَةً﴾ طرداً وإبعاداً أو لعناً من اللاعنين حيث لا تزال الملائكة عليهم السلام تلعنهم وكذا المؤمنون خلفاً عن سلف وذلك إما بدخولهم في عموم من يلعنونهم من الظالمين وإما بالتنصيص عليهم نحو لعن الله تعالى فرعون وجنوده ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ من المطرودين المبعدين يقال: قبحه الله تعالى بالتخفيف أي نحاه وأبعده عن كل خير كما قال الليث، ولا يتكرر مع اللعنة المذكورة قيل: لأن معناها الطرد أيضاً لأن ذلك في الدنيا وهذا في الآخرة أو ذاك طرد عن رحمته التي في الدنيا وهذا طرد عن الجنة أو على هذا يراد باللعنة فيما تقدم ما تأخر مع أن من المطرودين معناه أنهم من الزمرة المعروفين بذلك وهو أبلغ وأخص، وقال أبو عبيدة والأخفش من المقبوحين أي من المهلكين، وعن ابن عباس أي من المشوهين في الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون وهذا المعنى هو المتبادر إلا أن فيه أن فعل قبح عليه لازم فبناء اسم المفعول منه غير ظاهر، وقد يقال: إذا صح هذا التفسير عن ابن عباس التزم القول بأنه سمع أيضاً، وجوز أن يكون ذلك تفسيراً بما هو لازم في الجملة، ويوم القيامة متعلق بالمقبوحين أو بمحذوف يفسره ذلك على ما علمت آنفاً في نظيره، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج، وعبد بن حميد عن قتادة ما هو ظاهر في أنه معطوف على هذه الدنيا وهو عطف على المحل والمروي عن ابن جريج أظهر في ذلك وكلاهما في الدر المنثور، والظاهر ما سمعته أولاً.

وهذه الآية أظهر دليل على عدم نجاة فرعون يوم القيامة وأنه ملعون مبعد عن رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة فإن ضمائر جمع الغائب فيها راجعة إلى فرعون وجنوده ويكاد ينتظم من التزم إرجاعها إلى الجنود في الجنود، وفي الفتاوى الحديثية للعلامة ابن حجر روى عدي، والطبراني عن ابن مسعود أنه ﷺ قال: «خلق الله تعالى يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً وخلق فرعون في بطن أمه كافر».

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾ أي التوراة وهو على ما قال أبو حيان أول كتاب فصلت فيه الأحكام ﴿**مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى**﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها تمهيداً لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإن إهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها المؤديين إلى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على ممر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة للاعتبار، ومن غفل عن هذا قال: الأولى أن تفسر القرون الأولى بمن لم يؤمن بموسى عليه السلام ويقابلها الثانية وهي من آمن به عليه السلام، وقيل: المراد بها ما يعم من لم يؤمن بموسى من فرعون وجنوده والأمم المهلكة من قبل، وليس بذاك، وما مصدرية أي آتيناه ذلك بعد إهلاكنا القرون الأولى ﴿**بَصَائِرَ لِلنَّاسِ**﴾ أي أنواراً لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عمياً عن الفهم والإدراك بالكلية فإن البصيرة نور القلب الذي به يستبصر كما أن البصر نور العين الذي به تبصر ويطلق على نفس العين ويجمع على أبصار والأول يجمع على بصائر، والمراد بالناس قيل أمّته عليه السلام، وقيل ما يعمهم ومن بعدهم، وكون التوراة بصائر لمن بعث إليه نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لتضمنها ما يرشدهم إلى حقية بعثته عليه الصلاة والسلام، أو يزيدهم علماً إلى علمهم. وتعقب بأنه يلزم على هذا الحض على مطالعة التوراة والعلم بما فيها، وقد صح أن عمر رضي الله تعالى عنه استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في جوامع كتبها من التوراة ليقرأها ويزداد علماً إلى علمه فغضب صلى الله تعالى عليه وسلم حتى عرف في وجهه ثم قال: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي» فرمى بها عمر رضي الله تعالى عنه من يده وندم على ذلك.

وأجيب بأن غضبه صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك لما أن التوراة التي بأيدي اليهود إذ ذاك كانت محرفة وفيها الزيادة والنقص وليست عين التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام وكان الناس حديثي عهد بكفر فلو فتح باب المراجعة إلى التوراة ومطالعتها في ذلك الزمان لأدى إلى فساد عظيم فالنهي عن قراءتها حيث الإسلام حديث والخروج عن الكفر جديد لا يدل على أنها ليست في نفسها بصائر مشتملة على ما يرشد إلى حقية بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم ويزيد علماً بصحة ما جاء به. ومما يدل على حل الرجوع إليها في الجملة قوله تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران: ٩٣] وقد كان المؤمنون من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وكعب الأحبار ينقلون منها ما ينقلون من الأخبار ولم ينكر ذلك ولا سماعه أحد من أساطين الإسلام ولا فرق بين سماع ما ينقلونه منهم وبين قراءته فيها وأخذه منها وقد رجع إليها غير واحد من العلماء في إلزام اليهود والاحتجاج عليهم ببعض عباراتها في إثبات حقية بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم، والذي أميل إليه كون المراد بالناس بني إسرائيل فإنه الذي يقتضيه المقام.

وأما مطالعة التوراة فالبحث فيها طويل، وفي تحفة المحتاج للمولى العلامة ابن حجر عليه الرحمة يحرم على غير عالم متبحر مطالعة نحو توراة علم تبدلها أو شك فيه وهو أقرب إلى التحقيق ومن سبر التوراة التي بأيدي اليهود اليوم رأى أكثرها مبدلاً لا توافق بينه وبين ما في القرآن العظيم أصلاً وهو المعول عليه ﴿**وَهُدًى**﴾ أي إلى الشرائع التي

هي الطرق الموصلة إلى الله عز وجل ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى: بمقتضى وعده سبحانه فعموم رحمته بهذا المعنى لا ينافي أن من الناس من هو كافر بها وهو غير مرحوم، وانتصاب المتعاطفات على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف أي ذا بصائر إلخ، وجوز أبو البقاء انتصابها على العلة أي آتيناه الكتاب لبصائر وهدى ورحمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي كي يتذكروا بناء على أن لعل للتعليل؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك قال لعل في القرآن بمعنى كي غير آية في [الشعراء: ١٢٩] ﴿لعلكم تخلدون﴾ وحكى الواقدي عن البغويّ أنه قال جميع ما في القرآن من لعل للتعليل إلاّ ﴿لعلكم تخلدون﴾ فإنها فيه للتشبيه، والمشهور أنها للترجي. ولما كان محالاً عليه عز وجل جعل بعضهم الكلام من باب التمثيل والمراد آتيناه ذلك ليكونوا على حالة قابلة للتذكر كحال من يرجى منه الخير، وبعض آخر صرف الترجي إلى المخاطبين فهو منهم لا منه تعالى، وجعل الزمخشري في ذلك استعارة تبعية حيث شبه الإرادة بالترجي لكون كل منهما طلب الوقوع، ورد بأن فيه لزوم تخلف مراد الله تعالى عن إرادته لعدم تذكر الكل إلا أن يكون من قبيل إسناد ما للبعض إلى الكل، وأنت تعلم أن الإرادة عند المعتزلة قسمان: تفويضية، وهي قد يتخلف المراد عنها، وقسرية وهي لا يتخلف المراد عنها أصلاً، فمتى أريد القسم الأول منها هنا زال الإشكال إلا أن التقسيم المذكور خلاف المذهب الحق ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ شروع في بيان أن إنزال القرآن الكريم أيضاً واقع زمان مساس الحاجة إليه واقتضاء الحكمة له البتة متضمناً تحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله تعالى ببيان أن الوقوف على ما فصل من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحي من علام الغيوب لا محالة كذا قيل: ولا يخفى أن تعين كونه بوحي لا يتم إلا بنفي كونه بالاستفاضة وكونه بالتعلم من بعض أهل الكتاب المعاصرين له صلى الله تعالى عليه وسلم كما قال المشركون: ﴿إنما يعلمه بشر﴾ [النحل: ١٠٣] ولعله إنما لم يتعرض لنفي ذلك وتعرض لنفي ما هو أظهر انتفاء منه للإشارة إلى ظهور انتفاء ذلك والمبالغة في دعوى ذلك حيث آذن بأن المحتاج إلى الإخبار بانتفائه ذانك الأمران[1] دونه على أنه عز وجل قد نفى في موضع آخر كونه بالتعلم من بعض أهل الكتاب ولعله يعلم منه انتفاء كونه بالاستفاضة وإن قلنا: إنه لا يعلم فدليله ظاهر جداً، ولذا لم يتشبث بكون الوقوف بها أحد من المشركين فتدبر، والمعنى على ما ذهب إليه بعضهم وما كنت حاضراً بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى الله تعالى فيه ألواح التوراة لموسى عليه السلام، والكلام على هذا من باب حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه وهو عند قوم من باب إضافة الموصوف إلى الصفة التي جوزها الكوفيون كما في مسجد الجامع، والأصل في الجانب الغربي فيتحد الجانب والغربي على هذا الوجه وهو بعض من الغربي على الوجه الأول.

﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحي وإيتاء التوراة.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي من جملة الحاضرين للوحي إليه أو الشاهدين على الوحي إليه عليه السلام وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى في ميقاته فتخبر به الناس، فالشاهد من الشهادة إما بمعنى الحضور أو بمعناها المعروف واستشكل إرادة المعنى الأول بلزوم التكرار فإنه قد نفى الحضور أولاً في قوله تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ وكذا إرادة المعنى الثاني بلزوم نحو ذلك لما أن نفي الحضور يستدعي نفي كونه من الشاهدين بذلك المعنى، ومن هنا قيل: المراد من الأول نفي كونه ﷺ حاضراً بنفسه لغرض من الأغراض،

---

(١) هكذا الأصل تنبه.

ومن الثاني نفي كونه عليه الصلاة والسلام من جماعة جيء بهم ليحضروا فيطلعوا على ما يقع هناك لموسى عليه السلام لأن المراد بالشاهدين جماعة معهودون كان حالهم ذلك.

وقيل: المراد بالشاهدين الملائكة عليهم السلام فقد جاء الشاهد اسماً للملك كما في القاموس فكأنه قيل: ما كنت حاضراً بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى أمر نبوته بالوحي وما كنت من الملائكة الذين ينزلون ويصعدون بأمر الله تعالى ووحيه إلى أنبيائه عليهم السلام ولهم من الاطلاع على الحوادث ما ليس لغيرهم من البشر حتى يكون لك علم بما وقع لموسى عليه السلام فتخبر به الناس.

وقال ابن عباس كما في التفسير الكبير والبحر: التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت لما شاهدت تلك الوقائع فإنه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى، وقيل: وهو مختار أبي حيان إن المعنى وما كنت من الشاهدين بجميع ما أعلمناك به فهو نفي لشهادته عليه الصلاة والسلام جميع ما جرى لموسى عليه السلام فكان عموماً بعد خصوص، وقيل: المراد وما كنت من الشاهدين ذلك الزمان فيكون نفياً لحضوره ومشاهدته ذلك الزمان أعم من أن يكون بجانب الغربي أو بغيره، وحاصله نفي الوجود العيني إذ ذاك فيكون ترقياً في النفي.

وقيل: المراد ﴿وما كنت﴾ إذ ذاك منتظماً في سلك من يتصف بالشهادة وهم الموجودون بالوجود العيني أينما كانوا ومآله كمآل ما قبله وإن اختلفا في طريق الإرادة وتعين كون الشهادة فيما قبله بمعنى الحضور.

ولعل ما قبله أظهر منه بل إذا ادعى مدع كونه أظهر من جميع ما قيل لم يبعد هذا ولا يخفى عليك حال تلك الأقوال وما فيها من القيل والقال، وفي القلب من صحة نسبة ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إليه ما فيه فتدبر جميع ذاك، والله تعالى يتولى هداك ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً﴾ أي ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وتمادى الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الأنباء لا سيما على آخرهم الذين أنت فيهم فاقتضت الحكمة التشريع الجديد وقص الأنباء على ما هي عليه فأوحينا إليك وقصصنا الأنباء عليك فحذف المستدرك أعني أوحينا اكتفاء بذكر ما يوجبه ويدل عليه من إنشاء القرون وتطاول الأمد؛ وخلاصة المعنى لم تكن حاضراً لتعلم ذلك ولكن علمته بالوحي والسبب فيه تطاول الزمن حتى تغيرت الشرائع وعميت الأنباء، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً﴾ أي مقيماً ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب عليه السلام والمؤمنون نفي لاحتمال كون معرفته صلى الله تعالى عليه وسلم لبعض ما تقدم من القصة بالسماع ممن شاهد ذلك، وقوله سبحانه: ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ أي تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم كما يقرأ المتعلم الدرس على معلمه ﴿آيَاتِنَا﴾ الناطقة بما كان لموسى عليه السلام بينهم وبما كان لهم معه إما حال من المستكن في ثاوياً أو خبر ثان لكنت ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لك وموحين إليك تلك الآيات ونظائرها والاستدراك كالاستدراك السابق إلا أنه لا حذف فيه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي وقت ندائنا موسى إني أنا الله رب العالمين واستنبائنا إياه وإرسالنا له إلى فرعون ﴿وَلَكِن رَحْمَةً مِن رَبِّكَ﴾ أي ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وغيره لرحمة كائنة منا لك وللناس.

وقيل أي علمناك رحمة ولعل الرحمة عليه مفعول ثان لعلم والمراد بها القرآن وليست مفعولاً له والمفعول الثاني ما ذكر من القصة لما ستعرفه قريباً إن شاء الله تعالى، وأما جعلها منصوبة على المصدرية لفعل محذوف فحاله غني عن البيان والالتفات إلى اسم الرب للإشعار بأن ذلك من آثار الربوبية وتشريفه عليه الصلاة والسلام بالإضافة وقد اكتفى هاهنا عن ذكر المستدرك بذكر ما يوجبه من جهته تعالى كما اكتفى في الأول بذكر ما يوجبه من جهة الناس

وصرح به فيما بينهما تنصيصاً على ما هو المقصود وإشعاراً بأنه المراد فيهما أيضاً ولله تعالى در شأن التنزيل وقوله سبحانه: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ متعلق بالفعل المعلل بالرحمة وهو يستدعي أن يكون الإرسال بالقرآن أو ما في معناه كتعليم القرآن دون تعليم ما ذكر من القصة إذ لا يظهر حسن تعليله بالإنذار، وجوز أن يتعلق بالمستدركات الثلاث على التنازع.

وقرأ عيسى، وأبو حيوة «رحمةٌ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والتقدير ولكن هو أو هذا أو هي أو هذه رحمة والضمير أو الإشارة قيل للإرسال المفهوم من الكلام والتذكير والتأنيث باعتبار المرجع والخبر والخلاف في الأولى مشهور، وجوز أبو حيان أن يكون التقدير ولكن أنت رحمة ولتنذر على هذه القراءة متعلق بما هو صفة لرحمة وقوله جل وعلا: ﴿مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ صفة لقوماً و ﴿مِن﴾ الأولى مزيدة للتأكيد وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتعظون بإنذارك تعليل للإنذار على القول بأن لعل للتعليل وأما على القول بأنها للترجي حقيقة أو مجازاً فقيل هو في موضع الصفة بتقدير القول أي لتنذر قوماً مقولاً فيهم لعلهم يتذكرون والمراد بهؤلاء القوم قيل العرب، وظاهر الآية أنهم لم يبعث إليهم رسول قبل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أصلاً وليس بمراد للاتفاق على أن إسماعيل عليه السلام كان مرسلاً إليهم وكأنه لتطاول الأمد بين بعثته عليه السلام وبعثة نبينا عليه الصلاة والسلام إذ بينهما أكثر من ألفي سنة[1] بكثير واندراس شرعه وعدم وقوف الأكثرين في أغلب هذه المدة على حقيقته قيل: ذلك، وقيل: إن ذلك لما صرحوا به من أن حكم بعثة إسماعيل عليه السلام قد انقطع بموته وأنه لم يرسل إليهم بعده نبي سوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال العلامة ابن حجر في المنح المكية: من المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته وادعى قبيل هذا الاتفاق على أن إبراهيم عليه السلام ومن بعده أي سوى إسماعيل عليه السلام لم يرسلوا للعرب ورسالة إسماعيل إليهم انتهت بموته ا هـ، فكأنه لقلة لبث إسماعيل عليه السلام فيهم وانقطاع حكم رسالته بعد وفاته فيما بينهم وبقائهم الأمد الطويل بغير رسول مبعوث فيهم نفي إتيان النذير إياهم من قبله ﷺ.

وذكر العلامة ابن حجر في المنح أيضاً ما يفيد أن كل رسول ممن عدا نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم تنقطع رسالته بموته وليس ذلك خاصاً بإسماعيل عليه السلام، ويفهم من كلام العز بن عبد السلام في أماليه أن هذا الانقطاع ليس على إطلاقه فقد قال: «فائدة» كل نبي إنما أرسل إلى قومه إلا سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فعلى هذا يكون ما عدا قوم كل نبي من أهل الفترة إلا ذرية النبي السابق عليه فإنهم مخاطبون ببعثة السابق إلا أن تدرس شريعة السابق فيصير الكل من أهل الفترة ا هـ. وهو وكذا ما نقلناه عن العلامة ابن حجر عندي الآن على أعراف الرد والقبول، ولعل الله تعالى يشرح صدري بعد لتحقيق الحق في ذلك، وقيل: إن موسى، وعيسى عليهما السلام كما أرسلا لبني إسرائيل أرسلا للعرب فالمراد بنفي هذا الإتيان الفترة التي بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام، ومنها على ما روى البخاري عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه ستمائة سنة وفي كثير من الكتب أنه خمسمائة وخمسون سنة، ونفي إتيان نبي بين زماني إتيان نبينا وإتيان عيسى عليهما الصلاة والسلام هو ما صححه جمع من العلماء لحديث لا نبي بيني وبين عيسى وقال بعضهم: إن بينهما أربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان، وقيل: غير ذلك، واختار البعض أن المراد بهؤلاء القوم العرب المعاصرون له صلى الله تعالى عليه وسلم إذ هم الذين

---

(١) قوله أكثر من ألفي سنة إلخ في الحاوي للسيوطي ما يدل على أن بينهما نحواً من ثلاثة آلاف سنة ا هـ منه.

يتصور إنذاره عليه الصلاة والسلام إياهم دون أسلافهم الماضين ولعله الأظهر، وعدم إتيان نذير إياهم من قبله صلى الله تعالى عليه وسلم على القول بانتهاء حكم رسالة الرسول سوى نبينا عليه الصلاة والسلام بموته ظاهر، وأما إذا قيل: بعدم انتهائه بذلك وبقائه حكماً لرسالة الرسول يجب على من علمه من ذراري المرسل إليهم الأخذ به من حيث إنه حكم من أحكام ذلك الرسول إلى أن يأتي رسول آخر فيؤخذ به من حيث إنه حكم من أحكامه أو على الوجه الذي يأمر به فيه من النسبة إليه أو من نسبته إلى من قبله أو يترك إن جاء الثاني ناسخاً له فالمراد بعدم إتيان النذير إياهم عدم وصول ما أتى به على الحقيقة إليهم ولا يمكن أن يراد بهؤلاء القوم العرب مطلقاً ويقال: بأنهم لم يرسل إليهم قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحد أصلاً لظهور بطلانه ومنافاته لقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤] والعرب أعظم أمة وكذا لقوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم﴾ [يس: ٦] بناء على أن ـ ما ـ فيه ليست نافية وهو على القول بأن ما فيه نافية مؤول بحمل الآباء على الآباء الأقربين، ولا يكاد يجوز في ما هاهنا ما جاز فيها من الاحتمال في آية يس بل المتعين فيها النفي ليس غير، وتكلف غيره مما لا ينبغي في كتاب الله تعالى؛ والنذير بمعنى المنذر، واحتمال كونه مصدراً بمعنى الإنذار مما لا ينبغي أن يلتفت إليه وتغيير الترتيب الوقوعي بين قضاء الأمر بمعنى أحكام أمر نبوة موسى عليه السلام بالوحي وإيتاء التوراة وثوائه عليه السلام في أهل مدين المشار إليه بقوله تعالى: **﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين﴾** والنداء للتنبيه على أن كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحي الإلهي ولو روعي الترتيب الوقوعي، ونفى أولاً الثواء في أهل مدين ونفى ثانياً الحضور عند النداء ونفى ثالثاً الحضور عند قضاء الأمر لربما توهم أن الكل دليل واحد على ما ذكر كما مر في قصة البقرة، ومن الناس من فسر قضاء الأمر بالاستنباء والنداء بالنداء لأخذ التوراة بقوله تعالى: ﴿خذ الكتاب بقوة﴾ [مريم: ١٢] رعاية للترتيب الوقوعي بينهما وتعقب بأنه يفوت عليه التنبيه المذكور مع أنه بهذا القدر لا يرتفع تغيير الترتيب الوقوعي بالكلية بين المتعاطفات لأن الثواء في أهل مدين متقدم على القضاء والنداء في الواقع ، وقد وسط في النظم الكريم بينهما ، وأيضاً ما تقدم من تفسير كل من القضاء والنداء بما فسر أنسب بما يلي كلا من الاستدراك، ومما يستغرب أن بعض من فسر ما ذكر بما يوافق الترتيب الوقوعي فسر الشاهدين بالسبعين المختارين للميقات ولا يكاد يتسنى ذلك عليه لأنهم إنما كانوا مع موسى عليه السلام لما أعطى التوراة فكان عليه أن يفسره بغير ذلك وقد تقدم لك عدة تفاسير لا يأبى شيء منها تفسيره ما ذكر بما يوافق الترتيب الوقوعي، وجوز على التفسير بما يوافق كون المراد بالشاهدين الملائكة عليهم السلام الذين كانوا حول النار فإن الآثار ناطقة بحضورهم حولها عند ما أتاها موسى عليه السلام وكذا قوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ [النمل: ٨] في قول، هذا وفي الآيات تفسيرات أخر فقال الفراء في قوله تعالى: **﴿وما كنت ثاوياً﴾** إلخ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين مع موسى عليه السلام فتراه وتسمع كلامه وها أنت تتلو عليهم أي على أمتك آياتنا فهو منقطع ا هـ، ونحوه ما روي عن مقاتل فيه وهو أن المعنى لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ولكنا أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا إليك هذه الأخبار ولولا ذلك ما علمت، وقال الضحاك: يقول سبحانه إنك يا محمد لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم آيات الكتاب وإنما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين في كل زمان رسولاً فأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء ا هـ. ولا يخفى أن ما قدمنا أولى بالاعتبار. وذهب جمع إلى أن النداء في قوله تعالى: **﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾** كان نداء فيما يتعلق بهذه الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية وذكروا عدة آثار تدل على ذلك.

أخرج الفريابي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في

الدلائل عن أبي هريرة قال في ذلك نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني واستجبت لكم قبل أن تدعوني. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً، وأخرج هو أيضاً وأبو نعيم في الدلائل وأبو نصر السجزي في الإبانة، والديلمي عن عمرو بن عيينة قال سألت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك**﴾ ما كان النداء وما كانت الرحمة؟ قال كتاب كتبه الله تعالى قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ثم وضعه على عرشه ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة.

وأخرج الختلي في الديباج عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً مثله، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لما قرب الله تعالى موسى إلى طور سيناء نجياً قال: أي رب هل أجد أكرم عليك مني؟ قربتني نجياً وكلمتني تكليماً قال: نعم. محمد عليه الصلاة والسلام أكرم عليّ منك. قال: فإن كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أكرم عليك مني فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل؟ فلقت البحر لهم وأنجيتهم من فرعون وعمله وأطعمتهم المن والسلوى. قال: نعم. أمة محمد عليه الصلاة والسلام أكرم عليّ من بني إسرائيل. قال: إلهي أرنيهم. قال: إنك لن تراهم وإن شئت أسمعتك صوتهم. قال: نعم إلهي. فنادى ربنا أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أجيبوا ربكم. قال: فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا: لبيك أنت ربنا حقاً ونحن عبيدك حقاً. قال: صدقتم أنا ربكم حقاً وأنتم عبيدي حقاً قد عفوت عنكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة». قال ابن عباس فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يمن عليه بما أعطاه وبما أعطى أمته فقال: يا محمد وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، واستشكل ذلك بأنه معنى لا يناسب المقام ولا تكاد ترتبط الآيات عليه، ولا بد لصحة هذه الأخبار من دليل، وتصحيح الحاكم لا يخفى حاله.

وقال بعض: يمكن أن يقال على تقدير صحة الأخبار إن المراد وما كنت حاضراً مع موسى عليه السلام بجانب الطور لتقف على أحواله فتخبر بها الناس ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بذلك وبغيره رحمة منا لك وللناس، والتوقيت بنداء أمته ليس لكون المخبر به ما كان من ذلك بل لإدخال المسرة عليه عليه الصلاة والسلام فيما يعود إليه وإلى أمته وفيه تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم مما يكون من أمة الدعوة من الكفر به عليه الصلاة والسلام والإباء عن شريعته وتلويح ما إلى مضمون ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ [الأنعام: ٨٩] وحينئذ ترتبط الآيات بعضها ببعض ارتباطاً ظاهراً فتأمل ﴿**وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُصِيبَةٌ**﴾ أي عقوبة وهي على ما نقل عن أبي مسلم عذاب الدنيا والآخرة، وقيل: عذاب الاستئصال ﴿**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ أي بما اقترفوا من الكفر والمعاصي ويعبر عن كل الأعمال وإن لم تصدر عن الأيدي باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي لما أن أكثر الأعمال تزاول بها ﴿**فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**﴾ أي هلا أرسلت إلينا رسولاً مؤيداً من عندك بالآيات ﴿**فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ**﴾ الظاهرة على يده ﴿**وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ بما جاء به، ولولا الثانية تحضيضية كما أشرنا إليه، وقوله تعالى: ﴿**فنتبع**﴾ جوابها ولكون التحضيض طلباً كالأمر أجيبت على نحو ما يجاب، وأما الأولى فامتناعية وجوابها محذوف ثقة بدلالة الحال عليه، والتقدير لما أرسلناك، والفاء في ﴿**فيقولوا**﴾ عاطفة ليقول على تصيبهم، والمقصود بالسببية لانتفاء الجواب والركن الأصيل فيها قولهم ذلك إذا أصابتهم مصيبة، فالمعنى لولا قولهم إذا عوقبوا بما اقترفوا هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبعه ونكون من المؤمنين لما أرسلناك إليهم، وحاصله سببية القول المذكور لإرساله صلى الله تعالى عليه وسلم إليهم قطعاً

لمعاذيرهم بالكلية ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت كأنها سبب الإرسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية، ونكتة إيثار هذا الأسلوب وعدم جعل العقوبة قيداً مجرداً أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً، وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم، وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى كقوله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨] هذا ما أراده صاحب الكشاف، وليس في الكلام عليه تقدير مضاف كما هو الظاهر.

وذهب بعضهم إلى أن الكلام على تقدير مضاف أي كراهة أن تصيبهم إلخ، فالسبب للإرسال إنما هو كراهة ذلك لما فيه من إلزام الحجة ولله تعالى الحجة البالغة، وهذه الكراهة مما لا ريب في تحققها الذي تقتضيه لولا ودفعوا بهذا التقدير لزوم تحقق الإصابة والقول المذكور وانتفاء عدم الإرسال كما هو مقتضى لولا، وفي ذلك ما فيه، وقال ابن المنير: التحقيق عندي أن لولا ليست كما قال النحاة تدل على أن ما بعدها موجود أو أن جوابها ممتنع والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها عكس لو، ثم المانع قد يكون موجوداً وقد يكون مفروضاً وما في الآية من الثاني فلا إشكال فيها، واستدل بالآية على أن قول من لم يرسل إليه رسول أن عذب: ربي لولا أرسلت إليّ رسولاً مما يصلح للاحتجاج وإلا لما صلح لأن يكون سبباً للإرسال وفي ذلك دلالة على أن العقل لا يغني عن الرسول، والبحث في ذلك شهير، والكلام فيه كثير ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي أولئك القوم، والمراد بهم هنا أهل مكة الموجودون عند البعثة وضمائر الجمع الآتية كلها راجعة إليهم. ﴿الْحَقُّ مِنْ عِندنَا﴾ أي الأمر الحق وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا﴾ تعنتاً واقتراحاً ﴿لَوْلاَ أُوتِـي﴾ يعنونه عليه الصلاة والسلام ﴿مِثْلَ مَا أُوتِـي مُوسى﴾ عليه السلام من الكتاب المنزل جملة وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَـمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِـي مُوسى من قَبْلُ﴾ رد عليهم وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق و ﴿من قبل﴾ متعلق بيكفروا وتعلقه بأوتي لا يظهر له وجه لائح إذ هو تقييد بلا فائدة لأنه معلوم أن ما أوتي موسى عليه السلام من قبل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أو من قبل هؤلاء الكفرة. نعم أمر الرد عليه على حاله أي ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتي موسى عليه السلام كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الأنكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هما يعنون ما أوتي نبينا وما أوتي موسى عليهما الصلاة والسلام سحران ﴿تَظَاهَرَا﴾ أي تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وتأييده إياه، وذلك أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا: إنا نجده في التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي بكل واحد من الكتابين ﴿كَافِرُونَ﴾ تصريح بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحراً وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في الكفر والطغيان وقرأ الأكثرون «ساحران» وأراد الكفرة بهما نبينا وموسى عليهما الصلاة والسلام.

وقرأ طلحة والأعمش «أظّاهرا» بهمزة الوصل وشد الظاء وكذا هي في حرف عبدالله وأصله تظاهرا فلما قلبت التاء ظاء وأدغمت سكنت فاجتلبت همزة الوصل ليبتدأ بالساكن، وقرأ محبوب عن الحسن، ويحيى بن الحارث الذماري وأبو حيوة وأبو خلاد عن اليزيدي تظاهراً بالتاء وتشديد الظاء. قال ابن خالويه: وتشديده لحن لأنه فعل ماض وإنما يشدد في المضارع. وقال صاحب اللوامح: لا أعرف وجهه. وقال صاحب الكامل في القراءات لا معنى له. وخرج ذلك أبو حيان على أنه مضارع حذفت منه النون بدون ناصب أو جازم، وجاء حذفها كذلك في قليل من الكلام

وفي الشعر، و «ساحران» خبر لمبتدأ محذوف، وأصل الكلام أنتما ساحران تتظاهران فحذف أنتما وأدغمت التاء في الظاء وحذفت النون وروعي الخطاب ولو قرىء يظاهرا بالياء حملاً على مراعاة ساحران أو على تقديرهما لكان له وجه وكأنهم خاطبوا النبي ﷺ بذلك وأرادوه وموسى عليهما الصلاة والسلام بأنتما على سبيل التغليب، هذا وتفسير الآية بما ذكر مما لا تكلف فيه ولعله هو الذي يستدعيه جزالة النظم الجليل ويقتضيه اقتضاء ظاهر قوله تعالى:

﴿**قُلْ فَأْتُوا بكتَاب مِنْ عند الله هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا**﴾ أي مما أوتياه من القرآن والتوراة ﴿**أَتَّبِعْهُ**﴾ أي إن تأتوا به أتبعه فالفعل مجزوم بجواب الأمر ومثل هذا الشرط يأتي به من يدل بوضوح حجته لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإلزام وإيراد كلمة ﴿**إن**﴾ في قوله تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادقِينَ**﴾ أي في أنهما سحران مختلقان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم، وقرأ زيد بن علي أتبعه بالرفع على الاستئناف أي أنا أتبعه. وقال الزمخشري: الحق الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات يعني أن المقام مقام أن يقال فلما جاءهم أي الرسول أو فلما جاءهم الرسول لكن عدل عن ذلك لإفادة تلك المعاني وما أوتي موسى بما هو أعم من الكتاب المنزل جملة واحدة واليد والعصا وغيرهما من آياته عليه السلام، وتعقب بأنه لا تعلق للمعجزات من اليد ونحوها بالمقام وكذا لا تعلق لغير القرآن من معجزات نبينا ﷺ به ويرشد إلى ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿**قل فأتوا**﴾ إلخ.

وجوز أن يكون ضميرا ﴿**جاءهم وقالوا**﴾ راجعين إلى أهل مكة الموجودين وضمير ﴿**يكفروا**﴾ وكذا ضمير ﴿**قالوا**﴾ في الموضعين راجع إلى جنس الكفرة المعلوم من السياق والمراد بهم الكفرة الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام ﴿**ومن قبل**﴾ متعلق بيكفروا لا بأوتي لعدم ظهور الفائدة والمراد بسحرين أو ساحران موسى وهارون عليهما السلام كما روي عن مجاهد، وإطلاق سحرين عليهما للمبالغة أو هو بتقدير ذوا سحرين، والمعنى أو لم يكفر أبناء جنسهم من قبلهم بما أوتي موسى عليه السلام كما كفروا هم بما أوتيته وقال أولئك الكفرة هما أي موسى وهارون سحران أو ساحران تظاهرا، وقيل: يجوز أن تكون الضمائر راجعة إلى الموجودين والكفر والقول المذكور لأولئك السابقين حقيقة وإسنادهما إلى الموجودين مجازي لما بين الطائفتين من الملابسة.

وقيل بناء على ما روي عن الحسن: من أنه كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام إن المعنى أو لم يكفر آباؤهم من قبل أن يرسل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بما أوتي موسى قالوا هما أي موسى وهارون سحران أو ساحران تظاهرا فهو على أسلوب ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ [البقرة: ٤٩] ونحوه ويفيد الكلام عليه أن قدمهم في الكفر من الرسوخ بمكان، ولهم في العناد عرق أصيل وكون العرب لهم أصل في أيام موسى عليه السلام مما لا شبهة فيه حتى قيل: إن فرعون كان عربياً من أولاد عاد لكن في حسن تخريج الآية على ذلك كلام، وأنت تعلم أن كل هذه الأوجه ليست مما ينشرح له الصدر وفيها من التكلف ما فيها.

وادعى أبو حيان ظهور رجوع ضمير يكفروا وكذا ضمير قالوا إلى قريش الذين قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى وأن نسبة ذلك إليهم لما أن تكذيبهم لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم تكذيب لموسى عليه السلام ونسبتهم السحر للرسول نسبتهم إياه لموسى وهارون عليهما السلام إذ الأنبياء عليهم السلام من واد واحد فمن نسب إلى أحد منهم ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميعهم فلا يحتاج إلى توسيط حكاية الرهط في أمر النسبة، وعليه يجوز أن يراد بكل كل واحد من الأنبياء عليهم السلام، ولا يخفى أن ما ادعاه من ظهور رجوع الضمير إلى ما ذكر أمر مقبول عند منصفي ذوي العقول، لكن توجيه نسبة الكفر والقول المبين لكيفيته مما ذكر مما يبعد قبوله، وكأنه إنما احتاج إليه لعدم

ثبوت حكاية الرهط عنده، وعن قتادة أنه فسر السحران بالقرآن والإنجيل؛ والساحران بمحمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام وجعل ذلك القول قول أعداء الله تعالى اليهود، وتفسير الساحرين بذلك مروي عن الحسن، وروي عنه أيضاً أنه فسرهما بموسى وعيسى عليهما السلام والكل كما ترى، وتفسيرهما بمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام مما رواه البخاري في تاريخه وجماعة عن ابن عباس.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصم الجحدري أنه كان يقرأ سحران ويقول هما كتابان الفرقان والتوراة ألا تراه سبحانه يقول: ﴿**فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما**﴾ ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ**﴾ أي فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب أهدى منهما، وإنما عبر عنه بالاستجابة إيذاناً بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره، كان أمره صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بالإتيان بما ذكر دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه.

وقيل: المراد فإن لم يستجيبوا دعاءك إياهم إلى الإيمان بعد ما وضح لهم من المعجزات التي تضمنها كتابك الذي جاءهم فالاستجابة على ظاهرها لأن الإيمان أمر يريد ﷺ حقيقة وقوعه منهم وهي كما في البحر بمعنى الإجابة وتتعدى إلى الداعي باللام كما في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿فاستجاب له ربه﴾ [يوسف: ٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿فاستجبنا له﴾ [الأنبياء: ٧٦، ٨٤، ٨٨، ٩٠] وبنفسها كما في بيت الكتاب:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقال الزمخشري: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام وبحذف الدعاء إذا عدي إلى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله تعالى دعاءه أو استجاب له ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه، وقوله في البيت فلم يستجبه على حذف مضاف أي فلم يستجب دعاءه انتهى، ولو جعل ضمير يستجبه للدعاء المفهوم من داع لم يحتج إلى تقدير، وجعل المفعول هنا محذوفاً لذكر الداعي، ووجهه على ما قيل: إنه مع ذكر الداعي والاستجابة يتعين أن المفعول الدعاء فيصير ذكره عبثاً، وجوز كون الحذف للعلم به من فعله لا لأنه ذكر الداعي، وهذا حكم الاستجابة دون الإجابة لقوله تعالى: ﴿أجيبوا داعي الله﴾ [الأحقاف: ٣١] ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم متمسك ما أصلاً إذ لو كان لهم ذلك لأتوا به ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾ استفهام إنكاري للنفي أي لا أضل ممن اتبع هواه ﴿**بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ**﴾ أي هو أضل من كل ضال وإن كان ظاهر السبك لنفي الأضل لا لنفي المساوي كما مر في نظائره مراراً، وقوله تعالى: ﴿**بغير هدى**﴾ في موضع الحال من فاعل اتبع، وتقييد الاتباع بذلك لزيادة التقرير والإشباع في التشنيع والتضليل وإلا فمقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة، وقيل: للاحتراز عما يكون فيه هدى منه تعالى فإن الإنسان قد يتبع هواه ويوافق الحق، وفيه بحث ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ الذين ظلموا أنفسهم فانهمكوا في اتباع الهوى والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين ﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ**﴾ الضمير لأهل مكة، وأصل التوصيل ضم قطع الحبل بعضها ببعض قال الشاعر:

فقل لبني مروان ما نال ذمتي ... بحبل ضعيف لا يزال يوصل

والمعنى ولقد أنزلنا القرآن عليهم متواصلاً بعضه إثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة أو متتابعاً وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح، وقيل: جعلناه أوصالاً أي أنواعاً مختلفة وعداً ووعيداً إلخ، وقيل: المعنى وصلنا لهم خبر الآخرة بخبر الدنيا حتى كأنهم عاينوا الآخرة وعن الأخفش أتممنا لهم القول، وقرأ الحسن ﴿**وصلنا**﴾ بتخفيف الصاد والتضعيف في قراءة الجمهور للتكثير ومن هنا قال الراغب في تفسير ما في الآية عليها أي أكثرنا لهم القول موصولاً بعضه ببعض ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ فيؤمنون بما فيه.

﴿الَّذِينَ آتيناهم الْكِتَابَ من قَبْله﴾ قبل القرآن على أن الضمير للقول مراداً به القرآن أو للقرآن المفهوم منه وأياً ما كان فالمراد من قبل إيتائه ﴿هُم﴾ لا هؤلاء الذين ذكرت أحوالهم ﴿به﴾ أي بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وقيل: الضميران للنبي ﷺ، والمراد بالموصول على ما روي عن ابن عباس مؤمنو أهل الكتاب مطلقاً، وقيل: هم أبو رفاعة في عشرة من اليهود آمنوا فأوذوا، وأخرج ابن مردويه بسند جيد وجماعة عن رفاعة القرظي ما يؤيده وقيل: أربعون من أهل الإنجيل كانوا مؤمنين بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قبل مبعثه اثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وثمانية قدموا من الشام بحيرا وأبرهة وأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع وتميم، وقيل: ابن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي ونسب إلى قتادة واستظهر أبو حيان الإطلاق وأن ما ذكر من باب التمثيل لمن آمن من أهل الكتاب.

﴿وَإِذَا يُتْلَى﴾ أي القرآن ﴿عَلَيهِمْ قَالُوا آمَنَّا به﴾ أي بأنه كلام الله تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ من ربنا﴾ أي الحق الذي كنا نعرف حقيته، وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به، وجوز أن تكون الجملة مفسرة لما قبلها وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا من قَبْله﴾ أي من قبل نزوله ﴿مُسْلمينَ﴾ بيان لكون إيمانهم به أمراً متقادم العهد لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة وأنهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن ويكفي في كونهم على دين الإسلام قبل نزوله إيمانهم به إجمالاً. وفي الكشاف والبحر أن الإسلام صفة كل موحد مصدق بالوحي والظاهر عليه أن الإسلام ليس من خصوصيات هذه الأمة من بين الأمم، وذهب السيوطي عليه الرحمة إلى كونه من الخصوصيات وألف في ذلك كراسة وقال في ذيلها: لما فرغت من تأليف هذه الكراسة واضطجعت على الفراش للنوم ورد عليَّ قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ الآية فكأنما ألقي على جبل لما أن ظاهرها الدلالة للقول بعدم الخصوصية وقد فكرت فيها ساعة ولم يتجه لي فيها شيء فلجأت إلى الله تعالى ورجوت أن يفتح بالجواب عنها فلما استيقظت وقت السحر إذا بالجواب قد فتح فظهر عنها ثلاثة أجوبة: الأول أن مسلمين اسم فاعل مراد به الاستقبال كما هو حقيقة فيه دون الحال والماضي والتمسك بالحقيقة هو الأصل وتقدير الآية إنا كنا من قبل مجيئه عازمين على الإسلام به إذا جاء لما كنا نجده في كتبنا من بعثه ووصفه ويرشح هذا أن السياق يرشد إلى أن قصدهم الإخبار بحقية القرآن وأنهم كانوا على قصد الإسلام به إذا جاء به النبي ﷺ وليس قصدهم الثناء على أنفسهم في حد ذاتهم بأنهم كانوا بصفة الإسلام أولاً لنبو المقام عنه كما لا يخفى، الثاني أن يقدر في الآية إنا كنا من قبله مسلمين به فوصف الإسلام سببه القرآن لا التوراة والإنجيل ويرشح ذلك ذكر الصلة فيما قبل حيث قال سبحانه: ﴿هم به يؤمنون﴾ فإنه يدل على أن الصلة مرادة هنا أيضاً إلا أنها حذفت كراهة التكرار. الثالث أن هذا الوصف منهم بناء على ما هو مذهب الأشعري من أن من كتب الله تعالى أن يموت مؤمناً فهو يسمى عنده تعالى مؤمناً ولو كان في حال الكفر وإنما لم نطلق نحن هذا الوصف عليه لعدم علمنا بما عنده تعالى، فهؤلاء لما ختم الله تعالى لهم بالدخول في الإسلام أخبروا عن أنفسهم أنهم كانوا متصفين به قبل لأن العبرة في هذا الوصف بالخاتمة ووصفهم بذلك أولى من وصف الكافر الذي يعلم الله تعالى أنه يموت على الإسلام به لأنهم كانوا على دين حق وهذا معنى دقيق استفدناه في هذه الآية من قواعد علم الكلام انتهى.

ولا يخفى ضعف هذا الجواب وكذا الجواب الأول وأما الجواب الثاني فهو بمعنى ما ذكرناه في الآية وقد ذكره البيضاوي وغيره وجوز أن يراد بالإسلام الانقياد أي إنا كنا من قبل نزوله منقادين لأحكام الله تعالى الناطق بها كتابه المنزل إلينا ومنها وجوب الإيمان به فنحن مؤمنون به قبل نزوله ﴿أُولَئكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من النعوت ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْن﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمانين

أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين ﴿ويدرؤون﴾ أي يدفعون ﴿بالْحَسَنةِ﴾ أي بالطاعة ﴿السَّيِّئَةَ﴾ أي المعصية فإن الحسنة تمحو السيئة قال صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ: اتبع السيئة الحسنة تمحها، وقيل: أي يدفعون بالحلم الأذى وقال ابن جبير: بالمعروف المنكر وقال ابن زيد: بالخير الشر وقال ابن سلام: بالعلم الجهل وبالكظم الغيظ وقال ابن مسعود: بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك ﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير كما يقتضيه مقام المدح ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ سقط القول وقال مجاهد: الأذى والسب وقال الضحاك: الشرك وقال ابن زيد: ما غيرته اليهود من وصف الرسول ﷺ ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي عن اللغو تكرماً كقوله تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ [الفرقان: ٧٢] ﴿وَقَالُوا﴾ لهم[1] أي للاغين المفهوم من ذكر اللغو ﴿لَنَا أَعْمالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ متاركة لهم كقوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [الكافرون: ٦] ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قالوه توديعاً لهم لا تحية أو هو للمتاركة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣] وأياً ما كان فلا دليل في الآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام كما زعم الجصاص إذ ليس الغرض من ذلك إلا المتاركة أو التوديع. وروي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الكفار «لا تبدؤوهم بالسلام وإذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم». نعم روي عن ابن عباس جواز أن يقال للكافر ابتداء السلام عليك على معنى الله تعالى عليك فيكون دعاء عليه وهو ضعيف، وقوله تعالى: ﴿لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ بيان للداعي للمتاركة والتوديع أي لا نطلب صحبة الجاهلين ولا نريد مخالطتهم ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي﴾ هداية موصلة إلى البغية لا محالة ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي كل من أحببته طبعاً من الناس قومك وغيرهم ولا تقدر أن تدخله في الإسلام وإن بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت في السعي كل حد معهود، وقيل: من أحببت هدايته.

﴿وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته فيدخله في الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعدين لذلك وهم الذين يشاء سبحانه هدايتهم ومنهم الذين ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب، وأفعل للمبالغة في علمه تعالى.

وقيل: يجوز أن يكون على ظاهره، وأفاد كلام بعضهم أن المراد أنه تعالى أعلم بالمهتدي دون غيره عز وجل، وحيث قرنت هداية الله تعالى بعلمه سبحانه بالمهتدي وأنه جل وعلا العالم به دون غيره دل على أن المراد بالمهتدي المستعد دون المتصف بالفعل فيلزم أن تكون هدايته إياه بمعنى القدرة عليها، وحيث كانت هدايته تعالى لذلك بهذا المعنى، وجيء بلكن متوسطة بينها وبين الهداية المنفية عنه صلى الله تعالى عليه وسلم لزم أن تكون تلك الهداية أيضاً بمعنى القدرة عليها لتقع لكن في موضعها، ولذا قيل: المعنى إنك لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ولكن الله تعالى يقدر على أن يدخل من يشاء إدخاله وهو الذي علم سبحانه أنه غير مطبوع على قلبه، وللبحث فيه مجال، وظاهر عبارة الكشاف حمل نفي الهداية في قوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ على نفي القدرة على الإدخال في الإسلام وإثباتها في قوله سبحانه: ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ على وقوع الإدخال في الإسلام بالفعل، وهذا ما اعتمدناه في تفسير الآية، ووجهه أن مساق الآية لتسليته صلى الله تعالى عليه وسلم حيث لم ينجع في قومه الذين يحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص إنذاره عليه الصلاة والسلام إياهم وما جاء به إليهم من الحق بل أصروا على ما هم عليه، وقالوا: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ [القصص: ٤٨] ثم

---

(١) قوله لهم أي للاغين إلخ وقع في خط المؤلف كتابة لفظ لهم بالحمرة ظناً منه رحمه الله أنها من القرآن ولذلك قال أي للاغين المفهوم إلخ.

كفروا به وبموسى عليهما الصلاة والسلام فكانوا على عكس قوم هم أجانب عنه صلى الله تعالى عليه وسلم حيث آمنوا بما جاء به من الحق وقالوا: إنه الحق من ربنا ثم صرحوا بتقادم إيمانهم به وأشاروا بذلك إلى إيمانهم بنبيهم وبما جاءهم به أيضاً فلو لم يحمل إنك لا تهدي من أحببت على نفي القدرة على إدخال من أحبه عليه الصلاة والسلام في الإسلام بل حمل على نفي وقوع إدخاله صلى الله تعالى عليه وسلم إياه فيه لبعد الكلام عن التسلية وقرب إلى العتاب فإنه على طرز قولك لمن له أحباب لا ينفعهم إنك لا تنفع أحبابك وهو إذا لم يؤول بأنك لا تقدر على نفع أحبابك فإنما يقال على سبيل العتاب أو التوبيخ أو نحوه دون سبيل التسلية، ولما كان لهدايته تعالى أولئك الذين أوتوا الكتاب مدخلاً فيما يستدعي التسلية كان المناسب إبقاء ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ على ظاهره من وقوع الهداية بالفعل دون القدرة على الهداية وإثبات ذلك له تعالى فرع إثبات القدرة ففي إثباته إثباتها لا محالة فيصادف الاستدراك المحز، وحمل المهتدين على المستعدين للهداية لا يستدعي حمل يهدي على يقدر على الهداية فما ذكر من اللزوم ممنوع؛ ويجوز أن يراد بالمهتدين المتصفون بالهداية بالفعل، والمراد بعلمه تعالى بهم مجازاته سبحانه على اهتدائهم فكأنه قيل: وهو تعالى أعلم بالمهتدين كأولئك الذين ذكروا من أهل الكتاب فيجازيهم على اهتدائهم بأجر أو بأجرين فتأمل، والآية على ما نطقت به كثير من الأخبار نزلت في أبي طالب.

أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة فقال: لولا أن يعيروني قريش يقولون: ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك، فأنزل الله تعالى ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ الآية.

وأخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وغيرهم، عن سعيد بن المسيب عن أبيه نحو ذلك، وأخرج أبو سهل السري بن سهل من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ إلخ نزلت في أبي طالب ألح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسلم فأبى فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد روى نزولها فيه عنه أيضاً ابن مردويه، ومسألة إسلامه خلافية، وحكاية إجماع المسلمين أو المفسرين على أن الآية نزلت فيه لا تصح فقد ذهب الشيعة وغير واحد من مفسريهم إلى إسلامه وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك وأن أكثر قصائده تشهد له بذلك؛ وكأن من يدعي إجماع المسلمين لا يعتد بخلاف الشيعة ولا يعول على رواياتهم، ثم إنه على القول بعدم إسلامه لا ينبغي سبه والتكلم فيه بفضول الكلام فإن ذلك مما يتأذى به العلويون بل لا يبعد أن يكون مما يتأذى به النبي عليه الصلاة والسلام الذي نطقت الآية بناءً على هذه الروايات بحبه إياه، والاحتياط لا يخفى على ذي فهم.

ولأجـل عـين ألـف عـين تـكـرم

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ
رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ
مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ
يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ
أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا

حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ
كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ
﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ
وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ
إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ
سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن
رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ
فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

﴿**وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا**﴾ أي نخرج من بلادنا ومقرنا، وأصل الخطف الاختلاس بسرعة فاستعير لما ذكر، والآية نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا: نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد الله تعالى عليهم خوف التخطف بقوله: ﴿**أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمناً**﴾ أي ألم نعصمهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت الذي فيه تتاجر العرب حوله وهم آمنون فيه، فالعطف على محذوف و ﴿**نمكن**﴾ مضمن معنى الجعل، ولذا نصب حرماً وآمناً للنسب كلابن وتامر، وجعل أبو حيان الإسناد فيه مجازياً لأن الآمن حقيقة ساكنوه فيستغنى عن جعله للنسب وهو وجه حسن ﴿**يُجْبَى إِلَيْهِ**﴾ أي يحمل إليه ويجمع فيه من كل جانب وجهة ﴿**ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ أي ثمرات أشياء كثيرة على أن كل للتكثير وأصل معناه الإحاطة وليست بمرادة قطعاً، والجملة صفة أخرى لحرماً دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم إن اتبعوا الهدى بانقطاع الميرة، وقوله تعالى: ﴿**رِزقاً مِنْ لَدُنَّا**﴾ نصب عن المصدر من معنى يجبى لأن مآله يرزقون، أو الحال من ثمرات بمعنى مرزوقاً وصح مجيء الحال من النكرة

عند من لا يراه لتخصصها بالإضافة هنا، أو على أنه مفعول له بتقدير نسوق إليه ذلك رزقاً. وحاصل الرد أنه لا وجه لخوف من التخطف إن أمنوا فإنهم لا يخافون منه وهم عبدة أصنام فكيف يخافون إذا أمنوا وضموا حرمة الإيمان إلى حرمة المقام ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ جهلة لا يتفطنون ولا يتفكرون ليعلموا ذلك فهو متعلق بقوله تعالى: ﴿أو لم نمكن﴾ إلخ.

وقيل: هو متعلق بقوله سبحانه: من لدنا أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله عز وجل إذ لو علموا لما خافوا غيره، والأول أظهر، والكلام عليه أبلغ في الذم، وقرأ المنقري «نتخطف» بالرفع كما قرىء في قوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ [النساء: ٧٨] برفع يدرك وخرج بأنه بتقدير فنحن نتخطف وهو تخريج شذوذ.

وقرأ نافع وجماعة عن يعقوب وأبو حاتم عن عاصم «تجبى» بتاء التأنيث، وقرىء «تجني» بالنون من الجني وهو قطع الثمرة وتعديته بإلى كقولك يجني إلى فيه ويجني إلى الخافة[1] وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم «ثُمُرات» بضم الثاء والميم، وقرأ بعضهم «ثَمْرَات» بفتح الثاء وإسكان الميم، ثم إنه تعالى بعد أن رد عليهم خوفهم من الناس بين أنهم أحقاء بالخوف من بأس الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكثيراً من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العيش والدعة حتى بطروا واغتروا ولم يقوموا بحق النعمة فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ التي تمرون عليها في أسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا حال كونها.

﴿لَمْ تُسْكَن مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد تدميرهم ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم أو إلا سكناً قليلاً وقلته باعتبار قلة الساكنين فكأنه قيل: لم يسكنها من بعدهم إلا قليل من الناس.

وجوز أن يكون الاستثناء من المساكن أي إلا قليلاً منها سكن وفيه بعد، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر ذات أيديهم، وفي الكشاف أي تركناها على حال لا يسكنها أحد أو خربناها وسويناها بالأرض وهو مشير إلى أن الوراثة إما مجرد انتقالها من أصحابها وإما إلحاقها بما خلقه الله تعالى في البدء فكأنه رجع إلى أصله ودخل في عداد خالص ملك الله تعالى على ما كان أولاً وهذا معنى الإرث، وانتصاب معيشتها على التمييز على مذهب الكوفيين، أو مشبه بالمفعول به على مذهب بعضهم، أو مفعول به على تضمين بطرت معنى فعل متعد أي كفرت معيشتها ولم ترع حقها على مذهب أكثر البصريين أو على إسقاط ﴿في﴾ أي في معيشتها على مذهب الأخفش، أو على الظرف نحو جئت خفوق النجم على قول الزجاج: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ بيان للعناية الربانية إثر بيان إهلاك القرى المذكورة أي وما صح وما استقام أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار بل كانت سنته عز وجل أن لا يهلكها ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ أي في أصلها وكبيرتها التي ترجع تلك القرى إليها ﴿رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب، وإنما لم يهلكهم سبحانه حتى يبعث إليهم رسولاً لإلزام الحجة وقطع المعذرة بأن يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك، وإنما كان البعث في أم القرى لأن في أهل البلدة الكبيرة وكرسي المملكة ومحل الأحكام فطنة وكيساً فهم أقبل للدعوة وأشرف.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة أن أم القرى مكة والرسول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) قوله إلى الخافة هي خريطة من أدم يشار فيها العسل انتهى منه.

فالمراد بالقرى القرى التي كانت في عصره عليه الصلاة والسلام والأولى أولى، والالتفات إلى نون العظمة في آياتنا لتربية المهابة وإدخال الروعة وقرىء «في إمها» بكسر الهمزة اتباعاً للميم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلكي الْقُرَى﴾ عطف على ﴿ما كان ربك مهلك القرى﴾ ﴿إلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد ما بعثنا في أمها رسولاً يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه في حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الإهلاك بموجب السنة الإلهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الإهلاك عقيب البعث ﴿وَمَا أُوتيتُم مِن شَيْء﴾ أي أي شيء أصبتموه من أمور الدنيا وأسبابها ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا وَزينَتُهَا﴾ فهو شيء شأنه أن يتمتع به ويتزين به أياماً قلائل ويشعر بالقلة لفظ المتاع وكذا ذكر ﴿أبقى﴾ في المقابل وفي لفظ الدنيا إشارة إلى القلة والخسة ﴿وَمَا عنْدَ الله﴾ في الجنة وهو الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه أبدى وأين المتناهي من غير المتناهي ﴿أَفَلاَ تَعْقلُونَ﴾ أي ألا تتفكرون فلا تفعلون هذا الأمر الواضح فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير وتخافون على ذهاب ما أصبتموه من متاع الحياة الدنيا وتمتنعون عن اتباع الهدى المفضي إلى ما عند الله تعالى لذلك فكأن هذا رد عليهم في منع خوف التخطف إياهم من اتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم على تقدير تحقق وقوع ما يخافونه. وقرأ أبو عمرو يعقلون بياء الغيبة على الالتفات وهو أبلغ في الموعظة لإشعاره بأنهم لعدم عقلهم لا يصلحون للخطاب، فالالتفات هنا لعدم الالتفات زجراً لهم وقرىء «فمتاعاً الحياة الدنيا» أي فتتمتعون به في الحياة الدنيا فنصب متاعاً على المصدرية والحياة على الظرفية ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ أي وعداً بالجنة وما فيها من النعيم الصرف الدائم فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿فَهُوَ لا قيه﴾ أي مدركه لا محالة لاستحالة الخلف في وعده تعالى ولذلك جيء بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة وعطفت بالفاء المنبئة عن السببية ﴿كَمَن مَتَّعْنَاهُ مَتاعَ الْحَياة الدُّنيَا﴾ الذي هو مشوب بالآلام منغص بالاكدار مستتبع بالتحسر على الانقطاع، ومعنى الفاء الأولى ترتيب إنكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله تعالى أي أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوي بين الفريقين وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقيامة منَ الْمُحْضَرينَ﴾ عطف على متعناه داخل معه في حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه مقوله كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو أحضرناه يوم القيامة للنار أو العذاب وغلب لفظ المحضر في المحضر لذلك والعدول إلى الجملة الاسمية قيل للدلالة على التحقق حتماً ولا يضر كون خبرها ظرفاً مع العدول وحصول الدلالة على التحقق لو قيل أحضرناه لا ينافي ذلك، وقد يقال: إن فيما ذكر في النظم الجليل شيء آخر غير الدلالة على التحقيق ليس في قولك ثم أحضرناه يوم القيامة كالدلالة على التقوى أو الحصر والدلالة على التهويل والإيقاع في حيرة، ولمجموع ذلك جيء بالجملة الاسمية، ويوم متعلق بالمحضرين المذكور، وقدم عليه للفاصلة أو هو متعلق بمحذوف وقد مر الكلام في مثل ذلك، وثم للتراخي في الرتبة دون الزمان وإن صح وكان فيه إبقاء اللفظ على حقيقته لأنه أنسب بالسياق وهو أبلغ وأكثر إفادة وأرباب البلاغة يعدلون إلى المجاز ما أمكن لتضمنه لطائف النكات.

وقرأ طلحة «أمن وعدناه» بغير فاء، وقرأ قالون والكسائي «ثم هو» بسكون الهاء كما قيل: عضد وعضد تشبيهاً للمنفصل وهو الميم الأخير من ثم بالمتصل، والآية نزلت على ما أخرج ابن جرير عن مجاهد في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل وأخرج من وجه آخر عنه أنها نزلت في حمزة وأبي جهل، وقيل: نزلت في علي كرّم الله تعالى وجهه وأبي جهل ونسب إلى محمد بن كعب والسدي، وقيل: في عمار رضي الله تعالى عنه، والوليد بن المغيرة، وقيل: نزلت في المؤمن والكافر مطلقاً ﴿وَيَوْمَ يُنَاديهم﴾ عطف على يوم القيامة لاختلافهما عنواناً وإن اتحدا ذاتاً أو منصوب بإضمار

اذكر ونداؤه تعالى إياهم يحتمل أن يكون بواسطة وأن يكون بدونها وهو نداء إهانة وتوبيخ ﴿**فَيَقُولُ**﴾ تفسير للنداء ﴿**أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي فإن زعم مما يتعدى إلى مفعولين كقوله:

وأن الـذي قـد عـاش يـا أم مـالـك ... يموت ولـم أزعـمـك عـن ذاك مـعـزلا

وحذف هنا المفعولان معاً ثقة بدلالة الكلام عليهما نحو من يسمع يخل. وفي الكشاف يجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يصح الاقتصار على أحدهما، وادعى بعضهم أن عدم صحة الاقتصار هو الأصح وأنه الذي ذهب إليه الأكثرون وقال الأخفش: إذا دخلت هذه الأفعال ظن وأخواتها على أن نحو ظننت أنك قائم فالمفعول الثاني منهما محذوف والتقدير ظننت قيامك كائناً لأن المفتوحة بتأويل المفرد وسيبويه يرى في ذلك أن أن مع ما بعدها سدت مسد المفعولين، وأجاز الكوفيون الاقتصار على الأول إذا سد شيء مسد الثاني كما في باب المبتدأ نحو أقائم أخواك فيقولون هل ظننت قائماً أخواك؟ وقال أبو حيان: إذا دل دليل على أحدهما جاز حذفه كقوله:

كـأن لـم يـكـن بـين إذا كـان بـعـده ... تـلاق ولـكـن لا إخـال تـلاقـيـا

أي لا أخال بعد البين تلاقياً وقال صاحب التحفة: يجوز الاقتصار في باب كسوت على أحد المفعولين بدليل وبغير دليل لأن الأول فيهما غير الثاني وأجاز بعضهم حذف الأول إذا كان هو الفاعل معنى نحو قوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين﴾ [النور: ٥٧] أي ولا يحسبن الذين كفروا إياهم أي أنفسهم معجزين، وقال الطيبي: في عدم الحذف فيما عدا ما ذكر. وجواز الحذف فيه لعل السر أن هذه الأفعال قيود للمضامين تدخل على الجمل الاسمية لبيان ما هي عليه لأن النسبة قد تكون عن علم وقد تكون عن ظن فلو اقتصر على أحد طرفي الجملة لقيام قرينة توهم أن الذي سيق له الكلام والذي هو مهتم بشأنه الطرف المذكور وليس غير المذكور مما يعتنى به، نعم إذا كان الفاعل والمفعول لشيء واحد يهون الخطب، وذكر عن صاحب الإقليد ما يؤيده وقد أطال طيب الله تعالى مرقده الكلام في هذا المقام، وادعى ابن هشام أن الأولى أن يقدر هنا الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي لأنه لم يقع الزعم في التنزيل على المفعولين الصريحين بل على أن وصلتها كقوله تعالى: ﴿الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ [الأنعام: ٩٤] وفيه نظر. والظاهر أن المراد بالشركاء من عبد من دون الله تعالى من ملك أو جن أو إنس أو كوكب أو صنم أو غير ذلك ﴿**قَالَ**﴾ استئناف مبني على حكاية السؤال كأنه قيل: فماذا كان بعد هذا السؤال فقيل قال: ﴿**الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**﴾ أي ثبت عليهم مقتضى القول وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود: ١١٩] وغيره من آيات الوعيد، والمراد بالموصول الشركاء الذين كانوا يزعمونهم شركاء من الشياطين ورؤساء الكفر، وتخصيصهم بما في حيز الصلة مع شمول مضمونها الاتباع أيضاً لأصالتهم في الكفر واستحقاق العذاب، والتعبير عنهم بذلك دون الذين زعموهم شركاء لإخراج مثل عيسى وعزير والملائكة عليهم السلام لشمول الشركاء على ما سمعت له، ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة لتفطنهم إن السؤال منهم سؤال توبيخ وإهانة وهو يستدعي استحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا، وقيل: يجوز أن يكون العبدة قد أجابوا معتذرين بقولهم هؤلاء أضلونا ثم قال الشركاء ما قص الله تعالى رداً لقولهم ذلك إلا أنه لم يحك إيجازاً لظهوره ﴿**رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا**﴾ تمهيد للجواب والإشارة إلى العبدة لبيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده و ﴿**هؤلاء**﴾ مبتدأ خبره الموصول بعده، وجملة أغوينا صلة الموصول والعائد محذوف للتصريح به فيما بعد أي الذين أغويناهم، وقوله تعالى:

﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجواب حقيقة أي ما أكرهناهم على الغي وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والإلجاء فغووا باختيارهم غياً مثل غينا باختيارنا، ويجوز أن يكون الموصول صفة اسم الإشارة والخبر جملة أغويناهم كما غوينا ومنع ذلك أبو علي في التذكرة بأنه يؤدي إلى أن الخبر لا يكون فيه فائدة زائدة لأن إغواءهم إياهم قد علم من الوصف. ورد بأن التشبيه دل على أنهم غووا باختيار لا أن الإغواء إلجاء وقوله: إن كما غوينا فضلة فلا تصير ذاك أصلاً في الجملة ليس بشيء لأن الفضلات قد تلزم في بعض المواضع نحو زيد عمرو قائم في داره وقرأ أبان عن عاصم وبعض الشاميين «كما غوينا» بكسر الواو، قال ابن خالوية: وليس ذلك مختاراً لأن كلام العرب غويت من الضلالة وغويت بالكسر من البشم ﴿تَبَرَّأْنَا﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هوى من أنفسهم موجهين التبرؤ ومهيئين له ﴿إِلَيْكَ﴾ والجملة تقرير لما قبلها لأن الإقرار بالغواية تبرؤ في الحقيقة ولذا لم تعطف عليه وكذا قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون في نفس الأمر والمآل أهواءهم، وقيل: ما مصدرية متصلة بقوله تعالى: ﴿تبرأنا﴾ وهناك جار مقدر أي تبرأنا من عبادتهم إيانا وجعلها نافية على أن المعنى ما كانوا يعبدوننا باستحقاق وحجة ليس بشيء وأياً ما كان فإيانا مفعول يعبدون قدم للفاصلة ﴿وَقِيلَ﴾ تقريعاً لهم وتهكماً بهم ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين زعمتم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفرط الحيرة وإلا فليس هناك طلب حقيقة للدعاء، وقيل: دعوهم لضرورة الامتثال على أن هناك طلباً، والغرض من طلب ذلك منهم تفضيحهم على رؤوس الأشهاد بدعاء من لا نفع له لنفسه قيل: والظاهر من تعقيب صيغة الأمر بالفاء في قوله تعالى: ﴿فدعوهم﴾ أنها لطلب الدعاء وإيجابه والأول أبلغ في تهويل أمر أولئك الكفرة والإشارة إلى سوء حالهم وأمر التعقيب بالفاء سهل ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة، وجوز أن يكون المراد فلم يجيبوهم لأنهم في شغل شاغل عنهم ولعلهم ختم على أفواههم إذ ذاك ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الظاهر أن الضمير للداعين وقال الضحاك: هو للداعين والمدعوين جميعاً، وقيل: هو للمدعوين فقط وليس بشيء.

والظاهر أن الرؤية بصرية ورؤية العذاب إما على معنى رؤية مباديه أو على معنى رؤيته نفسه بتنزيله منزلة المشاهد، وجوز أن تكون علمية والمفعول الثاني محذوف أي رأوا العذاب متصلاً بهم أو غاشياً لهم أو نحو ذلك. وأنت تعلم أن حذف أحد مفعولي أفعال القلوب مختلف في جوازه وتقدم آنفاً عن البعض أن الأكثرين على المنع فمن منع وقال في بيان المعنى ورأوا العذاب متصلاً بهم جعل متصلاً حالاً من العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لو شرطية وجوابها محذوف أي لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب أو لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين مؤمنين لما رأوا العذاب.

واعترض بأن الدال على المحذوف رأوا العذاب وهو مثبت فلا يقدر المحذوف منفياً وهو غير وارد لأن الالتفات إلى المعنى وإذا جاز الحذف لمجرد دلالة الحال فإذا انضم إليها شهادة المقال كان أولى وأولى، وجوز أن تكون ﴿لو﴾ للتمني أي تمنوا لو أنهم كانوا مهتدين فلا تحتاج إلى الجواب وقال صاحب التقريب: فيه نظر إذ حقه أن يقال لو كنا إلا أن يكون على الحكاية كأقسم ليضربن أو على تأويل رأوا متمنين هدايتهم.

وجوز على تقدير كونها للتمني أن يكون قد وضع لو أنهم كانوا مهتدين موضع تحيروا لرؤيته كان كل أحد يتمنى لهم الهداية عند ذلك الهول والتحير ترحماً عليهم أو هو من الله تعالى شأنه على المجاز كما قيل: في قوله تعالى: ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير﴾ [البقرة: ١٠٣]، وجعل الطيبي وضعه موضعه من إطلاق المسبب على السبب لأن تحيرهم سبب حامل على هذا القول.

وقال عليه الرحمة: إن النظم على هذا الوجه ينطبق، واختار الإمام الرازي أنها شرطية إلا أنه لم يرتض ما قالوه في تقدير الجواب فقال بعد نقل ما قالوه: وعندي أن الجواب غير محذوف، وفي تقريره وجوه أحدها أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله سبحانه: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ فهناك يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسدر والدوار فيصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً، فقال سبحانه: ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يبصرون شيئاً على معنى أنهم لم يروا العذاب لأنهم صاروا بحيث لا يبصرون شيئاً، وثانيها أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهي الأصنام أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقهم: ﴿ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين، ولكنها ليست كذلك؛ والإتيان بضمير العقلاء على حسب اعتقاد القوم بهم، وثالثها أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقية هذا العذاب على حسب اعتقاد القوم بهم، وثالثها أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقية هذا العذاب لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فإن ذلك يقتضي تفكيك نظم الآية اهـ ولعمري إنه لم يأت بشيء وما يرد عليه أظهر من أن يخفى على من له أدنى تمييز بين الحي واللي.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ عطف على الأول سئلوا أولاً عن إشراكهم لأنه المقصود من ﴿أين شركائي الذين زعمتم﴾، وثانياً عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أصله فعموا عن الأنباء أي لم يهتدوا إليها، وفيه استعارة تصريحية تبعية حيث استعير العمى لعدم الاهتداء ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم وضمن العمى معنى الخفاء فعدي بعلى ولولاه لتعدى بعن ولم يتعلق بالأنباء لأنها مسموعة لا مبصرة، وفي هذا القلب دلالة على أن ما يحضر الذهن يفيض عليه ويصل إليه من الخارج ونفس الأمر إما ابتداء وإما بواسطة تذكر الصورة الواردة منه بأماراتها الخارجية فإذا أخطأ الذهن الخارج بأن لم يصل إليه لانسداد الطريق بينه وبينه بعمى ونحوه لم يمكنه إحضار ولا استحضار، وذلك لأنه لما جعل الأنباء الواردة عليهم من الخارج عمياً لا تهتدي دل على أنهم عمي لا يهتدون بالطريق الأولى لأن اهتداءهم بها فإذا كانت هي في نفسها لا تهتدي فما بالك بمن يهتدي بها كذا قيل: فليتدبر، وجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية تخيلية أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم، والمراد بالأنباء إما ما طلب منهم مما أجابوا به الرسل عليهم السلام أو ما يعمها وكل ما يمكن الجواب به، وإذا كانت الرسل عليهم السلام يتتعتعون في الجواب عن مثل ذلك في ذلك المقام الهائل ويفوضون العلم إلى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤول فما ظنك بأولئك الضلال من الأمم.

وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش وأبو زرعة بن عمرو بن جرير «فعُمِّيت» بضم العين وتشديد الميم. ﴿فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً لفرط الدهشة أو العلم بأن الكل سواء في الجهل، والفاء إما تفصيلية أو تفريعية لأن سبب العمى فرط الدهشة.

وقرأ طلحة «لا يساءلون» بإدغام التاء في السين ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ أي من الشرك ﴿وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عنده عز وجل الناجين عن المهروب و ﴿عسى﴾ للتحقيق على عادة الكرام أو للترجي من قبل التائب المذكور بمعنى فليتوقع أن يفلح، وقوله تعالى: ﴿فأما﴾ قيل لتفصيل المجمل الواقع في ذهن السامع من بيان ما يؤول إليه حال المشركين، وهو أن حال من تاب منهم كيف يكون، والدلالة على ترتب الاخبار به على ما قبله فالآية متعلقة بما عندها.

وقال الطيبي: هي متعلقة بقوله تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً﴾ [القصص: ٦١] والحديث عن الشركاء مستطرد لذكر الإحضار، وتعقبه في الكشف بأن الظاهر أنه ليس متعلقاً به بل لما ذكر سبحانه حال من حق عليه القول من التابع والمتبوع قال تعالى شأنه حثاً لهم على الإقلاع: ﴿فأما من تاب وآمن﴾ فكأنه قيل: ما ذكر لمصيرهم فأما من تاب فكلا.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ خلقه من الأعيان والأعراض ﴿وَيَخْتَارُ﴾ عطف على يخلق، والمعنى على ما قيل يخلق ما يشاؤه باختياره فلا يخلق شيئاً بلا اختيار، وهذا مما لم يفهم مما يشاء فليس في الآية شائبة تكرار، وقيل في دفع ما يتوهم من ذلك غير ما ذكر مما نقله ورده الخفاجي ولم يتعرض للقدح في هذا الوجه، وأراه لا يخلو عن بعد ولي وجه في الآية سأذكره بعد إن شاء الله تعالى ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي التخير كالطيرة بمعنى التطير وهما والاختيار بمعنى، وظاهر الآية نفي الاختيار عن العبد رأساً كما يقوله الجبرية، ومن أثبت للعبد اختياراً قال: إنه لكونه بالدواعي التي لو لم يخلقها الله تعالى فيه لم يكن كان في حيز العدم، وهذا مذهب الأشعري على ما حققه العلامة الدواني قال: الذي أثبته الأشعري هو تعلق قدرة العبد وإرادته الذي هو سبب عادي لخلق الله تعالى الفعل فيه، وإذا فتشنا عن مبادىء الفعل وجدنا الإرادة منبعثة عن شوق له وتصور أنه ملائم وغير ذلك من أمور ليس شيء منها بقدرة العبد واختياره، وحقق العلامة الكوراني في بعض رسائله المؤلفة في هذه المسألة أن مذهب السلف أن للعبد قدرة مؤثرة بإذن الله تعالى وأن له اختياراً لكنه مجبور باختياره وادعى أن ذلك هو مذهب الأشعري دون ما شاع من أن له قدرة غير مؤثرة أصلاً بل هي كاليد الشلاء ونفي الاختيار عنه على هذا نحوه على ما مر فإنه حيث كان مجبوراً به كان وجوده كالعدم، وقيل: إن الآية أفادت نفي ملكهم للاختيار ويصدق على المجبور باختياره بأنه غير مالك للاختيار إذ لا يتصرف فيه كما يشاء تصرف المالك في ملكه، وقيل: المراد لا يليق ولا ينبغي لهم أن يختاروا عليه تعالى أي لا ينبغي لهم التحكم عليه سبحانه بأن يقولوا لم لم يفعل الله تعالى كذا.

ويؤيده أن الآية نزلت حين قال الوليد بن المغيرة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أو حين قال اليهود لو كان الرسول إلى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم غير جبريل عليه السلام لآمنا به على ما قيل، والجملة على هذا الوجه مؤكدة لما قبلها أو مفسرة له إذ معنى ذلك يخلق ما يشاء ويختار ما يشاء أن يختاره لا ما يختاره العباد عليه ولذا خلت عن العاطف وهي على ما تقدم مستأنفة في جواب سؤال تقديره فما حال العباد أو هل لهم اختيار أو نحوه؟ فقيل : إنهم ليس لهم اختيار ، وضعف هذا الوجه بأنه لا دلالة على هذا المعنى في النظم الجليل وفيه حذف المتعلق وهو على الله تعالى من غير قرينة دالة عليه، وكون سبب النزول ما ذكر ممنوع، والقول الثاني فيه يستدعي بظاهره أن يكون ضمير لهم لليهود وفيه من البعد ما فيه، وقيل: ﴿ما﴾ موصولة مفعول يختار والعائد محذوف، والوقف على يشاء لا نافية، والوقف على يختار كما نص عليه الزجاج وعلي بن سليمان والنحاس كما في الوجهين السابقين أي ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح، واختياره تعالى ذلك بطريق التفضل والكرم عندنا وبطريق الوجوب عند المعتزلة، وإلى موصولية ما وكونها مفعول يختار ذهب الطبري إلا أنه قال في بيان المعنى عليه: أي ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس، وأنكر أن تكون نافية لئلا يكون المعنى أنه لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل، وادعى أبو حيان أنه روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما معنى ما ذهب إليه، واعترض بأن اللغة لا تساعده لأن المعروف فيها أن الخيرة بمعنى الاختيار لا بمعنى الخير وبأنه لا يناسب ما بعده من قوله تعالى: ﴿سبحان الله﴾ إلخ، وكذا لا يناسب ما قبله من قوله سبحانه: ﴿يخلق ما يشاء﴾، وضعفه بعضهم بأن

فيه حذف العائد ولا يخفى أن حذفه كثير. وأجيب عما اعترض به الطبري بأنه يجوز أن يكون المراد بمعونة المقام استمرار النفي؛ أو يكون المراد ما كان لهم في علم الله تعالى ذلك، وهذا بعد تسليم لزوم كون المعنى ما ذكره لو أبقى الكلام على ظاهره. وقال ابن عطية: يتجه عندي أن يكون ما مفعول يختار إذا قدرنا كان تامة أي إن الله تعالى يختار كل كائن ولا يكون شيء إلا بإذنه وقوله تعالى: ﴿**لهم الخيرة**﴾ جملة مستأنفة معناها تعديد النعمة عليهم في اختيار الله سبحانه لهم لو قبلوا وفهموا ا هـ.

يعني والله تعالى أعلم أن المراد خيرة الله تعالى لهم أي اختياره لمصلحتهم. وللفاضل سعدي جلبي نحو هذا إلا أنه قال في قوله تعالى: ﴿**لهم الخيرة**﴾ إنه في معنى ألهم الخيرة بهمزة الاستفهام الإنكاري، وذكر أن هذا المعنى يناسبه ما بعد من قوله سبحانه: ﴿**سبحان الله**﴾ إلخ فإنه إما تعجيب عن إثبات الاختيار لغيره تعالى أو تنزيه له عز وجل عنه، ولا يخفى ضعف ما قالاه لما فيه من مخالفة الظاهر من وجوه، ويظهر لي في الآية غير ما ذكر من الأوجه، وهو أن يكون يختار معطوفاً على يخلق والوقف عليه تام كما نص عليه غير واحد وهو من الاختيار بمعنى الانتقاء والاصطفاء وكذا الخيرة بمعنى الاختيار بهذا المعنى والفعل متعد حذف مفعوله ثقة بدلالة ما قبله عليه أي ويختار ما يشاء، وتقديم المسند إليه في كل من جانبي المعطوف والمعطوف عليه لإفادة الحصر، وجملة ما كان لهم الخيرة مؤكدة لما قبلها حيث تكفل الحصر بإفادة النفي الذي تضمنته، والكلام مسوق لتجهيل المشركين في اختيارهم ما أشركوه واصطفائهم إياه للعبادة والشفاعة لهم يوم القيامة كما يرمز إليه ﴿**ادعوا شركاءكم**﴾ وللتعبير ـ بما ـ وجه ظاهر، والمعنى وربك لا غيره يخلق ما يشاء خلقه وهو سبحانه دون غيره ينتقي ويصطفي ما يشاء انتقاءه واصطفاءه فيصطفي مما يخلقه شفعاء ويختارهم للشفاعة ويميز بعض مخلوقاته جل جلاله على بعض ويفضله عليه بما شاء ما كان لهؤلاء المشركين أن ينتقوا ويصطفوا ما شاؤوا ويميزوا بعض مخلوقاته تعالى على بعض ويجعلوه مقدماً عنده عز وجل على غيره لأن ذلك يستدعي القدرة الكاملة وعدم كون فاعله محجوراً عليه أصلاً وأنى لهم ذلك فليس لهم إلا اتباع اصطفاء الله تعالى وهو جل وعلا لم يصطف شركاءهم الذين اصطفوهم للعبادة والشفاعة على الوجه الذي اصطفوهم عليه فما هم إلا جهال ضلال صدوا عما يلزمهم وتصدوا لما ليس لهم بحال من الأحوال، وإن شئت فنزل الفعل منزلة اللازم وقل المعنى وربك لا غيره يخلق ما يشاء خلقه وهو سبحانه لا غيره يفعل الاختيار والاصطفاء فيصطفي بعض مخلوقاته لكذا وبعضاً آخر لكذا ويميز بعضاً منها على بعض ويجعله مقدماً عنده تعالى عليه فإنه سبحانه قادر حكيم لا يسأل عما يفعل وهو جل وعلا أعظم من أن يعترض عليه وأجل، ويدخل في الغير المنفي عنه ذلك المشركون فليس لهم أن يفعلوا ذلك فيصطفوا بعض مخلوقاته للشفاعة ويختاروهم للعبادة ويجعلوهم شركاء له عز وجل ويدخل في الاختيار المنفي عنهم ما تضمنه قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فإن فيه انتقاء غيره ﷺ من الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي وتمييزه بأهلية تنزيل القرآن عليه فإن صح ما قيل: في سبب نزول هذه الآية من أنه القول المذكور كان فيها رد ذلك عليهم أيضاً إلا أنها لتضمنها تجهيلهم باختيارهم الشركاء واصطفائهم إياهم آلهة وشفعاء كتضمنها الرد المذكور جيء بها هنا متعلقة بذكر الشركاء وتقريع المشركين على شركهم، وربما يقال: إنها لما تضمنت تجهيلهم فيما له نوع تعلق به تعالى كاتخاذ الشركاء له سبحانه وفيما له نوع تعلق بخاتم رسله عليه الصلاة والسلام كتمييزهم غيره عليه الصلاة والسلام بأهلية الإرسال إليه وتنزيل القرآن عليه جيء بها بعد ذكر سؤال المشركين عن إشراكهم وسؤالهم عن جوابهم للمرسلين الناهين لهم عنه الذين عين أعيانهم وقلب صدر ديوانهم رسوله الخاتم لهم صلى الله تعالى عليه وسلم فلها تعلق بكلا الأمرين إلا أن تعلقها بالأمر الأول أظهر وأتم وخاتمتها تقتضيه

على أكمل وجه وأحكم. وربما يقال أيضاً: إن لها تعلقاً بجميع ما قبلها، أما تعلقها بالأمرين المذكورين فكما سمعت، وأما تعلقها بذكر حال التائب فمن حيث إن انتظامه في سلك المفلحين يستدعي اختيار الله تعالى إياه واصطفاءه له وتمييزه على من عداه، ولذا جيء بها بعد الأمور الثلاثة وذكر انحصار الخلق فيه تعالى وتقديمه على انحصار الاختيار والاصطفاء مع أن مبنى التجهيل والرد إنما هو الثاني للإشارة إلى أن انحصار الاختيار من توابع انحصار الخلق، وفي ذكره تعالى بعنوان الربوبية إشارة إلى أن خلقه عز وجل ما شاء على وفق المصلحة والحكمة وإضافة الرب إليه صلى الله تعالى عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام وهي في غاية الحسن إن صح ما تقدم عن الوليد سبباً للنزول، ويخطر في الباب احتمالات أخر في الآية فتأمل فإني لا أقول ما أبديته هو المختار كيف وربك جل شأنه يخلق ما يشاء ويختار ﴿**سُبْحانَ اللهِ**﴾ أي تنزه تعالى بذاته تنزهاً خاصاً به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره عز شأنه ﴿**وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ أي عن إشراكهم على أن ما مصدرية ويحتمل أن تكون موصولة بتقدير مضاف أي عن مشاركة ما يشركونه به كذا قيل، وجعل بعضهم ﴿**سبحان الله**﴾ تعجبياً من إشراكهم من يضرهم بمن يريد لهم كل خير تبارك وتعالى وهو على احتمال كون ﴿**ما**﴾ فيما تقدم موصولة مفعول يختار، والمعنى ويختار ما كان لهم فيه الخير والصلاح، ويجوز أن يكون تعجبياً أيضاً من اختيارهم شركاءهم الذين أعدوهم للشفاعة وإقدامهم على ما لم يكن لهم وذلك بناء على ما ظهر لنا وظاهر كلام كثير أن الآية ليست من باب الإعمال، وجوز أن تكون منه بأن يكون كل من سبحان وتعالى طالباً عما يشركون والأفيد على ما قيل أن لا تكون منه.

﴿**وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ**﴾ أي ما يكنون ويخفون في صدورهم من الاعتقادات الباطلة ومن عداوتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ونحو ذلك ﴿**وَمَا يُعْلِنُون**﴾ وما يظهرونه من الأفعال الشنيعة والطعن فيه عليه الصلاة والسلام وغير ذلك، ولعله للمبالغة في خباثة باطنهم لأن ما فيه مبدأ لما يكون في الظاهر من القبائح لم يقل ما يكنون كما قيل: ما يعلنون.

وقرأ ابن محيصن «تَكُن» بفتح التاء وضم الكاف ﴿**وَهُوَ اللَّهُ**﴾ أي وهو تعالى المستأثر بالألوهية المختص بها، وقوله سبحانه: ﴿**لا إلهَ إلاَّ هُوَ**﴾ تقرير لذلك كقولك: الكعبة القبلة لا قبلة إلا هي.

﴿**لَهُ الحَمْدُ في الأُولَى والآخِرَة**﴾ أي له تعالى ذلك دون غيره سبحانه لأنه جل جلاله المعطي لجميع النعم بالذات وما سواه وسائط، والمراد بالحمد هنا ما وقع في مقابلة النعم بقرينة ذكرها بعده بقوله تعالى: ﴿**قل أرأيتم**﴾ إلخ.

وزعم بعضهم أن الحمد هنا أعم من الشكر، واعتبر الحصر بالنسبة إلى مجموع حمدي الدارين زاعماً أن الحمد في الدنيا وإن شاركه فيه غيره تعالى لكن الحمد في الآخرة لا يكون إلا له تعالى، وفيه أن الحمد مطلقاً مختص به تعالى لأن الفضائل والأوصاف الجميلة كلها بخلقه تعالى فيرجع الحمد عليها في الآخرة له تعالى لأنه جل وعلا مبديها ومبدعها، ولو نظر إلى الظاهر لم يكن حمد الآخرة مختصاً به سبحانه أيضاً فإن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يحمده الأولون والآخرون عند الشفاعة الكبرى، وفسر غير واحد حمده تعالى في الآخرة بقول المؤمنين: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ [الزمر: ٧٤]، وقولهم: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ [فاطر: ٣٤]، وقولهم: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ٢]، وقالوا: التحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة، وفي حديث رواه مسلم وأبو داود عن جابر في وصف أهل الجنة يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمون النفس ﴿**وَلَهُ الْحُكْمُ**﴾ أي

القضاء النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره تعالى، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي له الحكم بين عباده تعالى فيحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل ولأهل معصيته بالشقاء والويل ﴿وَإِلَيْه﴾ سبحانه لا إلى غيره.

﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث ﴿قُلْ﴾ تقريراً لما ذكر ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني، وقرأ الكسائي «أريتم» بحذف الهمزة ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً﴾ أي دائماً وهو عند البعض من السرد وهو المتابعة والإطراد والميم مزيدة لدلالة الاشتقاق عليه فوزنه فعمل ونظيره دلامص من الدلاص، يقال: درع دلاص أي ملساء لينة.

واختار بعض النحاة أن الميم أصلية فوزنه فعلل لأن الميم لا تنقاس زيادتها في الوسط، ونصبه إما على أنه مفعول ثان لجعل أو على أنه حال من الليل، وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ إما متعلق بسرمداً أو بجعل؛ وجوز أبو البقاء أيضاً تعلقه بمحذوف وقع صفة لسرمداً وجعله تعالى كذلك بإسكان الشمس تحت الأرض مثلاً وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلٰهٌ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله سبحانه: ﴿غَيْرُ اللهِ﴾ صفة لإله. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والإلزام كما في قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ [سبأ: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾ [الملك: ٣٠] ونظائرهما خلا إنه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة، ولم يؤت بهل التي هي لطلب التصديق المناسب بحسب الظاهر للمقام، وأتى بمن التي هي لطلب التعيين المقتضي لأصل الوجود لإيراد التبكيت والإلزام على زعمهم فإنه أبلغ كما لا يخفى، وجملة ﴿من إله﴾ إلخ قال أبو حيان: في موضع المفعول الثاني لأرأيتم وجعل الليل مما تنازع فيه أرأيتم وجعل وقال: إنه أعمل فيه الثاني فيكون المفعول الأول للأول محذوفاً، وحيث جعلت تلك الجملة في موضع مفعوله الثاني لا بد من تقدير العائد فيها أي من إله غيره يأتيكم بضياء بدله مثلاً، وجواب إن محذوف دل عليه ما قبله، وكذا يقال في الآية بعد، وعن ابن كثير أنه قرأ «بضأء» بهمزتين ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وقبول الدلائل الباهرة والنصوص المتظاهرة لتعرفوا أن غير الله تعالى لا يقدر على ذلك ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ بإسكان الشمس في وسط السماء مثلاً ﴿مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فيه﴾ استراحة من متاعب الأشغال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة لتقفوا على أن غير الله تعالى لا قدرة له على ذلك، ويعلم مما ذكرنا أن كلاً من جملتي أفلا تسمعون وأفلا تبصرون تذييل للتوبيخ الذي يعطيه قوله تعالى: ﴿أرأيتم إن جعل الله عليكم﴾ إلخ قبله، وأفاد الزمخشري أن ظاهر التقابل يقتضي ذكر النهار والتصرف فيه إلا أن العدول عن ذلك إلى الضياء وهو ضوء الشمس للدلالة على أنه يتضمن منافع كثيرة منها التصرف فلو أتى بالنهار لاستدعى القصر على تلك المنفعة من ضرورة التقابل ولأن المنافع للضياء لا للنهار على أن النهار أيضاً من منافعه، ثم استشعر أن يقال: فلم لم يؤت بالظلام بدل الليل في الآية الثانية لتتم المقابلة من هذا الوجه؟ وأجاب بأنه ليس بتلك المنزلة فلا هو مقصود في ذاته كالضياء ولا أن المنافع من روادفه مع ما فيهما من الاستئناس والاشمئزاز، بل لو تأمل حق التأمل وجد حكم بأن الليل من منافع الضياء أيضاً والظلام من ضرورات كون الشمس المضيئة تحت الأرض وإلقاء ظل الليل، ثم أفاد أن التفصلة وهو التذييل المذكور فيها إرشاد إلى هذه النكتة فإن قوله تعالى: ﴿أفلا تسمعون﴾ يدل على أن التوبيخ بعدم التأمل في الضياء أكثر من حيث إن مدرك السمع أكثر. والمراد ما يدركه العقل بواسطة السمع فلا يرد أن مدركه الأصوات وحدها ومدرك البصر أكثر من ذلك، وذلك أن ما لا يدرك بحس أصلاً يدرك بواسطة السمع إذا عبر عنه المعبر بعبارة مفهمة، وأما ما يدرك بالبصر فمن مشاهدة المبصرات وهي قليلة، وأما المطالعة من الكتب فإنها أضيق مجالاً من السمع وقرعه كذا في الكشف، والعلامة الطيبي قرر عبارة الكشاف بما قرر ثم قال: الأبعد من التكلف أن يجعل أفلا تسمعون تذييلاً للتوبيخ المستفاد من أرأيتم إلخ قبله

وكذا ﴿أفلا تبصرون﴾ على ما في المعالم أفلا تسمعون سماع فهم وقبول أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ ليجتمع لهم الصمم والعمى من الإعراض عن سماع البراهين والإغماض عن رؤية الشواهد.

ولما كانت استدامة الليل أشق من استدامة النهار لأن النوم الذي هو أجل الغرض فيه شبيه الموت والابتغاء من فضل الله تعالى الذي هو بعض فوائد النهار شبيه بالحياة قيل في الأول أفلا تسمعون أي سماع فهم وفي الثاني أفلا تبصرون أي ما أنتم عليه من الخطأ ليطابق كل من التذييلين الكلام السابق من التشديد والتوبيخ، وذكر في حاصل المعنى ما ذكرناه أولاً ثم قال: وفيه أن دلالة النص أولى وأقدم من العقل، وصاحب الكشف قرر العبارة بما سمعت وذكر أن ذلك لا ينافي ما في المعالم بل يؤكده ويبين فائدة التوبيخين، ونقل الطيبي عن الراغب في غرة التنزيل أنه قال: إن نسخ الليل بالنير الأعظم أبلغ في المنافع وأضمن للمصالح من نسخ النهار بالليل، ألا ترى أن الجنة نهارها دائم لا ليل معه لاستغناء أهلها عن الاستراحة فتقديم ذكر الليل لانكشافه عن النهار الذي هو أجدى من تفاريق العصا ومنافع ضوء شمسه أكثر من أن تحصى أحق وأولى، ومعنى قوله تعالى: ﴿أفلا تسمعون﴾ أفلا تسمعون سماع من يتدبر المسموع ليستدرك منه قصد القائل ويحيط بأكثر ما جعل الله تعالى في النهار من المنافع فإن عقيب السماع استدراك المراد بالمسموع إذا كان هناك تدبر وتفكر فيه ومعنى ﴿أفلا تبصرون﴾ أتستدركون من ذلك ما يجب استدراكه انتهى.

وفي الكشف أنه مؤيد لما ذكره صاحب الكشاف، وربما يقال ذكر سبحانه أولاً فرضية جعل الليل سرمداً وثانياً فرضية جعل النهار كذلك لأن الليل كما قالوا مقدم على النهار شرعاً وعرفاً وأيضاً ذلك أوفق بقوله تعالى ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ [القصص: ٦٩] ففي المثل الليل أخفى للويل وكذا بقوله تعالى سبحانه: ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ ففي الأثر كان الخلق في ظلمة فرش الله تعالى عليهم من نوره، ولعله لاعتبار الأولية والآخرية ذيلت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أفلا تسمعون﴾ بناء على أن المعنى أفلا تسمعون ممن سلف من آبائكم أو مما سلف منا أن آلهتكم لا تقدر على مثل ذلك والثانية بقوله سبحانه: ﴿أفلا تبصرون﴾ بناء على أن المعنى أفلا تبصرون أنتم عجزها عن مثل ذلك وجيء بالضياء غير موصوف في الآية الأولى وبالليل موصوفاً في الثانية لما أفاده الزمخشري وقيل في وجه تذييل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أفلا تسمعون﴾ دون قوله سبحانه: ﴿أفلا تبصرون﴾ أن المفروض لو تحقق بقي معه السمع دون الإبصار إذ ظلمة الليل لا تحجب السمع وتحجب البصر، وفي وجه تذييل الثانية بقوله تعالى: ﴿أفلا تبصرون﴾ دون ﴿أفلا تسمعون﴾ أن تحقق المفروض وعدمه سيان في أمر السمع دون الإبصار إذ لضياء النهار مدخل في الإبصار وليس له مدخل في السمع أصلاً وهو كما ترى ﴿واعلم﴾ أن هاهنا إشكالاً وهو أن جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة إن تحقق لم يتصور الإتيان بضياء أصلاً وكذا جعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة إن تحقق لم يتصور الإتيان بليل كذلك، أما من غيره تعالى فظاهر لأنه معدن العجز عن كل شيء، وأما منه عز وجل فلاستلزامه اجتماع الليل والنهار إذ لو لم يجتمعا لم يتحقق الليل مستمراً إلى يوم القيامة وكذا جعل النهار كذلك وهو خلاف المفروض واجتماعهما محال والمحال لا صلاحية له لتعلق القدرة فلا يراد.

وأجيب بأن المراد إن أراد سبحانه ذلك فمن إله غيره تعالى يأتيكم بخلاف مراده سبحانه بأن يقطع الاستمرار فيأتي بنهار بعد ليل وليل بعد نهار، واعترض بأنه يفهم من الآية حينئذ أنه جل وعلا هو الذي إن أراد ذلك يأتيهم بخلاف مراده تعالى فيقطع الاستمرار وهو مشكل أيضاً لأن إتيانه تعالى بخلاف مراده جل وعلا مستلزم لتخلف المراد عن الإرادة وهو محال فإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئاً على وجه إرادة لا تعليق فيها لا يمكن أن يريده على خلاف ذلك

الوجه، وأجيب بأنه يجوز أن يكون المراد إن أراد الله تعالى ذلك غير معلق له على إرادته عز شأنه خلافه لا يأتيكم بخلافه غيره عز وجل ولم يصرح بالقيد لدلالة العقل الصريح على أن الإرادة غير المعلقة لا يمكن الإتيان بخلاف موجبها أصلاً، ومن الناس من ذهب إلى أنه سبحانه لا يبت إرادته فجميع ما يريده جل شأنه معلق، وقيل: الأولى أن يقال: ليس المراد سوى أن آلهتهم لا يقدرون على الإتيان بنهار بعد ليل وليل بعد نهار إذا أراد الله تعالى شأنه استمرار أحدهما، وإنما القادر على الإتيان بذلك هو الله سبحانه وحده من غير نظر إلى كون ذلك الإتيان مقيداً بتلك الإرادة فتدبر ﴿وَمِن رَحْمَتِه﴾ أي بسبب رحمته جل شأنه ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيه﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه﴾ أي في النهار بالسعي بأنواع المكاسب ففي الآية ما يقال له اللف والنشر ويسمى أيضاً التفسير كقول ابن حيوش:

ومقرطق يغني النديم بوجهه ... عن كأسه الملأى وعن إبريقه
فعل المدام ولونها ومذاقها ... في مقلتيه ووجنتيه وريقه

وضمير فضله لله تعالى؛ وجوز أبو حيان كونه للنهار على الإسناد المجازي وهو خلاف الظاهر، وفيها إشارة إلى مدح السعي في طلب الرزق وقد ورد «الكاسب حبيب الله» وهو لا ينافي التوكل وأن ما يحصل للعبد بواسطته فضل من الله عز وجل وليس مما يجب عليه سبحانه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولكي تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل أو لتعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب باذكر.

﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريع إثر تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده عز وجل، أو أن الأول لبيان فساد رأيهم كما يشير إليه قوله تعالى هناك: ﴿حق عليهم القول﴾ [القصص: ٦٣]، وهذا لبيان أن إشراكهم لم يكن عن سند بل عن محض هوى كما يشير إليه قوله تعالى بعد ﴿هاتوا برهانكم﴾ أو الأول إحضار للشركاء بعدم الصلوح لقوله سبحانه بعده: ﴿ادعوا شركاءكم فدعوهم﴾ وهذا تحسير بأنهم لم يكونوا في شيء من اتخاذهم ألا ترى قوله تعالى: ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ ﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطف على يناديهم وصيغة الماضي للدلالة على التحقق أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بشأن النزع وتهويله أي أخرجنا بسرعة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيداً﴾ شاهداً يشهد عليهم بما كانوا عليه وهو نبي تلك الأمة كما روي عن مجاهد، وقتادة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١] وهذا في موقف من مواقف يوم القيامة فلا يضر كون الشهيد في موقف آخر غير الأنبياء عليهم السلام وهم أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أو الملائكة عليهم السلام لقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء﴾ [الزمر: ٦٩] فإنه دال في الظاهر على مغايرة الشهداء للأنبياء عليهم السلام.

وقيل: يجوز اتحاد الموقف والدلالة على المغايرة غير مسلمة ولو سلمت فشهادة الأنبياء عليهم السلام لا تنافي شهادة غيرهم معهم، وقوله تعالى: ﴿من كل أمة﴾ وإفراد شهيد ظاهر فيما تقدم، ومن هنا قال في البحر قيل: أي عدولاً وخياراً، والشهيد عليه اسم جنس ﴿فَقُلْنَا﴾ لكل من تلك الأمم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوا﴾ يومئذ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه سبحانه فيها أحد.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع فضل مستعار لمعنى غاب استعارة تبعية.

﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الباطل ﴿إِنَّ قَارُونَ﴾ اسم أعجمي منع الصرف للعلمية والعجمة ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي من بني إسرائيل كما هو الظاهر، وحكى ابن عطية الإجماع عليه، واختلف في جهة قرابته من موسى عليه السلام فروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن جريج وقتادة وإبراهيم أنه ابن عم موسى عليه السلام فموسى بن عمران بن قاهث بقاف وهاء مفتوحة وثاء مثلثة ابن لاوي بالقصر ابن يعقوب عليه السلام وهو ابن يصهر بياء تحتية مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وهاء مضمومة ابن قاهث إلخ.

وفي مجمع البيان عن عطاء عن ابن عباس أنه ابن خالة موسى عليه السلام، وروي ذلك عن أبي عبدالله رضي الله تعالى عنه.

وحكي عن محمد بن إسحاق أنه عم موسى عليه السلام وهو ظاهر على قول من قال: إن موسى عليه السلام ابن عمران بن يصهر بن قاهث وهو ابن يصهر بن قاهث وكان يسمى المنور لحسن صورته وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم لكنه نافق كما نافق السامري؛ وقال: إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهارون فما لي؟ وروي أنه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرب القربان ويكون رأساً فيهم وكان القربان إلى موسى عليه السلام فجعله لأخيه هارون وجد قارون في نفسه فحسدهما فقال لموسى الأمر لكما ولست على شيء إلى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال والله تعالى لا أصدقك حتى تأتي بآية فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره أو تكبر عليهم وعد من تكبره أنه زاد في ثيابه شبراً أو ظلمهم وطلب ما ليس حقه قيل: وذلك حين ملكه فرعون على بني إسرائيل.

وقيل: حسدهم وطلب زوال نعمهم، وذلك ما ذكر منه في حق موسى وهارون عليهما السلام، والفاء فصيحة أي ضل فبغى، وجوز أن تكون على ظاهرها لأن القرابة كثيراً ما تدعو إلى البغي ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة فهو مجاز بجعل المدخر كالمدفون إن كان الكنز مخصوصاً به، وحكي في البحر أنه سميت أمواله كنوزاً لأنها لم تؤد منها الزكاة وقد أمره موسى عليه السلام بأدائها فأبى وهو من أسباب عداوته إياه، وقيل: الكنوز هنا الأموال المدفونة وكان كما روي عن عطاء قد أظفره الله تعالى بكنز عظيم من كنوز يوسف عليه السلام ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أي مفاتح صناديقه فهو على تقدير مضاف أو الإضافة لأدنى ملابسة وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به.

وقال السدي: أي خزائنه وفي معناه قول الضحاك أي ظروفه وأوعيته، وروي نحو ذلك عن ابن عباس، والحسن وقياس واحده على هذا المفتح بالفتح لأنه اسم مكان، ويؤيد ما تقدم قراءة الأعمش مفاتيحه بياء جمع مفتاح و ﴿ما﴾ موصولة ثاني مفعولي آتى ومفاتحه اسم إن وقوله تعالى: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ خبرها والجملة صلة ما والعائد الضمير المجرور، ومنع الكوفيون جواز كون الجملة المصدرة بأن صلة للموصول، قال النحاس: سمعت علي بن سليمان ـ يعني الأخفش الصغير ـ يقول ما أقبح ما يقوله الكوفيون في الصلات إنه لا يجوز أن تكون صلة الذي إن وما عملت فيه وفي القرآن ما إن مفاتحه انتهى، ولا يخفى أن المانع من ذلك إن كان عدم السماع فالرد عليهم لا يتم إلا بشاهد لا يحتمل غير ذلك و ﴿ما﴾ في الآية تحتمل أن تكون نكرة موصوفة وإن كان المانع كون إن تقع في ابتداء الكلام فلا ترتبط الجملة المصدرة بها بما قبلها فالرد بالآية المذكورة عليهم تام لأن المانع المذكور كما يمنع كون

الجملة صلة يمنع كونها صفة فتدبر، و ﴿تنوء﴾ من ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله فالباء للتعدية كما في ذهبت به، والعصبة الجماعة الكثيرة من غير تعيين لعدد خاص على ما ذكره الراغب، ومن أهل اللغة من عين لها مقداراً واختلفوا فيه فقيل من عشرة إلى خمسة عشر وهو مروي هنا عن مجاهد، وقيل: ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين وروي ذلك عن الكلبي، وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من عشرة إلى أربعين وروي هذا عن قتادة وقيل: أربعون، وروي ذلك عن ابن عباس، وقيل: سبعون، وروي ذلك عن أبي صالح مولى أم هانىء وقال الخفاجي: قد يقال إن أصل معناها الجماعة مطلقاً كما هو مقتضى الاشتقاق ثم إن العرف خصها بعدد واختلف فيه أو اختلف بحسب موارده، وقال أبو زيد: تنوء من نؤت بالحمل إذا نهضت به قال الشاعر:

تنوء بأخراها فلأياً قيامها ... وتمشي الهوينا عن قريب فتبهر

وفي الآية على هذا قلب عند أبي عبيدة ومن تبعه والأصل تنوء العصبة بها أي تنهض، وقيل: يجوز أن لا يكون هناك قلب لأن المفاتح تنهض ملابسة للعصبة إذا نهضت العصبة بها، والأولى ما قدمناه أولاً وهو منقول عن الخليل وسيبويه والفراء واختاره النحاس، وروي معناه عن ابن عباس وأبي صالح والسدي، وقرأ بديل بن ميسرة «لينوء» بالياء التحتية، وخرج ذلك أبو حيان على تقدير مضاف مذكر يرجع إليه الضمير أي ما إن حمل مفاتحه أو مقدارها أو نحو ذلك، وقال ابن جني: ذهب بالتذكير إلى ذلك القدر والمبلغ فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه ونحوه، قول الراجز:

مثل الفراخ نتفت حواصله

أي حواصل ذلك أو حواصل ما ذكرنا، وقال الزمخشري: وجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال كقولك ذهبت أهل اليمامة انتهى، وإنما فسر المفاتح بالخزائن دون ما يفتح به ليتم الاتصال فإن اتصال الخزائن بالمخزون فوق اتصال المفاتيح به بل لا اتصال للثاني وحينئذ يكتسي التذكير من المضاف إليه كما اكتسى التأنيث من عكسه كالمثال الذي ذكره، وما تقدم عن غيره أولى. قال في الكشف لأن تفسير المفاتح بالخزائن ضعيف جداً لفوات المبالغة، وقيل: إن المفاتح بذلك المعنى غير معروف وقد سمعت أنه تفسير مأثور فإذا صح ذلك فلا يلتفت إلى ما ذكر من هذا وكلام الكشف، وذكر أبو عمرو الداني أن بديل بن ميسرة قرأ «ما إن مفتاحه» على الإفراد فلا تحتاج قراءته «لينوء» بالياء إلى تأويل، وقد بولغ في كثرة مفاتيحه فروي عن خيثمة أنها كانت وقر ستين بغلاً أغر محجلاً ما يزيد منها مفتاح على إصبع لكل مفتاح كنز، وفي رواية أخرى عنه كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح على خزانة على حدة فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغر محجلاً.

وفي البحر ذكروا من كثرة مفاتحه ما هو كذب أو يقارب الكذب فلم أكتبه، ومما لا مبالغة فيه ما روي عن ابن عباس من أن المفاتح الخزائن وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء وكانت أربعمائة ألف يحمل كل رجل عشرة آلاف وعليه فأمثال قارون في الناس أكثر من خزائنه، ولعل الآية تشير إلى ما أوتيه فوق ذلك، ولا أظن الأمر كما روي عن خيثمة، وأبعد أبو مسلم في تفسير الآية فقال: المراد من المفاتح العلم والإحاطة كما في قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ [الأنعام: ٥٩] والمراد وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها القائمين على حفظها ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾.

قال الزمخشري: هو متعلق بتنوء وضعف بأن أثقال المفاتح العصبة ليس مقيداً بوقت قول قومه، وقال ابن عطية:

بغي، وضعف بنحو ذلك، وقال أبو البقاء: بآتينا، ويجوز أن يكون ظرفاً لمحذوف دل عليه الكلام أي بغى عليهم إذ قال، وفي كل منهما ما سبق، وقال الحوفي منصوب باذكر محذوفاً، وجوز كونه متعلقاً بما بعده من قوله تعالى: ﴿**قال إنما أوتيته**﴾ والجملة مقررة لبغيه ورجح تعلقه بمحذوف والتقدير أظهر التفاخر والفرح بما أوتي إذ قال له قومه ﴿**لا تَفْرَحْ**﴾ لا تبطر والفرح بالدنيا لذاتها مذموم لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح حتماً كما قال أبو الطيب:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

وقال ابن شمس الخلافة:

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلاً ... للمرء خير من نعيم زائل

ولذلك قال عز وجل: ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٣] والعرب تمدح بترك الفرح عند إقبال الخير قال الشاعر:

ولست بمفراح إذ الدهر سرني ... ولا جازع من صرفه المتقلب

وقال آخر:

إن تلاق منفساً لا تلقنا ... فرح الخير ولا نكبو لضر

وعلل سبحانه النهي هاهنا بكون الفرح مانعاً من محبته عز وجل فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحبُّ الفَرِحينَ**﴾ فهو دليل على أن كون الفرح بالدنيا مذموماً شرعاً، وإنما قلنا: إن الفرح بها لذاتها مذموم لأن الفرح بها لكونها وسيلة إلى أمر من أمور الآخرة غير مذموم، ومحبة الله تعالى عند كثير صفة فعل أي أنه تعالى لا يكرم الفرحين بزخارف الدنيا ولا ينعم جل شأنه عليهم ولا يقربهم عز وجل، والمراد أنه تعالى يبغضهم ويهينهم ويبعدهم عن حضرته سبحانه، وقال بعضهم: إن في نفي محبته تعالى إياهم تنبيهاً على أن عدم محبته تعالى كاف في الزجر عما نهى عنه فما بالك بالبغض والعقاب وهو حسن، وحكى عيسى بن سليمان الحجازي أنه قرىء «الفارحين».

﴿**وَابْتَغِ فيمَا آتَاكَ اللَّهُ**﴾ من الكنوز والغنى ﴿**الدَّارَ الآخرَةَ**﴾ أي ثوابها أي ثواب الله تعالى فيها بصرف ذلك إلى ما يكون وسيلة إليه و ﴿**في**﴾ إما ظرفية على معنى ابتغ متقلباً ومتصرفاً فيه أو سببية على معنى ابتغ بصرف ما أتاك الله تعالى ذلك وقرىء «اتبع» ﴿**وَلاَ تَنْسَ**﴾ أي ولا تترك ترك المنسي ﴿**نَصيبَكَ منَ الدُّنْيا**﴾ أي حظك منها وهو كما أخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن تعمل فيها لآخرتك، وروي ذلك عن مجاهد.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة هو أن تأخذ من الدنيا ما أحل الله تعالى لك، وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن منصور قال: ليس هو عرض من عرض الدنيا ولكن نصيبك عمرك أن تقدم فيه لآخرتك، وأخرج ابن المنذر وجماعة عن الحسن أنه قال في الآية: قدم الفضل وأمسك ما يبلغك، وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف، وقيل: أرادوا بنصيبه من الدنيا الكفن كما قال الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله ... رداءان تلوى فيهما وحنوط

وفي نهيهم إياه عن نسيان ذلك حض عظيم له على التزود من ماله للآخرة فإن من يكون نصيبه من دنياه وجميع ما يملكه الكفن لا ينبغي له ترك التزوّد من ماله وتقديم ما ينفعه في آخرته ﴿**وَأَحْسنْ**﴾ إلى عباد الله عز وجل ﴿**كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إلَيْكَ**﴾ أي مثل إحسانه تعالى إليك فيما أنعم به عليك، والتشبيه في مطلق الإحسان أو لأجل إحسانه سبحانه إليك على أن الكاف للتعليل.

وقيل: المعنى وأحسن بالشكر الطاعة كما أحسن الله تعالى عليك بالإنعام، والكاف عليه أيضاً تحتمل التشبيه والتعليل ﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ نهي عن الاستمرار على ما هو عليه من الظلم والبغي.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله سبحانه: ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ وهذه الموعظة بأسرها كانت من مؤمني قومه كما هو ظاهر الآية، وقيل: إنها كانت من موسى عليه السلام

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ
ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن
مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل
رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ
وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

﴿قَالَ﴾ مجيباً لمن نصحه ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْم عِنْدِي﴾ كأنه يريد الرد على قولهم: كما أحسن الله إليك لإنبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر من غير سبب واستحقاق من قبله، وحاصله دعوى استحقاقه لما أوتيه لما هو عليه من العلم، وقوله ﴿على علم﴾ عند أكثر المعربين في موضع الحال من مرفوع أوتيته قيد به العامل إشارة إلى علة الإيتاء ووجه استحقاقه له أي إنما أوتيته كائناً على علم، وجوز كون على تعليلية والجار والمجرور متعلق بأوتيت على أنه ظرف لغو كأنه قيل أوتيته لأجل علم، و ﴿عندي﴾ في موضع الصفة لعلم والمراد لعلم مختص بي دونكم، وجوز كونه متعلقاً بأوتيت، ومعناه في ظني ورأيي كما في قولك: حكم كذا الحل عند أبي حنيفة عليه الرحمة، وفي الكشاف ما هو ظاهر في أن عندي إذا كان بمعنى في ظني ورأيي كان خبر مبتدأ محذوف أي هو في ظني ورأيي هكذا، والجملة عليه مستأنفة تقرر أن ما ذكره رأي مستقر هو عليه، قال في الكشف: وهذا هو الوجه، والمراد بهذا العلم قيل علم التوراة فإنه كان أعلم بني إسرائيل بها، وقال أبو سليمان الداراني: علم التجارة ووجوه

المكاسب، وقال ابن المسيب: علم الكيمياء، وكان موسى عليه السلام يعلم ذلك فأفاد يوشع بن نون ثلثه وكالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً، وقيل: علم الله تعالى موسى عليه السلام علم الكيمياء فعلمه موسى أخته فعلمته أخته قارون، وروي عن ابن عباس تخصيصه بعلم صنعة الذهب، وقيل: علم استخراج الكنوز والدفائن، وعن ابن زيد أن المراد بالعلم علم الله تعالى وأن المعنى أوتيته على علم من الله تعالى وتخصيص من لدنه سبحانه قصدني به، و ﴿**عندي**﴾ عليه بمعنى في ظني ورأيي، وقيل: العلم بمعنى المعلوم مثله في قوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ [البقرة: ٢٥٥] وإلى ذلك يشير ما روي عن مقاتل أنه قال أي على خير علمه الله تعالى عندي وتفسيره بعلم الكيمياء شائع فيما بين أهلها، وفي مجمع البيان حكايته عن الكلبي أيضاً، وأنكره الزجاج وقال: إنه لا يصح لأن علم الكيمياء باطل لا حقيقة له، وتعقبه الطيبي بأنه لعله كان من قبيل المعجز، وتعقب بأنه ليس بسديد وإلا لما تمكن قارون منه، وإنكار الكيمياء وهو لفظ يوناني معناه الحيلة أو عبراني وأصله كيم يه بمعنى أنه من الله تعالى أو فارسي وأصله كي ميا بمعنى متى يجيء على سبيل الاستبعاد غلب على تحصيل النقدين بطريق مخصوص مما لم يختص بالزجاج بل أنكرها جماعة أجلة وقالوا بعدم إمكانها، وذهب آخرون إلى خلاف ذلك. وإذا أردت نبذة من الكلام في ذلك فاستمع لما يتلى عليك. ذكر بعض المحققين أن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقزدير[1] والنحاس والحديد والخارصيني هل هي مختلفات بالفصول فيكون كل منها نوعاً غير النوع الآخر أو هي مختلفات بالخواص والكيفيات فقط فتكون كلها أصنافاً لنوع واحد فالذي ذهب إليه المعلم أبو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان نحو الصفرة والبياض والسواد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد وبني على ذلك إمكان انقلاب بعضها إلى بعض بتبدل الأعراض بفعل الطبيعة أو بالصنعة. وقد حكى أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة في بعض تصانيفه عن المعلم المذكور أنه قال: قد بين أرسطو في كتبه في المعادن أن صناعة الكيمياء داخلة تحت الإمكان إلا أنها من الممكن الذي يعسر وجوده بالفعل اللهم إلا أن يتفق قرائن يسهل بها الوجود وذلك أنه فحص عنها أولاً على طريق الجدل فأثبتها بقياس وأبطلها بقياس على عادته فيما يكثر عناده من الأوضاع ثم أثبتها أخيراً بقياس ألفه من مقدمتين بينهما في أول الكتاب، الأولى أن الفلزات واحدة بالنوع والاختلاف الذي بينها ليس في ماهياتها وإنما هو في أعراضها فبعضه في أعراضها الذاتية وبعضه في أعراضها العرضية، والثانية أن كل شيئين تحت نوع واحد اختلفا بعرض فإنه يمكن انتقال كل منهما إلى الآخر فإن كان العرض ذاتياً عسر الانتقال وإن كان مفارقاً سهل الانتقال والعسر في هذه الصناعة إنما هو لاختلاف أكثر هذه الجواهر في أعراضها الذاتية ويشبه أن يكون الاختلاف الذي بين الذهب والفضة يسيراً جداً ا هـ، والذي ذهب إليه الشيخ أبو علي بن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة وبنى على ذلك إنكار هذه الصناعة واستحالة وجودها لأن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل، وهذا ما حكاه ابن خلدون عنه، وقال الإمام في المباحث المشرقية في الفصل الثامن من القسم الرابع منها: الشيخ سلم إمكان أن يصبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ الذهب وأن يزال عن الرصاص أكثر ما فيه من النقص، فإما أن يكون الفصل المنوع يسلب أو يكسى، قال: فلم يظهر لي إمكانه بعد، إذ هذه

---

(١) في نسخة والقصدير.

الأمور المحسوسة تشبه أن لا تكون الفصول التي بها تصير هذه الأجساد أنواعاً بل هي أعراض ولوازم وفصولها مجهولة وإذا كان الشيء مجهولاً كيف يمكن قصد إيجاده وإفنائه ا هـ.

وغلطه الطغرائي وهو من أكابر أهل هذه الصناعة وله فيها عدة كتب ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه وإنما هو في إعداد المادة لقبول خاصة والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه جل شأنه وعظمت قدرته كما يفيض سبحانه النور على الأجسام بالصقل ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته، وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مثل العقرب من التراب والتبن، والحية من الشعر وغير ذلك فما المانع من العثور على مثل ذلك في المعادن وهذا كله بالصناعة وهي إنما موضوعها المادة فيعدها التدبير والعلاج إلى قبول تلك الفصول لا أكثر، فنحن نحاول مثل ذلك في الذهب والفضة فنتخذ مادة نصفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم نحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلهما ا هـ بمعناه وهو رد صحيح فيما يظهر، وقال الإمام بعد ذكره ما سمعت من كلام الشيخ: هو ليس بقوي لأنا نشاهد من الترياق آثاراً وأفعالاً مخصوصة فإما أن لا نثبت له صورة ترياقية بل نقول إن الأفعال الترياقية حاصلة من ذلك المزاج لا من صورة أخرى جاز أيضاً أن يقال صفرة الذهب ورزانته حاصلتان مما فيه من المزاج لا من صورة مقومة فحينئذ لا يكون للذهب فصل منوع إلا مجرد الصفرة والرزانة ولكنهما معلومتان فأمكن أن تقصد إزالتهما واتخاذهما فبطل ما قاله الشيخ. وأما إذا أثبتنا صورة مقومة له فنقول لا شك بأنا لا نعقل من تلك الصورة إلا أنها حقيقة تقتضي الأفعال المخصوصة الصادرة عن الترياق فإما أن يكون هذا القدر من العلم يكفي في قصد الإيجاد والإبطال أو لا يكفي فإن لم يكف وجب أن لا يمكننا اتخاذ الترياق وإن كفى فهو في مسألتنا أيضاً حاصل لأنا نعلم من الصورة الذهبية أنها ماهية تقتضي الذوب والصفرة والرزانة؛ ويجاب أيضاً بأنا وإن كنا لا نعلم الصورة المقومة على التفصيل إلا أنا نعلم الأعراض التي تلائمها والتي لا تلائمها ونعلم أن العرض الغير الملائم إذا اشتد في المادة بطلت الصورة مثل الصورة المائية فإنا نعلم أن الحرارة لا تلائمها وإن كنا لا نعلم ماهيتها على التفصيل فلذلك يمكننا أن نبطل الصورة المائية وأن نكسبها، أما الإبطال فبتسخين الماء وأما الاكتساب فبتبريد الهواء فكذلك في مسألتنا واحتج قوم من الفلاسفة على امتناعها بأمور: أولها، أن الطبيعة إنما تعمل هذه الأجساد من عناصر مجهولة عندنا ولتلك العناصر مقادير معينة مجهولة عندنا أيضاً ولكيفيات تلك العناصر مراتب معلومة وهي مجهولة عندنا ولتمام الفعل والانفعال زمان معين مجهول عندنا، ومع الجهل بكل ذلك كيف يمكننا عمل هذه الأجساد، وثانيها: أن الجوهر الصابغ إما أن يكون أصبر على النار من المصبوغ أو يكون المصبوغ أصبر أو يتساويان فإن كان الصابغ أصبر وجب أن يفنى المصبوغ ويبقى الصابغ بعد فنائه وإن كان المصبوغ أصبر وجب أن يبقى بعد فناء الصابغ وإن تساويا في الصبر على النار فهما من نوع واحد لاستوائهما في الصبر على النار فليس أحدهما بالصابغية والآخر بالمصبوغية أولى من العكس، وثالثها: أنه لو كان بالصناعة مثلاً لما كان بالطبيعة لكن التالي باطل، أما أولاً: فلأنا لم نجد له شبيهاً، وأما ثانياً: فلأنه لو جاز أن يوجد بالصناعة ما يحصل بالطبيعة لجاز أن يحصل بالطبيعة ما يحصل بالصناعة حتى يوجد سيف أو سرير بالطبيعة، ولما ثبت امتناع التالي ثبت امتناع المقدم، ورابعها: أن لهذه الأجساد أماكن طبيعية هي معادنها وهي لها بمنزلة الأرحام للحيوان فمن جوز تولدها في غير تلك المعادن كان كمن جوز تولد الحيوانات في غير الأرحام. وأجاب الإمام عن الأول بأنه منقوض بصناعة الطب.

وعن الثاني بأنه لا يلزم من استواء الصابغ والمصبوغ في الصبر على النار استواؤهما في الماهية لأن المختلفين قد يشتركان في بعض الصفات، وعن الثالث بأنه قد يوجد بالصناعة مثل ما يوجد بالطبيعة مثل النار الحاصلة بالقدح،

والنوشادر قد يتخذ من الشعير وكذلك كثير من الزاجات ثم بتقدير أن لا نجد له مثالاً لا يلزم الجزم بنفيه ولا يلزم من إمكان حصول الأمر الطبيعي بالصناعة إمكان عكسه بل الأمر فيه موقوف على الدليل.

وعن الرابع بأن من أراد أن يقلب النحاس فضة فهو لا يكون كالمحدث للشيء بل كالمعالج للمريض، فإن النحاس من جوهر الفضة إلا أن فيه عللاً وأمراضاً وكما يمكن المعالجة لا في موضع التكون فكذلك في هذا الموضع، على أن حاصل الدليل أن الذي يتكون في الجبال لا يمكن تكونه بالصناعة، وفيه وقع النزاع، وابن خلدون بعد أن ذكر كلام ابن سينا ورد الطغرائي عليه قال: لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان زعمهم أجمعين، وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة للجسم في المعدن حتى أحالته ذهباً أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان أقصر لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمان كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذ لك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانتفاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء فتفعل تلك الصورة الأفاعيل المطلوبة، وذلك هو الإكسير، واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية لا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما حصل امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل، ولا بد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونها الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان لا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى غايته، وانظر شأن الإنسان في تطوره نطفة ثم علقة ثم وثم إلى نهايته ونسب الأجزاء في كل طور مختلف مقاديرها وكيفياتها وإلا لكان الطور الأول بعينه هو الآخر، وكذا الحرارة المقدرة الغريزية في كل طور مخالفة لما في الطور الآخر، فانظر إلى الذهب ما يكون في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين، وما ينتقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكيمياء أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم، ومن شرط الصناعة مطلقاً تصور ما يقصد إليه بها، فمن الأمثال السائرة في ذلك للحكماء أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المتضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك فعل الطبيعة في المعدن أو يعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها.

وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط وهو علمه عز وجل، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك، وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصناعة بمثابة من يدعي صنعة تخليق الإنسان من المني ونحن إذا سلمنا الإحاطة بأجزائه ونسبه وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علماً محصلاً لتفاصيله حتى لا يشذ من ذلك شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الإنسان وأنى له ذلك. والحاصل أن الفعل الصناعي على ما يقتضيه كلامهم مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي تقصد مساواتها ومحاذاتها، وفعل المادة ذات القوى فيها على التفصيل وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عما دونها، فقصد تصيير النحاس ذهباً كقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات، وهذا أوثق ما علمته من البراهين الدالة على الاستحالة، وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول ولا من جهة الطبيعة وإنما هي من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها، وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك، ولذلك وجه آخر في

الاستحالة من جهة غايته وهو أن حكمة الله تعالى في الحجرين وندرتهما أنهما عمدتا مكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليها بالصنعة لبطلت حكمة الله تعالى في ذلك إذ يكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء، وآخر أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون صحته وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها وأقل زماناً صحيحاً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في تكوين الذهب والفضة وتخليصهما، وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والحية وتخليقهما فأمر صحيح في ذلك أدى عليه العثور كما زعم، وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه ولده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا، وأما قولهم: إن الإكسير بمثابة الخميرة وإنه مركب يحيل ما حصل فيه ويقلبه إلى ذاته فليس بشيء، لأن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع، والمطلوب من الإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الإكسير على الخميرة؛ ثم قال: وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما يزعم الحكماء المتكلمون فيها فليس من باب الصنائع الطبيعية ولا يتم بأمر صناعي وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق، وقد ذكر مسلمة المجريطي في كتابه الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى، وكذا كلام جابر في رسائله.

وبالجملة أن نيلها إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الصنائع والطبائع فهي إنما تكون بتأثيرات النفس وخوارق العادة كالمشيء على الماء وتخليق الطير فليست إلا معجزة أو كرامة أو سحراً، ولهذا كان كلام الحكماء فيها ألغازاً لا يظفر بتحقيقه إلا من خاض لجة من علوم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة، وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها ا هـ. وإلى إمكانها ذهب الإمام الرازي فقال الحق إمكانها لأن الأجساد السبعة مشتركة في أنها أجساد ذائبة صابرة على النار منطرقة وأن الذهب لم يتميز عن غيره إلا بالصفرة والرزانة أو الصورة الذهبية المفيدة لهذين العرضين إن ثبت ذلك، وما به الاختلاف لا يكون لازماً لما به الاشتراك، فإذن يمكن أن تتصف جسمية النحاس بصفرة الذهب ورزانته وذلك هو المطلوب، والحق أن الكيمياء ممكنة وأنها من الصنائع الطبيعية لكن العلم بها من أقاصي العلوم الصعبة التي لا يطلع عليها إلا من أهله الله تعالى لها واختصه سبحانه من عباده وأوليائه بها وهو علم تاهت في طلبه العقول وطاشت الأحلام، وأصله من الوحي الإلهي وحصل لبعض بالتصفية وكثرة النظر مع التجربة ووصل إلى من ليس أهلاً للوحي ولم يتعاط ما تعاطاه البعض بالتعلم ممن من الله تعالى به عليه، وقال أرس: وهو من أجلة أهل هذا العلم كان أوله وحياً من الله تعالى ثم درس وباد فاستخرجه من استخرجه من الكتب وقد جرت سنة الله تعالى فيمن ظفر به بكتمه إلا على من شاء الله تعالى وتواصت الحكماء على كتمه عن غير أهله بل قيل: إن الله تعالى أخذ على العقول في فطرتها المواثيق بكتمانه وصيانته والاحتراس من إذاعته وإضاعته ولذا ترى الحكماء قد ألغزوه نهاية الالغاز وأغمضوه غاية الإغماض حتى عد كلامهم من لم يعرف مرامهم حديث خرافة وحكم على قائله بالسفه والسخافة وبهذا الكتم حفظت حكمة الله تعالى التي زعمها ابن خلدون في النقدين وسقط استدلاله الذي سمعته فيما مر.

وقد نص جابر بن حيان وهو إمام في هذه الصنعة وإنكار أنه كان موجوداً حمق في كتابه سر الأسرار على ما قلنا

حيث قال: كل حكيم وضع رمزه وكتابه على معنى مبهم من وضع الحل والإصعاد والغسل على أربع طبائع وسماها الأجساد الثقال ووصف التدابير على لفظ ومعنى مشتبه، فهو عند الحكيم مفتوح، وعند الجهلة مغلق، وربما تعدوا إلى أخذ تلك الأجساد بعينها واختبروها ولم ينتفعوا بها، وشتموا الحكماء على كتمانهم هذا العمل وإنما عمارة الدنيا بالدراهم والدنانير وإن الناس الصناع والمقاتلة لا يعملون إلا لرغبة أو رهبة فعلموا أنهم إن أفشوا هذا السر حتى يعلمه كل أحد لم يتم أمر الدنيا وخربت، ولم يعمل أحد لأحد فخرجوا من ذلك وكتموه ا هـ. ثم لا يخفى أن ما ذكره ابن خلدون أولاً من أن الاستحالة لعدم الإحاطة إذا ثبت أنها كانت عن وحي ليس بشيء على أن فيه ما فيه وإن لم يثبت ذلك، ومثل ذلك ما ذكره من أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأبعد، لأنا نقول ما يحصل من الطبائع أيضاً، فيكون لها طريقان بعيد اقتضت الحكمة أن تسلكه غالباً وقريب اقتضت الحكمة أيضاً أن تسلكه نادراً بواسطة من شاء الله تعالى من عباده، وكون المنتحلين لم يزالوا يخبطون خبط عشواء إن أراد بهم أئمة هذه الصناعة كهرمس وسقراط وأفلاطون وأغاريمون وفيثاغورس، وهرقل، وفرفوريوس، ومارية، وذوسيموس، وأرس، وذومقراط، وسفيدوس، وبليناس، ومهراريس، وجابر بن حيان، والمجريطي، وأبو بكر بن وحشية، ومحمد بن زكريا الرازي وغيرهم ممن لا يحصون كثرة فهم لم يخبطوا، ودون إثبات خبطهم خرط القتاد، وإلغازهم لنكتة صرحوا بها لا يدل على خبطهم، وإن أراد بهم من يتعاطاها من المشاقين في عصره وفي هذه الأعصار؛ فما ذكره مسلم في أكثرهم وهو لا يطعن في إمكانها. وقد ذم الطغرائي هذا الصنف من الناس فقال في كتابه تراكيب الأنوار: إن المعلم الناصح موجود في كل صنعة إلا في هذا الفن، وكيف يرجى النصح عند قوم يسمون فيما بينهم بالحسدة وتحالفوا فيما بينهم أن لا يوضحوا هذه السرائر أبداً لا سيما في هذا الزمان الذي قد باد فيه هذا العلم جملة وصار المتعرض له والباحث عنه عند الناس مسخرة وقد عنيت برهة من الزمان أبحث عن كل من يظن أن عنده طرفاً من هذا العلم فما وجدت أحداً شم له رائحة ولا عرف منه شطر كلمة، ووجدت منتحلي هذه الصنعة الشريفة بين خادع يبيع دينه ومروءته بعرض من الدنيا قليل ويتلف أموال الناس بالتجارب الصادرة عن الجهل، وبين مخدوع مأخوذ عن رشده بالأمل الخائب والطمع الكاذب والتشاغل بالباطل عن طلب المعاش الجميل والتعويل على الأماني والأكاذيب. قصارى أحدهم أن ينظر في كتب جابر وأضرابه فيأخذ بظواهر كلامهم، ويغتر بجلايا دعاويهم دون حقائق معانيهم وهم وجميع من مضى من حكماء هذه الصنعة يحذرون الناس من الاغترار بظواهر كتبهم، وينادون على أنفسهم بأنهم يرمزون ويلغزون ولا يلتفت إلى قولهم ولا يصدقون إلى آخر ما قال. وقد تفاقم الأمر في زماننا إلى ما لا تتسع العبارة لشرحه، وكون الكيمياء من تأثيرات النفوس وخوارق العادات فلا تكون إلا معجزة أو كرامة أو سحراً ليس بشيء بل هي بأسباب عادية لكنها خفية على أكثر الناس لا دخل لتأثير النفوس فيها أصلاً. نعم قد يكون من النبي أو الولي ما يكون من الكيماوي من غير معاطاة تلك الأسباب فيكون ذلك كرامة أو معجزة، وكون منحى كلام بعض الحكماء فيها منحى كلامهم في الأمور السحرية لا يدل على أنها من أنواع السحر أو توابعه فإن ذلك من إلغازهم لأمرها، وقد تفننوا في الإلغاز لها وسلكوا في ذلك كل مسلك، فوضع بليناس كتابه فيها على الأفلاك والكواكب، ومنهم من تكلم عليها بالأمثال ومنهم من تكلم عليها بالحكايات التي هي أشبه شيء بالخرافات إلى غير ذلك. وبالجملة هي صنعة قل من يعرفها جداً ، وأعد الاشتغال بها والتصدي لمعرفتها من كتبها من غير حكيم عارف برموزها كما يفعله جهلة المنتحلين لها اليوم محض جنون، وكون أصلها الوحي الإلهي أو نحو ذلك هو الذي يغلب على الظن، وقد أورد الطغرائي في كتبه كجامع الأسرار وغيره ما يدل على ذلك، فذكر أنه روي عن هرمس أنه قال: إن الله عز وجل أوحى إلى شيث بن آدم عليهما السلام أن ازرع الذهب في الأرض البيضاء النقية واسقه ماء الحياة، وقالت مارية: إني لست أقول لكم من تلقاء نفسي،

ولكني أقول لكم ما أمر الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام وأعلمه أن الحجر النسطريس هو الذي يمسك الصبغ وقال بنسبتها إلى موسى عليه السلام ذوسيموس وأرس، وذكر أرس أن العمل بها كان طوع اليهود بمصر، وكان يوسف عليه السلام وهو أول من دخل مصر من بني إسرائيل يعرف ذلك فأكرمه فرعون لحكمته التي آتاه الله تعالى إياها، وذكر أيضاً فصلاً مرموزاً فيها نسبه إلى سليمان عليه السلام.

وقال الطرسوسي في كتابه: إن الله تعالى لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة عوضه علم كل شيء وكان علم الصنعة مما علمه، وانتقل من قوم إلى قوم كما انتقلت العلوم الأخر إلى أيام هرمس الأول، وقال أيضاً: حدثونا عن محمد بن جرير الطبري بإسناد له متصل أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وأعطيت الكبريت الأبيض والأحمر».

وروى جابر عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه في ذلك روايات كثيرة حتى أنه أسند إليه عدة من كتبه ولا أحقق قوله ولا أكذبه وأجله لموضعه من العلم والعمل عن الافتراء على الأئمة، وروي عن أمير المؤمنين علي كرّم الله تعالى وجهه أنه سئل فقيل: له ما تقول فيما خاض الناس فيه من علم الكيمياء؟ فأطرق ملياً ثم رفع رأسه ثم قال: سألتموني عن أخت النبوة وتوأم المروة لقد كان وإنه لكائن وما من شجرة ولا مدرة ولا شيء إلا وفيه أصل وفرع أو أصل أو فرع قيل: يا أمير المؤمنين أما تعلمه؟ قال: والله تعالى أنا أعلم به من العالمين له لأنهم يتكلمون بالعلم على ظاهره دون باطنه وأنا أعلم العلم ظاهره وباطنه، قيل: فاذكر لنا منه شيئاً نأخذه منك، قال: والله تعالى لولا أن النفس أمارة بالسوء لقلت: قيل: فما كان تقول؟ قال: إني أعلم أن في الزئبق الرجراج والذهب الوهاج والحديد المزعفر وزنجار النحاس الأخضر لكنوزاً لا يؤتى على آخرها يلقح بعضها ببعض فتفتر عن ذهب كامن، قيل: يا أمير المؤمنين ما نعلم هذا، قال: هو ماء جامد وهواء راكد ونار حائلة وأرض سائلة قالوا ما نفقه هذا، قال: لو حل للمؤمنين من أهل الحكمة أن يكلموا الناس على غير هذا لعلمه الصبيان في المكاتب اهـ كلام الطغرائي باختصار.

وذكر في كتابه مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة عن ستين نبياً وحكيماً أنهم قالوا بحقية هذا العلم، وفي القلب من صحة هذه الأخبار شيء، والأغلب على الظن أنه لو كان في الكيمياء خبر مقبول عند المحدثين لشاع ولما أنكرها من هو من أجلتهم كشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية فإنه كان ينكر ثبوتها وألف رسالة في إنكارها، ولعل رد الشيخ نجم الدين ابن أبي الذر البغدادي وتزييفه ما قاله فيها كما زعم الصفدي إنما كان فيما هو من باب الاستدلالات العقلية فإن الرجل في باب النقليات مما لا يجاريه نجم الدين المذكور وأمثاله وهو في باب العقليات وإن كان جليلاً أيضاً إلا أنه دونه في النقليات، والمطلب دقيق حتى أن بعض من تعقد عليه الخناصر اضطرب في أمرها فأنكرها تارة وأقر بها أخرى، فهذا شيخ الحكماء ورئيسهم أبو علي بن سينا سمعت ما نقل عنه أولاً، وحكي عنه الرجوع عنه، وعلى جودة ذهنه وعلو كعبه في الحكمة بأقسامها لم يقف على حقيقة عملها حتى قال الطغرائي في تراكيب الأنوار ما ينقضي عجبي من أبي علي بن سينا كيف استجاز وضع رسالة في هذا الفن فضح بها نفسه وخالف الأصول التي عنده وقصر فيها عن كثير من الحشوية الطغام المظلمة الأذهان الكليلة الأفهام.

وقال في جامع الأسرار: إن الشيخ أبا علي بن سينا لفرط شغفه بهذا العلم وحدسه القوي بأنه حق صنف رسالة فيه فأحسن فيما يتعلق بأصول الطبيعيات ولخفاء طريق القوم واستعمائها دونه لم يذكر في التدابير المختصة بعلمنا لفظة صحيحة ولا أشار إلى ذكر المزاج الحق والأوزان والتراكيب المكتومة والنيران وطبقاتها والآلة التي لا يتم العمل إلا بها وهي أحد الشرائط العشرة، ولم يتجاوز ما عند الحشوية من تدابير الزوابق والكباريت والدفن في زبل الخيل

والتشاغل بهذه القاذورات ولولا آفة الإعجاب وحسن ظن الإنسان بعلمه وحرصه على أن لا يشذ عنه شيء من المعارف لكان من الواجب على مثله مع غزارة علمه وعلو طبقته في الأبحاث الحقيقية أن يكتفي بما عنده، ولا يتعرض لما لا يعلمه، وقد تأدى إلينا من تدابيره عن أصحابه الذين شاهدوها أنه لم يكن يعرف حقيقة علمنا، وقد رأينا بخطه من التعاليق الملتقطة من كلام جابر بن حيان، وخالد بن يزيد ما يدل أيضاً على ذلك ا هـ ملخصاً، والكلام في هذا المطلب طويل وفيما ذكرنا كفاية لمن أحب الاطلاع على شيء مما قيل في ذلك، والله تعالى الموفق، ثم إن القول بأن المراد بالعلم في الآية علم استخراج الكنوز والدفائن يستدعي ثبوت هذا العلم، وأهل علم الحرف وعلم الطلسمات يقولون به ولهم في ذلك كلام طويل والعقل يجوز ثبوته، والله تعالى أعلم بثبوته في نفس الأمر.

﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِه مِنَ الْقُرُون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ تقرير لعلمه ذلك وتنبيه على خطئه في اغتراره وعلمه بذلك من التوراة أو من موسى عليه السلام أو من كتب التواريخ أو من القصّاص، والقوة تحتمل القوة الحسية والمعنوية، والجمع يحتمل جمع المال وجمع الرجال، والمعنى ألم يقف على ما يفيده العلم ولم يعلم ما فعل الله تعالى بمن هو أشد منه قوة حساً أو معنى وأكثر مالاً أو جماعة يحوطونه ويخدمونه حتى لا يغتر بما اغتر به، ويحتمل أن تكون الهمزة للإنكار داخلة على مقدر، وجملة أولم يعلم حالية مقررة للإنكار ودالة على انتفاء ما دخلت عليه كما في قولك: أتدعي الفقه وأنت لا تعرف شروط الصلاة، والمراد رد ادعائه العلم والتعظم به بنفي هذا العلم عنه أي أعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين، وقيل: إن ﴿لم يعلم﴾ عطف على ذلك المقدر ونفي العلم عنه لعدم جريه على موجبه ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الظاهر أن هذا في الآخرة وأن ضمير ذنوبهم للجرمين، وفاعل السؤال إما الله تعالى أو الملائكة عليهم السلام، والمراد بالسؤال المنفي هنا، وكذا في قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ [الرحمن: ٣٩] على ما قيل: سؤال الاستعلام، ونفي ذلك بالنسبة إليه عز وجل ظاهر، وبالنسبة إلى الملائكة عليهم السلام لأنهم مطلعون على صحائفهم أو عارفون إياهم بسيماهم كما قال سبحانه: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ [الرحمن: ٤١].

والمراد بالسؤال المثبت في قوله عز وجل: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ [الحجر: ٩٢] سؤال التوبيخ والتقريع فلا تناقض بين الآيتين، وجوز أن يكون السؤال في الموضعين بمعنى والنفي والإثبات باعتبار موضعين أو زمانين، والمواقف يوم القيامة كثيرة واليوم طويل فلا تناقض أيضاً، والظاهر أن الجملة غير داخلة في حيز العلم، ولعل وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى لما هدد قارون بذكر إهلاك من قبله من أضرابه في الدنيا أردف ذلك بما فيه تهديد كافة المجرمين بما هو أشنع وأشنع من عذاب الآخرة فإن عدم سؤال المذنب مع شدة الغضب عليه يؤذن بالإيقاع به لا محالة، وجعل الزمخشري الجملة تذييلاً لما قبلها، وقيل: إن ذلك في الدنيا.

والمراد أنه تعالى أهلك من أهلك من القرون عن علم منه سبحانه بذنوبهم فلم يحتج عز وجل إلى مسألتهم عنها، وقيل: إن ضمير ذنوبهم لمن هو أشد قوة وهو المهلك من القرون، والإفراد والجمع باعتبار اللفظ والمعنى، والمعنى ولا يسأل عن ذنوب أولئك المهلكين غيرهم ممن أجرم، ويعلم أنه لا يسأل عن ذنوبهم من لم يجرم بالأولى لما بين الصنفين من العداوة فمآل المعنى لا يسأل عن ذنوب المهلكين غيرهم ممن أجرم وممن لم يجرم، بل كل نفس بما كسبت رهينة، وكلا القولين كما ترى، وربما يختلج في ذهنك عطف هذه الجملة على جملة الاستفهام أو جعلها حالاً من فاعل أهلك أو من مفعوله؛ لكن إذا تأملت أدنى تأمل أخرجته من ذهنك وأبيت حمل كلام الله تعالى الجليل على ذلك.

وقرأ أبو جعفر في رواية «ولا تسأل» بتاء الخطاب والجزم «المجرمينَ» بالنصب، وقرأ أبو العالية وابن سيرين ﴿ولا تسأل﴾ كذلك ولم ندر أنصبا المجرمين كأبي جعفر أم رفعاه كما هو في قراءة الجمهور، والظاهر الأول، وجوز صاحب اللوامح الثاني، وذكر له وجهين: الأول أن يكون ضمير ذنوبهم للمهلكين من القرون وارتفاع المجرمين بإضمار المبتدأ أي هم المجرمون، والثاني أن يكون المجرمون بدلاً من ضمير ذنوبهم باعتبار أن أصله الرفع لأن إضافة ذنوب إليه بمنزلة إضافة المصدر إلى اسم الفاعل وأورد على هذا أن ذنوب جمع فإن كان جمع مصدر ففي إعماله خلاف.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمه﴾ عطف على قال وما بينهما اعتراض، وقوله تعالى: ﴿في زينته﴾ إما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أي فخرج عليهم كائناً في زينته. قال قتادة: ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر منها ألف بغلة بيضاء وعلى دوابهم قطائف الأرجوان. وقال السدي: خرج في جوار بيض على سروج من ذهب على قطف أرجوان وهن على بغال بيض عليهن ثياب حمر وحلي ذهب، وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف خادم عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعلى يمينه ثلاثمائة غلام وعلى يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات، وكان ذلك أول يوم في الأرض رئيت المعصفرات فيه، وقيل غير ذلك من الكيفيات، وكان ذلك الخروج على ما قيل يوم السبت ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ قيل كانوا جماعة من المؤمنين، وقالوا ذلك جرياً على سنن الجبلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار. وعن قتادة أنهم تمنوا ذلك ليتقربوا به إلى الله تعالى وينفقوه في سبيل الخير، ولعل إرادتهم الحياة الدنيا ليتوصلوا بها للآخرة لا لذاتها فإن إرادتها لذاتها ليست من شأن المؤمنين، وقيل: كانوا كفاراً ومنافقين، وتمنيهم مثل ما أوتي دونه نفسه من باب الغبط ولا ضرر فيه على المشهور، وقيل: ضرره دون ضرر الحسد «فقد قيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل يضر الغبط؟ فقال: لا إلا كما يضر العضاه الخبط» وفي الكشف الظاهر أنه نفي للضرر على أبلغ وجه فإن الشجر ربما ينتفع بالخبط فضلاً عن التضرر، وفيه أنه قد يفضي إلى الضرر إشارة إلى متعلق الغبط من ديني أو دنيوي، وقائل ذلك إن كان الكفرة ففيه من ذم الحسد ما فيه ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قال الضحاك: أي درجة عظيمة، وقيل نصيب كثير من الدنيا، والحظ البخت والسعد، ويقال: فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ، والجملة تعليل لتمنيهم وتأكيد له ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي ومنهم يوشع عليه السلام، وإنما لم يوصفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيهاً على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراض عن الأولى والإقبال على الأخرى حتماً، وأن تمني المتمنين ليس إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغي.

وقيل المراد بالعلم: معرفة الثواب والعقاب، وقيل: معرفة التوكل، وقيل: معرفة الأخبار، وما تقدم أولى ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك بحسب الأصل ثم شاع استعماله في الزجر عما لا يرتضى، والمراد به هنا الزجر عن التمني وهو منصوب على المصدرية لفعل من معناه ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما تتمنونه ﴿لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه عز وجل، هذا على القول بأن المتمنين كانوا مؤمنين أو فآمنوا لتفوزوا بثوابه تعالى الذي هو خير من ذلك، وتقدير المفضل عليه ما تتمنونه لاقتضاء المقام إياه، ويجوز أن يقدر عاماً ويدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً أي خير من الدنيا وما فيها ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا﴾ أي هذه المقالة أو الكلمة التي تكلم بها العلماء، والمراد بها المعنى اللغوي أو الثواب، والتأنيث باعتبار أنه بمعنى المثوبة أو الجنة المفهومة من الثواب، وقيل:

الإيمان والعمل الصالح، والتأنيث والإفراد باعتبار أنهما بمعنى السيرة أو الطريقة، ومعنى تلقيها إما فهمها أو التوفيق للعمل بها ﴿إلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصي والشهوات، ولعل المراد بالصابرين على القول الأخير في مرجع الضمير المتصفون بالصبر في علم الله تعالى فتدبر ﴿فَخَسَفْنَا به وَبدَاره الأَرْضَ﴾.

روى ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن قارون كان ابن عم موسى عليه السلام وكان يتبع العلم حتى جمع علماً فلم يزل في ذلك حتى بغى على موسى عليه السلام وحسده، فقال موسى: إن الله تعالى أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال: إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم، قالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلا بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك. قالت: نعم. فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك. قال: نعم فجمعهم فقالوا له: بما أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا، وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنك قد زنيت. قال: أنا؟ فأرسلوا إلى المرأة فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى عليه السلام؟ فقال لها موسى عليه السلام: أنشدك بالله تعالى إلا ما صدقت، فقالت: أما إذ أنشدتني بالله تعالى فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنك بريء وأنك رسول الله فخر موسى عليه السلام ساجداً يبكي فأوحى الله تعالى إليه ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها تطعك فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم فجعلوا يقولون يا موسى يا موسى فقال: خذيهم فغيبتهم فأوحى الله تعالى يا موسى سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم وفي بعض الروايات أنه جعل للبغيّ ألف دينار، وقيل: طستاً من ذهب مملوءة ذهباً، وفي بعض أنه عليه السلام قال في سجوده: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله تعالى إليه مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك، فقال: يا بني إسرائيل إن الله تعالى بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين. ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم إلى الأوساط ثم إلى الأعناق وهم يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه الرحم وهو عليه السلام لا يلتفت إلى قولهم لشدة غضبه ويقول خذيهم حتى انطبقت عليهم فأوحى الله تعالى يا موسى ما أفظك استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً، وفي رواية أن الله سبحانه أوحى إليه ما أشد قلبك وعزتي وجلالي لو بي استغاث لأغثته، فقال عليه السلام: رب غضباً لك فعلت.

ثم إن بني إسرائيل قالوا: إنما فعل موسى عليه السلام به ذلك ليرثه، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله. وفي بعض الأخبار أن الخسف به وبداره كان في زمان واحد، وكانت داره فيما قيل: من صفائح الذهب وجاء في عدة آثار أنه يخسف به كل يوم قامة وأنه يتجلجل في الأرض لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة والله تعالى أعلم بصحة ذلك، بل هو مشكل إن صح ما قاله الفلاسفة في مقدار قطر الأرض ولم يقل بأن لها حركة أصلاً، وأما الخسف فلا شك في إمكانه الذاتي والوقوعي وسببه العادي مبين في محله ﴿فَمَا كَانَ لَهُ من فئَة﴾ أي جماعة معينة مشتقة من فأوت قلبه إذا ميلته، وسميت الجماعة بذلك لميل بعضهم إلى بعض؛ وهو محذوف اللام ووزنه فعة، وقال الراغب: إنه محذوف العين فوزنه فلة وأنه من الفيء وهو الرجوع لأن بعض الجماعة يرجع إلى بعض و ﴿من﴾ صلة أي فما كان

له فئة ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي بنفسه ﴿مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ أي الممتنعين عن عذابه عز وجل، يقال: نصره من عدوه فانتصر أي منعه فامتنع، ويحتمل أن يكون المعنى وما كان من المنتصرين بأعوانه فذكر ذلك للتأكيد ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ أي مثل مكانه ومنزلته لما تقدم من قولهم مثل ما أوتي، وجوز كون هذا على ظاهرة و ﴿مثل﴾ هناك مقحمة وليس بذاك ﴿بالأمس﴾ منذ زمان قريب وهو مجاز شائع، وجوز حمله على الحقيقة والجار والمجرور متعلق بتمنوا أو بمكانه، قيل: والعطف بالفاء التي تقتضي التعقيب في ﴿فخسفنا﴾ يدل عليه.

وفي البحر دل أصبح إذا حمل على ظاهره على أن الخسف به وبداره كان ليلاً وهو أفظع العذاب إذ الليل مقر الراحة والسكون، وقال بعضهم: هي بمعنى صار أي صار المتمنون.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي يفعل كل واحد من البسط والقدر أي التضييق والقتر لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يوجب التضييق، ووي عند الخليل وسيبويه اسم فعل ومعناها أعجب وتكون للتحسر والتندم أيضاً كما صرحوا به، وعن الخليل أن القوم ندموا فقالوا متندمين على ما سلف منهم «وي» وكل من ندم وأراد إظهار ندمه قال «وي» ولعل الأظهر إرادة التعجب بأن يكونوا تعجبوا أولاً مما وقع وقالوا ثانياً كأن إلخ وكأن فيه عارية عن معنى التشبيه جيء بها للتحقيق كما قيل ذلك في قوله:

وأصبح بطن مكة مقشعراً ... كأن الأرض ليس بها هشام

وأنشد أبو علي:

كأنني حين أمسي لا تكلمني ... متيم يشتهي ما ليس موجودا

وقيل: هي غير عارية عن ذلك، والمراد تشبيه الحال المطلق بما في حيزها إشارة إلى أنه لتحققه وشهرته يصلح أن يشبه به كل شيء وهو كما ترى وزعم الهمداني أن الخليل ذهب إلى أن «وي» للتندم وكأن للتعجب والمعنى ندموا متعجبين في أن الله تعالى يبسط إلخ، وفيه أن كون كأن للتعجب مما لم يعهد، وأياً ما كان فالوقف كما في البحر على ﴿وي﴾ والقياس كتابتها مفصولة وكتبت متصلة بالكاف لكثرة الاستعمال وقد كتبت على القياس في قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وي كأن من يكن له نشب يحـ ... ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وقال الأخفش: الكاف متصلة بها وهي اسم فعل بمعنى أعجب؛ والكاف حرف خطاب لا موضع لها من الإعراب كما قالوا في ذلك ونحوه، والوقف على ويك، وعلى ذلك جاء قول عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

و ﴿أن﴾ عنده مفتوحة الهمزة بتقدير العلم أي أعلم أن الله إلخ، وذهب الكسائي ويونس وأبو حاتم وغيرهم إلى أن أصله ويلك فخفف بحذف اللام فبقي ويك، وهي للردع والزجر والبعث على ترك ما لا يرضى، وقال أبو حيان: هي كلمة تحزن وأنشد في التحقيق قوله:

ألا ويك المضرة لا تدوم ... ولا يبقى على البؤس النعيم

والكاف على هذا في موضع جر بالإضافة، والعامل في أن فعل العلم المقدر كما سمعت أو هو بتقدير لأن على أنه بيان للسبب الذي قيل لأجله ويك، وحكى ابن قتيبة عن بعض أهل العلم أن معنى ويك رحمة لك بلغة حمير، وقال

الفراء: ويك في كلام العرب كقول الرجل: ألا ترى إلى صنع الله تعالى شأنه، وقال أبو زيد وفرقة معه: وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ويكأن حرف واحد بجملته وهو بمعنى ألم تر.

﴿**لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا**﴾ بعدم إعطائه تعالى ما تمنيناه من إعطائنا مثل ما أعطاه قارون ﴿**لَخَسَفَ بِنَا**﴾ أي الأرض كما خسف به أو لولا أن من الله تعالى علينا بالتجاوز عن تقصيرنا في تمنينا ذلك لخسف بنا جزاء ذلك كما خسف به جزاء ما كان عليه. وقرأ الأعمش «لولا منّ» بحذف ﴿**أن**﴾ وهي مرادة، وروي عنه من الله برفع من والإضافة.

وقرأ الأكثر «لَخُسِفَ بِنَا» على البناء للمفعول و ﴿**بنا**﴾ هو القائم مقام الفاعل، وجوز أن يكون ضمير المصدر أي لخسف هو أي الخسف بنا على معنى لفعل الخسف بنا، وقرأ ابن مسعود وطلحة والأعمش «لانْخُسِفَ بنا» على البناء للمفعول أيضاً و ﴿**بنا**﴾ أو ضمير المصدر قائم مقام الفاعل، وعنه أيضاً «لَتُخُسِّفَ» بتاء وشد السين مبنيًّا للمفعول ﴿**وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾ لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله عليهم السلام وبما وعدوا من ثواب الآخرة، والكلام في ـ ويكأن ـ هنا كما تقدم بيد أنه جوز هنا أن يكون لأن على بعض الاحتمالات تعليلاً لمحذوف بقرينة السياق أي لأنه لا يفلح الكافرون فعل ذلك أي الخسف بقارون، واعتبار نظيره فيما سبق دون اعتبار هذا هنا، وضمير ويكأنه للشأن.

هذا وفي مجمع البيان أن قصة قارون متصلة بقوله تعالى: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى﴾ [القصص: ٣] عليه السلام، وقيل: هي متصلة بقوله سبحانه: ﴿**فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى**﴾، وقيل: لما تقدم خزي الكفار وافتضاحهم يوم القيامة ذكر تعالى عقيبه أن قارون من جملتهم وأنه يفتضح يوم القيامة كما افتضح في الدنيا، ولما ذكر سبحانه فيما تقدم قول أهل العلم ﴿**ثواب الله خير**﴾ ذكر محل ذلك الثواب بقوله عز وجل: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ**﴾ مشيراً إشارة تعظيم وتفخيم إلى ما نزل لشهرته منزلة المحسوس المشاهد كأنه قيل: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها، و ﴿**الدار**﴾ صفة لاسم الإشارة الواقع مبتدأ وهو يوصف بالجامد ولا حاجة إلى تقدير مضاف أي نعيم الدار كما يوهمه كلام البحر، و ﴿**الآخرة**﴾ صفة للدار، والمراد بها الجنة وخبر المبتدأ قوله تعالى: ﴿**نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُون عُلُوًّا فِي الأَرْضِ**﴾ أي غلبة وتسلطاً ﴿**وَلاَ فَسَاداً**﴾ أي ظلماً وعدواناً على العباد كدأب فرعون وقارون، وليس الموصول مخصوصاً بهما، وفي إعادة ﴿**لا**﴾ إشارة إلى أن كلاً من العلو والفساد مقصود بالنفي، وفي تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما من مزيد تحذير منهما.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال: العلو في الأرض التكبر وطلب الشرف والمنزلة عند سلاطينها وملوكها والفساد العمل بالمعاصي وأخذ المال بغير حقه.

وعن الكلبي العلو الاستكبار عن الإيمان والفساد الدعاء إلى عبادة غير الله تعالى، وروي عن مقاتل تفسير العلو بما روي عن الكلبي، وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو والٍ يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبقال والبياع فيفتتح عليه القرآن ويقرأ تلك الدار الآخرة إلى آخرها، ويقول: نزلت هذه الآية ﴿**تلك الدار الآخرة**﴾ إلخ، في أهل العدن والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس.

وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم أنه لما دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض، فقال عليه الصلاة والسلام أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً فأسلم رضي الله تعالى

عنه، وعن الفضيل أنه قرأ الآية ثم قال: ذهبت الأماني هاهنا، وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض، وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه قال: إن الرجل ليحب أن يكون شسع نعله أجود من شسع نعل صاحبه فيدخل في هذه الآية.

ولعل هذا إذا أحب ذلك ليفتخر على صاحبه ويستهينه وإلا فقد روى أبو داود عن أبي هريرة أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان جميلاً فقال: يا رسول الله إني رجل حبب إليَّ الجمال وأعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد إما قال بشراك نعل وإما قال بشسع نعل أفمن الكبر ذلك؟ قال لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس.

وروى مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود «أن النبي ﷺ قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً قال: إن الله تعالى جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس» واستدل بعض المعتزلة بالآية بناء على عموم العلو والفساد فيها على تخليد مرتكب الكبيرة في النار، وفي الكشاف ما هو ظاهر في ذلك، والتزم بعضهم في الجواب تفسير العلو والفساد بما فسرهما به الكلبي وآخر أن المراد بهما ما يكون مثل العلو والفساد اللذين كانا من فرعون وقارون. ورد بأن التذييل بقوله تعالى: ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ يدل على أن العمدة هي التقوى ولا يكفي ترك العلو والفساد المقيدين.

وأجيب بأن المتقي هاهنا هو المتقي من علو فرعون وفساد قارون أو من لم يكن من المؤمنين مثل فرعون في الاستكبار على الله تعالى بعدم امتثال أوامره والارتداع عن زواجره ولم يكن مثل قارون في إرادة الفساد في الأرض وإخراج كل شيء من كونه منتفعاً به لا سيما نفسه فإن غاية إفسادها الامتناع من عبادة ربها لأنها خلقت للعبادة فإذا امتنع عنها خرجت عن كونها منتفعاً بها وليس معنى المتقي إلا ذلك. وتعقبه صاحب الكشف بأن الأول تقييد بلا دليل والثاني هو الذي يسعى له المعتزلي، وقال الفاضل الخفاجي: إما أن يراد بالعاقبة المحمودة على وجه الكمال أو يراد بالمتقي المتقي ما لا يرضاه الله تعالى مثل حال قارون بقرينة المقام، والنصوص الدالة على أن غير الكفار لا يخلد في النار فلا وجه للقول بأن ذلك تقييد بلا دليل مع أن مبنى الاستدلال على أن اللام للتخصيص وهو ممنوع، وقال بعض في الجواب على تقدير إرادة العموم في علواً وفساداً: إن المراد من جعل الجنة للذين لا يريدون شيئاً منهما تمكينهم منها أتم تمكين نحو قولك: جعل السلطان بلد كذا لفلان وذلك لا ينافي أن يدخلها غيرهم من مرتكب الكبيرة ويكون فيها بمنزلة دون منزلتهم، ولعله إنما دخلها بشفاعة بعض منهم، وقريب منه ما قيل: إن جعلها لهم باعتبار أنهم أهلها الأولون وملوكها السابقون وغيرهم إنما يرد عليهم وينزل بهم؛ ويقال في قوله تعالى: ﴿**والعاقبة للمتقين**﴾ نحو ما مر آنفاً عن الخفاجي. بقي في الآية كلام آخر، وهو أن بعضهم استدل بها على عدم وجود الجنة اليوم بناء على أن معنى ﴿**نجعلها للذين لا يريدون**﴾ إلخ نخلقها في المستقبل لأجلهم، وأجيب بأنه يحتمل أن يكون الجعل متعدياً إلى مفعولين ثانيهما ﴿**للذين لا يريدون**﴾ إلخ فيصير المعنى نجعلها كائنة وحاصلة لهم في الزمان المستقبل فتفيد الآية أن جعلها كائنة لهم غير حاصل الآن لا جعلها نفسها وهو محل النزاع، ودفع بأن المتبادر من جعل الدار كائنة لزيد تمكينه وعدم منعه من التمكن فيها سواء حصل له التمكن فيها أو لم يحصل، فمعنى ﴿**نجعلها للذين**﴾ إلخ تمكنهم في الاستقبال من التمكن فيها، ولا يخفى ركاكته لأن التمكين من التمكن فيها لازم لوجودها غير منفك عنها على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**أعدت للمتقين**﴾ فلا يمكن أن تكون نفس الجنة الآن ويكون جعلها كائنة لهم في الاستقبال، وحمل الجعل على التمكن بالفعل والتمكين من التمكن وإن كان لازماً لوجود الجنة لكن التمكن فيها

بالفعل غير لازم بل يكون فيما سيجيء عدول عن المتبادر فإن المتبادر من قولك: جعلت الدار لزيد تمكينه من التمكن فيها لإجعل زيد متمكناً فيها بالفعل فتدبر ذلك كله ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ﴾ بمقابلتها ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ذاتاً ووصفاً وقدراً على ما قيل، وجوز كون ﴿خير﴾ واحد الخيور وليس بأفعل التفضيل و ﴿من﴾ سببية أي فله خير بسبب فعلها وهو خلاف الظاهر، وقد تقدم الكلام في ذلك ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حال المسيئين بتكرير إسناد السيئة إليهم، وفي جمع السيئات دون الحسنة قيل إشارة إلى قلة المحسنين وكثرة المسيئين، وقد يقال: إنه إشارة إلى أن ضم السيئة إلى السيئة لا يزيد جزاءها بل جزاؤها إذا انفردت مثل جزائها إذا انضم إليها غيرها وأن عدم ضم الحسنة إلى الحسنة لا يؤثر في مقابلتها بما هو خير منها، ولعل قلة المحسنين يفهم من عدم اعتبار الجمعية في ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ وكثرة المسيئين تفهم من اعتبار الجمعية فيها إذ الموصول قائم مقام ضميرها في قوله تعالى: ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات﴾ ﴿إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه ما كانوا يعملون مبالغة في المماثلة، وهذا لطف منه عز وجل إذ ضاعف الحسنة ولم يرض بزيادة جزاء السيئة مقدار ذرة، وقيل: لا حاجة إلى اعتبار المضاف فإن أعمالهم أنفسها تظهر يوم القيامة في صورة ما يعذبون به، ولا يخفى ما فيه، وفي ذكر عملوا ثانياً دون جاؤوا إشارة إلى أن ما يجزون عليه ما كان عن قصد لأن العمل يخصه كما قال الراغب، وفي التفسير الكبير للإمام الرازي في أثناء الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم﴾ [الكهف: ٩] الآية أن في التعبير بجاء دون عمل بأن يقال: من عمل الحسنة فله خير منها ومن عمل السيئة إلخ دلالة على أن استحقاق الثواب أي والعقاب مستفاد من الخاتمة لا من أول العمل، ويؤكد ذلك أنه لو مضى عمره في الكفر ثم أسلم في آخر الأمر كان من أهل الثواب وبالضد، ولا يخلو عن حسن، ولعل نكتة التعبير بعملوا ثانياً تتأتى عليه أيضاً.

وفي قوله تعالى: ﴿فلا يجزى﴾ إلخ دون فللذين عملوا السيئات ما كانوا يعملون أو فما للذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون إشارة إلى أنه قد يحصل العفو عن العقاب، ولله تعالى در التنزيل ما أكثر أسراره، واستشكل ما تدل عليه الآية من أن جزاء السيئة مثلها بأن من كفر فمات على الكفر يعذب عذاب الأبد، وأين هو من كفر ساعة؟ وأجيب بأن أمر المماثلة مجهول لنا لا سيما على القول بنفي الحسن والقبح العقليين للأفعال، وقصارى ما نعلم أن الله تعالى جعل لكل ذنب جزاء أخبر عز وجل أنه مماثل له، وقد أخبر سبحانه أن جزاء الكفر عذاب الأبد فنؤمن به وبأنه مما تقتضيه الحكمة وما علينا إذا لم نعلم جهة المماثلة ووجه الحكمة فيه، وكذا يقال في الذنوب التي شرع الله تعالى لها حدوداً في الدنيا كالزنا وشرب الخمر وقذف المحصن وحدودها التي شرعها جل شأنه لها فإنا لا نعلم وجه تخصيص كل ذنب منها بحد مخصوص من تلك الحدود المختلفة لكنا نجزم بأن ذلك لا يخلو عن الحكمة، وأجاب الإمام عن مسألة الكفر وعذاب الأبد بأن ذلك لأن الكافر كان عازماً أنه لو عاش إلى الأبد لبقي على ذلك الكفر، وقيل: في وجه تعذيب الكافر أبد الآباد إن جزاء المعصية يتفاوت حسب تفاوت عظمة المعصي فكلما كان المعصي أعظم كان الجزاء أعظم، فحيث كان الكفر معصية من لا تتناهى عظمته جل شأنه كان جزاؤه غير متناه، وقياس ذلك أن يكون جزاء كل معصية كذلك إلا أنه لم يكن كذلك فيما عدا الكفر فضلاً منه تعالى شأنه لمكان الإيمان، وقيل أيضاً: إن كل كفر قولاً كان أو فعلاً يعود إلى نسبة النقص إليه عز وجل المنافي لوجوب الوجود المقتضي لوجوده سبحانه أزلاً وأبداً وإذا توهم هناك زمان ممتد كان غير متناه فحيث كان الكفر مستلزماً نفي وجوده تعالى شأنه فيما لا يتناهى كان جزاؤه غير متناه ولا كذلك سائر المعاصي فتدبر.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي أوجب عليك العمل به كما روي عن عطاء وعن مجاهد أي أعطاكه، وعن مقاتل وإليه ذهب الفراء وأبو عبيدة أي أنزله عليك والمعول عليه ما تقدم.

﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد﴾ أي إلى محل عظيم القدر اعتدت به وألفته على أنه من العادة لا من العود، وهو كما في صحيح البخاري، وأخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس مكة، وروي ذلك أيضاً عن مجاهد والضحاك وجوز أن يكون من العود، والمراد به مكة أيضاً بناء على ما في مجمع البيان عن القتيبي أن معاد الرجل بلده لأنه يتصرف في البلاد ثم يعود إليه، وقد يقال: أطلق المعاد على مكة لأن العرب كانت تعود إليها في كل سنة لمكان البيت فيها، وهذا وعد منه عز وجل لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بمكة أنه عليه الصلاة والسلام يهاجر منها ويعود إليها، وروي عن غير واحد أن الآية نزلت بالجحفة بعد أن خرج صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة مهاجراً واشتاق إليها، ووجه ارتباطها بما تقدمها تضمنها الوعد بالعاقبة الحسنى في الدنيا كما تضمن ما قبلها الوعد بالعاقبة الحسنى في الآخرة.

وقيل: إنه تعالى لما ذكر من قصة موسى عليه السلام وقومه مع قارون وبغيه واستطالته عليهم وهلاكه ونصرة أهل الحق عليه ما ذكر جل شأنه هنا ما يتضمن قصة سيدنا صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأصحابه مع قومه واستطالتهم عليه وإخراجهم إياه من مسقط رأسه ثم إعزازه عليه الصلاة والسلام بالإعادة إلى مكة وفتحه إياها منصوراً مكرماً ووسط سبحانه بينهما ما هو كالتخلص من الأول إلى الثاني.

وأخرج الحاكم في التاريخ والديلمي عن علي كرّم الله تعالى وجهه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فسر المعاد بالجنة، وأخرج تفسيره بها ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وأبو يعلى وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس، والتنكير عليه للتعظيم أيضاً، ووجه ارتباط الآية بما قبلها أنها كالتصريح ببعض ما تضمنه ذلك.

واستشكل رده عليه الصلاة والسلام إلى الجنة من حيث إنه يقتضي سابقية كونه صلى الله تعالى عليه وسلم فيها مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن فيها.

وأجيب بالتزام السابقية المذكورة ويكفي فيها كونه صلى الله تعالى عليه وسلم فيها بالقوة إذ كان في ظهر آدم عليهما الصلاة والسلام حين كان فيها، وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان مستعداً لها من قبل كان كأنه كان فيها فالسابقية باعتبار ذلك الاستعداد على نحو ما قيل في قوله تعالى في الكفار: ﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ [الصافات: ٦٨] ولا يخفى ما في كلا القولين من البعد، وقريب منهما ما قيل: إن ذلك باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام دخلها ليلة المعراج، وقد يقال: إن تفسيره بالجنة بيان لبعض ما يشعر به المعاد بأن يكون عبارة عن المحشر فقد صار كالحقيقة فيه لأنه ابتداء العود إلى الحياة التي كان المعاد عليها وجعله عظيماً كما يشعر به التنوين لعظمة ما له صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ومنه الجنة، فالمعاد بواسطة تنوينه الدال على التعظيم يشعر بالجنة لأنها الحاوية مما أعد له ﷺ من الأمور العظيمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقريب من تفسيره بالمحشر تفسيره بالآخرة كما أخرج ذلك عبد بن حميد وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، وتفسيره بيوم القيامة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وعبد بن حميد عن عكرمة إلا أنه على ما ذكر اسم زمان، وعلى ما تقدم اسم مكان.

ومما يشعر بأنه ليس المراد مجرد الرد إلى المحشر أو الآخرة أو يوم القيامة ما أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال في الآية: إن له معاداً يبعثه الله تعالى يوم القيامة ثم يدخله الجنة، ويتخرج على نحو ما قلنا تفسيره بالمقام المحمود وهو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة.

وجاء في رواية أخرى رواها عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري أيضاً تفسيره بالموت، ورواها معهما عن الحبر الفريابي وابن أبي حاتم والطبراني، وكونه معاداً لقوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ [البقرة: ٢٨] ولعل تعظيمه باعتبار أنه باب لوصوله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى ما أعد الله عز وجل له من المقام المحمود والمنزلة العليا في الجنة إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجل المقصود ما أشعر به التعظيم. وأخرج ابن أبي حاتم عن نعيم القاري أنه فسره ببيت المقدس. وكأن إطلاق المعاد عليه باعتبار أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أسرى به إليه ليلة المعراج، والوعد برده عليه الصلاة والسلام إليه وعد له بالإسراء إليه مرة أخرى أو باعتبار أن أرضه أرض المحشر فالمراد بالرد إليه الرد إلى المحشر، وهذا غاية ما يقال في توجيه ذلك. فإن قبل فذاك وإلا فالأمر إليك؛ وكأني بك تختار ما في صحيح البخاري ورواه الجماعة الذين تقدم ذكرهم عن ابن عباس من أنه مكة. وربما يخطر بالبال أن يراد بالمعاد الأمر المحبوب بنوع تجوز ويجعل بحيث يشمل مكة والجنة وغيرهما مما هو محبوب لديه صلى الله تعالى عليه وسلم، ويراد برده عليه الصلاة والسلام إلى الأمر المحبوب إيصاله إليه مرة بعد أخرى فالرد هنا مثله في قوله تعالى: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ [إبراهيم: ٩] وعليه يهون أمر اختلاف الروايات التي سمعتها في ذلك فتدبر.

﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ يريد بذلك نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم وبقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ المشركين الذين بعث إليهم صلى الله تعالى عليه وسلم و ﴿من ﴾ منتصب بفعل يدل عليه أعلم لا بأعلم لأن أفعل لا ينصب المفعول به في المشهور أي يعلم من جاء إلخ، وأجاز بعضهم أن يكون منصوباً بأعلم على أنه بمعنى عالم، والمراد أنه عز وجل يجازي كلاً ممن جاء بالهدى ومن هو في ضلال على عمله، والجملة تقرير لقوله تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ إلخ. وفي معالم التنزيل هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم إنك في ضلال، ولعله لهذا وكون السبب فيه مجيئه عليه الصلاة والسلام إليهم بالهدى قيل في جانبه صلى الله تعالى عليه وسلم من جاء بالهدى وفي جانبهم من هو في ضلال مبين، ولم يؤت بهما على طرز واحد ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ تقرير لذلك أيضاً أي سيردك إلى معاد كما أنزل إليك القرآن العظيم الشأن وما كنت ترجوه، وقال أبو حيان والطبرسي: هو تذكير لنعمته عز وجل عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ على ما ذهب إليه الفراء وجماعة استثناء منقطع أي ولكن ألقاه تعالى إليك رحمة منه عز وجل، وجوز أن يكون استثناء متصلاً من أعم العلل أو من أعم الأحوال على أن المراد نفي الإلقاء على أبلغ وجه، فيكون المعنى ما ألقي إليك الكتاب لأجل شيء من الأشياء إلا لأجل الترحم أو في حال من الأحوال إلا في حال الترحم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي معيناً لهم على دينهم، قال مقاتل: إن كفار مكة دعوه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى دين آبائه فذكره الله تعالى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾ أي الكافرون ﴿عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي قراءتها والعمل بها.

﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي بعد وقت إنزالها وإيحائها إليك المقتضي لنبوتك ومزيد شرفك، وقرأ يعقوب «يصدنك» بالنون الخفيفة وقرىء «يصدنك» مضارع أصد بمعنى صدّ حكاه أبو زيد عن رجل من كلب قال: وهي لغة قومه وقال الشاعر:

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم   صدود السواقي عن أنوف الحوائم

﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته جل وعلا وتوحيده سبحانه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمظاهرتهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي ولا تعبد معه تعالى غيره عز وجل، وهذا وما قبله للتهييج والإلهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام إياهم وإظهار أن المنهي عنه في القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يتصور وقوعه منه أصلاً، وروى محيي السنة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: الخطاب في الظاهر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد به أهل دينه وهو في معنى ما حكى عنه الطبرسي أن هذا وأمثاله من باب. إياك أعني واسمعي يا جارة. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي موجود مطلقاً ﴿هَالِكٌ﴾ أي معدوم محض، والمراد كونه كالمعدوم وفي حكمه ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي إلا ذاته عز وجل وذلك لأن وجود ما سواه سبحانه لكونه ليس ذاتياً بل هو مستند إلى الواجب تعالى في كل آن قابل للعدم وعرضة له فهو كلا وجود وهذا ما اختاره غير واحد من الأجلة، والكلام عليه من قبيل التشبيه البليغ، والوجه بمعنى الذات مجاز مرسل وهو مجاز شائع وقد يختص بما شرف من الذوات، وقد يعتبر ذلك هنا، ويجعل نكتة للعدول عن إلا إياه إلى ما في النظم الجليل.

وفي الآية بناء على ما هو الأصل من اتصال الاستثناء دليل على صحة إطلاق الشيء عليه جل وعلا.

وقريب من هذا ما قيل: المعنى كل ما يطلق عليه الموجود معدوم في حد ذاته إلا ذاته تعالى، وقيل: الوجه بمعنى الذات إلا أن المراد ذات الشيء، وإضافته إلى ضميره تعالى باعتبار أنه مخلوق له سبحانه نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ [المائدة: ١١٦] من أن المراد بالنفس الثاني نفس عيسى عليه السلام وإضافته إليه تعالى باعتبار أنه مخلوق له جل وعلا، والمعنى كل شيء قابل للهلاك والعدم إلا الذات من حيث استقبالها لربها ووقوفها في محراب قربها فإنها من تلك الحيثية لا تقبل العدم، وقيل: الوجه بمعنى الجهة التي تقصد ويتوجه إليها، والمعنى كل شيء معدوم في حد ذاته إلا الجهة المنسوبة إليه تعالى وهو الوجود الذي صار به موجوداً، وحاصله أن كل جهات الموجود من ذاته وصفاته وأحواله هالكة معدومة في حد ذاتها إلا الوجود الذي هو النور الإلهي، ومن الناس من جعل ضمير وجهه للشيء وفسر الشيء بالموجود بمعنى ما له نسبة إلى حضرة الوجود الحقيقي القائم بذاته وهو عين الواجب سبحانه، وفسر الوجه بهذا الوجود لأن الموجود يتوجه إليه وينسب، والمعنى كل منسوب إلى الوجود معدوم إلا وجهه الذي قصده وتوجه إليه وهو الوجود الحقيقي القائم بذاته الذي هو عين الواجب جل وعلا، ولا يخفى الغث والسمين من هذه الأقوال، وعليها كلها يدخل العرش والكرسي والسماوات والأرض والجنة والنار، ونحو ذلك في العموم.

وقال غير واحد: المراد بالهلاك خروج الشيء عن الانتفاع به المقصود منه إما بتفرق أجزائه أو نحوه، والمعنى كل شيء سيهلك ويخرج عن الانتفاع به المقصود منه إلا ذاته عز وجل، والظاهر أنه أراد بالشيء الموجود المطلق لا الموجود وقت النزول فقط فيؤول المعنى إلى قولنا: كل موجود في وقت من الأوقات سيهلك بعد وجوده إلا ذاته تعالى، فيدل ظاهر الآية على هلاك العرش والجنة والنار والذي دل عليه الدليل عدم هلاك الأخيرين.

وجاء في الخبر أن الجنة سقفها عرش الرحمن، ولهذا اعترض بهذه الآية على القائلين بوجود الجنة والنار الآن والمنكرين له القائلين بأنهما سيوجدان يوم الجزاء ويستمران أبد الآباد، واختلفوا في الجواب عن ذلك فمنهم من قال: إن كلاً ليست للإحاطة بل للتكثير كما في قولك: كل الناس جاء إلا زيداً إذا جاء أكثرهم دون زيد، وأيد بما روي عن

الضحاك أنه قال في الآية: كل شيء هالك إلا الله عز وجل والعرش والجنة والنار، ومنهم من قال: إن المراد بالهلاك الموت والعموم باعتبار الاحياء الموجودين في الدنيا، وأيد بما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: كل حي ميت إلا وجهه.

وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال: لما نزلت ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧] قيل يا رسول الله فما بال الملائكة؟ فنزلت ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ فبين في هذه الآية فناء الملائكة والثقلين من الجن والإنس وسائر عالم الله تعالى وبريته من الطير والوحوش والسباع والأنعام وكل ذي روح أنه هالك ميت، وأنت تعلم أن تخصيص الشيء بالحي الموجود في الدنيا لا بد له من قرينة فإن اعتبر كونه محكوماً عليه بالهلاك حيث شاع استعماله في الموت وهو إنما يكون في الدنيا قرينة فذاك وإلا فهو كما ترى، ومن الناس من التزم ما يقتضيه ظاهر العموم من أنه كل ما يوجد في وقت من الأوقات في الدنيا والأخرى يصير هالكاً بعد وجوده بناء على تجدد الجواهر وعدم بقاء شيء منها زمانين كالإعراض عند الأشعري، ولا يخفى بطلانه، وإن ذهب إلى ذلك بعض أكابر الصوفية قدست أسرارهم.

وقال سفيان الثوري: وجهه تعالى العمل الصالح الذي توجه به إليه عز وجل، فقيل: في توجيه الاستثناء إن العمل المذكور قد كان في حيز العدم فلما فعله العبد ممتثلاً أمره تعالى أبقاه جل شأنه له إلى أن يجازيه عليه أو أنه بالقبول صار غير قابل للفناء لما أن الجزاء عليه قام مقامه وهو باق، وروي عن أبي عبدالله الرضا رضي الله تعالى عنه أنه ارتضى نحو ذلك، وقال المعنى كل شيء من أعمال العباد هالك وباطل إلا ما أريد به وجهه تعالى، وزعم الخفاجي أن هذا كلام ظاهري.

وقال أبو عبيدة: المراد بالوجه جاهه تعالى الذي جعله في الناس وهو كما ترى لا وجه له ، والسلف يقولون الوجه صفة نثبتها لله تعالى ولا نشتغل بكيفيتها ولا بتأويلها بعد تنزيهه عز وجل عن الجارحة ﴿**لَهُ الْحُكْمُ**﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿**وَإِلَيْهِ**﴾ عز وجل ﴿**تُرْجَعُونَ**﴾ عند البعث للجزاء بالحق والعدل لا إلى غيره تعالى ورجوع العباد إليه تعالى عند الصوفية أهل الوحدة بمعنى ما وراء طور العقل.

وقيل: ضمير إليه للحكم، وقرأ عيسى «تَرْجَعُونَ» مبنياً للفاعل، هذا والكلام من باب الإشارة في آيات هذه السورة أكثره فيما وقفنا عليه من باب تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس ولعله يعلم بأدنى تأمل فيما مر بنا في نظائرها فتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل وهو جل وعلا حسبنا ونعم الوكيل.